(٣٧) سورة الصافات مكية
وآياتها اثنتان وثمانون ومائة

سورةُ الصافات من السور المكية التي تتناول أصول العقيدة الإسلامية من التوحيد ، والبعث والجزاء ، والوحي والرسالة ، وتهدف إلى تقرير الدعائم والأركان التي شيدت عليها عقيدة الإيمان في أصوله الراسخة المتينة . سُميت السورة الكريمة « سورةَ الصافات » تذكيراً للعباد بمراتب الملائكة الأطهار ووظائفهم التي كلفوا بها ، فهم مع جلالِ خَلْقهم ، وعظيم قدرهم ، لا ينفكون عن عبادة الله « يسبحون الليلَ والنهار لا يفترون » يصطفّون للعبادَة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة ، وهم خاشعون خاضعون في مقام العبودية لمالك المُلك ، العزيز الجبار ، الذي دانت له الخلائق وخضعت لجلاله الرقاب بما فيهم الملأ الأعلى ، حملةُ العرش والملائكةُ الأبرار . ابتدأ تعالى السورة الكريمة بالقسم بهذه الطوائف من الملائكة ، الصافاتِ قوائمها في الصلاة أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله ، الزاجرين للسحاب يسوقونه إلى حيث شاء الله ، التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه ، أقسم بذلك على وحدانيته وعظيم سلطانه ﴿ والصَّافاتِ صفاً . فالزاجراتِ زجراً . فالتاليات ذكراً . إنَّ إلهكم لواحدٌ . ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وربُّ المشارق﴾ وهو قسمٌ يتجلّى فيه عِظَم مكانة التوحيد ، وعِظَم شأن الملائكة فيما وكل إليهم من أعمال هامة ، فيها تدبيرٌ لأمور الكون العلوية والسفلية وتنتقل الآيات بعد ذكر الملائكة إلى ذكر الجنّ ، وتَعَرُّضِهم للرَّجْم

بالشُهُب الثاقبة ، ردّاً لمزاعم الجاهلية في تلك الأساطير الواهية ، وهي اعتقادهم بأن هناك قرابةً بين الله سبحانه وبين الجن ، وأن الجنَّ يعلمون الغيب لمكانتهم عند الله ، وأنه من التزاوج بين الله والجِنَّة ولدت الملائكة كما قال تعالى في هذه السورة ﴿ وجعلوا بينه وبين الجِنَّةِ نَسَباً﴾ فأبطل الله تلك الأساطير المتهافتة ببيان أنه لو كان كما زعموا لما طُورد الشياطين هذه المطاردة برجمهم بالشُهب الثاقبة ﴿إنا زينا السماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكب . وحِفظاً من كل شيطان مارد . لا يَسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى ويقْذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذابٌ واصب . إلاّ من خطِف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقب﴾ وفي معرض الحديث عن القيامة وأهوالها تتحدث الآيات عن كفار مكة وإنكارهم للبعث ، واستبعادهم للحياة مرةً ثانية بعد أن يصبحوا رفاتاً وعظاماً ، ولهذا يتهمون الرسول بالسحر والشعوذة ، ويقابلونه بالسخرية والتهكم ﴿ بل عجبتَ ويسخرون . وإذا ذُكّروا لا يذكرون . وإذا رأوا آيةً يستسخرون - أي يبالغون في السُخرية - وقالوا إن هذا إلا سحرٌ مبين . أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئناء لمبعوثون . أوَ آباؤنا الأولون ؟ قل نعم وأنتم داخرون . فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾ وتتناول السورة الكريمة - تأكيداً لقضية البعث والجزاء والحساب- قصة المؤمن الذي كان له من الدنيا جليسٌ مكذب ، ينكر الآخرة يكذّب بالبعث والجزاء ، وكان في الدنيا يسخر من ذلك المؤمن ويوبخه على إيمانه وتصديقه ، وبينا ذاك المؤمن ينعم في الجنة ويستمتع بما فيها من الشراب والنعيم مع إخوانه أهلِ الجنة إذْ تذكَّر جليسه في الدنيا وتطلَّعت نفسُه ليتفقد حاله ويعرف مصيره ، فدعا إخوانه إلى التطلع معه على حال ذلك الشقي التعيس ﴿ فأقبل بعضُهم على بعض يتساءلون . قال قائلٌ منهم إني كان لي قرين . يقول أئنك لمنِ المصدّقين ؟ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ؟

– أي مجازَوْن ومحاسبُون على الأعمال – قال هل أنتم مطَّلعون؟ فاطَّلع فرآه في سواء الجحيم. قال تاللهِ إن كِدْتَ لَتردين. ولولا نعمةُ ربي لكنتُ من المحضرين. أفما نحن بميّتين إلا موتتنا الأولى، وما نحن بمعذبين؟﴾ وإلى هنا ينتهي الحوار ويقرر القرآن سعادة المؤمن بالفوز بأسمى المراتب، مع النعيم الخالد الدائمِ الراضي ﴿إنَّ هذا لهو الفوز العظيم. لمثلِ هذا فليعمل العاملون﴾.

وتستعرض السورة الكريمة طرفاً من قصص الأنبياء، تُعْرَضُ فيه قصةُ الهدى والضلال، منذ فجر البشرية الأولى، فهاهم أولئك المكذبون الضالون يواجهون رسلهم بمثل ما واجه به كفار مكةَ رسول الله ﷺ مِن العناد والتكذيب ﴿ولقد أرسلنا فيهم مُنْذِرين. فانظر كيف كان عاقبةُ المُنْذَرين. إلا عبادَ الله المخلَصين. ولقد نادانا نوحٌ فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهلَه من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه في الآخرين. سلامٌ على نوح في العالَمين. إنا كذلكَ نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين ثم أغرقنا الآخرين﴾ ثم تتلوها الآياتُ تستعرض قصة «إبراهيم وإسماعيل، وقصة موسى وهارون، وإلياس ولوط» وتقف عند قصة إبراهيم وقفةً طويلة تكشف فيها عن سرِّ اصطفاء الله عز وجل للخليل، ويتجلى فيها أعظم الدروس في الإيمان والصبر والطاعة، والاستسلام لحكم الله العلي القدير، فها هو الخليل يؤمر في المنام بذبح ولده وفَلْذة كَبَده، فما يتردَّد وما يتأخر، بل يسارع إلى تنفيذ أمر الله، وكأنما الأمر عنده جرْعةُ ماء، ويمضي لتنفيذ ما أُمر به في رضىً ويقينٍ واطمئنان، ويعرض الأمر على ولده لا ليستشيره في الأمر الذي هو حتم، بل ليختبر إيمانه وليرى مبلغ استسلامه وطاعته لله ﴿فلما بلغ معه السعيَ قال يا بُنَّي إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤمرُ ستجدني

إن شاء الله من الصابرين﴾ يا لـروعة الإيمان ، ويا لَنُبْل الطاعة ، ويا لَعظمةِ الاستسلام ! ! الوالد والولد كلٌ منهما يُسلم نفسه لله ، وإنه لحقاً درسٌ بليغٌ في التضحية بالنفس ، ابتغاءً لمرضاة الله ، وخليقٌ بأن يكون إبراهيم خليلاً للرحمن ﴿فلما أسلما وتلَّه للجبين – أي فلما استسلما وانقادا لأمر الله وصرعه بالأرض على جبينه ليذبحه – وناديناه أن يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبحٍ عظيم﴾ وبعد أن تتحدث السورةُ عن بقية الرسل الكرام ، تُعَقِّبُ بهذا القاطع في نصرة الله لأنبيائه وأوليائه ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وتختم السورة الكريمة بتنزيه الله سبحانه عما لا يليق من صفات العجز والنقص ، واختصاصه بالعزة والجلال ، وبالسلام على رسله الكرام ، وبإعلان الحمد لله الواحد الأحد وهو الختام المناسب لموضوع السورة ﴿سبحان ربك ربِّ العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين﴾

سورة الصافات

[٧٧١] ك.. أخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أبو جهل زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجرة: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾(١) الآية. وأخرج نحوه عن السدي.

[٧٧٢] وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية في ثلاثة أحياء من قريش سليم وخزاعة وجهينة ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾(٢) الآية.

[٧٧٣] وأخرج البيهقي في شعب الأيمان عن مجاهد قال: قال كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم قالوا بنات سراة الجن فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾(٣).

[٧٧٤] وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك قال: كان الناس يصلون متبددين فأنزل الله ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾(٤) فأمرهم أن يصفوا، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: حدثت فذكر نحوه.

[٧٧٥] وأخرج جويبر عن ابن عباس قال: قالوا يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به عجله لنا فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾(٥) صحيح على شرط الشيخين.

* * *

---

[٧٧١] (١) سورة الصافات: الآية (٦٤).
[٧٧٢] (٢) سورة الصافات: الآية (١٥٨).
[٧٧٣] (٣) سورة الصافات: الآية (١٥٨).
[٧٧٤] (٤) سورة الصافات: الآية (١٦٥).
[٧٧٥] (٥) سورة الصافات: الآية (١٧٦).

سورة الصافات

وآياتها ثنتان وثمانون ومائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ ﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو وحمزة (والصافات صفا) بإدغام التاء فيما يليه، وكذلك في قوله: ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ والباقون بالإظهار، وقال الواحدي رحمه الله: إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين، ألا ترى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا يسمعان في الهمس، ولامدغم فيه يزيد على المدغم بالإطباق والصفير، وإدغام الأنقص في الأزيد حسن، ولا يجوز أن يدغم الأزيد صوتًا في الأنقص، وأيضًا إدغام التاء في الزاي في قوله: ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾ حسن لأن التاء مهموسة والزاي مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان في الصاد، وأيضًا حسن إدغام التاء في الذال في قوله: ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ لاتفاقهما في أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا، وأما من قرأ بالإظهار وترك الإدغام فذلك لاختلاف المخارج، والله أعلم.

المسألة الثانية: في هذه الأشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد، ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة، أما على التقدير الأول ففيه وجوه الأول: أنها صفات الملائكة، وتقديره أن الملائكة يقفون صفوفًا؛ إما في السموات لأداء العبادات كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] وقيل: إنهم يصفون أجنحتهم في الهواء يقفون منتظرين وصول أمر الله إليهم، ويحتمل أيضًا أن يقال معنى كونهم صفوفًا أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة في الشرف والفضيلة أو في الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف.

وأما قوله: ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾ فقال الليث: يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجرًا إذا حثثته ليمضي، وزجرت فلانًا عن سوء فانزجر أي نهيته فانتهى، فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللإنسان كالنهي، إذا عرفت هذا فنقول في وصف الملائكة بالزجر وجوه الأول: قال ابن عباس يريد الملائكة الذي وكلوا بالسحاب يزجرونها بمعنى أنهم يأتون بها من موضع إلى موضع، الثاني: المراد منه أن الملائكة لهم تأثيرات في قلوب بني آدم على سبيل الإلهامات فهم يزجرونهم عن

المعاصي زجرًا، الثالث: لعل الملائكة أيضًا يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم بالشر والإيذاء، وأقول قد ثبت في العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات، ومتأثر لا يؤثر وهم عالم الأجسام وهو أخس الموجودات، وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء آخر وهو عالم الأرواح وذلك لأنها تقبل الأثر عن عالم كبرياء الله، ثم إنها تؤثر في عالم الأجسام، واعلم أن الجهة التي باعتبارها تقبل الأثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التي باعتبارها تستولي على عالم الأجسام وتقدر على التصرف فيها. وقوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ إشارة إلى الأشرف من الجهة التي باعتبارها تقوى على التأثير في عالم الأجسام إذا عرفت هذا فقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ إشارة إلى وقوفها صفًّا صفًّا في مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهي الجهة التي باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الأنوار الإلهية والكمالات الصمدية، وقوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ إشارة إلى تأثير الجواهر الملكية في تنوير الأرواح القدسية البشرية وإخراجها من القوة إلى الفعل، وذلك لما ثبت أن هذه الأرواح النطقية البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس، وأن هذه الأرواح البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس، وأن هذه الأرواح البشرية إنما تنتقل من القول إلى الفعل في المعارف الإلهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢] وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]. وقوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [المرسلات: ٥]. إذا عرفت هذا فنقول في هذه الآية دقيقة أخرى وهي أن الكمال المطلق للشيء إنما يحصل إذا كان تامًّا وفوق التام والمراد بكونه تامًّا أن تحصل جميع الكمالات اللائقة به حصولاً بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكمالات والسعادات على غيره، ومن المعلوم أن كونه كاملاً في ذاته مقدم على كونه مكملاً لغيره، إذا عرفت هذا فقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ إشارة إلى استكمال جواهر الملائكة في ذواتها وقت وقوفها في مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة، وقوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إزالة ما لا ينبغي عن جواهر الأرواح البشرية وقوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إفاضة الجلايا القدسية والأنوار الإلهية على الأرواح الناطقة البشرية، فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الألفاظ الثلاثة، قال أبو مسلم الأصفهاني: لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرءون عن هذه الصفة، والجواب من وجهين الأول: أن الصافات جمع الجمع فإنه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات، والثاني: أنهم مبرءون عن التأنيث المعنوي، أما التأنيث في اللفظ فلا، وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة في هذا الوجه.

الثاني: أن تحمل هذه الصافات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الأرض وبيانه من وجهين

الوجه الأول: أن قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ إشارة إلى قراءة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن إلقاء الوساوس في قلوبهم في أثناء الصلاة، وقوله: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ إشارة إلى قراءة القرآن في الصلاة وقيل: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ إشارة إلى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت، روى أنه ﷺ طاف على بيوت أصحابه في الليالي فسمع أبا بكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل أبا بكر: لم تقرأ هكذا؟ فقال: المعبود سميع عليم، وسأل عمر: لم تقرأ هكذا؟ فقال: أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان.

الوجه الثاني: في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة في هذه الآية أن المراد من قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ الصفوف الحاصلة من العلماء المحققين الذين يدعون إلى دين الله تعالى والمراد من قوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات، والمراد من قوله تعالى: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ اشتغالهم بالدعوة إلى دين الله والترغيب في العمل بشرائع الله.

الوجه الثالث: في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نحملها على أحوال الغزاة والمجاهدين في سبيل الله فقوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] وأما ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ فالزجرة والصيحة سواء، والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل، وأما ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم في محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس.

الوجه الرابع: في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ المراد آيات القرآن فإنها أنواع مختلفة بعضها في دلائل التوحيد وبعضها في دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها في دلائل النبوة وبعضها في دلائل المعاد وبعضها في بيان التكاليف والأحكام وبعضها في تعليم الأخلاق الفاضلة، وهذه الآيات مرتبة ترتيبًا لا يتغير ولا يتبدل فهذه الآيات تشبه أشخاصًا واقفين في صفوف معينة، وقوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ المراد منه الآيات الزاجرة عن الأفعال المنكرة، وقوله: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ المراد منه الآيات الدالة على وجوب الإقدام على أعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون ما يقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢] قيل: الحكيم بمعنى الحاكم.

فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير أن تجعل هذه الألفاظ الثلاثة صفات لشيء واحد.

وأما الاحتمال الثاني: وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ الطير من قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ [النور: ٤١] و﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ كل ما زجر عن معاصي الله و﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ كل ما يتلى من كتاب الله، وأقول فيه وجه آخر وهو أن مخلوقات الله إما جسمانية وإما روحانية، أما الجسمانية فإنها مرتبة على طبقات ودرجات لا تتغير ألبتة، فالأرض وسط العالم وهي محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء، والهواء محفوف بالنار، ثم هذه الأربعة محفوفة بكرات الأفلاك إلى آخر العالم الجسماني فهذه الأجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى، وأما الجواهر الروحانية فهي على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة في صفتين أحدهما التأثير في عالم الأجسام بالتحريك والتصريف وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ فإنا قد بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك، والثاني الإدراك والمعرفة والاستغراق في معرفة الله تعالى والثناء عليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ ولما كان الجسم أدنى منزلة من الأرواح المستقلة فالتصرف في الجسمانيات أدون منزلة من الأرواح المستغرقة في معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩] لا جرم بدأ في المرتبة الأولى بذكر الأجسام فقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ ثم ذكر في المرتبة الثانية الأرواح المدبرة لأجسام هذا العالم ثم ذكر في هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهي الأرواح المقدسة المتوجهة بكليتها إلى معرفة جلال الله والاستغراق في الثناء عليه، فهذه احتمالات خطرت بالبال، والعالم بأسرار كلام الله تعالى ليس إلا الله.

المسألة الثالثة: للناس في هذا الموضع قولان الأول: قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الأشياء لا أعيان هذه الأشياء، واحتجوا عليه بوجوه الأول: أنه ﷺ نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله، والثاني: أن الحلف بالشيء في مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به، ومثل هذا التعظيم ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٥ - ٧]، والقول الثاني: قول من يقول: إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه الأول: أن القسم وقع بهذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل، والثاني: أنه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ فعلق لفظ القسم بالسماء، ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء، فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد وأنه لا يجوز، الثالث: أنه لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها، لا سيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة في القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها، والله أعلم، فإن قيل ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه الأول: أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أوعند الكافر والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات، الثاني: أنه تعالى حلف في أول هذه السورة على أن الإله واحد، وحلف في أول سورة والذاريات على أن القيامة حق

فقال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ١ - ٦] وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء، والجواب من وجوه الأول: أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيدًا لما تقدم لا سيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب، والوجه الثاني في الجواب: أنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحدًا، وهو قوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ وذلك لأنه تعالى بين في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد، فههنا لما قال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ أردفه بقوله: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ كأنه قيل: قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم دل على كون الإله واحدًا فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد، الوجه الثالث: في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل: هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: أما دلالة أحوال السموات والأرض على وجود الإله القادر العالم الحكيم، وعلى كونه واحدًا منزهًا عن الشريك فقد سبق تقريرها في هذا الكتاب مرارًا وأطوارًا، وأما قوله تعالى: ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدي: المشارق ثلاثمائة وستون مشرقًا وكذلك المغارب فإنه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم في مغرب، ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لأن لكل كوكب مشرقًا ومغربًا، فإن قيل: لم اكتفى بذكر المشارق؟ قلنا: لوجهين الأول: أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله: ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والثاني أن الشروق أقوى حالاً من الغروب وأكثر نفعًا من الغروب فذكر الشرق تنبيهًا على كثرة إحسان الله تعالى على عباده، ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

المسألة الخامسة: احتج الأصحاب بقوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ على كونه تعالى خالقًا لأعمال العباد، قالوا: لأن أعمال العباد موجودة فيما بين السموات والأرض، وهذه الآية دالة على أن كل ما حصل بين السموات والأرض فالله ربه ومالكه، فهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله، وإن قالوا: الأعراض لا يصح وصفها بأنها حصلت بين السموات والأرض لأن هذا الوصف إنما يليق بما يكون حاصلاً في حيز وجهة والأعراض ليست كذلك، قلنا: إنها لما كانت حاصلة في الأجسام الحاصلة بين السموات والأرض فهي أيضًا حاصلة بين السماء والأرض.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة وحفص عن عاصم (زينة) منونة (الكواكب) بالجر وهو قراءة مسروق بن الأجدع، قال الفراء: وهو رد معرفة على نكرة كما قال: ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] فرد نكرة على معرفة. وقال الزجاج: الكواكب بدل من الزينة، لأنها هي كما تقول: مررت بأبي عبد الله زيد. وقرأ عاصم بالتنوين في الزين ونصب الكواكب قال الفراء: يريد زينا الكواكب، وقال الزجاج: يجوز أن تكون الكواكب في النصب بدلاً من قوله: ﴿بِزِينَةٍ﴾، لأن ﴿بِزِينَةٍ﴾ في موضع نصب وقرأ الباقون (بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ) بالجر على الإضافة.

المسألة الثانية: بين تعالى أنه زين السماء الدنيا، وبين أنه إنما زينها لمنفعتين إحداهما: تحصيل الزينة، والثانية: الحفظ من الشيطان المارد، فوجب أن نحقق الكلام في هذه المطالب الثلاثة أما الأول: وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب، فلقائل أن يقول: إنه ثبت في علم الهيئة أن هذه الثوابت مركوزة في الكرة الثامنة، وأن السيارات الستة مركوزة في الكرات الست المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الأرض إذا نظروا إلى السماء فإنهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب، وعلى أنا قد بينا في علم الهيئة أن الفلاسفة لم يتم لهم دليل في بيان أن هذه الكواكب مركوزة في الفلك الثامن، ولعلنا شرحنا هذا الكلام في تفسير سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

وأما المطلوب الثاني: وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا. ففيه بحثان:

البحث الأول: أن الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزن به، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة، قال صاحب الكشاف وقوله: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ يحتملهما فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أي بأن زينتها الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أي بأن زان الله الكواكب وحسنها، لأنها إنما زينت السماء بحسنها في أنفسها، وإن أردت الاسم فللإضافة وجهان أن تقع الكواكب بيانًا للزينة، لأن الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها، وأن يراد ما زينت به الكواكب.

البحث الثاني: في بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه الأول: أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها، فإن تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة في سطح الفلك لا جرم بقي الضوء والنور في جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها، قال ابن عباس: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾

أي بضوء الكواكب، الوجه الثاني: يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها، الوجه الثالث: يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها، الوجه الرابع: أن الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها في التركيب والجوهر، وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة.

وأما المطلوب الثالث: وهو قوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ **ففيه بحثان:**

البحث الأول: فيما يتعلق باللغة فقوله: ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها، قال المبرد: إذا ذكرت فعلاً ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله، مثل قولك: أفعل وكرامة، لأنه لما قال: أفعل، علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال، فكان المعنى أفعل ذلك وأكرمك كرامة، قال ابن عباس: يريد حفظ السماء بالكواكب و﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ يريد الذي تمرد على الله قيل إنه الذي لا يتمكن منه، وأصله من الملاسة ومنه قوله: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ [النمل: ٤٤] ومنه الأمرد: وذكرنا تفسير المارد عند قوله: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١].

البحث الثاني: فيما يتعلق بالمباحث العقلية في هذا الموضع، فنقول: الاستقصاء فيه مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] قال المفسرون: الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها.

وبقي هاهنا سؤالات:

السؤال الأول: هذه الشهب هل هي من الكواكب التي زين الله السماء بها أم لا؟ والأول باطل لأن هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء، ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد ألبتة فإن أعداد كواكب السماء باقية في حالة واحدة من غير تغير ألبتة، وأيضًا فجعلها رجومًا للشياطين مما يوجب وقوع النقصان في زينة السماء فكأن الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض، وأما القسم الثاني: وهو أن يقال: إن هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة في الفلك، فهذا أيضًا مشكل لأنه تعالى قال في سورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] فالضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ عائد إلى المصابيح، فوجب أن تكون تلك المصابيح هي الرجوع بأعيانها من غير تفاوت، والجواب أن هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] فنقول: كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصابيح لأهل الأرض إلا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد، ومنها ما لا يكون كذلك،

وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى ويجعلها رجومًا للشياطين، وبهذا التقدير فقد زال الإشكال، والله أعلم.

السؤال الثاني: كيف يجوز أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون بالتجويز أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم ألبتة، وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل، فكيف من الشياطين الذين لهم مزيّة في معرفة الحيل الدقيقة؟ والجواب: أن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين وإلا لم يذهبوا إليه، وإنما يمنعون من المصير إلى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة، فربما صاروا إلى موضع تصيبهم فيه الشهب، وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب، فلما هلكوا في بعض الأوقات، وسلموا في بعض الأوقات، جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنه لا تصيبهم الشهب فيها، كما يجوز فيمن يسلك البحر أن يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة، هذا ما ذكره أبو علي الجبائي من الجواب عن هذا السؤال في تفسيره. ولقائل أن يقول: إنهم إذا صعدوا فإما أن يصلوا إلى مواضع الملائكة، أو إلى غير تلك المواضع، فإن وصلوا إلى مواضع الملائكة احترقوا، وإن وصلوا إلى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلاً، فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل، إذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محال وجب أن يمتنعوا عن هذا العمل وأن لا يقدموا عليه أصلاً بخلاف حال المسافرين في البحر، فإن الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود، أما ههنا فالشيطان الذي يسلم من الاحتراق إنما يسلم إذا لم يصل إلى مواضع الملائكة، وإذا لم يصل إلى تلك المواضع لم يفز بالمقصود، فوجب أن لا يعود إلى هذا العمل ألبتة، والأقرب في الجواب أن نقول هذه الوقعة إنما تتفق في الندرة، فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين، والله أعلم.

السؤال الثالث: قالوا: دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلاً قبل مجيء النبي ﷺ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ﷺ بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا في سبب حدوثه، إذا ثبت أن ذلك كان موجودًا قبل مجيء النبي ﷺ امتنع حمله على مجيء النبي ﷺ، أجاب القاضي بأن الأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ﷺ لكنها كثرت في زمان النبي ﷺ فصارت بسبب الكثرة معجزة.

السؤال الرابع: الشيطان مخلوق من النار، قال تعالى حكاية عن إبليس ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] ولهذا السبب يقدر على الصعود إلى السموات، وإذا كان كذلك فكيف يعقل إحراق النار بالنار؟ والجواب يحتمل أن الشياطين وإن كانوا من النيران إلا أنها نيران ضعيفة، فإن وصلت نيران الشهب إليهم، وتلك النيران أقوى حالاً منهم لا جرم، صار الأقوى مبطلاً للأضعف، ألا ترى أن السراج الضعيف إذا رجع في النار القوية فإنه ينطفئ، فكذلك ههنا.

السؤال الخامس: أن مقر الملائكة هو السطح الأعلى من الفلك، والشياطين لا يمكنهم الوصول إلا إلى الأقرب من السطح الأسفل من الفلك، فيبقى جرم الفلك مانعًا من وصول الشياطين إلى القرب من الملائكة، ولعل الفلك عظيم المقدار دفع حصول هذا المانع العظيم، كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة، فإن قلتم إن الله تعالى يقوي سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة، فنقول: فعلى هذا التقدير إذا كان الله تعالى يقوي سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة، وجب أن لا ينفي سمع الشيطان، وإن كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة في رميه بالرجوم؟ فالجواب: مذهبنا أن أفعال الله تعالى غير معللة، فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله، فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب، وإذا أضيف ما كتبناه ههنا إلى ما كتبناه في سورة الملك، وفي سائر الآيات المشتملة على هذه المسألة بلغ تمام الكفاية في هذا الباب، والله أعلم.

وأما قوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (لاَ يَسَّمَّعُونَ) بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون، فأدغمت التاء في السين لاشتراكهما في الهمس، والتسمع تطلب السماع يقال: تسمع سمع أو لم يسمع، والباقون بتخفيف السين، واختار أبو عبيد التشديد في (يسمعون)، قال: لأن العرب تقول: تسمعت إلى فلان، ويقولون: سمعت فلانًا، ولا يكادون يقولون: سمعت إلى فلان، وقيل في تقوية هذه القراءة إذا نفى التسمع، فقد نفى سمعه، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[الشعراء: ٢١٢] وروى مجاهد عن ابن عباس: أن الشياطين يسمعون إلى الملأ الأعلى، ثم يمنعون فلا يسمعون، وللأولين أن يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضًا عن التسمع بدلالة هذه الآية، بل هو أقوى في ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء، فإن الذي منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعًا من السمع أولى.

المسألة الثانية: الفرق بين قولك سمعت حديث فلان، وبين قولك سمعت إلى حديثه، بأن قولك سمعت حديثه يفيد الإدراك، وسمعت إلى حديثه يفيد الإصغاء مع الإدراك.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قولان الأول: وهو المشهور أن تقدير الكلام: لئلا يسمعوا، فلما حذف الناصب عاد الفعل إلى الرفع كما قال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾[النساء: ١٧٦] وكما قال: ﴿رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[النحل: ١٥] قال صاحب (الكشاف): حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده. أما اجتماعهما فمن المنكرات التي يجب صون القرآن عنها. والقول الثاني: وهو الذي اختاره صاحب (الكشاف) أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله، وهو حكاية حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة، ويتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب، مدحورون عن ذلك المقصود.

المسألة الرابعة: الملأ الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات. وأما الإنس والجن فهم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض.

واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة الأولى: أنهم لا يسمعون، الثانية: أنهم يقذفون من كل جانب دحورًا وفيه أبحاث:

الأول: قد ذكرنا معنى الدحور في سورة الأعراف عند قوله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] قال المبرد: الدحور أشد الصغار والذل. وقال ابن قتيبة: دحرته دحرًا ودحورًا أي دفعته وطردته.

البحث الثاني: في انتصاب قوله: ﴿دُحُورًا﴾ وجوه الأول: أنه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحورًا، ودل على الفعل قوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾، الثاني: التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام، الثالث: قال مجاهد: دحورًا مطرودين، فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور.

البحث الثالث: قرأ أبو عبد الرحمن السلمي (دحورًا) بفتح الدال قال الفراء: كأنه قال يقذفون يدحرون بما يدحر، ثم قال ولست أشتهي الفتح، لأنه لو وجد ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة إلا أنه جائز في الجملة كما قال الشاعر:

نغالي اللحم للأضياف نيئا

أي نغالي باللحم.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ والمعنى أنهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام، وذكرنا تفسير الواصب في سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] قالوا كلهم: إنه الدائم، قال الواحدي: ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ ذكرنا معنى الخطف في سورة الحج قال الزجاج: وهو أخذ الشيء بسرعة، وأصل خطف اختطف قال صاحب (الكشاف) ﴿مَنْ﴾ في محل الرفع بدل من الواو في ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خطف الخطفة أي اختلس الكلمة على وجه المسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ يعني لحقه وأصابه يقال: تبعه وأتبعه إذا مضى في أثره وأتبعه إذا لحقه وأصله من قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وقد مر تفسيره. وقوله تعالى: ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ قال الحسن: ثاقب أي مضيء، وأقول سمي ثاقبًا لأنه يثقب بنوره الهواء، قال ابن عباس في تفسير قوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣] قال: إنه رجل سمي بذلك لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في بيان النظم اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا الكتاب الكريم

إثبات الأصول الأربعة وهي الإلهيات والمعاد والنبوة وإثبات القضاء والقدر. فنقول: إنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات ما يدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب، فلما أحكم الكلام في هذا الباب فرع عليها إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة.

واعلم أن الكلام في هذه المسألة يتعلق بطرفين أولهما: إثبات الجواز العقلي، وثانيهما: إثبات الوقوع، أما الكلام في المطلوب الأول فاعلم أن الاستدلال على الشيء يقع على وجهين أحدهما: أن يقال: إنه قدر على ما هو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضًا أن يقدر عليه، والثاني: أن يقال: إنه قدر عليه في إحدى الحالتين والفاعل والقابل باقيين كما كانا، فوجب أن تبقى القدرة عليه في الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين في بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن. أما الطريق الأول: فهو المراد من قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ والتقدير كأنه تعالى يقول: استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقًا من خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك؟ ولا شك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد في العرف من خلق القسم الأول، فلما ثبت بالدلائل المذكورة في إثبات التوحيد كونه تعالى قادرًا على هذا القسم الذي هو أشد وأصعب، فبأن يكون قادرًا على إعادة الحياة في هذه الأجساد كان أولى، ونظير هذه الدلالة قوله تعالى في آخر يس ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وأما الطريق الثاني: فهو المراد من قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ والمعنى أن هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية في المرة الأولى والإله قادر على خلق هذه الحياة في هذه الأجسام، ولولا كونه تعالى قادرًا على هذا المعنى لما حصلت الحياة في المرة الأولى، ولا شك أن قابلية تلك الأجسام باقية وأن قادرية الله تعالى باقية لأن هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقين أن القول بالبعث والقيامة أمر ممكن، ولما بين تعالى إمكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله؛ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨] وذلك لأنه ثبت صدق الرسول ﷺ لأجل ظهور المعجزات عليه والصادق إذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو في غاية الحسن، والله أعلم.

المسألة الثانية: في تفسير ألفاظ هذه الآية، أما قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقًا للسموات والأرض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أم هذه الأشياء التي بينا كونه تعالى خالقًا لها؟ ولم يحك عنهم أنهم أقروا أن خلق هذه الأشياء أصعب لأجل أن ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكى عنهم صحة أن الأمر كذلك.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ يعني أنا لما قدرنا على خلق الحياة في ذواتهم أولاً وجب أن نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانيًا، لما بينا أن حال القابل وحال الفاعل ممتنع التغير. وفيه دقيقة أخرى وهي أن القوم قالوا كيف يعقل تولد الإنسان لا من النطفة ولا من الأبوين؟ فكأنه قيل لهم: إنكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بأن السموات والأرض وما بينهما إنما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلا بد وأن تعترفوا بأن الإنسان الأول إنما حدث لا من الأبوين، فإذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم: الإنسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الأبوين؟ وأيضًا قد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة في الطين اللازب فكيف يعجز عن إعادة الحياة إلى هذه الذوات. وأما كيفية خلق الإنسان من الطين اللازب فهي مذكورة في السورة المتقدمة، واعلم أن هذا الوجه إنما يحسن إذا قلنا المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ هو أنا خلقنا أباهم آدم من طين لازب، وفيه وجوه أخر وهو أن يكون المراد أنا خلقنا كل إنسان من طين لازب، وتقريره أن الحيوان إنما يتولد من المني ودم الطمث والمني يتولد من الدم فالحيوان إنما يتولد من الدم والدم إنما يتولد من الغذاء، والغذاء إما حيواني وإما نباتي أما تولد الحيوان الذي صار غذاء فالكلام في كيفية تولده كالكلام في تولد الإنسان، فثبت أن الأصل في الأغذية هو النبات والنبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب، وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب، وإذا ثبت هذا فنقول: إن هذه الأجزاء التي منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها، وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة في كل الأوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة، وأما اللازب فقيل اللاصق، وقيل اللزج وقيل الجيد، وأكثر أهل اللغة على أن الباء في لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تقرير الكلام أن يقال: إن هؤلاء المنكرين أقروا بأنه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من إعادة الحياة إلى هذه الأجساد، وقد تقرر في صرائح العقول أن القادر على الأشق الأشد يكون قادرًا على الأسهل الأيسر، ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقي هؤلاء الأقوام مصرين على إنكار البعث والقيامة وهذا في موضع التعجب الشديد فإن مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الإصرار فيه. فأنت يا محمد تتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم في طرف الإنكار وصلوا إلى حيث يسخرون منك في قولك بإثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة، فهذا هو المراد من قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي (عَجِبْتُ) بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدي:

والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم ويحيى بن وثاب والأعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبي عبيدة، أما الذين قرأوا بالفتح فقد احتجوا بوجوه الأول: أن القراءة بالضم تدل على إسناد العجب إلى الله تعالى وذلك محال، لأن التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشيء ومعلوم أن الجهل على الله محال، والثاني: أن الله تعالى أضاف التعجب إلى محمد ﷺ في آية أخرى في هذه المسألة فقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ [الرعد: ٥]، والثالث: أنه تعالى قال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ والظاهر أنهم إنما سخروا لأجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن يكون ذلك التعجب صادرًا منه، وأما الذين قرءوا بضم التاء، فقد أجابوا عن الحجة الأولى من وجوه الأول: أن القراءة بالضم لا نسلم أنها تدل على إسناد التعجب إلى الله تعالى، وبيانه أنه يكون التقدير قل يا محمد: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨] معناه أن هؤلاء ما تقولون فيه أنتم هذا النحو من الكلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] الثاني: سلمنا أن ذلك يقتضي إضافة التعجب إلى الله تعالى فلم قلتم إن ذلك محال؟ ويروى أن شريحًا كان يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لا يليق إلا بمن لا يعلم، قال الأعمش: فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: إن شريحًا يعجب بعلمه وكان عبد الله أعلم، وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول: دل القرآن والخبر على جواز إضافة العجب إلى الله تعالى، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥] والمعنى إن تعجب يا محمد من قولهم، فهو أيضًا عجب عندي، وأجيب عنه أنه لا يمتنع أن يكون المراد وإن تعجب فعجب قولهم عندكم، وأما الخبر فقوله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وَقُنُوطِكُمْ، وَعَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ شَابٍّ لَيسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»(١).

وإذا ثبت هذا فنقول: العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين كما قال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الأحوال من العباد، وقد ذكرنا أن القانون في هذا الباب أن هذه الألفاظ محمولة على نهايات الأعراض لا على بدايات الأعراض. وكذلك ههنا من تعجب من شيء فإنه يستعظمه فالتعجب في حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة إن كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه، وإن كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه، فهذا تمام الكلام في هذه المناظرة، والأقرب أن يقال: القراءة بالضم إن ثبتت بالتواتر وجب المصير إليها ويكون التأويل ما ذكرناه وإن لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى، والله أعلم.

---

(١) لم أجده.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع في إثبات إمكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها: أن النبي ﷺ يتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم يسخرون منه في إصراره على الإثبات، وهذا يدل على أنه ﷺ مع أولئك الأقوام كانوا في غاية التباعد وفي طرفي النقيض، وثانيها قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾، وثالثها قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ ويجب أن يكون المراد من هذا الثاني والثالث غير الأول لأن العطف يوجب التغاير ولأن التكرير خلاف الأصل، والذي عندي في هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون: من مات وصار ترابًا وتفرقت أجزاؤه في العالم كيف يعقل عوده بعينه؟ وبلغوا في هذا الاستبعاد إلى حيث كانوا يسخرون ممن يذهب إلى هذا المذهب وإذا كان كذلك فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين أحدهما: أن يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم: هل تعلمون أن خلق السموات والأرض أشد وأصعب من إعادة إنسان بعد موته؟ وهل تعلمون أن القادر على الأصعب الأشق يجب أن يكون قادرًا على الأسهل الأيسر؟ فهذا الدليل وإن كان جليًّا قويًّا إلا أن أولئك المنكرين إذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يقفون عليها، وإذا ذكروا لم يذكروها لشدة بلادتهم وجهلهم، فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان.

الطريق الثاني: أن يثبت الرسول ﷺ جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كوني رسولاً صادقًا من عند الله فأنا أخبركم بأن البعث والقيامة حق، ثم إن أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضًا لأنهم إذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحرًا وسخروا بها واستهزءوا منها وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ فظهر بالبيان الذي ذكرناه أن هذه الألفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة.

واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق، فقالوا: إنه تعالى قال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢].

ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ غير ما تقدم ذكره من قوله: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ فقال هذا القائل: المراد من قوله: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ إقدامهم على السخرية والمراد من قوله: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ طلب كل واحد منهم من صاحبه أن يقدم على السخرية وهذا التكليف إنما لزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التي ذكرناها، والله أعلم، والرابع: من الأمور التي حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني أنهم إذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها، والسبب في تلك السخرية اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾

معناه أن كونه سحرًا أمر بين لا شبهة لأحد فيه، ثم بين تعالى أن السبب الذي يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الالتفات إلى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هو قولهم: إن الذي مات وتفرقت أجزاؤه في جملة العالم فما فيه من الأرضية اختلط بتراب الأرض وما فيه من المائية والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الإنسان كيف يعقل عوده بعينه حيًّا فاهمًا؟ فهذا الكلام هو الذي يحملهم على تلك الأحوال الثلاثة المتقدمة، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال: قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لأنه ذكر في الآية المتقدمة بالبرهان اليقيني القطعي أنه أمر ممكن وإذا ثبت الجواز القطعي فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق، فلما قامت المعجزات على صدق محمد ﷺ كان واجب الصدق فكان مجرد قوله: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ دليلاً قاطعًا على الوقوع. ومن تأمل في هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب، وذلك لأنه بين الإمكان بالدليل العقلي وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعي، ومن المعلوم أن الزيادة على هذا البيان كالأمر الممتنع.

أما قوله: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ فالمعنى أو تبعث آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر ههنا، وفي سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام في هذا في سورة الأعراف عن قوله: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٨].

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ فنقول قرأ الكسائي وحده (نعم) بكسر العين.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي صاغرون، قال أبو عبيد: الدخور أشد الصغار، وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما يدل على إمكان البعث والقيامة، ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة، ذكر في هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة، وأنه تعالى ذكر في هذه الآية أنواعًا من تلك الأحوال فالحالة الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾ جواب شرط مقدر والتقدير إذا كان كذلك فما هي إلا زجرة واحدة.

البحث الثاني: الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ ضمير على شريطة التفسير، والتقدير فإنما البعث زجرة واحدة.

البحث الثالث: الزجرة في اللغة الصيحة التي يزجر بها كالزجرة بالنعم والإبل عند البحث ثم

كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وإن لم يكن فيها معنى الزجر كما في هذه الآية وأقول لا يبعد أن يقال إن تلك الصيحة إنما سميت زجرة لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور في موقف القيامة، فإذا عرفت هذا فنقول: المراد من هذه الزجرة ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] فبالنفخة الأولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون، وههنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الفائدة في هذه الصيحة فإن القوم في تلك الساعة أموات؟ لأن النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة إنما حصلت حال كون الخلق أمواتًا، فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهي عبث والعبث لا يجوز في فعل الله، والجواب: أما أصحابنا فيقولون: يفعل الله ما يشاء، وأما المعتزلة فقال القاضي: فيه وجهان الأول: أن تعتبر بها الملائكة، الثاني: أن تكون الفائدة التخويف والإرهاب.

السؤال الثاني: هل لتلك الصيحة تأثير في إعادة الحياة؟ الجواب: لا، بدليل أن الصيحة الأولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لا أثر لها في الموت ولا في الحياة، بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢].

السؤال الثالث: تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء؟ الجواب: الكل جائز إلا أنه روي أن الله تعالى يأمر إسرافيل حتى ينادي: أيتها العظام النخرة والجلود البالية والأجزاء المتفرقة اجتمعوا بإذن الله تعالى. اللفظ الرابع: من الألفاظ المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ فيحتمل أن يكون المراد ينظرون ما يحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم إلى بعض وأن يكون المراد ينظرون إلى البعث الذي كذبوا به، الحالة الثانية: من وقائع القيامة ما أخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا: ﴿يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ قال الزجاج: الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء هذا، والمقصود أن الله تعالى ذكر في آيات كثيرة من القرآن، أنا نرى في الدنيا محسنًا ومسيئًا وعاصيًا وصديقًا وزنديقًا، ورأينا أنه لم يصل إليهم في الدنيا ما يليق بهم من الجزاء فوجب القول بإثبات القيامة: ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء إنما يحصل بعد الموت، والكفار وإن سمعوا هذا الدليل القوي لكنهم أنكروا وتمردوا ثم إنه تعالى إذا أحياهم يوم القيامة فإذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء الذي ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه في القرآن فكفرنا بها، ونظيره أن من خوف بشيء ولم يلتفت إليه، ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول: هذا يوم الواقعة الفلانية، فكذا ههنا، وفيه احتمال آخر وهو أنه تعالى قال في سورة الفاتحة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] فبين أنه لا مالك في ذلك اليوم إلا الله فقولهم: ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، إشارة إلى أن هذا هو اليوم الذي لا حكم فيه لأحد إلا لله، وإنما ذكروه لما حصل في قلوبهم من الخوف الشديد.

أما قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

ففيه بحثان:

الأول: اختلفوا في أن هذا هو من بقية كلام الكفار أو يقال: تم كلامهم عند قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ . وأما قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ فهو كلام غيرهم، فبعضهم قال بالأول وزعم أن قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ الآية من كلام بعضهم لبعض، والأكثرون على القول الثاني واحتجوا بوجهين: الأول: أن قوله: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جميع الكفار فقائل هذا القول لا بد وأن يكون غير الكفار.

الثاني: أن قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] منسوق على قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فلما كان قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كلام غير الكفار فكذلك قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ يجب أن يكون كلام غير الكفار، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ من كلام الكفار، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ من كلام الملائكة جوابًا لهم، والوجه في كونه جوابًا لهم أن أولئك الكفار، إنما اعتقدوا في أنفسهم كونهم محقين في إنكار دعوة الأنبياء عليهم السلام وكونهم محقين في تلك الأديان الفاسدة فقالوا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي هذا اليوم الذي يصل فيه إلينا جزاء طاعتنا وخيراتنا، فالملائكة يقولون لهم: إنه لا اعتبار بظواهر الأمور في هذا اليوم فإن هذا اليوم يفصل فيه الجزاء الحقيقي عن الجزاء الظاهري وتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة، فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جوابًا لما ذكره الكفار.

قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وفي الآية أبحاث:

البحث الأول: اعلم أنه لا نزاع في أن هذا من كلام الملائكة فإن قيل: ما معنى: ﴿ٱحْشُرُوا۟﴾ مع أنهم قد حشروا من قبل وحضروا في محفل القيامة وقالوا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠] وقالت الملائكة لهم: بل ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ [الصافات: ٢١] أجاب القاضي عنه، فقال: المراد احشروهم إلى دار الجزاء وهي النار، ولذلك قال بعده: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي خذوهم إلى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال: كيف يصح ذلك وقد قال بعده ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ ومعلوم أن حشرهم إلى الجحيم، إنما يكون بعد المسألة، وأجاب أنه ليس في العطف بحرف الواو ترتيب

فلا يمتنع أن يقال: احشروهم وقفوهم، مع أنا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر إلى النار، هذا ما قاله القاضي، وعندي فيه وجه آخر وهو أن يقال: إنهم إذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة تلحقهم بسبب معاينة أهوال القيامة، ثم إن الله تعالى يقول للملائكة: احشروا الذين ظلموا واهدوهم إلى صراط الجحيم، أي سوقوهم إلى طريق جهنم وقفوهم هناك وتحصل المسألة هناك ثم من هناك يساقون إلى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه.

البحث الثاني: الآمر في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن يحشروا الكفار إلى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم إلى ذلك الموقف.

البحث الثالث: أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء: الظالمين، وأزواجهم، والأشياء التي كانوا يعبدونها. وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أنه تعالى قال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد في حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

الفائدة الثانية: اختلفوا في المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال الأول: المراد بأزواجهم أشباههم أي أحزابهم ونظراؤهم من الكفر فاليهودي مع اليهودي والنصراني مع النصراني والذي يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه وجوه الأول: قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧] أي أشكالاً وأشباهًا الثاني: أنك تقول: عندي من هذا أزواج أي أمثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين في أكثر أحكام النكاح وكذلك العدد الزوج سمي بهذا الاسم لكون كل واحد من سميه مثالاً للقسم الثاني في العدد الصحيح، قال الواحدي: فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء لأنك لو جعلت الذين ظلموا عامًّا في كل من أشرك لم يكن للأزواج معنى. القول الثاني: في تفسير الأزواج أن المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، والقول الثالث: أن المراد نساؤهم اللواتي على دينهم.

أما قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ففيه قولان الأول: المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت، ونظيره قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] قيل المراد بالناس عباد الأوثان والمراد بالحجارة الأصنام التي هي أحجار منحوتة، فإن قيل: إن تلك الأحجار جمادات فما الفائدة في حشرها إلى جهنم؟ أجاب القاضي بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة في توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول: هب أن الله تعالى يحيي تلك الأصنام إلا أنه لم يصدر عنها ذنب، فكيف يجوز من الله تعالى

تعذيبها؟ والأقرب أن يقال: إن الله تعالى لا يحيي تلك الأصنام بل يتركها على الجمادية. ثم يلقيها في جهنم لأن ذلك مما يزيد في تخجيل الكفار، القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ما عبدوا فلما قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ [يس: ٦٠] والقول الأول أولى لأن الشياطين عقلاء وكلمة (ما) لا تليق بالعقلاء، والله أعلم.

ثم قال: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس: دلوهم. يقال هديت الرجل إذا دللته وإنما استعملت الهداية ههنا، لأنه جعل بدل الهداية إلى الجنة، كما قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لأولئك، وعن ابن عباس ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ سوقوهم. وقال الأصم: قدموهم، قال الواحدي: وهذا وهم، لأنه يقال هدى إذا تقدم ومنه الهداية والهوادي والهاديات الوحش، قال: ولا يقال هدى بمعنى قدم، ثم قال ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ يقال: وقفت الدابة أقفها وقفًا فوقفت هي وقوفًا، والمعنى احبسوهم وفي الآية قولان أحدهما: على التقديم والتأخير، والمعنى قفوهم واهدوهم، والأصوب أنه لا حاجة إليه، بل كأنه قيل: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فإذا انتهوا إلى الصراط قيل: ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ فإن السؤال يقع هناك. وقوله: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ قيل: عن أعمالهم في الدنيا وأقوالهم، وقيل: المراد سألتهم الخزنة ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ . . . ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] ويجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي أنهم يسألون توبيخًا لهم، فيقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا ينصر بعضكم بعضًا كما كنتم في الدنيا، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر: نحن جميع منتصر، فقيل لهم يوم القيامة ما لكم غير متناصرين، وقيل: يقال للكفار: ما لشركائكم لا يمنعونكم من العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع، ومعناه في الأصل طلب السلامة بترك المنازعة، والمقصود أنهم صاروا منقادين لا حيلة لهم في دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قيل هم والشياطين، وقيل الرؤساء والأتباع. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضًا، وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون: غررتمونا، ويقول أولئك: لم قبلتم منا، وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين، بل هو تساؤل التوبيخ واللوم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝٢٨ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ۝٣٠ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقال: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ وهذا قول الأتباع لمن دعاهم إلى الضلالة، وفي تفسير اليمين وجوه الأول: أن لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات، وبيان كيفية هذه الاستعارة، أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر لوجوه أحدها: اتفاق الكل على أن أشرف الجانبين هو اليمين. والثاني: لا يباشرون الأعمال الشريفة إلا باليمين مثل مصافحة الأخيار والأكل والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى. الثالث: أنهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الأيمن ويسمونه بالبارح. الرابع: أن النبي ﷺ كان يحب التيامن في كل شيء. الخامس: أن الشريعة حكمت بأن الجانب الأيمن لكاتب الحسنات والأيسر لكاتب السيئات. السادس: أن الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه، والمسيء أن يؤتى كتابه بيساره، فثبت أن الجانب الأيسر، وإذا كان كذلك لا جرم، استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ يعني أنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا أن مقصودكم من الدعوة إلى تلك الأديان نصرة الحق وتقوية الصدق. والوجه الثاني في التأويل: أنه يقال فلان يمين فلان، إذا كان عنده بالمنزلة الحسنة، فقال هؤلاء الكفار لأئمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر: إنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا، أننا عندكم بمنزلة اليمين، أي بالمنزلة الحسنة، فوثقنا بكم وقبلنا عنكم. الوجه الثالث: أن أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق، فوثقوا بإيمانهم وتمسكوا بعهودهم التي عهدوها لهم، فمعنى قوله: ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي من ناحية المواثيق والأيمان التي قدمتموها لنا. الوجه الرابع: أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر، لأن اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش، والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتعيرونا عليه، ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء أنهم أجابوا الأتباع من وجوه الأول: أنهم قالوا لهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني أنكم ما كنتم موصوفين بالإيمان حتى يقال: إنا أزلناكم عنه، الثاني: قولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ يعني لا قدرة لناعليكم حتى نقهركم ونجبركم، الثالث: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أي ضالين غالين في معصية الله، الرابع: قولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ والمعنى أن الله تعالى لما أخبر عن وقوعنا في العذاب، فلو لم يحصل وقوعنا في العذاب لما كان خبر الله حقًا، بل كان باطلاً، ولما كان خبر الله أمرًا

واجبًا لا جرم، كان الوقوع في العذاب الأليم لازمًا، قال مقاتل قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ إشارة إلى قول الله لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ يعني لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب، الخامس قولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ والمعنى أنا إنما أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية، وفيه دقيقة أخرى، كأنهم قالوا: إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب إغوائنا فغوايتنا إن كانت بسبب إغواء غاوٍ آخر ولزم التسلسل وذلك محال، فعلمنا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا، بل من قبل غيرنا، وذلك الغير هو الذي ذكره فيما قبل، وهو قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ ولما حكى الله تعالى كلام الأتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للأتباع قال بعده: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يعني فالمتبوع والتابع والمخدوم والخادم مشتركون في الوقوع في العذاب كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية، ثم قال أيضًا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وعنى بالمجرمين ههنا الكفار بدليل أنه تعالى قال بعد هذه الكلمة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائد إلى المذكور السابق وهو قوله: ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص في القرآن بالكافر، ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب لأنهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة، أما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني ينكرون ويتعصبون لإثبات الشرك ويستنكفون عن الإقرار بالتوحيد. وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ ويعنون محمدًا، ثم إنه تعالى كذبهم في ذلك الكلام فقال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وتقرير هذا الكلام أنه جاء بالدين الحق لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاء محمد ﷺ بتقرير هذه المعاني كان مجيئه بالدين الحق، قرأ ابن كثير (أينا لتاركوا آلهتنا) بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد، وقرأ نافع في رواية قالون وأبو عمرو على هذا التفسير يمدان والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1] يعني صدقهم في مجيئهم بالتوحيد ونفي الشريك، وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الأنبياء، ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد والنبوة نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ كأنه قيل: فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده؟ فأجاب عنه بقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والمعنى أن الحكم يقتضي الأمر بالحسن والطاعة والنهي عن القبيح والمعصية والأمر والنهي لا يكمل المقصود منهما إلا بالترغيب في

---

(١) وصدق المرسلون في المصحف مرفوعة بالواو والنون ولكن المفسر جرى في تفسيره على أنها منصوبة بالياء والنون ومعنى قراءة الرفع أن المرسلين صدقوا في كل ما أخبروا له وإنما شدد الدال من صدق للمبالغة في وصفهم بالصدق وقراءة الرفع عامة تشمل جميع الأنبياء ومنهم محمد ﷺ وأما قراءة النصب فلا تشمل نبينا عليه السلام إذ يكون الخطاب عليه.

الثواب والترهيب بالعقاب وإذا وقع الإخبار عنه وجب تحقيقه صونًا للكلام عن الكذب، فلهذا السبب وقعوا في العذاب، ثم قال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يعني ولكن عباد الله المخلصين ناجون وهو من الاستثناء المنقطع.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على إنكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين في كيفية الثواب.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكرنا في فتح اللام وكسرها من المخلصين قراءتين فالفتح أن الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو أنهم أخلصوا الطاعة لله تعالى.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى وصف رزقهم بكونه معلومًا، ولم يبين أن أي الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الأقوال، فقيل: معناه إن ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وإن لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وقيل: معناه أن ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصًا بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر، وقيل: معناه أنهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى يحصل ولا متى ينقطع، وقيل: معناه القدر الذي يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم، وقد بين الله تعالى أنه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل، ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقًا بين أن ذلك الرزق ما هو فقال: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ وفيه قولان الأول: أن الفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ لا لأجل الحاجة، وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد، فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ، والثاني: أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالأدنى على الأعلى، يعني لما كانت الفاكهة حاضرة أبدًا كان الإدام أولى بالحضور، والقول الأول أقرب إلى التحقيق، واعلم أنه تعالى لما ذكر الأكل بين أن ذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم فقال: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ لأن الأكل الخالي عن التعظيم يليق بالبهائم.

ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ومعناه أنه لا كلفة عليهم في التلاقي للأنس والتخاطب، وفي بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا

القرب سار السرير تحتهم، ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلا مع حصول الخواطر والسرائر ولن يكونوا كذلك إلا مع الفسحة والسعة، ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد إلا بأن يقوي الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم، ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ يقال للزجاجة التي فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأسًا قال:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا[1]

وعن الأخفش: كل كأس في القرآن فهي الخمر، وقوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي من شراب معين، أو من نهر معين، المعين مأخوذ من عين الماء أي يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمي معينًا لظهوره يقال عان الماء إذا ظهر جاريًا، قاله ثعلب، فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل، وقيل سمي معينًا لأنه يجري ظاهر العين، ويجوز أن يكون فعيلاً من المعين وهو الماء الشديد الجري ومنه أمعن في المسير إذا اشتد فيه، وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ صفة للخمر، قال الأخفش: خمر الجنة أشد بياضًا من اللبن، وقوله: ﴿لَذَّةٍ﴾ فيه وجوه أحدها: أنها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم إذا أرادوا المبالغة في وصفه بهاتين الصفتين، وثانيها: قال الزجاج: أي ذات لذة، فعلى هذا حذف المضاف، وثالثها: قال الليث: اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحدًا في النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[محمد: ١٥] ولذلك سمي النوم لذًا لاستلذاذه، وعلى هذا لذة بمعنى لذيذة، والأقرب من هذه الوجوه الأول.

ثم قال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: قال الفراء: العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء، وقال أبو عبيدة: الغول أن يغتال عقولهم، وأنشد قول مطيع بن إياس:

وَمَا زَالَتِ الْكَأْسُ تَغْتَالُهُمْ وَتَذْهَبُ بِالأَوَّلِ الأَوَّلِ[2]

وقال الليث: الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما في خمر الدنيا، قال الواحدي

---

(١) البيت للأعشى وقد تقدمت ترجمته.

(٢) مطيع بن إياس هو مطيع بن إياس الكناني، أبو سلمى: شاعر، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. (؟ - ١٦٦ هـ = ؟- ٧٨٣م)، كان ظريفًا، مليح النادرة، ماجنا، متهمًا بالزندقة. مولده ومنشأه بالكوفة، وأصل أبيه من فلسطين، مدح الوليد بن يزيد ونادمه، في العصر الأموي، وانقطع في الدولة العباسية إلى جعفر بن المنصور فكان معه إلى أن مات، وكان صديقًا لحماد عجرد الشاعر وحماد الراوية. أقام ببغداد زمنا، وولاه المهدي العباسي الصدقات بالبصرة فتوفى فيها.

رحمه الله: وحقيقته الإهلاك، يقال غاله غولاً أي أهلكه، والغول والغائل المهلك، ثم سمي الصداع غولاً لأنه يؤدي إلى الهلاك.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ وقرئ بكسر الزاي قال الفراء: من كسر الزاي فله معنيان يقال أنزف الرجل إذا نفدت خمرته، وأنزف إذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاي فمعناه لا يذهب عقولهم أي لا يسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف، والمعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولا هم يسكرون أيضًا، وخصه بالذكر لأنه أعظم المفاسد في شرب الخمر، ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه الأول: قوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ومعنى القصر في اللغة الحبس ومنه قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] والمعنى أنهن يحبسن نظرهن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿عِينٌ﴾ قال الزجاج: كبار الأعين حسانها واحدها عيناء.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ المكنون في اللغة المستور يقال كننت الشيء وأكننته، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة، فإذا كان مكنونًا كان مصونًا عن الغبرة والقترة، فكان هذا اللون في غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور.

ولما تمم الله صفات أهل الجنة قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فإن قيل: على أي شيء عطف قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ قلنا: على قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب، قال الشاعر:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَّاتِ إلاَّ مُحَادَثَةُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى كما ذكر في أهل الجنة أنهم يتساءلون عند الاجتماع على شرب خمر الجنة فإن محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الأمور اللذيذة، وتذكر

الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الأمور اللذيذة، ذكر تعالى في هذه الآية أن أهل الجنة إذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا في المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات أنهم يتذكرون أنهم كان قد حصل لهم في الدنيا ما يوجب لهم الوقوع في عذاب الله، ثم إنهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الأبدية، والمقصود من ذكر هذه الأشياء أن أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم.

أما قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي قرين في الدنيا ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي لمحاسبون ومجازون، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار، ثم إن ذلك الرجل الذي هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم إلى كمال السرور بالاطلاع إلى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ﴾ والأقرب أنه تكلف أمرًا اطلع معه لأنه لو كان مطلعًا بلا تكلف لم يكن إلى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم: إنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي في وسط الجحيم قال له موبخًا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي لتهلكني بدعائك إياي إلى إنكار البعث والقيامة ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالإرشاد إلى الحق والعصمة عن الباطل ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في النار مثلك، ولما تمم ذلك الكلام مع الرجل الذي كان في الدنيا قرينًا له وهو الآن من أهل النار عاد إلى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وفيه قولان الأول: أن أهل الجنة لا يعلمون في أول دخولهم في الجنة أنهم لا يموتون، فإذا جيء بالموت على صورة كَبْشٍ أَمْلَحَ وَذُبِحَ [1] فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون، فلعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت، والثاني: أن الذي يتكامل خيره وسعادته فإذا عظم تعجبه بها قد يقول: أيدوم هذا لي؟ أفيبقى هذا لي؟ وإن كان على يقين من دوامه، ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وأما قوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ فقيل إنه من بقية كلامهم، وقيل إنه ابتداء كلام من الله تعالى أي لطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون.

المسألة الثانية: قال بعضهم: المراد من هذا القائل ومن قرينه ما ذكره الله تعالى في سورة

---

(١) هذا الحديث إشارة على موت الموت على هيئة كبش أملح، أخرجه البخاري في (صحيحه) (٤/ ١٧٦٠)، حديث رقم (٤٤٥٣)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٨٨/ ٢٨٤٩)، كلاهما من طريق أبي صالح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ثم يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناديًا يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادي يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾... واللفظ للبخاري.

الكهف في قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] إلى آخر الآيات، وروي أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى دارًا بألف دينار فأراها صاحبه وقال: كيف ترى حسنها فقال: ما أحسنها فخرج وقال: اللهم إن صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإني أسألك دارًا من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لأجل أن يزوجه الله من الحور العين، ثم إن صاحبه اشترى بساتين بألفي دينار فتصدق هذا بألفي دينار، ثم إن الله أعطاه في الجنة ما طلب فعند هذا قال: ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة قرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الألف من غير استفهام، ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين، وقرأ ابن عامر الأولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الألف من غير استفهام، وقرأ الباقون بالاستفهام في جميعها، ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة خفيفة، وأبو عمرو مطولة، وعاصم وحمزة بهمزتين.

وأما قوله: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ قرأ نافع برواية ورش لترديني بإثبات الياء في الوصل والباقون بحذفها.

المسألة الرابع: احتج أصحابنا على أن الهدى والضلال من الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ وقالوا: مذهب الخصم أن كل ما فعله الله تعالى من وجوه الإنعام في حق المؤمن فقد فعله في حق الكافر، وإذا كان ذلك الإنعام مشتركًا فيه امتنع أن يكون سببًا لحصول الهداية للمؤمن، وأن يكون سببًا لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك النعمة المخصوصة أمرًا زائدًا على تلك الإنعامات التي حصل الاشتراك فيها، وما ذلك إلا بقوة الداعي إلى الإيمان وتكميل الصارف عن الكفر.

المسألة الخامسة: احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذي من أهل الجنة: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ فهذا يدل على أن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة ولو حصلت الحياة في القبر لكان الموت حاصلاً مرتين والجواب: أن قوله: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ المراد منه كل ما وقع في الدنيا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ثُمَّ إِنَّ

﴿مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٨ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ۝٧٠
وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٧٤﴾

اعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] أتبعه بقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجرًا لهم عن الكفر، وكما وصف من قبل مآكل أهل الجنة ومشاربهم وصف أيضًا في هذه الآية مآكل أهل النار ومشاربهم.

أما قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ فالمعنى أن الرزق المعلوم المذكور لأهل الجنة ﴿خَيۡرٌ نُّزُلًا﴾ أي خير حاصلاً ﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ وأصل النزل الفضل الواسع في الطعام يقال: طعام كثير النزل، فاستعير للحاصل من الشيء، ويقال: أرسل الأمير إلى فلان نزلاً وهو الشيء الذي يصلح حال من ينزل بسببه، إذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة والسرور، وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم، ومعلوم أنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر في الخيرية إلا أنه جاء هذا الكلام، إما على سبيل السخرية بهم أو لأجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم فقيل لهم ذلك توبيخًا لهم على سوء اختيارهم، وأما ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ فقال الواحدي رحمه الله: لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيرًا إلا الكلبي فإنه روي أنه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى: أكثر الله في بيوتكم الزقوم، فإن أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم، فقال أبو جهل لجاريته: زقمينا، فأتته بزبد وتمر، وقال: تزقموا. ثم قال الواحدي: ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر، قال ابن دريد: لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الإفراط من أكل الشيء حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم. وظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعام منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها، ثم إنه تعالى يكره أهل النار على تناول بعض أجزائها.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ ففيه أقوال: الأول: أنها إنما صارت فتنة للظالمين، من حيث إن الكفار لما سمعوا هذه الآية، قالوا: كيف يعقل أن تنبت الشجرة في جهنم مع أن النار تحرق الشجرة؟ والجواب عنه أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر، ولأنه إذا جاز أن يكون في النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن إحراقهم فلم لا يجوز مثله في هذه الشجرة؟ إذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو أنهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة في قلوبهم وصارت تلك الشبهة سببًا لتماديهم في الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم، والوجه الثاني في التفسير: أن يكون المراد صيرورة هذه

الشجرة فتنة لهم في النار لأنهم إذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم، فحينئذ يصير ذلك فتنة في حقهم، الوجه الثالث: أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار، فإن هذا شيء بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف، فإذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه إلى الله وإذا ورد على الزنديق توسل به إلى الطعن في القرآن والنبوة.

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها، الصفة الثانية: قوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قال صاحب (الكشاف): الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها، إما استعارة لفظية أو معنوية، وقال ابن قتيبة: سمي (طلعًا) لطلوعه كل سنة، ولذلك قيل طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره، وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ففيه سؤال، لأنه قيل: إنا ما رأينا رءوس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شيء بها؟ وأجابوا عنه من وجوه: الأول: وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة والسيرة، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين في القبح وتشويه الخلقة، والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل، كأنه قيل: إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال هو رءوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها في قبح النظر وتشويه الصورة، والذي يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئًا شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة، قالوا إنه شيطان، وإذا رأوا شيئًا حسن الصورة والسيرة، قالوا إنه ملك، وقال امرؤ القيس (١):

أَتَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

والقول الثاني: أن الشياطين حيات لها رءوس وأعراف، وهي من أقبح الحيات، وبها يضرب المثل في القبح، والعرب إذا رأت منظرًا قبيحًا قالت: كأنه شيطان الحماطة، والحماطة شجرة معينة، والقول الثالث: أن رءوس الشياطين، نبت معروف قبيح الرأس، والوجه الأول هو الجواب الحق، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار ﴿لَأٰكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ واعلم أن إقدامهم على ذلك الأكل يحتمل وجهين: الأول: أنهم أكلوا منها لشدة الجوع، فإن قيل: وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها؟ قلنا: إن الواقع في الضرر العظيم ربما استروح منه إلى ما يقاربه في الضرر، فإذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا في إزالة ذلك الجوع إلى تناول هذا الشيء وإن كان بالصفة التي ذكرتموها، الوجه الثاني: أن يقال: الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة تكميلاً لعذابهم.

واعلم أنهم إذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون إلى الشراب، فعند هذا وصف الله

(١) تقدم ترجمة امرئ القيس.

شرابهم، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٧] قال الزجاج: الشوب اسم عام في كل ما خلط بغيره، والحميم الماء الحار المتناهي في الحرارة، والمعنى أنه إذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم، فيحنئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما.

واعلم أن الله وصف شرابهم في القرآن بأشياء منها كونه غساقًا، ومنها قوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] ومنها ما ذكره في هذه الآية، فإن قيل: ما الفائدة في كلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾؟ قلنا: فيه وجهان الأول: أنهم يملئون بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم، ثم إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب، والثاني: أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه، فكان المقصود من كلمة (ثم) بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ قال مقاتل: أي بعد أكل الزقوم وشرب الحميم، وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم، وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يوردون إلى الجحيم، فهذا قول مقاتل، واحتج على صحته بقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤] وذلك يدل على صحة ما ذكرناه، ثم إنه تعالى لما وصف عذابهم في أكلهم وشربهم قال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال الفراء: الإهراع الإسراع يقال هرع وأهرع إذا استحث، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعًا في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم، والمقصود من الآية أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين وترك اتباع الدليل، ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد لكفى.

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له في كفرهم وتكذيبهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ فبين تعالى أن إرساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف، ويجب أن يكون له ﷺ أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا، ويستمر على الدعاء إلى الله وإن تمردوا، فليس عليه إلا البلاغ.

ثم قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ وهذا وإن كان في الظاهر خطابًا مع الرسول ﷺ، إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم، فإن لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن يكون زاجرًا لهم عن كفرهم. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فيه قولان أحدهما: أنه استثناء من قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والثاني: أنه استثناء من قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣] فإنها كانت أقبح العواقب وأفظعها إلا عاقبة عباد الله المخلصين، فإنها كانت مقرونة بالخير والراحة.

القصة الأولى قصة نوح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال من قبل: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١] وقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٣] أتبعه بشرح وقائع الأنبياء عليهم السلام فالقصة الأولى: حكاية حال نوح عليه السلام وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾.

فيه مباحث:

الأول: أن اللام في قوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف، أي فلنعم المجيبون نحن.

البحث الثاني: أنه تعالى ذكر أن نوحًا نادى ولم يذكر أن ذلك النداء في أي الوقائع كان؟ لا جرم حصل فيه قولان الأول: وهو المشهور عند الجمهور أنه نادى الرب تعالى في أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة، والقول الثاني: أن نوحًا عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه إلى الدين الحق بالغوا في إيذائه وقصدوا قتله، ثم إنه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه، فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وإيذائه، واحتج هذا القائل على ضعف القول الأول بأنه عليه السلام إنما دعا عليهم لأجل أن ينجيه الله تعالى وأهله، وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن في دعائه، وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة.

ثم إنه تعالى لما حكى عن نوح أنه ناداه قال بعده: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ وهذه اللفظة تدل على أن تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة، وبيانه من وجوه الأول: أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم، والثاني: أنه أعاد صيغة الجمع في قوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ وذلك أيضًا يدل على تعظيم تلك النعمة، لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة، والثالث: أن الفاء في قوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضي كونه معللاً به، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة، ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال، بين أن الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه الأول: قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو على القول الأول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق، وعلى الثاني الكرب الحاصل من أذى قومه، والثاني: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى

ذريته فقد فنوا، قال ابن عباس: ذريته بنوه الثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك.

النعمة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ يعني يذكرون هذه الكلمة، فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾؟ قلنا: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعًا أي لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم، ثم إنه تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ والمعنى أنا إنما خصصنا نوحًا عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسنًا، ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا لله مؤمنًا، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته.

القصة الثانية قصة إبراهيم عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٧ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: الضمير في قوله: ﴿مِن شِيعَتِهِ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: وهو الأظهر أنه عائد إلى نوح عليه السلام أي من شيعة نوح أي من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه لإبراهيم، قالوا: وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح، وروى صاحب (الكشاف) أنه كان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة، الثاني: قال الكلبي: المراد من شيعة محمد لإبراهيم بمعنى أنه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وإن كان سابقًا له والأول أظهر، لأنه تقدم ذكر نوح عليه السلام، ولم يتقدم ذكر النبي ﷺ فعود الضمير إلى نوح أولى.

المسألة الثانية: العامل في (إذ) ما دل عليه قوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ﴾ من معنى المشايعة يعني وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم.

أما قوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قولان: الأول: قال مقاتل والكلبي: يعني خالص

من الشرك، والمعنى أنه سلم من الشرك فلم يشرك بالله، والثاني: قال الأصوليون: المراد أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصي، فيدخل فيه كونه سليمًا عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد. عن ابن عباس أنه كان يحب للناس ما يحب لنفسه، وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحدًا، واحتج الذاهبون إلى القول الأول بأنه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة إنكاره على قومه الشرك بالله، وهو قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ واحتج الذاهبون إلى القول الثاني بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] مع أنه تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] فإن قيل: ما معنى المجيء بقلبه ربه؟ قلنا: معناه أنه أخلص لله قلبه، فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب، ورأيت في التوراة أن الله قال لموسى: أجب إلهك بكل قلبك.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريقة وتقبيحها.

ثم قال: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه إفكًا، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يقرر عندهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم، ويجوز أن يكون إفكًا مفعولاً به يعني أتريدون إفكًا، ثم فسر الإفك بقوله: ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ﴾ على أنها إفك في أنفسها، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين.

ثم قال: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفيه وجهان أحدهما: أتظنون برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له في المعبودية، وثانيها: أتظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له في المعبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شيء.

ثم قال: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ عن ابن عباس أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خاليًا في بيت الأصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان الأول: أن النظر في علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم؟ والثاني: أنه عليه السلام ما كان سقيمًا فلما قال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ كان ذلك كذبًا، واعلم أن العلماء ذكروا في الجواب عنهما وجوهًا كثيرة الأول: أنه نظر نظرة في النجوم في أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى في بعض ساعات الليل والنهار، فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة وقال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ فجعله عذرًا في تخلفه عن العيد الذي لهم وكان

صادقًا فيما قال، لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم، الوجه الثاني: في الجواب أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور، فلذلك نظر إبراهيم في النجوم أي في علوم النجوم وفي معانيه لا أنه نظر بعينه إليها، وهو كما يقال فلان نظر في الفقه وفي النحو وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ سكنوا إلى قوله.

أما قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فمعناه سأسقم كقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] أي ستموت، الوجه الثالث: أن قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ هو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هي قديمة أو محدثة، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني سقيم القلب غير عارف بربي وكان ذلك قبل البلوغ، الوجه الرابع: قال ابن زيد: كان له نجم مخصوص، وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ولأجل هذا الاستقراء لما رآه في ذلك الوقت طالعًا على تلك الصفة المخصوصة قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي هذا السقم واقع لا محالة، الوجه الخامس: أن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك، قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣] الوجه السادس: في الجواب أنا لا نسلم أن النظر في علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام، لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص، فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل. وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة، إما في بدنه وإما في قلبه وكل ذلك سقم. الوجه السابع: قال بعضهم ذلك القول عن إبراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثًا عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا كَذَبَ إِبْرَاهِيمُ إِلاَّ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ»(١) قلت لبعضهم: هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز، فقال ذلك الرجل: فكيف يحكم بكذب الرواة العدول؟ فقلت: لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوي أولى، ثم نقول: لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذبًا خبرًا شبيهًا بالكذب؟ والوجه الثامن: أن المراد من قوله ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ أي نظر في نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم، فإن الأشياء التي تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أي متفرقة ومنه نجوم الكتابة، والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كي يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذرًا أحسن من قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ والمراد أنه لا بد من أن أصير سقيمًا كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر: إنك مسافر. واعلم أن إبراهيم

(١) تقدم تخريجه.

عليه السلام لما قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه في أن لا يخرج اليوم فكان ذلك مراده ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ يقال: راغ إليه إذا مال إليه في السر على سبيل الخفية، ومنه روغان الثعلب. وقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الطعام الذي كان بين أيديهم، وإنما قال ذلك استهزاء بها، وكذا قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ فأقبل عليهم مستخفيًا كأنه قال فضربهم ضربًا لأن راغ عليهم في معنى ضربهم أو فراغ عليهم ضربًا بمعنى ضاربًا. وفي قوله: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ قولان الأول: معناه بالقوة والشدة لأن اليمين أقوى الجارحتين، والثاني: أنه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف، وهو قوله تعالى عنه: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧] ثم قال: ﴿فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة (يزفون) بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان، قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف، ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف، قال الزجاج: يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها، وقرأ حمزة (يُزِفُّونَ) أي يحملون غيرهم على الزفيف، قال الأصمعي: يقال أزففت الإبل إذا حملتها على أن تزف، قال وهو سرعة الخطوة ومقاربة المشي والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الإسراع في المشي، فإن قيل: مقتضى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا إليه وأخذوه، وقال في سورة أخرى في عين هذه القصة ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩، ٦٠] وهذا يقتضي أنهم في أول الأمر ما عرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض؟ قلنا: لا يبعد أن يقال إن جماعة عرفوه فعمدوا إليه مسرعين. والأكثرون ما عرفوه فتعرفوا أن ذلك الكاسر من هو، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن القوم لما عاتبوا إبراهيم على كسر الأصنام فهو أيضًا ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير إلى عبادتها فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ووجه الاستدلال ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ما كان معبودًا للإنسان ألبتة، فإذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه، فلو صار معبودًا عند ذلك لكان معناه أن الشيء الذي ما كان معبودًا لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبودًا عند ذلك، وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل.

المسألة الثانية: احتج جمهور الأصحاب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال النحويون: اتفقوا على أن لفظ (ما) مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله:

﴿وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ معناه وعملكم، وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم، فإن قيل: هذه الآية حجة عليكم من وجوه الأول: أنه تعالى قال: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ أضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ولو كان ذلك واقعًا بتخليق الله لاستحال كونه فعلاً للعبد الثاني: أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخًا لهم على عبادة الأصنام، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق لتلك الأصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق، فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الأصنام لا جرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم فقال: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لا نسلم أنها حجة لكم، قوله: لفظة (ما) مع ما بعدها في تقدير المصدر، قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والأخفش اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال أعجبني ما قمت أي قيامك فجوزه سيبويه ومنعه الأخفش وزعم أن هذا لا يجوز إلا في الفعل المتعدي وذلك يدل على أن (ما) مع ما بعدها في تقدير المفعول عند الأخفش، سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر، لكنه أيضًا قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه الأول: قوله: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ والمراد بقوله: ﴿مَا تَنۡحِتُونَ﴾ المنحوت لا النحت لأنهم ما عبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله: ﴿وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر، والثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] وليس المراد أنها تلقف نفس الإفك بل أراد العصي والحبال التي هي متعلقات ذلك الإفك فكذا، ههنا الثالث: أن العرب تسمي محل العمل عملاً يقال في الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة (ما) مع بعدها كما تجيء بمعنى المصدر فقد تجيء أيضًا بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لأن المقصود في هذه الآية تزييف مذهبهم في عبادة الأصنام لا بيان أنهم لا يوجدون أفعال أنفسهم، لأن الذي جرى ذكره في أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة الأصنام لا خلق الأعمال، واعلم أن هذه السؤالات قوية وفي دلائلنا كثيرة، فالأولى ترك الاستدلال بهذه الآية، والله أعلم.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء فقالوا: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا﴾ واعلم أن كيفية ذلك البناء لا يدل عليها لفظ القرآن، قال ابن عباس: بنو حائطًا من حجر طوله في السماء ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرون ذراعًا وملئوه نارًا فطرحوه فيها، وذلك هو قوله تعالى: ﴿فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾ وهي النار العظيمة، قال الزجاج: كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم، والألف واللام في الجحيم يدل على النهاية والمعنى في جحيمه، أي في جحيم ذلك البنيان، ثم قال تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ والمعنى أن في وقت المحاجة حصلت الغلبة له، وعندما ألقوه في النار

صرف الله عنه ضرر النار، فصار هو الغالب عليهم. واعلم أنه لما انقضت هذه الواقعة قال إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: دلت هذه الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته، وذلك لأن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه، مع أن الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة، لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار، فلأن يجب ذلك على الغير كان أولى.

المسألة الثانية: في قوله ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ قولان الأول: المراد منه مفارقة تلك الديار، والمعنى إني ذاهب إلى مواضع دين ربي، والقول الثاني: قال الكلبي: ذاهب بعبادتي إلى ربي، فعلى القول الأول المراد بالذهاب إلى الرب هو الهجرة من الديار، وبه اقتدى موسى حيث قال: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وعلى القول الثاني المراد رعاية أحوال القلوب، وهو أن لا يأتي بشيء من الأعمال إلا لله تعالى، كما قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] قيل إن القول الأول أولى، لأن المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته إلى أرض الشأم، وأيضًا يبعد حمله على الهداية في الدين، لأنه كان على الدين في ذلك الوقت إلا أن يحمل ذلك على الثبات عليه، أو يحمل ذلك على الاهتداء إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في أمر الدين.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يدل على أن الهداية لا تحصل إلا من الله تعالى، كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الأدلة وإزاحة الأعذار، لأن كل ذلك قد حصل في الزمان الماضي، وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل، فوجب حمل الهداية في هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة في قلبه، فإن قيل: إبراهيم عليه السلام جزم في هذه الآية بأنه تعالى سيهديه، وأن موسى عليه السلام لم يجزم به، بل قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] فما الفرق؟ قلنا: العبد إذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود، وإذا تجلى له مقامات كونه غنيًّا عن العالمين، فحينئذٍ يستحقر نفسه فلا يجزم، بل لا يظهر إلا الرجاء والطمع.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يدل على فساد تمسك المشبهة بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] لأن كلمة إلى موجودة في قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ مع أنه لم يلزم أن يكون الإله موجودًا في ذلك المكان، فكذلك ههنا.

واعلم أنه صلوات الله عليه لما هاجر إلى الأرض المقدسة أراد الولد فقال: ﴿هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي هب لي بعض الصالحين، يريد الولد، لأن لفظ الهبة غلب في الولد، وإن كان قد

جاء في الأخ في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنبياء: ٧٢] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم حين هنأه بولده: على أبي الأملاك شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الوهاب وبموهوب ووهب.

واعلم أن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ الحلم، وأنه يكون حليمًا، وأي حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ثم استسلم لذلك، وأيضًا فإن إبراهيم عليه السلام كان موصوفًا بالحلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] فبين أن ولده موصوف بالحلم، وأنه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة، واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣] وطلبه للولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته في الدين والدنيا، فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

واعلم أن سبحانه وتعالى لما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلغه، فقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ ومعناه فلما أدرك وبلغ الحد الذي يقدر فيه على السعي، وقوله: ﴿مَعَهُ﴾ في موضع الحال والتقدير كائنًا معه، والفائدة في اعتبار هذا المعنى أن الأب أرفق الناس بالولد، وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته، قال بعضهم: كان في ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة، والمقصود من هذا الكلام أن الله تعالى لما وعده في الآية الأولى بكون ذلك الغلام حليمًا، بين في هذه الآية ما يدل على كمال حلمه، وذلك لأنه كان به من كمال الحلم وفسحة الصدر ما قواه على احتمال تلك البلية العظيمة، والإتيان بذلك الجواب الحسن.

أما قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير هذه اللفظة وجهان الأول: قال السدي: كان إبراهيم حين بشر بإسحاق قبل أن يولد له قال: هو إذن لله ذبيح، فقيل لإبراهيم: قد نذرت نذرًا فف بنذرك فلما أصبح ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

وروي من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية في منامه، كأن قائلًا يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله فسمي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر وهذا هو قول أهل التفسير وهو يدل على أنه رأى في المنام ما يوجب أن يذبح ابنه في اليقظة، وعلى هذا فتقدير اللفظ: إني أرى في المنام ما يوجب أن أذبحك، والقول الثاني: أنه رأى في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء عليهم السلام من باب الوحي، وعلى هذا القول فالمرئي في المنام ليس إلا أنه يذبح، فإن قيل إما أن يقال إنه ثبت بالدليل عند الأنبياء عليهم السلام أن كل ما رآه في المنام فهو حق حجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم، فإن كان الأول فلم راجع الولد في هذه الواقعة، بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور، وأن لا يراجع الولد فيه، وأن لا يقول له: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ وأن لا يوقف العمل على أن يقول له الولد: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾؟، وأيضًا فقد قلتم إنه بقي في اليوم الأول متفكرًا، ولو ثبت عنده بالدليل أن كل ما رآه في النوم فهو حق لم يكن إلى هذا التروي والتفكر حاجة، وإن كان الثاني، وهو أنه لم يثبت بالدليل عندهم أن ما يرونه في المنام حق، فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة؟ والجواب: لا يبعد أن يقال إنه كان عند الرؤيا مترددًا فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحي الصريح، والله أعلم.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن هذا الذبيح من هو؟ فقيل إنه إسحاق وهذ قول عمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل رضي الله عنهم، وقيل إنه إسماعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي، واحتج القائلون بأنه إسماعيل بوجوه:

الأول: أن رسول الله ﷺ قال: «**أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ**»(١) وقال له أعرابي: «**يَا ابْنَ الذَّبِيحَيْنِ فَتَبَسَّمَ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا حَفَرَ بِئْرَ زَمْزَمَ نَذَرَ لِلَّهِ لَئِنْ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهَا لَيَذْبَحَنَّ أَحَدَ وَلَدِهِ، فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ فَمَنَعَهُ أَخْوَالُهُ وَقَالُوا لَهُ افْدِ ابْنَكَ بِمِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ، فَفَدَاهُ بِمِائَةٍ مِنَ**

(١) أورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٩٩)، حديث رقم (٦٠٦).
وقال: كذا في الكشاف قال الزيلعي وابن حجر في تخريج أحاديثه لم نجده بهذا اللفظ.

الْإِبِلِ، وَالذَّبِيحُ الثَّانِي إِسْمَاعِيلُ» (١).

الحجة الثانية: نقل عن الأصمعي أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عقلك، ومتى كان إسحاق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة؟.

الحجة الثالثة: أن الله تعالى وصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] وهو صبره على الذبح، ووصفه أيضًا بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به.

الحجة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فنقول لو كان الذبيح إسحاق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب، منه أو بعد ذلك فالأول: باطل لأنه تعالى لما بشرها بإسحاق، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه، وإلا حصل الخلف في قوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ والثاني: باطل لأن قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ يدل على أن ذلك الابن لما قدر على السعي ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه، وذلك ينافي وقوع هذه القصة في زمان آخر، فثبت أنه لا يجوز أن يكون الذبيح هو إسحاق.

الحجة الخامسة: حكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] ثم طلب من الله تعالى ولدًا يستأنس به في غربته فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد، لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد، لأن طلب الحاصل محال وقوله: ﴿هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لا يفيد إلا طلب الولد الواحد، وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكأن قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لا يفيد إلا طلب الولد الواحد فثبت أن هذا السؤال لا يحسن إلا عند عدم كل الأولاد فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول، وأجمع الناس على أن إسماعيل متقدم في الوجود على إسحاق، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء هو إسماعيل، ثم إن الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل.

الحجة السادسة: الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة، فكان الذبيح بمكة. ولو كان الذبيح إسحق كان الذبح بالشام.

واحتج من قال: إن ذلك الذبيح هو إسحاق بوجهين: الوجه الأول: أن أول الآية وآخرها

---

(١) حسن: أخرجه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١٧/ ٣٢١)، حديث رقم (٥٤٨١)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦٠٤)، حديث رقم (٤٠٣٦)، والطبري في (تفسيره) (٢١/ ٨٥)، جميعًا من طريق عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد بن محمد العتبى من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه قال حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال علي الخبير سقطتم... فذكره. وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٩٩). وقال: والحديث حسن بل صححه الحاكم والذهبي لتقوية بتعدد طرقه. انتهى.

يدل على ذلك، أما أولها فإنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام ثم قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحاق، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحاق، وأما آخر الآية فهو أيضًا يدل على ذلك لأنه تعالى لما تمم قصة الذبيح قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ومعناه أنه بشره بكونه نبيًّا من الصالحين، وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى إنما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد في قصة الذبيح، فثبت بما ذكرنا أن أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام.

الحجة الثانية: على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف عليه السلام من يعقوب إسرائيل نبي الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله. فهذا جملة الكلام في هذا الباب، وكان الزجاج يقول: الله أعلم أيهما الذبيح، والله أعلم. واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم في موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو إسماعيل قالوا: كان الذبح بمنى، والذين قالوا: إنه إسحاق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس، والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلف الناس في أن إبراهيم عليه السلام كان مأمورًا بهذا بما رأى، وهذا الاختلاف مفرع على مسألة من مسائل أصول الفقه، وهي أنه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا: إنه يجوز، وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية: إنه لا يجوز، فعلى القول الأول أنه سبحانه وتعالى أمره بالذبح، ثم إنه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته، وعلى القول الثاني أنه تعالى ما أمره بالذبح، وإنما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسألة شريفة من مسائل باب النسخ، واحتج أصحابنا على أنه يجوز نسخ الأمر قبل مجيء مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم إنه تعالى نسخه عنه قبل إقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب إنما قلنا إنه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين الأول: أنه عليه السلام قال لولده: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فقال الولد: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وهذا يدل على أنه عليه السلام كان مأمورًا بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح، ثم إنه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها في الوجود، فحينئذٍ يكون قد أمر بشيء وقد أتى به، وفي هذا الموضع لا يحتاج إلى الفداء، لكنه احتاج إلى الفداء بدليل قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فدل هذا على أنه أتى بالمأمور به، وقد ثبت أنه أتى بكل مقدمات الذبح، وهذا يدل على أنه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح، وإذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل إثباته وذلك يدل على المقصود، وقالت المعتزلة: لا نسلم أن الله أمره بذبح الولد بل نقول إنه تعالى أمره بمقدمات الذبح، ويدل عليه وجوه الأول: أنه ما أتى بالذبح وإنما أتى بمقدمات الذبح، ثم إن الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل

قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ وذلك يدل على أنه تعالى إنما أمره في المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن إضجاعه ووضع السكين على حلقه، والعزم الصحيح على الإتيان بذلك الفعل إن ورد، الأمر الثاني: الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل إبراهيم عليه السلام قطع الحلقوم إلا أنه كلما قطع جزءًا أعاد الله التأليف إليه، فلهذا السبب لم يحصل الموت، والوجه الثالث: وهو الذي عليه تعويل القوم أنه تعالى لو أمر شخصًا معينًا بإيقاع فعل معين في وقت معين، فهذا يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت حسن، فإذا أنهاه عنه فذلك النهي يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت قبيح، فلو حصل هذا النهي عقيب ذلك الأمر لزم أحد أمرين، لأنه تعالى إن كان عالمًا بحال ذلك الفعل لزم أن يقال إنه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن، وإن لم يكن عالمًا به لزم جهل الله تعالى وإنه محال، فهذا تمام الكلام في هذا الباب. والجواب عن الأول أنا قد دللنا على أنه تعالى إنما أمره بالذبح.

أما قوله تعالى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ فهذا يدل على أنه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على أنه أتى بكل ما رآه في ذلك المنام. وأما قوله ثانيًا كلما قطع إبراهيم عليه السلام جزءًا أعاد الله تعالى التأليف إليه، فنقول هذا باطل لأن إبراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء وحيث احتاج إليه علمنا أنه لم يأت بما أمر به. وأما قوله ثالثًا إنه يلزم، إما الأمر بالقبيح وإما الجهل، فنقول هذا بناءً على أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون حسنًا في ذاته ولا ينهى إلا عما يكون قبيحًا في ذاته، وذلك بناءً على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل، وأيضًا فهب أنا نسلم ذلك إلا أنا نقول لم لا يجوز أن يقال إن الأمر بالشيء تارة يحسن لكون المأمور به حسنًا وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد صحة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به حسنًا ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده، فإنه يقول له: إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلاني، ويكون ذلك الفعل من الأفعال الشاقة، ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل، بل أن يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة، ثم إن السيد إذا علم منه أنه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل الألم عنه ذلك التكليف، فكذا ههنا، فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه، والدليل عليه أنه أمر بالذبح وما أراد وقوعه، أما أنه أمر بالذبح فلما تقدم في المسألة الأولى. وأما أنه ما أراد وقوعه فلأن عندنا أن كل ما أراد الله وقوعه فإنه يقع، وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا أنه تعالى ما أراد وقوعه، وأما عند المعتزلة فلأن الله تعالى نهى عن ذلك الذبح، والنهي عن الشيء يدل على أن الناهي لا يريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح، وثبت أنه تعالى ما أراده، وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة، وتمام الكلام في أن الله تعالى أمر

بالذبح ما تقدم في المسألة المتقدمة، والله أعلم.

المسألة الخامسة: في بيان الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة وبيانه من وجوه الأول: أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح، فورد أولاً في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة، فحينئذٍ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئًا فشيئًا، الثاني: أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقًا، قال الله تعالى في حق محمد ﷺ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧] وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين، لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق، كان ذلك هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الأحوال، والله أعلم.

ثم نقول: مقامات الأنبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها ما يقع على وفق الرؤية كما في قوله تعالى في حق رسولنا ﷺ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧] ثم وقع ذلك الشيء بعينه، ومنها ما يقع على الضد كما في حق إبراهيم عليه السلام فإنه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة، ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما في رؤيا يوسف عليه السلام، فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة.

المسألة السادسة: قرأ حمزة والكسائي: (تُرِي) بضم التاء وكسر الراء، أي: ما ترى من نفسك من الصبر والتسليم؟ وقيل: ما تشير، والباقون بفتح التاء، ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل.

المسألة السابعة: الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا، ثم إنه تعالى حكى عن ولد إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ومعناه افعل ما تؤمر به، فحذف الجار كما حذف من قوله:

أَمَرْتُكَ الخير فافعل ما أمرت به(١)

ثم قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وإنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن، وأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد، وقد قرئ بهن جميعًا إذ انقاد له وخضع، وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له، ومعناه سلم من أن ينازع فيه، وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة، وحقيقة معناها أخلص نفسه

(١) البيت للشاعر عمرو الزبيدي وقد تقدمت ترجمته.

لله وجعلها سالمة له خالصة، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة في ﴿أَسْلَمَا﴾ أسلم هذا ابنه وهذا نفسه.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض وللوجه جبينان، والجبهة بينهما، قال ابن الأعرابي: التليل والمتلول المصروع والمتل الذي يتل به أي يصرع، فالمعنى أنه صرعه على جبينه، وقال مقاتل: كبه على جبهته، وهذا خطأ لأن الجبين غير الجبهة.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ وفيه قولان الأول: أن هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة، والقول الثاني: أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير: فلما فعل ذلك وناداه الله أن: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب، قالوا: وحذف الجواب ليس بغريب في القرآن والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفًا كان أعظم وأفخم، قال المفسرون: لما أضجعه للذبح نودي من الجبل: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ قال المحققون: السبب في هذا التكليف كمال طاعة إبراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد، لا جرم قال: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى، وليس يتصل بما تقدم من الكلام، والمعنى أن إبراهيم وولده كانا محسنين في هذه الطاعة، فكما جزينا هذين المحسنين فكذلك نجزي كل المحسنين.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضًا ما يذبح وهو المراد في هذه الآية، وههنا مباحث تتعلق بالحكايات:

فالأول: حكي في قصة الذبيح أن إبراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب، فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به، فقال: يا أبت اشدد رباطي فيَّ كيلا أضطرب، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، واستحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون فإن الموت شديد، واقرأ على أمي سلامي وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها، فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال: كبني على وجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة وقد تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى: ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

البحث الثاني: اختلفوا في ذلك الكبش فقيل إنه الكبش الذي تقرب به هابيل بن آدم إلى الله تعالى فقبله، وكان في الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به إسماعيل، وقال آخرون أرسل الله كبشًا من الجنة قد رعى أربعين خريفًا، وقال السدي: نودي إبراهيم فالتفت فإذا هو بكبش أملح انحط من الجبل، فقام عنه إبراهيم فأخذه فذبحه، وخلى عن ابنه، ثم اعتنق ابنه وقال: يا بني اليوم وهبت لي، وأما قوله: ﴿عَظِيمٍ﴾ فقيل سمي عظيمًا لعظمه وسمنه، وقال سعيد بن جبير: حق له أن يكون عظيمًا وقد رعى في الجنة أربعين خريفًا، وقيل سمي عظيمًا لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد إبراهيم، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائد إلى إبراهيم، ثم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة أي بشرناه بوجود إسحاق مقدرة نبوته، ولمن يقول إن الذبيح هو إسماعيل أن يحتج بهذه الآية، وذلك لأن قوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه بإسحاق حال كون إسحق نبيًّا لأن البشارة به متقدمة على صيرورته نبيًّا، فوجب أن يكون المعنى وبشرناه بإسحاق حال ما قدرناه نبيًّا، وحال ما حكمنا عليه فصبر، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذٍ كانت هذه البشارة بشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة الذبيح، فوجب أن يكون الذبيح غير إسحاق، أقصى ما في الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة عن قصة الذبيح إلا أنها كانت متقدمة عليها في الوقوع والوجود، إلا أنا نقول الأصل رعاية الترتيب وعدم التغيير في النظم، والله أعلم بالصواب.

ثم قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ وفي تفسير هذه البركة وجهان الأول: أنه تعالى أخرج جميع أنبياء بني إسرائيل من صلب إسحاق، والثاني: أنه أبقى الثناء الحسن على إبراهيم وإسحاق إلى يوم القيامة، لأن البركة عبارة عن الدوام والثبات، ثم قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ وفي ذلك تنبيه على أنه لا يلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن، لئلا تصير هذه الشبهة سببًا لمفاخرة اليهود، ودخل تحت قوله: ﴿مُحْسِنٌ﴾ الأنبياء والمؤمنين وتحت قوله: ﴿وَظَالِمٌ﴾ الكافر والفاسق، والله أعلم.

قصة موسى وهارون عليهما السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة، واعلم أن وجوه الإنعام

وإن كانت كثيرة إلا أنها محصورة في نوعين إيصال المنافع إليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين هاهنا، فقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إشارة إلى إيصال المنافع إليهما، وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إشارة إلى دفع المضار عنهما.

أما القسم الأول: وهو إيصال المنافع، فلا شك أن المنافع على قسمين: منافع الدنيا ومنافع الدين، أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما، وأما منافع الدين فالعلم والطاعة، وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة، ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل في سائر السور، لا جرم اكتفى ههنا بهذا الرمز.

وأما القسم الثاني: وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وفيه قولان: قيل إنه الغرق، أغرق الله فرعون وقومه، ونجى الله بني إسرائيل، وقيل المراد أنه تعالى نجاهم من إيذاء فرعون حيث كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه منَّ على موسى وهارون، فصل أقسام تلك المنة. والهاء في قوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ أي نصرنا موسى وهارون وقومهما: ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ في كل الأحوال بظهور الحجة وفي آخر الأمر بالدولة والرفعة، وثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ والمراد منه التوراة، وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التي يحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا، كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي دللناهما على طريق الحق عقلاً وسمعًا، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة، وتشبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح، ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وفيه قولان الأول: أن المراد ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهم أمة محمد ﷺ قولهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، والثاني: أن المراد ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهم أمة محمد ﷺ الثناء الحسن والذكر الجميل، وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هو كلام الله تعالى، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الأربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقد سبق تفسيره، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمقصود التنبيه على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهارون بكونهما من المؤمنين، والله أعلم.

قصة إلياس عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ

لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ
﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر: (وإن الياس) بغير همزة على وصل الألف والباقون بالهمزة وقطع الألف، قال أبو بكر بن مهران: من ذكر عند الوصل الألف فقد أخطأ، وكان أهل الشام ينكرونه ولا يعرفونه، قال الواحدي: وله وجهان أحدهما: أنه حذف الهمزة من إلياس حذفًا، كما حذفها ابن كثير من قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥] وكقول الشاعر:

وَيلُمِّهَا فِي هَوَاءِ الْجَوِّ طَالِبَةً

والآخر أنه جعل الهمزة التي تصحب اللام للتعريف كقوله: ﴿وَالْيَسَعَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

المسألة الثانية: في إلياس قولان: يروى عن ابن مسعود أنه قرأ (وإن إدريس)، وقال: إن إلياس هو إدريس، وهذا قول عكرمة، وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى عليهم السلام، ثم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ والتقدير: اذكر يا محمد لقومك: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون الله، وقال الكلبي: ألا تخافون عبادة غير الله. واعلم أنه لما خوفهم أولاً على سبيل الإجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

وفيه أبحاث:

الأول: في (بعل) قولان أحدهما: أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل، وقيل كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعًا وله أربعة أوجه، وفتنوا به وعظموه، حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء، وكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشام، وبه سميت مدينتهم بعلبك. واعلم أن قولهم بعل اسم لصنم من أصنامهم لا بأس به، وأما قولهم: إن الشيطان كان يدخل في جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة. فهذا مشكل لأنا إن جوزنا هذا كان ذلك قادحًا في كثير من المعجزات، لأنه نقل في معجزات النبي ﷺ كَلَامُ الذِّئْبِ مَعَهُ وَكَلَامُ الْجَمَلِ مَعَهُ وَحَنِينُ الْجِذْعِ[1]، ولو جوزنا أن يدخل الشيطان في جوف جسم ويتكلم، فحينئذٍ يكون هذا الاحتمال

---

(١) هذه من معجزات النبي ﷺ وقد جاءت ضمن أحاديث صحيحة وقد قمت بجمع كتاب سميته الآيات المبهرات فيما صح عن النبي من المعجزات طبعة دار الحديث بالقاهرة جمعت فيها حوالي ستة وثلاثين معجزة والحمد لله رب العالمين.

قائمًا في الذئب والجمل والجذع، وذلك يقدح في كون هذه الأشياء معجزات، القول الثاني: أن البعل هو الرب بلغة اليمن، يقال من بعل هذه الدار، أي من ربها، وسمي الزوج بعلاً لهذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] فعلى هذا التقدير المعنى، أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله.

البحث الثاني: المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقًا لأفعال نفسه، فقالوا: لو لم يكن غير الله خالقًا لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين، والكلام فيه قد تقدم في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

البحث الثالث: كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول: لو قيل: أتدعون بعلاً وتدعون أحسن الخالقين. أوهم أنه أحسن، لأنه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التحسين وجوابه: أن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف، بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ. واعلم أنه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء، فقال: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن حدوث الأشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار، وكيف يدل على وحدته وبراءته عن الأضداد والأنداد، فلا فائدة في الإعادة.

البحث الثاني: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ﴾ كلها بالنصب على البدل من قوله: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ والباقون بالرفع على الاستئناف، والأول اختيار أبي حاتم وأبي عبيد، ونقل صاحب (الكشاف) أن حمزة إذا وصل نصب، وإذا وقف رفع، ولما حكى الله عنه أنه قرر مع قومه التوحيد قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي لمحضرون النار غدًا، وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ وذلك لأن قومه ما كذبوه بكليتهم، بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني الذين أتوا بالتوحيد الخالص فإنهم لا يحضرون ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب (آلِ يَاسِينَ) على إضافة لفظ آل إلى لفظ ياسين والباقون بكسر الألف وجزم اللام موصولة بياسين، أما القراءة الأولى ففيها وجوه الأول: وهو الأقرب أنا ذكرنا أنه إلياس بن ياسين فكان إلياس آل ياسين، الثاني: (آلُ يَاسِينَ) آل محمد ﷺ، والثالث: أن ياسين اسم القرآن، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذي هو ياسين، والوجه هو الأول لأنه أليق بسياق الكلام، وأما القراءة الثانية ففيها وجوه الأول: قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكالين، فكذا ههنا إلياس

وإلياسين، والثاني: قال الفراء: هو جمع وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين، كقولهم المهلبون والسعدون قال:

أَنَا ابْنُ سَعْدٍ أَكْرَمُ السَّعْدِينَا(١)

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾ وقد سبق تفسيره، والله أعلم.

قصة لوط عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾

هذا هو القصة الخامسة، وإنه تعالى إنما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركو العرب، فإن الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا، وقد تقدم شرح هذه القصة، وقد نبههم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾ وذلك لأن القوم كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر في أكثر الأمر إنما يمشي في الليل وفي أول النهار، فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أليس فيكم عقول تعتبرون بها، والله أعلم.

قصة يونس عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾

واعلم أن هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة في هذه السورة، وإنما صارت هذه القصة خاتمة للقصص، لأجل أنه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق إلى الفلك وقع في تلك الشدائد فيصير هذا سببًا لتصبر النبي ﷺ على أذى قومه.

أما قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قرئ يونس بضم النون وكسرها.

المسألة الثانية: دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة إنما وقعت ليونس عليه السلام بعد أن

(١) هذا البيت للشاعر رؤبة بن العجاج وقد تقدمت ترجمته.

صار رسولاً، لأن قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾ معناه أنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك، ويمكن أن يقال: إنه جاء في كثير من الروايات أنه أرسله ملك زمانه إلى أولئك القوم ليدعوهم إلى الله، ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى، والحاصل أن قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لا يدل على أنه كان في ذلك الوقت مرسلاً من عند الله تعالى، ويمكن أن يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف في معرض تعظيمه، ولن يفيد هذه الفائدة إلا إذا كان المراد من قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنه من المرسلين عند الله تعالى.

المسألة الثالثة: أبق من إباق العبد وهو هربه من سيده، ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم: إنه أبق من الله تعالى، وهذا بعيد لأن ذلك لا يقال إلا فيمن يتعمد مخالفة ربه، وذلك لا يجوز على الأنبياء، واختلفوا فيما لأجله صار مخطئًا، فقيل: لأنه أمر بالخروج إلى بني إسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضبًا لربه، وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحي أو بلسان نبي آخر، وقيل: إن ذنبه أنه ترك دعاء قومه، ولم يصبر عليهم. وهذا أيضًا بعيد لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه، والأقرب فيه وجهان الأول: أن ذنبه كان لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه فظن أنه نازل لا محالة، فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم، فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وإن أنزله، وهذا هو الأقرب لأنه إقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمدًا للمعصية، وإن كان الأولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ في ذلك الظن، لأجل أنه ظهر الإيمان منهم فمعنى قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾ ما ذكرناه، الوجه الثاني: أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة، فذلك هو قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾ وتمام الكلام في مشكلات هذه الآية ذكرناه في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقوله: ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ مفسر في سورة يونس والسفينة إذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال إنها مشحونة، ثم قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ المساهمة هي المقارعة، يقال: أسهم القوم إذا اقترعوا، قال المبرد: وإنما أخذ من السهام التي تجال للقرعة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين يقال: أدحض الله حجته فدحضت أي: أزالها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذي هو الزلق، يقال: دحضت رجل البعير إذا زلقت، وذكر ابن عباس في قصة يونس عليه السلام أنه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفًا وبقي سبطان ونصف، وكان الله تعالى أوحى إلى بني إسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم، فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين إلى نبي من أنبيائهم أن اذهب إلى ملك هؤلاء الأقوام وقل له حتى يبعث إلى بني إسرائيل نبيًّا، فاختار يونس عليه السلام لقوته وأمانته، قال يونس: آلله أمرك بهذا؟ قال: لا ولكن أمرت أن أبعث قويًّا أمينًا وأنت كذلك، فقال يونس:

وفي بني إسرائيل من هو أقوى مني فلم لا تبعثه، فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها، فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق، فقال الملاحون: إن فيكم عاصيًا وإلا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر، وقال التجار: قد جربنا مثل هذا فإذا رأيناه نقترع، فمن خرج سهمه نغرقه، فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس، فقال التجار: نحن أولى بالمعصية من نبي الله، ثم عادوا ثانيًا وثالثًا يقترعون فيخرج سهم يونس، فقال: يا هؤلاء أنا العاصي وتلفف في كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى إلى الحوت: «لاَ تَكْسِرْ مِنْهُ عَظْمًا وَلاَ تَقْطَعْ لَهُ وَصْلاً» ثم إن السمكة أخرجته إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء، وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد، ثم إن الأرض أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزنًا شديدًا، فقال: يا رب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت، فقيل له يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم! انطلق إليهم، والله أعلم بحقيقة الواقعة.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يقال: التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يقال: ألام إذا أتى بما يلام عليه، فالمليم المستحق للوم الآتي بما يلام عليه.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وفي تفسير كونه من المسبحين قولان الأول: أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه في آية أخرى أنه كان يقول في تلك الظلمات ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] الثاني: أنه لولا أنه كان قبل أن التقمه الحوت من المسبحين يعني المصلين وكان في أكثر الأوقات مواظبًا على ذكر الله وطاعته للبث في بطن ذلك الحوت، وكان بطنه قبرًا له إلى يوم البعث، قال بعضهم: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، فإن يونس عليه السلام كان عبدًا صالحًا ذاكرًا لله تعالى، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وإن فرعون كان عبدًا طاغيًا ناسيًا، فلما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] قال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١] واختلفوا في أنه كم لبث في بطن الحوت، ولفظ القرآن لا يدل عليه. قال الحسن: لم يلبث إلا قليلاً وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه، وعن مقاتل بن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة أيام وعن الضحاك عشرين يومًا وقيل شهرًا ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سَبَّحَ يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ فَسَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ تَسْبِيحَهُ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا نَسْمَعُ صَوْ

ضَعِيفًا بِأَرْضٍ غَرِيبَةٍ، فَقَالَ ذَاكَ عَبْدِي يُونُسُ عَصَانِي فَحَبَسْتُهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالُوا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ إِلَيْكَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلٌ صَالِحٌ؟ قَالَ: نعم، فَشَفَعُوا لَهُ فَأَمَرَ الْحُوتَ فَقَذَفَهُ فِي السَّاحِلِ»[1] فذاك هو قوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾.

وفيه مباحث:

الأول: العراء المكان الخالي قال أبو عبيدة: إنما قيل له العراء لأنه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ فأضاف ذلك النبذ إلى نفسه، والنبذ إنما حصل بفعل الحوت، وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ قيل المراد أنه بلي لحمه وصار ضعيفًا كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذي ليس عليه ريش، وقال مجاهد ﴿سَقِيمٌ﴾ أي سليب.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه في العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجز له، قال المبرد والزجاج: كل شجر لا يقوم على ساق وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين، نحو الدباء والحنظل والبطيخ، قال الزجاج: أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان إذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض فلذلك قيل له اليقطين، روى الفراء أنه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع، فقال: ومن جعل القرع من بين الشجر يقطينًا كل ورقة اتسعت وسترت فهي يقطين، قال الواحدي رحمه الله، والآية تقتضي شيئين لم يذكرهما المفسرون أحدهما: أن هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لأجله، والآخر: أن اليقطين كان معروشًا ليحصل له ظل، لأنه لو كان منبسطًا على الأرض لم يمكن أن يستظل به.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

وفيه مباحث:

الأول: يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قبل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الإرسال وإن ذكر بعد الالتقام، فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع، ويحتمل أن يكون المراد به الإرسال بعد الالتقام، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل إلى قوم آخرين سوى القوم الأول، ويجوز أن يكون أرسل إلى الأولين ثانيًا بشريعة فآمنوا بها.

البحث الثاني: ظاهر قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٦] وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وقوله

---

(١) إسناده ضعيف: رواه الطبراني في (تفسيره) (١٨/ ٥١٨) من طريق سلمة قال حدثني ابن إسحاق عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة زوج النبي ﷺ قال سمعت أبا هريرة يقول... فذكره. وفي إسناده انقطاع بين ابن إسحاق وعبد الله بن رافع.

تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والأصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون في تقديركم بمعنى أنهم إذا رآهم الرائي قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة، وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا.

ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ والمعنى أن أولئك الأقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله إلى حين، أي إلى الوقت الذي جعله الله أجلاً لكل واحد منهم.

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر أقاصيص الأنبياء عليهم السلام عاد إلى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها، ومن جملة أقوالهم الباطلة أنهم أثبتوا الأولاد لله سبحانه وتعالى، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور فقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ وهذا معطوف على قوله في أول السورة: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ [الصافات: ١١] وذلك لأنه تعالى أمر رسوله ﷺ باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض إلى أن أمره بأن يستفتيهم في أنهم لِمَ أثبتوا لله سبحانه البنات ولأنفسهم البنين، ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا: إن قريشًا وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا: الملائكة بنات الله، واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين أحدهما: إثبات البنات لله، وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه كيف يمكن إثباته للخالق، والثاني: إثبات أن الملائكة إناث، وهذا أيضًا باطل لأن طريق العلم إما الحس وإما الخبر وإما النظر، أما الحس: فمفقود ههنا لأنهم ما شهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾، وأما الخبر: فمفقود أيضًا لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقًا قطعًا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون، لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة، وهو المراد من قوله: ﴿أَلَآ

﴿إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ وأما النظر: فمفقود وبيانه من وجهين الأول: أن دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب، لأن الله تعالى أكمل الموجودات، والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخس وهو المراد من قوله ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعني إسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب عند العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل، فإن كان حكم العقل معتبرًا في هذا الباب كان قولكم باطلاً، والوجه الثاني: أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم، بل نطالبهم بإثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فإذا لم يجدوا ذلك الدليل فضده يظهر أنه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فثبت بما ذكرنا أن القول الذي ذهبوا إليه لم يدل على صحته، لا الحس ولا الخبر ولا النظر، فكان المصير إليه باطلاً قطعًا، واعلم أنه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على أن التقليد باطل، وأن الدين لا يصح إلا بالدليل.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من ﴿أَصْطَفَى﴾ ثم بحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع، كقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ [الزخرف: ١٦] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] وكما أن هذه المواضع كلها استفهام فكذلك في هذه الآية، وقرأ نافع في بعض الروايات: (لكاذبون اصطفى) موصولة بغير استفهام، وإذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات في زعمهم كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] في زعمه واعتقاده.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ واختلفوا في المراد بالجنة على وجوه الأول: قال مقاتل: أثبتوا نسبًا بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله، وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جنًّا لاجتنانهم عن الأبصار أو لأنهم خزّان الجنة، وأقول: هذا القول عندي مشكل، لأنه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله، ثم عطف عليه قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ والعطف يقتضي كون المعطوف مغايرًا للمعطوف عليه، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم، الثاني: قال مجاهد: قالت كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن، وهذا أيضًا عندي بعيد لأن المصاهرة لا تسمى نسبًا، والثالث: روينا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] أن قومًا من الزنادقة يقولون: الله وإبليس أخوان فالله الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ المراد منه هذا المذهب، وعندي أن هذا القول أقرب الأقاويل، وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وإهرمن[1] ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ

---

(١) يزدان وإهرمن أي الشر والخير أو النور والظلمة وهذا المذهب هو المذهب المعروف بمذهب المانوية نسبة إلى (ماني) أول من قال به وهو مذهب باطل لما فيه من الإشراك بالله.

﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ أي قد علمت الجنة أن الذين قالوا هذا القول محضرون النار ويعذبون، وقيل: المراد ولقد علمت الجنة أنهم سيحضرون في العذاب، فعلى القول الأول: الضمير عائد إلى قائل هذا القول، وعلى القول الثاني عائد إلى الجنة أنفسهم، ثم إنه تعالى نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ وفي هذا الاستثناء وجوه، قيل: استثناء من المحضرين، يعني: أنهم ناجون، وقيل هو استثناء من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ وقيل: هو استثناء منقطع من المحضرين، ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك، والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله وبفتحها من أخلصه الله بلطفه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار أتبعه بما نبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان قد سبق حكم الله في حقه بالعذاب والوقوع في النار، وذكر صاحب (الكشاف) في قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ قولين الأول: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ لله عز وجل معناه فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعًا بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علم الله كونهم من أهل النار، فإن قيل: كيف يفتنونهم على الله؟ قلنا: يفتنونهم عليه بإغوائهم، من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه، والوجه الثاني: أن تكون الواو في قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ بمعنى (مع) كما في قولهم: كل رجل وضيعته، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته، فكذلك جاز أن يسكت على قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لأن قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ساد مسد الخبر، لأن معناه فإنكم مع ما تعبدون، والمعنى فإنكم مع آلهتكم أي فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تتركون عبادتها، ثم قال تعالى: ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على ما تعبدون ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ مثلكم. وقرأ الحسن (صالُ الجحيم) بضم اللام ووجهه أن يكون جمعًا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين، فإنه قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله: ﴿مَنْ هُوَ﴾ قلنا ﴿مَنْ﴾ موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان ووسوسته، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره، لأن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ تصريح

بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يعني إلا من كان كذلك في حكم الله وتقديره، وذلك تصريح بأن المقتضي لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى، وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية في إثبات هذا المطلوب، قال الجبائي: المراد أن الذين عبدوا الملائكة يزعمون أنهم بنات الله لا يكفرون أحدًا إلا من ثبت في معلوم الله أنه سيكفر، فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه وإلا كان يمنع الشيطان، فصح بهذا أن كل من يعصي لم يكن ليصلح عنه شيء من الأفعال. والجواب: حاصل هذا الكلام أنه لا تأثير لإغواء شياطين الإنس والجن، وهذا لا نزاع فيه إلا أن وجه الاستدلال أنه تعالى بين أنه لا تأثير لكلامهم في وقوع الفتنة، ثم استثنى منه ما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكومًا عليه بأنه صال الجحيم، وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذي يؤثر في حصول الشقاوة والسعادة. واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو أنه حج آدم موسى، قال القاضي: هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد، لأنه يوجب أن لا يلام أحد على شيء من الذنوب، لأنه إن كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه، فكذلك كل مذنب. فإن صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام، فلماذا قال موسى عليه السلام في الوكزة ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]؟ ولماذا قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]؟ ولماذا لام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم؟ ومن عجيب أمرهم أنهم يكفرون القدرية، وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدريًا، فلزمهم أن يكفروه، وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه، وقد كتب عليه ذلك قبل أن يخلقه؟ هذا جملة كلام القاضي فيقال له: هب أنك لا تقبل ذلك الخبر، فهل ترد هذه الآية أم لا؟ فإنا بينا أن صريح هذه الآية يدل على أنه لا تأثير للوساوس في هذا الباب، فإن الكل يحصل بحكمة الله تعالى، والذي يدل عليه وجوه الأول: أن الكافر إن ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان إن كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال، وإن انتهى إلى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب، الثاني: أن كل أحد يريد أن يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق، فحصول ضده يدل على أن ذلك ليس منه، الثالث: أن الأفعال موقوفة على الدواعي وحصول الدواعي بخلق الله، فيكون الكل من الله تعالى، الرابع: أنه تعالى لما اقتضت حكمته شيئًا، وعلم وقوعه، فلو لم يقع ذلك الشيء لزم انقلاب ذلك الحكم كذبًا وانقلاب ذلك العلم جهلاً وهو محال، وأما الآيات التي تمسك بها القاضي فهي معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التي ذكرناها سليمة، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ فالجمهور على أنهم الملائكة، وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية، فإنهم يصطفون للصلاة والتسبيح، والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله وذلك لأن مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية، واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة فأولها: قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى عنها، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم إلى درجاتهم في معرفة الله تعالى، أما درجاتهم في التصرفات والأفعال فهي قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ والمراد كونهم صافين في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية، وأما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به.

واعلم أن قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ يفيد الحصر ومعناه أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم، حتى يصح هذا الحصر. وبالجملة فهذه الألفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال: البشر تقرب درجته من الملك فضلاً عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا.

وأما قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فالمعنى أن مشركي قريش وغيرهم كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي كتابًا من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله، ولما كذبنا كما كذبوا. ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب، وهو القرآن فكفروا به. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] ثم قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢)﴾

اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقول تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة كفرهم أردفه بما يقوي قلب الرسول ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾

[المجادلة: ٢١] وأيضًا أن الخير مقضي بالذات والشر مقضي بالعرض، وما بالذات أقوى مما بالعرض، وأما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجة، وقد تكون بالدولة والاستيلاء، وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وإن صار مغلوبًا في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب، ولا يلزم على هذه الآية أن يقال: فقد قتل بعض الأنبياء وقد هزم كثير من المؤمنين، ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ والمراد ترك مقاتلتهم والثقة بما وعدناهم إلى حين يتمتعون، ثم تحل بهم الحسرة والندامة، واختلف المفسرون فقيل المراد إلى يوم بدر، وقيل إلى فتح مكة، وقيل إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ والمعنى بأبصرهم وما يقضى عليهم من القتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة، فسوف يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة والتأييد في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة، والمراد من الأمر المشاهد بأبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة، وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ للتهديد والوعيد، ثم قال: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب، وما رأوا شيئًا فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء، فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل، لأن لكل شيء من أفعال الله تعالى وقتًا معينًا لا يتقدم ولا يتأخر، فكأن طلب حدوثه قبل مجيء ذلك الوقت جهلاً، ثم قال تعالى: في صفة العذاب الذي يستعجلونه ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي هذا العذاب ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ وإنما وقع هذا التعبير عن هذه المعاني كأنهم كانوا يقدمون على العادة في وقت الصباح، فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل، ثم أعاد تعالى قوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ فقيل: المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا، وفي هذه الكلمة أحوال القيامة، وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل، وقيل: إن المراد من التكرير المبالغة في التهديد والتهويل، ثم إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية، وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة فأولها معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية، وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع أحدهما: تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية، وهو لفظة (سبحان)، وثانيها: وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ فإن الربوبية إشارة إلى التربية وهي دالة على كمال الحكمة، والرحمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة، وثالثها: كونه منزهًا في الإلهية عن الشريك والنظير، وقوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ يدل على أنه القادر على جميع الحوادث، لأن الألف واللام في قوله: ﴿الْعِزَّةِ﴾ تفيد الاستغراق، وإذا كان الكل مُلكًا له ومِلكًا له لم يبق لغيره شيء، فثبت أن قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم، والمهم الثاني: من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف ينبغي أن يعامل نفسه ويعامل الخلق في هذه الحياة الدنيوية.

واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم، ومرشد يرشدهم، وهاد يهديهم، وما ذلك إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل، فنبه على هذا الحرف بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأن هذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم، ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم، والمهم الثالث: من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت.

واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة، فالاعتماد فيها على حرف واحد، وهو أنه إله العالم غني رحيم، والغني الرحيم لا يعذب، فنبه على هذا الحرف بقوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم، فبين بهذا كونه منعمًا، وظاهر كونه غنيًّا عن العالمين، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم، فكان هذا الحرف منبهًا على سلامة الحال بعد الموت، فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من دراري الكواكب، ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة.

تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين.

تفسير سورة الصافات

مكية في قول الجميع[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ① فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ② فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ④ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ⑤﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ هذه قراءةُ أكثر القرّاء. وقرأ حمزةُ بالإدغام فيهنّ[2]. وهذه القراءة التي نَفَر منها أحمدُ بن حنبل لمَّا سَمِعَها.

النحاس[3]: وهي بعيدةٌ في العربية من ثلاث جهات: إحداهنّ: أن التاء ليست من مَخْرج الصاد، ولا من مَخْرَج الزاي، ولا من مَخْرَج الذال، ولا من أَخواتهن، وإنما أُختاها الطاء والدال، وأختُ الزاي الصاد والسين، وأختُ الذال الظاء والثاء.

والجهة الثانية: أن التاء في كلمة، وما بعدها في كلمة أُخرى.

والجهة الثالثة: أنك إذا أدغمتَ جمعتَ بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمعُ بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة؛ نحو: دابَّة، وشابَّة. ومجازُ قراءة حمزة أن التاء قريبةُ المَخْرج من هذه الحروف.

«وَالصَّافَّاتِ» قَسَمٌ، الواو بدل من الباء. والمعنى: بربِّ الصَّافَّات، و«الزَّاجِراتِ» عطف عليه. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جوابُ القسم. وأجاز الكسائي فتحَ إنَّ في القسم[4].

---

(١) زاد المسير ٧/ ٤٤ .

(٢) وهي قراءة أبي عمرو في رواية السوسي. السبعة ص٥٤٩ ، والتيسير ص١٨٥ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٩ ، وما قبله منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٠ .

والمراد بـ «الصَّافَّاتِ» وما بعدها إلى قوله: «فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً» الملائكةُ في قول ابن عباس وابن مسعود وعِكرمة وسعيد بن جُبير ومجاهد وقتادة[١]، تصفُّ في السماء كصفوف الخَلْق في الدنيا للصلاة[٢]. وقيل: تَصُفُّ أجنحتَها في الهواء واقفةً فيه حتى يأمرَها الله بما يُريد. وهذا كما تقومُ العبيدُ بين أيدي ملوكهم صفوفاً. وقال الحسن: «صَفًّا» لِصفوفهم عند ربهم في صلاتهم[٣].

وقيل: هي الطير، دليلُه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰفَّـٰتٍ﴾[٤] [الملك: ١٩].

والصفُّ ترتيبُ الجمع على خطٍّ، كالصف في الصلاة. «وَالصَّافَّاتِ» جمع الجمع؛ يقال: جماعةٌ صافَّة، ثم يُجمَع صافَّات[٥].

وقيل: «الصّافات» جماعةُ الناس المؤمنين إذا قاموا صفًّا في الصلاة أو في الجهاد؛ ذكره القشيري[٦].

«فَالزَّاجِرَاتِ» الملائكةُ في قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه. إما لأنها تَزجُر السحابَ وتَسوقه في قول السُّدي. وإما لأنها تَزجُر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح. وقال قتادة: هي زواجر القرآن.

«فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً» الملائكة، تقرأ كتابَ الله تعالى؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جُبير والسُّدي[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦، وزاد المسير ٧/ ٤٤.

(٢) نزهة القلوب للسجستاني ص٢٩٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٦.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٢، وزاد المسير ٧/ ٤٤.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٤٩٢ بنحوه.

(٦) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٧. وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٤٩٤.

وقيل: المراد جبريلُ وحده، فَذُكِرَ بلفظ الجمع؛ لأنه كبيرُ الملائكة، فلا يخلو من جنود وأتباع.

وقال قتادة: المراد: كلُّ من تلا ذِكْرَ الله تعالى وكُتُبَهُ[١]. وقيل: هي آياتُ القرآن، وَصَفَها بالتلاوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل:٧٦]. ويجوز أن يقال لآيات القرآن: تاليات؛ لأن بعضَ الحروف يتبع بعضاً؛ ذكره القشيري.

وذكره الماوردي[٢]: أن المراد بـ «التَّالِيَات» الأنبياءُ يتلون الذِّكر على أُمَمهم.

فإن قيل: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفةً في الصفات؟ قيل له: إما أن تدلَّ على ترتُّب معانيها في الوجود، كقوله:

يــالَــهْـفَ زَيَّـابَــةَ لـلـحـارِث الـصـ ـــابِـح فـالـغَـانِـم فـالآيِـبِ[٣]

كأنه قال: الذي صَبَّحَ فَغَنِمَ فآبَ. وإما على ترتُّبها في التفاوت من بعض الوجوه، كقولك: خُذِ الأفضلَ فالأكمل، واعمَلِ الأحسنَ فالأجمل. وإما على ترتُّب موصوفاتها في ذلك، كقوله: رَحِمَ الله المُحلِّقين فالمقصِّرين. فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساقُ أمرُ الفاء العاطفة في الصفات قاله الزمخشري[٤].

«إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ» جوابُ القسم. قال مقاتل: وذلك أنَّ الكفار بمكة قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥] وكيف يَسَعُ هذا الخَلْقَ فردٌ إله[٥]؟! فأقسمَ اللهُ بهؤلاء تشريفاً، ونزلت الآية.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٥ ، والكشاف ٣/ ٣٣٣ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٧ .

(٣) البيت لابن زَيَّابة التيمي، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٤٧ وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٠٨ ، وخزانة الأدب ٥/ ١٠٧ . وزيَّابة اسم أمّ الشاعر، فيما قاله البغدادي.

(٤) في الكشاف ٣/ ٣٣٤ .

(٥) ذكره بنحوه البغوي في تفسيره ٤/ ٢٢ دون نسبة.

قال ابن الأنباري(١): وهو وقفٌ حسن، ثم تبتدئ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على معنى: هو ربُّ السماوات.

النحاس(٢): ويجوز أن يكون «رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرض» خبراً بعد خبرٍ، ويجوز أن يكون بدلاً من «وَاحِدٌ».

قلت: وعلى هذين الوجهين لا يوقف «لَوَاحِدٌ». وحكى الأخفش(٣): «رَبَّ السَّماواتِ» و«رَبَّ الْمَشَارِقِ» بالنَّصب على النعت لاسم «إن»(٤).

بيَّن سبحانه معنى وحدانيَّته وأُلوهيَّته وكمالِ قُدرته بأنه «رَبُّ السَّماواتِ والأرض» أي: خالقُهما ومالِكُهما ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ أي: مالكُ مطالعِ(٥) الشمس. ابن عباس: للشمس كلَّ يوم مشرقٌ ومغرب؛ وذلك أن اللهَ تعالى خلقَ للشمس ثلاثَ مئة وخمسةً وستين كَوَّة في مَطْلِعها، ومثلها في مَغْرِبها على عَدَد أيام السنة الشمسية، تطلُع في كل يوم في كَوَّة منها، وتغيبُ في كَوَّة، لا تطلعُ في تلك الكَوَّة إلا في ذلك اليوم من العام المُقبِل. ولا تطلعُ إلا وهي كارهةٌ فتقول: ربِّ لا تُطلعِني على عبادك، فإني أَراهم يعصونك(٦).

ذكرَ(٧) أبو عمر في كتاب «التمهيد»(٨)، وابنُ الأنباري في كتاب «الرد» عن عكرمة، قال: قلت لابن عباس: أرأيتَ ما جاء عن النبي ﷺ في أُميَّةَ بن أبي الصَّلْت:

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٠ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٠ .

(٤) وهذا يجوز في اللغة لا في التلاوة.

(٥) في النسخ: مطلع، والمثبت من (م).

(٦) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٥٠) و (٦٧٢).

(٧) في (د) و (ز) و (م): ذكره، ولم تجود في (ظ)، والمثبت من (ف).

(٨) ٤/ ٧ - ٨ .

«آمنَ شِعرهُ وكَفَرَ قَلْبُه»[١] قال: هو حقٌّ، فما أنكرتُم من ذلك؟ قلت: أنكرنا قوله:

والشمسُ تطلُعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصبِحُ لونُها يتورَّدُ
ليستْ بطالعةٍ لَهم في رِسْلِها ... إلَّا مُعَذَّبةً وإلَّا تُجلَدُ[٢]

ما بالُ الشمس تُجْلَد؟ فقال: والذي نفسي بيده، ما طلعتْ شمسٌ قطُّ حتى يَنْخُسَها سبعون ألف مَلَك، فيقولون لها: اطلعي اطلعي، فتقول: لا أَطْلُعُ على قوم يعبدونني من دون الله، فيأتيها ملكٌ فيستقل لضياء بني آدم، فيأتيها شيطانٌ يريد أن يصدَّها عن الطُّلوع، فتطلعُ بين قَرْنيه فيحرقه الله تعالى تحتها، فذلك قولُ رسول الله ﷺ: «ما طلعتْ إلا بين قرنَيْ شيطان، ولا غربَتْ إلا بين قَرْني شيطان»[٣] وما غربَتْ قط إلا خَرَّتْ لله ساجدةً، فيأتيها شيطانٌ يريدُ أن يصدَّها عن السجود، فتغربُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها[٤]. لفظ ابن الأنباري.

وذَكَر عن عكرمة، عن ابن عباس قال: صدَّق رسولُ الله ﷺ أُميَّةَ بن أبي الصَّلْت في هذا الشعر:

رَجُلٌ[٥] وثَوْرٌ تحتَ رِجلِ يَمينِهِ ... والنَّسر للأُخرى وليثٌ مُرْصَدُ
والشمسُ تَطلُعُ كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصبِحُ لونُها يَتورَّدُ

---

(١) سلف ٩/ ٣٨٤ بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم (٢٢٥٥) من حديث الشَّريد بن سُويد ﷺ أن النبيَّ ﷺ، استنشده من شعر أمية فأنشده.. فقال النبي ﷺ: «فلقد كاد يُسلم في شعره».

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ص٥٠ - ٥١ وصدر البيت الثاني فيه: تأبى فلا تبدو لنا في رسلها.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تَحيَّنوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها، فإنها تطلع بين قرني شيطان» أخرجه أحمد (٤٦١٢)، والبخاري (٣٢٧٣)، ومسلم (٨٢٨) : (٢٩٠).

(٤) بعدها في النسخ الخطية: فذلك قول رسول الله ﷺ: «ولا غربت إلا بين قرني شيطان» والمثبت من (م).

(٥) في (م): زحل، وهو كذلك في الإصابة ١/ ٢١١ ، والمثبت من النسخ الخطية، وديوان أمية ص٥٠-٥١ ، وخزانة الأدب ١/ ٢٤٨ .

ليست بطالعةٍ لهم في رِسْلِها إلّا معذَّبةً وإلّا تُجلَدُ

قال عكرمة: فقلت لابن عباس: يا مولاي، أَتُجْلَدُ الشمس؟ فقال: إنما اضطره الرَّويّ إلى الجلد، لكنها تخافُ العقاب(١).

ودلَّ بذكر المطالع على المغارب؛ فلهذا لم يذكُر المغارب، وهو كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]. وخصَّ المشارقَ بالذِّكر؛ لأن الشُّروق قبل الغروب(٢). وقال في سورة «الرحمن»: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الآية: ١٧] أراد بالمشرقين أقصى مَطْلِع تطلُع منه الشمسُ في الأيام الطِّوال، وأقصر يوم في الأيام القِصار على ما تقدَّم في «يس»(٣) والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ قال قتادة: خُلقت النجومُ ثلاثاً: رجوماً للشياطين، ونوراً يُهتدَى بها، وزينةَ السماء الدنيا(٤).

وقرأ مسروق والأعمش والنخعي وعاصم وحمزة: «بِزِينةٍ» مخفوض منوَّن «الكواكبِ» خفض على البدل من «زينةٍ» لأنها هي. وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب «الكواكبَ»(٥) بالمصدر الذي هو «زينة». والمعنى: بأنْ زيَّنا الكواكبَ فيها.

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني؛ كأنه قال: إنَّا زيَّنَّاها «بِزينة» أعني

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٨/٤ - ٩ دون قول عكرمة: يا مولاي، أتجلد الشمس.. وقول عكرمة هذا أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٥٠).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٧ -٣٨، وزاد المسير ٧/ ٤٥ - ٤٦، وينظر تفسير الطبري ١٩/ ٤٩٦.

(٣) ١٥/ ٢٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٨.

(٥) السبعة ص٥٤٦، والتيسير ص١٨٦.

«الكواكِبَ». وقيل: هي بدل من «زينة» على الموضع.

ويجوز «بِزِينَةٍ الكواكبُ»[(١)] بمعنى: بأنَّ زينتَها الكواكبُ. أو بمعنى: هي الكواكب.

الباقون: «بِزِينَةِ الكواكبِ» على الإضافة. والمعنى: زيَّنا السماءَ بتزيين الكواكِبِ؛ أي: بُحسْنِ الكواكب. ويجوز أن يكون كقراءة من نوَّن إلا أنه حذفَ التنوين استخفافاً[(٢)].

﴿وَحِفْظًا﴾ مصدر؛ أي: حَفِظناها حِفْظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ لـمَّا أخبر أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بيَّن أنه حَرَس السماءَ عن استراق السَّمع بعد أن زيَّنها بالكواكب.

والمارد: العاتي من الجنّ والإنس، والعرب تُسمِّيه شيطاناً[(٣)].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال أبو حاتم: أي: لئلا يسمَّعوا، ثم حذفَ [اللام و] «أن» فرفع الفعل[(٤)].

الملأ الأعلى: أهلُ السماء الدنيا فما فوقها، وسمَّى الكلَّ منهم أعلى بالإضافة إلى ملأ الأرض. الضمير في «يَسَّمَّعون» للشياطين.

وقرأ جمهورُ الناس: «يَسْمَعُونَ» بسكون السين وتخفيف الميم. وقرأ حمزةُ وعاصمٌ في رواية حفص: «لا يَسَّمَّعُونَ» بتشديد السين والميم، من التسميع[(٥)].

فينتفي على القراءة الأُولى سماعُهم وإنْ كانوا يستمعون، وهو المعنى الصحيح، ويعضُده قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] وينتفي على القراءة

(١) حكاها الزهراوي كما في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦.

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٠ - ٤١١، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٢١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١١.

(٤) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٢٩٣ (وما بين حاصرتين منه) ثم قال: وفيه تعسُّف.

(٥) وهي قراءة الكسائي. السبعة ص٥٤٧، والتيسير ص١٨٦.

الأخيرة أن يقعَ منهم استماعٌ أو سَماع.

قال مجاهد: كانوا يتسمَّعون، ولكن لا يسمعون. وروي عن ابن عباس: «لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الملأ» قال: هم يَسَّمَّعون ولا يَسْمَعون[١].

وأصل «يَسَّمَّعُونَ» يتسمَّعون، فأُدغِمَتِ التاءُ في السين لِقُربها منها. واختارها أبو عُبيد؛ لأن العربَ لا تكاد تقول: سمعتُ إليه، وتقول: تسمَّعت إليه[٢].

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: يُرمَون من كل جانب؛ أي: بالشُّهب. ﴿دُحُورًا﴾ مصدر؛ لأن معنى «يُقْذَفُونَ» يُدْحَرون؛ دحرته دَحْراً ودُحُوراً، أي: طردته.

وقرأ السُّلَمي ويعقوب الحَضْرمي: «دَحُوراً» بفتح الدال[٣]، يكون مصدراً على فَعول. وأما الفرَّاء، فقدَّره[٤] على أنه اسمُ الفاعل. أي: ويُقْذَفون بما يَدْحَرهم، أي: بدحور، ثم حذف الباء؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيراً [كما أنشدوا]:

تَمُرُّون الديارَ ولم تَعوجُوا[٥]

واختُلف هل كان هذا القذف قبل المَبْعث، أو بعده لأجل المَبْعث؛ على قولين. وجاءت الأحاديثُ بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة «الجن»[٦] عن ابن عباس. وقد يُمكن الجمعُ بينهما أن يقال: إنَّ الذين قالوا: لم تكن الشياطين تُرْمَى بالنجوم قبل مَبْعث النبيِّ ﷺ، ثم رُميت؛ أي: لم تكن تُرمَى رمياً يَقْطَعُها عن السَّمع، ولكنها

---

(١) في (خ) و (د) و (ز) و (م): هم لا يسمعون ولا يتسمعون. وفي (ظ): هم لا يتسمعون. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١١ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٨ ، وتفسير الرازي ٢٦/ ١٢٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦ .

(٣) وهي غير المشهورة عن يعقوب، وقراءته المشهورة عنه كقراءة الجماعة، وقراءة السلمي في القراءات الشاذة ص١٢٧ .

(٤) في (م): فإنه قدَّره.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٢ ، وما بين حاصرتين منه. والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٧٨ ، وعجزه: كلامُكُمُ عليَّ إذاً حرامُ. ووقع صدره في الديوان: أتمضون الرسومَ ولا تُحيَّى. وهو برواية المصنف في الخزانة ٩/ ١٢١ .

(٦) في تفسير الآيات (٨ - ١٠).

كانت تُرمَى وقتاً ولا تُرمَى وقتاً، وتُرمى من جانب ولا تُرمَى من جانب. ولعل الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يُقذَفون إلا من بعض الجوانب، فصاروا يُرمَوْن واصباً. وإنما كانوا من قبلُ كالمُتَجَسِّسة من الإنس، يبلغُ الواحدُ منهم حاجتَه ولا يبلُغها غيرُه، ويَسْلَمُ واحدٌ ولا يَسلَمُ غيره، بل يُقبَضُ عليه ويُعاقب وينكل.

فلما بُعث النبيُّ ﷺ زِيد في حِفظ السماء، وأُعِدَّت لهم شُهُبٌ لم تكن من قبل؛ لِيُدْحَروا عن جميع جوانب السماء، ولا يَقَرُّوا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها؛ فصاروا لا يقدِرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يَختطِفَ أحدٌ منهم بخفَّة حركته خطفةً، فيتبعه شهابٌ ثاقبٌ قبلَ أن يَنزِلَ إلى الأرض، فيُلقيها إلى إخوانه فيحرقه؛ فبطلت من ذلك الكَهانة، وحصلت الرسالةُ والنبوّة.

فإن قيل: إن هذا القذفَ إن كان لأجل النبوَّة فَلِمَ دامَ بعد النبي ﷺ؟ فالجواب: أنه دامَ بدوام النبوَّة، فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكَهانة فقال: «ليس منَّا من تَكَهَّن»(١) فلو لم تُحرَسْ بعد موته لعادت الجنُّ إلى تسمُّعها؛ وعادت الكهانة. ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأنَّ قَطْعَ الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشُّبهة على ضُعفاء المسلمين، ولم يُؤمَن أن يظنُّوا أنَّ الكهانة إنما عادت لِتناهي النبوّة، فصحَّ أن الحِكمة تقتضي دوامَ الحراسة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وبعد أن توفَّاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم؛ عن مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: شديد. الكلبي والسدّي وأبو صالح: مُوجِع؛ أي: الذي يَصِلُ وجعُه إلى القلب؛ مأخوذٌ من الوَصَب، وهو المرض(٢).

---

(١) أخرجه البزار في البحر الزخار (٣٥٧٨) من حديث عمران بن حصين ﷺ بلفظ: «ليس منا تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تكهَّنَ أو تُكهِّنَ له..» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١١٧/٥ : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة. وسلف نحوه ٣٠٧/٩ .

(٢) تفسير الطبري ٥٠٦/١٩ - ٥٠٧ ، والنكت والعيون ٣٩/٥ .

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ وقيل: الاستثناء يرجِع إلى غير الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] فيسترقُ الواحدُ منهم شيئاً مما يَتفاوضُ فيه الملائكة مما سيكون في العالم قبلَ أن يعلمَه أهلُ الأرض؛ وهذا لِخفَّة أجسام الشياطين، فَيُرجَمون بالشُّهب حينئذ.

ورُوي في هذا الباب أحاديثُ صحاح، مضمنها: أن الشياطين كانت تَصعَدُ إلى السماء، فتقعد للسمع واحداً فوق واحد، فيتقدَّم الأجسرُ نحو السماء، ثم الذي يَليه، ثم الذي يَليه، فيقضي اللهُ تعالى الأمرَ من أمر الأرض، فيتحدَّث به أهلُ السماء، فيسمعه منهم الشيطان الأدْنى، فَيُلقيه إلى الذي تحته، فربما أحرقَه شهاب وقد ألقى الكلامَ، وربما لم يُحْرِقه، على ما بيَّناه. فتنزل تلك الكلمةُ إلى الكُهَّان، فيكذِبون معها مئةَ كذبة، وتصدق تلك الكلمة، فَيُصدِّق الجاهلون الجميعَ، كما بيَّناه في «الأنعام»[١].

فلما جاء الله بالإسلام حُرِست السماء بشدَّة، فلا يُفلت شيطانٌ سمع بَتّةَ. والكواكبُ الراجمة هي التي يراها الناس تنقضّ. قال النقَّاش ومكِّي: وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا تُرى حركتها، وهذه الراجمة تُرى حركتها؛ لأنها قريبة منا[٢].

وقد مضى في هذا الباب في سورة «الحجر»[٣] من البيان ما فيه كفاية. وذكرنا في «سبأ»[٤] حديثَ أبي هريرة. وفيه: «والشياطينُ بعضُهم فوق بعض» وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح. وفيه: عن ابن عباس: «ويختطفُ الشياطينُ السَّمْعَ، فَيُرمَوْن،

---

(١) ٨/ ٤٠٥، وذكر المصنف ثمة في هذا المعنى حديث عائشة رضي الله عنها، وهو عند البخاري (٣٢١٠)، وينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم (٢٢٢٩)، وهذا الكلام وما بعده من المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦.

(٢) قال ابن عطية: في هذا نظر.

(٣) ١٢/ ١٨٧ وما بعدها.

(٤) ١٤/ ٢٩٦.

فَيَقذِفُونه إلى أوليائهم، فما جاءوا به على وَجْهِهِ فهو حقٌّ، ولكنهم يُحرِّفونه ويَزيدون». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[(١)].

والخَطْف: أخذُ الشيء بسرعة؛ [يقال:] خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطَّفَ وخِطِّف[(٢)]. والأصل في المُشدَّدات: اختطف، فأدغم التاء في الطاء لأنها أُختها، وفتحت الخاء؛ لأن حركةَ التاء أُلقيت عليها. ومَن كَسَرها فلالتقاء الساكنين. ومَن كَسَرَ الطاء أتبع الكسر الكسر[(٣)].

﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مُضيء؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما[(٤)]. وقيل: المراد كواكبُ النار تَتْبعهم حتى تُسقطهم في البحر. وقال ابن عباس في الشهب: تُحرقهم من غير موت[(٥)]. وليست الشُّهُب التي يرجم[(٦)] بها من الكواكب الثوابت. يدلُّ على ذلك رؤيةُ حركاتها، والثابتة تجري ولا تُرى حركاتُها لِبُعْدها. وقد مضى هذا.

وجمعُ شِهاب شُهُب، والقياسُ في القليل أَشْهِبة وإن لم يُسمَع من العرب[(٧)]. و«ثَاقِبٌ» معناه: مُضِيء؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز. ومنه قوله: وَزَنْدُكَ أَثْقَبُ أزنادِها[(٨)]. أي: أضوأ. وحكى الأخفش في الجمع: شُهُبٌ ثُقُبٌ، وثواقب وثقاب. وحكى الكسائي: ثَقَبتِ النارُ تَثقُبُ ثَقابةً وثقوبا، إذا اتَّقدت، وأثقبتُها أنا[(٩)]. وقال زيد ابن أسلم في الثاقب: إنه المستوقد؛ من قولهم: أَثْقِب زَنْدَك، أي: استوقد نارَك؛

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٤).

(٢) وهذه قراءة الحسن وقتادة وعيسى كما في القراءات الشاذة ص١٢٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٩ عن الضحاك.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٠٨ .

(٦) بعدها في (م): الناس.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣ ، والزَّند: خشبة يُستَقْدَح بها. اللسان (زند).

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ ، وينظر اللسان (ثقب).

قاله الأخفش. وأنشد قول الشاعر:

بينما المرءُ شِهابٌ ثاقبٌ ضربَ الدهرُ سَناهُ فَخَمدْ[(١)]

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سَلْهم، يعني أهلَ مكة؛ مأخوذٌ من استفتاء المُفتي. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ قال مجاهد: أي: مَن خَلَقنا مِن السماوات والأرض والجبال والبحار. وقيل: يدخل فيه الملائكة ومَن سلف من الأُمم الماضية. يدلّ على ذلك أنه أخبر عنهم بـ«مَنْ» قال سعيد بن جُبير: الملائكة. وقال غيره: من الأُمم الماضية، وقد هلكوا، وهم أشدُّ خَلْقاً منهم[(٢)].

نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدَة، وسُمِّي بأبي الأشدّ لِشِدَّة بَطْشه وقوَّته[(٣)]. وسيأتي في «البلد»[(٤)] ذِكْره. ونظيرُ هذه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾[(٥)] [النازعات: ٢٧].

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: لاصق؛ قاله ابن عباس. ومنه قول عليّ ﷺ:

تَعَلَّمْ فَإنّ اللهَ زادكَ بَسطةً وأخلاقَ خيرٍ كلّها لكَ لازِبُ

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ١٩/ ٥٠٩، والبيت لعبد الله بن عبد الأعلى الشيباني، ذكره الجاحظ في «البرصان» ص١٢٢.

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٤٠، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٣٧، وأبو الأشدّ الجمحي قُتل كافراً، وذكر السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٦٥ أنه قال للنبي ﷺ: إن صرعتَني آمنت بك، فصرعه رسول الله ﷺ مراراً فلم يؤمن.

(٤) في تفسير الآيات (٥ - ٩).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٣.

وقال قتادة وابن زيد: معنى «لَازِبٍ» لازق. الماوردي[١]: والفرقُ بين اللّاصق واللّازق: أن اللَّاصق: هو الذي قد لَصِقَ بعضُه ببعض، واللَّازق: هو الذي يلتزق بما أصابه.

وقال عِكرمة: «لَازِبٍ» لزج[٢]. سعيد بن جُبير: أي: جيد حرٌّ يَلْصَق باليد. مجاهد: «لَازِب» لاتم[٣]. والعرب تقول: طينٌ لازِبٌ ولازِمٌ، تبدل الباء من الميم. ومثله قولهم: لاتب و لاتم[٤]. على إبدال الباء بالميم. واللازب الثابت؛ تقول: صار الشيء ضَرْبَةَ لازب، وهو أفصحُ من لازم. قال النابغة:

ولا يَحْسِبُونَ الخيرَ لا شَرَّ بعدَهُ ولا يَحْسِبُونَ الشرَّ ضربةَ لَازِبِ[٥]

وحكى الفرّاء عن العرب: طين لاتب بمعنى لازِم[٦]. واللاتِب الثابت؛ تقول منه: لَتَب يَلْتُب لَتْباً ولُتُوباً، مثل: لَزَب يَلْزُب ـ بالضم ـ لُزوباً؛ وأنشد أبو الجرَّاح في اللَّاتب:

فإن يَكُ هذا من نَبيذٍ شربْتُهُ فإنِّيَ من شُربِ النَّبيذِ لَتَائِبُ
صُدَاعٌ وَتَوْصيمُ العِظَامِ وفَتْرَةٌ وغَمٌّ مع الإشْرَاقِ في الْجَوفِ لَاتِبُ

واللَّاتب أيضاً: اللَّاصق: مثل: اللَّازب، عن الأصمعي، حكاه الجوهري[٧].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٤٠ ، وما قبله منه، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٣ .

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٢ .

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٤٠ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٥١٣ .

(٤) في (خ) و (ز) و (ف): لاثب ولاثم، وفي (د): لاثب و لازم، وفي (م): لاتب ولازم، والمثبت من (ظ). واللَّتْب واللَّتْم: الطعن في النحر. اللسان (لتم).

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥١١ ، والصحاح (لزب) والبيت في ديوان النابغة ص١٣ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٤ ، ونسب هذه اللغة لقيس، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٣ .

(٧) في الصحاح (لتب) و (لزب) والبيتان فيه، والبيت الثاني في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٤ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٥١١ ، وفيهما: وغثيٌ، بدل: وغمٌّ.

وقال السدي والكلبي في اللّازب: إنه الخالص. مجاهد والضحَّاك: إنه المُنتن[١].

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قراءةُ أهل المدينة وأبي عمر وعاصم بفتح التاء خِطاباً للنبي ﷺ[٢]؛ أي: بل عجبتَ مما نزل عليك من القرآن وهم يَسخرون به. وهي قراءة شُرَيح و[أنكر قراءة الضم وقال:] إن الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم. وقيل: المعنى بل عجبت من إنكارها للبعث[٣].

وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء[٤].

واختارها أبو عُبيد والفرّاء، وهي مرويَّة عن عليٍّ وابن مسعود؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ: «بَلْ عَجِبْتُ» بضم التاء. وتُروَى عن ابن عباس[٥].

قال الفرَّاء[٦] في قوله سبحانه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قرأها الناس بنصب التاء ورفعها، والرفعُ أحبُّ إليَّ؛ لأنها عن علي وعبد الله وابن عباس. وقال أبو زكريا الفراء: العجبُ إن أُسْنِد إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد؛ وكذلك قوله ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥] ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. وفي هذا بيان الكسر لقول شُريْح حيث أنكر القراءة بها.

روى جرير عن الأعمش[٧] عن أبي وائل شَقِيق بن سَلَمة قال: قرأها عبد الله يعني ابن مسعود: «بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ» قال شُريح: إنَّ الله لا يعجبُ من شيء، إنما يعجبُ مَن لا يعلم. قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم فقال: إنَّ شُريحاً كان يُعجبه

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤ .

(٢) السبعة ص٥٤٧ ، والتيسير ص١٨٦ ، والنشر ٢/ ٣٥٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥ ، وما بين حاصرتين منه. وقال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٣٠٠ : وإنكارها هذا غلط؛ لأن القراءة والرواية كثيرة، والعجبُ من الله عز وجل خِلافُه من الآدميِّين.

(٤) السبعة ص٥٤٧ ، والتيسير ص١٨٦ ، والنشر ٢/ ٣٥٦ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٤ .

(٧) في (م): والأعمش. وجرير: هو ابن عبد الحميد الضبي.

رأيه، إن عبد الله كان أعلمَ من شُرَيح، وكان يقرؤها عبد الله: «بَلْ عَجِبْتُ»[١].

قال الهرويّ: وقال بعضُ الأئمة: معنى قوله: «بَلْ عَجِبْتُ»: بل جازيتهم على عجبهم[٢]؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الحقّ؛ فقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص: ٤]، وقالوا[٣]: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] فقال تعالى: «بَلْ عَجِبْتُ» بل جازيتهم على التعجُّب.

قلت: وهذا تمامُ قول الفرّاء، واختاره البيهقي[٤].

وقال علي بن سليمان: معنى القراءتين واحد، والتقدير: قُلْ يا محمد: بل عجبت؛ لأن النبيَّ ﷺ مُخاطب بالقرآن. النحاس[٥]: وهذا قول حسن، وإضمارُ القول كثير.

البيهقي[٦]: والأول أصحّ.

المهدوي: ويجوز أن يكون إخبارُ اللهِ عن نفسه بالعجب محمولاً على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كَفَر به ما يقوم مقامَ العجب من المخلوقين؛ كما يُحْمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضَّحِك لمن يرضى عنه ـ على ما جاء في الخبر عن النبي ﷺ[٧] ـ على أنه أَظْهرَ له من رضاه عنه ما يقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازاً واتِّساعاً.

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٩٩١).

(٢) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٥٠ لابن الأنباري.

(٣) في (م): وقال.

(٤) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٦ .

(٥) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ ، وما قبله منه.

(٦) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٦ .

(٧) مثل حديث: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد» أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الهرويّ: ويقال: معنى «عَجِبَ رَبُّكُم»: أي: رضي وأثاب؛ فسمَّاه عجباً، وليس بعجب في الحقيقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] معناه: ويُجازيهم الله على مَكْرهم، ومثلُه في الحديث: «عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وقُنوطكم»[١]. وقد يكون العجبُ بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيماً. فيكون معنى قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أي: بل عَظُم فِعْلُهم عندي.

قال البيهقي[٢]: ويُشبه أن يكون هذا معنى حديثِ عُقبة بن عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «عَجِبَ ربُّك من شاب ليست له صَبْوة»[٣] وكذلك ما خرَّجه البخاري عن [أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «عَجِبَ اللهُ من قومٍ يدخلون الجنة في السلاسل»[٤]].

قال البيهقي: وقد يكون هذا الحديثُ وما ورد من أمثاله أنه يعجبُ ملائكته من كرمه ورأفته بعباده[٥]، حين حَمَلَهم على الإيمان به بالقتال والأَسْر في السلاسل، حتى إذا آمنوا أَدْخلهم الجنة.

وقيل: معنى «بَلْ عَجِبْتُ»: بل أنكرتُ. حكاه النقَّاش.

وقال الحسين بن الفَضْل: التعجبُ من الله إنكارُ الشيء وتعظيمه، وهو لغةُ العرب. وقد جاء في الخبر: «عَجِبَ ربُّكم من إِلّكم وقُنوطكم».

﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ قيل: الواو واو الحال؛ أي: عَجِبتُ منهم في حال سُخريتهم.

---

(١) أورده أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ٢٦٩. وقال: فإن كان المحفوظ قوله: «من إِلّكم» بكسر الألف، فإني أحسبها: من ألِّكم، بالفتح، وهو أشبه بالمصادر. وهو أن يرفع الرجل صوته بالدعاء، ويجأر فيه.

(٢) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٧ -٤١٨.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣٧١).

(٤) من قوله: وكذلك.. إلى هنا، ليس في (خ) و (د) و (ز) و (ظ)، ووقع في (ف): وكذلك ما خرجه البخاري عن، وبعده بياض إلى هنا، وما بين حاصرتين من صحيح البخاري (٣٠١٠)، وأخرجه أحمد (٩٢٧١).

(٥) الصواب إثبات صفة العَجَب لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «بَلْ عَجِبْتَ» ثم استأنف فقال: «وَيَسْخَرُونَ» أي: مما جئتَ به إذا تلوتَه عليهم. وقيل: يَسخرون منك إذا دعوتَهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي: وُعظوا بالقرآن في قول قتادة ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لاينتفعون به. وقال سعيد بن جُبير: أي: إذا ذُكر لهم ما حلَّ بالمُكَذِّبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبَّروا[1].

﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ أي: معجزة ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي: يسخرون في قول قتادة. ويقولون: إنها سحر. واستسخر وسَخِرَ بمعنىً، مثل: استقر وقرَّ، واستعجب وعَجِبَ[2].

وقيل: «يَسْتَسْخِرُونَ» أي: يستدعون السُّخْري من غيرهم[3]. وقال مجاهد: يستهزئون[4]. وقيل: أي: يظنُّون أن تلك الآية سُخرية.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إذا عَجزوا عن مقابلة المُعجزات بشيء قالوا: هذا سحرٌ وتَخييل وخِداع.

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ أي: أَنُبعثُ إذا مِتنا؟. فهو استفهامُ إنكار منهم وسُخرية. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: أَوَ تُبعثُ آباؤنا. دخلت ألفُ الاستفهام على حرف العطف. وقرأ نافع: «أَوْ آبَاؤُنَا» بسكون الواو[5]. وقد مضى هذا في سورة «الأعراف» في قوله تعالى: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الآية: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أي: تُبعثون. ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: صاغرون أذلَّاء[6]؛

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١ بنحوه، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٥ .

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٧٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٥ - ٥١٦ .

(٥) قرأ بها نافع في رواية قالون، وابن عامر. السبعة ص٢٨٧ ، والتيسير ص١٨٦ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٥٢ .

لأنهم إذا رأَوا وقوعَ ما أنكروه فلا محالةَ يَذِلُّون. وقيل: أي: ستقوم القيامةُ وإنْ كَرِهتم، فهو أمرٌ واقع على رغمكم وإنْ أنكرتموه اليومَ بزعمكم.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: صيحةٌ واحدةٌ؛ قاله الحسن. وهي النفخة الثانية. وسُمِّيت الصيحةُ زجرةً؛ لأن مقصودَها الزجر[١]؛ أي: يُزْجَر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوق.

﴿فَإِذَا هُم﴾ قِيَامٌ ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: المعنى: ينتظرون ما يفعل بهم. وقيل: هي مثل قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء:٩٧]. وقيل: أي: ينظرون إلى البعث الذي أنكروه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ نادَوْا على أنفسهم بالويل؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلَّ بهم. وهو منصوبٌ على أنه مصدر عند البصريين. وزعم الفرّاء أن تقديره: يا وَيْ لَنَا، ووَيْ بمعنى حُزْن. النحاس[٣]: ولو كان كما قال لكان منفصلاً، وهو في المصحف مُتَّصل، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا مُتَّصلاً.

و«يَوْمُ الدِّينِ» يوم الحساب. وقيل: يوم الجزاء[٤].

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل: هو من قول بعضهم لبعض؛ أي: هذا اليوم الذي كذَّبنا به. وقيل: هو من قول الله تعالى لهم[٥]. وقيل: من قول الملائكة؛ أي: هذا يومُ الحكم بين الناس، فيبين المُحِقَ من المُبطل. فـ ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[٦] [الشورى:٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٦٨ بنحوه.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٤ ، وما قبله منه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥١٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١٣٠ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)﴾

قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ هو مِن قول الله تعالى للملائكة: «احْشُرُوا» المشركين «وَأَزْوَاجَهُمْ» أي: أشياعَهم في الشِّرك، والشِّرك الظُّلم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فيُحشَر الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية.

وقال عمر بن الخطاب في قول الله عز وجل: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: الزاني مع الزاني، وشاربُ الخمر مع شاربِ الخمر، وصاحبُ السرقة مع صاحبِ السرقة. وقال ابن عباس: «وَأَزْوَاجَهُمْ» أي: أشباههم. وهذا يَرجِعُ إلى قول عمر.

وقيل: «وَأَزْوَاجَهُمْ» نساءهم المُوافِقات عل الكُفر؛ قاله مجاهد والحسن، ورواه النعمان بن بَشير عن عمر بن الخطاب.

وقال الضحاك: «وَأَزْوَاجَهُمْ» قُرَناءهم من الشياطين. وهذا قولُ مقاتل أيضاً: يُحشَر كلُّ كافر مع شيطانه في سلسلة(١).

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: من الأصنام والشياطين وإبليس(٢).

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: سُوقوهم إلى النار. وقيل: «فَاهْدُوهُمْ» أي: دُلُّوهم.

---

(١) الأقوال السالفة في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٥، والنكت والعيون ٥/ ٤٣، وزاد المسير ٧/ ٥٢. وقول ابن عباس وعمر رضي الله عنهم أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣.

يقال: هَدَيْتُه إلى الطريق، وهَدَيْتُه الطريق؛ أي: دَلَلْته عليه. وأهديتُ الهديَّةَ، وهَديتُ العروسَ، ويقال: أهديتها؛ أي: جعلتها بمنزلة الهديَّة[١].

قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ وحكى عيسى بن عمر: «أَنَّهُمْ» بفتح الهمزة. قال الكسائي: أي: لأنهم، وبأنهم[٢]، يقال: وَقفتُ الدابَّةَ أَقِفُها وَقْفاً فوقفتْ هي وقوفاً، يتعدَّى ولا يتعدَّى[٣]؛ أي: احبِسوهم. وهذا يكون قبلَ السَّوق إلى الجحيم؛ وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: قِفُوهم للحساب، ثم سُوقوهم إلى النار. وقيل: يُساقون إلى النار أولاً، ثم يُحشَرون للسؤال إذا قَرُبوا من النار.

«إِنَّهُمْ مسؤولون» عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ قاله القُرَظي والكلبي. الضحاك: عن خطاياهم. ابن عباس: عن لا إله إلا الله[٤]. وعنه أيضاً: عن ظُلم الخَلْق.

وفي هذا كلِّه دليلٌ على أن الكافر يُحاسَب. وقد مضَى في «الحجر» الكلام فيه[٥].

وقيل: سؤالهم: أن يقال لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] إقامة للحجة. ويقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ؛ أي: ينصُر بعضُكم بعضاً، فيمنعه من عذاب الله[٦].

وقيل: هو إشارةٌ إلى قول أبي جهل يومَ بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[٧] [القمر: ٤٤]. وأصلُه: تتناصرون، فطُرحت إحدى التاءين تخفيفاً. وشدَّد البَزِّي التاء في الوصل[٨].

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦ ، وقراءة عيسى بن عمر في القراءات الشاذة ص ١٢٧.

(٣) الصحاح (وقف).

(٤) هذه الأقوال في زاد المسير ٧/ ٥٣ .

(٥) ١٢/ ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٤ بنحوه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٩ ، وزاد المسير ٧/ ٥٣ .

(٨) التيسير ص ٨٣ .

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ قال قتادة: مستسلمون في عذاب الله عز وجل[(١)]. ابن عباس: خاضعون ذليلون. الحسن: مُنقادون. الأخفش: مُلقون بأيديهم. والمعنى مُتقارب.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتخاصمون[(٢)].

ويقال: لا يتساءلون، فسقطت لا. النحاس[(٣)]: وإنما غلِط الجاهل باللغة، فتوهَّم أنَّ هذا من قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، إنما هو: لا يتساءلون بالأرحام، فيقول أحدُهم: أسألك بالرَّحِم الذي بيني وبينك لما نفعتني، أو أسقطتَ لي حقّاً لك عليَّ، أو وهبتَ لي حسنة. وهذا بيِّن؛ لأن قبلَه ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾. أي: ليس ينتفعون بالأنساب التي بينهم؛ كما جاء في الحديث «إنَّ الرجلَ لَيُسَرُّ بأن يصحَّ له على أبيه أو على ابنه حقٌّ فيأخذَه منه، لأنها الحسناتُ والسيئات»[(٤)]، وفي حديث آخر: «رَحِمَ اللهُ امرءا كان لأخيه عنده مَظْلِمةٌ من مال أو عِرْض، فأتاه فاستحلَّه قبل أن يُطالبَه به، فيأخذَ من حسناته، فإنْ لم تكن له حسناتٌ زِيد عليه من سيئات المُطالِب»[(٥)].

و«يَتَسَاءَلُونَ» هاهنا إنما هو أن يسألَ بعضُهم بعضاً ويُوبِّخه في أنه أضلَّه أو فتح له باباً من المعصية؛ يُبيِّن ذلك أن بعده ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾[(٦)].

قال مجاهد: هو قولُ الكفار للشياطين. قتادة: هو قولُ الإنس للجن. وقيل: هو من قول الأتباع للمتبوعين[(٧)]؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٢٤.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥.
(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٦ - ٤١٧.
(٤) لم نقف عليه.
(٥) أخرجه الترمذي (٢٤١٩) بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧.
(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٦٩، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥٢٤.

رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ الآية [سبأ: ٣١].

قال سعيد عن قتادة: أي: تأتوننا عن طريق الخير وتصدُّوننا عنها. وعن ابن عباس نحو منه. وقيل: تأتوننا عن اليمين التي نُحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النُّصح. والعربُ تتفاءل بما جاء عن اليمين وتُسمِّيه السانح. وقيل: «تَأْتُونَنَا عن اليمينِ» تأتوننا مجيء من إذا حلفَ لنا صدَّقناه[١]. وقيل: تأتوننا من قِبل الدِّين فتهوِّنون علينا أمرَ الشريعة وتُنفِّروننا عنها[٢].

قلت: وهذا القولُ حسنٌ جدّاً؛ لأن من جهة الدِّين يكون الخير والشرّ، واليمين بمعنى الدِّين؛ أي: كنتم تزيِّنون لنا الضَّلالة.

وقيل: اليمين بمعنى القوّة؛ أي: تمنعوننا بقوّة وغلبة وقهر؛ قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بالقوّة وقوّة الرجل في يمينه؛ وقال الشاعر:

إذا مَـا رَايَـةٌ رُفِـعـتْ لـمـجـدٍ   تَـلـقّـاهـا عَـرابَـةُ بـالـيـمـيـن[٣]

أي: بالقوَّة والقُدرة. وهذا قولُ ابن عباس. وقال مجاهد: «تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمِينِ» أي: من قِبَل الحقّ أنه معكم[٤]؛ وكلُّه مُتقارب المعنى.

﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال قتادة: هذا قولُ الشياطين لهم[٥]. وقيل: من قول الرؤساء؛ أي: لم تكونوا مؤمنين قطُّ حتى ننقلكم منه إلى الكفر، بل كنتم على الكفر فأقمتُم عليه لِلإلف والعادة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حُجة في ترك الحق. ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أي: ضالِّين مُتجاوزين الحدّ.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ هو أيضاً من قول المتبوعين؛ أي: وجب علينا وعليكم قولُ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧.

(٢) زاد المسير ٧/ ٥٤ بنحوه.

(٣) قائله الشماخ بن ضرار، وهو في ديوانه ص ٣٣٦.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٥ - ٤٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧.

ربَّنا، فكلنا ذائقو العذاب، كما كتب اللهُ وأخبرَ على ألسنة الرُّسل ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[١] [هود:١١٩]. وهذا موافق للحديث: «إنَّ اللهَ جلّ وعزّ كتب للنار أهلاً وللجنة أهلاً، لا يُزادُ فيهم ولا ينقصُ منهم»[٢].

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أي: زيَّنا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ بالوسوسة والاستدعاء. ثم قال خبراً عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الضالّ والمُضِلّ. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الفعل ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: إذا قيل لهم: قولوا، فأضمرَ القولَ.

و«يَسْتَكْبِرُونَ» في موضع نصب على خبر كان. ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر إنّ، وكان مُلغاة[٣]. ولما قال النبي ﷺ لأبي طالب عند موته واجتماع قريش «قولوا: لا إله إلا الله، تَملِكوا بها العربَ، وتَدين لكم بها العَجَم»[٤] أبَوْا وأَنِفُوا من ذلك. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «أنزل اللهُ تعالى في كتابه فذكَر قوماً استكبروا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦] وهي: لا إلهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله» استكبر عنها المشركون يومَ الحُدَيْبِيَة يومَ كاتَبهم رسولُ الله ﷺ

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٣٦ ، وزاد المسير ٧/ ٥٤ - ٥٥ .

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج نحوه أحمد (٦٥٦٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف، وفي هذا المعنى عدة أحاديث ثابتة سلفت الإشارة إليها ٩/ ٣٧٦ ، منها حديث علي ﷺ، ولفظه: «ما منكم من أحدٍ، ما من نفس منفوسة إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة والنار..» أخرجه أحمد (٦٢١)، والبخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٨ .

(٤) أخرجه أحمد (٢٠٠٨)، والترمذي (٣٢٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

على قضية المُدَّة؛ ذكر هذا الخبرَ البيهقيُّ[١]، والذي قبله القشيري.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ أي: لِقول شاعرٍ مجنون؛ فردَّ الله جل وعز عليهم فقال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن والتوحيد ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيما جاؤوا به من التوحيد.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ الأصلُ: لذائقون، فَحُذِفَت النون استخفافاً وخُفضت للإضافة. ويجوز النصبُ كما أنشد سيبويه[٢]:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيرَ مُسْتَعْتِبٍ ... وَلَا ذَاكِرِ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً[٣]

وأجاز سيبويه «وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةَ» [الحج: ٣٥][٤] على هذا.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا بما عَمِلتم من الشرك ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء ممن يذوق العذاب. وقراءة أهل المدينة والكوفة: «الْمُخْلَصِينَ» بفتح اللام[٥]، يعني الذين أخلصهم اللهُ لطاعته ودينه وولايته. الباقون بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا لله العبادة. وقيل: هو استثناءٌ منقطع؛ أي: إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب، لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب[٦].

---

(١) في الأسماء والصفات (١٩٦)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٢١٨).

(٢) في الكتاب ١/ ١٦٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٨.

(٣) قائله أبو الأسود الدؤلي، وسلف ٢/ ١٥.

(٤) قرأ بها ابن أبي إسحاق، كما ذكرناه ١٤/ ٣٩٣.

(٥) السبعة ص ٣٤٨، والتيسير ص ١٢٨.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١٣٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ يعني المخلَصين؛ أي: لهم عطيةٌ معلومةٌ لاتنقطع. قال قتادة: يعني الجنة. وقال غيره: يعني رزق الجنة. وقيل: هي الفواكهُ التي ذَكَر. قال مقاتل: حين يَشتهونه. وقال ابن السائب: إنه بمقدار الغَداة والعَشِيّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمع فاكهة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢] وهي الثِّمار كلُّها رَطْبها ويابسها؛ قاله ابن عباس(١).

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي: ولهم إكرامٌ من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه. ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في بساتين يتنعَّمون فيها. وقد تقدَّم أن الجِنان سبعٌ في سورة «يونس» منها النعيم(٢).

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ قال عكرمة ومجاهد: لا ينظر بعضُهم في قَفا بعض(٣)، تواصلاً وتحاباً. وقيل: الأَسِرَّة تدور كيف شاؤوا، فلا يرى أحدٌ قفا أحد. وقال ابن عباس: على سُرر مُكلَّلة بالدُّرّ والياقوت والزَّبرجد؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية، وما بين عَدَن إلى أيلة(٤). وقيل: تدور بأهل المنزل الواحد. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ لمَّا ذكَر مطاعِمَهم ذَكَر شرابَهم.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٥٥ - ٥٦ .

(٢) ١٠/ ٤٨١ .

(٣) قول مجاهد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ١٣٨ ، وقول عكرمة أورده النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٤) لم نقف عليه. وأيلة: جبل بين مكة والمدينة قرب ينبع.

والكأسُ عند أهل اللغة اسمٌ شامل لكلِّ إناء مع شرابه؛ فإنْ كان فارغاً فليس بكأس[١]. قال الضحاك والسدي: كلُّ كأس في القرآن فهي الخمر، والعربُ تقول للإناء إذا كان فيه خمرٌ: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إناء وقدح[٢].

النحاس[٣]: وحكَى من يُوثق به من أهل اللغة أن العرب تقول لِلقَدَح إذا كان فيه خمر: كأس؛ فإذا لم يكن فيه خمرٌ فهو قَدَح؛ كما يقال للخُوَان إذا كان عليه طعام: مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له: مائدة. قال أبو الحسن بن كيسان: ومنه: ظَعينة، للهودج إذا كان فيه المرأة.

وقال الزجاج[٤]: «بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ» أي: من خمر تجري كما تجرى العيون على وجه الأرض. والمعين: الماء الجاري الظاهر[٥].

﴿بَيْضَآءَ﴾ صفةٌ للكأس. وقيل: للخمر. ﴿لَذَّةٍ لِلشَّٰرِبِينَ﴾ قال الحسن: خمرُ الجنة أشدُّ بياضاً من اللبن[٦]. «لَذَّةٍ»، قال الزجاج[٧]: أي: ذات لذَّة، فحذف المضاف. وقيل: هو مصدر جعل اسما، أي: بيضاء لذيذة؛ يقال: شرابٌ لذٌّ ولذيذ، مثل: نباتٌ غَضٌّ وغَضِيض. فأما قولُ القائل:

ولَذٍّ كطَعْمِ الصَّرْخَدِيِّ تركتُهُ بأرض العِدَا مِنْ خَشيةِ الحَدَثَانِ[٨]

(١) زاد المسير ٧/ ٥٦ ، وينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٣١٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٥٣١ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ١٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢ ، وزاد المسير ٧/ ٥٦ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٨) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص١٨٦ ، وروايته:

ولَذٍّ كطعم الصرخدي طرحتُه عشية خمس القوم والعين عاشقه

والبيت ذكره مثل رواية المصنف الأزهريُّ في تهذيب اللغة ١٤/ ٤٠٩ ، والزمخشري في الكشاف =

فإنه يريد النوم. وقيل: «بَيْضَاءَ» أي: لم يعتصرها الرجال بأقدامهم. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم، ولا يُصيبهم منها مرضٌ ولا صُداع[١].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي: لا تذهبُ عقولُهم بشربها[٢]؛ يقال: الخمرُ غَوْل للحِلْم، والحربُ غولٌ للنفوس؛ أي: تذهبُ بها. ويقال: نُزِف الرجلُ يُنْزَف، فهو منزوفٌ ونَزِيفٌ، إذا سَكِرَ. قال امرؤ القيس:

وإذ هي تمشِي كمشي النَّزيـ ـفِ يَصْرَعُه بالكثيب البُهُرْ[٣]

وقال أيضاً:

نَزيفٌ إذا قامتْ لِوجهٍ تمايلَتْ تُراشِي الفؤادَ الرَّخصَ ألَّا تَختَّرا[٤]

وقال آخر:

فلثمتُ فاها آخِذاً بِقُرونها شُرْبَ النَّزيفِ ببرد ماءِ الحَشْرجِ[٥]

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي[٦]؛ من أنزف القومُ، إذا حان منهم النَّزْف، وهو السُّكر. يقال: أحصدَ الزَّرعُ، إذا حان حَصادُه، وأقطفَ الكرمُ، إذا حان قِطافُه، وأَركبَ المهرُ، إذا حان رُكوبه. وقيل: المعنى: لا يُنفِدون شرابَهم؛ لأنه دأبهم؛ يقال: أَنزف الرجل، فهو منزوف، إذا فَنِيتْ خمرُه. قال الحُطيئة:

= ٣/ ٣٤٠ . وصرخد: موضع ينسب إليه الشراب. اللسان (صرخد). قال الأزهري: أراد: أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذاراً لهم.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧ ، وزاد المسير ٧/ ٥٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ١٥٦ . قال شارحه: البهر: من الانبهار، وهو انقطاع النَّفَس.

(٤) ديوان امرئ القيس ص٦١. الرخص: الناعم. القاموس (رخص). قال شارح الديوان: أي: تداري فؤادها لتشتدّ عند المشي ولا تفتر.

(٥) البيت في الأغاني ١/ ١٩١ ضمن أبيات لعمر بن أبي ربيعة. وهو في اللسان (حشرج) وفيه: قال ابن بري: البيت لجميل بن معمر وليس لعمر بن أبي ربيعة. والنزيف: المحموم الذي مُنع من الماء. والحشرج: النُّقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو.

(٦) السبعة ص ٥٤٧ والتيسير ص ١٨٦ .

لَعَمْرِي لَئِن أَنْزَفْتُم أو صَحَوْتُم ... لَبِئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أَبْجَرا[١]

النحاس[٢]: والقراءةُ الأولى[٣] أبينُ وأصحُّ في المعنى؛ لأن معنى «يُنْزَفُونَ» عند جِلَّة أهل التفسير ـ منهم مجاهد[٤] ـ : لا تذهب عقولهم؛ فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفاتِ التي تلحق في الدنيا من خمرها، من الصُّداع والسُّكر. ومعنى «يُنْزِفُونَ» الصحيح فيه أنه يقال: أنزف الرجل إذا نَفِدَ شرابُه، وهو يبعد أن يُوصَفَ به شرابُ الجنة؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى: لا يَنفَدُ أبداً.

وقيل: «لَايُنْزِفُونَ» بكسر الزاي: لا يَسْكَرون؛ ذكره الزجاج وأبو عليّ[٥] على ما ذكره القُشَيري.

المهدوي: ولا يكون معناه: يَسْكَرون؛ لأن قبلَه «لا فيها غَوْلٌ». أي: لا تغتال عقولَهم فيكون تكراراً؛ ويسوغ ذلك في «الواقعة»[٦].

ويجوز أن يكون معنى «لا فيها غَوْلٌ» لا يمرضون؛ فيكون معنى «ولاهُمْ عنها يُنْزَفُونَ» لا يَسْكَرون أو لا ينفَدُ شرابُهم[٧]. قال قتادة: الغول وجعُ البطن. وكذا روى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهد: «لا فيها غَوْلٌ» قال: لا فيها وجعُ بطن. الحسن: صُداع. وهو قول ابن عباس «لا فيها غَوْلٌ»: لا فيها صُداع[٨]. وحكى الضحاك عنه أنه قال:

---

(١) لم نقف عليه في ديوان الحطيئة، ونسبه الطبري في تفسيره ١٩/ ٥٣٧، والجوهري في صحاحه (نزف)، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢ للأُبَيْرِد الرِّياحي، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٣، والحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٤ – ٥٥، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وزاد المسير ٧/ ٥٧، وكلهم أورد البيت شاهداً على أن أنزف بمعنى سَكِرَ.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩.

(٣) يعني قراءة: «يُنزَفون» بفتح الزاي.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٣، والحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٥.

(٦) في تفسير الآية (١٩).

(٧) الكلام بنحوه في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٥.

(٨) أخرج هذه الأقوال ـ ماعدا قول الحسن ـ الطبري ١٩/ ٥٣٢ – ٥٣٣ وقول الحسن ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٧

في الخمر أربعُ خِصال: السُّكر والصُّداع والقيء والبول؛ فذكر الله خمرَ الجنة فنزَّهَها عن هذه الخِصال[١]. مجاهد: داء. ابن كيسان: مَغْص. وهذه الأقوالُ متقاربة.

وقال الكلبي: «لا فيها غَوْلٌ» أي: إثم[٢]؛ نظيره: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]. وقال الشعبي والسدي وأبو عُبيدة: لا تغتال عقولَهم فتذهب بها. ومنه قول الشاعر:

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنا ... وتذهبُ بالأولِ الأولِ[٣]

أي: تصرعُ واحداً واحداً.

وإنما صرفَ الله تعالى السُّكر عن أهل الجنة لئلا ينقطعَ الالتذاذ عنهم بنعيمهم.

وقال أهل المعاني: الغَوْل فسادٌ يلحق في خفاء. يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسدَ عليه أمره في خُفية[٤]. ومنه الغَوْل والغِيلة: وهو القتل خُفية.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: نساء قد قَصَرْنَ طرفهنَّ على أزواجهنَّ فلا ينظرن إلى غيرهم؛ قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم. عكرمة: «قَاصِرَات الطَّرْف» أي: محبوساتٌ على أزواجهنّ. والتفسير الأوّل أبينُ؛ لأنه ليس في الآية مقصورات، ولكن في موضع آخر: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ [الرحمن: ٧٢] يأتي بيانُه[٥].

و«قاصرات» مأخوذ من قولهم: قد اقتصر على كذا، إذا اقتنع به وعدلَ عن غيره؛ قال امرؤ القيس:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٢٧٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٦٩، وقول السدي أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٤، والبيت نسبه الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٣٧ لمطيع بن إياس، وهو غير منسوب في تفسير الطبري ١٩/ ٥٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠، وقول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٧ - ٥٣٨.

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ ... من الذَّرِّ فَوْقَ الإتْب منها لأثَّرا[(١)]

ويروى: فوق الخد[(٢)]. والأوّل أبلغ. والإتْب القميص، والمُحْوِل: الصغير من الذر. وقال مجاهد أيضاً: معناه: لا يَغَرْنَ[(٣)].

﴿عِينٌ﴾ عِظامُ العيون، الواحدة عَيْناء؛ وقاله السُّدي. مجاهد: «عِينٌ» حِسان العيون[(٤)]. الحسن: الشديداتُ بياض العين، الشديدات سوادها[(٥)]. والأوّل أشهرُ في اللغة. يقال: رجلٌ أعينُ، واسع العين، بيِّن العَيَن، والجمع: عِين، وأصله فُعْل بالضم، فكسرت العين؛ لئلا تنقلب الواو ياء. ومنه قيل لبقر الوحش: عِين، والثور أعينُ، والبقرة عَيْناء[(٦)].

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي: مصون. قال الحسن وابن زيد: شُبِّهن ببيض النَّعام، تَكُنُّها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونُها أبيضُ في صُفرة، وهو أحسنُ ألوان النساء. وقال ابن عباس وابن جُبير والسدي: شُبِّهن ببطن البيض قبل أن يُقْشَرَ وتَمَسَّه الأيدي. وقال عطاء: شُبِّهن بالسِّحاء الذي يكون بين القِشرة العليا ولُباب البَيْض[(٧)]. وسَحَاةُ كل شيء قِشْره، والجمع سَحًا؛ قاله الجوهري[(٨)]. ونحوه قول الطبري[(٩)]، قال: هو القِشر الرقيق، الذي على البيضة بين ذلك. ورَوَى نحوه عن النبيّ ﷺ[(١٠)].

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ٦٨ .

(٢) ذكره بهذه الرواية الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٨ ، والكلام السالف فيه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨ ، وزاد المسير ٧/ ٥٨ ، وقول السدي أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٩ .

(٥) مجمع البيان ٢٣/ ٥٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠ ، والصحاح (عين).

(٧) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٥٤٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧ ، وزاد المسير ٧/ ٥٨ .

(٨) في الصحاح (سحا).

(٩) في تفسيره ١٩/ ٥٤١ .

(١٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، بلفظ: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ =

والعربُ تُشبِّه المرأة بالبيضة لِصفائها وبياضها[١]؛ قال امرؤ القيس:

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها تَمتَّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ[٢]

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحُسن والنظافة: كأنه بيضُ النعام المُغطَّى بالريش[٣]. وقيل: المكنون: المَصُون عن الكسر؛ أي: إنهنَّ عذارَى. وقيل: المرادُ بالبيض اللؤلؤ[٤]؛ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣] أي: في أصدافه؛ قاله ابن عباس أيضاً. ومنه قول الشاعر:

وهي بيضاءُ مِثلُ لُؤلُؤة الغَوَّاصِ مِيزَتْ مِن جَوْهَرٍ مَكْنونِ[٥]

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع؛ لأنه ردَّ النَّعت إلى اللَّفظ[٦].

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يتفاوضون فيما بينهم

= قال: «رِقَّتُهنَّ كرِقَّة الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة التي تلي القشرة..» وفي إسناده سليمان ابن أبي كريمة. ضعَّفه أبو حاتم، وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٢١.

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨، و تفسير البغوي ٤/ ٢٧، وزاد المسير ٧/ ٥٨، وفيهما: والعرب تُشَبِّه المرأة ببيضة النعامة.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٣، والبيت من معلقته.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) قائله أبو دهبل، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٥٤١، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وخزانة الأدب (طبعة دار صادر) ٣/ ٢٨٠ وعند الطبري والبغدادي: زهراء، بدل: بيضاء.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧.

أحاديثَهم في الدنيا. وهو من تمام الأُنس في الجنة. وهو معطوفٌ على معنى «يُطَاف عليهم» المعنى: يشربون فيتحادثون على الشَّراب كعادة الشُّرَّاب. قال بعضهم:

وما بَقِيَتْ من اللَّذاتِ إلَّا أحاديثُ الكِرامِ على المُدام

فَيُقبِل بعضُهم على بعض يتساءلون عمَّا جرى لهم وعليهم في الدنيا؛ إلا أنه جيء به ماضياً على عادة الله تعالى في إخباره[١].

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل الجنة: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي: صديقٌ مُلازم ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: بالمبعث والجَزاء. وقال سعيد بن جُبير: قرينه شريكه[٢]. وقد مضى في «الكهف» ذكرهما وقصَّتهما والاختلافُ في اسميهما مستوفىً عند قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الآية: ٢٢]. وفيهما أنزل اللهُ جلّ وعزّ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ إلى ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

وقيل: أراد القرين قرينَه من الشياطين، كان يُوسوس إليه بإنكار البعث[٣].

وقرئ: «أَئِنَّكَ لمنَ المُصَّدِّقِينَ» بتشديد الصاد. رواه عليّ بن كِيْسة عن سليم عن حمزة[٤]. قال النحاس[٥]: ولا يجوز «أَئِنَّكَ لمنَ المُصَّدِّقِينَ» لأنه لا معنى للصَّدقة هاهنا.

وقال القشيري: وفي قراءة عن حمزة: «أَئِنَّكَ لَمنَ المُصَّدِّقِينَ» بتشديد الصاد.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/١٣٨، والبيت فيه دون نسبة.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/٤٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٥٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) النكت والعيون ٥/٤٩، وتفسير البغوي ٤/٢٨، وزاد المسير ٧/٥٩ عن مجاهد.

(٤) وهي غير المشهورة عن حمزة، والمشهورة عنه كقراءة الجماعة، وذكرها عن حمزة غير المصنف ابنُ الجوزي في زاد المسير ٧/٥٩ لكن من طريق بكر بن عبد الرحمن القاضي عنه. وعلي بن كِيْسة روى القراءة عن سليم، وهو ابن عيسى بن سليم أبو محمد الحنفي، مولاهم، الكوفي، المقرئ، توفي سنة (١٨٨ هـ). الإكمال لابن ماكولا ٧/١٥٧ - ١٥٨، وطبقات القراء ١/٣١٨.

(٥) في إعراب القرآن ٣/٤٢١.

واعتُرِضَ عليه بأنَّ هذا من التصديق لا من التصدُّق. والاعتراضُ باطل؛ لأن القراءة إذا ثَبتتْ عن النبيّ ﷺ فلا مَجال للطَّعن فيها. فالمعنى «أئِنَّكَ لمنَ المُصَدِّقِينَ» بالمال طلباً في ثواب الآخرة.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مَجْزِيُّون مُحاسَبون بعد الموت.

فـ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لأهل الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾. وقيل: هو من قول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مُطَّلعون إلى النار لِننظُرَ كيف حالُ ذلك القرين[١].

وقيل: هو من قول الملائكة. وليس «هَلْ أنتُم مُطَّلِعُونَ» باستفهام، إنما هو بمعنى الأمر، أي: اِطَّلِعوا؛ قال ابن الأعرابي[٢] وغيره. ومنه لمَّا نزلت آية الخمر قام عمرُ قائماً بين يدي النبيّ ﷺ، ثم رفع رأسَه إلى السماء، ثم قال: يا ربّ، بياناً أشفى من هذا في الخمر. فنزلت: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال: فنادى عمرُ: انتهينا يا ربَّنا[٣].

وقرأ ابن عباس: «هل أنتم مُطْلِعُونَ» بإسكان الطاء خفيفة «فَأُطْلِعَ»، بقطع الألف مخفَّفة[٤]، على معنى: هل أنتم مُقبلون فأقبل.

قال النحاس[٥]: «فَأُطْلِعَ فَرَآهُ» فيه قولان: أحدهما أن يكون فعلاً مستقبلاً، معناه: فأطلع أنا، ويكون منصوباً على أنه جوابُ الاستفهام. والقول الثاني: أن يكون فعلاً ماضياً، ويكون اطَّلعَ وأطلع واحداً. قال الزجاج[٦]: يقال: طَلَع وأَطْلَعَ واطَّلعَ بمعنىً واحد. وقد حُكي: «هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ» بكسر النون، وأنكره أبو حاتم[٧] وغيره.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٨.

(٢) ياقوتة الصراط ص ٤٢٧ – ٤٢٨، وما بعده منه.

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٨)، وأبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، وسلف ٨/ ٥٧.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢١٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٣.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٢.

(٧) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٣٦١ لعمار بن أبي عمار، وإنكار أبي حاتم ذكره ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٢٠.

النحاس[١]: وهو لحنٌ لا يجوز؛ لأنه جمعٌ بين النون والإضافة، ولو كان مضافاً لكان: هل أنتم مُطْلِعيّ، وإن كان سيبويه والفرّاء قد حكيا مثلَه، وأنشدا:

هُـمُ الـقـائـلـونَ الـخـيـرَ والآمِـرونَـهُ ... إذا ما خَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَما[٢]

وأنشد الفراء: والفاعلونه. وأنشد سيبويه وحدَه:

ولـم يَـرْتـفِـق والـنـاس مُـحـتَـضِـرونـه[٣]

وهذا شاذٌّ خارجٌ عن كلام العرب[٤]، وما كان مثل هذا لم يُحتَجّ به في كتاب الله عز وجل، ولا يدخل في الفصيح. وقد قيل في توجيهه: إنه أجرى اسمَ الفاعل مجرى المضارع لِقُربه منه، فجرى «مُطْلِعُونِ» مجرى يُطْلِعُونِ. ذكره أبو الفتح عثمان بن جني[٥] وأنشد:

أَرَيْـتَ[٦] إن جـئـتُ بـه أُمْـلُـودا ... مُـرَجَّـلاً ويَـلْـبَـسُ الـبُـرُودا

أَقـائِـلُـنَّ أَحـضِـروا[٧] الـشُّـهُـودا

فأجرى أقائلُنّ مجرى أَتَقولُن. وقال ابن عباس في قوله تعالى: «هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ فاطَّلَعَ فَرَآهُ» إنّ في الجنة كُوًى ينظر أهلُها منها إلى النار وأهلِها[٨]. وكذلك قال كعب

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٢.

(٢) الكتاب لسيبويه ١/ ١٨٨ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٦ ،

(٣) الشطر الثاني كما في الكتاب ١/ ١٨٨ : جميعاً وأيدي المُعتَفين رَواهِقُه.

(٤) هذا قول النحاس، وقد قال قبله: أما البيتان اللذان أنشدهما سيبويه وشركه الفراء في أحدهما فلا يُعرف من قالهما، ولا تثبت بهما حجة، اهـ. ونقل البغدادي في خزانة الأدب ٤/ ٢٧٠ عن النحاس قوله: وهذا لا يلزم سيبويه منه غلط؛ لأنه قد قال نصًّا: وزعموا أنه مصنوع، فهو عنده مصنوع لا يجوز، فكيف يلزمه منه غلط؟!

(٥) المحتسب ٢/ ٢٢٠ .

(٦) في النسخ: أرأيت، والمثبت من الخزانة ١١/ ٤٢٠ ، قال البغدادي: أصله: أرأيت، بمعنى: أخبرني، حذفت الهمزة تخفيفاً.

(٧) في الخزانة: أحضري، قال البغدادي: رواه العيني: أحضروا، بواو الجمع، ولا وجه له. والأُملود: الناعم. وهذا من رجز أورده السكري في أشعار هذيل لرجل منهم.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨ ، وزاد المسير ٧/ ٦٠ .

فيما ذكر ابن المبارك، قال: إنَّ بين الجنة والنار كُوًى، فإذا أراد المؤمن أن ينظُرَ إلى عدوٍّ كان له في الدنيا اطلع من بعض الكُوى؛ فقال الله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: في وسط النار والحسَكُ حواليه؛ قاله ابن مسعود(١).

ويقال: تعبتُ حتى انقطع سَوَائي: أي وسطي. وعن أبي عُبيدة: قال لي عيسى بن عمر: كنتُ أكتبُ يا أبا عُبيدة حتى ينقطع سَوَائي(٢).

وعن قتادة قال: قال بعض العلماء: لولا أنَّ الله جلّ وعزّ عرَّفه إيَّاه لما عَرَفه، لقد تغيَّر حِبْرهُ وسِبْرهُ(٣). فعند ذلك يقول: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ «إنْ» مُخفَّفة من الثقيلة دخلتْ على كاد كما تدخل على كان. ونحوه ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ [الفرقان: ٤٢] واللامُ هي الفارقةُ بينها وبين النافية(٤).

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في النار. وقال الكسائي: «لَتُرْدِينِ» أي: لَتُهْلِكني، والرَّدَى الهَلاك. وقال المبرد: لو قيل: «لَتُردِينِ» لَتُوقِعني في النار لكان جائزاً(٥). «وَلَولا نِعْمَةُ رَبِّي» أي: عصمتُه وتوفيقُه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القَرين السوء. وما بعد «لولا» مرفوعٌ بالابتداء عند سيبويه، والخبرُ محذوف.

«لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ» قال الفراء(٦): أي: لَكنتُ معك في النار مُحضَراً. وأحضر لا يُستعمل مطلقاً إلا في الشرّ؛ قاله الماوردي(٧).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وقرئ: «بِمائِتِين»(٨)، والهمزة في «أَفَما»

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٣ .

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٧٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٤٨ عن قتادة عن مطرف بن عبد الله، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٠ عن قتادة. وقوله: حبره وسبره، يعني: لونه وهيئته. الصحاح (حبر).

(٤) الكشاف ٣/ ٣٤١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٤ .

(٦) نقله المصنف عنه بواسطه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٤ ، وما قبله منه.

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٥٠ .

(٨) قرأ بها زيد بن علي كما في البحر المحيط ٧/ ٣٦٢ .

للاستفهام دخلتْ على فاء العطف، والمعطوف محذوفٌ، معناه: أنحن مخَلَّدون مُنعَّمون فما نحن بميِّتين ولا مُعذَّبين[١]؟

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يكون استثناءً ليس من الأول، ويكون مصدراً؛ لأنه منعوت[٢]. وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذبَح الموت، «ويقال: يا أهلَ الجنة، خلودٌ ولا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ ولا موت»[٣].

وقيل: هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله في أنهم لا يموتون ولا يُعذَّبون؛ أي: هذه حالُنا وصفتُنا.

وقيل: هو من قول المؤمن توبيخاً للكافر لِمَا كان يُنكره من البعث، وأنه ليس إلا الموت في الدنيا. ثم قال المؤمن مُشيراً إلى ما هو فيه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٤] يكون «هو» مبتدأ، وما بعده خبرٌ عنه، والجملةُ خبرُ «إنّ». ويجوز أن يكون «هو» فاصلاً[٥]. ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ يَحتمِل أن يكونَ من كلام المؤمن لمَّا رأى ما أعدَّ اللهُ له في الجنة وما أعطاه قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ العطاء والفضل ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾. نظير ما قال له الكافر: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. ويَحتمِلُ أن يكون من قول الملائكة. وقيل: هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا؛ أي: قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء، و«لمثل هذا» الجزاء «فَلْيَعْمَلِ العاملُونَ»[٦].

النحاس: وتقدير الكلام ـ والله أعلم ـ: فَلْيعملِ العاملون لمثل هذا. فإن قال

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٤.

(٣) قطعة من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، وأوله: «يُؤتَى بالموت كهيئة كبش أملح... فيُذبَح»، وسلف بتمامه ١٣/ ٤٥٥.

(٤) زاد المسير ٧/ ٦٠ - ٦١.

(٥) إعراب النحاس ٣/ ٤٢٤.

(٦) زاد المسير ٧/ ٦١ بنحوه.

قائل: الفاء في العربية تدلُّ على أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها يُنوَى به التقديم؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حقَّ حروفِ الخفض وما بعدها أن تكون متأخرةً[١].

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، وهو من قول الله جل وعز. ﴿نُّزُلًا﴾ على البيان؛ والمعنى: أنعيمُ الجنة خيرٌ نُزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ خيرٌ نزلاً؟. والنُّزُل في اللغة: الرِّزق الذي له سَعَة. النحاس[٢]: وكذا النَّزل والنُّزل[٣]، إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل بإسكان الزاي لغة، ويجوز أن يكون أصلُه النُّزُل [فَحُذِفت الضَّمةِ لِثقلها]؛ ومنه: أُقيم للقوم نُزُلهم. واشتقاقُه أنه الغذاء الذي يصلُح أن ينزلوا معه ويُقيموا فيه. وقد مضى هذا في آخر سورة «آل عمران»[٤]. وشجرةُ الزَّقُّوم مشتقةٌ من التزقُّم، وهو البَلْع على جهد لكراهتها ونَتْنها[٥].

قال المفسرون: وهي في الباب السادس، وأنها تحيا بِلهَبِ النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء[٦]؛ فلابدَّ لأهل النار من أن ينحدرَ إليها مَن كان فوقها فيأكلون منها، وكذلك يصعَد إليها من كان أسفلَ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٤.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٤، وما قبله منه، وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٣) قوله: النُّزْل، ليست في (م).

(٤) ٥/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٥.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥١ عن يحيى بن سلام.

واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها معروفةٌ من شجر الدنيا. ومن قال بهذا اختلفوا فيها؛ فقال قطرب: إنها شجرةٌ مُرَّة تكون بِتِهامة من أخبثِ الشجر. وقال غيره: بل هو كلُّ نبات قاتل. القول الثاني: إنها لا تُعرف في شجر الدنيا. فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقُّوم قالت كفار قريش: ما نعرف هذه الشجرة. فقَدِمَ عليهم رجلٌ من إفريقية، فسألوه فقال: هو عندنا الزُّبْد والتَّمر. فقال ابن الزِّبَعْرى: أكثرَ اللهُ في بيوتنا الزَّقُّوم. فقال أبو جهل لجاريته: زَقِّمينا؛ فأَتَتْه بِزُبْد وتمر. ثم قال لأصحابه تزقَّموا؛ هذا الذي يُخوِّفنا به محمد؛ يزعمُ أن النار تُنبِتُ الشجر، والنارُ تَحرِقُ الشجر[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرةٌ وهي تَحرِق الشجر؟ وقد مضَى هذا المعنى في «سبحان»[2]. واستخفافُهم في هذا كقولهم في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]: ما الذي يُخصِّص هذا العَدَد؟ حتى قال بعضُهم: أنا أَكفيكم منهم كذا، فاكفُوني الباقين[3]. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١] والفتنة الاختبار، وكان هذا القولُ منهم جهلاً، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلُقَ اللهُ في النار شجراً من جنسها لا تأكلُه النار، كما يخلقُ اللهُ فيها الأغلالَ والقيود والحياتِ والعقاربَ وخَزَنَةَ النار.

وقيل: هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنةَ والنار على نعيم أو عقاب تتخلَّله الأرواح، وحملوا وزنَ الأعمال والصراط واللوح والقلم على معانٍ زوَّروها في أنفسهم، دون ما فَهِمه المسلمون من موارد

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠ - ٥١. وخبر أبي جهل أخرجه الطبري ١٩/ ٥٥٢ عن السدي، وسلف قوله وقول ابن الزبعرى ١٣/ ١١١-١١٢.

(٢) ١٣/ ١١١.

(٣) هو أبو الأشدّ الجمحي، وسيأتي خبره في تفسير الآية (٣٠) من سورة المدثر.

الشَّرع، وإذا ورد خبرُ الصادق بشيء موهوم في العقل، فالواجب تصديقُه وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويلٌ باطلٌ لا يجوز، والمسلمون مُجمعون على الأَخْذِ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن وقيل: إنها فتنة، أي: عقوبة للظالمين؛ كما قال: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: قَعْر النار، ومنها منشؤها، ثم هي متفرِّغة في جهنم[(١)]. ﴿طَلْعُهَا﴾أي: ثمرها؛ سُمِّي طَلْعاً لِطلوعه ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قيل: يعني: الشياطين بأعيانهم، شَبَّهها برؤوسهم لِقُبْحِهم، ورؤوس الشياطين متصوَّر في النفوس وإن كان غيرَ مرئيّ. ومن ذلك قولهم لكل قبيح: هو كصورة الشيطان، ولكلِّ صورة حسنة: هي كصورة مَلَك. ومنه قوله تعالى مُخبراً عن صَواحب يوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وهذا تشبيهٌ تخييلي؛ رُوي معناه عن ابن عباس والقُرَظي[(٢)]. ومنه قول امرئ القيس:

ومَسْنُونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوَالِ[(٣)]

وإن كانت الغولُ لا تُعرَف؛ ولكن لِمَا تصوَّر من قُبحها في النفوس[(٤)]. وقد قال الله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] فمردةُ الإنس شياطينُ مرئية. وفي الحديث الصحيح: «ولَكأنَّ نَخْلها رؤوس الشياطين»[(٥)] وقد ادَّعى كثيرٌ من العرب رؤيةَ الشياطين والغيلان.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٦٣ عن الحسن بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩ بنحوه.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٣٣، وصدره: أَيَقتُلني والمَشْرَفيُّ مُضاجِعي. قال شارحه: المَشْرَفي: سيف نسب إلى قرى بالشام يقال لها: المشارف. وأراد بالمسنونة الزُّرق: سهاماً محدَّدة الأزجَّة صافية، شبَّهها بأنياب الأغوال تشنيعاً لها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١ - ٥٢ بنحوه.

(٥) قطعة من حديث سِحْر النبي ﷺ أخرجه أحمد (٢٤٣٠٠)، والبخاري (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال الزجاج والفرّاء[١]: الشياطين حياتٌ لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيَّات وأخبثها وأخفِّها جسماً. قال الراجز وقد شبَّه المرأة بحية لها عُرْف:

عَـنْـجَـرِدٌ تَـحْـلِـفُ حـيـن أحـلِـف كـمـثْـلِ شـيـطـانِ الـحَـمَـاطِ أعْـرَفُ

الواحدة حَمَاطة[٢]. والأعرف: الذي له عُرْف.

وقال الشاعر يَصِفُ ناقته:

تُـلاعِـبُ مَـثْـنَـى حَـضْـرَمـيٍّ كـأنّـه تَـعَـمُّـجُ شـيـطـان بـذي خِـرْوَعٍ قَـفْـرِ

التَّعَمُّج: الاعوجاج في السَّير. وسهم عَمُوج: يتلوَّى في ذهابه. وتَعمَّجَتِ الحية: إذا تلوَّتْ في سَيْرها. وقال يَصِفُ زِمام الناقة:

تُـلاعِـبُ مَـثْـنَـى حَـضْـرَمـيٍّ كـأنـه تَـعَـمُّـجُ شـيـطـانٍ بـذي خِـرْوَعٍ قَـفْـرِ[٣]

وقيل: إنما شبه ذلك بِنَبْتٍ قبيح في اليمن يقال له: الأَسْتَن والشيطان. قال النحاس[٤]: وليس ذلك معروفاً عند العرب. الزمخشري[٥]: هو شجرٌ خَشِنٌ مُنتِنٌ مُرٌّ مُنكَر الصورة يُسمَّى ثمره رؤوسَ الشياطين. النحاس[٦]: وقيل: الشياطين ضربٌ من الحيات قِباح.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ فهذا طعامُهم وفاكهتهم بدل رِزْق أهل الجنة. وقال في «الغاشية»: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الآية: ٦] وسيأتي.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: بعد الأكل من الشجرة ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الشَّوب

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٦، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٧.

(٢) الصحاح (حمط)، والرجز فيه وفي معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٧، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٥٤ دون نسبة. وامرأة عَنْجَرِدٌ: خبيثة سية الخُلق. اللسان (عنجرد). والحَمَاط: شجر شبيهٌ بالتين أحبُّ شجر إلى الحيَّات. القاموس (حمط).

(٣) الصحاح (عمج)، والبيت فيه دون نسبة، ونسبه الجاحظ في الحيوان ٤/ ١٣٣ لطرفة.

(٤) في معاني القرآن ٦/ ٣٤، وما قبله منه.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٤٢.

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٣٥.

الخلط، والشَّوْب والشُّوب لغتان[١]، كالفَقْر والفُقْر، والفتح أشهر. قال الفراء[٢]: شابَ طعامَه وشرابَه إذا خلطَهما بشيء، يشوبهما شَوْباً وشيابة. فأخبر أنه يُشاب لهم. والحميم: الماءُ الحار، ليكونَ أشنع؛ قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

السّدي: يُشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديدٍ من قيحهم ودمائهم[٣]. وقيل: يُمزَج لهم الزقُّوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارةِ الزقُّوم وحرارةِ الحميم؛ تغليظاً لِعذابهم وتجديداً[٤] لبلائهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل: إنَّ هذا يدلُّ على أنهم كانوا حين أكلوا الزقُّوم في عذابٍ في غيرِ النار، ثم يُرَدُّون إليها. وقال مقاتل: الحميم خارجُ الجحيم، فهم يُوردون الحميم لِشُربه، ثم يُرَدُّون إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤].

وقرأ ابن مسعود: «ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُم لإلى الجحيم»[٥] وقال أبو عُبيدة: يجوز أن تكون «ثم» بمعنى الواو. القشيري: ولعلَّ الحميمَ في موضع من جهنم على طَرَفٍ منها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي: صادفوهم كذلك فاقتَدَوا بهم ﴿فَهُمْ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٧، وقال: الشَّوب المصدر، والشُّوب الاسم.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٥٥ عن ابن زيد.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٥٢ (والكلام منه): وتشديداً.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥٥٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي: يُسرعون؛ عن قتادة. وقال مجاهد: كهيئة الهرولة[١]. قال الفراء[٢]: الإهراعُ الإسراع برِعْدة. وقال أبو عُبيدة[٣]: «يُهْرَعُونَ» يُستحَثُّون من خَلْفهم. ونحوه قول المبرّد. قال: المُهرَع المُستحثّ؛ يقال: جاء فلان يُهْرَع إلى النار إذا استحثَّه البردُ إليها[٤]. وقيل: يُزعَجون من شِدَّة الإسراع؛ قاله الفضل[٥]. الزجاج[٦]: يقال: هُرِع وأُهْرِع، إذا استحثَّ وأزعج.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من الأمم الماضية. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: رُسُلاً أنذروهم العذاب فكفروا. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: آخر أمرهم. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين استخلصهم اللهُ من الكفر. وقد تقدَّم[٧]. ثم قيل: هو استثناء من «المُنْذَرِينَ». وقيل: هو من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ من النداء الذي هو الاستغاثة؛ ودعا، قيل: بمسألة هلاك قومه. فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٩] [نوح: ٢٦].

---

(١) أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٥٧.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٧١.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.

(٥) ذكره النحاس في معاني القرآن ٦/ ٣٦ دون نسبة.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٦.

(٧) ١١/ ٣١٨ و١٢/ ٢١٢.

(٨) تفسير الرازي ٢٦/ ١٤٥.

(٩) تفسير الطبري ١٩/ ٥٥٩.

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ قال الكسائي: أي: فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ له كنَّا[١]. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني أهلَ دِينه؛ وهم مَن آمن معه؛ وكانوا ثمانينَ على ما تقدَّم[٢]. ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الغرَق.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ قال ابن عباس: لمَّا خرج نوحٌ من السفينة مات مَن معه من الرجال والنساء إلا ولدَه ونساءه؛ فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[٣]. وقال سعيد بن المسيَّب: كان ولد نوح ثلاثة، والناس كلُّهم من ولد نوح: فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السِّند والهند والنوب والزنج والحبشة والقِبط والبربر وغيرهم. ويافث أبو الصقالبة والترك والأبر[٤] والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. وقال قوم: كان لغير ولد نوح أيضاً نسل[٥]؛ بدليل قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء:٣]. وقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٨] فعلى هذا معنى الآية: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ دون ذرية مَن كفَر؛ فإنَّا أغْرقنا أولئك.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ أي: تركنا عليه ثناءً حسناً في كل أمة، فإنه مُحبَّب إلى الجميع؛ حتى إنَّ في المجوس من يقول: إنه أفريدون[٦]. رُوي معناه عن مجاهد وغيره.

وزعم الكسائي أن فيه تقديرين: أحدهما: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ يقال: ﴿سَلَٰمٌ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٦.

(٢) ١١/ ١١٧.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٣، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٠.

(٤) كذا في النسخ: الأبر، ولم نقف على من ذكر أُمة بهذا الاسم من أبناء يافث. وقول سعيد بن المسيَّب هذا ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٠.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٧ بمعناه، وقال ابن عطية: والأول أشهر عند علماء الأمة.

(٦) نسبه الطبري في تاريخه ١/ ٢١١ لبعض نسابي الفرس.

عَلَىٰ نُوحٍ﴾ أي: تركنا عليه هذا الثناء الحسن. وهذا مذهب أبي العباس المبرّد[١]. أي: تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعني: يُسلِّمون عليه تسليماً ويدعون له؛ وهو من الكلام المَحْكي؛ كقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١][٢].

والقول الآخر: أن يكون المعنى: وأبقينا عليه؛ وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ» أي: سلامة له من أن يُذكر بسوء «في الآخرين». قال الكسائي: وفي قراءة ابن مسعود: «سلاماً» منصوب بـ «تركنا» أي: تركنا عليه ثناءً حسناً سلاماً[٣].

وقيل: «فِي الآخِرِينَ» أي: في أمة محمد ﷺ[٤]. وقيل: في الأنبياء إذْ لم يُبعث بعده نبيٌّ إلا أُمر بالاقتداء به؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سعيد بن المسيَّب: وبلغني أنه مَن قال حين يُمسي: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ لم تَلْدغه عقرب. ذكره أبو عمر في «التمهيد»[٥]. وفي «الموطأ»: عن خولة بنت حكيم أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ نزلَ مَنزلاً فليقل: أعوذُ بكلمات الله التامَّاتِ مِن شرِّ ما خَلَقَ، فإنه لن يضرَّه شيء حتى يَرتَحِلَ»[٦]. وفيه: عن أبي هريرة أن رجلاً مِن أسلم قال: ما نمتُ هذه الليلة؛ فقال رسول الله ﷺ: «مِن أيّ شيء» فقال: لَدغتني عقرب؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «أمَا إنَّك لو قلتَ حين أمسيتَ: أعوذُ بكلماتِ الله التامّات من شرِّ ما خَلَق لم تضرَّك»[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧ .

(٢) يعني كقولك: قرأت: «سورةٌ أنزلناها». الكشاف ٣/ ٣٤٣، والدر المصون ٩/ ٣١٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧ ، وقراءة ابن مسعود ﷺ ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٧ .

(٤) مجمع البيان ٢٣/ ٦٥ .

(٥) ٢١/ ٢٤١ .

(٦) الموطأ ٢/ ٩٧٨ ، وأخرجه أحمد (٢٧١٢٢)، ومسلم (٢٧٠٨).

(٧) الموطأ ٢/ ٩٥١ ، وأخرجه أحمد (٨٨٨٠)، ومسلم (٢٧٠٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نُبقي عليهم الثَّناء الحسن. والكاف في موضع نصب؛ أي: جزاء كذلك. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيانُ إحسانه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: مَن كَفر. وجمعه آخر[١]. والأصلُ فيه أن يكون معه «مِن» إلا أنها حُذفت؛ لأن المعنى معروف، ولا يكون آخر إلا وقبلَه شيء من جنسه. و«ثمّ» ليس للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النِّعم؛ كقوله: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد:١٦-١٧] أي: ثم أُخبركم أني قد أغرقتُ الآخرين، وهم الذين تأخَّروا عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ قال ابن عباس: أي: من أهل دينه. وقال مجاهد: أي: على مِنهاجه وسُنَّته[٢]. قال الأصمعي: الشِّيعة الأعوان، وهو مأخوذٌ من الشِّياع، وهو الحَطبُ الصِّغار الذي يُوقَد مع الكبار حتى يستوقد. وقال الكلبي والفراء[٣]: المعنى: وإنَّ من شيعة محمد لإبراهيم. فالهاء في «شيعته» على هذا لمحمد عليه الصلاة والسلام[٤]. وعلى الأوّل لنوح، وهو أظهرُ؛ لأنه هو المذكور أوّلاً، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيَّان: هود وصالح، وكان بين نوح وإبراهيمَ ألفان وستُّ مئة وأربعون سنة؛ حكاه الزمخشري[٥].

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: مُخلص من الشِّرك والشَّك. وقال

(١) كذا في النسخ، والصواب: الآخَرين جمع آخَر. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧.
(٢) أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٦٤.
(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٨، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٤، وما قبله منه.
(٤) قال الشوكاني في فتح القدير ٤/ ٤٠١: ولايخفى ما في هذا من الضعف والمخالفة للسياق.
(٥) في الكشاف ٣/ ٣٤٤.

عوف الأعرابي: سألتُ محمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ فقال: الناصحُ لله عز وجل في خلقه[١].

وذكر الطبري عن غالب القطّان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجَّاج: مسكين أبو محمد، إن عذَّبه الله فبذنبه، وإنْ غَفَرَ له فهنيئاً له، وإن كان قلبه سليماً فقد أصاب الذنوبَ من هو خير منه. قال عوف: فقلتُ لمحمد: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلمَ أن الله حقٌّ، وأن الساعةَ قائمة، وأن الله يبعثُ مَن في القبور[٢]. وقال هشام بن عروة: كان أبي يقول لنا: يا بَنيّ، لا تكونوا لَعَّانِين، ألم تَرَوْا إلى إبراهيم لم يلعن شيئاً قطّ، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣].

ويَحتمِل مجيئه إلى ربّه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته، الثاني: عند إلقائه في النار[٤].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر، وقد مضى الكلام فيه[٥]. ﴿وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ تكون «ما» في موضع رفع بالابتداء و«ذا» خبره. ويجوز أن تكون «ما» و«ذا» في موضع نصب بـ «تعبدون». ﴿أَئِفْكًا﴾ نصب على المفعول به؛ بمعنى: أتُريدون إفكاً. قال المبرّد: والإفك أسوأُ الكذب، وهو الذي لا يثبتُ ويضطرب، ومنه ائتفكَتْ بهم الأرض. ﴿ءَالِهَةً﴾ بدل من إفك[٦].

﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي: تعبدون. ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أتريدون آلهةً من دون الله آفكين[٧]. ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما ظنُّكم به إذا لَقِيتموه وقد عَبَدْتم

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧ .
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ١٩٠ .
(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٥ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٥ .
(٥) ٨/ ٤٣٢ وما بعدها.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨ .
(٧) الكشاف ٣/ ٣٤٤ .

غيره[1]؟ فهو تحذير، مثل قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] وقيل: المعنى: أي شيء توهَّمتموه[2] حتى أشركتُم به غيره؟.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال ابن زيد عن أبيه: أَرسل إليه مَلِكُهم: إنَّ غداً عيدُنا فاخرُج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال: إنَّ هذا يطلُع مع سقمي[3].

وكان علمُ النجوم مستعملاً عندهم منظوراً فيه، فأَوهمهم هو من تلك الجِهة، وأَراهم من مُعتقدهم عُذراً لنفسه؛ وذلك أنهم كانوا أهلَ رِعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظرٍ في النجوم[4].

وقال ابن عباس: كان علمُ النجوم من النبوّة، فلما حَبَسَ الله تعالى الشمسَ على يوشع بن نون أَبطل ذلك، فكان نظرُ إبراهيم فيها علماً نبويّاً. وحكى جُوَيبر عن الضحاك: كان عِلمُ النجوم باقياً إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلُع عليه منه، فقالت لهم مريم: من أين عَلِمتم بموضعه؟ قالوا: من النجوم. فدعا ربَّه عند ذلك فقال: اللهم لا تُفهمهم في عِلْمها، فلا يعلم علمَ النجوم أحدٌ؛ فصار حكمها في الشَّرع محظوراً، وعِلْمها في الناس مجهولاً.

قال الكلبي: وكانوا في قرية بين البصرة والكوفة يقال لها: هرمزجرد، وكانوا ينظرون في النجوم[5]. فهذا قول.

وقال الحسن: المعنى: أنهم لما كلَّفوه الخُروجَ معهم تفكَّر فيما يعمل. فالمعنى على هذا: أنه نظرَ فيما نَجَمَ له من الرأي، أي: فيما طَلَع له منه، فعلم أن كلَّ حيٍّ

---

(١) تفسير الطبري ١٩/٥٦٦.

(٢) في (خ) و(ظ): توهموه، وفي (م): أوهمتموه، والمثبت من (د) و(ز) و(ف).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٥٦٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٤٧٨.

(٥) قول ابن عباس رضي الله عنهما وقول الضحاك وقول الكلبي في النكت والعيون ٥/٥٥ - ٥٦.

يَسْقَم فقال: «إِنِّي سَقِيم»[١].

الخليل والمبرّد: يقال للرجل إذا فكَّر في الشيء يدبِّره: نظرَ في النجوم. وقيل: كانت الساعةُ التي دَعَوْه إلى الخروج معهم فيها ساعةً تغشاه فها الحُمَّى. وقيل: المعنى: فنظر فيما نَجَمَ من الأشياء، فعلم أنَّ لها خالقاً ومُدبِّراً، وأنه يتغير كتغيرها فقال: «إِنِّي سَقِيمٌ»[٢]. وقال الضحاك: معنى «سَقِيمٌ»: سَأَسْقَم سَقَم الموت؛ لأنَّ من كُتب عليه الموت يَسْقَم في الغالب، ثم يموت، وهذا توريةٌ وتعريضٌ[٣]؛ كما قال للمَلِك لما سأله عن سارَّة: هي أختي؛ يعني أُخوَّةَ الدين[٤]. وقال ابن عباس وابن جُبير والضحاك أيضاً: أشار لهم إلى مرضٍ وسَقَمٍ يُعدي كالطاعون، وكانو يهربون من الطاعون[٥]، فلذلك «تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» أي: فارّين منه خوفاً من العَدْوى.

وروى الترمذيّ الحكيم قال: حدثنا أبي قال: حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط، عن السّديّ، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن سَمُرةَ عن الهَمْداني، عن ابن مسعود قال: قال أبو إبراهيم: إنَّ لنا عيداً، لو خرجتَ معنا لأعجبكَ دِينُنا. فلما كان يومُ العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال: إني سقيمٌ أشتكي رجلي، فوطئوا رِجْلَه وهو صريعٌ، فلما مضَوا نادى في آخرهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُم﴾. قال أبو عبد الله: وهذا ليس بمعارِضٍ لما قال ابن عباس وابن جُبير؛ لأنه يَحتمِل أن يكون قد اجتمع له أمران.

قلت: وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «لم يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ عليه السلام إلا ثلاثَ كَذَبات» الحديث. وقد مضى في سورة «الأنبياء»[٦]. وهو يدلُّ على أنه لم يكن

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨ بنحوه.

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ وأوله: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات..» وسلف ١٤/ ٢٢٢ .

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك بنحوه.

(٦) ١٤/ ٢٢٢ ، وينظر التعليق قبل السابق.

سقيماً، وإنما عَرَّضَ لهم. وقد قال جلّ وعزّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. فالمعنى: إني سقيمٌ فيما أستقبل، فتوهَّموا هم أنه سقيمٌ الساعة. وهذا من مَعاريض الكلام على ما ذكرنا[١]، ومنه المثل السائر: «كَفَى بالسلامة داءً»[٢]، وقول لَبيد:

فدعوتُ ربّي بالسَّلامةِ جاهِداً ... لِيُصحّني فإذا السَّلامَةُ داءُ[٣]

وقد مات رجلٌ فجأة فالتفَّ عليه الناس فقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح مَنِ الموت في عنقه[٤]؟.

فإبراهيمُ صادق، لكن لما كان الأنبياءُ لِقُرب محلّهم واصطفائهم عُدَّ هذا ذنباً؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وقد مضى هذا كلُّه مبيَّناً، والحمد لله.

وقيل: أراد: سقيم النفس لِكُفرهم[٥].

والنجوم يكون جمع نَجْم، ويكون واحداً مصدراً[٦].

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ قال السّدي: ذهبَ إليهم. وقال أبو مالك: جاء

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٠٩) من حديث أنس ﷺ.

(٣) لم نقف عليه في ديوان لبيد، وقد نسبه له الزمخشري في الكشاف (والكلام منه) ٣/ ٣٤٤، ونسبه القيرواني في زهر الآداب ١/ ٢٢٣ لعمرو بن قميئة، ونسبه البغدادي في الخزانة ٢/ ٢١٧ لبعض شعراء الجاهلية.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٤٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.

إليهم. وقال قتادة: مال إليهم. وقال الكلبي: أقبل عليهم. وقيل: عَدَل[١]. والمعنى مُتقارب. فراغ يَرُوغ رَوْغاً ورَوَغاناً، إذا مال. وطريقٌ رائغ، أي: مائل[٢]. وقال الشاعر:

ويُرِيكَ مِن طَرَفِ اللسانِ حَلَاوةً ... ويَروغ عنك كما يَرُوغ الثعلبُ[٣]

فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فخاطَبها كما يُخاطب مَن يعقِل؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[٤].

قيل: كان بين يدي الأصنام طعامٌ تركوه ليأكلوه إذا رجَعوا من العيد، وإنما تركوه لِتُصيبه بركةُ أصنامهم بزعمهم[٥]. وقيل: تركوه لِلسَّدَنة. وقيل: قرَّب هو إليها طعاماً على جهة الاستهزاء؛ فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[٦].

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ خصَّ الضَّرب باليمين لأنها أقوى والضربُ بها أشدُّ؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس. وقيل: المراد باليمين اليمين التي حَلَفها حين قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[٧].

وقال الفراء وثعلب: ضرباً بالقوة، واليمين القوة[٨].

وقيل: بالعَدْل، واليمين هاهنا العَدْل. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٥] أي: بالعَدْل، فالعَدْل لليمين؛ والجَوْر للشمال. ألا

---

(١) هذه الأقوال في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٢ - ٤٣، والنكت والعيون ٥/ ٥٧، وقولا السدي وقتادة أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٧٠.

(٢) الصحاح (روغ).

(٣) لم نهتد إلى قائله.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٧.

(٦) تفسير الطبري ١٩/ ٥٧٠ - ٥٧١ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٥٧، ومجمع البيان ٢٣/ ٦٩.

(٨) قول الفراء في زاد المسير ٧/ ٦٩، وقول ثعلب في النكت والعيون ٥/ ٥٧.

ترى أن العدوَّ عن الشمال، والمعاصي عن الشمال، والطاعة عن اليمين؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٢٨] أي: من قِبل الطاعة .فاليمينُ هو موضع العَدْل من المسلم، والشِّمال موضع الجَوْر. ألا ترى أنه بايع اللهَ بيمينه يومَ المِيثاق، فالبيعةُ باليمين؛ فلذلك يُعطَى كتابَه غداً بيمينه؛ لأنه وفَّى بالبيعة، ويُعطَى الناكثُ للبيعة الهاربُ برقبته من الله بشماله؛ لأنَّ الجَوْرَ هناك. فقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بذلك العَدْل الذي كان بايعَ اللهَ عليه يومَ الميثاق، ثم وفَّى له هاهنا. فجعل تلك الأوثان جُذاذاً، أي: فُتاتاً كالجَذِيدة،وهي السَّوِيق، وليس من قَبيل القوة؛ قاله الترمذي الحكيم .

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة: «يُزِفُّونَ» بضم الياء. الباقون بفتحها[1]. أي: يُسرعون؛ قاله ابن زيد[2]. قتادة والسُّدي: يَمشون[3]. وقيل: المعنى: يمشون بجمعهم على مَهَل آمنين أن يُصيب أحدٌ آلهتَهم بسوء. وقيل: المعنى: يتسلَّلون تسلُّلاً بين المَشْي والعَدْو؛ ومنه زَفِيف النَّعامة. وقال الضحاك: يسعَوْن. وحكى يحيى بن سلَّام: يُرْعَدون غَضَباً. وقيل: يختالون، وهو مشيُ الخُيَلاء؛ قاله مجاهد. ومنه أُخِذَ زِفاف العروس إلى زوجها[4]. وقال الفرزدق:

وجاء قَرِيعُ الشَّولِ قبلَ إفالِها ... يَزِفُّ وجاءتْ خَلْفَه وهي زُفَّفُ[5]

ومن قرأ: «يُزِفُّون» فمعناه: يُزِفُّون غيرهم، أي: يَحملونهم على التزفيف. وعلى هذا فالمفعول محذوف. قال الأصمعي: أزففت الإبل، أي: حملتُها على أن تَزِفَّ[6]. وقيل: هما لغتان، يقال: زَفَّ القوم وأزفُّوا .

---

(١) السبعة ص ٥٤٨ ، والتيسير ص ١٨٦ .

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ٦٩ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٧٤ عن السدي، وذكره النحاس في معاني القرآن ٦/ ٤٤ عن قتادة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٧ .

(٥) ديوان الفرزدق ص٢٧ ، وفيه: وراحت، بدل: وجاءت.

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٧، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٢٥ .

وزَفَفتُ العروسَ وأَزففتها وازدففتها بمعنًى، والمِزَفّة: المِحَفّة التي تُزَفُّ فيها العروس؛ حُكي ذلك عن الخليل[١] .

النحاس[٢] : «يُزِفُّون» بضم الياء. زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة، وقد عَرَفَها جماعةٌ من العلماء منهم الفراء[٣] وشبَّهها بقولهم: أطردتُ الرجل، أي: صيَّرته إلى ذلك. وطردته نَحَّيته؛ وأنشد هو وغيره:

تَمنَّى حُصينٌ أن يَسودَ جِذَاعَهُ فأمسى حُصينٌ قد أَذَلَّ وأَقهَرا[٤]

أي: صُيِّر إلى ذلك؛ فكذلك «يُزِفُّون» يَصيرون على الزفيف. قال محمد بن يزيد: الزفيف الإسراع. وقال أبو إسحاق[٥] : الزفيفُ أول عَدْو النَّعام. وقال أبو حاتم: وزعم الكسائي أن قوماً قرؤوا: «فَأَقْبَلُوا إليه يَزِفُونَ»[٦] خفيفة؛ من وَزَف يَزِف، مثل: وَزَن يَزِن .

قال النحاس[٧] : فهذه حكايةُ أبي حاتم، وأبو حاتم لم يسمع من الكسائي شيئاً. وروى الفراء[٨] ـ وهو صاحبُ الكسائي ـ عن الكسائي أنه لا يعرف «يَزِفُون» مخفَّفة.

---

(١) الصحاح (زفف).

(٢) في إعراب القرآن ٣/٤٢٩ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٩ .

(٤) البيت للمخبَّل السعدي يهجو به الزِّبرقان بن بدر ـ وهو حصين المذكور في البيت ـ وهو في أدب الكاتب ص٤٤٧ ، والخزانة ٨/ ١٠١ . والجِذاع: هم رهط حُصين. وهذه رواية الأصمعي للبيت ويروى: أُذِلَّ وأُقهِرا، بالبناء للمجول. ينظر الاقتضاب في شرح أدب الكاتب ٣/ ٢٨٠ .

(٥) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٠٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩ ، وما قبله وما بعده منه.

(٦) قرأ بها عبد الله بن يزيد كما سيأتي عند المصنف، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٢١ ، وزاد أبو حيان في البحر ٧/ ٣٦٦ نسبتها لمجاهد والضحاك ويحيى بن عبد الرحمن المقرئ وابن أبي عبلة.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٩ .

قال الفراء: وأنا لا أعرفُها. قال أبو إسحاق[١]: وقد عَرَفَها غيرهما [أنه يقال] وَزَف يَزِف إذا أسرعَ. قال النحاس: ولا نعلم أحداً قرأ: «يَزِفُون».

قلت: هي قراءةُ عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوي.

الزمخشري[٢]: و«يُزَفُّون» على البناء للمفعول. و«يَزْفُونَ» من زَفَاه إذا حَدَاه؛ كأنَّ بعضَهم يزفو بعضاً لِتسارعهم إليه.

وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وابن السَّمَيْفع: «يَرفون» بالراء [من] رفيف النعام، وهو ركضٌ بين المَشْي والطيران.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ فيه حذف؛ أي: قالوا: مَن فَعل هذا بآلهتنا؟ فقال مُحتجّاً: «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتونَ» أي: أتعبدون أصناماً أنتم تَنْحِتونها بأيديكم تَنْجُرُونها. والنَّحْت: النَّجْر والبَرْي؛ نَحَته يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نحتاً، أي: بَراه. والنُّحَاتةُ البُرَاية، والمِنْحَت: ما يُنْحَتُ به[٣].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ «ما» في موضع نصب، أي: وخلق ما تعملونه من الأصنام[٤]، يعني الخشب والحجارة وغيرهما كقوله ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

وقيل: إن «ما» استفهام، ومعناه: التحقير لِعملهم. وقيل: هي نَفْي، والمعنى: وما تعملون ذلك، لكنَّ اللهَ خالقُه. والأحسنُ أن تكون «ما» مع الفعل مصدراً، والتقديرُ: والله خَلَقَكم وعملكم[٥].

وهذا مذهبُ أهل السنة: أنَّ الأفعالَ خلقٌ لله عز وجل واكتسابٌ للعباد. وفي هذا إبطالُ

---

(١) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩ - ٤٣٠، وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٤٥.

(٣) الصحاح (نحت).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٥ - ٤٦.

مذاهب القَدَرية والجَبْرية. وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ الله خالقُ كلِّ صانع وصَنْعته» ذكره الثعلبي. وخرَّجه البيهقي من حديث حُذَيفة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عزّ وجلّ صنعَ كلَّ صانع وصَنْعتَه»[١] فهو الخالقُ، وهو الصانع سبحانه، وقد بيَّناهما في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا﴾ أي: تشاوروا في أمره لمَّا غَلَبهم بالحُجَّة حَسَبَ ما تقدَّم في «الأنبياء» بيانه[٣]. ف ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا﴾ تملؤونه حَطَباً فَتُضْرِمونه، ثم ألقوه فيه، وهو الجحيم. قال ابن عباس: بَنَوْا حائطاً من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، ومَلَؤوه ناراً وطرحوه فيها[٤]. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فلما صار في البُنيان قال: حسبي الله ونعم الوكيل[٥]. والألف واللام في «الجحيم» تدلُّ على الكناية؛ أي: في جحيمه؛ أي: في جحيم ذلك البُنيان[٦].

وذكر الطبري[٧]: أنَّ قائلَ ذلك اسمه الهيزن[٨]، رجلٌ من أعراب فارس، وهو

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٣٧)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٢٥.

(٢) ص٣٣٤ و٣٤٤.

(٣) ١٤/ ٢٢٦.

(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٥٠، والطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ٧٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١٥٠.

(٧) في تفسيره ١٦/ ٣٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص ١٤٦، وقد أخرجه الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما ومجاهد وابن جريج. وسلف ١٤/ ٢٢٦.

(٨) اضطرب رسمها في النسخ، والمثبت من (م)، وتفسير الطبري والتعريف والإعلام. وقال أبو حيان في البحر ٦/ ٣٢٨: وذكروا لهذا القائل اسماً مختلفاً فيه لا يوقف منه على حقيقة لكونه ليس مضبوطاً بالشكل والنقط، وهكذا تقع أسماء كثيرة أعجمية في التفاسير لا يمكن الوقوف منها على حقيقة لفظ لعدم الشكل والنقط.

التُّرك[١]، وهو الذي جاء فيه الحديث: «بينما رجلٌ يمشي في حُلّة له يَتبختَرُ فيها فَخُسِفَ به، فهو يَتجلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة»[٢]. والله أعلم.

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ أي: بإبراهيم. والكَيْد المَكْر؛ أي: احتالوا لإهلاكه ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ المقهورين المغلوبين إذْ نَفَذَتْ حُجَّته من حيث لم يُمكنهم دَفْعها، ولم يَنفُذْ فيه مكرُهم ولا كيدُهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: هذه الآيةُ أصلٌ في الهجرة والعزلة، وأوَّل مَن فَعَلَ ذلك إبراهيمُ عليه السلام، وذلك حين خلَّصه الله من النار قال: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلى رَبِّي» أي: مُهاجر من بلدِ قومي ومولدي إلى حيث أَتمكَّن من عبادة ربي، فإنه «سَيَهْدينِ» فيما نويتُ إلى الصواب. قال مقاتل: هو أوَّلَ مَن هاجر من الخَلْق مع لوط وسارَّة إلى الأرض المقدَّسة، وهي أرضُ الشام. وقيل: ذاهبٌ بعملي وعبادتي، وقلبي ونيَّتي[٣]. فعلى هذا ذهابُه بالعمل لا بالبدن. وقد مضى بيانُ هذا في «الكهف» مستوفىً[٤]. وعلى الأوّل بالمهاجرة إلى الشام وبيت المَقْدس. وقيل: خرج إلى حرَّان، فأقام بها مُدَّة. ثم قيل: قال ذلك لمن فارقه من قومه؛ فيكون ذلك توبيخاً لهم. وقيل: قاله لمن هاجر معه من أهله؛ فيكون ذلك منه ترغيباً.

وقيل: قال هذا قبلَ إلقائه في النار. وفيه على هذا القول تأويلان: أحدهما: إني ذاهبٌ إلى ما قضاه عليَّ ربي. الثاني: إني ميِّت؛ كما يقال لمن مات: قد ذهب إلى

(١) كذا في النسخ والتعريف والإعلام: الترك، وفي المصادر: الكرد، وهو الصواب.
(٢) أخرجه أحمد (٩٣٤٦)، ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٩.
(٤) ١٣/ ٢١٦ وما بعدها.

الله تعالى؛ لأنه عليه السلام تصوَّر أنه يموت بإلقائه في النار، على المعهود من حالها في تَلَفِ ما يُلقى فيها، إلى أن قيل لها: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] فحينئذ سَلِمَ إبراهيمُ منها.

وفي قوله: «سَيَهْدِينِ» على هذا القول تأويلان: أحدُهما: «سَيَهْدِينِ» إلى الخَلاص منها. الثاني: إلى الجنة[١].

وقال سليمان بن صُرَد ـ وهو ممن أدركَ النبيَّ ﷺ ـ: لما أرادوا إلقاءَ إبراهيم في النار جعلوا يجمعون له الحَطَب؛ فجعلت المرأةُ العجوز تحملُ على ظهرها وتقول: أذهبُ به إلى هذا الذي يذكُر آلهتنا؛ فلما ذُهب به لِيُطرح في النار «قال إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي»، فلما طُرح في النار قال: «حَسْبِيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيل» فقال الله تعالى: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] فقال أبو لوط ـ وكان ابنَ عمِّه ـ: إنَّ النارَ لم تحرِقْه من أجل قَرابته مني. فأرسل اللهُ عُنقاً من النار فأحرقه[٢].

الثانية: قول تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ لما عرَّفه اللهُ أنه مُخَلِّصه دعا اللهَ لِيعضُدَه بولدٍ يأنَسُ به في غُرْبته. وقد مضى في «آل عمران» القولُ في هذا[٣]. وفي الكلام حذفٌ؛ أي: هَبْ لي ولداً صالحاً من الصالحين، وحذفُ مثل هذا كثيرٌ.

قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أي: إنه يكون حليماً في كِبَره[٤]، فكأنه بُشِّر ببقاء ذلك الولد؛ لأنّ الصغيرَ لا يُوصف بذلك، فكانت البُشرى على ألسنة الملائكةِ كما تقدَّم في «هود»[٥]. ويأتي أيضاً في «الذاريات»[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٥٩ - ٦٠.

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٤/ ٣٢٢، والطبري ١٩/ ٥٧٧، وفيه: فقال ابن لوط، أو ابن أخي لوط.

(٣) ٥/ ١١٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٥) ١١/ ١٥٧.

(٦) في تفسير الآية (٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

فيه سبعَ عشرةَ مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: فوهبنا له الغلام؛ فلما بلغ معه المبلغ الذي يَسعى مع أبيه في أمور دنياه مُعيناً له على أعماله ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾.

وقال مجاهد: «فلما بلغَ معه السَّعْيَ» أي: شبَّ وأدركَ سَعْيُهُ سَعْيَ إبراهيم[(١)]. وقال الفراء[(٢)]: كان يومئذ ابنَ ثلاثَ عشرةَ سنة. وقال ابن عباس: هو الاحتلام[(٣)]. قتادة: مَشَى مع أبيه. الحسن ومقاتل: هو سعي العقل الذي تقومُ به الحُجَّة. ابن زيد: هو السَّعْي في العبادة. ابن عباس: صام وصلَّى، ألم تسمع اللهَ عزّ وجلّ يقول: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾[(٤)] [الإسراء: ١٩].

واختلف العلماءُ في المأمور بذبحه. فقال أكثرُهم: الذبيحُ إسحاق. وممن قال بذلك العباسُ بن عبد المطلب وابنه عبد الله[(٥)]، وهو الصحيحُ عنه. روى الثوريّ

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٧٩.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٩.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبري ١٩/ ٥٧٩ عنه قال: السعي العمل.

(٤) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٦٠، وقولا قتادة وابن زيد أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٨٠.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ٥٨٨.

وابن جُريج يرفعانه إلى ابن عباس قال: الذبيح إسحاق. وهو الصحيحُ عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال له: أنا ابن[١] الأشياخِ الكرام. فقال عبد الله: ذلك يوسفُ بن يعقوبَ بنِ إسحاقَ ذبيحِ الله بنِ إبراهيمَ خليلِ الله صلى الله عليهم وسلم.

وقد روى حمّاد بن زيد يرفعه[٢] إلى رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيم» ﷺ.

وروى أبو الزبير عن جابر قال: الذبيح إسحاق. وذلك مَرويٌّ أيضاً عن عليّ بن أبي طالب ﷺ. وعن عبد الله بن عمر: أن الذبيحَ إسحاق. وهو قولُ عمر ﷺ.

فهؤلاء سبعةٌ من الصحابة. وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشَّعبي ومجاهد وسعيد بن جُبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعِكرمة والقاسم بن أبي بَزَّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهريّ والسُّدي وعبد الله بن أبي الهُذيل ومالك بن أنس، كلُّهم قالوا: الذبيح إسحاق. وعليه أهلُ الكتابَيْن اليهود والنصارى، واختاره غير واحد، منهم النحاس والطبري وغيرهما[٣]. قال سعيد بن جُبير: أُرِيَ إبراهيمُ ذبحَ إسحاق في المنام، فسار به مَسيرة شهر في غَداة واحدة، حتى أتى به المَنْحر من مِنىً؛ فلما صرف اللهُ عنه الذَّبح وأمره أنْ يَذبحَ الكبشَ فذبحه[٤]، وسار به مسيرةَ شهر في

(١) في (ز) و(ظ): أيا ابن، وفي (د) و(ف) و(م): يا بن. والمثبت المصادر، والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٩، والطبراني في الكبير (٨٩١٦)، والحاكم ٢/ ٥٧١.

(٢) الكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١، وفيه: وقد روى حماد بن زيد، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.. وذكر الحديث ا. هـ. وأخرجه أحمد (٩٣٨٠) من طريق حماد ابن سلمة عن محمد بن عمرو به، ولم نقف على الحديث في المصادر من طريق حماد بن زيد كما ذكر النحاس. وسلف ١١/ ٣٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١ ـ والكلام السالف منه ـ وتفسير الطبري ١٩/ ٥٩٨، وليس فيهما نسبة القول لعمر ﷺ وقد ذكره عن عمر البغوي في تفسيره ٤/ ٣٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٧٢. وقد استبعد الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ص ٢٥٧ أن يكون عمر ﷺ قال ذلك. قال: وكذلك اختُلف في عليّ ﷺ، فالبغوي على أنه يقول: إسحاق، وابن أبي حاتم [كما في تفسير ابن كثير ٧/ ٣٤] على أنه يقول: إسماعيل.

(٤) كذا في النسخ، ولعل الصواب: أمره أن يذبح الكبش فذبحه، دون واو، ولم ترد لفظة: فذبحه في (ظ). والخبر في تفسير البغوي ٤/ ٣٢ وفيه: فلما أمره الله تعالى بذبح الكبش ذبحه وسار به...

رَوْحة واحدة طُويت له الأودية والجبال. وهذا القولُ أقوى في النَّقل عن النبي ﷺ[١] وعن الصحابة والتابعين[٢].

وقال آخرون: هو إسماعيل. وممن قال ذلك أبو هريرة[٣] وأبو الطُّفيل عامر بن واثله[٤]. ورُوي ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضاً، ومن التابعين سعيدُ بن المسيَّب والشّعبي ويوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظيّ والكلبي وعلقمة[٥]. وسُئل أبو سعيد الضَّرير عن الذبيح فأنشد:

إنّ الذبيح هُدِيتَ إسماعيلُ ... نَطقَ الكتابُ بِذاك والتنزيلُ

شرفٌ به خصَّ الإلهُ نبيَّنا ... وأتى به التفسيرُ والتأويلُ

إن كنتَ أُمَّتَه فلا تُنْكِرْ له ... شرفاً به قد خصَّه التفضيلُ[٦]

وعن الأصمعي قال: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعيُّ، أين عَزَب عنك عقلك؟! ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمَنْحر بمكة[٧].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٨ من حديث العباس ﷺ مرفوعاً. قال الحافظ ابن كثير: في إسناده ضعيفان، وهما الحسن بن دينار البصري، متروك، وعلي بن زيد بن جُدعان، منكر الحديث.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٢: وهذه الأقوال (يعني الواردة في أن الذبيح إسحاق عليه السلام) والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم.. جعل يحدث عمر ﷺ عن كتبه.. ونقلوا عنه غثَّها وسمينَها، وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده.

(٣) ذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣١.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٥ .

(٥) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/ ٣٢ ، وزاد المسير ٧/ ٧٢ - ٧٣. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٣: وهو الصحيح المقطوع به. وينظر كتاب الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبو شهبة ص٢٥٢ -٢٦٠ .

(٦) ذكر هذه الأبيات الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٣٣ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣ .

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّ الذبيحَ إسماعيل(١)

والأوّل أكثرُ عن النبي ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين .

واحتجُّوا بأنَّ اللهَ عزّ وجلّ قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومَه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارَّة وابن أخيه لوط فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أنه دعا فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]؛ ولأنَّ اللّه قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشِّر به إبراهيم، وإنما بُشِّر بإسحاق؛ لأنه قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقال هنا: ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وذلك قبلَ أن يتزوَّج هاجرَ وقبلَ أن يُولَد له إسماعيل، وليس في القرآن أنه بُشر بولد إلا إسحاق .

احتجَّ من قال: إنه إسماعيل، بأن اللهَ تعالى وصفَه بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] وهو صبرُه على الذَّبح، ووصفَه بِصِدْق الوَعْد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]؛ لأنه وعدَ أباه من نفسه الصبرَ على الذَّبح فوفَّى به؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢] فكيف يأمرُه بذبحه وقد وعدَه أن يكون نبيّاً، وأيضاً فإنَّ الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فكيف يُؤمَر بذبح إسحاق قبلَ إنجاز الوعد في يعقوب. وأيضاً ورد في الأخبار تعليقُ قَرْن الكبش في الكعبة، فدلَّ على أن الذبيحَ إسماعيل، ولو كان إسحاقَ لكان الذبحُ يقع ببيت المَقْدس(٢) .

وهذا الاستدلال كلُّه ليس بقاطع، أمَّا قولُهم: كيف يأمره بذبحه وقد وعدَه بأنه يكون نبيّاً، فإنه يَحتمِلُ أن يكونَ المعنى: وبشَّرناه بنبوَّته بعد أن كان من أمره ما كان؛

---

(١) لعله يريد حديث معاوية ﷺ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا بن الذبيحين.. وهو ضعيف، وسيأتي بتمامه في المسألة السادسة عشرة.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/١٥٣ - ١٥٥ .

قاله ابن عباس. وسيأتي[١].

ولعلَّه أُمِرَ بذبح إسحاق بعد أن وُلِدَ لإسحاق يعقوب[٢]. أو يقال: لم يَرِدْ في القرآن أن يعقوبَ يُولَد من إسحاق.

وأما قولهم: ولو كان الذبيح إسحاقَ لكان الذبح يقع ببيت المقدس، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جُبير على ما تقدَّم.

وقال الزجاج[٣]: الله أعلمُ أيّهما الذبيح. وهذا مذهبٌ ثالث.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيمُ عليه السلام ثلاثَ ليال مُتتابعات[٤]. وقال محمد بن كعب: كانت الرُّسُل يأتيهم الوحيُ من الله تعالى أيقاظاً ورُقوداً؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تنام قلوبُهم. وهذا ثابتٌ في الخبر المرفوع، قال ﷺ: «إنَّا معاشرَ الأنبياء تنامُ أعينُنا ولا تنامُ قلوبُنا»[٥]. وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وَحْيٌ؛ واستدلَّ بهذه الآية[٦].

وقال السّدي: لما بُشِّر إبراهيمُ بإسحاق قبلَ أن يُولَد له قال: هو إذاً لله ذبيح. فقيل له في منامه: قد نذرتَ نذراً فَفِ بنذرك[٧].

---

(١) في المسألة السادسة عشرة.

(٢) الكلام بمعناه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٢ دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣١١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن سعد في طبقاته ١/ ١٧١ عن عطاء مرسلاً. وأخرج البخاري (٣٥٧٠) عن أنس بن مالك ﷺ قوله ضمن حديث الإسراء: وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم. وأخرج أحمد (٢٤٠٧٣)، والبخاري (٢٠١٣)، ومسلم (٧٣٨) حديث عائشة رضي الله عنها ولفظه: «يا عائشة، إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي» وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد (١٩١١)، والبخاري (١٣٨).

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٧/ ٢٨، الطبراني في الكبير (١٢٣٠٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٧٦ : رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، وهو ضعيف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وأخرجه البخاري (١٣٨) من قول عُبيد بن عُمير.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣.

ويقال: إنَّ إبراهيمَ رأى في ليلة التروية كأنَّ قائلاً يقول: إنَّ الله يأمركَ بذبح ابنك؛ فلما أصبحَ رَوَّى في نفسه، أي: فَكَّر؛ أهذا الحُلْم من الله أَمْ من الشيطان؟ فَسُمِّي يومَ التَّرْوية. فلما كانت الليلةُ الثانيةُ رأى ذلك أيضاً، وقيل له: الوعدَ، فلما أصبح عَرَفَ أن ذلك من الله، فَسُمِّيَ يومَ عَرَفة. ثم رأى مثلَه في الليلة الثالثة، فَهمَّ بنحره، فسُمِّي يومَ النَّحْر[1]. ورُوي أنه لما ذَبحه قال جبريل: الله أكبرُ، الله أكبر. فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبرُ والحمدُ لله؛ فبقي سُنَّةً. وقد اختلف الناسُ في وقوع هذا الأمر وهي:

الثالثة: فقال أهلُ السنة: إنَّ نفسَ الذَّبح لم يَقَعْ، وإنما وقع الأمرُ بالذبح قبل أن يقعَ الذَّبح، ولو وقع لم يُتصوَّر رَفْعُه، فكان هذا من باب النَّسخ قبل الفعل؛ لأنه لو حصل الفراغُ من امتثال الأمر بالذَّبح ما تحقَّق الفِداء[2]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾. أي: حقَّقت ما نبَّهناك عليه، وفعلتَ ما أمكنكَ، ثم امتنعتَ لمَّا منعناك. هذا أصحُّ ما قيل به في هذا الباب.

وقالت طائفة: ليس هذا مما يُنسخ بوجه؛ لأن معنى ذبحت الشيء قطعته. واستدلّ على هذا بقول مجاهد: قال إسحاق لإبراهيم لا تنظر إليَّ فترحمَني، ولكن اجعَلْ وجهيَ إلى الأرض؛ فأخذَ إبراهيمُ السِّكين فأمَرَّها على حَلْقه فانقلبتْ. فقال له: ما لكَ؟ قال: انقلبتِ السِّكين. قال: اطعنِّي بها طَعْناً[3].

وقال بعضهم: كان كلما قطعَ جُزءاً اِلْتأم. وقالت طائفة: وجدَ حَلْقه نُحاساً أو مُغشّى بنحاس، وكان كلَّما أراد قطعاً وجدَ منعاً. هذا كلُّه جائزٌ في القُدرة الإلهية، لكنه يفتقرُ إلى نقل صحيح، فإنه أَمْرٌ لا يُدرك بالنَّظر وإنما طريقُه الخبر[4].

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٣ بنحوه عن محمد بن إسحاق، وفيه أن هذه القصة جرت مع إسماعيل عليه السلام.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٥٥ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٦ بنحوه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٢ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٦ .

ولو كان قد جرى ذلك لَبيَّنه اللهُ تعالى تعظيماً لِرُتْبة إسماعيل وإبراهيم صلوات الله عليهما، وكان أولى بالبيان من الفِداء[١].

وقال بعضُهم: إنَّ إبراهيم ما أُمر بالذَّبح الحقيقي الذي هو فَرْيُ الأوداج وإنهارُ الدم، وإنما رأى أنه أَضجعه للذبح فتوهَّم أنه أُمر بالذبح الحقيقي، فلما أتى بما أُمر به من الإضجاع قيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ﴾.

وهذا كلُّه خارجٌ عن المفهوم. ولا يُظَنُّ بالخليل والذبيح أن يَفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهُّم. وأيضاً لو صحَّتْ هذه الأشياءُ لما احتيج إلى الفِداء.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قرأ أهلُ الكوفة غير عاصم: «ماذا تُرِي» بضم التاء وكسر الراء مِن: أُرِي يُرِي[٢]. قال الفرّاء[٣]: أي: فانظُر ماذا تري من صبرك وجَزَعك. قال الزجاج[٤]: لم يَقُلْ هذا أحدٌ غيره، وإنما قال العلماء: ماذا تُشير؛ أي: ما تُريك نفسُك من الرأي. وأنكر أبو عُبيد «تُرِي» وقال: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة. وكذلك قال أبو حاتم.

النحاس[٥]: وهذا غلطٌ، وهذا يكون من رؤية العين وغيرها، وهو مشهور، يقال: أَريت فلاناً الصواب، وأَريته رُشدَه، وهذا ليس من رؤية العين.

الباقون: «تَرَى» مضارع رَأَيت.

وقد رُوي عن الضحاك والأعمش: «تُرَى» غير مسمى الفاعل[٦]. ولم يقل له ذلك

---

(١) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٥٧.

(٢) السبعة ص ٥٤٨، والتيسير ص ١٨٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ٤٧.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣، وما قبله منه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٣، وزاد المسير ٧/ ٧٥.

على وجه المُؤامرة في أمر الله، وإنما شاوره لِيعلم صبرَه لأمر الله[١]؛ أو لِتقرَّ عينُه إذا رأى من ابنه طاعةً في أمر الله فـ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي: ما تُؤمر به، فحذفَ الجار كما حذف من قوله:

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ مَا أُمِرتَ بِهِ[٢]

فوصل الفعل إلى الضمير فصار: تُؤمره، ثم حذفت الهاء؛ كقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل: ٥٩] أي: اصطفاهم على ما تقدَّم. و«ما» بمعنى الذي.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قال بعضُ أهل الإشارة: لما استثنى وفَّقه الله للصبر. وقد مضى الكلامُ في «يا أبَتِ» وكذلك في «يا بُنَيَّ» في «يوسف» وغيرها[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: انقادا لأمر الله. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعليٌّ رضوان الله عليهم: «فلمَّا سَلَّما»[٤] أي: فوَّضا أمرَهما إلى الله. وقال ابن عباس: استسلما. وقال قتادة: أسلم أحدُهما نفسَه لله عز وجل وأسلمَ الآخرُ ابنَه[٥].

﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ قال قتادة: كَبَّه وحوَّل وجهَه إلى القِبلة. وجواب «لمَّا» محذوفٌ عند البصريين تقديره: «فلمَّا أسْلَما وَتَلَّهُ للجبين» فديناه بكبش.

وقال الكوفيون: الجوابُ: «نَادَيْنَاهُ» والواو زائدة مُقْحَمة[٦]؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ [يوسف: ١٥] أي: أوحينا. وقوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ . وَٱقۡتَرَبَ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧] أي: اقترب. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) المحتسب ٢/ ٢٢٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٤٨، والبيت سلف بتمامه ٤/ ١٢٣، واختلف في قائله، وقد بيَّناه ثمة.

(٣) ١١/ ٢٤٥.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٣.

جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ﴾ [الزمر:٧٣] أي: قال لهم. وقال امرؤ القيس:

فلمّا أَجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى[١]

أي: انتحى، والواو زائدة. وقال أيضاً:

حتّى إذا حَمَلَتْ بُطُونُكُمُ ورأيتُمُ أبناءَكم شَبُّوا
وَقَلَبْتُمُ ظهرَ المِجَنِّ لنا إنَّ اللئيمَ الفاجِرُ الخِبُّ[٢]

أراد: قلبتم. النحاس[٣]: والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تُزاد.

وفي الخبر: إنَّ الذبيحَ قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه: يا أبت اشدُدْ رِباطي حتى لا أَضطرب، واكفف ثيابَكَ لئلا ينتضِحَ عليها شيء من دمي فتراه أُمِّي فتحزن، وأَسْرِعْ مَرَّ السِّكين على حَلْقي ليكونَ الموتُ أهونَ عليَّ، واقذُفني للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهي فترحمَني، ولئلا أنظرَ إلى الشَّفرة فأجزع، وإذا أتيتَ إلى أُمي فأقرئها مني السلام. فلما جَرَّ إبراهيمُ عليه السلام السِّكين ضربَ اللهُ عليه صفيحةً من نُحاس، فلم تعمل السكين شيئاً، ثم ضرب به على جبينه وحزَّ في قفاه فلم تعمل السِّكين شيئاً[٤]؛ فذلك قوله تعالى: «وَتَلَّهُ للجبينِ»، كذلك قال ابن عباس: معناه: كبَّه على وجهه[٥]، فَنُودي ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ فالتفت فإذا بكبش؛ ذكره المهدوي. وقد تقدّمت الإشارة إلى عدم صحته[٦]، وأن المعنى لما اعتقد الوجوبَ وتهيَّأ للعمل؛ هذا بهيئة الذبح، وهذا بصورة المَذْبوح، أعطيا محلّاً للذبح فِداء، ولم

(١) سلف ٢/ ٨٥.

(٢) البيتان في معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٧، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٢١، وخزانة الأدب ١١/ ٤٤، واللسان (قمل) من غير نسبة، وفيها: قَمِلَتْ، بدل: حملت، والعاجز، بدل: الفاجر. وقملت بطونكم، أي: كثرت قبائلكم. اللسان (قمل).

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٣ - ٣٤ بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٥.

(٦) في المسألة الثالثة.

يكن هناك مرُّ سكين[١]. وعلى هذا يتصوَّر النَّسخ قبل الفعل على ما تقدَّم[٢]. والله أعلم.

قال الجوهري: «وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» أي: صرعه؛ كما تقول: كَبَّه لِوجهه[٣]. الهروي: والتَّلُّ: الدَّفْع والصَّرع؛ ومنه حديث أبي الدرداء ﷺ: وتركوك لِمَتَلِّكَ[٤]، أي: لمصرعك. وفي حديث آخر: «فجاء بناقةٍ كَوْماء فَتلَّها»[٥] أي: أناخها. وفي الحديث: «بينا أنا نائمٌ أُتِيتُ بمفاتيح خَزائنِ الأرض فَتُلَّتْ في يدي»[٦]، قال ابن الأنباري: أي: فَأُلقيتْ في يدي؛ يقال: تَلَلْتُ الرجل، إذا أَلقيته. قال ابن الأعرابي: فَصُبَّتْ في يدي؛ والتَّلُّ الصَّبُّ؛ يقال: تلَّ يتلُّ إذا صبَّ، وتَلَّ يَتِلّ ـ بالكسر ـ إذا سقط[٧].

قلت: وفي «صحيح مسلم»: عن سهل بن سعد السَّاعدي أن رسولَ الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلامٌ وعن يساره أشياخ؛ فقال للغلام: «أَتأذَنُ لي أن أُعطي هؤلاء» فقال الغلام: لا والله، لا أُوثر بنصيبي منك أحداً. قال: فتلَّه رسولُ الله ﷺ في يده[٨]؛ يُريد: جعله في يده.

وقال بعضُ أهل الإشارة: إنَّ إبراهيمَ ادَّعى محبةَ الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرضَ حبيبه محبةً مشتركةً؛ فقيل له: يا إبراهيم، اذبح ولدَك في

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٧ بنحوه.
(٢) في المسألة الثالثة.
(٣) الصحاح (تلل).
(٤) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ١١٠، وابن الأثير في النهاية (تلل).
(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٤٠ - ٤١ مطولاً من حديث وائل بن حجر ﷺ. وفي الباب عن سُويد ابن غَفَلَة ﷺ أخرجه أحمد (١٨٨٣٧)، والنسائي ٥/ ٣٠. وقوله: كوماء: أي: مشرفة السنام عالية. حاشية السندي على المجتبى.
(٦) أخرجه أحمد (١٠٥١٧)، والبخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وعند البخاري ومسلم: فَوُضِعَتْ، بدل: فَتُلَّت.
(٧) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٥١.
(٨) صحيح مسلم (٢٠٣٠)، وأخرجه أحمد (٢٢٨٢٤)، والبخاري (٢٤٥١).

مرضاتي، فشمَّر وأخذ السكين وأضجع ولدَه، ثم قال: اللهم تَقبَّلْهُ مني في مرضاتك. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم لم يكن المرادُ ذبحَ الولد، وإنما المرادُ أن تَرُدَّ قلبك إلينا، فلما رددتَ قلبك بكُلِّيَّته إلينا رددنا ولدَك إليك[١].

وقال كعب وغيره: لما أُري إبراهيمُ ذبحَ ولده في منامه، قال الشيطان: والله، لئن لم أَفتن عند هذا آلَ إبراهيم لا أَفتن منهم أحداً أبداً. فتمثَّل الشيطانُ لهم في صورة الرجل، ثم أتى أُمَّ الغُلام وقال: أتدرينَ أين يذهب إبراهيمُ بابنك؟ قالت: لا. قال: إنه يذهبُ به لِيذبحه. قالت: كلاّ، هو أرأفُ به من ذلك. فقال: إنه يَزعُم أن ربَّه أمره بذلك. قالت: فإنْ كان ربُّه قد أمره بذلك فقد أحسنَ أن يُطيعَ ربَّه. ثم أتى الغُلام فقال: أتدري أين يذهبُ بك أبوك؟ قال: لا. قال: فإنه يذهب بك لِيذبحك. قال: ولم؟ قال: زَعم أنَّ ربَّه أمره بذلك. قال: فَلْيفعَلْ ما أمره اللهُ به، سمعاً وطاعةً لأمر الله. ثم جاء إبراهيمُ فقال: أين تُريد؟ والله، إني لأَظنُّ أن الشيطانَ قد جاءك في منامك، فأمرك بذبح ابنك. فَعَرفَه إبراهيمُ عليه السلام، فقال: إليك عني يا عدوَّ الله، فوالله لأمضِينَّ لأمر ربي. فلم يُصب الملعونُ منهم شيئاً[٢].

وقال ابن عباس: لما أُمر إبراهيمُ بذبح ابنه عرضَ له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حَصَيَات حتى ذهب، ثم عرضَ له عند الجَمْرة الوسطى، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب، ثم عرضَ له عند الجمرة الأُخرى، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب، ثم مضَى إبراهيمُ لأمر الله تعالى[٣].

واختُلف في الموضع الذي أراد ذبحه [فيه] فقيل: بمكة في المقام[٤]. وقيل: في المَنْحر بمنى عند الجمار التي رمَى بها إبليسَ لعنه الله؛ قاله ابن عباس وابن عمر

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٢٣٩ بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٠، وذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ١٢٠، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٠١. عن عُبيد بن عُمير.

ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيَّب .

وحُكي عن سعيد بن جُبير: أنه ذبحه على الصخرة التي بأصل ثَبِير بِمنىً. وقال ابن جُريج: ذبحه بالشام، وهو من بيت المقدس على مِيلين[١] .

والأول أكثر[٢]؛ فإنه ورد في الأخبار تعليقُ قَرْن الكبش في الكعبة، فدلَّ على أنه ذبحه بمكة. وقال ابن عباس: فوالذي نفسي بيده، لقد كان أول الإسلام، وإنَّ رأسَ الكبش لَمعلَّق بقرنيه في مِيزاب الكعبة وقد يَبِسَ[٣] .

أجاب مَن قال بأنَّ الذبح وقع بالشام: لعلَّ الرأسَ حُمِلَ من الشام إلى مكة. والله أعلم[٤].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نَجزيهم بالخَلاص من الشدائد في الدنيا والآخرة .﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: النِّعمة الظاهرة؛ يقال: أبلاه الله إبْلاءً وبَلاءً، إذا أنعم عليه. وقد يقال: بَلاهُ. قال زهير:

فأَبْلاهما خَيْرَ البلاءِ الذي يَبْلو[٥]

فزعم قومٌ أنه نجاء باللُّغتين. وقال آخرون: بل الثاني من: بَلاهُ يَبْلُوهُ إذا اختبره، ولا يقال من الاختبار إلا بَلاه يَبْلوه، ولا يقال من الابتلاء: يبلوه. وأصلُ هذا كلِّه من الاختبار أن يكون بالخير والشرّ؛ قال الله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال ابن زيد[٦]: هذا في[٧] البلاء الذي نزلَ به في أن يذبحَ ابنه؛ قال:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٦٢ .

(٢) وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٣: وما يستغرب في هذه الآية أن عُبيد بن عُمير قال: ذُبح في المقام.. وقال الجمهور: ذُبح بمنى.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٠٣ .

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٦٠٣ بنحوه.

(٥) شرح ديوان زهير ص١٠٩ ، وصدره: رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم. وفي رواية: جزى الله..

(٦) في النسخ: أبو زيد، وهو خطأ، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٤ والكلام منه. والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٧ عن ابن زيد.

(٧) في (م): من.

وهذا من البلاء المكروه.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الذِّبح اسمُ المَذْبوح وجمعه ذبوح؛ كالطِّحن اسم المَطْحون. الذَّبح بالفتح المصدر[١]. «عظِيم» أي: عظيم القَدْر، ولم يُرِدْ عظيمَ الجُثَّة، وإنما عَظُم قدرُه لأنه فدى به الذبيح؛ أو لأنه مُتقبَّل.

قال النحاس[٢]: عظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف. وأهلُ التفسير على أنه هاهنا للشريف، أي: المُتقبَّل.

وقال ابن عباس: هو الكبش الذي تقرَّب به هابيلُ، وكان في الجنة يرعى حتى فدى اللهُ به إسماعيل. وعنه أيضاً: أنه كبشٌ أرسله اللهُ من الجنة كان قد رعَى في الجنة أربعين خريفاً. وقال الحسن: ما فُدِيَ إسماعيلُ إلا بتيس من الأَرْوَى أُهبِطَ عليه من ثَبِير، فذبحه إبراهيم فِداءً عن ابنه، وهذا قولُ علي ﷺ[٣]. فلما رآه إبراهيمُ أخذَه فذبحه وأعتق ابنَه. وقال: يا بُنيَّ، اليومَ وُهِبتَ لي.

وقال أبو إسحاق الزجاج[٤]: قد قيل: إنه فُدِيَ بوَعْل، والوَعْل: التيس الجبليّ وأهلُ التفسير على أنه فُدِيَ بكبش.

الثامنة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الأُضحيَّةَ بالغنم أفضلُ من الإبل والبقر. وهذا مذهبُ مالك وأصحابه. قالوا: أفضلُ الضحايا الفُحول من الضَّأن، وإناثُ الضأن أفضلُ من فحل المَعْز، وفُحول المَعْز خيرٌ من إناثها، وإناثُ المَعز خيرٌ من الإبل والبقر. وحُجَّتهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: ضخم الجُثَّة سمين، وذلك كبشٌ لا جملٌ ولا بقرةٌ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٤.

(٢) في معاني القرآن ٦/ ٥١.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٩/ ٦٠٠ - ٦٠٤. والأروى: غنم الجبل، وثبير: جبل بمكة. النهاية (أرو) و(ثبر).

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٢.

وروى مجاهد وغيره عن ابن عباس أنه سأله رجل: إني نذرتُ أن أنحرَ ابني؟ فقال: يجزيك كبشٌ سمين[١]، ثم قرأ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال بعضهم: لو علم اللهُ حيواناً أفضلَ من الكبش لَفدَى به إسحاق.

وضحَّى رسول الله ﷺ بكبشين أَمْلحين[٢]. وأكثر ما ضحّى به الكباش. وذكر ابن أبي شيبة عن ابن عُلَيَّة، عن الليث، عن مجاهد قال: الذِّبح العظيم الشاة[٣]؟

التاسعة: واختلفوا أَيما أفضل: الأُضحيَّة أو الصدقة بثمنها. فقال مالك وأصحابه: الضَّحِيَّة أفضلُ إلا بمنىً؛ لأنه ليس موضع الأُضحيَّة؛ حكاه أبو عمر[٤].

وقال ابن المنذر: روينا عن بلال أنه قال: ما أُبالي ألَّا أُضَحِّي إلا بديك، ولأن أَضعَه في يتيم قد تَرِب فيه ـ هكذا قال المُحدِّث ـ أحبُّ إليَّ من أنْ أُضحِّيَ به[٥]. وهذا قولُ الشعبي: إنَّ الصدقةَ أفضلُ. وبه قال مالك وأبو ثور. وفيه قول ثانٍ: وهو أن الضَّحِيَّة أفضل؛ هذا قولُ ربيعةَ وأبي الزِّناد. وبه قال أصحاب الرأي. زاد أبو عمر[٦] وأحمد بن حنبل قالوا: الضحيَّة أفضلُ من الصدقة؛ لأن الضحيَّة سنةٌ وكيدة[٧] كصلاة العيد، ومعلومٌ أن صلاةَ العيد أفضلُ من سائر النوافل، وكذلك صلواتُ السُّنَن أفضلُ من التطوّع كلِّه.

قال أبو عمر[٨]: وقد رُوي في فضل الضحايا آثارٌ حِسان؛ فمنها ما رواه سعيدُ بن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥٩٠٤)، وفيه وفي التمهيد ٢٢/ ٢٩ ـ والكلام منه ـ أن السائل نذر أن ينحر نفسه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٨)، ومسلم (١٩٦٦) من حديث أنس ﷺ، وسلف ١٤/ ٤٠٤ .

(٣) التمهيد ٢٢/ ٢٩ .

(٤) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨١٥٦)، وفيه: .. ولأن أتصدَّق بثمنها على يتيم أو مغبرّ أحبُّ إليَّ..

(٦) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢ .

(٧) في (م): مؤكدة، وكلاهما بمعنى.

(٨) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢ - ١٩٣ .

داود بن أبي زَنْبَر[١]، عن مالك، عن ثور بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ نفقةٍ بعد صِلَةِ الرحم أفضلُ عند الله من إهراق الدَّمِ». قال أبو عمر: وهو حديثٌ غريب من حديث مالك.

وعن عائشة قالت: يا أيها الناس، ضَحُّوا وطِيبوا أَنْفُساً؛ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِنْ عبد توجَّه بأُضْحِيَّته إلى القِبلة إلا كان دَمُها وقَرْنُها وصوفُها حسناتٍ مُحضراتٍ في ميزانه يومَ القيامة، فإنَّ الدَّمَ إن وقعَ في التراب فإنما يقعُ في حِرْز الله حتى يُوفيه صاحبه يومَ القيامة» ذكره أبو عمر في كتاب «التمهيد». وخرَّجه الترمذي أيضاً عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما عَمِلَ آدميٌّ من عملٍ يومَ النَّحرِ أحبَّ إلى الله من إهراق الدم، إنها لَتأتي[٢] يومَ القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإنَّ الدَّم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقع إلى الأرض، فَطِيبوا بها نفساً» قال: وفي الباب عن عِمْران بن حُصَين وزيد بن أَرْقَم، وهذا حديث حسن[٣].

العاشرة: الضحيَّة ليست بواجبة، ولكنها سنّة ومعروف. وقال عكرمة: كان ابن عباس يَبعثني يومَ الأضحى بدرهمين أشتري له لحماً، ويقول: مَنْ لَقِيتَ فقل: هذه أُضْحِيَّة ابن عباس.

قال أبو عمر[٤]: ومَحْمل هذا وما رُوي عن أبي بكر وعمر أنهما لا يُضَحِّيان عند أهل العلم؛ لئلا يُعتقَدَ في المواظبة عليها أنها واجبةٌ فرض، وكانوا أئمةً يقتدي بهم

---

(١) قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب ص ١٧٥: صدوق، له مناكير عن مالك، ويقال: اختلط عليه بعض حديثه، وكذَّبه عبد الله بن نافع في دعواه أنه سمع من لفظ مالك.

(٢) في النسخ الخطية: إنه ليأتي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لسنن الترمذي.

(٣) سنن الترمذي (١٤٩٣) وقول الترمذي فيه: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث هشام بن عروة: لا من هذا الوجه. قال ابن العربي في عارضة الأحوذي ٢٨٨/٦: ليس في فضل الأضحية حديث صحيح.

(٤) في التمهيد ٢٣/ ١٩٤ - ١٩٥، وما قبله منه. وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الزاق في مصنفه (٨١٤٦).

مَن بعدَهم ممن ينظر في دينه إليهم؛ لأنهم الواسطةُ بين النبي ﷺ وبين أُمَّته، فساغ لهم من الاجتهاد في ذلك ما لا يَسوغ اليومَ لغيرهم.

وقد حكى الطحاوي في «مختصره»[(١)]: وقال أبو حنيفة: الأُضْحِيَّةُ واجبةٌ على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجبُ على المسافر. قال: ويجبُ على الرجل من الأُضحيَّة على ولده الصغير مثل الذي يجب عليه عن نفسه. وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا: ليست بواجبة، ولكنها سنةٌ غيرُ مُرخَّص لمن وجدَ السبيل إليها في تركها. قال: وبه نأخذ.

قال أبو عمر[(٢)]: وهذا قولُ مالك؛ قال: لا ينبغي لأحدٍ تركُها مسافراً كان أو مقيماً، فإنْ تركها فبئس ما صنع إلا أن يكونَ له عذرٌ إلا الحاجَّ بمنىً. وقال الإمام الشافعي: هي سنة على جميع الناس وعلى الحاجِّ بمنىً، وليست بواجبة. وقد احتجَّ من أوجبها بأنَّ النبيَّ ﷺ أمر أبا بُرْدةَ بن نِيَار أن يُعيدَ ضَحِيَّةً أُخرى[(٣)]؛ لأنَّ ما لم يكن فرضاً لا يُؤمر فيه بالإعادة.

احتجَّ الآخرون بحديث أُمِّ سلمةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا دخلَ العشرُ وأَراد أُحدُكم أن يُضَحِّيَ»[(٤)] قالوا: فلو كان ذلك واجباً لم يَجعلْ ذلك إلى إرادة المُضَحِّي. وهو قولُ أبي بكر وعمر وأبي مسعود البَدريّ وبلال.

الحادية عشرة: والذي يُضَحَّى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية: وهي: الضأن، والمَعْز، والإبل، والبقر[(٥)].

قال ابن المنذر: وقد حُكي عن الحسن بن صالح أنه قال: يُضحَّى ببقرة الوحش

---

(١) ص٣٠٠، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ١٨٩، والاستذكار ١٥/ ١٥٨.

(٢) في التمهيد ٢٣/ ١٩١ - ١٩٢، والاستذكار ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٨٥)، والبخاري (٩٥٥)، ومسلم (١٩٦١)، وسلف قسم منه ٢/ ٧٥.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٤٧٤)، ومسلم (١٩٧٧)، وتتمته: «.. فلا يمسَّ من شعره وبشره شيئاً».

(٥) التمهيد ٢٣/ ١٨٨.

عن سبعة، وبالظَّبي عن رجل. وقال الإمام الشافعي[١]: لو نزا ثورٌ وحشيٌّ على بقرة إنسيّة، أو ثورٌ إنسيٌّ على بقرة وحشية لا يجوز شيء من هذا أُضْحِيَّةً. وقال أصحابُ الرأي: جائز[٢]؛ لأن ولدَها بمنزلة أُمِّه. وقال أبو ثور: يجوز إذا كان منسوباً إلى الأنعام.

الثانية عشرة: قد مضى في سورة «الحج»[٣] الكلامُ في وقت الذبح والأكل من الأُضحيَّة مستوفىً. وفي «صحيح مسلم»: عن أنس قال: «ضحَّى النبيُّ ﷺ بكبشين أَمْلحين أَقْرنين ذَبَحهما بيده وسمَّى وكبَّر، ووضع رِجْلَه على صِفَاحِهما». في رواية قال: «ويقول: بسم الله والله أكبر[٤]». وقد مضَى في آخر «الأنعام» حديثُ عِمران بن حُصَين[٥]، ومضَى في «المائدة» القولُ في التذكية وبيانها وما يُذَكَّى به، وأنَّ ذكاةَ الجنين ذكاةُ أُمِّه مستوفىً[٦].

وفي «صحيح» مسلم: عن عائشةَ أن رسولَ الله ﷺ أَمَر بكبشٍ أقرنَ يَطَأُ في سواد، ويبركُ في سواد، وينظرُ في سواد فأتي به لِيُضَحِّيَ به، فقال لها: «يا عائشةُ، هَلُمِّي المُدْيةَ» ثم قال: «اشْحَذِيها بحجر» ففعلت، ثم أَخذها وأخذَ الكبش فأَضجعه، ثم ذَبحه، ثم قال: «بسم الله، اللهمَّ تقبَّل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد» ثم ضحَّى به[٧].

وقد اختلف العلماءُ في هذا فكان الحسنُ البصري يقول في الأُضحيَّة: بسم الله واللهُ أكبر، هذا منكَ ولك، تقبَّل من فلان. وقال مالك. إنْ فَعَلَ ذلك فحسن، وإن لم

---

(١) في الأم ٢/ ١٦.
(٢) يعني في الحالة الأولى.
(٣) ١٤/ ٣٦٦ وما بعدها.
(٤) صحيح مسلم (١٩٦٦) وسلف في المسألة الثامنة وفي ١٤/ ٤٠٣.
(٥) ٩/ ١٤٣.
(٦) ٧/ ٢٧٤ وما بعدها.
(٧) صحيح مسلم (١٩٦٧)، وهو في مسند أحمد (٢٤٤٩١).

يفعلْ وسمَّى اللهَ أجزأه. وقال الشافعي: والتسميةُ على الذبيحة: بسم الله، فإنْ زاد بعد ذلك شيئاً من ذِكْر الله، أو صلَّى على محمد عليه الصلاة والسلام لم أكرهه، أو قال: اللهم تقبَّلْ مني، أو قال: تقبَّلْ من فلان فلا بأس. وقال النعمان: يُكره أن يذكُرَ مع اسمِ الله غيرَه[١]؛ يُكره أن يقول: اللهمَّ تقبَّلْ من فلان عند الذَّبح. وقال: لا بأس إذا كان قبلَ التسمية وقبلَ أن يضجعَ للذبح. وحديث عائشة يردُّ هذا القولَ. وقد تقدَّم أن إبراهيمَ عليه السلام قال لما أراد ذبح ابنه: الله أكبرُ والحمد لله. فبقي سُنَّةً[٢].

الثالثة عشرة: روى البَرَاءُ بن عازِب أن رسولَ الله ﷺ سُئل: ماذا يُتَّقى من الضحايا؟ فأشار بيده وقال: «أربعاً» وكان البراءُ يُشير بيده ويقول: يدي أقصرُ من يَدِ رسول الله ﷺ: «العَرْجاء البَيِّنُ ظَلَعُها، والعوراءُ البَيِّنُ عَوَرُها، والمريضةُ البَيِّن مرضُها، والعَجْفاءُ التي لا تُنْقي» لفظ مالك، ولا خلاف فيه[٣]. واختلف في اليَسير من ذلك.

وفي الترمذيّ: عن عليّ ﷺ قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نستَشرِفَ العينَ والأُذن وألَّا نُضَحِّيَ بمقابلة ولا مُدَابَرة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء. قال: والمُقابلة: ما قُطِع طرفُ أُذنها، والمُدَابَرة: ما قطِع من جانب الأُذن، والشَّرقاء المشقوقة، والخَرْقاء المثقوبة؛ قال هذا حديثٌ حسن صحيح[٤].

وفي «الموطأ» عن نافع: أنَّ عبدَ الله بن عمر كان يَتَّقي من الضحايا والبُدْن التي لم تُسْنِنْ والتي نقصَ مِن خَلْقها. قال مالك: وهذا أحبُّ ما سمعتُ إليَّ[٥].

---

(١) ذكر قول أبي حنيفة وقول الحسن البصري السالف ابنُ قدامة في المغني ١٣/ ٣٩٠ - ٣٩١.

(٢) في المسألة الثانية.

(٣) الموطأ ص٤٨٢، وأخرجه أحمد (١٨٥١٠)، وأبو داود (٢٨٠٢)، والترمذي (١٤٩٧)، وعند أحمد وأبي داود: الكسير، بدل: العجفاء. وقوله: «لا تُنقي»؛ من: أنقى، إذا صار ذا نِقْي، أي: مخ، فالمعنى: التي ما بقي لها مخ من غاية العجف. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٤) سنن الترمذي (١٤٩٨)، وهو في مسند أحمد (٨٥١). وسلف ٧/ ٣٧.

(٥) الموطأ ص٤٨٢.

قال القُتبي: لم تُسْنَنْ، أي: لم تَنبُتْ أسنانُها، كأنها لم تُعْطَ أسناناً. وهذا كما يقال: فلانٌ لم يُلْبَنْ، أي: لم يُعْطَ لبناً، ولم يُسْمَنْ، أي: لم يُعْطَ سمناً، ولم يُعسَلْ أي: لم يُعْطَ عسلاً[(١)]. وهذا مثل النهي في الأضاحي عن الهَتْماء.

قال أبو عمر[(٢)]: ولا بأسَ أن يُضحِّيَ عند مالك بالشاة الهَتْماء إذا كان سقوط أسنانها من الكِبَر والهَرَم وكانت سمينةً؛ فإنْ كانت ساقطةَ الأسنان وهي فتيةٌ لم يَجُزْ أن يُضحِّيَ بها، لأنه عيبٌ غير خفيف. والنقصان كلُّه مكروه، وشرحُه وتفصيلُه في كتب الفقه. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ: «استشرفوا ضحاياكم، فإنها على الصِّراط مَطَاياكم» ذكره الزمخشري[(٣)].

الرابعة عشرة: ودلَّت الآيةُ على أنَّ من نَذَرَ نَحْرَ ابنه أو ذبحه أنه يَفديه بكبش، كما فدَى به إبراهيمُ ابنَه؛ قاله ابن عباس. وعنه رواية أُخرى: يَنحر مئةً من الإبل كما فَدى بها عبدُ المطَّلب ابنَه؛ روى الروايتين عنه الشعبي. وروى عنه القاسم بن محمد: يَجزيه كفارةُ يمين. وقال مسروق: لا شيء عليه[(٤)].

وقال الشافعي: هو معصيةٌ يستغفر اللهَ منها. وقال أبو حنيفة: هي كلمةٌ يَلزمه بها في ولده ذبحَ شاة ولا يَلزمه في غير ولده شيء[(٥)]. وقال محمد: عليه في الحلف بنحر

(١) غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة التمهيد ٢٠/ ١٧٠ وما بعده منه. وقوله: لم تسنن، قال ابن الأثير في النهاية (سنن): رواه القتيبي بفتح النون الأولى، قال الأزهري: وهم في الرواية، وإنما المحفوظ عن أهل الثبت والضبط بكسر النون، وهو الصواب في العربية. وقال الأزهري: وقوله أيضاً: لم يُلبَن ولم يُسمَن، أي: لم يُعطَ لبناً وسمناً خطأ أيضاً، وإنما معناهما: لم يُطعَم سمناً، ولم يُسْقَ عسلاً. ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٣٠٠، واللسان (سنن).

(٢) في الكافي ١/ ٤٢٢.

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٤٩، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٣٨: لم أره، ونقل عن ابن الصلاح قوله فيه: هذا الحديث غير معروف ولا ثابت فيما علمناه.

(٤) الاستذكار ١٥/ ٥٤، وأقوال ابن عباس رضي الله عنهما أخرجها عبد الرزاق في مصنفه (١٥٩٠٣) و(١٥٩٠٥) و(١٥٩٠٨) و(١٥٩١٠).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٧.

عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث[١] .

وذكره ابنُ عبد الحكم عن مالك فيمن قال: أنا أنحرُ ولدي عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنثَ، فعليه هَدْيٌ. قال: ومَن نذَر أن ينحرَ ابنَه، ولم يقل: عند مقام إبراهيم ولا أراده[٢]، فلا شيء عليه. قال: ومَن جعل ابنَه هَدْياً أهدى عنه[٣] .

قال القاضي ابن العربي[٤]: يلزمه شاةٌ كما قال أبو حنيفة؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعاً، فألزم اللهُ إبراهيمَ ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة. وكذلك إذا نذَر العبدُ ذبح ولده يَلزمه أن يذبحَ شاة؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨] والإيمانُ التزامٌ أصليٌّ، والنَّذر التزامٌ فرعيٌّ؛ فيجب أن يكونَ محمولاً عليه .

فإنْ قيل: كيف يُؤمر إبراهيمُ بذبح الولد وهو معصيةٌ، والأمرُ بالمعصية لا يجوز. قلنا: هذا اعتراضٌ على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلامَ، فكيف بمن يُفتي في الحلال والحرام؟! وقد قال الله تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ والذي يجلو الإلباس عن قُلوب الناس في ذلك: أن المعاصي والطاعاتِ ليست بأوصافٍ ذاتية للأعيان، وإنما الطاعاتُ عبارةٌ عما تعلَّق به الأمرُ من الأفعال، والمعصيةُ عبارةٌ عمَّا تعلَّق به النَّهي من الأفعال؛ فلما تعلَّق الأمرُ بذبح الولدِ إسماعيلَ من إبراهيم صار طاعةً وابتلاء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ في الصبر على ذبح الولد والنَّفس، ولما تعلَّق النهي بنا في ذبح أبنائنا صار معصية .

فإنْ قيل: كيف يصير نَذْراً وهو معصية؟. قلنا: إنما يكون معصيةً لو كان يقصِدُ ذبحَ الولد بنذره ولا يَنوي الفِداء. فإن قيل: فلو وقع ذلك وقصدَ المعصيةَ ولم ينوِ

(١) مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٢٣٩ .

(٢) في (م): أراد.

(٣) الاستذكار ١٥/ ٥٥ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٨ - ١٦٠٩ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

الفِداء؟ قلنا: لو قَصَدَ ذلك لم يَضُرَّه في قَصْده، ولا أثَّر في نَذْره؛ لأنَّ نذرَ[1] الولد صار عبارةً عن ذبح الشاة شرعاً.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: على إبراهيم ثناءً جميلاً في الأُمم بعدَه؛ فما من أُمَّة إلا تُصلِّي عليه وتُحِبُّه. وقيل: هو دعاءُ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾[2] [الشعراء: ٨٤].

وقال عكرمة: هو السلامُ على إبراهيم[3]، أي: سلاماً منَّا. وقيل: سلامة له من الآفات مثل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] حَسَبَ ما تقدَّم. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من الذين أُعطوا العبودية حقَّها حتى استحقُّوا الإضافةَ إلى الله تعالى.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس: بُشِّر بنبوَّته، وذهب إلى أن البِشارة كانت مرتين[4]؛ فعلى هذا الذبيحُ هو إسحاقُ، بُشِّرَ بنبوَّته جزاءً على صَبْره ورِضاهُ بأمر ربِّه واستسلامه له.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: ثَنَّينا عليهم النِّعمة وقيل: كثَّرنا ولدَهما؛ أي: باركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق حين أخرجَ أنبياءَ بني إسرائيل من صُلبه. وقد قيل: إنَّ الكنايةَ في «عليه» تعودُ على إسماعيل وأنه هو الذبيحُ.

قال المفضَّل: الصحيحُ الذي يدلُّ عليه القرآن أنه إسماعيلُ، وذلك أنه قصَّ قِصَّة الذبيح، فلما قال في آخر القِصَّة: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إسماعيل ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ كنَى عنه؛ لأنه قد تقدَّم ذِكره ثم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ فدلَّ

(١) في (ظ) و(ف) وأحكام القرآن لابن العربي: ذبح.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٦٠٥ - ٦٠٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٦٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٠٧.

على أنها ذريَّة إسماعيل وإسحاق، وليس تختلف الرواةُ في أنَّ إسماعيل كان أكبرَ من إسحاق بثلاثَ عشرةَ سنةً[١].

قلت: قد ذكرنا أوَّلاً ما يدلُّ على أنَّ إسحاقَ أكبرُ من إسماعيل، وأن المُبَشَّر به هو إسحاق بنصِّ التنزيل[٢]؛ فإذا كانت البِشارة بإسحاق نصّاً، فالذبيحُ لاشكَّ هو إسحاق، وبُشِّر به إبراهيمُ مرتين؛ الأُولى بولادته، والثانية بنبوَّته؛ كما قال ابن عباس[٣]. ولا تكون النبوَّة إلا في حال الكِبَر.و«نَبِيّاً» نصب على الحال، والهاء في «عليهِ» عائدةٌ إلى إبراهيم، وليس لإسماعيل في الآية ذِكْر حتى ترجِعَ الكِناية إليه.

وأما ما رُوي من طريق معاوية قال: سمعتُ رجلاً يقول للنبي ﷺ: يا ابنَ الذَّبيحين؛ فضحك النبيُّ ﷺ. ثم قال معاوية: إنَّ عبد المُطَّلب لما حفر بئرَ زمزم، نذَر لله إنْ سهَّل عليه أمرَها لَيذبحنَّ أحدَ ولده لله، فسهَّلَ الله عليه أمرَها، فوقع السهمُ على عبد الله، فمنعه أخوالُ بنو مخزوم، وقالوا: افدِ ابنَك: فَفَداهُ بمئة من الإبل، وهو الذبيح، وإسماعيل هو الذبيحُ الثاني[٤]. فلا حُجَّةَ فيه؛ لأنَّ سندَه لا يثبتُ على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام في معرفة مَوْلد المصطفى عليه الصلاة والسلام»؛ ولأن العربَ تجعلُ العم أباً؛ قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة:١٣٣] وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] وهما أبوه وخالته. وكذلك ما رُوي عن الشاعر الفرزدق عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ[٥] لو صحَّ إسنادُه فكيف وفي الفرزدق نَفْسِه مَقَال؟!.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥١٣ ، وسلف ذكر اختلاف العلماء في المأمور بذبحه في المسألة الأولى، ونقلنا ثمة قول ابن كثير أن الصحيح المقطوع به أنه إسماعيل عليه السلام

(٢) ١٨/ ٦٣ وما بعدها.

(٣) سلف قريباً.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٧ - ٥٩٨ . قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٥: وهذا حديث غريب جداً.

(٥) أخرج عبد بن حُميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٨١ عن الفرزدق قال: رأيت أبا هريرة ﷺ يخطب على منبر رسول الله ﷺ ويقول: إن الذي أمر بذبحه إسماعيل.

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾ لـمَّا ذكر البركةَ في الذرية والكَثْرة قال: منهم مُحسن، ومنهم مُسيء، وأن المُسيء لا تَنفعه بُنوَّةُ النبوَّة؛ فاليهودُ والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق، والعربُ وإنْ كانوا من ولد إسماعيل، فلابدَّ من الفرق بين المُحسن والمُسيء والمؤمن والكافر، وفي التنزيل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨] الآية؛ أي: أبناء رُسُلِ الله فرأَوْا لأنفسهم فَضْلاً. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لـمَّا ذكر إنجاءَ إسحاق من الذبح، وما مَنَّ به عليه بعد النبوة، ذكر ما مَنَّ به أيضاً على موسى وهارون من ذلك. وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قيل: من الرِّقِّ الذي لَحِقَ بني إسرائيل. وقيل: من الغَرَق الذي لَحِقَ فرعون.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ قال الفراء[1]: الضميرُ لموسى وهارون وحدَهما؛ وهذا على أنَّ الاثنين جمع؛ دليلُه قوله: «وآتيناهُما» «وهَدَيْناهُما». وقيل: الضميرُ لموسى وهارون وقومِهما، وهذا هو الصوابُ؛ لأنَّ قبلَه«ونَجَّيْناهُما وقَوْمَهُما»[2].

و﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ التوراة؛ يقال: استبان كذا، أي: صار بَيِّناً، واستبانه فلانٌ مثل: تبيَّن الشيءُ بنفسه وتبيَّنه فلانٌ.

و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الدِّين القَويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دينُ الإسلام.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٥.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٣.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ يريدُ الثَّناء الجميل. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال المفسرون: إلياسُ نبيٌّ من بني إسرائيل. ورُوي عن ابن مسعود قال: إسرائيلُ هو يعقوبُ، وإلياسُ هو إدريس[(١)]، وقرأ: «وإنَّ إدْرِيسَ»[(٢)]. وقاله عكرمة. وقال: هو في مصحف عبد الله: «وإنَّ إدْرِيس لَمِنَ المُرْسَلينَ» وانفرد بهذا القول. وقال ابن عباس: هو عمُّ اليَسع[(٣)].

وقال ابن إسحاق وغيره: كان القَيِّمُ بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالبَ بن يوقنا، ثم حِزقيل، ثم لمَّا قبض اللهُ حِزقيلَ النبيَّ عظمتِ الأحداثُ في بني إسرائيل، ونَسُوا عهدَ الله، وعبدوا الأوثان من دونه، فبعث اللهُ إليهم إلياسَ نبيّاً، وتَبِعه اليَسع وآمن به، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربَّه أن يُريحَه منهم، فقيل له: اخرج يومَ كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلكَ من شيء فارْكَبه ولا تَهَبْه. فخرج ومعه اليَسع فقال: يا إلياسُ، ما تأمرني، فقذفَ إليه بكِسائه من الجوِّ الأعلى، فكان ذلك علامةَ استخلافه إيَّاه على بني إسرائيل، وكان ذلك آخرَ العَهْد به. وقطعَ اللهُ على إلياسَ لذَّةَ المَطْعَم والمَشْرَب، وكساه الرِّيش، وألبسه النَّور[(٤)]، فطار مع الملائكة، فكان إنسيّاً مَلَكيّاً سماويّاً أرضيّاً[(٥)].

(١) أخرجه الطبري ٩/ ٣٨٣.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٤.

(٣) في تفسير البغوي ٤/ ٣٦ (والكلام فيه بنحوه): هو ابن عم اليسع.

(٤) النَّور: الزَّهر، أو الأبيض منه. القاموس (نور).

(٥) عرائس المجالس ص ٢٥٥ و٢٦٢، وينظر النكت والعيون ٥/ ٦٤، وتفسير البغوي ٤/ ٣٦.

قال ابن قتيبة: وذلك أنَّ اللهَ تعالى قال لإلياس: «سَلْني أُعطِكَ». قال: تَرفَعُني إليك وتُؤَخِّرعني مَذاقة الموت. فصار يطيرُ مع الملائكة.

وقال بعضهم: كان قد مَرِضَ وأحسَّ الموتَ فبكى، فأوحى الله إليه: لِمَ تبكِ؟ حرصاً على الدنيا، أو جزعاً من الموت، أو خوفاً من النار؟ قال: لا، ولا لشيء[1] من هذا وعِزَّتِك، إنما جَزَعي كيف يَحْمَدُك الحامدون بعدي ولا أَحْمَدُك، ويذكُرك الذاكرون بعدي ولا أَذْكُرك، ويصومُ الصائمون بعدي ولا أصوم، ويُصلِّي المصلُّون ولا أُصلّي.

فقيل له: «يا إلياسُ، وعزَّتي لَأُؤَخِّرنَّك إلى وقت لا يذكُرني فيه ذاكر». يعني يومَ القيامة.

وقال عبدُ العزيز بن أبي روَّاد: إنَّ إلياسَ والخَضِرَ عليهما السلام يصومان شهرَ رمضانَ في كلِّ عام ببيتِ المَقْدس يُوافيان الموسم في كل عام[2].

وذكر ابن أبي الدنيا أنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم: ما شاء الله، ما شاء الله، لا يسوقُ الخير إلا الله، ما شاء الله، ما شاء الله، لا يَصرِفُ السُّوء إلا الله، ما شاء الله، ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله، ما شاء الله، ما شاء الله، توكَّلت على الله، حسبُنا الله ونِعْم الوكيل. وقد مضَى في «الكهف»[3].

وذكر من طريق مكحول عن أنس قال: غَزَوْنا مع رسولِ الله ﷺ حتى إذا كُنَّا بفَجِّ الناقة عند الحِجْر، إذا نحن بصوت يقول: اللهمَّ اجعَلْني من أُمَّة محمدٍ المرحومة، المغفورِ لها، المَتوبِ عليها، المُستجابِ لها. فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أنسُ، انظُرْ ما هذا الصوت». فدخلتُ الجبلَ، فإذا أنا برجلٍ أبيضِ اللِّحية والرأس، عليه ثيابٌ بِيْضٌ، طوله أكثرُ من ثلاث مئة ذراع، فلما نظر إليَّ قال: أنت رسولُ النبي؟ قلت:

---

(١) في (م): ولا شيء.
(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٨١.
(٣) ١٣/ ١٧٠.

نعم؛ قال: اِرْجِعْ إليه فأَقرِئْه مني السلام وقل له: هذا أخوكَ إلياسُ يُريد لِقاءك. فجاء النبي ﷺ وأنا معه، حتى إذا كنا قريباً منه، تقدَّم النبي ﷺ وتأخَّرت، فتحدَّثا طويلاً، فنزل عليهما شيء من السماء شبه السُّفرة فدَعَواني فأكلتُ معهما، فإذا فيها كَمْأة ورُمَّان وكَرَفْس، فلما أكلتُ قمتُ فتنحَّيتُ، وجاءت سحابةٌ فاحتملَتْه، فإذا أنا أنظرُ إلى بَيَاضِ ثيابِه فيها تَهوي به. فقلتُ للنبي ﷺ: بأبي أنت وأُمّي، هذا الطعامُ الذي أكلنا أَمِنَ السماء نزل عليه؟ فقال النبي ﷺ: «سألتُه عنه فقال: يأتيني به جبريلُ في كل أربعين يوماً أَكْلة، وفي كلِّ حول شَرْبة من ماء زمزم، وربما رأيتُه على الجُبِّ يملأ بالدَّلو فيشرب، وربما سَقَاني»[(١)].

قال ثعلب: اختلف الناسُ في قوله عز وجل هاهنا: «بَعْلاً» فقالت طائفة: البَعْل هاهنا الصَّنَم. وقالت طائفة: البعل هاهنا مَلَك. وقال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدُونها. والأوّل أكثر.

وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: «أَتَدْعُونَ بَعْلاً» قال: صنماً. وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس: «أَتَدْعُونَ بَعْلاً» قال: رَبّاً.

النحاس: والقولان صحيحان؛ أي: أتدعون صنماً عَمِلْتموه رباً. يقال: هذا بعلُ الدار، أي: ربُّها. فالمعنى: أتدعون ربّاً اختلقتموه، و«أَتَدْعُونَ» بمعنى أتُسمُّون. حكى ذلك سيبويه[(٢)].

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسُّدي: البعل الربُّ بلغة اليمن[(٣)]. وسمع ابن عباس رجلاً من أهل اليمن يسومُ ناقةً بمنىً فقال: منَ بعلُ هذه؟[(٤)]. أي: مَن رَبُّها؛

(١) الهواتف لابن أبي الدنيا ص ٧٨ - ٧٩ ، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٦١٧ ونقله المصنف عن ابن أبي الدنيا بواسطة السُّهيلي في التعريف والإعلام ص ١٠٧ -١٠٨ . قال الذهبي في التلخيص: موضوع، قبَّح الله من وضعه، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢٧٥: موضوع. وقد سلفت الإشارة إليه في تفسير سورة الكهف [الآية: ٨٢] المسألة الرابعة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥ ، ومعاني القرآن له ٦/ ٥٥ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٦١٢ - ٦١٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦١٣ بنحوه، ونقله المصنف من النكت والعيون ٥/ ٦٤ .

ومنه سُمِّي الزوج بعلاً. قال أبو دؤاد:

ورأيـتُ بَـعْـلَـكِ فـي الـوغَـى مُـتـقـلِّـدا سـيـفـاً ورُمْـحـاً[(١)]

مقاتل: صنمٌ كسره إلياسُ وهربَ منهم. وقيل: كان مِن ذهب وكان طولُه عشرين ذراعاً، وله أربعةُ أوجه، فُتِنوا به وعظَّموه حتى أخدموه أربع مئة سادن وجعلوهم أنبياءه، فكان الشيطانُ يدخل في جوف بَعْل ويتكلَّم بشريعة الضلالة، والسَّدَنة يحفظُونها ويُعلِّمونها الناس، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام. وبه سُمِّيت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا[(٢)].

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي: أحسنَ من يقال له: خالق. وقيل: المعنى: أحسن الصانعين؛ لأن الناسَ يصنعون ولا يخلُقون[(٣)].

﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بالنصب في الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خُثَيم والحسن وابن أبي إسحاق وابن وثَّاب والأعمش وحمزة والكسائي[(٤)]. وإليها يذهب أبو عُبيد وأبو حاتم. وحكى أبو عُبيد أنها على النعت. النحاس[(٥)]: وهو غلطٌ، وإنما هو على البَدَل، ولا يجوز النعت هاهنا؛ لأنه ليس بتحلية.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع[(٦)]. قال أبو حاتم: بمعنى: هو اللهُ ربُّكم. قال النحاس: وأولى مما قال أنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف. ورأيتُ عليَّ بن سليمان يذهبُ إلى أن الرفع أولى وأحسن؛ لأن

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٦٤، وقول مقاتل التالي منه. والبيت لعبد الله بن الزِّبعرى كما في المصادر وليس لأبي دؤاد كما ذكر الماوردي، وقد سلف ١/ ٢٩١ وفي عدة مواضع أخر. وأبو دؤاد اسمه: جارية بن الحجَّاج، كان في عصر كعب بن مامَةَ الإيادي. الشعر والشعراء ١/ ٢٣٧

(٢) عرائس المجالس ص ٢٥٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٦٥ .

(٤) وقرأ بها عاصم في رواية حفص. السبعة ص ٥٤٩ ، والتيسير ص ١٨٧ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١١٧ ، وما قبله منه.

(٦) السبعة ص ٥٤٩ ، والتيسير ص ١٨٧ ، والنشر ٢/ ٣٦٠ .

قبلَه رأسُ آية، فالاستئنافُ أولى.

ابن الأنباري[١]: مَن نصبَ أو رفعَ لم يَقِفْ على «أحسَنَ الخَالِقِينَ» على جهة التَّمام؛ لأنَّ اللهَ عزّ وجلّ مُترجمٌ عن «أَحْسَنَ الْخالِقِينَ» من الوجهين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذَّبوه. ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: في العذاب. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: من قومه، فإنهم نَجَوْا من العذاب. وقُرئ: «المُخلِصينَ» بكسر اللام، وقد تقدّم[٢]. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ تقدَّم.

﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ ياسينَ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع[٣]. وقرأ عكرمةُ وأبو عمرو وابن كثير وحمزةُ والكسائي: «سَلَامٌ على إِلْيَاسِينَ»[٤]. وقرأ الحسن: «سَلَامٌ على الياسِينَ» بوصل الألف[٥]، كأنها «ياسين» دخلتْ عليها الألف واللام التي للتعريف. والمُراد إلياسُ عليه السلام، وعليه وقع التسليم، ولكنه اسمٌ أعجميٌّ. والعربُ تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويَكثُر تغييرُهم لها[٦].

قال ابن جِنِّي[٧]: العربُ تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً؛ فياسين وإلياس والياسِين شيء واحد.

الزمخشريّ[٨]: وكان حمزةُ إذا وصَلَ نصَبَ، وإذا وقَفَ رفَعَ. وقُرئ: «على إلياسين» و«إِدْرِيسينَ وإِدْرَسين وَإِدْرَاسِينَ»[٩] على أنها لُغات في إلياس وإدريس. ولعلَّ

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٩.
(٢) ١٨/ ٢٨.
(٣) وهي قراءة ابن عامر.
(٤) وهي قراءة عاصم.
(٥) المحتسب ٢/ ٢٢٣.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٦ و٤٣٨.
(٧) ذكره عنه السُّهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٢.
(٨) في الكشاف ٣/ ٣٥٢.
(٩) المحتسب ٢/ ٢٢٥.

لزيادةِ الياء والنون في السُّريانية معنى .

النحاس[١]: ومن قرأ: «سَلَامٌ على آلِ ياسِينَ» فكأنه ـ والله أعلم ـ جعل اسمه إلياس وياسين، ثم سلَّم على آله؛ أي: أهل دينه ومَن كان على مذهبه، وعَلِم أنه إذا سلَّم على آله من أجله، فهو داخلٌ في السلام؛ كما قال النبيّ ﷺ: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»[٢] وقال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. ومن قرأ: «إلياسِين» فللعلماء فيه غير قول. فروى هارون عن ابن أبي إسحاق قال: إلياسين مثل إبراهيم؛ يذهبُ إلى أنه اسمٌ له. وأبو عُبيدة[٣] يذهب إلى أنه جُمع جمعَ التسليم على أنه وأهل بيته سلّم عليهم؛ وأنشد:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبِينَ قَدِي[٤]

يقال: قدني وقَدِي لغتان بمعنى حَسْب. وإنما يُريد أبا خُبَيْب عبدَ الله بن الزبير، فجمعه على أنَّ مَن كان على مَذْهبه داخلٌ معه. وغير أبي عُبيدة يرويه: الخُبَيْبَيْن، على التثنية، يُريد عبد الله ومُصْعباً. ورأيت عليَّ بن سليمان يشرحه بأكثرَ من هذا؛ [قال]: فإن العربَ تُسمِّي قومَ الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون: المهالِبة على أنهم سمَّوْا كلَّ رجل منهم بالمهلَّب. قال: فعلى هذا «سَلَامٌ عَلَى إِلْياسِينَ» سمَّى كلَّ رجل منهم بإلياس. وقد ذكر سيبويه في «كتابه»[٥] شيئاً من هذا، إلا أنه ذكَر أن العربَ تفعلُ هذا على جهة النِّسبة؛ فيقولون: الأشعرون، يريدون به النَّسب .

المهدوي: ومن قرأ: «إلياسِين» فهو جمع يدخل فيه إلياس، فهو جمع إلياسيّ،

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٦ .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨)، وسلف ٢/ ٨٢ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٧٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس.

(٤) الرجز لحُمَيْد الأرقط، وبعده: ليس الإمام بالشَّحيح المُلحِدِ. وهو في الكتاب ٢/ ٣٧١ ، والخزانة ٥/ ٣٨٢ .

(٥) ٣/ ٤١٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٣٧ ، وما قبله وما بين حاصرتين منه.

فحذفت ياء النِّسبة؛ كما حُذفت ياء النسبة في جمع المُكَسَّر في نحو المهالبة في جمع مهلبيّ، كذلك حُذفت في المسلَّم فقيل: المهلّبون.

وقد حكى سيبويه[١]: الأشعرون والنميرون، يُريدون الأشعريِّين والنميريِّين.

السهيليّ[٢]: وهذا لا يصحُّ، بل هي لغةٌ في إلياس، ولو أراد ما قالوه لأدخلَ الألفَ واللام كما تدخلُ في المهالبة والأشعريين؛ فكان يقول: «سلامٌ على الإلياسِين» لأن العَلم إذا جُمع يُنكَّر حتى يُعرَّف بالألف واللام؛ لاتقول: سلام على زيدين، بل: على الزيدين، بالألف واللام. فإلياسُ عليه السلام فيه ثلاثُ لغات.

النحاس[٣]: واحتجَّ أبو عُبيدة في قراءته: «سَلَامٌ على إِلْياسِينَ» وأنه اسمه كما أن اسمَه إلياس؛ لأنه ليس في السورة سلامٌ على «آل» لغيره من الأنبياء ﷺ، فكما سُمِّي الأنبياء كذا سُمِّي هو. وهذا الاحتجاجُ أصلُه لأبي عمرو، وهو غيرُ لازم؛ لأنَّا بيَّنا قولَ أهل اللغة أنه إذا سلَّم على آله من أجله، فهو سلام عليه. والقولُ بأن اسمه «إلياسين» يحتاجُ إلى دليل ورواية؛ فقد وقع في الأمر إشكال.

قال الماوردي[٤]: وقرأ الحسن: «سلَامٌ على ياسِينَ» بإسقاط الألف واللام[٥]، وفيه وجهان: أحدُهما: أنهم آلُ محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس. الثاني: أنهم آل ياسين؛ فعلى هذا في دخول الزيادة في ياسين وجهان: أحدهما: أنها زِيدت لِتَساوي الآي، كما قال في موضع: ﴿طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وفي موضع آخر ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]، فعلى هذا يكون السلام على أهله دونَه، وتكون الإضافة إليه تشريفاً له. الثاني: أنها دخلت للجمع فيكون داخلاً في جُملتهم فيكون السلامُ عليه وعليهم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٤٨ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٧ .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٦٥ .

(٥) سلف أن الحسن قرأ: «سلام على الياسين» بغير همز.

وقال السُّهيلي[١]: قال بعضُ المتكلّمين في معاني القرآن: آلُ ياسين آلُ محمد عليه الصلاة والسلام، ونزعَ إلى قول من قال في تفسير «يس»: يا محمد. وهذا القولُ يَبطُلُ من وجوه كثيرة: أحدها: أن سِياقة الكلام في قصة إلياسين يَلزم أن تكون كما هي في قصة إبراهيم ونوح وموسى وهارون، وأنَّ التسليم راجعٌ عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصودِ الكلام لِقول قيل في تلك الآية الأُخرى مع ضَعْف ذلك القول أيضاً؛ فإنَّ «يس» و«حم» و«الم» ونحوَ ذلك القولُ فيها واحدٌ، إنما هي حروفٌ مُقطَّعة؛ إما مأخوذةٌ من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس، وإما من صفات القرآن، وإما كما قال الشعبي: لله في كلِّ كتاب سرٌّ، وسرُّه في القرآن فواتحُ القرآن[٢]. وأيضاً فإنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لي خمسةُ أسماء»[٣] ولم يذكُرْ فيها «يس». وأيضاً فإنَّ «يس» جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسماً للنبي ﷺ لقال: «ياسينُ» بالضم؛ كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦] وإذا بطلَ هذا القولُ لِما ذكرناه؛ فـ«إلياسين» هو إلياسُ المذكور، وعليه وقع التسليم.

وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مثل: إدريس وإدراسين، كذلك هو في مصحف ابن مسعود: ﴿وَإِنَّ إِدْرِيسَ لِمَنَ المُرسِلينَ﴾ ثم قال: «سَلَامٌ على إدراسِين»[٤]. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

---

(١) في التعريف والإعلام ص ١٤٨.

(٢) سلفت هذه الأقوال، والكلام على الحروف المقطعة أول سورة البقرة ١/ ٢٣٧.

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم ﷺ، وسلف ٩/ ٣٩٢.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٢٥، وسلفت الإشارة إليها قريباً.

تقدَّم قصة لوط[(١)]. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: بالعقوبة. ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ خاطب العرب: أي تمرُّون على منازلهم وآثارهم «مُصْبِحِينَ» وقتَ الصَّباح ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ تمرُّون عليهم أيضاً. وتمَّ الكلام. ثم قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تعتبرون وتتدبَّرون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يونس: هو ذو النون، وهو ابن متَّى، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستةَ أشهر ويونسُ صبيٌّ يرضع، وكانت أُمُّ يونس تخدُمه بنفسها وتُؤانسه، ولا تدَّخر عنه كرامة تقدرُ عليها. ثم إن إلياس سئم ضِيقَ البيوت فلحق بالجبال، ومات ابنُ المرأة يونسُ، فخرجت في إثر إلياسَ تطوف وراءه في الجبال حتى وجدَتْه، فسألته أن يدعوَ اللهَ لها لعلّه يُحيي لها ولدها؛ فجاء إلياسُ إلى الصبي بعد أربعةَ عشر يوماً من موته، فتوضأ وصلَّى ودعا اللهَ، فأحيا اللهُ يونسَ بن متى بدعوة إلياس عليه السلام[(٢)].

وأرسل الله يونس إلى أهل نينَوَى من أرض المَوْصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسبما تقدَّم بيانه في سورة «يونس»[(٣)]، ومضى في «الأنبياء»[(٤)] قصة يونس في خروجه مُغاضِباً.

واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إيَّاه أو بعده.

قال الطبري[(٥)]: عن شهر بن حَوْشَب: إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال:

---

(١) ١١/١٧٣ وما بعدها.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٩.
(٣) ١١/ ٥٤.
(٤) ١٤/ ٢٦٦، وما بعدها.
(٥) في تفسيره ١٩/ ٦٣٩.

انطلق إلى أهل نِينوَى فأنْذِرْهم أن العذاب قد حَضَرهم. قال: ألتمس دابَّة. قال: الأمرُ أعجلُ من ذلك. قال: أَلتمس حذاءً. قال: الأمرُ أعجلُ من ذلك. قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينةَ احتبست السفينةُ لا تتقدَّم ولا تتأخَّر. قال: فتساهموا، قال: فسُهِم، فجاء الحوتُ يُبصبص بذنبه؛ فنُودي الحوت: أيا حوت، إنَّا لم نجعل لك يونسَ رزقاً؛ إنما جعلناك له حِرْزاً ومسجداً. قال: فالتقمه الحوتُ من ذلك المكان حتى مَرَّ به إلى الأُبُلَّة[١] ،ثم انطلق به حتى مرَّ به على دِجلة، ثم انطلق حتى ألقاه في نِينوى.

حدّثنا الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو هلال قال: حدثنا شهرُ بن حَوْشَب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالةُ يونس بعد ما نبذه الحوت، واستدلَّ هؤلاء بأن الرسولَ لا يخرج مُغاضباً لربِّه، فكان ما جرى منه قبل النبوَّة.

وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل [إليهم][٢] إلى ما أمره اللهُ بدعائهم إليه، وتبليغه إيَّاهم رسالةَ ربِّه، ولكنه وعدَهم نزولَ ما كان حذَّرهم من بأس الله في وقتٍ وَقَّته لهم، ففارقهم إذْ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظلَّ القومَ العذابُ وغَشِيَهم ـ كما قال الله تعالى في تنزيله ـ تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونسَ سلامتُهم وارتفاعُ العذاب الذي كان وعدهموه، فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعداً فكذب وعدي. فذهب مغاضباً ربَّه وكَرِهَ الرجوع إليهم، وقد جرَّبوا عليه الكذب؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس[٣]. وقد مضى هذا في «الأنبياء»[٤] وهو الصحيح على ما يأتي عند قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

(١) هي بلدة على شاطئ دجلة. معجم البلدان ١/ ٧٧.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٥ و٣٧٦.

(٤) ١٤/ ٢٦٦ ، وما بعدها.

ولم ينصرف يونسُ؛ لأنه اسمٌ أعجميّ، ولو كان عربيّاً لانصرف وإن كانت في أوّله الياء؛ لأنه ليس في الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سمَّيت بيُعْفُر صرفته؛ وإن سمَّيت بيَعْفُر لم تَصرِفْه[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ قال المبرَّد: أصلُ أَبَقَ تباعد؛ ومنه غلامٌ آبقٌ. وقال غيره: إنما قيل ليونس: أَبَقَ؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستتراً من الناس. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المملوءة. و«الفُلك» يُذكَّر ويُؤنَّث ويكون واحداً وجمعاً[٢]. وقد تقدّم[٣].

قال الترمذي الحكيم: سمَّاه آبقاً لأنه أَبَقَ عن العبودية، وإنما العبودية تركُ الهوى وبذل النفس عند أمور الله؛ فلما لم يبذل النَّفْسَ عندما اشتدَّت عليه العَزمة من المَلِك ـ حسَبما تقدَّم بيانُه في «الأنبياء»[٤] ـ آثرَ هواه لَزِمَه اسمُ الآبق، وكانت عزمة المَلِك في أمر الله لا في أمر نفسه، وبحظّ حقِّ الله لا بحظِّ نفسه؛ فتحرَّى يونسُ فلم يُصِبِ الصوابَ الذي عند الله، فسمَّاه: آبقاً، ومُليماً.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ قال المبرّد: فقارع، قال: وأصلُه من السِّهام التي تُجَال. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ قال: من المغلوبين. قال الفرّاء[٥]: دَحَضَتْ حُجَّتُه وأَدْحضها الله، وأصلُه من الزَّلَق؛ قال الشاعر:

قَتَلْنا الْمُدْحَضِينَ بكُلِّ فَجٍّ فقد قَرَّتْ بقَتلِهِمُ العيونُ[٦]

أي: المغلوبين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٩ .

(٣) ٢/ ٤٩٢ .

(٤) ١٤/ ٢٦٨ ، واسم الملك: حزقيا، كما سلف.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٩ ، وما قبله منه.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٦٧ ونسبه لأبي قيس.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: أتى بما يُلام عليه فأما المَلوم: فهو الذي يُلام، استحقَّ ذلك أو لم يستحقَّ[١].

وقيل: المُليم المعيب. يقال: لام الرجل إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ قال الكسائي: لم تكسر «أن» لدخول اللام؛ لأن اللام ليست لها. النحاس[٢]: والأمر كما قال؛ إنما اللام في جواب «لولا». ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من المصلِّين ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: عقوبةً له؛ أي: يكون بطنُ الحوت قبراً له إلى يوم القيامة.

واختُلف كم أقام في بطن الحوت؟. فقال السديّ والكلبيّ ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. الضحاك: عشرين يوماً. عطاء: سبعة أيام. مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام. وقيل: ساعة واحدة[٣]. والله أعلم.

الخامسة: روى الطبري من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لما أراد اللهُ ـ تعالى ذِكْره ـ حَبْسَ يونس في بطن الحوت أَوحى اللهُ إلى الحوت أن خُذْه ولا تَخدِشْ لحماً، ولا تكسِرْ عظماً، فأخذه ثم هوَى به إلى مَسْكنه من البحر؛ فلما انتهى به إلى أسفل البحر سَمِعَ يونسُ حسّاً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت: إنَّ هذا تسبيحُ دوابِّ البحر» قال: «فسبَّحَ وهو في بطن الحوت» قال: «فسمعتِ الملائكةُ تسبيحَه فقالوا: يا ربَّنا، إنَّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرضٍ غريبة» قال: «ذلك عبدي يونُس عصَاني فحبستُه في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبدُ الصالح الذي كان يَصعَدُ إليك منه في كل يوم وليلة عملٌ صالح؟ قال: نعم. فشفعوا له عند ذلك فأَمرَ الحوتَ بِقَذْفه في الساحل كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾»[٤].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٩.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٩، وما قبله منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٣٨٥، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٨: فيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقيه رجاله رجال الصحيح.

وكان سقمُه الذي وصفَه به الله تعالى ذكره: أنه ألقاه الحوتُ على الساحل كالصبيّ المَنْفوس قد نُشِر اللحمُ والعظم[١].

وقد رُوي: أن الحوتَ سار مع السفينة رافعاً رأسَه يتنفس فيه يونسُ ويُسبِّح، ولم يُفارقهم حتى انتَهَوْا إلى البرّ، فلفظَهُ سالماً لم يتغيَّر منه شيء فأسلموا؛ ذكره الزمخشريّ في «تفسيره»[٢].

وقال ابن العربي[٣]: أخبرني غيرُ واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعَالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجُويني: أنه سُئل: هل[٤] الباري في جهة؟ فقال: لا، هو يتعالَى عن ذلك. قيل له: ما الدليلُ عليه؟ قال: الدليلُ عليه قولُ النبي صله الله عليه وسلم: «لا تُفضِّلوني على يونسَ بن متَّى»[٥] فقيل له: ما وجهُ الدليل في هذا الخبر؟ فقال: لا أقوله حتى يأخُذَ ضيفي هذا ألفَ دينار يقضي بها دَيْناً[٦]. فقام رجلان فقالا: هي علينا. فقال: لا يتبع بها اثنين؛ لأنه يشقُّ عليه. فقال واحد: هي عليّ. فقال: إنَّ يونسَ بن متّى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، فصار في قَعْر البحر في ظُلمات ثلاث، ونادى ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمدٌ ﷺ حين جَلَس على الرَّفرف الأخضر وارتقى به صعداً، حتى انتهى به إلى موضع يسمعُ فيه صَرِيفَ الأقلام، وناجاه ربُّه بما ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى، بأقربَ إلى الله تعالى من يونس في بطن الحوت في ظُلمة البحر.

السادسة: ذكر الطبري: أنَّ يونسَ عليه السلام لما رَكِبَ في السفينة أصابَ أهلَها

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣ من قول ابن زيد.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٥٣.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٩.

(٤) في النسخ: عن، والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧) بنحوه، وسلف ٤/ ٢٥٤ و١٤/ ٢٧٤.

(٦) في أحكام القرآن: دينه.

عاصفٌ من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدِكم. فقال يونسُ وعَرَفَ أنه هو صاحبُ الذنب: هذه خطيئتي، فألقُوني في البحر، وأنهم أبَوْا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فقال لهم: قد أخبرتُكم أن هذا الأمرَ بذنبي. وأنهم أبَوْ عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية، فكان من المدحضين، وأنهم أبَوْ أن يُلقوه في البحر حتى أعادوا سِهامهم الثالثةَ فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت.

ورُوي أنه لما رَكِبَ في السفينة تَقنَّع ورقدَ، فساروا غيرَ بعيد إذْ جاءتهم ريحٌ كادت السفينةُ أن تغرقَ، فاجتمع أهلُ السفينة فدعَوْا فقالوا: أيقظوا الرجلَ النائم يدعو معنا؛ فدعا اللهَ معهم فرفع اللهُ عنهم تلك الريح. ثم انطلق يونسُ إلى مكانه فرقد، فجاءت ريحٌ كادت السفينةُ أن تغرقَ، فأيقظوه ودعَوا اللهَ فارتفعت الريح.

قال: فبينما هم كذلك إذ رفع حوتٌ عظيم رأسَه إليهم أراد أن يبتلعَ السفينةَ، فقال لهم يونس: يا قوم، هذا من أجلي، فلو طرحتموني في البحر لَسِرْتُم، ولَذَهب الريح عنكم والرَّوْع. قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم، فمن وقعت عليه رَمَيْناه في البحر. قال: فتساهموا، فوقع على يونس؛ فقال لهم: يا قوم، اطرحوني، فمن أجلي أُوتيتم؛ فقالوا: لا نفعل حتى نتساهم مرةً أُخرى. ففعلوا فوقع على يونس. فقال لهم: يا قوم، اطرحوني، فمن أجلي أُوتيتم؛ فذلك قولُ الله عز وجل: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: وقع السهم عليه؛ فانطلقوا به إلى صَدْر السفينة لِيُلقوه في البحر، فإذا الحوت، فاتحٌ فاه، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجَعوا به إلى الجانب الآخر، فإذا بالحوت فاتحٌ فاه؛ فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فالتقمه الحوت؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت: إني لم أجعله لك رزقاً، ولكن جعلتُ بطنك له وعاءً. فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة فنادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨] وقد تقدم ويأتي.

ففي هذا من الفِقه أن القُرْعة كانت معمولاً بها في شرع مَن قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدَّم في «آل عمران»[(١)].

قال ابن العربي[(٢)]: وقد وردت القُرعة في الشَّرع في ثلاثة مواطن:

الأول: كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أَقرعَ بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سَهْمها خرج بها معه[(٣)].

الثاني: أن النبي ﷺ رُفِعَ إليه أن رجلاً أَعتق ستةَ أَعْبُدٍ لا مالَ له غيرهم، فأَقرعَ بينهم؛ فأَعتق اثنين وأَرقَّ أربعة[(٤)].

الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريثَ قد دَرَسَتْ فقال: «اذهبا وتوخَّيا الحق واستَهِما ولِيُحلل كل واحدٍ منكما صاحبَه»[(٥)].

فهذه ثلاثةُ مواطن، وهي القَسْم في النكاح، والعِتق، والقِسمة. وجَريان القُرعة فيها لِرَفْع الإشكال وحَسْم داء التشهِّي.

واختلف علماؤنا في القُرعة بين الزوجات في الغزو على قولين؛ الصحيح منهما الاقتراع؛ وبه قال فقهاءُ الأمصار. وذلك أن السَّفر بجميعهن لا يُمكن، واختيار واحدة منهن إيثارٌ، فلم يبقَ إلا القُرعة. وكذلك في مسألة الأَعْبُد الستة؛ فإن كلَّ اثنين منهما ثلث، وهو القَدْر الذي يجوز له فيه العِتق في مرض الموت، وتعيينهما بالتشهِّي لا يجوز شرعاً؛ فلم يبقَ إلا القُرعة. وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث لم يُميِّز الحقَّ إلا القُرْعة، فصارت أصلاً في تعيين المستحقّ إذا أَشكل. قال: والحقُّ

(١) ٥/ ١٣٢.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٠ - ١٦١١، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٨)، ومسلم (٢٧٧٠)، وسلف ٥/ ١٣٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٩٣٢)، ومسلم (١٦٦٨) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٥) قطعة من حديث أم سلمة رضي الله عنها، أخرجه أحمد (٢٦٧١٧)، وأبو داود (٣٥٨٤)، وأوله: «إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحنُ بحجته من بعض..» وأخرجه بأخصر منه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

عندي أن تجري في كل مُشكِل، فذلك أبينُ لها، وأقوى لفصل الحُكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها؛ ولذلك قلنا: إنَّ القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقُرعة بين الإماء في العِتق.

السابعة: الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز. وإنما كان ذلك في يونس وزمانِه مقدِّمةً لتحقيق برهانه، وزيادةً في إيمانه؛ فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل ولا يُرمى به في النار أو البحر، وإنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته. وقد ظنَّ بعضُ الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القُرعة تُضْرَبُ عليهم، فَيُطرَح بعضُهم تخفيفاً؛ وهذا فاسدٌ؛ فإنها لا تخفُّ برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبِرون على قضاء الله عز وجل[(١)].

الثامنة: أخبر اللهُ عز وجل أن يونسَ كان من المُسبِّحين، وأن تسبيحَه كان سببَ نَجاته؛ ولذلك قيل: إن العملَ الصالح يرفعُ صاحبَه إذا عَثَر. قال ابن عباس: «مِنَ المُسَبِّحِينَ» من المُصلِّين. قال قتادة: كان يُصلِّي قبلَ ذلك لحفظ الله عز وجل له فنجَّاه. وقال الربيع بن أنس: لولا أنه كان له قبلَ ذلك عملٌ صالح ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾قال: ومكتوب في الحكمة: إنَّ العملَ الصالح يرفع ربَّه إذا عَثَر[(٢)].

وقال مقاتل: «مِنَ المُسَبِّحِينَ»: من المصلِّين المُطيعين قبلَ المعصية. وقال وهب: من العابدين. وقال الحسن: ما كان له صلاةٌ في بطن الحوت؛ ولكنه قدَّم عملاً صالحاً في حال الرَّخاء فذكره اللهُ به في حال البلاء، وإنَّ العملَ الصالحَ ليَرفع صاحبَه، وإذا عَثَر وجد مُتَّكَأً[(٣)]. قلت: ومن هذا المعنى قولُه ﷺ: «مَنْ استطاعَ منكم أن تكونَ له خَبيئةٌ مِن عَمَل صالحٍ فَليفعَلْ»[(٤)] فيجتهد العبد، ويَحرِص على خَصْلة من

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٠، وتنظر الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٦٢٨ - ٦٣٠ .

(٣) ذكر قولي وهب والحسن البغوي في تفسيره ٤/ ٤٣ .

(٤) أخرجه الدارقطني في العلل ٤/ ٢٤٥ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٧٦) من حديث الزبير بن العوام ﷺ مرفوعاً، وأخرجه الدارقطني عنه موقوفاً، وقال: وهو الصحيح.

صالح عمله، يُخلص فيها بينه وبين ربِّه، ويدَّخرها ليوم فاقته وفَقْره، ويَخْبَؤُها بجهده، ويستُرها عن خَلْقه، يَصِلُ إليه نفعُها أحوجَ ما كان إليه. وقد خرَّج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما ثلاثةُ نَفَر ـ في رواية ممن كان قبلَكم ـ يتماشَوْن أخذَهم المطرُ، فَأوَوْا إلى غارٍ في جبل فانحطَّت على فم الغار صخرةٌ من الجبل فانطبقَتْ عليهم، فقال بعضُهم لبعض انظُروا أعمالاً عَمِلْتُموها صالحةً لله، فادعوا اللهَ بها لعلَّه يَفرُجها عنكم» الحديث بكماله وهو مشهور[1] شُهْرتُه أغنتْ عن تمامه.

وقال سعيد بن جُبير: لما قال في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَذَفهُ الحوتُ[2]. وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ من المُصلِّين في بطن الحوت.

قلت: والأظهرُ أنه تسبيحُ اللسان الموافق للجنان، وعليه يدلُّ حديثُ أبي هريرة المذكورقبل الذي ذكره الطبري. قال: فسبَّح في بطن الحوت. قال: فسمعت الملائكةُ تسبيحَه؛ فقالوا: يا ربَّنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة[3]. وتكون «كان» على هذا القول زائدةً؛ أي: فلولا أنه من المُسبِّحين. وفي كتاب أبي داود: عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعاءُ ذي النون في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يدعُ به رجلٌ مسلمٌ في شيء قطُّ إلا استُجيب له» وقد مضَى هذا في سورة «الأنبياء»[4].

فيونس عليه السلام كان قبلُ مصلِّيا مُسبِّحاً، وفي بطن الحوت كذلك.وفي الخبر:

---

(١) أخرجه أحمد (٥٩٧٤) والبخاري (٢٣٣٣)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣١ .

(٣) سلف في المسألة الخامسة.

(٤) ١٤/ ٢٧٥، وقد ذكرنا ثمة أننا لم نقف عليه في سنن أبي داود ولا في تحفة الأشراف، وهو في سنن الترمذي (٣٥٠٥).

فنُودي الحوت: إنا لم نجعَلْ يونسَ لك رِزقاً؛ إنما جعلناك له حِرْزاً ومسجداً. وقد تقدَّم[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ روي أن الحوت قَذَفه بساحل قرية من المَوْصل. وقال ابن قُسَيْط عن أبي هريرة: طُرح يونس بالعراء وأنبت اللهُ يَقْطِينةً، فقلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة؟ قال: شجرةالدُّبَّاء؛ هيَّأ اللهُ له أُرْوِيَّةً[(٢)] وحشيَّة تأكل من خَشَاش الأرض ـ أو هَشَاش الأرض ـ فَتَفْشِج[(٣)] عليه فترويه من لَبنها كلَّ عشية وبُكرة حتى نبت. وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: خرج به ـ يعني الحوت ـ حتى لَفَظه في ساحل البحر، فطرحه مثلَ الصبيِّ المنفوس لم ينقص من خَلْقه شيء[(٤)].

وقيل: إن يونس لما ألقاه الحوتُ على ساحل البحر أنبت اللهُ عليه شجرةً من يقطين، ـ وهي فيما ذُكر شجرةُ القرع ـ يتقطر عليه من اللبن حتى رَجَعت إليه قوَّته. ثم رَجَع ذاتَ يوم إلى الشجرة فوجدها يَبِسَتْ، فحزن وبكى عليها فعُوتب؛ فقيل له: أَحَزِنت على شجرة وبكيتَ عليها، ولم تحزنْ على مئة ألف وزيادة من بني إسرائيل، من أولاد إبراهيمَ خليلي، أسرى في أيدي العدو، وأردتَ إهلاكهم جميعاً[(٥)]؟ .

وقيل: هي شجرة التين. وقيل: شجرة الموز تغطَّى بورقها، واستظلَّ بأغصانها، وأفطرَ على ثمارها. والأكثرُ على أنها شجرة اليقطين على ما يأتي .

---

(١) في المسألة السادسة.

(٢) الأُرْوِيَّة: أنثى الوعول. القاموس (روي).

(٣) الفَشْج: تفريج ما بين الرجلين.

(٤) أخرجهما الطبري ١٩/ ٦٣٥ و٦٣٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٦٣٥ - ٦٣٦ بنحوه.

ثم إن الله تبارك وتعالى اجتباه فجعله من الصالحين. ثم أمره أن يأتي قومَه ويُخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم، فعمدَ إليهم حتى لقي راعياً فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم، فأخبره أنهم بخير، وأنهم على رجاء أن يرجعَ إليهم رسولُهم. فقال له: فأخبِرْهم أني قد لقيتُ يونس. فقال: لا أستطيعُ إلا بشاهد. فسمَّى له عنزاً من غنمه فقال: هذه تشهد لك أنك لقيتَ يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه البقعة التي أنت فيها تشهدُ لك أنك لقيتَ يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه الشجرةُ تشهد لك أنك لقيتَ يونس. وأنه رجَع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه لقي يونسَ فكذَّبوه، وهمُّوا به شرّاً فقال: لا تَعْجَلوا عليَّ حتى أُصبح، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي فيها يونس، فاستنطقها فأخبرتهم أنه لقي يونس، واستنطق الشاةَ والشجرةَ فأخبرتاهم إنه لقي يونس، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك. ذكر هذا الخبرَ وما قبله الطبري رحمه الله[1].

«فَنَبَذْنَاهُ» طرحناه. وقيل: تركناه «بالعراءِ» بالصحراء؛ قاله ابن الأعرابي[2]. الأخفش: بالفضاء. أبو عُبيدة: الواسع من الأرض.

الفراء: العراء المكان الخالي. قال: وقال أبو عُبيدة: العراء وجهُ الأرض[3]؛ وأنشد لرجل من خُزاعة:

ورفعتُ رِجلاً لا أخافُ عِثارها ونَبَذْتُ بالبلدِ العَراءِ ثِيابي[4]

وحكى الأخفش[5] في قوله: «وَهُوَ سَقِيمٌ» جمع سقيم [سَقْمى و] وسقامَى وسِقام.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٨٨. وهو في عرائس المجالس ص ٤١٣ - ٤١٤.

(٢) ياقوتة الصراط ص٤٣٢.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ٥٧، وقول الفراء السالف منه وعبارة مجاز القرآن: بالعراء، أي: الأرض الفضاء.

(٤) أورده المبرد في الكامل ٤/ ٣٦٠، والطبري في تفسيره ١٩/ ٦٣١.

(٥) نقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٠، وما بين حاصرتين الآتي منه.

وقال في هذه السورة: «فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ» وقال في «نون والقلم»: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [الآية:٤٩] والجواب: أن الله عز وجل خبَّر هاهنا أنه نبذه بالعراء وهو غيرُ مذموم، ولولا رحمةُ الله عز وجل لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم؛ قاله النحاس.

وقوله: «وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» يعني «عَلَيْهِ» أي: عنده؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشعراء:١٤] أي: عندي. وقيل: «عَلَيْه» بمعنى له.

«شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» اليقطين: شجر الدُّبَّاء: وقيل غيرها؛ ذكره ابن الأعرابي[١]. وفي الخبر: «الدُّبَّاء والبِطِّيخ من الجنة»[٢] وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة».

وقال المبرّد: يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترشُ ورقها على الأرض: يقطينة، نحو: الدُّبَّاء، والبطيخ، والحنظل، فإن كان لهاساق يُقِلُّها فهي شجرة فقط، وإنْ كانت قائمةً، أي: بعروق تفترش فهي نجمة، وجمعها: نَجْم[٣]؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦] ورُوي نحوه عن ابن عباس والحسن ومقاتل. قالوا: كلُّ نبت يمتدُّ ويبسط على الأرض، ولا يبقى على استواء، وليس له ساق نحو القِثَّاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين. وقال سعيد بن جبير: هو كلُّ شيء ينبتُ، ثم يموت من عامِه[٤]. فيدخل في هذا الموز.

قلت: وهو مماله ساق. الجوهري[٥]: واليقطين مالا ساق له كشجر القرع ونحوه. الزجاج[٦]: اشتقاق اليقطين من: قَطَنَ بالمكان، إذا أقام به، فهو يَفْعيل.

---

(١) ياقوتة الصراط ص ٤٣٢ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٠ .

(٤) قولا ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير أخرجهما الطبري ١٩/ ٦٣٣ .

(٥) الصحاح (قطن).

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣١٤ .

وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ. وقيل: إنما خص اليقطين بالذكر؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب[١]. وقيل: ما كان ثَمَّ يقطين فأنبته اللهُ في الحال.

القشيري: وفي الآية ما يدلُّ على أنه كان مفروشاً ليكون له ظلّ.

الثعلبي: كانت تُظِلُّه فرأى خُضرتها فأعجبته، فيبستْ فجعل يتحزن عليها؛ فقيل له: يا يونس، أنت الذي لم تَخلُق، ولم تَسقِ، ولم تُنبتْ تحزن على شُجيرة، فأنا الذي خلقتُ مئة ألف من الناس أو يزيدون تُريد مني أن أستأصِلَهم في ساعة واحدة، وقد تابوا وتبتُ عليهم؟! فأين رحمتي يا يونس، أنا أرحمُ الراحمين[٢].

ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه كان يأكل الثَّريد باللحم والقرع. وكان يَحبُّ القرع ويقول: «إنها شجرةُ أخي يونس»[٣].

وقال أنس: قُدِّم للنبيّ ﷺ مَرَقٌ فيه دُبّاء وقَدِيد، فجعل يتَّبع الدُّبَّاء من حوالَى القَصْعة. قال أنس: فلم أزَلْ أُحبُّ الدُّبّاء من يومئذ. أخرجه الأئمة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قد تقدَّم عن ابن عباس أن رسالةَ يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبذَه الحوت[٥]، وليس له طريقٌ إلا عن شَهْر بن حَوْشَب.

النحاس[٦]: وأجودُ منه إسناداً وأصحُّ ما حدَّثناه عليّ[٧] بن الحسين قال: حدّثنا الحسن بن محمد قال: حدّثنا عمرو بن العَنْقَزيّ قال: حدّثنا إسرائيل، عن أبي

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٧.

(٢) عرائس المجالس ص ٤١٣ - ٤١٤ بنحوه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٣٩)، ومسلم (٢٠٤١).

(٥) ١٨/ ٩٢ - ٩٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٠، وما قبله منه.

(٧) في (م): عن علي.

إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: حدّثنا عبدُ الله بن مسعود في بيت المال عن يونس النبيّ ﷺ قال: إنَّ يونسَ وعدَ قومَه العذابَ وأخبرهم أنه[١] يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرَّقوا بين كلِّ والدةٍ وولدِها، وخرجوا فجأروا إلى الله عز وجل واستغفروا، فكفَّ اللهُ عز وجل عنهم العذابَ، وغدا يونسُ عليه السلام ينتظر العذابَ فلم يَرَ شيئاً ـ وكان مَن كَذَب ولم تكن له بَيِّنةٌ قُتِلَ ـ فخرج يونسُ مُغاضِباً، فأتى قوماً في سفينة فحملوه وعَرَفوه، فلما دخل السفينة ركدت السفينةُ، والسُّفن تَسير يميناً وشِمالاً، فقالوا: ما لِسفينتكم؟ فقالوا: لا نَدري. فقال يونسُ عليه السلام: إنَّ فيها عبداً آبقاً من ربِّه جلَّ وعزَّ، وإنها لن تسيرَ حتى تُلقوه. قالوا: أمَّا أنت يا نبيَّ الله فإنَّا لا نُلقيك.

قال: فاقترِعوا، فمن قُرِع فَلْيقَعْ، فاقتَرعوا فقرعهم يونسُ فأبَوْ أن يدعوه، قال: فاقترِعوا ثلاثاً فمن قُرِع فَلْيقع، فاقتَرعوا فقرعهم يونسُ ثلاثَ مرات ـ أو قال: ثلاثاً ـ فوقع. وقد وكَّل الله به جلَّ وعزَّ حوتاً فابتلعه وهو يهوي به إلى قَرار الأرض، فسمع يونسُ عليه السلام تسبيح الحصى ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] قال: ظُلمة الليل، وظُلمة البحر، وظُلمة بطن الحوت.

قال: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ قال: كهيئة الفَرْخ الممعوط الذي ليس عليه ريش. قال: وأنبت اللهُ عليه شجرةً من يقطين فنبتت، فكان يستظلّ بها ويُصيب منها، فيبست فبكى عليها؛ فأوحى الله جل وعز إليه: أتبكي على شجرة يَبِستْ، ولا تبكي على مئة ألف أو يَزيدون أردتَ أن تُهلِكَهم[٢]؟! قال: وخَرج رسولُ الله يونس فإذا هو بغلام يرعى؛ قال: يا غلام، من أنت؟ قال: من قوم يونس. قال: فإذا جئتَ إليهم فأخبرهم أنك قد لقيتَ يونس. قال: إن كنتَ يونس فقد علمتَ أنه من كذب قُتِل إذا لم تكن له بينة، فمن يشهدُ لي؟ قال: هذه الشجرة وهذه البقعة. قال: فَمُرْهما؛ فقال لهما

(١) في النسخ: أن، والمثبت من إعراب القرآن.
(٢) في (د) و(م): تهلكهم.

يونس: إذا جاءَكُما هذا الغلامُ فاشهدا له. قالتا: نعم.

قال: فرجَع الغلام إلى قومه وكان في مَنَعة، وكان له إخوة، فأتى المَلِكَ فقال: إني قد لقيتُ يونسَ وهو يقرأ عليك السلام. قال: فأمرَ به أن يُقتل؛ فقالوا: إن له بيّنةً، فأرسلوا معه. فأتى الشجرة والبقعةَ فقال لهما: نشدتُكما بالله جل وعز، أتشهدانِ أني لقيتُ يونس؟ قالتا: نعم، قال: فرجعَ القومُ مذعورين يقولون له: شهدَتْ له الشجرة والأرض، فأتَوا الملكَ فأخبروه بما رأوْا. قال عبد الله: فتناول الملكُ يدَ الغلام فأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحقُّ بهذا المكان مني.

قال عبد الله: فأقام لهم ذلك الغلام أمرَهم أربعين سنة.

قال أبو جعفر النحاس: فقد تبين في هذا الحديث أن يونسَ كان قد أُرسل قبل أن يلتقمه الحوتُ بهذا الإسناد الذي لا يُؤخَذ بالقياس.

وفيه أيضاً من الفائدة أن قوم يونس آمنوا ونَدِموا قبل أن يَرَوُا العذابَ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذابُ إلى ثلاثة أيام، ففرَّقوا بين كل والدة وولدها، وضجُّوا ضجةً واحدة إلى الله عز وجل. وهذا هو الصحيح في الباب، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه في غيرهم في قوله عز وجل: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] وقوله عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الآية [النساء: ١٨].

وقال بعض العلماء: إنهم رأوْا مخائلَ العذاب فتابوا. وهذا لا يمنع[١]، وقد تقدَّم ما للعلماء في هذا في سورة «يونس» فَلْيُنظر هناك[٢]. قوله تعالى: «أَوْ يَزِيدُونَ» قد مضَى في «البقرة»[٣] محاملُ «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. وقال الفراء[٤]:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٢.

(٢) ١١/ ٥٤ - ٥٥.

(٣) ٢/ ٢٠٥.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣.

«أو» بمعنى بل. وقال غيره: إنها بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

فلما اشتدَّ أمرُ الحربِ فينا تأمَّلنا رِياحاً أو رِزاما[١]

أي: ورِزاماً. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وقرأ جعفر بن محمد: «إلى مئة ألف ويزِيدون» بغير همز[٢]؛ فـ «يزِيدون» في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف، أي: وهم يَزيدون.

النحاس[٣]: ولا يصحُّ هذان القولان عند البصريين، وأنكروا كونَ «أو» بمعنى بل وبمعنى الواو؛ لأن بل للإضراب عن الأوّل والإيجاب لما بعده، وتعالى الله عز وجل عن ذلك، أو خروج من شيء إلى شيء، وليس هذا موضعَ ذلك؛ والواو معناه خلافُ معنى «أو» فلو كان أحدُهما بمعنى الآخر لَبطلت المعاني؛ ولو جاز ذلك لكان: وأرسلناه إلى أكثرَ من مئة[٤] ألف أخصرَ.

وقال المبرد: المعنى: وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لَقُلتم: هم مئةُ ألف أو أكثر، وإنما خُوطب العباد على ما يعرفون.

وقيل: هو كما تقول: جاءني زيد أو عمرو، وأنت تعرِف مَن جاءك منهما إلا أنك أبهمتَ على المُخاطَب.

وقال الأخفش والزجاج: أي: أو يزيدون في تقديركم[٥]. قال ابن عباس: زادوا على مئة ألف عشرين ألفاً. ورواه أُبيّ بن كعب مرفوعاً[٦]. وعن ابن عباس أيضاً:

---

(١) لم نقف عليه، وسلف ١٧/ ٣١٣.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٢٦.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣.

(٤) في النسخ: مئتي ألف، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٦٩، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٣١٤.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٢٢٩)، والطبري ١٩/ ٦٣٧. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

ثلاثين ألفاً[١]. الحسن والربيع: بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال مقاتل بن حيان: سبعين ألفاً[٢]. ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعۡنَـٰهُمۡ إِلَىٰ حِينࣲ﴾ أي: إلى مُنتهى آجالهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَـٰۤىِٕكَةَ إِنَـٰثࣰا وَهُمۡ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَاۤ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَیَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِینَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَیۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَـٰنࣱ مُّبِینࣱ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِینَ ﴿١٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ لما ذكر أخبارَ الماضين تسليةً للنبي ﷺ احتجَّ على كفار قريش في قولهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله؛ فقال: «فَاسْتَفْتِهِمْ». وهو معطوفٌ على مثله في أول السورة وإنْ تباعدَتْ بينهم المسافة؛ أي: فَسَلْ يا محمد أهلَ مكة: «أَلِرَبِّكَ البناتُ». وذلك أن جُهَينةَ وخُزاعةَ وبني مُلَيْح وبني سلمة وعبد الدار زعَموا أن الملائكةَ بناتُ الله. وهذا سؤالُ توبيخ.

﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَـٰۤىِٕكَةَ إِنَـٰثࣰا وَهُمۡ شَـٰهِدُونَ﴾ أي: حاضرون لِخَلْقنا إيَّاهم إناثاً؛ وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلۡمَلَـٰۤىِٕكَةَ ٱلَّذِینَ هُمۡ عِبَـٰدُ ٱلرَّحۡمَـٰنِ إِنَـٰثًاۚ أَشَهِدُوا۟ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ [الزخرف: ١٩][٣]. ثم قال: ﴿أَلَاۤ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾ وهو أسوأُ الكذب ﴿لَیَقُولُونَ . وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في قولهم: إنَّ لله ولداً وهو الذي لا يلِدُ ولا يُولد.

و«إنّ» بعد «ألَا» مكسورة؛ لأنها مبتدأة. وحكى سيبويه أنها تكون بعد أمَا مفتوحةً أو مكسورة؛ فالفتح على أن تكون أمَا بمعنى حقّاً، والكسر على أن تكون أمَا بمعنى ألَا.

النحاس[٤]: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: يجوز فتحُها بعد ألَا تشبيهاً بأمَا،

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/٦٣٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٩/٦٣٧ من قول سعيد بن جبير.

(٣) تفسير البغوي ٤/٤٤ بنحوه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/٤٤٣ - ٤٤٤ ، وما قبله منه.

وأمّا في الآية فلا يجوز إلا كسرُها؛ لأن بعدَها اللام[١].

وتمامُ الكلام «لَكَاذِبُونَ». ثم يبتدئ ﴿أَصْطَفَى﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال: وَيْحَكم «أَصْطَفَى البناتِ» أي: أَخْتار البناتِ وتركَ البنين؟.

وقراءةُ العامة: «أَصْطَفَى» بقطع الألف؛ لأنها ألفُ استفهام دخلت على ألفِ الوصل، فَحُذفت ألفُ الوصل وبقيتْ ألفُ الاستفهام مفتوحةً مقطوعةً على حالها، مثل: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾[٢] [مريم: ٧٨] على ما تقدَّم.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافع وحمزة: «اصْطَفَى» بوصل الألف على الخبر بغير استفهام[٣]. وإذا ابتدأ كَسَرَ الهمزة. وزعم أبو حاتم أنه لا وجهَ لها؛ لأن بعدها ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ. [قال أبو جعفر[٤]: هذه القراءة وإن كانت شاذة فهي تجوز من جهتين: إحداهما: أن يكون تبييناً وتفسيراً لما قالوه من الكذب ويكون ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ منقطعاً مما قبلَه. والجِهةُ الثانية: أنه قد حكى النحويون ـ منهم الفراء ـ أن التوبيخَ يكون باستفهام وبغير استفهام كما قال جل وعز: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقيل: هو على إضمار القول، أي: ويقولون: «اصطفى البنات» أو يكون بدلاً من قوله: «وَلَدَ اللهُ»[٥] لأنَّ ولادةَ البناتِ واتخاذَهنَّ اصطفاءٌ لهنَّ، فأبدل مثالَ الماضي من مثال الماضي، فلا يوقف على هذا على «لَكاذِبُونَ».

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في أنه لا يجوز أن يكونَ له ولد. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حُجَّة

---

(١) في النسخ: الرفع، والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٤ بنحوه.

(٣) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦٠، وقراءة نافع وحمزة ـ وهي غير المشهورة عنهما ـ ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤، والكلام منه بنحوه.

(٤) هو النحاس وما بين حاصرتين منه من إعراب القرآن له.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٥٤ بنحوه.

وبُرهان. ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ أي: بحججكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أكثرُ أهل التفسير أنَّ الجِنّة هاهنا الملائكة. روى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: قالوا ـ يعني كفار قريش ـ: الملائكة بناتُ الله جل وتعالى. فقال: أبو بكر الصديق ﷺ: فمن أُمَّهاتُهنَّ. قالوا: مُخدَّرات الجنّ[١].

وقال أهل الاشتقاق: قيل لهم: جِنَّة، لأنهم لا يُرَوْن[٢]. وقال مجاهد: إنهم بطنٌ من بطون الملائكة يقال لهم: الجِنَّة[٣].

ورُوي عن ابن عباس. وروى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك قال: إنما قيل لهم: جِنة؛ لأنهم خُزَّانٌ على الجِنان والملائكةُ كلُّهم جِنَّة[٤].

«نَسَباً» مصاهرة. قال قتادة والكلبي ومقاتل: قالت اليهودُ لَعَنهم الله: إنَّ الله صاهر الجِنّ، فكانت الملائكةُ من بينهم. وقال مجاهد والسُّدي ومقاتل أيضاً: القائلُ ذلك كِنانة وخُزاعة؛ قالوا: إنَّ الله خطبَ إلى ساداتِ الجنّ فزوَّجوه من سَرَوات بناتهم، فالملائكةُ بناتُ الله من سَرَوات بنات الجنّ. وقال الحسن: أشركوا الشيطانَ في عبادة الله، فهو النَّسب الذي جعلوه[٥].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٦٥، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٥ مخدرات، جمع مخدرة، قال ابن الأثير في النهاية (خدر): الخِدْر: ناحية في البيت.. تكون فيه الجارية البكر، خُدِّرت، فهي مُخدَّرة. اهـ، وفي تفسير الطبري: سروات الجن. يعني أشرافهم. اللسان (سرو).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٧١.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤.

(٥) ذكر هذه الأقوال بنحوها الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٧٠ - ٧١.

قلت: قولُ الحسن في هذا أحسنُ؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٨] أي: في العبادة. وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضاً: هو قولُهم إنَّ الله تعالى وإبليسَ أخوان؛ تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً(١).

قوله تعال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ أي: الملائكة ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني قائل هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: للحساب(٢).

الثعلبي: الأولُ أولى؛ لأن الإحضار تكرَّر في هذه السورة، ولم يُرِدِ الله به غيرَ العذاب. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزيهاً لله عما يَصِفون. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم ناجون من النار.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ «ما» بمعنى الذي. وقيل: بمعنى المصدر، أي: فإنكم وعبادتَكم لهذه الأصنام. وقيل: أي: فإنكم مع ما تعبُدون من دون الله؛ يقال: جاء فلانٌ وفلان. وجاء فلانٌ مع فلان. ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الله ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بمضلِّين(٣).

النحاس(٤). أهلُ التفسير مُجمعون فيماعلمت على أن المعنى: ما أنتم بمضلِّين أحداً إلا من قدَّر اللهُ عز وجل عليه أن يَضِلَّ.

وقال الشاعر:

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧١ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٦ .

(٣) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٣٥٥ ، وينظر الدر المصون ٩/ ٣٣٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥ .

فــردَّ بــنــعــمــتــه كــيــدَهُ عــلــيــهِ وكــان لــنــا فــاتِــنــا

أي: مُضِلاً[١].

الثانية: في هذه الآية ردٌّ على القَدَرية. قال عمر[٢] بن ذرّ: قَدِمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكِر عنده القَدَر، فقال عمر: لو أراد اللهُ ألَّا يُعْصَى ما خلقَ إبليسَ وهو رأسُ الخطيئة، وإن في ذلك لَعلماً في كتاب الله جل وعز، عَرَفه من عَرَفه، وجَهِلَه مَن جَهِلَه؛ ثم قرأ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ إلا مَن كَتب الله عز وجل عليه أن يَصلَى الجحيم. وقال: فَصَلَتْ هذه الآيةُ بين الناس[٣].

وفيها من المعاني أن الشياطين لا يَصِلون إلى إضلال أحدٍ إلا مَن كَتَبَ الله عليه أنه لا يهتدي، ولو علم اللهُ جل وعز أنه يهتدي لَحَالَ بينه وبينهم؛ وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] أي: لستَ تَصِلُ منهم إلى شيء إلّا إلى ما في علمي[٤]. وقال لَبيد بن ربيعة في تثبيت القَدَرِ فأَحسنَ:

إنّ تَــقْــوى ربِّــنــا خــيــرُ نَــفَــلْ وبِــإذنِ الــلــه رَيْــثــي وعَــجَــلْ

أَحــمَــدُ الــلــهَ فــلا نِــدَّ لــهُ بِــيــديــهِ الــخــيــرُ مــا شــاء فَــعَــلْ

مَــنْ هَــدَاهُ سُــبُــلَ الــخــيــر اهــتــدى نــاعِــم الــبَــالِ ومَــنْ شــاء أَضَــلْ[٥]

قال الفراء[٦]: أهلُ الحجاز يقولون: فتنتُ الرجل، وأهل نجد يقولون: أَفتنته.

الثالثة: رُوي عن الحسن أنه قرأ: «إلَّا مَن هو صَالُ الجحيمِ» بضم اللام.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): عمرو، والمثبت من (ف). وهو عمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة الهَمْداني، المرهبي، أبو ذر الكوفي، رُمي بالإرجاء. تهذيب التهذيب ٣/ ٢٢٣.

(٣) أخرجه بنحوه الآجري في الشريعة ص ٢٣٠، واللا لكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٢٤٥)، والبيهقي في الاعتقاد ص ١٠٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٥.

(٥) ديوان لبيد ص١٧٤، والبيت الأول سلف ٩/ ٤٤٣.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥.

النحاس[١]: وجماعةُ أهل التفسير يقولون: إنه لحن؛ لأنه لا يجوزُ: هذا قاضُ المدينةِ. ومن أحسن ما قيل فيه ما سمعتُ عليَّ بن سليمان يقوله؛ قال: هو محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى «مَنْ» جماعة؛ فالتقدير: صالون؛ فحذفت النون للإضافة، وحُذفت الواو لالتقاء الساكنين. وقيل: أصلُه فاعل إلا أنه قُلب من صالٍ إلى صايل، وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومةً، فهو مثل: «شَفَا جُرُفٍ هَارٍ».

ووجهٌ ثالث: أن تحذف لام «صال» تخفيفاً، وتجري الإعراب على عينه، كما حُذف من قولهم: ما باليت به بالة. وأصلُها: بالية، من بالَى، كعافية من عافَى؛ ونظيرُه قراءةُ من قرأ: «وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانُ[٢]» [الرحمن: ٥٤]، «وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَآتُ»[٣] [الرحمن: ٢٤] أجرى الإعرابَ على العين[٤]. والأصلُ في قراءة الجماعة: صالي، بالياء، فحذفها الكاتبُ من الخطّ لِسُقوطها في اللفظ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

هذا مِن قول الملائكة تعظيماً لله عز وجل، وإنكاراً منهم عبادةَ مَنْ عَبَدَهم. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ قال مقاتل: هذه الثلاثُ الآيات نزلتْ ورسول الله ﷺ عند سِدرة المُنتهى، فتأخَّر جبريلُ، فقال النبي ﷺ: «أَهُنا تُفارقني» فقال: ما أستطيع أن أتقدَّمَ عن مكاني[٥]. وأنزل الله تعالى حكايةً عن قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الآيات.

والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا مَن له مقامٌ معلوم، فحذف الموصول.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦ ، وما قبله منه، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص١٢٨ ، والمحتسب ٢/ ٢٢٨ .

(٢) لم نقف على من قرأ بها.

(٣) قرأ بها ابن مسعود والحسن كما في القراءات الشاذة ص١٤٩ .

(٤) الكشاف ٣/ ٣٥٦ ، وينظر البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ٣١٠ .

(٥) لم نقف عليه.

والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا مَن له مقامٌ معلوم، فحذف الموصول. وتقديره عند البصريين: وما منا مَلَكٌ إلا له مقامٌ معلوم[١]؛ أي: مكان معلومٌ في العبادة؛ قاله ابن مسعود وابن جُبير[٢]. وقال ابن عباس: ما في السماوات موضعُ شبرٍ إلا وعليه مَلَكٌ يُصلِّي ويُسبح[٣]. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «ما في السماء موضعُ قَدَم إلا عليه مَلَكٌ ساجدٌ أو قائم[٤]».

وعن أبي ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمعُ ما لا تسمعون أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا وَملَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجداً لله، والله، لو تعلمون ما أعلمُ لَضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكَيتُم كثيراً، وما تلذَّذتُم بالنساء على الفُرش، ولخَرجتم إلى الصُّعُدات تَجْأرون إلى الله» لَوَدِدْتُ أني كنتُ شجرةً تُعضَد. خرجه أبو عيسى الترمذي[٥]، وقال فيه: حديث حسن غريب. ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذرّ قال: لَوَدِدْتُ أني كنت شجرةً تُعْضَد[٦]. ويروى عن أبي ذرّ موقوفاً[٧].

وقال قتادة: كان يُصلِّي الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾. قال: فتقدَّم الرجال وتأخَّر النساء[٨].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ قال الكلبي: صفوفُهم كصفوفِ أهل الدنيا في الأرض[٩].

وفي «صحيح مسلم»: عن جابر بن سَمُرةَ قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ ونحن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٦.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٢.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٥.
(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥١.
(٥) في سننه (٢٣١٢)، وسلف ٥/ ٤٢٨.
(٦) أخرجه أحمد (٢١٥١٦).
(٧) أخرجه الحاكم ٤/ ٥٧٩ مختصراً على قوله: لو تعلمون ما أعلم... إلى آخره.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٧٢.
(٩) تفسير البغوي ٤/ ٤٥.

كيف تَصُفُّ الملائكةُ عند ربِّها؟ قال: «يُتِمُّون الصفوفَ الأُول، ويتراصُّون في الصفّ»(١).

وكان عمر يقول إذا قام للصلاة: أَقيموا صُفوفَكم واستووا، إنما يريدُ الله بكم هَذْي الملائكة عند ربِّها ويقرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ تأخَّر يا فلان، تقدَّم يا فلان؛ ثم يتقدَّم فَيُكَبِّرُ(٢). وقد مضى في سورة «الحجر» بيانُه(٣).

وقال أبو مالك: كان الناسُ يُصلُّون مُتبدِّدين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ فأمرهم النبيُّ ﷺ أن يَصْطفُّوا(٤).

وقال الشعبي: جاء جبريلُ أو ملَكٌ إلى النبي ﷺ فقال: تقوم أَدنى من ثُلثي الليل ونِصْفَه وثُلُثَه؛ إنَّ الملائكة لَتُصلي وتُسبِّح، ما في السماء ملَك فارغ(٥).

وقيل: أي: لَنحن الصافُّون أجنحتنا في الهواء وقوفاً ننتظرُ ما نُؤمَر به. وقيل: أي: نحن الصافُّن حولَ العرش.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: المُصلُّون؛ قاله قتادة. وقيل: أي: المُنزِّهون اللهَ عمَّا أضافه إليه المشركون(٦). والمراد أنهم يُخبرون أنهم يعبدون اللهَ بالتسبيح والصلاة، وليسوا معبودين ولا بناتِ الله.

وقيل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ من قول الرسول ﷺ والمؤمنين للمشركين؛ أي: لكل واحدٍ منا ومنكم في الآخرة مقامٌ معلوم، وهو مقامُ الحساب. وقيل: أي: مِنَّا من له مقامُ الخوف، ومِنَّا من له مقامُ الرَّجاء، ومِنا من له مقامُ الإخلاص، ومِنَّا مَن له مقامُ الشُّكر، إلى غيرها من المقامات.

---

(١) صحيح مسلم (٤٣٠)، وهو في مسند أحمد (٢٠٩٦٤).

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٣.

(٣) ١٢/ ٢٠١ - ٢٠٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

(٥) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ١٢٦ دون نسبة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

قلت: والأظهرُ أن ذلك راجعٌ إلى قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين، أي: كانوا قبلَ بعثة محمد ﷺ إذا عُيِّروا بالجهل قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لو بُعِثَ إلينا نبيٌّ ببيان الشرائع لاتَّبعناه.

ولمّا خففت «إنْ» دخلتْ على الفعل ولَزِمتها اللامُ فَرْقاً بين النَّفي والإيجاب. والكوفيون يقولون: «إنْ» بمعنى ما، واللام بمعنى إلا[١]. وقيل: معنى ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي: كتاباً من كتب الأنبياء ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: لو جاءنا ذكرٌ كما جاء الأوّلين لأخلصنا العبادةَ لله. ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالذِّكر. والفراء[٢] يُقدِّره على حذف؛ أي: فجاءهم محمد ﷺ بالذِّكر فكفروا به. وهذا تعجيبٌ منهم، أي: فقد جاءهم نبيٌّ وأُنزلَ عليهم كتابٌ فيه بيانُ ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفَوْا بما قالوا.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال الزجاج[٣]: يعلمون مَغَبَّة كُفْرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال الفراء[٤]: أي: بالسعادة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣١٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧ .

وقيل: أراد بالكلمة قولَه عز وجل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[١] [المجادلة: ٢١] قال الحسن: لم يُقتَل من [الرُّسُل] أصحابِ الشرائع قطّ أحدٌ[٢].

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ أي: سبق الوعدُ بنصرهم بالحُجَّة والغَلَبة. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ على المعنى، ولو كان على اللَّفظ لكان: هو الغالبَ مثل ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾. وقال الشَّيباني[٣]: جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأسُ آية.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرِضْ عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال قتادة: إلى الموت. وقال الزجاج[٤]: إلى الوقت الذي أُمهلوا إليه. وقال ابن عباس: يعني القتل ببدر. وقيل: يعني فتح مكة. وقيل: الآيةُ منسوخةٌ بآية السيف[٥].

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: سوف يُبصرونه حين لا يَنفعهم الإبصارُ[٦]. وعسى من الله للوجوب[٧]، وعبّر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أي: عن قريبٍ يُبصرون. وقيل: المعنى: فسوف يُبصرون العذابَ يومَ القيامة.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ كانوا يقولون من فَرْط تكذيبهم: متى هذا العذابُ؛ أي: لا تستعجلوه، فإنه واقعٌ بكم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: العذاب. قال الزجاج[٨]: وكان عذابُ هؤلاء بالقتل. ومعنى «بِسَاحَتِهِمْ» أي: بدارهم؛ عن السُّدّي[٩] وغيره. والساحة

---

(١) زاد المسير ٧/ ٩٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٣، وما بين حاصرتين منه.

(٣) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٧ (والكلام منه): الكسائي.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٨، وقول قتادة الذي قبله منه، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٧٣ بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٩.

(٧) كذا في النسخ، وليس في الآيات لفظ «عسى».

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٣١٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٨.

(٩) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٦٠.

والسَّحْسَة في اللغة: فِناءُ الدار الواسع[١]. الفرّاء[٢]: «نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ» ونزل بهم سواء.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس صباحُ الذين أُنذروا بالعذاب. وفيه إضمارٌ، أي: فساءَ الصباحُ صباحُهم[٣]. وخُصَّ الصباح بالذِّكر؛ لأن العذابَ كان يأتيهم فيه. ومنه الحديث الذي رواه أنس ﷺ قال: لما أتى رسولُ الله ﷺ خَيْبَر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المَسَاحي، فقالوا: محمدٌ والخميسُ، ورجَعوا إلى حِصْنهم؛ فقال ﷺ: «اللهُ أكبرُ، خَرِبت خيبرُ، إنا إذا نَزَلْنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المُنذَرين»[٤]. وهو يُبيِّن معنى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يُريد النبيَّ ﷺ.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ كرَّر تأكيداً، وكذا ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ أيضاً

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ نزَّه سبحانه نفسَه عما أضافَ إليه المشركون. ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ على البَدَل. ويجوزُ النصب على المَدْح، والرفعُ بمعنى: هو ربُّ العِزَّة[٥].

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: من الصاحبة والولد. وسُئل رسولُ الله ﷺ عن معنى «سبحانَ اللَّهِ» فقال: «هو تنزيهُ الله عن كلِّ سوء» وقد مضَى في «البقرة» مستوفى[٦].

---

(١) العين ٣/١٦.

(٢) معاني القرآن ٢/٣٩٦.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/٧٠.

(٤) أخرجه أحمد (١١٩٩٢)، والبخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥) (٨٤) و(٨٧) مطولاً. والخميس: الجيش، سُمّي به لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب، وقيل: لأنه تُخَمَّس فيه الغنائم. النهاية (خمس).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/٤٤٨.

(٦) ١/٤١٢، وهو حديث ضعيف.

الثانية: سُئل محمد بن سُحْنون عن معنى «رَبِّ العزَّة» لِمَ جاز ذلك، والعِزَّةُ من صِفات الذَّات، ولا يقال: ربُّ القُدرة ونحوها من صفات ذاته جلّ وعزّ؟ فقال: العِزّة تكون صفةَ ذاتٍ وصفةَ فِعْل، فَصِفةُ الذات نحو قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠] وصفةُ الفعل نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ والمعنى: ربّ العِزَّة التي يتعازُّ بها الخَلْق فيما بينهم، فهي من خَلْق الله عز وجل. قال: وقد جاء في التفسير: إنَّ العِزَّة هاهنا يُراد بها الملائكة.

قال: وقال بعض علمائنا[١]: مَن حلف بعزَّة الله، فإنْ أراد عزَّتَه التي هي صِفتُه فَحَنِثَ فعليه الكفَّارة، وإنْ أراد التي جعلها اللهُ بين عبادِه فلا كفَّارةَ عليه.

الماوردي[٢]: «رَبِّ العِزَّةِ» يَحتمِلُ وجهين: أحدهما: مالك العِزَّة، والثاني: ربّ كلِّ شيء مُتعزِّز من مَلِك أو مُتجبِّر.

قلت: وعلى الوجهين فلا كفَّارةَ إذا نواها الحالفُ.

الثالثة: رُوي من حديث أبي سعيد الخُدريّ أن رسولَ الله ﷺ كان يقول قبلَ أن يُسلِّم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ إلى آخر السورة[٣]؛ ذكره الثعلبي.

قلت: قرأتُ على الشيخ الإمامِ المُحدِّث الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البكريّ بالجزيرة قُبالةَ المنصورة من الديار المصرية، قال: أخبرتنا الحُرَّة أمُّ المُؤيَّد زينبُ بنت عبد الرحمن بن الحسن الشَّعْري بنيسابور في المرة الأُولى، أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر القارئ، قال: حدثنا أبو الحسن عبد القادر بن محمد الفارسيّ، قال: حدّثنا أبو سهل بِشرُ بن أحمد الإسفراييني، قال: حدَّثنا أبو سليمان داودُ بن الحسين البيهقي، قال: حدَّثنا أبو زكريا يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال: حدّثنا هُشَيم،

---

(١) هو محمد بن سحنون كما في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٠ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٧٤ .

(٣) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١١٩)، والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٤٧٨).

عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخُدريّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ غيرَ مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

قال الماوردي: روى الشعبي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ سرَّه أن يكتالَ بِالمكيال الأوفى من الأجرِ يومَ القيامة فَلْيقُلْ آخرَ مَجْلسهِ حين يُريد أن يقوم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[١]. ذكره الثعلبي من حديث عليّ ﷺ مرفوعاً[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الذين بلَّغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة.

وقال أنسٌ: قال النبي ﷺ: «إذا سلَّمتم عليَّ فسلِّموا على المُرسلين، فإنما أنا رسولٌ من المرسلين»[٣].

وقيل: معنى «وسلامٌ على المرسلين» أي: أمنٌ لهم من الله جلَّ وعزَّ يومَ الفَزَع الأكبر.

«والحمد لله ربِّ العالمين» أي: على إرسال المرسلين مُبشِّرين ومُنذرين. وقيل: أي: على جميع ما أنعم اللهُ به على الخَلق أجمعين[٤]، وقيل: أي: على هلاك المشركين[٥]؛ دليلُه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

قلت: والكلُّ مُراد، والحمدُ يَعُمُّ. ومعنى «يَصِفُونَ» يكذِبون، والتقدير: عما يَصِفون من الكذب. تَمَّ تفسيرُ «الصافات».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٣٤، وهو مرسل.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ٤٦ من طريق الثعلبي عن علي ﷺ موقوفاً.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٩٢)، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٦١ عن قتادة مرسلاً.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٧٤.

(٥) زاد المسير ٧/ ٩٥.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها إحدَى أو اثنتانِ وثمانونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أقسمَ بالمَلائكةِ الصَّافِّينَ في مقامِ العُبوديَّةِ على مراتِبَ باعتبارِها تُفيضُ عليهِم الأنوارَ الإلهيَّةَ مُنتظِرينَ لأمرِ اللهِ. الزَّاجرينَ الأجرامَ العلويَّةَ والسُّفليَّةَ بالتَّدبيرِ المأمورِ فيها، أو النَّاسَ[1] عن المعاصي بإلهامِ الخيرِ، أو الشياطينَ عن التعرُّضِ لهم. التالين آياتِ الله وجلايا قُدسِه على أنبيائِهِ وأَوْليائِه.

أو بطوائفِ الأجرامِ[2] المُترتِّبَةِ كالصُّفوفِ المَرصوصةِ، والأرواحِ المدبِّرةِ لها، والجواهرِ القدسيَّةِ المستغرقةِ في بحارِ القدسِ يسبحونَ الليلَ والنَّهارَ لا يفترونَ.

أو بنفوسِ العُلماءِ الصَّافِّينَ في العباداتِ، الزَّاجرينَ عن الكفرِ والفُسوقِ بالحُجَجِ والنَّصائحِ، التَّالينَ آياتِ اللهِ وشرائعَه.

---

(١) قوله: «أو الناس» و«أو الشياطين» عطفٌ على «الأجرام». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٦٩).

(٢) قوله: «أو بطوائف الأجرام» هو مع تاليه عطف على «بالملائكة». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٦٩).

أو بنفوسِ الغزاةِ الصَّافِّينَ في الجهادِ، الزَّاجرينَ الخيلَ أو العدوَّ، التَّالينَ ذِكرَ اللهِ لا يَشغَلُهُم عنه مباراةُ العدوِّ.

والعطفُ لاختلافِ الذَّواتِ أو الصِّفاتِ[1]، والفاءُ لترَتُّبِ الوجودِ كقولِه:

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحَارِثِ الصْـ ـصَابِحِ فَالغَانِمِ فالآيِبِ[2]

فإنَّ الصفَّ كَمالٌ، والزَّجرَ تَكميلٌ بالمنعِ عن الشرِّ أو الإساقةِ إلى قبولِ الخيرِ، والتِّلاوةَ إفاضَتُه.

أو الرُّتبةِ[3] كقولِه عليه السَّلامُ: «رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ فالمُقَصِّرِينَ»[4]، غيرَ أنَّه لفَضلِ المتقدِّمِ على المتأخِّرِ وهذا للعكسِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «والصفات».

(٢) البيت لابن زيابة التيمي، وهو في «الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ١٠٩). اللهف: كلمة استغاثة يُتحسر بها على ما فات، وزيابة بفتح الزَّاي المُعْجَمة وتشديد المُثنَّاة التَّحتيَّة وبعد الألف باء مُوَحَّدة: اسم أم الشَّاعِر. والحارث هو ابن همام الشيباني، وكان غزاهم وصبحهم وغنم منهم، وآب إلى قومه سالماً، واللَّام في (للحارث) للتعليل؛ أي: يا لهف أُمِّي من أجل الحارِث. قاله البغدادي في «خزانة الأدب» (٥/ ١١٠).

(٣) قوله: «أو الرتبة» عطف على «الوجود». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٦٩).

(٤) ذكره السيوطي في «حاشيته» (١٠/ ٤٢٠) دون تعليق أو تخريج، وقد قال الشيخ زكريا الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٥٧٠) وهو ممن ينقل عن السيوطي: لم أره بهذا اللفظ. وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٣/ ٩٥٤): لم أقف عليه.

قلت: أصله في الصحيحين دون الشاهد، فقد رواه البخاري (١٧٢٧)، ومسلم (١٣٠١)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ارحم المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: «اللهم ارحم المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: «والمقصرين».

وقال الطيبي في «فتوح الغيب» (١٣/ ١١٣) في شرح الشاهد: أي: المحلق أقرب من المقصر، والفاء لدنو رتبة المقصر من المحلق.

وأدغمَ أبو عمرٍو وحمزةُ التَّاءاتِ فيما يليها لتقارُبِها، فإنَّها مِن طرفِ اللسانِ وأُصولِ الثَّنايَا[١].

(٤) ـ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جوابُ القَسَمِ، والفائدةُ فيه: تعظيمُ المقسَمِ به وتأكيدُ المقسَمِ عليه على ما هو المألوفُ في كلامِهم، وأمَّا تَحقيقُه فبقولِه:

(٥) ـ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ فإنَّ وُجودَها وانتظامَها على الوجهِ الأكمَلِ مع إمكانِ غيرِه دليلٌ على وُجودِ الصَّانعِ الحكيمِ ووحدتِه على ما مرَّ غيرَ مرَّةٍ، و﴿رَبُّ﴾ بدلٌ مِن (واحدٌ) أو خبرٌ ثانٍ، أو خبرُ مَحذوفٍ، وما بينَهُما يتناوَلُ أفعالَ العِبادِ فيدلُّ على أنَّها مِن خَلقِه.

و﴿ٱلْمَشَٰرِقِ﴾: مَشارِقُ الكواكبِ، أو مَشارِقُ الشَّمسِ في السَّنَةِ، وهي ثلاثُ مئةٍ وسِتُّونَ مَشرِقًا، تشرقُ كلَّ يومٍ في واحدٍ، وبحسبِهَا تَختَلِفُ المغارِبُ، ولذلك اكتفَى بذكرِهَا، مع أنَّ الشُّروقَ أدَلُّ على القُدرَةِ وأبلَغُ في النِّعمَةِ، وما قيلَ: إنَّها مئةٌ وثمانونَ إنَّما يَصِحُّ لو لم تختَلِفْ أوقاتُ الانتقالِ.

(٦) ـ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾: القُرْبَى مِنكُم ﴿بزينَةِ الكَواكِبِ﴾: بزينةٍ هي الكواكبُ والإضافَةُ للبَيانِ، ويعضُدُه قراءةُ حمزةَ ويعقوبَ وحفصٍ بتنوينِ: ﴿زينةٍ﴾ وجرِّ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ على إبدالِها منهُ[٢].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٦)، و«التيسير» (ص: ٢٢ ـ ٢٦)، و(ص: ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٦ ـ ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦)، و«النشر» (٢/ ٣٥٦)، و«المبسوط» (ص: ٣٧٥)، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿بزينةٍ﴾ منونةً ﴿الكواكبَ﴾ نصباً، ولم أقف على قراءة يعقوب التي ذكرها المصنف، وفي «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٧٨): وحكى يعقوب القارئ أن أبا عمرو والأعمش قرءا: ﴿بزينةٍ الكواكبَ﴾ بتنوين زينة ونصب الكواكب، وهي المعروفة من قراءة عاصم.

أو: بزينةٍ هي لها كأضوائِها وأوضاعِها.

أو: بأنْ زينَّا الكواكبَ فيها، على إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ فإنَّها كما جاءَت اسمًا[١] كاللِّيقةِ جاءَتْ مصدرًا كالنِّسبَةِ، ويؤيِّدُه قراءةُ أبي بكرٍ بالتَّنوينِ والنَّصبِ[٢] على الأصلِ.

أو: بأَنْ زيَّنَتْها الكواكبُ، على إضافتهِ إلى الفاعلِ.

وركوزُ[٣] الثَّوابتِ في الكُرَةِ الثَّامنَةِ، وما عدا القمرَ مِن السَّيَّاراتِ في الستِّ المتوسِّطَةِ بينَها وبين سماءِ الدُّنيا، إن تحقَّقَ لم يقدَحْ في ذلك، فإنَّ أهلَ الأرضِ يَرَونَها بأَسْرِها كجواهرَ مُشرقَةٍ مُتلألِئَةٍ على سطحِها الأزرقِ بأشكالٍ مُختَلِفَةٍ.

(٧) ـ ﴿وَحِفْظًا﴾ منصوبٌ بإضمارِ فِعلِه، أو العطفِ على ﴿زينة﴾ باعتبارِ المعنى كأنَّه قال: إنَّا خَلَقْنا الكواكبَ زِينَةً للسَّماءِ الدُّنيا وحِفْظًا[٤] ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾: خارجٍ مِن الطَّاعةِ برمي الشُّهُبِ.

(٨) ـ ﴿لا يَسْمَعونَ إِلَى المَلَأ الأَعْلَى﴾ كلامٌ مُبتدأٌ لبيانِ حَالِهم بعدما حفظَ السَّماءَ عَنْهُم، ولا يجوزُ جعلُه صِفَةً لـ﴿كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾، فإنَّه يَقتَضِي أن يكونَ الحفظُ مِن شَياطين لا يَسْمَعونَ، ولا علَّةً للحفظِ على حذفِ اللامِ كما في: (جِئتُكَ أَنْ تُكرِمَنِي) ثمَّ حذفِ (أنْ) وإهدارِها كقولِه:

---

(١) في نسخة الفاروقي: «آلة». قال الخفاجي: قولُه: (اسمًا) جامِدًا كالليقَةِ بلام مكسورَة من لاق بمعنى التصق، وهوَ ما يجعلُ في الدواةِ من حرير ونحوه من الـخيوط المانعَة لغوصِ القلم في الحبرِ وهيَ اسم جامد. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) تقدم ذكرها قريباً.

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «وركون».

(٤) «الدنيا» زيادة من نسخة التفتازاني والطبلاوي، وفي نسخة التفتازاني زيادة: «وحفظًا لها».

أَلَا أَيُّهَـذَا الزَّاجِـرِي أَحْضُـرُ الوَغَـى[١]

فإنَّ اجتماعَ ذلك مُنْكَرٌ[٢].

والضَّميـرُ لــ﴿كُلِّ﴾ باعتبـارِ المعنـى، وتعديةُ السَّـماعِ بـ﴿إِلَى﴾ لتَضمينِه معنى الإصغـاءِ مُبالغَـةً لنَفيِـه، وتَهويلًا لِمَا يمنَعُهُم عنـه، ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكِسـائيِّ وحَفصٍ بالتَّشـديدِ مِن التَّسـمُّعِ[٣]، وهو تطلُّبُ السَّـماعِ، و(الملأُ الأعلى): الملائكةُ، أو أشرافُهُم.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾: ويُرمَونَ ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ مِن جَوانبِ السَّماءِ إذا قصدوا صعودَهُ.

(٩) ـ ﴿دُحُورًا﴾ عِلَّـةٌ؛ أي: للدُّحـورِ وهـو الطَّـردُ، أو مصـدرٌ لأنَّـه والقـذفَ متقاربـانِ، أو حـالٌ بمَعنـى: مدحورينَ، أو منزوعٌ عنـه الباءُ جمع دَحْرٍ، وهـو ما يُطرَدُ بـه، ويقوِّيـهِ القراءةُ بالفتـحِ[٤]، وهو يحتمِـلُ أَنْ يكونَ أيضاً مصدرًا كالقَبُـولِ، أو صفةً لـه؛ أي: قذفًـا دَحُورًا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾؛ أي: عذابٌ آخرُ ﴿وَاصِبٌ﴾: دائمٌ، أو شديدٌ، وهو عذابُ الآخرةِ.

(١٠) ـ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناءٌ مِن واوِ ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ و﴿مَنْ﴾ بدلٌ منه ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ﴾ والخطفُ: الاختلاسُ، والمرادُ: اختلاسُ كلامِ الملائكةِ مُسارقَةً، ولذلكَ عرَّفَ الخطفةَ.

---

(١) صدر بيت لطرفة بن العبد من معلقته، وهو في «ديوانه» (ص: ٣٢)، و«الكتاب» (٣/ ٩٩). و(أحضر) يروى بالرفع والنصب، وعجزه:

وأن أَشْـهدَ اللَّـذاتِ هل أنـتَ مُخْلِدِي

(٢) قوله: «فإن اجتماع ذلك»؛ أي: ما ذكر من الحذفين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧١).

(٣) والباقون بإسكان السين وتخفيف الميم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٤) أي: بفتح الدال، نسبت لأبي عبد الرحمن السلمي وعلي رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٧)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٩).

وقُـرِئَ: (خَـطِّفَ) بالتشـديد مفتـوحَ الخـاءِ ومكسـورَها، ومكسـورَ الطاء[١] وأصلُهمـا: اختطـفَ.

و(أتبعَ) بمعنى: تبعَ، والشِّهابُ: ما يُرَى كأنَّ كوكبًا انقضَّ، وما قيل: إنَّه بخارٌ يصعدُ إلى الأثيرِ فيشتعلُ، فتخمينٌ[٢] إن صحَّ لم ينافِ ذلك؛ إذ ليسَ فيه ما يدلُّ على أنَّه ينقضُّ من الفَلَكِ، ولا في قولِه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] فإنَّ كلَّ نيرٍ يحصلُ فـي الجوِّ العالي فهو مِصباحٌ لأهلِ الأرضِ وزينةٌ للسَّماءِ مِن حيثُ إنَّه يُرى كأنَّه على سطحِه.

ولا يَبعدُ أَنْ يصيرَ الحادثُ[٣] ـ كما ذُكرَ ـ في بعضِ الأوقاتِ رجمًا لشيطانٍ يَتصعَّدُ إلى قربِ الفَلَكِ للتَّسمُّعِ.

وما رُوِيَ أنَّ ذلك حـدثَ بمِيلادِ النَّبيِّ ﷺ[٤] ـ إنْ صَحَّ ـ فلعلَّ المرادَ كثرةُ وُقوعِه[٥]، أو مصيرُه دُحورًا.

واختُلفَ في أنَّ المرجومَ يَتأذَّى به فيرجعُ، أو يحترقُ به، لكن قد يصيبُ الصَّاعدَ مرَّةً وقد لا يصيبُ كالموجِ لراكبِ السَّفينَةِ، ولذلك لا يرتدِعُونَ عنه رأسًا.

---

(١) نسبت الأولى للحسن وقتادة وعيسى، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨)، والثانية لابن عباس رضي الله عنهما، انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦٧).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «فتحس»؛ وفي الهامش كالمثبت نسخة. وأشار إليها الخفاجي بقوله: «فتخمين»؛ وقعَ في نسخَةٍ: فتُحَسُّ؛ أي: تُرَى. انظر: «حاشية الخفاجي»، وقوله: «فتخمين» خبر لـ«ما قيل». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٢).

(٣) قوله: «أن يصير الحادث»؛ أي: وهو البخار. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٢).

(٤) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٤١) عن الشعبي.

(٥) قوله: «كثرة وقوعه»؛ أي: بعد الميلاد. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٢).

ولا يقال: إنَّ الشَّيطانَ مِن النَّارِ فلا يحترقُ؛ لأنَّه ليسَ مِن النَّارِ الصِّرْفِ كما أنَّ الإنسانَ ليسَ مِن التُّرابِ الخالصِ، مع أنَّ النَّارَ القويَّةَ إذا استَوْلَت على الضَّعيفَةِ استهلَكَتْها.

﴿ثَاقِبٌ﴾: مُضيءٌ كأنَّه يَثقُبُ الجوَّ بضَوئِه.

(١١) ـ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾: فاستَخْبِرْهُم، والضَّميرُ لِمُشركِي مَكَّةَ، أو لِبَني آدمَ.

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يعني: ما ذكرَ مِن الملائكةِ والسَّماءِ والأرضِ وما بينَهُما، والمشارقِ والكواكبِ والشُّهبِ الثَّواقبِ، و﴿مَّنْ﴾ لتَغليبِ العُقلاءِ، ويدلُّ عليه إطلاقُه ومجيئُه بعدَ ذلك، وقراءةُ مَن قرأَ: (أَمْ مَن عَدَدْنَا)[١]، وقولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ فإنَّه الفارقُ بينَهُم وبينَها[٢]، لا بينَهُم وبينَ مَن قبلَهُم كعادٍ وثمودَ، ولأنَّ المرادَ إثباتُ المعادِ وردُّ استحالَتِهم، والأمرُ فيه[٣] بالإضافَةِ إليهم وإلى مَن قبلَهُم سَواءٌ، وتقريرُه: أنَّ استحالةَ ذلك:

---

(١) أي: بالتخفيف والتشديد كما في «الكشاف» (٧/ ٣٠٩)، نسبت إلى ابن مسعود رضي الله عنه والضحاك. انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٠٩ ـ ٥١٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦٧). ولم يقيداها بتخفيف أو تشديد.

(٢) قوله: «ويدل عليه»؛ أي: على أن المراد بـ ﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ ما ذكر من الملائكة.. إلى آخره «إطلاقه»؛ أي: إطلاق الخلق عن التقيد ببيانٍ؛ اكتفاءً بما تقدَّمه، «ومجيئه بعد ذلك» هو وتالياه عطف على (إطلاقه)، وجه دلالة المعطوف الأول: مجيءُ الخلق مطلقاً بعد البيان، والمطلق محمول على المقيَّد، وجه دلالة الثاني: أن التعداد يدل قطعاً على أنه يريد به ما ذكر من خلائقه، ووجه دلالة الثالث: اختصاصُ خَلْق بني آدم بكونه من طين لازب، فمَن عداهم داخل في مقابلهم المطلق «فإنه»؛ أي: خلق آدم من طين لازب «الفارق بينهم وبينها»؛ أي: وبين السماء والأرض ونحوِهما مما لم يخلق من ذلك. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٣).

(٣) قوله: «ورد استحالتهم»؛ أي: إحالتهم للمعاد، «والأمر فيه»؛ أي: في المعاد. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٣).

إمَّا لعدمِ قابليَّةِ المادَّةِ، ومادَّتُهم الأصليَّةُ هي الطِّينُ اللازبُ الحاصِلُ مِن ضمِّ الجزءِ المائيِّ إلى الجزءِ الأرضيِّ، وهما باقيانِ قابلانِ للانضمامِ بعدُ، وقد عَلِمُوا أنَّ الإنسانَ الأوَّلَ إنَّما تولَّدَ منه: إمَّا لاعترافِهم بحدوثِ العالمِ، أو بقصَّةِ آدم، وشاهَدوا تولُّدَ كثيرٍ مِن الحيواناتِ منه بلا توسُّطِ مَواقعةٍ، فلَزِمَهُم أن يجوِّزُوا إعادَتَهُم كذلك.

وإمَّا لعدمِ قدرةِ الفاعلِ، فإنَّ مَن[1] قدرَ على خلقِ هذه الأشياءِ قَدرَ على ما لا يعتدُّ به بالإضافةِ إليها، سِيَّما ومن ذلك بدَأَهُم أوَّلًا وقدرتُهُ ذاتيَّةٌ لا تَتغيَّرُ[2].

(١٢) ـ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ مِن قُدرَةِ اللهِ وإنكارِهم للبَعثِ ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ مِن تَعجُّبِك وتقريرِكَ للبَعثِ. وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ بضمِّ التَّاءِ[3]؛ أي: بلغَ كمالُ قُدرَتي وكثرةُ خَلائقِي أني تعجَّبْتُ مِنها، وهؤلاء بجهلِهِم يسخرونَ مِنْها، أو: عَجِبْتُ من أن يُنكَرَ البَعثُ ممَّنْ هذه أفعالُهُ وهم يسخرونَ ممَّنْ يُجَوِّزُه، والعجبُ مِن اللهِ إمَّا على الفَرْضِ والتَّخييلِ، أو على مَعنى الاستعظامِ اللازمِ له، فإنَّه روعةٌ تَعترِي الإنسانَ عندَ استعظامِه الشَّيءَ.

وقيل: إنَّه مُقدَّرٌ بالقولِ؛ أي: قل يا مُحمَّدُ: بَل عَجِبْتُ.

(١٣) ـ ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾: وإذا وُعِظُوا بشَيءٍ لا يتَّعِظُونَ به، أو: إذا ذُكِرَ لهم ما يدلُّ على صِحَّةِ الحشرِ لا يَنتَفِعُونَ به لبَلادَتِهِم وقِلَّةِ فِكْرِهِم.

(١٤) ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾: مُعجِزَةً تدلُّ على صدقِ القائلِ بِهِ ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴾: يبالغونَ في السُّخريةِ، ويقولونَ: إنَّه سِحْرٌ، أو يستدعي بعضُهُم مِن بعضٍ أَنْ يسخرَ مِنها.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وأن من»، وفي نسخة الطبلاوي: «ومن»، وأشار إليها الخفاجي بقوله: وقولُه: (ومن قدر)، وفي نسخَةٍ: (فإنَّ من قدر)، وهوَ تعليلٌ لقدرَةِ الفاعل. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني: «قدرته ذاتية لا تبعية».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(١٥) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ﴾ يعنونَ ما يَرَوْنَه[1] ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهرٌ سحريَّتُه.

(١٦) ـ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أصلُه: أَنُبعَثُ إذا مِتْنا؟! فبدَّلُوا الفِعليَّةَ بالاسميَّةِ وقدَّمُوا الظَّرفَ وكرَّرُوا الهمزةَ مُبالغَةً في الإنكارِ، وإشعارًا بأنَّ البَعْثَ مُستنكَرٌ في نفسِهِ، وفي هذهِ الحالِ أشدُّ استنكارًا[2]، فهو أبلَغُ مِن قراءةِ ابنِ عامرٍ بطرحِ الهمزَةِ الأُولى، وقراءةِ نافعٍ والكِسائيِّ ويَعقوبَ بطَرحِ الثَّانيةِ[3].

(١٧) ـ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ عطفٌ على محلِّ (إنَّ) واسمِها، أو على الضَّميرِ في (مَبْعوثونَ)، فإنَّه مَفصولٌ عنه بهمزَةِ الاستفهامِ لزيادَةِ الاستبعادِ لبُعدِ زَمانِهِم، وسكَّنَ نافِعٌ بروايةِ قالونَ وابنُ عامرٍ الواوَ[4] على مَعنى التَّرديدِ.

(١٨) ـ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾: صاغرونَ، وإنما اكتَفَى به في الجَوابِ لسبقِ ما يَدُلُّ على جوازِه، وقيامِ المعجزِ على صدقِ المخبِرِ عن وُقوعِه.

وقُرِئَ: (قالَ)[5]؛ أي: اللهُ أو الرَّسولُ.

وقرأَ الكِسائيُّ وحدَهُ: ﴿نَعِم﴾ بالكسرِ[6]، وهو لُغَةٌ فيه.

(١٩) ـ ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ جوابُ شرطٍ مُقَدَّرٍ؛ أي: إذا كانَ ذلك فإنَّما البعثةُ زجرةٌ؛ أي: صيحةٌ واحدةٌ هي النَّفخةُ الثَّانيَةُ، مِن زَجَر الرَّاعِي نَعَمه: إذا صاحَ علَيْها، وأمرُها في الإعادةِ كأمرِ (كن) في الإبداءِ، ولذلك رتَّبَ عليها:

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «ما يروه» وفي نسخة الفاروقي: «ما نراه». والمثبت من نسخة الخيالي.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «إنكارا».

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ١٣٣)، و«النشر» (١/ ٣٧٣).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٥) انظر: «الكشاف» (٧/ ٣١٣) من غير نسبة.

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨١)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ فإذا هُم قِيامٌ مِن مَراقِدِهم أحياءٌ يُبصِرُونَ، أو: يَنتَظِرُونَ ما يُفعَلُ بهم.

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: اليومُ الذي نُجازَى بأعمالِنا، وقد تمَّ به كلامُهُم، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ جوابُ الملائكةِ.

وقيل: هو أيضًا مِن كلامِ بَعضِهِم لبَعضٍ.

والفصلُ: القَضَاءُ، أو الفرقُ بين المحسنِ والمُسيءِ.

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أمرُ اللهِ للمَلائكَةِ، أو أمرُ بَعضِهِم لبعضٍ، بحشرِ الظَّلَمَةِ مِن مقامِهِم إلى الموقفِ، وقيل: منه إلى الجَحيمِ.

﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾: وأشباهَهُم، عابدَ الصَّنَمِ معَ عَبَدَةِ الصَّنمِ، وعابدَ الكوكَبِ مع عَبَدَتِه، كقولِه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧].

أو: ونساءَهُم اللاتي على دينِهِم.

أو: قُرناءَهُم مِن الشَّياطينِ.

﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأَصنامِ وغيرِها؛ زيادةً في تَحسيرِهِم[١] وتَخجيلِهِم، وهو عامٌّ مَخصوصٌ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١]، وفيه دليلٌ على أنَّ الذينَ ظلَمُوا هم المشركونَ.

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾: فعرِّفُوهُم طريقَها لِيَسلُكُوها.

(٢٤) ـ ﴿وَقِفُوهُمْ﴾: احبِسُوهُم في الموقفِ ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عن عقائدِهِم وأَعمالِهِم، والواوُ لا توجِبُ التَّرتيبَ مَع جوازِ أَنَّ موقِفَه متعدِّدٌ[٢].

---

(١) في نسخة الخيالي: «تخسيرهم» وفي نسخة الفاروقي والتفتازاني: «تحسرهم». والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(٢) في النسخ هنا اختلاف كثير واضطراب في العبارة، مما لا طائل من إيراده، وأشار إلى ذلك الخفاجي =

(٢٥) ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾: لا ينصرُ بعضُكُم بعضًا بالتَّخليصِ، وهو توبيخٌ وتقريعٌ.

(٢٦) ـ ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾: مُنقادونَ لعَجزِهم وانسدادِ الحِيَلِ عليهِمْ، وأَصلُ الاستسلامِ: طلبُ السَّلامَةِ، أو: مُتسالِمُونَ، كأنَّه يُسْلِمُ بعضُهم بعضًا ويَخذلُهُ.

(٢٧) ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني: الرُّؤساءَ والأتباعَ، أو الكَفَرَةَ والقُرَناءَ.

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾: يَسأَلُ بَعضُهُم بَعْضًا للتَّوبيخِ، ولذلك فُسِّرَ بـ: يتَخاصَمونَ.

(٢٨) ـ ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوُجوهِ وأيمَنِه، أو: عن الدِّينِ، أو: عن الخيرِ؛ كأنَّكُم تَنفعونَنا نفعَ السَّانحِ فتَبِعْنَاكُم وهَلَكْنا، مُستعارٌ مِن يمينِ الإنسانِ الذي هو أَقْوَى الجانِبَيْنِ وأشرفُه وأنفَعُه، ولذلك سُمِّيَ يمينًا، وتيمَّن بالسَّانحِ.

أو: عن القُوَّةِ والقهرِ[1] فتَقْسِرونَنا على الضَّلالِ.

أو: عن الحَلِفِ، فإنَّهُم كانوا يحلفونَ لَهُم أنَّهُم على الحقِّ.

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أجابَهُم الرُّؤساءُ أَوَّلًا بمنعِ إضلالِهِم بأَنَّهُم[2] كانوا ضالِّينَ في أنفُسِهِم، وثانيًا بأنَّهُم ما أجبرُوهُم على الكفرِ إذْ لم يَكُن لهم عليهِم تَسلُّطٌ، وإنَّما جنَحُوا إليه لأَنَّهُم كانوا قومًا مُختارينَ الطُّغيانَ.

= في «حاشيته»، والمثبت ما في نسخة الطبلاوي، وقد رجحها شيخ زاده في «حاشيته» (٧/ ١٢٤). وقول: «موقفه»؛ أي: السؤال، وفي نسخة: «موقفهم»؛ أي: المسؤولين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٦).

(١) قوله: «أو عن القوة والقهر» عطفٌ على «أقوى الوجوه»، وكذلك «أو عن الحلف». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني: «فإنهم».

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ثمَّ بيَّنُوا أنَّ ضَلالَ الفَريقَيْنِ ووقوعَهُم في العذابِ كان أمرًا مَقْضِيًّا لا محيصَ لهم عنه، وأنَّ غايةَ ما فعَلُوا بهم أنَّهُم دَعَوْهُم إلى الغيِّ لأنَّهُم كانوا على الغيِّ، فأحبُّوا أن يكونوا مِثلَهُم، وفيه إيماءٌ بأنَّ غِوايتَهُم في الحقيقةِ ليسَتْ مِن قِبَلِهِم؛ إذ لو كانَ كلُّ غوايةٍ لإغواءِ غاوٍ فمَنْ أغواهُم؟

(٣٣) ـ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾: فإنَّ الأتباعَ والمتبوعينَ ﴿يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مُشتركينَ في الغوايةِ.

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الفعلِ ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالمُشركينَ، لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: عن كلمةِ التَّوحيدِ، أو: على مَن يَدعوهُمْ إليه[1].

(٣٦) ـ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ يَعنونَ مُحمَّدًا عليهِ السَّلامُ.

(٣٧) ـ ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ رَدٌّ عليهِمْ بأنَّ مَا جاءَ به مِن التَّوحيدِ حقٌّ قامَ به البُرهانُ وتطابقَ عليهِ المُرسَلونَ.

(٣٨) ـ ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ بالإشراكِ وتكذيبِ الرَّسُولِ، وقُرِئَ بنَصبِ العَذابِ[2] على تَقديرِ النُّونِ، كقولِه:

وَلَا ذَاكِـرَ اللهَ إِلَّا قَلِيـلَا[3]

---

(١) في نسخة التفتازاني: «إليها».

(٢) نسبت لأبي السمال، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨).

(٣) عجز بيت لأبي الأسود الدؤلي كما في «ديوانه» (ص: ٥٤)، وصدره:

فألفيتُـه غيـرَ مسـتعتِبٍ

وهو ضعيفٌ في غيرِ المحلَّى باللامِ. وعلى الأصلِ[1].

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: إلا مثلَ ما عَمِلْتُم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ

مُنقطِعٌ، إلَّا أَنْ يكونَ الضَّميرُ في ﴿تُجْزَوْنَ﴾ لجميعِ المُكلَّفينَ، فيكونُ استثناؤهُم عنه باعتبارِ المُماثلَةِ فإنَّ ثوابَهُم مضاعفٌ، والمنقطعُ أيضًا بهذا الاعتبارِ.

(٤١) ـ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ خصائِصُه[2]: مِن الدَّوامِ، وتمحُّضِ[3] اللذَّةِ، ولذلك فسَّرَهُ بقولِه:

(٤٢) ـ ﴿فواكهُ﴾ فإنَّ الفاكهةَ ما يقصدُ للتَّلذُّذِ[4] دونَ التَّغذِّي والقوتَ بالعَكْسِ، وأهلُ الجنَّةِ لَمَّا أُعيدُوا على خِلقةٍ مُحكَمَةٍ محفوظَةٍ عن التَّحلُّلِ كانت أرزاقُهُم فواكهَ خالصةً.

﴿وَهُم مُكْرَمُونَ﴾ في نَيلِه، يَصِلُ إليهم مِن غيرِ تَعَبٍ وسؤالٍ كمَا عليه رزقُ الدُّنيَا.

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: في جنَّاتٍ ليسَ فيها إلا النَّعيمُ، وهو ظرفٌ أو حالٌ مِن المستكنِّ في ﴿مُكْرَمُونَ﴾، أو خبرٌ ثانٍ لـ﴿أُولَئِكَ﴾ وكذلك:

﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ يحتملُ الحالَ والخبرَ فيكونُ ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حالًا مِن المستكنِّ فيه، أو في ﴿مُكْرَمُونَ﴾، وأن يتعلَّقَ بـ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فيكونُ حالًا مِن ضميرِ ﴿مُكْرَمُونَ﴾.

---

(١) أي: (لذائقون العذاب). انظر: «الكشاف» (٧/ ٣١٩) دون نسبة، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦٩)، وفيه: (وقرأ أبو السمال: (لذائقٌ) بالتنوين (العذابَ) نصباً).

(٢) قوله: «خصائصه» مرفوع بـ﴿مَعْلُومٌ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٨).

(٣) في نسخة الطبلاوي: «أو تمحض»، وأشار الخفاجي إلى النسختين في «حاشيته».

(٤) في نسخة التفتازاني: «به التلذذ».

(٤٥) ـ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾: بإناءٍ فيه خمرٌ، أو خمرٍ كقولِه:

وكأسٍ شـربتُ علـى لـذَّةٍ[1]

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: مِن شَرابٍ مَعِينٍ، أو نهرٍ مَعِينٍ؛ أي: ظاهرٍ للعُيونِ أو خارجٍ مِن العيونِ، وهو صِفَةُ الماءِ؛ مِن عانَ الماءُ: إذا نبَعَ، وُصِفَ به خمرُ الجنَّةِ لأنَّها تجري كالماءِ، أو للإشعارِ بأنَّ ما يكونُ لهم بمنزلةِ الشَّرابِ جامِعٌ لِمَا يُطلَبُ مِن أنواعِ الأشربَةِ لكَمالِ اللذةِ، وكذلك قولُه:

(٤٦) ـ ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وهُمَا أيضًا صِفَتانِ لـ﴿كَأْسٍ﴾، ووصفُها بـ﴿لَذَّةٍ﴾ إمَّا للمُبالغَةِ، أو لأنَّها تأنيثُ لَذٍّ بمعنى لَذِيذٍ كطَبٍّ، ووزنهُ فَعْلٌ قال:

وَلَـذٍّ كَطَعْـمِ الصَّـرْخَـدِيِّ تَـرَكْـتُـهُ   بِأَرْضِ العِـدَا مِـنْ خَشْـيَةِ الحَدَثَـانِ[2]

(٤٧) ـ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾: غائلَةٌ كما في خمرِ الدُّنيا كالخُمَارِ[3]، مِن غالَهُ يَغولُهُ: إذا أفسدَهُ، ومنه الغُولُ.

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾: يَسْكَرونَ، مِن: نُزِفَ الشَّارِبُ فهو نزيفٌ ومَنْزوفٌ:

---

(١) صدر بيتٍ للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص: ١٧٣)، وعجزه:

وأُخْـرَى تَدَاويـتُ مِنْهَـا بهـا

(٢) البيت بهذه الرواية دون نسبة في «الحيوان» (١/ ١٧٤)، و«أمالي القالي» (١/ ٢١٠)، و«تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٩٤)، و«غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٥٨٧). وهو في «ديوان الراعي النميري» (ص: ١٨٦)، و«الصحاح» (مادة: صرخد ولذذ) برواية:

ولذ كطَعمِ الصَرْخَدِيِّ طَرَحْـتُـهُ   عَشِيَّةَ خِمْسِ القومِ والعينُ عاشقه

قال الجوهري: الصرخد: موضع نسب إليه الشراب، واللذ: النوم.

وقال الأزهري: أَرَادَ أنه لمَّا دَخل ديارَ أعدائِه لم يَنم حذاراً لَهُم.

(٣) الخُمار: صداع الخمر. انظر: «حاشية الخفاجي».

إذا ذهبَ عقلُهُ، أفردَهُ بالنَّفيِ وعَطَفَ[1] على ما يَعُمُّهُ؛ لأنَّه مِن عِظَمِ فسادِه كأنَّه جِنسٌ برَأْسِه.

وقرَأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بكسرِ الزَّايِ، وتابعَهُما عاصِمٌ في الواقعَةِ[2]، مِن أَنْزَفَ الشَّاربُ: إذا نَفِدَ[3] عَقلُهُ أو شرابُه، وأصلُهُ النَّفاد، يقال: نُزِفَ المطعونُ: إذا خرجَ دمُهُ كلُّهُ، ونَزَحْتُ الرَّكيَّةُ حتَّى نَزَفْتُهَا.

(٤٨) ـ ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قَصَرْنَ أبصارَهُنَّ على أزواجِهنَّ ﴿عِينٌ﴾: نُجلُ العُيونِ، جمعُ عَيْنَاءَ.

(٤٩) ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شبَّهَهُنَّ ببَيضِ النَّعَام المَصونِ مِن الغبارِ ونحوِهِ في الصَّفاءِ والبياضِ المخلوطِ بأدنى صُفرَةٍ فإنَّه أحسَنُ ألوانِ الأَبدانِ.

(٥٠) ـ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ معطوفٌ على ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾؛ أي: يَشربونَ فيَتحادَثُونَ على الشَّرابِ، قال:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللذَّاتِ إلَّا أَحَادِيثُ الكِرَامِ عَلَى المُدَامِ[4]

والتَّعبيرُ عنه بالماضي للتَّأكيدِ فيه، فإنَّه أَلَذُّ تلكَ اللذَّاتِ إلى العقلِ، وتَساؤلهم عن المعارفِ والفَضائلِ وما جَرى لهم وعليهِم في الدُّنيَا.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وعطفه».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٣) في نسخة التفتازاني: «نزف» وفي الهامش كالمثبت نسخة.

(٤) نسب لأبي محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفياض كاتب سيف الدولة ونديمه في «يتيمة الدهر» (١/ ١٣٢) للثعالبي. ولأبي الحسن علي بن حريق في «المغرب في حلى المغرب» لأبي سعيد الأندلسي (٢/ ٣١٩).

(٥١ ـ ٥٢) ـ ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ في مُكالَمَتِهِم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ﴾: جليسٌ في الدُّنيا ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ يُوَبِّخُني على التَّصديقِ بالبَعثِ.

وقُرِئَ بتَشديدِ الصَّادِ مِن التَّصدُّقِ[1].

(٥٣) ـ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾: لَمَجْزِيُّونَ، مِن الدَّيْنِ بمَعنى الجَزاءِ.

(٥٤) ـ ﴿قَالَ﴾؛ أي: ذلك القائلُ: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى أهلِ النَّارِ لأُرِيَكُم ذلك القرينَ،

وقيل: القائلُ هو اللهُ أو بعضُ الملائكةِ، يقول لهم: هل تُحِبُّونَ أَنْ تَطَّلِعُوا على أهلِ النَّارِ لأُرِيَكُم ذلك القرينَ، فتعلَمُوا أينَ مَنزِلَتُكُم مِن مَنزِلَتِهِم.

وعن أبي عَمرٍو: (مُطْلِعُونِ... فأُطْلِعَ) بالتَّخفيفِ وكسرِ النُّونِ وضمِّ الألِفِ[2] على أنَّه جعلَ إطلاعَهُم سببَ إطْلاعِه مِن حيثُ إنَّ أدبَ المُجالسةِ يمنَعُ الاستبدادَ به، أو خاطبَ الملائكةَ[3] على وضعِ المتَّصلِ موضِعَ المنفصل كقولِه:

هُـم الفاعلـونَ الخيـرَ والآمرونَـهُ[4]

---

(١) نسبت لابن كيسة في «الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٧)، وفي «تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦) لعلي بن كِيسة عن سليم (وهو ابن عيسى بن سليم الحنفي مولاهم الكوفي) عن حمزة، وفي «زاد المسير» (٧/ ٥٩) لبكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة، والمشهور عن حمزة كقراءة الجماعة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٩) عن ابن عباس وابن محيصن وأبي عمرو، وذكرها مجاهد في «السبعة» (ص: ٥٤٨) فقال: كلهم قرأ ﴿مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ﴾ إلا أن ابن حيّان أخبرنا عن أبي هشام عن حسين الجعفي عن أبي عمرو أنه قرأ (هل أنتم مُطْلِعون فأُطْلِعَ) الألف مضمومة والطاء ساكنة واللام مكسورة والعين مفتوحة.

(٣) قوله: «أو خاطب الملائكة» عطف على «جعل إطلاعهم». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٨١).

(٤) صدر بيت في «الكتاب» (١/ ١٨٨)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٦)، و«الكامل» للمبرد =

أو شُبِّهَ اسمُ الفاعلِ بالمُضارعِ.

(٥٥ ـ ٥٦) ـ ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ عليهم ﴿فَرَءَاهُ﴾؛ أي: قرينَه، ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: وسطِه ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾: لتهلكُنِي بالإغواءِ. وقُرِئَ: (لَتُغْوِينِ)[١]، و﴿إِن﴾ هيَ المخفَّفَةُ واللامُ هي الفارقةُ.

(٥٧) ـ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ بالهدايةِ والعصمةِ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معكَ فيها.

(٥٨) ـ ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ؛ أي: أنحن مُخلَّدونَ منعمونَ فمَا نَحنُ بمَيِّتينَ؛ أي: بمَنْ شَأنُه الموتُ، وقُرِئَ: (بمَائِتينَ)[٢].

(٥٩) ـ ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي كانَتْ في الدُّنيَا، وهي مُتناولَةٌ لِمَا في القبرِ بعد الإحياءِ للسُّؤالِ، ونصبُها على المصدَرِ مِن اسمِ الفاعلِ، وقيل: على الاستثناءِ المُنقطعِ.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كالكُفَّارِ، وذلك تمامُ كلامِه لقرينِه تقريعًا له، أو معاودةٌ إلى مُكالَمةِ جلسائِه تَحدُّثًا بنعمةِ اللهِ وتَبجُّحًا بها وتَعجُّبًا منها وتعريضًا[٣] للقرينِ بالتَّوبيخِ.

= (١/ ٩٧)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٤/ ٢٦٩)، ولا يعرف قائله، قال سيبويه: وذكروا أنه مصنوع.
وعجزه:

إِذَا مَا خَشُوا مِنْ مُحْدَثِ الأَمْرِ مُعْظَمَا

وفي نسخة الخيالي والطبلاوي: «هم الآمرون الخير والفاعلونه»، وكذا وقع الاختلاف نفسه في المصادر، ولا يضر ذلك بمحل الشاهد. والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٧/ ٣٢٦).

(١) هي قراءة عبد الله، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٣١).

(٢) ذكرها في «الكشاف» (٧/ ٣٢٧) من غير نسبة، ونسبها أبو حيان في «البحر» (١٨/ ١٧٩) لزيد بن علي.

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وتقريعاً».

(٦٠) - ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ يحتمِلُ أَنْ يكونَ مِن كَلامِهِم، وأن يكونَ كلامُ اللهِ لتَقريرِ قولِه والإشارةِ إلى ما هُمْ عليه[١] مِن النِّعمَةِ والخُلودِ والأمنِ مِن العَذابِ.

(٦١) - ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾؛ أي: لنيلِ مثلِ هذا يجبُ أن يعملَ العاملونَ، لا للحُظوظِ الدُّنيَوِيَّةِ المشوبةِ بالآلامِ، السَّريعَةِ الانصرامِ، وهو أيضًا يحتملُ الأمرينِ.

(٦٢) - ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ شجرةٌ[٢] ثَمرُهَا نُزُلُ أهلِ النَّارِ.

وانتصابُ ﴿نُّزُلًا ﴾ على التَّمييزِ أو الحالِ، وفي ذكرِه دلالةٌ على أنَّ ما ذكرَ مِن النَّعيمِ لأهلِ الجنَّةِ بمنزلةِ ما يقامُ للنَّازلِ، ولهم ما وراءَ ذلك ما تَقْصُرُ عنهُ الأفهامُ، وكذلك الزَّقومُ لأهلِ النَّارِ، وهو اسمُ شجرةٍ صغيرةِ الورقِ دَفِرَةٍ[٣] مُرَّةٍ تكونُ بتِهامةَ، سُمِّيَت بهِ الشَّجرَةُ الموصوفَةُ.

(٦٣) - ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾: محنةً وعَذابًا لهم في الآخرةِ، أو: ابتلاءً في الدُّنيَا، فإنَّهُم لَمَّا سَمِعُوا أنَّها في النَّارِ قالوا: كيفَ ذلك والنَّارُ تحرقُ الشَّجرَ؟ ولم يعلَمُوا أنَّ مَن قدرَ على خَلْقِ ما[٤] يعيشُ في النَّارِ ويلتَذُّ بها فهو أقدرُ على خلقِ الشَّجَرِ في النَّارِ وحِفظِه من الإحراقِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «فيه».

(٢) في نسخة الفاروقي: «التي».

(٣) دَفِرة، بفتح المهملة وكسر الفاء: مُنتِنة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٨٢).

(٤) في نسخة التفتازاني «حيوان» وفي نسخة الطبلاوي: «من»، و«ما» ليست في نسخة الخيالي، والمثبت من نسخة الفاروقي.

(٦٤) - ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾: مَنبِتُها في قعرِ جهنَّمَ، وأغصانُها تَرتَفِعُ إلى دَرَكاتِها.

(٦٥) - ﴿طَلْعُهَا﴾: حملُهَا، مُستعَارٌ مِن طلعِ التَّمرِ[1] لِمُشاركَتِهِ إيَّاهُ في الشَّكلِ، أو الطُّلوعِ مِن الشَّجرِ ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ في تَناهي القُبحِ والهولِ، وهو تَشبيهٌ بالمتخيَّلِ كتَشبيهِ الفائقِ في الحسنِ بالمَلَك.

وقيل: الشَّياطينُ حيَّاتٌ هائلةٌ قبيحَةُ المنظرِ لها أعرَافٌ، ولعلَّهَا سُمِّيَتْ بها لذلك.

(٦٦) - ﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا﴾: مِن الشَّجرَةِ أو من طَلْعها ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ لغلبةِ الجُوعِ أو الجبرِ على أكلِها.

(٦٧) - ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: بعدَما شَبِعُوا منها وغلَبَهُم[2] العطشُ وطالَ استِسقاؤُهُم، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿ثُمَّ﴾ لِمَا في شَرابِهم مِن مَزيدِ الكراهةِ والبَشاعَةِ.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: لَشرابًا من غسَّاقٍ أو صديدٍ مَشُوبًا بماءٍ حَمِيمٍ يُقطِّعُ أمعاءَهُم، وقُرِئَ بالضَّمِّ[3]، وهو اسمُ ما يُشابُ به، والأوَّلُ مَصدَرٌ سُمِّيَ به.

(٦٨) - ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾: مَصيرَهُم ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾: إلى دَركاتِها، أو إلى نَفسِهَا، فإنَّ الزَّقُّومَ والحميمَ نزلٌ يقدَّمُ إليهِم قبلَ دُخولِها.

وقيل: الحميمُ خارِجٌ عنها؛ لقولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «الثمر».

(٢) في نسخة التفتازاني: «وغلب عليهم».

(٣) أي: بضم الشين. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢٠) عن شيبان النحوي.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣] يُورَدُونَ إليه كما تورَدُ الإبلِ إلى الماءِ، ثمَّ يُرَدُّونَ إلى الجَحيمِ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (ثمَّ إنَّ مُنقلَبَهُم)[1].

(٦٩ ـ ٧٠) ـ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ تعليلٌ لاستِحْقَاقِهم تلكَ الشَّدائدَ بتَقليدِ الآباءِ في الضَّلالِ.

والإهراعُ: الإسراعُ الشَّديدُ كأنَّهُم يُزعَجونَ على الإسراعِ على آثارِهِم[2]، وفيهِ إشعارٌ بأنَّهُم بادَرُوا إلى ذلك مِن غيرِ تَوقُّفٍ على نظرٍ وبَحثٍ.

(٧١) ـ ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾: قبلَ قومِك ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٧٢) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾: أنبياءَ أنذَرُوهُم من العواقبِ.

(٧٣) ـ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مِن الشِّدَّةِ والفَظاعَةِ.

(٧٤) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ المُخْلِصِينَ﴾: إلا الذينَ تنبَّهُوا بإنذارِهِم فأخلَصُوا دينَهُم للهِ.

وقُرِئَ بالفَتحِ[3]؛ أي: الذينَ أخلَصَهُم اللهُ لدينِه.

والخطابُ مع الرَّسُولِ ﷺ والمقصودُ خطابُ قومِه، فإنَّهُم أيضًا سَمِعُوا أخبارَهُم ورَأَوْا آثارَهُم.

(٧٥) ـ ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ شروعٌ في تَفصيلِ القصصِ بعدَ إجمالِها؛ أي: ولقَدْ دَعانا حين أَيِسَ مِن قومِه ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾؛ أي: فأجبناهُ أحسنَ الإجابةِ، فواللهِ لنِعمَ المُجيبونَ نحن، فحُذِفَ مِنْها ما حُذِفَ لقيامِ ما يَدُلُّ عليه.

---

(١) رواها أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣١١) عن ابن جريج، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٥٦) عن السدي، كلاهما ذكرها عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «إثرهم».

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم ونافع بفتح اللام والباقون بكسرها، انظر: «التيسير» (ص: ١٢٨).

(٧٦) ـ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾: مِن الغرقِ، أو أذى قومِه.

(٧٧) ـ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ إذ هلكَ مَن عَداهُم وبقُوا متناسلينَ إلى يومِ القيامَةِ؛ إذْ رُوِيَ أنَّه ماتَ كلُّ مَن كانَ مَعَه في السَّفينَةِ[١] غير بنيهِ وأزواجِهِم.

(٧٨) ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ مِن الأُمَمِ.

(٧٩) ـ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ هذا الكلامُ جِيءَ بِهِ على الحكايةِ، والمعنى: يسلِّمونَ عليهِ تسليمًا، وقيل: هو سَلامٌ مِن اللهِ عليهِ.

ومَفعولُ ﴿تَرَكْنَا﴾ مَحذوفٌ مثل: الثَّناءَ.

﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بالجارِّ والمَجرورِ، ومعناه: الدُّعاءُ بثبوتِ هذه التَّحِيَّةِ في الملائكةِ والثَّقَلينِ جميعًا.

(٨٠) ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لِمَا فُعلَ بنُوحٍ مِن التَّكرمةِ بأنَّه مُجازاةٌ له على إحسانِه.

(٨١) ـ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليلٌ لإحسانِه بالإيمانِ إظهارًا لجلالَةِ قَدرِهِ وأصالةِ أمرِه.

(٨٢) ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ يعني: كُفَّارَ قومِه.

(٨٣) ـ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ﴾: ممَّنْ شايعَهُ في الإيمانِ وأصولِ الشَّريعَةِ ﴿لَإِبْرَاهِيمَ﴾ ولا يبعدُ اتِّفاقُ شَرعِهِما في الفُروعِ أو غالبًا، وكانَ بينَهُما ألفانِ وستُّ مئةٍ وأربعونَ سنةً، وبينَهُما نبيَّانِ: هودٌ وصالحٌ.

(٨٤) ـ ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ مُتعلِّقٌ بما في الشِّيعةِ مِن مَعنى المشايعةِ، أو بمحذوفٍ هو: اذكُرْ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «في ألف سنة» وفي الهامش كالمثبت نسخة. والمثبت موافق لما في «الكشاف» (٧/ ٣٣٢).

﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مِن آفاتِ القُلوبِ، أو مِن العلائقِ خالصٍ للهِ أو مُخلِصٍ له، وقيل: حزينٍ؛ مِن السَّليمِ بمَعْنَى اللَّديغِ، ومَعنى المجيءِ بهِ ربَّهُ: إخلاصُه له كأنَّهُ جاءَ بهِ مُتْحِفًا إيَّاهُ.

(٨٥) ـ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدلٌ مِن الأولى، أو ظرفٌ لـ﴿جَآءَ﴾ أو ﴿سَلِيمٍ﴾.

(٨٦) ـ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؛ أي: أتريدونَ آلهةً دونَ اللهِ إفكًا، فقدَّمَ المفعولَ للعنايةِ ثمَّ المفعولَ له لأنَّ الأهمَّ أن يقرِّرَ أنَّهُم على الباطلِ ومَبنَى أمرِهم على الإفكِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿إِفْكًا﴾ مَفْعولًا به، و﴿ءَالِهَةً﴾ بدلٌ منه على أنَّها إفكٌ في أنفسِها للمُبالغةِ، أو المرادُ بها عبادَتُها بحذفِ المضافِ، أو حالًا بمَعنى: آفكينَ.

(٨٧) ـ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بمَنْ هو حقيقٌ بالعبادةِ لكَونه رَبًّا للعالمينَ حتى تركتُم عبادَتَهُ، أو أشرَكْتُم به غيرَهُ، أو أَمِنْتُم مِن عَذابِه، والمعنى: إنكارُ ما يوجِبُ ظَنًّا فَضْلًا عن قطعٍ[1] يصدُّ عن عبادَتِه، أو يجوِّزُ الإشراكَ به، أو يَقتَضِي الأمنَ مِن عِقابِه على طريقةِ الإلزامِ، وهو كالحجَّةِ على ما قبلَهُ.

(٨٨) ـ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ فرَأى مواقِعَها واتِّصالاتِها، أو: في علمِها، أو: في كتابِها، ولا منعَ منهُ مَع أنَّ قَصدَهُ إيهامُهُم، وذلك حينَ سَألُوه أَنْ يُعيِّدَ مَعَهُم.

(٨٩) ـ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أراهُم أنَّه استدلَّ بها ـ لأنَّهُم كانوا منجِّمينَ ـ على أنَّه مُشارِفٌ للسقمِ، لئلَّا يخرجوهُ إلى مُعَيَّدِهِم فإنَّه كانَ أغلبُ أسقامِهِم الطَّاعونَ، وكانوا يخافونَ العَدْوَى.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي زيادة: «ما».

أو أرادَ: إني سَقِيمُ القلبِ لكُفْرِكُم، أو: خارجُ المزاجِ عن الاعتدالِ خُروجًا قلَّ مَن يَخْلُو منه، أو: بصَدَدِ المَوتِ ومنهُ المَثَلُ: كفَى بالسَّلامَةِ داءً، وقولُ لَبِيد:

فَدَعَـوْتُ رَبِّي بِالسَّـلَامَةِ جَاهِدًا ... لِيُصِـحَّنِي فَإِذَا السَّـلَامَةُ دَاءُ[1]

(٩٠) ـ ﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾: هاربينَ مخافةَ العَدْوَى.

(٩١) ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾: فذهبَ إليها في خفيةٍ، مِن روغةِ الثَّعلَبِ، وأصلُه: المَيْلُ بحيلةٍ.

﴿فَقَالَ﴾؛ أي: للأصنامِ استهزاءً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: الطَّعامَ الذي كانَ عِندَهُم.

(٩٢) ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ بجوابي.

(٩٣) ـ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾: فمالَ عَلَيهم مُستَخْفِيًا، والتَّعدِيَةُ بـ(على) للاستعلاءِ وأنَّ الميلَ لِمَكروهٍ.

﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ مَصدرٌ لـ«راغَ عَلَيهم» لأنَّه في مَعنى: ضَرَبَهُم، أو لِمُضمَرٍ تَقديرُه: فراغَ عَليهِم يضرِبُهُم ضرباً، وتقييدُهُ باليَمينِ للدَّلالَةِ على قُوَّتِه، فإنَّ قُوَّةَ الآلةِ تَستَدْعِي قُوَّةَ الفعلِ.

وقيل: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ بسببِ الحَلِفِ، وهو قوله: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

(٩٤) ـ ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: إلى إبراهيمَ بعدَما رَجَعُوا فرأَوْا أصنامَهُم مُكسَّرَةً وبحثُوا عن كاسرِها، فظَنُّوا[2] أنَّه هو كما شرحَهُ في قولِه: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا

---

(١) نسبه للبيد: الثعالبي في «التمثيل والمحاضرة» (ص: ٦١)، ولم أجده في «ديوانه»، ونسبه الثعالبي نفسه في «الإعجاز والإيجاز» (ص: ١٣٦) للجعدي، ونسبه القيرواني في «زهر الآداب» (١/ ٢٦٨) لعمرو بن قميئة، وهو في ذيل «ديوانه» (ص: ٧٥)، ونسبه المبرد في «الفاضل» (ص: ٧٠) للنمر بن تولب.

(٢) في نسخة الفاروقي: «وظنوا».

﴿بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩ ـ ٦٠].

﴿يَزِفُّونَ﴾: يُسرِعُونَ، مِن زَفيفِ النَّعامِ، وقرأَ حمزَةُ على بناءِ المَفعولِ مِن أَزَفَّ[1]؛ أي: يُحملونَ على الزَّفيفِ.

وقُرِئَ: ﴿يُزِفُّون﴾[2]؛ أي: يُزِفُّ بَعضُهُم بعضًا.

و: (يَزِفون) مِن وَزَفَ يَزِفُ: إذا أسرعَ[3].

و: (يَزْفُون) مِن زَفَاهُ: إذا حَدَاهُ[4]؛ كأنَّ بعضَهُم يَزْفوا بعضًا لتَسارُعِهِم إليهِ.

(٩٥ ـ ٩٦) ـ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾: ما تنحتونَهُ مِن الأصنامِ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: وما تعملونَه، فإنَّ جوهرَهَا بخَلْقِه، وشَكلَهَا ـ وإن كانَ بفعلِهِم، ولذلك جُعلَ مِن أعمالِهِم ـ فبإقدارِهِ إيَّاهُم عليهِ وخلقِه ما يَتوقَّفُ عليهِ فِعلُهُم مِن الدَّواعِي والعُدَدِ.

أو: عملَكُم، بمعنى مَعمولِكُم؛ ليُطابِقَ ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾، أو أنه[5] بمعنى الحَدَثِ،

---

(١) ليست هذه قراءة حمزة بل التي بعدها، وهذه وردت دون نسبة في «الكشاف» (٧/ ٣٣٧) و«البحر» (١٨/ ١٩٠).

(٢) هذه هي قراءة حمزة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩) عن الضحاك وابن أبي عبلة ويحيى بن عبد الرحمن، و«المحتسب» (٢/ ٢٢١) عن عبد الله بن يزيد. وذكرها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٨٩) دون نسبة.

ولم يثبت الفراء: (وَزَفَ)، ونَقَل عن الكسائي أيضاً أنه لم يثبته، قال ابن جني: إلا أن ظاهر اللفظ مقتضٍ لها على ما مضى، وعلى أن أحمد بن يحيى قد أثبت (وَزَفَ): إذا أسرع، وشاهِدُه عنده هذه القراءة.

(٤) بفتح الياء وسكون الزاي وتخفيف الفاء. انظر: «زاد المسير» (٣/ ٥٤٥) عن ابن أبي عبلة وأبي نهيك.

(٥) في نسخة الفاروقي: «لأنه» وفي الهامش كالمثبت نسخة.

فإنَّ فِعلَهُم إذا كان بخلقِ اللهِ فيهم كانَ مَفعولُهُم المتوقِّفُ على فعلهِم أولى بذلك، وبهذا المعنى تمسَّكَ أصحابُنا على خلقِ الأعمالِ، ولهم أَنْ يُرجِّحُوهُ على الأوَّلَيْنِ لِمَا فيهِمَا مِن حَذفٍ أو مَجازٍ.

(٩٧) ـ ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾: في النَّارِ الشَّديدةِ، مِن الجُحمَة وهي شدَّةُ التَّأجُّجِ، واللامُ بدلَ الإضافةِ؛ أي: جحيمِ ذلك البُنْيانِ.

(٩٨) ـ ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ فإنَّهُم لَمَّا قَهَرَهُم بالحُجَّة قَصدُوا تَعذيبَهُ بذلك لئلَّا يظهرَ للعامَّةِ عَجزُهُم.

﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾: الأذلِّينَ بإبطالِ كَيدِهِم وجعلِه بُرهانًا نيِّرًا على علوِّ شأنِه حيثُ جعلَ النَّارَ عليه بَرْدًا وسَلامًا.

(٩٩) ـ ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إلى حَيثُ أَمَرني رَبِّي وهو الشَّامُ، أو حيثُ أَتجرَّدُ فيه لِعبادَتِه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى ما فيه صَلاحُ دِيني، أو إلى مَقصِدِي، وإنما بتَّ القولَ لسبقِ وعدِه، أو لفَرْطِ تَوكُّلِه، أو للبناءِ على عادَتِه مَعه، ولم يَكُن كذلك حالُ مُوسى عليه السَّلامُ حين قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] فلذلك ذُكرَ بصيغةِ التَّوقُّعِ.

(١٠٠) ـ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: بعضَ الصَّالحينَ يُعينُني على الدَّعوةِ والطَّاعةِ، ويُؤنِسُني في الغُربَةِ، يعني: الولدَ؛ لأنَّ لفظَ الهِبَةِ غالبٌ فيه، ولقوله:

(١٠١) ـ ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ بشَّره بالولدِ، وبأنَّهُ ذكرٌ يبلغُ أوانَ الحلمِ، فإنَّ الصَّبِيَّ لا يُوصَفُ بالحِلْمِ ويكونُ حليمًا، وأيُّ حِلمٍ مثلُ حِلْمِه حينَ عرضَ عليه أبوهُ الذَّبحَ وهو مراهقٌ فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾؟

وقيل: ما نَعَتَ اللهُ نَبيًّا بالحلمِ لعِزَّةِ وُجودِه غيرَ إبراهيمَ وابنِه عليهما السَّلامُ، وحالُهما المذكورةُ بَعْدُ تَشهَدُ عليه.

(١٠٢) ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾؛ أي: فلَمَّا وُجدَ وبلَغَ أن يَسْعَى معهُ في أعمالِه، و﴿مَعَهُ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ دلَّ عليه ﴿ٱلسَّعْىَ﴾ لا به؛ لأنَّ صِلَةَ المصدرِ لا تَتقدَّمُه، ولا بـ﴿بَلَغَ﴾؛ فإنَّ بُلوغَهُما لم يَكُن معًا، كأنَّه قال: فلَمَّا بلغَ السَّعْيَ، فقيل: مع مَن؟ فقيل: ﴿مَعَهُ﴾، وتخصيصُه لأنَّ الأبَ أكمَلُ في الرِّفقِ به والاستصلاحِ له فلا يَستَسْعِيهِ قبلَ، ولأنَّه استوهَبَهُ لذلك، وكانَ له يومئذٍ ثلاثَ عشرةَ سنةً.

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ﴾ قرأ حفصٌ وحدَه بفتحِ الياء[1].

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ يحتمِلُ أنَّه رأى ذلك، وأنَّه رأى ما هو تَعبيرُهُ.

وقيل: إنَّه رأى ليلةَ التَّروِيَةِ أنَّ قائلًا يقولُ له: إنَّ اللهَ يأمرُكَ بذبحِ ابنِكَ، فلَمَّا أصبحَ روَّى[2] أنَّهُ مِن اللهِ أو مِن الشَّيطانِ، فلَمَّا أَمْسَى رأى مثلَ ذلك فعرفَ أنَّهُ مِن اللهِ، ثمَّ رأى مثلَهُ في الليلةِ الثَّالثَةِ، فهمَّ بنحرِهِ وقال له ذلك، ولهذا سُمِّيَت الأيامُ الثَّلاثَةُ بالتَّرويَةِ وعرفةَ والنَّحرِ.

والأظهَرُ أنَّ المُخاطبَ إسماعيلُ عليهِ السَّلامُ؛ لأنَّه الذي وُهِبَ له إثرَ الهجرةِ، ولأنَّ البشارةَ بإسحاقَ بعدُ مَعطوفةٌ على البشارةِ بهذا الغُلامِ.

ولقوله عليه السلام: «أنا ابنُ الذَّبيحينِ»[3]، فأحدُهما: جدُّهُ إسماعيلُ، والآخرُ

---

(١) وقرأ الباقونَ بكسرِها، انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٧).

(٢) «روَّى»؛ أي: فكر. انظر: «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج٢/ و٣٠٨ب).

(٣) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٣/ ١٧٧): «غريب»، وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٣٦)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦٠٦٧)، عن الصنابحي، قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم: كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله عد عليَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين؛ فضحك عليه الصلاة والسلام؛ فقلنا له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: «إن =

أبوهُ عبدُ اللهِ، فإنَّ عبدَ المُطَّلبِ نذرَ أنْ يذبحَ ولدًا إن سهَّلَ اللهُ له حفرَ زَمْزَم أو بلغَ بنوهُ عَشْرًا، فلمَّا سَهَّلَ الله أَقْرَعَ فخرجَ السَّهمُ على عبدِ اللهِ، ففَداهُ بمئةٍ مِن الإبلِ، ولذلك سُنَّت الدِّيَةُ مئةً؛ ولأنَّ ذلك كان بمَكَّةَ، وكان قرنا الكبشِ مُعَلَّقينِ بالكعبةِ حتى احترقَا مَعَها في أيَّامِ ابنِ الزُّبَيرِ[1]، ولم يَكُن إسحاقُ ثَمَّةَ، ولأنَّ البشارةَ بإسحاقَ كانَتْ مَقرونةً بولادةِ يعقوبَ مِنْهُ فلا يُناسِبُها الأمرُ بذَبحِه مُراهِقًا.

وما رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ سُئِلَ: أيُّ النَّسبِ أشرَفُ فقال: «يوسفُ صِدِّيقُ اللهِ ابنُ يعقوبَ إسرائيلِ اللهِ ابنِ إسحاقَ ذَبيحِ اللهِ ابنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ»، فالصَّحيحُ أنَّه قال:

= عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم، نذر لله لئن سهل عليه أمرها ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله، وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني «. قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٥): «غريب جدًّا»، وضعف إسناده السيوطيُّ في «الدر المنثور» (٧/ ١٠٥).

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٦٣٧)، وأبو داود (٢٠٣٠)، والأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٢٢٣) واللفظ له، من طريق سفيان، عن منصورٍ الحَجَبيِّ، حدثني خالي مسافع بن شيبة، عن أُمي صفية بنت شيبة: أن امرأةً من بني سُلَيمٍ وَلَدَت عامَّتهم قالت لعثمانَ بن طلحة: لِمَ دعاكَ النبيُّ ﷺ بَعْد خروجه من البيت؟ قال: قال لي: «إنِّي رأيتُ قَرْنَي الكبش في البيت، فَنَسِيتُ أَنْ آمُرَكَ أَنْ تخمِّرها، فإنه لا ينبغي أنْ يكون في البيت شيءٌ يَشْغَلُ مُصلِّيًا». زاد الأزرقي: قال عثمانُ: وهو الكبشُ الذي فُدِي به إسماعيلُ بن إبراهيم عليهما السلام. وفي رواية أحمد: قال سفيانُ: لمْ تَزَلْ قرنَا الكبش في البيت حتى احترق البيتُ فاحترَقَا. ورجاله ثقات.

وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٥) عن الشعبي أنه قال في هذه الآية ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: هو إسماعيل، قال: وكان قَرْنا الكبش مَنُوطَيْن بالكعبة.

وفي رواية عنه قال: رأيت قرني الكبش في الكعبة.

وروى (١٩/ ٦٠٣) عن ابن عباس خبراً فيه: فوَالَّذي نَفْسُ ابن عباس بيده، لقد كان أَوَّلُ الإسلام وإن رأسَ الكبشِ لَمُعَلَّقٌ بقرنيه عند مِيزاب الكعبة قد حَشَّ، يعني: يَبِسَ.

«يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيمَ»، والزَّوائدُ مِن الرَّاوي[١]، وما رُوِيَ أنَّ يعقوبَ كتبَ إلى يوسُفَ مثلَ ذلك لم يَثْبُت[٢].

وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافِعٌ وأبو عَمرٍو بفَتحِ الياءِ فيهِمَا[٣].

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ مِن الرَّأيِ، وإنَّما شاورَهُ فيه وهو حتمٌ ليَعْلَمَ ما عندَهُ فيما نزلَ مِن بلاءِ اللهِ، فيُثبِّتَ قدمَهُ إن جزعَ، ويأمنَ عليه إن سَلَّمَ، وليوطِّنَ نفسَهُ عليه فيَهُونَ ويكتسبَ المثوبةَ[٤] بالانقيادِ له قبلَ نُزولِه.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿ماذا تُرِي﴾ بضَمِّ التَّاءِ وكسرِ الرَّاءِ خالِصَةً والباقونَ بفَتحِها، وأبو عمرٍو يُميلُ فتحةَ الرَّاءِ، وورشٌ بينَ بينَ، والباقونَ بإخلاصِ فَتحِهِما[٥].

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾ وقرأَ ابنُ عامرٍ بفتحِ التَّاءِ[٦].

﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾؛ أي: ما تُؤمَرُ به، فحُذِفَا دفعةً أو على التَّرتيبِ كما عرفتَ، أو:

---

(١) أخرجَ البُخاريُّ (٣٣٥٣)، ومسلمٌ (٢٣٧٨) عَن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال: قيل: يا رسولَ اللهِ: مَن أكرَمُ النَّاسِ؟ قال: «أتقاهُم» فقالوا: ليسَ عن هذا نسأَلُكَ، قال: «فيوسُفُ نبيُّ اللهِ بنُ نبيِّ اللهِ بنِ نبيِّ اللهِ بنِ خَليلِ اللهِ».

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٧٩) عن الحكيم الترمذي وأبي الشيخ عن وهب بن منبه، وينظر نصه بتمامه ثمة.

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤٠٥): «إن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رده، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلي بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف، في حديث طويل لا يصح».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٧).

(٤) في نسخة التفتازاني: «الفضيلة».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٤).

أَمْرَكَ[١]، على إرادةِ المأمورِ بِهِ والإضافةِ إلى المأمورِ، ولعلَّهُ فَهِمَ مِن كَلامِه أنَّه رأى أنَّه يَذبَحُه مأمورًا به، أو عَلِمَ أنَّ رُؤيا الأنبياءِ حَقٌّ وأنَّ مِثلَ ذلك لا يُقدِمُونَ عليه إلَّا بأمرٍ، ولعلَّ الأمرَ به في المنامِ دونَ اليَقَظةِ لتكونَ مُبادرَتُهما إلى الامتثالِ أدَلَّ على كمالِ الانقيادِ والإخلاصِ، وإنَّما ذُكِرَ بلَفظِ المُضارعِ لتكرُّرِ الرُّؤيَا.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على الذَّبحِ، أو على قَضاءِ اللهِ.

وقرأ نافِعٌ بفتحِ اليَاءِ[٢].

(١٠٣) ـ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾: استَسْلَمَا لأمرِ اللهِ، أو سَلَّمَا الذَّبيحُ نفسَهُ وإبراهيمُ ابنَهُ، وقَدْ قُرِئَ بهما[٣]، وأصلُها: سَلِمَ هذا لفلانٍ: إذا خَلصَ له، فإنه سَلِمَ مِن أَنْ يُنازَعَ فيه.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾: صرعَهُ على شقِّهِ فوقعَ جبينُهُ على الأرضِ وهو أحدُ جانِبَي الجبهَةِ.

وقيل: كبَّهُ على وجهِهِ بإشارَتِه كيلا يَرى فيه تغيُّرًا يَرِقُّ له فلا يذبحُهُ، وكان ذلك عندَ الصَّخرةِ بمِنًى، أو في الموضعِ المشرِفِ على مَسجدِه، أو المنحرِ الذي يُنحَرُ فيه اليومَ.

(١٠٤ ـ ١٠٥) ـ ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ﴾ بالعَزمِ والإتيانِ بالمُقدِّماتِ.

---

(١) قوله: «أمرك» بسكون الميم؛ عطف على (ما تؤمر به» فـ(ما)درية، وعلى الأول موصولة انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٩٠).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٧٢ و١٨٧).

(٣) (سلَّما) هي قراءة علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود وغيرهم. كما في «المحتسب» (٢/ ٢٢٢)، وعزى الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٣٩٣) القراءة الثانية إلى ابن مسعود.

وقد رُوِيَ أنَّه أَمَرَّ السكِّينَ بقُوَّتِه على حلقِهِ مِرارًا فلَمْ تقطَعْ[١].

وجوابُ: (لَمَّا) محذوفٌ تقديرُهُ: كان ما كانَ ممَّا ينطقُ به الحالُ ولا يحيطُ به المقالُ مِن استبشارِهما وشُكرِهما للهِ على ما أنعَمَ عليهِمَا مِن دَفعِ البَلاءِ بعدَ حُلولِه والتَّوفيقِ لِمَا لم يُوفَّقْ غيرُهُما لِمِثلِه، وإظهارِ فَضلِهِما به على العالَمِينَ مع إحرازِ الثَّوابِ العَظيمِ، إلى غيرِ ذلك.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لإفراجِ تلك الشِّدَّةِ عنهما بإحسانِهِما.

واحتجَّ بِهِ مَن جوَّزَ النَّسخَ قبلَ وُقوعِه[٢]، فإنَّه عليه السَّلامُ كانَ مأمورًا بالذَّبحِ لقولِه: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولم يَحْصُل.

(١٠٦) - ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾: الابتلاءُ البيِّنُ الذي يتميَّزُ فيه المخلِصُ مِن غَيرِه، أو: المحنَةُ البيِّنَةُ الصُّعوبَةِ فإنَّه لا أصعبَ مِنْها.

(١٠٧) - ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾: بمَا يُذبَحُ بدلَهُ فيَتِمُّ بِهِ الفعلُ ﴿عَظِيمٍ﴾: عظيمِ الجُثَّةِ سمينٍ، أو: عظيمِ القَدْرِ لأنه يَفْدِي به اللهُ نَبيًّا ابنَ نبيٍّ، وأيَّ نبيٍّ مِن نَسلِه سيِّدُ المُرسَلِينَ.

قيل: كان كبشًا من الجنَّةِ.

وقيل: وَعْلًا أهبِطَ عليهِ من ثَبيرٍ.

ورُوِيَ أنَّه هربَ مِنْه عند الجمرةِ، فرمَاهُ بسبعِ حصَيَاتٍ حتَّى أخذَهُ فصارَتْ سُنَّةً.

والفادي به على الحقيقةِ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ[٣]، وإنما قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ لأنَّه المُعطِي له والآمِرُ بِهِ على التَّجوُّزِ في الفِداءِ أو الإسنادِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٨٠) عن السدي.

(٢) في نسخة الفاروقي: «قبل الفعل».

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٠٧) مطولًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

واستدلَّ به الحنفيَّةُ على أنَّ مَن نذرَ ذبحَ وَلدِهِ لَزِمَه ذبحُ شاةٍ، وليس فيه ما يَدُلُّ عليه[1].

(١٠٨ ـ ١٠٩) ـ ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ سبقَ بيانُهُ في قصَّةِ نوحٍ.

(١١٠ ـ ١١١) ـ ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ لعلَّهُ طُرِحَ عنه (إنَّا) اكتفاءً بذكرِه مرَّةً في هذه القصَّةِ ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

(١١٢) ـ ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾: مَقضِيًّا نبوَّتُه مُقدَّرًا كونُه مِن الصَّالِحينَ، وبهذا الاعتبارِ وقعَا حالَيْنِ، ولا حاجةَ إلى وُجودِ[2] المُبشَّرِ به وقتَ البشارةِ، فإنَّ وُجودَ ذي الحالِ غيرُ شَرطٍ، بَلِ الشَّرطُ مُقارنَةُ تَعلُّقِ الفعلِ به للاعتبارِ المعنيِّ بالحالِ، فلا حاجةَ إلى تقديرِ مُضافٍ يُجعَلُ عامِلًا فيهمَا مثل: وبشَّرْنَا بوجودِ إسحاقَ؛ أي: بأن يوجَدَ إسحاقُ نبيًّا من الصَّالحينَ، ومع ذلك لا يصيرُ نظيرَ قولِه: ﴿ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، فإنَّ الدَّاخلينَ مقدِّرونَ خلودَهُم وقتَ الدُّخولِ، وإسحاقُ لم يَكُن مُقدِّرًا نبوَّةَ نفسِه وصلاحَها حينما يوجدُ.

ومَن فسَّرَ الغُلامَ بإسحاقَ جعلَ المقصودَ مِن البِشارَةِ نُبوَّتَه.

وفي ذكرِ الصَّلاحِ بعدَ النُّبوَّةِ تعظيمٌ لشَأنِه، وإيماءٌ بأنَّه الغايَةُ لها لتَضمُّنِها معنى الكمالِ والتَّكميلِ بالفعلِ على الإطلاقِ.

---

(١) ذكر هذه المسألة القدوري في «التجريد» (١٢/ ٦٥٠٦) قال: نذر نحر ولده، قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله: إذا نذر نحر ولده، فعليه شاة، وقال أبو يوسف رحمه الله: لا يلزمه شيء، وبه قال الشافعي رحمه الله.

(٢) في نسخة الفاروقي: «ولا يقدح فيه عدم» بدل: «ولا حاجة إلى وجود».

(١١٣) - ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾: على إبراهيمَ في أولادِه ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ بأَنْ أخرَجْنا مِن صُلْبِه أنبياءَ بني إسرائيلَ وغيرَهُم كأيُّوبَ وشُعيبٍ، أو: أفَضْنا عليهِما بَرَكاتِ الدِّينِ والدُّنيَا.

وقُرِئَ: (وبرَّكْنا)(١).

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ﴾ في عملِهِ أو على نفسِهِ بالإيمانِ والطَّاعَةِ ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالكُفرِ والمَعاصِي ﴿مُبِينٞ﴾: ظاهرٌ ظلمُهُ، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ النَّسبَ لا أثرَ لَهُ في الهُدَى والضَّلالِ، وأنَّ الظُّلمَ في أعقابِهما لا يعودُ عليهِمَا بنَقيصَةٍ وعَيبٍ.

(١١٤ - ١١٥) - ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾: أنعمْنَا عليهِمَا بالنُّبوَّةِ وغيرِهَا مِن المنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: مِن تَغَلُّبِ فِرعونَ أو الغرقِ.

(١١٦) - ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ الضَّميرُ لَهُما مع القومِ ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ على فِرعونَ وقَومِه.

(١١٧) - ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾: البليغَ في بيانِهِ وهو التَّوراةُ.

(١١٨) - ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: الطَّريقَ الموصِلَ إلى الحقِّ والصَّوابِ.

(١١٩ - ١٢٢) - ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ سبقَ مِثلُ ذلك.

---

(١) رواه أبو عمرو الداني في «جامع البيان» (ص: ١٨٠)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (ص: ٣٧٣): عن الأصمعي قال: قلت لأبي عمرو: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ في موضع (وبركنا عليه) أتعرف هذا؟ فقال: ما نعرف إلا أن نسمع من المشايخ الأولين، قال: وقال أبو عمرو: إنما نحن فيمن مضى كبقل في أصول نخل طوال.

(١٢٣) ـ ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ هـو إلياسُ بن ياسـينَ من سِـبْط هارونَ أخي موسـى بعـثَ بعدَهُ.

وقيل: إدريسُ، لأنَّه قُرِئَ: (إدريس)(١) و(إِدْرَاس)(٢) مكانَهُ.

وفي حرفِ أُبيٍّ: (وإنَّ إيليسَ)(٣).

وقرأ ابنُ ذكوانَ مع خلافٍ عنه بحذفِ همزةِ إلياسَ(٤).

(١٢٤ ـ ١٢٦) ـ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عذابَ اللهِ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾: أتعبدونَهُ؟ أو: أتطلبونَ الخيرَ مِنه؟

وهو اسمُ صَنمٍ كانَ لأهلِ بَكٍّ مِن الشَّامِ، وهو البلدُ الذي يقالُ له الآنَ: بَعْلَبَكّ.

وقيل: البَعْلُ: الرَّبُّ بلُغَةِ اليَمنِ، والمعنى: أتدعونَ(٥) بعضَ البعولِ؟

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾: وتتركونَ عِبادَتَه، وقـد أشارَ فيه إلى المقتضي للإنكارِ المعنيِّ بالهمزةِ، ثمَّ صرَّحَ به بقولِه: ﴿اللهُ ربُّكم وربُّ آبائكُم الأوَّلين﴾.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ ويَعقوبُ وحَفصٌ بالنَّصبِ على البَدلِ(٦).

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٢٤) عن ابن مسعود أيضاً.

(٣) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٢٥).

(٤) ذكرها في «السبعة» (ص: ٥٤٨) عن ابن عامر، وفي «التيسير» (ص: ١٨٧) عنه من رواية ابن ذكوان.

(٥) في نسخة الخيالي: «أتعبدون».

(٦) انظر: «التيسير» (ص: ١٨٧)، و«النشر» (٢/ ٣٦٠).

(١٢٧) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: في العَذابِ، وإنَّما أطلقَهُ اكتفاءً بالقرينةِ، أو لأنَّ الإحضارَ المطلَقَ مخصوصٌ بالشرِّ عُرْفًا.

(١٢٨) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ مُستثنًى مِن الواوِ، لا مِن المحضرينَ لفسادِ المَعنى.

(١٢٩ ـ ١٣٢) ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ لغةٌ في إلياسَ؛ كسِيناءَ وسِينينَ.

وقيل: جمعٌ له مرادٌ بِهِ هو وأتباعُهُ كالمُهَلَّبِينَ، لكنْ فيه: أنَّ العَلَمَ إذا جُمعَ يجِبُ تعريفُه باللامِ، أو للمَنسوبِ إليه[1] بحذفِ ياءِ النَّسَبِ كالأعجمينَ وهو قليلٌ ملبسٌ.

وقرَأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ على إضافةِ ﴿آلِ﴾ إلى ﴿ياسينَ﴾[2]؛ لأنَّهُما في المصحفِ مَفصولانِ، فيكونُ ياسينُ أبا إلياسَ.

وقيل: مُحمَّدٌ عليه السَّلامُ، أو القرآنُ، أو غيرُه مِن كتبِ اللهِ، والكلُّ لا يناسِبُ نظمَ سائرِ القصصِ، ولا قولَه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ الظَّاهِرُ أنَّ الضَّميرَ لإلياسَ.

(١٣٣ ـ ١٣٦) ـ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ سبقَ بيانُه.

(١٣٧ ـ ١٣٨) ـ ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهلَ مكَّةَ ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾: على مَنازِلِهم في مَتاجِرِكُم إلى الشَّامِ، فإنَّ سدومَ في طريقِه ﴿مُّصْبِحِينَ﴾: داخلينَ في الصَّباحِ ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾؛ أي: ومساءً، أو: نهارًا وليلًا، ولعلَّها وقَعت قريبَ مَنزلٍ يمرُّ بها المرتحِلُ عنه صباحًا والقاصدُ لها مساءً.

---

(١) «أو للمنسوب إليه» عطف على «له». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٩٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٧)، و«النشر» (٢/ ٣٦٠).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أفليسَ فيكُم عقلٌ تَعتبِرونَ به.

(١٣٩ ـ ١٤١) ـ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقُرِئَ بكسرِ النُّونِ[1] ﴿إِذْ أَبَقَ﴾: هربَ، وأصلُه: الهَرَبُ مِن السيِّدِ، لكنْ لَمَّا كان هربُهُ مِن قَومِه بغيرِ إذنِ رَبِّهِ حَسُنَ إطلاقُه عليه.

﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾: المملوءِ ﴿فَسَاهَمَ﴾: فقارعَ أهلَه ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾: فصارَ مِن المغلوبينَ بالقرعةِ، وأصلُه: المُزْلَقُ عن مقامِ الظَّفرِ.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا وعدَ قومَهُ بالعَذابِ خرجَ مِن بَينِهِم قبلَ أَنْ يَأمُرَه اللهُ به، فركبَ السَّفينةَ فوقفَتْ، فقالوا: هاهنا عبدٌ آبقٌ، فاقترَعُوا فخرجَتِ القُرعَةُ عليه، فقال: أنا الآبقُ، ورمَى[2] بنفسِهِ في الماءِ[3].

(١٤٢) ـ ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾: فابتلعَهُ ـ مِن اللُّقمَةِ ـ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخلٌ في المَلَامةِ، أو: آتٍ بما يُلَامُ عليه، أو مُليمٌ نفسَه، وقُرِئَ بالفَتحِ[4] مبنيًّا مِن لِيمَ؛ كمَشِيبٍ في مَشُوبٍ.

(١٤٣) ـ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾: الذَّاكرينَ اللهَ كثيرًا بالتَّسبيحِ مُدَّةَ عمرِهِ.

أو: في بطنِ الحوتِ، وهو قولُه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقيل: مِن المُصلِّينَ.

---

(١) نسبت للحسن في «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٢٥٠)، وهي رواية ابن جماز عن نافع، انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١٣٦).

(٢) في نسخة الفاروقي: «وزج».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥٥٠) عن قتادة.

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ٣٦٠)، و«البحر» (١٨/ ٢١٠).

(١٤٤) ـ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حيًّا، وقيل: ميتًا، وفيه حَثٌّ على إكثارِ الذِّكرِ وتَعظيمٌ لشأنِه، وأنَّ مَن أقبلَ عليه في السَّرَّاءِ أخذَ بيدِهِ عندَ الضَّرَّاءِ.

(١٤٥) ـ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ بأَنْ حَملنَا الحُوتَ على لفظِه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالمكانِ الخالي عمَّا يُغطِّيهِ مِن شَجَرٍ أو نبتٍ.

رُوِيَ أنَّ الحوتَ سارَ مع السَّفينَةِ رافعًا رأسَهُ، يتنفَّسُ فيه يونسُ ويُسبِّحُ حتى انتَهوا إلى البرِّ فلَفَظَهُ[1].

واختُلِفَ في مدَّةِ لبثِه: فقيل: يوم، وقيل: بعضُ يومٍ، وقيل: ثلاثةُ أيَّامٍ، وقيل: سَبعةٌ، وقيل: عِشرونَ، وقيل: أربعونَ.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ممَّا نالَهُ، قيل: صارَ بدنهُ كبدنِ الطِّفلِ حين يولَدُ[2].

(١٤٦) ـ ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: فوقَهُ مُظلَّةً عليه ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾: مِن شجرٍ يَنبَسِطُ على وجهِ الأرضِ ولا يقومُ على ساقِهِ، (يَفْعِيلٌ) مِن قَطَنَ بالمكانِ: إذا أقامَ بهِ، والأكثرُ على أنَّها كانَتِ الدُّبَّاءَ، غَطَّتْه بأوراقِهَا عن[3] الذُّبابِ فإنَّه لا يقَعُ عليه، ويدلُّ عليه أنَّه قيلَ لرَسولِ اللهِ ﷺ: إنَّكَ لتُحِبُّ القَرْعَ، قال: «أجَل، هي شجرَةُ أخي يُونُسَ»[4].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٧/ ٣٦١).

(٢) في هامش نسخة التفتازاني: «في نسخة: لا قوة له»، انظر: «تفسير القرآن العزيز» لابن أبي زمنين (٤/ ٧٣).

(٣) في نسخة الفاروقي: «من».

(٤) قال الولي العراقي: لم أقف عليه، انظر: «حاشية السيوطي» (١٠/ ٤٦٥)، وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١٨٠): «غريب»، ثم ذكر رواية من «تفسير ابن مردويه» وفيه: «وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، قال عبد الله عن النبي ﷺ: واليقطين القرع». أما حب النبي ﷺ للدباء فقد =

وقيل: التِّينُ.

وقيل: الموزُ يُغَطَّى بورقِهِ، ويَستظِلُّ بأغصانِه، ويُفطِرُ على ثمارِه.

(١٤٧) ـ ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومُهُ الذين هربَ عَنْهُم، وهم أهلُ نينوَى، والمرادُ: ما سبقَ مِن إرسالِه، أو إرسالٌ ثانٍ إليهم أو إلى غيرِهِم.

﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في مَرْأَى النَّاظرِ؛ أي: إذا نظرَ إليهم قال: هُم مئةُ ألفٍ أو أكثرُ، والمرادُ: الوَصفُ بالكَثرَةِ، وقُرِئَ بالواوِ[1].

(١٤٨) ـ ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾: فصدَّقُوهُ، أو: فجَدَّدُوا الإيمانَ به بمَحْضَرِه.

﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى أجلِهِم المُسمَّى، ولعلَّهُ إنَّما لم يَخْتِم قصَّتَه وقصَّةَ لوطٍ بما ختم به سائرَ القصصِ تفرِقَةً بينَهُما وبينَ أربابِ الشَّرائعِ الكُبَرِ وأولي العزمِ مِن الرُّسُلِ، أو اكتفاءً بالتَّسليمِ الشَّاملِ لكلِّ الرُّسُلِ المذكورينِ في آخرِ السُّورةِ.

(١٤٩) ـ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ معطوفٌ على مثلِه في أوَّلِ السُّورَةِ، أمرَ رَسولَهُ أوَّلًا باستفتاءِ قُرَيشٍ عن وجهِ إنكارِهِم البعثَ، وساقَ الكلامَ في تَقريرِهِ جارًّا لِمَا يُلائِمُه مِن القصصِ مَوصولًا بعضُها ببعضٍ.

ثمَّ أمرَ باستِفتائِهِم عن وَجهِ القِسمَةِ حيثُ جعلوا للهِ البناتِ ولأَنفُسِهِم البنينَ في قولِهِم: الملائكةُ بناتُ اللهِ.

= ورد في عدة أحاديث، منها ما رواه البخاري (٥٣٧٩)، ومسلم (٢٠٤١) عن أنس رضي الله عنه قال: «ذهبت مع رسول الله ﷺ، فرأيته يتتبع الدباء من حوالي القصعة». وروى النسائي في «السنن الكبرى» (٦٦٣٠) عن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يحب الدباء). وفي رواية (٩٩٩٣) عن أنس قال: «وكان يعجبه القرع».

(١) نسبت لجعفر بن محمد، انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨٧)، ونسبت في «زاد المسير» (٣/ ٥٥٣) لأبي بن كعب، ومعاذ القارئ، وأبي المتوكل، وأبي عمران الجوني.

وهؤلاءِ زادُوا على الشِّركِ ضَلالاتٍ أُخَرَ: التَّجسيمُ، وتَجْويزُ الفَناءِ[1] على اللهِ تَعالى، فإنَّ الوِلادةَ مَخصوصَةٌ بالأجسامِ الكائنَةِ الفاسدَةِ، وتفضيلُ أنفُسِهم عليه حيث جَعَلُوا أوضعَ الجِنسينِ له وأرفعَهُمَا لهم، واستهانتُهُم بالملائكةِ حيثُ أَنَّثوهُم، ولذلكَ كرَّرَ اللهُ تعالى إنكارَ ذلك وإبطالَهُ في كتابهِ مِرارًا، وجعلَهُ ممَّا تَكادُ السَّماواتُ يَتفطَّرْنَ منه وتنشَقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هَدًّا، والإنكارُ هاهنا مقصورٌ على الأخيرينَ لاختصاصِ هذه الطَّائفةِ بهما، ولأن فسادَهُما مما يُدرِكُه العامَّةُ بمُقتَضى طباعِهِم حيثُ جعلَ المعادلَ للاستفهامِ عن التَّقسيمِ.

(١٥٠) ـ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ وإنَّما خصَّ علمَ المشاهدَةِ؛ لأنَّ أمثالَ ذلك لا يُعلَمُ إلا بهِ، فإنَّ الأنوثةَ ليسَتْ مِن لَوازمِ ذاتهم ليُمْكنَ معرفَتُه بالعقلِ الصرفِ، مع ما فيهِ مِن الاستهزاءِ، والإشعارِ بأنَّهُم لفَرْطِ جَهلِهِم يبتُّونَ بهِ كأنَّهُم قد شاهَدُوا خلقَهُم.

(١٥١ ـ ١٥٢) ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ لعَدمِ ما يقتضيهِ وقيامِ ما يَنفيهِ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يَتديَّنُونَ به.

وقُرِئَ: (وَلَدُ اللهِ)؛ أي: الملائكةُ ولدُه[2]، (فَعَلٌ) بمعنى مَفعولٍ يَسْتَوي فيه الواحدُ والجمعُ والمذكَّرُ والمؤنَّثُ.

(١٥٣) ـ ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعادٍ: والاصطفاءُ:

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «وجواز البنات». وأشار إلى ذلك الخفاجي في «حاشيته» فقال: وقولُه: (تجويز البنات) وقعَ في نسخَةٍ: الفناء بدله؛ لأنَّ التوالد لبقاءِ النَّوع، وإنَّما يطلبه من يجوزُ عليه فناء الشَّخص، فلا وجهَ لِما قيلَ: إنَّه لا وجهَ له، بل تلكَ النُّسخَة لا تناسب ما بعدَه مِن قولِه: (فإن الولادَة... إلخ)، فإنَّه تعليل للزومِ التَّجسيم والفناء.

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٣٦٥) دون نسبة.

أخذُ صَفوَةِ الشَّيءِ، وعن نافعٍ كسرُ الهمزةِ[١] على حذفِ حرفِ الاستفهامِ لدَلالةِ (أم) بعدَها عليها، أو على الإثباتِ بإضمارِ القَوْلِ؛ أي: لَكاذبونَ في قولِهم: (اصطَفَى) أو إبداله مِن ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾.

(١٥٤ ـ ١٥٥) ـ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يرتضيهِ عَقلٌ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّه مُنزَّهٌ عن ذلك.

(١٥٦) ـ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾: حجَّةٌ واضحَةٌ نزلَتْ عليكُم مِن السَّماءِ بأنَّ الملائكةَ بناتُه[٢].

(١٥٧) ـ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي أُنزلَ عَليكُم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دَعواكُم.

(١٥٨) ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ يعني: الملائكةَ، ذكرَهُم باسمِ جنسِهم وضعًا مِنْهُم أَنْ يبلغُوا هذه المرتبةَ.

وقيل: قالوا: إنَّ اللهَ صاهرَ الجنَّ فخَرجتِ الملائكَةُ.

وقيل: قالوا: إن اللهَ والشَّيطانَ أخوَانِ.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾: إنَّ الكفرةَ، أو الإنسَ، أو الجِنَّةَ إن فُسِّرَت بغيرِ الملائكةِ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في العَذابِ.

(١٥٩) ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِن الولدِ والنسبِ.

(١٦٠) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ مِن المحضَرينَ مُنقطعٌ، أو مُتَّصلٌ إن فُسِّرَ الضَّميرُ بما يعمُّهُم وما بينَهُما اعتراضٌ، أو مِن ﴿يَصِفُونَ﴾.

---

(١) قرأ أبو جعفر بوصل الهمزة على لفظ الخبر، فيبتدئ بهمزة مكسورة، واختلف عن ورش، فروى الأصبهاني عنه كذلك، وهي رواية إسماعيل بن جعفر عن نافع، وروى عنه الأزرق بقطع الهمزة على لفظ الاستفهام، وكذلك قرأ الباقون، انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٩)، و«النشر» (٢/ ٣٦٠).

(٢) في نسخة الخيالي: «بنات الله».

(١٦١ ـ ١٦٣) ـ ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عَودٌ إلى خِطابِهِم ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾: على اللهِ ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾: مفسدينَ النَّاسَ بالإغواءِ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إلا مَن سبقَ في علمِهِ أنَّه مِن أهلِ النَّارِ ويَصلاها[1] لا محالَة.

و﴿أَنتُمْ﴾ ضَميرٌ لَهُم ولآلهتهم غلِّبَ فيه المخاطَبُ على الغائبِ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لِمَا فيه مِن معنى المقارنةِ سادًّا مسدَّ الخبرِ؛ أي: إنَّكُم وآلهتكُم قُرَناءُ لا تزالونَ تعبدونَها، ما أَنْتُم على ما تعبدونَهُ بفَاتنينَ: بباعثينَ على طريق الفِتنَةِ إلَّا ضالًّا مُستوجِبًا للنَّارِ مثلَكُم.

وقُرِئَ: (صَالُ) بالضمِّ[2] على أنَّه جمعٌ محمولٌ على مَعنى ﴿مَن﴾ ساقطٌ واوُهُ لالتقاءِ السَّاكنينِ، أو تخفيفُ صائلٍ على القلبِ كشاكٍ في شائكٍ، أو المحذوفُ منه كالمنسيِّ كما في قولِهم: (مَا باليْتُ بهِ بَالَةً) فإنَّ أصلَها: بَاليَةً كعَافِيَةٍ.

(١٦٤) ـ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ حكايةُ اعترافِ الملائِكَةِ بالعُبوديَّةِ للردِّ على عَبدَتِهِم، والمعنى: وما مِنَّا أَحَدٌ إلَّا لَهُ مَقامٌ مَعلومٌ في المعرفَةِ والعبادَةِ والانتهاءِ إلى أمرِ اللهِ تَعالى في تَدبيرِ العالمِ لا نتجاوزُه، فحُذِفَ الموصوفُ وأُقِيمتِ الصفةُ مُقامَه.

ويحتملُ أن يكونَ هذا وما قبلَه مِن قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مِن كلامِهِم؛ ليتَّصِلَ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ كأنَّه قال: ولقد عَلِمَ الملائكةُ أنَّ المشركينَ مُعذَّبونَ بذلك، وقالوا: (سُبحانَ اللهِ) تنزيهًا له عنه، ثمَّ استثنَوا المخلِصينَ تبرئَةً[3] لهم منه، ثم

(١) في نسخة التفتازاني: «يصلاها» بدون واو.

(٢) وهي قراءة الحسن، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣١٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣٠٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢٨).

(٣) في نسخة الفاروقي: «تنزيها».

خاطَبُوا الكفرةَ بأن الافتتانَ بذلك[١] للشَّقاوَةِ المُقدَّرَةِ، ثمَّ اعترفُوا بالعُبوديَّةِ وتَفاوُتِ مَراتِبِهم فيها لا يَتجاوَزُونَها، فحُذِفَ الموصوفُ وأُقيمَت الصِّفَةُ مُقامَهُ.

(١٦٥) ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في أداءِ الطَّاعةِ ومنازلِ الخدمةِ.

(١٦٦) ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزِّهونَ اللهَ عمَّا لا يليقُ بـه، ولعلَّ الأوَّلَ إشارةٌ إلى دَرَجاتِهم في الطَّاعاتِ وهذا في المعارفِ، وما في (إنَّ) واللامِ وتوسيطِ الفَصلِ مِن التَّأكيدِ والاختصاصِ؛ لأنَّهُم المواظِبُونَ على ذلك دائمًا مِن غيرِ فترةٍ، دونَ غيرِهم.

وقيل: هو كلامُ النبيِّ والمُؤمنينَ، والمعنى: وما مِنَّا إلا لهُ مَقامٌ مَعلومٌ في الجنَّةِ أو بينَ يَدي اللهِ في القيامَةِ، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ له في الصَّلاةِ والمنزِّهونَ لهُ عن السُّوءِ.

(١٦٧ ـ ١٦٩) ـ ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾؛ أي: مُشركو قُرَيشٍ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: كتابًا مِن الكُتبِ التي نزلَتْ عَلَيهم ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: لأخلَصْنَا العبادةَ له ولم نُخَالِف مِثلَهُم.

(١٧٠) ـ ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: لَمَّا جاءَهُم الذِّكرُ الذي هو أشرَفُ الأذكارِ والمهيمِنُ عليها.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ كُفرِهم.

(١٧١ ـ ١٧٣) ـ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: وَعْدُنا لهم بالنَّصرِ والغلبَةِ، وهو قولُه: ﴿إنهم لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وهو باعتبارِ الغالبِ والمقضِيِّ بالذَّاتِ، وإنَّما سَمَّاهُ كلمَةً وهي كلماتٌ، لانتِظامِهَا في مَعنًى واحِدٍ.

(١٧٤) ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: فأعرِضْ عَنْهُم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو الموعِدُ لنَصرِكَ عليهِمْ وهوَ يومُ بَدرٍ، وقيل: يومُ الفَتحِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بأن ذلك الافتتان».

(١٧٥) ـ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما يَنالُهُم حينئذٍ، والمرادُ بالأمرِ: الدَّلالَةُ على أنَّ ذلك كائِنٌ قَريبٌ كأنَّه قدَّامه.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما قضَيْنا لكَ مِن التَّأييدِ والنُّصرَةِ والثَّوابِ في الآخرةِ، و(سوفَ) للوَعيدِ لا للتَّبعيدِ.

(١٧٦) ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ رُوِيَ أنَّه لَمَّا نزلَ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا: مَتى هذا؟ فنزلَ[١].

(١٧٧) ـ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾: فإذا[٢] نزلَ العَذابُ بِفِنائِهِم، شبَّهَهُ بجيشٍ هجَمَهُم فأناخَ بِفِنائِهِم بغتةً، وقيل: الرَّسولُ عليهِ السَّلامُ.

وقرئ: (نُزِل)[٣] على إسنادِهِ إلى الجارِّ والمَجرورِ، و: (نُزِّل)[٤]؛ أي: العذابُ.

﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾: فبئسَ صباحُ المنذرينَ صباحُهُم، واللامُ للجنسِ، والصَّباحُ مُستعَارٌ مِن صباحِ الجيشِ المبيِّتِ لوَقتِ نُزولِ العَذابِ[٥]، ولَمَّا كَثُرَ فيهِم الهجومُ والغارةُ في الصَّباحِ سَمَّوا الغارةَ صباحًا وإن وَقَعت في وقتٍ آخرَ.

(١٧٨ ـ ١٧٩) ـ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ إلى تأكيدٍ، وإطلاقٌ بعدَ تَقييدٍ؛ للإشعارِ بأنَّهُ يُبصِرُ وأنَّهُم يبصِرونَ ما لا يحيطُ به الذِّكرُ مِن أَصنافِ المسرَّةِ وأنواعِ المَسَاءَةِ، أو الأوَّلُ لعذابِ الدُّنيَا والثَّاني لعذابِ الآخرةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٤٠).

(٢) في نسخة التفتازاني: «أي إذا».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢٩)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) عزاها ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥٥٦) إلى ابن مسعود، وأبي عمران، والجحدري، وابن يعمر.

(٥) قوله: «لوقت...» متعلِّق بـ«مستعار». انظر: «حاشية الخفاجي».

(١٨٠) ـ ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾: عمَّا قالَهُ المُشرِكُونَ فيه على ما حُكِيَ في السُّورَةِ، وإضافَةُ الرَّبِّ إلى العِزَّةِ لاختصاصِهَا به إِذْ لا عِزَّةَ إلَّا لهُ أو لِمَن أعزَّهُ، وقد أدرجَ فيه جملةَ صِفاتِهِ السَّلبيَّةِ والثُّبوتيَّةِ مع الإشعارِ بالتَّوحيدِ.

(١٨١) ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ تعميمٌ للرُّسُلِ بالتَّسليمِ بعدَ تَخصيصِ بعضِهِم.

(١٨٢) ـ ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على ما أفاضَ عليهم وعلى مَن اتَّبَعَهُم مِن النِّعَمِ وحسنِ العَاقِبَةِ، ولذلك أخَّرَهُ عن التَّسليمِ، والمرادُ: تَعليمُ المُؤمنينَ كيفَ يَحمدُونَهُ ويسلِّمونَ على رُسلِهِ.

وعَن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ: مَن أَحَبَّ أَنْ يَكتالَ بالمِكْيَالِ الأَوْفَى مِن الأجرِ يومَ القِيامَةِ فليَكُن آخرُ كلامِهِ مِن مَجلِسِه: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ﴾.. إلى آخرِ السُّورَةِ[1].

وعن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قَرَأَ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أُعْطِيَ مِن الأجرِ عشرَ حَسناتٍ بعدَدِ كُلِّ جِنِّيٍّ وشَيطانٍ، وتباعَدَتْ عنهُ مَرَدَةُ الجِنِّ والشَّياطين، وبَرِئَ مِن الشِّركِ وشَهِدَ له حافِظَاهُ يومَ القِيامَةِ أنَّه كانَ مُؤمِنًا بالمُرسَلِينَ»[2].

* * *

---

(١) رواه بهذا اللفظ موقوفا على علي رضي الله عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣٦)، ومن طريق الثعلبيِّ البغويُّ في «تفسيره» (٧/ ٦٦). وفي إسناده الأصبغ بن نباتة رمي بالكذب، ورواياته عن علي لا يتابع عليها كما قال ابن عدي. انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٣/ ٣٠٨). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣٤) عن الشعبي.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٣١٦) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

(٣٧) سورة الصافات مكية
وآياتها اثنتان وثمانون ومائة

روى النسائي، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾

قال ابن مسعود رضي الله عنه ﴿والصافات صفاً﴾، ﴿فالزاجرات زجراً﴾، ﴿فالتاليات ذكراً﴾: هي الملائكة[1]؛ وقال قتادة: الملائكة صفوف في السماء، روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصّون في الصف»[2]. وقال السدي معنى قوله تعالى ﴿فالزاجرات زجراً﴾: أنها تزجر السحاب، وقال الربيع بن أنس ﴿فالزاجرات زجراً﴾: ما زجر الله تعالى عنه في القرآن، ﴿فالتاليات ذكراً﴾ قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس، كقوله تعالى: ﴿فالملقيات ذكراً ۞ عذراً أو نذراً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن إلهكم لواحد رب السماوات والأرض﴾، هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إلّه إلا هو رب السماوات والأرض ﴿وما بينهما﴾ أي من المخلوقات، ﴿ورب المشارق﴾ أي هو المالك المتصرف في الخلق، بتسخيره بما فيه من كواكب تبدو من المشرق وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه، وقد صرح بذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾، وقال تعالى ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ يعني في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

---

(١) وهو قول ابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وقتادة وغيرهم.

(٢) وفي صحيح مسلم أيضاً «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة» الحديث.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب، فالكواكب السيارة والثوابت تضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾، فقوله جلّ وعلا ههنا ﴿وحفظاً﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً ﴿من كل شيطان مارد﴾ يعني المتمرد العاتي، إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى﴾ أي لئلا يصلوا إلى ﴿الملأ الأعلى﴾ وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، كما تقدم بيان ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ويقذفون﴾ أي يرمون ﴿من كل جانب﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دحوراً﴾ أي رجماً يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك ويرجمون، ﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي في الدار الآخرة، لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال جلّت عظمته: ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾، وقوله تبارك وتعالى ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث، ولهذا قال: ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ أي مستنير، قال ابن عباس: كان للشياطين مقاعد في السماء، فكانوا يستمعون الوحي، وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا ترمى، فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعاً، فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه، فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: ما هو إلا من أمرٍ حدَث، فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة، قال وكيع: يعني بطن نخلة، قال: فرجعوا إلى إبليس، فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث(١).

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾

يقول تعالى: فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيما أشد خلقاً هم أم السماوات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال عزّ وجلّ: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ ثم بيَّن أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ قال مجاهد والضحّاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض، وقال ابن عباس وعكرمة: هو اللزج الجيد، وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد، وقوله عزّ وجلّ: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك، قال قتادة: عجب محمد ﷺ وسخر ضلّال بني آدم، ﴿وإذا رأوا آية﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿يستسخرون﴾، قال مجاهد: يستهزئون، ﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين، ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ۝ أو آباؤنا الأولون﴾؟ يستبعدون ذلك ويكذبون به ﴿قل نعم وأنتم داخرون﴾، أي قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة، بعدما تصيرون تراباً وعظاماً، ﴿وأنتم داخرون﴾ أي حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وكل أتوه داخرين﴾، وقال تعالى: ﴿سيدخلون جهنم داخرين﴾، ثم قال جلت عظمته: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله عزّ وجلّ، يدعوهم أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة، أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم، فإذا عاينوا أهوال القيامة، ندموا كل الندامة حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾ على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين، في الموقف في محشرهم ومنشرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾، قال النعمان بن بشير: يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم[1]؛ وعن عمر بن الخطاب: ﴿وأزواجهم﴾ قال: إخوانهم، وقال النعمان: سمعت عمر يقول: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ قال: أشباههم، قال: يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، وقال ابن عباس: ﴿أزواجهم﴾ قرناءهم، ﴿وما كانوا يعبدون من دون الله﴾ أي من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم، وقوله تعالى: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾، وقوله تعالى: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ أي قفوهم

(١) وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وأبو العالية وغيرهم. وروي عن ابن عباس أنه قال ﴿أزواجهم﴾ نساؤهم، وهو غريب والمعروف عنه الأول.

حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم، التي صدرت عنهم في الدار الدنيا، قال ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون، وقد قال رسول الله ﷺ: «أيما داع دعا إلى شيء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة لا يغادره ولا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً» ثم قرأ: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾[1]، وقال ابن المبارك: «إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه» ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ما لكم لا تناصرون؟﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر؟ ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ أي منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، والله أعلم.

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

يذكر تعالى: أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار، ﴿فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾؟ كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ وهكذا قالوا لهم ههنا: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾، قال ابن عباس، يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء، وقال مجاهد: يعني عن الحق، تقوله الكفار للشياطين، وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾، قال: من قبل الخير فتنهونا عنه وتبطئونا عنه، وقال السدي: تأتوننا من قبل الحق وتزينوا لنا الباطل، وتصدونا عن الحق، قال الحسن: أي والله يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه، وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به.

وقوله تعالى: ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾ أي بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، ﴿فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة، ﴿فأغويناكم﴾ أي دعوناكم إلى الضلالة ﴿إنا كنا غاوين﴾، أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا، قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ أي الجميع في النار كل بحسبه، ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين * إنهم كانوا﴾ أي في الدار الدنيا ﴿إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير والترمذي عن أنس بن مالك مرفوعاً.

وفي الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عزّ وجلّ»[1]. وروى ابن أبي حاتم عن أبي العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله وعزيراً، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال؛ ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال؛ ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم: لا إله إلا الله، فيستكبرون، ثم يقال لهم لا إله إلا الله، فيستكبرون، ثم يقال لهم: لا إله إلا الله، فيستكبرون، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير، قال أبو العلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله تعالى، فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ فيقولون: نعلم أنه لا عدل له، قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى وتقدس وينجي الله المؤمنين[2]. ﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون؟ يعنون رسول الله ﷺ، قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم: ﴿بل جاء بالحق﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق، ﴿وصدّق المرسلين﴾ أي صدّقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره، كما أخبروا ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ الآية.

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾، وقال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾، ولهذا قال جلّ وعلا ههنا ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وقوله جل وعلا ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ قال السدي: يعني الجنة، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فواكه﴾ أي متنوعة ﴿وهم مكرمون﴾ أي يخدمون ويرفهون وينعّمون ﴿في جنات النعيم * على سرر متقابلين﴾، قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وقوله تعالى: ﴿يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي العلاء موقوفاً.

ينزفون﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يصدّعون عنها ولا ينزفون﴾ نزّه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وهو (الغول) وذهابها بالعقل جملة، فقال تعالى ﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾ أي بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها، قال زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي لونها مشرق حسن بهي، لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لذة للشاربين﴾ أي طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك، وقوله تعالى: ﴿لا فيها غول﴾ يعني وجع البطن[1]، كما تفعله خمر الدنيا، وقيل: المراد بالغول ههنا صداع الرأس، وروي عن ابن عباس، وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن؛ وقال السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى، والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن، وقوله تعالى ﴿ولا هم عنها ينزفون﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم[2]، وقال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: (السكر، والصداع، والقيء، والبول)، فذكر الله تعالى خمر الجنة، فنزّهها عن هذه الخصال، وقوله تعالى: ﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن، كذا قال ابن عباس ومجاهد، وقوله تبارك وتعالى: ﴿عين﴾ أي حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف عليه السلام ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، وهكذا الحور العين ﴿خيرات حسان﴾، ولهذا قال عزّ وجل: ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾. وقوله جل جلاله: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان، قال ابن عباس ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون، وأنشد قول الشاعر

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون

وقال الحسن: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يعني مصون لم تمسه الأيدي، وقال سعيد بن جبير: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يعني بطن البيض، وقال السدي ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره، واختاره ابن جرير لقوله ﴿مكنون﴾ قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدي بخلاف داخلها، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على الله عزّ وجلّ ولا فخر، يطوف علي ألف خادم كأنهن البيض المكنون - أو اللؤلؤ المكنون -»[3].

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد.

(٢) وكذا قال ابن عباس والحسن وعطاء والسدي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وروى بعضه الترمذي.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝٦١﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه ﴿أقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم، ومعاشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ قال مجاهد: يعني شيطاناً، وقال ابن عباس: هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا[1]، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما، فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما يتعاونان، قال الله تعالى: ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ وكل منهما يوسوس، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾، ولهذا: ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أئنك لمن المصدّقين﴾ أي أأنت تصدّق بالبعث والنشور، والحساب والجزاء؟ يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾؟ قال مجاهد والسدي: لمحاسبون، وقال ابن عباس: لمجزيون بأعمالنا، قال تعالى: ﴿قال هل أنتم مطلعون﴾ أي مشرفون، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم﴾ قال ابن عباس والسدي: يعني في وسط الجحيم، وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقدم، وقال قتادة: ذكر أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي، وقال كعب الأحبار: في الجنة كوى، إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار، اطّلع فيها فازداد شكراً لله، ﴿قال تالله إن كدت لتردين﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك، ﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ أي ولولا فضل الله عليّ لكنت مثلك في سواء الجحيم، محضر معك في العذاب، ولكنه رحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾. وقوله تعالى: ﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾؟ هذا من كلام المؤمن، مغتبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى، من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، بلا موت فيها ولا عذاب، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾. قال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن

---

(١) القائل: هو أحد الرجلين اللذين قال الله فيهما: ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ والقرين: الرجل الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه، وقد وردت قصتهما في سورة الكهف.

بمعذبين﴾ ؟ قيل: لا، ﴿قالوا إن هذا لهو الفوز العظيم﴾. وقوله جل جلاله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ قال قتادة هذا من كلام أهل الجنة، وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة.

قال السدي: كان شريكان في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، ثم افترقا فمكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقيا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أضربت بـه شيئاً، اتجرت به في شيء؟ قال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال اشتريت به أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار - قال - فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم، قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فلما انصرف أخـذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - اشترى أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار ثم يموت غداً ويتركها. اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً في الجنة، قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين، قال: ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقيا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك أضربت به في شيء؟ أتجرت به في شيء؟ قال: لا، قال: فما صنعت أنت؟ قال: كانت ضيعتي قـد اشتد عليَّ مؤنتها، فاشتريت رقيقاً بألف دينار، يقومون لي فيها ويعملون لي فيها، فقال له المؤمن: أوفعلت؟ قال: نعم، قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فلما انصرف أخـذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال: اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار يموت غداً فيتركهم أو يموتون فيتركونه، اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار رقيقاً في الجنة، قال: ثم أصبح، فقسمها في المساكين قال: ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقيا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك أضربت بـه في شيء، أتجرت بـه في شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: كان أمري كله قـد تم إلا شيئاً واحداً، فلانة قـد مات عنها زوجها فأصدقتها ألف دينار، فجاءتني بها ومثلها معها، فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم، قال، فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فلمـا انصرف أخذ الألف دينار البـاقية فوضعها بـين يديه، وقال: اللهم إن فلاناً - يعني شريكه الكافر - تزوج زوجة من أزواج الدنيا بألف دينار، فيموت غداً فيتركها أو تموت غداً فتتركه، اللهم وإني أخطب إليك بهذه الألف دينار حوراء عيناء في الجنة - قال - ثم أصبح فقسمهـا بـين المساكين - قال - فبقي المؤمن ليس عنده شيء، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه، فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قـال له: ألم تأخذ من المال مثل مـا أخذت؟ قال: بلى، قال: وهذه حـالي وهذه حالك؟ قال: أخبرني ما صنعت في مالك؟ قال: أقرضته، قال: من؟ قال: المليء الوفي، قال: من؟ قال: الله ربي، قال، فانتزع يده من يده، ثم قـال: ﴿أئنك لمن المصدقين * أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾؟ قال السدي: محاسبون، قال: فانطلق الكافر وتركه، فلمـا رآه المؤمن وليس يلوي عليه رجع وتركه وجعل يعيش المؤمن في شدة من الزمان، ويعيش الكافر في رخـاء من الزمان، قال: فإذا كان يوم القيـامة وأدخل الله تعالى المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمـار وأنهـار فيقول: لمن هـذا؟ فيقال: هذا لك، فيقول: يا سبحان الله، أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا؟ قال، ثم يمر، فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن

هذا ؟ فيقال : هؤلاء لك، فيقول : يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ قال: ثم يمر ، فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هـذه ؟ فيقال: هذه لك، فيقول: يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر ، فيقول: ﴿إني كان لي قرين * يقول أئنك لمن المصدقين * أئذا متنا وكنا تراباً وعظامـاً أئنا لمدينون﴾، قال، فالجنة عالية، والنار هاوية، قال: فيريه الله تعالى شريكه في وسط الجحيم من بـين أهل النـار ، فإذا رآه المؤمن عرفـه ، فيقول : ﴿تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمـة ربي لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين إلا موتتنـا الأولى ومـا نحن بمعـذبين * إن هـذا لهو الفوز العظيم * لمثل هـذا فليعمل العاملون﴾ بمثل ما قد مُنَّ عليه ، قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من شدة، فلا يذكر مما مر عليه في الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت[1] .

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول الله تعالى : أهذا الذي ذكر من نعيم الجنة، وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح، وغير ذلك من الملاذ خير ضيافةً وعطاءً ﴿أم شجرة الزقوم﴾ أي التي في جهنم ؟ وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾، قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله تعالى: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ غذيت من النار ومنها خلقت، وقال مجاهـد : ﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾. قال أبو جهل لعنه الله : إنمـا الزقوم التمر والزبد أتزقمه ؟ **قلت**: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم، اختباراً نختبر بـه الناس، من يصدق منهم ممن يكذب ، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وما جعلنـا الرؤيا التي أرينـاك إلا فتنة للنـاس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ وقوله تعالى: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ أي أصل منبتها في قرار النار : ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ تبشيع لهـا وتكريه لذكرها، وإنمـا شبّهها برؤوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين، لأنه قـد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ، وقوله تعالى: ﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هـذه الشجرة، التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها، كما قال تعالى: ﴿ليس لهم طعـام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغني من جوع﴾، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هـذه الآية وقال: « اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه ؟ »[2]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة ،وقال الترمذي : حسن صحيح.

وقوله تعالى : ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴾، قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزقوم، وعنه: ﴿ شوباً من حميم ﴾ مزجاً من حميم، وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: « يقرب - يعني إلى أهل النار - ماء فيتكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه، فإذا شربه قطّع أمعاءه، حتى تخرج من دبره »[1]، وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: « إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم، التي سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم، وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثبور »[2]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، كما قال تعالى: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي، وكان عبدالله[3] رضي الله عنه يقول : والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار . ثم قرأ : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾. وقوله تعالى: ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة، فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ قال مجاهد : شبّهة بالهرولة، وقال سعيد بن جبير : يسفهون .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى . وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرونهم بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك الله المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) هذا حديث موقوف أخرجه ابن أبي حاتم .

(٣) المراد به ابن مسعود رضي الله عنه وهي رواية السدي عنه .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نُفْرة ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾ له، ﴿ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ وهو التكذيب والأذى، ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ قال ابن عباس: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام، وقال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام، وقد روى الترمذي عن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ قال: سام وحام ويافث، وروى الإمام أحمد، عن سمرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»[١]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ قال ابن عباس: يذكر بخير، وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم، وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين، قال الضحّاك: السلام والثناء الحسن، وقوله تعالى: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن، أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم، ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده، ثم قال تعالى: ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ أي أهلكناهم فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذكر ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

* وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

قال ابن عباس: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ يقول: من أهل دينه، وقال مجاهد: على منهاجه وسنته ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾، قال ابن عباس: يعني شهادة أن لا إله إلا الله، روى ابن أبي حاتم، عن عوف قال: قلت لمحمد بن سيرين «ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور»[٢]، وقال الحسن: سليم من الشرك، ثمَّ قال تعالى: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾؟ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿أئفكاً آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين﴾؟ قال قتادة: يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره؟

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي في السنن.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من كلام ابن سيرين.

مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيدهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾. قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به، فقال: ﴿إني سقيم﴾ أي ضعيف، فأما قوله عليه السلام: « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله تعالى، قوله: [﴿إني سقيم﴾، وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾، وقوله في سارة: (هي أختي)] فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن، ولكن ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلا؛ وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث: « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب » . قال ابن المسيب: رأى نجماً طلع فقال: ﴿إني سقيم﴾ كابد نبي الله عن دينه ﴿فقال إني سقيم﴾، وقيل: أراد ﴿إني سقيم﴾ أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى، وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿إني سقيم﴾ وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾، وقوله تعالى: ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء، ﴿فقال ألا تأكلون﴾؟ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبرّك لهم فيه، قال السدي: دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة، فإذا هم في بهو عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً ووضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد برّكت الآلهة في طعامنا أكلناه، فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون﴾، وقوله تعالى: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ قال الفراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين، وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين، وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى، ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك. وقوله تعالى ههنا: ﴿فأقبلوا إليه يزفّون﴾ قال مجاهد: أي يسرعون، فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم فقال: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾؟ أي أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟ ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ يحتمل أن تكون (ما) مصدرية، فيكون الكلام: خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى (الذي) تقديره والله خلقكم والذي تعملونه، وكلا القولين متلازم، والأول أظهر، لما رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال: « إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته » فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا ﴿ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾، وكان من أمرهم ما تقدم بيانه

(١) رواه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري .

في سورة الأنبياء، ونجّاه الله من النار، وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ .

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا
بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي
إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ
فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ
بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أنه بعدما نصره الله تعالى على قومه، وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم وقال: ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين * رب هب لي من الصالحين ﴾ يعني أولاداً مطيعين يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال الله تعالى: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ هذا الغلام هو (إسماعيل) عليه السلام، فإنه أول ولد بشر بـه إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة أخرى: بكره، فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً (إسحاق) ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو (إسحاق) وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب وأخذ ذلك مُسَلَّماً من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾، ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾، وقال تعالى: ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أي يولد في حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عقب ونسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً ؟ وإسماعيل وصف ههنا بالحليم لأنه مناسب لهذا المقام، وقوله تعالى: ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ بمعنى شب وارتحل، وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية: ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ ؟ ، وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ أي امض

لما أمرك الله من ذبحي، ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عزّ وجلّ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾، قال تعالى: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ أي فلما تشهدا وذكرا الله تعالى (إبراهيم) على الذبح و (الولد) شهادة الموت، وقيل: ﴿أسلما﴾ يعني استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى وإسماعيل طاعة لله ولأبيه[1]، ومعنى ﴿تلّه للجبين﴾: أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه، قال ابن عباس: ﴿وتله للجبين﴾ أكبه على وجهه[2].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أمر إبراهيم عليه السلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي فسابقه، فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات، وثم تلّه للجبين، وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض: فقال له: يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه، فعالجه ليخلعه، فنودي من خلفه: ﴿أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ فالتفت إبراهيم، فإذا بكبش أبيض أقرن أعين»[3].

وقوله تعالى: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، وذكر السدي وغيره أنه أمرَّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس، ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك ﴿قد صدقت الرؤيا﴾، وقوله تعالى: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً كقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، قال تعالى: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك، مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته ولهذا قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾، وقوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ عن علي رضي الله عنه قال: بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنة، حتى شقق عنه ثبير، وكان عليه عهن أحمر[4]، قال مجاهد: ذبحه بمنى عند النحر، وقال الثوري، عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ قال: وعل، وقال الحسن: ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى، أهبط عليه من ثبير.

(ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به)

تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام، وروى مجاهد وعطاء وغير

---

(١) قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وهو الأظهر.

(٢) وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير والضحّاك وقتادة. (٣) هذا جزء من حديث رواه الإمام أحمد عن ابن عباس موقوفاً.

(٤) ذكر أن الكبش هو الذي قربه ابن آدم وكان في الجنة حتى فدي به إسماعيل وهو منقول عن بعض السلف.

واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه (إسماعيل) عليه الصلاة والسلام، وروى ابن جرير عن عطاء ابن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود، وروى مجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل، وقال مجاهد: هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة، وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن البصري: أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم (إسماعيل) عليه السلام، قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه (إسماعيل) وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابنَيْ إبراهيم قال تعالى: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾، ويقول الله تعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ يقول: بابن، وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل، قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً. وقال ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي: أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً، فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه عن ذلك، قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر: أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، لأن إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله عزَّ وجلَّ(١)، وقال عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل(٢).

وقال ابن أبي حاتم، وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام، قال: وروي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وابي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل، وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿وبشروه بغلام عليم﴾، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جداً، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه (إسماعيل) أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق وقد ذكرت في سورتي هود والحجر، وقوله تعالى: ﴿نبياً﴾ أي سيصير منه نبي صالح، قال

---

(١) ذهب ابن جرير الطبري إلى أن الذبيح هو (إسحاق) وهو قول لبعض علماء السلف وإحدى الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواية عن كعب الأحبار، والصحيح كما قال ابن كثير أن الذبيح هو (إسماعيل) للآثار الكثيرة الواردة وظاهر القرآن الكريم كما في رواية ابن إسحاق، والله أعلم.

(٢) ذكره ابن حنبل في كتاب الزهد.

ابن عباس: بشر بنبوته، حين ولد، وحين نبئ، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ قال: بعد ما كان من أمره لما جاد لله تعالى بنفسه، وقوله تعالى: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ كقوله تعالى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على (موسى) و (هارون) من النبوة، والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم، وما كانوا جمعوه طول حياتهم، ثم أنزل الله عزّ وجلّ على موسى الكتاب العظيم، الواضح الجلي المستبين وهو (التوراة) كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء﴾. وقال عزّ وجلّ ههنا: ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم﴾ أي في الأقوال والأفعال، ﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾ أي أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً، وثناء حسناً. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿سلام على موسى وهارون * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين﴾.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قال قتادة: يقال إلياس هو إدريس، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس هو إدريس، وكذا قال الضحّاك، وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن نسي بن فنحاص، بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد (حزقيل) عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له بعل، فدعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم، ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ووعدوه بالإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم، فجاءهم الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه، وكان قد نشأ على يديه (اليسع بن أخطوب) عليهما السلام.

﴿ إذ قال لقومه ألا تتقون ﴾ أي ألا تخافون الله عزّ وجلّ في عبادتكم غيره ، ﴿ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾ ؟ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ بعلاً ﴾ يعني رباً، قال عكرمة وقتادة: وهي لغة أهل اليمن ، وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل، وقال عبد الرحمن بن زيد: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق، وقال الضحّاك: هو صنم كانوا يعبدونه ، وقوله تعالى: ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ ؟ أي أتعبدون صنماً، ﴿ وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿ فكذبوه فإنهم لمحضرون ﴾ أي للعذاب يوم الحساب، ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي الموحدين منهم، وهذا استثناء منقطع، وقوله تعالى: ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي ثناء جميلاً ﴿ سلام على إلياسين ﴾، كما يقال في إسماعيل إسماعين ، وهي لغة بني أسد ، وقوله تعالى : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ قد تقدم تفسيره، والله أعلم .

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (لوط) عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه ، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته ، فإنها هلكت مع من هلك من قومها ، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات ، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح[1] ، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾ ؟ أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها ..؟

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء ، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ونسبه إلى أمه، وفي رواية إلى أبيه، وقوله تعالى: ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ قال ابن عباس: هو الموقر أي المملوء بالأمتعة، ﴿ فساهم ﴾ أي قارع ﴿ فكان من المدحضين ﴾ أي المغلوبين، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا

(١) اشتهرت بتسميتها (بحيرة لوط) وهي قريبة من شرق الأردن .

على أنّ من تقع عليه القرعة يلقى في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله (يونس) عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وهم يضنّون بـه أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيـابه ليلقي نفسه، وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوتاً أن يلتقم يونس عليه السلام، فلا يهشم له لحماً، ولا يكسر له عظماً، فجـاء ذلك الحوت وألقي يونس عليه السلام، فالتقمه الحوت وذهب بـه فطاف بـه البحار كلها، ولمـا استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قـد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه، فإذا هو حي، فقـام فصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: « يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحـد من الناس »، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة، وقيل: أربعين يوماً، وقال مجاهد: التقمه ضحى ولفظه عشية، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك. وقوله تعالى: ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء، قاله الضحّاك واختاره ابن جرير. وفي الحديث: « تعرّف إلى الله في الرخـاء يعرفك في الشدة »[1]. وقال ابن عباس والحسن وقتادة: ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين﴾ يعني المصلين، وقال بعضهم كان من المسبحين في جوف أبويه، وقيل: المراد ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين﴾ هو قوله عزّ وجلّ: ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾. روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه -يرفعه-: « إن يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش، قالت الملائكة: يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة، فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب ومن هو؟ قال عزّ وجلّ: عبدي يونس، قـالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة، قالوا: يا رب أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه بالعراء »[2].

ولهذا قال تعالى: ﴿ فنبذناه﴾ أي ألقيناه ﴿ بالعراء﴾، قال ابن عباس: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء، قيل: على جانب دجلة، وقيل: بأرض اليمن، فالله أعلم، ﴿وهو سقيم﴾ أي ضعيف البدن، قال ابن مسعود رضي الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال السدي: كهيئة الصبي حين يولد، وهو المنفوس، ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: (اليقطين) هو القرع[3]، وقال سعيد بن جبير: كل شجرة لا ساق لهـا فهي من اليقطين، وفي رواية عنه: كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين، وذكر بعضهم في القرع فوائد: منها سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمره، وأنـه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً، وقـد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، ويتبعه من حواشي الصفحة، وقوله تعالى: ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾، روي عن ابن عباس أنه قـال: إنمـا كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعد ما نبذه الحوت[4]، وقال مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. **قلت**: ولا مانـع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا بـه، وحكى البغوي:

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير عن ابن وهب.

(٣) وهو قول جمهور السلف.

(٤) رواه ابن جرير عن ابن عباس.

أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون، وقوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾ قال ابن عباس: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً، وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفاً، وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف، وقال ابن جرير، عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً[1]. وقد سلك ابن جرير ههنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾، المراد ليس أنقص من ذلك بل أزيد، وقوله تعالى ﴿فآمنوا﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم، ﴿فمتعناهم إلى حين﴾ أي إلى وقت آجالهم، كقوله جلت عظمته ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾.

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات ﴿سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ أي من الذكور، أي يودون لأنفسهم الجيد، ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ أي يسوؤه ذلك ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول عزّ وجلّ فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال تعالى ﴿فاستفتهم﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿ألربك البنات ولهم البنون﴾؟ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ أي كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم كقوله جل وعلا ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ أي يسألون عن ذلك يوم القيامة، وقوله جلت عظمته ﴿ألا إنهم من إفكهم﴾ أي من كذبهم ﴿ليقولون ولد الله﴾ أي صدر منه الولد ﴿وإنهم لكاذبون﴾، فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب: فأولاً جعلوهم (بنات الله) فجعلوا لله ولداً تعالى وتقدس، ثُمّ جعلوا ذلك الولد (أنثى) ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم، ثم قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أصطفى البنات على البنين﴾ أي: أي شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله عزّ وجلّ: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾؟ أي ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين﴾ أي حجة على ما تقولونه، ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من

(١) الحديث رواه ابن جرير وأخرجه الترمذي وقال: غريب.

السماء، عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوزه العقل بالكلية.

وقوله تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد علمت الجنة﴾ أي الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إنهم لمحضرون﴾ أي إن الذين قالوا ذلك ﴿لمحضرون﴾ في العذاب يوم الحساب، لكذبهم في ذلك وافترائهم وقولهم الباطل بلا علم، وقال ابن عباس: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقوله جلت عظمته: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثنى منهم المخلصين وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل، وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله تعالى: ﴿إنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين﴾ وفي هذا الذي قاله نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

يقول تعالى مخاطباً المشركين: ﴿فإنكم وما تعبدون ۞ ما أنتم عليه بفاتنين ۞ إلا من هو صال الجحيم﴾ أي إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة، من هو أضل منكم ممن ذرئ للنار، ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تبارك وتعالى ﴿إنكم لفي قول مختلف ۞ يؤفك عنه من أفك﴾ أي إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل، ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ أي له موضع مخصوص في السماوات ومقام العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه، قال الضحّاك: كان مسروق يروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم» فذلك قوله تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[1]. وقال الأعمش، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن في السماوات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾، قال ابن جريج: كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ فصفوا، وقال أبو نضرة: كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة، ثم يقول: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر»[2].

---

(١) أخرجه الضحاك في تفسيره ورواه ابن عساكر بنحوه وأصله في الصحاح. (٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً» الحديث، ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ أي نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه، وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ الملائكة، ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ الملائكة، ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ الملائكة تسبح الله عزّ وجلّ، وقال قتادة: ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ يعني المصلون يثبتون بمكانهم من العبادة[1]. وقوله جل وعلا: ﴿وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين﴾، أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب الله كما قال جل جلاله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً﴾، وقال تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فكفروا به فسوف يعلمون﴾ وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم عزّ وجلّ وتكذيبهم رسوله ﷺ.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال عزّ وجلّ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾، ولهذا قال جل جلاله: ﴿إنهم لهم المنصورون﴾ أي في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم، ممن كذبهم وخالفهم، كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين، ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ أي تكون لهم العاقبة، وقوله جل وعلا: ﴿فتول عنهم حتى حين﴾ أي اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر، وقوله جلت عظمته: ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ أي انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد: ﴿فسوف يبصرون﴾، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك، ومع هذا يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم، وقال السدي: ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ يعني بدارهم ﴿فساء صباح المنذرين﴾ أي فبئس ما يصبحون أي بئس الصباح صباحهم، ولهذا ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا، وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله

(١) الصحيح أن المراد به الملائكة وهو قول ابن عباس ومجاهد.

أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »[1] ، وقوله تعالى: ﴿ وتول عنهم حتى حين ۝ وأبصر فسوف يبصرون﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢ ﴾

ينزه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ويقدسها، ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون ، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ سبحان ربك رب العزة﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿ عما يصفون﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿ وسلام على المرسلين﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة، ﴿ والحمد لله رب العالمين﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، عن قتادة قال، قال رسول الله ﷺ: « إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين » فإنما أنا رسول من المرسلين »[2] . وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أراد أن يسلم قال: « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » ثم يسلم[3] ، وروى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: « من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ۝ وسلام على المرسلين ۝ والحمد لله رب العالمين﴾ »[4] . وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، قال ابن كثير : وقد أفردت لها جزءاً على حدة ، ولله الحمد والمنة .

[آخر تفسير سورة الصافات ، والله أعلم]

* * *

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أنس، ومعنى قولهم (محمد والخميس) أي محمد والجيش .

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم مرسلاً ورواه ابن أبي حاتم مسنداً عن أبي طلحة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى، قال ابن كثير : إسناده ضعيف ، أقول : وله ما يؤيده من الشواهد الصحيحة .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلاً ، وروي موقوفاً عن علي رضي الله عنه .

تفسير سورة الصافات

[وهى] [١]مكية.

قال النسائى: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدثنا خالد ـ يعنى ابن الحارث ـ عن ابن أبى ذئب قال: أخبرنى الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا [٢]بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائى[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)﴾.

قال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، أنه قال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ وهى: الملائكة، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ وهى: الملائكة، ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ ، هى: الملائكة.

وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، ومجاهد، والسُّدِّىّ، وقتادة، والربيع بن أنس.

قال قتادة: الملائكة صفوف فى السماء.

وقال[٤] مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبى شَيْبَة، حدثنا محمد بن فُضَيْل، عن أبى مالك الأشجعى، عن رِبْعِىّ، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً [٥] وجُعلت لنا تُربتها [٦]طهوراً إذا لم نجد الماء»[٧].

وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن المُسَيَّب بن رافع، عن تميم بن طَرَفَة، عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تَصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتِمون الصفوف المتقدمة ويَتَراصون فى الصف»[٨].

وقال السدى وغيره: معنى قوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ : أنها تزجر السحاب.

وقال الربيع بن أنس: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ : ما زجر الله عنه فى القرآن. وكذا رَوَى مالك، عن

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى ت: «يأمر».
(٣) سنن النسائى (٢/ ٩٥).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى س: «مسجدا وطهورا». (٦) فى ت، س: «تربتها لنا».
(٧) صحيح مسلم برقم (٥٢٢).
(٨) صحيح مسلم برقم (٤٣٠) وسنن أبى داود برقم (٦٦١) وسنن النسائى (٢/ ٩٢) وسنن ابن ماجه برقم (٩٢٢).

زيد بن أسلم.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ قال السدى: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا .عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥، ٦].

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾أى: هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب[1] ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقد صرح بذلك فى قوله: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال فى الآية الأخرى: ﴿رَبُّ المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن: ١٧]، يعنى: فى الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ⟨٦⟩ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ⟨٧⟩ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⟨٨⟩ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⟨٩⟩ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⟨١٠⟩ ﴾ .

يخبر تعالى أنه زَين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض﴿ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرمَ السماء الشفاف، فتضىء[2] لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨].

وقوله هاهنا: ﴿ وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً، ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾يعنى: المتمرد العاتى إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى﴾ أى: لئلا يصلوا[3] إلى الملأ الأعلى، وهى السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك فى الأحاديث التى أوردناها عند قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣].

ولهذا قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أى: يرمون، ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أى: من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دُحُورًا﴾ أى: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أى: فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[الملك: ٥].

وقوله: ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أى: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهى الكلمة يسمعها

(١) فى ت: «الكواكب». (٢) فى ت، س: «فيضىء». (٣) فى ت، س: «يصلون».

من السماء فيلقيها إلى الذى تحته، ويلقيها الآخر إلى الذى تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم فى الحديث؛ ولهذا قال: ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ أى: مستنير.

قال[١] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا وكِيع، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد فى السماء فكانوا[٢] يستمعون الوحى. قال: وكانت النجوم لا تجرى، وكانت الشياطين لا تُرْمى. قال: فإذا سمعوا[٣] الوحى نزلوا إلى الأرض، فزادوا فى الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يُخْطئه حتى يُحرقَه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمْر حدث. قال: فَبَثّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى بين جبلى نخلة ـ قال وكيع: يعنى بطن نخلة ـ قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذى حدث[٤].

وستأتى الأحاديث الواردة مع الآثار فى هذا المعنى عند قوله تعالى إخبارا عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾ .

يقول تعالى: فَسَل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقاً هم أم[٥] السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ ـ وقرأ ابن مسعود: «أم من عددنا» ـ فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا[٦]، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ثم بين أنهم خُلقوا من شىء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾،

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيّد الذى يلتزق بعضه ببعض. وقال ابن

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت، س: «قال: فكانوا». (٣) فى أ: «استمعوا».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ٢٥).
(٥) فى س: «أو». (٦) فى ت، أ: «أنكروه».

عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذى يلزق باليد.

وقوله: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أى: بل عجبت ـ يا محمد ـ من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد ﷺ، وسَخِر ضُلاَّل بنى آدم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أى: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يستهزئون.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: إن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أى: إنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم [قيام][1] بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾.

يخبر تعالى عن قِيلِ الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم[2] كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة نَدمُوا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله الملائكة أن تُميزَ الكفار من المؤمنين فى الموقف فى محشرهم ومنشرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان ابن بشير[3]، رضى الله عنه: يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن

---

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٢) فى ت: «أنهم».

(٣) فى أ: «بشر».

جُبَيْر، وعِكْرِمة ومجاهد، والسُّدِّى، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم [وغيرهم][١].

وقال سفيان الثورى، عن سِمَاك، عن النعمان بن بشير[٢]، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: إخوانهم[٣].

وقال شريك، عن سماك، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أشباههم. قال: يجىء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب[٤] الزّنا مع أصحاب الزّنا، وصاحب[٥] الخمر مع أصحاب الخمر.

وقال خُصَيْف، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾: نساءهم.

وهذا غريب، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير، عنه: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾: قُرَناءهم[٦].

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم فى أماكنهم.

وقوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ أى: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعنى احبسوهم إنهم محاسبون.

وقال ابن أبى حاتم[٧]: حدثنا أبى، حدثنا النُّفَيلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت ليثا يُحدّث عن بشر، عن أنس بن مالك [رضى الله عنه][٨] قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما داع دعا إلى شىء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة، لا يغادره ولا يفارقه، وإن دعا رجل رجلا»، ثم قرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.

ورواه الترمذى، من حديث ليث بن أبى سليم[٩]. ورواه ابن جرير، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس مرفوعا[١٠].

وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زَائِدَةَ يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أى: كما[١١] زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أى: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه.

(١) زيادة من ت.
(٢) فى أ: «بشر».
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٣١).
(٤، ٥) فى ت، س، أ: «أصحاب».
(٦) فى س: «قرباؤهم».
(٧) فى ت: «الترمذى».
(٨) زيادة من ت.
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٨).
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٢).
(١١) فى ت: «كلما».

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾ .

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون فى عرصات القيامة، كما يتخاصمون فى دركات النار، ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ [(١)] مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣]. قالوا لهم هاهنا: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا؛ لأنا[(٢)] كنا أذلاء وكنتم أعزاء.

وقال مجاهد: يعنى: عن الحق، الكفار تقوله[(٣)] للشياطين.

وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال: من قبل الخير، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه.

وقال السدى: تأتوننا [عن اليمين][(٤)] من قبل الحق، تزينون[(٥)] لنا الباطل، وتصدونا عن الحق.

وقال الحسن فى قوله: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ إِىْ والله، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه.

وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به.

وقال يزيد الرِّشْك: من قبل «لا إله إلا الله». وقال خُصيف: يعنون من قبل ميامنهم. وقال

(١) فى ت، س: «المجرمون». (٢) فى أ: «لأننا». (٣) فى ت: «بقوله».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «وتزينوا».

عكرمة: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ،قال: من حيث نأمنكم.

وقوله: ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ : تقول القادة من الجن، والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم[١] مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أى: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله[٢]: إنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أى: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أى: دعوناكم[٣] إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى: الجميع فى النار، كل بحسبه، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وَهْب، حدثنا عمى، حدثنا الليث، عن ابن مُسافر ـ يعنى عبد الرحمن بن خالد ـ عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هُرَيرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله فى كتابه ـ وذكر قوما استكبروا ـ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾»[٤].

وقال[٥] ابن أبى حاتم أيضا: حدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حمَّاد، عن سعيد الجُرَيرى، عن أبى العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: الله وعُزَيراً. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله» فيستكبرون. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال ـ قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير ـ قال أبوالعلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله. فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعلم أنه لا عِدْلَ له. قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى، وينجى الله المؤمنين.

---

(١) فى ت: «لكم علينا». (٢) فى أ: «كلمة ربك».

(٣) فى ت، س: «فدعوناكم».

(٤) وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢١) بدون ذكر الآية من طريق يونس عن الزهرى به.

(٥) فى ت: «وروى».

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أي: أنحن[١] نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول [هذا][٢] الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ؟! قال الله تعالى تكذيبا لهم، وردا عليهم: ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾، يعنى رسول الله ﷺ جاء بالحق فى جميع شرْعة[٣] الله له من الإخبار والطلب، ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: صدّقهم فيما أخبروه[٤] عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله فى شرعه [وقدره][٥] وأمره كما أخبروا، ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت: ٤٣].

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾.

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١ـ٣].

وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤ـ٦]، وقال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]؛ولهذا قال هاهنا: ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون فى الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال قتادة، والسدى: يعنى الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ أى: متنوعة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أى: يُخْدمون [ويرزقون][٦] ويرفهون وينعمون، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم فى قفا بعض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك[٧] القزوينى، حدثنا حسان بن حسان[٨]، حدثنا إبراهيم ابن بشر[٩]، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشى، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبى أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ينظر بعضهم إلى بعض.

---

(١) فى ت: «نحن».
(٢) زيادة من ت، س.
(٣) فى أ: «ما شرعه».
(٤) فى ت، س: «أخبروا».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) زيادة من أ.
(٧) فى أ: «عبد الله».
(٨) فى أ: «حبان».
(٩) فى أ: «بشير».

حديث غريب[١].

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ. بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ. لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩]، فنزه الله خمر الآخرة[٢] عن الآفات التى فى خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن ـ وهو الغول ـ وذهابها بالعقل جملة، فقال هاهنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أى: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية[٣] بيضاء، أى: لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة[٤]، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك.

وقوله: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعنى: لا تؤثر فيهم غولا ـ وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد ـ كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج ونحوه، لكثرة مائيتها.

وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروى هكذا عن ابن عباس.

وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. وعنه، وعن السدى: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زَالَتِ الكَأسُ تَغْتَالُنا ... وتَذْهبُ بالأوَّل الأوَّلِ[٥] [٦]

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن.

وقوله: ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى، والسدى، وغيرهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء، والبول. فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر فى سورة «الصافات»[٧].

وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن

---

(١) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٦) فى ترجمة زيد بن أبى أوفى من طريق حسان بن حسان به، وقال: «لا يتابع عليه».
(٢) فى ت، س: «الجنة». (٣) فى ت، س: «جارى». (٤) فى ت: «كدرة».
(٥) فى ت: «فالأول».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٥).
(٧) فى ت: «والصافات».

عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿عِينٌ﴾ أى: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهى النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا فى يوسف حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمنه وأكبرنه، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أى: هو مع هذا الجمال عفيف تقى نقى، [فأرتهن جماله الظاهر وأخبرتهن بجماله الباطن][١]. وهكذا الحور العين ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ .

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾: وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون.

وينشد هاهنا بيت أبى دهبل الشاعر فى قصيدة له:

وَهْىَ زَهْرَاء مِثْلَ لؤلؤة الغوّ اص مُيِّزَتْ مِن جوهر مكْنُون[٢]

وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعنى: محصون[٣] لم تمسه الأيدى.

وقال السدى: البيض فى عشه مكنون.

وقال سعيد بن جبير: ﴿[كَأَنَّهُنَّ][٤]بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، يعنى: بطن البيض[٥].

وقال عطاء الخراسانى: هو السحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة.

وقال السدى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿ مَّكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدى بخلاف داخلها، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا محمد بن الفرج الصدفى الدمياطى، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبى كريمة، عن هشام، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة[٦]، رضى الله عنها، قلت[٧]: يا رسول الله، أخبرنى عن قول الله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[٨] قال: «رقتهن كرقة الجلدة التى رأيتها فى داخل البيضة، التى تلى القشر، وهى الغِرْقِئ»[٩].

(١) زيادة من ت.
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٧).
(٣) فى ت: «مصون». (٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «العين».
(٦) فى ت: « وروى ابن جرير بإسناده عن أم سلمة». (٧) فى ت: «عنها قالت: قلت».
(٨) فى ت، س: « أخبرنى عن قول الله: ﴿حور عين﴾ قال: « العين: الضخام العيون، شفر الحوراء مثل جناح النسر». قلت: يا رسول الله، أخبرنى عن قول الله: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾.
(٩) تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٣٦٧) حدثنا بكر بن سهل الدمياطى حدثنا عمرو بن هاشم به، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٩): «فيه سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى».

وقال[١] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى: حدثنا أبو غسان النهدى، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدى، وأنا أكرم ولد آدم على ربى عز وجل ولا فخر، يطوف على ألف خادم كأنهن البيض المكنون ـ أو: اللؤلؤ المكنون»[٢].

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾.

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أى: عن أحوالهم، وكيف كانوا فى الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرابهم[٣]، واجتماعهم فى تنادمهم وعشرتهم فى مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيؤون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. **﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾** قال مجاهد: يعنى شيطانا.

وقال العوفى، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا.

ولا تنافى بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاما تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاديان[٤]، قال الله تعالى: **﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾** [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال[٥] تعالى: **﴿ [قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَٰهِ النَّاسِ][٦]. مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾** [سورة الناس]؛ ولهذا **﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾** أى: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعنى: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، **﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾** قال مجاهد، والسدى: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى: لمجزيون بأعمالنا؟

---

(١) فى ت: «وروى».

(٢) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٤٨٣) من طريق منصور بن أبى الأسود عن ليث عن الربيع بن أنس به، ثم رواه من طريق حبان بن على عن ليث عن عبيد الله بن زحر عن الربيع عن أنس به، وقال: «تابعه ـ أى الليث ـ محمد بن فضيل عن عبيد الله بن زحر».

(٣) فى أ: «سراتهم». (٤) فى ت، س: «متعاونان». (٥) فى ت: «قال الله تعالى».

(٦) زيادة من ت، س، أ.

قال: ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أى: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة. ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وخليد العصرى وقتادة، والسدى، وعطاء الخراسانى [وغيرهم][١]: يعنى فى وسط الجحيم.

وقال الحسن البصرى: فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلى. وذكر لنا أن كعب الأحبار قال: فى الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه فى النار اطلع فيها، فازداد شكرا.

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، يقول المؤمن مخاطبا للكافر: والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك، ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أى: ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك فى العذاب، ولكنه تفضل [علىّ][٢] ورحمنى فهدانى للإيمان، وأرشدنى إلى توحيده، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، هذا من كلام المؤمن مغبطا نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة[٣] والإقامة فى دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

قال[٤] ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى، حدثنا حفص بن عمر العَدَنى، حدثنا الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضى الله عنهما، فى قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور: ١٩]، قال ابن عباس، رضى الله عنهما: قوله: ﴿ هَنِيئًا﴾ أى: لا يموتون[٥] فيها. فعندها قالوا: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

وقال الحسن البصرى: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، قيل [لهم][٦]: لا. قالوا: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة.

وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا، ليصيروا إليه فى الآخرة[٧].

وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين فى بنى إسرائيل، تدخل فى ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثنى إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن فرات بن ثعلبة البهرانى فى قوله: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ قال: إن رجلين كانا

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من س، أ. (٣) فى ت: «فى الجنة من الخلد».
(٤) فى ت: «روى». (٥) فى ت، س: «لا تموتون». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ٤٠).

شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذى له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أرانى إلا مفارقك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى دارًا بألف دينار كانت لملك، مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف[١] ترى هذه الدار؟ ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم، إن صاحبى ابتاع[٢] هذه الدار بألف دينار، وإنى أسألك دارا من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة[٣] بألف دينار، فدعاه وصنع له طعاما. فلما أتاه قال: إنى تزوجت امرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يارب، إن صاحبى تزوج امرأة بألف دينار، وإنى أسألك امرأة من الحور العين. فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث. ثم اشترى بستانين بألفى دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إنى ابتعت هذين البستانين[٤]. فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يارب، إن صاحبى قد اشترى بستانين بألفى دينار، وأنا أسألك بستانين فى الجنة. فتصدق بألفى دينار، ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله دارا تعجبه، وإذا امرأة تطلع يضىء ما تحتها من حسنها، ثم أدخله بستانين وشيئا الله به عليم[٥]، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لى صاحب يقول: أئنك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه فى الجحيم. قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم. فقال عند ذلك: ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ .وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ الآيات.

قال ابن جرير: وهذا يقوى قراءة من قرأ: «أئنك لمن الْمُصَّدِّقِينَ » بالتشديد.

وقال[٦] ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدى عن هذه الآية: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ ؟ قال: فقال لى: ما ذكرك هذا؟ قلت: قرأته آنفا فأحببت أن أسألك عنه؟ فقال: أما فاحفظ، كان شريكان فى بنى إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك؟ أضربت به شيئا؟ أتجرت به فى شىء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا[٧] قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ اشترى أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا بألف دينار، ثم يموت غدا ويتركها، اللهم إنى اشتريت منك بهذه الألف دينار[٨] أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا فى الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها فى المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر

(١) فى ت، س: «فكيف». (٢) فى ت، س: «إن صاحبى هذا قد ابتاع». (٣) فى ت، س: «امرأة».
(٤) فى ت، أ: «البستانين بألفى دينار». (٥) فى ت: «وفيهما ما الله به عليم». (٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت، س: «وأنهار بألف دينار». (٨) فى س: «الدينار».

للمؤمن: ما صنعت فى مالك، أضربت به فى شىء؟ أتجرت به فى شىء؟ قال: لا، فما صنعت أنت. قال: كانت ضيعتى قد اشتد على مؤنتها، فاشتريت رقيقا بألف دينار، يقومون بى[١] فيها، ويعملون لى فيها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ اشترى رقيقا من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غدا ويتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللهم، وإنى أشترى منك بهذه الألف الدينار رقيقا فى الجنة. ثم أصبح فقسمها فى المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك؟ أضربت به فى شىء؟ أتجرت به فى شىء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: أمرى كله قد تم إلا شيئا واحدا، فلانة قد مات عنها زوجها، فأصدقتها ألف دينار، فجاءتنى بها ومثلها معها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ تزوج زوجة من أزواج الدنيا[٢]، فيموت غدا فيتركها، أو يموت فتتركه، اللهم وإنى أخطب إليك بهذه الألف الدينار[٣] حوراء عيناء فى الجنة. ثم[٤] أصبح فقسمها بين المساكين. قال: فبقى المؤمن ليس عنده شىء. قال: فلبس قميصا من قطن، وكساء من صوف، ثم أخذ مَرًّا فجعله على رقبته، يعمل الشىء ويحفر الشىء بقوته. قال: فجاءه رجل فقال: يا عبد الله، أتؤاجرنى نفسك مشاهرة، شهرا بشهر، تقوم على دواب لى تعلفها وتكنس سَرْقينها؟ قال: نعم. قال: فواجره نفسه مشاهرة، شهرا بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة، أخذ برأسه فوجأ عنقه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه[٥] البارحة؟ فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لآتين شريكى الكافر، فلأعملن فى أرضه فيطعمنى هذه الكسرة يوما[٦]، ويكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: فانطلق يريده، فلما انتهى إلى بابه وهو ممس، فإذا قصر مشيد فى السماء، وإذا حوله البوابون، فقال لهم: استأذنوا لى[٧] صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك، فقالوا له: انطلق إن كنت صادقا فنم فى ناحية، فإذا أصبحت فتعرض له. قال: فانطلق المؤمن، فألقى نصف كسائه تحته، ونصفه فوقه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى وهذه حالى[٨] وهذه حالك. قال: أخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: لا تسألنى عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل فى أرضك هذه، فتطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم، وتكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى منى خيرا حتى تخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: أقرضته: قال: من؟ قال: الملىء الوفى. قال: من؟ قال: الله ربى. قال: وهو

---

(١) فى ت، س، أ: «لى».
(٢) فى ت، س: «الدنيا بألف دينار».
(٣) فى ت: «دينار».
(٤)فى ت، س: «قال: ثم».
(٥) فى ت: «هذه الدابة».
(٦) فى ت، س: «يوما بيوم».
(٧) فى ت، س: «لى على».
(٨) فى ت: «حالتى».

مصافحه، فانتزع يده من يده، ثم قال: ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ـ قال السدى: محاسبون ـ قال: فانطلق[1] الكافر وتركه. قال: فلما رآه المؤمن ليس يلوى عليه، رجع وتركه، يعيش المؤمن فى شدة من الزمان، ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار، فيقول: لمن هذا[2]؟ فيقال: هذا لك. فيقول: يا سبحان الله! أوَ بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: ياسبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة، فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قال: فالجنة عالية، والنار هاوية. قال: فيريه الله شريكه فى وسط الجحيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عرفه، فيقول: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ. أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ : بمثل ما[3] مَنَّ عليه. قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه فى الدنيا من الشدة، فلا يذكر مما مر عليه فى الدنيا من الشدة، أشد عليه من الموت[4].

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)﴾ .

يقول الله تعالى: أهذا الذى ذكره[5] من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ ـ خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾؟ أى: التى فى جهنم.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار فى الجنة إلا وفيها منها غصن.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعنى الزيتونة. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة،

(١) فى ت، س: «وانطلق». (٢) فى أ: «هذه». (٣) فى ت، س: «ما قد».
(٤) وهذا من أخبار بنى إسرائيل التى لا يعتمد عليها. (٥) فى أ: «ذكرته».

وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن فى النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غذت من النار، ومنها خلقت.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾، قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه.

قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا تختبر[(١)] به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيراً﴾ [الإسراء : ٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أصل منبتها فى قرار النار، ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تبشيع [لها][(٢)] وتكريه لذكرها.

قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء.

وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رؤوسها بشعة المنظر.

وقيل: جنس من النبات، طلعه فى غاية الفحاشة.

وفى هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما[(٣)] فى معناها، كما قال [تعالى][(٤)]: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ . لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧].

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟!».

ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شعبة[(٥)]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى شرب الحميم على الزقوم.

---

(١) فى ت، س: «تختبر». (٢) زيادة من ت، س، أ.

(٣) فى ت، س: «أو ما هو». (٤) زيادة من ت، س.

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٧٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٥).

وقال في رواية عنه: ﴿شَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: مزجا من حميم.

وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

وقال[(١)] ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا حَيْوَة بن شُرَيح الحضرمي، حدثنا بَقيَّة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، أخبرني عبيد الله بن بسر[(٢)] عن[(٣)] أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه كان يقول: «يقرب ـ يعني إلى أهل النار ـ ماء فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه[(٤)]. فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره»[(٥)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر وهارون بن عنترة[(٦)]، عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم [فيها][(٧)]، فلو أن مارا يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ـ وهو الذي قد انتهى حره ـ فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالثبور.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي.

وقال السدي في قراءة عبد الله: «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم» وكان عبد الله يقول: والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وروى الثوري، عن ميسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم».

قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال

(١) في ت: «وروى». (٢) في س، أ: «بشير». (٣) في ت: «بإسناده».
(٤) في ت، أ: «فروة رأسه في فيه».
(٥) ورواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٥) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥١) من طريق عبد الله بن المبارك عن صفوان بن عمرو به.
(٦) في ت: «وروى أيضا بإسناده». (٧) زيادة من ت.

مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ . إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾.

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٨٢) ﴾ .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلا، فذكر نوحا، عليه السلام، وما لقى من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، [فإنه](١) لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أنى مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ** ﴾ أى: فلنعم المجيبون(٢) له، ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** ﴾، وهو التكذيب والأذى، ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله: ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح [عليه السلام](٣).

وقد روى الترمذى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾، قال: «سام، وحام، ويافث».

وقال(٤) الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن نبى الله(٥) ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم».

ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العَقَدىّ، عن يزيد بن زُرَيع، عن سعيد ـ وهو ابن أبى عروبة ـ

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت، س، أ: «المجيبون كنا له». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت: «النبى».

عن قتادة، به[١].

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ: وقد روى عن عمران[٢] بن حُصين، عن النبى ﷺ مثله[٣]. والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأوَل، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن ليطى بن يونان بن يافث ابن نوح، عليه السلام. ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سامُ العربَ وفارسَ والروم، وولد يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوج ومأجوج، وولد حامُ القبطَ والسودان والبربر. وروى عن وهب بن منبه نحو هذا[٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾، قال ابن عباس: يذكر بخير.

وقال مجاهد: يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم.

وقال قتادة والسدى: أبقى الله عليه الثناء الحسن فى الآخرين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن.

وقوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه فى جميع الطوائف والأمم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نجزى من أحسن من العباد فى طاعة الله، نجعل[٥] له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته فى ذلك.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ أى: أهلكناهم، فلم تبْق[٦] منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧)﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى: شهادة أن لا إله إلا الله.

---

(١) المسند (٥/ ٩) وسنن الترمذى برقم (٣٩٣١) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».

(٢) فى س: «عمر».

(٣) حديث عمران بن حصين: رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ١٤٦) من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين وسمرة بن جندب به.

(٤) فى ت: «مثله». (٥) فى ت، س: «يجعل». (٦) فى ت، أ: «يبق».

وقال [١]ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن عوف: قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم [٢]أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور.

وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعانا.

وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾: أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد؛ ولهذا قال: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال قتادة: [يعنى][٣]: ما[٤]ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ .

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك؛ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلى بآلهتهم فيكسرها، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر فى النجوم: يعنى قتادة: أنه نظر فى[٥] السماء متفكرا فيما يلهيهم[٦] به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف.

فأما الحديث الذى رواه ابن جرير هاهنا: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، حدثنى هشام، عن محمد، عن أبى هريرة[٧]؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، غير ثلاث كذبات: ثنتين فى ذات الله، قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[الأنبياء: ٦٣]، وقوله فى سارة: هى أختى»[٨].فهو حديث مخرج فى الصحاح[٩] والسنن من طرق [١٠]، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت: «تعلم». (٣) زيادة من س، أ.

(٤) فى ت: «فما». (٥) فى ت، س: «إلى». (٦) فى س: «يكيدهم».

(٧) فى ت: « فأما الحديث الذى رواه البخارى وأهل السنن عن أبى هريرة»

(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٤٥) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٤) من طريق حماد بن أسامة به.

(٩) فى ت: «الصحيح».

(١٠) جاء من طريق أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٧١) من طريق جرير بن حازم به، ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣٥٨) من طريق حماد بن زيد به. وجاء من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة: رواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٦٦) من طريق محمد بن إسحاق به، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٥) من طريق شعيب بن أبى حمزة به.

تجوزا، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى، كما جاء فى الحديث: «إن [فى][١] المعاريض لمندوحة عن الكذب»[٢].

وقال[٣] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن على بن زيد بن جدعان، عن أبى نَضْرَة[٤]، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال: «ما منها كلمة إلا ما حمَل بها عن دين الله تعالى، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾، وقال للملك حين أراد المرأة: هى أختى»[٥].

قال سفيان فى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعنى: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بآلهتهم. وكذا قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ.فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فقالوا له وهو فى بيت آلهتهم: اخرج. فقال: إنى مطعون، فتركوه مخافة الطاعون.

وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأى نجما طلع فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كابد نبى الله عن دينه[٦] ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وقال آخرون: فقال[٧]: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعنى: مرض الموت.

وقيل: أراد ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾أى: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله عز وجل.

وقال الحسن البصرى: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، وجعل ينظر فى السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها. رواه ابن أبى حاتم.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أى: إلى عيدهم، ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أى: ذهب إليها بعد أن خرجوا فى سرعة واختفاء، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتُبرّك لهم فيه.

قال السدى: دخل إبراهيم، عليه السلام، إلى بيت الآلهة، فإذا هم[٨] فى بَهْوٍ عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه [صنم آخر][٩] أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاما وضعوه بين أيدى الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد بَرَكَت الآلهةُ فى طعامنا أكلنا، فلما نظر إبراهيم، عليه السلام، إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟!

(١) زيادة من ت، س، أ.
(٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ١٩٩) من طريق داود بن الزبرقان عن سعيد عن قتادة عن زرارة عن عمران بن الحصين مرفوعًا.
ورواه أيضًا من طريق عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد عن قتادة عن مطرف عن عمران بن الحصين موقوفًا وقال: «هذا هو الصحيح موقوفًا».
(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى ت: «بإسناده».
(٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٤٨) حدثنا ابن أبى عمر عن سفيان به فذكر حديث الشفاعة مطولاً، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح» وعلى بن زيد بن جدعان أجمع الأئمة على ضعفه.
(٦) فى ت، أ: «ذنبه». (٧) فى ت، س: «أراد». (٨) فى أ: «هن».
(٩) زيادة من ت، أ.

وقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾: قال الفراء: معناه مال عليهم ضربا باليمين.

وقال قتادة والجوهرى: فأقبل عليهم ضربا باليمين.

وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم فى سورة الأنبياء تفسير ذلك.

وقوله هاهنا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾: قال مجاهد وغير واحد: أى يسرعون.

وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفى سورة الأنبياء مبسوطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذى فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ؟! أى: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذى» تقديره: والله خلقكم والذى تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخارى فى كتاب «أفعال العباد»، عن على بن المدينى، عن مروان [(١)] بن معاوية، عن أبى مالك، عن ربْعىّ بن حراش، عن حذيفة مرفوعا قال: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»[(٢)]. وقرأ بعضهم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم [عليه السلام][(٣)]: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من

(١) فى ت، س: «هارون».

(٢) خلق أفعال العباد (ص٧٣).

(٣) زيادة من ت، س.

إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعنى: أولادا مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل فى نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمْر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفى نسخة: بكْره، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرّفوا وحيدك، بمعنى الذى ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب[1] مكة . وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ فى الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا، وليس ذلك فى كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أى: يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله [تعالى][2] قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا، وإسماعيل وصف هاهنا بالحلم؛ لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أى: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب فى كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر فى أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك، فالله أعلم.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، وعطاء الخراسانى، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعنى: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وَحْى، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو عبد الملك الكرندى، حدثنا

---

(١) فى ت: «حيث».

(٢) زيادة من ت.

سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاك، عن عكرمة[١]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء فى المنام وَحْى» ليس هو فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه[٢].

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أى: امض لما أمرك[٣] الله من ذبحى، ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى[٤]: إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾، [يعنى][٥]: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمْرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدى، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

ومعنى ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد[٦]، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: أكبه على وجهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج[٧] ويونس قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى عاصم الغَنَوِىّ، عن أبى الطفيل[٨]، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك[٩] عَرَض له الشيطان عند السعى، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمَّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره، فاخلعه حتى تكفننى فيه. فعالجه ليخلعه، فنُودىَ من خلفه: ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش.

وذكر تمام الحديث فى «المناسك» بطوله[١٠]. ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير[١١]، عن ابن عباس، فذكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق»[١٢]. فعن ابن عباس فى تسمية الذبيح[١٣] روايتان، والأظهر عنه إسماعيل، لما سيأتى بيانه.

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/٦) من وجه آخر عن سماك: فرواه من طريق الفريابى عن سفيان عن سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.
(٣) فى أ: «أنزل». (٤) فى ت، س، أ: «عز وجل». (٥) زيادة من ت، وفى أ: «بمعنى».
(٦) فى ت: «ومجاهد وغيرهما». (٧) فى أ: «شريح». (٨) فى ت: «بإسناده».
(٩) فى أ: «لما أمر الله إبراهيم عليه السلام بالمناسك».
(١٠) المسند (١/٢٩٧).
(١١) فى ت: «بسنده».
(١٢) المسند (١/٣٠٦).
(١٣) فى أ: «الذبح».

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة. قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات فأفلَتَه عندها، فجاء الجمرةَ الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته[١] فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثم أخذه، فأتى به المنحر من منى فذبحه، فوالذى نفسُ ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميزاب الكعبة قد حَشّ[٢]، يعنى: يبس.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبى ﷺ، وجعل كعب يحدث عن الكُتُب، فقال أبو هريرة: قال النبى ﷺ: «إن لكل نبى دعوة مستجابة، وإنى قد خبَأتُ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة». فقال له كعب: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فداك أبى وأمى ـ أو: فداه أبى وأمى ـ أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أُرِىَ ذَبْح ابنه إسحاق قال الشيطان: إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبدا. فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان فدخل على سارة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدا به لبعض حاجته. قال: لم يغد لحاجة، وإنما ذهب به ليذبحه. قالت: ولِم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فقد أحسن أن يطيع ربه. فذهب الشيطان فى أثرهما فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال[٣]: إنه[٤] لا يذهب بك لحاجة، ولكنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم يذبحنى؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن. قال: فيئس منه فلحق[٥] بإبراهيم، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال: لحاجة. قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه قال: ولِم أذبَحه؟ قال: تزعم أن ربك أمرك بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرنى[٦] بذلك لأفعلن. قال: فتركه ويئس أن يطاع[٧].

وقد رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وَهْب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، أن عمرو ابن أبى سفيان بن أسيد[٨] بن جَارِيَةَ الثقفى أخبره، أن كعباً قال لأبى هريرة... فذكره بطوله، وقال فى آخره: وأوحى الله إلى إسحاق أنى أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم، إنى أدعو [٩]أن تستجيب لى: أيُّما عَبْد لقيك من الأولين والآخرين، لا يشرك بك شيئاً، فأدخله الجنة[١٠].

(١) فى س: «فأفلته». (٢) فى س: «وشح». (٣) فى أ: «فقال».
(٤) فى س: «فإنه». (٥) فى ت، س: «فيئس منه فتركه فلحق».
(٦) فى أ: «كان أمرنى ربى».
(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٢٣).
(٨) فى أ: «أسد».
(٩) فى ت، س: «أدعوك».
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار[١]، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خيرنى بين أن يغفر لنصف أمتى، وبين أن أختبئ شفاعتى، فاختبأت شفاعتى، ورجوت أن تكفر الجَمّ[٣] لأمتى، ولولا الذى سبقنى إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتى، إن الله لما فرج عن إسحاق كرْبَ الذبح قيل له: يا إسحاق، سَلْ تُعْطهْ. فقال: أما والذى نفسى بيده لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة».

هذا حديث غريب منكر[٤]. وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث، وأخشى أن يكون فى الحديث زيادة مُدْرَجَة، وهى قوله: «إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق» إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن «إسماعيل»، وإنما حرفوه بإسحاق؛ حَسَداً منهم كما تقدم، وإلا فالمناسك والذبائح إنما محلها بمنى من أرض مكة، حيث كان إسماعيل لا إسحاق [عليهما السلام][٥]، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ.قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ أى: قد حصل المقصودُ من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح.

وذكر السدى وغيره أنه أمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودى إبراهيم، عليه السلام، عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافا لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴾ أى: الاختبار الواضح الجلى؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله، منقادا لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى أ: «أن تكون أعم».
(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٦٠٣) وابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٧٢) من طريق الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به، وذكره ابن أبى حاتم فى العلل (٢/ ٢١٩) وقال: «سألت أبى، فقال: هذا حديث منكر».
(٥) زيادة من أ.

وقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال سفيان الثورى، عن جابر الجُعْفى، عن أبى الطفيل، عن على، رضى الله عنه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد ربط بسمرة ـ قال أبو الطفيل وجدوه مربوطاً بسُمَرة فى ثَبِير[١].

وقال الثورى أيضا، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا داود العَطّار، عن ابن خثيم[٢]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الصخرة التى بمنى بأصل ثَبِير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذى قَرّبه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزونا حتى فدى به إسحاق.

وروى أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع فى الجنة حتى تَشَقق عنه ثبير، وكان عليه عِهْن أحمر.

وعن الحسن البصرى: أنه كان اسم كبش إبراهيم: جرير.

وقال ابن جُرَيْج: قال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر[٣]. وقال هُشَيْم، عن سيار، عن عكرمة؛ أنّ ابن عباس كان أفتى الذى جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا، فإن الله تعالى قال فى كتابه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه فُدى بكبش. وقال الثورى، عن رجل، عن أبى صالح، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: وَعْلٌ.

وقال محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأرْوَى، أهبط عليه من ثبير[٤].

وقد قال[٥] الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله مُسافع[٦]، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم ـ وَلَدت عامة أهل دارنا ـ أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان ابن طلحة ـ وقال[٧] مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك النبى ﷺ؟ قال: قال: «إنى كنتُ رأيتُ قرنى الكبش، حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فَخَمِّرْهما، فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شيء يشغل المصلى». قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين[٨] فى البيت حتى احترق البيت، فاحترقا[٩].

---

(١) فى أ: «ثبين». (٢) فى أ: «خيثم». (٣) فى أ: «النحر».
(٤) فى أ: «ثبين». (٥) فى ت: «وروى». (٦) فى أ: «شافع».
(٧) فى أ: «وقالت». (٨) فى أ: «معلقة».
(٩) المسند (٤/٦٨).

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل، عليه السلام، فإن قريشا توارثوا قرنى الكبش الذى فدى به إبراهيم [١]خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

فصل فى ذكر الآثار الواردة عن السلف فى أن الذبيح من هو؟:

ذكر من قال :هو إسحاق [عليه السلام][٢]:

قال حمزة الزيات، عن أبى ميسرة، رحمه الله، قال: قال يوسف، عليه السلام، للملك فى وجهه: ترغب أن تأكل معى، وأنا ـ والله ـ يوسف بن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله.

وقال الثورى، عن أبى سنان، عن ابن أبى الهذيل: إن يوسف، عليه السلام، قال للملك كذلك أيضا.

وقال سفيان الثورى، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: «قال موسى: يارب، يقولون: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم قالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بى شىء قط إلا اختارنى عليه. وإن إسحاق جاد لى بالذبح، وهو بغير ذلك أجود. وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن ظن».

وقال شعبة، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان بن فلان، ابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله [صلوات الله وسلامه عليهم][٣].

وهذا صحيح إلى ابن مسعود، وكذا روى عكرمة، عن ابن عباس أنه إسحاق. وعن أبيه العباس، وعلى بن أبى طالب مثل ذلك. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبى، وعبيد بن عمير، وأبو ميسرة، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهرى، والقاسم بن أبى بزة، ومكحول، وعثمان بن حاضر، والسدى، والحسن، وقتادة، وأبو الهذيل، وابن سابط. وهو اختيار ابن جرير. وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق.

وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر، عن الزهرى، عن أبى سفيان بن العلاء بن جارية[٤]، عن أبى هريرة، عن كعب الأحبار، أنه قال: هو إسحاق[٥].

وهذه الأقوال ـ والله أعلم ـ كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر، رضى الله عنه، عن كتبه، فربما استمع له عمر، رضى الله عنه، فترخص الناس فى استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة ـ والله أعلم ـ حاجة إلى حرف

---

(١) فى ت: «إسماعيل». (٢) زيادة من ت، س. (٣) زيادة من ت.

(٤) فى أ: «والعلاء بن حارث».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٥٢).

واحد مما عنده. وقد حكى البغوى هذا القول بأنه إسحاق عن عمر، وعلى، وابن مسعود، والعباس، ومن التابعين عن كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، ومقاتل، وعطاء، والزهرى، والسدى ـ قال: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس[١].

وقد ورد فى ذلك حديث ـ لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده ـ قال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن حباب، عن الحسن بن دينار، عن على بن زيد بن جدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبى ﷺ فى حديث ذكره قال: هو إسحاق[٢].

ففى إسناده ضعيفان[٣]، وهما الحسن بن دينار البصرى، متروك. وعلى بن زيد بن جدعان منكر الحدث. وقد رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جدعان، به مرفوعا[٤]. ثم قال: قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العباس قوله، وهذا[٥] أشبه وأصح.

[ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو الصحيح المقطوع به][٦]:

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس أنه إسحاق. قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى، ويوسف بن مهران، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس، هو إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبى رباح[٧]، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود[٨].

وقال إسرائيل، عن ثور، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: الذبيح إسماعيل.

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: هو إسماعيل. وكذا قال يوسف بن مهران.

وقال الشعبى: هو إسماعيل، عليه السلام، وقد رأيت قرنى الكبش فى الكعبة.

وقال[٩] محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن البصرى: أنه كان لا يشك فى ذلك: أن الذى أمر بذبحه من ابنى إبراهيم إسماعيل.

قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظى وهو يقول: إن الذى أمر الله إبراهيم بذبحه

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٦).
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).
(٣) فى ت: «لأن فى سنده ضعيفين».
(٤) فى ت: « مرفوعا قال: هو إسحاق».
(٥) فى ت: «وهو».
(٦) زيادة من ت، س.
(٧) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده».
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).
(٩) فى ت: «وروى».

من ابنيه إسماعيل. وإنا لنجد ذلك فى كتاب الله، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابنى إبراهيم قال: ﴿ **وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾. يقول الله تعالى: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من [الله][1] الموعود بما وعده[2]، وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل.

وقال ابن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة[3] الأسلمى، عن محمد بن كعب القرظى أنه حدثهم؛ أنه[4] ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشىء ما كنت أنظر فيه، وإنى لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك ـ قال محمد ابن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز ـ فقال له عمر: أىُّ ابنى إبراهيم أُمِر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه، والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، بكون[5] إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل[6].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: سألت أبى عن الذبيح، من هو؟ إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره فى كتاب الزهد.

وقال ابن أبى حاتم: وسمعت أبى يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل، عليه السلام. قال: وروى عن على، وابن عمر، وأبى هريرة، وأبى الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبى، ومحمد بن كعب القرظى، وأبى جعفر محمد بن على، وأبى صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل.

وقال البغوى فى تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدى، والحسن البصرى، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظى، والكلبى، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاه أيضا عن أبى عمرو بن العلاء[7].

وقد روى ابن جرير فى ذلك حديثا غريبا فقال: حدثنى محمد بن عمار الرازى، حدثنا إسماعيل ابن عبيد بن أبى كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابى، عن عبيد الله بن محمد العتبى ـ من ولد عتبة بن أبى سفيان ـ عن أبيه: حدثنى عبد الله بن سعيد، عن الصنابحى قال: كنا عند معاوية بن

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «ما أوعده». (٣) فى أ: «بردة».
(٤) فى ت: «به». (٥) فى أ: «لأن».
(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٥٤).
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٧).

أبى سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخبير[(١)] سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدْ على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثانى[(٢)].

وهذا حديث غريب جدا. وقد رواه الأموى فى مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل ابن عبيد بن أبى كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشى، حدثنا عبيد الله[(٣)] بن محمد العتبى ـ من ولد عتبة بن أبى سفيان ـ حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحى قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره. كذا كتبته من نسخة مغلوطة[(٤)].

وإنما عول ابن جرير فى اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾، فجعل هذه البشارة هى البشارة بإسحاق فى قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعى، أى العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه فى تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جدا، والذى استدل به محمد بن كعب القرظى على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم[(٥)].

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، لما تقدمت البشارة بالذبيح ـ وهو إسماعيل ـ عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت فى سورتى[(٦)] «هود» و «الحجر»[(٧)].

وقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة، أى: سيصير منه نبى من الصالحين.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضى الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر بنبوته. قال: وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده[(٨)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثورى، عن داود، عن عكرمة،

(١) فى س: «الخبر».
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٤).
(٣) فى أ: «عبد الله».
(٤) فى أ: «من نسخة كذا والله أعلم».
(٥) وقد حرر هذه المسألة الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى الفتاوى. انظر المواضع فى: الفهرس العام (٣٦/ ٣٢).
(٦) فى ت: «سورة».
(٧) سورة هود، الآية: ٧١، وسورة الحجر، الآية: ٥٣ .
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٧).

عن ابن عباس: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر به حين ولد، وحين نبئ.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بعد ما كان من أمره، لما جاد لله بنفسه، وقال الله: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ .

وقوله: ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨].

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده فى حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم فى أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلى المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: فى[(١)] الأقوال والأفعال، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أى: أبقينا لها[(٢)] من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسره بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١٣٢) ﴾ .

قال[(٣)] قتادة، ومحمد بن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبيدة ابن ربيعة[(٤)]، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. .

(١) فى أ: «من» .
(٢) فى ت، س: «لهما».
(٣) فى ت: «وروى».
(٤) فى ت: «وقال ابن أبى حاتم بإسناده».

وقال وَهْب بن مُنَبِّه: هو إلياس بن ياسين[١] بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله فى بنى إسرائيل بعد حزقيل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه. وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد[٢]، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه[٣] الإيمان به إن هم أصابهم المطر. فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب، عليه السلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه، فجاءته فرس من نار فركب[٤]، وألبسه الله النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكا إنسيا سماويا أرضيا، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته.

﴿ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ** ﴾ أى: ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره؟ ﴿ **أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ** ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى: ﴿**بَعْلاً**﴾ يعنى: ربا.

قال قتادة وعكرمة: وهى لغة أهل اليمن. وفى رواية عن قتادة قال: هى لغة أزد شنوءة.

وقال ابن إسحاق: أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بعلبك»، غربى دمشق.

وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: ﴿**أَتَدْعُونَ بَعْلاً**﴾ أى: أتعبدون صنما؟ ﴿ **وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** ﴾ أى: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

قال الله تعالى: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ**﴾ أى للعذاب يوم الحساب، ﴿ **إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ أى: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت.

وقوله: ﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ**﴾ أى: ثناء جميلا، ﴿**سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ**﴾ كما يقال فى إسماعيل: إسماعين. وهى لغة بنى أسد. وأنشد بعض بنى نمير فى ضَبٍّ صَادَه.

يَقُولُ رَبّ السوق لما جينا   هذا وربِّ البيت إسْرَائينا[٥]

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين ، وطور سيناء، وطور سينين. وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ[٦].

وقرأ آخرون: «سلام على إدراسين»، وهى قراءة عبد الله بن مسعود. وآخرون: «**سَلامٌ عَلَىٰ آلْ يَاسِينَ**»، يعنى: آل محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ **إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ قد تقدم تفسيره[٧].

(١) فى ت: «شبى» وفى س: «تبى».
(٢) فى ت: «ارتدوا».
(٣) فى ت، س: «فوعدوه».
(٤) فى ت، س: «فركبه».
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/٥٧).
(٦) فى أ: «شائع».
(٧) فى ت: «كما تقدم من تفسيرها».

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ(١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ(١٣٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾: أى: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ .

قد تقدمت قصة يونس، عليه السلام، فى سورة الأنبياء. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى ونَسَبَه إلى أمه»[(١)]، وفى رواية قيل: «إلى أبيه».

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أى: المملوء بالأمتعة.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أى: قارع، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أى: المغلوبين. وذلك أن السفينة تَلَعَّبَت[(٢)] بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبى الله يونس، عليه الصلاة والسلام[(٣)]، ثلاث مرات، وهم يضنون[(٤)] به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس، عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحما، ولا يكسر له عظما[(٥)] . فجاء ذلك الحوت وألقى يونس، عليه السلام، نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس فى بطن الحوت، حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى، فقام يصلى فى بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذتُ لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة. وقيل: جُمْعَة[(٦)]، قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوما، قاله أبو مالك.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٧).
(٢) فى أ: «تلعب». (٣) فى ت: «عليه السلام». (٤) فى ت: «يظنون».
(٥) فى س: «فلا تهشم له لحما ولا تكسر له عظما». (٦) فى ت، س، أ: «سبعة».

وقال مُجَالد[١]، عن الشعبى: التقمه ضحى، وقذفه[٢] عشية.

والله أعلم بمقدار ذلك. وفى شعر أمية بن أبى الصلت:

وَأَنْتَ بفَضلٍ منْكَ نَجَّيتَ يُونُساً وَقَدْ بَاتَ فِى أضْعَاف حُوتٍ لَيَاليا[٣]

وقوله: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء. قاله الضحاك بن قيس، وأبو العالية، ووهَب بن مُنَبِّه، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقد ورد فى الحديث الذى سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر. وفى حديث عن ابن عباس: «تَعَرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة»[٤].

وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وعطاء بن السائب، والسدى، والحسن، وقتادة: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، يعنى: المصلين.

وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين فى جوف أبويه.

وقيل: المراد: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، هو قوله: ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبير وغيره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا أبو صخر[٥]: أن يزيد الرّقاشى حَدّثه: أنه سمع أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أنّ أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ «أن يونس النبى ﷺ[٦] حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو فى بطن الحوت، فقال: اللهم، لا إله إلا أنت سبحانك، إنى كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجِّيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعَراء».

ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، به[٧][٨]. زاد ابن أبى حاتم: قال أبو صخر حُمَيد ابن زياد: فأخبرنى ابن قُسَيط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة، قال: شجرة الدُّبّاء. قال أبو هريرة: وَهَيَّأ الله له أرْوِيَّة وحشية تأكل من خشاش الأرض ـ أو قال: هشاش الأرض ـ قال: فَتَتَفشَّح[٩] عليه فَتَرْويه من لبنها كل عَشيَّة وبُكرةٍ حتى نَبَت.

(١) فى ت: «مجاهد». (٢) فى أ: «ونقله».

(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).

(٤) سيأتى تخريجه عند الآية: ٣٨ من سورة الزمر.

(٥) فى ت: «بإسناده». (٦) فى ت، س: «عليه السلام». (٧) بياض فى س.

(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٦٤).

(٩) فى ت ، س: «فتنفشخ» .

وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك بيتا من شعره:

فَأَنْبَتَ يَقْطيناً عَلَيه برَحْمَةٍ من الله، لَولا اللهُ ألفى ضَاحيا[١]

وقد تقدم حديث أبى هريرة مسنداً مرفوعا فى تفسير سورة «الأنبياء»[٢].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أى: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس، وغيره: وهى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، رضى الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى[٣]: حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضا.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾: قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يَسَاف، وعبد الله بن طاوس، والسدى، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى[٤]، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع.

وقال هُشيَم، عن القاسم بن أبى أيوب، عن سعيد بن جبُيَر: كل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين.

وفى رواية عنه: كل شجرة تَهْلك من[٥] عَامِها فهى من اليقطين.

وذكر بعضهم فى القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليلُ ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبّ الدُّبَّاء، ويتتبعه[٦] من حَوَاشى الصَّحْفة[٧][٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾: روى شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت. رواه ابن جرير: حدثنى الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو[٩] هلال، عن شهر، به.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت.

قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به. وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون.

وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس ـ فى رواية عنه ـ: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفا.

---

(١) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨).
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٣) فى أ: «الصبى يعنى».
(٤) فى ت: «وابن عباس وغيرهما من التابعين».
(٥) فى ت: «فى».
(٦) فى أ: «ويتبعه».
(٧) فى ت: «القصعة».
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٤٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.
(٩) فى أ: «ابن».

وعنه: مائة ألف وبضعةً وثلاثين ألفا. وعنه: مائة ألف وبضعةً وأربعين ألفا.

وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفا.

وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البَرْقى[١]، حدثنا عمرو بن أبى سلمة قال: سمعت زُهَيراً عمن سمع أبا العالية قال: حدثنى أبى بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، قال: «يزيدون عشرين ألفا»[٢].

ورواه الترمذى عن على بن حُجْر، عن الوليد بن مسلم، عن زُهَير، عن رجل، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب، به، وقال: غريب. ورواه ابن أبى حاتم من حديث زهير، به[٣].

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول فى ذلك: معناه إلى المائة الألف[٤]، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم.

وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

وقوله: ﴿فَآمَنُوا﴾ أى: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس، عليه السلام، جميعهم. ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)﴾.

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين فى جعلهم لله البنات، سبحانه، ولهم ما يشتهون، أى: من الذكور، أى: يودّون لأنفسهم الجيد. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أى: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله

(١) فى أ: «الرقى».
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٦٧).
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٩).
(٤) فى أ: «ألف».

[تعالى][(١)] القسم الذى لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أى: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ كقوله: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أى: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] أى: يسألون عن ذلك يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أى: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ﴾أى: صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فذكر الله عنهم فى الملائكة ثلاثة أقوال فى غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف فى التخليد فى نار جهنم.

ثم قال منكرا عليهم: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أى: أىّ شىء يحمله عن[(٢)] أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]؛ ولهـذا قال: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ .أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أى: حجة على ما تقولونه، ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: هاتوا برهانا على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنَزّل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده[(٣)] إلى عقل، بل لا يُجَوّزُه العقل بالكلية.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. فسأل أبو بكر، رضى الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سَرَوات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أى: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم.

وقال العوفى: عن[(٤)] ابن عباس فى قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان . حكاه ابن جرير[(٥)].

وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوا كبيرا.

وقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير فى قوله: ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبى ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ.إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾، وفى هذا الذى قاله نظر.

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى أ: «على».
(٣) فى س: «إسناده».
(٤) فى ت: «وعن».
(٥) تفسير الطبرى (٢٣/٦٩).

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أى: ما ينقاد[1] لمقالكم وما[2] أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذُرِى للنار. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذى ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩] أى: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

ثم قال تعالى مُنَزّها للملائكة مما نَسَبوا[3] إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أى: له موضع مخصوص فى السماوات ومقامات العبادة[4] لا يتجاوزه ولا يتعداه[5].

وقال ابن عساكر فى ترجمته لمحمد بن خالد، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد[6]، عن أبيه ـ وكان ممن بايع يوم الفتح ـ أن رسول الله ﷺ قال يوما لجلسائه: «أطَّت السماء وحُقّ لها أن تَئطّ، ليس فيها موضع قَدَم إلا عليه ملك راكع أو ساجد». ثم قرأ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾[7].

وقال الضحاك فى تفسيره: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال: كان مسروق يَرْوى عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم». فذلك قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[8].

وقال الأعمش، عن أبى إسحاق، عن مسروق: عن[9] ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: إن فى السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ . وكذا قال سعيد بن جبير.

وقال قتادة: كانوا يُصَلُّون الرجال والنساء جميعاً، حتى نزلت: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾، فتقدم الرجال وتأخر النساء.

---

(١) فى أ: «منقاد». (٢) فى س: «ولما». (٣) فى أ: «نسبوهم».
(٤) فى ت، س، أ: «العبادات». (٥) فى س: «لا نتجاوزه ولا نتعداه». (٦) فى أ: «سعيد».
(٧) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٥/ ٢٧٧ «القسم المخطوط»).
(٨) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٥٠٨) والمروزى فى تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٣) من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك به.
(٩) فى ت: «وعن».

﴿ وَإِنَّا لَنحْنُ الصَّافُّونَ﴾ أى: نقف صفوفاً فى الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾. قال ابن جُرَيْج، عن الوليد بن عبد الله بن أبى مغيث قال: كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنحْنُ الصَّافُّونَ﴾، فصفوا.

وقال أبو نَضْرَة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر، رضى الله عنه. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وفى صحيح مسلم عن حذيفة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهورا» الحديث[١].

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أى: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه.

وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ : الملائكة، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾: الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾: الملائكة يسبحون الله عز وجل.

وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ، يعنى: المصلون، يثبتون[٢] بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وقال: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم ـ سبحانه وتعالى ـ وتكذيبهم ـ رسوله ﷺ[٣].

---

(١) سبق تخريجه فى أول السورة.

(٢) فى ت: «ينبثون».

(٣) فى أ: « ﷺ تسليمًا».

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أى: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: غَيَّى[(١)] ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً فى معناها.

وقوله: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أى: انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك[(٢)] وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾. ثم قال عز وجل: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم[(٣)]، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أى: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومُهم، بإهلاكهم ودمارهم[(٤)].

قال السدى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعنى: بدارهم، ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أى: فبئس ما يصبحون، أى: بئس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث إسماعيل بن عُلَيَّةَ، عن عبد العزيز بن صُهَيْب، عن أنس، رضى الله عنه، قال: صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا [وهم][(٥)] يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[(٦)].

ورواه البخارى من حديث مالك، عن حُميد، عن أنس[(٧)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوح، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبى طلحة قال: لما صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، وقد أخذوا مساحيهم وغَدَوا إلى حروثهم

(١) فى أ: «عنا». (٢) فى ت، أ: «بمخالفتك». (٣) فى أ: «لتكذيبك وكفرهم بك».
(٤) فى أ: «وبإدمارهم». (٥) زيادة من أ.
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٧١) وصحيح مسلم برقم (١٣٦٥).
(٧) صحيح البخارى برقم (٤١٩٧).

وأرضيهم، فلما رأوا النبي ﷺ ولوا[١] مدبرين، فقال نبي الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[٢].

لم يخرجوه من هذه الوجه، وهو صحيح على شرط الشيخين.

وقوله: ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾.

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون ـ تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ـ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ ، أي: ذي العزة التي لا تُرَام، ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقيته[٣]، ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة[٤] من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص ـ قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين».

هكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث سعيد، عنه كذلك[٥].

وقد أسنده ابن أبي حاتم، رحمه الله، فقال: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو بكر الأعين، ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالا: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة قال: حدث أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليّ فسلموا على المرسلين»[٦].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا نوح، حدثنا أبو هارون، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سلم[٧] قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى

(١) في س، أ: «نكصوا».
(٢) المسند (٢/ ٢٨).
(٣) في أ: «وحقيقته». (٤) في أ: «والتنزيه».
(٥) تفسير الطبري (٢٣/ ٧٤).
(٦) ورواه ابن مردويه وابن سعد كما في الدر المنثور (٧/ ١٤٠) من طريق سعيد عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة به مرفوعا.
(٧) في س، أ: «إذا أراد أن يسلم».

الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يسلم . إسناده ضعيف[(١)] .

وقال[(٢)] ابن أبي حاتم : حدثنا عمار بن خالد الواسطى ، حدثنا شبابة ، عن يونس بن[(٣)] أبى إسحاق[(٤)] ، عن الشعبى قال : قال رسول الله ﷺ : «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(٥)] .

وروى من وجه آخر متصل موقوف على[(٦)] على ، رضى الله عنه .

قال أبو محمد البغوى فى تفسيره : أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح ، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبى ، أخبرنى ابن فنجويه ، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ، حدثنا إبراهيم بن سهلويه ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا وكيع ، عن ثابت بن أبى صفية ، عن الأصبغ بن نباتة ، عن على ، رضى الله عنه ، قال : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه فى مجلسه : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(٧)] .

وروى الطبرانى من طريق عبد الله بن صخر بن أنس[(٨)] ، عن عبد الله بن زيد بن أرقم ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من قال دبر كل صلاة : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثلاث مرات ، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر»[(٩)] .

وقد وردت أحاديث فى كفارة المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . وقد أفردت لها جزءا على حدة ، فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى[(١٠)] .

آخر تفسير سورة الصافات

---

(١) وفى إسناده عمارة بن جوين - أبو هارون العبدى - متروك الحديث ، ورواه أبو يعلى فى مسنده (٢/ ٣٦٣) فقال : حدثنا إسحاق ، حدثنا حماد ، عن أبى هارون بنحوه .

(٢) فى ت : «وروى» . (٣) فى أ : «عن» . (٤) فى ت : «بسنده» .

(٥) وذكره السيوطى فى الدر (٧/ ١٤١) ولم يعزه لغيره ، وهو مرسل .

(٦) فى ت : «بسنده» .

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٦٦) ورواه الواحدى فى الوسيط (٣/ ٥٣٦) عن الأصبغ بن نباتة به ، والأصبغ بن نباتة ضعفه الأئمة .

(٨) فى أ : «الأنسى» .

(٩) المعجم الكبير (٥/ ٢١١) من طريق عبد المنعم بن بشير عن عبد الله بن محمد الأنسى عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه مرفوعا .
قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٠٣) : «فيه عبد المنعم بن بشير ، وهو ضعيف جدا» .

(١٠) كذا ولم أجد إثباته فى النسخ ، والأحاديث التى وردت فى كفارة المجلس جاءت عن جمع من الصحابة والتابعين وهم :
١ - أبو هريرة :
قال الترمذى فى سننه برقم (٣٤٣٣) : أخبرنا أبو عبيدة بن أبى السفر الكوفى - أحمد بن عبد الله الهمدانى - حدثنا حجاج بن محمد قال : قال ابن جريج : أخبرنى موسى بن عقبة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك» .
ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٣٠) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٦) من طريق ابن جريج به ، وقال الترمذى : حسن صحيح» ، وقال الحاكم : «إسناد على شرط مسلم إلا أن البخارى علله» .

=

. . . .

قال الحافظ ابن كثير: «علله الإمام أحمد والبخارى ومسلم وأبو حاتم وأبو زرعة والدارقطنى وغيرهم، ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جريج»، على أن أبا داود قد رواه فى سننه برقم (٤٨٥٨) من طريق عبد الرحمن بن أبى عمرو عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة بنحوه.

٢ ـ أبو برزة الأسلمى:

قال أبو داود فى السنن برقم (٤٨٥٩): حدثنا محمد بن حاتم الجرجرائى وعثمان بن أبى شيبة، أن عبدة بن سليمان أخبرهم عن الحجاج بن دينار عن أبى هاشم عن أبى العالية عن أبى برزة الأسلمى قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى، قال: «كفارة لما يكون فى المجلس»، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٩)، والحاكم فى المستدرك (١/٥٣٧) من طريق الحجاج بن دينار به.

٣ ـ رافع بن خديج:

قال النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦٠): أخبرنا عبيد الله بن إبراهيم بن سعد قال: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا مصعب بن حيان ـ أخو مقاتل بن حيان ـ عن مقاتل بن حيان، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية الرياحى، عن رافع بن خديج قال: كان رسول الله ﷺ بأخرة إذا اجتمع إليه أصحابه فأراد أن ينهض قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، عملت سوءا، وظلمت نفسى، فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: فقلنا يا رسول الله، إن هذه كلمات أحدثتهن؟ قال: «أجل جاءنى جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، هن كفارات المجلس»، ورواه الحاكم فى المستدرك (١/٥٣٧) من طريق يونس بن محمد به.

٤ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص:

قال أبو داود فى السنن برقم (٤٨٥٧): حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب قال: أخبرنى عمرو أن سعيد بن هلال حدثه أن سعيد بن أبى سعيد المقبرى حدثه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

هكذا رواه أبو داود موقوفا، وقد رواه الطبرانى من وجه آخر مرفوعا، قال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٤٢): «وفيه محمد بن جامع العطار وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح».

٥ ـ عبد الله بن مسعود:

قال الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/٢٠٣): حدثنا أحمد بن زهير التسترى، حدثنا عثمان بن حفص التومنى، حدثنا يحيى ابن كثير، عن عطاء بن السائب، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كفارة المجلس أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا الله، أستغفرك وأتوب إليك».

٦ ـ عائشة:

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦١١) «مجمع البحرين»: حدثنا محمد بن أحمد الرقام، حدثنا أحمد بن المقدام العجلى، حدثنا النضر بن أبى النضر، عن عمرو بن عبد الجبار، عن الحكم بن عتيبة، عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه إلى سقف البيت قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك» قالت عائشة: فسألته عنهن، فقال: «أمرت بهن».

قال الطبرانى: لم يروه عن الحكم إلا عمرو، ولا عنه إلا النضر تفرد به أبو الأشعث.

وفى إسناده من لا يعرف.

ورواه النسائى فى عمل اليوم والليلة من وجه آخر، فرواه من طريق سعيد بن الحكم، عن خلاد بن سليمان، عن خالد بن أبى عمران، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: ما جلس رسول الله ﷺ مجلسا، ولا تلا قرآنا إلا ختم ذلك بكلمات، فقلت: يا رسول الله أراك ما تجلس مجلسا، ولا تتلو قرآنا، ولا تصلى إلا ختمت بهؤلاء الكلمات قال: «نعم، من قال خيرا كان له طابعا على ذلك الخير، ومن قال شرا كن كفارة له: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

٧ ـ جبير بن مطعم:

قال الطبرانى فى المعجم الكبير (٢/١٣٨): حدثنا العباس بن حمدان الحنفى، حدثنا عبد الجبار بن العلاء، حدثنا =

. . . .

=سفيان، حدثنى ابن عجلان عن مسلم بن أبى مريم، عن نافع بن جبير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها فى مجلس ذكر؛ كان كالطابع يطبع عليه، ومن قالها فى مجلس لغو؛ كانت كفارة له»، ثم رواه من طريق خالد بن يزيد العمرى، عن داود بن قيس، عن نافع ابن جبير بنحوه.

٨ ـ الزبير بن العوام:

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦٠٦) «مجمع البحرين»: حدثنا محمد بن على الطرائفى الرقى، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحسن بن محمد بن أعين قال: كتب محمد بن سلمة النصيبى يذكر أن عبد العزيز بن صهيب حدثه عن خباب مولى الزبير بن العوام عن الزبير قال: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا قمنا من عندك أخذنا فى حديث الجاهلية فقال: «إذا جلستم تلك المجالس التى تخافون فيها على أنفسكم فقولوا عند مقامكم: سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك، يكفر عنكم ما أصبتم» قال الطبرانى: لا يروى عن الزبير إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن على. وفى إسناده مَن لا يعرف.

٩ ـ أنس بن مالك:

قال البزار فى مسنده برقم (٣١٢٣) «كشف الأستار»: حدثنا عمر بن موسى الشامى، حدثنا عثمان بن مطر، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة المجلس أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»، قال البزار: لا نعلمه يروى عن أنس إلا من هذا الوجه، وعثمان لين الحديث روى عنه مسلم وغيره، ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٦١٠) «مجمع البحرين» من طريق عثمان بن مطر به.

١٠ ـ أم سلمة:

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦٠٩) «مجمع البحرين»: حدثنا عبد الرحمن بن سلم، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا حفص بن غياث، عن عاصم، عن الشعبى، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ قبل أن يموت يكثر أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، قلت: يا رسول الله، إنى أراك تكثر أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك قال: «إنى أمرت بأمر فقرأ: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾» قال الطبرانى: لم يروه عن عاصم إلا حفص تفرد به سهل.

١١ ـ السائب بن يزيد:

قال الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٤٥٠): حدثنا يونس، عن ليث، عن يزيد ـ يعنى ابن الهاد ـ عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «ما من إنسان يكون فى مجلس فيقول حين يريد أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا غفر له ما كان فى ذلك المجلس»، فحدثت هذا الحديث يزيد بن خصيفة، قال: هكذا حدثنى السائب بن يزيد عن رسول الله ﷺ. ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧/ ١٥٤) من طريق الليث به.

وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٤١): «رجالهما رجال الصحيح».

١٢ ـ إسماعيل بن عبد الله بن جعفر:

وسياق حديثه فى الذى قبله وهو مرسل.

١٣ ـ عمر بن الخطاب:

لم أقع على إسناده، وقد ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير سورة الطور، وعزاه للإسماعيلى.

١٤ ـ جبير بن نفير:

لم أقع على إسناده، وقد ساقه المتقى الهندى فى كنز العمال برقم (٢٥٤٦٩) ولفظه: «كفارة المجلس ألا يقوم أحد حتى يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، تب علىّ، واغفر لى، يقولها ثلاث مرات، فإن كان فى مجلس لغو، كانت كفارته، وإن كان فى مجلس ذكر، كان طابعا عليه»، وعزاه لابن النجار.

١٥ ـ أبو عثمان الفقير:

قال عبد الرزاق فى المصنف برقم (١٩٧٩٦): أخبرنا معمر، عن عبد الكريم الجزرى عن أبى عثمان الفقير أن جبريل علَّم =

. . . .

= النبي ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

قال معمر: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجلس.

١٦ ـ أبو العالية الرياحي:

قال النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٢٦١): أخبرنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سفيان، عن منصور، عن زياد بن حصين، عن أبي العالية الرياحي قال: قالوا: يا رسول الله ما كلمات سمعناك تقولهن؟ قال: «كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام كفارة المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» .

ثم رواه من طريق فضيل بن عمر وعاصم عن زياد بن حصين به مرسلا.

/ سورة الصافّات [٤٠٨و]

مكيّة، وهي مائة وإحدى وثمانون آيةً،[١] وقيل: واثنتان وثمانون.[٢]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ إقسامٌ مِن الله عزّ وجلّ بطوائفِ الملائكة الفاعلاتِ للصفوف، على أنّ المراد إيقاع نفْس الفعل مِن غير قصدٍ إلى المفعول، أو الصافّاتِ أنفُسَها، أي: الناظِماتِ لها في سِلك الصفوف بقيامها في مقاماتها المعلومة، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات، ١٦٤/٣٧]، وعلى هذين المعنيَين مَدار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات، ١٦٥/٣٧]. وقيل: الصافّاتِ أقدامَها في الصلاة. وقيل: أجنحتَها في الهواء.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ أي: الفاعلاتِ للزَّجر، أو الزاجِراتِ لِما نِيط بها زَجْره مِن الأجرام العلويّة والسفليّة وغيرها على وجه يليق بالمَزجور، ومِن جملة ذلك زَجر العباد عن المعاصي، وزَجرُ الشياطين عن الوسوسة والإغواء، وعن استراق السمع كما سيأتي. و﴿صَفًّا﴾ و﴿زَجْرًا﴾ مصدران مؤكِّدان لِما قبلهما، أي: صفًّا بديعًا، وزَجرًا بليغًا.

وأمّا ﴿ذِكْرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ فمفعول ﴿ٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾؛ أي: التاليات ذكرًا عظيمَ الشأن مِن آيات الله تعالى وكُتبه المنزّلة على الأنبياء عليهم السلام وغيرها مِن التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد. وقيل: هو أيضًا مصدر مؤكِّد لِما قبله، فإنّ التلاوة مِن باب الذِّكر.

---

[١] ط – آية.

[٢] م – سورة الصافّات مكيّة، وهي مائة وإحدى وثمانون آيةً، وقيل: واثنتان وثمانون؛ ط + آية.

ثمّ إنّ هذه الصفاتِ إن أُجريَت على الكلّ فعطفُها بـ"الفاء" للدلالة على ترتّبها في الفضل، إمّا بكون الفضل للصفّ ثمّ للزَّجر ثمّ للتلاوة، أو على العكس، وإن أُجريَت كلّ واحدة منهنّ على طوائف معيّنة فهو للدلالة على ترتّب الموصوفات في مراتب الفضل، بمعنى أنّ طوائف الصافّات ذوات فضل، والزاجراتُ أفضل، والتالياتُ أبهَر فضلًا، أو على العكس.

وقيل: المراد بالمذكورات نفوس العلماءِ العُمّال؛ الصافّاتُ أنفسَها في صفوف الجماعات، / وأقدامَها في الصلوات، الزاجراتُ[١] بالمواعظ والنصائح، [٤٠٨ظ] التالياتُ آياتِ الله تعالى، الدارساتُ شرائعَه وأحكامَه.

وقيل: طوائفُ الغزاة؛ الصافّاتُ أنفسَهم في مواطن الحروب، كأنّهم بنيان مَرصوص. أو طوائفُ قُوّادهم؛ الصافّاتُ لهم فيها، الزاجراتُ الخيلَ للجهاد سَوقًا، والعدوَّ في المعارك طَردًا، التالياتُ آياتِ الله تعالى وذِكرِه وتسبيحِه في تضاعيف ذلك.

والكلام في العطف ودلالتِه على ترتّب الصفات في الفضل أو ترتّب موصوفاتها فيه كالذي سلَف، وأمّا الدلالة على الترتّب في الوجود كما في قوله:

يا لَهفَ زَيّابةَ للحارثِ الصـ ـابحِ فالغانم فالآيبِ[٢]

فغير ظاهرة في شيء مِن الطوائف المذكورة، فإنّه لو سلّم تقدّم الصفّ على الزَّجر في الملائكة والغزاة فتأخُّرُ التلاوة عن الزَّجر غير ظاهر.

وقيل: ﴿ٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾: الطير، مِن قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ [النور، ٤١/٢٤]، و﴿ٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ كلّ ما يَزجُر عن المعاصي، و﴿ٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ كلّ مَن يتلو كتابَ الله تعالى. وقيل: ﴿ٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ القوارع القرآنيّة.

وقُرئ بإدغام "التاء" في "الصاد" و"الزاء" و"الذال".[٣]

---

١ س: والزاجرات.

٢ لابن زَيّابة التيمي، و"زَيّابة": اسم أمّه، أي: يا لَهفَ أمّي مِن أجل الحارث بن همّام الشيباني، قال التبريزي: معناه أنّه لهف أمّه أن لا يلحقه في بعض غاراته فيقتله أو يأسِره. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٣٢/٤.

٣ قرأ بها حمزة وأبو عمرو ويعقوب بخُلف عنهما. النشر لابن الجزري، ٣٠٠/٢.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جوابٌ للقسم. والجملة تحقيق للحقّ الذي هو التوحيد بما هو المألوف في كلامهم مِن التأكيد القسَمي، وتمهيدٌ لِما يعقُبه مِن البرهان الناطق به، أعني: قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ فإنّ وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع مِن أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته، وأعدلِ شواهد وَحدته، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء، ٢١/٢٢].

و﴿رَّبُّ﴾ خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف، / أي: مالكُ السماوات والأرض [٤٠٩و]
وما بينهما مِن الموجودات ومربّيها، ومبلّغُها إلى كمالاتها. والمراد بـ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ مشارقُ الشمس. وإعادة "الربّ" فيها لغاية ظهور آثار الربوبيّة فيها وتجدّدِها كلّ يوم، فإنّها ثلاثُمائةٍ وستّون مَشرقًا، تشرق كلَّ يوم مِن مَشرقٍ منها، وبحسبها تختلف المَغارب، وتغرُب كلَّ يوم في مَغرب منها. وأمّا قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن، ٥٥/١٧] فهما مَشرقا الصيف والشتاء ومَغرِباهما.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: القربى منكم ﴿بِزِينَةٍ﴾ عجيبةٍ بديعةٍ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بالجرّ بدلٌ مِن ﴿زِينَةٍ﴾، على أنّ المراد بها الاسم، أي: ما يُزانُ به، لا المصدرُ، فإنّ الكواكب بأنفسِها وأوضاعِ بعضها مِن بعض زينةٌ وأيُّ زينةٍ.

وقُرئ بالإضافة[١] على أنّها بيانيّة، لِما أنّ "الزينة" مبهَمة صادقة على كلّ ما يُزان به، فيقع ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بيانًا لها. ويجوز أن يراد بـ"زِينَةِ الكَوَاكِبِ" ما زُيّنت هي به، وهو ضوءُها. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «"بزِينَةِ الكَوَاكِبِ": بضوءِ الكواكب».[٢] هذا، وأمّا على تقدير كون "الزينة" مصدرًا فالمعنى على تقدير إضافتها إلى الفاعل: بأن زانت الكواكبُ إيّاها، وأصلُه "بزينةٍ الكواكبُ"،

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٦.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٤٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٥.

وعلى تقدير إضافتها إلى المفعول: بأن زَانَ اللهُ الكواكبَ وحسَّنها، وأصله "بزينةٍ الكواكبَ".

والمراد هو التزيين في رأي العين، فإنّ جميع الكواكب مِن الثوابت والسيّارات تبدو للناظرين كأنّها جواهر متلألِئة في سطح السماء[1] الدنيا بصور بديعةٍ وأشكال رائعة، ولا يقدح في ذلك ارتكاز الثوابت في الفلَك / الثامن، وما عدا القمر في الستة المتوسطة إن ثبتَ ذلك. [٤٠٩ظ]

﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧﴾

﴿وَحِفۡظٗا﴾ منصوب إمّا بعطفه على ﴿زِينَةٍ﴾ باعتبار المعنى، كأنّه قيل: إنّا خلقنا الكواكب زينةً للسماء وحِفظًا ﴿مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ أي: خارجٍ عن الطاعة برَمي الشُّهب، وإمّا بإضمار فِعله، وإمّا بتقدير فعل مؤخَّر معلَّل به، كأنّه قيل: وحِفظًا مِن كلّ شيطان مارد زيّنّاها بالكواكب، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك، ٦٧/٥].

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ كلام مبتدأ مَسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفيّة الحفظ وما يعتريهم في أثناء ذلك مِن العذاب، ولا سبيلَ إلى جعله صفةً لـ﴿كُلِّ شَيۡطَٰنٖ﴾،[2] ولا جوابًا عن سؤال مقدَّر؛ لعدم استقامة المعنى، ولا علّةً للحفظ على أن يكون الأصل "لِئلّا يَسَّمَّعوا"، فتُحذف "اللام" كما حُذفت مِن قولك: "جِئتكَ أن تُكرمَني"، فيبقى "أن لا يَسَّمَّعوا"، ثمّ تُحذف "أن" ويُهدر عملها، كما في قول مَن قال:

ألَا أيُّهذا الزاجري أحضُرُ الوَغا[3]

---

[1] ط س: سماء.

[2] في الآية السابقة.

[3] وفي هامش ط س: تمامه:
وأن أشهدَ اللذّاتِ هل أنت مُخلدي
لطرَفة بن العبد، يقول: يا مَن يلومني أن أحضرَ الحرب وأن أنفِق في الخمر وغيرها مِن أبواب الفتوّة واللذّات؛ هل في وُسعك أن تخلّدني فأكفّ عن ذلك وأتركه. ديوان طرَفة بشرح الأعلم الشَّنتَمري، ص ٤٥.

لِما أنّ كلّ واحد مِن ذَينك الحذفَين غيرُ منكَر بانفراده، فأمّا اجتماعهما فمِن أنكَر المنكرات التي يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها.

وأصل ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾: يتَسمَّعون. و﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: الملائكة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هم الكتَبة».[1] وعنه: «أشراف الملائكة عليهم السلام».[2] أي: لا يتطلّبون السماعَ والإصغاءَ إليهم. وقُرئ: "يَسْمَعُونَ" بالتخفيف.[3]

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يُرمَون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ مِن جميع جوانب السماء إذا قصدوا الصعود إليها.

﴿دُحُورًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾

﴿دُحُورًا﴾ علّة للقذف، أي: للدُّحور؛ وهو الطرد، أو حال بمعنى: مَدحورين، أو مصدر مؤكِّد له؛ لأنّهما مِن وادٍ واحد. / وقُرئ: "دَحُورًا" بفتح [٤١٠و]
"الدال"،[4] أي: قَذفًا دَحورًا مبالِغًا في الطرد. وقد جُوِّز أن يكون مصدرًا كـ"القَبول" و"الوَلوع".

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: ولهم في الآخرة غيرَ ما في الدنيا مِن عذاب الرَّجْم بالشُّهُب عذابٌ شديد دائم غير منقطع، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك، ٥/٦٧].

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناء مِن "واو" ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾.[5] و﴿مَنْ﴾ بدل منه. و"الخَطف": الاختلاس، والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقةً، كما يُعرِب عنه

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦/٤. وبه فسّره الثعلبي دون نسبة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما. انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٤٠/٨.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦/٤؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩٢/٩.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. **النشر** لابن الجزري، ٣٥٦/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٠٤.

٥ الصافّات، ٨/٣٧.

تعريف ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾. وقُرِئ بكسر "الخاء" و"الطاء" المشدَّدة،[١] وبفتح "الخاء" وكسر "الطاء" وتشديدها،[٢] وأصلهما "اختَطَفَ".

﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ أي: تبِعه ولحِقه. وقُرِئ: "فَاتَّبَعَهُ".[٣] و"الشِّهاب": ما يُرى منقضًا مِن السماء. ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء في الغاية، كأنّه يثقب الجوّ بضوئه، يرجُم به الشياطين إذا صعِدوا لاستراق السمع، فيقتلهم أو يحرقهم أو يُخَبِّلهم. قالوا: وإنّما يعود مَن يسلم منهم حيًّا طمعًا في السلامة ونيلِ المراد كراكب السفينة.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ⑪﴾

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فاستخبر مُشركي مكّة: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: أقوى خِلقةً، وأمتنُ بُنيةً، أو أصعبُ خَلقًا، وأشقُّ إيجادًا. ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِن الملائكة والسماء والأرض وما بينهما، والمشارِقِ، والكواكبِ، والشُّهُبِ الثواقب. و﴿مَنْ﴾ لتغليب العقلاء على غيرهم، ويدلّ عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك، لا سيّما قراءةُ مَن قرأ: "أَم مَنْ عَدَدْنَا".[٤]

وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ فإنّه الفارق بينهم وبينها، لا بينهم وبين مَن قبلهم مِن الأمم، كعادٍ وثمود، ولِأنّ المراد إثبات المعاد وردُّ استحالتهم.[٥] والأمر فيه بالإضافة إليهم وإلى مَن قبلهم سواء. / وقُرِئ: "لَازِمٍ"، و"لَاتِبٍ".[٦] [٤١٠ظ]

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ⑫﴾

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أي: مِن قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارِهم للبعث، ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ مِن تعجّبك وتقريرك للبعث.

---

١ أي: "خِطِّفَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

٢ أي: "خَطِّفَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

٥ وفي هامش م: أي: عدّهم له مُحالًا. «منه».

٦ قراءتان شاذّتان، ذكرهما الزمخشري من غير نسبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧.

وقُرئ بضمّ "التاء"،[١] على معنى أنّه بلغَ كمالُ قدرتي وكثرةُ مخلوقاتي إليّ حيث عَجبتُ منها، وهؤلاء لِجهلهم يَسخرون منها. أو عجبتُ مِن أن يُنكروا البعث ممّن هذه أفاعيله، ويسخروا ممّن يجوّزه. والعَجَب مِن الله تعالى إمّا على الفَرْض والتخييل، أو على معنى الاستعظام اللازم له، فإنّه رَوعة تَعتري الإنسان عند استعظام الشيء. وقيل: إنّه مقدَّر بالقول، أي: قل يا محمّد: بل عَجبتُ.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي: ودأبهم المستمرّ أنّهم إذا وُعِظوا بشيء مِن المواعظ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتّعظون، وإذا ذُكِر لهم ما يدلّ على صحّة البعث لا ينتفعون به لغاية بَلادَتهم وقُصورِ فكرهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أي: معجزةً تدلّ على صدق القائل به ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية، ويقولون: إنّه سِحر، أو يستدعي بعضهم مِن بعض أن يسخَر منها.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝١٥ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما يرونه مِن الآية الباهرة ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ سحريّتُه.

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي: كان بعضُ أجزائنا ترابًا، وبعضها عِظامًا. وتقديمُ "التراب" لأنّه منقلِب مِن الأجزاء البادية. والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: نُبعَث، لا نفسُه؛ لأنّ دُونَه خُطوبًا[٢] لو تفرّد واحدٌ منها لكفى في المنع. وتقديم الظرف لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غايةَ المنافاة، وكذا تكرير "الهمزة" في ﴿أَإِنَّا﴾ للمبالغة والتشديد في ذلك، وكذا تحلية الجملة بـ"إنّ" و"اللام" لتأكيد الإنكار،

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٦/٢.

[٢] وفي هامش م: هي "الهمزة" و"إنّ" و"اللام". «منه».

[٤١١و] / لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم،[١] فإنّ تقديم "الهمزة" لاقتضائها الصدارةَ، كما في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيبُ الإنكار، لا إنكارُ التعقيب، كما هو المشهور. وقُرئ بطَرح "الهمزة" الأولى،[٢] وبطرح الثانية فقط.[٣]

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ رفع على الابتداء، وخبره محذوف عند سيبويه،[٤] أي: وآباؤنا الأوّلون أيضًا مبعوثون. وقيل: عطفٌ على محلّ "إنّ" واسمها. وقيل: على الضمير في ﴿مَبْعُوثُونَ﴾[٥] للفصل بهمزة الإنكار الجارية مَجرى حرف النفي في قوله تعالى: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الانعام، ١٤٨/٦]. وأيًا ما كان فمرادهم زيادة الاستبعاد بناءً على أنّهم أقدم، فبَعثُهم أبعدُ على زعمهم. وقُرئ: "أَوْ آبَاؤُنَا".[٦]

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿نَعَمْ﴾. والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ لهم ولآبائهم بطريق التغليب. والجملة حال مِن فاعل ما دلّ عليه ﴿نَعَمْ﴾، أي: كلّكم مبعوثون والحال أنكم صاغِرون أذِلّاء. وقُرئ: "نَعِمْ" بكسر "العين"،[٧] وهي لغة فيه.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ﴿هِىَ﴾ إمّا ضمير مبهَم يفسِّره خبره، أو ضمير "البَعثة". والجملة جواب شرط مضمَر، أو تعليل لنهيٍ مقدّر، أي: إذا كان كذلك فإنّما هي... إلخ، أو لا تستصعبوه فإنّما هي... إلخ. و"الزجرة": الصيحة، مِن "زَجَرَ الراعي غنَمَه" إذا صاح عليها؛ وهي النفخة الثانية.

﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قائمون مِن مراقدهم أحياءً ﴿يَنظُرُونَ﴾ يُبصرون كما كانوا، أو يَنتظِرون ما يُفْعَلُ بهم.

---

١ س + الكريم.
٢ قرأ بها ابن عامر الشامي. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.
٣ قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.
٤ انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩٥/٩.
٥ في الآية السابقة.
٦ قرأ بها أبو جعفر وابن عامر ونافع بخُلف عن وَرش. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.
٧ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: المبعوثون، وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق والتقرّر: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ أي: هلاكَنا احضُر، فهذا أوان حضورك. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعليل لدعائهم الويلَ بطريق الاستئناف، / أي: اليومُ الذي نُجازَى [٤١١ظ] فيه بأعمالنا، وإنّما علموا ذلك لأنّهم كانوا يسمعون في الدنيا أنّهم يُبعَثون ويُحاسَبون ويُجزَون بأعمالهم، فلمّا شاهدوا البعثَ أيقَنوا بما بعده أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ كلام الملائكة جوابًا لهم بطريق التوبيخ والتقريع. وقيل: هو أيضًا مِن كلام بعضهم لبعض.[١] و﴿ٱلْفَصْلِ﴾ القضاء، أو الفرقُ بين فِرَق الهدى والضلال.

﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ خطاب مِن الله عزّ وجلّ للملائكة، أو مِن بعضهم لبعضٍ بحَشر الظلَمة مِن مقامهم إلى الموقف. وقيل: مِن المَوقف إلى الجحيم.

﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: أشباهَهم ونُظراءَهم مِن العصاة، عابدُ الصنَم مع عَبَدته، وعابدُ الكوكب مع عَبَدته، كقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة، ٧/٥٦]. وقيل: قرناءَهم مِن الشياطين. وقيل: نساءَهم اللاتي على دينهم. ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأصنام ونحوِها زيادةً في تحسيرهم وتخجيلهم. قيل: هو[٢] عامّ مخصوص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآيةَ الكريمةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. وأنت خبير بأنّ الموصول عبارة عن المشركين خاصّةً، جيء به لتعليل الحُكم بما في حيّز صِلته، فلا عمومَ ولا تخصيصَ.

---

١ س – لبعض.

٢ ط س: وهو. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: عرِّفوهم طريقَها، ووجِّهوهم إليها. وفيه تهكُّم بهم.

﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ۝٢٦﴾

﴿وَقِفُوهُمۡ﴾ احبِسوهم في الموقف، كأنّ الملائكةَ عليهم السلام[1] سارَعوا إلى ما أُمِروا به مِن حَشرهم إلى الجحيم، فأُمِرُوا بذلك، وعُلِّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ إيذانًا مِن أوّل الأمر بأنّ ذلك ليس للعفو عنهم، ولا لِيستَريحوا بتأخير العذاب في الجملة؛ بل لِيُسألوا، لكن لا عن عقائدهم وأعمالهم كما قيل،[2] فإنّ ذلك قد وقع قبل الأمر بهم إلى الجحيم؛ بل عمّا يَنطق به قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ بطريق التوبيخ والتقريع والتهكّم، أي: لا يَنصر بعضُكم بعضًا كما كنتم تزعمون في الدنيا. وتأخيرُ هذا السؤال إلى ذلك الوقت
[٤١٢و] / لأنّه وقتُ تَنَجّزِ العذاب، وشدّةِ الحاجة إلى النُّصرة، وحالةُ انقطاع الرجاء عنها بالكلّيّة، فالتوبيخ والتقريع حينئذٍ أشدُّ وَقعًا وتأثيرًا. وقُرئ: "لَا تَتَنَاصَرُونَ"،[3] و"لَا تَّنَاصَرُونَ" بالإدغام.[4]

﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ منقادون خاضعون، لظهور عجزهم، وانسدادِ باب الحِيَل عليهم، أو أسلَم بعضُهم بعضًا وخَذَله عن عَجْز، فكلُّهم مستسلم غير منتصِر.

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٨﴾

﴿وَأَقۡبَلَ﴾ حينئذ ﴿بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ هم الأتباع والرؤساء، أو الكفرةُ والقرناء ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضًا سؤالَ توبيخ بطريق الخصومة والجدال.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية تساؤُلِهم، كأنّه قيل: كيف تساءَلوا؟ فقيل: قالوا، أي: الأتباع للرؤساء، أو الكلّ للقُرناء: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا﴾

---

١ س - عليهم السلام.
٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨/٥.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤٦٩/٤.
٤ قرأ بها أبو جعفر والبزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٣٤/٢.

في الدنيا ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوه وأمْتَنِها، أو عن الدين، أو عن الخَير، كأنكم تنفعوننا نفعَ السانِح،[١] فتبِعناكم فهلَكنا. مستعار مِن يمين الإنسان الذي هو أشرف الجانبين وأقواهما وأنفعُهما، ولذلك يُسمّى يمينًا، ويُتيمَّن بالسانِح، أو عن القوّة والقَسر، فتقسروننا على الغيّ، وهو الأوفق للجواب، أو عن الحَلِف، حيث كانوا يَحلفون أنّهم على الحقّ.

﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا طَٰغِينَ ۝٣٠﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف كما سبق، أي: قال الرؤساء أو القُرناء: ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ أي: لم نمنعكم مِن الإيمان؛ بل لم تؤمنوا باختياركم وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه، وآثرتم الكفر عليه.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ﴾ مِن قهرٍ وتسلّطٍ نسلُبُكم به اختيارَكم؛ ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا طَٰغِينَ﴾ مختارين للطغيان مُصرّين عليه.

﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝٣٢ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ۝٣٣﴾

﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا﴾ أي: لزِمَنا وثبَت علينا ﴿قَوۡلُ رَبِّنَا﴾ وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٥]. ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي: العذابَ الذي وَرد به الوعيد.

﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ﴾ فدعوناكم / إلى الغيّ دعوةً غيرَ مُلجِئةٍ، فاستجبتم لنا [٤١٢ظ] باختياركم واستحبابِكم الغيَّ على الرشد، ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ فلا عتَبَ علينا في تعرُّضنا لإغوائكم بتلك المرتبة مِن الدعوة لتكونوا أمثالنا في الغواية.

﴿فَإِنَّهُمۡ﴾ أي: الأتباعَ والمتبوعين ﴿يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية.

---

١ السانِح: ما وَلّاك مَيامِنه مِن ظبي أو طائر أو غيرهما. والعرب تتيمَّن بالسانح، وتتشاءم بالبارح. **الصحاح** للجوهري، «سنح».

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الفعل البديع الذي يقتضيه الحكمة التشريعيّة ﴿نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ المتناهين في الإجرام، وهم المشركون، كما يُعرِب عنه التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ بطريق الدعوة والتلقين: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن القبول.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ۞ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ردٌّ عليهم وتكذيب لهم ببيان أنّ ما جاءَ به مِن التوحيد هو الحقّ الذي قام به البرهان، وأجمع عليه كافّة الرسل عليهم السلام، فأين الشِّعر والجنون مِن ساحته الرفيعة.

﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّكُمۡ﴾ بما فعلتم مِن الإشراك وتكذيب الرسول عليه السلام والاستكبار ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ والالتفاتُ لإظهار كمال الغضب عليهم. وقُرئ بْنصب ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾[١] على تقدير النون كقوله:

ولا ذاكـــــــــر الله إلّا قليـــــــــلًا[٢]

وقُرئ: "لَذائِقُونَ الْعَذابَ"[٣] على الأصل.

﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: إلّا جزاءَ ما كنتم تعملونه مِن السيّئات، أو إلّا بما كنتم تعملونه منها.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استثناء منقطع مِن ضمير ﴿ذَآئِقُواْ﴾،[٤] وما بينهما اعتراض جيء به مسارعةً إلى تحقيق الحقّ ببيان أنّ ذوقهم العذابَ ليس إلّا

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وأبان عن ثعلبة عن عاصم. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/٩٩.

٢ صدره:

فـألـفـيتُـه غـيـرَ مـسـتـعـتـبٍ

وهو لأبي الأسود الدؤلي. انظر: **خزانة الأدب** للبغدادي، ١١/٣٧٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٠٥.

٤ في الآية السابقة.

مِن جهتهم، لا مِن جهة غيرهم أصلًا. وجعلُه استثناءً مِن ضمير ﴿تُجْزَوْنَ﴾[١] على معنى أنّ الكفرة لا يُجزون إلّا بقدر أعمالهم، دون عباد الله المخلَصين، فإنّهم يُجزَون أضعافًا مضاعفةً ممّا لا وجهَ له أصلًا، لا سيّما جعلُه استثناء متّصلًا بتعميم الخطاب في ﴿تُجْزَوْنَ﴾[٢] لجميع المكلّفين، فإنّه ليس في حيّز الاحتمال، فالمعنى: إنّكم لذائقوا العذابِ الأليمِ، لكنّ عبادَ الله المخلَصين الموحِّدين ليسوا كذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٞ مَّعْلُومٞ ۝٤١ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٖ مِّن مَّعِينِۭ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٞ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم للإيذان بأنّهم ممتازون بما اتّصفوا به مِن الإخلاص في عبادته تعالى عمّن عداهم امتيازًا بالغًا، منتظِمون بسببه في سِلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمُشار إليه للإشعار بعلوّ طبقتهم، وبُعد منزلتهم / في الفضل. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ إمّا خبر له، وقوله تعالى: ﴿رِزْقٞ﴾ مرتفع على الفاعليّة بما فيه مِن الاستقرار، أو مبتدأ، و﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدَّم، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والجملة الكبرى استئناف مبيِّن لِما أفاده الاستثناء إجمالًا بيانًا تفصيليًّا. وقيل: هي خبر للاستثناء المنقطع، على أنّه متأوَّل بالمبتدأ. [٤١٣و]

وقوله تعالى: ﴿مَّعْلُومٞ﴾ أي: معلومُ الخصائص، مِن حُسن المنظَر، ولذّةِ الطَّعم، وطيبِ الرائحة، ونحوِها مِن نعوت الكمال. وقيل: معلومُ الوقت، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم، ٦٢/١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ إمّا بدل مِن ﴿رِزْقٞ﴾،[٣] أو خبر مبتدأ مُضمَر، أي: ذلك الرزق فواكهُ. وتخصيصها بالذِّكر لأنّ أرزاق أهل الجنّة كلّها فواكه، أي:

[١] في الآية السابقة.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] في الآية السابقة.

ما يؤكل لمجرّد التلذّذ دون الاقتيات؛ لأنّهم مُستغنون عن القُوت لكون خِلقتهم مُحكمةً محفوظة مِن التحلّل المُحوِج إلى البدل. وقِيل: لأنّ الفواكه مِن أتباع سائر الأطعمة، فذِكرها مُغنٍ عن ذِكرها.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله عزّ وجلّ، لا يلحقهم هوان، وذلك أعظم المَثوبات، وأليقُها بأولي الهِمَم. وقيل: مُكْرَمون في نَيله، حيث يصل إليهم بغير تعب وسؤال، كما هو شأن أرزاق الدنيا. وقُرئ: "مُكَرَّمُونَ" بالتشديد.[١]

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في جنّاتٍ ليس فيها إلّا النعيم، وهو ظرف، أو حالٌ مِن المستكِنّ في ﴿مُّكْرَمُونَ﴾، أو خبر ثانٍ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ محتمل للحاليّة والخبريّة. فقوله تعالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حال مِن المستكنّ فيه، أو في ﴿مُّكْرَمُونَ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ إمّا استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية تكاملِ مجالس أُنْسِهم، أو حال مِن الضمير في ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾،[٤] أو في أحد الجارَّين. وقد جُوّز كونه صفةً لـ﴿مُّكْرَمُونَ﴾.[٥]

[٤١٣ظ] ﴿بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه خمر، أو بخمرٍ، فإنّ "الكأس" يطلق على / نفس الخمر، كما في قول مَن قال:

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ   وأخرى تداويتُ منها بها[٦]

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ متعلّق بمُضمَر هو صفة لـ﴿كَأْسٍ﴾، أي: كائنةٍ مِن شرابٍ مَعِين، أو مِن نهرٍ مَعِين؛ وهو الجاري على وجه الأرض، الظاهرُ للعيون، أو الخارجُ مِن العيون. مِن "عانَ الماءُ" إذا نَبَعَ، وُصِف به الخمر وهو للماء لأنّها تجري في الجنّة في أنهار كما يجري الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد، ١٥/٤٧].

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٥.
٢ في الآية السابقة.
٣ في الآية السابقة.
٤ في الآية السابقة.
٥ الصافات، ٤٢/٣٧.
٦ للأعشى الكبير في ديوانه، ص ١٧٣.

﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ صفتان أيضًا لـ﴿كَأۡسٍ﴾.[١] ووصفها بـ﴿لَذَّةٖ﴾ إمّا للمبالغة، كأنّها نفس اللذّة، أو لأنّها تأنيث "اللَّذّ" بمعنى "اللذيذ"، ووَزنه "فَعِل"، قال:

ولَــذٍّ كطَعـمِ الـصَّـرخَـديِّ[٢] تركتُهُ   بـأرضِ العِدى مِن خِيفة الحَدَثانِ[٣]

يريد به النوم.

﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ أي: غائلةٌ كما في خمور الدنيا، مِن "غالَه" إذا أفسدَه وأهلكه، ومنه "الغُول".

﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ يَسكَرون، مِن "نُزِفَ الشاربُ فهو نَزيفٌ ومَنزوفٌ" إذا ذهب عقله، ويقال للمَطعون: "نُزِفَ فَماتَ" إذا خرجَ دمه كلّه. أُفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله مِن نفي الغَول عنها لِما أنّه مِن معظم مفاسد الخمر، كأنّه جنس برأسه.

والمعنى: لا فيها نوع مِن أنواع الفساد مِن مَغص أو صُداع أو خِمار أو عربَدة أو لغو أو تأثيم، ولا هم يَسكرون.

وقُرئ: "يُنْزِفُونَ" بكسر "الزاء"،[٤] مِن "أنزَفَ الشاربُ" إذا نفِدَ عقلُه أو شرابُه. وقُرئ: "يَنْزُفُونَ" بضمّ "الزاء"،[٥] مِن "نَزُفَ يَنْزُفُ" بضمّ "الزاء" فيهما.

﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ۝٤٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠﴾

﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ قَصرْن أبصارهنّ على أزواجهنّ، لا يمدُدن طَرْفًا إلى غيرهم، ﴿عِينٞ﴾ نُجلُ العيون، جمع "عَيناء"، والنَّجَل: سَعة العين.

---

١ في الآية السابقة.

٢ وفي هامش م: الصَّرخَد بلد بالشام يُنسب إليه الخمر. «منه». | صَرخَد: بلد ملاصق لبلاد حَوران مِن أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة، وولاية حسنة واسعة. معجم البلدان للحموي، ٤٠١/٣.

٣ البيت بغير نسبة في لسان العرب لابن منظور، «لذذ». وأوردَه للراعي النميري بلفظ:

ولَـذٍّ كطعـمِ الـصرخـديِّ دفعتُهُ
عشيةَ خِمسِ القوم والعينُ عاشِقُه

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٠١/٩.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شُبِّهن ببَيض النَّعام المَصون مِن الغبار ونحوِه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صُفرة، فإنّ ذلك أحسن ألوان الأبدان.

[٤١٤و] / ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ معطوف على ﴿يُطَافُ﴾،[١] أي: يشربون فيتحادثون على الشراب، كما هو عادة الشرب، قال:

وما بقيت مِن اللذّات إلّا أحاديثُ الكرام على المُدامِ[٢]

فيُقبِل بعضهم على بعض يتساءلون عن الفضائل والمعارف، وعمّا جرى لهم وعليهم في الدنيا. فالتعبير عنه بصيغة الماضي للتأكيد والدلالة على تحقّق الوقوع حتمًا.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في تضاعيف محاوراتهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي﴾ في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾ مصاحِب، ﴿يَقُولُ﴾ لي على طريقة التوبيخ بما كنتُ عليه مِن الإيمان والتصديق بالبعث: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: بالبعث. وقُرئ بتشديد "الصاد"[٣] مِن "التصدّق". والأوّل هو الأوفق لقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: لمبعوثون ومجزيّون، مِن "الدِّين" بمعنى الجزاء، أو لمَسوسون، يقال: "دانَه"، أي: ساسَه، ومنه الحديث: «العاقل مَن دانَ نفسه».[٤]

وقيل: كان رجل تصدّق بماله لوجه الله تعالى، فاحتاج، فاستَجْدى[٥] بعضَ إخوانه، فقال: «أين مالُك؟» قال: «تصدّقت به ليعوّضني الله تعالى في الآخرة خيرًا منه»، فقال: «أئنّك مِن المصدِّقين بيوم الدين؟ أو مِن المتصدّقين لطلب الثواب؟

---

١ الصافات، ٤٥/٣٧.

٢ بغير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٤/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠/٥. ونسبه الألوسي إلى محمّد بن فيّاض، بلفظ:

محادثةُ الكرامِ على الشرابِ

روح المعاني للألوسي، ٨٧/١٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كعب عن حمزة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٥.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٤/٤. وهو في سنن الترمذي، ٦٣٨/٤ (٢٤٥٩)؛ وسنن ابن ماجه، ٣٢٨/٥ (٤٢٦٠)، بلفظ: «الكيِّس مَن دانَ نفسه».

٥ وفي هامش م: أي: طلب الجدوى. «منه».

واللهِ لا أعطيك شيئًا».[١] فيكون التعرّض لذِكر موتهم وكونهم ترابًا وعظامًا حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبنيّ على إنكار البعث.

﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥﴾

﴿قَالَ﴾ أي: ذلك القائل بعدما حكى لجُلسائه مقالَ قرينه في الدنيا: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: إلى أهل النار؛ لأُريكم ذلك القرين، يريد بذلك بيانَ صِدقه / فيما حكاه. وقيل: القائل هو الله تعالى، أو بعضُ الملائكة، يقول لهم: هل [٤١٤ظ] تحبّون أن تطّلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القَرين فتعلَموا أين منزلتكم مِن منزلتهم؟ قيل: إنّ في الجنّة كُوًى يَنظر منها أهلها إلى أهل النار.

﴿فَٱطَّلَعَ﴾ أي: عليهم ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي: قرينَه ﴿فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: في وسَطها.

وقُرئ: "فَأَطَّلِعَ"[٢] على لفظ المضارع المنصوب. وقُرئ: "مُطْلِعُونَ فَأَطْلَعَ"،[٣] و"فَأُطْلِعَ"[٤] بالتخفيف على لفظ الماضي والمضارعِ المنصوب. يقال: "طلَعَ علينا فلان" و"اطَّلَعَ" و"أطْلَعَ" بمعنًى واحد.

والمعنى: هل أنتم مطّلعون إلى القرين فأطَّلِعَ أنا أيضًا، أو عرض عليهم الاطِّلاعَ فقبِلوا ما عرضه فاطَّلَع هو بعد ذلك. وإن جُعل الاطِّلاع متعدّيًا فالمعنى: أنّه لمّا شرَط في اطّلاعه اطّلاعَهم كما هو ديدَن الجُلساء فكأنّهم مُطْلِعوه. وقيل: الخطاب على هذا للملائكة.

وقُرئ: "مُطْلِعُونِ" بكسر "النون"[٥] أراد مُطْلِعُونَ إيّايَ، فوُضع المتّصل موضع المنفصل، كقوله:

هُم الفاعلون الخيرَ والآمِرونَه[٦]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٩/٦ (الكهف، ٣٢/١٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[٣] قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٠٣/٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحَيصن. إتحاف فضلاء البشر للدمياطي، ص ٤٧٣.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[٦] وفي هامش م: تمامه:
إذا ما خَشُوا مِن مُحدَثِ الدهر مُعظمًا
بغير نسبة في خزانة الأدب للبغدادي، ٢٦٩/٤. وهو في الكتاب لسيبويه، ١٨٨/١، بلفظ:
هُم القائلون الخيرَ والآمِرونه

أو شُبّه اسم الفاعل بالمضارع، لِما بينهما مِن التآخي.

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي: القائل مخاطِبًا لقرينه: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ أي: لَتُهلِكُني بالإغواء. وقُرئ: "لَتُغْوِينِ".[١] و"التاء" فيه معنى التعجّب، و﴿إِن﴾ هي المخفّفة مِن "إنّ"، وضمير الشأن الذي هو اسمُها محذوف، و"اللام" فارقة، أي: تالله إنّ الشأن كِدْتَ لَتُرديني.

﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ بالهداية والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أي: مِن الذين أحضِروا العذابَ كما أُحْضِرتَهُ / أنت وأضرابُك. [٤١٥و]

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ﴾ رجوع إلى محاورة جُلسائه بعد إتمام الكلام مع قَرينه تَبَجّحًا وابتهاجًا بما أتاح الله عزّ وجلّ لهم مِن الفضل العظيم والنعيمِ المقيم. و"الهمزة" للتقرير، وفيها معنى التعجّب. و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه نظم الكلام، أي: أنحن مخلَّدون منعَّمون، فما نحن بمَيّتين، أي: بمَن شأنُه الموت؟ وقُرئ: "بِمَائِتِينَ".[٢]

﴿إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ التي كانت في الدنيا، وهي متناوِلة لِما في القبر بعد الإحياء للسؤال. قاله تصديقًا لقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الدخان، ٥٦/٤٤].

وقيل: إنّ أهل الجنّة أوّلَ ما دَخلوا الجنّة لا يعلمون أنّهم لا يموتون، فإذا جِيءَ بالموت على صورة كبشٍ أملَح وذُبِحَ فنُودي: «يا أهل الجنّة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موتَ»؛[٣] يعلمونَه فيقولون ذلك تحدّثًا بنعمة الله تعالى واغتباطًا بها.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[٣] صحيح البخاري، ٩٣/٦ (٤٧٣٠)؛ صحيح مسلم، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩).

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كالكُفّار، فإنّ النجاة مِن العذاب أيضًا نعمة جليلة مستوجِبة للتحدّث بها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الأمرَ العظيم الذي نحن فيه ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. وقيل: هو مِن قول الله عزّ وجلّ تقريرًا لقولهم وتصديقًا له. وقُرِئ: "لَهُوَ الرِّزْقُ الْعَظِيمُ"،[١] وهو ما رُزِقوه مِن السعادة العُظمى.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ أي: لنَيل هذا المرام الجليل يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيويّة السريعةِ الانصِرام، المَشوبةِ بفنون / الآلام. وهذا [٤١٥ظ] أيضًا يحتمل أن يكون مِن كلام ربّ العزّة.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣﴾

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أصل "النُّزُل" الفضل والرَّيع، فاستعير للحاصل مِن الشيء، فانتصابُه على التميز، أي: أَذلك الرزق المعلوم الذي حاصله اللذّة والسرور خيرٌ نزلًا أم شجرة الزقّوم التي حاصِلها الألَم والغمّ؟ ويُقال: "النُّزُل" لِما يُقَام ويُهيَّأُ مِن الطعام الحاضر للنازل، فانتصابُه على الحاليّة. والمعنى: أنّ الرزق المعلوم نُزُل أهل الجنّة، وأهلُ النار نُزُلهم شجرة الزقّوم، فأيُّهما خير في كونه نُزُلًا؟ و﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ اسم شجرة صغيرة الورَق دَفِرَةٍ[٢] مُرّةٍ كريهةِ الرائحة، تكون في تِهامة، سُمّيت به الشجرة الموصوفة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ مِحنةً وعذابًا لهم في الآخرة، وابتلاءً في الدنيا، فإنّهم لمّا سمعوا أنّها في النار قالوا: كيف يمكن ذلك، والنار تُحرق الشجر؟ ولم يعلموا أنّ مَن قدَر على خلق حيوان يعيش في النار ويتلذّذ بها أقدَر على خَلق الشجر في النار، وحِفظه مِن الإحراق.

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٤.

[٢] أي: مُنتِنة. والدَّفَر: النَّتْنُ خاصّة. انظر: الصحاح للجوهري، «دفر».

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ مَنبتُها في قَعر جهنّم، وأغصانُها ترتفع إلى دَرَكاتها. وقُرئ: "نَابِتَةٌ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ".[1]

﴿طَلْعُهَا﴾ أي: حَملُها الذي يخرج منها، مستعارٌ في طَلْع النخلة لمشاركته له في الشكل أو الطُّلوعِ مِن الشجر. قالوا: "أوّل التمر طَلْع، ثمّ خِلال، ثمّ بلَح، ثمّ بُسْر، ثمّ رُطَب، ثمّ تَمر".

﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ في تناهي القُبح والهول. وهو تشبيه بالمُخيَّل، كتشبيه الفائق في الحسن بالمَلَك. وقيل: ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الحيّات الهائلة القبيحة المنظر، لها أعراف. وقيل: إنّ شجرًا يُقال له: "الْأَسْتَنُ" خَشِنًا مُنتِنًا مُرًّا، منكرَ الصورة، يُسمّى ثمرُه "رءوسَ الشياطين".

﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧﴾

[٤١٦و] ﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا﴾ / أي: مِن الشجرة، أو مِن طَلعها، فالتأنيث مكتسَب مِن المضاف إليه. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ لِغلَبة الجوع، أو للقَسر على أكلها وإن كرهوها، ليكون ذلك بابًا مِن العذاب.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على الشجرة التي مَلأُوا منها بطونهم بعدَ ما شبعوا منها، وغلبَهم العطش، وطال استسقاؤهم، كما يُنبئ عنه كلمة ﴿ثُمَّ﴾، ويجوز أن تكون لِما في شرابهم مِن مزيد الكراهة والبشاعة.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لَشرابًا مِن غسّاق أو صديدٍ مَشوبًا بماءٍ حميم يُقطِّع أمعاءَهم. وقُرئ بالضمّ،[2] وهو اسم لِما يُشاب، والأوّل مصدر سمّي به.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي: مصيرهم. وقد قُرئ كذلك.[3] ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ إلى دَرَكاتها،

---

[1] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن شيبان النحوي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

أو إلى نفسِها، فإنّ الزقّوم والحميم نُزُلٌ يقدَّم إليهم قبلَ دخولها. وقيل: الحميم خارج عنها، لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن، ٥٥/٤٣-٤٤]، يُذهَب بهم عن مَقارّهم ومنازلهم في الجحيم إلى شجرة الزقّوم، فيأكلون منها إلى أن يتملّئُوا، ثمّ يُسقَون مِن الحميم، ثمّ يُردُّون إلى الجحيم. ويؤيّده أنّه قُرئ: "ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ".[١]

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما ذُكر مِن فنون العذاب بتقليد الآباء في الدين مِن غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شيء يتمسّك به أصلًا، أي: وجدوهم ضالّين في نفس الأمر، ليس لهم ما يصلح شُبهةً فضلًا عن صلاحيّة الدليل.

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ مِن غير أن يتدبّروا أنّهم على الحقّ أوّلًا مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمّلٍ. و"الإهراع": الإسراع الشديد، كأنّهم يُزعَجُون ويُحَثُّون حثًّا على الإسراع على آثارهم. وقيل: هو إسراع فيه شِبهُ رَعدة.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبلَ قومك قريش ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن الأمم السالفة، وهو جواب قسَم محذوف.

[٤١٦ظ] وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ / أي: أنبياءَ أولي عدد كثير، وذوي شأنٍ خطير، بيّنُوا لهم بطلان ما هم عليه، وأنذروهم عاقبتَه الوَخيمة. وتكرير القسَم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كلٍّ مِن الجملتين.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مِن الهول والفظاعة، لمّا لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا له رأسًا. والخِطاب إمّا للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلِّ أحدٍ ممّن يتمكّن مِن مشاهدة آثارِهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

وحيث كان المعنى أنّهم أُهلِكوا إهلاكًا فظيعًا استثنِي عنهم المخلَصون بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلَصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان، والعملِ بموجَب الإنذار. وقُرئ: "الْمُخْلِصِينَ" بكسر "اللام"،[1] أي: الذين أخلَصوا دينهم لله تعالى.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ نوعُ تفصيل لِما أُجمِلَ فيما قبلُ ببيان أحوال بعض المرسلين وحُسن عاقبتهم، متضمّن لبيان سُوءِ عاقبة بعض المنذَرين حسبما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس، ٧٣/١٠]، كقوم نوح وآل فرعونَ وقوم لوط وقوم إلياس، ولبيان حُسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى،[2] ووفّقهم للإيمان، كما أشار إليه الاستثناء، كقوم يونس عليهم السلام. ووجه تقديم قصّة نوح على سائر القصص غنيّ عن البيان.

و"اللام" جواب قسَم محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي: وباللهِ لقد دعانا نوح حين يَئِس مِن إيمان قومه بعد ما دعاهم إليه أحقابًا ودُهورًا، فلم يزدهم دعاؤه إلّا فِرارًا ونُفورًا، فأجبناه أحسنَ الإجابة، فواللهِ لَنِعم المُجيبون نحن. فحُذف ما حُذف ثقةً بدلالة ما ذُكر عليه. والجمع دليل العظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: مِن الغرَق. وقيل: مِن أذيّة قومه.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ فحسبُ حيث أهلكنا الكفرة بموجَب دعائه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح، ٢٦/٧١]. وقد رُوي أنّه مات كلّ

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

[2] س - تعالى.

مَن كان معه في السفينة غيرَ أبنائه وأزواجهم.[١] أو هم الذين بقُوا متناسلين إلى يوم القيامة. قال قتادة رضي الله عنه: «الناس كلّهم مِن ذرّية نوح عليه السلام».[٢]
/ وكان له ثلاثة أولاد سام وحام ويافَثُ، فسام أبو العرب وفارسَ والروم، وحامٌ أبو السُّودان مِن المشرق إلى المغرب، ويافَثُ أبو التُّرك ويأجوجَ ومأجوجَ. [٤١٧و]

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ مِن الأمم.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ أي: هذا الكلام بعَينه، وهو وارد على الحكاية، كقولك: "قرأتُ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور، ٢٤/١]". والمعنى: يُسلّمون عليه تسليمًا، ويدعون له على الدوام، أمّةً بعد أمّة. وقيل: ثَمّةَ قول مقدَّر، أي: فقلنا. وقيل: ضُمِّن ﴿تَرَكْنَا﴾[٣] معنى "قُلنا".

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلّق بالجارّ والمجرور. ومعناه الدعاء بثبات هذه التحيّة واستمرارها أبدًا في العالَمين مِن الملائكة والثقلَين جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لِما فُعِل به عليه السلام مِن التكرمة السنيّة، مِن إجابة دعائه أحسنَ إجابةٍ، وإبقاءِ ذرّيّته، وتبقيةِ ذِكره الجميل، وتسليمِ العالَمين عليه إلى آخر الدهر؛ بكونه مِن زُمرة المعروفين بالإحسان الراسخين فيه، وأنّ ذلك مِن قَبيل مُجازاة الإحسان بالإحسان، وذلك إشارة إلى ما ذُكر[٤] مِن الكرامات السنيّة التي وقعت جزاءً له عليه السلام. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلوّ رتبته وبُعد منزلته في الفضل والشرف. و"الكاف" متعلّقة بما بعدها، أي: مثلَ ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان، لا جزاءً أدنى منه.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١٣.

[٢] جامع البيان للطبري، ١٩/٥٦٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] وفي هامش م: إشارة إلى وجه التذكير. «منه».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لكونه مِن المحسنين بخلوص عبوديّته، وكمال إيمانه. وفيه مِن الدلالة على جلالة قدرِهما ما لا يخفى.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ أي: المغايِرين لنوح وأهله، وهم كفّار قومه أجمعين.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾

[٤١٧ظ] ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممّن شايَعه في أصول الدين / ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وإن اختلفت فروع شرائعهما. ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتّفاق كلّي أو أكثري. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «مِن أهل دينه، وعلى سنّته»،[١] أو ممّن شايَعه على التصلّب في دين الله، ومصابرةِ المكذّبين، وما كان بينهما إلّا نبيّان، هود وصالح عليهم السلام، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستُّمائة وأربعون سنةً.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ منصوب بـ"اذكر"، أو متعلّق بما في الشيعة مِن معنى المشايَعة، ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: مِن آفات القلوب، أو مِن العلائق الشاغِلة عن التبتّل إلى الله عزّ وجلّ. ومعنى "المجيء به ربَّه" إخلاصُه له، كأنّه جاء به مُتْحِفًا إيّاه بطريق التمثيل.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدل مِن الأولى، أو ظرف لـ﴿جَآءَ﴾، أو لـ﴿سَلِيمٍ﴾، أي: أيَّ شيء تعبدون؟

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي: أتريدون آلهةً مِن دون الله إفكًا، أي: للإفك، فقُدّم المفعول على الفعل للعناية، ثمّ المفعول له على المفعول به؛ لأنّ الأهمّ مكافحتهم بأنّهم على إفكٍ وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون ﴿إِفْكًا﴾ مفعولًا به بمعنى: أتريدون إفكًا؟ ثمّ يفسِّر "الإفك" بقوله: "آلهةً مِن دون الله" دلالةً على أنّها إفكٌ في نفسها للمبالغة، أو يُراد بها عبادتها بحذف المضاف، ويجوز أن يكون حالًا بمعنى "آفِكين".

---

[١] جامع البيان للطبري، ١٩/٥٦٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: بمَن هو حقيق بالعبادة لكونه ربًا للعالمين حتّى تركتم عبادته خاصّةً، وأشركتم به أخسَّ مخلوقاته؟ أو فما ظنّكم به أيُّ شيء هو مِن الأشياء حتّى جعلتم الأصنام له أندادًا؟ أو فما ظنّكم به ماذا يفعل بكم؟ وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم مِن الإشراك به؟

﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ٨٩ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ٩٠﴾

/ ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ قيل: كانت له عليه السلام حمّى لها نوبة معيّنة في [٤١٨و] بعض ساعات الليل، فنظر ليَعرف هل هي تلك الساعة، فإذا هي قد حضرت، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ وكان صادقًا في ذلك، فجعله عُذرًا في تخلّفه عن عيدهم. وقيل: أراد إنّي سقيم القلب لكفركم.

وقيل: نظر في علمها، أو في كُتبها، أو أحكامها. ولا منعَ مِن ذلك حيث كان قصده عليه السلام إيهامهم حين أرادوا أن يخرجوا به عليه السلام إلى مُعَيَّدِهم ليتركوه، فإنّ القوم كانوا نجّامين، فأوهمهم أنّه قد استدلّ بأمارةٍ في علم النجوم على أنّه سقيم، أي: مُشارِف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلبَ الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، ليتفرّقوا عنه، فهربوا منه إلى مُعَيَّدِهم وتركوه في بيت الأصنام، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾ أي: هاربين مخافةَ العدوى.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢﴾

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ أي: ذهب إليها في خُفْيةٍ، وأصلُه الميل بحيلةٍ، ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام استهزاءً: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي: مِن الطعام الذي كانوا يصنعونه عندها لِتُبَرِّك عليه.

﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ أي: بجوابي.

﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ٩٣ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ٩٤﴾

﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فمالَ مستعليًا عليهم. وقوله تعالى: ﴿ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ مصدر مؤكِّدٌ لِـ﴿رَاغَ عَلَيۡهِمۡ﴾، فإنّه بمعنى "ضَرَبهم"، أو لفعل مُضمَر هو حال مِن فاعله،

أي: فراغَ عليهم يضرِبهم ضربًا، أو هو الحال منه على أنّه مصدر بمعنى الفاعل، أي: فراغَ عليهم ضاربًا باليمين، أي: ضربًا شديدًا قويًا؛ وذلك لأنّ اليمين أقوى الجارحتَين وأشدُّهما، وقوّة الآلة تقتضي قوّة الفعل وشدّته. وقيل: بالقوّة والمَتانة، كما في قوله:

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لِمَجدٍ تلقّاها عَرابةُ باليمينِ[1]

[٤١٨ظ] أي: بالقوّة، وعلى ذلك / مدارُ تسمية الحَلِف باليمين؛ لأنّه يقوّي الكلام ويؤكّده. وقيل: بسبب الحَلِف، وهو قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء، ٥٧/٢١].

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: المأمورون بإحضاره عليه السلام بعد ما رَجعوا عن عيدهم إلى بيت الأصنام، فوجدوها مكسورةً، فسألوا عن الفاعل، فظنّوا أنّه عليه السلام فعله، فقيل: فَأْتُوا به.

﴿يَزِفُّونَ﴾ حال مِن "واو" ﴿أَقْبَلُوٓاْ﴾، أي: يُسرعون، مِن "زَفيف النَّعام". وقُرئ: "يُزِفُّونَ"[2] مِن "أزَفَّ" إذا دخل في الزَّفيف، أو مِن "أَزَفَّه"، أي: حمله على الزَّفِيف، أي: يُزِفُّ بعضهم بعضًا، و"يُزَفُّونَ"[3] على البناء للمفعول، أي: يُحمَلُون على الزَّفيف، و"يَزِفُونَ"[4] مِن "وَزَفَ يَزِفُ" إذا أسرع، و"يَزْفُونَ"[5] مِن "زَفاه" إذا حَداه، كأنّ بعضهم يَزْفُو بعضًا، لتسارعهم إليه عليه السلام.

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾

﴿قَالَ﴾ أي: بعد ما أتَوا به عليه السلام وجرى بينه عليه السلام وبينهم مِن المحاورات ما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾

---

١ للشمّاخ في ديوانه، ص ٣٣٦. ونسبه الجوهري للحطيئة، وقال: «وعَرابة، بالفتح: اسم رجل مِن الأنصار مِن الأوس». انظر: الصحاح للجوهري، «عرب».

٢ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن زيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[الأنبياء، ٦٢/٢١] إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء، ٦٥/٢١]: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ما تنحتونه مِن الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَعْبُدُونَ﴾، مؤكِّدة للإنكار والتوبيخ، أي: والحال أنّه تعالى خلقكم وخلَق ما تعملونه، فإنّ جوهر أصنامهم ومادّتَها بخلقه تعالى، وشكلَها وإن كان بفعلهم لكنّه بإقداره تعالى إيّاهم عليه، وخلقِه ما يتوقّف عليه فعلُهم مِن الدواعي والعُدَدِ والأسبابِ.

و﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ إمّا عبارة عن الأصنام، فوضعُه موضع ضمير ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ للإيذان بأنّ مخلوقيّتها لله عزّ وجلّ ليس مِن حيث نَحْتُهم لها فقط؛ بل / مِن [٤١٩و]
حيث سائرُ أعمالهم أيضًا مِن التصوير والتحلية والتزيين ونحوها، وإمّا على عمومه، فينتظم الأصنامَ انتظامًا أوّليًا مع ما فيه مِن تحقيق الحقّ ببيان أنّ جميع ما يعملونه كائنًا ما كان مخلوقٌ له سبحانه.

وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: عملَكم على أنّه بمعنى المفعول. وقيل: بمعناه، فإنّ فعلهم إذا كان بخَلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقّف على فعلهم أولى بذلك.

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في النار الشديدة الاتّقاد، مِن "الجَحْمة"؛ وهي شدّة التأجُّج، و"اللام" عوض مِن المضاف إليه، أي: جحيم ذلك البنيان، وقد ذُكر كيفيّة بنائهم له في سورة الأنبياء.[١]

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فإنّه عليه السلام لمّا قهرهم بالحجّة وألقمهم الحجَر قصدوا ما قصدوا لئلّا يظهر للعامّة عجزهم، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلِّين بإبطال كيدهم، وجعلِه برهانًا نيّرًا على علوّ شأنه عليه السلام بجعل النار عليه بردًا وسلامًا.

---

١ الأنبياء، ٦٨/٢١.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩﴾

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: مهاجرٌ إلى حيث أمرَني ربّي، كما قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت، ٢٦/٢٩]؛ وهو الشام، أو إلى حيث أتجرّد فيه لعبادته تعالى.

﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: إلى ما فيه صلاح ديني، أو إلى مَقصدي. وبَتُّ القول بذلك لسبق الوعد، أو لفَرْط توكّله، أو للبناء على عادته تعالى معه، ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص، ٢٢/٢٨]، ولذلك أتى بصيغة التوقّع.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: بعضَ الصالحين، يعينني على الدعوة والطاعة، ويُؤنِسُني في الغُربة، يعني الولدَ؛ لأنّ لفظ / الهبة على الإطلاق خاصّ [٤١٩ظ] به، وإن كان قد ورد مقيّدًا بالأخوّة في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم، ٥٣/١٩]، ولقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فإنّه صريح في أنّ المبشَّر به عينُ ما استوهبه عليه السلام.

ولقد جُمِع فيه بِشارات ثلاث: بشارة أنّه غلام، وأنّه يبلُغ أوانَ الحُلُم، وأنّه يكون حليمًا، وأيُّ حِلم يعادل حِلمَه عليه السلام حين عَرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.[١]

وقيل: ما نعتَ الله الأنبياءَ عليهم السلام بأقلّ ممّا نعتَهم بالحِلم لعِزّة وجوده غيرَ إبراهيمَ وابنه، فإنّه تعالى نَعَتَهُما به، وحالُهما المَحكيّة بَعدُ أعدلُ بيّنةٍ بذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١٠٢﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ فصيحة مُعرِبة عن مقدَّر قد حُذِف تعويلًا على شهادة الحال، وإيذانًا بعدم الحاجة إلى التصريح به

---

[١] في الآية التالية.

لاستحالة التخلّف والتأخّر بعد البِشارة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف، ٣١/١٢]، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل، ٤٠/٢٧]، أي: فوَهَبْناهُ له، فَنَشَأَ، فلمّا بلغ رتبةَ أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه.

و﴿مَعَهُ﴾ متعلّق بمحذوف ينبئ عنه ﴿ٱلسَّعْىَ﴾، لا بنفسه؛ لأنّ صلة المصدر لا يتقدّمه،[١] وَلا بـ﴿بَلَغَ﴾؛ لأنّ بلوغهما لم يكن معًا، كأنّه لمّا ذُكِر السعي قيل: مع مَن؟ فقيل: "معه"، وتخصيصه لأنّ الأب أكمل في الرفق والاستصلاح، فلا يستسعيه قبل أوانه، أو لأنّه استوهبه لذلك، وكان له يومئذ ثلاثَ عشرةَ سنةً.

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ أي: أرى هذه الصورةَ بعينها، أو ما هذه عبارتُه وتأويلُه. وقيل: إنّه رأى ليلة التروية كأنّ قائلًا يقول له: "إنّ الله يأمرك بذَبح ابنك هذا"، فلمّا أصبح روّى في ذلك مِن الصباح إلى الرَّواح؛ أمِن اللهِ هذا الحُلُم أم مِن الشيطان؟ فمِن ثمّةَ سمّي يومَ التروية، فلمّا أمسى رأى مِثل ذلك، فعَرف أنّه مِن الله تعالى، فمِن ثمّة / سُمّي [٤٢٠و]
يومَ عرفةَ، ثمّ رأى مثله في الليلة الثالثة فهَمّ بنحره، فسُمّي اليومُ يومَ النحر.[٢]

وقيل: إنّ الملائكة حين بشّرتْه بغلام حليم قال: «إذَنْ ذبيح الله»، فلمّا وُلد وبلَغ حدَّ السعي معه قيل لَه: «أَوْفِ بنَذرك».[٣]

والأظهر الأشهر أنّ المخاطَب إسماعيل عليه السلام، إذ هو الذي وُهِبَ إثْرَ المهاجَرة، ولأنّ البِشارة بإسحاق بعده معطوف على البِشارة بهذا الغلام، ولقوله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا ابن الذبيحَين»،[٤] فأحدهما جدّه إسماعيل عليه السلام، والآخَر أبوه عبد الله، فإنّ عبدَ المطّلب نذَر أن يذبَح ولدًا إن سهّل الله تعالى له

---

[١] س: بتقدّمه.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٦/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣/٤.

[٣] جامع البيان للطبري، ٥٨٠/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٤/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٤.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٤. وقال الزيلعي: «غريب». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٧٧/٣. وأخرجه الحاكم في المستدرك، ٦٠٤/٢ (٤٠٣٦)، مِن قول أعرابي للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولفظه: «فعُد عليّ بما أفاءَ الله عليك يا ابن الذبيحَين»، فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولم ينكِر عليه.

حفر بئر زمزم، أو بلغ بنوه عشرةً، فلمّا حصل ذلك وخرج السهم على عبد الله فداه بمائةٍ مِن الإبل،[١] ولذلك سُنّت الدية مائةً.

ولأنّ ذلك كان بمكّة، وكان قرنا الكبش معلَّقَين بالكعبة حتّى احترقا في أيّام ابن الزبير، ولم يكن إسحاقُ ثمّة، ولأنّ بشارة إسحاق كانت مقرونةً بولادة يعقوب منه، فلا يناسبه الأمر بذَبحه مراهِقًا.

وما رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم سئل: «أيّ النسب أشرف؟» فقال: «يوسفُ صدّيق الله ابنُ يعقوبَ إسرائيلِ الله ابنِ إسحاقَ ذبيحِ الله ابنِ إبراهيمَ خليلِ الله»،[٢] فالصحيح أنّه عليه الصلاة والسلام قال: «يوسفُ بن يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ[٣] إبراهيمَ»،[٤] والزوائد مِن الراوي.[٥] وما رُوي مِن أنّ يعقوب كتب إلى يوسف مثلَ ذلك لم يثبت.[٦]

وقُرئ: "إِنِّيَ" بفتح "الياء" فيهما.[٧]

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ مِن "الرأي"، وإنّما شاوَره فيه وهو أمر محتوم ليَعلم ما عنده فيما نزَل مِن بلاء الله تعالى فيثبّت قدمه إن جزِع، ويأمَنَ عليه إن سلِم، ليوطّنَ نفسه عليه فيهون، ويكتسبَ المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله. وقُرئ: "مَاذَا تُرِي"[٨] بضمّ "التاء" وكسر "الراء"،[٩] وبفتحها[١٠] مبنيًّا للمفعول.

---

١ انظر حديث الأعرابي في جامع البيان للطبري، ١٩/٥٩٧؛ والمستدرك للحاكم، ٢/٦٠٤ (٤٠٣٦).

٢ أخرج الطبراني في المعجم الكبير، ١٠/١٤٩ (١٠٢٧٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه سُئل: «مَن أكرم الناس؟»، قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيحِ الله».

٣ س: ابن.

٤ أخرج البخاري في صحيحه، ٤/١٥١ (٣٣٩٠)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام».

٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١٥.

٦ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١٥. وانظر: تفسير ابن كثير، ٤/٤٠٥.

٧ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٠.

٨ م ط س: ما تري. | وأظنه وقع سهوًا، والصواب ما أثبتُه.

٩ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٧.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٧.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي: تؤمر به، / فحُذف الجارّ أوّلًا على القاعدة [٤٢٠ظ]
المطّردة، ثمّ حُذف العائد إلى الموصول بعد انقلابه منصوبًا بإيصاله إلى الفعل، أو حُذِفا دفعةً، أو "افْعَل أمرَكَ" على إضافة المصدر إلى المفعول وتسميةِ المأمور به أمرًا. وقُرِئ: "مَا تُؤْمَرُ بِهِ".[١] وصيغة المضارع للدلالة على أنّ الأمر متعلّق به متوجّه إليه، مستمرّ إلى حين الامتثال به.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح، أو على قضاء الله تعالى.[٢]

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: استسلَما لأمر الله تعالى، وانقادا وخضعا له. يقال: "سَلَّمَ لأمر الله" و"أَسْلَمَ" و"اسْتَسْلَمَ" بمعنًى واحد، وقد قُرئ بهنّ جميعًا.[٣] وأصلُها مِن قولك: "سَلِمَ هذا لِفلان" إذا خَلُص له، ومعناه: سَلِمَ مِن أن ينازَعَ فيه. وقولهم: "سَلَّمَ لأمر الله" و"أَسْلَمَ له" منقولان منه. ومعناهما: أخلَصَ نفسه لله، وجعلها سالمةً له، وكذلك معنى "اسْتَسْلَمَ" استَخْلَص نفسه له تعالى. وعن قتادة رضي الله عنه في ﴿أَسۡلَمَا﴾: «أَسْلَمَ إبراهيمُ ابنَه، وإسماعيلُ نفسَه».[٤]

﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ صرَعه على شِقّه، فوقع جَبينُه على الأرض، وهو أحد جانبَي الجبهة. وقيل: كبّه على وجهه بإشارته كيلا يَرى منه ما يورث رِقّةً تحُول بينه وبين أمر الله تعالى، وكان ذلك عند الصخرة مِن مِنًى. وقيل: في الموضع المُشرِف على مسجد مِنى. وقيل: في المَنحر الذي يُنحر اليومَ.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٤.
٢ س - تعالى.
٣ هي ثلاث قراءات: "أَسْلَمَا" قراءة الجمهور. و"سَلَّمَا" قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ وابن عبّاس رضي الله عنهم ومجاهد والضحّاك وجعفر بن محمّد والأعمش والثوري. و"اسْتَسْلَمَا" قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١١٧/٩.
٤ جامع البيان للطبري، ٥٨٤/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٦/٨.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ بالعزم على الإتيان بالمأمور به وترتيبِ مقدِّماته. وقد رُوي أنّه أَمَرَّ السكّينَ بقوّته على حَلْقه مِرارًا فلم يقطع، ثمّ وضع السكّين على قَفاه فانقلب السكّين، فعند ذلك وقع النداء.[١]

وجواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف إيذانًا بعدم وفاء التعبير بتفاصيله، كأنّه قيل: كان ما كان ممّا لا يحيط به نطاق البيان مِن استبشارهما وشكرهما الله تعالى على ما أنعم به عليهما مِن دفع البلاء بعد حلوله، والتوفيقِ لِما لم يوفَّق أحد لِمثله، وإظهارِ / فضلهما بذلك على العالمين مع إحراز الثواب العظيم، إلى غير ذلك. [٤٢١و]

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لتفريج تلك الكُربة عنهما بإحسانهما. واحتجّ به مَن جوّز النسخ قبل وقوع المأمور به، فإنّه عليه السلام كان مأمورًا بالذبح لقوله تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾،[٢] ولم يحصل.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الابتلاء البيّن الذي يتميّز فيه المخلِص عن غيره، أو المِحنةُ البيّنةُ الصعوبةِ؛ إذ لا شيءَ أصعب منها.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ بما يُذبَح بدلَه فيتمّ به الفعل، ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: عظيمِ الجُثّة سمينٍ، أو عظيمِ القَدر؛ لأنّه يفدي به الله نبيًّا ابنَ نبي وأيِّ نبيّ مِن نسله سيّدُ المرسلين.

قيل: كان ذلك كبشًا مِن الجنّة. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّه الكبش الذي قرّبه هابيل فتُقُبِّل منه، وكان يرعى في[٣] الجنّة حتّى فُدِي به إسماعيلُ عليه السلام».[٤] وقيل: فُدِي بوَعْل أُهبِطَ عليه مِن ثَبير.[٥]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٤/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٤.

٢ الصافات، ١٠٢/٣٧.

٣ م + في.

٤ جامع البيان للطبري، ٦٠١/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١١٨/٩.

٥ جامع البيان للطبري، ٦٠٤/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤.

ورُوي أنّه هرَب مِن إبراهيم عليه السلام عند الجمرة، فرماه بسبع حصيّات حتّى أخذه،[١] فبقي سُنّةً في الرمي. ورُوي أنّه رمى الشيطانَ حين تعرّض له بالوسوسة عند ذبح ولده.[٢]

ورُوي أنه لمّا ذبحه قال جبريل عليه السلام: «الله أكبر، الله أكبر»، فقال الذبيح: «لا إلٰه إلّا الله، والله أكبر»، فقال إبراهيم: «الله أكبر، ولله الحمد»،[٣] فبقي سُنّةً.

والفادي في الحقيقة هو إبراهيم، وإنّما قيل: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ لأنّه تعالى هو المعطي له والآمِرُ به على التجوّز في الفداء أو الإسناد.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قد سلف بيانه في خاتمة قصّة نوح.[٤]

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إبقاءِ ذِكره الجميل فيما بين الأمم، لا إلى ما أشيرَ إليه فيما سبَق، فلا تكرارَ. وعدم تصدير الجملة بـ"إنّا" للاكتفاءِ بما مرّ آنفًا.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الراسخين في الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مقضيًّا بنبوّته / مقدَّرًا كونه مِن الصالحين، وبهذا الاعتبار وقعا حالَين. ولا حاجةَ إلى وجود المبشَّر به وقتَ البِشارة، فإنّ وجود ذي الحال ليس بشرط، وإنّما الشرط مقارَنة تعلّقِ الفعل به لاعتبار معنى الحال، فلا حاجةَ إلى تقدير مضافٍ يُجعل عاملًا فيهما مثلَ: [٤٢١ظ]

١ جامع البيان للطبري، ٦٠٣/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤؛ تفسير القرطبي، ١٠٢/١٥.

٤ الصافات، ٧٩/٣٧.

"وبشّرناه بوجود إسحاقَ؛ أي بأن يوجدَ إسحاق نبيًا مِن الصالحين"، ومع ذلك لا يصير نظيرَ قوله: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر، ٧٣/٣٩]، فإنّ الداخلين كانوا مقدّرين خلودَهم وقت الدخول، وإسحاق عليه السلام لم يكن مقدّرًا نبوةَ نفسه وصلاحَها حين ما يوجد.

ومَن فسّر "الغلام" بإسحاق جعل المقصود مِن البِشارة نبوّتَه.

وفي ذِكر الصلاح بعد النبوّة تعظيمٌ لشأنه وإيماءٌ إلى أنّه الغاية لها، لتضمّنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق.

﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾

﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ بأن أخرجنا مِن صُلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرَهم كأيّوب وشعيب عليهم السلام، أو أفَضْنا عليهما بركات الدين والدنيا. وقُرئ: "وَبَرَّكۡنَا".[1]

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ﴾ في عمله، أو لنفسه بالإيمان والطاعة، ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿مُبِينٞ﴾ ظاهرٌ ظلمُه. وفيه تنبيه على أنّ النسب لا تأثيرَ له في الهداية والضلال، وأنّ الظلم في أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصةٍ ولا عيبٍ.

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦﴾

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: أنعمنا عليهما بالنبوّة وغيرها مِن النعم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا﴾ وهم بنو[2] إسرائيل ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هو مَلَكةُ آل فرعونَ، وتسلُّطهم عليهم بألوان الغَشْم[3] والعذاب، كما في قوله تعالى:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن عامر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٧.

[2] م: بنوا.

[3] وفي هامش م: "الغَشْم": الظلم.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف، ١٤١/٧]. وقيل: هو الغرق،[١] وهو بعيد؛ لأنّه لم يكن عليهم كربًا ومشقّةً.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ أي: إيّاهما وقومَهما على عدوّهم، ﴿فَكَانُواْ﴾ بسبب ذلك ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ عليهم غلبةً لا غايةَ وراءَها بعدَ أن كان قومهما في أَسْرهم وقَسرهم مقهورين تحت أيديهم العادية يسومونهم سوءَ العذاب. وهذه التنجية وإن كانت بحسب الوجود مقارِنةً لِما ذُكر مِن النصر والغلبة، لكنّها لمّا كانت / بحسب [٤٢٢و] المفهوم عبارةً عن التخليص عن المكروه بُدِئ بها ثمّ بالنصر الذي يتحقّق مدلوله بمَحض تنجية المنصور مِن عدوّه مِن غير تغليبه عليه، ثمّ بالغلَبة؛ لتوفية مَقام الامتنان حقَّه بإظهار أنّ كلّ مرتبة مِن هذه المراتب الثلاث نعمةٌ جليلة على حِيالها.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا﴾ بعدَ ذلك ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ أي: البليغَ في البيان والتفصيلِ، وهو التوراة.

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا﴾ بذلك ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الموصّلَ إلى الحقّ والصوابِ بما فيه مِن تفاصيل الشرائع وتفاريعِ الأحكام.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: أبقَينا فيما بين الأمم الآخرين هذا الذكرَ الجميل والثناءَ الجزيل.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ الجزاءِ الكاملِ ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين هما مِن جملتهم، لا جزاءً قاصرًا عنه.

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق بيانه.

---

١ جامع البيان للطبري، ٦٠٩/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٨/٨.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياس بن ياسين مِن سبط هارون أخي موسى عليهم السلام، بُعث بعده. وقيل: إدريس؛ لأنّه قُرئ مكانَه: "إِدْرِيسَ"،[١] و"إِدْرَاسَ".[٢] وقُرئ: "إِيلِيسَ".[٣] وقُرئ: "الْيَاسَ" بحذف "الهمزة".[٤]

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: عذابَ الله تعالى.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدونه وتطلبون الخيرَ منه؟ وهو اسم صنم كان لأهل بكٍّ مِن الشام، وهو البلد المعروف اليوم ببعلبكّ. قيل: كان مِن ذهَبٍ، طوله عِشرون ذراعًا، وله أربعة أوجه، فُتِنُوا به وعظّموه حتّى أخدموه أربعمائة سَادِنٍ، وجعلوهم أنبياءَ، فكان الشيطان يدخل جوفَه ويتكلّم بشريعة الضلالة، والسَّدَنةُ يحفظونها ويعلّمونها الناس. وقيل: "البَعْل": الربّ بلغة اليمن، أي: أتعبدون بعض البُعول.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي: وتتركون عبادتَه. وقد أشيرَ إلى المقتضي للإنكار المعنيّ بـ"الهمزة"، ثمّ صُرِح به بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالنصب على البدليّة / مِن ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. وقُرئ بالرفع[٥] على الابتداء. [٤٢٢ظ]

والتعرّض لذكر ربوبيّته تعالى لآبائهم لتأكيد إنكارِ تركِهم عبادتَه تعالى، والإشعارِ ببطلان آراءِ آبائهم أيضًا.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم ذلك ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: العذابَ. والإطلاق للاكتفاء بالقرائن على أنّ الإحضار المطلقَ مخصوص بالشرّ عُرفًا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وابن وثاب والأعمش والمنهال بن عمر والحكم بن عتيبة الكوفي. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢١/٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢٢٥/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢١/٩.

[٤] قرأ بها ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

[٥] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٦٠/٢.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء مِن ضمير ﴿مُحْضَرُونَ﴾.[١]

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ هو لغة في "إلياس"، كـ"سِيناء" في "سينين". وقيل: هو جمع له أريدَ به هو وأتباعه، كـ"المُهَلَّبين" و"الخُبَيْبين".[٢] وفيه أنّ العَلَم إذا جُمع يجب تعريفه كالمثالَين. وقُرئَ بإضافة "آلِ" إلى "يَاسِينَ"؛[٣] لأنّهما في المصحف مفصولان، فيكون ياسين أبا إلياس.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مرّ تفسيره.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٣٦﴾

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ أي: اذكر وقت تَنجيتنا إيّاه ﴿وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب، أو الماضين الهالكين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ فإنّ في ذلك شواهد على جليّة أمره، وكونِه مِن جملة المرسلين.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازلهم في متاجركم إلى الشام، وتشاهدون آثار هلاكهم، فإنّ سَدُومَ في طريق الشام، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح، ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ أي: ومساءً، أو نهارًا وليلًا، ولعلّها وقعت بِقُربِ مَنزلٍ يمرّ بها المرتحِل عنه صباحًا، والقاصدُ له مساءً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتّى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم؟

---

١ في الآية السابقة.
٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧/٥.
٣ قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٠/٢.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقُرئ بكسر "النون".[1] ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي: هرَب. وأصله: الهربُ مِن السيّد، لكن لمّا كان هرَبُه مِن قومه / بغير إذن ربّه حَسُن إطلاقه عليه. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المَملوء. [٤٢٣و]

﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع أهلَه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فصار مِن المغلوبين بالقُرعة. وأصله: المُزْلَقُ عن مقام الظفَر. رُوي أنّه عليه السلام لمّا وَعد قومَه بالعذاب خرَج مِن بينهم قبل أن يأمره الله تعالى به، فركِب السفينةَ، فوقفَتْ، فقالوا: «فيها عبد آبِق»، فاقترعوا، فخرجت القرعة عليه، فقال: «أنا الآبِق»، ورمى بنفسه في الماء.[2]

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ فابتلعه، مِن "اللُّقمة"، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخل في المَلامة، أو آتٍ بما يُلام عليه، أو مُليمٌ نفسَه. وقُرئ: "مَلِيمٌ"[3] بالفتح مبنيًا مِن "لِيمَ"، كـ"مَشِيبٍ" في "مَشوب".

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين الله كثيرًا بالتسبيح مدّةَ عُمُره، أو في بطن الحوت، وهو قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء، ٨٧/٢١]. وقيل: مِن المصلّين؛ فإنّه عليه السلام كان كثيرَ الصلاة في الرخاء.

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حيًا. وقيل: ميتًا. وفيه حثٌ على إكثار الذِّكر، وتعظيمٌ لشأنه، ومَن أقبل عليه في السرّاء أخذ بيده عند الضرّاء.

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في سورة النساء من رواية ابن جمّاز عن نافع. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٣٧/٤ (النساء، ١٦٣/٤).

[2] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧٠/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٣٣/٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦١/٤.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٢٤/٩.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ١٤٥﴾

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالي عمّا يغطّيه مِن شجرٍ أو نبت.

رُوي أنّ الحوت سار مع السفينة رافعًا رأسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبّح، ولم يفارقهم حتّى انتهَوا إلى البَرّ، فلفَظَه سالمًا لم يتغيّر منه شيء، فأسلَموا.[١] ورُوي أنّ الحوت قذَفه بساحل قرية مِن الموصل.[٢]

واختُلف في مقدار لُبثه؛ فقيل:[٣] أربعون يومًا، وقيل:[٤] عشرون، وقيل:[٥] سبعة، وقيل: ثلاثة، وقيل:[٦] لم يلبث إلّا قليلًا، ثمّ أُخرِج مِن بطنه بُعَيْدَ الوقت الذي التُقِمَ فيه. رُوي / أنّه حين ابتلعه أوحى الله تعالى إلى الحوت: «إنّي [٤٢٣ظ] جعلتُ بطنك له سِجنًا، ولم أجعله لك طعامًا».[٧]

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ممّا ناله، قيل: صار بدَنه كبدَن الطفل حين يُولَد.

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ١٤٦﴾

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: فوقَه مُظِلّةً عليه ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ وهو كلّ ما ينبسط على الأرض، ولا يقوم على ساق، كشجر البطّيخ والقثّاء والحنظل، وهو "يَفْعِيل" مِن "قَطَنَ بالمكان" إذا أقام به، والأكثرون على أنّه الدُّبّاء غطّته بأوراقها عن الذباب، فإنّه لا يقع عليه، ويدلّ عليه أنّه قيل لرسول الله صلّى الله عليه

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨/٥.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ تفسير القرطبي، ١٢٨/١٥. وفي جامع البيان للطبري، ٦٣٨/١٩، مِن قول شَهر بن حَوشَب: «ثمّ انطلق به حتّى ألقاه في نِينَوى».

٣ وفي هامش م: كلبي. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٤ وفي هامش م: ضحّاك. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٥ وفي هامش م: عطاء. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٦ وفي هامش م: حسن البصري. «منه». | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤، من غير نسبة إلى عطاء. وفي جامع البيان للطبري، ٦٣٨/١٩، مِن قول شَهر بن حَوشَب: «فنُودي الحوت: أيا حوت، إنّا لم نجعل يونس لكَ رزقًا، إنّما جعلناك له حوزًا ومسجدًا».

وسلّم: «إنّك تُحِبّ القَرع؟»، قال: «أجَل، هي شجرةُ أخي يونس عليه السلام».[١] وقيل: هي التين. وقيل: المَوز، تَغَطّى بوَرقه، واستظلّ بأغصانه، وأفطر على ثماره. وقيل: كان يستظلّ بالشجرة، وكانت وَعْلَةٌ تختلف إليه، فيشرب مِن لبنها.

﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾

﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومه الذين هرَب منهم، وهم أهلُ نِينَوَى، والمراد به إرساله السابق، أُخبِر أوّلًا بأنّه مِن المرسلين على الإطلاق، ثمّ أُخبِر بأنّه قد أرسل إلى أمّة جمّةٍ. وكأنّ توسيط تذكير وقت هرَبه عليه السلام إلى الفُلك وما بعده بينهما لتذكير سببه، وهو ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه مِن إنذاره إيّاهم عذابَ الله تعالى، وتعيينِه لوقت حلوله، وتعلُّلِهم وتعليقِهم لإيمانهم بظهور أَماراته، كما مرّ تفصيله في سورة يونس؛[٢] ليُعلَم أنّ إيمانهم الذي سيُحكَى بعدُ لم يكن عَقيبَ الإرسال كما هو المتبادر مِن ترتيب الإيمان عليه بـ"الفاء"؛ بل بعدَ اللّتيا والتي.[٣]

وقيل: هو إرسال آخَر إليهم. وقيل: إلى غيرهم،[٤] وليس بظاهر.

﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي: في مَرْأَى الناظر، فإنّه إذا نظر إليهم قال: إنّهم مائةُ ألف أو يزيدون، والمراد هو الوصف بالكَثرة. وقُرئ بـ"الواو".[٥]

[٤٢٤و] ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ أي: بعد ما شاهَدوا علائم حلول العذاب إيمانًا / خالصًا، ﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ﴾ أي: بالحياة الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ قدّره الله سبحانه لهم.

---

١ س – عليه السلام. | الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩/٥. قال الولي العراقي: لم أقف عليه، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قصّة يونس، قال النبيّ عليه السلام: «واليقطين القَرع». الفتح السماوي للمناوي، ٩٥٧/٣. وفي صحيح البخاري، ٧٩/٧ (٥٤٣٩)، مِن حديث أنس رضي الله عنه: «فرأيت رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يتتبّع الدبّاء مِن حول الصَّحفة»، فلم أزَل أُحبُّ الدبّاءَ مِن يومئذ.

٢ يونس، ٩٨/١٠.

٣ اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩/٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر بن محمد وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ۝١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠﴾

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ أمر الله عزّ وجلّ في صدر السورة الكريمة رسولَه صلّى الله عليه وسلّم بتبكيت قريش، وإبطال مذهبهم في إنكار البعث بطريق الاستفتاء، وساقَ البراهينَ القاطعة الناطقة بتحقّقه لا محالةَ، وبيّنَ وقوعَه وما سيلقونه عند ذلك مِن فنون العذاب، واستثنى منهم عباده المخلَصين، وفصّل ما لهم مِن النعيم المقيم، ثمّ ذكَر أنّه قد ضلّ مِن قبلهم أكثرُ الأوّلين، وأنّه تعالى أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال، ثمّ أوردَ قصصَ كلٍّ واحد منهم على وجه التفصيل مُبَيِّنًا في كلّ قصّةٍ منها أنّهم مِن عباده تعالى، واصِفًا لهم تارةً بالإخلاص، وأخرى بالإيمان.

ثمّ أمره صلّى الله عليه وسلّم ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه أمرٍ منكَرٍ خارجٍ عن العقول بالكلّيّة، وهي القسمة الباطلة اللازمة لِما كانوا عليه مِن الاعتقاد الزائغ، حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جُهَينةَ وبني سلمة وخُزاعة وبني مُلَيح: "الملائكةُ بناتُ الله".

و"الفاء" لترتيب الأمر على ما سبق مِن كون أولئك الرسل الذين هم أعلام الخَلق عليهم السلام عبادَه تعالى، فإنّ ذلك ممّا يؤكّد التبكيت، ويُظهِرُ بطلان مذهبهم الفاسد، ثمّ بتبكيتهم بما يتضمّنه كفرهم المذكور مِن الاستهانة بالملائكة بجعلِهم إناثًا، ثمّ أبطَلَ أصلَ كفرهم المنطوي على هذَين الكُفرين، وهو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا،[1] ولم ينظِمه في سِلك التبكيت لمشاركتهم النصارى في ذلك.

أي: فاستخبِرهم: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾ / اللاتي هنّ أوضعُ الجنسين، ﴿وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ الذين هم أرفعهما؟ فإنّ ذلك ممّا لا يقول به مَن له أدنى شيء مِن العقل. [٤٢٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا﴾ إضراب وانتقال مِن التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا كما أشيرَ إليه، أي: بل أخلقنا الملائكة الذين هم

---

[1] س: كبير.

مِن أشرف الخلائق وأبعدهم مِن صفات الأجسام ورذائل الطبائع إناثًا، والأنوثةُ مِن أخسّ صفات الحيوان؟

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ استهزاء بهم وتجهيل لهم، كقوله تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف، ١٩/٤٣]، وقولِه تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف، ٥١/١٨]، فإنّ أمثال هذه الأمور لا تُعلم إلّا بالمشاهدة؛ إذ لا سبيلَ إلى معرفتها بطريق العقل. وانتفاءُ النقل ممّا لا ريب فيه، فلا بدّ أن يكون القائل بأنوثتهم شاهدًا عند خَلقهم.

والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، أي: بل أخلقناهم إناثًا والحال أنّهم حاضرون حينئذ؟ أو عطفٌ على ﴿خَلَقْنَا﴾، أي: بل أهُم شاهدون؟

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ استئناف مِن جهته غيرُ داخل تحت الأمر بالاستفتاء، مَسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أنّ مَبناه ليس إلّا الإفكَ الصريحَ والافتراءَ القبيحَ، مِن غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعًا.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم ذلك كذبًا بيّنًا لا ريب فيه.

وقُرِئ: "وَلَدُ اللهِ"[١] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: الملائكة ولَدُه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فإنّ "الولَد" "فَعَلٌ" بمعنى "مفعول"، يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ إثبات لإفكهم، وتقرير لكذِبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بيّن الاستحالة، هو اصطفاؤه تعالى البناتِ على البنين، و"الاصطفاءُ" أخذ صفوة الشيء لنفسه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

وقُرئ بكسر "الهمزة"[١] على حذف حرف الاستفهام ثقةً بدلالة القرائن عليه. وجعلُه بدلًا[٢] مِن ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾[٣] ضعيف. وتقديرُ القول -أي: لكاذبون في قولهم: "اصْطَفى"... إلخ-[٤] / تعسّفٌ بعيد. [٤٢٥و]

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بهذا الحُكم الذين يقضي ببطلانه بديهةُ العقل؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءَين مِن "تَتذكَّرون". وقُرئ: "تَذْكُرُونَ"[٥] مِن "ذَكَرَ". و"الفاء" للعطف على مقدَّر، أي: ألَا تلاحظون ذلك فلا تتذكّرون بطلانه، فإنّه مَركوز في عقل كلّ ذكيّ وغبيّ.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ إضراب وانتقال مِن توبيخهم وتبكيتهم بما ذُكر إلى تبكيتهم بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلًا، أي: بل أَلَكم حجّة واضحة نزلت عليكم مِن السماء بأنّ الملائكة بناته تعالى؟ ضرورةَ أنّ الحكم بذلك لا بدَّ له مِن سنَدٍ حِسّي أو عقلي، وحيث انتفى كلاهما فلا بدَّ مِن سَنَدٍ نقلي، ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الناطقِ بصحّة دعواكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيها.

وفي هذه الآيات مِن الإنباء عن السخط العظيم، والإنكارِ الفظيع لأقاويلهم، والاستبعادِ الشديد لأباطيلهم، وتسفيهِ أحلامهم، وتركيكِ عقولهم وأفهامهم، مع استهزاءٍ بهم، وتعجيبٍ مِن جهلهم؛ ما لا يخفى على مَن تأمّل فيها.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب، وسقوطِهم عن درجة الخطاب، واقتضاءِ حالهم أن يُعرَض عنهم، وتُحكى جناياتهم لآخَرين.

---

١ قرأ بها أبو جعفر ووَرش مِن طريق الأصبهاني. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٠.
٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١٩.
٣ في الآية السابقة.
٤ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/١٩.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

والمراد بـ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ الملائكة، قالوا: الجنس واحد، ولكنّ مَن خَبُثَ مِن الجنّ ومَرَدَ وكان شرًّا كلُّه فهو شيطان، ومَن طَهُر منهم ونسَك وكان خيرًا كلُّه فهو ملَك.

وإنّما عُبّر عنهم بذلك الاسم وَضعًا منهم وتقصيرًا بهم مع عِظَم شأنهم فيما بين الخلق أن يبلُغوا منزلة المناسَبة التي أضافوها إليهم، فجَعْلُهم هذا عبارةٌ عن قولهم: "الملائكة بنات الله"، وإنّما أُعيد ذِكره تمهيدًا لِما يعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: وباللهِ لقد علِمَت الجِنّة التي عظّموها بأن جعلوا بينها وبينه تعالى نسَبًا -وهم الملائكة- إنّ الكفرة لَمحضَرون النار، معذَّبون بها لكذِبهم وافترائهم في قولهم ذلك. والمراد به المبالغة في التكذيب ببيان أنّ الذين يدّعي هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلَمون / أنّهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذّبونهم في ذلك، ويحكمون بأنّهم معذَّبون لأجله حكمًا مؤكّدًا. [٤٢٥ظ]

وقيل: إنّ قومًا مِن الزنادقة يقولون: "الله تعالى وإبليس أخوان، فالله هو الخَيِّر الكريم، وإبليس هو الشرّير اللئيم"، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾. قال الإمام الرازي: «وهذا القول عندي أقرب الأقاويل، وهو مذهب المَجوس القائلين بيَزْدان وأهْرَمَن».[١]

وقال مجاهد: «قالت قريش: "الملائكة بنات الله"، فقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: "فمَن أمّهاتُهم؟" تبكيتًا لهم، فقالوا: "سَروات الجنّ"».[٢]

وقيل: معنى ﴿جَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾: جعلوا بينهما مناسبةً، حيث أشركوا به تعالى الجنّ في استحقاق العبادة.

فعلى هذه الأقاويل يجوز أن يكون الضمير في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لـ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾، فالمعنى: لقد علِمَت الشياطين أنّ الله تعالى يُحضِرهم النار، ويعذّبهم بها، ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاءَ في استحقاق العبادة لَما عذّبهم. والوجه هو الأوّل.

---

[١] تفسير الرازي، ٣٦٠/٢٦.

[٢] تفسير مجاهد، ص ٥٧١؛ جامع البيان للطبري، ٦٤٥/١٩.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٦٠﴾

فإنّ قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ حكاية لتنزيه الملائكة إيّاه تعالى عمّا وصفه المشركون به بعدَ تكذيبهم لهم في ذلك بتقدير قولٍ معطوفٍ على ﴿عَلِمَتْ﴾.[١]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ شهادة منهم ببراءة المخلَصين مِن أن يَصِفوه تعالى بذلك، متضمّنة لتبرُّئهم منه بحكم اندراجهم في زمرة المخلَصين على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، على أنّه استثناء منقطع مِن "واو" ﴿يَصِفُونَ﴾، كأنّه قيل: ولقد علمَت الملائكة أنّ المشركين لَمُعذَّبون لقولهم ذلك، وقالوا: سبحان الله عمّا يصفونه به، لكنّ عبادَ الله الذين نحن مِن جملتهم بُرَآء مِن ذلك الوصف.

﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٦٣﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ تعليل وتحقيق لبراءة المخلَصين ممّا ذُكر ببيان عجزِهم عن إغوائهم وإضلالهم. والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام.

و﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ عبارة عن الشياطين الذين أغوَوهم. وفيه إيذان بتبرُّئهم عنهم وعن عبادتهم، كقولهم: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ / ٱلۡجِنَّ﴾ [سبأ، ٤١/٣٤]. و﴿مَا﴾ [٤٢٦و]
نافية، و﴿أَنتُمۡ﴾ خطاب لهم ولمَعبوديهم تغليبًا. و"على" متعلّقة بـ﴿فَٰتِنِينَ﴾، يقال: "فَتَنَ فلان على فلانٍ امرأتَه"، أي: أفسَدَها عليه.

والمعنى: فإنكم ومعبوديكم أيّها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بإفساد عباده وإضلالهم.

﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ منهم، أي: داخلُها لِعلمه تعالى بأنّه يُصِرّ على الكفر بسوءِ اختياره، ويصير مِن أهل النار لا محالةَ، وأمّا المخلَصون منهم فأنتم بمَعزِل مِن إفسادهم وإضلالهم، فهم لا جرَمَ بُرَآءُ مِن أن يَفْتَتِنوا بكم ويسلكوا مَسلَككم في وصفه تعالى بما وصفتموه به.

---

[١] في الآية السابقة.

وقُرئ: "صَالُ" بضمّ "اللام"[١] على أنّه جمع محمول على معنى ﴿مَنْ﴾، قد سقط واوه لالتقاء الساكنين.

﴿وَمَامِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَامِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ تبيين لجَليّة أمرهم، وتعيينٌ لحيّزهم في موقف العبوديّة بعدَ ما ذُكر مِن تكذيب الكفرة فيما قالوا، وتنزيهِ الله تعالى عن ذلك، وتَبرئةِ المخلَصين عنه، وإظهارٌ لقصور شأنهم وقَماءَتِهم.

أي: وما منّا أحدٌ إلّا له مقام معلوم في العبادة، والانتهاءُ إلى أمر الله عزّ وجلّ مقصور عليه لا يتجاوزه، ولا يستطيع أن يزِلّ عنه خضوعًا لعظَمته، وخشوعًا لهَيبته، وتواضعًا لجَلاله، كما رُوي: «فمنهم راكع لا يُقيم صُلبَه، وساجدٌ لا يرفع رأسه».[٢]

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما في السماوات موضع شِبر إلّا وعليه ملَك يصلّي أو يسبّح».[٣]

ورُوي أنّه قال عليه السلام: «أطَّت السماء، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلّا وفيه ملَك واضع جبهتَه ساجد لله تعالى».[٤]

وقال السدّي: «﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ في القُربة والمشاهَدة».[٥]

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في مواقف الطاعة ومواطِنِ الخدمة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ المقدِّسون لله سبحانه عن كلّ ما لا يَليق بجناب كبريائه. وتحلية كلامهم بفنون التأكيد لإبراز أنّ صدوره عنهم بكمال الرغبة والنشاط، هذا هو

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦٦/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢٩/٩.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٢/٨؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٧/١٦.

٤ سنن الترمذي، ٥٥٦/٤ (٢٣١٢)؛ سنن ابن ماجه، ٢٨٣/٥ (٤١٩٠).

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٢/٨؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٧/١٦.

الذي يقتضيه جزالة التنزيل. وقد ذُكر في تفسير الآيات الكريمة وإعرابِها وجوهٌ أُخَر، فتأمّل، والله الموفّق.

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠﴾

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ / ﴿إن﴾ هي المخفّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن محذوف، و"اللام" هي الفارقة، أي: إنّ الشأن كانت قريش تقول: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: كتابًا مِن كُتب الأوّلين مِن التوارة والإنجيل، ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: لأخلَصنا العبادة لله تعالى، ولَما خالَفْنا كما خالفوا، وهذا كقولهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر، ٣٥/٤٢]. [٤٢٦ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ فصيحة، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[1] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٣]، أي: فجاءَهم ذِكرٌ وأيُّ ذِكر، سيّدُ الأذكار، وكتابٌ مهيمَنٌ على سائر الكتب والأسفار، فكفروا به، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبةَ كفرهم وغائلتَه.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ استئناف مقرِّر للوعيد، وتصديرُه بالقَسَم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: وباللهِ لقد سبَق وَعْدُنا لهم بالنصرة والغلَبة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا﴾ وهم أتباع المرسلين ﴿لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على أعدائهم في الدنيا والآخرة. ولا يقدح في ذلك انهزامهم في بعض المشاهد، فإنّ قاعدة أمرهم وأساسه الظفَر والنصرة، وإن وقع في تضاعيف ذلك شَوبٌ مِن الابتلاء والمِحنة، والحكمُ للغالب.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إن لم يُنصَرُوا في الدنيا نُصِروا في الآخرة».[2]

---

[1] م ط س: فقلنا. | وهي في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة، ٢/٦٠].

[2] الكشّاف للزمخشري، ٦٨/٤.

وقُرئ: "عَلَى عِبَادِنَا"[١] بتضمين ﴿سَبَقَتْ﴾ معنى "حقّت". وتسميتها "كلمةً" مع أنّها كلمات لانتظامها في معنًى واحد. وقُرئ: "كَلِمَاتُنَا".[٢]

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٥﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ فأعرِض عنهم واصبر ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ إلى مدّة يسيرة، وهي مدّة الكَفّ عن القتال. وقيل: يوم بدر. وقيل: يوم الفتح. ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ على أسوإِ حالٍ، وأفظعِ نَكالٍ حلّ بهم مِن القتل والأسر. والمراد بالأمر بإبصارهم الإيذانُ بغاية قُربه، كأنّه بين يديه.

[٤٢٧و] ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ ما يقع حينئذ مِن الأمور، / و"سوف" للوعيد دون التبعيد.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٧﴾

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ رُوي أنّه لمّا نزل: ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾،[٣] قالوا: متى هذا؟ فنزل.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾ أي: فإذا نزل العذاب الموعود بفِنائِهم كأنّه جيش قد هجمهم فأناخ بفِنائهم بغتةً، فشَنَّ عليهم الغارة وقطع دابِرَهم بالمرّة. وقيل: المراد نزول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الفتح. وقُرئ: "نُزِلَ بِسَاحَتِهِمْ"[٤] على إسناده إلى الجارّ والمجرور. وقُرئ: "نُزِّلَ"[٥] مبنيًا للمفعول مِن "التنزيل"، أي: نُزِّل العذاب.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ فبِئس صباح المنذَرين صباحُهم. و"اللام" للجنس. و"الصباح" مستعار مِن صباح الجيش المُبَيِّتِ لوقت نزول العذاب. ولمّا كثُرت منهم الغارة في الصباح سَمَّوها صباحًا وإن وقعت ليلًا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٦٨/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢٢٩/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا أتى خيبرَ، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي، قالوا: «محمّدٌ والخَمِيس»، ورجعوا إلى حصنهم، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «الله أكبَرُ، خَرِبَت خَيْبَرُ، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساءَ صباح المنذَرين».[1]

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم إثرَ تسليةٍ، وتأكيدٌ لوقوع الميعاد غِبَّ تأكيد، مع ما في إطلاق الفعلين عن المفعول مِن الإيذان بأنّ ما يُبصره عليه السلام حينئذ مِن فنون المسارّ، وما يبصرونه مِن ألوان المَضارّ، لا يحيط به الوصف والبيان. وقيل: أريدَ بالأوّل عذاب الدنيا، وبالثاني عذاب الآخرة.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيه لله سبحانه عن كلّ ما يصفه المشركون به ممّا لا يَليق بجَناب كبريائه وجَبروته ممّا ذُكر في السورة الكريمة وما لم يُذكر مِن الأمور التي مِن جُملتها تركُ إنجازِ الموعود على / موجَب كلمته السابقة لا سيّما في حقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما [٤٢٧ظ] يُنبئ عنه التعرّض لعنوان الربوبيّة المُعرِبة عن التربية والتكميل والمالكيّة الكلّيّة، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام أوّلًا، وإلى العزّة ثانيًا، كأنّه قيل: سبحان مَن هو مربّيك ومكمِّلك ومالكُ العزّة والغلبة على الإطلاق عمّا يصفه المشركون به مِن الأشياء التي منها ترك نُصرتك عليهم، كما يدلّ عليه استعجالُهم بالعذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عمّا ذُكر، وتَنوِيهٌ بشأنهم، وإيذانٌ بأنّهم سالِمون عن كلّ المكارِه، فائزون بجميع المآرب.

---

[1] صحيح البخاري، ١/١٢٥ (٦١٠)؛ صحيح مسلم، ٢/١٠٤٥ (١٣٦٥).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى وصفه عزّ وجلّ بصفاته الكريمة الثبوتيّة بعد التنبيه على اتّصافه بجميع صفاته السلبيّة، وإيذانٌ باستتباعها للأفعال الجميلة التي مِن جملتها إفاضتُه عليهم مِن فنون الكرامات السنيّة والكمالات الدينيّة والدنيويّة، وإسباغُه عليهم وعلى مَن تبعهم مِن صنوف النَّعماء الظاهرة والباطنة، الموجِبةِ لحمده تعالى، وإشعارٌ بأنّ ما وعده عليه السلام مِن النصرة والغلبة قد تحقّقت، والمرادُ تنبيه المؤمنين على كيفيّة تسبيحه تعالى وتحميده، والتسليمِ على رسله الذين هم وسائط بينهم وبينه عزّ وعلا في فيضان الكمالات الدينيّة والدنيويّة عليهم.

ولعلّ توسيطَ التسليم على المرسلين بينَ تسبيحه تعالى وتحميده لخَتم السورة الكريمة بحمده تعالى، مع ما فيه مِن الإشعار بأنّ توفيقه تعالى للتسليم عليهم مِن جملة نِعَمه المُوجِبة للحمد.

عن عليّ رضي الله تعالى[1] عنه: «مَن أحبّ أن يُكتال بالمِكيال الأوفى مِن الأجر يوم القيامة فليكن آخِرُ كلامه إذا قام مِن مجلسه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».[2]

وعن رسول صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أُعطِي مِن الأجر عَشرُ حسنات بعدَد كلّ جنّي وشيطان، وتباعدَت عنه مرَدة الشياطين، وبَرئ مِن الشرك، وشهِد له حافظاه يوم القيامة أنّه كان مؤمِنًا بالمرسلين».[3]

---

١ ط س - تعالى.

٢ مصنّف عبد الرزّاق، ٢/٢٣٦ (٣١٩٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٧٤.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٣٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٥٢١. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٣٧

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية، مِائَةٌ واثنتانِ وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والصَّافَّاتِ صَفًّا﴾: الملائكةِ تصُفّ نُفوسَها في العِبادة أو أجنحتَها في الهواء، تنتظر ما تُؤمر به، ٢ ـ ﴿فالزَّاجِراتِ زَجرًا﴾: الملائكةِ تَزجرُ السحاب، أي: تسوقه، ٣ ـ ﴿فالتَّالِياتِ﴾: جماعةِ قُرَّاءِ القُرآن تتلوه ﴿ذِكرًا﴾: مصدرٌ من معنى: التاليات، ٤ ـ ٥ ـ ﴿إنَّ إلَـٰهَكُم﴾ ـ يا أهل مكّة ـ ....

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

قولُه: (فِي العِبَادَةِ) أو في مقامِ العُبوديَّةِ على مراتِبَ، باعتِبارِها تُفيضُ عليهم الأنوارَ الإلهيَّةَ.

قولُه: (تَنتَظِرُ) ناظرةٌ إلى الوجهَينِ.

قولُه: (السَّحَابَ) أو الأجرامَ العُلويَّةَ والسُّفليَّةَ بالتَّدبيرِ المأمورِ فيها، أو النَّاسَ عن المعاصي بإلهامِ الخَيرِ، والشَّياطينَ عن التَّعرُّضِ لهم.

قولُـه: (جَمَاعَـةٌ) أخـرجَ ابـنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ مسـعودٍ، أنَّ المـرادَ بالثَّلاثـةِ: الملائكةُ[1]؛ يعنـي: التَّالينَ آيـاتِ اللهِ وجَلايا قُدْسِـهِ على أنبيائِـهِ وأوليائِهِ.

قولُه: (مَصدَرٌ) الأظهرُ أنَّهُ مفعولٌ.

قولُه: (يَا أَهْلَ مَكَّةَ) بل: يا أيُّها النَّاسُ، جوابُ القسَمِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٩٠٤١)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ٢١٤) (٩٠٤١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٧) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

﴿لَواحِدٌ، رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بَينَهُما، ورَبُّ المَشارِقِ﴾ أي: والمغاربِ للشمس، لها كُلَّ يوم مشرِق ومغرِب.

٦ ـ ﴿إنّا زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنيا بِزينةِ الكَواكِبِ﴾ أي: بضوئها أو بها ـ والإضافةُ للبيان، كقراءة تنوين «زينةٍ» المُبيَّنةِ بـ«الكواكبِ» ـ ٧ ـ ﴿وحِفظًا﴾: منصوبٌ بفعل مقدّر أي: حفظناها بالشهب ﴿مِن كُلِّ﴾: مُتعلّقٌ بالمقدّر ﴿شَيطانٍ مارِدٍ﴾: عاتٍ خارج عن الطاعة. ٨ ـ ﴿لا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي: الشياطينُ ـ مستأنف، وسَماعهم هو في المعنى: المحفوظُ عنه ـ ﴿إلَى المَلَأِ الأعلَى﴾: الملائكة في السماء ـ وعُدِّيَ السَّماع ....

قولُه: (أي: والمَغَارِبِ) فحُذِفَ اكتفاءً، مع أنَّ الشُّروقَ أدَلُّ على القُدرَةِ، وأبلغُ في النِّعمَةِ.

قولُه: (للشَّمْسِ) وقيلَ: للكَواكِبِ.

قولُه: (لهَا كُلَّ يَومٍ) فالجمعُ بهذا الاعتبارِ، والتَّثنيةُ في آيةٍ أخرى باعتبارِ مشرِقَي الشِّتاءِ والصَّيفِ، والإفرادُ في أخرى: باعتِبارِ الجنسِ.

قولُه: (أي: بِضَوئِهَا) يعني: بنورِ الكواكِبِ.

قولُه: (أو بِهَا) أي: بالكواكِبِ.

قولُه: (للبَيَانِ) على أنَّها اسمٌ؛ أي: بزينَةٍ هي الكواكِبُ.

قولُه: (كقِرَاءَةِ تَنوِينٍ) معَ جَرِّ ﴿الكَواكِبِ﴾ لحفصٍ وحمزةَ[1].

قولُه: (المُبَيِّنَةِ) أو المبدَلَةِ، ويحتملُ إضافةَ المصدَرِ إلى المفعولِ، ويؤيِّدُه قراءةُ شعبةَ بالتَّنوينِ والنَّصبِ على الأصلِ[2].

قولُه: (بالشُّهُبِ) أي: برَمْيِها.

قولُه: (بالمُقَدَّرِ) لأنَّه أقوى في العَملِ.

قولُه: (مُستَأْنَفٌ) أي: كلامٌ مبتَدَأٌ لبيانِ حالِهم بعدما حَفِظَ السَّماءَ عنهم.

قولُه: (المَحْفُوظُ) الظَّاهرُ: المحفوظَةُ.

قولُه: (المَلائِكَةِ) أو أشرافِهم.

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٢) انظر المصدر السابق.

بـ «إلى» لتضمّنه معنى الإصغاء وفي قراءة بتشديد الميم والسين أصله «يَتَسَمَّعُونَ» أدغمت التاء في السين ـ ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: الشياطينُ بالشُّهب ﴿مِن كُلِّ جانِبٍ﴾ من آفاق السماء، ٩ ـ ﴿دُحُورًا﴾: مصدرُ: دَحَرَه، أي: طَرَده وأبعده، وهو مفعول له، ﴿وَلَهُم﴾ في الآخرة ﴿عَذابٌ واصِبٌ﴾: دائم، ١٠ ـ ﴿إِلاَّ مَن خَطِفَ الخَطْفَةَ﴾ مصدرٌ أي: المرّةَ ـ والاستثناء من ضمير «يسمعون» ـ أي: لا يسمع إلاّ الشيطان الذي سمع الكلمة من الملائكة فأخذها بسرعة، ﴿فَأَتبَعَهُ شِهابٌ﴾: كوكب مضيء ﴿ثاقِبٌ﴾:

قولُه: (مَعنَى الإِصْغَاءِ) مبالغةً لنَفيِهِ وتهويلاً لِمَا يمنعُهُم عنهُ، ويدلُّ عليه قراءَةُ حمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ بالتَّشديدِ من التَّسمُّعِ[1]: وهو تَطلُّبُ السَّماعِ.

قولُه: (أُدْغِمَتِ التَّاءُ) بعد إبدالِها سيناً.

قولُه: (أي: الشَّيَاطِينُ) أي: يُرمَونَ إذا قَصَدوا الصُّعودَ.

قولُه: (دَائِمٌ) أو شَديدٌ.

قولُه: (مِن ضَمِيرِ ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾) و﴿مَنْ﴾ بدلٌ منه.

قولُه: (بِسُرعَةٍ) الخَطفُ: الاختلاسُ، والمرادُ: اختلاسُ كَلامِ الملائكَةِ مُسارَقَةً.

قولُه: (كَوْكَبٌ) وأتبَعَ؛ بمعنى: تَبِعَ، والشِّهابُ: ما يُرَى كأنَّ كوكَباً انقَضَّ، وما رُوِيَ أنَّ ذلك حَدَثَ بميلادِ النَّبيِّ ﷺ[2]، فلعلَّ المرادَ كثرةُ وقوعِهِ، واختُلِفَ في أنَّ المرجومَ يتأذَّى به فيَرجِعُ، أو يحتَرِقُ به لكن قد يُصيبُ الصَّاعدَ مرَّةً وقد لا يُصيبُ؛ كالمَوجِ لراكِبِ السَّفينَةِ، ولذلك لا يرتَدعونَ عنه رأساً.

قولُه: (مُضِيءٌ) الظَّاهرُ: أنَّه تفسيرٌ لـ﴿ثَاقِبٌ﴾، فكأنَّهُ يثقُبُ الجوَّ بضَوئِهِ، كما قالَهُ القاضي[3]، ويمكنُ أن يكونَ الضَّوءُ داخِلاً في مفهومِ الشِّهابِ؛ لأنَّه على ما في «القاموسِ»: شُعلَةٌ مِن نارٍ ساطعَةٍ، والماضِي في الأمْرِ[4]، انتهى. فيجوزُ في المُضيِّ الهمزُ والتَّشديدُ.

---

(١) انظر: «تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٥٢٨).

(٢) ذكر الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٥/ ٤٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: فلما ولد محمَّد ﷺ منعوا من السماوات أجمع، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب.

وقد روى البخاري (٤٩٢١) ومسلم (٤٤٩) عن ابن عباس ما يفيد بأن ذلك لم يكن مختصًّا بوقت الولادة، وفيه: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث... الحديث.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٣).

يَثقبُه أو يُحرقه أو يُخبّله.

١١ ـ ﴿فاستفتِهِم﴾: استخبرْ كُفّار مكّة تقريرًا أو توبيخًا: ﴿أهُم أشَدُّ خَلقًا أم مَن خَلَقْنا﴾ من الملائكة والسماوات والأرَضِينَ وما فيهما؟ وفي الإتيان بـ «مَن» تغليبُ العقلاء. ﴿إنّا خَلَقْناهُم﴾ أي: أصلَهم آدمَ ﴿مِن طِينٍ لازِبٍ﴾: لازم يلصق باليد. المعنى أنّ خلقهم ضعيف، فلا يتكبّروا بإنكارِ النبيّ والقُرآن المؤدّي إلى هلاكهم اليسير.

١٢ ـ ﴿بَل﴾: للانتقال من غرض إلى آخر، وهو الإخبار بحاله وحالهم، ﴿عَجِبتَ﴾ ـ بفتح التاء خِطابًا للنبيّ ـ أي: من تكذيبهم إياك، ﴿وَ﴾ هم ﴿يَسخَرُونَ﴾ مِن تعجّبك،.............

قولُه: (أو يُحرِقُهُ) لا يقالُ: إنَّ الشَّيطانَ من النَّارِ فلا يحترِقُ= لأنَّهُ ليسَ من النَّارِ الصِّرفِ، كما أنَّ الإنسانَ ليسَ منَ التُّرابِ الخالِصِ، مع أنَّ النَّارَ القويَّةَ إذا استَولَت على النَّارِ الضَّعيفَةِ استَهلَكَتْها.

قولُه: (كُفَّارَ مَكَّةَ) أو المشركينَ.

قولُه: (تَقرِيراً) أي: حَمْلاً على الإقرارِ بالحَقِّ من الأمرَينِ.

قولُه: (ومَا فِيهَا) وفي نسخةٍ: «وما فيهما» يعني: من الكواكِبِ والشُّهُبِ الثَّواقِبِ.

قولُه: (تَغلِيبُ العُقَلاءِ) وقيلَ: المرادُ بـ﴿مَنْ خَلَقْنَا﴾: مَن قَبْلَهُم كعادٍ وثمودَ، وهو غيرُ صَحيحٍ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾.

قولُه: (أي: أَصْلَهُم) أو: أصلَ مادَّتِهم.

قولُه: (اليَسِيرِ) أي: الهَيِّنِ على اللهِ تعالى.

قولُه: (بِفَتْحِ التَّاءِ) وحمزةُ والكسائيُّ بضمِّها[1]؛ أي: بلغَ كمالُ قُدرَتي أنِّي تعجَّبْتُ منها وهؤلاءِ بجَهلِهِم يسخَرونَ منها، أو: عجِبْتُ مِن أن يُنكَرَ البعثُ مِمَّن هذه أفعالُهُ، وهم يسخرُونَ ممَّن يُجوِّزُهُ، والعَجَبُ من اللهِ: إمَّا على سبيلِ الفَرْضِ، أو على معنى الاستعظامِ اللَّازمِ له، فإنَّه روعةٌ تَعتَري الإنسانَ عند استعظامِهِ لشيءٍ، وقيلَ: التَّقديرُ: قُل يا محمَّدُ.

قولُه: (مِنْ تكذِيبِهِم) أو من قُدرَةِ اللهِ، أو إنكارِهِم البعثَ.

قولُه: (هُم) أشارَ[2] إلى أنَّ الجملةَ حاليَّةٌ.

قولُه: (مِنْ تَعجُّبِكَ) أو تقريرِكَ للبَعْثِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٢) في (م): «إشارة».

١٣ ـ ﴿وإذا ذُكِّرُوا﴾: وُعظوا بالقُرآن ﴿لا يَذكُرُونَ﴾: لا يتّعظون، ١٤ ـ ﴿وإذا رأَوا آيَةً﴾ كانشقاق القمر ﴿يَستَسخِرُونَ﴾: يستهزئون بها، ١٥ ـ ﴿وقالُوا﴾ فيها: ﴿إنْ﴾: ما ﴿هذا إلاَّ سِحرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنٌ. وقالوا منكرين للبعث: ١٦ ـ ﴿أإذا مُتنا وكُنّا تُرابًا وعِظامًا أإنّا لَمَبعُوثُونَ﴾ ـ في الهمزتين في الموضعين التحقيقُ، وتسهيلُ الثانية، وإدخالُ ألف بينهما على الوجهين ـ ١٧ ـ ﴿أوْ آباؤُنا الأوَّلُونَ﴾؟ بسكون الواو عطفًا بـ«أو»، وبفتحها والهمزة للاستفهام والعطفُ بالواو. والمعطوف عليه محلُّ «إن» واسمِها، أو الضميرُ في «لمبعوثون» والفاصل همزة الاستفهام.

١٨ ـ ﴿قُلْ: نَعَم﴾ تُبعثون، ﴿وأنتُم داخِرُونَ﴾: صاغرون. ١٩ ـ ﴿فإنَّما هِيَ﴾: ضميرٌ مُبهم يُفسّره ﴿زَجْرةٌ﴾ أي: صيحة ﴿واحِدةٌ، فإذا هُم﴾ أي: الخلائق أحياءٌ ﴿يَنظُرُونَ﴾ ما يُفعل بهم،...........

قولُه: (بالقُرآنِ) أو بشَيءٍ.

قولُه: (فِيهَا) أي: الآيةِ، وقولُهُم: ﴿إِنْ هَذَا﴾ يَعنونَ ما يَرونَهُ.

قولُه: (بالهَمزَتَينِ) تقدَّمَ[1]، وقرأ الشَّاميُّ بالإخبارِ في الأوَّلِ، ونافِعٌ والكسائيُّ في الثَّاني[2].

قولُه: (بِسُكُونِ الواوِ) قالونُ وشاميٌّ[3].

قولُه: (بـ﴿أو﴾) على التَّرديدِ.

قولُه: (والهَمْزَةُ) بالرَّفعِ.

قولُه: (والفَاصِلُ) بين المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ.

قولُه: (هَمزَةُ الاستِفهَامِ) لزيادَةِ الاستِبْعادِ لبُعدِ زَمانِهِم.

قولُه: (تُبعَثُونَ) وفي البيضاويِّ: قُرئَ (نَعِمْ) بالكسرِ[4]، سهوٌ؛ لأنَّه قراءَةُ الكسائيِّ حيثُ جاءَ[5].

قولُه: (ضَمِيرٌ مُبهَمٌ) وقالَ القاضي: جوابُ شَرطٍ مُقدَّرٍ؛ أي: إذا كانَ ذلك فإنَّما البَعثَةُ[6].

قولُه: (أيْ: صَيحَةٌ ﴿واحدةٌ﴾) وهي النَّفخَةُ الثَّانيةُ، من زَجَرَ الرَّاعي غنمَهُ: إذا صاحَ عليها.

قولُه: (أَحيَاءٌ) أو: قيامٌ مِن مَراقِدِهم يُبصِرونَ أو يَنتَظِرونَ.

---

(١) في الآية رقم: (٥) من سورة الرعد.

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٣٢).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٤) هذا لفظ الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٨)، أما البيضاوي فعبارته في «أنوار التنزيل» (٥/ ٧): وقرأ الكسائي....

(٥) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١١٠).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٧).

٢٠ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: الكفّار: ﴿يا﴾: للتنبيه ﴿وَيلَنا﴾: هلاكَنا. وهو مصدر لا فِعل له من لفظه. وتقول لهم الملائكة: ﴿هذا يومُ الدِّينِ﴾ أي: الحِسابِ والجزاء، ٢١ ـ ﴿هذا يومُ الفَصلِ﴾ بين الخلائق، ﴿الَّذي كُنتم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

٢٢ ـ ٢٣ ـ ويقال للملائكة: ﴿احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفُسَهم بالشِّرك ﴿وأزواجَهُم﴾: قُرناءهم من الشياطين، ﴿وما كانُوا يَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه من الأوثان، ﴿فاهدُوهُم﴾: دُلّوهم وسوقوهم ﴿إلَى صِراطِ الجَحِيمِ﴾: طريق النار، ٢٤ ـ ﴿وقِفُوهُم﴾: احبِسوهم عِند الصِّراط. ﴿إنَّهُم مَسؤُولُونَ﴾ عن جميع أقوالهم وأفعالهم. ويقال لهم توبيخًا: ٢٥ ـ ﴿مالَكُم لا تَناصَرُونَ﴾: لا ينصر بعضكم بعضًا، كحالكم في الدنيا؟ ويقال عنهم: ٢٦ ـ ﴿بَل هُمُ اليومَ مُستَسلِمُونَ﴾: منقادون أذِلاّء.

٢٧ ـ ﴿وأقبَلَ بَعضُهُم علَى بَعضٍ يَتَساءَلُونَ﴾: يتلاومون ويتخاصمون. ٢٨ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: الأتباعُ منهم للمتبوعين: ﴿إنَّكُم كُنتُم تأتُونَنا عَنِ اليَمِينِ﴾: عن الجِهة التي كنّا نأمنكم منها بحَلِفِكم إنكم على الحقّ، فصدّقناكم واتّبعناكم. المعنى: إنكم أضللتمُونا. ٢٩ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: المتبوعون لهم: ﴿بَل لَم تَكُونُوا مُؤمِنِينَ﴾ ـ وإنما يَصدق الإضلالُ منّا أن لو كنتم مؤمنين، فرجَعتم عن الإيمان إلينا ـ

قولُه: (للتَّنْبِيهِ) والأظهرُ: أنَّه للنِّداءِ.

قولُه: (المَلائِكَةُ) والظَّاهرُ: أنَّ الأوَّلَ من كلامِ الكفَّارِ، والثَّاني جوابُ الملائكةِ، وقيل: هو أيضاً من كَلامِ بعضِهم لبعضٍ.

قولُه: (بَينَ الخَلائِقِ) والفَصْلُ: القضاءُ، أو الفرقُ بينِ المحسِنِ والمُسيءِ.

قولُه: (قُرَنَاءَهُم) أو: أشباهُهُم، كعابِدِ الصَّنمِ مع عبَدَةِ الصَّنمِ.

قولُه: (مِنَ الأَوْثَانِ) وغَيرِها، وهو عامٌّ مخصوصٌ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآيَةَ [الأنبياء: ١٠١].

قولُه: (عِنْدَ الصِّرَاطِ) أي: الجِسرِ، أو في الموقِفِ، والواوُ لا توجِبُ التَّرتيبَ.

قولُه: (وأَفْعَالِهِم) وعقائدِهِم.

قولُه: (بَعْضاً) بالتَّخليصِ، وهو تَوبيخٌ.

قولُه: (مُنقَادُونَ) لعجزِهِم.

قولُه: (ويَتَخَاصَمُونَ) أي: سؤالُهُم للتَّوبيخِ.

٣٠ ـ ﴿وما كانَ لَنا علَيكُم مِن سُلطانٍ﴾: قُوّة وقُدرة تقهركم على مُتابعتنا، ﴿بَل كُنتُم قَومًا طاغِينَ﴾: ضالّين مِثلَنا، ٣١ ـ ﴿فحَقَّ﴾: وجب ﴿علَينا﴾ جميعًا ﴿قَولُ رَبِّنا﴾ بالعذاب، أي قوله: «لأملأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمَعِينَ» ـ ﴿إنّا﴾ جميعًا ﴿لَذائقُونَ﴾ العذابَ بذلك القول ـ ونشأ عنه قولُهم: ٣٢ ـ ﴿فأغوَيناكُم﴾ المُعلَّلُ بقولهم: ﴿إنّا كُنّا غاوِينَ﴾.

٣٣ ـ قال تعالى: ﴿فإنَّهُم يَومَئذٍ﴾: يومَ القيامةِ ﴿في العَذابِ مُشتَرِكُونَ﴾ أي: لِاشتراكهم في الغَواية. ٣٤ ـ ﴿إنّا كَذلِكَ﴾: كما نفعل بهؤلاء ﴿نَفعَلُ بِالمُجرِمِينَ﴾ غيرِ هؤلاء، أي: نُعذّبهم التابعَ منهم والمتبوع. ٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿إنَّهُم﴾ أي: هؤلاء، بقرينة ما بعده، ﴿كانُوا إذا قِيلَ لَهُم: لا إلٰـهَ إلاّ اللهُ. يَستَكبِرُونَ، ويَقُولُونَ: أئِنّا﴾ ـ في همزتيه ما تقدّم ـ ﴿لَتارِكُو آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجنُونٍ﴾ أي: لِأجل قول مُحمّد؟ ٣٧ ـ قال تعالى: ﴿بَل جاءَ بِالحَقِّ وصَدَّقَ المُرسَلِينَ﴾ الجائين به. وهو قول: لا إلٰـهَ إلاّ اللهُ.

٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿إنَّكُم﴾ ـ فيه التفات ـ ﴿لَذائقُو العَذابِ الأليمِ، وما تُجزَونَ إلاّ﴾ جزاءَ ﴿ما كُنتُم تَعمَلُونَ، إلاّ عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ أي: المؤمنين، استثناءٌ منقطع، أي: ذُكِرَ جزاؤهم في قوله:........

قولُه: (ضَالِّيْنَ) مُختارينَ الطُّغيانَ والضَّلالَةَ.

قولُه: (بالعَذَابِ) يعني: أنَّ ضَلالَ الفريقينِ ووقوعَهُم في العذابِ كانَ أمْراً مَقضيًّا لا مَحيصَ لهم عنه، وأنَّ غايَةَ ما فعَلوا بهم أنَّهُم دَعَوهم إلى الغَيِّ؛ لأنَّهُم كانوا على الغَيِّ فأحبُّوا أن يكونوا مِثلَهُم، وفيه إيماءٌ بأنَّ غِوايَتَهُم في الحقيقَةِ ليسَت مِن قِبَلِهِم، إذ لو كانَ كُلُّ غِوايَةٍ لإغواءِ غاوٍ فمَن أغواهُم، كذا أفادَهُ القاضي[1] رحمَهُ اللهُ رحمةً واسعَةً.

قولُه: (ونَشَأَ عنهُ) أي: عن القَولِ بالعذابِ على ما قدَّمناهُ.

قولُه: (كمَا نَفْعَلُ) الصَّحيحُ: مِثلَ ذلك الفعلِ نفعَلُ بالمشركينَ مُطلَقاً.

قولُه: (أي: هَؤُلاءِ) المشرِكونَ.

قولُه: (بقَرِينَةِ مَا بَعدَهُ) أي: يستكبِرونَ عن كلمَةِ التَّوحيدِ، أو على مَن يَدعوهُم إليه.

قولُه: (جَزَاءَ) أو مِثلَ.

قولُه: (ذُكِرَ جَزَاؤُهُم) والأظهرُ: لكنَّ ﴿عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ أولئكَ، بأن يكونَ ﴿عباد الله﴾ مبتدأً، والجملةُ خبرَه.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٩).

٤١ ـ ﴿أُولَئِكَ لَهُم﴾ في الجنّة ﴿رِزْقٌ مَعلُومٌ﴾ بُكرةً وعشيًّا، ٤٢ ـ ﴿فَوَاكِهُ﴾: بدلٌ أو بيانٌ للرزق ـ وهو ما يُؤكل تلذّذًا لا لِحِفظ صِحّة لأنّ أهل الجنّة مُستغنون عن حِفظها بخلق أجسامهم للأبد ـ ﴿وهُم مُكرَمُونَ﴾ بثواب الله ٤٣ ـ ٤٤ ـ ﴿في جَنّاتِ النَّعِيمِ، علَى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾: لا يَرى بعضهم قفا بعض.

٤٥ ـ ﴿يُطافُ علَيهِم﴾: على كُلّ منهم ﴿بِكأسٍ﴾ هو الإناء بشرابه ﴿مِن مَعِينٍ﴾: من خمرٍ تجري على وجه الأرض كأنهار الماء، ٤٦ ـ ﴿بَيضاءَ﴾ أشدَّ بياضًا من اللبن ﴿لَذّةٍ﴾: لذيذة ﴿لِلشّارِبِينَ﴾، بخِلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب، ....

قولُه: (بُكرَةً وعَشيًّا) أو: خصائصُهُ من الدَّوامِ وتمحُّضِ اللَّذَّةِ.

قولُه: (صِحَّةٍ) الظَّاهرُ: بِنيَةٍ.

قولُه: (بثَوَابِ اللهِ) أو في نَيلِ الرِّزقِ يَصِلُ إليهم مِن غَيرِ تَعَبٍ وسؤالٍ كما عليهِ رِزقُ الدُّنيا، وقولُه تعالى: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٤٣] أي: في جَنَّاتٍ ليسَ فيها إلَّا النَّعيمُ، ولذا قالَ ﷺ: «اللَّهمَّ لا عَيْشَ إلَّا عَيْشُ الآخرةِ» رواهُ أحمدُ والشَّيخانِ(١).

قولُه: (لا يَرَى) لأنَّ التَّقابُلَ أتمُّ سُرورٍ وأُنسٍ، أو يكونُ هذا الوصفُ دائماً على خَرْقِ العادةِ.

قولُه: (هو الإِنَاءُ بشَرَابِهِ) في «القاموسِ»: الكأسُ: الإناءُ يُشرَبُ فيهِ، أو ما دامَ الشَّرابُ فيه مؤنَّثٌ(٢). ولذا قالَ القاضي(٣): بإناءٍ فيه خَمرٌ، أو خَمرٍ كقولِه:

وكَأْسٍ شُـرِبَتْ علـى لـذَّةٍ(٤)

والظَّاهرُ: أنَّ الثَّاني مَجازٌ: إمَّا بالتَّجريدِ، أو بإطلاقِ المحلِّ وإرادةِ الحالِّ.

قولُه: (مِنْ خَمْرٍ) أي: شرابِ مَعِينٍ، أو نَهرٍ مَعينٍ؛ أي: ظاهرٍ للعُيونِ جمعِ: عَينٍ، أو خارجٍ من العيونِ.

قولُه: (أَشَدَّ) هو وما بعدَهُ صِفَتانِ لـ﴿كَأْسٍ﴾.

قولُه: (لَذِيذَةٍ) إمَّا للمُبالغَةِ كـ: رجلٍ عدلٍ، أو لأنَّها تأنيثُ لَذٍّ؛ بمعنى: لذيذٍ.

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٣)، ومسلم (١٨٠٥)، وأحمد في «مسنده» (١٢٧٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٥٦٩).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٠).

(٤) قائله الأعشى، انظر: «ديوانه» (ص: ١٧٣)، و«خزانة الأدب» (١١/ ٤٣٤). وتمامه:

وأخرى تداويت منها بها

٤٧ ـ ﴿لا فِيها غَولٌ﴾: ما يَغتال عُقولهم ﴿ولا هُم عَنها يُنزَفُونَ﴾ ـ بفتح الزاي وكسرها من: نُزِفَ الشاربُ وأنزفَ ـ أي: يَسكرون بخِلاف خمر الدنيا، ٤٨ ـ ﴿وعِندَهُم قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾: حابساتُ الأعين على أزواجهنّ، لا ينظرْن إلى غيرهم لِحُسنهم عندهنّ، ﴿عِينٌ﴾: ضِخامُ الأعيُنِ حِسانُها، ٤٩ ـ ﴿كأنَّهُنَّ﴾ في اللون ﴿بَيضٌ﴾ للنعام ﴿مَكنُونٌ﴾: مستور بريشه لا يصل إليه غُبار، ولونه ـ وهو البياض في صُفرة ـ أحسنُ ألوان النساء.

قولُه: (مَا يَغْتَالُ) يُفسِدُ؛ أي: غائلةٌ كما في خمرِ الدُّنيا كالخِمارِ، من غالَهُ يغولُهُ: إذا أفسدَهُ، ومنهُ: الغَوْلُ؛ لأنَّه مُفسِدٌ، وفي «القاموسِ»: الغَوْلُ: الصُّداعُ والسُّكرُ والمشَقَّةُ[1].

قولُه: (وكَسْرِهَا) حمزةُ والكسائيُّ[2].

قولُه: (مِنْ: نُزِفَ) كعُنِيَ: ذهبَ عقلُهُ، أو سَكِرَ.

قولُه: (وأُنزِفَ) إذا نفدَ عقلُهُ أو شرابُه.

قولُه: (لِحُسْنِهِم) ولغيرِهِ.

قولُه: (ضِخَامُ الأَعيُنِ) وقالَ القاضِي: نُجلُ العُيونِ[3]؛ يعني: الوِساع، وفي «القاموسِ»: عَيِنَ: كفَرِحَ، عَظُمَ سوادُ عَينِهِ في سَعَةٍ، جمع: عَيْناء[4].

قولُه: (حِسَانُهَا) تكميلٌ لدَفعِ توهُّمِ أن يكونَ كعُيونِ البَقرِ.

قولُه: (في اللَّونِ) والصَّفاءِ.

قولُه: (مَستُورٌ برِيْشِهِ) أو مَصونٌ من غُبارٍ ونحوِهِ.

قولُه: (ولَونُهُ) مبتدأٌ خبرُهُ (أَحسَنُ) وما بينهُما اعتراضٌ.

قولُه: (أَلْوَانِ النِّسَاءِ) يعني: عندَ العربِ، وإلَّا فعندَ العَجَمِ والرُّومِ: الأبيضُ المشْرَبُ بحمْرَةٍ هو الأحسَنُ، ولذا قالَ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨] أي: اللُّؤلؤُ، وقالَ تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، فالظَّاهرُ أنَّ التَّشبيهَ هنا في الصَّفاءِ فقط، وفيه إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، ولكنَّ اللَّونَ مُنحصِرٌ في البياضِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٤٠).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٠).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢١٨).

٥٠ ـ ﴿فأقبَلَ بَعضُهُم﴾: بعضُ أهل الجنّة ﴿علَى بَعضٍ، يَتَساءَلُونَ﴾ عمّا مرّ بهم في الدنيا. ٥١ ـ ﴿قالَ قائلٌ مِنهُم: إنِّي كانَ لِي قَرِينٌ﴾: صاحبٌ يُنكر البعثَ، ٥٢ ـ ﴿يَقُولُ﴾ لي تَبكيتًا: ﴿أإنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث؟ ٥٣ ـ ﴿أإذا مُتْنا وكُنّا تُرابًا وعِظامًا أإنّا﴾ ـ في الهمزتين في الثلاثةِ مواضعَ ما تقدّم ـ ﴿لَمَدِينُونَ﴾: مَجزِيّون ومُحاسَبون؟ أنكر ذلك أيضًا. ٥٤ ـ ﴿قالَ﴾ ذلك القائل لإخوانه: ﴿هَل أنتُم مُطَّلِعُونَ﴾ معي إلى النار لننظر حاله؟ فيقولون: لا.

٥٥ ـ ﴿فاطَّلَعَ﴾ ذلك القائل من بعض كُوى الجنّة، ﴿فرَآهُ﴾ أي: رأى قرينَه ﴿في سَواءِ الجَحِيمِ﴾: في وسَط النار. ٥٦ ـ ﴿قالَ﴾ له تشميتًا: ﴿تاللهِ، إنْ﴾: مُخفّفةٌ من الثقيلة ﴿كِدتَ﴾: قاربتَ ﴿لَتُردِينِ﴾: لَتُهلِكُنِي بإغوائك! ٥٧ ـ ﴿ولَولا نِعْمةُ رَبِّي﴾ أي: إنعامُه عليَّ بالإيمان ﴿لَكُنتُ مِنَ المُحضَرِينَ﴾ معك في النار.

ويقول أهل الجنّة: ٥٨ ـ ٥٩ ـ ﴿أفما نَحنُ بِمَيِّتِينَ إلاّ مَوتَتَنا الأُولَى﴾ التي في الدنيا، ﴿وما نَحنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؟ هو استفهام تلذّذ وتحدُّث بنعمة الله ـ تعالى ـ من تأبيد الحياة وعدم التعذيب. ٦٠ ـ ٦١ ـ ﴿إنَّ هذا﴾ الذي ذُكِر لأهل الجنّة ....

قولُه: (عَمَّا مَرَّ بِهِم) أي: ما جَرى لهم وعليهم، أو: عن المعارفِ والفضائلِ، أو المعنى: يشرَبونَ فيتحدَّثونَ على الشَّرابِ كعادةِ أهلِ الشُّربِ، كما قالَ:

ومـا بقيَـتْ مِـنَ اللَّـذَّاتِ إلَّا   أحاديـثُ الكِـرَامِ علـى المـدامِ(١)

قولُه: (صَاحِبٌ) جَليسٌ.

قولُه: (تَبْكِيتاً) وتوبيخاً على التَّصديقِ بالبَعثِ.

قولُه: (أَنْكَرَ ذَلِكَ) أي: الجزاءَ، كما أنكَرَ البعْثَ.

قولُه: (لا) لا دلالة على «لا»، ولا على «بَلَى».

قولُه: (مِنْ بَعْضِ) أو من فَوقِ الغُرَفِ، والأظهرُ أنّه اطِّلاعُ كَشفٍ بطريقِ خرقِ العادَةِ.

قولُه: (أَهْلُ الجَنَّةِ) أو ذلكَ القائلُ تَقْريعاً لقَرينِهِ، أو معاودَةً إلى مكالمةِ جلسائِه.

قولُه: (هُو اسْتِفهَامٌ) وما بعدَهُ عَطفٌ على محذوفٍ؛ أي: أنحنُ مُخلَّدونَ مُنعَّمونَ ﴿فما نحنُ بميِّتينَ﴾؛ أي: بمن شأنُهُ الموتُ، ونَصْبُ ﴿مَوْتَتَنَا﴾ على المصدَرِ من اسمِ الفاعلِ، وقيل: على الاستثناءِ المنقَطِعِ.

قولُه: (الَّذِي ذُكِرَ) من النِّعمَةِ والخُلودِ والأمنِ من العذابِ.

---

(١) نسبه في «يتيمة الدهر» (١/ ١٣٠، ١٣٢) لأبي محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفيَّاض.

﴿لَهُوَ الفوزُ العَظِيمُ. لِمِثلِ هذا فلْيَعمَلِ العامِلُونَ﴾ قيل: يقال لهم ذلك، وقيل: هم يقولونه.

٦٢ ـ ﴿أذلِكَ﴾ المذكورُ لهم ﴿خَيرٌ نُزُلاً﴾ ـ وهو ما يُعدُّ للنازل من ضيف وغيره ـ ﴿أم شَجَرةُ الزَّقُّومِ﴾ المُعدّةُ لأهل النار؟ وهي من أخبثِ الشجر المرّ بتِهامة، يُنبتها الله في الجحيم كما سيأتي.

٦٣ ـ ﴿إنّا جَعَلْناها﴾ بذلك ﴿فِتنةً لِلظّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين من أهل مكّة، إذ قالوا: النار تُحرق الشجرَ. فكيف تُنبتُه؟

٦٤ ـ ﴿إنَّها شَجَرةٌ، تَخرُجُ في أصلِ الجَحِيمِ﴾ أي: قعر جهنّم، وأغصانها ترتفع إلى دَرَكاتها،

٦٥ ـ ﴿طَلْعُها﴾ المُشبَّهُ بطلع النخلة ﴿كأنَّهُ رُؤُوسُ الشَّياطِينِ﴾: الحيّاتِ القبيحة المنظر،

٦٦ ـ ٦٧ ـ ﴿فإنَّهم﴾ أي: الكُفّارَ ﴿لَآكِلُونَ مِنها﴾، مع قُبحها لشِدّة جوعهم، ﴿فمالِئُونَ مِنها البُطُونَ، ثُمَّ إنَّ لَهُم علَيها لَشَوبًا مِن حَمِيمٍ﴾ أي: ماءٍ حارّ يشربونه، فيختلط بالمأكول منها فيصير شوبًا له، ....

قولُه: (﴿ذَلِكَ﴾) ما ذُكِرَ من الآيتينِ.

قولُه: (لَهُم) لأهلِ الجنَّةِ.

قولُه: (مَا يُعَدُّ) ونصبُهُ على التَّمييزِ أو الحالِ.

قولُه: (بتِهَامَةَ) بالكسرِ: مكَّةَ، وأرضٍ معروفةٍ.

قولُه: (بذَلِكَ) أي: بذِكرِه، أو بتسميتِه.

قولُه: (فَكَيفَ تُنبِتُهُ) ولم يعلموا أنَّ مَن قَدَرَ على خَلْقِ ما يعيشُ في النَّارِ ويُلتَذُّ بهَا، فهو أقدَرُ على خَلْقِ الشَّجرِ في النَّارِ، وحفظِهِ مِنَ النَّارِ، كذا قالَهُ القاضي[1].

ويمكنُ أن يُقالَ: فمَن قَدَرَ أن يَخلُقَ النَّارَ في الشَّجرِ فهو قادرٌ على أن يخلُقَ الشَّجَرَ في النَّارِ.

قولُه: (المُشَبَّهُ) أي: حِملُها.

قولُه: (أي: الحَيَّاتِ) الهائلَةِ لها أعرافٌ.

قولُه: (مَعَ قُبْحِهَا) أي: الشَّجرةِ أو طَلعِها.

قولُه: (لشِدَّةِ جُوعِهِم) أو الجَبرِ على أكلِها.

قولُه: (فيَصِيرُ شَوْباً) أو التَّقديرُ: لشَراباً من غسَّاقٍ أو صَديدٍ مَشوباً بماءِ حَميمٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١١).

٦٨ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرجِعَهُم لَإِلَى الجَحِيمِ﴾. يُفيد أنهم يخرجون منها لشُرب الحميم وأنه خارجَها.

٦٩ ـ ٧٠ ـ ﴿إِنَّهُم أَلفَوا﴾: وجدُوا ﴿آباءَهُم ضالِّينَ، فهُم علَى آثارِهِم يُهرَعُونَ﴾: يُزعَجون إلى اتّباعهم، فيُسرعون إليه. ٧١ ـ ﴿ولَقَد ضَلَّ قَبلَهُم أكثَرُ الأوَّلِينَ﴾ من الأُمم الماضية، ٧٢ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا فِيهِم مُنذِرِينَ﴾ من الرُّسل مُخوِّفين. ٧٣ ـ ﴿فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبةُ المُنذَرِينَ﴾ الكافرين؟ أي: عاقبتُهم العذابُ، ٧٤ ـ ﴿إلاّ عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ أي: المؤمنين. فإنهم نجَوا من العذاب لإخلاصهم في العبادة، أو لأنّ الله أخلصهم لها، على قراءة فتح اللام.

٧٥ ـ ﴿ولَقَد نادانا نُوحٌ﴾ بقوله: «رَبِّ إنِّي مَغلُوبٌ فانتَصِرْ»، ﴿فلَنِعمَ المُجِيبُونَ﴾ له نحن! أي: دعانا على قومه فأهلكناهم بالغرَق، ٧٦ ـ ﴿ونَجَّيناهُ وأهلَهُ مِنَ الكَربِ العَظِيمِ﴾ أي: الغرَق، ٧٧ ـ ﴿وجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقِينَ﴾ ـ فالناس كُلّهم من نسله عليه السلام. وكان له ثلاثة أولاد: سامٌ وهو أبو العرب وفارسَ والرومِ، وحامٌ وهو أبو السودانِ، ويافِثُ وهو أبو الترك والخَزَر ويأجوجَ ومأجوجَ وما هُنالك ـ..........

قولُه: (يُفِيدُ) فيه أنَّ هذهِ الإفادةَ مُخالِفَةٌ لظاهِرِ قولِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، فالصَّوابُأن يُقالَ: إلى دَرَكاتِها، أو وَسَطِها، أو إلى نَفْسِها بأنَّ الزَّقُّومَ والحميمَ نُزُلٌ يُقدَّمُ إليهم قبلَ دخولِها.

قولُه: (فيُسرِعُونَ) من غَيرِ تَوقُّفٍ على نَظَرٍ وبَحْثٍ.

قولُه: (مِنَ الأُمَمِ) قَبلَ قَومِكَ.

قولُه: (مُخَوِّفِينَ) من العَواقِبِ.

قولُه: (فَتحِ اللَّامِ) نافعٌ وكوفيٌّ[(١)].

قولُه: (أي: الغرَقِ) أو أذى قومِهِ.

قولُه: (مِن نَسْلِهِ) إذ رُوِيَ أنَّهُ ماتَ كلُّ من كانَ معَهُ في السَّفينةِ غَيرَ بنيهِ وأزواجِهِم[(٢)].

قولُه: (والخَزَرِ) محرَّكةٌ: اسمُ جيلٍ خُزرِ العُيُونِ؛ أي: ضيقها وصِغَرها؛ يعني: التَّتارَ، وهو صنفٌ من التُّركِ، وفي بعضِ النُّسخِ: «الخزرج»، وهو تصحيفٌ وخطأٌ فاحِشٌ؛ لأنَّهم قبيلةٌ من الأنصار.

قولُه: (ومَا هُنَالِكَ) يعني: قوماً يقربونَ إلى مكانِ يأجُوجَ ومأجُوجَ ﴿لا يكادُونَ يفقهُونَ قولاً﴾ [الكهف: ٩٣].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٩).

(٢) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٢/ ٣٥٧) (٢٤١٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٧٨ ـ ﴿وتَرَكْنا﴾: أبقينا ﴿عليهِ﴾ ثناءً حسنًا ﴿في الآخِرِينَ﴾ من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ﴿سَلامٌ﴾ منّا ﴿علَى نُوحٍ في العالَمِينَ. إنّا كَذلِكَ﴾: كما جزيناهُ ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ. إنَّهُ مِن عِبادِنا المُؤمِنِينَ ثُمَّ أغرَقْنا الآخَرِينَ﴾: كُفّارَ قومه.

٨٣ ـ ﴿وإنَّ مِن شِيعتِهِ﴾ أي: مِمّن تابعه في أصل الدِّين ﴿لَإبراهِيمَ﴾، وإن طال الزمان بينهما ـ وهو ألفان وستُّمِائَةٍ وأربعون سنة وكان بينهما هود وصالح ـ ٨٤ ـ ﴿إذ جاءَ﴾ أي: تابعه وقتَ مجيئه ﴿رَبَّهُ بِقَلبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشكّ وغيره، ٨٥ ـ ٨٦ ـ ﴿إذ قالَ﴾ في هذه الحالة المستمرّة له ﴿لِأبيهِ وقَومِهِ﴾ مُوبِّخًا: ﴿ماذا﴾: ما الذي ﴿تَعبُدُونَ؟ أإفكًا﴾ ـ في همزتيه ما تقدّم ـ ﴿آلِهةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾؟ وإفكًا: مفعول له، وآلهة: مفعول به لـ «تُريدون»، والإفك: أسوأُ الكذب، أي: أتعبدون غيرَ الله؟ ٨٧ ـ ﴿فما ظَنُّكُم بِرَبِّ العالَمِينَ﴾ إذ عبدتم غيره، أنه يترككم بلا عقاب؟ لا.

وكانوا نجّامِينَ، فخرجوا إلى عِيد لهم، وتركوا طعامهم عند أصنامهم ـ زعموا التبرُّك عليه ـ فإذا رجعوا أكلوه، وقالوا للسيّد إبراهيم: اخرُجْ معنا..............................

قولُه: (ثَنَاءً حَسَناً) إشارَةٌ إلى أنَّ مفعولَ ﴿تَرَكْنَا﴾ محذوفٌ.

قولُه: (كمَا جَزَيْنَاهُ) الظَّاهرُ: مِثلَ ذلك الجزاءِ.

قولُه: (في أَصْلِ الدِّيْنِ) ولا يبعُدُ اتِّفاقُ شرعِهِما في الفروعِ، أو غالبِها.

قولُه: (أي: تَابَعَهُ) يعني: الظَّرفُ متعلِّقٌ بمَا في الشِّيعةِ من معنى المشايَعَةِ، أو التَّقديرُ: اذكُرْ.

قولُه: (وغَيْرِهِ) من الآفاتِ والعلائِقِ، ومعنى: المجيءِ به[1] ربَّهُ: إخلاصُهُ له، كأنَّهُ جاءَ مستَحِقًّا[2] إيَّاهُ.

قولُه: (في هَذِهِ الحَالَةِ) قالَ القاضي: بدلٌ من الأولى، أو ظرفٌ لـ﴿جَاءَ﴾، أو ﴿سَلِيمٍ﴾[3].

قولُه: (مَفعُولٌ لَهُ) قُدِّمَ لأنَّ الأهمَّ أن يُقرِّرَ أنَّهم على الباطلِ ومبنَى أمرِهم على الإفْكِ.

قولُه: (مَفعُولٌ بِهِ) قُدِّمَ للعنايَةِ، أو مُراعاةً للفاصلَةِ.

قولُه: (لا) يعني: الاستفهامُ إنكارُ ما يوجِبُ ظنًّا ـ فَضْلاً عن قَطعٍ ـ يصُدُّ عن عبادَةِ غيرِه، أو يجوِّزُ الإشراكَ به، أو يقتَضي الأمنَ من عقابِهِ.

(١) أي: بقلب سليم.

(٢) كذا في النسخ، وفي «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣): «متحفاً».

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣).

٨٨ ـ ﴿فنظَرَ نَظرةً في النُّجُومِ﴾ إيهامًا لهم أنه يعتمد عليها ليتّبعوه، ٨٩ ـ ﴿فقالَ: إنِّي سَقِيمٌ﴾: عليل، أي: سأسقَمُ. ٩٠ ـ ٩١ ـ ﴿فتوَلَّوا عَنهُ﴾ إلى عِيدهم ﴿مُدبِرينَ، فراغَ﴾: مالَ في خِفية ﴿إلَى آلِهتِهِم﴾ ـ وهي الأصنام ـ وعندها الطعام، ﴿فقالَ﴾ استهزاءً: ﴿ألا تأكُلُونَ﴾. فلم ينطقوا. ٩٢ ـ فقال: ﴿مالَكُم لا تَنطِقُونَ﴾؟ فلم يُجَب، ٩٣ ـ ﴿فراغَ علَيهِم ضَربًا بِاليَمِينِ﴾: بالقُوّة، فكسرها.

فبلغ قومَه ممّن رآه، ٩٤ ـ ﴿فأقبَلُوا إلَيهِ يَزِفُّونَ﴾ أي: يُسرعون المشي، فقالوا له: نحن نعبدها وأنت تكسِرها. ٩٥ ـ ﴿قالَ﴾ لهم مُوبّخًا: ﴿أتَعبُدُونَ ما تَنحِتُونَ﴾ من الحِجارة وغيرها أصنامًا، ٩٦ ـ ﴿واللهُ خَلَقَكُم وما تَعمَلُونَ﴾ من نحتكم ومنحوتكم؟..........................

قولُه: (ليَتَّبِعُوهُ) أو ليَتركوهُ.

قولُه: (أي: سَأسْقَمُ) يعني: أنّه مُشارِفٌ للسَّقمِ، أو بصدَدِ الموتِ، ومنهُ المثلُ: كَفَى بالسَّلامةِ داءً، وقولُ لَبيدٍ:

فدَعَـوتُ رَبِّـي بالسَّـلامةِ جَاهِداً ... ليُصِحَّنِـي فـإذا السَّـلامةُ داءُ[1]

ماتَ رجلٌ فجأةً، فقيلَ: ماتَ وهو صحيحٌ، فقالَ أعرابيٌّ: أصحيحٌ مَن الموتُ في عُنُقِهِ.

قولُه: (في خِفْيَةٍ) من روغَةِ الثَّعلبِ، وأصلُهُ: الميلُ بحيْلَةٍ.

قولُه: (بالقُوَّةِ) يعني: تقييدُهُ باليَمينِ للدَّلالَةِ على قوَّةِ الفعلِ، فإنَّ قوَّةَ الآلةِ تستَدْعي قوَّةَ الفعلِ، وقيلَ: باليَمينِ؛ يعني: قولَهُ ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، والتَّعديةُ بـ«على» هنا للاستعلاءِ، وأنَّ الميلَ لمكروهٍ، و﴿ضَرْبًا﴾ مصدرٌ لـ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِم﴾؛ لأنَّهُ في معنى: ضَرَبَهُم.

قولُه: (فبَلَّغَ) بالتَّشديدِ، والظَّاهرُ أنَّهم ظنُّوا أنَّه هو، كما بيَّنَهُ قولُه: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا﴾ الآيَةَ [الأنبياء: ٥٩].

قولُه: (أي: يُسرِعُونَ) وحمزةُ بضمِّ الياءِ[2]، وقولُ البيضاويِّ[3]: وقراءَةُ حمزةَ على بناءِ المفعولِ[4]. سهوٌ، نعم، هو قراءةٌ شاذَّةٌ عنه أو عن غيرِهِ.

قولُه: (مِنْ نَحْتِكُم) فإنَّ فِعلَهُم إذا كان بخَلْقِ اللهِ فيهم كانَ مفعولُهُمُ المتوقِّفُ على فعلِهِم أولى بذلكَ، وبهذا المعنى تَمسَّكَ أهلُ السُّنَّةِ على خَلقِ الأعمالِ.

قولُه: (ومَنْحُوتِكُم) لما تقدَّمَ، أو لأنَّ جوهَرَها بخلقِهِ تعالى.

---

(١) لم أجده في ديوانه. ونسبه إليه الثعالبي في «التمثيل والمحاضرة» (ص: ٦١)، ونسبه القيرواني في «زهر الآداب» (١/ ٢٦٨) لعمرو بن قميئة.

(٢) أي: (يُزِفُّون) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٤).

(٤) أي: (يُزَفُّون). وتقدم الصواب فيها عن حمزة.

فاعبُدوه وحدَه. وما: مصدرية، وقيل: موصولة، وقيل: موصوفة. ٩٧ ـ ﴿قالُوا﴾ بينهم: ﴿ابنُوا لَهُ بُنيانًا﴾، فاملؤوه حطبًا، وأضرموه بالنار، فإذا التهب ﴿فألقُوهُ في الجَحِيمِ﴾: النارِ الشديدة.

٩٨ ـ ﴿فأرادُوا بِهِ كَيدًا﴾ بإلقائه في النار لتُهلكه، ﴿فجَعَلْناهُمُ الأسفَلِينَ﴾: المقهورين. فخرج من النار سالمًا، ٩٩ ـ ﴿وقالَ: إنِّي ذاهِبٌ إلَى رَبِّي﴾: مهاجر إليه من دار الكُفر، ﴿سَيَهدِينِ﴾ إلى حيثُ أمرني ربّي بالمصير إليه، وهو الشام. فلمّا وصل إلى الأرض المُقدّسة قال: ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ﴿رَبِّ، هَبْ لِي﴾ ولدًا ﴿مِنَ الصّالِحِينَ. فبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ أي: ذي حِلم كثير.

١٠٢ ـ ﴿فلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعيَ﴾ أي: أن يسعى معه ويُعينه ـ قيل: بلغ سبعَ سنين، وقيل: ثلاثَ عشْرةَ سنة ـ ﴿قالَ: يا بُنَيَّ، إنِّي أرَى﴾ أي: رأيتُ ﴿في المَنامِ أنِّي أذبَحُكَ﴾. ورؤيا الأنبياء حقّ، وأفعالُهم بأمر الله. تعالى. ﴿فانظُرْ: ماذا تَرَى﴾ من الرأي؟ شاوَرَه ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به. ﴿قالَ: يا أبَتِ﴾ ـ التاء عِوَض عن ياء الإضافة ـ ﴿افعَلْ ما تُؤمَرُ﴾ به. ﴿سَتَجِدُنِي، إن شاءَ اللهُ، مِنَ الصّابِرِينَ﴾ على ذلك.

قولُه: (ومَا مَصدَرِيَّةٌ) ورُجِّحَت على الأخيرَينِ؛ لما فيهما مِن حَذْفٍ أو مَجازٍ.

قولُه: (أَضرَمُوهُ) بفتحِ الرَّاءِ: وَقَدُوهُ.

قولُه: (النَّارِ) واللَّامُ بدلُ الإضافَةِ؛ أي: جَحيمِ ذلك البُنْيانِ.

قولُه: (لتُهلِكَهُ) لئلَّا يظهَرَ عَجزُهُم للعامَّةِ.

قولُه: (إلى حَيثُ) أو: إلى ما فيه صَلاحُ ديني.

قولُه: (وهُو الشَّامُ) أو حيثُ تجرَّدَ فيه لعبادَتِهِ.

قولُه: (وَلَدًا) أو: بعضَ الصالحينَ، يعني: الولدَ؛ لأنَّ لفظَ الهبةِ غالِبٌ فيه.

قولُه: (أيْ: ذِي حِلْمٍ) بشَّرَهُ بالولدِ، وبأنَّهُ ذَكَرٌ يبلغُ أوانَ الحُلُمِ.

قولُه: (يَسْعَى معَهُ) في أعمالِه الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، و﴿معَهُ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ دلَّ عليه ﴿السَّعيَ﴾ لا به؛ لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمُهُ، ولا بـ﴿بلغ﴾ فإنَّ بلوغَهُما لم يكن معاً، كأنَّهُ قالَ: فلمَّا بلغَ السَّعيَ، فقيلَ: مع مَن؟ فقيلَ: معه.

قولُه: (رَأَيْتُ) وذُكِرَ بلفظِ المضارعِ لتكريرِ الرُّؤيا، ويمكنُ: لاستحضارِها.

قولُه: (بِهِ) فحُذِفا دُفعَةً، أو على التَّرتيبِ بأن حُذفَتِ الباءُ ثمَّ الهاءُ بعدَ إيصالِ الفعلِ بها.

قولُه: (عَلى ذَلِكَ) أي: على الذَّبحِ، أو قضاءِ اللهِ.

١٠٣ ـ ﴿فلَمّا أسلَما﴾: خضعا وانقادا لأمر الله ـ تعالى ـ ﴿وتَلَّهُ لِلجَبِينِ﴾: صرَعه عليه ـ ولكُلّ إنسان جبينانِ بينهما الجبهةُ ـ وكان ذلك بمِنًى، وأمَرَّ السِّكّين على حلقه، فلم تعمل شيئًا بمانع من القُدرة الإلـهية، ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ ﴿وناديناهُ: أن يا إبراهِيمُ، قَد صَدَّقتَ الرُّؤيا﴾ بما أتَيتَ به ممّا أمكنك من أمر الذبح، أي: يكفيك ذلك. فجملة ناديناه: جواب «لمّا» بزيادة الواو. ﴿إنّا كَذلِكَ﴾: كما جزيناك ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ﴾ لأنفسهم بامتثال الأمر بإفراج الشِّدّة عنهم. ١٠٦ ـ ﴿إنَّ هذا﴾ الذبحَ المأمورَ به ﴿لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ﴾ أي: الاختبار الظاهر.

١٠٧ ـ ﴿وفَدَيناهُ﴾ أي: المأمورَ بذَبحه ـ وهو إسماعيلُ أو إسحاق قولان ـ ﴿بِذِبحٍ﴾: بكبشٍ ﴿عَظِيمٍ﴾ من الجنّة، وهو الذي قرّبه هابيل، جاء به جبريل ـ عليه السلام ـ فذبحه السيّد إبراهيم مُكبّرًا، ١٠٨ ـ ﴿وتَرَكْنا﴾: أبقَينا ﴿علَيهِ في الآخِرِينَ﴾ ثناءً حسنًا: ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣ ـ ﴿سَلامٌ﴾ منّا ﴿علَى إبراهِيمَ ـ كَذلِكَ﴾: كما جزيناه ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ. إنَّهُ مِن عِبادِنا المُؤمِنِينَ ـ وبَشَّرْناهُ بِإسحاقَ﴾، استُدلَّ بذلك على أنّ الذبيح غيرُه، ﴿نَبِيًّا﴾: حالٌ مُقدّرة، أي: يُوجد مُقدَّرًا نُبوّتُه ﴿مِنَ الصّالِحِينَ، وبارَكْنا علَيهِ﴾ بتكثير ذُرّيّته، ﴿وعلَى إسحاقَ﴾: ولدِه، بجعلنا أكثرَ الأنبياء من نسله. ﴿ومِن ذُرِّيَّتِهِما مُحسِنٌ﴾: مؤمنٌ ﴿وظالِمٌ لِنَفسِهِ﴾: كافرٌ ﴿مُبِينٌ﴾: بيِّنُ الكفرِ.

١١٤ ـ ﴿ولَقَد مَنَنّا علَى مُوسَى وهارُونَ﴾ بالنُّبوّة، ١١٥ ـ ﴿ونَجَّيناهُما وقَومَهُما﴾ بني إسرائيلَ ﴿مِنَ الكَربِ العَظِيمِ﴾، أي: من استعبادِ فِرعونَ إياهم،..........................

قولُه: (جَوَابُ) أو الجوابُ: قَبِلنا منهُ و﴿نَادَيْنَاهُ﴾ عطفٌ عليهِ، وهذا أحسنُ من القولِ بالزَّائدِ.

قولُه: (كمَا جَزَيْنَاكَ) والأظهرُ: جزَيْناهُ.

قولُه: (الظَّاهِرُ) الَّذي يتميَّزُ فيه المُخلِصُ مِن غيرِهِ.

قولُه: (وهُو إِسْمَاعِيلُ) وهو الأظهرُ عندَ الأكثرِ.

قولُه: (قَولانِ) توقَّفَ فيهما السُّيوطيُّ في «رسالتِهِ»[1] أيضاً.

قولُه: (كمَا جَزَيْنَاهُ) ولعلَّهُ لم يَقُلْ هنا: «إنَّا» اكتفاءً بذكرِهِ مرَّةً في هذه القصَّةِ.

قولُه: (استُدِلَّ) لأنَّ البِشارَةَ به معطوفٌ على البشارَةِ بالغُلامِ المذبوحِ.

قولُه: (مُقَدَّرًا نُبُوَّتَهُ) مقضيًّا كونُهُ من الصَّالحينَ.

قولُه: (أي: استِعْبَادِ) أو الغَرَقِ.

---

(١) «القول الفصيح في تعيين الذبيح» للسيوطي ضمن «الحاوي للفتاوى» (١/ ٣٧٧) ذكر فيها أدلة القولين.

١١٦ ـ ١١٧ ـ ﴿وَنَصَرْنَاهُم﴾ على القِبط ﴿فكانُوا هُمُ الغالِبِينَ، وآتيناهُما الكِتابَ المُستَبِينَ﴾: البليغَ البيانِ فيما أتى به من الحدود والأحكام وغيرها ـ وهو التوراة ـ ١١٨ ـ ١١٩ ـ ﴿وهَدَيناهُما الصِّراطَ﴾: الطريق ﴿المُستَقِيمَ، وتَرَكْنا﴾: أبقَينا ﴿علَيهِما في الآخِرِينَ﴾ ثناءً حسنًا: ١٢٠ ـ ١٢١ ـ ١٢٢ ـ ﴿سَلامٌ﴾ منّا ﴿على مُوسَى وهارُونَ. إنّا كَذلِكَ﴾: كما جزَيناهما ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ. إنَّهُما مِن عِبادِنا المُؤمِنِينَ﴾.

١٢٣ ـ ﴿وإنَّ إلياسَ﴾، بالهمزةِ أوّلَه وتركِها، ﴿لَمِنَ المُرسَلِينَ﴾. قيل: هو ابن أخي هارونَ أخي موسى، وقيل: غيره، أُرسل إلى قوم ببَعْلَبَكَّ ونواحيها، ١٢٤ ـ ﴿إذ﴾: منصوب بـ «اذكرْ» مُقدّرًا ﴿قالَ لِقَومِهِ: ألا تَتَّقُونَ﴾ اللهَ. ١٢٥ ـ ﴿أتَدْعُونَ بَعلاً﴾: اسمٌ لصنم لهم من ذهب، وبه سُمّي البلد أيضًا مضافًا إلى «بكّ»، أي: أتعبدونه ﴿وتَذَرُونَ﴾: تتركون ﴿أحسَنَ الخالِقِينَ﴾ فلا تعبدونه؟ ١٢٦ ـ ﴿اللهُ رَبُّكُم ورَبُّ آبائكُمُ الأوَّلِينَ﴾، برفع الثلاثة على إضمار «هو»، وبنصبها على البدل من «أحسنَ».

قولُه: (عَلى القِبْطِ) الضَّميرُ لهما مع القَومِ.

قولُه: (بالهَمْزَةِ) المكسورةِ القطعيَّةِ لجمهورِ القُرَّاءِ، وبهمزةٍ مفتوحَةٍ وصليَّةٍ لابنِ ذكوانَ بخُلْفٍ عنهُ[1] على أن (أل) التَّعريف فتثبتُ في الابتداءِ وتسقُطُ في الدَّرْجِ، فعلى هذا يُحمَلُ قوله: (وتركِهَا)، وكذا قولُ البيضاويِّ: وبحذفِها[2].

قولُه: (أَخَا مُوسَى) نصبٌ بتقديرِ: أعني[3].

قولُه: (غَيرُهُ) أي: غيرُ ابنِ أخيهِ، أو: غيرُ هذا القولِ، قيلَ: هو إدريسُ.

قولُه: (اللهَ) أي: عذابَهُ، أو: مخالفتَهُ.

قولُه: (لَهُم) أي: لأهلِ بَكَّ من الشَّامِ.

قولُه: (وبِهِ سُمِّيَ البَلَدُ) الَّذي يُقالُ له الآن: بَعْلَبَكُّ.

قولُه: (مُضَافاً) فيه: أنَّ التَّركيبَ مَزْجيٌّ لا إضافيٌّ، ولعلَّهُ أرادَ معناهُ اللُّغويَّ؛ أي: مُنْضَمًّا.

قولُه: (أَتَعبُدُونَهُ) أو: تَطلبونَ الخيرَ منهُ.

قولُه: (وبنَصْبِهَا) الكوفيُّ غيرَ شعبةَ[4] (على البَدَلِ) أو بتقديرِ: أعني.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٧).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٧).

(٣) وفي المتن: «أخي موسى» فلا حاجة للتقدير.

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٧).

١٢٧ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ، فَإِنَّهُم لَمُحضَرُونَ﴾ في النار، ١٢٨ ـ ﴿إلاَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ أي: المؤمنين منهم ـ فإنّهم نجَوا منها ـ ١٢٩ ـ ﴿وتَرَكْنا علَيهِ في الآخِرِينَ﴾ ثناءً حسنًا: ١٣٠ ـ ﴿سَلامٌ﴾ منّا ﴿علَى إلْياسِينَ﴾ هو إلياسُ المُتقدّمُ ذِكرُه ومَن آمنَ معه، فجُمعوا معه تغليبًا، كقولهم للمُهلَّب وقومه: المُهلَّبونَ. وعلى قراءةِ «آلِ ياسِينَ» بالمدّ أي: أهلِهِ والمرادُ به إلياسُ أيضًا. ١٣١ ـ ١٣٢ ـ ﴿إنّا كَذلِكَ﴾: كما جزَيناه ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ. إنَّهُ مِن عِبادِنا المُؤمِنِينَ﴾.

١٣٣ ـ ﴿وإنَّ لُوطًا لَمِنَ المُرسَلِينَ﴾، ١٣٤ ـ ١٣٥ ـ اذكرْ ﴿إذ نَجَّيناهُ وأهلَهُ أجمَعِينَ، إلاّ عَجُوزًا في الغابِرِينَ﴾ أي: الباقينَ في العذاب، ١٣٦ ـ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنا﴾: أهلكنا ﴿الآخَرِينَ﴾: كُفّارَ قومه. ١٣٧ ـ ﴿وإنَّكُم لَتَمُرُّونَ علَيهِم﴾: على آثارهم ومنازلهم في أسفاركم ﴿مُصبِحِينَ﴾ أي: وقتَ الصباح يعني: بالنهار ١٣٨ ـ ﴿وبِاللَّيلِ. أفَلا تَعقِلُونَ﴾ ـ يا أهل مكة ـ ما حل بهم فتعتبرون به؟

قولُه: (في النَّارِ) وإنَّما أطلقَهُ اكتِفاءً بالقَرينَةِ، أو لأنَّ الإحضارَ المطلَقَ مخصوصٌ بالشَّرِّ عُرْفاً.

قولُه: (أي: المُؤمِنِينَ) مستثنًى مِن الواو لا مِن ﴿الْمُحْضَرِينَ﴾؛ لفسادِ المعنى؛ لأنَّهُ إذا لم يُستَثْنَ شيءٌ من واو «كذبُوا» كانَ كلُّهُم مكذِّبينَ، فليسَ فيهم عبدٌ مُخلِصٌ فَضْلاً عن المُخلَصينَ.

قولُه: (المُهَلَّبُونَ) قالَ القاضي: لكن فيه: أنَّ العَلَمَ إذا جُمِعَ يجبُ تعريفُهُ باللَّامِ[1]. قلتُ: لعلَّهُ حَسَّنَ الحذفَ لزومُ تكرارِ (أل).

وقيل: جمعٌ للمنسوبِ إليه بحذفِ ياءِ النَّسَبِ كالأعجمينَ.

وقيل: ﴿إلياسين﴾ لغةٌ في إلياسَ، كسِيناء وسِينينَ[2].

قولُه: (بالمَدِّ) نافعٌ وشاميٌّ[3].

قولُه: (إليَاسُ) أو أبو إلياسَ، وقيلَ: محمَّدٌ، أو القرآنُ.

قولُه: (فِي أسْفَارِكُم) إلى الشَّامِ، فإنَّ سَدومَ في طريقِهِ.

قولُه: (أي: وَقْتَ الصَّبَاحِ) أي: داخِلينَ في الصَّباحِ.

قولُه: (يَعني: بالنَّهَارِ) أو: صباحاً ومساءً، ولعلَّ الواو بمعنى: أو؛ للتَّنويعِ، أو التَّقديرُ: ﴿مصبحينَ﴾ مرَّةً ﴿وباللَّيلِ﴾ أخرى بحسبِ اتِّفاقِ المَسيرِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٧).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ١١٩).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٧).

١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ﴾: هربَ ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾: السفينةِ المملوءة حين غاضب قومه، لمّا لم ينزل بهم العذاب الذي وعدهم به، فركب السفينة فوقفتْ في لُجّة البحر، فقال الملاّحون: هنا عبد أبَقَ من سيّده، تُظهره القُرعة. ١٤١ ـ ﴿فساهَمَ﴾: قارعَ أهلَ السفينة، ﴿فكانَ مِنَ الْمُدحَضِينَ﴾: المغلوبين بالقُرعة، فألقوه في البحر، ١٤٢ ـ ﴿فالتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾: ابتلعه، ﴿وهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: آتٍ بما يُلام عليه من ذهابه إلى البحر ورُكوبه السفينةَ بلا إذن من ربّه.

١٤٣ ـ ﴿فلَولا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾: الذاكرين بقوله كثيرًا في بطن الحوت: «لا إلَـهَ إلاّ أنتَ سُبحانَكَ. إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»، ١٤٤ ـ ﴿لَلَبِثَ في بَطنِهِ إِلَى يَومِ يُبعَثُونَ﴾ لصار بطن الحوت له قبرًا إلى يوم القيامة، ١٤٥ ـ ﴿فنبَذْناهُ﴾: ألقيناه من بطن الحوت ﴿بِالعَرَاءِ﴾: بوجه الأرض، أي: بالساحل،

قولُه: (هَرَبَ) وأصلُه: الهَرَبُ منَ السَّيِّدِ، لكن لمَّا كان هربُهُ من قومِهِ بغيرِ إذنِ ربِّهِ أُطلِقَ عليه.

قولُه: (المَغلُوبِينَ) وأصلُهُ: المزلِقُ عن مَقامِ الظَّفرِ.

قولُه: (فَأَلْقَوهُ) أو: رَمى نفسَهُ.

قولُه: (ابْتَلَعَهُ) من اللُّقمَةِ.

قولُه: (آتٍ) أو: داخِلٌ في الملامةِ، أو: مُليمٌ نفسَه.

قولُه: (بقَولِهِ) أو بالتَّسبيحِ مدَّةَ عُمرِه، وقيلَ: من المصلِّينَ.

قولُه: (قَبْراً) يعني: لبثَ مَيْتاً، وقيلَ: حيًّا، فيكونُ معناهُ كالقَبرِ، رُوِيَ: أنَّه أوحِيَ إلى الحوتِ: إنَّا جَعلنا بطنَكَ له سِجْناً، ولم نَجعَلْهُ لك طعاماً[1].

قولُه: (أَلْقَيْنَاهُ) بأن حَمَلنا الحوتَ على لَفْظِهِ.

قولُه: (بوَجْهِ الأَرْضِ) أي: بالمكانِ الخالي عمَّا يغطِّيهِ من شجرٍ أو نَبْتٍ.

قولُه: (بالسَّاحِلِ) قيلَ: بشاطِئِ دجلةَ، وقيل: بأرضِ اليَمَنِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١١٦) عن شهر بن حوشب.

وروى البزار في «مسنده» (٨٢٢٧)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لما أراد الله تبارك وتعالى حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن لا تخدشن له لحماً، ولا تكسرن له عظماً فأخذه...» الحديث.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٨): رواه البزار عن بعض أصحابه ولم يسمه، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، وبقية رجاله رجال الصحيح.

من يومه أو بعد ثلاثةٍ أو سبعةِ أيامٍ أو عشرين أو أربعين يومًا، ﴿وهُوَ سَقِيمٌ﴾: عليل كالفرخ المُمَّعِط، ١٤٦ ـ ﴿وأنبَتْنا علَيهِ شَجَرةً مِن يَقطِينٍ﴾ ـ وهي القَرْع تُظِلّه، وهو بسِياق على خِلاف العادة في القرع، مُعجزةً له. وكانت تأتيه وعلةٌ صباحًا ومساء، يشرب من لبنها حتّى قوي ـ ١٤٧ ـ ﴿وأرسَلْناهُ﴾ بعد ذلك كقَبلِه إلى قومٍ بنِينَوَى من أرض المَوصل، ﴿إلَى مِائَةِ ألفٍ ـ أو﴾: بل ﴿يَزِيدُونَ﴾ عشرين............

قولُه: (عَلِيلٌ) ممَّا نالَهُ، قيل: صارَ بدنُهُ كبدَنِ الطِّفلِ حينَ يولَدُ.

قولُه: (كالفَرْخِ) أي: ولدِ الطَّيرِ.

قولُه: (المُمَّعِطِ) بضمِّ الميمِ الأولى وتشديدِ الثَّانيةِ وكسرِ العينِ: المنتُوفِ الشَّعرِ.

قولُه تعالى: (﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ﴾) أي: فوقَهُ مُظِلَّةً عليهِ.

قولُه: (القَرْعُ) وعليهِ الأكثرُ، واليقطينُ شجرٌ ينبسِطُ على وجهِ الأرضِ ولا يقومُ على ساقِهِ، يَفْعِيلٌ مِن قَطَنَ بالمكانِ: إذا قامَ به.

قولُه: (تُظِلُّهُ) أو غطَّتْهُ بأوراقِها عن الذُّبابِ فإنَّهُ لا يقعُ عليه، وقيل: التِّينُ، وقيل: المَوزُ، وقيل: نامَ نومَةً فاستيقظَ وقد يبسَتِ الشَّجَرةُ فأصابَتْهُ الشَّمسُ فبكى، فأوحى اللهُ إليه: تحزَنُ على شجرةٍ يبسَتْ، ولا تحزَنُ على مئةِ ألفٍ أو يزيدونَ، أرسَلناكَ إليهم فلم يتَّبِعوكَ فأردْتَ إهلاكَهُم، كذا في «تفسيرِ الكواشيِّ»(١).

قولُه: (وَعْلَةٌ) في «القاموسِ»: الوَعَلُ؛ بالفتحِ، وككَتِفٍ: تيسُ الجبلِ، جمع: أوعَالٍ ووعُولٍ ووعلةٍ، والأنثى: بلفظِها(٢).

قولُه: (بَل) وقُرئَ به وبالواو(٣).

قولُه: (عِشرِينَ) كذا في حديثٍ مرفوعٍ(٤).

---

(١) انظر: «التلخيص في تفسير القرآن العزيز» (٤/ ٤٣).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٦٨). قوله: (والأنثى بلفظها)، أي: بلفظ وعلة الذي هو جمع أو اسم جمع. انظر: «تاج العروس» (٣١/ ٨٨).

(٣) قراءة (بل يزيدون) رويت عن ابن عباس، كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨٧).

وقراءة (ويزيدون) نسبت لجعفر بن محمد وأبي البرهسم، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٠٨).

(٤) روى الترمذي (٣٢٢٩)، والطبري «تفسيره» (٢١/ ١١٥) عن أبي بن كعب، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ قال: «عشرون ألفاً».

قال الترمذي: هذا حديث غريب.

أو ثلاثين أو سبعين ألفًا ـ ١٤٨ ـ ﴿فآمَنُوا﴾ عِند مُعاينة العذاب الموعودين به، ﴿فمَتَّعْناهُم﴾ أي: أبقَيناهم مُمتّعين بما لَهُم ﴿إلَى حِينٍ﴾ تنقضي آجالُهم فيه.

١٤٩ ـ ﴿فاستَفتِهِم﴾: استخبرْ كُفّارَ مكّة توبيخًا لهم: ﴿ألِرَبِّكَ البَناتُ﴾، بزعمهم أنّ الملائكة بناتُ الله، ﴿ولَهُمُ البَنُونَ﴾ فيختصّون بالأسنَى؟ ١٥٠ ـ ﴿أم خَلَقْنا المَلائكةَ إناثًا، وهُم شاهِدُونَ﴾ خلْقَنا، فيقولون ذلك؟ ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ﴿ألا إنَّهُم مِن إفكِهِم﴾: كذِبِهم ﴿لَيَقُولُونَ: وَلَدَ اللهُ﴾، بقولهم: الملائكةُ بناتُ الله. ﴿وإنَّهُم لَكاذِبُونَ﴾ فيه. ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ﴿أصطَفَى﴾ ـ بفتح الهمزة للاستفهام، واستُغني بها عن همزة الوصل فحُذفت ـ أي: أختارَ ﴿البَناتِ علَى البَنِينَ؟ مالَكُم؟ كَيفَ تَحكُمُونَ﴾ هذا الحكمَ الفاسد؟ ١٥٥ ـ ﴿أفلا تَذَّكَّرُونَ﴾، بإدغام التاء في الذال، أنه ـ تعالى ـ مُنزّه عن الولد؟ ١٥٦ ـ ﴿أم لَكُم سُلطانٌ مُبِينٌ﴾: حُجّة واضحة بأنّ للهِ ولدًا؟ ١٥٧ ـ ﴿فائتُوا بِكِتابِكُم﴾ التوراةِ فأروني ذلك فيه، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ في قولكم ذلك.

قولُه: (أو ثَلاثِينَ) عن ابنِ عبَّاسٍ[١]، وفي روايةٍ: أربعينَ[٢].

قولُه: (المَوعُودِينَ) نَصبُهُ بتقديرِ: أعني، أو المرسلونَ إليهم ثانيةً.

قولُه: (بِمَا لَهُمْ) بفتحِ اللَّامِ.

قولُه: (خَلْقَنَا) مفعولٌ للاستفهامِ الإنكاريِّ.

قولُه: (فحُذِفَتْ) بل حُذفَت على أصلِها في الدَّرجِ لا استغناءً، ونَقلُ القاضي[٣] عن نافِعٍ حذْفَ الاستفهامِ شاذٌّ[٤].

قولُه: (بإدْغَامِ التَّاءِ) عندَ غَيرِ حفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ[٥].

قولُه: (واضِحَةٌ) نزلَتْ عليكم مِن السَّماءِ.

قولُه: (التَّورَاةِ) فيه: أنَّ الخطابَ مع كفَّارِ مكَّةَ.

قولُه: (فِي قَوْلِكُم) أي: دَعوَتِكُم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١١٥).

(٢) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ١٣٢).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٩).

(٤) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٢٨).

(٥) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٨).

١٥٨ ـ ﴿وجَعَلُوا﴾ أي: المشركون ﴿بَينَهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿وبَينَ الجِنَّةِ﴾ أي: الملائكةِ لاجتنانهم عن الأبصار ﴿نَسَبًا﴾ بقولهم: إنّها بنات الله، ﴿ولَقَد عَلِمَتِ الجِنَّةُ إنَّهُم﴾ أي: قائلي ذلك ﴿لَمُحضَرُونَ﴾ النارَ يعذَّبون فيها.

١٥٩ ـ ﴿سُبحانَ اللهِ﴾: تنزيهًا له ﴿عَمّا يَصِفُونَ﴾ بأنّ لِلهِ ولدًا! ١٦٠ ـ ﴿إلاّ عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ أي: المؤمنين ـ استثناء منقطع ـ أي: لكنِ المؤمنون فإنّهم مُنزِّهون اللهَ عمّا يصفه هؤلاء. ١٦١ ـ ﴿فإنَّكُم وما تَعبُدُونَ﴾ من الأصنام. ١٦٢ ـ ﴿ما أنتُم علَيهِ﴾ أي: على معبودكم، وعليه: مُتعلّق بقوله ﴿بِفاتِنِينَ﴾ أي: أحدًا ١٦٣ ـ ﴿إلاّ مَن هُوَ صالِ الجَحِيمِ﴾ في عِلم الله تعالى.

قال جبريلُ للنبيِّ ﷺ: ١٦٤ ـ ﴿وما مِنّا﴾ ـ معشرَ الملائكة ـ أحدٌ ﴿إلاّ لَهُ مَقامٌ مَعلُومٌ﴾ في السماوات، نعبد الله فيه لا نتجاوزه، ١٦٥ ـ ﴿وإنّا لَنَحنُ الصّافُّونَ﴾ أقدامَنا في الصلاة، ١٦٦ ـ ﴿وإنّا لَنَحنُ المُسَبِّحُونَ﴾: المُنزِّهون اللهَ عما لا يليق به.

١٦٧ ـ ١٦٨ ـ ﴿وإنْ﴾: مُخفّفةٌ من الثقيلة ﴿كانُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة ﴿لَيَقُولُونَ: لَو أنَّ عِندَنا ذِكرًا﴾: كِتابًا ﴿مِنَ الأوَّلِينَ﴾ أي: من كُتب الأُمم الماضية، ١٦٩ ـ ﴿لَكُنّا عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ العِبادةَ له. ١٧٠ ـ قال تعالى: ﴿فكَفَرُوا بِهِ﴾ أي: بالكِتاب الذي جاءهم، وهو القُرآن الأشرف من تلك الكُتب. ﴿فَسَوفَ يَعلَمُونَ﴾ عاقبة كُفرهم، ....

قولُه: (أي: المَلائِكَةِ) ذكرَهُم باسمِ جنسِهِم وضعاً منهم أن يَبلُغوا هذهِ المرتبَةَ.

قولُه: (استِثْناءٌ) من «المحضرينَ»؛ أي: فإنَّهُم غيرُ محضرينَ، بل أولئك عنها مُبْعَدونَ، وما بينَهُما اعتراضٌ، أو من واو: ﴿يَصِفُونَ﴾ على ما اختارَهُ الشَّيخُ.

قولُه: (عَلى مَعبُودِكُم) أو على اللهِ.

قولُه: (أي: أحَداً) أي: مضلِّينَ، كذا في «الدُّرِّ»[1].

قولُه: (قَالَ جِبرِيلُ) اعترافاً بالعُبوديَّةِ وردًّا على عَبَدَتِهِم.

قولُه: (أَحَدٌ) فحُذِفَ الموصوفُ وأقيمَ الصِّفةُ مقامَهُ.

قولُه: (في السَّمَاوَاتِ) أو: في المعرفةِ والعبادةِ والانتهاءِ إلى أمرِ اللهِ في تدبيرِ العالَمِ لا يتجاوَزُهُ.

قولُه: (أَقدَامَنَا) أو في أداءِ الطَّاعةِ ومنازِلِ الخدمَةِ.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٧/ ١٣٤)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ١٢٣).

١٧١ ـ ﴿ولَقَد سَبَقَتْ كَلِمتُنا﴾ بالنصر ﴿لِعِبادِنا المُرسَلِينَ﴾، وهي: «لَأغلِبَنَّ أنا ورُسُلِي»، أو هي قوله: ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ﴿إنَّهُم لَهُمُ المَنصُورُونَ، وإنَّ جُندَنا﴾ أي: المؤمنين ﴿لَهُمُ الغالِبُونَ﴾ الكُفّارَ بالحُجّة والنُّصرة عليهم في الدنيا، وإن لم ينتصر بعض منهم في الدنيا ففي الآخرة.

١٧٤ ـ ﴿فتَوَلَّ عَنهُم﴾ أي: أعرِض عن كُفّار مكّة ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ تُؤمَر فيه بقِتالهم، ١٧٥ ـ ﴿وأبصِرْهُم﴾ إذا نزل بهم العذاب. ﴿فسَوفَ يُبصِرُونَ﴾ عاقبة كُفرهم ـ فقالوا استهزاء: متى نزول العذاب؟ قال تعالى تهديدًا لهم: ١٧٦ ـ ١٧٧ ـ ﴿أفبِعَذابِنا يَستَعجِلُونَ؟ فإذا نَزَلَ بِساحتِهِم﴾: بِفِنائهم، قال الفرّاء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم، ﴿فساءَ﴾: بئسَ صباحًا ﴿صَباحُ المُنذَرِينَ﴾! فيه إقامة الظاهر مَقامَ الضمير ـ ١٧٨ ـ ١٧٩ ـ ﴿وتَوَلَّ عنهُم حَتَّى حِينٍ، وأبصِرْ فسَوفَ يُبصِرُونَ﴾. كُرِّرَ تأكيدًا لتهديدِهم وتسليةً له ﷺ.

١٨٠ ـ ﴿سُبحانَ رَبِّكَ، رَبِّ العِزّةِ﴾: الغلبة ﴿عَمّا يَصِفُونَ﴾، بأنّ له ولدًا! ١٨١ ـ ﴿وسَلامٌ علَى المُرسَلِينَ﴾: المُبلِّغين عن الله التوحيدَ والشرائع، ١٨٢ ـ ﴿والحَمدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾ على نصرهم وهلاك الكافرين.

قولُه: (إذَا نَزَلَ بِهِم العَذَابُ) يومَ بدرٍ، أو يومَ الفَتحِ، أو يومَ القيامَةِ.

قولُه: (وتَسلِيَةً لَهُ) الظَّاهرُ: وتسليته ﷺ؛ ليدخُلَ تحتَ التَّأكيدِ؛ إذ فَهْمُ التَّسليةِ ممَّا سبقَ أيضاً، أو الأوَّلُ لعذابِ الدُّنيا، والثَّاني لعذابِ الآخرَةِ.

قولُه: (وَلَداً) أو شَريكاً.

قولُه: (المُبَلِّغِينَ) تَعميمٌ بعدَ تخصيصِ بعضِهِم، والمرادُ: تَعليمُ المؤمنينَ، واللهُ أعلمُ.

***

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكّية، ولم يَحكوا في ذلك خلافاً. وهي مئةٌ وإحدى وثمانون آيةً عند البصريين، ومئةٌ واثنتان وثمانون عندَ غيرِهم. وفيها تفصيلُ أحوالِ القرونِ المشارِ إلى إهلاكها في قوله تعالى في السُّورة المتقدِّمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١] وفيها من تفصيل أحوالِ المؤمنين وأحوالِ أَعدائهم الكافرين يوم القيامةِ ما هو كالإيضاح لِمَا في تلك السورةِ من ذلك، وذُكر فيها شيءٌ مما يتعلّق بالكواكب لم يُذكَر فيما تقدَّم، ولمجموع ما ذُكر ذُكرت بعدها.

وفي «البحر»[1]: مناسبةُ أولِ هذه السورةِ لآخر سورةِ «يس» أنَّه تعالى لمَّا ذكر المعادَ وقدرتَه سبحانه على إحياء الموتى، وأنَّه هو مُنشئهم، وأنَّه إذا تعلَّقت إرادتُه بشيءٍ كان، ذكر عزَّ وجلَّ هنا وحدانيتَه سبحانه؛ إذ لا يتمُّ ما تعلَّقت به الإرادة إيجاداً وإعداماً إلَّا بكون المريدِ واحداً، كما يُشير إليه قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾ إقسامٌ من الله تعالى بالملائكة عليهم السلام، كما روي عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ ومسروقٍ ومجاهدٍ وعكرمةَ وقتادةَ والسُّديِّ.

وأَبى أبو مسلم ذلك، وقال: لا يجوز حملُ هذا اللفظ ـ وكذا ما بعدُ ـ على الملائكة؛ لأنَّ اللفظَ مشعرٌ بالتأنيث، والملائكةُ مبرَّؤون عن هذه الصفة.

---

(١) ٧/ ٣٥١.

وفيه أنَّ هذا في معنى جمعِ الجمع، فهو جمعُ: صافَّة، أي: طائفة، أو جماعة صافَّة. ويجوز أن يكونَ تأنيثُ المفردِ باعتبار أنَّه ذاتٌ ونفس، والتأنيثُ المعنويُّ هو الذي لا يَحسُن أن يُطلقَ عليهم، وأما اللفظيُّ فلا مانعَ منه، كيف وهم المسمَّون بالملائكة؟!

والوصفُ المذكورُ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، على أنَّ المرادَ إيقاعُ نفسِ الفعلِ من غير قصدٍ إلى المفعول، أي: الفاعلات للصفوف، أو المفعولُ محذوف، أي: الصافَّاتِ أنفسَها، أي: الناظماتِ لها في سِلك الصفوفِ بقيامها في مقاماتها المعلومةِ حسبما ينطق به قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وذلك باعتبار تقدُّم الرتبةِ والقربِ من حظيرة القُدس، أو: الصافَّاتِ أنفسَها القائماتِ صفوفاً للعبادة. وقيل: الصافَّات أقدامَها للصَّلاة. وقيل: الصافَّات أَجنحتَها في الهواء منتظراتٍ أمرَ اللهِ تعالى.

وقيل: المرادُ بـ «الصافَّات» الطير، من قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ [النور: ٤١]. ولا يعوَّل على ذلك.

و«صفًّا» مصدرٌ مؤكِّد، وكذا «زَجْراً» في قوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ وقيل: «صفًّا» مفعولٌ به، وهو مفردٌ أُريد به الجمع، أي: الصافَّاتِ صفوفَها. وليس بذاك.

والمرادُ بالزاجرات الملائكةُ عليهم السلام أيضاً عند الجمهور.

والزَّجرُ في الأصل: الدفعُ عن الشيءِ بتسلُّطٍ وصياحٌ، وأنشدوا:

زجرَ أبي عروةَ السِّباعَ إذا أشفق أن يختلطنَ بالغَنَمِ[1]

ويُستعمل بمعنى السَّوق والحثّ، وبمعنى المنعِ والنَّهي وإن لم يكن صياحٌ، والوصفُ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أو مفعولُه محذوف، أي: الفاعلاتِ للزَّجر، أو: الزاجراتِ ما نيط بها زجرُه من الأجرام العلويةِ والسُّفلية وغيرِها على وجهٍ يليق

(١) البيت للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص ١٥٨.

بالمزجور، ومن جملة ذلك زجرُ العبادِ عن المعاصي بإلهام الخير، وزجرُ الشياطين عن الوسوسة والإغواء وعن استراق السَّمع، كما سيأتي قريباً إن شاء اللهُ تعالى.

وعن قتادة: المرادُ بالزاجرات آياتُ القرآن؛ لتضمُّنها النواهيَ الشرعية.

وقيل: كلُّ ما زجر عن معاصي اللهِ عزَّ وجلَّ. والمعوَّل عليه ما تقدَّم.

وكذا المرادُ ـ كما رُوي عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ وغيرِهما ـ في قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾ الملائكةُ عليهم السلام.

و«ذِكْراً» نصب على أنَّه مفعولٌ به، وتنوينُه للتفخيم، وهو بمعنى المذكورِ المتلوّ، وفسِّر بكتاب[1] اللهِ عزَّ وجلَّ.

قال أبو صالح: هم الملائكةُ يجيئون بالكتاب والقرآنِ من عند اللهِ عزَّ وجلَّ إلى الناس. فالمرادُ بتلاوته تلاوتُه على الغير.

وفسَّره بعضُهم بالآيات والمعارفِ الإلهية، والملائكةُ يتلونهما على الأنبياءِ والأولياء. وسيأتي إن شاء اللهُ تعالى في باب الإشارةِ ما يتعلَّق بتلاوة الملائكةِ ذلك على الأولياءِ قدَّس اللهُ تعالى أسرارَهم.

وقال بعض: أي: فالتالياتِ آياتِ اللهِ تعالى وكتبَه المنزلةَ على الأنبياءِ عليهم السلام، وغيرَها من التسبيح والتقديسِ والتحميدِ والتمجيد. ولعلَّ التلاوةَ على هذا أعمُّ من التِّلاوة على الغير وغيرها.

وقيل: «ذكراً» نصب على أنَّه مصدرٌ مؤكِّد على غير اللفظ؛ لتكونَ المنصوباتُ على نسقٍ واحد.

وقال قتادة: التاليات ذِكراً: بنو آدم يتلون كتابَه تعالى المنزلَ وتسبيحَه وتكبيرَه.

وجوِّز أن يكونَ اللهُ تعالى أقسم بنفوس العلماءِ العمَّال، الصافاتِ أنفسَها في صفوف الجماعات، أو أقدامَها في الصَّلوات، الزاجراتِ بالمواعظ والنصائح،

---

(١) في الأصل: بكتب.

التالياتِ آياتِ اللهِ تعالى، الدارسات شرائعَه وأحكامَه. أو بطوائفِ قوَّاد الغزاةِ في سبيل اللهِ تعالى التي تصفُّ الصفوفَ في مواطن الحروب، الزاجراتِ الخيلَ للجهاد سوقاً، أو العدوَّ في المعارك طرداً، التالياتِ آياتِ اللهِ سبحانه وذِكرَه وتسبيحَه في تضاعيف ذلك.

وجُوِّز أيضاً أن يكونَ أقسم سبحانه بطوائفِ الأجرامِ الفلكيةِ المرتَّبة كالصُّفوف، المرصوصةِ بعضُها فوق بعض، والنفوسِ المدبِّرة لتلك الأجرامِ بالتحريك ونحوِه، والجواهرِ القدسيةِ المستغرقة في بحار القدسِ يسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يفتُرون، وهم الملائكةُ الكَروبيُّون ونحوُهم. وهذا بعيدٌ بمراحلَ عن مذهب السلفِ الصالح، بل عن مذهب أهلِ السنَّة مطلقاً كما لا يخفى.

والفاءُ العاطفةُ للصِّفات قد تكون لترتيب معانيها الوصفيةِ في الوجود الخارجيِّ إذا كانت الذاتُ المتَّصفةُ بها واحدة، كما في قوله:

يا لهفَ زيَّابةَ للحارث الصَّـ ... ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ[1]

أي: الذي صَبَحَ فغَنِم فآبَ ورجع.

أو لترتيب معانيها في الرُّتبة إذا كانت الذاتُ واحدةً أيضاً، كما في قولك: أتمّ العقل فيك إذا كنت شابّاً فكهلاً.

أو لترتيب الموصوفاتِ بها في الوجود، كما في قولك: وقفتُ كذا على بَنيَّ بطناً فبطناً. أو في الرُّتبة، نحو: رحم اللهُ تعالى المحلِّقين فالمقصِّرين. وكلاهما مع تعدُّد الموصوف، والترتيبُ الرُّتْبيُّ إما باعتبار الترقِّي أو باعتبار التدلِّي.

وهي ـ إذا كانت الذاتُ المتصفةُ بالصِّفات هنا واحدةً، وهم الملائكةُ عليهم السلام بأسرهم ـ تحتمل أن تكونَ للترتيب الرتبيِّ باعتبار الترقِّي، فالصفُّ في الرُّتبة الأُولى؛ لأنَّه عملٌ قاصر، والزَّجر أَعلى منه؛ لمَا فيه من نفع الغير، والتلاوةُ أَعلى وأعلى؛ لمَا فيها من نفع الخاصَّةِ الساري إلى نفع العامَّةِ بما فيه صلاحُ المعاشِ

(١) البيت لابن زيّابة التيمي، وسلف ١١/٤٠٩.

والمعاد. أو للترتيب الخارجيِّ من حيث وجودُ ذواتِ الصِّفات، فالصفُّ يوجد أوَّلاً لأنَّه كمالٌ للملائكة في نفسها، ثم يوجد بعده الزَّجرُ للغير؛ لأنَّه تكميلٌ للغير يستعدُّ به، والشخصُ ما لم يكمُل في نفسه لا يتأهَّل لأن يُكملَ غيرَه، ثم توجد التلاوةُ بناءً على أنَّها إفاضةٌ على الغير المستعدِّ لها، وذا لا يتحقَّق إلَّا بعد حصولِ الاستعدادِ الذي هو من آثار الزَّجر.

وإذا كانت الذاتُ المتصفةُ بها من الملائكة عليهم السلام متعدِّدةً، بمعنى أنَّ صنفاً منهم كذا وصنفاً آخَرَ كذا، فالظاهرُ أنَّها للترتيب الرتبيِّ باعتبار الترقِّي كما في الشِّقِّ الأول، فالجماعاتُ الصافَّاتُ كاملون، والزاجراتُ أكملُ منها، والتالياتُ أكملُ وأكمل، كما يُعلم ممَّا سبق.

وقيل: يجوز أن يكونَ بعكس ذلك، بأن يرادَ بالصافَّات جماعاتٌ من الملائكة صافَّاتٌ من حول العرش، قائماتٌ في مقام العبودية، وهم الكَرُوبيُّون المقرَّبون، أو ملائكةٌ آخَرون يقال لهم ـ كما ذكر الشيخُ الأكبر قدَّس اللهُ سرَّه ـ: المُهَيَّمون، مستغرقون بحبِّه تعالى، لا يدري أحدُهم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلق غيرَه، وذكر أنَّهم لم يؤمروا بالسُّجود لآدمَ عليه السلام لعدم شعورِهم باستغراقهم به تعالى، وأنَّهم المعنيُّون بالعالين في قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]. وبالزَّاجرات جماعاتٌ أُخرُ أُمرت بتسخير العُلوياتِ والسفليات، وتدبيرِها لما خُلقت له، وهي في الفضل ـ على ما لها من النفع للعباد ـ دون الصافَّات. وبالتاليات ذِكراً جماعاتٌ أخرُ أُمرت بتلاوة المعارفِ على خواصِّ الخلق، وهي ـ لخصوص نفعِها ـ دونَ الزاجرات. أو المرادُ بالزاجرات الزاجراتُ الناسَ عن القبيح بإلهام جهةِ قبحِه وما ينفِّر عن ارتكابه، وبالتاليات ذِكراً الملهماتُ للخير والجهاتِ المرغِّبة فيه.

ولكون دفعِ الضرِّ أَولى من جلب الخير، ودرءِ المفاسدِ أهمَّ من جلب المصالح؛ ولذا قيل: التخلية ـ بالخاء ـ مقدَّمة على التحلية = كانت التالياتُ دون الزَّاجرات.

وحالُ الفاءِ ـ على سائر الأقوالِ السابقةِ في الصفات ـ لا يخفَى على مَن له أدنى تأمُّل.

ويجوز عندي ـ واللهُ تعالى أعلمُ ـ أن يرادَ بـ «الصافَّات»: المصطفُّون للعبادة، من صلاةٍ ومحاربةِ كفرةٍ مثلاً، ملائكةً كانوا أم أناسيَّ أم غيرَهما، وبـ «الزاجرات»: الزَّاجرون عن ارتكاب المعاصي بأقوالهم أو أفعالِهم، كائنين مَن كانوا، وبـ «التاليات ذِكراً»: التالون لآيات اللهِ تعالى على الغير، للتعليم أو نحوِه كذلك. ولا عنادَ بين هذه الصِّفات، فتجتمع في بعض الأشخاص.

ولعلَّ الترتيبَ على سبيل الترقِّي باعتبار نفسِ الصفات، فالاصطفافُ للعبادة كمال، والزجرُ عن ارتكاب المعاصي أكمل، والتلاوةُ لآياتِ اللهِ تعالى للتعليم؛ لتضمُّنه الأمرَ بالطاعات والنهيَ عن المعاصي، والتخلِّيَ عن الرذائل والتحلِّيَ بالمعارف، إلى أمورٍ أُخرَ أكملَ وأكمل.

وجَعلُ الصفاتِ المذكورةِ لموصوفٍ واحدٍ من الملائكة على ما مرّ، بأن تكونَ جماعاتٌ منهم صافَّات، بمعنى صافاتٍ أنفسَها في سلك الصفوفِ بالقيام في مقاماتها المعلومة، أو القائماتِ صفوفاً للعبادة، وتالياتٍ ذكراً بمعنى تالياتِ الآياتِ بطريق الوحي على الأنبياءِ عليهم السلام = لا يخلو عن بُعدٍ فيما أرى، على أن تعدُّدَ الملائكةِ التالين للوحي ـ سواءٌ كان صنفاً مستقلًا أم لا ـ ممَّا يُشكل عليه ما ذكره غيرُ واحدٍ أنَّ الأمينَ على الوحي التاليَ للذِّكر على الأنبياءِ هو جبريلُ عليه السلام لا غير. نَعَم من الآيات ما ينزل مشيَّعاً بجمعٍ من الملائكة عليهم السلام، ونطق الكتابُ الكريمُ بالرَّصد عند إبلاغ الوحي، وهذا أمرٌ والتلاوةُ على الأنبياءِ عليهم السلام أمرٌ آخَر، فتأمَّل جميعَ ذلك. وفي المراد بالصفات المتناسقةِ احتمالاتٌ غيرُ ما ذُكر، فلاتغفُل.

وأيَّاما كان، فالقَسَمُ بتلك الجماعاتِ أنفسِها ولا حَجرَ على الله عزَّ وجلَّ، فله سبحانه أن يُقسِمَ بما شاء، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ الكلامَ على حذفِ مضاف، أي: وربِّ الصافاتِ، مثلاً.

والآيةُ ظاهرةُ الدَّلالة على مذهب سيبويه والخليلِ في مثل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١-٢] من أنَّ الواوَ الثانيةَ وما بعدَها للعطف[١]، خلافاً لمذهب غيرِهما من أنَّها للقَسَم؛ لوقوع الفاءِ فيها موقعَ الواو، إلَّا أنَّها تُفيد الترتيب.

وأَدغم ابنُ مسعودٍ ومسروقٌ والأعمشُ وأبو عَمرٍو وحمزةُ التاءاتِ الثلاثَ فيما يليها[٢]؛ للتَّقارب، فإنَّها من طرف اللسانِ وأصولِ الثَّنايا.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾ جوابٌ للقَسَم. وقد جرت عادتُهم على تأكيد ما يهتمُّ به بتقديم القَسَم؛ ولذا قدِّم هاهنا، فلا يقال: إنَّه كلامٌ مع منكِرٍ مكذِّب، فلا فائدةَ في القَسَم. وما قيل من أنَّ وحدةَ الصانعِ قد ثبتت بالدليل النقليِّ بعد ثبوتِها بالعقل ففائدتُه ظاهرةٌ هنا = غيرُ تامّ؛ لأنَّ الكلامَ مع مَن لا يعترف بالتوحيد، وقد أُشير إلى البرهان في قولِه سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ فإنَّ وجودَها على هذا النَّمط البديعِ أوضحُ دليلٍ على وَحدته عزَّ وجلَّ، بل في كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّات العالمَ دليلٌ على ذلك:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحدُ[٣]

و«ربّ» خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ» على مذهب مَن يجوِّز تعدُّدَ الأخبار. أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو ربُّ السماواتِ.. إلخ. وجوَّز أبو البقاءِ[٤] وغيرُه كونَه بدلاً من «واحد» فهو المقصودُ بالنسبة. أي: خالقُ السماواتِ والأرضِ وما بينهما من الموجودات.

ويدخل في عموم الموصولِ أفعالُ العباد، فتدلُّ الآيةُ على أنَّها مخلوقةٌ له تعالى، ولا ينافي ذلك كونُ قدرةِ العبدِ مؤثِّرةً بإذنه عزَّ وجلَّ، كما ذهب إليه معظمُ السلف، حتى الأشعريُّ نفسُه في آخر الأمرِ على ما صرَّح به بعضُ الأجِلَّة.

---

(١) انظر الكتاب ٣/ ٥٠١.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٥٢، وانظر لقراءة أبي عمرو وحمزة التيسير ص ٢٢-٢٦ و١٨٥-١٨٦، والنشر ١/ ٢٨٦ فما بعد، و٢/ ٣٥٦.

(٣) سلف ١/ ٢٧١.

(٤) في الإملاء ٤/ ٢٣٢.

وفسَّر بعضُهم الربَّ هنا بالمالك وبالمربِّي. ولعلَّ الأوَّل أظهر، وفي دلالة الآيةِ على كون أفعالِ العبادِ مخلوقةً له على ذلك بحث.

والمرادُ بـ «المشارق» ـ عند جمع ـ مشارقُ الشمس؛ لأنَّها المعروفةُ الشائعةُ فيما بينهم، وهي بعدد أيامِ السَّنة؛ فإنَّها في كلِّ يومٍ تُشرق من مشرقٍ وتَغرب في مغرب، فالمغاربُ متعدِّدة تعدُّدَ المشارق، وكأنَّ الاكتفاءَ بها لاستلزامها ذلك، مع أنَّ الشروقَ أدلُّ على القدرة وأبلغُ في النِّعمة؛ ولهذا استدلَّ به إبراهيمُ عليه السلام عند محاجَّةِ النُّمروذ.

وعن ابن عطيةَ(١) أنَّ مشارقَ الشمسِ مئةٌ وثمانون.

ووفَّق بعضُهم بين هذا وما يقتضيه ما تقدَّم من مضاعفة العددِ بأنَّ مشارقَها من رأس السَّرطان، وهو أولُ بروجِ الصيف، إلى رأس الجَدي، وهو أوَّل بروجِ الشِّتاء، متَّحدةً معها من رأس الجديِ إلى رأس السَّرطان، فإن اعتُبر ما كانت عليه وما عادت إليه واحداً، كانت مئةً وثمانين، وإنْ نُظر إلى تغايرهما، كانت ثلاثَ مئةٍ وستين. وفي هذا إسقاطُ الكسر؛ فإنَّ السَّنةَ الشمسيةَ تزيد على ذلك العددِ بنحو ستَّة أيامٍ على ما بيِّن في موضعه.

وفسِّرت «المشارقُ» أيضاً بمشارق الكواكب، ورجِّح بأنَّه المناسبُ لقوله تعالى بعد: «إنا زينا..» إلخ. وهي للسيَّارات منها متفاوتةٌ في العدد، وأكثرُها مشارقَ ـ على ما هو المعروفُ عند المتقدِّمين ـ زُحَل، ومشارقُه إلى أن يُتمَّ دورتَه أكثرُ من مشارق الشمسِ إلى أن تُتِمَّ دورتَها بألوف، ومشارق الثوابتِ إلى أن تُتمَّ الدورةَ أكثر وأكثر، فلا تغفُل وتبصَّر.

وتثنيةُ المشرقِ والمغربِ في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧] على إرادة مشرقِ الصيفِ ومشرقِ الشتاءِ ومغربيهما. وإعادةُ «رب» هنا مع المشارقِ لغاية ظهورِ آثارِ الرُّبوبية فيها وتجدُّدِها كلَّ يوم.

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٥.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أقربَ السماواتِ من أهل الأرض، فالدُّنيا هنا مؤنَّث أدنى، بمعنى أقرب، أفعلُ تفضيل ﴿بِزِينَةٍ﴾ عجيبةٍ بديعةٍ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ بالجرِّ بدلٌ من «زينة» بدلَ كلٍّ، على أنَّ المرادَ بها الاسم، أي: ما يُزان به، لا المصدر؛ فإنَّ الكواكبَ بأنفُسها وأوضاعِ بعضِها من بعضٍ زينة، وأيُّ زينة:

فكأنَّ أجرامَ النجومِ لوامعاً دُرَرٌ نُثرنَ على بساطٍ أزرق[1]

وجوِّز أن تكونَ عطفَ بيان.

وقرأ الأكثرون: «بزينةِ الكواكبِ» بالإضافة[2]، على أنَّها بيانية؛ لمَا أنَّ الزينةَ مبهَمةٌ صادقةٌ على كلِّ ما يزان به، فتقع الكواكبُ بياناً لها، ويجوز أن تكونَ لامية، على أنَّ الزينةَ للكواكب أضواؤها أو أوضاعُها. وتفسيرُها بالأضواءِ منقولٌ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

وجُوِّز أن تكونَ الزينةُ مصدراً كالنسبة، وإضافتُها من إضافة المصدرِ إلى مفعوله، أي: زيَّنَّا السماءَ الدنيا بتزييننا الكواكبَ فيها، أو من إضافة المصدرِ إلى فاعله، أي: زينَّاها بأن زينتَها الكواكب.

وقرأ ابن وثَّابٍ ومسروقٌ بخلافٍ عنهما، والأعمش، وطلحة، وأبو بكر: «بزينةٍ» منوَّناً «الكواكبَ»[3] نصباً. فاحتمل أن يكونَ «زينة» مصدراً، و«الكواكب» مفعولٌ به، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤-١٥] وليس هذا من المصدر المحدودِ كالضَّربة حتى يقال: لا يصحُّ إعمالُه كما نصَّ عليه ابنُ مالك[4]؛ لأنَّه وُضع مع التاءِ كالكتابة والإصابة، وليس كلُّ تاءٍ في المصدر للوحدة. وأيضاً ليست هذه الصيغةُ صيغةَ الوحدة. واحتمل أن يكونَ «الكواكب» بدلاً من «السماء» بدلَ اشتمال، واشتراطُ الضميرِ معه للمبدَل منه إذا لم يظهر

---

(١) قائله أبو طالب الرقي، وهو في يتيمة الدهر ١/ ٣٤٦، وأسرار البلاغة ص ١٣٧.
(٢) قرأ عاصم وحمزة بالتنوين والباقون بالإضافة. التيسير ص ١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٦.
(٣) البحر ٧/ ٣٥٢. وقراءة أبي بكر في التيسير ص ١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٦.
(٤) في التسهيل ص ١٤٢.

اتِّصالُ أحدِهما بالآخر، كما قرَّروه في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ﴾ [البروج:٤-٥] وقيل: اللامُ بدلٌ منه. وجوَّز كونُه بدلاً من محلِّ الجارِّ والمجرور، أو المجرورِ وحدَه على القولين، وكونُه منصوباً بتقدير: أعني.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ ﵄: «بزينةٍ» منوَّناً «الكواكبُ»[١] رفعاً على أنَّها خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: هي الكواكب. أو فاعلُ المصدر، ورفعُه الفاعلَ قد أجازه البصريُّون على قِلَّة، وزعم الفرَّاءُ أنَّه ليس بمسموع.

وظاهرُ الآية أنَّ الكواكبَ في السماءِ الدنيا، ولا مانعَ من ذلك وإن اختلفت حركاتُها وتفاوتت سرعةً وبطئاً؛ لجواز أن تكونَ في أفلاكها، وأفلاكُها في السماءِ الدنيا، وهي ساكنة، ولها من الثِّخن ما يمكن معه نضدُ تلك الأفلاكِ المتحرِّكةِ بالحركات المتفاوتةِ وارتفاعُ بعضِها فوقَ بعض.

وحكى النيسابوريُّ في تفسير سورةِ التكويرِ عن الكلبيِّ أنَّ الكواكبَ في قناديلَ معلَّقةٍ بين السماءِ والأرض بسلاسلَ من نُور، وتلك السلاسلُ بأيدي الملائكةِ عليهم السلام[٢]، وهو مما يكذِّبه الظاهر، ولا أراه إلَّا حديثَ خُرافة.

وأمَّا ما ذهب إليه جُلُّ الفلاسفةِ من أنَّ القمرَ وحده في السماءِ الدنيا، وعُطارد في السماءِ الثانية، والزُّهَرة في الثالثة، والشمسَ في الرابعة، والمرِّيخ في الخامسة، والمشتريَ في السادسة، وزُحَلَ في السابعة، والثوابتَ في فلكٍ فوق السابعة، هو الكرسيُّ بلسان الشَّرع = فممَّا لا يقوم عليه برهانٌ يفيد اليقين، وعلى فَرْض صحَّتِه لا يقدح في الآية؛ لأنَّه يكفي لصحَّة كونِ السماءِ الدنيا مزيَّنةً بالكواكب كونُها كذلك في رأي العين.

﴿وَحِفْظًا﴾ نصب على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ معطوفٍ على «زينا»، أي: وحفظناها حفظاً. أو عطفٌ على «زينة» باعتبار المعنى، فإنَّه معنًى مفعولٌ له، كأنَّه قيل: إنَّا خلقنا الكواكبَ زينةً للسماءِ وحفظاً لها. والعطفُ على المعنى كثير، وهو

---

(١) البحر ٧/ ٣٥٢.

(٢) تفسير النيسابوري ٣٠/ ٣٤ ولكن عن عطاء.

غيرُ العطفِ على الموضع، وغيرُ عطفِ التوهُّم. وجوّز كونُه مفعولاً له بزيادة الواو، أو على تأخيرِ العامل، أي: ولحِفظها زيّناها.

وقولُه تعالى: ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ متعلّق بحفظنا المحذوف، أو بـ «حِفظاً». والماردُ كالمَريد: المتعرّي عن الخيرات، من قولهم: شجرٌ أمرد: إذا تعرَّى من الورق، ومنه قيل: رملةٌ مَرداء: إذا لم تُنبت شيئاً، ومنه الأَمرد؛ لتجرُّده عن الشَّعر. وفسّر هنا أيضاً بالخارج عن الطَّاعة، وهو في معنى التعرِّي عنها.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا يتسمَّعون، وهذا أصلُه، فأُدغمت التاءُ في السِّين، وضميرُ الجمعِ لـ «كلِّ شيطان»؛ لأنَّه بمعنى الشياطين.

وقرأ الجمهور: «لا يَسْمعونَ» بالتَّخفيف[1].

والملأ في الأَصل جماعةٌ يجتمعون على رأيٍ فيملؤون العيونَ رُوَاء، والنفوسَ جلالةً وبهاء. ويُطلَق على مطلق الجماعة، وعلى الأشرافِ مطلقاً.

والمرادُ بـ «الملأ الأعلى» الملائكةُ عليهم السلام كما رُوي عن السُّدِّي؛ لأنَّهم في جهة العُلوّ، ويقابله الملأُ الأسفل، وهم الإنسُ والجِنّ؛ لأنَّهم في جهة السُّفل.

وقال ابن عباس: هم أشرافُ الملائكةِ عليهم السلام. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّهم كتَّابهم. وفسِّر العلوُّ على الرِّوايتين بالعلوِّ المعنويّ.

وتعديةُ الفعلِ على قراءة الجمهورِ بـ «إلى» لتضمينه معنى الإِصغاء، أي: لا يسَّمعون مصغين إلى الملأ الأعلى. والمرادُ نفيُ سماعِهم مع كونِهم مصغين، وفيه دلالةٌ على مانعٍ عظيمٍ ودهشةٍ تُذهلهم عن الإدراك. وكذا على القراءة الأخرى، وهي قراءةُ ابنِ عباسٍ بخلافٍ عنه، وابنِ وثَّاب، وعبدِ الله بن مسلم، وطلحة، والأَعمش، وحمزة، والكِسائيّ، وحفص[2]، بناءً على ما هو الظاهرُ من أنَّ التفعُّل لا يخالف ثلاثيَّه في التعدية، واستعمالُ تسمَّع مع «إلى» لا يقتضي كونَه غيرَ مضمَّن. وقيل: لا يحتاج إلى اعتبار التضمينِ عليها، والتفعُّل مؤذِنٌ بالطلب،

(١) التيسير ص ١٨٦، والنشر ٢/٣٥٦. وقرأ بالتشديد حمزة والكسائي وخلف وحفص.
(٢) انظر التعليق السابق.

فتسمَّع بمعنى: طلب السَّماع. قيل: ويُشعر ذلك بالإِصغاء؛ لأنَّ طلب السماعِ يكون بالإِصغاء، فتتوافق القراءتان وإنْ لم يقل بالتَّضمين في قراءة التَّشديد. ولعلَّ الأَوْلى القولُ بالتضمين.

ونفيُ طلبِهم السماعَ مع وقوعِه منهم حتى قيل: إنَّه يَركب بعضُهم بعضاً لذلك، إمَّا ادِّعائيٌّ للمبالغة في نفي سماعِهم، أو هو ـ على ما قيل ـ بعدَ وصولِهم إلى محلِّ الخطر؛ لخوفهم من الرَّجم، حتى يُدهشوا عن طلب السَّماع.

وقال أبو حيَّان[1]: إنَّ نفيَ التسمُّع لانتفاء ثمرتِه، وهو السَّمع.

وقال ابنُ كمال: عدِّي الفعلُ في القراءتين بـ «إلى» لتضمُّنه معنى الانتهاء، أي: لا ينتهون بالسَّمع أو التسمُّعِ إلى الملأ الأعلى. وليس بذاك كما لا يخفَى على المتأمِّل الصادق.

والجملةُ في المشهور مستأنفةٌ استئنافاً نحوياً، ولم يجوِّز كونُها صفةً لـ «شيطان»، قالوا: إذ لا معنى للحِفظ من شياطينَ لا تسمع أو لا تسَّمَّع، مع إيهامه لعدم الحفظِ عمَّن عداها. وكذا لم يجوِّز كونُها استئنافاً بيانيّاً واقعاً جوابَ سؤالٍ مقدَّر؛ إذ المتبادرُ أنْ يؤخذَ السؤالُ من فحوى ما قبلَه، فتقديرُه حينئذٍ: لم تحفظ، فيعود محذورُ الوصفية. وكذا كونُها حالاً مقدَّرة؛ لأنَّ الحالَ كذلك يقدِّرها صاحبُها، والشياطينُ لا يقدِّرون عدمَ السَّماع أو عدمَ التسمُّع، ولا يريدونه.

وجوَّز ابن المنيرِ[2] كونَها صفة، والمراد: حفظ السماواتِ ممَّن لا يسمع أو لا يسَّمَّع بسبب هذا الحِفظ، وهو نظيرُ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ [المؤمنون:٤٤]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل:١٢]. ومن هنا لم يجعل بعضُ الأَجِلَّة قولَه عليه الصلاة والسلام: «مَن قتل قتيلاً فله سلَبُه»[3] من مجاز الأَوْل.

---

(١) في البحر ٧/ ٣٥٣.

(٢) في الانتصاف ٣/ ٣٣٥.

(٣) سلف ١/ ٣٤٢.

وتعقِّب بأنَّ ذلك خلافُ المتبادر، ولا يكاد يُفهم من: اِضرب الرجلَ المضروب، كونُه مضروباً بهذا الضربِ المأمورِ به لا بضربٍ آخَرَ قبله.

وكذا جوَّز صاحبُ «الكشف» كونَها صفة، وكونَها مستأنفةً استئنافاً بيانيّاً أيضاً، ودفع المحذورَ وأبعدَ في ذلك المغزى كعادته في سائر تحقيقاتِه، فقال: المعنى: لا يمكَّنون من السَّماع مع الإصغاء، أو: لا يمكَّنون من التسمُّع، مبالغةً في نفي السَّماع، كأنَّهم مع مبالغتهم في الطلب لا يُمكنهم ذلك، ولا بدَّ من ذلك، جُعِلت الجملةُ وصفاً أو لا؛ جمعاً بين القراءتين، وتوفيةً لحقِّ الإصغاء المدلولِ عليه بـ «إلى»، وحينئذٍ يكون الوصفُ شديدَ الطِّباق، وردُّ الاستئنافِ البيانيِّ واردٌ على تقدير السؤال: لِمَ تحفظ؟ وليس كذلك، بل السؤالُ عمَّا يكون عند الحفظِ وعن كيفيَّته؛ لأنَّ قولَه سبحانه: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ مما يحرِّك الذِّهن له، فقيل: «لا يسمعون» جواباً عمَّا يكون عنده «ويقذفون» لكيفيَّة الحفظ. وهذا أولى من جعلها مبدأَ اقتصاصٍ مستطرَد، لئلَّا ينقطعَ ما ليس بمنقطعٍ معنًى. انتهى.

واستدقَّه الخفاجيُّ واستحسنه[1]، وذكر أنَّ حاصلَه أنَّه ليس المنفيَّ هنا السماعُ المطلقُ حتى يلزمَ ما ظنُّوه من فساد المعنى؛ لأنَّه لمَّا تعدَّى بـ «إلى» وتضمَّن معنى الإصغاء، صار المعنى: حفظناها من شياطينَ لا تُنصت لمَا فيها إنصاتاً تامّاً تضبط به ما تقوله الملائكةُ عليهم السلام، ومآلُه: حفظناها من شياطينَ مسترِقةٍ للسَّمع، وقولُه سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ إلخ [الآية: ١٠] ينادي على صحَّته، والمناقشةُ بحديث الأوصاف قبل العلمِ بها أخبارٌ إن جاءت لا تتمّ، فالحديثُ غير مطَّرد.

وقيل: إنَّ الأصل: لئلَّا يسمعوا، على أنَّ الجارَّ متعلِّق بـ «حفظاً»، فحُذفت اللامُ كما في: جئتُك أن تُكرمَني، ثم حُذفت «أنْ» ورُفع الفعل، كما في قوله:

أَلَا أيُّهذا الزاجريْ أحضرُ الوغى وأنْ أشهدَ اللذَّاتِ هل أنت مُخْلِدي[2]

وفيه أنَّ حذفَ اللامِ وحذفَ «أنْ» ورفعَ الفعلِ وإنْ كان كلٌّ منهما واقعاً في الفصيح، إلَّا أنَّ اجتماعَ الحذفين منكرٌ يصان كلامُ اللهِ تعالى عنه.

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٦١.

(٢) سلف ٢/ ٢٧٧.

وأبو البقاءِ يجوِّز كونَ الجملةِ صفة، وكونَها استئنافاً، وكونَها حالاً[١]، فلا تغفُل.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يُرمَون ويُرجَمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾ من جوانب السماءِ إذا قصدوا الصعودَ إليها. وليس المرادُ أنَّ كلَّ واحدٍ يُرمَى من كلِّ جانب، بل هو على التوزيع، أي: كلُّ مَن صعد من جانبٍ رُمي منه.

وقرأ محبوبٌ عن أبي عَمرو: «يَقذِفون» بالبناءِ للفاعل[٢]، ولعلَّ الفاعلَ الملائكةُ، وجوِّز أن يكونَ الكواكبَ، وأمرُ ضميرِ العقلاءِ سهل.

وقولُه تعالى: ﴿دُحُورًا﴾ مفعولٌ له وعلَّة للقذف، أي: للدُّحور، وهو الطردُ والإبعاد. أو مفعولٌ مطلقٌ لـ «يقذفون»، كـ: قعدت جلوساً؛ لتنزيل المتلازمَين منزلة المتَّحدَين، فيقام «دحوراً» مُقامَ قذفاً، أو «يقذفون» مُقامَ يدحَرون. وعلى التقديرين هو مصدرٌ مؤكِّد.

أو حالٌ من ضمير «يُقذفون» على أنَّه مصدرٌ [مؤوَّلٌ][٣] باسم المفعولِ على القراءة الشائعة، وهو في معنى الجمع؛ لشمولِه للكثير، أي: مدحورين. وجوِّز كونُه جمعَ: داحرٍ، بمعنى مدحور، كـ: قاعدٍ وقُعود، وكونُه جمعَ داحرٍ من غير تأويلٍ بناءً على القراءة الأخرى.

وجوِّز أن يكونَ منصوباً بنزع الخافض، وهو الباء، على أنَّه جمعُ: دَحْر، كدَهْر ودُهور، وهو ما يُدحَر به، أي: يُقذفون بدُحور.

وقرأ السُّلَميّ، وابنُ أبي عبلة، والطبرانيُّ عن أبي جعفر: «دَحوراً» بفتح الدَّال[٤]، فاحتمل كونه نصباً بنزع الخافضِ أيضاً، وهو على هذه القراءةِ أظهر؛ لأنَّ فَعولاً بالفتح بمعنى ما يُفعل به كثير، كطَهور وغَسول، لمَا يُتطهَّر ويُغسل به.

(١) الإملاء ٤/ ٢٣٤.
(٢) البحر ٧/ ٣٥٣.
(٣) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٢٦٢.
(٤) البحر ٧/ ٣٥٣، وزاد نسبتها إلى علي ﷺ، ونسبها ابن خالويه ص ١٢٧ للسلمي وعلي ﷺ، وابن جني ٢/ ٢١٩ للسلمي.

واحتمل أن يكونَ صفةً كصبورٍ لموصوفٍ مقدَّر، أي: قذفاً دَحوراً طارداً لهم. وأن يكونَ مصدراً كالقَبول، وفَعول في المصادر نادر، ولم يأتِ في كتب التصريفِ منه إلَّا خمسةُ أَحرف: الوَضوء، والطَّهور، والوَلوع، والوَقود، والقَبول، كما حُكي عن سيبويه[١]، وزِيدَ عليه: الوَزوعُ بالزاي المعجَمة، والهَوِيُّ بفتح الهاء، بمعنى السُّقوط، والرَّسول بمعنى الرِّسالة.

﴿وَلَهُمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿عَذَابٌ﴾ آخَرُ غيرُ ما في الدنيا من عذاب الرَّجم بالشُّهب ﴿وَاصِبٌ ۝٩﴾ أي: دائم، كما قال قتادةُ وعكرمةُ وابنُ عباس، وأنشدوا لأبي الأسود:

لا أشتري الحمدَ القليلَ بقاؤه ... يوماً بذمِّ الدهرِ أجمعَ واصبا[٢]

وفسَّره بعضُهم بالشَّديد. قيل: والأوَّل حقيقةُ معناه، وهذا تفسيرٌ له بلازمه.

والآيةُ ـ على ما سمعتَ ـ كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٥]. وجوَّز أبو حيانَ[٣] أن يكونَ هذا العذابُ في الدنيا، وهو رجمُهم دائماً وعدمُ بلوغِهم ما يقصدون من استراق السَّمع.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناءٌ متصلٌ من واو «يسمعون» و«من» بدلٌ منه، على ما ذكره الزمخشريُّ[٤] ومتابعوه.

وقال ابنُ مالك: إذا فُصل بين المستثنَى والمستثنَى منه، فالمختارُ النصب؛ لأنَّ الإبدالَ للتشاكل، وقد فات بالتراخي[٥]. وذكره في «البحر»[٦] هنا وجهاً ثانياً.

وقيل: هو منقطع، على أنَّ «من» شرطيةٌ جوابُها الجملةُ المقرونةُ بالفاء بعد. وليس بذاك.

---

(١) انظر الكتاب ٤/ ٤٢.
(٢) البيت في ديوانه ص ٥٧، وسلف ١٤/ ١٥٧.
(٣) في البحر ٧/ ٣٥٣.
(٤) في الكشاف ٣/ ٣٣٦.
(٥) انظر التسهيل ص ١٠١-١٠٢.
(٦) ٧/ ٣٥٣.

والخطف: الاختلاسُ والأخذُ بخفَّة وسرعةٍ على غفلة المأخوذِ منه. والمرادُ اختلاسُ كلامِ الملائكةِ مسارقةً، كما يُعرب عنه تعريفُ الخطفةِ بلام العهد؛ لأنَّ المرادَ بها أمرٌ معيَّن معهود، فهي نصبٌ على المصدرية. وجوِّز أن تكونَ مفعولاً به على إرادة الكلمة.

وقرأ الحسنُ وقتادة: «خِطِّفَ» بكسر الخاءِ والطاءِ مشدَّدةً[1]. قال أبو حاتم: ويقال: هي لغةُ بكرِ بن وائلٍ وتميمِ بن مُرّ، والأصل: اختطف، فسكِّنت التاءُ للإدغام وقبلها خاءٌ ساكنة، فالتقى ساكنان، فحرِّكت الخاءُ بالكسر على الأصل، وكُسرت الطاءُ للإتباع، وحُذفت ألفُ الوصلِ للاستغناءِ عنها.

وقُرئ: «خَطِّف» بفتح الخاءِ وكسرِ الطاءِ مشدَّدةً، ونسبها ابنُ خالويه إلى الحسن وقتادةَ وعيسى[2]. واستُشكلت بأنَّ فتحَ الخاءِ سديدٌ؛ لإلقاء حركةِ التاءِ عليها، وأمَّا كسرُ الطاء، فلا وجهَ له. وقيل في توجيهها: إنَّهم نقلوا حركةَ الطاءِ إلى الخاءِ وحُذفت ألفُ الوصل، ثم قلبوا التاءَ وأدغموا، وحرَّكوا الطاءَ بالكسر على أصل التقاءِ الساكنين. وهو كما ترى.

وعن ابن عباس: «خِطِف» بكسر الخاءِ والطاءِ مخفَّفةً، أَتبع ـ على ما في «البحر»[3] ـ حركةَ الخاءِ لحركة الطاءِ، كما قالوا: نِعِم.

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أي: تَبِعه ولحقه، على أنَّ أَتبعَ من الإفعال بمعنى تَبِعَ الثلاثي، فيتعدَّى لواحد ﴿شِهَابٌ﴾ هو في الأصل: الشعلةُ الساطعةُ من النار الموقَدة، والمرادُ به العارضُ المعروفُ في الجوّ، الذي يُرى كأنه كوكبٌ منقضٌّ من السماء ﴿ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ مضيءٌ، كما قال الحسنُ وقتادة، كأنَّه ثَقَبَ الجوَّ بضوئه.

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن زيدٍ: الثاقب: المتوقِّد. وهو قريبٌ ممَّا تقدَّم. وأخرج عن السُّدِّي: الثاقب: المحرِق.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٣.
(٢) البحر ٧/ ٣٥٣، وانظر القراءات الشاذة ص ١٢٧.
(٣) ٧/ ٣٥٣.

وليست الشُّهبُ نفسَ الكواكبِ التي زيِّنت بها السماء، فإنَّها لا تنقضُّ، وإلَّا لانتقصت زينةُ السماء، بل لم تبقَ. على أنَّ المنقضَّ إن كان نفسَ الكوكبِ بمعنى أنَّه ينقلع عن مركزه ويُرمى به الخاطفُ فيُرى لسرعة الحركةِ كرمحٍ من نار، لَزِمَ أن يقعَ على الأرض، وهو إنْ لم يكن أعظمَ منها فلا أقلَّ من أنَّ ما انقضَّ من الكواكب من حين حدث الرَّمي إلى اليوم أعظمُ منها بكثير، فيلزم أن تكونَ الأرضُ اليومَ مغشيةً بأجرام الكواكب، والمشاهدةُ تكذِّب ذلك، بل لم نسمعْ بوقوع جِرم كوكبٍ أصلاً، وأصغرُ الكواكبِ عند الإسلاميِّين كالجبل العظيم، وعند الفلاسفةِ أعظمُ وأعظم، بل صغارُ الثوابتِ عندهم أَعظمُ من الأرض. وإن التزم أنَّه يُرمَى به حتى إذا تمَّ الغرضُ رجع إلى مكانه، قيل عليه: إنَّه حينئذٍ يلزم أن يسمعَ لهُويِّه صوتٌ هائل، فإنَّ الشهبَ تصل إلى محلٍّ قريبٍ من الأرض. وأيضاً عدمُ مشاهدةِ جرم كوكبٍ هابطاً أو صاعداً يأبى احتمالَ انقلاع الكوكبِ والرَّمي به نفسه. وإن كان المنقضُّ نورَه، فالنورُ لا أذى فيه، فالأرضُ مملوءةٌ من نور الشَّمس، وحشوُها الشياطين. على أنَّه إن كان المنقضُّ جميعَ نورِه، يلزم انتقاصُ الزِّينة، أو ذهابُها بالكلِّية، وإن كان بعضَ نورِه، يلزم أن تتغيَّرَ أضواءُ الكواكب، ولم يشاهد في شيءٍ منها ذلك.

وأمرُ انقضاضِه نفسِه أو انفصالِ ضوئه على تقدير كونِ الكواكبِ الثوابتِ في الفلك الثامنِ المسمَّى بالكرسيِّ عند بعضِ الإسلاميين وأنَّه لا شيءَ في السماءِ الدُّنيا سوى القمر، أَبعدُ وأبعد. والفلاسفةُ يزعمون استحالةَ ذلك؛ لزعمهم عدمَ قبولِ الفلكِ الخرقَ والالتئام، إلى أمورٍ أُخَر. ويزعمون في الشُّهب أنَّها أجزاءٌ بخارية دخانيةٌ لطيفة، وصلت كرةَ النارِ فاشتعلت وانقلبت ناراً ملتهبة، فقد تُرى ممتدَّةً إلى طرف الدُّخان، ثم تُرى كأنَّها طفئت، وقد تمكث زماناً كذوات الأذناب، وربما تتعلَّق بها نفسٌ على ما فصَّلوه، وهم مع هذا لا يقولون بكونها تُرمَى بها الشياطين، بل هم يُنكرون حديثَ الرمي مطلقاً، وفي النُّصوص الإلهيةِ رجومٌ لهم.

ولعلَّ أقربَ الاحتمالاتِ في أمر الشُّهبِ أنَّ الكوكبَ يقذف بشعاعٍ من نوره، فيصل أثرُه إلى هواءٍ متكيِّف بكيفيةٍ مخصوصةٍ يقبل بها الاشتعالَ بما يقع عليه من شُعاع الكوكبِ بالخاصية، فيشتعلُ فيحصل ما يشاهَد من الشُّهب.

وإنْ شئتَ قلت: إنَّ ذلك الهواءَ المتكيِّف بالكيفية المخصوصةِ إذا وصل إلى محلٍّ مخصوصٍ من الجوّ، أثَّرت فيه أشعةُ الكواكبِ بما أَودعه اللهُ تعالى فيها من الخاصِّيَّة، فيشتعل فيحصل ما يحصل. وتأثيرُ الأشعةِ الحرقَ في القابل له ممَّا لا يُنكَر، فإنَّا نرى شعاعَ الشمسِ إذا قوبل ببعض المناظرِ على كيفيةٍ مخصوصة، أَحرقَ قابلَ الإحراقِ ولو توسَّط بين المنظرةِ وبين القابلِ إناءُ بِلَّورٍ مملوءٌ ماءً. ويقال: إنَّ اللهَ تعالى يصرف ذلك الحاصلَ إلى الشيطان المسترِقِ للسَّمع، وقد يحدث ذلك وليس هناك مسترِق.

ويمكن أن يقال: إنَّه سبحانه يخلق الكيفيةَ التي بها يقبل الهواءُ الإحراقَ في الهواء الذي في جهة الشَّيطان، ولعلَّ قُربَ الشيطانِ من بعض أجزاءٍ مخصوصةٍ من الهواء معدٌّ بخاصِّيَّةٍ أحدثها اللهُ تعالى فيه؛ لِخلقه عزَّ وجلَّ تلك الكيفيةَ في ذلك الهواءِ القريبِ منه، مع أنَّه عزَّ وجلَّ يخلق تلك الكيفيةَ في بعض أجزاءِ الهواءِ الجويَّة، حيث لا شيطانَ هناك أيضاً.

وإنْ شئتَ قلت: إنَّه يخرج شُؤبوبٌ من شعاع الكوكب، فيتأذَّى به الماردُ أو يحترق، والله عزَّ وجلَّ قادرٌ على أن يحرقَ بالماء ويرويَ بالنار، والمسبَّبات عند الأسبابِ لا بها، وكلُّ الأشياءِ مسندةٌ إليه تعالى ابتداءً عند الأشاعرة. ولا يلزم على شيءٍ ممَّا ذُكر انتقاصُ ضوءِ الكوكب، ولو سلم أنَّه يلزم انتقاصٌ على بعض الاحتمالاتِ قلنا: إنَّه عزَّ وجلَّ يخلق بلا فصلٍ في الكوكب بدلَ ما نقص منه، وأمرُه سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

ولا ينافي ما ذكرنا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] لأنَّ جعلَها رجوماً يجوز أن يكونَ لأنَّه بواسطة وقوعِ أشعَّتِها على ما ذكرنا من الهواءِ تحدث الشُّهب، فهي رجومٌ بذلك الاعتبار، ولا يتوقَّف جعلُها رجوماً على أن تكونَ نفسها كذلك بأن تنقلعَ عن مراكزها ويرجمَ بها، وهذا كما تقول: جعل اللهُ تعالى الشمسَ يُحرق بها بعض الأجسام، فإنَّه صادقٌ فيما إذا أُحرق بها بتوسيط بعضِ المناظرِ وانعكاسِ شعاعِها على قابلِ الإحراق.

وزعم بعضُ الناسِ أنَّ الشهبَ شعلٌ ناريةٌ تحدث من أجزاءٍ متصاعدةٍ إلى كرة النَّار، وهي الرُّجوم؛ ولكونها بواسطة تسخينِ الكواكبِ للأرض قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا﴾ على التجوُّز في إسناد الجعلِ إليها، أو في لفظها. ولا يخفى أنَّ كرةَ النارِ ممَّا لم تثبت في كلام السَّلف، ولا ورد فيها عن الصادقِ عليه الصلاة والسلام خبر.

وقيل: يجوز أن تكونَ المصابيحُ هي الشُّهب، وهي غيرُ الكواكب، وزينةُ السماءِ بالمصابيح لا يقتضي كونَها فيها حقيقة؛ إذ يكفي كونُها في رأي العينِ كذلك.

وقيل: يجوز أن يرادَ بالسماء جهةُ العُلُو، وهي مزيَّنة بالمصابيح والشُّهب، كما هي مزينةٌ بالكواكب.

وتعقِّب هذا بأنَّ وصفَ السماءِ بالدنيا يُبعد إرادةَ الجهةِ منها.

وتعقِّب ما قبله بأنَّ المتبادرَ أنَّ المصابيحَ هي الكواكب، ولا يكاد يُفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ إلَّا شيءٌ واحد، وأنَّ كونَ الشهبِ المعروفةِ زينةَ السماءِ مع سرعة تقضِّيها وزوالِها وربما دُهش من بعضها، ممَّا لا يسلَّم.

والقولُ بأنَّه يجوز إطلاقُ الكوكبِ على الشِّهاب للمشابهة، فيجوز أن يرادَ بالكواكب ما يشمل الشُّهبَ وزينةَ السماءِ على ما مرَّ آنفاً، زيد فيه على ما تقدَّم ما لا يخفَى ما فيه. نعم يجوز أن يقالَ: إنَّ الكوكبَ ينفصل منه نور إذا وصل إلى محلٍّ مخصوصٍ من الجوِّ انقلب ناراً ورُئي منقضّاً، ولا يُعجز اللهَ عزَّ وجلَّ شيء.

وقد يقال: إنَّ في السماءِ كواكبَ صغاراً جدّاً غيرَ مرئيةٍ ولو بالأرصاد؛ لغاية الصِّغر، وهي التي يُرمَى بها أنفسِها، وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ من باب: عندي درهمٌ ونصفُه، و﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا﴾ الآيةَ إن كان على معنى: وحفظاً بها، فهو من ذلك البابِ أيضاً، وإلَّا فالأمرُ أهون، فتدبَّر.

واختُلف في أنَّ المرجومَ هل يُهلَك بالشِّهاب إذا أصابه أو يتأذَّى به من غيرِ هلاكٍ؟ فعن ابن عباسٍ أنَّ الشياطينَ لا تُقتَل بالشِّهاب ولا تموت، ولكنها تُحرَق وتَخبُل، أي: يَفسد منها بعضُ أعضائها. وقيل: تَهلِك وتموت، ومتى أصاب الشهابُ مَن اختطف منهم كلمةً، قال للذي يليه: كان كذا وكذا، قبل أن يَهلِك. ولا يأبى تأثيرَ الشهابِ فيهم كونُهم مخلوقين من النَّار؛ لأنَّهم ليسوا من النار الصِّرفة، كما أنَّ الإنسان ليس من التُّراب الخالص، مع أنَّ النارَ القويةَ إذا استولت على الضعيفةِ استهلكتها.

وأيًّاما كان، لا يقال: إنَّ الشياطينَ ذوو فِطنة، فكيف يُعقَل منهم العودُ إلى استراق السمعِ مرةً بعد مرَّة، مع أنَّ المسترِقَ يَهلِك أو يتأذَّى الأذى الشديد، واستمرارُ انقضاضِ الشهبِ دليلُ استمرارِ هذا الفعلِ منهم؟ لأنَّا نقول: لا نسلِّم استمرارَ هذا الفعلِ منهم، واستمرارُ الانقضاضِ ليس دليلاً عليه؛ لأنَّ الانقضاضَ يكون للاستراق ويكون لغيره، فقد أشرنا فيما سبق أنَّ الهواءَ قد يتكيَّف بكيفيةٍ مخصوصة، فيحترق بسبب أشعَّةِ الكواكبِ وإن لم يكن هناك مسترِق.

وقيل: يجوز أن تُرى الشُّهب؛ لتعارضٍ في الأهوية واصطكاكٍ يحصل منه ما ترى، كما يحصل البرقُ باصطكاك السحابِ على ما رُوي عن بعض السَّلف، وحوادثُ الجوِّ لا يعلمها إلَّا اللهُ تعالى، فيجوز أن يكونوا قد استَرَقوا أوَّلاً، فشاهدوا ما شاهدوا فتُركوا، واستمرَّت الشهبُ تحدث لِمَا ذُكر لا لاستراق الشَّياطين. ويجوز أن يقعَ أحياناً ممَّن حدث منهم ولم يعلم بما جرى على رؤوس المسترِقين قبلَه، أو ممَّن لا يبالي بالأذى ولا بالموت، حبّاً لأن يقال: ما أَجسرَه، أو: ما أَشجعَه، مثلاً، كما يشاهَد في كثيرٍ من الناس يُقدِمون في المعارك على ما يتيقَّنون هلاكَهم به حبّاً لمثل ذلك، ولعلَّ في وصف الشيطانِ بالمارد ما يُستأنس به لهذا الاحتمال.

وأمَّا ما قيل: إنَّ الشهابَ قد يصيب الصاعدَ مرةً وقد لا يُصيب، كالموج لراكب السَّفينة؛ ولذلك لا يرتدعون عنه رأساً: فخلافُ المأثور؛ فقد أخرج ابنُ

أبي حاتم، وأبو الشَّيخ في «العَظَمة»[1] عن ابن عباسٍ ﵄ قال: إذا رُمي بالشِّهاب لم يُخطِئْ مَن رُمي به.

ثم إنَّ ما ذُكر من احتمال أنَّهم قد تُركوا بعد أن صحَّت عندهم التجربةُ لا يتمُّ إلَّا على ما رُوي عن الشعبيِّ من أنَّه لم يُقذَف بالنُّجوم حتى وُلد النبيُّ ﷺ، فلمَّا قُذف بها، جعل الناسُ يسيِّبون أنعامَهم ويُعتقون رقيقَهم، يظنُّون أنه القيامة، فأَتَوا عبدَياليل الكاهنَ وقد عمي، وأَخبروه بذلك، فقال: انظروا إنْ كانت النجومُ المعروفةُ من السيَّارة والثوابت، فهو قيامُ الساعة، وإلَّا فهو أمرٌ حادث، فنظروا، فإذا هي غيرُ معروفة، فلم يمضِ زمنٌ حتى أتى خبرُ النبيِّ ﷺ.

ووافق على عدم حدوثِه قبلُ ابنُ الجوزيِّ في «المنتظم»[2] لكنَّه قال: إنَّه حدث بعد عشرين يوماً من مبعثه.

والصحيحُ أنَّ القذفَ كان قبل ميلادِه عليه الصلاة والسلام، وهو كثيرٌ في أشعار الجاهلية، إلَّا أنَّه يحتمل أنَّه لم يكن طارداً للشياطين، وأن يكونَ طارداً لهم لكن لا بالكلِّية، وأن يكونَ طارداً لهم بالكلِّية. وعلى هذا لا يتأتَّى الاحتمالُ السابق، وعلى الاحتمال الأوَّلِ من هذه الاحتمالاتِ يكون الحادثُ يوم الميلادِ طردَهم بذلك، وعلى الثاني طردَهم بالكلِّية وتشديدَ الأمرِ عليهم؛ لينحسمَ أمرُهم وتخليطُهم ويصحَّ الوحي، فتكونُ الحجَّةُ أَقطع.

والذي يترجَّح أنَّه كان قبل الميلادِ طارداً، لكن لا بالكلِّية، فكان يوجد استراقٌ على النُّدرة، وشدِّد في بدءِ البعثة. وعليه يُراد بخبر: لم يُقذف بالنُّجوم حتى ولد النبيُّ ﷺ، أنَّه لم يَكثر القذفُ بها، وعلى هذا يخرَّج غيرُه إذا صحَّ، كالخبر المنقولِ في السِّيَر أنَّ إبليسَ كان يخترق السماواتِ قبل عيسى عليه السلام، فلَّما بُعث أو وُلد، حُجب عن ثلاثِ سماوات، ولمَّا وُلد النبيُّ ﷺ حُجب عنها كلِّها وقُذفت الشياطينُ بالنجوم، فقالت قريش: قامت السَّاعة، فقال عتبةُ بن ربيعة: انظروا إلى العَيُّوق، فإنْ كان رُمي به، فقد آن قيامُ الساعة، وإلَّا فلا.

---

(١) برقم (٦٨٩).
(٢) ٢/٣٥٦.

وقال بعضُهم: اتفق المحدِّثون على أنَّه كان قَبلُ، لكن كَثُرَ وشدِّد لمَّا جاء الإسلام؛ ولذا قال تعالى: ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن:٨] ولم يقل: حُرِست.

وبالجملة لا جزمَ عندنا بأنَّ ما يقع من الشُّهب في هذه الأعصارِ ونحوِها رجومٌ للشياطين، والجزمُ بذلك رجمٌ بالغيب.

هذا وقد استُشكل أمرُ الاستراقِ بأمور، منها: أنَّ الملائكةَ في السماءِ مشغولون بأنواع العبادة: «أَطّت السماءُ وحقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ قدمٍ إلَّا وفيه مَلَكٌ قائمٌ أو راكعٌ أو ساجد»(١) فماذا تسترِق الشياطينُ منهم؟

وإذا قيل: إنَّ منهم مَن يتكلَّم بالحوادث الكونية، فهم على محدَّبها والشياطينُ تسترِق تحت مقعَّرها، وبينهما ـ كما صحَّ في الأخبار(٢) ـ خَمسُ مئةِ عام، فكيف يتأتَّى السَّماع، لاسيَّما والظاهرُ أنَّهم لا يرفعون أصواتَهم إذا تكلَّموا بالحوادث؛ إذ لا يظهر غرضٌ برفعها. وعلى تقدير أن يكونَ هناك رفعُ صوت، فالظاهرُ أنَّه ليس بحيث يُسمع من مسيرة خمسِ مئةِ عام. وعلى تقدير أن يكونَ بهذه الحيثية، فكُرةُ الهواءِ تنقطع عند كرةِ النار، ولا يُسمع صوتٌ بدون هواء.

وأُجيب بأنَّ الاستراقَ من ملائكة العَنان، وهم يتحدَّثون فيما بينهم بما أُمروا به من السماءِ من الحوادث الكونية، و«لمسنا السماء»: طلبنا خبرَها، أو من الملائكةِ النازلين من السماءِ بالأمر، فإنَّ ملائكةً على أبواب السماءِ ومن حيث ينزلون يسألونهم: بماذا تذهبون؟ فيُخبرونهم، وليس الاستراقُ من الملائكةِ الذين على محدَّب السماء، وأمرُ كرةِ النار لا يصحّ، والهواءُ غيرُ منقطع، وهو كلَّما رقَّ ولَطُفَ كان أعونَ على السَّماع، على أنَّ وجودَ الهواءِ مما لا يتوقَّف عليه السماعُ على أُصول الأَشاعرة، ومثلُه عدمُ البعدِ المفرِط.

وظاهرُ خبرٍ أَخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عن عكرمةَ أنَّ الاستراقَ من الملائكة في السَّماء، قال: إذا قضى اللهُ تعالى أمراً، تكلَّم تبارك وتعالى، فتخرُّ الملائكةُ كلُّهم

---

(١) سلف ١٤/ ٤١٧.

(٢) انظر ٣/ ٦٧ و١٣/ ٢٠-٢١.

سجَّداً، فتحسب الجِنُّ أنَّ أمراً يقضَى، فتسترِق، فإذا فُزِّع عن قلوب الملائكةِ عليهم السلام ورفعوا رؤوسَهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا جميعاً: الحقَّ، وهو العليُّ الكبير.

وجاء في خبرٍ أخرجه ابنُ أبي شيبةَ وعبد بن حُميد وابنُ المنذر عن إبراهيمَ التيميِّ: إذا أراد ذو العرشِ أمراً، سمعت الملائكةُ كجرِّ السِّلسلة على الصَّفا، فيغشَى عليهم، فإذا قاموا قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قال مَن شاءَ الله: الحقَّ، وهو العليُّ الكبير(١).

ولعلَّه بعد هذا الجوابِ يُذكر الأمرُ بخصوصه فيما بين الملائكةِ عليهم السلام، وظاهرُ ما جاء في بعضِ الرِّوايات عن ابن عباسٍ من تفسير الملأِ الأعلى بكَتَبة الملائكةِ عليهم السلام أيضاً أنَّ الاستراقَ من ملائكةٍ في السماء؛ إذ الظاهرُ أنَّ الكتبةَ في السماء، ولعله يُتلى عليهم من اللوح ما يُتلى، فيكتبونه لأمرٍ ما، فتطمع الشياطينُ باستراق شيءٍ منه، وأمرُ البُعدِ كأمر الهواء، لا يضرُّ في ذلك على الأصول الأشعرية. ويمكن أن يدَّعَى أنَّ جِرم السماءِ لا يحجب الصوتَ وإن كَثُف، وكم خاصيةٍ أثبتها الفلاسفةُ للأفلاك ليس عدمُ الحجبِ أغربَ منها.

ومنها أنَّه يُغني عن الحفظ من استراق الشياطينِ عدمُ تمكينِهم من الصُّعود إلى حيث يُستَرق السَّمع، أو أمرُ الملائكةِ عليهم السلام بإخفاء كلامِهم بحيث لا يسمعونه، أو جَعلُ لغتِهم مخالفةً للغتهم بحيث لا يفهمون كلامَهم.

وأُجيب بأنَّ وقوعَ الأمرِ على ما وقع من باب الابتلاءِ، وفيه أيضاً من الحِكَم ما فيه. ولا يخفَى أنَّ مثل هذا الإشكال يجري في أشياءَ كثيرة، إلَّا أنَّ كونَ الصانعِ حكيماً، وأنَّه جلَّ شأنُه قد راعى الحكمةَ فيما خلق وأمر على أتمِّ وجهٍ حتى قيل: ليس في الإمكان أبدعُ ممَّا كان، يحلُّ ذلك ولا يبقَى معه سوى تطلُّبِ وجهِ الحكمة، وهو مما يتفضَّل اللهُ تعالى به على مَن يشاء من عباده.

---

(١) هو في مصنف ابن أبي شيبة ١٤/٢٨٨ مطولاً عن ابن فضيل عن عطاء عن سعيد عن ابن عباس.

والكلامُ في هذا المقامِ قد مرَّ شيءٌ منه فارجع إليه، وممَّا هنا وما هناك يحصل ما يَسرُّ الناظرين، ويُرضي العلماءَ المحقِّقين.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: فاستخبرهم. وأصلُ الاستفتاءِ: الاستخبارُ عن أمرٍ حدث، ومنه الفتى؛ لحداثة سِنِّه. والضميرُ لمشركي مكَّة، قيل: والآيةُ نزلت في أبي الأشدِّ بن كِلدةَ الجُمحي، وكُني بذلك لشدَّة بطشِه وقوَّته، واسمُه: أَسِيد. والفاءُ فصيحة، أي: إذا كان لنا من المخلوقاتِ ما سمعت، أو إذا عرفتَ ما مرَّ، فاستخبِر مشركي مكَة واسألهم على سبيل التبكيتِ ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: أقوى خِلقةً وأمتنُ بُنْيَة، أو أصعبُ خَلْقاً وأشقُّ إيجاداً ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من الملائكة والسماواتِ والأرضِ وما بينهما، والمشارقِ والكواكبِ والشياطينِ والشُّهبِ الثواقب. وتعريفُ الموصولِ عهديّ، أُشير به إلى ما تقدَّم صراحةً ودلالة، وغُلِّب العقلاءُ على غيرهم، والاستفهامُ تقريريّ، وجُوِّز أن يكونَ إنكارياً.

وفي مصحف عبدِ الله: «أم مَن عَددنا»[1] وهو مؤيِّد لدعوى العهد، بل قاطعٌ بها. وقرأ الأعمش: «أَمَن» بتخفيف الميمِ دون «أم»، جعله استفهاماً ثانياً تقريريّاً، فـ «مَن» مبتدأٌ خبرُه محذوف، أي: أَمن خلقنا أشدّ؟

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ أي: ملتصق، كما أَخرج ذلك ابنُ جَريرٍ[2] وجماعةٌ عن ابن عباس. وفي روايةٍ أخرى بلفظ: ملتزق، وبه أجاب ابنَ الأزرقِ وأنشد له قولَ النابغة:

فلا تحسبون الخيرَ لا شرَّ بعدَه ... ولا تحسبون الشرَّ ضربةَ لازبِ[3]

قيل: والمراد: ملتزقٌ بعضُه ببعض، وبذلك فسَّره ابنُ مسعود، كما أَخرجه ابنُ أبي حاتم، ويرجع إلى: حَسَن العجنِ جيِّد التخمير. وأَخرج ابنُ المنذرِ وغيرُه عن قتادةَ أنَّه يلزقُ باليد إذا مسَّ بها. وقال الطبريّ: خُلق آدمُ من ترابٍ وماءٍ وهواءٍ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٤.

(٢) في تفسيره ١٩/ ٥١٢.

(٣) الديوان ص ١٣.

ونار، وهذا كلُّه إذا خُلط[1] صار طيناً لازباً يلزم ما جاوره، واللازبُ ـ عليه ـ بمعنى اللازم، وهو قريبٌ مما تقدَّم.

وقد قُرئ: «لازم» بالميم بدلَ الباء، و«لاتب» بالتاءِ بدلَ الزاي[2]، والمعنى واحد. وحَكَى في «البحر»[3] عن ابن عباسٍ أنَّه عبَّر عن اللازب بالحُرّ، أي: الكريمِ الجيِّد، وفي روايةٍ أنَّه قال: اللازب: الجيِّد.

وأَخرج عبدُ بن حُميد وابنُ المنذر عن مجاهدٍ أنَّه قال: «لازب» أي: لازم منتن. ولعلَّ وصفَه بمنتن مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] لكنْ أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ أنَّه قال: اللازبُ والحمأُ والطينُ واحد، كان أولُه تراباً، ثم صار حمأً منتناً، ثم صار طيناً لازباً، فخلق اللهُ تعالى منه آدمَ عليه السلام.

وأيًّاما كان، فخلقُهم من طينٍ لازبٍ إما شهادةٌ عليهم بالضَّعف والرَّخاوة؛ لأنَّ ما يصنع من الطين غيرُ موصوفٍ بالصَّلابة والقوَّة، أو احتجاجٌ عليهم في أمر البعث، بأنَّ الطينَ اللازبَ الذي خُلقوا منه في ضمن خلقِ أبيهم آدمَ عليه السلام ترابٌ، فمن أين استنكروا أنْ يُخلقوا منه مرةً ثانيةً حيث قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] ويَعضد هذا ـ على ما في «الكشَّاف»[4] ـ ما يتلوه من ذِكر إنكارهم البعثَ.

وقولُه تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ خطابٌ للرَّسول ﷺ، وجوِّز أن يكونَ لكلِّ مَن يقبله. و«بل» للإضراب، إمَّا عن مقدَّر يُشعر به «فاستفتهم..» إلخ، أي: هم لا يقرُّون ولا يُجيبون بما هو الحقّ، بل مثلُك ممَّن يُذعن ويتعجَّب من تلك الدَّلائل، أو عن الأمر بالاستفتاء، أي: لا تستفتهم؛ فإنَّهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاءُ ولا يتعجَّبون من تلك الدَّلائل، بل مثلُك ممن يتعجَّب منها.

---

(١) عبارته في تفسيره ١٩/ ٥١١: والتراب إذا خلط بماء..
(٢) الكشاف ٣/ ٣٣٧.
(٣) ٧/ ٣٥٤.
(٤) ٣/ ٣٣٧.

﴿وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: وهم يسخرون منك ومن تعجُّبك وممَّا تريهم من الآيات. وجوِّز أن يكونَ المعنى: بل عجبتَ من إنكارهم البعثَ مع هذه الآياتِ وهم يسخرون من أمرِ البعث. واختير أن يكونَ المعنى: بل عجبتَ من قدرة اللهِ تعالى على هذه الخلائقِ العظيمةِ وإنكارِهم البعثَ وهم يسخرون من تعجُّبك وتقريرِك للبعث.

وزعم بعضُهم أنَّ المرادَ بـ «من خلقنا» الأُممُ الماضية. وليس بشيءٍ؛ إذ لم يسبق لهذه الأُمم ذِكر، وإنَّما سبق الذِّكرُ للملائكة عليهم السلام وللسماوات والأرضِ وما سمعتَ، مع أنَّ حرفَ التعقيبِ مما يدلُّ على خلافه.

ومَن قال ـ كصاحب «الفرائد» ـ: عليه جمهورُ المفسِّرين سوى الإمام[1]، ووجَّهه بأنَّه لما احتجَّ عليهم بما هم مقرُّون به من كونه ربَّ السماواتِ والأرضِ وربَّ المشارق، وألزمهم بذلك وقابلوه بالعناد، قيل لهم: فانتظروا الإهلاكَ كمن قبلكم؛ لأنَّكم لستم أشدَّ خلقاً منهم، فوُضع موضعَه «فاستفتهم أهم أشد خلقاً» وقولُه تعالى: «إنا خلقناهم» تعليل لأنَّهم ليسوا أشدَّ خلقاً، أو دليلٌ لاستكبارهم المنتجِ للعناد، وأيَّده بدلالة الإضراب، واستبعاد البعثِ بعده لدَلالته على أنَّه غيرُ متعلِّقٍ بما قبل الإضراب = فقد[2] ذهب عليه أنَّ اللفظَ خفيُّ الدَّلالةِ على ما ذُكر من العناد واستحقاقِ الإهلاك كسالف الأُمم، وتعليلُ نفي الأشدِّية بما علَّل، ليس بشيء؛ لوضوح أنَّ السابقين أشدُّ في ذلك، وكم من ذلك في الكتابِ العزيز، وأما الإضراب، فعن الاستفتاءِ إلى أنَّ مثلَك ممَّن يُذعن ويتعجَّب من تلك الدَّلائل؛ ولذا عُطف عليه «ويسخرون» وجعل ما أنكروه من البعثِ من بعض مساخِرهم. قاله صاحبُ «الكشف» فلا تغفُل.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ سعدان وابن مِقسَم: «عجبتُ» بتاء المتكلِّم، ورُويت عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وابنِ عباس، وابنِ مسعود، والنَّخَعي، وابنِ وثَّاب، وطلحة، وشَقيق، والأعمش[3].

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ١٢٤.

(٢) جواب لقوله: ومن قال كصاحب الفرائد...

(٣) البحر ٧/ ٣٥٤، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص ١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٦.

وأَنكر شُريحُ القاضي هذه القراءةَ، وقال: إنَّ اللهَ تعالى لا يعجب من شيء، وإنَّما يعجب مَن لا يعلم. وإنكارُ هذا القاضي مما أُفتي بعدم قَبوله؛ لأنَّه في مقابل بيِّنةٍ متواترة، وقد جاء أيضاً في الخبر: «عجب ربُّكم من أَلِّكم وقنوطِكم»(١).

وأُوِّلت القراءةُ بأنَّ ذلك من باب الفرْض، أي: لو كان العجبُ ممَّا يجوز عليَّ لَعجبت من هذه الحال، أو التخييلِ، فيُجعل تعالى كأنَّه لإنكاره لحالهم يعدُّها أمراً غريباً ثم يُثبت له سبحانه العجب منها. فعلى الأول تكون الاستعارةُ تخييليةً تمثيلية، كما في قولهم: قال الحائط للوتد: لمَ تشقُّني؟ فقال: سَلْ مَن يدقُّني. وعلى الثاني تكون مَكنيةً وتخييلية، كما في نحو: لسانُ الحالِ ناطقٌ بكذا، والمشهورُ في أمثاله الحملُ على اللازم، فيكون مجازاً مرسلاً، فيحمل العجبُ على الاستعظام، وهو رؤيةُ الشيءِ عظيماً، أي: بالغاً الغايةَ في الحُسن أو القبح، والمرادُ هنا رؤيةُ ما هم عليه بالغاً الغايةَ في القُبح، وليس استعظامَ الشيءِ مسبوقاً بانفعالٍ يحصل في الرَّوع عن مشاهدة أمرٍ غريبٍ كما توهِّم ليقال: إنَّ التأويلَ المذكورَ لا يحسم مادَّةَ الإشكال.

وقال أبو حيان(٢): يؤوَّل على أنَّه صفةُ فعلٍ يُظهرها اللهُ تعالى في صفة المتعجَّب منه، من تعظيمٍ أو تحقير، حتى يصيرَ الناسُ متعجِّبين منه، فالمعنى: بل عجبتُ من ضلالتهم وسوءِ نِحلتهم، وجعلتُها للناظرين فيها وفيما اقترن بها من شرعي وهُداي متعجَّباً.

وقال مكِّي(٣) وعليُّ بن سليمان: ضميرُ «عجبتُ» للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، والكلامُ بتقدير القول، أي: قل: بل عجبتُ.

وعندي لو قدِّر القولُ بعدَ «بل» كان أَحسن، أي: بل قل: عجبتُ.

والذي يقتضيه كلامُ السلفِ أنَّ العجبَ فينا انفعالٌ يحصل للنَّفس عند الجهلِ

---

(١) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ٢٦٩، وفي بعض نسخه كما في حاشيته: يروى هذا عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن عمرو يرفعه. والألّ: رفع الصوت بالدعاء.

(٢) في البحر ٧/ ٣٥٤.

(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦١١.

بالسَّبب؛ ولذا قيل: إذا ظهر السببُ بطل العجب، وهو في اللهِ تعالى بمعنًى يليق لذاته عزَّ وجلَّ هو سبحانه أعلمُ به، فلا يعيِّنون المراد، والخَلَفُ يعيِّنون.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: ودأبُهم أنَّهم إذا وُعظوا بشيءٍ لا يتَّعظون به. أو أنَّهم إذا ذُكر لهم ما يدلُّ على صحَّة الحشرِ لا ينتفعون به؛ لبَلادتهم وقلَّةِ فكرِهم. واستفادةُ الاستمرار من مقام الذَّمّ، ولعل في «إذا» والعطفِ على الماضي ما يؤيِّده.

وقرأ ابنُ حبيش: «ذُكِروا» بتخفيف الكاف[1].

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ أي: معجزةً تدلُّ على صدق مَن يعظهم ويدعوهم إلى تركِ ما هم فيه إلى ما هو خير. أو معجزةً تدلُّ على صدق القائلِ بالحشر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: يبالغون في السُّخرية، ويقولون: إنَّه سِحر. أو يطلب بعضُهم من بعضٍ أن يسخرَ منها. رُوي أنَّ رُكانةَ ـ رجلاً من المشركين من أهل مكَّة ـ لقيه الرسولُ ﷺ في جبلٍ خالٍ يرعى غنماً له، وكان من أقوى الناس، فقال له: يا رُكانة، أرأيتَ إنْ صرعتُك أتؤمن بي؟ فقال: نعم، فصرعه ثلاثاً، ثم عرض له بعضَ الآيات، دعا عليه الصلاة والسلام شجرةً فأقبلت، فلم يؤمنْ، وجاء إلى مكَّةَ فقال: يا بني هاشم، ساحِروا بصاحبكم أهلَ الأرض، فنزلت فيه وفي أضرابه[2].

وقُرئ: «يستسحرون» بالحاء المهملة[3]، أي: يَعدُّونها سحراً.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ﴾ ما يرَونه من الآيات الباهرةِ ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ ظاهرٌ سحريَّته في نفسه. ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أي: كان بعضُ أجزائنا تراباً وبعضُها عظاماً؛ وتقديمُ الترابِ لأنَّه منقلبٌ عن الأجزاء البادية.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٧، والبحر ٧/ ٣٥٥.

(٢) القصة في سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٠-٣٩١، وأسد الغابة ٢/ ٢٣٦، دون ذكر سبب النزول. وقال ابن الأثير: ثم أسلم بعدُ ونزل المدينة. اهـ. وذكره ابن حجر في الإصابة ٤/ ٢٨٦. وقد روى أمر المصارعة فقط أبو داود (٤٠٧٨)، والترمذي (١٧٨٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وإسناده ليس بالقائم.

(٣) البحر ٧/ ٣٥٥.

و«إذا» إمَّا شرطية، وجوابُها محذوفٌ دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦﴾ أي: نُبعَث، وفي عاملها الكلامُ المشهور.

وإما متمحِّضة للظرفية، فلا جوابَ لها، ومتعلَّقها محذوفٌ يدلُّ عليه ذلك أيضاً، لا هو؛ لأنَّ ما بعدَ «إنَّ» واللامِ لا يعمل فيما قبلَه، أي: أَنُبعَث إذا متنا. وإنْ شئتَ فقدِّره مؤخَّراً، فتقديمُ الظرفِ لتقوية الإنكارِ للبعث، بتوجيهه إلى حالةٍ منافيةٍ له غايةَ المنافاة، وكذا تكريرُ الهمزةِ للمبالغة والتشديدِ في ذلك، وكذا تحليةُ الجملةِ بـ «إنَّ». واللامُ لتأكيد الإنكار، لا لإنكار التأكيدِ كما يوهمه ظاهرُ النظمِ الكريم، فإنَّ تقديمَ الهمزةِ لاقتضائها الصَّدارة.

وقرأ ابنُ عامرٍ بطرح الهمزةِ الأولى، وقرأ نافعٌ والكسائيُّ ويعقوبُ بطرح الثانية[1].

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ مبتدأٌ حُذف خبرُه؛ لدلالة خبرِ «إنَّ» عليه، أي: أَوَ آباؤنا الأوَّلون مبعوثون أيضاً. والجملةُ معطوفةٌ على الجملة قبلها.

وهذا أحدُ مذاهبَ في نحو هذا التركيب، وظاهرُ كلامِ أبي حيَّانَ في «شرح التسهيل» أنَّ حذفَ الخبرِ واجب، فقد قال: قال مَن نحا إلى هذا المذهب: الأصلُ في هذه المسألةِ عطفُ الجمل، إلَّا أنهم لمَّا حذفوا الخبرَ لدلالة ما قبلُ عليه، أنابوا حرفَ العطفِ مكانَه، ولم يقدِّروا إذ ذاك الخبرَ المحذوفَ في اللفظ؛ لئلَّا يكونَ جمعاً بين العوضِ والمعوَّض عنه، فأشبه عطفَ المفرداتِ من جهةٍ أنَّ حرفَ العطفِ ليس بعده في اللفظ إلَّا مفرد.

وثاني المذاهبِ: أن يكونَ معطوفاً على الضمير المستترِ في خبر «إنَّ» إنْ كان مما يتحمَّل الضمير وكان الضميرُ مؤكَّداً، أو كان بينه وبين المعطوفِ فاصلٌ ما، وإلَّا ضَعُفَ العطف.

ونسب ابنُ هشامٍ هذا المذهبَ والذي قبله إلى المحقِّقين من البصريين. وفي تأتِّيه هنا من غير ضعفٍ للفصل بالهمزة بحث؛ فقد قال أبو حيَّان: إنَّ همزةَ

---

(١) وقرأ بها أيضاً أبو جعفر كما في النشر ٢/ ٣٧٣، وانظر التيسير ص ٣٢.

الاستفهامِ لا تدخلُ على المعطوف إلَّا إذا كان جملة؛ لئلَّا يَلزمَ عملُ ما قبلَ الهمزةِ فيما بعدها، وهو غيرُ جائز؛ لصدارتها[١].

والجوابُ بأنَّ الهمزةَ هنا مؤكِّدة للاستبعاد فهي في النيَّة مقدَّمةٌ داخلةٌ على الجملة في الحقيقة لكن فُصل بينهما بما فُصل، قد بُحث فيه بأنَّ الحرفَ لا يكرَّر للتوكيد بدون مدخولِه، والمذكورُ في النحو أنَّ الاستفهامَ له الصدرُ من غير فرقٍ بين مؤكِّد ومؤسِّس، مع أنَّ كونَ الهمزةِ في نيَّة التقديمِ يُضعف أمرَ الاعتدادِ بالفصل بها، لاسيَّما وهي حرفٌ واحد، فلا يقاس الفصلُ بها على الفصل بـ «لا» في قوله تعالى: ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨].

وثالثُها: أنَّ يكونَ عطفاً على محلِّ «إنَّ» مع ما عملت فيه، والظاهرُ أنَّه حينئذٍ من عطف الجملِ في الحقيقة.

ورابعُها: أن يكونَ عطفاً على محلِّ اسمِ «إنَّ»؛ لأنَّه كان قبل دخولِها في موضعِ رفع، والظاهرُ أنَّه حينئذٍ من عطف المفرَدات.

واعتُرض بأنَّ الرفعَ كان بالابتداء، وهو عاملٌ معنويّ، وقد بطل بالعامل اللفظيّ.

وأُجيب بأنَّ وجودَه كَلَا وجودٍ؛ لشَبَهِهِ بالزَّائد من حيث إنَّه لا يغيِّر معنى الجملة، وإنَّما يفيد التأكيدَ فقط.

واعتُرض أيضاً بأنَّ الخبرَ المذكورَ كـ : «مبعوثون» في الآية يكون حينئذٍ خبراً عنهما، وخبرُ المبتدأ رافعُه الابتداء، أو المبتدأ، أو هما، وخبرُ «إنَّ» رافعُه «إنَّ»، فيتوارد عاملان على معمولٍ واحد.

وأُجيب بأنَّ العواملَ النحويةَ ليست مؤثِّراتٍ حقيقية، بل هي بمنزلة العلامات، فلا يضرُّ توارُدُها على معمولٍ واحد. وهو كما ترى، وتمامُ الكلامِ في محلِّه.

وعلى كلِّ حالٍ الأَولى ما تقدَّم من كونه مبتدأً حُذف خبرُه، وقد قال أبو حيَّان:

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٥.

إنَّ أربابَ الأقوالِ الثلاثةِ الأخيرةِ متَّفقون على جواز القولِ الأوَّل، وهو يؤيِّد القولَ بأولويته.

وأيَّاما كان، فمرادُ الكفرةِ زيادةُ استبعادِ بعثِ آبائهم، بناءً على أنَّهم أقدم، فبعثُهم أبعدُ على عقولهم القاصرة.

وقرأ أبو جعفر، وشيبة، وابنُ عامر، ونافعٌ في رواية قالون[1]: «أَوْ» بالسكون، على أنَّها حرفُ عطف، وفيه الاحتمالاتُ الأربعة، إلَّا أنَّ العطفَ على الضميرِ على هذه القراءةِ ضعيف؛ لعدم الفصلِ بشيءٍ أصلاً.

﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أي: تُبعثون أنتم وآباؤكم الأوَّلون. والخطابُ في قوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ لهم ولآبائهم بطريق التغليب، والجملةُ في موضع الحالِ من فاعل ما دلَّ عليه «نعم» أي: تُبعثون كلُّكم والحالُ أنَّكم صاغرون أذلَّاء، وهذه الحالُ زيادةٌ في الجواب، نظيرُ ما وقع في جوابه عليه الصلاة والسلام لأُبَيِّ بنِ خلفٍ حين جاء بعَظمٍ قد رمَّ وجعل يفتُّه بيده ويقول: يا محمد، أترى الله يُحيي هذا بعدما رمَّ؟ فقال ﷺ له ـ على ما في بعض الرِّوايات ـ: «نعم ويبعثُك ويُدخلك جهنَّم»[2].

وقال غيرُ واحد: إنَّ ذلك من الأُسلوب الحكيم. وتعقِّب بأنَّ عدَّ الزيادةِ منه لا توافق ما قرِّر في المعاني، وإنْ كان ذلك اصطلاحاً جديداً، فلا مشاحَّةَ في الاصطلاح.

واكتُفي في الجواب عن إنكارهم البعثَ على هذا المقدارِ ولم يقم دليلٌ عليه، اكتفاءً بسبق ما يدلُّ على جوازه في قوله سبحانه: (فَٱسْتَفْتِهِمْ) إلخ، مع أنَّ المخبِرَ قد عُلم صدقُه بمعجزاته الواقعةِ في الخارج التي دلَّ عليها قولُه سبحانه: (وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً) الآيةَ. وهزؤهم وتسميتُهم لها سحراً لا يضرُّ طالبَ الحقّ، والقولُ بأنَّ ذلك للاكتفاء بقيام الحجَّةِ عليهم في القيامة، ليس بشيء.

---

(١) في الأصل و(م): وقالون، وهو خطأ، انظر البحر ٧/ ٣٥٥، والتيسير ص ١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٧.

(٢) ينظر ٢٢/ ٤٢٠.

وقرأ ابن وثَّابٍ والكِسائي: «نَعِمْ» بكسر العين[١]، وهي لغةٌ فيه.

وقُرِىء: «قال»[٢]، أي: اللهُ تعالى أو رسولُه ﷺ.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ الضميرُ راجعٌ إلى البعثة المفهومةِ ممَّا قبل. وقيل: للبعث، والتأنيثُ باعتبار الخبر. والزجرةُ: الصَّيحة، من: زجر الراعي غنمَه: صاح عليها. والمرادُ بها النفخةُ الثانيةُ في الصور، ولمَّا كانت بعثتُهم ناشئةً عن الزجرة، جُعلت إيَّاها مجازاً.

والفاءُ واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّر، أو تعليليةٌ لنهيٍ مقدَّر، أي: إذا كان كذلك، فإنَّما البعثةُ زجرةٌ واحدة، أو لا تستصعبوها فإنَّما هي زجرة.

وجوَّز الزجَّاج[٣] أن تكونَ للتفسير والتفصيل، وما بعدها مفسِّر للبعث. وتعقَّب بأنَّ تفسيرَ البعثِ الذي في كلامهم لا وجهَ له، والذي في الجواب غيرُ مصرَّح به، وتفسيرُ ما كُني عنه بـ «نعم» ممَّا لم يُعهد. والظاهرُ أنَّه تفسيرٌ لما كُني عنه بـ «نعم»، وهو بمنزلة المذكور، لاسيَّما وقد ذُكر ما يقوِّي إحضارَه من الجملة الحالية، وعدمُ عهدِ التفسير في مثل ذلك ممَّا لا جزمَ لي به.

وأبو حيَّانَ نازع في تقدير الشَّرط، فقال: لا ضرورةَ تدعو إليه، ولا يُحذف الشرطُ ويبقى جوابُه إلَّا إذا انجزم الفعلُ في الذي يُطلق عليه أنَّه جوابُ الأمرِ والنهي وما ذُكر معهما على قول بعضِهم، أما ابتداءً فلا يجوز حذفُه[٤]. والجمهورُ على خلافه، والحقُّ معهم. وهذه الجملةُ إما من تتمَّة المقول، وإما ابتداءُ كلامٍ من قِبَله عزَّ وجلَّ.

﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾ أي: فإذا هم قيامٌ من مراقدهم أحياءٌ يُبصرون كما كانوا في الدُّنيا. أو ينتظرون ما يُفعل بهم وما يؤمرون به.

---

(١) قراءة ابن وثاب في البحر ٧/ ٣٥٥، وقراءة الكسائي في التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٣٧.

(٣) انظر معاني القرآن ٤/ ٣٠١.

(٤) البحر ٧/ ٣٥٦.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: المبعوثون. وصيغةُ الماضي لتحقُّق الوقوع: ﴿يَوَيْلَنَا﴾ أي: يا هلاكَنا احضُر، فهذا أوانُ حضورِك ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠﴾ استئنافٌ منهم لتعليلِ دعائهم الويل.

و«الدِّينُ» بمعنى الجزاء، كما في: كما تُدين تدان، أي: هذا اليومُ الذي نُجازَى فيه بأعمالنا، وإنَّما علموا ذلك؛ لأنَّهم كانوا يسمعون في الدُّنيا أنَّهم يُبعثون ويحاسَبون ويُجزَون بأعمالهم، فلمَّا شاهدوا البعثَ أيقنوا بما بعده أيضاً.

وقولُه تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ كلامُ الملائكة، جواباً لهم بطريق التوبيخِ والتقريع. وقيل: هو من كلام بعضِهم لبعضٍ أيضاً.

ووقف أبو حاتمٍ على «يا ويلنا» وجعل ما بعده كلامَ اللهِ تعالى، أو كلامَ الملائكةِ عليهم السلامُ لهم، كأنَّهم أَجابوهم بأنَّه لا تنفع الولولةُ والتلهُّف.

و«الفصل»: القضاء، أو: الفرقُ بين المحسنِ والمسيء، وتمييزُ كلٍّ عن الآخَر بدون قضاء.

﴿احْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ خطابٌ من الله تعالى للملائكة، أو من الملائكةِ بعضِهم لبعض. أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: تقول الملائكةُ للزَّبانية: «احشروا. .» إلخ. وهو أمرٌ بحشر الظالمين من أماكنهم المختلفةِ إلى موقف الحساب، وقيل: من الموقفِ إلى الجحيم. والسِّياقُ والسباقُ يؤيِّدان الأوَّل.

﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أخرج عبدُ الرزاق، وابنُ أبي شيبة، وابنُ منيعٍ في «مسنده»، والحاكمُ وصحَّحه، وجماعة، من طريق النعمانِ بن بشير، عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أنَّه قال: أزواجُهم: أمثالُهم الذين هم مثلُهم، يُحشر أصحابُ الرِّبا مع أصحاب الرِّبا، وأصحابُ الزِّنى مع أصحاب الزِّنى، وأصحابُ الخمرِ مع أصحابِ الخمر[1].

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٧٢، وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/١٤٨، والمستدرك ٢/ ٤٣٠، دون قوله: يحشر أصحاب الربا. . . إلخ، ولعل هذه الزيادة مدرجة من كلام بعض الرواة.
وهو عند الحاكم من طريق عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن سماك بن حرب، عن النعمان، عن عمر. ورواه عبد الرزاق عن إسرائيل بهذا الإسناد، ولم يذكر عمر.

وأَخرج جماعةٌ عن ابن عباسٍ في لفظ: أشباهَهم، وفي آخَر: نظراءهم. ورُوي تفسيرُ الأزواجِ بذلك أيضاً عن ابن جُبيرٍ ومجاهدٍ وعكرمة.

وأصلُ الزوج: المقارِن، كزوجَي النَّعل، فأُطلق على لازِمه، وهو المماثل.

وجاءَ في روايةٍ عن ابن عباسٍ أنَّه قال: أي: نساءَهم الكافرات. ورجَّحه الرمَّاني.

وقيل: قرناءهم من الشَّياطين، ورُوي هذا عن الضحَّاك.

والواوُ للعطف، وجوِّز أن تكونَ للمعيَّة.

وقرأ عيسى بنُ سليمانَ الحجازي: «وأزواجُهم» بالرَّفع عطفاً على ضميرِ «ظلموا» على ما في «البحر»، أي: وظَلَمَ أزواجُهم[1].

وأنت تعلم ضعفَ العطفِ على الضمير المرفوعِ في مثله، والقراءةُ شاذَّة.

﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأَصنام ونحوِها. وحشرُهم معهم لزيادة التحسيرِ والتخجيل. و«ما» قيل: عامٌّ في كلِّ معبود، حتى الملائكة والمسيح وعُزير عليهم السلام، لكن خُصَّ منه البعضُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ١٠١].

وقيل: «ما» كنايةٌ عن الأَصنام والأَوثان، فهي لِمَا لا يَعقل فقط؛ لأنَّ الكلامَ في المشركين عَبَدةِ ذلك.

وقيل: «ما» على عمومها، والأَصنامُ ونحوُها غيرُ داخلة؛ لأنَّ جميعَ المشركين إنَّما عبدوا الشياطينَ التي حملتهم على عبادتِها. ولا يناسب هذا تفسير «أزواجهم» بقرنائهم من الشَّياطين، ومع هذا التخصيصُ أقرب، وفي هذا العطفِ دلالةٌ على أنَّ الذين ظلموا المشركون، وهم الأَحِقَّاء بهذا الوصف؛ فإنَّ الشركَ لَظلمٌ عظيم.

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ فعرِّفوهم طريقَها وأروهم إيَّاه. والمرادُ

(١) البحر ٧/ ٣٥٦، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٧.

بـ «الجحيم» النار، ويُطلق على طبقةٍ من طبقاتها، وهو من الجَحمة: شدَّة تأجُّجِ النار. والتعبيرُ بالصِّراط والهدايةِ للتهكُّم بهم.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي: احبسوهم في الموقف ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ عن عقائدهم وأعمالِهم، وفي الحديث: «لا تزولُ قدما عبدٍ حتى يسألَ عن خمس: عن شبابه فيما أبلاه، وعن عُمره فيما أفناه، وعن ماله ممَّ كسبه وفيمَ أنفقه، وعن عِلمِه ماذا عمل به»[1].

وعن ابن مسعود: يُسألون عن: لا إلهَ إلَّا الله. وعنه أيضاً: يُسألون عن شرب الماءِ البارِدِ، على طريق الهزءِ بهم.

وروى بعضُ الإماميةِ عن ابن جُبيرٍ عن ابن عباس: يُسألون عن ولاية عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه. ورووه أيضاً عن أبي سعيدٍ الخدريّ.

وأولى هذه الأقوالِ أنَّ السؤالَ عن العقائد والأعمال، ورأسُ ذلك لا إلهَ إلَّا الله، ومن أجلِّه ولايةُ عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وكذا ولايةُ إخوانِه الخلفاءِ الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

وظاهرُ الآيةِ أنَّ الحبسَ للسؤال بعدَ هدايتِهم إلى صراطِ الجحيم، بمعنى تعريفِهم إياه ودَلالتِهم عليه، لا بمعنى إدخالهم فيه وإيصالهم إليه. وجوِّز أن يكونَ صراطُ الجحيمِ طريقَهم له من قبورهم إلى مقرِّهم، وهو ممتدّ، فيجوز كونُ الوقفِ في بعضٍ منه مؤخَّراً عن بعض. وفيه من البُعد ما فيه.

وقيل: إنَّ الوقفَ للسؤال قبل الأمرِ المذكور، والواوُ لا تقتضي التَّرتيب.

وقيل: الوقفُ بعد الأمرِ عند مجيئهم النارَ والسؤالِ عمَّا ينطق به قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لا ينصر بعضُكم بعضاً. والخطابُ لهم وآلهتهم، أو لهم فقط، أي: ما لكم لا ينصرُ بعضُكم بعضاً كما كنتم تزعُمون في الدنيا، فقد رُوي أنَّ أبا جهلٍ قال يومَ بدر: نحن جميعٌ منتصر. وتأخيرُ هذا السؤالِ إلى ذلك

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٦) من حديث ابن مسعود، وقال: هذا حديث غريب، و(٢٤١٧) من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ وحسَّنه.

الوقت؛ لأنَّه وقتُ تنجيزِ العذابِ وشدَّةِ الحاجة إلى النُّصرة وحالة انقطاعِ الرجاءِ، فالتقريعُ والتوبيخُ حينئذٍ أشدُّ وقعاً وتأثيراً.

وقيل: السؤالُ عن هذا في موقف المحاسبةِ بعد استيفاءِ حسابِهم والأمرِ بهدايتهم إلى الجحيم، كأنَّ الملائكةَ عليهم السلام لمَّا أُمروا بهدايتهم إلى النارِ وتوجيههم إليها، سارعوا إلى ما أُمروا به، فقيل لهم: قِفوهم إنَّهم مسؤولون.

والذي يترجَّح عندي أنَّ الأمرَ بهدايتهم إلى الجحيم إنَّما هو بعد إقامة الحجَّةِ عليهم وقطعِ أعذارهم، وذلك بعد محاسبتِهم. وعطف «اهدوهم» على «احشروا» بالفاءِ إشارةً إلى سرعة وقوعِ حسابِهم، وسؤالُهم: ما لَكم لا تناصرون، الأَليقُ أن يكونَ بعد تحقُّق ما يقتضي التناصر، وليس ذلك إلَّا بعد الحسابِ والأمرِ بهم إلى النَّار، فلعل الوقفَ لهذا السؤالِ في ابتداء توجُّهِهم إلى النار، واللهُ تعالى أعلم.

وقرأ عيسى: «أَنَّهم» بفتح الهمزة[1]، بتقدير: لأنَّهم. وقرأ البَزِّيُّ عن ابن كثير: «لا تَّناصرون» بتاءين بلا إدغام[2]. وقُرئ بإدغام إحداهما في الأخرى[3].

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ منقادون؛ لعجزهم وانسدادِ الحيلِ عليهم. وأصلُ الاستسلامِ طلبُ السَّلامة، والانقيادُ لازمٌ لذلك عرفاً؛ فلذا استُعمل فيه. أو متسالمون، كأنَّه يُسْلِمُ بعضُهم بعضاً للهلاك ويَخذله. وجوّز في الإضراب أن يكونَ عن مضمونِ ما قبله، أي: لا ينازعون في الوقوف وغيرِه، بل ينقادون، أو يخذلون. أو عن قوله سبحانه: «لا تناصرون» أي: لا يقدر بعضُهم على نصر بعض، بل هم منقادونَ للعذاب، أو مخذولون.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الأتباعُ والرؤساءُ المضلُّون. أو الكفرةُ من الإنس وقرناؤهم من الجنّ، ورُوي هذا عن مجاهدٍ وقتادةَ وابنِ زيد ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يسأل بعضُهم بعضاً سؤالَ تقريعٍ بطريق الخصومةِ والجدال.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٧، والبحر ٧/ ٣٥٦.

(٢) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٣٥٧ دون نسبة، وينظر التعليق الآتي.

(٣) هي قراءة البزي عن ابن كثير في حال الوصل كما في التيسير ص٨٣، والنشر ٢/ ٢٣٢-٢٣٣، والبدور الزاهرة ص٢٦٩.

﴿قَالُوٓا﴾ استئنافٌ بيانيّ، كأنَّه قيل: كيف يتساءلون؟ فقيل: قالوا، أي: الأتباعُ للرؤساء، أو الكفرةُ مطلقاً للقرناء: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ في الدنيا ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: من جهة الخيرِ وناحيتِه، فتنهونا عنه وتصدُّونا، قاله قتادة.

ولشرف اليمين، جاهليةً وإسلاماً، دنيا وأُخرى، استُعيرت لجهة الخيرِ استعارةً تصريحيةً تحقيقية، وجُعلت اليمينُ مجازاً عن جهة الخيرِ مع أنَّه مجازٌ في نفسه، فيكونُ ذلك مجازاً على المجاز؛ لأنَّ جهةَ الخيرِ لشهرة استعمالِهِ التحقَ بالحقيقة، فيجوز فيه المجازُ على المجاز، كما قالوا في المسافة، فإنها موضعُ الشَّمِّ في الأصل؛ لأنَّه مَن: سافَ التراب: إذ شمَّه، فإنَّ الدليلَ إذا اشتبه عليه الطريقُ، أخذ تراباً فشمَّه ليعرفَ أنه مسلوكٌ أو لا، ثم جُعل عبارةً عن البُعد بين المكانَين، ثم استُعير لفرقِ ما بين الكلامين، ولا بُعدَ هناك.

واستظهر بعضُهم حملَ الكلامِ على الاستعارة التمثيليَّة، واعتبارَ التجوُّز في مجموع «تأتوننا عن اليمين» لمعنى: تمنعوننا وتصدُّوننا عن الخير، فيَسلم الكلامُ من دعوى المجازِ على المجاز.

وكأنَّ المرادَ بالخير الإيمانُ بما يجب الإيمانُ به. وجوِّز أن يكونَ المرادُ به الخيرَ الذي يزعمه المضلُّون خيراً، وأنَّ المعنى: تأتوننا من جهة الخيرِ، وتزعمون ما أنتم عليه خيراً ودينَ حقّ، فتخدعوننا وتُضِلُّوننا. وحُكي هذا عن الزجَّاج(١).

وقال الجبَّائي: المعنى: كنتم تأتوننا من جهة النصيحةِ واليُمن والبركة، فترغِّبوننا بما أنتم عليه، فتضلُّوننا. وهو قريبٌ مما قبله.

وجوَّزوا أن تكونَ اليمينُ مجازاً مرسلاً عن القوَّة والقهر؛ فإنها موصوفةٌ بالقوَّة، وبها يقع البطش، فكأنَّه أطلق المحلَّ على الحالّ، أو السببَ على المسبَّب. ويمكن أن يكونَ ذلك بطريق الاستعارةِ وتشبيهِ القوَّة بالجانب الأيمنِ في التقدُّم ونحوِهِ، والمعنى: إنَّكم كنتم تأتوننا عن القوَّة والقهر، وتصدوننا عن السُّلطان والغلبة، حتى

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٣٠٢.

تحملونا على الضَّلال وتَقسِرونا عليه. وإليه ذهب الفرَّاء[(١)].

وأن يكونَ اليمينُ حقيقةً بمعنى القَسَم، ومعنى إتيانهم عنه أنَّهم يأتونهم مُقسِمين لهم على حقِّيَّة ما هم عليه من الباطل، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، و«عن» بمعنى الباء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٣] أو هو ظرفٌ لغو. وفيه بُعد.

وأبعدُ منه أن يفسَّرَ اليمينُ بالشَّهوة والهوى؛ لأنَّ جهةَ اليمينِ موضعُ الكَبِد، وهو مخالفٌ لمَا حُكي عن بعضٍ من أنَّ مَن أتاه الشيطانُ من جهة اليمينِ، أتاه من قِبَل الدِّين فلبَّس عليه الحقّ، ومَن أتاه من جهة الشِّمال، أتاه من قبل الشَّهوات، ومَن أتاه من بين يديه أتاه من قِبَل التكذيبِ بالقيامة والثوابِ والعقاب، ومَن أتاه من خلفه خوَّفه الفقرَ على نفسه وعلى مَن يَخلُف بعده، فلم يَصِل رَحِماً ولم يؤدِّ زكاة.

﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ على طرز السابق، أي: قال الرُّؤساء، أو قال القرناءُ في جوابهم بطريق الإضراب عمَّا قالوه لهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وهو إنكارٌ لإضلالهم إياهم، أي: أنتم أَضللتم أنفسَكم بالكفر ولم تكونوا مؤمنين في حدِّ ذاتكم، لا أنَّا نحن أَضللناكم.

وقولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي: من قهرٍ وتسلُّطٍ نسلُبكم به اختيارَكم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ مجاوزين الحدَّ في العصيان، مختارين له مصرِّين عليه، جوابٌ آخَرُ تسليميٌّ ـ على فَرْض إضلالهم ـ بأنَّهم لم يُجبروهم عليه، وإنَّما دعَوهم له، فأَجابوا باختيارهم لموافقة ما دُعوا له هواهم.

وقيل: الكلُّ جوابٌ واحد، محصَّله: إنَّكم اتَّصفتم بالكفر من غير جبرٍ عليه.

وقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ تفريعٌ على صريح ما تقدَّم من عدم إيمان أولئك المخاصمين لهم وكونِهم قوماً طاغينَ في حدِّ ذاتِهم، وعلى ما اقتضاه وأَشعرَ به خصامُهم من كفر هؤلاء المجيبين لأولئك الطَّاغين وغوايتِهم في أنفسهم.

---

(١) انظر معاني القرآن ٢/ ٣٨٤.

وضمائرُ الجمعِ للفريقين، فكأنَّهم قالوا: ولأجل أنَّا جميعاً في حدِّ ذاتنا لم نكن مؤمنين وكنَّا قوماً طاغين، لَزِمَنا قولُ ربِّنا وخالقِنا العالِمِ بما نحن عليه وبما يقتضيه استعدادُنا، وثبت علينا وعيدُه سبحانه بأنَّا ذائقون لا محالةَ لعذابه عزَّ وجلَّ، ومرادُهم أنَّ منشأَ الخصامِ في الحقيقة الذي هو العذابُ أمرٌ مقضيٌّ لا محيصَ عنه، وأنَّه قد ترتَّب على كلٍّ منا بسبب أمرٍ هو عليه في نفسه، وقد اقتضاه استعدادُه وفعَله باختياره، فلا يلومنَّ بعضُنا بعضاً، ولكن ليَلُمْ كلٌّ منَّا نفسه. ونظموا أنفسَهم معهم في ذلك للمبالغة في سدِّ باب اللَّومِ والخصامِ من أولئك القوم.

والفاء في قولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أي: فدعوناكم إلى الغَيِّ؛ لتفريع الدعاءِ المذكورِ على حقِّيَّة الوعيدِ عليهم، لا لمجرَّد التعقيبِ كما قيل. وعِلِّية ذلك للدُّعاء باعتبار أنَّ وجودَه الخارجيَّ متعلِّقاً بهم كان متفرِّعاً عن ذلك في نفس الأمر، لا باعتبار أنَّ إصدارَه وإيقاعَه منهم على المخاطَبين كان بملاحظة ذلك كما تُلاحَظ العِللُ الغائيةُ في الأفعال الاختيارية؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّ رؤساءَ الكفرِ لم يكونوا عالمين في الدنيا حقِّيَّةَ الوعيدِ عليهم. نعم لا يَبعدُ أن يكونَ القرناءُ من الشياطين عالمين بذلك من أبيهم، وكذا تسميةُ دعائهم إيَّاهم إلى ما دعوهم إليه إغواء، أي: دعاءً إلى الغَيِّ، بناءً على أنَّ الكلامَ المذكورَ من الرُّؤساء باعتبار نفسِ الأمرِ التي ظهرت لهم يومَ القيامة.

ومثلُ هذا يقال في قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ بناءً على أنَّهم إنَّما علموا ذلك يومَ التساؤلِ والخصام. والجملةُ مستأنفةٌ لتعليل ما قبلها. وكأنَّ ما أشعر به التفريعُ باعتبار تعلُّقِ الإغواءِ بالمخاطبين، وهذا باعتبار صدورِ الإغواءِ نفسِه منهم، وهو تصريحٌ بما يستفاد من التفريع السَّابق.

ويجوز أن يكونَ إشارةً إلى وجه ترتُّب إغوائهم إياهم على حقِّيَّة الوعيدِ عليهم، وهو حبُّ أن يتَّصفَ أولئك المخاطَبون بنحو ما اتَّصفوا به من الغَيِّ ويكونوا مثلَهم فيه. وملخَّص كلامِهم أنَّه ليس منَّا في حقِّكم على الحقيقة سوى حبِّ أن تكونوا مثلَنا، وهو غيرُ ضارٍّ لكم، وإنَّما الضارُّ سوءُ اختيارِكم وقُبحُ استعدادِكم، فذلك الذي ترتَّب عليه حقِّيَّة الوعيدِ عليكم وثبوتُ هذا العذابِ لكم.

وجوِّز أن يقال: إنَّهم نفَوا عنهم الإيمانَ والاعتقادَ الحقّ، وأثبتوا لهم الطغيانَ ومجاورةَ الحدِّ في العصيان، حيث لم يلتفتوا على ما يوجب الاعتقادَ الصحيحَ مع كثرتِهِ وظهورِهِ، ورتَّبوا على ذلك مع ما يقتضيه البحثُ حقِّيَّةَ الوعيد، وفرَّعوا على مجموع الأمرين أنَّهم دعَوهم إلى الغَيِّ مراداً به الكفرُ؛ لاعتقاد أمرٍ فاسدٍ لا مجرَّدِ عدم الإيمان، أي: عدم التصديقِ بما يجب التصديقُ به بدون اعتقادِ أمرٍ آخَرَ يكفر باعتقاده، وأشاروا إلى وجه ترتُّبِ ذلك على ما ذُكر، وهو محبَّةُ أن يكونوا مثلَهم، فكأنَّهم قالوا: كنتم تاركين الاعتقادَ الحقَّ غيرَ ملتفتين إليه مع ظهور أدلَّتِهِ وكثرَتِها، وكنا جميعاً قد حقَّ علينا الوعيد، فدعوناكم إلى ما نحن عليه من الاعتقادِ الفاسد، حبّاً لأن تكونوا أسوةَ أنفسِنا، وهذا كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ [القصص: ٦٣].

قال الراغب(١): هو إعلامٌ منهم أنَّا قد فعلنا بهم غايةَ ما كان في وُسع الإنسانِ أن يفعلَ بصديقه ما يريد بنفسه، أي: أفدناهم ما كان لنا وجعلناهم أسوةَ أنفسِنا، وعلى هذا «فأغويناكم إنا كنا غاوين». انتهى.

وجوِّز على هذا التقديرِ أن يكونَ «فأغويناكم» مفرَّعاً على شرح حالِ المخاطَبين، من انتفاء كونِهم مؤمنين، وثبوتِ كونِهم طاغين وعن الآياتِ معرضين، وقولُهم: «فحقَّ علينا...» إلخ اعتراضٌ لتعجيل بيانِ أنَّ ما الفريقان فيه أمرٌ مقضيٌّ لا ينفع فيه القيلُ والقال، والخصامُ والجدال.

ويجوز على هذا أن يرادَ بضمير الجمعِ في «فحقَّ علينا...» إلخ الرؤساءُ أو القرناء، لا ما يعمُّهم والمخاطَبين، وأشاروا بذلك إلى أنَّ ما هم فيه يكفي عن اللَّوم ويومئُ إلى زيادة عذابِهم، ولا يخفَى أنَّ تجويزَ الاعتراضِ لا يخلو عن اعتراض. وتجويز كونِ الضميرِ في «علينا...» إلخ للرُّؤساء أو القرناءِ يجري على غيرِ هذا الاحتمال، فتدبَّر.

وأيًّا ما كان، فقولُهم: «إنا لذائقون» هو قولُ ربِّهم عزَّ وجلَّ ووعيدُه سبحانه

---

(١) في المفردات (غوي).

إياهم، ولو حُكي كما قيل، لَقيل: إنَّكم لذائقون، ولكنَّه عدل إلى لفظ المتكلِّم؛ لأنَّهم متكلِّمون بذلك من أنفسهم. ونحوُه قولُ القائل:

لـقـد زعـمـتْ هـوازنُ قـلَّ مـالـي[1] وهـل لـي غـيـرُ مـا أنـفـقـتُ مـالُ

ولو حَكَى قولَها لَقال: قلَّ مالُكَ، ومنه قول المحلِّف للحالف: اِحلف: لَأخرجنَّ، ولَتخرجَنَّ، الهمزةُ لحكاية لفظِ الحالف، والتاءُ لإقبال المحلِّف على المحلَّف.

وقال بعضُ الأجِلَّة: قولُ الربِّ عزَّ وجلَّ هو قولُه سبحانه وتعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]. والربطُ على ما تقدَّم أظهر.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الفريقَين المتسائلَين. والكلامُ تفريعٌ على ما شُرح من حالهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يتساءلون، والمرادُ به يومُ القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ كما كانوا مشتركين في الغَواية. واستظهر أنَّ المُغْوِين أشدُّ عذاباً، وذلك في مقابلة أوزارِهم وأوزارٍ مثلِ أوزارهم، فالشِّركةُ لا تقتضي المساواة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الفعلِ البديعِ الذي تقتضيه الحكمةُ التشريعيةُ ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: بالمشركين؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بطريق الدَّعوةِ والتلقين: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ عن القَبول.

وفي إعراب هذه الكلمةِ الطيبةِ أقوال:

الأوَّل: أن يكونَ الاسمُ الجليلُ مرفوعاً على البدليَّة من اسم «لا» باعتبار المحلِّ الأصليّ، وهو الرفعُ على الابتداء، بدلَ بعضٍ من كلّ، و«إلّا» مغنيةٌ عن الرَّبط بالضمير. وإذا قلنا: إنَّ البدلَ في الاستثناءِ قسمٌ على حِدَةٍ مغايرٌ لغيره من الأبدال، اندفع عن هذا الوجهِ كثيرٌ من القيل والقال، وهو الجاري على ألسنة المُعربين. والخبرُ عليه عند الأكثرين مقدَّر، والمشهورُ تقديرُه: موجود. والكلمةُ الطيِّبة في مقابلة المشركين، وهم إنَّما يزعمون وجودَ آلهةٍ متعدِّدةٍ ولا يقولون بمجرَّد

---

(١) كذا في الكشاف ٣/ ٣٣٩، والبحر ٧/ ٣٥٧. وفي الحماسة البصرية ٢/ ١٢: تسائلني هوازن أين مالي، ونسبه ليزيد بن الجهم.

الإمكان. على أنَّ نفيَ الوجودِ في هذا المقامِ يستلزم نفيَ الإمكان، وكذا نفيُ الإمكانِ عمَّن عداه عزَّ وجلَّ يستلزم ثبوتَ الوجودِ بالفعل له تعالى.

وجوِّز تقديرُه: مستحقٌّ للعبادة. ونفيُ استحقاقِها يستلزم نفيَ التعدُّد، لكن لا يتمُّ هذا التقديرُ على تفسير الإلهِ بالمستحقِّ للعبادة كما لا يخفَى.

واختار البازليُّ[1] تقديرَ الخبرِ مؤخَّراً عن «إلَّا الله»، بناءً على أنَّ تقديرَه مقدَّماً يوهم كونَ الاسمِ مستثنًى مفرَّغاً من ضمير الخبر، وهو لا يجوز عند المحقِّقين، وأجازه بعضٌ، وهو القولُ الثاني.

والثالث ـ ونُسب إلى الكوفيين ـ: أنَّ «إلَّا» عاطفة، والاسمَ الجليلَ معطوفٌ على الإله باعتبار المحلِّ، وهي عندهم بمنزلة «لا» العاطفةِ في أنَّ ما بعدَها يخالف ما قبلها، إلَّا أنَّ «لا» لنفي الإيجاب، و«إلَّا» لإيجاب النفي.

والرابع: أنَّ الاسمَ الكريمَ هو الخبر، ولا عملَ لها فيه على رأي سيبويهِ من أنَّ الخبرَ مرفوعٌ بما كان مرفوعاً به قبل دخولِها، فلا يلزم عملُها في المعارف على رأيه، وهو لازمٌ على رأي غيرِه.

وضعِّف هذا القولُ به، وكذا بلزوم كونِ الخاصِّ خبراً عن العامّ. وكونُ الكلامِ مسوقاً لنفي العمومِ والتخصيصِ بواحدٍ من أفراد ما دلَّ عليه العامُّ لا يُجدي نفعاً؛ ضرورةَ أنَّ «لا» هذه عند الجمهورِ من نواسخ المبتدأ والخبر.

والخامس: أنَّ «إلَّا» بمعنى «غير»، وهي مع اسمِه عزَّ اسمُه صفةٌ لاسم «لا» باعتبار المحلّ، أي: لا إلهَ غيرُ اللهِ تعالى في الوجود.

ولا خللَ فيه صناعةً، وإنَّما الخللُ فيه ـ كما قيل ـ معنًى؛ لأنَّ المقصودَ نفي الألوهيةِ عن غيره تعالى وإثباتُها له سبحانه، وعلى الاستثناءِ يستفاد كلٌّ من المنطوق، وعلى هذا لا يفيد المنطوقُ إلَّا نفيَ الألوهيةِ من غيره تعالى دون إثباتها

(١) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن داود البازلي الكردي الحموي الشافعي. كان زاهداً كثير العبادة ملازماً للتدريس. من كتبه: حاشية على جمع الجوامع للمحلِّي، وتقدمة العاجل لذخيرة الآجل. توفي (سنة ٩٢٥هـ). الكواكب السائرة ١/ ٤٧، وشذرات الذهب ٨/ ١٣٨.

له عزَّ وجلّ، واعتبارُ المفهومِ غيرُ مجمَعٍ عليه، لا سيَّما مفهومُ اللقب، فإنَّه لم يقل به إلَّا الدقَّاقُ وبعضُ الحنابلة.

والسادس - ونُسب إلى الزمخشريّ -: أنَّ «لا إله» في موضع الخبر، و«إلَّا الله» في موضع المبتدأ، والأصل: اللهُ إله، فلما أُريد قصرُ الصفةِ على الموصوف، قدِّم الخبرُ وقُرن المبتدأُ بـ «إلَّا»؛ إذ المقصورُ عليه هو الذي يلي «إلَّا»، والمقصورُ هو الواقعُ في سياق النفي، والمبتدأُ إذا قُرن بـ «إلَّا» وجب تقديمُ الخبرِ عليه، كما هو مقرَّر في موضعه.

وفيه تمحُّل، مع أنَّه يلزم عليه أن يكونَ الخبرُ مبنياً مع «لا»، وهي لا يُبنَى معها إلَّا المبتدأ، وأنَّه لو كان الأمرُ كما ذكر، لم يكن لنصب الاسمِ الواقعِ بعدَ «إلَّا» وجهٌ، وقد جوَّزه جماعةٌ في هذا التركيب، وتَرْكُ كلامهم لواحدٍ إن التزمتَه لا تجد لك ثانياً فيه.

والسابع: أنَّ الاسمَ المعظَّمَ مرفوعٌ بـ «إله»، كما هو حالُ المبتدأ إذا كان وصفاً، فإنَّ إلهاً بمعنى مألوه، من أله: إذا عبدَ، فيكون قائماً مقامَ الفاعلِ وسادّاً مسدَّ الخبر، كما في: ما مضروبٌ العمران.

وتعقِّب بمنع أن يكونَ «إله» وصفاً، وإلَّا لَوجب إعرابُه وتنوينُه، ولا قائلَ به.

ثم إنَّ هذه الكلمةَ الطيبةَ يندرج فيها معظمُ عقائدِ الإيمان، لكنَّ المقصودَ الأهمَّ منها التوحيد؛ ولذا كان المشركون إذا لقِّنوها أوَّلاً، يستكبرون وينفِرون ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ يعنون بذلك - قاتَلَهم اللهُ تعالى - النبيَّ ﷺ، وقد جمعوا بين إنكار الوحدانيةِ وإنكار الرِّسالة.

ووصفُهم الشاعرَ بالمجنون قيل: تخليطٌ وهَذَيان؛ لأنَّ الشِّعرَ يقتضي عقلاً تامّاً به تُنظم المعاني الغريبة، وتُصاغ في قوالب الألفاظِ البديعة. وفيه نظر، وكم رأينا شعراءَ ناقصي العقول، ومنهم مَن يزعم أنَّه لا يحسن شِعره حتى يشربَ المسكِر، فيسكر ثم يقول. نَعَم كلٌّ من الوصفين هَذَيانٌ في حقِّه ﷺ.

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ردٌّ عليهم وتكذيبٌ لهم، ببيان أنَّ ما جاء به

عليه الصلاة والسلام من التوحيد هو الحقُّ الثابتُ الذي قام عليه البرهان، وأجمع عليه كافةُ المرسلين، فأين الشِّعرُ والجنونُ من ساحته ﷺ الرفيعةِ الشأن؟!

وقرأ عبدُ الله: «وصَدَقَ» بتخفيف الدَّال «ٱلْمُرْسَلُونَ» بالواو رفعاً[١]، أي: وصدق المرسَلون في التبشيرِ به وفي أنَّه يأتي آخرَهم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ بما فعلتم من الإشراك وتكذيبِ الرَّسول عليه الصلاة والسلام والاستكبارِ ﴿لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ والالتفاتُ لإظهار كمالِ الغضبِ عليهم، بمشافهتهم بهذا الوعيدِ وعدمِ الاكتراثِ بهم، وهو اللائقُ بالمستكبرين.

وقرأ أبو السمَّال، وأبانُ روايةً عن عاصم: «لَذائقوا العذابَ»[٢] بالنَّصب على أنَّ حذفَ النونِ للتخفيف، كما حُذف التنوينُ لذلك في قول أبي الأسود:

فألفيتُه غيرَ مستعتبٍ ولا ذاكرِ اللهَ إلَّا قليلاً[٣]

بجرِّ ذاكرٍ بلا تنوينٍ ونصب الاسمِ الجليل. وهذا الحذفُ قليلٌ في غير ما كان صلةً لـ «أل»، أمَّا فيما كان صلةً لها، فكثيرُ الورود؛ لاستطالة الصِّلةِ الداعيةِ للتخفيف، ونحوُ قولِه:

الحافظو عورةَ العشيرةِ لا يأتيهمُ من ورائهم نَطَفُ[٤]

ونقل ابنُ عطيةَ[٥] عن أبي السمَّال أنَّه قرأ: «لذائقٌ» بالإفراد والتنوينِ «العذابَ» بالنَّصب، وخرَّج الإفراد على أنَّ التقدير: لَجمعٌ ذائق، وقيل: على تقدير: إنَّ جمعَكم لَذائق.

وقُرئ: «لذائقون» بالنُّون «العذابَ» بالنَّصب على الأصل[٦].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٨.
(٢) البحر ٧/ ٣٥٨، وقراءة أبي السمال في القراءات الشاذة ص١٢٧.
(٣) البيت لأبي الأسود الدؤلي، وهو في ديوانه ص ٥٤، وسلف ٥/ ١٧٩.
(٤) سلف ١٧/ ٣٢٣.
(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٧١.
(٦) البحر ٧/ ٣٥٨.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩﴾ أي: إلَّا جزاءَ ما كنتم تعملونه من السيِّئات، أو: إلَّا بما كنتم تعملونه منها.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ إستثناءٌ منقطعٌ من ضمير ذائقوا، وما بينهما اعتراضٌ جيءَ به مسارعةً إلى تحقيق الحقّ، ببيان أنَّ ذوقَهم العذابَ ليس إلَّا من جهتهم لا من جهة غيرِهم أصلاً، فـ «إلَّا» مؤوَّلة بـ «لكن»، وما بعدُ كخبرها، فيصير التقدير: لكنَّ عبادَ اللهِ المخلَصين أولئك لهم رزقٌ وفواكه.. إلخ. ويجوز أن يكونَ المعنى: لكنَّ عبادَ اللهِ المخلَصين ليسوا كذلك.

وقيل: استثناءٌ منقطعٌ من ضمير «تجزون» على أنَّ المعنى: تُجزَون بمثل ما عملتم، لكنَّ عبادَ اللهِ المخلَصين يُجزون أضعافاً مضاعفةً بالنِّسبة إلى ما عملوا.

ولا يخفى بُعدُه. وأبعدُ منه جعلُ الاستثناءِ من ذلك متصلاً بتعميم الخطابِ في «تجزون» لجميع المكلَّفين؛ لمَا فيه ـ مع احتياجه إلى التكلُّف الذي في سابقه ـ من تفكيك الضَّمائر.

و«المخلصين» صفةُ مدحٍ حيث كانت الإضافةُ للتشريف.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: العبادُ المذكورون. وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم ممتازون بما اتَّصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمَّن عداهم امتيازاً بالغاً، وما فيه من معنى البعدِ مع قُرب العهدِ بالمشار إليه للإشعار بعلوِّ طبقتِهم وبُعدِ منزلتِهم في الفضل.

وهو مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ إما خبرٌ له وقولُه سبحانه: ﴿رِزْقٌ﴾ مرتفعٌ على الفاعلية للظَّرف، وإمَّا خبرٌ مقدَّم، و«رزق» مبتدأ مؤخَّر، والجملةُ خبرُ المبتدأ، والمجموعُ كالخبر للمستثنَى المنقطعِ على ما أشرنا إليه، أو استئنافٌ لمَا أفاده الاستثناءُ إجمالاً بياناً تفصيلياً.

وقولُه تعالى: ﴿مَّعْلُومٌ ۝٤١﴾ أي: معلومُ الخصائص، ككونه غيرَ مقطوعٍ ولا ممنوع، حسنَ المنظرِ لذيذَ الطعمِ طيِّبَ الرائحة، إلى غير ذلك من الصِّفات

المرغوبة، فلا يقال: إنَّ الرزقَ لا يكون معلوماً إلَّا إذا كان مقدراً بمقدار، وقد جاءَ في آيةٍ أخرى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] وما لا يدخل تحت الحسابِ لا يُحدُّ ولا يقدَّر، فلا يكونُ معلوماً.

وقيل: المراد: معلومُ الوقت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

وعن قتادة: الرزقُ المعلوم: الجنَّة. وتعقِّب بأنَّ «في جنات» بَعدُ يأباه. واعتُرض بأنَّه إذا كان المعنى: وهم مُكرَمون فيها، لم يكن به بأس. وأُجيب بأنَّ جعلَها مقرَّ المرزوقين لا يلائم جعلَها رزقاً، وأما إذا كان قيداً للرِّزق، فهو ظاهرُ الإِباء. وكونُ المساكنِ رزقاً للساكن فإذا اختلف العنوانُ لم يكن به بأس، لا يدفعُ ما قرِّر كما لا يخفَى على المنصف.

وقولُه تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ بدلٌ من «رزق» بدلَ كلٍّ من كلّ. وفيه تنبيهٌ على أنَّه مع تميُّزه بخواصِّه كلُّه فواكه. أو خبرُ مبتدأ محذوف، والجملةُ مستأنفة، أي: ذلك الرِّزقُ فواكه.

والمرادُ بها ما يؤكل لمجرَّد التلذُّذِ دونَ الاقتيات، وجميعُ ما يأكله أهلُ الجنةِ كذلك، حتى اللحم؛ لكونهم مستغنين عن القُوت، لإِحكام خِلقتهم، وعدمِ تحلُّل شيءٍ من أَبدانهم بالحرارة الغريزيةِ ليحتاجوا إلى بدلٍ يحصل من القُوت. فالمرادُ بالفاكهة هنا غيرُ ما أُريد بها في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١] وهي هناك بالمعنى المعروف، فلا منافاة.

وجوِّز أن يكونَ عطفَ بيانٍ للرِّزق المعلوم، فوجهُ الاختصاصِ ما عُلم به من بين الأَرزاق أنَّه فواكه.

وقيل: هو بدلُ بعضٍ من كلّ، وتخصيصُها بالذِّكر؛ لأنَّها من أَتباع سائرِ الأَطعمة، فتدلُّ على تحقُّق غيرِها.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ عند اللهِ تعالى، لا يَلحقهم هوانٌ، وذلك أعظمُ المثوباتِ وأَليقُها بأُولي الهمم. ولعلَّ هذا إشارةٌ إلى النَّعيم الروحانيِّ بعد النعيم الجسمانيِّ

الذي هو بواسطة الأكل. وقيل: مُكرَمون في نيل الرِّزق، حيث يصل إليهم من غير كسبٍ وكَدٍّ وسؤال، كما هو شأنُ أرزاقِ الدنيا.

وقرئ: «مكرَّمون» بالتَّشديد[1].

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: في جناتٍ ليس فيها إلَّا النعيم، على أنَّ الإضافةَ على معنى لامِ الاختصاصِ المفيدةِ للحصر، والظرفُ متعلِّق بـ «مكرمون»، أو بـ «معلوم»، أو بمحذوفِ حالٍ من المستكنِّ في «مكرمون»، أو خبرٌ ثانٍ لـ «أولئك»، أو لـ «هم».

وقولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يحتمل أن يكونَ حالاً من المستكنِّ في «مكرمون» أو في الظَّرف قبله، وأن يكونَ خبراً، فيكونُ قولُه سبحانه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ حالاً من المستكنِّ فيه، أو في «مكرمون» أو في الظَّرف، أعني «في جنات» وأن يتعلَّقَ بـ «متقابلين»، فيكون حالاً من المستكنِّ في غيره.

وأُشير بتقابلهم إلى استئناس بعضِهم ببعض، فبعضُهم يقابل بعضاً للاستئناسِ والمحادثة. وفي بعض الأحاديثِ أنَّه تُرفع عنهم السُّتورُ أحياناً فينظر بعضُهم إلى بعض.

وقرأ أبو السمَّال: «سُرَرٍ» بفتح الراء[2]، وهي لغةُ بعضِ تميمٍ وكلب، يفتحون ما كان جمعاً على فُعل من المضعَّف إذا كان اسماً، واختلف النَّحويون في الصِّفة، فمنهم مَن قاسها على الاسم ففتح، فيقول: ذُلَل، بفتح اللامِ على تلك اللُّغة، ومنهم مَن خصَّ ذلك بالاسم، وهو موردُ السَّماع.

وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ إمَّا استئنافٌ لبيان ما يكون لهم في مجالس أُنسِهم، أو حالٌ من الضمير في «متقابلين» أو في أحد الجارَّين. وجوِّز كونُه صفةً لـ «مكرمون». وفاعلُ الطوافِ ـ على ما قيل ـ مَن مات من أولاد المشركين قبل

---

(١) الإملاء ٤/ ٢٣٥، والبحر ٧/ ٣٥٩.

(٢) البحر ٧/ ٣٥٩.

التكليف؛ ففي الصَّحيح أنَّهم خدمُ أهلِ الجنة[١]، وقد صرَّح به في موضعٍ آخرَ، وهو قولُه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] وقولُه سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطور: ٢٤].

﴿بِكَأْسٍ﴾ أي: بخمر، كما رُوي عن ابن عبَّاس. وأَخرج ابنُ أبي شيبةَ وابن جَريرٍ[٢] وغيرُهما عن الضحَّاك قال: كلُّ كأسٍ ذكره اللهُ تعالى في القرآن إنَّما عنى به الخمر. ونُقل ذلك أيضاً عن الحَبر والأَخفش. وهو مجازٌ مشهورٌ بمنزلة الحقيقة، وعليه قولُ الأَعشى:

وكأسٍ شربتُ على لذَّةٍ ... وأخرى تداويتُ منها بها[٣]

ويدلُّ على أنَّه أراد بها الخمرَ إطلاقاً للمحلِّ على الحالِّ قولُه: شربت، وتقديرُ: شربتُ ما فيها، تكلُّف، والقرينةُ هاهنا ما يأتي بعدُ.

وجوَّز تفسيرُه بمعناه الحقيقيّ، وهو إناءٌ فيه خمر، وأكثرُ اللغويين على أنَّ إناءَ الخمرِ لا يسمَّى كأساً حقيقةً إلَّا وفيه خمر، فإنْ خلا منه فهو قَدَح، والخمرُ ليس بمتعيِّن.

قال في «البحر»[٤]: الكأسُ ما كان من الزُّجاج فيه خمرٌ أو نحوُه من الأنبذة، ولا يسمَّى كأساً إلَّا وفيه ذلك.

وقال الراغب[٥]: الكأس: الإناءُ بما فيه من الشَّراب، ويسمَّى كلُّ واحدٍ منهما بانفراده كأساً، يقال: كأسٌ خال[٦]، ويقال: شربتُ كأساً، و: كأسٌ طيِّبة. ولعل كلامَه أَظهرُ في أنَّ تسميةَ الخالي كأساً مجاز.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٠٩٠) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٦٩٩٣) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.
(٢) في تفسيره ١٩/ ٥٣١.
(٣) الديوان ص٢٢٣.
(٤) ٧/ ٣٥٩.
(٥) في المفردات (كأس).
(٦) قوله: يقال: كأس خال، ليس في المطبوع من المفردات.

وحُكي عن بعضهم أنَّه قال: الكأسُ من الأواني: كلُّ ما اتسع فمُه ولم يكن له مَقبِض، ولا يُراعَى كونُه لخمرٍ أو لغيره.

﴿مِّن مَّعِينٍ ۝﴾ في موضع الصفةِ لكأس، أي: كائنةٍ من شرابٍ معين، أو نهرٍ معين، أي: ظاهرٍ للعيون، جارٍ على وجه الأرضِ كما تجري الأنهار، أو خارجٍ من العيون والمنابع. وأصلُه: مَعيون، من عَانَ الماء: إذا ظهر أو نبع، على أنَّ ميمَه زائدة، أو هو من: مَعَنَ، فهو فعيل، على أنَّ الميمَ أصلية.

ووصف به خمرُ الجنةِ تشبيهاً لها بالماء؛ لكثرتها، حتى تكون أنهاراً جاريةً في الجنان، ويؤذن ذلك برِقَّتها ولطافتها، وأنَّها لم تُدَس بالأقدام كخمر الدُّنيا، كما ينبئُ عن دَوْسها بها قولُه:

بِـنْـتُ كـرمٍ يـتَّـمـوهـا أمَّـهـا ... ثـم هـانـوهـا بـدَوسٍ بـالـقـدمْ
ثـم عـادوا حـكَّـمـوهـا فـيـهـمُ ... وَيـلَـهـمْ من جَورِ مظلومٍ حكمْ[1]

وقولُ الآخَر:

وشَـمـولـةٍ مـن عـهـد عـادٍ قـد غـدت ... صـرعـى تُـداس بـأرجُـل الـعَـصَّـارِ
لانـت لـهـمْ حتى انتشَوا فتمكَّنت ... مـنـهـمْ فـصـاحـت فـيـهـمُ بـالـثـارِ[2]

وهذا مبنيٌّ على أنَّها خمرٌ في الحقيقة، وجوِّز أن تكونَ ماءً فيه لذةُ الخمرِ ونشوته، فالوصفُ بذلك ظاهر، وتفيد الآيةُ وصفَ مائهم باللَّذة والنشوة.

وما ذُكر أوَّلاً هو الظاهر، نعم قال غيرُ واحد: لا اشتراكَ بين ما في الدُّنيا وما في الجنَّة إلَّا بالأسماء، فحقيقةُ خمرِ الجنةِ غيرُ حقيقةِ خمرِ الدنيا، وكذا سائرُ ما فيهما.

﴿بَيْضَآءَ﴾ وصفٌ آخَرُ للكأس يدلُّ على أنَّها مؤنَّثة. وعن الحسن أنَّ خمرَ الجنةِ أشدُّ بياضاً من اللَّبن.

---

(١) المستطرف ٢/ ٤٠٨ دون نسبة.

(٢) نسبها في وفيات الأعيان ٤/ ٤٣٥ لأبي غالب عبيد الله بن هبة الله بن الأصباغي.

وأخرج ابن جَريرٍ[١] عن السُّدِّيِّ أنَّ عبدَ اللهِ قرأ: «صَفراءَ» وقد جاء وصفُ خمرِ الدُّنيا بذلك، كما في قول أبي نُواس[٢]:

صفراءُ لا تنزل الأحزانُ ساحَتها ... لو مسَّها حجرٌ مسَّته سرَّاءُ

والمشهورُ أنَّ هذا بعدَ المزج، وإلَّا فهي قبله حمراءُ، كما قال الشاعر:

وحمراءَ قبل المزجِ صفراءَ بعده ... أتت في ثيابَيْ نرجسٍ وشقائقِ

حكت وجنةَ المحبوبِ صِرفاً فسلَّطوا ... عليها مِزاجاً فاكتست لونَ عاشقِ[٣]

﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وُصفت بالمصدرِ للمبالغة بجعلها نفسَ اللَّذة. وجوَّز أن تكونَ لذةٌ تأنيثَ لَذّ، بمعنى لذيذ، كطَبّ، بمعنى طبيبٍ حاذق، وأنشدوا قولَه:

ولذٍّ كطعم الصَّرخديِّ تركتُه ... بأرض العِدَا من خشية الحَدَثانِ[٤]

يريد: وعيشٍ لذيذٍ كطعم الخمرِ المنسوبِ لصرخد بلدٍ بالشام، وفسَّره الزمخشريُّ[٥] بالنوم، وأراد أنَّه بمعنى لذيذ غلب على النوم، لا أنَّه اسمٌ جامد.

وقولَه:

بحديثك اللذِّ الذي لو كُلِّمتْ ... أُسدُ الفلاةِ به أتين سِراعا[٦]

وفي قوله تعالى: «للشاربين» دون: لهم، إشارةٌ إلى أنَّها يَلتذُّ بها الشاربُ كائناً مَن كان.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: غائلةٌ كما في خَمر الدنيا، من: غاله يغولُه: إذا أفسده. وقال الراغب[٧]: الغَول: إهلاكُ الشيءِ من حيث لا يحسُّ به، يقال: غاله يغوله

---

(١) في تفسيره ١٩/ ٥٣١-٥٣٢.
(٢) ديوانه ص٧.
(٣) وفيات الأعيان ٤/ ٣٢٧.
(٤) كتاب الحيوان ١/ ٢٦٦، والأمالي ١/ ٢١٠.
(٥) في الكشاف ٣/ ٣٤٠.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢ دون نسبة.
(٧) في المفردات (غول).

غَولاً، واغتاله اغتيالاً، ومنه سمِّي السِّعلاةُ غولاً. والمرادُ هنا نفيُ أن يكونَ فيها ضررٌ أصلاً.

وروى البيهقيُّ وجماعةٌ عن ابن عباسٍ أنَّه قال في ذلك: ليس فيها صُدَاع(١).

وفي روايةِ ابن أبي حاتمٍ عنه: لا تغول عقولهم من السُّكر.

وأخرج الطستيُّ عنه أنَّ نافعَ بن الأزرقِ قال: أَخبِرْني عن قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾. فقال: ليس فيها نتْنٌ ولا كراهيةٌ كخمر الدنيا، قال: وهل تعرف العربُ ذلك؟ فقال: نعم، أَمَا سمعتَ قولَ أمرئِ القيس:

رُبَّ كأسٍ شربتُ لا غَولَ فيها ... وسقيتُ النديمَ منها مِزاجا(٢)

وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه فسَّر ذلك بوجع البطن. ورُوي ذلك عن مجاهدٍ وابن زيدٍ وابن جُبَير.

واختير التعميم، وأنَّ التنصيصَ على مخصوصٍ من بابِ التمثيل. وتقديم الظرفِ ـ على ما قيل ـ للتَّخصيص، والمعنى: ليس فيها ما في خمور الدُّنيا من الغَول. وفيه كلامٌ في كتب المعاني.

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا يسكرون، كما رُوي عن ابن عباسٍ وغيرِه، وهو بيانٌ لحاصل المعنى. وأصلُ النزف: نزعُ الشيءِ وإذهابُه بالتدريج، يقال: نزفتُ الماءَ من البئر: إذا نزحتَه ونزعته كلَّه منها شيئاً بعد شيء. ونزف الهمُّ دمعَه: نزعه كلَّه، ويقال: شارب نزيف، أي: نزفت الخمرُ عقلَه بالسُّكر وأَذهبته كما ينزف الرجلُ البئرَ وينزع ماءها، فكأنَّ الشاربَ ظرفٌ للعقل فنُزِع منه.

فلا ينزَفون مبنيّاً للمفعول ـ كما قرأ الحِرْميَّان والعربيان(٣) ـ معناه: لا تنزع عقولهم، أي: لا تنزع الخمرُ عقولَهم ولا تُذهبها. أو الفاعلُ هو اللهُ تعالى، وتعديةُ

---

(١) البعث والنشور للبيهقي (٣٥٧)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٩/ ٥٣٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٧٤، وأخرجه في الإتقان ١/ ٣٨٨-٣٨٩ من طريق الطستي. والبيت لم نقف عليه في الديوان.

(٣) وعاصم كما في التيسير ص١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٧، وكما سيأتي قريباً.

الفعلِ بـ «عن» قيل: لتضمينه معنى يَصدُرون، وقيل: «عن» للتعليل والسَّببية. وأُفرد هذا الفسادُ بالنفي وعطف على ما يعمُّه؛ لأنَّه من عِظَم فسادِه كأنَّه جنسٌ برأسه، وله سمِّيت الخمرُ: أمَّ الخبائث. والمرادُ استمرارُ النفي لا نفيُ الاستمرار.

وقرأ حمزةُ والكِسائي: «يُنزِفون» بضمِّ الياءِ وكسرِ الزاي، وتابعهما عاصمٌ في «الواقعة»، على أنَّه من: أنزفَ الشارب: إذا صار ذا نُزف، أي: عقل، أو شرابٍ نافذٍ ذاهب، فالهمزةُ فيه للصَّيرورة، وقيل: للدُّخول في الشيء؛ ولذا صار لازماً، فهو مِثل: كبَّه فأكبَّ، وهو أيضاً بمعنى السُّكر؛ لنفاد عقلِ السَّكران، أو نفادِ شرابِه لكثرة شُربِه، فيلزمه عليهما السُّكر، ثم صار حقيقةً فيه، قال الأُبَيرِد اليربوعيّ[1]:

لَعمري لئن أُنزفتمُ[2] أو صحوتمُ ... لَبئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أَبجرا

وفي «البحر»[3] أنَّ أنزف مشتركٌ بين سَكِرَ ونَفِدَ، فيقال: أَنزف الرجلُ: إذا سكر، وأَنزف: إذا نَفِدَ شرابُه، وتعديةُ الفعلِ للتضمين كما سبق.

وجوَّز إرادةُ معنى النفادِ من غير إرادةِ معنى السُّكر، أي: لا ينفَد ولا يفنَى شرابُهم حتى ينغص عيشهم، وليس بذاك.

وقرأ ابنُ أبي إِسحاق: «يَنزِفون» بفتح الياءِ وكسر الزاي، وطلحةُ بفتح الياءِ وضمِّ الزاي[4]، والمرادُ في جميع ذلك نفيُ السُّكرِ على ما هو المأثورُ عن الجمهور.

ومن الغريب ما أخرج ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ قال: في الخمر أربعُ خصال: السُّكر، والصُّداع، والقيء، والبول، فنزَّه اللهُ تعالى خمرَ الجنةِ عنها، «لا فيها غولٌ» لا تغول عقولهم من السُّكر، «ولا هم عنها يُنزَفون»

---

(١) هو الأبيرد بن المعذَّر اليربوعي الرِّياحي، شاعر فصيح مُقِلٌّ، من شعراء الإسلام وأول دولة بني أمية. المؤتلف والمختلف ص٢٦، والأغاني ١٢٦/١٣، والبيت في الأغاني ١٣٣/١٣، والخزانة ٩/ ٣٨٨.

(٢) في مطبوع الأغاني: أُزْنِنْتُم. فليس فيه شاهد.

(٣) ٧/ ٣٥٠.

(٤) البحر ٧/ ٣٦٠.

لا يقيئون عنها كما يقيءُ صاحبُ خمرِ الدُّنيا عنها[١]. وهو أقربُ لاستعمال النزفِ في الأمور الحسِّية، كنزف البئرِ والرَّكِيَّة، وما أشبه القيءَ وإخراجَ الفضلاتِ من الجوف بنزف البئرِ وإخراجِ مائها عند نزحِها. ولولا أنَّ الجمهورَ على ما سمعتَ أوّلاً ـ حتى ابنُ عباسٍ في أكثر الرِّواياتِ عنه ـ لَقلت: إنَّ هذا التفسيرَ هو الأَوْلى.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قَصرنَ أبصارَهنَّ على أزواجهنّ، لا يَمددن طرفاً إلى غيرهم. قاله ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ وابنُ زيد. فمتعلَّق القصرِ محذوف؛ للعلم به. والكلامُ إمَّا على ظاهره، أو كنايةٌ عن فَرط محبَّتِهنَّ لأزواجهنَّ وعدمِ ميلِهنَّ إلى سواهم.

وقيل: المراد: لا يفتحنَ أعينَهنَّ دلالاً وغَنَجاً.

والوصفُ على القولَين متعدٍّ، وجوّز كونُه قاصراً، على أنَّ المعنى: ذابلاتُ الجفنِ مِراضُه، وما أُحيلَى ذبولَ الأجفان في الغواني الحِسَان؛ ولذا كثر التغزُّلُ بذلك قديماً وحديثاً، ومنه قولُ ابنِ الأزدي:

مَرِضتْ سلوتي وصحَّ غرامي ... من لحِاظٍ هي المِراضُ الصِّحاحُ

والطَّرْفُ في كلِّ ذلك طرفُهنّ.

وجوّز أن يكونَ الوصفُ متعدِّياً، والطرف طرفُ غيرِهنّ، والمعنى: قاصراتُ طرفِ غيرِهنَّ عن التجاوز إلى سواهنَّ؛ لغاية حُسنهنّ، فلا يتجاوزهنَّ طرفُ الناظرِ إليهنّ، كقول المتنبي:

وخصرٌ تثبت الأبصارُ فيه ... كأنَّ عليه مِن حَدَقٍ نِطاقا[٢]

وقد ذكر هذا المعنى أيضاً ابنُ رشيقٍ في قول امرئِ القيس:

من القاصرات الطَّرْفِ لو دبَّ مُحْوِلٌ ... من الذَّرِّ فوق الأنفِ[٣] منها لأثَّرا

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٧٤.

(٢) الديوان ٣/ ٤١.

(٣) في الديوان ص٦٨: الإتب، وهو ثوب رقيق له جيب وليس له كُمَّان، والمحول: الذي أتى عليه حول.

وهو لَعمري رشيق، بيد أنّي أقول: الظاهرُ هنا أنَّ العندية في مجالس الشُّرب، إتماماً للذَّة، فلعل الأوفقَ للغَيرة ـ وإنْ كانت الحظيرةُ حظيرةَ قدس ـ المعنى الأوَّل، والجمهورُ قد قَصَروا الطرفَ عليه، ولا يُظنُّ بهم أنَّهم من القاصرين.

والجملةُ قيل: عطفٌ على ما قبلَها، وقيل: في موضع الحال، أي: يطاف عليهم بكأسٍ والحالُ عندهم نساءٌ قاصراتُ الطرفِ.

﴿عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ جمع: عَيناء، وهي الواسعةُ العينِ في جمال، ومنه قيل للبقر الوحشيّ: عِين. وقيل: العَيناء: واسعةُ العين، أي: كثيرةُ محاسنِ عينِها. والحقُّ أنَّ السَّعةَ اتساعُ الشِّقّ، والتقييدُ بالجمال يدفع ما عسى أنْ يقال. وما ألطفَ وأظرفَ ذِكر «عين» بعد «قاصرات الطرف»!.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ البيضُ معروف، وهو اسمُ جنس، الواحدةُ بيضة، وتُجمع على بُيوض، كما في قوله:

بتيهاءَ قفرٍ والمطيُّ كأنَّها ... قطا الحَزْنِ قد كانت فِراخاً بيوضُها(١)

والمرادُ تشبيههنَّ بالبيض الذي كَنَّه الريشُ في العُشّ، أو غيرُه في غيره، فلم تمسَّه الأيدي ولم يُصبه الغبار، في الصفاء وشَوبِ البياضِ بقليلِ صُفرةٍ مع لمعانٍ كما في الدُّرّ. والأكثرون على تخصيصه ببيض النَّعامِ في الأداحيّ(٢)؛ لكونه أحسنَ منظراً من سائر البيض، وأبعدَ عن مسِّ الأيدي ووصولِ ما يغيِّر لونَه إليه.

والعربُ تشبِّه النساءَ بالبيض، ويقولون لهنَّ: بيضاتُ الخدور، ومنه قولُ امرئِ القيس:

وبيضةِ خِدرٍ لا يرام خِباؤها ... تمتَّعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعجَلِ(٣)

والبياضُ المشوبُ بقليل صُفرةٍ في النساءِ مرغوبٌ فيه جدّاً، قيل: وكذا البياضُ

---

(١) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي، وهو في كتاب الحيوان ٥/ ٥٧٥، والمعاني الكبير ١/ ٣١٣، والخزانة ٩/ ٢٠١.

(٢) أُدْحِيُّ النعامة: موضعها الذي تفرخ فيه. الصحاح (دحو).

(٣) الديوان ص١٣.

المشوبُ بقليلِ حمرةٍ في الرِّجال، وأما البياضُ الصِّرف فغيرُ محمود؛ ولذا ورد في الحِلية الشَّريفة: أبيضُ ليس بالأمهَق[(١)].

وأخرج ابنُ المنذرِ عن ابن عباس، وهو وغيرُه عن ابن جُبير، وابنُ أبي حاتمٍ وابن جَريرٍ[(٢)] عن السُّدِّيِّ أنَّ البيضَ المكنونَ: ما تحت القِشر الصُّلبِ بينه وبين اللُّبابِ الأصفر. والمرادُ تشبيههنَّ بذلك بعد الطبخِ في النُّعومة والطَّراوة، فالبيضةُ إذا طُبخت وقُشرت، ظهر ما تحت القِشرةِ على أتمِّ نعومةٍ وأكملِ طراوة، ومن هنا تسمع العامَّةَ يقولون في مدح المرأة: كأنَّها بيضةٌ مقشَّرة، ورجَّح ذلك الطبريُّ[(٣)] بأنَّ الوصفَ بـ «مكنونٍ» يقتضيه دونَ المشهور؛ لأنَّ خارجَ قشرِ البيضةِ ليس بمكنون.

وفيه أنَّ المتبادرَ من البيض مجموعُ القشرِ وما فيه، و: أكلتُ كذا بيضةً، الأكلُ فيه قرينةُ إرادةِ ما في القِشر دون المجموع؛ إذ لا يؤكل عادةً، وحينئذٍ لا يتمُّ ما قاله الطبريّ، فالأوَّل هو المقبول، ومعنى المكنونِ فيه ظاهرٌ على ما سمعت.

وقد نقل الخفاجيُّ[(٤)] هذا المعنى عن بعض المتأخِّرين، وتعقَّبه بأنَّه ناشىءٌ من عدم معرفةِ كلامِ العرب. وكأنَّه لم يقف على روايته عن الحَبر ومَن معه، وإلَّا لا يتسنَّى له ما قال، ولعل الروايةَ المذكورةَ غيرُ ثابتة، وكذا ما حكاه أبو حيَّان[(٥)] عن الحَبر من أنَّ البيضَ المكنونَ الجوهرُ المصون؛ لنبوِّ ظاهرِ اللفظِ عن ذلك.

وقالت فِرقة: المرادُ تشبيههنَّ بالبيض في تناسب الأجزاء، والبيضةُ أشدُّ الأشياءِ تناسبَ أجزاء، والتناسبُ ممدوح، ومن هنا قال بعضُ الأدباءِ متغزِّلاً:

تناسبت الأعضاءُ فيه فلا ترى   بهنَّ اختلافاً بل أتينَ على قدر[(٦)]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٤٧) و(٣٥٤٨) من حديث أنس ﷺ.
(٢) في تفسيره ١٩/ ٥٤٠.
(٣) في تفسيره ١٩/ ٥٤١.
(٤) في حاشيته ٧/ ٢٧٠.
(٥) في البحر ٧/ ٣٦٠.
(٦) البحر ٧/ ٣٦٠، والدر المصون ٩/ ٣٠٨، وفيه: تناسبت الأعضاء فيها...

وأنت تعلم ـ بعد فَرْض تسليمِ أنَّ تناسبَ الأجزاءِ في البيضة معروفٌ بينهم ـ أنَّ الوصفَ بالمكنون ممَّا لا يظهر له دخلٌ في التشبيه.

واستُشكل التشبيهُ على ما تقدَّم بآية عروسِ القرآن ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨] فإنَّها ظاهرةٌ في أنَّ في ألوانهنَّ حُمرة، وأين هذا من التشبيهِ بالبيض المكنونِ على ما سمعتَ قبل، فيتعيَّن أن يرادَ التشبيهُ من حيث النعومةُ والطَّرواة كما رُوي ثانياً، أو من حيث تناسبُ الأجزاءِ كما قيل أخيراً. وأُجيب بأنَّه يجوز أن يكونَ المشبَّهاتُ بالبيض المكنونِ غيرَ المشبَّهات بالياقوت والمرجان. وكونُ البياضِ المشوبِ بالصُّفرة أحسنَ الألوانِ في النساء غيرُ مسلَّم، بل هو حسن، ومثلُه في الحُسن البياضُ المشوبُ بحمرة، على أنَّ الأحسنيةَ تختلف باختلاف طباعِ الرائين، وللناس فيما يعشقون مذاهبُ، والجنةُ فيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين.

وقيل: يجوز أن يكونَ تشبيهُهنَّ بالبيض المكنونِ بالنظر إلى بياض أبدانهنَّ المَشُوبِ بصُفرة ما عدا وجوههنَّ، وتشبيهُهنَّ بالياقوت والمرجانِ بالنظر إلى بياض وجوهِهنَّ المشوبِ بحمرة.

وقيل: تشبيههنَّ بهذا ليس من جهة أنَّ بياضَهنَّ مشوبٌ بحمرة، بل تشبيهُهنَّ بالياقوت من حيث الصَّفاء، وبالمرجان من حيث الإملاسُ وجمالُ المنظر.

وإذا أُريد بالمرجان الدررُ الصِّغار ـ كما ذهب إليه جمع ـ دون الخرزِ المعروف، يجوز أن يكونَ التشبيهُ من حيث البياضُ المشوبُ بصُفرة، فلا إشكالَ أصلاً.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ معطوفٌ على «يطاف» وما بينهما معترِض، أو من متعلّقات الأوَّل، أي: يشربون فيتحادثون على الشُّرب، كما هو عادةُ المجتمعين عليه، قال محمد بنُ فيَّاض[1]:

---

(١) كذا في حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٠-٢٧١. ونسبهما صاحب يتيمة الدهر ١/ ١٣٠-١٣٢ لأبي محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفياض، كاتب سيف الدولة ونديمه. وكذا في سلك الدرر ٤/ ١٨٩. وفي ثمار القلوب ص٥٦٥: أبو محمد البياضي.

وما بَقِيت من اللذَّات إلَّا محادثةُ الكرامِ على الشَّرابِ
ولثمُكَ وجنتَي قمرٍ منيرٍ يجول بوجهه ماءُ الشبابِ

وعبَّر بالماضي مع أنَّ المعطوفَ عليه مضارع؛ للإشعار بالاعتناءِ بهذا المعطوفِ بالنِّسبة إلى المعطوفِ عليه، فكيف لا يُقبلون على الحديثِ وهو أعظمُ لذَّاتهم التي يتعاطَونها، مع ما في ذلك من الإشارة إلى تحقُّق الوقوع حتماً، وتساؤلِهم عن المعارف والفضائلِ وما جرى لهم وعليهم في الدُّنيا، وما أَحلى تذكُّرَ ما فات عند رفاهيةِ الحالِ وفراغِ البال.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في تضاعيف محاورتهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي﴾ في الدُّنيا ﴿قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ مُصاحِبٌ ﴿يَقُولُ﴾ لي على طريق التوبيخ بما كنتُ عليه من الإيمان والتصديقِ بالبعث المفضي إلى ما أنا عليه اليومَ: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: بالبعث، كما يُنبئ عنه قولُه سبحانه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: لَمبعوثون ومجازَون، من الدِّين بمعنى الجزاء. وقيل: لَمسوسون مربوبون، من: دانه: إذا ساسَه، ومنه الحديثُ: «العاقلُ مَن دان نفسَه»[1].

وقُرئ: «المصَّدِّقين» بتشديد الصادِ، من التصدُّق[2].

واعتُرضت هذه القراءةُ بأنَّ الكلامَ عليها لا يلائم قولَه سبحانه: (أَءِذَا مِتْنَا) إلخ.

وتعقِّب بأنَّ فيه غفلةً عن سبب النُّزول، أَخرج عبدُ الرزاق[3] وابنُ المنذر عن عطاءٍ الخراسانيِّ قال: كان رجلان شريكان، وكان لهما ثمانيةُ آلافِ دينارٍ، فاقتسماها، فعَمَدَ أكبرُهما فاشترى بألف دينارٍ أرضاً، فقال صاحبُه: اللهمَّ إنَّ فلاناً اشترى بألف دينارٍ أرضاً، وإنِّي أَشتري منك بألف دينارٍ أرضاً في الجنة، فتصدَّق بألف دينار، ثم ابتنى صاحبُه داراً بألف دينار، فقال: اللهم إنَّ فلاناً قد

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩) وحسَّنه، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس ﷺ، ولفظه عندهم: «الكيِّس..» وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف.

(٢) البحر ٧/ ٣٦٠.

(٣) في تفسيره ٢/ ١٤٩ مختصراً، والكلام من الدر المنثور ٥/ ٢٧٥.

ابتنى داراً بألف دينار، وإنّي أَشتري منك في الجنة داراً بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار، ثم تزوَّج امرأةً فأنفق عليها ألفَ دينار، فقال: اللهمَّ إنَّ فلاناً تزوَّج امرأةً فأنفق عليها ألفَ دينار، وإني أَخطُب إليك من نساءِ الجنةِ بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار، ثمَّ اشترى خدماً ومتاعاً بألفِ دينار، فقال: اللهمَّ إنَّ فلاناً اشترى خدماً ومتاعاً بألفِ دينار، وإني أَشتري منك خدماً ومتاعاً في الجنَّة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار، ثم أَصابته حاجةٌ شديدة، فقال: لو أتيتُ صاحبي هذا لعلَّه ينالني منه معروف، فجلس على طريقه حتى مرَّ به في حَشَمه وأهلِه، فقام إليه، فنظر الآخرُ فعرفه، فقال: فلان، قال: نعم، فقال: ما شأنُك؟ فقال: أصابتني بعدَك حاجة، فأتيتك لتصيبَني بخير، قال: فما فعلتَ بمالك؟ فقصَّ عليه القصَّة، فقال: أئنَّك لَمن المصدِّقين بهذا؟ اذهب فواللهِ لا أُعطيك شيئاً، فردَّه، فقضي لهما أن توفَّيا، فكان مآلُ المتصدِّقِ الجنةَ ومآلُ الآخَرِ النار، وفيهما نزلت الآية.

وقيل: هما أَخوان ورثا ثمانيةَ آلافِ دينارٍ واقتسماها، فكان من خبرِهما ما كان، وكان الاثنانِ من بني إسرائيل.

وهذا السببُ يدلُّ على أنَّ أحدَهما كان مصدِّقاً ومتصدِّقاً أيضاً، والآخَرَ ـ وهو القرين ـ أنكر عليه أنَّه أنفق ليجازَى على إنفاقه بما هو أعظمُ وأبقَى، فقد ضيَّع بزعمه مالَه فيما لا أصلَ له، وهو الجزاءُ الأخرويّ، ولا يكونُ هذا بدون البعث؛ فلذا أَنكره. وليت شِعري كيف يتوهَّم عدمُ الملاءمةِ مع قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ولعلَه أَنسبُ بتلك القراءة.

وحاصلُ المعنى: أنت المتصدِّق طلباً للجزاءِ في الآخرة، فهل نحن بعد ما نفنَى نُبعث ونجازَى؟ وذِكرُ العظامِ مع التُّراب مع أنَّ ذكرَ الترابِ يكفي ويُغني عن ذلك؛ لتصوير حالِ ما يشاهده ذلك الشخصُ من الأَجساد البالية، من مصير اللحمِ وغيرِهِ تراباً عليه عظامٌ نَخِرة؛ ليذكِّرَه ويُخْطِرَ بباله ما ينافي مدَّعاه. وكونُه للتنزُّل في الإِنكار أو للتأكيد، لا يرجِّحه بل يجوِّزه.

﴿قَالَ﴾ أي: ذلك القائلُ الذي كان له قرينٌ لجلسائه بعد ما حكى لهم مقالةَ قرينِه له في الدنيا: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ على أهل النارِ لأُريَكم ذلك القرينَ الذي قال لي ما حكيتُ لكم.

والمرادُ من الاستفهامِ العرض، أو الأمرُ على ما قيل. والغرضُ من ذلك إراءتُهم سوءَ حالِ القرين ليؤنسَهم نوعَ إيناس. وقيل: يريد بذلك بيانَ صدقِه فيما حكاه. ولا يخفى أنَّ ظنَّ الكذبِ في غاية البعد.

واطِّلاعُ أهلِ الجنةِ على أهل النارِ ومعرفةُ مَن فيها مع ما بينهما من التباعد غيرُ بعيد، بأن يخلقَ اللهُ تعالى فيهم حدَّة نظرٍ ويعرِّفَهم مَن أرادوا الاطِّلاع عليه، ولعلهم إذا أرادوا ذلك، وقفوا على الأعراف فاطَّلعوا على مَن أرادوا من أهل النَّار. وقيل: إنَّ لهم طاقاتٍ في الجنَّة ينظرون منها من علوٍّ إلى أهل النَّار.

وعَلِمَ القائلُ بأنَّ القرينَ من أهل النارِ لعلمه بأنَّه كان يُنكر البعث، ومنكرُه منهم قطعاً، والأصلُ بقاؤه على الكفر. وقيل: علم ذلك بإخبار الملائكةِ عليهم السلام إيَّاه.

وقيل: قائلُ: «هل أنتم..» إلخ هو اللهُ تعالى، أو بعضُ الملائكةِ عليهم السلام يقول للمتحادثين من أهل الجنَّة: هل تحبُّون أن تطَّلعوا على أهل النارِ لأُريَكم ذلك القرينَ فتعلموا أين منزلتُكم من منزلتهم.

وقيل: القائلُ مَن كان له قرين، والمخاطَبون بـ «أنتم» الملائكةُ عليهم السلام، وفي الكلامِ حذف، كأنَّه قيل: فقال لهذا القائلِ حاضروه من الملائكة: قرينُك هذا يعذَّب في النار، فقال للملائكة الذين أخبروه: هل أنتم مطَّلعون. ولا يخفَى ما فيه.

﴿فَاطَّلَعَ﴾ أي: على أهل النَّار ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي: فرأى قرينَه ﴿فِى سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: في وسطها، ومنه قولُ عيسى بن عمرَ لأبي عُبيدة: كنت أكتب حتى ينقطعَ سَوائي. وسمِّي الوسَطُ سواءً لاستواءِ المسافةِ منه إلى الجوانب.

وقرأ أبو عَمرٍو في رواية حسينٍ الجُعفي: «مُطْلِعونَ» بإسكان الطاءِ وفتحِ النون «فأُطْلِعَ» بضمِّ الهمزةِ وسكونِ الطاءِ وكسرِ اللام، فعلاً ماضياً مبنيّاً للمفعول. وهي قراءةُ ابنِ عباس، وابنِ محيصن، وعمارِ بن أبي عمار، وأبي سرَّاج.

وقُرئ: «مُطَّلعون» مشدَّداً «فاَطَّلِعَ» مشدَّداً أيضاً، مضارعاً منصوباً على جوابِ الاستفهام.

وقُرئ: «مُطْلِعون» بالتخفيف «فأَطْلَعَ» مخفَّفاً، فعلاً ماضياً، و: «فأَطْلُعَ» مخفَّفاً مضارعاً منصوباً.

وقرأ أبو البرهسم، وعمارُ بن أبي عمارٍ فيما ذكره خَلَفٌ عنه: «مُطْلِعونِ» بتخفيف الطاءِ وكسرِ النُّون «فأُطْلِعَ» ماضياً مبنيّاً للمفعول[1]. وردَّ هذه القراءةَ أبو حاتمٍ وغيرُه؛ لجمعها بين نونِ الجمعِ وياءِ المتكلِّم، والوجه: مُطْلِعيَّ، كما قال عليه الصلاةُ والسلام: «أَوَمُخرِجيَّ هم»[2]، ووجَّهها أبو الفتحِ[3] على تنزيل اسمِ الفاعلِ منزلةَ المضارع، فيقال عنده: ضاربونه، مثلاً، كما يقال: يضربونه، وعليه قولُه:

هـم الآمِرون الـخيـرَ والـفـاعـلـونـهُ إذا ما خشُوا مِن مُحدَثِ الدهرِ مُعظَما[4]

وأنشد الطبريُّ[5] قولَ الشاعر:

ومـــا أدري وظـــنِّـــي كـــلّ ظـــنٍّ أَمُـسـلـمـنـي إلـى قـومـي شَـراحـي[6]

ومثلُه قولُ الآخَر:

فـهـل فـتًى مـن سَرَاة الـحيِّ يـحـمـلـني ولـيـس حـامـلَـنـي إلَّا ابـنُ حـمَّـالِ[7]

---

(١) ذكر هذه القراءات صاحب البحر ٧/ ٣٦١، وليس في المتواتر منها شيء، والقراءة الأولى في القراءات الشاذة ص١٢٧-١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢١٩-٢٢٠.
(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.
(٣) في المحتسب ٢/ ٢٢٠.
(٤) البيت في الكتاب ١/ ١٨٨، والخزانة ٤/ ٢٦٦ دون نسبة.
(٥) في تفسيره ١٩/ ٥٤٩، وذكره أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٨٦، وقال البغدادي في شرح شواهد المغني ٦/ ٥٧: لم أقف على قائله، وقال العيني: قائله يزيد بن مخرم الحارثي. اهـ.
(٦) في هامش الأصل: قال الفراء [٢/ ٣٨٦]: يريد: شراحيل. اهـ منه.
(٧) الإنصاف ١/ ١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٦١، وعزاه المبرد في الكامل لأبي مُحلّم السَّعدي برواية:

أَلَا فـتًى مـن بـنـي ذُبـيـانَ يـحـمـلُـنـي ولـيـس يـحـمـلُـنـي إلا ابـنُ حَـمَّـالِ

وهذه النونُ عند جمعٍ نونُ الوقاية، أُلحقت مع الوصف حملاً له على الفعل، وليست مثلَ النونِ في القراءة وفي البيت، وإنْ كان إلحاقُ كلٍّ للحمل.

وقال بعضُهم: إنَّها نونُ التنوين؛ وحرِّكت لالتقاء السَّاكنين. ورُدَّ بأنه سمع إلحاقُها مع «أل»، كقوله:

وليس الموافيني[1] ....

ومع أفعل التفضيل، كما وقع في الحديث: «غيرُ الدجَّالِ أخوفُني عليكم»[2]. ويُعلَم من هذا عدمُ اختصاصِ إلحاقها بالشِّعر، نعم هو في غيرِه قليل.

وضعَّف بعضُهم ما وجَّه به أبو الفتحِ وقال: إنَّ ذلك لا يقع إلَّا في الشِّعر. وخرِّجت أيضاً على أنَّها من وضع المتصلِ موضعَ المنفصل، وأُريد بذلك أنَّ الأصل: مطلعونَ إياي، ثم جعل المنفصلُ متصلاً، فقيل: مطلعوني، ثم حُذفت الياءُ واكتُفي عنها بالكسرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك:١٨] ومثلُه يقال في: الفاعلونه، في البيت السَّابق.

وردَّ ذلك أبو حيَّان[3] بأنَّ ما ذكر ليس من محالِّ المنفصلِ حتى يدَّعي أنَّ المتصلَ وقع موقعَه، وادَّعى أَولويةَ تخريجِ أبي الفتح، والبيتُ قيل: مصنوعٌ لا يصحُّ الاستشهادُ به، وقيل: إنَّ الهاءَ هاءُ السكت، حرِّكت للضَّرورة. وهو فرارٌ من ضرورةٍ لأخرى؛ إذ تحريكُها وإثباتُها في الوصل غيرُ جائز.

وللنُّحاة في مسألة إثبات النونِ مع إضافة الوصفِ إلى الضمير كلامٌ طويل، حاصلُه أنَّ نحو: ضاربُك وضارباك وضاربوك، ذهب سيبويه[4] إلى أنَّ الضميرَ فيه في محلِّ جرٍّ بالإضافة؛ ولذا حُذف التنوينُ ونونُ التثنيةِ والجمع. وذهب الأخفشُ

---

(١) الدر المصون ٩/ ٣١١، والمغني ص٤٥١، وشرح الأشموني ١/ ١٢٦ وتمامه:

وليس الموافيني ليُرفَدَ خائباً ... فإنَّ له أضعافَ ما كان أمَّلا

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه مطولاً.

(٣) في البحر ٧/ ٣٦١.

(٤) انظر الكتاب ١/ ١٨٤ فما بعد.

وهشامٌ إلى أنَّ الضميرَ في محلِّ نصب، وحذفهمُا للتخفيف، حتى وردتا ثابتين، كما في: الفاعلونه، و: أَمُسلمني، فالنونُ عندهما في الأخير ونحوِه تنوينٌ حرِّك لالتقاء السَّاكنين. وقد سمعتَ ما فيه. وحديثُ الحملِ على الفعل ـ على العِلَّات ـ أحسنُ ما قيل في التوجيه.

هذا، وطلع واطَّلع ـ بالتشديد ـ وأَطلع ـ بالتخفيف ـ بمعنًى واحد، والكلُّ لازم، ويجيءُ الإِطلاعُ متعدِّياً، يقال: أَطلعه على كذا فاطَّلع. و«مُطْلِعونَ» في قراءة أبي عَمرٍو بمعنى «مُطَّلعون» ـ بالتشديد ـ ونائبُ فاعلِ «أُطْلِعَ» ضميرُ القائل، والفاعلُ هم المخاطَبون، وإِطلاعُهم اياه باعتبار التسبُّب، كأنه لمَّا أراد الاطِّلاعَ وأحبَّ ألَّا يستبدَّ به أدباً، عرض عليهم أن يطَّلعوا، فرغبوا واطَّلعوا، فكان ذلك وسيلةً إلى اطِّلاعه، فكأنَّهم هم الذين أَطلعوه، ففاء «فأُطْلِعَ» فصيحة، والعطفُ على مقدَّر.

والمعنى على القراءةِ التي بعدها: هل أنتم مطَّلعون حتى أطَّلعَ أنا أيضاً؟ فاطَّلعوا واطَّلع هو بعد ذلك، فرآه في سواءِ الجحيم. ولا بدَّ من تقديرِ اطَّلعَ بعد ذلك؛ ليصلحَ ترتُّبُ «فرآه» على ما قبلَه، و«هل أنتم مطلعون» عليه بمعنى الأمر، تأدُّباً ومبالغة.

وعلى القراءةِ الثانية، وهي قراءةُ التخفيفِ في الكلمتين والثانيةُ فعلٌ ماض، المعنى كما في قراءةِ الجمهور. وكذا على قراءةِ التي بعدها.

وعلى قراءة أبي البرهسمِ ومَن معه: هل أنتم مُطلعيّ؟ فأَطلعوه فرآه.. إلخ، وإِطلاعُهم إيَّاه ـ إذا كان الخطابُ للجلساء ـ بطريق التسبُّب، كأنَّه طلب أن يطَّلعوا ليوافقَهم فيطَّلع، وهو إذا كان الخطابُ للملائكة عليهم السلامُ على ما يتبادر إلى الذِّهن.

وعن صاحب «اللوامح» أنَّ طلع واطَّلع [إذا بدا وظهر، وأَطْلَعَ] إطْلاعاً بمعنى: أَقبلَ وجاء، والقائمُ مقامَ الفاعلِ على قراءة «أُطلِع» مبنيّاً للمفعول ضميرُ المصدر، أو جارٌّ ومجرورٌ محذوفان، أي: أُطلع به؛ لأنَّ أَطلع لازمٌ كأقبل.

وقد علمتَ أنَّ أَطلعَ يجيء متعدِّياً، كأَطلعتُ زيداً. وردَّ أبو حيَّان[١] الاحتمالَ الثانيَ بأنَّ نائبَ الفاعلِ لا يجوز حذفُه كالفاعل. فتأمَّل جميعَ ما ذكرنا ولا تغفُل.

﴿قَالَ﴾ أي: القائلُ لقرينه ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦﴾ أي: لَتُهلكني. وفي قراءة عبدِ الله: «لَتُغْوِينِ»[٢].

و«إن» مخفَّفة من الثقيلة، واللامُ هي الفارقة. وفي «البحر»[٣] أنَّ القَسَمَ فيه التعجُّبُ من سلامته منه، إذ كان قرينُه قارَبَ أن يُرديَه.

﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ عليّ، وهي التوفيقُ والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧﴾ للعذاب، كما أُحضرتَه أنت وأضرابُك.

﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨﴾ إلخ، رجوعٌ إلى محاورةِ جلسائه بعد إتمام الكلامِ مع قرينه، تبجُّحاً وابتهاجاً بما أَتاح اللهُ تعالى له من الفضل العظيمِ والنعيمِ المقيم، وتعريضاً للقرين بالتوبيخ. وجوِّز أن يكونَ من كلامِ المتسائلين جميعاً، وأن يكونَ من تتمَّة كلامِ القائلِ يُسْمِعُ قرينَه على جهة التوبيخِ له. واختير الأوَّل.

والهمزةُ للتقرير، وفيها معنى التعجُّب، والفاءُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه نظمُ الكلام، على ما ذهب إليه الزمخشريُّ[٤] ومتَّبعوه، أي: أنحن مخلَّدون فما نحن بميِّتين؟ أي: ممَّن شأنُه الموت، كما يؤذِن به الصفةُ المشبَّهة.

وقرئ: «بمائتين»[٥].

﴿إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ التي كانت في الدُّنيا. وهي متناولةٌ عند أهل السنَّة لمَا في القبر بعد الإِحياءِ للسؤال؛ لعدم الاعتدادِ بالحياة فيه، لكونها غيرَ تامَّةٍ ولا قارَّة، وزمانُها قليلٌ جدّاً.

---

(١) في البحر ٧/ ٣٦١-٣٦٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٤١.

(٣) ٧/ ٣٦٢.

(٤) في الكشاف ٣/ ٣٤١.

(٥) البحر ٧/ ٣٦٢.

والاستثناءُ مفرَّغ من مصدرٍ مقدَّر، كأنَّه قيل: أفما نحن بميِّتين موتةً إلَّا موتتَنا الأُولى؟ وجوَّز أن يكونَ منقطعاً، أي: لكن الموتة الأُولى كانت لنا في الدُّنيا.

وعلمُهم بأنَّهم لا يموتون ناشئٌ من إخبار أَنبيائهم لهم في الدُّنيا، وإعلامِهم إيَّاهم بأنَّ أهلَ الجنةِ لا يموتون، أو من قول الملائكةِ عليهم السلام لهم حين دخولِ الجنَّة: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقولِهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦].

وقيل: إنَّ أهلَ الجنةِ أولَ ما دخلوا لا يعلمون أنَّهم لا يموتون، فإذا جيءَ بالموت على صورة كَبشٍ أَملحَ وذبح، فنودي: يا أهلَ الجنة، خلودٌ بلا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ بلا موت[1]، فحينئذٍ يعلمونه، فيقولون ذلك تحدُّثاً بنعمة اللهِ تعالى واغتباطاً بها. ولا يخفَى أنَّ كونَ هذا القولِ المحكيِّ هنا عند علمِهم بعدم الموتِ من ذبحه بعيدٌ في هذا المقام، والظاهرُ أنَّ هذا بعد الاطِّلاعِ والكلامِ مع القرين.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾ كأصحاب النار. والمرادُ استمرارُ النفيِ وتأكيدُه، وكذا فيما تقدَّم، واستمرارُ هذا النفيِ نعمةٌ جليلة، وهو متضمِّن نفيَ زوالِ نعيمهم المحكيِّ في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ الآيات [الصافات: ٤١]، فإنَّ زوالَ النعيمِ نوعٌ من العذاب، بل هو من أعظم أنواعِه، بل تصوُّر الزوالِ عذابٌ أيضاً لا يلذُّ معه عيش؛ ولذا قيل:

إذا شئتَ أن تحيا حياةً هنيَّةً فلا تتَّخذ شيئاً تخاف له فقدا

وكذا يتضمَّن نفيَ الهرمِ واختلالِ القُوى الذي يوهمه نفيُ الموت؛ فإنَّ ذلك نوعٌ من العذاب أيضاً، وكأنَّه إنَّما اختير التعرُّض لاستمرار نفيِ العذابِ دون إثبات استمرارِ النعيم؛ لأنَّ نفيَ العذابِ أسرعُ خطوراً ببال مَن لم يعذَّب عند مشاهدةِ مَن يعذَّب. وقيل: إنَّ ذاك لأنَّ درءَ الضررِ أهمُّ من جلب المنفعة.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠﴾ الظاهرُ أنَّ الإشارةَ إلى ما أُخبروا به من استمرار نفيِ الموتِ واستمرارِ نفي التعذيبِ عنهم. ويجوز أن تكونَ إشارةً إلى ما هم فيه من

(١) حديث سلف ١/ ٤٨٥.

النَّعيم مع استمرارِ النَّفيين، فإذا كان الكلامُ من تتمَّة كلامِ القائل: «أفما نحن بميتين» إلخ، فهو متضمِّن إشارةَ ذلك القائل إلى ظهور النَّعيم، ويكون تركُ التعرُّضِ للتصريح به؛ للاستغناءِ بذلك الظُّهور.

وجوِّز أن يكونَ هذا كلامَه تعالى، قاله سبحانه تقريراً لقول ذلك القائلِ وتصديقاً له، مخاطباً جلَّ وعلا به حبيبَه عليه الصلاة والسلام وأمَّتَه، والتأكيدُ للاعتناءِ بشأن الخبر.

وقُرِئ: «لَهو الرِّزقُ العظيمُ»[1] وهو ما رزقوه من السَّعادة العُظمى.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لنيل مثلِ هذا الأمرِ الجليلِ ينبغي أن يَعملَ العاملون، لا للحظوظ الدُّنيويةِ السريعةِ الانصرام، المشوبةِ بفنون الآلام، فتقديمُ الجارِّ والمجرور للحصر. و«هذا» إن كان إشارةً إلى مشخَّصٍ من حيث تشخُّصُه، فـ «مِثل» غيرُ مقحَمة، وإنْ كان إشارةً إلى الجنس، فهي مقحَمة، كما في: مِثْلك لا يبخل.

والكلامُ يحتمل أن يكونَ من تتمَّة كلامِ القائل، ولا يعكِّر عليه أنَّ الآخرةَ ليست بدار عمل؛ إذ ليس المرادُ الأمرَ بالعمل فيها، ويحتمل أن يكونَ من كلامه عزَّ وجلَّ.

وأما قولُه سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ فمن كلامه جلّ وعلا عند الأكثرين، وهو متعلِّق بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الآية: ٤١] والقصَّةُ بينهما ذُكرت بطريق الاستطراد، فالإشارةُ إلى الرِّزق المعلوم.

وزعم بعضُهم جوازَ كونِه من كلام القائلِ السابق، وما هو من كلامه عزَّ وجلَّ قطعاً هو ما يأتي إن شاء الله تعالى.

وأصلُ النُّزُل: الفضل، والرَّيعُ في الطعام، ويستعمل في الحاصل من الشيء، ومنه: العسلُ ليس من إنزال الأرض، أي: ممَّا يحصل منها، وقولُ الشافعيّ: لا يجب في العسل العُشر؛ لأنَّه نُزُلُ طائر، ويقال لما يُعدُّ للنازل من الرِّزق.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤٢.

والزقُّوم: اسمُ شجرةٍ صغيرةِ الورق، مُرَّةٍ كريهةِ الرائحة، ذاتِ لبن، إذا أصاب جسدَ إنسانٍ تورَّم، تكون في تِهامةَ وفي البلاد المُجدبةِ المجاورةِ للصحراء، سمِّيت بها الشجرةُ الموصوفةُ بما في الآية.

وكلا المعنيين للنُّزل محتمل هنا، بيدَ أنَّه يتعيَّن على الأوَّل انتصابُه على التمييز، أي: أذلك الرِّزقُ المعلومُ الذي حاصلُه اللَّذة والسرورُ خيرٌ نزلاً وحاصلاً أم شجرةُ الزقُّوم التي حاصلُها الألمُ والغَمّ؟ ومعنى التفاضلِ بين النُّزلين التوبيخُ والتهكُّم، وهو أسلوبٌ كثيرُ الوردِ في القرآن، والحملُ على المشاكلة جائز.

وعلى الثاني الظاهرُ انتصابُه على الحال، والمعنى أنَّ الرِّزقَ المعلومَ نزلُ أهلِ الجنة، وأهلُ النارِ نزلُهم شجرةُ الزقُّوم، فأيُّهما خيرٌ حالَ كونِه نزلاً؟ وفيه ما مرَّ من التهكُّم.

والحملُ على التمييز لا مانعَ منه لفظاً، كما في نحو: هم أكفاهم ناصراً، ولكنَّ المعنى على الحال أسدّ؛ لأنَّ المعنى المفاضلةُ بين تلك الفواكهِ وهذا الطعامِ في هذه الحال، لا التفاضلُ بينهما في الوصف، وإنَّ ذلك في النُّزُليَّة أدخلُ من الآخَر، فافهم.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، وابتلاءً في الدنيا؛ فإنَّهم لمَّا سمعوا أنَّها في النار، قالوا: كيف يُمكن ذلك والنارُ تحرق الشَّجر، كذا قال أبو جهل، ثم قال استخفافاً بأمرها لا إنكاراً للمدلول اللغويّ: واللهِ ما نعلم الزقُّومَ إلَّا التمرَ والزُّبد فتزقَّموا. ولم يعلموا أنَّ مَن قَدَرَ على خلق حَيَوانٍ يعيش في النار ويتلذَّذ بها، أقدرُ على خلق الشجرِ في النارِ وحفظهِ من الإحراق، فالنارُ لا تُحرق إلَّا بإذنه، أو أنَّ الإحراقَ عندها لا بها.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ منبتُها في قعر النار، وأغصانُها ترتفع إلى دَركاتها. وقُرئ: «نابتةٌ في أصلِ الجحيم»(١).

﴿طَلْعُهَا﴾ أي: حملُها، وأصلُه: طلع النَّخل، وهو أولُ ما يبدو وقبل أن تخرجَ شماريخُه، أبيضُ غضٌّ مستطيلٌ كاللَّوز، سُمِّي به حملُ هذه الشَّجرة، إمَّا لأنه

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤٢.

يشابهه في الشَّكل. أو الطُّلوع، ولعله الأولى؛ لمكان التشبيهِ بعد، فيكون استعارةً تصريحية، أو لاستعماله بمعنى ما يطلع مطلقاً، فيكون كالمَرسن(١) للأنف، فهو مجازٌ مرسل.

﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ أي: في تناهي الكراهةِ وقُبحِ المنظر، والعرب تشبِّه القبيحَ الصورةِ بالشَّيطان، فيقولون: كأنَّه وجهُ شيطان، أو رأسُ شيطان، وإن لم يروه؛ لمَا أنَّه مستقبحٌ جدّاً في طباعهم، لاعتقادهم أنَّه شرٌّ محضٌ لا يخلِطه خير، فيرتسم في خيالهم بأقبحِ صورة، ومن ذلك قولُ امرئِ القيس:

أتقتلُني والمَشرَفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوالِ(٢)

فشبَّه بأنياب الأغوال ـ وهي نوعٌ من الشياطين ـ ولم يرها؛ لِمَا ارتسم في خيالِه، وعلى عكس هذا تشبيهُهم الصورةَ الحسنةَ بالمَلَك، وذلك أنَّهم اعتقدوا فيه أنَّه خيرٌ محضٌ لا شرَّ فيه، فارتسم في خيالِهم بأحسنِ صورة، وعليه قولُه تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وبهذا يُردُّ على بعض الملاحدةِ حيث طعن في هذا التشبيهِ بأنَّه تشبيهٌ بما لا يعرف، وحاصلُه أنَّه لا يشترط أن يكونَ معروفاً في الخارج، بل يكفي كونُه مركوزاً في الذِّهن والخيال.

وحملُ التشبيهِ في الآية على ما ذُكر هو المرويُّ عن ابن عباسٍ ومحمدِ بن كعب القرظيِّ وغيرهما، وزعم الجبَّائيُّ أنَّ الشياطينَ حين يدخلون النارَ تشوَّه صورُهم جدّاً وتستبشع أعضاؤهم، فالمرادُ: كأنَّه رؤوسُ الشياطينِ الذين في النَّار. وفيه أنَّ التشبيهَ عليه أيضاً غيرُ معروفٍ في الخارج عند النُّزول.

وقيل: «رؤوسُ الشياطين» شجرةٌ معروفةٌ تكون بناحية اليمنِ منكَرةُ الصورة، يقال لها: الأستَن، وإيَّاها عنَى النابغةُ بقوله:

تَحيد عن أستَنٍ سودٍ أسافلُهُ مِثلَ الإماءِ الغوادي تحمل الحُزَما(٣)

---

(١) في (م): كالمرسل.

(٢) الديوان ص٣٣. والمشرفي: سيف نسب إلى قرى بالشام يقال لها: المشارف، وأراد بالمسنونة الزرق سهاماً محدَّدةَ الأزجَّة صافية.

(٣) الديوان ص١٠٣.

قال الأصمعيّ: ويقال لها: الصَّوم، وأَنشد:

مـوكَّـلٌ بـشُـدوف الـصـومِ يـرقـبـهُ   من المغارب مهضومُ الحشا زَرِمُ[1]

وقيل: الشياطين: جنسٌ من الحيَّات ذواتُ أعراف، وأَنشد الفرَّاء:

عـجـيـز[2] تـحـلـفُ حـيـن أحـلـفُ   كـمـثـل شـيـطـانِ الـحَـمَـاطِ[3] أعـرَفُ

أي: له عرف. وأنشد المبرِّد[4]:

وفـي الـبـقـل إنْ لـم يـدفـع اللهُ شـرَّه   شياطينُ يعدو بعضُهنَّ على بعضِ

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ تفريعٌ على جَعْلِها فتنةً، أي: محنةً وعذاباً للظالمين. وضميرُ المؤنَّث للشَّجرة، و«مِن» ابتدائيةٌ أو تبعيضية، وهناك مضافٌ مقدَّر، أي: مِن طلعِها. وقيل: «مِن» تبعيضيَّة، والضميرُ للطلع، وأُنِّث لإضافته إلى المؤنَّث، أو لتأويله بالثَّمرة، أو للشَّجرة على التجوُّز. ولا يخلو كلٌّ عن بُعدٍ ما.

﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ لغلبة الجوعِ وإنْ كرهوها، أو للقَسرِ على أكلها.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الشَّجرة التي ملؤوا منها بطونَهم ﴿لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ أي: لشراباً ممزوجاً بماءٍ شديدِ الحرارة. وهذا الشرابُ هو الغسَّاق، أي: ما يقطر من جراح أهلِ النارِ وجلودِهم. وقيل: هذا هو الصَّديد، وأما الغسَّاق: فعينٌ في النار تسيل إليها سمومُ الحيَّاتِ والعقارب، أو دموعُ الكفرةِ فيها، وشُربُهم ذلك لغَلَبة عطشِهم بما أكلوا من الشجرة، فإذا شربوا تقطَّعت أَمعاؤهم.

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٩٤، وفيه: مخطوف الحشا. وجاء في هامش الأصل: يصف وعلاً يظن هذا الشجر قنَّاصاً، فهو يرقبه، والشدوف: الشخوص، واحدها: شدف. اهـ منه. والزَّرِم: هنا معناه: الذي لا يثبت في مكان. اللسان (زرم).

(٢) كذا في البحر ٧/ ٣٦٣. وفي معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، وثمار القلوب ص٤٢٢: عَنْجَرِد. وهي المرأة الخبيثة السيئة الخلق، كما في تهذيب اللغة ٣/ ٣٦٩-٣٧٠، واللسان والتاج (عنجرد) عند ذكر هذا البيت.

(٣) الحماط: نبت.

(٤) في الكامل ٢/ ٩٩٩.

وقُرئ: «لَشُوباً» بضمِّ الشين[1]، وهو اسمٌ لِمَا يشاب به، وعلى الأوَّل هو مصدرٌ سمِّي به.

وكلمة «ثم» قيل: للتَّراخي الزمانيّ، وذلك أنَّه بعد أن يملؤوا البطونَ من تلك الشَّجرة يعطشون، ويؤخَّر سقيُهم زماناً؛ ليزدادَ عطشُهم فيزدادَ عذابُهم.

واعترُض بأنَّه يأباه عطفُ الشربِ بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤﴾ فلا بدَّ من عدم توسُّطِ زمان.

وأُجيب بأنَّه يجوز أن يكونَ شربُ الشرابِ الممزوجِ بالحميم متأخِّراً بزمانٍ عن ملئهم البطونَ دون شربِ الحميمِ وحده، وكذا يجوز أن يكونَ الحالُ مختلفاً، فتارةً يتأخَّر الشربُ مطلقاً زماناً، وأخرى لا يتأخَّر كذلك. وقال بعضُهم: ملؤهم البطونَ أمرٌ ممتدّ، فباعتبار ابتدائه يُعطف بـ «ثمّ»، وباعتبار انتهائه بالفاء.

وجوِّز كونُ «ثم» للتراخي الرُّتْبي؛ لأنَّ شرابَهم أشنعُ من مأكولهم بكثير، وعطف مَلئهم البطونَ بالفاء لأنَّه يعقب ما قبله، ولا يَحسُن فيه اعتبارُ التفاوتِ الرتبيِّ حُسنَه في شُرب الشرابِ المشوبِ بالحميم مع الأَكل.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي: مصيرَهم، وقد قُرئ كذلك، وقرئ أيضاً: «ثم إنَّ مَنفذَهم»[2].

﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ أي: إلى مقرِّهم من النار؛ فإنَّ في جهنمَ مواضعَ أُعدَّ في كلِّ موضعٍ منها نوعٌ من البَلَاء، فالقومُ يُخرجون من محلِّ قرارِهم حيث تأجَّج النار، ويُساقون إلى موضعٍ آخَرَ ممَّا دارت عليه جهنمُ فيه ذلك الشَّراب؛ ليَرِدوه ويُسقَوا منه، ثم يُردُّون إلى محلِّهم، كما تخرج الدوابُّ إلى مواضع الماءِ في البلد مثلاً لترِدَه ثم تُردُّ إلى محلِّها. وإلى هذا المعنى أشار قتادة، ثم تلا قولَه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤] ويؤيِّده قراءةُ ابنِ مسعود: «ثمَّ إنَّ مُنقلبَهم»[3] إذ الانقلابُ أظهرُ في الردّ.

(١) القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٠، والبحر ٧/ ٣٦٣.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٤٣.
(٣) أخرجها الطبري ١٩/ ٥٥٦ عن السدي.

أو المراد: ثم إنَّ مرجعَهم إلى دَرَكات الجحيم، فهم يردَّدون في الجحيم من مكانٍ إلى آخَرَ أدنَى منه.

وقيل: إنَّ الشرابَ يقدَّم اليهم قبلَ دخولِ النار، فيشربون ويصيرون إلى الجحيم. وهذا يحتاج إلى توقيف، وإلَّا فهو خلافُ الظاهر.

وكأنَّ بين خروجِ القومِ للشُّرب وعودِهم إلى مساكنهم زماناً غيرَ يسيرٍ يتجرَّعون فيه ذلك الشَّراب؛ ولذا جيءَ بـ «ثُمّ». وهذا الشرابُ في مقابلة ما لأهل الجنةِ من الشراب المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ إلخ، كما أنَّ الزقُّوم في مقابَلة ما لهم من الفواكه.

وقد جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لو أنَّ قطرةً من زقُّوم جهنمَ أُنزلت إلى الأرض، لأَفسدت على الناس معايشَهم. أخرجه ابنُ أبي شيبة[1]. فكيف بمَن هو طعامُه وشرابُه الغسَّاقُ والصديدُ مع الحميم؟ نسأل الله تعالى رضاه والجنَّة، ونعوذ به عزَّ وجلَّ من غضبه والنَّار.

وقولُه سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ تعليلٌ لاستحقاقهم ما ذُكر من فنون العذاب بتقليد الآباءِ في أصول الدِّين من غير أن يكونَ لهم ولا لآبائهم شيءٌ يتمسَّك به أصلاً، أي: وجدوهم ضالِّين في نفس الأمر، ليس لهم ما يصلُح شبهةً فضلاً عن صلاحية كونِه دليلاً، فهم [على آثارهم يهرعون][2] من غير أن يتدبَّروا أنَّهم على الحقِّ أوَّلاً مع ظهور كونِهم على الباطل بأدنَى تأمُّل.

والإهراع: الإسراعُ الشديد. وقيل: هو إسراعٌ فيه شبهُ رِعدة. وفي بناء الفعلِ للمفعول إشارةٌ إلى مزيد رغبتِهم في الإسراع على آثارهم، كأنَّهم يُزعَجون ويُحثُّون حثّاً عليه.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبلَ هؤلاءِ الظالمين الذين جُعلت شجرةُ الزقُّوم فتنةً لهم، وهم قريشٌ ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ من الأمم السابقة، وهو جوابُ قَسَمٍ

(١) في المصنف ١٣/ ١٦١.
(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٧/ ١٩٥، والكلام منه.

محذوف، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢﴾ أنبياءَ أنذروهم سوءَ عاقبةِ ما هم عليه من الباطل. وتكريرُ القسمِ لإبراز كمالِ الاعتناءِ بتحقيق مضمونِ كلٍّ من الجملتين.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝٧٣﴾ من الهول والفظاعةِ لمَّا لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا إليه رأساً.

والخطابُ إمَّا لسيِّد المخاطَبين ﷺ، أو لكلِّ مَن يتأتَّى منه مشاهدةُ آثارِهم.

وحيث كان المعنى أنَّهم أُهلكوا إهلاكاً فظيعاً، استثنَى عنهم المخلَصين بقوله عزَّ وجلّ: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾ أي: الذين أخلصهم اللهُ تعالى بتوفيقهم للإيمان والعملِ بموجب الإنذار.

وقُرِئ: «المخلِصين» بكسر اللام[1]. أي: الذين أَخلصوا دينَهم لله سبحانه وتعالى.

والاستثناءُ على القراءتين إمَّا منقطعٌ إنْ خصِّص «المنذَرين»، وإمَّا متصل إنْ عمِّم.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ نوعُ تفصيلٍ لما أُجمل فيما قبلُ ببيان أحوالِ بعض المرسَلين وحُسنِ عاقبتهم، متضمِّن لبيان سوءِ عاقبةِ بعضِ المنذَرين، كقوم نوحٍ عليه السلام، ولبيان حُسنِ عاقبةِ بعضِهم الذين أخلصهم اللهُ تعالى أو أَخلصوا دينَهم، على القراءتين، كقوم يونسَ عليه السلام. وتقديمُ قصَّة نوحٍ عليه السلام على سائر القصصِ غنيٌّ عن البيان. ونداؤه عليه السلام يتضمَّن الدعاءَ على كفار قومِه وسؤالَه النجاةَ وطلبَ النُّصرة.

واللامُ واقعةٌ في جواب قَسَمٍ محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾ والمخصوصُ بالمدح فيه محذوفٌ، والفاءُ فصيحة، أي: وتاللهِ لقد دعانا نوحٌ حين أَيِسَ من إيمان قومِه بعد أنْ دعاهم أحقاباً ودهوراً، فلم يزدهم دعاؤه إلَّا فراراً ونفوراً، فأَجبناه أحسنَ الإجابة، فواللهِ لَنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف ثقةً بدلالةِ ما ذُكر عليه.

---

(١) قرأ الكوفيون ونافع وأبو جعفر بالفتح، والباقون بالكسر. التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥.

والجمع للعظمة والكبرياء، وفيه من تعظيم أمر الاجابة ما فيه. وأخرج ابنُ مردويه عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى في بيتي فمرَّ بهذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ قال: «صدقتَ ربَّنا، أنت أقربُ مَن دُعي، وأقربُ مَن بُغي، فنِعمَ المدعوُّ ونعم المعطي، ونِعمَ المسؤولُ ونِعم المولى أنت ربَّنا ونِعمَ النصير»[1].

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ من الغرق، على ما رُوي عن السُّدِّي. وقيل: أذى قومِه. ولا مانعَ من الجمع. والكَرْبُ ـ على ما قال الراغب[2] ـ: الغمُّ الشديد، وأصلُ ذلك مِن كَرْبِ الأرض، وهو قلبُها بالحفر، فالغمُّ يثير النفسَ إثارةَ ذلك، ويصحُّ أن يكونَ من: كَرَبت الشمس: إذا دنت للمغيب، وقولهم: إناءٌ كَرْبَان، نحو قربان، أي: قريبٌ من المِلء. أو من الكَرَب، وهو عَقدٌ غليظٌ في رِشاء الدَّلْو، وقد يوصف الغمُّ بأنه عُقدةٌ على القلب.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فحسْب، حيث أهلكنا الكفرةَ بموجب دعائه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] وقد رُوي أنَّه مات كلُّ مَن في السفينة ولم يُعقبوا عقباً باقياً غيرَ أبنائه الثلاثة: سام، وحام، ويافث، وأزواجِهم، فإنَّهم بقُوا متناسلين إلى يوم القيامة.

أَخرج الترمذيُّ وحسَّنه، وابنُ سعد، وأحمد، وأبو يعلى، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، والطبرانيّ، والحاكمُ وصحَّحه[3]، عن سَمُرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سامٌ أبو العرب، وحامٌ أبو الحبش، ويافثُ أبو الرُّوم»، وأخرج ابنُ مردويه عن أبي هريرةَ مرفوعاً نحوَه. نعم أخرج البزَّار وابنُ أبي حاتمٍ والخطيبُ في «تالي التلخيص» عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ولدُ نوحٍ ثلاثةٌ: سامٌ وحامٌ ويافث، فولدُ سام: العربُ وفارس والرُّوم، والخيرُ فيهم، وولدُ يافث: يأجوجُ ومأجوجُ

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٧٨، وفي مطبوعه: من يعطي، بدل: من بُغي.
(٢) في المفردات (كرب).
(٣) جامع الترمذي (٣٢٣١) و(٣٩٣١)، وطبقات ابن سعد ١/ ٢٥-٢٦، ومسند أحمد (٢٠٠٩٩) و(٢٠١٠٠)، والمعجم الكبير (٦٨٧١)، والمستدرك ٢/ ٥٤٦.

والتركُ والصقالبة، ولا خيرَ فيهم، وولدُ حام: القِبطُ والسودان» ولا أعرف حالَ الخبر[١].

والأكثرون على أنَّ الناسَ كلَّهم في مشارق الأرضِ ومغاربِها من ذرِّية نوحٍ عليه السلام؛ ولذا قيل له: آدمُ الثاني. وإن صحَّ أنَّ لكنعانَ المغرقِ ولداً في السفينة، لا يَبعد إدراجُه في الذُّرِّية، فلا يُقتصر على الأولاد الثلاثة.

وعلى كون الناسِ كلِّهم من ذرِّيَّته عليه السلام استدلَّ بعضُهم بالآية.

وقالت فِرقة: أبقى اللهُ تعالى ذريةَ نوحٍ عليه السلام ومدَّ في نسله، وليس الناسُ منحصرين في نسله، بل من الأُمم مَن لا يرجع إليه، حكاه في «البحر»[٢]. وكأنَّ هذه الفرقةَ لا تقول بعموم الغَرَق، ونوحٌ عليه السلام إنَّما دعا على الكفَّار، وهو لم يُرسَل إلى أهل الأرضِ كافَّة؛ فإنَّ عمومَ البعثةِ ابتداءً من خواصِّ خاتَم المرسلين ﷺ، ووصولُ خبرِ دعوته وهو في جزيرة العربِ إلى جميع الأقطارِ ـ كقطر الصينِ وغيرِه ـ غيرُ معلوم.

والحصرُ في الآية بالنِّسبة إلى مَن في السَّفينة ممَّن عدا أولادَه وأزواجَهم، فكأنَّه قيل: وجعلنا ذرِّيتَه هم الباقين، لا ذرِّيةَ مَن معه في السفينة، وهو لا يستلزم عدمَ بقاءِ ذريةِ مَن لم يكن معه وكان في بعض الأقطارِ الشاسعةِ التي لم تصل إليها الدَّعوة، ولم يستوجب أهلُها الغَرَق، كأهل الصينِ فيما يزعمون.

ويجوز أن تكونَ قائلة بالعموم، وتجعل الحصرَ بالنسبة إلى المغرَقين، وتلتزم القولَ بأنَّه لم يبقَ عَقِبٌ لأحدٍ من أهلِ السفينةِ هو من ذرِّية أحدٍ من المغرقين، أي: وجعلنا ذريَّتَه هم الباقين لا ذريةَ أحدٍ غيرِه من المغرَقين، وولدُ كنعان ـ إن صحّ، وصحَّ بقاءُ نسلِه ـ داخلٌ في ذرِّيته، واللهُ تعالى أعلم.

---

(١) وهو ضعيف، فقد أخرجه البزار (٢١٨ - كشف) من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة به. وفي إسناده يزيد بن سنان الرُّهاوي، قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٧٠ بعد أن ذكر الحديث: ضعيف بمرة، لا يعتمد عليه. اهـ، وأخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٢١٠ عن سعيد بن المسيب قوله، وهو المحفوظ كما قال ابن كثير.

(٢) ٧/ ٣٦٤.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ في الباقين غابرَ الدَّهر.

﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ مبتدأٌ وخبر، وجاز الابتداءُ بالنَّكرة لِمَا فيه من معنى الدُّعاء، والكلامُ واردٌ على الحكاية، كقولك: قرأت: «سورة أنزلناها» [النور: ١] وهو على ما قال الفرَّاءُ وغيرُه من الكوفيين محكيٌّ بـ «تَرَكَ» في موضع نصبٍ بها، أي: تركنا عليه هذا الكلامَ بعينه.

وقال آخَرون: هو محكيٌّ بقولٍ مقدَّر، أي: تركنا عليه في الآخرين قولَهم: سلامٌ على نوح، والمراد: أبقينا له دعاءَ الناسِ وتسليمَهم عليه أمَّةً بعد أمَّة.

وقيل: هذا سلامٌ منه عزَّ وجلَّ لا من الآخَرين.

ومفعولُ «تركنا» محذوف، أي: تركنا عليه الثناءَ الحسنَ وأبقيناه له فيمن بعدَه إلى آخر الدَّهر. ونُسب هذا إلى ابن عباسٍ ومجاهدٍ وقتادةَ والسُّدِّي.

وجملةُ «سلام على نوح» معمولٌ لقولٍ مقدَّرٍ على ما ذكر الخَفاجي[(١)]، أي: وقلنا: سلام.. إلخ. وقال أبو حيَّان: مستأنَفة، سلَّم اللهُ تعالى عليه عليه السلام ليقتديَ بذلك البشر، فلا يذكره أحدٌ بسوء[(٢)].

وقرأ عبدُ الله: «سلاماً» بالنَّصب على أنَّه مفعولُ «تركنا»[(٣)].

وقولُه تعالى: ﴿فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ متعلِّق بالظَّرف؛ لنيابته عن عامله، أو بما تعلَّق الظرفُ به. وجوِّز كونُه حالاً من الضمير المستترِ فيه. وأيًّاما كان، فهو من تتمَّة الجملةِ السابقة، وجيءَ به للدَّلالة على الاعتناءِ التامِّ بشأن السَّلام، من حيث إنَّه أفاد الكلامُ عليه ثبوتَه في العالمين من الملائكة والثَّقلين، أو إنَّه حالَ كونِه في العالمين على نوح، وهذا كما تقول: سلامٌ على زيدٍ في جميع الأمكنةِ وفي جميع الأزمنة. وزعم بعضُهم جوازَ جعلِه بدلاً من قوله تعالى: (فِي الْآخِرِينَ) ويوشك أن يكونَ غلطاً كما لا يخفى.

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٧٤.

(٢) البحر ٧/ ٣٦٤.

(٣) البحر ٧/ ٣٦٤.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ تعليلٌ لما فعل به مما قصَّه اللهُ عزَّ وجلَّ بكونه عليه السلام من زمرة المعروفين بالإحسان الرَّاسخين فيه، فيكون ما وقع من قَبيل مجازاةِ الإحسان بالإحسان، وإحسانُه مجاهدتُه أعداءَ اللهِ تعالى بالدَّعوة إلى دينه، والصبرِ الطويلِ على أذاهم، ونحوِ ما ذكر، وذلك إشارة إلى ما ذُكر من الكرامات السَّنيةِ التي وقعت جزاءً له عليه السلام. وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذان بعلوِّ رتبتِه، وبُعدِ منزلتِه في الفضل والشَّرف. والكافُ متعلِّقة بما بعدها، أي: مثلَ ذلك الجزاءِ الكاملِ نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاءً أدنَى منه.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ تعليلٌ لكونه عليه السلام محسناً المفهومِ من الكلام بخلوص عبوديَّته وكمالِ إيمانِه، وفيه من الدَّلالة على جلالة قدرِهما ما لا يخفَى، وإلَّا فمنصبُ الرسالةِ منصبٌ عظيم، والرسولُ لا ينفكُّ عن الخلوص بالعبودية وكمالِ الإيمان، فالمقصودُ بالصفة مدحُها نفسها، لا مدحُ موصوفِها.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: المغايرين لنوحٍ عليه السلام وأهلِه، وهم كفارُ قومِه أجمعين. و«ثم» للتراخي الذِّكري؛ إذ بقاؤه عليه السلام ومَن معه متأخِّر عن الإغراق.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممَّن شايع نوحاً وتابعه في أُصول الدِّين ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ وإن اختلفت فروعُ شريعتيهما. أو ممَّن شايعه في التصلُّب في دين اللهِ تعالى ومصابرةِ المكذِّبين، ونُقل هذا عن ابن عبَّاس. وجوِّز أن يكونَ بين شريعتيهما اتفاقٌ كلِّي أو أكثريّ، وللأكثر حكمُ الكلّ.

ورأيتُ في بعض الكتب ـ ولا أدري الآنَ أيّ كتابٍ هو ـ أنَّ نوحاً عليه السلام لم يُرسَل إلَّا بالتوحيد ونحوِه من أُصول العقائد، ولم يُرسَل بفروع. قيل: وكان بين إبراهيمَ وبينه عليهما السلام نبيَّان: هودٌ وصالحٌ لا غير. ولعله أُريد بالنبيِّ الرسول، لا ما هو أعمُّ منه. وهذا بناءً على أنَّ ساماً كان نبيّاً، وكان بينهما ـ على ما في «جامع الأصول» ـ ألفُ سنةٍ ومئةٌ واثنتان وأربعون سَنَة، وقيل: ألفان وستُّ مئةٍ وأربعون سنة.

وذهب الفرَّاءُ[١] إلى أنَّ ضمير «شيعته» لنبيِّنا محمدٍ ﷺ، والظاهرُ ما أَشرنا إليه، وهو المرويُّ عن ابن عبَّاسٍ ومجاهدٍ وقتادةَ والسُّدِّي، وقلَّما يقال للمتقدِّم: هو شيعةٌ للمتأخِّر، ومنه قولُ الكميتِ الأصغرِ بن زيد:

ومـا لـيَ إلَّا آل أحـمـدَ شـيـعـةٌ ومـاليَ إلَّا مَشعبُ الحقِّ مشعبُ[٢]

وذكر قصَّة إبراهيمَ عليه السلام بعد قصَّة نوحٍ؛ لأنَّه كآدمَ الثالثِ بالنِّسبة إلى الأنبياءِ والمرسَلين بعده؛ لأنَّهم من ذرِّيته إلَّا لوطاً، وهو بمنزلة ولدِه عليهما السلام، ويزيد حُسنَ الإرداف أنَّ نوحاً نجَّاه اللهُ تعالى من الغرق، وإبراهيمَ نجَّاه اللهُ تعالى من الحرق.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ منصوبٌ بـ «اذكر»، كما هو المعهودُ في نظائره. وجوِّز تعلُّقه بفعلٍ مقدَّر يدلُّ عليه قولُه تعالى: (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ) كأنَّه قيل: متى شايعه؟ فقيل: شايعه إذ جاء ربَّه.

وقيل: هو متعلِّق بشيعة؛ لِمَا فيه من معنى المشايعة.

وردَّ بأنَّه يلزم عملُ ما قبل لامِ الابتداءِ فيما بعدها، وهم لا يجوِّزون ذلك؛ للصَّدارة، فلا يقال: إنَّ ضارباً لقادمٌ علينا زيداً، وكذا يلزم الفصلُ بين العاملِ والمعمولِ بأجنبيّ، وهو لا يجوز.

وأُجيب بأنَّه لا مانعَ من كلٍّ إذا كان المعمولُ ظرفاً؛ لتوسُّعهم فيه.

﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ أي: سالمٍ من جميع الآفات كفساد العقائدِ والنيَّات السيئةِ والصفاتِ القبيحة، كالحسد والغِلِّ وغيرِ ذلك. وعن قتادةَ تخصيصُ السلامةِ بالسَّلامة من الشِّرك. والتعميمُ الذي ذكرناه أَوْلى.

أو سالمٍ من العلائق الدُّنيوية، بمعنى أنَّه ليس فيه شيءٌ من محبَّتها والرُّكونِ إليها وإلى أهلها.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٨.
(٢) الديوان ص٥١٧.

رين. «سليم»، أي: حزين، وهو مجازٌ من السَّليم بمعنى اللديغ من حيَّةٍ أو عقرب؛ فإنَّ العربَ تسمِّيه سليماً تفاؤلاً بسلامته، وصار حقيقةً فيه. وما تقدَّم أنسبُ بالمقام.

والباءُ قيل: للتعدية.

والمرادُ بمجيئه ربَّه بقلبه إخلاصُه قلبَه له تعالى على سبيل الاستعارةِ التبعيةِ التصريحية، ومبناها تشبيهُ إخلاصه قلبَه له عزَّ وجلَّ بمجيئه إليه تعالى بتحفةٍ في أنَّه سببٌ للفوز بالرِّضا، ويكتفَى بامتناع الحقيقةِ مع كون المقامِ مقامَ المدحِ قرينة. فحاصلُ معنى التركيب: إذ أَخلص عليه السلام لله تعالى قلبَه السليمَ من الآفات، أو: المنقطعَ عن العلائق، أو: الحزينَ المنكسر.

وتعقِّب بأنَّ سلامةَ القلبِ عن الآفاتِ لا تكون بدون الإخلاص، وكذا الانقطاعُ عن العلائقِ لا يكون بدونه.

وأُجيب بأنَّهما قد يكونان بدون ذلك، كما في القلوب البُله.

وفي «المطلع»: معنى مجيئه ربَّه بقلبه أنَّه أَخلص قلبَه لله تعالى وعَلِمَ سبحانه ذلك منه كما يُعْلَم الغائبُ وأحوالُه بمجيئه وحضورِه، فضرب المجيء مثلاً لذلك. اهـ. وجُعل في الكلام عليه استعارةٌ تمثيلية، بأن تشبَّهَ الهيئةُ المنتزعةُ من إخلاص إبراهيمَ عليه السلام قلبَه لربِّه تعالى وعلمِه سبحانه ذلك الإخلاصَ منه موجوداً، بالهيئة المنتزعةِ من المجيءِ بالغائب بمحضرِ شخصٍ ومعرفتِه إيَّاه وعلمِه بأحواله، ثم يُستعار ما يستعار؛ ولتأدية هذا المعنى عدل عن: جاءَ ربَّه سليمَ القلب، إلى ما في النَّظم الجليل.

وقيل الباءُ للملابسة. ولعله المتبادِر. والمرادُ بمجيئه ربَّه حلولُه في مقام الامتثالِ ونحوِه. وذكر أنَّ نكتةَ العدولِ عما سمعتَ إلى ما في النَّظم سلامتُه من توهُّم أنَّ الحالَ منتقلة؛ لمَا أنَّ الانتقالَ أغلبُ حالَيها، مع أنَّه أظهرُ في أنَّ سلامةَ القلبِ كانت له عليه السلام قبل المجيءِ أيضاً، فليُتدبَّر.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بدلٌ من «إذ» الأولى، أو ظرفٌ لـ «جاء»، أو لـ «سليم». أي: أيَّ شيءٍ تعبدون؟.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: أتريدون آلهةً من دون اللهِ تعالى إفكاً؟ أي: للإفك، فقدِّم المفعولُ به على الفعل للعناية؛ لأنَّ إنكارَه أو التقريرَ به هو المقصود، وفيه رعايةُ الفاصلةِ أيضاً، ثم المفعولُ لأجله لأنَّ الأهمَّ مكافحتُهم بأنَّهم على إفكٍ وباطلٍ في شركهم.

ويجوز أن يكونَ «إفكاً» مفعولاً به بمعنى: أتريدون إفكاً؟ وتكون «آلهة» بدلاً منه بدلَ كلٍّ، وجعلها عينَ الإفك على المبالغة. أو الكلامُ على تقديرِ مضاف، أي: عبادةَ آلهة، وهي صرفٌ للعبادة عن وجهها. وجوِّز كونُه حالاً من ضمير «تريدون»، أي: أفَّاكين، أو مفعولِه، أي: مأفوكة. وتعقِّب بأنَّ جعلَ المصدرِ حالاً لا يطَّرد إلَّا مع أمَّا، نحو: أمَّا عِلماً فعالم.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: أيُّ شيءٍ ظنُّكم بمَن هو حقيقٌ بالعبادة لكونه ربّاً للعالَمين؟ أشككتم فيه حتى تركتم عبادتَه سبحانه بالكلِّية؟ أو: أعلمتم أيُّ شيءٍ هو حتى جعلتم الأصنامَ شركاءه سبحانه وتعالى؟ أو: أيُّ شيءٍ ظنُّكم بعقابه عزَّ وجلَّ حتى اجترأتم على الإفك عليه تعالى ولم تخافوا؟

وكان قومُه عليه السلام يعظِّمون الكواكبَ المعروفة، ويعتقدون السُّعودَ والنُّحوسَ والخيرَ والشرَّ في العالَم منها، ويتَّخذون لكلِّ كوكبٍ منها هيكلاً، ويجعلون فيها أصناماً تناسب ذلك الكوكبَ بزعمهم، ويجعلون عبادتَها وتعظيمَها ذريعةً إلى عبادة تلك الكواكبِ واستنزالِ روحانيَّاتها، وكانوا يستدلُّون بأوضاعها على الحوادث الكونيةِ عامَّةً أو خاصَّة، فاتَّفق أن دنا يومُ عيدٍ لهم يخرجون فيه، فأرسل مَلِكُهم إلى إبراهيمَ عليه السلام أنَّ غداً عيدُنا فاحضُر معنا، فاستشعر حصولَ الفرصةِ لحصول ما عسى أن يكونَ سبباً لتوحيدهم، فأراد أن يعتذرَ عن الحضور على وجهٍ لا يُنكرونه عليه ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أي: فتأمَّل نوعاً من التأمُّل في أحوالها، وهو في نفس الأمرِ على طرز تأمُّل الكاملين في خلق السماواتِ

والأرض وتفكُّرِهم في ذلك؛ إذ هو اللائقُ به عليه السلام، لكنه أَوهمهم أنَّه تفكَّر في أحوالها، من الاتِّصال والتقابل ونحوِهما من الأَوضاع التي تدلُّ بزعمهم على الحوادث؛ ليرتِّبَ عليه ما يتوصَّل به إلى غرضه الذي يكون وسيلةً إلى إنقاذهم ممَّا هم فيه.

والظاهرُ بعد اعتبارِ الإِيهام أنَّه إيهامُ التفكُّر في أحكام طالعِ ولادتهِ عليه السلام، وما يدلُّ عليه بزعمهم ما تجدَّد له من الأَوضاع في ذلك الوقت. وهذا من معاريضِ الأفعال، نظيرُ ما وقع في قصَّة يوسفَ عليه السلام من تفتيش أوعيةِ إخوته بني عَلَّاته قبل وعاءِ شقيقه، فإنَّ المفتِّش بدأ بأَوعيتهم مع علمه أنَّ الصاعَ ليس فيها، وأخَّر تفتيشَ وعاءِ أخيه مع عِلمه بأنَّه فيها؛ تعريضاً بأنَّه لا يعرف في أيِّ وعاءٍ هو، ونفياً للتُّهَمة عنه لو بدأ بوعاءِ الأخ.

﴿فَقَالَ﴾ أي: لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ أراد أنَّه سيسقم، ولقد صدق عليه السلام؛ فإنَّ كلَّ إنسانٍ لابدَّ أنْ يسقم، وكفى باعتلال المزاجِ أولَ سريانِ الموتِ في البدن سقاماً. وقيل: أراد: مستعدٌّ للسَّقم الآن، أو خارجُ المزاجِ عن الاعتدال خروجاً قلَّ مَن يخلو عنه، أو سقيمُ القلبِ لكفركم، والقومُ توهَّموا أنَّه أراد قربَ اتصافِه بسقمٍ لا يستطيع معه الخروجَ معهم إلى معيدهم، وهو ـ على ما رُوي عن سفيانَ وابنِ جبير ـ سقمُ الطاعون، فإنَّهما فسَّرا «سقيم» بمطعون، وكان ـ كما قيل ـ أغلبَ الأسقامِ عليهم، وكانوا شديدي الخوفِ منه؛ لاعتقادهم العدوَى فيه.

وهذا، وكذا قولُه عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقولُه في زوجته سارة: هي أختي[(١)]، من معاريض الأقوال، كقول نبيِّنا ﷺ لمن قال له في طريقِ الهجرة: ممَّن الرَّجل؟: «من ماء»[(٢)]، حيث أراد عليه الصلاة والسلام ذِكرَ مبدأ خلقِه، ففهم السائلُ أنَّه بيانُ قبيلتِه، وكقول صاحبِه الصِّدِّيق ـ وقد سُئل عنه عليه الصلاة والسلام في ذاك أيضاً ـ: هو هادٍ يهديني. حيث أراد شيئاً وفهم السائلُ آخَر، ولا يُعدُّ ذلك كذباً في الحقيقة.

(١) سلف ١/ ٤٣٢.
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦١٦.

وتسميتُه به في بعض الأحاديثِ الصحيحةِ بالنظر لِمَا فهم الغيرُ منه، لا بالنِّسبة إلى ما قصده المتكلِّم، وجعلُه ذنباً في حديث الشفاعةِ[1] قيل: لأنَّه ينكشف لإبراهيمَ عليه السلام أنَّه كان منه خلاف الأَولى، لا أنَّ كلَّ تعريضٍ هو كذلك، فإنَّه قد يجب، والإمامُ[2] لضيق محرابِه ومجالِه ينكر الحديثَ الواردَ في ذلك، وهو في الصَّحيحين، ويقول: إسناد الكذبِ إلى راويه أهونُ من إسناده إلى الخليلِ عليه السلام. وقد مرَّ الكلامُ في ذلك.

وقيل: كانت له عليه السلام حمًّى لها نوبةٌ معيَّنة في بعض ساعاتِ الليل، فنظر ليعرفَ هل هي تلك السَّاعة، فإذا هي قد حضرت، فقال لهم: إنِّي سقيم. وليس شيءٌ من ذلك من المعاريض. ونحوُه ما أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن زيد بنِ أسلمَ قال: أَرسل إليه عليه السلام مَلِكُهم، فقال: إنَّ غداً عيدُنا فاخرُج معنا. فنظر إلى نجمٍ فقال: إنَّ ذا النجمَ لم يطلع قطُّ إلَّا طلع بسقمٍ لي.

وأنت تعلم أنَّ النظرَ المعدَّى بـ «في» بمعنى التأمُّل والتفكُّر، والنظرُ المشارُ إليه لا يحتاج إلى تفكُّر.

وعن أبي مسلمٍ أنَّ المعنى: نظر وتفكَّر في النُّجوم ليستدلَّ بأحوالها على حدوثها، وأنَّها لا تصلُح أن تكونَ آلهة، فقال: إنِّي سقيم، أي: سقيمُ النظر، حيث لم يحصل له كمالُ اليقين. انتهى.

وهذا لَعمري يسلب ـ فيما أرى ـ عن أبي مسلمٍ الإسلام، وفيه من الجهل بمقام الأنبياء ـ لاسيَّما الخليلُ عليه وعليهم السلام ـ ما يدلُّ على سقم نظرِه، نعوذ بالله تعالى من خِذلانه ومكرِه.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن قتادةَ أنَّ «نظر نظرة في النجوم» كلمةٌ من كلام العرب، تقول إذا تفكَّر الشخص: نظر في النُّجوم. وعليه فليس هو من المعاريض، بل قولُه: «إني سقيم» فقط منها. وهذا إن أيَّده نقلٌ من أهل اللغةِ حسنٌ جدّاً.

---

(١) سلف ١/ ٤٣٢.

(٢) في التفسير الكبير ٢٦/ ١٤٨.

وقيل: المعنى: نظر في أحوال النُّجوم، أو في علمها، أو في كتبها وأحكامِها؛ ليستدلَّ على ما يحدث له، والنظرُ فيها للاستدلال على بعض الأمورِ ليس بممنوعٍ شرعاً؛ إذا كان باعتقادِ أنَّ الله تعالى جعلها علامةً عليه، والممنوعُ الاستدلالُ باعتقاد أنَّها مؤثِّرة بنفسها، والجزمُ بكلِّية أحكامِها. وقد ذكر الكرمانيُّ في «مناسكه» ـ على ما قال الخفاجيّ ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لرجلٍ أراد السفرَ في آخر الشَّهر: «أتريد أن تخسرَ صفقتَك ويخيبَ سعيُك؟ اصبر حتى يهلَّ الهلال». انتهى[(١)].

وهذا البحثُ من أهمِّ المباحث، فإنَّه لم يزل معتركَ العلماءِ والفلاسفةِ الحكماء، وقد وعدنا بتحقيق الحقِّ فيه، وبيانِ كدرِه وصافيه، فنقول وبالله تعالى التوفيق، إلى سلوك أقومِ طريق[(٢)]:

إعلم أنَّ بعضَ الناسِ أنكروا أن يكونَ للكواكب تأثيرٌ في هذا العالَمِ غير وجودِ الضياءِ في المواضع التي تطلع عليها الشمسُ والقمرُ وعدمِه فيما غابا عنه، وما جرى هذا المجرَى. وهذا خروجٌ عن الإنصاف، وسلوكٌ في مسالكِ الجَورِ والاعتساف.

وبعضُهم قالوا: إنَّ لها تأثيراً مّا يجري على الأمر الطبيعيّ، مثل أن يكونَ البلدُ القليل العرضِ ذا مزاجٍ مائلٍ عن الاعتدال إلى الحرِّ واليبس، وكذا مزاجُ أهله، وتكون أجسامُهم ضعيفةً وألوانُهم سوداً وصفراً، كالنُّوبة والحبشة. وأن يكونَ البلدُ الكثيرُ العرضِ ذا مزاجٍ مائلٍ عن الاعتدالِ إلى البرد والرُّطوبة، وكذا مزاجُ أهلِه، وتكون أجسامُهم عبلةً[(٣)]، وألوانُهم بيضاً وشعورُهم شُقراً، مثلُ التركِ والصَّقالبة. ومثلُ نموِّ النباتِ واشتدادِه ونضجِ ثمرِه بالشَّمس والقمر، ونحوِ ذلك

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٦، والحديث أخرجه بنحوه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٧٨١) من حديث رُقيبة بن عُقيبة أو عقيبة بن رقيبة (كذا ورد بالشك)، وإسناده ضعيف لانقطاعه، وينظر الإصابة ٣/ ٢٨٦.

(٢) الكلام الذي سيورده المصنِّف في هذه المسألة مذكور بحرفيَّته في كثير من المواضع في مفتاح دار السعادة ص ٤٨٧ وما بعدها حيث عزاه ابن القيم لأبي القاسم عيسى بن علي في رسالة ردَّ فيها على المنجمين، وبيَّن فيها تناقضهم وبطلان ما هم عليه من الضلال.

(٣) رجل عَبْل الذراعين: ضخمهما، وامرأة عبلة: تامة الخَلْق. الصحاح(عبل).

ممَّا يدرك بالحسّ. ولا بأسَ في نسبته إلى الكوكبِ على معنى أنَّ اللهَ تعالى أودع فيه قوةً مؤثِّرة فأثَّر بإذن اللهِ تعالى، كما يُنسب الإحراقُ إلى النار والرِّيُّ إلى الماء مثلاً، على معنى ذلك، وهو مذهبُ السلف ـ على ما قال الشيخُ إبراهيم الكوراني ـ في جميع الأسبابِ والمسبَّبات، وصرَّح به بعضُ الماتريدية.

أو على معنى أنَّ اللهَ تعالى خلق ذلك عنده وليس فيه قوَّةٌ مؤثِّرة مطلقاً، على ما يقوله الأشاعرةُ في كلِّ سببٍ ومسبَّب، فلا فرقَ بين الماءِ والنارِ مثلاً عندهم في أنَّه ليس في كلٍّ قوةٌ يترتَّب عليها ما يترتَّب، وإنما الفرقُ في أنَّه جرت عادةُ اللهِ تعالى بأن يخلقَ الإحراقَ دون الريِّ عند النارِ دون الماء، ويخلقَ الرِّيَّ دون الإحراقِ عند الماءِ دون النار، وليس للنار والماءِ مدخلٌ في الأثر من الإحراق والرِّيِّ سوى أنَّ كلًّا مقارنٌ لخلق اللهِ تعالى الأثرَ بلا واسطة.

وظواهرُ الأدلَّة مع الأوَّلين، ولا ينافي مذهبَهم توحيدُ الأفعالِ وأنَّه عزَّ وجلَّ خالقُ كلِّ شيء، كما حقِّق في موضعه.

وبعضُهم زعم أنَّ لها تأثيراً يعرفه المنجِّم غيرَ ذلك، كالسَّعادة والنُّحوسة، وطولِ العمرِ وقِصَره، وسَعةِ العيشِ وضيقه، إلى غير ذلك ممَّا لا يخفى على مَن راجع كتبَ أحكامِ طوالعِ المواليدِ وطوالعِ السِّنين والكسوفِ والخسوفِ والأعمالِ ونحوِها.

وهو ممَّا لا ينبغي أن يعوَّلَ عليه أو يُلتفتَ إليه؛ فليس له دليلٌ عقليٌّ أو نقليٌّ، بل الأدلةُ قائمةٌ على بطلانه، متكفِّلة بهدم أركانِه. والقائلون به بعد اتِّفاقِهم على أنَّ الخيرَ والشرَّ والإعطاءَ والمنعَ وما أشبه ذلك يكون في العالَم بالكواكب، على حسب السُّعود والنُّحوس، وكونِها في البروج المنافرةِ لها أو الموافقة، وحسب نظرِ بعضِها إلى بعض، بالتسديس والتربيعِ والتثليثِ والمقابلة، وحسب كونِها في شرفها وهبوطِها، ووبالِها ورجعتِها، واستقامتِها وإقامتها، اختلفوا في كثيرٍ من الأصول، وتكلَّموا بكلامٍ يضحك منه أربابُ العقول.

وذلك أنَّهم اختلفوا في أنَّه على أيِّ وجهٍ يكون ذلك؟ فزعم قومٌ منهم أن فعلَها بطبائعها. وزعم آخَرون أنَّ ذلك ليس فعلاً لها، لكنها تدلُّ عليه بطبائعها. وزعم

آخَرون أنَّها تفعل في البعض بالعَرَض وفي البعض بالذَّات. وزعم آخَرون أنَّها تفعل بالاختيار لا بالطَّبع، إلَّا أن السعدَ منها لا يختار إلَّا الخير، والنحسَ لا يختار إلَّا الشرّ. وهذا مع قولِهم: إنَّها قد تتَّفق على الخير وقد تتَّفق على الشرّ، مما يتعجَّب منه. وزعم آخَرون أنَّها لا تفعل بالاختيار، بل تدلُّ به. وهو كلامٌ لا يُعقل معناه.

واختلفوا أيضاً، فقالت فِرقة: من الكواكب ما هو سعدٌ ومنها ما هو نحس، وهي تُسعد غيرَها وتنحسه. وقالت أخرى: هي في أنفُسها طبيعةٌ واحدة، وإنَّما تختلف دلالتُها على السُّعود والنحوس، وهذا قولُ مَن يقول منهم: إنَّ للفلك طبيعةً مخالفةً لطبيعة الاستقصاءات[1] الكائنةِ الفاسدة، وأنَّها لا حارَّةٌ ولا باردة، ولا يابسةٌ ولا رطبة، ولا سعدَ ولا نحسَ فيها، وإنما يدلُّ بعضُ أجرامِها وبعضُ أجزائها على الخير والبعضُ على الشرّ، وارتباطُ الخيرِ والشرِّ والسعدِ والنحسِ بها ارتباطُ المدلولاتِ بأدلَّتها، لا ارتباطُ المعلولاتِ بعِلَلها. وهو أعقلُ من أصحاب القولِ بالاقتضاء الطبيعيِّ والعِلِّية، وإنْ كان قولُه أيضاً عند بعض الأَجلَّة ليس بشي؛ لأنَّ الدَّلالة الحسِّية لا تختلف ولا تتناقض.

واختلفوا أيضاً، فقالت فِرقة: تفعل في الأبدان والأنفُس جميعاً. وهو قولُ بطليموس وأتباعِه. وقال الأكثرون: تفعل في الأنفُس دون الأبدان. ولعلَّ الخلافَ لفظيّ.

واختلف رؤساؤهم: بطليموس ودوروسوس وأنطيقوس وريمس وغيرُهم من علماء الرومِ والهندِ وبابل في الحدود وغيرِها، وتضادُّوا في المواضع التي يأخذون منها دليلَهم. ومن ذلك اختلافُهم في أمر سهمِ السَّعادة، فزعم بطليموسُ أنَّه يُعلم بأن يؤخذَ أبداً العددُ الذي يحصل من موضع الشمسِ إلى موضع القمر، ويبتدئ من الطالع، فيرصد منه مثلُ ذلك العددِ على التوالي، فمنتهى العددِ موضعُ السهم. وزعم بعضُهم أنَّه يبتدئُ من الطالع، فيعدُّ مثل ذلك على خلاف التوالي. وزعم بعضُ الفرسِ أنَّ سهمَ السعادةِ يؤخذ بالليل من القمر إلى الشَّمس، وبالنَّهار من

---

(١) في الأصل و(م): الاستقصات. والمثبت من مفتاح دار السعادة ص٤٩٠.

الشمسِ إلى القمر. وزعم أهلُ مصرَ في الحدود أنَّها تؤخذ من أَرباب البيوت، وزعم الكلدانيوُّن أنَّها تؤخذ من مدبري المثلَّثات.

واختلفوا أيضاً، فرتَّبت طائفةٌ البروجَ المذكَّرةَ والمؤنَّثةَ من الطالع، فعدُّوا واحداً مذكَّراً وآخَرَ مؤنَّثاً، وصيَّروا الابتداءَ بالمذكَّر، وقسمت طائفةٌ أخرى البروجَ أربعةَ أجزاء، وجعلوا المذكَّرةَ هي التي من الطالع إلى وسط السماءِ، والتي تقابلها من الغاربِ إلى وَتد الأرض، وجعلوا الرُّبعين الباقيين مؤنَّثين.

وممَّا يُضحِك العقلاءَ أنَّهم جعلوا البروجَ قسمين: حارَّ المزاجِ وباردَه، وجعلوا الحارَّ منها ذكراً، والباردَ أنثى، وابتدؤوا بالحَمَل فقالوا: هو ذكرٌ حارّ، والذي بعده مؤنَّث بارد، وهكذا إلى آخرها، فصارت ستةً ذكوراً وستةً إناثاً.

وقال بعضُهم: الأوَّل ذَكَرٌ والثلاثةُ بعده إِناث، والخامسُ ذكرٌ والثلاثةُ بعده إِناث، والتاسعُ ذكرٌ وما بعده إناث، فالذُّكور ثلاثة، وبعد كلِّ ذكرٍ إناثٌ ثلاثٌ مخالفةٌ له في الطبيعة.

ثم إنَّ هذه القسمةَ للمذكَّر والمؤنَّث ذاتيةٌ للبروج، ولها قسمةٌ ثانيةٌ بالعرض، وهي أنَّهم يبدؤون من الطالع إلى الثاني عشر، فيأخذون واحداً ذكراً وآخَرَ أنثى.

وبعضُهم يقول: هي أربعةُ أقسام، فمن وتد المشرقِ إلى وتد العاشرِ ذكرٌ شرقيٌّ مجفِّف سريع، ومن وتد العاشرِ إلى وتد الغاربِ مؤنَّث جنوبيٌّ مُحرِق وسط، ومن وتد الغاربِ إلى وتد الرابعِ ذكرٌ معتلٌّ رطبٌ غربيٌّ بطيء، ومن وتد الرابعِ إلى الطالع مؤنَّث ذليلٌ مبرِّد شماليٌّ وسط. وبعضُ الأوائلِ منهم لم يقتصرْ على ذلك، بل ابتدأ بالدَّرجة الأُولى من الحمل، فقال: هي ذكرٌ والدرجةُ الثانيةُ أنثى، وهكذا إلى آخر الحوت.

ولبطليموس هذيانٌ آخَر، فإنَّه ابتدأ بأوَّل درجةِ كلِّ برجٍ ذكر، فنسب منها إلى تمام اثنتي عشرةَ درجةً ونصفٍ إلى الذُّكورية، ومنه إلى تمام خمسٍ وعشرين درجةً إلى الأُنوثية، ثم قسم باقيَ البروجِ إلى قسمين، فنسب النصفَ الأوَّل إلى الذَّكر، والآخَرَ إلى الأنثى، وفعل مِثلَ ذلك في كلِّ برجٍ أنثى.

ولدوروسوس هذيانٌ آخَرُ أيضاً، فإنَّه يقسم البروجَ كلَّ برجٍ ثمانيةً وخمسين دقيقةً ومئةً وخمسين ثانية[1]، ثم ينظر إلى الطالع، فإنْ كان برجاً ذكراً، أعطى القسمةَ الأولى للذَّكر، ثم الثانيةَ للأنثى، إلى أن يأتيَ على البروج كلِّها، وإن كان أنثى، أعطى القسمةَ الأولى للأنثى، ثم الثانيةَ للذَّكر، إلى أن يأتيَ على آخرها.

وما لهم في شيءٍ من ذلك دليل، مع أنَّ قولَهم ببساطة الفلكِ يأبى اختلافَ أجزائه بالحرارة والبرودة، والذُّكور والأنوثة.

ومثلُ هذيانِهم في قسمة الأجزاءِ الفلكيةِ إلى ما ذُكر قسمتُهم الكواكبَ إلى ذلك، فزعموا أنَّ القمرَ والزُّهرة مؤنَّثان، وأنَّ الشمسَ وزحلَ والمشتريَ والمرِّيخ مذكَّرة، وأنَّ عطارد ذَكَرٌ أنثى، وأنَّ سائرَ الكواكبِ تذكَّر وتؤنَّث، بسبب الأشكالِ التي تكون لها بالقياس إلى الشمس، وذلك أنَّها إذا كانت مشرِقةً متقدِّمة على الشمس فهي مذكَّرة، وإن كانت مغربةً تابعةً كانت مؤنَّثة، وأنَّ ذلك يكون لها بالقياس إلى أشكالها من الأُفق، وذلك أنَّها إذا كانت في الأشكال التي من المشرق إلى وسط السماءِ ممَّا تحت الأرض فهي مذكَّرة، وإذا كانت في الرُّبعين الباقيين، فهي مؤنَّثة. ويلزم عليه انقلابُ المذكَّر مؤنَّثاً والمؤنَّث مذكَّراً.

وأجاب بعضُهم عن هذا الهذيانِ أنَّه لا مانعَ من اتِّصاف شيءٍ بأمرٍ بالقياس إلى شيءٍ وبضدِّه بالقياس إلى آخَر، وهو في نفسه غيرُ متصفٍ بشيءٍ منهما، كالأدكَن، فإنَّه يقال فيه: أبيض، بالقياس إلى الأسود، وأسودُ، بالقياس إلى الأبيض، وهو في نفسه لا أسود ولا أبيض، فكذا الكواكب، يقال: إنَّها ذُكرانٌ وإناثٌ، بالقياس إلى الأشكال، أعني الجهات، والجهاتِ إلى الرِّياح، كالصَّبا والدَّبور، والرياحِ إلى الكيفيات، لا أنَّها ذُكرانٌ وإناثٌ في أنفُسها.

وهو تلبيس، فإنَّ الأدكنَ فيه شائبةُ بياضٍ وسواد، فمقتضَى التشبيهِ يلزم أن يكونَ في الكوكب شائبةُ ذكورةٍ وأنوثة. وأيضاً الظاهرُ أنَّ الانقسامَ المذكورَ بحسب الطبيعةِ والتأثيرِ والتأثُّر، ولا يكاد يُعرف انقلابُ الحقيقةِ والطبيعةِ بحسب الموضعِ

---

(١) في الأصل و(م): دقيقة. والمثبت من مفتاح دار السعادة ص ٤٩٣.

والقربِ والبعد. ومنه يُعلم فسادُ ما قالوا: إنَّ القمرَ من أوَّل ما يُهلُّ إلى وقت انتصافِه الأوَّل في الضوءِ يكون فاعلاً للرُّطوبة خاصَّة، ومن ذلك إلى وقت الامتلاءِ يكون فاعلاً للحرارة، ومنه إلى وقت الانتصافِ الثاني في الضوء يكون فاعلاً لليبس، ومن ذلك إلى وقتِ خفائه يكون فاعلاً للبرودة، وقاسوا ذلك على تأثيرات الشمسِ في الفصول، والفرقُ مثل الشمسِ ظاهر، ويلزم عليه كونُ الشهرِ الواحدِ ذا فصول، والحسُّ يدفعه.

وأيضاً كلامُهم هذا يخالف ما قالوه من أنَّ قوَّةَ القمرِ الترطيبُ؛ لقُرب فلكِه من الأرض، وقَبولِه للبخارات الرطبةِ التي ترتفع منها إليه، ثم إنَّ هذا القولَ باطلٌ في نفسه؛ لِمَا أنَّه يلزم عليه ازديادُ رطوبةِ القمرِ في كلِّ يومٍ لو سلِّم تصاعدُ البخاراتِ الرَّطبة إليه وتأثُّره منها، وكذا القولُ بانَّ قوَّة زحلَ أن يبرِّد ويجفِّفَ تجفيفاً يسيراً؛ لبُعده عن حرارة الشمسِ والبخاراتِ الرَّطبة، وأنَّ قوَّةَ المريخِ مجفِّفة محرِقة؛ لمشاكلة لونِه لونَ النار، ولقُربه من الشمس، وكوكبُ الذَّبِّ الأكبرِ كالمرِّيخ، وأنَّ عطارداً معتدلٌ في التجفيف والترطيب؛ لأنَّه لا يَبعد عن الشمس بُعداً كثيراً، ولا وضعُه فوقَ كرةِ القمر.

ومن العجائبِ استدلالُ فضلائهم على اختلاف طبائعِ الكواكبِ باختلاف ألوانِها، حيث قالوا: لمَّا كان لونُ زحلَ الغُبرةَ والكمودة، حكمنا بأنَّه على طبع السَّوداء، وهو البردُ واليَبَس؛ فإنَّ لها من الألوان الغُبرة، ولمَّا كان لونُ المرِّيخ كلون النار، قلنا: طبعُه حارٌّ يابس، والحرارةُ واليبسُ في الشمس ظاهرتان، ولمَّا كان لونُ الزُّهَرةِ كالمركَّب من البياضِ والصُّفرةِ والبياضُ أظهرُ فيها، قلنا: طبعُها البرودةُ والرُّطوبةُ كالبلغم، ولمَّا كان صُفرةُ المشتري أكثرَ مما في الزُّهَرة، كانت سخونتُه أكثرَ من سخونة الزُّهَرة، وكان في غايةِ الاعتدال، وأمَّا القمر فهو أبيض وفيه كُمودة، فيدلُّ بياضُه على البرودة، وأمَّا عطارد فتختلف ألوانُه، فربَّما رأيناه أَخضر، وربَّما رأيناه أغبر، وربَّما رأيناه على خلاف هذين اللَّونين، وذلك في أوقاتٍ مختلفة، مع كونِه من الأُفق على ارتفاعٍ واحد، فلا جَرَمَ يكون له طبائعُ مختلفة، إلَّا أنَّا لمَّا وجدناه في الأغلب أَغبرَ كالأرض، قلنا: هو مثلُها في الطَّبع.

ويَرِد عليه أنَّ المشاركةَ في بعض الصفاتِ لا تقتضي المشاركةَ في الطبيعة، ولا في صفةٍ أخرى، وأنَّ دلالةَ مجرَّد اللونِ على الطبيعة ضعيفةٌ جدّاً؛ لاشتراك الكثيرِ في لونٍ مع اختلاف الطبائع، وأيضاً الزُّرقة أظهرُ في الزُّهَرة، واختلافُ ألوانِ عطارد لأنَّا نراه قريبَ الأفق، فيكون بيننا وبينه بخاراتٌ مختلفة.

وقال أبو معشر[1]: إنَّ القمرَ لا يَنسبُ لونَه إلى البياض إلَّا مَن عدِمَ قوَّةَ الحسِّ البَصَري. وفيه بَعدُ ما فيه، ولو سلِّم جميعُ ما قالوه من اختلاف طبائعِ البروج والكواكبِ بالحرارة والبرودةِ والرُّطوبة واليبوسة، فقصارَى ما يترتَّب على ذلك ما نجده من اختلاف الأقاليمِ حرارةً وبرودةً مثلاً، واختلافِ أشجارِها وأثمارِها، واختلافِ أجسامِ أهلها وألوانِهم، واختلافِ حَيَواناتها، إلى غير ذلك من الاختلافات.

ومع هذا نقول: إنَّ الكواكبَ جزءُ السببِ في ذلك، لكن من أين لهم القولُ بأنَّ جميعَ الحوادثِ في هذا العالم، خيرِها وشرِّها، وصلاحِها وفسادِها، وجميعَ أشخاصِه وأنواعه، وصورِه وقواه، ومُدَد بقاءِ أشخاصه، وجميعَ أحوالِها العارضة لها، وتكوُّن الجنين، ومدَّة لبثِه في بطن أمِّه وخروجِه إلى الدنيا، وعُمره ورزقه، وشقاوته، وحُسنه وقُبحه، وأخلاقه، وحَذَقه وبلادته، وجهله وعِلمه، إلى ما لا يُحصى من أحواله، وانقسامَ الحيوانِ إلى الطير وأصنافِه، وإلى الحيوان البحريِّ وأنواعِه، والبرِّيّ وأقسامِه، واختلافَ صورِ الحَيَونات وأفعالِها وأخلاقها، وثبوتَ العداوةِ بين أفراد نوعٍ وأفرادِ نوعٍ آخَرَ منها، كالذِّئاب والغنم، وثبوتَ الصداقةِ كذلك، وكذا ثبوتُ العداوةِ أو الصداقةِ بين أفرادِ النوعِ الواحد، إلى غير ذلك ممَّا يكون في العالم = لا يكون[2] إلَّا بتأثير الكواكب؟ وهو ممَّا لا يكاد يصحّ؛ لأنَّ طريقَ صحَّته إمَّا الخبرُ الصادق، أو الحسُّ الذي يشترك فيه الناس، أو ضرورةُ العقل، أو نظرُه، وشيءٌ من هذا كلِّه غيرُ موجود.

---

(١) المنجم، جعفر بن محمد البلخي، صاحب التصانيف في النجوم والهندسة، توفي (٢٧٢هـ). السير ١٣/ ١٦١.

(٢) قوله: لا يكون...: هو خبرٌ لقوله: بأن جميع الحوادث في هذا العالم...

ولا يمكن الأحكاميين أن يدَّعوا واحداً من الثلاثة الأُول، وغايتُهم أن يدَّعوا أنَّ التجربةَ قادتهم إلى ذلك، ولا شكَّ أنَّ أقلَّ ما لا بدَّ منه فيها أن يحصلَ ذلك الشيء على حالةٍ واحدةٍ مرتين، والوضعُ المعيَّن لمجموع الكواكبِ لا يتكرَّر أصلاً، أو يتكرَّر بعد ألوفِ ألوفٍ من السنين، وعمرُ الإنسان الواحدِ بل عُمرُ البشرِ لا تفي به.

وزعم بعضُهم لذلك أنَّ مجموعَ الاتصالاتِ ونسبِ الكواكبِ بعضِها إلى بعضٍ غيرُ شرطٍ في التأثير لتتوقَّفَ التجربةُ على تكراره، بل يكفي بعضُ الاتِّصالات، وقد يكفي واحدٌ منها، وذلك يتكرَّر في أزمنةٍ قليلة، فتتأتَّى التجربة، مثلاً رداءةُ السفرِ وقد نزل القمرُ برجَ العقربِ يستند إلى هذا النزولِ بالتجربة، فإنَّا وجدنا تكرُّرَ ذلك وترتُّبَ الرداءةِ عليه كلَّ مرة، وهذا هو التَّجربة، وكذا يقال في نظائره.

وأنت تعلم أنَّ التجاربَ التي دلَّت على كَذِبَ ما يقولون بوقوع خلافِه أضعافُ التجاربِ التي دلَّت على صدقه؛ فقد أجمع حذَّاقُهم سنةَ سبعٍ وثلاثين عامَ خروجِ عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه إلى صفِّين على أنَّه يُقتل ويُقهر جيشُه، فانتصر على أهل الشام، ولم يقدروا على التخلُّص إلَّا بالحيلة. وإنْ لم يسلَّم هذا الإجماع، فإجماعُهم على مِثله في خروجه كرَّم اللهُ تعالى وجهَه لحرب الخوارجِ حيث كان القمرُ في العقرب، وقولِه ﷺ: نخرج ثقةً بالله تعالى، وتوكُّلاً عليه سبحانه، وتكذيباً لقول المنجِّم[1]. ونُصرتِه الخارجةِ عن القياس = ممَّا شاع وذاع، ولو قيل بتواتره ولم يَبعُد.

وأجمعوا سنةَ ستٍّ وستِّين على غَلَبة عبيدِ الله بن زيادٍ وقد سار بنحوٍ من ثمانين ألف مقاتلٍ على المختار بنِ أبي عُبيد، فلقيه إبراهيمُ بن الأشترِ صاحبُ المختارِ بأرض نصِيبين فيما دون سبعةِ آلافِ مقاتل، فقَتل من عسكره نحواً من ثلاثةٍ وسبعين ألفاً، وضربه وهو لا يعرفه فقتله، ولم يُقتل من أصحابه أكثرُ من مئة.

وأجمعوا يومَ أسِّست بغدادُ سنةَ ستٍّ وأربعين ومئةٍ على أنَّ طالعَها يقضي بأنَّه لا يموت فيها خليفة، وشاع ذلك، حتى قال بعضُ شعراءِ المنصور مهنِّئاً له:

---

(١) أخرجه بنحوه مطولاً الحارث بن أبي أسامة في مسنده (٥٦٤ - بغية الباحث).

يَهنيك منها بلدةٌ تقضي لنا أنَّ المماتَ بها عليك حرامُ
لمَّا قضت أحكامُ طالعِ وقتها أنْ لا يُرى فيها يموت إمام

فأوَّلُ ما ظهر كذبُ ذلك بقتل الأمينِ بشارع باب الأنبار، فقال بعضُ الشعراء:

كذب المنجِّمُ في مقالته التي كان ادَّعاها في بِنا بَغدانِ
قَتلُ الأمينِ بها لَعمري يقتضي تكذيبَهم في سائر الحُسبانِ(١)

ثم مات فيها جماعةٌ من الخلفاء، كالواثق، والمتوكِّل، والمعتضِد، والناصر، وغيرِهم، إلى أمورٍ أخرَ لا تكاد تُحصَى، أجمعوا فيها على حكمٍ وتبيَّن كذبُهم فيه.

على أنَّه قد يقال لهم: المؤثِّر في السُّعود والنُّحوس ونحوهما هل هو الكوكبُ وحده، أو البرجُ وحده، أو الكوكبُ بشرط حصولِه في البرج؟ فإنْ قالوا بأحد الأمرين الأوَّلين، لَزِمهم دوامُ الأثر؛ لدوام المؤثِّر. وإنْ قالوا بالثالث، لَزِمهم القولُ باختلاف البروجِ في الطبيعة، وإلَّا لاتَّحدت آثارُ الكوكبِ فيها، وكلُّهم مُجمِعون على أنَّ الفلكَ بسيطٌ لا تركيبَ فيه، والتزامُ التركيبِ من طبائعَ مختلفةٍ ينافي قولَهم بامتناع الانحلال.

وزعمُ بعضِهم أنَّها تفعل ما تفعل بالاختيار يستدعي إلغاءَ أمرِ الاتصالِ والانفصال، والمقارنةِ والهبوط، ونحوِ ذلك، وكونُ ما ذكر شرطاً للاختيار لا يخفَى حالُه، والقولُ بأنَّها تستدعي من حيث طبيعةُ أشعتها التسخين والتبريد، وهما يوجبان اختلاف أمزجة الأبدان، واختلافها يوجب اختلاف أفعال النفس، يَرِدُ عليه أنَّا نرى التسخين مثلاً يقتضي حرارة وحِدَّة في المزاج، يفعل بها شخصٌ غايةَ الخيرِ والأفعالِ الحميدة، وآخَرُ غايةَ الشرِّ والأفعالِ الخبيثة، فلابدَّ لهذا الاختلافِ من موجبٍ غير التسخين. وأيضاً هم يقولون: جميعُ الحوادثِ الكونيةِ مستندٌ إلى الكواكب، وحديثُ التسخينِ والتبريدِ واستلزامُهما اختلافَ أفعالِ النفسِ لا يتمُّ به هذا الغرض.

---

(١) الأبيات مذكورة في مفتاح دار السعادة ص ٤٧٤.

وذكر الإمام الرازيُّ عليه الرحمةُ أنَّ المثبتين لعلم الأحكامِ والتأثيرات ـ أي: من الإسلاميِّين ـ احتجُّوا من كتاب اللهِ تعالى بآيات، وهي أنواع:

الأوَّل: الآياتُ الدالَّة على تعظيم الكواكب، فمنها قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦] وأكثرُ المفسِّرين على أنَّ المرادَ هو الكواكبُ التي تصير راجعةً تارةً ومستقيمةً أخرى. ومنها قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦] وقد صرَّح سبحانه بتعظيم هذا القَسَم، وذلك يدلُّ على غاية جلالةِ مواقعِ النجومِ ونهايةِ شرفها. ومنها قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:١-٣] قال ابنُ عباس: الثاقبُ هو زُحَل؛ لأنَّه يثقب بنوره سَمْكَ السماواتِ السبع. ومنها قولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] فقد بيَّن سبحانه إلهيتَه بكون هذه الكواكبِ تحت تدبيرِه وتسخيرِه.

النوعُ الثاني: ما يدلُّ على وصفه تعالى بعضَ الأيامِ بالنُّحوسة، كقوله سبحانه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ [فصلت: ١٦].

النوعُ الثالث: الآياتُ الدالَّة على أنَّ لها تأثيراً في هذا العالَم، كقوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات:٥] وقوله تعالى ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ [الذاريات:٤] قال بعضُهم: المرادُ هذه الكواكب.

الرابع: الآياتُ الدالَّة على أنَّه تعالى جعل حركاتِ هذه الأجرام وخلقَها على وجهٍ ينتفع بها في مصالح هذا العالَم، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [يونس:٥] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ [الفرقان:٦١].

النوعُ الخامس: أنَّه تعالى حكى عن إبراهيمَ عليه السلام أنَّه تمسَّك بعلم النُّجوم، فقال سبحانه: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات:٨٨-٨٩].

السادس: أنَّه تعالى قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧] ولا يكونُ المرادُ كبرَ الجثَّة؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يعلمه، فوجب أن يكونَ المرادُ كبرَ القدرِ والشَّرف، وقال سبحانه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران:١٩١] ولا يجوز أن يكونَ المرادُ أنَّه تعالى خلقها ليستدلَّ بتركيبها وتأليفِها على وجود الصَّانع؛ لأنَّ هذا القدرَ حاصلٌ في تركيب البعوضة، ودلالةُ حصولِ الحياةِ في بنية الحيواناتِ على وجود الصانعِ أقوى من دلالة تركيبِ الأَجرام الفلكيةِ عليه؛ لأنَّ الحياةَ لا يقدر عليها غيرُه تعالى، وجنسُ التركيبِ يقدر عليه الغير، فلما خصَّها سبحانه وتعالى بهذا التشريفِ المستفادِ من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ علمنا أنَّ في تخليقها أسراراً عالية، وحِكَماً بالغة، تتقاصر عقولُ البشرِ عن إدراكها. ويَقرُب من هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧] ولا يمكن أن يكونَ المرادُ أنَّه تعالى خلقها على وجهٍ يمكن الاستدلالُ بها على وجود الصانع الحكيم؛ لأنَّ كونَها دالَّةً على الافتقار إلى الصانع أمرٌ ثابتٌ لها لذاتها، لأنَّ كلَّ متحيِّزٍ محدَث، وكلُّ محدثٍ مفتقرٌ إلى الفاعل، فثبت أنَّ دلالةَ المتحيِّزاتِ على وجود الفاعلِ أمرٌ ثابتٌ لها لذواتها وأعيانِها، وما كان كذلك لم يكن سببَ الفعلِ والجعل، فلم يمكن حملُ الآيةِ على هذا الوجه، فوجب حملُها على الوجه الذي ذكر.

النوع السابع: رُوي أنَّ عمرَ بن الخيَّامِ(١) كان يقرأ كتابَ المجسطي على أستاذه، فدخل عليهم واحدٌ من المتفقِّهة فقال: ما تقرؤون؟ فقال عمر: نحن في تفسير آيةٍ من كتاب اللهِ تعالى ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦] فنحن ننظر كيف خَلَقَ السماءَ وكيف بناها وكيف صانها عن الفُروج.

---

(١) أخرجه بنحوه مطولاً الحارث بن أبي أسامة في مسنده (٥٦٤ - بغية الباحث).

(٢) هو عمر بن إبراهيم أبو الفتح النيسابوري، شاعر فيلسوف فارسي، كان عالماً بالرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ. توفي سنة (٥١٥هـ). الأعلام ٥/٣٨.

الثامن: أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لمَّا استدلَّ على إثبات الصانعِ تعالى بقوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] قال له نُمروذ: أتدَّعي أنَّه يحيي ويُميت بواسطة الطبائعِ والعناصرِ أو لا بواسطتها؟ فإن ادَّعيتَ الأوَّل، فذلك ممَّا لا تجده ألبتَّة؛ لأنَّ كلَّ ما يحدث في هذا العالَمِ فهو بواسطة العناصرِ والحركاتِ الفلكية، وإن ادَّعيتَ الثاني، فمثلُ هذا الإحياءِ والإماتةِ حاصلٌ منِّي ومن كلِّ أحد، وهو المرادُ بقوله: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة:٢٥٨] ثم إنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم ينازعْ في كون هذه الحوادثِ السفليةِ مرتبطةً بالحركات الفَلَكية، بل أجاب بأنَّ اللهَ تعالى هو المبدأُ لتلك الحركات، فيكون الفعلُ منه سبحانه حقيقة، والواحدُ منَّا لا يقدر على تحريك الأفلاك، على خلاف التحريكِ الإلهيّ، وهذا هو المرادُ بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وإذا عرفتَ نهجَ الكلامِ في هذا الباب، عرفتَ أنَّ القرآنَ العظيمَ مملوءٌ من تعظيم الأجرامِ الفلكية، وتشريفِ الكراتِ الكوكبية.

وأمَّا الأخبارُ فكثيرة، منها ما رُوي أنَّه عليه الصلاة والسلام نهى عن استقبال الشمسِ والقمرِ واستدبارِهما عند قضاءِ الحاجة[(١)]. ومنها أنَّه لمَّا مات ولدُه ﷺ إبراهيم، انكسفت الشَّمس، فقال الناس: إنَّما انكسفت لموت إبراهيم، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان من آيات اللهِ تعالى، لا ينكسفانِ لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصَّلاة»[(٢)] ومنها ما روى ابنُ مسعودٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا ذُكر القدرُ فأمسكوا، وإذا ذُكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجومُ فأمسكوا»[(٣)] ومن الناس مَن يروي أنَّه ﷺ قال: «لا تسافروا والقمرُ في العقرب»[(٤)] ومنهم مَن يرويه عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه[(٥)]، وإن كان المحدِّثون لا يقبلونه.

---

(١) قال ابن حجر في التلخيص الحبير ١/١٠٣: قال النووي في شرح المهذب: هذا حديث باطل لا يُعرَف. وقال ابن الصلاح: لا يُعرف وهو ضعيف. . . .

(٢) أخرجه البخاري (١٠٤٦)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة ﵂.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤٢٧) و(١٠٤٤٨) من حديث ثوبان وعبد الله بن مسعود ﵄.

(٤) ذكره الصغاني في الموضوعات (٩٩).

(٥) وهو من الكذب عليه رضي الله تعالى عنه كما سيَرِدُ.

وأمَّا الآثارُ فكثيرةٌ أيضاً، فعن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّ رجلاً أتاه آخرَ الشهرِ فقال: أُريد الخروجَ في تجارة، فقال: تريد أن يمحقَ اللهُ تعالى تجارتَك، استقبل هلالَ الشهرِ بالخروج.

وعن عكرمةَ أنَّ يهوديًّا منجِّماً قال له ابنُ عباس: ويحكَ، تخبرُ الناسَ بما لا تدري، فقال: إنَّ لك ابناً في المكتب يحمُّ غداً ويموت في اليوم العاشر، فقال ابنُ عباس: ومتى تموت أنت؟ قال: على رأس السَّنة، ثم قال له: ولا تموتُ أنت حتى تعمَى، فكان كلُّ ذلك.

وعن الشعبيِّ قال: قال أبو الدَّرداء: لقد فارق رسولُ اللهِ ﷺ وترَكَنا ولا طائرٌ يطير بجناحيه إلَّا ونحن ندَّعي فيه علماً. وليست الكواكبُ موكلةً بالفساد والصَّلاح، ولكن فيها دليلُ بعضِ الحوادث، عُرف ذلك بالتجربة.

وجاءَ في الآثار أنَّ أوَّلَ مَن أُعطي هذا العلمَ آدمُ عليه السلام، وذلك أنَّه عاش حتى أَدرك من ذرِّيته أربعين ألفَ أهلِ بيت، وتفرَّقوا عنه في الأرض، وكان يغتمُّ لخفاءِ خبرهم، فأكرمه اللهُ تعالى بهذا العلم، فكان إذا أراد أن يعرفَ حالَ أحدِهم، نظر في النُّجوم فعرفه.

وعن ميمون بنِ مهرانَ أنَّه قال: إيَّاكم والتكذيبَ بالنجوم؛ فإنَّه من علم النبوَّة.

ورُوي عن الشافعيِّ أنَّه كان عالماً بالنُّجوم، وجاء لبعض جيرانِه ولد، فحكم له بأنَّ هذا الولدَ ينبغي أن يكونَ على عضوه الفلانيِّ خالٌ صفتُه كذا وكذا، فوُجد الأمرُ كما قال.

وروى ابنُ إسحاق أنَّ المنجِّمين أَخبروا فرعونَ أنَّه سيجيء ولدٌ من بني إسرائيلَ يكون هلاكُه على يده، وكذا كان، كما قصَّ الله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤].

وأمَّا المعقول، فهو أنَّ هذا العلمَ ما خلت عنه مِلَّةٌ من المِلَل، ولا أمةٌ من الأُمم، ولم يزالوا مشتغلين به، معوِّلين عليه في معرفةِ المصالح، ولو كان فاسداً

بالكلِّية، لاستحال إطباقُ أهلِ المشرقِ والمغرب من أوَّل بناءِ العالَم إلى آخره عليه، والتجاربُ في هذا البابِ أكثرُ من أن تُحصَى. اهـ كلامُه.

ولَعمري لقد نثر الكِنانة، ونفض الجُعبة، واستفرغ الوُسع، وبذل الجهد، وروَّج وبهرج، وقعقعَ وفرقع، ومن غير طحنٍ جعجع، وجمع بين ما يُعلم بالضَّرورة أنَّه كذبٌ على رسول اللهِ ﷺ وعلى أصحابه، وما يُعلم بالضَّرورة أنَّه خطأٌ في تأويل كلامِ اللهِ تعالى ومعرفةِ مرادهِ سبحانه، ولا يروج ما ذكره إلَّا على مُفرِطٍ في الجهل، أو مقلِّدٍ لأهل الباطلِ من المنجِّمين.

وإن أردت الإيضاحَ وأَحببتَ الاتِّضاح، فاسمعْ لما نقول: ما ذكره من الاستدلالات أوهَى من بيوت العناكب، وأشبهُ شيءٍ بنار الحُباحب.

فأمَّا الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ ففيه أنَّا لا نسلِّم أنَّ هناك قَسَماً بالنجوم، فقد رُوي عن ابن مسعودٍ أنَّ المرادَ بالخنَّس بقرُ الوحش، وهي روايةٌ عن ابن عباس، واختاره ابنُ جبير، وحكى الماورديُّ[1] أنَّها الملائكة. وإذا سلِّم ذلك، بناءً على أنَّه الذي ذهب إليه الجمهور، فأيُّ دلالةٍ فيه على التأثير، وقد أَقسم سبحانه بالليل والنهارِ والضُّحى، ومكَّة، والوالدِ وما ولد، والفجرِ وليالٍ عشرٍ والشفعِ والوَتر، والسماءِ والأرض، واليومِ الموعودِ وشاهدٍ ومشهود، والمرسَلات، والعاصفات، والنَّاشرات، والفارقات، والنَّازعات، والنَّاشطات، والسَّابحات، والسَّابقات، والتينِ والزيتونِ وطورِ سِينين، إلى غير ذلك، فلو كان الإقسام بشيءٍ دليلاً على تأثيره، لَزِمَ أن يكونَ جميعُ ما أَقسم به تعالى مؤثِّراً، وهم لا يقولون به، وإنْ لم يكن دليلاً، فالاستدلالُ به باطل.

ومثلُه في ذلك الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ وقد فسَّر غيرُ واحدٍ مواقعَ النجومِ بمنازل القرآنِ ونجومِه التي نزلت على النبيِّ ﷺ في مدَّة ثلاثٍ وعشرين سنة، وكذا الاستدلالُ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾﴾.

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢١٦.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ فلم يقل أحدٌ من الصَّحابة والتابعين وعلماءِ التفسيرِ أنَّه إقسامٌ بالنجوم؛ فهذا ابنُ عباسٍ وعطاءٌ وعبدُ الرحمن بنُ سابطٍ وابنُ قتيبةَ[1] وغيرُهم قالوا: إنَّ المرادَ بالمدبِّرات أمراً الملائكة، حتى قال ابنُ عطية[2]: لا أحفظ خلافاً في ذلك. وكذلك «المقسمات أمراً» فتفسيرُهما بالنُّجوم تفسيرُ المنجِّمين ومَن سلك سبيلَهم، وهو تفسيرٌ بالرأي، والعياذُ بالله تعالى.

وأمَّا وصفُه تعالى بعضَ الأيامِ بالنُّحوسة كما في الآية التي ذكرها، فليس ذلك لتأثير الكواكبِ ونحوستِها بحسَب ما يزعم المنجِّم، بل لأنَّ الله تعالى عذَّب أعداءه فيها، فهي أيامٌ مشائيمُ على الأعداء، فوصفُ تلك الأيامِ بنَحِسات كوصف يومِ القيامةِ بأنَّه عسيرٌ على الكافرين.

وكذا يقال في قوله تعالى: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ وليس «مستمر» فيه صفةَ «يوم» بل هو صفة «نحس»، أي: نحسٍ دائم، لا يُقلع عنهم كما تقلع مصائبُ الدُّنيا عن أهلها. والقولُ بأنَّه صفةُ «يوم» وأنَّ المرادَ به يومُ أربعاء آخِر الشهرِ وأنَّه نحسٌ أبداً، غلط، ولا يكاد المنجِّم يزعم نحوسةَ يومِ أربعاء آخر الشهرِ ولو شهر صفر أبداً، بل كثيراً ما يحكم بغاية سعدِه حسبَما تقتضيه الأوضاعُ الفلكيةُ فيه بزعمه.

وأمَّا استدلالُه بالآيات الدالَّةِ على أنَّه سبحانه وضع حركاتِ هذه الأجرامِ على وجهٍ يُنتفع بها في مصالح هذا العالَم، فمن الطَّرائف؛ إذ الأليق ـ لو صحَّ زعمُ المنجِّم ـ أنْ يذكرَ في الآية ما تقتضيه النجومُ من السَّعد والنَّحس، وتعطيه من السَّعادة والشَّقاوة، وتهبه من الأعمار والأرزاقِ والعلومِ والمعارف، وسائرِ ما في العالَم من الخير والشر؛ فإنَّ العِبرةَ بذلك أعظمُ من العِبرة بمجرَّد الضياءِ والنور، ومعرفةِ عددِ السِّنينَ والحساب.

وأمَّا ما ذكره عن إبراهيمَ عليه السلام من أنه تمسَّك بعلم النُّجومِ حين قال: «إني سقيم» فسقيمٌ جدّاً، وقد سمعتَ ما قيل في الآية، ولا ينبغي أن يظنَّ بإمام

---

(١) في غريب القرآن ص٥١٢.

(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١.

الحنفاءِ وشيخِ الأنبياءِ وخليلِ ربِّ الأرضِ والسماءِ أنَّه كان يتعاطى علمَ النجومِ ويأخذ منه أحكامَ الحوادث، ولو فُتح هذا البابُ على الأنبياءِ عليهم السلام، لاحتمل أن يكونَ جميعُ أخبارِهم عن المستقبَلات من أوضاع النجومِ لا من الوحي. وهو كما ترى.

وأمَّا الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وأنَّ المرادَ به كِبَرُ القدرِ والشرفِ لا كبرُ الجثَّة، ففي غاية الفساد؛ فإنَّ المرادَ من الخلق هاهنا الفعلُ لا المفعول، والآيةُ للدَّلالة على المعاد، أي: إنَّ الذي خلق السماواتِ والأرضَ وخلقُهما أكبرُ من خلقكم كيف يُعجزه أن يُعيدَكم بعد الموت؟! ونظيرُها قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ وأين هذا من بحث أحكامِ النُّجوم وتأثيراتِها، ومثلُ هذا الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ فإنَّ خلقَ السماواتِ والأرضِ من أعظم الأدلَّةِ على وجود فاطرِهما وكمالِ قدرتِه وحكمتِه وعِلمه وانفرادِه بالرُّبوبية، ومَن سوَّى بينهما وبين البقَّةِ فقد كابر، ولذا ترى الأشياءَ الضعيفة، كالبعوضة والذبابِ والعنكبوت، إنمَّا تُذكر في سياق ضربِ الأمثال، مبالغةً في الاحتقار والضَّعف، ولا تُذكر في سياق الاستدلالِ على عظمةِ ذي الجلالِ جلَّ شأنُه، على أنَّ الآيةَ لو دلَّت على أنَّ للكواكب تأثيراً، لَدلَّت على أنَّ للأرض تأثيراً أيضاً كالكواكب، وهم لم يقولوا به.

وما ذكره بعدُ من أنَّ دلالةَ حصولِ الحياةِ في أبدانِ الحيواناتِ أقوى من دلالة السماواتِ والأرض. . إلى آخر ما قال، في حيِّز المنع. ونظيرُ ذلك الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ فإنَّه لا يدلُّ أيضاً على أنَّ للكواكب تأثيراً، وغايةُ ما تدلُّ عليه هذه الآيةُ ونظائرُها أنَّ تلك المخلوقاتِ فيها حِكَم ومصالح، وليست باطلة، أي: خاليةً عن ذلك، ونحن نقول بما تدلُّ عليه، ولكن لا نقولُ بأنَّ تلك الحكمَ هي الإسعادُ والإشقاء، وهبةُ الأعمارِ والأرزاق، إلى غير ذلك ممَّا يزعمه المنجِّمون، بل هي الآثارُ الظاهرةُ في عالَم الطبيعة ـ على ما سمعت ـ ونحوها، كالدَّلالة على وجود الصانعِ وكثيرٍ من صفاته جلَّ شأنُه التي

يُنكرها الكفرة، ولا مانعَ من أن يقال: خلق اللهُ تعالى كذا لتظهرَ دلالتهُ على كذا، ولا تتعيَّن العبارةُ التي ذكرها، على أنَّه لا بأسَ بها عند تدقيقِ النظر. ولعل ما قاله من فروع كونِ الماهيَات غيرَ مجعولة، والكلامُ فيه شهير.

وأمَّا ما ذكره عن عمرَ بنِ الخيَّام، فهو على طرف الثُّمام.

وأمَّا ما ذكره في محاجَّة إبراهيمَ عليه السلام وتقريرِ المناظرةِ على ما قرَّره، فلم يقل به أحدٌ من المفسِّرين؛ سلفِهم وخلفِهم، بل قد يُقطع بأنَّه لم يخطرْ بقلب المشركِ المناظر، وما هو إلَّا تفسيرٌ بالرأي والتشهِّي، نعوذ باللهِ تعالى من ذلك.

وأمَّا استدلالُه بما رُوي من نهيه عليه الصلاة والسلام عن استقبال الشمسِ والقمرِ عند قضاءِ الحاجة، فبعيدٌ عن حاجته، بل لا دلالةَ للنهي المذكورِ على تأثير الكواكبِ الذي يزعمونه، وإلَّا لدلَّ النهيُ عن استقبال الكعبةِ عند قضاءِ الحاجةِ على أنَّ لها تأثيراً، على أنَّ بعضَ الأجِلَّة[1] قد ذكر أنَّ ذلك النهيَ لم يُنقَل فيه عن رسول اللهِ ﷺ كلمةٌ واحدة، لا بإسنادٍ صحيحٍ ولا ضعيف، ولا متَّصلٍ ولا مرسل[2]، وإنَّما قال بعضُ الفقهاءِ في آداب التخلِّي: ولا يَستقبل الشمسَ والقمر، فقيل: لأنَّ ذلك أبلغُ في التستُّر، وقيل: لأنَّ نورَهما من نوره تعالى، وقيل: لأنَّ اسمَ اللهِ تعالى مكتوبٌ عليهما.

وأمَّا ما ذكر من حديث كسوفِ الشمسِ يومَ موتِ إبراهيمَ وقولِه عليه الصلاة والسلام ما قال، فصحيح، لكن لا يدلُّ على ما يزعمه المنجِّمون، وصدرُ الحديثِ يدلُّ على أنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان، وليسا بربَّين ولا إلهين، ففيه إشارةٌ إلى نفي التصرُّفِ عنهما. وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «لا ينكسفانِ لموت أحدٍ ولا لحياته» قولان: أحدُهما: أنَّ موتَ أحدٍ وحياتَه لا يكونان سبباً لانكسافهما. وثانيهما: أنَّه لا يحصلُ عن انكسافهما موتٌ ولا حياة، وإنَّما ذلك تخويفٌ من اللهِ

(١) جاء في هامش الأصل: ابن القيم عليه الرحمة. اهـ منه.

(٢) القائل ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة ص٥٤٩-٥٥٠.

تعالى لعباده، أَجرى العادةَ بحصوله في أوقاتٍ معلومةٍ بالحساب؛ لطلوع الهلالِ وإبدارِه وسِرَاره.

فأمَّا سببُ كسوفِ الشمس، فتوسُّطُ القمرِ بين جِرمِ الشمسِ وأبصارنا، كسحابةٍ تمرُّ تحتها، فإنْ لم يكن للقمر عرض، ستر عنا كلَّ الشمس، وإنْ كان له عرض، فبِقَدْرِ ما يوجبه عرضُه.

وأما سببُ خسوفِ القمر، فهو توسُّطُ الأرضِ بينه وبين الشَّمس، حتى يصيرَ ممنوعاً من اكتساب النُّورِ من الشمس ويبقى ظلامُ ظلِّ الأرضِ المخروطِ في ممرِّه، فقد يقع كلُّه في المخروط، وقد يقع بعضُه فيه ويبقى بعضُه الآخَرُ خارجاً.. إلى آخر ما قرِّر في موضعه، وليس في الشَّرع ما يأباه.

والوقوفُ على وقت الكسوفِ والخسوفِ ومقدارِهما أمرٌ سهل، ولا يَلزم من صدق المنجِّم في ذلك صدقُه فيما يزعم من التأثيرات، وما الإخبارُ بهما إلَّا كالإخبار بوقت طلوعِ الشمسِ في يومِ كذا في ساعةِ كذا، وكالإخبار بوقت الهلالِ والإبدارِ والسرار.

ثم إنَّا لا نُنكر أنَّ اللهَ تعالى يُحدث عند الكسوفَين من أقضيته وأقدارِه ما يكون بلاءً لقومٍ ومصيبةً لهم، ويجعل الكسوفَ سبباً لذلك؛ ولهذا أَمر ﷺ عند الكسوفِ بالفزع إلى ذِكر اللهِ تعالى والصلاةِ والعَتاقةِ والصَّدقة، لأنَّ هذه الأشياءَ تكون سبباً لدفع موجبِ الكسفِ الذي جعله اللهُ تعالى سبباً لما جعله، فلولا انعقادُ سببِ التخويف، لَمَا أمر عليه الصلاة والسلام بدفع موجبِه بهذه العبادات. ولله تعالى في أيام دهرِه أوقاتٌ يُحدث فيها ما يشاء من البلاءِ والنَّعماء، ويقضي من الأسبابِ بما يدفع موجبَ تلك الأسبابِ لمن قامت به، أو يقلِّله، أو يخفِّفه، فمَن فزع إلى تلك الأسبابِ أو بعضِها اندفع عنه الشرُّ الذي جعل اللهُ تعالى الكسوفَ سبباً له أو بعضُه؛ ولهذا قلَّما يسلم أطرافُ الأرضِ حيث يخفَى الإيمانُ وما جاءت به الرسلُ فيها من شرٍّ عظيمٍ يحصل بسبب الكسوف، ويسلم منه الأماكنُ التي يظهر فيها نورُ النبوَّة والقيامُ بما جاءت به الرُّسل، أو يقلُّ فيها جدّاً.

وقد جاء أنَّه ﷺ لمّا كُسفت الشمس في عهده قام فَزِعاً مسرعاً يجرُّ رداءه، ونادى في الناس: «الصلاة جامعة» وخَطَبهم بتلك الخطبةِ البليغة، وأخبر أنَّه لم يرَ كيومه ذلك في الخير والشرّ، وأمرهم عند حصولِ مثلِ تلك الحالةِ بالعَتاقة والصدقةِ والصلاةِ والتوبة[1]، وما ذلك إلَّا لكونه عليه الصلاة والسلام أعلمَ الخلقِ بالله تعالى وبأمره وشأنِه وتصريفِه أمورَ مخلوقاتِه وتدبيرِه، وأنصحَهم للأمَّة، وأشْفَقَهم على العباد، ولم يبيِّن لهم عليه الصلاة والسلام أسبابَ الكسوفين وحسابَهما؛ لأنَّ الجهلَ بذلك لا يضرّ، والعلم به لا ينفع نفعَ العلمِ بما جاءت به الرُّسلُ عليهم السلام.

وقد يقال: الأمرُ بالصَّلاة عندهما كالأمر بالصَّلاة عند طلوعِ الفجرِ والغروبِ والزَّوال، مع تضمُّن ذلك رفعَ موجبِهما الذي جعلهما الله تعالى سبباً له.

ومن الناس مَن أنكر أن يكونَ الكسوفان سببين لشيءٍ من البلاءِ أصلاً، وأنَّ سببَ حصولِهما ليس ما أطال الكلامَ فيه المنجِّمون ومرَّ بعضُه، بل السببُ هو تجلِّي اللهِ تعالى عليهما؛ لِمَا أخرجه ابنُ ماجه في «سننه» والإمامُ أحمدُ والنَّسائيُّ[2] من حديث النعمانِ بن بشيرٍ قال: انكسفت الشمسُ على عهد النبيِّ ﷺ، فخرج فزعاً يجرُّ ثوبَه حتى أتى المسجد، فلم يزل يصلِّي حتى انجلت، ثم قال: «إنَّ ناساً يزعمون أنَّ الشمسَ والقمرَ لا ينكسفان إلَّا لموت عظيمٍ من العظماء، وليس كذلك، إنَّ الشمسَ والقمرَ لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا تجلَّى اللهُ تعالى لشيءٍ من خلقه خَشَعَ له».

وأنَّ الأمرَ بالصلاةِ لظهور آثارِ تجلِّي الجلالِ في هذين الجِرمين العظيمين، أو هو كالأمر بالصَّلاة عند غروبِ الشمسِ وطلوعِ الفجر مثلاً، وحكمتُه كحكمته، والقائلون بهذا مكابرون للفلاسفة في أشياءَ لا ينبغي المكابرةُ فيها، ولعلها تضرُّ بالدِّين، وتصيرُ سبباً لطعن الملحدين، فيكابرون في كون الأفلاكِ مستديرةً والأرضِ كُرَية، وأنَّ نورَ القمرِ مستفادٌ من ضياءِ الشمس، وأنَّ الكسوفَ القمري عبارة عن

(١) سلف حديث الكسوف قريباً ص٩٦.

(٢) سنن ابن ماجه (١٢٦٢)، ومسند أحمد (١٨٣٥١)، وسنن النسائي ٣/ ١٤١.

انمحاء نور القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس، من حيث إنَّ نورَه مقتبسٌ منها، وأنَّ الكسوفَ الشمسيَّ عبارةٌ عن وقوع جِرم القمرِ بين الناظرِ والشمسِ عند اجتماعِهما في العُقدتين على دقيقةٍ واحدة، وقولُهم بتأثير الأسبابِ المحسوسةِ في مسبَّباتها وإثباتِ القُوى والطبائعِ والأفعالِ والانفعالاتِ إلى غير ذلك، ممَّا تقوم عليه الأدلةُ اليقينيةُ ولا تعارضه النصوصُ الشرعيةُ القطعية.

وما ذكروه من الحديث تعقَّبه حجَّةُ الإسلام الغزاليُّ فقال: إنَّ زيادة: فإنَّ الله[1].. إلخ، لم يصحَّ نقلُها، فيجب تكذيبُ قائلها، ولو صحَّت، لَكان تأويلُها أهونَ من مكابرة أمورٍ قطعية، فكم من ظواهرَ أوِّلت بالأدلة العقليةِ التي لم تبلغْ في الوضوح إلى هذا الحدّ، وأعظمُ ما يفرح به الملحدةُ أن يصرِّحَ ناصرُ الشرعِ بأنَّ هذا وأمثالَه على خلاف الشَّرع، فيسهل عليه إبطالُ الشرعِ إن كان شرطُه أمثالَ ذلك. اهـ.

وليس الأمرُ في هذه كما قال من عدم الصِّحَّة، فإنَّ إسنادَها لا مطعنَ فيه، فابنُ ماجه يروي الحديثَ بهذه الزيادةِ عن محمد بنِ المثنَّى وأحمدَ بنِ ثابتٍ وحُميدِ بن الحسن، وهم يروونه عن عبد الوهَّاب، عن خالدٍ الحذَّاء، عن أبي قِلابة، عن النُّعمان بنِ بشير، وكلُّ هؤلاء ثقاتٌ حفَّاظ[2]. نعم الحديثُ الخالي عنها رواه بضعةَ عشرَ صحابيّاً، منهم عليٌّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وابنُ عباس، وعائشة، وأسماء أختها، وأُبيُّ بن كعب، وجابرُ بن عبدِ الله، وسَمُرةُ بن جُندب، وقَبيصة الهلالي، وعبدُ الله بن عَمرو، ومن هنا خاف بعضُ الأَجلَّة أن تكونَ مدرجةً في الحديث، لكنه خلافُ الظاهر، وحينئذٍ يقال: إنَّ كسوفَ الشمسِ والقمرِ يوجب لهما ضَعْفَ سلطانِهما وبهائهما، وذلك يوجبُ لهما من الخشوع والخضوعِ لربِّ العالمين وعَظَمتِه وجلالِه سبحانه ما يكون سبباً لتجلِّيه عزَّ وجلَّ لهما، ولا يستنكَر أن يكونَ تجلِّي اللهِ سبحانه لهما في وقتٍ معيَّن كما يدنو سبحانه من أَهل الموقفِ عشية

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: فإذا تجلَّى الله...

(٢) إلا أن رواية أبي قلابة عن النعمان بن بشير مرسلة فيما ذكر يحيى بن معين، وفيها اضطراب أيضاً، انظر مسند أحمد وقد سلف قريباً.

عرفة، وكما يَنزل تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا عند مُضيِّ نصفِ الليل، فيُحدث لهما ذلك التجلِّي خشوعاً آخَرَ ليس هو الكسوف، فإنه إنَّما حدث بالسَّبب الذي عرفت، ولم يقل النبيُّ ﷺ: إنَّ اللهَ تعالى إذا تجلَّى لهما انكسفا، بل قال: «فإذا تجلَّى اللهُ لشيءٍ من خلقِه خشع له»(١). وفي رواية الإمامِ أحمد: «إذا بدا اللهُ لشيءٍ من خلقه خَشَعَ له» فهاهنا خشوعان: خشوعٌ أوجبه كسوفُهما الحادثُ من وضعهما الخاصّ، وخشوعٌ أوجبه تجلِّيه تعالى لهما لذلك الخشوعِ الذي أوجبه الكسوف. وهذا توجيهٌ لطيفُ المنزع، يقبله العقلُ المستقيمُ والفطرةُ السليمةُ إن شاء اللهُ تعالى.

وأمَّا استدلالُه بحديث ابنِ مسعود، ففيه ـ على ما قيل ـ أنَّ الحديثَ لو ثبت، لَكان حجَّةً عليه لا له؛ إذ لو كان علمُ النجومِ حقًّا، لم يأمر ﷺ بالإمساك عند ذكرِ النُّجوم، فالظاهرُ أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يأمرْ بذلك إلَّا لأنَّ الخوضَ في ذلك خوضٌ فيما لا علمَ للخائض به، فتأمَّل.

وأمَّا حديثُ النهي عن السفر والقمر في العقرب، فصحيحٌ من كلام المنجِّمين، دونَ رسولِ ربِّ العالَمين ﷺ، وروايتُه عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه كذبٌ أيضاً، والمشهورُ عنه خلافُ ذلك، كما سمعتَ في قصَّة خروجِه لقتال الخوارج.

وأمَّا ما احتجَّ به من الأثر عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنَّ رجلاً أتاه.. إلخ، فلا يُعلم ثبوتُه عنه رضي الله عنه، والكذَّابون كثيراً ما يُنفقون سِلَعَهم الباطلةَ بنسبتها إليه أو إلى أهل بيتِه، ثم لو صحَّ عنه، فليس فيه تعرُّضٌ لثبوت أحكامِ النجومِ بوجه، وقد جاءَ عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: «اللهمَّ بارِكْ لأمَّتي في بُكورها»(٢) ونسبةُ أوَّل الشهرِ إليه كنسبة أولِ النَّهار إليه، وكان صخرٌ راوي الحديثِ إذا بعث تجارةً له، بعثها في أوَّلَ النهار، فأثرى وكثر مالُه. ولا يَبعُد أن يكونَ أوَّلُ السنةِ كأوَّل النهارِ أيضاً، فالأوائل مزيةُ القوَّة، كما هو مشاهدٌ في الشباب والشَّيخوخة،

---

(١) لم نقف عليها عند أحمد، وإنما هي في رواية النسائي.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٦)، والترمذي (١٢١٢)، وابن ماجه (٢٢٣٦) من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه.

ولله تعالى تجلِّياتٌ في الأزمنة والأمكنةِ والأشخاص، وليس ذلك من تأثير الكواكبِ في شيء، ومثلُ هذا يقال فيما ذكره الكرمانيّ، وقد مرّ.

وأمَّا ما ذكره عن اليهوديِّ الذي أخبر ابنَ عباسٍ ﷺ، فلا نسلِّم صحَّته، وإنْ سُلِّم ذلك، فهو من جنس إخبار الكهَّانِ بشيءٍ من المغيَّبات، وقد أخبر ابنُ الصيَّاد النبيَّ ﷺ بما أَخبر، فقال عليه الصلاةُ والسلام له: «إنَّما أنت من إخوان الكهَّان»[1]، وعِلمُ تقدمة[2] المعرفةِ لا يختصُّ بما ذكر المنجِّمون، بل له عدةُ أسبابٍ يصدق الحكمُ معها ويكذب، منها الكَهانة، ومنها المنامات، ومنها الفألُ والزَّجر وضربُ الحصَى والخطُّ والكفُّ والكشفُ المستندُ إلى الرِّياضة، وهو كشفٌ جزئيٌّ عن بعض الحوادث، ويشترك فيه المؤمنُ والكافر، ومنها غيرُ ذلك. وللعمَّال في البحر والسُّعاة ونحوِهم في البَرِّ علاماتٌ يعرفون بها أوقاتَ المطرِ والصحوِ والبردِ والرِّيح وغيرِها، وقلَّما يُخطئون في أخبارهم، بل صوابُهم في ذلك أكثرُ من صواب المنجِّم.

وأمَّا ما ذكره من حديثِ أبي الدرداء، فالمحفوظُ فيه: توفِّي رسولُ الله ﷺ وتَركنا وما طائرٌ يقلِّب جناحَيه إلَّا وقد ذكر لنا منه علماً[3]. وفيه رواياتٌ أخرُ صحيحةٌ أيضاً[4]، وكلُّها ليس فيها: وليست الكواكب.. إلخ[5]، فهو من أعظم الأدلَّةِ على بطلان دعوى المنجِّمين؛ إذ لم يذكرْ عليه الصلاة والسلام من أحكام النجومِ شيئاً ألبتَّة، وقد علَّمهم علمَ كلِّ شيءٍ حتى الخِراءة[6].

وأمَّا قولُه: إنَّه جاء في الآثار أنَّ أوَّل من أُعطي هذا العلمَ آدمُ عليه السلام.. إلخ، فكَذِبٌ وافتراءٌ على آدمَ عليه السلام، وقد عمل هذا الكاذبُ

---

(١) سلف خبر ابن الصياد ١٩/ ٣١٤.

(٢) في الأصل و(م): مقدمة، والمثبت من مدارج السالكين ص ٥٧٠، وهو الصواب.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٥١٠٩)، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٤.

(٤) انظر مسند الإمام أحمد (١٨٢٢٤) و(٢١٣٦١).

(٥) يعني بذلك قول أبي الدرداء المتقدم ص ٩٥-٩٦.

(٦) كما ورد في حديث سلمان ﷺ، وهو عند مسلم (٢٦٢).

المفتري بالمَثَل السائر: إذا كذبتَ فأبعِدْ شاهدَك، ونحوُه ما رُوي عن ميمون بنِ مهران.

وأمَّا ما نُسب إلى الشافعي، فهو بعضٌ من حكايةٍ ذكرها أبو عبد اللهِ الحاكمِ فيما ألَّفه في مناقبه، والحكاياتُ التي ذُكرت عنه في أحكام النجومِ ثلاث:

إحداها: قال الحاكم: قُرئ على أبي يعلَى حمزةَ بنِ محمد العلويِّ وأكثرُ ظنِّي أنِّي حضرته: حدَّثنا أبو إسحاقَ إبراهيمُ بن محمدِ بن العباسِ الأَزْديّ في آخرين قالوا: حدَّثنا محمدُ بن أبي يعقوبَ الجوال الدِّينوري، حدَّثنا عبدُ الله بنُ محمدٍ البلوي، حدَّثني خالي عُمارةُ بن زيدٍ قال: كنت صديقاً لمحمد بنِ الحسن، فدخلتُ معه يوماً على هارونَ الرشيد، فساءَلَه، ثم إنِّي سمعت محمدَ بن الحسنِ وهو يقول: إنَّ محمدَ بن إدريسَ يزعم أنَّه للخلافة أهل(١)، قال: فاستشاط هارونُ من قوله غضباً، ثم قال: عليَّ به، فلمَّا مَثُل بين يديه، أَطرق ساعةً ثم رفع رأسَه إليه فقال: إيهاً(٢)، قال الشافعي: ما إيهاً يا أميرَ المؤمنين! أنت الداعي وأنا المدعوّ، وأنت السائلُ وأنا المجيب. فذكر حكايةً طويلةً سأله فيها عن العلوم ومعرفتِه بها، إلى أن قال: كيف علمُك بالنُّجوم؟ قال: أعرف الفلكَ الدائرَ والنجمَ السائر، والقطبَ الثابتَ والمائيَّ والناري، وما كانت العربُ تسمِّيه الأنواءَ ومنازلَ النيِّرين، والاستقامةَ والرجوع، والنحوسَ والسُّعود، وهيئاتها وطبائعَها، وما أستدلُّ به في بَرِّي وبحري، وأَستدلُّ في أوقات صلاتي، وأعرف ما مضى من الأَوقات في إمسائي وإِصباحي وظَعْني في أسفاري، ثم ساق العلومَ على هذا النَّحو.

ومَن له علمٌ بالمنقولات يعلم أنَّ هذه الحكايةَ كذبٌ مختلَق، وإفكٌ مفترًى على الشافعي، والبلاءُ فيها من عند محمدِ بن عبد الله البَلَوي، فإنَّه كذَّاب وضَّاع، وهو الذي وضع رحلةَ الشافعيِّ وذكر فيها مناظرتَه لأبي يوسفَ بحضرة الرشيد، ولم يَرَ الشافعيُّ أبا يوسفَ ولا اجتمع به قطّ، وإنَّما دخل بغدادَ بعد موتِه، ويشهد بكَذِبها أنَّها تدلُّ على أنَّ محمداً وشى بالشافعيِّ إلى الرشيد وأراد قتلَه، ومحمدٌ أجلُّ من

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي مفتاح دار السعادة ص٥٦٥: أن للخلافة أهلاً. ولَعلَّه الصواب.
(٢) يعني: أمراً بالسكوت. النهاية (إيه).

أن يُنسبَ إليه ذلك، وتعظيمُه للشافعيِّ ومحبَّته إياه هو المعروف، كتعظيم الشافعيِّ له وثنائه عليه، وفيها شواهدُ أُخَرُ على الكذب، يعرفها العالمُ بالمنقول إذا اطَّلع عليها كلِّها.

وثانيتُها ـ وهي التي أخذت منها ما ذكرها الإمام ـ قال الحاكم: أخبرنا أبو الوليدِ الفقيهُ قال: حُدِّثت عن الحسن بنِ سفيان، عن حرملةَ قال: كان الشافعيُّ يديم النظرَ في كتب النُّجوم، وكان له صديق، وعنده جاريةٌ قد حَبِلت، فقال: إنَّها تلد إلى سبعةٍ وعشرين يوماً، ويكون في فخذ الولدِ الأيسرِ خالٌ أسود، ويعيش أربعةً وعشرينَ يوماً ثم يموت، فكان الأمرُ كما قال، فأَحرق بعد ذلك تلك الكتبَ وما عاود النظرَ في شيءٍ منها.

وهذا الإسنادُ رجالهُ ثقات، لكنَّ الشأنَ فيمن حدَّث أبا الوليدِ عن الحسن بنِ سفيان، أو فيمن حدَّث الحسنَ عن حرملة، ويدلُّ على كَذِب الحكايةِ أنَّها لو صحَّت، لَوجب أن تُثنَى الخناصرُ على هذا العِلم، وتشدَّ به الأيدي، لا أن تُحرقَ كتبُه ولا يعاوَدَ النظرُ في شيءٍ منها، وأنَّ الطالعَ عند المنجِّمين طالعان: طالعُ مسقطِ النطفة، وهو الطالعُ الأصليُّ الذي يزعمون دلالتَه على وقت الولادة، والحكايةُ لم تتضمَّن أنَّ الشافعيَّ نظر فيه، ولو كان لتضمَّنته. وطالعُ الولادة، وإخبارُ الشافعيِّ قبلها؛ ضرورةَ أنَّه قال: إنَّها تلد إلى سبعةٍ وعشرين يوماً.

وثالثتُها: قال الحاكم: أنبأني عبدُ الرحمن بنُ الحسنِ القاضي، أنَّ زكريا بنَ يحيى الساجيَّ حدَّثهم قال: أخبرني أحمدُ بن محمد بن بنت الشافعيِّ قال: سمعتُ أبي يقول: كان الشافعيُّ وهو حَدَثٌ ينظر في النُّجوم، وما نظر في شيءٍ إلَّا فاق فيه، فجلس يوماً وامرأةٌ تلد، فحسب فقال: تلد جاريةً عوراءَ على فَرجِها خالٌ أسود، وتموت إلى كذا وكذا، فوَلَدت، فكان كما قال، فجعل على نفسه ألَّا ينظرَ فيه أبداً.

وأمرُ هذه الحكايةِ كالتي قبلها، فإنَّ ابنَ بنتِ الشافعيِّ لم يلقَ الشافعيَّ ولا رآه، والشأنُ فيمن حدَّث بها عنه، وأيضاً طالعُ مسقطِ النطفةِ لم يؤخذ، والخبرُ قبل

تحقُّقِ طالعِ الولادة، ثم إنَّ تحقُّقَ هذه الحكايةِ إن كان قبلَ تحقُّقِ الحكايةِ التي قبلها، لم تكد تحقَّق، وإن كان تحقُّقُ تلك قبل، لم تكد هذه تحقَّق، كما لا يخفى على المنصف.

والذي صحَّ عن الشافعيِّ في أمر النجومِ أنَّه كان يعرف ما كانت العربُ تعرفه من علم المنازلِ والاهتداءِ بالنُّجوم في الطُّرقات، وأما غيرُ ذلك من الأحكام التي يزعمها المنجِّمون، فلا. وكان ﷺ شديدَ الإنكار على المتكلِّمين، مُزرياً بهم، حُكمُه فيهم أن يُضرَبوا بالجريد ويطافَ بهم في القبائل، فما تراه يرى في المنجِّمين الذي شاع هَذَيانُهم، وقَبُحَ عند ذوي العقولِ السليمةِ شأنُهم؟ نَعَم كانت له ﷺ اليدُ الطُّولى في علم الفِراسة، وقد خرج إلى اليمنِ لجمع كتبِه، فجمع منها ما جمع، وله فيها حكاياتٌ يُقضَى منها العجب، ولعل إخبارَه بأمر المولودِ - لو صحَّ - من ذلك العِلم، والناقلُ - لجهله أو لأمرٍ آخر - أَسنده للنَّظر في أَحكام النجومِ وقال ما قال.

وأمَّا ما ذُكر عن ابن إسحاقَ من أنَّ فرعونَ كان يقتل أبناءَ بني إسرائيل لإخبار المنجِّمين إياه بأنَّه سيولد لهم مولودٌ يكون هلاكُه على يده، فهو - كما قال بعضُ الأَجِلَّة - من أَخبار أهلِ الكتاب، ومخالفٌ لروايات أكثرِ المفسرين، فإنَّهم أحالوا ذلك على أَخبار الكهَّان. وروى بعضُهم أنَّ قومَه أَخبروه بأنَّ بني إسرائيلَ يزعمون أنَّه يولد منهم مولودٌ يكون هلاكُك على يديه، وفي أخبار الكهَّانِ ما هو أعجبُ من ذلك، ومنها خبرُهم بظهور خاتَم الرُّسل ﷺ وانتشارِ أمرِه. ونحن لا نُنكر علمَ تقدمةِ المعرفةِ بأسبابٍ مفضيةٍ إلى مثل ذلك يختلف قُوى الناسِ في إدراكها وتحصيلها، وإنما كلامُنا مع المنجِّمين في أصول علمِ الأحكام وبيانِ فسادِها وكَذِب أكثرِ الأحكامِ التي يُسندونها إليها.

وأمَّا ما ذكره في الاستدلال بالمعقول من أنَّه ما خلت عن هذا العلمِ مِلَّةٌ من الملل، ولا أمةٌ من الأمم، وأنَّهم لم يزالوا مشتغلين به، معوِّلين في معرفة المصالحِ عليه. . . إلى آخِر ما قال، ففِريةٌ من غير مِرية، ويا عجباً من دعواه إطباقَ أهلِ المشرقِ والمغربِ من أوَّل بناءِ العالَمِ إلى آخره عليه، وهم يقولون: إنَّما أُسِّست

أصولُه وأوضاعُه في زمن هرمس الهرامسة، يَعنون به إدريسَ عليه السلام، وهو بعدَ بناءِ العالَم بكثير. وأيضاً قد ردَّه كثيرٌ من الفلاسفة وجمعٌ غفيرٌ من أَساطين الإِسلام، حتى إنَّه قد أُلِّف ما يزيد على مئة مصنَّف في ردِّه وإبطاله، وقد قال أبو نصرٍ الفارابي: اِعلم أنَّك لو قلَبتَ أوضاعَ المنجِّمين، فجعلتَ الحارَّ بارداً والباردَ حارّاً، والسعدَ نحساً والنحسَ سعداً، والذَّكرَ أنثى والأُنثى ذَكَراً، ثم حكمت، لَكانت أحكامُك من جنس أحكامِهم، تصيب تارةً وتخطئُ تارات. وقد زيَّف أمرَهم ابنُ سينا في كتابَيه: «الشِّفاء» و«النَّجاة» وكذا أبو البركاتِ البغداديُّ في كتاب «التعبير» له.

هذا ما اختاره بعضُ المحقِّقين في الردِّ على المنجِّمين، وأعود فأقول: الذي أَراه في هذا المقام، ويترجَّح عندي من كلام العلماءِ الأعلام، أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يخلق شيئاً باطلاً خالياً عن حِكمةٍ ومنفعة، بل خلق الأشياء؛ علويَّها وسفليَّها، جليلَها ودنيَّها، مشتملةً على حِكَمٍ لا تحصَى، ومنافعَ لا تستقصَى، وإنْ تفاوتت في أفرادها قلَّةً وكثرة، وخصَّ كلًّا منها بخاصَّة لا توجد في غيرها، مع اشتراك الكلِّ في الدَّلالة على وجوده تعالى، ووحدتِه وعلمِه وقدرتِه:

ولله في كلِّ تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أبداً شاهدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنَّه واحدُ[1]

فالأجرامُ العلويةُ مشتركةٌ في هذه الدَّلالة، مختصٌّ كلٌّ منها بخاصَّة، وشأنُ الكواكبِ في خواصِّها وتأثيراتِها كشأن النباتاتِ والمعدنياتِ والحَيَوانيات في خواصِّها وتأثيراتِها. فمنها ما خاصَّته في نفسه غيرُ متوقِّفة على ضمِّ شيءٍ آخَرَ إليه. ومنها ما خاصَّته متوقفةٌ على ضمِّ شيءٍ آخَر. ومنها ما إذا ضمَّ إليه شيءٌ أَسقط خاصتَه وأَبطل منفعتَه. ومنها ما يُعقل وجهُ تأثيره. ومنها ما لا يُعقل. ومنها ما يؤثِّر في مكانٍ دونَ مكان، وزمانٍ دونَ زمان. ومنها ما يؤثِّر في جميع الأزمنةِ والأمكنة، إلى غير ذلك من الأحوال. وكونُها زينةً للسماءِ لا يستدعي نفيَ أن يكونَ فيها منفعةٌ

(١) سلف ١/ ٢٧١.

أخرى على حدِّ ما في الأرض، فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف:٧]. مع اشتمال الأزهارِ وغيرِها على ما تعلمُ وما لا تعلمُ من المنافع. وكذلك كونُها علاماتٍ يُهتدَى بها في ظلمات البرِّ والبحر، وكونُها رجوماً للشياطين.

ولا أقول ببساطة الأفلاك، ولا ببساطة الكواكب، ولا بانحصارِها فيما يشاهَد ببصرٍ أو رصد، ولا بذكورة بعضٍ وأنوثةِ آخَر، إلى كثيرٍ مما يزعمه المنجِّمون. وأقول: إنَّ الله تعالى أودع في بعضها تأثيراً حسبما أودع في أزهار الأرضِ ونحوِها، وإنَّها لا تؤثِّر إلَّا بإذنه عزَّ وجلّ، كما هو مذهبُ السلفِ في سائر الأسبابِ العادية، وإن شئتَ فقل كما قال الأشاعرةُ فيها. وإنَّه لا يَبعُد أن يكونَ بعضُها علاماتٍ لإحداثه تعالى أموراً لا بواسطتها في أحد العالمين العلويِّ والسُّفلي، يعرفها مَن يُوقِفه الله تعالى عليها من ملائكته وخواصِّ عبادِه. وارتباطُ كثيرٍ من السُّفليات بالعُلويات ممَّا قال به الأكابر، ولا يُنكره إلَّا مكابر.

ولا أَنسب أثراً من الآثار إلى كوكبٍ بخصوصه على القطع؛ لاحتمال شركةِ كوكبٍ أو أمرٍ آخَر. نعم الظاهرُ يقتضي كثرةَ مدخليةِ بعضِ الكواكبِ في بعض الآثار، كالقمر في مدِّ البحارِ وجَزرِها، فإنَّ منها ما يأخذ في الازدياد حين يفارق القمرُ الشمسَ إلى وقت الامتلاء، ثم إنَّه يأخذ في الانتقاص، ولا يزال نقصانُه يستمر بحسَب نقصانِ القمرِ إلى المُحاق، ومنها ما يحصل فيه المدُّ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مع طلوع القمرِ وغروبِه، كبحر فارس وبحرِ الهندِ وبحر الصِّين. وكيفيتُه أنَّه إذا بلغ القمرُ مشرقاً من مشارق البحر، ابتدأ البحرُ بالمدّ، ولا يزال كذلك إلى أن يصيرَ القمرُ في وسط سماءِ ذلك الموضع، فإذا زال عن مغربِ ذلك الموضع، ابتدأ المدُّ من تحت الأرض، ولا يزال زائداً إلى أن يصلَ القمرُ إلى وتد الأرض، فحينئذٍ ينتهي المدُّ منتهاه، ثم يبتدئُ الجزرُ ثانياً ويرجع الماءُ كما كان، ومثل المدِّ والجزرِ بحراناتُ الأمراض، فإنَّها بحسب زيادةِ القمرِ ونقصانِه على معنى كثرةِ مدخليةِ ذلك ظاهراً فيها، إلى أمورٍ كثيرة.

ولا أقول: إنَّ لكوكبٍ تأثيراً في السعادة والشقاوةِ ونحوِهما، ولا يَبعُد أن يكونَ كوكبٌ أو كواكبُ باعتبار بعض الأحوالِ علامةً لنحو ذلك يعرفها بعضُ

الخواصّ، ولا وثوقَ بما قاله الأَحكاميُّون، وكلُّ ما يقولونه ظنٌّ وتخمينٌ لا دليلَ لهم عليه، وهم فيما أَسَّسوا عليه أحكامَهم متناقضون، وفي المذاهبِ مختلفون، فللبابليِّين مذهب، وللفُرس مذهب، ولأَهل الهندِ مذهب، ولأهل الصينِ مذهب، وقد ردَّ بعضُهم على بعض، وشهد بعضٌ على بعضٍ بفساد أصولِهم ومبنَى أحكامِهم، فقد كان أوائلُهم من الأَقدمين وكبار رصَّادهم من عهد بطليموس وطيموحارس ومانالارس قد حكموا حكماً في الكواكب، واتَّفقوا على صحَّته، وأَقام الناسُ على تقليدهم وبناءِ الأمرِ على ما قالوه أكثرَ من سبع مئةِ سنة، فجاء من بعدهم خالدُ بن عبد الملكِ المروَزي، وحسنٌ صاحبُ الزِّيج المأموني، ومحمدُ بن الجهم، ويحيى بنُ أبي منصور، فامتحنوا ما قالوا، فوجدوهم غالطين، وأَجمعوا على غلطِهم، وسمَّوا رصدَهم الرصدَ الممتحن.

ثم حدثت بعدَهم بنحو ستِّين سنةً طائفةٌ أخرى زعيمُهم أبو معشرٍ محمدُ بن جعفر، فردَّ عليهم وبيَّن خطأَهم، كما ذكره أبو سعيدٍ شاذانُ المنجِّم في كتاب «أَسرار النُّجوم» له، وفيه: قلتُ لأبي معشر: الذَّنَب باردٌ يابس، فلمَ قلتم: إنَّه يدلُّ على التأنيث؟ فقال: هكذا قالوا، قلت: فقد قالوا: إنَّه ليس بصادق اليَبَس، لكنَّه باردٌ عَفِن ملتوٍ كلُّ الأعراضِ الغائيةِ توهُّم لا يكون شيءٌ منها يقينيًّا، وإنَّما يكون توهُّم أَقوى من توهُّم. ومَن تأمَّل أحوالَ القوم، علم أنَّ ما معهم تفرُّسٌ يصيبون معه ويخطئون.

ثم حدثت بعدَهم طائفةٌ أخرى بنحو سبعين سَنَة، منهم أبو الحسينِ عبدُ الرحمنِ بنُ عمرَ المعروفُ بالصوفيّ، فردَّ على مَن قبله وغلَّطه، وأَلَّف كتاباً بيَّن فيه من الأَغلاط ما بيَّن، وحمله إلى عَضُد الدولةِ ابنِ بويه، فاستحسنه وأَجزل ثوابَه.

ثم جاءت بعد نحوِ ثلاثينَ سنةً طائفةٌ أخرى، منهم كوشيار الدَّيلمي، فأَلَّف «المجمَل في الأَحكام» وجهَّل فيه مَن يحتجُّ للأَحكام من الأَحكاميِّين، وقال عن صناعةِ التنجيم: هي صناعةٌ غيرُ مُبَرْهَنَةٍ، وللخواطر والظنونِ فيها مجال، إلى أنْ قال: ومن المنفردين بعلم الأَحكامِ مَن يأتي على جزئيَّاته بحُجَجٍ على سبيل النظرِ والجدلِ فيظنُّ أنَّها براهين؛ لجهله بطريق البرهانِ وطبيعتِه.

ثم حدثت طائفةٌ أُخرى، منهم منجِّم الحاكم بالدِّيار المصريةِ المعروفُ بالفكري، فوضع هو وأصحابُه رصداً آخَرَ سمَّوه: الرصدَ الحاكمي، فخالفوا فيه أصحابَ الرصدِ الممتحن، وبنَوا أمرَ الأحكامِ عليه.

ثم حدثت طائفةٌ أخرى، منهم أبو الرَّيحانِ البيرونيُّ مؤلِّفُ كتاب «التفهيم إلى صناعةِ التنجيم»، وكان بعد كوشيار بنحو أربعينَ سنة، فخالف مَن تقدَّمه، وأتى من مناقضاتهم والردِّ عليهم بما هو دالٌّ على فساد صناعتِهم، وختم كتابَه بقوله في الخبءِ والضمير: ما أكثرَ افتضاحَ المنجِّمين فيه، وما أكثرَ إصابةَ الزاجرين بما يستعمل من الكلام وقتَ السؤال، ويرونه بادياً من الآثار والأفعالِ على السائل... إلى آخرِ ما قال.

ثم حدثت طائفةٌ أخرى، منهم أبو الصلتِ أميةُ بن عبدِ العزيز الأندلسي، وكان بعد البيرونيِّ بنحو ثمانين عاماً، وكان رأساً في الصِّناعة، ومع هذا اعترف بأنَّ قولَ المنجِّمين هَذَيان.

ثم حدثت طائفةٌ أخرى بالمغرب، منهم أبو إسحاقَ الزرقالُ وأصحابه، وكان بعد أبي الصَّلت بنحو مئةِ سنة، فخالف الأوائلَ والأواخرَ في الصِّناعتين: الرَّصدية، والأحكامية.

وآخرُ ما نعلم حدوثَه زيجُ لالنت والقسيني، وفيه من المخالفةِ لما قبله من الأزياج ما فيه. وقد ذُكر فيه تقويمُ هرشل ومقدارُ حركته، وهو كوكبٌ سيَّار ظفر به هرشلُ أحدُ فلاسفةِ الإفرنجِ وسمَّاه باسمه، ولم يظفرْ به أحدٌ قبله. وهذا الزيجُ أَضبطُ الأزياجِ فيما يزعم المنجِّمون اليوم.

والإفرنجُ على مهارة كثيرٍ منهم بعلم الرَّصدِ لا يقولون بشيءٍ مما يقول به الأَحكاميُّون الأوائلُ والأواخر، ويسخرون منهم.

وقد ذكر مَن يوثق به وجوهاً تدلُّ على فسادِ ما بأيديهم من العلمِ وأنَّه لا يوثَق به:

الأوَّل: أنَّ معرفةَ جميعِ المؤثِّرات الفلكيةِ مما لا تتأتَّى:

أما أوَّلاً: فلأنَّه لا سبيلَ إلى معرفة الكواكبِ إلَّا بواسطة القُوى الباصرة، وإذا كان المرئيُّ صغيراً أو في غاية البعدِ يتعذَّر رؤيتُه، فإنَّ أصغرَ الكواكبِ التي في فلك الثوابت ـ وهو الذي به قوَّة البصر ـ مثلُ كرةِ الأرض بضعةَ عشرَ مرَّة، وكرةُ الأرضِ أعظمُ من كرة عطاردَ كذا مرَّة، فلو قدَّرنا أنَّه حصل في الفلك الأعظم كواكبُ كثيرة، كلٌّ منها كعطارد حجماً، فكيف ترى؟ ونفيُ هذا الاحتمالِ لا بدَّ له من دليل، ومع قيامِه لا يحصل الجزمُ بمعرفة جميعِ المؤثِّرات.

وإنْ قالوا: جاز ذلك إلَّا أنَّ آثارَ هذا الكوكبِ لصغره ضعيفة، فلا تصل إلى هذا العالَم، قلنا: صغرُ الجِرم لا يوجب ضعفَ الأَثر، فقد أثبتُّم لعطارد آثاراً قويةً مع صغره بالنِّسبة إلى سائر السيَّارات، بل أثبتُّم للرأس والذنبِ وسهمِ السعادةِ وسهمِ الغيبِ آثاراً قويَّة، وهي أمورٌ وهمية.

وأمَّا ثانياً: فالمرصودُ من الكواكب المرئيةِ أقلُّ قليلٍ بالنِّسبة إلى غيرِ المرصود، فمن أين لهم الوقوفُ على طبيعة غيرِ المرصود؟

وأمَّا ثالثاً: فلأنَّه لم يحصل الوقوفُ على طبائع جميعِ المرصودِ أيضاً، وقلَّما تكلَّموا في معرفة غيرِ الثوابتِ التي من القَدْرِ الأوَّلِ والثاني.

وأمَّا رابعاً: فآلاتُ الرصدِ لا تفي بضبط الثواني والثوالثِ فما فوق، ولا شكَّ أنَّ الثانيةَ الواحدةَ مثلُ الأرضِ كذا ألف مرة، أو أقلُّ أو أكثر، ومع هذا التفاوتِ العظيمِ كيف الوصولُ إلى الغرضِ وقد قيل: إنَّ الإنسانَ الشديدَ الجري بين رفعِه رجلَه ووضعِه الأخرى يتحرَّك جِرمُ الفلكِ الأقصى ثلاثةَ آلافِ ميل؟ فإذا كان كذلك فكيف ضبطُ هذه المؤثِّرات؟

وأمَّا خامساً: فبتقديراتهم عرفوا طبائعَ هذه الكواكبِ حالَ بساطتها، فهل وقفوا على طبائعها حالَ امتزاجِ بعضِها ببعض، والامتزاجاتُ الحاصلةُ من طبائع ألفِ كوكبٍ أو أكثرَ ـ بحسب الأجزاءِ الفلكية ـ تبلغ في الكثرة إلى حيث لا يَقدر العقلُ على ضبطها.

وأمَّا سادساً: فيقال: هَبْ أنَّا عرفنا تلك الامتزاجاتِ الحاصلةَ في ذلك

الوقت، فلا ريبَ أنَّه لا يمكننا معرفةُ الامتزاجاتِ التي كانت حاصلةً قبله، مع أنَّا نعلم قطعاً أنَّ الأشكالَ السالفةَ ربَّما كانت عائقةً ومانعةً عن مقتضيات الأشكالِ الحاصلةِ في الحال، ولا ريبَ أنَّا نشاهد أشخاصاً كثيرةً من النبات والحَيَوانِ والإنسانِ تحدث مقارِنةً لطالعٍ واحد، مع أنَّ كلَّ واحدٍ منها مخالفٌ للآخَر في أكثر الأُمور، وذلك أنَّ الأحوالَ السابقةَ في حقِّ كلِّ واحدٍ تكون مخالِفةً للأحوال السابقةِ في حقِّ الآخَر، وذلك يدلُّ على أنَّه لا اعتمادَ على مقتضَى طالعِ الوقت، بل لابدَّ من الإحاطة بالطَّوالع السالفة، وذلك ممَّا لا وقوفَ عليه، فإنَّه ربَّما كانت تلك الطوالعُ دافعةً مقتضياتِ هذا الطالعِ الحاضر، وعلى هذا الوجهِ عوَّل ابنُ سينا في كتابيه «الشِّفاء» و«النَّجاة» في إبطال هذا العلم.

الثاني: أنَّ تأثيرَ الكواكبِ يختلف باختلاف أَقدارِها، فما كان من القَدْر الأوَّل، أثَّر بوقوعه على الدَّرجة وإن لم تضبط الدقيقة، وما كان من القَدْر الأخير، لم يؤثِّر إلَّا بضبط الدقيقة، ولا ريبَ بجهالة مقاديرِ جميعِ الكواكب، فكيف تُضبط الآثار؟

الثالث: فسادُ أصولِهم وتناقضُ آرائهم، واختلافُهم اختلافاً عظيماً من غير دليل، ومتى تعارضت الأقوالُ وتعذَّر الترجيحُ فيما بينها، لا يعوَّل على شيءٍ منها.

الرابع: أنَّ أرصادَهم لا تنفكُّ عن نوعِ خلل، وهي مبنَى أحكامِهم، وقد صنَّف أبو عليٍّ بنُ الهيثم رسالةً بليغةً في أَقسام الخللِ الواقعِ في آلات الرَّصد، وبيَّن أنَّ ذلك ليس في وسع الإنسانِ دفعُه وإزالته، وإصابتُهم في أوقات الخسوفِ والكسوفِ مع ذلك الخللِ لا تستدعي إصابتَهم في غيرها معه.

الخامس: أنَّا نشاهد عالَماً كثيراً يُقتلون في ساعةٍ واحدةٍ في حرب، وخلقاً كثيراً يغرقون في ساعةٍ واحدة، مع اختلاف طوالعِهم واقتضائها أحوالاً مختلفةً عندكم، وهذا يدلُّ على عدم اعتبارِ ما اعتبرتموه أوَّلاً. فإن قلتم: إنَّ الطوالعَ قد يكون بعضُها أقوى من بعض، فلعل طالعَ الوقتِ أَقوى من طالع الأصل، فكان الحكم. قلنا: هذا بعينه يُبطل عليكم اعتبارَ طالعِ المولود، فإنَّ الطوالعَ بعده مختلفةٌ كثيرة، ولعل بعضَها أقوى منه، فلا يفيد اعتبارُه شيئاً.

السادس: أنَّ العقلَ لا مساغَ له في اقتضاء كوكبٍ معيَّن أو وضعٍ معيَّن تأثيراً خاصّاً، والتجربةُ على قصورها معارَضةٌ بتجربةٍ اقتضت خلافَها.

إلى غير ذلك من الوجوه، وأبو البركات البغداديُّ وإن زيَّف ما هم عليه، إلَّا أنَّه يُقِرُّ بقَبول بعضِ الأحكام، فإنَّه قال بعد ذكر شيءٍ من أقوالهم التي لا دليلَ لهم عليها: وهذه أقوالٌ قالها قائل، فقَبِلها قابل، ونقلها ناقل، فحَسُنَ بها ظَنُّ السامع، واغترَّ بها مَن لا خبرةَ له ولا قدرةَ له على النظر، ثم حكم بحسبها الحاكمون، بجيِّد ورديء، وسلبٍ وإيجاب، وسعدٍ ونحوس، فصادف بعضُه موافقةَ الوجودِ فصدق، فاغترَّ به المغترُّون ولم يلتفتوا إلى كذبٍ فيه، بل عذروه وقالوا: هو منجِّم، ما هو نبيٌّ حتى يصدقَ في كلِّ ما يقول، واعتذروا له بأنَّ العلمَ أوسعُ من أن يحيطَ به، ولو أحاط به لصدق في كلِّ شيء، ولَعمرُ اللهِ تعالى أنَّه لو أحاط به علماً صادقاً لَصدق، والشأنُ أن يحيطَ به على الحقيقة، لا على أن يفرضَ فرضاً ويتوهَّم وهماً، فينقله إلى الوجود، ويُثبته في الموجود، ويَنسب إليه ويقيس عليه، والذي يصحُّ منه ويلتفت إليه العقلاءُ هي أشياءُ غيرُ هذه الخرافاتِ التي لا أصلَ لها، ممَّا حصل بتوقيفٍ أو تجربةٍ حقيقية، كالقِرانات والانتقالاتِ والمقابلة، وممرِّ كوكبٍ من المتحيِّرة تحت كوكبٍ من الثابتة، وما يعرض للمتحيِّرة من رجوعٍ واستقامة، ورجوعٍ في شمال وانخفاضٍ في جنوب، وغيرِ ذلك.

وكأنِّي أريد أن أختصرَ الكلامَ هاهنا وأوافقَ إشارتك، وأعملَ بحساب اختيارِك رسالةً في ذلك، أذكر ما قيل فيها من علم أحكامِ النجوم، من أصولٍ حقيقيةٍ أو مجازيةٍ أو وهميةٍ أو غلطية، وفروعِ نتائجَ أُنتجت عن تلك الأصول، وأذكرَ الجائزَ من ذلك والممتنعَ والقريبَ والبعيد، فلا أردَّ علمَ الأحكامِ من كلِّ وجهٍ كما ردَّه مَن جَهِلَه، ولا أقبلَ فيه كلَّ قولٍ كما قبله مَن لم يعقله، بل أُوضحَ موضعَ القبولِ والردّ، وموضعَ التوقيفِ والتجويز، والذي من المنجِّم والذي من التنجيم، والذي منهما، وأُوضحَ لك أنَّه لو أمكن الإنسانَ أن يحيطَ بشكلِ كلِّ ما في الفلك علماً، لأحاط بكلِّ ما يحويه الفلك؛ لأنَّ منه مبادي الأسباب، لكنَّه لا يمكن، ويَبعُد عن الإمكان بُعداً عظيماً، والبعضُ الممكنُ منه لا يَهدي إلى بعض الحكم؛ لأنَّ البعضَ الآخَرَ

المجهولَ قد يناقض المعلومَ في حكمه ويُبطل ما يوجبه، فنسبةُ المعلومِ إلى المجهول من الأحكام كنسبة المعلومِ إلى المجهول من الأسباب، وكفى بذلك بُعداً. انتهى. وفيه من التأييد لبعض ما تقدَّم من الأوجُه ما فيه[١].

وأنا أقول: إنَّ الإحاطةَ بالأسرار المودَعةِ في الأجرام لا يَبْعُد أن تحصلَ لبعض الخواصِّ ذوي النفوسِ القدسيَّة، لكن بطريق الكشفِ أو نحوِه، دون الاستدلالِ الفكريِّ والأعمالِ الرصديةِ مثلاً، وهو الذي يقتضيه كلامُ الشيخِ الأكبرِ قدِّس سرُّه، قال في الباب الثالثِ والسبعين من «الفتوحات»[٢]: ومن الأولياء النُّقباء، وهم اثنا عشرَ نقيباً في كلِّ زمان، لا يزيدون ولا ينقصون، على عدد البروجِ الاثني عشر، كلُّ نقيبٍ عالمٌ بخاصِّيَّة كلِّ برج، وبما أودع اللهُ تعالى في مقامه من الأسرار والتأثيرات، وما يُعطَى للنزلاءِ فيه من الكواكب السيَّارةِ والثوابت. ثم قال: ومنهم النُّجباء، وهم ثمانيةٌ في كلِّ زمان، إلى أن قال: ولهم القدمُ الراسخةُ في علم تسييرِ الكواكبِ من جهة الكشفِ والاطِّلاع، لا من جهة الطريقةِ المعلومةِ عند العلماءِ بهذا الشأن. والنقباءُ هم الذين حازوا علمَ الفلكِ التاسع، والنجباءُ حازوا علمَ الثمانيةِ الأفلاكِ التي دونه، وهي كلُّ فلكٍ فيه كوكب. ويُفهم من هذا القولُ بالتأثيرات، وأنها مفاضةٌ من البرج على النازلِ فيه من الكواكب.

وقد تكرَّرت الإشارةُ منه إلى ذلك، ففي الفصل الثالثِ من الباب الحادي والسبعين والثلاث مئة من «الفتوحات»[٣]: أنَّ اللهَ تعالى خلق في جوف الكرسيِّ جسماً شفَّافاً مستديراً، يعني الفَلَكَ الأطلس، قسمه اثني عشرَ قسماً، هي البروج، وأسكن كلَّ برجٍ منها ملكاً. إلى أن قال: وجعل لكلِّ نائبٍ من هؤلاء الأملاكِ الاثني عشرَ في كلِّ برجٍ ملَّكه إياه ثلاثين خزانة، تحتوي كلُّ خزانةٍ منها على علومٍ شتَّى، يهبون منها لمن نزل بهم ما تعطيه مرتبتُه، وهي الخزائنُ التي قال الله تعالى

(١) إلى هنا نهاية الكلام عن المنجمين وعلم التنجيم الذي أشار إليه فيما قَبْل، والذي أشرنا إليه بأن معظمه مذكور بحرفيته في مفتاح دار السعادة ص٤٨٧ وما بعدها.

(٢) ٢/ ٧-٨.

(٣) ٣/ ٤٣٣.

فيها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وهذه الخزائنُ تسمَّى عند أهلِ التعاليمِ: درجاتِ الفلك، والنازلون بها هم الجواري والمنازلُ وعيُّوقاتها من الثوابت، والعلومُ الحاصلةُ من هذه الخزائنِ الإلهيةِ هي ما يظهر في عالم الأركانِ من التأثيرات، بل ما يظهر في مقعَّر فلكِ الثوابتِ إلى الأرض. وجعل لهؤلاء الاثني عشرَ نظراً في الجِنان وأهلِها وما فيها مُخْلَصاً من غير حجاب، فما في الجِنان من حكم، فهو عن تولِّي هؤلاء بنفوسهم تشريفاً لأهل الجنَّة، وأما أهلُ الدنيا وأهلُ النار فما يباشرون ما لهم من الحكم إلَّا بالنوَّاب، وهم النازلونَ عليهم الذين ذكرناهم.

وقال قدِّس سرُّه في الفصل الرابع(١): إنَّ الله تعالى جعل لكلِّ كوكبٍ من هذه الكواكبِ قطعاً في الفلك الأطلس؛ ليحصلَ من تلك الخزائنِ التي في بروجه وبأيدي ملائكتِه الاثني عشرَ من علوم التأثيرِ ما تعطيه حقيقةُ كلِّ كوكبٍ وجعلها على حقائقَ مختلفة. انتهى المرادُ منه.

وله قدِّس سرُّه كلامٌ غيرُ هذا أيضاً، وقد صرَّح بنحو ما صرَّح به المنجِّمون من اختلاف طبائعِ البروج، وأنَّ كلَّ ثلاثةٍ منها على مرتبةٍ واحدةٍ في المزاج.

وأنا لا أَزيد على القول بأنَّ للأجرام العلويةِ كواكبِها وأفلاكِها أسراراً وحِكَماً وتأثيراتٍ غيرَ ذاتية، بل مفاضة عليها من جانب الحقِّ والفيَّاض المطلقِ جلَّ شأنُه وعَظُمَ سلطانُه، ومنها ما هو علامةٌ لما شاء اللهُ تعالى، ولا يتمُّ دليلٌ على نفي ما ذكر، ولا يَعلم كميةَ ذلك ولا كيفيتَه ولا أنَّ تأثيرَ كذا من كوكبِ كذا أو كوكبِ كذا علامةٌ لكذا في نفس الأمرِ إلَّا اللهُ تعالى العليمُ البصيرُ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] إلَّا أنَّه سبحانه قد يُطلع بعضَ خواصِّ عبادِه من البشر والمَلَكِ على شيءٍ من ذلك، ولا يَبعُد أن يُطلعَ سبحانه البعضَ على الكلِّ، ووقوعُ ذلك لنبيِّنا ﷺ ممَّا لا أكاد أشكُّ فيه.

وقد نصَّ بعضُ ساداتِنا الصوفية ـ قدِّست أسرارُهم وأشرقت علينا أنوارُهم ـ على أنَّ علومَه عليه الصلاة والسلام التي وُهبت له ثلاثةُ أنواع:

---

(١) ٣/ ٤٣٧.

نوعٌ أَوجب عليه إظهارَه وتبليغَه، وهو علمُ الشريعةِ والتكاليفِ الإلهية، وقولُه تـعـالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] ناظرٌ إلى ذلك دون العمومِ المطلقِ أو خصوصِ خلافةِ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه كما يقوله الشِّيعة.

ونوعٌ أَوجب عليه كتمانَه، وهو علمُ الأسرارِ الإلهية التي لا تتحمَّلها قوةٌ غيرُ قوَّتهِ القدسيةِ عليه الصلاة والسلام، فكما أنَّ لله تعالى علماً استأثر به دون أحدٍ من خلقه، كذلك لحبيبه الأعظمِ ﷺ علمٌ استأثر به بعد ربِّه سبحانه، لكنه مفاضٌ منه تعالى عليه، ولعله أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وقد يكون بين المحبِّ والمحبوبِ من الأَسرار ما يُضنُّ به على الأغيار، ومن هنا قيل:

ومستخبرٍ عن سرِّ ليلى تركتُه ... بعمياءَ من ليلى بغيرِ يقينِ
يقولون خبِّرنا فأنت أمينُها ... وما أنا إن خبَّرتهم بأمينِ(١)

ونوعٌ خيَّره اللهُ تعالى فيه بين الأمرين. وهذا منه ما أَظهره لمن رآه أهلاً له، ومنه ما لم يُظهره لأمرٍ ما، فلعل ما وُهب له عليه الصلاة والسلام من العلم بدقائق أسرارِ الأجرامِ العلوية وحِكَمِها وما أراد اللهُ تعالى بها ممَّا لم يُظهره للناس كعلم الشَّريعة؛ لأنَّه مما لا يُضبط بقاعدة، وتفصيلُ الأمرِ فيه لا يكاد يتيسَّر، والبعضُ مرتبطٌ بالبعض، ومع هذا لا يستطيع العالمُ به أن يجعل الإقامةَ سفراً، ولا الهزيمةَ ظَفَراً، ولا العقدَ فلًّا، ولا الإبرامَ نقضاً، ولا اليأسَ رجاء، ولا العدوَّ صديقاً، ولا البعيدَ قريباً، ولا ولا، ويوشك لو انتشر أمرُه، وظهر حلوُه ومرُّه، أن يضعفَ توكُّل كثيرٍ من العوامِّ على الله تعالى، والانقطاعُ إليه، والرغبةُ فيما عنده، وأنْ يلهو به عن غيره، وينبذوا ما سواه من العلوم النافعةِ لأَجله، فكلٌّ يتمنَّى أن يعلمَ الغيبَ

---

(١) نسبهما صاحب غرر الخصائص الواضحة ص٤٥٣ لمجنون ليلى، وأبو تمام في الحماسة (شرح التبريزي ٣/ ١٣٤) لجابر بن الثعلب الجرمي الطائي، والبيت الثاني فيه:
فقال انتصحني إنني لك ناصح ... وما أنا...............
والبيت الأول في زيادات شعر الأحوص الأسدي ص٢٣٢.

ويطلعَ عليه، ويدركَ ما يكون في غدٍ أو يجدَ سبيلاً إليه، بل ربَّما يكون ذلك سبباً لبعض الأشخاصِ مفضياً إلى الاعتقادِ القبيح، والشركِ الصَّريح، وقد كان في العرب شيءٌ من ذلك، فلو فُتح هذا الباب، لاتَّسع الخَرقُ وعَظُمَ الشرّ، وقد ترك ﷺ هدمَ الكعبةِ وتأسيسَها على قواعدِ إبراهيمَ عليه السلام لنحوِ هذه الملاحظة، فقد رُوي أنَّه عليه الصلاة والسلام قال لعائشةَ ﵂: «لولا قومُكِ حديثو عهدٍ بكفر، لَهدمتُ الكعبةَ وأسَّستها على قواعد إبراهيم»(١).

ولا يَبعُد أيضاً أن يكونَ في علم اللهِ تعالى إظهارُ ذلك وعلمُ الناسِ به سبباً لتعطُّل المصالحِ الدنيوية، ومنافياً للحكمة الإلهية، فأَوجب على رسوله ﷺ كتمَه وتركَ تعليمِه كما علَّم الشَّرائع.

ويمكن أن يكونَ قد عَلِمَ ﷺ أنَّ العلمَ بذلك من العلوم الوهبيةِ التي يَمُنُّ اللهُ تعالى بها على مَن يشاء مِن عباده، وأنَّ مَن وهب سبحانه له من أمَّته قوَّةً قدسية، يهب سبحانه له ما تتحمَّله قوتُه منه، وقد سمعتَ ما سمعت في النُّقباء والنُّجباء.

ويمكن أن يكونَ قد علَّم عليه الصلاة والسلام ذلك أمثالَهم ومَن هو أَعلى قَدْراً منهم، كالأمير عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وهو بابُ مدينةِ العلم، بطريقٍ من طُرُق التعليم، ومنها الإفاضةُ التي يذكرها بعضُ أهلِ الطرائقِ من الصُّوفية.

ويجوز أن يقال: إنَّ سرَّ البعثةِ إنَّما هو إرشادُ الخلقِ إلى ما يقرِّبهم إليه سبحانه زُلفى، وليس في معرفة التأثيراتِ الفلكيةِ والحوادثِ الكونيةِ قربٌ إلى الله تعالى، والنبيُّ ﷺ لم يألُ جهداً في دعوة الخلقِ وإرشادهم إلى ما يقرِّبهم لديه سبحانه، وينفعهم يومَ قدومِهم عليه جلَّ شأنُه، وما يتوقَّف عليه من أمر النجومِ أمورُ دياناتهم، كمعرفة القِبلةِ وأوقاتِ العبادات، قد أَرشد إليه مَن أرشد منهم، وترك ما يحتاجون إليه من ذلك في أمورِ دنياهم ـ كالزِّراعة ـ إلى عاداتهم وما جرَّبه كلُّ قومٍ في أماكنهم، وأشار إشارةً إجماليةً إلى بعض الحوادثِ الكونيةِ لبعض الكواكبِ في بعض أحوالِها، كما في حديث الكسوفِ والخسوفِ السابق، وأَرشدهم إلى

(١) أخرجه البخاري (١٢٦) و(١٥٨٥)، ومسلم (١٣٣٣).

ما ينفعهم إذا ظهر مثلُ ذلك، ويتضمَّن الإشارةَ الإجماليةَ أيضاً أمرُه تعالى بالاستعاذة من شرِّ القمرِ في بعض حالاتِه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق:١-٣] على ما جاءَ في حديث عائشةَ رضي الله عنها(١). ويَقرُب في بعض الوجوهِ من شأنِه ﷺ شأنُه عليه الصلاة والسلام في أمر النباتاتِ ونحوِها، فبيَّن لهم ما يحلُّ ويَحرم من ذلك، وأشار إلى منفعة بعضِ الأشياءِ من نباتٍ وغيرِه، ولم يفصِّل القولَ في الخواصّ، وترك الناسَ فيما يأكلون ويشربون ـ ممَّا هو حلالٌ ـ على عاداتهم، إلَّا أنَّه قال: ﴿وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾ [الأعراف:٣١]. نعم نَهَى ﷺ عن الخوض في علم النجومِ لطلب معرفةِ الحوادثِ المستقبَلة بواسطة الأوضاعِ المتوقِّف بزعم المنجِّمين على معرفة الطَّبائع؛ سدّاً لباب الشرِّ والوقوعِ في الباطل، لأنَّ معرفةَ ذلك على التحقيق ليست كسبيَّة، كمعرفة خواصِّ النباتاتِ ونحوِها، والمعرفةُ الكسبيةُ التي يزعمها المنجِّمون ليست بمعرفة، وإنما هي ظنونٌ لا دليلَ لهم عليها كما تقدَّم، وصرَّح به أرسطاليس أيضاً، فإنَّه قال في أوَّل كتابِه «السَّماع الطبيعي»: إنَّه لا سبيلَ إلى اليقين بمعرفة تأثيرِ الكواكب، وحُكي نحوُه عن بطليموس.

وكونُ المنهيِّ عنه ذلك هو الذي صرَّح به بعضُ الأجِلَّة، وعليه حُمل خبرُ أبي داودَ وابنِ ماجه(٢): «مَن اقتبس علماً من النجومِ اقتبس شُعبةً من السِّحر».

وأما الخوضُ في علم النُّجومِ لتحصيل ما يُعرف به أوقاتُ الصلواتِ وجهةُ القِبلة، وكم مضى من الليلِ أو النهار وكم بقي، وأوائلُ الشهورِ الشمسية، ونحوُ ذلك، ومنه ـ فيما أرى ـ ما يُعرف به وقتُ الكسوفِ والخسوف، فغيرُ منهيٍّ عنه، بل العلمُ المؤدِّي لبعض ما ذُكر من فروضِ الكفاية، بل إن كان علمُ النجومِ عبارةً عن العلم الباحثِ عن النُّجوم باعتبارِ ما يَعرض لها من المقارنة والمقابلةِ والتثليثِ والتسديس، وكيفيةِ سيرِها ومقدارِ حركاتها، ونحوِ ذلك ممَّا يُبحث عنه في الزِّيج،

---

(١) وذلك أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا؛ فإن هذا الغاسق إذا وقب» وهو عند الترمذي (٣٣٦٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٦٤) و(١٠٠٦٥).

(٢) سنن أبي داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أو كان عبارةً عمَّا يعمُّ ذلك والعلمَ الذي يُتوصَّل به إلى معرفة ارتفاعِ الكوكبِ وانخفاضه، ومعرفة الماضي من الليلِ والنهار، ومعرفةِ الأطوال والأعراض، ونحوِ ذلك مما تضمَّنه علمُ الإسطرلابِ والرُّبعِ المجيَّب ونحوِهما، فهو ممَّا لا أرى بأساً في تعلُّمه مطلقاً.

وإنْ كان عبارةً عن العلم الباحثِ عن أَحكامها وتأثيراتِها التي تقتضيها باعتبار أَوضاعِها وطبائِعها على ما يزعمه الأحكاميُّون، فهذا الذي اختُلف في أمره، فقال بعضُهم بحُرمة تعلُّمه؛ لحديث أبي داودَ وابنِ ماجه السابق. والقائلُ بهذا قائلٌ بحرمة تعلُّم السِّحر، وهو أحدُ أقوالٍ في المسألة فيها الإفراطُ والتفريط، ثانيها: أنَّه مكروه، ثالثها: أنَّه مباح، رابعها: أنَّه فرضُ كفاية، خامسها: أنَّه كفر، والجمهورُ على الأوَّل، ولأنَّ فيه ترويجَ الباطلِ وتعريضَ الجهلةِ لاعتقاد أنَّ أحكامَ النجومِ المعروفةَ بين أهلها حقٌّ والكواكب مؤثِّرة بنفسها.

وقيل: يَحرُم تعلُّمه؛ لأنَّه منسوخ، فقد قال الكرمانيُّ في «عجائبه»: كان علمُ النجومِ علماً نبويًّا فنُسخ.

وتعقِّب هذا بأنَّه لا معنى لنسخ العلمِ نفسِه، وإنْ حُمل الكلامُ على معنى: كان تعلُّمه مباحاً فنُسخ ذلك إلى التحريم، كان في الاستدلال مصادرة.

وقال بعضُهم: لا حرمةَ في تعلُّمه، إنما الحرمةُ في اعتقاد صحَّةِ الأحكامِ وتأثيراتِ الكواكب، على الوجه الذي يقوله جَهَلَةُ الأحكاميين لا مطلقاً.

وأُجيب عن الخبر السابقِ بأنَّه محمولٌ على تعلُّم شيءٍ من علم النجومِ على وجه الاعتناءِ بشأنه، كما يرمز إليه «اقتَبَسَ» وذلك لا يتمُّ بدون اعتقادِ صحَّة حكمِه وأنَّ الكواكبَ مؤثِّرات، وتعلُّمه على هذا الوجهِ حرام، وبدونه مُباح، وفيه بحث.

وقيل في الجواب: إنَّ الخبرَ فيمن ادَّعى علماً بحكمٍ من الأحكام آخذاً له من النُّجوم قائلاً: الأمرُ كذا ولا بدّ؛ لأنَّ النجمَ يقتضيه ألبَتَّة، وهو لاشكَّ في إِثمه وحُرمةِ دعواه التي قامت الأدلَّةُ على كذبها، وهو كما ترى.

وكلامُ بعضِ أجلةِ العلماءِ صريحٌ في إباحة تعلُّمه متى اعتقد أنَّ الله تعالى أجرى العادةَ بوقوع كذا عند حلولِ الكوكبِ الفلانيِّ منزلةَ كذا مثلاً مع جوازِ التخلُّف.

واستظهر بعضٌ حرمةَ التعلُّم مطلقاً، متى كان فيه إغراءُ الجهلةِ بذلك العلم، وإيقاعُهم في محذور اعتقادِ التأثير، أو كان فيه غيرُ ذلك من المفاسد، وكراهتَه إنْ سَلِم من ذلك؛ لمَا فيه من تضييع الأوقاتِ فيما لا فائدةَ فيه، ومبناه ظنونٌ وأوهامٌ وتخيُّلات.

ولا يَبعُد القولُ بأنَّه يباح للعالِم الراسخِ النظرُ في كتبه للاطِّلاع على ما قالوا، والوقوفِ على مناقضاتهم واختلافاتِهم التي سمعتَ بعضاً منها؛ لينفِّرَ عنها الناسَ ويردَّ العاكفين عليها، كما يباح له النظرُ في كتب سائرِ أهلِ الباطل - كاليهود والنَّصارى - لذلك، بل لو قيل بسنِّيَّته لهذا الغرض لم يَبعُد، لكن أنت تعلم أنَّ السلفَ الصالحَ لم يحوموا حول شيءٍ منه بسوى ذمِّه وذمِّ أهله، ولم يتطلَّبوا كتاباً من كتبه لينظروا فيه، على أيِّ وجهٍ كان النظر؛ ونسبةُ خلافِ ذلك إلى أحدٍ منهم لا تصحّ، فالحزمُ اتِّباعُهم في ذلك، وسلوكُ مسلكِهم، فهو لَعمري أقومُ المسالك.

هذا واعتُرض القولُ بإطلاعه ﷺ على ما ذُكر من شأن الأجرامِ العُلوية بأنَّ فيه فتحَ بابِ الشُّبهة في كون أخبارِه ﷺ بالغيوب من الوحي؛ لجواز أن تكونَ من أَحكام النُّجومِ على ذلك القول.

وأُجيب بأنَّ الشُّبهةَ إنما تتأتَّى لو ثبت أنَّه عليه الصلاة والسلام رَصَدَ - ولو مرَّة - كوكباً من الكواكب وحقَّق منزلتَه وأخبر بغيب؛ إذ مجرَّدُ العلمِ بأنَّ لكوكبِ كذا حكمَ كذا إذا حلَّ بمنزلة كذا لا يُفيد بدون معرفةِ أنَّه حلَّ في تلك المنزلة، فحيث لم يَثبت أنَّه ﷺ فعل ذلك، لا يُفتح بابُ الشُّبهة. وفيه بحثٌ ظاهر. وبأنَّ علمَه ﷺ بما تدلُّ عليه الأوضاعُ عند القائلينَ به ليس إلَّا عن وحي، فغايةُ ما يلزم على تلك الشُّبهةِ أن يكونَ خبرُه بالغيب بواسطة علمِ أحكام النُّجوم الذي عَلِمَه بالوحي، وأيُّ خللٍ يحصل من هذا في نبوَّته عليه الصلاة والسلام؟ بل هذه الشُّبهةُ تستدعي كونَه نبيّاً، كما أنَّ عدمَها كذلك.

وتُعقِّب بأنَّه متى سُلِّم أنَّ للأَوضاع الفلكيةِ دلالةً على الأُمور الغيبية، وأنَّه ﷺ يعلم ما تدلُّ عليه، يقع الاشتباهُ بينه وبين غيرِه من علماءِ ذلك العلم المخبِرين بالغيب إذا وقع كما أَخبروا، والتفرقةُ بأنَّه عليه الصلاة والسلام قد أُوحي إليه بذلك دون الغيرِ فرعُ كونِه نبيًّا، وهو أوَّلُ المسألة.

واختير في الجواب أن يقال: إنَّ إخبارَه ﷺ بالغيب إن كان بعد ثبوتِ نبوَّته بمعجزٍ غيرِ ذلك، لا تتأتَّى الشبهةُ إن أَفهم أنَّ خبرَه بواسطة الوحي، ولا تضرُّ إنْ لم يفهم، إذ غايةُ ما في الباب أنه نبيّ؛ لظهور المعجزِ على يده قبل إن أَخبرَ بغيبٍ بواسطة وضعٍ فلكيٍّ وشاركه غيرُه في ذلك، وإن كان قبلَ ثبوتِ نبوَّته بمعجزٍ غيرِه، بأن كان التحدِّي بذلك الخبرِ ووقوع ما أَخبر به، فالذي يدفع الشبهةَ حينئذٍ عدمُ القدرةِ على المعارضة، فلا يستطيع منجِّم أن يُخبرَ صادقاً بمثل ذلك بمقتضَى علمِه بالأَوضاع ومقتضياتِها، فتدبَّر.

ثم الظاهر ـ على ما ذكره الشيخُ الأكبرُ قدِّس سرُّه في النُّقباء والنُّجباء ـ أنَّ لكلٍّ من الأنبياءِ عليهم السلام اطِّلاعاً على ذلك، إذ رتبةُ النبيِّ فوق رتبةِ الولي، وعلمُه فوق علمِه؛ إذ هو الركنُ الأَعظمُ في الفضل. ولا حجَّةَ في قصَّة موسى والخَضِرِ عليهما السلام على خلافه، أمَّا على القول بنبوَّة الخضرِ عليه السلام، فظاهر، وكذا على القولِ بولايته، وأنَّه فَعَلَ ما فَعَلَ عن أمر اللهِ تعالى بواسطة نبيّ، وأمَّا على القول بولايته وأنَّه فَعَلَ ذلك لعلمٍ أُوتيه بلا واسطةِ نبيّ؛ فلأنَّه لا يدلُّ إلَّا على فقدان موسى عليه السلام العلمَ بتلك الأمورِ الثلاثةِ وعلمِ الخضرِ بها، ولا يلزمُ من ذلك أن يكونَ الخضرُ أعلمَ منه مطلقاً، وهو الظاهر.

وعلى هذا جوِّز إبقاءُ الآيةِ على ظاهرها، فيكون إبراهيمُ عليه السلام قد نظر في النُّجوم حسبما علَّمه اللهُ تعالى من أحوالِ الملكوتِ الأعلى، واستدلَّ على أنَّه سيسقم بما استدلّ، ولعل نظرَه كان في طالع الوقتِ أو نحوِه، أو طالعِ ولادتِه، أو طالعِ سقوطِ النطفةِ التي خُلق منها، والعلمُ به بالوحي أو بواسطة العلمِ بطالعِ الوِلادة. والاعتراضُ على ذلك بأنَّه يلزم عليه تقويتُه عليه السلام ما هم عليه من الباطل في أمر النُّجوم واردٌ أيضاً على حَملِ ما في الآية على التعريض، والجوابُ هو الجواب.

هذا وإذا أحطتَ خُبراً بجميع ما ذكرتُ لك في هذا المقام، فأحسِن التأمُّلَ فيما تضمَّنه من النقض والإبرام، وقد جمعتُ لك ما لم أعلم أنه جُمع في تفسير، ولا أُبرِّئُ نفسي عن الخطأ والسهوِ والتقصير، واللهُ سبحانه وليُّ التوفيق، وبيده عزَّ وجلَّ أَزِمَّةُ التحقيق.

وقوله تعالى ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ تفريعٌ على قوله عليه السلام: «إني سقيم» أي: أعرضوا وتركوا قربَه، والمرادُ أنَّهم ذهبوا إلى معيدِهم وتركوه. و«مدبرين» إما حالٌ مؤكِّدة، أو حالٌ مقيِّدة، بناءً على أنَّ المرادَ بـ «سقيم» مطعون، أو أنَّهم توهَّموا مرضاً له عدوى مرضِ الطاعونِ أو غيرِه، فإنَّ المرضَ الذي له عدوى بزعم الأطباءِ لا يختصُّ بمرض الطاعون، فكأنَّه قيل: فأعرضوا عنه هاربين مخافَة العدوى.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ فذهب بخفيةٍ إلى أصنامهم التي يعبدونها. وأصلُ الرَّوغان: ميلُ الشخصِ في جانبٍ ليخدعَ مَن خلفه، فتجوَّز به عمَّا ذكر لأنَّه المناسبُ هنا ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام استهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ من الطعام الذي عندكم، وكان المشركون يضعون في أيام أعيادِهم طعاماً لدى الأصنامِ لتبرُّكَ عليه، وأتى بضمير العقلاءِ لمعاملته عليه السلام إيَّاهم معاملتَهم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ بجوابي.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمالَ مستعلياً عليهم. وقولُه تعالى: ﴿ضَرْبًا﴾ مصدرٌ لـ «راغ عليهم» باعتبار المعنى؛ فإنَّ المرادَ منه ضربُهم، أو لفعلٍ مضمَرٍ هو مع فاعله حالٌ من فاعله، أي: فراغ عليهم يضربهم ضرباً، أو هو حالٌ منه على أنَّه مصدرٌ بمعنى الفاعل، أي: ضارباً، أو هو مفعولٌ له، أي: لأجل ضرب.

وقرأ الحسن: «سَفقاً» و«صَفقاً» أيضاً[(١)].

﴿بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ أي: باليد اليمين، كما رُوي عن ابن عباس. وتقييدُ الضربِ باليمين للدَّلالة على شدَّته وقوَّته؛ لأنَّ اليمينَ أقوى الجارحتَين وأشدُّهما في الغالب، وقوةُ الآلةِ تقتضي شدَّةَ الفعلِ وقوَّته. أو: بالقوَّة، على أنَّ اليمينَ مجازٌ

(١) المحتسب ٢/ ٢٢١، وانظر القراءات الشاذة ص١٢٨.

عنها؛ رُوي أنه عليه السلام كان يجمع يَديه في الآلةِ التي يضربها بها، وهي الفأس، فيضربها بكمال قوَّته.

وقيل: المرادُ باليمين الحَلِف، وسمِّي الحلفُ يميناً إمَّا لأنَّ العادةَ كانت إذا حلف شخصٌ لآخرَ جعل يمينَه بيمينه فحلف، أو لأنَّ الحلفَ يقوِّي الكلامَ ويؤكِّده، وأُريد باليمين قولُه عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء:٥٧] والباءُ عليه للسببية، أي: ضرباً بسبب اليمينِ الذي حلفه قبل، وهي ـ على ما تقدَّم ـ للاستعانةِ أو للملابسة.

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيمَ عليه السلام بعد رجوعِهم من عيدهم وسؤالِهم عن الكاسر وقولِهم: ﴿فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنبياء:٦١] ﴿يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾ حالٌ من واو أَقبلوا، أي: يُسرعون، من: زفَّ النَّعام: أَسرع؛ لخلطه الطيرانَ بالمشي، ومصدرُه الزَّفُّ والزفيف.

وقيل: «يزفون» أي: يمشون على تؤدةٍ ومهل، من زِفاف العروس، إذ كانوا في طمأنينةٍ من أن ينالَ أصنامَهم بشيء؛ لعزَّتها. وليس بشيء.

وقرأ حمزةُ ومجاهدٌ وابن وثَّابٍ والأعمش: «يُزِفُّون» بضمِّ الياء(١)، من أَزَفَّ: دخل في الزَّفيف، فالهمزةُ ليست للتعدية، أو حَمَلَ غيرَه على الزفيف، فهي لها. قاله الأصمعيّ.

وقرأ مجاهدٌ أيضاً وعبدُ الله بنُ يزيدَ والضحَّاك ويحيى بنُ عبد الرحمن المقري وابنُ أبي عبلة: «يَزِفُون» مضارعُ وَزَفَ بمعنى أَسرع(٢)، قال الكسائيُّ والفرَّاء: لا نعرف وَزَفَ بمعنى زفَّ. وقد أثبته الثِّقات، فلا يضرُّ عدمُ معرفتِهما.

وقُرئ: «يُزَفُّون» بالبناء للمفعول، وقُرئ: «يَزْفُون» بسكون الزَّاي(٣)، من زفاه: إذا حداه، كأنَّ بعضَهم يزفو بعضاً لتَسَارُعِهم إليه.

---

(١) البحر المحيط ٧/٣٦٦، وقراءة حمزة في التيسير ص١٨٦، والنشر ٢/٣٥٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/٢٢١، والبحر ٧/٣٦٦، وعنه نقل المصنف.

(٣) البحر ٧/٣٦٦.

﴿قَالَ﴾ بعد أن أَتَوا به عليه السلام وجرى ما جرى من المحاورةِ على سبيل التوبيخِ والإنكار عليهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: الذي تنحتونه من الأصنام، فـ «ما» موصولةٌ حُذف عائدُها، وهو الظاهرُ المتبادر.

وجوِّز كونُها مصدرية، أي: أتعبدون نحتكم؟ وتوبيخُهم على عبادة النحتِ مع أنَّهم يعبدون الأصنامَ وهي ليست نفسَ النَّحت؛ للإشارة إلى أنَّهم في الحقيقة إنَّما عبدوا النَّحت، لأنَّ الأصنامَ قبلَه حجارة، ولم يكونوا يعبدونها، وإنَّما عبدوها بعد أنْ نحتوها، ففي الحقيقةِ ما عبدوا إلَّا نحتَهم. وفيه ما فيه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ في موضع الحالِ من ضمير «تعبدون» لتأكيد الإنكارِ والتوبيخ، والاحتجاجِ على أنَّه لا ينبغي تلك العبادة، و«ما» موصولةٌ حُذف عائدُها أيضاً، أي: خلقكم وخلق الذي تعملونه، أي: من الأصنام، كما هو الظَّاهر، وهي عبارةٌ عن موادَّ ـ وهي الجواهرُ الحجرية ـ وصورٌ حصلت لها بالنَّحت، وكونُ الموادِّ مخلوقةً له عزَّ وجلَّ ظاهر، وكونُ الصورِ والأشكالِ كذلك ـ مع أنَّها بفعلهم ـ باعتبار أنَّ الإقدارَ على الفعل وخلقَ ما يتوقَّف عليه من الدَّواعي والأسبابِ منه تعالى، وكونُ الأصنامِ ـ وهي ما سمعت ـ معمولةً لهم باعتبار جزئها الصُّوري، فهو مع كونِه معمولاً لهم مخلوقٌ لله تعالى بذلك الاعتبار، فلا إشكال.

وفي «المتمَّة للمسألة المهمَّة» تأليفُ الشيخ إبراهيمَ الكورانيِّ عليه الرَّحمة: صريحُ الكلامِ دالٌّ على أنَّ اللهَ تعالى خالقٌ للأصنام بجميع أجزاءها التي منها الأشكال، ومعلومٌ أنَّ الأشكالَ إنَّما حصلت بتشكيلهم، فتكون الأشكالُ مخلوقةً لله تعالى معمولةً لهم؛ لكون نحتِهم وتشكيلِهم عينَ خلقِ اللهِ تعالى الأشكالَ بهم. ولا استحالةَ في ذلك؛ لأنَّ العبدَ لا قوَّة له إلَّا بالله تعالى بالنصّ، ومَن لا قوَّةَ له إلَّا بغيره، فالقوةُ لذلك الغيرِ لا له، فلا قوَّةَ حقيقةً إلَّا لله تعالى، ومن المعلوم أنَّه لا فعلَ للعبد إلَّا بقوَّة، فلا فعلَ له إلَّا بالله تعالى، فلا فعلَ حقيقةً إلَّا لله تعالى، وكلُّ ما كان كذلك، كان النحتُ والتشكيلُ عينَ خلقِ اللهِ سبحانه الأشكالَ بهم وفيهم بالذَّات، وغيرَه بالاعتبار، فيكون المعمولُ عينَ المخلوقِ بالذات وغيرَه

بالاعتبار، فإنَّ إيجادَ اللهِ عزَّ وجلَّ يتعلَّق بذات الفعلِ من حيث هو، وفعلُ العبدِ بالمعنى المصدريِّ يتعلَّق بالفعل بمعنى الحاصلِ بالمصدر، من حيث كونُه طاعةً أو معصيةً أو مباحاً؛ لكونه مكلَّفاً، واللهُ تعالى له الإطلاق، ولا حاكمَ عليه سبحانه. انتهى، فافهم.

والزمخشريُّ[1] جعل أيضاً «ما» موصولة، إلَّا أنَّه جعل المخلوقَ له تعالى هو الجواهر، ومعمولَهم هو الشكلَ والصُّورة، إمَّا على أنَّ الكلامَ على حذفِ مضاف، أي: وما تعملون شكلَه وصورتَه، وإمَّا على أنَّ الشائعَ في الاستعمال ذلك، فإنَّهم يقولون: عمل النَّجارُ الباب، و: الصائغُ الخلخال، و: البنَّاءُ البِناء، ولا يعنون إلَّا عملَ الشكلِ بدون تقدير شكلٍ في النظم، كأن تعلُّق العملِ بالشيءِ هو هذا التعلُّقُ لا تعلُّقُ التكوين.

وهو مبنيٌّ على اعتقاده الفاسدِ من أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ لهم، والاحتجاجُ في الآية على الأوَّل بأنْ يقال: إنَّه تعالى خلق العابدَ والمعبودَ مادَّةً وصورة، فكيفَ يَعبد المخلوقُ المخلوق؟ وعلى الثاني بأنَّه تعالى خلق العابدَ ومادَّةَ المعبود، فكيف يعبد المخلوقُ المخلوق؟ على أنَّ العابدَ منهما هو الذي عمل صورةَ المعبود، والأوَّلُ أظهر.

وعُدل عن ضميرِ «ما تنحتون»، أو الإتيان به دون: ما تعملون؛ للإيذان بأنَّ مخلوقيةَ الأصنامِ لله عزَّ وجلَّ ليس من حيث نحتُهم لها فقط، بل من حيثُ سائرُ أعمالِهم أيضاً، من التصوير والتحليةِ والتزيين.

وفي «الكشف»: فائدةُ العدولِ الدَّلالةُ على أنَّ تأثيرَهم فيها ليس النَّحتَ، ثم العملُ يقع على النَّحت والأثرِ الحاصلِ منه، ولا يقع النحتُ على الثاني، فلا بدَّ من العدول لهذه النُّكتة، وبه يتمُّ الاحتجاج، أي: الذي قيل على اعتبار الزمخشريّ.

وجوِّز أن يكونَ الموصولُ عامّاً للأصنام وغيرِها، وتدخل أوَّليًّا، ولا يتأتَّى عليه حديثُ العدول.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٤٥.

وقيل: «ما» مصدريةٌ، والمصدرُ مؤوَّل باسم المفعول؛ ليطابقَ «ما تنحتون» على ما هو الظاهرُ فيه، ويتَّحد المعنى مع ما تقدَّم على احتمالِ الموصولية.

وجوِّز بقاءُ المصدرِ على مصدريَّته، والمرادُ به الحاصلُ بالمصدر، أعني الأَثر، وكثيراً ما يرادُ به ذلك، حتى قيل: إنَّه مشتركٌ بينه وبين التأثيرِ والإِيقاع، أي: خلقكم وخلق عملَكم. واحتجَّ بالآية على المعتزلة.

وتعقِّب بأنَّه لا يصحّ؛ لأنَّ الاستدلالَ بذلك على أنَّ العابدَ والمعبودَ جميعاً خلقُ اللهِ تعالى، فكيفَ يَعبد المخلوقُ مخلوقاً؟ ولو قيل: إنَّ العابدَ وعملَه من خلق اللهِ تعالى، لفاتت الملاءمةُ والاحتجاج، ولأنَّ «ما» في الأوَّل موصولة، فهي في الثاني كذلك؛ لئلَّا ينفكَّ النظم.

وما قاله القاضي البيضاويُّ من أنَّه لا يفوت الاحتجاج، بل إنَّه أبلغُ فيه؛ لأنَّ فعلَهم إذا كان بخلق اللهِ تعالى، كان مفعولُهم المتوقِّف على فعلهم أَولَى بذلك[1]. وأُيِّد بأنَّ الأسلوبَ يصير من باب الكناية، وهو أَبلغُ من التصريح، ولا فائدةَ في العدول عن الظاهر إلَّا هذا، فيجب صوناً لكلام اللهِ تعالى عن العبث = تعقَّبه في «الكشف» بأنَّه لا يتمّ؛ لأنَّ الملازمةَ ممنوعةٌ عند القوم، أَلَا ترى أنَّهم معترفون بأنَّ العبدَ وقدرتَه وإرادتَه من خلق اللهِ تعالى، ثم المتوقِّف عليهما ـ وهو الفعل ـ يجعلونه خلقَ العبد، والتحقيقُ أنَّه يفيد التوقُّفَ عليه تعالى، وهم لا يُنكرونه، إنَّما الكلامُ في الإِيجاد والإِحداث.

ثم قال: وأَظهرُ منه أن يقال: لأنَّ المعمولَ من حيث المادَّةُ كانوا لا يُنكرون أنَّه من خلق اللهِ تعالى، فقيل: هو من حيث الصورةُ أيضاً خلقُه، فهو مخلوقٌ من جميع الوجوهِ مثلَكم من غير فرق، فلِمَ تسوُّونه بالخالق وما ازداد بفعلكم إلَّا بُعد استحقاقٍ عن العبادة[2]؟

ولمَّا كان هذا المعنى في تقرير الزمخشريِّ على أبلغِ وجه، كان هذا البناءُ

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٨.
(٢) في حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٨: إلا بعداً عن استحقاق العبادة.

متداعياً كيفما قرِّر. على أنَّ فائدةَ العدولِ قد اتَّضحت حقَّ الوضوح، فبطل الحصرُ أيضاً، وقد قيل عليه: إنَّ المرادَ بالفعل الحاصلُ بالمصدر؛ لأنَّه بالمعنى الآخَر ـ أعني الإيقاعَ ـ من النِّسب التي ليست بموجودةٍ عندهم، وتوقُّف الحاصلِ بالإيقاع على قدرة العبدِ وإرادته توقفٌ بعيد، بخلاف توقُّفِه على الإيقاع الذي لا وجودَ له، فيكونُ ما ذكره في معرض السندِ مجتمعاً مع المقدِّمة الممنوعة، فلا يصلح للسَّندية، والمرادُ بمفعولهم أشكالُ الأصنامِ المتوقِّف على ذلك المعنى القائمِ بهم، وإذا كان ذاك بخَلْقِه تعالى، فلأن يكونَ الذي لا يقوم بهم ـ بل بما يُباينهم ـ بخَلْقِه تعالى أَوْلى.

ولا مجالَ للخصم أن يمنعَ هذه الملازمة؛ إذ قد أَثبت خلقَ المتولِّدات مطلقاً للعباد بواسطة خلقِهم لِمَا يقوم بهم، وانتفاءُ الأوَّلِ ملزومٌ لانتفاءِ الثاني، فتأمَّل.

وقال في «التقريب» انتصاراً لمن قال بالمصدريَّة: إنَّ الجواهرَ مخلوقةٌ له تعالى وِفاقاً، والأعمالُ مخلوقةٌ أيضاً؛ لعموم الآية، فكيف يُعبد ما لا مدخلَ له في الخلق؟ فدعوى فواتِ الاحتجاجِ باطلة، وكذلك فكُّ النظمِ والتبتير.

وتعقَّبه في «الكشف» أيضاً، فقال فيه: إنَّ المقدِّمة الوفاقيةَ إذا لم يكن بدٌّ منها ولم تكن معلومةً من هذا السِّياق، يَلزم فوات الاحتجاج، وأمَّا الحملُ على التغليبِ في الخطاب، فتوجيهٌ لا ترجيح، والكلامُ في الثاني.

ثم قال: وأمَّا أنَّ المصدريةَ أولى لئلَّا يلزمَ حذفُ الضمير، فمعارَضٌ بأنَّ الموصولةَ أكثرُ استعمالاً، وهي أَنسبُ بالسِّياق السابق، على أنَّه لابدَّ من تقدير: عملَكم[1] في المنحوت، فيزداد الحذف.

واعتُرض بأنَّا لا نسلِّم الأكثرية، وكذا لا نسلِّم أنها أنسبُ بالسِّياق؛ لِمَا سمعتَ من أنَّ الأسلوبَ على ذلك من باب الكِناية، وهو أَبلغُ من التصريح، والتقديرُ المذكورُ ليس بلازم؛ لجواز إبقاءِ الكلامِ على عمومه الشاملِ للمنحوتِ بالطريق الأَوْلى، أو يقدَّر بمصدرٍ مضافٍ إضافةً عهدية.

---

(١) في الأصل و(م): عملهم، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٨، وهو الصواب.

وبعضُهم جعلها موصولةً كنايةً عن العمل؛ لئلَّا ينفكَّ النظمُ ويظهرَ احتجاجُ الأصحابِ على خلق أفعالِ العباد. وتعقَّبه أيضاً بأنَّه أفسدُ من الأوَّل؛ لمَا فيه من التعقيد وفواتِ الاحتجاج، وكونِ الموصولِ في الأوَّل عبارةً عن الأعيان وفي الثاني كنايةً عن المعاني، وانفكاكُ النظمِ ليس لخصوص الموصوليةِ والمصدرية، بل لتباين المعنيَين، وهو باقٍ[1].

وصاحبُ «الانتصاف» قال بتعيُّن حملِها على المصدرية، لأنَّهم لم يعبدوا الأَصنامَ من حيث كونُها حجارة، وإنَّما عبدوها من حيث أَشكالُها، فهم في الحقيقة إنَّما عبدوا عملَهم، وبذلك تتبلَّج الحجَّةُ عليهم بأنَّهم وعملَهم مخلوقان لله تعالى، فكيف يَعبد المخلوقُ مخلوقاً مثلَه مع أنَّ المعبودَ كسبُ العابدِ وعملُه؟ وأَجاب عن حديث لزومِ انفكاكِ النَّظم بأنَّ لنا أن نحملَ الأُولى على المصدرية أيضاً، فإنَّهم في الحقيقة إنَّما عبدوا نحتَهم[2]. وفي دعوى التعيُّن بحث.

وجوَّز كونُ «ما» الثانيةِ استفهاميةً للإنكار والتحقير، أي: وأيَّ شيءٍ تعملون في عبادتكم أصناماً نحتُّموها؟ أي: لا عملَ لكم يعتبر. وكونُها نافية، أي: وما أنتم تعملون شيئاً في وقت خلقِكم ولا تقدرون على شيء.

ولا يخفى أن كلا الاحتمالين خلاف الظاهر، بل لا ينبغي أن يحمل عليه التنزيل، وأظهر الوجوه كونها موصولة، وتوجيهُ ذلك على ما يقوله الأصحاب، ثم كونُها مصدرية، والاستدلالُ بالآية عليه ظاهر، وقولُ صاحبِ «الكشف» و«الإنصاف»: إنَّ استدلالَ الأصحابِ بهذه الآيةِ لا يتمّ، إنْ أَراد به ترجيحَ احتجاجِ المعتزلة، خارجٌ عن دائرة الإنصاف، ثم إنَّها على تقدير ألَّا تكونَ دليلاً لهم، لا تكون دليلاً للمعتزلة أيضاً، كما لا يخفَى على المنْصف.

هذا ولمَّا غلبهم إبراهيمُ عليه السلام بالحجَّة، مالوا إلى الغلبة بقوَّة الشَّوكة ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ حائطاً توقِدون فيه النار، وقيل: مَنجنيقاً ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾

---

(١) ينظر الكشاف ٣/ ٣٤٦.
(٢) الانتصاف ٣/ ٣٤٦.

في النَّار الشديدة، من الجَحْمة، وهي شدَّةُ التأجُّج والاتِّقاد. واللامُ بدلٌ عن المضاف إليه، أو للعهد. والمرادُ جحيمُ ذلك البنيانِ التي هي فيه أو عنده.

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ سوءاً باحتيال، فإنَّه عليه السلام لمَّا قهرهم بالحجَّة، قصدوا تعذيبَه بذلك؛ لئلَّا يظهرَ للعامَّة عجزُهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الأذلِّين بإبطال كيدِهم وجعلِه برهاناً ظاهراً ظهورَ نارِ القِرى ليلاً على عَلَمٍ، على علوِّ شأنِه عليه السلام، حيث جعل سبحانه النارَ عليه برداً وسلاماً. وقيل: أي: الهالكين. وقيل: أي: المعذَّبين في الدَّرْك الأسفلِ من النار. والأوَّل أنسب.

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ إلى حيث أمرني، أو حيث أَتجرَّد فيه لعبادته عزَّ وجلّ، جعل الذهابَ إلى المكان الذي أمره ربُّه تعالى بالذَّهاب إليه ذهاباً إليه، وكذا الذهابُ إلى مكانٍ يعبده تعالى فيه، لا أنَّ الكلامَ بتقديرِ مضاف.

والمرادُ بذلك المكانِ الشام. وقيل: مِصر. وكأنَّ المرادَ إظهارُ اليأسِ من إيمانهم وكراهة البقاءِ معهم، أي: إنِّي مفارقُكم ومهاجرٌ منكم إلى ربِّي.

﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ إلى ما فيه صلاحُ دِيني، أو إلى مقصدي، والسينُ لتأكيد الوقوعِ في المستقبل؛ لأنها في مقابلة «لن» المؤكِّدِ للنفي، كما ذكره سيبويه(١).

وبتَّ عليه السلام القول؛ لسبق وعدِه تعالى إيَّاه بالهداية لمَّا أمره سبحانه بالذَّهاب، أو لفَرْط توكُّلِه عليه السلام، أو للبناءِ على عادته تعالى معه، وإنَّما لم يقل موسى عليه السلام مثلَ ذلك، بل قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] بصيغة التوقُّع، قيل: لعدم سبقِ وعدٍ وعدمِ تقدُّم عادة، واقتضاءِ مقامِه رعايةَ الأدبِ معه تعالى بألَّا يقطعَ عليه سبحانه بأمرٍ قبل وقوعِه، وتقديمِه على رعاية فَرط التوكُّل، ومقاماتُ الأنبياءِ متفاوتة، وكلُّها عالية.

وقيل: لأنَّ موسى عليه السلام قال ما قال قبلَ البعثة، وإبراهيمَ عليه السلام قال ذلك بعدَها.

---

(١) الكتاب ٣/ ١١٥.

وقيل: لأنَّ إبراهيمَ كان بصدد أمرٍ دينيّ، فناسبه الجزم، وموسى كان بصدد أمرٍ دنيويّ، فناسبه عدمُ الجزم.

ومن الغريبِ ما قيل ونحا إليه قتادةُ أنَّه لم يكن مرادُ إبراهيمَ عليه السلام بقوله: «إني..» إلخ الهجرة، وإنَّما أراد بذلك لقاءَ اللهِ تعالى بعد الإحراق، ظانًّا أنَّه يموت في النار إذا أُلقي فيها، وأراد بقوله: «سيهديني» الهدايةَ إلى الجنَّة.

ويدفع هذا القولَ دعاؤه بالولدِ حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ بعض الصالحين، يُعينني على الدَّعوة والطاعة، ويؤنسني في الغربة. والتقدير: ولداً من الصالحين، وحُذف لدلالة الهبةِ عليه، فإنَّها في القرآن وكلام العربِ غلب استعمالُها مع العقلاءِ في الأولاد، وقولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم:٥٣] من غيرِ الغالب، أو المرادُ فيه هبةُ نبوَّته لا هبةُ ذاتِه، وهو شيءٌ آخر. ولقوله(١) تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ ما بشِّر به عينُ ما استوهبه، مع أنَّ مثلَه إنمَّا يقال عرفاً في حقِّ الأولاد.

ولقد جمع بهذا القولِ بشارات: أنَّه ذَكَرٌ لاختصاص الغلامِ به، وأنَّه يبلغ أوانَ البلوغِ بالسنِّ المعروف، فإنَّه لازمٌ لوصفه بالحليم؛ لأنَّه لازمٌ لذلك السنِّ بحسب العادة، إذ قلَّما يوجد في الصِّبيان سَعةُ صدرٍ وحُسنُ صبرٍ وإغضاءٌ في كلِّ أمر. وجوِّز أن يكونَ ذلك مفهوماً من قوله تعالى: «غلام» فإنَّه قد يختصُّ بما بعد البلوغِ وإنْ كان ورد عامّاً، وعليه العرفُ كما ذكره الفقهاء، وأنَّه يكون حليماً، وأيُّ حلمٍ مثلُ حلمِه، عرض عليه أبوه وهو مراهقٌ الذبحَ فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الآية:١٠٢] فما ظنُّك به بعد بلوغِه؟ وقيل: ما نَعَتَ اللهُ تعالى نبيًّا بالحلم ـ لعزَّة وجودِه ـ غيرَ إبراهيمَ وابنهِ عليهما السلام، وحالُهما المذكورةُ فيما بعدُ تدلُّ على ما ذُكر فيهما.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾ فصيحةٌ تُعرب عن مقدَّرٍ قد حُذف تعويلاً على شهادة الحال، وإيذاناً بعدم الحاجةِ إلى التصريحِ به؛ لاستحالة

(١) قوله: ولقوله...، عطف على قوله: لدلالة الهبة...

التخلُّف، أي: فوهبناه له ونشأ، فلمَّا بلغ رتبةَ أن يسعَى معه في أشغاله وحوائجِه.

و«مع» ظرفٌ للسعي، وهي تدلُّ على معنى الصحبةِ واستحداثِها.

وتعلُّقها بمحذوفٍ دلَّ عليه المذكور؛ لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمه، لأنَّه عند العملِ مؤوَّل بـ «أنْ» المصدريةِ والفعل، ومعمولُ الصلةِ لا يتقدَّم على الموصول؛ لأنَّه كتقدُّم جزءِ الشيءِ المرتَّب الأجزاءِ عليه، أو لضعفه عن العمل = فيه بحث، أمَّا أولاً؛ فلأنَّ التأويلَ المذكورَ على المشهور في المصدر المنكَّر دون المعرَّف. وأمَّا ثانياً؛ فلأنَّه إذا سلِّم العموم، فليس كلُّ ما أوِّل بشيءٍ حكمُه حكمُ ما أوِّل به. وأمَّا ثالثاً؛ فلأنَّ المقدَّم هنا ظرف، وقد اشتهر أنَّه يغتفر فيه ما لا يغتفر في غيره. وصرَّحوا بأنَّه يكفيه رائحةُ الفعل، وبهذا يضعف حديثُ المنع؛ لضعف العاملِ عن العمل، فالحقُّ أنَّه لا حاجةَ في مثل ذلك إلى التقدير، معرَّفاً كان المصدرُ أو منكَّراً، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢] وهو الذي ارتضاه الرضيُّ وقال به العلَّامة الثاني.

واختار صاحبُ «الفرائد» كونَها متعلِّقةً بمحذوفٍ وقع حالاً من «السعي»، أي: فلمَّا بلغ السعيَ حالَ كونِ ذلك السعيِ كائناً معه. وفيه أنَّ السعيَ معه معناه اتفاقُهما فيه، فالصحبةُ بين الشخصين فيه، وما قدَّره يقتضي الصحبةَ بين السعي وإبراهيمَ عليه السلام، ولا يطابق المقام.

وجوِّز تعلُّقه بـ «بلغ». ورُدَّ بأنَّه يقتضي بلوغَهما معاً حدَّ السعي؛ لِمَا سمعتَ من معنى «مع»، وهو غيرُ صحيح.

وأُجيب بأنَّ «مع» على ذلك لمجرَّد الصحبة على أن تكونَ مرادفةَ «عند»، نحو: فلانٌ يتغنَّى مع السُّلطان، أي: عنده، ويكون حاصلُ المعنى: بلغ عند أبيه وفي صحبته متخلِّقاً بأخلاقه متطبِّعاً بطباعه، ويستدعي ذلك كمالَ محبَّة الأبِ إياه. ويجوزُ على هذا أن تتعلَّقَ بمحذوفٍ وقع حالاً من فاعل «بلغ». ومن مجيءِ «مع» لمجرَّد الصحبةِ قولُه تعالى حكايةً عن بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] فلتكن فيما نحن فيه مثلَها في تلك الآية.

وتعقّب بأنَّ ذاك معنًى مجازيّ، والحملُ على المجاز هنالك للصَّارف، ولا صارفَ فيما نحن فيه، فلْيُحمل على الحقيقة، على أنَّه لا يتعيَّن هنالك أن تكونَ لمعيَّة الفاعل؛ لجواز أن يراد: أسلمتُ لله ولرسوله، مثلاً. وتقديمُ «مع» إشعاراً منها بأنَّها كانت تظنُّ أنها على دِينٍ قبل، وأنها مسلمةٌ لله تعالى فيما كانت تعبد من الشَّمس، فدلَّ على أنه إسلامٌ يعتدُّ به من أثر متابعةِ نبيِّه، لا إسلامٌ كالأوَّل فاسد.

قال صاحبُ «الكشف»: وهذا معنًى صحيح، حَملُ الآيةِ عليه أولى، وإنْ حُمل على معيَّة الفاعلِ لم يكن بدٌّ من محذوف، نحو: مع بلوغِ دعوتِه وإظهار معجزتِه؛ لأنَّ فرقَ ما بين المقيَّد ومطلقِ الجمعِ معلومٌ بالضرورة. وزعم بعضٌ أنه لا مانعَ من إرادة الحقيقةِ واستحداثِ إسلامهما معاً، على معنى أنَّه عليه السلام وافقها أو لقَّنها. وليس بشيءٍ كما لا يخفَى.

وقيل: يراد بالسَّعي - على تقدير تعلُّق «مع» بـ «بَلَغَ» - المسعَى، وهو الجبلُ المقصودُ إليه بالمشي، وهو تكلُّف لا يصار إليه.

وبالجملة: الأَوْلى تعلُّقها بالسعي، والتخصيصُ لأنَّ الأبَ أكملُ في الرِّفق وبالاستصلاح له، فلا يستسعيه قبل أوانِه، أو لأنَّه عليه السلام استوهبه لذلك. وفيه على الأوَّل بيانُ أوانِه، وأنَّه في غضاضة عُودِه كان فيه ما فيه من رصانة العقلِ ورزانةِ الحلم، حتى أَجاب بما أجاب، وعلى الثاني بيانُ استجابةِ دعائه عليه السلام، وكان للغلام يومئذٍ ثلاثَ عشرةَ سنة، والولدُ أحبُّ ما يكون عند أبيه في سنٍّ يقدر فيه على إعانة الأبِ وقضاءِ حاجه، ولا يقدر فيه على العِصيان.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ يحتمل أنَّه عليه السلام رأى في منامه أنَّه فعل ذبحه، فحمله على ما هو الأغلبُ في رؤيا الأنبياءِ عليهم السلامُ من وقوعها بعينها. ويحتمل أنَّه رأى ما تأويلُه ذلك، لكن لم يذكرْه وذكر التأويل، كما يقول الممتحَنُ وقد رأى أنَّه راكبٌ في سفينة: رأيت في المنام أنِّي ناجٍ من هذه المِحنة.

وقيل: إنَّه رأى معالجةَ الذبحِ ولم يرَ إنهارَ الدم، فـ «أنِّي أذبحك»: أنِّي أُعالج ذبحَك.

ويُشعر صنيعُ بعضِهم اختيارَ أنَّه عليه السلام أُتي في المنام فقيل له: اذبح ابنَك، ورؤيا الأنبياءِ وحيٌ كالوحي في اليقظة، وفي روايةٍ أنه رأى ليلةَ الترويةِ كأنَّ قائلاً يقول: إنَّ اللهَ تعالى يأمركَ بذبح ابنِك، فلمَّا أصبح روَّأ في ذلك[1]، وفكَّر من الصَّباح إلى الرَّواح، أَمِن اللهِ تعالى هذا الحُلُم أم من الشيطان؟ فمن ثَمَّ سمِّي يومَ التروية، فلمَّا أمسى رأى مثلَ ذلك، فعرف أنَّه من الله تعالى، فمن ثَمَّ سمِّي يومَ عرفة، ثم رأى مثلَه في الليلة الثالثة، فهمَّ بنحره، فسمِّي يومَ النحر.

وقيل: إنَّ الملائكةَ حين بشَّرته بغلامٍ حليم، قال: هو إذن ذبيحُ الله، فلمَّا وُلد وبلغ حدَّ السعي معه، قيل له: أَوفِ بنذرك. ولعلَّ هذا القولَ كان في المنام، وإلَّا فما يصنع بقوله: «إني أرى في المنام أني أذبحك».

وفي كلام التوراةِ التي بأيدي اليهودِ اليومَ ما يرمز إلى أنَّ الأمرَ بالذَّبح كان ليلاً؛ فإنَّه بعد أن ذكر قولَ اللهِ تعالى له عليه السلام: خذ ابنَك وامضِ إلى بلد العبادةِ وأَصعده ثَمَّ قرباناً على أحد الجبالِ الذي أعرِّفك به، قيل: فأَدلج إبراهيمُ بالغداة، إلخ[2].

فالأمرُ إمَّا مناماً وإمَّا يقظة لكن وقع تأكيداً لما في المنام؛ إذ لا محيصَ عن الإيمان بما قصَّه اللهُ تعالى علينا فيما أَعجز به الثَّقلَين من القرآن، والحزمُ الجزمُ بكونه في المنام لا غير؛ إذ لا يعوَّل على ما في أيدي اليهود، وليس في الأخبار الصحيحةِ ما يدلُّ على وقوعه يقظةً أيضاً.

ولعلَّ السرَّ في كونه مناماً لا يقظةً أن تكونَ المبادرةُ إلى الامتثال أدلَّ على كمال الانقيادِ والإخلاص.

وقيل: كان ذلك في المنام دون اليقظة؛ ليدلَّ على أنَّ حالتَي الأنبياءِ يقظةً ومناماً سواءٌ في الصدق. والأوَّلُ أَولى.

والتأكيدُ لِمَا في تحقُّق المخبرِ به من الاستبعاد.

---

(١) روَّأ في الأمر: نظر فيه، وتعقَّبه، ولم يعجل بجواب. القاموس (روأ).

(٢) الكتاب المقدس، العهد القديم ص ٩٩، وفيه: فبكَّر إبراهيم في الصباح...

وصيغةُ المضارعِ في الموضعين قيل: لاستحضار الصورةِ الماضيةِ لنوع غرابة، وقيل: في الأوَّل لتكرُّر الرؤيا، وفي الثاني للاستحضار المذكور، أو لتكرُّر الذبحِ حسب تكررِ الرُّؤيا، أو للمشاكلة. ومَن نظر بعدُ ظهر له غيرُ ذلك.

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي. وإنَّما شاوره في ذلك وهو حتمٌ ليعلمَ ما عنده فيما نزل من بلاءِ الله عزَّ وجلّ، فيثبتَ قدمه إن جزع، ويأمنَ عليه إن سلم، وليوطِّنَ نفسَه عليه فيهونَ عليه، ويكتسبَ المثوبةَ بالانقيادِ لأمر اللهِ تعالى قبل نزولِهِ، وليكونَ سنَّةً في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدمُ الملائكةَ في أكله من الشَّجرة، لَما فرط منه ذلك.

وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «ماذا تُرِي» بضمِّ التاءِ وكسرِ الراءِ خالصة[١]، أي: ما الذي تريني إيَّاه من الصبر وغيرِه؟ أو: أيَّ شيءٍ تريني؟ على أنَّ «ما» مبتدأ، و«ذا» موصولٌ خبرُه، ومفعولَي «تُري» محذوفان. أو «ماذا» كالشيءِ الواحدِ مفعولٌ ثانٍ لـ «تُري»، والمفعولُ الأولُ محذوف.

وقُرئ: «ماذا تُرَى» بضمِّ التاءِ وفتحِ الراءِ على البناءِ للمفعول[٢]، أي: ماذا تريك نفسُك من الرأي؟

و«انظر» في جميع القراءاتِ معلَّقةٌ عن العمل، وفي «ماذا» الاحتمالان، فلا تغفُل.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: الذي تؤمرُ به، فحُذف الجارُّ والمجرورُ دفعة، أو حُذف الجارُّ أوَّلاً فعُدِّي الفعلُ بنفسه، نحو: أَمرتُك الخير، ثم حُذف المجرورُ بعد أن صار منصوباً ثانياً، والحذفُ الأولُ شائعٌ مع الأمر، حتى كاد يعدُّ متعدِّياً بنفسه، فكأنَّه لم يجتمع حذفان.

أو: افعل أمرَك، على أنَّ «ما» مصدرية، والمرادُ بالمصدر الحاصلُ بالمصدر، أي: المأمورُ به، ولا فرقَ في جواز إرادة ذلك من المصدر بين أن يكونَ صريحاً

---

(١) التيسير ص١٨٦-١٨٧، والنشر ٢/ ٣٥٧.

(٢) هي قراءة الأعمش والضحاك كما في المحتسب ٢/ ٢٢٢، والبحر ٧/ ٣٧٠.

وأن يكونَ مسبوكاً، وإضافتُه إلى ضمير إبراهيمَ إضافةٌ إلى المفعول. ولا يخفى بُعدُ هذا الوجه.

وهذا الكلامُ يقتضي تقدُّمَ الأمر، وهو غيرُ مذكور، فإمَّا أن يكونَ فهم من كلامه عليه السلام أنَّه رأى أنَّه يذبحه مأموراً، أو علم أنَّ رؤيا الأنبياءِ حقّ، وأنَّ مثل ذلك لا يُقدِمون عليه إلَّا بأمر.

وصيغةُ المضارعِ للإيذان بغرابة ذلك، مثلُها في كلام إبراهيمَ على وجه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما قاله لم يكن إلَّا عن حلمٍ غيرِ مشوبٍ بجهل بحال المأمورِ به.

وقيل: للدَّلالة على أنَّ الأمرَ متعلِّق به، متوجِّه إليه، مستمرٌّ إلى حين الامتثالِ به.

وقيل: لتكرُّر الرؤيا.

وقيل: جيءَ بها لأنَّه لم يكن بعدُ أمر، وإنمَّا كانت رؤيا الذَّبح، فأخبره بها، فعلم لعلمه بمقام أبيه وأنَّه ممَّن لا يجد الشيطانُ سبيلاً بإلقاء الخيالاتِ الباطلةِ إليه في المنام أنَّه سيكون ذلك، ولا يكون إلَّا بأمرٍ إلهيّ، فقال له: افعلْ ما تؤمرُ بعدُ من الذَّبح الذي رأيتَه في منامك.

ولمَّا كان خطابُ الأبِ: «يا بني» على سبيل الترحُّم، قال هو: «يا أبت» على سبيل التوقيرِ والتعظيم، ومع ذلك أتى بجوابٍ حكيم؛ لأنَّه فوَّض الأمرَ حيث استشاره، فأجاب بأنَّه ليس مجازها[1]، وإنَّما الواجبُ إمضاءُ الأمر.

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ على قضاءِ اللهِ تعالى، ذبحاً كان أو غيرَه. وقيل: على الذَّبح. والأوَّل أولى للعموم، ويدخل الذبحُ دخولاً أوليّاً. وفي قوله: «من الصابرين» دون: صابراً ـ وإنْ كانت رؤوسُ الآي تقتضي ذلك ـ من التواضع ما فيه. قيل: ولعله وفِّق للصَّبر ببركته مع بركةِ الاستثناء، وموسى عليه السلام لمَّا لم يسلكْ هذا المسلكَ من التواضع في قوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩] حيث لم ينظم نفسَه الكريمةَ في سِلك الصابرين، بل أخرج

(١) كذا في (م)، وهي غير مقروءة في الأصل.

الكلامَ على وجهٍ لا يُشعر بوجود صابرٍ سواه، لم يتيسَّر له الصبر، مع أنَّه لم يُهمل أمرَ الاستثناء.

وفيه أيضاً إغراءٌ لأبيه عليه السلام على الصَّبر؛ لمَا يعلم من شفقته عليه مع عِظَم البلاء، حيث أشار إلى أنَّ لله تعالى عباداً صابرين، وهي زهرةُ ربيعٍ لا تتحمَّل الفرك.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: استسلما وانقادا لأمر اللهِ تعالى، فالفعلُ لازم، أو سلَّم الذبيحُ نفسَه وإبراهيمُ ابنَه، على أنه متعدٍّ والمفعولُ محذوف.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وابنُ عباس، وعبدُ الله، ومجاهد، والضحَّاك، وجعفرُ بن محمد، والأعمش، والثوري: «سلَّما»[(١)]، وخرِّجت على ما سمعت. ويجوز أن يكونَ المعنى: فوَّضا إليه تعالى في قضائه وقدرِه. وقُرئ: «استسلما»[(٢)].

وأصلُ الأفعالِ الثلاثةِ: سَلِمَ هذا لفلان: إذا خلص له، فإنَّه سلم من أن ينازَعَ فيه.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ صرعه على شِقِّه فوقع جبينُه على الأرض. وأصلُ التلِّ: الرميُ على التلّ، وهو الترابُ المجتمع، ثم عمِّم في كلِّ صرع، والجبينُ أحدُ جانبَي الجبهة، وشذَّ جمعُه على أَجبُن، وقياسُه في القِلَّة: أَجبِنة، ككثيب وأكثبة، وفي الكثرة: جُبْنان وجُبُن، ككُثبان وكُثُب. واللامُ لبيان ما خرَّ عليه، كما في قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء:١٠٧] وقولِه:

وخــرَّ صــريــعــاً لــلــيــديــن ولــلــفــمِ[(٣)]

وليست للتعدية.

وقيل: المراد: كبَّه على وجهِه، وكان ذلك بإشارةٍ منه، أخرج غيرُ واحدٍ عن مجاهدٍ أنَّه قال لأبيه: لا تذبحْني وأنت تنظرُ إلى وجهي، عسى أن ترحمَني فلا تُجهزَ

(١) القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٢، والبحر ٧/ ٣٧٠.
(٢) البحر ٧/ ٣٧٠.
(٣) سلف ١٤/ ٣٩٧.

عليّ، اربط يدي إلى رقبتي ثم ضع وجهي للأرض. ففعل، فكان ما كان. ولا يخفى أنَّ إرادةَ ذلك من الآية بعيد، نعم لا يَبعدُ أن يكونَ الذبيحُ قال هذا.

وفي الآثار حكايةُ أقوالٍ غير ذلك أيضاً، منها ما في خبرٍ للسُّدِّيِّ أنَّه قال لأبيه عليهما السلام: يا أبتِ، اشدد رِباطي حتى لا أضطرب، واكفُف عني ثيابَك حتى لا ينتضحَ عليها من دمي شيءٌ فتراه أمِّي فتحزن، وأَسْرِعْ مرَّ السكينِ على حلقي فيكونَ أهونَ للموت عليّ، فإذا أتيت أمِّي فاقرأ عليها السلامَ منيّ. فأقبل عليه إبراهيمُ يقبِّله وكلٌّ منهما يبكي.

ومنها ما في حديثٍ أخرجه أحمدُ وجماعةٌ عن ابن عباسٍ أنَّه قال لأبيه وكان عليه قميصٌ أبيضُ: يا أبتِ، ليس لي ثوبٌ تكفِّنُني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفِّنَني فيه. فعالجه ليخلَعه، فكان ما قصَّ الله عزَّ وجل[(١)].

وكان ذلك عند الصَّخرةِ التي بمِنى. وعن الحسن: في الموضع المشرفِ على مسجد مِنى. وعن الضحَّاك: في المنحر الذي يُنحر فيه اليوم. وقيل: كان ببيتِ المقدسِ، وحُكي ذلك عن كعب. وحَكى الإمامُ مع هذا القولِ أنَّه كان بالشَّام.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ قيل: ناداه مِن خَلْفِه مَلَكٌ من قِبَله تعالى بذلك، و«أنْ» مفسِّرة بمعنى «أيْ»، وقرأ زيدُ بن عليّ: «قد صدَّقْتَ» بحذفها[(٢)]. وقُرئ: «صَدَقْتَ» بالتخفيف[(٣)].

وقرأ فيَّاض[(٤)]: «الرِّيَّا» بكسر الراءِ والإدغام.

وتصديقُه عليه السلام الرُّؤيا توفيتُه حقَّها من العمل، وبذلُ وسعِه في إيقاعها،

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٠، ومسند أحمد (٢٧٠٧)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١٠٦٢٨)، والبيهقي ٥/ ١٥٤، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٥٩ وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجاله ثقات.

(٢) أي: بحذف «أن». البحر ٧/ ٣٧٠.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٨، والبحر ٧/ ٣٧٠.

(٤) هو: فياض بن غزوان الضبي الكوفي، مقرئ موثق، أخذ القراءة عرضاً عن طلحة بن مصرف. غاية النهاية ٢/ ١٣. وقراءته في القراءات الشاذة ص١٢٨، والبحر ٧/ ٣٧٠.

وذلك بالعزم والإتيانِ بالمقدِّمات، ولا يَلزم فيه وقوعُ ما رآه بعينه. وقيل: هو إيقاعُ تأويلِها، وتأويلُها ما وقع. ويُفهم من كلام الإمامِ[١] أنَّه الاعترافُ بوجوب العملِ بها، ولا يدلُّ على الإتيان بكلِّ ما رآه في المنام.

وهل أمرَّ عليه السلام الشفرةَ على حَلْقِه أم لا؟ قولان، ذهب إلى الثاني منهما كثيرٌ من الأجِلَّة، وقد أخرج الإمامُ أحمدُ[٢] عن ابن عباسٍ أنَّه عليه السلام لمَّا أخذ الشفرةَ وأراد أن يذبحَه نودي من خلفه أن: يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا.

وأَخرج هو، وابن جَرير، وابنُ أبي حاتم، والطبرانيّ، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» عنه أنَّه عالج قميصَه ليخلَعه فنودي بذلك[٣].

وأَخرج ابنُ المنذر، والحاكمُ وصحَّحه، من طريق مجاهدٍ عنه أيضاً: فلمَّا أَدخل يدَه ليذبحَه، فلم يحملِ المِديةَ حتى نُودي أن: يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا، فأَمسك يدَه[٤].

وأَخرج عبد بنُ حُميدٍ وغيرُه عن مجاهد: فلمَّا أدخل يدَه ليذبحَه، نودي أن: يا إبراهيمُ قد صدَّقت الرُّؤيا، فأَمسك يدَه ورفع رأسَه، فرأى الكبشَ ينحطُّ إليه، حتى وقع عليه، فذبحه.

وفي روايةٍ أخرى عنه أَخرجها عبدُ بن حُميد أيضاً وابنُ المنذرِ أنَّه أَمرَّ السكِّينَ فانقلبت[٥].

وإلى عدم الإمرار ذهبت اليهودُ أيضاً؛ لمَا في توراتهم: مدَّ إبراهيمُ يدَه فأخذ

---

(١) في التفسير الكبير ٢٦/١٥٦.

(٢) في مسنده (٢٧٩٤).

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٨٠، ومسند أحمد (٢٧٠٧)، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٨٦، والمعجم الكبير للطبراني (١٠٦٢٨)، وشعب الإيمان ٣/ ٤٦٤-٤٦٥.

(٤) الدر المنثور٥/ ٢٨٠، والمستدرك ٢/ ٤٣٠-٤٣١، وورد في مطبوعه: فلم يحكَّ، وورد في الدر: فلم تصل، بدل: فلم يحمل.

(٥) الدر المنثور٥/ ٢٨٣.

السِّكين، فقال له ملاكُ اللهِ من السماء قائلاً: يا إبراهيمُ يا إبراهيم، قال: لبَّيك، قال: لا تمدَّ يدَكَ إلى الغلام، ولا تصنعْ به شيئاً[١].

وذهب إلى الأوَّل طائفة، فمنهم مَن قال: إنَّه أمرَّها ولم تَقْطَعْ مع عدمِ المانع؛ لأنَّ القطعَ بخلق اللهِ تعالى فيها أو عندَها عادة، وقد لا يَخلق سبحانه. ومنهم مَن قال: إنَّه أمرَّها ولم تقطعْ لمانع؛ فقد أخرج سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذرِ عن عطاء بنِ يسارٍ أنَّه عليه السلام قام إليه بالشَّفرة فبرك عليه، فجعل اللهُ تعالى ما بين لَبَّتِه إلى مَنحَره نحاساً لا تؤثِّر فيه الشَّفرة.

وأَخرج ابن جَريرٍوابنُ أبي حاتمٍ عن السُّدي أنَّه عليه السلام جرَّ السكينَ على حلقه فلم يَنحَر، وضرب اللهُ تعالى على حلقه صفيحةً من نحاس[٢].

وأَخرج الخطيبُ في «تالي التلخيص» عن فُضيل بنِ عياض قال: أَضجعه ووضع الشَّفرة، فقلبها جبريلُ عليه السلام[٣].

وأخرج الحاكمُ - بسندٍ فيه الواقديُّ - عن عطاءٍ أنَّه نحر في حلقه، فإذا هو قد نحر في نحاس، فشحذ الشفرةَ مرَّتين أو ثلاثاً بالحجر. وضعّف جميع ذلك[٤].

وقيل: إنَّه عليه السلام ذَبح، لكن كان كلَّما قطع موضعاً من الحَلْق، أَوصله اللهُ تعالى. وزعموا ورودَ ذلك في بعض الأخبار، ولا يكاد يصحّ. وسيأتي قريباً إن شاءَ اللهُ تعالى ما يتعلَّق بهذا المقامِ من الكلام.

وجوابُ «لمَّا» محذوفٌ مقدَّر بعد «صدَّقت الرؤيا» أي: كان ما كان ممَّا تنطق به الحال، ولا يُحيط به المقال، من استبشارهما وشكرِهما اللهَ تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاءِ بعد حلولِه، والتوفيقِ لمَا لم يوفَّق غيرُهما لمثله، وإظهارِ فضلهما مع إحراز الثوابِ العظيم، إلى غير ذلك. وهو أَولى من تقدير: فإذا، ونحوِه. وقدَّره بعضُ البصريِّين بعد «وتلَّه للجبين» أي: أَجْزَلنا أجرَهما.

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم ص ٩٩.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٨٣، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٨٠-٥٨١.

(٣) الدر المنثور٥/ ٢٨٢.

(٤) الدر المنثور٥/ ٢٨٣، ومستدرك الحاكم٢/ ٥٥٦.

وعن الخليلِ وسيبويه تقديرُه قبلَ: «وتلَّه»، قال في «البحر»[(١)]: والتقدير: فلمَّا أَسلما أسلما وتلَّه. وقال ابنُ عطية[(٢)]: وهو عندهم كقول امرئِ القيس:

فلـمَّـا أَجـزنـا سـاحـةَ الـحـيِّ وانـتـحَـى[(٣)]

أي: أَجزنا وانتحى. وهو كما ترى.

وقال الكوفيُّون: الجوابُ مثبت، وهو: «وناديناه» على زيادةِ الواو. وقالت فِرقة: هو «وتلَّه» على زيادتها أيضاً. ولعلَّ الأَوْلى ما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ ابتداءُ كلامٍ غير داخلٍ في النِّداء، وهو تعليلٌ لإِفراج تلك الشدَّة المفهومِ من الجواب المقدَّر، أو من الجواب المذكور، أعني: نادينا... إلخ، على القول بأنَّه الجواب، أو منه وإنْ لم يكن الجواب، والعِلَّة في المعنى إِحسانُهما. وكونُه تعليلاً لمَا انطوى عليه الجوابُ من الشُّكر، ليس بشيء.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: الابتلاءُ والاختبار البيِّن الذي يتميَّز فيه المخلِصُ من غيره، أو المحنة البيِّنة، وهي المحنةُ الظاهرةُ صعوبتُها، وما وقع لا شيءَ أَصعبُ منه، ولا تكاد تخفَى صعوبتُه على أحد، ولله عزَّ وجلَّ أن يبتليَ مَن شاءَ بما شاء، وهو سبحانه الحكيمُ الفعَّال لما يريد. ولعل هذه الجملةَ لبيان كونِهما من المحسنين، وقيل: لبيان حكمةِ ما نالهما. وعلى التقديرين هي مستأنفةٌ استئنافاً بيانيّاً، فليتدبَّر.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ بحيوانٍ يُذبح بدلَه ﴿عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ قيل: أي: عظيمِ الجثَّة سمين، وهو كبشٌ أبيضُ أَقرنُ أَعيَن، وفي رواية: أَملحُ، بدلَ: أَبيض. وعن الحسن أنه وَعِل أُهبط عن ثَبِير. والجمهورُ على الأوَّل، ووافقهم الحسنُ في روايةٍ رواها عنه

---

(١) ٧/ ٣٧٠.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٨١.

(٣) عجزه: بنا بطنُ حِقفٍ ذي رُكام عقنقلِ، وهو في الديوان ص ١٥، والحقف من الرمل: المعوج، والعقنقل: المنعقد المتداخل.

ابنُ أبي حاتم، وفيها أنَّ اسمَه: حرير[١]. واليهودُ على أنَّه كبشٌ أيضاً.

وفسَّر المُعظَمُ العظيمَ بعظيم القَدْرِ، وذلك على ما رُوي عن ابن عباس؛ لأنَّه الكبشُ الذي قرَّبه هابيلُ فتقبِّل منه وبقي يرعى في الجنَّة إلى يوم هذا الفداء.

وفي روايةٍ عنه وعن ابن جُبيرٍ أنَّهما قالا: عِظَمُه كونُه من كباش الجنةِ؛ رعى فيها أربعين خريفاً.

وقال مجاهد: وصف بالعِظَم لأنَّه متقبَّل يقيناً. وقال الحسين[٢] بنُ الفضل: لأنَّه كان من عند اللهِ عزَّ وجلّ. وقال أبو بكرٍ الورَّاق: لأنَّه لم يكن عن نسلٍ بل عن التكوين. وقال عَمرو بنُ عبيد: لأنَّه جرت السُّنَّةُ به وصار دِيناً باقياً [إلى] آخر الدهر. وقيل: لأنَّه فُدي به نبيٌّ وابنُ نبيّ.

وهبوطُه من ثَبير كما قال الحسنُ في الوَعل، وجاءَ ذلك في روايةٍ عن ابن عباس. وفي روايةٍ عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّه وجده عليه السلام قد رُبط بسَمُرةٍ في أصل ثَبير.

وعن عطاءِ بنِ السائب أنَّه قال: كنت قاعداً بالمنحر، فحدَّثني قرشيٌّ عن أبيه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال له: «إنَّ الكبشَ نزل على إبراهيمَ في هذا المكان»[٣].

وفي روايةٍ عن ابن عباسٍ أنَّه خرج عليه كبشٌ من الجنةِ قد رعى فيها أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيمُ عليه السلام ابنَه واتبعه، فرماه بسبع حَصَياتٍ وأَحرجه عند الجمرةِ الأُولى، فأفلت، ورماه بسبع حَصَياتٍ وأَحرجه عند الجمرةِ الوسطى، فأفلت، ورماه بسبع حصياتٍ وأَحرجه عند الجمرةِ الكبرى، فأتى به المنحرَ من مِنًى فذُبح. قيل: وهذا أصلُ سُنِّيَّة رميِ الجمار، والمشهورُ أنَّ أصلَ السُّنِّيَّةِ رميُ الشيطانِ هناك؛ ففي خبرٍ عن قتادةَ أنَّ الشيطانَ أرادَ أن يصيبَ حاجتَه من إبراهيمَ وابنِه يومَ

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٤.

(٢) في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٧/ ٣٧١ (والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه): الحسن، والمثبت هو الصواب، وذكر قوله أيضاً البغوي في تفسيره ٤/ ٣٥، وجاء الاسم فيه على الصواب.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٨٤ وعزاه للبغوي.

أُمر بذبحه، فتمثَّل بصديقٍ له، فأَراد أن يصدَّه عن ذلك، فلم يتمكَّن، فتعرَّض لابنه، فلم يتمكَّن، فأَتى الجمرةَ فانتفخ حتى سدَّ الوادي، ومع إبراهيمَ مَلَك، فقال له: اِرمِ يا إبراهيم، فرمى بسبع حصياتٍ يكبِّر في إثر كلِّ حصاة، فأَفرج له عن الطريق، ثم انطلق حتى أَتى الجمرةَ الثانيةَ فسدَّ الواديَ أيضاً، فقال الملك: اِرمِ يا إبراهيم، فرمى كما في الأُولى، وهكذا في الثالثة.

وظاهرُ الآيةِ أنَّ الفداءَ كان بحَيَوانٍ واحد، وهو المعروف، وأخرج عبدُ بن حُميد عن ابن عباسٍ أنَّه فُدي بكبشَين أَملَحين أقرنين أعينين[1]. ولا أعرف له صحَّة، ويراد بالذَّبحِ عليه - لو صحَّ - الجِنسُ.

والفادي على الحقيقة إبراهيمُ عليه السلام، وقال سبحانه: «فديناه» على التجوُّز في الفداء، أي: أَمرنا، أو: أَعطينا، أو في إسناده إليه تعالى، وجوِّز أن يكونَ هناك استعارةٌ مكنيةٌ أيضاً، وفائدةُ العدولِ عن الأصل التعظيمُ.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ سبق ما يُعلم منه بيانُه عند تفسيرِ نظيرِه في آخر قصَّة نوح، ولعلَّ ذِكرَ «في العالمين» هناك وعدمَ ذِكرِه هنا؛ لمَا أنَّ لنوحٍ عليه السلام من الشُّهرة - لكونه كآدمَ ثانٍ للبشر ونجاةِ مَن نجا من أهل الطوفانِ ببركته - ما ليس لإبراهيمَ عليه السلام.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ «ذلك» إشارةٌ إلى إبقاء ذِكرِه الجميلِ فيما بين الأُمم، لا إلى ما يُشير إليه فيما سبق، فلا تكرار.

وطرحُ هنا «إنَّا» قيل: مبالغةً في دفع توهُّم اتِّحاده مع ما سبق، كيف وقد سيق الأوَّلُ تعليلاً لجزاء إبراهيمَ وابنِه عليهما السلام بما أُشير إليه قبل، وسيق هذا تعليلاً لجزاء إبراهيمَ وحده بما تضمَّنه قولُه تعالى: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ) إلخ، وما أَلطفَ الحذفَ هنا اقتصاراً، حيث كان فيما قبله ما يُشبه ذلك من عدم ذِكر الابنِ والاقتصارِ على إبراهيم.

وقيل: لعل ذلك اكتفاءً بذِكر «إنَّا» مرَّةً في هذه القصَّة.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٤.

وقال بعض الأَجِلَّة: إنَّه للإشارة إلى أنَّ قصةَ إبراهيمَ عليه السلام لم تتمّ، فإنَّ ما بعدُ من قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ إلخ من تكملة ما يتعلَّق به عليه السلام، بخلاف سائرِ القصصِ التي جعل «إنا كذلك نجزي المحسنين» مقطعاً لها، فإنَّ ما بعدُ ليس ممَّا يتعلَّق بما قبلُ، ومع هذا لم تخلُ القصةُ من مثل تلك الجملةِ بجميع كلماتِها، وسلك فيها هذا المسلكَ اعتناءً بها، فتأمَّل.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ الكلامُ فيه كما تقدَّم.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ حالٌ من «إسحاق»، وكذا قولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ وفي ذلك تعظيمُ شأنِ الصَّلاح، وفي تأخيره إيماءٌ إلى أنَّه الغايةُ لها[1]؛ لتضمُّنها معنى الكمالِ والتكميل، والمقصودُ منهما الإتيان بالأفعال الحسنةِ السَّديدة، وهو في الاستعمال يختصُّ بها.

وجوِّز كونُ «من الصالحين» حالاً، وكونُ «نبيًّا» حالاً من الضمير المستترِ فيه، وقدِّم في اللفظ للاهتمام، ولئلَّا تختلَّ رؤوسُ الآي، وفيه من البُعد ما فيه. على أنَّ في جواز تقديمِ الحالِ مطلقاً أو اطِّرادِه في مثل هذا التركيبِ كلاماً لا يخفَى على مَن راجع الألفيةَ وشروحَها، وفيه ما فيه بَعدُ.

وجوِّز أيضاً كونُه في موضع الصفةِ لـ «نبيًّا»، والكلامُ على الأوَّل ـ وهو الذي عليه الجمهور ـ أَمدحُ كما لا يخفى، والمرادُ كونُه نبيّاً وكونُه من الصالحين في قضاء اللهِ تعالى وتقديرِه، أي: مقضيّاً كونُه نبيّاً مقضيّاً كونُه من الصالحين، وإن شئتَ فقل: مقدَّراً، ولا يكونان بذلك من الحال المقدَّرةِ التي تذكر في مقابَلة المقارِنة، بل هما بهذا الاعتبارِ حالان مقارِنان للعامل، وهو فعلُ البِشارة، أو شيءٌ آخَرُ محذوف، أي: بشَّرناه بوجود إسحاقَ نبيّاً. . . إلخ.

وأَوجب غيرُ واحدٍ تقديرَ ذلك معلِّلاً بأنَّ البشارةَ لا تتعلَّق بالأعيان، بل بالمعاني.

---

(١) أي: للنبوة. ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٨٣.

وتعقِّب بأنَّه إن أُريد أنَّها لا تستعمل إلَّا متعلِّقة بالأعيان، فالواقعُ خلافُه، كـ : ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل:٥٨] فإنْ قيل: إنمَّا يصحُّ بتقدير: ولادة، ونحوِه من المعاني، فهو محلُّ النِّزاع، فلا وجهَ له، والذي يميل إليه القلبُ أنَّ المعنى على إرادة ذلك، وربمَّا يدَّعى أنَّ معنى البشارةِ تستدعي تقديرَ معنًى من المعاني.

وقيل: هما حالان مقدَّران، كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] وفيه بحث.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إبراهيمَ عليه السلام ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: أفضنا عليهما بركاتِ الدِّين والدنيا بأنْ كثَّرنا نسلَهما وجعلنا منهم أنبياءَ ورسلاً.

وقُرئ: «برَّكنا» بالتشديد؛ للمبالغة[1].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله، أو على نفسه بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي، ويدخل فيها ظلمُ الغير ﴿مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ ظاهرٌ ظلمُه. وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ النَّسب لا أثرَ له في الهدى والضَّلال، وأنَّ الظلمَ في الأعقاب لا يعود على الأُصول بنقيصةٍ وعيب.

هذا وفي الآيات بعدُ أبحاث:

الأوَّل: أنَّهم اختلفوا في الذَّبيح، فقال ـ على ما ذكره الجلالُ السيوطيُّ في رسالته «القولُ الفصيحُ في تعيين الذَّبيح»[2] ـ عليّ، وابنُ عمر، وأبو هريرة، وأبو الطُّفيل، وسعيدُ بن جبير، ومجاهد، والشعبيّ، ويوسفُ بن مِهران، والحسنُ البصري، ومحمدُ بن كعبٍ القرظي، وسعيدُ بن المسيب، وأبو جعفرٍ الباقر، وأبو صالح، والربيعُ بن أنس، والكلبيّ، وأبو عَمرِو بنُ العلاء، وأحمدُ بن حنبل، وغيرُهم أنَّه إسماعيلُ عليه السلام لا إسحاقُ عليه السلام، وهو إحدى الرِّوايتين عن ابن عباس، ورجَّحه جماعة، خصوصاً غالبُ المحدِّثين، وقال أبو حاتم: هو

(١) الكشاف ٣/ ٣٥١.
(٢) ١/ ٤٩٢ فما بعد (الحاوي في الفتاوي).

الصَّحيح. وفي «الهَدْي»[١]: إنَّه الصوابُ عند علماءِ الصحابةِ والتابعين فمَن بعدهم. وسئل أبو سعيدٍ الضريرُ عن ذلك فأنشد:

إنَّ الذَّبيحَ هُديتَ إسماعيلُ ... نصَّ الكتابُ بذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصَّ الإلهُ نبيَّنا ... وأتى به التفسيرُ والتأويل
إنْ كنت أُمَّتَه فلا تنكرْ له ... شرفاً به قد خصَّه التفضيل[٢]

وفي دعواه النصَّ نظر، وهو المشهورُ عند العربِ قبل البعثةِ أيضاً، كما يُشعر به أبياتٌ نقلها الثعالبيُّ[٣] في تفسيره عن أميةَ بنِ أبي الصلت، واستدلَّ له بأنَّه الذي وُهب لإبراهيمَ عليه السلام إثرَ الهجرة، وبأنَّ البشارةَ بإسحاقَ بعدُ معطوفةٌ على البِشارة بهذا الغلام، والظاهرُ التغاير، فيتعيَّن كونُه إسماعيل، وبأنه بشِّر بأن يوجدَ وينبَّأ، فلا يجوز ابتلاءُ إبراهيمَ عليه السلام بذبحه؛ لأنَّه علم أنَّ شرطَ وقوعهِ منتفٍ.

والجوابُ بأنَّ الأولَ بشارةٌ بالوجود وهذا بشارةٌ بالنبوَّة ولكن بعد الذَّبحِ، قال صاحبُ «الكشف»: ضعيف؛ لأنَّ نظمَ الآيةِ لا يدلُّ على أنَّ البشارةَ بنبوَّته، بل على أنَّ البشارةَ بأمرٍ مقيَّد بالنبوَّة، فإمَّا أن يقدَّرَ بوجود إسحاقَ بعد الذبحِ ولا دلالةَ في اللفظ عليه، وإمَّا أن يقدَّرَ الوجودُ مطلقاً، وهو المطلوب.

فإنْ قلت: يكفي في الدَّلالة تقدُّمُ البشارةِ بالوجود أوَّلاً، قلتُ: ذاك عليك لا لك، ومَن يسلِّم أنَّ المتقدِّم بشارةٌ بإسحاق حتى يستتبَّ لك المرام، وبأنَّ البشارةَ به وقعت مقرونةً بولادة يعقوبَ منه على ما هو الظاهرُ في قوله تعالى في «هود»: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [الآية:٧١] ومتى بشِّر بالولد وولدِ الولدِ دفعة، كيف يتصوَّر الأمرُ بذبح الولدِ مراهقاً قبل ولادةِ ولده، ومَنعُ كونِه إذ ذاك مراهقاً لجواز أنِ يكونَ بالغاً كما ذهب إليه اليهودُ قد ولد له يعقوبُ وغيرُه = مكابرةٌ لا يُلتفَت إليها.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد١/ ٧١.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٦٣.
(٣) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد النيسابوري، ويقال له: الثعلبي والثعالبي، كما ذكر ابن الأثير في اللباب ١/ ٢٣٨، والأبيات في تفسيره ٨/ ١٥٥، وديوان أمية ص ١٠٨.

وبأنَّه تعالى وصف إسماعيلَ عليه السلام بالصَّبر في قوله سبحانه: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥]. وبأنَّه عزَّ وجلَّ وصفه بصدق الوعدِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤]. ولم يصف سبحانه إسحاق بشيءٍ منهما، فهو الأنسبُ دونَه بأن يكونَ(١) القائل: «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين» المصدِّق قولَه بفعله.

وبأنَّ ما وقع كان بمكَّة، وإسماعيلُ هو الذي كان فيها، وبأن قرنَي الكبشِ كانا معلَّقين في الكعبة، حتى احترقا معها أيامَ حصارِ الحجَّاجِ ابنَ الزبيرِ ﷺ، وكانا قد توارثهما قريشٌ خلفاً عن سَلَف، والظاهرُ أنَّ ذاك لم يكن منهم إلَّا للفخر، ولا يتمُّ لهم إذا كان الكبشُ فِدًى لإسحاقَ دون أبيهم إسماعيل.

وبأنَّه روى الحاكمُ في «المستدرك» وابن جَريرٍ في «تفسيره»(٢) والأمويُّ في «مغازيه» والخلعيُّ في «فوائده» من طريق إسماعيلَ بنِ أبي كريمة، عن عمرَ بن أبي محمدٍ الخطابي، عن العُتبيّ، عن أبيه، عن عبد اللهِ بن سعد، عن الصُّنابحيِّ(٣) قال: حضرنا مجلسَ معاوية، فتذاكر القومُ إسماعيلَ وإسحاقَ أيُّهما الذَّبيح؟ فقال بعضُ القوم: إسماعيل، وقال بعضُهم: بل إسحاق، فقال معاوية: على الخبير سقطتم، كنا عند رسولِ اللهِ ﷺ، فأتاه أعرابيٌّ فقال: يا رسولَ الله، خلفت الكلأ يابساً، والماءَ عابساً، هلك العيال، وضاع المال، فعُد عليَّ مما أفاءَ اللهُ تعالى عليك يا ابنَ الذَّبيحين، فتبسَّم رسولُ اللهِ ﷺ ولم يُنكِر عليه، فقال القوم: مَن الذَّبيحان يا أميرَ المؤمنين؟ قال: إنَّ عبدَ المطلبِ لمَّا أُمر بحفر زمزم، نذر لله تعالى إن سهَّل أمرَها أن ينحرَ بعضَ بَنِيْه، فلمَّا فرغ أَسهم بينهم، فكانوا عشرة، فخرج السهمُ على عبد الله، فأراد أن ينحرَه، فمنعه أَخوالُه بنو مخزوم، وقالوا: أَرْضِ ربَّك وافْدِ ابنَك، ففداه بمئة ناقة، قال معاوية: هذا واحدٌ والآخَرُ إسماعيل.

---

(١) في (م): يقول، بدل: يكون.

(٢) المستدرك ٢/ ٥٥٤، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٩٧-٥٩٨.

(٣) في الأصل و(م): عبد الله بن سعيد الصنابحي، وهي هكذا في الدر المنثور٥/ ٢٨٢، والصواب ما أثبتناه.

وبأنَّه ذُكر في التوراة أنَّ اللهَ تعالى امتحن إبراهيمَ فقال له: يا إبراهيم، فقال: لبيَّك، قال: خذ ابنَك وحيدَك الذي تحبُّه، وامضِ إلى بلد العبادةِ وأَصعده ثَمَّ قرباناً على أحد الجبالِ الذي أعرِّفك به. فإنَّ معنى وحيدَك: الذي ليس لك غيرُه[1]، ولا يصدق ذلك على إسحاقَ حين الأمرِ بالذَّبح؛ لأنَّ إسماعيلَ كان موجوداً إذ ذاك، لأنَّه وُلِد لإبراهيم ـ على ما في التوراة ـ وهو ابنُ ستٍّ وثمانين سنة، ووُلد له إسحاق ـ على ما فيها أيضاً ـ وهو ابنُ مئةِ سنة، وأيضاً قولُه تعالى: الذي تحبُّه، أَليقُ بإسماعيل؛ لأنَّ أوَّلَ ولدٍ له من المحبَّة في الأغلب ما ليس لمن بعدَه من الأولاد، ويُعلم ممَّا ذكر أنَّ ما في التوراة الموجودةِ بأيدي اليهودِ اليومَ مِن ذِكرِ: هو إسحاق، بعد: الذي تحبُّه[2]، من زياداتهم وأباطيلِهم التي أدرجوها في كلام اللهِ تعالى؛ إذ لا يكاد يلتئمُ مع ما قبله. وأجاب بعضُ اليهودِ عن ذلك بأنَّ إطلاقَ الوحيدِ على إسحاق؛ لأنَّ إسماعيلَ كان إذ ذاك بمكَّة. وهو تحريفٌ وتأويلٌ باطل؛ لأنَّه لا يقال الوحيدُ وصفاً للابن إلَّا إذا كان واحداً في البنوَّة ولم يكن له شريكٌ فيها. وقال لي بعضٌ منهم: إنَّ إطلاقَ ذلك عليه لأنَّه كان واحداً لأمِّه ولم يكن لها ابنٌ غيرُه، فقلت: يُبعد ذلك كلَّ التبعيدِ إضافتُه إلى ضمير إبراهيمَ عليه السلام.

ويؤيِّد ما قلنا ما قاله ابنُ إسحاق: ذكر محمدُ بن كعبٍ أنَّ عمرَ بن عبدِ العزيز أَرسل إلى رجلٍ كان يهودياً فأَسلم وحَسُنَ إسلامه، وكان من علمائهم، فسأله: أيُّ ابنَي إبراهيمَ أُمر بذبحه؟ فقال: إسماعيلُ، واللهِ يا أميرَ المؤمنين، وإنَّ يهودَ لَتعلم بذلك، ولكنَّهم يحسدونكم معشرَ العرب.

وذكر ابنُ كثيرٍ[3] أنَّ في بعض نسخِ التوراة: بِكرَك، بدل: وحيدَك. وهو أظهرُ في المطلوب.

وقيل: هو إسحاق، ونسبه القرطبيُّ[4] للأكثرين، وعزاه البغويُّ[5] وغيرُه إلى

(١) في (م): وغيره.
(٢) العهد القديم ص ٩٩.
(٣) في البداية والنهاية ١/ ٣٦٦.
(٤) في تفسيره ١٨/ ٦١.
(٥) في تفسيره ٤/ ٣٢.

عمر، وعليّ، وابنِ مسعود، والعباس، وعِكرمة، وسعيدِ بن جبير، ومجاهد، والشعبيّ، وعُبيدِ بن عمير، وأبي ميسرة، وزيدِ بن أسلم، وعبدِ الله بن شقيق، والزهريّ، والقاسمِ بن يزيد، ومكحول، وكعب، وعثمانَ بنِ حاضر، والسُّدِّي، والحسن، وقتادة، وأبي الهذيل، وابنِ سابط، ومسروق، وعطاء، ومقاتل، وهو إحدى الرِّوايتين عن ابن عباس، واختاره أبو جعفرٍ ابنُ جَريرٍ الطبري[(١)]، وجزم به القاضي عياضٌ في «الشِّفا»[(٢)]، والسُّهيلي في «التعريف والإعلام»[(٣)]، واستدلَّ له بأنَّه لم يَذكر اللهُ تعالى أنه بشَّر بإسماعيل قبل كونِه، فهو إسحاقُ لثبوته بالنصّ، ولأنَّه لم تكن تحته هاجر أمُّ إسماعيل، فالمدعوُّ ولد من سارة.

وأُجيب بأنَّه كفى هذه الآية دليلاً على أنَّه مبشَّر به أيضاً؛ لأنَّ قوله تعالى: «وبشرناه بإسحاق» بعد استيفاءِ هذه القصةِ وتذييلِها بما ذيِّل ظاهرُ الدَّلالة على أنَّ هنالك بشارتَين متغايرتَين، ثم عدمُ الذِّكرِ لا يدلُّ على عدمِ الوجود، ولا يلزم أن يكونَ طلب ولد سارة، ولا علم أنَّه عليه السلام دعا بذلك قبل أن وُهبت هاجرُ منه؛ لأنها أُهديت إليه في حرَّان قبل الوصولِ إلى الشام، على أنَّ البشارةَ بإسحاقَ كانت في الشام نصّاً، فظاهرُ هذه الآيةِ أنَّها قبل الوصولِ إليها؛ لأن البشارةَ عقيبَ الدعاء، وكان قبل الوصولِ إلى الشام. قاله في «الكشف».

وبما رواه ابنُ جَرير[(٤)] عن أبي كُريب، عن زيد بن حُباب، عن الحسن بنِ دينار، عن عليِّ بن زيدِ بن جُدعان، عن الحسن، عن الأَحنفِ بن قيس، عن العباس بنِ عبد المطلب، عن النبيِّ ﷺ قال: «الذبيحُ إسحاق». وتعقَّب بأنَّ الحسنَ بن دينارٍ متروك، وشيخَه منكرُ الحديث.

وبما أَخرج الديلميُّ في «مسند الفِردوس» من طريق عبدِ الله بن ناجية، عن محمد بنِ حربٍ النسائي، عن عبد المؤمنِ بن عباد، عن الأَعمش، عن عطية، عن

---

(١) في تفسيره ١٩/ ٥٩٨.

(٢) ١/ ٢٢٨ (شرح ملا علي القاري).

(٣) ص١٤٦.

(٤) في تفسيره ١٩/ ٥٨٨.

أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ داودَ سأل ربَّه مسألةً فقال: اِجعلني مثلَ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب، فأَوحى اللهُ تعالى إليه: إني ابتليتُ إِبراهيمَ بالنار فصبر، وابتليت إسحاق بالذَّبح فصبر، وابتليت يعقوبَ فصبر».

وبما أَخرجه الدارقطنيُّ والديلميُّ في «مسند الفِردوس»[(١)] من طريقه، عن محمد بنِ أحمدَ بن إِبراهيمَ الكاتب، عن الحسين بنِ فهم، عن خلف بنِ سالم، عن بَهز بن أسد، عن شعبة، عن أبي إِسحاق، عن أبي الأَحوص، عن ابن مسعودٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الذبيحُ إِسحاق».

وبما أَخرجه الطبرانيُّ في «الأَوسط»[(٢)] وابنُ أبي حاتمٍ في تفسيره من طريق الوليدِ بن مسلم، عن عبد الرحمن بنِ زيد بنِ أسلم، عن أبيه، عن عطاء بنِ يسار، عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى خيَّرني بين أن يغفرَ لنصف أمَّتي أو شفاعتي، فاخترت شفاعتي، ورجوت أن تكونَ أعمَّ لأمَّتي، ولولا الذي سبقني إليه العبدُ الصالحُ لعجَّلت دعوتي، إنَّ اللهَ تعالى لمَّا فرَّج عن إسحاقَ كربَ الذبح، قيل له: يا إِسحاق، سلْ تعطَه، قال: أَمَا واللهِ لأتعجَّلنَّها قبل نزغاتِ الشيطان، اللهمَّ مَن مات لا يشرك بك شيئاً قد أَحسن فاغفرْ له».

وتعقِّب هذا بأنَّ عبدَ الرحمنِ ضعيف، وقال ابنُ كثير[(٣)]: الحديثُ غريبٌ منكر، وأَخشى أن يكونَ فيه زيادةٌ مدرَجة، وهي قولُه: إنَّ اللهَ تعالى لمَّا فرَّج... إلخ، وإن كان محفوظاً، فالأَشبهُ أنَّ السياقَ عن إسماعيل وحرَّفوه بإسحاق.

إلى غير ذلك من الأَخبار، وفيها من الموقوف والضعيفِ والموضوعِ كثير، ومتى صحَّ حديثٌ مرفوعٌ في أنَّه إِسحاق، قَبِلناه ووضعناه على العينِ والرأس، والذاهبون إلى هذا القولِ يدَّعون صحَّةَ شيءٍ منها في ذلك.

---

(١) برقم (٣١٧٣).

(٢) برقم (٦٩٩٤).

(٣) في تفسيره ٤/١٦.

وأُجيب عن بعض ما استُدلَّ به للأوَّل بأنَّ وقوعَ القصةِ بمكةَ غيرُ مسلَّم، بل كان ذلك بالشام، وتعليقُ القرنين في الكعبة لا يدلُّ على وقوعها بمكَّة؛ لجواز أنَّهما نُقلا من بلاد الشامِ إلى مكةَ فعلِّقا فيها، وعلى تسليم الوقوعِ بمكَّة، لا مانعَ من أن يكونَ إبراهيمُ قد سار به من الشام إليها، بل قد رُوي القولُ به، أَخرج عبدُ الله بن أَحمدَ في «زوائد الزُّهد»[1] عن سعيد بنِ جُبيرٍ قال: لمَّا رأى إبراهيمُ في المنام ذبحَ إسحاق، سار به من منزله إلى المنحر بمنًى مسيرةَ شهرٍ في غَداةٍ واحدة، فلمَّا صُرف عنه الذبحُ وأُمر بذبح الكبش، ذبحه، ثم راح به رواحاً إلى منزله في عشيةٍ واحدةٍ مسيرةَ شهر، طُويت له الأوديةُ والجبال.

وأمرُ الفخرِ لو سُلِّم ليس بالاستدلال به كثيرُ فخر.

والخبرُ الذي فيه: يا ابنَ الذَّبيحين، غريب، وفي إسناده مَن لا يُعرف حالُه، وفيه ما هو ظاهرُ الدلالةِ على عدم صحَّته، من قوله: فلمَّا فرغ أَسهم بينهم فكانوا عشرةً فخرج السهمُ على عبد الله، فإنَّ عبدَ اللهِ بإجماع أهلِ الأَخبار لم يكن مولوداً عند حفرِ زمزم، وقصةُ نذرِ عبد المطلبِ ذبحَ أحدِ أولادِه تُروَى بوجهٍ آخَر، وهو أنَّه نذر الذبحَ إذا بلغ أولادُه عشراً، فلمَّا بلغوها بولادة عبدِ اللهِ كان ما كان.

وما شاع مِن خبر: «أنا ابنُ الذَّبيحَين» قال العراقيّ: لم أَقف عليه، والخبرُ السابقُ بعد ما عُرف حالُه لا يكفي لثبوته حديثاً، فلا حاجةَ إلى تأويله بأنَّه أُريد بالذَّبيحين فيه إسحاقُ وعبدُ الله، بناءً على أنَّ الأبَ قد يُطلق على العمّ، أو أُريد بهما الذابحان، وهما إبراهيمُ وعبدُ المطلب، بحمل فَعيل على معنى فاعل لا مفعول، وحَمَلَ هؤلاء: «وبشرناه بإسحاق نبياً» على البِشارة بنبوَّته، وما تقدَّم على البِشارة بأنْ يوجدَ قبل، ولمَّا كان التبشيرُ هناك قبل الولادة، والتسميةُ إنَّما تكون بعدها في الأَغلب، لم يسمِّ هناك وسمَّاه هنا؛ لأنَّه بعد الولادة، واستأنس للاتِّحاد بوصفه بكونه من الصالحين؛ لأنَّ مطلوبَه كان ذلك، فكأنَّه قيل له: هذا الغلامُ الذي بشِّرت به أوَّلاً هو ما طلبتَه بقولك: «ربِّ هَبْ لي من الصالحين».

---

(١) ص١٠٢.

وأنت تعلم أنَّ حملَه على البِشارة بالنبوَّة خلافُ الظاهر؛ إذ كان الظاهرُ أن يقالَ لو أُريد ذلك: بشَّرناه بنبوَّته، ونحوُه، وتقديرُ أن يوجدَ نبيّاً لا يدفعه كما لا يخفَى، وكذا وصفُه بالصَّلاح الذي طلبه، فتأمَّل.

ومن العلماء مَن رأى قوَّةَ الأدلَّةِ من الطرفين، ولم يترجَّح شيءٌ منها عنده، فتوقَّف في التعيين، كالجلال السيوطيِّ عليه الرحمة، فإنَّه قال في آخر رسالتِه السابقة: كنتُ مِلْتُ إلى القول بأنَّ الذبيحَ إسحاقُ في التفسير، وأنا الآن متوقِّف عن ذلك[1].

وقال بعضُهم ـ كما نقله الخَفاجي[2] ـ: إنَّ في الدَّلالة على كونه إسحاقَ أدلة كثيرة، وعليه جملةُ أهلِ الكتاب، ولم يُنقَل في الحديث ما يعارضه، فلعله وقع مرَّتين: مرةً بالشام لإسحاق، ومرةً بمكَّة لإسماعيلَ عليهما السلام.

والتوقُّف عندي خيرٌ من هذا القول، والذي أَميل أنا إليه أنه إسماعيلُ عليه السلام، بناءً على أنَّ ظاهرَ الآيةِ يقتضيه، وأنه المرويُّ عن كثيرٍ من أئمَّة أهلِ البيت، ولم أتيقَّن صحةَ حديثٍ مرفوعٍ يقتضي خلافَ ذلك، وحالُ أهلِ الكتابِ لا يخفَى على ذوي الألباب.

البحثُ الثاني: أنَّه استدلَّ بما في القصَّة على جواز النسخِ قبلَ الفعل، وهو مذهبُ كثيرٍ من الأصوليين، وخالف فيه المعتزلةُ والصَّيرفي. ووجهُ الاستدلالِ ـ على ما قرَّره بعضُ الأجلَّة ـ أن إبراهيمَ عليه السلام أُمر بذبح ولِده، بدليل قولِه: «افعل ما تؤمر» ولأنَّه عليه السلام أقدم على الذَّبح وترويعِ الولد، ولو لم يكن مأموراً به، لَكان ذلك ممتنعاً شرعاً وعادة، ونُسخ عنه قبلَ الفعل؛ لأنَّه لم يفعل، ولو كان ترك الفعل مع حضور الوقت، لَكان عاصياً.

واعتُرض عليه بأنَّا لا نسلِّم أنَّه لو لم يفعل وقد حضر الوقتُ لَكان عاصياً؛ لجواز أن يكونَ الوقتُ موسَّعاً فيحصل التمكُّن، فلا يعصي بالتأخير، ثم ينسخ.

---

(١) الحاوي للفتاوي ١/ ٤٩٨.

(٢) في الحاشية ٧/ ٢٨٠.

وأُجيب أمَّا أوَّلاً: فبأنَّه لو كان موسَّعاً، لَكان الوجوبُ متعلِّقاً بالمستقبل؛ لأنَّ الأمرَ باقٍ عليه قطعاً، فإذا نُسخ فقد نسخ تعلُّق الوجوبِ بالمستقبل، وهو المانعُ من النسخِ عندهم، فإنَّهم يقولون: إذا تعلَّق الوجوبُ بالمستقبل مع بقاءِ الأمرِ عليه، امتنع رفعُ ذلك التعلُّق بالنهي عنه، وإلَّا لزم تواردُ الأمرِ والنهي على شيءٍ واحد، وهو محال، فإذا جوَّزوا النسخَ في الواجب الموسَّعِ في وقته قبل فعلِه، مع أنَّ الوجوبَ فيه تعلَّق بالمستقبل، والأمرُ باقٍ عليه، فقد اعترفوا بجوازِ ما منعوه، وهو المطلوب.

وأمَّا ثانياً: فبأنَّه لو كان موسَّعاً، لأخَّر الفعلَ ولم يُقدِم على الذَّبح وترويعِ الولدِ عادة، إمَّا رجاءَ أن يُنسخَ عنه، وإمَّا رجاءَ أن يموتَ فيسقطَ عنه؛ لعِظَم الأمر، ومثلُه مما يؤخَّر عادة.

وتعقِّب هذا بأنَّ عادةَ الأنبياءِ عليهم السلام المبادرةُ إلى امتثال أمرِ اللهِ تعالى على خلاف عادةِ أكثرِ الناس، ولا تُستبعد منهم خوارقُ العادات، وإبراهيمُ من أجلِّهم قدراً، سلَّمنا أنَّ العادةَ ولو بالنِّسبة إلى الأنبياءِ تقتضي التأخير، لكن من أين عُلم أنَّه عليه السلام لم يؤخِّر إلى آخر الوقتِ اتِّباعاً للعادة، فالمعوَّل عليه الجوابُ الأوَّل، وبه يتمُّ الاستدلال.

وربمَّا دفعوه بوجوهٍ أُخَر:

منها أنَّه لم يؤمَر بشيءٍ، وإنَّما توهم ذلك توهُّماً بإراءة الرُّؤيا، ولو سُلِّم، فلم يؤمَر بالذبح، إنَّما أُمر بمقدِّماته من إخراج الولدِ وأخذه المديةَ وتلِّه للجبين.

وتعقِّب هذا بأنَّه ليس بشيء؛ لما مرَّ من قوله: «افعل ما تؤمر» وإقدامِه على الذبح والترويعِ المحرَّم لولا الأمر، كيف ويدلُّ على خلافه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ وقولُه سبحانه: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ ولولا الأمرُ لمَا كان بلاءً مبيناً، ولمَا احتاج إلى الفداء، وكونُ الفداءِ عن ظنِّه أنَّه مأمورٌ بالذَّبح لا يخفى حالُه، وعلى أصل المعتزلةِ هو توريطٌ لإبراهيمَ عليه السلام في الجهلِ بما يظهر أنَّه أمرٌ وليس بأمر، وذلك غيرُ جائز، ومَن لا يجوِّز الظنَّ الفاسدَ على الأنبياءِ عليهم السلام فهذا عنده أدنَى من لا شيء.

ومنها أنَّا لا نسلِّم أنَّه لم يذبح، بل رُوي أنَّه ذبح، وكان كلَّما قطع شيئاً يلتحم عقيبَ القطع، وأنَّه خلق صفيحة نحاسٍ أو حديدٍ تمنع الذَّبح.

وتعقِّب بأنَّ هذا لا يُسمع:

أمَّا أوَّلاً: فلأنَّه خلافُ العادةِ والظاهر، ولم ينقل نقلاً معتبراً. وأُجيب بأنَّ الرِّوايةَ سندٌ للمنع، والضعفُ لا ينافيه، والاحتمالُ كافٍ في المقام، ولا ريبَ في جوازه، كإرسال الكبشِ من الجنة.

وأمَّا ثانياً: فلأنَّه لو ذُبح لَمَا احتيج إلى الفداء، وكونُه لأنَّ الإزهاقَ لم يحصل، ليس بشيء، ولو مُنع الذبحَ بالصفيحة مع الأمر به لَكان تكليفاً بالمحال، وهم لا يجوِّزونه، ثم قد نُسخ عنه، وإلَّا لأثم بتركه، فيكون نسخاً قبل التمكُّن، فهو لنا لا علينا.

ومن السادة الحنفيةِ مَن قال: ما نحن فيه ليس من النسخ؛ لأنَّه رفعُ الحكمِ لا إلى بدل، وهنا له بدلٌ قائمٌ مقامَه، كالفدية للصوم في حقِّ الشيخِ الفاني، فعُلم أنَّه لم يرفع حكمُ المأمورِ به.

وفي «التلويح»: فإن قيل: هَبْ أنَّ الخلفَ قام مقامَ الأصل، لكنَّه استلزم حرمةَ الأصل، أي: ذبحَه، وتحريمُ الشيءِ بعد وجوبِه نسخٌ لا محالة؛ لرفع حكمه، قيل: لا نسلِّم كونَه نسخاً، وإنَّما يلزم لو كان حكماً شرعيّاً، وهو ممنوع، فإنَّ حرمةَ ذبحِ الولدِ ثابتةٌ في الأصل، فزالت بالوجوب، ثم عادت بقيام الشاةِ مقامَ الولد، فلا تكون حكماً شرعيّاً حتى يكونَ ثبوتُها نسخاً للوجوب. انتهى.

وتعقِّب بأنَّ هذا بناءً على ما تقرَّر من أنَّ رفعَ الإباحةِ الأصليةِ ليس نسخاً، أمَّا على أنَّه نسخٌ كما التزمه بعضُ الحنفيةِ إذ لا إباحةَ ولا تحريمَ إلَّا بشرعٍ كما قرَّروه، يكون رفعُ الحرمةِ الأصليةِ نسخاً، وإذا كان رفعُها نسخاً أيضاً، يبقى الإيرادُ المذكورُ من غير جواب، على ما قرِّر في «شرح التحرير»[1].

---

(١) ٣/ ٥٠ فما بعده.

هذا وتمامُ الكلامِ في حجَّة الفريقين مفصَّل في أصول الفقه، وهذا المقدارُ كافٍ لغرض المفسِّر.

البحث الثالث: أنَّه استدلَّ أبو حنيفةَ بالقصَّة على أنْ لو نذر أن يذبحَ ولدَه فعليه شاة، ووافقه في ذلك محمد، ونقله الإمام القرطبيُّ عن مالك[١].

وفي «تنوير الأبصار» وشرحِه «الدُّرِّ المختار»[٢]: نذر أن يذبحَ ولدَه فعليه شاة؛ لقصَّة الخليلِ عليه السلام، وألغاه الثاني[٣] والشافعيّ؛ كنذره قتلَه[٤]، ونقل الجصَّاص[٥] أنَّ نذرَ القتلِ كنذر الذبح، واعترض على الإمام بأنَّه نذرُ معصية، وجاء: «لا نذرَ في معصية اللهِ تعالى»[٦]، وقال هو: إنَّ ذلك في شرع إبراهيمَ عليه السلام عبارةٌ عن ذبح شاة، ولم يثبت نسخُه، فليس معصية.

وقال بعضُ الشافعية: ليس في النظم الجليلِ ما يدلُّ على أنَّه كان نذراً من إبراهيمَ عليه السلام حتى يستدلَّ به. وأُجيب بأنَّه ورد في التفسير المأثورِ أنَّه نذر ذلك، وهو في حكم النصّ؛ ولذا قيل له لمَّا بلغ معه السَّعي: أَوفِ بنذرك، وبأنَّه إذا قامت الشاةُ مَقامَ ما أَوجبه اللهُ تعالى عليه، عُلم قيامُها مقامَ ما يوجبه على نفسه بالطريق الأَولى، فيكون ثابتاً بدلالة النصّ.

والإنصافُ أنَّ مدركَ الشافعيِّ وأبي يوسفَ عليهما الرحمة أظهرُ وأقوى من مدرك الإمام الأعظمِ ﷺ في هذه المسألة، فتأمَّل.

---

(١) قال القرطبي في تفسيره ١٨/ ٨٠: وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال: أنا أنحر ولدي عند مقام إبراهيم، في يمين، ثم حنث، فعليه هَدي، قال: ومن نذر أن ينحر ابنه ولم يقل: عند مقام إبراهيم، ولا أراده، فلا شيء عليه، قال: ومن جعل ابنه هَدْياً أهدى عنه.

(٢) ١/ ٣٩٥.

(٣) أي: أبو يوسف رحمه الله تعالى.

(٤) جاء في هامش الأصل: قوله: كنذره قتله، قال الخفاجي: عليه كفارة يمين عند الثاني نذر الذبح أو القتل. اهـ منه. وهو في الحاشية ٧/ ٢٨٢.

(٥) انظر أحكام القرآن ٣/ ٣٧٧.

(٦) سلف تخريجه ٣/ ٤٦٤.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أنعمنا عليهما بالنبوَّة وغيرِها من المنافع الدينيةِ والدُّنيوية ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ هذا وما بعدَه من قَبيل عطفِ الخاصِّ على العامّ، والكَرْبُ العظيمُ تغلُّب فرعونَ ومَن معه من القِبط، وقيل: الغرق. وليس بذاك.

﴿وَنَصَرْنَـٰهُمْ﴾ الضميرُ لهما مع القوم. وقيل: لهما فقط، وجيءَ به ضميرَ جمعٍ لتعظيمهما ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ بسبب ذلك على فرعونَ وقومِه. و«هم» يجوز أن يكونَ فصلاً، أو توكيداً، أو بدلاً. والتنجيةُ وإنْ كانت بحسب الوجودِ مقارِنةً لمَا ذكر من النَّصر، لكنها لمَّا كانت بحسب المفهومِ عبارةً عن التخليصِ عن المكروه، بدأ بها، ثم بالنصر الذي يتحقَّق مدلولُه بمحض تنجيةِ المنصورِ من عدوِّه من غير تغلُّبٍ عليه، ثم بالغلبة؛ لتوفية مقامِ الامتنانِ حقَّه، بإظهار أنَّ كلَّ مرتبةٍ من هذه المراتبِ الثلاثِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالها.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمَا﴾ بعد ذلك ﴿ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: البليغَ في البيانِ والتفصيل، كما يُشعر به زيادةُ البنية، وهو التوراة ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمَا﴾ بذلك ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ الموصلَ إلى الحقِّ والصَّواب، بما فيه من تفاصيل الشَّرائعِ وتفاريعِ الأحكام.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ الكلامُ فيه نظيرُ ما سبق في نظيره.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ قال الطبريّ[1]: هو إلياس بنُ ياسين بن فِنْحاص بنِ العيزار بن هارونَ أخي موسى عليهما السلام، فهو إسرائيليٌّ من سِبط هارون. وحكى القتيبيُّ[2] أنَّه من سِبط يوشع. وحكى الطبرسيُّ[3] أنه ابنُ عمِّ اليسع، وأنَّه بُعث بعد حِزقيل. وفي «العجائب» للكرمانيِّ أنَّه ذو الكفل.

وعن وَهبٍ أنَّه عُمِّر كما عمِّر الخضر، ويبقى إلى فناءِ الدنيا.

---

(١) في تفسيره ١٩/ ٦١٢.

(٢) في المعارف ص٥١.

(٣) في مجمع البيان ٢٣/ ٨١-٨٢.

وأَخرج ابنُ عساكرٍ عن الحسن أنَّه موكلٌ بالفيافي، والخَضِرُ بالبحار والجزائر، وأنَّهما يجتمعان بالموسم في كلِّ عام[١]. وحديثُ اجتماعِه مع النبيِّ ﷺ في بعض الأسفار، وأكلِهِ معه من مائدةٍ نزلت عليهما ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من السماءِ هي خبزٌ وحوتٌ وكَرَفْس، وصلاتِهما العصرَ معاً، رواه الحاكمُ عن أنسٍ وقال: هذا حديثٌ صحيحُ الإِسناد[٢]. وكلُّ ذلك من التعمير وما بعده لا يعوَّل عليه، وحديثُ الحاكمِ ضعَّفه البيهقيّ[٣]، وقال الذهبي[٤]: موضوعٌ قبَّح اللهُ تعالى مَن وضعه، ثم قال: وما كنت أحسب ولا أجوِّز أنَّ الجهلَ يبلغ بالحاكم إلى أن يصحِّحَ هذا؟!

وأَخرج عبدُ بن حُميد وابن جَريرٍ[٥] وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتمٍ وابنُ عساكر عن ابن مسعودٍ أنَّ إلياسَ هو إدريس، ونُقل عنه أنَّه قرأ: «وإنَّ إدريسَ لَمِنَ المرسَلين»[٦]، والمستفيضُ عنه أنَّه قرأ كالجمهور، نعم قرأ ابنُ وثَّاب والأعمشُ والمِنهال بنُ عَمرٍو والحكم بنُ عُتيبة الكوفيُّ كذلك[٧].

وقُرئ: «إِذْراس» وهو لغةٌ في إدريس، كـ: إبراهام في إبراهيم[٨]. وإذا فسِّر إلياس بإدريس ـ على أنَّ أحدَ اللفظين اسمٌ والآخرُ لقب ـ فإنْ كان المرادُ بهما مَن سمعتَ نسبَه، فلا بأسَ به، وإنْ كان المرادُ بهما إدريسَ المشهورَ الذي رفعه اللهُ تعالى مكاناً عليّاً ـ وهو على ما قيل: أَخنوخ بنُ يزد بنِ مهلاييل بنِ أنوش بنِ قينان بنِ شيث بنِ آدم، وكان على ما ذكره المؤرِّخون قبلَ نوح، وفي «المستدرَك»[٩] عن ابن عباسٍ أنَّ بينه وبين نوحٍ ألفَ سنة، وعن وَهبٍ أنه جدُّ

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٩/ ٢١٠

(٢) المستدرك ٢/ ٦١٧.

(٣) في دلائل النبوة ٥/ ٤٢١-٤٢٢.

(٤) في تلخيص المستدرك ٢/ ٦١٧.

(٥) في تفسيره ٩/ ٣٨٣.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٤، والبحر ٧/ ٣٧٢.

(٧) المحتسب ٢/ ٢٢٤، والبحر ٧/ ٣٧٢.

(٨) البحر ٧/ ٣٧٣، وانظر المحتسب ٢/ ٢٢٥.

(٩) ٢/ ٥٤٨.

نوح - أشكل الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦] لأنَّ ضميرَ «ذريته» إمَّا أن يكونَ لإبراهيم؛ لأنَّ الكلامَ فيه، وإمَّا أن يكونَ لنوح؛ لأنَّه أقرب، ولأنَّ يونسَ ولوطاً ليسا من ذرِّية إبراهيم، وعلى التقديرَين لا يتسنَّى نظمُ إلياسَ المرادِ به إدريسُ الذي هو قبلَ نوح - على ما سمعت - في عِداد الذرِّية، ويَرِد على القول بالاتِّحاد مطلقاً أنَّه خلافُ الظاهر، فلا تغفُل.

وقرأ عكرمةُ والحسنُ بخلافٍ عنهما، والأعرج، وأبو رجاءٍ، وابنُ عامر، وابن مُحيصن: «وإنَّ الْياسَ» بوصل الهمزة(١)، فاحتمل أن يكونَ قد وصل همزةَ القطع، واحتمل أن يكونَ اسمُه ياساً ودخلت عليه «أل»، كما قيل في اليسع.

وفي حرف أُبيٍّ ومصحفِه: «وإنَّ إيْلِيْسَ» بهمزةٍ مكسورة، بعدها ياءٌ ساكنةٌ آخرُ الحروف، بعدها لامٌ مكسورة، بعدها ياءٌ أيضاً ساكنة(٢)، وسينٌ مهملةٌ مفتوحة(٣).

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم - على المشهور في إلياس - سِبطٌ من بني إسرائيل، أَسكنهم يوشعُ لمَّا فتح الشامَ المدينةَ المعروفةَ اليومَ ببعلبك، وزعم بعضُهم أنَّها كانت تسمَّى بكَّة، وقيل: بكّ، بلا هاء، ثم سمِّيت بما عُرف على طريق التركيبِ المزجيّ.

و«إذ» عند جمعٍ مفعولُ: اذكر، محذوفاً، أي: اذكر وقتَ قولِه لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ عذابَ اللهِ تعالى ونقمتَه، بامتثال أوامرِه واجتنابِ نواهيه.

---

(١) البحر ٧/ ٣٧٣، والمحتسب ٢/ ٢٢٣ إلا أنه لم يذكر الأعرج وابن عامر، وقراءة ابن عامر - بخلاف عنه - في التيسير ص١٨٧، والنشر ٢/ ٣٥٧.

(٢) بعدها في الأصل: وقيل: مفتوحة.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٢٥، والبحر ٧/ ٣٧٣.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: أتعبدونه؟ أو: تطلبون حاجَكم منه؟ وهو اسمُ صنمٍ لهم، كما قال الضحَّاك والحسنُ وابنُ زيد. وفي بعض نسخِ «القاموس»[1] أنَّه لقوم يونُس. ولا مانعَ من أن يكونَ لهما، أو ذلك تحريف.

قيل: وكان من ذهب، طولُه عشرون ذراعاً، وله أربعةُ أوجه، فُتنوا به وعظَّموه حتى أخدموه أربعَ مئةِ سادن، وجعلوهم أنبياءَه، فكان الشيطانُ يدخل في جوفه ويتكلَّم بشريعة الضَّلالة، والسَّدنة يحفظونها ويعلِّمونها الناس.

وقيل: هو اسمُ امرأةٍ أتتهم بضلالةٍ فاتَّبعوها، واستؤنس له بقراءة بعضِهم: «بَعْلاءَ» بالمدِّ على وزن حمراء[2]، وظاهرُ صرفِه أنَّه عربيٌّ على القولين، فلا تغفُل.

وقال عكرمةُ وقتادة: البعلُ: الربُّ بلغة اليمن. وفي روايةٍ أخرى عن قتادة: بلغة أَزْد شَنُوءة. واستام ابنُ عباسٍ ناقةَ رجلٍ من حِميَرٍ فقال له: أنت صاحبُها؟ قال: بعلُها، فقال ابنُ عباس: «أَتَدْعون بعلاً»: أتدْعون ربّاً، ممَّن أنت؟ قال: من حِميَر. والمرادُ عليه: أَتَدْعون بعض البعول؟ أي: الأرباب، والمرادُ بها الأصنام، أو المعبوداتُ الباطلة، فالتنكيرُ للتبعيض، فيرجع لما قيل قبله.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: وتتركون عبادتَه تعالى؟! أو طلبَ جميعِ حاجِكم منه عزَّ وجلّ؟! على أنَّ الكلامَ على حذفِ مضاف. وقيل: إنَّ المرادَ بتركهم إيَّاه سبحانه تركُهم عبادتَه عزَّ وجلّ، والمرادُ بالخالق مَن يُطلَق عليه ذلك، وله بهذا الاعتبارِ أفرادٌ وإن اختلفت جهةُ الإطلاقِ فيها، فلا إشكالَ في إضافة أفعل إلى ما بعده.

وهاهنا سؤالٌ مشهور، وهو: ما وجهُ العدولِ عن: تَدَعون ـ بفتح التاءِ والدالِ مضارعِ وَدَعَ بمعنى ترك ـ إلى «تذرون» مع مناسبته ومجانستِه لـ «تَدْعون» قبلَه دونَ «تذرون»؟ وأُجيب عن ذلك بأجوبة:

---

(١) هي نسخة أبي عبد الله بن الطيب الفاسي كما ذكره تلميذه الزبيدي في تاج العروس (بعل).
(٢) البحر ٧/ ٣٧٣.

الأوّل: أنَّ في ذلك نوعَ تكلُّف، والجناسُ المتكلَّف غيرُ ممدوحٍ عند البلغاء، ولا يُمدح عندهم ما لم يجئ عفواً بطريق الاقتضاء؛ ولذا ذمُّوا متكلَّفه، فقيل فيه:

طبعُ المجنِّس فيه نوعُ قيادةٍ أَوَما ترى تأليفَه للأحرفِ

قاله الخفاجيّ[1]. وفي كون هذا البيتِ في خصوص المتكلَّفِ نظرٌ، وبعدُ فيه ما فيه.

الثاني: أنَّ في تَدَعون إلباساً على مَن يقرأ من المصحف دون حفظٍ من العوامّ، بأن يقرأه كـ: تَدْعون الأوّلِ ويظنَّ أنَّ المرادَ إنكارُ الجمع بين دعاءِ بعلٍ ودعاءِ أحسنِ الخالقين. وليس بالوجه؛ إذ ليس من سنَّة الكتابِ تركُ ما يلبِّس على العوامّ، كما لا يخفى على الخواصّ. والصحابةُ أيضاً لم يراعوهم، وإلَّا لَمَا كتبوا المصحفَ غيرَ منقوطٍ ولا ذا شكلٍ كما هو المعروفُ اليوم، وفي بقاء الرسمِ العثمانيِّ معتبراً إلى انقضاء الصحابةِ ما يؤيِّد ما قلنا.

الثالث: أنَّ التجنيسَ تحسين، وإنَّما يستعمل في مقام الرِّضا والإحسان، لا في مقام الغضبِ والتهويل. وفيه أنَّه وقع فيما نفاه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] وقال سبحانه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣-٤٤] وفيهما الجناسُ التامّ، ولا يخفى حالُ المقام.

الرابع: ما نُقل عن الإمام، فإنَّه سئل عن سبب تركِ تَدَعون إلى «تذرون» فقال: تُرك لأنهم اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً وتركوا الله تعالى بعد ما علموا أنَّ الله سبحانه ربُّهم وربُّ آبائهم الأوَّلين، استكباراً واستنكاراً؛ فلذلك قيل: «وتذرون» ولم يقل: وتَدَعون. وفيه القولُ بأنَّ: دَعْ، أمرٌ بالترك قبل العلم، و: ذَرْ، أمرٌ بالترك بعدَه، ولا تساعده اللغةُ والاشتقاق.

الخامس: أنَّ لإنكار كلٍّ من فعلَي دعاءِ بعلٍ وتركِ أحسنِ الخالقين علَّةً غيرَ عِلَّة إنكارِ الآخَر، فتُرك التجنيسُ رمزاً إلى شدَّة المغايرةِ بين الفعلين.

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٨٤.

السادس: أنَّه لمَّا لم يكن مجانسةٌ بين المفعولين بوجهٍ من الوجوه، تُرك التجنيسُ في الفعلين المتعلِّقين بهما، وإن كانت المجانسةُ المنفيةُ بين المفعولَين شيئاً والمجانسةُ التي نحن بصَدَدها بين الفعلين شيئاً آخر. وكلا الجوابَين كما ترى.

السابع: أنَّ: يَدَع، إنمَّا استعملته العربُ في الترك الذي لا يذمُّ مرتكبُه؛ لأنَّه من الدَّعة بمعنى الراحة، و: يَذَر، بخلافه؛ لأنَّه يتضمَّن إهانةً وعدمَ اعتداد؛ لأنَّه من الوَذَر: قطعةِ اللحمِ الحقيرةِ التي لا يعتدُّ بها. واعتُرض بأنَّ المتبادرَ من قوله: بخلافه، أنَّ يذر إنَّما استعملته العربُ في الترك الذي يذمُّ مرتكبُه، فيَرِدُ عليه قولُه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقولُه سبحانه: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا﴾ [البقرة: ٢٧٨] إلى غير ذلك، وفيه تأمُّل.

الثامن: أنَّ يَدَع أخصُّ من يذر؛ لأنَّه بمعنى ترك الشيءِ مع اعتناءٍ به، بشهادة الاشتقاق، نحو الإيداع، فإنَّه تركُ الوديعةِ مع الاعتناءِ بحالها، ولهذا يُختار لها مَن هو مؤتمنٌ عليها، ونحوُه موادعة الأحباب، وأمَّا: يذر فمعناه التركُ مطلقاً، أو مع الإعراض والرفضِ الكلِّيِّ، قال الراغب[1]: يقال: فلانٌ يذر الشيءَ، أي: يقذفه لقلَّة الاعتدادِ به، ومنه: الوَذَر، وهو ما سمعتَ آنفاً. ولا شكَّ أن السِّياق إنمَّا يناسب هذا دونَ الأوَّل، إذ المرادُ تبشيعُ حالِهم في الإعراض عن ربِّهم، وهو قريبٌ من سابقه، لكنه سالمٌ عن بعض ما فيه.

التاسع: أنَّ في: تَدَعون، بفتح التاءِ والدالِ ثقلاً ما، لا يخفى على ذي الذوقِ السليمِ والطبعِ المستقيم، و«تذرون» سالمٌ عنه؛ فلذا اختير عليه، فتأمَّل واللهُ تعالى أعلم.

وقد أَشار سبحانه وتعالى بقوله: «أحسن الخالقين» إلى المقتضي للإنكار المعنيِّ بالهمزة، وصرَّح به للاعتناءِ بشأنه في قولِه تعالى: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ بالنَّصب على البدليَّةِ من «أحسن الخالقين» قال أبو حيَّان[2]: ويجوز كونُ ذاك عطفَ بيانٍ إنْ قلنا: إنَّ إضافةَ أفعل التفضيلِ محضة.

---

(١) في المفردات (وذر).

(٢) في البحر ٧/ ٣٧٣.

وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة بالرفع[١]، على أنَّ الاسمَ الجليلَ مبتدأ، و«ربكم» خبرُه، أو هو خبرُ مبتدأ محذوف، و«ربُّكم» عطفُ بيان، أو بدلٌ منه. ورُوي عن حمزةَ أنَّه إذا وصل نصب، وإذا وقف رفع[٢].

والتعرُّض لذِكر ربوبيَّته تعالى لآبائهم الأوَّلين لتأكيد إنكار تركِهم إيَّاه تعالى، والإشعارِ ببطلان آراءِ آبائهم أيضاً.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما تضمَّنه كلامُه من إيجاب اللهِ تعالى التوحيد، وتحريمِه سبحانه الإشراكَ، وتعذيبِه تعالى عليه. وجوِّز أن يكونَ تكذيبُهم راجعاً إلى ما تضمَّنه قولُه: «اللهَ ربَّكم».

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: في العذاب. وإنَّما أطلقه اكتفاءً بالقرينة، أو لأنَّ الإحضارَ المطلقَ مخصوصٌ بالشرِّ في العرف العامّ، أو حيث استُعمل في القرآن؛ لإشعاره بالجبر.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ استثناءٌ متصلٌ من الواو في كذَّبوه، فيدلُّ على أنَّ من قومه مخلَصين لم يكذِّبوه. ومُنعَ كونُه استثناءً متصلاً من ضمير «محضرون» لأنَّه للمكذِّبين، فإذا استُثني منه اقتضى أنَّهم كذَّبوه ولم يُحضَروا، وفسادُه ظاهر. وقيل: لأنَّه إذا لم يستثنَ من ضميرِ كذَّبوا، كانوا كلُّهم مكذِّبين، فليس فيهم مخلَصٌ فضلاً عن مخلَصين، ومآلُه ما ذكر. لكن اعترضه ابنُ كمالٍ بأنه لا فسادَ فيه؛ لأنَّ استثناءهم من القوم المحضَرين لعدم تكذيبِهم على ما دلَّ عليه التوصيفُ بالمخلَصين لا من المكذِّبين، فمآلُ المعنى واحد. ورُدَّ بأنَّ ضميرَ محضَرين للقوم كضمير كذَّبوا.

وقال الخفاجيّ[٣]: لا يخفى أنَّ اختصاصَ الإحضارِ بالعذاب ـ كما صرَّح به غيرُ واحد ـ يعيِّن كونَ ضمير محضَرين للمكذِّبين، لا لمطلق القوم، فإنْ لم يسلِّمه فهو أمرٌ آخر.

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي بالنصب، والباقون بالرفع.
(٢) البحر ٧/ ٣٧٣.
(٣) في حاشيته ٧/ ٢٨٤.

وفي «البحر»[1]: ولا يناسب أن يكونَ استثناءً منقطعاً؛ إذ يصير المعنى: لكن عبادَ اللهِ المخلَصين من غير قومِه لا يُحضَرون في العذاب. وفيه بحث.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ الكلامُ فيه كما في نظيره، بيدَ أنَّه يقال هاهنا: إنَّ «إِلْ ياسين» لغةٌ في إلياس، وكثيراً ما يتصرَّفون في الأسماء الغيرِ العربية. وفي «الكشَّاف»[2]: لعل لزيادة الياءِ والنونِ معنًى في اللغة السُّريانية. ومن هذا البابِ سيناءُ وسينين. واختار هذه اللغةَ هنا رعايةً للفواصل.

وقيل: هو جمعُ: إلياس، على طريق التغليبِ بإطلاقه على قومه وأتباعِه، كالمهلَّبين للمهلَّب وقومِه.

وضعِّف بما ذكره النُّحاة من أنَّ العَلَمَ إذا جُمع أو ثنِّي وجب تعريفُه باللام جبراً لمَا فاته من العَلَمية، ولا فرقَ فيه بين ما فيه تغليبٌ وبين غيرِه، كما صرَّح به ابنُ الحاجبِ في «شرح المفصل». لكن هذا غيرُ متفقٍ عليه، قال ابنُ يَعيش في «شرح المفصَّل»: يجوز استعمالُه نكرةً بعد التثنيةِ والجمع، نحو: زيدانِ كريمانِ وزيدونَ كريمون[3]. وهو مختارُ الشيخِ عبدِ القاهر، وقد أَشبعوا الكلامَ على ذلك في مفصَّلات كتبِ النحو. ثم إنَّ هذا البحثَ إنما يتأتَّى مع مَن لم يجعل لامَ إلياس للتعريف، أمَّا مَن جعلها له، فلا يتأتَّى البحثُ معه.

وقيل: هو جمعُ إلياسيّ، بياء النِّسبة، فخفِّف لاجتماع الياءاتِ في الجرِّ والنصب، كما قيل: أعجمين في أعجميِّين، وأَشعرين في أشعريِّين. والمرادُ بإلياسين قومُ إلياس المخلَصون؛ فإنَّهم الأحِقَّاءُ بأن يُنسبوا إليه. وضعِّف بقلَّة ذلك وإلباسِه بإلياس إذا جُمع، وإنْ قيل: حذفُ لامِ إلياس مزيلٌ للإلباس. وأيضاً هو غيرُ مناسبٍ للسِّياق والسِّباق؛ إذ لم يُذكر آلُ أحدٍ من الأنبياء.

---

(١) ٧/ ٣٧٣.

(٢) ٣/ ٣٥٢.

(٣) قال في شرح المفصل ١/ ٤٦: اعلم أنك إذا ثنيت الاسم العلم ينكر وزال عنه تعريف العلمية... إلخ.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وزيدُ بن عليٍّ: «آلِ ياسين» بالإضافة[1]، وكُتب في المصحف العثمانيِّ منفصلاً، ففيه نوعُ تأييدٍ لهذه القراءة، وخرِّجت على أنَّ ياسين اسمُ أبي إلياس، ويُحمل الآلُ على إلياس. وفي الكناية عنه تفخيمٌ له، كما في آل إبراهيم عن نبيِّنا ﷺ. وجوِّز أن يكونَ الآلُ مقحَماً، على أنَّ ياسين هو إلياسُ نفسه.

وقيل: ياسين فيها اسمٌ لمحمَّد ﷺ، فآلُ ياسين آلهُ عليه الصلاة والسلام، أخرج ابنُ أبي حاتمٍ والطبرانيُّ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ أنَّه قال في: «سلام على آل ياسين» نحنُ آلَ محمدٍ آلُ ياسين[2]. وهو ظاهرٌ في جعل ياسين اسماً له ﷺ.

وقيل: هو اسمٌ للسورة المعروفة. وقيل: اسمٌ للقرآن. فـ«آل ياسين» هذه الأمةُ المحمدية، أو خواصُّها. وقيل: اسمٌ لغير القرآنِ من الكتب.

ولا يخفَى عليك أنَّ السياقَ والسِّباق يأبيانِ أكثرَ هذه الأقوال.

وقرأ أبو رجاءٍ والحسن: «على الْياسين» بوصل الهمزة[3]. وتخريجُها يُعلم مما مرّ. وقرأ ابنُ مسعودٍ ومَن قرأ معه فيما سبق «إدريسَ»: «سلامٌ على إدْراسِين»[4]، وعن قتادة: «وإنَّ إدْرِيسَ» وقرأ: «على إدْرِيسِين»[5].

وقرأ أُبَيّ: «على إيْلِيْسَ» كما قرأ: «وإنَّ إيْلِيْسَ لمن المرسلين»[6].

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ سبق بيانُه في «الشُّعراء».

---

(١) التيسير ص١٨٧، والنشر ٢/ ٣٦٠ عن نافع وابن عامر، وقراءة يعقوب في النشر.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٨٦، والمعجم الكبير (١١٠٦٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٧٤: فيه موسى بن عمير القرشي وهو كذاب.

(٣) البحر ٧/ ٣٧٣.

(٤) البحر ٧/ ٣٧٣، والمحتسب ٢/ ٢٢٤، ونسبها ابن خالويه ص١٢٨ لابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) كذا في الأصل و(م)، وفي المحتسب ٢/ ٢٢٥، والبحر ٧/ ٣٧٤: «إدْرَسِينَ»، وقراءة: «إدرِيسين» مذكورة في الكشاف ٣/ ٣٥٢، والمحتسب ٢/ ٢٢٥ دون نسبة.

(٦) البحر ٧/ ٣٧٤. وتحرفت في مطبوعه: أُبيّ، إلى: ابن عليّ.

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهلَ مكَّة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازلهم في متاجركم إلى الشام، فإنَّ سدومَ[1] في طريقه ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ داخلين في الصَّباح ﴿وَبِالَّيْلِ﴾ قيل: أي: ومساءً، بأن يرادَ بالليل أولُه؛ لأنَّه زمانُ السير، ولوقوعه مقابلَ الصباح. وقيل: أي: نهاراً وليلاً. وهو تأويلٌ قبل الحاجة؛ ولذا اختير الأوَّل؛ ووجهُ التخصيصِ عليه بأنَّه لعل سدوم وقعت قريبَ منزلٍ يمرُّ بها المرتحلُ عنه صباحاً والقاصدُ مساء. وقال بعضُ الأجِلَّة: لو أُبقي على ظاهره ـ لأنَّ ديارَ العربِ لحرِّها يسافَر فيها في الليل إلى الصَّباح ـ خلا عن التكلُّف في توجيه المقابلة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبَكم مثلُ ما أصابهم؟ فإنَّ منشأ ذلك مخالفتُهم رسولَهم، ومخالفةُ الرسولِ قدرٌ مشتركٌ بينكم.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ يُروى ـ على ما في «البحر»[2] ـ أنَّه عليه السلام نُبِّئ وهو ابنُ ثمانٍ وعشرين سنة. وحكى في «البحر» أنَّه كان في زمن ملوكِ الطوائفِ من الفرس. وهو ابنُ مَتَّى، بفتح الميمِ وتشديدِ التاءِ الفوقيةِ، مقصور. وهل هذا اسمُ أمِّه أو أبيه؟ فيه خلاف، فقيل: اسمُ أمِّه. وهو المذكورُ في تفسير عبدِ الرزاق[3]. وقيل: اسمُ أبيه. وهذا ـ كما قال ابنُ حجر[4] ـ أصحّ. وبعضُ أهلِ الكتابِ يسمِّيه: يونان بنَ مائي، وبعضُهم يسمِّيه: يونه بن امتياي. ولم نقف في شيءٍ من الأخبار على اتِّصال نسبِه.

وفي اسمه عند العربِ ستُّ لغات: تثليثُ النونِ مع الواو والياءِ والهمزة، والقراءةُ المشهورةُ بضمِّ النونِ مع الواو، وقرأ طلحة[5] بنُ مصرِّف بكسر النُّون، قيل: أراد أن يجعلَه عربيًّا مشتقًّا من أنس. وهو كما ترى.

---

(١) جاء في هامش الأصل: سدوم، بالدال المهملة والذال المعجمة: بلد قوم لوط عليه السلام.
(٢) ٧/ ٣٧٥.
(٣) ٢/ ١٥٦.
(٤) في فتح الباري ٦/ ٤٥٢.
(٥) في الأصل و(م): وقرأ أبو طلحة، والتصويب من الإتقان ٢/ ١٠٧١، وعنه نقل المصنف.

﴿إِذْ أَبَقَ﴾ هرب. وأصلُه الهربُ من السيِّد، لكن لمَّا كان هربُه من قومه بغير إذن ربِّه كما هو الأنسبُ بحال الأنبياءِ عليهم السلام، حَسُنَ إطلاقُه عليه، فهو إمَّا استعارة، أو مجازٌ مرسلٌ من استعمال المقيَّدِ في المطلق. والأوَّل أبلغ.

وقال بعضُ الكمَّل: الإباق: الفِرار من السيِّد بحيث لا يهتدي إليه طالب، أي: بهذا القصد. وكان عليه السلام هرب من قومه بغير إذن ربِّه سبحانه إلى حيث طلبوه فلم يجدوه، فاستُعير الإِباقُ لهربه باعتبار هذا القيد، لا باعتبار القيدِ الأوَّل.

وفيه ـ بعد تسليمِ اعتبارِ هذا القيدِ على ما ذكره بعضُ أهلِ اللغة ـ أنَّه لا مانعَ من اعتبار ذلك القيد، فلا اعتبارَ بنفي اعتبارِه.

﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ المملوءِ ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع عليه السلام مَن في الفلك، واستدلَّ به مَن قال بمشروعية القُرعة.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ فصار من المغلوبين بالقُرعة. وأصلُه: المُزلَق ـ اسم مفعول ـ عن مقام الظَّفر. يُروى أنَّه وعد قومَه العذابَ وأخبرهم أنَّه يأتيهم إلى ثلاثة أيام، فلمَّا كان اليومُ الثالث، خرج يونُسُ قبل أن يأذنَ اللهُ تعالى له، ففقده قومُه، فخرجوا بالكبير والصغيرِ والدوابّ، وفرَّقوا بين كلِّ والدةٍ وولدِها، فشارف نزول العذابِ بهم، فعجُّوا إلى الله تعالى وأنابوا واستقالوا، فأقالهم اللهُ تعالى وصَرَفَ عنهم العذاب، فلمَّا لم يرَ يونسُ نزولَ العذاب، استحى أن يرجعَ إليهم وقال: لا أَرجع إليهم كذَّاباً أبداً، ومضى على وجهه، فأَتى سفينةً فركبها، فلمَّا وصلت اللُّجَّةَ وقفت فلم تَسِر، فقال صاحبُها: ما يمنعها أن تسيرَ إلَّا أنَّ فيكم رجلاً مشؤوماً، فاقترعوا ليُلقوا مَن وقعت عليه القرعةُ في الماء، فوقعت على يونُس، ثم أَعادوا، فوقعت عليه، ثم أَعادوا، فوقعت عليه، فلمَّا رأى ذلك، رمى بنفسه في الماء ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ أي: ابتلعه، من اللُّقمة.

وفي خبرٍ أَخرجه أحمدُ وغيرُه عن ابن مسعودٍ أنَّه أتى قوماً في سفينة، فحملوه وعرفوه، فلمَّا دخلها ركدت والسفنُ تسير يميناً وشمالاً، فقال: ما بالُ سفينتِكم؟ قالوا: ما ندري، قال: ولكنِّي أدري، إنَّ فيها عبداً أبق من ربِّه، وإنَّها واللهِ لا تسير

حتى تُلقوه، قالوا: أمَّا أنت واللهِ يا نبيَّ اللهِ فلا نُلقيك، فقال لهم: اقترِعوا، فمَن قُرِع فليُلقَ، فاقترعوا ثلاثَ مرات، وفي كلِّ مرةٍ تقع القرعةُ عليه، فرمى بنفسه، فكان ما قصَّ اللهُ تعالى[1].

وكيفيةُ اقتراعِهم ـ على ما في «البحر»[2] عن ابنِ مسعود ـ أنَّهم أخذوا لكلٍّ سهماً، على أنَّ مَن طفا سهمُه فهو، ومَن غرق سهمُه فليس إيَّاه، فطفا سهمُ يونُس.

ورُوي أنَّه لمَّا وقف على شفير السفينةِ ليرميَ بنفسه، رأى حوتاً ـ واسمُه على ما أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ وجماعةٌ عن قتادةَ: نجم[3] ـ قد رفع رأسَه من الماء قَدْرَ ثلاثةِ أذرُعٍ يرقُبه ويترصَّده، فذهب إلى ركنٍ آخَر، فاستقبله الحوت، فانتقل إلى آخَر، فوجده، وهكذا حتى استدار بالسَّفينة، فلمَّا رأى ذلك، عرف أنَّه أمرٌ من الله تعالى، فطرح نفسَه، فأخذه قبل أن يصلَ إلى الماء.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: داخلٌ في الملامة، على أنَّ بناءَ أفعل للدُّخول في الشيء، نحو: أَحرم، إذا دخل الحَرَم. أو آتٍ بما يُلام عليه، على أنَّ الهمزةَ فيه للصَّيرورة، نحو: أَغدَّ البعير، أي: صار ذا غُدَّة، فهو هنا لمَّا أتى بما يستحقُّ اللومَ عليه صار ذا لوم. أو مليمٌ نفسَه، على أنَّ الهمزةَ فيه للتعدية، نحو: أَقدمته، والمفعولُ محذوف. وما رُوي عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ من تفسيره بالمسيءِ والمذنب، فبيانٌ لحاصل المعنى، وحسناتُ الأبرارِ سيِّئاتُ المقرَّبين.

وقرئ: «مَليم» بفتح أوَّله[4]، اسمُ مفعول، وقياسُه: مَلوم؛ لأنَّه واوي، يقال: لُمته أَلومه لَوماً، لكنه جيءَ به على لِيْمَ، كما قالوا: مَشيب ومَدعيّ، في مَشوب ومَدعو، بناءً على: شِيب ودُعي، وذلك أنَّه لمَّا قُلبت الواوُ ياءً في المجهول، جُعل كالأصل، فحمل الوصفُ عليه.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٨، وعزاه لابن أبي شيبة في المصنف، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) ٧/ ٣٧٥.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩.
(٤) البحر ٧/ ٣٧٥.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ أي: من الذَّاكرين الله تعالى كثيراً بالتسبيح كما قيل. وفي كلام قتادةَ ما يُشعر باعتبار الكثرة، واستفادتُها ـ على ما قال الخفاجيُّ[١] ـ من جعله من المسبِّحين دون أن يقال: مسبِّحاً؛ فإنَّه يُشعر بأنَّه عريقٌ فيهم، منسوبٌ إليهم، معدودٌ في عِدادهم، ومثلُه يستلزم الكثرة. وقيل: من التفعيل[٢]. ورُدَّ بأنَّ معنى سبَّح لم يعتبَر فيه ذلك؛ إذ هو: قال: سبحانَ الله. وقد يقال: هي إرادة الثبوتِ من «المسبِّحين» فإنَّه يُشعر بأنَّ التسبيحَ ديدنٌ لهم.

والمرادُ بالتسبيح هاهنا حقيقتُه، وهو القولُ المذكور، أو ما في معناه، وروي ذلك عن ابن جُبير.

وهذا الكونُ عند بعضٍ قبل التقامِ الحوتِ إياه أيامَ الرَّخاء، واستظهر أبو حيَّانَ[٣] أنَّه في بطن الحوت، وأنَّ التسبيحَ ما ذكره اللهُ تعالى في قوله سبحانه: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وحمله بعضُهم على الذِّكر مطلقاً، وبعضٌ آخَرُ على العبادة كذلك، وجماعة ـ منهم ابنُ عباس ـ على الصلاة، بل رُوي عنه أنَّه قال: كلُّ ما في القرآن من التسبيحِ فهو بمعنى الصَّلاة. وأنت تعلم أنَّه إنْ كان اللفظُ فيما ذُكر حقيقةً شرعيةً ولم يكن للتسبيح حقيقةٌ أخرى شرعيةٌ أيضاً، لم يُحتَج إلى قرينة، وإن كان مجازاً أو كان للتسبيح حقيقةٌ شرعيةٌ أخرى، احتيج إلى قرينة، فإنْ وجدت فذاك، وإلَّا فالأمرُ غيرُ خفيٍّ عليك.

وكما اختُلف في زمان التسبيحِ بالمعنى السابق، اختُلف في زمانه بالمعاني الأُخَر، أَخرج أحمدُ في «الزُّهد» وغيرُه عن ابن جُبيرٍ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ قال: من المصلِّين قبل أن يدخلَ بطنَ الحوت.

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٨٦.
(٢) أي: استفادة الكثرة.
(٣) في البحر ٧/ ٣٧٥.

وأَخرج أحمدُ وغيرُه أيضاً عن الحسنِ في الآية قال: ما كان إلَّا صلاة أَحدثها في بطن الحوت. فذُكر ذلك لقتادة، فقال: لا، إنَّما كان يعمل في الرَّخاء[1].

ورُوي عن الحسنِ غيرُ ما ذُكر، فقد أَخرج عنه ابنُ أبي حاتمٍ والبيهقيُّ في «شُعب الإيمان» والحاكمُ أنَّه قال في الآية: كان يُكثر الصلاةَ في الرَّخاء، فلمَّا حصل في بطن الحوت، ظنَّ أنَّه الموت، فحرَّك رِجلَيه، فإذا هي تتحرَّك، فسجد وقال: يا ربِّ، اتخذتُ لك مسجداً في موضعٍ لم يسجدْ فيه أحد[2].

وأَخرج ابنُ أبي شيبةَ[3] عن الضحَّاك بنِ قيس قال: اذكروا اللهَ تعالى في الرَّخاء يذكرْكم في الشدَّة، فإنَّ يونسَ عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى، فلمَّا وقع في بطنِ الحوت، قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ إلخ، وإنَّ فرعونَ كان عبداً طاغياً ناسياً لذِكر اللهِ تعالى، فلمَّا أدركه الغرقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

والأَوْلى حملُ زمانِ كونِه من المسبِّحين على ما يعمُّ زمانَ الرخاءِ وزمانَ كونِه في بطن الحوت، فإنَّ لاتِّصافه بذلك في كلا الزمانَين مدخلاً في خروجه من بطن الحوتِ المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ كما يُشعر به ما في حديثٍ أَخرجه عبدُ الرزاق وابنُ جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه عن أنسٍ مرفوعاً من أنَّه عليه السلام لمَّا التقمه الحوتُ وهَوَى به حتى انتهى إلى ما انتهى من الأرض، سمع تسبيحَ الأرض، فنادى في الظُّلمات أنْ: لا إله إلَّا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوةُ نحو العرش، فقالت الملائكة: يا ربَّنا، إنَّا نسمع صوتاً ضعيفاً من بلادٍ غربة، قال سبحانه: وما تدرون ما ذاكم؟ قالوا: لا يا ربَّنا، قال: ذاك عبدي يونُس، قالوا:

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩، وهو في الشعب (١١٤٤)، والمستدرك ٢/ ٥٨٤، دون قوله: فلما حصل... إلخ. وهذه الزيادة أخرجها الحاكم من طريق آخر عن الحسن ٢/ ٥٨٥.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧٥-٣٧٦.

الذي كنَّا لا نزال نرفع له عملاً متقبَّلاً ودعوةً مجابة؟ قال: نعم، قالوا: يا ربَّنا، ألَا ترحم ما كان يصنع في الرَّخاء وتُنجيه عند البلاء؟ قال: بلى، فأمر عزَّ وجلَّ الحوتَ فلَفَظه[١].

واستظهر أبو حيَّانَ[٢] أنَّ المرادَ بقوله سبحانه: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾ إلخ: لَبقي في بطنه حيًّا إلى يومِ البعث، وبه أقول. وتعقِّب بأنَّه ينافيه ما ورد من أنَّه لا يبقى عند النفخةِ الأولى ذو روحٍ من البشر والحيوانِ في البرِّ والبحر.

وأُجيب ـ بعد تسليم ورودِ ذلك أو ما يدلُّ عليه ـ بأنَّه مبالغةٌ في طول المدَّة، مع أنَّه في حيِّز «لو»، فلا يرد رأساً[٣]. أو المرادُ بوقت البعثِ ما يشمل زمانَ النفخة؛ لأنَّه من مقدِّماته، فكأنَّه منه.

وعن قتادة: لَكان بطنُ الحوتِ قبراً له. وظاهرُه أنَّه أُريد: لَلبِث ميِّتاً في بطنه إلى يومِ البعث. ولا مانعَ من بقاءِ بنيةِ الحوت كبنيته من غير تسلُّط البلاءِ إلى ذلك اليوم. وضميرُ «يبعثون» لغير مذكور، وهو ظاهر.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ بأنْ حملنا الحوتَ على لفظه، فالإسناد مجازيّ. والنَّبذُ على ما في «القاموس»[٤]: طرحُك الشيءَ أماماً أو وراءً، أو هو عامّ.

وقال الراغب[٥]: النبذ: إلقاءُ الشيءِ وطرحُه لقلَّة الاعتدادِ به. والمرادُ به هنا الطرحُ والرَّمي.

والقيدُ الذي ذكره الراغبُ لا أَرغب فيه؛ فإنَّه عليه السلام وإنْ أبق وخرج من غير إذن مولاه واعتراه من تأديبه تعالى ما اعتراه، فالربُّ عزَّ وجلَّ بأنبيائه رحيم، وله سبحانه في كلِّ شأنٍ اعتدادٌ بهم عظيم، فهو عليه السلام معتدٌّ به في حال

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٨، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ١٥٦-١٥٧، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٢٨-٦٢٩.

(٢) في البحر ٧/ ٣٧٥.

(٣) جاء في هامش (م): أو أنه يبقى حيًّا إلى وقت النفخة، ثم يموت مع من يموت ويبقى إلى يوم البعث في بطن الحوت، فلا إشكال. اهـ. عبد الله نجل المصنف. اهـ.

(٤) مادة (نبذ).

(٥) في المفردات (نبذ).

الإلقاء، وإن كان ذلك ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: بالمكان الخالي عمَّا يغطِّيه من شجرٍ أو نبت.

يُروَى أنَّ الحوتَ سار مع السفينة رافعاً رأسَه يتنفَّس ويونسُ يسبِّح، حتى انتهَوا إلى البرِّ فلفظه. ورُدَّ بأنَّه يأباه قولُه تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وأُجيب بأنَّه بمجرَّد رفعِ رأسِه للتنفُّس لا يخرج منها، ثم إنَّ هذا لئلَّا يختنقَ يونسُ أو تنحصرَ نفسُه بحكم العادة، لا ليمتنعَ دخولُ الماءِ جوفَ الحوتِ حتى يقال: السمكُ لا يحتاج لذلك، ومع هذا نحن لا نجزم بصحَّة الخبر، فقد رُوي أيضاً أنَّه طاف به البحارَ كلَّها ثم نبذه على شطِّ دِجلَةَ قريب نِينُوى - بكسر النونِ الأُولى وضمِّ الثانيةِ كما في «الكشف»(١) - من أرض المَوصِل. والالتقامُ كان في دجلةَ أيضاً على ما صرَّح به البعض، وخالف فيه أهلُ الكتاب. وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى نقلُ كلامِهم لك في هذه القصَّةِ لتقفَ على ما فيه.

والظاهرُ أنَّ الحوتَ من حيتان دجلةَ أيضاً، وقد شاهدنا فيها حيتاناً عظيمةً جدّاً. وقيل: كان من حيتان النِّيل؛ أخرج ابنُ أبي شيبةَ(٢) عن وهبٍ أنَّه جلس هو وطاوسٌ ونحوُهما من أهل ذلك الزَّمان، فذَكروا أيُّ أمرِ اللهِ تعالى أسرع؟ فقال بعضُهم: قولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] وقال بعضُهم: السريرُ حين أُتي به سليمان. وقال وهب: أَسرعُ أمرِ اللهِ تعالى أنَّ يونسَ على حافة السفينةِ إذ أَوحى اللهُ سبحانه إلى نونٍ في نيل مِصر، فما خرَّ من حافتها إلَّا في جوفه.

ولا شبهةَ في أنَّ قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ أعظمُ من ذلك، لكن الشبهةَ في صحَّة الخبر، وكأنِّي بك تقول: لا شبهةَ في عدم صحَّته.

واختُلف في مدَّة لَبثه، فأخرج عبدُ الله بن أحمدَ في زوائد «الزُّهد» وغيرُه عن الشعبيِّ قال: التقمه الحوتُ ضحًى ولَفَظه عشيَّةً(٣). وكأنَّه أراد: حين أَظلم الليل.

---

(١) وفي معجم البلدان ٥/ ٣٣٩: بكسر النون الثانية.

(٢) في المصنف ١٣/ ٤٩٥.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩، وزوائد الزهد ص٤٥.

وأخرج عبدُ بن حُميد وغيرُه عن قتادةَ قال: إنَّه لبث في جوفه ثلاثاً[١]. وفي كتب أهلِ الكتابِ: ثلاثةَ أيامٍ وثلاثَ ليال. وعن عطاءٍ وابن جُبيرٍ: سبعةَ أيام. وعن الضحَّاك: عشرين يوماً. وعن ابن عباسٍ وابن جُريج وأبي مالكٍ والسُّدِّيِّ ومقاتلِ بن سليمانَ والكلبيِّ وعِكرمة: أربعين يوماً.

وفي «البحر»[٢] ما يدلُّ على أنَّه لم يصحَّ خبرٌ في مدَّة لَبثِهِ عليه السلام في بطنِ الحوت.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ مما ناله. قال ابنُ عباسٍ والسُّدِّي: إنَّه عاد بدنُه كبدن الصبيِّ حين يولد. وعن ابن جُبيرٍ أنَّه عليه السلام أُلقي ولا شعرَ له ولا جلدَ ولا ظفر. ولعل ذلك يستدعي بحكم العادةِ أنَّ لمدَّة لَبثِهِ في بطن الحوت طولاً ما.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾﴾ أي: أَنبتناها مُطِلَّةً عليه مظلَّةً له كالخيمة. فـ «عليه» حالٌ من «شجرة» قدِّمت عليها لأنَّها نكرة، واليقطين يَفعيل، من قطن بالمكان: إذا أقام به. وزاد الطبرسيُّ[٣]: إقامةَ زائلٍ لا إقامةَ راسخ. والمرادُ به ـ على ما جاء عن الحسن السِّبط، وابن عباسٍ في رواية، وابنِ مسعود، وأبي هريرة، وعَمرو بنِ ميمون، وقتادة، وعكرمة، وابنُ جُبير، ومجاهدٍ في إحدى الرِّوايتين عنهما ـ الدُّبَّاء، وهو القرعُ المعروف، وكان النبيُّ ﷺ يحبُّه[٤].

وأَنبتها اللهُ تعالى مُطِلَّةً عليه لأنَّها تجمع خصالاً: بردَ الظلِّ والملمس، وعِظَمَ الورق، وأنَّ الذبابَ لا يقع عليها على ما قيل، وكان عليه السلام لرقَّة جِلده بمُكثه في بطن الحوتِ يؤذيه الذبابُ ومماسَّة ما فيه خشونة، ويؤلمه حرُّ الشمس، ويستطيب باردَ الظلّ، فلطف اللهُ تعالى به بذلك. وذكر أنَّ ورقَ القرعِ أنفعُ شيءٍ لمن ينسلخ جلدُه.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩.
(٢) ٧/ ١٤٥.
(٣) في مجمع البيان ٢٣/ ٨٤.
(٤) أخرجه بمعناه البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١) من حديث أنس ﷺ.

واشتهر أنَّ الشجرَ ما كان على ساقٍ من عود، فيُشكل تفسيرُ الشجرةِ هنا بالدُّبَّاء. وأجاب أبو حيَّانَ[١] بأنَّه يحتمل أنَّ اللهَ تعالى أنبتها على ساقٍ لتظلَّه، خرقاً للعادة. وقال الكرماني: العامَّة تخصِّص الشجرَ بما له ساق، وعند العربِ كلُّ شيءٍ له أرومةٌ تبقى فهو شجر، وغيرُه: نجم، ويشهد له قولُ أفصحِ الفصحاءِ ﷺ: «شجرة الثُّوم»[٢]. انتهى.

وقال بعض الأَجِلَّة: لك أن تقول: أصلُ معناه ما له أرومة، لكنَّه غلب في عرف أهلِ اللغةِ على ما له ساقٌ وأغصان، فإذا أُطلق يتبادر منه المعنى الثاني، وإذا قيِّد ـ كما هنا وفي الحديث ـ يرد على أصله، وهو الظاهر. ثم ذكر أنَّ ما قاله أبو حيَّان تمحُّلٌ في محلٍّ لا مجالَ للرأي فيه.

وأَخرج عبدُ بن حُميدٍ وابن جَريرٍ عن ابن جُبير أنَّه قال: كلُّ شجرةٍ لا ساقَ لها فهي من اليقطين. والذي يكون على وجه الأرضِ من البِطِّيخ والقِثَّاء[٣]. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه سئل عن اليقطين: أَهو القرع؟ قال: لا، ولكنَّها شجرةٌ سمَّاها اللهُ تعالى اليقطينَ أَظلَّته.

وفي روايةٍ عن ابن عباسٍ أنَّه كلُّ شيءٍ يَنبت ثم يموتُ من عامه، وفي أخرى: كلُّ شيءٍ يذهب على وجهِ الأرض.

وقيل: شجرةُ اليقطينِ هي شجرةُ الموز، تغطَّى بورقها، واستظلَّ بأغصانها، وأَفطر على ثمارها. وقيل: شجرةُ التين. والأصحُّ ما تقدَّم.

ورُوي عن قتادةَ أنَّه عليه السلام كان يأكل من ذلك القَرع.

وجاء في روايةٍ عن أبي هريرةَ أنَّه قال: طُرح بالعراء، فأنبت اللهُ تعالى عليه يقطينة. فقيل له: ما اليقطينة؟ قال: شجرةُ الدبَّاء، هيَّأ اللهُ تعالى له أُرْويَّةً[٤]

---

(١) في البحر ٧/ ٣٧٥.

(٢) أخرج البخاري (٨٥٦)، ومسلم (٥٦٢) من حديث أنس ﷺ مرفوعاً: «من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا».

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٩١، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٣٣.

(٤) الأروية، بالضم والكسر: أنثى الوعول. القاموس (روي).

وحشية، تأكل من خشاش الأرضِ فتفسح[١] عليه، فترويه من لبنها كلَّ عشيةٍ وبُكرةٍ حتى نبتت. وقيل: إنَّه كان يستظلُّ بالشجرة، وتختلف إليه الأرويَّةُ فيشربُ من لبنها.

وفي بعض الآثارِ أنَّها نبتت وأظلَّته في يومها؛ أخرج أحمدُ في «الزُّهد» وغيرُه عن وهبٍ أنَّه لمَّا خرج من البحرِ نام نومة، فأنبت اللهُ تعالى عليه شجرةً من يقطين، وهي الدُّبَّاء، فأظلَّته وبلغت في يومها، فرآها قد أظلَّته، ورأى خُضرَتها فأعجبته، ثم نام نومةً فاستيقظ، فإذا هي قد يَبِست، فجعل يحزن عليها، فقيل له: أنت الذي لم تَخلُق ولم تَسْقِ ولم تُنْبِتْ تحزنُ عليها، وأنا الذي خلقتُ مئةَ ألفٍ من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشقَّ عليك[٢]؟!

وهؤلاء هم أهلُ نِينوى المعنيُّون بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ والإرسالُ ـ على ما أخرج غيرُ واحدٍ عن مجاهدٍ والحسنِ وقتادة ـ هو الإرسالُ الأوَّل الذي كان قبل أن يلتقمَه الحوت، فالعطفُ على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ إلخ [الآية: ١٣٩] على سبيل البيان؛ لدلالته على ابتداءِ الحالِ وانتهائه، وعلى ما هو المقصودُ من الإرسال من الإيمان، واعترض بينهما بقصَّته اعتناءً بها؛ لغرابتها.

وأُورد عليه أنَّه يأبى عن حَمله على الإرسال الأوَّلِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ فإنَّ أولئك لم يؤمنوا عقيبَ إرساله الأوَّل، بل بعدَما فارقهم.

وأُجيب بأنَّه تعقيبٌ عُرفي، نحو: تزوَّج فوُلد له. وقيل: الأقربُ أنَّ الفاءَ للتفصيل، أو السببيَّة.

وقيل: هو إرسالٌ ثانٍ إليهم بعد أن أَصابه ما أصابه، فالعطفُ على ما عنده.

وأُورد عليه أنَّ المرويَّ أنَّهم بعد مفارقتِه لهم رأَوا العذابَ أو خافوه، فآمنوا، فقولُه تعالى: «فآمنوا» في النَّظم الجليلِ هنا يأبى عن حَمله على إرسالٍ ثان.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي الدر المنثور ٥/ ٢٩١ فتفشخ، وفي تفسير الطبري ١٩/ ٦٣٥: فتفشح. وفشخت الدابة وفشحت: إذا فرَّجت بين رجليها للحَلْب. اللسان (فشح) و(فشخ).

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٩١.

وأُجيب بأنَّه يجوز أن يكونَ الإيمانُ المقرونُ بحرف التعقيبِ إيماناً مخصوصاً، أو أنَّ «آمَنوا» بتأويل: أَخلصوا الإِيمانَ وجدَّدوه؛ لأنَّ الأوَّل كان إِيمانَ يأس[(١)].

وقيل: هو إرسالٌ إلى غيرهم.

وقيل: إنَّ الأوَّلين بعد أن آمَنوا سألوه أن يرجعَ إليهم، فأبى؛ لأنَّ النبيَّ إذا هاجر عن قومه، لم يرجعْ إليهم مقيماً فيهم، وقال لهم: إنَّ اللهَ تعالى باعثٌ إليكم نبيّاً.

وفي خبرٍ طويلٍ أَخرجه أحمدُ في «الزُّهد» وجماعةٌ عن ابن مسعودٍ أنَّه عليه السلام بعد أن نُبذ بالعراءِ وأَنبت اللهُ تعالى عليه الشجرةَ وحَسُنَ حالُه، خرج فإذا هو بغلامٍ يرعى غنماً، فقال: ممَّن أنت يا غلام؟ قال: من قومِ يونُس، قال: فإذا رجعتَ إليهم فأَقرئهم السلام، وأَخبرهم أنَّك لقيتَ يونس، فقال له الغلام: إنْ تكن يونسَ فقد تعلم أنَّه مَن كذب ولم يكن له بيِّنة قتل، فمَن يشهد لي؟ قال: تشهد لك هذه الشجرةُ وهذه البقعة، فقال الغلامُ ليونُس: مُرْهما، فقال لهما يونُس: إذا جاءكما هذا الغلامُ فاشهدا له، قالتا: نعم، فرجع الغلامُ إلى قومه، وكان له إخوةٌ فكان في مَنَعة، فأتى الملكَ فقال: إنِّي لقيت يونسَ وهو يقرأ عليكم السَّلام، فأَمر به الملكُ أن يُقتل، فقال: إنَّ لي بيِّنة، فأَرسل معه، فانتهَوا إلى الشَّجرة والبقعة، فقال لهما الغلام: نشدتكما بالله هل أَشهدكما يونُس، قالتا: نعم، فرجع القومُ مذعورين يقولون: تشهد لك الشجرةُ والأرض! فأَتَوا الملكَ فحدَّثوه بما رأوا، فتناول الملكُ يدَ الغلامِ فأَجلسه في مجلسه وقال: أنت أحقُّ بهذا المكانِ مني، وأَقام لهم أمرَهم ذلك الغلامُ أربعين سنة[(٢)].

وهذا دالٌّ بظاهره أنَّه عليه السلام لم يرجعْ بعد أن أصابه ما أصابه إليهم، فإن صحَّ يراد بالإرسال هنا إمَّا الإرسالُ الأوَّل الذي تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ وإمَّا إرسالٌ آخَرُ إلى غير أولئك القوم. والمعروفُ عند أهل الكتابِ

(١) في الأصل و(م): بأس، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٢٨٧.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٨٨.

أنَّه عليه السلام لم يرسَل إلَّا إلى أهل نِينوى، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تفصيلُ قصَّته عندهم.

و«أو» ـ على ما نُقل عن ابن عبَّاس ـ بمعنى «بل». وقيل: بمعنى الواو، وبها قرأ جعفرُ بن محمدٍ رضي الله عنهما[1]. وقيل: للإبهام على المخاطَب. وقال المبرِّد وكثيرٌ من البصريِّين: للشكِّ. نظراً إلى الناظر من البشر، على معنى: مَن رآهم شكَّ في عددهم وقال: مئةُ ألفٍ أو يزيدون. والمقصودُ بيانُ كثرتهم، أو أنَّ الزيادةَ ليست كثيرةً كثرةً مفرِطة، كما يقال: هم ألفٌ وزيادة.

وقال ابنُ كمال: المراد: يزيدون باعتبارٍ آخَر؛ وذلك أنَّ المكلَّفين بالفعل منهم كانوا مئةَ ألف، وإذا ضمَّ إليهم المراهقون الذين بصددِ التكليف،كانوا أكثر، ومن هاهنا ظهر وجهُ التعبيرِ بصيغة التجدُّد دون الثَّبات.

وتعقَّب بأنَّه مع أنَّ المناسبَ له الواوُ تكلُّف ركيك. وأقربُ منه أنَّ الزيادةَ بحسب الإرسال الثاني، ويناسبه صيغةُ التجدُّد وإنْ كانت للفاصلة، وهو معطوفٌ على جملة «أرسلنا» بتقدير: هم يزيدون، لا على «مئة» بتقدير: أشخاص يزيدون، أو تجريده للمصدرية؛ فإنَّه ضعيف.

والزيادةُ ـ على ما رُوي عن ابنِ عباس ـ ثلاثون ألفاً. وفي أخرى عنه: بضعةٌ وثلاثون ألفاً. وفي أخرى: بضعةٌ وأبعون ألفاً. وعن نوفٍ وابن جُبير: سبعون ألفاً.

وأخرج الترمذيُّ وابن جَرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه عن أُبيٍّ بن كعبٍ قال: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن قول اللهِ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً[2]. وإذا صحَّ هذا الخبرُ بطل ما سواه[3].

﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بالحياة ﴿إِلَىٰ حِينٍ ١٤٨﴾ إلى آجالهم المسمَّاة في الأزل. قاله قتادةُ والسُّدِّي. وزعم بعضُهم أنَّ تمتيعَهم بالحياة إلى زمان المهديّ، وهم إذا ظهر من

(١) المحتسب ٢/٢٢٦، والبحر ٧/٣٧٦.
(٢) الدر المنثور ٥/٢٩١، وجامع الترمذي (٣٢٢٩)، وتفسير ابن جرير ١٩/٦٣٧.
(٣) ولم يصح، ففي إسناده راوٍ مبهم.

أَنصاره، فهم اليومَ أحياءٌ في الجبال والقفارِ لا يراهم كلُّ أحد، كالمهديِّ عند الإمامية، والخَضرِ عند بعض العلماءِ والصوفية، وربَّما يُكشف لبعض الناسِ فيرى أحداً منهم. وهو كذبٌ مفترًى.

ولعل عدمَ ختمِ هذه القصَّة والقصةِ التي قبلَها بنحو ما خُتم به سائرُ القصصِ من قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ﴾ إلخ: تفرقةٌ بين شأن لوطٍ ويونسَ عليهما السلام وشأنِ أصحابِ الشرائع الكُبَر وأُولي العزمِ من المرسلين، مع الاكتفاءِ فيهما بالتسليم الشاملِ لكلِّ الرسلِ المذكورِ في آخر السورة، ولتأخُّرهما في الذِّكر قرباً منه، واللهُ تعالى أعلم.

والمذكورُ في شأن يونسَ عليه السلام في كتب أهلِ الكتابِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أمره بالذَّهاب إلى دعوة أهلِ نينوى، وكانت إذ ذاك عظيمةً جدّاً، لا تُقطع إلَّا في نحو ثلاثةِ أيام، وكانوا قد عظم شرُّهم وكثر فسادُهم، فاستعظم الأمرَ وهرب إلى ترسيس، فجاء يافا، فوجد سفينةً يريد أهلُها الذهابَ بها إلى ترسيس، فاستأجر وأَعطى الأجرةَ وركب السفينة، فهاجت ريحٌ عظيمةٌ وكثرت الأَمواج، وأَشرفت السفينةُ على الغرق، ففزع الملَّاحون ورمَوا في البحر بعضَ الأمتعةِ لتخفَّ السفينة، وعند ذلك نزل يونسُ إلى بطن السفينة، ونام حتى علا نَفَسُه، فتقدَّم إليه الرئيسُ فقال له: ما بالُك نائماً؟ قُمْ وادعُ إلهَك لعله يخلِّصنا ممَّا نحن فيه ولا يُهلكنا. وقال بعضُهم لبعض: تعالَوا نتقارعْ لنعرفَ مَن أصابنا هذا الشرُّ بسببه، فتقارعوا، فوقعت القرعةُ على يونُس، فقالوا له: أخبِرنا ماذا عملت، ومن أين أتيت، وإلى أين تمضي، ومن أيِّ كُورةٍ أنت، ومن أيِّ شعبٍ أنت؟ فقال لهم: أنا عبدُ الربِّ إلهِ السماءِ خالقِ البرِّ والبحر. وأخبرهم خبرَه، فخافوا خوفاً عظيماً، وقالوا له: لمَ صنعتَ ما صنعت؟ يلومونه على ذلك. ثم قالوا له: ما نصنع الآن بك ليسكُنَ البحرُ عنا؟ فقال: أَلقُوني في البحر يسكن، فإنَّه من أجلي صار هذا الموجُ العظيم، فجهد الرجالُ أن يردُّوها إلى البرِّ فلم يستطيعوا، فأَخذوا يونسَ وأَلقَوه في البحر لنجاة جميع مَن في السفينة، فسكن البحر، وأمر اللهُ تعالى حوتاً عظيماً فابتلعه، فبقي في بطنه ثلاثةَ أيامٍ وثلاثَ ليال، وصلَّى في بطنه إلى ربِّه واستغاث به، فأمر سبحانه

الحوتَ فألقاه إلى اليبس، ثم قال عزَّ وجلَّ له: قم وامضِ إلى نِينوى، ونادِ في أهلها كما أمرتُك من قبل، فمضى عليه السلامُ ونادى، وقال: تُخسف نِينوى بعد ثلاثةِ أيام، فآمنت رجالُ نينوى بالله تعالى ونادَوا بالصِّيام ولبسوا المسوحَ جميعاً، ووصل الخبرُ إلى الملك، فقام عن كرسيِّه ونزع حلَّته ولبس مِسْحاً وجلس على الرَّماد، ونودي أن لا يذقْ أحدٌ من الناس والبهائم طعاماً ولا شراباً، وجأروا إلى الله تعالى، ورجعوا عن الشرِّ والظلم، فرحمهم اللهُ تعالى فلم يُنزل بهم العذاب، فحزن يونسُ، وقال: إلهي من هذا هربت، فإني علمت أنَّك الرحيمُ الرؤوفُ الصبورُ التوَّاب، يا ربِّ خذ نفسي، فالموتُ خيرٌ لي من الحياة، فقال: يا يونس، حزنتَ من هذا جدّاً؟ فقال: نعم يا ربِّ، وخرج يونسُ وجلس مقابلَ المدينة، وصنع له هناك مِظلَّةً وجلس تحتها إلى أن يرى ما يكونُ في المدينة، فأمر اللهُ تعالى يقطيناً فصَعِدَ على رأسه ليكون ظلًّا له من كَربه، ففرح باليقطين فرحاً عظيماً، وأمر اللهُ تعالى دودةً فضربت اليقطينَ فجفّ، ثم هبَّت ريحٌ سَمومٌ وأشرقت الشمسُ على رأس يونسَ عليه السلام، فعظم الأمرُ عليه واستطيب الموت، فقال له الربّ: يا يونُس، أحزنتَ جدّاً على اليقطين؟ فقال: نعم يا ربّ، حزنتُ جدّاً، فقال سبحانه: حزنتَ عليه وأنت لم تتعب فيه ولم تربِّه، بل صار من ليلته وهلك من ليلته، فأنا لا أُشفق على نِينوى المدينةِ العظيمةِ التي فيها سكانٌ أكثرُ من اثني عشرَ ربوةً من الناس، قوم لا يعلمون يمينَهم ولا شِمالَهم، وبهائمُهم كثيرة. انتهى.

وفيه من المخالفة للحقِّ ما فيه، ولتطَّلعَ على حاله نقلتُه لك، وكم لأهل الكتابِ من باطل.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ أمر اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ في صدر السورةِ الكريمةِ بتبكيت قريشٍ وإبطالِ مذهبِهم في إنكار البعثِ بطريق الاستفتاء، وساق البراهينَ الناطقةَ بتحقُّقه لا محالة، وبيَّن وقوعَه وما يلقَونه عند ذلك من فنونِ العذاب، واستثنَى منهم عبادَه المخلَصين، وفصَّل سبحانه ما لهم من النَّعيم المقيم، ثم ذكر سبحانه أنَّه قد ضلَّ من قبلهم أكثرُ الأوَّلين، وأنَّه تعالى أرسل إليهم منذِرين على وجه الإجمال، ثم أورد قصصَ بعضِ الأنبياءِ عليهم السلام بنوعِ تفصيل،

متضمِّناً كلٌّ منها ما يدلُّ على فضلهم وعبوديتِهم له عزَّ وجلّ، ثم أمره ﷺ هاهنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاءِ عن وجه ما تُنكره العقولُ بالكلِّية، وهي القسمةُ الباطلةُ اللازمةُ لما كانوا عليه من الاعتقاد الزَّائغ، حيث كانوا يقولون ـ كبعض أجناسِ العرب: جهينةَ وسليم وخزاعةَ وبني مُلَيح ـ: الملائكةُ بناتُ الله، سبحانه وتعالى عمَّا يقولون علوّاً كبيراً. ثم بتبكيتهم بما يتضمَّنه كفرُهم المذكورُ من الاستهانةِ بالملائكة عليهم السلام بجعلهم إناثاً.

ثم أَبطل سبحانه أصلَ كفرِهم المنطوي على هذين الكفرَين، وهو نسبةُ الولدِ إليه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، ولم ينظمْه سبحانه في سِلك التبكيت؛ لمشاركتهم اليهودَ القائلين: عُزيرٌ ابنُ الله، والنصارى المعتقدين عيسى ابنَ الله، تعالى اللهُ عن ذلك.

والفاء، قيل: لترتيب الأمرِ على ما يُعلم ممَّا سبق من كون أولئك الرُّسلِ أعلامِ الخلقِ عليهم السلام عبادَه تعالى؛ فإنَّ ذلك مما يؤكِّد التبكيتَ ويُظهر بطلانَ مذهبِهم الفاسد، فكأنَّه قيل: إذا كان رسلُ ربِّك مَن علمتَ حالَهم، فاستخبِرْ هؤلاء الكفرةَ عن وجه كونِ البنات ـ وهنَّ أوضعُ الجنسَين ـ له تعالى بزعمهم، والبنينَ الذين هم أَرفعُهما لهم، فإنَّهم لا يستطيعون أن يُثبتوا له وجهاً؛ لأنَّه في غاية البطلانِ لا يقوله مَن له أدنَى شيءٍ من العقل.

وقال بعضُ الأجِلَّة: الكلامُ متَّصل بقوله تعالى في أوَّل السورة: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ [الآية: ١١] على أنَّ الفاءَ هنا للعطف على ذاك والتعقيب؛ لأنَّه أمر بهما من غير تراخٍ، وهي هناك جزائيةٌ في جواب شرطٍ مقدَّر. وبهذا القولِ أَقول.

وأَورد عليه أبو حيَّانَ(١) أنَّ فيه الفصلَ الطويل، وقد استقبح النُّحاة الفصلَ بجملة، نحو: أكلت لحماً واضرب زيداً وخبزاً، فما ظنُّك بالفصل بجُمَل، بل بما يَقرب من سورة.

وأُجيب بأنَّ ما ذكر في عطف المفردات، وأمَّا الجمل، فلاِستقلالها يُغتفر فيها

---

(١) في البحر ٧/ ٣٧٦.

ذلك، والكلامُ هنا لمَّا تعانقت معانيه، وارتبطت مبانيه، وأخذ بعضُها بحُجَز بعضٍ حتى كأنَّ الجميعَ كلمةٌ واحدة، لم يُعدَّ البعدُ بعداً، كما قيل:

وليس يضير البعدُ بين جسومِنا إذا كان ما بين القلوبِ قريبا[1]

ووجهُ ترتُّب المعطوفِ على ما قبلُ كوجه ترتُّبِ المعطوفِ عليه، فإنَّ كونَه تعالى ربَّ السماواتِ والأرضِ وتلك الخلائقِ العظيمةِ كما دلَّ على وحدته تعالى وقدرتِه عزَّ وجلَّ دالٌّ على تنزُّهه سبحانه عن الولد، ألا ترى إلى قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

والمناسبةُ بين الردِّ على منكري البعثِ والردِّ على مثبتي الولدِ ظاهرة، وقد اتَّحد في الجملتين السائلُ والمسؤولُ والآمر.

وجوَّز بعضُهم كونَ ضميرِ «استفتهم» للمذكورين من الرُّسل عليهم السلام والبواقي لقريش، والمرادُ الاستفتاءُ ممَّن يعلم أخبارَهم ممن يوثق بهم ومن كتبهم وصحفِهم، أي: ما منهم أحدٌ إلَّا وينزِّه الله تعالى عن أمثالِ ذلك، حتى يونسُ عليه السلام في بطنِ الحوت.

ولَعمري إنَّ الرجلَ قد بلغ الغايةَ من التكلُّف من غير احتياجٍ إليه، ولعله لو استغنَى عن ارتكاب التجوُّز بالتزام كونِ الاستفتاءِ من المرسَلين المذكورين، حيث يجتمع رسولُ اللهِ ﷺ معهم اجتماعاً روحانيّاً كما يدَّعيه لنفسه الشيخُ محيي الدِّين قدِّس سرُّه مع غير واحدٍ من الأنبياءِ عليهم السلام، ويدَّعي أنَّ الأمرَ بالسؤال المستدعي للاجتماع أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] على هذا النَّمط = لَكان الأمرُ أهون، وإنْ كان ذلك منزعاً صوفيّاً.

وأُضيف الربُّ إلى ضميرِهِ عليه الصلاة والسلام دون ضميرِهم؛ تشريفاً لنبيِّه ﷺ، وإشارةً إلى أنَّهم في قولهم بالبنات له عزَّ وجلَّ كالنافين لربوبيَّته سبحانه لهم.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٨٧.

وقولُه سبحانه: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من التبكيت بالاستفتاءِ السابق إلى التبكيتِ بهذا، أي: بل أَخلقنا الملائكةَ الذين هم من أشرف الخلائقِ وأقواهم وأعظمِهم تقدُّساً عن النقائص الطبيعيةِ إناثاً، والأنوثةُ من أخسِّ صفاتِ الحَيَوان؟!

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ استهزاءٌ بهم وتجهيلٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف:١٩] فإنَّ أمثالَ هذه الأمورِ لا تُعلم إلَّا بالمشاهدة؛ إذ لا سبيلَ إلى معرفتها بطريقِ العقل، وانتفاءُ النقلِ مما لا ريبَ فيه، فلا بدَّ أن يكونَ القائلُ بأنوثتهم شاهداً عند خلقِهم. والجملةُ إمَّا حالٌ من فاعل «خلقنا»، أي: بل أَخلقناهم إناثاً والحالُ أنَّهم حاضرون حينئذ، أو عطفٌ على «خلقنا»، أي: بل أَهم شاهدون؟

وقوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ من جهته تعالى غيرُ داخلٍ تحت الاستفتاء، مسوقٌ لإبطال أصلِ مذهبِهم الفاسد، ببيان أنَّ مبناه ليس إلَّا الإفكَ الصَّريح، والافتراءَ القبيح، من غير أن يكونَ لهم دليلٌ أو شبهة. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ فيما يتديَّنون به مطلقاً، أو في هذا القول. وفيه تأكيدٌ لقوله تعالى: «من إفكهم».

وقُرئ: «ولدُ اللهِ»(١) بالإضافة ورفعِ «ولد» على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: لَيقولون: الملائكةُ ولدُ الله. والولدُ فَعَلٌ بمعنى مفعول، يقع على المذكَّر والمؤنَّث، والواحدِ والجمع؛ ولذا وقع هنا خبراً عن الملائكة المقدَّر.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ بهمزةٍ مفتوحة، هي حرفُ استفهامٍ حُذفت بعدها همزةُ الوصل، والاستفهامُ للإنكار، والمرادُ إثبات إفكِهم وتقريرُ كذبهم. والاصطفاءُ أخذ صفوةِ الشيءِ لنفسه.

وقرأ نافعٌ في رواية إسماعيل، وابنُ جماز، وجماعة، وإسماعيلُ بن أبي جعفر، وشيبة: «اِصطفى» بكسر الهمزة(٢)، وهي همزةُ الوصل، وتُكسر إذا ابتُدئَ بها.

---

(١) البحر ٧/ ٣٧٦.

(٢) البحر ٧/ ٣٧٧، وانظر لقراءة نافع وأبي جعفر النشر ٢/ ٣٦٠.

وخرِّجت على حذف أداةِ الاستفهامِ لدلالة «أم» بعدُ وإن كانت منقطعةً غيرَ معادلةٍ لها؛ لكثرة استعمالِها معها. وجوِّز إبقاءُ الكلامِ على الإخبار، إمَّا على إضمار القول، أي: لَكاذبون في قولهم: اصطفى.. إلخ، أو: يقولون: اصطفى.. إلخ على ما قيل، أو على الإبدال من قولهم: ولد الله، أو الملائكةُ ولدُ الله، وليس دخيلاً بين نسيبين. والأولى التخريجُ على حذف الأداةِ وحسمِ البحث، فتأمَّل.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ بهذا الحكمِ الذي تقضي ببطلانه بداهةُ العقول. والالتفاتُ لزيادة التوبيخ.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ بحذف أحد التاءَين من: تتذكَّرون. وقرأ طلحةُ بن مصرِّف: «تذْكُرون» بسكون الذالِ وضمِّ الكافِ من ذَكَرَ(١). والفاءُ للعطف على مقدَّر، أي: تلاحظون ذلك فلا تتذكَّرون بطلانَه، فإنَّه مركوزٌ في عقل كلِّ ذكيٍّ وغبي؟

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من توبيخهم وتبكيتِهم بما ذُكر [إلى تبكيتهم](٢) بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجودِ أصلاً، أي: بل ألكم حجَّة واضحةٌ نزلت من السماءِ بأنَّ الملائكةَ بناتُه تعالى؟ ضرورةَ أنَّ الحكمَ بذلك لابدَّ له من سندٍ حسيٍّ أو عقلي، وحيث انتفى كِلاهما فلابدَّ من سندٍ نقلي.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الناطقِ بصحة دعواكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ فيها. والأمرُ للتعجيز، وإضافة الكتابِ إليهم للتهكُّم.

وفي الآيات من الإنباء عن السخط العظيمِ والإنكار الفظيعِ لأقاويلهم، والاستبعادِ الشديدِ لأباطيلهم، وتسفيهِ أحلامهم، وتركيكِ عقولهم وأفهامِهم، مع استهزاءٍ بهم وتعجيبٍ من جهلهم، ما لا يخفَى على مَن تأمَّل فيها.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ التفاتٌ إلى الغَيبة؛ للإيذان بانقطاعهم عن الجواب، وسقوطِهم عن درجةِ الخطاب، واقتضاءِ حالهم أن يُعرَضَ عنهم، وتُحكَى لآخرين جناياتُهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٨٨.
(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٧/٢٠٨، والكلام منه.

واستُظهر أنَّ المرادَ بالجِنَّة الشياطين، وأُريد بالنَّسب المجعولِ المصاهرة. أَخرج آدمُ بن أبي إياس وعبدُ بن حُميد وابن جَريرٍ وغيرُهم عن مجاهدٍ قال: قال كفَّارُ قريش: الملائكةُ بناتُ الله تعالى، فقال لهم أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه - أي: على سبيل التبكيت -: فمَن أمهاتُهم؟ فقالوا: بناتُ سَرَواتِ الجنّ[1]. وروى هذا ابن أبي حاتمٍ عن عطية[2].

أو أُريد: جعلوا بينه سبحانه وبينَهم مناسبة، حيث أَشركوهم به تعالى في استحقاقِ العبادة. ورُوي هذا عن الحسن.

وقيل: إنَّ قوماً من الزَّنادقة يقولون: اللهُ عزَّ وجلَّ وإبليسُ عليه اللعنةُ أَخوان، فاللهُ تعالى هو الخيِّر الكريم، وإبليسُ هو الشِّرير اللئيم، وهو المرادُ بقوله سبحانه: «وجعلوا..» إلخ. وحكى هذا الطبرسيُّ عن الكلبيّ[3]. وقال الإمام الرازي: وهذا القولُ عندي أقربُ الأقاويل، وهو مذهبُ المجوسِ القائلين بيزدان وأهرمن، ويعبِّرون عنهما بالنُّور والظلمة[4]. ويُبعد هذا القولَ عندي أنَّ الظاهرَ أنَّ ضمير «جعلوا» كالضمائر السابقةِ لقريش، ولم يشتهرْ ذلك عنهم، بل ولا عن قبيلةٍ من قبائلِ العرب، وليس المقامُ للردِّ على الكفرة مطلقاً.

وأخرج غيرُ واحدٍ عن مجاهد، وعبدُ بن حُميد عن عكرمة، وابنُ أبي شيبةَ عن أبي صالحٍ أنَّ المرادَ بالجِنَّة الملائكة[5]. وحكاه في «مجمع البيان»[6] عن قتادة، واختاره الجبَّائي. والمرادُ بالجعل المذكور ما تضمَّنه قولُهم: الملائكةُ بناتُ الله، وأُعيد تمهيداً لما يعقُبه، وهو مبنيٌّ على أنَّ الجِنَّ والمَلَكَ جنسٌ واحد، مخلوقون من عنصرٍ واحدٍ وهو النار، لكن مَن كان مِن كثيفها الدخانيِّ فهو شيطان، وهو شرٌّ

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٩٢، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٤٥، وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (١٤١).

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٩٢.

(٣) مجمع البيان ٢٣/ ٨٨.

(٤) التفسير الكبير ٢٦/ ١٦٩.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٩٢.

(٦) ٢٣/ ٨٨.

وتمرُّد، ومَن كان من صافي نورِها فهو مَلَك، وهو خيرٌ كلُّه. ووجهُ التسميةِ بالجنِّ الاستتارُ عن عيوننا، فالجنُّ والجِنَّةُ بمعنى مفعول، من: جَنَّهُ: إذا ستره، ويكون على هذا تخصيصُ الجنِّ بأحد نوعَيه تخصيصاً طارئاً كتخصيص الدابَّة، وعلى الأصلِ جاء ما هنا.

ونُقل عن ابن عباسٍ ﵄ أنَّ نوعاً من الملائكة عليهم السلام يسمَّى الجِنّ، ومنهم إبليس، وعبَّر عن الملائكة بالجِنَّة حطّاً لهم - مع عِظَم شأنهم في أنفسهم - أن يبلغوا منزلَةَ المناسبةِ التي أَضافوها إليهم في قولهم ذلك.

وقد يقال: إنَّ الاستتارَ كالداعي لهم إلى ذلك الزعمِ الباطل، بناءً على توهُّمهم بأنَّه إنمَّا يَليق بالإناث، فقالوا: لو لم يكونوا بناتِه سبحانه وتعالى، لَمَا سترهم عن العيون؛ فلذا عبَّر عنهم بـ: «الجِنَّة».

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ أي: واللهِ لقد عَلِمت الشياطين - أي: جِنسهم - أنَّ اللهَ تعالى يُحضرهم ولا بدَّ النارَ ويعذِّبهم بها، ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاءَ في استحقاق العبادةِ أو التصرُّف، لَمَا عذَّبهم سبحانه، فضميرُ «إنهم» للجِنَّة، على ما عدا الوجهَ الأخيرَ من الأوجهِ السابقة، وأمَّا عليه فهو للكَفَرة، أي: واللهِ لقد عَلِمت الملائكةُ الذين جعلوا بينه تعالى وبينهم نسباً وقالوا: هم بناتُه، أنَّ الكفرةَ لَمحضرون النارَ معذَّبون بها؛ لِكذبهم وافترائهم في قولهم ذلك. والمرادُ به المبالغةُ في التكذيب، ببيان أنَّ الذين يدَّعي لهم هؤلاء تلك النسبةَ ويعلمون أنَّهم أعلمُ منهم بحقيقة الحالِ يكذِّبونهم في ذلك ويحكمون بأنَّهم معذَّبون لأجله حكماً مؤكَّداً.

ويجوز على الأوجه الأُوَل عودُ الضميرِ على الكَفَرة أيضاً، والمعنى على نحو ما ذُكر، وعلمُ الملائكةِ أنَّ الكفرةَ معذَّبون ظاهر، وعلم الشياطين بأنهم أنفسُهم - وكذا سائرُ الكفرة - معذَّبون؛ لِمَا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ توعَّد إبليسَ عليه اللعنةُ بما يدلُّ على ذلك.

وقولُه سبحانه: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ على جميع الأوجهِ السابقةِ تنزيهٌ من جهته تعالى لنفسه عن الوصفِ الذي لا يَليق به.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ استثناءٌ منقطعٌ من «المحضَرين» وما بينهما اعتراض، أي: ولكنِ المخلَصون ناجُون.

وجوِّز كونُه استثناءً متصلاً منه، ويفسَّر ضمير «أنهم» بما يعمّ، وهو خلافُ الظاهر.

وجوِّز كونُه استثناءً منقطعاً من ضمير «يصفون» وكونُه استثناءً متصلاً منه. وهو خلافُ الظاهرِ أيضاً.

وجوِّز كونُه استثناءً من ضمير «جعلوا» على الانقطاعِ لا غير، وما في البينِ اعتراض.

واختار الواحديُّ الوجهَ الأول(١). قال الطِّيبي: ويَحسن كلَّ الحسنِ إذا فسِّر الجِنَّةَ بالشياطين. أي: وضميرُ «أنهم» بالكفرة؛ ليرجعَ معناه إلى قوله تعالى حكايةً عن اللعين: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢-٨٣] أي: إنَّهم لمُحضَرون النارَ ومعذَّبون حيث أَطاعونا في إغوائنا إياهم، لكن الذين أَخلصوا الطاعةَ لله تعالى وطهَّروا قلوبَهم من أرجاس الشركِ وأنجاسِ الكفرِ والرذائلِ ما عَمِلَ فيهم كيدُنا، فلا يُحضَرون، ويكون ذلك مدحاً للمخلَصين، وتعريضاً بالمشركين وإرغاماً لأنوفهم، ومزيداً لغيظهم، أي: إنَّهم بخلاف ما هم عليه من سفه الأَحلامِ وجهلِ النفوسِ وركاكةِ العقول. اهـ. وفي بيان المعنى نوعُ قصور.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ عودٌ إلى خطابهم. والفاءُ في جواب شرطٍ مقدَّر، أي: إذا عَلِمتم هذا، أو إذا كان المخلَصون ناجين فإنَّكم.. إلخ. والواوُ للعطف، و«ما تعبدون» معطوفٌ على الضمير في «إنكم» وضميرُ «عليه» لله عزَّ وجلَّ، والجارُّ متعلِّق «بفاتنين»، وعُدِّي بـ «على» لتضمُّنه معنى الاستيلاء، وهو استعارة، من قولهم: فتن غلامَه أو امرأتَه عليه: إذا أفسده، والباءُ زائدة، وهو خبر «ما» والجملةُ خبرُ «إنَّ»، والاستثناءُ مفرَّغ من مفعول فاتنين المقدَّر، و«أنتم» خطابٌ للكفرة ومعبوديهم على

---

(١) الوسيط ٣/ ٥٣٤.

سبيل التغليب، نحو: أنت وزيدٌ تخرجان، أي: ما أنتم ومعبودوكم مفسدين أحداً على الله عزَّ وجلَّ بإغوائكم إلَّا مَن سبق في علم اللهِ تعالى أنَّه من أهل النارِ يصلاها ويدخلها لا محالة.

وجوِّز كونُ الواوِ هنا مثلَها في قولهم: كلُّ رجلٍ وضيعتُه، فجملة «ما أنتم عليه. .» إلخ مستقلَّة ليست خبراً لـ «إنَّ»، وضميرُ «عليه» لـ «ما» بتقدير مضاف، وهو متعلِّق «بفاتنين» أيضاً، بتضمينه معنى البعثِ أو الحمل، ولا تغليبَ في الخطاب، كأنَّه قيل: إنَّكم وآلهتَكم قرناءُ لا تبرحون تعبدونها، ثم قيل: ما أنتم على عبادةِ ما تعبدون بباعثين أو حاملين على طريق الفتنةِ والإضلال أحداً، إلَّا مَن سبق في علمه تعالى أنَّه من أهلِ النار.

وظاهرُ صنيعِ بعضِهم أنَّ أمرَ التغليبِ في «أنتم» على هذا على حالِه، وأنت تعلم أنَّ الظاهرَ الاتصال.

وجوِّز أن يرادَ معنى المعيَّة، وخبرُ «إنَّ» جملةُ «ما أنتم عليه» إلخ، ويكون الكلامُ على أسلوب قولِ الوليدِ بن عقبةَ بن أبي مُعَيط ـ عامله اللهُ تعالى بما هو أهلُه ـ يحضُّ معاويةَ على حرب الأميرِ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه:

فإنَّك والكتابَ إلى عليٍّ كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ[1]

قال في «الكشف»: ومعنى الآية ـ أي: عليه ـ: إنَّكم يا كفرةُ مع معبوديكم لا يتسهَّل لكم إلَّا أن تَفتنوا مَن هو ضالٌّ مثلكم. وهو بيانٌ لخلاصة المعنى.

واستظهر أبو حيانَ[2] العطفَ وكونَ الضميرِ للعبادة، وتضمينَ «فاتنين» معنى الحمل، وتغليبَ المخاطَبِ على الغائب في «أنتم»، وكونَ الجملةِ المنفيةِ خبرَ «إنَّ». وحكي عن بعضهم القول بأنَّ «على» بمعنى الباء، والضميرَ المجرورَ به لـ «ما تعبدون»، فتأمَّل.

---

(١) مجمع الأمثال ٢/ ١٥٠، واللسان (حلم) وقوله: حلم الأديم، أي: أصابته الحَلَمَة، وهي دودة تقع في الجلد فتأكله، فإذا دبغ تَخرَّقَ وتَشقَّقَ.

(٢) في البحر ٧/ ٣٧٨.

وقرأ الحسنُ وابنُ أبي عبلة: «صالو الجحيم» بالواو على ما في كتاب «الكامل» للهُذلي[1]. وفي كتاب ابنِ خالويه[2] عنهما: «صالُ» بالضمِّ ولا واو. وفي «اللَّوامح» و«الكشَّاف»[3] عن الحسن: «صالُ[4] الجحيم» بضمِّ اللام. فعلى إثبات الواوِ هو جمعُ سلامةٍ سقطت النونُ للإضافة، وفي الكلام مراعاةُ لفظِ «مَن» أوَّلاً، ومعناها ثانياً، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

وعلى عدم إثباتها فيه ثلاثةُ أَوجه:

الأوَّل: أن يكونَ جمعاً حُذفت النونُ منه للإضافة، ثم واوُ الجمعِ لالتقاءِ الساكنين، وأُتبع الخطُّ اللفظ.

الثاني: أن يكونَ مفرداً حُذفت لامُه ـ وهي الياء ـ تخفيفاً وجُعلت كالمنسي، وجرى الإعرابُ على عينِه كما جرى على عين: يد ودم، وعلى ذلك قولُه تعالى: «وجنى الجنتين دانٌ» [الرحمن: ٥٤] وقولُه سبحانه: «وله الجوارُ المنشآت» [الرحمن: ٢٤] بضمِّ نون «دان» وراءِ «الجوار»[5]، وقولُهم: ما بالَيْتُ به بالة، فإنَّ أصلَ بالة بالِيَة، بوزن عافية، حُذفت لامُه فأُجري الإعرابُ على عينه، ولمَّا لحقته الهاءُ انتقل اليها.

الثالث: أن يكونَ مفرداً أيضاً، ويكون أصلُه: صايل، على القلب المكانيّ، بتقديم اللامِ على العين، ثم حُذفت اللامُ المقدَّمة، وهي الياء، فبقي صال بوزن فاع، وصار مُعرَباً كباب، ونظيرُه: شاكٍ، الجاري إعرابُه على الكاف في لغة.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ حكايةٌ لاعتراف الملائكةِ

---

(١) البحر ٧/ ٣٧٩.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٨، ونسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٢٨ للحسن فقط.

(٣) ٣/ ٣٥٦، والكلام من البحر ٧/ ٣٧٩.

(٤) في (م): صالوا، وهو خطأ.

(٥) البحر ٧/ ٣٧٩، وقراءة ضم الراء في «الجوار» وردت عن الحسن كما في القراءات الشاذة ص ١٤٩.

بالعبودية؛ للردِّ على مَن يزعم فيهم خلافَها، فهو من كلامه تعالى، لكنَّه حُكي بلفظهم، وأصلُه: وما منهم إلَّا.. إلخ، أي: وما منا إلَّا له مقامٌ معلومٌ في العبادة والانتهاءِ إلى أمر اللهِ تعالى في تدبيرِ العالَم، مقصورٌ عليه لا يتجاوزه، ولا يستطيع أن يزلَّ عنه؛ خضوعاً لعظمته تعالى، وخشوعاً لهيبته سبحانه، وتواضعاً لجلاله جلَّ شأنُه، كما رُوي: فمنهم راكعٌ لا يُقيم صلبَه، وساجدٌ لا يرفع رأسَه.

وقد أخرج الترمذيُّ وحسَّنه، وابنُ ماجه، وابنُ مردويه عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترَون وأسمعُ ما لا تسمعون، إنَّ السماءَ أطَّت، وحقَّ لها أن تئطّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلَّا وفيه مَلَكٌ واضعاً جبهتَه ساجداً لله»(١).

وأخرج ابن جَرير، وابنُ أبي حاتم، وأبو الشَّيخ، ومحمدُ بن نَصرٍ المروزيُّ في كتاب «الصلاة» عن عائشةَ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «ما في السماءِ موضعُ قدمٍ إلَّا عليه مَلَكٌ ساجدٌ أو قائم» وذلك قولُ الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾(٢).

وعن السُّدِّيّ: «إلا له مقام معلوم» في القُرب والمشاهدة.

وجَعَل بعضُهم(٣) ذلك من كلام الجِنَّة بمعنى الملائكةِ متَّصلاً بما قبلَه من كلامهم، وهو من قولِه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ إلى ﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ فقال بعد أن فسَّر الجِنةَ بالملائكة: إنَّ «سبحان الله عمَّا يَصِفون» حكايةٌ لتنزيه الملائكةِ إيَّاه تعالى عمَّا وصفه المشركون به بعد تكذيبِهم لهم في ذلك، بتقدير قولٍ معطوفٍ على «عَلِمَتْ»، و«إلَّا عبادَ الله المُخْلَصين» شهادةٌ منهم ببراءة المخلَصين من أنْ يَصِفوه تعالى بذلك، متضمِّنةٌ لتبرئتهم منه بحكم اندراجِهم في زمرة المخلَصين على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، على أنَّه استثناءٌ منقطعٌ من واو «يصفون»، كأنَّه

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٩٣، وجامع الترمذي (٢٣١٢)، وسنن ابن ماجه (٤١٩٠).
(٢) تعظيم قدر الصلاة للمرزوي (٢٥٣)، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٥١، والعظمة (٥١٠).
(٣) هو أبو السعود في تفسيره ٧/ ٢٠٩-٢١٠.

قيل: ولَقد عَلِمت الملائكةُ إنَّ المشركين لَمعذَّبون لقولهم ذلك، وقالوا: سبحانَ اللهِ عمَّا يصفون، لكنَّ عبادَ اللهِ الذين نحن من جملتهم براءٌ من ذلك الوصف. و«فإنكم» إلخ تعليلٌ وتحقيقٌ لبراءة المخلَصين عمَّا ذكر، ببيان عجزِهم عن إغوائهم وإضلالِهم. والالتفاتُ إلى الخطاب لإظهار كمالِ الاعتناءِ بتحقيق مضمونِ الكلام، و«ما تعبدون» الشياطينُ الذين أغوَوهم، وفيه إيذانٌ بتبرِّيهم عنهم وعن عبادتِهم، كقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١]. وقولُهم: «وما منَّا إلا له مقام..» إلخ تبيينٌ لجليَّة أمرِهم، وتعيينٌ لحيِّزهم في موقف العبوديةِ بعد ما ذُكر من تكذيب الكفرةِ فيما قالوا، وتنزيهِ اللهِ تعالى عن ذلك، وتبرئةِ المخلَصين عنه، وإظهارٌ لقصور شأنِهم. وجَعل تفسير الجنَّة بالملائكة هو الوجهَ لاقتضاءِ ربطِ الآياتِ وتوجيهها بما ذكر إياه.

وفي التعليل شيء، نعم إنَّ هذه الآيةَ تقوِّي قولَ مَن يقول: المرادُ بالجِنَّة فيما سبق الملائكةُ عليهم السلام تقويةً ظاهرةً جداً، وأنَّ الربطَ الذي ذكر في غاية الحُسن.

وقيل: هو من قول الرسولِ عليه الصلاة والسلام، أي: وما من المسلمين إلَّا له مقامٌ معلومٌ على قَدْرِ أعمالِه يومَ القيامة، وهو متصلٌ بقوله: «فاستفتهم»، كأنَّه قيل: فاستفتهم وقل: وما منَّا.. إلخ، على معنى: بكِّتهم بذلك وانعَ عليهم كُفرانَهم، وعدِّد ما أنت وأصحابُك متَّصف به من أضدادِها، وإنْ شئتَ لم تقدِّر «قل» بعد علمِك بأنَّ المعنى ينساق إليه، وهو بعيدٌ فافهم، واللهُ تعالى أعلم.

و«منا» خبرٌ مقدَّم، والمبتدأُ محذوفٌ للاكتفاء بصفته، وهي جملةُ «له مقام»، أي: ما منَّا أحدٌ إلَّا له مقامٌ معلوم. وحذفُ الموصوف بجملةٍ أو شبهِها إذا كان بعضَ ما قبلَه من مجرورٍ بـ «مِن» أو «في» مطَّردٌ، وهذا اختيارُ الزمخشريِّ[1].

وقال أبو حيَّان[2]: «منا» صفةٌ لمبتدأ محذوف، والجملةُ المذكورةُ هي الخبر، أي: وما أحدٌ كائنٌ منَّا إلَّا له مقامٌ معلوم. وتعقَّب ما مرَّ بأنَّه لا ينعقد كلامٌ مِن:

(١) في الكشاف ٣/ ٣٥٦.
(٢) في البحر ٧/ ٣٧٩.

ما منَّا أحد، وقولُه سبحانه: «إلا له مقام معلوم» هو محطُّ الفائدة، فيكون هو الخبر، وإن تخيَّلَ[(١)] أنَّ «إلَّا» بمعنى «غير» وهي صفة، لا يصحّ؛ لأنَّه لا يجوز حذفُ موصوفِها، وفارقَتْ غيراً إذا كانت صفةً في ذلك؛ لتمكُّن «غير» في الوصف وقلَّة تمكُّن «إلَّا» فيه.

وقال غيرُه: إنَّ فيه أيضاً التفريغَ في الصفات، وهم منعوا ذلك.

ودُفع بأنَّه ينعقد منه كلامٌ مفيدٌ مناسبٌ للمقام؛ إذ معناه: ما منَّا أحدٌ متَّصف بشيءٍ من الصفات إلَّا بصفة أن يكونَ له مقامٌ معلومٌ لا يتجاوزه، والمقصودُ بالحصر المبالغة، أو يقال: إنَّه صفةُ بدلٍ محذوف، أي: ما منا أحدٌ إلَّا أحدٌ له مقامٌ معلوم، كما قاله ابنُ مالكٍ في نظيره.

وفيه أنَّ فيه اعترافاً بأنَّ المقصودَ بالإفادة تلك الجملة، وهو يستلزم أَولويةَ كونِها خبراً، وما ذُكر من احتمال كونِه صفةً لبدلٍ محذوفٍ، فليس بشيء؛ لأنَّ فيه حذفَ المبدلِ والمبدلِ منه، ولا نظيرَ له.

وبالجملة ما ذكره أبو حيَّان أسلمُ من القيلِ والقال، نعم قيل: يجوز أن يقال: القصدُ هنا ليس إفادةَ مضمونِ الخبر، بل الردَّ على الكفرة؛ ولذا جُعِل الظرفُ خبراً وقدِّم، فالمعنى: ليس منا أحدٌ يتجاوز مقامَ العبوديةِ لغيرها بخلافكم أنتم، فقد صدر منكم ما أَخرجكم عن رتبة الطَّاعة. وفيه نظر.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ أنفسَنا أو أقدامَنا في الصلاة. وقال ناصرُ الدِّين: أي: في أداء الطاعةِ ومنازلِ الخدمة[(٢)].

وقيل: الصافُّون حولَ العرشِ ننتظر الأمرَ الإلهيّ. وفي «البحر»: داعين للمؤمنين[(٣)].

وقيل: صافُّون أجنحَتنا في الهواءِ منتظرين ما يؤمر.

---

(١) أي: الزمخشري.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٩١.

(٣) البحر ٧/ ٣٧٩.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ من طريق ابنِ جُريج عن الوليد بنِ عبد اللهِ بن [أبي] مغيثٍ قال: كانوا لا يصفُّون في الصلاةِ حتى نزلت ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾(١).

وأخرج مسلمٌ(٢) عن حذيفةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «فضِّلنا على الناسِ بثلاث: جُعلت صفوفُنا كصفوفِ الملائكة، وجُعلت لنا الأرضُ مسجداً، وجُعلت لنا تربتُها طَهوراً إذا لم نجد الماءَ».

وأخرج هو أيضاً وأبو داودَ والنَّسائيُّ وابنُ ماجه عن جابر بنِ سَمُرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ألَا تصفُّون كما تصفُّ الملائكةُ عند ربِّهم»(٣). وهذه الأخبارُ ونحوُها ترجِّح التفسيرَ الأوَّل.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾ أي: المنزِّهون اللهَ تعالى عمَّا لا يَليق به سبحانه، ويدخل فيه ما نسبه إليه تعالى الكَفَرة. وقيل: أي: القائلون: سبحانَ الله. وأخرج عَبد بن حُميد وغيرُه عن قتادةَ أنَّه قال: «المسبِّحون» أي: المصلُّون(٤). ويقتضيه ما رُوي عن ابن عباسٍ أنَّ كلَّ تسبيحٍ في القرآنِ بمعنى الصلاة. والظاهرُ ما تقدَّم. ولعل الأوَّل إشارةٌ إلى مزيد أدبِهم الظاهرِ مع ربِّهم عزَّ وجلَ، والثاني إشارةٌ إلى كمال عرفانِهم به سبحانه. وقال ناصرُ الدِّين: لعل الأولَ إشارةٌ إلى درجاتهم في الطَّاعة، وهذا في المعارف(٥).

وما في «إنَّ» واللامِ وتوسيطِ الفصلِ من التأكيدِ والاختصاص؛ لأنَّهم المواظبون على ذلك دائماً من غير فَتْرة، وخواصُّ البشرِ لا تخلو من الاشتغالِ بالمعاش، ولعل الكلامَ لا يخلو عن تعريضٍ بالكفرة.

والظاهرُ أنَّ الآياتِ الثلاث، أعني قولَه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ إلى هنا نزلت

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٩٣، وما بين حاصرتين منه، وهو الصواب.
(٢) في صحيحه (٥٢٢).
(٣) صحيح مسلم (٤٣٠)، وسنن أبي داود (٦٦١)، والنسائي ٢/ ٩٢، وابن ماجه (٩٩٢).
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٩٥.
(٥) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٩١، ويعني بالأول كونهم صافين أنفسهم أو أقدامهم في أداء الطاعة ومنازل الخدمة.

كما نزلت أَخواتُها. وعن هبة اللهِ المفسِّرِ[1] أنَّها نزلت لا في الأرضِ ولا في السماء، وعدَّ معها آيتين من آخر سورةِ البقرةِ وآيةً من «الزُّخرف»: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية [٤٥]. قال ابنُ العربي: ولعلَّه أراد: في الفضاءِ بين السماءِ والأرض. وقال الجلالُ السُّيوطي[2]: لم أَقف على مستندٍ لما ذكره إلَّا آخرَ «البقرة»، فيمكن أن يستدلَّ له بما أخرجه مسلمٌ[3] عن ابنِ مسعود: لمَّا أُسري برسول اللهِ ﷺ، انتهى إلى سِدرة المنتهى.. الحديثَ، وفيه: فأُعطي الصلواتِ الخمس، وأُعطي خواتيمَ سورةِ البقرة، وغُفر لمن لا يُشرك من أمَّته بالله شيئاً المُقْحِمات[4]. انتهى فلا تغفُل.

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ «إنْ» هي المخفَّفة، واللامُ هي الفارقة، والضميرُ لكفَّار قريش، كانوا يقولون قبل مبعثِ النبيِّ ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: كتاباً من جنس الكتبِ التي نزلت عليهم ومثلَها في كونه من عند اللهِ تعالى ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ لأَخلصنا العبادةَ له تعالى ولكنَّا أَهدى منهم.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ فصيحة، مثلُها في قوله تعالى: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: فجاءهم ذِكرٌ وأيُّ ذِكر، سيِّدُ الأذكار، وكتابٌ مهيمنٌ على سائر الكتبِ والأخبار، فكفروا به ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ أي: عاقبةَ كفرِهم وما يحلُّ بهم من الانتقام.

وقيل: أُريد بالذِّكر العلم، أي: لو أنَّ عندنا علماً من الذين تقدَّمونا وما فعل اللهُ تعالى بهم بعد أن ماتوا هل أثابهم أم عذَّبهم، لأَخلصنا العبادةَ له تعالى، فجاءهم ذلك في القرآن العظيمِ فكفروا به. ولا يخفى بُعدُه.

---

(١) هو أبو القاسم هبة الله بن سلامة البغدادي الضرير، كان من أحفظ الناس لتفسير القرآن، له كتاب الناسخ والمنسوخ. توفي ببغداد سنة (٤١٠هـ). تاريخ بغداد ١٤/ ٧٠، وغاية النهاية ٢/ ٣٥١.

(٢) في الإتقان ١/ ٧٤.

(٣) في صحيحه (١٧٣).

(٤) أي: الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها وتوردهم النار وتقحمهم إياها. شرح النووي ٣/ ٣.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ استئنافٌ مقرِّر للوعيد، وتصديرُه بالقَسَم لغاية الاعتناءِ بتحقيق مضمونِه، أي: وبالله لقد سبق وعدُنا لهم بالنُّصرة والغلبة، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ فيكون تفسيراً، أو بدلاً من «كلمتنا»، وجوِّز أن يكونَ مستأنفاً، والوعدُ ما في محلٍّ آخَرَ من قوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] والأوَّل أظهر.

والمرادُ بالجند أتباعُ المرسلين، وأضافهم إليه تعالى تشريفاً لهم وتنويهاً بهم. وقال بعضُ الأجِلَّة: هو تعميمٌ بعد تخصيص، وفيه من التأكيدِ ما فيه.

والمرادُ عند السدِّي بالنُّصرة والغَلَبة ما كان بالحجَّة.

وقال الحسنُ: المراد: النصرةُ والغلبةُ في الحرب، فإنَّه لم يقتل نبيٌّ من الأنبياء في الحرب، وإنَّما قُتل مَن قُتل منهم غِيلة، أو على وجهٍ آخَرَ في غير الحرب، وإن مات نبيٌّ قبل النصرةِ أو قتل، فقد أجرى اللهُ تعالى أن ينصرَ قومَه من بعده، فيكون في نُصرة قومِه نصرةٌ له.

وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ القصرين[1] باعتبار عاقبةِ الحالِ وملاحظةِ المآل.

وقال ناصرُ الدِّين: هما باعتبار الغالبِ والمقضيِّ بالذات[2]؛ لأنَّ الخيرَ هو مرادُه تعالى بالذات، وغيرُه مقضيٌّ بالتَّبع لحكمةٍ وغرضٍ آخر، أو للاستحقاقِ بما صدر من العباد؛ ولذا قيل: بيده الخير، ولم يذكر الشرّ، مع أنَّ الكلَّ من عنده عزَّ وجلّ.

وعن ابن عباسٍ ﵄: إنْ لم يُنصَروا في الدنيا نُصروا في الآخرة. وظاهرُ السِّياق يقتضي أنَّ ذلك في الدنيا، وأنَّه بطريق القهرِ والاستيلاء، والنيلِ من الأعداء، إمَّا بقتلهم، أو تشريدِهم، أو إجلائهم عن أوطانهم، أو استئسارِهم، أو نحوِ ذلك.

والجملتان دالَّتان على الثَّبات والاستمرار، فلا بدَّ من أن يقال: إنَّ استمرارَ ذلك عرفيّ. وقيل: هو على ظاهره، واستمرارُ الغلبةِ للجند مشروطٌ بما تُشعر به

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعلها: النصرين.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٩٢، وما بعده من كلام الشهاب.

الإضافة، فلا يُغلب أتباعُ المرسلين في حربٍ إلَّا لإخلالهم بما تُشعر به، بميلٍ ما إلى الدنيا، أو ضعفِ التوكُّل عليه تعالى، أو نحوِ ذلك. ويكفي في نُصرة المرسلين إعلاءُ كلمتهم، وتعجيزُ الخلقِ عن معارضتهم، وحفظُهم من القتل في الحروب، ومن الفرارِ فيها ولو عَظُمت هنالك الكروب، فافهم.

ولا يخفَى وجهُ التعبير بـ «منصورون» مع المرسَلين، وبـ «الغالبون» مع الجند، فلا تغفُل.

وسمَّى الله عزَّ وجلَّ وعدَه بذلك كلمةً وهي كلمات؛ لأنَّها لمَّا اجتمعت وتضامَّت وارتبطت غايةَ الارتباط، صارت في حكم شيءٍ واحد، فيكون ذلك من باب الاستعارة. والمشهورُ أنَّ إطلاقَ الكلمةِ على الكلام مجازٌ مرسلٌ من إطلاق الجزءِ على الكلّ. وقال بعضُ العلماء: إنَّه حقيقةٌ لغوية، واختصاصُ الكلمةِ بالمفرد اصطلاحٌ لأهل العربية، فعليه لا يُحتاج إلى التأويل.

وقرأ الضحَّاك: «كَلِماتُنا» بالجمع[1]. ويجوز أن يرادَ عليها: وُعودُنا، فتفطَّن. وفي قراءة ابنِ مسعود: «على عبادِنا»[2] على تضمين «سَبَقَتْ» معنى حقَّت.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم واصبر ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ إلى وقت انتهاءِ مدَّة الكفِّ عن القتال. وعن السُّدِّي: إلى يومِ بدر. ورجَّحه الطبري[3]. وقيل: إلى يومِ الفتح، وكان قبله مهادنةُ الحديبية.

وأخرج ابن جَريرٍ[4] وغيرُه عن قتادةَ أنَّه قال: إلى يوم موتِهم. وحكاه الطبرسيُّ[5] عن ابن عباسٍ أيضاً. وقال ابنُ زيد: إلى يومِ القيامة. وهو والذي قبلَه ظاهران في عدم اختصاصِ النُّصرةِ بما كان في الدنيا.

(١) البحر ٧/ ٣٨٠.
(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٥.
(٣) في تفسيره ١٩/ ٦٥٩.
(٤) في تفسيره ١٩/ ٦٥٨.
(٥) في مجمع البيان ٢٣/ ٩١.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ وهم حينئذٍ على أسوأ حالٍ وأفظعِ نكال، قد حلَّ بهم ما حلَّ من الأسر والقتل. أو: أَبصِرْ بلاءهم، على أنَّ الكلامَ على حذفِ مضاف، والأمرُ بمشاهدة ذلك وهو غيرُ واقعٍ للدَّلالة على أنَّه لشدَّة قربِه كأنه حاضرٌ قدَّامه وبين يديه مشاهَدٌ، خصوصاً إذا قيل: إنَّ الأمرَ للحال أو الفور.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ ما يكون لك من التأييدِ والنصر. وقيل: المعنى: أبصِر ما يكون عليهم يومَ القيامةِ من العذاب، فسوف يُبصرون ما يكون لك من مزيدِ الثَّواب. و«سوف» للوعيد لا للتسويف والتبعيدِ الذي هو حقيقتُها، وقُربُ ما حلَّ بهم مستلزمٌ لقُرب ما يكون له عليه الصلاة والسلام، فهو قرينةٌ على عدم إرادة التبعيدِ منه.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ استفهامُ توبيخ. أخرج جُويبر عن ابن عباسٍ قال: قالوا: يا محمد، أَرِنا العذابَ الذي تخوِّفنا به وعجِّله لنا، فنزلت.

ورُوي أنَّه لمَّا نزل: «فسوف يبصرون» قالوا: متى هذا؟ فنزلت.

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ أي: العذابُ الموعودُ ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾[(١)] وهي العَرْصة الواسعة عند الدور، والمكان الواسع مطلقاً، وتجمع على سُوح، قال الشاعر:

فكان سِيَّانَ ألَّا يَسرحوا نَعَماً ... أو يَسرحوه بها واغبرَّت السُّوحُ[(٢)]

وفي الضمير استعارةٌ مكنية، شبَّه العذابُ بجيشٍ يهجم على قومٍ وهم في ديارهم بغتةً فيحلُّ بها، والنزولُ تخييل.

وقرأ ابنُ مسعود: «نُزِل» بالتخفيف والبناءِ للمجهول[(٣)]، وهو لازم، فالجارُّ والمجرورُ نائبُ الفاعل. وقُرئ: «نُزِّل» بالتشديد والبناءِ للمجهول أيضاً[(٤)]، وهو متعدٍّ، فنائبُ الفاعلِ ضميرُ العذاب.

---

(١) جاء في هامش الأصل: قال الفراء: العرب تقول: نزل بساحتهم ويريدون نزل بهم، فلا تغفل. اهـ منه.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، انظر ديوان الهذليين ١/ ١٠٧، والخزانة ٤/ ٨٩ و٥/ ١٣٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٩، والبحر ٧/ ٣٨٠.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٥٧، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٩٢.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾ أي: فبئس صباحُ المنذَرين صباحُهم، على أنَّ ساء بمعنى بئس، وبها قرأ عبدُ الله[1]، والمخصوصُ بالذمِّ محذوف، واللامُ في «المنذَرين» للجِنس لا للعهد؛ لاشتراطهم الشيوعَ فيما بعدَ فِعلَي الذمِّ والمدح، ليكونَ التفسيرُ بعد الإبهام، والتفصيلُ بعد الإجمال، ولو كان ساء بمعنى قَبُحَ على أصله، جاز اعتبارُ العهدِ من غير تقدير.

والصباحُ مستعارٌ لوقت نزولِ العذاب ـ أيَّ وقتٍ كان ـ من صباح الجيشِ المبيِّت للعدو، وهو السائرُ إليه ليلاً ليهجمَ عليه وهو في غفلته صباحاً، وكثيراً ما يسمُّون الغارةَ صباحاً؛ لِمَا أنَّها في الأعمِّ الأغلبِ تقع فيه، وهو مجازٌ مرسل أُطلق فيه الزمانُ وأُريد ما وقع فيه، كما يقال: أيَّام العرب، لوقائعهم. وجوِّز حملُ الصباحِ هنا على ذلك.

وفي «الكشَّاف»[2]: مثَّل العذابَ النازلَ بهم بعد ما أُنذروه فأنكروه بجيشٍ أنذر بهجومه قوماً بعضُ نصَّاحهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أَخذوا أُهبتَهم، ولا دبَّروا أمرَهم تدبيراً ينجيهم، حتى أناخ بفِنائهم بغتة، فشنَّ عليهم الغارةَ وقطع دابرَهم، وكانت عادةُ مغاويرِهم إصباحاً، فسمِّيت الغارةُ صباحاً وإنْ وقعت في وقتٍ آخرَ. وما فَصُحَت هذه الآيةُ ولا كانت لها الروعةُ التي يُحَسُّ بها ويروقك موردُها على نفسك وطبعِك إلَّا لمجيئها على طريقةِ التمثيل. انتهى.

وظاهرُه أنَّ الكلامَ على الاستعارة التمثيلية، وفضلُها على غيرها أشهرُ من أن يذكر، وأجلُّ من أن يُنكَر.

وقيل: ضمير «نزل» للنبيِّ ﷺ، ويراد حينئذٍ نزولُه يومَ الفتحِ لا يومَ بدر؛ لأنَّه ليس بساحتهم إلَّا على تأويل، ولا بخيبر؛ لقوله ﷺ حين صبَّحها: «اللهُ أكبر، خَرِبت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساءَ صباحُ المنذرين»[3] لأنَّ تلاوتَه عليه

---

(١) البحر ٧/ ٣٨٠.
(٢) ٣/ ٣٥٧.
(٣) أخرجه البخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥) من حديث أنس ﷺ مطولاً.

الصلاة والسلام ثمَّت لاستشهاده بها، والكلامُ هنا مع المشركين. ولا يخفى بُعد رجوعِ الضميرِ إليه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ إثر تسلية، وتأكيدٌ لوقوع الميعادِ غِبَّ تأكيد، مع ما في إطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان - ظاهراً - بأنَّ ما يُبصره عليه الصلاة والسلام حينئذٍ من فنون المسارّ، وما يُبصرونه من فنون المضارّ، لا يحيط به الوصفُ والبيان. وجوِّز أن يرادَ بما تقدَّم عذابُ الدنيا، وبهذا عذابُ الآخرة.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ تنزيهٌ لله تعالى شأنُه عن كلِّ ما يصفه المشركون به، ممَّا لا يليقُ بجناب كبريائه وجبروته مما حُكي عنهم في السُّورة الكريمة، وما لم يحكَ من الأمور التي من جملتها تركُ إنجاز الموعودِ على موجَب كلمتِه تعالى السابقة، لاسيَّما في حقِّ الرسولِ ﷺ، كما ينبئُ عنه التعرُّض لعنوان الرُّبوبيةِ المعرِبة عن التربية والتكميلِ والمالكيةِ الكلِّية، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أوَّلاً وإلى العزَّة ثانياً، كأنه قيل: سبحان مَن هو مربِّيك ومكمِّلك، ومالكُ العزةِ والغلبةِ على الإطلاق، عمَّا يصفه المشركون به من الأشياءِ التي منها تركُ نصرتِك عليهم، كما يدلُّ عليه استعجالُهم بالعذاب.

ومعنى ملكِه تعالى العزَّةَ على الإطلاق، أنَّه ما من عزَّةٍ لأحدٍ من الملوك وغيرِهم إلَّا وهو عزَّ وجلَّ مالكُها. وقال الزمخشريّ[1]: أُضيف الربُّ إلى العزَّة لاختصاصه تعالى بها، كأنَّه قيل: ذو العزَّة، كما تقول: صاحبُ صِدق؛ لاختصاصه بالصِّدق. ثم ذَكَرَ جوازَ إرادةِ المعنى الذي ذكرناه. والفرقُ أنَّ الإضافةَ على ما ذكرنا على أنَّه سبحانه المعِزّ، وعلى الآخَر على أنَّه عزَّ وجلَّ العزيزُ بنفسه. ولكلٍّ وجهٌ من المبالغة خلا عنه الآخَر.

وقولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ تشريفٌ للرُّسل كلِّهم بعد تنزيهِه تعالى عمَّا ذكر، وتنويهٌ بشأنهم، وإيذانٌ بأنهم سالمون عن كلِّ المكاره، فائزون بكلِّ المآرب.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٥٧-٣٥٨.

وقولُه سبحانه: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ إشارةٌ إلى وصفه تعالى بصفاته الكريمةِ الثبوتية، بعد التنبيهِ على اتِّصافه عزَّ وجلَّ بجميع صفاتِه السلبية، وإيذانٌ باستتباعها للأفعال الحميدة، التي من جُملتها إفاضتهُ تعالى على المرسَلين من فنون الكراماتِ السَّنية، والكمالاتِ الدِّينية والدُّنيوية، وإسباغُه جلَّ وعلا عليهم وعلى مَن تبعهم من صنوف النَّعماءِ الظاهرةِ والباطنةِ الموجبةِ لحمده تعالى، وإشعارٌ بأنَّ ما وُعده عليه السلام من النُّصرة والغلبةِ قد تحقَّق. والمرادُ تنبيهُ المؤمنين على كيفية تسبيحِه سبحانه وتحميدِه، والتسليمِ على رسله عليهم السلام، الذين هم وسائطُ بينه تعالى وبينهم في فيضان الكمالاتِ مطلقاً عليهم. وهو ظاهرٌ في عدم كراهةِ إفراد السلامِ عليهم.

ولعل توسيطَ التسليمِ على المرسلين بين تسبيحِه تعالى وتحميدِه؛ لختم السورةِ الكريمةِ بحمده تعالى، مع ما فيه من الإشعار بأنَّ توفيقَه تعالى للتسليم من جملة نِعَمِه تعالى الموجبةِ للحمد، كذا في «إرشاد العقل السليم»[(١)].

وقد يقال: تقديمُ التنزيهِ لأهمِّيته ذاتاً ومقاماً. ولمَّا كان التنزيهُ عما يصف المشركون، وقد ذكر عزَّ وجلَّ إرشادَ الرُّسلِ إياهم وتحذيرَهم لهم من أن يصفوه سبحانه بما لا يَليق به تعالى، وضمَّن ذلك الإشارةَ إلى سوءِ حالهم وفظاعةِ منقلَبهم = أردف جلَّ وعلا ذلك بالإشارة إلى حُسن حالِ المرسَلين الداعين إلى تنزيهه تعالى عمَّا يصفه به المشركون. وفيه من الاهتمام بأمر التنزيهِ ما فيه. وأتى عزَّ وجلَّ بالحمد للإشارة إلى أنَّه سبحانه متصفٌ بالصِّفات الثُّبوتية، كما أنَّه سبحانه متصفٌ بالصِّفات السلبية، وهذا وإن استدعى إيقاعَ الحمدِ بعد التسبيحِ بلا فصل، كما في قولهم: سبحانَ اللهِ والحمدُ لله، وهو المذكورُ في الأخبار، والمشهورُ في الأذكار، إلَّا أنَّ الفصلَ بينهما هنا بالسلام على المرسَلين ممَّا اقتضاه مقامُ ذِكرِهم فيما مرّ، وجدَّد الالتفاتَ إليهم تقديمُ التنزيهِ عمَّا يصفه به مَن يرسلون إليه.

ولعل مَن يدقِّق النظرَ يرى أنَّ السلامَ هنا أهمُّ من الحمد نظراً للمقام، وإن كان هو أهمَّ منه ذاتاً، والأهميةُ بالنظر للمقام أَوْلى بالاعتبار عندهم؛ ولذا تراهم

---

(١) ٧/ ٢١٢.

يقدِّمون المفضولَ على الفاضل إذا اقتضى المقامُ الاعتناءَ به، ولعله من تتمّة جملةِ التسبيح، وبهذا ينحلُّ ما يقال من أنَّ حمدَه تعالى أجلُّ من السلام على الرُّسل عليهم السلام، فكان ينبغي تقديمُه عليه على ما هو المنهجُ المعروفُ في الكتب والخطب، ولا يحتاج إلى ما قيل: إنَّ المرادَ بالحمد هنا الشكرُ على النِّعم، وهي الباعثةُ عليه، ومن أجلِّها إرسال الرُّسلِ الذي هو وسيلةٌ لخيرَي الدارين، فقدِّم عليه لأنَّ الباعثَ على الشيءِ يتقدَّم عليه في الوجود وإنْ كان هو متقدِّماً على الباعث في الرُّتبة، فتدبَّر.

وهذه الآيةُ من الجوامعِ والكوامل، ووقوعُها في موقعها هذا ينادي بلسانٍ ذَلِقٍ أنه كلامُ مَن له الكبرياء، ومنه العزَّة جلَّ جلالُه وعمَّ نوالُه. وقد أَخرج الخطيبُ[1] عن أبي سعيدٍ قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يقول بعد أن يسلِّم: «سبحانَ ربِّك ربِّ العزَّةِ عمَّا يصفون، وسلامٌ على المرسَلين، والحمدُ لله ربِّ العالمين».

وأَخرج الطبرانيُّ عن زيد بنِ أَرقمَ عن رسول اللهِ ﷺ قال: «مَن قال دُبُرَ كلِّ صلاة: سبحانَ ربِّك ربِّ العزَّة عمَّا يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمدُ لله ربِّ العالمين. ثلاثَ مرَّات، فقد اكتال بالمكيال الأَوفَى من الأجر»[2].

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن الشعبيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن يكتالَ بالمكيال الأَوفى من الأَجر يومَ القيامة، فليقل آخرَ مجلسِه حين يريدُ أن يقوم: سبحانَ ربِّك ربِّ العزَّة» إلى آخر السورة. وأخرجه البغويُّ من وجهٍ آخَرَ متصلٍ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه موقوفاً[3].

وجاء في ختم المجلسِ بالتسبيح غيرُ هذا، ولعله أصحُّ منه؛ فقد أَخرج أبو داودَ

(١) في تاريخ بغداد ١٣/ ١٣٨، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (١١١٨)، وفي إسناده أبو هارون العبدي عمارة بن جوين، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك، ومنهم مَن كذَّبه.

(٢) المعجم الكبير (٥١٢٤) قال في المجمع ١٠/ ١٠٣: فيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف جدًّا.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٦، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٣١٩٦). وفي إسناده الأصبغ بن نباته، وهو متروك.

عن ابن عمرو[١] رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «كلماتٌ لا يتكلَّم بهنَّ أحدٌ في مجلسه عند قيامِه ثلاثَ مرَّاتٍ إلَّا كفِّر بهنَّ عنه، ولا يقولهنَّ في مجلس خيرٍ وذِكرٍ إلَّا خُتم له بهنَّ عليه كما يُختم بخاتَم على الصحيفة: سبحانكَ اللهمَّ وبحمدك، لا إلهَ إلَّا أنت، أَستغفركَ وأتوبُ إليكَ»[٢] لكنَّ المشهورَ اليومَ بين الناسِ أنَّهم يقرؤون عند ختمِ مجلسِ القراءةِ أو الذِّكر أو نحوهِما الآيةَ المذكورة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآياتِ ما قالوا: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ هي الأرواحُ الكاملةُ المكمِّلة من الصفِّ الأوَّل وهو صفُّ الأنبياءِ عليهم السلام، والصفِّ الثاني وهو صفُّ الأصفياءِ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ عن الكفر والفسوقِ بالحُجَج والنصائحِ والهِمم القدسية ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ آياتِ اللهِ تعالى وشرائعَه عزَّ وجلّ.

وقيل: الصافَّات: جماعةُ الملائكةِ المهيمين، والزَّاجرات: جماعةُ الملائكةِ الزَّاجرين للأجرام العلويةِ والأجسامِ السُّفلية بالتدبير، والتاليات: جماعةُ الملائكةِ التاليةِ آياتِ الله تعالى وجلايا قُدسِه على أنبيائه وأوليائه.

وتنزُّلُ الملائكةِ على الأولياء ممَّا قال به الصوفيةُ قدَّس اللهُ تعالى أسرارَهم، وقد نطق بأصل التنزُّلِ عليهم قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقد يطلقون على بعض الأولياء أنبياء الأولياء، قال الشعراويُّ في رسالة «الفتح في تأويل ما صدر عن الكُمَّل من الشَّطح»: أنبياءُ الأولياءِ هم كلُّ وليٍّ أقامه الحقُّ تعالى في تجلٍّ من مظهر تجلِّياته، وأقام له مظهرَ محمدٍ ﷺ ومظهرَ جبريلَ عليه السلام، فأَسمعه ذلك المظهرُ الروحانيُّ خطابَ الأحكامِ المشروعةِ لمظهر

(١) في الأصل و(م): عمر، والمثبت هو الصواب.
(٢) سنن أبي داود (٤٨٥٧)، وله شواهد تنظر في حاشية مسند أحمد عند الحديث (١٥٧٢٩).

محمدٍ ﷺ، حتى إذا فرغ من خطابه وفُزِّع عن قلب هذا الوليّ، عَقَلَ صاحبُ هذا المشهدِ جميعَ ما تضمَّنه ذلك الخطابُ من الأحكام المشروعةِ الظاهرةِ في هذه الأمَّة المحمدية، فيأخذها هذا الوليُّ كما أخذها المظهرُ المحمدي، فيردُّ إلى حسِّه وقد وعى ما خاطب الروحُ به مظهرَ محمدٍ ﷺ وعلم صحَّتَه علمَ يقين، بل عينَ يقين، فمثلُ هذا يعمل بما شاءَ من الأحاديث، لا التفاتَ له إلى تصحيح غيرِه أو تضعيفِه، فقد يكون ما قال بعضُ المحدِّثين بأنَّه صحيحٌ لم يقلْه النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وقد يكون ما قالوا فيه: إنَّه ضعيف، سمعه هذا الوليُّ من الرُّوح الأمينِ يلقيه على حقيقة محمدٍ ﷺ، كما سمع بعضُ الصحابةِ حديثَ جبريلَ في بيان الإسلام والإيمانِ والإحسان، فهؤلاء هم أنبياءُ الأولياء، ولا ينفردون قطُّ بشريعة، ولا يكون لهم خطابٌ بها إلَّا بتعريف أنَّ هذا هو شرعُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، أو يشاهدون المنزلَ على رسوله ﷺ في حضرة التمثُّل الخارجِ عن ذاتهم والداخلِ المعبَّر عنه بالمبشِّرات في حقِّ النائم، غيرَ أنَّ الوليَّ يشترك مع النبيِّ في إدراك ما تدركه العامَّةُ في النوم في حالِ اليقظة، فهؤلاء في هذه الأمةِ كالأنبياءِ في بني إسرائيل، على مرتبة تعبُّد هارونَ بشريعة موسى مع كونِه نبياً، وهم الذين يحفظون الشريعةَ الصحيحةَ التي لا شكَّ فيها على أنفسهم وعلى هذه الأمَّة، فهم أعلمُ الناسِ بالشرع، غير أنَّ غالبَ علماءِ الشريعةِ لا يسلِّمون لهم ذلك، وهم لا يلزمهم إقامةُ الدليلِ على صدقهم؛ لأنَّهم ليسوا مشرِّعين، فهم حفَّاظ الحالِ النبويِّ والعلمِ اللَّدُنِّي والسرِّ الإلهي، وغيرُهم حفَّاظُ الأحكامِ الظاهرة. وقد بسطنا الكلامَ على ذلك في «الميزان». اهـ.

وقال بُعيدَ هذا في رسالته المذكورة: إعلم أنَّ بعضَ العلماءِ أنكروا نزولَ المَلَك على قلب غيرِ النبيِّ ﷺ لعدم ذوقِه له، والحقُّ أنه ينزل ولكن بشريعة نبيِّه ﷺ، فالخلافُ إنمَّا ينبغي أن يكونَ فيما ينزل به الملكُ لا في نزول المَلَك، وإذا نزل على غير نبيٍّ لا يظهر له حالَ الكلامِ أبداً، إنمَّا يسمع كلامَه ولا يرى شخصَه، أو يرى شخصَه من غير كلام، فلا يجمع بين الكلامِ والرؤيةِ إلَّا نبيّ، والسلام. اهـ. وقد تقدَّم لك طرفٌ من الكلام في رؤية المَلَك، فتذكَّر.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ إخبارٌ بذلك ليعلموه ولا يتَّخذوا من دونه تعالى آلهةً من الدنيا والهوى والشَّيطان. ومعنى كونِه عزَّ وجلَّ واحداً تفرُّده في الذات والصفاتِ والأفعال، وعدمُ شركةِ أحدٍ معه سبحانه في شيءٍ من الأشياء، وطبَّقوا أكثرَ الآياتِ بعدُ على ما في الأنفس.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾: فيه إشارةٌ إلى أنَّ للسالك في كلِّ مقام وقفةً تناسب ذلك المقام، وهو مسؤولٌ عن أداءِ حقوقِ ذلك المقام، فإن خرج عن عُهدة جوابِه أُذن له بالعبور، وإلَّا بقي موقوفاً رهيناً بأحواله إلى أن يؤدِّيَ حقوقَه. وكذا طبَّقوا ما جاء من قصصِ المرسَلين بعدُ على ما في الأنفس.

وقيل في قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾: يشير إلى أنَّ المَلَكَ لا يتعدَّى مقامَه إلى ما فوقه، ولا يهبط عنه إلى ما دونه، وهذا بخلاف نوعِ الإنسان، فإنَّ من أَفراده مَن سار إلى مقامِ «قابَ قوسين» بل طار إلى منزل «أو أدنى» وجرَّ هناك مطارفَ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ومنها مَن هوى إلى أسفلِ سافلين، وانحطَّ إلى قعر سِجِّين ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وقد ذكروا أنَّ الإنسان قد يترقَّى حتى يصلَ إلى مقام المَلَك، فيعْبُره إلى مقام قربِ النوافل، ومقامِ قربِ الفرائض، وقد يهبط إلى درك البهيميةِ فما دونَها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

نسأل اللهَ تعالى أن يرقِّيَنا إلى مقامِ يرضاه، ويرزقَنا رضاه يومَ لِقاه، وأن يجعلَنا من جُنده الغالبين، وعباده المخلَصين، بحرمة سيِّد المرسَلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبِه أجمعين، وسلامٌ على المرسَلين، والحمد لله ربِّ العالمين.

(٣٨) سُورَةُ ص مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ

سورة « صۤ » من السور المكية التي نزلت قبل هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهدفُها نفسُ هدف السور المكية من ترسخ العقيدة ، والدعوة إلى وحدانية الله ، والإيمانِ بالبعثِ والجزاء ، والتصديقِ بالوحي والرسالة ، والمحورُ الذي تدور عليه السورة الكريمة هو إثباتُ صدقِ القرآن ، وصحةِ رسالة محمد عليه الصلاة والسلام التي كابر فيها المشركون من كفار مكة .

تبتدىء السورة الكريمة بالقسم بحرفٍ من حروف الهجاء المؤلف منه هذا الكتاب المعجز ، المنزّل على النبي الأمي ، الذي تحدَّى الله به الخلائق أجمعين ﴿صۤ . والقرآن ذي الذكر﴾ أي والقرآنِ المجيد المشتمل على المواعظ البليغة ، والأخبارِ العجيبة كما يشتمل على التشريع والقَصَص والتهذيب ، والجوابُ محذوفٌ لدلالة السياق عليه تقديره : إن هذا القرآن لحقٌّ ، وإن محمداً لصادق . ولقد بالغ المشركون في المكابرة والعناد ، واستبعدوا أن يتنزل الوحيُ على رجلٍ فقير ، هو يتيم أبي طالب فأنكروا الوحي وكذبوا الرسول ﴿وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً ؟ إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب . وانطلق الملأ منهم أنْ امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يراد﴾ ولفظُ « عُجاب » يدل على المبالغة في العَجَب ، ويوحي بشدة العَجَب وكثرته وضخامته .. روي أن قريشاً

اجتمعوا وجاءوا إلى «أبي طالب» فقالوا له: إنَّ ابن أخيك يعيب ديننا، ويسبُّ آلهتنا، ويُسَفِّه أحلامنا، فلو بعثتَ إليه فنهيتَه وكففتَه عنّا، فبعث إليه فلما جاءه رسول الله ﷺ قال: يا ابنَ أخي، ما بالُ قومك يشكونك! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتسفِّهُ أحلامهم! فقال يا عم: أريد كلمةً واحدة يقولونها؛ تدين لهم بها العرب، وتؤدي لهم بها العَجَم الجزية، فقال أبو جهل: كلمةً واحدة؟ نَعَم وأبيك نعطيكَها وعشرَ كلماتٍ معها! ! قلْ ما هذه الكلمة؟ فقال ﷺ قولوا: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون ﴿أجعلَ الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيءٌ عُجاب﴾ وتنتقل السورة لتضرب الأمثال لأولئك المتكبرين المتجبرين من كفار قريش، بمن سبقهم من الأمم العاتية التي كذبت رسل الله على مدار القرون، وما حلَّ بهم من هلاكٍ ودمار ﴿كذبت قبلَهم قومُ نوح، وعادٌ وفرعونُ ذو الأوتاد. وثمودُ وقومُ لوطٍ وأصحاب الأيكة، أولئك الأحزاب. إنْ كلٌّ إلاّ كذَّب الرسُلَ فحقَّ عقاب. وما ينظر هؤلاء إلا صيحةً واحدة ما لها من فواق﴾ وتذكُرُ السورة قَصَص بعض الأنبياء تسليةً لرسول الله عليه الصلاة والسَّلام، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه، فتتحدث عن نبي الله «داود» وولده سليمان الذي جمع الله له بين «النبوة» و «المُلْك» وسخَّر له الإنس والجن، والريح والشياطين، وتذكر ما نال كلاً منهما من الفتنة والابتلاء، وتأمر الرسول بالصبر على ما ناله من أذى قريش ﴿إصبْر على ما يقولون، واذكر عبدنا داود ذا الأيْد - أي ذا القوة في العبادةِ والطاعةِ والدين - إنه أواب. إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإبكار. والطيرَ محشورةً كلٌّ له أوّاب. وشددنا ملكَهُ وآتيناه الحكمةَ وفصلَ الخِطاب﴾ ومع هذا كله فقد تعرَّض داود للفتنة والابتلاء، وكانت عينُ الله ترعاه وتقود خُطاه، ويدُ الله تكشف

له ضعفَه وخطأه ، وتجنّبه خطر الطريق ليتوقاه ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوَّروا المحراب إذ دخلوا على داودَ ففزع منهم ، قالوا لا تخف خَصْمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تُشْطِطْ واهدنا إلى سواء الصراط﴾ وبيانُ هذه الفتنة أن « داود » عليه السلام خصّص بعضَ وقته للتصرف في شئون المُلْك ، وللقضاء بين الناس ، وخصَّص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحاً لله في المحراب ، وكان إذا دخلَ المحراب للعبادة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس ، وفي ذات يومٍ فوجيء بشخصين يتسوران المحراب ففزع منهم ، فما يتسور المحرابَ هكذا مؤمن ولا أمين ! فبادرا يطمئنانه ﴿قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض﴾ أي وجئنا للتقاضي أمامك ﴿فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشْطِط﴾ أي لا تَجُرْ ولا تظلم في الحكم ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ أي وأرشدنا إلى طريق الحق والعدل ، ثم بدأ أحدهما فعرض خصومته ﴿إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة ، وليَ نعجةٌ واحدة فقال أكْفلنيها وعزَّني في الخطاب﴾ أي اجعلها لي وفي ملكي وكفالتي ، وغلبني في الكلام والخصومة . والقضيةُ تحمل ظلماً صارخاً – كما عرضها أحد الخصمين – فاندفع داود يقضي على إثْرِ سماعه لتلك المَظْلَمة ، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً ، ولم يسمع له حجة ، ولكنه مضى يحكم ﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتِكَ إلى نعاجِهِ ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض﴾ وعند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان فقد كانا مَلَكَيْن جاء للامتحان ، امتحانِ النبي المَلِك ، الذي ولاّه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحقِّ والعدل ، وليتبينَّ الحقَّ قبل إصدار الحكِم ، وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخةٍ مثيرة ، ولكنَّ القاضي عليه ألا يُستَثار وألاَّ يتعجَّل قبل أن يسمع حجة الآخر ، عند هذا تنبَّه داود إلى أنه الابتلاء ﴿وظَنَّ

داود أنَّما فتنّاه فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب﴾ هذه خلاصة القصة كما عرضها القرآن ، أمَّا ما ذكره بعضُ المغرمين بالقِصَص الاسرائيلية فكذبٌ وبهتان ، حتى قال عليٌّ كرم الله وجهه «من حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاص جلدتُه مائةً وستين جلدة ، وذلك حدُّ الفِريةِ على من قذف نبياً من أنبياء الله» ثم تشير السورة الكريمة إلى هذا الكون المنظور ، وما فيه من بدائع الصنعة ، ودلائل القدرة والوحدانية ، وأنه لا بدَّ من حياةٍ بعد هذه الحياة ينال فيها الظالم جزاءه ، والمحسن ثوابه ﴿وما خلقنا السماء والأرضَ وما بينهما باطلاً ، ذلك ظنُّ الذين كفروا ، فويلٌ للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ كالمفسدين في الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟﴾ وتختم السورةَ الكريمة – بعد عرض قصة سليمان وأيوب ، وإسحق ويعقوب ، وإسماعيل وذي الكفل – ببيان وظيفة الرسول ﷺ ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين﴾

سورة صٓ

[٧٧٦] أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبي [ﷺ] فشكوه إلى أبي طالب فقال: يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال: «**أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزية كلمة واحدة**» قال ما هي؟ قال: «**لا إله إلا الله**» فقالوا: إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب فنزل فيهم: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾(١).

* * *

---

[٧٧٦] (١) سورة صٓ: الآية (١ ـ ٨).

سورة ص

ثمانون وثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الكلام المستقصى في أمثال هذه الفواتح مذكور في أول سورة البقرة ولا بأس بإعادة بعض الوجوه فالأول: أنه مفتاح أسماء الله تعالى التي أولها صاد، كقولنا صادق الوعد، صانع المصنوعات، صمد، والثاني: معناه صدق محمد في كل ما أخبر به عن الله، الثالث: معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧]، الرابع: معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن، فدل ذلك على أن القرآن معجز، الخامس: أن يكون صاد بكسر الدال من المصادة وهي المعارضة ومنها الصدى وهو ما يعارض صوتك في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة، ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه، السادس: أنه اسم السورة والتقدير هذه صاد، فإن قيل ههنا إشكالان أحدهما: أن قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قسم وأين المقسم عليه؟ والثاني: أن كلمة ﴿بَلِ﴾ تقتضي رفع حكم ثبت قبلها، وإثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق، فأين هذا المعنى ههنا؟ والجواب: عن الأول من وجوه الأول: أن يكون معنى صاد، بمعنى صدق محمد ﷺ، فيكون صاد هو المقسم عليه، وقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ هو القسم الثاني: أن يكون المقسم عليه محذوفًا، والتقدير سورة ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إنه لكلام معجز، لأنا بينا أن قوله ﴿صٓ﴾ تنبيه على التحدي، والثالث: أن يكون صاد اسمًا للسورة، ويكون التقدير هذه ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، ولما كان المشهور أن محمدًا عليه السلام يدعي في هذه السورة كونها معجزة، كان قوله هذه ﴿صٓ﴾ جاريًا مجرى قوله: هذه هي السورة المعجزة، ونظيره قولك هذا حاتم والله، أي هذا هو المشهور بالسخاء، والجواب عن السؤال الثاني: أن الحكم المذكور قبل كلمة ﴿بَلِ﴾ [1] أما ما ذكره المفسر كون محمد صادقًا في تبليغ

(١) الحكم الذي قبل كلمة (بل) هو وصف القرآن بأنه تذكير لهم بوجوب التوحيد والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر وكل ما تفيده كلمة ذي الذكر وهذا هو الحكم المتبادر من ظاهر الآية وبهذا يكون للإضراب ببل معنى ويجري الكلام على الأساليب العربية فهو قبيل الاستنتاج والاعتماد على ما جاء بعد (بل) من آيات والإضراب لا يكون عن حكم لم يذكر.

الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة ﴿بَلِ﴾ ههنا هو المنازعة والمشاقة في كونه كذلك فحصل المطلوب، والله أعلم.

المسألة الثانية: قرأ الحسن صاد بكسر الدال لأجل التقاء الساكنين، وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون وبحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم: الله لأفعلن، وأكثر القراء على الجزم لأن الأسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الأواخر.

المسألة الثالثة: في قوله ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ وجهان الأول: المراد ذي الشرف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] ومجاز هذا من قولهم: لفلان ذكر في الناس، كما يقولون: له صيت، الثاني: ذي البيانين أي فيه قصص الأولين، والآخرين، وفيه بيان العلوم الأصلية والفرعية ومجازه من قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢].

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة القرآن ذي الذكر والذكر محدث، بيان الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠] ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] وبيان الثاني: قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥] والجواب: أنا نصرف دليلكم إلى الحروف والأصوات وهي محدثة.

أما قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الإجماع على الحسد والكبر على الانقياد إلى الحق، والعزة ههنا التعظيم وما يعتقده الإنسان في نفسه من الأحوال التي تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] والشقاق هو إظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضلية عليه، وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه في شق وخصمه في شق، فيريد أن يكون في شقة نفسه ولا يجري عليه حكم خصمه، ومثله المعاداة وهو أن يكون أحدهما في عدوة والآخر في عدوة، وهي جانب الوادي، وكذلك المحادة أن يكون هذا في حد غير حد الآخر، ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلانًا أي صار منه على حرف وفي جانب غير جانبه، والله أعلم، ثم إنه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا﴾ والمعنى أنهم نادوا عند نزول العذاب في الدنيا ولم يذكر بأي شيء نادوا، وفيه وجوه:

الأول: وهو الأظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لأن نداء من نزل به العذاب ليس إلا بالاستغاثة.

الثاني: نادوا بالإيمان والتوبة عند معاينة العذاب.

الثالث: نادوا أي رفعوا أصواتهم، يقال: فلان أندى صوتًا من فلان أي أرفع صوتًا، ثم قال: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يعني ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [غافر: ٨٤] وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤] والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة، وكقوله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ [يونس: ٩١]، وقوله: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ [غافر: ٨٥].

بقي هاهنا أبحاث:

البحث الأول: في تحقيق الكلام في لفظ (لات) زعم الخليل وسيبويه أن لات هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد، وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة، منها أنها لا تدخل إلا على الأحيان، ومنها أن لا يبرز إلا أحد جزأيها، إما الاسم وإما الخبر ويمتنع بروزهما جميعًا، وقال الأخفش: إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء، وخصت بنفي الأحيان ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منصوب بها كأنك قلت: ولات حين مناص لهم، ويرتفع بالابتداء أي ولات حين مناص كائن لهم.

البحث الثاني: الجمهور يقفون على التاء من قوله: ﴿وَّلَاتَ﴾ والكسائي يقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة، قال صاحب (الكشاف): وأما قول أبي عبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له، واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط.

البحث الثالث: المناص المنجا والغوث، يقال ناصه إذا أغاثه، واستناص طلب المناص، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡهُمۡۖ﴾ وجهان الأول: أنهم قالوا: إن محمدًا مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة، فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والدرجات الرفيعة، والثاني: أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهالتهم، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب في الآخرة، والتنفير عن الدنيا، ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيدًا من الكذب والتهمة؛ وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه، ثم إن هؤلاء الأقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله، ونظيره قوله: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] فقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ ومعناه أن محمدًا كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساويًا لهم في الأسباب الدنيوية

فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة، وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وإنما لم يقل: وقالوا، بل قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إظهارًا للتعجب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام، فإن الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام، فإن الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذي يخبر عن الشيء لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الأشياء التي تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذابًا؟ ثم إنه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه في إثبات كونه كاذبًا وهي ثلاثة أشياء أحدها: ما يتعلق بالإلهيات، وثانيها: ما يتعلق بالنبوات، وثالثها: ما يتعلق بالمعاد، أما الشبهة المتعلقة بالإلهيات فهي قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ روي أنه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحًا شديدًا وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفسًا من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين فجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك، فقال ﷺ: ماذا يسألونني، قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك، فقال ﷺ: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطوني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم؟ قالوا: نعم، قال: تقولوا لا إله إلا الله، فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ (١).

أي بليغ في التعجب وأقول منشأ التعجب من وجهين الأول: هو أن القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا في الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفي قدرته وعلمه بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد، فقالوا: لا بد في حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر، الوجه الثاني: أن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين، وهذا الإنسان الواحد يكون محقًا صادقًا،

(١) حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٦٥) حديث رقم (٣٢٣٢)، وحسن حديثه. والنسائي في (سننه الكبرى) (٥/ ٢٣٥)، حديث رقم (٨٧٦٩)، وأيضًا (٦/ ٤٤٢)، حديث رقم (١١٤٣٦)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٢٧)، حديث رقم (٢٠٠٨)، وأبو يعلى في (مسنده) (٤/ ٤٥٥)، حديث رقم (٢٥٨٣)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٦٩)، حديث رقم (٣٦١٧)، وابن حبان في (صحيحه) (١٥/ ٧٩)، حديث رقم (٦٦٨٦)، جميعًا من طريق سفيان... به، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٣٦٢)، حديث رقم (٣٤١٩)، قال حدثنا حماد بن أسامة... به، والنسائي في (السنن الكبرى) (٦/ ٤٤٢)، حديث رقم (١١٤٣٧) من طريق أبي أسامة عن الأعمش... به.

وأقول: لعمري لو سلمنا إجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة، لكانت الشبهة الأولى لازمة، ولما توافقنا على فسادها علمنا أن إجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعًا، وإذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة في الذات وكلام المشبهة في الأفعال، أما المشبهة في الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود في الشاهد يجب أن يكون جسمًا ومختصًّا بحيز وجب في الغائب أن يكون كذلك، وأما المشبهة في الأفعال فهم المعتزلة الذين يقولون إن الأمر الفلاني قبيح منا، فوجب أن يكون قبيحًا من الله، فثبت بما ذكرنا أنه إن صح كلام هؤلاء المشبهة في الذات وفي الأفعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين، وحيث توافقنا على فسادها علمنا أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد. وأما الشبهة الثانية فلعمري لو كان التقليد حقًّا لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا أن التقليد باطل.

بقي هاهنا أبحاث:

البحث الأول: أن العجاب هو العجيب إلا أنه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ [نوح: ٢٢].

الثاني: قال صاحب (الكشاف): قرئ عجاب بالتخفيف والتشديد، فقال: والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ [نوح: ٢٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ قد ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين إذا حضروا في المجلس فإنه تمتلئ القلوب والعيون من مهابتهم وعظمتهم، قوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أي من قريش انطلقوا عن مجلس أبي طالب، بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: القراءة المشهورة (أَنِ امْشُوا) وقرأ ابن أبي عبلة امشوا بحذف أن، قال صاحب: (الكشاف) (أَنْ) بمعنى أي لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما يجري في المجلس المتقدم، فكان انطلاقهم مضمنًا معنى القول، وعن ابن عباس: وانطلق الملأ منهم يمشون.

البحث الثاني: معنى أن امشوا أنه قال بعضهم لبعض: امشوا واصبروا، فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد، إن هذا لشيء يراد، وفيه ثلاثة أوجه أحدها: ظهور دين محمد ﷺ ليس له سبب ظاهر يثبت أن تزايد ظهوره، ليس إلا لأن الله يريده، وما أراد الله كونه فلا دافع له، وثانيها: أن الأمر كشيء من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه، وثالثها: أن دينكم لشيء يراد أي يطلب ليؤخذ منكم، قال القفال: هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكأن معناها أنه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين، وإنما غرضه أن يستولى علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد.

ثم قال: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ والملة الآخرة هي ملة النصارى فقالوا: إن هذا التوحيد الذي أتى به محمد ﷺ ما سمعناه في دين النصارى، أو يكون المراد بالملة الآخرة ملة قريش التي أدركوا آباءهم عليها، ثم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ افتعال وكذب، وحاصل الكلام من هذا الوجه أنهم قالوا: نحن ما سمعنا عن أسلافنا القول بالتوحيد، فوجب أن يكون باطلاً، ولو كان القول بالتقليد حقًّا لكان كلام هؤلاء المشركين حقًّا، وحيث كان باطلاً علمنا أن القول بالتقليد باطل.

قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهي الشبهة المتعلقة بالنبوات وهي قولهم إن محمدًا لما كان مساويًا لغيره في الذات والصفات والخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة؟ وهو المراد من قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ فإنه استفهام على سبيل الإنكار، وحكى الله تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا مثل هذا القول فقالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] وحكى الله تعالى عن قوم محمد ﷺ أيضًا أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وتمام الكلام في تقرير هذه الشبهة: أنهم قالوا النبوة أشرف المراتب، فوجب أن لا تحصل إلا لأشرف الناس ومحمد ليس أشرف الناس، فوجب أن لا تحصل له النبوة، والمقدمتان الأوليان حقيقتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل، فإن مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هي النفسانية وأوسطها هي البدنية وأدونها هي الخارجية وهي المال والجاه، فالقوم عكسوا القضية وظنوا بأخس المراتب أشرافها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه، فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في أفكارهم، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ وفيه وجهان أحدهما: أن قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي من الدلائل التي لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لأن كل ما ذكروه من الشبهات فهي كلمات ضعيفة وأما الدلائل التي تدل بنفسها على صحة نبوته، فهي دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل في الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التي تمسكوا بها في إبطال النبوة، ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته، فحيث لم يعرفوا ذلك كان لأجل أنهم تركوا النظر والاستدلال، فأما قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ فموقعه من هذا الكلام أنه تعالى يقول: هؤلاء إنما تركوا النظر والاستدلال لأني لم أذقهم عذابي، ولو ذاقوه لم يقع منهم

إلا الإقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات، وثانيها: أن يكون المراد من قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ هو أن النبي ﷺ كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر، ثم إنهم أصروا على الكفر، ولم ينزل عليهم العذاب، فصار ذلك سببًا لشكهم في صدقه، وقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ معناه ما ذكرناه، وقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ معناه أن ذلك الشك إنما حصل بسبب عدم نزول العذاب.

والوجه الثاني: من الوجوه التي ذكرها الله تعالى في الجواب عن تلك الشبهة قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزًا أي كامل القدرة ووهابًا أي عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى، وإذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود، لم يتوقف كونه واهبًا لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنيًّا أو فقيرًا، ولم يختلف ذلك أيضًا بسبب أن أعداءه يحبونه أو يكرهونه.

والوجه الثالث: في الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايرًا للمراد من قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والأرض، فلما ذكرنا الخزائن أولاً على عمومها أردفها بذكر ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني أن هذه الأشياء أحد أنواع خزائن الله، فإذا كنتم عاجزين عن هذا القسم، فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى، فهذا ما أمكنني ذكره في الفرق بين الكلامين، أما قوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ فالمعنى أنهم إن ادعوا أن لهم ملك السموات والأرض فعند هذا يقال لهم: ارتقوا في الأسباب واصعدوا في المعارج التي يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي على من يختارون، واعلم أن حكماء الإسلام استدلوا بقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ على أن الأجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلي لأن الله تعالى سمى الفلكيات أسبابًا وذلك يدل على ما قلناه، والله أعلم، أما قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ ففيه مقامان من البحث أحدهما: في تفسير هذه الألفاظ، والثاني: في كيفية تعلقها بما قبلها أما المقام الأول: فقوله: ﴿جُندٌ﴾ مبتدأ وما للإيهام كقوله: جئت لأمر ما، وعندي طعام ما، و﴿مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ صفة لجند و﴿مَهْزُومٌ﴾ خبر المبتدأ وأما قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ فيجوز أن يكون صفة لجند أي جند ثابت هنالك، ويجوز أن يكون متعلقًا بمهزوم معناه أن الجند من الأحزاب مهزوم هنالك، أي في ذلك الموضع الذي كانوا يذكرون فيه هذه الكلمات الطاعنة في نبوة محمد ﷺ، وأما المقام الثاني: فهو أنه تعالى لما

قال: إن كانوا يملكون السموات والأرض فليرتقوا في الأسباب، ذكر عقيبه أنهم جند من الأحزاب منهزمون ضعيفون، فكيف يكونون مالكي السموات والأرض وما بينهما، قال قتادة: هنالك إشارة إلى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر، وقيل يوم الخندق، والأصوب عندي حمله على يوم فتح مكة، وذلك لأن المعنى أنهم جند سيصيرون منهزمين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة، فوجب أن يكون المراد أنهم سيصيرون منهزمين في مكة وما ذاك إلا يوم الفتح، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الجواب عن شبهة القوم أنهم إنما توانوا وتكاسلوا في النظر والاستدلال، لأجل أنهم لم ينزل بهم العذاب، بيَّن تعالى في هذه الآية أن أقوام سائر الأنبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب، والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول في إخباره عن نزول العقاب عليهم، فذكر الله ستة أصناف منهم أولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحًا أهلكهم الله بالغرق والطوفان، والثاني: عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح، والثالث: فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق، والرابع: ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة، والخامس: قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف، والسادس: أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة، قالوا: وإنما وصف الله فرعون بكونه ذا الأوتاد لوجوه الأول: أن أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاده، ثم استعير لإثبات العز والملك قال الشاعر:

وَلَقَدْ غَنُوا فِيهَا بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ(١)

قال القاضي: حمل الكلام على هذا الوجه أولى لأنه وصف بتكذيب الرسل، فيجب فيما وصف به أن يكون تفخيمًا لأمر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك مع قوة أمره أبلغ، والثاني: أنه كان ينصب الخشب في الهواء وكان يمد يدي المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتدًا، ويتركه معلقًا في الهواء إلى أن يموت، والثالث: أنه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات، والرابع: قال قتادة: كانت أوتادًا وأرسانًا وملاعب يلعب بها عنده، والخامس: أن عساكره كانوا كثيرين، وكانوا كثيري الأهبة عظيمي النعم، وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل وهو للأسود بن يعفر النهشلي وقد تقدمت ترجمته.

الخيام فعرف بها، والسادس: ذو الأوتاد والجموع الكثيرة، وسميت الجموع أوتادًا لأنهم يقرون أمره ويشدون مملكته كما يقوي الوتد البناء. وأما الأيكة فهي الغيضة الملتفة.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ وفيه أقوال الأول: أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم، فكذلك نفعل بقومك، لأنه تعالى بيَّن بقوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] أن قوم محمد ﷺ جند من الأحزاب، أي من جنس الأحزاب المتقدمين، فلما ذكر أنه عامل الأحزاب المتقدمين بالإهلاك كان ذلك تخويفًا شديدًا لقوم محمد ﷺ، الثاني: أن معنى قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة، كما يقال فلان هو الرجل، والمعنى أن حال أولئك الأحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين.

واعلم أن هؤلاء الأقوام إن صدقوا بهذه الأخبار فهو تحذير، وإن لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضًا، لأن آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوي فيحذرون، ولأن ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضًا ثم قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم في الترغيب والترهيب، لا جرم نزل العقاب عليهم وإن كان ذلك بعد حين، والمقصود منه زجر السامعين، ثم بين تعالى أن هؤلاء المكذبين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ وفي تفسير هذه الصيحة قولان الأول: أن يكون المراد عذابًا يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة، كما يقال: صاح الزمان بهم، إذا هلكوا قال الشاعر:

صَاحَ الزَّمَانُ بِآلِ بَرْمَك صَيحَةً … خَرُّوا لِشِدَّتِهَا عَلَى الْأَذْقَانِ

ويشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢] الآية، والقول الثاني: أن هذه الصيحة هي صيحة النفخة الأولى في الصور، كما قال تعالى في سورة يس: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩] والمعنى أنهم وإن لم يذوقوا عذابي في الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة، فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم، كالرجل الذي ينتظر الشيء فهو ماد الطرف إليه يطمع كل ساعة في حضوره، ثم إنه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي (فواق) بضم الفاء، والباقون بفتحها، قال الكسائي والفراء وأبو عبيدة والأخفش: هما لغتان من فواق الناقة، وهو ما بين حلبتي الناقة وأصله من الرجوع، يقال: أفاق من مرضه، أي رجع إلى الصحة، فالزمان الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن إلى الضرع يسمى فواقًا بالفتح وبالضم، كقولك: قصاص الشعر وقصاصه، قال الواحدي: والفواق والفواق اسمان من الإفاقة، والإفاقة معناها الرجوع والسكون كإفاقة المريض، إلا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر، والفواق بالضم

اسم لذلك الزمان الذي يعود فيه اللبن إلى الضرع، وروى الواحدي في البسيط عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: «يأمر الله إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الْفَزَعِ، قَالَ فَيُمِدُّهَا وَيُطَوِّلُهَا» وهي التي يقول: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ ثم قال الواحدي: وهذا يحتمل معنيين أحدهما: ما لها سكون، والثاني: ما لها رجوع، والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع إلى السكون، ويقال لكل من بقي على حالة واحدة: إنه لا يفيق منه ولا يستفيق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

اعلم أنا ذكرنا في تفسير قوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاثة أولها: تتعلق بالإلهيات، وهو قوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] والثانية: تتعلق بالنبوات، وهو قوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] والثالثة: تتعلق ١
بالمعاد، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ وذلك لأن القوم كانوا في نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته، والقط القطعة من الشيء لأنه قطع منه من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط، ولما ذكر رسول الله ﷺ وعد المؤمنين بالجنة، قالوا على سبيل الاستهزاء: عجل لنا نصيبنا من الجنة، أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها.

واعلم أن الكفار لما بالغوا في السفاهة على رسول الله ﷺ حيث قالوا: إنه ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وقالوا له على سبيل الاستهزاء: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أمره الله بالصبر على سفاهتهم، فقال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فإن قيل. أي تعلق بين قوله: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وبين قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾؟ قلنا: بيان هذا التعلق من وجوه الأول: كأنه قيل إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر، فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن يوم الحشر، فإن بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفًا يزداد الضد الآخر نقصانًا، والثاني: كأنه قيل لمحمد ﷺ: لا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك، فإنهم إذا خالفوك فالأكابر من الأنبياء وافقوك، والثالث: أن للناس في قصة داود قولين: منهم من قال: إنها تدل على ذنبه، ومنهم من قال: إنها لا تدل عليه (فمن قال بالأول) كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل

لمحمد ﷺ: إن حزنك ليس إلا لأن الكفار يكذبونك، وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه في ذلك الذنب ولا شك أن حزنه أشد، فتأمل في قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن (ومن قال بالثاني) قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر، وإنما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود، ومع ذلك لم يتعرض لإيذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجيء تقرير هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمدًا عليه السلام بأن يقتدي به في حسن الخلق، والخامس: أن قريشًا إنما كذبوا محمدًا عليه السلام واستخفوا به لقولهم في أكثر الأمر إنه يتيم فقير، ثم إنه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود، ثم بين أنه مع ذلك ما سلم من الأحزان والغموم، ليعلم أن الخلاص عن الحزن لا سبيل إليه في الدنيا، والسادس: أن قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء فكأنه قال: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ واعتبر بحال سائر الأنبياء ليعلمه أن كل واحد منهم كان مشغولاً بهمٍّ خاص وحزن خاص، فحينئذٍ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان، وأن استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا، وهذه وجوه ذكرناها في هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم، وسيجيء ذكره إن شاء الله تعالى عند الانتهاء إلى تفسير قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الأنبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الإجمال.

فالقصة الأولى: قصة داود، واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى في هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام فالأول: تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التي توجب سعادة الآخرة والدنيا، والثاني: شرح تلك الواقعة التي وقعت له من أمر الخصمين، والثالث: استخلاف الله تعالى إياه بعد وقوع تلك الواقعة، أما النوع الأول: وهو شرح الصفات التي آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهي عشرة، الأول: قوله لمحمد ﷺ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ فأمر محمدًا ﷺ على جلالة قدره بأن يقتدي في الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم وإكرام لداود حيث أمر الله أفضل الخلق محمدًا ﷺ بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق، والثاني: أنه قال في حقه: ﴿عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ فوصفه بكونه عبدًا له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم، وذلك غاية التشريف، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمدًا عليه السلام ليلة المعراج قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] فهاهنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلاً على علو درجته أيضًا، فإن وصف الله تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة، والثالث: قوله: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ أي ذا القوة على أداء الطاعة والاحترازعن المعاصي، وذلك لأنه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجبة للمدح، والقوة التي توجب المدح العظيم ليست إلا القوة على

فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه و﴿ٱلْأَيْدِ﴾ المذكور ههنا كالقوة المذكورة في قوله: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أي باجتهاد في أداء الأمانة وتشدد في القيام بالدعوة وترك إظهار الوهن والضعف والأيد والقوة سواء ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] وعن قتادة: أعطي قوة في العبادة وفقهًا في الدين، وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر، الرابع: قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي أن داود كان رجاعًا في أموره كلها إلى طاعتي والأواب فعال من آب إذا رجع كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥] وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فإنه أبلغ من قاتل وضارب، الخامس: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبا: ١٠].

وفيه مباحث:

البحث الأول: وفيه وجوه:

الأول: أن الله سبحانه خلق في جسم الجبل حياة وعقلاً وقدرة ومنطقًا وحينئذٍ صار الجبل مسبحًا لله تعالى ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإن معناه أنه تعالى خلق في الجبل عقلاً وفهمًا، ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا.

الثاني: في التأويل ما رواه القفال في تفسيره أنه يجوز أن يقال: إن داود عليه السلام قد أوتي من شدة الصوت وحسنه ما كان له في الجبال دوي حسن، وما يصغي الطير إليه لحسنه فيكون دوي الجبال وتصويت الطير معه وإصغاؤه إليه تسبيحًا، وذكر محمد بن إسحاق أن الله تعالى لم يعط أحدًا من خلقه مثل صوت داود حتى إنه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها.

الثالث: أن الله سبحانه سخر الجبال حتى إنها كانت تسير إلى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحًا لأنه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته.

البحث الثاني: قال صاحب (الكشاف): ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في معنى مسبحات، فإن قالوا: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات؟ قلنا: نعم، فإن صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد، وصيغة الاسم على الدوام على ما بينه عبد القاهر النحوي في كتاب دلائل الإعجاز، إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئًا بعد شيء وحالاً بعد حال وكأن السامع حاضر تلك الجبال يسمعها تسبح.

البحث الثالث: قال الزجاج: يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وقيل هما بمعنى، والأول أكثر تقول العرب شرقت الشمس والماء يشرق.

البحث الرابع: احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية، عن أم هانئ قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى، وقال: «يا أمَّ هانئ هذه صلاة

الْإِشْرَاقِ»(١) وعن طاوس عن ابن عباس قال: «هَلْ تَجِدُونَ ذِكْرَ صَلَاةِ الضُّحَى فِي الْقُرْآنِ؟ قَالُوا: لاَ، فَقَرَأَ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾» وقال: كان يصليها داود عليه السلام، وقال: لم يزل في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾.

الصفة السادسة: من صفات داود عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان داود إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه، واجتماعها إليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله (فإن قيل) كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع أنه لا عقل لها؟ قلنا: لا يبعد أن يقال: إن الله تعالى كان يخلق لها عقلاً حتى تعرف الله فتسبحه حينئذٍ، وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام.

البحث الثاني: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿مَحْشُورَةً﴾ في مقابلة ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ إلا أنه ليس في الحشر مثل ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئًا بعد شيء، فلا جرم جيء به اسمًا لا فعلاً، وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير أن الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدر المذكور، والله أعلم.

البحث الثالث: قرئ (والطير محشورة) بالرفع.

الصفة السابعة: من صفات داود عليه السلام، قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ومعناه كل واحد من الجبال والطير أواب أي رجاع، أي كلما رجع داود إلى التسبيح جاوبته، فهذه الأشياء أيضًا كانت ترجع إلى تسبيحاتها، والفرق بين هذه الصفة وبين ما قبلها أن فيما سبق علمنا أن الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام، وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ لله تعالى أي كل من داود والجبال والطير لله أواب أي مسبح مرجع للتسبيح.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قويناه وقال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] وقيل شددنا على المبالغة، وأما الأسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة، وهي إما الأسباب الدنيوية أو الدينية، أما الأول فذكروا فيه وجهين الأول: روى الواحدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله، وزاد آخرون فذكروا أربعين ألفًا. قالوا: وكان أشد ملوك الأرض سلطانًا، وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً ادعى عند داود على رجل أخذ

---

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) (٢٤/ ٤٠٦)، حديث رقم (٩٨٦) من طريق حجاج بن نصير حدثنا أبو بكر الهذلي واسمه سلمي عن عطاء عن ابن عباس. . . به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٢/ ٢٣٨). وقال: رواه الطبراني وفيه حجاج بن نصير ضعفه ابن المديني وجماعة ووثقه ابن معين وابن حبان.

منه بقرة فأنكر المدعى عليه، فقال داود للمدعي: أقم البينة، فلم يقمها، فرأى داود في منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحي بعد ذلك بأن تقتله فأحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله، فقال المدعى عليه: صدق الله إني كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة، فقتله داود. فهذه الواقعة شددت ملكه، وأما الأسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهي الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل.

الصفة التاسعة: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ واعلم أنه تعالى قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام: النفسانية والبدنية والخارجية، والفضائل النفسانية محصورة في قسمين العلم والعمل، أما العلم فهو أن تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية، وأما العمل فهو أن يكون الإنسان آتيًا بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا والآخرة، فهذا هو الحكمة وإنما سمي هذا بالحكمة لأن اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور وتقويتها وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف، والاعتقادات الصائبة الصحيحة لا تقبل النسخ والنقض فكانت في غاية الإحكام، وأما الأعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فإنها واجبة الرعاية ولا تقبل النقض والنسخ، فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الأعمال بالحكمة.

الصفة العاشرة: قوله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ واعلم أن أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام أحدها: ما تكون خالية عن الإدراك والشعور وهي الجمادات والنباتات، وثانيها: التي يحصل لها إدراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال التي عرفوها في الأكثر، وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان، وثالثها: الذي يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له، وذلك هو الإنسان وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب، ثم إن الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه، ومنهم من يكون قادرًا على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى أقصى الغايات، وكل من كانت هذه القدرة في حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية في حقه أكمل، وكل من كانت تلك القدرة في حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف، ولما بيّن الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التي لداود بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أردفه ببيان كمال حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ وهذا الترتيب في غاية الجلالة، ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال في كلامه: أما بعد، وأقول حقًّا إن الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معاني كلام الله تعالى حرمانًا عظيمًا، والله أعلم، وقول من قال المراد معرفة الأمور التي بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضًا، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرًا على التعبير عن كل ما يخطر

بالبال ويحضر في الخيال، بحيث لا يختلط شيء بشيء، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام، والله أعلم، وههنا آخر الكلام في الصفات العشرة التي ذكرها الله تعالى في مدح داود عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَنكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أن الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة في هذه القصة لا يبين شيء منها كونه عليه السلام مستحقًّا للثناء والمدح العظيم.

أما قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَنكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فهو نظير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩] وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها، ليكون داعيًا إلى الإصغاء لها والاعتبار بها، وأقول: للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال أحدها: ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه، وثانيها: دلالتها على الصغيرة، وثالثها: بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة.

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها؛ أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبًا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة.

والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه الأول: أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجورًا لاستنكف منها والرجل الحشوي الخبيث الذي يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه، الثاني: أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته؛ أما الأول: فأمر منكر قال ﷺ: «مَنْ سَعَىٰ فِي

دَم مُسْلِمٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»[(١)] وأما الثاني: فمنكر عظيم قال ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[(٢)] وإن أوريا لم يسلم من داود لا في روحه ولا في منكوحه، والثالث: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة، ووصفه أيضًا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفًا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة في البيان.

فنقول: أما الصفات الأولى: فهي أنه تعالى أمر محمدًا ﷺ بأن يقتدي بداود في المصابرة مع المكابدة، ولو قلنا إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى في إراقة دم امرئ مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدًا أفضل الرسل بأن يقتدي بداود في الصبر على طاعة الله.

وأما الصفة الثانية: فهي أن وصفه بكونه عبدًا له، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملاً في موقف العبودية تامًّا في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات، ولو قلنا إن داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة، فحينئذٍ ما كان داود كاملا في عبوديته لله تعالى بل كان كاملاً في طاعة الهوى والشهوة.

الصفة الثالثة: هو قوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧] أي ذا القوة، ولا شك أن المراد منه القوة في الدين، لأن القوة في غير الدين كانت موجودة في ملوك الكفار، ولا معنى للقوة في الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات، والاجتناب عن المحظورات، وأي قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة في زوجة المسلم؟

الصفة الرابعة: كونه أوابًا كثير الرجوع إلى الله تعالى، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفًا بالقتل والفجور؟.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ [ص: ١٨] أفترى أنه سخرت له الجبال

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ٨٧٤)، حديث رقم (٢٦٢٠)، وأبو يعلى في (مسنده) (١/ ٣٠٦)، حديث رقم (٥٩٠٠)، وابن أبي عاصم في (الديات) (١/ ١٠/ ٦)، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ٢٢)، والعقيلي في (الضعفاء الكبير) (٩/ ٢٣٢)، حديث رقم (٢١٨١)، جميعًا من طريق يزيد بن أبي زياد عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة... به. وفي إسناده يزيد بن زياد وهو ضعيف.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) (١/ ٦٩)، حديث رقم (١٠)، وأبو داود في كتاب (الجهاد)، باب: (في الهجرة هل انقطعت) (٣/ ١٠٧٢)، حديث رقم (٢٤٨١)، والنسائي في كتاب (الإيمان)، باب: (صفة المسلم) (٨/ ٤٧٩)، حديث رقم (٥٠١١)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٦٣)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (١٠/ ٢٣)، حديث رقم (٦٥١٥)، والبيهقي (١٠/ ١٨٧)، جميعًا من طريق عامر عن عبد الله بن عمرو... به، وأخرجه مسلم أيضًا في (صحيحه) (١/ ٦٥/ ٤٠) من طريق أبي الخير عن عبد الله بن عمرو... به. وأيضًا في (١/ ٦٥/ ٤١) من طريق أبي الزبير عن جابر... به.

ليتخذه وسيلة إلى القتل والفجور؟ .

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗ﴾ [ص: ١٩]، وقيل إنه كان محرمًا عليه صيد شيء من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمنًا منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه؟ .

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا، بل المراد أنه تعالى شدد ملكه بما يقوي الدين وأسباب سعادة الآخرة، والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك؟ .

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علمًا وعملاً، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى: إنا ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ مع إصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه في الروح والمنكوح، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب .

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشر الأولى: قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته في طاعة الله، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ لائقًا به، الثانية: قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه، أحدها: أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه أيها العبد إني فوضت إليك خلافتي ونيابتي، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر، فأما جعله نائبًا وخليفة لنفسه فذلك ألبتة مما لا يليق، وثانيها: أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة، ثم قال بعده: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة؛ ومعلوم أن هذا فاسد، أما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذٍ يناسب أن يذكر عقيبه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فثبت أن هذا الذي نختاره أولى، والثالثة: وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضًا دالة على ذلك، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال: فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله يقتل ويزني ويسرق وقد جعله الله خليفة في أرضه وصوب أحكامه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب، والرابعة: وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا في هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار وحصل

للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء، فأوحى الله إليه أنك ستبلى في يوم كذا فبالغ في الاحتراز ثم وقعت الواقعة، فنقول: أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعي في قتل النفس بغير الحق والإفراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة، ويثبت أن الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها، الخامسة: أن داود عليه السلام قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي، فلو قلنا إنه كان موصوفًا بالبغي لزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك باطل، السادسة: حضرت في بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك، فقلت له: لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الأنبياء والرسل، ولقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ الطعن فيه، وأيضًا فبتقدير أنه ما كان نبيًا فلا شك أنه كان مسلمًا، ولقد قال ﷺ: «لاَ تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ»[1] ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شيء من هذه الدلائل إلا أنا نقول إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقية صحيحة فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئًا من الثواب، لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة، فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها، فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه، وأن شرح تلك القصة محرم محظور، فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت، ولم يذكر شيئًا، السابعة: أن ذكر هذه القصة، وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرمًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾، [النور: ١٩]الثامنة: لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله: «مَنْ سَعَى فِي دَمِ مُسْلِمٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» وأيضًا لو فعل ذلك لكان ظالمًا فكان يدخل تحت قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] التاسعة: عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «مَنْ حَدَّثَكُمْ بِحَدِيثِ دَاوُدَ عَلَى مَا يَرْوِيهِ الْقَصَّاصُ جَلَدْتُهُ مِائَةً وَسِتِّينَ» وهو حد الفرية على الأنبياء، ومما يقوي هذا أنهم لما قالوا: إن المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك، وأما الرابع فإنه لم يقل بأني رأيت ذلك العمل. يعني فإن عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في (الصمت) (١/ ٣٠٢)، حديث رقم (٧٠٩) من طريق إياس الأفطسي حدثنا عطاء بن أبي رباح قال ذكر رجل عند عائشة رضي الله عنها. . . فذكره، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٠٦)، وقال: روى أبو داود الطيالسي عن عائشة بلفظ: (لا تذكروا هلكاكم وفي رواية موتاكم إلا بخير) وإسناده جيد.

ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوا، وإذا كان الحال في واحد من آحاد الصحابة كذلك، فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من أكابر الأنبياء عليهم السلام، العاشرة: روي أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما في كتاب الله تعالى فقال لا ينبغي أن يزاد عليها، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت، ثم إنه تعالى لم يذكرها لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام، فلا يجوز للعاقل أن يسعى في هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر، فقال عمر: «سَمَاعِي هَذَا الْكَلَامَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» فثبت بهذه الوجوه التي ذكرناها أن القصة التي ذكروها فاسدة باطلة، فإن قال قائل: إن كثيرًا من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة، فكيف الحال فيها؟ فالجواب الحقيقي أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى، وأيضًا فالأصل براءة الذمة، وأيضًا فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى، وأيضًا طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا، وأيضًا فنحن نعلم بالضرورة أن بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة: لِمَ لم تسعوا في تشهير هذه الواقعة؟ وأما بتقدير كونها باطلة فإن علينا في ذكرها أعظم العقاب، وأيضًا فقال عليه السلام: «إِذَا عَلِمْتَ مِثْلَ الشَّمْسِ فَاشْهَدْ» وههنا لم يحصل العلم ولا الظن في صحة هذه الحكاية، بل الدلائل القاهرة التي ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها، وأيضًا كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الأكثرون المحققون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد، وأيضًا إذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقي الرجوع إلى الدلائل التي ذكرناها فهذا تمام الكلام في هذه القصة.

أما الاحتمال الثاني: وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة، فنقول في كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه الأول: أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه، الثاني: قالوا إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له في هذا ذنب ألبتة، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضًا ذنبًا لأن هذا الميل ليس في وسعه، فلا يكون مكلفًا به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذيًا عظيمًا بسبب قتله لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل، والثالث: أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضًا أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم في هذا المعنى مألوفة معروفة أو أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان فقيل له هذا وإن كان جائزًا في ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق بك، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى.

وأما الاحتمال الثالث: وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام، بل يوجب إلحاق أعظم أنواع المدح والثناء به وهو أن نقول روي أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقوامًا يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذبًا، فقالوا: خصمان بغى بعضنا على بعض: إلى آخر القصة، وليس في لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به في إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة أحدهما: قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾، وثانيها: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ وثالثها: قوله: ﴿وَأَنَابَ﴾ ورابعها: قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ ثم نقول، وهذه الألفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكروه، وتقريره من وجوه الأول: أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق، وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم، إلا أنه مال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلبًا لمرضاة الله، قال وكانت هذه الواقعة هي الفتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم، والثاني: أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه، إلا أنه ندم على ذلك الظن، وقال: لما لم تقم دلالة ولا أمارة على أن الأمر كذلك، فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الرديء، فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ منه فغفر الله له ذلك، الثالث: أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله، كما قال في حق محمد ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب، أي رجع إلى الله تعالى في طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل، وقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي غفرنا له ذلك الذنب لأجل احترام داود ولتعظيمه، كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح: ٢] أن معناه أن الله تعالى يغفر لك ولأجلك ما تقدم من ذنب أمتك، الرابع: هب أنه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه، لكن لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة، فلم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة إنما حصلت، لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني، فإنه لما قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فحكم عليه بكونه ظالمًا بمجرد دعوى الخصم بغير بينة، لكون هذا الحكم مخالفًا للصواب، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة، إلا أن هذا في باب ترك الأفضل والأولى[1]. فثبت بهذه البيانات أنا إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه، فإنه لا

---

(١) أقول: لم لا تكون هذه القصة راجعة إلى قصة الغنم التي نفشت في الزرع وجاء ذكرها في سورة الأنبياء وقد ذكرت هناك بلفظ الغنم وهنا بلفظ النعاج وفتنة داود كانت بالاجتهاد في الحكم والخطأ فيه وقد نص الله على أنه فهمها سليمان عليه السلام والقاعدة أن من اجتهد في حكم وأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران وكأنه عليه السلام لم=

يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه، ثم نقول: وحمل الآية عليه أولى لوجوه الأول: أن الأصل في حال المسلم البعد عن المناهي، لا سيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل، والثاني: أنه أحوط، والثالث: أنه تعالى قال في أول الآية لمحمد ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] فإن قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] واستهزءوا به حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] فقال تعالى في أول الآية: اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود، فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب، وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية على ما ذكرناه، أما إذا حملناها على ما ذكروه صار الكلام متناقضًا فاسدًا، والرابع: أن تلك الرواية إنما تتمشى إذا قلنا الخصمان كانا ملكين، ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كذبًا، فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين أحدهما: إسناد الكذب إلى الملائكة والثاني: أن يتوسل بإسناد الكذب إلى الملائكة إلى إسناد أفحش القبائح إلى رجل كبير من أكابر الأنبياء، فأما إذا حملنا الآية على ما ذكرنا استغنينا عن إسناد الكذب إلى الملائكة، وعن إسناد القبيح إلى الأنبياء، فكان قولنا أولى، فهذا ما عندنا في هذا الباب، والله أعلم بأسرار كلامه.

ونرجع الآن إلى تفسير الآيات. أما قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ قال الواحدي: الخصم مصدر خصمته أخصمه خصمًا، ثم يسمى به الاثنان والجمع ولا يثنى ولا يجمع، يقال هما خصم وهم خصم، كما يقال هما عدل وهم عدل، والمعنى ذوا خصم وذوو خصم، وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ يقال تسورت السور تسورًا إذا علوته، ومعنى: ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي أتوه من سوره وهو أعلاه، يقال تسور فلان الدار إذا أتاها من قبل سورها. وأما المحراب فالمراد منه البيت الذي كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه، وسمي ذلك البيت المحراب لاشتماله على المحراب، كما يسمى الشيء بأشرف أجزائه، وههنا مسألة من علم أصول الفقه، وهي أن أقل الجمع اثنان عند بعض الناس، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية، لأنه تعالى ذكر صيغة الجمع في هذه الآيات في أربعة مواضع أحدهما: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾، وثانيها: قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟﴾. وثالثها: قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾، ورابعها: قوله: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ فهذه الألفاظ الأربعة كلها صيغ الجمع، وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا: خصمان، قالوا: فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان والجواب: لا يمتنع أن يكون كل واحد

=يدرك هذه القاعدة أو لم يكن العمل عليها في عهده ولهذا استغفر ربه والدلائل على ذلك كثيرة منها ظاهر الآية ولا داعي إلى التأويل بالمرأة أو غيرها ومنها قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والتعقيب بقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾.

من الخصمين جمعًا كثيرين، لأنا بينا أن الخصم إذا جعل اسمًا فإنه لا يثنى ولا يجمع، ثم قال تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ والفائدة فيه أنهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه، فلما قال: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ دل على أنهم بعد التسور دخلوا عليه، قال الفراء: وقد يجاء بإذ مرتين ويكون معناهما كالواحد، كقولك: ضربتك إذ دخلت علي إذ اجترأت، مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحدًا، ثم قال تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ والسبب أن داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لا من الطريق المعتاد، علم أنهم إنما دخلوا عليه للشر، فلا جرم فزع منهم.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: خصمان خبر مبتدأ محذوف، أي نحن خصمان.

المسألة الثانية: ههنا قولان الأول: أنهما كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذي أقدم عليه والثاني: أنهما كانا إنسانين دخلا عليه للشر والقتل، فظنا أنهما يجدانه خاليًا، فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر، وأما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين في قولهما ﴿خَصْمَانِ﴾ فإنه ليس بين الملائكة خصومة، ولكانا كاذبين في قولهما: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولكانا كاذبين في قولهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ فثبت أنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧] ولقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب، وأجيب عن هذا الجواب بأن ما ذكرتم يقتضي العدول عن ظاهر اللفظ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل، أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل، فحينئذٍ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الأول، والله أعلم، وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه الأول: اتفاق أكثر المفسرين عليه، والثاني: أنه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية في حال تعبده فيجب أن يكون ذلك من الملائكة، الثالث: أن قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ كالدلالة على كونهما ملكين لأن من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته، الرابع: أن قولهما: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ كالدلالة على كونهما ملكين لأن أحدًا من رعيته لا يتجاسر أن يقول له: لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق، واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر، ولا حاجة إلى الجواب، والله أعلم.

المسألة الثالثة: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح إذا أفرط وجعه وانتهى إلى الغاية، ويقال: بغت المرأة إذا زنت، لأن الزنى كبيرة منكرة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ [النور: ٣٣] ثم قال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ معنى الحكم إحكام الأمر في

إمضاء تكليف الله عليهما في الواقعة، ومنه حَكَمة الدابة لأنها تمنع من الجماح، ومنه بناء محكم إذا كان قويًّا، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحكم الحق وهو الذي حكم الله به ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ يقال شط الرجل إذا بعد، ومنه قوله: شطت الدار إذا بعدت، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] أي قولاً بعيدًا عن الحق، فقوله: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي لا تبعد في هذا الحكم عن الحق، ثم قال: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وسواء الصراط هو وسطه، قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] ووسط الشيء أفضله وأعدله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وأقول: إنهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات أولها: قولهم فاحكم بالحق، وثانيها: قولهم: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ وهي نهي عن الباطل، وثالثها: قولهم: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ يعني يجب أن يكون سعيك في إيجاد هذا الحق. وفي الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل إلى الطريق الحق، وهذا مبالغة تامة في تقرير المطلوب، واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صحاب (الكشاف): ﴿أَخِى﴾ بدل من ﴿هَٰذَآ﴾ أو خبر لقوله: ﴿إِنَّ﴾ والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ وكل واحدة من هذه الأخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قرئ (تسع وتسعون) بفتح التاء ونعجة بكسر النون، وهذا من اختلاف اللغات نحو نَطِع ونَطع، ولِقوة ولَقوة وهي الأنثى من العقبان.

المسألة الثالثة: قال الليث: النعجة الأنثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية، والجمع النعجات، والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة.

المسألة الرابعة: قرأ عبد الله: (تسع وتسعون نعجة أنثى) وهذا يكون لأجل التأكيد كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، ثم قال: ﴿أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ حقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي ﴿وَعَزَّنِى﴾ غلبني، يقال عزه يعزه، والمعنى جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أورده به، وقرئ (وَعَازَنِي) من المعازة، وهي المغالبة، واعلم أن الذين قالوا: إن هذين الخصمين كانا من الملائكة، زعموا أن المقصود من ذكر النعاج التمثيل، لأن داود كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أي سؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه، وروي أنه قال له: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا، وأشار إلى الأنف والجبهة فقال: يا داود أنت أحق أن نضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحدًا فعرف

الحال، فإن قيل كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه؟ قلنا ذكروا فيه وجوهًا الأول: قال محمد بن إسحاق: لما فرغ الخصم الأول من كلامه نظر داود إلى الخصم الذي لم يتكلم وقال: لئن صدق لقد ظلمته، والحاصل أن هذا الحكم كان مشروطًا بشرط كونه صادقًا في دعواه، والثاني: قال ابن الأنباري: لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثاني فحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذلك الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه، كما تقول: أمرتك بالتجارة فكسبت، تريد اتجرت فكسبت، وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي فضرب فانفلق، والثالث: أن يكون التقدير أن الخصم الذي هذا شأنه يكون قد ظلمك.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قال: الليث خليط الرجل مخالطه، وقال الزجاج: الخلطاء الشركاء، فإن قيل لم خص داود الخلطاء يبغي بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء قد يفعلون ذلك، والجواب لا شك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة، وذلك لأنهما إذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل ما يملكه من الأشياء النفيسة إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه، فيفضي ذلك إلى زيادة المخاصمة والمنازعة، فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغي والعدوان، ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن مخالطة هؤلاء لا تكون إلا لأجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية، فلا جرم مخالطتهم لا توجب المنازعة، وأما الذين تكون مخالطتهم لأجل حب الدنيا لا بد وأن تصير مخالطتهم سببًا لمزيد البغي والعدوان، واعلم أن هذا الاستثناء يدل على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يبغي بعضهم على بعض، فلو كان داود عليه السلام قد بغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومعلوم أن ذلك باطل، فثبت أن قول من يقول المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقال داود عليه السلام في هذا الموضع ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وحكى تعالى عن إبليس أنه قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] وسبب القلة أن الدواعي إلى الدنيا كثيرة، وهي الحواس الباطنة والظاهرة وهي عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن، وكلها تدعو إلى الخلق والدنيا واللذة الحسية، وأما الداعي إلى الحق والدين فليس إلا العقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق أكثر من القوة العقلية فيهم، فلهذا السبب وقعت القلة في جانب أهل الخير والكثرة في جانب أهل الشر، قال صاحب (الكشاف): وما في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ للإبهام وفيه تعجب من قلتهم، قال وإذا أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس:

وحديث ما على قصره

وانظر هل بقي له معنى قط.

ثم قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ قالوا: معناه وعلم داود أنما فتناه أي امتحناه، قالوا: والسبب الذي أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا أن داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، ثم صعد إلى السماء قبل وجهه، فعلم داود أن الله ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وإنما جاز حمل لفظ الظن على العلم لأن العلم الاستدلالي يشبه الظن مشابهة عظيمة، والمشابهة علة لجواز المجاز، وأقول: هذا الكلام إنما يلزم إذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العلم، بل لقائل أن يقول إنه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والإنابة.

أما قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ أي سأل الغفران من ربه، ثم ههنا وجهان إن قلنا بأنه قد صدرت زلة منه، حملنا هذا الاستغفار عليها، وإن لم نقل به قلنا فيه وجوه الأول: أن القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله، وإنه كان سلطانًا شديد القهر عظيم القوة، ثم إنه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفزع في قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيئًا قرب الأمر من أن يدخل في قلبه شيء من العجب، فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأناب إلى الله، واعترف بأن إقدامه على ذلك الخير ما كان إلا بتوفيق الله، فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر، الثاني: لعله هم بإيذاء القوم، ثم قال: إنه لم يدل دليل قاطع على أن هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك الهم، الثالث: لعل القوم تابوا إلى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لأجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع إلى الله، فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه، وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة، والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه وإذا كان اللفظ محتملاً لما ذكرناه ولم يقم دليل قطعي ولا ظني على التزام المنكرات التي يذكرونها، فما الذي يحملنا على التزامها والقول بها، والذي يؤكد أن الذي ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ومثل هذه الخاتمة إنما تحسن في حق من صدر منه عمل كثير في الخدمة والطاعة، وتحمل أنواعًا من الشدائد في الموافقة والانقياد، أما إذا كان المذكور السابق هو الإقدام على الجرم والذنب فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به، قال مالك بن دينار: إذا كان يوم القيامة أتى بمنبر رفيع ويوضع في الجنة، ويقال: يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا، والله أعلم، بقي ههنا مباحث فالأول: قرئ (فتناه) وفتناه على أن الألف ضمير الملكين، الثاني: المشهور أن الاستغفار إنما كان بسبب قصة النعجة والنعاج، وقيل أيضًا إنما كان بسبب أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الثاني وذلك غير جائز، الثالث: قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ يدل على حصول الركوع، وأما السجود فقد ثبت بالأخبار وكذلك البكاء الشديد في مدة أربعين يومًا ثبت بالأخبار، الرابع: أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة قال: لأنه توبة نبي فلا توجب سجدة التلاوة، الخامس: استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية في سجود التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود.

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام في شرح القصة أردفها ببيان أنه تعالى فوض إلى داود خلافة الأرض، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور في تلك القصة، لأن من البعيد جدًا أن يوصف الرجل بكونه ساعيًا في سفك دماء المسلمين، راغبًا في انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر عقيبه أن الله تعالى فوض خلافة الأرض إليه، ثم نقول: في تفسير كونه خليفة وجهان الأول: جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله تعالى، وفي سياسة الناس لأن خليفة الرجل من يخلفه، وذلك إنما يعقل في حق من يصح عليه الغيبة، وذلك على الله محال، الثاني: إنا جعلناك مالكًا للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة، ومنه يقال خلفاء الله في أرضه، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم في تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ واعلم أن الإنسان خلق مدنيًا بالطبع، لأن الإنسان الواحد لا تتنظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة حتى إن هذا يحرث، وذلك يطحن، وذلك يخبز، وذلك ينسج، وهذا يخيط، وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولاً بمهم، وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع. فثبت أن الإنسان مدني بالطبع وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه، وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق، وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك، أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحق الإلهية انتظمت مصالح العالم، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه. فهذا هو المراد من قولهم: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، والضلال عن

سبيل الله يوجب سوء العذاب، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب.

أما المقام الأول: وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات، لأنهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر.

أما المقام الثاني: وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب، فالأمر فيه ظاهر لأن الإنسان إذا عظم إلفه بهذه الجسمانيات ونسي بالكلية أحواله الروحانيات، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق، ودخل ديارًا ليس له بأهل تلك الديار إلف وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار، فكأنه فارق المحبوب ووصل إلى المكروه، فكان لا محالة في أعظم العناء والبلاء، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله. وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب، وهذا بيان في غاية الكمال.

ثم قال تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ يعني أن السبب الأول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب، لأنه لو كان متذكرًا ليوم الحساب لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد، ولما صار مستغرقًا في هذه اللذات الفاسدة.

روي عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال: لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا يكتب عليه معصية؟ فقال: يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء؟ ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقًا لأعمال العباد قال: لأنها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل. فلما بين تعالى أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلًا دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر والكفر باطل، وقد خلق الباطل، ثم أكد تعالى ذلك بأن قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي كل من قال بهذا القول فهو كافر، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر، واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقًا لأعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقًا لكل ما بين السموات والأرض، وأعمال العباد حاصلة بين السماء والأرض، فوجب أن يكون الله تعالى خالقًا لها.

المسألة الثانية: هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة، وذلك لأنه تعالى خلق الخلق في هذا العالم، فإما أن يقال: إنه خلقهم للإضرار أو للإنفاع أو لا للإنفاع ولا للإضرار، والأول باطل لأن ذلك لا يليق بالرحيم الكريم، والثالث أيضًا باطل لأن هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين، فلم يبق إلا أن يقال إنه خلقهم للإنفاع، فنقول وذلك الإنفاع، إما أن يكون في حياة الدنيا أو في حياة الآخرة، والأول باطل لأن منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة، وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لا يليق بالحكمة، ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية، وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة، واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة، وقد لخصناها في أول سورة يونس بالاستقصاء، فلا سبيل إلى التكرير فثبت بما ذكرنا أنه تعالى ما خلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً وإذا لم يكن خلقهما باطلاً كان القول بالحشر والنشر لازمًا، وأن كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكًا في حكمة الله في خلق السماء والأرض، وهذا هو المراد من قوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ولما بين الله تعالى على سبيل الإجمال أن إنكار الحشر والنشر يوجب الشك في حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ وتقريره أنا نرى في الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته في الفقر والزمانة وأنواع البلاء، ونرى الكفرة والفساق في الراحة والغبطة، فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصي، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم، وإذا كان ذلك قادحًا في الحكمة، ثبت أن إنكار الحشر والنشر يوجب إنكار حكمة الله.

ثم قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة: دلت الآية على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن لأجل الخير والرحمة والهداية، وهذا يفيد أمرين أحدهما: أن أفعال الله معللة برعاية المصالح، والثاني: أنه تعالى أراد الإيمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول: إنه أراد الكفر من الكافر.

المسألة الثانية: في تقرير نظم هذه الآيات فنقول، لسائل أن يسأل فيقول: إنه تعالى حكى في أول السورة عن المستهزئين من الكفار، أنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة، وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب، بل قال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق، ثم إنه تعالى أطنب في شرح قصة داود، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة الله بقصة داود، ثم لما ذكر إثبات حكمة الله

وفرع عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير، ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولاً متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض، فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتابًا شريفًا فاضلاً؟ هذا تمام السؤال والجواب أن نقول: إن العقلاء قالوا من أبلى بخصم جاهل مصر متعصب، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار، وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، وأن يخوض في كلام آخر أجنبي عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب في ذلك الكلام الأجنبي، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي المسألة الأولى، فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول، فإن ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة، فإذا سلمها، فحينئذ يتمسك بها في إثبات المطلوب الأول، وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعًا مفحمًا، إذا عرفت هذا فنقول إن الكفار بلغوا في إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] فقال يا محمد اقطع الكلام معهم في هذه المسألة، واشرع في كلام آخر أجنبي بالكلية عن هذه المسألة، وهي قصة داود عليه السلام، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر، ثم إنه تعالى أطنب في شرح تلك القصة، ثم قال في آخر القصة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] وكل من سمع هذا قال: نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق، ثم كأنه تعالى قال: وأنا لا آمرك بالحق فقط، بل أنا مع أني رب العالمين لا أفعل إلا بالحق، ولا أقضي بالباطل، فههنا الخصم يقول: نعم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق، فعند هذا يقال: لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل، لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر، لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحًا على المسلم في إيصال الخيرات إليه، وذلك ضد الحكمة وعين الباطل، فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكري الحشر والنشر إيرادًا لا يمكنهم الخلاص عنه، فصار ذلك الخصم الذي بلغ في إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء مفحمًا ملزمًا بهذا الطريق، ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة في الإلزام في القرآن، لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم، حيث يراه في ظاهر الحال مقرونًا بسوء الترتيب، وهو في الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب، فهذا ما حضرنا في تفسير هذه الآيات، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

واعلم أن هذا هو القصة الثانية وقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾.

فيه مباحث:

الأول: نقول المخصوص بالمدح في ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ محذوف، فقيل هو سليمان، وقيل داود، والأول أولى لأنه أقرب المذكورين، ولأنه قال بعده ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ولا يجوز أن يكون المراد هو داود، لأن وصفه بهذا المعنى قد تقدم في الآية المتقدمة حيث قال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] فلو قلنا لفظ الأواب ههنا أيضًا صفة داود لزم التكرار، ولو قلنا إنه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيهًا لأبيه في صفات الكمال في الفضيلة، فكان هذا أولى.

الثاني: أنه قال أولاً ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ ثم قال بعده ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وهذه الكلمة للتعليل، فهذا يدل على أنه إنما كان ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ لأنه كان أوابًا، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى في أكثر الأوقات وفي أكثر المهمات كان موصوفًا بأنه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ وهذا هو الحق الذي لا شبهة فيه، لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شيء من الخيرات إلا بإعانة الله تعالى، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فكان أوابًا، فثبت أن كل من كان أوابًا وجب أن يكون ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾.

أما قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ ففيه وجوه الأول: التقدير ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ هو إذ كان من أعماله أنه فعل كذا، الثاني: أنه ابتداء كلام. والتقدير اذكر يا محمد إذ عرض عليه كذا وكذا، والعشي هو من حين العصر إلى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر إليها ويقف على كيفية أحوالها، والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين:

الصفة الأولى: الصافنات، قال صاحب (الصحاح): الصافن الذي يصفن قدميه، وفي الحديث «كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَهُ فَرَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قُمْنَا صُفُونًا» أي قمنا صافنين أقدامنا، وأقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس.

والصفة الثانية: للخيل في هذه الآية الجياد، قال المبرد: والجياد جمع جواد وهو الشديد الجري، كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل، فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتي وقوفها وحركتها، أما حال وقوفها فوصفها بالصفون، وأما حال حركتها فوصفها بالجودة، يعني أنها إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها على أحسن الأشكال، فإذا جرت كانت سراعًا في

جريها، فإذا طَلبت لحقت، وإذا طُلبت لم تلحق، ثم قال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ وفي تفسير هذه اللفظة وجوه الأول: أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن، كأنه قيل أحببت حب الخير عن ذكر ربي، والثاني: أن أحببت بمعنى ألزمت، والمعنى أني ألزمت حب الخيل عن ذكر ربي، أي عن كتاب ربي وهو التوراة، لأن ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح فكذلك في التوراة ممدوح، والثالث: أن الإنسان قد يحب شيئًا لكنه يحب أن لا يحبه كالمريض الذي يشتهي ما يزيد في مرضه، والأب الذي يحب ولده الرديء، وأما من أحب شيئًا، وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ بمعنى أحببت حبي لهذه الخيل.

ثم قال: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ بمعنى أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره لا عن الشهوة والهوى، وهذا الوجه أظهر الوجوه.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ أقول الضمير في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾، وفي قوله: ﴿رُدُّوهَا﴾ يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدًا إلى الشمس، لأنه جرى ذكر ما له تعلق بها وهو العشي ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدًا إلى الصافنات، ويحتمل أن يكون الأول متعلقًا بالشمس والثاني بالصافنات، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك، فهذه احتمالات أربعة لا مزيد عليها فالأول: أن يعود الضميران معًا إلى الصافنات، كأنه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات علي، والاحتمال الثاني: أن يكون الضميران معًا عائدين إلى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس، وروي أنه ﷺ لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر، فسأل الله أن يرد الشمس فقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ إشارة إلى طلب رد الشمس، وهذا الاحتمال عندي بعيد والذي يدل عليه وجوه الأول: أن الصافنات مذكورة تصريحًا، والشمس غير مذكورة وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر، الثاني: أنه قال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول: إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي. وكان يعيد هذه الكلمات إلى أن توارت بالحجاب، فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب، ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه أنه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر إلى وقت المغرب، وهذا في غاية البعد، الثالث: أنا لو حكمنا بعود الضمير في قوله حتى توارت إلى الشمس وحملنا اللفظ على أنه ترك صلاة العصر كان هذا منافيًا لقوله: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ فإن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسي الصلاة ولما ترك ذكر الله، الرابع: أنه بتقدير أنه عليه السلام بقي مشغولاً بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر؟، فكان ذلك ذنبًا عظيمًا وجرمًا قويًا، فالأليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة في إظهار التوبة، فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لإله العالم ورب العالمين: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الأدب

عقيب ذلك الجرم العظيم، فهذا لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المطهر المكرم!، الخامس: أن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها علي ولا يقول ردوها علي، فإن قالوا إنما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله: ﴿رُدُّوهَا﴾ لفظ مشعر بأعظم أنواع الإهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم، السادس: أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهدًا لكل أهل الدنيا ولو كان الأمر كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وإظهاره، وحيث لم يقل أحد ذلك علمنا فساده، السابع: أنه تعالى قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ ثم قال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ وعود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى، وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد، وأما العشي فأبعدهما فكان عود ذلك الضمير إلى الصافنات أولى، فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ على تواري الشمس وأن حمل قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام في غاية البعد عن النظم.

ثم قال تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها، قال الأكثرون معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها أي قطعها، قالوا إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقربًا إلى الله تعالى، وعندي أن هذا أيضًا بعيد، ويدل عليه وجوه الأول: أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قطعها، وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم ألبتة من المسح العقر والذبح، الثاني: القائلون لهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعًا من الأفعال المذمومة فأولها: ترك الصلاة، وثانيها: أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسي الصلاة، وقال ﷺ: «**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ**»(١) وثالثها: أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة ألبتة، ورابعها: أنه خاطب رب العالمين بقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس، وخامسها: أنه أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها، وروي عن النبي ﷺ «**نَهَى عَنْ ذَبْحِ الْحَيَوَانِ إِلاَّ لِمَأْكَلِهِ**» فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها، وسادسها: أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٧] وأن الكفار لما بلغوا في السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد ﷺ: اصبر يا محمد على سفاهتهم ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ وذكر قصة داود، ثم ذكر عقيبها قصة سليمان، وكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد عليه السلام: اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان، وهذا الكلام إنما يكون لائقًا لو قلنا إن

(١) تقدم.

سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة، وصبر على طاعة الله، وأعرض عن الشهوات واللذات، فأما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقًا بهذا الموضع، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإفساد والإبطال بل التفسير المطابق للحق لألفاظ القرآن، والصواب أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوبًا إليه في دينهم كما أنه كذلك في دين محمد ﷺ ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربي، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور الأول: تشريفًا لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، الثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه، الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقًا مطابقًا موافقًا، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات، وأقول: أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها، وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة، فإن قيل: فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه، فما قولك فيه؟ فنقول: لنا ههنا مقامان:

المقام الأول: أن ندعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها، وقد ظهر والحمد لله أن الأمر كما ذكرناه، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه.

المقام الثاني: أن يقال هب أن لفظ الآية لا يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس، فما قولك فيه وجوابنا أن الدلالة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

اعلم أن هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا في المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ

فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ ولأهل الحشو والرواية فيه قول، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات:

الرواية الأولى: قالوا: إن سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها، وأخذ بنتًا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجها فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكي أبدًا على أبيها فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشيًا مع جواريها يسجدن لها، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائبًا إلى الله تعالى، وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يومًا، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان، وقال: يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان فأتى عليه الطير والجن والإنس، وتغيرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته، فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه، ثم أخذ يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين يومًا عدد ما عبد الوثن في بيته، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان، فقلن: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة، وقيل بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجدًا لله، ورجع إليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر.

والرواية الثانية للحشوية: أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها، فقال له آصف إنك لمفتون بذنبك فتب إلى الله.

والرواية الثالثة: لَهُمْ قالوا: إن سليمان قال لبعض الشياطين: كيف تفتنون الناس؟ فقال: أرني خاتمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه، ثم ذكر الحكاية إلى آخرها.

إذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أن الله تعالى ابتلاه وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه.

والرواية الرابعة: أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وألقي على سريره شيطان عقوبة له.

واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه الأول: أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا

شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية، الثاني: أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى، والثالث: كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح، الرابع: لو قلنا إن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه، وإن لم يأذن فيه ألبتة فالذنب على تلك المرأة، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه؟ فأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء:

الأول: أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطًا علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقي ذلك الولد ميتًا على كرسيه فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب.

الثاني: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**قَالَ سُلَيْمَانُ لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةٍ كُلُّ وَاحِدَةٍ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ فَلَمْ تَحْمَلْ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ فَجِيءَ بِهِ عَلَى كُرْسِيِّهِ فَوُضِعَ فِي حِجْرِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا كُلُّهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**»[1] فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾.

الثالث: قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ منه ﴿جَسَدًا﴾ وذلك لشدة المرض. والعرب تقول في الضعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع إلى حال الصحة، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة ألبتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة.

الرابع: أقول: لا يبعد أيضًا أن يقال إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف، وأعاد إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ فاعلم أن الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية، فإنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة، ويمكن أن يجاب عنه بأن الإنسان لا ينفك ألبتة عن ترك الأفضل والأولى، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولأنهم أبدًا في مقام هضم النفس، وإظهار الذلة والخضوع، كما قال ﷺ:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأيمان)، باب: (كيف كانت يمين النبي ﷺ) (١١/ ٥٣٣)، حديث رقم (٦٦٣٩) من طريق شعيب... به، ومسلم في كتاب (الأيمان)، باب: (الاستثناء) (٣/ ٢٣/ ١٢٧٥) من طريق سفيان... به، جميعًا عن أبي الزناد... به.

«إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١) ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا، لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم بعده طلب المملكة. وأيضًا الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا، لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم توسل به إلى طلب المملكة، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضًا لأنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢] وقال لمحمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢] فإن قيل قوله عليه السلام: ﴿مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ مشعر بالحسد، والجواب عنه أن القائلين بأن الشيطان استولى على مملكته قالوا: معنى قوله: ﴿لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ﴾، هو أن يعطيه الله ملكًا لا تقدر الشياطين أن يقوموا مقامه ألبتة، فأما المنكرون لذلك فقد أجابوا عنه من وجوه الأول: أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري ألبتة، ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي ورسالتي. والدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ فكون الريح جاريًا بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته فكان قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ هو هذا المعنى لأن شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها، فقوله: ﴿لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ يعني لا يقدر أحد على معارضته، والوجه الثاني: في الجواب أنه عليه السلام لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى الغير بإرث أو بسبب آخر، فسأل ربه ملكًا لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره، وذلك الذي سأله بقوله: ﴿مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ أي ملكًا لا يمكن أن ينتقل عني إلى غيري، الوجه الثالث في الجواب: أن الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها، فكأنه قال: يا إلهي أعطني مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية، حتى أحترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابي أكمل وأفضل، الوجه الرابع: من الناس من يقول إن الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب، لأن هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة، والنقد يصعب بيعه بالنسيئة، فقال سليمان: أعطني يا رب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر، حتى أني أبقى مع تلك القدرة الكاملة في غاية الاحتراز عنها ليظهر للخلق أن حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى، الوجه الخامس: أن من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب إليها فيظن أن فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة، فقال سليمان: يا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب (الذكر)، باب: (استحباب الاستغفار والاستكثار فيه) (٤/ ٢٠٧٥/ ٤١)، وأبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (في الاستغفار) (٢/ ٦٥٤)، حديث رقم (١٥١٥)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢١١)، جميعًا من طريق حماد... به.

رب العزة أعطني أعظم الممالك حتى يقف الناس على كمال حالها، فحينئذ يظهر للعقل أنه ليس فيها فائدة وحينئذ يعرض القلب عنها ولا يلتفت إليها، وأشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا، ثم قال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ رخاء أي رخوة لينة وهي من الرخاوة والريح إذا كانت لينة لا تزعزع ولا تمتنع عليه كانت طيبة، فإن قيل أليس أنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١] قلنا: الجواب من وجهين:

الأول: لا منافاة بين الآيتين فإن المراد أن تلك الريح كانت في قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء.

والوجه الثاني: من الجواب أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى ولا منافاة بين الأمرين وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي قصد وأراد، وحكى الأصمعي عن العرب أنهم يقولون: أصاب الصواب فأخطأ الجواب. وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما، فقال أين تصيبان؟ فقالا: هذا مطلوبنا. وبالجملة فالمقصود أنه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجري بأمره على وفق إرادته، ثم قال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾، قال صاحب (الكشاف): ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطف على الريح و﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بدل من ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾، ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عطف على قوله: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ، وقوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ يقال قرنهم في الحبال والتشديد للكثرة ﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾ الأغلال واحدها صفد والصفد العطية أيضًا، قال النابغة[(١)]:

وَلَمْ أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ بِالصَّفَدِ

فعلى هذا الصفد القيد فكل من شددته شدًّا وثيقًا فقد صفدته، وكل من أعطيته عطاء جزيلاً فقد أصفدته، وههنا بحث، وهو أن هذه الآيات دالة على أن الشياطين لها قوة عظيمة، وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الأبنية القوية التي لا يقدر عليها البشر، وقدروا على الغوص في البحار، واحتاج سليمان عليه السلام إلى قيدهم، ولقائل أن يقول: إن هذه الشياطين إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة، فإن كان الأول وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة، إذ لو جاز أن لا نراهم مع كثافة أجسادهم، فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا نراها ولا نسمعها، وذلك دخول في السفسطة، وإن كان الثاني وهو أن أجسادهم ليست كثيفة، بل لطيفة رقيقة، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفًا بالقوة الشديدة، وأيضًا لزم أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بسبب الرياح القوية وأن يموتوا في الحال، وذلك يمنع من وصفهم ببناء الأبنية القوية، وأيضًا الجن والشياطين إن كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة، فلم لا يقتلون العلماء والزهاد في زماننا؟ ولم لا يخربون ديار الناس؟ مع أن المسلمين مبالغون في إظهار لعنهم وعداوتهم. وحيث لم يحس شيء من ذلك، علمنا أن القول بإثبات الجن والشياطين ضعيف.

---

(١) تقدم ترجمة النابغة.

واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسامهم كثيفة مع أنا لا نراها، وأيضًا لا يبعد أن يقال أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون، ولكنها صلبة بمعنى أنها لا تقبل التفرق والتمزق. وأما الجبائي فقد سلم أنها كانت كثيفة الأجسام، وزعم أن الناس كانوا يشاهدونهم في زمن سليمان، ثم إنه لما توفي سليمان عليه السلام، أمات الله أولئك الجن والشياطين، وخلق نوعًا آخر من الجن والشياطين تكون أجسامهم في غاية الرقة، ولا يكون لهم شيء من القوة، والموجود في زماننا من الجن والشياطين ليس إلا من هذا الجنس.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وفيه قولان الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب، أي ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت، الثاني: أن هذا في أمر الشياطين خاصة، والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فحل عنه، واحبس من شئت منهم في العمل بغير حساب.

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان في الدنيا، أردفه بإنعامه عليه في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وقد سبق تفسيره.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة، واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليهما أصناف الآلاء والنعماء، وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار، كأن الله تعالى قال: يا محمد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالاً وجاهًا من داود وسليمان عليهما السلام، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): أيوب عطف بيان، وإذ بدل اشتمال منه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ﴾ أي بأني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه، ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب، وقرئ: ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها، فالنُّصْب والنَّصَب، كالرُّشْد والرَّشَد، والعدم والعدم، والسقم والسقم، والنصب على أصل المصدر، والنصب

تثقيل نصب، والمعنى واحد، وهو التعب والمشقة والعذاب والألم.

واعلم أنه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه: الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات، والألم الشديد في الجسم ولما حصل هذان النوعان لا جرم، ذكر الله تعالى لفظين وهما النصب والعذاب.

المسألة الثانية: للناس في هذا الموضع قولان الأول: أن الآلام والأسقام الحاصلة في جسمه إنما حصلت بفعل الشيطان، الثاني: أنها إنما حصلت بفعل الله، والعذاب المضاف في هذه الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة، وإلقاء الخواطر الفاسدة.

وأما القول الأول: فتقريره ما روي أن إبليس سأل ربه، فقال: هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقال الله: نعم عبدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عيانًا ولا يلتفت إليه، فقال: يا رب إنه قد امتنع علي فسلطني على ماله، وكان يجيئه ويقول له: هلك من مالك كذا وكذا، فيقول: الله أعطى والله أخذ، ثم يحمد الله، فقال: يا رب إن أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه، فقال: يا رب لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده، فأذن فيه، فنفخ في جلد أيوب، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه، فمكث في ذلك البلاء سنين، حتى صار بحيث استقذره أهل بلده، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد، فجاء الشيطان إلى امرأته، وقال: لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هذا البلاء، فذكرت المرأة ذلك لزوجها، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة، وعند هذه الواقعة قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فأجاب الله دعاءه، وأوحى إليه أن ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فأظهر الله من تحت رجله عينًا باردة طيبة فاغتسل منها، فأذهب الله عنه كل داء في ظاهره وباطنه، ورد عليه أهله وماله.

والقول الثاني: أن الشيطان لا قدرة له ألبتة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام، والدليل عليه وجوه الأول: أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات، فقد حصل بفعل الشيطان، وحينئذٍ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم، هو الله تعالى، الثاني: أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء، ولم لا يخرب دورهم، ولم لا يقتل أولادهم، الثالث: أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة، وذلك يدل على قول من يقول إن الشيطان هو الذي ألقاه في تلك الأمراض والآفات، فإن قال قائل: لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان؟ قلنا: فإذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى، فأي فائدة في جعل الشيطان واسطة في

ذلك؟ بل الحق أن المراد من قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أنه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه في أنواع العذاب والعناء، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوهًا الأول: أن علته كانت شديدة الألم، ثم طالت مدة تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته، ولم يبق له شيء من الأموال ألبتة، وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت، ثم بلغت نفرة الناس عنه إلى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم، والشيطان كان يذكره النعم التي كانت والآفات التي حصلت، وكان يحتال في دفع تلك الوساوس، فلما قويت تلك الوساوس في قلبه خاف وتضرع إلى الله، وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد. الثاني: أنها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط في قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، الثالث: قيل إن الشيطان لما قال لامرأته: لو أطاعني زوجك أزلت عنه هذه الآفات، فذكرت المرأة له ذلك، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع في دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، الرابع: روي عن النبي ﷺ: «**أَنَّهُ بَقِيَ أَيُّوبُ فِي الْبَلَاءِ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى رَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلاَّ رَجُلَيْنِ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَتَى بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَلَوْلاَهُ مَا وَقَعَ فِي مِثْلِ هَذَا الْبَلاَءِ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِأَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: لاَ أَدْرِي مَا تَقُولاَنِ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ تَعَالَى فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأَنْفِرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلاَّ فِي الْحَقِّ**»، الخامس: قيل: إن امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجيء به إلى أيوب، فاتفق أنهم ما استخدموها ألبتة وطلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت، ثم في اليوم الثاني ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة، وكان أيوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه واشتد غمه، فعند ذلك قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. السادس: قال في بعض الأيام: يا رب لقد علمت ما اجتمع علي أمران إلا آثرت طاعتك، ولما أعطيتني المال كنت للأرامل قيمًا، ولابن السبيل معينًا، ولليتامى أبًا! فنودي من غمامة يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق؟ فأخذ أيوب التراب ووضعه على رأسه، وقال: منك يا رب ثم خاف من الخاطر الأول فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقد ذكروا أقوالاً أخرى، والله أعلم بحقيقة الحال، وسمعت بعض اليهود يقول: إن لموسى بن عمران عليه السلام كتابًا مفردًا في واقعة أيوب، وحاصل ذلك الكتاب أن أيوب كان رجلاً كثير الطاعة لله تعالى مواظبًا على العبادة، مبالغًا في التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله، ثم إنه وقع في البلاء الشديد والعناء العظيم، فهل كان ذلك لحكمة أم لا؟ فإن كان ذلك لحكمة فمن المعلوم أنه ما أتى بجرم في الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب في مقابلة

ذلك الجرم، وإن كان ذلك لكثرة الثواب فالإله الحكيم الرحيم قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والأسقام الكريهة، وحينئذٍ لا يبقى في تلك الأمراض والآفات فائدة، وهذه كلمات ظاهرة جلية وهي دالة على أن أفعال ذي الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد، والحق الصريح أنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

المسألة الثالثة: لفظ الآية يدل على أن ذلك النصب والعذاب إنما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الأول عبارة عما حصل في بدنه من الأمراض، وعلى القول الثاني عبارة عن الأحزان الحاصلة في قلبه بسبب إلقاء الوساوس، وعلى التقديرين فيلزم إثبات الفعل للشيطان، وأجاب أصحابنا رحمهم الله بأنا لا ننكر إثبات الفعل للشيطان لكنا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم.

أما قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فالمعنى أنه لما شكى من الشيطان، فكأنه سأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله إليه بأن قال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ والركض هو الدفع القوي بالرجل، ومنه ركضك الفرس، والتقدير قلنا له: اركض برجلك، قيل: إنه ضرب رجله تلك الأرض فنبعت عين فقيل: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك، وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل فيه وشرب منه. والمفسرون قالوا: نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى، فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه بإذن الله، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ فقد قيل: هُمْ عين أهله وزيادة مثلهم، وقيل: غيرهم مثلهم، والأول أولى لأنه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة، ثم اختلفوا فقال بعضهم: معناه أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء، وقال بعضهم: بل حضروا عنده بعد أن غابوا عنه واجتمعوا بعد أن تفرقوا. وقال بعضهم: بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة.

أما قوله: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فالأقرب أنه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك، وقال الحسن رحمه الله: المراد بهبة الأهل أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا.

ثم قال: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة، لا على سبيل اللزوم.

ثم قال: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يعني سلطنا البلاء عليه أولاً فصبر ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه إلى الآلاء والنعماء، تنبيهًا لأولي الألباب على أن من صبر ظفر، والمقصود منه التنبيه على ما وقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾[ص: ١٧] وقالت المعتزلة: قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يعني إنما فعلناها لهذه الأغراض

والمقاصد، وذلك يدل على أن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح والكلام في هذا الباب قد مر غير مرة.

أما قوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ فهو معطوف على ﴿ ارْكُضْ ﴾ والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك. واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه، وفي الخبر أنه حلف على أهله، ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله حلف عليها، ويبعد ما قيل إنها رغبته في طاعة الشيطان، ويبعد أيضًا ما روي أنها قطعت الذوائب عن رأسها لأن المضطر إلى الطعام يباح له ذلك بل الأقرب أنها خالفته في بعض المهمات، وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برئ، ولما كانت حسنة الخدمة له لا جرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها، وهذه الرخصة باقية، وعن النبي ﷺ أنه أتى بمجذم خبث بأمة فقال: «خُذُوا عِثْكَالاً فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ فَاضْرِبُوهُ بِهِ ضَرْبَةً» (١).

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ فإن قيل: كيف وجده صابرًا وقد شكى إليه، والجواب من وجوه الأول: أنه شكى من الشيطان إليه وما شكى منه إلى أحد، الثاني: أن الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئًا فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع، الثالث: أن الشيطان عدو، والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح في الصبر، ثم قال: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وهذا يدل على أن تشريف نعم العبد، إنما حصل لكونه أوابًا، وسمعت بعضهم قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ في حق سليمان عليه السلام تارة، وفي حق أيوب عليه السلام أخرى عظم الغم في قلوب أمة محمد ﷺ وقالوا: إن قوله تعالى: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ في حق سليمان تشريف عظيم، فإن احتجنا إلى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى نجد هذا التشريف لم نقدر عليه، وإن احتجنا إلى تحمل بلاء مثل أيوب لم نقدر عليه، فكيف السبيل إلى تحصيله؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الأنفال: ٤٠] والمراد أنك إن لم تكن ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ فأنا ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ ﴾ [الأنفال: ٤٠] وإن كان منك الفضول، فمني الفضل، وإن كان منك التقصير، فمني الرحمة والتيسير.

قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير: (عبدنا) على الواحد وهي قراءة ابن عباس، ويقول إن قوله:

---

(١) تقدم.

(عبدنا) تشريف عظيم، فوجب أن يكون هذا التشريف مخصوصًا بأعظم الناس المذكورين في هذه الآية وهو إبراهيم وقرأ الباقون: ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ قالوا لأن غير إبراهيم من الأنبياء قد أجري عليه هذا الوصف فجاء في عيسى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] وفي أيوب: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ [ص: ٤٤] وفي نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] فمن قرأ (عبدنا) جعل إبراهيم وحده عطف بيان له، ثم عطف ذريته على (عبدنا) وهي إسحاق ويعقوب، ومن قرأ ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ جعل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عطف بيان لعبادنا.

المسألة الثانية: تقدير الآية كأنه تعالى قال: فاصبر على ما يقولون واذكر عبادنا داود إلى أن قال: واذكر عبادنا إبراهيم أي واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقي في النار، وصبر إسحاق للذبح، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره. ثم قال: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، واعلم أن اليد آلة لأكثر الأعمال والبصر آلة لأقوى الإدراكات، فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر. إذا عرفت هذا فنقول: النفس الناطقة الإنسانية لها قوتان عاملة وعالمة، أما القوة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله، وأما القوة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة الله، وما سوى هذين القسمين من الأعمال والمعارف فكالعبث والباطل، فقوله: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ إشارة إلى هاتين الحالتين.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿بِخَالِصَةٖ﴾ قرئ بالتنوين والإضافة فمن نون كان التقدير أخلصناهم أي جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهي ذكرى الدار، ومن قرأ بالإضافة فالمعنى بما خلص من ذكرى الدار، يعني أن ذكرى الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله، فالمعنى إنا أخلصناهم بسبب ما خلص من هذا الذكر.

المسألة الثانية: في ذكرى الدار وجوه الأول: المراد أنهم استغرقوا في ذكرى الدار الآخرة وبلغوا في هذا الذكر إلى حيث نسوا الدنيا، الثاني: المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم في الدار الآخرة، الثالث: المراد أنه تعالى أبقى لهم الذكر الجميل في الدنيا وقبل دعاءهم في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ أي المختارين من أبناء جنسهم والأخياء جمع خير أو خير على التخفيف كأموات في جمع ميت أو ميت، واحتج العلماء بهذه الآية في إثبات عصمة الأنبياء قالوا، لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم أخيارًا على الإطلاق، وهذا يعم حصول الخيرية في جميع الأفعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الإجمال.

ثم قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ وهم قوم آخرون من الأنبياء تحملوا الشدائد في دين الله، وقد ذكرنا الكلام في شرح هذه الأسماء وفي صفات هؤلاء الأنبياء في

سورة الأنبياء وفي سورة الأنعام، فلا فائدة في الإعادة، وههنا آخر الكلام في قصص الأنبياء في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

اعلم أن في قوله: ﴿ذِكْرٌ﴾ وجهين الأول: أنه تعالى إنما شرح ذكر أحوال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تمم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقًا آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال، وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر، لا جرم قال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾، ثم شرع في تقرير الباب الثاني فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما أن المصنف إذا تمم كلامًا قال: هذا باب، ثم شرع في باب آخر، وإذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر قال: هذا وقد كان كيت وكيت، والدليل عليه أنما لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ [ص: ٥٥]الوجه الثاني في التأويل: أن المراد هذا شرف وذكر جميل لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام يذكرون به أبدًا، والأول هو الصحيح.

أما قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

فاعلم أنه تعالى لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبي ﷺبأن وصفوه بأنه ساحر كذاب، وقالوا له على سبيل الاستهزاء ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦]فعند هذا أمر محمدًا بالصبر على تلك السفاهة، وبين أن ذلك الصبر لازم من وجهين الأول: أنه تعالى لما بين أن الأنبياء المتقدمين صبروا على المكاره والشدائد، فيجب عليك أن تقتدي بهم في هذا المعنى، الثاني: أنه تعالى بين في هذه الآية أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا، وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى، وهذا نظم حسن وترتيب لطيف.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ المآب المرجع. واحتج القائلون بقدم الأرواح بهذه الآية، وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع، ووجه الاستدلال أن لفظ الرجوع إنما يصدق لو كانت هذه الأرواح موجودة قبل الأجساد، وكانت في حضرة جلال الله ثم تعلقت بالأبدان، فعند انفصالها عن الأبدان يسمى ذلك رجوعًا وجوابه: أن هذا إن دل فإنما يدل على أن الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان، ولا يدل على قدم الأرواح.

ثم قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ وهو بدل من قوله: ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ثم قال: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تأويل هذا اللفظ وجوهًا الأول: قال الفراء: معناه مفتحة لهم

أبوابها، والعرب تجعل الألف واللام خلفًا من الإضافة، تقول العرب: مررت برجل حسن الوجه، فالألف واللام في الوجه بدل من الإضافة، والثاني: قال الزجاج: المعنى: (مفتحة لهم الأبواب) منها، الثالث: قال صاحب (الكشاف): ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ بدل من الضمير، وتقديره مفتحة هي الأبواب، كقولك: ضرب زيد اليد والرجل، وهو من بدل الاشتمال.

المسألة الثانية: قرئ: (جنات عدن مفتحة) بالرفع على تقدير أن يكون قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ مبتدأ و﴿مُّفَتَّحَةً﴾ خبره، وكلاهما خبر مبتدأ محذوف، أي هو (جناتُ عَدنٍ مُفتَّحةٌ لهم).

المسألة الثالثة: اعلم أنه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة في هذه الآية أشياء الأول: أحوال مساكنهم، فقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يدل على أمرين أحدهما: كونها جنات وبساتين والثاني: كونها دائمة آمنة من الانقضاء.

وفي قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ وجوه الأول: أن يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها وحيوه بالسلام، فيدخل كذلك محفوفًا بالملائكة على أعز حال وأجمل هيئة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. الثاني: أن تلك الأبواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم، وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم، الثالث: المراد من هذا الفتح، وصف تلك المساكن بالسعة، ومسافرة العيون فيها، ومشاهدة الأحوال اللذيذة الطيبة.

ثم قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: أنه تعالى ذكر في هذه الآية كونهم متكئين في الجنة، وذكر في سائر الآيات كيفية ذلك الاتكاء، فقال في آية: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦] وقال في آية أخرى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦].

البحث الثاني: قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ حال قدمت على العامل فيها وهو قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ والمعنى يدعون في الجنات ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ ثم قال: ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ والمعنى بألوان الفاكهة وألوان الشراب، والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير، والسبب في ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة، فرغبهم الله تعالى فيه.

ولما بين تعالى أمر المسكن وأمر المأكول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح، فقال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ وقد سبق تفسيره في سورة والصافات، وبالجملة فالمعنى كونهن قاصرات عن غيرهم مقصورات القلب على محبتهم، وقوله: ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي على سن واحد، ويحتمل كون الجواري أترابًا، ويحتمل كونهن أترابًا للأزواج، قال القفال: والسبب في اعتبار هذه الصفة، أنهن لما تشابهن في الصفة والسن والحلية كان الميل إليهن على السوية، وذلك يقتضي عدم الغيرة.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ يعني أن الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة، ثم إنه تعالى أخبر عن دوام الثواب فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين، وصف بعده عقاب الطاغين، ليكون الوعيد مذكورًا عقيب الوعد، والترهيب عقيب الترغيب.

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال النار أنواعًا فالأول: مرجعهم ومآبهم، فقال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وهذا في مقابلة قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩] فبين تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال المتقين، واختلفوا في المراد بالطاغين، فأكثر المفسرين حملوه على الكفار، وقال الجبائي: إنه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفارًا أو لم يكونوا كذلك، واحتج الأولون بوجوه الأول: أن قوله: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ يقتضي أن يكون مآبهم شرًّا من مآب غيرهم، وذلك لا يليق إلا بالكفار، الثاني: أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ وذلك لا يليق إلا بالكفار، لأن الفاسق لا يتخذ المؤمن سخريًّا، الثالث: أنه اسم ذم، والاسم المطلق محمول على الكامل، والكامل في الطغيان هو الكافر، واحتج الجبائي على صحة قوله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] وهذا يدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل في حق صاحب الكبيرة، ولأن كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى، إذا عرفت هذا فنقول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى أن الذين طغوا وكذبوا رسلي لهم شر مآب، أي شر مرجع ومصير، ثم قال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ والمعنى أنه تعالى لما حكم بأن الطاغين لهم شر مآب فسره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ ثم قال: ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وهو كقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] شبه الله ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فيه وجهان الأول: أنه على التقديم والتأخير، والتقدير هذا حميم وغساق

فليذوقوه، الثاني: أن يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه، ثم يبتدئ فيقول: حميم وغساق.

المسألة الثانية: الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه الأول: أنه الذي يغسق من صديد أهل النار، يقال: غسقت العين إذا سال دمعها. وقال ابن عمر هو القيح الذي يسيل منهم يجتمع فيسقونه، الثاني: قيل الحميم يحرق بحره، والغساق يحرق ببرده، وذكر الأزهري: أن الغاسق البارد، ولهذا قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار، الثالث: أن الغساق المنتن حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة في المشرق لأنتنت أهل المغرب، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لأنتنت أهل المشرق، الرابع: قال كعب: الغساق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية.

المسألة الثالثة: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف، قال أبو علي الفارسي الاختيار التخفيف لأنه إذا شدد لم يخل من أن يكون اسمًا أو صفة، فإن كان اسمًا فالأسماء لم تجئ على هذا الوزن إلا قليلاً، وإن كان صفة فقد أقيم مقام الموصوف والأصل أن لا يجوز ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو (وأُخَرُ) بضم الألف على جمع أخرى أي أصناف أخر من العذاب، وهو قراءة مجاهد، والباقون (آَخَرُ) على الواحد أي عذاب آخر، أما على قراءة الأولى فقوله: (وأُخَرُ) أي ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق، أي من مثله في الشدة والفظاعة، أزواج أي أجناس، وأما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب أو مذوق آخر، وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروبًا أو صفة للثلاثة وهم: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾. قال صاحب (الكشاف): وقرئ (من شِكْلِه) بالكسر وهي لغة، وأما الغنج فبالكسر لا غير.

واعلم أنه تعالى لما وصف مسكن الطاغين ومأكولهم حكى أحوالهم الذين كانوا أحباء لهم في الدنيا أولاً، ثم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا ثانيًا، أما الأول: فهو قوله: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ واعلم أن هذا حكاية كلام رؤساء أهل النار يقوله بعضهم لبعض بدليل أن ما حكى بعد هذا من أقوال الأتباع وهو قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾، وقيل: إن قوله: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم، وقوله: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ كلام الرؤساء، وقوله: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم في الجهل والضلال، ومعنى اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها، والقحمة الشدة.

وقوله تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ دعاء منهم على أتباعهم، يقول الرجل لمن يدعو له: مرحبًا، أي

أتيت رحبًا في البلاد لا ضيقًا أو رحبت بلادك رحبًا، ثم يدخل عليه كلمة لا في دعاء السوء، وقوله: ﴿بِهِمْۚ﴾ بيان للمدعو عليهم أنهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ﴾ [الأعراف: ٣٨] قالوا أي الأتباع: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْۖ﴾ يريدون أن الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به، وعللوا ذلك بقولهم: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ والضمير للعذاب أو لصليهم، فإن قيل: ما معنى تقديمهم العذاب لهم؟ قلنا الذي أوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢] إلا أن الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل: أنتم قدمتموه لنا، فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم، والضمير في قوله: ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ كناية عن الطغيان الذي دل عليه قوله: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وقوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: بئس المستقر والمسكن جهنم، ثم قالت الأتباع: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفًا ومعناه ذا ضعف ونظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وكذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] فإن قيل كل مقدار يفرض من العذاب فإن كان بقدر الاستحقاق لم يكن مضاعفًا، وإن كان زائدًا عليه كان ظالمًا وإنه لا يجوز. قلنا: المراد منه قوله عليه السلام: «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1] والمعنى أنه يكون أحد القسمين عذاب الضلال، والثاني عذاب الإضلال، والله أعلم.

وهاهنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحبابًا لهم في الدنيا، وأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا فهو قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ يعني أن الكفار إذا نظروا إلى جوانب جهنم فحينئذ يقولون: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه بهم وسموهم من الأشرار، إما بمعنى الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشرارًا ثم قالوا: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (من الأشرار اتخذناهم) بوصل ألف ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ والباقون بفتحها على الاستفهام، قال أبو عبيد: وبالوصل يقرأ لأن الاستفهام متقدم في قوله: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾، ولأن المشركين لا يشكون في اتخاذهم المؤمنين في الدنيا سخريًا، لأنه تعالى قد أخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ [المؤمنون: ١١٠] فكيف يحسن أن يستفهموا عن شيء علموه؟ أجاب الفراء عنه بأن قال: هذا من الاستفهام الذي معناه التعجيب والتوبيخ، ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشيء المعلوم، أما

(١) تقدم.

وجه قول من ألحق الهمزة للاستفهام أنه لا بد من المصير إليه ليعادل قوله: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بأم في قوله: ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ﴾ فإن قيل: فما الجملة المعادلة لقوله: ﴿ أَمْ زَاغَتْ﴾ على القراءة الأولى؟ قلنا: إنها محذوفة والمعنى المقصودون هم أم زاغت عنهم الأبصار.

المسألة الثانية: قرأ نافع (سخريا) بضم السين والباقون بكسرها، وقيل هما بمعنى واحد وقيل بالكسر هو الهزء وبالضم هو التذليل والتسخير.

المسألة الثالثة: اختلفوا في نظم الآية على قولين بناء على القراءتين المذكورتين أما القراءة على سبيل الإخبار فالتقدير ما لنا لا نراهم حاضرين لأجل أنهم لحقارتهم تركوا، أو لأجل أنهم زاغت عنهم الأبصار، ووقع التعبير عن حقارتهم بقولهم: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ وأما القراءة على سبيل الاستفهام، فالتقدير لأجل أنا قد اتخذناهم سخريًا وما كانوا كذلك فلم يدخلوا النار، أم لأجل أنه زاغت عنهم الأبصار، واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال: إن ذلك الذي حكينا عنهم لحق لا بد وأن يتكلموا به، ثم بين أن الذي حكيناه عنهم ما هو، فقال: ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصمًا لأن قول الرؤساء: ﴿ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ وقول الأتباع ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ من باب الخصومة.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى في أول السورة أن محمدًا ﷺ لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا إله واحد، وإلى أنه رسول مبين من عند الله، وإلى أن القول بالقيامة حق، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب واستهزءوا بقوله، ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين الأول: ليصير ذلك حاملاً لمحمد ﷺ على التأسي بالأنبياء عليهم السلام في الصبر على سفاهة القوم، والثاني: ليصير ذلك رادعًا للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعيًا إلى قبول الإيمان، ولما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أول السورة وهي تقدير التوحيد والنبوة والبعث، فقال: قل يا محمد: إنما أنا منذر ولا بد من الإقرار بأنه ما من إله إلا الله الواحد القهار، فإن الترتيب الصحيح أن نذكر شبهات الخصوم أولاً ويجاب عنها ثم نذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب، فكذا ههنا أجاب الله تعالى عن شبهتهم ونبه على فساد كلماتهم، ثم ذكر عقيبه ما يدل على صحة هذه المطالب، لأن إزالة ما لا ينبغي مقدمة على إثبات ما ينبغي، وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه، ومن نظر في هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم.

أما قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ يعني أبلغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد، وأحوال ثواب من أقرَّ بها، وكما بدأ في أول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [ص: ٥] فكذلك بدأ هاهنا بتقرير التوحيد فقال: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ وفي هذه الكلمة إشارة إلى الدليل الدال على كونه منزهًا عن الشريك والنظير، وبيانه أن الذي يجعل شريكًا له في الإلهية، إما أن يكون موجودًا قادرًا على الإطلاق على التصرف في العالم أو لا يكون كذلك، بل يكون جمادًا عاجزًا.

والأول: باطل لأنه لو كان شريكه قادرًا على الإطلاق لم يكن هو قادرًا قاهرًا، لأن بتقدير أن يريد هو شيئًا ويريد شريكه ضد ذلك الشيء لم يكن حصول أحد الأمرين أولى من الآخر، فيفضي إلى اندفاع كل واحد منهما بالآخر، وحينئذ لا يكون قادرًا قاهرًا بل كان عاجزًا ضعيفًا، والعاجز لا يصلح للإلهية، فقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ إشارة إلى أن كونه قهارًا يدل على كونه واحدًا.

وأما الثاني: وهو أن يقال إن الذي جعل شريكًا له لا يقدر على شيء ألبتة مثل هذه الأوثان، فهذا أيضًا فاسد لأن صريح العقل يحكم بأن عبادة الإله القادر القاهر أولى من عبادة الجماد الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا، فقوله: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ يدل على هذه الدلائل، واعلم أن كونه سبحانه قهارًا مشعر بالترهيب والتخويف، فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ فكونه ربًّا مشعر بالتربية والإحسان والكرم والجود، وكونه غفارًا مشعر بالترغيب، وهذا الموجود هو الذي تجب عبادته، لأنه هو الذي يخشى عقابه ويرجى فضله وثوابه. ونذكر طريقة أخرى في تفسير هذه الآيات، فنقول: إنه تعالى ذكر من صفاته في هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزيز والغفار، أما كونه واحدًا فهو الذي وقع الخلاف فيه بين أهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحدًا بكونه قهارًا وقد بينا وجه هذه الدلالة إلا أن كونه قهارًا وإن دل على إثبات الوحدانية إلا أنه يوجب الخوف الشديد فأردفه تعالى بذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرم.

أولها: كونه ربًّا للسموات والأرض وما بينهما وهذا إنما تتم معرفته بالنظر في آثار حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة، وذلك بحر لا ساحل له فإذا تأملت في آثار حكمته ورحمته في خلق هذه الأشياء عرفت حينئذ تربيته للكل وذلك يفيد الرجاء العظيم.

وثانيها: كونه عزيزًا والفائدة في ذكره أن لقائل أن يقول: هب أنه رب ومربي وكريم إلا أنه غير قادر على كل المقدورات، فأجاب عنه بأنه عزيز أي قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولا يغلبه شيء.

وثالثها: كونه غفارًا والفائدة في ذكره أن لقائل أن يقول: هب أنه رب ومحسن ولكنه يكون كذلك في حق المطيعين المخلصين في العبادة، فأجاب عنه بأن من بقي على الكفر سبعين سنة ثم تاب فإني أزيل اسمه عن ديوان المذنبين وأستر عليه بفضلي ورحمتي جميع ذنوبه وأوصله إلى درجات الأبرار، واعلم أنه تعالى لما بين ذلك قال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوهًا فيمكن أن يكون المراد أن القول بأن الإله واحد نبأ عظيم، ويمكن أن يقال المراد أن القول بالنبوة نبأ عظيم، ويمكن أن يقال المراد أن القول بإثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم، وذلك لأن هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة في أول السورة ولأجلها أنجز الكلام إلى كل ما سبق ذكره، ويمكن أيضًا أن يكون المراد كون القرآن معجزًا لأن هذا أيضًا قد تقدم ذكره في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] وهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ما قال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ترغيب في النظر والاستدلال ومنع من التقليد، لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل وقع في أعظم أبواب الشقاوة فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام وأن لا يكتفي بالمساهلة والمسامحة.

أما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فاعلم أنه تعالى رغب المكلفين في الاحتياط في هذه المسائل الأربعة، وبالغ في ذلك الترغيب من وجوه: الأول: أن كل واحد منها نبأ عظيم، والنبأ العظيم يجب الاحتياط فيه، الثاني: أن الملأ الأعلى اختصموا وأحسن ما قيل فيه أنه تعالى لما قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] والمعنى أنهم قالوا: أي فائدة في خلق البشر مع أنهم يشتغلون بقضاء الشهوة، وهو المراد من قوله: ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وبإمضاء الغضب وهو المراد من قوله: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وتقرير هذا الجواب، والله أعلم، أن يقال إن المخلوقات بحسب القسمة العقلية على أقسام أربعة: أحدها: الذين حصل لهم العقل والحكمة، ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط، ثانيها: الذين حصل لهم النفس والشهوة، ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهي البهائم، وثالثها: الأشياء الخالية عن القسمين، وهي الجمادات، وبقي في التقسيم قسم رابع: وهو الذي حصل فيه الأمران وهو الإنسان والمقصود من تخليق الإنسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر والتمرد فإن كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة، فقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن هذا النوع من المخلوقات، وإن حصلت فيه الشهوة الداعية إلى الفساد والغضب الحامل له على

سفك الدماء، لكن حصل فيه العقل الذي يدعوه إلى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة، وإذا ثبت أنه تعالى إنما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الإنسان أن يسعى في تحصيل هذه الصفات، وأن يجتهد في اكتسابها، وأن يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والإصرار والتكبر، وإذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعيًا له إلى الجد والاجتهاد في اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة زاجرًا له عن أضدادها ومقابلاتها، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام في هذا المقام. فإن قيل: الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فإن المخاصمة مع الله كفر، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه، ولما أمر الله تعالى محمدًا ﷺ لم يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني أنا ما عرفت هذه المخاصمة إلا بالوحي، وإنما أوحى الله إليّ هذه القصة لأنذركم بها ولتصير هذه القصة حاملة لكم على الإخلاص في الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

اعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمدًا عليه السلام بسبب الحسد والكبر، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجرًا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال، ومنعهم عن الإصرار والتقليد وذكر في تقريره أمورًا أربعة أولها: أنه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه، والثاني: أن قصة سؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر، الثالث: أن إبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجل الحسد

والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنهما، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات، واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها في سور كثيرة، فلا فائدة في الإعادة إلا ما لا بد منه.

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ **سؤالات:**

الأول: أن هذا النظم إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين، كما إذا قيل أنا متخذ سوارًا من ذهب، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة.

الثاني: ذكر هاهنا أنه خلق البشر من طين، وفي سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الأشياء كقوله تعالى في آدم إنه خلقه من تراب وكقوله: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وكقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

الثالث: أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خلق بشرًا من طين، لم يقولوا شيئًا، وفي الآية الأخرى وهي التي قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض، والجواب عن الأول أن التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولاً أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية، فلما قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات، إنما أخلقه من الطين، والجواب عن الثاني أن المادة البعيدة هو التراب، وأقرب منه الطين، وأقرب منه الحمأ المسنون، وأقرب منه الصلصال فثبت أنه لا منافاة بين الكل، والجواب عن الثالث أنه في الآية المذكورة في سورة البقرة بين لهم أنه يخلق في الأرض خليفة، وبالآية المذكورة ههنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين.

المسألة الثانية: قال ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين التسوية أولاً، ثم نفخ الروح ثانيًا، وهذا حق لأن الإنسان مركب من جسد ونفس.

أما الجسد فإنه إنما يتولد من المني، والمني إنما يتولد من دم الطمث وهو إنما يتولد من الأخلاط الأربعة، وهي إنما تتولد من الأركان الأربعة، ولا بد في حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها، ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها، ومن رعاية المدة التي في مثلها حصل ذلك المزاج الذي لأجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة.

وأما النفس فإليها الإشارة بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوي قدسي، وذهبت الحلولية إلى أن كلمة (مِنْ) تدل على التبعيض، وهذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى، وهذا غاية الفساد، لأن كل ما له جزء وكل، فهو مركب وممكن الوجود لذاته ومحدث.

وأما كيفية نفخ الروح، فاعلم أن الأقرب أن جوهر النفس عبارة عن أجسام شفافة نورانية، علوية العنصر، قدسية الجوهر، وهي تسري في البدن سريان الضوء في الهواء، وسريان النار في

الفحم، فهذا القدر معلوم. أما كيفية ذلك النفخ فمما لا يعلمه إلا الله تعالى.

المسألة الثالثة: الفاء في قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ تدل على أنه كما تم نفخ الروح في الجسد توجه أمر الله عليهم بالسجود، وأما أن المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض، أو دخل فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل، والروح الأعظم المذكور في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]ففيه مباحث عميقة. وقال بعض الصوفية: الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم، هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية، فإنها في بدن الإنسان خوادم النفس الناطقة، وإبليس الذي لم يسجد هو القوة الوهمية التي هي المنازعة لجوهر العقل، والكلام فيه طويل. وأما بقية المسائل وهي: كيفية سجود الملائكة لآدم، وأن ذلك هل يدل على كونه أفضل من الملائكة أم لا، وأن إبليس هل كان من الملائكة أم لا، وأنه هل كان كافرًا، أصليًا أم لا، فكل ذلك تقدم في سورة البقرة وغيرها.

المسألة الرابعة: احتج من أثبت الأعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ في إثبات يدين لله تعالى، بأن قالوا: ظاهر الآية يدل عليه، فوجب المصير إليه، والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية، فوجب القطع به.

واعلم أن الدلائل الدالة على نفي كونه تعالى جسمًا مركبًا من الأجزاء والأعضاء، قد سبقت إلا أنا نذكر ههنا نكتًا جارية مجرى الإلزامات الظاهرة فالأول: أن من قال: إنه مركب من الأعضاء والأجزاء، فإما أن يثبت الأعضاء التي ورد ذكرها في القرآن ولا يزيد عليها، وإما أن يزيد عليها، فإن كان الأول لزمه إثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها في القبح، لأنه يلزمه إثبات وجه بحيث لا يوجد منه إلا مجرد رقعة الوجه لقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] ويلزمه أن يثبت في تلك الرقعة عيونًا كثيرة لقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]وأن يثبت جنبًا واحدًا لقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]وأن يثبت على ذلك الجنب أيدي كثيرة لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١]وبتقدير أن يكون له يدان فإنه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله ﷺ: «**الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ**» وأن يثبت له ساقًا واحدًا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]فيكون الحاصل من هذه الصورة، مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة، وجنب واحد ويكون عليه أيد كثيرة وساق واحد، ومعلوم أن هذه الصورة أقبح الصور، ولو كان هذا عبدًا لم يرغب أحد في شرائه، فكيف يقول العاقل إن رب العالمين موصوف بهذه الصورة.

وأما القسم الثاني: وهو أن لا يقتصر على الأعضاء المذكورة في القرآن، بل يزيد وينقص على وفق التأويلات، فحينئذ يبطل مذهبه في الحمل على مجرد الظواهر، ولا بد له من قبول دلائل العقل.

الحجة الثانية: في إبطال قولهم إنهم إذا أثبتوا الأعضاء لله تعالى، فإن أثبتوا له عضو الرجل فهو

رجل وأن أثبتوا له عضو النساء فهو أنثى، وإن نفوهما فهو خصي أو عنين، وتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

الحجة الثالثة: أنه في ذاته سبحانه وتعالى، إما أن يكون جسمًا صلبًا لا ينغمز ألبتة، فيكون حجرًا صلبًا، وإما أن يكون قابلاً للانغماز، فيكون لينًا قابلاً للتفرق والتمزق. وتعالى الله عن ذلك.

الحجة الرابعة: أنه إن كان بحيث لا يمكنه أن يتحرك عن مكانه، كان كالزمن المعقد العاجز، وإن كان بحيث يمكنه أن يتحرك عن مكانه، كان محلاً للتغيرات، فدخل تحت قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

الحجة الخامسة: إن كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت، وإن كان يفعل هذه الأشياء، كان إنسانًا كثير التهمة محتاجًا إلى الأكل والشرب والوقاع وذلك باطل.

الحجة السادسة: أنهم يقولون إنه ينزل كل ليلة من العرش إلى السماء الدنيا، فنقول لهم حين نزوله: هل يبقى مدبرًا للعرش ويبقى مدبرًا للسماء الدنيا حين كان على العرش، وحينئذ لا يبقى في النزول فائدة، وإن لم يبق مدبرًا للعرش فعند نزوله يصير معزولاً عن إلهية العرش والسموات.

الحجة السابعة: أنهم يقولون إنه تعالى أعظم من العرش، وإن العرش لا نسبة لعظمته إلى عظمة الكرسي، وعلى هذا الترتيب حتى ينتهي إلى السماء الدنيا، فإذا كان كذلك كانت السماء الدنيا بالنسبة إلى عظمة الله كالذرة بالنسبة إلى البحر، فإذا نزل فإما أن يقال إن الإله يصير صغيرًا بحيث تسعه السماء الدنيا، وإما أن يقال إن السماء الدنيا تصير أعظم من العرش، وكل ذلك باطل.

الحجة الثامنة: ثبت أن العالم كرة، فإن كان فوق بالنسبة إلى قوم كان تحت بالنسبة إلى قوم آخرين وذلك باطل، وإن كان فوق بالنسبة إلى الكل، فحينئذ يكون جسمًا محيطًا بهذا العالم من كل الجوانب، فيكون إله العالم على هذا القول فلكًا من الأفلاك.

الحجة التاسعة: لما كانت الأرض كرة، وكانت السموات كرات، فكل ساعة تفرض الساعات فإنها تكون ثلث الليل في حق أقوام معينين من سكان كرة العوارض، فلو نزل من العرش في ثلث الليل وجب أن يبقى أبدًا نازلاً عن العرش، وأن لا يرجع إلى العرش ألبتة.

الحجة العاشرة: أنا إنما زيفنا إلهية الشمس والقمر لثلاثة أنواع من العيوب أولها: كونه مؤلفًا من الأجزاء والأبعاض، وثانيها: كونه محدودًا متناهيًا، وثالثها: كونه موصوفًا بالحركة والسكون والطلوع والغروب، فإذا كان إله المشبهة مؤلفًا من الأعضاء والأجزاء كان مركبًا، فإذا كان العرش كان محدودًا متناهيًا، وإن كان ينزل من العرش ويرجع إليه كان موصوفًا بالحركة والسكون، فهذه الصفات الثلاثة إن كانت منافية للإلهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها، وذلك

يبطل قول المشبهة، وإن لم تكن منافية للإلهية فحينئذ لا يقدر أحد على الطعن في إلهية الشمس والقمر.

الحجة الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ولفظ الأحد مبالغة في الوحدة، وذلك ينافي كونه مركبًا من الأجزاء والأبعاض.

الحجة الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨] ولو كان مركبًا من الأجزاء والأبعاض لكان محتاجًا إليها وذلك يمنع من كونه غنيًّا على الإطلاق، فثبت بهذه الوجوه أن القول بإثبات الأعضاء والأجزاء لله محال، ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى، عن هذه الأعضاء، فنقول ذكر العلماء في لفظ اليد وجوهًا الأول: أن اليد عبارة عن القدرة تقول العرب: ما لي بهذا الأمر من يد، أي من قوة وطاقة، قال تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] الثاني: اليد عبارة عن النعمة يقال: أيادي فلان في حق فلان ظاهرة، والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا، الثالث: أن لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان، هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ولقائل أن يقول: حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز، ويدل عليه وجوه الأول: أن ظاهر الآية يقتضي إثبات اليدين، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم إثبات قدرتين لله وهو باطل، والثاني: أن الآية تقتضي أن كون آدم مخلوقًا باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجودًا للملائكة، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقًا بالقدرة، لكن جميع الأشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما أن آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى، فكذلك إبليس مخلوق بيد الله تعالى، وعلى تقدير أن تكون اليد عبارة عن القدرة، لم تكن هذه العلة علة لكون آدم مسجودًا لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجودًا لآدم، وحينئذٍ يختل نظم الآية ويبطل، الثالث: أنه جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «كِلْتَا يَدَيْهِ يُمْنَى» (١) ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق بالقدرة.

وأما التأويل الثاني: وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضًا باطل لوجوه الأول: أن نعم الله تعالى كثيرة كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] وظاهر الآية يدل على أن اليد لا تزيد على الاثنتين الثاني: لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة لله فحينئذٍ لا يكون آدم مخلوقًا لله تعالى بل يكون مخلوقًا لبعض المخلوقات، وذلك بأن يكون سببًا لمزيد النقصان أولى من أن يكون سببًا لمزيد الكمال، الثالث: لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الإمارة)، باب: (فضيلة الإمام العادل) (٣/ ١٨/ ١٤٥٨)، والنسائي في كتاب (آداب القضاة)، باب: (فضل الحاكم العادل في حُكمه) (٤/ ٦٠٣)، حديث رقم (٥٣٩٤)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٦٠)، حديث رقم (٦٤٩٢)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، والحميدي في (مسنده) (٢/ ٢٦٨)، حديث رقم (٥٨٨)، جميعًا عن عمرو بن أوس... به.

قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] معناه تبارك الذي بنعمته الملك ولكان قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] معناه بنعمتك الخير ولكان قوله: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] معناه نعمتاه مبسوطتان، ومعلوم أن كل ذلك فاسد.

وأما التاويل الثالث: وهو قوله: إن لفظ اليد قد يذكر زيادة لأجل التأكيد، فنقول: لفظ اليد قد يستعمل في حق من يكون هذا العضو حاصلاً له وفي حق من لا يكون هذا العضو حاصلاً في حقه، أما الأول: فكقولهم في حق من جنى بلسانه: هذا ما كسبت يداك، والسبب في هذا أن محل القدرة هو اليد فأطلق اسم اليد على القدرة، وعلى هذا التقدير فيصير المراد من لفظ اليد القدرة، وقد تقدم إبطال هذا الوجه، وأما الثاني: فكقوله ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] وقوله: (بين يدي الساعة) إلا أنا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لا يقاس عليه ولا يكون مطردًا، فلا جرم لا يجوز أن يقال إن هذا المعنى إنما حصل بيد العذاب وبيد الساعة، ونحن نسلم أن قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] قد يجوز أن يراد به التأكيد والصلة، أما المذكور في هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وإن كان القياس في المجازات باطلاً فقد سقط كلامكم بالكلية، فهذا منتهى البحث في هذا الباب.

والذي تلخص عندي في هذا الباب أن السلطان العظيم لا يقدر على عمل شيء بيده إلا إذا كانت غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل، فإذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازًا عنه عند قيام الدلائل القاهرة. فهذا ما لخصناه في هذا الباب، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ فالمعنى: أستكبرت الآن أم كنت أبدًا من المتكبرين العالين، فأجاب إبليس بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فالمعنى أني لو كنت مساويًا له في الشرف لكان يقبح أمري بسجودي له فكيف وأنا خير منه، ثم بين كونه خيرًا منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين، فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيرًا من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة:

المقدمة الأولى: أن إبليس مخلوق من النار، يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

المقدمة الثانية: أن النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه الأول: أن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعدها عنه فوجب كون النار أفضل من الأرض، الثاني: أن النار خليفة الشمس والقمر في إضاءة هذا العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الأرض، فخليفتهما في الإضاءة أفضل من الأرض، الثالث: أن الكيفية الفاعلة الأصلية، إما الحرارة أو البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت، الرابع: الأرض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة، الخامس: النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة، السادس: النار خفيفة تشبه الروح

والأرض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض ولذلك فإن الأطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العنصرين الخفيفين أعون على تولد الأرواح، السابع: النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أفضل من الهابط، الثامن: أن أول بروج الفلك هو الحمل لأنه هو الذي يبدأ من نقطة الاستواء الشمالي، ثم إن الحمل على طبيعة النار وأشرف أعضاء الحيوان والقلب والروح وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضي، التاسع: أن الأجسام الأرضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخس، مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانية ومثاله أيضًا من الثياب الإبريسم وما يتخذ منه، وأما أن كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالأمر ظاهر، العاشر: أن القوة الباصرة قوة في غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها إلا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار، الحادي عشر: أن أشرف أجسام العالم الجسماني هو الشمس ولا شك أنه شبيه بالنار في صورته وطبيعته وأثره، الثاني عشر: أن النضج والهضم والحياة لا تتم إلا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج وتولدت المركبات، الثالث عشر: أن أقوى العناصر الأربعة في قوة الفعل هو النار وأكملها في قوة الانفعال هو الأرض والفعل فضل من الانفعال فالنار أفضل من الأرض. أما القائلون بتفضيل الأرض على النار فذكروا أيضًا وجوهًا، الأول: أن الأرض أمين مصلح فإذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كل ما أسلمته إليها، الثاني: أن الحس البصري أثنى على النار فليستمع ما يقوله الحس اللمسي، الثالث: أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفئ النار، وأما النار فإنها لا تؤثر في الأرض الخالصة.

وأما المقدمة الثالثة: فهي أن من كان أصله خيرًا من أصله فهو خير منه، فاعلم أن هذه المقدمة كاذبة جدًا وذلك لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين النزهة والأشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد، وأيضًا فهب أن اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضًا بجهة أخرى توجب الرجحان مثل إنسان نسيب عار عن كل الفضائل فإن نسبه يوجب رجحانه، إلا أن الذي لا يكون نسيبًا قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لا حد لها، فالمقدمة الكاذبة في القياس الذي ذكره إبليس هو هذه المقدمة، فإن قال قائل: هب أن إبليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة؟ وبيان هذا السؤال من وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ أمر والأمر لا يقتضي الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لا توجب العصيان فضلاً عن الكفر، وأيضًا فالذين يقولون: إن الأمر للوجوب، فهم لا ينكرون كونه محتملاً للندب احتمالاً ظاهرًا ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلاً عن الكفر.

الثاني: هب أنه للوجوب إلا أن إبليس ما كان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لا يدخل فيه إبليس .

الثالث: هب أنه يتناوله إلا أن تخصيص العام بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس، الرابع : هب أنه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأمورًا به إلا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه الكفر؟ الجواب : هب أن صيغة الأمر لا تدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم إليها من القرائن ما يدل على الوجوب، وههنا حصلت تلك القرائن وهي قوله تعالى : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ فلما أتى إبليس بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك القياس ليتوسل به إلى القدح في أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر . إذا عرفت هذا فنقول: إن إبليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ .

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيمًا ورد عقيب ما حكى عنه أنه خصص النص بالقياس، فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم، وقوله : ﴿مِنْهَا﴾ أي من الجنة أو من السموات، والرجيم المرجوم وفيه قولان :

القول الأول: أنه مجاز عن الطرد، لأن الظاهر أن من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد فإن قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله : ﴿رَجِيمٌ﴾ على الطرد لكان قوله بعد ذلك : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ تكرارًا والجواب من وجهين الأول: أنا نحمل الرجم على الطرد من الجنة أو من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله، والثاني : أنا نحمل الرجم على الطرد ونحمل قوله : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ على أن ذلك الطرد يمتد إلى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريرًا .

والقول الثاني: في تفسير الرجيم أن نحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب، والله أعلم . فإن قيل : كلمة (إلى) لانتهاء الغاية فقوله : ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقتضي انقطاع تلك اللعنة عند مجيء يوم الدين، أجاب صاحب (الكشاف) بأن اللعنة باقية عليه في الدنيا فإذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية .

واعلم أن إبليس لما صار ملعونًا قال : ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قيل : إنما طلب الإنظار إلى يوم يبعثون لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا نظر إلى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجيء يوم البعث لا يموت أيضًا فحينئذ يتخلص من الموت فقال تعالى : ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ومعناه إنك من المنظرين إلى يوم يعلمه الله ولا يعلمه أحد سواه، فقال إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ وهو قسم بعزة الله وسلطانه ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فههنا أضاف الإغواء إلى نفسه وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى : ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾[الحجر : ٣٩] فأضاف الإغواء إلى الله على ما هو مذهب الجبر وهذا يدل على أنه متحير في هذه المسألة .

وأما قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ .

ففيه فوائد:

الفائدة الأولى: قيل : غرض إبليس من ذكره هذا الاستثناء أن لا يقع في كلامه الكذب لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوي الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن إغواء عباد الله الصالحين ، فكأن إبليس قال : إنما ذكرت هذا الاستثناء لئلا يقع الكذب في هذا الكلام ، وعن هذا يقال : إن الكذب شيء يستنكف منه إبليس فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه؟ فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]؟ قلنا : إن إبليس لم يقل إني لم أقصد إغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وإن كان يقصد الإغواء إلا أنه لا يغويهم .

الفائدة الثانية: هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوي عباد الله المخلصين ، وقال تعالى في صفة يوسف : ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]فنصل من مجموع هاتين الآيتين أن إبليس ما أغوى يوسف عليه السلام ، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف عليه السلام من القبائح .

واعلم أن إبليس لما ذكر هذا الكلام قال الله تعالى : ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى : قرأ عاصم وحمزة ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ بالرفع ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ بالنصب ، والباقون بالنصب فيهما ؛ أما الرفع فتقديره فالحق قسمي ، وأما النصب فعلى القسم ، أي فبالحق ، كقولك والله لأفعلن . وأما قوله : ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ انتصب قوله : ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ بقوله : ﴿أَقُولُ﴾ .

المسألة الثانية : قوله : ﴿مِنكَ﴾ أي من جنسك ، وهم الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم ، فإن قيل قوله : ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لماذا؟ قلنا : يحتمل أن يؤكد به الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ ، أو الكاف في ﴿مِنكَ﴾ مع من تبعك ، ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحدًا .

المسألة الثالثة : احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة أن الكل بقضاء الله من وجوه الأول : أنه تعالى قال في حق إبليس : ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بأنه لا يؤمن ، فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذبًا وهو محال ، فكان صدور الإيمان منه محالاً مع أنه أمر به ، والثاني : أنه قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فالله تعالى علم منه أنه يغويهم ، وسمع منه هذه الدعوى ، وكان قادرًا على منعه عن ذلك ، والقادر على المنع إذا لم يمنع كان راضيًا به ، فإن قالوا : لعل ذلك المنع مفسد ، قلنا : هذا قول فاسد ، لأن ذلك المنع

يخلص إبليس عن الإضلال، ويخلص بني آدم عن الضلال، وهذا عين المصلحة، الثالث: أنه تعالى أخبر أنه يملأ جهنم من الكفرة، فلو لم يكفروا لزم الكذب والجهل في حق الله تعالى، الرابع: أنه لو أراد أن لا يكفر الكافر لوجب أن يبقى الأنبياء والصالحين، وأن يميت إبليس والشياطين، وحيث قلب الأمر علمنا أنه فاسد، الخامس: أن تكليف أولئك الكفار بالإيمان، يقتضي تكليفهم بالإيمان بهذه الآيات التي هي دالة على أنهم لا يؤمنون ألبتة، وحينئذ يلزم أن يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون ألبتة، وذلك تكليف بما لا يطاق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقًا كثيرة دالة على وجوب الاحتياط في طلب الدين، ثم قال عند الختم: هذا الذي أدعو الناس إليه يجب أن ينظر في حال الداعي، وفي حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل؛ أما الداعي وهو أنا فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجرًا ومالاً، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال ألبتة، وكان من الظاهر أنه ﷺ كان بعيدًا عن الدنيا عديم الرغبة فيها، وأما كيفية الدعوة فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا، والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله أولاً، ثم أدعوكم ثانيًا إلى تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به، يقوي ذلك قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وأمثاله، ثم أدعوكم ثالثًا إلى الإقرار بكونه موصوفًا بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة، ثم أدعوكم رابعًا إلى الإقرار بكونه منزهًا عن الشركاء والأضداد، ثم أدعوكم خامسًا إلى الامتناع عن عبادة هذه الأوثان، التي هي جمادات خسيسة ولا منفعة في عبادتها ولا مضرة في الإعراض عنها، ثم أدعوكم سابعًا إلى الإقرار بالبعث والقيامة: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] ثم أدعوكم ثامنًا إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، فهذه الأصول الثمانية، هي الأصول القوية المعتبرة في دين الله تعالى، ودين محمد ﷺ وبدائه العقول، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانية، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها، بل كل عقل سليم وطبع مستقيم، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. ولما بين هذه المقدمات قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد، وأبيتم قبول هذه البيانات التي ذكرناها، فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين في هذا الإعراض أو مخطئين، وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه في التخويف والترهيب، والله أعلم.

قال المصنف رحمة الله عليه: تم تفسير هذه السورة يوم الخميس في آخر الثلاثاء الثاني من شهر ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة، والحمد لله على آلائه ونعمائه، والصلاة على المطهرين من عباده في أرضه وسمائه، والمدح والثناء كما يليق بصفاته وأسمائه، والتعظيم التام لأنبيائه وأوليائه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

سورة صٓ

مكيةٌ في قول الجميع[(١)]، وهي ستٌّ وثمانون آية. وقيل: ثمان وثمانون آية[(٢)]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿صٓ﴾ قراءةُ العامة «صٓ» بجزم الدال على الوقف؛ لأنه حرفٌ من حروف الهجاء مثل: «الم» و«المر». وقرأ أبيّ بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم: «صادِ» بكسر الدال بغير تنوين[(٣)]. ولقراءته مذهبان: أحدهما: أنه من صادَى يُصادي إذا عارض، ومنه «فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى» [عبس:٦] أي: تعرَّض. والمصاداة المعارضة، ومنه الصَّدَى: وهو ما يُعارض الصوت في الأماكن الخالية.

فالمعنى: صادِ القرآنَ بعملك؛ أي: عارضه بعملك وقابله به، فاعمل بأوامره، وانتهِ عن نواهيه.

النحاس[(٤)]: وهذا المذهب يُروى عن الحسن أنه فسَّر به قراءته روايةً صحيحةً عنه[(٥)]، أن المعنى: أُتْله وتعرَّض لقراءته. والمذهب الآخرُ أن تكونَ الدالُ مكسورةً لالتقاء الساكنين. وقرأ عيسى بن عمر «صادَ» بفتح الدال[(٦)] مثله: «قافَ» و«نونَ» بفتح

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٧، وزاد المسير ٧/ ٩٦.

(٢) ذكرهما السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٩.

(٥) في النسخ: وعنه، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وقول الحسن أخرجه الطبري ٢٠/ ٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

آخرها. وله في ذلك ثلاثةُ مذاهب: أحدهنَّ أن يكون بمعنى: اتْلُ صادَ[١]. والثاني: أن يكون فُتِحَ لالتقاء الساكنين، واختار الفتحَ للإتباع، ولأنه أخفُّ الحركات. والثالث: أن يكون منصوباً على القَسَم بغير حرف؛ كقولك: اللهَ لأفعلنَّ، وقيل: نُصب على الإغراء.

وقيل: معناه: صادَ محمدٌ قلوب الخَلْق واستمالها حتى آمنوا به[٢].

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً: «صادٍ» بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضاً على حذف حرف القسَم، وهذا بعيدٌ، وإن كان سيبويه قد أجاز مثلَه. ويجوز أن يكون مشبهاً بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها[٣].

وقرأ هارونُ الأعور ومحمد بن السَّمَيْفَع: «صادُ» و«قافُ»[٤] [ق: ١] و«نونُ»[٥] [القلم: ١] بضمِّ آخرِهن؛ لأنه المعروفُ بالبناء في غالب الحال، نحو: منذُ وقط وقبلُ وبعدُ.

و«صٓ» إذا جعلته اسماً للسورة لم ينصرف؛ كما أنك إذا سمَّيتَ مؤنثاً بمذكر لا ينصرف وإن قلَّتْ حروفه[٦].

وقال ابن عباس وجابر بن عبد الله وقد سُئلا عن «صٓ» فقالا: لا ندري ما هي[٧]. وقال عكرمة: سأل نافعُ بن الأزرق ابنَ عباس عن «صٓ» فقال: «صٓ» كان بحراً بمكة، وكان عليه عرشُ الرحمن إذ لا ليل ولا نهار.

وقال سعيد بن جُبير: «صٓ» بحر يُحيي اللهُ به الموتى بين النَّفختين[٨].

---

(١) قوله: صاد، ليس في (م).

(٢) زاد المسير ٧/ ٩٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١.

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٩ و١٤٤ ونسبها للحسن.

(٥) زاد المسير ٨/ ٣٢٦، وستأتي في موضعها.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٠.

(٧) أخرجه عبد بن حُميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٩٦.

(٨) أورد هذا الخبر والذي قبله الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٦١، ثم قال: الله أعلم بصحة هذين =

وقال الضحاك: معناه: صدق الله[١]. وعنه: أن «صَ» قسمٌ أقسم اللهُ به، وهو من أسمائه تعالى. وقاله السدي، ورُوي عن ابن عباس[٢]. وقال محمد بن كعب: هو مفتاحُ أسماء[٣] الله تعالى: صمدٌ، وصانعُ المصنوعات، وصادقُ الوعد.

وقال قتادة: هو اسمٌ من أسماء الرحمن. وعنه أنه اسمٌ من أسماء القرآن. وقال مجاهد: هو فاتحة السورة[٤].

وقيل: هو مما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، وهو معنى القول الأوّل. وقد تقدَّم جميعُ هذا في «البقرة»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ خفض بواو القسم، والواو بدل من الباء[٦]؛ أقسم بالقرآن تنبيهاً على جلالة قدره؛ فإنَّ فيه بيانَ كل شيء، وشفاءً لما في الصدور، ومعجزةً للنبيِّ ﷺ.

﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ خفض على النعت، وعلامة خفضه الياء، وهو اسم معتلٌّ، والأصل فيه: ذَوَي على فَعَل[٧].

قال ابن عباس: ومقاتل: معنى «ذِي الذِّكْرِ»: ذي البيان[٨]. الضحاك: ذي

= الخبرين. ونافع بن الأزرق من رؤوس الخوارج له أسئلة عن ابن عباس أخرج الطبراني بعضها في المعجم الكبير. لسان الميزان ٦/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٦ .

(٣) في النسخ الخطية: اسم، والمثبت من (م) .

(٤) هذه الأقوال في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٧٣ .

(٥) ١/ ٢٣٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٠ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٧٥، وزاد المسير ٧/ ٩٨ عن قتادة، وفيهما وفي تفسير الطبري ٢٠/٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩١ أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: معناه: ذي الشرف .

الشرف[1]، أي: مَن آمنَ به كان شرفاً له في الدارين؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: شرفكم. وأيضاً القرآنُ شريفٌ في نفسه، لإعجازه واشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره.

وقيل: «ذِي الذِّكْرِ» أي: فيه ذِكرُ ما يُحتاج إليه من أمر الدين. وقيل: «ذِي الذِّكْرِ» أي: فيه ذكرُ أسماء الله وتمجيده[2]. وقيل: أي: ذي الموعظة والذِّكر.

وجوابُ القسم محذوفٌ. واختلف فيه على أوجه: فقيل جوابُ القسم «صَ»؛ لأن معناه: حقّ، فهي جواب لقوله: «وَالْقُرآنِ» كما تقول: حقّاً واللهِ، نزل واللهِ، وجب واللهِ؛ فيكون الوقفُ من هذا الوجه على قوله: «وَالْقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ» حسَناً، وعلى «في عِزَّةٍ وَشِقَاق» تماماً؛ قاله ابن الأنباري[3]. وحكى معناه الثعلبي عن الفراء[4].

وقيل: الجواب ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ لأن «بل» نفيٌ لأمر سبقَ وإثباتٌ لغيره؛ قاله القتبيّ[5]؛ فكأنه قال: «والقُرآنِ ذي الذِّكْرِ بَل الذين كَفَرُوا في عِزَّة وشِقاق» عن قَبول الحقّ وعداوة لمحمد ﷺ. أو «وَالْقُرْآنِ ذي الذِّكْرِ» ما الأمرُ كما يقولون من أنك ساحرٌ كذَّاب؛ لأنهم يعرفونك بالصِّدق والأمانة، بل هم في تكبُّر عن قَبول الحقّ. وهو كقوله: ﴿قٓ . وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ [ق: ١-٢].

وقيل: الجواب «كَمْ أَهْلَكْنا» كأنه قال: والقرآنِ، لَكَمْ أهلكنا؛ فلما تأخّرت «كَمْ» حُذفت اللام منها؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ثم قال: «قَدْ أَفْلَحَ» أي: لقد

---

(١) هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما كما ذكرنا في التعليق السابق، وفي المصادر أن الضحاك قال: معناه: ذي التذكير.

(٢) مجمع البيان ٢٣/ ٩٦ بنحوه.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٦.

(٥) في تأويل مشكل القرآن ص٤٠٨ بنحوه.

أفلحَ. قال المهدوي: وهذا مذهبُ الفراء[(١)].

ابن الأنباري[(٢)]: فمن هذا الوجه لا يتمّ الوقف على قوله: «في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ».

وقال الأخفش[(٣)]: جواب القسم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١٤] ونحو منه قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:٩٧] وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الطارق:١ و٤]. ابن الأنباري[(٤)]: وهذا قبيحٌ؛ لأن الكلامَ قد طال فيما بينهما وكثُرت الآياتُ والقصص.

وقال الكسائي[(٥)]: جوابُ القسم قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٦٤]. ابن الأنباري[(٦)]: وهذا أقبحُ من الأوّل؛ لأن الكلامَ أشدُّ طولاً فيما بين القسم وجوابِه.

وقيل: الجواب قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٥٤]. وقال قتادة: الجوابُ محذوفٌ تقديره «وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» لَتُبعثُنَّ، ونحوه.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ﴾ أي: في تكبُّر وامتناع من قَبول الحق؛ كما قال جلّ وعزّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦] والعِزَّة عند العرب: الغَلَبة والقَهْر. يقال: مَن عَزَّ بَزَّ[(٧)]؛ يعني: مَن غَلَب سَلَب. ومنه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] أراد: غَلَبني.

وقال جرير:

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٧، وينظر زاد المسير ٧/ ٩٩ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠ .

(٣) في معاني القرآن ٢// ٦٧٠ .

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠ .

(٥) ذكره عنه البغوي في تفسيره ٤/ ٤٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٩٩ .

(٦) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦١ .

(٧) ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٣٠٧، والزمخشري في المستقصى ٢/ ٣٥٧ .

يَعُزُّ على الطريقِ بِمَنْكِبيهِ كما ابتَرَكَ الخليعُ على القِداحِ[١]

أراد: يغلب. ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: في إظهارِ خلافٍ ومُباينة. وهو من الشَّق، كأنّ هذا في شَقّ وذلك في شَقّ. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من قومٍ كانوا أمنعَ من هؤلاء. و«كم» لفظة التكثير ﴿فَنَادَوا﴾ أي: بالاستغاثة والتوبة. والنِّداء رفع الصوت، ومنه الخبر: «أَلْقِه على بلالٍ، فإنه أَنْدى منك صوتاً»[٣] أي: أرفع.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال الحسن: نادَوْا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل. النحاس[٤]: وهذا تفسيرٌ منه لقوله عز وجل: «ولات حين مَنَاصٍ» فأما إسرائيل فروى عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس «ولاتَ حين مَنَاص» قال: ليس بحين نَزْو ولا فِرار؛ قال: ضُبِط القومُ جميعاً[٥].

قال الكلبي: كانوا إذ قاتلوا فاضطُرُّوا قال بعضهم لبعض: مناص؛ أي: عليكم بالفِرار والهزيمة، فلما أتاهم العذابُ قالوا: مناص؛ فقال الله عز وجل: «ولاتَ حين مَنَاص».

قال القشيري: وعلى هذا فالتقدير: فنادَوا: مَناص، فحذف لدلالة بقيةِ الكلام عليه؛ أي: ليس الوقتُ وقتَ ما تُنادون به. وفي هذا نوع تحكُّم؛ إذْ يَبعُدُ أن يقال: كلُّ مَن هلك من القرون كانوا يقولون: مناص عند الاضطرار.

وقيل: المعنى «ولاتَ حين مَناص» أي: لا خلاص، وهو نصب بوقوع «لا» عليه. قال القشيري: وفيه نظر؛ لأنه لا معنى على هذا للواو في «ولاتَ حينَ مَناصٍ».

---

(١) ديوان جرير ١/ ٨٨.

(٢) ٢/ ٤١٩.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٧٨)، وأبو داود (٤٩٩) من حديث عبد الله بن زيد ﷺ.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٠، وما قبله منه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٣. والنَّزو: الوثوب. اللسان (نزو).

وقال الجُرجاني[١]: أي: فنادَوا حين لا مناص، أي: ساعةَ لا مَنْجى ولا فوت. فلما قدَّم «لا» وأخَّر «حين» اقتضى ذلك الواو، كما يقتضي الحال إذا جعل ابتداء وخبراً؛ مثل قولك: جاء زيد راكباً؛ فإذا جعلتَه مبتدأ وخبراً اقتضى الواو مثل: جاءني زيد وهو راكب فـ «حين» ظرف لقوله: «فَنَادَوْا». والمَناص بمعنى التأخّر والفرار والخَلاص؛ أي: نادَوا لطلب الخَلاص في وقتٍ لا يكون لهم فيه خلاص. قال الفرّاء:

أَمِنْ ذكر ليلى إذ نأتك تَنُوصُ[٢]

يقال: ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصاً ومَناصاً، أي: فَرَّ وراغ. النحاس[٣]: ويقال: ناص ينوص إذا تقدَّم.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، والنَّوْص الحمار الوحشيّ. واستناص، أي: تأخَّر؛ قاله الجوهري[٤].

وتكلَّم النحويون في «ولاتَ حينَ» وفي الوقف عليه، وكثَّر فيه أبو عُبيد[٥] القاسم ابن سلَّام في كتاب «القراءات» وكلُّ ما جاء به إلا يسيراً مردودٌ. فقال سيبويه[٦]: «لات» مُشبَّهة بليس والاسم فيها مضمر؛ أي: ليست أحيانُنا حينَ مناص. وحكَى أن من العرب من يرفع بها فيقول: ولات حِينُ مناص. وحكَى أن الرفعَ قليلٌ، ويكون

(١) ذكره عنه السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٣٥٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (نوص)، وما بعده منه، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٧٧، وفيه سلمى، بدل: ليلى. وعجزه: فتقصُرُ عنها خطوة أو تبوصُ.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٤٥٠.

(٤) في الصحاح (نوص).

(٥) في (م): أبو عبيدة، وهو خطأ.

(٦) في الكتاب ١/ ٥٧ – ٥٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥١، وما قبله وما بعده منه.

الخبرُ محذوفاً، كما كان الاسم محذوفاً في النصب؛ أي: ولات حينُ مناصٍ لنا. والوقفُ عليها عند سيبويه والفراء[١] «ولات» بالتاء، ثم تبتدئ «حينَ مَنَاص» وهو قولُ ابن كيسان والزجاج[٢]. قال أبو الحسن بن كيسان: والقول كما قال سيبويه؛ لأنه شبَّهها بليس، فكما يقال: ليست، يقال: لات. والوقوف عليها عند الكسائي بالهاء: ولاهْ. وهو قول المبرد محمد بن يزيد. وحكى عنه علي بن سليمان أن الحُجَّة في ذلك أنها [لا] دخلتْ عليها الهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال: ثُمَّة ورُبَّة[٣].

وقال القشيري: وقد يقال: ثُمَّتْ بمعنى: ثُمَّ، ورُبَّتْ بمعنى: رُبَّ؛ فكأنهم زادوا في «لا» هاء، فقالوا: لاه، كما قالوا في ثُمَّ: ثُمَّهْ، عند الوصل صارت تاء.

وقال الثعلبي: وقال أهل اللغة: و«لاتَ حينَ» مفتوحتان كأنهما كلمة واحدة، وإنما هي «لا» زِيدتْ فيها التاء نحو: رُبَّ ورُبَّتْ، وثُمَّ وثُمَّتْ. قال أبو زُبيد الطائي:

طَلَبُوا صُلْحَنا ولَاتَ أَوَانٍ فأَجَبْنَا أَنْ لَيس حينَ بقَاءِ

وقال آخر:

تذكَّر حُبَّ ليلى لَاتَ حِينا وأمسى الشَّيْبُ قد قَطَعَ القَرينا[٤]

ومِن العرب من يخفض بها؛ وأنشد الفراء:

فَلَتَعْرِفَنَّ خَلائقاً مَشْمُولَةً ولَتَنْدَمَنَّ ولَاتَ ساعةِ مَنْدَمِ[٥]

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش[٦] يذهبون إلى أن «ولاتَ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٨ .

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٢٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١، وما بين حاصرتين منه.

(٤) البيتان في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧ - ٣٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والخزانة ٤/ ١٦٩، والبيت الثاني غير منسوب.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧، والذي فيه قوله: ولات ساعةِ مندم. ثم قال الفراء: ولا أحفظ صدره. والبيت بتمامه في الخزانة ٤/ ١٧٤ وقوله: مشمولة، أي: مشؤومة، وأخلاق سوء، كما في الخزانة.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠ .

حينَ» التاء منقطعة من حين، ويقولون: معناها: وليست. وكذلك هو في المصاحف الجُدُدِ والعُتُقِ بقطع التاء من حين. وإلى هذا كان يذهب أبو عُبيدة مَعْمَر بن المُثنَّى(١). وقال أبو عُبيد القاسم بن سلّام: الوقفُ عندي على هذا الحرف «ولا»، والابتداء «تَحِينَ مَنَاص» فتكون التاء مع حين. وقال بعضهم: «لات» ثم يبتدئ فيقول: «حين مناص». قال المهدوي: وذكر أبو عُبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين، وهو غلطٌ عند النحويين، وهو خلافُ قول المفسرين. ومن حُجَّة أبي عُبيد أن قال: إنَّا لم نجد العربَ تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن؛ وأنشد لأبي وَجْزَةَ السعديّ:

العاطفُون تَحِينَ مامِنْ عاطِف والمُطْعِمون زمانَ أيْنَ المُطْعِمُ(٢)

وأنشد لأبي زُبيد الطائي:

طلبوا صُلحنا ولا تَأوانٍ فأجبنا أنْ ليس حين بقاءِ(٣)

فأدخل التاء في أوان. قال أبو عُبيد: ومِن إدخالهم التاء في الآن حديثُ ابن عمر وسأله رجلٌ عن عثمان بن عفان ﷺ، فذكر مَناقِبَه ثم قال: اذهبْ بها تَلَانَ معك(٤). وكذلك قول الشاعر:

نَوِّلِي قَبل نأي دَارِي جُمَانا وصِلِينا كما زَعمْتِ تَلانا(٥)

قال أبو عُبيد: ثم مع هذا كلِّه إني تعمَّدت النظر في الذي يقال له: الإمام ـ مصحف عثمان ـ فوجدتُ التاءَ مُتَّصلة مع حين قد كُتبت: تحين.

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ١٧٦ .

(٢) سلف ١/ ٤٧٨ .

(٣) سلف قريباً. وينظر الكلام السالف في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١ - ٤٥٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، والدر المصون ٩/ ٣٤٧ - ٣٤٩ .

(٤) أخرجه أحمد (٥٧٧٢)، والبخاري (٣٦٩٨) بلفظ: اذهب بها الآن معك. وأورده بلفظ المصنف ابن الأثير في النهاية (تلن).

(٥) نسب في اللسان (تلن) لجميل بن معمر، ونسب في الخزانة ٤/ ١٧٩ لابن الأحمر.

قال أبو جعفر النحاس[(١)]: أما البيت الأول الذي أنشده لأبي وَجْزة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلُّها على خِلاف ما أنشده؛ وفي أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد:

العاطِفونَ ولاتَ ما مِن عاطِف

والرواية الثانية:

العاطِفونَ ولَاتَ حِينِ تَعاطُفٍ

والرواية الثالثة رواها ابن كَيْسان:

العاطِفونَةَ حِينَ ما مِن عاطِف

جعلها هاءً في الوقف وتاءً في الإدراج، وزعم أنها لِبَيان الحركة شُبِّهت بهاء التأنيث.

الرواية الرابعة:

العاطِفونهُ حِين ما مِن عاطِفٍ

وفي هذه الرواية تقديران؛ أحدهما ـ وهو مذهب إسماعيل بن إسحاق ـ أن الهاء في موضع نصب؛ كما تقول: الضاربون زيداً، فإذا كَنَيت قلت: الضاربوه. وأجاز سيبويه في الشعر: الضاربونهُ، فجاء إسماعيل بالبيت[(٢)] على مذهب سيبويه في إجازته مثلَه. والتقدير الآخر: العاطفونَهْ، على أن الهاء لِبَيان الحركة، كما تقول: مَرَّ بنا المُسلمونَهْ، في الوقف، ثم أُجريت في الوصل مُجراها في الوقف؛ كما قرأ أهلُ المدينة: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ . هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾[(٣)] [الحاقة: ٢٨-٢٩].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٣ .

(٢) في (م): بالتأنيث، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والكلام منه، والعبارة ساقطة في (ظ) و(ف).

(٣) قرأ حمزة بحذف الهاءين في الوصل، والباقون بإثباتها في الحالين. التيسير ص٢١٤ .

وأما البيت الثاني فلا حُجَّة له فيه؛ لأنه يُوقف عليه: ولاتَ أوان، غيرَ أن فيه شيئاً مُشكلاً؛ لأنه يُروى: ولات أوانٍ؛ بالخفض، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعاً أو منصوباً. وإنْ كان قد رُوي عن عيسى بن عمر أنه قرأ: «ولاتِ حينِ مناص» [بكسر التاء من لات والنون من حين، فإن الثبت عنه أنه قرأ: «ولاتِ حينَ مناص»][1] فبني «لاتِ» على الكسر، ونصبَ «حينَ».

فأما: ولاتَ أوانٍ، ففيه تقديران؛ قال الأخفش[2]: فيه مُضمر، أي: ولات حين أوان. قال النحاس[3]: وهذا القول بيِّنُ الخطأ. والتقدير الآخر عن أبي إسحاق[4] قال: تقديره: ولات أوانِنا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب، وكسره لالتقاء الساكنين[5]. وأنشده محمد بن يزيد: ولات أوانٌ، بالرفع.

وأما البيت الثالث فبيتٌ مولّد لا يعرف قائله[6] ولا تَصِحُّ به حُجَّة. على أن محمد ابن يزيد رواه: كما زعمتِ الآن. وقال غيره: المعنى: كما زعمتِ أنتِ الآن. فأسقط الهمزةَ من أنت والنون.

وأما احتجاجُه بحديث ابن عمر، لما ذكَر للرجل مناقبَ عثمان فقال له: اذهَبْ بها تَلَانَ إلى أصحابك، فلا حُجَّةَ فيه؛ لأن المُحدِّث إنما يروي هذا على المعنى. والدليلُ على هذا أن مجاهداً يروي عن ابن عمر هذا الحديثَ وقال فيه: اذهب فاجهد

(١) القراءات الشاذة ص١٣٩، وما بين حاصرتين من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والكلام منه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٤، وما قبله منه.

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٥) يعني: لما حذف المضاف إليه عوض من المضاف إليه تنويناً، والنون كانت في التقدير ساكنة كسكون ذال «إذ»، فلما لقيها التنوين ساكناً كسرت النون لالتقاء الساكنين، كما كسرت الذال من«إذ» لالتقاء الساكنين. سر صناعة الإعراب ٢/ ٥٠٩ .

(٦) نسبه في اللسان (تلن) لجميل بن معمر، وفي الخزانة ٤/ ١٧٩ لابن الأحمر، وقد ذكرناه عند تخريج البيت.

جهدك[١]. ورواه آخر: اذهب بها الآن معك[٢].

وأما احتجاجُه بأنه وجدَها في الإمام «تَحِينَ». فلا حُجَّةَ فيه؛ لأن معنى الإمام أنه إمامُ المصاحف، فإنْ كان مُخالفاً لها فليس بإمام لها، وفي المصاحف كلِّها «ولاتَ» فلو لم يكن في هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مُقنعاً. وجمعُ مناصٍ مناوص.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ «أن» في موضع نصب، والمعنى: من أن جاءهم[٣]. قيل: هو مُتَّصل بقوله: ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي: في عِزَّة وشِقاق وعَجِبوا، وقوله: «كم أَهْلَكْنا» مُعترِض. وقيل: لا، بل هذا ابتداءُ كلام، أي: ومِن جَهْلهم أنهم أظهروا التعجُّبَ مِن أنْ جاءهم منذرٌ منهم.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ﴾ أي: يجيء بالكلام المُموَّه الذي يخدعُ به الناس؛ وقيل: يُفرِّق بسحره بين الوالد وولده والرجلِ وزوجته ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: في دعوى النبوّة.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ مفعولان، أي: صيَّر الآلهةَ إلهاً واحداً. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: عجيب. وقرأ السُّلمي: «عُجَّابٌ» بالتشديد[٤]. والعُجَاب والعُجَّاب والعَجَب سواء. وقد فرّق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال: العَجِيب العَجَب، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدَّ العَجَب، والطويل الذي فيه طول، والطُّوال، الذي قد تجاوز حدَّ الطُّول[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٤) من طريق سعد بن عبيدة، وابن حبان (٦٩٠٩) من طريق حبيب بن أبي مليكة كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنهما. ولم نقف عليه من طريق مجاهد

(٢) أخرجه أحمد (٥٧٧٢)، والبخاري (٣٦٩٨).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٤.

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٧٨ بنحوه.

وقال الجوهري[1]: العَجِيب الأمرُ الذي يُتعجَّب منه، وكذلك العُجَاب بالضم، والعُجَّاب بالتشديد أكثرُ منه، وكذلك الأُعجوبة.

وقال مقاتل: «عُجَّابٌ» لغةُ أزد شنوءة[2].

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه، وجاء النبيُّ ﷺ، وعند رأس أبي طالب مجلسُ رجل، فقام أبو جهل كي يمنعَه، قال: وشكَوْه إلى أبي طالب، فقال: يا بنَ أخي ما تُريد من قومك؟ فقال: «يا عم، إنما أُريدُ منهم كلمةً تذلُّ لهم بها العربُ، وتُؤدِّي إليهم بها الجزيةَ العَجَمُ» فقال: وما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» قال: فقالوا ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ . بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ خرَّجه الترمذي أيضاً بمعناه. وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح[3].

وقيل: لما أسلمَ عمرُ بن الخطاب ﷺ شقَّ على قريش إسلامُه فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: اقضِ بيننا وبين ابنِ أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا ابنَ أخي، هؤلاء قومُك يسألونك ذا السَّواء[4]، فلا تَمِلْ كلَّ الميل على قومك. قال: «وماذا يسألونني»؟ قالوا: ارفضنا وارفض ذِكْرَ آلهتنا وندعك وإلهكَ. فقال النبيُّ ﷺ: «أتُعطونني كلمةً واحدةً وتَمْلِكون بها العربَ، وتَدينُ لكم بها العَجَم» فقال أبو جهل: لله أبوك، لَنُعطِينَّكَها وعشرَ أمثالها. فقال النبيُّ ﷺ: «قولوا: لا إله إلا لله»؟ فنفروا من ذلك وقاموا، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فكيف يَسَعُ الخَلْقَ كلَّهم إلهٌ واحد. فأنزل اللهُ فيهم هذه الآياتِ إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الآية: ١٢][5].

---

(١) في الصحاح (عجب).

(٢) ذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٦٦ .

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٢)، وليس في مطبوعه قوله: صحيح. وأخرجه أحمد (٢٠٠٨)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٨ . وفي إسناده يحيى بن عمارة، أو ابن عباد، أو عباد، مجهول، تفرَّد بالرواية عنه الأعمش فيما قاله الذهبي في الميزان ٤/ ٣٩٩ .

(٤) في (م): يسألونك السواء.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٨٧، والبغوي في تفسيره ص٤/ ٤٨ .

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ «الملأ» الأشراف، والانطلاقُ الذَّهابُ بسرعة؛ أي: انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه الصلاة والسلام يقول بعضُهم لبعض: «أن امْشُو» أي: امضُوا على ما كنتُم عليه، ولا تدخلوا في دينه ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾. وقيل: هو إشارة إلى مَشْيهم إلى أبي طالب في مرضه كما سبق.

وفي رواية محمد بن إسحاق أنهم أبو جهل بن هشام، وشيبةُ وعُتبة ابنا[1] ربيعة ابن عبد شمس، وأميّة بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو مُعيط؛ جاؤوا إلى أبي طالب فقالوا: أنت سيدُنا وأنصفُنا في أنفسنا، فاكْفِنا أمْرَ ابنِ أخيك وسُفهاءَ معه، فقد تركوا آلهتَنا وطَعَنوا في ديننا؛ فأرسل أبو طالب إلى النبيِّ ﷺ فقال له: إنَّ قومَك يدعونك إلى السَّواء والنَّصَفَة. فقال النبيُّ ﷺ: «إنما أدعوهم إلى كلمةٍ واحدة» فقال أبو جهل: وعشراً. قال: «تقولون: لا إله إلا اللهُ» فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ الآيات[2].

«أَنِ امْشُوا»، «أن» في موضع نصب، والمعنى: بأن امشُوا. وقيل: «أن» بمعنى أي؛ أي: «وانْطَلَقَ المَلأُ منهم» أي: امشُوا؛ وهذا تفسيرُ انطلاقهم، لا أنهم تكلَّموا بهذا اللَّفظ.

وقيل: المعنى: انطلق الأشرافُ منهم فقالوا للعوامِّ: ﴿امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي: على عبادةِ آلهتكم «إنَّ هذا» أي: هذا الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام

---

(١) في (م): أبناء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٤ - ٤٥٥، وينظر السيرة النبوية ١/ ٢٦٤ - ٢٦٥، وقصة ذهاب كفار قريش إلى أبي طالب سلفت قريباً.

﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يُرادُ بأهل الأرض من زوالِ نعم قومٍ وغِيَر تنزِل بهم[(١)].

وقيل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ كلمة تحذير؛ أي: إنما يُريد محمدٌ بما يقول الانقيادَ له لِيعلوَ علينا، ونكونَ له أتباعاً، فيتحكَّمَ فينا بما يُريد، فاحذروا أن تُطيعوه.

وقال مقاتل: إنَّ عمرَ لما أسلمَ وقَوِي به الإسلامُ شقَّ ذلك على قريش فقالوا: إنَّ إسلامَ عمر في قوّة الإسلام لَشيء يُراد[(٢)].

قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس والقُرظيّ وقتادة ومقاتل والكلبيّ والسُّديّ: يَعنون مِلَّةَ عيسى النصرانية، وهي آخرُ الملل. والنصارى يجعلون مع الله إلهاً. وقال مجاهد وقتادة أيضاً: يَعنون مِلَّة قريش. وقال الحسن: ماسَمعنا أنَّ هذا يكون في آخر الزمان. وقيل: أي: ماسمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسولٌ حقٌّ[(٣)].

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: كذب وتخرُّص؛ عن ابن عباس وغيره[(٤)]. يقال: خَلَقَ واختلق، أي: ابتدع. وخلقَ اللهُ عزّ وجلّ الخَلْق من هذا؛ أي: ابتدعَهم على غيرِ مثال[(٥)].

قوله تعالى: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ هو استفهامُ إنكار، والذِّكر هاهنا القرآنُ؛ أنكروا اختصاصَه بالوَحْي من بينهم؛ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي: من وحيي، وهو القرآن. أي: قد عَلِموا أنك لم تَزَلْ صَدُوقاً فيما بينهم، وإنما شكُّوا فيما أنزلتُه عليك هل هو من عندي أمْ لا.

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي: إنما اغتَرُّوا بِطُول الإمهال، ولو ذاقوا عذابي على

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ . وقوله: غِيَر: في القاموس (غير): غِيَر الدهر: أحداثه المتغيرة.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٩ . وفيه:.. فقالوا: إن إسلام عمر فيه قوة للإسلام وشيء يُراد

(٣) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٧٩، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩، وأقوال ابن عباس ﷺ والقرظي والسدي ومجاهد وقتادة أخرجها الطبري ٢٠/ ٢٢ - ٢٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

الشِّرك لَزال عنهم الشَّكُّ، ولمَا قالوا ذلك؛ ولكن لا ينفع الإيمانُ حينئذ[١]. و«لَمَّا» بمعنى لم، وما زائدةٌ، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] و﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ قيل: أمْ لهم هذا فيمنعوا محمداً عليه الصلاة والسلام مما أنعمَ اللهُ عز وجل به عليه من النبوة[٢]. و«أمْ» قد تَرِدُ بمعنى التقريع إذا كان الكلام مُتَّصلاً بكلام قبلَه؛ كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ١-٣].

وقد قيل: إن قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ مُتَّصلٌ بقوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ فالمعنى: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُرسل مَن يشاء؛ لأنَّ خزائنَ السماوات والأرض له[٣]، ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: فإنْ ادَّعَوْا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ﴾ أي: فَلْيصعدوا إلى السماوات، وليمنعوا الملائكةَ من إنزالِ الوحي على محمد. يقال: رَقِيَ يَرْقَى وارتقى، إذا صَعِدَ. ورَقَى يَرقي رَقْياً، مثل: رَمَى يرمي رَمْياً، من الرُّقْية[٤].

قال الربيع بن أنس: الأسبابُ أرقُّ من الشَّعر وأشدُّ من الحديد، ولكن لا تُرى. والسَّبب في اللغة: كل ما يُوصَل به إلى المَطلوب من حبلٍ أو غيره[٥].

وقيل: الأسباب: أبوابُ السماوات التي تنزلُ الملائكةُ منها؛ قاله مجاهد وقتادة. قال زهير:

ولَـو رَامَ أسـبـابَ الـسـمـاءِ بِـسُـلَّـمِ[٦]

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٦ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨١ بنحوه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٨ ، وفيه : أدقّ، بدل: أرقّ.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨٢ – ٨٣، والبيت سلف ٣/ ٩ ، وقول مجاهد وقتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧ .

وقيل: الأسبابُ السماواتُ نفسُها؛ أي: فيصعدوا سماءً سماءً. وقال السُّدي: «في الأسبابِ» في الفَضْل والدين. وقيل: أي: فَلْيعلوا في أسبابِ القوَّة إنْ ظنُّوا أنها مانعة. وهو معنى قول أبي عُبيدة[(١)]. وقيل: الأسبابُ الحبال؛ يعني: إنْ وجدوا حبلاً أو سبباً يصعدون فيه إلى السماء فَلْيرتقوا؛ وهذا أمرُ توبيخ وتعجيز[(٢)].

ثم وعدَ نبيَّه ﷺ النصرَ عليهم فقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ «ما» صِلةٌ، وتقديره: هم جند، فـ «جُنْدٌ» خبرُ ابتداء محذوف. ﴿مَهْزُومٌ﴾ أي: مقموعٌ ذليلٌ قد انقطعتْ حُجَّتهم لأنهم لا يَصلون إلى أن يقولوا: هذا لنا. ويقال: تهزَّمت القِربة، إذا انكسرت، وهزمتُ الجيش: كسرته[(٣)]. والكلام مرتبطٌ بما قبل، أي: ﴿بَلِ الذين كَفَرُوا في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهم جندٌ من الأحزاب مهزومون، فلا تَغُمُّك عِزَّتُهم وشِقاقهم، فإني أهزمُ جمعَهم وأَسلُبُ عِزَّهم. وهذا تأنيسٌ للنبي ﷺ، وقد فُعِل بهم هذا في يوم بدر.

قال قتادة: وعدَ اللهُ أنه سَيهزمهم وهم بمكة، فجاء تأويلُها يومَ بَدْر[(٤)].

و«هنالك» إشارةٌ لِبدر، وهو موضعُ تحزُّبهم لِقتال محمد ﷺ. وقيل: المرادُ بالأحزاب الذين أَتَوا المدينةَ وتحزَّبوا على النبيِّ ﷺ. وقد مضَى ذلك في «الأحزاب»[(٥)]. والأحزابُ الجندُ، كما يقال: جندٌ من قبائلَ شتَّى. وقيل: أراد بالأحزاب القُرونَ الماضية من الكُفَّار[(٦)]. أي: هؤلاء جندٌ على طريقةِ أولئك؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة:٢٤٩] أي: على ديني ومذهبي. وقال الفراء[(٧)]: المعنى: هم جندٌ مغلوب؛ أي: ممنوعٌ عن أن يَصعَدَ إلى السماء. وقال القتبي: يعني: أنهم جندٌ لهذه الآلهة مهزومٌ، فهم لايقدرون على أن

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٧٩.
(٢) تأويل مشكل القرآن ص٢٧٢ بنحوه.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨٣.
(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٩.
(٥) ١٧/ ٧٠ وما بعدها.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٩، وزاد المسير ٧/ ١٠٤ - ١٠٥.
(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٦.

يدَّعوا الشيء من آلهتم، ولا لأنفسهم شيئاً من خزائن رحمة الله، ولا مِن ملك السماوات والأرض[١].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكرها تعزيةً للنبي ﷺ وتسليةً له[٢]؛ أي: هؤلاء من قومك يا محمد جندٌ من الأحزاب المتقدِّمين الذين تحزَّبوا على أنبيائهم، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأُهلكوا.

وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث، واختلف أهلُ العربية في ذلك على قولين: أحدهما: أنه قد يجوز فيه التذكيرُ والتأنيث. الثاني: أنه مذكَّر اللفظ، لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة، فيغلبُ في اللفظ حكمُ المعنى المُضمَر تنبيهاً عليه؛ كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ ولم يقل: ذكَرها؛ لأنه لما كان المُضمَرُ فيه مذكَّراً ذكَّره، وإنْ كان اللفظُ مُقتضياً للتأنيث[٣].

ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد. وقد اختُلف في تأويل ذلك؛ فقال ابن عباس: المعنى: ذو البِناء المُحكَم. وقال الضحاك: كان كثيرَ البُنيان، والبُنيان يُسمَّى أوتاداً. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وعطاء: أنه كانت له أوتادٌ وأرسان وملاعبُ يُلْعَب له عليها. وعن الضحاك أيضاً: ذو القوَّة والبَطْش. وقال الكلبي ومقاتل: كان يُعذِّب الناس بالأوتاد، وكان إذا غَضِبَ على أحدٍ مدَّه مُستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض، ويُرسل عليه العقاربَ والحيَّاتِ حتى يموت. وقيل: كان يشبح المُعذَّب بين أربع

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٢٧٣، والعبارة فيه:.. لأنهم لا يقدرون أن يدَّعوا لآلهتهم شيئاً من هذا، ولا لأنفسهم.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٨٠ .

سَوارٍ، كلُّ طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وَتِد من حديد ويتركُه حتى يموت. وقيل: ذو الأوتاد، أي: ذو الجنود الكثيرة، فَسُمِّيت الجنودُ أوتاداً؛ لأنهم يُقوُّون أمرَه كما يُقوِّي الوَتِدُ البيت[1].

وقال ابن قتيبة: العربُ تقول: هم في عزٍّ ثابت الأوتاد، يُريدون: دائماً شديداً. وأصلُ هذا أن البيتَ من بيوت الشَّعر إنما يَثبُتُ ويقوم بالأوتاد. قال الأسود بن يَعْفُر:

ولقد غَنَوْا فيها بأنعَمِ عِيْشةٍ   في ظلِّ مُلْكٍ ثابت الأوتادِ[2]

وواحدُ الأوتاد وَتِد، بالكسر، وبالفتح لغة. وقال الأصمعي: يقال: وَتِدٌ واتدٌ، كما يقال: شُغلٌ شاغل. وأنشد:

لاقَتْ على الماءِ جُذَيْلاً وَاتِدا   ولم يكن يُخْلِفُها المَوَاعِدا[3]

قال: شبَّه الرجلَ بالجِذْل.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: الغيضة[4]. وقد مضى ذِكْرُها في «الشعراء»[5].

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «لَيْكَةَ» بفتح اللام والتاء من غير همز. وهمز الباقون وكسروا التاء[6]. وقد تقدَّم هذا.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: هم الموصوفون بالقوّة والكَثْرة، كقولك: فلانٌ هو الرجل.

﴿إِن كُلٌّ﴾ بمعنى: ما كلٌّ ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فنزلَ بهم العذابُ لذلك التكذيب.

---

(١) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/ ٤٩ - ٥٠، وزاد المسير ٧/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) غريب القرآن ص٣٧٧. والبيت في المفضليات ص٢١٧

(٣) نسبه في اللسان (وتد) لأبي محمد الفقعسي، والكلام من الصحاح (وتد).

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣١ عن السدي.

(٥) ١٣/ ١٣٤.

(٦) السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٦.

وأثبتَ يعقوبُ الياء في «عَذَابِي» و«عِقَابِي» في الحالين، وحذفَها الباقون في الحالين[(١)]. ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [غافر: ٣٠-٣١] فسمَّى هذه الأُمَمَ أحزاباً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ «يَنْظُرُ» بمعنى ينتظر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[(٢)] [الحديد: ١٣]. «هؤلاء» يعني كُفَّار مكة. «إِلَّا صَيْحَةً واحدةً» أي: نفخة القيامة. أي: ما ينتظرون بعد ما أُصيبوا ببدر إلا صيحةَ القيامة. وقيل: ما ينتظرُ أحياؤهم الآن إلا الصيحةَ التي هي النَّفخة في الصُّور، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾[(٣)] [يس: ٤٩-٥٠]، وهذا إخبارٌ عن قُرب القِيامة والموت. وقيل: أي: ما ينتظر كُفَّارُ آخر هذه الأمة المُتديِّنين بدين أولئك إلا صيحةً واحدة، وهي النَّفخة. وقال عبد الله بن عمرو: لم تكن صيحةٌ في السماء إلا بغضبٍ من الله عزَّ وجلَّ على أهل الأرض[(٤)].

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: من ترداد؛ عن ابن عباس. مجاهد: ما لها رجوع. قتادة: مالها من مثنوية. السدِّي: مالها من إفاقة[(٥)].

وقرأ حمزة والكسائي: «ما لها مِنْ فُواقٍ» بضم الفاء. الباقون بالفتح[(٦)]. الجوهري[(٧)]: والفَواق والفُواق ما بين الحَلْبتين من الوقت؛ لأنها تُحلَب، ثم تُترَك

---

(١) النشر ٢/ ١٨٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧.

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ١٨٢ بنحوه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧. وفي مطبوعه: عبد الله بن عمر.

(٥) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٣٤ - ٣٥، وقوله: ما لها من مثنوية، ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٠ عن الضحاك، ثم قال: أي: صَرْفٌ وردٌّ.

(٦) السبعة ص٥٥٢، والتيسير ص١٨٧.

(٧) الصحاح (فوق).

سُويعة يرضَعها الفَصيل لِتَدِرَّ، ثم تُحلَب. يقال: ما أقام عنده إلا فُوَاقاً؛ وفي الحديث: «العِيادةُ قَدْر فُواق الناقة»[١]. وقوله تعالى: «مالها مِنْ فَوَاق» يقرأ بالفتح والضم، أي: مالها من نظرة وراحة وإفاقة. والفِيقة، بالكسر: اسمُ اللبن الذي يجتمع بين الحَلْبتين؛ صارت الواو ياءً لِكسر ما قَبْلَها؛ قال الأعشى يَصِفُ بقرةً:

حتى إذا فِيقَةٌ في ضَرعِها اجتمعتْ جاءتْ لِتُرضِع شِقَّ النَّفْسِ لو رَضَعا[٢]

والجمع فِيق، ثم أفواق، مثل: شِبر وأشبار، ثم أفاويق. قال ابن هَمَّام السَّلُوليّ:

وذَمُّوا لنا الدنيا وهم يَرْضَعُونها أَفَاوِيقَ حتى ما يَدُرُّ لها ثُعْلُ[٣]

والأفاويق أيضاً ما اجتمع في السحاب من ماء، فهو يمطر ساعةً بعد ساعة. وأفاقت الناقةُ إفاقةً، أي: اجتمعت الفِيقة في ضرعها؛ فهي مُفِيقٌ ومُفِيقَةٌ ـ عن أبي عمرو ـ والجمع مفاويق.

وقال الفرّاء وأبو عُبيدة وغيرهما: «مِنْ فَوَاقٍ» بفتح الفاء، أي: راحة لا يُفيقون فيها، كما يُفيق المريضُ والمَغْشيّ عليه. و«مِنْ فُواقٍ» بضم الفاء من انتظار[٤]. وقد تقدَّم أنهما بمعنىً، وهو ما بين الحَلْبتين.

قلت: والمعنى المُراد أنها مُمتدَّة لا تقطيع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ ونحن في طائفة من أصحابه، الحديثَ، وفيه «يأمر اللهُ عزَّ وجلَّ إسرافيلَ بالنَّفخة الأُولى، فيقول: انفُخْ نَفْخةَ الفَزَع، فيفزَعُ أهلُ السماوات وأهلُ الأرض إلا مَن شاء الله، ويأمره فيمدُّها ويُديمها يُطوِّلها يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾» وذكر الحديثَ، خَرَّجه علي بن مَعْبد وغيرُه

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٢٢٢)، في إسناده مندل بن علي أبو عبد الله العنزي الكوفي، ضعَّفه أحمد كما في تهذيب التهذيب ٤/ ١٥٢، وأورد الحديث السيوطي في الجامع الصغير ٤/ ٣٩٦ (فيض القدير) ورمز لصحته.

(٢) ديوان الأعشى ص١٥٥ .

(٣) الكامل للمبرد ١/ ٧٧، وسمط اللآلئ ٣/ ٩٢٣ . والثُّعل: خِلْفٌ زائد صغير في أخلاف الناقة، وضرع الشاة، لا يدرّ. اللسان (ثعل).

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٠ ـ وليس فيه هذا التفريق ـ ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٧٩ .

كما ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قال مجاهد: عذابَنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. الحسن: نصيبنا من الجنة لِنتنعَّم به في الدنيا. وقاله سعيد بن جُبير[(٢)]. ومعروف في اللغة أن يقال للنصيب: قِطّ، وللكتاب المكتوب بالجائزة قطّ[(٣)]. قال الفراء[(٤)]: القِطُّ في كلام العرب: الحظُّ والنصيب. ومنه قيل للصكّ: قِطّ. وقال أبو عُبيدة والكسائي: القِطُّ الكتاب بالجوائز[(٥)]. والجمع القطوط؛ قال الأعشى:

ولا المَلِكُ النُّعمانُ يومَ لَقِيتُهُ بِغِبْطتهِ يُعطي القُطوطَ وَيَأْفِقُ[(٦)]

يعني كتب الجوائز. ويروى: بإمَّتِهِ، بدل: بغبطته، أي: بنعمته وحاله الجليلة، ويأفِق يصلحُ. ويقال: في جمع قِطّ أيضاً: قِطَطة، وفي القليل: أَقطّ وأقطاط. ذكره النحاس[(٧)].

وقال السدي: سألوا أن يُمَثَّلَ لهم منازلَهم من الجنةِ ليعلموا حقيقةَ ما يُوعَدون به. وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى: عجِّل لنا أرزاقَنا[(٨)]. وقيل: معناه: عجِّل لنا ما يَكفينا؛ من قولهم: قَطْني؛ أي: يَكفيني. وقيل: إنهم قالوا ذلك استعجالاً

(١) ص١٧٣، والحديث أخرجه مطولاً إسحاق بن راهويه في مسنده (١٠)، والطبري ٢٠/ ٣٣، وهو حديث ضعيف، وسلف قسم منه ١٦/ ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٣٧ - ٣٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥١، وقول أبي عُبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٧٩ .

(٦) ديون الأعشى ص٢٦٩ . وفيه، بإمَّته، بدل: بنعمته. وذكره برواية المصنف ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٦ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٧ . وما قبله منه.

(٨) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٨ - ٣٩ .

لِكُتبهم التي يُعطَوْنها بأيمانهم وشَمائلهم حين تُلي عليهم بذلك القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، وأصلُ القِطِّ القَطُّ، وهو القَطع، ومنه: قَطَّ القلمَ؛ فالقِطُّ اسمٌ للقطعة من الشيء، كالقَسْمِ والقِسْم، فأُطلق على النصيب والكتاب والرِّزق لِقَطْعه عن غيره، إلا أنه في الكتاب أكثرُ استعمالاً وأقوى حقيقةً. قال أميةُ بن أبي الصَّلْت:

قَومٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما ... يُجْبَى إليه والقِطُّ والقَلَمُ[1]

﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: قبلَ يومِ القيامة في الدنيا إنْ كان الأمرُ كما يقول محمد. وكلٌّ هذا استهزاءٌ منهم.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمرَ نبيَّه ﷺ بالصبر لما استهزؤوا به. وهذه منسوخةٌ بآية السيف[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ لمَّا ذكر من أخبار الكفار وشِقاقهم وتقريعهم بإهلاك القُرون مِن قبلهم، أمَر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم، وسلَّاه بكلِّ ما تقدَّم ذِكْره. ثم أخذ في ذكر داودَ وقصص الأنبياء؛ لِيتسلَّى بصبر مَن صَبَر منهم؛ وليعلمَ أن له في الآخرة أضعافَ ما أُعْطِيَهُ داودُ وغيره من الأنبياء.

وقيل: المعنى: اصبِرْ على قولهم، واذكُر لهم أقاصيصَ الأنبياء؛ لتكون برهاناً على صحة نبوَّتك.

«ذا الأيْدِ» ذا القوَّة في العبادة. وكان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً، وذلك أشدُّ الصوم

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصَّلت ص١٢٨، وروايته فيه:

قوم لهم ساحة العراق إذا ... ساروا جميعاً والقط والقلم

وذكره كرواية المصنف الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨٣.

(٢) ذكره مكي في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٣٩١، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١١٠.

وأفضلُه؛ وكان يُصلِّي نصفَ الليل، وكان لا يفرُّ إذا لاقى العدوّ(١)، وكان قويّاً في الدعاء إلى الله تعالى. وقوله: «عَبْدَنا» إظهاراً لِشَرَفِهِ بهذه الإضافة. ويقال: الأَيْد والآدُ، كما تقول: العيب والعاب(٢). قال:

لـم يَـكُ يَـنْـآد فـأَمْـسَـى انْـآدا(٣)

ومنه: رجلٌ أيِّدٌ، أي: قويّ. وتأيَّدَ الشيء تقوَّى، قال الشاعر:

إذَا الـقـوسُ وَتَّـرهَـا أيِّـدٌ   رَمَـى فَـأَصـابَ الـكُـلـى وَالـذُّرا(٤)

يقول: إذا الله وَتَّر القوس التي في السحاب رَمَى كُلى الإبل وأَسْنِمَتَها بالشحم. يعني من النبات الذي يكون من المطر.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ قال الضحاك: أي: توَّاب. وعن غيره: أنه كلَّما ذكَر ذَنْبه أو خطَر على باله استغفر منه؛ كما قال النبي ﷺ: «إني لأستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلة مئةَ مرة»(٥). ويقال: آبَ يؤوب، إذا رَجَع، كما قال:

وكـلُّ ذي غَـيْـبَـةٍ يـؤوبُ   وغـائـبُ الـمـوت لايـؤوبُ(٦)

فكان داودُ رجَّاعاً إلى طاعة الله ورِضاه في كلِّ أمرٍ، فهو أهلٌ لأن يُقتدَى به.

---

(١) أخرج البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له: «.. أحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داود، وكان ينامُ نصفَ الليل، ويقوم ثُلثَه، وينام سُدسَه، ويصوم يوماً ويُفطر يوماً»، وفي رواية عند البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (١١٥٩) (١٨٧): «.. ولا يَفِرُّ إذا لاقى». وهو في مسند أحمد (٦٤٧٧).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٨.

(٣) الرجز للعجاج كما في إصلاح المنطق ص١٠٧، وقبله: مِن أن تبدَّلتُ بآدي آدا. ولم نقف عليه في ديوانه.

(٤) في (م): الذُّوا، والبيت في مجالس ثعلب ص٤٤٧ والصحاح (أيد) والكلام منه.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٨٤٨)، ومسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغرّ المزني ﷺ، وأوله: «إنه لَيُغَانُ على قلبي..» وسلف ٢/ ١١٧.

(٦) قائله عَبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص٢٦. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٨.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ «يُسَبِّحْنَ» في موضع نصب على الحال[١]. ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمُعجزة، وهو تسبيحُ الجبال معه.قال مقاتل: كان داودُ إذا ذكَر الله جلَّ وعزَّ ذكَرت الجبالُ معه، وكان يفقهُ تسبيحَ الجبال. وقال ابن عباس: «يُسَبِّحْنَ» يُصلِّين. وإنما يكون هذا معجزةً إذا رآه الناس وعَرَفوه. وقال محمد بن إسحاق: أُوتي داودُ من حُسن الصوت ما يكون له في الجبال دَويٌّ حَسَن، وما تصغَى لحسنه [الطير] وتُصوِّت معه، فهذا تسبيحُ الجبال والطير.

وقيل: سخَّرها اللهُ عز وجل لِتَسيرَ معه، فذلك تسبيحُها، لأنها دالَّةٌ على تنزيهِ الله عن شبه المخلوقين[٢]. وقد مضَى القولُ في هذا في «سبأ»[٣] وفي «سبحان» عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الآية: ٤٤] وأنَّ ذلك تسبيحُ مَقَال على الصحيح من الأقوال. والله أعلم.

﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ الإشراقُ أيضاً ابيضاضُ الشمس بعد طُلوعها. يقال: شَرَقَت الشمسُ، إذا طَلَعت، وأشرقَتْ، إذا أضاءت[٤]. فكان داودُ يُسبِّح إثرَ صلاتهِ عند طُلوع الشمس وعند غُروبها.

الثانية: روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمرُّ بهذه الآية ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ ولا أدري ماهي، حتى حدَّثتني أُمُّ هانئ أن رسولَ الله ﷺ دخلَ عليها، فدعا بِوَضوء فتوضأ،ثم صلَّى صلاةَ الضُّحى، وقال: «يا أُمَّ هانئ، هذه صلاةُ الإشراق»[٥]. وقال

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) ١٧/ ٢٦٠ وما بعدها.

(٤) الصحاح (شرق) .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ ٤٠٦، والبغوي في تفسيره ٤/ ٥١ . وفي إسناده حجَّاج بن نُصير وأبو بكر الهذلي وكلاهما ضعيف. ميزان الاعتدال ١/ ٤٦٥ و ٤/ ٤٩٧، ومجمع الزوائد ٢/ ٢٣٨ و٧/ ٩٩ .

عكرمة: قال ابن عباس: كان في نفسي شيء من صلاة الضُّحى حتى وجدتُها في القرآن ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[(١)]. قال عكرمة: وكان ابن عباس لا يُصلِّي صلاةَ الضُّحى، ثم صلَّاها بعد[(٢)].

وروي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إني أَجِدُ في كُتُبِ اللهِ صلاةً بعدَ طُلوع الشمس هي صلاة الأوَّابين. فقال ابن عباس: وأنا أوجدك في القرآن ذلك في قصة داود ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾.

الثالثة: صلاةُ الضحى نافلةٌ مستحبة، وهي في الغَداة بإزاء العصر في العَشيّ، لا ينبغي أن تُصلَّى حتى تبيضَّ الشمسُ طالعةً؛ ويرتفع كَدَرُها؛ وتُشرق بنورها؛ كما لا تُصلَّى العصر إذا اصفرَّتِ الشمس[(٣)]. وفي «صحيح» مسلم عن زيد بن أَرْقَم، أن رسولَ الله ﷺ قال: «صلاةُ الأوَّابين حين تَرْمَضُ الفِصالُ»[(٤)].

الفِصال والفُصلان جمع فَصيل، وهو الذي يُفطَم من الرضاعة من الإبل. والرَّمضاء شِدَّةُ الحر في الأرض. وخصَّ الفِصال هنا بالذِّكر؛ لأنها هي التي تَرْمَض قبلَ انتهاء شدَّة الحرّ التي تَرْمَض به[(٥)] أمهاتُها لِقلَّة جَلَدها، وذلك يكون في الضُّحى أو بعده بقليل، وهو الوقتُ المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها[(٦)].

قال[(٧)] القاضي أبو بكر بن العربي[(٨)]: ومن الناس من يُبادر بها قبلَ ذلك

(١) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٩٨ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٩٨ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٣ .

(٤) صحيح مسلم (٧٤٨)، وهو في مسند أحمد (١٩٢٧٠)، وفي هامش (ز) حاشية نصها: تَرْمَض بفتح التاء والميم، يقال: رَمِض يرمَض، كعلم يعلم، والرمضاء: الرَّمْل الذي اشتدت حرارته بالشمس، أي: حين تحترق أخفاف الفصال، وهي الصغار من أولاد الإبل، جمع فَصيل، من شدة حرّ الرمل، والأواب، المطيع، وقيل: الراجع إلى الطاعة. قاله النووي. اهـ [في شرح مسلم ٦/ ٣٠]

(٥) في (م): بها.

(٦) المفهم ٢/ ٣٥٩ .

(٧) في (م) و(د) و(ظ): قاله.

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٣ .

استعجالاً، لأجل شُغله فيخسر عملَه؛ لأنه يُصلِّيها في الوقت المَنْهي عنه، ويأتي بعملٍ هو عليه لا له.

الرابعة: روى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صلَّى الضُّحى ثنتي عشرةَ ركعةً بنى اللهُ له قصراً مِن ذَهَبٍ في الجنة» قال: حديث غريب[١].

وفي «صحيح» مسلم: عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُصبح على كلِّ سُلَامَى من أحدِكم صدقةٌ، فكلُّ تسبيحةٍ صدقةٌ، وكلُّ تهليلةٍ صدقةٌ، وكلُّ تكبيرةٍ صَدَقةٌ، وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، ويُجزئ من ذلك ركعتان يَركَعهما من الضُّحى»[٢].

وفي الترمذي: عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ حافَظَ على شَفْعةِ الضُّحى غُفر له ذنوبُه وإنْ كانت مثلَ زَبَد البحر»[٣].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعُهُنَّ حتى أموتَ: صومِ ثلاثةِ أيام من كلِّ شهر، وصلاةِ الضُّحى، ونومٍ على وتر» لفظ البخاري[٤]. وقال مسلم: «وركعتي الضحى»[٥]. وخرَّجه من حديث أبي الدرداء كما خرَّجه البخاري من حديث أبي هريرة[٦].

وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ أقلَّ الضحى ركعتان وأكثرَه ثنتا عشرة. والله أعلم.

وأصل السُّلامى ـ بضم السين ـ عظامُ الأصابع والأَكُفّ والأرجل، ثم استُعمل في سائر عظام الجسد وَمفَاصله[٧].

---

(١) سنن الترمذي، وفي إسناده موسى بن فلان بن أنس بن مالك، ويقال: موسى بن حمزة. قال الحافظ ابن حجر في التقريب: مجهول.

(٢) صحيح مسلم (٧٢٠)، وأخرجه أحمد (٢١٤٧٥).

(٣) سنن الترمذي (٤٧٦)، وفي إسناده نهَّاس بن قَهْم، ضعفه الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) رقم (١١٧٨).

(٥) رقم (٧٢١)، وهو في مسند أحمد (٧٦٧١).

(٦) صحيح مسلم (٧٢٢)، وهو في مسند أحمد (٢٧٤٨١).

(٧) المفهم ٢/ ٣٦٠ .

ورُوي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنه خُلِقَ كلُّ إنسان من بني آدمَ على ستين وثلاث مئة مَفْصِل، فمن كبَّر اللهَ، وحَمِدَ اللهَ، وهلَّل اللهَ، وسبَّح الله، واستغفرَ اللهَ، وعَزَلَ حجراً عن طريق الناس أو شوكةً أو عظماً عن طريق الناس، وأَمَرَ بمعروف، أو نَهَى عن مُنكر عَدَدَ تلك الستين والثلاث مئة سُلامَى فإنه يمشي يومئذ وقد زَحْزحَ نفسَه عن النار» قال أبو تَوْبة: وربما قال: «يُمْسي» كذا خرجه مسلم[(١)].

وقوله: «ويُجزئ من ذلك ركعتان» أي: يكفي من هذه الصَّدَقات عن هذه الأعضاء ركعتان. وذلك أن الصلاةَ عملٌ بجميع أعضاء الجسد؛ فإذا صلَّى فقد قام كلُّ عضو بوظيفته التي عليه في الأصل. والله أعلم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معطوف على الجبال. قال الفراء[(٣)]: ولو قرئ: «والطَّيْرُ محشورةٌ» لجاز[(٤)]؛ لأنه لم يظهر الفعل.

قال ابن عباس: كان داودُ عليه السلام إذا سبَّح جاوبَتْه الجبال واجتمعت إليه الطيرُ فسبَّحتْ معه. فاجتماعها إليه حَشْرُها[(٥)]. فالمعنى: وسخَّرنا الطيرَ مجموعة إليه لِتُسبِّح الله معه. وقيل: أي: وسخَّرنا الريح لِتَحْشُرَ الطيورَ إليه لِتسبِّح معه، أو أَمرنا الملائكةَ تحشر الطيور.

---

(١) في صحيحه (١٠٠٧).

(٢) المفهم ٢/ ٣٦١.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩، وما قبله منه.

(٤) قرأ بها إبراهيم بن أبي عبلة كما في القراءات الشاذة ص١٢٩.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٤٠١، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٥، ولم ينسباه لأحد.

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ﴾ أي: لداود ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع؛ أي: تأتيه وتُسبِّحُ معه. وقيل: الهاء لله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قوَّيناه حتى ثَبَتَ. قيل: بالهيبة وإلقاء الرُّعب منه في القُلوب. وقيل: بِكَثْرة الجنود. وقيل: بالتأييد والنَّصر. وهذا اختيارُ ابن العربي[١]، فلا ينفع الجيشَ الكثيرَ التفافُه على غيرِ منصور وغير مُعانٍ.

وقال ابن عباس ﷺ: كان داودُ أشدَّ مُلوك الأرض سلطاناً. كان يحرسُ محرابَه كلَّ ليلة نَيِّفٌ وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل: ارجعوا فقد رضي عنكم نبيُّ الله[٢].

والمُلْك عبارة عن كَثْرة المِلْك، فقد يكون للرجلِ مِلك ولكن لا يكون مَلِكاً حتى يكثرَ ذلك؛ فلو مَلَكَ الرجلُ داراً وامرأة لم يكن مَلِكاً حتى يكون له خادمٌ يَكفيه مؤنةَ التصرف في المنافع التي يفتقر إليها لضرورة[٣] الآدمية[٤]. وقد مضى هذا المعنى في «براءة»[٥] وحقيقةُ الملك في «النمل» مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوَّة؛ قاله السدي. مجاهد: العَدْل. أبو العالية: العلم بكتاب الله تعالى. قتادة: السنة. شُريح: العلم والفقه.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي وقتادة: يعني: الفَصْلَ في القضاء. وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس: بيانُ الكلام. عليّ ابن أبي طالب: هو البيِّنة على المدَّعي واليمينُ على مَن أنكر. وقاله شُرَيح والشعبي

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٤، وما بعده منه.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥١ مختصراً.

(٣) في (د) و(م): لضرورته، وفي (ز): لضروريّة، والمثبت من (ظ).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٤.

(٥) ١٠/ ٢٥٠.

وقتادة أيضاً. وقال أبو موسى الأشعري والشعبي أيضاً: هو قوله: أما بعد، وهو أول مَن تكلَّم بها[(١)].

وقيل: «فَصْل الخِطاب» البيان الفاصلُ بين الحقّ والباطل. وقيل: هو الإيجازُ بجعل المعنى الكثير في اللَّفظِ القليل[(٢)]. والمعنى في هذه الأقوال متقاربٌ. وقولُ عليّ ﷺ يجمعه؛ لأن مدارَ الحُكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربى[(٣)]: فأما علمُ القضاء فَلَعَمْرُ إلهِك إنه لَنوعٌ من العلم مجرد، وفصلٌ منه مؤكَّد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام؛ ففي الحديث: «أقضاكم عليٌّ، وأعلمُكم بالحلال والحرام معاذُ بن جبل»[(٤)]. وقد يكون الرجلُ بصيراً بأحكام الأفعال، عارفاً بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء.

يُروَى أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ قال: لما بعثني رسولُ الله ﷺ إلى اليمن حَفَرَ قومٌ زُبْيَةً للأسد، فوقع فيها الأسدُ وازدحم الناسُ على الزُّبية فوقع فيها رجلٌ وتعلَّق بآخر، وتعلَّق الآخَرُ بآخر، حتى صاروا أربعةً، فجرحهم الأسدُ فيها فَهَلكوا، وحمل القومُ السلاحَ وكاد يكون بينهم قتال؛ قال: فأتيتُهم فقلت: أتقتلون مئتي رجل من أجل أربعة أناس؟! تعالوا أَقْضِ بينَكم بقضاء؛ فإنْ رَضِيتموه فهو قضاء بينكم، وإنْ أَبيتُم رفعتُم ذلك إلى رسول الله ﷺ فهو أحقُّ بالقضاء. فجعل للأوّل رُبُعَ الدِّيَة، وجعل للثاني ثُلثَ الدِّيَة، وجعل للثالث نصفَ الدِّيَة، وجعل للرابع الدِّيَة، وجعل الدِّيَاتِ على من حَفَر الزُّبْيَةَ على قبائل الأربعة؛ فَسَخِطَ بعضُهم ورضي بعضهم، ثم قدموا

(١) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٨ - ٥١، والنكت والعيون ٥/ ٨٤، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٥.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٥ - ١٦١٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٥٤) من حديث أنس ﷺ مطولاً، ولفظه: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر،.. وأقضاهم عليّ.. وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل..» الحديث. وأخرجه أحمد (١٢٩٠٤)، والترمذي (٣٧٩١) دون ذكر علي ﷺ.

على رسول الله ﷺ فقصُّوا عليه القصة؛ فقال: «أنا أقضي بينكم» فقال قائل: إن عليّاً قد قضي بيننا. فأخبروه بما قضي عليّ، فقال رسولُ الله ﷺ: «القضاءُ كما قَضَى عليٌّ» في رواية: فأمضى رسولُ الله ﷺ قضاءَ عليّ[1].

وكذلك يُروَى في المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجلٌ فقال: إن ابن أبي ليلى ـ وكان قاضياً بالكوفة ـ جلد امرأةً مجنونة قالت لرجل: يا ابن الزانيين حدَّين في المسجد وهي قائمة. فقال: أخطأ من ستة أوجه.

قال ابن العربي[2]: وهذا الذي قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يُدركه أحدٌ بالروية إلا العلماء، فأما قضيةُ عليٍّ فلا يُدركها الشادي، ولا يلحقها بعد التمرُّن في الأحكام إلا العاكف المُتمادي. وتحقيقُها أن هؤلاء الأربعة مقتولون[3] خطأً بالتدافع على الحُفرة من الحاضرين عليها، فلهم الدّيَات على مَن حَفَر[4] على وجه الخطأ، بَيْد أن الأوّل مقتولٌ بالمُدافَعة قاتلُ ثلاثةٍ بالمُجاذَبة، فله الدِّيةُ بما قُتِل، وعليه ثلاثةُ أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم. وأما الثاني فله ثلثُ الدِّيَة وعليه الثُّلثان بالاثنين اللذين قَتَلَهما بالمُجاذبة. وأما الثالث فله نصفُ الدِّية وعليه النصف؛ لأنه قتل واحداً بالمُجاذبة، فوقعت المحاصَّة، وغَرِمت العواقلُ هذا التقدير بعد القصاص[5] الجاري فيه. وهذا من بديع الاستنباط.

وأما أبو حنيفة فإنه نَظَر إلى المعاني المتعلقة فرآها ستة: الأوّل: أن المجنون

---

(١) أخرجه أحمد (١٣١٠)، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١١١. وفي إسناده حنش بن المعتمر الكناني، قال البخاري: يتكلمون في حديثه، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال ابن حبان: لا يُحتج به، يتفرد عن علي بأشياء. ميزان الاعتدال ١/ ٦١٩.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٥ - ١٦١٦، وما قبله منه.

(٣) في النسخ الخطية: المقتولون، وفي (م): المقتولين، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٤) في النسخ: حضر، والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) في النسخ الخطية ونسخة من أحكام القرآن لابن العربي: القضاء، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

لا حدَّ عليه؛ لأن الجُنون يُسقِطُ التكليف. وهذا إذا كان القذفُ في حالة الجنون، وأما إذا كان يجنُّ مرةً ويُفيق أُخرى فإنه يُحَدُّ بالقذف في حالة إفاقته.

والثاني: قولها: يا ابن الزانيين، فجلدها حدَّين لكل أبٍ حدٌّ، فإنما خطَّأه أبو حنيفة [فيه بناءً][(١)] على مذهبه في أن حدَّ القذف يتداخل، لأنه عنده حقُّ اللهِ[(٢)] تعالى كحدِّ الخمر والزنى. وأما الشافعي ومالك فإنهما يَرَيان أن الحدَّ بالقذف حقٌّ للآدمي، فيتعدَّد بتعدُّد المقذوف.

الثالث: أنه جَلَد بغير مطالبة المقذوف، ولا تجوز إقامةُ حدّ القذف بإجماعٍ من الأمة إلا بعد المُطالبة بإقامته ممن يقول: إنه حق الله تعالى، ومن يقول: إنه حقُّ الآدمي. وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حقٌّ للآدميّ؛ إذْ لو كان حقّاً لله لمَا توقّف على المطالبة كحدِّ الزِّنى.

الرابع: أنه والَى بين الحَدَّين، ومَن وجب عليه حدَّان لم يُوالَ بينهما، بل يُحَدُّ لأحدِهما ثم يُترَكُ حتى يندمِلَ الضرب، ثم يقام عليه الحدُّ الآخر.

الخامس: أنه حدَّها قائمةً، ولا تُحَدُّ المرأةُ إلا جالسةً مستورة؛ قال بعض الناس: في زنبيل.

السادس: أنه أقام الحدَّ في المسجد، ولا تُقام الحدود فيه إجماعاً. وفي القضاء[(٣)] في المسجد والتعزيز فيه خلافٌ.

قال القاضي: فهذا هو فصلُ الخِطاب وعلم القضاء الذي وقعت الإشارةُ إليه على أحد التأويلات في الحديث المرويّ «أقضاكم عليّ»[(٤)]. وأما مَن قال: إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العَجَم، ولمحمد ﷺ دون العرب؛ وقد بيَّن هذا بقوله: «وأُوتيتُ

---

(١) ما بين حاصرتين من أحكام القرآن لابن العربي.
(٢) في أحكام لقرآن لابن العربي: حقٌّ لله.
(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: القصاص.
(٤) سلف أول المسألة.

جوامِعَ الكَلِم»[١].

وأما من قال: إنه قوله: أمَّا بعد؛ فكان النبيُّ ﷺ يقول في خُطبته: «أما بعد»[٢].

ويُروى أن أوّل من قالها في الجاهلية سحبان بن وائل، وهو أوّلُ من آمنَ بالبعث، وأوّل من توكَّأ على عصا، وعُمِّر مئة وثمانين سنة. ولو صحَّ أن داود عليه السلام قالها، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النَّظم، وإنما كان بلسانه. والله أعلم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ «الخَصْمُ» يقع على الواحد والاثنين والجماعة[٤]؛ لأن أصلَه المصدر. قال الشاعر:

وَخَصْمٍ غِضَابٍ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ ... كنفضِ البَرَاذينِ العِرابِ المَخَالِيا[٥]

(١) سلف ١٢/ ٢٩٥.

(٢) ثمة عدة أحاديث في أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «أما بعد» منها حديث الكسوف، هو عند البخاري (٩٢٢)، ومسلم (٩٠٥). وقد ترجم له البخاري: باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد. وترجم في موضع آخر من صحيحه (١٠٦١): باب: قول الإمام في خطبة الكسوف: أما بعد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٩٤.

(٥) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٢٩١.

النحاس[١]: ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يُراد به هاهنا مَلَكان.

وقيل: «تَسَوَّرُوا» وإن كانا[٢] اثنين حملاً على الخَصْم، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعاً له، مثل الرَّكْب والصَّحْب. تقديره للاثنين: ذوا خَصْم، وللجماعة: ذوو خَصْم.

ومعنى: «تَسَوَّرُوا المِحرابَ» أَتَوْه مِن أعلى سُوره. يقال: تسوَّر الحائطَ: تسلَّقه، والسُّور: حائطُ المدينة، وهو بغير همز، وكذلك السُّوَرُ جمع سورةٍ، مثل: بُسْرَة وبُسَر، وهي كلُّ منزلة من البناء. ومنه سورةُ القرآن؛ لأنها منزلةٌ بعد منزلةٍ مقطوعة عن الأُخرى[٣]. وقد مضى في مقدّمة الكتاب بيانُ هذا[٤]. وقول النابغة:

ألم تَرَ أنَّ اللَّه أَعْطاكَ سُورَةً ... تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذب[٥]

يريد شرفاً ومنزلة. فأما السؤر بالهمز، فهو بقيةُ الطعام في الإناء. ابن العربي[٦]: والسُّؤر: الوليمة بالفارسي. وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ قال يومَ الأحزاب: «إنَّ جابراً قد صنع لكم سؤراً فحيَّ هلا بكم»[٧].

والمحراب هنا الغُرفة؛ لأنهم تسوَّروا عليه فيها؛ قاله يحيى بن سلام. وقال أبو عُبيدة[٨]: إنه صَدْر المَجْلس، ومنه محرابُ المسجد. وقد مضى القولُ فيه في غير موضع[٩].

---

(١) في معاني القرآن ٦/ ٩٤.
(٢) في (ظ): كانوا، وفي (م): كان.
(٣) الصحاح (سور).
(٤) ١/ ١٠٦.
(٥) ديوان النابغة ص١٨، وسلف ١/ ١٠٦.
(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٨، وما قبله منه.
(٧) أخرجه البخاري (٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩) مطولاً من حديث جابر ﷺ، وأخرجه أحمد بنحوه مطولاً (١٥٠٢٨).
(٨) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٠ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨٥، وما قبله منه، وقول يحيى بن سلام فيه: إنه المسجد.
(٩) ٥/ ١٠٧ و١٣/ ٢٢٨.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ جاءت «إذْ» مرتين؛ لأنهما فِعْلان. وزَعَم الفرّاء[1] أن إحداهما بمعنى لمَّا. وقول آخر أن تكون الثانيةُ مع ما بعدها تبييناً لما قبلَها.

قيل: إنهما كانا إنسيين؛ قاله النقَّاش. وقيل: مَلَكَين؛ قاله جماعة. وعيَّنهما جماعة، فقالوا: إنهما جبريلُ وميكائيل[2]. وقيل: مَلَكَين في صورةِ إنسيَّين بعثهما اللهُ إليه في يوم عبادته. فمنعهما الحرسُ الدخول، فتسوَّروا المحراب عليه، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين يدَيْه جالسين؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: عَلَوْا ونزلُوا عليه من فوق المحراب؛ قاله سفيان الثوري وغيره[3].

وسببُ ذلك ما حكاه ابن عباس أن داود عليه السلام حدَّث نفسَه إن ابتُلي أن يعتصم. فقيل له: إنك ستُبتلى وتَعْلَمُ اليومَ الذي تُبتلَى فيه فَخُذْ حِذرك. فأخذ الزبور ودخل المحرابَ، ومنع من الدخول عليه، فبينا هو يقرأ الزبورَ إذ جاء طائرٌ كأحسن ما يكون من الطير، فجعل يَدرُج بين يديه. فهمَّ أن يتناولَه بيده، فاستدرج حتى وقعَ في كَوَّة المحراب، فدنا منه ليأخُذَه فطار، فاطلع لِيُبصِرَه فأشرفَ على امرأة تغتسل، فلما رأته غطَّت جسدَها بشعرها. قال السدّي: فوقعت في قلبه.

قال ابن عباس: وكان زوجها غازياً في سبيل الله وهو أوريا بن حنان، فكتب داودُ إلى أمير الغُزاة أن يجعل زوجَها في حَمَلَةِ التابوت، وكان حَمَلَةُ التابوت إما أن يَفتح اللهُ عليهم أو يُقتلوا، فقدَّمه فيهم فقتل، فلما انقضت عِدَّتها خطبها داود، واشترطت عليه إن ولدتْ غلاماً أن يكون الخليفةَ بعده، وكتبت عليه بذلك كتاباً، وأشهدتْ عليه خمسين رجلاً من بني إسرائيل، فلم تستقرَّ نفسُه حتى ولدتْ سليمانَ وشَبَّ، وتسوَّر الملكان وكان من شأنهما ما قصَّ اللهُ في كتابه. ذكره الماوردي وغيره.

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤٠١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩، وما قبله منه.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٩ .
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥٣ ، وزاد المسير ٧/ ١١٥ .

ولا يصح[١].

قال ابن العربي[٢]: وهو أمثلُ ما رُوي في ذلك.

قلت: ورواه مرفوعاً بمعناه الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن يزيدَ الرَّقاشيِّ، سمع أنس بن مالك يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ داودَ النبيَّ عليه السلام حين نظرَ إلى المرأة فهمَّ بها قطع على بني إسرائيل بَعْثاً، وأوصى صاحبَ البَعْث فقال: إذا حضر العدوُّ قَرِّب فلاناً، وسمَّاه، قال: فقرَّبه بين يدي التابوت. قال: وكان ذلك التابوتُ في ذلك الزمان يُستنصَر به، فمن قُدِّم بين يدي التابوت لم يرجعْ حتى يُقتلَ أو ينهزمَ عنه الجيش الذي يُقاتله، فقُدِّم، فَقُتِل زوجُ المرأة، ونزل المَلَكان على داود، فقصَّا عليه القصّة»[٣].

وقال سعيد عن قتادة: كتبَ إلى زوجها وذلك في حصار عَمَّان مدينة بلقاء أن يأخذوا بحلقة الباب، وفيه الموت الأحمر، فتقدَّم فقتل.

وقال الثعلبي[٤]: قال قومٌ من العلماء: إنما امتحنَ اللهُ داودَ بالخطيئة؛ لأنه تمنَّى يوماً على ربِّه منزلةَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحوَ ما امتحنهم، ويُعطيه نحو ما أعطاهم. وكان داودُ قد قسمَ الدهرَ ثلاثةَ أيام، يومٌ يقضي فيه بين الناس، ويومٌ يخلو فيه بعبادة ربِّه، ويومٌ يخلو فيه بنسائه وأشغاله.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٨٥ - ٨٦، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢، وزاد المسير ٧/ ١١٥. وينظر قول الحافظ ابن كثير الذي سنذكره في التعليق بعد التالي.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٢.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٧٤، وابن أبي حاتم والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٠٠ وضعَّف إسناده. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٠: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرَّقَاشي عن أنس، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. اهـ.

(٤) في عرائس المجالس ص٢٨١ - ٢٨٣، والكلام إلى نهاية المسألة فيه، وفي تفسير البغوي ٤/ ٥٢ - ٥٣ بنحوه.

وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فَضْلَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فقال: يا رب، إنَّ الخيرَ كلَّه قد ذهب به آبائي؛ فأوحى الله تعالى إليه: إنهم ابتُلوا ببلايا لم يُبتَلَ بها غيرُهم فصبروا عليها؛ ابتُلي إبراهيمُ بنمروذ، وبالنار، وبذبح ابنه، وابتُلِيَ إسحاقُ بالذبح، وابتُلي يعقوبُ بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تُبتَلَ أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: فابتلني بمثل ما ابتليتهم، وأعطني مثلَ ما أعطيتَهم، فأوحى الله تعالى إليه: إنك مُبتلىً في شهر كذا في يوم الجمعة. فلما كان ذلك اليوم دخلَ محرابَه، وأغلق بابَه، وجعل يُصلِّي ويقرأ الزبور. فبينا هو كذلك إذ مثلَ له الشيطانُ في صورة حمامة من ذهب، فيها من كلِّ لون حَسَن، فوقف بين رجليه، فمدَّ يدَه لِيأخُذَها فيدفعها لابنٍ له صغير، فطارتْ غيرَ بعيد، ولم تُؤيسه من نفسها، فامتدَّ إليها لِيأخُذَها فتنحَّت، فتبعها فطارتْ حتى وقعتْ في كَوَّة، فذهب لِيأخُذَها فطارت، ونظرُ داودَ يرتفع في إثرها ليبعثَ إليها من يأخذُها، فنظر امرأةً في بستان على شَطِّ بركة تغتسل؛ قاله الكلبي.

وقال السُّدي[1]: تغتسل عُريانة على سطحٍ لها؛ فرأى أجملَ النساء خَلْقاً، فأبصرت ظِلَّه فنفضتْ شعرَها فغطَّى بَدَنَها، فزاده إعجاباً بها. وكان زوجُها أوريا بن حنان في غزوة مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود، فكتب داودُ إلى أيوبَ أن ابعثْ بأوريا إلى مكان كذا وكذا، وقَدِّمه قبلَ التابوت، وكان مَن قُدِّم قبل التابوت لا يَحِلُّ له أن يرجعَ وراءه حتى يفتحَ اللهُ عليه أو يستشهد. فقدَّمه ففتح له، فكتب إلى داود يُخبره بذلك.

قال الكلبي: وكان أوريا سيفَ الله في أرضه في زمان داود، وكان إذا ضربَ ضربةً وكبَّر كبَّر جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن شماله، وكبَّرت ملائكةُ السماء بتكبيره حتى ينتهي ذلك إلى العرش، فتُكبِّر ملائكةُ العرش بتكبيره. قال: وكان سيوفُ الله ثلاثة؛ كالب بن يوفنا في زمن موسى، وأوريا في زمن داود، وحمزة بن عبد المطَّلب

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٦٦.

في زمن رسول الله ﷺ[١].

فلما كتب أيوبُ إلى داود يُخبره أن الله قد فتح على أوريا كتبَ داودُ إليه: أن ابعثه في بَعْثِ كذا وقدِّمه قبل التابوت؛ ففتح الله عليه، فقُتل في الثالثة شهيداً. فتزوَّج داودُ تلك المرأةَ حين انقضت عِدَّتها. فهي أُمُّ سليمان بن داود.

وقيل: سببُ امتحان داود عليه السلام أن نَفْسَه حدَّثته أنه يُطيق قطعَ يومٍ بغير مُقارفة شيء.

قال الحسن: إن داود جزَّأ الدهر أربعةَ أجزاء؛ جُزءاً لنسائه، وجُزءاً للعبادة، وجُزءاً لبني إسرائيل يُذاكرونه ويُذاكرهم ويبكونه ويبكيهم، ويوماً للقضاء. فتذاكروا هل يمرُّ على الإنسان يومٌ لا يُصيب فيه ذنباً؟ فأضمر داودُ أنه يُطيق ذلك؛ فأغلق البابَ على نفسه يومَ عبادته، وأمر ألا يدخل عليه أحد، وأكبَّ على قراءة الزبور، فوقعت حمامةٌ من ذهب بين يديه. وذكر نحو ما تقدَّم.

قال علماؤنا: وفي هذا دليل، وهي:

الثانية: على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كلَّ يوم، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطءَ نسائه وإن كان مشغولاً بالعبادة. وقد مضى هذا المعنى في «النساء». وحَكَم كعبٌ بذلك في زمن عمرَ بمحضره رضي الله عنهما[٢]. وقد قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو[٣]: «إنّ لِزوجِكَ عليك حقّاً» الحديث.

وقال الحسن أيضاً ومجاهد: إن داودَ عليه السلام قال لبني إسرائيلَ حين استُخلِفَ: والله لأَعْدِلنَّ بينكم، ولم يَسْتَثْنِ فابتُلي بهذا.

وقال أبو بكر الورَّاق: كان داودُ كثيرَ العبادة فأُعجب بعمله، وقال: هل في

---

(١) الذي في الصحيح أن خالد بن الوليد ﷺ هو من سمَّاه رسول الله ﷺ سيفاً من سيوف الله. أخرجه البخاري (٣٧٥٧) من حديث أنس ﷺ، وأحمد (٤٣) من حديث أبي بكر ﷺ.

(٢) سلف ٦/٣٦ - ٣٧.

(٣) في (م) عمر، والحديث أرجه أحمد (٦٨٦٧)، والبخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩).

الأرض أحدٌ يعمل كعملي. فأتاه جبريل[١]؛ فقال: إنَّ الله تعالى يقول لك: أُعجِبْتَ بعبادتك، والعُجب يأكلُ العبادة كما تأكل النارُ الحَطَبَ، فإنْ أُعجبتَ ثانية وَكَلْتُكَ إلى نفسك. قال: يا رب، كِلْني إلى نفسي سنةً. قال: إنَّ ذلك لَكثير. قال: فشهراً. قال: إنَّ ذلك لكثير. قال: فيوماً. قال: إنَّ ذلك لَكثير. قال: يا ربِّ، فَكِلْني إلى نفسي ساعةً. قال: فشأنك بها. فوكل الأحراسَ، ولَبِسَ الصُّوفَ، ودخل المحرابَ، ووضع الزَّبور بين يديه؛ فبينما هو في عبادته إذ وقع الطائرُ بين يديه، فكان من أمرِ المرأة ما كان.

وقال سفيان الثوري: قال داود ذاتَ يوم: يا ربِّ، ما مِنْ يوم إلا ومِن آل داود لك فيه صائم، وما مِنْ ليلةٍ إلا ومِن آل داود لك فيها قائم. فأوحى الله إليه: يا داودُ، منك ذلك أو مني؟ وعِزَّتي لأَكِلَنَّك إلى نفسك. قال: يا رب، اعفُ عنِّي. قال: أَكِلُكَ إلى نفسك سنةً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فشهراً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فأُسبوعاً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فيوماً. قال: لا بعزَّتك. قال: فساعة قال: لا بعزَّتك. قال: فلحظةً. فقال له الشيطان: وما قدرُ لحظة. قال: كِلْني إلى نفسي لحظةً. فَوَكَلَهُ اللهُ إلى نفسه لحظةً. وقيل له: هي في يوم كذا في وقت كذا. فلما جاء ذلك اليومُ جعله للعبادة، ووكل الأحراسَ حول مكانه. قيل: أربعة آلاف. وقيل: ثلاثين ألفاً، أو ثلاثة وثلاثين ألفاً. وخلا بعبادة ربِّه، ونشر الزبور بين يديه، فجاءت الحمامةُ فوقعت له، فكان من أمره في لحظته مع المرأة ما كان. وأرسلَ اللهُ عزّ وجلّ إليه المَلَكين بعد ولادة سليمان، وضَرَبا له المثل بالنِّعاج؛ فلما سمع المَثَلَ ذكَر خطيئته فخرَّ ساجداً أربعين ليلةً على ما يأتي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم. وقيل: لِدخولهم عليه بغير إذنه. وقيل: لأنهم تسوَّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب[٢].

---

(١) في النسخ: فأوحى الله إليه جبريل، والمثبت من عرائس المجالس ص٢٨٣، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٤، وزاد المسير ٧/ ١١٨ بنحوه.

قال ابن العربي[١]: وكان محرابُ داودَ عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يَرتقي إليه آدميٌّ بحيلة إلا أن يُقيم إليه أياماً أو أشهراً بحسب طاقته، مع أعوانٍ يَكثُر عَدَدُهم، وآلاتٍ جمَّة مختلفة الأنواع. ولو قلنا: إنه يوصَل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مُخبراً عن ذلك: ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ إذ لا يقال: تسوَّر المحرابَ والغُرفةَ لمن طلع إليها مِن دَرَجِها، وجاءها مِن أسفلها إلا أن يكون ذلك مَجازاً؛ وإذا شاهدت الكَوَّة التي يقال: إنه دخل منها الخَصْمان علمت قطعاً أنهما مَلَكان؛ لأنها من العُلُوِّ بحيث لا يَنالها إلا عُلْويّ.

قال الثعلبي: وقد قيل: كان المُتسوِّران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم. فلما قضى داوُد بينهما بقضية قال له مَلَك من الملائكة: فهلا قضيتَ بذلك على نفسكَ يا داود. قال الثعلبي: والأول أحسنُ؛ أنهما كانا مَلَكين نَبَّها داودَ على ما فَعَل.

قلت: وعلى هذا أكثرُ أهل التأويل. فإن قيل: كيف يجوز أن يقول الملكان: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وذلك كَذِبٌ، والملائكة عن مثله مُنزَّهون. فالجواب عنه أنه لابد في الكلام من تقدير؛ فكأنهما قالا: قَدِّرنا كأننا خَصْمان بَغَى بعضُنا على بعض فاحكُمْ بيننا بالحق، وعلى ذلك يُحمل قولُهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمرادُ إيرادُه على طريق التقديرِ لينبّه داود على ما فعل؛ والله أعلم[٢].

الرابعة: إن قيل: لِم فَزِعَ داودُ وهو نبيٌّ، وقد قَوِيتْ نفسُه بالنبوّة، واطمأنَّتْ بالوحي، ووَثِقَتْ بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات، وكان من الشجاعة في غاية المكانة؟! قيل له: ذلك سبيل الأنبياء قبلَه، لم يأمنوا القتل والأذِية، ومنهما كان يخاف. ألا ترى إلى موسى وهارون عليهما السلام كيف قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه:٤٥] فقال الله عز وجل: ﴿لَا تَخَافَآ﴾. وقالت الرُّسل

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٦١٩ .
(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٠ .

للوط: ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠] ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] وكذا قال الملكان هنا: «لَا تَخَفْ»[1].

قال محمد بن إسحاق: بعث اللهُ إليه مَلَكين يختصمان إليه وهو في محرابه مثلاً ضربه اللهُ له ولأوريا، فرآهما واقفين على رأسه؛ فقال: ما أدخلكما عليّ؟ قالا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فجئناك لِتقضيَ بيننا.

الخامسة: قال ابن العربي[2]: فإنْ قيل: كيف لم يأمُرْ بإخراجهما إذ قد علم مَطْلبهما، وهلَّا[3] أدَّبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه:

الأوّل: أنَّا لم نعلمْ كيفيةَ شَرْعه في الحجاب والإذن، فيكون الجوابُ بحسب تلك الأحكام، وقد كان ذلك في ابتداء شَرْعنا مُهملاً في هذه الأحكام، حتى أوضحها اللهُ تعالى بالبَيان.

الثاني: أنَّا لو نزَّلنا الجواب على أحكام الحجاب، لاحتملَ أن يكون الفزعُ الطارئ عليه أذهله عما كان يجبُ في ذلك له.

الثالث: أنه أراد أن يَستوفيَ كلامهما الذي دخلا له حتى يعلمَ آخرَ الأمر منه، ويرى هل يَحتمِلُ التقحُّم فيه بغير إذن أَمْ لا؟ وهل يقترِن بذلك عذرٌ لهما أن لا يكون لهما عذرٌ فيه؟ فكان من آخرِ الحال ما انكشف أنه بلاءٌ ومحنة، وَمَثَلٌ[4] ضربه اللهُ في القصة، وأدبٌ وقع على دعوى العِصمة.

الرابع: أنه يحتملُ أن يكون في مسجد ولا إذنَ في المسجد لأحد إذ لا حَجْرَ فيه على أحد.

قلت: وقولٌ خامس ذكره القشيري؛ وهو أنهما قالا: لمَّا لم يَأذنْ لنا المُوكَّلون بالحجاب، توصَّلنا إلى الدخول بالتَّسُّور، وخفنا أن يتفاقمَ الأمرُ بيننا. فَقَبِلَ داودُ

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٩ بنحوه.
(٢) أحكام القرآن ٤/ ١٦١٩ - ١٦٢٠.
(٣) في النسخ الخطية: ولا، والمثبت من (م).
(٤) في النسخ الخطية: مثلاً، والمثبت من (م).

عُذْرَهم، وأَصغى إلى قولهم.

السادسة: قوله تعالى: «خَصْمانِ» إن قيل: كيف قال: «خَصْمانِ» وقبلَ هذا: «إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ» فقيل: لأن الاثنين جمع؛ قال الخليل: كما تقول: نحن فعلنا إذا كنتما اثنين. وقال الكسائي: جمع لما كان خبراً، فلما انقضى الخبرُ وجاءت المُخاطبة، خبَّر الاثنان عن أنفسهما فقالا: خَصْمان.

وقال الزجاج[١]: المعنى: نحن خَصْمان. وقال غيره: القولُ محذوف؛ أي: يقول خَصْمانِ بَغَى بعضُنا على بعض. قال الكسائي: ولو كان بغى بعضُهما على بعض لجاز.

الماوردي[٢]: وكانا مَلَكين، ولم يكونا خَصْمين ولا باغيين، ولا يتأتَّى منهما كَذِب؛ وتقديرُ كلامهما ما تقول: إنْ أتاك خَصْمان قالا: بغى بعضُنا على بعض.

وقيل: أي: نحن فريقان من الخصوم بغَى بعضنا على بعض.

وعلى هذا يحتمل أن تكون الخُصومةُ بين اثنين ومع كلٍّ واحد جمع. ويحتملُ أن يكون لكلٍّ واحد من هذا الفريق خُصومةٌ مع واحد[٣] من الفريق الآخر، فحضروا الخُصوماتِ، ولكن ابتدأ منهم اثنان، فعرفَ داودُ بذِكْر النكاح القصة. وأغنى ذلك عن التعرُّض للخُصومات الأُخَر.

والبَغْي التعدِّي والخُروج عن الواجب. يقال: بغى الجُرْح إذا أفرطَ وَجَعُه وترامَى إلى ما يَفحُشُ، ومنه: بَغَتِ المرأةُ إذا أَتَتِ الفاحشةَ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تَجُرْ؛ قاله السُّدِّي[٤]. وحكى أبو عبيد: شَطَطت عليه، وأشططتُ، أي: جُرت. وفي حديث تميم الداريّ:

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٣٢٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠، وما قبله وما بعده منه.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٨٦.

(٣) في (م): كل واحد.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٨٦.

إنكَ لشَاطِّي. أي: جائر عليَّ في الحُكم[١].

وقال قتادة: لا تَمِلْ. الأخفش: لا تُسرِف[٢]. وقيل: لا تُفرط. والمعنى متقارب.

والأصلُ فيه البُعد، من شَطَّتِ الدارُ، أي: بَعُدَتْ؛ شَطَّتِ الدار تَشِطُّ وتَشُطُّ شطّاً وشطوطاً: بَعُدَتْ. وأشطَّ في القضية، أي: جار، وأشطَّ في السَّوْم واشتط، أي: أبعد، وأشطُّوا في طلبي، أي: أمعنوا. قال أبو عمرو: الشَّطَط مجاوزةُ القَدْر في كلِّ شيء. وفي الحديث: لها مهرُ مِثْلِها لا وَكْسَ ولا شَطَط[٣]. أي: لا نُقصان ولا زيادة[٤]. وفي التنزيل: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] أي: جوراً من القول وبُعداً عن الحق.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: أرشدنا إلى قَصْدِ السبيل.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي: قال المَلَك الذي تكلَّم عن أورِيا «إنَّ هذا أخي» أي: على ديني، وأشار إلى المُدَّعى عليه. وقيل: أخي، أي: صاحبي[٥] «له تِسْعٌ وتِسعون نَعْجةً».

وقرأ الحسن: «تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةٌ» بفتح التاء فيهما، وهي لغةٌ شاذة، وهي الصحيحة من قراءة الحسن؛ قاله النحاس[٦]. والعرب تَكْني عن المرأة بالنعجة والشاة؛ لِمَا هي عليه من السكون والمَعْجَزة وضَعْف الجانب. وقد يُكْنَى عنها بالبقرة

---

(١) الصحاح (شطط)، وقول أبي عبيد في غريب الحديث ٤/ ٣٠٨، وقول تميم الداري ﷺ ذكره أبو عبيد، وابن الأثير في النهاية (شطط). وقصته: أن رجلاً كلَّمه في كثرة العبادة، فقال: أرأيت إن كنتُ مؤمناً ضعيفاً وأنت مؤمن قويّ، إنك لشاطِّي حتى أحمل قوتك على ضعفي، فلا أستطيع فأنبتّ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٨٦.

(٣) هذا قول ابن مسعود ﷺ في رجل تزوج امرأة لم يفرض لها ولم يدخل بها حتى مات. وسلف ٤/ ١٥٩.

(٤) الصحاح (شطط).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٨٧.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٠، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص ١٣٠، والمحتسب ٢/ ٢٣١.

والحِجر[(١)] والناقة؛ لأنَّ الكلَّ مَرْكوب. قال ابن عون:

أنــا أبــوهــنَّ ثــلاثٌ هُــنَّــهْ رابـعـةٌ فـي الـبـيـت صُـغْـرا هُـنَّـهْ
ونـعـجـتـي خـمـسـاً تُـوفِّـيـهـنَّـهْ أَلَا فـتـىً سـمـحٌ يُـغـذِّيـهـنَّـهْ
طَيَّ الـنَّـقَـا فـي الـجـوع يَـطْـوِيـهـنَّـهْ ويـلُ الـرَّغـيـفِ ويـلَـهُ مِـنْـهُـنَّـهْ[(٢)]

وقال عنترة:

يـا شـاةَ مـا قَـنَـصٍ لِـمـن حَـلَّـتْ لـه حَـرُمـتْ عـلـيَّ وَلـيـتَـهـا لـم تَـحْـرُمِ
فَـبَـعَـثْـتُ جـاريـتي فـقـلـتُ لـهـا اذْهَـبي فـتَـجَـسَّـسِـي أخـبـارَهـا لـي واعْـلَـمي
قـالـت رأيـتُ مِـن الأعـادي غِـرَّةً والـشّـاةُ مُـمْـكِـنَـةٌ لـمـن هـو مُـرْتَـمِ
فـكـأنَّـمـا الـتَـفَـتَـتْ بِـجـيـدِ جَـدايـةٍ رَشَـأٍ مِـنَ الـغِـزْلانِ حُـرٌّ أَرْثَـمِ[(٣)]

وقال آخر:

فـرَمَـيْـتُ غَـفْـلَـةَ عَـيْـنِـهِ عـن شَـاتـهِ فـأَصَـبْـتُ حَـبَّـةَ قَـلْـبِـهـا وطِـحَـالَـهـا[(٤)]

وهذا من أحسنِ التعريض حيث كَنَى بالنِّعاج عن النساء. قال الحسين بن الفَضْل: هذا من المَلَكين تعريضٌ وتنبيهٌ كقولهم: ضربَ زيدٌ عَمراً، وما كان ضربٌ ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال: نحن خَصْمان هذه حالُنا[(٥)]. قال أبو جعفر النحاس: وأحسنُ ما قيل في هذا: أنَّ المعنى: يقول خصمان بغَى بعضُنا على بعض، على جهة المسألة؛ كما تقول: رجلٌ يقول لامرأته كذا؛ ما يجب عليه؟[(٦)]

---

(١) في (د) و(ظ) و(م): والحجرة، والمثبت من (ز)، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي، والكلام منه ٤/ ١٦٢٠ ، والحِجْر: الأنثى من الخيل، اللسان (حجر).

(٢) أورد البيتان الأول والثاني الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٨٠ .

(٣) ديوان عنترة ص ٢٨ . الجداية: الغزال. والرشأ: الظبي إذا قوي ومشى مع أمه. القاموس (جدي) و(رشأ).

(٤) قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص ٧٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥٤ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٩٥ .

قلت: وقد تأوَّل المُزنيّ صاحبُ الشافعي هذه الآيةَ وقولَه ﷺ في حديث ابن شهاب الذي خرَّجه «الموطأ» وغيره: «هو لكَ يا عبدُ بن زَمْعَة[1]» على نحو هذا؛ قال المُزني: يحتمِل هذا الحديثُ عندي ـ والله أعلم ـ أن يكون النبيُّ ﷺ أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحُكم أنَّ هذا يكون إذا ادَّعى صاحبُ فراش وصاحبُ زِنى، لا أنه قَبِلَ على عُتبة قولَ أخيه سعد، ولا على زَمْعَة قولَ ابنه: إنه ولدُ زنى، لأن كلاً واحد منهما أَخبرَ عن غيره. وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحدٍ على غيره. وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مثلَ ذلك في قصة داود والملائكة؛ إذ دخلوا عليه فَفَزِعَ منهم، قالوا: لا تَخَفْ خَصْمان، ولم يكونوا خَصْمين، ولا كان لواحد منهم تسعٌ وتسعون نَعْجة، ولكنهم كلَّموه على المسألة لِيعرِفَ بها ما أرادوا تعريفَه. فيحتمِل أن يكون النبي ﷺ حكم في هذه القصة على المسألة، وإنْ لم يكن أحدٌ يُؤنسني على هذا التأويل في الحديث، فإنه عندي صحيح[2]. والله أعلم.

التاسعة: قال النحاس[3]: وفي قراءة ابن مسعود: «إنَّ هذا أَخِي كان له تِسْعٌ وتسعونَ نعجةً أُنْثَى[4]» و«كان» هنا مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فأما قوله: «أنثى» فهو تأكيد، كما يقال: هو رجلٌ ذكرٌ، وهو تأكيد. وقيل: لمَّا كان يقال: هذه مئةُ نعجة وإنْ كان فيها من الذكور شيءٌ يسير، جاز أن يقال: أُنثى ليعلم أنه لا ذَكَرَ فيها. وفي التفسير: له تسع وتسعون امرأة.

قال ابن العربي[5]: إنْ كان جميعهن أحراراً فذلك شَرْعُه، وإن كنَّ إماءً فذلك شرعُنا. والظاهرُ أن شرع مَن تقدَّم قبلنا لم يكن محصوراً بعدد، وإنما الحصر في

---

(١) الموطأ ٢/ ٧٣٩، وأخرجه أحمد (٢٤٠٨٦)، والبخاري (٢٠٥٣) ومسلم (١٤٥٧) مطولاً، وفيه قصة.

(٢) التمهيد ٨/ ١٨٦.

(٣) معاني القرآن ٦/ ٩٧ - ٩٨.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٠.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٠.

شريعة محمد ﷺ، لِضَعْفِ الأبدان وقلّة الأعمار.

وقال القشيري: ويجوز أن يقال: لم يكن له هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل، كما تقول: لو جئتني مئةَ مرة لم أقضِ حاجتَك، أي: مراراً كثيرة.

قال ابن العربي[١]: قال بعض المفسرين: لم يكن لداود مئة امرأة، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلاً؛ المعنى: هذا غنيٌّ عن الزوجة وأنا مُفتقِرٌ إليها. وهذا فاسدٌ من وجهين: أحدهما: أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له، ولا دليل يدلُّ على أن شرعَ من قبلنا كان مقصوراً من النساءِ على ما في شرعنا. الثاني: أنه روى البخاري وغيره أن سليمانَ قال: «لأطوفنَّ الليلةَ على مئة امرأة تَلِدُ كلُّ امرأة غلاماً يُقاتل في سبيل الله، ونَسِيَ أن يقول: إن شاء الله»[٢]. وهذا نصٌّ.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: امرأة واحدة: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: انزل لي عنها حتى أكْفُلَها، وقال ابن عباس: أَعطنيها. وعنه: تحوَّل لي عنها. وقاله ابن مسعود. وقال أبو العالية: ضُمَّها إليَّ حتى أكْفُلَها. وقال ابن كيسان: اجعلها كِفْلي ونصيبي، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني. قال الضحاك: إنْ تكلَّم كان أفصحَ مني، وإن حارب كان أبطشَ مني[٣].

يقال: عزّه يَعُزُّه ـ بضم العين في المستقبل ـ عَزّاً: غلبه. وفي المثل: مَنْ عَزَّ بَزَّ؛ أي: من غَلَبَ سَلَب. والاسمُ العِزَّة، وهي القوّة والغَلَبة[٤]. قال الشاعر:

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ تُجاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ[٥]

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢١ .

(٢) صحيح البخاري (٥٢٤٢)، وأخرجه أحمد (٧٧١٥)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) هذه الأقوال في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤ .

(٤) الصحاح (عزز). والمثل: من عزَّ بزَّ. سلف ١٨/ ١٢٥ .

(٥) اختلف في قائله، فقيل: مجنون ليلى، وقيل: نُصَيب بن رباح، وقيل: توبه بن الحُمَيِّر. ينظر ديوان مجنون ليلى ص ٩٠ ، وشعر نُصيب بن رباح ص٧٤ ، والكامل للمبرد ٢/ ٩٢٩ ، وشرح ديوان الحماسة البصرية ٣/ ١٥١ .

وقرأ عبدُ الله بن مسعود وعُبيد بن عُمير: «وعَازَّني في الخطَابِ»[١] أي: غالبني؛ من المُعَازَّة، وهي المغالبة؛ عازَّه، أي: غالبه.

قال ابن العربي[٢]: واختُلف في سبب الغَلَبة؛ فقيل: معناه: غلبني ببيانه. وقيل: غَلَبني بسلطانه؛ لأنه لمَّا سأله لم يستطِعْ خِلافَه.

كان ببلادنا أميرٌ يقال له: سير بن أبي بكر[٣]، فكلَّمته في أن يسأل لي رجلاً حاجة، فقال لي: أما علمتَ أنَّ طلبَ السلطان للحاجة غَصْبٌ لها. فقلت: أما إذا كان عَدْلاً فلا. فعجبتُ من عُجمته وحفظه لما تمثَّل به وفِطنته، كما عَجِبَ من جوابي له واستغربه.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ قال النحاس[٤]: فيقال: إن هذه كانت خطيئةَ داود عليه السلام؛ لأنه قال: لقد ظَلمك من غير تثبُّت بينة، ولا إقرار من الخَصْم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن. فهذا قول. وسيأتي بيانُه في المسألة بعد هذا، وهو حسنٌ إن شاء الله تعالى.

قال أبو جعفر النحاس[٥]: فأما قولُ العلماء الذين لا يُدفَع قولُهم؛ منهم عبد الله ابن مسعود وابن عباس، فإنهم قالوا: ما زاد داودُ صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل: اِنزل لي عن امرأتك. قال أبو جعفر: فعاتبه اللهُ عزّ وجلّ على ذلك ونبَّهه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي، ومَن تخطَّى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصحُّ عن عالم، ويلحقه فيه إثمٌ عظيم. كذا قال في كتاب «إعراب القرآن».

وقال: في كتاب «معاني القرآن»[٦] له بمثله. قال ﷺ: قد جاءت أخبارٌ وقصصٌ في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصحُ! ولا يتصل إسنادُه، ولا ينبغي أن

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠، ونسبها في القراءات الشاذة ص ١٣٠ لمسروق وأبي وائل والحسن.
(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢١ .
(٣) أحد أمراء السلطان يوسف بن تاشفين. نفح الطيب ٤/ ٣٧٣ .
(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦١ .
(٥) المصدر السابق.
(٦) ٦/ ٩٨ - ١٠١ وما بين حاصرتين الآتي منه.

يُجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها. وأصحُّ ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: ما زاد دوادُ عليه السلام على أن قال: «أكفِلْنِيها» أي: اِنزل لي عنها. وروى المِنهال عن سعيد بن جُبير [عن ابن عباس] قال: ما زاد داود ﷺ على أن قال: «أَكْفِلْنِيها» أي: تحوَّل لي عنها وضُمَّها إليَّ[(1)].

قال أبو جعفر: فهذا أجلُّ ما رُوي في هذا، والمعنى عليه: أن داود عليه السلام سأل أُوريا أن يُطلِّق امرأته كما يسأل الرجلُ الرجلَ أن يَبيعه جاريتَه، فنبَّهه الله عز وجل على ذلك، وعاتبه لمَّا كان نبيّاً وكان له تسعٌ وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيُّد منها، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراءُ عليه.

قال ابن العربي[(2)]: وأما قولهم: إنها لمَّا أَعجبته أمرَ بتقديم زوجها للقَتْل في سبيل الله، فهذا باطلٌ قطعاً؛ فإن داود ﷺ لم يكن لِيُريقَ دمَه في غَرَضِ نَفْسه، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه: اِنْزِلْ لي عن أهلك، وعَزَمَ عليه في ذلك، كما يطلبُ الرجلُ من الرجل الحاجة برغبةٍ صادقة؛ كانت في الأهل أو في المال. وقد قال سعدُ[(3)] بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسولُ الله ﷺ بينهما: إنَّ لي زوجتين أَنزِلُ لك عن أحسنهما؛ فقال له: بارك الله لك في أهلك[(4)]. وما يجوز فِعلُه ابتداءً يجوز طَلَبُه، وليس في القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوَّجها بعد زَوال عِصْمةِ الرجل عنها، ولا ولادتها لسليمان، فعمن يُروَى هذا ويُسنَد؟! وعلى مَن في نَقْله يُعتمَد، وليس يَأْثُره عن الثِّقات الأَثْبات أحدٌ.

أما أن في سورة «الأحزاب» نكتةً تدلُّ على أن داودَ قد صارت له المرأةُ زوجةً،

---

(١) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٥٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٤ -١٦٢٥ .

(٣) في (م) سعيد، وهو خطأ.

(٤) أخرجه أحمد (١٣١٢٣)، والبخاري (٣٧٨١) من حديث أنس ﷺ.

وذلك قوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ [الآية:٣٨] يعني في أحد الأقوال تزويج داود المرأة التي نظر إليها، كما تزوّج النبي ﷺ زينبَ بنت جحش[١]؛ إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فِراق، بل أمره بالتمسُّك بزوجته، وكان تزويجُ داود للمرأة بسؤال زوجها فراقَها. فكانت هذه المَنْقَبة لمحمد ﷺ على داودَ مُضافةً إلى مَناقبه العَلِيَّة ﷺ.

ولكن قد قيل: إن معنى ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ تزويج الأنبياء بغير صَداق مَنْ وهبتْ نفسَها لهم من النساء بغير صَداق. وقيل: أراد بقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أن الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم فُرِضَ لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره. وهذا أصحُّ الأقوال.

وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مئةَ امرأة؛ وهذا نصُّ القرآن. وروي أن سليمانَ كانت له ثلاث مئة امرأة وسبع مئة جارية؛ وربُّك أعلم[٢].

وذكر الكيا الطبري في «أحكامه»[٣] في قول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ الآية: ذكر المُحقِّقون الذين يَرون تنزيهَ الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر أن داودَ عليه السلام كان قد أقدمَ على خِطبة امرأة قد خَطَبها غيرُه، يقال: هو أوريا؛ فمال القومُ إلى تزويجها من داودَ راغبين فيه، وزاهدين في الخاطب الأوّل، ولم يكن بذلك داود عليه السلام عارفاً، وقد كان يُمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخِطبة بها، فلم يفعل ذلك، من حيث أُعجِبَ بها إمّا وصفاً أو مشاهدةً على غير تَعَمُّد؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العَدَدُ الكثير، وذلك الخاطبُ لا امرأةَ له، فنبَّهه الله تعالى على ما فعل بما كان مِن تسوُّر المَلَكين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض؛ لكي يَفهمَ من ذلك موقعَ العَتَب فيعدل عن

(١) سلف ١٤/١٨٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٢٥ .

(٣) ٤/٣٥٩ - ٣٦٠ .

هذه الطريقة، ويستغفر ربَّه من هذه الصغيرة.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخَصْمين، وقبلَ أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول. قال ابن العربي[1]: وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا في مِلَّة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر. وإنما تقديرُ الكلام أن أحد الخَصْمين ادَّعى والآخر سلَّم في الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى. وقد قال النبي ﷺ: «إذا جلسَ إليك الخَصْمان فلا تَقْضِ لأحدِهما حتى تسمعَ من الآخر»[2].

وقيل: إن داودَ عليه السلام لم يَقْضِ للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك. وقيل تقديره: لقد ظَلَمك إنْ كان كذلك. والله أعلمُ بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه.

قلت: ذكر هذين الوجهين القشيري والماورديّ[3] وغيرهما. قال القشيري: وقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ مِن غير أن يسمعَ كلامَ الخَصْم مُشكل؛ فيمكن أن يقال: إنما قال هذا بعد مُراجعة الخَصْم الآخر وبعد اعترافه. وقد رُوي هذا وإنْ لم تَثبُتْ روايتهُ، فهذا معلومٌ من قرائن الحال. أو أراد: لقد ظَلمك إنْ كان الأمرُ على ما تقول، فسكَّته بهذا وصبَّره إلى أن يسألَ خَصْمَه. قال: ويَحتمِلُ أن يقال: كان من شَرْعهم التعويلُ على قول المُدَّعي عند سُكوت المُدَّعى عليه إذا لم يظهر منه إنكارٌ بالقول.

وقال الحَليمي أبو عبد الله في كتاب «منهاج الدين»[4] له: ومما جاء في شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت، أو كانت خافيةً فظهرت السجودُ لله عزّ وجلّ. قال: والأصل في ذلك قولُه عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَحُسْنَ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٥، وما قبله منه.

(٢) أخرجه أحمد (٨٨٢)، وأبو داود (٣٥٨٢)، والترمذي (١٣٣١) وقد قال النبي ﷺ ذلك لعليٍّ ﷺ لما بعثه قاضياً إلى اليمن.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٨٧ - ٨٨.

(٤) ٢/ ٥٥١ - ٥٥٢.

مَـَٔابٍ﴾، أخبر الله عزّ وجلّ عن داود عليه السلام: أنه سمع قولَ المُتظلِّم من الخَصْمين، ولم يُخبَر عنه أنه سأل الآخر، إنما حُكي أنه ظَلَمه، فكان ظاهرُ ذلك أنه رأى في المُتكلِّم مخائلَ الضَّعْف والهَضيمة، فحمل أمره على أنه مظلومٌ كما يقول، ودعاهُ ذلك إلى ألّا يسألَ الخَصْمَ؛ فقال له مستعجلاً: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول: كانت لي مئة نعجة ولاشيء لهذا، فسرق مني هذه النعجة، فلما وجدتُها عنده قلت له: ارْدُدْها، وما قلت له: أكفلنيها، وعلم أني مُرافعه إليك، فجرَّني قبل أن أجرَّه، وجاءك مُتظلِّماً مني[1] قبل أن أُحضره، لِتَظُنَّ أنه هو المُحِقُّ وأني أنا الظالم. ولما تكلَّم داود بما حملته العَجَلة عليه، عَلِمَ أن الله عزّ وجلّ خلَّاه ونفسَه في ذلك الوقت، وهو الفتنةُ التي ذكرها[2]، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فاستغفر ربَّه وخَرَّ راكعاً لله تعالى شُكراً على أن عَصَمهُ، بأن اقتصر على تظليم المَشْكُوِّ، ولم يَزِدْهُ على ذلك شيئاً من انتهارٍ أو ضرب أو غيرهما، مما يَليق بمن تصوَّر في القلب أنه ظالم، فغفر اللهُ له، ثم أقبلَ عليه يُعاتبه؛ فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] فَبَانَ بما اقتصَّه[3] الله تعالى من هذه الموعظة التي توخَّاه بها بعد المغفرة أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ في الحكم، والمُبادرةَ إلى تظليم مَن لم يَثبُتْ عنده ظُلمه. ثم جاء عن ابن عباس أنه قال: سجدَها داودُ شكراً، وسجدها النبيُّ ﷺ اتِّباعاً[4]، فثبت أن السجودَ للشُّكر سنةٌ متواترةٌ عن الأنبياء صلوات الله عليهم.

﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ أي: بسؤاله نعجتَك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩] أي: مِن دعائه الخير.

---

(١) في (م): من.

(٢) في (د) و(م): ذكرناها، والمثبت موافق للمنهاج.

(٣) في (م): بما قصَّه.

(٤) أخرجه النسائي في المجتبى ٢/ ١٥٩ بلفظ: أن النبي ﷺ سجد في «صۤ» وقال: سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ يقال: خلِيط وخُلطاء، ولا يقال: طويل وطُولاء، لِثِقَل الحركة في الواو[١]. وفيه وجهان: أحدهما: أنهما الأصحاب. الثاني: أنهما الشُّرَكاء[٢].

قلت: إطلاقُ الخُلَطاء على الشُّرَكاء فيه بُعْد، وقد اختلف العلماءُ في صفة الخُلَطاء، فقال أكثر العلماء: هو أن يأتي كلٌّ واحد بغنمه فيجمعها[٣] راعٍ واحدٌ والدَّلو والمَراح. وقال طاوس وعطاء: لا يكون الخُلطاء إلا الشُّركاء. وهذا خلاف الخبر؛ وهو قوله ﷺ: «لا يُجْمَع بين مُفْتَرِق ولا يُفَرَّق بين مُجتمع خشيةَ الصدقة، وما كان مِن خليطين فإنَّهما يتراجعان بينهما بالسَّوِيَّة»[٤]، ورُوِي: فإنهما يترادَّان الفَضْل[٥]. ولا موضع لترادِّ الفَضْل بين الشُّركاء؛ فاعلمه.

وأحكامُ الخُلْطة مذكورةٌ في كتب الفقه. ومالك وأصحابه وجمعٌ من العلماء لا يرون [الصدقة][٦] على مَن ليس في حصَّته ما تجب فيه الزكاة. وقال الربيع واللَّيث وجمع من العلماء منهم الشافعي: إذا كان في جميعها ما تجب فيه الزكاة أُخذت منها الزكاة. قال مالك: وإن أخذ المُصَّدِّق بهذا ترادُّوا بينهم للاختلاف في ذلك. وتكون كحكم حاكم اختلف فيه.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يتعدَّى ويظلم. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً. ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يعني الصالحين، أي: وقليل هم، فـ «ما» زائدة. وقيل: بمعنى: الذين، وتقديره: وقليلٌ الذين هم[٧]. وسمع

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٨٨ .

(٣) في (م): فيجمعهما.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٥٠)، وسلف ٤/ ٣٩٩ .

(٥) لم نقف على هذه الرواية، وذكره مالك في الموطأ ١/ ٢٦٣ من قوله.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٨٨ .

عمرُ ﷺ رجلاً يقول في دعائه: اللهمَّ اجعلني من عبادك القليل. فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟.فقال: أردتُ قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فقال عمر: كلُّ الناس أفقهُ منك يا عمر(١).

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: ابتليناه. و«ظَنَّ» معناه أيقن. قال أبو عمرو والفراء: ظنَّ بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز في المُعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين(٢). والقراءة «فَتَنَّاهُ» بتشديد النون دون التاء. وقرأ عمر بن الخطاب ﷺ: «فتَّنَّاه» بتشديد التاء والنون على المبالغة، وقرأ قتادة وعُبيد بن عمير وابن السَّمَيْفَع: «فَتَنَاهُ» بتخفيفهما. ورواه علي بن نَصْر عن أبي عمرو، والمُراد به المَلَكان اللذان دخلا على داود عليه السلام(٣).

السادسة عشرة: قيل: لما قضَى داودُ بينهما في المسجد، نظر أحدُهما إلى صاحبه فضحك، فلم يَفْطُنْ داود؛ فأحبَّا أن يعرِفهما، فَصَعِدا إلى السماء حِيالَ وجهه، فعلم داودُ عليه السلام أن الله تعالى ابتلاه بذلك، ونبَّهه على ما ابتلاه.

قلت: وليس في القرآن ما يدلُّ على القضاء في المسجد إلا هذه الآية، وبها استدلَّ من قال بجواز القضاء في المسجد، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعي لمَا أقرَّهم داود على ذلك. ويقول: انصرفا إلى موضع القضاء. وكان النبيُّ ﷺ والخلفاء يقضُون في المسجد(٤)، وقد قال مالك: القضاء في المسجد من الأمر

---

(١) سلف ١٤/ ٢٧٧ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠١ ، والقراءتان في القراءات الشاذة ص ١٣٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٣٢ .

(٤) ترجم البخاري قبل الحديث (٧١٦٥): باب من قضى ولا عَنَ في المسجد، ولا عن عمر عند منبر النبي ﷺ وقضى شريح والشعبي ويحيى بن يعمر في المسجد، وقضى مروان على زيد بن ثابت باليمين عند المنبر، وكان الحسن وزُرارة بن أوفى يقضيان في الرحبة خارجاً من المسجد. ثم ترجم بعده: باب: من حكم في المسجد حتى إذا أتى على حدٍّ أمر أن يخرج من المسجد فيُقامَ، وذكر حديث أبي هريرة ﷺ في الرجل الذي قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني زنيت،... فلما شهد على نفسه أربعاً، قال: «أبِكَ جنون»؟! قال: لا، قال: «اذهبوا فارجموه».

القديم. يعني في أكثر الأمور. ولا بأس أن يَجلِسَ في رحبته؛ لِيصل إليه الضعيفُ والمُشرك والحائض، ولا يُقيم فيه الحدود؛ ولا بأس بخفيف الأدب. وقد قال أشهب: يقضي في منزله وأين أحبَّ[1].

السابعة عشرة: قال مالك رحمه الله: وكان الخلفاءُ يَقضُون بأنفسهم، وأوّل من استقضى معاوية[2]. قال مالك: وينبغي للقُضاة مُشاورة العلماء. وقال عمر بن عبد العزيز: لا يستقضي حتى يكون عالماً بآثار مَن مضى، مستشيراً لذوي الرأي، حليماً نَزِهاً. قال: ويكون ورعاً. قال مالك: وينبغي أن يكون متيقظاً كثيرَ التحذُّر من الحِيل، وأن يكون عالماً بالشروط، عارفاً بما لا بُدَّ له منه من العربية؛ فإن الأحكامَ تختلف باختلاف العباراتِ والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التي تتضمَّن حقوقَ المحكوم له. وينبغي له أن يقول قبلَ إنجاز الحكم للمطلوب: أَبَقِيتْ لك حُجَّةٌ؟ فإن قال: لا، حَكَمَ عليه، ولا يقبل منه حُجَّةً بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتي بما له وجهٌ أو بيِّنة. وأحكامُ القضاء والقُضاة فيما لهم وعليهم مذكورةٌ في غير هذا الموضع.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ اختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه على أقوال ستة:

الأوّل: أنه نَظَر إلى المرأة حتى شَبِعَ منها. قال سعيد بن جُبير: إنما كانت فتنته النَّظرة. قال أبو إسحاق[3]: ولم يتعمَّدْ داودُ النظر إلى المرأة، لكنه عاودَ النظر إليها، فصارت الأُولى له والثانية عليه.

الثاني: أنه أَغزى زوجَها في حَمَلَةِ التابوت.

الثالث: أنه نوى إنْ مات زوجُها أن يتزوَّجها.

الرابع: أن أوريا كان خطب تلك المرأةَ، فلما غاب خطَبها داودُ، فزُوِّجت منه

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٢٦ بنحوه.

(٢) التمهيد ١١/٩٧ .

(٣) هو الثعلبي، وقوله في عرائس المجالس ص ٢٨٤، وقول سعيد بن جبير الذي قبله منه.

لجلالته، فاغتمَّ لذلك أوريا، فَعَتَبَ اللهُ على داود إذْ لم يتركها لخاطبها، وقد كان عنده تسعٌ وتسعون امرأة.

الخامس: أنه لم يَجزعْ على قتل أوريا، كما كان يجزع على من هَلَكَ من الجند، ثم تزوّج امرأته، فعاتبه الله تعالى على ذلك؛ لأن ذنوبَ الأنبياء وإن صَغُرتْ فهي عظيمةٌ عند الله.

السادس: أنه حَكَم لأحد الخَصْمين قبلَ أن يسمعَ من الآخر.

قال القاضي ابن العربي(١): أما قولُ مَن قال: إنه حَكَم لأحدِ الخَصْمين قبل أن يسمعَ من الآخر، فلا يجوز على الأنبياء، وكذلك تعريضُ زوجها للقتل. وأما من قال: إنه نَظَر إليها حتى شَبِعَ، فلا يجوز ذلك عندي بحال؛ لأن طُموحَ النظر لا يَليق بالأولياء المتجرِّدين للعبادة، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائطُ الله المُكاشَفون بالغيب.

وحكى السديّ عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: لو سمعتُ رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارفَ من تلك المرأة محرَّماً لَجلدته ستين ومئة؛ لأن حدَّ الناسِ ثمانون وحدَّ الأنبياء ستون ومئة. ذكره الماوردي(٢) والثعلبي أيضاً.

قال الثعلبي(٣): وقال الحارث الأعور(٤) عن عليّ: مَن حدَّث بحديث داود على ما تَرويه القُصَّاص مُعتقِداً جلدته حدَّين؛ لِعظم ما ارتكب برمي مَن قد رَفَع اللهُ محلَّه، وارتضاه من خَلْقه رحمةً للعالمين، وحُجَّة للمجتهدين.

قال ابن العربي(٥): وهذا مما لم يَصِحَّ عن عليّ. فإن قيل: فما حُكمه عندكم؟

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٦٢٦ -١٦٢٧ ، وما قبله منه بنحوه.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٨٩ .

(٣) عرائس المجالس ص ٢٨٤ .

(٤) هو الحارث بن عبد الله الهَمْداني، صاحب علي ﷺ، كذَّبه الشعبي في رأيه، ورُمي بالرفض، وفي حديثه ضعف. تقريب التهذيب ص ٨٦.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٧ .

قلنا: أما مَن قال: إن نبيًّا زنى، فإنه يُقتل، وأما مَن نَسب إليه ما دون ذلك من النظر والمُلامسة، فقد اختلف الناس في ذلك؛ فإنْ صمَّم أحدٌ على ذلك فيه ونَسبه إليه قتلته، فإنه يُناقض التعزير المأمور به. فأما قولهم: إنه وقع بصرُه على امرأة تغتسل عُريانةً، فلما رأته أسبلتْ شعرَها فسترتْ جسدَها، فهذا لا حرجَ عليه فيه بإجماع من الأمة؛ لأن النظرةَ الأُولى تَكشِفُ المنظور إليه ولا يأثم الناظرُ بها، فأما النظرة الثانية فلا أصلَ لها[1].

وأما قولهم: إنه [نوى] إن مات زوجُها تزوَّجها فلا شيء فيه إذْ لم يُعرِّضْهُ للموت. وأما قولهم: إنه خَطَب على خِطبة أوريا فباطلٌ يَردُّه القرآن والآثار التفسيرية كلُّها.

وقد روى أشهبُ عن مالك قال: بلغني أن تلك الحمامةَ أَتَتْ فوقعتْ قريباً من داود عليه السلام وهي مِن ذَهبٍ، فلما رآها أعجبته فقام لِيأخُذَها فكانت قُربَ يده، ثم صنع مثلَ ذلك مرتين، ثم طارت واتَّبعها ببصره فوقعتْ عينُه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعرٌ طويل؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العُشب من دموع عينيه.

قال ابن العربي[2]: وأما قولُ المفسرين: إن الطائرَ درج عنده فهمَّ بأخذه واتَّبعه فهذا لا يُناقض العبادة؛ لأنه مُباحٌ فِعْلُه، لاسيما وهو حلالٌ، وطلبُ الحلال فريضة، وإنما اتّبع الطيرَ لذاته لا لجماله، فإنه لا منفعةَ له فيه، وإنما ذِكْرهم لحسن الطائر خرقٌ[3] في الجهالة. أما أنه روي أنه كان طائراً من ذهب فاتَّبعه لِيأخُذَه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روي في الصحيح: «إنَّ أيوبَ عليه السلام كان يغتسلُ عُرياناً، فخرَّ عليه رِجْلٌ من جراد [من ذهب] فجعل يَحثي منه ويجعلُ في ثَوْبه؛ فقال الله تعالى له: «يا أيوبُ، ألم أكن أَغنيتُكَ؟» قال: «بلى يا رب، ولكنْ لا غِنى لي عن

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٢٤ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٤ و١٦٢٧ ، وما قبله وما بين حاصرتين السالف منه.

(٣) في أحكام القرآن: حذق.

بركتك»[١].

وقال القشيري: فهمَّ داودُ بأنْ يأخذَه لِيدفعه إلى ابن له صغير، فطار ووقع على كَوَّة البيت؛ وقاله الثعلبي أيضاً، وقد تقدّم[٢].

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي: خرَّ ساجدًا، وقد يُعبَّر عن السجود بالركوع. قال الشاعر:

فخرَّ على وَجهِه راكِعاً وتابَ إلى الله مِنْ كُلِّ ذنب[٣]

قال ابن العربي[٤]: لا خلافَ بين العلماء أن المُرادَ بالركوع هاهنا السجود؛ فإن السجودَ هو المَيْل، والركوع هو الانحناء، وأحدُهما يدخل[٥] على الآخر، ولكنه قد يختصُّ كلٌّ واحد بهيئته، ثم جاء هذا على تسمية أحدِهما بالآخر، فَسُمِّي السجود ركوعاً.

وقال المهدوي: وكان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودُهم ركوعاً. وقال مقاتل: فوقع من ركوعه ساجداً لله عزّ وجلّ. أي: لما أحسَّ بالأمر قام إلى الصلاة، ثم وقع من الركوع إلى السجود؛ لاشتمالهما جميعاً على الانحناء.

﴿وَأَنَابَ﴾ أي: تاب من خطيئته ورَجَعَ إلى الله.

وقال الحسين بن الفضل: سألني عبدُ الله بن طاهر ـ وهو الوالي ـ عن قولِ الله عز وجل: «وَخَرَّ رَاكعاً» فهل يقال للراكع: خَرَّ؟. قلت: لا. قال: فما معنى الآية؟ قلت: معناها: فخرَّ بعد أن كان راكعاً، أي: سَجَدَ[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٥٩)، والبخاري (٣٣٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وما بين حاصرتين منهما، وسلف ٤/ ٤٨٣.

(٢) ١٥/ ١٦٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٨٩.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٧.

(٥) في أحكام القرآن: يدلّ.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥٧، وعبد الله بن طاهر: هو أبو العباس، الأمير العادل، حاكم خراسان وما وراء النهر، مات سنة (٢٣٠ هـ) السير ١٠/ ٦٨٤.

الموفية عشرين: واختُلف في سجدة داودَ هل هي من عزائم السجودِ المأمور به في القرآن أم لا؟ فروى أبو سعيد الخُدري أن النبيَّ ﷺ قرأ على المنبر: «ص والقرآنِ ذِي الذِّكْر» فلما بلغَ السجدةَ نزلَ فسجدَ وسَجَدَ الناسُ معه، فلما كان يومٌ آخرُ قرأ بها فتَشَزَّنَ الناسُ للسجود، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنها توبةُ نبيٍّ، ولكني رأيتُكم تَشَزَّنتم للسجود» ونزلَ وسجدَ. وهذا لفظ أبي داود[١].

وفي البخاري وغيره: عن ابن عباس أنه قال: «صَ» ليست من عزائم القرآن، وقد رأيتُ النبيَّ ﷺ يسجدُ فيها[٢].

وقد رُوي من طريق عن ابن مسعود أنه قال: «صَ» توبةُ نبيٍّ، ولا يُسجد فيها؛ وعن ابن عباس أنها توبةُ نبيٍّ ونبيُّكم ممن أُمِرَ أن يَقتديَ به[٣].

قال ابن العربي[٤]: والذي عندي أنها ليست موضعَ سجود، ولكن النبيَّ ﷺ سجدَ فيها فسجدنا بالاقتداء به. ومعنى السجود أن داودَ سجدَ خاضعاً لِربِّه، مُعترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته؛ فإذا سجدَ أحدٌ فيها فَلْيسجد بهذه النِّيَّة، فلعلَّ الله أن يغفرَ له بحرمة داودَ الذي اتَّبعه، وسواء قلنا: إن شَرْعَ من قبلنا شرعٌ لنا أم لا؟ فإن هذا أمرٌ مشروع في كلِّ أمة لكلِّ أحد. والله أعلم.

الحادية والعشرون: قال ابن خُوَيْز مَنْداد: قوله: «وخَرَّ راكِعاً وأَنَابَ» فيه دلالةٌ على أن السجودَ للشُّكر مُفرداً لا يجوز؛ لأنه ذَكر معه الركوع؛ وإنما الذي يجوز أن يأتي بركعتين شكراً، فأمَّا سجدةٌ مفردةٌ فلا؛ وذلك أن البِشاراتِ كانت تأتي رسولَ الله ﷺ والأئمة بعده، فلم يُنقَلْ عن أحدٍ منهم أنه سجد شُكراً، ولو كان ذلك مفعولاً لهم لَنُقِلَ نقلاً متظاهراً لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قُربة.

---

(١) في السنن (١٤١٠). والتشزُّن: التأهُّب والتهيّؤ للشيء. النهاية (شزن).

(٢) صحيح البخاري (١٠٦٩)، وهو في مسند أحمد (٣٣٨٧).

(٣) أخرجهما البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣١٩.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٨، وما قبله منه.

قلت: وفي «سنن» ابن ماجه: عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسولَ الله ﷺ صلّى يومَ بُشِّرَ برأس أبي جهل ركعتين(١). وخرَّج من حديث أبي بَكْرَةَ أن النبيَّ ﷺ كان إذا أتاه أمرٌ يَسُرُّه ـ أو يُسَرُّ به ـ خرَّ ساجداً شكراً لله(٢). وهذا قول الإمام الشافعي وغيره.

الثانية والعشرون: روى الترمذي وغيره ـ واللفظ للغير ـ: أن رجلاً من الأنصار على عهدِ رسول الله ﷺ كان يُصلِّي من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ: «صَ والقرآنِ ذِي الذِّكْرِ» فلما بلغ السجدةَ سجدَ وسجدت معه الشجرة، فسمعها وهي تقول: اللهمَّ أَعْظِمْ لي بهذه السجدة أجراً، وارزُقني بها شُكراً(٣).

قلت: خرَّج ابن ماجه في «سننه» عن ابن عباس قال: كنتُ عند النبيّ ﷺ، فأتاه رجلٌ فقال: إني رأيتُ البارحة فيما يرى النائم كأني أُصلِّي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدةَ [فسجدتُ] فسجدتِ الشجرةُ لِسُجودي، فسمعتها تقول: اللهمَّ احطُطْ بها عني وِزْراً، واكتُبْ لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذُخراً. قال ابن عباس: فرأيتُ رسولَ الله ﷺ قرأ: «السجدة» فسجدَ، فسمعتُه يقول في سجوده مثلَ الذي أخبره الرجلُ عن قول الشجرة(٤).

ذكره الثعلبي عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، رأيتُني في النوم كأني تحت شجرة والشجرةُ تقرأ «صَ» فلما بلغتِ السجدةَ سجدَتْ فيها، فسمعتُها

---

(١) سنن ابن ماجه (١٣٩١)، وفي إسناده سلمة بن رجاء عن الشعثاء، وسلمة قال فيه ابن عدي: حدَّث بأحاديث لا يتابع عليها، وعدَّ منها هذا الحديث. ميزان الاعتدال ١٨٩/٤ . والشعثاء ـ وهي بنت عبد الله، الأسدية الكوفية ـ قال الحافظ ابن حجر في التقريب ص ٦٦٦ : لا تُعرف.

(٢) سنن ابن ماجه (١٣٩٤)، وأخرجه أبو داود (٢٧٧٤)، والترمذي (١٥٧٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث بكار بن عبد العزيز، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، رَأَوْا سجدة الشكر.

(٣) سنن الترمذي (٥٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ١٦٢٨/٤ ، وينظر الحديث التالي.

(٤) سنن ابن ماجه (١٠٥٣)، وما بين حاصرتين منه.

تقول في سجودها: اللهمَّ اكتُبْ لي بها أجراً، وحُطَّ عني بها وزراً، وارزقني بها شُكراً، وتقبَّلها مني كما تقبَّلت من عبدك داودَ سجدتَه. فقال لي النبيّ ﷺ: «أفَسجدْتَ أنت يا أبا سعيد» فقلت: لا والله يا رسولَ الله. فقال: «لقد كنتَ أحقَّ بالسُّجود من الشجرة» ثم قرأ النبيّ ﷺ «صَ» حتى بلغ السجدةَ فسجد، ثم قال مثلَ ما قالت الشجرة[١].

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: فغفرنا له ذَنْبَه. قال ابن الأنباري[٢]: «فغفرنا له ذلك» تامٌّ، ثم تبتدئ: «وإن له» وقال القشيري: ويجوز الوقف على «فغفرنا له» ثم تبتدئ «ذلك وإنَّ له» كقوله: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ [ص:٥٥] أي: الأمر ذلك.

وقال عطاء الخُراساني وغيره: إنَّ داودَ سجدَ أربعين يوماً حتى نبتَ المَرْعَى حولَ وجهه وغمر رأسَه، فنُودي: أجائعٌ فتُطعَم، وأعارٍ فتُكسَى؛ فنَحَبَ نحبةً هاج المَرْعى من حرِّ جوفه، فغُفِر له وسُتِرَ[٣] بها.فقال: يا رب، هذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غَفَرْتَه، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلاً من بني إسرائيل، تركت أولادهم أيتاماً، ونساءهم أرامل؟ قال: يا داود، لا يُجاوزني يومَ القيامة ظلمٌ، أُمَكِّنه منك ثم أستوهِبُك منه بثواب الجنة. قال: يا ربّ، هكذا تكون المغفرة الهَنيئة[٤]. ثم قيل: يا داود، ارفَعْ رأسَك. فذهب لِيَرفَعَ رأسَه فإذا به قد نَشِبَ في الأرض،فأتاه جبريلُ فاقتلعه عن وجه الأرض كما يُقتلَع من الشجرة صَمْغها. رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر[٥] عن عطاء.

قال الوليد: وأخبرني مُنِير بن الزبير[٦]، قال: فَلَزِقَ مواضعُ مساجده على الأرض

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٧ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٢ .

(٣) في نوادر الأصول ص ١٨٨ (والكلام منه): وبُشِّر.

(٤) في (م): الهيِّنة، والمثبت موافق لنوادر الأصول.

(٥) هو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي، الشامي. تهذيب التهذيب ٢/ ٥٦٦ .

(٦) الشامي، أبو ذر الأزدي، قال ابن حبان: يأتي عن الثقات بالمعضلات، لا تحل الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار. تهذيب التهذيب ٤/ ١٦٤ .

من فَروة وجهه ما شاء الله. قال الوليد: قال ابن لهيعة: فكان يقول في سجوده: سبحانك هذا شرابي دموعي، وهذا طعامي في رماد بين يدي. وفي رواية: إنه سجدَ أربعين يوماً لا يرفع رأسَه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبتَ العُشْب من دموعه[(١)].

وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «إنَّ داودَ مَكَثَ أربعين ليلةً ساجداً حتى نبت العُشْبُ من دموعه على رأسه، وأكلتِ الأرضُ من جبينه وهو يقول في سجوده: يا ربّ، داودُ زلَّ زلَّةً بَعُدَ بها ما بين المشرق والمغرب، ربِّ، إن لم ترحَمْ ضَعْفَ داود وتغفِرْ ذَنْبَه جعلت ذَنْبَه حديثاً في الخَلْق من بعده، فقال له جبريل بعد أربعين سنة: يا داود، إن اللهَ قد غَفَرَ لك الهَمَّ الذي هممتَ به»[(٢)].

وقال وهب: إنَّ داودَ عليه السلام نُودي: إني قد غفرتُ لك. فلم يرفع رأسَه حتى جاءه جبريل فقال: لِمَ لا ترفع رأسَك وربُّك قد غَفَرَ لك؟ قال: يا رب، كيف وأنت لا تظلم أحداً. فقال الله لجبريل: اذهَبْ إلى داودَ فقل له يذهب إلى قبر أوريا فَيتحلَّل منه، فأنا أُسْمِعُه نداءَه[(٣)]. فلبس داودُ المُسوحَ، وجلس عند قبر أوريا، ونادى: يا أوريا، فقال: لبيك، من هذا الذي قطعَ عليَّ لَذَّتي وأيقظني؟ فقال: أنا أخوك داودُ، أسألك أن تجعلني في حِلٍّ، فإني عرَّضتك للقتل؛ قال: عرَّضتني للجنة، فأنت في حِلّ.

وقال الحسن وغيره: كان داودُ عليه السلام بعد الخطيئة لا يُجالس إلا الخاطئين، ويقول: تعالوا إلى داود الخَطَّاء، ولا يشربُ شراباً إلا مزجَه بدموع عينيه. وكان يجعل خبزَ الشعير اليابس في قَصْعة، فلا يزال يبكي حتى يبتلَّ بدموعه، وكان

(١) هذه الأخبار من الإسرائيليات، وأوردها بنحوها الطبري ٢٠/ ٦٨ وما بعدها، والثعلبي في عرائس المجالس ص ٢٨٤ وما بعدها، والبغوي ٤/ ٥٥ وما بعدها. وسنذكر أقوال العلماء في ردّ هذه الأخبار ص٢٠٣-٢٠٤ من هذا الجزء، ينظر ثمة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٧٤ ، والثعلبي في عرائس المجالس ص ٢٨٤ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٥٥ ، من حديث أنس ﷺ، وسلف قسم منه ١٨/ ١٥٨ ، وهو حديث ضعيف، كما ذكرنا سابقاً.

(٣) في النسخ الخطية: نداءك.

يَذُرُّ عليه الرماد والملح فيأكل ويقول: هذا أكلُ الخاطئين. وكان قبل الخطيئة يقومُ نصف الليل ويصومُ نصفَ الدَّهر، ثم صام بعده الدهرَ كلَّه وقام الليل كلَّه. وقال: يا رب، اجعلْ خطيئتي في كفِّي، فصارت خطيئته منقوشةً في كفِّه. فكان لا يبسطُها لطعام ولا شرابٍ ولا شيء إلا رآها فأبْكته، وإنْ كان ليُؤتى بالقَدَح ثُلثاه ماء، فإذا تناوله أبصرَ خطيئته فما يضعه عن شَفَته حتى يفيضَ من دموعه[1]. وروى الوليد بن مسلم: حدَّثني أبو عمرو الأوزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلُ عيني داودَ مثلُ القِرْبتين تَنْطُفان، ولقد خدَّد الدموع في وجه داود خديدَ الماء في الأرض»[2].

قال الوليد: وحدَّثنا عثمانُ بن أبي العاتكة أنه كان من قول داود إذ هو خُلُوٌّ من الخطيئة شدَّة قوله في الخطَّائين أن كان يقول: اللهمَّ لا تغفِرْ للخطَّائين. ثم صار إلى أن يقول: اللهمَّ ربِّ اغفر للخاطئين لكي تغفرَ لداود معهم؛ سبحان خالق النور. إلهي، خرجتُ أسأل أطباءَ عبادك أن يداووا خطيئتي فكلُّهم عليك يَدُلُّني. إلهي، أخطأتُ خطيئةً قد خِفتُ أن تجعل حصادَها عذابَك يومَ القيامة إنْ لم تغفرها؛ سبحان خالق النور. إلهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت الأرضُ بِرَحْبها عليَّ، وإذا ذكرتُ رحمتَك ارتدَّ إليَّ روحي.

وفي الخبر: أن داودَ عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فاستقبلَ بها الناسَ لِيُريهم نَقْشَ خطيئته؛ فكان يُنادي: إلهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت عليَّ الأرض بِرَحْبها، وإذا ذكرتُ رحمتك ارتدَّ إليَّ روحي؛ ربِّ اغفِرْ للخاطئين كي تغفر لداود معهم. وكان يقعدُ على سبعة أفرشة من اللِّيف محشوَّة بالرماد، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تَنْفذَ من الأفرشة كلِّها.

وكان إذا كان يومُ نَوْحه نادى مُناديه في الطُّرق والأسواق والأودية والشِّعاب وعلى رؤوس الجبال وأفواه الغيران: ألا إنَّ هذا يومُ نَوْحِ داود، فمن أراد أن يبكيَ على ذنبه فليأتِ داودَ فيسعده؛ فيهبط السُّياح من الغيران والأودية، وترتجُّ الأصواتُ

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٨ .

(٢) أورده الحكيم في نوادره ص ١٨٨ ، والبغوي في تفسيره ٥٨/٤ ، وإسناده هكذا معضل.

حولَ منبره، والوحوش والسِّباع والطير عُكَّفٌ؛ وبنو إسرائيل حول منبره؛ فإذا أخذ في العَويل والنَّوح، وأثارت الحرقات منابعَ دموعه، صارت الجماعة ضجةً واحدة نوحاً وبكاء، حتى يموت حول منبره بَشَرٌ كثير في مثل ذلك اليوم[1].

ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت فجأة[2]. أتاه مَلَك الموت وهو يصعَدُ في محرابه وينزل؛ فقال: جئتُ لأَقْبِضَ روحك. فقال: دعني حتى أنزلَ أو أرتقي. فقال: مالي إلى ذلك سبيل؛ نَفِدَت الأيامُ والشهور والسُّنون والآثار والأرزاق، فما أنت بمُؤثر بعدها أثراً. قال: فسجد داودُ على مَرْقاة من الدَّرج فقبضَ نفسَه على تلك الحال. وكان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسُ مئة وتسعٌ وتسعون سنة. وقيل: تسع وسبعون.

وعاش مئةَ سنة، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة[3].

الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قُربة بعد المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قالا: والله، إن أوَّل من يشربُ الكأسَ يومَ القيامة داود[4]. وقال مجاهد عن عبد الله ابن عمر: الزُّلفى الدنوُّ من الله عز وجل يوم القيامة[5].

وعن مجاهد: يُبعث داودُ يومَ القيامة وخطيئته منقوشةٌ في يده، فإذا رأى أهاويلَ يوم القيامة لم يجد منها محرزاً إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى. قال: ثم يرى خطيئته فيقلق، فيقال له: هاهنا؛ ثم يرى فيقلق، فيقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، فيقال له:

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، ونوادر الأصول ص ١٨٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٨ . وهذه الأخبار من الإسرائيليات، ينظر ما سنذكره في ردِّها ص٢٠٣-٢٠٤ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٣ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) عرائس المجالس ص ٢٩٤ .

(٤) عرائس المجالس ص ٢٨٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ .

هاهنا؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ذكره الترمذي الحكيم. قال: حدّثنا الفضل بن محمد، قال: حدَّثنا عبد الملك بن الأصبغ قال: حدّثنا الوليد بن مسلم، قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن مجاهد فذكره(١).

قال الترمذي: ولقد كنت أمُرُّ زماناً طويلاً بهذه الآيات فلا ينكشفُ لي المُراد والمعنى من قوله: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص:١٦] والقِطّ الصحيفة في اللغة؛ وذلك أن رسولَ الله ﷺ تلا عليهم: «﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾» [الحاقة:١٩]: وقال لهم «إنكم سَتجدون هذا كلَّه في صَحائفكم تُعطَوْنَها بشمائلكم»(٢) قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: صحيفتنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص:١٧]، فقصَّ قصةَ خطيئته إلى مُنتهاها، فكنت أقول: أمره بالصبر على ما قالوا، وأمره بذكر داود، فأي شيء أُريدَ من هذا الذِّكر؟ وكيف اتَّصل هذا بذاك؟ فلا أَقِفُ على شيء يسكن قلبي عليه، حتى هداني اللهُ له يوماً فأُلْهِمتُه؛ أن هؤلاء أنكروا قولَ أنهم يُعطَوْن كُتبهم بشمائلهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم استهزاءً بأمر الله؛ وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ فأوجعه ذلك من استهزائهم، فأمره بالصبر على مَقَالتهم، وأن يذكر عبدَه داودَ؛ سأل تعجيلَ خطيئته أن يراها منقوشةً في كفِّه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القَدَح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تَنفُذَ سبعة أفرشة من اللِّيف مَحشوة بالرَّماد، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضَمان تَبِعَة الخَصْم، وأن الله تبارك وتعالى اسمه يستوهبه منه، وهو حبيبه ووَلِيُّه وصَفِيُّه؛ فرؤية نَقْش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صَنعت به هكذا، فكيف كان يحلّ بأعداء الله وبِعُصاته من خَلْقه وأهل خِزْيه، لو عُجِّلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجُحود، وماذا يَحُلُّ بهم إذا نظروا إليها

---

(١) وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٩٧ من طريق صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم، به بنحوه.

(٢) لم نقف عليه.

في تلك الصحائف، وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبُشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها. وقد روينا في الحديث: إذا رآها يومَ القيامة منقوشةً في كفِّه قَلِقَ حتى يقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، ثم يقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، حتى يقرب فيسكن[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملَّكناك لِتأمُر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلُفَ مَن كان قبلكَ من الأنبياء والأئمة الصالحين[٢]. وقد مضى في «البقرة» القولُ في الخليفة وأحكامه مستوفى[٣]، والحمد لله.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل. وهو أمرٌ على الوجوب وقد ارتبط هذا بما قبله، وذلك أن الذي عُوتب عليه داودُ طلبُه المرأةَ مِن زوجها وليس ذلك بعدل[٤]. فقيل له بعد هذا: فاحكُم بين الناس بالعَدْل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: لا تَقْتدِ بهواك المُخالف لأمر الله ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن طريق الجنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يَحيدون عنها ويتركونها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في النار ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بما تركوا من سلوك طريق الله؛ فقوله: «نَسُوا» أي: تركوا الإيمان به، أو تركوا العملَ به فصاروا كالنَّاسين. ثم قيل: هذا لداود لمَّا

(١) سلف قريباً بنحوه من قول مجاهد.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ .

(٣) ١/ ٣٩٥ وما بعدها.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٢٩ .

أكرمه الله بالنبوّة. وقيل: بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته.

الثالثة: الأصل في الأقضية قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية [المائدة:٨]. وقد تقدَّم الكلامُ فيه.

الرابعة: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: إن ارتفع لك الخَصْمان فكان لك في أحدِهما هوىً، فلا تشتهِ في نفسك الحقَّ له لِيَفْلُجَ[1] على صاحبه، فإنْ فعلتَ محوتُ اسمك من نبوَّتي، ثم لا تكون خليفتي ولا أهلَ كرامتي[2].

فدلَّ هذا على بيان وجوب الحكم بالحقّ، وألّا يميلَ إلى أحد الخَصْمين لِقَرابةٍ أو رجاء نَفْع، أو سبب يقتضي المَيْل من صُحبة أو صداقة، أو غيرهما[3].

وقال ابن عباس: إنما ابتُلي سليمانُ بن داود عليهما السلام، لأنه تقدَّم إليه خَصْمان فَهَوِيَ أن يكون الحقُّ لأحدهما[4].

وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: بلغني أن قاضياً كان في زمن بني إسرائيل بلغ من اجتهاده أن طلبَ إلى ربِّه أن يجعل بينه وبينه عَلَماً، إذا هو قضى بالحقّ عَرَفَ ذلك؛ وإذا هو قصَّر عَرَفَ ذلك، فقيل له: ادخل منزلك، ثم مُدَّ يدكَ في جدارك، ثم انظر حيث تبلغُ أصابعك من الجدار فاخطُطْ عندها خطّاً؛ فإذا أنت قمتَ من مجلس القضاء، فارجع إلى ذلك الخطّ فامدُدْ يدكَ إليه، فإنك متى ما كنتَ على الحقّ فإنك

(١) الفَلْج: الظَّفَر والفوز. القاموس (فلج).

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٦ .

(٣) أحكام القرآن للكيا ٣/ ٣٦١ .

(٤) نوادر الأصول ص١٨٧ بنحوه.

ستبلغه، وإن قصَّرت عن الحق قصَّر بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد، فكان لا يقضي إلا بحقّ، وإذا قام من مَجْلسه وفرغَ لم يَذُقْ طعاماً ولا شراباً، ولم يُفْضِ إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتي ذلك الخطّ، فإذا بلغه حَمِدَ الله وأفضى إلى كلّ ما أحلَّ الله له من أهل أو مَطْعم أو مَشْرب. فلما كان ذاتَ يوم وهو في مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يُريدانه، فوقع في نفسه أنهما يُريدان أن يختصما إليه، وكان أحدُهما له صديقاً وخِدْناً، فتحرَّك قلبه عليه محبةَ أن يكون الحقُّ له فيقضيَ له، فلما أن تكلَّما دار الحقُّ على صاحبه فقضَى عليه، فلما قام من مَجْلسه ذهب إلى خطّه كما كان يذهب كلَّ يوم، فمدَّ يده إلى الخطّ فإذا الخطُّ قد ذهب وتشمَّر إلى السَّقف، وإذا هو لا يبلغه فخرَّ ساجداً وهو يقول: يا ربّ شيئاً لم أتعمَّدْه ولم أُرِده، فَبيِّنْه لي. فقيل له: أتحسبنَّ أن الله تعالى لم يطَّلع على خيانة قلبك، حيث أحببتَ أن يكون الحقُّ لِصديقك فتقضيَ[1] له به، قد أردته وأحببتَه، ولكن الله قد ردَّ الحقَّ إلى أهله وأنت كاره.

وعن ليث قال: تقدَّم إلى عمر بن الخطاب خَصْمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا فَفَصَلَ بينهما، فقيل له في ذلك، فقال: تقدَّما إليَّ فَوَجَدتُ لأحدهما ما لم أَجِدْ لصاحبه، فكَرِهتُ أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فَوَجَدتُ بعضَ ذلك له، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلتُ بينهما[2].

وقال الشعبي: كان بين عمر وأُبَيٍّ خُصومةٌ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته، فقال عمر: هذا أَوَّلُ جَوْرك؛ أجلسني وإيَّاه مَجْلساً واحداً؛ فجلسا بين يديه[3].

الخامسة: هذه الآيةُ تمنعُ من حُكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحُكَّام لو مُكِّنوا أن

(١) في (م): لتقضي.

(٢) ذكر هذا الخبر والذي قبله الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) أخرجه ابن شبّه في تاريخ المدينة المنورة ٢/ ٧٥٥ .

يحكموا بعلمهم، لم يشأ أحدُهم إذا أراد أن يحفظَ وليَّه ويُهْلِكَ عدوَّه إلا ادَّعى عِلْمَه فيما حكم به. ونحو ذلك رُوي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر؛ قال: لو رأيتُ رجلاً على حدٍّ من حدود الله، ما أخذُته حتى يشهدَ على ذلك غيري[١].

وروي أن امرأةً جاءت إلى عمرَ فقالت له: احكُمْ لي على فلان بكذا، فإنك تعلمُ ما لي عنده. فقال لها: إنْ أردتِ أن أشهدَ لك فنعم، وأما الحُكم فلا[٢]. وفي «صحيح» مسلم: عن ابن عباس: أن رسولَ الله ﷺ قضَى بيمين وشاهِد[٣]. ورُوي عن النبي ﷺ أنه اشترى فرساً فجحده البائع، فلم يَحكُمْ عليه بعلمه وقال: «مَنْ يَشْهَد لي» فقام خُزيمةُ فَشَهِدَ فحكم. خرَّج الحديثَ أبو داود وغيره، وقد مضى في «البقرة»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي: هَزْلاً ولَعِباً. أي: ما خلقناهما إلا لأمرٍ صحيح، وهو الدلالة على قُدرتنا. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: حُسبان الذين كفروا أن الله خَلَقَهما باطلاً.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ثم وبَّخهم فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والميم صِلة تقديره: أنجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٤٤ من قول الزهري عن أبي بكر ﷺ.

(٢) لم نقف عليه، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٥٣٨ عن الضحاك قال: اختصم رجلان إلى عمر ابن الخطاب ادَّعيا شهادته، فقال لهما عمر: إن شئتما شَهِدتُ ولم أقضِ بينكما، وإن شئتما قضيت ولم أشهد.

(٣) صحيح مسلم (١٧١٢)، وأخرجه أحمد (٢٢٢٤).

(٤) ٤/ ٤٦٢، والحديث أخرجه أحمد (٢١٨٨٣)، وأبو داود (٣٦٠٧).

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فكان في هذا ردٌّ على المُرجئة؛ لأنهم يقولون: يجوز أن يكون المُفسد كالصالح أو أرفعَ درجةً منه. وبعده أيضاً: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي: أنَجعل أصحابَ محمد عليه الصلاة والسلام كالكفار؛ قاله ابن عباس. وقيل: هو عامٌّ في المسلمين المتقين والفُجَّار الكافرين، وهو أحسن، وهو ردٌّ على مُنكري البعث الذين جعلوا مصيرَ المُطيع والعاصي إلى شيء واحد[(١)].

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ يا محمد ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾ أي: لِيتدبروا، فأُدغمت التاء في الدال. وفي هذا دليلٌ على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليلٌ على أن الترتيلَ أفضلُ من الهَذِّ؛ إذ لا يَصِحُّ التدبُّر مع الهَذّ[(٢)]، على ما بيَّناه في كتاب «التذكار». وقال الحسن: تدبُّر آيات الله اتّباعُها[(٣)].

وقراءة العامة: «لِيَدَّبَّرُوا». وقرأ أبو جعفر وشيبة: «لِتَدَبَّرُوا» بتاء وتخفيف الدال[(٤)]، وهي قراءة عليّ ﷺ[(٥)]، والأصلُ: لِتَتَدبَّروا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحابُ العقول، واحدُها لُبٌّ، وقد جمع على ألُبّ، كما جمع بُؤسٌ على أبؤس، ونُعْم على أنْعُم؛ قال أبو طالب:

قلبي إليه مُشرِفُ الألُبِّ

وربما أظهروا التضعيف في ضرورة الشعر؛ قال الكُمَيت:

إليكم ذوِي آلِ النبيّ تطلَّعَتْ ... نوازعُ من قلبي ظِماءٌ وألْبُبُ[(٦)]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٢ بنحوه دون قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٣ بنحوه. والهذّ: سرعة القراءة. القاموس (هذذ).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٦٠.

(٤) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦١.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠.

(٦) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في الصحاح (لبب). والكلام منه.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ لما ذكرَ داودَ ذكَرَ سليمان. و«أوَّابٌ» معناه مُطيع. ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ يعني الخيل، جمع جواد للفرس إذا كان شديدَ الحُضْر[(١)]؛ كما يقال للإنسان: جواد، إذا كان كثيرَ العَطِيَّة غزيرَها؛ يقال: قومٌ أجواد وخيلٌ جِياد[(٢)]، جاد الرجلِ بماله يجود جُوداً، فهو جواد، وقومٌ جُود مثال: قَذَال وقُذُل، وإنما سكنت الواو لأنها حرف عِلَّة، وأجواد وأجاوِد وجُوداء، وكذلك امرأةٌ جَوَاد، ونسوة جُود مثل: نَوارٍ ونُور، قال الشاعر:

صَناعٌ بإشْفاها حَصانٌ بِشَكْرِها جَوادٌ بِقُوتِ البَطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ[(٣)]

وتقول: سِرنا عُقْبةً جَوَاداً، وعُقْبتين جَوَادين، وعُقَباً جِياداً. وجاد الفرس، أي: صار رائعاً يجود جُودة ـ بالضم ـ فهو جَواد للذَّكر والأُنثى، من خيلٍ جِياد وأجياد وأجاويد.

وقيل: إنها الطِّوال الأعناق، مأخوذٌ من الجِيد وهو العُنق؛ لأن طُولَ الأعناق [في] الخيل من صفات فَراهتها[(٤)].

وفي «الصَّافِنات» أيضاً وجهان: أحدهما أن صُفونها قيامُها. قال القتبي والفراء:

---

(١) الحُضر: ارتفاع الفرس في عَدْوه. القاموس (حضر).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٢ .

(٣) قائله أبو شهاب الهذلي، كما في الصحاح (جود) والكلام الذي قبله والذي بعده منه، وقوله: صَناع بإشفاها: قال ابن السكيت: امرأة صَناع: إذا كانت رقيقة اليدين تُسوِّي الأشافي وتَخرِزُ الدِّلاء وتفريها، وامرأة صَناع: حاذقة بالعمل. والإشْفى: المِثْقَب. والشُّكْر: الفرج. وقوله: العرق زاخر: أي: تجود بقُوتها عند الجوع وهيجان الدم والطبائع. اللسان (صنع) و(شفي) و(شكر) و(جود).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٩٢ .

الصافن في كلام العرب الواقفُ من الخيل أو غيرها[١]. ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سرَّه أن يقومَ له الرجالُ صفوناً فَلْيتبَوَّأْ مَقْعَدَه من النار»[٢] أي: يُديمون له القيام؛ حكاه قُطرب أيضاً وأنشد قول النابغة:

لـنـا قُـبَّـةٌ مَـضْـروبـةٌ بِـفـنـائـهـا عِتاقُ المَهارى والجِيَاد الصَّوَافن[٣]

وهذا قول قتادة. الثاني: أن صُفونها رَفْعُ إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقومَ على ثلاث؛ كما قال الشاعر:

أَلِـفَ الـصُّـفـونَ فـمـا يَـزَالُ كَـأَنَّـهُ مِمَّا يقومُ على الثَّلاثِ كَسِيرا[٤]

وقال عمرو بن كُلْثوم:

تَـرَكْـنـا الـخـيـل عـاكِـفَـةً عـلـيـهِ مُـقَـلَّـدَةً أعِـنَّـتَـهَـا صُـفـونـا[٥]

وهذا قول مجاهد[٦]. قال الكلبي: غزا سليمانُ أهلَ دمشق ونَصِيبين فأصابَ منهم ألفَ فرس. وقال مقاتل: وَرِثَ سليمانُ من أبيه داودَ ألفَ فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة. وقال الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً خرجتْ من البحر لها أجنحة[٧]. وقاله الضحاك. وأنها كانت خيلاً أُخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذاتَ أجنحة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٥، وغريب القرآن للقتبي ص٣٧٩، وعبارة الفراء: وقد رأيت العرب تجعل الصافن القائمَ على ثلاث أو على غير ثلاث، وأشعارهم تدل على أنها القيام خاصة.

(٢) نقله المصنف بهذا اللفظ عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٩١، وما بعده منه. قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٢: لم أجده هكذا. ا هـ. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٥: هذا حديث موضوع. اهـ. وأخرج الترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرَّه أن يَتمثَّل له الرجال قياماً فَلْيتبوَّأ مقعده من النار».

(٣) ليس في ديوانه المطبوع، ونسبه له الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٩١، وأبو حيان في البحر ٧/ ٣٨٨.

(٤) لم نقف على قائله، وهو في النكت والعيون ٥/ ٩٢، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٣٠.

(٥) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص٦٠.

(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٥٤٩، وأخرج الطبري ٢٠/ ٨٢.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٦٠، ومجمع البيان ٢٣/ ١١٣.

ابن زيد: أخرج الشيطانُ لسليمان الخيل من البحر من مُروج البحر، وكانت لها أجنحة. وكذلك قال عليٌّ ﷺ: كانت عشرين فرساً ذواتِ أجنحة. وقيل: كانت مئة فرس. وفي الخبر عن إبراهيم التيمي: أنها كانت عشرين ألفاً[1]، فالله أعلم.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ يعني بالخير الخيل، والعربُ تُسميها كذلك، وتُعاقِب بين الراء واللام؛ فتقول: انهملَتِ العين، وانهمرَتْ، وخَتلتُ وخَترتُ، إذا خَدَعْتَ[2]. قال الفراء[3]: الخيرُ في كلام العرب والخيلُ واحد. النحاس[4]: في الحديث: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[5] فكأنها سُمِّيت خيراً لهذا. وفي الحديث: لما وفد زيدُ الخيل على النبي ﷺ، قال له: «أنت زيدُ الخير»[6] وهو زيدُ بن مُهَلهِل الشاعر.

وقيل: إنما سُمِّيت خيراً لما فيها من المنافع. وفي الخبر: إن الله تعالى عَرَضَ على آدم جميعَ الدوابِّ، وقيل له: اختر منها واحداً فاختار الفرس؛ فقيل له: اخترتَ عِزَّك؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسُمِّي خيلاً؛ لأنها موسومةٌ بالعزّ. وسُمِّي فرساً لأنه يفترس مسافاتِ الجو افتراسَ الأسد وثباناً، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطاً وتناولاً. وسمِّي عربيًّا لأنه جِيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاءً عن رفع قواعد البيت، وإسماعيلُ عربيٌّ فصارت له نِحْلةً من الله؛ فسمِّي عربيًّا[7].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٦٠، وزاد المسير ٧/ ١٢٨، ونسبا قول علي ﷺ لإبراهيم التيمي، وقولَ إبراهيم التيمي لعكرمة. قال أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٧: وقد اختلفوا في عدد هذه الخيل على أقوال متكاذبة سوَّدوا الورق بذكرها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٦٠ بنحوه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥.

(٤) معاني القرآن ٦/ ١٠٩-١١٠، وقول الفراء الذي قبله منه.

(٥) أخرجه البخاري (٨٩٩)، ومسلم (٤٤٢)، وسلف ٣/ ٢٤١.

(٦) ذكره ابن حجر في الإصابة ٤/ ٦٨-٦٩، وذكر أن ابن شاهين رواه من طريق بشير مولى بني هاشم، وأخرجه ابن عدي في ترجمة بشير وضعَّفه. وسلف ٧/ ٢٩٨.

(٧) سلف ٥/ ٥١.

و«حُبَّ» مفعول في قول الفراء(١). والمعنى: إني آثرتُ حُبَّ الخير. وغيره يُقدِّره مصدراً أُضيفَ إلى المفعول؛ أي: أحببت الخير حبًّا فألهاني عن ذِكْر ربي. وقيل: إن معنى «أَحْبَبْتُ» قعدتُ وتأخَّرتُ، من قولهم: أَحَبَّ البعيرُ، إذا برك وتأخَّر. وأحبَّ فلانٌ، أي: طأطأ رأسه. قال أبو زيد: يقال: بعير مُحِبٌّ، وقد أحبَّ إحباباً، وهو أن يُصيبه مرضٌ أو كَسْرٌ فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب: يقال أيضاً للبعير الحسير: مُحِبٌّ(٢)؛ فالمعنى: قعدتُ عن ذكر ربي. و«حُبَّ» على هذا مفعول له. وذكر أبو الفتح الهَمْداني في كتاب «التبيان»: أحببتُ بمعنى لَزِمت؛ من قوله:

مِـثْـلَ بـعـيـرِ الـسَّـوْءِ إذْ أحَـبَّـا(٣)

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ يعني الشمس، كناية عن غير مذكور؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] أي: على ظهر الأرض؛ وتقول العرب: هاجت باردةً، أي: هاجت الريحُ باردة. وقال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] أي: بلغت النفس الحلقوم. وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢] ولم يتقدَّم للنار ذِكْر. وقال الزجاج(٤): إنما يجوز الإضمارُ إذا جرى ذِكْر الشيء أو دليلُ الذكر، وقد جرى هاهنا الدليل، وهو قوله: «بِالعَشِيِّ». والعشيُّ ما بعد الزوال، والتواري الاستتارُ عن الأبصار، والحِجاب جبلٌ أخضرُ محيطٌ بالخلائق؛ قاله قتادة وكعب. وقيل: هو جبلُ قاف. وقيل: جبلٌ دون قاف. والحجابُ الليلُ؛ سُمِّي حجاباً لأنه يستُر ما فيه(٥).

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٤٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٣.

(٢) الصحاح (حبب).

(٣) الكشاف ٣/ ٣٧٣. والرجز لأبي محمد الفقعسي كما في اللسان (حبب) وقبله: حُلْتُ عليه بالقفيل ضرباً. والقفيل: السوط.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٣١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٩٣ بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٦٠.

وقيل: «حتَّى تَوارَتْ» أي: الخيل في المسابقة. وذلك أن سليمانَ كان له ميدانٌ مستديرٌ يُسابق فيه بين الخيل، حتى توارى[١] عنه وتغيبَ عن عينه في المسابقة؛ لأن الشمس لم يَجْرِ لها ذِكْر.

وذكر النحاس أن سليمانَ عليه السلام كان في صلاة، فجيء إليه بخيل لِتُعرض عليه قد غُنمت فأشار بيده، لأنه كان يُصلِّي حتى توارت الخيل، وسترتها جُدر الاصطبلات، فلما فرغَ من صلاته قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ أي: فأقبل يمسحها مسحاً. وفي معناه قولان: أحدُهما أنه أقبل يمسحُ سُوقَها وأعناقها بيده إكراماً منه لها، ولِيرى أن الجليلَ لا يقبحُ أن يفعل مثلَ هذا بخيله. وقال قائلُ هذا القول: كيف يقتلها؟ وفي ذلك إفسادُ المال ومعاقبةُ مَنْ لا ذنبَ له. وقيل: المَسْح هاهنا هو القَطْع، أُذِن له في قَتْلها[٢].

قال الحسن والكلبي ومقاتل: صلَّى سليمانُ الصلاةَ الأولى وقعد على كرسيه وهي تُعرَض عليه، وكانت ألفَ فرس؛ فَعُرِضَ عليه منها تسع مئة فتنبَّه لصلاة العصر، فإذا الشمسُ قد غربت وفاتت الصلاة، ولم يُعلَم بذلك هيبةً له، فاغتمَّ فقال: «رُدُّوها عليَّ» فَرُدَّت، فعقرها بالسيف قُربةً لله وبقي منها مئة، فما في أيدي الناس من الخيل العِتاق اليوم فهي من نَسْل تلك الخيل[٣].

وقال القشيري: وقيل: ما كان في ذلك الوقت صلاةُ الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت الصلاة نافلةً فَشُغِلَ عنها. وكان سليمانُ عليه السلام رجلاً مَهِيباً، فلم يُذكِّره أحدٌ ما نسي من الفرض أو النفل، وظنُّوا التأخُّر مباحاً[٤]، فتذكَّر سليمانُ تلك الصلاةَ الفائتة، وقال على سبيل التلهُّف: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: عن الصلاة، وأمر بردِّ الأفراس إليه، وأمر بضرب عَراقيبها وأعناقها، ولم يكن ذلك

---

(١) في (م): توارت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٣ .

(٣) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٤ : وهذا بعيد. وينظر النكت والعيون ٥/ ٩٤ .

(٤) زاد المسير ٧/ ١٢٩ بنحوه.

معاقبةً للأفراس؛ إذْ ذَبْح البهائم جائزٌ إذا كانت مأكولةً، بل عاقب نَفْسَه حتى لا تَشْغَلَه الخيلُ بعد ذلك عن الصلاة[١]. ولعله عَرْقَبها لِيذبحها فحبسها بالعرقبة عن النِّفار، ثم ذبحها في الحال لِيتصدَّق بلحمها؛ أو لأن ذلك كان مباحاً في شرعه فأتلفها لمَّا شغلته عن ذكر الله، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله، فأثنى اللهُ عليه بهذا، وبيَّن أنه أثابه بأن سخَّرَ له الريح، فكان يقطع عليها من المسافة في يومٍ ما يقطع مثلَه على الخيل في شهرين غُدوًّا ورَواحاً[٢].

وقد قيل: إن الهاء في قوله: «رُدُّوها عليَّ» للشمس لا للخيل. قال ابن عباس: سألت عليًّا عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها؟ فقلت: سمعتُ كعباً يقول: إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمسُ بالحجاب وفاتته الصلاةُ، قال: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي: آثرتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربِّي، الآية ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يعني الأفراس، وكانت أربعَ عشرةَ؛ فضرب سُوقَها وأعناقَها بالسيف، وأن الله سلبه مُلكه أربعةَ عشرَ يوماً؛ لأنه ظلم الخيل. فقال علي بن أبي طالب: كذب كعب؛ لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت؛ أي: غربت الشمسُ بالحجاب؛ فقال بأمر الله للملائكة المُوكَّلين بالشمس: «رُدُّوها» يعني الشمس، فَرَدُّوها حتى صلَّى العصر في وقتها، وأن أنبياءَ الله لا يَظْلِمون؛ لأنهم معصومون[٣].

قلت: الأكثر في التفسير أن التي توارت بالحجاب هي الشمس، وتركها لِدَلالة السامع عليها بما ذُكر مما يرتبط بها ويتعلَّق بذِكْرها، حسب ما تقدَّم بيانه. وكثيراً ما يُضمرون الشمس؛ قال لبيد:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٩٤ بنحوه.

(٢) زاد المسير ٧/ ١٣٢ بنحوه.

(٣) مجمع البيان ٢٣/ ١١٣. قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٢٢٢: أورد هذا الأثر جماعة ساكتين عليه جازمين بقولهم: «قال ابن عباس: قلت لعلي» وهذا لا يثبت عن ابن عباس ولا عن غيره، والثابت عن جمهور أهل العلم بالتفسير من الصحابة ومن بعدهم أن الضمير المؤنث في قوله: «ردوها» للخيل، والله أعلم.

حتـى إذا أَلْـقَـتْ يَـداً فـي كـافِـرٍ وأجَـنَّ عَـوْرَاتِ الـثُّـغـورِ ظَـلامُـهـا[١]

والهاء في «رُدُّوها» للخيل. ومَسْحُها؛ قال الزهري وابن كيسان: كان يمسح سُوقَها وأعناقَها، ويكشف الغبارَ عنها حُبًّا لها[٢]. وقاله الحسن وقتادة وابن عباس[٣].

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ رُئيَ وهو يمسحُ فرسَه بردائه. وقال: «إني عُوتبتُ الليلةَ في الخيل»، خرّجه «الموطأ» عن يحيى بن سعيد مُرسلاً[٤]. وهو في غير «الموطأ» مسندٌ متصلٌ عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس[٥]. وقد مضى في «الأنفال» قوله عليه الصلاة والسلام: «وامسحوا بنواصيها وأكْفالها»[٦].

وروى ابن وهب عن مالك أنه مسحَ أعناقَها وسُوقها بالسيوف[٧].

قلت: وقد استدلَّ الشِّبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا. وهو استدلالٌ فاسد؛ لأنه لا يجوز أن يُنسب إلى نبيٍّ معصوم أن فَعَل الفساد. والمفسرون اختلفوا في معنى الآية؛ فمنهم من قال: مسحَ على أعناقها وسُوقها إكراماً لها وقال: أنتِ في سبيل الله؛ فهذا إصلاح. ومنهم من قال: عَرْقبها ثم ذبحها، وذَبْحُ الخيل وأكلُ لحمها جائز. وقد مضى في «النحل» بيانه[٨]. وعلى هذا فما فَعَل شيئاً عليه فيه جُناح.

---

(١) ديوان لبيد ص٣١٦ . قال شارحه: كافر: ليل ساتر. عورات الثغور: مواضع المخافة منها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٦١ .

(٣) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/٨٦-٨٧ ، لكن قول الحسن وقتادة عنده وفي تفسير البغوي ٤/ ٦١ ، والنكت والعيون ٥/ ٩٣ أنه عقرها وضرب سوقها وأعناقها.

(٤) الموطأ ١/ ٤٦٨ .

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١٠٠ . وقال: وقد رُوي عن مالك مسنداً عن يحيى بن سعيد عن أنس، ولا يصح.

(٦) ١٠/ ٥٨ ، والحديث أخرجه أحمد (١٩٠٣٢) وهو ضعيف.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٣٦ .

(٨) ١٢/ ٢٨١ وما بعدها.

فأما إفسادُ ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز. ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جوازُ ما فعل، ولا يكون في شرعنا.

وقد قيل: إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله جلّ وعزّ له ذلك. وقد قيل: إنَّ مَسْحه إيّاها: وَسَمَها بالكَيِّ وجَعَلَها في سبيل الله؛ فالله أعلم. وقد ضُعِّف هذا القول من حيث إن السُّوق ليست بمحلٍّ للوسم بحال[١].

وقد يقال للكيِّ على الساق: عِلاطٌ، وعلى العُنق وِثاق. والذي في «الصحاح» للجوهري[٢]: عَلَط البعيرَ عَلْطاً، كواه في عُنقه بسمة العِلاَط. والعِلاطان جانبا العُنق.

قلت: ومَن قال: إن الهاء في «رُدُّوها» ترجع للشمس، فذلك من معجزاته. وقد اتَّفق مثلُ ذلك لنبينا ﷺ؛ خرَّج الطحاوي في «مشكل الحديث» عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين أن النبي ﷺ كان يُوحَى إليه ورأسه في حِجْر عليّ، فلم يُصَلِّ العصر حتى غربت الشمس؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «أصليتَ يا علي» قال: لا. فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ إنه كان في طاعتك وطاعةِ رسولك فارْدُدْ عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتُها غربَتْ، ثم رأيتها بعد ما غربَتْ طلعَتْ على الجبال والأرض، وذلك بالصَّهْباء في خيبر. قال الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان، ورواتُهما ثِقات[٣].

قلت: وضعَّف أبو الفرج ابن الجوزي هذا الحديث[٤] فقال: وغلوُّ الرافضة في حُبِّ عليٍّ عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديثَ كثيرةً في فضائله؛ منها أن

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٣٧ .

(٢) الصحاح (علط).

(٣) شرح مشكل الآثار (١٠٦٧) و(١٠٦٨)، وليس فيه قول الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان، ونقله المصنف عن الطحاوي بواسطة القاضي عياض في الشفا ١/٥٤٨-٥٤٩ وينظر التعليق التالي.

(٤) الموضوعات لابن الجوزي ١/٢٦٦ ، وقال: هذا حديث موضوع بلا شك... ونقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/٣٧٩ عن الذهبي في تلخيص الموضوعات أن أسانيد هذا الحديث ساقطة ليست بصحيحة. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/٢٢٢ : وقد أخطأ ابن الجوزي بإيراده له في «الموضوعات» وكذا ابن تيمية في كتاب «الرد على الروافض» في زعم وضعه، والله أعلم.

الشمسَ غابت ففاتَتْ علياً عليه السلام العصر فَرُدَّت له الشمس، وهذا من حيث النقلُ محال، ومن حيث المعنى، فإن الوقتَ قد فات وعَوْدُها طلوعٌ مُتجدِّد لا يردُّ الوقت.

ومن قال: إن الهاء ترجِعُ إلى الخيل، وأنها كانت تبعدُ عن عين سليمان في السباق، ففيه دليلٌ على المسابقة بالخيل، وهو أمرٌ مشروع. وقد مضى القولُ فيه في «يوسف»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ قيل: فُتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة؛ ذكر الزمخشري[(٢)].

و«فَتَنَّا» أي: ابتلينا وعاقبنا. وسببُ ذلك ما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: اختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان؛ أحدُهما من أهل جرادة امرأة سليمان؛ وكان يُحبها، فهوى أن يقع القضاءُ لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبةً لذلك الهوى.

وقال سعيد بن المسيَّب: إن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثةَ أيام لا يقضي بين أحد، ولا يُنصف مظلوماً من ظالم؛ فأوحى الله تعالى إليه: إني لم أستخلفك لِتحتجبَ عن عبادي، ولكن لِتقضيَ بينهم وتُنصف مظلومَهم[(٣)].

---

(١) ١١/ ٢٨١ وما بعدها.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٣٤.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩٤-٩٥.

وقال شَهْر بن حَوْشَب ووهب بن مُنبِّه: إن سليمانَ عليه السلام سبى بنتَ ملكٍ غَزاهُ في البحر، في جزيرة من جزائر البحر يقال لها: صيدون. فأُلقيت عليه محبتُها وهي تُعرض عنه، لا تنظر إليه إلا شَزْراً، ولا تُكلمه إلا نَزْراً، وكان لا يرقأُ لها دمعٌ حزناً على أبيها، وكانت في غايةٍ من الجمال، ثم إنها سألته أن يصنعَ لها تِمثالاً على صورة أبيها حتى تنظرَ إليه، فأمر فَصُنِعَ لها، فعظَّمته وسجدَتْ له، وسجدت معها جواريها، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليلة، وفشى خبره في بني إسرائيل، وعلم به سليمانُ فكسره، وحرقه ثم ذراه في البحر(١).

وقيل: إن سليمانَ لما أصاب ابنةَ ملك صيدون ـ واسمها جرادة، فيما ذكر الزمخشري(٢) ـ أُعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبَتْ، فخوَّفها فقالت: اقتلني ولا أُسلم، فتزوَّجها وهي مُشركة، فكانت تعبدُ صنماً لها من ياقوت أربعين يوماً في خُفية من سليمان؛ إلى أن أسلمتْ، فَعُوقِبَ سليمانُ بزوال مُلكه أربعين يوماً(٣).

وقال كعب الأحبار: إنه لمَّا ظلم الخيل بالقتل سُلب مُلكه.

وقال الحسن: إنه قارب بعضَ نسائه في شيء من حيض أو غيره(٤). وقيل: إنه أُمِرَ ألاّ يتزوَّج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوَّج امرأةً من غيرهم، فَعُوقب على ذلك؛ والله أعلم(٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قيل: شيطان في قول أكثرِ أهل التفسير؛ ألقى اللهُ شبهَ سليمان عليه السلام عليه، واسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٩٥، وتفسير البغوي ٤/ ٦١.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٤.

(٣) عرائس المجالس ص٣٢٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٩٤.

(٥) عرائس المجالس ص٣٢٧. وهذه الأخبار من الإسرائيليات، وينظر ما سنذكره من الردّ عليها في آخر القصة.

الذي دلَّ سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس[١]، فصوتت الحجارة لمَّا صُنعت بالحديد، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت.

قال ابن عباس: كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين، ولم يزل يحتال حتى ظَفِرَ بخاتم سليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخل الكَنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من امرأةٍ من نساء سليمان أمِّ ولدٍ له يقال لها: الأمينة؛ قاله شَهْرٌ ووهب.

وقال ابن عباس وابن جبير: اسمها جرادة. فقام أربعين يوماً على مُلك سليمانَ وسليمانُ هارب، حتى ردَّ الله عليه الخاتم والمُلْك.

وقال سعيد بن المسيَّب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته. وقال مجاهد: أخذه الشيطان من يدِ سليمان؛ لأن سليمان سأل الشيطان ـ وكان أسمه آصف ـ: كيف تُضِلُّون الناس؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أُخبرك. فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطانُ الخاتم جلس على كرسيِّ سليمان، مُتَشبِّهاً بصورته، داخلاً عل نسائه، يقضي بغير الحقّ، ويأمر بغير الصواب.

واختلف في إصابته لنساء سليمان، فَحُكي عن ابن عباس ووهب بن منبّه: أنه كان يأتيهنّ في حيضهنّ[٢]. وقال مجاهد: مُنِعَ من إتيانهنَّ. وزال عن سليمانَ مُلكه، فخرج هارباً إلى ساحل البحر يتضيَّف الناس؛ ويحمل سموكَ الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناسَ أنه سليمان أكذبوه. قال قتادة[٣]: ثم إن سليمانَ بعد أن استنكر بنو إسرائيل حُكم الشيطان أخذ حُوتة من صياد. قيل: إنه استطعمها. وقال ابن عباس: أخذها أُجرةً في حمل حوت. وقيل: إن سليمان صادها، فلما شقَّ بطنها وجد خاتمه فيها،

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٤.

(٢) هذا من أقبح الإسرائيليات التي ذُكرت في قصة سيدنا سليمان عليه السلام، كما ذكر الألوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٩٩، وقال: الله أكبر، هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم.

(٣) كذا في (ز) و(ظ) و(م)، وفي (د): قاله قتادة، غير أن سياق الكلام في النكت والعيون ٥/ ٩٦-٩٧ (وعنه نقل المصنف) لا يدل أنه من كلام قتادة.

وذلك بعد أربعين يوماً من زوال مُلكه: وهي عدد الأيام التي عُبِدَ الصنم في داره، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت؛ لأن الشيطانَ الذي أخذه ألقاه في البحر[١].

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: بينما سليمان على شاطئ البحر وهو يَعبثُ بخاتمه، إذ سقط منه في البحر، وكان مُلكه في خاتمه[٢].

وقال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: «كان نقشُ خاتم سليمان بن داود: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله»[٣].

وحكى يحيى بن أبي عمرو السيباني[٤] أن سليمان وجد خاتمه بِعَسْقَلان، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعاً لله تعالى. قال ابن عباس وغيره: ثم إن سليمان لما ردَّ الله عليه مُلكه، أخذ صخراً الذي أخذ خاتمه، ونقر له صخرةً وأدخله فيها، وسدَّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمه وألقاها في البحر؛ وقال: هذا مَحْبِسُكَ إلى يوم القيامة[٥].

وقال علي ﷺ: لما أخذ سليمانُ الخاتم، أقبلتْ إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح، وهرب الشيطانُ الذي خلف في أهله، فأتى جزيرةً في البحر، فبعث إليه الشياطينُ فقالوا: لا نقدر عليه، ولكنه يَرِد علينا في الجزيرة في كل سبعة أيام يوماً، ولا نقدِرُ عليه حتى يسكر. قال: فنزح سليمان ماءها، وجعل فيها خمراً، فجاء يومَ وُروده فإذا هو بالخمر، فقال: والله، إنك لشرابٌ طَيِّب إلا أنكِ

---

(١) النكت والعيون ٥/٩٦-٩٧ ، وهذه الأخبار من الإسرائيليات، وينظر ما سنذكره من الرد عليها آخر القصة.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٣١٦ .

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/١٣٦٨ ، وفي إسناده شيخ بن أبي خالد، قال ابن عدي: أحاديثه مناكير. وقال الذهبي في الميزان ٢/ ٢٨٦ : متهم بالوضع، وذكر هذا الحديث وعدَّه من أباطيله.

(٤) في النسخ: الشيباني، وهو خطأ، والمثبت من تقريب التهذيب والأنساب ٧/ ٢١٤ قال الحافظ ابن حجر: وهو أبو زرعة الحمصي، ثقة، روايته عن الصحابة مرسلة، مات سنة (١٤٨هـ) أو بعدها.

(٥) النكت والعيون ٥/٩٨ .

تُطيشين الحليم، وتُزيدين الجاهل جهلاً. ثم عَطِشَ عطشاً شديداً، ثم أتاها[١] فقال مثلَ مَقَالته، ثم شربها، فغلبت على عقله؛ فأرَوه الخاتم فقال: سمعاً وطاعة. فأتَوا به سليمانَ فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان، فقالوا: إنَّ الدخان الذي ترون من نَفَسه، والماء الذي يخرج من الجبل من بَوْله[٢].

وقال مجاهد: اسم ذلك الشيطان آصف. وقال السُّدي: اسمه حبقيق؛ فالله أعلم[٣].

وقد ضُعِّفَ هذا القول من حيث إن الشيطان لا يَتصوَّر بصورة الأنبياء، ثم من المُحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطانُ بسليمان حتى يظنُّوا أنهم مع نبيهم في حقّ، وهم مع الشيطان في باطل.

وقيل: إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان، وأنه لما وُلد اجتمعت الشياطين؛ وقال بعضهم لبعض: إنْ عاش له ابن لم ننفكَّ مما نحن فيه من البلاء والسُّخرة، فتعالَوا نقتل ولده أو نُخبِّله. فعلم سليمانُ بذلك فأمر الريحَ حتى حملته إلى السَّحاب، وغدا ابنه في السحاب خوفاً من مَضَرَّة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً. قال معناه الشعبي. فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾[٤].

وحكى النقاش وغيره: إنَّ أكثر ما وَطِئ سليمان جواريه طلباً للولد، فوُلد له نصفُ إنسان، فهو كان الجسد المُلقى على كرسيه جاءت به القابلة فألقته هناك[٥].

---

(١) في (م): أتاه.

(٢) هذا الكلام لا يُعوَّل عليه، ولا يخفى على القارئ بطلانه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩٧ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٨٩ ، والمشهور أن آصف اسم الرجل الذي عنده علم من الكتاب. كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٥٩ .

(٤) عرائس المجالس ص٣٢٧-٣٢٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٩٦ . والعبارة فيه: إنه أكثر من وطء جواريه طلباً للولد... وسلف قريباً أن أكثر =

وفي «صحيح» البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال سليمانُ: لأَطُوفنَّ الليلةَ على تسعين امرأةً كلُّهن تأتي بفارس يُجاهد في سبيل الله؛ فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يَقُلْ: إنْ شاء الله، فطاف عليهنَّ جميعاً، فلم تحمل منهنَّ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءتْ بشِقِّ رجل، وايمُ الذي نفسُ محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[(١)].

وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان، وذلك أن سليمان لما فُتِنَ سقط الخاتم من يده وكان فيه مُلكه، فأعاده إلى يده فسقط، فأيقن بالفتنة؛ فقال له آصف: إنك مفتون، ولذلك لا يتماسك في يدك، فَفِرَّ إلى الله تعالى تائباً من ذلك، وأنا أقومُ مقامك في عالمك إلى أن يتوب اللهُ عليك، ولك من حين فُتنت أربعةَ عشرَ يوماً. فَفَرَّ سليمانُ هارباً إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت، وكان عنده علمٌ من الكتاب. وقام آصفُ في ملك سليمان وعياله، يسير بسيره ويعمل بعمله، إلى أن رَجَعَ سليمان إلى منزله تائباً إلى الله تعالى، وردَّ الله عليه مُلكه؛ فأقام آصفُ في مَجْلسه، وجلس على كرسيه وأخذ الخاتم[(٢)].

وقيل: إنَّ الجسد كان سليمانَ نَفْسَه؛ وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً. وقد يُوصف به المريض المُضنى، فيقال: كالجسد المُلقى[(٣)].

= المفسرين قالوا: الجسد الملقى شيطان، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٦١ : وهو المعتمد، والنقاش صاحب مناكير.

(١) صحيح البخاري (٦٦٣٩)، وصحيح مسلم (١٦٥٤)، وسلف ١٨/ ١٦٦ .

(٢) عرائس المجالس ص٣٢٧ .

(٣) هذه القصص التي ذكرها المفسرون في قصة سيدنا سليمان عليه السلام كلها من الإسرائيليات فيما قاله الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٨-٦٩ وقد ذكر الكثير منها، وقال فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في السياق منكرات أشدُّها ذكر النساء.. وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف.. وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب.

وذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٧ أنها من وضع اليهود والزنادقة، وأنه لا يحل نقلها، ويجب براءة =

صفة كرسيّ سليمان ومُلكه

روي عن ابن عباس قال: كان سليمانُ يُوضع له ستُّ مئة كرسيّ، ثم يجيء أشراف الناس فيجلسون مما يَليه، ثم يأتي أشرافُ الجن فيجلسون مما يلي الإنس، ثم يدعو الطير فَتُظِلُّهم، ثم يدعو الريح فَتَقِلُّهم، وتسير بالغَداة الواحدة مسيرة شهر(١).

وقال وهب وكعب وغيرهما: إن سليمان عليه السلام لما مَلَك بعد أبيه، أمر باتِّخاذ كرسيٍّ لِيجلسَ عليه للقضاء، وأمر أن يُعمل بَديعاً مَهولاً بحيث إذا رآه مُبطِلٌ أو شاهدُ زور ارتدع وتهيَّب؛ فأمر أن يُعمل من أنياب الفيلة مُفصَّصة بالدُّرِّ والياقوت والزبرجد، وأن يُحَفَّ بنخيل الذهب؛ فَحُفَّ بأربع نَخَلات من ذهب، شماريخها الياقوت الأحمر والزُّمُرُّد الأخضر، على رأس نخلتين منهما طاووسان من ذهب، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابلٌ لبعض، وجعلوا من جنبي الكرسيّ أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمودٌ من الزُّمُرُّد الأخضر. وقد عقدوا على النخلات أشجارَ كروم من الذهب الأحمر؛ واتخذوا عناقيدَها من الياقوت الأحمر، بحيث أظلَّ عريش الكروم النخلَ والكرسي.

وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صُعودَه وضع قدميه على الدرجة السُّفلى، فيستدير الكرسيّ كلُّه بما فيه دورانَ الرَّحى المُسرعة، وتنشر تلك النُّسور والطواويس أجنحتَها، ويبسط الأسدان أيديَهما، ويضربان الأرض بأذنابهما. وكذلك يُفعل في كل درجة يَصْعَدها سليمان، فإذا استوى بأعلاه أخذ النَّسران اللذان على النخلتين تاجَ سليمان فوضعاه على رأسه، ثم يستدير الكرسي بما فيه، ويدور معه النَّسران

= الأنبياء منها، وقال: لم يُبيِّن الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكروه، كتمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدون أن ذلك المتصور هو النبي، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية، نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها. قال الدكتور أبو شهبة في كتابه الإسرائيليات في التفسير ص٢٧٤: وأيُّ مُلك أو نبوة يتوقف أمرهما على خاتم يدومان بدوامه، ويزولان بزواله.. وإذا كان خاتم سليمان عليه السلام بهذه المثابة، فكيف يُغفِل الله شأنه في كتابه الشاهد على الكتب السماوية؟!!..

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/٥٣٦، وفيه: ست مئة ألف كرسي.

والطاووسان والأسدان، مائلان برؤوسهما إلى سليمان، وينضحن عليه من أجوافهن المِسْك والعنبر، ثم تُناوله حمامةٌ من ذهب قائمةٌ على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤُها على الناس ويدعوهم إلى فَصْل القضاء.

قالوا: ويجلس عظماءُ بني إسرائيل على كراسي الذهب المُفصَّصة بالجواهر، وهي ألفُ كرسيّ عن يمينه، ويجلس عظماءُ الجن على كراسي الفضة عن يساره، وهي ألفُ كرسيّ، ثم تحفُّ بهم الطير تُظِلُّهم، ويتقدَّم الناسُ لفصل القضاء. فإذا تقدَّمت الشهود للشهادات، دار الكرسيّ بما فيه وعليه دورانَ الرَّحى المُسرعة، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النَّسران والطاووسان أجنحتهما، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحق.

وقيل: إن الذي كان يدور بذلك الكرسيّ تِنِّين من ذهب، ذلك الكرسيُّ عليه، وهو عظيم مما عمله له صخر الجنيّ؛ فإذا أحسَّتْ بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسيّ إلى أعلاه دُرْن معه، فإذا وقفن وَقَفْن كلُّهن على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً على رأسه ما في أجوافهنّ من المسك والعنبر. فلما توفي سليمانُ بعث بُختَنصَّر فأخذ الكرسيّ، فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعدَ إليه، ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رِجْلَه ضرب الأسدُ رِجْلَه فكسرها، وكان سليمان إذا صَعِدَ وضع قدميه جميعاً. ومات بُخْتَنصَّر، وحُمل الكرسيّ إلى بيت المقدس، فلم يستطع قطّ مَلِكٌ أن يجلسَ عليه، ولكن لم يدرِ أحدٌ عاقبة أمره، ولعله رُفع(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رَجَعَ إلى الله وتاب. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي: اغفِرْ لي ذنبي ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٩-٧٠ وعزاه لابن أبي حاتم، وقال: هو غريب جداً.

﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ يقال: كيف أقدم سليمانُ على طلب الدنيا، مع ذَمِّها من الله تعالى، وبُغضه لها، وحقارتها لديه؟. فالجواب أن ذلك محمولٌ عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسةِ مُلْكه[١]، وترتيب منازل خَلْقه، وإقامةِ حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظُهور عبادته، ولُزوم طاعته، ونَظْم قانون الحُكم النافذ عليهم منه، وتحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحدٌ من خلقه حَسَبَ ما صرَّح بذلك لملائكته فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وحُوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهدُ خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوحٌ دمارَها وهلاكَها لله؛ فكانا محمودين مُجابين إلى ذلك، فأُجيب نوحٌ فأُهلِكَ من عليها، وأُعطي سليمان المملكة.

وقد قيل: إن ذلك كان بأمرٍ من الله جلّ وعزّ على الصِّفة التي علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده، أو أراد أن يقول: مُلكاً عظيماً فقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾[٢]، وهذا فيه نظر. والأوّل أصح.

ثم قال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، قال الحسن: ما من أحد إلا ولله عليه تبعةٌ في نِعَمهِ غيرَ سليمان بن داود عليه السلام، فإنه قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الآية[٣].

قلت: وهذا يردُّ ما روي في الخبر: إنَّ آخرَ الأنبياء دخولاً[٤] الجنةَ سليمانُ بن داود عليه السلام لمكان مُلكه في الدنيا. وفي بعض الأخبار: يدخل الجنةَ بعد الأنبياء بأربعين خريفاً؛ ذكره صاحب «القوت» وهو حديث لا أصل له؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعةَ فيه؛ لأنه من طريق المِنَّة، فكيف يكون آخرَ الأنبياء دخولاً الجنة، وهو

---

(١) الكلام بمعناه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٣٧ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٠ .

(٤) في (م): دخول.

سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وفي الصحيح: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوته» الحديث[1]، وقد تقدَّم، فجعلَ له من قِبَلِ السؤال حاجةً مقْضيَّةً، فلذلك لم تكن عليه تَبِعة.

ومعنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: أن يسأله. فكأنه سأل منعَ السؤال بعده، حتى لا يتعلَّق به أملُ أحد، ولم يسأل منع الإجابة. وقيل: إنَّ سُؤالَه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده؛ ليكون محلَّه وكرامته من الله ظاهراً في خلق السماوات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافُسٌ في المحلّ عنده، فكلٌّ يُحِبُّ أن تكون له خُصوصيةٌ يستدلُّ بها على محلِّه عنده، ولهذا لما أخذ النبيُّ ﷺ العِفْريت الذي أراد أن يقطعَ عليه صلاته وأمكنه اللهُ منه، أراد رَبْطه، ثم تذكَّر قولَ أخيه سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فردَّه خاسِئاً[2].

فلو أُعطي أحدٌ بعدَه مِثْلَه ذهبت الخُصوصية، فكأنه كَرِهَ ﷺ أن يُزاحمه في تلك الخُصوصية، بعد أن عَلِمَ أنه شيء هو الذي خُصَّ به من سخرة الشياطين، وأنه أُجيب إلى ألا يكون لأحدٍ بعده. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ أي: لَيِّنة مع قوَّتها وشِدَّتها حتى لا تضرَّ بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما رُوي فرسخاً في فرسخ، مئة درجة بعضُها فوق بعض، كلُّ درجة صنفٌ من الناس، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحَشَمه وخَدَمه؛ صلوات الله وسلامه عليه.

وذكر أبو نعيم الحافظ قال: حدّثنا أحمد بن جعفر، قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال: حدّثنا أبو بكر بن عياش، عن إدريس بن وهب بن مُنبِّه، قال: حدَّثني أبي قال: كان لسليمان بن داود عليه السلام ألفُ بيت أعلاه قواريرُ وأسفله حديد، فركب الريح يوماً فمرَّ بحَرَّاث،

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٤)، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٦٩)، والبخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٩/ ١٨٩ .

فنظر إليه الحرَّاث فقال: لقد أُوتي آلُ داود مُلكاً عظيماً، فحملت الريح كلامَه فألقته في أُذن سليمان، قال: فنزل حتى أتى الحرَّاث فقال: إني سمعتُ قولك، وإنما مشيتُ إليك لئلا تتمنَّى ما لا تَقدِرُ عليه؛ لَتسبيحةٌ واحدة يقبلُها الله منك خيرٌ مما أُوتي آل داود. فقال الحرَّاث: أذهبَ اللهُ هَمَّك كما أذهبتَ هَمِّي(١).

قوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: أراد؛ قاله مجاهد(٢). والعرب تقول: أصاب الصوابَ، وأخطأ الجواب. أي: أراد الصوابَ، وأخطأ الجواب؛ قاله ابن الأعرابي(٣). وقال الشاعر:

أصَابَ الكلامَ فلم يَستطِعْ ... فأخْطا الجوابَ لَدَى المفصلِ(٤)

وقيل: أصاب أراد بلغة حِمْير(٥). وقال قتادة: هو بلسان هَجَر. وقيل: «حَيْثُ أصَابَ» حيثما(٦) قصد، وهو مأخوذٌ من إصابة السَّهم الغرضَ المقصود(٧). ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي: وسخَّرنا له الشياطين، وما سُخِّرت لأحدٍ قبلَه. «كُلَّ بَنَّاءٍ» بدل من الشياطين، أي: كل بنَّاء منهم، فهم يبنون له ما يشاء. قال:

إلاَّ سليمانَ إذ قال الإلهُ له ... قُمْ في البريَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَدِ

وَخَيِّسِ الجِنَّ إني قد أذِنْتُ لهم ... يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ(٨)

«وغوَّاص» يعني: في البحر يستخرجون له الدُّرّ. فسليمانُ أوَّل من استُخرِجَ له اللؤلؤ من البحر(٩).

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٥٩.
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٩٧.
(٣) ياقوتة الصراط ص٤٤٠ وينظر النكت والعيون ٥/ ٩٩.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٦.
(٥) عرائس المجالس ص٢٩٥.
(٦) في (م): حينما.
(٧) النكت والعيون ٥/ ٩٩.
(٨) البيتان للنابغة الذبياني، وهما في ديوانه ص٣٣، وقد سلفا ١٧/ ٢٦٧، والبيت الأول سلف ١٢/ ٧.
(٩) النكت والعيون ٣/ ٤٦١.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: وسخَّرنا له مردةَ الشياطين حتى قرنهم في سلاسل الحديد وقيود الحديد؛ قاله قتادة. السُّدّي: الأغلال[١]. ابن عباس: في وثاق. ومنه قال الشاعر:

فـآبـوا بـالـنِّـهَـاب وبـالـسَّـبـايـا وأُبـنـا بـالـمـلـوك مُـصَـفَّـدِيـنـا[٢]

قال يحيى بن سلاّم: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكُفَّارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يُسخِّرهم[٣].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الإشارةُ بهذا إلى المُلك، أي: هذا الملك عطاؤنا، فأَعْطِ مَن شئتَ أو امنع مَن شئتَ، لا حسابَ عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما[٤].

قال الحسن: ما أنعم اللهُ على أحدٍ نعمةً إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥].

وقال قتادة: الإشارة في قوله تعالى: «هَذَا عَطَاؤُنَا» إلى ما أُعطيه من القوّة على الجماع، وكانت له ثلاث مئة امرأة وسبع مئة سُرِّيّة، وكان في ظهره ماء مئة رجل؛ رواه عكرمة عن ابن عباس[٦]. ومعناه في البخاري[٧]. وعلى هذا «فَامْنُنْ» من المنيّ؛ يقال: أَمْنَى يُمني، ومَنَى يَمني لغتان، فإذا أمرتَ من أَمنى قلت: أَمْنِ؛ ويقال من

(١) أخرجهما الطبري ٢٠/٩٨-٩٩ .

(٢) قائله عمرو بن كلثوم، وهو في معلقته ص١٠٠ (بشرح ابن كيسان).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٩٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٩٩ ، وسلف ١٨/ ٢٠٦ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٠٠ . قال أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٩ : ولعله لا يصح عن ابن عباس؛ لأنه لم يجرِ هنا ذكر النساء ولا ما أوتي من القدرة على ذلك.

(٧) يُشير إلى حديث: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة.....» وهو في صحيح البخاري (٦٦٣٩)، وسلف ١٨/ ٢٠٣ .

مَنَى يَمْني في الأمر: امنِ، فإذا جئتَ بنون الفعل نون الخفيفة قلتَ: امْنِنْ. ومن ذهب به المِنّة قال: مَنَّ عليه؛ فإذا أخرجه مُخرجَ الأمر أبرزَ النونين؛ لأنه كان مضاعفاً فقال: امنُنْ. فَيُروى في الخبر أنه سخَّر له الشياطين، فمن شاء مَنَّ عليه بالعِتْق والتخلية، ومَنْ شاء أمْسكه؛ قاله قتادة والسُّدي[١]. وعلى ما روى عكرمةُ عن ابن عباس: أي: جامِعْ مَنْ شئتَ من نسائك، واتركْ جِماعَ مَنْ شئتَ منهنَّ لا حسابَ عليك[٢]. ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: إنْ أنعمنا عليه في الدنيا فله عندنا في الآخرة قُربةٌ وحُسْنُ مَرْجع.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ بالاقتداء بهم في الصبر على المَكاره. «أيُّوبَ» بدل.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر: «إنّي» بكسر الهمزة، أي: قال. قال الفراء[٣]: وأجمعت القُرَّاء على أن قرؤوا: «بِنُصْبٍ» بضم النون والتخفيف. النحاس: وهذا غلطٌ وبعده مُناقضة وغلطٌ أيضاً؛ لأنه قال: أجمعت القُرَّاء على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيدَ بن القعقاع أنه قرأ: «بِنَصَب» بفتح النون والصاد، فَغَلِطَ على أبي جعفر، وإنما قرأ أبو جعفر: «بِنُصُب» بضم النون والصاد[٤]؛ كذا حكاه أبو عُبيد وغيره، وهو مَرْوي عن الحسن[٥].

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٠٢ .

(٢) ذكره الطبري ٢٠/ ١٠٣ ولم ينسبه لأحد.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٦٥ ، وما قبله منه، وقراءة عيسى ابن عمر في المحرر الوجيز أيضاً ٤/ ٥٠٧ .

(٤) النشر ٢/ ٣٦١ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠ .

فأما «بِنَصَب» فقراءة عاصم الجحدريّ ويعقوب الحضرميّ[١]. وقد رُويت هذه القراءة عن الحسن. وقد حكي «بِنَصْب» بفتح النون وسكون الصاد عن أبي جعفر. وهذا كلُّه عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَبِ؛ فَنُصْب ونَصَب كَحُزْن وحَزَن.

وقد يجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَب كوَثَن ووُثْن. ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حُذفت منه الضَّمة، فأما ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] فقيل: إنه جمع نصاب. وقال أبو عُبيدة[٢] وغيره: النُّصْبُ الشرّ والبلاء. والنّصَب التَّعب والإعياء.

وقد قيل في معنى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي: ما يلحقه من وسوسته لا غير. والله أعلم. ذكره النحاس[٣].

وقيل: إن النُّصْب ما أصابه في بدنه، والعذاب ما أصابه في ماله[٤]؛ وفيه بُعْد.

وقال المفسرون: إن أيوبَ كان رُوميًّا من البَثَنِيَّة[٥]، وكُنيته أبو عبد الله، في قول الواقدي؛ اصطفاه الله بالنبوّة، وآتاه جملةً عظيمةً من الثروة في أنواع الأموال والأولاد. وكان شاكراً لِأنعُم الله، مُواسياً لعباد الله، بَرّاً رحيماً. ولم يُؤمن به إلا ثلاثةُ نفر. وكان لإبليس موقفٌ من السماء السابعة في يوم من الأيام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له، أو قيل له عنه: أَقَدَرْتَ من عبدي أيوبَ على شيء؟! فقال: يا رب، وكيف أقدِرُ منه على شيء، وقد ابتليتَهُ بالمال والعافية، فلو ابتليتَه بالبلاء والفقر ونزعْتَ منه ما أعطيتَه لحال عن حاله، ولَخرج عن طاعتك. قال الله: قد سلَّطتك على أهله وماله.

---

(١) النشر ٢/ ٣٦١.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٤.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٥.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠١ عن السدي.

(٥) قال ابن إسحاق ـ كما في روح المعاني ٢٣/ ٢٠٥ ـ: الصحيح أنه كان من بني إسرائيل. والبَثَنِيَّة: ناحية من نواحي دمشق. معجم البلدان ١/ ٣٣٨.

فانحطَّ عدوُّ الله فجمع عفاريتَ الجن، فأعلمهم، وقال قائل منهم: أكون إعصاراً فيه نارٌ أُهلِكُ مالَه فكان؛ فجاء أيوبَ في صورة قَيِّم ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال: الحمد لله، هو أعطاه وهو مَنَعه. ثم جاء قصرَه بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه، وصَعِدَ إبليس إلى السماء، فسبقته توبةُ أيوب.

قال: يارب سلِّطني على بدنه. قال: قد سلَّطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره، فنفخ في جسده نفخة اشتعل [منها] فصار في جسده ثآليلُ، فحكَّها بأظفاره حتى دَمِيتْ، ثم بالفَخَّار حتى تساقط لحمه. وقال عند ذلك: «مَسَّنِيَ الشيطانُ». ولم يخلص إلى شيء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاءَ للنَّفْس إلا بها، فهو يأكل ويشرب، فمكث كذلك ثلاثَ سنين.

فلما غلبه أيوبُ اعترض لامرأته في هيئةٍ أعظمَ من هيئة بني آدم في القدر والجمال، وقال لها: أنا إلهُ الأرض، وأنا الذي صنعتُ بصاحبكِ ما صنعت، ولو سجدتِ لي سجدةً واحدة لَردَدْتُ عليه أهلَه[1] ومالَه وهم عندي. وعرض لها في بطن الوادي ذلك كلَّه في صورته؛ أي: أظهره لها، فأخبرت أيوبَ، فأقسم أن يضربها إنْ عافاه الله[2].

وذكروا كلاماً طويلاً في [سبب بلائه و][3] مراجعته لِرَبِّه وتبرُّمه من البلاء الذي نزل به، وأن النَّفر الثلاثةَ الذين آمنوا به نَهَوْهُ عن ذلك واعترضوا عليه؛ وقيل: استعان به مظلومٌ فلم ينصره، فابتُلي بسبب ذلك. وقيل: استضاف يوماً الناس فمنع فقيراً الدخولَ، فابتُلِيَ بذلك. وقيل: كان أيوبُ يغزو مَلِكاً، وكان له غنم في ولايته، فداهنه

---

(١) في النسخ الخطية: حاله، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٣٤ وما بعدها عن وهب بن منبه، وما بين حاصرتين منه، وسلفت قصة أيوب عليه السلام ١٤/ ٢٥٦ وما بعدها، وذكرنا ثمة أن ما ورد من أخبار في مرضه المنفر كلها من الإسرائيليات، وسيذكر المصنف قريباً ردَّ ابن العربي على هذا الخبر.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وقد أضافها محققو (م).

لأجلها بترك غزوه فابتُلي[١]. وقيل: كان الناس يتعدّون امرأته، ويقولون: نخشى العَدْوى، وكانوا يستقذرونها؛ فلهذا قال: «مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ».

وامرأته ليا بنت يعقوب. وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه ابنةَ لوط[٢]. وقيل: كانت زوجةُ أيوب رحمةَ بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. ذكر القولين الطبري رحمه الله[٣].

قال ابن العربي: ما ذكره المفسرون من أن إبليسَ كان له مكان في السماء السابعة يوماً من العام فقولٌ باطل؛ لأنه أُهبط منها بلعنة وسخطٍ إلى الأرض، فكيف يرقَى إلى محلِّ الرِّضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السماواتِ العُلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فَيقِفُ موقفَ الخليل؟! إن هذا لخطبٌ من الجهالة عظيم.

وأما قولهم: إن الله تعالى قال له: هل قدرتَ من عبدي أيوب على شي فباطلٌ قطعاً؛ لأن الله عز وجل لا يُكلِّم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون؛ فكيف يُكلِّم من تَوَلَّى إضلالَهم؟!.

وأما قولهم: إن الله قال: قد سلَّطتك على ماله وولده، فذلك مُمكن في القُدرة، ولكنه بعيدٌ في هذه القصة. وكذلك قولهم: إنه نفخَ في جسده حين سلَّطه عليه، فهو أبعدُ، والباري سبحانه قادرٌ على أن يخلقَ ذلك كلَّه من غير أن يكون للشيطان فيه كَسْبٌ حتى تَقَرَّ له ـ لعنةُ الله عليه ـ عينٌ بالتمكُّن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم.

وأما قولهم: إنه قال لزوجته: أنا إله الأرض، ولو تركتِ ذكرَ الله وسجدتِ أنتِ لي لَعافيته، فاعلموا، وإنكم لَتعلمون أنه لو عرضَ لأحدكم وبه ألمٌ، وقال هذا الكلام

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٦.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٠١.
(٣) التعريف والإعلام للسهيلي ص١٥٠.

ما جاز عنده أن يكون إلهاً في الأرض، وأنه يسجد له، وأنه يُعافي من البلاء، فكيف أن تستريبَ زوجةُ نبيٍّ؟! ولو كانت زوجةَ سواديّ أو فَدْم[١] بربريّ ما ساغ ذلك عندها.

وأما تصويرُه الأموالَ والأهلَ في وادٍ للمرأة، فذلك ما لا يقدر عليه إبليسُ بحال، ولا هو في طريق السِّحر، فيقال: إنه من جنسه.

ولو تُصُوّر لَعلمت المرأة أنه سحرٌ كما نعلمه نحن، وهي فوقَنا في المعرفة بذلك؛ فإنه لم يخلُ زمان قطّ من السِّحرِ وحديثه وجَرْيه بين الناس وتصويره.

قال القاضي: والذي جَرَّأهم على ذلك وتذرَّعوا به إلى ذِكْر هذا قولُه تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فلما رَأَوْه وقد شكا مَسَّ الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال.

وليس الأمرُ كما زعموا والأفعال كلُّها خيرها وشرها، في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هو الله لا شريكَ له في خلقه، ولا في خلق شيء غيرها، ولكن الشرَّ لا يُنسب إليه ذِكراً، وإن كان موجوداً منه خَلْقاً؛ أدباً أَدَّبنا به، وتحميداً علَّمناه، وكان من ذِكْر محمد ﷺ لربه به قوله من جملته: «والخيرُ في يديكَ، والشرُّ ليس إليك»[٢] على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقال الفتى للكليم: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣].

وأما قولهم: إنه استعان به مظلومٌ فلم ينصره، فمن لنا بصحة هذا القول. ولا يخلو أن يكون قادراً على نصره، فلا يحلّ لأحدٍ تركُه فَيُلام على أنه عصى وهو مُنزَّه عن ذلك. أو كان عاجزاً فلا شيء عليه في ذلك، وكذلك قولهم: إنه منع فقيراً من الدخول؛ إن كان علم به فهو باطلٌ عليه، وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه.

---

(١) الفَدْم من الناس: العَيِيُّ عن الحُجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم. اللسان (فدم).

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٩)، ومسلم (٧٧١)، وسلف مطولاً ٩/ ١٤٠.

وأما قولهم: إن داهن على غَنَمه الملكَ الكافر، فلا تقل: داهن، ولكن قل: دارَى. ودفعُ الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم وبحسن الكلام.

قال ابن العربي القاضي أبو بكر ﷺ: ولم يصحَّ عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء:٨٣] والثانية في «صٓ» ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

وأما النبي ﷺ فلم يصحّ عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينا أيوبُ يغتسلُ إذ خَرَّ عليه رِجلٌ مِن جرادٍ من ذَهَب» الحديث[(١)].

وإذ لم يصحَّ عنه فيه قرآن ولا سُنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يُوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أيِّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضةٌ عند العلماء على البَتات؛ فأعرِضْ عن سُطورها بصرك، واصممْ عن سماعها أُذنيك، فإنها لا تُعطي فِكْرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادَك إلا خبالاً.

وفي الصحيح ـ واللفظ للبخاري ـ أن ابن عباس قال: يا معشرَ المسلمين، تسألون أهلَ الكتاب وكتابكم الذي أُنزِلَ على نبيكم أحدثُ الأخبار بالله، تقرؤونه مَحْضاً لم يُشَبْ، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب قد بدَّلوا من كتب الله وغيَّروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:٧٩] ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله، ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أُنزل عليكم[(٢)]. وقد أنكر النبي ﷺ في حديث «الموطأ» على عمر قراءتَه التوراة[(٣)].

قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الرَّكْض الدَّفع بالرجل. يقال: رَكَض الدابةَ ورَكَض ثوبه برجله. وقال المبرّد: الرَّكْض التحريك؛ ولهذا قال الأصمعي: يقال: رُكِضَت

(١) سلف ٤/ ٤٨٣ و١٥/ ١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري (٧٥٢٣). وقوله: لم يُشَب، أي: لم يُخالطه غيره

(٣) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه، وفي إسناده مجالد بن سعيد، وهو ضعيف، كما في التقريب. ولم نقف عليه في الموطأ. .

الدابّة. ولا يقال: رَكَضَت هي؛ لأن الركضَ إنما هو تحريكُ راكبها رجليه ولا فعلَ لها في ذلك. وحكى سيبويه: رَكَضتُ الدابةَ، فركضتْ، مثل: جَبرتُ العظم فَجبَر، وحزنته فحزن؛ وفي الكلام إضمار: أي: قلناله: «ارْكُضْ» قاله الكسائي(١). وهذا لمَّا عافاه الله.

﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: فَرَكَضَ فنبعتْ عينُ ماء فاغتسل به، فذهب الداءُ من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداءُ من باطنه.

وقال قتادة: هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها: الجابية، فاغتسل من إحداهما، فأذهب اللهُ تعالى ظاهرَ دائه، وشَرِبَ من الأُخرى، فأذهب الله تعالى باطنَ دائه. ونحوه عن الحسن(٢) ومقاتل؛ قال مقاتل: نَبعتْ عينٌ حارّة واغتسل فيها، فخرج صحيحاً، ثم نبعت عينٌ أُخرى فشرب منها ماءً عذباً. وقيل: أُمر بالرَّكض بالرجل لِيتناثرَ عنه كلُّ داء في جسده.

والمغتسَلُ الماء الذي يُغتسَل به؛ قاله القتبي(٣). وقيل: إنه الموضع الذي يُغتسل فيه؛ قاله مقاتل(٤).

الجوهري(٥): واغتسلت بالماء، والغَسُول: الماء الذي يُغتسَل به، وكذلك المُغتَسَل، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ والمُغتسل أيضاً: الذي يُغتسل فيه، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها: مَغْسِل الموتى، والجمع المغاسل.

واختُلف كم بقي أيوبُ في البلاء؛ فقال ابن عباس: سبع سنين وسبعة أشهر

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٠٢ ، وقول الحسن أخرجه الطبري ١٦/ ٣٦٤ مطولاً.

(٣) في غريب القرآن ص٣٨٠ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠٢ .

(٥) الصحاح (غسل).

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ٢٠٧ عن مقاتل.

وسبعة أيام وسبع ساعات[١]. وقال وهب بن منبِّه: أصاب أيوبَ البلاءُ سبعَ سنين، وتُرك يوسف في السجن سبع سنين، وعُذِّب بُخْتَنصَّر وحُوِّل في السباع سبع سنين. ذكره أبو نعيم[٢]. وقيل: عشر سنين. وقيل: ثمانَ عشرةَ سنة. رواه أنس مرفوعاً فيما ذكر الماوردي[٣].

قلت: وذكره ابن المبارك؛ أخبرنا يونس بن يزيد، عن عُقَيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوب وما أصابه من البلاء، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمانَ عشرةَ سنة[٤]. وذكر الحديث القشيري. وقيل: أربعين سنة.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ تقدّم في «الأنبياء» الكلامُ فيه[٥]. ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: نعمة منا. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: عبرةً لذوي العقول.

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

فيها سبع مسائل:

الأولى: كان أيوبُ حلف في مرضه أن يضربَ امرأته مئة جلدة؛ وفي سبب ذلك أربعة أقوال:

أحدها: ما حكاه ابن عباس أن إبليسَ لَقِيَها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب؛ فقال: أُداويه على أنه إذا بَرِئ قال: أنتَ شفيتَني، لا أُريد جزاءً سواه. قالت: نعم، فأشارتْ على أيوب بذلك فحلف لَيضرِبَنَّها. وقال: وَيْحَكِ ذلك الشيطان.

الثاني: ما حكاه سعيد بن المسيَّب، أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتَها فحلف لَيضْرِبَنَّها.

---

(١) في الحلية ٤/ ٥٣.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٠٢. والحديث سلف تخريجه ١٤/ ٢٦٠، وذكرنا ثمة أن الحافظ ابن كثير قال: وهذا رَفْعُه غريب جداً، والأشبه أن يكون موقوفاً.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٧٩) (زوائد نعيم)، وهو مرسل، وسلف مطولاً ١٤/ ٢٦٠ ينظر الكلام عليه ثمة.

(٤) ١٤/ ٢٦١ وما بعدها.

الثالث: ما حكاه يحيى بن سلاّم وغيره: أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوبَ على أن يذبح سخلةً تقرُّباً إليه وأنه يبرأ؛ فذكرتْ ذلك له، فحلف لَيضْرِبنَّها إنْ عُوفي مئةً[1].

و[الرابع] قيل: باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئاً تحمله إلى أيوب، وكان أيوبُ يتعلَّق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف لَيضْرِبَنّها[2]. فلما شفاه الله أمره أن يأخُذَ ضِغْثاً فيضرب به، فأخذ شماريخ قدر مئة، فضربها ضربةً واحدة. وقيل: الضِّغث قبضةُ حشيش مختلطة الرَّطب باليابس. وقال ابن عباس: إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه[3].

الثانية: تضمَّنت هذه الآيةُ جوازَ ضرب الرجل امرأته تأديباً. وذلك أن امرأة أيوبَ أخطأت فحلف لَيضْرِبنَّها مئة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعُثكول من عثاكيل النخل. وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب امرأته فوقَ حدِّ الأدب. وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوقَ حدِّ الأدب؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «واضْرِبُوهُنَّ ضرباً غير مُبَرِّح» على ما تقدَّم في «النساء» بيانه[4].

الثالثة: واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عامٌّ أو خاصٌّ بأيوب وحده؛ فروي عن مجاهد أنه عام للناس. ذكره ابن العربي[5].

وحُكي عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب.

وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حُكْمٌ باقٍ، وأنه إذا ضرب بمئة قضيب ونحوه ضربة واحدة بَرَّ. ورُوي نحوه عن الشافعي[6]. ورُوي نحوه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٠٣ .

(٢) ذكره ابن العربي بنحوه في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٩ ، وسلف ١٤/ ٢٥٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٣ .

(٤) ٦/ ٢٨٦ ، والحديث أخرجه مسلم (١٢١٨) مطولاً جداً من حديث جابر ﷺ.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٠ .

(٦) ذكره الكيا في أحكام القرآن ٤/ ٣٦١ . وقع في (د) و(ز): وروى نحوه عنه الشافعي، وفي (م): وروى نحوه الشافعي، والمثبت من (ظ).

عن النبي ﷺ في المُقْعَد الذي حملت منه الوليدة، وأَمَر أن يُضْرَبَ بعُثكول فيه مئة شمراخ ضربةً واحدة[١].

وقال القشيري: وقيل لعطاء: هل يُعمل بهذا اليوم؟ فقال: ما أُنزل القرآنُ إلا لِيُعْمَلَ به ويُتَّبع.

ابن العربي[٢]: ورُوي عن عطاء أنها لأيوبَ خاصَّة. وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك: من حلف لَيضربنَّ عبدَه مئةً، فجمعها، فضربه بها ضربةً واحدة لم يبرَّ. قال بعض علمائنا: يريد مالك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: إن ذلك منسوخٌ بشريعتنا.

قال ابن المنذر[٣]: وقد روينا عن عليٍّ أنه جلد الوليدَ بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة[٤]. وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] وهذا مذهبُ أصحاب الرأي. وقد احتجَّ الشافعي لقوله بحديث، وقد تُكلِّم في إسناده؛ والله أعلم.

قلت: الحديث الذي احتجَّ به الشافعي خرجه أبو داود في «سننه»[٥] قال: حدثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال: أخبرني أبو أُمامةَ بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنه اشتكى رجلٌ منهم حتى أُضْنِي، فعاد جِلدةً على عظم، فدخلت عليه جاريةٌ لبعضهم فهش لها، فوقع عليها، فلما دخل عليه رجالُ قومه يَعودونه أخبرهم

---

(١) سيأتي قريباً بتمامه.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٠ .

(٣) في الإشراف ٢/ ٢٨-٢٩ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٥٤٤) بهذا اللفظ، وأصله عند مسلم (١٧٠٧)، وليس فيه أنه جلده بسوط له طرفان.

(٥) الحديث (٤٤٧٢). وأخرجه أحمد (٢١٩٣٥)، والنسائي في الكبرى (٧٢٦٨) من حديث سعيد بن سعد ابن عبادة رضي الله عنهما.

بذلك وقال: استفتوا لي رسولَ الله ﷺ؛ فإني قد وقعتُ على جاريةٍ دَخلتْ عليَّ. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضُّرِّ مثلَ الذي هو به؛ لو حملناه إليك لَتفسَّخَتْ عِظامُه، ما هو إلا جلدٌ على عَظْم؛ فأمر رسولُ الله ﷺ أن يأخذوا له مئة شمراخ فيضربوه بها ضربةً واحدة.

قال الشافعي: إذا حلف لَيضربنَّ فلاناً مئة جلدة، أو ضرباً شديداً، ولم يقل: ضرباً شديداً، ولم ينوِ ذلك بقلبه يكفيه مثلُ هذا الضرب المذكور في الآية ولا يحنَث[(١)].

قال ابن المنذر[(٢)]: وإذا حلف الرجل: لَيضربنَّ عبده مئةً فضربه ضرباً خفيفاً، فهو بارٌّ عند الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي. وقال مالك: ليس الضربُ إلا الضربَ الذي يُؤلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ دليلٌ على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع حُكماً إذا كان مُتراخياً. وقد مضى القول فيه في «المائدة»[(٣)] يقال: حَنِثَ في يمينه يَحنَثُ، إذا لم يَبَرَّ بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة، أي: فاضرِبْ لا تحنَثْ.

الخامسة: قال ابن العربي[(٤)]: قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ يدلُّ على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن في شرعهم كفارةٌ، وإنما كان البرّ والحِنْث. والثاني: أن يكون صَدَرَ منه نذرٌ لا يمين، وإذا كان النذر مُعيَّنًا فلا كفارةَ فيه عند مالك وأبي حنيفة. وقال الشافعي: في كل نذر كفارة.

قلت: قوله: إنه لم يكن في شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوبَ عليه السلام لما بقي في البلاء ثمانَ عشرةَ سنة، كما في حديث ابن شهاب: قال له صاحباه: لقد أذنبتَ ذنباً ما أظنُّ أحداً بلغه. فقال أيوب ﷺ: ما أدري ما تقولان، غير أنَّ ربي عز

---

(١) الأم ٧/ ٧٣.

(٢) في الإشراف ١/ ٤٧٣.

(٣) ٨/ ١٥١.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٤٠.

وجل يعلم أني كنتُ أَمُرُّ على الرجلين يتزاعمان، فكلٌّ يحلف بالله، أو على النَّفر يتزاعمون، فأنقلب إلى أهلي، فأُكفِّر عن أيمانهم إرادةَ ألاّ يأثم أحدٌ يذكره، ولا يذكره إلا بحقّ فنادى ربَّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وذكر الحديث[1]. فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفَّر عن غيره بغير إذْنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة.

السادسة: استدلَّ بعض جُهَّال المتزهِّدة؛ وطَغَام المتصوّفة بقوله تعالى لأيوب: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ على جواز الرَّقْص.

قال أبو الفرج الجوزي[2]: وهذا احتجاجٌ بارد؛ لأنه لو كان أُمِرَ بضرب الرِّجل فرحاً كان لهم فيه شُبهة، وإنما أُمِرَ بضرب الرِّجل لِينبَعَ الماء.

قال ابن عَقيل: أين الدلالة في مُبتلًى أُمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لِينبَعَ الماءُ إعجازاً من الرَّقص؟!، ولئن جاز أن يكون تحريكُ رِجْل قد أنحلها تحكُّم الهوامّ دلالة على جواز الرقص في الإسلام، جاز أن يُجعلَ قولُه سبحانه لموسى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ دلالةً على ضرب الجماد[3] بالقُضبان! نعوذ بالله من التلاعب بالشَّرع.

وقد احتجَّ بعضُ قاصِريهم بأنَّ رسولَ الله ﷺ قال لعليّ: «أنت منّي وأنا منك» فحَجَلَ، وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي» فَحَجل، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فَحَجل[4].

ومنهم من احتجَّ بأنَّ الحبشة زَفَنت والنبي ﷺ ينظر إليهم[5]. والجواب ـ أما

---

(١) سلف مطولاً ١٤/ ٢٦٠، ينظر الكلام عليه ثمة، وسلف مختصراً ص٢١٧ من هذا الجزء.

(٢) في تلبيس إبليس ص٢٤٩.

(٣) في (د) و(ز): المخاد، وفي (م): المحاد، والمثبت من تلبيس إبليس.

(٤) أخرجه أحمد (٧٧٠) و(٨٥٧) من حديث علي ﷺ، وإسناده حسن دون ذكر الحجل، فقد تفرد بذكره هانئ بن هانئ، ومثله لا يحتمل تفرده.

(٥) أخرجه أحمد (٢٤٨٥٤)، وبنحوه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحَجْل فهو نوع من المشي يُفعَل عند الفرح، فأين هو والرقص؟!، وكذلك زَفْن الحبشة نوعٌ من المشي يُفعل عند اللِّقاء للحرب.

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ أي: على البلاء. ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: توَّاب رجَّاع مُطيع. وسُئل سفيان عن عبدين ابتُلي أحدُهما فصبر، وأُنعم على الآخر فشكر؛ فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناءً واحداً؛ فقال في وصف أيوب: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وقال في وصف سليمان: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1] [ص: ٣٠].

قلت: وقد ردَّ هذا الكلامَ صاحبُ «القوت»[2] واستدلَّ بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغنيّ وذكر كلاماً كثيراً شيَّد به كلامَه، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب «منهج العباد ومَحجَّة السالكين والزُّهاد»، وخَفِيَ عليه أن أيوب عليه السلام كان أحدَ الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما ابتُلي بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتُحِنوا وفُتِنوا. فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغيَّر منه حال ولا مقال، فقد اجتمع[3] مع أيوب في المعنى المقصود، وهو عدمُ التغيُّر الذي يفضل فيه بعض الناس بعضاً. وبهذا الاعتبار يكون الغنيُّ الشاكر والفقير الصابر سواء. وهو كما قال سفيان. والله أعلم.

وفي حديث ابن شهاب عن النبي ﷺ: «إنَّ أيوبَ خرج لِمَا كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاغتسل، فأعاد اللهُ لحمه وشعره وبَشَره على أحسن ما كان، ثم شَرِبَ، فأذهب الله كلَّ ما كان في جوفه من أَلَمٍ أو ضَعْف، وأنزل اللهُ عليه ثوبين من السماء أبيضين فائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، ثم أقبل يمشي إلى منزله ورَاثَ[4] على امرأته، فأقبلتْ حتى لقيته، وهي لا تعرفه،

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب ١/ ٢٠٢ ونسبه لبعض القدماء.
(٢) ١/ ٢٠٢-٢٠٣.
(٣) يعني سليمان عليه السلام.
(٤) أي: أبطأ. القاموس (ريث).

فسلَّمتْ عليه وقالت: أي يرحمك الله، هل رأيتَ هذا الرجل المُبتلَى؟ قال: من هو؟ قالت: نبيُّ الله أيوب، أما والله، ما رأيتُ أحداً قط أشبهَ به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أيوبُ، وأخذ ضِغْثاً فضربها به».

فزعم ابن شهاب أن ذلك الضِّغْث كان ثُماماً[١]. وردَّ الله إليه أهله ومِثْلَهم معهم، فأقبلت سحابةٌ حتى سَجَلتْ في أَنْدَرِ[٢] قمحِهِ ذهباً حتى امتلأ، وأقبلت سحابةٌ أُخرى إلى أَنْدَر شعيره وقطانيه[٣]، فسَجَلت فيه وَرِقاً حتى امتلأ[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ابن عباس: «عَبْدَنا» بإسناد صحيح؛ رواه ابن عُيَينة عن عمرو عن عطاء عنه[٥]، وهي قراءةُ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصن وابن كثير[٦]؛ فعلى هذه القراءة يكون «إبراهيم» بدلاً من «عبدنا» و﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عطف. والقراءة بالجمع أبين، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم، ويكون «إبراهيم» وما بعده على البدل.

النحاس[٧]: وشرحُ هذا من العربية أنك إذا قلت: رأيتُ أصحابَنا زيداً وعمراً وخالداً، فزيد وعمرو وخالد بدل، وهم الأصحاب، وإذا قلت: رأيتُ صاحبنا زيداً

(١) الثُّمام: عشب من الفصيلة النجيلية. المعجم الوسيط (ثمم).

(٢) الأندر: البيدر. القاموس (ندر). وسجل الماءَ: صبَّه صبًّا متصلاً. المعجم الوسيط (سجل).

(٣) القطاني: الحبوب التي تدخر كالحِمَّص والعدس والباقلا.. معجم متن اللغة (قطن).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٧٩) (زوائد نعيم)، وسلف قسم منه ١٤/ ٢٦٠ ، ينظر تتمة تخريجه ثمة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١١٤ .

(٦) السبعة ص٥٥٤ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٦ ، وينظر ما قبله فيه.

وعمراً وخالداً، فزيدٌ وحدَه بدل، وهو صاحبنا، وعمرو وخالد[١] عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليلٍ غيرِ هذا، غير أنه قد علم أن قوله: ﴿وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ داخل في العبودية.

وقد استدلَّ بهذه الآية من قال: إن الذبيح إسحاق لا إسماعيل[٢]، وهو الصحيح[٣] على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام بمولد النبي عليه السلام».

﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ قال النحاس[٤]: أما «الأبْصَار» فمتفقٌ على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم. وأما «الأيدي» فمختلفٌ في تأويلها؛ فأهلُ التفسير يقولون: إنها القوّة في الدين. وقوم يقولون: «الأيدي» جمعُ يد، وهي النعمة؛ أي: هم أصحاب النِّعم؛ أي: الذين أنعم الله عز وجل عليهم. وقيل: هم أصحاب النِّعم والإحسان؛ لأنهم قد أحسنوا وقدَّموا خيراً. وهذا اختيارُ الطبري.

﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ أي: الذين اصطفاهم من الأدناس واختارهم لرسالته. ومُصطفَين جمع مصطفى، والأصلُ مصتفي، وقد مضى في «البقرة» عند قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [الآية: ١٣٢] «والأخيار» جمع خَيِّر.

وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن وعيسى الثقفي: «أُولي الأيدِ» بغير ياء في الوصل والوقف[٥] على معنى أُولي القوّة في طاعة الله. ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة، وحُذفت الياء تخفيفاً[٦].

---

(١) في النسخ: وزيد وعمرو، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩ ، وقال: هذا ضعيف كله.

(٣) هذا رأي المصنف رحمه الله، والصواب أن الذبيح إسماعيل عليه السلام، وهو الصحيح المقطوع به فيما ذكره الحافظ ابن كثير وغيره، وسلفت هذه المسألة مطولة ١٨/ ٦١ وما بعدها، فينظر أقوال العلماء فيها ثمة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٧ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٣٣ .

(٦) تفسير الطبري ٢٠/ ١١٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾[(١)] قراءة العامة «بِخَالِصَةٍ» منونة، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر: «بخالصةِ ذِكرى الدَّارِ» بالإضافة[(٢)]، فمن نوَّن خالصة فـ«ذِكْرَى الدَّار» بدل منها؛ التقدير: إنا أَخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهَّبوا لها، ويرغبوا فيها ويُرَغِّبوا الناس فيها.

ويجوز أن يكون «خَالِصَةٍ» مصدراً لخلص و «ذِكْرَى» في موضع رفع بأنها فاعله، والمعنى: أخلصناهم بأن خلصتْ لهم ذكرى الدار؛ أي: تذكير الدار الآخرة.

ويجوز أن يكون «خالصة» مصدراً لأخلصَتْ، فحذفت الزيادة، فيكون «ذِكْرَى» على هذا في موضع نصب، التقدير: بأن أخلصوا ذكرى الدار.

والدار يجوز أن يُراد بها الدنيا؛ أي: ليتذكَّروا الدنيا ويزهَدوا فيها، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠] ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها. ومن أضاف خالصة إلى الدار فهي مصدر بمعنى الإخلاص، والذكرى مفعول به أُضيف إليه المصدر؛ أي: بإخلاصهم ذكرى الدار. ويجوز أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص؛ أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدّم[(٣)].

وقال ابن زيد: معنى أخلصناهم، أي: بذكر الآخرة؛ أي: يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا. وقال مجاهد: المعنى: إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم[(٤)].

---

(١) هذه الآية قبل الآية السابقة لكن المصنف رحمه الله ذكر تفسيرها آخراً!

(٢) قراءة نافع وهشام عن ابن عامر في السبعة ص٥٥٤، والتيسير ص١٨٨.

(٣) هذا الكلام بنحوه في الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٣١-٢٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩.

(٤) أخرجهما بنحوهما الطبري ٢٠/ ١١٨.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ مضى ذكر اليسع في «الأنعام»[١] وذكر ذي الكفل في «الأنبياء»[٢].

﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي: ممن اختير للنبوّة. ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يُذكَرون به في الدنيا أبداً.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: لهم مع هذا الذِّكر الجميل في الدنيا حسنُ المَرْجع في القيامة. ثم بيّن ذلك بقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ والعَدْن في اللغة الإقامة؛ يقال: عَدَنَ بالمكان إذا أقام. وقال عبد الله بن عمرو[٣]: وجنة عَدْن قصر في الجنة له خمسةُ آلاف باب على كل باب خمسةُ آلاف خَيْرة[٤]، لا يدخله إلا نبيّ أو صِدِّيق أو شهيد.

﴿مُّفَتَّحَةً﴾ حال ﴿لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ رفعت الأبوابُ لأنه اسم ما لم يُسمَّ فاعله. قال الزجاج[٥]: أي: مفتحة لهم الأبواب منها. وقال الفرّاء: مفتحة لهم أبوابها. وأجاز الفرّاء[٦]: «مُفَتَّحَةً لهم الأبوابَ» بالنصب. قال الفرّاء: أي: مفتحة الأبوابِ، ثم جئت بالتنوين فنصبت. وأنشد هو وسيبويه:

(١) ٨/ ٤٤٨-٤٥٠ .

(٢) ١٤/ ٢٦٣-٢٦٤ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): عمر، والمثبت من (ظ)، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٨ .

(٤) في (م): حِبَرة، وهو خطأ. والخيرة: يعني ذات خير، والجمع: خيرات، والمراد الحور العين. وسلف الخبر ١٢/ ٥٩-٦٠ والله أعلم بصحته.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٣٧ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٦٨ ، والكلام منه.

ونـأخـذُ بـعـدهُ بِـذِنـابِ عَـيْـشٍ أجَـبّ الـظَّـهْـرَ لـيـس لـه سَـنَـام[١]

وإنما قال: «مُفَتَّحَةً» ولم يقل: مفتوحة؛ لأنها تُفتح لهم بالأمر لا بالمس. قال الحسن: تُكلَّم: انفتحي فتنفتح، انغلقي فتنغلق[٢]. وقيل: تَفْتحُ لهم الملائكةُ الأبواب.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ هو حال قُدمت على العامل فيها، وهو قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: يَدْعُون في الجنات مُتكئين فيها[٣]. ﴿بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ أي: بألوان الفواكه ﴿وَشَرَابٖ﴾ أي: وشراب كثير، فحذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: على أزواجهنَّ، لا ينظرن إلى غيرهم، وقد مضى في «الصافات»[٤]. ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: على سِنّ واحد، وميلاد امرأة واحدة، وقد تساوَيْن في الحُسن والشَّباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة[٥]. قال ابن عباس: يُريد الآدميات[٦]. و«أَتْرَابٌ» جمع تِرْب، وهو نعت لقاصرات؛ لأن «قَاصِرَاتُ» نكرة وإن كان مضافاً إلى المعرفة. والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال:

مِن القاصِراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ من الذَّرِّ فوقَ الإتْبِ منها لأثَّرا[٧]

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: هذا الجزاءُ الذي وُعِدتم به.

---

(١) قائله النابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١٠، وفيه: ونُمسِك، بدل: ونأخذ، وسلف ١٠/ ١٢٩، وهو في الكتاب ١/ ١٩٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ١٢٢.

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢١٩.

(٤) في الصفحة ٣٣ من هذا الجزء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٠٦ عن يحيى بن سلام.

(٦) ذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ٢١٤.

(٧) قائله امرؤ القيس، وسلف ص٣٤ من هذا الجزء، وينظر شرحه ثمة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٨.

وقراءة العامة بالتاء، أي: ما تُوعدون أيها المؤمنون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر[١] ـ وهي قراءة السُّلَمي واختيار أبي عُبيد وأبي حاتم ـ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ فهو خبر. «لِيومِ الحسابِ» أي: في يوم الحساب، قال الأعشى:

المُهِينينَ مَا لَهُمْ لِزمانِ السَّـ ـوءِ حتى إذا أفاقُوا أفاقوا[٢]

أي: في زمان السوء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ دليلٌ على أن نعيمَ الجنة دائمٌ لا ينقطع؛ كما قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] وقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت:٨].

قوله تعالى ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ لما ذَكَر ما للمتقين ذَكَر ما للطَّاغين. قال الزجاج[٣]: «هذا» خبر ابتداء محذوف، أي: الأمرُ هذا، فيوقف على «هذا». قال ابن الأنباري[٤]: «هذا» وقف حسن، ثم تبتدئ «وإنَّ لِلطَّاغينَ» وهم الذين كذَّبوا الرُّسل. ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي: مُنقلَب يصيرون إليه. ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: بئس ما مهَّدوا لأنفسهم، أو بئس الفراش لهم. ومنه مَهْد الصبيّ. وقيل: فيه حذف، أي: بئس موضع المهاد. وقيل: أي: هذا الذي وصفتَ لهؤلاء المتقين، ثم قال: وإن للطاغين لَشرُّ مَرْجعٍ، فيوقف على «هذا» أيضاً.

---

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٥٥٥، والتيسير ص١٨٨.

(٢) ديوان الأعشى ص٢٦٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/٣٣٨.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٦٣.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ «هذا» في موضع رفع بالابتداء وخبره «حَمِيمٌ» على التقديم والتأخير؛ أي: هذا حميم وغسَّاق فليذوقوه. ولا يُوقَف على «فَلْيَذُوقُوهُ» ويجوز أن يكون «هذا» في موضع رفع بالابتداء و«فَلْيَذُوقُوهُ» في موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في «هذا» فيوقف على «فَلْيَذُوْقُوهُ» ويرتفع «حَمِيمٌ» على تقدير: هذا حميم.

قال النحاس[1]: ويجوز أن يكون المعنى: الأمر هذا، وحميم وغسَّاق إذا لم تجعلهما خبراً، فَرفْعُهما على معنى: هو حميم وغسّاق. والفرّاء[2] يرفعهما بمعنى: منه حميم ومنه غسَّاق، وأنشدَ:

حتّى إذا ما أَضَاءَ الصُّبْحُ في غَلَسٍ ... وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ ومَحْصُودُ[3]

وقال آخر:

لَهَا مَتَاعٌ وأَعْوانٌ غَدَوْنَ بِهِ ... قِتْبٌ وغَرْب إذا ما أُفْرِغَ انْسَحَقا[4]

ويجوز أن يكون «هَذا» في موضع نصب بإضمار فعل يُفسِّره «فَلْيَذُوقُوهُ» كما تقول: زيداً اضربه. والنصب في هذا أولى[5]، فيوقف على «فَلْيَذُوقُوهُ» وتبتدئ «حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ» على تقدير: الأمر حميم وغسَّاق[6].

وقراءةُ أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين في «وغَسَاق». وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي: «وغسَّاق» بالتشديد[7]، وهما لغتان

(١) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٩، وينظر ما قبله فيه وفي مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٢٧.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٠.

(٣) وذكره الطبري في تفسيره ٢٠/ ١٢٦ دون نسبة.

(٤) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٦٧ (برواية الشنتمري) وسلف ٥/ ٢١٠ قال شارحه الشنتمري. قوله: لها متاع، أي: لهذه الناقة التي يُستقى عليها، وقوله: قِتْب وغَرْبٌ تبيين للمتاع، والقِتْب: أداة السانية، والغرب: الدلو العظيمة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٩-٤٧٠.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٢١ بنحوه.

(٧) وقرأ بها عاصم في رواية حفص وخلف. السبعة ص٥٥٥، والتيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١.

بمعنى واحد في قول الأخفش[١]. وقيل: معناهما مختلف؛ فمن خفّف فهو اسمٌ مثل: عَذاب وجَواب وصوَاب، ومَن شدَّد قال: هو اسمُ فاعل نُقل إلى فعّال للمبالغة، نحو ضرّاب وقتّال، وهو فعّال من غَسَق يَغسِق، فهو غسّاق وغاسِق.

قال ابن عباس: هو الزمهرير يُخوِّفهم ببرده. وقال مجاهد ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده. وقال غيرهما: إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحرِّه.

وقال عبد الله بن عمرو: هو قيحٌ غليظٌ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن مَنْ في المغرب، ولو وقع منه شيء في المغرب لأنتنَ مَنْ في المشرق.

وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج الزُّناة ومن نَتْن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتْن[٢].

وقال محمد بن كعب: هو عُصارة أهل النار. وهذا القول أشبه باللغة؛ يقال: غَسَق الجرح يغسِق غسقاً إذا خرج منه ماء أصفر؛ قال الشاعر:

إذا ما تَذَكَّرْتُ الحياةَ وطِيبَها ... إليَّ جَرَى دَمْعٌ من العين[٣] غاسِقُ

أي: بارد. ويقال: ليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار. وقال السدّي: الغسّاق الذي يسيل من أعينهم ودموعهم يُسقَوْنه مع الحميم[٤]. وقال ابن زيد: الحميم دموعُ أعينهم، يُجمع في حياض النار فيُسقَوْنه، والصديد الذي يخرج من جُلودهم. والاختيار على هذا «وغَسّاق» حتى يكون مثل سيّال[٥].

وقال كعب: الغسّاق عين في جهنم يسيل إليها سُمُّ كلِّ ذي حُمَةٍ من عقرب

(١) نقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/١٠٧ .

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/١٢٨-١٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٠ .

(٣) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): الليل، والمثبت من (ف)، والبيت لعمران بن حِطَّان، ذكره أبو بكر الأنباري في الأضداد ص٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/١٢٨ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٢٩ .

وحيةٍ[١]. وقيل: هو مأخوذٌ من الظُّلمة والسواد. والغَسَقُ أوّل ظُلمة الليل، وقد غَسَقَ الليلُ يغسِق، إذا أظلم[٢].

وفي الترمذي[٣] من حديث أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال: «لو أن دَلْواً من غَسَّاق يُهَرَاق في الدنيا لأنتنَ أهلُ الدنيا».

قلت: وهذا أشبه على الاشتقاق الأوّل كما بينا، إلا أنه يحتمل أن يكون الغسَّاق مع سيلانه أسودَ مُظلماً فيصحّ الاشتقاقان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ قرأ أبو عمرو: «وَأُخَرُ» جمع أُخرى مثل الكبرى والكُبَر. الباقون: «وَآخَرُ» مفرد مذكر[٤]. وأنكر أبو عمرو «وَآخَرُ» لقوله تعالى: «أزواج» أي: لا يُخبر بواحد عن جماعة. وأنكر عاصم الجحدري: «وأُخَرُ» قال: ولو كانت «وَأُخَرُ» لكان: من شكلها.

وكلا الردَّين لا يلزم، والقراءتان صحيحتان.

«وآخَرُ» أي: وعذابٌ آخَرُ سوى الحميم والغسَّاق[٥]. «مِنْ شَكْلِهِ» قال قتادة: من نحوه. قال ابن مسعود: هو الزمهرير[٦].

وارتفع «وآخرُ» بالابتداء و«أَزْوَاجٌ» مبتدأ ثانٍ و«مِنْ شَكْلِهِ» خبره، والجملة خبر «آخر». ويجوز أن يكون «وآخر» مبتدأ والخبر مُضمَر دلَّ عليه «هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ» لأن فيه دليلاً على أنه لهم، فكأنه قال: ولهم آخر، ويكون «مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ» صفةً لآخر، فالمبتدأ متخصص بالصفة و«أَزْوَاجٌ» مرفوع بالظرف[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/١٠٦ .

(٢) الصحاح (غسق).

(٣) الحديث (٢٥٨٤).

(٤) السبعة ص٥٥٥ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣٠ .

(٦) أخرجهما الطبري ٢٠/ ١٣١-١٣٢ .

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٢٨ بنحوه.

ومن قرأ: «وَأُخَرُ» أراد: وأنواعٌ من العذاب أُخَرُ، ومن جمع ـ وهو يريد الزمهرير ـ فعلى أنه جعل الزمهرير أجناساً فجمع لاختلاف الأجناس. أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريراً، ثم جمع كما قالوا: شابَتْ مفارِقُه. أو على أنه جمع، لِمَا في الكلام من الدلالة على جواز الجمع؛ لأنه جعل الزمهرير الذي هو نهاية البرد بإزاء الجمع في قوله: «هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ»، والضمير في «شَكْلِهِ» يجوز أن يعود على الحميم أو الغسّاق. أو على معنى: «وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ» ما ذكرنا. ورفع «أُخَرُ» على قراءة الجمع بالابتداء، و«مِنْ شَكْلِهِ» صفةٌ له، وفيه ذِكْر يعود على المبتدأ، و«أَزْوَاجٌ» خبر المبتدأ. ولا يجوز أن يُحمل على تقدير: ولهم أُخَر. و«مِنْ شَكْلِهِ» صفة لأخر، و«أَزْوَاجٌ» مرتفعة بالظرف كما جاز في الإفراد؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث ارتفع «أَزْوَاجٌ» بالظرف، ولا ضمير في الظرف، والهاء في «شَكْله» لا تعود على أُخَر لأنه جمع، والضمير[1] مفرد؛ قاله أبو علي[2]. و«أَزْوَاجٌ» أي: أصناف وألوان من العذاب. وقال يعقوب: الشَّكْل بالفتح: المِثل، وبالكسر: الدَّلّ[3].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: «هَذَا فَوْجٌ» يعني الأتباع، والفوج الجماعة، «مقْتَحِمٌ معَكُمْ» أي: دخل النار معكم؛ فقالت السادة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا اتَّسعت منازلهم في النار. والرُّحب السّعة[4]، ومنه رحبة المسجد وغيره. وهو في مذهب الدعاء، فلذلك نصب؛ قال النابغة:

لا مَـرْحَـبـاً بِـغَـدٍ ولا أهْـلاً بِـهِ إنْ كـانَ تَـفْـرِيـقُ الأَحِـبَّـةِ فـي غَـدِ[5].

---

(١) من قوله: بالظرف، ولا ضمير.. إلى هنا سقط من (م).

(٢) في الحجة ٦/ ٨٠ ، وينظر اللام السالف فيه وفي مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٠ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣١ . والدَّلُّ: غُنْج المرأة. الصحاح (دلل).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٦٧ .

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٣٨ .

قال أبو عبيدة[١]: العرب تقول: لا مرحباً بك؛ أي: لا رَحُبَتْ عليك الأرض ولا اتَّسعت.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ قيل: هو من قول القادة، أي: إنهم صالوا النار كما صَلَيناها. وقيل: هو من قول الملائكة متصل بقولهم: «هَذَا فَوْجٌ مقْتَحِمٌ معَكُمْ»، و« قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ» هو من قول الأتباع[٢].

وحكى النقَّاش أن الفوج الأوّل قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر، والفوج الثاني أتباعهم ببدر[٣].

والظاهر من الآية أنها عامَّة في كل تابع ومتبوع.

﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: دعوتمونا إلى العصيان ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ لنا ولكم. ﴿قَالُوا﴾ يعني الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ قال الفراء: من سوّغ[٤] لنا هذا وسَنَّه. وقال غيره: مَن قدَّم لنا هذا العذابَ بدعائه إيَّانا إلى المعاصي ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [أي: عذاباً بكفره][٥] وعذاباً بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً.

وقال ابن مسعود: معنى عذاباً ضعفاً في النار الحيات والأفاعي[٦]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾[٧] [الأعراف:٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني أكابر المشركين ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ

(١) في مجاز القرآن ٢/١٨٦ .

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/٥١١ ، وتفسير الرازي ٢٦/ ٢٢٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/١٠٨ .

(٤) في معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٠ (والكلام منه): شرع.

(٥) ما بين حاصرتين من إعراب القرآن للنحاس.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٦٨ .

(٧) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٢٢ .

ٱلْأَشْرَارِ﴾ قال ابن عباس: يريدون أصحابَ محمد ﷺ؛ يقول أبو جهل: أين بلال، أين صُهَيْب، أين عَمّار[١]. أولئك في الفردوس. واعجباً لأبي جهل! مسكين؛ أسلم ابنُه عكرمة، وابنته جُوَيرية، وأسلمتْ أُمُّه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال:

ونـوراً أضـاءَ الأرضَ شَـرْقـاً ومَـغْـربـاً ومـوضـعُ رِجلـي مِـنْـهُ أسْـوَدُ مُـظْـلِـمُ[٢]

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قال مجاهد: أتَّخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلم نعلم مكانَهم. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا؛ اتَّخذوهم سخرياً، وزاغت عنهم أبصارهم في الدنيا مَحْقَرةً لهم.

وقيل: معنى «أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصَارُ» أي: أهم معنا في النار فلا نراهم[٣]؟. وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرؤون: «مِنَ الأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ» بحذف الألف في الوصل. وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرؤون: «أَتَّخَذْنَاهُمْ» بقطع الألف على الاستفهام[٤]، وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد استُغني عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على «الأَشْرَارِ» لأن «اتَّخَذْنَاهُمْ» حال. وقال النحاس[٥] والسجستاني: هو نعتٌ لرجال. قال ابن الأنباري[٦]: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضياً ولا مستقبلاً. ومن قرأ: «أَتَّخذناهم» بقطع الألف وقف على «الأَشْرَارِ».

قال الفراء[٧]: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب، «أمْ زاغت عنهم الأبصار»؛ إذا قرأتَ بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأتَ بغير الاستفهام فهي بمعنى بل.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٣٦ بنحوه من قول مجاهد.

(٢) قائله البحتري، وهو في ديوانه ٣/ ١٩٧٦، وفيه: وبدر، بدل: ونوراً.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٩.

(٤) السبعة ص٥٥٦، والتيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢، وقراءة ابن كثير المتواترة عنه بقطع الألف.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٧١. وينظر ما قبله فيه.

(٦) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٤-٨٦٥، وما قبله منه.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٤١١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٧١.

وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضَّل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «سُخْرِيّاً» بضم السين. الباقون بالكسر[١]. قال أبو عبيدة[٢]: من كسر جعله من الهُزْء، ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدم[٣].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ «لَحَقٌّ» خبر إنَّ و«تَخَاصُمُ» خبر مبتدأ محذوف بمعنى: هو تخاصم. ويجوز أن يكون بدلاً من حق. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلاً من ذلك على الموضع[٤]. أي: إن تخاصم أهل النار في النار لحقٌّ. يعني قولهم: «لَا مَرْحَبًا بِكُمْ» الآية، وشبهه من قول أهل النار.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾ أي: مخوفٌ عقابَ الله لمن عصاه، وقد تقدّم. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: معبود. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي لا شريك له ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ بالرفع على النعت، وإن نصبت الأول نصبته. ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح[٥]. «والْعَزِيزُ» معناه المنيع الذي لا مثل له. «الغَفَّارُ» الستَّار لذنوب خَلْقه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ أي: وقل لهم يا محمد: «هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ» أي: ما أُنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبرٌ عظيم القدر، فلا ينبغي أن يُستخفَّ به.

---

(١) السبعة ص٥٥٦، والتيسير ص١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٧.

(٣) ١٥/ ٩٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧١، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٢٩.

(٥) وهذا يجوز في غير التلاوة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٢.

قال معناه قتادة[١]. نظيره قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢]. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني القرآن الذي أنبأتُكم[٢] به خبر جليل[٣]. وقيل: عظيم المنفعة ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسّدي اختصموا في أمر آدم حين خُلق فـ ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وقال إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[٤] [ص: ٧٦].

وفي هذا بيانٌ أن محمداً ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا يُتصوَّر إلا بتأييد إلهي؛ فقد قامت المُعجزة على صِدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبُّر القرآن ليعرفوا صِدْقه؛ ولهذا وصل قوله بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

وقولٌ ثانٍ رواه أبو الأشهب عن الحسن قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سألني ربي فقال: يا محمد، فِيم اختصم الملأ الأعلى، قلت: في الكفارات والدرجات قال: وما الكفارات، قلت: المشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في السَّبَرات والتعقيب في المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال: وما الدرجات؟ قلت: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاةُ بالليل والناسُ نِيام»[٥] خرجه الترمذي بمعناه عن ابن عباس، وقال فيه: حديث غريب، وعن معاذ بن جبل أيضاً وقال: حديث حسن صحيح[٦]. وقد كتبناه بكماله في كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»،

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٥٤ .

(٢) في (د) و(م): أنبأكم.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٤٠-١٤١ عن مجاهد والسدي وشريح، وذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة الطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ١٣١ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٤٢ بنحوه.

(٥) نقله المصنف من النكت والعيون ٥/ ١١٠ ، وهو هكذا مرسل، وينظر ما بعده. وأبو الأشهب: هو جعفر بن حيان العطاردي البصري، مات سنة (١٦٥هـ). تهذيب التهذيب ١/ ٣٠٣ . وقوله: السَّبَرات: جمع سَبْرة، وهي شدة البرد. النهاية (سبر).

(٦) سنن الترمذي (٣٢٣٤) و(٣٢٣٥)، والحديثان في مسند أحمد (٣٤٨٤) و(٢٢١٠٩). قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٣٤ : أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة. وينظر تتمة تخريجه والكلام عليه في مسند أحمد.

وأوضحنا إشكاله والحمد لله.

وقد مضى في «يس» القولُ في المشي إلى المساجد، وأن الخُطَا تُكفّر السيئات، وترفع الدرجات[١].

وقيل: الملأ الأعلى الملائكة، والضمير في «يَخْتَصِمُونَ» لفرقتين. يعني قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، [ومن قال: آلهة تعبد]. وقيل: الملأ الأعلى هاهنا قريش؛ يعني اختصامهم فيما بينهم سِرّاً، فأطلع الله نبيَّه على ذلك[٢].

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن يُوحى إليَّ إلا الإنذار، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع: «إلاَّ إنَّمَا» بكسر الهمزة[٣]؛ لأن الوحيَ قولٌ، كأنه قال: يقال لي: إنما أنت نذيرٌ مبين، ومَن فتحها جعلها في موضع رفع؛ لأنها اسمُ ما لم يُسمَّ فاعلُه. قال الفراء[٤]: كأنك قلت: ما يُوحَى إليَّ إلا الإنذار، النحاس[٥]: ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى: إلا لأنما. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ «إِذْ» من صلة «يَخْتَصِمُونَ» المعنى: ما كان لي من علم بالملأ الأعلى حين يختصمون حين ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

وقيل: «إِذْ قال» بدل من «إِذْ يَخْتَصِمُونَ»[٦]، و«يَخْتَصِمُونَ» يتعلّق بمحذوف؛ لأن

---

(١) ١٧/ ٤٢٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٣-٥١٤، وما بين حاصرتين منه بنحوه.

(٣) النشر ٢/ ٣٦٢.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٤١٢.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٤٧٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٤.

المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ «إذا» تردُّ الماضي إلى المستقبل؛ لأنها تُشبه حروفَ الشرط وجوابُها كجوابه[1]؛ أي: خلقته.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: من الروح الذي أَمْلكه ولا يَمْلكه غيري. فهذا معنى الإضافة، وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «النساء» في قوله في عيسى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [الآية: ١٧١].

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ نصب على الحال. وهذا سجودُ تحية لا سجودَ عبادة. وقد مضى في «البقرة»[2].

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي: امتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعاً له وتعظيماً لله بتعظيمه ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أَنِفَ من السجود له جهلاً بأنَّ السجودَ له طاعةٌ لله، والأَنَفَة من طاعة الله استكباراً كُفرٌ، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى. وقد مضى الكلامُ في هذا في «البقرة» مستوفى[3].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ أي: صرفك وصَدَّك ﴿أَن تَسْجُدَ﴾ أي: عن أنْ تسجد ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ أضاف خَلْقه إلى نفسه تكريماً له، وإن كان خالقَ كل شيء،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٢ .

(٢) ١/ ٤٣٦ .

(٣) ١/ ٤٤١ .

وهذا كما أضاف إلى نفسه الرُّوح والبيت والناقة والمساجد؛ فخاطب الخلق[١] بما يعرفونه في تعاملهم، فإنَّ الرئيس من المخلوقين لا يُباشر شيئاً بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرُّم، فَذِكْر اليد هنا بمعنى هذا.

قال مجاهد: اليد هاهنا بمعنى التأكيد[٢] والصلة؛ مجازه: لِمَا خلقتُ أنا، كقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] أي: يبقى ربك. وقيل: التشبيه في اليد في خلق الله تعالى دليلٌ على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة؛ وإنما هما صِفتان من صفات ذاته تعالى. وقيل: أراد باليد القدرة[٣]، يقال: ما لي بهذا الأمر يدٌ. وما لي بالحِمْل الثقيل يَدَانِ. ويدلُّ عليه أن الخَلْقَ لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع. وقال الشاعر:

تَحمَّلْتُ مِن عَفْرَاءَ[٤] ما ليس لي بِه ولا لِلْجِبالِ الرّاسِياتِ يَدَانِ

وقيل: «لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» لما خلقت بغير واسطة.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: عن السجود ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي: المُتكبرين على ربِّك.

وقرأ محمد بن صالح، عن شِبْل، عن ابن كثير وأهل مكة: «بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ» موصولة الألف على الخبر[٥]، وتكون أم منقطعة بمعنى: بل، مثل: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» وشبهه. ومن استفهم: «أم» معادلة لهمزة الاستفهام، وهو تقرير وتوبيخ[٦]. أي: استكبرتَ بنفسك حين أبيتَ عن السجود لآدم، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا[٧].

---

(١) في (م): الناس.

(٢) في (م): التأكد.

(٣) مذهب السلف أن صفة اليد ثابتة لله سبحانه، فَتُثبت ما أثبته الله لنفسه من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل. وينظر الكلام السالف بمعناه في الأسماء والصفات ٢/ ١٢٧ .

(٤) في النسخ الخطية: دلفاء، والمثبت من المصادر، والبيت لعروة بن حزام، وعفراء ابنة عمه. الخزانة ٣/ ٢١٥ و٣٧٨ ، والنكت والعيون ٥/ ١١١ .

(٥) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٥٥٦ ، وهي غير المشهورة عن ابن كثير.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٥ بنحوه.

(٧) زاد المسير ٧/ ١٥٧ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قال الفرّاء: من العرب من يقول: أنا أخيرُ منه وأشرُّ منه؛ وهذا هو الأصل إلا أنه حذف منه[١] لكثرة الاستعمال.

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فَضَّل النارَ على الطين، وهذا جهلٌ منه؛ لأن الجواهر متجانسةٌ، فقاسَ فأخطأ القياس. وقد مضى في «الأعراف» بيانه[٢].

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ يعني من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مرجومٌ بالكواكب والشُّهب[٣] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ أي: طردي وإبعادي من رحمتي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تعريفٌ بإصراره على الكُفر؛ لأن اللَّعنَ منقطعٌ حينئذ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد الملعون ألا يموت، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وَأُخِّر إلى الوقت المعلوم، وهو يوم يموت الخلقُ فيه، فَأُخِّر إليه تهاوناً به.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لما طرده بسبب آدم حلفَ بِعزَّة الله أنه يُضِلُّ بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشُّبَه عليهم، فمعنى: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ»: لأستدعِيَنَّهم إلى المعاصي، وقد عَلِمَ أنه لا يَصِلُ إلا إلى الوسوسة، ولا يُفسد إلا مَن كان لا يصلحُ لو لم يوسوسه[٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصتَهم لعبادتك، وعَصَمتَهم مني. وقد مضَى في «الحجر» بيانه[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة

---

(١) يعني: حُذفت منه الألف كما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ . وسقطت لفظة «منه» من (م).

(٢) ٩/ ١٦٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) ١٢/ ٢١٢ .

والكسائي. وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول[١]. وأجاز الفرّاء[٢] فيه الخفض[٣]. ولا اختلاف في الثاني في أنه منصوبٌ بـ«أقول» ونُصِبَ الأوّل على الإغراء، أي: فاتَّبِعوا الحقَّ، واستمعوا الحق، والثاني: بإيقاع القول عليه. وقيل: هو بمعنى أُحِقُّ الحَقَّ، أي: أفعله[٤].

قال أبو علي[٥]: الحقّ الأوّل منصوبٌ بفعل مضمر، أي: يُحِقُّ اللهُ الحقَّ، أو على القسم وحُذف حرف الجر كما تقول: اللهِ لأفعلنَّ، ومجازه: قال: فبالحقِّ، وهو الله تعالى أقسم بنفسه. و«الحَقَّ أَقُولُ» جملة اعترضت بين القسم والمُقسم عليه، وهو توكيد القصة، وإذا جعل الحقّ منصوباً بإضمار فعل كان «لأملانّ» على إرادة القسم.

وقد أجاز الفرّاء[٦] وأبو عُبيد أن يكون الحق منصوباً بمعنى حقّاً «لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ» وذلك عند جماعة من النحويين خطأ؛ لا يجوز: زيداً لأضربنّ؛ لأن ما بعد اللام مقطوعٌ مما قبلها فلا يعمل فيه. والتقدير على قولهما: لأملانَّ جهنم حقًّا. ومن رفع «الحقّ» رفعه بالابتداء؛ أي: فأنا الحقُّ، أو الحقُّ مني. رُويا جميعاً عن مجاهد. ويجوز أن يكون التقدير: هذا الحقُّ.

وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى: فالحقّ لأملأن جهنم بمعنى: فالحق أن أملأ جهنم.

وفي الخفض قولان ـ وهي قراءة ابن السَّمَيْفَع وطلحة بن مُصَرِّف ـ: أحدهما أنه

---

(١) السبعة ص٥٥٧، والتيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢، وقراءة الأعمش وابن عباس رضي الله عنهما في القراءات الشاذة ص١٣٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤، وما قبله منه.

(٣) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٠ أن عيسى بن عمر قرأ: فالحقِّ والحقِّ، بالجر فيهما. قال ابن خالويه: الصواب أن يخفض الثانية، لأن القسم يكون بالواو ولا يكون بالفاء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٤.

(٥) في الحجة ٦/ ٨٧-٨٨.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤، والكلام منه.

على حذف حرف القسم. هذا قول الفراء قال: كما يقول: اللهِ لأفعلنّ. وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجز الخفض؛ لأن حروف الخفض لا تُضمر، والقول الآخر: أن تكون الفاء بدلاً من واو القسم؛ كما أنشدوا:

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ[(١)]

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي: من نفسك وذُرِّيَّتك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: من جُعْل على تبليغ الوحي، وكنَى به عن غير مذكور. وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨].

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: لا أتكلَّف ولا أتخرَّص ما لم أُؤمر به.

وروى مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: من سُئل عما لم يعلم فليقل: لا أعلم، ولا يتكلَّف؛ فإن قوله: لا أعلم عِلمٌ، وقد قال الله عز وجل لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[(٢)]. وعن رسول الله ﷺ: «لِلْمُتَكَلِّفِ ثلاث علامات: يُنازِع مَن فوقَه، ويَتَعاطى ما لا يُنال، ويقولُ ما لا يَعلم»[(٣)].

---

(١) الكلام في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٤ ، والبيت لامرئ القيس، وهو من معلقته ينظر شرح القصائد السبع للنحاس ١/ ١٢، وعجزه: فألهيتُها عن ذي تمائم مُحْوِل. ورواية الديوان ص١٢ : ومرضعاً، وهي كذلك في (د) و(ز) و(ظ)، بدل: ومرضع. ومُغيَل، بدل: مُحْوِل. والمُغيَل: المُرضَع وأمه حبلى. والمُحْوِل: الذي أتى عليه الحول، وينظر تحصيل عين الذهب للأعلم ص٢٩٩ . قال النحاس في شرح القصائد السبع: وخفض «فمثلِك» على معنى: رُبَّ مثلِك، والعربُ تبدل من «رُبَّ» الواو، وتُبدل من الواو الفاء لاشتراكهما في العطف.

(٢) بنحوه ضمن حديث طويل أخرجه أحمد (٤١٠٤)، والبخاري (٤٨٢٢)، ومسلم (٢٧٩٨)، ونقله المصنف عن النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤ .

(٣) أخرجه الثعلبي. فيما ذكره الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٢ . من طريق محمد بن عون. . . وذكر إسناده إلى سلمة بن نفيل ﷺ مرفوعاً. ومحمد بن عون، قال النسائي: متروك، وقال البخاري: منكر الحديث. الميزان ٣/ ٦٧٦ ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٤٧ من قول وهب بن منبه، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٠٦٤) من قول أرطاة بن المنذر.

وروى الدَّارَقُطْني من حديث نافع عن ابن عمر قال: خرج رسولُ الله ﷺ في بعض أسفاره، فسار ليلاً فمروا على رجل جالس عند مَقْرَاة له، فقال له عمر: يا صاحب المَقْرَاة، أَوَ لَغت السِّباع الليلة في مَقْرَاتك؟ فقال له النبي ﷺ: «يا صاحبَ المَقْرَاة، لا تُخبره، هذا مُتكلِّف، لها ما حملتْ في بطونها، ولنا ما بقي شرابٌ وطَهُور»[(١)].

وفي «الموطأ» عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وَردوا حوضاً، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض، هل تَرِدُ حوضَك السِّباع؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض، لا تُخبرنا، فإنا نَرِدُ على السِّباع وتَرِدُ علينا[(٢)]. وقد مضى القول في المياه في سورة «الفرقان»[(٣)].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ من الجن والإنس.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: نبأ الذِّكر ـ وهو القرآن ـ أنه حقٌّ «بعد حِين» قال قتادة: بعد الموت[(٤)]. وقاله الزجاج[(٥)]. وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد: يعني يوم القيامة[(٦)].

وقال الفراء[(٧)]: بعد الموت وقبله. أي: لتظهر لكم حقيقةُ ما أقول: «بعدَ حِين» أي: في المستأنف، أي: إذا أخذتكم سيوفُ المسلمين. قال السُّدي: وذلك يومَ بدر. وكان الحسن يقول: يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين[(٨)].

---

(١) سنن الدارقطني (٣٤). والمقراة: الحوض الذي يجتمع فيه الماء. النهاية (قري).
(٢) الموطأ ١/ ٢٣-٢٤ .
(٣) ١٣/ ٤٥ .
(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٥١ .
(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٢ .
(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٥٢ عن ابن زيد.
(٧) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤ .
(٨) النكت والعيون ٥/ ١١٢ ، وقول الحسن في تفسير الطبري ٢٠/ ١٥١ .

وسُئل عكرمة عمن حلف: لَيصنعنَّ كذا إلى حين. قال: إنَّ من الحين ما لا تُدركه كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ ومنه ما تُدركه؛ كقوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ من صِرام النخل إلى طُلوعه ستة أشهر. وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة» و«إبراهيم»[1] والحمد لله.

(١) ١/ ٤٧٧ و ١٢/ ١٣٥ ، وقول عكرمة سلف ١٢/ ١٣٦ .

سُورَةُ صٓ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها سِتٌّ أو ثمانٌ وثمانونَ[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿صٓ﴾ وقُرِئَ بالكسرِ[2] لالتقاءِ السَّاكِنَيْنِ، وقيل: لأنَّه أمرٌ مِن المُصادَّاةِ بمعنى المعارَضَةِ، ومنه: الصَّدَى فإنَّه يُعارِضُ الصَّوتَ الأوَّلَ؛ أي: عارِضِ القُرآنَ بعَمِلِكَ.

وبالفَتحِ لذلك[3]، أو لحَذفِ حرفِ القَسمِ وإيصالِ فعلِهِ إليه[4]، أو إضمارِه والفَتْحِ في مَوضِعِ الجرِّ فإنَّها غيرُ مَصروفَةٍ[5] لأنَّها عَلَمُ السُّورَةِ.

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢١٤)، وفيه: «خمس وثمانون في البَصْري، وهو عدد عاصم الجحدري، وست في عدد المدنيين والمكي والشامي، وثمان في الكوفي، اختلافُها ثلاث آيات...».

(٢) بكسر الدال: قرأ أبيُّ بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمال وابن أبي عبلة ونصر بن عاصم، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣٠)، و«البحر» (١٨/ ٢٢٨).

(٣) قرأ بها عيسى الثقفي ومحبوب عن أبي عمرو وفرقة. انظر المصادر السابقة.

(٤) بحذفِ حرف القسَم وإيصَال فِعله كقَولهم: (اللهَ لَأفعلنَّ) بالنَّصب. انظر: «الكشاف» (٧/ ٣٨١).

وقوله: «بالكسر» أو «بالفتح» يعني أن الحركة بنائية، وقوله: «بالنصب» يدل على أن الحركة إعرابية مع منع الصرف. انظر: «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج٢/ و٣١١ب).

(٥) أي: بإضْمارِ حَرْف القَسم كقَولهم: (اللهِ لأفعلنَّ) بالجرِّ، والفتحُ في موضع الجرّ هنا للمنع من =

وبالجرِّ والتنوينِ[١] على تأويلِ الكتابِ.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ الواوُ للقَسَمِ إن جُعِلَ (ص) اسـمًا للحرفِ، أو مَذكورًا للتَّحدِّي[٢]، أو الرَّمزِ بكَلامٍ مثل: صَدَقَ مُحمَّدٌ، أو للسُّورةِ خبرًا لِمَحذوفٍ، أو لفظِ الأمرِ[٣]، وللعطفِ إنْ جُعِلَ مُقسَمًا به، والجوابُ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما في (ص) مِن الدَّلالةِ على التَّحدِّي، أو الأمرِ بالمعادلَةِ[٤]؛ أي: إنَّه لَمُعجِزٌ، أو لَواجِبٌ العملُ به، أو: إنَّ مُحمَّدًا لَصادِقٌ، أو قولُه[٥]: (٢) ـ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾؛ أي: ما كفرَ بهِ مَن كفَرَ لخللٍ وجدَهُ فيهِ، بل الذين كفرُوا به ﴿فِى عِزَّةٍ﴾؛ أي: استكبارٍ عن الحقِّ ﴿وَشِقَاقٍ﴾: خلافٍ للهِ ولِرَسولِه، ولذلك كَفَرُوا به.

وعَلى الأَوَّلَينِ الإِضرابُ أيضًا مِن الجوابِ المُقدَّرِ، ولكن مِن حَيثُ إشعارُهُ بذلك.

= الصرف. انظر: «الكشاف» (٧/ ٣٨١ ـ ٣٨٢).

والفرق بين الحذف والإضمار: أن المحذوفَ متروكٌ أصلاً، فلا يكون فيما يقوم مقامه أثرٌ منه، والمضمرُ بخلافه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٦٠٤).

(١) قرأ بها ابن أبي إسحاق في رواية. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٩١)، و«البحر» (١٨/ ٢٢٨).

(٢) قوله: (أو مذكوراً للتحدّي) هكذا هو في النسخ، وقال الشهاب في «الحاشية» (٧/ ٢٩٤): في النسخ الصحيحة بدون «أو»، ووقع في نسخة بها فقيل: الأولى طرحها.

(٣) قوله: «خبراً لمحذوف»؛ أي: هذه صاد، «أو لفظ الأمر» بمعنى: عارضه بعملك. المصدر السابق.

(٤) قوله: «أو الأمر بالمعادلة»؛ أي: مقابلة علمه بالقرآن بعمله بما فيه، من قولهم: هو عدله وعديله؛ أي نظيره ومقابِلُه، وهو معطوف على الدلالة. المصدر السابق.

(٥) «أو قوله» عطف على «ما في ﴿صٓ﴾». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٦٠٤).

والمرادُ بالذِّكرِ: العِظَةُ، أو الشَّرفُ، أو الشُّهرَةُ[1]، أو ذكرُ ما يُحتَاجُ اليه في الدِّينِ مِن العَقائِدِ والشَّرائعِ والمَواعيدِ، والتَّنكيرُ في ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ للدَّلالةِ على شِدَّتِهما.

وقرئ: في (غِرَّةٍ)[2]؛ أي: غفلةٍ عمَّا يجبُ عليهم النَّظرُ فيه.

(٣) ـ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وعيدٌ لَهُم على كُفْرِهم به استكبارًا وشِقاقًا.

﴿فَنَادَوا﴾ استغاثةً، أو توبةً واستغفارًا[3].

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ أي: ليسَ الحينُ حينَ مَناصٍ، و(لا) هي المشبَّهَةُ بـ(ليس) زِيدَتْ عليها تاءُ التَّأنيثِ للتَّأكيدِ كما زِيدَت على (رُبَّ) و(ثمَّ)، وخُصَّت بلزومِ الأحيانِ وحذفِ أحدِ المعمولَيْنِ.

وقيل: هيَ النَّافيَةُ للجِنسِ؛ أي: ولا حينَ مناصٍ لهم.

وقيل: للفعلِ[4]، والنَّصبُ بإضمارِهِ؛ أي: ولا أَرى حينَ مناصٍ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[5] على أنَّه اسمٌ، أو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ؛ أي: ليسَ حينُ مناصٍ حاصِلًا لهم، أو: لا حينُ مناصٍ كائنٌ لهم.

وبالكسرِ[6] كقولِهِ:

---

(١) في نسخة الفاروقي: «والشهرة».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩ ـ ١٣٠) عن حماد بن الزبرقان.

(٣) في نسخة الخيالي: «استغاثة وتوبة واستغفارًا».

(٤) «وقيل: للفعل» عطف على «للجنس». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٦٠٥).

(٥) أي: برفع ﴿حِينَ﴾ ذكرها الأخفش في «معاني القرآن» (٢/ ٤٩٢) عن بعضهم، ولم يسمهم، وعزاها الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٤) إلى بعض نحويي أهل البصرة.

(٦) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٩٢)، و«البحر» (١٨/ ٢٣١)، عن عيسى بن عمر. وقيدها أبو حيان بكسر التاء من (لات) مع جر النون من (حين). وستأتي القراءة بكسر التاء.

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلَاتَ أَوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنْ لَاتَ حِينِ بَقَاءِ[١]

إمَّا لأنَّ (لاتَ) تجرُّ الأحيانَ كما أنَّ (لَوْلَا) تجرُّ الضَّمائرِ في نحوِ قوله:

لَوْلَاكِ هذا العَامَ لَمْ أَحْجُجِ[٢]

أو لأنَّ «أوانٍ» شُبِّهَ بـ(إذ) لأنَّه مَقطوعٌ عن الإضافةِ؛ إذ أصلُهُ: أوان صلحٍ، ثمَّ حُمِلَ عليه (مناص) تنزيلًا لِمَا أُضيفَ إليه الظَّرفُ منزلتَهُ لِمَا بينَهُمَا مِن الاتِّحادِ؛ إذ أصلُه: (حينَ مَناصِهِم) ثمَّ بُنِيَ الحينُ لإضافَتِه إلى غيرِ متمكنٍ[٣].

و(لاتِ) بالكسرِ كجَيْرِ[٤].

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٨)، و«معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٩٢)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص: ٢٨٣)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ١٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٢٠)، و«الأصول في النحو» (٢/ ١٤٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣٠٤)، و«تهذيب اللغة» (١٥/ ٣٠٣)، و«الخصائص» (٢/ ٣٧٩)، و«مجمع الأمثال» (١/ ٤٣٣)، و«الكشاف» (٧/ ٣٨٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٩٢)، و«البحر» (١٨/ ٢٣١)، و«الخزانة» للبغدادي (٤/ ١٩١)، وفي جميع المصادر عدا «الكشاف» و«البحر»: «أن ليس حين بقاء».

قال الجاربردي في «الحاشية على الكشاف» (ج٢/ و٣١٢أ): أي: ولات أوانَ صلح، والشاهد في البيت كسر «أوانٍ». وقال السيوطي في «شرح شواهد المغني» (٢/ ٦٤١): قوله: «طلبوا»؛ أي: طلب هؤلاء القوم صلحنا والحال أن الأوان ليس أوان الصلح، فقلنا لهم: ليس الحين بقاء الصلح، فحذف اسم ليس وأبقى الخبر و«أنْ» في البيت تفسيرية.

(٢) عجز بيت لابن أبي ربيعة، وهو في «ديوانه» (ص: ٩٢)، و«شرح المفصل» (٢/ ٣٤٠) لابن يعيش، وصدره:

أَوْمَتْ بعينيها من الهودج

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «متمكن» بدل: «غير متمكن».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٩٢)، و«البحر» (١٨/ ٢٣١)، عن عيسى بن عمر.

وتقفُ الكوفيَّةُ عليها بالهاءِ كالأسماءِ، والبصريَّةُ بالتَّاءِ كالأفعالِ.

وقيل: إنَّ التَّاءَ مزيدَةٌ على ﴿حِينَ﴾ لاتِّصالِها به في الإمام[1]، ولا يَرِدُ عليه أنَّ خطَّ المُصحَفِ خارجٌ عن القياسِ، إذ مثلُهُ لم يُعهَد فيه، والأصلُ اعتبارُهُ إلَّا فيمَا خصَّهُ الدَّليلُ، ولقولِه:

العَاطِفُونَ تَحِينَ لا[2] مِنْ عَاطِفٍ وَالمُطْعِمُونَ زَمَانَ مَا مِنْ مُطْعِمِ[3]

والمناصُ: المنجا، مِن ناصَهُ يَنُوصُهُ: إذا فاتَهُ.

(٤) ـ ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾: بشرٌ مِثلُهُم، أو أُمِّيٌّ مِن عِدادِهِم.

﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وُضِعَ فيه الظَّاهرُ موضِعَ الضَّميرِ غَضبًا عليهِم وذمًّا لَهُم، وإشعارًا بأنَّ كُفْرَهُم جَسَّرَهُم على هذا القولِ: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ﴾ فيما يُظهِرُهُ من مُعجزةٍ ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقولُ على اللهِ.

(٥) ـ ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ بأَنْ جعلَ الألوهيَّةَ التي كانَتْ لهم لِواحِدٍ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾: بليغٌ في العجبِ، فإنَّهُ خلافُ ما أطبقَ عليه آباؤُنا وما نُشاهِدُه مِن أنَّ الواحِدَ لا يَفِي علمُهُ وقُدرتُهُ بالأشياءِ الكثيرةِ.

---

(١) أي: (ولا تحين)، وفي هامش نسخة التفتازاني: «أي في مصحف عثمان».

(٢) في نسخة الخيالي: «ما».

(٣) البيت لأبي وجزة السعدي، وهو في «العين» للخليل (٨/ ٣٦٩)، و«غريب الحديث» لأبي عبيد (٥/ ٢٧٨)، و«المذكر والمؤنث» لابن الأنباري (١/ ١٨٤)، و«الصحاح» (مادة: حين)، و«تفسير الثعلبي» (٢٢/ ٤٥٨)، «المخصص» لابن سيده (٥/ ٨٢). وفي «اللسان» (مادة: ليت): قال ابن بري: صواب إنشاده:

العاطِفُونَ تَحِينَ مَا مِنْ عاطِفٍ والمُنْعِمُونَ زَمانَ أَيْنَ المُنْعِمُ

واللَّاحِفُونَ جِفانَهُم قَمْعَ الذُّرَى والمُطْعِمُونَ زَمانَ أَيْنَ المُطْعِمُ

وقُرِئَ: مُشدَّدًا(١) وهو أبلَغُ ككُرَامٍ وكُرَّامٍ.

رُوِيَ أنَّهُ لَمَّا أسلمَ عُمَرُ رضيَ اللهُ عنهُ شقَّ ذلك على قُريشٍ، فأتوا أبا طالبٍ وقالوا: أنتَ شيخُنَا وكبيرُنَا، وقد عَلِمْتَ ما فعلَ هؤلاءِ السُّفهاءُ، وإنَّا جئناكَ لتقضيَ بينَنا وبينَ ابنِ أخيكَ، فاستحضرَ رسولَ اللهِ ﷺ وقـال: هـؤلاءِ قَومُكَ يَسألُونَكَ السَّواءَ(٢)، فَلا تَمِلْ كُلَّ الميلِ عليهِمْ، فقالَ عليهِ السَّلامُ: «ماذا يَسألونَنِي» قالوا: ارفُضْنَا وارفُضْ ذِكرَ آلِهَتِنَا ونَدَعَكَ وإلهكَ، فقال: «أرأَيْتُم إنْ أَعْطَيْتُكُم ما سَأَلْتُم أَوَمُعْطِيَّ(٣) أنتُمْ كلمةً واحدةً تَملِكُونَ بها العربَ ويَدينُ لَكُم بها العجمُ» قالوا: نَعَم، وعشرًا! فقال: «قولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ» فقامُوا وقالُوا ذلك(٤).

(٦) ـ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾: وانطلقَ أَشرافُ قُريشٍ مِن مَجلسِ أبي طَالبٍ بعدما بكَّتَهُم رَسولُ اللهِ ﷺ ﴿أَنِ ٱمْشُواْ﴾ قائلينَ بعضُهُم لبعضٍ: ﴿ٱمْشُواْ﴾، ﴿وَٱصْبِرُواْ﴾: واثبتُوا، ﴿عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾: على عِبادَتِها، فلا يَنفَعُكُم مُكالَمَتُه.

و(أنْ) هي المُفسِّرَةُ؛ لأنَّ الانطلاقَ عن مجلسِ التَّقاوُلِ يُشعِرُ بالقَوْلِ.

وقيل: المرادُ بالانطلاقِ: الاندِفَاعُ في القَولِ، و﴿ٱمْشُواْ﴾ مِن مَشَتِ المرأةُ: إذا كَثُرَت وِلادَتُها، ومنه: الماشِيَةُ؛ أي: اجتمِعُوا.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/٣٩٨)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣٠)، عن السلمي، وزاد ابن خالويه نسبتها لعلي رضي الله عنه.

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي وهامش نسخة الفاروقي: «السؤال».

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي والفاروقي: «أمعطيَّ».

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٠٨)، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧١٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٦٨٦) مِن حديثِ ابن عبَّاسٍ قال: مَرِضَ أبو طالبٍ فجاءَتْهُ قُريشٌ وجاءَه النبيُّ ﷺ... فذكرَ الحديثَ نحوه.

وقُرِئَ: بغيرِ (أن)[(١)]، وقُرِئَ: (يمشونَ أَنِ اصبِرُوا)[(٢)].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾: إنَّ هذا الأمرَ لشيءٌ مِن رَيبِ الزَّمانِ[(٣)] يُرادُ بنا فلا مَرَدَّ له.

أو: إن هذا الذي يدَّعيهِ مِن التَّوحيدِ، أو يقصدُهُ مِن الرِّئاسَةِ والتَّرفُّعِ على العربِ والعجمِ، لشَيْءٌ يُتَمنَّى ويريدُه كلُّ أحدٍ.

أو: إن دينكُم لشيء يُطلَبُ ليُؤخَذَ مِنكُم.

(٧) ـ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾: بالذي[(٤)] يقولُه ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾: في المِلَّةِ التي أدرَكْنا عليهَا آباءَنا، أو في مِلَّةِ عيسى التي هيَ آخرُ المِلَلِ فإنَّ النَّصارَى يثلِّثونَ.

ويجوزُ أن تكونَ حالًا مِن ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: ما سَمِعْنا مِن أَهلِ الكتابِ ولا الكُهَّانِ بالتَّوحيدِ كائنًا في الملَّةِ المترقَّبَةِ ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾: كذبٌ اختلقَهُ.

(٨) ـ ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ إنكارٌ لاختصاصِهِ بالوَحيِ وهو مثلُهُم أَوْ أَدْوَنُ مِنْهُم في الشَّرَفِ والرِّئَاسَةِ؛ كقَوْلِهِم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وأمثالُ ذلك دليلٌ على أنَّ مبدأَ تكذيبِهِم لم يَكُن إلا الحسدَ، وقُصورَ النَّظرِ على الحُطامِ الدُّنيويِّ.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾: مِن القُرآنِ أو الوحيِ؛ لِمَيلِهِم إلى التَّقليدِ وإعراضِهِم عن الدَّليلِ، وليسَ في عَقِيدَتِهِم ما يَبتُّونَ بهِ مِن قَولِهِم: ﴿هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٧/ ٣٨٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٢١)، و«الكشاف» (٧/ ٣٨٩)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) كتب تحتها في نسخة الفاروقي: «نوائب الدهر».

(٤) في نسخة التفتازاني: «الذي».

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾: بل لَمْ يَذُوقُوا عذابي بعدُ فإذا ذاقُوهُ زالَ شَكُّهُم، والمعنى: أنَّهُم لا يُصدِّقُونَ به حتَّى يَمسَّهُم العَذابُ فيُلجِئَهُم إلى تَصديقِهِ.

(٩) ـ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾: بَلْ أَعِنْدَهُم خَزائِنُ رَحمَتِه وفي تَصرُّفِهِم حتى يُصيبُوا بها مَن شَاؤُوا ويصرفُوهَا عَمَّن شَاؤوا فيَتخيَّرُوا للنبوَّةِ بعضَ صَناديدِهِم؟

والمعنى: أنَّ النُّبوَّةَ عَطِيَّةٌ مِن اللهِ يَتفضَّلُ بها على مَن يشاءُ مِن عِبادِهِ لا مانعَ لَهُ فإنَّهُ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالبُ الذي لا يُغلَبُ ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾: الذي لهُ أَنْ يهبَ كُلَّ ما يَشاءُ لِمَن يَشاءُ، ثمَّ رَشَّحَ ذلك فقال:

(١٠) ـ ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كأنَّه لَمَّا أنكرَ عليهم التَّصرُّفَ في نبوَّتِهِ بأنْ ليسَ عِندَهُم خزائنُ رَحمَتِه التي لا نهايةَ لها، أردفَ ذلك بأنَّه ليسَ لَهم مدخلٌ في أمرِ هذا العالمِ الجِسمَانِيِّ الذي هو جزءٌ يَسيرٌ[1] مِن خَزائنِهِ، فمِنْ أينَ لَهُم أن يَتصرَّفُوا فيها؟

﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جوابُ شَرطٍ مَحذوفٍ؛ أي: إن كانَ لهم ذلك فليَصْعَدُوا في المَعارجِ التي يُتوصَّلُ بها إلى العَرْشِ حتَّى يَسْتَوُوا عليه ويُدبِّرُوا أَمْرَ العالَمِ، فيُنْزِلونَ الوحيَ إلى مَن يَستصوِبُونَ، وهو غايةُ التَّهكُّمِ بهم. والسَّببُ في الأصلِ هو الوصلَةُ.

وقيل: المرادُ بالأسبابِ: السَّماواتُ؛ لأنَّها أَسبابُ الحوادثِ السُّفليَّةِ.

(١١) ـ ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ أي: هُمْ جُندٌ مَّا مِن الكُفَّارِ المُتَحزِّبينَ على الرَّسولِ مهزومٌ مَكسورٌ عمَّا قريبٍ، فمِنْ أينَ لَهُم التَّدابيرُ

---

(١) في نسخة الفاروقي: «الذي هو خزانة يسيرة».

الإلهيَّةُ والتَّصرُّفُ في الأمورِ الرَّبَّانيَّةِ؟: فلا تكترِثْ بما[1] يقولونَ، و﴿مَّا﴾ مَزيدَةٌ للتَّقليلِ، كقولك: أكلتُ شيئًا ما.

وقيل: للتَّعظيمِ على الهزءِ، وهو لا يُلائِمُ ما بعدَهُ.

و﴿هُنَالِكَ﴾ إشارةٌ إلى حيثُ وضعُوا فيه أنفُسَهُم من الانتدابِ لِمِثلِ هذا القَوْلِ.

(١٢) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾: ذو المُلْكِ الثَّابتِ بالأوتادِ، كقولِه:

وَلَقَدْ غَنُوا فِيهَا بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ ... فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الأَوْتَادِ[2]

مأخوذٌ مِن ثَباتِ البيتِ المطنَّبِ بأوتادِهِ.

أو: ذو الجموعِ الكثيرةِ، سُمُّوا بذلك لأنَّ بعضَهُم يشدُّ بعضًا كالوتدِ يشدُّ البِناءَ.

وقيل: نصَبَ أربعَ سَوارٍ، وكان يمدُّ يَدَي المعذَّبِ ورِجلَيْهِ إليها ويضربُ عليهَا أوتادًا ويتركُه حتى يموتَ.

(١٣) ـ ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: وأصحابَ الغَيْضَةِ، وهم قومُ شُعَيبٍ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿لَيْكَةِ﴾[3].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ يعني: المُتحزِّبينَ على الرُّسلِ، الذين جُعِلَ الجندُ المَهزومُ مِنْهُم.

(١٤) ـ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ بيانٌ لِمَا أُسنِدَ إليهم مِن التَّكذيبِ على الإبهامِ مُشتمِلٌ على أنواعٍ مِن التَّأكيدِ ليَكونَ تَسجيلًا على استحقاقِهِم للعذابِ، ولذلك رتَّبَ

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «لما».

(٢) للأسود بن يعفر النهشلي، انظر: «ديوانه» (ص: ٢٧)، و«المفضليات» (ص: ٢١٥ ـ ٢١٧).

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ١٦٦).

عليهِ ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وهو إمَّا مُقابلَةُ الجَمعِ بالجَمعِ، أو جعلُ تَكذيبِ الواحدِ مِنْهُم تكذيبَ جميعِهِم.

(١٥) ـ ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: وما ينتظرُ قومُكَ أو الأحزابُ، فإنَّهُم كالحضورِ لاستحضارِهِم بالذِّكرِ، أو حضورِهِم في علمِ اللهِ.

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النَّفخَةُ ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ مِن تَوقُّفٍ مِقدارَ فَوَاقٍ، وهو ما بينَ الحَلبتَيْنِ، أو رجوعٍ وتَردادٍ فإنَّه فيه[1] يرجعُ اللبنُ إلى الضَّرعِ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بالضَّمِّ، وهما لُغَتانِ[2].

(١٦) ـ ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾: قِسْطَنَا مِن العَذابِ الذي تُوْعِدُنا به، أو الجنةِ التي تُعَدُّ للمُؤمِنينَ، وهو مِن قطَّهُ: إذا قطعَهُ، ويقالُ لصحيفَةِ الجائزَةِ: (قِطٌّ) لأنَّها قِطعَةٌ مِن القرطاسِ، وقد فُسِّرَ بها؛ أي: عَجِّلْ لنَا صحيفةَ أَعمالِنَا ننظُرْ فيها ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ استعجَلُوا[3] ذلك استِهزاءً.

(١٧) ـ ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾: واذكُرْ لَهُم قِصَّتَه تَعظيمًا للمَعصِيَةِ في أَعيُنِهِم، فإنَّه مع عُلوِّ شأنِه واختصاصِهِ بعَظائمِ النِّعَمِ والمكرُماتِ لَمَّا أتى بصغيرةٍ نزلَ عن منزِلَتِه ووبَّخَهُ الملائكةُ بالتَّمثيلِ والتَّعريضِ، حتَّى تَفطَّنَ فاستغفرَ ربَّهُ وأنابَ، فمَا الظَّنُّ بالكفَرَةِ وأهلِ الطُّغيانِ؟

أو: تذكَّرْ قِصَّتَه وصُنْ نَفسَكَ أن تَزِلَّ فيلقاكَ مَا لَقِيَهُ مِن المعاتبَةِ على إهمالِهِ عنانَ نَفسِهِ أدنى إهمالٍ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «فإنه ساعة».

(٢) وقراءة الباقين بفتح الفاء، انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٧).

(٣) في نسخة الفاروقي: «استعملوا».

﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾: ذا القُوَّةِ، يقال: فُلانٌ أَيِّدٌ وذو أَيْدٍ وآدٍ وإيادٍ، بمعنًى.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: رجَّاعٌ إلى مرضاةِ[1] اللهِ، وهو تعليلٌ لـ﴿ٱلۡأَيۡدِ﴾ دليلٌ على أنَّ المرادَ بِهِ القُوَّةُ في الدِّينِ، وكانَ يَصومُ يومًا ويُفطِرُ يومًا ويقومُ نِصفَ الليلِ.

(١٨) ـ ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ﴾ قد مرَّ تفسيرُهُ، و﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ حالٌ وُضِعَ مَوضِعَ: مُسبِّحَاتٍ؛ لاستحضارِ الحالِ الماضيَةِ، والدلالةِ على تَجدُّدِ التَّسبيحِ حالًا بعدَ حالٍ.

﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾: ووقتَ الإشراقِ، وهو حينَ تُشرِقُ الشَّمسُ؛ أي: تُضيءُ ويَصْفُو شُعاعُها، وهو وَقتُ الضُّحَى، وأمَّا شُروقُها فطُلُوعُها، يقال: شَرَقَتِ الشَّمسُ ولَمَّا تُشْرِقْ.

وعَن أمِّ هانـئٍ: أنَّـه عليـهِ السَّـلامُ صلَّـى صـلاةَ الضُّحَى وقـال: «هـذهِ صَلاةُ الإشـراقِ»[2].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «إلى رحمة».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٤٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٧٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٤٠٦)، كلهم من رواية حجاج بن نصير، عن أبي بكر الهذلي، عن عطاء، عن ابن عباس: حدثتني أم هانئ. وإسناده ضعيف جدًّا، أبو بكر الهذلي متروك، وحجاج بن نصير ضعيف.

ورواه الحاكم في «المستدرك» (٦٨٧٣) من وجه آخر عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس: (كان لا يصلي الضحى حتى أدخلناه على أم هانئ فقلت لها: أخبري ابن عباس، قالت: دخل رسول الله ﷺ في بيتي فصلى صلاة الضحى ثمان ركعات. قال: فخرج ابن عباس وهو يقول: هذه صلاة الإشراق. قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٢): هذا موقوف وهو أصح. قلت: ورواه بنحو رواية الحاكم الحميدي في «مسنده» (٣٣٣)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (٢١١٦).

قال الآلوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ٢٣٦): ولهم في صلاة الضحى كلام طويل والحق سنيتها، =

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما: ما عَرَفْتُ صَلاةَ الضُّحَى إلَّا بهذهِ الآيةِ[١].

(١٩) ـ ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ إليهِ مِن كلِّ جانبٍ، وإنَّما لم يُراعِ المُطابقةَ بينَ الحالَيْنِ لأنَّ الحشرَ جُملَةً أدلُّ على القُدرَةِ مِنه مُدرَّجًا.

وقُرِئَ: (والطَّيْرُ مَحشورَةٌ) بالابتداءِ والخبرِ[٢].

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: كلُّ واحدٍ مِن الجبالِ والطَّيرِ لأَجلِ تَسبيحِهِ رَجَّاعٌ إلى التَّسبيحِ، والفرقُ بينَهُ وبينَ ما قبلَه: أنَّه يَدلُّ على الموافقةِ في التَّسبيحِ، وهذا على المداومةِ عليها، أو كلٌّ مِنْهُما ومِن داودَ مُرَجِّعٌ للهِ التَّسبيحَ.

(٢٠) ـ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: وقوَّيْناهُ بالهيبةِ، وبالنُّصرَةِ وكثرةِ الجُنودِ. وقُرِئَ بالتَّشديدِ للمُبالغَةِ[٣].

وقيل: إنَّ رَجُلًا ادَّعى بقرةً على آخرَ، وعَجَز عن البَيانِ، فأُوْحي إليه: أنِ اقتُل المُدَّعَى عليه، فأعلمَهُ فقال: صدقتَ، إنِّي قتلتُ أَباهُ غيلةً وأخذتُ البقرةَ، فعَظُمَتْ بذلكَ هيبَتُه[٤].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾: النبوَّةَ، أو: كمالَ العلمِ وإتقانَ العَمَلِ.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: وفصلَ الخِصامِ بتَمييزِ الحقِّ عن الباطلِ، أو الكلامَ الملخَّصَ

= وقد ورد فيها كما قال الشيخ ولي الدين ابن العراقي أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة حتى قال محمد بن جرير الطبري: إنها بلغت مبلغ التواتر، ومن ذلك حديث أم هانىء الذي في الصحيحين. قلت: رواه البخاري (١١٠٣)، ومسلم (٣٣٦) عقب الحديث (٧١٩).

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٨٣٢) (٧/ ١٧٣).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠) عن إبراهيم بن أبي عبلة.

(٣) أي: (شدَّدنا)، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠) عن إبراهيم بن أبي عبلة.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما بأتم من هذا.

الذي ينبِّهُ المخاطَبَ على المقصودِ مِن غَيرِ التباسٍ، فيُراعي فيه مظانَّ الفَصْلِ والوَصْلِ، والعطفِ والاستئنافِ، والإضمارِ والإظهارِ، والحَذفِ والتكرارِ، ونَحوِها، وإنَّما سُمِّيَ بهِ (أمَّا بعدُ) لأنَّه يَفصِلُ المقصودَ عمَّا سبقَ مُقدِّمَةً له مِن الحمدِ والصَّلاةِ.

وقيل: هو الخطابُ القصدُ الذي ليسَ فيه اختصارٌ مُخِلٌّ ولا إشباعٌ مُمِلٌّ، كما جاءَ في وَصفِ كلامِ الرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ: «فصلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ»(1).

(٢١) ـ ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ استفهامٌ مَعناه التَّعجيبُ والتَّشويقُ إلى استماعِهِ، والخصمُ في الأصلِ مصدرٌ ولذلك أُطلِقَ للجَمعِ.

﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾: إذ تصعَّدوا سورَ الغرفَةِ، (تفعَّلَ) مِن السُّورِ كتَسنَّمَ مِن السَّنامِ.

و﴿إِذۡ﴾ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ؛ أي: نبأُ تحاكُمِ الخصمِ إذ تَسوَّرُوا، أو بالنبأ على أنَّ المرادَ به: الواقعُ في عهدِ داودَ، وأن إسنادَ (أتى) إليه على حَذفِ مُضافٍ؛ أي: قصَّةَ نبأِ الخَصمِ.

أو بـ﴿ٱلۡخَصۡمِ﴾ لِمَا فيه مِن مَعنى الفعلِ لا بـ(أتى) لأنَّ إتيانَهُ الرَّسولَ لم يَكُن حينئذٍ.

---

(١) قطعة من خبر أم معبد في وصف النبي ﷺ، رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٣٠)، والطبري في «المنتخب من ذيل المذيل» (ص: ٧٥ ـ ٧٦)، من حديث أبي معبد الخزاعي زوج أم معبد.
ورواه ابن طيفور في «بلاغات النساء» (ص: ٤٨)، والطبري في «المنتخب من ذيل المذيل» (ص: ٧٣ ـ ٧٤)، وأبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» (١١٤٠)، والآجري في «الشريعة» (١٠٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٣٦٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤٢٧٤)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢٢٦٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٢٧٨)، وغيرهم، من حديث حبيش بن خالد رضي الله عنه وهو أخو أم معبد.

و﴿إِذْ﴾ الثَّانيةُ في: (٢٢) ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ﴾ بدلٌ مِن الأولى، أو ظرفٌ لـ﴿تَسَوَّرُوا﴾.

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنَّهُم نزلُوا عليه مِن فوقٍ في يومِ الاحتجابِ والحرسُ على البابِ لا يتركونَ مَن يدخلُ عليهِ، فإنَّهُ كانَ عليه السَّلامُ جزَّأَ زمانَهُ يومًا للعبادةِ ويَوْمًا للقَضاءِ ويَوْمًا للوَعظِ ويَوْمًا للاشتِغَالِ بخاصَّتِهِ، فتسوَّرَ عليه ملائكةٌ على صورِ إنسانٍ في يومِ الخَلوَةِ.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾: نحنُ فَوْجانِ مُتخاصِمَانِ، على تسميةِ مُصاحبِ الخصمِ خَصْمًا ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهو على الفَرْضِ وقصدِ التَّعريضِ إن كانوا مَلائِكَةً وهو المَشهورُ.

﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾: ولا تَجُرْ في الحُكومَةِ.

وقُرِئَ: (ولا تَشْطُط)[1]؛ أي: ولا تَبعُدْ عن الحقِّ، و: (ولا تُشطِّطْ)[2]، و: (ولا تُشَاطِطْ)[3]، والكلُّ مِن مَعنى الشَّطَطِ، وهو مجاوزَةُ الحدِّ.

﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾؛ أي: إلى وسطه وهو العَدلُ.

(٢٣) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ بالدِّينِ أو الصُّحبَةِ ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هي الأُنثى مِن الضَّأنِ، وقد يُكْنَى بها عن المرأةِ، والكنايةُ والتَّمثيلُ فيما يُساقُ للتَّعريضِ أبلَغُ في المقصودِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣١)، عن أبي رجاء وأبي حيوة وقتادة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠) عن قتادة.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠) عن زر بن حبيش.

وقُرِئَ: (تَسعٌ وتَسعونَ) بفتحِ التَّاءِ[(١)]، و: (نِعجَةٌ) بكسرِ النُّونِ[(٢)].

وقرأ حَفصٌ بفَتحِ ياءِ ﴿لِيَ نَعۡجَةٞ﴾[(٣)].

﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾: مَلِّكْنيهَا، وحقيقَتُه: اجعَلْنِي أكفُلُها كما أكفُلُ ما تحتَ يدي.

وقيل: اجعَلْها كِفْلِي: نَصيبِي.

﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾: وغلبَنِي في مُخاطبَتِه إيَّايَ محاجَّةً بأَنْ جاءَ بحِجَاجٍ لم أقدِرْ ردَّهُ، أو في مُغالبَتِه إيَّايَ في الخِطبَةِ، يقال: خطبتُ المرأةَ وخَطَبَها هو، فخاطَبَنِي خِطَابًا حيثُ زَوَّجَهَا دُوني.

وقُرِئَ: (وعازَّنِي)[(٤)]؛ أي: غالبَنِي، و: (وعَزَنِي)[(٥)] على تخفيفٍ غريبٍ.

(٢٤) ـ ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ جوابُ قسمٍ مَحذوفٍ قُصِدَ به المبالغةُ في إنكارِ فعلِ خَليطِهِ وتهجينِ طمَعِه، ولعلَّهُ قال ذلك بعدَ اعترافِه، أو على تَقديرِ صِدْقِ المُدَّعِي، والسُّؤالُ مصدرٌ مُضافٌ إلى مَفعولِهِ، وتَعدِيَتُه إلى مَفعولٍ آخرَ بـ(إلى) لتَضمُّنِه مَعنى الإضافَةِ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾: الشُّركاءِ الذين خَلَطُوا أموالَهُم، جمعُ خَلِيطٍ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣١)، عن الحسن بخلاف وابن مسعود.

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٣١) عن الحسن والأعرج.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٣).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠) عن مسروق وأبي وائل شقيق بن سلمة والضحاك والحسن.

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣١)، عن طلحة وأبي حيوة.

﴿لَيَبْغِي﴾: ليَتعدَّى. وقُرِئَ بفتحِ الياءِ(١) على تقديرِ النُّونِ الخَفيفَةِ وحذفِها كقوله:

اضْـرِبَ عَنْـكَ الهُمُـومَ طَارِقَهَـا(٢)

وبحذفِ اليَاءِ اكتفاءً بالكَسْرِ(٣).

﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؛ أي: وهُـمْ قَلِيلٌ، و﴿ما﴾ مَزيدةٌ للإبهامِ والتَّعجُّبِ مِن قِلَّتِهِم.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾: أَيْقـنَ وعَلِـمَ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: ابتلَيْنَـاهُ بالذَّنـبِ، أو: امتحنَّـاهُ بتلك الحُكومَـةِ: هـل(٤) يتنبَّـهُ بها؟

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذَنبِه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾: ساجِدًا، عـلى تَسمِيَةِ السُّجودِ رُكوعًا لأنَّه مبدؤُهُ، أو خرَّ للسُّجودِ راكِعًا؛ أي: مُصلِّيًا كأنَّه أحرمَ بركعَتَي الاستِغفارِ.

---

(١) أي التي في آخره. انظر: «الكشاف» (٧/ ٤١٤)، و«البحر» (١٨/ ٢٥٥) دون نسبة.

(٢) صدر بيت نسب لطرفة في «الصحاح» (مادة: قنس).

وفي «النوادر» لأبي زيد (ص: ١٦٥) عن أبي حاتم: أنشدني الأخفش بيتًا مصنوعًا لطرفة، فذكره. قلت: وليس في «ديوان طرفة»، وهو دون نسبة في «الجمل» للخليل (ص: ٢٥٧)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ٨٥٢)، و«العقد» لابن عبد ربه (٦/ ٢٠٣)، و«البارع» للقالي (ص: ٤٧٦)، و«الصحاح» (مادة: نون)، و«أساس البلاغة» (مادة: قنس)، وذكره ابن جني في «سر صناعة الإعراب» (١/ ٩٧) وقال: مدفوع مصنوع عند عامة أصحابنا، ولا رواية تثبت به. وعجزه:

ضَرْبَـك بالسـيفِ قَوْنَـسَ الفـرسِ

قال الطيبي: أي: اضربَنْ، فحذفت النون الخفيفة، و«طارقها»: بدل من «الهمومَ» بدل البعض، و«قونس» موضع ناصية الفرس؛ أي: ادفع طوارق الهموم عن نفسك عند غشيانها كما يضرب قونس الفرس عند الإقبال.

(٣) انظر: «الكشاف» (٧/ ٤١٤)، و«البحر» (١٨/ ٢٥٥) دون نسبة.

(٤) في نسخة الفاروقي: «كي».

﴿وَأَنَابَ﴾: ورجعَ إلى اللهِ بالتَّوبَةِ، وأقصَى ما في هذه الآية: الإشعارُ بأنَّه عليهِ السَّلامُ ودَّ أَنْ يكونَ له ما لغيرِهِ، وكانَ له أمثالُه، فنبَّهَهُ اللهُ تَعالى بهذه القَضِيَّةِ فاستغفرَ وأنابَ عنه.

وما رُوِيَ أنَّ بصرَهُ وقعَ على امرأةِ رجلٍ يقال له: أُورِيَا، فعَشِقَها، وسَعى حتى تَزوَّجَها وولَدَتْ مِنهُ سُليمانَ عليهِ السَّلامُ، إِنْ صَحَّ[1]، فلعلَّهُ خطبَ مَخطوبَتَهُ أو استَنْزَلَهُ عن زَوْجَتِهِ، وكان ذلك مُعتادًا فيما بينَهُم، وقد واسَى الأنصارُ المُهاجِرينَ بهذا المعنى.

وما قيلَ: إنَّهُ أرسلَ أُورِيَا إلى الجِهادِ مِرارًا وأمرَ أَنْ يقدَّمَ حتَّى قُتِلَ فتزوَّجَها، هُراءٌ وافتِرَاءٌ[2].

ولذلك قالَ عَلِيٌّ رضي اللهُ عنه: مَن حَدَّثَ بحديثِ داودَ على ما يرويهِ القُصَّاصُ جَلَدْتُه مئةً وستِّينَ[3].

---

(١) ولم يصح، فإنه من أكاذيب أهل الكتاب الذين دأبوا على الطعن في أنبيائهم، فلا حاجة إلى ما سيأتي من تأويل. وانظر التعليق الآتي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٤ ـ ٦٧) عن ابن عباس بإسناد ضعيف جدًّا، وعن السدي، وليس في هذا ما يصح، قال ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. ثم قال: فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يردَّ علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً.

وقال القاضي عياض في «الشفا» (٢/ ١٦٣): وأما قصة داود عليه السلام فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره فيه الأخباريون عن أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين، ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح، والذي نصَّ اللهُ تعالى عليه قولُه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤ ـ ٢٥]، وقولُه فيه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٩٨) عن علي رضي الله عنه من طريق الحارث الأعور، وذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» (٤/ ٥٧)، وقال: وهذا مما لا يصح عنه.

وقيل: إنَّ قومًا قَصدُوا أن يقتلوهُ فتَسوَّرُوا المحرابَ ودَخلُوا عليه، فوَجدُوا عندَهُ أَقْوامًا فتَصنَّعوا بهذا التَّحاكُمَ فعَلِمَ غرضَهُم، وقصدَ أَنْ يَنتَقِمَ مِنهم، فظنَّ أَنَّ ذلك ابتلاءٌ مِن اللهِ لهُ فاستَغْفَر ربَّهُ ممَّا هَمَّ به وأَنابَ.

(٢٥) ـ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما استغفرَ عنهُ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾: لقُربَةً بعدَ المغفرةِ ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: مرجعٍ في الجنَّةِ.

(٢٦) ـ ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾: استَخْلَفناكَ على المُلْكِ فيها، أو: جعلناكَ خَليفَةً ممَّن قبلكَ مِن الأنبياءِ القائمينَ بالحقِّ.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾: بحُكمِ اللهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾: ما تَهوَى النَّفسُ، وهو يؤيِّدُ ما قيلَ: إنَّ ذنبَهُ المبادرةُ إلى تصديقِ المُدَّعِي وتظليمِ الآخَرِ قبلَ مَسألَتِهِ[1].

---

(١) وقد ذهب إلى هذا بعض كبار الأئمة، منهم ابن حزم في «الفصل في الملل والنحل» (٤/ ١٤) فذكر أن ما جاء في الآية لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولَّدها اليهود، ثم قال: (وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بني آدم بلا شك، مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية، ومن قال: إنهم كانوا ملائكة معرِّضين بأمر النساء، فقد كذب على الله عز وجل وقوَّله ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذَّب الله عز وجل، وَأقر على نَفسه الخبيثة أنه كذَّب الملائكة؛ لأن الله تعالى يقول ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فقال هو: لم يكونوا قطّ خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قطّ لأحدهما تسع وتسْعُونَ نعجة، ولا كان للآخر نعجةٌ واحِدَةٌ، ولا قال له: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾... ثم كل ذلك بلا دليل، بل الدعوى المجردةُ، وتالله إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستورَ عن أن يتعشق امرأة جاره ثم يعرِّضَ زوجها للقتل عمداً ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه، هذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول الله داود الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه، لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله فكيف أن يستضيف إلى أفعاله...) إلى آخر ما قال.

وممن ذهب إلى ذلك أيضاً إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري كما نقل عنه أبو حفص النسفي =

﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دلائلِه التي نَصبَهَا على الحقِّ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾: بسببِ نِسيانِهم، وهو ضَلالُهُم عن السَّبيلِ، فإنَّ تذكُّرَهُ يقتضي مُلازمةَ الحقِّ ومُخالفةَ الهوى.

(٢٧) ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾: خَلْقًا باطلًا لا حكمةَ فيه.

أو: ذَوِي باطلٍ، بمعنى: مُبطِلِينَ عابِثِينَ؛ كقولِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨].

أو: للباطلِ الذي هو مُتابعةُ الهوى، بل للحقِّ الذي هو مُقتضى الدَّليلِ مِن التَّوحيدِ والتَّدرُّعِ بالشَّرعِ كقولِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] على وَضعِهِ مَوضِعَ المصدَرِ مثلَ هنيئًا.

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الإشارةُ إلى خَلقِها باطلًا، والظَّنُّ بمَعنى المَظنونِ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بسببِ هذا الظَّنِّ.

= في كتابه «التيسير في التفسير» عند هذه الآية أنه قال: القصةُ على ظاهرها، والخصمان كانا مِن الإِنس، وقعَتْ لهما هذه الخصومة على الحقيقةِ، فاستعجلا في الوصول إلى نبي الله بالتَّسَوُّر في المحراب، ولم ينتظِرا خروجه ولا إذْنَ الحُجَّاب، وكان هذا مِن سوء الأدب، فاستنكرَه داود عليه السلام وتسخَّطَ عليهما، ثم مالَ قلبُه إلى المدَّعي لترقيقه في الكلام، فعجَّلَ في الحُكْم قبلَ مسألة الخَصْم، فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾، فكان ذلك زلَّةً منه؛ إذ كان الواجب عليه الاحتمالَ منهما، وأنْ لا يُعَجِّلَ في القضاء، وقولُه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: أي: وقَعَ له في غالب الظَّنِّ أنَّه أخطأَ فيما فعَلَ، وأنما قد فتنَّاه بذلك ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾، وقولُه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ دليلٌ أيضاً على ما قلناه، فإنَّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكور قبله ـ وهو ما ذُكِر في الآية ـ دون شيء آخر، وكذلك ما بعده: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يؤيِّدُ هذا، وإذا كان ما ذكَرْناه جائزاً ولم يَرِدْ خبرٌ عمَّنْ يجب تقليده بخلافه، كان لزوم الظاهر أولى مِن غيره، ولم يثبُتْ خبرٌ بأنَّ الخصمين كانا ملَكَين، ولا أنه كان من داود عليه السلام ما ذكَرَه أهل الروايات مِن قصة تلك المرأة.

(٢٨) ـ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿أَمْ﴾ مُنقَطِعَةٌ والاستفهامُ فيها لإنكارِ التَّسوِيَةِ بينَ الحِزْبَيْنِ التي هي مِن لَوازمِ خَلقِهَا باطلًا؛ ليدلَّ على نفيِهِ، وكذا التي في قولِه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ كأنَّه أنكرَ التَّسوِيَةَ أَوَّلًا بينَ المُؤمنينَ والكافرينَ، ثمَّ بينَ المُتَّقينَ مِن المؤمنينَ والمجرمينَ مِنْهُم.

ويجوزُ أَنْ يكونَ تكريرًا للإنكارِ الأَوَّلِ باعتبارِ وَصْفَينِ آخَرينَ يمنعانِ التَّسوِيَةَ مِن الحَكيمِ الرَّحيمِ.

والآيةُ تدلُّ على صِحَّةِ القَوْلِ بالحشرِ، فإنَّ التَّفاضُلَ بينَهُما إمَّا أَنْ يكونَ في الدُّنيَا والغالبُ فيها عكسُ ما تَقتَضِي الحِكمَةُ فيه، أو في غيرِهَا وذلك يَستَدعِي أن يكونَ لهم حَالٌ أُخرى يُجازَوْنَ فيها.

(٢٩) ـ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾: نفَّاعٌ، وقُرِئَ بالنَّصبِ على الحالِ[١].

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾: ليَتفكَّرُوا فيها فيعرفُوا ما يَدْبُرُ ظاهِرَها مِن التَّأويلاتِ الصَّحيحَةِ والمعاني المُستنبطَةِ، وقُرِئَ: (ليَتَدَبَّرُوا)[٢] على الأصلِ، و: ﴿لِتَدَبَّرُوا﴾[٣]؛ أي: أنتَ وعُلَماءُ أُمَّتِكَ.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ولِيتَّعِظَ به ذَوُو العُقولِ السَّليمَةِ، أو ليَستَحْضِرُوا ما هوَ كالمَرْكُوزِ في عُقُولِهِم مِن فَرْطِ تَمكُّنِهِم مِن مَعرِفَتِه بما نصبَ عليهِ من الدَّلائلِ، فإنَّ

---

(١) أي: (مباركاً). انظر: «الكشاف» (٧/ ٤٢٠)، و«البحر» (١٨/ ٢٦٠) دون نسبة.

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٤٢٠) دون نسبة، و«البحر» (١٨/ ٢٦٠) عن علي، ووقعت في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٠) عن علي لكن برسم القراءة الآتية.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر كما في «النشر» (٢/ ٣٦١)، ورويت عن عاصم في غير المشهور عنه، انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٢).

الكُتبَ الإلهيَّةَ بيانٌ لِمَا لا يُعرَفُ إلَّا مِن الشَّرعِ، وإرشادٌ إلى ما لا يستقلُّ به العَقلُ، ولعلَّ التَّدبُّرَ للمَعلومِ[1] الأوَّلِ والتَّذكُّرَ للثَّاني.

(٣٠) ـ ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾؛ أي: نِعْـمَ العَبـدُ سُـلَيمانُ، إذ مـا بعـدَهُ تَعليـلٌ للمَـدحِ، وهـو مَن حالُـه ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رَجَّـاعٌ إلـى اللهِ بالتَّوبـةِ، أو إلى التَّسـبيحِ مرجِّـعٌ له.

(٣١) ـ ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ ظرفٌ لـ﴿أَوَّابٌ﴾، أو لـ﴿نِعْمَ﴾، والضَّميرُ لـ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ عندَ الجُمهورِ.

﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾: بعدَ الظُّهرِ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الصافِنُ مِن الخَيْلِ: الذي يقومُ على طَرَفِ سُنْبُكِ يدٍ أو رِجْلٍ، وهو من الصِّفاتِ المَحمودةِ في الخيلِ لا يكادُ يكونُ إلا في العِرَابِ الخُلَّصِ.

﴿ٱلْجِيَادُ﴾: جمعُ جَوادٍ أو جَوْدٍ، وهو الذي يُسرِعُ في جَرْيِه، وقيل: الذي يجودُ في الرَّكضِ.

وقيل: جمعُ جيِّدٍ.

رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ غَزا دِمشق ونَصِيبينَ وأصابَ ألفَ فَرسٍ[2].

وقيل: أصابَها أبوهُ مِن العمالِقَةِ فوَرِثَها منه، فاستَعْرَضَها فلم تَزلْ تُعرَضُ عليهِ حتَّى غَرَبتِ الشَّمسُ وغَفَلَ عن العَصْرِ، أو عن وِرْدٍ كان له، فاغتَمَّ لَمَّا فاتَهُ فاستردَّها فعَقَرَها تقرُّبًا للهِ[3].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «للقسم».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٥٢٦) عن الكلبي.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٤٤). وفي القول بالعقر نظر سيأتي.

(٣٢) ـ ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أصلُ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ أنْ يُعدَّى بـ(على) لأنَّه بمَعنى: آثرتُ، لكِنْ لَمَّا أُنيبَ منابَ: أَنَبْتُ، عُدِّيَ تَعدِيَته.

وقيل: هو بمَعنى: تَقاعَدْتُ، مِن قولِه:

مثلَ بعيرِ السُّوءِ إذْ أَحَبَّا[1]

أي: بركَ.

و﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مفعولٌ له، والخيرُ: المالُ الكَثيرُ، والمُرادُ به: الخيلُ التي شَغَلَتْه، ويحتمِلُ أنَّه سَمَّاهَا خَيْرًا لتَعلُّقِ الخيرِ بها، قال عليهِ السَّلامُ: «الخَيْلُ مَعقودٌ بنَواصيهَا الخيرُ إلى يومِ القِيامَةِ»[2].

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو بفتحِ اليَاءِ[3].

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾؛ أي: غَرَبتِ الشَّمسُ، شَبَّه غُروبَها بتَواري المُخبَّأَةِ بحِجابِها، وإضمارُها من غيرِ ذكرٍ لدَلالَةِ (العَشِيِّ) عليهَا.

(٣٣) ـ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ الضَّميرُ لـ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾، ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا﴾: فأخذَ يمسحُ السَّيفَ مَسْحًا ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾؛ أي: بسُوقِهَا وأَعناقِها يقطعُها، مِن قولِهم: مَسحَ عِلاوَتَهُ: إذا ضربَ عُنقَهُ.

---

(١) الرجز دون نسبة في «الأصمعيات» (ص: ١٦٣)، و«المنجد في اللغة» لكراع النمل (ص: ١١٧)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٦٥)، و«المحتسب» (١/ ١٦٤)، و«الصحاح» (مادة: حبب وقفل)، وقبله:

قُمتُ إليهِ بالقَفِيلِ ضَربَا

قال الجوهري: القفيل: السوط. والإحبابُ: البُروكُ، والإِحْبابُ في الإبل كالحِرانِ في الخيل.

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٨٧١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٧).

وقيل: جعلَ يمسَحُ بيدِهِ أعناقَها وسُوقَها حُبًّا لها[١].

وعن ابنِ كَثيرٍ: ﴿بالسُّؤْقِ﴾ على همزِ الواوِ لضَمَّةِ ما قبلَها كمُؤقنٍ، وعَن أبي عَمرٍو: ﴿بالسُّؤُوقِ﴾[٢]، وقُرِئَ: (بالسَّاقِ)[٣] اكتفاءً بالواحدِ عن الجمعِ لِأمْنِ الإلباسِ.

(٣٤) ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ أظهرُ ما قيلَ فيه: ما رُوِيَ مَرفوعًا أنَّه قال: «لأطوفَنَّ على سبعينَ امرأةً تأتي كلُّ واحدَةٍ بفارسٍ يُجاهِدُ في سَبيلِ اللهِ، ولم يَقُل: (إنْ شاءَ اللهُ)، فطافَ عليهِنَّ فلَمْ تَحمِلْ إلا امرأةٌ جاءَتْ بشقِّ رَجُلٍ، فوالذي نفسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ لو قالَ: (إنْ شاءَ اللهُ) لجاهَدُوا فُرسانًا»[٤].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٨٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًّا لها. ورجحه الطبري فقال: وهذا القول الذي ذكرنا عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية؛ لأن نبي الله لم يكن ـ إن شاء الله ـ لِيُعذبَ حيواناً بالعرقبة، ويُهلك مالاً من ماله بغير سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها في اشتغاله بالنظر إليها.

(٢) كلا الوجهين مروي عن ابن كثير من غير طريق البزي. انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٨). ولم يذكر في «التيسير» (ص: ١٦٨) سوى الأولى عن قنبل.

(٣) انظر: «البحر» (١٨/ ٢٦٤) عن زيد بن علي.

(٤) رواه البخاري (٢٨١٩)، مسلم (١٦٥٤)، ولفظ البخاري: «مئة امرأة، أو تسع وتسعين»، وفي رواية (٣٤٢٤) بلفظ: «سبعين» وفيه: «قال شعيب وابن أبي الزناد: «تسعين» وهو أصح».
وعدم قوله: إن شاء الله؛ قال ابن حجر في (فتح الباري) (٦/ ٤٦١): أي: بلسانه، لا أنه أبى أن يفوض إلى الله، بل كان ذلك ثابتاً في قلبه، لكنه اكتفى بذلك أولاً ونسي أن يجريه على لسانه.
قلت: وليس في الحديث ذكر الآية، لكن المفسرين حملوا هذه الآية عليه، فقالوا: إن هذا هو الجسد الذي أخبر الله سبحانه وتعالى عنه. وهو أظهر ما قيل في تفسير فتنته عليه السلام كما قال المصنف وغيره.

وقيـل: ولـدَ لهُ ابـنٌ فاجتمعتِ الشَّـياطينُ على قتلِـهِ، فعَلِمَ ذلك، فـكانَ يغدوهُ فـي السَّـحابِ فما شـعرَ بـه إلَّا أَنْ أُلقِيَ علـى كُرسِـيِّهِ مَيِّتًا، فتَنبَّـهَ على خطئِهِ بـأَنْ لَمْ يَتـوكَّلْ على اللهِ[١].

قيل: إنَّه غَزَا صيدونَ مِن الجزائرِ فقتلَ مَلِكَها وأصابَ ابنتَهُ جرادةَ فأحبَّهَا، وكان لا يرقَأُ دمعُها جَزعًا على أبيها، فأمرَ الشَّياطينَ فمَثَّلُوا لها صُورَتَهُ فكانت تغدو إليها وتروحُ مَع وَلائِدِها يسجُدْنَ لها كعَادَتِهنَّ في ملكِهِ، فأخبرهُ آصفُ فكسرَ الصورَةَ وضربَ المرأَةَ وخرجَ إلى الفلاةِ باكِيًا[٢] مُتضَرِّعًا، وكانَتْ لهُ أُمُّ ولدٍ اسمُها أمينةُ إذا دخلَ للطَّهارةِ أعطاها خاتمَهُ، وكان ملكهُ فيه، فأعطاهَا يومًا فتمثَّلَ لها بصُورَتِه شيطانٌ اسمُهُ صَخْرٌ وأخذَ الخاتمَ فتَختَّمَ بهِ وجلسَ على كُرسِيِّهِ، فاجتمعَ عليه الخلقُ ونفذَ حكمُهُ في كلِّ شيءٍ إلَّا في نِسائِه، وغيَّرَ سليمانَ عن هيئتِه، فأتاها لطلبِ الخاتمِ فطَرَدَتْه، فعرفَ أنَّ الخطيئةَ قد أدركَتْهُ، وكانَ يدورُ على البيوتِ يَتكفَّفُ حتى مَضى أربعونَ يومًا عددَ ما عُبِدَتِ الصَّورَةُ في بيتِهِ، فطارَ الشَّيطانُ وقذفَ الخاتمَ في البَحرِ، فابتلَعَهُ سمكةٌ فوقعَتْ في يدِهِ فبقرَ بطنَهَا فوجدَ الخاتمَ فتَختَّمَ به وخرَّ ساجدًا، وعادَ إليه الملكُ، فعَلى هذا الجسدُ صَخْرٌ سُمِّيَ به وهو جسمٌ لا رُوحَ فيه؛ لأنَّه كان مُتمَثِّلًا

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٥٤٣)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٩٦)، عن الشعبي.
وذكره الطبرسي من الإمامية في «مجمع البيان» (٢٣/ ١١٤) عن أبي عبد الله، وهو جعفر الصادق.
وقال الآلوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ٢٨٧): ورواه بعضهم عن أبي هريرة على وجه لا يَشُك في وضعه إلا مَن يَشُك في عصمة الأنبياء عليهم السلام.
وقال ابن حزم في «الفصل في الملل» (٤/ ١٥): وهذه كلها خرافات مَوْضُوعَة مكذوبة لم يَصح إسنادها قطّ.

(٢) في نسخة الفاروقي: «تائباً».

بما لم يَكُن كذلك، والخطيئةُ تغافُلُه عن حالِ أهلِهِ؛ لأنَّ اتِّخاذَ التَّماثيلِ كانَ جائزًا حينئذٍ، وسُجودُ الصُّورةِ بغيرِ عِلمِهِ لا يَضرُّهُ[1].

(٣٥) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾: لا يَتَسهَّلُ له ولا يكونُ؛ ليكونَ مُعجِزَةً لي مناسِبةً لحالي، أو لا يَنبَغِي لأحدٍ أن يسلبَهُ منِّي بعدَ هذه السلبةِ، أو لا يَصِحُّ لأحدٍ مِن بَعدي لعَظَمتِه؛ كقولِكُ: لِفُلانٍ ما ليسَ لأحدٍ مِن الفَضلِ والمالِ، على إرادةِ وَصفِ المُلْكِ بالعَظَمةِ[2]، لا أن لا يُعطَى أحدٌ مثلَهُ فيكون منافسةً.

وتقديمُ الاستغفارِ على الاستيهابِ لِمَزيدِ اهتمامِهِ بأَمرِ الدِّينِ، ووُجوبِ تَقديمِ ما يَجعلُ الدُّعاءَ بصدَدِ الإجابةِ.

وقرأَ نافِعٌ وأبو عَمرٍو بفتحِ اليَاءِ[3].

---

(١) ذكره مطولًا الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٥٣٢ ـ ٥٤٧) عن وهب بن منبه، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٩١) عن السدي، وهو من خرافات بني إسرائيل كما نبَّهنا سابقاً في (سورة سبأ).
قال ابن حزم في «الفصل في الملل» (٤/ ١٥): معنى قَوْله تَعَالَى: ﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أَي: آتيناه من الملك ما اختبرنا به طاعته... فهذه فتنة الله تعالى لسليمان إنما هي اختباره حتَّى ظهر فضله فقط، وما عدا هذا فخرافات ولدها زنادقة اليهود وأشباههم، وأما الجسد الملقى على كرسيه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد نؤمن بهذا كما هو، ونقول: صدق الله عز وَجل كلٌّ مِن عند الله رَبِّنا، ولو جاء نصٌّ صحيح في القرآن أَو عن رسول الله ﷺ بتفسير هذا الجسد ما هو لقلنا به، فإذا لم يَأْتِ بتفسيره ما هو نصٌّ ولا خبر صحيح فلا يحل لأحد القول بالظَّنِّ الذي هو أكذب الحديث في ذلك، فيكون كاذبًا على الله عز وَجل، إِلَّا أننا لا نشك الْبَتَّةَ في بطلان قول من قال: إنه كانَ جنيًّا تَصَوَّر بصورته، بل نقطع على أنه كذب، واللهُ تعالى لا يهتك ستر رسوله ﷺ هذا الهتك، وكذلك نبعد قَول من قال: إنه كانَ ولداً له أَرْسله إِلى السَّحاب ليربيَه، فسليمان عَلَيْهِ السَّلَام كانَ أعلمَ من أَن يُربي ابْنه بغيرِ ما طبع الله عز وَجل بِنْيَةَ البشر عليه من اللَّبن والطَّعَام، وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة لم يَصح إسنادها قطّ.

(٢) في نسخة الفاروقي: «بالعظم».

(٣) أي: في ﴿بَعْدِىٓ﴾. انظر: «السبعة» (٥٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾: المُعطي ما تشاءُ لِمَن تَشاءُ.

(٣٦) - ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾: فذلَّلْناهَا لِطاعَتِه إجابةً لدَعْوَتِه. وقُرِئ: ﴿الرِّياح﴾[1].

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾: لينةً، مِن الرَّخاوةِ لا تُزَعْزِعُ، أو: لا تخالفُ إرادتَهُ كالمَأمورِ المُنقادِ.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾: أرادَ، مِن قَولِهِم: (أصابَ الصَّوابَ فأخطأَ الجوابَ).

(٣٧) - ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدلٌ منه.

(٣٨) - ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ عَطفٌ على ﴿كُلَّ﴾ كأنَّه فصَلَ الشَّياطينَ إلى: عمَلَةٍ استعملَهُم في الأعمالِ الشَّاقَّةِ كالبِناءِ والغَوْصِ، ومَرَدةٍ قرنَ بعضَهُم مع بعضٍ في السَّلاسلِ لِيَكفُّوا عن الشرِّ، ولعلَّ أجسامَهُم شَفَّافةٌ صلبةٌ، فلا تُرى ويمكنُ تَقييدُها.

هذا والأقربُ: أنَّ المرادَ تمثيلُ كفِّهِم عن الشُّرورِ بالإقرانِ في الصَّفَدِ وهو القيدُ، وسُمِّيَ به العطاءُ؛ لأنَّه يَرتَبِطُ بالمُنعَمِ عليه، وفرَّقُوا بين فِعْلَيهِمَا، فقالوا صَفَدَهُ: قيَّدَهُ، وأَصْفَدَهُ: أعطاهُ، عكس: وَعَدَ وأَوْعَدَ، وفي ذلك نكتةٌ.

(٣٩) - ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾؛ أي: هذا الذي أعطيناكَ مِن الملكِ والبسطَةِ والتَّسلُّطِ على ما لم نُسلِّطْ به غيرَكَ عَطاؤُنا ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾: فأعطِ[2] مَن شِئتَ وامنَعْ مَن شِئتَ.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حالٌ مِن المُستكِنِّ في الأمرِ؛ أي: غيرَ مُحاسَبٍ على مَنِّه وإمساكِهِ؛ لتَفويضِ التَّصرُّفِ فيه إليكَ، أو من العَطاءِ، أو صلةٌ له وما بينَهُما اعتراضٌ، والمعنى: إنَّه عطاءٌ جَمٌّ لا يَكادُ يُمكِنُ حَصرُهُ.

---

(١) هي قراءة أبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٣).

(٢) في نسخة الخيالي: «فأعطه».

وقيل: الإشارةُ إلى تَسخيرِ الشَّياطين، والمرادُ بالمنِّ والإمساكِ: إطلاقُهم وإبقاؤهُم في القيدِ.

(٤٠) - ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ في الآخرةِ مع ما له مِن المُلكِ العَظيمِ في الدُّنيَا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ هو الجنَّةُ.

(٤١) - ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هو ابنُ عيصَ بنِ إسحاقَ، وامرأتُه ليَّا بنتُ يعقوبَ.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدلٌ مِن ﴿عَبْدَنَآ﴾، و﴿أَيُّوبَ﴾ عطفُ بيانٍ له: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ﴾: بأنِّي مَسَّني. وقرأَ حمزَةُ بإسكانِ الياءِ وإسقاطِها مِن الوَصلِ[1].

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾: بتعَبٍ، ﴿وَعَذَابٍ﴾: أَلَمٍ، وهو حكايَةٌ لكَلامِهِ الذي ناداه له، ولولا هي لقالَ: إنَّه مَسَّهُ، والإسنادُ إلى الشَّيطانِ:

إمَّا: لأنَّ اللهَ مَسَّه بذلك لِمَا فعلَ بوسوستِهِ كما قيلَ: إنَّه أعجبَ بكثرَةِ مالِهِ.

أو: استغاثَهُ مَظلومٌ فلم يُغِثْه.

أو: كانَتْ مواشيهِ في ناحيَةِ ملكٍ كافرٍ فداهَنَهُ ولم يغزُه[2].

أو: لسُؤالِهِ امتحانًا لصَبرِهِ فيكونُ اعترافًا بالذَّنبِ.

أو: مراعاةً للأدبِ.

أو: لأنَّهُ وسوسَ إلى أتباعِهِ حتَّى رَفضوهُ وأخرَجُوهُ مِن دِيارِهم.

أو: لأنَّ المرادَ مِن النُّصْبِ والعذابِ ما كان يُوَسوِسُ إليه في مرضِهِ مِن عِظَمِ البلاءِ والقنوطِ من الرَّحمةِ ويغريهِ على الجزعِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٢).

(٢) ذكر الأقوال الثلاثة الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٥٥٩)، الأول بدون نسبة، وعزى الثاني إلى وهب، والثالث إلى الكلبي.

وقرأ يَعقوبُ بفتحِ النُّونِ على المصدرِ(١).

وقُرِئَ بفَتحتينِ ـ وهو لغَةٌ كالرُّشدِ والرَّشَدِ ـ وبضَمَّتينِ للتَّثقيلِ(٢).

(٤٢) ـ ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حكايةٌ لِمَا أُجيبَ به؛ أي: اضرِبْ برجلِكَ الأرضَ ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾؛ أي: فضَرَبَها فنبَعَتْ عينٌ فقيل: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ﴾؛ أي: ماءٌ تغتسلُ بِهِ وتَشرَبُ منه فيبرأ باطنُكَ وظاهِرُكَ.

وقيل: نبعَتْ عينانِ حارَّةٌ وباردَةٌ فاغتسلَ مِن الحارَّةِ وشربَ مِن الأُخرى.

(٤٣) ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ بأَنْ جَمعناهُم عليه بعدَ تَفرُّقِهِم، أو أحيَيْناهُم بعدَ مَوتِهم.

وقيل: وَهَبْنا له مثلَهُم.

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ حتَّى كان له ضعفُ ما كانَ.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾: لرَحْمَتنا عليه ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وتذكيرًا لهم لينتظِرُوا الفرجَ بالصَّبرِ واللّجأِ إلى اللهِ فيما يحيقُ بهم.

(٤٤) ـ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ عطفٌ على ﴿ٱرْكُضْ﴾. والضِّغثُ: الحزمَةُ الصَّغيرةُ من الحَشيشِ ونحوه.

﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ رُوِيَ أنَّ زوجتَهُ ليَّا بنتَ يعقوبَ ـ وقيل: رحمةَ بنتَ أفرائيمَ بنِ يوسُفَ ـ ذهبَتْ لحاجَةٍ فأبطأَتْ، فحلفَ إن بَرِئَ ضَرَبها مئةَ ضربَةٍ، فحلَّلَ اللهُ يمينَهُ بذلك، وهي رخصَةٌ باقيَةٌ في الحدودِ.

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابَهُ في النَّفسِ والأهلِ والمالِ، ولا يُخلُّ به شكواهُ

---

(١) بفتح النون وإسكان الباء قرأ بها أبو حيوة وهبيرة. انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٨).

(٢) بفتحهما يعقوب، وبضمهما أبو جعفر، والباقون بضم فسكون، انظر: «النشر» (٢/ ٣٦١).

إلى اللهِ مِن الشَّيطانِ، فإنَّه لا يُسمَّى جَزَعًا كتَمنِّي العافيَةِ وطلبِ الشِّفاءِ، مع أنه قالَ ذلك خِيفَةَ أَنْ يَفتِنَهُ أو قومَهُ في الدِّينِ(١).

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيُّوبُ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يُقْبِلُ بشراشرِهِ على اللهِ.

(٤٥) ـ ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿عَبْدَنا﴾(٢) على وضعِ الجنسِ مَوضِعَ الجمعِ، أو على أنَّ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ وحدَهُ ـ لِمَزيدِ شَرَفِهِ ـ عطفُ بيانٍ له، و﴿إسحاقَ ويَعقوبَ﴾ عطفٌ عليهِ.

﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾: أولي القوَّةِ في الطَّاعةِ والبَصيرةِ في الدِّينِ.

أو: أولي الأعمالِ الجليلَةِ والعُلومِ الشَّريفَةِ، فعبَّرَ بالأيدي عن الأعمالِ لأنَّ أكثرَهَا بمُباشرَتِها، وبالأبصارِ عن المعارفِ لأنَّها أَقْوى مَبادئِها، وفيه تعريضٌ بالبَطلَةِ الجُهَّالِ أنَّهُم كالزَّمْنَى والعُماةِ(٣).

(٤٦) ـ ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾: جَعَلناهُم خالصينَ لنا بخَصلَةٍ خالِصَةٍ لا شَوْبَ فيها هي ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: تُذَكِّرُهم الآخرةَ دائمًا، فإنَّ خُلوصَهُم في الطَّاعةِ(٤) بسببِها، وذلك لأنَّ مطمحَ نظَرِهِم فيما يأتونَ ويَذَرونَ جوارُ اللهِ والفوزُ بلقائِه، وذلك في الآخرةِ، وإطلاقُ ﴿ٱلدَّارِ﴾ للإشعارِ بأنَّها الدَّارُ الحقيقيَّةُ والدُّنيا مَعبرٌ.

---

(١) وفيها خلاف: هل هي باقية أم لا؟ انظر: «المغني» لابن قدامة (١٠/ ٦١).

(٢) وقراءة الباقين بالجمع، انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٤)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

(٣) في نسخة الفاروقي: «العماة» بدون واو.

(٤) في نسخة التفتازاني: «للطاعة».

وأضافَ نافِعٌ وهِشامٌ ﴿بخالصةِ﴾ إلى ﴿ذِكۡرَى﴾[١] للبَيانِ، أو لأنَّه مَصدَرٌ بمَعنى الخلوصِ فأُضِيفَ إلى فاعلِهِ.

(٤٧) ـ ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾: لَمِنَ المُختارينَ من أمثالِهم المُصْطَفينَ[٢] عليهِم في الخيرِ، جمعُ خَيْرٍ كشَرٍّ وأشرارٍ.

وقيل: جمعُ خَيِّرٍ أو خَيْرٍ على تخفيفِهِ؛ كأمواتٍ في جمع مَيِّتٍ أو مَيْتٍ.

(٤٨) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ﴾ هو ابنُ أخطوبَ، استخلَفَهُ إلياسُ[٣] على بني إسرائيلَ ثم استُنبِئَ، واللامُ فيه كما في قولِه:

رَأَيتُ الوَليدَ بنَ اليَزيدِ مُبارَكًا[٤]

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿واللَّيسَعَ﴾[٥] تشبيهًا بالمنقولِ من (ليسع) مِن اللَّسْعِ.

﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ ابنُ عمِّ يسَعَ، أو بشرُ بنُ أيوبَ.

واختُلِفَ في نبوَّتِه ولقبِه، فقيل: فرَّ إليه مئةُ نبيٍّ مِن بني إسرائيلَ مِن القتلِ فآواهُم وكفلَهُم[٦].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٤) عن نافع وحده، و«التيسير» (ص: ١٨٨) عن نافع وهشام، وهو موافق للنشر (٢/ ٣٦١).

(٢) في نسخة الفاروقي: «لمن المختارين من أبناء جنسهم المفضلين».

(٣) في نسخة الفاروقي: «الناس» وفي الهامش كالمثبت نسخة.

(٤) البيت لابن ميادة، وهو في «ديوانه» (ص: ٨١)، وذكره عنه البلاذري في «أنساب الأشراف» (١٣/ ١٢٤)، وابن جني في «سر صناعة الإعراب» (٢/ ١٢٠). ونسب للأخطل كما في «الفائق» للزمخشري (٣/ ٢٨٨)، ولجرير كما في «اللسان» (مادة: وسع). وعجزه:

شديدًا بأعباء الخلافة كاهلُه

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٠٤).

(٦) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٠٨).

وقيل: كفلَ بعملِ رَجُلٍ صالحٍ كان يُصلِّي كلَّ يومٍ مئةَ صلاةٍ[1].

﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: وكُلُّهم ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما تَقدَّمَ مِن أُمورِهِم ﴿ذِكْرٌ﴾: شرفٌ لهم، أو: نوعٌ مِن الذِّكرِ وهو القرآنُ، ثمَّ شرعَ في بيانِ ما أَعدَّ لهم ولأمثالِهم فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: مرجعٍ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ عطفُ بيانٍ لِـ(حسنَ مآبٍ)، وهو من الأعلامِ الغالبَةِ؛ كقوله[2]: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١] وانتصبَ عنها ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ على الحالِ، والعامِلُ فيها ما في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ مِن مَعنى الفعلِ.

وقُرِئَتا مَرفُوعتينِ[3] على الابتداءِ والخبرِ، أو أنَّهما خبرانِ لِمَحذوفٍ.

(٥١) ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ حالانِ مُتعاقبانِ أو مُتداخلانِ من الضَّميرِ في ﴿لَهُمُ﴾ لا مِن (المتَّقِينَ) للفصلِ، والأظهَرُ أنَّ ﴿يَدْعُونَ﴾ استئنافٌ لِبيانِ حالِهم فيها، و﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِه، والاقتصارُ على الفاكهَةِ للإشعارِ بأنَّ مَطاعِمَهُم لِمَحضِ التَّلذُّذِ، فإنَّ التَّغذِّيَ للتَّحلُّلِ ولا تَحلُّلَ ثَمَّةَ.

(٥٢) ـ ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ لا يَنظرونَ إلى غيرِ أَزواجِهنَّ ﴿أَتْرَابٌ﴾: لِدَاتٌ لهم؛ فإنَّ التَّحابَّ بين الأقرانِ أثبَتُ، أو بعضُهنَّ لِبَعضٍ لا عجوزَ فيهنَّ ولا صَبيَّةَ، واشتقاقُهُ مِن التُّرابِ فإنَّه يمسُّهُم في وقتٍ واحدٍ.

(٥٣) ـ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: لأجلِهِ؛ فإنَّ الحسابَ عِلَّةُ الوُصولِ[4] إلى الجزاءِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٧٢) عن أبي موسى الأشعري.

(٢) في نسخة الفاروقي: «لقوله».

(٣) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٩) عن أبي حيوة.

(٤) في نسخة التفتازاني: «للوصول».

وقرأ ابنُ كَثيرٍ وأبو عمرٍو بالياءِ ليُوافِقَ ما قبلَه(١).

(٥٤ ـ ٥٦) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾: انقطاعٍ.

﴿هَٰذَا﴾؛ أي: الأمرُ هذا، أو: هذا كما ذُكِرَ، أو: خُذْ هذا.

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ﴾ إعرابُه ما سبقَ، ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ مِن ﴿جَهَنَّمَ﴾.

﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: المهدُ، أو المُفترَشُ، مُستَعارٌ مِن فراشِ النَّائمِ، والمخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ وهو: جهنمُ، كقولِه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١].

(٥٧) ـ ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾؛ أي: ليَذُوقُوا هذا فلْيَذُوقوه، أو: العذابُ هذا فليَذوقُوه، ويجوزُ أَنْ يكونَ مُبتدأً خبرُه: ﴿حميمٌ وغَسَاقٌ﴾ وهو على الأوَّلَيْنِ خبرُ مَحذوفٍ؛ أي: هو حميمٌ، والغَسَاقُ: ما يَغْسِقُ مِن صديدِ أهلِ النَّارِ، مِن غَسَقَتِ العَيْنُ: إذا سالَ دَمْعُها.

وقرأ حَفْصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ بتشديدِ السِّينِ(٢).

(٥٨) ـ ﴿وَءَاخَرُ﴾؛ أي: مَذوقٌ، أو عذابٌ آخرُ.

وقرَأَ البَصريَّانِ: ﴿وَأُخَرُ﴾(٣)؛ أي: ومذوقاتٌ ـ أو: أنواعُ عذابٍ ـ أُخَرُ.

﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾: من مثلِ هذا المذوقِ أو العذابِ في الشدَّةِ، وتوحيدُ الضَّميرِ على أنَّه لِمَا ذُكِرَ، أو للشَّرابِ الشَّاملِ للحَميمِ والغَسَّاقِ، أو للغَساقِ.

وقُرِئَ بالكسرِ وهي لُغَةٌ(٤).

---

(١) والباقون بالتاء، انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٦١).

(٤) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٩) عن مجاهد.

﴿أَزْوَٰجٌ﴾: أجناسٌ، خبرٌ لـ(آخَرُ)، أو صفةٌ لـه، أو للثَّلاثَةِ، أو مرتفعٌ بالجارِّ والخبرُ مَحذوفٌ مثل: لهم.

(٥٩) ـ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ حكايةُ ما يُقالُ لـرُؤَساءِ الطَّاغينَ إذا دخلوا النَّارَ واقتحمَها مَعَهُم فوجٌ تَبِعَهُم في الضَّلالِ، والاقتحامُ: رُكوبُ الشدَّةِ والدُّخولُ فيها.

﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ دعاءٌ مِن المتبوعينَ على أتباعِهِم، أو صِفَةٌ لـ﴿فَوْجٌ﴾، أو حالٌ؛ أي: مقولًا فيهم لا مَرْحَبًا؛ أي: ما أتوا رُحبًا وسَعَةً.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾: داخلونَ النَّارَ بأعمالهم مثلنا.

(٦٠) ـ ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: الأتباعُ للرُّؤساءِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾: بل أَنتُمْ أَحَقُّ بما قُلْتُم أو قيلَ لنا؛ لضَلالِكُم وإضلالِكُم كما قالوا: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾: قَدَّمْتُم العذابَ أو الصُّليَّ لنا بإغوائِنَا وإغرائِنا على ما قَدَّمْتُم مِن العَقائدِ الزَّائغَةِ والأعمالِ القَبيحَةِ.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾: فبِئسَ المَقَرُّ جهنَّمُ.

(٦١) ـ ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: الأتباعُ أيضًا: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾: مُضاعفًا؛ أي: ذا ضعفٍ، وذلك أنْ يزيدَ على عذابِه مثلَهُ فيصيرَ ضِعفَيْنِ كقولِه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٨].

(٦٢) ـ ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: الطَّاغونَ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ يعنونَ فُقراءَ المُسلمينَ الذين يَستَرذِلُونَهُم ويَسخَرُونَ بهم.

(٦٣) ـ ﴿اتَّخَذْنَاهُم سِخْرِيًّا﴾ صِفَةٌ أُخرى لـ﴿رِجَالًا﴾، وقرأَ الحجازيَّانِ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ بهمزةِ الاستفهامِ[1] على أنَّه إنكارٌ على أنفُسِهم وتأنيبٌ لها في الاستسخارِ مِنْهُم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٨٨)، و«النشر» (٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).

وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿سُخريًّا﴾ بالضَّمِّ[1]، وقد سبقَ مثلُه في (المؤمنين).

﴿أَمْ زَاغَتْ﴾: مالَتْ ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلا نراهُم، و﴿أَمْ﴾ مُعادِلَةٌ لـ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ﴾ على أنَّ المرادَ نَفْيُ رُؤيَتِهِم لغَيبَتِهِم؛ كأنَّهُم قالوا: ليسوُا هاهنا أم زاغَتْ عَنْهُم أبصارُنا.

أو لـ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ على القِراءةِ الثَّانيةِ بمعنى: أيَّ الأمرينِ فعلنا بهم الاستسخارَ مِنْهُم أم تحقيرَهُم؛ فإنَّ زيغَ الأبصارِ كنايةٌ عنه على مَعنى إنكارِهِما على أنفُسِهم.

أو منقطعةٌ، والمرادُ: الدلالةُ على أنَّ استرذالَهُم والاستسخارَ منهم كانَ لزَيْغِ أَبصارِهِم وقصورِ أنظارِهِم على رثاثَةِ حَالِهِم.

(٦٤) ـ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الذي حَكَينا عَنْهُم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بُدَّ أن يتكَلَّمُوا به، ثم بيَّن ما هو فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ وهو بدلٌ مِن (حق) أو خبرُ مَحذوفٍ.

وقُرِئَ بالنَّصبِ[2] على البدلِ مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾.

(٦٥) ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ للمُشركينَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أُنذِرُكُم عذابَ اللهِ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبلُ الشَّرِكَةَ والكثرةَ في ذاتِه ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكلِّ شيءٍ.

(٦٦) ـ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ منه خَلقُها وإليهِ أمرُها ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلَبُ إذا عاقبَ ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ الذي يَغفِرُ ما يَشاءُ مِن الذُّنوبِ لِمَن يَشاءُ.

وفي هذه الأوصافِ تَقريرٌ للتَّوحيدِ ووَعدٌ ووَعيدٌ للمُوَحِّدينَ والمُشركينَ، وتثنيةُ ما يشعِرُ بالوعيدِ وتقديمُه لأنَّ المدَّعى هو الإنذارُ.

---

(١) وقراءة الباقين الكسر، انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(٢) أي: (تخاصمَ). انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥١٢)، و«البحر» (١٨/ ٢٩٠)، عن ابن أبي عبلة.

(٦٧ ـ ٦٨) ـ ﴿قُلْ هُوَ﴾؛ أي: ما أنبأْتُكُم به من أنِّي نَذيرٌ مِن عُقوبَةِ مَن هذه صِفَتُه، وأنَّه واحِدٌ في ألوهيَّتِه، وقيل: ما بعدَهُ مِن نبأِ آدَمَ.

﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لتَمادي غَفْلَتِكُم فإنَّ العاقلَ لا يُعرِضُ عن مثلِه كيفَ وقَدْ قامَتْ عليه الحُجَجُ الواضحَةُ، أمَّا على التوحيدِ فما مرَّ، وأمَّا على النبوَّةِ فقوله:

(٦٩) ـ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإنَّ إخبارَهُ عن تَقاوُلِ الملائكةِ وما جَرى بينَهُم على ما وَرَدتْ في الكتبِ المُتقدِّمَةِ مِن غيرِ سَماعٍ ومُطالعَةِ كتابٍ لا يُتصوَّرُ إلا بالوَحْيِ، وإذ مُتعَلِّقٌ بـ﴿عِلْمٍ﴾ أو محذوفٍ إذ التَّقديرُ: مِن علمٍ بكَلامِ الملأِ الأعلى.

(٧٠) ـ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: لأنَّما، كأنَّه لَمَّا جوَّزَ أنَّ الوحيَ يأتيهِ بيَّنَ بذلك ما هو المقصودُ به تحقيقًا لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ ويجوزُ أنْ يرتفِعَ بإسنادِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ إليه.

وقُرِئَ: ﴿إنَّما﴾ بالكسرِ[1] على الحكايَةِ.

(٧١) ـ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ بدلٌ مِن ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مُبيِّنٌ لـه؛ فإنَّ القصَّةَ التي دخلَتْ (إذ) عليها مُشتَمِلَةٌ على تقاوُلِ الملائكةِ وإبليسَ في خلقِ آدمَ واستحقاقِهِ للخِلافَةِ والسُّجودِ على ما مرَّ في (البَقرةِ)، غيرَ أنَّها اختُصِرَت اكتفاءً بذلك واقتصارًا على ما هو المقصودُ منها، وهو إنذارُ المشركينَ على استكبارِهِم على النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ بمثلِ ما حاقَ بإبليس على استكبارِهِ على آدمَ.

هذا ومِن الجائزِ أَنْ تكونَ مُقاوَلَةُ اللهِ إيَّاهُم بواسطةِ مَلَكٍ، وأنْ يُفسَّرَ الملأُ الأعلى بما يعمُّ اللهَ والملائكةَ.

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٢).

(٧٢) ـ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدَّلْتُ خِلْقتَهُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾: وأحيَيتُهُ بنفخِ الرُّوحِ فيه، وإضافَتُه إلى نفسِهِ لشَرَفِهِ وطَهارَتِه.

﴿فَقَعُوا لَهُۥ﴾: فخِرُّوا له ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تكرمَةً وتَبجيلًا له، وقد مرَّ الكلامُ فيه في (البقرةِ).

(٧٣ ـ ٧٤) ـ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾: تعظَّمَ، ﴿وَكَانَ﴾ وصارَ ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ باستكبارِهِ عن أمرِ اللهِ واستكبارِهِ عن المُطاوعَةِ، أو كانَ مِنْهُم في علمِ اللهِ.

(٧٥) ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: خلَقْتُه بنفسِي مِن غيرِ تَوسُّطِ كأبٍ وأُمٍّ، والتَّثنيَةُ لِمَا في خلقِه مِن مَزيدِ القُدرَةِ واختلافِ الفعلِ. وقُرِئَ على التَّوحيدِ[١].

وترتيبُ الإنكارِ عليه للإشعارِ بأَنَّهُ المستدعي للتَّعظيمِ، أو بأنَّه الذي تشبَّثَ به في تركِه، وهو لا يصلحُ مَانعاً؛ إذ للسَّيدِ أن يستخدمَ بعضَ عَبيدِهِ لبَعْضٍ سِيَّمَا وله مزيدُ اختِصاصٍ.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾: تكبَّرْتَ مِن غيرِ استِحقاقٍ، أو كنتَ ممَّنْ عَلا واستحقَّ التَّفوُّقَ.

وقيل: أستكبرتَ الآنَ أم لم تزَلْ كنتَ مِن المستكبرينَ.

وقرئ: (اسْتَكْبَرْتَ) بحذفِ الهمزةِ[٢] لدَلالةِ ﴿أَمْ﴾ عليها، أو بمَعنى الإخبارِ.

(٧٦) ـ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ إبداءٌ للمَانعِ، وقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ دليلٌ عليه، وقَد سبقَ الكَلامُ فيه.

---

(١) أي: (بيَدِي). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣١) عن الجحدري.

(٢) هي رواية عن ابن كثير، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣١).

(٧٧) ـ ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾: مِن الجنَّةِ، أو السَّماءِ، أو مِن الصُّورَةِ المَلَكيَّةِ ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرودٌ مِن الرَّحمَةِ ومحلِّ الكرامَةِ.

(٧٨ ـ ٨١) ـ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ مرَّ بيانُه في (الحِجْر).

(٨٢ ـ ٨٣) ـ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾: فبِسُلْطانِكَ وقَهرِكَ ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾: الذين أخلصَهُم اللهُ لِطاعَتِه وعَصَمهُم مِن الضَّلالةِ، أو: أخلَصُوا قلوبَهُم للهِ على اختلافِ القِراءَتين.

(٨٤ ـ ٨٥) ـ ﴿قال فالْحَقَّ والْحَقَّ أَقولُ﴾؛ أي: فأُحِقُّ الحقَّ وأقولُه.

وقيل: الحقُّ الأوَّلُ اسمُ اللهِ تَعالى ونصبُه بحذفِ حَرفِ القسمِ كقولِه:

إنَّ عَلَيْكَ اللهَ أَنْ تُبَايِعَا[1]

وجوابُه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ وما بينَهُمَا اعتِراضٌ، وهو على الأوَّلِ جَوابُ مَحذوفٍ، والجملةُ تَفسيرٌ لـ﴿الحقَّ﴾ المقولِ.

وقرأ عاصِمٌ وحمزَةُ برفعِ الأوَّلِ على الابتداءِ[2]؛ أي: الحقُّ يميني أو قسمِي، أو الخبرِ؛ أي: أنا الحقُّ.

---

(١) تمامُه:

تُؤخَذُ كَرْهًا أَوْ تَجِيءُ طَائِعَا

ورد دون نسبة في «الكتاب» (١/ ١٥٦)، و«المقتضب» (٢/ ٦٣)، و«الأصول في النحو» لابن السراج (٢/ ٤٨)، و«الحجة» للفارسي (٥/ ٣٥٠)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٥/ ٢٠٣) وعندهم جميعاً: «إن عليَّ الله». المبايعة: البيعة والطاعة للسلطان، و«تُؤْخَذ» بدل من «تبَايع»، قاله البغدادي، قال: وهذا البيت قلما خلا عنه كتاب نحوي ومع شهرته لا يعلم قائله، وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٨).

وقُرِئَا مَرفُوعَيْنِ(١) على حذفِ الضَّميرِ مِن ﴿أَقولُ﴾ كقولِه:

كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ(٢)

ومَجرورَيْنِ(٣) على إضمارِ حَرفِ القَسَمِ في الأوَّلِ، وحكايةِ لَفظِ المُقسَمِ به في الثَّاني للتَّوكيدِ، وهو سائغٌ فيه إذا شاركَ الأوَّلَ(٤).

وبرفعِ الأوَّلِ وجَرِّهِ ونصبِ الثَّاني(٥)، وتخريجُه على ما ذكَرْنا.

والضَّميرُ في ﴿مِنْهُمْ﴾ للنَّاسِ إذ الكلامُ فيهم، والمرادُ بـ﴿مِنكَ﴾: من جنسِكَ؛ ليَتناولَ الشَّياطينَ، وقيل: للثَّقَلينِ(٦)، و﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدٌ له أو للضَّميرَيْنِ(٧).

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣١) عن الأعمش وابن عباس.

(٢) لَأبِي النَّجْمِ، وأَوَّلُه:

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيَارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذَنْبًا.....................

انظر: «ديوان أبي النجم» (ص: ١٣٢)، و«الكتاب» (١/ ٨٥ و١٣٧)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤٠ و٢٤٢) (٢/ ٩٥)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٨٤)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٧٥)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٣٥٩).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣١) عن عيسى بن عمر.

(٤) أي: إذا كان مثلَه لفظاً ومعنًى ساغت الحكايةُ فيه كما هنا، وهو حسن؛ لأنه تأكيد على تأكيد؛ إذ القسم في نفسه مؤكد. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥) برفع الأول مع نصب الثاني قراءة سبعية تقدم تخريجها قريباً، وبجر الأول مع نصب الثاني نسبها ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥٨٣) لابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو رجاء، ومعاذ القارئ، والأعمش.

(٦) قوله: «وقيل: للثقلين» عطفٌ على «للناس».

(٧) «أو للضميرين»؛ أي: ضمير ﴿مِنكَ﴾ وضمير ﴿مِنْهُمْ﴾.

(٨٦) ـ ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ﴾؛ أي: على القُرآنِ، أو تبليغِ الوَحْيِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾: المُتصنِّعينَ بما لستُ مِن أَهلِهِ على ما عَرَفْتُم مِن حالي فأنتحلَ النبوَّةَ وأتقوَّلَ القُرآنَ.

(٨٧) ـ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾: عِظَةٌ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾: للثَّقَلينِ.

(٨٨) ـ ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ وهو ما فيهِ مِن الوَعدِ والوعيدِ، أو: صدقَهُ بإتيان[1] ذلك.

﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾: بعدَ الموتِ، أو يومَ القيامةِ، أو عندَ ظُهورِ الإسلامِ، وفيهِ تَهديدٌ.

عن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ «ص» كانَ له بوزنِ كُلِّ جبلٍ سَخَّرَه اللهُ لداودَ عشرُ حَسَناتٍ، وعصمَهُ أن يُصِرَّ على ذنبٍ صَغيرٍ أو كبيرٍ»[2].

* * *

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بإثبات».

(٢) رواه الثعلبي في (تفسيره) (٨/ ١٧٥) (ط: دار إحياء التراث)، والواحدي في (الوسيط) (٣/ ٥٣٧)، وهو قطعة من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه الموضوع، وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

(٣٨) سورة ص مكية
وآياتها ثمان وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله تعالى: ﴿ والقرآن ذي الذكر ﴾ أي والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد، قال الضحّاك ﴿ ذي الذكر ﴾ كقوله تعالى: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ أي تذكيركم[1]

وقال ابن عباس ﴿ ذي الذكر ﴾ ذي الشرف أي ذي الشأن والمكانة، ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف، مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار، واختلفوا في جواب هذا القسم: فقال قتادة: جوابه ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ واختاره ابن جرير، وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ أي إن في هذا القرآن لذكرى لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿ في عزة ﴾ أي استكبار عنه وحمية، ﴿ وشقاق ﴾ أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم فقال تعالى: ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ أي من أمة مكذبة، ﴿ فنادوا ﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى، وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئاً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴾ أي يهربون، قال التميمي: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾! قال: ليس بحين نداء ولا نزعٍ ولا فرار، وعن ابن عباس: ليس بحين مغاث، نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد: * تذكَّرَ ليلى لات حين تذكر *

وقال محمد بن كعب: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم، وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء، وقال مجاهد: ﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ ليس بحين فرار ولا إجابة، وعن زيد بن أسلم: ﴿ ولات حين مناص ﴾ ولا نداء في غير حين النداء، وهذه الكلمة، وهي (لات) هي (لا) التي للنفي زيدت معها التاء، كما تزاد في ثم، فيقولون: ثمت، ورب، فيقولون: ربت.

---

(١) وبه قال قتادة واختاره ابن جرير رحمه الله.

وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ولات حين مناص﴾ أي ليس الحين حين فرار ولا ذهاب، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ
إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا
سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ
بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونـذيراً، كما قـال عزّ وجلّ: ﴿أكان للنـاس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر النـاس﴾؟ الآية، وقال جل وعلا ههنا: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ أي بشر مثلهم، وقـال الكافرون ﴿هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهـاً واحداً﴾ أي أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلمـا دعـاهم رسول الله ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا، وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهـاً واحداً إن هـذا لشيء عجاب * وانطلق الملأ منهم﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قـائلين ﴿امشوا﴾ أي استمروا على دينكم، ﴿واصبروا على آلهتكم﴾، ولا تستجيبوا لمـا يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى ﴿إن هذا لشيء يراد﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه.

(ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات)

روى ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمـا مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم (أبو جهل) فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ، فدخل البيت، وبينهم وبـين أبي طالب قدر مجلس رجُل، قال: فخشي أبو جهل، لعنه الله، إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند البـاب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بهـا العرب، وتؤدي إليهم بهـا العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، فقـال القوم: كلمة واحدة نعم وأبيك عشراً[1]، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قـال

---

(١) أي نعطيك بدل الكلمة الواحدة عشر كلمات.

ﷺ : « لا إله إلا الله » ، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً ! إن هذا لشيء عجاب﴾ ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾[1] .

وقولهم : ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة، قال مجاهد وقتادة : يعنون دين قريش، وقال السدي: يعنون النصرانية، وقال ابن عباس: ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ يعني دين النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾ قال مجاهد: كذب، وقال ابن عباس: تخرص، وقولهم: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿بل لَمّا يذوقوا عذاب﴾ أي إنما يقولون هذا، لأنهم ما ذاقوا عذاب الله تعالى ونقمته، وسيعلمون غِبَّ ما قالوا وما كذبوا به .

ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه، الفعال لما يشاء، الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، وأنَّ العباد لا يملكون شيئاً من الأمر وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنابه، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ الآية، كما أخبر عزّ وجلّ عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿أألقي الذكر عليه من بيننا، بل هو كذاب أشر * سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ وقوله تعالى: ﴿أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب، قال ابن عباس: يعني طرق السماء، وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ أي هؤلاء الجند المكذبون سيهزمون ويغلبون، ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه الآية كقوله جلّت عظمته: ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ كان ذلك يوم بدر ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة، وقوله تعالى: ﴿أولئك

---

(١) أخرجه ابن جرير ورواه أحمد والنسائي والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الأحزاب﴾ أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، ولهـذا قال عزّ وجلّ: ﴿إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر، وقوله تعالى: ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ قـال زيد بن أسلم: أي ليس لهـا مثنوية، أي ما ينظرون ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها﴾ أي فقد اقتربت ودنت وأزفت، وهـذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عزّ وجلّ، وقوله جلّ جلاله: ﴿وقالوا ربنا عجل لنـا قطنا قبل يوم الحساب﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القِط هو الكتاب، وقيل: هو الحظ والنصيب، قال ابن عباس ومجاهد والضحّاك: سألوا تعجيل العذاب كما قالوا: ﴿اللهم إن كان هـذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة ليلقوا ذاك في الدنيا، وإنمـا خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب، قال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد. ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر.

اَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله (داود) عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد، و (الأيد) القوة في العلم والعمل، قال ابن عباس: الأيد القوة، وقرأ ابن زيد: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطـاعة. وقـال قتادة: أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام، وقـد ذكر لنـا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عزّ وجلّ صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى»[1] وإنه كان (أَوَّاباً) وهو الرَّجاع إلى الله عزّ وجلّ في جميع أموره وشؤونه، وقوله تعالى: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبِّحن بالعشي والإشراق﴾ أي أنه تعالى سخر الجبال تسبّح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال عزّ وجلّ: ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجّع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء، ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجّع معه وتسبح تبعاً له.

ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿والطير محشورة﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿كل له أواب﴾ أي مطيع يسبح تبعاً له، قال سعيد بن جبير وقتادة ﴿كل له أواب﴾ أي مطيع، وقوله تعالى: ﴿وشددنا ملكه﴾ أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك، قال مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً، وقال السدي: كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف، وقوله جل وعلا: ﴿وآتيناه الحكمة﴾ قال مجاهد: يعني الفهم والعقل والفطنة، وعنه: ﴿الحكمة﴾

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة.

العدل، وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه، وقال السدي: ﴿الحكمة﴾ النبوة، وقوله جلّ جلاله: ﴿وفصل الخطاب﴾. قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب: الشهود والأيمان، وقال قتادة: شاهدان على المدعي أو يمين المدعى عليه، وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهم ذلك، وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم، وهذا يشمل كل ذلك، وهو المراد واختاره ابن جرير، وعن أبي موسى رضي الله عنه، أول من قال: (أما بعد) داود عليه السلام، وهو فصل الخطاب، وكذا قال الشعبي: فصل الخطاب: أما بعد.

* وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً، لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة؛ فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرَدَّ علمها إلى الله عزّ وجلّ، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً[1]، وقوله تعالى: ﴿ففزع منهم﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب، أي احتاطا به، يسألانه عن شأنهما، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وعزّني في الخطاب﴾ أي غلبني، يقال: عز يعز إذا قهر وغلب، وقوله: تعالى: ﴿وظن داود أنما فتناه﴾ قال ابن عباس: أي اختبرناه، وقوله تعالى ﴿وخر راكعاً﴾ أي ساجداً، ﴿وأناب﴾ أي رجع وتاب ويحتمل أنه ركع أولاً ثم سجد بعد ذلك، ﴿فغفرنا له ذلك﴾ أي ما كان منه مما يقال فيه «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

وقد اختلف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود؟ على قولين: الجديد من مذهب الشافعي رضي الله عنه أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر؛ والدليل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: السجدة في (ص) ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها[2]،

(١) زعموا أن المراد بالخصم جبريل وميكائيل، وضمير الجمع في: تسوروا، يرجع إليهما، حملاً على لفظ الخصم. والنعجة: كناية عن المرأة، والمراد: أم سليمان، وكانت امرأة أوريا قبل داود، إلى آخر ما هنالك من أقوال غير صحيحة.

(٢) أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي والإمام أحمد، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى البخاري عند تفسيرها عن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة (ص) فقال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما من أين سجدت ؟ فقال: أوما تقرأ ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾، ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾؟ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي بـه، فسجدها داود عليه الصلاة والسلام، فسجدها رسول الله ﷺ . وقوله تعالى: ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عزّ وجلّ بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التـام في ملكه، كما جاء في الصحيح: « المقسطون على منابر من نور، عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا » . وعن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وأن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر »[1] .

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

هذه وصية من الله عزّ وجل لولاة الأمور، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقـد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب، بالوعيـد الأكيد والعذاب الشديد، روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة فإنك قـد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال: قل في أمان الله، قلت: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال تعالى: ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ الآية[2]، وقال عكرمة: ﴿ لهم عذاب شديد بمـا نسوا يوم الحساب ﴾ هذا من المقـدم والمؤخر: لهم عذاب شديد يوم الحساب بمـا نسوا، وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب، وهذا القول أظهر ، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه مـا خلق الخلق عبثاً، وإنمـا خلقهم ليعبدوه ويوحّدوه، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ﴾، أي الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً، وإنمـا يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ أي ويل لهم

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي .
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي زرعة .

يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم، ثم بيَّن تعالى أنه عزّ وجلّ من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين، فقال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض * أم نجعل المتقين كالفجار﴾ أي لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر، وتدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى، لهذا الجزاء والمواساة، ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ أي ذوو العقول، وهي (الألباب) جمع لب وهو العقل، قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل[1].

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود (سليمان) أي نبيـاً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وورث سليمان داود﴾ أي في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قـد كان عنده مائة امرأة حرائر، وقوله تعالى: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿إذ عرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات، قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد السراع[2]، وعن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس فعقرها، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها لعب، فقال ﷺ: «ما هذا يا عائشة؟» قالت رضي الله عنها: بناتي، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، فقال ﷺ: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟» قالت رضي الله عنها: فرس، قال رسول الله ﷺ: «ما هذا الذي عليه؟» قالت رضي الله عنها: جناحان، قال رسول الله ﷺ: «فرس له جناحان» قالت رضي الله عنها: ! أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لهـا أجنحة؟ قالت رضي الله عنها: فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه[3]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين: أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع بـه أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر، حتى صلاها بعد الغروب؛ وذلك ثابت

(١) رواه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري.

(٢) وكذلك قال غير واحد من السلف.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن من حديث عائشة رضي الله عنها.

في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها»، فقال: فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب، ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والأول أقرب، لأنه قال بعده: ﴿ردوها عليَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ قال الحسن البصري: لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت، وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف[1]، ولهذا عوضه الله عزَّ وجلَّ ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل.

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي اختبرناه بأن سلبناه الملك، ﴿وألقينا على كرسيه جسداً﴾[2]. قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني شيطاناً، ﴿ثم أناب﴾ أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته، قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخراً، وقيل: آصف، ﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ قال بعضهم: معناه لا ينبغي لأحد من بعدي أي لا يصلح لأحد أن يسلبنيه بعدي، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ، قال البخاري عند تفسير هذه الآية، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت عليَّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾» قال روح: فرده خاسئاً. وروى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك، ثم قال، ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله

---

(١) وروي عن ابن عباس أنه قال: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها بيده حباً لها، والأظهر قول الحسن والسدي.

(٢) رويت عدة روايات مطولة عن موضوع (فتنة سليمان) وكلها إسرائيليات، ومن أغربها وأنكرها ما رواه ابن أبي حاتم أن سليمان عليه السلام أراد أن يدخل الخلاء فأعطى الجرادة خاتمه وكانت أحب نسائه إليه، فجاءها الشيطان بصورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي، فظنته سليمان فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين.. وكل هذه القصص لا تصح لأنها من الإسرائيليات وقد ذكرها ابن كثير وبيّن غرابتها ونكارتها، ولذلك ضربنا صفحاً عنها.

سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال ﷺ: «إن عدوّ الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أن آخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب بـه صبيـان أهل المدينة»[1] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـام يصلي صلاة الصبح، وأنا خلفه فقرأ، فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بـين اصبعي هاتين – الإبهام والتي تليها – ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطـاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب بـه صبيـان المدينة ، فمن استطـاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»[2] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخـاء حيث أصاب﴾ قال الحسن البصري: لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله عزّ وجلّ، عوّضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر ، وقوله جل وعلا: ﴿ حيث أصاب﴾ أي حيث أراد من البلاد، وقوله جل جلاله: ﴿والشياطين كل بناء وغواص﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهـائلة من محاريب وتماثيل إلى غير ذلك من الأعمـال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما بها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها، ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ أي موثوقون في الأغلال والأكبال ممن تمرد وعصى ، وامتنع من العمل وأبى، أو قـد أساء في صنيعه واعتدى، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التـام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت، واحرم من شئت، لا حساب عليك، أي مهما فعلت فهو جـائز لك، وقـد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لمـا خيِّر بـين أن يكون (عبداً رسولاً)، وبـين أن يكون (نبياً ملكاً) يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل عليه السلام، فقال له: تواضع فاختار المنزلة الأولى، لأنها أرفع قدراً عند الله عزّ وجلّ وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مـع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة ، ولهذا لمـا ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبه تعالى أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال تعالى: ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ أي في الدار الآخرة .

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله (أيوب) عليه الصلاة والسلام ، ومـا كان ابتلاه تعالى بـه من الضر في

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء مرفوعاً . (٢) أخرجه الإمام أحمد وروى بعضه أبو داود في سننه .

جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين بـه على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله، فكانت تخدم النـاس بالأجرة وتطعمه وتخدمه، نحواً من ثماني عشرة سنة، وقـد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فسلب جميع ذلك حتى رفضه القريب والبعيد سوى زوجته رضي الله عنها فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساء إلا بسبب خدمة النـاس ثم تعود إليه قريباً، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر، وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال: ﴿إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾، وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ قيل ﴿بنُصْب﴾ في بدني و ﴿عذاب﴾ في مـالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله، ففعل، فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى؛ ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عيناً أخرى، وأمره أن يشرب منها، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾. روى ابن جرير وابن أبي حاتم، عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحـد في العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى، فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام: لا أدري ما تقول غير أن الله عزّ وجلّ يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله تعالى، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاهـا أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطـأ عليها، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ فاستبطأته، فالتفتت تنظر، فأقبل عليها، قـد أذهب الله ما بـه من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله القدير على ذلك، ما رأيت رجلاً أشبه بـه منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو»[1].

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «بينا أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه، فناداه ربه عزَّ وجلَّ: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال عليه الصلاة والسلام: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك»[2]، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منـا وذكرى لأولي الألباب﴾ قـال الحسن وقتادة: أحيـاهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿رحمة منا﴾ أي بـه على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾ أي لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج، وقوله جلّت عظمته: ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب بـه ولا تحنث﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قـد غضب على زوجته ووجد في أمر فعلته، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم بنحوه وهذا لفظ ابن جرير. (٢) أخرجه البخاري والإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

جلدة، فلما شفاه الله عزّ وجلّ وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عزّ وجلّ أن يأخذ ﴿ ضغثاً ﴾ وهو الشمراخ فيه مائة قضيب، فيضربها به ضربة واحدة، وقد برت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ أي رجّاع منيب ؛ ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ الآية واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الأيمان والله أعلم.

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة، قال ابن عباس ﴿ أولي الأيدي ﴾: أولي القوة، ﴿ والأبصار ﴾: الفقه في الدين، وقال مجاهد: ﴿ أولي الأيدي ﴾ يعني القوة في طاعة الله تعالى، ﴿ والأبصار ﴾ يعني البصر في الحق، وقال قتادة والسدي: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها، وقال مالك بن دينار: نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها، وقال سعيد بن جبير: يعني بالدار (الجنة) يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال ابن زيد: جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة، وقوله تعالى: ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ أي المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون، وقوله تعالى: ﴿ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾. قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته ههنا، وقوله عزّ وجلّ ﴿ هذا ذكر ﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، وقال السدي: يعني القرآن العظيم.

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ * وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة ﴿لحسن مآب﴾ وهو المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ جنات عدن ﴾ أي جنات إقامة ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ والألف واللام ههنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول مفتحة لهم أبوابها، أي إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها، وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة

من وجوه عديدة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ متكئين فيها ﴾ قيل: متربعين على سرير تحت الحجال، ﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا وأحضر كما أرادوا، ﴿ وشراب ﴾ أي من أي أنواعه شاءوا أتتهم به الخدام ﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾، ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿ أتراب ﴾ أي متساويات في السن والعمر، ﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ أي هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة هي التي وعدها لعباده المتقين، التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار، ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى: ﴿ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع، وكقوله: ﴿ أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾، والآيات في هذا كثيرة جداً.

هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء، ثنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم، فقال عز وجل: ﴿ هذا وإن للطاغين ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عزّ وجلّ، المخالفون لرسل الله صلى الله عليهم وسلم ﴿ لشر مآب ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع، ثم فسره بقوله جل وعلا: ﴿ جهنم يصلونها ﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ فبئس المهاد ۝ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾، أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال عزّ وجلّ ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ أي وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دلواً من غسّاق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»[1]. وقال كعب الأحبار ﴿ غساق ﴾ عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية، وعقرب وغير ذلك فيستنقع، فيؤتى بالآدمي، فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج، وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبيه، ويجر لحمه كله كما يجر الرجل ثوبه[2]، وقال الحسن البصري ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾: ألوان من العذاب، كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهويّ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، والجميع مما يعذبون به،

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وابن جرير.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار.

ويهانون بسببه، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ هـذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴾، هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ، ويكفر بعضهم ببعض ، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى ، إذا أقبلت مع الخزنة من الزبانية ﴿ هـذا فوج مقتحم ﴾ أي داخل ﴿ معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم، ﴿ قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ أي فيقول لهم الداخلون ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا ﴾ أي أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، ﴿ فبئس القرار ﴾ أي فبئس المنزل والمستقر والمصير ﴿ قالوا ربنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ۞ قال لكلٍ ضعفٌ ولكن لا تعلمون ﴾ أي لكلٍ منكم عذاب بحسبه، ﴿ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنّا نعدهم من الأشرار ۞ اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ ؟ هذا إخبار عن الكفار في النار ، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زعمهم قالوا : ما لنا لا نراهم معنا في النار ؟ قال مجاهد : هذا قول أبي جهل يقول: مالي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً ؟ وهذا ضرب مثل، وإلا فكل الكفار هـذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار ، افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ۞ أتخذناهم سخرياً ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ ؟ يسلّون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا: نعم، فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾، أي إن هـذا الذي أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ، ولعن بعضهم لبعض ، لحقٌ لا مرية فيه ولا شك .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله ﴿ إنما أنا منذر ﴾ لست كما تزعمون ، ﴿ وما من إله إلا الله الواحد القهار ﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه، ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿ العزيز الغفار ﴾ أي غفار مع عظمته وعزته، ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ أي خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم، ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ أي غافلون، قال مجاهد ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾: يعني القرآن، وقوله تعالى: ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام، وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه ، وغير ذلك .

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة، وفي أول الأعراف، وفي سورة الحجر، وسبحان، والكهف، وههنا، وهي أن الله سبحانه وتعالى، أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام، بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته، فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامتثالاً لأمر الله عزّ وجلّ، فامتثل الملائكة كلهم سوى إبليس ولم يكن منهم جنساً، كان من الجن[1]، فخانه طبعه وجبلته، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عزّ وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم، فإنه مخلوق من نار، وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى، وكفر بذلك فأبعده الله عزّ وجل، وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه (إبليس) إعلاماً له بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين ۞ إلا عبادك منهم المخلصين﴾، كما قال عزّ وجل: ﴿لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾، وقوله تعالى: ﴿قال فالحق والحق أقول ۞ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾، قال السدي: هو قسم أقسم الله به، كقوله تعالى: ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾، وكقوله عزّ وجلّ: ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفوراً﴾.

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

---

(١) هذا الرأي وهو أن إبليس من الجن وليس من الملائكة هو الذي تطمئن إليه النفس وترتاح، وتدل عليه النصوص الشرعية كقوله تعالى: ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾، وانظر الأدلة في كتابنا (النبوة والأنبياء) صفحة (١٢٨) =

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هـذا البلاغ ، وهذا النصح أجراً تعطوني إياه من عرض الحياة الدنيا ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى بـه ، ولا أبتغي زيادة عليه ، بل ما أمرت به أديته ، لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عزّ وجلّ والدار الآخرة ، قـال مسروق : أتينا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فقال : يا أيها النـاس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول الرجل لمـا لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله عزّ وجلّ قال لنبيكم ﷺ : ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾[١] . وقوله تعالى : ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن ، قال ابن عباس ﴿للعالمين﴾ قال : الجن والإنس[٢] ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ولتعلمن نبأه﴾ أي خبره وصدقه ﴿بعد حين﴾ أي عن قريب ، قال قتادة : بعد الموت ، قال عكرمة : يعني يوم القيامة ، ولا منافاة بين القولين ، فإن من مات فقد دخل في حكم القيامـة . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

[آخر تفسير سورة (ص) ، ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲

= تحت عنوان : هل كان ابليس من الملائكة ؟

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش .

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

تفسير سورة ص

[وهى][(١)] مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أى: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم فى المعاش والمعاد.

قال الضحاك فى قوله: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، كقوله: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أى: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبى خالد، وابن عيينة، وأبو[(٢)] حصين، وأبوصالح، والسدى[(٣)]: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: ذى الشرف، أى: ذى الشأن والمكانة.

ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار.

واختلفوا فى جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله: ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]. وقيل قوله: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، حكاهما[(٤)] ابن جرير، وهذا الثانى فيه بعد كبير ، وضعفه ابن جرير.

وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ، واختاره ابن جرير.

وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم.

ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العلم[(٥)] أنه قال: جوابه «ص» بمعنى: صدق حق والقرآن ذى الذكر.

وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أى: إن فى هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أى: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أى: مخالفة له ومعاندة ومفارقة.

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى أ: «ابن». (٣) فى ت: «وخلق غيرهما».
(٤) فى س: «رواهما». (٥) فى أ: «العربية».

السماء، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أى: من أمة مكذبة، ﴿فَنَادَوْا﴾ أى[١]: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله. وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئا. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] أى: يهربون، ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣].

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق، عن التميمى قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، قال: ليس بحين نداء، ولا نَزْو، ولا فرار[٢].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مغاث.

وقال شبيب بن بشر[٣]، عن عكرمة، عن[٤] ابن عباس: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تَذَكَّر ليلى لاتَ حين تذكّر[٥]

وقال محمد بن كعب فى قوله: ﴿فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم.

وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة فى غير حين النداء.

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ليس بحين فرار ولا إجابة.

وقد روى نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وأبى مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ولا نداء فى غير حين النداء.

وهذه الكلمة وهى «لات»، هى «لا» التى للنفى، زيدت معها «التاء»، كما تزاد فى «ثم»، فيقولون: «ثمت»، و«رب» فيقولون: «ربت». وهى مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره [ابن جرير][٦] أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، وأنشد:

تَذَكَّر حُب ليلى لاتَ حينا وأَضْحَى الشَّيْبُ قد قَطَع القَرِينا[٧]

ومنهم من جوز الجر بها، وأنشد:

طَلَبُوا صُلْحَنَا ولاتَ أوانٍ فأجَبْنَا أن ليس حينُ بقاءِ[٨]

---

(١) فى ت: «إلى».

(٢) وقد رواه الطستى فى مسائل نافع بن الأزرق أنه سأل ابن عباس فذكره.

(٣) فى أ: «بشير». (٤) فى ت: «سئل».

(٥) البيت للأعشى، وعجزه: وقد تبت عنها والمناص بعيد.

(٦) ما بين المعقوفتين بياض فى س.

(٧) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/٧٧).

(٨) البيت لأبى زبيد الطائى، وهو فى تفسير الطبرى (٢٣/٧٧).

وأنشد بعضهم أيضا:

وَلاتَ سَاعةَ مَنْدَم

بخفض الساعة. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أى: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ (١١) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعجبهم من بعثة الرسول بشرا، كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]. وقال هاهنا: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أى: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك ـ قبحهم الله تعالى ـ وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الله[١] بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ﴾، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿ [أَنِ][٢] امْشُوا﴾ أى: استمروا على دينكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ . قال ابن جرير: إن هذا الذى يدعونا[٣] إليه محمد من التوحيد لشىء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا مجيبيه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

قال السدى: إن أناسا من قريش اجتمعوا، فيهم: أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، فى نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبى طالب فلنكلمه فيه، فلينصفنا منه، فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه الذى يعبده؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منا إليه شىء. فتعيرنا [به][٤] العرب، يقولون:

(١) فى ت، س، أ: «الإله». (٢) زيادة من أ.
(٣) فى ت: «يدعوا». (٤) زيادة من ت، س، أ.

«تركوه حتى إذا مات عنه[١] تناولوه». فبعثوا رجلا منهم يقال له[٢]: «المطلب»، فاستأذن لهم على أبى طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك. قال: أدخلهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخى، هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك. قال: «يا عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟»، قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «أدعوهم [إلى][٣] أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هى وأبيك؟ لنعطينها[٤] وعشرة أمثالها. قال: تقولون: «لا إله إلا الله». فنفر وقال: سلنا غير هذا[٥]. قال: «لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى، ما سألتكم غيرها». فقاموا من عنده غضابا، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك[٦] بهذا. ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير، وزاد: فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قول: «لا إله إلا الله»، فأبى وقال: بل على دين الأشياخ. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: ٥٦][٧].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالا: حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عباد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش،فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه، فجاء النبى ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبى طالب أن يكون أرقّ له عليه. فوثب فجلس فى ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أى ابن أخى، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إنى أريدهم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا[٨]: كلمة واحدة!نعم وأبيك عشرا، فقالوا: وما هى؟ وقال أبو طالب: وأى كلمة هى يا ابن أخى؟ فقال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، قال: ونزلت من[٩] هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ لفظ أبى كريب[١٠].

وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائى، من حديث محمد بن عبد الله بن نُمَيْر، كلاهما عن أبى أسامة،عن الأعمش، عن عباد،غير منسوب،به نحوه[١١]،ورواه الترمذى، والنسائى،وابن أبى حاتم، وابن جرير أيضا، كلهم فى تفاسيرهم من حديث سفيان الثورى، عن الأعمش، عن يحيى بن عُمَارة

(١) فى أ: «عمه»، وكذا فى الطبرى. (٢) فى ت، س، أ: «يدعى». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، س، أ: «لنعطينكما». (٥) فى ت، س، أ: «غيرها». (٦) فى أ: «يأمرك».
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٠).
(٨) فى ت، س، أ: «فقال القوم». (٩) فى أ: «فى».
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٩).
(١١) المسند (١/ ٣٦٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٧).

الكوفى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال الترمذى[١] :حسن[٢].

وقولهم: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ أى: ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة.

قال مجاهد، وقتادة، وابن[٣] زيد: يعنون دين قريش.

وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدى.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾، يعنى: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى.

﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾: قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص.

وقولهم: ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعنى: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا فى الآية الأخرى: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم، فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أى: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله ونقمته، سيعلمون غِبَّ ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دَعًّا.

ثم قال مبينا أنه المتصرف فى ملكه، الفعال لما يشاء، الذى يعطى من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر، وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكرا عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أى: العزيز الذى لا يرام جنابه، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾ [النساء: ٥٣ـ ٥٥]، وقوله: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشرى، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح [عليه السلام][٤] حين قالوا: ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦].

---

(١) فى ت: «ورواه الترمذى وقال: حديث حسن».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٣٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٦) وتفسير الطبرى (٢٣/٧٩).

(٣) فى ت: «وأبو».

(٤) زيادة من أ.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ أى: إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغيرهم: يعنى طرق السماء.

وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة.

ثم قال: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ أى: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويُكبَتُون، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾وكان ذلك يوم بدر، ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٤ـ ٤٦].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء .وقد تقدمت قصصهم مبسوطة فى أماكن متعددة.

وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ ﴾ أى: كانوا أكثر منكم وأشد قوة،وأكثر أموالا وأولاداً، فما دافع[١] ذلك عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك[٢]؛ ولهذا قال: ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ[٣]إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾: قال مالك، عن زيد بن أسلم:أى ليس لها مَثْنَوية، أى: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أى:قد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع،إلا من استثنى[٤] الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ هذا إنكار من الله على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب وقيل: هو الحظ والنصيب.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وغير واحد:سألوا تعجيل العذاب ـ زاد قتادة: كما قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) فى ت،أ: «دفع»، وفى س: «لما دفع».

(٢) فى أ: «الله».

(٣) فى أ: «وما ينظرون» وهو خطأ.

(٤) فى أ: «شاء».

وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة أن يلقوا[١] ذاك فى الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب.

وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا، وهذا الذى قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك، وإسماعيل بن أبى خالد، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر[٢] والظفر.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾.

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود، عليه السلام: أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة فى العلم والعمل.

قال [ابن عباس][٣] وابن زيد والسدى: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد: **﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾** [الذاريات: ٤٧].

وقال مجاهد: الأيد: القوة فى الطاعة.

وقال قتادة: أعطى داود [عليه السلام][٤] قوة فى العبادة، وفقها فى الإسلام، وقد ذكر لنا أنه، عليه السلام، كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر.

وهذا ثابت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى»[٥]. وإنه كان أوابا، وهو الرجاع إلى الله عز وجل فى جميع أموره وشؤونه.

وقوله: **﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾** أى: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: **﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾** [سبأ: ١٠]. وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف فى الهواء، وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعا له.

قال[٦] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن بشر، عن مِسْعَر، عن عبد الكريم، عن

(١) فى أ: «يسلموا». (٢) فى أ: «والنصرة». (٣) زيادة من ت، س.
(٤) زيادة من ت، س، أ.
(٥) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩).
(٦) فى ت: «وروى».

موسى بن أبى كثير[١]، عن ابن عباس [٢] أنه بلغه: أن أم هانئ ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمانى ركعات، قال[٣] ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة، يقول الله تعالى: ﴿ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾[٤].

ثم رواه من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن أبى المتوكل، عن أيوب بن صفوان، عن مولاه عبدالله بن الحارث بن[٥] نوفل، أن ابن عباس كان لا يصلى الضحى، قال: فأدخلته على أم هانئ فقلت: أخبرى هذا ما أخبرتنى به. فقالت أم هانئ: دخل على رسول الله ﷺ يوم الفتح فى بيتى، ثم أمر بماء صب فى قصعة، ثم أمر بثوب، فأخذ بينى وبينه، فاغتسل ثم رش ناحية البيت، فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى، قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾، وكنت أقول: أين صلاة الإشراق، وكان بعد يقول: صلاة الإشراق[٦].

ولهذا قال : ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أى : محبوسة فى الهواء، ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّاب﴾ أى: مطيع يسبح تبعا له.

قال سعيد بن جبير، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّاب﴾ أى: مطيع.

[وقوله][٧]: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَه﴾ أى: جعلنا له ملكا كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

قال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً.

وقال السدى: كان يحرسه فى كل يوم أربعة آلاف.

وقال بعض السلف: بلغنى أنه كان حَرَسُه فى كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً، لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل.

وقال غيره: أربعون ألفا مشتملون[٨] بالسلاح.

وقد ذكر[٩] ابن جرير، وابن أبى حاتم، من رواية عِلْباء بن أحمر، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: أن نفرين من بنى إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود، عليه السلام، أنه اغتصبه بقرًا، فأنكر الآخر، ولم يكن[١٠] للمدعى بينة، فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود، عليه السلام، فى المنام بقتل المدعى، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعى، فقال: يا نبى الله، علام تقتلنى وقد اغتصبنى هذا بقرى؟ فقال: إن الله عز وجل أمرنى بقتلك، فأنا قاتلك لا محالة. فقال: والله يا نبى

---

(١) فى ت: «بإسناده».
(٢) فى أ: «ابن عباس رضى الله عنهما».
(٣) فى ت: «فقال».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٧).
(٥) فى أ: «عن».
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٧).
(٧) زيادة من ت، س، أ.
(٨) فى ت، س، أ: «مشتكون».
(٩) فى ت: «وروى».
(١٠) فى س: «تكن».

الله إن الله لم يأمرك بقتلى لأجل هذا الذى ادعيت عليه، وإنى لصادق فيما ادعيت، ولكنى كنت قد اغتلت أباه وقتلته، ولم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود [عليه السلام][1] فقتل.

قال ابن عباس: فاشتدت هيبته فى بنى إسرائيل، وهو الذى يقول الله عز وجل: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعنى: الفهم والعقل والفطنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب.

وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

وقال السدى: ﴿الْحِكْمَةَ﴾: النبوة.

وقوله: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال شريح القاضى، والشعبى: فصل الخطاب: الشهود والأيمان.

وقال قتادة: شاهدان على المدعى، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل ـ أو قال: المؤمنون والصالحون ـ وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبدالرحمن السلمى.

وقال مجاهد، والسدى: هو إصابة القضاء وفهمه.

وقال مجاهد أيضا: هو الفصل فى الكلام وفى الحكم[2].

وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير.

وقال[3] ابن أبى حاتم: حدثنا عمر بن شبة النميرى، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنى عبد العزيز ابن أبى ثابت، عن عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه، عن بلال بن أبى بردة، عن أبيه[4]، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: أول من قال: «أما بعد» داود، عليه السلام، وهو فصل الخطاب.

وكذا قال الشعبى: فصل الخطاب: «أما بعد».

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)﴾.

(١) زيادة من س، ت، أ.

(٢) فى ت: «فى القضاء والحكم».

(٣) فى ت: «ورواه».

(٤) فى ت: «بإسناده».

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي، عن أنس ـ ويزيد وإن كان من الصالحين ـ لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن[١] يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا.

وقوله: ﴿ [إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ][٢] فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوَّرا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما.

وقوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غَلَبني. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب.

وقوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي اختبرناه.

وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي: ساجدا ﴿وَأَنَابَ ﴾. ويحتمل أنه ركع أولا، ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحا، ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة، رضي الله عنهم[٣]، في سجدة «ص»، هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعي، رحمه الله، أنها ليست من عزائم السجود، بلى هي سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا إسماعيل ـ وهو ابن علية ـ عن أيوب، عن ابن عباس[٤] أنه قال في السجود في «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

ورواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في تفسيره، من حديث أيوب، به[٥]. وقال الترمذي: حسن[٦] صحيح.

وقال[٧] النسائي أيضا عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيم بن الحسن ـ هو المقسمي ـ حدثنا حجاج بن محمد، عن عمرو[٨] بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ سجد في «ص»، وقال: «سجدها داود، عليه السلام، توبة، ونسجدها شكرا».

تفرد بروايته النسائي[٩]، ورجال إسناده كلهم ثقات، وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي قراءة عليه وأنا أسمع:

---

(١) في ت: «أنه». (٢) زيادة من ت، أ.
(٣) في أ: «رحمهم الله».
(٤) في أ: «عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس»، وفي ت: «ما رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس» زيادة من أ.
(٥) المسند (١/ ٣٦٠) وصحيح البخاري برقم (١٠٦٩) وسنن أبي داود برقم (١٤٠٩) وسنن الترمذي برقم (٥٧٧).
(٦) في أ: «حديث حسن». (٧) في ت: «وروى». (٨) في أ: «عمر».
(٩) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٣٨).

أخبرنا أبو إسحاق المدرجى[١]، أخبرنا زاهر بن أبى طاهر الثقفى، أخبرنا زاهر بن طاهر الشحامى، أخبرنا أبو سعد الكَنْجَرُوذى، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبوالعباس السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيْس، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبى يزيد قال: قال لى ابن جريج: يا حسن، حدثنى جدك عبيد الله[٢] بن أبى يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة، فقرأت السجدة، فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودى، فسمعتها تقول وهى ساجدة: اللهم، اكتب لى بها عندك أجرا، واجعلها لى عندك ذخرا، وضع عنى بها وزرا، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود.

قال ابن عباس: فرأيت النبى ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة[٣].

رواه الترمذى عن قتيبة، وابن ماجه عن أبى بكر بن خلاد، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس[٤]، نحوه. وقال الترمذى: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه[٥].

وقال البخارى عند تفسيرها أيضا: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى، عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص» فقال[٦]: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾[الأنعام: ٨٤]، ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ[٧] فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩]، فكان داود، عليه السلام، ممن[٨] أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ[٩].

وقال[١٠] الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا حميد، حدثنا بكر ـ هو ابن عبد الله المزنى ـ أنه أخبره[١١]: أن أبا سعيد الخدرى[١٢] رأى رؤيا أنه يكتب «ص»، فلما بلغ إلى التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدا، قال: فقصها على النبى ﷺ، فلم يزل يسجد بها بعد. تفرد به [الإمام][١٣] أحمد[١٤].

وقال[١٥] أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبى سرح، عن أبى سعيد الخدرى، رضى

---

(١) فى أ: «أبو إسحاق بن المدرجى». (٢) فى أ: «عبد الله».
(٣) رواه المزى فى تهذيب الكمال (٦/ ٣١٤).
(٤) فى أ: «يزيد بن حبيش».
(٥) سنن الترمذى برقم (٥٧٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٥٣).
(٦) فى ت: «بإسناده إلى مجاهد قال».
(٧) فى ت، س، أ: «هداهم» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه. (٨) فى ت، س: «فيمن».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٧).
(١٠) فى ت: «وروى». (١١) فى ت: «بإسناده». (١٢) فى أ: «الخدرى رضى الله عنه».
(١٣) زيادة من أ.
(١٤) المسند (٣/ ٧٨).
(١٥) فى ت: «وروى».

الله عنه، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزَّن[١] الناس للسجود، فقال: «إنما هى توبة نبى، ولكنى رأيتكم تَشَزَّنْتُم». فنزل وسجد، وسجدوا.

تفرد به أبو داود[٢]، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العاليات فى الجنة، لتوبته[٣] وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون فى أهليهم وما ولوا»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية[٥]، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا، إمام عادل[٦]. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا، إمام جائر».

ورواه الترمذى من حديث فضيل ـ وهو ابن مرزوق الأغر ـ عن عطية، به[٧]. وقال: لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

وقال[٨] ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر ابن سليمان: سمعت مالك بن دينار فى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾، قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش، ثم يقول: يا داود، مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إنى أرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾.

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله[٩]. وقد توعد [الله][١٠] تعالى من ضل عن سبيله،

---

(١) فى ت: «تشدد».
(٢) سنن أبى داود برقم (١٤١٠).
(٣) فى ت، س: «لنبوته».
(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.
(٥) فى ت: «وروى الترمذى».
(٦) فى أ: «عدل».
(٧) المسند (٣/٢٢) وسنن الترمذى برقم (١٣٢٩).
(٨) فى ت: «وروى».
(٩) فى أ: «سبيل الله».
(١٠) زيادة من أ.

وتناسي يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

قال[1] ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جناح، حدثني إبراهيم أبو زرعة ـ وكان قد قرأ الكتاب ـ أن الوليد بن عبد الملك قال له[2]: أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله ـ عز وجل ـ جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده في كتابه فقال: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ** ﴾ الآية.

وقال عكرمة: ﴿ **لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾، هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا.

وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، فالله أعلم.

﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)** ﴾.

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم[3] ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي: الذين لا يرون بعثا ولا معادا، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾، أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ أي: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب[4] فيها هذا الفاجر[5]. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلابد في حكمة الحكيم العليم العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ أي: ذوو العقول، وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل.

---

(١) في ت: «روى». (٢) في ت: «لأبي ورعة». (٣) في ت، س: «جمعهم».
(٤) في ت: «ويعذب». (٥) في س: «العاصي».

قال الحسن البصرى: والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن [كله][١] ،ما يرى له القرآنُ فى خلق ولا عمل. رواه ابن أبى حاتم.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾.

يقول تعالى مخبرا أنه وهب لداود سليمان، أى: نبيا، كما قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أى: فى النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر.

وقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

قال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا[٣] مكحول قال: لما وهب الله لداود سليمان، عليه[٤] السلام، قال له: يا بنى، ما أحسن؟ قال: سكينة الله وإيمان. قال: فما أقبح؟ قال: كفر بعد إيمان. قال: فما أحلى؟ قال: روح الله بين عباده. قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض. قال داود، عليه السلام: فأنت نبى.

وقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ أى: إذ عرض على سليمان فى حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات.

قال مجاهد: وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف.

وقال[٥] ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن أبيه سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمى فى قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِىِ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ قال: كانت عشرين فرسا ذات أجنحة. كذا رواه ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبى زائدة، أخبرنى إسرائيل، عن سعيد بن مسروق[٦]، عن إبراهيم التيمى قال: كانت الخيل التى شغلت سليمان، عليه الصلاة والسلام، عشرين ألف فرس ،فعقرها. وهذا أشبه[٧]، والله أعلم.

وقال[٨] أبو داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبى مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثنى عُمَارة بن غَزِيَّة: أن محمد بن إبراهيم حدثه، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن[٩]، عن عائشة،

(١) زيادة من ت، س، أ.
(٢) فى ت: «روى».
(٣) فى ت: «بإسناده».
(٤) فى ت، س: «عليهما».
(٥) فى ت: «روى».
(٦) فى ت: «بإسناده».
(٧) فى أ: «الأشبه».
(٨) فى ت: «وروى».
(٩) فى ت: «بإسناده».

رضى الله عنها، قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفى سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لُعَب - فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتى. ورأى بينهن فرسا له[1] جناحان من رقاع، فقال: «ما هذا[2] الذى أرى وسطهن؟». قالت: فرس. قال: «وما هذا الذى عليه؟». قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان؟!» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ[3].

وقوله: ﴿ فَقَالَ[4] إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت[5] صلاة العصر، والذى يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا، كما شغل النبى ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب[6]، وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، رضى الله عنه، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فقال[7]: فقمنا إلى بُطْحَان فتوضأ للصلاة وتوضأنا[8] لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[9].

ويحتمل أنه كان[10] سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال. والخيل تراد للقتال. وقد ادعى طائفة[11] من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك فى حال المسايفة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة، رضى الله عنهم، فى فتح تستر، وهو منقول عن مكحول، والأوزاعى، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾.

قال الحسن البصرى. قال: لا، والله لا تشغلينى عن عبادة ربى آخر ما[12] عليك. ثم أمر بها فعقرت. وكذا قال قتادة.

وقال السدى: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حبالها.

وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. وهذا الذى رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه

(١) فى أ: «لها». (٢) فى أ: «ما هذا يا عائشة».
(٣) سنن أبى داود برقم (٤٩٣٢).
(٤) فى ت، س: «قال». (٥) فى ت، أ: «عن وقت». (٦) فى أ: «المغرب».
(٧) فى ت: «قال». (٨) فى ت: «فتوضأنا».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤١١٢) وصحيح مسلم برقم (٦٣١).
(١٠) فى أ: «ادعى هذا طائفة». (١١) فى س، أ: «أنه قد كان». (١٢) فى أ: «أحرَّ ما».

اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى[١] عوضه الله تعالى ما[٢] هو خير منها، وهى[٣] الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل[٤].

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال[٦]، عن أبى قتادة وأبى الدهماء ـ وكانا يكثران السفر نحو البيت ـ قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوى: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله تعالى، وقال: «إنك لا تدع شيئا اتقاء الله[٧] ـ عز وجل ـ إلا أعطاك الله خيرا منه»[٨].

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ**﴾ أى: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، ﴿**وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**﴾ : قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم: يعنى شيطانا. ﴿**ثُمَّ أَنَابَ**﴾ أى[٩]: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته.

قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخرا. قاله ابن عباس، وقتادة. وقيل: آصف. قاله مجاهد. وقيل: أصروا. قاله مجاهد أيضا. وقيل: حبقيق. قاله السدى. وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومختصرة.

وقد قال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة: قال أمر سليمان، عليه السلام، ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنه ولا يُسمَعُ فيه صوت حديد. فقال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه. فقيل له: إن شيطانا فى البحر يقال له: «صخر» شبه المارد. قال: فطلبه وكانت عين فى البحر يَردُها فى كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها وجعل فيها خَمْر، فجاء يوم ورْده فإذا هو بالخمر، فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم رجع حتى عطش عطشاً شديدا، ثم أتاها[١٠] فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم شربها حتى غلبت على عقله، قال: فأرى الخاتم، أو ختم به بين كتفيه فَذَلّ. قال: وكان ملكه فى خاتمه، فأتى به سليمان فقال: إنه

---

(١) فى ت، س: «عز وجل». (٢) فى ت، س: «بما». (٣) فى ت، س، أ: «وهو».
(٤) وهذا هو الصواب، وانظر كلام القرطبى فى: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٩٥، ١٩٦).
(٥) فى ت: «وروى».
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٧) فى أ: «لله».
(٨) المسند (٥/ ٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٩٦): «رجاله رجال الصحيح».
(٩) فى ت، س: «ثم». (١٠) فى أ: «أتاه».

قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد. قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها، فجعل يَرَى بيضه ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه، فقطعها به، حتى أفضى إلى بيضه. فأخذ الماس، فجعلوا يقطعون به الحجارة. وكان سليمان [عليه السلام][(١)] إذا أراد أن يدخل الخلاء - أو: الحمام - لم يدخل بخاتمه فانطلق يوما إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه، وذلك عند مقارفة قارف فيه[(٢)] بعض نسائه. قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه فى البحر، فالتقمته سمكة، ونُزِع مُلك سليمان منه، وألقى على الشيطان شَبَه سليمان. قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره، وسُلِّط على ملك سليمان كله غير نسائه. قال: فجعل يقضى بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فتن نبى الله. وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب فى القوة فقال: والله لأجربنه. قال: فقال: يا نبى[(٣)] الله - وهو لا يرى إلا أنه نبى الله - أحدنا تصيبه الجنابة فى الليلة الباردة، فيدع الغسل عمدا حتى تطلع الشمس، أترى[(٤)] عليه بأسا؟ فقال[(٥)]: لا. قال: فبينا هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبى الله خاتمه فى بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جنى ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾، قال: هو الشيطان صخر[(٦)].

وقال السدى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أى: ابتلينا سليمان، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قال: جلس الشيطان على كرسيه أربعين يوما. قال: وكان لسليمان، عليه السلام، مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها: «جرادة»، وهى آثر نسائه وآمَنَهُن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة[(٧)] نزع خاتمه، ولم يأتمن[(٨)] عليه أحدا من الناس غيرها، فأعطاها يوما خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان فى صورته، فقال: هاتى الخاتم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا. وخرج مكانه تائها. قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما، قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بنى إسرائيل وعلماؤهم، فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوا[(٩)]، فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرؤوا. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة، والخاتم معه. ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه فى البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان فى حاله التى كان فيها، حتى انتهى إلى صياد من صيادى[(١٠)] البحر، وهو جائع، وقد اشتد جوعه. فاستطعمهم من صيدهم، وقال: إنى أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجَّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذى ضربه، فقالوا بئس ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى ت: «فيها».
(٣) فى أ: «أنبى».
(٤) فى ت: «ترى».
(٥) فى ت، س: «قال».
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٠١).
(٧) فى أ: «حاجته».
(٨) فى ت: «يأمن».
(٩) فى أ: «أتوه».
(١٠) فى ت، س، أ: «صيادين».

إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر، فشق بطونهما، فجعل يغسل [دمه][١]، فوجد خاتمه فى بطن إحداهما، فأخذه فلبسه، فرد الله عليه بهاءه وملكه، وجاءت الطير حتى حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان، عليه السلام، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا [به][٢]، فقال: ما أحمدكم على عذركم، ولا ألومكم على ما كان منكم، كان هذا الأمر لابد منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه، وأرسل إلى الشيطان، فجيء به فأمر به فجعل فى صندوق من حديد، ثم أطبق عليه، وقفل عليه بقفل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقى فى البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حبقيق. قال: وسخر[٣] له الريح، ولم تكن سخرت له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[٤].

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قال: شيطانا يقال له: آصف. فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرنى خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف فى البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان فلم يقربهن ـ ولم يقربنه وأنكرنه. قال: فكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفونى؟ أطعمونى، أنا سليمان. فيكذبونه، حتى أعطته امرأة يوما حوتا فجعل يطيب بطنه، فوجد خاتمه فى بطنه، فرجع إليه ملكه، وفر آصف، فدخل البحر فارا.

وهذه كلها من الإسرائيليات، ومن أنكرها ما قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبى شيبة وعلى بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][٥]: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثم أناب ﴾، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه ـ وكانت الجرادة[٦] امرأته، وكانت أحب نسائه إليه ـ فجاء الشيطان فى صورة سليمان، فقال لها: هاتى خاتمى. فأعطته إياه. فلما لبسه دانت له الإنس والجن[٧] والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتى خاتمى. قالت: قد أعطيته سليمان. قال: أنا سليمان. قالت: كذبت، لست سليمان[٨]، فجعل لا يأتى أحداً فيقول له: «أنا سليمان»، إلا كذبه، حتى جعل[٩] الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى ذلك عَرَف أنه من أمر الله عز وجل. قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه، ألقى فى قلوب الناس إنكارَ ذلك الشيطان. قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتنكرن من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّض، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رأى الشيطان أنْ قد فُطن له[١٠]، ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسى سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس. وقالوا:

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى ت، أ: «وسخرت».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٠١).
(٥) زيادة من أ. (٦) فى ت: «جرادة». (٧) فى أ: «والجن والطير».
(٨) فى ت: «بسليمان». (٩) فى أ: «جاء». (١٠) فى ت: «أنه فطن له».

بهذا كان يظهر سليمان على الناس [ويغلبهم][(١)]. فأكفر الناس سليمان، عليه السلام، فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطانُ بالخاتم فطرحه فى البحر، فتلقته سمكة فأخذته. وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لى هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك. قال: فحمل سليمان، عليه السلام، السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم فى جوفها، فأخذه فلبسه. قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلى حاله، وهَرَب الشيطان حتى دخل جزيرة[(٢)] من جزائر البحر، فأرسل سليمان فى طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه، حتى وجدوه يوماً نائماً، فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثيب فى مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص، قال: فأخذوه فأوثقوه، وجاؤوا به إلى سليمان، فأمر به فنقر[(٣)] له تخت من رخام، ثم أدخل فى جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أمر به فطرح فى البحر، فذلك قوله: ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ** ﴾، قال: يعنى الشيطان الذى كان سلط عليه.

إسناده إلى ابن عباس قوى، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان، عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه؛ ولهذا كان فى السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن[(٤)] ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله منه، تشريفاً وتكريماً لنبيه ﷺ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متُلقَّاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

وقال يحيى بن أبى عمرو السيبانى: وجد سليمان خاتمه فى عسقلان، فمشى فى خرقة[(٥)] إلى بيت المقدس، تواضعاً لله عز وجل، رواه ابن أبى حاتم.

وقد روى ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار فى صفة كرسى سليمان، عليه الصلاة والسلام، خبرا عجيبا، فقال: حدثنا أبى، رحمه الله، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، أخبرنى أبو إسحاق المصرى، عن كعب الأحبار؛ أنه لما فرغ من حديث «إرم ذات العماد» قال له معاوية: يا أبا إسحاق، أخبرنى عن كرسى سليمان بن داود، وما كان عليه؛ ومن أى شىء هو؟ فقال: كان كرسى سليمان من أنياب الفيلة مُفَصّصاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ. وقد جُعل له درجة منها مُفَصّصة بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسى فحُفّ من جانبيه بالنخل، نخل من ذهب، شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ. وجعل على رؤوس النخل التى عن يمين الكرسى طواويس من ذهب، ثم جُعل على رؤوس النخل التى على يسار الكرسى نسور من ذهب مقابلة الطواويس، وجعل على يمين الدرجة الأولى

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «الحق بجزيرة». (٣) فى ت: «فنقب».
(٤) فى أ: «فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من السلف أن».
(٥) فى أ: «بحرقة».

شجرتا صنوبر من ذهب، وعن يسارها أسَدَان من ذهب، وعلى رؤوس الأسدين عمودان من زبرجد، وجعل من جانبى الكرسى شجرتا كرم من ذهب، قد أظلتا الكرسى، وجعل عناقيدهما درا وياقوتا أحمر. ثم جعل فوق دَرَج الكرسى أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكا وعنبرا. فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان[١] فينضحان ما فى أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسى سليمان، عليه السلام، ثم يوضع منبران من ذهب، واحد لخليفته، والآخر لرئيس أحبار بنى إسرائيل ذلك الزمان. ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبرا من ذهب، يقعد عليها سبعون قاضيا من بنى إسرائيل وعلمائهم، وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبرا من ذهب، ليس عليها أحد، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى، فاستدار الكرسى كله بما فيه وما عليه، ويبسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر، ثم يصعد [سليمان][٢] على الدرجة الثانية، فيبسط الأسد يده اليسرى، وينشر النسر جناحه الأيمن، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسى، أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج سليمان فوضعه على رأسه، فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسى بما فيه كما تدور الرحى المسرعة. فقال معاوية، رضى الله عنه: وما الذى يديره يا أبا إسحاق؟ قال: تنين من ذهب، ذلك الكرسى عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجنى، فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأُسْدُ والطواويس التى فى أسفل الكرسى دُرْنَ إلى أعلاه، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان [ابن داود][٣] عليه[٤] السلام وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً ما فى أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان، عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر، التوراةَ فتجعلها فى يده، فيقرؤها سليمان على الناس.

وذكر تمام الخبر[٥]، وهو غريب جدا.

﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾، قال بعضهم: معناه: لا ينبغى لأحد من بعدى، أى: لا يصلح لأحد أن يسلبنيه، كما كان من قضية[٦] الجسد الذى ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبه[٧] وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

قال[٨] البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد[٩]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «إن عفريتا من الجن تَفَلَّت علىّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع على الصلاة، فأمكننى الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تُصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخى سليمان: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي**﴾».

---

(١) فى ت: «يقفان». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ: «عليهما». (٥) فى ت: «الحديث». (٦) فى ت: «فى قصة»، وفى أ: «من قصة».
(٧) فى ت، س، أ: «وبذلك». (٨) فى ت: «فروى». (٩) فى ت: «بإسناده».

قال روح: فرده خاسئا[١].

وكذا رواه مسلم والنسائى، من حديث شعبة، به[٢].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا محمد بن سلمة المُرَادى، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية ابن صالح، حدثنى ربيعة بن يَزيد، عن أبى إدريس الخولانى[٣]، عن أبى الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلى، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك». ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ـ ثلاثا ـ وبسط يَدَه كأنه يتناول شيئا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟ قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى، فقلت: أعوذ بالله منك ـ ثلاث مرات ـ ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخْذَه والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقا يلعب به صبيان[٤] أهل المدينة»[٥].

وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا ميسرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائما يصلى، فذهبت أمر بين يديه فردنى، ثم قال[٧]: حدثنى[٨] أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام يصلى[٩] صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتمونى وإبليس، فأهويت بيدى، فما زلت أخنقه حتى وجدت بَرْدَ لعابه بين إصبعى هاتين ـ الإبهام والتى تليها ـ ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح[١٠] مربوطا بسارية من سوارى المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل».

وقد روى أبو داود منه: «من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»، عن أحمد ابن أبى سُرَيج، عن أبى أحمد الزبيرى، به[١١].

وقال[١٢] الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى، حدثنا الأوزاعى، حدثنى ربيعة بن يزيد[١٣]، عن عبد الله الديلمى قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو فى حائط له بالطائف يقال له: «الوهط»، وهو مُخَاصر فتى من قريش يُزَنّ بُشْرب الخمر، فقلت: بلغنى عنك حديث أنه «من شرب شربة خَمْر لم يقبل الله، عز وجل، له توبَةً أربعين صباحاً، وإن الشقى من شقى فى بطن أمه، وإنه من أتى بيت المقدس لا يَنْهَزه إلا الصلاة فيه، خرج

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٨).

(٢) صحيح مسلم برقم (٥٤١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٠).

(٣) فى ت: «بإسناده». (٤) فى ت، س، أ: «ولدان».

(٥) صحيح مسلم برقم (٥٤٢).

(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت: «بإسناده». (٨) فى ت: «عن».

(٩) فى ت: «فصلى».

(١٠) فى ت: «أصبح».

(١١) المسند (٣/٨٣) وسنن أبى داود برقم (٦٩٩).

(١٢) فى ت: «وروى». (١٣) فى ت: «بإسناده».

من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده، ثم انطلق. فقال عبدالله بن عمرو [١]: إنى لا أحل لأحد أن يقول عَلَىّ ما لم أقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب من الخمر شربة، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن[٢] عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه. فإن عاد ـ قال: فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة ـ فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من رَدْغَة الخبال يوم القيامة». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه فى ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك[٣] أقول: جف القلم على علم الله عز وجل». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكما يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيّما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم[٤] ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى[٥] قد أعطانا إياها»[٦].

وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائى وابن ماجه من طرق، عن عبد الله بن فيروز الديلمى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه، عز وجل، خلالا ثلاثا. . .» وذكره[٧].

وقد روى من حديث رافع بن عمير، رضى الله عنه، بإسناد وسياق غريبين، فقال الطبرانى:

حدثنا محمد بن الحسن بن قُتَيْبة العسقلانى، حدثنا محمد بن أيوب بن سُوَيْد، حدثنى أبى، حدثنا إبراهيم بن أبى عَبْلَة، عن أبى الزاهرية[٨]، عن رافع بن عمير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل لداود، عليه السلام: ابن لى بيتاً فى الأرض. فبنى داود [٩] بيتاً لنفسه قبل البيت الذى أمر به، فأوحى الله إليه: يا داود، نصبت بيتك قبل بيتى؟ قال: يا رب، هكذا قضيت[١٠]، من ملك استأثر. ثم أخذ فى بناء المسجد، فلما تم السور سقط، ثلاثا، فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال: يا داود[١١]، إنك لا تصلح أن تبنى لى بيتاً. قال: ولم يا رب؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء. قال: يا رب، أو ما كان[١٢] ذلك فى هواك ومحبتك؟ قال: بلى، ولكنهم عبادى، وأنا أرحمهم. فشق ذلك عليه، فأوحى الله إليه: لا تحزن، فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان. فلما مات داود أخذ سليمان فى بنائه فلما تم قرب القرابين، وذبح الذبائح، وجمع بنى إسرائيل، فأوحى الله إليه: قد أرى سرورك ببنيان بيتى، فسلنى أعطك. قال: أسألك ثلاث خصال: حكما يصادف حكمك، وملكا لا ينبغى لأحد من بعدى، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه

(١) فى أ: «عمرو رضى الله عنهما». (٢) فى أ: «وإن». (٣) فى أ: «ولذلك».
(٤) فى ت، س، أ: «مثل يوم». (٥) فى ت، س، أ: «عز وجل».
(٦) المسند (٢/ ١٧٦).
(٧) سنن النسائى (٢/ ٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٠٨).
(٨) فى ت: «وروى الطبرانى بإسناده». (٩) فى ت: «داود عليه السلام».
(١٠) فى ت، س، أ: «هكذا قلت فيما قضيت». (١١) فى ت، أ: «فأوحى الله إليه».
(١٢) فى ت، س، أ: «أو لم يكن».

خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال رسول الله ﷺ: «أما ثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة»[١].

وقال[٢] الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عُمَر بن راشد اليمامى، حدثنا إياس بن سلمة ابن الأكوع، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاءً إلا استفتحه بـ «سبحان الله ربى الأعلى العلى الوهاب»[٣].

وقد قال[٤] أبو عبيد: حدثنا على بن ثابت، عن جعفر بن بَرْقان، عن صالح بن مسمار قال: لما مات نبى الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان، عليهما[٥] السلام: أن سلنى حاجتك. قال: أسألك أن تجعل لى قلبا يخشاك، كما كان قلب أبى، وأن تجعل قلبى يحبك كما كان قلب أبى. فقال الله: أرسلت إلى عبدى وسألته[٦] حاجته، فكانت [حاجته][٧] أن أجعل قلبه يخشانى، وأن أجعل قلبه يحبنى. لأهَبَنّ له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده. قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، والتى بعدها، قال: فأعطاه [الله][٨] ما أعطاه، وفى الآخرة لا حساب عليه.

هكذا أورده أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة سليمان، عليه السلام، فى تاريخه[٩].

وروى عن بعض السلف أنه قال: بلغنى عن داود [عليه السلام][١٠] أنه قال: «إلهى، كن لسليمان كما كنت لى»: فأوحى الله إليه: أن قل لسليمان: يكون لى كما كنت لى، أكون له كما كنتُ لك.

وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: قال الحسن البصرى، رحمه الله: لما عقر سليمان الخيل غضبا لله، عز وجل، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع، الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أى: حيث أراد من البلاد.

وقوله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أى: منهم من هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون مما[١١] فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها، ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أى: موثوقون فى الأغلال والأكبال، ممن قد تَمَرّد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء فى صنيعه واعتدى.

---

(١) المعجم الكبير (٥/ ٢٤) قال الهيثمى فى المجمع (٨/٤): «فيه محمد بن أيوب بن سويد الرملى وهو متهم بالوضع».
(٢) فى ت: «وروى».
(٣) المسند (٤/ ٥٤) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٥٦): «فيه عمر بن راشد اليمامى وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح».
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت، أ: «عليه». (٦) فى ت، س: «أسأله».
(٧) زيادة من ت، س. (٨) زيادة من أ.
(٩) تاريخ دمشق (٧/ ٥٦٩ «القسم المخطوط».
(١٠) زيادة من ت، س، أ. (١١) فى ت: «ما».

وقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: هذا الذى أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك، أى: مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب.

وقد ثبت فى الصحيحين[(١)] أن رسول الله ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رسولا ـ وهو الذى يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به ـ وبين أن يكون ملكا نبيا، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل، فقال له: تواضع. فاختار المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدرا عند الله وأعلى منزلة فى المعاد. وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضا فى الدنيا وفى الآخرة؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان فى الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضا، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: فى الدار الآخرة.

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٤٤) ﴾ .

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب، عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر فى جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مَغْرِز إبرة سليما سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شىء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة[(٢)] وتطعمه، وتخدمه نحوا من ثمانى عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فَسُلبَ جميعَ ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته، رضى الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً و[لا][(٣)] مساء إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر، تضرع[(٤)] إلى رب العالمين وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣]، وفى هذه الآية الكريمة قال: رَبِّ، إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب، قيل: بنصب فى بدنى، وعذاب فى مالى وولدى. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى[(٥)]. ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر، فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها، فأذهبت ما كان فى باطنه[(٦)] من السوء، وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾.

(١) فى أ: «الصحيح». (٢) فى أ: «بالأجر». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، س: «ضرع». (٥) فى ت، س: «ما كان به من الأذى». (٦) فى أ: «بباطنه».

قال[١] ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب[٢]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب، عليه السلام، لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم ـ والله ـ لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشفَ ما به [٣]. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدرى ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، عز وجل، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكرا الله إلا في حق. قال: وكان[٤] يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى الله تعالى إلى أيوب، عليه السلام، أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ، فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل[٥] عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى. فوالله على ذلك، ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا. قال: فإني[٦] أنا هو. قال: وكان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا[٨] أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانا، خَرَّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو في ثوبه، فناداه ربه[٩]: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك».

انفرد بإخراجه البخاري، من حديث عبد الرزاق، به[١٠].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ، قال الحسن، وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لذوي العقول، ليعلموا أن عاقبةَ الصبر الفرجُ والمخرجُ والراحة.

---

(١) في ت: «روى». (٢) في ت: «بسندهما». (٣) في أ: «ما به من مرضه».
(٤) في أ: «وكان أيوب». (٥) في أ: «وأقبل». (٦) في أ: «فقال إني».
(٧) تفسير الطبري (٢٣/١٠٧) ورواه البزار في مسنده (٢٣٥٧) «كشف الأستار»، وأبو نعيم في الحلية (٣/٣٧٤) من طريق سعيد ابن أبي مريم عن نافع بن يزيد به. قال البزار: «لا نعلم رواه عن الزهري عن أنس إلا عقيل، ولا عنه إلا نافع، ورواه عن نافع غير واحد»، وقال الهيثمي في المجمع (٨/٢٠٨): «رجال البزار رجال الصحيح».
(٨) في ت: «وروى القاري». (٩) في ت، س، أ: «ربه عز وجل».
(١٠) المسند (٢/ ٣١٤) وصحيح البخاري برقم (٢٧٨).

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ﴾، وذلك أن أيوب، عليه السلام، كان قد غضب على زوجته، ووَجَد عليها فى أمر فعلته. قيل: [إنها][(١)] باعت ضفيرتها [(٢)] بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله، عز وجل، أن يأخذ ضغثاً ـ وهو: الشِّمراخ ـ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برّت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: رَجَّاع منيب؛ ولهذا قال تعالى:﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل فى الإيمان وغيرها، وأخذوها[(٣)] بمقتضاها، [ومنعت طائفة أخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة فى شرع أيوب ،عليه السلام، فلذلك رخص له فى ذلك، وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة][(٤)].

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين:﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ يعنى بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة فى العبادة والبصيرة النافذة.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿أُوْلِي الأَيْدِي﴾ يقول: أولى القوة،﴿وَالأَبْصَارِ﴾ يقول: الفقه فى الدين.

وقال مجاهد: ﴿ أُوْلِي الأَيْدِي﴾،يعنى: القوة فى طاعة الله، ﴿وَالأَبْصَارِ﴾ يعنى: البصر[(٥)] فى الحق.

وقال قتادة والسدى: أعطُوا قوة فى العبادة وبَصرًا فى الدين.

[وقوله][(٦)] : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قال مجاهد: أى جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمّ غيرها. وكذا قال السدى: ذكرهم للآخرة وعملهم لها.

وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وكذا قال عطاء الخراسانى.

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى أ: «ضفيرتيها».
(٣) فى ت، س: «وأخذوا».
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى أ: «البصير».
(٦) زيادة من ت، س، أ.

وقال سعيد بن جُبَيْر: يعنى بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها[١]، وقال فى رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾: عقبى الدار.

وقال قتادة: كانوا يذكّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها.

وقال ابن زيد: جعل لهم[٢] خاصةً أفضل شىء فى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ أى: لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾، قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة فى سورة «الأنبياء» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أى: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر.

وقال السدى: يعنى القرآن.

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) ﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم فى [الدار][٣] الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب.

والألف واللام هنا[٤] بمعنى الإضافة، كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها» أى: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها.

قال[٥] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن ثواب الهَبَّارى، حدثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا عبد الله ابن مسلم ـ يعنى: ابن هرمز ـ عن ابن سابط[٦]، عن عبد الله بن عمرو [رضى الله عنهما][٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة قصرا يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب، عند كل باب خمسة آلاف حبَرَة لا يدخله ـ أو: لا يسكنه ـ إلا نبى أو صديق أو شهيد أو إمام عدل»[٨].

وقد ورد فى [ذكر][٩] أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾: قيل: متربعين فيها على سرر[١٠] تحت الحجال، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ

(١) فى ت: «أخلصناهم بذكرهم لها». (٢) فى ت: «لها». (٣) زيادة من س، أ.
(٤) فى ت: «هاهنا». (٥) فى ت: «روى». (٦) فى ت: «بإسناده».
(٧) زيادة من أ.
(٨) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٥٩١) «كشف الأستار» من طريق محمد بن ثواب به، وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٩٦): «فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف».
(٩) زيادة من ت، أ. (١٠) فى أ: «سرير».

كَثِيرَةٍ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا. ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي: من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨].

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾أي: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن، ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: متساويات فى السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والسّدّى.

﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة التى[١] وعدها لعباده المتقين، التى[٢] يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أي: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات فى هذا كثيرة جدا.

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾.

لما ذكر تعالى مآل السعداء، ثَنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم فى دار معادهم وحسابهم، فقال: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسل الله، ﴿ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أي: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أما الحميم فهو: الحار الذى قد انتهى حره، وأما الغَسَّاق فهو: ضده، وهو البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها.

قال[٣] الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبى الهيثم[٤]، عن أبى سعيد [٥] ،عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دَلْواً من غَسَّاق يهراق فى الدنيا، لأنتن أهل الدنيا»[٦].

---

(١) فى ت، س، أ: «الجنة هى التى». (٢) فى أ: «الذين». (٣) فى ت: «روى».
(٤) فى ت: «بسنده». (٥) فى أ: «سعيد رضى الله عنه» .
(٦) المسند (٣/٢٨).

ورواه الترمذى، عن سُوَيْد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رِشْدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دَرّاج، به. ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث رشدين»[١]. كذا قال: وقد تقدم من غير حديثه. ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، به[٢].

وقال كعب الأحبار: غساق: عين فى جهنم، يسيل إليها حُمَة كل ذات حُمَة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستنقع، فيؤتى بالآدمى فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه فى كعبيه وعقبيه، ويُجَر لحمه كما يَجُر الرجل ثوبه. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾: ألوان من العذاب.

وقال غيره: كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة[٣]، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾، هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، يعنى بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون[٤]، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التى بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أى: داخل معكم، ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ [أى][٥]: لأنهم من أهل جهنم[٦]. ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أى: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أى: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أى: فبئس المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾، كما قال عز وجل[٧]: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أى: لكل منكم عذاب بحسبه، ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ. أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾، هذا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون فى زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا فى النار؟

قال[٨] مجاهد: هذا قول أبى جهل، يقول: ما لى لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا.

وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ. أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى: فى الدنيا[٩]، ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾، يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٨٤).
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ١١٤).
(٣) فى ت، س: «المتضاضة والمتخالفة».
(٤) فى ت: «ويتجاذبون».
(٥) زيادة من ت، س.
(٦) فى ت: «النار».
(٧) فى ت، س: «تعالى».
(٨) فى ت: «وقال».
(٩) فى أ: «دار الدنيا».

معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات[١]، وهو[٢] قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿[وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ] [٣] ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ .

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ[٤] أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر[٥] لست كما تزعمون، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: هو[٦] وحده قد قهر كل شيء وغلبه. ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي: غفار مع عزته وعظمته.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياي إليكم، ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي: غافلون.

قال مجاهد، وشريح القاضي، والسدي في قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: القرآن.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني: في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا جهضم اليمامي، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن أبي سلام، عن أبي سلام، عن عبد الرحمن بن عائش، عن مالك بن يخامر، عن معاذ، رضي الله عنه، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعا، فَثَوّب بالصلاة فصلى، وتَجَوّز في صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمت من الليل فصليت ما قُدّر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربي[٧] في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟

---

(١) في ت: «العلا». (٢) في أ: «وهي». (٣) زيادة من ت، س.
(٤) في س: «صلوات الله وسلامه عليه». (٥) في أ: «نذير مبين». (٦) في ت: «وهو».
(٧) في ت، س، أ: «بربي عز وجل».

قلت: لا أدرى رب ـ أعادها ثلاثا ـ فرأيته وضع كفه بين كتفى، حتى وجدت برد أنامله بين صدرى، فتجلى لى كل شىء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: فى الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت[١]: نقل الأقدام إلى الجمعات[٢]، والجلوس[٣] فى المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم، إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفنى غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربنى إلى حبك». وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»[٤]، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو فى السنن من طرق.

وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى من حديث «جهضم بن عبد الله اليمامى» به. وقال: «حسن صحيح»[٥] وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن[٦] إن هذا قد فسر، وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾ .

هذه القصة ذكرها الله، تعالى، فى سورة «البقرة»، وفى أول «الأعراف»، وفى سورة «الحجر»، و[فى][٧] «سبحان»، و«الكهف»، وهاهنا. وهى أن الله، سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم، عليه السلام، بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما، وامتثالا لأمر الله عز وجل. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسا؛ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف[٨] عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى[٩] أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق

(١) فى أ: «قال». (٢) فى ت، أ: «الجماعات». (٣) فى ت، س، أ: «وجلوس».
(٤) المسند (٥/ ٢٤٣).
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) وقال: «سألت محمد بن إسماعيل ـ يعنى: عن هذا الحديث ـ فقال: «حسن صحيح».
(٦) فى ت: «المذكور فى الآية الكريمة فى القرآن».
(٧) زيادة من ت. (٨) فى أ: «فاستأنف». (٩) فى ت: «فادعى».

من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين، في زعمه. وقد أخطأ في ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن(١) باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه «إبليس»، إعلاما له بأنه قد أبْلَس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذى لا يَعْجَل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون فى الآية الأخرى، وهى(٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقوله : ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى(٣) ، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفى رواية عنه: الحق منى، وأقول الحق.

وقرأ آخرون بنصبهما.

قال السدى: هو قسم أقسم الله به.

قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أى: وما أزيد على ما أرسلنى الله به، ولا أبتغى زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة.

قال سفيان الثورى، عن الأعمش ومنصور، عن أبى الضحى، عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يأيها الناس، من علم شيئا فليقل به، ومن لا(٤) يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله(٥) قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. أخرجاه(٦) من حديث الأعمش، به(٧).

---

(١) فى أ: «لم». (٢) فى أ: «الله عز وجل». (٣) فى أ: «من».
(٤) فى أ: «وهو». (٥) فى أ: «الأول».
(٦) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعنى: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه، عن أبى غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء ابن السائب، عن سعيد بن جبير[١]، عن[٢] ابن عباس فى قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الجن والإنس.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، [وكقوله][٣]: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أى: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أى: عن قريب.

قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعنى يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد[٤] دخل فى حكم القيامة.

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾: قال الحسن: يا بن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة «ص»، ولله الحمد والمنة

---

(١) فى ت: «بإسناده».
(٢) فى ت: «إلى».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، س، أ: «قد».

[٤٢٨و] / سورة صٓ

مكّيّة، وهي ستّ وثمانون[1] آيةً.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾

﴿صٓ﴾ بالسكون على الوقف. وقُرئ بالكسر[3] والفتح[4] لالتقاء الساكنَين، ويجوز أن يكون الفتح بإضمار حرف القسَم في موضع الجرّ، كقولهم: "اللهِ لأفعلَنّ" بالجرّ، وأن يكون ذلك نصبًا بإضمار "اذكر" أو "اقرأ"، لا فتحًا كما مرّ في فاتحة سورة البقرة. وامتناعُ الصرف للتعريف والتأنيث؛ لأنّها عَلَم للسورة، وقد صرَفها مَن قرأ "صَادٍ" بالتنوين[5] على أنّه اسم الكتاب أو التنزيل.

وقيل: هو في قراءة الكسر أمْرٌ مِن "المُصاداة"، وهي المعارَضة والمقابَلة، ومنها "الصَّدَى" الذي ينعكس مِن الأجسام الصلبة بمقابلة الصوت، ومعناه: عارِضِ القرآن بعملك، فاعمل بأوامره، وانتهِ عن نواهيه، وتخلّقْ بأخلاقه.

ثمّ إن جُعل اسمًا للحرف مَسرودًا على منهاج التحدّي، أو الرمزِ إلى كلامٍ مِثل: "صدَق الله" أو "صدَق محمّد" كما نُقل عن أكابر السلَف،[6] أو اسمًا للسورة خبرًا لِمبتدأ محذوف، أو نصبًا على إضمار "اذكر" أو "اقرأ"، أو أمرًا مِن "المُصاداة"؛ فـ"الواو" في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ للقَسَم.

---

[1] ط + وقيل: ثمان وثمانون.

[2] م - سورة ص، مكّيّة، وهي ستّ وثمانون آيةً.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه وابن أبي إسحاق والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣٥/٩.

[6] انظر: جامع البيان للطبري، ٧/٢٠؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٥٣٨/٣.

وإن جُعِل مقسَمًا به فهي للعطف عليه. فإن أريدَ بـ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ كلُّه فالمغايرة بينهما حقيقيّة، وإن أريدَ عينُ السورة فهي اعتباريّة، كما في قولك: "مرَرتُ بالرجل الكريم وبالنسَمة المباركة". وأيًّا ما كان ففي التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسَم عليها.

و﴿ٱلذِّكْرِ﴾ الشرَف والنباهة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]، أو الذكرى والموعظة، أو ذِكرُ ما يُحتاج إليه في أمر الدين مِن الشرائعِ والأحكام وغيرها مِن أقاصيص الأنبياء عليهم السلام، وأخبارِ الأمم الدارجة، والوعدِ والوعيد.

وجواب القسَم على الوجه الأوّل والرابع والخامس محذوف، هو ما يُنبئ عنه التحدّي والأمرُ والإقسامُ به مِن كون المتحدَّى به معجِزًا، وكونِ المأمور به واجبًا، وكونِ المقسَم به حقيقًا بالإعظام، / أي: أقسمُ بالقرآن أو بِـ"صَادْ" وبِه إنّه لَمعجِز، أو لَواجبُ العمل، أو لَحَقيقٌ بالإعظام. [٤٢٨ظ]

وأمّا على الوجهَين الباقيَين فهو الكلام المرموز إليه، ونفسُ الجملة المذكورة قبل القسَم، فإنّ التسمية تنويه بشأن المسمَّى، وتنبيه على عِظَم خطَره، أي: إنّه لصادق والقرآنِ ذي الذِّكر، أو هذه السورة عظيمة الشأن والقرآنِ... إلخ، على طريقة قولهم: "هذا حاتِمٌ واللهِ".

ولمّا كان كلّ واحد مِن هذه الأجوبة مُنبِئًا عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكلّيّة إنباءً بيّنًا كان قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضرابًا عن ذلك، كأنّه قيل: لا ريبَ فيه قطعًا، وليس عدمُ إذعان الكفرة له لِشائبة ريبٍ ما فيه؛ بل هم في استكبارٍ وحميّةٍ شديدةٍ وشقاقٍ بعيد لله تعالى ورسوله، ولذلك لا يُذعنون له.

وقيل: الجواب ما دلّ عليه الجملة الإضرابيّة، أي: ما كفَر به مَن كفر لِخلَل وجده فيه؛ بل الذين كفروا... إلخ.

وقُرئ: "فِي غِرَّةٍ"،[1] أي: في غفلة عمّا يجب عليهم التنبّهُ له مِن مبادئ الإيمان ودواعيه.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب مَن قبلهم مِن المستكبرين. و﴿كَمۡ﴾ مفعول ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾، و﴿مِن قَرۡنٖ﴾ تمييز. والمعنى: وقَرْنًا كثيرًا أهلكنا مِن القرون الخالية، ﴿فَنَادَواْ﴾ عند نزول بأسنا وحلولِ نقمتنا استغاثةً وتوبةً، لينجوا مِن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ حال مِن ضمير ﴿نَادَواْ﴾، أي: نادَوا واستغاثوا طلَبًا للنجاة، والحال أن ليس الحينُ حينَ مناصٍ، أي: فَوتٍ ونجاةٍ، مِن "ناصَهُ"، أي: فاتَه، لا مِن "ناصَ" بمعنى: تأخّر، ولا هي المشبَّهة بـ"ليس" زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على "رُبّ" و"ثَمّ". وخُصّت بنفي الأحيان، ولم يَبرُزْ إلّا أحد مَعمولَيها، / والأكثر حذف اسمها. [٤٢٩و]

وقيل: هي النافية للجنس، زيدت عليها "التاء"، وخُصّت بنفي الأحيان، و﴿حِينَ مَنَاصٖ﴾ منصوب على أنّه اسمها، أي: ولا حينَ مناصٍ لهم، أو بفعل مضمَر، أي: ولا أرَى حينَ مناصٍ.

وقُرئ بالرفع،[1] فهو على الأوّل اسمُها، والخبر محذوف، أي: ليس حينُ مناصٍ حاصلًا لهم، وعلى الثاني مبتدأ محذوف الخبر، أي: ولا حينُ مناصٍ كائنٌ لهم. وقُرئ بالكسر،[2] كما في قوله:

طلبوا صُلحَنا ولاتَ أوانٍ فأجبنا أن لاتَ حينَ بقاءِ[3]

إمّا لأنّ "لاتَ" تَجُرّ الأحيانَ، كما أنّ "لولا" تَجُرّ الضمائر في نحو قوله:

لولاكَ هذا العامَ لم أحجُجِ[4]

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩. وضبطها أبو حيّان: "وَلَاتُ حِينُ" بضمّ "التاء" ورفع "النون". انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٣٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩. وضبطها أبو حيّان: "وَلَاتِ حِينِ" بكسر "التاء" وجرّ "النون". انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٣٦.

[3] لأبي زُبيد الطائي في الكشّاف للزمخشري، ٤/٧١. وهو كذلك في لسان العرب لابن منظور، «لا»؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٢/٦٤٠، بلفظ: "أن ليس حينَ بقاءِ".

[4] صدره:

أَوْمَتْ بكفّيها مِن الهَودجِ

وهو في شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٤٧٩، في قسم الشعر المنسوب إليه.

أو لأنّ "أوانٍ" شُبّه بـ"إذٍ" في قوله:

نَهَيتُكَ عن طِلابِكَ أمَّ عمرو بعاقِبةٍ وأنتَ إذٍ صحيحُ[١]

في أنّه زمانٌ قُطع منه المضاف إليه، وعُوِّض التنوينَ؛ لأنّ أصله "أوانَ صلحٍ"، ثمّ حُمِل عليه "حينِ مناصٍ" تنزيلًا لقطع المضاف إليه مِن "مَناصٍ" -إذ أصله "حينَ مَناصِهم"- منزلةَ قطعه مِن "حين"، لِما بين المضافَين مِن الاتّحاد، ثمّ بُني "الحينُ" لإضافته إلى غير متمكِّن.

وقُرئ: "لَاتِ" بالكسر،[٢] كـ"جَيْرِ".[٣] ويقف الكوفيّون عليها بـ"الهاء"[٤] كالأسماء، والبَصريّة بـ"التاء" كالأفعال.

وما قيل[٥] مِن أنّ "التاء" مزيدة على "حِينَ" لاتّصالها به في الإمام ممّا لا وجهَ له، فإنّ خطّ المصحف خارج عن القياس.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤﴾

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ حكاية لأباطيلهم المتفرّعة على ما حُكي مِن استكبارهم وشِقاقهم، أي: عجِبوا مِن أن جاءهم رسولٌ مِن جنسهم؛ بل أدوَنُ منهم في الرياسة الدنيويّة والمال، على معنى أنّهم عدُّوا ذلك أمرًا عجيبًا خارجًا عن احتمال الوقوع، وأنكروه أشدّ الإنكار، لا أنّهم اعتقدوا وقوعَه وتعجّبوا منه.

[٤٢٩ظ] / ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وُضع فيه الظاهر موضعَ الضمير غضبًا عليهم، وإيذانًا بأنّه لا يَتجاسر على مِثل ما يقولونه إلّا المتوغِّلون في الكفر والفسوق:

---

١ لأبي ذُؤيب الهذلي في الصحاح للجوهري، «إذ»؛ ولسان العرب لابن منظور، «أذذ». و"الطِّلاب" بمعنى الطَّلَب. و"بِعاقبة": حال مِن "الكاف" الأولى والثانية، والاسميّة حال ثانية. انظر: شرح شواهد المغني للسيوطي، ١/٢٦١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

٣ "جَيْرِ" بكسر "الراء"، وقد يُنوّن، وكـ"أَيْنَ": يَمين، أي: حقًّا، أو بمعنى: نعَم أو أجَل. القاموس المحيط للفيروزابادي، «جير».

٤ وبذلك قرأ الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/١٣٢.

٥ قاله أبو عبيد القاسم بن سلّام، وقال: «فالوقف عندي على "لا"، والابتداء "تَحِين"؛ لأنّي نظرتها في الإمام "تَحِين" "التاء" متّصلة». انظر: النشر لابن الجزري، ٢/١٥٠.

﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ فيما يُظهره مِن الخوارق ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يُسنده إلى الله تعالى مِن الإرسال والإنزال.

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بأن نَفَى الألوهيّة عنهم وقَصَرها على واحدٍ، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ بليغ في العجَب، وذلك لأنّه خلاف ما أَلْفَوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على ألوهيّتهم، وواظبوا على عبادتهم كابِرًا عن كابِر، فإنّ مدار كلّ ما يأتون وما يذَرون مِن أمور دينهم هو التقليد والاعتياد، فيعدّون ما يخالف ما اعتادوه عجيبًا؛ بل مُحالًا.

وأمّا جعلُ مدارِ تعجّبهم عدمَ وفاءِ علمِ الواحد وقدرته بالأشياء الكثيرة[١] فلا وجهَ له، لِما أنّهم لا يدّعون أنّ لآلهتهم عِلمًا وقدرةً ومدخلًا في حدوث شيء مِن الأشياء حتّى يلزم مِن نفي أُلوهيّتهم بقاءُ الآثار بلا مؤثِّر.

وقُرئ: "عُجّابٌ" بالتشديد،[٢] وهو أبلَغ، كـ"كُرّام" و"كُرام".[٣]

رُوي أنّه لمّا أسلم عمر رضي الله عنه شقّ ذلك على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون مِن صناديدهم، فأتَوا أبا طالب فقالوا: «أنتَ شيخنا وكبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك»، فاستحضرَ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال: «يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤالَ، فلا تَمِل كلَّ المَيل على قومك»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «ماذا تسألونني؟»، قالوا: «ارفُضْنا وارفُضْ ذكرَ آلهتِنا ونَدَعُك / وإلهَك»، فقال [٤٣٠و]
صلّى الله عليه وسلّم: «أرأيتم إن أعطيتُكم ما سألتم أمُعطيّ أنتم كلمةً واحدةً

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٢٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه والسلمي وعيسى وابن مقسم. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٣٨.

٣ "الكُرام" بالضمّ مثل "الكَريم"، فإذا أفرط في الكَرَم قيل: "كُرّام" بالتشديد. الصحاح للجوهري، «كرم».

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٧٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٧٢.

تملكون بها العربَ وتدينُ لكم بها العجَم؟» قالوا: «نعم، وعَشرًا»»، فقال: «قولوا: "لا إله إلّا الله"»»، فقاموا، وقالوا ذلك.[٤]

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي: وانطلق الأشراف مِن قريش عن مجلس أبي طالب بعد ما بَكَّتَهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالجواب العتيد، وشاهَدوا تصلّبه عليه السلام في الدين، وعزيمتَه على أن يُظهره على الدين كلّه، ويَئِسوا ممّا كانوا يرجونه بتوسّط أبي طالب مِن المصالحة على الوجه المذكور.

﴿أَنِ ٱمْشُواْ﴾ أي: قائلين بعضهم لبعضٍ على وجه النصيحة: امْشُوا ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي: واثبتوا على عبادتها متحمّلين لِما تسمعونه في حقّها مِن القَدح. و﴿أَن﴾ هي المفسِّرة؛ لأنّ الانطلاق عن مجلس التقاوُل لا يخلو عن القول. وقيل: المراد بـ"الانطلاق" الاندفاعُ في القول. و﴿ٱمْشُواْ﴾ مِن "مَشَت المرأة" إذا كثُرَت وِلادتُها، ومنه "الماشية" لِلتفَوُّل،[١] أي: اجتَمِعوا واكثُروا. وقُرِئ: ﴿ٱمْشُواْ﴾ بغير ﴿أَن﴾[٢] على إضمارِ القول. وقُرِئ: "يَمْشُونَ أَنِ اصْبِرُوا".[٣]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر، أو لوجوب الامتثال به، أي: هذا الذي شاهدناه مِن محمّد صلّى الله عليه وسلّم مِن أمر التوحيد ونفيِ آلهتنا وإبطالِ أمرها لَشيءٌ[٤] يُراد -أي: مِن جهته عليه السلام- إمضاؤُه وتنفيذُه لا محالةَ، مِن غير صارِف[٥] يَلويه، ولا عاطِف يَثْنِيه، لا قولٌ يُقال مِن طرَف اللسان، أو أمرٌ يُرجَى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله مِن رَأيه / بوساطة أبي طالب وشفاعته، وحسبُكم أن لا تُمنَعوا مِن عبادة آلِهتكم بالكلّيّة، فاصبروا عليها، وتحمّلوا ما تسمعونه في حقّها مِن القَدح وسُوءِ القالة. [٤٣٠ظ]

---

١ التَّفَوُّل والتَّفاؤل ضدّ الطِّيَرة، يقال: "تَفاءَلْتُ بكذا" و"تَفَأَّلْتُ". انظر: لسان العرب لابن منظور، «فأل».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٧٣/٤.

٤ س: بشيء.

٥ س: ضارف.

وقيل: إنّ هذا الأمر لَشيء يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه، وما أراد الله كونَه فلا مردَّ له، ولا ينفع فيه إلّا الصبر. وقيل: إنّ هذا الأمر لَشيء مِن نوائب الدهر يرادُ بنا، فلا انفكاكَ لنا منه. وقيل: إنّ دينكم لَشيء يُراد -أي: يُطلب- لِيؤخذ منكم وتُغلَبوا عليه. وقيل: إنّ هذا الذي يدّعيه مِن التوحيد أو يقصِده مِن الرياسة والترفّع على العرب والعجَم لَشيء يُتمنّى ويريده كلُّ أحد.

فتأمّل في هذه الأقاويل، واختر منها ما يساعده النظم الجليل.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: المِلّة النصرانيّة التي هي آخر المِلَل، فإنّهم مُثلِّثة، أو في المِلّة التي أدركنا عليها آباءَنا. ويجوز أن يكون الجارّ والمجرور حالًا مِن ﴿هَٰذَا﴾، أي: ما سمعنا بهذا مِن أهل الكتاب ولا الكُهّان كائنًا في المِلّة المترقَّبة، ولقد كذَبوا في ذلك أقبَح كذِبٍ، فإنّ حديث البعثة والتوحيد كان أشهر الأمور قبل الظهور.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: كذِبٌ اختلَقَه.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: القرآنُ ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ونحن رؤساء الناس وأشرافُهم، كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ[١] عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، ومرادُهم إنكارُ كونه ذِكرًا منزَّلًا مِن الله عزّ وجلّ، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦]. وأمثالُ هذه المقالات الباطلة دليل على أنّ مَناط تكذيبهم ليس إلّا الحسَدَ وقَصْرَ النظر على الحطام الدنيوي.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي: مِن القرآن، أو الوحي، / لمَيلهم إلى التقليد، [٤٣١و]
وإعراضِهم عن النظر في الأدلّة المؤدّية إلى العلم بحقّيّته، وليس في عقيدتهم ما يبتّون به، فهم مذَبذَبون بين الأوهام، ينسبونه تارةً إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق.

---

[١] وفي هامش م: مكّة وطائف. «منه».

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: بل لم يذوقوا بعدُ عذابي، فإذا ذاقوه تبيّن لهم حقيقة الحال. وفي ﴿لَمَّا﴾ دلالة على أنّ ذوقهم على شرَف الوقوع. والمعنى: أنّهم لا يصدِّقون به حتّى يمسّهم العذاب. وقيل: لم يذوقوا عذابي الموعودَ في القرآن، ولذلك شكّوا فيه.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ بل أعِندهم خزائن رحمته تعالى يتصرّفون فيها حسبما يشاءون، حتّى يصيبوا بها مَن شاءوا، ويصرفوها عمّن شاءوا، ويتحكّموا فيها بمقتضى آرائهم، فيتخيّروا للنبوّة بعضَ صناديدهم؟ والمعنى: أنّ النبوّة عطيّة مِن الله عزّ وجلّ، يتفضّل بها على مَن يشاء مِن عباده المصطفَين، لا مانعَ له، فإنّه العزيز، أي: الغالبُ الذي لا يُغالَب، الوهّاب الذي له أن يهَبَ كلَّ ما يشاء لكلّ مَن يشاء.

وفي إضافة اسم "الربّ" المنبئ عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه واللطف به ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ترشيح لِما سبَق، أي: بل ألَهُم مُلك هذه العوالم العلويّة والسفليّة حتّى يتكلّموا في الأمور الربّانيّة، ويتحكّموا في التدابير الإلهيّة التي يستأثر بها ربّ العزّة والكبرياء؟

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جواب شرط محذوف، أي: إن كان لهم ما ذُكر مِن المُلك فليَصعَدوا في المعارج والمناهج التي يُتوصّل بها إلى العرش / حتّى يستووا عليه، ويدبّروا أمر العالَم، ويُنزلوا الوحي إلى مَن يختارون ويستصوِبون. وفيه مِن التهكّم بهم ما لا غايةَ وراءه. و"السبب" في الأصل هو الوُصلة. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ السماواتُ؛ لأنّها أسباب الحوادث السفليّة. وقيل: أبوابُها. [٤٣١ظ]

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢﴾

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: هم جندٌ ما مِن الكفّار المتحزّبين على الرسل، مهزومٌ مكسور عمّا قريبٍ، فلا تبالِ بما يقولون، ولا تكترِث بما يَهذُون. و﴿مَا﴾ مزيدة للتعليل[١] والتحقير، نحو قولك: "أكلْتُ شيئًا ما". وقيل: للتعظيم على الهُزْء. و﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى حيث وَضعوا فيه أنفسَهم مِن الانتداب لمِثل[٢] ذلك القول العظيم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾... إلخ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العُتاة الطُّغاة الذين هؤلاء جندٌ ما مِن جنودهم، ممّا[٣] فَعلوا مِن التكذيب، وفُعِل بهم مِن العقاب. و﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ معناه: ذو المُلك الثابت، أصله مِن ثباتِ البيت المُطنَّب[٤] بأوتاده، فاستُعير لثبات المُلك ورسوخِ السلطَنة واستقامةِ الأمر، قال الأسود بن يَعفُر:[٥]

ولقد غَنُوا فيها[٦] بأنعَمِ عيشةٍ في ظلِّ مُلكٍ ثابتِ الأوتادِ[٧]

أو ذو الجموع الكثيرة، سُمُّوا بذلك لأنّ بعضهم يشدّ بعضًا كالوَتَد يشدّ البناء.

وقيل: نصَبَ أربع سَوارٍ، وكان يمدّ يدَي المعذَّب ورجليه إليها، ويضرب عليها أوتادًا، ويتركه حتّى يموت. وقيل: كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض، ويُرسِل عليه العقارب / والحيّات. وقيل: كانت له أوتاد وحِبال يُلعَب بها بين يديه. [٤٣٢و]

---

١ ط س: للتقليل.

٢ ط س: بمثل.

٣ س: بما.

٤ "الطُّنُب": حَبل الخِباء، والجمع "أطناب". يقال: "خِباءٌ مُطنَّب" و"رِواق مُطنَّب"، أي: مشدودٌ بالأطناب. الصحاح للجوهري، «طنب».

٥ هو الأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي، أبو نهشل، وأبو الجرّاح (ت. نحو ٢٢ق هـ/٦٠٠م). شاعر جاهلي، مِن سادات تميم، مِن أهل العراق. كان فصيحًا جوادًا. نادَم النعمان بن المنذر. ولمّا أسنّ كُفّ بصره. ويقال له: "أعشى بني نهشل"، أشهر شعره داليّته التي مطلعها:

نام الخَليّ وما أحسّ رُقادي والهمّ محتضر لديّ وِسادي

انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٤٨/١؛ والأعلام للزركلي، ١٨٨/٤.

٦ وفي هامش م: ضمير "فيها" راجع إلى "المنازل" فيما قبله مِن قوله:

ماذا أُؤَمِّل بعد آلِ مُحرِّق تركوا منازلهم وبعد إيادِ

٧ للأسود بن يَعفُر النهشلي في المفضّليّات للمفضّل الضبّي، ص ٢١٧.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أصحاب الغَيضة مِن قوم شعيب عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ إمّا بدل مِن الطوائف المذكورة، كما أنّ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة، ٢/٢] بدل مِن ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة، ١/٢] على أحد الوجوه، وفيه فضل تأكيد وتنبيهٌ على أنّهم الذين جُعل الجندُ المَهزوم منهم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ استئناف جيء به تقريرًا لِتكذيبهم، وبيانًا لكيفيّته، وتمهيدًا لِما يَعقُبه، أي: ما كلّ أحدٍ مِن آحاد أولئك الأحزاب، أو ما كلّ حزب منهم إلّا كذّب الرسل؛ لأنّ تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعًا، لاتّفاق الكلّ على الحقّ. وقيل: ما كلّ حزب إلّا كذّب رسولَه، على نهج مقابَلة الجمع بالجمع.

وأيًّا ما كان فالاستثناء مفرَّغ مِن أعمّ العامّ في خبر المبتدأ، أي: ما كلّ أحد منهم محكومًا عليه بحكمٍ إلّا محكومٌ عليه بأنّه كذّب الرسل. وقيل:[١] ما كلّ واحد منهم مخبَرًا عنه بخبَرٍ إلّا مخبَرٌ عنه بأنّه كذّب الرسل.

وفي إسناد التكذيب إلى الطوائف المذكورة على وجه الإبهام **أوّلًا**، والإيذانِ بأنّ كلًّا منهم حِزب على حِياله تحزَّب على رسوله **ثانيًا**، وتبيينِ كيفيّة تكذيبهم بالجملة الاستثنائيّة **ثالثًا**؛ فنونٌ مِن المبالغة مُسَجِّلةٌ عليهم باستحقاق أشدّ العذاب وأفظَعِه، ولذلك رُتّب عليه قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: ثبَتَ ووقَع على كلٍّ منهم عقابي الذي كانت توجبُه جناياتهم مِن أصناف العقوبات المفصّلة في مواقعها.

وإمّا مبتدأ،[٢] وقولُه تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ خبره بحذف العائد، أي: إن كلٌّ منهم... إلخ، والجملة استئناف مقرّر لِما قبله، مؤكِّد لمضمونه، مع ما فيه مِن بيان كيفيّة تكذيبهم، والتنبيهِ على أنّهم الذين جُعل الجُند المهزوم منهم كما ذُكر.

---

[١] وفي هامش م: الفاضل التفتازاني. «منه». | انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٤٠٦و.

[٢] وفي هامش م: عطف على "إمّا بدل". «منه».

وقيل: هو[١] مبتدأ وخبر، / والمعنى: أنّ الأحزاب الذين جُعل الجُند المهزومُ [٤٣٢ظ]
منهم هُمْ هُمْ، وأنّهم الذين وُجِد منهم التكذيب، فتدبّر.

وأمّا ما قيل[٢] مِن أنّه خبر، والمبتدأ قوله: ﴿وَعَادٌ﴾... إلخ،[٣] أو قوله: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾... إلخ؛[٤] فممّا يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ شروع في بيان عِقاب كفّار مكّة إثرَ بيان عقاب أضرابهم مِن الأحزاب الذين أُخبِر فيما سبق بأنّهم جُند حقير منهم مهزوم عن قريب، فإنّ ذلك ممّا يوجب انتظار السامع وترقُّبَه إلى بيانه قطعًا. وفي الإشارة إليهم بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تحقير لشأنهم، وتهوينٌ لأمرهم.

وأمّا جعله إشارة إلى "الأحزاب" باعتبار حضورهم بحسب الذكر، أو حضورِهم في علم الله عزّ وجلّ؛[٥] فليس في حيّز الاحتمال أصلًا، كيف لا والانتظارُ سواء كان حقيقةً أو استهزاءً إنّما يُتصوّر في حقّ مَن لم يترتّب على أعماله نتائجُها بعدُ؟

وبعدَ ما بيّن عقابُ الأحزاب واستئصالهم بالمرّة لم يبقَ ممّا أريدَ بيانه مِن عقوباتهم أمر منتظَر، وإنّما الذين في مرصد الانتظار كفّار مكّة، حيث ارتكبوا مِن عظائم الجرائم وكبائرِ الجَرائر الموجِبة لأشدّ العقوبات مثلَ ما ارتكب الأحزابُ أو أشدَّ منه، ولمّا يلاقوا بعدُ شيئًا مِن غوائلها. أي: وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلَكة في الكفر والتكذيب ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخة الثانية، لا بمعنى أنّ عقابهم نفسُها بما فيها مِن الشدّة والهَول، فإنّها داهية يعمّ هولُها جميعَ الأمم برَّها وفاجرَها؛ بل بمعنى أنّه ليس بينهم وبين حلول

---

١ أي: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾.
٢ قاله أبو البقاء في التبيان، ١٠٩٨/٢.
٣ ص، ١٢/٣٨.
٤ ص، ١٣/٣٨.
٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٧٧/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦/٥.

ما أُعِدّ لهم مِن العقاب الفظيع إلّا هي، حيث أُخّرت عقوبتهم إلى الآخرة لِما أنّ تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقّونه والنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بين أَظهُرِهم خارجٌ عن السنّة الإلهيّة / المبنيّةِ على الحِكم الباهرة كما نطق به قوله [٤٣٣و]
تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال، ٨/٣٣].

وأمّا ما قيل[١] مِن أنّها النفخة الأولى فمِمّا لا وجهَ له أصلًا، لِما أنّه لا يشاهِد هولَها ولا يصعَق بها إلّا مَن كان حيًّا عند وقوعها، وليس عقابهم الموعودُ واقعًا عَقيبَها، ولا العذابُ المطلق مؤخَّرًا إليها؛ بل يحُلّ بهم مِن حين موتهم.

﴿مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: مِن توقّفٍ مقدارَ فَواق، وهو ما بين الحَلْبَتَين. وقُرئ بضمّ "الفاء"،[٢] وهما لغتان.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ حكاية لِما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة، أي: قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية: عجّل لنا قِسطنا مِن العذاب الذي تُوْعِدْنا به، ولا تؤخّره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة المذكورة. و"القِطّ": القطعة مِن الشيء، مِن "قَطَّه" إذا قطعه، ويقال لصحيفة الجائزة: "قِطّ"؛ لأنّها قطعة مِن القرطاس، وقد فُسّر بها،[٣] أي: عجّل لنا صحيفةَ أعمالنا لننظر فيها.

وقيل: ذكَرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعْدَ الله تعالى المؤمنين الجنّةَ، فقالوا على سبيل الهُزْء به: عجّل لنا نصيبنا منها.

وتصديرُ دعائهم بالنداء المذكور للإمعان في الاستهزاء، كأنّهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِن أمثال هذه المقالات الباطلة، ﴿وَٱذْكُرْ﴾ لهم ﴿عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ أي: قصّتَه تهويلًا لأمر المعصية في أعينهم، وتنبيهًا لهم على كمال قُبح

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٢٦.
٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.
٣ فسّره بها أبو العالية والكلبي. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٨٢؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣/٥٤٣.

ما اجترءوا عليه مِن المعاصي، فإنّه عليه السلام مع علوّ شأنه واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لمّا أَلَمَّ بصغيرةٍ نزَل عن منزلته ووَبَّخَتْه الملائكة بالتمثيل والتعريض حتّى / تفطّن فاستغفرَ ربّه وأناب، ووُجِد منه ما يُحكَى مِن بكائه الدائب، وغمِّه الواصب، وندمِه الدائم، فما الظنّ بهؤلاء الكفرة الأذلّين مِن كلّ ذليل، المرتكبين لأكبر الكبائر، المصرّين على أعظم المعاصي. [٤٣٣ظ]

أو تذكّرْ قصّتَه عليه السلام، وصُنْ نفسَك أن تزِلّ فيما كُلِّفتَ مِن مصابرتهم وتحمّلْ أذيّتَهم كيلا يلقاك ما لقيَه مِن المعاتبة.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: ذا القوّة. يقال: "فلان أَيِّدٌ" و"ذو أَيدٍ" و"آدٍ" بمعنًى، وإيادُ كلّ شيء: ما يتقوّى به. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى مرضاة الله تعالى، وهو تعليل لكونه ذَا الأَيْدِ، ودليل على أنّ المراد به القوّة في الدين، فإنّه عليه السلام كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ويقوم نصف الليل.[1]

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ استئناف مَسوق لتعليل قوّته في الدين، وأوّابيّتِه إلى مرضاته تعالى. و"مع" متعلِّقة بالتسخير، وإيثارُها على "اللام" لِما أشيرَ إليه في سورة الأنبياء[2] مِن أنّ تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرّف الكلّي فيها إليه عليه السلام كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام؛ بل بطريق التبعيّة له عليه السلام والاقتداءِ به في عبادة الله تعالى.

وقيل: متعلِّقة بما بعدها، وهو أقرب بالنسبة إلى ما في سورة الأنبياء.[3]

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ أي: يقدّسن الله عزّ وجلّ بصوت يتمثّل له، أو بخلق الله تعالى فيها الكلام، أو بلسان الحال. وقيل: يَسِرن معه، مِن "السباحة". وهو حال مِن ﴿ٱلْجِبَالَ﴾،

---

[1] في صحيح البخاري، ١٦١/٤ (٣٤٢٠)؛ وصحيح مسلم، ٨١٦/٢ (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أَحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأَحبّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثُلثَه، وينام سُدسَه».

[2] الأنبياء، ٧٩/٢١.

[3] الأنبياء، ٧٩/٢١.

وُضع موضع "مسبِّحاتٍ" للدلالة على تجدّد التسبيح حالًا بعد حال، أو استئنافٌ مبيّن لكيفيّة التسخير.

[٤٣٤و] ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي: ووقتِ الإشراق، وهو / حين تُشرِق الشمس، أي: تُضيء ويَصفو شعاعها، وهو وقت الضحى، وأمّا شُروقها فطُلوعُها، يقال: "شَرَقت الشمس ولمّا تُشرِق". وعن أمّ هانئ رضي الله عنها أنّه عليه السلام صلّى صلاة الضحى، وقال: «هذه صلاة الإشراق».[١] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما عرفتُ صلاة الضحى إلّا بهذه الآية».[٢]

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةًۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٩﴾

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾[٣] ﴿مَحْشُورَةً﴾ حال مِن ﴿ٱلطَّيْرَ﴾، والعامل ﴿سَخَّرْنَا﴾،[٤] أي: وسخّرنا الطير حالَ كونها محشورة. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان إذا سبّح جاوبَتْه الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبّحت، وذلك حشرُها».[٥] وقُرئ: "وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ" بالرفع[٦] على الابتداء والخبريّة.

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ استئناف مقرِّر لمَضمون ما قبله مصرِّح بما فُهم منه إجمالًا مِن تسبيح الطير، أي: كلّ واحدٍ مِن الجبال والطير لأجل تسبيحه رجّاعٌ إلى التسبيح. ووضعُ "الأوّاب" موضع المسبّح إمّا لأنّها كانت تُرجّع التسبيح، والمرجِّعُ رجّاع؛ لأنّه يَرجِع إلى فِعله رجوعًا بعد رجوع، وإمّا لأنّ "الأوّاب" هو التوّاب الكثيرُ الرجوع إلى الله تعالى، ومِن دأبه إكثارُ الذِّكر وإدامةُ التسبيح والتقديس. وقيل: الضمير لله عزّ وعلا،[٧] أي: كلٌّ مِن داود والجبال والطير لله أوّابٌ، أي: مسبِّح مُرجِّع للتسبيح.

---

[١] المعجم الكبير للطبراني، ٤٠٦/٢٤ (٩٨٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٣/٨.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦/٥. وانظر: جامع البيان للطبري، ٤٤/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٨٣/٨.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] س: حشرنا. | التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٧٩/٤.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

[٧] ط س: عزّ وجلّ.

﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾

﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ قوّيناه بالهيبة والنصرة وكثرةِ الجنود. وقُرئ بالتشديد[1] للمبالغة. قيل: كان يَبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئِم.[2] وقيل: ادّعى رجل على آخَرَ بقرةً وعجزَ عن إقامة البيّنة، فأُوحيَ إليه في المنام أن اقتُلِ المدّعَى عليه، فتأخَّر، فأُعِيد الوحي في اليقظة، فأعلمه الرجلَ، فقال: «إنّ الله تعالى لم يأخذني بهذا الذنب، ولكن بأنّي قتلتُ أبا هذا غِيلةً»، فقتله، فقال الناس: «إن أذنبَ أحد ذنبًا أظهره الله تعالى / عليه»، فقتله، فهابوه وعظمت هيبته في القلوب.[3] [٤٣٤ظ]

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ النبوّةَ وكمالَ العلم وإتقانَ العمل. وقيل: الزبورَ وعلمَ الشرائع. وقيل: كلُّ كلام وافق الحقّ فهو حكمة.

﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: فصلَ الخصام بتمييز الحقّ عن الباطل، أو الكلامَ الملخَّص الذي ينبِّه المخاطبَ على المَرام مِن غير التباس، لِما قد رُوعي فيه مظانّ الفصل والوصل، والعطف والاستئناف، والإضمار والإظهار، والحذف والتكرار. وإنّما سُمِّي به "أمّا بَعدُ"[4] لأنّه يفصل المقصود عمّا سِيق تمهيدًا له، كالحمد والصلاة. وقيل: هو الخطاب الفَصلُ الذي ليس فيه إيجاز مُخِلّ، ولا إطنابٌ مُمِلّ، كما جاء في نعت كلام النبوّة: «فَصْلٌ، لا نَزْرٌ، ولا هَذْر».[5]

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ۝٢١﴾

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماع ما في حيّزه لإيذانه بأنّه مِن الأنباء البديعة التي حقّها أن تشيع فيما بين كلّ حاضر وبادٍ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٧٩/٤. و"مُستَلْئِم": لَابِس اللَّأمةِ، وهي الدِّرع. انظر: لسان العرب لابن منظور، «لأم».

٣ تفسير السمرقندي، ١٦١/٣؛ غرائب التفسير للكرماني، ٩٩٥/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٧٩/٤.

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٥١/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٨٥/٨.

٥ من حديث أمّ مَعبد في المعجم الكبير للطبراني، ٤٨/٤ (٣٦٠٥)؛ والمستدرك للحاكم، ١٠/٣ (٤٢٧٤)؛ وشرح السنّة للبغوي، ٢٦١/١٣ (٣٧٠٤).

و"الخَصم" في الأصل مصدر، ولذلك يطلق على الواحد والجمع، كـ"الضيف". ومعنى ﴿خَصْمَانِ﴾:[١] فريقان.

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي تصعّدوا سُورَه، ونزلوا إليه. و"السُّور" الحائط المرتِفع، ونظيره "تَسَنَّمَه" إذا علا سَنامه، و"تَذَرَّاه" علا ذِروته. و﴿إِذْ﴾ متعلّقة بمحذوف، أي: نَبأُ تحاكُمِ الخصم إذ تسوَّروا، أو بـ"النَّبأ" على أنّ المراد به الواقعُ في عهد داود عليه السلام، وأنّ إسناد الإتيان إليه على حذف مضافٍ، أي: قصّةُ نبأِ الخصم، أو بـ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ لِما فيه مِن معنى الخصومة، لا بـ"أَتَى"؛ لأنّ إتيانه الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم لم يكن حينئذ.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ بدل ممّا قبله، أو ظرف لـ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾،[٢]

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ رُوي أنّه تعالى بَعَث إليه ملَكَين في صورة إنسانَين -قيل:[٣] هما جبريل وميكائيل عليهما السلام- فطلَبا أن يدخلا عليه، فوَجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرَس، فتسوَّرا عليه المحراب بمَن معهما مِن الملائكة، فلم يشعُر إلّا وهما بين يدَيه جالسان، ففَزِع منهم؛ لأنّهم نزلوا عليه مِن فوقُ على خلاف العادة، والحرسُ حولَه، وفي غير يومِ الحكومة والقضاء.[٤]

[٤٣٥و] / قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ داود عليه السلام[٥] جَزَّأَ زمانَه أربعةَ أجزاء، يومًا للعبادة، ويومًا للقضاء، ويومًا للاشتغال بخاصّة نفسه، ويومًا للوعظ والتذكير».[٦]

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأَ مِن حكاية فَزَعِه عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قالت الملائكة عند مشاهدتهم لفَزَعه عليه السلام؟ فقيل: قالوا إزالةً لفَزَعه:

---

١ في الآية التالية.
٢ في الآية السابقة.
٣ وفي هامش م: قاله الكواشي في تفسيره. «منه». | تفسير الكواشي، ٤٥٢ظ.
٤ جامع البيان للطبري، ٦٦/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٧/٨.
٥ م - عليه السلام.
٦ الكشّاف للزمخشري، ٨٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٧/٩. وذكر نحوه السمرقندي في تفسيره، ١٦٢/٣، عن الحسن البصري.

﴿لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ﴾ أي: نحن فَوجان متخاصمان، على تسمية مصاحب الخَصم خَصمًا، ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ هو على الفَرْض وقَصدِ التعريض، فلا كذبَ فيه، ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ أي: لا تَجُرْ في الحكومة. وقُرئ: "وَلَا تَشْطُطْ"،[١] أي: لا تَبعُدْ عن الحقّ. وقُرئ: "وَلَا تُشَطِّطْ"،[٢] و"لَا تُشَاطِطْ"،[٣] وكلّها مِن معنى "الشَّطَطِ"، وهو مجاوزة الحدّ، وتخطّي الحقّ.

﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ إلى وسط طريق الحقّ بزَجْرِ الباغي عمّا سلكه مِن طريق الجَور، وإرشاده إلى منهاج العدل.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ استئناف لبيان ما فيه الخصومة، أي: أخي في الدين، أو في الصُحبة، والتعرّضُ لذلك تمهيد لبيان كمال قُبح ما فعَل به صاحبه. ﴿لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ هي الأنثى مِن الضأن، وقد يُكْنَى بها عن المرأة، والكنايةُ والتعريضُ أبلَغ في المقصود. وقُرئ: "تَسْعٌ وَتَسْعُونَ" بفتح "التاء"،[٤] و"نِعْجَةٌ" بكسر "النون".[٥] وقُرئ: "وَلِي نَعْجَةٌ" بسكون "الياء".[٦]

﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: مَلِّكْنِيها، وحقيقته: اجعلني أكفَلُها كما أكفَلُ ما تحت يدي. وقيل: اجعلها كِفْلِي، أي: نصيبي. ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: غلَبَني في مخاطبته إيّايَ محاجّةً بأن جاء بحِجاجٍ لم أقدر على ردّه، أو في مغالبته إيّاي في الخِطبة، يقال: "خَطَبْتُ المرأة، وخَطَبَها هو، فخاطَبَني خِطابًا"، أي: غالَبَني في الخِطبة، فغلَبَني حيث زُوّجَها دوني.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة وابن أبي عبلة وأبي حَيوة. المحتسب لابن جنّي، ٢٣١/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٨/٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن زرّ بن حبيش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

[٦] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير روايتَي حفص عن عاصم وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

[٤٣٥ظ] وقُرئ: "وَعَازَّنِي"،[١] أي: غالَبَني، و"عَزَنِي" بتخفيف / "الزاء"[٢] طلبًا للخِفّة، وهو تخفيف غريب، كأنّه قِيس على "ظَلْتَ" و"مَسْتَ".

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ جواب قسم محذوف، قَصد به عليه السلام المبالغة في إنكار فعلِ صاحبه، وتهجينِ طمَعه في نعجة مَن[٣] ليس له غيرُها، مع أنّ له قطيعًا منها، ولعلّه عليه السلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادّعاه عليه، أو بناه على تقدير صِدق المدّعي. و"السؤال" مصدر مضاف إلى مفعوله، وتعديتُه إلى مفعول آخَر بـ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمّنه معنى الإضافة والضمّ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي: الشركاءِ الذين خلطوا أموالهم ﴿لَيَبْغِى﴾ لَيتعدّى. وقُرئ بفتح "الياء"[٤] على تقدير "النون" الخفيفة وحذفِها،[٥] وبحذف "الياء"[٦] اكتفاءً بالكسر. ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ غيرَ مُراعٍ لحقّ الصحبة والشركة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منهم، فإنّهم يتحامَون عن البغي والعدوان، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: وهُم قليل، و﴿مَا﴾ مزيدة للإبهام والتعجّبِ مِن قِلّتهم، والجملة اعتراض.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ الظنّ مستعار للعِلم الاستدلالي، لِما بينهما مِن المشابهة الظاهرة، أي: علِمَ بما جرى في مجلس الحكومة. وقيل: لمّا قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحِك، ثمّ صَعِدا إلى السماء حِيالَ وجهه، فعلِمَ عليه السلام أنّه تعالى ابتلاه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والضحّاك وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وطلحة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٩/٩.

٣ س – مَن.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الذِماري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٥ س: وحذفها.

٦ أي: "لَيَبْغِ". قراءة شاذّة، نسبها الكرماني إلى أهل الشام. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه السلام دونَ غيره بتوجيه القصر المستفاد مِن كلمة ﴿أَنَّمَا﴾ إلى المفعول بالقياس إلى مفعولٍ آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر إلى متعلَّقات الفعل وقيودِه باعتبار النفي فيه والإثبات فيها، كما في مثل قولك: "إنّما ضربت زيدًا، وإنّما ضربته تأديبًا"؛ بل على تخصيص حاله عليه السلام بالفتنة بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يُغايره مِن الأفعال، لكن لا باعتبار النفي والإثبات معًا في خصوصيّة الفعل، فإنّه غير ممكن قطعًا؛ بل باعتبار النفي فيما فيه مِن معنى مطلَقِ الفعل، واعتبارِ الإثبات فيما يُقارنه مِن المعنى المخصوص، فإنّ كلّ فعل مِن الأفعال المخصوصة ينحلُّ / عند التحقيق إلى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل، وإلى معنى مخصوص [٤٣٦و] يقارنه ويُقَيِّده، وهو أثره في الحقيقة، فإنّ معنى "نَصَرَ" مثلًا: فَعَلَ النصرَ، يرشدك إلى ذلك قولهم: معنى "فلانٌ يُعطي ويَمنع": يفعل الإعطاءَ والمنع، فمَورد القصر في الحقيقة ما يتعلّق بالفعل باعتبار النفي فيه والإثبات فيما يتعلّق به.

فالمعنى: وَعَلِمَ داود أنّما فعلنا به الفِتنةَ لا غيرُ. قيل: ابتليناه بامرأة أُورِيّا. وقيل: امتحنّاه بتلك الحكومة؛ هل يتنبّه بها لِما قُصِد منها.

وإيثارُ طريق التمثيل لأنّه أبلغ في التوبيخ، فإنّ التأمّل فيه إذا أدّاه إلى الشعور بما هو الغرض كان أوقَعَ في نفسه، وأعظمَ تأثيرًا في قلبه، وأدعَى إلى التنبّه للخطأ، مع ما فيه مِن مراعاة حُرمته عليه السلام بترك المجاهَرة، والإشعارِ بأنّه أمر يُستَحيَى مِن التصريح به. وتصويرُه بصورة التحاكم لإلجائه عليه السلام إلى التصريح بنسبة نفسه إلى الظلم، وتنبيهِه عليه السلام على أنّ أوريّا بصَدَد الخِصام.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ إثرَ ما عَلِمَ أنّ ما صدَر عنه ذنب، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجدًا، على تسمية السجود ركوعًا؛ لأنّه مَبدؤه، أو خرّ للسجود راكعًا، أي: مصلّيًا، كأنّه أحرَم بركعتَي الاستغفار. ﴿وَأَنَابَ﴾ أي: رجَعَ إلى الله تعالى بالتوبة.

وأصل القصّة أنّ داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له: أُوريّا، فمال قلبُه إليها، فسأله أن يُطلِّقها، فاستحيى أن يَرُدّه، ففعل، فتزوّجها، وهي أمّ سليمان عليهما السلام، وكان ذلك جائزًا في شريعته، معتادًا فيما بين أمّته، غيرَ مُخِلّ بالمروءة،

حيث كان يسأل بعضهم بعضًا أن يَنزِل له عن امرأته، فيتزوّجها إذا أعجبته. وقد كان الأنصار في صدر الإسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك مِن غير نكيرٍ، خلا أنّه عليه السلام لعِظَم منزلته وارتفاع مرتبته وعلوّ شأنه نُبّه بالتمثيل على أنّه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمّته، ويسأل رجلًا ليس له إلّا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوّجها مع كثرة نسائه؛ بل كان يجب عليه أن يُغالِب هواه، ويقهَر نفسَه، ويصبر على ما امتُحِن به.

وقيل: لم يكن أوريّا تزوّجها؛ بل كان خطَبها، ثمّ خطَبها داود عليه السلام، فآثره عليه السلام أهلُها، فكان ذنبُه عليه السلام أن خَطَب على خِطبة أخيه المسلم.

هذا، وأمّا ما يُذكَر[١] مِن أنّه عليه السلام دخلَ ذات يوم مِحرابه، وأغلق بابه، / وجعل يصلّي ويقرأ الزبور، فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان في صورة [٤٣٦ظ] حمامةٍ مِن ذهب، فمدّ يده ليأخذها لابنٍ له صغير، فطارت، فامتدّ إليها فطارت، فوقعت في كُوّةٍ، فتَبِعها، فأبصرَ امرأةً جميلةً قد نقضَت شَعرَها، فغطّى بدنها، وهي امرأة أوريّا، وهو مِن غُزاة البلقاء، فكتب إلى أيّوب بن صوريا، وهو صاحب بَعْث البلقاء، أنِ «ابْعَثْ أُوريّا، وقدِّمْه على التابوت»، وكان مَن يتقدّم على التابوت لا يحِلّ له أن يرجع حتّى يفتح الله تعالى على يده أو يُستشهَد، ففتح الله تعالى على يده، وسلِم، فأمر بردِّه مرّةً أخرى وثالثةً حتّى قُتِل، وأتاه خبر قتله فلم يحزَن كما كان يَحزَن على الشهداء، وتزوّج امرأتَه؛ فَإِفْكٌ[٢] مُبتدَع مَكْروه، ومَكرٌ مخترَع بئسما مَكَرُوه، تمجّه الأسماع، وتنفِر عنه الطباع، ويل لمَن ابتدعه وأشاعه، وتبًّا لمَن اخترعه وأذاعه، ولذلك قال عليّ رضي الله عنه: «مَن حدّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القُصّاص جَلَدتُه مائةً وستّين»،[٣] وذلك حدّ الفِرية على الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم.

---

[١] عن السدّي في جامع البيان للطبري، ٢٠/٦٦. وعن السدّي والكلبي ومقاتل في الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٨٥.

[٢] السياق: وأمّا ما يُذكر... فإفك...

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٩٠؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٢٧.

هذا، وقد قيل: إنّ قومًا قصدوا أن يقتلوه عليه السلام، فتسوّروا المِحراب، ودخلوا عليه، فوجدوا عنده أقوامًا، فتصنّعوا بهذا التحاكم، فعلِم عليه السلام غرضهم، فهَمّ بأن ينتقم منهم، فظنّ أنّ ذلك ابتلاء له مِن الله عزّ وجلّ، فاستغفر ربّه ممّا هَمّ به فأناب.[١]

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما استغفر منه. ورُوي أنّه عليه السلام بقي ساجدًا أربعين يومًا وليلةً لا يرفع رأسه إلّا لصلاةٍ مكتوبة أو لِما لا بدَّ منه، ولا يَرقَأُ دمعه حتّى نبَتَ منه العُشب إلى رأسه، ولم يشرب ماءً إلّا ثُلثاه دمع، / وجهد [٤٣٧و] نفسه راغبًا إلى الله تعالى في العفو عنه حتّى كادَ يهلك، واشتغل بذلك عن المُلْك حتّى وثَب ابنٌ له يقال له: إيشا على مُلكه، ودعا إلى نفسه، فاجتمع إليه أهل الزَّيغ مِن بني إسرائيل، فلمّا غُفِر له حارَبه فهزمه.[٢]

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لَقُربةً وكرامةً بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسنَ مرجعٍ في الجنّة.

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إمّا حِكايةٌ لِما خُوطب به عليه السلام مبيِّنةٌ لِزُلفاه عنده عزّ وجلّ، وإمّا مَقول لقَولٍ مقدَّر هو معطوف على ﴿غَفَرْنَا﴾،[٣] أو حال مِن فاعله، أي: وقلنا له، أو قائلين له: يا داود... إلخ، أي: استخلفناك على المُلك فيها والحُكمِ فيما بينَ أهلها، أو جعلناك خليفةً ممَّن كان قبلك مِن الأنبياء القائمين بالحقّ، وفيه دليل بيّن على أنّ حاله عليه السلام بعد التوبة كما كانت قبلَها لم يتغيّر قطّ.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨/٥. وانظر: تفسير الرازي، ٣٧١/٢٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٨٨/٤. وأوّله في جامع البيان للطبري، ٦٦/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٩١/٨.

٣ في الآية السابقة.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ بحُكم الله تعالى، فإنّ الخلافة بكِلا معنيَيه مقتضية له حتمًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس في الحكومات وغيرِها مِن أمور الدين والدنيا، ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالنصب على أنّه جواب النهي. وقيل: هو مجزوم بالعطف على النهي، مفتوح لالتقاء الساكنَين. أي: فيكونَ الهوى أو اتّباعُه سببًا لضلالك عن دلائله التي نصَبها على الحقّ تكوينًا وتشريعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعليل لِما قبله ببيان غائلته. وإظهار ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في موقع الإضمار لزيادة التقرير، والإيذانِ بكمال شناعة الضلال عنه. ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ جملة مِن خبرٍ ومبتدأ وقعَت خبرًا لِـ﴿إِنَّ﴾، أو الظرفُ خبر لـ﴿إِنَّ﴾، و﴿عَذَابٞ﴾ مرتفع على الفاعليّة بما فيه مِن الاستقرار.

﴿بِمَا نَسُواْ﴾ بسبب نسيانهم. وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ إمّا مفعول لِـ﴿نَسُواْ﴾، فيكون تعليلًا صريحًا لِثبوت العذاب الشديدِ لهم بنِسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعلّيّة ما يستتبعه ويستلزمه، أعني: الضلالَ عن سبيل الله، فإنّه مستلزِم لنسيان يوم الحساب بالمرّة؛ بل هذا فرد مِن أفراده، / أو ظرفٌ لقوله [٤٣٧ظ]
تعالى: ﴿لَهُمۡ﴾، أي: لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذي هو عبارة عن ضلالهم، ومِن ضرورته أن يكون مفعولُه "سبيلَ الله"، فيكون التعليل المصرَّحُ به حينئذ عينَ التعليل المشعَرِ به بالذات، غيرَه بالعنوان، ومَن لم يتنبّه لهذا السرّ السَّرِيّ[١] قال:[٢] بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل، فإنّ تذكّره يقتضي ملازمة الحقّ ومخالفةَ الهوى، فتدبّر.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗا﴾ كلام مستأنَف مقرّر لِما قبله مِن أمر البعث والحساب والجزاء، أي: ما خلقناهما وما بينهما مِن المخلوقات

---

[١] السَّري: الرفيع. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سرو».

[٢] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٨٩/٤؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٨/٥.

على هذا النظام البديع الذي يَحار في فهمه العقول خلقًا باطلًا، أي: خاليًا عن الغاية الجليلة والحِكمة الباهرة؛ بل منطويًا على الحقّ المبين والحِكَم البالغة حيث خلقنا مِن بين ما خلقنا نفوسًا أودعناها العقل والتمييز بين الحقّ والباطل والنافع والضارّ، ومكّنّاها مِن التصرّفات العلميّة والعمليّة في استجلاب منافعها، واستدفاع مضارّها، ونصبنا للحقّ دلائل آفاقيّة وأنفسيّة، ومنحناها القدرةَ على الاستشهاد بها، ثمّ لم نقتصر على ذلك المقدار مِن الألطاف؛ بل أرسلنا إليها رسلًا، وأنزلنا عليها كتبًا بيّنّا فيها كلّ دقيق وجليل، وأزحنا عِللَها بالكلّيّة، وعرّضناها بالتكليف للمنافع العظيمة، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما نُفِيَ مِن خلقِ ما ذُكِر باطلًا ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: مظنونُهم، فإنّ جحودهم بأمر البعث والجزاء الذي عليه يدور فَلَك تكوين العالَم قولٌ منهم ببطلان خلق ما ذُكر وخلوِّه عن الحكمة، سبحانه وتعالى عمّا يقولون / علوًّا كبيرًا. [٤٣٨و]

﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ وخبر، و"الفاء" لإفادة ترتّب ثبوت الويل لهم على ظنّهم الباطل كما أنّ وضع الموصول موضعَ ضميرهم للإشعار بما في حيّز الصلة بعلّيّة كفرهم له، ولا تَنافي بينهما؛ لأنّ ظنّهم مِن باب كفرهم.

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ تعليليّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة، ٧٩/٢] ونظائرِه، مفيدةٌ لعلّيّة النار لثبوت الويل لهم صريحًا بعد الإشعار بعلّيّة ما يؤدّي إليها مِن ظنّهم وكفرهم، أي: فويل لهم بسبب النار المترتّبة على ظنّهم وكفرهم.

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿أَمۡ﴾ منقطعة، وما فيها مِن "بل" للإضراب الانتقالي عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء بما مرّ مِن نفي خلق العالم خاليًا عن الحِكَم والمصالح إلى تقريره وتحقيقه

بما في "الهمزة" مِن إنكار التسوية بين الفريقين، ونفيِها على أبلغ وجه وآكَدِه، أي: بل أنجعل المؤمنين المصلِحين كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتّب عليه مِن الجزاء، لاستواء الفريقين في التمتّع بالحياة الدنيا؛ بل الكفرة أوفر حظًّا منها مِن المؤمنين؟ لكن ذلك الجعل مُحال، فتعيّن البعث والجزاء حتمًا لرفع الأوّلِين إلى أعلى عِلّيّين، وردِّ الآخرين إلى أسفل سافلين.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ إضراب وانتقال عن إثبات ما ذُكر بلزوم المحال الذي هو التسوية بين الفريقَين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ما هو أظهر منه استحالةً، وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة.

وحملُ ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ على فجَرة المؤمنين[1] ممّا لا يساعده المقام. ويجوز أن يراد بهذَين الفريقين عينُ الأوّلَين، ويكونَ التكرير باعتبار وصفَين آخرَين، هما أدخل في إنكار التسوية مِن الوصفَين الأوّلَين.

وقيل: قال كفّار قريش للمؤمنين: إنّا نُعطَى في الآخرة مِن الخير / ما تُعطَون، فنزلَت.[2] [٤٣٨ظ]

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩﴾

﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، هو عبارة عن القرآن، أو السورة. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ صفته، وقوله تعالى: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ، أو صفةٌ لـ﴿كِتَٰبٌ﴾ عند مَن يُجوّز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح. وقُرئ: "مُبَارَكًا"[3] على أنّه حال مِن مفعول ﴿أَنزَلْنَا﴾، ومعنى "المُبارَك": الكثير المنافع الدينيّة والدنيويّة.

وقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلِّق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: أنزلناه ليتفكّروا في آياته التي مِن جملتها هذه الآيات المُعرِبة عن أسرار التكوين والتشريع، فيعرفوا

---

[1] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨/٥.

[2] تفسير السمرقندي، ١٦٥/٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٥٠/٣.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

ما يَدْبُرُ ظاهرَها مِن المعاني الفائقة، والتأويلات اللائقة. وقُرِئ: "لِيَتَدَبَّرُوا"[١] على الأصل، و"لِتَدَبَّرُوا"[٢] على الخطاب، أي: أنتَ وعلماءُ أمّتك، بحذف إحدى التاءَين.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ولِيتّعظ به ذَوو العقول السليمة، أو لِيستحضِروا ما هو كالمَركوز في عقولهم مِن فَرْط تَمكّنهم مِن معرفته، لِما نُصب عليه مِن الدلائل، فإنّ الكتب الإلهيّة مبيِّنة لِما لا يُعرف إلّا بالشرع، ومُرشدة إلى ما لا سبيلَ للعقل إليه.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ وقُرِئ: "نَعِمَ الْعَبْدُ"،[٣] أي: سليمانُ، كما يُنبئ عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولًا صريحًا لـ﴿وَهَبْنَا﴾، ولأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة، أو إلى التسبيح مرجّع له؛ تعليل للمدح، وهو مِن حاله، لِما أنّ الضمير المجرور في قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ راجع إليه عليه السلام قطعًا.

و﴿إِذْ﴾ منصوب بـ"اذكر"، أي: اذكر ما صدَر عنه إذ عُرض عليه ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ هو مِن الظُّهر إلى آخر النهارِ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ فإنّه يشهَد بأنّه أوّاب. وقيل: ظرف لـ﴿أَوَّابٌ﴾.[٤] وقيل: لـ﴿نِعْمَ﴾.[٥] وتأخير ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ عن الظرفَين لِما مرّ مرارًا مِن التشويق إلى المؤخَّر.

و"الصافِنُ" مِن الخيل: الذي يقوم على طرَف سُنْبُك[٦] يدٍ أو رِجلٍ، وهو مِن الصفات المحمودة في الخيل، لا يكاد / يتّفق إلّا في العِراب الخُلَّص. وقيل: [٤٣٩و]
هو الذي يجمع يديه ويسوّيهما، وأمّا الذي يقف على سُنبُكه فهو "المُتَخَيِّم".

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.
٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.
٤ في الآية السابقة.
٥ في الآية السابقة.
٦ السُّنْبُك: طرَف مُقدَّم الحافر، والجمع: السنابِك. الصحاح للجوهري، «سبك».

﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جمع "جوادٍ" و"جَوْدٍ"، وهو الذي يُسرع في جَريه. وقيل: الذي يجود عند الركض. وقيل: وُصِفَت بالصُّفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفَين المحمودَين واقفةً وجاريةً، أي: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنّة في مواقفها، وإذا جرَت كانت سِراعًا خِفافًا في جَريها. وقيل: هو جمع "جيّدٍ".

رُوي أنّه عليه السلام غزا أهلَ دمشق ونصيبين،[١] وأصاب ألفَ فرَس.[٢] وقيل: أصابها أبوه مِن العمالقة، فوَرِثها منه.[٣]

وقيل: خرجت مِن البحر لها أجنحة، فقعَد يومًا بعد ما صلّى الظهر على كرسيّه، فاستعرضها، فلم تَزَلْ تُعرَضُ عليه حتّى غربت الشمس، وغفل عن العصر، أو عن وِردٍ كان له مِن الذكرِ وقتئذٍ، وتهيّبوه فلم يُعلِموه، فاغتمّ لِما فاته، فاستردّها فعقَرها مقرّبًا لله تعالى، وبقي مائة، فما في أيدي الناس مِن الجِياد فمِن نَسلها.[٤] وقيل: لمّا عقَرها أبدله الله عزّ وجلّ خيرًا منها، وهي الريح تجري بأمره.[٥]

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢﴾

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ قاله عليه السلام عند غروب الشمس اعترافًا بما صدَر عنه مِن الاشتغال بها عن الصلاة، وندَمًا عليه، وتمهيدًا لِما يَعقُبه مِن الأمر بردِّها وعَقْرِها، والتعقيبُ باعتبار أواخر العَرْض المستمرّ دون ابتدائه، والتأكيدُ للدلالة على أنّ اعترافه وندَمه عن صميم القلب، لا لتحقيق مضمون الخبر.

[١] نصيبين: ضُبط في المصادر بفتح النون وكسر الصاد، واشتهر استعماله اليوم بضمّ النون وفتح الصاد. مدينة عامرة مِن بلاد الجزيرة على جادّة القوافل مِن الموصل إلى الشام، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستّة أيّام، وعليها سور كانت الروم بنَته وأتمّه أنوشروان الملك عند فتحه إيّاها. معجم البلدان للحموي، ٢٨٨/٥.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٩/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٩١/٤.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٩/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٩١/٤.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٩٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/٥.

[٥] جامع البيان للطبري، ٩٤/٢٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٩٢/٤.

وأصل ﴿أَحْبَبْتُ﴾ أن يُعدّى بـ"على"؛ لأنّه بمعنى "آثَرْتُ"، لكن لمّا أُنِيبَ مَناب "أَنَبتُ" عُدِّي تعديتَه. و﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ مفعولُه، كأنّه قيل: أَنَبْتُ حبَّ الخير عن ذِكر ربّي، ووضعتُه موضعَه. و﴿ٱلْخَيْرِ﴾ المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغَلَته عليه السلام، ويحتمل أنّه سمّاها خيرًا لتعلّق الخير بها، قال عليه السلام: «الخيرُ معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة».[١] وقُرِئ: "إِنِّيَ".[٢]

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿أَحْبَبْتُ﴾ باعتبار استمرار المحبّة ودوامها حسب استمرار العَرْض، أي: أَنَبْتُ حبّ الخير عن ذكر ربّي، واستمرّ ذلك حتّى توارت، أي: غربَت الشمس تشبيهًا لغروبها في مَغربها بتواري المُخبّأة بحِجابها. وإضمارها مِن غير ذكرٍ لدلالة / العشيّ عليها. وقيل: [٤٣٩ظ]
الضمير لـ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾،[٣] أي: حتّى توارت بحِجاب الليل، أي: بظلامه.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ٣٣﴾

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ مِن تمامِ مقالة سليمان عليه السلام، ومَرمى غرضه مِن تقديم ما قدّمه، ومَن لم يتنبّه له مع ظهوره تَوهّم أنّه متّصل بمُضمَر هو جواب لمُضمَر آخَر، كأنّ سائلًا قال: فماذا قال سليمان؟ فقيل: قال: رُدّوها...، فتأمّل.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فصيحةٌ مفصِحةٌ عن جملةٍ قد حُذفت ثِقةً بدلالة الحال عليها، وإيذانًا بغاية سرعة الامتثال بالأمر، أي: فرَدُّوها عليه فأخذَ يمسح السيف مَسحًا ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: بسُوقها وأعناقها يقطعها، مِن قولهم: "مَسَحَ عِلاوتَه"، أي: ضرَبَ عُنقَه.

وقيل: جعلَ يمسح بيده أعناقها وسُوقَها حُبًّا لها، وإعجابًا بها،[٤] وليس بذاك. وقُرِئ: "بِالسُّؤقِ" على همز "الواو"[٥] لِضمّتها،[٦] كما في "أَدْؤُر". وقُرِئ:

---

[١] صحيح البخاري، ٤/٢٨ (٢٨٥٠)؛ صحيح مسلم، ٣/١٤٩٣ (١٨٧٢).
[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٢.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] جامع البيان للطبري، ٢٠/٨٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٠١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٢٩.
[٥] قرأ بها قنبل عن ابن كثير، وهو أحد الوجهين عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.
[٦] س: لضمّها.

"بِالسُّؤْقِ"[١] تنزيلًا لضمّة "السين" منزلةَ ضمّة "الواو". وقُرِئ: "بِالسَّاقِ"[٢] اكتفاءً بالواحد مِن الجمع لأمْن الإلباس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ أظهَرُ ما قيل في فتنته عليه السلام ما رُوي مرفوعًا أنّه قال: «لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأةً تأتي كلُّ واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى»، ولم يقل: "إن شاء الله"، فطاف عليهنّ، فلم تحمِل إلّا امرأة واحدة؛ جاءت بشِقّ رَجل، والذي نفسي بيده لو قال: "إن شاء الله" لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون.[٣]

وقيل: وُلد[٤] له ابن، فاجتمعت الشياطين على قتله، فعلِمَ ذلك، فكان يغذوه في السحاب، فما شعر به إلّا أن أُلقِي على كرسيّه ميّتًا، فتنبّه لخَطئِه حيث لم يتوكّل على الله عزّ وعلا.

وقيل: إنّه غزا صيدون مِن الجزائر، فقتَل مَلِكَها، وأصاب بنتًا له تسمّى جرادة، مِن أحسن الناس، فاصطفاها لنفسه، وأسلمَت، وأحبّها، وكان لا يرقَأ دمعها جزَعًا على أبيها، فأمر الشياطين فمثّلوا لها صورتَه، وكانت تغدو إليها وتروح مع وَلائدها يسجدن لها كعادتهنّ في ملكه، فأخبرَه آصف بذلك، / فكسر الصورة، وعاقب [٤٤٠و] المرأة، ثمّ خرج وحده إلى فلاة، وفُرِشَ له الرماد، فجلسَ عليه تائبًا إلى الله تعالى باكيًا متضرِّعًا، وكانت له أمّ ولدٍ يُقال لها: أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة يعطيها خاتَمه، وكان مُلكُه فيه، فأعطاها يومًا، فتمثّل لها بصورته شيطان اسمه صخر، وأخذ الخاتم فتختّم به، وجلس على كرسيّه فاجتمع عليه الخلق، ونفّذ حكمه في كلّ شيء إلّا في نسائه، وغُيّر سليمانُ عن هيئته، فأتى أمينةَ لطلب الخاتم،

---

١ قرأ بها قنبل عن ابن كثير، وهو الوجه الثاني عنه. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

٣ صحيح البخاري، ٢٢/٤ (٢٨١٩)؛ صحيح مسلم، ١٢٧٦/٣ (١٦٥٤).

٤ س – وُلد.

فأَنْكرَته وطردَته، فعرف أنّ الخطيئة قد أدركَته، فكان يدور على البيوت يتكفّف، وإذا قال: "أنا سليمان" حَثَوا عليه الترابَ وسَبّوه، ثمّ عمد إلى السمّاكين ينقل لهم السمَكَ، فيعطونه كلّ يوم سمكتَين، فمكث على ذلك أربعين صباحًا، عددَ ما عُبِد الوَثَنُ في بيته، فأنكر آصفُ وعظماء بني إسرائيل حكمَ الشيطان، ثمّ طار اللعين، وقذف الخاتمَ في البحر، فابتلعه سمكة، فوقعت في يد سليمان، فبَقَرَ بطنها، فإذا هو بالخاتم، فتختّم به، وخرّ ساجدًا، وعاد إليه مُلكُه، وجابَ صَخرةً لصخرٍ، فجعله فيها، وسدّ عليه بأخرى، ثمّ أوثقهما بالحديد والرصاص، وقذفه في البحر.[١]

وعلى هذا فـ"الجَسَد" عبارة عن صخر، سمّي به -وهو جسم لا روحَ فيه- لأنّه تمثّل بما لم يكن كذلك، والخطيئة تغافله عليه السلام عن حال أهله؛ لأنّ اتّخاذ التماثيل لم يكن محظورًا حينئذ، وسجود الصورة بغير عِلم منه لا يضرّه.

﴿قَالَ﴾ بدل مِن ﴿أَنَابَ﴾ وتفسير له ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ أي: ما صدَرَ عنّي مِن الزلّة، ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ لا يتسهّل له ولا يكون، ليكون معجزةً لي مناسبةً لِحالي، فإنّه عليه السلام / لمّا نشأ في بيت المُلك والنبوّة ووَرِثَهما معًا [٤٤٠ظ] استدعى مِن ربّه معجزة جامعة لحُكمهما، أو لا ينبغي لأحد أن يسلُبه منّي بعد هذه السلبة، أو لا يصحّ لأحد مِن بعدي لعظَمته، كقولك: "لفلانٍ ما ليس لأحد مِن الفضل والمال" على إرادةِ وصفِ المُلك بالعظَمة، لا أن لا يُعطى أحد مثله فيكونَ منافسةً.

وقيل: كان مُلكًا عظيمًا، فخاف أن يُعطى مثلَه أحد، فلا يحافِظ على حدود الله تعالى.

وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جريًا على سَنن الأنبياء عليهم السلام والصالحين. وكونِ ذلك أدخلَ في الإجابة. وقُرئ: "لِيَ" بفتح "الياء".[٢]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٩٤/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/٥.

[٢] لم أجد مَن ذكَر هذه القراءة. وخلافهم المشهور في ياء ﴿بَعْدِىٓ﴾، قرأ بفتحها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو، وأسكنها باقي القرّاء العشر. انظر: النشر لابن الجزري، ١٦٧/٢، ٣٦٢.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معًا، لا بالأخيرة فقط، فإنّ المغفرة أيضًا مِن أحكام وصف الوهّابيّة قطعًا.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ أي: فذلّلناها لطاعته إجابةً لدعوته، فعاد أمره عليه السلام إلى ما كان عليه قبل الفتنة. وقُرئ: "الرِيَاحَ".[1] ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ بيان لتسخيرها له ﴿رُخَآءً﴾ أي: ليّنةً، مِن "الرِخاوة"، طيّبة لا تُزَعْزِعُ. وقيل: طَيِّعةً لا تمتنع عليه، كالمأمور المنقاد، ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث قصَد وأراد. حكى الأصمعي عن العرب: "أصابَ الصواب، فأخطأ الجواب".[2]

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾[3] ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدل مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾. ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ عطفٌ على ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾، داخل في حكم البدل. كأنّه عليه السلام فصَل الشياطين إلى عَمَلةٍ استعملهم في الأعمال الشاقّة مِن البِناء والغَوص ونحو ذلك، وإلى مَرَدةٍ قَرَن بعضهم مع بعض في السلاسل لكفِّهم عن الشرّ والفساد. ولعلّ أجسامَهم شفّافة فلا تُرَى، صُلْبةٌ فيمكن تقييدها، ويقدرون على الأعمال الصعبة. وقد جُوّز أن يكون الإقران في الأصفاد / عبارة [٤٤١و] عن كفّهم عن الشرور بطريق التمثيل.

و"الصَّفَد" القَيد، وسُمِّي به العطاء؛ لأنّه يرتبط بالمنعَم عليه، وفرّقوا بين فعليهما، فقالوا: "صَفَدَه" قيّده، و"أصْفَدَه" أعطاه، على عكس "وَعَدَ" و"أَوعَدَ".

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾... إلخ إمّا حكاية لِما خوطب به سليمان عليه السلام، مبيّنةٌ لعِظَم شأن ما أوتِي مِن المُلْك، وأنّه مفوَّض إليه تفويضًا كلّيًا، وإمّا مَقُولٌ

---

[1] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

[2] تفسير السمرقندي، ٣/١٦٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٩٥. قال أبو بكر الأنباري: «معناه: أراد الصواب». الزاهر للأنباري، ٢/١٩٤.

[3] في الآية السابقة.

لقَول مقدّرٍ هو معطوفٌ على ﴿سَخَّرْنَا﴾،[1] أو حالٌ مِن فاعله، كما مرّ في خاتمة قصّة داود عليه السلام، أي: وقلنا له، أو قائلين له: هذا الذي أعطيناكه مِن المُلك العظيم والبَسطة والتسلّطِ على ما لم يُسلَّطْ عليه غيرك ﴿عَطَآؤُنَا﴾ الخاصُ بك، ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ فأعطِ مَن شئتَ وامنَع مَن شئتَ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال مِن المستكِنّ في الأمر، أي: غيرَ محاسَب على منّه وإمساكه، لتفويض التصرّف فيه إليك على الإطلاق، أو مِن "العطاء"، أي: هذا عطاؤنا ملتبِسًا بغير حساب لغاية كَثرته، أو صلةٌ له،[2] وما بينهما اعتراض على التقديرَين. وقيل: الإشارة إلى تسخير الشياطين، والمراد بـ"المَنّ والإمساك" الإطلاقُ والتقييد.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ في الآخرة مع ما له مِن المُلك العظيم في الدنيا، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ هو الجنّة.

قيل: فُتِنَ سليمان عليه السلام بعد ما ملَك عشرين سنةً، وملَك بعد الفتنة عشرين سنةً.

وذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري[3] في **تاريخه** أنّ سليمان عليه السلام ورِث مُلك أبيه في عصر كيخسرو بن سياوش، وسار مِن الشام إلى العراق، فبلغَ خبره كيخسرو، فهرب إلى خراسان، فلم يلبَث حتّى هلك، ثمّ سار سليمان عليه السلام إلى مرو، ثمّ إلى بلاد الترك، فوغل فيها، ثمّ جاز بلاد الصين، ثمّ عطف إلى أن وافى بلاد فارس، فنزلها أيّامًا، ثمّ عاد إلى الشام، ثمّ أُمِر ببناء بيت المقدس، فلمّا فرغ منه سار إلى تِهامة، ثمّ إلى صنعاء،

---

[1] ص، ٣٨/٣٦.

[2] وفي هامش م: على أنّ "العطاء" مصدر. «منه».

[3] هو أحمد بن داود الدينوري، أبو حنيفة (ت. ٢٨٢هـ/٨٩٥م). العلّامة، النحوي، ذو الفنون، تلميذ ابن السكّيت. كبير الدائرة، طويل الباع. ألّف في النحو واللغة والهندسة والهيئة والوقت وأشياء، له تصانيف نافعة، منها الأخبار الطّوال، والأنواء، والنبات، وتفسير القرآن، وما تلحن فيه العامّة، والشعر والشعراء، والفصاحة، والجبر والمقابلة، والبلدان، وإصلاح المنطق. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٣/٤٢٢؛ والأعلام للزركلي، ١/١٢٣.

وكان مِن حديثه مع صاحبتها ما ذكره الله تعالى، وغزا بلاد المغرب، الأندلس وطنجة وغيرهما، والله تعالى أعلم.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾.[1] وعدم تصدير قصّة سليمان عليه السلام بهذا العنوان لكمال الاتّصال بينه وبين داود عليهما السلام. وأيّوب عليه السلام هو ابن عيص بن إسحاق عليه السلام.[2]

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿عَبْدَنَا﴾، و﴿أَيُّوبَ﴾ عطفُ بيان له. ﴿أَنِّى﴾ بأنّي ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بفتح ياء ﴿مَسَّنِىَ﴾. وقُرئ بإسكانها وإسقاطها.[3] ﴿بِنُصْبٍ﴾ أي: تَعبٍ. وقُرئ بفتح "النون"،[4] وبفتحتين،[5] وبضمّتين للتثقيل.[6] ﴿وَعَذَابٍ﴾ أي: ألَمٍ ووَصَبٍ، يريد مرضَه وما كان يقاسيه مِن فنون الشدائد، وهو المراد بـ﴿ٱلضُّرُّ﴾ في قوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء، ٨٣/٢١]. وهو حكاية لكلامه الذي ناداه به بعبارته، وإلّا لَقيل: "أنّه مَسَّه"... إلخ.

[٤٤١ظ] والإسناد إلى الشيطان إمّا لأنّه تعالى مَسَّه بذلك لِما فَعَل / بوسوسته، كما قيل: إنّه أُعجِب بكَثرة ماله، أو استغاثَهُ مظلوم فلم يُغِثه، أو كانت مواشيه في ناحية مَلِكٍ كافرٍ فداهَنه ولم يَغزُه، أو لامتحانِ صبرِه،[7] فيكون اعترافًا بالذنب، أو مراعاةً للأدب، أو لأنّه وسوس إلى أتباعِه حتّى رفضوه وأخرجوه مِن ديارهم، أو لأنّ المراد بـ"النُّصْب والعذاب" ما كان يوسوس به إليه في مرضه مِن تعظيم ما نزَل به مِن البلاء، والقنوطِ مِن الرحمة، ويُغريه على الكراهة والجزَع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيَه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق لدفعه وردّه بالصبر الجميل. وليس هذا تمام دعائه عليه السلام بل مِن جُملته قوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

---

١ ص، ١٧/٣٨.
٢ س – عليه السلام.
٣ أي: وإسقاط "الياء" في الوصل دون الوقف. قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة ويعقوب وهبيرة عن حفص. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٢/٩.
٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.
٦ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.
٧ وفي هامش م: عطفٌ على "لِما فعل". «منه».

[الأعراف، ١٥١/٧]، فاكتُفِي ههنا عن ذكره بما في سورة الأنبياء،[١] كما تُرِك هناك ذِكر الشيطان ثقةً بما ذُكر ههنا.

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾... إلخ إمّا حكاية لِما قيل له، أو مقولٌ لقولٍ مقدَّر، معطوفٍ على ﴿نَادَىٰ﴾،[٢] أي: فقلنا له: اركُض برِجلك، أي: اضرِب بها الأرض، وكذا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فإنّه أيضًا إمّا حكاية لِما قيل له بعد امتثاله بالأمر وبنوعِ الماء، أو مقولٌ لقَول مقدَّر معطوفٍ على مقدَّرٍ ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: فضرَبها، فنبَعت عين، فقلنا له: هذا مغتَسَل تَغتَسِلُ به وتشربُ منه، فيَبرأُ ظاهرك وباطنك. وقيل: نبعَت عَينان، حارّة للاغتسال، وباردة للشرب،[٣] ويأباه ظاهر النظم الكريم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ معطوف على مقدَّر، مترتّبٌ على مقدَّر آخَر يقتضيه القولُ المقدَّر آنفًا، كأنّه قيل: فاغتسلَ وشرِبَ، فكشَفنا بذلك ما به مِن ضرّ، كما في سورة الأنبياء،[٤] ووَهبنا له أهله، إمّا بإحيائهم بعدَ هلاكهم، وهو المرويّ عن الحسن رضي الله عنه،[٥] أو بجَمعهم بعد تفرّقهم كما قيل.[٦]

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَهْلَهُ﴾، فكان له مِن الأولاد ضِعف ما كان له قبل، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ / أي: لِرحمةٍ عظيمةٍ عليه مِن قِبَلنا، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [٤٤٢و] ولتذكيرهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبَر، ويلجأوا إلى الله عزّ وجلّ فيما يَحيق بهم كما لجأَ لِيُفعَلَ بهم ما فُعِل به مِن حسن العاقبة.

---

١ الأنبياء، ٨٣/٢١.
٢ في الآية السابقة.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٩٧/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١/٥.
٤ الأنبياء، ٨٤/٢١.
٥ س - رضي الله عنه. | جامع البيان للطبري، ١١٠/٢٠؛ اللباب لابن، ٤٣٠/١٦.
٦ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١/٥؛ اللباب لابن عادل، ٤٣٠/١٦.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ معطوف على ﴿ٱرْكُضْ﴾،[1] أو على ﴿وَهَبْنَا﴾[2] بتقدير "قلنا"، أي: وقلنا: خُذْ بيدك... إلخ، والأوّل أقرب لفظًا، وهذا أنسب معنًى، فإنّ الحاجة إلى هذا الأمر لا تمسّ إلّا بعد الصحّة، فإنّ امرأته رحمة بنت افرائيم بن يوسف -وقيل: ليّا بنت يعقوب، وقيل: ماصر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام- ذهبت لحاجة، فأبطأت، فحلَفَ: إن برِئ لَيَضربنّها مائةَ ضربةٍ، فأمره الله تعالى بأخذ الضِغث -و"الضِّغثُ"[3] الحُزمة الصغيرة مِن الحشيش ونحوِه، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «قبضة مِن الشجر»-[4] وقال: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ أي: بذلك الضِّغثِ، ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك، فإنّ البرّ يتحقّق به.

ولقد شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمةً عليه وعليها لِحُسن خدمتها إيّاه، ورضاه عنها، وهي باقية، ويجب أن يصيب المضروبَ كلُّ واحد مِن المائة، إمّا بأطرافها قائمة، أو بأعراضها مبسوطةً على هيئة الضرب.

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال. وليس في شكواه إلى الله تعالى إخلال بذلك، فإنّه لا يسمّى جَزَعًا، كتمنّي العافية، وطلبِ الشفاء، على أنّه قال ذلك خِيفةَ الفتنة في الدين، حيث كان الشيطان يوسوس إلى قومه بأنّه لو كان نبيًا لَما ابتُلِي بمِثل ما ابتُلِي به، وإرادةَ القوّة على الطاعة، فقد بلغ أمرُه إلى أن لم يبقَ منه إلّا القلب واللسان.

ويُروى أنّه عليه السلام قال في مناجاته: «إلهي قد علمتَ أنّه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتّبع قلبي بصري، ولم يَهَبْني[5] ما ملكَت يميني، ولم آكُل إلّا ومعي يتيم، ولم أبِتْ شبعانَ ولا كاسيًا ومعي جائع أو عريان، فكشف الله تعالى عنه».[6]

---

١ ص، ٤٢/٣٨.

٢ في الآية السابقة.

٣ س: والغفث.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٩٨/٤. وانظر: **الدرّ المنثور** للسيوطي، ١٩٥/٧.

٥ مِن الهيبة والرَّوع، وهو كناية عن التعظيم والإعجاب. **فتوح الغيب** للطيبي، ٢٩٦/١٣.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٩٨/٤؛ **البحر المحيط** لأبي حيان، ٣٨٥/٧.

﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ أي: أيّوب، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ تعليل لمدحه، أي: رجّاع إلى الله تعالى.

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ عطفُ بيان لـ﴿عِبَٰدَنَآ﴾. وقُرئ: "عَبۡدَنَا"،[1] إمّا على أنّ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وحده --لمزيد شرفه- عطفُ بيان، وقيل: بدل، وقيل: نصب بإضمار "أعني"، والباقيان عطفٌ على "عَبدَنا"، وإمّا على أنّ "عَبدَنا" اسم جنس وُضع مَوضع الجمع.

﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أولي القوّة في الطاعة، والبصيرة في الدِّين، أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة، فعُبِّر بـ﴿ٱلۡأَيۡدِي﴾ عن الأعمال؛ لأنّ أكثرها تُباشَر بها، وبـ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ عن المعارف؛ لأنّها أقوى مباديها. / وفيه [٤٤٢ظ] تعريض بالجهَلة البطّالين أنّهم كالزَّمْنَى والعُماة، وتوبيخٌ على تركهم المجاهدةَ، والتّأمّلَ مع تمكّنهم منهما. وقُرئ: "أُولِي الْأَيْدِ" بطرح "الياء"، والاكتفاءِ بالكسر.[2] وقُرئ: "أُولِي الْأَيَادِي"[3] على جمع الجمع.

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ﴾ تعليل لِما وُصِفُوا به مِن شرَف العبوديّة وعلوِّ الرتبة في العلم والعمل، أي: جعلناهم خالِصين لنا بخَصلة خالِصة عظيمة الشأن كما يُنبئ عنه التنكير التفخيمي.

وقوله تعالى: ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ بيان لِلخالصة بعد إبهامها للتفخيم، أي: تَذَكُّرِ للدار الآخرة دائمًا، فإنّ خلوصهم في الطاعة بسبب تذكّرهم لها، وذلك لأنّ مَطمح أنظارهم ومَطرح أفكارهم في كلّ ما يأتون وما يَذَرُون جِوارُ الله عزّ وجلّ والفوزُ بلقائه، ولا يتسنّى ذلك إلّا في الآخرة. وقيل: أخلصناهم بتوفيقهم لها، واللطفِ بهم في اختيارها. ويعضُد الأوّلَ قراءة مَن قرأ: "بِخَالِصَتِهِمْ".[4]

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحلواني عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

وإطلاق ﴿ٱلدَّارِ﴾ للإشعار بأنّها الدار في الحقيقة، وإنّما الدنيا مَعْبَر.

وقُرئ بإضافة ﴿خَالِصَةٍ﴾ إلى ﴿ذِكْرَى﴾،[1] أي: بما خَلُصَ مِن ذكرى الدار، على معنى: أنّهم لا يَشُوبُون ذِكراها بِهَمٍّ آخَر أصلًا.

أو تذكيرِهم[2] الآخرةَ، وترغيبِهم فيها، وتزهيدِهم في الدنيا، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ الثناء الجميل في الدنيا، ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ لَمِن المختارِين مِن أمثالهم المصطفَين عليهم في الخير. و﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع "خَير"، كـ"شرّ" و"أشرار". وقيل: جمعُ "خيِّر" أو "خَيْرٍ" مخفَّفٍ منه، كـ"أموات" في جمع "مَيِّت" و"مَيْت".

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾ فُصِل ذكرُه عن ذكر أبيه وأخيه للإشعار بعَراقته في الصبر الذي هو المقصود بالتذكير. ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ هو ابنُ أخطوب بن العجوز، استخلفه إلياس على بني إسرائيل، ثم استُنبِئَ، و"اللام" فيه حرف تعريف دخل على "يَسَع"، كما في قول مَن قال:

/ رأيتُ الوليدَ بنَ اليَزيدَ مباركًا[3] [٤٤٣و]

وقُرئ: "وَاللَّيْسَعَ"،[4] كأنّ أصله "لَيْسَع"، "فَيْعَل" مِن "اللَّسْع" دخل عليه حرف التعريف. وقيل: هو على القراءتَين علَم أعجمي دخل عليه "اللام". وقيل: هو يوشع.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

[2] السياق: وإطلاق ﴿ٱلدَّارِ﴾ للإشعار... أو تذكيرِهم.

[3] تمامه:

شديدًا بأعباء الخِلافة كاهلُه

وهو لابن ميّادة، الرمّاح بن أبرد، مِن قصيدة يمدح بها الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ٢٢٦/٢؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ١٦٤/١.

[4] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٦٠/٢.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ هو ابن عمّ يَسَع، أو بشر بن أيّوب. واختلف في نبوّته ولقَبِه، فقيل: فرّ إليه مائة نبيّ مِن بني إسرائيل مِن القتل فآواهم وكفَلهم. وقيل: كفَل بعملِ رجل صالح كان يصلّي كلّ يوم مائةَ صلاة.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكلّهم ﴿مِنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ المشهورين بالخيريّة.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدَّم مِن الآيات الناطقة بمَحاسنهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: شرَف لهم وذِكر جميل يُذكَرون به أبدًا، أو نوع مِن الذِّكر الذي هو **القرآن**، وباب منه مشتمِل على أنباء الأنبياء. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هذا ذِكر مَن مضى مِن الأنبياء».[1]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ شروع في بيان أجرهم الجزيل في الآجل بعدَ بيان ذكرهم الجميل في العاجل، وهو باب آخَر مِن أبواب التنزيل. والمراد بـ"المتّقين" إمّا الجنسُ، وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًّا، وإمّا نفسُ المذكورين عُبّر عنهم بذلك مدحًا لهم بالتقوى التي هي الغاية القاصية مِن الكمال.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿حُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[2] عند مَن يُجوّز تخالُفهما تعريفًا وتنكيرًا، فإنّ "عَدْنًا" معرفة، لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ [مريم، ١٩/٦١]، أو بدل منه، أو نصب على المدح.

وقوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ حال مِن ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾، والعامل فيها ما في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[3] مِن معنى الفعل. و﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ مرتفعة باسم المفعول، والرابط بين الحال وصاحبها إمّا ضمير مقدَّر كما هو رأي البصريّين، أي: الأبوابُ منها، أو "الألِف" و"اللام" القائمة مَقامه كما هو رأي الكوفيّين؛ إذ الأصل "أبوابُها".

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤/١٠٠؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٦٦.

[2] في الآية السابقة.

[3] في الآية السابقة.

وقُرِئتا مرفوعتين على الابتداء والخبر،[١] أو على أنّهما / خبران لمحذوف، [٤٤٣ظ]
أي: هي جنّات عدن، هي مفتَّحةٌ.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١﴾

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ حال مِن ضمير[٢] ﴿لَهُمُ﴾،[٣] والعاملُ فيها ﴿مُّفَتَّحَةً﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ استئناف لبيان حالهم فيها. وقيل: هو أيضًا حال ممّا ذُكر، أو مِن ضمير ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾. والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأنّ مَطاعمهم لِمَحض التفكّه والتلذّذ دون التغذّي، فإنّه لتحصيل بدَل المُتحلِّل، ولا تحلُّلَ ثمّة.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦﴾

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: على أزواجهنّ، لا ينظرن إلى غيرهم، ﴿أَتْرَابٌ﴾ لِدَات لهم، فإنّ التحابّ بين الأقران أرسَخ، أو بعضُهنّ لبعض، لا عجوزَ فيهنّ ولا صبيّة. واشتقاقه مِن "التراب"، فإنّه يَمسّهم في وقت واحد.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لأجله، فإنّ الحساب علّة للوصول إلى الجزاء. وقُرئ بـ"الياء"[٥] ليوافق ما قبله، والالتفاتُ أليَق بمقام الامتنان والتكريم.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكر مِن ألوان النِّعم والكرامات ﴿لَرِزْقُنَا﴾ أعطيناكُموه، ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ انقطاعٍ أبدًا.

﴿هَٰذَا﴾ أي: الأمرُ هذا، أو هذا كما ذُكر، أو هذا ذِكرٌ. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ شروع في بيان أضداد الفريق السابق.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وعبد الله بن رفيع وأبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٧/٩.

٢ م ط س – ضمير ["صح" في هامش م].

٣ في الآية السابقة.

٤ في الآية السابقة.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

﴿جَهَنَّمَ﴾ إعرابه كما سلف ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يَدخلونها، حال مِن ﴿جَهَنَّمَ﴾. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وهو المهدُ والمَفرش، مستعار مِن فراش النائم، والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو "جهنّم"، لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف، ٤١/٧].

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي: ليذوقوا هذا فليذوقوه، كقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ[١] فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة، ٤٠/٢]، أو العذابُ هذا فليذوقوه، أو ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ خبره: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، وما بينهما اعتراض، وهو على الأوّلَين خبر مبتدأ محذوف، أي: هو حميم. و"الغسّاق" ما يَغسَق مِن صديد أهل النار، مِن "غَسَقَت العَين" إذا سالَ دمعها.

وقيل: "الحميم" يُحرِق بحَرِّه، / و"الغسّاق" يُحرِق ببَرده. وقيل: لو قَطرت منه قطرة في المَشرق لنتّنتْ أهلَ المَغرب، ولو قَطرَت قطرة في المَغرب لنتّنتْ أهلَ المشرق.[٢] وقيل: "الغسّاق" عذاب لا يعلمه إلّا الله تعالى. [٤٤٤و]

وقُرئ بتخفيف "السين".[٣]

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أي: ومَذوقٌ آخَر أو عذابٌ آخَر مِن مِثل هذا المَذوق أو العذاب في الشدّة والفظاعة. وقُرئ: "وَأُخَرُ"،[٤] أي: ومَذوقاتٌ أُخَرُ، أو أنواعُ عذابٍ أُخَرُ. وتوحيدُ ضمير ﴿شَكْلِهِۦٓ﴾ بتأويل[٥] "ما ذُكر"، أو الشرابِ الشاملِ للحميم والغسّاق، أو هو راجع إلى "الغسّاق".

﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي: أجناس، وهو خبر لـ﴿ءَاخَرُ﴾؛ لأنّه يجوز أن يكون ضُروبًا، أو صفةٌ له، أو للثلاثة، أو مرتفِعٌ بالجارّ، والخبر محذوف، مِثل: "لهم".

---

[١] م ط س: فإيّاي.

[٢] جامع البيان للطبري، ١٢٩/٢٠؛ الكشّاف للزمخشري، ١٠١/٤.

[٣] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

[٤] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

[٥] وفي هامش م: بعد استعارته لاسم الإشارة، كما مرّ في سورة يوسف عليه السلام. «منه». | يوسف، ٣٦/١٢.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ۝٥٩﴾

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ حكاية ما يقال مِن جهة الخزَنة لرؤساء الطاغين إذا دخلوا النارَ واقتحَمها معهم فوجٌ كانوا يتّبعونهم في الكفر والضلالة. و"الاقتحام" الدخول في الشيء بشدّة. قال الراغب: «"الاقتِحام" توسّط شدّة مُخِيفة».[١]

وقوله تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ مِن تمام كلام الخزَنة بطريق الدعاء على الفوج، أو صفةٌ للفوج، أو حال منه، أي: مقولٌ، أو مقولًا في حقّهم: لا مرحبًا بهم، أي: لا أتيتم[٢] مرحبًا، أو لا رَحُبَتْهم[٣] الدارُ مرحبًا.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ تعليل مِن جهة الخزَنة لاستحقاقهم الدعاء عليهم، أو وصفِهم بما ذُكر.

وقيل: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ إلى هنا كلام الرؤساء في حقّ أتباعهم عند خطاب الخزَنة لهم باقتحام الفوج معهم تضجّرًا مِن مقارنتهم، وتنفّرًا مِن مصاحبتهم. وقيل: كلّ ذلك كلام الرؤساء بعضِهم مع بعضٍ في حقّ الأتْباع.

﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٦٠﴾

﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباعُ عند سماعهم ما قيل في حقّهم. ووجهُ خطابِهم للرؤساء في قولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾... إلخ على الوجهين الأخيرين ظاهرٌ، وأمّا على / الوجه الأوّل فلعلّهم إنّما خاطبوهم مع أنّ الظاهر أن يقولوا بطريق [٤٤٤ظ] الاعتذار إلى الخزَنة: "بل هم لا مرحبًا بهم"... إلخ قصدًا منهم إلى إظهار صِدقهم بالمخاطبة مع الرؤساء والتحاكمِ إلى الخزَنة طمعًا في قضائهم بتخفيف عذابهم، أو تضعيفِ عذاب خصمائهم. أي:[٤] بل أنتم أحقّ بما قيل لنا أو قلتم.

---

[١] المفردات للراغب الأصفهاني، «قحم».
[٢] س: لا أتَوا.
[٣] ط: رحبتكم؛ س: رحبت بهم. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه غيّر العبارة بعد نسخ ط س. والأصل في "رَحُبَ" أن يتعدّى بالحرف، فيقال: "رَحُبَ بكَ المكان"، ثمّ كثُر حتّى تعدّى بنفسه، فقيل: "رَحُبَتْكَ الدارُ"، وهذا شاذّ في القياس، فإنّه لا يوجد "فَعُلَ" بالضمّ إلّا لازمًا، مثل: "شَرُفَ" و"كَرُمَ". المصباح المنير للفيّومي، «رحب».
[٤] وفي هامش م: تفسير على الوجوه الثلاثة. «منه».

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ تعليل لأحقّيّتهم بذلك، أي: أنتم قدّمتم العذاب أو الصُّلِيّ لنا، وأوقعتمونا فيه بتقديم ما يؤدّي إليه مِن العقائد الزائغة والأعمال السيّئة، وتزيينها في أعيننا، وإغرائنا عليها، لا أنّا باشرناها مِن تِلقاء أنفسنا، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: فبئس المَقرُّ جهنّمُ، قصَدوا بذمّها تغليظَ جناية الرؤساء عليهم.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباعُ أيضًا، وتوسيطُه بين كلامَيهم لِما بينهما مِن التباين البيّن ذاتًا وخطابًا، أي: قالوا معرِضين عن خُصومتهم متضرّعين إلى الله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف، ٣٨/٧]، أي: عذابًا مضاعَفًا، أي: ذا ضِعف، وذلك بأن يزيد عليه مِثله، ويكون ضِعفين، كقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب، ٦٨/٣٣]. وقيل: المراد بـ"الضعف" الحيّات والأفاعي.

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الطاغون: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يستَرذِلونهم ويسخَرون منهم.

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ بهمزة استفهام سقَطت لأجلها همزة الوَصل. والجملة استئناف لا محلَّ لها مِن الإعراب. قالوه إنكارًا على أنفسهم، وتأنيبًا لها في الاستِسخار منهم.

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ متّصل بـ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ على أنّ ﴿أَمْ﴾ متّصلة، والمعنى: أيَّ الأمرين فعَلْنا بهم؛ الاستسخارَ منهم أم الازدراءَ بهم وتحقيرَهم، وأنّ أبصارنا كانت تَزيغُ عنهم وتقتحمهم؟ على معنى إنكار كلِّ واحدٍ مِن الفعلين على أنفسهم توبيخًا لها.

أو على أنّها منقطعة، والمعنى: أَتَّخذناهم سِخريًا بل أزاغَت عنهم أبصارنا؟
[٤٤٥و] كقولك: "أزيدٌ عندك أم عندك عمرو؟" على معنى توبيخ أنفسهم / على الاستِسخار ثمّ الإضرابِ والانتقالِ منه إلى التوبيخ على الازدِراء والتحقير.

وقُرئ: "اتَّخَذْنَاهُمْ" بغير همزة[١] على أنّه صفة أخرى لـ﴿رِجَالًا﴾،[٢] فقوله تعالى: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿مَالَنَا لَا نَرَىٰ﴾،[٣] والمعنى: ما لنا لا نراهم في النار، أَلَيسُوا فيها فلذلك لا نراهم، أم زاغَت عنهم أبصارُنا وهم فيها؟ وقد جُوِّز أن تكون "الهمزة" مقدَّرة على هذه القراءة. وقُرئ: "سُخْرِيًّا" بضمّ "السين".[٤]

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي حُكي مِن أحوالهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بدَّ مِن وقوعه البتّةَ.

وقوله تعالى: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة بيان لـ﴿ذَٰلِكَ﴾، وفي الإبهام أوّلًا والتبيين ثانيًا مزيدُ تقرير له. وقيل: بدل مِن محلّ ﴿ذَٰلِكَ﴾. وقيل: بدل مِن ﴿حَقٌّ﴾، أو عطف بيان له. وقُرئ بالنصب[٥] على أنّه بدل مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾. وما قيل:[٦] مِن أنّه صفة له، فقد قيل عليه: إنّ اسم الإشارة لا يُوصف إلّا بالمعرَّف بـ"اللام"، يقال: "بهذا الرجلِ"، ولا يقال: "بهذا غلامِ الرجل".

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٦٦﴾

﴿قُلْ﴾ أمرٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ مِن جهته تعالى أنذركم عذابه، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشركةَ والكثرةَ أصلًا، ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكلّ شيء سِواه.

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية السابقة.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٢.

٦ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٠٣/٤.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ مِن المخلوقات، فكيف يُتوهَّم أن يكون له شريك منها؟ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلَبُ في أمر مِن أموره، ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ المبالِغ في المغفرة، يغفر ما يشاء لمَن يشاء. وفي هذه النعوت مِن تقرير التوحيد والوعد للموحِّدين والوعيد للمشركين ما لا يخفى. وتثنيةُ ما يُشعر بالوعيد مِن وصفَي القَهر والعزّة وتقديمُهما على وصف المغفرة لتَوفية مَقام الإنذار حقَّه.

﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ۝٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾

﴿قُلۡ﴾ / تكريرُ الأمر للإيذان بأنّ المَقول أمر جليل له شأن خَطير، لا بدَّ مِن الاعتناء به أمرًا وائتمارًا: ﴿هُوَ﴾ أي: ما أنبأتكم به مِن أنّي منذر مِن جهته تعالى، وأنّه تعالى واحد لا شريكَ له، وأنه متّصف بما ذُكر مِن الصفات الجليلة. والأظهر أنّه **القرآنُ**، وما ذُكر داخل فيه دخولًا أوّليًا كما يشهد به آخِر السورة الكريمة، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة. ﴿نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ وارد مِن جهته تعالى. [٤٤٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ استئناف ناعٍ عليهم سوءَ صنيعهم به ببيان أنّهم لا يقدّرون قَدرَه الجليلَ، حيث يُعرضون عنه مع عظمته وكونِه موجِبًا للإقبال الكلّي وتلقّيه بحُسن القَبول. وقيل: صفة أخرى لـ﴿نَبَؤٌاْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾... إلخ استئناف مَسوق لتحقيق أنّه نبأ عظيم وارد مِن جهته تعالى بذِكر نبأٍ مِن أنبائه على التفصيل مِن غير سابقةِ معرفةٍ به، ولا مباشرةِ سببٍ مِن أسبابها المعتادة، فإنّ ذلك حجّة بيّنة دالّة على أنّ ذلك بطريق الوحي مِن عند الله تعالى، وأنّ سائر أنبيائه أيضًا كذلك. و﴿ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾ هم الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس عليه اللعنة.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ متعلّق بمحذوفٍ يقتضيه المقام؛ إذ المراد نفي علمه عليه السلام بحالهم، لا بذواتهم. والتقدير: ما كان لي فيما سبَق عمل ما بوجه مِن الوجوه بحال الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم. وتقديرُ[١] الكلام

---

[١] وفي هامش م: لفظ الكلام.

كما اختاره الجمهور تحجير للواسع، فإنّ علمه عليه السلام غيرُ مقصور على ما جرى بينهم مِن الأقوال فقط؛ بل عامّ لها وللأفعال أيضًا، مِن سجود الملائكة عليهم السلام، واستكبار إبليس وكفره، حسبما ينطق به الوحيُ، فلا بدّ مِن اعتبار العموم في نَفيِه أيضًا لا محالةَ.

وقوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اعتراض وُسِّط بين إجمال اختصامهم وتفصيله تقريرًا لِثبوت علمه عليه السلام، وتعيينًا لسببه، إلّا أنّ بيان انتفائه فيما سبق لمّا كان / منبئًا عن ثبوته الآنَ، ومِن البيّن عدم ملابَسته [٤٤٦و] عليه السلام بشيء مِن مَباديه المعهودة؛ تعيّن أنّه ليس إلّا بطريق الوحي حتمًا، فَجُعِل ذلك أمرًا مسلّمَ الثبوت، غنيًّا عن الإخبار به قصدًا، وجُعِل مَصَبّ الفائدة والمقصود إخبارُه ما هو داعٍ إلى الوحي ومصحِّحٌ له تحقيقًا لِقوله تعالى:[١] ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾[٢] في ضِمن تحقيق علمه عليه السلام بقصّة الملأ الأعلى.

فالقائم مَقام الفاعل لِـ﴿يُوحَىٰٓ﴾ إمّا ضمير عائد إلى الحال المقدَّر، أو ما يَعُمّه وغيرَه، فالمعنى: ما يُوحى إليَّ حالُ الملأ الأعلى، أو ما يُوحى إليَّ ما يُوحى مِن الأمور الغيبيّة التي مِن جملتها حالُهم إلّا لِأنّما أنا نذير مبين مِن جهته تعالى. فإنّ كونَه عليه السلام كذلك مِن دواعي الوحي إليه[٣] وموجِباته حتمًا.

وأمّا أنّ القائم مَقام الفاعل هو الجارّ والمجرور، أو هو ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بلا تقدير الجارّ، وأنّ المعنى: ما يوحى إليَّ إلّا للإنذار، أو ما يُوحى إليَّ إلّا أن أُنْذِر وأُبَلِّغ ولا أُفَرِّطَ في ذلك كما قيل؛[٤] فمَع ما فيه مِن الاضطرار إلى التكلّف في توجيه قَصر الوحي على كونه للإنذار في الأوّل، وقَصره على الإنذار في الثاني، فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه، كيف لا والاعتراض حينئذ يكون أجنبيًّا ممّا توسّط بينهما مِن إجمال الاختصام وتفصيله؟ فتأمّل، والله المرشد.

وقُرِئ: "إِنَّمَا" بالكسر[٥] على الحكاية.

---

١ س - تعالى.

٢ ص، ٣٨/٦٥.

٣ وفي هامش م: ويجوز أن يكون ذلك مصدر الفعل، أي: ما يُفعَل الوحي إليّ إلّا لأنّما أنا نذير مبين. «منه».

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١٠٤.

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٢.

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمل مِن الاختصام الذي هو ما جرى بينهم مِن التقاوُل، وحيث كان تكليمه تعالى إيّاهم بواسطة الملَك صحّ إسناد الاختصام إلى الملائكة. و﴿إِذۡ﴾ بدل مِن ﴿إِذۡ﴾ الأُولى، وليس مِن ضرورة البدليّة دخولها على نفس الاختصام؛ بل يكفي اشتمال ما في حيّزها عليه، فإنّ القصّة ناطقة بذلك / تفصيلًا. [٤٤٦ظ]

والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام، والإيذانِ بأنّ وَحي هذا النبأ إليه تربيةٌ وتأييدٌ له عليه السلام.

و"الكاف" وارد باعتبار حال الآمِر، لكونه أدلّ على كونه وحيًا منزّلًا مِن عنده تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾... إلخ [الزمر، ٣٩/٥٣] دون حال المأمور، وإلّا لَقيل: "ربّي"؛ لأنّه داخل في حيّز الأمر.

﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ﴾ أي: فيما سيأتي، وفيه ما ليس في صيغة المضارع مِن الدلالة على أنّه تعالى فاعل له البتّة مِن غير صارِف يَلويه، ولا عاطف يَثنيه. ﴿بَشَرٗا﴾ قيل: أي: جسمًا كثيفًا يُلاقَى ويُباشَر. وقيل: خَلقًا باديَ البشَرة بلا صوف ولا شَعر. ولعلّ ما جرى عند وقوع المَحكيّ ليس هذا الاسمَ الذي لم يُخلَق مسمّاه حينئذ فضلًا عن تسميته به؛ بل عبارةٌ كاشفة عن حاله، وإنّما عُبّر عنه بهذا الاسم عند الحكاية. ﴿مِّن طِينٖ﴾ لم يُتعرَّض لأوصافه مِن التغيّر والاسوِداد والمَسنونيّة اكتفاءً بما ذُكر في مواقع أُخَر.

﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾

﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ أي: صوَّرتُه بالصورة الإنسانيّة والخِلقة البشريّة، أو سوَّيت أجزاء بدَنه بتعديل طبائعه، ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ "النفخ": إجراء الريح إلى تجويف جسمٍ صالح لإمساكها والامتلاءِ بها. وليس ثَمّةَ نفخٌ ولا مَنفوخٌ، وإنّما هو تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادّة القابلة لها، أي: فإذا كمّلت استعداده وأفضتُ عليه ما يَحيى به مِن الروح التي هي مِن أمري ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾

أمرٌ مِن "وَقَعَ"، وفيه دليل على أنّ المأمور به ليس مجرّدَ الانحناء كما قيل،[١] أي: اسقُطوا له ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تحيّةً له وتكريمًا.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: فخلقه فسوّاه، فنفخ فيه الروح، فسجد له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يبقَ منهم أحد إلّا سجد ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أي: بطريق المعيّة، / بحيث لم يتأخّر في ذلك أحد منهم عن أحد. ولا اختصاصَ لإفادة هذا المعنى بالحاليّة؛ بل يفيده التأكيد أيضًا. وقيل: أُكِّد بتأكيدين مبالغةً في التعميم. [٤٤٧و]

هذا، وأمّا أنّ سجودهم هذا هل ترتّب على ما حُكِي مِن الأمر التعليقي كما يقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة الحِجر،[٢] فإنّ ظاهرهما يستدعي ترتّبه عليه مِن غير أن يتوسّط بينهما شيء غيرُ ما يفصح عنه "الفاء" الفصيحة مِن الخَلق والتسوية ونفخِ الروح، أو على الأمر التنجيزي كما يقتضيه ما في سورة البقرة،[٣] وما في سورة الأعراف،[٤] وما في سورة بني إسرائيل،[٥] وما في سورة الكهف،[٦] وما في سورة طه،[٧] مِن الآيات الكريمة؛ فقد مرّ تحقيقه بتوفيق الله عزّ وجلّ في سورة البقرة[٨] وسورة الأعراف.[٩]

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناء متّصل لِما أنّه كان جنّيًا مُفرَدًا مغمورًا[١٠] بألوفٍ مِن الملائكة، موصوفًا بصفاتهم، فغُلّبوا عليه، ثمّ استثني استثناءَ واحد منهم، أو لأنّ مِن الملائكة جنسًا يتوالدون، وهو منهم، أو منقطع.

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٠/١ (البقرة، ٣٤/٢)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١٢٠/١ (البقرة، ٣٤/٢).
٢ الحجر، ٣٠/١٥.
٣ البقرة، ٣٤/٢.
٤ الأعراف، ١١/٧.
٥ الإسراء، ٦١/١٧.
٦ الكهف، ٥٠/١٨.
٧ طه، ١١٦/٢٠.
٨ البقرة، ٣٤/٢.
٩ الأعراف، ١١/٧.
١٠ س: مغمور.

وقوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرَ﴾ على الأوّل استئناف مبيّن لكيفيّة ترك السجود المفهوم مِن الاستثناء، فإنّ تركه يحتمل أن يكون للتأمّل والتروّي، وبه يتحقّق أنّه للإباء والاستكبار. وعلى الثاني يجوز اتّصاله بما قبله، أي: لكنّ إبليس استكبر ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وصار منهم بمخالفته للأمر، واستكبارِه عن الطاعة، أو كان منهم في علم الله عزّ وجلّ.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: خلقتُه بالذات مِن غير توسّطِ أبٍ وأمّ. والتثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقِه عليه السلام المُستدعي لإجلاله وإعظامه قصدًا إلى تأكيد الإنكار وتشديدِ التوبيخ.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ / بهمزة الإنكار وطرحِ همزة الوصل، أي: أتكبّرتَ مِن غير استحقاق، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ المستحِقّين للتفوّق؟ وقيل: أَستكبرتَ الآن أم لم تزَل منذُ كنتَ مِن المستكبرين؟ وقُرئ بحذف همزة الاستفهام[١] ثقةً بدلالة ﴿أَمْ﴾ عليها. [٤٤٧ظ]

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ادّعاءٌ منه لشيء مستلزِم لمنعه مِن السجود على زعمه، وإشعارٌ بأنّه لا يليق أن يسجد الفاضل للمَفضول، كما يُعرِب عنه قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر، ١٥/٣٣].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تعليل لِما ادّعاه مِن فضله عليه عليه السلام، ولقد أخطأ اللعينُ حيث خصّ الفَضل بما مِن جهة المادّة والعنصر، وزلّ عنه ما مِن جهة الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾،[٢] وما مِن جهة الصورة، كما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٧٥/٩.

[٢] في الآية السابقة.

[الحجر، ٢٩/١٥]، وما مِن جهة الغاية، وهو مَلاك الأمر، ولذلك أُمِر الملائكة بسجوده عليهم السلام حين ظهَر لهم أنّه أعلَم منهم بما يدور عليه أمر الخِلافة في الأرض، وأنّ له خواصّ ليست لغيره.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧﴾

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ "الفاء" لترتيب الأمر على ما ظهر مِن اللعين مِن المخالفة للأمر الجليل، وتعليلِها بالأباطيل، أي: فاخرج مِن الجنّة، أو مِن زُمرة الملائكة، وهو المراد بالأمر بالهبوط،[1] لا الهبوطُ مِن السماء كما قيل،[2] فإنّ وسوَسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد، وقد بُيّن كيفيّة وسوَسته في سورة البقرة.[3]

وقيل: اخرج مِن الخِلقة التي كنتَ فيها وانسلِخ منها، فإنّه كان يفتخر بخِلقته، فغيّر الله تعالى خِلقَته؛ فاسودّ بعد ما كان أبيض، وقَبُح بعد ما كان حَسنًا، وأظلَمَ بعد ما كان نورانيًا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ تعليل للأمر بالخروج، أي: مطرودٌ مِن كلّ خير وكرامة، فإنّ مَن يُطرَد يُرجَم بالحجارة، أو شيطان يُرجَم / بالشهُب. [٤٤٨و]

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ أي: إبعادي عن الرحمة. وتقييدها بالإضافة مع إطلاقها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ [الحجر، ٣٥/١٥] لِما أنّ لعنةَ اللاعنِين مِن الملائكة والثقلَين أيضًا مِن جهته تعالى، وأنّهم يَدعون عليه بلعنة الله تعالى[4] وإبعادِه مِن الرحمة.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يومِ الجزاء والعقوبة. وفيه إيذان بأنّ اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاءً لجنايته؛ بل هي أنموذج ممّا سيَلقاه مستمرًا إلى ذلك اليوم،

---

[1] في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف، ١٣/٧].

[2] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٠/٤ (الأعراف، ١٣/٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٩٠/٢ (الأعراف، ١٣/٧).

[3] البقرة، ٣٦/٢.

[4] س – تعالى.

لكن لا على أنّها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت؛ بل على أنّه سيَلقى يومئذ مِن ألوان العذاب وأفانين العقاب ما يَنسى عنده اللعنة، وتصير كالزائل، ألا يُرى إلى قوله تعالى:[1] ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم[2] بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت، ٢٥/٢٩].

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩﴾

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ أي: أمهِلني وأخِّرني. و"الفاء" متعلِّقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام، أي: إذا جعلتني رجيمًا فأمهلني ولا تُمِتني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: آدمُ وذرّيّتُه للجزاء بعد فنائهم، وأراد بذلك أن يجِد فُسحة لإغوائهم، ويأخذَ منهم ثأرَه، وينجو مِن الموت بالكلّيّة؛ إذ لا موتَ بعد يوم البعث.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١﴾

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ ورود الجواب بالجملة الاسميّة مع التعرّض لشمول ما سأله لآخَرين على وجهٍ يُشعر بكون السائل تبَعًا لهم في ذلك دليلٌ واضح على أنّه إخبار بالإنظار المقدَّر لهم أزَلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصّ به، قد وقع إجابةً لدعائه، وأنّ استنظارَه كان طلبًا لتأخير الموت؛ إذ به يتحقّق كونه منهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل،[3] فإنّ ذلك معلوم مِن إضافة "اليوم" إلى "الدِّين"، أي: إنّك مِن جملة الذين أُخِّرَت آجالُهم أزَلًا حسبما يقتضيه حكمةُ التكوين.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ الذي قدّره الله تعالى وعيّنه لفَناء الخلائق، وهو وقت النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث الذي هو المسئول. فـ"الفاء" ليست لربط نفْس الإنظار بالاستنظار؛ بل لربط الإخبار المذكور به، كقول[4] مَن قال:

فـإن تَـرحَـمْ فـأنـتَ لـذاكَ أهـلٌ[5]

---

[1] س - تعالى.

[2] م ط س: بعضهم.

[3] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧/٣ (الأعراف، ١٣/٧).

[4] ط س: كما في قول.

[5] تمامه:

وإن تطرُد فمَن يَرحَم سواكا

وهو بغير نسبة في عروس الأفراح للسبكي، ٢٦٧/١؛ ومعاهد التنصيص لأبي الفتح العبّاسي، ١٧٠/١، بلفظ: "فإن تغفر"...

[٤٤٨ظ] فإنّه لا إمكان / لجَعل "الفاء" فيه لرَبط ما له تعالى مِن الأهليّة القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة؛ بل هي لربط الإخبار بتلك الأهليّة للرحمة بوقوعها.

هذا، وقد تُرِك التوقيت في سورة الأعراف[١] كما تُرِك النداء و"الفاء" في الاستِنظار والإنظار تعويلًا على ما ذُكر ههنا وفي سورة الحجر،[٢] وإن خطر ببالك أنّ كلّ وجه مِن وجوه النظم الكريم لا بدَّ أن يكون له مقام يقتضيه مُغاير لمَقام غيره، وأنّ ما حُكِي مِن اللعين إنّما صدَر عنه مرّة، وكذا جوابه لم يقع إلّا دفعةً، فمقام الاستنظار والإنظار إن اقتضى أحدَ الوجوه المَحكيّة فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال، والبالغُ إلى رتبة البلاغة وذِروة[٣] الإعجاز، وأمّا ما عداه مِن الوجوه فهو بمَعزِل[٤] مِن بلوغ درجة[٥] البلاغة فضلًا عن العروج إلى معارج الإعجاز؛ فقد سلَف تحقيقه في سورة الأعراف[٦] بفضل الله تعالى وتوفيقه.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ "الباء" للقسَم، و"الفاء" لترتيب مضمون الجملة على الإنظار، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف، ١٦/٧]، وقولُه تعالى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر، ٣٩/١٥]، فإنّ إغواءه تعالى إيّاه أثرٌ مِن آثار قدرته تعالى وعزّته، وحكمٌ مِن أحكام قَهره وسَلطنته، فمآل الإقسام بهما واحد، ولعلّ اللعينَ أقسَم بهما جميعًا، فحُكي تارةً قسَمه بأحدهما، وأخرى بالآخر، أي: فأقسِمُ بعزّتك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: ذريّةَ آدم بتزيين المعاصي لهم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهم الذين أخلَصَهم الله تعالى لطاعته، وعصَمَهم مِن الغواية. وقُرئ: "المُخْلِصِينَ"[٧] على صيغة الفاعل، أي: الذين أخلَصوا قلوبهم أو أعمالَهم[٨] لله تعالى.

---

١ الأعراف، ١٥/٧.
٢ الحجر، ٣٨/١٥.
٣ ط س: ودرجة.
٤ س: فبمعزل.
٥ ط س: طبقة.
٦ الأعراف، ١٥/٧.
٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.
٨ س: وأعمالهم.

﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٥﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ برفع الأوّل على أنّه مبتدأ محذوف الخبر، أو خبر محذوف المبتدأ، ونَصبِ الثاني على أنّه مفعول لِما بعده قُدّم عليه للقصر، أي: لا أقول إلّا الحقَّ. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: فالحقُّ قَسَمي، ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ على أنّ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ إمّا اسمه تعالى، أو نقيض الباطل؛ عظّمه الله تعالى بإقسامِه به، أو فأنا الحقُّ، / أو فقَولي الحقُّ. وقوله تعالى: [٤٤٩و] ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾... إلخ حينئذ جواب لقسمٍ محذوف، أي: واللهِ لَأملأنّ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾[١] على كلّ تقديرٍ اعتراض مقرّر على الوجهَين الأوّلين[٢] لِمَضمون الجملة القَسَميّة، وعلى الوجه الثالث[٣] لِمَضمون الجملة المتقدّمة، أعني: فقَولي الحقُّ.

وقُرئا منصوبَين[٤] على أنّ الأوّل مُقسَم به، كقولك: "اللهَ لَأفعلَنّ"، وجوابه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾، وما بينهما اعتراض. وقُرئا مجرورَين[٥] على أنّ الأوّل مُقسَم به قد أُضمِر حرف قسَمِه، كقولك: "اللهِ لَأفعلَنّ"، و"الْحَقِّ أَقُولُ" على حكاية لفظ المقسَم به على تقدير كونه نقيض الباطل، ومعناه التأكيد والتشديد. وقُرئ بجرّ الأوّل على إضمار حرف القسَم، ونصبِ الثاني على المفعوليّة.[٦]

﴿مِنكَ﴾[٧] مِن جنسك مِن الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ في الغواية والضلال ﴿مِنۡهُمۡ﴾ مِن ذرّيّة آدم ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ تأكيد للكاف وما عطف عليه، أي: لأملأنّها مِن المَتبوعين والأتباع أجمعين، كقوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأعراف، ١٨/٧]. وهذا القولُ هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة، ١٣/٣٢].

---

١ في الآية السابقة.
٢ وفي هامش س: هما: "فالحقُّ قسَمي"، "فأنا الحقُّ". «منه». | هو ليس في م، ولعلّه بإشارته.
٣ وفي هامش س: هو "فقولي الحقُّ". «منه». | هو ليس في م، ولعلّه بإشارته.
٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٢.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ١٠٨/٤.
٧ ط س + أي.

وحيث كان مَناط الحكم ههنا اتّباع الشيطان اتّضح أنّ مَدار عدم المشيئة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة، ١٣/٣٢] اتّباعُ الكفرة للشيطان بسوء اختيارهم، لا تحقّقُ القول، فليس في ذلك شائبة الجَبر، فتدبّر.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن، أو على تبليغ ما يوحَى إليّ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ دنيوي ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: المتَصنِّعين بما ليسوا مِن أهله حتّى أنتحِل النبوّةَ وأتقوَّل القرآنَ.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ مِن الله عزّ وجلّ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للثقلَين كافّةً.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: ما أنبأ به مِن الوعد والوعيد وغيرِهما، أو صحّةَ خبره وأنّه الحقُّ والصِّدق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت، أو يومَ القيامة، أو عند ظهور الإسلام وفُشوِّه. وقيل: مَن بقي علِم ذلك إذا ظهَر[١] وعلا، ومَن ماتَ علِمَه بعد الموت. وفيه مِن التهديد ما لا يخفى.

عن رسول الله صلّى الله تعالى[٢] عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿ص﴾ كان له بوَزن كلِّ جبل سخّره الله تعالى[٣] لداود عليه السلام عشر حسنات، وعُصم أن يُصرّ على ذنب صغير أو كبير».[٤] وقال أبو أمامة:[٥] «عصَمه الله تعالى مِن كلّ ذنب صغير أو كبير».[٦] والله تعالى[٧] أعلم.

---

١ ط س + أمره.

٢ م - تعالى.

٣ م - تعالى.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٥/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٣٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥ هو صُدَيّ بن عَجلان بن الحارث الباهلي، أبو أمامة (ت. ٨١هـ/٧٠٠م)، الصحابي. روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعن عمر وعثمان وعليّ وأبي عبيدة ومعاذ وغيرهم. كان مع عليّ في صِفّين. وسكن الشام، فتوفّي في أرض حمص. وهو آخر مَن مات مِن الصحابة بالشام. انظر: الإصابة لابن حجر، ٣٣٩/٣؛ والأعلام للزركلي، ٢٠٣/٣.

٦ اللباب لابن عادل، ٤٦٣/١٦.

٧ س - تعالى.

سورة ص

مكية، ستٌّ أو ثمانٍ وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿ص﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

﴿والقُرآنِ ذِي الذِّكرِ﴾ أي: البيانِ أو الشرف. وجواب هذا القسم محذوف، أي: ما الأمر كما قال كُفّار مكّة من تعدّد الآلهة. ٢ ـ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة ﴿في عِزَّةٍ﴾: حميّة وتكبّر عن الإيمان،

سورة ص

قولُهُ: (اللهُ أعلَمُ) قيلَ: هو الصَّادقُ، أو: صدَقَ وعدَهُ، أو: صدقَ محمَّدٌ.

وقيلَ: أمرٌ مِن المصاداةِ بمعنى: المعارضةِ، ومنه: الصَّدى، فإنَّه يعارضُ الصَّوتَ الأوَّلَ، ولذلك قُرِئَ بالكسرِ[1]؛ أي: عارِضِ القرآنَ بعملِكَ فاعملْ بأوامرِهِ وانتهِ عن نواهيهِ.

قولُهُ: (أي: البيَانِ) الشَّافي والاعتبارِ والموعظةِ البليغةِ.

قولُهُ: (أوِ الشَّرَفِ) أو الشُّهرةِ، أو ذكرِ ما يُحتاجُ إليه في الدِّينِ مِن العقائدِ والشَّرائعِ والمواعيدِ.

قولُهُ: (مَحذُوفٌ) قيل: دلَّ عليه ما في ﴿ص﴾ مِن الدَّلالةِ على التَّحدِّي، أو: الأمرِ بالمعارضةِ؛ أي: إنَّه لمعجزٌ أو لواجبٌ العملُ به، أو: إنَّ محمَّدًا لصادقٌ.

أو دلَّ عليه ما بعدَهُ؛ أي: ما كفرَ مَن كفرَ به لخللٍ وجدَهُ فيهِ [بل الذين كفرُوا به في عزةٍ وشقاق][2].

قولُهُ: (حَمِيَّةٍ) وعزَّةٍ للنَّفسِ.

---

(١) أي: بكسر الدال، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٢٩) عن الحسن وأبي السمال وابن أبي إسحاق.

(٢) من «أنوار التنزيل».

﴿وشِقاقٍ﴾: خِلافٍ وعداوة للنبيّ ﷺ. ٣ ـ ﴿كَم﴾ أي: كثيرًا ﴿أهلَكْنا مِن قَبلِهِم مِن قَرنٍ﴾ أي: أُمّةٍ من الأُمم الماضية، ﴿فنادَوا﴾ حين نُزول العذاب بهم، ﴿ولاتَ حِينَ مَناصٍ﴾ أي: ليس الحينُ حينَ فِرار! والتاء: زائدة، والجملة: حال من فاعل «نادوا»، أي: استغاثوا والحال أنْ لا مهربَ ولا منجَى، وما اعتبرَ بهم كُفّار مكّة.

٤ ـ ٥ ـ ﴿وعَجِبُوا أن جاءَهُم مُنذِرٌ مِنهُم﴾ رسول من أنفُسهم، يدعوهم إلى الله، ويُخوّفهم بالنار بعد البعث ـ وهو النبيّ ﷺ ـ ﴿وقالَ الكافِرُونَ﴾، فيه وضع الظاهر موضع المُضمر: ﴿هذا ساحِرٌ كَذّابٌ. أجَعَلَ الآلِهةَ إلـٰهًا واحِدًا﴾ حيثُ قال لهم: قولوا: لا إلـٰهَ إلاّ اللهُ؟ أي: كيف يسع الخلقَ كُلّهم إلـٰهٌ واحد؟ ﴿إنَّ هذا لَشَيءٌ عُجابٌ﴾: عجيب. ٦ ـ ﴿وانطَلَقَ المَلأُ مِنهُم﴾ من مجلس اجتماعهم عِند أبي طالب وسماعهم فيه من النبيّ: قولوا: «لا إلـٰهَ إلاّ اللهُ»: ﴿أنِ امشُوا﴾ أي: يقول بعضهم لبعض:

قولُهُ: (خِلافٍ) للهِ.

قولُهُ: (حِينَ نُزُولِ العَذَابِ) استغاثةً، أو توبةً واستغفاراً.

قولُهُ: (زَائِدَةٌ) للتّأكيدِ.

قولُهُ: (ولا مَنْجَى) أي: مَخلَص.

قولُهُ: (ومَا اعتبَرَ) رَحِمَ اللهُ الشَّيخَ حيثُ قدَّرَهُ ليعطفَ عليهِ ﴿عَجِبُوا﴾، ويكونَ انعطافاً إلى الكلامِ السَّابقِ، ولا يتوهَّمَ أنّه معطوفٌ على: ﴿فَنَادَوا﴾، إذ هو مخلٌّ بالمعنى، كما لا يَخفى.

قولُهُ: (رَسُولٌ) بشرٌ مثلهم، أو أُمّيٌّ من عدادِهِم.

قولُهُ: (مَوضِعَ المُضمَرِ) غضباً عليهم وذمًّا لهم وإشعاراً بأنَّ كفرَهُم جسَّرهُم على هذا القولِ.

قولُهُ: (عَجِيبٌ) أي: بليغٌ في العجبِ، فإنَّهُ خلافُ ما أطبقَ عليهِ آباؤُنا.

قولُهُ: (وسَمَاعِهِم) عطفٌ على: (اجتِمَاعِهِم)، و(فيهِ) أي: المجلسِ.

قولُهُ: (أي: يَقُولُ) أشارَ إلى قولٍ مقدَّرٍ، ويُشكِلُ عليه ﴿أنِ﴾، وظاهرُ كلامِهِ أنّها زائدةٌ، وقُرئَ بغيرِ ﴿أن﴾[1]، والصَّحيحُ أنّها مفسِّرةٌ؛ لأنَّ الانطلاقَ عن مجلسِ التَّقاولِ يُشعِرُ بالقولِ، أو لأنَّ المعنى: انطلَقوا في القولِ واندفَعوا فيهِ.

---

(١) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٠٩) ونسبت لابن أبي عبلة.

امشوا، ﴿وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾: اثبُتوا على عِبادتها. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكورَ من التوحيد ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ منّا. ٧ ـ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: مِلّة عِيسَى. ﴿إِنْ﴾: ما ﴿هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾: كذبٌ. ٨ ـ ﴿أَأُنْزِلَ﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينهما على الوجهين وتركِه ـ ﴿عَلَيْهِ﴾: على مُحمّد ﴿الذِّكْرُ﴾: القُرآن ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾، وليس بأكبرِنا ولا أشرفِنا؟ أي: لم ينزل عليه.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾: وحيِي، أي: القرآنِ، حيثُ كذّبوا الجائيَ به. ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾، ولو ذاقوه لصدّقوا النبيّ فيما جاء به، ولا ينفعهم التصديق حينئذ. ٩ ـ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ﴾: الغالب ﴿الْوَهَّابِ﴾ من النُّبوّة وغيرِها، فيعطونها من شاؤوا؟ ١٠ ـ ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟ إن زعموا ذلك..........................

قولُهُ: (مِنَ التَّوحِيْدِ) أي: هذا الَّذي يدَّعيهِ من التَّوحيدِ.

قولُهُ: (مِنَّا) أي: يُتَمنَّى[١].

قولُهُ: (أي: مِلَّةِ عِيسَى) الَّتي هي آخرُ المللِ، فإنَّ النَّصارى يثلِّثونَ.

قولُهُ: (كَذِبٌ) اختلقَهُ.

قولُهُ: (بتَحقِيقِ الهَمْزَتَينِ) شاميٌّ وكوفيٌّ[٢].

قولُهُ: (وتَسهِيلِ الثَّانِيةِ) حرميٌّ وبصريٌّ.

قولُهُ: (وإدخَالِ أَلِفٍ) قالونُ وبصريٌّ وهشامٌ بخلفِهما.

قولُهُ: (عَلى الوَجهَينِ) أي: التَّحقيقِ والتَّسهيلِ، ولهشامٍ وجهٌ كقالونَ.

قولُهُ: (وتَركِهِ) عطفٌ على: «إدخالِهِ».

قولُهُ: (ولا أَشرَفِنَا) بل هو مِثلنا، أو أدوَنُ منَّا في الرِّئاسةِ.

قولُهُ: (حَيثُ كَذَّبُوا) و﴿بَلْ﴾ إضرابٌ عن مقدَّرٍ، فكأنَّه قالَ: إنكارُهُم للذِّكرِ المذكورِ ليس عن علمٍ بل عن شكٍّ منه، و﴿بَلْ﴾ الثَّاني للانتقالِ من غرضٍ إلى آخرَ.

قولُهُ: (إنْ زَعَمُوا) هذا أحسنُ من تقديرِ القاضِي[٣]: إن كانَ لهم ذلكَ.

---

(١) أي: إن هذا الذي يدَّعيهِ مِن التَّوحيدِ، أو يقصدُهُ مِن الرِّئاسَةِ والتَّرفُّعِ على العربِ والعجمِ، لشَيْءٌ يُتَمنَّى ويريدُه كلُّ أحدٍ.

(٢) هذا وما بعده انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٣٢).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٥).

﴿فَلْيَرْتَقُوا في الأسبابِ﴾ المُوصّلة إلى السماء، فيأتوا بالوحي فيخصّوا به من شاؤوا. و«أم» في الموضعين بمعنى همزة الإنكار.

١١ ـ ﴿جُندٌ ما﴾ أي: هم جند حقير ﴿هُنالِكَ﴾ أي: في تكذيبهم لك، ﴿مَهزُومٌ﴾: صفةُ «جند»، ﴿مِنَ الأحزابِ﴾: صفةُ «جند» أيضًا، أي: كالأجناد، من جِنس الأحزاب المُتحزّبين على الأنبياء قبلك ـ وأولئك قد قُهروا وأُهلكوا، فكذا يَهلِك هؤلاء ـ ١٢ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبلَهُم قَومُ نُوحٍ﴾، تأنيث «قوم» باعتبار المعنى، ﴿وعادٌ وفِرعَونُ ذُو الأوتادِ﴾ ـ كان يَتِدُ لكُلّ من يغضب عليه أربعة أوتاد، يَشدّ إليها يديه ورجليه ويُعذّبه ـ ١٣ ـ ﴿وثَمُودُ وقَومُ لُوطٍ وأصحابُ الأَيكةِ﴾ أي: الغَيضةِ. وهم قوم شُعيب عليه السلام. ﴿أُولئِكَ الأحزابُ﴾.

١٤ ـ ١٥ ـ ﴿إنْ﴾: ما ﴿كُلٌّ﴾ من الأحزاب ﴿إلاّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ لأنهم إذا كذّبوا واحدًا منهم فقد كذّبوا جميعَهم لأنّ دعوتهم واحدة، وهي دعوة التوحيد، ﴿فحَقَّ﴾: وجبَ ﴿عِقابِ، وما يَنظُرُ﴾: ينتظر ﴿هؤُلاءِ﴾ أي: كُفّارُ مكّة ﴿إلاّ صَيحةً واحِدةً﴾، وهي نفخة القِيامة تُحِلُّ بهم العذابَ، ﴿مالَها مِن فَواقٍ﴾ بفتح الفاء وضمّها: رُجوعٍ.

قولُهُ: (بِمَعنَى الهَمزَةِ) هذا مذهبٌ كوفيٌّ، والمعتمدُ أنّه بمعنى: بل والهمزةِ[1].

قولُهُ: (حَقِيرٌ) و﴿مَا﴾ زائدةٌ للتّقليلِ كقولِك: أكلتُ شيئاً ما.

قولُهُ: (فِي تَكذِيبِهِم لَكَ) بقولِهِم: ﴿أأنزل﴾.

قولُهُ: (صِفَةُ: ﴿جندٌ﴾) أي: مكسورٌ عمّا قريبٍ.

قولُهُ: (باعتِبَارِ المَعنَى) أي: الجماعةِ أو القبيلةِ.

قولُهُ: (لأنّهُم) أو لمقابلةِ الجمعِ بالجمعِ.

قولُهُ: (أي: كُفّارُ مَكّةَ) كغيرِهِم من الأحزابِ.

قولُهُ: (نَفخَةُ القِيَامَةِ) أي: الثّانيةُ.

قولُهُ: (وضَمِّهَا) حمزةُ والكسائيُّ[2].

قولُهُ: (رُجُوعٍ) وفواقُ النّاقةِ: هو ما بينَ الحلبتَينِ ساعةَ يرجعُ الدَّرُّ إلى ضرعِها[3]، يريدُ أنّها نفخةٌ واحدةٌ فحسب، لا تثنّى ولا تكرّرُ.

---

(١) انظر: «مغني اللبيب» (ص: ٦٦).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٥٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٦١٣).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٩٢٠).

١٦ ـ ﴿وقالوا﴾ لمّا نزل «فأمّا مَن أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ» إلى آخره: ﴿رَبَّنا، عَجِّلْ لَنا قِطَّنا﴾ أي: كِتاب أعمالنا ﴿قَبلَ يَومِ الحِسابِ﴾. قالوا ذلك استهزاء. ١٧ ـ قال الله تعالى: ﴿اصبِرْ علَى ما يَقولُونَ، واذكُرْ عَبدَنا داوُدَ ذا الأَيدِ﴾ أي: القُوّةِ في العِبادة، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويقوم نصف الليل وينام ثُلثه ويقوم سُدسه. ﴿إنَّهُ أوّابٌ﴾: رجّاع إلى مرضاة الله تعالى.

١٨ ـ ﴿إنّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ بتسبيحه ﴿بِالعَشِيِّ﴾: وقتَ صلاة العِشاء ﴿والإشراقِ﴾: وقتَ صلاة الضُّحى ـ وهو أن تُشرق الشمس ويتناهى ضوءُها ـ ١٩ ـ ﴿و﴾ سخرنا ﴿الطَّيرَ مَحشُورةً﴾: مجموعة إليه تُسبّح معه، ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير ﴿لَهُ أوّابٌ﴾: رجّاع إلى طاعته بالتسبيح، ٢٠ ـ ﴿وشَدَدْنا مُلكَهُ﴾ قوّيناه بالحَرَس والجنود، وكان يحرس مِحرابَه في كُلّ ليلة ثلاثون ألف رجل، ﴿وآتيناهُ الحِكْمَةَ﴾: النُّبوّة ....

قولُهُ: (أي: كِتَابَ أَعمَالِنَا) وهو من قطَّهُ: إذا قطعَهُ[1]، ويُقالُ لصحيفةِ الجائزةِ؛ لأنَّها قطعةٌ من القرطاسِ، أو معناهُ: قسطَنا أو نصيبَنا من العذابِ، والقائلُ: النَّضرُ[2]، أو أبو جهلٍ[3]، وقيل: مِن الجنَّةِ[4].

قولُهُ: (أنْ تُشرِقَ) بضمِّ الرَّاءِ وكسرِها[5]؛ أي: تُضِيءَ ويَصْفوَ شُعاعُها، وأمَّا شروقُها فطلوعُها، يقالُ: شَرَقَتِ الشَّمسُ ولَمَّا تُشرِقْ.

قولُهُ: (القُوَّةِ) و﴿الأَيْدِ﴾ مصدرٌ، أو اسمٌ بمعنى: القوَّةِ، لا أنَّه جمعُ يدٍ وحُذفَ الياء.

قولُهُ: (مَجمُوعَةً إِلَيهِ) من كلِّ جانبٍ.

قولُهُ: (مِنَ الجِبَالِ) أي: كلُّ واحدٍ منهُما لأجلِ تسبيحِه رجَّاعٌ إلى التَّسبيحِ، أو كلٌّ منهما ومن داودَ مُرجِّعٌ للهِ التَّسبيحَ، وكلامُ الشَّيخِ أوَّلًا ناظرٌ إلى الأوَّلِ، وثانياً إلى الثَّاني، ففيهِ نوعُ تلفيقٍ.

قولُهُ: (بالحُرَّسِ) بضمِّ الحاءِ وتشديدِ الرَّاءِ: جمعُ حارسٍ، أو كخَدَمٍ لفظاً ومعنًى.

قولُهُ: (القُوَّة) أو: النُّبوَّةَ[6]، أو كمالَ العلمِ وإتقانَ العملِ.

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٦٨٣).

(٢) رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٧/ ١٤٨) عن عطاء.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٦٥) عن قتادة.

(٤) أي: معنى ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا﴾: قِسطَنَا مِن العَذابِ الذي تُوْعِدُنا به، أو من الجنةِ التي تُعَدُّ للمُؤمنينَ.

(٥) في النسخ: «بضم التاء..»، والصواب المثبت؛ أي: تُشرِق وتَشرُق بمعنى. انظر: «القاموس» (مادة: شرق).

(٦) وكذا هي في النسخ المعتمدة في المتن، ولعل «القوة» في نسخة المصنف محرفة عنها، إذ لم أجد من ذكر القوة من معاني الحكمة اللغوية.

والإصابة في الأُمور ﴿وفَصْلَ الخِطابِ﴾: البيانَ الشافي في كُلّ قصد.

٢١ ـ ﴿وهَل﴾ ـ معنى الاستفهام هنا التعجيب والتشويق إلى استماع ما بعده ـ ﴿أتاكَ﴾، يا مُحمّد، ﴿نبأُ الخَصمِ، إذ تَسَوَّرُوا المِحرابَ﴾: مِحرابَ داودَ، أي: مَسجدَه، حيثُ مُنعوا الدخولَ عليه من الباب لشُغله بالعِبادة، أي: خبرُهم وقِصّتُهم؟ ٢٢ ـ ﴿إذ دَخَلُوا علَى داوُدَ ففَزِعَ مِنهُم. قالُوا: لا تَخَفْ﴾. نحن ﴿خَصمانِ﴾ ـ قيل: فريقان لِيُطابِقَ ما قبله من ضمير الجمع، وقيل: اثنان والضمير بمعناهما، والخصم يُطلق على الواحد وأكثر، وهما مَلَكان جاءا في صُورة خصمَين، وقع لهما ما ذُكر على سبيل الفرض لتنبيه داود ـ عليه السلام ـ على ما وقع منه، وكان له تسع وتسعون امرأةً، وطلب امرأة شخص ....

قولُهُ: (قَصدٍ) أي: مقصُودٍ؛ أي: الكلامُ الملخَّصُ الَّذي يُنبِّهُ المخاطَبَ على المقصودِ من غيرِ التباسٍ، وإنَّما سُمِّي به: «أمَّا بعدُ»؛ لأنَّه يفصلُ المقصودَ عمَّا سبقَ مقدِّمةً له من الحمدِ والصَّلاةِ.

وقيل: هو الخطابُ القصدُ الَّذي ليسَ فيه اختصارٌ مخلٌّ ولا إطنابٌ مملٌّ.

أو المرادُ: وفصلَ الخصامِ بتَمييزِ الحقِّ عن الباطلِ.

قولُهُ: (أي: مَسجِدَهُ) أي: تصَعَّدوا سورَهُ.

قولُهُ: (لشُغلِهِ) فإنَّه جزَّأَ زمانَهُ يوماً للعبادةِ، ويوماً للقضاءِ، ويوماً للوعظِ، ويوماً للاشتغالِ بخاصَّتِهِ.

قولُهُ: (فَرِيقَانِ) أو: فوجانِ متخاصمانِ، على تسميةِ مصاحبِ الخصمِ خصماً.

قولُهُ: (بمَعنَاهُمَا) أي: ضميرُ الجمعِ بسببِ معنى الخصمينِ؛ إذ الخصمُ في الأصلِ مصدرٌ يُطلَقُ على الجمعِ.

قولُهُ: (مَلَكَانِ) كذا في حديثٍ مرفوعٍ[1]، وعنِ ابن عبَّاسٍ: هما جبريلُ وميكائيلُ[2].

قولُهُ: (مَا ذُكِرَ) من البغيِ.

قولُهُ: (على سَبِيلِ الفَرْضِ) وقصدِ التَّعريضِ.

قولُهُ: (وطَلَبَ امْرَأَةَ شَخصٍ) لعلَّها مخطوبتُه، أو طلبَ طلاقَها، وعلى كلِّ تقديرٍ يحملُ على خلافِ الأولى.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٨٣٢)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٨٧) من حديث أنس رضي الله عنه. وضعف السيوطي إسناده في «الدر المنثور» (٧/ ١٥٦).

(٢) انظر: «زاد المسير في علم التفسير» (٣/ ٥٦٧)، و«تفسير الألوسي» (١٥/ ٥٢١).

ليس له غيرها، وتزوّجها ودخل بها ـ ﴿بغَى بَعضُنا علَى بَعضٍ. فاحكُمْ بَينَنا بِالحَقِّ، ولا تُشطِطْ﴾: تَجُرْ، ﴿واهدِنا﴾: أرشِدْنا ﴿إلَى سَواءِ الصِّراطِ﴾: وسَطِ الطريق الصواب.

٢٣ ـ ﴿إنَّ هذا أخِي﴾ أي: على دِيني ﴿لَهُ تِسعٌ وتِسعُونَ نَعْجةً﴾ يُعبَّرُ بها عن المرأة، ﴿ولِي نَعْجةٌ واحِدةٌ، فقالَ: أكفِلْنِيها﴾ أي: اجعلني كافلَها، ﴿وعَزَّنِي﴾: غلبني ﴿في الخِطابِ﴾ أي: الجِدال. وأقرّه الآخَرُ على ذلك. ٢٤ ـ ٢٥ ـ ﴿قالَ: لَقَد ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجتِكَ﴾ ليضمّها ﴿إلَى نِعاجِهِ، وإنَّ كَثِيرًا مِنَ الخُلَطاءِ﴾: الشُّركاء ﴿لَيَبغِي بَعضُهُم علَى بَعضٍ، إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ، وقَلِيلٌ ما هُم﴾. ما: لتأكيد القِلّة. فقال المَلَكانِ، صاعدَينِ في صورتيهما إلى السماء: قضى الرجل على نفسه.

فتنبّه داود، قال تعالى: ﴿وظَنَّ﴾ أي: أيقنَ ﴿داوُدُ أنَّما فَتَنّاهُ﴾: أوقعْناه في فِتنة، أي: بليّة بمحبّته تلك المرأة، ﴿فاستَغفَرَ رَبَّهُ وخَرَّ راكِعًا﴾.........................

قولُهُ: (تَجُرْ) من الجورِ في الحكومةِ.

قولُهُ: (الصَّوابِ) وهو العدلُ.

قولُهُ: (أي: عَلى دِينِي) أو بالصُّحبةِ.

قولُهُ: (يُعَبَّرُ) ويكنى بالنَّعجةِ، وهي الأنثى مِن الضَّأنِ، والكنايةُ والتَّمثيلُ فيما يُساقُ للتَّعريضِ أبلغُ في المقصودِ.

قولُهُ: (كَافِلَهَا) كما أَكفُلُ ما تحتَ يدي، وقيل: اجعلْهَا كِفْلي؛ أي: نصيبي، والمعنى: ملِّكْنِيها.

قولُهُ: (أي: الجِدَالِ) يعني: في مخاطبتِهِ إيَّاي، بأن جاءَ بحِجَاجٍ لم أقدِرْ ردَّهُ.

قولُهُ: (وأَقَرَّهُ) بالسُّكوتِ، وهو ظاهرُ كلامِهِ، فيُحمَلُ على تقديرِ صدقِ المدَّعي، أو بالإقرارِ، وهو الأظهرُ.

قولُهُ: (لِيَضُمَّهَا) السُّؤالُ مضافٌ إلى مفعولِهِ، وتعديتُهُ إلى مفعولٍ آخرَ بـ(إلى) لتضمُّنِهِ معنى: الإضافةِ والضَّمِّ، فكانَ حقَّهُ أن يقولَ: منضمًّا أو منضمَّةً أو ضامًّا.

قولُهُ: (الشُّرَكَاءِ) الَّذين خلَطوا أموالَهُم، جمعُ: خليطٍ.

قولُهُ: (لِتَأكِيدِ القِلَّةِ) أي: وهُم قليلٌ.

قولُهُ: (صَاعِدَينَ) حالٌ.

قولُهُ: (في فِتنَةٍ) أي: امتحنَّاهُ بتلك الحكومةِ هل يتنبَّهُ لها؟

قولُهُ: (أي: بَلِيَّةٍ) أي: ابتلَيْناهُ بالذَّنبِ.

أي: ساجدًا ﴿وأناب، فغفرنا لهُ ذلِكَ، وإنَّ لهُ عِندَنا لزُلفَى﴾ أي: زيادةَ خير في الدنيا ﴿وحُسنَ مآبٍ﴾ أي: مرجعٍ في الآخرة، ٢٦ ـ ﴿يا داوُدُ، إنّا جعَلْناكَ خَلِيفةً في الأرضِ﴾ تُدبّر أمر الناس. ﴿فاحكُمْ بَينَ النّاسِ بِالحَقِّ، ولا تَتّبعِ الهَوَى﴾ أي: هوى النفس، ﴿فيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: عن الدلائلِ الدالّة على توحيده. ﴿إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: عن الإيمان بالله ﴿لَهُم عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا﴾: بنسيانِهم ﴿يَومَ الحِسابِ﴾ المُترتِّبِ عليه تركُهُم الإيمانَ. ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا.

٢٧ ـ ٢٨ ـ ﴿وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَينَهُما باطِلاً﴾ أي: عَبَثًا. ﴿ذلِكَ﴾ أي: خلقُ ما ذُكر لا لشيءٍ ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة. ﴿فوَيلٌ﴾: وادٍ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّارِ. أم نَجعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ كالمُفسِدِينَ في الأرضِ؟ أم نَجعَلُ المُتَّقِينَ كالفُجّارِ﴾؟ نزلَ لمّا قال كُفّار مكّة للمؤمنين: إنّا نُعطَى في الآخرة مِثلَ ما تُعطَون. و«أم» بمعنى همزة الإنكار.........

قولُهُ: (أي: سَاجِداً) على تسميةِ السُّجودِ ركوعاً لأنَّهُ مبدؤُهُ، أو: خرَّ للسُّجودِ راكعاً؛ أي: مصلّياً، كأنَّهُ أحرمَ بركعتَي الاستغفارِ.

وقولُهُ تعالى: (﴿وَأَنَابَ﴾) أي: رجعَ إلى اللهِ عن الغفلةِ.

قولُهُ: (زِيَادَةَ) أو لقربِهِ بعدَ المغفرةِ.

قولُهُ: (على تَوحِيدِهِ) الأظهرُ: على الحقِّ والعدلِ، والمرادُ بالدَّلائلِ: هي النُّصوصُ والأَقْيِسةُ الصَّحيحةُ.

قولُهُ: (بِنِسيَانِهِم) و﴿ما﴾ مصدريَّةٌ.

قولُهُ: (عليهِ) أي: نسيانِهِم؛ يعني: نسيانُهُم هو ضلالُهُم عن السبيلِ، فإنَّ تذكُّرَهُ يقتضِي ملازمةَ الهُدى ومخالفَةَ الهوى.

قولُهُ: (أي: عَبَثاً) أي: خَلْقاً باطلاً لا حكمةَ فيه، أو: ذَوي باطلٍ؛ بمعنى: مبطلِينَ عابثِينَ، أو: للباطلِ الَّذي هو متابعَةُ الهوى.

قولُهُ: (لا لِشَيءٍ) أي: عبثاً.

قولُهُ: (مِن أَهلِ مَكَّةَ) والظَّنُّ بمعنى المظنونِ.

قولُهُ: (و﴿أَمْ﴾) أي: فيهِما، وتقدَّمَ ما فيه[1].

والآيةُ تدلُّ على صحَّةِ الحشرِ، فإنَّ التَّفاضلَ بينَهُما إمَّا أن يكونَ في الدُّنيا والغالبُ فيها أنَّ غيرَ المؤمنِ أحسنُ حالاً في الظَّاهرِ، أو في غيرِها وذلك يستَدعي أن يكونَ لهم حالٌ آخرُ يجازَونَ فيها.

---

(١) في الآية رقم: (١٠).

٢٩ ـ ﴿كِتابٌ﴾: خبر مبتدإٍ محذوفٍ، أي: هذا، ﴿أنزلْناهُ إليكَ مُبارَكٌ، لِيَدَّبَّروا﴾ ـ أصلُه «يَتَدَبّروا» أُدغمت التاء في الدال ـ ﴿آياتِهِ﴾: ينظروا في معانيها فيؤمنوا، ﴿ولِيَتَذَكَّرَ﴾: يتّعظَ ﴿أُولُو الألبابِ﴾: أصحابُ العقول.

٣٠ ـ ﴿ووَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيمانَ﴾ ابنَه، ﴿نِعمَ العَبدُ﴾ أي: سُليمانُ! ﴿إنَّهُ أوّابٌ﴾: رجّاع في التسبيح والذِّكر في جميع الأوقات، ٣١ ـ ﴿إذ عُرِضَ علَيهِ بِالعَشِيِّ﴾ هو ما بعد الزوال ﴿الصّافِناتُ﴾: الخيل جمع صافنة ـ وهي القائمة على ثلاث، وأقامتِ الأُخرى على طرف الحافر. وهو من: صَفَنَ يَصفِنُ صُفونًا ـ ﴿الجِيادُ﴾: جمع جَواد، وهو السابق. المعنى أنها إن استُوقفتْ سَكنت، وإن رُكِضَتْ سَبقت. وكانت ألفَ فرس، ....

قولُهُ تعالى: (﴿مبارَكٌ﴾) أي: كثيرُ البركةِ والنَّفعِ.

قولُهُ: (يَتَدَبَّروا) وقُرئَ به[١]، أي: ليتفكَّروا فيها فيَعرفوا ما يَدْبُرُ ظاهرَها من التَّأويلاتِ الصَّحيحةِ والمعاني المستنبَطةِ، وعن الحسنِ: إنَّما تدبُّرُ آياتِه اتِّباعُهُ بعلمِهِ[٢]، كذا في «الدُّرِّ»[٣].

قولُهُ: (العُقولِ) السَّليمةِ.

قولُهُ: (أي: سُلَيمَانُ) إذ ما بعدَهُ تعليلٌ للمَدحِ، وهو مِن حالِهِ.

قولُهُ: (في التَّسبِيحِ) أو: إليه[٤] مُرَجِّعٌ له، أو: إلى اللهِ بالتَّوبةِ والإنابةِ والأوبةِ، وهي مقاماتٌ للسَّالكينَ.

قولُهُ: (طَرَفِ الحَافِرِ) أي: طرفِ سُنْبُكِ[٥] يدٍ أو رِجلٍ، وهو من الصِّفاتِ المحمودةِ في الخيلِ لا تكادُ توجَدُ إلَّا في العِرابِ الخُلَّصِ.

قولُهُ: (جَمْعُ جَوَادٍ) أو جَوْدٍ ـ بالفتحِ ـ وهو الَّذي يسرعُ في جريِهِ.

وقيل: الَّذي يجودُ بالرَّكضِ، من الجُودَةِ ـ بالضَّمِّ ـ وهو المختارُ للشَّيخِ.

وقيل: جمعُ جَيِّدٍ بعدَ التَّخفيفِ إذ أصلُهُ: جَيْوِدٌ.

قولُهُ: (أَلْفَ[٦] فَرَسٍ) وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن إبراهيمَ التَّيميِّ: ....

---

(١) أي: (ليتدبروا) وهي قراءة شاذة، ونسبت لعلي رضي الله عنه، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤١١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٩٨٤)، وسعيد بن منصور في «التفسير» (١٣٥).

(٣) انظر: «الدر المنثور» (٧/ ١٧٥) ووقع في مطبوعه: «عن الحسين رضي الله عنه» وهو تحريف.

(٤) قوله: «إليه»؛ إلى التسبيح.

(٥) السُّنْبُكُ: طرف الحافر وجانباه من قدم. «العين (٥/ ٤٢٧).

(٦) في بعض الأصول: «ألفا».

عُرِضت عليه بعد أن صلّى الظُّهر، لإرادة الجِهاد عليها العدوَّ. فعند بلوغ العرض منها تسعَمِائَةٍ غربت الشمس، ولم يكن صلّى العصر فاغتمّ، ٣٢ ـ ﴿فقالَ: إنِّيَ أحبَبتُ﴾ أي: أردت ﴿حُبَّ الخَيرِ﴾ أي: الخيلِ ﴿عَن ذِكرِ رَبِّي﴾ أي: صلاةِ العصر، ﴿حَتَّى تَوارَتْ﴾ أي: الشمسُ ﴿بِالحِجابِ﴾ أي: استترتْ بما يحجبها عن الأبصار. ٣٣ ـ ﴿رُدُّوها علَيَّ﴾ أي: الخيلَ المعروضة، فردّوها ﴿فطَفِقَ مَسحًا﴾ بالسيف ﴿بِالسُّوقِ﴾: جمع ساق ﴿والأعناقِ﴾ أي: ذبَحَها وقطع أرجُلها تقرّبًا إلى الله ـ تعالى ـ حيثُ اشتغل بها عن الصلاة، وتصدّق بلحمها. فعوّضه الله خيرًا منها وأسرع، وهي الريح تجري بأمره كيف يشاء.

أنَّها عشرةُ آلافِ فرسٍ[١]، كذا في «المبهماتِ»[٢].

قولُهُ: (صَلَّى العَصْرَ) وقيل: فاتَهُ وِرْدٌ له.

قولُهُ: (أَرَدْتُ) أصل «أحبَبْتُ» أن يعدَّى بـ«على»؛ لأنَّهُ بمعنى: آثَرْتُ، لكن لمَّا أنيبَ منابَ «أنبْتُ» عُدِّي تعديَتَهُ.

قولُهُ: (أي: الخَيلِ) (الخيرُ): المالُ الكثير، والمرادُ به: الخيلُ الَّتي شغلَتْهُ، وقيل: إنَّه سمَّاها خيرًا لتعلُّقِ الخيرِ بها، قالَ ﷺ: «الخَيلُ معقودٌ بنَواصيهَا الخيرُ إلى يومِ القيامةِ» رواهُ الشَّيخانِ؛ أي: الأجرُ والغنيمةُ[٣].

قولُهُ: (أي: الشَّمسُ) وإضمارُها من غيرِ ذكرٍ لدلالةِ العشيِّ عليه.

قولُهُ: (أي: استَتَرَتْ) يعني: شبَّهَ غُروبَها بتواري المخبَّأةِ بحِجابِها.

قولُهُ: (بالسَّيفِ) أي: فأخذَ وشرعَ يمسحُ بالسَّيفِ مسحاً.

قولُهُ: (جَمعُ: سَاقٍ) أي: بسوقِها وأعناقِها.

قولُهُ: (ذَبَحَها) من قولِهِم: مسحَ علاوتَهُ: إذا ضربَ عنقَهُ، وقيلَ: جعلَ يمسحُ بيدِهِ أعناقَها وسوقَها حبًّا لها[٤]، وعن قُنبلٍ: (بالسُّؤقِ)[٥] على همزِ الواوِ لضمَّةِ ما قَبلها كمؤقنٍ، وعنه: بزيادةِ واوٍ على وزنِ فُعُولٍ، ونقلُ البيضاويِّ[٦] عن أبي عَمرٍو شاذٌّ[٧].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٧/ ٦٤).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٩٣) ووقع فيه، وفي «تفسير ابن كثير»: عشرون ألف فرس.

(٣) رواه البخاري (٢٨٥٢)، ومسلم (١٨٧٣) من حديث عروة البارقي رضي الله عنه، وفيه: «الأجر والمغنم».

وورواه مسلم (١٨٧٢) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٩٦) عن ابن عباس بلفظ: أعراف الخيل وعراقيبها.

(٥) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٦٨).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٩).

(٧) قال ابن مجاهد: وعن علي بن نصر عن أبي عمرو قال: سمعت ابن كثير يقرأ: (بالسؤوق) بواو بعد الهمزة، ثم قال ابن مجاهد: =

٣٤ ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ابتلَيناه بسلب مُلكه ـ وذلك لتزوّجه بامرأةٍ هَواها، وكانت تعبد الصنم في داره من غير عِلمه، وكان مُلكه في خاتَمه، فنزعه مرّة عِند إرادة الخَلاء، ووضعه عند امرأته المُسمّاة بالأمينة على عادته، فجاءها جنّيّ في صورة سُليمان فأخذه منها ـ ﴿وأَلْقَينا علَى كُرسِيِّهِ جَسَدًا﴾ هو ذلك الجنّيّ وهو صخرٌ أو غيره، جلس على كرسيّ سُليمان، وعكفت عليه الطير وغيرها، فخرج سُليمان في غير هيئته، فرآه على كرسيّه وقال للناس: أنا سُليمان. فأنكروه ـ ﴿ثُمَّ أنابَ﴾: رجَع سُليمان إلى مُلكه بعد أيام، بأن وصل إلى الخاتَم فلبسه وجلس على كرسيّه.

٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، اغفِرْ لِي وهَبْ لِي مُلكًا، لا يَنبَغِي﴾: لا يكون ﴿لِأَحَدٍ مِن بَعدِي﴾ أي: سِواي نحو: «فَمَن يَهدِيهِ مِن بَعدِ اللهِ»........................

قولُهُ: (هَوِيَهَا) كرَضيَ؛ أي: أحبَّها.

قولُهُ: (تَعبُدُ الصَّنَمَ) كذا رواهُ البغويُّ عن وهبِ بن منبِّهٍ[1]، لكن في «المداركِ»: أنَّ ما يروى من عبادةِ الوثنِ[2] في بيتِ سليمانَ فمن أباطيلِ اليهودِ[3].

وقد ذكرَ السُّيوطيُّ في «الدُّرِّ» نقولاً كثيرةً[4]، وأظهرُ ما قيلَ فيه كما قالَ القاضي[5]: ما رويَ مرفوعاً: أنَّه قالَ: «لأطوفَنَّ اللَّيلةَ على سبعينَ امرأةً تأتي كلُّ واحدةٍ بفارسٍ يجاهدُ في سبيلِ اللهِ، ولمْ يقُلْ: إن شاءَ اللهُ، فلمْ تحمِلْ إلَّا امرأةٌ جاءَتْ بشقِّ رجلٍ، فوالَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لو قالَ: إن شاءَ اللهُ؛ لجاهَدُوا فرساناً» رواهُ الشَّيخانِ[6].

قولُهُ: (بأنْ وَصَلَ إلى الخَاتَمِ) وفي كيفيَّتِهِ رواياتٌ كثيرةٌ[7].

قولُهُ: (سِوَايَ) ليكونَ معجِزةً لي.

= ورواية أبي عمرو هذه عن ابن كثير هي الصواب؛ لأن الواو انضمت فهمزت لانضمامها.. انظر: «السبعة» (ص: ٥٥٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٨). ولم يذكر في «التيسير» (ص: ١٦٨) سوى الأولى عن قنبل.

قلت: وقول المصنف: «شاذ» لعله يريد به نسبة القراءة لأبي عمرو، أما لابن كثير فليست بشاذة.

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٦٨).

(٢) عبارة «المدارك»: ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن.

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ١٥٦).

(٤) انظر: «الدر المنثور» (٧/ ١٧٨ ـ ١٨٥).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٩).

(٦) رواه البخاري (٦٦٣٩)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ١٩٩)، وفيما تقدم عن النسفي بيان عن حال مثل هذه الروايات.

أي: سوى الله؟ ﴿إِنَّكَ أنتَ الوَهّابُ. فسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ، تَجرِي بِأمرِهِ رُخاءً﴾: ليّنة ﴿حَيثُ أصابَ﴾: أراد، ٣٧ ـ ﴿والشَّياطِينَ كُلَّ بَنّاءٍ﴾ يبني الأبنية العجيبة ﴿وغَوّاصٍ﴾ في البحر يستخرج اللؤلؤ، ٣٨ ـ ﴿وآخَرِينَ﴾ منهم ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: مشدودين ﴿في الأصفادِ﴾: القُيود تَجمَعُ أيديهم إلى أعناقهم، وقلنا له: ٣٩ ـ ﴿هذا عَطاؤُنا. فامنُنْ﴾: أعطِ منه مَن شئتَ ﴿أو أمسِكْ﴾ عن الإعطاء ﴿بِغَيرِ حِسابٍ﴾ أي: لا حِساب عليك في ذلك. ٤٠ ـ ﴿وإنَّ لَهُ عِندَنا لَزُلفَى وحُسنَ مآبٍ﴾. تقدَّمَ مِثلُه.

٤١ ـ ﴿واذكُرْ عَبدَنا أيُّوبَ، إذ نادَى رَبَّهُ أنِّي﴾ أي: بأني ﴿مَسَّنِيَ الشَّيطانُ، بِنُصْبٍ﴾: بضُرّ ﴿وعَذابٍ﴾: ألم. ونسبَ ذلك إلى الشيطان، وإن كانت الأشياء كُلّها من الله، تأدّبًا معه ـ تعالى ـ وقيل له: ٤٢ ـ ﴿اركُضْ﴾: اضرِب ﴿بِرِجلِكَ﴾ الأرضَ، فضرب فنبعت عين ماء، فقيل: ﴿هذا مُغتَسَلٌ﴾: ماء تغتسل به ﴿بارِدٌ، وشَرابٌ﴾ تشرب منه ـ فاغتسلَ وشرب فذهب عنه كُل داء كان بظاهره وباطنه. ٤٣ ـ ﴿ووَهَبْنا لَهُ أهلَهُ ومِثلَهُم مَعَهُم﴾ أي: أحيا الله له من مات من أولاده ورَزَقَه مِثلهم ﴿رَحْمةً﴾: نِعمة ﴿مِنّا وذِكرَى﴾: عِظةً ﴿لِأُولِي الألبابِ﴾: لأصحاب العُقول ـ ٤٤ ـ ﴿وخُذْ بِيَدِكَ ضِغثًا﴾ هو حُزمة من حشيش أو قِضبان، ﴿فاضرِبْ بِهِ﴾ زوجتَك ـ وكان قد حلف ليضربنّها مِائَةَ ضربة لإبطائها عليه يومًا ـ ﴿ولا تَحنَثْ﴾ بترك ضربها. فأخذ مِائَةَ عود من الإذخر أو غيره، فضربها به ضربة واحدة. ﴿إنّا وَجَدْناهُ صابِرًا، نِعمَ العَبدُ﴾ أيوبُ! ﴿إنَّهُ أوّابٌ﴾: رجّاع إلى الله تعالى.

قولُهُ: (أَرَادَ) من قولِهِم: أصابَ الصَّوابَ فأخطأَ الجوابَ.

قولُهُ: (يَبنِي) ﴿الشَّياطِينَ﴾ عطفٌ على: ﴿الرِّيحَ﴾، و﴿كُلَّ﴾ بدلٌ منهُ.

قولُهُ: (اللُّؤلُؤَ) والمرجانَ وغيرَهُما.

قولُهُ: (مِنهُم) عطفٌ على: ﴿كُلَّ﴾.

قولُهُ: (عَنِ الإعطَاءِ) أي: امنَعْ ما شئْتَ.

قولُهُ: (بِضُرٍّ) وتعَبٍ.

قولُهُ: (عَينٌ) وقيلَ: عينانِ.

قولُهُ: (تَغتَسِلُ) وتشرَبُ، يحتملُ وجهينِ.

قولُهُ: (نِعمَةً) علَّةٌ؛ أي: لرحمَتِنا عليهِ.

قولُهُ: (عِظَةً) وتذكيراً لينتظِروا الفرجَ بالصَّبرِ واللَّجَأِ إلى اللهِ فيما يحيقُ بهم.

قولُهُ: (زَوجَتَكَ) وهي ليَّا بنتُ يعقوبَ[1].

---

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (١/ ٣٢٢).

٤٥ ـ ﴿واذكُرْ عِبادَنا إبراهِيمَ وإسحاقَ ويَعقُوبَ أُولِي الأيدِي﴾: أصحابَ القُوى في العِبادة، ﴿والأبصارِ﴾: البصائرِ في الدِّين ـ وفي قراءةٍ: «عَبدَنا»، وإبراهيمَ: بيان له، وما بعده عطف على «عبدَنا». ٤٦ ـ ﴿إنّا أخلَصْناهُم بِخالِصةٍ﴾، هي ﴿ذِكرَى الدّارِ﴾ الآخرة، أي: ذِكرُها والعمل لها، وفي قراءة بالإضافة وهي للبيان، ٤٧ ـ ﴿وإنَّهُم عِندَنا لَمِنَ المُصطَفَينَ﴾: المُختارِينَ ﴿الأخيارِ﴾: جمع خيِّر بالتشديد ـ ٤٨ ـ ﴿واذكُرْ إسماعِيلَ واليَسَعَ﴾ هو نبيّ، واللام: زائدة، ﴿وذا الكِفلِ﴾ اختُلف في نبوّته، قيل: كَفَلَ مِائَةَ نبيّ، فرّوا إليه من القتل. ﴿وكُلٌّ﴾ أي: كلّهم ﴿مِنَ الأخيارِ﴾.

٤٩ ـ ﴿هذا ذِكرٌ﴾ لهم بالثناء الجميل هنا، ﴿وإنَّ لِلمُتَّقِينَ﴾ الشاملين لهم ﴿لَحُسنَ مآبٍ﴾: مرجعٍ في الآخرة، ٥٠ ـ ﴿جَنّاتِ عَدْنٍ﴾: بدلٌ أو عطفُ بيان لـ «حسنَ مآب»، ﴿مُفَتَّحةً لَهُمُ الأبوابُ﴾ منها، ٥١ ـ ٥٢ ـ ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها﴾ على الأرائك، ....

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لمكّيٍّ[1].

قولُهُ: (و﴿إبراهيمَ﴾) وحّدَهُ لمزيدِ شرفِهِ، عطفُ بيانٍ له.

قولُهُ: (على (عَبْدَنَا)) أي: لا على ﴿إبراهيمَ﴾، إذ البَيانُ حينئذٍ هو إبراهيمُ وحدَهُ، أو المرادُ: وضعُ الجنسِ موضعَ الجمعِ، وهو أنسبُ ليوافِقَ القراءتَين.

قولُهُ: (هِيَ) أي: جَعلناهُم خالصينَ لنا بخصلةٍ خالِصةٍ لا شَوبَ فيها، هي تذكُّرُهُم للآخرةِ دائماً، وإطلاقُ الدّارِ للإشعارِ بأنّها الدّارُ في الحقيقةِ والدُّنيا معبرٌ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وهشامٍ[2].

قولُهُ: (المُختَارِينَ) من أبناءِ جنسِهِم.

قولُهُ: (بالتَّشدِيدِ) والتَّخفيفِ، صفتانِ مشبَّهتانِ؛ كأمواتٍ جمعُ: مَيْتٍ أو ميِّتٍ، أو جمعُ خيرٍ أفعلَ تفضيلٍ؛ كشرٍّ وأشرارٍ.

قولُهُ: (واللّامُ: زَائِدَةٌ) وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: (واللَّيسَعَ)[3].

قولُهُ: (كَفَلَ مِائَةَ نَبِيٍّ) وقيلَ: تكفَّلَ بعملِ رجلٍ صالحٍ كان يُصلِّي كلَّ يومٍ مئةَ صلاةٍ.

قولُهُ: (مِنهَا) أي: من الـ﴿جنّاتِ﴾، و﴿مفتَّحةً﴾ حالٌ منها.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٨).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٤).

﴿يَدعُونَ فِيها بِفاكِهةٍ كَثِيرةٍ وشَرابٍ، وعِندَهُم قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾: حابساتُ العَين على أزواجهنّ ﴿أترابٌ﴾: أسنانهنّ واحدة، وهن بنات ثلاث وثلاثين سنة، جمع تِرب. ٥٣ ـ ﴿هذا﴾ المذكور ﴿ما يُوعَدُونَ﴾ ـ بالغَيبة، وبالخِطاب التفاتًا ـ ﴿لِيَومِ الحِسابِ﴾ أي: لأجله. ٥٤ ـ ﴿إنَّ هذا لَرِزقُنا، مالَهُ مِن نَفادٍ﴾ أي: انقطاع. والجملة: حال من «رزقنا» أو خبر ثان لـ «إنّ» أي: دائمًا أو دائمٌ.

٥٥ ـ ٥٦ ـ ﴿هذا﴾ المذكور للمؤمنين، ﴿وإنَّ لِلطّاغِينَ﴾: مستأنفٌ ﴿لَشَرَّ مآبٍ، جَهَنَّمَ يَصلَونَها﴾: يدخلونها. ﴿فبِئسَ المِهادُ﴾: الفِراشُ! ٥٧ ـ ﴿هذا﴾ أي: العذاب المفهوم ممّا بعده ـ ﴿فلْيَذُوقُوهُ ـ حَمِيمٌ﴾ أي: ماء حارّ مُحرق ﴿وغَساقٌ﴾، بالتخفيف والتشديد: ما يسيل من صديد أهل النار، ٥٨ ـ ﴿وأُخَرُ﴾ ـ بالجمع والإفراد ـ ﴿مِن شَكلِهِ﴾..

قولُهُ: (أَسنَانُهُنَّ وَاحِدَةٌ) أي: لِدَاتٌ بعضُهنَّ لبعضٍ، لا عجوزٌ فيهنَّ ولا صبيةٌ، أو لداتٌ لهم فإنَّ التَّحابَّ بينَ الأقرانِ أثبتُ.

قولُهُ: (جَمعُ: تِرَبٍ) بالكسرِ، واشتقاقُهُ من التُّرابِ؛ فإنَّه يمسُّهُنَّ[1] في وقتٍ واحدٍ.

قولُهُ: (بالغَيبَةِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ[2].

قولُهُ: (لأَجلِهِ) لأنَّ الحسابَ علَّةُ الوصولِ إلى الجزاءِ.

قولُهُ: (﴿هذا﴾ المَذكُورُ): الأمرُ ﴿هذا﴾، أو: ﴿هذا﴾ كما ذُكِرَ، أو: خُذ ﴿هذا﴾.

قولُهُ: (الفِرَاشُ) أي: المهدُ، أو المفترَشُ، مستعارٌ من فراشِ النَّائمِ، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، وهو جهنَّمُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف: ٤١].

قولُهُ: (ممَّا بَعْدُ) والأظهرُ: ممَّا قبلُ؛ أي: ليَذوقوا ﴿هذا فليذوقُوهُ﴾، أو: العذابُ هذا ـ ويجوزُ العكسُ ـ ﴿فليذوقُوهُ﴾، ويجوزُ أن يكونَ مبتدأً خبرُه: ﴿حميمٌ﴾، وهو على ما سبقَ خبرُ محذوفٍ.

قولُهُ: (والتَّشدِيدُ) حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ[3].

قولُهُ: (بالجَمعِ) بصريٌّ[4]؛ أي: مذوقاتٌ، أو: أنواعُ عذابٍ أُخَرُ.

قولُهُ: (والإِفرَادِ) أي: مذوقٌ، أو: عذابٌ آخرُ.

---

(١) في الأصول: «يمسهم»، والتصويب من «البيضاوي» (٥/ ٣٢).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٨).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٥٥).

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٨).

أي: مِثلِ المذكور من الحميم والغساق ﴿أزواجٌ﴾: أصناف، أي: عذابهم من أنواع مختلفة، ويقال لهم، عِند دُخولهم النارَ بأتباعهم: ٥٩ ـ ٦٠ ـ ﴿هذا فَوجٌ﴾: جمع ﴿مُقتَحِمٌ﴾: داخلٌ ﴿مَعَكُم﴾ النارَ بشِدّة، فيقول المتبوعون: ﴿لا مَرحَبًا بِهِم﴾ أي: لا سَعةً عليهم. ﴿إِنَّهُم صالُو النّارِ. قالُوا﴾ أي: الأتباعُ: ﴿بَل أنتُم لا مَرحَبًا بِكُم. أنتُم قَدَّمتُمُوهُ﴾ أي: الكُفرَ ﴿لَنا. فبِئسَ القَرارُ﴾ لنا ولكم النارُ! ٦١ ـ ﴿قالُوا﴾ أيضًا: ﴿رَبَّنا، مَن قَدَّمَ لَنا هذا فزِدْهُ عَذابًا ضِعفًا﴾ أي: مِثلَ عذابه على كُفره ﴿في النّارِ﴾.

٦٢ ـ ٦٣ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: كُفّار مكّة، وهم في النار: ﴿مالَنا لا نَرَى رِجالاً، كُنّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِنَ الأشرارِ؟ اتَّخَذْناهُم سُخرِيًّا﴾، بضم السين وكسرها: كنّا نسخر بهم في الدنيا ـ والياء: للنسب ـ أي: أمفقودون هم ﴿أم زاغَتْ﴾:..........................

قولُهُ: (مِثْلِ المَذكُورِ) أي: مثلِ هذا المذوقِ، أو: العذابِ في الشِّدَّةِ، وقُرِئَ بالكسرِ[1]، وهي لغةٌ.

قولُهُ: (أَصنَافٌ) أو أجناسٌ، خبرٌ لـ﴿آخَرُ﴾.

قولُهُ: (بِشِدَّةٍ) متعلِّقٌ بـ«داخل»، إذِ الاقتحامُ: ركوبُ الشِّدَّةِ والدُّخولُ فيها.

قولُهُ: (أي: لا سَعَةً) دعاءٌ على أتباعِهِم؛ أي: ما أتوا سعةً؛ لأنَّهُم داخِلونَ النَّارَ بأعمالِهِم مِثلَنا.

قولُهُ: (أي: الأَتبَاعُ) للرُّؤساءِ.

قولُهُ: (أي: الكُفرَ) أو العذابَ، فأنتم أحقُّ بما قلتُم.

قولُهُ: (لَنَا ولَكُم) أي: المقرُّ جهنَّمُ.

قولُهُ: (أَيضاً) أي: الأتباعُ.

قولُهُ: (مِثلَ عَذَابِهِ) أو: ذا ضِعْفٍ، أو: مُضاعفاً، وذلك أن يزيدَ على عذابِهِ مثلَهُ فيصيرَ ضعفينِ، كقولِهِم: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٨].

قولُهُ: (أي: كُفَّارُ مَكَّةَ) يعني: الطَّاغينَ، وفي «المبهماتِ»: قال ذلك أبو جَهلٍ[2].

قولُهُ: (بِضَمِّ السِّينِ) نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ[3].

قولُهُ: (أي: أَمَفقُودُونَ) وفي قراءةِ البصريِّ والكسائيِّ بتقديرِ الاستفهامِ[4].

---

(١) وهي قراءة شاذة، ونسبت لمجاهد، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤١٢).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٩٤). ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٣٢) عن مجاهد.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٥٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٦١٨).

(٤) يعني: قرؤوا بوصل الألف على تقدير الاستفهام، وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي، والباقون بهمزة الاستفهام. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٥٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٦١٦)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٨).

مالت ﴿عَنهُمُ الأبصارُ﴾ فلم نرَهم؟ وهم فُقراء المُسلمين كعمّار وبلال وصُهيب وسلمان. ٦٤ ـ ﴿إنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ﴾: واجبٌ وقوعُه، ﴿تَخاصُمُ أهلِ النّارِ﴾ كما تقدّم.

٦٥ ـ ﴿قُلْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ لكُفّار مكّة: ﴿إنَّما أنا مُنذِرٌ﴾: مُخوِّف بالنار، ﴿وما مِن إلـٰهٍ إلاّ اللهُ الواحِدُ القَهّارُ﴾ لخلقِه، ٦٦ ـ ﴿رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بَينَهُما العَزيزُ﴾: الغالب على أمره ﴿الغَفّارُ﴾ لأَوليائه. ٦٧ ـ ٦٨ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أنتُم عَنهُ مُعرِضُونَ﴾ أي: القُرآنُ الذي أنبأتُكم به، وجئتكم فيه بما لا يُعلم إلاّ بوحي. وهو قوله: ٦٩ ـ ﴿ما كانَ لِي مِن عِلمٍ بِالمَلَإِ الأعلَى﴾ أي: الملائكة، ﴿إذ يَختَصِمُونَ﴾ في شأن آدم، حين قال الله: «إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفةً» إلى آخره. ٧٠ ـ ﴿إنْ﴾: ما ﴿يُوحَى إلَيَّ إلاّ أنَّما أنا﴾ أي: أنّي ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيّنُ الإنذارِ.

٧١ ـ اذكرْ ﴿إذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائكةِ: إنِّي خالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ﴾ هو آدم. ٧٢ ـ ﴿فإذا سَوَّيتُهُ﴾: أتممته، ﴿ونَفَختُ﴾: أجريت ﴿فِيهِ مِن رُوحِي﴾ فصار حيًّا ـ وإضافة الروح إليه تشريف لآدم. والروح: جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه ـ ﴿فقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ سُجودَ تحيّة بالانحناء. ٧٣ ـ ﴿فسَجَدَ المَلائكةُ كُلُّهُم أجمَعُونَ﴾ ـ فيه تأكيدان ـ ٧٤ ـ ﴿إلاّ إبلِيسَ﴾ هو أبو الجِنّ كان بين الملائكة، ﴿استكبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرِينَ﴾ في عِلم الله تعالى. ٧٥ ـ ﴿قالَ: يا إبلِيسُ، ما مَنَعَكَ أن تَسجُدَ لِما خَلَقتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: تولَّيتُ خلقه؟ وهذا تشريف لآدمَ ـ...

قولُهُ: (وسَلمَانَ) وخبَّابٍ، كذا في «المبهماتِ»[1].

قولُهُ: (كَمَا تَقَدَّمَ) وهو بدلٌ مِن: (حقٌّ).

قولُهُ: (لِأَولِيَائِهِ) المؤمنينَ.

قولُهُ: (القُرْآنُ) يجوزُ إطلاقُهُ على البعضِ.

قولُهُ: (وهُوَ) أي: النَّبأُ المفسَّرُ بالقرآنِ ما بعدَهُ من نبأ آدَمَ.

قولُهُ: (أي: أنّي) إشارةٌ إلى أنّه مرتفعٌ بإسنادِ ﴿يوحى﴾ إليهِ، وقيل: التَّقديرُ: لأنّي أتممتُهُ وعدلْتُ خلقتَهُ.

قولُهُ: (لآدَمَ) أو للرُّوحِ.

قولُهُ: (في عِلمِ اللهِ) أو صارَ باستنكارِهِ أمرَ اللهِ، واستكبارِهِ عن المطاوعةِ.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٩٤).

فإنّ كل مخلوق تولّى الله خلقه ـ ﴿أستكبَرتَ﴾ الآن عن السُّجود؟ استفهام توبيخ، ﴿أم كُنتَ مِنَ العالِينَ﴾: المُتكبّرين، فتكبّرت عن السُّجود لكونك منهم؟ ٧٦ ـ ﴿قالَ: أنا خَيرٌ مِنهُ. خَلَقتَني مِن نارٍ وخَلَقتَهُ مِن طِينٍ﴾.

٧٧ ـ ﴿قالَ: فاخرُجْ مِنها﴾ أي: من الجنّة، وقيل: من السماوات. ﴿فإنَّكَ رَجِيمٌ﴾: مطرود، ٧٨ ـ ﴿وإنَّ عليكَ لَعنَتِي إلَى يَومِ الدِّينِ﴾: الجزاءِ. ٧٩ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، فأنظِرْنِيَ إلَى يَومِ يُبعَثُونَ﴾، أي: الناسُ. ٨٠ ـ ٨١ ـ ﴿قالَ: فإنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ إلَى يَومِ الوَقتِ المَعلُومِ﴾: وقتِ النفخة الأولى. ٨٢ ـ ٨٣ ـ ﴿قالَ: فبِعِزّتِكَ، لَأُغوِيَنَّهُم أجمَعِينَ، إلاّ عِبادَكَ مِنهُمُ المُخلَصِينَ﴾ أي: المؤمنين.

٨٤ ـ ﴿قالَ: فالحَقَّ والحَقَّ أقُولُ﴾ ـ بنصبِهما ورفعِ الأول ونصبِ الثاني ـ فنصبُه بالفعل بعده، ونصبُ الأوّل قيل: بالفعل المذكور، وقيل: على المصدر، أي: أَحُقُّ الحقَّ، وقيل: على نزع حرف القسم. ورفعُه على أنه مبتدأ محذوف الخبر، أي: فالحقُّ منّي........

قولُهُ: (فَإِنَّ كُلَّ مَخلُوقٍ) لعلَّ قولَهُ: ﴿بيدي﴾ إشارةٌ إلى خصُوصيَّةِ خلقِهِ بلا واسطةٍ كأبٍ وأمٍّ، والتَّثنيةُ لِمَا في خلقِه من مزيدِ القدرةِ واختلافِ الفعلِ، ولعلَّ فيه إيماءً إلى أنَّه مظهرُ صِفَتَي الجمالِ والجلالِ بخلافِ الملائكةِ والشَّياطينِ.

قولُهُ: (مِنَ السَّمَاوَاتِ) وقيلَ: من الهيئةِ الملكيَّةِ.

قولُهُ: (مَطرُودٌ) من الرَّحمةِ ومحلِّ الكرامةِ.

قولُهُ: (الجَزَاءِ) فيشاهِدُ عذاباً يُنسيهِ اللَّعنةَ، أو الغايةُ داخِلٌ في المغيَّا.

قولُهُ: (أي: النَّاسُ) يعني: النَّفخةَ الثَّانيةَ.

قولُهُ: (المُؤمِنِينَ) الَّذين أخلصَهُمُ اللهُ للطَّاعةِ، وحفظَهُم من الضَّلالةِ، أو: أخلصُوا أمورَهُم للهِ على اختلافِ القراءتين[1].

قولُهُ: (بِنَصبِهِمَا) غيرُ عاصمٍ وحمزةَ[2].

قولُهُ: (فنَصْبُهُ) أي: الثَّاني.

قولُهُ: (ورَفعُهُ) أي: الأوَّلِ.

(١) قرأ الكوفيون ونافع: ﴿المخلصين﴾ بفتح اللام، والباقون بكسرها، انظر: «التيسير» (ص: ١٢٨).

(٢) فقراءتهما ضم الأول وفتح الثاني. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٥٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٨).

وقيل: فالحقُّ قَسَمي، وجواب القسم: ٨٥ ـ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ بذُرّيّتك، ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُم﴾: من الناس ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

٨٦ ـ ﴿قُلْ: ما أسألُكم عليهِ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿مِن أجرٍ﴾: جُعْل، ﴿وما أنا مِنَ المُتكَلِّفِينَ﴾ المتقوِّلينَ القُرآنَ من تِلقاء نفسي. ٨٧ ـ ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما القُرآنُ ﴿إلاّ ذِكرٌ﴾: عِظة ﴿لِلعالَمِينَ﴾: الإنس والجِنّ دُون الملائكة، ٨٨ ـ ﴿ولَتَعلَمُنَّ﴾ ـ يا كُفّارَ مكّة ـ ﴿نَبَأَهُ﴾: خبر صِدقه ﴿بَعدَ حِينٍ﴾ أي: يومَ القيامة. وعَلِمَ بمعنى: عَرَفَ. واللام قبلها: لام قسم مُقدّر، أي: والله.

قولُهُ: (بذُرِّيَّتِكَ) أو المرادُ بـ﴿مِنكَ﴾: من جنسِكَ، ليتناولَ الشَّياطينَ.

قولُهُ: (مِنَ النَّاسِ) إذ الكلامُ فيهم، وقيل: للثَّقلينِ.

قولُهُ: (دُونَ المَلائِكَةِ) لا وجهَ للنَّفي إلَّا على تفسيرِ الذِّكرِ بالعظةِ، وإلَّا فقد صحَّ أنَّ جماعةً منهم يلتَمِسونَ أهلَ الذِّكرِ[1]، مع أنَّه قيل: بُعِثَ النبيُّ ﷺ إليهم وأنذرَهُم قولَه تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

قولُهُ: (يا كُفَّارَ مَكَّةَ) عِلْماً عِياناً.

قولُهُ: (خَبَرَ صِدقِهِ) أو: ما فيه من الوَعدِ والوعيدِ.

قولُهُ: (أي: يَومَ القِيَامَةِ) أو بعدَ الموتِ، أو عندَ ظُهورِ الإسلامِ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: عُرِفَ) ولذا عُدِّي إلى مفعولٍ واحدٍ، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) روى البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩) واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر».

سُورَةُ صٓ

مكيةٌ كما روي عن ابن عباس وغيره، وقيل: مدنيَّة، وليس بصحيحٍ كما قال الداني[1]. وهي ثمانٍ وثمانون آيةً في الكوفي، وستٌّ وثمانونَ في الحجازيِّ والبصريِّ والشاميِّ، وخمسٌ وثمانونَ في عَدِّ أيوب بن المتوكل وحده، قيل: ولم يقلْ أحدٌ: إنَّ «ص» وحدها آية، كما قيل في غيرها من الحروف في أوائل السور، وفيه بحثٌ.

وهي كالمتمِّمةِ لما قبلها من حيثُ إنه ذُكر فيها ما لم يُذكَرْ في تلك من الأنبياء عليهم السلام كداودَ وسليمانَ. ولمَّا ذَكَرَ سبحانه فيما قبلُ عن الكفار أنهم قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ وأنهم كفروا بالذكر لمَّا جاءهم، بدأ عزَّ وجلَّ في هذه السورة بالقرآن ذي الذكر، وفصَّل ما أَجْمَلَ هناك من كُفْرهم، وفي ذلك من المناسبة ما فيه، ومَنْ دَقَّق النظرَ لاحَ له مناسباتٌ أُخَرُ، والله تعالى الموفق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ﴾ بالسكون على الوقف عند الجمهور، وقرأ أُبيٌّ والحسنُ وابن أبي إسحاق وأبو السَّمَّال وابن أبي عبلة ونصرُ بن عاصم: «صادِ» بكَسْر الدال[2]؛ والظاهرُ أنه كَسْرٌ لالتقاء الساكنين، وهو حرفٌ من حروف المعجم نحو ﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾.

---

(١) في البيان في عدِّ آي القرآن ص ٢١٤.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه أمرٌ من صادَى أي: عارَضَ[1]، ومنه الصَّدَى: وهو ما يُعارض الصوت الأولَ ويقابله بمثله في الأماكن الخالية، والأجسام الصُّلبة العالية، والمعنى: عارِضِ القرآنَ بعملك، أي: اعملْ بأوامره ونواهيه، وقال عبد الوهاب[2]: أي: اعرضه على عملك، فانظرْ أين عملُكَ من القرآن.

وقيل: هو أمرٌ من صادَى أي: حادَثَ، والمعنى: حادِثِ القرآنَ، وهو روايةٌ عن الحسن أيضاً، وله قُرْبٌ من الأول.

وقرأ عيسى ومحبوب عن أبي عمرو وفرقة: «صادَ» بفتح الدال[3]، وكذا قرؤوا: «قافَ» و«نونَ» بالفتح فيهما؛ فقيل: هو لالتقاء الساكنين أيضاً طَلَباً للخِفَّة. وقيل: هو حركةُ إعرابٍ على أنَّ «صادَ» منصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ، أي: اذكرْ، أو: اقرأ صادَ، أو بفعلِ القَسَم بعد نَزْعِ الخافض لما فيه من معنى التعظيم المتعدِّي بنفسه نحو: اللهَ لأفعلنَّ، أو مجرورٌ بإضمار حرف القَسَم، وهو ممنوعٌ من الصَّرف للعَلَمية والتأنيث بناءً على أنه عَلَمٌ للسورة.

وقد ذكر الشريفُ أنه إذا اشتَهر مسمًّى بإطلاق لفظٍ عليه يُلاحَظُ المسمَّى في ضمن ذلك اللفظ، وأنه بهذا الاعتبار يصحُّ اعتبارُ التأنيث في الاسم.

وقرأ ابن أبي إسحاق في روايةٍ: «صادٍ» بالجرِّ والتنوين[4]، وذلك إما لأنَّ الثلاثيَّ الساكن الوسطِ يجوزُ صَرْفه. بل قيل: إنه الأرجح، وإما لاعتبار ذلك اسماً للقرآن، كما هو أحدُ الاحتمالات فيه، فلم يتحقَّقْ فيه العِلَّتان فَوَجَبَ صَرْفه، والقولُ بأنَّ ذاكَ لكونه عَلَماً لمعنى السورة لا للفظها، فلا تأنيثَ فيه مع العَلَمية ليكونَ هناك علَّتان، لا يخلو عن دغدغة.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٥.

(٢) هو عبد الوهاب بن عطاء الخفَّاف راوي خبر الحسن السالف، وورد كلامه في تفسير الطبري ٢٠/ ٥ إثر كلام الحسن، وينظر ترجمته في تهذيب الكمال ١٨/ ٥٠٩.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩١، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

وقرأ ابن السَّمَيْفَع وهارون الأعور والحسن في رواية: «صادُ» بضمِّ الدال[١]، وكأنه اعتُبر اسماً للسورة، وجُعل خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذه صادُ.

ولهم في معناه غير متقيِّدين بقراءة الجمهور اختلافٌ كأضرابه من أوائل السور، فأخرج عبدُ بن حميد عن أبي صالح قال: سُئل جابرُ بن عبد الله وابن عباس عن ﴿صٓ﴾ فقالا: ما ندري ما هو[٢]. وهو مذهبُ كثيرٍ في نظائره.

وقال عكرمة: سألَ نافعُ بن الأزرق عبدَ الله بن عباس عن ﴿صٓ﴾ فقال: ﴿صٓ﴾ كان بحراً بمكةَ، وكان عليه عرشُ الرحمن إذ لا ليل ولا نهار.

وقال ابن جبير: هو بحرٌ يُحيي الله تعالى به الموتى بين النفختين.

والله تعالى أعلم بصحَّة هذين الخبرين.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: ﴿صٓ﴾ صدق الله[٣]. وأخرج ابن مردويه عنه أنه قال: ﴿صٓ﴾ يقول: إني أنا الله الصادق[٤].

وقال محمد بن كعب القرظي: هو مفتاحُ أسماء الله تعالى: صَمَدٌ، وصانعُ المصنوعات، وصادقُ الوعد.

وقيل: هو إشارةٌ إلى صدود الكفار عن القرآن. وقيل: حرفٌ مسرودٌ على منهاج التحدِّي، وجَنَحَ إليه غيرُ واحدٍ من أرباب التحقيق، وقيل: اسمٌ للسورة. وإليه ذهب الخليل وسيبويه والأكثرون. وقيل: اسمٌ للقرآن. وقيل غيرُ ذلك باعتبار بعضِ القراءات كما سمعتَ عن قريب.

ومن الغريب أنَّ المعنى: صادَ محمدٌ ﷺ قلوبَ الخلق واستمالها حتى آمنوا به. ولعلَّ القائلَ به اعتبره فعلاً ماضياً مفتوحَ الآخر أو ساكِنَه للوقف، وأنا لا أقول به ولا أرتضيه وجهاً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٩٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٧.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٩٦.

وهو على بعض هذه الأوجه لا حَظَّ له من الإعراب، وعلى بعضها يجوزُ أن يكونَ مُقسَماً به ومفعولاً لمضمَرٍ وخبرَ مبتدأ محذوف، وعلى بعضها يتعيَّنُ كونه مُقسماً به، وعلى بعضٍ ما تقدَّم في القراءات يتأتَّى ما يتأتَّى مما لا يخفى عليك.

وبالجملة إن لم يُعتبر مُقسَماً به فالواو في قوله سبحانه ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ للقَسَم، وإن اعتبر مُقسَماً به، فهي للعطف عليه، لكن إذا كان قَسَماً منصوباً على الحذف والإيصال، يكونُ العَطْفُ عليه باعتبار المعنى والأصل. ثم المغايرةُ بينهما قد تكون حقيقيَّةً كما إذا أُريد بالقرآن كلُّه وبـ «ص» السورة، أو بالعكس، أو أريد بـ «ص» البحرُ الذي قيل به فيما مرَّ، وبالقرآن كلُّه أو السورة، وقد تكون اعتباريَّة كما إذا أُريد بكلٍّ السورةُ أو القرآنُ على ما قيل، ولا يخفى ما تقتضيه الجزالةُ الخالية عن التكلُّفِ.

وضُعِّفَ جَعْلُ الواو للقَسَم أيضاً بناءً على قول جَمْعٍ أنَّ توارُدَ قَسَمين على مُقْسمٍ عليه واحدٍ ضعيفٌ.

والذكرُ ـ كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس ـ الشرفُ(١). ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. أو الذكرى والموعظة للناس على ما روي عن قتادة والضحاك. أو ذكرُ ما يحتاج إليه في أمر الدين من الشرائع والأحكام وغيرها من أقاصيص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأخبار الأمم الدارجة، والوعد والوعيد على ما قيل.

وجواب القَسَم قيل: مذكورٌ، فقال الكوفيون والزجَّاج: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [الآية: ٦٤](٢)، وتعقَّبه الفرَّاء بقوله: لا نجده مستقيماً؛ لتأخُّر ذلك جدّاً عن القَسَم(٣). وقال الأخفش: هو ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ [الآية: ١٤](٤). وقال قوم: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الآية: ٣] وحذفت اللام،

(١) تفسير الطبري ٢٠/٨.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/٣١٩.
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/٣٩٧.
(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧٠.

أي: لَكَم، لمَّا طال الكلامُ كما حذفت من: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [الشمس:٩] بعد قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ﴾ [الشمس:١] حكاه الفرَّاء[١] وثعلب، وتعقَّبه الطبرسيُّ بأنه غَلَطٌ؛ لأنَّ اللامَ لا تدخلُ على المفعول، و«كم» مفعول[٢].

وقال أبو حيان: إنَّ هذه الأقوال يجبُ اطِّراحها[٣].

ونقل السمرقنديُّ[٤] عن بعضهم أنه: «بل الذين كفروا..» إلخ فإنَّ «بل» لنفي ما قبله وإثبات ما بعده، فمعناه: ليس الذين كفروا إلا في عِزَّةٍ وشقاق. وجُوِّزَ أن يريد هذا القائلُ أنَّ «بل» زائدةٌ في الجواب، أو ربط بها الجواب لتجريدها لمعنى الإثبات.

وقيل: هو «ص»؛ إذ معناه: صَدَقَ الله تعالى، أو: صَدَقَ محمد ﷺ. ونُسب ذلك إلى الفراء وثعلب، وهو مبنيٌّ على جواز تقدُّم جواب القَسَم واعتقاد أنَّ «ص» تدلُّ على ما ذكر، ومع هذا في كون «ص» نفسه هو الجواب خفاء.

وقيل: هو جملة: هذه صاد، على معنى السورة التي أعجزتِ العربَ، فكأنه قيل: هذه السورةُ التي أعجزتِ العربَ والقرآنِ ذي الذِّكر. وهذا كما تقول: هذا حاتمٌ واللهِ، تريد: هذا هو المشهورُ بالسَّخاء واللهِ، وهو مبنيٌّ على جواز التقدُّم أيضاً.

وقيل: هو محذوفٌ، فقدَّرهُ الحوفيُّ: لقد جاءكم الحقُّ، ونحوه. وابن عطية: ما الأمر كما تزعمون، ونحوه[٥]. وقدَّرهُ بعضُ المحققين: ما كَفَرَ مَنْ كَفَرَ لِخَلَلٍ وجده، ودلَّ عليه بقوله تعالى: «بل الذين..» إلخ. وآخرُ: إنه لَمُعجزٌ، ودلَّ عليه ما في «ص» من الدلالة على التحدِّي بناءً على أنه اسمُ حرفٍ من حروف المعجم

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٧.
(٢) مجمع البيان ٢٣/ ٩٥.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٨٣.
(٤) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٢٩٥، وعنه نقل المصنف.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢.

ذُكر على سبيل التحدِّي والتنبيه على الإعجاز، أو ما في أُقسم بـ «ص» أو هذه «ص» من الدلالة على ذلك بناءً على أنه اسمٌ للسورة. أو: إنه لواجب العمل به، دلَّ عليه «ص» بناءً على كونه أمراً من المصاداة. وقدَّره بعضهم غير ذلك.

وفي «البحر»: ينبغي أن يُقدَّر هنا ما أُثبت جواباً للقَسَم بالقرآن في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١-٢]. ويقوِّي هذا التقدير ذِكْرُ النذارة هنا في قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص:٤] وهناك في قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ [يس:٦] فالرسالة تتضمَّنُ النذارةَ والبشارةَ، وجَعَلَ «بل» في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ للانتقال من هذا القَسَم والمقسَم عليه إلى ذِكْر حال تعزُّز الكفار ومشاقَّتهم في قبولهم رسالته ﷺ وامتثال ما جاء به[1]. وهي كذلك على كثيرٍ من الوجوه السابقة، وقد تُجعل على بعضها للإضراب عن الجواب بأن يقال مثلاً: إنه لمعجزٌ، بل الذين كفروا في استكبارٍ من الإذعان لإعجازه، أو هذه السورةُ التي أعجزت العربَ، بل الذين كفروا لا يُذعنون.

وجعلها بعضُهم للإضراب عمَّا يُفهَمُ مما ذكر ونحوه من أنَّ مَنْ كَفَرَ لم يكفر لِخَلَلٍ فيه، فكأنه قيل: مَنْ كَفَرَ لم يكفرْ لخللٍ فيه، بل كَفَرَ تكبُّراً عن اتباع الحقِّ وعناداً، وهو أظهرُ من جَعْلِ ذلك إضراباً عن صريحه، وإن قُدِّرَ نحو هذا المفهوم جواباً، فالإضرابُ عنه قَطْعاً.

وفي «الكشف»: عدُّ هذا الإضرابِ من قبيل الإضرابِ المعنويِّ على نحو: زيدٌ عفيفٌ عالمٌ، بل قومه استخفُّوا به، على الإضراب عمَّا يلزمُ الأوصافَ من التعظيم، كما نقل عن بعضهم = عدولٌ عن الظاهر.

ويمكن أن يكونَ الجوابُ الذي عنه الإضراب: ما أنتَ بمقصِّرٍ في تذكير الذين كفروا وإظهار الحقِّ لهم، ويُشعر به الآياتُ بعدُ، وسببُ النزول الآتي ذكرهُ إن شاء الله تعالى، فكأنه قيل: ص، والقرآن ذي الذِّكر، ما أنت بمقصِّرٍ في تذكير الذين كفروا، وإظهارِ الحقِّ لهم، بل الذين كفروا مقصِّرونَ في اتباعك والاعتراف

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

بالحقِّ، ووجهُ دلالة ما في النَّظْم الجليل على قولنا: بل الذين كفروا مقصِّرون. . إلخ ظاهرٌ. وهذه عِدَّةُ احتمالاتٍ بين يديك، وإليك أمرُ الاختيار، والسلامُ عليك.

والمراد بالعِزَّةِ ما يُظهرونه من الاستكبار عن الحقِّ، لا العزَّةُ الحقيقيةُ، فإنها لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

وأصل الشقاق: المخالفةُ، وكونك في شِقٍّ غير شِقِّ صاحبك، أو من: شَقَّ العصا بينك وبينه، والمراد مخالفةُ الله تعالى ورسولِه ﷺ، والتنكير للدلالة على شِدَّتهما، والتعبيرُ بـ «في» [فيهما للدلالة][1] على استغراقهم فيهما.

وقرأ حماد بن الزِّبرقان، وسَوْر عن الكسائي، وميمونة عن أبي جعفر، والجَحدريُّ من طريق العقيلي: «في غِرَّةٍ» بالغين المعجمة المكسورة، والراء المهملة[2]، أي: في غفلةٍ عظيمةٍ عمَّا يجبُ عليهم من النظر فيه، ونُقل عن ابن الأنباريِّ أنه قال في كتاب «الرد على من خالف الإمام»: إنه قرأ بها رجلٌ، وقال: إنها أنسبُ بالشِّقاق، وهو القتال بجِدٍّ واجتهاد، وهذه القراءةُ افتراءٌ على الله تعالى. اهـ. وفيه ما فيه.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وعيدٌ لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب أضرابَهم، و«كم» مفعولُ «أهلكنا»، و«من قرن» تمييزٌ، والمعنى: قَرْناً كثيراً أهلكنا من القرون الخالية.

﴿فَنَادَوا﴾ عند نزول بأسنا وحلول نقمتنا استغاثةً لينجوا من ذلك، وقال الحسن وقتادة: رفعوا أصواتهم بالتوبة حين عاينوا العذابَ لينجوا منه.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ حالٌ من ضمير «نادوا» والعائدُ مقدَّرٌ، وإن لم يلزم، أي: مناصهم. و«لات» هي «لا» المشبَّهة بـ «ليس» عند سيبويه[3]، زيدتْ عليها تاءُ

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٢٩٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.
(٣) الكتاب ١/ ٥٧-٥٨.

التأنيث لتأكيد معناها وهو النفي؛ لأنَّ زيادةَ البناء تدلُّ على زيادة المعنى، أو لأنَّ التاءَ تكونُ للمبالغة كما في: علَّامة، أو لتأكيد شَبَهِها بـ «ليس» بجَعْلها على ثلاثة أحرفٍ ساكنة الوسط.

وقال الرضيُّ: إنها لتأنيث الكلمة، فتكون لتأكيد التأنيث، واختصَّت بلزوم الأحيان، ولا يتعيَّنُ لفظُ الحين إلا عند بعضٍ. وهو محجوجٌ بسماع دخولها على مرادفه، وقول المتنبي[1]:

لقد تصبَّرتُ حتَّى لاتَ مُصطَبَرٍ فالآنَ أُقحِمُ حتَّى لاتَ مُقتَحَمِ

وإن لم يهمَّنا أمرهُ مخرَّجٌ على ذلك بجعل المصطبر والمقتحم اسمي زمانٍ، أو القول بأنها داخلةٌ فيه على لفظ «حين» مقدَّرٍ بعدها. والتزموا حَذْفَ أحد الجزأين، والغالبُ حَذْفُ المرفوع كما هنا على قراءة الجمهور، أي: ليس الحينُ حينَ مناص.

ومذهب الأخفش أنها «لا» النافية للجنس العاملة عملَ «إنَّ» زيدتْ عليها التاءُ، فـ: «حينَ مناصٍ» اسمها، والخبر محذوفٌ، أي: لهم[2].

وقيل: إنها «لا» النافية للفعل، زيدتْ عليها التاءُ، ولا عمل لها أصلاً، فإنْ وَلِيها مرفوعٌ فمبتدأٌ حُذف خبرُه، أو منصوبٌ كما هنا، فبعدها فعلٌ مقدَّرٌ عاملٌ فيه، أي: ولا ترى حينَ مناص.

وقرأ أبو السَّمَّال: «ولاتُ حينُ» بضمِّ التاء ورفع النون[3]، فعلى مذهب سيبويه «حين» اسمُ «لات» والخبرُ محذوفٌ، أي: ليس حينُ مناصٍ حاصلاً لهم، وعلى القول الأخير: مبتدأٌ خبره محذوفٌ، وكذا على مذهب الأخفش، فإنَّ من مذهبه كما في «البحر»[4] أنه إذا ارتفعَ ما بعدها فعلى الابتداء، أي: فلا حينُ مناصٍ كائن لهم.

---

(١) في ديوانه ٤/ ١٥٧.

(٢) ينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

(٤) ٧/ ٣٨٤.

وقرأ عيسى بن عمر: «ولاتِ حينِ» بكَسْر التاء مع النون[١]، كما في قول المنذر بن حرملة الطائي النصراني:

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أوانٍ فأَجبنا أنْ لاتَ حين بقاءِ[٢]

وخُرِّجَ ذلك إما على أنَّ «لاتَ» تجرُّ الأحيان، كما أنَّ «لولا» تجرُّ الضمائر كـ: «لولاك» و«لولاه» عند سيبويه[٣]، وإما على إضمار «مِن»، كأنه قيل: لات من حين مناصٍ، ولاتَ من أوانِ صُلْحٍ، كما جَرُّوا بها مضمرةً في قولهم: على كم جِذْعٍ بيتك؟ أي: من جذعٍ، في أصحِّ القولين، وقولهم: ألا رجلٍ جزاهُ الله خيراً. يريدونَ: ألا من رجلٍ، ويكونُ موضعُ «من حين مناص» رَفْعاً على أنه اسمُ «لات» بمعنى: ليس، كما تقولُ: ليسَ من رجلٍ قائماً، والخبرُ محذوفٌ على قول سيبويه، وعلى أنه مبتدأٌ والخبرُ محذوفٌ على قول غيره، وخرَّج الأخفش «ولاتَ أوانٍ» على إضمار «حين» أي: ولاتَ حينُ أوانِ صُلْحٍ، فحُذفت «حين» وأُبقي «أوان» على جَرِّه[٤]. وقيل: إنَّ «أوان» في البيت مبنيٌّ على الكسر، وهو مشَّبهٌ بـ «إذ» في قول أبي ذؤيب:

نهيتُكَ عن طِلابكَ أمَّ عمرٍو بعاقبةٍ وأنتَ إذٍ صحيحُ[٥]

ووجهُ التشبيه أنه زمانٌ قُطع عنه المضافُ إليه؛ لأنَّ الأصلَ: أوانُ صُلْحٍ، وعُوِّضَ التنوينُ فكُسِرَ لالتقاء الساكنين لِكونه مبنيّاً مثله، فهما شبهان في أنهما مبنيَّان مع وجود تنوينٍ في آخرهما للعِوَض يوجبُ تحريكَ الآخر بالكَسْر، وإن كان سبب البناء في «أوان» دون «إذ» شَبَهُ الغايات حيثُ جُعلَ زماناً قُطع عنه المضاف إليه، وهو مرادٌ، وليس تنوينُ العِوَضِ مانعاً عن الإلحاق بها، فإنها تُبنى إذا لم يكن

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٤.

(٢) البيت في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧-٣٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٢، والكشاف ٣/ ٣٥٩، والخزانة ٤/ ١٦٩. وروايته في المصادر عدا الكشاف: وليس حين بقاء.

(٣) الكتاب ٢/ ٣٧٣.

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧٠.

(٥) البيت في ديوان الهذليين ١/ ٦٨، والخزانة ٦/ ٥٣٩.

تنوينٌ؛ لأنَّ عِلَّتَهُ الاحتياجُ إلى المحذوف، كاحتياج الحرف إلى ما يتمُّ به، وهذا المعنى قائمٌ نُوِّنَ أو لم ينوَّن، فإنَّ التنوينَ عِوَضٌ لفظيٌّ لا معنويٌّ، فلا تنافي بين التعويض والبناء، لكن اتفقَ أنهم لم يُعوِّضوا التنوينَ إلا في حال إعرابها، وكأنَّ ذلك لئلّا يتمحَّض للتعويض، بل يكونُ فيها معنى التمكُّن أيضاً، فلا منافاة، وثبتَ البناءُ فيما نحن فيه بدليلِ الكَسْر، وكانت العِلَّةُ التي في الغايات قائمةً، فأحيل البناءُ عليها، واتفق أنهم عوَّضوا التنوينَ هاهنا تشبيهاً بـ «إذ» في أنها لما قُطعتْ عن الإضافةُ نُوِّنَتْ، أو توفيةً لحقِّ اللفظ لمَّا فاتَ حقُّ المعنى، وخُرِّجتِ القراءةُ على حَمْل «مناصٍ» على أوانٍ في البيت؛ تنزيلاً لما أضيف إليه الظرفُ وهو «حين» منزلةَ الظرف؛ لأنَّ المضافَ والمضافَ إليه كشيءٍ واحدٍ، فقُدِّرتْ ظرفيَّتهُ وهو قد كان مضافاً؛ إذ[1] أصله: مناصهم، فقُطع وصارَ كأنه ظرفٌ مبنيٌّ مقطوعٌ عن الإضافة، منوَّنٌ لِقَطْعه، ثم بني ما أُضيف إليه وهو «حين» على الكَسْر لإضافته إلى ما هو مبنيٌّ فرضاً وتقديراً، وهو «مناص» المشابه لـ «أوان».

وأورد عليه أنَّ ما ذُكر من الحمل لم يُؤثِّر في المحمول نفسه، فكيف يُؤثِّرُ فيما يُضاف إليه، على أنَّ في تخريج الجرِّ في البيت على ذلك ما فيه، والعجبُ كلُّ العجب ممن يرتضيه.

وضَمُّ التاء على قراءة أبي السَّمَّال وكَسْرُها على قراءة عيسى للبناء، وروي عن عيسى: «ولاتُ حينُ» بالضمِّ «مناصَ» بالفتح[2]، قال صاحب «اللوامح»: فإنْ صَحَّ ذلك فلعلَّهُ بنى «حين» على الضَّمِّ تشبيهاً بالغايات، وبنى «مناصَ» على الفتح مع «لات»، وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: ولاتَ مناصَ حينُ، لكن «لا» إنما تعمل في النكرات المتصلةِ بها دونَ المنفصلة عنها ولو بظرف، وقد يجوزُ أن يكونَ لذلك معنًى لا أعرفه. انتهى.

وأهونُ من هذا فيما أرى كون «حين» مُعرباً مضافاً إلى «مناص» والفتحُ لمجاورة واو العطف في قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا﴾ نظير فتح الراء من «غير» في قوله:

(١) في (م): إذا.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٨٤.

لم يمنعِ الشُّرْبَ منها غيرَ أنْ نطقتْ حمامةٌ في غصونٍ ذاتِ أوْقالِ(١)

على قولٍ، والأغلبُ على الظَّنِّ عدمُ صحة هذه القراءة.

وقرأ عيسى أيضاً كقراءة الجمهور إلا أنه كَسَرَ تاء «لاتِ»(٢).

وعُلم من هذه القراءات أنَّ في تائها ثلاث لغات.

واختلفوا في أمر الوقف عليها، فقال سيبويه والفرَّاء وابن كيسان والزجَّاج(٣): يُوقَفُ عليها بالتاء، وقال الكسائيُّ والمبرِّد: بالهاء، وقال أبو عليٍّ: ينبغي أن لا يكون خلافٌ في أنَّ الوقفَ بالتاء؛ لأنَّ قَلْبَ التاء هاءً مخصوصٌ بالأسماء.

وزعم قومٌ أنَّ التاءَ ليست ملحقةً بـ «لا»، وإنما هي مزيدةٌ في أول ما بعدها. واختاره أبو عبيد(٤)، وذكر أنه رأى في الإمام(٥): «ولا تحينَ مناص» برسم التاء مخلوطاً بأول حين، ولا يردُ عليه أنَّ خَطَّ المصحف خارجٌ عن القياس الخطِّيِّ؛ إذ لم يقعْ في الإمام في محلٍّ آخرَ مرسوماً على خلاف ذلك حتى يقالَ: ما هنا مخالفٌ للقياس، والأصلُ اعتبارهُ إلا فيما خَصَّه الدليل، ومن هنا قال السخاويُّ في «شرح الرائية»: أنا أَستحبُّ الوقفَ على «لا» بعد ما شاهدته في مصحف عثمان ﷺ، وقد سمعناهم يقولون: اذهبْ تلآن وتَحين، بدون «لا»، وهو كثيرٌ في النثر والنظم(٦). انتهى، ومنه قوله:

---

(١) البيت لأبي قيس بن الأسلت، أو لأبي قيس بن رفاعة. ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٨٠، والخزانة ٣/ ٤١٣، وسلف ١٢/ ٦٩.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٤.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٨، وللزجاج ٤/ ٣٢٠.

(٤) في الأصل و(م): أبو عبيدة. والمثبت هو الصواب، ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، وتفسير القرطبي ١٨/ ١٢٩، والدر المصون ٩/ ٣٤٩، والخزانة ٤/ ١٧٥.

(٥) أي: مصحف عثمان ﷺ.

(٦) الوسيلة إلى كشف العقيلة لعلم الدين السخاوي ص٤٣٨، والعقيلة هي رائية الشاطبي المسماة: عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد.

العاطفونَ تَحِينَ لا مِنْ عاطف والمُطعمونَ زمانَ ما من مُطْعِمِ[(١)]

وكون أصله: العاطفونه، بِهَاء السكت، فلما أُثبتْ في الدَّرْج قُلبت تاء، مما لا يُصغَى إليه، نعم الأَولى اعتبارُ التاء مع «لا» لشهرة «حين» دون «تَحين»، وقال بعضهم: إنَّ «لات» هي ليس بعينها، وأصلُ ليس: لَيِسَ بكَسْر الياء، فأُبدلتْ أَلِفاً لتحرُّكها بعد فتحة، وأُبدلت السينُ تاءً كما في «سِتٌّ» فإنَّ أصله: سِدْسٌ.

وقيل: إنها فعلٌ ماضٍ، و«لات» بمعنى نَقَصَ وقلَّ، فاستعملتْ في النفي كـ: قلَّ. وليس بالمعوَّل عليه.

والمناصُ: المنجا والفَوْت، يقال: ناصَهُ ينوصُهُ: إذا فاته. وقال الفرَّاء: النَّوْصُ: التأخُّر[(٢)]. يقال: ناصَ عن قِرْنه ينوصُ نَوْصاً ومَناصاً، أي: فرَّ وزاغَ، ويقال: استناصَ: طَلَبَ المناص، قال حارثة بن بدر يصفُ فرساً له:

غَمْرُ الجِراءِ إذا قَصَرْتُ عِنانَه بيَدي استناصَ ورامَ جَرْيَ المِسْحَلِ[(٣)]

وعلى المعنى الأول حمله بعضُهم هنا، وقال: المعنى: نادَوا واستغاثوا طَلَباً للنجاة، والحالُ أنْ ليسَ الحينُ حينَ فواتٍ ونجاة.

وعن مجاهدٍ تفسيرُهُ بالفرار، وأخرج الطستي عن ابن عباس أنَّ نافعَ بنَ الأزرق قال له: أَخبِرْني عن قوله تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ فقال: ليس بحينِ فرارٍ، وأنشد له قولَ الأعشى:

تذكَّرتُ ليلى لاتَ حين تذكُّرٍ وقد بِنْتُ عنها والمناصُ بعيد[(٤)]

وعن الكلبيِّ أنه قال: كانوا إذا قاتلوا فاضطُرُّوا قال بعضهم لبعض: مناص؛ أي: عليكم بالفِرار، فلما أتاهم العذابُ قالوا: مناص، فقال الله تعالى: ﴿وَلَاتَ

---

(١) البيت لأبي وَجْزة يزيد بن عبيد السعدي، وهو في الصحاح (حين)، والخزانة ٤/ ١٧٥.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٣٩٧.
(٣) البيت في العين ٧/ ١٦٠، والكشاف ٣/ ٣٥٩، واللسان (نوص).
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٩٦.

حِينَ مَنَاصٍ﴾. قال القشيري: فعلى هذا يكون التقدير: فنادَوا: مناص، فحذف لدلالة ما بعده عليه، أي: ليس الوقتُ وقتَ ندائكم به.

والظاهرُ أنَّ الجملةَ على هذا التفسير حاليةٌ، أي: نادَوا بالفرار وليس الوقتُ وقتَ فرار. وقال أبو حيان في تقرير الحالية: وهم لاتَ حين مناصٍ، أي: لهم(١). وقال الجرجاني: أي: فنادَوا حين لا مناص، أي: ساعةَ لا منجا ولا فَوْتَ، فلما قدَّم «لا» وأخَّر «حين» اقتضى ذلك الواوَ، كما يقتضي الحالُ إذا جُعل مبتدأً وخبراً مثلَ: جاء زيدٌ راكباً، ثم تقول: جاء زيدٌ وهو راكبٌ، فـ «حين» ظرفٌ لقوله تعالى: (فَنَادَوا). انتهى.

وكون الأصل ما ذكر أنَّ «حين» ظرفٌ لـ «نادَوا» دعوى أعجميةٌ مخالفةٌ لذوق الكلام العربي لا سيَّما ما هو أفصحُ الكلام، ولا أدري ما الذي دعاه لذلك.

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ حكايةٌ لأباطيلهم المتفرِّعة على ما حكي من استكبارهم وشقاقهم، أي: عجبوا من أن جاءهم رسولٌ من جنسهم، أي: بشرٌ، أو من نوعهم وهم معروفون بالأمِّيَّة، فيكون المعنى: رسولٌ أميٌّ، والمراد أنهم عَدُّوا ذلك أمراً عجيباً خارجاً عن احتمال الوقوع، وأنكروه أشدَّ الإنكار، لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجَّبوا منه.

﴿وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وُضِعَ فيه الظاهرُ موضِعَ الضمير؛ غَضَباً عليهم وذمّاً لهم، وإيذاناً بأنه لا يتجاسرُ على مثل ما يقولون إلا المتوغِّلون في الكُفْر والفسوق.

﴿هَـٰذَا سَـٰحِرٌ﴾ فيما يُظهِره مما لا نستطيع له مثلاً ﴿كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ فيما يُسنده إلى الله عزَّ وجلَّ من الإرسال والإنزال.

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ بأن نفى الألوهيةَ عنها وقَصَرَها على واحدٍ، فالجَعْلُ بمعنى التصيير، وليس تصييراً في الخارج، بل في القول والتسمية كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف:١٩] وليس ذلك من باب إنكار وَحْدة الوجود في شيءٍ، ليقال: إنْ الله سبحانه نعى على الكَفَرة ذلك

(١) البحر ٧/ ٣٨٤.

الإنكار فتثبتُ الوحدة، فإنه عليه الصلاة والسلام ما قال باتحاد آلهتهم معه عزَّ وجلَّ في الوجود.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ أي: بليغٌ في العَجَب، فإنَّ فُعالاً بناءُ مبالغةٍ ك: رجل طُوال وسُراع، ووَجْهُ تعجُّبهم أنه خلافُ ما أَلْفَوا عليه آباءَهم الذين أجمعوا على تعدُّد الآلهة، وواظبوا على عبادتها، وقد كان مدارُهم في كلِّ ما يأتونَ ويَذَرونَ التقليدَ، فيعدُّونَ خلافَ ما اعتادوه عجيباً بل محالاً.

وقيل: مدارُ تعجُّبهم زعمهُمْ عدم وفاء عِلْم الواحد وقدرته[1] بالأشياء الكثيرة، وهو لا يتمُّ إلا إن ادّعوا لآلهتهم علماً وقدرةً، والظاهرُ أنهم لم يدَّعوهما لها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، والسُّلَميُّ وعيسى وابن مقسم: «عُجَّاب» بشَدِّ الجيم[2]، وهو أبلغُ من المخفَّف، وقال مقاتل: «عُجَّاب» لغةُ أَزْدشنوءة، أخرج أحمد وابن أبي شيبةَ وعبدُ بن حميد والترمذيُّ وصححه، والنسائيُّ وابن جرير وغيرهم[3] عن ابن عباس قال: لما مرضَ أبو طالب دخل عليه رهطٌ من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابنَ أخيك يشتمُ آلهتنا، ويفعلُ ويقولُ ويقولُ، فلو بعثتَ إليه فنهيتَهُ. فبعثَ إليه، فجاء النبيُّ ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قَدْرُ مجلسٍ، فخشيَ أبو جهلٍ إن جلس إلى أبي طالبٍ أن يكونَ أرقَّ عليه، فَوَثَبَ فجلس في ذلك المجلس، فلم يجدْ رسولُ الله ﷺ مجلساً قُرْبَ عمِّه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابنَ أخي، ما بالُ قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتمُ آلهتَهم، وتقولُ وتقولُ؟! قال: وأكثَروا عليه من القول، وتكلَّم رسولُ الله ﷺ فقال: «يا عمّ، إني أُريدهم على كلمةٍ واحدةٍ يقولونها، يدينُ لهم بها العرب، وتؤدِّي إليهم بها العَجَمُ الجزيةَ» ففرحوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: ما هي وأبيكَ؟

---

(١) في الأصل و(م): قدره. والمثبت من إرشاد العقل السليم ٧/ ٢١٥ والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، والبحر ٧/ ٣٨٥.

(٣) أحمد (٣٤١٩)، وابن أبي شيبة ١٤/ ٢٩٩، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرى (١١٣٧٢)، وابن جرير ٢٣/ ١٩. وفي مطبوع الترمذي أنه حديث حسن.

لنعطينَّكها وعَشْراً، قال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فَزِعينَ ينفضونَ ثيابهم وهم يقولون: أَجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً، إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب. وفي روايةٍ أنهم قالوا: سَلْنا غيرَ هذا، فقال عليه الصلاة والسلام: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرَها» فغضبوا وقاموا غِضاباً قالوا: والله لنشتمنَّكَ وإلهكَ الذي يأمرك بهذا.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي: وانطلق الأشرافُ من قريشٍ من مجلس أبي طالب بعد ما بَكَّتَهُمْ رسولُ الله ﷺ، وشاهدوا تصلُّبه في الدين، ويئسوا مما كانوا يرجونه منه عليه الصلاة والسلام بواسطة عمِّه، وكان منهم أبو جهلٍ، والعاصُ بنُ وائل، والأسودُ بنُ المطلب بن عبد يغوث، وعقبةُ بن أبي مُعيط.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن أبي مجلز قال: قال رجلٌ يومَ بدرٍ: ما هم إلا النساء، فقال رسول الله ﷺ: «بل هم الملأ» وتلا: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾[1].

﴿أَنِ امْشُوا﴾ الظاهرُ أنه أمرٌ بالمشي بمعنى نَقْلِ الأقدام عن ذلك المجلس، و«أن» مفسِّرة، فقيل: في الكلام محذوفٌ وَقَعَ حالاً من «الملأ»، أي: انطلقَ الملأُ يتحاوَرون، والتفسير لذلك المحذوف، وهو متضمِّنٌ معنى القول دون لفظه.

وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار الحذف، فإنَّ الانطلاقَ عن مجلس التقاول يستلزمُ عادةً تفاوضَ المنطلقين وتحاورَهم بما جرى فيه، وتضمُّنُ المفسَّر لمعنى القول أعمّ من كونه بطريق الدلالة وغيرها، كالمقارنة، ومثلُ ذلك كافٍ فيه.

وقيل: الانطلاقُ هنا الاندفاعُ في القول، فهو متضمِّنٌ لمعنى القول بطريق الدلالة، وإطلاقُ الانطلاق على ذلك، الظاهرُ أنه مجازٌ مشهورٌ نُزِّلَ منزلةَ الحقيقة، وجُوِّزَ أن يكون التجوُّز في الإسناد، وأصله: انطلقتْ ألسنتهم، والمعنى: شَرَعوا في التكلُّم بهذا القول.

وقال بعضهم: المراد بـ «امشوا»: سيروا على طريقتكم وداوموا على سيرتكم.

---

(١) تفسير أبي حاتم ١٠/٣٢٣٦.

وقيل: هو من مَشَتِ المرأةُ، إذا كَثُرَتْ ولادتها، ومنه الماشيةُ، وسُمِّيتْ بذلك لأنها من شأنها كثرةُ الولادة، أو تفاؤلاً بذلك، والمرادُ لازمُ معناه، أي: أكثِروا واجتمعوا.

وقيل: هو دعاءٌ بكثرة الماشية، افتتحوا به كلامهم للتعظيم، كما يقال: أسلمْ أيها الأمير، واختاروه من بين الأدعية لِعِظَمِ شأن الماشية عندهم.

وتُعُقب بأنه خطأٌ؛ لأنَّ فِعْلَهُ مزيدٌ، يقال: أَمشى إذا كَثُرَتْ ماشيتُهُ، فكان يلزمُ قَطْعُ همزته، والقراءة بخلافه، مع أنَّ إرادةَ هذا المعنى هنا في غاية البعد.

وأيًّاما كان فالبعض قال للبعض ذلك، وقيل: قال الأشرافُ لأتباعهم وعوامِّهم. وقرئ: «امشوا» بغير «أن»[1]، على إضمار القول دون إضمارها، أي: قائلين: امشوا.

﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي: اثبتوا على عبادتها متحمِّلينَ لما تسمعونه في حقِّها من القَدْح.

وقرأ ابنُ مسعود: «وانطلقَ الملأ منهم يمشونَ أنِ اصبروا»[2] فجملةُ «يمشون» حاليةٌ أو مستأنفةٌ، والكلام في «أنِ اصبروا» كما في «أن امشوا» سواءٌ تعلَّقَ بـ: «انطلق» أو بما يليه.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ تعليلٌ للأمر بالصبر أو لوجوب الامتثال به، والإشارةُ إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبيِّ ﷺ وتصلُّبه في أمر التوحيد ونفي أُلوهية آلهتهم، أي: إنَّ هذا لشيءٌ عظيمٌ يُرادُ من جهته ﷺ إمضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارفٍ يلويه ولا عاطفٍ يثنيه، لا قولٌ يقالُ من طَرَفِ اللسان، أو أمرٌ يُرجى فيه المسامحةُ بشفاعة إنسان، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم، واصبروا على عبادة آلهتكم.

وقيل: إنَّ هذا الأمرَ لشيءٌ من نوائب الدهر يُراد بنا، فلا حيلةَ إلا تجرُّع مرارة الصبر.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٠-٣٦١، وتفسير الرازي ٢٦/ ١٧٨.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٤، والكشاف ٣/ ٣٦١، وتفسير البيضاوي ٥/ ١٥.

وقيل: إنَّ هذا الذي يدَّعيه من أمر التوحيد، أو يقصده من الرياسة والترفُّع على العرب والعجم، لشيءٌ يتمنَّى أو يريده كلُّ أحدٍ، ولكن لا يكونُ لكلٍّ ما يتمنَّاه أو يريده، فاصبروا.

وقيل: إنَّ هذا، أي: دينكم يُطلَبُ ليُنتزَعَ منكم ويطرح، أو يُراد إبطاله.

وقيل: الإشارةُ إلى الصبر المفهوم من «اصبروا» أي: إنَّ الصبرَ لشيءٌ مطلوبٌ؛ لأنه محمودُ العاقبة.

وقال القفال: هذه كلمةٌ تُذكَرُ للتهديد والتخويف، والمعنى أنه ليس غرضُهُ من هذا القول تقرير الدين، وإنما غرضُهُ أن يستوليَ علينا، فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يُريد. فتأمل.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب ومقاتل: أرادوا مِلَّةَ النصارى. والتوصيفُ بالآخرة بحَسَبِ الاعتقاد؛ لأنهم الذينَ لا يؤمنون بنبوَّةِ محمد ﷺ، ومرادهم من قولهم: «ما سمعنا» إلخ: إنَّا سمعنا خلافَهُ، وهو عدمُ التوحيد، فإنَّ النصارى كانوا يُثَلِّثون، ويزعمون أنه الدينُ الذي جاء به عيسى عليه السلام، وحاشاه.

وعن مجاهدٍ أيضاً وقتادة: أرادوا مِلَّةَ العرب ونِحْلَتها التي أدركوا عليها آباءهم.

وجُوِّزَ أن يكونَ «في الملَّة الآخرة» حالاً من اسم الإشارة، لا متعلِّقاً بـ «سمعنا»، أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه من التوحيد كائناً في المِلَّة التي تكونُ آخرَ الزمان، أرادوا أنهم لم يسمعوا من أهل الكتاب والكُهَّان الذين كانوا يُحدِّثونهم قبل بعثة النبيِّ ﷺ بظهور نبيٍّ أنَّ في دينه التوحيد، ولقد كذبوا في ذلك، فإنَّ حديثَ أنَّ النبيَّ المبعوثَ آخر الزمان يكسرُ الأصنامَ ويدعو إلى توحيد الملك العلَّام، كان أشهرَ الأمور قبل الظهور، وإن أرادوا على هذا المعنى: إنَّا سمعنا خلافَ ذلك، فكذِبهم أقبح.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ⑦﴾ أي: افتعالٌ وافتراءٌ من غير سَبْق مَثَلٍ له.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: القرآن ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ونحن رؤساءُ الناس وأشرافهم، كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ومرادهم إنكار كونه ذِكْراً مُنزلاً من عند الله تعالى كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وأمثالُ هذه المقالات الباطلة دليلٌ على أنَّ مناطَ تكذيبهم ليس الحسد وقَصْر النظر على الحطام الدنيوي.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ من القرآن الذي أنزلته على رسولي المشحون بالتوحيد؛ لميلهم إلى التقليد، وإعراضهم عن الأدلة المؤدِّية إلى العلم بحقِّيَّته، وليس في عقيدتهم ما يقطعونَ به، فلذا تراهم ينسبونه إلى السِّحر تارةً، وإلى الاختلاق أخرى، فـ «بل» للإضراب عن جميع ما قبله، و«بل» في قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ إضرابٌ عن مجموع الكلامين السابقين: حديثِ الحسد في قوله تعالى: «أأنزل» إلخ، وحديثِ الشَّكِّ في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ أي: لم يذوقوا عذابي بعد، فإذا ذاقوه زالَ عنهم ما بهم من الحسد والشك حينئذٍ، يعني: أنهم لا يُصدِّقونَ إلا أن يمسَّهمُ العذابُ، فيضطرُّوا إلى التصديق. أو إضرابٌ عن الإضراب قبله، أي: لم يذوقوا عذابي بعدُ، فإذا ذاقوه زالَ شَكُّهم واضطرُّوا إلى التصديق بذِكْري، والأول على ما في «الكشف» هو الوجهُ السديدُ، وينطبقُ عليه ما بعدُ من الآيات.

وقيل: المعنى: لم يذوقوا عذابي الموعود في القرآن، ولذلك شكُّوا فيه. وهو كما ترى. وفي التعبير بـ «لمَّا» دلالةٌ على أنَّ ذَوْقَهم العذابَ على شرف الوقوع.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ في مقابلة قوله سبحانه: «أأنزل» إلخ، ونظيره في رَدِّ نظيره: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١] و«أم» منقطعةٌ مقدَّرةٌ بـ «بل» والهمزة، والمراد بالعِنْدية الملك والتصرُّف، لا مجرَّدُ الحضور.

وتقديمُ الظرف لأنه محلُّ الإنكار، أي: بل أيملكونَ خزائنَ رحمته تعالى، ويتصرَّفون فيها حسبما يشاؤون، حتى إنهم يصيبون بها مَنْ شاؤوا، ويصرفونها عمَّن شاؤوا، ويتحكَّمون فيها بمقتضى رأيهم فيتخيَّروا للنبوَّة بعضَ صناديدهم.

وإضافة الرَّبِّ إلى ضميره ﷺ للتشريف واللطف به عليه الصلاة والسلام.

و«العزيزُ»: القاهرُ على خَلْقه، و«الوهابُ»: الكثيرُ المواهب المصيبُ بها مواقعها، وحديثُ العزَّة والقهر يناسبُ ما كانوا عليه من ترفُّعهم بالنبوَّة عنه ﷺ تجبُّراً.

والمبالغةُ في «الوهَّاب» من طريق الكَمِّيَّة تناسِبُ قوله تعالى: «خزائن» وتدلُّ على حرمانٍ لهم عظيم، وفي ذلك إدماجُ أنَّ النبوةَ ليست عطاءً واحداً بالحقيقة، بل يتضمَّنُ عطايا جَمَّة تفوتُ الحَصْرَ، وهي من طريق الكيفية المشار إليها بإصابة المواقع؛ للدلالة على أنَّ مستحقَّ العطاء ومحلَّهُ مَنْ وُهِبَ ذلك وهو النبيُّ ﷺ، وفي الوصف المذكور أيضاً إشارةٌ إلى أنَّ النبوَّةَ موهبةٌ ربانيَّةٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ترشيحٌ لما سبقَ، أي: بل أَلَهُمْ ملكُ هذه الأجرام العلوية والأجسام السفلية، حتى يتكلَّموا في الأمور الربانية، ويتحكَّموا في التدابير الإلهيَّة التي يستأثر بها ربُّ العزَّة والكبرياء.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾ جوابُ شَرْطٍ محذوف، أي: إن كان لهم ما ذُكر من الملك، فليصعدوا في المعارج والمناهج التي[1] يتوصَّل بها إلى السماوات، فليدبِّروها وليتصرَّفوا فيها، فإنهم لا طريقَ لهم إلى تدبيرها والتصرُّف فيها إلا ذاك. أو: إن ادَّعوا ما ذُكر من الملك، فليصعدوا وليتصرَّفوا حتى يُظَنَّ صِدْقُ دعواهم، فإنه لا أمارةَ عندهم على صِدْقها، فلا أقلَّ من أن يجعلوا ذلك أمارةً.

وقال الزمخشريُّ ومتابعوه: أي: فليصعدوا في المعارج والطُّرق التي يُتوصَّل بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبِّروا أمرَ العالم وملكوتَ الله تعالى، ويُنزلوا الوحيَ إلى مَنْ يختارونَ ويستصوبون[2]. وهو مناسبٌ للمقام، بَيْدَ أنَّ فيه دغدغة.

وأيًّاما كان ففي أمرهم بذلك تهكُّمٌ بهم لا يخفى.

---

(١) في (م): الذي.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٦١-٣٦٢.

والسببُ في الأصل: الوصلةُ من الحبل ونحوه. وعن مجاهدٍ: الأسبابُ هنا أبوابُ السماوات. وقيل: السماواتُ أنفسُها؛ لأنَّ الله تعالى جَعَلَها أسباباً عادية للحوادث السفلية.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ أي: هم جندٌ.. إلخ، فـ «جندٌ» خبرُ مبتدأ محذوف مقدَّر مقدَّماً كما هو الظاهر، و«ما» مزيدةٌ، قيل: للتقليل والتحقير، نحو: أكلتُ شيئاً ما. وقيل: للتعظيم والتكثير. واعترض بأنه لا يلائمه «مهزوم». وأُجيب بأنَّ الوَصْفَ بالعَظَمة والكَثْرة على سبيل الاستهزاء، فهي بحَسَبِ اللَّفظ عظمةٌ وكثرةٌ، وفي نفس الأمر ذِلَّةٌ وقِلَّةٌ، ورُجِّحَ بأنَّ الأكثرَ في كلامهم كونها للتعظيم، نحو: لأمرٍ ما جدعَ قصيرٌ أنفَه، لأمرٍ ما يسودُ من يسود. وقول امرئ القيس[1]:

وحديثُ الرَّكْبِ يومَ هُنا وحديثٌ ما على قِصَرِهْ

مع أنَّ الكلامَ لتسليته ﷺ وتبشيره بانهزامهم، وذلك أكملُ على هذا التقدير، بل قيل: إنَّ التبشيرَ بخذلان عدوٍّ[2] حقيرٍ، ربما أشعرَ بإهانةٍ وتحقير:

ألم ترَ أنَّ السيفَ ينقصُ قَدْرُهُ إذا قيل إنَّ السيفَ أمضى من العصا[3]

وفيه نظرٌ. و«هنالك» صفةُ «جند» أو ظرفُ «مهزوم»، وهو إشارةٌ إلى المكان البعيد، وأُريد به على قولٍ المكانُ الذي تفاوضوا فيه مع الرسول ﷺ بتلك الكلمات السابقة، وهو مكة، وجُعل ذلك إخباراً للغيب عن هزيمتهم يومَ الفتح. وقيل: يوم بدر، ورُوي ذلك عن مجاهد وقتادة، وأنت خبيرٌ بأنَّ «هنالك» إذا كان إشارةً إلى مكة ومتعلِّقاً بـ «مهزومٍ» لا يتسنَّى هذا إلا إذا أُريد من مكة ما يشملُ بَدْراً.

و«مهزومٌ» خبرٌ بعد خبر، وأصلُ الهَزْم: غَمْزُ الشيء اليابس حتى ينحطمَ، كَهَزْمِ الشَّنِّ، وهَزْمِ القِثَّاء والبطِّيخ، ومنه الهزيمةُ؛ لأنه كما يُعبَّر عنه بذلك، يُعبَّر عنه[4]

(١) البيت في ديوانه ص١٢٧.
(٢) في (م): عدد. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٣٠٠ والكلام منه.
(٣) نُسب في يتيمة الدهر ٥/ ٢٩٩ للشيخ أبي بكر.
(٤) قوله: بذلك يُعبَّر عنه. ليس في (م).

بالحطم والكسر، والتعبيرُ عمَّا لم يقع باسم المفعول المُؤْذِنِ بالوقوع ـ على ما في بعض «شروح الكشاف» ـ للإيذان بشدَّةِ قُرْبه، حتى كأنه محقَّقٌ.

و«من الأحزاب» صفةُ «جند»، أي: هم جندٌ قليلونَ أذلَّاء، أو كثيرونَ عظماء كائنونَ هنالك، من الكفار المتحزِّبين على الرسل، مكسورونَ عن قريبٍ، أو جندٌ من الأحزاب مكسورونَ عن قريبٍ في مكانهم الذي تكلَّموا فيه بما تكلَّموا، فلا تبالِ بما يقولون، ولا تكترثْ بما يَهذُونَ.

وقال أبو البقاء: «جندٌ» مبتدأٌ، و«ما» زائدةٌ، و«هنالك» نعتٌ، وكذا «من الأحزاب»، و«مهزومٌ» خبرٌ[(١)]. وتعقَّبهُ أبو حيان بأنَّ فيه بُعْداً لِتَفلُّته عن الكلام الذي قبله[(٢)].

واعتبر الزمخشريُّ الحَصْرَ، أي: ما هم إلا جندٌ من المتحزِّبينَ مهزومٌ عن قريب، لا يتجاوزونَ الجنديةَ المذكورةَ إلى الأمور الربانية[(٣)]. وهو حَسَنٌ إلا أنه اختلفَ في منشأ ذلك فقيل: إنه كان حقُّ «الجند» أن يُعرَّفَ؛ لكونه معلوماً، فَنُكِّرَ سَوْقاً للمعلوم مَساقَ المجهول، كأنه لا يُعرَفُ منهم إلا هذا القَدْرُ، وهو أنهم جندٌ بهذه الصفة.

وقال صاحب «الكشف»: إنه التفخيمُ المدلولُ عليه بالتنكير وزيادة «ما» الدالة على الشيوع وغاية التعظيم لدلالتهما على اختصاص الوَصْف بالجندية من بين سائر الصفات، كأنه لا وَصْفَ لهم غيرها. وفيه منعٌ ظاهرٌ.

ويُفهِمُ كلامُ العلّامة الثاني أنه اعتبار كون «جند» خبراً مقدَّماً لمبتدأ محذوفٍ؛ لأنَّ المقامَ يقتضي الحَصْرَ. فتدبَّر ولا تغفل.

وجعل الزمخشريُّ «هنالك» الموضوعَ للإشارة إلى المكان البعيد مستعاراً للمرتبة من العلوِّ والشرف، على أنه إشارةٌ إلى حيثُ وَضَعوا فيه أنفسَهم من

---

(١) الإملاء ٤/ ٢٤٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٨٦. والدر المصون ٩/ ٣٦٠، ووقع في مطبوع البحر: لفصله. بدل: لتفلته.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٦٤.

الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، كما في قولهم لمن انتُدِبَ لأمرٍ ليس من أهله: لستَ هنالك[1]. وفيه إيماءٌ إلى عِلَّةِ الذَّمِّ؛ وجُوِّزَ على هذا أن تكونَ «ما» نافيةً، أي: هم جندٌ ليسوا حيثُ وضعوا أنفسهم.

وتُعقِّبَ بأنه مما لم يَقلْهُ أحدٌ من أهل العربية، ولا يليقُ بالمقام، وفيه بحثٌ.

وجُوِّزَ أن تكون «هنالك» إشارة إلى الزمان البعيد، وهي ـ كما قال ابن مالك ـ قد يُشارُ بها إليه، نحو قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠] وتتعلَّق بـ «مهزومٍ».

والكلامُ إخبارٌ بالغيب إما عن هزيمتهم يومَ الفتح، أو يومَ بدر كما تقدَّم حكايته، أو يومَ الخندق. ولا يخفى ما فيه.

وقيل: إشارةٌ إلى زمان الارتقاء في الأسباب، أي: هؤلاء القومُ جندٌ مهزومٌ إذا ارتقوا في الأسباب. وليس بالمَرْضيِّ.

وقيل: «ما» اسمٌ موصولٌ مبتدأً، و«هنالك» في موضع الصِّلة، و«جندٌ» خبرٌ مقدَّمٌ، و«مهزومٌ» و«من الأحزاب» صفتان، وهما المقصودان بالإفادة، و«ما هنالك» إشارةٌ إلى مكة، والمرادُ من الذين فيها: المشركون، والتعبيرُ عنهم بـ «ما» لأنهم كالأنعام بل هم أضلُّ، وقيل: الأصنامُ وعَبَدَتُها، وأمْرُ التعبير بـ «ما» عليه أظهر. ويقال فيه نحو ما قاله أبو حيان في كلام أبي البقاء وزيادةٌ لا تخفى.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ إلى آخره، استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله ببيان أحوال العُتاة الطُّغاة مما فعلوا من التكذيب وفُعل بهم من العقاب، و«ذو الأوتاد» صفةُ «فرعون»، لا لجميع ما قبله، وإلا لقيل: ذوو الأوتاد.

و«الأوتاد» جمعُ: وَتِدٍ، وهو معروفٌ، وكَسْرُ التاء فيه أشهرُ من فتحها، ويقال: وَتِدٌ واتِدٌ، كما يقال: شُغلٌ شاغلٌ. قاله الأصمعيُّ، وأنشد:

---

(١) المصدر السابق.

لاقَتْ على الماء جُذَيلاً واتِدا ولم يكن يُخلِفُها المَواعِدا(١)

وقالوا: وَدّ، بإبدال التاء دالاً والإدغام، وَ: وتّ، بإبدال الدال تاءً، وفيه قَلْبُ الثاني للأول، وهو قليلٌ، وأصلُ إطلاق ذلك على البيت المُطْنِب بأوتاده، وهو لا يثبتُ بدونها كما قال الأعشى:

والبيتُ لا يُبتَنى إلا على عمدٍ ولا عمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ(٢)

فقيل: إنه شُبِّهَ هنا فرعونُ في ثبات مُلْكه ورسوخ سَلْطنته ببيتٍ ثابتٍ أُقيم عمادُهُ وثبتتْ أوتادُهُ؛ تشبيهاً مُضمَراً في النفس على طريق الاستعارة المكنية، وَوُصِفَ بذي الأوتاد على سبيل التخييل، فالمعنى: كذَّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ وعادٌ وفرعونُ الثابتُ مُلْكُهُ وسَلْطنتهُ.

وقيل: شُبِّهَ الملكُ الثابتُ من حيثُ الثباتُ والرسوخُ بذي الأوتاد، وهو البيتُ المُطْنِبُ بأوتاده، واستعيرَ ذو الأوتاد له على سبيل الاستعارة التصريحية. قيل: وهو أظهرُ مما مرَّ، نهايته أنه وُصِفَ بذلك فرعونُ مبالغةً لِجَعْله عين مُلكه، والمعنى على وَصْفه بثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الأمر.

وقال ابن مسعود وابن عباس في رواية عطية: «الأوتادُ»: الجنودُ يُقوُّون مُلْكَهُ كما يقوِّي الوتدُ الشيءَ، أي: وفرعونُ ذو الجنود. فالاستعارةُ عليه تصريحيةٌ في الأوتاد، وقيل: هو مجازٌ مرسلٌ للزوم الأوتاد للجند.

وقيل: المباني العظيمة الثابتة، وفيه مجازٌ أيضاً.

وقال ابن عباس في روايةٍ أخرى، وقتادة وعطاء: كانت له ـ عليه اللَّعنةُ ـ أوتادٌ وخُشُبٌ يُلعَبُ له بها وعليها.

---

(١) البيت لأبي محمد الفقعسي، وهو في اللسان (وتد). والشطر الأول منه في زهر الأكم ٨٦/١.

(٢) لم نقف عليه عن الأعشى، ونسب للأفوه الأودي في العقد الفريد ٩/١، والتمثيل والمحاضرة ص٥١، وأمالي القالي ٢٢٤/٢، والحماسة البصرية ٦٩/٢. والأفوه اسمه: صلاءة بن عمرو.

وقيل: كان يشبحُ المعذَّبَ بين أربع سَوارٍ، كلُّ طَرَفٍ من أطرافه إلى سارية، ويَضربُ في كلِّ وَتِداً من حديد، ويتركه حتى يموت، وروي معناه عن الحسن ومجاهد.

وقيل: كان يمدُّه بين أربعة أوتادٍ في الأرض، ويُرسل عليه العقاربَ والحيَّات.

وقيل: يشدُّهُ بأربعة أوتادٍ، ثم يرفعُ صَخْرةً فتلقَى عليه فتشدَخُهُ.

وعلى هذه الأقوال الأربعة، فالأوتادُ ثابتةٌ على حقيقتها.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أصحابُ الغيضة، وهم الذين أُرسل إليهم شعيبٌ عليه السلام، نُسبوا إلى غيضةٍ كانوا يسكنونها. وقيل: الأيكةُ: اسمُ بلدٍ لهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المكذِّبون ﴿ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ أي: الكفار المتحزِّبون على الرسل عليهم السلام، والمهزومون، وهو مبتدأٌ وخبرٌ، ويُفهمُ من ذلك أنَّ الأحزابَ الذين جُعل الجندُ المهزومُ منهم هم هم، وأنهم الذين وُجِدَ منهم التكذيبُ؛ لأنَّ المبتدأ والخبرَ في مثله متعاكسان رأساً برأس، لا لأنَّ «أولئك» إشارةٌ إلى الأحزاب أولاً، والأحزابُ ثانياً هم المكذِّبون.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ استئنافٌ جيءَ به تقريراً لتكذيبهم على أبلغ وَجْهٍ، وتمهيداً لما يعقبهُ، فـ «إن» نافيةٌ، ولا عملَ لها؛ لانتقاض النفي بـ «إلا»، و«كلٌّ» مبتدأٌ، والاستثناءُ مفرغٌ من أعمِّ العام، وهو الخبر، أي: ما كلُّ حِزْبٍ من الأحزاب محكوماً عليه بحُكم إلا محكوماً عليه بأنه كذَّبَ الرسلَ، أو مُخبَراً عنه بخبرٍ إلا مُخبَراً عنه بأنه كذَّبَ الرسلَ؛ لأنَّ الرسلَ يُصدِّقُ كلٌّ منهم الكُلَّ، وكلُّهم متَّفقونَ على الحقِّ، فتكذيبُ كلِّ واحدٍ منهم تكذيبٌ لهم جميعاً.

وجُوِّزَ أن يكونَ من مقابلة الجمع، أي: ما كلُّهم محكوماً عليه بحُكم، أو مخبراً عنه بشيءٍ إلا محكوماً عليه ـ أو إلا مُخبَراً عنه ـ بأنه كذَّب رسوله.

والحصرُ مبالغةٌ، كأنَّ سائرَ أوصافهم بالنظر إلى ما أُثبتَ لهم بمنزلة العَدَم، فيدلُّ على أنهم غالونَ في التكذيب، ويدلُّ على غُلوِّهم فيه أيضاً إعادتُهُ متعلِّقاً بالرسل، وتنويعُ الجملتين على اسميةٍ استثنائيةٍ وغيرها، أعني قوله تعالى: «كذبت

قبلهم» إلخ، وجَعْل كلِّ فرقةٍ مكذِّبةٍ للجميع على الوجه الأول، ويُسجِّلُ ذلك عليهم استحقاقَهم أشدَّ العقابَ، ولذا رُتِّبَ عليه قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ أي: ثبتَ وَوَقَعَ على كلٍّ منهم عقابي الذي كانت تُوجبه جناياتهم من أصناف العقوبات، فأغرقَ قومَ نوحٍ، وأهلكَ فرعونَ بالغرق، وقومَ هودٍ بالريح، وثمودَ بالصَّيحةِ، وقومَ لوطٍ بالخَسْفِ، وأصحابَ الأيكة بعذابِ الظُّلَّة.

وجُوِّزَ أن يكونَ «أولئك الأحزاب» بدلاً من الطوائف المذكورة، والجملةُ بعدُ مستأنفةٌ لما سمعتَ، وأن يكونَ مبتدأ، والجملة بعده خبرٌ بحَذْفِ العائد، أي: إن كلٌّ منهم ـ أو كلُّهم ـ إلا كذَّب الرسلَ، والمجموعُ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله، مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم، وكلاهما خلافُ الظاهر.

وأما ما قيل من أنه خبرٌ، والمبتدأ قوله تعالى: «وعاد» إلخ أو: قوله تعالى: «وقوم لوط» إلخ = فمما يجبُ تنزيهُ ساحة التنزيل عن أمثاله.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾﴾ شروعٌ في بيان عقاب كفار مكةَ، إثرَ بيان عقاب أضرابهم، فإنَّ الكلامَ السابقَ مما يُوجبُ ترقُّبَ السامع بيانه، والنظرُ: بمعنى الانتظار، وعُبِّر به مجازاً بجَعْلِ مُحقَّقِ الوقوع كأنه أمرٌ منتظرٌ لهم، والإشارة بـ «هؤلاء» للتحقير، والمرادُ بالصَّيحة الواحدةِ النفخةُ الثانية، أي: ما ينتظرُ هؤلاء الكَفَرةُ الحقيرونَ الذين هم أمثالُ أولئك الطوائف المهلَكَةِ في الكُفْر والتكذيب شيئاً إلا النفخة الثانية التي تقومُ بها الساعة. قاله قتادة. وليس المرادُ أنها نفسها عقابٌ لهم؛ لعمومها للبَرِّ والفاجر من جميع الأمم، بل المراد أنه ليس بينهم وبين ما أُعِدَّ لهم من العذاب إلا هي، لتأخير عقوبتهم إلى الآخرة، لما أنَّ تعذيبَهُمْ بالاستئصال حسبما يستحقُّونه والنبيُّ ﷺ موجودٌ، خارجٌ عن السنة الإلهية المبنية على الحِكَم الباهرة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: ٣٣] إذ المراد من «وأنت فيهم» وجوده عليه الصلاة والسلام، لا مجاورته لهم كما تُوهِّم، حتى يقال: لا دلالةَ في الآية على امتناع وقوعه بعد الهجرة؛ لمخالفته للتفسير المشهور.

وقيل: المراد بالصيحة المذكورة النفخةُ الأولى. وتُعقِّبَ بأنه مما لا وَجْهَ له أصلاً؛ لما أنه لا يُشاهِدُ هولَها ولا يُصعَقُ بها إلا مَنْ كان حيّاً عند وقوعها، وليس عقابهم الموعودُ واقعاً عَقيبها، ولا العذابُ المطلَقُ مؤخَّراً إليها، بل يَحِلُّ بهم من حينِ موتهم.

وقيل: المراد صيحةٌ يهلكون بها في الدنيا، كما هلكتْ ثمود، ولا يخفى أنَّ هذا تعذيبٌ بالاستئصال، وهو مما لا يقعُ كما سمعتَ، فلا يكونُ منتظراً.

وقال أبو حيان: الصيحةُ: ما نالهم من قَتْلٍ وأَسْرٍ وغَلَبةٍ، كما تقولُ: صاحَ بهم الدهر[١]. فهي مجازٌ عن الشَّرِّ كما في قولهم: ما ينتظرون إلا مثلَ صيحةِ الحُبْلى، أي: شرّاً يعاجلهم، وفيه بُعْدٌ.

وجُوِّزَ جَعْلُ «هؤلاء» إشارة إلى الأحزاب، ولمَّا سبق ذِكْرهم مكرَّراً مؤكَّداً استحضَرَهم المخاطَبُ في ذهنه، فَنُزِّلَ الوجودُ الذهنيُّ منزلةَ الخارجيِّ المحسوس، وأُشير إليهم بما يُشارُ به للحاضر المشاهَد، واحتمالُ التحقير قائمٌ، ولا ينبو عنه التعبيرُ بـ «أولئك»؛ لأنَّ البُعدَ في الواقع مع أنه قد يُقصَدُ به التحقيرُ أيضاً، والكلام بيانٌ لما يصيرون إليه في الآخرة من العقاب بعد ما نزل بهم في الدنيا من العذاب، وجَعْلُهُمْ منتظرين له؛ لأنَّ ما أصابهم من عذابِ الاستئصال ليس هو نتيجة ما جَنَوه من قبيح الأعمال؛ إذ لا يُعتَدُّ به بالنسبة إلى ما ثمَّةَ من الأهوال، فهو تحذيرٌ لكفَّار قريش، وتخويفٌ لمن يُساقُ له الحديثُ، فلا وَجْهَ لما قاله أبو السعود من أنَّ هذا ليسَ في حَيِّز الاحتمال أصلاً؛ لأنَّ الانتظارَ سواءٌ كان حقيقةً أو استهزاءً، إنما يُتصوَّرُ في حقِّ مَنْ لم يترتَّب على أعماله نتائجها بَعْدُ، وبعد ما بُيِّنَ عقابُ الأحزاب واستئصالهم بالمرَّة، لم يبقَ مما أُريد بيانه من عقوباتهم أمرٌ منتظرٌ، بخلاف كفار قريشٍ حيث ارتكبوا ما ارتكبوا ولمَّا يلاقوا بعدُ شيئاً. قاله الخفاجيُّ[٢].

ولا يخفى أنَّ المنساقَ إلى الذهن هو الاحتمال الأول، وهو المأثورُ عن السلف.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٨٩.

(٢) في حاشيته ٧/ ٣٠١-٣٠٢، وينظر إرشاد العقل السليم ٧/ ٢١٨.

والفَواق: الزمنُ الذي بين حَلْبَتَي الحالب ورَضْعَتَي الراضع، ويقال لِلَّبنِ الذي يجتمعُ في الضَّرْع بين الحَلْبتين: فِيقَة، ويُجمَعُ على: أفواقٍ، وأفاويقُ جَمْعُ الجمع، والكلامُ على تقدير مضافين، أي: ما ينتظرون إلا صيحةً واحدةً ما لها من توقُّف مقدار فواقٍ، أو على ذِكْر الملزوم الذي هو الفَوَاق، وإرادةِ اللازم الذي هو التوقُّف مقدارَه، وهو مجازٌ مشهورٌ، والمعنى أنَّ الصيحةَ إذا جاءَ وقتُها لم تستأخرْ هذا القَدْرَ من الزمان.

وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة تفسيرُهُ بالرجوع والتّرداد، وهو مجازٌ أُطلق فيه الملزومُ وأُريدَ اللازم، فإنَّ في الزمان بين الحَلْبتين يرجعُ اللَّبنُ إلى الضَّرع، والمعنى أنها صيحةٌ واحدةٌ فحسب، لا تُثنى ولا تُردَّدْ، فالجملةُ عليه صفةٌ مؤكِّدةٌ لوَحْدةِ الصَّيحة.

وقرأ السُّلميُّ وابنُ وثَّابٍ والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ وطلحةُ بضمِّ الفاء(١)، فقيل: هما بمعنًى واحدٍ، وهو ما تقدَّم كقَصاص الشَّعر وقُصاصه.

وقيل: المفتوحُ اسمُ مصدرٍ من أفاقَ المريضُ إفاقةً وفاقةً، إذا رَجَعَ إلى الصحة، وإليه يرجعُ تفسيرُ ابن زيد والسدي وأبي عبيدة والفرَّاء له بالإقامة والاستراحة، والمضمومُ اسمُ ساعةِ رجوعِ اللَّبن للضَّرْع(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ حكايةٌ لِمَا قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة، أي: قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية: ربَّنا عَجِّلْ لنا قِسْطنا ونصيبنا من العذاب الذي تُوعِدنا به، ولا تؤخِّرهُ إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحةُ المذكورةُ.

وتصديرُ دعائهم بالنِّداء المذكور؛ للإمعان في الاستهزاء، كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال.

والقائلُ ـ على ما روي عن عطاء ـ النَّضْرُ بن الحارث بن علقمة بن كلدة، وهو

(١) التيسير ص١٨٧، والنشر ٢/ ٣٦١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٦، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٩.
(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٧٩.

الذي قال الله تعالى فيه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]. وأبو جهل على ما روي عن قتادة. وعلى القولين الباقون راضون، فلذا جيءَ بضمير الجمع.

والقِطُّ: القطعةُ من الشيء، من قَطَّهُ إذا قَطَعَهُ، ويقال لصحيفة الجائزة: قِطٌّ؛ لأنها قطعةٌ من القِرْطاس، ومن ذلك قولُ الأعشى:

ولا المَلِكُ النعمانُ يومَ لَقِيتُهُ ... بِنعمتهِ يُعطي القُطوطَ ويُطلقُ[1]

قيل: وهو في ذلك أكثرُ استعمالاً، وقد فسَّرهُ بها هنا أبو العالية والكلبيُّ، أي: عَجِّلْ لنا صحيفةَ أعمالنا لننظرَ فيها، وهي روايةٌ عن الحسن.

وجاء في روايةٍ أخرى عنه أنهم أرادوا نصيبَهم من الجنة، وروي هذا أيضاً عن قتادة وابن جبير، وذلك أنهم سمعوا رسولَ الله ﷺ يذكرُ وَعْدَ الله تعالى المؤمنينَ الجنةَ، فقالوا على سبيل الهزء: عَجِّلْ لنا نصيبنا منها؛ لنتنعَّمَ به في الدنيا. قال السمرقنديُّ: أقوى التفاسير أنهم سألوا أن يُعجِّلَ لهم النعيمُ الذي كان يَعِدُهُ عليه الصلاة والسلام مَنْ آمنَ؛ لقولهم: ربَّنا، ولو كان على ما يحمله أهلُ التأويل من سؤال العذاب أو الكتاب استهزاءً، لسألوا رسولَ الله ﷺ ولم يسألوا ربَّهم. وفيه بحثٌ يُعلَمُ مما مرَّ آنفاً.

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ على ما يتجدَّدُ من أمثال هذه المقالات الباطلة المؤذية.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ أي: اذكرْ لهم قِصَّته عليه السلام؛ تعظيماً للمعصية في أعينهم، وتنبيهاً لهم على كمال قُبْحِ ما اجترؤوا عليه، فإنه عليه السلام مع علوِّ شأنه وإيتائه النبوَّةَ والمُلْكَ لمَّا أَلَمَّ بما هو خلافُ الأولى، ناله ما أَلَمَّهُ وأدامَ غَمَّهُ ونَدَمَهُ، فما الظَّنُّ بهؤلاء الكَفَرة الأذلِّين، الذين لم يزالوا على أكبر الكبائر مُصرِّين. أو: اذكر قِصَّته عليه السلام في نفسك، وتحفَّظْ من ارتكاب ما يُوجبُ العتاب.

وقيل: إنه تعالى أمرهُ عليه الصلاة والسلام أن يذكرَ قصص الأنبياء عليهم السلام الذين عَرَضَ لهم ما عَرَضَ، فصبروا حتى فرَّجَ الله تعالى عنهم وأحسن

---

(١) ديوان الأعشى ص٢٦٩ وفيه: بإمَّته، بدل: بنعمته. وهما بمعنى.

عاقبتهم؛ ترغيباً له في الصبر، وتسهيلاً لأمره عليه، وإيذاناً ببلوغ ما يريده بذلك. وهو كما ترى.

وقيل: أمرهُ بالصَّبر وذِكْرِ قصص الأنبياء ليكونَ ذلك برهاناً على صحة نبوَّته ﷺ، والذكرُ على هذا والأولِ لسانيٌّ، وعلى ما بينهما قلبيٌّ، وهو مرادُ مَنْ فَسَّر «اذكر» على ذلك بـ: تذكَّر.

﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ أي: ذا القوَّة، يقال: فلانٌ أَيِّدٌ، وذو أَيْدٍ، وذو آدٍ وأيادٍ بمعنى، وأيادُ كلِّ شيءٍ: ما يتقوَّى به.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ أي: رَجَّاعٌ إلى الله تعالى وطاعته عزَّ وجلَّ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا: الأوابُ: المسبِّحُ[1]. وعن عمرو بن شرحبيل: أنه المسبِّحُ بلغة الحبشة.

وأخرج الديلميُّ عن مجاهدٍ قال: سألتُ ابنَ عمر عن الأوَّاب فقال: سألتُ النبيَّ ﷺ عنه فقال: «هو الرجلُ يذكرُ ذنوبه في الخلاء، فيستغفر الله تعالى»[2].

وهذا إن صحَّ لا يُعدَلُ عنه، والجملةُ تعليلٌ لكونه عليه السلام ذا الأيد، وتدلُّ بأيِّ معنًى كان الأوابُ فيها على أنَّ المرادَ بالأيد القوَّةُ الدينية، وهي القوَّةُ على العبادة كما قال مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم؛ إذ لا يَحْسُنُ التعليلُ لو حُملتِ القوَّةُ على القوَّة في الجسم، نعم قد كان عليه السلام قويَّ الجسم أيضاً، إلا أنَّ ذلك غيرُ مرادٍ هنا؛ وفي التعبير عنه بعبدنا وَوَصْفِهِ بذي الأيد، والتعليلِ بما ذُكِرَ دلالةٌ على كثرة عبادته وَوُفور طاعته.

وقد أخرج البخاريُّ في «تاريخه» عن أبي الدرداء قال: كان النبيُّ ﷺ إذا ذَكَرَ داودَ وحدَّثَ عنه قال: «كان أعبدَ البشر»[3].

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٥٥٧ و٢١/ ٤٥٠.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٩٨، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٧٦ عن مجاهد قوله.

(٣) التاريخ الكبير ١/ ٨٩. وهو عند الترمذي (٣٤٩٠)، وقال: حديث حسن غريب.

وأخرج الديلميُّ عن ابن عمر[1] رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحدٍ أن يقول: إني أعبدُ من داود».

وروي أنه كان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً، وكان يقومُ نصفَ الليل[2]. وفي ذلك دلالةٌ على قوَّته في العبادة، لما في كلٍّ من الصيام والقيام المذكورَين من تَرْكِ راحةٍ تذكَّرها قريباً.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ استئنافٌ لبيان قِصَّته عليه السلام، وجُوِّزَ كونه لتعليل قوَّته في الدين وأوَّابيَّته إلى الله عزَّ وجلَّ، و«مع» متعلِّقةٌ بـ «سخَّر»، وإيثارها على اللام؛ لأنَّ تسخيرَ الجبال له عليه السلام لم يكنْ بطريق تفويض التصرُّف الكلِّيِّ فيها إليه، كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام، بل بطريق الاقتداء به في عبادة الله تعالى.

وأُخِّر الظرفُ المذكور عن «الجبال» وقُدِّم في سورة الأنبياء فقيل: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] قال بعضُ الفضلاء: لِذِكْر داودَ وسليمان ثمةَ، فَقُدِّم مسارعةً للتعيين، ولا كذلك هنا.

وجُوِّزَ تعلُّقها بقوله تعالى ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ وهو أقربُ بالنسبة إلى آية الأنبياء، وتسبيحهنَّ تقديسٌ بلسان قالٍ لائقٍ بهنَّ نظير تسبيح الحصى المسموع في كفِّ النبيِّ ﷺ[3].

وقيل: تقديسٌ بلسان الحال، وتقييدهُ بالوقتين المذكورَين بعدُ يأباهُ؛ إذ لا اختصاصَ لتسبيحهنَّ الحاليِّ بهما، وكذا لا اختصاصَ له بكونه معه.

وقيل: المعنى: يَسِرْنَ معه، على أنَّ يُسبِّحْنَ من السِّباحة.

---

(١) في مسند الفردوس ٥/ ١٣٩: ابن عمرو.

(٢) أخرج أحمد (٦٤٩١)، والبخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) (١٨٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصفه ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً».

(٣) سلف ٢/ ٢٥٤.

والجملةُ حالٌ من «الجبال»، والعدولُ عن: مسبِّحاتٍ، مع أنَّ الأصلَ في الحال الإفرادُ؛ للدلالة على تجدُّدِ التسبيح حالاً بعد حالٍ نظير ما في قول الأعشى:

لَعَمْري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوءِ نارٍ في يفاعٍ تُحَرَّقُ[1]

وجُوِّزَ أن تكونَ مستأنفةً لبيان كيفية التسخير، ومقابلتها بـ «محشورةٍ» هنا كالمعيِّنة للحالية.

﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ هو كما قال الراغب: من زوال الشمس إلى الصباح[2]. أي: يُسبِّحْنَ بهذا الوقت، وليس ذلك نصًّا في استيعابه بالتسبيح.

﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ أي: ووقت الإشراق، قال ثعلب: يقال: شَرَقَتِ الشمسُ: إذا طَلَعتْ، وأشرقَتْ: إذا أضاءتْ وَصَفَتْ، فوقتُ الإشراق وقتُ ارتفاعها عن الأفق الشرقيِّ وصفاءِ شعاعها، وهو الضحوةُ الصُّغرى، وروي عن أمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالب أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى صلاةَ الضُّحى، وقال: «هذه صلاةُ الإشراق»[3].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء الخراسانيِّ أنَّ ابنَ عباس قال: لم يزلْ في نفسي من صلاة الضُّحى شيءٌ حتى قرأتُ هذه الآية: ﴿يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾[4]، وفي روايةٍ عنه أيضاً: ما عرفتُ صلاةَ الضُّحى إلا بهذه الآية[5].

ووجهُ فَهْمِ الحبر إياها من الآية أنَّ[6] كلَّ تسبيحٍ وردَ في القرآن فهو عنده ـ ما لم يُرَدْ به التعجُّبُ والتنزيه ـ بمعنى الصلاة، فحيث كانت صلاةً لداود عليه السلام وقُصَّتْ على طريق المدح عُلم منه مشروعيتها.

---

(١) ديوان الأعشى ص٢٧٣. وجاء في هامش الأصل عند قوله: كثيرة: وفي بعض النسخ: كبيرة بالباء الموحدة بدل التاء المثلثة. وعند قوله: يفاع: اليفاع: أعلى الجبل.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (عشا).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٤٠٦/٢٤. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٨/٢: وفيه حجاج بن نصير ضعفه ابن المديني وجماعة، ووثقه ابن معين وابن حبان.

(٤) مصنف عبد الرزاق (٤٨٧٠)، وينظر الدر المنثور ٢٩٨/٥.

(٥) مستدرك الحاكم ٥٣/٤.

(٦) في (م): أي. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٣٠٣/٧، والكلام منها.

وفي «الكشف»: وجهه أنَّ الآيةَ دلَّتْ على تخصيصه عليه السلام ذَينك الوقتين بالتسبيح، وقد عُلم من الرواية أنه كان يُصلِّي مسبِّحاً فيهما، فحكي في القرآن ما كان عليه، وإن لم يُذكَرْ كيفيته، فيكون في الآية ذكرُ صلاة الضحى، وهو المطلوبُ، أو نقول: إنَّ تسبيحَ الجبال غيرُ تسبيح داود عليه السلام؛ لأنَّ الأولَ مجازٌ، فحُمِلَ تسبيحُ داودَ على المجاز أيضاً؛ لأنَّ المجازَ بالمجاز أنسب. اهـ.

وتُعقِّبَ بأنه إذا عُلم من الرواية، فكيف يقال: إنه أخذهُ من الآية، والتجوُّزُ ينبغي تقليله ما أمكن، وهذا بناء على أنَّ «معه» متعلِّقٌ بـ «يُسبِّحْنَ» حتى يكون هو عليه السلام مسبِّحاً، أي: مُصلِّياً، وإلا فتسبيحُ الجبال لا دلالةَ له على الصلاة، ومع هذا ففيه حينئذٍ جمعٌ بين معنيين مجازيَّيْنِ، إلا أن يقال به، أو يُجعلَ بمعنى: يُعَظِّمْنَ، ويُجعلُ تعظيمُ كلٍّ محمولاً على ما يناسبه، وبعد اللُّتيَّا والتي لا يخلو عن كَدَرٍ، وارتضى الخفاجيُّ الأولَ[1]، وأراهُ لا يخلو عن كَدَرٍ أيضاً.

وقال الجلبيُّ في ذلك: يجوز أن يقال: تخصيصُ هذين الوقتين بالذكر دلَّ على اختصاصهما بمزيد شَرَفٍ، فيصلحُ ذلك الشرفُ سبباً لتعيينهما للصلاة والعبادة، فإنَّ لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثراً في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات.

وهذا عندي أصفى مما تقدَّم، ويُشعر به ما أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» وابن مردويه عن ابن عباس قال: كنتُ أمرُّ بهذه الآية: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ فما أدري ما هي، حتى حدَّثتني أمُّ هانىءٍ أنَّ رسول الله ﷺ صلَّى يومَ فتح مكة صلاةَ الضحى ثمانِ ركعات، فقال ابن عباس: قد ظننتُ أنَّ لهذه الساعة صلاةً؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[2].

هذا، ولهم في صلاة الضحى كلامٌ طويلٌ، والحقُّ سُنِّيتها، وقد ورد فيها ـ كما قال الشيخُ وليُّ الدين ابن العراقي ـ أحاديث كثيرةٌ صحيحةٌ مشهورةٌ حتى

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٠٣.

(٢) المعجم الأوسط (٤٢٥٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٩: فيه أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف.

قال محمد بن جرير الطبري: إنها بلغتْ مبلغ التواتر. ومن ذلك حديثُ أمِّ هانئ الذي في الصحيحين[١].

وزَعْمُ أنَّ تلك الصلاةَ كانت صلاةَ شكرٍ لذلك الفتح العظيمِ صادفتْ ذلك الوقتَ لا أنها عبادةٌ مخصوصةٌ فيه دون سببٍ، أو أنها كانت قضاءً عمَّا شغل ﷺ تلك الليلة من حِزْبه فيها = خلافُ ظاهرِ الخبر السابق عنها.

وكذا ما رواه أبو داود من طريق كريب عنها أنها قالت: صلَّى عليه الصلاة والسلام سُبْحة الضحى[٢]، ومسلم في «كتاب الطهارة»[٣] من طريق أبي مرَّةَ عنها أيضاً، ففيه: ثم صلَّى ثماني ركعات سُبْحةَ الضحى. وابن عبد البر في «التمهيد»[٤] من طريق عكرمة بن خالد أنها قالت: قَدِمَ رسول الله ﷺ مكةَ فصلَّى ثمانِ ركعات، فقلت ما هذه الصلاة؟ قال: «هذه صلاة الضحى».

واحتجَّ القائلونَ بالنفي بحديث عائشةَ: إنْ كان رسولُ الله ﷺ لَيَدَعُ العمل وهو يحبُّ أن يعملَ به؛ خشيةَ أن يعمل به الناس، فيُفرَضَ عليهم، وما سبَّح رسول الله ﷺ سبحةَ الضُّحى قطُّ، وإني لأُسبِّحها. رواه البخاري ومسلم وأبو داود ومالك[٥].

وحمله القائلون بالإثبات على نفي رؤيتها ذلك؛ لِمَا أنه روى عنها مسلم وأحمد وابن ماجه[٦] أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُصلِّي الضحى أربعاً، ويزيدُ ما شاء الله تعالى.

وقد شهد أيضاً بأنه عليه الصلاة والسلام كان يُصلِّيها ـ على ما قال

---

(١) صحيح البخاري (١١٠٣)، ومسلم (٣٣٦) ١/ ٤٩٧.
(٢) سنن أبي داود (١٢٩٠).
(٣) برقم (٣٣٦): (٧١).
(٤) ٨/ ١٣٦.
(٥) صحيح البخاري (١١٢٨)، وصحيح مسلم (٧١٨)، وسنن أبي داود (١٢٩٣)، والموطأ ١/ ١٥٢. ووقع في الأصل و(م): وأبو مالك، وهو خطأ.
(٦) صحيح مسلم (٧١٩)، وأحمد (٢٤٩٢٤)، وابن ماجه (١٣٨١).

الحاكم - أبو ذرٍّ الغفاري وأبو سعيدٍ وزيد بن أرقم وأبو هريرة وبريدة الأسلمي وأبو الدرداء وعبد الله بن أبي أوفى وعتبان بن مالك وعتبة بن عبد السلمي ونعيم بن همام الغطفاني وأبو أمامة الباهلي وأم هانئ وأم سلمة. ومن القواعد المعروفة أنَّ المثبِتَ مقدَّمٌ على النافي، مع أنَّ روايةَ الإثبات أكثرُ بكثيرٍ من رواية النفي، وتأويلها أهونُ من تأويل تلك.

وذكر الشافعيةُ أنها أفضلُ التطوُّع بعد الرواتب، لكنَّ النوويَّ في «شرح المهذب»[1] قدَّم عليها صلاةَ التراويح، فجعلها في الفضل بين الرواتب والضحى، والمذهبُ عنهم وجوبها عليه ﷺ وأنَّ ذلك من خصوصيَّاته عليه الصلاة والسلام، واحتجَّ له بما أخرجه ابنُ العربيِّ بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب عليَّ النحرُ ولم يُكتَبْ عليكم، وأُمرت بصلاة الضحى ولم تُؤمروا بها» رواه الدارقطني أيضاً[2].

وقال شيخ الحفاظ أبو الفضل ابن حجر[3]: إنه لم يثبتْ ذلك في خبرٍ صحيح. وفي الأخبار ما يُعكِّر على القول به.

وذكر أنَّ أقلَّها ركعتان؛ لخبر البخاريِّ عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام أوصاه بهما وأن لا يدعهما[4]، وأدنى كمالها أربعٌ؛ لما صحَّ: كان ﷺ يُصلِّي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء[5]. فستٌّ فثمانٍ، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة؛ لخبرٍ ضعيف[6] يُعمل به في مثل ذلك.

وذهب الكثير إلى أنَّ الأكثرَ ثمان، وذكروا أنها أفضل من اثنتي عشرة، والعملُ

(١) ٣/ ٥٢٥ وما بعده.

(٢) ٤/ ٢٨٢، وهو عند أحمد (٢٩١٧) وفي إسناده جابر الجعفي، وهو ضعيف.

(٣) فتح الباري ٣/ ٥٦.

(٤) صحيح البخاري (١١٧٨)، وهو عند أحمد (٧٥١٢)، ومسلم (٧٢١).

(٥) هو حديث السيدة عائشة السالف قبل قليل.

(٦) وهو ما أخرجه الترمذي (٤٧٣) عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الضحى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصراً من ذهب في الجنة» وهو حديث غريب.

القليل قد يفضُلُ الكثيرَ، فما يقتضيه «أَجْرُكِ على قَدْر نَصَبِكِ»[(١)] أغلبيٌّ[(٢)].

وصرَّح ابنُ حجرٍ الهيتمي ـ عليه الرحمة ـ بالمغايرة بين صلاة الضحى وصلاة الإشراق، قال: ومما لا يُسَنُّ جماعةً ركعتان عَقِبَ الإشراق بعد خروج وقت الكراهة، وهي غيرُ الضحى[(٣)]. وتقدَّم لك ما يفيدُ اتحادهما، ويدلُّ عليه غيرُ ذلك من الأخبار، وصحَّ إطلاقُ صلاة الأوابين على صلاة الضحى، كإطلاقها على الصلاة المعروفة بعد المغرب. هذا، وتمام الكلام فيها في كتب الفقه والحديث.

﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطفٌ على «الجبال» على ما هو الظاهر.

﴿مَحْشُورَةً﴾ حالٌ من «الطير» والعاملُ «سخَّرنا»، أي: وسخَّرنا الطيرَ حالَ كونها محشورة، عن ابن عباس: كان عليه السلام إذا سبَّح جاوبته الجبالُ بالتسبيح، واجتمعتْ إليه الطيرُ فسبَّحتْ، وذلك حَشْرُها. ولم يُؤْتَ بالحال فعلاً مضارعاً كالحال السابقة؛ ليدلَّ على الحشر الدفعي الذي هو أدلُّ على القدرة؛ وذلك بتوسُّطِ مقابلته للفعل، أو لأنَّ الدفعية هي الأصلُ عند عدم القرينة على خلافها.

وقرأ ابن أبي عبلة والجحدري: «والطيرُ محشورةٌ»[(٤)] برفعهما مبتدأً وخبراً، ولعلَّ الجملةَ على ذلك حالٌ من ضمير «يُسبِّحنَ».

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، مصرِّحٌ بما فُهِم منه إجمالاً من تسبيح الطير، واللام تعليليةٌ، والضميرُ لداود، أي: كلٌّ واحدٍ من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجَّاعٌ إلى التسبيح، وَوَضْعُ الأوابِ موضعَ المسبِّح؛ إما لأنها كانت تُرجعُ التسبيح، والمُرجِعُ رجَّاعٌ؛ لأنه يَرجعُ إلى فعله رجوعاً بعد رجوع، وإما لأنَّ الأوَّابَ هو التوَّابُ الكثيرُ الرجوع إلى الله تعالى، كما هو المشهور، ومَنْ دأبه إكثارُ الذكر وإدامةُ التسبيح والتقديس.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤١٥٩)، والبخاري (١٧٨٧)، ومسلم (١٢١١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) تحفة المحتاج ٢/ ٢٣١-٢٣٣ بهامش حواشي الشرواني وابن قاسم العبادي.

(٣) تحفة المحتاج ٢/ ٢٣٧-٢٣٨.

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٧، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٠.

وقيل: يجوزُ أن يكونَ المرادُ: كلٌّ من الطير، فالجملةُ للتصريح بما فُهم. وكذا يجوزُ أن يُرادَ: كلٌّ من داود عليه السلام ومن الجبال والطير، والضميرُ لله تعالى، أي: كلٌّ من داود والجبال والطير لله تعالى أوَّابٌ، أي: مُسبِّحٌ مرجعٌ للتسبيح.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوَّيناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ومزيد النعمة، واقتصر بعضهم على الهيبة، والسُّديُّ على الجنود، وروى عنه ابن جرير والحاكم أنه كان يحرسهُ كلّ يومٍ وليلةٍ أربعةُ آلاف[1].

وحكي أنه كان حول محرابه أربعون ألف مستلئم[2] يحرسونه، وهذا في غاية البعد عادةً، مع عدم احتياج مثله عليه السلام إليه، وكذا القول الأول كما لا يخفى على مُنْصِفٍ.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ادَّعى رجلٌ من بني إسرائيلَ عند داودَ عليه السلام رجلاً ببقرةٍ[3]، فجحده، فسُئِلَ البيِّنة، فلم تكنْ بيِّنة، فقال لهما عليه السلام: قوما حتى أنظرَ في أمركما. فقاما من عنده، فأُتيَ داودُ في منامه، فقيل له: اقتل الرجلَ المدَّعى عليه، فقال: إنَّ هذه رؤيا ولستُ أعجل. فأُتي الليلةَ الثانية فقيل له: اقتل الرجل، فلم يفعل، ثم أُتيَ الليلةَ الثالثة فقيل له: اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من الله تعالى، فأرسل عليه السلام إلى الرجل فقال: إنَّ الله تعالى أمرني أن أقتلك فقال: تقتلني بغير بيِّنة ولا ثبت؟ قال: نعم، والله لأُنفذنَّ أمرَ الله عزَّ وجلَّ فيكَ. فقال له الرجل: لا تعجلْ عليَّ حتى أخبرك: إني والله ما أُخذتُ بهذا الذنب، ولكنني كنتُ اغتلتُ والدَ هذا فقتلته، فبذلك أُخذتُ، فأمر به داود عليه السلام فقتل، فعظُمتْ بذلك هيبته في بني إسرائيل، وشُدَّ به مُلكه.

---

(١) ابن جرير ٢٠/٤٦، والحاكم ٢/٥٨٦.

(٢) أي: من لأمة الحرب، وهي الدرع. القاموس (لأم). والمعنى عليه: يلبسون الدروع.

(٣) كذا وقعت العبارة في الأصل و(م)، والذي في المصادر: عن ابن عباس أن رجلاً من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود، فقال: إن هذا غصبني بقراً لي. . ، ينظر تفسير الطبري ٢٠/٤٧، وتفسير البغوي ٤/٥٠، وتاريخ مدينة دمشق ١٧/١٠٢.

وقرأ ابن أبي عبلة بشدِّ الدال(١).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوَّة وكمال العلم وإتقان العمل، وقيل: الزبور وعلم الشرائع. وقيل: كلُّ كلامٍ وافقَ الحكمةَ فهو حكمة.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: فَصْلَ الخصام، بتمييز الحقِّ عن الباطل، فالفصلُ بمعناه المصدريّ، والخطابُ الخصام؛ لاشتماله عليه، أو لأنه أحدُ أنواعه خُصَّ به؛ لأنه المحتاجُ للفصل.

أو: الكلام الذي يفصلُ بين الصحيح والفاسد، والحقّ والباطل، والصواب والخطأ، وهو كلامه عليه السلام في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات، فالخطابُ الكلامُ المخاطَبُ به، والفصلُ مصدرٌ بمعنى اسم الفاعل.

أو: الكلام الذي يُنبِّهُ المخاطَبَ على المقصود من غير التباس، يُراعَى فيه مظانُّ الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والحذف والتكرار ونحوها، فالخطابُ بمعنى الكلام المخاطَب به أيضاً، والفصلُ مصدرٌ إما بمعنى اسم الفاعل، أي: الفاصل المميز للمقصود عن غيره، أو بمعنى اسم المفعول، أي: المقصود، أي: الذي فُصِلَ من بين أفراد الكلام بتلخيصه ومراعاة ما سمعتَ فيه، أو الذي فُصِلَ بعضُهُ عن بعضٍ ولم يُجْعل ملبَّساً مختلطاً.

وجوِّزَ أن يُرادَ بـ «فَصْل الخطاب»: الخطابُ القَصْدُ الذي ليس فيه اختصارٌ مخلٌّ ولا إشباعٌ مملٌّ، كما جاء في وَصْفِ كلام نبيِّنا ﷺ: «لا نَزْرٌ ولا هَذَر»(٢) فالخطابُ بمعنى الكلام المخاطب به كما سلف، والفصل إما بمعنى الفاصل؛ لأنَّ القصدَ - أي: المتوسط - فاصلٌ بين الطرفين، وهما هنا المختصَرُ المخلُّ، والمُطْنِبُ المملُّ، أو لأنَّ الفَصْلَ والتمييزَ بين المقصود وغيره أظهرُ تحقُّقاً في الكلام القصد،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٠.

(٢) أخرجه الحاكم ٣/ ٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٣١٧ ضمن حديث طويل عن هشام بن حبيش بن خويلد ﷺ. والنَّزْر: القليل. والهَذَر: الهذيان، والمعنى: ليس بقليل فيدلَّ على عِيّ، ولا كثير فاسد. النهاية (نزر) و(هذر).

لما في أحد الطرفين من الإخلال وفي الطرف الآخر من الإملال المفضي إلى إهمال بعض المقصود، وإما بمعنى المفصول؛ لأنَّ الكلامَ المذكورَ مفصولٌ مميَّزٌ عند السامع على المخلِّ والمملِّ بسلامته عن الإخلال والإملال.

والإضافةُ على الوجه الأول من إضافة المصدر إلى مفعوله، وعلى ما عداه من إضافة الصِّفة لموصوفها، وما روي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والشعبيِّ، وحكاهُ الطبرسيُّ(١) عن الأكثرين من أنَّ فَصْلَ الخطاب هو قوله: البيِّنةُ على المدَّعي واليمينُ على المدَّعى عليه، فقيل: هو داخلٌ في فَصْلِ الخطاب على الوجه الثاني، فإنَّ فيه الفصلَ بين المدَّعي والمدَّعى عليه، وهو من الفصل بين الحقِّ والباطل، وجاء في بعض الروايات: هو إيجابُ البيِّنة على المدَّعي واليمين على المدَّعى عليه. فلعلَّه أُريد أنَّ فَصْلَ الخطاب على الوجه الأول ـ أعني فصل الخصام ـ كان بذاك، وجَعْلُهُ نفسه على سبيل المبالغة.

وما روي عن ابن عباس ومجاهد والسدي من أنه القضاء بين الناس بالحقِّ والإصابة والفهم، فهو ليس شيئاً وراءَ ما ذكر أولاً.

وأخرج ابن جرير(٢) عن الشعبيِّ، وابن أبي حاتم والديلمي عن أبي موسى الأشعري: أنَّ فَصْلَ الخطاب الذي أُوتيه عليه السلام هو: أمَّا بَعْدُ، وذكر أبو موسى أنه عليه السلام أول من قال ذلك(٣)، فقيل: هو داخلٌ في فصل الخطاب، وليس فَصْلُ الخطاب منحصراً فيه؛ لأنه يفصلُ المقصودَ عمَّا سيقَ مقدِّمةً له من الحمد والصلاة أو من ذكر الله عزَّ وجلَّ مطلقاً، وظاهره اعتبار فصل الخطاب بمعنى الكلام الذي يُنبِّهُ المخاطَبَ على المقصود، إلى آخر ما مرَّ. ويُوهم صنيعُ بعضهم دخوله فيه باعتبار المعنى الثاني لفصل الخطاب، ولا يتسنَّى ذلك، وحَمْلُ الخبر على الانحصار مما لا ينبغي؛ إذ ليس في إيتاء هذا اللفظ كثيرُ امتنان.

---

(١) مجمع البيان ٢٣/ ١٠٣.
(٢) في تفسيره ٢٠/ ٥١.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٣٠٠.

ثم الظاهرُ أنَّ المرادَ من: أمَّا بَعْدُ، ما يؤدِّي مؤدَّاهُ من الألفاظ، لا نفسُ هذا اللفظ؛ لأنه لفظٌ عربيٌّ، وداود لم يكن من العرب ولا نبيِّهم، بل ولا بينهم، فالظاهرُ أنه لم يكنْ يتكلَّمُ بالعربية. والذي يترجَّحُ عندي أنَّ المرادَ بفَصْلِ الخطاب فَصْلُ الخصام، وهو يتوقَّفُ على مزيد عِلْمٍ وفَهْمٍ وتفهيم وغير ذلك، فإيتاؤه يتضمَّنُ إيتاء جميع ما يتوقَّف هو عليه، وفيه من الامتنان ما فيه، ويلائمه أتمّ ملاءمة.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَنٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ استفهامٌ يُراد منه التعجُّب والتشويقُ إلى استماع ما في حَيِّزِهِ لإيذانه بأنه من الأنباء البديعة التي حقُّها أن تشيعَ فيما بين كلِّ حاضرٍ وبادي.

والجملةُ قيل: عطفٌ على «إنَّا سخَّرنا» من قبيل عَطْفِ القصة على القصة، وقيل: على «اذكر».

والخَصْمُ في الأصل مصدرٌ لِخَصَمَهُ بمعنى خاصَمهُ أو غَلَبهُ، ويُراد منه المخاصِمُ، ويُستعمل للمفرد والمذكَّر وفروعهما؛ وجاء للجمع هنا على ما قال جمعٌ لظاهر ضمائره بعد، وربما ثُنِّيَ وجُمِعَ على خُصوم وأخصام، وأصلُ المخاصمة ـ على ما قال الراغب ـ أن يتعلَّقَ كلُّ واحدٍ بخُصْمِ الآخر، أي: بجانبه، أو أن يَجذبَ كلُّ واحدٍ خُصْم الجُوالق من جانب[1].

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ أي: عَلَوا سُوْرَهُ ونزلوا إليه، فـ: تفعَّل للعلوّ على أصله، نحو تَسَنَّم الجملَ، أي: علا سنامه، وتذرَّى الجبلَ: علا ذروته، والسُّورُ: الجدارُ المحيطُ المرتفع، والمحرابُ: الغُرْفةُ، وهي العِلِّيَّةُ، ومحرابُ المسجد مأخوذٌ منه؛ لانفصاله عمَّا عداه، أو لِشَرفهِ المنزَّلِ منزلةَ عُلوِّه. قاله الخفاجيُّ[2].

وقال الراغب: محرابُ المسجد قيل: سُمِّي بذلك؛ لأنه موضعُ محاربة الشيطان والهوى، وقيل: لكون حقِّ الإنسان فيه أن يكونَ حَريباً من أشغال الدنيا ومن تَوزُّع الخاطر، وقيل: الأصل فيه أنَّ محرابَ البيت صَدْرُ المجلس، ثم

(١) مفردات ألفاظ القرآن (خصم)، والجوالق: وعاء. القاموس (جلق).
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣٠٤.

لمَّا اتُّخذتِ المساجدُ سُمِّيَ صَدْرُهُ به، وقيل: بل المحرابُ أصله في المسجد، وهو اسمٌ خُصَّ به صَدْرُ المجلس، فسُمِّيَ صَدْرُ البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد. وكأنَّ هذا أصحّ[1]. انتهى.

وصرَّح الجلالُ السيوطيُّ أنَّ المحاريبَ التي في المساجد بهيئتها المعروفة اليوم لم تكن في عهد النبيِّ ﷺ، وله رسالةٌ في تحقيق ذلك[2].

و«إذ» متعلِّقةٌ بمحذوفٍ مضافٍ إلى الخصم، أي: نبأُ تحاكُمِ الخَصْم إذ تسوَّروا، أو بـ «نبأ»، على أنَّ المرادَ به الواقع في عهد داود عليه السلام، وإسنادُ الإتيان إليه على حَذْفِ مضافٍ، أي: قصةُ نبأِ الخصم، وجُوِّزَ تعلُّقها به بلا حَذْفٍ على جَعْل إسناد الإتيان إليه مجازيّاً، أو بالخصم، وهو في الأصل مصدرٌ، والظرفُ قنوعٌ يكفيه رائحةُ الفعل، وزعم الحوفي تعلُّقها بـ «أتى» ولا يكاد يصحُّ؛ لأنَّ إتيانَ نبأ الخصم لم يكن وقتَ تسوُّرهم المحراب.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ «إذ» هذه بدلٌ من «إذ» الأولى بدلَ كلٍّ من كلّ، بأن يُجْعَلَ زمانُ التسوُّر وزمانُ الدخول ـ لقربهما ـ بمنزلة المتَّحِدَين، أو بدلَ اشتمالٍ بأن يُعتبَر الامتدادُ، أو ظرفٌ لـ «تسوَّروا»، ويعتبر امتداد وقته، وإلا فالتسوُّرُ ليس في وقت الدخول، ويجوزُ أن يُرادَ بالدخول إرادته، وفيه تكلُّفٌ؛ لأنه مع كونه مجازاً لا يتفرَّعُ عليه قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ فيحتاجُ إلى تفريعه على التسوُّر، وهو أيضاً كما ترى، وجُوِّزَ تعلُّقه بـ : اذكر مقدَّراً.

والفزع: انقباضٌ ونفارٌ يعتري الإنسانَ من الشيء المخيف. روي أنَّ الله تعالى بعثَ إليه ملكين في صورة إنسانين، قيل: هما جبريلُ ومكائيلُ عليهما السلام، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرسُ، فتسوَّرا عليه المحراب، فلم يشعرْ إلا وهما بين يديه جالسان، وكان عليه السلام ـ كما روي عن ابن عباس ـ جَزَّأ زمانه أربعةَ أجزاءٍ: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه، ويوماً لجميع بني إسرائيل، فيعظهمْ ويُبكِّيهم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (حرب).

(٢) وهي: إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب، وكلامه المذكور أعلاه في مقدمة رسالته.

وسبب الفزع؛ قيل: إنهم نزلوا من فوق الحائط وفي يوم الاحتجاب، والحرسُ حوله لا يتركونَ من يُريدُ الدخولَ عليه، فخاف عليه السلام أن يؤذوه، لاسيَّما على ما حكي أنه كان ليلاً.

وقيل: إنَّ الفزعَ من أجل أنه ظنَّ أنَّ أهل مملكته قد استهانوه حتى ترك بعضُهم الاستئذانَ، فيكونُ في الحقيقة فزعاً من فساد السِّيرة، لا من الداخلين.

وقال أبو الأحوص: فَزِعَ منهم؛ لأنهما دخلا عليه وكلٌّ منهما آخذٌ برأس صاحبه. وقيل: فَزِعَ منهم لِمَا رأى من تسوُّرهم موضعاً مرتفعاً جدّاً لا يمكن أن يُرتقى إليه بعد أشهرٍ مع أعوانٍ وكثرة عدد.

والظاهرُ أنَّ فزعه ليس إلا لتوقُّع الأذى لمخالفة المعتاد، فلما رأوه قد فزع ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ وهو استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ من حكاية فَزَعِهِ عليه السلام، كأنه قيل: فماذا قالوا عند مشاهدتهم فزعه؟ فقيل: قالوا له إزالةً لفزعه: «لا تخف».

﴿خَصْمَانِ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: نحن خصمان، والمراد هنا فوجان لا شخصان متخاصمان، وقد تقدَّم أنَّ الخَصْمَ يشملُ الكثيرَ، فيطابقُ ما مرَّ من جَمْعِ الضمائر، ويؤيِّده على ما قيل قوله سبحانه: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فإنَّ نحوَ هذا أكثرُ استعمالاً في قول الجماعة، وقراءة بعضهم: «بغى بعضُهم على بعض»(١) أظهرُ في التأييد، ولا يمنعُ ذلك كونُ التحاكم إنما وقع بين اثنين؛ لجواز أن يَصْحَبَ كلّا منهما مَنْ يُعاضده، والعُرْفُ يُطلق الخصمَ على المخاصم ومعاضده، وإن لم يخاصِمْ بالفعل.

وجُوِّزَ أن يكون المرادُ اثنين، والضمائرُ المجموعةُ مرادٌ بها التثنية، فيتوافقان، وأُيِّدَ بقوله سبحانه: «إن هذا أخي».

وقيل: يجوزُ أن يُقدَّرَ «خصمان» مبتدأ خبرُهُ محذوفٌ، أي: فينا خصمان. وهو كما ترى. والظاهرُ أنَّ جملة «بغى» إلخ في موضع الصفة لـ «خصمان»، وأنَّ جملةَ: نحن خصمان. . إلخ استئنافٌ في موضع التعليل للنهي، فهي موصولةٌ بـ «لا تخف».

---

(١) البحر ٧/ ٣٩١، والدر المصون ٩/ ٣٦٨.

وجُوِّزَ أن يكونوا قد قالوا: لا تخفْ، وسكتوا حتى سُئلوا: ما أمرُكم؟ فقالوا: خصمان بغى.. إلخ، أي: جارَ بعضُنا على بعضٍ.

واستشكل قولهم هذا على القول بأنهم كانوا ملائكة، بأنه إخبارٌ عن أنفسهم بما لم يقعْ منهم، وهو كَذِبٌ، والملائكة منزَّهون عنه.

وأجيب بأنه إنما يكون كَذِباً لو كانوا قصدوا به الإخبار حقيقة، أما لو كان فرضاً لأمرٍ صوَّروه في أنفسهم لمَّا أتوا على صورة البشر، كما يذكر العالِمُ إذا صوَّرَ مسألةً لأحدٍ، أو كان كنايةً وتعريضاً بما وقع من داود عليه السلام = فلا.

وقرأ أبو يزيد الجراد عن الكسائيِّ: «خِصْمان» بكسر الخاء[1].

﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: ولا تتجاوزه، وقرأ أبو رجاء وابن أبي عبلة وقتادة والحسن وأبو حيوة: «ولا تَشْطُطْ» من شَطَّ ثلاثياً، أي: ولا تَبْعُدْ عن الحقِّ. وقرأ قتادة أيضاً: «تُشِطَّ» مدغماً من أَشَطَّ رباعيّاً، وقرأ زرٌّ: «تُشاطِطْ» بضمِّ التاء وبألفٍ على وزن تُفاعِلْ مفكوكاً[2]، وعنه أيضاً[3]: «تُشَطِّطْ» من شَطَّطَ.

والمراد في الجميع: لا تَجُرْ في الحكومة، وأرادوا بهذا الأمر والنهي إظهار الحرص على ظهور الحقِّ والرضا به، من غير ارتياب بأنه عليه السلام يحكمُ بالحقِّ ولا يجور في الحُكْم، وأحدُ الخصمين قد يقولُ نحو ذلك للإيماء إلى أنه المحقُّ، وقد يقوله اتِّهاماً للحاكم، وفيه حينئذٍ من الفظاظة ما فيه؛ وعلى ما ذكرنا أولاً فيه بعضُ فظاظة، وفي تحمُّلِ داودَ عليه السلام لذلك منهم دلالةٌ على أنه يليقُ بالحاكم تحمُّلُ نحو ذلك من المتخاصِمَين، لاسيما إذا كان ممنْ معه الحقُّ، فحالُ المرء وقتَ التخاصم لا يخفى.

والعَجَبُ من حاكمٍ أو مُحَكَّمٍ أو مَن للخصوم نوعُ رجوعٍ إليه كالمفتي، كيف

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٢. وجاء في (م): الجرار، وفي القراءات الشاذة: الخزان.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٩-١٣٠، والمحتسب ٢/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٢.

(٣) أي: قتادة، كما في القراءات الشاذة ص١٣٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٢، والكلام منه.

لا يقتدي بهذا النبيِّ الأوَّابِ عليه الصلاة والسلام في ذلك، بل يغضَبُ كلَّ الغضب لأدنى كلمةٍ تصدرُ ولو فلتة من أحد الخصمين يتوهَّم منها الحطّ لِقَدْره، ولو فكَّر في نفسه لَعَلِمَ أنه بالنسبة إلى هذا النبي الأوابِ لا يَعْدِلُ ـ والله العظيم ـ مَتْكَ ذباب[١]، اللهم وفّقنا لأحسنِ الأخلاق، واعصمنا من الأغلاط.

﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وسط طريق الحقِّ بزَجْرِ الباغي عمَّا سَلَكَهُ من طريق الجَوْر وإرشاده إلى منهاج العدل.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ إلخ، استئنافٌ لبيان ما فيه الخصومة، والمراد بالأُخوَّة أخوَّةُ الدين، أو: أُخوَّةُ الصداقة والأُلفة، أو: أُخوَّةُ الشِّرْكة والخُلطة؛ لقوله تعالى: «وإن كثيرا من الخلطاء» وكلُّ واحدٍ من هذه الأُخوَّاتِ يُدلي بحقٍّ مانعٍ من الاعتداء والظلم.

وقيل: هي أُخوَّةٌ في النَّسَبِ، وكان المتحاكمان أَخَوَين من بني إسرائيل لأبٍ وأمٍّ، ولا يخفى أنَّ المشهورَ أنهما كانا من الملائكة، بل قيل: لا خلافَ في ذلك.

و«أخي» بيانٌ عند ابن عطية[٢]، وبدلٌ أو خبرٌ لـ «إنَّ» عند الزمخشريِّ[٣]، ولعلَّ المقصودَ بالإفادة على الثاني قوله تعالى: ﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وهي الأنثى من بقر الوَحْشِ ومن الضَّأن والشاء الجبليِّ، وتُستعَارُ للمرأة كالشاة كثيراً نحو قول ابن عون:

أنا أبوهنَّ ثلاثٌ هُنَّهْ
رابعةٌ في البيت صُغْراهُنَّهْ
ونعجتي خَمْساً تُوفِّيهنَّهْ
ألا فتًى سجحٌ يُغذِّيهنَّهْ[٤]

---

(١) مَتْكُ الذباب: أنفه، أو ذَكَره. القاموس المحيط (متك).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٩.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٦٨.

(٤) الأبيات في تفسير القرطبي ١٨/ ١٦٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٨. وقوله: سجح، جاء بدلاً منه في (م): سحج، وفي القرطبي: سمح.

وقول عنترة[١]:

يا شاةَ ما قَنَصٍ لمن حَلَّتْ له حَرُمَتْ عليَّ وليتَها لم تَحْرُمِ

وقول الأعشى[٢]:

فرميتُ غَفْلَةَ عينِهِ عن شاتهِ فأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وطِحَالَها

والظاهرُ إبقاؤها على حقيقتها هنا، ويُراد بها أنثى الضَّأن، وجُوِّزَ إرادةُ الامرأة، وسيأتي إن شاء تعالى ما يتعلَّقُ بذلك.

وقرأ الحسنُ وزيدُ بن عليٍّ: «تَسْعٌ وتَسْعونَ» بفتح التاء فيهما[٣]، وكَثُرَ مجيءُ الفَعْل والفِعْل بمعنًى واحدٍ نحو السَّكْر والسِّكْر، ولا يبعد ذلك في التسع، لاسيَّما وقد جاوَرَ العَشْر. والحسن وابن هرمز: «نِعْجَة» بكَسْر النون[٤]، وهي لغةٌ لبعض بني تميم.

وقرأ ابن مسعود: «ولي نَعجةٌ أنثى»[٥] ووجَّه ذلك الزمخشريُّ[٦] بأنه يقال: امرأةٌ أنثى للحسناء الجميلة، والمعنى وَصْفُها بالعَراقة في لِين الأنوثة وفتورها، وذلك أملحُ لها وأزيدُ في تَكَسُّرها وتَثَنِّيها، ألا ترى إلى وَصْفهم لها بالكَسُول والمِكْسال، وقولِه:

فَتُورُ القيام قَطيعُ الكلام لَغُوب العشاء إذا لم تنمْ[٧]

وقولِ قيس بن الخطيم:

---

(١) ديوانه ص٢٨.

(٢) ديوانه ص٧٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحتسب ٢/ ٤٠٣.

(٤) المحتسب ٢/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٢.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٦٩.

(٧) لم نقف عليه هكذا، ولم يذكر الزمخشري سوى صدره، وقد ورد في بيت امرئ القيس:

فَتور القيام قطيع الكلام تفترُّ عن ذي غروبٍ خَصِرْ

ينظر ديوانه ص ١٥٧.

تنامُ عن كِبْرِ شأنِها فإذا قامَتْ رويداً تكادُ تنغرفُ(١)

وفي الكلام عليه توفيةُ حقِّ القِسْمين، أعني: ما يرجعُ إلى الظالم وما يرجعُ إلى المظلوم، كأنه قيل: إنه مع وفور استغنائه وشِدَّةِ حاجتي ظَلَمني حَقِّي، وهذا ظاهرٌ إذا كانت النعجةُ مستعارةً، وإلا فالمناسبُ تأكيدُ الأنوثة بأنها كاملة فيها، فيكونُ أَدَرَّ وأحلب لما يُطْلَبُ منها، على أنَّ فيه رمزاً إلى ما ورّى عنه.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ مَلِّكنيها، وحقيقته: اجعلني أكفلها كما أَكْفَلُ ما تحتَ يدي، وقال ابن كيسان: اجعلها كِفْلي، أي: نصيبي، وعن ابن عباس وابن مسعود: تحوَّل لي عنها. وهو بيانٌ للمراد، وأَلْصَقُ بوجه الاستعارة.

﴿وَعَزَّنِى﴾ أي: غلبني، وفي المَثَل: من عَزَّ بَزَّ(٢)، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ، وقال الشاعر:

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ تُجاذبهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ(٣)

﴿فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: مخاطبته إياي محاجَّة بأنْ جاء بحِجاج لم أُطِقْ ردَّهُ.

وقال الضحاك: أي: إن تكلَّم كان أفصحَ مني، وإن حاربَ كان أبطشَ مني.

وقال ابن عطية: كان أَوجَهَ مني وأقوى، فإذا خاطبتُهُ كان كلامه أقوى من كلامي، وقوَّته أعظمُ من قوتي(٤).

وقيل: أي: غلبني في مغالبته إياي في الخطبة، على أنَّ الخطابَ من خَطَبْتُ المرأة وخَطَبها هو، فخاطَبَني خطاباً، أي: غالبني في الخطبة، فغلبني حيث زوَّجها دوني، وهو قولُ مَنْ يجعلُ النعجةَ مستعارة.

---

(١) إصلاح المنطق ص٣٨، وأدب الكاتب ص٣٠٧، ولم يذكر الزمخشري سوى عجزه.

(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٣٠٧، وقالت الخنساء في ديوانها ص٨١:

كأن لم يكونوا حِمًى يُتَّقى إذ الناسُ إذ ذاك مَن عَزَّ بَزّا

(٣) نسب لمجنون ليلى، ولنُصيب بن رباح، ولتوبة بن الحُميِّر. ينظر ديوان مجنون ليلى ص٩٠، وشعر نصيب بن رباح ص٧٤، والكامل للمبرد ٢/ ٩٢٩، وشرح ديوان الحماسة ٣/ ١٥١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠.

وتعقَّبه صاحبُ «الكشف» فقال: حَمْلُ الخطاب على المغالبة في خِطبة النساء لا يلائمُ فصاحةَ التنزيل؛ لأنَّ التمثيلَ قاصرٌ عنه لِنبوٍّ قوله: «وليَ نعجةٌ» عن ذلك أشدَّ النَّبْوَةِ، وكذا قوله: «أكفلنيها»، إذ ينبغي على ذلك أن يُخاطَبَ به وليُّ المخطوبة، إلا أن يُجعل الأول مجازاً عما يَؤُولُ إليه الحال ظنًّا، والشرطُ في حسنه تَحقُّقُ الانتهاء كما في: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:٣٦] والثاني مجازٌ عن تَرْكه الخطبة، ولا يخفى ما فيهما من التعقيد، ثم إنه لتصريحه ينافي الغرضَ من التمثيل، وهو التنبيهُ على عِظَمِ ما كان منه عليه السلام، وأنه أمرٌ يستحي من كَشْفه مع الستر عليه والاحتفاظ بحرمته. انتهى فتأمل.

وقرأ أبو حيوة وطلحة: «وعَزَني» بتخفيف الزاي، قال أبو الفتح: حُذفتْ إحدى الزايين تخفيفاً[(١)]، كما حُذفتْ إحدى السِّينَيْنِ في قول أبي زبيد:

أَحَسْنَ بـه فـهـنَّ إلـيـه شُـوْسُ[(٢)]

وروي كذلك عن عاصم[(٣)]. وقرأ عبد الله وأبو وائل ومسروق والضحاك والحسن وعبيد بن عمير: «وعازَّني» بألفٍ بعد العين، وتشديد الزاي[(٤)]، أي: وغالبني.

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ، قُصد به المبالغةُ في إنكار فعل ذي النعجات الكثيرة وتهجين طَمَعه، وليس هذا ابتداءً من داود عليه السلام إثرَ فراغ المدَّعي من كلامه، ولا فُتيا بظاهر كلامه قبل ظهور الحال لديه، فقيل: ذلك على تقدير: لقد ظلمكَ إن كان ما تقولُ حقّاً.

وقيل: ثَمَّ كلامٌ محذوفٌ، أي: فأقرَّ المدَّعى عليه، فقال: «لقد ظلمك» إلخ، ولم يُحْكَ في القرآن اعترافُ المدَّعى عليه؛ لأنه معلومٌ من الشرائع كلِّها أنه لا يحكمُ

---

(١) المحتسب ٢/ ٤٠٣، والقراءات الشاذة ص١٣٠.

(٢) وصدره: خلا أن العتاق من المطايا، وهو في الخصائص ٢/ ٤٣٨، ورسالة الصاهل والشاحج ص٦٤٥.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٩٢.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٢.

الحاكمُ إلا بعد إجابة المدَّعى عليه، وجاء في روايةٍ أنه عليه السلام لمَّا سَمِعَ كلامَ الشاكي قال للآخر: ما تقول؟ فأقرَّ، فقال له: لترجعنَّ إلى الحقِّ أو لأكسرنَّ الذي فيه عيناك، وقال للثاني: «لقد ظلمك» إلخ. فتبسَّما عند ذلك وذهبا ولم يَرَهما لحينه. وقيل: ذهبا نحو السماء بمرأى منه.

وقال الحَليمي: إنه عليه السلام رأى في المدَّعي مخايلَ الضَّعف والهضيمة، فَحَمَلَ أمرَهُ على أنه مظلومٌ كما يقول، فدعاه ذلك إلى أن لا يسألَ المدَّعى عليه، فاستعجلَ بقوله: «لقد ظلمك»[1]. ولا يخفى أنه قولٌ ضعيفٌ ولا يُعوَّلُ عليه؛ لأنَّ مخايلَ الصِّدقِ كثيراً ما تظهرُ على الكاذب، والحيلةُ أكثرُ من أن تُحصى قديماً وحديثاً؛ وفيما وقع من إخوة يوسفَ عليه السلام ولم يكونوا أنبياء على الأصحِّ ما يُزيلُ الاعتمادَ في هذا الباب، وبعضُ الجهلة ذهب إلى نحو هذا، وزعم أنَّ ذَنْبَ داودَ عليه السلام ما كان إلا أنه صَدَّقَ أحدهما على الآخر، وظَلَمَهُ قبل مسألته.

والسؤالُ مصدرٌ مضافٌ إلى مفعوله، وتعديتُهُ إلى مفعولٍ آخر بـ «إلى» لتضمُّنه معنى الإضافة، كأنه قيل: لقد ظلمك بإضافة نعجتكَ إلى نعاجه على وجهِ السؤال والطَّلب، أو: لقد ظلمكَ بسؤال نعجتكَ مضافةً إلى نعاجه.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي: الشُّركاء الذين خَلَطُوا أموالهم، الواحد: خَلِيطٌ، وهي الخُلْطةُ، وقد غلبتْ في الماشية، وفي حُكْمها عند الفقهاء كلامٌ ذَكَرَ بعضاً منه الزمخشريُّ[2] ﴿لَيَبْغِى﴾ ليتعدَّى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ غيرَ مراعٍ حقَّ الشِّرْكة والصُّحبة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان.

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: وهم قليلٌ جدّاً، فـ «قليلٌ» خبرٌ مقدَّمٌ، و«هم» مبتدأٌ، و«ما» زائدة، وقد جاءت المبالغةُ في القِلَّة من التنكير وزيادة «ما» الإبهامية، ويتضمَّنُ ذلك التعجُّبَ، فإنَّ الشيءَ إذا بُولِغَ فيه كان مظنَّةً للتعجُّب منه، فكأنه قيل: ما أقلَّهم، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ.

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٢/ ٥٥٢.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٧١.

وقرئ: «لَيَبغيَ» بفتح الياء[1] على تقدير حَذْف النون الخفيفة، وأصله: لَيَبْغِيَنْ، كما قال طَرَفَةُ بن العبد:

اضْرِبَ عنكَ الهمومَ طارِقَها ضَرْبَكَ بالسَّيفِ قَوْنَسَ الفرسِ[2]

يريد: اضربَنْ، ويكون على تقدير قَسَمٍ محذوفٍ، وذلك القَسَمُ وجوابه خبرٌ لـ «إنَّ»، وعلى قراءة الجمهور: اللامُ هي الواقعةُ في خبر «إنَّ»، وجملة «يبغي» إلخ هو الخبر. وقرئ: «لَيَبغِ» بحذف الياء للتخفيف[3]، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤] وقوله:

محمدُ تَفْدِ نفسَكَ كلُّ نفسٍ إذا ما خِفْتَ من أمرٍ تَبالا[4]

والظاهر أنَّ قوله تعالى: (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ) إلخ، من كلام داود عليه السلام تتمَّةً لما ذكره أولاً، وقد نظر فيه ما كان عليه التداعي كما هو ظاهرُ التعبير بالخلطاء، فإنه غالبٌ في الشُّركاء الذين خَلَطوا أموالهم في الماشية، وجُعِلَ على وجه استعارة النَّعجة ابتداءً تمثيلٌ لم يُنظرْ فيه إلى ما كان عليه التداعي، كأنه قيل: وإنَّ البغيَ أمرٌ يوجدُ فيما بين المتلابسين، وخُصَّ الخُلَطاء لكثرته فيما بينهم، فلا عَجَبَ مما شَجَرَ بينكم، ويترتَّبُ عليه قَصْدُ الموعظة الحَسَنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الذين حُكِم لهم بالقِلَّة، وأن يُكرِّه إليهم الظُّلْمَ والاعتداء الذي عليه أكثرهم، مع التأسُّفِ على حالهم، وأنْ يُسلى المظلوم عمَّا جرى عليه من خَليطه، وأنَّ له في أكثر الخُلَطاء أسوة، أو كأنه قيل: إنَّ هذا الأمرَ الذي جرى بينكما أيها الخليطان كثيراً ما يجري بين الخلطاء، فيُنْظَرُ فيه إلى خصوص حالهما، قال في «الكشف»: والمحمل الأظهر هذا، وعلى التقديرين هو تذييلٌ يترتَّبُ عليه ما ذكر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٩٣.

(٢) البيت في العقد الفريد ٥/ ٣٥٦، ورسالة الصاهل والشاحج ص٤٦١. والقونس: عظم ناتئ بين أذني الفرس. القاموس المحيط (قنس).

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٩٣.

(٤) البيت في المفصل ٩/ ٢٤، والخزانة ٩/ ١١ دون نسبة.

ثم قال: ولعلَّ الأظهرَ حَمْلُ الخلطاء على المتعارفين والمتضادّين وأضرابهم ممن بينهم ملابسةٌ شديدةٌ وامتزاجٌ، على نحو:

إنَّ الخليطَ أجَدُّوا البينَ فانجردوا[1]

والغَلَبةُ في الشركاء الذين خَلَطوا أموالهم في عُرْف الفقهاء، فَذِكْرُ الخُلَطاء لا ينافي ذِكْرَ الحلائل؛ إذ لم تردِ الخُلْطة. اهـ.

وأنت خبيرٌ بأنَّ ذلك وإن لم ينافِ ذِكْرَ الحلائل، لكنَّ أولويةَ عدم إرادة الحلائل وإبقاء النَّعجة على معناها الحقيقيِّ، مما لا ينبغي أن ينتطحَ فيه كبشان.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ الظَّنُّ مستعارٌ للعلم الاستدلالي؛ لما بينهما من المشابهة الظاهرة، وفي «البحر»[2]: لمَّا كان الظَّنُّ الغالبُ يقاربُ العلم استعير له، فالمعنى: وعَلِمَ داود وأيقنَ بما جرى في مجلس الحكومة أنَّ الله تعالى ابتلاه.

وقيل: لمَّا قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، ثم صَعِدا إلى السماء حِيالَ وجهه، فعلم بذلك أنه تعالى ابتلاه.

وجُوِّز إبقاءُ الظَّنِّ على حقيقته، وأنكر ابنُ عطية مجيءَ الظَّنِّ بمعنى[3] العلم اليقيني، وقال: لسنا نجدهُ في كلام العرب، وإنما هو توقيفٌ بين معتقِدَين غَلَبَ أحدهما على الآخر، وتُوقعه العربُ على العلم الذي ليس بواسطة الحواسِّ، فإنه اليقينُ التامُّ، ولكنْ يخلطُ الناسُ في هذا ويقولون: ظَنَّ بمعنى أيقنَ. إلى آخر ما أطال، ويُفهَمُ منه أنَّ إطلاقَ الظَّنِّ على العلم الاستدلالي حقيقةٌ، والمشهورُ أنه مجاز، وظاهرُ ما بَعْدُ أنه هنا بمعنى العلم.

و«أنما» المفتوحةُ ـ على ما حقَّق بعضُ الأجلة ـ لا تدلُّ على الحَصْر كالمكسورة، ومَنْ قال بإفادتها إياه حَمْلاً على المكسورة ـ كالزمخشري[4] ـ لم يَدَّعِ

---

(١) سلف ١٨/ ٣٩٣.

(٢) ٧/ ٣٩٣.

(٣) في الأصل و(م): بعد، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠-٥٠١، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٣، وعنه نقل المصنف منه.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٧١.

الاطّرد، فليس المقصودُ هاهنا قَصْرَ الفتنة، عليه عليه السلام؛ لأنه يقتضي انفصالَ الضمير، ولا قَصْرَ ما فُعِلَ به على الفعل؛ لأنَّ كلَّ فِعلٍ ينحلُّ إلى عامٍّ وخاصٍّ، فمعنى ضربته: فعلتُ ضَرْبه، على أنَّ المعنى: ما فعلنا به إلا الفتنة كما قال أبو السعود[1]؛ لأنه على ما قيل تعسُّفٌ وإلغاز، ومَنْ يدَّعي الاطِّراد يلتزمُ الثاني من القَصْرَين المنفيين، ويمنعُ كونَ ما ذُكر تعسُّفاً وإلغازاً.

وقرأ عمر بن الخطاب وأبو رجاء والحسن بخلافٍ عنه: «فتَّنّاه» بتشديد التاء والنون مبالغة[2]، والضحاك: «أفتنَّاه»[3] كقوله على ما نقله الجوهريُّ عن أبي عبيدة:

لئن فَتَنَتْني لَهْيَ بالأمسِ أَفْتَنَتْ ... سعيداً فأمسى قد غوى كلّ مُسلِمِ[4]

وقتادة وأبو عمرو في رواية: «أنما فَتَنَاهُ» بضمير التثنية[5]، وهو راجعٌ إلى الخصمين.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ إثر ما عَلِمَ أنَّ ما صَدَرَ عنه ذنبٌ ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجداً، على أنَّ الركوعَ مجازٌ عن السجود؛ لأنه لإفضائه إليه جُعل كالسبب، ثم تُجوِّزَ به عنه، أو هو استعارةٌ لمشابهته له في الانحناء والخضوع، والعربُ تقول: نخلةٌ راكعةٌ، ونخلةٌ ساجدةٌ، وقال الشاعر:

فَخَرَّ على وجهه راكعاً ... وتابَ إلى الله من كلِّ ذنب[6]

وقيل: أي: خَرَّ للسجود راكعاً، أي: مُصلِّياً، على أنَّ الركوعَ بمعنى الصلاة؛ لاشتهار التجوُّز به عنها. وتقدير متعلّقٍ لـ «خَرَّ» يدلُّ عليه غلبةُ فحواه؛

---

(١) في إرشاد العقل السليم ٧/ ٢٢٢.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحتسب ٢/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠١، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠١، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٣.

(٤) الصحاح (فتن)، ونسب البيت لأعشى همدان.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحتسب ٢/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠١.

(٦) البيت في النكت والعيون ٥/ ٨٩، وتفسير القرطبي ١٨/ ١٧٧ دون نسبة.

لأنه بمعنى سَقَطَ على الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].

وقال الحسين بن الفضل: أي: خَرَّ من ركوعه، أي: سَجَدَ بعد أن كان راكعاً. وظاهره إبقاءُ الركوع على حقيقته وجَعْلُ «خَرَّ» بمعنى سَجَدَ، والجمهورُ على ما قدَّمنا.

واستشهد به أبو حنيفة رضي الله عنه وأصحابه على أنَّ الركوعَ يقومُ مقامَ السجود في سجدة التلاوة، وهو قول الخطَّابيِّ من الشافعية، ولا فرقَ في ذلك بين الصلاة وخارجها كما في «البزازيَّة» وغيرها.

وفي «الكشف»: قالوا ـ أي: الحنفية ـ: إنَّ القياسَ يقتضي أن يقومَ الركوعُ مقامَ السجود؛ لأنَّ الشارعَ جعله ركوعاً، وتجوَّزَ بأحدهما عن الآخر؛ لقيامه مقامه وإغنائه غناءه. وأيَّدوه بأنَّ السجودَ لم يُؤمَرْ به لعينه، ولهذا لم يُشْرَعْ قربةً مقصودةً، بل للخضوع، وهو حاصلٌ بالركوع. فإن قلت: إنَّ سجدةَ داودَ عليه السلام كانت سجدةَ شكرٍ، والكلامُ في سجدة التلاوة. قلتُ: لا عليَّ في ذلك؛ لأني لم أستدلَّ بفعل داود عليه السلام، بل بجَعْلِ الشارع إياه مغنياً غناءَ السجود، ولأصحابنا ـ يعني الشافعية ـ أن يمنعوا أنَّ علاقةَ المجاز ما ذكروه بل مطلق الميل عن الخضوع المشترك بينهما، أو لأنه مقدّمته، كما قال الحسن: لا يكون ساجداً حتى يركع أو خرَّ مصلِّياً، والمعتبرُ غايةُ الخضوع، وليست في الركوع. اهـ.

ولا يخفى أنَّ المعروفَ من النبيِّ ﷺ السجودُ، ولم نقفْ في خبرٍ على أنه عليه الصلاة والسلام رَكَعَ للتلاوة بدله ولو مرَّةً، وكذا أصحابه رضي الله عنهم، وليس أمرُ القياس المذكور بالقويّ، فالأحوطُ فِعْلُ الوارد لا غير، بل قال بعض الشافعية: إنَّ قولَ الأصحاب: لا يقومُ الركوعُ مقام السجدةِ، ظاهرٌ في جواز الركوع، وهو بعيدٌ، والقياسُ حرمته، وعنى صاحب «الكشف» بما ذكر في السؤال من أنَّ سجدةَ داود عليه السلام كانت سجدة شكرٍ، أنها كانت كذلك من نبيِّنا ﷺ، فقد أخرج النسائيُّ وابن مردويه بسندٍ جيدٍ عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ سجد في «ص»، وقال:

«سَجَدَها داودُ توبةً، ونسجُدُها شكراً»[١] أي: على قَبول توبة داود عليه السلام من خوف الأولى بعَليِّ شأنه، وقد لقي عليه السلام على ذلك من القلق المزعج ما لم يَلْقَهُ غيره كما ستعلمه إن شاء الله تعالى، وآدمُ عليه السلام وإن لقيَ أمراً عظيماً أيضاً، لكنه كان مَشُوباً بالحزن على فراق الجنة، فجُوزيَ لذلك بأمرِ هذه الأمة بمعرفة قَدْره، وأنه أنعمَ عليه نعمةً تستوجب دوامَ الشكر إلى قيام الساعة.

ولقصَّته على ما في بعض الروايات شَبَهٌ لما وَقَعَ لنبيِّنا ﷺ في قصة زينب المقتضي للعَتَبِ عليه بقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ [الأحزاب:٣٧] الآية، فيكونُ ذِكْرُها مُذكِّراً له عليه الصلاة والسلام ما وقع، وما آل الأمرُ إليه مما هو أرفعُ وأجلُّ، فكأنَّ ذلك اقتضى دوامَ الشكر بإظهار السجود له، ولعلَّ ذلك وجهُ تخصيصِ داودَ بذلك مع وقوعِ نظيره لغيره من الأنبياء عليهم السلام. فتأمله، ولا تغفلْ عن كون السورة مكِّيَّةً على الصحيح، وقصة زينب رضي الله عنها مدنيَّة، وينحلُّ الإشكالُ بالتزام كون السجود بعد القصة، فليُنقَّر.

وهي عند الحنفية إحدى سَجَدات التلاوة الواجبة كما ذُكر في الكتب الفقهية، ومَنْ فَسَّرَ «خَرَّ راكعاً» بـ: خرَّ للسجود مصلِّياً، ذهب إلى أنَّ ما وقع من داود عليه السلام صلاةٌ مشتملةٌ على السجود، وكانت للاستغفار، وقد جاء في شريعتنا مشروعيةُ صلاة ركعتين عند التوبة، لكن لم نقفْ في خبرٍ على ما يُشعر بحَمْلِ ما هنا على صلاة داود عليه السلام لذلك، وإنما وقفنا على أنه سَجَدَ.

﴿وَأَنَابَ ۝٢٤﴾ أي: رَجَعَ إلى الله تعالى بالتوبة ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما استَغْفَرَنا منه.

أخرج أحمد وعبد بن حميد عن يونس بن خباب[٢] أنَّ داودَ عليه السلام بكى أربعينَ ليلةً حتى نبتَ العشبُ حوله من دموعه، ثم قال: يا ربِّ قَرِحَ الجبين، وَرَقأ الدمع، وخطيئتي عليَّ كما هي. فنُودي: يا داود، أجائعٌ فَتُطْعَمَ، أم ظمآنُ

---

(١) السنن الكبرى (١٠٣١).

(٢) في الأصل و(م): يونس بن حبان، والمثبت من الدر المنثور ٥/ ٣٠٣، وهو الصواب. وروي الخبر عن مجاهد أيضاً كما سيرد.

فتسقى، أم مظلومٌ فيُنْتَصَرَ لك ؟ فَنَحِبَ نَحْبةً هاجَ ما هنالك من الخُضْرة، فغفر له عند ذلك.

وفي رواية عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»(١) عن مجاهدٍ أنه خَرَّ ساجداً أربعينَ ليلةً حتى نبتَ من دموع عينيه من البقل ما غطَّى رأسه، ثم قال.. إلخ.

وروي أنه لم يشربْ ماءً إلا وثُلُثاه من دمعه، وجَهَدَ نفسَهُ راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلِك، واشتغلَ بذلك عن الملك حتى وَثَبَ ابنٌ له ـ يقال له: إيشا ـ على مُلْكه، ودعا إلى نفسه، فاجتمعَ إليه أهلُ الزَّيغ من بني إسرائيل، فلما غُفر له حاربه فهزمه.

وأخرج أحمد(٢) عن ثابت أنه عليه السلام اتخذَ سبعَ حشايا، وحشاهنَّ من الرماد حتى أنفذها دموعاً، ولم يشربْ شراباً إلا مَزَجَهُ بدَمْعِ عينيه.

وأخرج(٣) عن وهبٍ أنه اعتزلَ النساء، وبكى حتى رَعِشَ وخدَّدتِ الدموعُ في وجهه.

ولم ينقطعْ خوفُهُ عليه السلام وقلقهُ بعد المغفرة، فقد أخرج أحمد والحكيم الترمذيُّ وابن جرير عن عطاء الخراساني: أنَّ داودَ نَقَشَ خطيئته في كَفِّه لكي لا ينساها، وكان إذا رآها اضطربتْ يداه(٤).

وأخرج أحمد وغيره عن ثابت عن صفوان، وعبد بن حميد من طريق عطاء بن السائب عن أبي عبد الله الجدلي: ما رفع داودُ رأسهُ إلى السماء بعد الخطيئة حتى مات(٥).

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قربة بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ وحُسْنَ مرجعٍ في

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٤ وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/ ٥٥٢، والطبري ٢٠/ ٧٣-٧٤.
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٤.
(٣) أي: أحمد، كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٤.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٦٩، والدر المنثور ٥/ ٣٠٤.
(٥) الدر المنثور ٥/ ٣٠٣.

الجنة، وأخرج عبد بن حميد(١) عن عبيد بن عمير أنه قال في الآية: يدنو من ربِّه سبحانه حتى يضعَ يده عليه. وهو ـ إن صحَّ ـ من المتشابه.

وأخرج أحمد في «الزهد» والحكيم الترمذيُّ وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار أنه قال فيها: يُقامُ داودُ عليه السلام يومَ القيامة عند ساقِ العرش، ثم يقول الربُّ عزَّ وجلَّ: يا داودُ مجِّدْني اليومَ بذلك الصوت الحَسَنِ الرَّخيم الذي كنتَ تمجِّدني به في الدنيا. فيقول: يا ربِّ كيف وقد سلبته؟ فيقول: إني رادُّهُ عليك اليوم، فيندفعُ بصوتٍ يستغرقُ نعيمَ أهل الجنة(٢).

هذا واختلف في أصلِ قصَّته التي ترتَّب عليها ما ترتَّب، فقيل: إنه عليه السلام رأى امرأةَ رجلٍ يقال له: أُوريا، من مؤمني قومه ـ وفي بعض الآثار أنه وزيره ـ فمالَ قلبُهُ إليها، فسأله أن يُطلِّقها، فاستحى أن يردَّهُ، ففعل، فتزوَّجها وهي أمُّ سليمان، وكان ذلك جائزاً في شريعته معتاداً فيما بين أُمَّته، غير مخلٍّ بالمروءة، حيثُ كان يسألُ بعضُهم بعضاً أن ينزلَ له عن امرأته، فيتزوجها إذا أعجبته، وقد كان الرجلُ من الأنصار في صَدْرِ الإسلام بعد الهجرة إذا كانت له زوجتان نزل عن إحداهما لمن اتَّخذه أخاً له من المهاجرين، لكنه عليه السلام لِعِظَم منزلته وارتفاع مرتبته وعلوِّ شأنه نبِّه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحادُ أمَّته، ويسألَ رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزلَ عنها، فيتزوجها مع كثرة نسائه، بل كان يجبُ عليه أن يُغالبَ ميلَهُ الطبيعي، ويقهر نفسه، ويصبر على ما امتُحنَ به.

وقيل: إنه أضمرَ في نفسه إن قُتل أُوريا تزوَّج بها، وإليه مالَ ابن حجر في «تحفته»(٣).

وقيل: لم يكن أُوريا تزوَّجها، بل كان خَطَبها، ثم خَطَبها هو، فآثره عليه السلام أهلُها، فكان ذَنْبُهُ أن خَطَبَ على خِطْبة أخيه المؤمن. وفي بعض الآثار أنه فعل ذلك ولم يكن عالماً بخِطْبة أخيه، فعُوتِبَ على تَرْك السؤال، هل خَطَبها أحدٌ أم لا؟

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/٣٠٦.

(٢) الدر المنثور ٥/٣٠٥.

(٣) تحفة المحتاج ٢/٢٠٦.

وقيل: إنه كان في شريعته أنَّ الرجلَ إذا ماتَ وخَلَّفَ امرأةً، فأولياؤه أحقُّ بها، إلا أن يرغبوا عن التزوُّج بها، فلما قُتل أُوريا خَطَبَ امرأته ظانّاً أنَّ أولياءه رَغِبوا عنها، فلما سمعوا منعتهم هيبته وجلالته أن يخطبوها.

وقيل: إنه كان في عبادةٍ، فأتاهُ رجلٌ وامرأةٌ متحاكِمَين إليه، فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها، وهو نظرٌ مباحٌ، فمالتْ نفسُهُ ميلاً طبيعيّاً إليها، فشُغِلَ عن بعض نوافله، فعُوتِبَ لذلك.

وقيل: إنه لم يتثبَّتْ في الحكم، وظلم المدَّعى عليه قبل سؤاله لما ناله من الفزع، وكانت الخصومة بين المتخاصمين، وكانا من الإنس على الحقيقة، إما على ظاهر ما قُصَّ، أو على جَعْلِ النعجة فيه كناية عن المرأة. ونُقل هذا عن أبي مسلم.

والمقبولُ من هذه الأقوال ما بَعُدَ من الإخلال بمنصب النبوَّة، وللقُصَّاص كلامٌ مشهورٌ لا يكادُ يصحُّ؛ لما فيه من مزيد الإخلال بمنصبه عليه السلام.

ولذا قال عليٌّ كرّم الله تعالى وجهه ـ على ما في بعض الكتب ـ: من حَدَّثَ بحديثِ داودَ عليه السلام على ما يرويه القُصَّاص جلدتهُ مئةً وستينَ، وذلك حَدُّ الفِريةِ على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، وهذا اجتهادٌ منه كرَّم الله تعالى وجهه، ووجهُ مضاعفة الحدِّ على حَدِّ الأحرار أنهم عليهم السلامُ سادةُ السادة، وهو وجهٌ مستحسنٌ، إلا أنَّ الزينَ العراقيَّ ذكر أنَّ الخبرَ نفسه لم يصحَّ عن الأمير كرَّم الله تعالى وجهه.

وقال أبو حيان: الذي نذهبُ إليه ما دلَّ عليه ظاهرُ الآية من أنَّ المتسوِّرين المحرابَ كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقتِ جلوسه للحكم، وأنه فَزِعَ منهم ظانّاً أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربِّه عزَّ وجلَّ، فلما اتَّضحَ له أنهم جاؤوا في حكومةٍ، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قصَّ الله تعالى، وأنَّ داودَ عليه السلام ظَنَّ دخولَهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة ابتلاءً من الله تعالى له أن يغتالوه، فلم يقعْ ما كان ظَنَّهُ، فاستغفرَ من ذلك الظَّنِّ حيثُ أخلفَ ولم يكن ليقعَ مظنونه، وخرَّ ساجداً ورَجَعَ إلى الله تعالى، وأنه سبحانه

غَفَرَ له ذلك الظَّنّ، فإنه عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ ولم يتقدَّم سوى قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ونعلم قَطْعاً أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام معصومونَ من الخطايا، لا يمكنُ وقوعُهم في شيءٍ منها، ضرورةَ أنَّا لو جوَّزنا عليهم شيئاً من ذلك بَطَلَتِ الشرائعُ ولم يُوثَقْ بشيءٍ مما يذكرون أنه وحيٌ من الله تعالى، فما حكى الله تعالى في كتابه يمرُّ على ما أراده الله تعالى، وما حكى القُصَّاص مما فيه نقصٌ لمنصبِ الرسالة طرحناه، ونحن كما قال الشاعر:

ونؤثِرُ حُكْمَ العقل في كلِّ شُبهةٍ إذا آثر الأخبار جلّاس قُصّاص[1]

انتهى. ويقرب مِن هذا مِن وَجْهٍ ما قيل: إنَّ قوماً قصدوا أن يقتلوهُ عليه السلام، فتسوَّروا المحرابَ فوجدوا عنده أقواماً، فتصنَّعوا بما قصَّ الله تعالى من التحاكم، فَعَلِمَ غَرَضَهمْ فقصد أن ينتقمَ منهم، فظَنَّ أنَّ ذلك ابتلاءٌ من الله تعالى وامتحانٌ له، هل يغضبُ لنفسه أم لا؟ فاستغفرَ ربَّه مما عَزَمَ عليه من الانتقام منهم وتأديبهم لحقِّ نفسه، لعدوله عن العفو الأَلْيق به.

وقيل: الاستغفار كان لمن هَجَمَ عليه، وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ﴾ على معنى: فغفرنا لأجله. وهذا تعسُّفٌ وإن وقع في بعض كتب الكلام.

وعندي أنَّ تَرْكَ الأخبار بالكلية في القصة مما لا يكادُ يقبله المنصف، نعم لا يُقبلُ منها ما فيه إخلالٌ بمنصب النبوَّة، ولا يقبل تأويلاً يندفع معه ذلك، ولا بدَّ من القول بأنه لم يكن منه عليه السلام إلا تركُ ما هو الأَولى بعليِّ شأنه والاستغفار منه، وهو لا يُخِلُّ بالعصمة.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إما حكاية لما خُوطب به عليه السلام مبيِّنة لِزُلْفاه عنده عزَّ وجلَّ، وإما مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ معطوفٍ على «غفرنا»، أو حالٌ من فاعله، أي: وقلنا له، أو قائلينَ له: يا داودُ إنَّا جعلناك خليفةً في الأرض، أي: استخلفناك على الملك فيها والحُكْم فيما بين أهلها، أو: جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحقِّ، وهو على الأول مثلُ: فلانٌ خليفةُ السلطان، إذا

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٩٣.

كان منصوباً من قِبَله لتنفيذ ما يريده، وعلى الثاني من قبيل: هذا الولدُ خليفةٌ عن أبيه، أي: سادٌّ مَسَدَّهُ قائمٌ بما كان يقومُ به من غير اعتبارٍ لحياةٍ وموتٍ وغيرهما، والأول أظهرُ، والمِنَّةُ به أعظمُ، فهو عليه السلام خليفةُ الله تعالى بالمعنى الذي سمعتَ، قال ابن عطية: ولا يقالُ: خليفة الله تعالى إلا لرسوله، وأما الخلفاءُ فكلُّ واحدٍ منهم خليفةُ مَنْ قبله، وما يجيءُ في الشعر من تسمية أحدهم: خليفة الله، فذلك تجوُّزٌ كما قال قيس الرقيَّات:

خليفةُ الله في بَرِيَّتِهِ ... جَفَّتْ بذاك الأقلامُ والكتب[(١)]

وقالت الصحابة لأبي بكر: خليفة رسول الله، وبذلك كان يُدْعى إلى أن تُوفِّيَ، فلما وليَ عمرُ قالوا: خليفةُ خليفةِ رسول الله، فعُدِلَ عنه اختصاراً إلى: أمير المؤمنين[(٢)].

وذهب الشيخ الأكبر محيي الدين قُدِّسَ سِرُّهُ إلى أنَّ الخليفةَ من الرسل مَنْ فُوِّضَ إليه التشريع. ولعلَّه من جملة اصطلاحاته، ولا مُشاحَّةَ في الاصطلاح.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على احتياج الأرض إلى خليفةٍ من الله عزَّ وجلَّ، وهو قولُ مَنْ أَوْجَبَ على الله تعالى نَصْبَ الإمام؛ لأنه من اللُّطف الواجب عليه سبحانه، والجماعةُ لا يقولون بذلك، والإمامةُ عندهم من الفروع، وإن ذكروها في كتب العقائد، وليس في الآية ما يلزمُ منه ذلك كما لا يخفى، وتحقيقُ المطلب في محلِّه.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي شَرَعَهُ الله تعالى لك، فالحقُّ خلافُ الباطل، و«أل» فيه للعهد، وجُوِّزَ أن يُرادَ به ما هو من أسمائه تعالى، أي: بحكم الحقِّ، أي: الله عزَّ وجلَّ؛ للعلم بأنَّ الذَّواتِ لا يكونُ محكوماً بها.

وتُعقِّبَ بأنَّ مقابلته بالهوى تأبى ذلك، ولعلَّ مَنْ يقولُ به يجعلُ المقابلَ المضافَ المحذوف، والمقابلة باعتبار أنَّ حُكْمَ الله تعالى لا يكونُ إلا بالحقِّ،

---

(١) البيت في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦٥٥، والكامل ٢/ ٨٢٩.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٢.

وفُرِّعَ الأمرُ بالحكم بالحقِّ على ما تقدَّم؛ لأنَّ الاستخلافَ بكلا المعنيين مقتضٍ للحُكْم العدل، لا سيَّما على المعنى الأول؛ لظهور اقتضاء كونه عليه السلام خليفة له تعالى أن لا يخالف حُكْمُهُ حُكْمَ مَن استخلفه، بل يكونُ على وَفْق إرادته ورضاه.

وقيل: المترتِّبُ مُطْلقُ الحُكْم؛ لظهور ترتُّبه على كونه خليفة. وذكر الحقّ؛ لأنَّ به سداده، وقيل: ترتُّب ذلك؛ لأنَّ الخلافةَ نعمةٌ عظيمةٌ، شُكْرها العدل.

وفي «البحر»: أنَّ هذا أمرٌ بالديمومة، وتنبيهٌ لغيره ممَّن وَليَ أمورَ الناس أن يحكمَ بينهم بالحقِّ، وإلا فهو من حيث إنه معصومٌ لا يحكُمُ إلا بالحقِّ[1]. وعلى نحو هذا يُخرَّجُ النهيُ عندي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فإنَّ اتباعَ الهوى مما لا يكادُ يقعُ من المعصوم.

وظاهرُ السياق أنَّ المرادَ: ولا تتبعْ هوى النفس في الحكومات، وعمَّمَ بعضُهم فقال: أي: في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا.

وأُيِّدَ بهذا النهي ما قيل: إنَّ ذنبهُ عليه السلام المبادرةُ إلى تصديق المدَّعي، وتظليمُ الآخر قبل مساءلته، لا الميلُ إلى امرأة أُوريا، فكأنه قيل: ولا تتَّبعِ الهوى في الحكم كما اتَّبعته أولاً. وفيه أنَّ اتِّباعَ الهوى وحُكْمَهُ بغير ما شَرَعَ الله تعالى له غيرُ مناسبٍ لمقامه، لاسيَّما وقد أخبر الله تعالى قبل الإخبار بمسألة المتحاكمين أنه آتاهُ الحُكْمَ وفَصْلَ الخطاب، فليس هذا إلا إرشاداً لما يقتضيه منصبُ الخلافة، وتنبيهاً لمن هو دونه عليه السلام.

وأصل الهوى: مَيْلُ النفس إلى الشهوة، ويقال للنفس المائلة إليها، ويكون بمعنى المهوي كما في قوله:

هوايَ مع الرَّكْبِ اليمانِينَ مُصْعِدٌ ... جَنِيبٌ وجثماني بمكَّةَ مُوثَقُ[2]

وبه فسَّرهُ هنا بعضُهم، فقال: أي: لا تتَّبع ما تهوى الأنفس.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٩٥.

(٢) البيت لجعفر بن علبة الحارثي وهو في الحماسة البصرية ٢/ ١٢٥، ومعاهد التنصيص ١/ ١٢٠، والخزانة ١٠/ ٣٠٧.

﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ بالنَّصْبِ على أنه جوابُ النهي، وقيل: هو مجزومٌ بالعطف على النهي مفتوحٌ لالتقاء الساكنين، أي: فيكون الهوى أو اتِّباعُهُ سبباً لضلالك عن دلائله التي نَصَبها على الحقِّ، وهي أعمُّ من الدلائل العقلية والنقلية، وصدُّ ذلك عن الدلائل إما لعدم فَهْمها أو العمل بموجبها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ تعليلٌ لما قبله ببيان غائلته، وإظهارُ «سبيل الله» في موضع الإضمار لزيادة التقرير، والإيذانِ بكمال شناعة الضَّلال عنه، وخبرُ «إنَّ» إما جملةُ «لهم عذاب» على أنَّ «لهم» خبرٌ مقدَّمٌ و«عذابٌ» مبتدأ، وإما الظرفُ و«عذابٌ» مرتفعٌ على الفاعلية بما فيه من الاستقرار.

وقرأ ابن عباس والحسن بخلافٍ عنهما وأبو حيوة: «يُضِلّون» بضمِّ الياء[(١)]، قال أبو حيان: وهذه القراءةُ أعمُّ؛ لأنه لا يُضِلُّ إلا ضالٌّ في نفسه، وقراءة الجمهور أوضحُ؛ لأنَّ المرادَ بالموصول مَنْ أَضَلَّهمُ اتباعُ الهوى، وهم بعد أنْ أَضَلَّهم صاروا ضالِّين[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ﴾ متعلِّقٌ بالاستقرار، والباءُ سببيةٌ، و«ما» مصدريةٌ، وقوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ مفعول «نسوا» على ما هو الظاهر، أي: ثابتٌ لهم ذلك العذابُ بسبب نسيانهم وعدم ذِكْرهم يومَ الحساب؛ وعليه يكونُ تعليلاً صريحاً لثبوتِ العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعِلِّيَّة ما يستتبعه ويستلزمه، أعني الضلال عن سبيل الله تعالى، فإنه مستلزمٌ لنسيان يوم الحساب بالمرَّةِ، بل هذا فَرْدٌ من أفراده.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة أنَّ الكلامَ من التقديم والتأخير، أي: لهم يومَ الحساب عذابٌ شديدٌ بما نسوا[(٣)]. فيكونُ «يوم الحساب» ظَرْفاً لقوله تعالى: (لَهُمۡ) وجعل النسيان عليه مجازاً عن ضلالهم عن سبيل الله بعلاقة السببية، ومن

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٥.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٩٥.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٧٨.

ضرورته جَعْلُ مفعول النسيان «سبيل الله»، وعليه يكون التعليلُ المصرَّحُ به عينَ التعليل المشعِر به بالذات، غيرَه بالعنوان. فتدبر.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ أي: خَلْقاً باطلاً، فهو منصوبٌ على النيابة عن المفعول المطلق نحو: كُلْ هنيئاً، أي: أكْلاً هنيئاً. والباطلُ: ما لا حِكْمة فيه، وجُوِّزَ كونه حالاً من فاعل «خلقنا» بتقدير مضافٍ، أي: ذوي باطل، والباطلُ: اللعبُ والعَبَثُ، أي: ما خلقنا ذلك مبطلين لاعبين كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦].

وجُوِّزَ كونه حالاً من المفعول أيضاً بنحو هذا التأويل.

وأيَّاما كان، فالكلامُ مستأنَفٌ مقرِّرٌ لما قبله من أمرِ المعاد والحساب، فإنَّ خَلْقَ السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات مشتملاً على الحِكَم الباهرة والأسرار البالغة والفوائد الجمَّة، أقوى دليلٍ على عِظَمِ القُدْرة، وأنه لا يتعاصاها أمرُ المعاد والحساب، فإنَّ خَلْقَ ذلك كذلك مُؤذِنٌ بأنه عزَّ وجلَّ لا يتركُ الناسَ إذا ماتوا سُدًى، بل يُعيدهم ويحاسبهم، ولعلَّه الأولى.

وجُوِّزَ كونُ الجملة في موضع الحال في فاعل: «نسوا» جيءَ بها لتفظيع أمر النسيان، كأنه قيل: بما نسوا يومَ الحساب، مع وجود ما يُؤذِنُ به. وهو كما ترى.

وجُوِّزَ كون «باطلاً» مفعولاً له، ويُفَسَّرُ بخلاف الحقِّ، ويُرادُ به متابعةُ الهوى، كأنه قيل: ما خلقنا هذا العالم للباطل الذي هو متابعةُ الهوى، بل للحقِّ الذي هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدرُّع بالشرع، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. ولا يخفى بُعْدُهُ، وعليه تكون الجملةُ مستأنفةً لتقرير أمرِ النهي عن اتباع الهوى، وقيل: تكونُ عَطْفاً على ما قبلها بحَسَبِ المعنى، كأنه قيل: لا تَتَّبعِ الهوى لأنه يكونُ سبباً لضلالك، ولأنه تعالى لم يخلقِ العالمَ لأجل متابعة الهوى، بل خَلَقَهُ للتوحيد والتمسُّك بالشرعِ، فلا تغفل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما نفي من خَلْقِ ما ذُكر باطلاً ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواۚ﴾ أي: مظنونهم؛ ليصحَّ الحَمْلُ، أو يُقدَّرَ مضافٌ، أي: ظَنُّ ذلك ظَنُّ الذين كفروا، فإنَّ

إنكارهم المعادَ والجزاءَ قولٌ بأنَّ خَلْقَ ما ذُكِرَ خالٍ عن الحكمة، وإنما هو عَبَثٌ، ولـذا قـال سـبـحـانـه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أو فإنَّ إنكارهم ذلك قولٌ بنفي عِظَم القدرة، وهو قولٌ بنفي دليله، وهو خَلْقُ ما ذُكِرَ مشتملاً على الحِكَمِ الباهرة والأسرار، وهذا بناءٌ على الوجه الأول في بيان التقرير، وهو كما ترى.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، والفاءُ لإفادة ترتُّبِ ثبوتِ الويل لهم على ظنِّهم الباطل، كما أنَّ وَضْعَ الموصول موضعَ ضميرهم؛ لإشعار ما في حَيِّزِ الصِّلة بعِلِّيَّةِ كُفْرهم له، ولا تَنافي بينهما؛ لأنَّ ظَنَّهم من باب كُفْرهم، فيتأكَّدُ أَمْرُ التعليل.

و«من» في قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ ابتدائيةٌ أو بيانيةٌ أو تعليليةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] ونظائره، وتفيدُ على هذا عِلِّيَّةَ النار لثبوت الويل لهم صريحاً بعد الإشعار بعِلِّيَّةِ ما يؤدِّي إليها من ظنِّهم وكُفْرهم، أي: فويلٌ لهم بسبب النار المترتِّبةِ على ظَنِّهم وكُفْرهم، قيل: والكلامُ عليه على تقدير مضافٍ، أي: من دخول النار.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «أم» منقطعةٌ وتُقدَّرُ بـ «بل» والهمزة، والهمزةُ لإنكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكَدِه، و«بل» للإضراب الانتقالي من تقرير أمرِ البعث والحساب بما مرَّ من نفي خَلْقِ العالم باطلاً، إلى تقريره وتحقيقه بإنكار التسوية بين الفريقين، أي: بل أَنجعلُ المؤمنينَ المصلحينَ كالكَفَرة المفسدين في الأرض التي جُعِلَتْ مقرّاً لهم كما يقتضيه عدمُ البعث وما يترتَّبُ عليه من الجزاء لاستواء الفريقين في التمتُّع في الحياة الدنيا، بل أكثرُ الكَفَرة أوفرُ حَظّاً منها من أكثر المؤمنين، لكنَّ ذلك الجَعْلَ مُحالٌ مخالفٌ للحكمة، فتعيَّنَ البعثُ والجزاءُ حَتْماً لرفع الأوَّلينَ إلى أعلى عِلِّيين، وردِّ الآخَرين إلى أسفل سافلين.

كذا قالوا، وظاهره أنَّ مُحالية جَعْلِ الفريقين سواءً حِكْمةٌ تقتضي تعيُّنَ المعاد الجسماني، وفيه خفاءٌ، والظاهر أنَّ المعادَ الروحانيَّ يكفي لمقتضى الحِكْمة من إثابة الأولين وتعذيب الآخَرين، فالدليلُ العقليُّ الذي تُشير إليه الآيةُ ظاهرٌ في إثبات

معادٍ، لكن بعد إبطال التناسخ، وهو كافٍ في الرَّدِّ على كَفَرة العرب، فإنهم لا يقولون بمعادٍ بالكلية، ولم يخطرْ ببالهم التناسخُ أصلاً، ولإثبات المعاد الجسمانيِّ طريقٌ آخرُ مشهورٌ بين المتكلِّمين، وجَعْلُ هذا الدليل العقليِّ طريقاً لإثباته يحتاجُ إلى تأمُّلٍ، فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن إثبات ما ذُكِرَ بلزوم المُحال الذي هو التسويةُ بين الفريقين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ما هو أظهرُ منه استحالةً، وهي التسويةُ بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكَفَرة، وحَمْلُ الفجَّار على فَجَرة المؤمنين مما لا يُساعده المقام، ويجوز أن يُرادَ بهذين الفريقين عينُ الأوَّلينِ، ويكونُ التكرير باعتبار وَصْفَين آخرين هما أَدْخَلُ في إنكار التسوية من الوصفين الأولين، وأيًّا ما كان، فليس المرادُ من الجمعين في الموضعين أناساً بأعيانهم، ولذا قال ابن عباس: الآيةُ عامةٌ في جميع المسلمين والكافرين.

وقيل: هي في قومٍ مخصوصين من مشركي قريشٍ قالوا للمؤمنين: إنَّا نُعطَى في الآخرة من الخير ما لا تُعطَون، فنزلت.

وأنت تعلم أنَّ العبرةَ لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس أخرجها ابنُ عساكر(١) أنه قال: «الذين آمنوا»: عليٌّ وحمزةُ وعبيدةُ بن الحارث ﷺ، و«المفسدين في الأرض»: عتبةُ والوليدُ بن عتبة وشيبة، وهم الذين تبارزوا يوم بدر. ولعلَّه أراد أنهم سببُ النزول.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، هو عبارةٌ عن القرآن أو السورة، ويجوز على الثاني تقديره مذكَّراً، أي: هو، أو: هذا، وهو الأولى عند جمعٍ؛ رعايةً للخبر، وتقديرُهُ مؤنَّثاً رعايةً للمرجع، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ صفتهُ.

وقوله سبحانه: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ أي: كثيرُ المنافع الدينية والدنيوية، خبرٌ ثانٍ للمبتدأ، أو صفةُ «كتاب» عند من يُجوِّزُ تأخيرَ الوَصْفِ الصَّريح عن غير الصريح.

---

(١) في تاريخ دمشق ٧/ ١٧٥.

وقرئ: «مباركاً» بالنصب[١] على أنه حالٌ من مفعول «أنزلنا» وهي حالٌ لازمةٌ؛ لأنَّ البركة لا تفارقه. جَعَلَنا الله تعالى في بركاته ونَفَعنا بشريف آياته.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بـ: «أنزلناه»، وجُوِّزَ أن يكونَ متعلِّقاً بمحذوفٍ يدلُّ عليه. وأصله: ليتدبَّروا، بتاء بعد الياء آخرِ الحروف. وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه بهذا الأصل[٢]. أي: أنزلناه ليتفكَّروا في آياته التي من جملتها هذه الآياتُ المعرِبةُ عن أسرار التكوين والتشريع، فيعرفوا ما يَدْبر[٣]، ويَتْبَعُ ظاهرها من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة، وضميرُ الرفع لأُولي الألباب على التنازع وإعمال الثاني، أو للمؤمنين فقط، أو لهم وللمفسدين.

وقرأ أبو جعفر: «لِتَدَبَّروا» بتاء الخطاب وتخفيف الدال[٤]، وجاء كذلك عن عاصمٍ والكسائيِّ بخلافٍ عنهما، والأصل لِتَتَدبَّروا بتاءين، فحذفتْ إحداهما على الخلاف الذي فيها، أهي تاءُ المضارعة أم التاءُ التي تليها، والخطابُ للنبيِّ ﷺ وعلماءِ أمته على التغليب، أي: لِتدَّبَّرَ أنت وعلماء أمتك.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ أي: وليتَّعظْ به ذوو العقول الزاكية الخالصة من الشوائب، أو ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم لِفَرْطِ تمكُّنهم من معرفته، لِمَا نُصب عليه من الدلائل، فإنَّ إرسالَ الرسل وإنزالَ الكتب لبيان ما لا يُعرفُ إلا من جهة الشرع؛ كوجوب الصلوات الخمس والإرشاد على ما يستقلُّ العقلُ بإدراكه، كوجود الصانع القديم جلَّ جلاله وعمَّ نواله.

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ وقرئ: «نَعِمَ» على الأصل[٥]، والمخصوص بالمدح محذوفٌ، أي: نِعْمَ العبدُ هو، أي: سليمان، كما يُنبئُ عنه تأخيرُهُ عن داود، مع كونه مفعولاً صريحاً لـ «وهبنا»، ولأنَّ قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾ - أي:

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٥-٣٩٦.
(٣) بوزن يضرب بمعنى: يَتْبع، من دَبَره: إذا تبعه. حاشية الشهاب ٧/ ٣٠٨.
(٤) النشر ٢/ ٣٦١.
(٥) الكشاف ٣/ ٣٧٣، والبحر ٧/ ٣٩٦.

رَجَّاعٌ إلى الله تعالى بالتوبة كما يُشعر به السياق، أو إلى التسبيح مُرجِّعٌ له، أو إلى مرضاته عزَّ وجلَّ ـ تعليلٌ للمدح، وهو من حاله، لِمَا أنَّ الضميرَ المجرورَ في قوله سبحانه ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ يعودُ إليه عليه السلام قَطْعاً.

و«إذ» منصوبٌ بـ «اذكر»، والمراد من ذِكْرِ الزمان ذِكْرُ ما وقع فيه، أو ظرفٌ لـ «أوَّابٍ» أو لـ «نِعْم» والظرفُ قنوعٌ، لكن يَرِدُ على الوجهين أنَّ التقييدَ يُخِلُّ بكمال المدح، فالأولُ أَولى، وهو كالاستشهاد على أنه أوابٌ، أي: اذكرْ ما صَدَرَ عنه إذ عُرض عليه ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ إلخ، فإنه يشهدُ بذلك، والعَشيُّ ـ على ما قال الراغب ـ من زوال الشمس إلى الصباح[١]، وقال بعضٌ: منه إلى آخر النهار. والظَّرفان متعلِّقان بـ «عُرض»، وقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ نائبُ الفاعل، وتأخيره عنهما لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ من التشويق إلى المؤخَّر.

والصافنُ من الخيل: الذي يرفعُ إحدى يديه أو رجليه، ويقفُ على مقدَّم حافرها، وأنشد الزجاج:

أَلِفَ الصُّفونَ فما يزالُ كأنَّهُ ... مما يقومُ على الثلاثِ كسيرا[٢]

وقال أبو عبيدة: هو الذي يجمعُ يديه ويُسوِّيهما، وأما الذي يقفُ على طَرَفِ الحافر فهو المتخيِّم[٣]. وعن «التهذيب» ومتن اللغة: هو المُخِيْم[٤]، وقال القتبي: الصافنُ: الواقفُ في الخيل وغيرها[٥]، وفي الحديث: «مَنْ سَرَّهُ أن يقومَ الناسُ له صفوناً فليتبوَّأ مقعدهُ من النار»[٦] أي: يُديمون له القيام. حكاه قُطْربٌ، وأنشد للنابغة:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (عشا).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٣٠. وجاء في (م): كثيراً. بدل: كسيرا.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٨٢.

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ٦٠٦.

(٥) غريب القرآن للقتبي ص٣٧٩.

(٦) قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٢: لم أجده هكذا. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٥: هذا حديث موضوع. وأخرج الترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سَرَّه أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوَّأ مقعده من النار».

لـنـا قُـبَّـةٌ مـضـروبـةٌ بـفـنـائـهـا عِتاقُ المَهارى والجياد الصَّوافن[١]

وقال الفراء: رأيتُ العربَ على هذا، وأشعارُهم تدلُّ على أنه القيامُ خاصَّة[٢].

والمشهورُ في الصُّفون ما تقدم، وهو من الصفات المحمودة في الخيل، لا تكادُ تتحقَّقُ إلا في العِرَاب[٣] الخُلَّص.

﴿الْجِيَادُ ۝٣١﴾ جمعُ: جوادٍ، للذكر والأنثى، يقال: جاد الفرسُ: صارَ رائضاً، يجودُ جُودةً بالضَّمِّ، وهو جوادٌ، ويُجمعُ أيضاً على أجوادٍ وأجاويد، وقال بعضهم: هو جَمْعُ: جَوْدٍ، كَثَوبٍ وأثواب، وفُسِّرَ بالذي يُسرعُ في مَشْيه، وقيل: هو الذي يجودُ بالركض، وقيل: وُصِفَتْ بالصُّفون والجودة؛ لبيان جَمْعها بين الوصفين المحمودين واقفةً وجاريةً، أي: إذا وقفتْ كانت ساكنةً مطمئنةً في مواقفها، وإذا جَرَتْ كانت سراعاً خفافاً في جريها، والخيلُ تُمدَحُ بالسُّكون في الموقف، كما تُمدَحُ بالسُّرعة في الجري، ومن ذلك قولُ مسلم بن الوليد:

وإذا احـتـبـى قَـرَبُـوسـهُ بـعِـنـانـه عَلَكَ الشَّكيمَ إلى انصراف الزائر[٤]

وقيل: جمع[٥] جيِّدٍ ـ كَكَيِّسٍ ـ ضِدُّ الرَّديء، ويجمع على جياداتٍ وجَيائد، وضُعِّفَ بأنه لا فائدةَ في ذكره مع «الصافنات» حينئذٍ، وبأنه يفوتُ عليه مَدْحُ الخيل باعتبار حالَيها، وكون الجياد أعمّ، فذِكْرُهُ تعميمٌ بعد تخصيصٍ فيه نظرٌ.

وفي «البحر»: قيل: الجياد: الطوال الأعناق، من الجِيْد، وهو العنق[٦]. وأنا في شكٍّ من ثبوته، قال في «القاموس»: الجِيدُ، بالكَسْر: العُنُقُ، أو مُقَلَّدُهُ، أو مُقَدَّمُهُ،

---

(١) البيت في النكت والعيون ٥/ ٩١، والبحر ٧/ ٣٨٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٥.

(٣) في (م): العرب، وهو تصحيف.

(٤) البيت في دلائل الإعجاز ص٧٥، ومعاهد التنصيص ٢/ ١٣٢ منسوباً ليزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان. والقربوس: حِنوُ السَّرْج، والعنان: سير اللجام الذي تمسك به الدابة، والشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس فيها الفأس.

(٥) قوله: جمع. ليس في (م).

(٦) البحر المحيط ٧/ ٣٨٨.

جمعه: أجيادٌ وجُيودٌ، وبالتَّحريك: طُولُها، أو دِقَّتُها مع طُول، وهو أَجْيَدُ، وهي جَيْداءُ وجيدانةٌ، جمعه جُودٌ(١). وراجعتُ غيرَهُ فلم أجدْ فيه زيادةً على ذلك، فليُنقَّر.

ويمكن أن يقال: إنَّ الجيادَ جمعٌ شاذٌّ لـ: أَجْيَد أو جَيداء أو جَيدانة، أو هو جمعٌ لـ: جَيَد بالتحريك كجَمَل(٢) وجمال، ويُراد بجيدٍ أَجْيَد أو نحوه نظير ما يُراد بالخَلْقِ المخلوق. والله تعالى أعلم.

وأيًّاما كان فالوصفان يُوصَفُ بهما المذكَّرُ والمؤنَّثُ من الخيل، والجمعُ بألفٍ وتاءٍ لا يخصُّ المؤنَّثَ، فلا حاجةَ بعد القول بأنَّ ما عُرِضَ كان مشتملاً على ذكور الخيل وإناثها إلى القول بأنَّ في الصافنات تغليبَ المؤنَّث على المذكَّر، وأنه يجوزُ بِقِلَّةٍ.

وأُريد بالجمع هنا الكثرةُ، فعن الكلبيِّ أنَّ هذه الخيل كانت ألف فرسٍ غزا سليمان عليه السلام دمشقَ ونصيبين فأصابها.

واستشكلتْ هذه الروايةُ بأنَّ الغنائمَ لم تَحِلَّ لغير نبيِّنا ﷺ كما ورد في الحديث الصحيح(٣).

وأجيب بأنه يحتملُ أن تكونَ فَيْئاً لا غنيمة.

وعن مقاتلٍ أنها ألفُ فرسٍ وَرِثَها من أبيه داود، وكان عليه السلام قد أصابها من العمالقة، وهم بنو عِمْليق بن عَوْص بن عاد بن إرَم.

واستشكلت هذه زيادةً على الأولى بأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يُورِّثون كما جاء في الحديث الذي رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه(٤)، محتجًّا به في مسألة فَدَكٍ والعوالي بمحضرِ الصحابة، وهم الذين لا تأخذهم في الله لومةُ لائم.

---

(١) القاموس المحيط (جيد).

(٢) في (م): كجعل.

(٣) أخرجه أحمد (١٤٢٦٤)، والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٩)، والبخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٩).

وأجيب بأنَّ المرادَ بالإرث حيازةُ التصرُّفِ لا الملك، وعَقْرُها تقرُّباً ـ على ما في الأوجه في الآية بَعْدُ، وجاءَ في بعض الروايات ـ لا يقتضي الملك.

وقال عوف: بلغني أنها كانتْ خيلاً ذات أجنحةٍ، أُخرجتْ له من البحر، لم تكنْ لأحدٍ قبله ولا بعده. وروي كونُها كذلك عن الحسن. وأخرج ابنُ جريرٍ وغيره عن إبراهيم التيمي أنها كانت عشرينَ ألفَ فرسٍ ذات أجنحة[(١)].

وليس في هذا شيءٌ سوى الاستبعاد، وإذا لم يُلتفتْ إلى الأخبار في ذلك ـ إذ ليس فيها خبرٌ صحيحٌ مرفوعٌ أو ما في حكمه يُعوَّلُ عليه فيما أعلم ـ فَلَنا أن نقولَ: هي خيلٌ كانت له، كالخيل التي تكونُ عند الملوك، وَصَلَتْ إليه بسببٍ من أسباب الملك، فاستعرضَها فلم تزلْ تُعرَض عليه حتى غربت الشمس، قيل: وغَفَلَ عن صلاة العصر، وحكى هذا الطبرسيُّ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، وقتادة والسُّدِّي، ثم قال: وفي رواياتِ أصحابنا أنه فاته أولُ الوقت. وقال الجبائيُّ: لم يَفُتْهُ الفرضُ، وإنما فاته نفلٌ كان يفعله آخرَ النهار[(٢)].

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ قاله عليه السلام اعترافاً بما صَدَرَ عنه من الاشتغال، ونَدَماً عليه، وتمهيداً لما يَعقُبُهُ من الأمر بردِّها وعَقْرِها على ما هو المشهور، والخيرُ كَثُرَ استعماله في المال، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[(٣)] [البقرة: ٢٧٣]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وقال بعض العلماء: لا يقال للمال خيرٌ حتى يكونَ كثيراً، ومن مكانٍ طَيِّبٍ، كما روي أنَّ علياً كرَّم الله تعالى وجهه دَخَلَ على مولًى له فقال: ألا أُوصي يا أمير المؤمنين؟ قال: لا؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] وليس لك

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٨٣ وفيه: عشرين فرساً.
وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٠٩ بلفظ: عشرين ألف فرس. ونسبه لابن جرير وغيره.
(٢) مجمع البيان ٢٣/ ١١٣.
(٣) في الأصل و(م): يعلمه الله. والمثبت هو الصواب.

مالٌ كثيرٌ[1]. وروي تفسيرُهُ بالمال هنا عن الضحاك وابن جبير.

وقال أبو حيان: يُرادُ بالخير الخيلُ، والعربُ تُسمِّي الخيلَ: الخير، وحَكَى ذلك عن قتادة والسُّدِّي[2]. ولعلَّ ذلك لتعلُّق الخير بها، ففي الخبر: «الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[3].

والإحبابُ ـ على ما نُقل عن الفراء[4] ـ مُضمَّنٌ معنى الإيثار، وهو مُلْحَقٌ بالحقيقة لشهرته في ذلك، وظاهرُ كلام بعضهم أنه حقيقةٌ فيه، فهو مما يتعدَّى بـ «على»، لكن عُدِّيَ هنا بـ «عن» لتضمينه معنى الإنابة، و«حُبَّ الخير» مفعولٌ به، أي: آثرتُ حُبَّ الخير منيباً له عن ذِكْرِ ربِّي، أو: أَنَبْتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربِّي مُؤْثراً له.

وجُوِّزَ كونُ «حُبَّ» منصوباً على المصدر التشبيهيِّ، ويكون مفعول «أحببتُ» محذوفاً، أي: أحببتُ الصافنات ـ أو عَرْضَها ـ حُبّاً مثلَ حُبِّ الخير، منيباً لذلك عن ذِكْرِ ربِّي، وليس المرادُ بالخير عليه الخيل، وذكر أبو الفتح الهمداني أنَّ «أحببتُ» بمعنى لَزِمْتُ، من قوله:

ضَرْبَ بعيرِ السَّوْءِ إذ أحبَّا[5]

واعترض بأنَّ أَحَبَّ بهذا المعنى غريبٌ لم يردْ إلا في هذا البيت، وغرابةُ اللَّفظ تدلُّ على اللُّكنة، وكلامُ الله عزَّ وجلَّ منزَّهٌ عن ذلك، مع أنَّ اللُّزومَ لا يتعدَّى بـ «عن» إلا إذا ضُمِّنَ معنًى يتعدَّى به، أو تُجوِّزَ به عنه، فلم يبقَ فائدةٌ في العدول عن المعنى المشهور مع صحَّته أيضاً بالتضمين.

وجعل بعضُهم الأحبابَ من أول الأمر بمعنى التقاعد والاحتباس و«حُبّ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦٣٥١)، والبيهقي ٦/ ٢٧٠.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٩٦.
(٣) أخرجه أحمد (٥١٠٢)، والبخاري (٨٩٩)، ومسلم (٤٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥ بنحوه.
(٥) الرجز لأبي محمد الفقعسي، وهو في الأصمعيات ص١٦٣، والاشتقاق ص٣٩، وقبله:
حُلْتَ عليه بالقطيع ضربا

الخير» مفعولاً لأجله، أي: تقاعدتُ واحتبستُ عن ذِكْرِ ربِّي لِحُبِّ الخير.

وتُعقِّبَ بأنَّ الذي يدلُّ عليه كلامُ اللُّغويين أنه لزومٌ عن تعب أو مرض ونحوه، فلا يناسب تقاعد النشاط والتلهِّي الذي كان عليه السلام فيه. وقول بعض الأجلَّة بعد التنزُّل عن جواز استعمال المقيَّد في المطلق: لمَّا كان لزومُ المكان لمحبَّة الخيل على خلاف مرضاة الله تعالى جَعَلَها من الأمراض التي تحتاجُ إلى التداوي بأضدادها، ولذلك عَقَرَها، ففي «أحببتُ» استعارةٌ تبعيَّةٌ لا يخفى حُسْنها ومناسبتُها للمقام = ليس بشيءٍ؛ لخفاء هذه الاستعارة نفسِها وعدم ظهور قرينتها.

وبالجملة، ما ذكره أبو الفتح مما لا ينبغي أن يُفتَحَ له بابُ الاستحسان عند ذوي العرفان.

وجُوِّزَ حَمْلُ «أحببتُ» على ظاهره من غير اعتبارِ تضمينه ما يتعدَّى بـ «عن»، وجَعْلُ «عن» متعلِّقةً بمقدَّرٍ كـ: معرضاً وبعيداً، وهو حالٌ من ضمير «أحببتُ»، وجُوِّزَ في «عن» كونها تعليليَّة، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

و«ذكر» مضافٌ إلى مفعوله، وجُوِّزَ أن يكونَ مضافاً إلى فاعله. وقيل: الإضافةُ على معنى اللام، ولا يُرادُ بالذكر المعنى المصدريُّ، بل يُرادُ به الصلاة، فمعنى «عن ذِكْرِ ربِّي»: عن صلاة ربِّي التي شَرَعها، وهو كما ترى.

وبعضُ مَنْ جَعَلَ «عن» للتعليل فَسَّرَ ذِكْرَ[1] الرَّبِّ بكتابه عزَّ وجلَّ وهو التوراة، أي: أحببتُ الخيلَ بسبب كتاب الله تعالى، وهو التوراةُ، فإنَّ فيه مَدْحَ ارتباطها، وروي ذلك عن أبي مسلم.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو: «إنيَ أحببتُ» بفتح الياء[2].

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: «أحببت» باعتبار استمرار المحبَّة ودوامها حَسب استمرار العَرْض، أي: أَنَبْتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربِّي، واستمرَّ ذلك حتى غَرَبَتِ الشمسُ، تشبيهاً لغروبها في مغربها بتواري المخبَّأة

(١) في (م): ذلك.

(٢) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢.

بحجابها على طريق الاستعارة التبعيَّة، ويجوزُ أن يكونَ هناك استعارةٌ مكنيةٌ تخييليةٌ.

وأيًّاما كان، فما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن كعبٍ قال: الحجابُ هو حجابٌ من ياقوتٍ أخضر، محيطٌ بالخلائق، منه اخضرَّت السماء[١]. وما قيلَ: إنه جبلٌ دونَ قافٍ بسنةٍ، تغرُبُ الشمسُ وراءه. لا يَخْفَى حالُه، والناسُ في ثبوت جبل قافٍ بين مُصدِّقٍ ومكذِّب، والقَرافيُّ يقول: لا وجودَ له. وإليه أميلُ، وإن قال المثبتون ما قالوا.

والباء للظرفيَّة أو الاستعانة أو الملابسة، وعَوْدُ الضمير إلى الشمس من غير ذِكْرٍ؛ لدلالة العَشيِّ عليها.

والضميرُ المنصوبُ في قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ للصافنات على ما قال غيرُ واحد، وظاهر كلامهم أنه للصافنات المذكور في الآية، ولعلَّكَ تختارُ أنه للخيل الدالُّ عليها الحالُ المشاهَدةُ، أو الخير في قوله: «إني أحببت حب الخير»؛ لأنَّ «رُدُّوها» من تتمَّة مقالته عليه السلام، والصافناتُ غيرُ مذكورةٍ في كلامه، بل في كلام الله تعالى لنبيِّنا ﷺ.

والكلامُ - على ما قال الزمخشريُّ - على إضمار القول، أي: قال: رُدُّوها عليَّ[٢]، والجملةُ مستأنفةٌ استئنافاً بيانيّاً، كأنه قيل: فماذا قال سليمان؟ فقيل: قال: رُدُّوها. وتعقَّبه أبو حيان بأنه لا يحتاجُ إلى الإضمار؛ إذ الجملةُ مندرجةٌ تحت حكاية القول في قوله تعالى: «فقال إني» إلخ[٣].

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فصيحةٌ مُفصِحةٌ عن جملةٍ قد حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بغاية سُرْعة الامتثال بالأمر كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] أي: فَرَدُّوها عليه

---

(١) ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٤١، وكتاب العظمة ص٣٧٤، وينظر الدر المنثور ٥/ ٣٠٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٤.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٩٧.

فَطَفِقَ.. إلخ، وطَفِقَ من أفعال الشروع، واسمها ضميرُ «سليمان»، و«مَسْحاً» مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ مقدَّرٍ هو خبرها، أي: شَرَعَ يَمْسَحُ مَسْحاً، لا حالٌ مؤوَّلٌ بماسحاً كما جوَّزه أبو البقاء[(١)]؛ إذ لا بدَّ لـ «طَفِقَ» من الخبر، وليس هذا مما يَسُدُّ الحالُ فيه مَسَدَّه. وقرأ زيدُ بن عليٍّ: «مِساحاً»[(٢)] على وزن قِتال.

﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ أي: بسوقها وأعناقها، على أنَّ التعريفَ للعهد، وأنَّ «أل» قائمةٌ مقامَ الضمير المضاف إليه، والباءُ متعلِّقةٌ بالمسح، على معنى: شَرَعَ يمسحُ السيفَ بسوقها وأعناقها، وقال جَمْعٌ: هي زائدةٌ، أي: شَرَعَ يمسحُ سوقَها وأعناقَها بالسيف، ومسحته بالسيف ـ كما قال الراغب ـ كنايةٌ عن الضرب[(٣)].

وفي «الكشاف»[(٤)]: يمسحُ السيفَ بسوقها وأعناقها: يقطعها، تقولُ: مَسَحَ عِلاوته، إذا ضَرَبَ عُنقه، ومَسَح المسفر الكتاب: إذا قَطَعَ أطرافه بسيفه.

وعن الحسن: كَسَفَ عراقيبها وضَرَبَ أعناقها، أراد بالكَسْفِ القَطْعَ، ومنه الكَسْفُ في ألقاب الزحاف في العَرُوض[(٥)]. ومَنْ قاله بالشين المعجمة فمصحِّفٌ.

وكون المراد القطع قد دلَّ عليه بعضُ الأخبار، أخرج الطبرانيُّ في «الأوسط»، والإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه، بسندٍ حَسَنٍ عن أُبيِّ بن كعبٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾: «قَطَعَ سُوقَها وأعناقَها بالسيف»[(٦)].

---

(١) الإملاء ٤/ ٢٥٣.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٩٧.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (مسح).

(٤) ٣/ ٣٧٤.

(٥) في الأصل و(م): والعروض. والمثبت من المصدر. والكسف أو الكشف في الشعر: حذف متحرك الوتد المفروق. والزِّحاف: حدوث تغيير في ثواني الأسباب. مفتاح العلوم ص ٥٢٥، ومعجم مصطلحات العروض والقافية لمحمد علي الشوابكة وأنور أبو سويلم ص٢٢٧-٢٢٨.

(٦) المعجم الأوسط (٦٩٩٣)، ومعجم الإسماعيلي ٣/ ٧٥٣. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٩: فيه: سعيد بن بشير، وثقه شعبة وغيره، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات.

وقد جعلها عليه السلام بذلك قرباناً لله تعالى، وكان تقريبُ الخيل مشروعاً في دينه، ولعلَّ كَشْفَ العراقيب ليتأتَّى ذبحها بسهولة.

وقيل: إنه عليه السلام حَبَسها في سبيل الله تعالى، وكان ذلك المسحُ الصادرُ منه وَسْماً لها؛ لتُعرَفَ أنها خيلٌ محبوسةٌ في سبيل الله تعالى، وهو نظيرُ ما يُفعلُ اليومَ من الوَسْم بالنار، ولا بأس به في شَرْعنا ما لم يكنْ في الوجه، ولعلَّه عليه السلام رأى الوَسْمَ بالسيف أهون من الوَسْم بالنار فاختاره، أو كان هو المعروف في تلك الأعصار بينهم، ويُروى أنه عليه السلام لمَّا فعل ذلك سَخَّرَ له الريحَ كرامةً له.

وقيل: إنه عليه السلام أراد بذلك إتلافَها حيثُ شغلته عن عبادة ربِّه عزَّ وجلَّ، وصار تعلُّقُ قلبه بها سبباً لغفلته، واستدلَّ بذلك الشبليُّ قُدِّسَ سِرُّهُ على حِلِّ تحريق ثيابه بالنار حين شغلته عن ربِّه جلَّ جلاله؛ وهذا قولٌ باطلٌ لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه، وحاشا نبيَّ الله أن يُتلفَ مالاً محترماً لمجرَّدِ أنه شُغِلَ به عن عبادة، وله سبيلٌ لأَنْ يُخرجه عن مِلْكه مع نَفْعٍ هو من أجلِّ القُرَب إليه عزَّ وجلَّ، على أنَّ تلك الخيل لم يكن عليه السلام اقتناها واستعرضها بَطَراً وافتخاراً، معاذَ الله تعالى من ذلك، وإنما اقتناها للانتفاع بها في طاعة الله سبحانه، واستعرضها للتطلُّع على أحوالها ليُصلحَ من شأنها ما يحتاجُ إلى إصلاح، وكلُّ ذلك عبادةٌ، فغايةُ ما يلزمُ أنه عليه السلام نسيَ عبادةً لِشُغله بعبادةٍ أخرى، فاستدلالُ الشِّبلي قُدِّسَ سِرُّهُ غيرُ صحيح، وقد نبَّه أيضاً على عدم صحَّته عبد الوهاب الشعرانيّ من السادة الصوفية في كتابه: «اليواقيتُ والجواهر في عقائد الأكابر» ولكن بحَمْل الآية على مَحْمَلٍ آخر.

وما ذكرناه في محملها وتفسيرها هو المشهورُ بين الجمهور، ولهم فيها كلامٌ غير ذلك، فقيل: ضميرُ «رُدُّوها» للشمس، والخطابُ للملائكة عليهم السلام الموكَّلين بها، قالوا: طَلَبَ ردَّها لمَّا فاته صلاةُ العصر؛ لِشُغله بالخيل، فَرُدَّتْ له حتى صلَّى العصر، وروي هذا القولُ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، كما قال الخفاجيُّ[1] والطبرسيُّ[2].

(١) في حاشيته ٧/ ٣١٠.
(٢) في مجمع البيان ٢٣/ ١١٣.

وتعقَّبَ ذلك الرازيُّ بأنَّ القادرَ على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى، فكان يجبُ أن يقول: رُدَّها عليَّ، دونَ «رُدُّوها» بضمير الجمع. فإن قالوا: هو للتعظيم، كما في: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [المؤمنون:٩٩] قلنا: لفظُ «رُدُّوها» مُشعرٌ بأعظم أنواع الإهانة، فكيف يليقُ بهذا اللفظ رعاية التعظيم؟ وأيضاً: إنَّ الشمسَ لو رَجَعَتْ بعد الغروب لكان مشاهداً لكلِّ أهل الدنيا، ولو كان كذلك لتوافرتِ الدواعي على نقله، وحيثُ لم ينقله أحدٌ عُلِمَ فساده(١).

والذي يقول بِرَدِّ الشمس لسليمان يقول: هو كَرَدِّها ليوشع، ورَدِّها لنبيِّنا ﷺ في حديث العِير ويومَ الخندق حين شُغِلَ عن صلاة العصر، ورَدِّها لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه ورضي عنه بدعائه عليه الصلاة والسلام، فقد روي عن أسماء بنت عُمَيس أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُوحَى إليه ورأسه في حِجْر عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، فلم يُصَلِّ العَصْرَ حتى غربتِ الشمسُ، فقال رسول الله ﷺ: «صلَّيتَ يا عليّ»؟ قال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فارددْ عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتها غربَتْ ثم رأيتها طلعت بعد ما غربَتْ، ووقعتْ على الأرض، وذلك بالصَّهْباء في خيبر. وهذا الخبر في صِحَّته خلافٌ، فقد ذكره ابنُ الجوزيِّ في «الموضوعات»، وقال: إنه موضوعٌ بلا شكٍّ، وفي سنده أحمد بن داود، وهو متروكُ الحديث كذَّابٌ كما قاله الدارقطني، وقال ابن حبان: كان يضعُ الحديثَ. وقال ابن الجوزي: قد روى هذا الحديثَ ابنُ شاهين، فذكره، ثم قال: وهذا حديثٌ باطلٌ، ومِنْ تَغَفُّلِ واضعه أنه نظر إلى صورة فضيلة، ولم يَلْمَحْ عدم الفائدة فيها، وأنَّ صلاةَ العصر بغيبوبة الشمس تصيرُ قضاءً، ورجوعُ الشمس لا يُعيدها أداءً(٢). انتهى.

وقد أفرد ابن تيمية تصنيفاً في الرد على الروافض(٣) ذكر فيه الحديثَ بطرقه ورجاله وأنه موضوعٌ، وقال الإمام أحمد: لا أصل له.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٠٥.

(٢) الموضوعات لابن الجوزي ١/ ٢٦٦.

(٣) وهو كتاب: منهاج السنة النبوية، ينظر ٨/ ١٦٤ وما بعدها.

وصحَّحه الطحاويُّ[(١)] والقاضي عياض[(٢)]، ورواه الطبرانيُّ في «معجمه الكبير»[(٣)] بإسنادٍ حَسَنٍ، كما حكاه شيخ الإسلام ابن العراقيِّ في «شرح التقريب»[(٤)] عن أسماءَ أيضاً، لكن بلفظٍ آخر. ورواه ابن مردويه عن أبي هريرة، وكان أحمد بن صالح يقول: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلُّف عن حفظ حديث أسماء؛ لأنه من علامات النبوَّة[(٥)].

وكذا اختلف في حديث الرَّدِّ يومَ الخندق، فقيل: ضعيف، وقيل: موضوعٌ، وادَّعى العلامةُ ابن حجر الهيتمي صِحَّته[(٦)].

وما في حديث العير ـ وأظنُّ أنهم اختلفوا في صِحَّته أيضاً ـ ليس صريحاً في الرَّدِّ، فإنَّ لفظ الخبر أنه لما أسري بالنبي ﷺ وأخبرَ قومَهُ بالرفقة والعلامة التي في العير قالوا: متى يجيء؟ قال: يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم أشرفتْ قريشٌ ينظرونَ وقد ولَّى النهار ولم يجئ، فدعا رسول الله ﷺ، فَزِيدَ له في النهار ساعة، وحُبستْ عليه الشمس[(٧)]. والحَبْسُ غيرُ الرَّدِّ، ولو كان هناك رَدٌّ لأدركه قريشٌ ولقالوا فيه ما قالوا في انشقاق القمر، ولم يُنقل، وقيل: كأنَّ ذلك كان بركةً في الزمان، نحو ما يذكره الصوفيةُ مما يُعبِّرون عنه بنَشْر الزمان، وإن لم يتعقَّله الكثيرُ.

وكذا ما كان ليوشع عليه السلام، فقد جاء في الحديث الصحيح: «لم تُحبَسِ الشمسُ على أحدٍ إلا ليوشع بن نون»[(٨)]. والقصةُ مشهورةٌ، وهذا الحديثُ الصحيحُ

---

(١) في شرح مشكل الآثار ٣/ ٩٥ عقب الحديث (١٠٦٨).
(٢) في الشفا ١/ ٥٤٩.
(٣) ٢٤/ (٣٨٢).
(٤) وهو طرح التثريب في شرح التقريب، ينظر ٧/ ٢٤٧-٢٤٨.
(٥) ينظر الشفا ١/ ٥٤٩ وقد نقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٣٧٩ عن الذهبي في تلخيص الموضوعات أن أسانيد هذا الحديث ساقطة ليست بصحيحة.
(٦) في تحفة المحتاج بهامش حواشي الشرواني وابن قاسم العبادي ١/ ٤٢٠.
(٧) ذكره ابن حجر في الفتح ٦/ ٢٢١ وعزاه ليونس بن بكير في زياداته في مغازي ابن إسحاق. وقال: هذا منقطع.
(٨) أخرجه أحمد (٨٣١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عند الكلِّ يُعارضُ جميعَ ما تقدَّم. وتأويله بأنَّ المرادَ: لم تُحبسْ على أحدٍ من الأنبياء غيري إلا ليوشع، أو بالتزام أنَّ المتكلِّمَ غيرُ داخلٍ في عموم كلامه، بعد تسليم قبوله، لا ينفي معارضته خبر الرَّدِّ لسليمان عليه السلام، فإنه بظاهره يستدعي نفي الردِّ الذي هو أعظمُ من الحبس له عليه السلام.

وبالجملة، القولُ بِرَدِّ الشمس لسليمان عليه السلام غيرُ مُسلَّمٍ، وعدمُ قولي بذلك ليس لامتناع الردِّ في نفسه كما يزعمه الفلاسفة، بل لَعِدَمِ ثبوته عندي، والذوقُ السليمُ يأبى حَمْلَ الآية على ذلك؛ لنحو ما قال الرازي، ولغيره من تعقيبِ طلب الردِّ بقوله تعالى: «فطفق» إلخ.

ثم ما قدَّمنا نقله من وقوع الصلاة بعد الردِّ قضاءً هو ما ذهب إليه البعض.

وفي «تحفة» العلَّامة ابن حجر الهيتمي: لو عادتِ الشمسُ بعد الغروب عادَ الوقتُ كما ذكره ابن العماد، وقضيةُ كلام الزركشيِّ خلافه، وأنه لو تأخَّر غروبُها عن وقته المعتاد قدِّرَ غروبها عنده، وخرج الوقتُ وإن كانت موجودة. انتهى كلامُ الزركشي، وما ذكره آخراً بعيدٌ، وكذا أولاً، فالأوجه كلامُ ابن العماد، ولا يضرُّ كونُ عَوْدِها معجزةً له ﷺ؛ لأنَّ المعجزةَ نفسُ العَوْد، وأما بقاءُ الوقت بعَوْدها فحُكْمُ الشرعِ، ومن ثَمَّ لما عادتْ صلَّى عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه العصرَ أداءً، بل عَوْدُها لم يكن إلا لذلك[1]. انتهى.

ولا يحضرني الآن ما لأصحابنا الحنفية في ذلك، بَيْدَ أني رأيتُ في «حواشي تفسير البيضاوي» لشهاب الدين الخفاجي[2]، وهو من أَجِلَّة الأصحاب ادِّعاءَ أنَّ الظاهرَ أنَّ الصلاةَ بعد الردِّ أداء، ثم قال: وقد بحثَ الفقهاء فيه بحثاً طويلاً ليس هذا محلَّه.

وقيل: ضميرُ «توارتْ» للخيلِ كضمير «رُدُّوها». واختاره جَمْعٌ، فقيل: الحجابُ: إصطبلاتها، أي: حتى دخلتِ إصطبلاتها، وقيل: حتى توارتْ في المسابقة بما يحجُبها عن النظر.

---

(١) تحفة المحتاج ١/٤١٩-٤٢٠.

(٢) حاشية الشهاب ٧/٣١٠.

وبعضُ من قال بإرجاع الضمير للخيل جَعَلَ «عن» للتعليل، ولم يجعلِ المسحَ بالسُّوق والأعناق بالمعنى السابق، فقالت طائفةٌ: عُرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة، فأشار إليهم: إني في صلاة، فأزالوها عنه حتى دخلتْ في الإصطبلات، فقال لمَّا فرغَ من صلاته: «إني أحببتُ حُبَّ الخير» أي: الذي لي عند الله تعالى في الآخرة بسبب ذِكْرِ ربِّي، كأنه يقول: فشغلني ذلك عن رؤية الخيل حتى دخلت إصطبلاتها، رُدُّوها عليَّ، فَطَفِقَ يمسحُ أعرافَها وسُوقها محبةً لها وتكريماً. وروي أنَّ المسحَ كان ذلك عن ابن عباس والزهري وابن كيسان، ورجَّحه الطبريُّ(١)، وقيل: كان غَسْلاً بالماء.

ولا يخفى أنَّ تطبيقَ هذه الطائفة الآيةَ على ما يقولون ركيكٌ جدّاً.

وقال الرازيُّ: قال الأكثرون: إنه عليه السلام فاته صلاةُ العَصْر بسبب اشتغاله بالنظر إلى الخيل، فاستردَّها وعَقَرَ سُوقَها وأعناقها؛ تقرُّباً إلى الله تعالى، وعندي أنه بعيدٌ، ويدلُّ عليه وجوهٌ:

الأول: أنه لو كان مَسْحُ السُّوق والأعناق قَطْعها، لكان معنى قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦]: اقطعوها، وهذا لا يقوله عاقلٌ، بل لو قيل: مَسَحَ رأسَهُ بالسيف، فربمَّا فُهم منه ضَرْبُ العنق، أما إذا لم يُذْكَر لفظُ السيف لم يُفْهَمْ منه ذلك ألبتَّة.

الثاني: أنَّ القائلين بهذا القول جمعوا على سليمانَ أنواعاً من الأفعال المذمومة؛ فأوَّلها: تَرْكُ الصلاة. وثانيها: أنه استولى عليه الاشتغالُ بحبِّ الدنيا إلى حيث نسي الصلاة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «حُبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»(٢). وثالثها: أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغلْ بالتوبة والإنابة. ورابعها: على القول برجوع ضمير «رُدُّوها» إلى الشمس أنه خاطَبَ رَبَّ العالمين بكلمةٍ لا يذكرها الرجلُ الحصيفُ إلا مع الخادم الخسيس. وخامسها: أنه أَتْبَعَ هذه

(١) في تفسيره ٢٠/ ٨٧.
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ٧/ ٣٣٨ عن الحسن مرسلاً بإسناد حسن كما قال العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤١٢.

المعاصي بعَقْرِ الخيل سُوقها وأعناقها، وقد وَرَدَ النهيُ عن ذَبْحِ الحيوان إلا لأكله[1]. فهذه أنواعٌ من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام، مع أنَّ لَفْظَ القرآن لا يدلُّ على شيءٍ منها. وسادسها: أنَّ ذِكْرَ هذه القصة ـ وكذا التي قبلها ـ بعد أمره بالصبر على سفاهة الكفار، يقتضي أنْ تكونَ مشتملةً على الأعمال الفاضلة، والأخلاق الحميدة، والصبر على طاعة الله تعالى، والإعراض عن الشهوات واللَّذَّات، وأما اشتمالُها على الإقدام على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة، فبمراحلَ عن مقتضى التعقيب، فثبتَ أنَّ كتابَ الله تعالى ينادي على القول المذكور بالفساد.

والصوابُ أن يقال: إنَّ رِباطَ الخيل كان مندوباً إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين نبيِّنا ﷺ، ثم إنَّ سليمانَ احتاجَ إلى الغزو، فجلس وأَمَرَ بإحضار الخيل، وأَمَرَ بإجرائها، وذَكَرَ: إنِّي لا أُحبُّها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أُحبُّها لأمر الله تعالى وتقوية دينه، وهو المراد من قوله تعالى: «عن ذكر ربِّي» ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارتْ بالحجاب، أي: غابتْ عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يَردُّوا تلك الخيل إليه، فلما عادتْ إليه طَفِقَ يمسحُ سُوقها وأعناقها، والغرضُ من ذلك المسح أمور:

الأول: تشريفٌ لها، وإبانةٌ لِعِزَّتها لكونها من أعظم الأعوان في دَفْع العدو.

والثاني: أنه أرادَ أن يظهرَ أنه في ضَبْط السياسة والملك يتَّضعُ إلى حيثُ يُباشرُ أكثرَ الأمور بنفسه.

والثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنُها ويمسحُ سُوقها وأعناقها حتى يعلمَ هل فيها ما يدلُّ على المرض.

فهذا التفسيرُ الذي ينطبقُ عليه لَفْظُ القرآن انطباقاً موافقاً، ولا يلزمنا نسبةُ شيءٍ من تلك المنكرات والمحذورات إلى نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام.

ثم قال: وأقول: أنا شديدُ التعجُّب من الناس، كيف قبلوا ما شاعَ من الوجوه

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٣١٦) من حديث القاسم مولى عبد الرحمن.

السخيفة، مع أنَّ العقلَ والنقلَ يَردَّانها، وليس لهم في إثباتها شبهةٌ، فضلاً عن حُجَّة، ولَفْظُ الآية لا يدلُّ على شيءٍ من تلك الوجوه التي يذكرها الجمهور كما قد ظهر ظهوراً لا يرتابُ العاقل فيه، وبِفَرَضِ الدلالة يقال: إنَّ الدلائلَ الكثيرةَ قامتْ على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ولم يدلَّ دليلٌ على صحَّة تلك الحكايات، وروايةُ الآحاد لا تصلحُ معارضةً للدلائل القوية، فكيف الحكاياتُ عن أقوامٍ لا يُبالى بهم ولا يُلتفتُ إلى أقوالهم[1]؟! انتهى كلامه.

وكان عليه الرحمة قد اعترض القولَ برجوع ضميرِ «توارت» إلى الشمس دون «الصافنات»، بأنَّ الصافناتِ، مذكورةٌ بصريحها والشمسُ ليست كذلك، وعَوْدُ الضمير إلى المذكور أولى من عَوْده إلى المقدَّر، وأيضاً أنه قال: «إني أحببتُ حُبَّ الخير عن ذِكْر ربِّي حتى توارتْ بالحجاب» وظاهره يدلُّ على أنه كان يُعيدُ ويُكرِّرُ قوله: «إني أحببتُ حُبَّ الخيرَ عن ذِكْرِ ربيِّ» إلى أن توارتْ بالحجاب، فإذا كانتِ المتواريةُ الشمسَ، يلزمُ القولُ بأنه كرَّر ذلك من العَصْر إلى المغرب، وهو بعيدٌ، وإذا كانتِ الصافناتِ كان المعنى: أنه حين وَقَعَ بَصَرُهُ عليها حالَ عَرْضِها كان يقولُ ذلك إلى أنْ غابتْ عن عينه، وذلك مناسبٌ، وأيضاً: القائلون بالعَوْد إلى الشمس قائلونَ بتَرْكه عليه السلام صلاةَ العصر، ويأباهُ: «إني أحببتُ» إلخ؛ لأنَّ تلك المحبَّةَ لو كانتْ عن ذِكْر الله تعالى لما نسي الصلاةَ، ولما تَرَكَ ذِكْرَ الله عزَّ وجلَّ[2].

وأقول: ما عند الجمهور أولى بالقَبول، وما ذكره عليهم من الوجوه لا يُلتفتُ إليه ولا يُعوَّل عليه؛ أما ما قاله من أنه لو كان مَسْحُ السوق والأعناق بمعنى القَطْع لكان: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة:٦] أمْراً بقَطْعها، ففيه أنَّ هذا إنما يتمُّ لو قيل: إنَّ المسحَ كلَّما ذُكِرَ بمعنى القَطْع، ولم يُقَلْ ولا يُقال، وإنما قالوا: إنَّ المسحَ في الآية بمعنى القَطْع، وقد قال بذلك رسول الله ﷺ كما جاء في خبرٍ حَسَنٍ، وقد قدَّمناه لك عن الطبرانيِّ والإسماعيلي وابن مردويه[3]، وليس بعد قوله عليه الصلاة

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٠٥-٢٠٧.
(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٠٤-٢٠٥.
(٣) سلف ص٢٧٥.

والسلام قولٌ لقائلٍ، ويكفي مثلُ ذلك الخبر في مثل هذا المطلب؛ إذ ليس فيه ما يُخالفُ العقلَ أو نقلاً أقوى كما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر هذا المعنى للمسح الزمخشريُّ أيضاً[١]، وهو من أَجِلَّة علماء هذا الشأن، وصَحَّ نقلُهُ عن جماعةٍ من السلف، وقال الخفاجيُّ: استعمالُ المَسْحِ بمعنى ضَرْبِ العنق استعارةٌ وقعتْ في كلامهم قديماً[٢]. نعم احتياجُ ذلك للقرينة مما لا شُبهةَ فيه، والقرينةُ عند مَنْ يدَّعيه هاهنا السياقُ وعَوْدُ ضمير «توارتْ» على الشمس، وهو كالمتعيّن كما سيتَّضحُ لك إن شاء الله تعالى.

وأما قوله: إنهم جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة، فَفِرْيَةٌ من غير مرية.

وقوله: أولها: تَرْكُ الصلاة، فيه أنَّ التَّرْكَ المذمومَ ما كان عن عمدٍ، وهم لا يقولون به، وما يقولون به التركُ نسياناً، وهو ليس بمذمومٍ؛ إذ النسيانُ لا يدخلُ تحتَ التكليف، على أنَّ كونَ ما تُرك فرضاً مما لم يجزمْ به الجميع.

وقوله: ثانيها: أنه استولى عليه الاشتغالُ بحُبِّ الدنيا إلى حيثُ تَرَكَ الصلاةَ، فيه أنَّ ذلك اشتغالٌ بخيلِ الجهاد، وهو عبادة.

وقوله: ثالثها: أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغلْ بالتوبة والإنابة، فيه أنّا لا نُسلِّم أنه عليه السلام ارتكبَ ذنباً حقيقةً، فضلاً عن كونه عظيماً، نعم ربما يقال: إنه عليه السلام لم يستحسنْ ذلك بمقاومة، فأتبعه التقرُّب بالخيل التي شُغِلَ بسببها، وذلك يدلُّ على التوبة دلالةً قوية، ولم يكن ليتعطَّلَ أمرُ الجهاد به، فقد أُوتي عليه السلام غير ذلك، على أنَّ كونَ ما ذُكر كالاستشهاد على قوله تعالى: «إنه أواب» مُشعرٌ بتضمُّنه الأَوْبَةَ، وإن ذهبنا إلى تعلُّق «إذ عُرض» بـ «أوّاب» يكادُ لا يَرِدُ هذا الكلام رأساً.

وقوله: رابعها: أنه خاطَبَ ربَّه عزَّ وجلَّ بلَفْظٍ غيرِ مناسب، فيه أنه إن وَرَدَ

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٧٤.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٠.

فإنما يَرِد على القول برجوع ضمير «رُدُّوها» إلى الشمس، ونحن لا نقول به، فلا يلزمنا الجوابُ عنه، والذي نقوله: إنَّ الضميرَ للخيل، والخطابَ لخدمته، ومع هذا لم يقلْ تلك الكلمةَ تهوُّراً وتجبُّراً كما يُتوهَّم.

وقوله: خامسها: إنه أتبع هذه المعاصي بعَقْرِ الخيل، وقد وَرَدَ النهي.. إلخ، فيه أنه عليه السلام لم يفعلْ معصيةً ليقال: أتبعَ هذه المعاصي، وأنَّ الخيلَ عُقرتْ قرباناً، وكان تقريبُها مشروعاً في دينه، فهو طاعة.

ومن مجموع ما ذكرنا يُعلَمُ ما في قوله: سادسها.. إلخ على أنه قد تقدَّم لك وجهُ رَبْطِ هذه القصص بما قبلها، وهو لا يتوقَّفُ على التزام ما قاله في هذه القصة، وما زَعَمَهُ من أنه الصوابُ، ففيه إرجاعُ ضمير «توارت» إلى الخيل، ولا يخفى على ذي ذوقٍ سليمٍ وطبعٍ مستقيمٍ أنَّ تواريَ الخيل بالحجاب عبارةٌ ركيكةٌ يُجَلُّ عنها الكتابُ المتين.

وفيه أيضاً أنه لا يكادُ ينساقُ إلى الذهن متعلَّق «حتى توارت» الذي أشار إليه في تقرير ما زَعَمَ صوابيَّته، وتعلُّقه بـ «قال» على ما يُشير إليه كلامه المنقولُ آخراً مما يُستبْعَدُ جدّاً، فإنَّ الظاهرَ أنَّ قوله: «حتى توارت بالحجاب» من المحكيِّ كالذي قبله والذي بعده، لا من الحكاية، وأيضاً كونُ الردِّ للمَسْحِ الذي ذكره خلاف ما جاء في الخبر الحسن، وهو في نفسه بعيد، والأغراض التي ذكرها فيه لا يخفى حالها، ودعواهُ أنَّ هذا التفسيرَ هو الذي ينطبقُ عليه لفظُ القرآن مما لا يتمُّ لها دليلٌ، ولعلَّ الدليلَ على عَدَمِ الانطباق ظاهرٌ.

وقوله: أنا شديدُ التعجُّب من الناس.. إلخ، أقولُ فيه: أنا تعجُّبي منه أشدُّ من تعجُّبه من الناس، حيث خفي عليه حُسْنُ الوجه الذي استحسنه الجمهور ولم يطَّلعْ على ما ورد فيه من الأخبار الحسان، وظَنَّ أنَّ القولَ به منافٍ للقول بعِصْمةِ الأنبياء عليهم السلام حتى قال ما قال، وَرَشَقَ على الجمهور النِّبالَ.

وقوله في ترجيح رجوع ضمير «توارت» إلى «الصافنات» على رجوعه إلى الشمس: إنها مذكورةٌ بصريحها دون الشمس، ليس بشيءٍ، فإنَّ رجوعَهُ إلى الشمس

يجعلُ الكلامَ ركيكاً، فلا ينبغي ارتكابه لمجرَّد أنَّ فيه رجوع الضمير إلى مذكورٍ صريحاً، على أنَّ في كونه راجعاً إلى الصافنات المذكورة صريحاً بحثاً، ولا يَرِدُ على الجمهور لزومُ تخالف الضمائر في المرجع، وهو تفكيكٌ؛ لأنَّ التخالفَ مع القرينة لا ضَيْرَ فيه.

وأَعْجَبُ مما ذكرَ زَعْمُهُ أنه يلزمُ على ما قال الجمهور أنَّ سليمان عليه السلام كرَّر قوله: «إني أحببتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربي» من العَصْر إلى المغرب، فإنَّ الجمهورَ ما حاموا حولَ ما يلزمُ منه ذلك أصلاً؛ إذ لم يقلْ أحدٌ منهم بأنَّ «حتى» متعلِّقةٌ بـ «قال» كما زَعَمَ هو، بل هي عندهم متعلِّقةٌ بـ «أحببت» على المعنى الذي أسلفناه، ومَن أنصفَ لا يرتضي أيضاً القولَ بأنه عليه السلام كرَّرَ ذلك القولَ إلى أن غابت الخيلُ عن عينه كما قال به هذا الإمام.

ويَرِدُ على قوله: القائلون بالعَوْد إلى الشمس قائلونَ بتَرْكه عليه السلام صلاةَ العصر، ويأباه «إني أحببت» إلخ؛ لأنَّ تلك المحبة لو كانت عن ذِكْرِ الله تعالى لما نسي الصلاةَ = أنَّ الجمهورَ لا يقولون بأنَّ «على» للتعليل، والإباءُ المذكورُ ـ على تقدير تسليمه ـ لا يتسنَّى إلا على ذلك، وما يقولونه ـ وقد أسلفناه لك ـ بمراحلَ عنه.

وبالجملة، قد اختلَّتْ أقوالُ هذا الإمام في هذا المقام، ولم ينصف مع الجمهور وهم أعرفُ منه بالمأثور، نعم ما ذكره في الآية وجهٌ ممكنٌ فيها على بُعدٍ إذا قُطِعَ النظرُ عن الأخبار وما جاء عن السلف من الآثار، وقد ذَكَرَ نحوَهُ عبد الوهاب الشعرانيُّ في كتابه «اليواقيت والجواهر» وهو في الحقيقة ـ والله تعالى أعلم ـ من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين قُدِّسَ سِرُّهُ وقد خالف الجمهورَ كالإمام، قال في الباب المئة والعشرين من «الفتوحات»[1]: ليس للمفسِّرين الذين جعلوا التواري للشمس دليلٌ، فإنَّ الشمسَ ليس لها هنا ذِكْرٌ، ولا للصلاة التي يزعمون، ومساقُ الآية لا يدلُّ على ما قالوه بوجهٍ ظاهرٍ ألبتَّة، وأما استرواحهم فيما فسَّروه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ فالمرادُ بتلك الفتنة إنما هو الاختبارُ بالخيل، هل

---

(١) بل في الباب الرابع والعشرين ومئة.

يُحبُّها عن ذِكْرِ ربِّه تعالى لها، أو يُحبُّها لعينها؟ فأخبر عليه السلام عن نفسه أنه أحبَّها عن ذِكْرِ ربِّه سبحانه إياها، لا لِحُسْنها وكمالها وحاجته إليها، إلى آخر ما قال.

وقد كان قُدِّسَ سِرُّهُ معاصراً للإمام، وكتب إليه رسالةً يُرغِّبه فيها بسلوك طريقة القوم، ولم يجتمعا، وغالبُ الظَّنِّ أنه لم يأخذْ أحدهما من الآخر ما قال في الآية، بل لم يسمعه، وعِلْمُ كلٍّ منهما لا يُنكَرُ، والشيخ بحرٌ لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وما ذكره في الاسترواح مما لم أقفْ عليه لأحدٍ من المفسِّرين، والله تعالى أعلم.

وقرأ ابن كثير: «بالسُّؤْق» بهمزةٍ ساكنة[1]، قال أبو عليٍّ[2]: وهي ضعيفةٌ، لكنَّ وَجْهَها في القياس أنَّ الضمةَ لمَّا كانت تلي الواوَ قُدِّرَ أنها عليها، كما يفعلون بالواو المضمومة حيث يُبدلونها همزة، ووجهُها من القياس[3] أنَّ أبا حَيَّةَ النميري كان يهمزُ كلَّ واوٍ ساكنةٍ قبلَها ضمة، وكان ينشد:

أَحَبُّ الموافِدَيْنِ إليَّ مُؤْسى[4]

وقال أبو حيان: ليستْ ضعيفةً؛ لأنَّ الساق فيه الهمزة، فوزنه: فُعْلٌ بسكون العين، فجاءت هذه القراءةُ على هذه اللغة[5].

وتُعقِّبَ بأنَّ هَمْزَ الساق إبدالٌ على غير القياس؛ إذ لا شُبهةَ في كونه أجوف، فلا بدَّ من التوجيه بما تقدم.

وقرأ ابن محيصن: «بالسُّؤُوق» بهمزةٍ مضمومةٍ بعدها واوٌ ساكنةٌ بوزن الفُسُوق، ورواها بكَّار عن قنبل[6]، وهو جَمْعُ ساقٍ أيضاً.

---

(١) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨.

(٢) في الحجة للقراء السبعة ٦/ ٦٨-٦٩.

(٣) كذا في الأصل و(م) والبحر ٧/ ٣٩٧ نقلاً عن أبي عليٍّ، والذي في الحجة: السماع.

(٤) صدر بيت لجرير، وهو في ديوانه ص١١٦، وعجزه: وجَعْدَةُ لو أضاءهما الوقود، وسلف ١٩/ ٤٦٠ برواية: أَحَبُّ المُؤْقِدَيْنِ.

(٥) البحر المحيط ٤/ ٣٩٧.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٧٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٧.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «بالساق» مفرداً[1]؛ اكتفى به عن الجمع لأمْنِ اللَّبْس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ أظهرُ ما قيل في فتنته عليه السلام أنه قال: «لأطوفنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأة، تأتي كلُّ واحدةٍ بفارسٍ يُجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقلْ: إن شاء الله، فطافَ عليهنَّ فلم تحملْ إلا امرأة، وجاءتْ بشِقِّ رجلٍ» وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعاً، وفيه: «فو الذي نفسُ محمدٍ بيده، لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا فرساناً»[2] لكنَّ الذي في «صحيح البخاري» أربعينَ، بدلَ: سبعين[3]، وأنَّ الملك قال له: قلْ: إن شاء الله، فلم يقلْ. وغايتُهُ تَرْكُ الأَولى، فليس بذَنْبٍ وإن عدَّهُ هو عليه السلام ذنباً، فالمراد بالجَسَدِ ذلك الشِّقُّ الذي وُلِدَ له، ومعنى إلقائه على كُرسيِّهِ: وَضْعُ القابلة له عليه لِيَراهُ.

وروى الإماميَّةُ عن أبي عبد الله رضي الله عنه أنه وُلد لسليمان ابنٌ، فقالت الجنُّ والشياطين: إن عاشَ له ولدٌ لَنَلْقَيَنَّ منه ما لَقينا من أبيه من البلاء، فأشفقَ عليه السلام منهم، فجعلهُ وظِئْرَهُ في السحاب من حيثُ لا يعلمون، فلم يشعرْ إلا وقد أُلقي على كُرسِّيهِ ميتاً؛ تنبيهاً على أنَّ الحَذَرَ لا يُنجِّي من القَدَر، وعُوتبَ على تَرْكه التوكُّلَ اللائقَ بالخواصِّ من تَرْكِ مباشرةِ الأسباب، ورُوي ذلك عن الشعبيِّ أيضاً[4]. ورواه بعضُهم عن أبي هريرةَ على وجهٍ لا يَشُكُّ في وَضْعه إلا مَنْ يَشُكُّ في عِصْمة الأنبياء عليهم السلام، وأنا في صحَّةِ هذا الخبر لستُ على يقينٍ، بل ظاهرُ الآية أنَّ تسخيرَ الريح بعد الفتنة، وهو ظاهرٌ في عدم صِحَّة الخبر؛ لأنَّ الوَضْعَ في السحاب يقتضي ذلك.

وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي[5] من طريق عليِّ بن زيدٍ عن سعيد بن المسيب أنَّ سليمانَ عليه السلام احتجبَ عن الناس ثلاثةَ أيامٍ، فأوحى الله تعالى

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٧.

(٢) صحيح البخاري (٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤)، وهو عند أحمد (٧٧١٥).

(٣) كذا في حاشية الشهاب ٧/ ٣١١. والصواب أنه في البخاري: سبعين. وفي رواية: تسعين، وفي أخرى: مئة.

(٤) مجمع البيان ٢٣/ ١١٤.

(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ٣١٢.

إليه أنْ: يا سليمان، احتجبتَ عن الناس ثلاثةَ أيامٍ فلم تنظرْ في أمور عبادي، ولم تُنصفْ مظلوماً من ظالم. وكان مُلْكُهُ في خاتمه، وكان إذا دخل الحمَّامَ وَضَعَ خاتمه تحتَ فراشه، فجاء الشيطانُ فأخذهُ، فأقبل الناسُ على الشيطان، فقال سليمان: يا أيها الناس، أنا سليمان نبيُّ الله تعالى. فدفعوه، فَسَاحَ أربعينَ يوماً، فأتى أهلَ سفينةٍ فأعطوه حُوتاً فشقَّها، فإذا هو بالخاتم فيها، فتختَّم به ثم جاء، فأخذ بناصيته فقال عند ذلك: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾.

وأخرج النسائيُّ وابن جرير وابن أبي حاتم ـ قال ابن حجر والسيوطيُّ: بسندٍ قويٍّ[1] ـ عن ابن عباس: أراد سليمانُ عليه السلام أن يدخلَ الخلاءَ، فأعطى لجرادةَ خاتمه ـ وكانت امرأتَهَ، وكانت أَحَبَّ نسائه إليه ـ فجاء الشيطانُ في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته، فلما لَبِسَهُ دانتِ الإنسُ والجِنُّ والشياطينُ، فلما خَرَجَ سليمانُ قال لها: هاتي خاتمي. قالت: قد أعطيته سليمان، قال: أنا سليمان، قالت: كذبتَ لستَ سليمان، فجعل لا يأتي أحداً فيقول له: أنا سليمان، إلا كَذَّبه، حتى جَعَلَ الصبيانُ يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك عَرَفَ أنه من أمرِ الله تعالى، وقام الشيطانُ يحكمُ بين الناس، فلما أراد الله تعالى أن يَرُدَّ عليه سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكارَ ذلك الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا: أَتُنْكِرْنَ من سليمان شيئاً؟ قلنَ: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّضٌ، وما كان يأتينا قبلَ ذلك، فلما رأى الشيطانُ أنه قد فُطِنَ له، ظَنَّ أنَّ أمرَه قد انقطعَ، فأمر الشياطينَ فكتبوا كُتُباً فيها سِحْرٌ ومَكْرٌ، فدفنوها تحت كُرسيِّ سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس وقالوا: بهذا كان يظهرُ سليمانُ على الناس ويغلبهم، فأَكْفَرَ الناسُ سليمانَ، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم، فَطَرَحهُ في البحر، فتلقَّتهُ سمكةٌ، فأخذته، وكان عليه السلام يعملُ على شَطِّ البحر بالأجر، فجاء رجلٌ فاشترى سَمَكاً فيه تلك السَّمكة، فدعا سليمانَ فحملَ معه السمكَ إلى باب داره، فأعطاه تلك السمكة، فَشَقَّ بطنها، فإذا الخاتم فيه، فأخذهُ فَلَبِسَهُ، فدانتْ له الإنسُ والجِنُّ والشياطين، وعاد إلى حاله، وهَرَبَ الشيطانُ إلى جزيرةٍ في البحر، فأرسل في طلبه، وكان

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٣١٠، والخبر في السنن الكبرى للنسائي (١٠٩٢٦)، وتفسير الطبري ٢/ ٣٢٤.

مَريداً فلم يقدروا عليه حتى وجدوه نائماً، فبنوا عليه بنياناً من رصاصٍ، فاستيقظ فأوثقوه وجاؤوا به إلى سليمان، فأمرَ فنُقِرَ له صندوقٌ من رخام، فأُدخل في جوفه، ثم سُدَّ بالنحاس، ثم أُمر به فَطُرِحَ في البحر.

وذُكر في سبب ذلك أنه عليه السلام كان قد غزا صيدون في الجزائر، فقتل مَلِكَها وأصاب ابنته، وهي جرادةُ المذكورة، فأَحَبَّها، وكان لا يرقأُ دَمْعُها جَزَعاً على أبيها، فأمرَ الشياطينَ فمثَّلوا لها صورته ـ وكان ذلك جائزاً في شريعته ـ وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها، يَسْجُدْنَ لها كعادتهنَّ في مُلْكه، فأخبرهُ آصَفُ[١] فَكَسَرَ الصورةَ وضَرَبَ المرأة، فعُوتب بذلك حيث تغافلَ عن حال أهله.

واختلف في اسم ذلك الشيطان، فعن السُّدِّي أنه حبقيق؛ وعن الأكثرين أنه صَخْرٌ، وهو المشهور، وإنما قال سبحانه: ﴿جَسَدًا﴾ لأنه إنما تمثَّلَ بصورة غيره، وهو سليمانُ عليه السلام، وتلك الصورةُ المتمثّلة ليس فيها روحُ صاحبها الحقيقيِّ، وإنما حَلَّ في قالبها ذلك الشيطان، فلذا سُمِّيتْ جَسَداً، وعبارة «القاموس»[٢] صريحةٌ في أنَّ الجَسَدَ يُطلَقُ على الجِنِّي.

وقال أبو حيان وغيره: إنَّ هذه المقالةَ من أوضاع اليهود وزنادقة السوفسطائية، ولا ينبغي لعاقلٍ أن يعتقدَ صِحَّةَ ما فيها، وكيف يجوزُ تمثُّلُ الشيطان بصورة نبيٍّ حتى يَلتبسَ أمرُهُ عند الناس، ويعتقدوا أنَّ ذلك المتصوَّر هو النبيّ، ولو أمكن وجودُ هذا لم يُوثَقْ بإرسال نبيٍّ، نسأل الله تعالى سلامة ديننا وعقولنا[٣].

ومن أقبح ما فيها زَعْمُ تسلُّط الشيطان على نساء نبيِّه، حتى وطئهنَّ وهُنَّ حُيَّضٌ. الله أكبرُ، هذا بهتانٌ عظيمٌ، وخَطْبٌ جسيم، ونسبةُ الخبر إلى ابن عباس رضي الله عنهما لا تسلم صِحَّتها، وكذا لا تسلمُ دعوى قوَّة سَنَده إليه، وإن قال بها مَن سمعت.

---

(١) آصَف: كاتب سليمان صلوات الله عليه، دعا بالاسم الأعظم فرأى سليمانُ العرش مستقراً عنده. القاموس المحيط (أصف).

(٢) مادة (جسد).

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٩٧.

وجاء عن ابن عباس برواية عبد الرزاق وابن المنذر[1] ما هو ظاهرٌ في أنَّ ذلك من أخبار كَعْب، ومعلومٌ أنَّ كعباً يرويه عن كتب اليهود، وهي لا يُوثَقُ بها، على أنَّ إشعارَ ما يأتي بأنَّ تسخيرَ الشياطين بعد الفتنة يأبى صِحَّةَ هذه المقالة كما لا يخفى، ثم إنَّ أمرَ خاتم سليمان عليه السلام في غاية الشهرة بين الخواصِّ والعوامِّ، ويُستبعد جدّاً أن يكون الله تعالى قد رَبَطَ ما أعطى نبيَّه عليه السلام من الملك بذلك الخاتم، وعندي أنه لو كان في ذلك الخاتم السِّرُّ الذي يقولون، لَذَكَرَهُ الله عزَّ وجلَّ في كتابه، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقال قوم: مَرِضَ سليمان عليه السلام مَرَضاً كالإغماء، حتى صار على كُرسيِّه كأنه جَسَدٌ بلا روح، وقد شاع قولهم في الضعيف: لَحْمٌ على وَضَم[2]، وجَسَدٌ بلا روح، فالجسدُ الملقى على الكرسيِّ هو عليه السلام نفسه. وروي ذلك عن أبي مسلم، وقال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى الصحة، وجعل «جَسَداً» حالاً من مفعول «ألقينا» المحذوف، كأنه قيل: ولقد فتنَّا سليمانَ - أي: ابتليناه وأمرضناه - وألقيناه على كرسِّيه ضعيفاً كأنه جَسَدٌ بلا روح، ثم رَجَعَ إلى صِحَّته. ولا يخفى سقمُهُ، والحقُّ ما ذُكر أولاً في الحديث المرفوع.

وعَطْفُ «أناب» بـ «ثم» وكان الظاهر الفاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾، قيل: إشارةٌ إلى استمرار إنابته وامتدادها، فإنَّ الممتَدَّ يُعطَفُ بها نظراً لأواخره، بخلاف الاستغفار، فإنه ينبغي المسارعةُ إليه، ولا امتدادَ في وقته.

وقيل: إنَّ العَطْفَ بـ «ثم» هنا لما أنه عليه السلام لم يعلم الداعي إلى الإنابة عَقيبَ وقوعه، وهذا بخلاف ما كان في قصة داود عليه السلام، فإنَّ العَطْفَ هناك على ظَنِّ الفتنة، واللائقُ به أن لا يُؤخِّر الاستغفارُ عنه. وقيل: العَطْفُ بها هنا لما أنَّ بين زمان الإنابة وأول زمان ما وقع منه عليه السلام من تَرْك الاستثناء مدَّةً

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ٣١٠.

(٢) الوَضَم: ما وقيتَ به اللحمَ عن الأرض من خشب وحصير. وتركهم لحماً على وضم: أوقعهم فذلَّلهم وأوجعهم. القاموس المحيط (وضم).

طويلة، وهي مُدَّةُ الحمل، وليس بين زمان استغفار داود عليه السلام وأول زمان ما وقع منه كذلك.

﴿قَالَ﴾ بدلٌ من «أناب» وتفسيرٌ له على ما في «إرشاد العقل السليم»(١)، وهو الظاهر. ويمكن أن يكون استئنافاً بيانياً نشأ من حكاية ما تقدَّم، كأنه قيل: فهل كان له حالٌ لا يضرُّ معه مَسْحُ الخيل سُوقها وأعناقها؟ وهل كان بحيثُ تقتضي الحكمةُ فتنته؟ فأُجيب بما أُجيب، وحاصله: نعم كان له حالٌ لا يضرُّ معه المَسْحُ، وكان بحيثُ تقتضي الحكمةُ فتنتهُ، فقد دعا بمُلْكٍ عظيمٍ فوُهِبَ له، ويمكن أن يُقرَّرَ الاستئنافُ على وجهٍ آخر، وكذا يمكن أن يكونَ استئنافاً نحوياً لحكاية شيءٍ من أحواله عليه السلام، فتأمل.

﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما لم أستحسنْ صدورَهُ عني.

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: لا يصحُّ لأحدٍ غيري لِعَظمته، فـ «بعد» هنا نظيرُ ما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي: غير الله تعالى، وهو أعمُّ من أن يكونَ الغيرُ في عَصْره، والمراد وَصْفُ الملك بالعَظَمة على سبيل الكناية، كقولك: لفلانٍ ما ليس لأحدٍ من الفَضْل والمال، وربما كان في الناس أمثالُهُ، تريدُ أنَّ له من ذلك شيئاً عظيماً، لا أن لا يُعطَى أحدٌ مثله ليكون منافسة.

وما أخرج عبد بن حميد والبخاريُّ ومسلمٌ والنسائيُّ، والحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول»، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ عفريتاً جعل يتفلَّتُ عليَّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ صلاتي، وإنَّ الله تعالى أمكنني منه، فلقد هَممْتُ أن أربطه إلى ساريةٍ من سواري المسجد حتى تُصبحوا فتنظروا إليه كلّكم، فَذَكَرْتُ قولَ أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فردَّهُ الله تعالى خاسئاً»(٢) لا ينافي ذلك؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أراد كمالَ رعايةِ دعوة

---

(١) ٧/ ٢٢٧.

(٢) صحيح البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١)، والنسائي في الكبرى (١١٣٧٦)، ونوادر الأصول ص١١١، وهو عند أحمد (٧٩٦٩).

أخيه سليمان عليه السلام بِتَرْكِ شيءٍ تضمَّنه ذلك المُلْك العظيم، وإلا فالمُلْكُ العظيمُ ليس مجرَّدَ رَبْطِ عفريتٍ إلى سارية، بل هو سائرُ ما تضمَّنه قوله تعالى الآتي: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ إلخ.

وقيل: إنَّ عَدَمَ المنافاة؛ لأنَّ الكنايَةُ تُجامعُ إرادةَ الحقيقةِ كما تُجامعُ إرادةَ عَدَمِها، ولعلَّه إنما طلب عليه السلام ذلك ليكونَ علامةً على قبول سؤاله المغفرةَ وجَبْرَ قَلْبٍ عمَّا فاته بتَرْكِ الاستثناء، أو ليتوصَّل به إلى تكثير طاعته لله عزَّ وجلَّ ونعمت الدنيا الصالحة للعبد الصالح، فلا إشكال في طَلَبِ الملك في هذا المقام إذا قلنا بما يقتضيه ظاهرُ النَّظْم الجليل من صدور الطَّلبين معاً.

وقال الزمخشريُّ: كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوَّة، ووارثاً لهما، فأراد أن يطلبَ من ربِّه عزَّ وجلَّ معجزةً، فطلب على حَسَبِ إلفه مُلْكاً زائداً على الممالك زيادةً خارقةً للعادة، بالغةً حَدَّ الإعجاز؛ ليكون ذلك دليلاً على نبوَّته، قاهراً للمبعوث إليهم، ولن تكون معجزةً حتى تخرقَ العادات، فذلك معنى: «لا ينبغي لأحد من بعدي»[1]. فقوله: «من بعدي» بمعنى: من دوني وغيري كما في الوجه السابق، وحُسْنُ طَلَبِ ذلك معجزةً مع قَطْع النَّظر عن الإلف أنه عليه السلام كان زمن الجبَّارين وتفاخرهم بالملك، ومعجزةُ كلِّ نبيٍّ من جنس ما اشتهر في عصره، ألا ترى أنه لمَّا اشتهر السِّحرُ وغَلَبَ في عهد الكليم عليه السلام، جاءهم بما يتلقَّفُ ما أتوا به، ولما اشتهر الطِّبُّ في عهد المسيح عليه السلام، جاءهم بإبراء الأكْمَه والأبرص وإحياء الموتى، ولما اشتهر في عهد خاتم الرسل ﷺ الفصاحة، أتاهم بكلامٍ لم يقدروا على أقْصَرِ فَصْلٍ من فصوله.

واعتُرض بأنَّ اللائقَ بطَلَبِ المعجزةِ أن يكون في ابتداء النبوَّة، وظاهرُ النَّظْم الجليل أنَّ هذا الطَّلَبَ كان بعد الفتنة والإنابة، كيف لا وقوله تعالى: «قال» إلخ بدلٌ من «أناب» وتفسيرٌ له، والفتنةُ لم تكنْ في الابتداء كما يُشعر به النَّظْمُ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٥.

وأجيب بأنَّا لا نُسلِّمُ أنَّ اللائقَ بطَلَبِ المعجزةِ كونها في ابتداء النبوَّة، وإن سُلِّمَ فليس في الآية ما ينافي وقوعه، وكذا وقوعُ الفتنة في ابتدائها لاسيَّما إن قلنا: إنَّ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ إلخ ليس تفسيراً لـ «أناب».

وأجيب على القول بأنَّ الفتنةَ كانت سَلْبَ الملك بأنَّ رجوعَهُ بعدُ كالابتداء.

وذكر بعضُ الذاهبين إلى ذلك أنه عليه السلام أقام في مُلْكه قبل الفتنة عشرينَ سنة، وأقام بعدها عشرينَ سنة أيضاً، وقالوا في هذه الآية: إنَّ مَصَبَّ الدعاء الوَصْفُ، فمعنى الآية: هَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ غيري ممن هو في عصري، بأنْ يسلبه مني كهذه السلبة. وروي هذا المعنى عن عطاء بن أبي رباح وقتادة، وحاصله الدعاء بعَدمِ سَلْبِ مُلْكه عنه في حياته، ويُفهم مما في سياق التفريع إجابةُ سؤاله عليه السلام، وأنَّ ما وُهِبَ له لا يُسلَبُ عنه بَعْدُ.

وجُوِّزَ أن يكونَ هذا دعاءً بِعَدَم السَّلْبِ، وإن لم يتقدَّم سَلْبٌ، ودوامُ نعمة الله عزَّ وجلَّ مما يَحْسُنُ الدعاءُ به، والآثار مَلأى من ذلك، فهذا الوجهُ لا يتعيَّنُ بناؤه على تفسير الفتنة بسَلْبِ الملك على ما حكي سابقاً.

وقال الجبائيُّ: إنه عليه السلام طَلَبَ مُلْكاً لا يكونُ لغيره أبداً، ولم يطلبْ ذلك إلا بعد الإذن، فإنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يطلبون إلا ما يؤْذَنُ لهم في طَلَبه، وجائزٌ أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه إن سأل ذلك كان أصلح له في الدين، وأعلمه أنْ لا صلاحَ لغيره فيه، وهو نظيرُ قول القائل: اللهم اجعلني أكثرَ أهل زماني مالاً إذا علمتَ أنَّ ذلك أصلح لي، فإنه حَسَنٌ لا يُنْسَبُ قائله إلى شُحٍّ. اهـ.

قيل: ويجوز أن يكونَ معنى الآية عليه: هَبْ لي مُلْكاً ينبغي لي حِكمةً، ولا ينبغي حِكمةً لأحدٍ غيري، وأراد بذلك طَلَب أن يكون عليه السلام متأهِّلاً لِنِعَمِ الله عزَّ وجلَّ. وهو كما ترى. وقيل غير ذلك.

ومن أعجبِ ما رأيتُ ما قاله السيد المرتضى: إنه يجوزُ أن يكونَ إنما سأل مُلْكَ الآخرة وثوابَ الجنة، ويكونُ معنى قوله: «لا ينبغي لأحدٍ من بعدي»: لا يستحقُّهُ بعدَ وصوله إليه من حيثُ لا يصحُّ أن يعمل ما يستحقُّ به ذلك لانقطاع

التكليف. ولا يخفى أنه مما لا يرتضيه الذوقُ، والتفريعُ الآتي آبٍ عنه كلَّ الإباء.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على بعض الأقوال المذكورة فيها على تكفير من ادَّعى استخدامَ الجِنِّ وطاعتهم له، وأُيِّدَ ذلك بالحديث السابق[1]، والحقُّ أنَّ استخدامَ الجِنِّ الثابت لسليمان عليه السلام لم يكنْ بواسطة أسماءٍ ورياضات، بل هو تسخيرٌ إلهيٌّ من غير واسطة شيءٍ، وكان أيضاً على وجهٍ أتمّ، وهو مع ذلك بعض الملك الذي استوهبه. فالمختصُّ على تقدير إفادة الآية الاختصاصَ مجموعُ ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا﴾ إلخ فالظاهرُ عدمُ إكفار مَنْ يدَّعي استخدامَ شيءٍ من الجِنِّ، ونحن قد شاهدنا مراراً مَنْ يدَّعي ذلك، وشاهدنا آثارَ صِدْقِ دعواه على وجهٍ لا يُنكرهُ إلا سوفسطائي أو مكابر.

ومن الاتفاقيات الغريبة أني اجتمعتُ يومَ تفسيري لهذه الآية برجلٍ مَوْصليٍّ يدَّعي ذلك، وامتحنتُهُ بما يُصدِّقُ دعواه في مَحْفَلٍ عظيم، ففعل وأتى بالعَجَبِ العُجاب، وكانت الأدلةُ على نفي احتمال الشَّعبذة ونحوها ظاهرةً لذوي الألباب، إلا أنَّ لي إشكالاً في هذا المقام، وهو أنَّ الخادمَ الجنيَّ قد يُحضِرُ الشيءَ الكثيفَ من نحو صندوقٍ مقفلٍ بين جَمْعٍ في حُجْرةٍ أُغلقت أبوابها، وسُدَّتْ منافذها، ولم يشعر به أحد، ووجهُ الإشكال أنَّ الجنيَّ لطيفٌ، فكيف سَتَرَ الكثيفَ فلم يُرَ في الطريق، وكيف أخرجه من الصندوق وأدخله الحُجْرةَ وقد سُدَّتِ[2] المنافذ، وتَلَطُّفُ الكثيف ثم تكثُّفه بَعْدُ مما لا يقبله إلا كثيفٌ أو سخيفٌ، ومثلُ ذلك كونُ الإحضار المذكور على نحو إحضار عَرْشِ بلقيس بالإعدام والإيجاد كما يقوله الشيخ الأكبر، أو بوجهٍ آخرَ من الإعجاز[3] كما يقول غيره، ولعلَّ الشرعَ أيضاً يأبى هذا، وسرعةُ المرور إن نفعتْ ففي عدم الرؤية في الطريق.

وقُصارى ما يقال: لعلَّ للجِنِّيِّ سِحْراً أو نحوه، سَلَبَ به الإحساسَ، فَتَصَرَّفَ بالصندوق ومنافذ الحُجْرة حَسْبَما أراد، وأتى بالكثيف يَحملهُ ولم يشعرْ به أحدٌ من

---

(١) وهو حديث العفريت الذي كان يتفلّت.

(٢) في (م): سددت.

(٣) قوله: من الإعجاز، ليس في (م).

الناس، فإنْ تَمَّ هذا فبها، وإلا فالأمرُ مُشكلٌ والله المتعال أعلم بحقيقة الحال[١].

وظاهر جَعْل جملة: «قال ربِّ اغفر لي» تفسيراً للإنابة يقتضي أنَّ الاستغفار مقصودٌ لذاته، لا وسيلةٌ للاستيهاب، وفي كون الاستيهاب مقصوداً لذاته أيضاً احتمالان.

وتقديمُ الاستغفار على تقدير كونهما مقصودين بالذات؛ لمزيد اهتمامه بأمر الدين، وقد يُجْعَلُ مع هذا وسيلةً للاستيهاب المقصود أيضاً، فإنَّ افتتاحَ الدعاء بنحو ذلك أرجى للإجابة، وجُوِّزَ على بُعْدٍ بَعْدَ التزام الاستئناف في الجملة كونُ الاستيهاب هو المقصود لذاته، والاستغفارُ وسيلة له، وسيجيءُ إن شاء الله تعالى ما قيل في الاستئناس له.

وقرئ: «من بعديَ» بفتح الياء[٢]، وحكي القراءة به في «لي»[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ تعليلٌ للدعاء بالمغفرة والهبة معاً، لا للدعاء بالأخيرة فقط، فإنَّ المغفرةَ أيضاً من أحكام وَصْف الوهَّابية قَطْعاً، ومَنْ جَوَّزَ كَوْنَ الاستيهاب هو المقصود استأنسَ له بهذا التعليل ظَنّاً منه أنه للدعاء بالأخيرة فقط، وكذا بِعَدَمِ التعرُّضِ لإجابة الدعاء بالأولى، فإنَّ الظاهرَ أنَّ قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ إلى آخره، تفريعٌ على طَلَبه مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، ولو كان الاستغفارُ مقصوداً أيضاً لقيل: فغفرنا له وسخَّرنا له الريح.. إلخ.

وأُجيب بأنه يجوزُ أن يقال: إنَّ المغفرة لمن استغفرَ - لا سيَّما الأنبياء عليهم السلام - لمَّا كانتْ أمراً معلوماً بخلاف هِبةِ مُلْكٍ لمن استوهبَ، لم يصرّح بها، واكتفى بدلالة ما ذُكر في حَيِّز الفاء، مع ما في الآية بعد على ذلك، وتَقوَى هذه الدلالة على تقدير أن يكونَ طلبُ الملك علامةً على قبول استغفاره وإجابة دعائه. فتأمل.

---

(١) قوله: والله المتعال أعلم بحقيقة الحال، ليس في (م).

(٢) وهي قراءة نافع وأبي عمرو وأبي جعفر، التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢.

(٣) ذكرها أبو السعود في تفسيره ٧/ ٢٢٧.

والتسخيرُ: التذليلُ، أي: فذلَّلناها لطاعته إجابةً لدعوته، وقيل: أَدَمْنا تذليلها كما كان.

وقرأ الحسنُ وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر: «الرياح» بالجمع[(١)]، قيل: وهو أَوفقُ؛ لِمَا شاع من أنَّ الريحَ تُستعمل في الشَّرِّ، والرياحُ في الخير، وقد علمتَ أنَّ ذلك ليس بمطَّرد.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ﴾ بيانٌ لتسخيرها له عليه السلام، أو حالٌ، أي: جاريةٌ بأمره.

﴿رُخَآءً﴾ أي: ليِّنةً من الرخاوة لا تُحرِّكُ لشدَّتها. واستشكل هذا بأنه ينافي قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] لوَصْفها ثمةَ بالشِّدَّة، وهنا باللِّين.

وأجيب بأنها كانتْ في أَصْلِ الخِلْقة شديدةً، لكنها صارتْ لسليمانَ لَيِّنةً سهلةً. أو أنها تشتدُّ عند الحمل وتلينُ عند السير، فَوُصِفَتْ باعتبار حالين. أو أنها شديدةٌ في نفسها، فإذا أراد سليمانُ عليه السلام لِينَها لانتْ على ما يُشير إليه قوله تعالى: «بأمره». أو أنها تلينُ وتعصفُ باقتضاء الحال.

وقال ابن عباس والحسن والضحاك: «رُخاءً»: مطيعةً لا تخالفُ إرادته، كالمأمور المنقاد، فالمرادُ بلينها انقيادُها له، وهو لا ينافي عَصْفَها، واللِّينُ يكون بمعنى الإطاعة، وكذا الصَّلابةُ تكون بمعنى العصيان.

﴿حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦﴾ أي: قَصَدَ وأراد، كما روي عن ابن عباس والضحاك وقتادة، وحكى الزجاج[(٢)] عن العرب: أصابَ الصَّوابَ فأخطأ الجواب. وعن رؤبةَ أنَّ رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة، فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طِلْبتُنا. ورجعا، ويقال: أصابَ الله تعالى بك خيراً، وأنشد الثعلبيُّ:

أصابَ الكلامَ فلم يستطعْ فأخطا الجوابَ لَدى المعضلِ[(٣)]

---

(١) النشر ٢/ ٢٢٣ عن أبي جعفر، والكلام من البحر المحيط ٧/ ٣٩٨.

(٢) كما في البحر ٧/ ٣٩٨، وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٧٥ عن الأصمعي.

(٣) البيت في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٦، وتفسير القرطبي ١٨/ ٢٠٨، والبحر ٧/ ٣٩٨، وعندهم: المفصل، بدل: المعضل.

وعن قتادة: أنَّ «أصاب» بمعنى أراد لغةُ هَجَر. وقيل: لغة حِمْير. وجُوِّزَ أن يكون «أصاب» من صابَ يصوبُ بمعنى نزل، والهمزةُ للتعدية، أي: حيث أنزل جنوده. و«حيث» متعلِّقةٌ بـ «سخَّرنا» أو بـ «تجري».

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عَطْفٌ على الريح ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ بدلٌ من «الشياطين»، وهو بدلُ كلٍّ من كلٍّ إن أُريد المعهودونَ المسخَّرون، أو أُريد مَنْ له قوَّةُ البناء والغَوص والتمكُّن منهما. أو بدلُ بعضٍ إن لم يُرَدْ ذلك، فيقدَّرُ ضميرٌ، أي: منهم. والغَوْصُ لاستخراج الحِلية، وهو عليه السلام - على ما قيل - أولُ من استخرجَ الدُّرَّ.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ عَطْفٌ على «كل» لا على «الشياطين»؛ لأنهم منهم، إلا أن يُراد العَهْدُ، ولا على ما أُضيف إليه «كل» لأنه لا يَحسُنُ فيه إلا الإضافةُ إلى مفردٍ منكَّرٍ أو جَمْعٍ مُعرَّفٍ.

والأصفاد جمع: صَفَدٍ، وهو القيدُ في المشهور، وقيل: الجامعة، أعني الغُلَّ الذي يجمعُ اليدين إلى العنق، قيل: وهو الأنسبُ بـ «مقرَّنين»؛ لأنَّ التَّقرينَ بها غالباً، ويُسمَّى به العطاء؛ لأنه ارتباطٌ للمنعَم عليه، ومنه قول عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: مَنْ بَرَّكَ فقد أَسَرَكَ، ومَنْ جفاك فقد أَطْلَقَكَ. وقول القائل: غَلَّ يداً مُطْلِقُها، وفكَّ رقبةً معتقُها، وقال أبو تمام[1]:

هِمَمي معلقةٌ عليك رقابُها ... مغلولةٌ إنَّ العطاءَ إسارُ

وتبعه المتنبي في قوله[2]:

وقيَّدتُ نفسي في ذَراك محبَّةً ... ومن وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تقيَّدَا

وفرَّقوا بين فعليهما، فقالوا: صَفَدَهُ: قيَّدهُ، وأَصْفَده: أعطاه، عكسُ وَعَدَهُ وأَوْعَده. ولهم في ذلك كلامٌ طويلٌ قال فيه الخفاجيُّ ما قال، ثم قال: والتحقيق عندي أنَّ هاهنا مادَّتين في كلٍّ منهما ضارٌّ ونافعٌ، وقليلُ اللَّفظ وكثيره، وقد وَرَدَ في إحداهما الضارُّ بلفظٍ قليلٍ مقدَّم، والنافعُ بلفظٍ كثيرٍ مؤخَّر، وفي الأخرى عكسُهُ،

(١) في ديوانه ٢/ ١٨١.
(٢) في ديوانه ٢/ ١٥.

ووجهُ في الأول أنه أمرٌ واقعٌ؛ لأنه وُضِعَ للقيد، ثم أُطلق على العطاء؛ لأنه يُقيِّدُ صاحبه، وعُبِّرَ بالأقلِّ في القيد لضيقه المناسب لِقِلَّةِ حروفه، وبالأكثر في العطاء؛ لأنه من شأن الكرم، وقُدِّمَ الأولُ لأنه أصلٌ أخفّ، وعُكِسَ ذلك في وَعَدَ وأَوْعَدَ، فعبّر في النافع بالأقلِّ وقدّمَ، وأخّرَ الضارّ وكثّر حروفه؛ لأنه مستقبلٌ غيرُ واقع، والخيرُ الموعودُ به يُحمد سرعة إنجازه وقلّة مدَّة وقوعه، فإن أهنأ البِرِّ عاجله، وهذا يناسبُ قِلَّةَ حروفه، وفي الوعيد يُحمَدُ تأخيره لِحُسْنِ الخلف والعفو عنه، فناسَبَ كثرة حروفه، ثم قال: وهذا تحقيقٌ في غاية الحُسْنِ، وما عداهُ وَهْمٌ فارغٌ فاعرفه[1].

والمراد بهؤلاء المقرَّنين المَرَدةُ، فتفيدُ الآيةُ تفصيلَ الشياطين إلى عَمَلَةٍ استعملهم عليه السلام في الأعمال الشاقَّة؛ كالبناء والغَوْص، ومَرَدةٍ قَرَنَ بعضَهم ببعضٍ بالجوامع ليكفُّوا عن الشَّرِّ، وظاهره أنَّ هناك تقييداً حقيقةً، وهو مشكلٌ لأنَّ الشياطينَ إما أجسامٌ ناريةٌ لطيفةٌ قابلةٌ للتشكُّل، وإما أرواحٌ خبيثةٌ مجرَّدةٌ، وأيًّاما كان لا يمكنُ تقييدها ولا إمساكُ القيد لها.

وأُجيبَ باختيار الأول، وهو الصحيح، والأصفاد غيرُ ما هو المعروف، بل هي أصفادٌ يتأتَّى بها تقييدُ اللَّطيف على وجهٍ يمنعه عن التصرُّف، والأمر من أوَّله خارقٌ للعادة.

وقيل: إنَّ لَطَافةَ أجسامهم بمعنى شفافتها، والشفافةُ لا تأبى الصَّلابة؛ كما في الزُّجاج والفَلَكِ عند الفلاسفة، فيمكنُ أن تكونَ أجسامهم شفافةً وصُلْبةً، فلا تُرى لشفافتها، ويتأتَّى تقييدُها لصلابتها، وأنكر بعضُهم الصلابةَ؛ لتحقُّق نفوذ الشياطين فيما لا يمكنُ نفوذُ الصُّلب فيه، وأنهم لا يُدرَكون باللَّمس والصُّلْبُ يُدرَكُ به.

وقيل: لا مانع من أنه عليه السلام يُقيِّدهم بشكلٍ صلب، فيقيِّدهم حينئذٍ بالأصفاد، والشيطانُ إذا ظَهَرَ متشكِّلاً بشكلٍ قد يتقيَّدُ به، ولا يمكنه التشكُّل بغيره، ولا العَوْدُ إلى ما كان، وقد نصَّ الشيخُ الأكبر محيي الدين قُدِّسَ سِرُّهُ أنَّ نظر

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٣.

الإنسانِ يقيِّدُ الشيطانَ بالشكل الذي يراه فيه، فمتى رأى الإنسانُ شيطاناً بشكلٍ ولم يَصْرِفْ نَظَرَهُ عنه بالكلية لم يستطع الشيطانُ الخفاءَ عنه، ولا التشكُّلَ بشكلٍ آخرَ، إلى أن يجدَ فرصة صَرْفِ النظر عنه ولو برمشة عين.

وزعم الجبائيُّ أنَّ الشيطانَ كان كثيفَ الجسم في زمن سليمان عليه السلام ويُشاهده الناس، ثم لما تُوفِّيَ عليه السلام أماتَ الله عزَّ وجلَّ ذلك الجِنَّ وخَلَقَ نوعاً آخرَ لطيفَ الجسم، بحيثُ لا يُرى ولا يَقوى على الأعمال الشاقَّة.

وهذا لا يُقبَلُ أصلاً إلا بروايةٍ صحيحة، وأنَّى هي؟!

وقيل: الأقرب أنَّ المرادَ تمثيلُ كَفِّهم عن الشرور بالإقران في الصَّفَد، وليس هناك قيدٌ ولا تقييدٌ حقيقة.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ إما حكايةٌ لما خُوطب به سليمان عليه السلام مبيِّنةٌ لِعِظَم شأن ما أوتي من الملك، وأنه مُفوَّضٌ إليه تفويضاً كُليّاً، وإما مقولٌ لقولٍ مُقَدَّرٍ هو معطوفٌ على «سخَّرنا» أو حالٌ من فاعله، أي: وقلنا، أو: قائلين له هذا.. إلخ، والإشارة إلى ما أعطاه مما تقدَّم، أي: هذا الذي أعطيناكَهُ من الملك العظيم والبَسْطة، والتسليط على ما لم يُسَلَّطْ عليه غيرُكَ، عطاؤنا الخاصُّ بك، فأَعْطِ مَنْ شِئْتَ وامنعْ مَنْ شِئْتَ غيرَ مُحاسَبٍ على شيءٍ من الأمرين، ولا مسؤول عنه في الآخرة، لتفويض التصرُّف فيه إليك على الإطلاق، فـ «بغير حسابٍ» حالٌ من المستكنِّ في الأمر، والفاءُ جزائيةٌ، و«هذا عطاؤنا» مبتدأٌ وخبرٌ، والإخبارُ مفيدٌ لما أشرنا إليه من اعتبار الخصوص، أي: عطاؤنا الخاصُّ بك، أو يقال: إنَّ ذِكْرَهُ ليس للإخبار به، بل ليترتَّبَ عليه ما بعده كقوله:

هــذه دارُهــمْ وأنــت مــشــوقٌ ... مــا بــقــاءُ الــدمــوع فــي الآمــاق[1]

وجُوِّزَ أن يكون «بغير حساب» حالاً من العطاء نحو: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] أي: هذا عطاؤنا متلبِّساً بغير حسابٍ عليه في الآخرة، أو: هذا عطاؤنا

(١) البيت في المدهش ص١٤٧ منسوباً للشبلي.

كثيراً جدّاً لا يُعَدُّ ولا يُحْسَبُ لغاية كثرته، وأن يكونَ صِلَةَ العطاء، واعتبره بعضهم قيداً له لتتمَّ الفائدة، ولا يحتاجُ لاعتبار ما تقدَّم، وعلى التقديرين ما في البين اعتراضٌ، فلا يضرُّ الفصلُ به، والفاء اعتراضيةٌ، وجاء اقترانُ الاعتراض بها كما جاء بالواو كقوله:

واعلَمْ فعِلْمُ المرءِ ينفعُهُ أن سوفَ يأتي كلّ ما قُدِرا[١]

وقيل: الإشارةُ إلى تسخير الشياطين، والمراد بالمَنِّ والإمساك إطلاقهم وإبقاؤهم في الأصفاد، والمَنُّ قد يكونُ بمعنى الإطلاق كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:٤] والأولى في قوله تعالى: «بغير حساب» حينئذٍ كونه حالاً من المستكنِّ في الأمر، وهذا القولُ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٢].

وما روي عنه من أنه إشارةٌ إلى ما وُهِبَ له عليه السلام من النساء والقدرة على جماعهنَّ، لا يكاد يصحُّ؛ إذ لم يجرِ لذلك ذِكْرٌ في الآية، وإلى الأول ذهب الجمهور وهو الأظهر.

وقرأ ابن مسعود: «هذا فامننْ أو أمسك عطاؤنا بغير حساب»[٣].

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لَقُرْبَةً وكرامةً مع ما لَهُ من الملك العظيم، فهو إشارةٌ إلى أنَّ مُلْكَهُ لا يضرُّهُ ولا ينقصه شيئاً من مقامه.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ حُسْنَ مَرْجِعٍ في الجنة، وهو عَطْفٌ على «زلفى».

وقرأ الحسن وابن أبي عبلة: «وحُسْنُ» بالرفع[٤]، على أنه مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ، أي: له، والوقفُ عندهما على «لَزُلفى».

هذا، وأَمْرُ سليمانَ عليه السلام من أعظم الأمور، وكان مع ما آتاه الله تعالى

(١) سلف ١/٤٢٨.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/١٠٢، والدر المنثور ٥/٣١٥.
(٣) الكشاف ٣/٣٧٦.
(٤) البحر المحيط ٧/٣٩٩.

من الملك العظيم، يعملُ الخُوصَ بيده، ويأكلُ خبزَ الشعير، ويُطعم بني إسرائيل الحُوَّارَى، أخرجه أحمد في «الزهد»(١) عن عطاء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما رَفَعَ سليمان عليه السلام طَرْفه إلى السماء تخشُّعاً»(٢) حيث أعطاه الله تعالى ما أعطاه، وكان في عَصْره من ملوك الفرس كيخسرو، فقد ذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري في «تاريخه» أنه عليه السلام وَرِثَ مُلْكَ أبيه في عصر كيخسرو بن سباوش، وسار من الشام إلى العراق فبلغ خبره كيخسرو، فهرب إلى خراسان، فلم يلبثْ حتى هلك، ثم سار سليمانُ إلى مروٍ، ثم إلى بلاد التُّرك، فوغل فيها، ثم جاوَزَ بلادَ الصين، ثم عطف إلى أن وافى بلادَ فارس، فنزلها أياماً، ثم عاد إلى الشام، ثم أَمَرَ ببناء بيت المقدس، فلما فَرَغَ سارَ إلى تهامة، ثم إلى صنعاء، وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكره الله تعالى، وغزا بلادَ المغرب الأندلسَ وطَنْجة وغيرهما، ثم انطوى البساطُ وضُرب له بين عساكر الموتى الفسطاط، فسبحان الملك الدائم الذي لا يزول ملكه ولا ينقضي سلطانه.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ قال ابن إسحاق: الصحيح أنه كان من بني إسرائيل، ولم يصحَّ في نَسَبه شيءٌ غير أنَّ اسم أبيه: أموص، وقال ابن جرير: هو أيوبُ بن أموص بن رازح(٣) بن عَيص بن إسحاق عليه السلام، وحكى ابن عساكر(٤) أنَّ أمه بنتُ لوطٍ، وأنَّ أباه ممن آمنَ بإبراهيم، فعلى هذا كان عليه السلام قبل موسى، وقال ابن جرير: كان بعد شعيب(٥)، وقال ابن أبي خيثمة: كان بعد سليمان.

وقوله تعالى: «اذكر» إلخ عَطْفٌ على «اذكر عبدنا داود»، وعدمُ تصدير قصة سليمان عليه السلام بهذا العنوان؛ لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام،

---

(١) ص١١٥. والخوص: ورق النخل. والحُوَّارى: الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق، وكلُّ ما حُوِّرَ ـ أي: بُيِّضَ ـ من طعام. القاموس المحيط (خوص) و(حور).
(٢) الدر المنثور ٥/ ٣١٤.
(٣) في الأصل: روح، وفي (م): روم. والمثبت من تاريخ الطبري ١/ ٣٢٢.
(٤) في تاريخ دمشق ١٠/ ٥٨.
(٥) تاريخ الطبري ١/ ٣٢٥.

و«أيوب» عَطْفُ بيانٍ لـ «عبدنا»، أو بدلٌ منه بدلَ كلٍّ من كلٍّ، وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدلُ اشتمال منه، أو من «أيوب».

﴿أَنِّي﴾ أي: بأني.

وقرأ عيسى بكَسْر همزة: «إِنِّي»[(١)].

﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ وقرئ بإسكان ياء «مسّني» وإسقاطها[(٢)] ﴿بِنُصۡبٍ﴾ بضمِّ النون وسكون الصاد: التعب، كالنَّصَب بفتحتين، وقيل: هو جَمْعُ نَصَبٍ كَوَثَنٍ وَوُثْنٍ. وقرأ أبو جعفر وشيبة، وأبو عمارة عن حفص، والجعفيُّ عن أبي بكر، وأبو معاذ عن نافع بضمَّتين[(٣)]، وهي لغة، ولا مانع من كون الضمة الثانية عارضةً للإتباع، وربما يقال: إنَّ في ذلك رمزاً إلى ثِقَل تعبه وشِدَّته.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ والحسنُ والسديُّ وابنُ أبي عبلةَ ويعقوبُ والجحدريُّ بفتحتين[(٤)]، وهي لغةٌ أيضاً، كالرُّشْدِ والرَّشَد.

وقرأ أبو حيوةَ، ويعقوب في روايةٍ، وهبيرة عن حفص، بفتح النون وسكون الصاد، قال الزمخشريُّ[(٥)]: على أصل المصدر. ونصَّ ابنُ عطيةَ على أنَّ ذلك لغة أيضاً، قال بعد ذكر القراءات: وذلك كلُّه بمعنًى واحد، وهو المشقَّةُ، وكثيراً ما يُستعمل النصب في مشقَّة الإعياء. وفرَّق بعضُ الناس بين هذه الألفاظ، والصوابُ أنها لغاتٌ بمعنًى، من قولهم: أنصبني الأمرُ: إذا شَقَّ عليَّ[(٦)]. انتهى.

والتنوينُ للتفخيم، وكذا في قوله تعالى ﴿وَعَذَابٍ ۝٤١﴾ وأراد به الألم، وهو المراد بالضُّرِّ في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقيل: النُّصب والضُّرُّ في الجسد، والعذابُ في الأهل والمال.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٧، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٠.
(٢) يعني في الوصل، وقراءة إسكان الياء لحمزة، وهي في التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢.
(٣) النشر ٢/ ٣٦١ عن أبي جعفر، والكلام من البحر المحيط ٧/ ٤٠٠.
(٤) النشر ٢/ ٣٦١ عن يعقوب، والكلام من البحر المحيط ٧/ ٤٠٠.
(٥) في الكشاف ٣/ ٣٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٤٠٠.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٧، والبحر ٧/ ٤٠٠.

وهذا حكايةٌ لكلامه عليه السلام الذي نادى به ربَّه عزَّ وجلَّ بعبارته، وإلا لقيل: إنه مَسَّه.. إلخ بالغَيبة. وإسنادُ المَسِّ إلى الشيطان قيل: على ظاهره، وذلك أنه - عليه اللَّعنةُ - سَمِعَ ثناءَ الملائكة عليهم السلام على أيوبَ عليه السلام، فَحَسَدَهُ، وسأَلَ الله تعالى أن يُسلِّطَهُ على جَسَده وماله وولده، ففعل عزَّ وجلَّ ابتلاءً له، والقصةُ مشهورة.

وفي بعض الآثار أنَّ الماسَّ له شيطانٌ يقال له: مسوط.

وأنكر الزمخشريُّ ذلك فقال: لا يجوز أن يُسلِّطَ الله تعالى الشيطانَ على أنبيائه عليهم السلام ليقضيَ من إتعابهم وتعذيبهم وَطَرَهُ، ولو قَدر على ذلك لم يَدَعْ صالحاً إلا وقد نَكَبهُ وأهلكَهُ، وقد تكرَّرَ في القرآن أنه لا سُلطانَ له إلا الوسوسةُ فحسبْ، وجَعَلَ إسنادَ المسِّ إليه هنا مجازاً فقال: لمَّا كانتْ وسوستهُ إليه وطاعتهُ له فيما وَسْوَسَ سبباً فيما مَسَّهُ الله تعالى به من النصب والعذاب نَسَبَهُ إليه، وقد راعى عليه السلام الأدبَ في ذلك حيث لم ينسبهُ إلى الله سبحانه في دعائهِ مع أنه جلَّ وعلا فاعِلُه، ولا يَقْدِرُ عليه إلا هو[1].

وهذه الوسوسة، قيل: وسوسته إليه عليه السلام أن يسألَ الله تعالى البلاءَ ليمتحنَ ويُجرِّبَ صبرهُ على ما يصيبه، كما قال شرفُ الدين عمر بن الفارض[2]:

وبما شئتَ في هواكَ اختبرني ... فاختياري ما كان فيه رضاكا

وسؤاله البلاءَ دون العافية ذنبٌ بالنسبة لمقامه عليه لا حقيقةً، والمقصودُ من ندائه بذلك الاعترافُ بالذنب.

وقيل: إنَّ رجلاً استغاثه على ظالمٍ، فَوَسْوَسَ إليه الشيطانُ بتَرْكِ إغاثته، فلم يُغِثْهُ، فمسَّهُ الله تعالى بسبب ذلك بما مسَّه.

وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملكٍ كافرٍ، فداهنه ولم يغزهُ وسوسةً من الشيطان، فعاتبه الله تعالى بالبلاء.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٦.

(٢) في ديوانه ص١٥٦.

وقيل: وَسْوَسَ إليه فأُعجبَ بكثرة ماله وولده، فابتلاه الله تعالى لذلك.

وكلٌّ هذه الأقوال عندي متضمِّنةٌ ما لا يليق بمنصبِ الأنبياء عليهم السلام.

وذهب جَمْعٌ إلى أنَّ النُّصب والعذابَ ليسا ما كانا له من المرض والألم، أو المرض وذهاب الأهل والمال، بل أمران عَرَضا له وهو مريضٌ فاقد الأهل والمال، فقيل: هما ما كانا له من وسوسة الشيطان إليه في مرضه من عِظَمِ البلاء والقنوط من الرحمة والإغراء على الجزع، كان الشيطان يوسوس إليه بذلك، وهو يُجاهده في دَفْعِ ذلك، حتى تَعِبَ وتألَّم على ما هو فيه من البلاء، فنادى ربَّهُ يستصرفُهُ عنه، ويستعينهُ عليه: «أني مسَّنِيَ الشيطانُ بِنُصبٍ وعذاب».

وقيل: كانا من وسوسة الشيطان إلى غيره، فقيل: إنَّ الشيطانَ تعرَّضَ لامرأته بصورة طبيب، فقالت له: إنَّ هاهنا مبتلًى، فهل لك أن تداويه؟ فقال: نعم، بشرط أن يقول إذا شفيتُهُ: أنت شفيتني. فمالتْ لذلك وعَرَضَتْ كلامه لأيوبَ عليه السلام، فعرفَ أنه الشيطانُ، وكان عليه ذلك أشدّ مما هو فيه، فنادى ربَّه: «أني مسني» إلخ.

وقيل: إنَّ الشيطانَ طلب منها أن تذبحَ لغير الله تعالى إذا عالجه وبَرِئَ، فمالتْ لذلك، فَعَظُمَ عليه ـ عليه السلام ـ الأمرُ فنادى.

وقيل: إنه كان يعودهُ ثلاثةٌ من المؤمنين، فارتدَّ أحدهم، فسأل عنه فقيل له: ألقى إليه الشيطانُ أنَّ الله تعالى لا يبتلي الأنبياءَ والصالحين، فتألَّم من ذلك جدّاً فقال ما قال. وفي روايةٍ: مَرَّ به نفرٌ من بني إسرائيل، فقال بعضُهم لبعض: ما أصابه هذا إلا بذنبٍ أصابه، وهذا نوعٌ من وسوسة الشيطان، فَعَظُمَ عليه ذلك فقال ما قال.

والإسنادُ على جميع ما ذُكر باعتبار الوسوسة، وقيل غير ذلك، والله تعالى أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ إما حكايةٌ لما قيل له، أو مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ معطوفٍ على «نادى»، أي: فقلنا له: «اركضْ برجلك» أي: اضربْ بها.

وكذا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ فإنه أيضاً إما حكايةٌ لِمَا قيل له بعد امتثاله بالأمر ونبوع الماء، أو مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ معطوفٍ على مقدَّرٍ ينساقُ إليه الكلام، كأنه قيل: فَضَرَبها فنبعتْ عينٌ، فقلنا له: هذا مغتَسَلٌ تغتسلُ به وتشربُ منه، فيبرأُ ظاهركَ وباطنك، فالمغتسَلُ اسمُ مفعولٍ على الحذف والإيصال، وكذا الشراب، وعن مقاتلٍ: أنَّ المغتسَلَ اسمُ مكان، أي: هذا مكانٌ تغتسلُ فيه. وليس بشيء.

وظاهرُ الآية اتحادُ المخبَر عنه بمغتسلٍ وشراب، وقيل: إنه عليه السلام ضَرَبَ برجله اليمنى، فنبعتْ عينٌ حارَّةٌ فاغتسلَ منها، وبرجله اليسرى، فنبعتْ باردةٌ فشرب منها. وقال الحسن: رَكَضَ برجله فنبعتْ عينٌ فاغتسل منها، ثم مشى نحواً من أربعينَ ذراعاً، ثم رَكَضَ برجله، فنبعتْ أخرى فشربَ منها. ولعلَّه عَنَى بالأولى عيناً حارَّةً.

وظاهرُ النَّظْمِ عدمُ التعدُّد، و«باردٌ» على ذلك صفةُ «شراب» مع أنه مقدَّمٌ عليه صفة «مغتسل»[1]، وكونُ هذا إشارةً إلى جنس النابع، أو يُقدَّرُ: وهذا باردٌ.. إلخ = تكلُّفٌ لا يُخرج ذلك عن الضعف.

وقيل: أُمر بالرَّكْضِ بالرِّجْل ليتناثرَ عنه كلُّ داءٍ بجسده. وكان ذلك على ما روي عن قتادة والحسن ومقاتل بأرض الجابية من الشام، وفي الكلام حَذْفٌ أيضاً، أي: فاغتسلَ وشَرِبَ، فكشفنا بذلك ما به من ضُرّ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ بإحيائهم بعد هلاكهم، على ما روي عن الحسن.

وروى الطبرسيُّ عن أبي عبد الله رضي الله عنه أنَّ الله تعالى أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البليَّة، وأهله الذين ماتوا وهو في البليَّة[2].

وفي «البحر»: الجمهورُ على أنه تعالى أحيا له مَنْ ماتَ من أهله، وعافى المرضى، وجَمَعَ عليه مَنْ تشتَّتَ منهم، وقيل ـ وإليه أميلُ ـ: وَهَبَهُ مَنْ كان حيّاً منهم،

---

(١) العبارة في حاشية الشهاب ٧/ ٣١٤ (والكلام منه): مع أنه تقدَّم عليه صفةً لـ «مغتسَل». وهي أنسب بالسياق.

(٢) مجمع البيان ٢٣/ ١١٩.

وعافاه من الأسقام، وأرغدَ لهم العيش، فتناسلوا حتى بلغَ عددهم عددَ من مضى[(١)].

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فكان له ضِعْفُ ما كان. والظاهرُ أنَّ هذه الهبةَ كانت في الدنيا، وزعم بعضٌ أنَّ هذا وَعْدٌ، وتكونُ تلك الهبةُ في الآخرة.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: لرحمةٍ عظيمةٍ عليه من قِبَلنا.

﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾﴾ وتذكيراً لهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبرَ، ويلجؤوا إلى الله تعالى فيما يُصيبهم كما لجأ، ليفعل سبحانه بهم ما فعل به من حُسْن العاقبة.

رُوي عن قتادةَ أنه عليه السلام ابتلي سبعَ سنين وأشهراً، وأُلقي على كُناسة بني إسرائيل، تختلفُ الدوابُّ في جَسَده، فَصَبَرَ، ففرَّجَ الله تعالى عنه، وأعظمَ له الأجر وأحسن.

وعن ابن عباس أنه صار ما بين قدميه إلى قَرْنه قرحةً واحدة، وأُلقي على الرماد حتى بدا حجابُ قلبه، فكانت امرأته تسعى إليه فقالت له يوماً: أما ترى يا أيوبُ، قد نزل بي والله من الجهد والفاقة ما إن بِعْتُ قروني برغيفٍ فأطعمتك، فادعُ الله تعالى أن يشفيكَ ويريحك؟ فقال: ويحكِ كنَّا في النعيم سبعين عاماً، فاصبري حتى نكونَ في الضُّرِّ سبعين عاماً. فكان في البلاء سبعَ سنين، ودعا فجاء جبريلُ عليه السلام فأخذَ بيده، ثم قال: قُمْ، فقام عن مكانه، وقال: اركضْ برجلكَ هذا مغتسلٌ باردٌ وشراب، فاغتسلَ وشربَ فبرئ، وألبسه الله تعالى حُلَّةً من الجنة، فتنحَّى فجلس في ناحية، وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت: يا عبد الله أين المبتلَى الذي كان هاهنا؟ لعلَّ الكلابَ ذهبت به أو الذئاب، وجعلتْ تكلِّمهُ ساعةً، فقال: ويحكِ أنا أيوب، قد رَدَّ الله تعالى عليَّ جسدي. وردَّ الله تعالى عليه ماله وولده ومثلهم معهم، وأمطرَ عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذُ الجرادَ بيده ويجعله في ثوبه، وينشر كساءه فيجعل فيه، فأوحى الله تعالى إليه: يا أيوب، أما شبعتَ؟ قال: يا ربِّ من الذي يشبعُ من فضلك ورحمتك.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠١.

وفي «البحر»: روى أنس عن النبيِّ ﷺ: «أن أيوبَ بقي في محنته ثماني عشرةَ سنة، يتساقط لحمهُ حتى مَلَّه العالم، ولم يصبرْ عليه إلا امرأته»[1].

وعِظَمُ بلائه عليه السلام مما شاع وذاع، ولم يختلفْ فيه اثنان، لكن في بلوغ أمره إلى أن أُلقي على كُناسة ونحو ذلك، فيه خلافٌ؛ قال الطبرسيُّ: قال أهل التحقيق: إنه لا يجوز أن يكونَ بصفةٍ يستقذرهُ الناس عليها؛ لأنَّ في ذلك تنفيراً، فأما الفقرُ والمرضُ وذهابُ الأهل، فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك[2].

وفي «هداية المريد» لِلَّقاني: أنه يجوز على الأنبياء عليهم السلام كلُّ عَرَضٍ بشريٍّ ليس محرَّماً ولا مكروهاً ولا مباحاً مُزْرِياً ولا مُزْمِناً، ولا مما تَعَافُه الأنفُسُ، ولا مما يؤدِّي إلى النفرة، ثم قال بعد ورقتين: واحترزنا بقولنا: ولا مزمناً ولا مما تعافه الأنفس، عمَّا كان كذلك؛ كالإقعاد والبَرَصِ والجُذام والعمى والجنون، وأما الإغماءُ فقال النوويُّ: لاشكَّ في جوازه عليهم؛ لأنه مرضٌ، بخلاف الجنون فإنه نَقْصٌ، وقيَّدَ أبو حامد الإغماءَ بغير الطويل، وجزمَ به البلقيني، وقال السبكيُّ: وليس كإغماء غيرهم؛ لأنه إنما يسترُ حواسَّهم الظاهرةَ دون قلوبهم؛ لأنها معصومةٌ من النوم الأخف. قال: ويمتنعُ عليهم الجنونُ وإن قلَّ؛ لأنه نَقْصٌ، ويلحقُ به العَمى، ولم يَعْمَ نبيٌّ قطُّ، وما ذُكر عن شعيبٍ من كونه كان ضريراً لم يثبتْ، وأما يعقوبُ فحصلتْ له غشاوةٌ وزالت. اهـ.

وفرَّقَ بعضُهم في عُروضِ ذلك بين أن يكونَ بعد التبليغ وحصول الغرض من النبوَّة فيجوز، وبين أن يكونَ قبلُ فلا يجوز.

ولعلَّكَ تختارُ القول بحِفْظِهم مما تعافه النفوس ويؤدِّي إلى الاستقذار والنفرة مطلقاً، وحينئذٍ فلا بدَّ من القول بأنَّ ما ابتلي به أيوبُ عليه السلام لم يصلْ إلى حَدِّ الاستقذار والنفرة كما يُشعرُ به ما روي عن قتادة ونقله القُصَّاصُ في كتبهم، وذكر بعضُهم أنَّ داءهُ كان الجُدَريَّ، ولا أعتقدُ صِحَّة ذلك، والله تعالى أعلم.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠٠، وينظر حديث أنس عند البزار (٢٣٥٧ - كشف)، وابن حبان (٢٨٩٨).

(٢) مجمع البيان ٢٣/ ١١٨.

وقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ عَطْفٌ على «اركض»، أو على «وهبنا» بتقدير: قلنا خُذْ بيدك.. إلخ. والأول أقربُ لَفْظاً، وهذا أنسبُ معنًى، فإنَّ الحاجةَ إلى هذا الأمر لا تمسُّ إلا بعد الصحة واعتدال الوقت، فإنَّ امرأته رحمة بنت إفرائيم ـ أو: ميشا[1] ـ بن يوسف، أو: ليا بنت يعقوب، أو: ماخير بنت ميشا بن يوسف، على اختلاف الروايات، ولا يخفى لُطْفُ «رحمة منَّا» على الرواية الأولى = ذهبت لحاجةٍ فأبطأت، أو بلَّغتْ أيوب عن الشيطان أن يقول كلمةً محذورةً فيبرأ، وأشارت عليه بذلك، فقالت له: إلى متى هذا البلاءُ، كلمةٌ واحدةٌ ثم استغفِرْ ربَّك فيغفرُ لك؟! أو جاءته بزيادةٍ على ما كانت تأتي به من الخبز، فظنَّ أنها ارتكبتْ في ذلك محرَّماً، فحلف ليضربنَّها إن برئَ مئةَ ضربة، فأمره الله تعالى بأَخْذِ الضِّغثِ، وهو الحزمةُ الصغيرةُ من حشيشٍ أو ريحانٍ أو قُضبان، وقيل: القبضةُ الكبيرةُ من القُضبان، ومنه: ضِغْثٌ على إبَّالة[2]. والإبَّالةُ: الحزمةُ من الحطب، والضِّغثُ: القبضةُ من الحطب أيضاً عليها، ومنه قول الشاعر:

وأسفلَ مني نَهْدةً قد ربطتُها والقيتُ ضِغْثاً من خَلًى متطيِّبِ[3]

وقال ابن عباس هنا: الضِّغْثُ: عِثكال النخل. وقال مجاهد: الأَثْلُ، وهو نبتٌ له شوك. وقال الضحاك: حُزْمةٌ من الحشيش مختلفة. وقال الأخفش: الشجرُ الرطب. وعن سعيد بن المسيب أنه عليه السلام لما أُمرَ أَخَذَ ضِغْثاً من ثُمام[4] فيه مئةُ عود. وقال قتادة: هو عودٌ فيه تسعةٌ وتسعونَ عوداً، والأصلُ تمامُ المئة. فإنْ كان هذا معتبراً في مفهوم الضِّغثِ ـ ولا أظنُّ ـ فذاك، وإلا فالكلام على إرادة

---

(١) كذا في الأصل، وفي (م): مشيا، وينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣١٤، والإعلام بأصول الأعلام ص ١٥٩-١٦٠.

(٢) مثل يضرب لمن حمَّلك مكروهاً ثم زادك عليه. ينظر مجمع الأمثال ١/ ٤١٩، والمستقصى ٢/ ١٤٨.

(٣) البيت في تفسير الطبري ٢٠/ ١١١، ومجاز القرآن ٢/ ١٨٥ عن عوف بن الخرع، وهو في البحر المحيط ٧/ ٣٩٩ دون نسبة.

(٤) الثمام: عشب من الفصيلة النجيلية. المعجم الوسيط (ثمم).

المئة، فكأنه قيل: خُذْ بيدكَ ضِغْثاً فيه مئة عود ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ أي: بذلك الضغث ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ بيمينك فإنَّ البِرَّ يتحقَّقُ به.

ولقد شَرَعَ الله تعالى ذلك رحمةً عليه وعليها؛ لحُسْنِ خِدْمتها إياه ورضاه عنها، وهي رُخْصَةٌ باقيةٌ في الحدود في شريعتنا، وفي غيرها أيضاً، لكن غير الحدود يُعلَمُ منها بالطريق الأولى، فقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن أبي أمامةَ بن سهل بن حنيف قال: حملتْ وليدةٌ في بني ساعدة من زنًى، فقيل لها: ممنْ حَمْلُكِ؟ قالت: من فلانٍ المقعَد، فسُئل المقعدُ فقال: صدقتْ. فرُفِعَ ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «خذوا عُثْكُولاً فيه مئةُ شِمراخٍ، فاضربوه به ضربةً واحدة» ففعلوا[1].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن محمد بن عبد الرحمن عن ثوبان أنَّ رجلاً أصابَ فاحشةً على عهد رسول الله ﷺ وهو مريضٌ على شفا موت، فأَخبر أهلَهُ بما صنع، فأمر النبيُّ ﷺ بقِنْوٍ فيه مئة شِمراخٍ، فضُرب به ضربةً واحدة[2].

وأخرج الطبرانيُّ عن سهل بن سعد أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أُتي بشيخ قد ظهرتْ عروقه، قد زنى بامرأةٍ، فضربه بضِغْثٍ فيه مئة شِمراخٍ ضربةً واحدة[3].

ولا دلالة في هذه الأخبار على عمومِ الحُكم مَنْ يُطيقُ الجلدَ المتعارف، لكنَّ القائل ببقاء حُكْمِ الآية قائلٌ بالعموم، لكن شَرَطوا في ذلك أن يصيبَ المضروبَ كلُّ واحدةٍ من المئة، إما بأطرافها قائمة، أو بأعراضها مبسوطةً على هيئة الضرب.

وقال الخفاجي: إنهم شرطوا فيه الإيلام، أما مع عدمه بالكلية فلا، فلو ضربَ بسوطٍ واحدٍ له شُعبتان خمسينَ مرَّةً مَنْ حَلَفَ على ضَرْبه مئةً بَرَّ إذا تألَّم، فإن لم

---

(١) الدر المنثور ٥/٣١٧، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٤٧٢)، والنسائي في الكبرى (٧٢٦٦).
والعثكال: العِذق من أعذاق النخل الذي يكون فيه الرُّطب. النهاية (عثكل).

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/١٦٨، والمصنَّف (١٦١٣٣).

(٣) المعجم الكبير (٥٨٢٠) قال في المجمع ٦/٢٥٢: فيه أبو بكر بن أبي سبرة، وهو متروك.

يتألَّم لا يَبرُّ ولو ضَرَبهُ مئة؛ لأنَّ الضَّرْبَ وُضِعَ لفعلٍ مؤلمٍ بالبدن بآلة التأديب، وقيل: يحنثُ بكلِّ حالٍ كما فُصِّلَ في «شروح الهداية» وغيرها[1]. انتهى.

وأخرج ابن عساكر[2] عن ابن عباس: لا يجوز ذلك لأحدٍ بعد أيوب، إلا الأنبياء عليهم السلام.

وفي أحكام القرآن العظيم[3] للجلال السيوطي عن مجاهد قال: كانت هذه لأيوبَ خاصة. وقال إلكيا[4]: ذهب الشافعيُّ وأبو حنيفة وزفر إلى أنَّ مَنْ فَعَلَ ذلك فقد بَرَّ في يمينه، وخالف مالكٌ ورآه خاصّاً بأيوبَ عليه السلام.

وقال بعضهم: إنَّ الحُكْمَ كان عامّاً ثم نُسخ، والصحيحُ بقاءُ الحكم.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ للزوج ضَرْبَ زوجته، وأن يحلفَ ولا يستثني، وعلى أنَّ الاستثناءَ شَرْطُهُ الاتصال؛ إذ لو لم يُشترطْ لأَمَرَهُ سبحانه وتعالى بالاستثناء، ولم يحتجْ إلى الضرب بالضِّغث.

واستدلَّ عطاءٌ بها على مسألةٍ أخرى، فأخرج سعيدُ بن منصور بسندٍ صحيحٍ عنه أنَّ رجلاً قال له: إنِّي حلفتُ أن لا أكسو امرأتي دِرْعاً حتى تقفَ بعرفة، فقال: احملها على حمارٍ، ثم اذهبْ فقفْ بها بعرفة، فقال: إنما عَنيتُ يومَ عرفة. فقال عطاء: أيوبُ حين حَلَفَ ليجلدنَّ امرأته مئة جلدةٍ أَنَوى أن يضربَها بالضِّغثِ، إنما أمرهُ الله تعالى أن يأخذ ضِغْثاً فيضربها به، ثم قال: إنما القرآن عِبَرٌ، إنما القرآن عِبَرٌ[5].

وللبحث في ذلك مجال، وكثيرٌ من الناس استدلَّ بها على جواز الحِيَل، وجَعَلها أصلاً لصحَّتها، وعندي أنَّ كلَّ حيلةٍ أوجبتْ إبطالَ حِكْمةٍ شرعيةٍ لا تُقبلُ، كحيلةِ سقوط الزكاة، وحيلةِ سقوط الاستبراء، وهذا كالتوسُّطِ في المسألة، فإنَّ من

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٤.

(٢) في تاريخ دمشق ٦٩/ ١٢٤.

(٣) واسمه: الإكليل في استنباط التنزيل، والكلام فيه ص ٢٢٢.

(٤) في أحكام القرآن ٢/ ٣٦١، والكلام من الإكليل.

(٥) الإكليل ص ٢٢٢.

العلماء مَنْ يُجوِّزُ الحيلةَ مطلقاً، ومنهم مَنْ لا يُجوِّزها مطلقاً، وقد أطال الكلامَ في ذلك العلَّامةُ ابن تيمية.

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال. وقد كان عليه السلام يقول كلّما أصابته مصيبة: اللهمَّ أنت أخذتَ وأنت أعطيت. ويَحْمَدُ الله عزَّ وجلَّ. ولا يُخِلُّ بذلك شكواهُ إلى الله تعالى من الشيطان؛ لأنَّ الصبرَ عدمُ الجزع، ولا جَزَعَ فيما ذكر، كتمنِّي العافية وطلب الشفاء، مع أنه قال ذلك ـ على ما قيل ـ خيفةَ الفتنة في الدين كما سمعتَ فيما تقدَّم، ويُروى أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمتَ أنه لم يُخالفْ لساني قلبي، ولم يتبعْ قلبي بصري، ولم يُلهني ما ملكتْ يميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أَبِتْ شبعانَ ولا كاسياً ومعي جائعٌ أو عريان. فكشف الله تعالى عنه.

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي: أيوب ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ تعليلٌ لِمَدْحِهِ، وتقدَّم معنى الأوَّاب[1].

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الثلاثةُ عَطْفُ بيانٍ لـ «عبادنا»، أو بدلٌ منه. وقيل: نصب بإضمار أعني.

وقرأ ابن عباس وابن كثير وأهل مكة: «عبدنا»، بالإفراد[2]، فـ «إبراهيمُ» وحدهُ بدلٌ أو عَطْفُ بيانٍ أو مفعولُ أعني، وخُصَّ بعنوان العبودية لمزيد شَرَفه، وما بعده عَطْفٌ على «عبدنا»، وجُوِّزَ أن يكونَ المرادُ بـ «عبدنا» عبادنا، وَضْعاً للجنس موضعَ الجمع، فتتَّحد القراءتان.

﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ أولي القوَّة في الطاعة، والبصيرة في الدين، على أنَّ الأيدي مجازٌ مرسلٌ عن القوَّة، والأبصار جمعُ: بَصَرٍ، بمعنى بصيرة، وهو مجازٌ أيضاً لكنه مشهورٌ فيه. أو: أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة، على أنَّ ذِكْرَ الأيدي من ذِكْرِ السَّبب وإرادة المسبَّب، والأبصار بمعنى البصائر مجازٌ عمَّا يتفرَّعُ عليها من العلوم كالأول أيضاً. وفي ذلك على الوجهين تعريضٌ بالجَهَلة

---

(١) ص٢٦٧-٢٦٨ من هذا الجزء.

(٢) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١، والبحر المحيط ٧/ ٤٠١.

البطَّالين أنهم كفاقدي الأيدي والأبصار، وتوبيخٌ على تَرْكهمُ المجاهدةَ والتأمُّلَ مع تمكُّنهم منهما.

وقيل: الأيدي: النِّعَمُ، أي: أولي النِّعَم التي أسداها الله تعالى إليهم من النبوَّة والمكانة، أو: أولي النِّعَم والإحسانات على الناس بإرشادهم وتعليمهم إياهم، وفيه ما فيه.

وقرئ: «الأيادي»(١) على جَمْعِ الجمع، كـ: أوطف(٢) وأواطف.

وقرأ عبد الله والحسن وعيسى والأعمش: «الأيد» بغير ياءٍ(٣)، فقيل: يُراد الأيدي بالياء، وحُذفت اجتزاءً بالكَسْرة عنها، ولمَّا كانت «أل» تُعاقبُ التنوين حُذفتِ الياءُ معها كما حُذفت مع التنوين. حكاه أبو حيان، ثم قال: وهذا تخريجٌ لا يَسوغُ؛ لأنَّ حَذْفَ هذه الياء مع وجود «أل» ذَكَرَهُ سيبويه في الضرائر. وقيل: الأيد: القوَّةُ في طاعة الله تعالى، نظير ما تقدم(٤).

وقال الزمخشريُّ بعد تعليل الحَذْفِ بالاكتفاء بالكَسْرة: وتفسيره بالأيد من التأييد قَلِقٌ غيرُ متمكِّن(٥). وعُلِّلَ بأنَّ فيه فواتَ المقابلة وفواتَ النكتة البيانيَّة، فلا تغفل.

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ﴾ تعليلٌ لما وُصفوا به، والباءُ للسببية، و«خالصة»: اسمُ فاعلٍ، وتنوينُها للتفخيم، وقوله تعالى ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ بيانٌ لها بعد إبهامها للتفخيم، وجُوِّزَ أن يكونَ خبراً عن ضميرها المقدَّرِ، أي: هي ذِكْرى الدار. وأيًّاما كان فـ «ذِكْرى» مصدرٌ مضافٌ لمفعوله، وتعريفُ الدار للعهد، أي: الدارُ الآخرة، وفيه إشعارٌ بأنها الدارُ في الحقيقة، وإنما الدنيا مجازٌ، أي: جعلناهم خالصين لنا بسبب خَصْلةٍ خالصة جليلةِ الشأن، لا شَوْبَ فيها، هي تذكُّرهم دائماً

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٧، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٢.

(٢) الوَطَف: كثرة شعر الحاجبين والعينين. القاموس (وطف).

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحتسب ٢/ ٤٠٣.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٠٢.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٧٨.

الدارَ الآخرة، فإنَّ خُلوصهم في الطاعة بسبب تذكُّرهم إياها، وذلك لأنَّ مَطْمَحَ أنظارهم ومَطْرَحَ أفكارهم في كلِّ ما يأتون ويَذَرون جوارُ الله عزَّ وجلَّ، والفوزُ بلقائه، ولا يتسنَّى ذلك إلا في الآخرة.

وقيل: أخلصناهم بتوفيقهم لها واللُّطف بهم في اختيارها، والباء كما في الوجه الأول للسببية، والكلامُ نحو قولك: أكرمته بالعلم، أي: بسبب أنه عالمٌ أكرمته، أو: أكرمتهُ بسبب أنك جعلته عالماً، وقد يُتخيَّلُ في الثاني أنه صلة، ويعضدُ الوجهَ الأولَ قراءةُ الأعمش وطلحة: «بخالصتهم»[(١)].

وأخرج ابن المنذر[(٢)] عن الضحاك أنَّ «ذِكْرى الدار» تذكيرهم الناسَ الآخرةَ، وترغيبهم إياهم فيها، وتزهيدهم إياهم فيها على وجهٍ خالص من الحظوظ النفسانيةِ كما في شأن الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: المراد بـ«الدار» الدارُ الدنيا، وبذِكْراها الثناءُ الجميلُ ولسانُ الصدق الذي ليس لغيرهم. وحكي ذلك عن الجبائيِّ وأبي مسلم، وذكره ابن عطية احتمالاً[(٣)]، وحاصلُ الآية عليه كما قال الطبرسي: إنَّا خصصناهم بالذِّكْر الجميل في الأعقاب[(٤)].

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج ونافع وهشام بإضافة «خالصةٍ» إلى «ذكرى»[(٥)] للبيان، أي: بما خَلَصَ من ذكرى الدار، على معنى أنهم لا يشوبونَ ذكراها بهم آخرَ أصلاً، أو على غير ذلك من المعاني، وجُوِّزَ على هذه القراءة أن تكون «خالصة» مصدراً، كالعاقبة والكاذبة، مضافاً إلى الفاعل، أي: أخلصناهم بأنْ خَلَصَتْ لهم ذِكْرى الدار.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٢.
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٣١٨.
(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩.
(٤) مجمع البيان ٢٣/ ١٢٤.
(٥) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١ عن نافع وهشام وأبي جعفر.

وظاهر كلام أبي حيان أنَّ احتمالَ المصدرية ممكنٌ في القراءة الأولى أيضاً، لكنه قال: الأظهر أن تكونَ اسم فاعل[1].

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ أي: المختارين من بين أبناء جنسهم، وفيه إعلالٌ معروف.

و«عندنا»: يجوز فيه أن يكونَ من صِلَة الخبر، وأن يكون من صلة محذوفٍ دلَّ عليه «لمن المصطفين»، أي: وإنهم مصطفون عندنا، ولم يُجوِّزوا أن يكونَ من صلة «المصطفين» المذكور؛ لأنَّ «أل» فيه موصولةٌ، ومصطفين صلةٌ، وما في حَيِّز الصِّلة لا يتقدَّمُ معموله على الموصول؛ لئلّا يلزم تقدُّم الصِّلة على الموصول.

واعتُرض بأنَّا لا نُسلِّمُ أنَّ «أل» فيه موصولةٌ؛ إذ لم يُرَدْ منه الحدوث، ولو سُلِّمَ فالمتقدِّم ظَرْفٌ، وهو يُتوسَّعُ فيه ما لا يُتوسَّعُ في غيره.

والظاهر أنَّ الجملةَ عَطْفٌ على ما قبلها، وتأكيدُها لمزيد الاعتناء بكونهم عنده تعالى من المصطفين من الناس.

﴿ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ الفاضلين عليهم في الخير، وهو جَمْعُ: خيرٍ، مقابل شَرٍّ الذي هو أفعل تفضيل في الأصل، وكان قياسُ أفعل التفضيل أن لا يُجمَعَ على أفعال، لكنه للزومِ تخفيفه - حتى إنه لا يقال: أَخْيَرُ، إلا شذوذاً، أو في ضرورة - جُعِلَ كأنه بنيةٌ أصلية. وقيل: جمع: خَيِّرٍ، المشدَّد، أو: خَيْرٍ، المخفَّف منه، كأمواتٍ في جمع مَيِّتٍ بالتشديد أو مَيْتٍ بالتخفيف.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ﴾ فَصَلَ ذِكْرَهُ عن ذِكْرِ أبيه وأخيه؛ اعتناءً بشأنه من حيثُ إنه لا يشركُ العربَ فيه غيرُهم، أو للإشعار بعراقته في الصبر الذي هو المقصود بالذكر.

﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ قال ابن جرير: هو ابن أخطوب بن العجوز، وذكر أنه استخلفه إلياس على بني إسرائيل، ثم استنبئ[2]. واللامُ فيه زائدةٌ لازمةٌ لمقارنتها للوضع،

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠٢.

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٤٦٤.

ولا ينافي كونه غير عربيٍّ، فإنها قد لزمتْ في بعض الأعلام الأعجمية كالإسكندر، فقد لَحَّنَ التبريزيُّ من قال: إسكندر، مجرَّداً له منها، والأولى عندي أنه إذا كان اسماً أعجميًّا و«أل» فيه مقارِنة للوضع أن لا يقال بزيادتها فيه.

وقيل: هو اسمٌ عربيٌّ منقولٌ من يَسَعُ، مضارع: وَسِعَ. حكاه الجلال السيوطيُّ في «الإتقان»[1]. وفي «القاموس»[2]: يَسَعُ ك: يَضَع: اسمٌ أعجميٌّ أُدخل عليه «أل»، ولا تدخل على نظائره ك: يزيد.

وقرأ حمزة والكسائي: «واللَّيْسَع» بلامَين والتشديد[3]، كأنَّ أصله: لَيْسَع، بوزن فَيْعَلٍ من اللَّسْع، دخل عليه «أل» تشبيهاً بالمنقول الذي تدخله لِلَمْحِ أصله، وجزم بعضُهم بأنه على هذه القراءة أيضاً عَلَمٌ أعجميٌّ دخلَ عليه اللام.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ قيل: هو ابن أيوب، وعن وَهْبٍ أنَّ الله تعالى بعثَ بعد أيوب شرفَ بن أيوب نبيّاً، وسماه: ذا الكفل، وأمره بالدعاء إلى توحيده، وكان مقيماً بالشام عمرَه حتى مات وعمرُه خمسٌ وسبعون سنة.

وفي «العجائب» للكرماني: قيل: هو إلياس، وقيل: هو يُوشع بن نون، وقيل: هو نبيٌّ اسمه: ذو الكفل، وقيل: كان رجلاً صالحاً تكفَّلَ بأمورٍ فوفَّى بها، وقيل: هو زكريا من قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧]. اهـ.

وقال ابن عساكر: هو نبيٌّ تكفَّل الله تعالى له في عمله بضِعْفِ عمل غيره من الأنبياء. وقيل: لم يكن نبيّاً، وإن اليسع استخلفه، فتكفَّل له أن يصومَ النهارَ ويقومَ الليل، وقيل: أن يصلِّيَ كلَّ يومٍ مئة ركعة.

وقيل: كان رجلاً من الصالحين كان في زمانه أربع مئة نبيٍّ من بني إسرائيل، فقتلهم ملكٌ جبَّارٌ إلا مئة منهم فرُّوا من القتل، فآواهم وأخفاهم وقام بمؤنتهم، فسمَّاه الله تعالى: ذا الكِفْل.

---

(١) ٢/ ١٠٧٢.
(٢) مادة (وسع).
(٣) التيسير ص١٠٤، والنشر ٢/ ٢٦٠.

وقيل: هو اليسعُ، وأنَّ له اسمين. ويأباه ظاهرُ النظم.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكلُّهم ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ المشهورين بالخيريَّة.

﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من الآيات الناطقة بمحاسنهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: شَرَفٌ لهم، وشاعَ الذِّكْرُ بهذا المعنى؛ لأنَّ الشَّرَفَ يلزمه الشهرةُ والذكر بين الناس، فتجوِّز به عنه بعلاقة اللزوم، والمراد: في ذِكْر قصصهم وتنويه الله تعالى بهم شَرَفٌ عظيم لهم.

أو المعنى: هذا المذكورُ من الآيات نوعٌ من الذِّكْرِ الذي هو القرآن، وذكر ذلك للانتقال من نوعٍ من الكلام إلى آخر، كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا بابٌ، ثم يشرعُ[1] في باب آخر، ويقولُ الكاتبُ إذا فرغ من فصلٍ من كتابه، وأراد الشروعَ في آخر: هذا، وكان كيتَ وكيتَ. ويحذفُ ـ على ما قيل ـ الخبر في مثل ذلك كثيراً، وعليه: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٥٥] وستسمعُ إن شاء الله تعالى الكلامَ فيه، فلا يقال: إنه لا فائدة فيه؛ لأنه معلومٌ أنه من القرآن.

وقال ابن عباس: هذا ذِكْرُ مَنْ مضى من الأنبياء عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ ـ أي: مرجعٍ ـ شروعٌ في بيان أَجْرهم الجزيل في الآجل، بعد بيان ذِكْرهم الجميل في العاجل، والمراد بالمتقين؛ إما الجنس، وهم داخلون فيه دخولاً أوليّاً، وإما نفسُ المذكورين، عبَّر عنهم بذلك مَدْحاً لهم بالتقوى التي هي الغايةُ القصوى في الكمال، والجملةُ فيما أرى عَطْفٌ على الجملة قبلها، كأنه قيل: هذا شَرَفٌ لهم في الدنيا، وإنَّ لهم ولأضرابهم، أو: إنَّ لهم في الآخرة لحسن مآب، أو هي من قبيل عَطْفِ القصة على القصة.

وقال الشهاب الخفاجي عليه الرحمة: هي حالية[2]. ولم يُبيِّنْ صاحبَ الحال، ويبعد أن يكون «ذكْراً» لأنه نكرةٌ متقدمةٌ، وأن يكون «هذا» لأنه مبتدأ، ومع ذلك في المعنى على تقدير الحالية خفاءٌ.

---

(١) في (م): شرع.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٥.

وقال بعضُ أَجِلَّةِ المعاصرين: إنه أراد أنَّ الكلامَ على معنى: والحالُ كذا، أي: الأمرُ والشأنُ كذا، ولم يُرِدْ أنَّ الجملةَ حالٌ بالمعنى المعروف الذي يقتضي ذا حالٍ وعاملاً في الحال، إلى غير ذلك، وادَّعى أنَّ الأمرَ كذلكَ في كلِّ جملةٍ يقال إنها حالٌ وليس فيها ضميرٌ يعودُ على ما قبلها، نحو: جاء زيدٌ والشمسُ طالعةٌ، وقال: إنه الذي ينبغي أن يُعوَّلَ عليه وإن لم يذكره النحويون. اهـ.

والحال لا يخفى على ذي تمييز. وإضافة «حُسْن» إلى «مآب» من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ إما بتأويل: مآبٍ ذي حُسْنٍ، وإما بدونه قصداً للمبالغة.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدلُ اشتمال، وجُوِّزَ أن يكون نَصْباً على المدح، وجعله الزمخشريُّ عَطْفَ بيانٍ لـ «حُسْن مآب»(١). و«عَدْن» قيل: من الأعلام الغالبة غلبةً تقديريةً، ولزومُ الإضافة فيها أو تعريفها باللام أغلبيٌّ كما صرَّح به ابن مالك في «التسهيل»، و«جنات عَدْنٍ» كمدينة طَيبة، لا كإنسان زيد، فإنه قبيح. وقيل: العَلَمُ مجموع «جناتِ عدن»، وهو أيضاً من غير الغالب؛ لأنَّ المرادَ من الإضافة التي تعوضها العلم بالغلبة إضافة تفيده تعريفاً، وعلى القولين هو مُعيَّنٌ، فيصلحُ للبيان، لكن تعقَّبَ ذلك أبو حيان(٢) بأنَّ للنحويين في عَطْفِ البيان مذهبين؛ أحدهما أنَّ ذلك لا يكون إلا في المعارف، فلا يكونُ عَطْفُ البيان إلا تابعاً لمعرفة، وهو مذهب البصريين، والثاني أنه يجوزُ أن يكونَ في النكرات، فيكون عَطْفُ البيان تابعاً لنكرة، كما تكونُ المعرفةُ فيه تابعةً لمعرفةٍ، وهذا مذهب الكوفيين وتبعهم الفارسي؛ وأما تخالفهما في التنكير والتعريف، فلم يذهب إليه أحدٌ سوى الزمخشري، كما قد صرَّحَ به ابنُ مالكٍ في «التسهيل»(٣) فهو بناءٌ للأمر على مذهبه.

وذهب آخرون أنَّ عَدْناً مصدرٌ: عَدَنَ بمكان كذا: استقرَّ، ومنه المعدِنُ لمستقرِّ الجواهر، ولا عَلميَّةَ ولا نَقْلَ هناك، ومعنى «جناتِ عَدْنٍ» جناتِ استقرارٍ وثباتٍ، فإنْ كان عَطْفَ بيانٍ فهو على مذهب الكوفيين والفارسي.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٨.

(٢) في البحر ٧/ ٤٠٥.

(٣) ص ١٧١.

ومن الغريب ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: سألتُ كَعْباً عن قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ فقال: جناتُ كرومٍ وأعنابٍ، بالسريانية[1]. وفي تفسير جويبر[2] أنه بالروميَّة.

وقوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾ إما صفةٌ لـ «جناتِ عَدْنٍ»، وإليه ذهب ابن إسحاق وتبعه ابن عطية[3]، أو حالٌ من ضميرها المستتر في خبر «إنَّ»، والعامل فيه الاستقرار المقدَّرُ أو نفسُ الظرف؛ لتضمُّنه معناه ونيابته عنه، وإليه ذهب الزمخشريُّ[4] ومختصرو كلامهِ، أو حالٌ من ضميرها المحذوف مع العامل لدلالة المعنى عليه، والتقدير: يدخلونها مفتَّحةً. وإليه ذهب الحوفيُّ.

و«الأبواب» نائبُ فاعلِ «مفتَّحة» عند الجمهور، والرابط العائد على الجنات محذوفٌ، تقديره: الأبوابُ منها، واكتفى الكوفيون عن ذلك بـ «أل» لقيامها مقام الضمير، فكأنه قيل: مفتَّحةً لهم أبوابها، وذهب أبو عليٍّ إلى أنَّ نائبَ فاعل «مفتَّحة» ضميرُ الجنات، و«الأبوابُ» بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ كما هو ظاهرُ كلام الزمخشري[5]، ولا يصحُّ أن يكونَ بدلَ بعضٍ من كلٍّ؛ لأنَّ أبوابَ الجناتِ ليست بعضاً من الجنات على ما قال أبو حيان[6].

وقرأ زيد بن عليٍّ وعبد الله بن رفيع وأبو حيوة: «جناتُ عَدْنٍ مفتَّحةٌ» برفعهما[7] على أنهما خبران لمحذوفٍ، أي: هو ـ أي: المآبُ ـ جناتُ عدنٍ مفتَّحةٌ لهم أبوابه، أو: هو جناتُ عدنٍ هي مفتَّحةٌ لهم أبوابها، أو على أنهما مبتدأٌ وخبرٌ.

ووَجْهُ ارتباط الجملة بما قبلها أنها مفسِّرةٌ لحُسْنِ المآب؛ لأنَّ محصّلها: جناتٌ أبوابها فُتِّحتْ إكراماً لهم، أو هي معترضةٌ.

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٥٦١.
(٢) في (م): ابن جرير.
(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٥١٠، والكلام من البحر ٧/ ٤٠٥، وفيه: أبو إسحاق.
(٤) في الكشاف ٣/ ٣٧٨.
(٥) في الكشاف ٣/ ٣٧٨.
(٦) في البحر المحيط ٧/ ٤٠٥.
(٧) القراءات الشاذة ص١٣٠، والكشاف ٣/ ٣٧٨، والبحر ٧/ ٤٠٥.

وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾، وقوله سبحانه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ قيل: حالان من ضمير «لهم»، وهما حالان مقدَّران؛ لأنَّ الاتكاءَ وما بعده ليس في حالِ تفتيح الأبواب بل بعده.

وقيل: الأولُ حالٌ مقدَّرةٌ من الضمير المذكور، والثاني حالٌ من ضمير «متكئين»، وجُوِّزَ جعلُهما حالَين من المتقين، ولا يصحُّ إلا إن قلنا بأنَّ الفاصلَ ليس بأجنبيٍّ، والظاهرُ أنه أجنبيٌّ.

وقال بعض الأجلَّة: الأظهر أنَّ «متكئين» حالٌ من ضمير «يدعون» قُدِّمَ رعايةً للفاصلة، و«يدعون» استئنافٌ لبيان حالهم، كأنه قيل: ما حالهم بعد دخولها؟ فقيل: يَدعونَ فيها بفاكهةٍ كثيرةٍ وشرابٍ متَّكئينَ فيها.

والاقتصارُ على الفاكهة للإيذان بأنَّ مطاعِمَهُمْ لمحضِ التفكُّهِ والتلذُّذ، دونَ التغذِّي فإنه لتحصيل بدلٍ، ولا تَحلُّلَ ثمةَ.

ولمَّا كانت الفاكهةُ تتنوَّعُ، وَصَفَها سبحانه بالكَثْرة، وكثرتُها باختلاف أنواعها وكثرةِ كلِّ نوعٍ منها، ولمَّا كان الشرابُ نوعاً واحداً وهو الخمر، أُفردَ. وقيل: وُصِفَتِ الفاكهةُ بالكَثْرةِ ولم يُوصفِ الشرابُ؛ للإيذان بأنه يكون على الشراب نقلٌ كثيرٌ، سواءٌ تعدَّدتْ أنواعه أم اتَّحدتْ. ويمكن أن يقال ـ والله تعالى أعلم ـ: التقديرُ: وشرابٌ كثيرٌ. لكن حُذِفَ «كثيرٌ» لدلالة ما قبلُ ورعايةً للفاصلة.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: على أزواجهنَّ، لا ينظرنَ إلى غيرهم، أو: قاصراتٌ طَرْفَ أزواجهنَّ عليهنَّ، فلا ينظرونَ إلى غيرهنَّ لشِدَّةِ حسنهنَّ، وتمام الكلام قد مرَّ وحلا.

﴿أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ أي: لِداتٌ على سِنٍّ واحدةٍ تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوعُ الصَّدْر، أو لسقوطهنَّ معاً على الأرض حين الولادة ومسِّهنَّ ترابها، فكأنَّ التِّرْبَ بمعنى المتارب، كالمِثْل بمعنى المماثل.

والظاهر أنَّ هذا الوصفَ بينهنَّ، فيكونُ في ذلك إشارة إلى محبة بعضهنَّ لبعضٍ، وتصادقهنَّ فيما بينهنَّ، فإنَّ النساءَ الأتراب يتحاببنَ ويتصادقنَ، وفي ذلك

راحةٌ عظيمةٌ لأزواجهنَّ، كما أنَّ في تباغض الضرائر نَصَباً عظيماً وخَطْباً جسيماً لهم، وقد جُرِّبَ ذلك وصَحَّ، نسأل الله تعالى العفو والعافية.

وقيل: إنَّ ذلك بينهنَّ وبين أزواجهنَّ، أي: إنَّ أسنانهنَّ كأسنانهم ليحصلَ كمالُ التَّحابِّ. ورُجِّحَ بأنَّ اهتمامَ الرجل بحصول المحبة بينه وبين زوجته أشدُّ من اهتمامه بحصولها بين زوجاته، وفيه توقُّفٌ، ثم إنَّ الوصفَ الأولَ على المعنى الأول متكفِّلٌ بالدلالة على محبَّتهنَّ لأزواجهنَّ، وعلى المعنى الثاني متكفِّلٌ بالدلالة على محبة أزواجهنَّ لهنَّ، وإذا حصلتِ المحبةُ من طَرَفٍ، فالغالبُ حصولُها من الطرف الآخر، وقد قيل: من القلب إلى القلب سبيلٌ، والأمرُ في الشاهد أنَّ كَوْنَ الزوجاتِ أصغر من الأزواج أحبُّ لهم، لا التساوي. واختار بعضُهم كونَ ذلك بينهنَّ وبين أزواجهنَّ، ويلزمُ منه مساواةُ بعضهنَّ لبعضٍ، وهذا إذا كان المرادُ بقوله تعالى: «وعندهم» إلخ: وعند كلِّ واحدٍ منهم، ولو كان المراد: وعند مجموعهم، وكان الجمعُ موزَّعاً بأن يكونَ لكلِّ واحدٍ واحدٍ من أهل الجنة واحدةٌ واحدةٌ من قاصرات الطَّرْف الأتراب، كان اعتبار كون الوَصْفِ بينهنَّ وبين الأزواج كالمتعيِّن، لكنَّ هذا الفرضَ خلافُ ما نطقتْ به الأخبار، سواءٌ قلنا بما روي عن ابن عباس من أنَّ الآيَةَ في الآدميَّات، أو قلنا بما قاله صاحبُ «الغنيان» من أنها في الحور. وقيل بناءً على ما هو الظاهر في الوصف: إنَّ التساوي في الأعمار بين الحور وبين نساء الجنة، فالآية فيهما.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣﴾ أي: لأجل يوم الحساب، فإنَّ ما وُعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة، وهي تظهر بالحساب، فجعل كأنه علَّةٌ لتوقُّفِ إنجاز الوعد، فالنسبةُ لليوم والحساب مجازيةٌ.

وجُوِّزَ أن تكون اللامُ بمعنى «بعد» كما في: كتبَ لخمسٍ خَلَوْنَ من جُمادى الآخرة، مثلاً، وهو أقلُّ مؤنة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يُوعَدون» بياء الغَيبة(١)، وعلى قراءة الجمهور بتاء الخطاب فيه التفاتٌ.

---

(١) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكِرَ من ألوان النِّعَم والكرامات ﴿لَرِزْقُنَا﴾ أعطيناكموه ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ انقطاعٌ أبداً.

﴿هَٰذَاۚ﴾ قال الزجاج: أي: الأمرُ هذا، على أنه خبرُ مبتدأ محذوف[١]، وقال أبو عليٍّ: أي: هذا للمؤمنين، على أنه مبتدأٌ خبرهُ محذوفٌ، وقدَّره بعضهم كما ذكر.

وجوَّزَ أبو البقاء احتمال كونه مبتدأً محذوفَ الخبر، واحتمال كونه خبراً محذوفَ المبتدأ[٢]، وجوَّزَ بعضُهم كونه فاعلَ فعلٍ محذوفٍ، أي: مضى هذا.

وكونه مفعولاً لفعلٍ محذوف، أي: خُذْ هذا، وجُوِّزَ أيضاً كون «ها» اسم فعل بمعنى: خُذْ، و«ذا» مفعوله من غير تقدير، وَرَسْمُهُ متَّصلاً يُبعدهُ، والتقديرُ أسهلُ منه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ عَطْفٌ على ما قبله، ولزومُ عَطْفِ الخبر على الإنشاء على بعض الاحتمالات جوابه سَهْلٌ، وأشار الخفاجيُّ إلى الحالية هنا أيضاً[٣]، ولعلَّ أَمْرَها على بعض الأقوال المذكورة هَيِّنٌ.

والطاغون هنا الكفار كما يدلُّ عليه كلامُ ابن عباس، حيث قال: أي: الذين طغوا عليَّ وكذَّبوا رسلي. وقال الجبائيُّ: أصحابُ الكبائر كفاراً كانوا أو لم يكونوا.

وإضافةُ «شَرٍّ» إلى «مآبٍ» كإضافة «حُسْنٍ» إليه فيما تقدم، وظاهرُ المقابلة يقتضي أن يقال: لَقُبْحَ مآبٍ هنا، أو: لخيرَ مآبٍ فيما مضى، لكنَّ مثله لا يُلتفتُ إليه إذا تقابلتِ المعاني؛ لأنه من تكلُّفِ الصَّنعةِ البديعية كما صرَّح به المرزوقيُّ في «شرح الحماسة»[٤]. كذا قيل، وقيل: إنه من الاحتباك، وأصله: إنَّ للمتقينَ لخير

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٣٨- ٣٣٩بنحوه.

(٢) الإملاء ٤/ ٢٥٧بنحوه.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٦.

(٤) ١/ ١١٦.

مآبٍ وحُسْن مآب، وإنَّ للطاغين لَقُبح مآبٍ وشَرّ مآب. واستحسنه الخفاجيّ[(١)]، وفيه نوعُ بُعْدٍ.

وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾ يُعلَمُ إعرابه مما سلف؛ وقوله سبحانه: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها ويُقاسُونَ حَرَّها، حالٌ من «جهنم» نفسها، أو من الضمير المستتر في خبر «إنَّ» الراجع «لشرّ مآب»، المراد به هي[(٢)]، والحالُ مقدَّرةٌ.

﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هي، يعني جهنم، فالمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، و«المِهادُ» كالفراش لَفْظاً ومعنًى، وقد استُعير مما يفترشه النائم، والمَهْدُ كالمهاد، وقد يُخَصُّ بمقَرِّ الطفل.

﴿هَٰذَا﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: العذابُ هذا، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ جملةٌ مرتَّبةٌ على الجملة قبلها، فهي بمنزلة جزاء شَرْطٍ محذوف، وقوله تعالى: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو حميمٌ وغسَّاقٌ، و«ذا» قد يُشار به لمتعدِّد، أو مبتدأٌ محذوفُ الخبر، أي: منه حميمٌ ومنه غسَّاقٌ، كما في قوله:

حتى إذا ما أضاءَ الصُّبحُ في غَلَسٍ   وغُودِرَ البقلُ مَلْوِيٌّ ومحصودُ[(٣)]

أي: منه ملويٌّ ومنه محصودٌ.

أو «هذا» مبتدأٌ، خبرُهُ: «حميم»، وجملةُ: «فليذوقوه» معترضةٌ، كقولك: زيدٌ فافهم رجلٌ صالح.

أو «هذا» مبتدأٌ، خبرُهُ: «فليذوقوه» على مذهب الأخفش في إجازته: زيدٌ فاضربه، مستدلًّا بقوله:

وقائلةٍ خَوْلانُ فانكِحْ فتاتَهُمُ[(٤)]

---

(١) في حاشيته ٧/ ٣١٦، وما قبله منه.

(٢) أي: جهنم. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣١٧.

(٣) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ١٣٦٦، قال شارحه: يقال: قد ألوى النبتُ إلواءً: إذا جفَّ، ومحصود: قد حصد.

(٤) صدر بيت لم يعرف قائله، وسلف ٧/ ١٨٩، و١٨/ ١٦٩ و١٩/ ٧٨، وعجزه:

وأكرومةُ الحيين خلوٌ كما هِيَا

أو «هذا» في محلِّ نَصْبٍ بفعلٍ مُضْمَرٍ يُفسِّرُه «فليذوقوه»، أي: ليذوقوا هذا فليذوقوه ـ ولعلَّكَ تختارُ القولَ بأنَّ «هذا» مبتدأٌ و«حميمٌ» خبره، وما في البين اعتراضٌ، وقد قدَّمه في «الكشاف»[1] ـ والفاء تفسيريةٌ تعقيبيةٌ، وتُشعر بأنَّ لهم إذاقةً بعد إذاقة، وفي «حميم وغسَّاق» على هذين الوجهين الاحتمالان المذكوران أولاً.

والحميم: الماء الشديد الحرارة.

والغسَّاقُ ـ بالتشديد كما قرأ به ابن أبي اسحاق وقتادة وابن وثَّاب وطلحةُ وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ والفضلُ وابن سعدان وهارون عن أبي عمرو[2]، وبالتخفيف كما قرأ به باقي السبعة ـ: اسمٌ لما يجري من صديدِ أهل النار، كما روي عن عطاء وقتادة وابن زيد. وعن السُّدِّيِّ: ما يسيلُ من دموعهم.

وأخرج ابن جرير عن كعبٍ أنه عينٌ في جهنم، تسيلُ إليها حُمَةُ كلِّ ذي حُمَةٍ، من حَيَّةٍ وعقربٍ وغيرهما، يُغمَسُ فيها الكافرُ فيتساقطُ جلدهُ ولحمهُ[3].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه الزمهرير[4].

وقيل: هو مشدَّداً ومخفَّفاً وَصْفٌ من غَسقَ كضرب وسمع بمعنى سال، يقال: غَسَقَتِ العينُ: إذا سالَ دمعُها، فيكون على ما في «البحر» صفةً حُذِفَ موصوفها[5]. أي: ومذوقٌ غسَّاقٌ، ويُرادُ به: سائلٌ من جلود أهل النار، مثلاً، والوصفيةُ في المشدَّد أظهر؛ لأنَّ فَعَّالاً بالتشديد قليلٌ في الأسماء، ومنه الفيَّادُ[6]: ذَكَرُ البُوم، والخَطَّار: دهنٌ يُتَّخذُ من الزيت، والعَقَّار: ما يتداوى به من النبات.

---

(١) ينظر ٣/ ٣٧٩.

(٢) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١، عن حمزة والكسائي وحفص، والكلام من البحر المحيط ٧/ ٤٠٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ١٢٩.

(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ١٣١.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٤٠٦.

(٦) في (م): الغياد.

ومن الغريب ما قاله الجواليقيُّ[1] والواسطيُّ أنَّ الغسَّاقَ هو الباردُ المنتنُ بلسان التُّرك، والحقُّ أنه عربيٌّ، نعم النُّتونةُ وَصْفٌ له في الواقع، وليست مأخوذةً في المفهوم، فقد أخرج أحمد والترمذيُّ وابنُ حبان وجماعةٌ، وصحَّحه الحاكم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنَّ دلواً من غسَّاقٍ يُهرَاق في الدنيا، لأنتنَ أهلُ الدنيا»[2].

وقيل: الغسَّاقُ: عذابٌ لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ. ويُبعده هذا الخبر.

﴿وَءَاخَرُ﴾ أي: ومذوقٌ آخرُ، وفسَّره ابنُ مسعودٍ كما رواه عنه جمعٌ بالزمهرير، أو: وعذابٌ آخرُ.

وقرأ الحسنُ ومجاهدٌ والجحدريُّ وابنُ جبير وعيسى وأبو عمرو: «وأُخَرُ» على الجمع[3]، أي: ومذوقاتٌ، أو: أنواعُ عذابٍ أُخَر.

﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾ أي: من مثل هذا المذوق أو العذاب في الشدَّة والفظاعة، وتوحيدُ الضمير ـ دون تثنيته نظراً للحميم والغسَّاق ـ على أنه لِمَا ذُكر، أو للشراب الشامل للحميم والغسَّاق، أو للغسَّاق.

وقرأ مجاهدٌ «شِكْلِهِ» بكَسْر الشين[4]، وهي لغةٌ فيه، كَمِثْلٍ، وإذا كان بمعنى الغُنْجِ فهو بالكَسْر لا غير.

﴿أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨﴾ أي: أجناسٌ.

و«آخر» على القراءتين يحتملُ أن يكونَ خبر مبتدأ محذوف، أي: وهذا مذوقٌ أو عذابٌ آخر، أو: هذه مذوقاتٌ أو أنواعُ عذابٍ أُخَر، والجملةُ معطوفةٌ على «هذا حميم»، وإن شئتَ فقَدِّرْ: هو أو هي، وَاعطفِ الجملةَ على «هو حميم».

---

(١) في المعرَّب ص٢٨٣.

(٢) مسند أحمد (١١٢٣٠)، والترمذي (٢٥٨٤)، والحاكم ٢/ ٥٠١ و٤/ ٦٠١، ولم نقف عليه عند ابن حبان، وقد أخرجه شيخه أبو يعلى (١٣٨١)، ولعلّه المراد.

(٣) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١، عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٧/ ٤٠٦.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٧٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١١، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٦.

وأن يكون مبتدأً خبره محذوف، أي: ومنه مذوقٌ أو عذابٌ آخرُ، أو: ومنه مذوقاتٌ أو أنواعُ عذابٍ أُخَر، والعَطْفُ على «منه حميم»، وجُوِّزَ أن يُقدَّرَ الخبرُ لهم، أي: ولهم مذوقٌ أو عذابٌ آخرُ، أو: ولهم مذوقاتٌ أو أنواعُ عذابٍ أُخر، والعَطْفُ على «هذا فليذوقوه».

و«من شكله» و«أزواج» في جميع ذلك صفتان لـ «آخر» أو «أُخر». و«آخر» وإن كان مفرداً في اللفظ، فهو جَمْعٌ وصادقٌ على متعدِّدٍ في المعنى.

ويحتمل أن يكون «آخر» أو «أُخر» مبتدأ، و«من شكله» صفته، و«أزواجٌ» خبر، والجواب عن عدم المطابقة على قراءة الإفراد ما سمعت. وأن يكون ذلك عَطْفاً على «حميم» عَطْفَ المفرَدِ على المفرد، و«من شكله» صفتهُ، و«أزواجٌ» صفةٌ للثلاثة المتعاطفة.

وجُوِّزَ أن يكون «آخرُ» مبتدأ، و«من شكله» خبره، و«أزواجٌ» فاعلُ الظرف. وأن يكون الأولُ مبتدأ و«من شكله» خبرٌ مقدَّمٌ، و«أزواجٌ» مبتدأ، والجملةُ خبرُ المبتدأ الأول، أعني: «آخر»، وصَحَّ الابتداءُ به؛ لأنه من بابِ: ضعيفٌ عاذَ بقُرْملة، فالمبتدأ في الحقيقة الموصوفُ المحذوف، أي: نوعٌ آخرُ، أو: مذوقٌ آخرُ، وقيل: لأنه جيءَ به للتفصيل، ومما ذكروا من المسوِّغات أن تكونَ النكرةُ للتفصيل نحو: الناسُ رجلان؛ رجلٌ أكرمته، ورجلٌ أَهَنْتُهُ، وبحثٌ فيه ابن هشام في «المغني»(١). وجعلوا ضميرَ «شكله» على الوجهين عائداً على «آخر»، وهما لا يكادان يتسنَّيان على القراءة بالجمع، فتدبَّر ولا تغفل.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ جمعٌ كثيرٌ من أتباعكم في الضلال ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ راكبُ الشِّدَّةَ داخلٌ فيها، أو: متوسِّطٌ شِدَّةً مخيفة. ﴿مَّعَكُمْ﴾ والمراد: هذا فوجٌ داخلٌ معكم النارَ مُقاسٍ فيها ما تقاسونه، وهذا حكايةُ ما تقوله ملائكة العذاب لرؤساء الضلال عند دخول النار تقريعاً لهم، فهو بتقدير: فيقال لهم عند الدخول: هذا.. إلخ.

وفي «الكشاف» واستظهره أبو حيان: أنه حكايةُ كلامِ الطاغين بعضهم مع

---

(١) ص٦١٤.

بعض، يُخاطبُ بعضُهم بعضاً في شأن أتباعهم يقول: هذا فوجٌ مقتحمٌ معكم[1].

والظرفُ متعلِّقٌ بـ «مقتحم»، وجُوِّزَ فيه أن يكونَ نعتاً ثانياً لـ «فوج» أو حالاً منه، لأنه قد وُصِفَ، أو من الضمير المستتر فيه، ومنع أبو البقاء جوازَ كونه ظَرْفاً، قائلاً: إنه يلزم عليه فساد المعنى[2]. وتبعه الكواشيُّ وصاحب «الأنوار».

وتعقَّبه صاحب «الكشف» بأنه إن كان الفسادُ لإنبائه عن تزاحمهم في الدخول ـ وليس المعنى على المزاحمة بين الفريقين الأتباع والمتبوعين؛ لأنهم بعد الدخول يقولون ذلك لا عند المزاحمة ـ فغيرُ لازمٍ؛ لأنَّ الاقتحامَ لا يُنبئُ عن التزاحم، ولا هو لازمٌ له، وإنما مِثْلُ: ضربتُ معه زيداً، ينبئُ عن المشاركة في الضرب والمقارنة، فكذلك اقتحامُ المتبوعين النارَ مع الأتباع يُنبئُ عن المشاركة في ركوب كلٍّ من الطائفتين قَحْمَةَ النار، ومقاساة شِدَّتها في زمانٍ متقاربٍ عُرْفاً، ولو قيل: هذا فوجٌ معكم مقتحمونَ، لم يُفِدْ أنَّ المخاطبين أيضاً كذلك، وفَسَدَ المعنى المقصود، والعَجَبُ ممَّن جَوَّزَ أن يكون حالاً من ضمير «مقتحم» ولم يُجوِّزْ أن يكون ظرفاً، وإن كان بغير ذلك فليفدْ أولاً ثم ليعترض. انتهى.

وقال بعضهم: إنَّ وجهَ فساد الظرفية دون الحالية أنه ليس المراد أنهم اقتحموا في الصُّحبة ودخلوا فيها، بل: اقتحموا في النار مصاحبين لكم ومقارنين إياكم. وهو كلامٌ فاسدٌ لا مُحصِّلَ له؛ لأنَّ مدلولَ «مع» المعبَّر عنه بالصُّحبة معناه الاجتماعُ في التلبُّس بمدلول متعلّقها، فيفيدُ اشتراكَ الطائفتين في الاقتحام، لا في الصُّحبة كما توهمه، ولا يدلُّ على اتحاد زمانيهما كما صرَّح به في «المغني»، ولو سُلِّم فهو لتقاربه عُدَّ متَّحداً كما أُشير في عبارة «الكشف» إليه، فالحقُّ أنه لا فساد.

وقوله تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ دعاءٌ من المتبوعين على أتباعهم، سواءٌ كان قائلُ ما تقدَّم الملائكةَ عليهم السلام، أو بعضَ الرؤساء لبعضٍ، أو صفةٌ لـ «فوج» أو حالٌ منه لوَصْفه، أو من ضميره، وأيَّاما كان يؤوَّلُ بـ: مقول لهم: «لا مرحباً» لأنه

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٩، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٦.

(٢) الإملاء ٤/ ٢٥٩. قال السمين في الدر ٩/ ٣٩١: ولم أدرِ من أيِّ أوجهٍ يفسد والحالية والصفة في المعنى كالظرفية!.

دعاءٌ، فهو إنشاءٌ لا يُوصَفُ به، وكذا لا يكونُ حالاً بدون تأويل، والمعنى على استحقاقهم أن يقال لهم ذلك، لا أنهم قيل لهم ذلك بالفعل، وهو على الوصفية والحالية من كلام الملائكة عليهم السلام إن كانوا هم القائلين، أو من كلام بعض الرؤساء.

وجُوِّزَ كونه ابتداء كلام منهم.

و«مرحباً» من الرُّحب بضمِّ الراء، وهو السَّعةُ، ومنه: الرُّحبةُ، للفضاء الواسع، وهو مفعولٌ به لفعلٍ واجب الإضمار، و«بهم» بيانٌ للمدعوِّ عليهم، وتكون الباء للبيان كاللام في نحو: سقياً له، وكون اللام دون الباء كذلك دعوى من غير دليل، أي: ما أتوا بهم رُحْباً وَسَعة.

وقيل: الباء للتعدية، فمجرورها مفعولٌ ثانٍ لأتوا، وهو مبنيٌّ على زَعْم أنَّ اللامَ لا تكونُ للبيان، وكفى بكلام الزمخشريِّ وأبي حيان دليلاً على خلافه، ويقال: مرحباً بك، على معنى: رحبت بلادك رُحباً، كما يقال على معنى: أتيتَ رُحْباً من البلاد لا ضيقاً.

ويُفهَمُ من كلام بعضهم جوازُ أن يكون «مرحباً» مفعولاً مطلقاً لمحذوفٍ، أي: لا رَحُبَتْ بهم الدارُ مرحباً، والجمهور على الأول. وأيّاما كان فالمرادُ بذلك مُثبَتاً الدعاءُ بالخير ومنفيّاً الدعاءُ بالسوء.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ تعليلٌ من جهة الملائكة لاستحقاقهم الدعاء عليهم، أو وَصْفِهم بما ذكر، أو تعليلٌ من الرؤساء لذلك، والكلامُ عليه يتضمَّنُ الإشارةَ إلى عدم انتفاعهم بهم، كأنه قيل: إنهم داخلون النارَ بأعمالهم مثلنا، فأيُّ نفعٍ لنا منهم، فلا مرحباً بهم.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: الأتباعُ ـ وهم الفوجُ المقتحم ـ للرؤساء: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي: بل أنتم أحقُّ بما قيل لنا، ولعلَّهم إنما خاطبوهم بذلك على تقدير كون القائل الملائكةَ الخزنة عليهم السلام، مع أنَّ الظاهرَ أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى أولئك القائلين: بل هم لا مرحباً بهم، قَصْداً منهم إلى إظهار صِدْقهم بالمخاصمة مع

الرؤساء، والتحاكم إلى الخزنة طَمَعاً في قضائهم بتخفيف عذابهم، أو تضعيف عذاب خُصَمائهم.

وفي «البحر»: خاطبوهم لتكونَ المواجهةُ لمن كانوا لا يقدرون على مواجهتهم في الدنيا بقبيحٍ أشفى لصدورهم، حيث تسبَّبوا في كُفْرهم، وأنكى للرؤساء[1]. وهذا أيضاً بتأويل القول بناءً على أنَّ الإنشاءَ لا يكون خبراً، أي: بل أنتم مقولٌ فيكم، أي: أَحقُّ أن يُقال فيكم: لا مرحباً بكم.

﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ تعليلٌ لأحقِّيتهم بذلك، وضميرُ الغَيبة في «قدَّمتموه» للعذاب؛ لِفَهمه مما قبله، أو للمصدر الذي تضمَّنه «صالوا»، وهو الصَّلْيُ، أي: أنتم قدَّمتمُ العذابَ أو الصَّليَ ودخولَ النار لنا بإغوائنا وإغرائنا على ما قدَّمنا من العقائد الزائغة والأعمال السيئة، لا أنَّا باشرناها من تلقاء أنفسنا.

وفي الكلام مجازان عقليَّان؛ الأول: إسنادُ التقديم إلى الرؤساء؛ لأنهم السببُ فيه بإغوائهم، والثاني: إيقاعه على العذاب أو الصَّلْي، مع أنه ليس المقدَّم، بل المقدَّمُ عملُ السوء الذي هو سببٌ له.

وقيل: أطلق الضمير الذي هو عبارةٌ عن العذاب أو الصَّلي المسبَّب عن العمل على العمل مجازاً لغويّاً. وقيل: لا حاجةَ إلى ارتكاب المجاز فيه، فتقديمُ العذاب أو الصَّلْي بتأخير الرحمة منهم.

﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: فبئس المقرُّ جهنم، وهو من كلام الأتباع، وكأنهم قصدوا بذلك التشفِّي والإنكاء، وأنَّ ذلك المقرَّ مشترَكٌ. وقيل: قصدوا بالذَّمِّ المذكورِ تغليظَ جناية الرؤساء عليهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباعُ أيضاً، وقول ابن السائب: القائلُ جميعُ أهل النار، خلافُ الظاهر جدّاً، فلا يُصار إليه. وتوسيطُ الفعل بين كلاميهم؛ لما بينهما من التباين ذاتاً وخطاباً، أي: قالوا مُعرضين عن خصومة رؤسائهم متضرِّعين إلى الله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ أي: مضاعفاً، ومعناه:

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠٦.

ذا ضِعْفٍ، أي: مِثْلٍ، وهو أن يزيدَ على عذابه مثله، فيصير بتلك الزيادة مثلينِ لعذابِ غيره، ويُطلَقُ الضِّعفُ على الزيادة المطلقة.

وقال ابن مسعود هنا: الضِّعفُ: حيَّاتٌ وعقارب.

والظاهر من بعض عباراتهم أنَّ «مَنْ» موصولةٌ، ونصَّ الخفاجيُّ على أنها شرطية[١].

وفي «البحر»: «مَنْ قَدَّمَ» هم الرؤساء، وقال الضحاك: هو إبليس وقابيل[٢]. وهو أنسبُ، بخلاف الظاهر المحكيِّ عن ابن السائب.

﴿وَقَالُوا﴾ الضميرُ للطاغين عند جَمْعٍ، أي: قال الطاغون بعضُهم لبعضٍ على سبيل التعجُّب والتحسُّر: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ أي: الأراذل الذين لا خيرَ فيهم ولا جدوى، يعنون بذلك فقراءَ المؤمنين، وكانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم لفقرهم ومخالفتهم إياهم في الدين.

وقيل: الضمير لصناديد قريشٍ كأبي جَهْلٍ وأميَّةَ بن خَلَف وأصحاب القَليب، والرجالُ: عمارٌ وصهيب وسلمان وخَبَّاب وبلال وأضرابهم ﷺ، بناءً على ما روي عن مجاهدٍ من أنَّ الآيةَ نزلتْ فيهم.

واستضعفه صاحب «الكشف» وسببُ النزول لا يكون دليلاً على الخصوص.

واستظهر بعضُهم أنَّ الضميرَ للأتباع؛ لأنه فيما قبل - يعني قوله تعالى: (قَالُوا بَلْ أَنتُمْ) إلخ - لهم أيضاً، وكانوا أيضاً يسخرونَ من فقراء المؤمنين تَبَعاً لرؤسائهم.

وأيًّاما كان فجملةُ: «كنَّا» إلخ صفةُ «رجالاً».

وقوله تعالى: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ بهمزة استفهامٍ سقطتْ لأجلها همزةُ الوصل، كما قرأ بذلك الحجازيان وابن عامر وعاصم وأبو جعفر والأعرج والحسن وقتادة[٣]،

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٠٧.

(٣) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٧.

استئنافٌ لا محلَّ له من الإعراب، قالوه حيث لم يروهم معهم إنكاراً على أنفسهم، وتأنيباً لها في الاستسخار منهم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ۝٦٣﴾ متَّصلٌ بقوله تعالى: «ما لنا لا نرى» إلخ، و«أم» فيه متصلةٌ، وتقدُّمُ ما فيه معنى الهمزة يغني عن تقدُّمها، على ما يقتضيه كلام الزمخشريِّ[(١)]، والمعنى: ما لنا لا نراهم في النار، أليسوا فيها فلذلك لا نراهم، بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها. أو بقوله تعالى: (أَتَّخَذْنَهُمْ) إلخ. و«أم» فيه إمَّا متصلةٌ أيضاً، والمقابلة باعتبار اللازم، والمعنى: أيّ الأمرين فعلنا بهم: الاستسخار منهم، أم الازدراء بهم وتحقيرهم وأنَّ أبصارنا تعلو عنهم وتقتحمهم، على معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم، وعن الحسن: كلَّ ذلك قد فعلوا؛ اتخذوهم سخريّاً وزاغتْ عنهم أبصارهم محقِّرةً لهم، وإما منقطعةٌ كأنهم أضربوا عن إنكار الاستسخار، وأنكروا على أنفسهم أشدَّ منه، وهو أنهم جعلوهم محقَّرين لا يُنظَرُ إليهم بوجهٍ.

وفي «زاغت» دون: أزغنا، مبالغةٌ عظيمةٌ، كأنَّ العينَ بنفسها تمجُّهم لقُبْحِ منظرهم، وأين هذا من السّخر، فقد يكون المسخورُ منه محبوباً مكرماً.

وجُوِّزَ أن يكون معنى «أم زاغت» على الانقطاع: بل زاغتْ أبصارنا وكَلَّتْ أفهامنا حتى خفي عنَّا مكانهم، وأنهم على الحق المبين.

وقرأ النحويان وحمزة: «اتَّخذناهم» بغير همزةٍ[(٢)]، فَجُوِّزَ أن تكونَ مقدَّرةً لدلالة «أم» عليها، فتتَّحد القراءتان، وأن لا تكون كذلك، ويكونُ الكلامُ إخباراً، فقال ابن الأنباري: الجملةُ حالٌ، أي: وقد اتخذناهم سخرياً[(٣)]، وجُوِّزَ كونها مستأنفةً لبيان ما قبلها. وقال الزمخشريُّ وجماعةٌ: صفةٌ ثانيةٌ لـ «رجالاً»[(٤)]. و«أم زاغت» متَّصلٌ بقوله تعالى: (مَا لَنَا لَا نَرَىٰ) إلخ كما سمعتَ أولاً.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٨٠ بنحوه.
(٢) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢.
(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٤.
(٤) الكشاف ٣/ ٣٨٠.

وجُوِّزَ أن تكونَ «أم» فيه منقطعة، كأنهم أضربوا عمَّا قبلُ، وأنكروا على أنفسهم ما هو أشدُّ منه، أو أضربوا عن ذلك إلى بيان أنَّ ما وقع منهم في حَقِّهم كان لزيغ أبصارهم وكلالِ أفهامهم عن إدراك أنهم على الحقِّ بسبب رَثاثة حالهم.

وقرأ عبد الله وأصحابه ومجاهد والضحاك وأبو جعفر وشيبة والأعرج ونافع وحمزة والكسائي: «سُخْرِيّاً» بضمِّ السين[1]، ومعناه على ما في «البحر»[2] من السُّخرة والاستخدام، ومعنى «سِخْرِيّاً» بالكَسْر على المشهور من السِّخْر وهو الهُزْء، وهو معنى ما حكي عن أبي عمرو، قال: ما كان من مثل العبودية فسُخْرَى بالضَّمِّ، وما كان من مِثْل الهزء فسِخْرَى بالكَسْر، وقيل: هو بالكَسْر من التسخير.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي حُكي عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بدَّ أن يتكلَّموا به، فالمرادُ من حَقِّيَّته تحقُّقه في المستقبل.

وقوله تعالى: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو تخاصم، والجملةُ بيانٌ لذلك، وفي الإبهام أولاً والتبيين ثانياً مزيدُ تقرير له، وقال ابن عطية: بدلٌ من «حق»[3]، والمبدَلُ منه ليس في حكم السقوط حقيقة، وقيل: بدلٌ من محلِّ اسم «إنَّ».

والمراد بالتخاصم التقاول، وجُوِّزَ إرادةُ ظاهره، فإنَّ قولَ الرؤساء: «لا مرحباً بهم» وقولَ الأتباع: «بل أنتم لا مرحباً بكم» من باب الخصومة، فسمَّى التفاوضَ كلَّه تخاصماً لاشتماله عليه، قيل: وهذا ظاهرٌ أنَّ التقاولَ بين المتبوعين والأتباع، أما لو جُعِلَ الكلُّ من كلام الخزنة فلا، ولو جعل «لا مرحباً» من كلام الرؤساء، و«هذا فوجٌ» من كلام الخزنة، فيصحُّ أن يجعل تخاصماً مجازاً.

وقرأ ابن أبي عبلة: «تخاصُمَ» بالنَّصب[4]، فهو بدلٌ من «ذلك». وقال

(١) التيسير ص١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩، عن نافع وحمزة والكسائي وأبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ٤٠٧.
(٢) ٧/ ٤٠٧.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٢.
(٤) الكشاف ٣/ ٣٨٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٢، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٧.

الزمخشريُّ: صفةٌ له[١]، وتُعقِّبَ بأنَّ وَصْفَ اسم الإشارة وإن جاز أن يكونَ بغير المشتقِّ، إلا أنه يلزمُ أن يكونَ مُعرَّفاً بـ «أل» كما ذكره في «المفصَّل»[٢] من غير نقلِ خلافٍ فيه، فبينه وبينَ ما يستدعيه القولُ بالوصفية تناقضٌ، مع ما في ذلك من الفصل الممتنع أو القبيح.

وأجاب صاحب «الكشف» بأنَّ القياسَ يقتضي التجويزَ؛ لأنَّ اسمَ الإشارة يحتاجُ إلى رافعٍ لإبهامه دالٍّ على ذاتٍ معيَّنةٍ، سواءٌ كان فيه اختصاصٌ بحقيقةٍ أخرى أو بحقائقَ، أو لا، وهذا القدرُ لا يُخرجُ الاسمَ عن الدلالة على حقيقة الذات المعيَّنة التي يصحُّ بها أن يكونَ وَصْفاً لاسم الإشارة، وأما الاستعمال فمعارَضٌ بأصل الاستعمال في الصفة، فكما أنَّ الجمهورَ حملوا على الصِّفة في نحو: هذا الرجلُ، مع احتمال البدل والبيان، كذلك الزمخشريُّ حملَ على الوَصْفِ مع احتمال البدل؛ لأنه التفتَ لفت المعنى، ولا يناقضُ ما في «المفصَّل»؛ لأنه ذَكَرَ ذلك في باب النداء خاصةً، على تقدير عدم استقلال اسم الإشارة، ولأنَّ حالَ الاستقلال أقلُّ لم يتعرَّضْ له، وقد بيّن في موضعه أنه في النداء خاصةً يمتنعُ وَصْفُ اسم الإشارة إذا لم يستقلَّ بالمضاف إلى المعرَّف باللام[٣]، على أنه كثيراً ما يخالفُ في أحد الكتابين «الكشاف» و«المفصَّل» الآخَر، والإشكالُ بأنه يلزمُ الفَصْل غير قادحٍ، فإنه يجوزُ، لا سيَّما على تقدير استقلال اسم الإشارة. اهـ. ولا يخلو عن شيء.

وقرأ ابنُ السَّمَيْفع: «تخاصَمَ» فعلاً ماضياً، «أهلُ» بالرفع على أنه فاعلٌ له[٤].

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أنذرتكم عذابَ الله تعالى للمشركين، والكلامُ رَدٌّ لقولهم: «هذا ساحرٌ كذَّابٌ»، فإنَّ الإنذارَ ينافي السحرَ والكذبَ.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٨٠.
(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٠، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٧.

وقد يقال: المراد: إنما أنا رسولٌ منذرٌ، لا ساحرٌ كذاب، وفيه من الحُسْنِ ما فيه، فإنَّ كلَّ واحدٍ من وَصْفَي الرسالة والإنذار ينافي كلَّ واحدٍ من وَصْفَي السحر والكذب، لكنَّ منافاةَ الرسالة للسحر أظهرُ، وبينهما طِباقٌ، فكذلك الإنذار للكذب، وضُمَّ إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لإفادة أنَّ له ﷺ صفة الدعوة إلى توحيده عزَّ وجلَّ أيضاً، فالأمران مستقلّان بالإفادة.

و«من» زائدةٌ للتأكيد، أي: ما إلهٌ أصلاً إلا الله ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ أي: الذي لايحتملُ الكَثْرةَ في ذاته بحسب الجزئيات، بأن يكونَ له سبحانه ماهيةٌ كليةٌ، ولا بحسب الأجزاء ﴿ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ لكلِّ شيء.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات، منه سبحانه خَلْقُها، وإليه تدبير جميع أمورها ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ في أمرٍ من أموره جلَّ شأنه، فتندرجُ في ذلك المعاقبةُ ﴿ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ المبالغ في المغفرة، يغفرُ ما يشاء لمن يشاء.

[وفي هذه الأوصاف][1] تقريرٌ للتوحيد، أما الوصفُ الأولُ فظاهرٌ في ذلك غيرُ محتاجٍ للبيان، وأما القهار لكلِّ شيءٍ، فلأنه لو كان إلهٌ غيرُهُ سبحانه لم يكنْ قهَّاراً له، ضرورةَ أنه لا يكونُ حينئذٍ إلهاً، بل ربما يلزمُ أن يكونَ مقهوراً، وذلك منافٍ للألوهية، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. وأما «رب السماوات» إلخ فلأنَّه لو أمكن غيره معه تعالى شأنه جاء دليلُ التمانع المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فلم تتكوَّنِ السماواتُ والأرضُ وما بينهما، وقيل: لأنَّ معنى «رب السموات» إلخ، ربّ كلّ موجودٍ، فيدخلُ فيه كلُّ ما سواه، فلا يكون إلهاً. وأما «العزيزُ» فلأنه يقتضي أن يغلبَ غيرَهُ ولا يُغلَبَ، ومع الشِّرْكة لا يتمُّ ذلك.

وأما «الغفار» فلأنه يقتضي أن يغفرَ ما يشاءُ لمن يشاء، فربما شاءَ مغفرةً لأحدٍ وشاءَ الآخر منه العقاب، فإن حصلَ مرادُهُ، فالآخَرُ ليس بإله، وإن حَصَلَ مرادُ

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي ٧/ ٣١٩، وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٣٤.

الآخر ولم يحصلْ مراده، لم يكن هو إلهاً، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وما قيل في برهان التمانع سؤالاً وجواباً يقال هنا.

وفي هذه الأوصاف من الدلالة على الوعد والوعيد ما لا يخفى، وللاقتصار على وَصْفِ الإنذار صريحاً فيما تقدَّم قُدِّم وَصْفُ «القهّار» على وَصْفِ «الغفار» هنا. وجُوِّزَ أن يكون المقصودُ هو تحقيق الإنذار، وجيءَ بالثاني تتميماً له وإيضاحاً لما فيه من الإجمال، أي: قلْ لهم: ما أنا إلا منذرٌ لكم بما أعلم، وإنما أنذرتكم عقوبةَ مَنْ هذه صِفتُهُ، فإنَّ مِثْلَهُ حقيقٌ بأن يُخافَ عقابه، كما هو حقيقٌ بأن يُرجى ثوابه. والوجه الأول أوفقُ لمقتضى المقام؛ لأنَّ التعقيبَ بتلك الصفات في الدلالة على أنَّ الدعوةَ إلى التوحيد مقصودةٌ بالذات بمكانٍ لا يُنكر، ولأنَّ هذا بالنسبة إلى ما مرَّ من صَدْرِ السورة إلى هنا بمنزلةِ أن يقول المستدلُّ بعد تمام تقريره: فالحاصلُ، فالأولى أن يكونَ على وزان المبسوط، وفيه قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] فافهم.

﴿قُلْ﴾ تكريرُ الأمر للإيذان بأنَّ المقولَ أمرٌ جليلٌ، له شأنٌ خطيرٌ لا بدَّ من الاعتناء به أمراً وائتماراً. ﴿هُوَ﴾ أي: ما أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً، وأنَّ الله تعالى واحداً لا شريك له. ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ جدّاً، لا ريبَ فيه أصلاً ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ متمادون في الإعراض عنه لتمادي غفلتكم، وهذه الجملةُ صفةٌ ثانيةٌ لـ «نبأ»، والكلامُ بجملته تحسيرٌ لهم وتنبيهٌ على مكان الخطأ، وإظهارٌ لغاية الرأفة والعَطْفِ الذي يقتضيه مقامُ الدعوة.

واستظهر بعضُ الأجلَّة أنَّ «هو» للقرآن، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، واستشهد بآخر السورة وقال: إنه يدخلُ [فيه] ما ذُكِرَ دخولاً أوليًّا، واختارَ كونَ هذه الجملة[1] استئنافاً ناعياً عليهم سوءَ حالهم بالنسبة إليه، وأنهم لا يقدرون قَدْرَهُ الجليلَ مع غاية عظمته الموجبة للإقبال عليه وتلقِّيه بحُسْنِ القَبول.

---

(١) يعني الجملة: «أنتم عنه معرضون» كما في تفسير أبي السعود ٧/ ٢٣٤، والكلام وما بين حاصرتين منه.

وكأنَّ الكلامَ عليه ناظرٌ إلى ما في أول السورة من قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١-٢] جيءَ به ليستدلَّ على أنه واردٌ من جهته تعالى بما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾ إلخ، حيث تضمَّنَ ذِكْرَ نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقةِ معرفةٍ به، ولا مباشرةِ سببٍ من أسبابها المعتادة، كالنظر في الكتب الإلهية والسماع من الكتابين، وهو حُجَّةٌ بيِّنةٌ دالةٌ على أنه بطريق الوحي من عند الله تعالى، وأنَّ سائرَ أنبائه أيضاً كذلك؛ وهو على ما قلنا تذكيرٌ لإثبات النبوَّة بذِكْرٍ مختصرٍ منه، تمهيداً لإرشاد الطريق وتذكيراً للباقي، وتسلُّقاً منه إلى استماع ما ذِكْرُهُ لُطْفٌ للمدعوِّينَ وتنويهٌ للداعي، وعدم التعرض لنحو ذلك في أمر التوحيد لظهور أدلَّته مع كونه ذكر شيء منها غضاً طريًّا، وهو ما أشارت إليه الصفاتُ المذكورةُ آنفاً، فلا يقال: إنَّ التعرُّضَ لإثبات النبوَّة دونَ التوحيد دليلٌ على أنَّ المقصودَ بالإفادة هو النبوَّةُ، وأنَّ الثاني جيءَ به تتميماً لذلك.

وأنت تعلم أنَّ النبوَّةَ وكونَ القرآن وحياً من عند الله تعالى متلازمان، متى ثبتَ أحدهما ثبتَ الآخر، لكن يُرجِّحُ جَعْلَ الآية في النبوَّة وإثباتها القُرْبُ وتصديرُ هذه الآية بنحو ما صُدِّرَتْ به الآيةُ المتضِّمنةُ دعوى النبوَّة قبلها من قوله تعالى: «قل»، فإن سَلِمَ لك هذا المرجِّحُ فذاك، وإلا فلا تَعْدِلْ عمَّا روي عن ابن عباس ومن معه.

وعن الحسن أنَّ ذلك يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢] وقيل: ما تقدَّم من أنباء الأنبياء عليهم السلام، وقيل: تخاصُمُ أهل النار، وعُدِّيَ العِلْمُ بالباء نظراً إلى معنى الإحاطة.

والملأ: الجماعةُ الأشراف؛ لأنهم يملؤون العيونَ رواءً، والنفوسَ جلالةً وبهاءً، وهو اسمُ جمعٍ ولذا وُصِفَ بالمفرد، أعني: الأعلى، والمراد به عند ملأ: الملائكةُ وآدمُ عليهم السلام وإبليسُ عليه اللعنة، وكانوا في السماء، فالعلوُّ حِسِّيٌّ، وكان التقاولُ بينهم على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى، و«إذ» متعلِّقةٌ بمحذوفٍ يقتضيه المقام؛ إذ المرادُ نفيُ علمه عليه السلام بحالهم لا بذواتهم، والتقديرُ: ما كان لي فيما سَبَقَ عِلْمٌ ما بوجهٍ من الوجوه بحالِ الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم،

وهو أَولى من تقدير الكلام كما ذهب إليه الجمهور، أي: ما كان لي عِلْمٌ بكلامِ الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم؛ لأنَّ عِلْمه ﷺ غيرُ مقصورٍ على ما جرى بينهم من الأقوال فقط، بل عامٌّ لها وللأفعال أيضاً من سجودِ الملائكة عليهم السلام وإباء إبليسَ واستكباره حسبما ينطق به الوحي، فالأولى اعتبارُ العموم في نفيه أيضاً.

وقيل: «إذ» بدلُ اشتمالٍ من «الملأ»، أو ظرفٌ لـ «عِلْم». وفيه بحثٌ.

والاختصام فيما يُشير إليه سبحانه بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [الآية: ٧١]، والتعبير بـ «يختصمون» المضارع لأنه أمرٌ غريبٌ، فأُتي به لاستحضاره حكاية للحال، وضميرُ الجميع للملأ، وحكى أبو حيان كونه لقريشٍ واستبعده[١]، وكأنَّ في «يختصمون» حينئذٍ التفاتاً من الخطاب في «أنتم عنه معرضون» إلى الغَيبة، والاختصام في شأن رسالته ﷺ أو في شأن القرآن أو شأن المعاد، وفيه عدولٌ عن المأثور وارتكابٌ لما لا يكاد يُفهَمُ من الآية من غيرِ داعٍ إلى ذلك، ومع هذا لا يقبله الذوقُ السليم.

وقوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ اعتراضٌ وُسِّط بين إجمال اختصامهم وتفصيله تقريراً لثبوت عِلْمه عليه الصلاة والسلام وتعييناً لسببه، إلا أنَّ بيانَ انتفائه فيما سبق لمَّا كان منبئاً عن ثبوته الآن، ومن البَيِّن عدمُ ملابسته ﷺ بشيءٍ من مباديه المعهودة، تعيَّنَ أنه ليس إلا بطريق الوحي حَتْماً، فجعلَ ذلك أمراً مُسلَّمَ الثبوت، غنيّاً عن الإخبار به قَصْداً، وجَعَلَ مَصَبَّ الفائدة إخبارَه بما هو داعٍ إلى الوحي ومصحِّحٌ له، فالقائمُ مقامَ الفاعل لـ «يوحى» إما ضميرٌ عائدٌ إلى الحال المقدَّر كما أُشير إليه سابقاً أو ما يعمُّهُ وغيره، فالمعنى: ما يُوحى إليَّ حالُ الملأ الأعلى، أو: ما يوحى إليَّ الذي يُوحى من الأمور الغيبية التي من جملتها حالهم لأمرٍ من الأمور، إلا لأني نذيرٌ مبينٌ من جهته تعالى، فإنَّ كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعي الوحي إليه ومصحِّحاته.

وجُوِّزَ كونُ الضمير القائم مقامَ الفاعل عائداً إلى المصدر المفهوم من «يُوحى»،

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠٩.

أي: ما يُفعل الإيحاء إليَّ بحالِ الملأ الأعلى ـ أو بشيءٍ من الأمور الغيبية التي من جملتها حالهم ـ لأمرٍ من الأمور إلا لأني. . إلخ.

وجُوِّز أيضاً كون الجارِّ والمجرور نائب الفاعل، و«أنَّما» على تقدير اللام، قال في «الكشف»: ومعنى الحَصْر أنه ﷺ لم يُوحَ إليه لأمرٍ إلا لأنه نذيرٌ مبينٌ، وأيُّ مبينٍ، كقولك: لم تستقضِ يا فلانُ إلا لأنك عالمٌ عاملٌ مرشد.

وجوَّزَ الزمخشريُّ أن يكون بعد حَذْفِ اللام مقاماً مقام الفاعل[1]، ومعنى الحَصْر أني لم أُومر إلا بهذا الأمر وحده، وليس إليَّ غير ذلك؛ لأنه الأمرُ الذي يشتملُ على كلِّ الأوامر؛ إما تضمُّناً وإما التزاماً، أو: لم أُومر إلا بإنذاركم، لا بهدايتكم وصَدِّكم عن العناد، فإنَّ ذلك ليس إليَّ.

وما ذُكر أولاً أوفقُ بحال الاعتراض كما لا يخفى على من ليس أجنبيّاً عن إدراك اللطائف.

وقرأ أبو جعفر: «إنَّما» بالكَسْر، على الحكاية[2]، أي: ما يُوحى إليَّ إلا هذه الجملة، وإيحاؤها إليه أَمرُهُ عليه الصلاة والسلام أن يقولها، وحاصلُ معنى الحَصْر قريبٌ مما ذُكر آنفاً، وجُوِّزَ أن يُراد: لم أُومرْ إلا بأنْ أقولَ لكم هذا القول، دون أن أقولَ: أعلمُ الغيبَ بدون وحي مثلاً. فتدبَّر ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إلخ، شروعٌ في تفصيل ما أُجمل من الاختصام الذي هو ما جرى بينهم من التقاول، فهو بدلٌ من «إذ يختصمون» بدلَ كلٍّ من كلٍّ، وجُوِّزَ كونه بدلَ بعض.

وصحَّ إسنادُ الاختصام إلى الملائكة مع أنَّ التقاولَ كان بينهم وبين الله تعالى كما يدل عليه: «إذ قال ربك» إلخ، لأنَّ تكليمه تعالى إياهم كان بواسطة الملك، فمعنى المقاولة بين الملأ الأعلى مقاولة ملك من الملائكة مع سائر الملائكة عليهم السلام في شأنِ الاستخلاف، ومع إبليسَ في شأن السجود، ومع آدم في قوله:

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨١.

(٢) النشر ٢/ ٣٦٢.

﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة:٣٣] ومعنى كون المقاولة بين الملائكة وآدم وإبليس وجودها فيما بينهم في الجملة، ولا يلزمُ الجَمْعُ بين الحقيقة والمجاز في الإسناد، فالكلُّ حقيقةٌ؛ لأنَّ الملأ الأعلى شاملٌ للملك المتوسِّط، وهو المقاول بالحقيقة، وهو عزَّ وجلَّ مقاولٌ بالمجاز، ولا تقل: المخاصم؛ ليكونَ الأمرُ بالعكس، وما يقال: إنَّ قوله تعالى: «إذ قال ربك» يقتضي أن تكونَ مقاولته تعالى إياهم بلا واسطة، فهو ممنوعٌ؛ لأنه إبدالُ زمانِ قصَّةٍ عن زمان التفاوض فيها، والغرضُ أن تُعلمَ القصة لا مطابقة كلِّ جزءٍ جزءٍ لكلِّ جزءٍ جزءٍ، فذلك غيرُ لازمٍ ولا مراد.

ثم فيه فائدةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ مقاولةَ الملك إياهم أو إياهما عن الله تعالى، فهم مقاولوه تعالى أيضاً، وأُريد هذا المعنى من هذا الإيراد لا من اللفظ؛ ليلزمَ الجمعُ المذكورُ آنفاً، وجَعْلُ الله عزَّ وجلَّ من الملأ الأعلى بأنْ يُرادَ به ما عدا البشر؛ ليكونَ الاختصامُ قائماً به تعالى وبهم على معنى أنه سبحانه في مقابلتهم يخاصمونه ويخاصمهم، مع ما فيه من إيهام الجهة له عزَّ وجلَّ ينبو المقامُ عنه نبوّاً ظاهراً، ولم يذكر سبحانه جوابَ الملائكة عليهم السلام لتتمَّ المقاولةُ؛ اختصاراً بما كرّر مراراً، ولهذا لم يقلْ جلَّ شانه: إني خالقٌ خَلْقاً من صفته كيتَ وكيتَ، جاعلٌ إياه خليفة.

وروعي هذا النسقُ هاهنا لنكتةٍ سَرِيَّةٍ وهي أن يُجعَلَ مصبُّ الغرض من القصة حديث إبليس ليلائم ما كان فيه أهل مكة، وأنه بامتناعه عن امتثال أمرٍ واحدٍ جرى عليه ما جرى، فكيف يكونُ حالهم وهم مغمورون في المعاصي؟ وفيه أنه أولُ من سَنَّ العصيانَ، فهو إمامهم وقائدهم إلى النار، وذِكْرُ حديث سجود الملائكة وطيّ مقاولتهم في شأن الاستخلاف ليفرِّقَ بين المقاولتين، وأنَّ السؤالَ قبل الأمر ليس مثله بعده، فإنَّ الثاني يلزمه التواني.

ثم فيه حديثُ تكريم آدم عليه السلام ضِمْناً دلالة على أنَّ المعلِّمَ والناصحَ يُعَظَّمُ، وأنه شَرْعٌ منه تعالى قديم، وكان على أهل مكة أن يعاملوا النبيَّ ﷺ معاملةَ الملائكة لآدم، لا معاملةَ إبليس له. قاله صاحب «الكشف»، وهو حَسَنٌ، بَيْدَ أنَّ ما علّل به الاختصارَ من تكرار ذلك مراراً لا يتمُّ إلا إذا كان ذلك في سورةٍ مكية نزلتْ قبل هذه السورة، وقد علَّلَ بعضُهم تَرْكَ الذكر بالاكتفاء بما في البقرة، وفيه

أنَّ نزولها متأخِّرٌ عن نزول هذه السورة؛ لأنها مدنيَّة وهذه مكية، فلا يصحُّ الاكتفاءُ إحالةً عليها قبل نزولها، وكونُ المراد اكتفاء السامعين للقرآن بعد ذلك، لا يخفى حاله، ولعلَّ القصةَ كانت معلومةً سماعاً منه ﷺ، وكان عالماً بها بواسطة الوحي، وإن لم تكن إذ ذاك نازلةً قرآناً، فاختُصرت هاهنا لما ذكر في «الكشف» اكتفاءً بذلك.

وقال فيه أيضاً: ولك[1] أن تقول: التقاولُ بين الملائكة وآدم عليهم السلام حيث قال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١] تبكيتاً لهم بما نسبوا إليه من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وبينه وبين إبليس، إما لأنه داخلٌ في الإنكار والتبكيت، بل هو أشدّهم في ذلك، لكنْ غلَّبَ الله تعالى الملائكةَ لأنه أخسّ من أن يُقرَنَ مع هؤلاء مفرَداً في الذكر، أو لأنه أُمر بالسجود لمعلِّمه فامتنع وأسمعه ما أسمع. وقوله تعالى: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ) إلخ، للإتيان بطَرَفٍ مشتملٍ على قصةِ المقاولة، وتصويرِ أصلها، فلم يلزمْ منه أن يكونَ الربُّ جلَّ شأنه من المقاولين، وإن كان بينه سبحانه وبينهم تقاولٌ قد حكاه الله تعالى.

وهذا أقلُّ تكلُّفاً مما فيه دعوى أنَّ تكليمَهُ تعالى كان بواسطة الملك؛ إذ للمانع أن يمنعَ التوسُّطَ على أصلنا وعلى أصل المعتزلة أيضاً، لا سيَّما إذا جُعل المبكَّتون الملائكةَ كلَّهم، وعلى الوجهين ظَهَرَ فائدةُ إبدال «إذ قال ربك» من «إذ يختصمون» على وجهٍ بيِّنٍ.

والاعتراضُ بأنه لو كان بدلاً لكان الظاهرُ: إذ قال ربِّي؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الآية: ٦٩] فليس المقامُ مما يقتضي الالتفاتَ = غير قادحٍ، فإنه على أسلوب قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الزخرف: ٩-١٠] فالخطابُ بـ «لكم» نظراً إلى أنه من قول الله تعالى تمَّم قولهم، وذنبه كذلك هاهنا هو من قول الله تعالى لتتميم قول النبيِّ ﷺ، وهذا على نحو ما يقول مخاطِبكَ: جاءني الأمير، فتقول: الذي أكرمَكَ وحباكَ، أو يقول: رأيتُ الأميرَ يومَ الجمعة، فتقول: يومَ خَلَعَ عليكَ الخِلْعة

(١) في (م): وذلك.

الفلانيَّة، ومنه عُلم أنه ليس من الالتفات في شيءٍ، وأنَّ هذا الإبدالَ على هذا الأسلوب لمزيد الحُسْن. انتهى.

وجُوِّزَ أن يقال: إنَّ «إذ» في قوله تعالى: «إذ قال ربك» ظرفٌ لـ: «يختصمون»، والمراد بالملأ الأعلى الملائكةُ، وباختصامهم قولهم لله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] في مقابلة قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى غير ذلك، ولا يتوقَّفُ صحةُ إرادة ذلك على جَعْل الله تعالى من الملأ، ولا على أنه سبحانه كلَّمهم بواسطةِ ملك، ولا تقدُّم تفصيلِ الاختصام مطلقاً، بل يكفي ذِكْرُهُ بعد النزول سواء ذُكِرَ قرآناً أم لا، ويُرَجِّحُ تفسيرَ الملأ بما ذُكر على تفسيره بما يعمُّ آدمَ عليه السلام أنَّ ذاك على ما سمعتَ يستدعي القولَ بأنَّ آدمَ كان في السماء، وهو ظاهرٌ في أنه عليه السلام خُلِقَ في السماء، أو رُفِعَ إليها بعد خَلْقه في الأرض، وكلا الأمرين لا يُسلِّمهما كثيرٌ من الناس.

وقد نقل ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة»(١) عن جَمْعٍ أنَّ آدمَ عليه السلام إنما خُلِقَ في الأرض، وأنَّ الجنة التي أُسْكِنَها بعد أن جَرى ما جَرى كانت فيها أيضاً، وأتى بأدلةٍ كثيرةٍ قويةٍ على ذلك، ولم يُجبْ عن شيءٍ منها، فتدبر.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ الملأ الأعلى الملائكة، وأنَّ اختصامهم كان في الدرجات والكفارات، فقد أخرج الترمذيُّ وصحَّحه، والطبرانيُّ وغيرهما(٢) عن معاذ بن جبل قال: احتبسَ عنَّا رسولُ الله ﷺ ذاتَ غَداةٍ من صلاةِ الصبحِ، حتى كِدْنا نتراءى عينَ الشمس، فخرج سريعاً فثوَّبَ بالصلاة، فصلَّى رسول الله ﷺ، فلمَّا سلَّم دعا بصوته فقال: «على مصافِّكم» ثم التفتَ إلينا، ثم قال: «أما إنِّي أحدِّثكم بما حبسني عنكم الغداةَ، إني قمتُ الليلةَ، فقمتُ وصلَّيتُ ما قُدِّرَ لي، ونَعَسْتُ في صلاتي حتى استثقلتُ، فإذا أنا بربِّي تباركَ وتعالى في أحسن صورة فقال: يا محمد، قلت: لبيكَ ربِّي. قال: فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى؟ قلت:

---

(١) ١/ ١١ وما بعدها.

(٢) الترمذي (٣٢٣٥)، والطبراني في الكبير ٢٠/ ١٠٩ (٢١٦). وهو عند أحمد (١٦٦٢١) من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ.

لا أدري، فَوَضَعَ كَفَّه بين كتفيَّ، فوجدتُ بَرْدَ أنامله بين ثدييَّ، فتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرفته، فقال: يا محمد، قلت: لبيكَ. قال: فيمَ يختصمُ الملأ الأعلى؟ قلت: في الدرجات والكفَّارات، فقال: ما الدرجات؟ فقلتُ: إطعامُ الطعام، وإفشاءُ السلام، والصلاةُ بالليل والناس نيام، قال: صدقتَ، فما الكفَّارات؟ قلتُ: إسباغُ الوضوء في المكاره، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، ونَقْلُ الأقدام إلى الجماعات، قال: صدقتَ، سَلْ يا محمد، فقلت: اللهمَّ إنِّي أسألكَ فِعْلَ الخيرات، وتَرْكَ المنكرات، وحُبَّ المساكين، وأن تغفرَ لي وترحمني، وإذا أردتَ بعبادك فتنةً فاقبضني إليك غيرَ مفتون، اللهمَّ إني أسألك حُبَّكَ وحُبَّ من أَحبَّكَ، وحُبَّ عملٍ يُقرِّبني إلى حُبِّك»، قال النبيُّ ﷺ: «تعلَّموهنَّ وادرسوهنَّ، فإنهنَّ حقٌّ».

ومعنى اختصامهم في ذلك على ما في «البحر» اختلافُهم في قَدْرِ ثوابه[(١)].

ولا يخفى أنَّ حَمْلَ الاختصام في الآية على ما ذُكر بمراحلَ عن السياق، فإنه مما لم يعرفه أهلُ الكتاب، فلا يُسلِّمه المشركون له عليه الصلاة والسلام أصلاً، نعم هو اختصامٌ آخر لا تعلُّقَ له بالمقام. وجَعَلَ هؤلاء «إذ» في «إذ قال» منصوباً بـ «اذكر» مقدَّراً، وكذا كلُّ من قال: إنَّ الاختصامَ ليس في شأن آدم عليه السلام، يجعله كذلك. والشهاب الخفاجي قال: الأظهر - أي: مطلقاً - تعلُّق «إذ» بـ «اذكر» المقدَّر على ما عُهد في مثله؛ ليبقى «إذ يختصمون» على عمومه، ولئلا يفصلَ بين البدل والمبدل منه، وليشملَ ما في الحديث الصحيح من اختصامهم في الكفارات والدرجات، ولئلا يحتاجَ إلى توجيهِ العدول عن «ربِّي» إلى «ربك»[(٢)]. انتهى، وفيه شيءٌ لا يخفى.

ومن غريب ما قيل في اختصامهم، ما حكاه الكرمانيُّ في «عجائبه» أنه عبارةٌ عن مناظرتهم بينهم في استنباط العلوم، كمناظرة أهل العلم في الأرض، ويُرَدُّ به على مَنْ يزعمُ أنَّ جميعَ علومهم بالفعل، والمعروفُ عن السلف أنه المقاولةُ في شأن آدم عليه السلام، والردّ به حاصلٌ أيضاً، والمراد بالملائكة في: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠٩.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣٢٠.

﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ما يعمُّ إبليس؛ لأنه إذ ذاك كان مغموراً فيهم، ولعلَّ التعبيرَ بهم دون الضمير الراجع إلى الملأ الأعلى على القول بالاتحاد؛ لشيوع تعلُّقِ القول بهم بين أهل الكتاب بهذا العنوان، أو لشهرةِ المقابلة بين الملك والبشر، فيلطف جدّاً قوله سبحانه ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ وقيل: عبَّر بذلك إظهاراً للاستغراق في المقول له، والمراد: إني خالقٌ فيما سيأتي، وفي التعبير بما ذُكر ما ليس في التعبير بصيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعلٌ ألبتَّة من غير صارف.

والبشر: الجسمُ الكثيفُ يلاقي ويباشر، أو بادي البشرة ظاهر الجلد غير مستورٍ بشعر أو وَبَرٍ أو صوف، والمراد به آدم عليه السلام؛ وذكر هنا خلقهُ من طينٍ، وفي «آل عمران»: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [الآية:٥٩]، وفي «الحِجْر»: ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الآية:٢٨]، وفي «الأنبياء»: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ [الآية:٣٧]، ولا منافاةَ، غايةُ ما في الباب أنه ذُكِرَ في بعض المادة القريبة وفي بعض المادة البعيدة، ثم إنَّ ما جرى عند وقوع المحكيِّ ليس اسم البشر الذي لم يخلق مسمَّاه حينئذٍ فضلاً عن تسميته به، بل عبارةٌ كاشفةٌ عن حاله، وإنما عبَّر عنه بهذا الاسم عند الحكاية.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: صَوَّرته بالصورة الإنسانية والخِلْقة البشرية، أو: سَوَّيتُ أجزاءَ بدنه بتعديل طبائعه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ تمثيلٌ لإضافة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها، فليس ثمَّةَ نفخٌ ولا منفوخٌ، أي: فإذا أكملتُ استعدادَهُ وأَفَضْتُ عليه ما يحيا به من الروح الطاهرة التي هي أمري. ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أَمْرٌ من «وقع»، وفيه دليلٌ على أنَّ المأمورَ به ليس مجردَ الانحناء كما قيل، أي: فاسقطوا له ﴿سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ تحيةً له وتكريماً.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: فَخَلَقَهُ فسوَّاه، فنفخَ فيه الروحَ، فَسَجَدَ له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيثُ لم يبقَ أحدٌ منهم إلا سجد ﴿أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: بطريق المعيَّةِ بحيثُ لم يتأخَّرْ أحدٌ منهم عن أحدٍ، فـ «كلّ» للإحاطة و«أجمع» للاجتماع، ولا اختصاصَ لإفادته ذلك بالحالية خلافاً لبعضهم، وتحقيقه على ما في «الكشف» أنَّ الاشتقاقَ الواضحَ يُرشِدُ إلى أنَّ فيه معنى الجمع والضَّمِّ، والأصلُ في الإطلاق

الخطابيِّ التنزيلُ على أكمل أحوال الشيء، ولا خفاء في أنَّ الجمعَ في وقتٍ واحدٍ أكملُ أصنافه، لكنْ لمَّا شاع استعماله تأكيداً أُقيم مُقامَ «كلّ» في إفادة الإحاطة من غير نظر إلى الكمال، فإذا فُهمتِ الإحاطةُ بلفظٍ آخرَ لم يكن بُدٌّ من ملاحظة الأصل؛ صَوْناً للكلام عن الإلغاء، ولو سَلِمَ فـ «كلّ» تأكيدُ الشمول بإخراجه عن الظهور إلى النصوص، و«أجمعون» تأكيدُ ذلك التأكيد، فيفيدُ أتمَّ أنواع الإحاطة، وهو الإحاطةُ في وقتٍ واحد، واستخراجُ هذه الفائدة من جَعْله كإقامة المظهر مقام المضمَرِ لا يلوحُ وجهه، والنقضُ بقوله سبحانه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ منشؤهُ عدمُ تصوُّرِ وجهِ الدلالة.

وظاهرُ هذه الآية وآية «الحِجْر» أنَّ سجودَهم مترتِّبٌ على ما حكي من الأمر التعليقيِّ، وكثيرٌ من الآيات الكريمة كالتي في «البقرة» و«الأعراف»(١) وغيرهما ظاهرةٌ في أنه مترتِّبٌ على الأمر التنجيزيِّ، وقد مرَّ تحقيقُ ذلك فليراجع.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ متَّصلٌ لما أنه ـ وإن كان جِنِّيّاً ـ معدودٌ في زمرة الملائكة، موصوفٌ بصفاتهم، لا يقومُ ولا يقعدُ إلا معهم، فشملته الملائكةُ تغليباً، ثم استثني استثناءَ واحدٍ منهم، أو لأنَّ من الملائكة جِنْساً يتوالدون وهو منهم. أو هو استثناءٌ منقطع.

وقوله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ على الأول استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية تَرْكِ السجود المفهوم من الاستثناء، فإنَّ تَرْكَهُ يحتملُ أن يكونَ للتأمل والتروِّي، وبه يتحقَّقُ أنه للإباء والاستكبار، وعلى الثاني: يجوزُ اتصاله بما قبله، أي: لكن إبليس استكبرَ وتعظَّم.

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: وصار منهم باستكباره وتعاظُمه على أمر الله تعالى، وتَرْكُ الفاء المؤذنةِ بالسببية إحالةٌ على فِطْنةِ السامع، أو لظهور المراد. وكون التعاظم على أمره عزَّ وجلَّ لا سيَّما الشفاهي موجباً للكُفْر مما لا ينبغي أن يُشَكَّ فيه، على أنَّ هذا الاستكبارَ كان متضمِّناً استقباحَ الأمر وعَدَّهُ جَوْراً،

(١) سورة البقرة الآية (٣٤) وما بعدها، وسورة الأعراف الآية (١١) وما بعدها.

ويجوزُ أن يكون المعنى: وكان من الكافرين في عِلْمِ الله تعالى لِعِلْمِهِ عزَّ وجلَّ أنه سيعصيه، ويصدرُ عنه ما يصدرُ باختياره وخُبْثِ طويَّته واستعداده.

﴿قَالَ﴾ عزَّ وجلَّ على سبيل الإنكار والتوبيخ: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ أي: من السجود ﴿لِمَا خَلَقۡتُ﴾ أي: للذي خلقتُه، على أنَّ «ما» موصولةٌ والعائدُ محذوف، واستُدلَّ به على جواز إطلاق «ما» على آحاد مَنْ يعقل، ومَن لم يُجِزْ قال: إنَّ «ما» مصدريةٌ، ويُراد بالمصدر المفعول، أي: أن تسجدَ لمخلوقٍ.

﴿بِيَدَيَّۖ﴾ وهذا عند بعض أهل التأويل من الخَلَفِ تمثيلٌ لكونه عليه السلام معتنًى بخَلْقه، فإنَّ من شأن المُعتنَى به أن يُعمَلَ باليدين، ومن آثار ذلك خَلْقه من غير توسُّطِ أبٍ وأمٍّ، وكونه جسماً صغيراً انطوى فيه العالم الأكبر، وكونه أهلاً لأن يُفاضَ عليه ما لا يُفاض على غيره، إلى غير ذلك من مزايا الآدميَّة.

وعند بعضٍ آخر منهم: اليدُ بمعنى القدرة، والتثنيةُ للتأكيد الدالِّ على مزيد قدرته تعالى؛ لأنها تَرِدُ لمجرد التكرير نحو: ﴿ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: ٤] فأُريد به لازمُهُ، وهو التأكيد، وذلك لأنَّ لله تعالى في خَلْقه أفعالاً مختلفةً من جَعْله طِيناً مخمَّراً، ثم جسماً ذا لحمٍ وعظمٍ، ثم نفخ الروح فيه وإعطائه قوَّةَ العلم والعمل، ونحو ذلك مما هو دالٌّ على مزيد قدرة خالقِ القُوى والقُدَر.

وجُوِّز أن يكون ذلك لاختلاف فعل آدم، فقد يصدرُ منه أفعالٌ مَلَكيَّةٌ، كأنها من آثار اليمين، وقد يصدرُ منه أفعالٌ حيوانيَّةٌ، كأنها من آثار الشمال، وكلتا يديه سبحانه يمين.

وعند بعضٍ: اليد بمعنى النعمة، والتثنيةُ إما لنحو ما مرَّ، وإما على إرادة نعمة الدنيا ونعمة الآخرة.

والسلف يقولون: اليدُ مفردةً وغيرَ مفردةٍ ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ على المعنى اللائق به سبحانه، ولا يقولون في مثل هذا الموضع: إنها بمعنى القدرة أو النعمة، وظاهرُ الأخبار أنَّ للمخلوق بها مزيةً على غيره، فقد ثبت في الصحيح أنه سبحانه قال في

جواب الملائكة: اجعلْ لهم الدنيا ولنا الآخرة: وعِزَّتي وجلالي لا أجعلُ مَن خَلَقتُه بيديَّ كَمَنْ قلت له: كُنْ، فكان[١].

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في «العظمة» والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خلقَ الله تعالى أربعاً بيده: العرش، وجنات عَدن، والقلم، وآدم، ثم قال لكلِّ شيءٍ: كُنْ، فكان[٢].

وجاء في غير ما خبر أنه تعالى كتب التوراةَ بيده.

وفي حديث مُحاجَّة آدم وموسى عليهما السلام ما يدلُّ على أنَّ المخلوقيةَ بها وَصْفُ تعظيم حيث قال له موسى: «أنت آدمُ الذي خَلَقَكَ الله تعالى بيده»[٣].

وكذلك في حديث الشفاعة أنَّ أهلَ الموقف يأتون آدمَ ويقولون له: «أنت آدمُ أبو الناس، خَلَقَكَ الله تعالى بيده»[٤].

ويُعلَمُ من ذلك أنَّ ترتيبَ الإنكار في «ما منعك أن تسجد» على خَلْقِ الله تعالى إياه بيديه لتأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ، كأنه قيل: ما منعكَ أن تُعظِّمَ بالسجود مَنْ هو أهلٌ للتعظيم؛ للعناية الربَّانيَّة التي حَفَّتْ إيجاده.

وزعم الزمخشريُّ أنَّ «خلقتُ بيديَّ» من باب: رأيته بعينيَّ، فـ «بيديَّ» لتأكيد أنه مخلوقٌ لاشكَّ فيه، وحيث إنَّ إبليسَ تَرَكَ السجود لآدم عليه السلام لشبهةِ أنه سجودٌ لمخلوقٍ، وانضمَّ إلى ذلك أنه مخلوقٌ من طين، وأنه هو مخلوقٌ من نار، وزلَّ عنه أنَّ الله سبحانه حين أَمَرَ مَنْ هو أَجَلُّ منه وأَقربُ عباده إليه زلفى وهم الملائكة امتثلوا ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له؛ تعظيماً لأمر ربِّهم وإجلالاً لخطابه، ذَكَرَ له ما يتشبَّثُ به من

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦١٦٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفي مسند الشاميين (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه، وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٠٠. والحديث ليس في الصحيح كما ذكر المصنف.

(٢) تفسير ابن جرير ٢٠/ ١٤٥، والعظمة (٦٩٣)، والأسماء والصفات للبيهقي (٦٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٩٠٩٥)، ومسلم (٢٦٥٢): (١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٩٦٢٣)، والبخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الشبهة، وأخرج له الكلامَ مخرجَ القول بالموجب، مع التنبيه على مزلَّة القدم، فكأنه قيل له: ما منعكَ من السجود لشيءٍ هو كما تقول مخلوقٌ، خلقتهُ بيديَّ، ولا شكَّ في كونه مخلوقاً؛ امتثالاً لأمري وإعظاماً لخطابي، كما فعلت الملائكة[1].

ولا يخفى أنَّ المقامَ نابٍ عمَّا ذكره أشدَّ النّبو، وجَعْلُ ذلك من باب: رأيتُ بعيني، لا يفيد إلا تأكيد المخلوقية، وإخراجُ الكلام مخرجَ القول بالموجب مما لا يكادُ يُقبَلُ، فإنَّ سياقَ القول بالموجب أن يُسلّم له ثم ينكر عليه، لا أن يُقدّم الإنكار أصلاً ويؤتى به كالرَّمز، بل كالإلغاز، وأيضاً الأخبار الصحيحة ظاهرةٌ في أنَّ ذاك وَصْفُ تعظيم لا كما زعمه، وأيضاً جَعْلُ سجود الملائكة لآدم راجعاً إلى محض الامتثال من غير نظرٍ إلى تكريم آدم عليه السلام مردودٌ بما سُلِّمَ في عِدَّة مواضعَ أنه سجودُ تكريم، كيف وهو يقابل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وكذلك تعليمه إياهم، فليلحظ فيه جانب الآمر تعالى شأنه، وجانب المسجود له عليه الصلاة والسلام توفيةً للحقَّين، وكأنه قال ما قال وأخرج الآية على وجهٍ لم يخطرْ ببال إبليس حَذَراً من خَرْم مذهبه، ولا عليه أن يُسلِّم دلالة الآية على التكريم، ويخصَّهُ بوجهٍ، وحينئذٍ لا تدلُّ على الأفضلية مطلقاً، حتى يلزمَ خَرْمُ مذهبه، ولعَمْري إنَّ هذا الرجلَ عَقَّ أباه آدم عليه السلام في هذا المبحث من «كشافه» حيث أَورد فيه مثالاً لما قرَّره في الآية، جَعَلَ فيه سقاط الحشم مثالاً لآدم عليه السلام، وبَرَّ عدوَّ الله تعالى إبليس، حيث أقام له عُذْرَهُ وصوَّبَ اعتقاده أنه أفضلُ من آدم لكونه من نارٍ وآدم من طين، وإنما غَلَّطه من جهةٍ أخرى وهو أنه لم يقسْ نفسَهُ على الملائكة إذ سجدوا له، على علمهم أنه بالنسبة إليهم محطوطُ الرتبة ساقطُ المنزلة، وكم له من عَثْرةٍ لا يُقال لصاحبها لَعاً[2] مع الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم في هذا المقام، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من مهاوي الهوى، ويثبّتَ لنا الأقدام.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨٣.

(٢) يقال للعاثر: لعاً لك، وهو دعاء له بأن ينتعش. مختار الصحاح (لعا).

وقرئ: «بيديِّ» بكسر الياء، كمصرخِيِّ[١]. و«بيدِي» على التوحيد[٢].

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ بهمزة الإنكار وطَرْحِ همزة الوصل، أي: أتكبَّرتَ من غير استحقاق. ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أو: كنتَ مستحقّاً للعلوِّ فائقاً فيه. وقيل: المعنى: أَحَدَثَ لك الاستكبارُ، أم لم تزلْ منذ كنتَ من المستكبرين. فالتقابلُ على الأول باعتبار الاستحقاق وعدمه، وعلى الثاني باعتبار الحدوث والقِدَم، ولذا قيل: «كنت من العالين» دون: أنت من العالين.

وقيل: إنَّ العالين صِنْفٌ من الملائكة يقال لهم: المهيمون، مستغرقونَ بملاحظة جمال الله تعالى وجلاله، لا يعلمُ أحدهم أنَّ الله تعالى خَلَقَ غيرَهُ، لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام، أو هم ملائكةُ السماء كلُّهم، ولم يُؤمروا بالسجود، وإنما المأمورُ ملائكةُ الأرض، فالمعنى: أَتَرَكْتَ السجودَ استكباراً، أم تركتَهُ لكونك ممن لم يُؤمَرْ به؟! ولا يخفى ما فيه.

و«أم» في كلِّ ذلك متصلةٌ، ونقل ابنُ عطيةَ عن كثير من النحويين أنها لا تكون كذلك إذا اختلفَ الفعلان نحو: أَضَرَبْتَ زيداً أم قَتَلْتَهُ[٣]. وتعقَّبه أبو حيان بأنه مذهبٌ غيرُ صحيح، وأنَّ سيبويه صَرَّحَ بخلافه[٤].

وقرأتْ فرقةٌ منهم ابنُ كثيرٍ فيما قيل: «استكبرت» بصلة الألف[٥]، وهي قراءةُ أهل مكة، وليست في مشهورِ ابن كثير، فاحتمل أن تكونَ همزةُ الاستفهام قد حُذفت لدلالة «أم» عليها، كقوله:

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨٣، والدر المصون ٩/ ٣٩٨، والبحر ٧/ ٤١٠. ووقع في الأصل و(م): بكسر الدال، وهو خطأ، وقراءة «بمصرخيِّ» بكسر الياء لحمزة كما سلف ١٣/ ٢٦٦.

(٢) وهي قراءة الجحدري، ينظر القراءات الشاذة ص١٣٠، والكشاف ٣/ ٣٨٣، والبحر المحيط ٧/ ٤١٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٥.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٤١٠.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٥، والبحر المحيط ٧/ ٤١٠.

بـسـبـعٍ رمـيـنـا الـجـمـرَ أم بـثـمـانِ[١]

واحتمل أن يكون الكلامُ إخباراً، و«أم» منقطعة، والمعنى: بل أنت من العالين، والمراد استخفافه سبحانه به.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ قيل: هو جوابٌ عن الاستفهام الأخير، يؤدِّي مؤدَّى أنه كذلك ـ أي: هو من العالين ـ على الوجه الأول، وأنه ليس من الاستكبار سابقاً ولاحقاً في شيءٍ على الوجه الثاني، ويجري مجرى التعليل لكونه فائقاً، إلا أنه لمَّا لم يكنْ وافياً بالمقصود لأنه مجردُ دعوى أُوثر بيانه بما يُفيدُ ذلك وزيادة، وهو قوله: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦﴾ أما الأول فظاهرٌ، وأما الثاني فلأنه ذَكَرَ النوعين تنبيهاً على أنَّ المماثلة كافيةٌ، فضلاً عن الأفضلية، ولهذا أَبهمَ وفصَّل وقابل، وآثر «خلقتني» و«خلقته» دون: أنا من نارٍ وهو من طين، ليدلَّ على أنَّ المماثلةَ في المخلوقية مانعةٌ، فكيف إذا انضمَّ إليها خيريَّةُ المادة، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الآمر كان أولى أن يستنكفَ، فإنه ـ أعني السجود ـ حقُّ الآمر، واستلطفه صاحب «الكشف» ثم قال: ومنه يُعلَمُ أنَّ جوابَ إبليس من الأسلوب الأحمق.

وجعل غيرُ واحدٍ قوله: «أنا خيرٌ منه» جواباً أولاً وبالذات عن الاستفهام بقوله تعالى: (مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ) بادِّعاء شيءٍ مستلزمٍ للمانع من السجود على زَعْمه، وقوله: «خلقتني» إلخ تعليلاً لدعوى الخيريَّة.

وأيَّاما كان فقد أخطأ اللعينُ؛ إذ لا مماثلة في المخلوقية، فمخلوقيةُ آدم عليه السلام باليدين، ولا كذلك مخلوقيَّته، وأَمْرُ خيريَّة المادة على العكس في النظر الدقيق، ومع هذا الفضلُ غيرُ منحصرٍ بما كان من جهتها، بل يكونُ من جهة الصورة والغاية أيضاً، وفَضْلُ آدم عليه السلام في ذلك لا يخفى، وكأنَّ خطأه لظهوره لم يتعرَّضْ لبيانه، بل جعل جوابه طَردَهُ، وذلك قوله تعالى:

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما ظهر من اللَّعين من المخالفة للأمر

---

(١) عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٢٠٩، وصدره:
فـوالله مـا أدري وإنـي لـحـاسـبٌ

الجليل، وتعليلِها بأظهر الأباطيل، أي: فاخرجْ من الجنة، والإضمارُ قبل ذِكْرها لشهرةِ كونه من سكانها.

وعن ابن عباس أنه كان في عَدْنٍ لا في جنة الخلد. ثم إنه يكفي في صِحَّة الأمر كونُه ممن اتَّخذَ الجنةَ وطناً ومسكناً، ولا تتوقَّفُ على كونه فيها بالفعل وَقْتَ الخطاب كما هو شائعٌ في المحاورات، يقول مَنْ يُخاصم صاحبَهُ في السُّوق أو غيره في دار: اخرجْ من الدار، مع أنه وقت المخاصمة ليس فيها بالفعل، وهذا إن قيل: إنَّ المحاورةَ لم تكن في الجنة.

وقيل: «منها»، أي: من زمرة الملائكة المعزَّزين، وهو المرادُ بالهبوط، لا الهبوطُ من السماء كما قيل، فإنَّ وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد، وكانت ـ على ما روي عن الحسن ـ بطريق النداء من باب الجنة، على أنَّ كثيراً من العلماء أنكروا الهبوطَ من السماء بالكلية، بناءً على أنَّ الجنةَ التي أُسْكِنَها آدمُ عليه السلام كانت في الأرض.

وقيل: اخْرجْ من الخِلْقة التي أنت فيها، وانسلخْ منها. والأمرُ للتكوين، وكان عليه اللَّعنةُ يفتخرُ بخِلْقته، فغيَّرَ الله تعالى خِلْقته، فاسودَّ بعد ما كان أبيضَ، وقَبُحَ بعد ما كان حَسَناً، وأظلَمَ بعد ما كان نورانياً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ تعليلٌ للأمر بالخروج، أي: مطرودٌ من كلِّ خيرٍ وكرامة، فالرجمُ كنايةٌ عن الطرد؛ لأنَّ المطرودَ يُرجَمُ بالحجارة، أو: شيطانٌ يُرجَمُ بالشُّهب. كذا قالوا.

وقد يقال: المراد بـ «رجيم»: ذليل، فإنَّ الرَّجْمَ يستدعي الذِّلّة، وهو أبعدُ من توهُّمِ التكرار مع الجملة بعدُ من الوجه الأول وأوفقُ؛ لِمَا في «الأعراف» من قوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الآية:١٣].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ أي: إبعادي عن الرحمة، وفي «الحجر»: ﴿ٱللَّعْنَةَ﴾ [الآية:٣٥] فإن كانت «أل» فيه للعهد، أو عِوَضاً عن الضمير المضافِ إليه، فَعَدَمُ الفرق بين ما هناك وما هنا ظاهرٌ، وإن أُريد كلّ لعنةٍ فذاك؛ لما أنَّ لعنةَ اللاعنين

من الملائكة والثقلين أيضاً من جهته تعالى، فهم يَدْعونَ عليه بلعنة الله تعالى وإبعاده من رحمته.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ يوم الجزاء والعقوبة، وفيه إيذانٌ بأنَّ اللعنةَ مع كمال فظاعتها ليست كافيةً في جزاء جنايته، بل هي أُنموذجٌ مما سيلقاه مستمرَّةٌ إلى ذلك اليوم، لكن لا على أنها تنقطعُ يومئذٍ كما يُوهمه ظاهرُ التوقيت ـ ونُسِبَ القولُ به إلى بعض الصوفية ـ بل على أنه سيلقى يومئذٍ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ما تُنسى عنده اللعنة وتصير كالزائل، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ أي: أمهلني وأَخِّرني، والفاء متعلِّقةٌ بمحذوفٍ ينسحبُ عليه الكلام، كأنه قال: إذا جعلتني رجيماً فأمهلني ولا تُمتني.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾ أي: آدمُ وذرِّيتُهُ للجزاء بعد الموت، وهو وقتُ النفخة الثانية، وأراد اللَّعينُ بذلك أن يجدَ فُسْحَةً من إغوائهم، ويأخذَ منهم ثأره، وينجو من الموت؛ لأنه لا يكونُ بعد البعث، وكان أَمْرُ البعث معروفاً بين الملائكة، فَسَمِعَهُ منهم فقال ما قال، ويمكن أن يكونَ قد عَرَفَهُ عقلاً، حيث عَرَفَ ببعض الأمارات أو بطريقٍ آخر من طُرُقِ المعرفة أنَّ أفرادَ هذا الجنس لا تخلو من وقوع ظُلْمٍ بينها، وأنَّ الدار ليست دارَ قرارٍ، بل لا بدَّ من الموت فيها، وأنَّ الحِكْمة تقتضي الجزاء.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠﴾ ورودُ الجواب بالجملة الاسمية مع التعرُّضِ لشمول ما سأله الآخرين على وجهٍ يُشعرُ بأنَّ السائلَ تَبَعٌ لهم في ذلك، صريحٌ في أنه إخبارٌ بالإنظار المقدَّر لهم أزلاً، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به، قد وقع إجابةً لدعائه، وأنَّ استنظارَهُ كان طَلَباً لتأخير الموت؛ إذ به يتحقَّقُ كونه منهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل، فإنَّ ذلك معلومٌ من إضافة اليوم إلى الدين، أي: إنك من جملة الذين أُخِّرَتْ آجالهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمةُ التكوين.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ الذي قدَّرتُهُ وعيَّنته لفناء الخلائق، وهو وقتُ النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث الذي هو المسؤول، فالفاءُ ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار، بل لربط الإخبار المؤكَّد به، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٧٧] وقول الشافعي:

فــإن تــرحــم فــأنــت لِــذاك أهــل[1]

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ قَسَمٌ بسلطان الله عزَّ وجلَّ وقهره، وهو كما يكون بالذات يكون بالصفة، فالباء للقَسَم على ما عليه الأكثرون، والفاء لترتيب مضمون الجملة على الإنظار، أي: فأُقسمُ بعزَّتك.

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: أفرادَ هذا النوع بتزيين المعاصي لهم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته، وعَصَمهمْ عن الغواية.

وقرئ: «المخلِصين» على صيغة الفاعل[2]، أي: الذين أَخلصوا قلوبهم أو أعمالهم لله تعالى.

﴿قَالَ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ بِرَفْع الأول على أنه مبتدأٌ محذوفُ الخبر، أو خبرٌ محذوف المبتدأ، ونَصْبِ الثاني على أنه مفعولٌ لما بعده قُدِّمَ عليه للقَصْر، أي: لا أقولُ إلا الحقَّ، والفاءُ لترتيب مضمون ما بعدها على ما قبلها، أي: فالحقُّ قَسَمِي.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ على أنَّ الحقَّ إما اسمهُ تعالى، أو نقيضُ الباطل عَظَّمَهُ الله تعالى بإقسامه به، ورُجِّحَ بحديث إعادة الاسم معرفة، أو: فأنا الحقُّ، أو: فقَوْلي الحقُّ، وقوله تعالى: «لأملأن» إلخ حينئذٍ جوابٌ لِقَسَمٍ محذوفٍ، أي: والله لأملأنَّ.. إلخ، وقوله تعالى: «والحق أقول» على كلِّ تقدير اعتراضٌ مقرِّرٌ على

---

(١) وعجزه: وإن تَطْرُدْ فمَن يرحم سواكا، وسلف ١٣/ ٤٧٥.

(٢) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب.

الوجهين الأولين لمضمون الجملة القَسَمية، وعلى الوجه الثالث لمضمونِ الجملة المتقدِّمة، أعني فقَوْلي الحق.

وقول: «فالحق» مبتدأٌ خبرُهُ «لأملأنَّ» لأنَّ المعنى: أن أملأ، ليس بشيءٍ أصلاً.

وقرأ الجمهور: «فالحقَّ والحقَّ» بنصبهما[1]، وخُرِّجَ على أنَّ الثاني مفعولٌ مقدَّمٌ كما تقدَّم، والأولُ مُقْسَمٌ به حُذِفَ منه حَرْفُ القَسَم فانتصب، كما في بيت «الكتاب»:

إنَّ عليك اللهَ أن تُبايِعا تؤخذَ كرهاً أو تجيءَ طائعا[2]

وقولك: اللهَ لأفعلنَّ. وجوابه: «لأملأنَّ»، وما بينهما اعتراضٌ.

وقيل: هو منصوبٌ على الإغراء، أي: فالزموا الحقَّ، و«لأملأنَّ» جوابُ قَسَم محذوف.

وقال الفرَّاء: هو على معنى قولك: حقّاً لآتينَّكَ. ووجود «أل» وطرحُها سواءٌ، أي: لأملأنَّ جهنَّمَ حقّاً[3]. فهو عنده نَصْبٌ على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة، ولا يخفى أنَّ هذا المصدرَ لا يجوزُ تقديمه عند جمهور النحاة، وأنه مخصوصٌ بالجملة التي جزآها معرفتان جامدان جموداً محضاً.

وقال صاحب «البسيط»: وقد يجوز أن يكون الخبرُ نكرةً، والمبتدأ يكون ضميراً، نحو: هو زيدٌ معروفاً، وهو الحقُّ بيِّناً، وأنا الأميرُ مفتخِراً، ويكون ظاهراً نحو: زيدٌ أبوك عَطُوفاً، وأخوكَ زيدٌ معروفاً. فكأنَّ الفراءَ لا يشترطُ في ذلك ما يشترطون.

وقرأ ابن عباس ومجاهد والأعمش بالرفع فيهما[4]، وخُرِّجَ رَفْعُ الأول على

---

(١) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢، وقراءة: «فالحقُّ» بالرفع لحمزة وعاصم وخلف.

(٢) البيت في الكتاب ١/ ١٥٦، والمقتضب ٢/ ٦٣، والخزانة ٥/ ٢٠٣، وقال البغدادي: هو من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها.

(٣) معاني القرآن له ٢/ ٤١٣.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٦، والبحر المحيط ٧/ ٤١١.

ما مرَّ، ورَفْعُ الثاني على أنه مبتدأٌ، والجملةُ بعده خبرٌ، والرابطُ محذوفٌ، أي: أقوله، كقراءة ابن عامر: «وكلٌّ وَعَدَ الله الحسنى»[1] وقول أبي النجم:

قد أصبحتْ أمُّ الخيار تدَّعي ... عليَّ ذنباً كلُّه لم أَصْنَعِ[2]

بِرَفْعِ «كلّ» ليتأتَّى السَّلْبُ الكُلِّيُّ المقصودُ للشاعر.

وقرأ الحسنُ وعيسى وعبد الرحمن بن أبي حماد عن أبي بكر بجرِّهما[3]، وخُرِّجَ على أنَّ الأولَ مجرورٌ بواو القَسَم محذوفةً، أي: فوالحقِّ، والثاني مجرورٌ بالعَطْفِ عليه كما تقول: والله والله لأقومنَّ، و«أقول» اعتراضٌ بين القَسَم وجوابه، وجعله الزمخشريُّ مفعولاً مقدَّماً لـ «أقول» والجرُّ على حكاية لَفْظِ المقسَم به، قال: ومعناه التوكيدُ والتشديدُ[4]. وإفادته ذلك زيادة على ما يفيده أصلُ الاعتراض؛ لأنَّ العدولَ عمَّا يقتضيه من الإعراب إلى الحكاية لمَّا كان لاستبقاء الصورة الأولى، دلَّ على أنها من العناية في شأنها بمكانٍ، وهذا جارٍ في كلِّ حكايةٍ من دون فِعْلِ قولٍ وما يقوم مقامه، فيدلُّ فيما نحن فيه على فَضْل عنايةٍ بشأن القَسَمِ، ويفيد التشديد والتوكيد.

وقرئ بجرِّ الأول على إضمار حرف القَسَم، ونَصْبِ الثاني على المفعولية[5].

﴿مِنكَ﴾ أي: من جنسك من الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ في الغواية والضلالة ﴿مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم عليه السلام ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ توكيدٌ للضمير في «منك» والضميرِ المجرور بـ «من» الثانية، والمعنى: لأملأنَّ جهنَّم من المتبوعين والتابعين أجمعين، لا أتركُ منهم أحداً، أو توكيدٌ للتابعين فحسب، والمعنى: لأملأنَّها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس، لا تفاوُتَ في ذلك بين ناسٍ وناسٍ بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم، وتأكيدُ التابعين دون المتبوعين لما أنَّ حالَ التابعين إذا بلغ إلى أن اتَّصل إلى أولاد الأنبياء، فما بالُ المتبوعين!

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥. والقراءة في الإملاء ٢/ ٣١٠، والبحر ٣/ ٣٣٣.

(٢) الرجز في ديوان أبي النجم ص ١٣٢، والكتاب ١/ ٨٥، والخزانة ١/ ٣٥٩.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/٥١٦، والبحر المحيط ٧/ ٤١١.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٨٤.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٨٤.

وقال صاحب «الكشف»: صاحبُ هذا القول اعتبر القُرْبَ، وأنَّ الكلامَ بين الحقِّ تعالى شأنه وبين الملعون في شأن التابعين، فأكَّد ما هو المقصود، وتَرَكَ توكيدَ الآخر للاكتفاء.

هذا، واعلم أنَّ هذه القصةَ قد ذُكرتْ في عِدَّة سُوَرٍ، وقد تُرِكَ في بعضها بعضُ ما ذُكر في البعض الآخر؛ للإيجاز ثقةً بما ذُكِرَ في ذلك، وقد يكونُ فيها في موضعين مثلاً لفظان متَّحدان مآلاً مختلفان لفظاً؛ رعايةً للتفنُّن، وقد يُحمَلُ الاختلافُ على تعدُّد الصدور، فيقال مثلاً: إنَّ اللَّعينَ أَقْسَمَ مرَّةً بالعِزَّة، فحكى ذلك في سورة «ص» بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾، وأخرى بإغواء الله تعالى الذي هو أثرٌ من آثار قدرته وعِزَّته عزَّ وجلَّ، وحُكْمٌ من أحكام سلطانه، فحكى ذلك في سورة «الأعراف» بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الآية:١٦]. وقد يُحمَلُ الاختلافُ على اختلاف المقامات كتَرْكِ الفاء من قوله: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف:١٤] ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ في الأعراف [الآية:١٥] مع ذكرها فيهما في «ص»، والذي يجبُ اعتباره في نقل الكلام إنما هو أصلُ معناه، ونفس مدلوله الذي يفيده، وأما كيفيةُ إفادته له فليس مما يجبُ مراعاته عند النقل ألبتَّة، بل قد تُراعى وقد لا تراعى حَسب اقتضاء المقام. ولا يقدحُ في أصل الكلام تجريدُهُ عنها، بل قد تُراعَى عند نقله كيفياتٌ وخصوصياتٌ لم يُراعِها المتكلِّمُ أصلاً، حيث إنَّ مقامَ الحكاية اقتضتها وهي ملاك الأمر، ولا يُخِلُّ ذلك بكَوْن المنقول أصل المعنى كما قد حقَّقه صَدْرُ المفتين أبو السعود، وأطال الكلام فيه، فليراجع(١).

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن، كما روي عن ابن عباس، أو على تبليغ ما يُوحَى إليَّ، أو على الدعاء إلى الله تعالى على ما قيل. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: أجراً دنيوياً جلَّ أو قلَّ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ من الذين يتصنَّعون ويتحلَّون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قَطُّ متصنِّعاً ولا مدَّعياً ما ليس عندي حتى أنتحلَ النبوَّةَ وأتقوَّلَ القرآن، فأمره ﷺ أن يقول لهم عن نفسه هذه المقالة ليس لإعلامهم بالمضمونِ، بل

---

(١) ينظر تفسيره ٧/ ٢٣٧-٢٣٨.

للاستشهاد بما عرفوه منه عليه الصلاة والسلام، وللتذكير بما علموه، وفي ذلك ذَمُّ التكلُّف.

وأخرج ابن عدي عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة»؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «هم الرحماء بينهم» قال: «ألا أنبئكم بأهل النار؟» قلنا: بلى. قال: «هم الآيسون القانطون الكذّابون المتكلِّفون»[(١)].

وعلامة المتكلِّف ـ كما أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن المنذر ـ ثلاثٌ: أن يُنازل مَنْ فوقَهُ، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم[(٢)].

وفي الصحيحين[(٣)] أنَّ ابن مسعود قال: أيها الناس، مَنْ عَلِمَ منكم علماً فليقل به، ومَنْ لم يعلمْ فليقل: الله تعالى أعلم، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو، أي: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ جليلُ الشأن من الله تعالى. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ للثقلين كافَّة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ أي: ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما، أو خبره الذي يقال فيه في نفس الأمر، وهو أنه الحقُّ والصِّدقُ. ﴿بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ قال ابن عباس وعكرمة وابن زيد: يعني يوم القيامة، وقال قتادة والفراء والزجاج: بعد الموت[(٤)]، وكان الحسن يقول: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

وفُسِّر نبؤه بالوعد والوعيد الكائنين في الدنيا، والمراد: لتعلمُنَّ ذلك بتحقُّقه إذا أخذتكم سيوفُ المسلمين، وذلك يوم بدر. وأشار إلى هذا السُّدِّيُّ. وأيًّاما كان ففي الآية من التهديد ما لا يخفى.

❁ ❁ ❁

(١) الكامل ٣/ ١٠٤٨، وفي إسناده أبو الجارود زياد بن المنذر، وهو متروك.
(٢) الشعب (٥٠٦٤) وفيه: ينازع. بدل: ينازل. وابن المنذر هو أرطاة بن المنذر الألهاني، أبو عدي الحمصي، توفي سنة (١٦٣هـ). التهذيب ١/ ١٠٢.
(٣) البخاري (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨)، وهو عند أحمد (٤١٠٤).
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٣، والزجاج ٤/ ٣٤٢.

هذا، وممَّا قَالَهُ بَعْضُ السَّادة الصُّوفيَّة في بَعْض الآيات، قالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ إنه ظاهرٌ في أنَّ الجمادَ والحيوان الذي هو عند أهل الحجاب غيرُ ناطقٍ حيٌّ له علم بالله عزَّ وجلَّ، ونقل الشعرانيُّ عن شيخه عليٍّ الخوَّاص قُدِّسَ سِرُّهُ القول بتكليف البهائم من حيث لا يشعرُ المحجوبون، وجُوِّزَ أن يكونَ نذيرُها من ذواتها، وأن يكون خارجاً عنها من جنسها، وقال: ما سُمِّيَتْ بهائمَ إلا لكَوْن أمر كلامها وأحوالها قد أُبهم على غالب الخَلْق، لا لأنَّ الأمرَ مُبْهَمٌ عليها نفسها. وحكى عنه أنه كان يُعامل كلَّ جمادٍ في الوجود معاملةَ الحيِّ، ويقول: إنه يفهمُ الخطابَ، ويتألَّمُ كما يتألَّم الحيوان.

وقيل: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النفوسَ مجبولةٌ على الظلم وسائر الصفات الذميمة، وإلى أنَّ الذين تزكَّتْ أنفسُهم قليلٌ جدًّا بالنسبة إلى الآخرين.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نقل الشعرانيُّ أنَّ خلافته عليه السلام، وكذا خلافةُ آدم كانت في عالم الصُّور وعالم الأنفس المدبّرة لها، دون العالم النورانيِّ، فإنَّ لكلِّ شخصٍ من أهله مقاماً معلوماً عيَّنه له ربُّهُ سبحانه. وللشيخ الأكبر قُدِّسَ سِرُّهُ كلامٌ طويلٌ في الخلافة، ويُحكى عن بعض الزنادقة أنَّ الخليفةَ لا يُكتَبُ عليه خطيئة، ولا هو داخلٌ في رَبْقة التكليف؛ لأنَّ مرتبته مرتبةٌ مستخلفةٌ. وهو كفرٌ صُراحٌ.

وفرَّق العلماء بين الخليفة والملك. أخرج الثعلبيُّ من طريق العوام بن حَوْشب قال: حدثني رجلٌ من قومي شَهِدَ عمر رضي الله عنه أنه سأل طلحة والزبير وكعباً وسلمان رضي الله عنهم: ما الخليفةُ من الملك؟ فقال طلحة والزبير: ما ندري. فقال سلمان: الخليفةُ الذي يَعْدِلُ في الرعية، ويَقْسِمُ بينهم بالسَّوية، ويُشفق عليهم شفقةَ الرجل على أهله، ويقضي بكتاب الله تعالى. فقال كعب: ما كنتُ أحسبُ أحداً يعرفُ الخليفةَ من الملك غيري[1]. فقوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾

---

(١) الدر المنثور ٥/٣٠٦، وهو في تفسير الثعلبي ١/ ١٧٧ بزيادة: ولكن الله عز وجل ملأ سلمان حكماً وعلماً وعدلاً.

كالتفسير لهذه الخلافة، وفيه إشارةٌ إلى ذَمِّ الهوى، وفي بعض الآثار: ما عُبد إلهٌ في الأرض أبغضُ على الله تعالى من الهوى، فهو أعظمُ الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فيه إشارةٌ ـ بناءً على المشهور في القصة ـ إلى أنَّ كلَّ محبوبٍ سوى الله تعالى إذا حَجَبَكَ عن الله تعالى لحظةً، يلزمكَ أن تُعالجه بسيفِ نفي لا إله إلا الله، وقد سمعتَ استدلال الشبليِّ بذلك على تخريق ثيابه، وما قيل فيه.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ لم يقصد بذلك السؤالِ إلا ما يُوجبُ مزيدَ القرب إليه عزَّ وجلَّ، وليس فيه ما يُخِلُّ بكماله عليه السلام، وإلا لعوتِبَ عليه، وقد تقدم الكلام في ذلك، ومنه يُعلَمُ كَذِبُ ما في «الجواهر والدرر» نقلاً عن الخوَّاص، قال: بلغنا أنَّ النملة التي كلَّمتْ سليمانَ عليه السلام قالت: يا نبيَّ الله، أعطني الأمان وأنا أنصحك بشيءٍ ما أظنُّكَ تعلمه. فأعطاها الأمانَ، فأسرَّتْ إليه في أذنه، وقالت: إني أشَمُّ من قولك: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ رائحةَ الحسد، فتغيَّر سليمانُ واغبرَّ لونُه، ثم قالت له: قد تركتَ الأدبَ مع الله تعالى من وجوه؛ منها عدمُ خروجك من شُحِّ النفس الذي نهاك الله تعالى عنه إلى حَضْرة الكرم الذي أمركَ الله تعالى به، ومنها مبالغتُكَ في السؤال بأن لا يكون ذلك العطاءُ لأحدٍ من عبيد سيِّدك من بعدك، فَحَجَرْتَ على الحقِّ تعالى بأن لا يُعطي أحداً بعد موتك ما أعطاه، كلُّ ذلك لمبالغتك في شِدَّة الحرص، ومنها طلبُكَ أن يكونَ ملكُ سيِّدك لك وَحْدَك، تقول: ﴿وَهَبْ لِي﴾، وغابَ عنك أنك عبدٌ له لا يصحُّ أن تملك معه شيئاً، مع أنَّ فَرَحَكَ بالعطاء لا يكون إلا مع شهود ملكك له، وكفى بذلك جهلاً، ثم قالت له: يا سليمان، وماذا مُلْكك الذي سألته أن يُعطيكه؟ فقال: خاتمي. قالت: أفٍّ لملكٍ يحويه خاتم. انتهى.

ويدلُّ على كَذِبِ ما بلغه وجوهٌ أيضاً لا تخفى على الخَوَاصِّ، والعجبُ من أنها خفيتْ على الخوَّاص.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ يشيرُ إلى فَضْل آدم عليه السلام، وأنه أكملُ المظاهر، واليدان عندهم إشارةٌ إلى صِفتَي اللُّطف والقهر،

وكلُّ الصفات ترجعُ إليهما، ولا شكَّ عندنا في أنه أفضلُ من الملائكة عليهم السلام.

وذكر الشعرانيُّ أنه سألَ الخوَّاصَ عن مسألة التفضيل الذي أشرنا إليه، فقال: الذي ذهب إليه جماعةٌ من الصوفية أنَّ التفاضلَ إنما يصحُّ بين الأجناس المشتركة، كما يقال: أفضلُ الجواهر الياقوت، وأفضلُ الثياب الحُلَّة. وأما إذا اختلفت الأجناسُ فلا تفاضُلَ، فلا يقال: أيُّما أفضلُ الياقوت أم الحُلَّة؟ ثم قال: والذي نذهبُ إليه أنَّ الأرواحَ جميعها لا يصحُّ فيها تفاضُلٌ إلا بطريق الإخبار عن الله تعالى، فمَنْ أخبره الحقُّ تعالى بذلك، فهو الذي حَصَلَ له العلمُ التامُّ، وقد تنوَّعتِ الأرواحُ إلى ثلاثة أنواع: أرواحٌ تُدبِّرُ أجساداً نوريَّةً، وهم الملأ الأعلى. وأرواحٌ تُدبِّرُ أجساداً ناريةً، وهم الجنُّ. وأرواحٌ تُدبِّرُ أجساداً ترابية، وهم البشر. فالأرواح جميعُها ملائكةٌ، حقيقةٌ واحدةٌ، وجنسٌ واحدٌ، فمَنْ فاضَلَ من غير علمٍ إلهيٍّ، فليس عنده تحقيقٌ، فإنَّا لو نظرنا التفاضُلَ من حيثُ النشأةُ مطلقاً، قالَ العقل بتفضيل الملائكة، ولو نظرنا إلى كمال النشأة وجمعيَّتها، حكمنا بتفضيل البشر، ومن أين لنا ركونٌ إلى ترجيح جانبٍ على آخر، مع أنَّ الملك جزءٌ من الإنسان من حيثُ روحُهُ؛ لأنَّ الأرواحَ ملائكةٌ، فالكلُّ من الجزء والجزءُ من الكلِّ، ولا يقال: أيُّما أفضلُ جزءُ الإنسان أو كلُّه. فافهم. انتهى.

والكلام في أمر التفضيل طويلٌ، محلُّه كتبُ الكلام، ثم إنَّ حَظَّ العارف من القصص المذكورة في هذه السورة الجليلة لا يخفى إلا على ذوي الأبصار الكليلة. نسأل الله تعالى أن يوفِّقنا لفَهْم كتابه بحُرْمة سيِّد أنبيائه وأحبابه صلى الله عليه وسلم وشَرَّفَ وعظَّم وكرَّم.

(٣٩) سُورَةُ الزُّمَر مَكيَّة
وآياتها خمس وسبعون

سورة الزُّمَر من السور المكية التي تُعْنَى بجانب العقيدة وركائز الإيمان ، وتكاد السورة الكريمة أن تكون مقصورةً على علاج « قضيةِ التوحيد » تلك القضية التي كانت الهدف الأولَ لأهداف السور المكية لأنها أصلُ الإيمان ، وأصلُ كلِ عملٍ صالح . سميت « سورةَ الزُّمَر » لأن الله تبارك وتعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة ، وزمرة الأشقياء من أهل النار ، وذكر حال كلٍ من الفريقين يوم القيامة ، حيث يُساق المؤمنون الأبرار إلى الجنة أفواجاً أفواجاً مع الإحترام والإجلال والتكريم ، ويُساق الكفار الفجار إلى الجحيم أفواجاً أفواجاً مع الذلةِ والهَوَان والصغار .

تبتدىء السورة الكريمة بإثبات صدقِ الوحي ، وصدقِ القرآن المنزل على خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، وتأمر الرسول بإخلاص الدين لله ، وتنزيهَه عن الشرك في كل صورةٍ من صوره ﴿ تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيم . إنّا أنزلنا إليك الكتابَ بالحق فاعبد اللهَ مخلصاً له الدين ، ألاَ لله الدين الخالص﴾ والخالصُ هو الصافي من شوائب الشرك والرياء ، وتذكر شبهة المشركين في عبادتهم لغير الله من الأوثان والأصنام وهي الأسطورة التي كانوا يواجهون بها دعوة التوحيد ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقربونا

إلى الله زُلفى ، إنَّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذبٌ كفار﴾ ثم تكشف الآيات الكريمة عن سُخف ذلك التصور وتهافته ﴿لو أراد اللهُ أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ . وبعد ذلك تذكر الأدلة والبراهين ، على وحدانية رب العالمين ، في إبداع السموات والأرض ، وفي ظاهرة الليل والنهار ، وفي تسخير الشمس والقمر ، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام ، وكلُّها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته ﴿خلق السمواتِ والأرضَ بالحق ، يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل ، وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمًّى ، ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفسٍ واحدة ، ثم جعلَ منها زوجَها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو فأنَّى تُصرفون﴾ وتتوالى الآيات يظللها جوُّ الآخرة ، ظلُّ الخوف من عذابها والرجاءِ في ثوابها ، وتبدأ بتوجيه الرسول عليه السلام إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة في صراحةٍ وإذعانٍ وإيمان حتى لا يلتبس على أحد طريقُ الهدى ، وطريقُ الضلال ﴿قل إني أُمرتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأُمرتُ لأن أكون أول المسلمين . قل إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يومٍ عظيم﴾ . ومرَّة أخرى يكرر هذا الإعلان ، ثم يعرض مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين ﴿قل اللهَ أعبدُ مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين . لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوِّف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾ وتذكر القرآن العظيم الذي أنزله الله عز وجل للتدبر والتفكر ، وضرب فيه الأمثال والعِبَر ليتعظ الناس ويعتبروا ﴿ولقد ضربنا للناس

في هذا القرآن من كل مثلٍ لعلهم يتذكرون . قرآناً عربياً غير ذي عِوَج لعلهم يتقون﴾ ثم تعقّب بذكر مثل يوضّح الفارق الكبير بين من يعبد الله ، وبين من يعبد أرباباً سواه وهو مثل يصوّر حقيقة التوحيد ، وحقيقة الشرك بأوضح بيان ، إنه مثل العبد المملوك الذي يملكه شركاء متخاصمون ، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ، ولا يستقر على طريق ، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتعارضة ، والعبد الذي يملكه سيد واحد ، يسيّره على نهجٍ واحد فهو مستقر مستريح ﴿ ضربَ اللهُ مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون - أي متنازعون متخاصمون - ورجلاً سَلَماً لرجلٍ ، هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . إنك ميّتٌ وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ وبعد هذا البيان الواضح لحال من يشرك بالله ، وحالِ من يؤمن به ويوحّده ، يأتي الحديث عن الظلمة التي تفتعل في قلوب المشركين ، فهم ينقبضون من اسم الله ويَهَشُّون ويبشُّون إذا سمعوا ذكر طواغيتهم وأوثانهم ﴿وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذُكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون . قلِ اللهمَّ فاطر السمواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وتتعاقب الآياتُ الكريمة تدعو العبادَ أن يعودوا إلى ربهم غير قانطين ولا يائسين ، فهو تعالى الرءوف الرحيم ، الذي يفتح أبواب رحمته أمام التائبين ، ويقبل توبة الخاطئين ﴿ قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم﴾ وتكشف السورة عن عظمة الله وجلاله في يوم الحشر الأكبر ، حيث لا يكون إلا العدل الإلهي والقسطاس المستقيم ، وتشرق الأرض بالأنوار في ساحة العَرْض على الملِك الجبار ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتابُ ،

وجيء بالنبيّن والشهداء ، وقُضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ . وتختم السورة الكريمة بمشهدٍ يغمر النفسَ بالروعة والرهبة والجلال ، وهو موقف الفصل بين المتقين والفجار ، فالمتقون يساقون إلى الجنة أفواجاً ، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد في خشوع واستسلام ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ .

سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ [الزمر: ٣] الآية.

[٧٧٧] أخرج جويبر عن ابن عباس في هذه الآية قال: أنزلت في ثلاثة أحياء عامر وكنانة وبني سلمة كانوا يعبدون الأوثان ويقولون الملائكة بناته فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] الآية.

[٧٧٨] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾(٢) الآية قال: نزلت في عثمان بن عفان.

[٧٧٩] وأخرج ابن سعد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال نزلت في عمار بن ياسر.

[٧٨٠] وأخرج جويبر عن ابن عباس قال نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة.

[٧٨١] وأخرج جويبر عن عكرمة قال نزلت في عمار بن ياسر.

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧ و١٨] الآية.

[٧٨٢] أخرج جويبر بسنده عن جابر بن عبدالله قال لما نزلت: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾(٣) الآية أتى رجل من الأنصار النبي [ﷺ] فقال: يا رسول الله إن لي سبعة مماليك وإني قد أعتقت لكل باب منها مملوكاً فنزلت فيه هذه الآية: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [الزمر: ١٧] الآية.

---

[٧٧٧] (١) سورة الزمر: الآية (٣).
[٧٧٨] (٢) سورة الزمر: الآية (٩).
[٧٨٢] (٣) سورة الحجر: الآية (٤٤).
(٤) سورة الزمر: الآية (١٧و١٨).

[٧٨٣] أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلا الله زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ﴾ [الزمر: ٢٣] الآية.

[٧٨٤] تقدم سببها في سورة يوسف.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ [الزمر: ٣٦] الآية.

[٧٨٥] أخرج عبد الرزاق عن معمر قال لي رجل: قالوا للنبي [ﷺ]: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبلنك فنزلت: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٤٥] الآية.

[٧٨٦] أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها نزلت في قراءة النبي [ﷺ] النجم عند الكعبة وفرحهم عند ذكر الآلهة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ [الزمر: ٥٣] الآية.

[٧٨٧] تقدم حديث الشيخين في سورة الفرقان.

[٧٨٨] وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية في مشركي أهل مكة.

[٧٨٩] وأخرج الحاكم والطبراني عن ابن عمر قال: كنا نقول ما لمفتتن توبة إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته فلما قدم رسول الله [ﷺ] المدينة أنزل فيهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾(٢) الآية.

[٧٩٠] وأخرج الطبراني بسند فيه ضعف عن ابن عباس قال: بعث رسول الله [ﷺ] إلى وحشي قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو زنى أو أشرك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾(٣) الآية فقال وحشي: هذا شرط شديد إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فلعلي لا أقدر على هذا فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن

---

[٧٨٥] (١) سورة الزمر: الآية (٣٦).

[٧٨٩] (٢) سورة الزمر: الآية (٥٣) ـ والحديث رواه الواحدي بنحوه (٢١١) في أسباب النزول.

[٧٩٠] (٣) سورة الفرقان: الآية (٧٠).

يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(1) فقال وحشي: هذا أرى بعد مشيئة فلا أدري هو لي أم لا؟ فهل غير هذا فأنزل الله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾(2) الآية قال وحشي: هذا نعم فأسلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤] الآية.

[٧٩١] سيأتي سبب نزولها في سورة الكافرون.

[٧٩٢] وأخرج البيهقي في الدلائل عن الحسن البصري قال: قال المشركون للنبي [ﷺ] أتضلل آباءك وأجدادك يا محمد فأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(3). وأخرج الترمذي وصححه.

[٧٩٣] عن ابن عباس قال: مر يهودي بالنبي [ﷺ] فقال: كيف تقول أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه والأرضين على ذه والماء على ذه والجبال على ذه؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾(4) الآية. والحديث في الصحيح بلفظ فتلا دون فأنزل.

[٧٩٤] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال غدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة فلما فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾(5).

[٧٩٥] ك.. وأخرج عن سعيد بن جبير قال: تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا بما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله الآية.

[٧٩٦] ك.. وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال: لما نزلت: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(6) قالوا يا رسول الله هذا الكرسي هكذا فكيف العرش؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾(7) الآية.

* * *

---

(1) سورة النساء: الآية (٤٨).
(2) سورة الزمر: الآية (٥٣).
[٧٩٢] (3) سورة الزمر: الآية (٦٤ـ ٦٦).
[٧٩٣] (4) سورة الزمر: الآية (٦٧).
[٧٩٤] (5) سورة الزمر: الآية (٦٧).
[٧٩٦] (6) سورة البقرة: الآية (٢٥٥).
(7) سورة الزمر: الآية (٦٧).

سورة الزمر

سبعون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ ﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الفراء والزجاج: في رفع (تَنْزِيلُ) وجهين أحدهما: أن يكون قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ خبر والثاني: أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب، فيضمر المبتدأ كقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١] أي هذه سورة، قال بعضهم: الوجه الأول لوجوه الأول: أن الإضمار خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا لضرورة، ولا ضرورة ههنا الثاني: أنا إذا قلنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة، وهي أن تنزيل الكتاب يكون من الله، لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة، الثالث: أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر، لأن هذا إشارة إلى السورة، والسورة ليست نفس التنزيل، بل السورة منزلة، فحينئذ يحتاج إلى أن نقول: المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة.

المسألة الثانية: القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا: إنه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق، والجواب: أنا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف.

المسألة الثالثة: الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلاً وآيات أخر تدل على كونه منزلاً.

أما الأول: فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

[فصلت: ٤٢] وقال: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢].

وأما الثاني: فقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر: ٩] وقال: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وأنت تعلم أن كونه منزلاً أقرب إلى الحقيقة من كونه تنزيلاً، فكونه منزلاً مجاز أيضًا لأنه إن كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الانفصال والنزول، وإن كان المراد منه الحروف والأصوات فهي أعراض لا تقبل الانتقال والنزول، بل المراد من النزول نزول الملك الذي بلغها إلى الرسول ﷺ.

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: العزيز هو القادر الذي لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادرًا على ما لا نهاية له والحكيم هو الذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة، وهذا إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، وأنه غني عن جميع الحاجات، إذا ثبت هذا فنقول: كونه تعالى: عزيزًا حكيمًا يدل على هذه الصفات الثلاثة، العلم بجميع المعلومات، والقدرة على كل الممكنات، والاستغناء عن كل الحاجات، فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح، وإذا كان كذلك فكل ما يفعله يكون حكمة وصوابًا. إذا ثبت هذا فنقول الانتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين أحدهما: أن يعلم أن القرآن كلام الله، والدليل عليه أنه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقًا، وثبت بالتواتر أنه كان يقول: «القرآن كلام الله» فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين أن القرآن كلام الله، والأصل الثاني: أن الله أراد بهذه الألفاظ المعاني التي هي موضوعة لها، إما بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لأنه لو لم يرد بها ذلك لكان تلبيسًا، وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا أن الانتفاع بالقرآن لا يحصل إلا بعد تسليم هذين الأصلين، وثبت أنه لا سبيل إلى إثبات هذين الأصلين إلا بإثبات كونه تعالى حكيمًا، وثبت أن لا سبيل إلى إثبات كونه حكيمًا إلا بالبناء على كونه تعالى عزيزًا، فلهذا السبب قال: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

ففيه سؤالان:

السؤال الأول: لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجمًا على سبيل التدريج ولفظ الإنزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما.

والجواب: إن صح الفرق بين التنزيل وبين الإنزال من الوجه الذي ذكرتم فطريق الجمع أن يقال المعنى إنا حكمنا حكمًا كليًا جزمًا بأن يوصل إليك هذا الكتاب، وهذا هو الإنزال، ثم أوصلناه نجمًا نجمًا إليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل.

السؤال الثاني: ما المراد من قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾؟.

والجواب: فيه وجهان الأول: المراد أنزلنا الكتاب إليك ملتبسًا بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما أودعناه فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق وصدق

يجب العمل به والمصير إليه، الثاني: أن يكون المراد إنا أنزلنا إليك الكتاب بناء على دليل حق دل على أن الكتاب نازل من عند الله، وذلك الدليل هو أن الفصحاء عجزوا عن معارضته، ولو لم يكن معجزًا لما عجزوا عن معارضته.

ثم قال: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما بين في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب أردف هنا بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكلية، فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص فهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾، وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ لأن قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾ يفيد الحصر، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور وينتفي عن غير المذكور، واعلم أن العبادة مع الإخلاص لا تعرف حقيقة إلا إذا عرفنا أن العبادة ما هي وأن الإخلاص ما هو وأن الوجوه المنافية للإخلاص ما هي؛ فهذه أمور ثلاثة لا بد من البحث عنها:

أما العبادة: فهي فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله.

وأما الإخلاص: فهو أن يكون الداعي له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال، فإن حصل منه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعي إلى الطاعة راجحًا على الجانب الآخر أو معادلاً له أو مرجوحًا. وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط، وأما إذا كان الداعي إلى طاعة الله راجحًا على الجانب الآخر فقد اختلفوا في أنه هل يفيد أم لا، وقد ذكرنا هذه المسألة مرارًا ولفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص؛ لأن قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾ صريح في أنه يجب الإتيان بالعبادة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وأما بيان الوجوه المنافية للإخلاص فهي الوجوه الداعية للشريك وهي أقسام أحدها: أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل، وثانيها: أن يكون مقصوده من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار، وثالثها: أن يأتي بها ويعتقد أن لها تأثيرًا في إيجاب الثواب أو دفع العقاب، ورابعها: وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة، وهذا القول إنما يعتبر على قول المعتزلة.

المسألة الثانية: من الناس من قال: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ المراد منه شهادة أن لا إله إلا الله، واحتجوا بما روي أن النبي ﷺ قال: «لا إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ حِصْنِي وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي» وهذا قول من يقول: لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر، وأما الأكثرون فقالوا: الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الأوامر والنواهي، وهذا هو الأولى لأن

قوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ عام، وروي أن امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها أوصت أن يصلي الحسن البصري عليها، فلما صلى عليها ودفنت، قال للفرزدق: يا أبا فراس ما الذي أعددت لهذا الأمر؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، فقال الحسن رضي الله عنه: هذا العمود فأين الطنب؟ فبين بهذا أن عمود الخيمة لا ينتفع به إلا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة، قال القاضي: فأما ما يروى أنه ﷺ قال لمعاذ وأبي الدرداء: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي الدَّرْدَاءِ»(١) فإن صح فإنه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة وإلا لم يجز قبول هذا الخبر لأنه مخالف للقرآن، ولأنه يوجب أن لا يكون الإنسان مزجورًا عن الزنى والسرقة، وأن لا يكون متعديًا بفعلهما لأنه مع شدة شهوته للقبيح يعلم أنه لا يضره مع تمسكه بالشهادتين فكأن ذلك إغراء بالقبيح، والكل ينافي حكمة الله تعالى ولا يلزم أن يقال ذلك فالقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب أيضًا الإغراء بالقبيح، لأنا نقول: إن من اعتقد أن ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد أن فعل القبيح مضرة إلا أنه يزيل ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول: إن فعل القبيح لا يضر مع التمسك بالشهادتين.

هذا تمام كلام القاضي، فيقال له: أما قولك إن القول بالمغفرة مخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] أي حال ظلمهم كما يقال: رأيت الأمير

---

(١) **ضعيف**: رواه ابن الجوزي في (العلل المتناهية) (٢/ ٥٧٥)، حديث رقم (٩٤٤) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي قال أخبرنا أبو معشر المدني عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله... فذكره.

وقال المؤلف: هذا حديث لا يصح وإسحاق بن بشر قد كذبه أبو بكر بن أبي شيبة وغيره وقال الدارقطني: هو في عداد من يطيع الحديث قال وأبو معشر ضعيف، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٣٤٨)، حديث رقم (١١٠٩).

وقال: رواه الطبراني في معجمه وأبو عبيد القاسم بن سلام عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه، وذكر ابن أبي الفوارس في تاسع مخلصياته عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا أنه قال: الحجر يمين الله عز وجل في الأرض فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الحجر فقد بايع الله ورسوله، وكذا أخرجه الأزرقي في تاريخه، وأخرجه أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الركن يمين الله في الأرض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه، وفي لفظ أن هذا الركن الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يصافح بها عباده مصافحة الرجل أخاه، ورواه القضاعي أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عليه، لكنه صحيح بلفظ: الركن يمين الله عز وجل يصافح بها خلقه والذي نفس ابن عباس بيده ما من مسلم يسأل الله عنده شيئًا إلا أعطاه إياه، ومثله مما لا مجال للرأي فيه، وله شواهد فالحديث حسن وإن كان ضعيفًا بحسب أصله كما قال بعضهم منها ما رواه الديلمي عن أنس بلفظ: الحجر يمين الله فمن مسحه بيمينه فقد بايع الله، ومنها ما رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن جابر بلفظ: الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده، ومعناه كما قال المحب الطبري أن كل ملك إذا قدم عليه قبلت يمينه، ولما كان الحاج والمعتمر يسن لهما تقبيله نزل منزلة يمين الملك على سبيل التمثيل ولله المثل الأعلى، ولذلك من صافحه كان له عند الله عهد كما أن الملك يعطي العهد بالمصافحة، لطيفة: نقل المناوي عن السيوطي أنه قال في الساجعة ورد في الأثر ما بعث الله قط ملكًا ولا سحابًا إلا طاف بالبيت أولا ثم مضى، انتهى. وأورده الألباني في (الضعيفة) (٢٢٣)، وقال: منكر.

على أكله وشربه أي حال كونه آكلاً وشاربًا، وقال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾[الزمر: ٥٣]، وأما قوله: إن ذلك يوجب الإغراء بالقبيح، فيقال له: إن كان الأمر كذلك وجب أن يقبح غفرانه عقلاً، وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة، وأنت لا تقول به، لأن مذهب البصريين أن عذاب المذنب جائز عقلاً، وأيضًا فيلزم عليه أن لا يحصل الغفران بالتوبة، لأنه إذا علم أنه إذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم ينزجر وأما الفرق الذي ذكره القاضي فبعيد، لأنه إذا عزم على أن يتوب عنه في الحال علم أنه لا يضره ذلك الذنب ألبتة. ثم نقول مذهبنا أنا نقطع بحصول العفو عن الكبائر في الجملة، فأما في حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لأنه تعالى قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾[النساء: ٤٨] فقطع بحصول المغفرة في الجملة، إلا أنه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران في حق كل أحد بل في حق من شاء وإذا كان كذلك كان الخوف حاصلاً فلا يكون الإغراء حاصلاً، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): قرئ الدين (بالرفع)، ثم قال: وحق من رفعه أن يقرأ مخلصًا بفتح اللام لقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾[النساء: ١٤٦] حتى يطابق قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ والخالص والمخلص واحد إلا أنه وصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر، واعلم أنه تعالى لما بين أن رأس العبادات ورئيسها الإخلاص في التوحيد أردفه بذم طريقة المشركين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وعلى هذا التقدير فخبر (الذين) محذوف وهو قوله: يقولون، واعلم أن الضمير في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ عائد على الأشياء التي عبدت من دون الله، وهي قسمان العقلاء وغير العقلاء، أما العقلاء فهو أن قومًا عبدوا المسيح وعزيزًا والملائكة، وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة، وأما الأشياء التي عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهي الأصنام، إذا عرفت هذا فنقول: الكلام الذي ذكره الكفار لائق بالعقلاء، أما بغير العقلاء فلا يليق، وبيانه من وجهين الأول: أن الضمير في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ ضمير للعقلاء فلا يليق بالأصنام، الثاني: أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار في المسيح والعزيز والملائكة أن يشفعوا لهم عند الله، أما يبعد من العاقل أن يعتقد في الأصنام والجمادات أنها تقربه إلى الله، وعلى هذا التقدير فمرادهم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله، ويمكن أن يقال إن العاقل لا يعبد الصنم من حيث إنه خشب أو حجر، وإنما يعبدونه لاعتقادهم أنها تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا، ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى تلك الأشياء التي جعلوا هذه التماثيل صورًا لها.

وحاصل الكلام لعباد الأصنام أن قالوا: إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق

بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر، فهذا هو المراد من قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

واعلم أن الله تعالى لما حكى مذاهبهم أجاب عنها من وجوه: الأول: أنه اقتصر في الجواب على مجرد التهديد فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ واعلم أن الرجل المبطل إذا ذكر مذهبًا باطلاً وكان مصرًا عليه، فالطريق في علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الإصرار عن قلبه، فإذا زال الإصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه، فيكون هذا الطريق أفضى إلى المقصود. والأطباء يقولون: لا بد من تقديم المنضج على سقي المسهل فإن بتناول المنضج تصير المواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال، فإذا سقيته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام، فكذلك ههنا سماع التهديد والتخويف أولاً يجري مجرى سقي المنضج أولاً، وإسماع الدليل ثانيًا يجري مجرى سقي المسهل ثانيًا. فهذا هو الفائدة في تقديم هذا التهديد.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ والمراد أن من أصر على الكذب والكفر بقي محرومًا عن الهداية، والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الأصنام بأنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها، والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض، وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع إلى الاعتقاد، والأمر ههنا كذلك فإن وصفهم لها بالإلهية كذب، واعتقادهم فيها بالإلهية جهل وكفر. ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام، وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الأوثان لا مدخل لها في ذلك الإنعام، فالاشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق.

ثم قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ والمراد من هذا الكلام: إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهًا عن الولد وبيانه من وجوه الأول: أنه لو اتخذ ولدًا لما رضي إلا بأكمل الأولاد وهو الابن فكيف نسبتم إليه البنت، الثاني: أنه سبحانه واحد حقيقي والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد، أما أنه واحد حقيقي فلأنه لو كان مركبًا لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره، فكان يحتاج إلى غيره والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته، وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلوجوه الأول: أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد، وهذا إنما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه، الثاني: شرط الولد أن يكون مماثلاً في تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد، وإن لم يكن ذلك

التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلومًا بسبب منفصل، فلا يكون إلهًا واجب الوجود لذاته. فثبت أن كونه إلهًا واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحدًا في حقيقته، وكونه واحدًا في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له، فثبت أن كونه واحدًا يمنع من ثبوت الولد، الثالث: أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لا بد وأن يكونا من جنس واحد، فلو كان له ولد لما كان واحدًا بل كانت زوجته من جنسه، وأما أن كونه قهارًا يمنع من ثبوت الولد له، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذي يموت فيحتاج إلى ولد يقوم مقامه، فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهورًا بالموت، أما الذي يكون قاهرًا ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً، فثبت أن قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

اعلم أن الآية المتقدمة دلت على أنه تعالى بين كونه منزهًا عن الولد بكونه إلهًا واحدًا وقهارًا غالبًا أي: كامل القدرة، فلما بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقيبها ما يدل على كمال القدرة وعلى كمال الاستغناء، وأيضًا فإنه تعالى طعن في إلهية الأصنام فذكر عقيبها الصفات التي باعتبارها تحصل الإلهية، واعلم أنا بينا في مواضع من هذا الكتاب أن الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات إلهيته، إما أن تكون فلكية أو عنصرية، أما الفلكية فأقسام أحدها: خلق السموات والأرض، وهذا المعنى يدل على وجود الإله القادر من وجوه كثيرة شرحناها في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] والثاني: اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد ههنا من قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ وذلك لأن النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك تارة، وذلك هذا أخرى. وذلك يدل على أن كل واحد منهما مغلوب مقهور، ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى، والمراد من هذا التكوير أنه يزيد في كل واحد

منهما بقدر ما ينقص عن الآخر، والمراد من تكوير الليل والنهار ما ورد في الحديث: «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ» أي: من الإدبار بعد الإقبال، واعلم أنه سبحانه وتعالى عبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ وبقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وبقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ [فاطر: ١٣] وبقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢] والثالث: اعتبار أحوال الكواكب لا سيما الشمس والقمر، فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل، وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الأجل المسمى يوم القيامة، لا يزالان يجريان إلى هذا اليوم فإذا كان يوم القيامة ذهبا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] والمراد من هذا التسخير أن هذه الأفلاك تدور كدوران المنجنون على حد واحد إلى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطي السجل للكتب.

ولما ذكر الله هذه الأنواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ والمعنى: أن خلق هذه الأجرام العظيمة وإن دل على كونه عزيزًا أي كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان، فإنه لما كان الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة فكونه غفارًا يوجب كثرة الرحمة، وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة، ثم إنه تعالى أتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الأسفل، فبدأ بذكر الإنسان فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ودلالة تكوُّن الإنسان على الإله المختار قد سبق بيانها مرارًا كثيرة، فإن قيل: كيف جاز أن يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ والزوج مخلوق قبل خلقهم؟ أجابوا عنه من وجوه الأول: أن كلمة (ثم) كما تجيء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية، فكذلك تجيء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر، كقول القائل: بلغني ما صنعت اليوم، ثم ما صنعت أمس كان أعجب، ويقول أيضًا قد أعطيتك اليوم شيئًا، ثم الذي أعطيتك أمس أكثر، الثاني: أن يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها، الثالث: أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء.

واعلم أنه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع ذكر عقيبه الاستدلال بوجود الحيوان عليه فقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ وهي الإبل والبقر والضأن والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع في قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وجوه: الأول: أن قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لأجل أنه كتب في اللوح المحفوظ كل كائن يكون، الثاني: أن شيئًا من الحيوان لا يعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء والتراب، والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها، الثالث: أنه تعالى خلقها في الجنة ثم أنزلها إلى الأرض، وقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز، والزوج اسم لكل واحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩].

ثم قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ .

وفيه أبحاث:

الأول: قرأ حمزة بكسر الألف والميم، والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم، والباقون ﴿أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ بضم الألف وفتح الميم .

الثاني: أنه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام أردفه بتخليق الأنعام، وإنما خصها بالذكر لأنها أشرف الحيوانات بعد الإنسان، ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الإنسان وبين الأنعام وهي كونها مخلوقة في بطون أمهاتهم وقوله: ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ المراد منه ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] وقوله: ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ قيل: الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل: الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران: ٣].

واعلم أنه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ أي: ذلكم الشيء الذي عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم، وفي هذه الآية: دلالة على كونه سبحانه وتعالى منزهًا عن الأجزاء والأعضاء وعلى كونه منزهًا عن الجسمية والمكانية، وذلك أنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر إلا كونه فاعلاً لهذه الأشياء، ولو كان جسمًا مركبًا من الأعضاء لكان تعريفه بتلك الأجزاء والأعضاء تعريفًا للشيء بأجزاء حقيقته، ولو كان ذلك القسم ممكنًا لكان الاكتفاء بهذا القسم الثاني تقصيرًا ونقصًا وذلك غير جائز، فعلمنا أن الاكتفاء بهذا القسم إنما حسن لأن القسم الأول محال ممتنع الوجود، وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعاليًا عن الجسمية والأعضاء والأجزاء.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ﴾ وهذا يفيد الحصر أي له الملك لا لغيره، ولما ثبت أنه لا ملك إلا له وجب القول بأنه لا إله إلا هو لأنه لو ثبت إله آخر، فذلك الإله إما أن يكون له الملك أو لا يكون له الملك، فإن كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكًا قادرًا ويجري بينهما التمانع كما ثبت في قوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وذلك محال، وإن لم يكن للثاني شيء من القدرة والملك فيكون ناقصًا ولا يصلح للإلهية، فثبت أنه لما دل الدليل على أنه لا ملك إلا الله، وجب أن يقال: لا إله للعالمين ولا معبود للخلق أجمعين إلا الله الأحد الحق الصمد، ثم اعلم أنه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته، رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه الأول: قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ يحتج به أصحابنا ويحتج به المعتزلة. أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية: أنها صريحة

في أنهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم، وما ذاك الغير إلا الله، وأيضًا فدليل العقل يقوي ذلك لأن كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب، فلما لم يحصل ذلك وإنما حصل الجهل والضلال علمنا أنه من غيره لا منه، وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم: أن قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ تعجب من هذا الانصراف، ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب معنى.

ثم قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ والمعنى أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة، وذلك لأنه تعالى غني على الإطلاق، ويمتنع في حقه جر المنفعة ودفع المضرة، وإنما قلنا إنه غني لوجوه: الأول: واجب الوجود لذاته وواجب الوجود في جميع صفاته، ومن كان كذلك كان غنيًا على الإطلاق، الثاني: أنه لو كان محتاجًا لكانت تلك الحاجة إما قديمة وإما حادثة، والأول باطل وإلا لزم أن يخلق في الأزل ما كان محتاجًا إليه وذلك محال، لأن الخلق والأزل متناقض، والثاني باطل لأن الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعي إلى تحصيل النقصان لنفسه، الثالث: هب أنه يبقى الشك في أنه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا؟ أما من المعلوم بالضرورة أن الإله القادر على خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي والعناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو، وأن يضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك، فثبت بما ذكرنا أن جميع العالمين لو كفروا وأصروا على الجهل فإن الله غني عنهم.

ثم قال تعالى بعده: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ يعني أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفران إلا أنه لا يرضى بالكفر، واحتج الجبائي بهذه الآية من وجهين: الأول: أن المجبرة يقولون إن الله تعالى خلق كفر العباد وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب، قال: ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضي الكفر من الوجه الذي خلقه، وذلك ضد الآية، الثاني: لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الله وليس أيضًا برضاء الله تعالى، وأجاب الأصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه الأول: أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[الفرقان: ٦٣] وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[الإنسان: ٦] وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الحجر: ٤٢] فعلى هذا التقدير قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ ولا يرضى للمؤمنين الكفر، وذلك لا يضرنا، الثاني: أنا نقول الكفر بإرادة الله تعالى ولا نقول إنه برضا الله لأن الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح: ١٨] أي يمدحهم ويثني عليهم، الثالث: كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول: الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض، وليس عبارة عن الإرادة، والدليل عليه قول ابن دريد:

رَضِيتُ قَسْرًا وَعَلَى الْقَسْرِ رِضَا مَنْ كَانَ ذَا سُخْطٍ عَلَى صَرْفِ الْقَضَا[(١)]

أثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ما قلناه، والرابع: هب أن الرضا هو الإرادة إلا أن قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ عام، فتخصيصه بالآيات الدالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ والمراد أنه لما بين أنه لا يرضى الكفر بين أنه يرضى الشكر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلف القراء في هاء ﴿يَرْضَهُ﴾ على ثلاثة أوجه أحدها: قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلسة غير مشبعة، وثانيها: قرأ أبو عمرو وحمزة في بعض الروايات (يَرْضَهْ) ساكنة الهاء للتخفيف، وثالثها: قرأ نافع في بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائي مضمومة الهاء مشبعة، قال الواحدي رحمه الله من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واوًا، لأن ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله، فكما أن هذا مشبع عند الجميع كذلك (يرضه)، ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو، لأن الأصل يرضاه والألف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية، ومع بقاء الألف لا يجوز إثبات الواو فكذا ههنا.

المسألة الثانية: الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل؛ أما القول فهو الإقرار بحصول النعمة وأما الاعتقاد فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال الجبائي: هذا يدل على أنه تعالى لا يعذب أحدًا على فعل غيره، فلو فعل الله كفرهم لما جاز أن يعذبهم عليه، وأيضًا لا يجوز أن يعذب الأولاد بذنوب الآباء، بخلاف ما يقول القوم. واحتج أيضًا من أنكر وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ واعلم أنا ذكرنا كثيرًا أن أهم المطالب للإنسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان، وأن يعرف ما يضره وما ينفعه في هذه الحياة الدنيوية، وأن يعرف أحواله بعد الموت، ففي هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الأعلى والعالم الأسفل على كمال قدرة الصانع وعلمه وحكمته، ثم أتبعه بأن أمره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين أحواله بعد الموت بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾.

---

(١) هذا البيت للشاعر ابن دريد الأزدي وهو ابن دريد الأزدي هو: محمد بن الحسن بن دريد الأزدي القحطاني، أبو بكر. ٢٢٣ - ٣٢١هـ/ ٨٣٨ - ٩٣٢م، من أئمة اللغة والأدب، كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء، وهو صاحب المقصورة الدريدية، ولد في البصرة وانتقل إلى عمان فأقام اثني عشر عامًا وعاد إلى البصرة ثم رحل إلى نواحي فارس فقلده آل ميكال ديوان فارس، ومدحهم بقصيدته المقصورة، ثم رجع إلى بغداد واتصل بالمقتدر العباسي فأجرى عليه في كل شهر خمسين دينارًا فأقام إلى أن توفي.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المشبهة تمسكوا بلفظ ﴿إِلَىٰ﴾ على أن إله العالم في جهة وقد أجبنا عنه مرارًا.

المسألة الثانية: زعم القوم أن هذه الأرواح كانت قبل الأجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود في هذه الآية وفي سائر الآيات.

المسألة الثالثة: دلت هذه الآية على إثبات البعث والقيامة.

ثم قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا تهديد للعاصي وبشارة للمطيع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كالعلة لما سبق، يعني أنه يمكنه أن ينبئكم بأعمالكم، لأنه عالم بجميع المعلومات، فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَقْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قلوبكم وأعمالكم**».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

اعلم أن الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين أن الله تعالى هو الذي يجب أن يعبد، بين في هذه الآية أن طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام متناقضة وذلك لأنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا في طلب دفعه إلا إلى الله، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضر، لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك في بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا به في كل الأحوال فثبت أن طريقتهم في هذا الباب متناقضة.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فقيل المراد بالإنسان أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره.

وقيل: المراد به الكافر الذي تقدم ذكره، لأن الكلام يخرج على معهود، تقدم.

وأما قوله: ﴿ضُرٌّ﴾ فيدخل فيه جميع المكاره سواء كان في جسمه أو في ماله أو أهله وولده، لأن اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ أي استجار بربه وناداه ولم يؤمل في كشف الضر سواه، فلذلك قال: ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي راجعًا إليه وحده في إزالة ذلك الضر لأن الإنابة هي الرجوع ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي أعطاه، قال صاحب (الكشاف): وفي حقيقته وجهان أحدهما: جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال، إذا كان متعهدًا له حسن القيام به ومنه ما

روي عن رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ يَتَخَوَّلُ أَصْحَابَهُ بِالْمَوْعِظَةِ» [١] والثاني: جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر، وفي المعنى قالت العرب:

إِنَّ الْغَنِيَّ طَوِيلُ الذَّيْلِ مَيَّاسُ

ثم قال تعالى: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه، و(ما) بمعنى (من) كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]وقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]وقيل نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه والمراد من قوله: ﴿نَسِيَ﴾ أن ترك دعاءه كأنه لم يفزع إلى ربه، ولو أراد به النسيان الحقيقي لما ذمه عليه، ويحتمل أن يكون المراد أنه نسي أن لا يفزع، وأن لا إله سواه فعاد إلى اتخاذ الشركاء مع الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليَضل) بفتح الياء والباقون ﴿لِّيُضِلَّ﴾ بضم الياء على معنى ليضل غيره.

المسألة الثانية: المراد أنه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين، فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع إلى ما سواه وعند النعمة يعودون إلى اتخاذ آلهة معه. ومعلوم أنه تعالى إذا كان إنما يفزع إليه في حال الضر لأجل أنه هو القادر على الخير والشر، وهذا المعنى باق في حال الراحة والفراغ كان في تقرير حالهم في هذين الوقتين بما يوجب المناقضة وقلة العقل.

المسألة الثالثة: معنى قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أنه لا يقتصر في ذلك على أن يضل نفسه بل يدعو غيره إما بفعله أو قوله إلى أن يشاركه في ذلك، فيزداد إثمًا على إثمه، واللام في قوله ﴿لِّيُضِلَّ﴾ لام العاقبة كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ وليس المراد منه الأمر بل الزجر، وأن يعرفه قلة تمتعه في الدنيا، ثم يكون مصيره إلى النار.

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين، ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح أحوال المحقين الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله ولا اعتماد لهم إلا على فضائل الله، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وحمزة (أمن) مخففة الميم والباقون بالتشديد، أما

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (العلم)، باب: (ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة) (١/ ٣٨)، حديث رقم (٦٨)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٧٢/ ٢٨٢١)، كلاهما من طريق الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود... به.

التخفيف ففيه وجهان الأول: أن الألف ألف الاستفهام داخلة على من، والجواب محذوف على تقدير كمن ليس كذلك، وقيل كالذي جعل لله أندادًا فاكتفى بما سبق ذكره، والثاني: أن يكون ألف نداء كأنه قيل يا من هو قانت من أهل الجنة، وأما التشديد فقال الفراء: الأصل أم من فأدغمت الميم في الميم وعلى هذا القول هي أم التي في قولك أزيد أفضل أم عمرو.

المسألة الثانية: القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة، ومنه قوله ﷺ: «**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ صَلَاةُ الْقُنُوتِ**» وهو القيام فيها، ومنه القنوت في الصبح لأنه يدعو قائمًا، عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾. وعن ابن عباس: القنوت طاعة الله، لقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] أي مطيعون، وعن قتادة ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ساعات الليل أوله ووسطه وآخره، وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وأنه أرجح من قيام النهار، ويؤكده وجوه الأول: أن عبادة الليل أستر عن العيون فتكون أبعد عن الرياء، الثاني: أن الظلمة تمنع من الإبصار ونوم الخلق يمنع من السماع، فإذا صار القلب فارغًا عن الاشتغال بالأحوال الخارجية عاد إلى المطلوب الأصلي، وهو معرفة الله وخدمته، الثالث: أن الليل وقت النوم فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر، الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] وقوله: ﴿سَاجِدًا﴾ حال، وقرئ (ساجد) و(قائم) على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين.

واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فكونه قانتًا ساجدًا قائمًا، وأما العلم فقوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين، فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية.

الفائدة الثانية: أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظبًا عليه، فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائمًا بما يجب عليه من الطاعات، وذلك يدل على أن العلم إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان، وقوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له في الأول مقام القهر وهو قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله: ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾.

الفائدة الثالثة: أنه قال في مقام الخوف: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فما أضاف الحذر إلى نفسه، وفي مقام الرجاء أضافه إلى نفسه، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى.

المسألة الثالثة: قيل: المراد من قوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ عثمان لأنه كان يحيي الليل في ركعة واحدة ويقرأ القرآن في ركعة واحدة، والصحيح أن المراد منه كل من كان موصوفًا بهذه الصفة فيدخل فيه عثمان وغيره لأن الآية غير مقتصرة عليه.

المسألة الرابعة: لا شبهة في أن في الكلام حذفًا، والتقدير أمن هو قانت كغيره، وإما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وتقدير الآية قل هل يستوي الذين يعلمون وهم الذين صفتهم أنهم يقنتون آناء الليل سجدًا وقيامًا، والذين لا يعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون، فإذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وإنما وصف الله الكفار بأنهم لا يعلمون، لأنهم وإن آتاهم الله العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم، فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولي الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم، وقد بالغنا في تقرير هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] قال صاحب (الكشاف): أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون، وبالذين لا يعلمون الذين لا يأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء، وهو تنبيه على أن من لا يعمل فهو غير عالم، ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون، ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يعني هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لا يعرفه أيضًا إلا أولوا الألباب، قيل لبعض العلماء: إنكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء، فأجاب العالم بأن هذا أيضًا يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ
أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ
قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ
﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ
فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين نفي المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم، أتبعه بأن أمر رسوله بأن يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام:

النوع الأول: قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ والمراد أن الله تعالى أمر المؤمنين بأن

يضموا إلى الإيمان التقوى، وهذا من أول الدلائل على أن الإيمان يبقى مع المعصية، قال القاضي: أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم، لأن عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب وبالإقدام عليها يحبط، فيقال له: هذا بأن يدل على ضد قولك أولى، لأنه لما أمر المؤمنين بالتقوى دل ذلك على أنه يبقى مؤمنًا مع عدم التقوى، وذلك يدل على أن الفسق لا يزيل الإيمان.

واعلم أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالاتقاء بين لهم ما في هذا الاتقاء من الفوائد، فقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ فقوله: ﴿ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ يحتمل أن يكون صلة لقوله: ﴿ أَحْسَنُوا﴾ أو لـ ﴿ حَسَنَةٌ﴾، فعلى التقدير الأول معناه: للذين أحسنوا في هذه الدنيا كلهم حسنة في الآخرة، وهي دخول الجنة، والتنكير في قوله: ﴿ حَسَنَةٌ﴾ للتعظيم يعني حسنة لا يصل العقل إلى كنه كمالها. وأما على التقدير الثاني فمعناه: الذين أحسنوا فلهم في هذه الدنيا حسنة، والقائلون بهذا القول قالوا: هذه الحسنة هي الصحة والعافية، وأقول: الأولى أن تحمل على الثلاثة المذكورة في قوله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لَهَا نِهَايَةٌ: الْأَمْنُ وَالصِّحَّةُ وَالْكِفَايَةُ**» (١) ومن الناس من قال: القول الأول أولى ويدل عليه وجوه الأول: أن التنكير في قوله: ﴿ حَسَنَةٌ﴾ يدل على النهاية والجلالة والرفعة، وذلك لا يليق بأحوال الدنيا، فإنها خسيسة ومنقطعة، وإنما يليق بأحوال الآخرة، فإنها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض، والثاني: أن ثواب المحسن بالتوحيد والأعمال الصالحة إنما يحصل في الآخرة قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧] وأيضًا فنعمة الدنيا من الصحة والأمن والكفاية حاصلة للكفار، وأيضًا فحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها للمؤمن، كما قال ﷺ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**» (٢) وقال تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]، الثالث: أن قوله: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يفيد الحصر، بمعنى أنه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لا تحصل إلا للذين أحسنوا، وهذا باطل. أما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر، فكأنه حمله على حسنة الآخرة أولى، ثم قال الله تعالى: ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ وفيه قولان الأول: المراد أنه لا عذر ألبتة للمقصرين في الإحسان، حتى إنهم إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفرة على الإحسان وصرف الهمم إليه، قل لهم فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فتحولوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم، ليزدادوا إحسانًا إلى إحسانهم، وطاعة إلى طاعتهم، والمقصود منه الترغيب في الهجرة من مكة إلى

(١) لم أجده.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٧٢/ ٢٩٥٦) من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة... به، وابن حبان في (صحيحه) (٢/ ٤٦٢)، حديث رقم (٦٨٧).

المدينة والصبر على مفارقة الوطن، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. والقول الثاني: قال أبو مسلم: لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية الله، ثم بين أن من اتقى فله في الآخرة الحسنة، وهي الخلود في الجنة، ثم بين أن أرض الله، أي جنته واسعة، لقوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤] وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والقول الأول عندي أولى، لأن قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يليق إلا بالأول. **وفي هذه الآية مسائل:**

المسألة الأولى: أما تحقيق الكلام في ماهية الصبر، فقد ذكرناه في سورة البقرة، والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم، وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله تعالى.

المسألة الثانية: تسمية المنافع التي وعد الله بها على الصبر بالأجر توهم أن العمل على الثواب، لأن الأجر هو المستحق، إلا أنه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس عليه الثواب، فوجب حمل لفظ الأجر على كونه أجرًا بحسب الوعد، لا بحسب الاستحقاق.

المسألة الثالثة: أنه تعالى وصف ذلك الأجر بأنه بغير حساب، وفيه وجوه الأول: قال الجبائي: المعنى أنهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلاً فهو بغير حساب، ولو لم يعطوا إلا المستحق لكان ذلك حسابًا، قال القاضي: هذا ليس بصحيح، لأن الله تعالى وصف الأجر بأنه بغير حساب، ولو لم يعطوا إلا الأجر المستحق، والأجر غير التفضل، الثاني: أن الثواب له صفات ثلاثة أحدها: أنها تكون دائمة الأجر لهم، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ معناه بغير نهاية، لأن كل شيء دخل تحت الحساب فهو متناه، فما لا نهاية له كان خارجًا عن الحساب، وثانيها: أنها تكون منافع كاملة في أنفسها، وعقل المطيع ما كان يصل إلى كنه ذلك الثواب، قال ﷺ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١) وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه، وما لا يتوقعه الإنسان، فقد يقال إنه ليس في حسابه، فقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ محمول على هذا المعنى، والوجه الثالث: في التأويل أن ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال، روى صاحب (الكشاف) عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَنْصِبُ اللَّهُ الْمَوَازِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيؤتى بأهل الصَّلاةِ فَيُوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتَى بِأَهْلِ الصَّدَقَةِ فَيُوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلاءِ فَلا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ، وَيُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حَتَّى يَتَمَنَّى أَهْلُ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا أَنَّ**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق)، باب: (صفة الجنة) (٦/ ٣٩٦)، حديث رقم (٣٢٤٤) دون الجزء الأول من طريق الأعرج... به، ومسلم في كتاب (الجنة)، باب: (دوام نعيم أهل الجنة) (٤/ ٢١/ ٢١٨١) من طريق أبي رافع... به، كلاهما عن أبي هريرة... به.

أَجْسَادَهُمْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ لِمَا بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الفضل» (١).

النوع الثاني: من البيانات أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى! فأنزل الله: قل يا محمد: إني أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين، وأقول: إن التكليف نوعان أحدهما: الأمر بالاحتراز عما لا ينبغي، والثاني: الأمر بتحصيل ما ينبغي، والمرتبة الأولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة، إذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى قدم الأمر بإزالة ما ينبغي فقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ لأن التقوى هي الاحتراز عما لا ينبغي ثم ذكر عقيبه الأمر بتحصيل ما ينبغي فقال: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وهذا يشتمل على قيدين أحدهما: الأمر بعبادة الله، الثاني: كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلي وشوائب الشرك الخفي، وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير، وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لا شبهة في أن المراد إني أول من تمسك بالعبادات التي أرسلت بها، وفي هذه الآية فائدتان:

الفائدة الأولى: كأنه يقول: إني لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعًا فيه وأكثرهم مداومة عليه.

الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح، فقدم ذكر الجزء الأشرف وهو قوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ثم ذكر عقيبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام، فإن النبي ﷺ فسر الإسلام في خبر جبريل عليه السلام (٢) بالأعمال الظاهرة، وهو المراد بقوله في هذه الآية: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وليس لقائل أن يقول ما الفائدة في تكرير لفظ (أمرت) لأنا نقول: ذكر لفظ (أمرت) أولاً في عمل القلب وثانيًا في عمل الجوارح ولا يكون هذا تكريرًا.

الفائدة الثالثة: في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ التنبيه على كونه رسولاً من عند الله

---

(١) **إسناده ضعيف**: لأسد بن موسى في (الزهد) (١/ ٨٠)، حديث رقم (٧٠) من طريق ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشي عن أنس... به، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١١/ ٤١٨) من طريق إبراهيم بن محمد الضحاك حدثنا نصر بن مرزوق حدثنا أسيد بن موسى حدثنا بكر بن حبيش عن ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشي عن أنس... به، وفي إسناده ضرار بن عمرو الرقاشي ضعيفان.

(٢) هذا إشارة إلى حديث جبريل المشهور حينما سئل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان.

صحيح: أخرجه البخاري في (خلق أفعال العباد) (٥٢)، حديث رقم (١٤٤) من طريق محمد بن سلام... به، وأبو داود في كتاب (السنن)، باب: (في القدر) (٤/ ٢٢٤)، حديث رقم (٤٦٩٨) من طريق عثمان بن أبي شيبة... به، والنسائي في كتاب (الإيمان وشرائعه)، باب: (صفة الإيمان والإسلام) (٤/ ٤٣٦)، حديث رقم (٥٠٠٦) من طريق محمد بن قدامة عن جرير... به، كلاهما (محمد، وعثمان) عن جرير... به.

واجب الطاعة، لأن أول المسلمين في شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ، ولما بين الله تعالى أمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال المخصوصة، وكان الأمر يحتمل الوجوب ويحتمل الندب بين أن ذلك الأمر للوجوب فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن الله أمر محمدًا ﷺ أن يجري هذا الكلام على نفسه، والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي، لأنه مع جلالة قدرة وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفًا حذرًا عن المعاصي فغيره بذلك أولى.

الفائدة الثانية: دلت الآية على أن المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب، وهذا يطابق قولنا: إن الله تعالى قد يعفو عن المذنب والكبيرة، فيكون اللازم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لا نفس حصول العقاب.

الفائدة الثالثة: دلت هذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب، وذلك لأنه قال في أول الآية: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ ثم قال بعده: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيكون معنى هذا العصيان ترك الأمر الذي تقدم ذكره، وذلك يقتضي أن يكون تارك الأمر عاصيًا، والعاصي يترتب عليه الخوف من العقاب، ولا معنى للوجوب إلا ذلك.

النوع الثالث: من الأشياء التي أمر الله رسوله أن يذكرها قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ فإن قيل ما معنى التكرير في قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾؟ قلنا هذا ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة، والثاني إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحدًا غيره، وذلك لأن قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ لا يفيد الحصر وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر يعني: الله أعبد ولا أعبد أحدًا سواه، والدليل عليه أنه لما قال بعد: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ قال بعده: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ ولا شبهة في أن قوله: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ ليس أمرًا بل المراد منه الزجر، كأنه يقول: لما بلغ البيان في وجوب رعاية التوحيد إلى الغاية القصوى فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم، ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ لوقوعها في هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه، وخسروا أهليهم أيضًا لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة، فقد ذهبوا عنهم ذهابًا لا رجوع بعده ألبتة، وقال ابن عباس: إن لكل رجل منزلاً وأهلاً وخدمًا في الجنة، فإن أطاع أعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين، والخاسر المغبون، ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاعة فقال: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ كان التكرير لأجل التأكيد، الثاني: أنه تعالى ذكر في أول هذه الكلمة حرف (ألا) وهو للتنبيه، وذكر التنبيه في هذا الموضع يدل على التعظيم

كأنه قيل: إنه بلغ في العظمة إلى حيث لا تصل عقولكم إليها فتنبهوا لها، الثالث: أن كلمة (هو): في قوله: ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران فإنه يصير في مقابلته كل خسران، الرابع: وصفه بكونه (مُبِينًا): يدل على التهويل، وأقول: قد بينا أن لفظ الآية يدل على كونه خسرانًا مبينًا فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسرانًا مبينًا، وأقول: نفتقر إلى بيان أمرين إلى أن يكون خسرانًا ثم كونه مبينًا أما الأول: فتقريره أنه تعالى أعطى هذه الحياة وأعطى العقل، وأعطى المكنة وكل ذلك رأس المال، أما هذه الحياة فالمقصود منها أن يكتسب فيها الحياة الطيبة في الآخرة.

وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هي رأس المال والنظر، والفكر لا معنى له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلى تحصيل علوم كسبية، فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر في رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء، وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح، وأيضًا حصول القدرة على الأعمال يشبه رأس المال، واستعمال تلك القوة في تحصيل أعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر في رأس المال، وحصول أعمال الخير والبر يشبه الربح، إذا ثبت هذا فنقول: إن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن، ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير ألبتة كان محرومًا عن الربح بالكلية، وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسرانًا، فهذا بيان كونه خسرانًا، وأما الثاني: وهو بيان كون ذلك الخسران مبينًا فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار، فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضًا مزيد ضرر، أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التي هي رأس مالهم في استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات، واستعملوا قواهم وقدرهم في أفعال الشر والباطل والفساد، فهم قد جمعوا بين أمور في غاية الرداءة أولها: أنهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلبًا في تلك العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة، وثانيها: أنهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة، وثالثها: أن تلك المتاعب الشديدة التي كانت موجودة في الدنيا في نصرة تلك الضلالات تصير أسبابًا للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت، وعند الوقوف على هذه المعاني يظهر أنه لا يعقل خسران أقوى من خسرانهم، ولا حرمان أعظم من حرمانهم، ونعوذ بالله منه.

ولما شرح الله تعالى أحوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسرانهم، بين أنهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران، بل ضموا إليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد، فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب، ونظيره في الأحوال النفسانية إحاطة الجهل والحرمان والحرص وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان، فإن قيل: الظلل ما على الإنسان فكيف سمى ما تحته بالظلل؟ والجواب من وجوه الأول: أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، الثاني: أن

الذي يكون تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته لأن النار دركات كما أن الجنة درجات، والثالث: أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الحرارة والإحراق والإيذاء، أطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة، قال الحسن: هم بين طبقتين من النار لا يدرون ما فوقهم أكثر مما تحتهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أي ذلك الذي تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ خبر، وفي قوله: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ قولان الأول: التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذي يخوف الله به عباده أي المؤمنين، لأنا بينا أن لفظ العباد في القرآن مختص بأهل الإيمان، وإنما كان تخويفًا للمؤمنين لأجل أنهم إذا سمعوا أن حال الكفار ما تقدم خافوا فأخلصوا في التوحيد والطاعة، الوجه الثاني: أن هذا الكلام في تقدير جواب عن سؤال، لأنه يقال إنه تعالى غني عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الإيذاء، فكيف يليق به أن يعذب هؤلاء المساكين إلى هذا الحد العظيم، وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والضلال عن الكفر والضلال، فإذا كان التكليف لا يتم إلا بالتخويف والتخويف لا يكمل الانتفاع به إلا بإدخال ذلك الشيء في الوجود وجب إدخال ذلك النوع من العذاب في الوجود تحصيلاً لذلك المطلوب الذي هو التكليف، والوجه الأول عندي أقرب، والدليل عليه أنه قال بعده: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ الأظهر منه أن المراد منه المؤمنون فكأنه قيل: المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين فيا أيها المؤمنون بالغوا في الخوف والحذر والتقوى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أن الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الأصنام والأوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها واحترز عن الشرك، ليكون الوعد مقرونًا بالوعيد أبدًا فيحصل كمال الترغيب والترهيب.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلبًا بتقديم اللام على العين، وفي هذا اللفظ أنواع من المبالغة أحدها:

التسمية بالمصدر كأن عين ذلك الشيء الطغيان، وثانيها: أن البناء بناء المبالغة فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط، وثالثها: ما ذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا إنما يصار إليه عند المبالغة.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن المراد من الطاغوت هاهنا الشيطان أم الأوثان، فقيل إنه الشيطان فإن قيل: إنهم ما عبدوا الشيطان وإنما عبدوا الصنم، قلنا: الداعي إلى عبادة الصنم لما كان هو الشيطان كان الإقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان، وقيل: المراد بالطاغوت الصنم وسميت طواغيت على سبيل المجاز لأنه لا فعل لها، والطغاة هم الذين يعبدونها إلا أنه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها، وصفت بهذه الصفة إطلاقًا لاسم المسبب على السبب بحسب الظاهر، وقيل: كل ما يعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت، ويقال في التواريخ إن الأصل في عبادة الأصنام، أن القوم كانوا مشبهة اعتقدوا في الإله أنه نور عظيم، وفي الملائكة أنها أنوار مختلفة في الصغر والكبر، فوضعوا تماثيل وصورًا على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقاد أنهم يعبدون الله والملائكة، وأقول: حاصل الكلام في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ أي أعرضوا عن عبودية كل ما سوى الله. قوله تعالى: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي رجعوا بالكلية إلى الله، ورأيت في السفر الخامس من التوراة، أن الله تعالى قال لموسى: يَا مُوسَى أَحِبْ إِلَهَكَ بِكُلِّ قَلْبِكَ[(١)]. وأقول: ما دام يبقى في القلب التفات إلى غير الله فهو ما أجاب إلهه بكل قلبه، وإنما تحصل الإجابة بكل القلب إذا أعرض القلب عن كل ما سوى الله من باب الطاعات فكيف يعرض عنها مع أنه بالحس يشاهد الأسباب المفضية إلى المسببات في هذا العالم، قلنا ليس المراد من إعراض القلب عنها أن يقضي عليها بالعدم فإن ذلك دخول في السفسطة وهو باطل، بل المراد أن يعرف أن واجب الوجود لذاته واحد، وأن كل ما سواه فإنه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكنًا لذاته فإنه لا يوجد إلا بتكوين الواجب وإيجاده، ثم إنه سبحانه وتعالى جعل تكوينه للأشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة وهي عالم السموات والروحانيات، ومنها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الأسفل، فإذا عرفت الأشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله ومن الله وبالله، وأنه لا مدبر إلا هو ولا مؤثر غيره، وحينئذٍ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الأول والموجد الأول، فإنه إن كان قد وضع الأسباب الروحانية والجسمانية بحيث يتأذى إلى هذا المطلوب، فهذا الشيء يحصل وإن كان قد وضع بحيث لا يفضي إلى حصول هذا الشيء لم يحصل، وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى في قلبه التفات إلى شيء إلا إلى الموجود الأول، وقد اتفق أني كنت أنصح بعض الصبيان في حفظ العرض والمال فعارضني وقال: لا يجوز الاعتماد

---

(١) لم أجده.

على الجد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره، فقلت: هذه كلمة حق سمعتها ولكنك ما عرفت معناها، وذلك لأنه لا شبهة أن الكل من الله تعالى إلا أنه سبحانه دبر الأشياء على قسمين منها ما جعل حدوثه وحصوله معلقًا بأسباب معلومة ومنها ما يحدثه من غير واسطة هذه الأسباب.

أما القسم الأول: فهو حوادث هذا العالم الأسفل.

وأما القسم الثاني: فهو حوادث هذا العالم الأعلى، وإذا ثبت هذا فنقول: من طلب حوادث هذا العالم الأسفل لا من الأسباب التي عينها الله تعالى كان هذا الشخص منازعًا لله في حكمته مخالفًا في تدبيره، فإن الله تعالى حكم بحدوث هذه الأشياء بناءً على تلك الأسباب المعينة المعلومة وأنت تريد تحصيلها لا من تلك الأسباب، فهذا هو الكلام في تحقيق الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ إشارة إلى الإعراض عن غير الله وقوله تعالى: ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الإقبال بالكلية على عبادة الله، ثم إنه تعالى وعد هؤلاء بأشياء أحدها: قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ واعلم أن هذه الكلمة تتعلق بجهات أحدها: أن هذه البشارة متى تحصل؟ فنقول: إنها تحصل عند القرب من الموت وعند الوضع في القبر وعند الوقوف في عرصة القيامة وعندما يصير فريق في الجنة وفريق في السعير وعندما يدخل المؤمنون الجنة، ففي كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة والريحان، وثانيها: أن هذه البشارة فبماذا تحصل؟ فنقول: إن هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات، أما زوال المكروهات فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] والخوف إنما يكون من المستقبل والحزن إنما يكون بسبب الأحوال الماضية فقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ يعني لا تخافوا فيما تستقبلونه من أحوال القيامة ولا تحزنوا بسبب ما فاتكم من خيرات الدنيا، ولما أزال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] وقال أيضًا في آية أخرى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [الحديد: ١٢] وقال أيضًا: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١] والثالث: أن المبشر من هو؟ فنقول: يحتمل أن يكون هم الملائكة، إما عند الموت فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢] وإما بعد دخول الجنة فقوله: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] ويحتمل أن يكون هو الله سبحانه كما قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

واعلم أن قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ فيه أنواع من التأكيدات أحدها: أنه يفيد الحصر فقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي لهم لا لغيرهم، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى وأقبل بالكلية على الله تعالى، وثانيها: أن الألف واللام في لفظ (البشرى) مفيد للماهية فيفيد أن

هذه الماهية بتمامها لهؤلاء، ولم يبق منها نصيب لغيرهم، وثالثها: أن لا فرق بين الإخبار وبين البشارة فالبشارة هو الخبر الأول بحصول الخيرات، إذا عرفت هذا فنقول كل ما سمعوه في الدنيا من أنواع الثواب والخير إذا سمعوه عند الموت أو في القبر فذاك لا يكون إلا إخبارًا، فثبت أن هذه البشارة لا تتحقق إلا إذا حصل الإخبار بحصول أنواع أخر من السعادات فوق ما عرفوها وسمعوها في الدنيا نسأل الله تعالى الفوز بها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]ورابعها: أن المخبر بقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ هو الله تعالى وهو أعظم العظماء وأكمل الموجودات والشرط المعتبر في حصول هذه البشارة شرط عظيم وهو الاجتناب عما سوى الله تعالى والإقبال بالكلية على الله والسلطان العظيم إذا ذكر شرطًا عظيمًا ثم قال لمن أتى بذلك الشرط العظيم: أبشر، فهذه البشارة الصادرة من السلطان العظيم المرتبة على حصول ذلك الشرط العظيم تدل على أن الذي وقعت البشارة به قد بلغ في الكمال والرفعة إلى حيث لا يصل إلى شرحها العقول والأفكار، فثبت أن قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ يدل على نهاية الكمال والسعادة من هذه الوجوه، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى: لما قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ وكان هذا كالمجمل أردفه بكلام يجري مجرى التفسير والشرح له فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وأراد بعباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم وهذا يدل على أن رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الإعراض عن غير الله تعالى، والإقبال بالكلية على طاعة الله، والمقصود من هذا اللفظ التنبيه على أن الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا، هم الموصوفون بأنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فوضع الظاهر موضع المضمر تنبيهًا على هذا الحرف، ومنهم من قال: إنه تعالى لما بين أن الذين اجتنبوا وأنابوا لهم البشرى وكان ذلك درجة عالية لا يصل إليها إلا الأولون، وقصر السعادة عليهم يقتضي الحرمان للأكثرين، وذلك لا يليق بالرحمة التامة، لا جرم جعل الحكم أعم فقال: كل من اختار الأحسن في كل باب كان في زمرة السعداء.

واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد:

الفائدة الأولى: وجوب النظر والاستدلال، وذلك لأنه تعالى بين أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة، فإنه يختار منها ما هو الأحسن الأصوب، ومن المعلوم أن تمييز الأحسن الأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع، لأن السماع صار قدرًا مشتركًا بين الكل، لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ يدل على أن السماع قدر مشترك فيه، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وإنما يتأتى بحجة العقل، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل وبناء الأمر على النظر والاستدلال.

الفائدة الثانية: أن الطريق إلى تصحيح المذاهب والأديان قسمان: أحدهما: إقامة الحجة

والبينة على صحته على سبيل التحصيل، وذلك أمر لا يمكن تحصيله إلا بالخوض في كل واحد من المسائل على التفصيل، والثاني: أنا قبل البحث عن الدلائل وتقريرها والشبهات وتزييفها نعرض تلك المذاهب وأضدادها على عقولنا، فكل ما حكم أول العقل بأنه أفضل وأكمل كان أولى بالقبول، مثاله أن صريح العقل شاهد بأن الإقرار بأن إله العالم حي عالم قادر حليم حكيم رحيم، أولى من إنكار ذلك، فكان ذلك المذهب أولى، والإقرار بأن الله تعالى لا يجري في ملكه وسلطانه إلا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بأن أكثر ما يجري في سلطان الله على خلاف إرادته، وأيضًا الإقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والأعضاء أولى من القول بكونه متبعضًا مؤلفًا، وأيضًا القول باستغنائه عن الزمان والمكان أولى من القول باحتياجه إليهما، وأيضًا القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه ألبتة، وكل هذه الأبواب تدخل تحت قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ فهذا ما يتعلق باختيار الأحسن في أبواب الاعتقادات.

وأما ما يتعلق بأبواب التكاليف فهو على قسمين: منها ما يكون من أبواب العبادات، ومنها ما يكون من أبواب المعاملات، فأما العبادات فمثل قولنا الصلاة التي يذكر في تحريمها الله أكبر وتكون النية فيها مقارنة للتكبير، ويقرأ فيها سورة الفاتحة، ويؤتى فيها بالطمأنينة في المواقف الخمسة، ويقرأ فيها التشهد، ويخرج منها بقوله السلام عليكم، فلا شك أنها أحسن من الصلاة التي لا يراعى فيها شيء من هذه الأحوال، وتوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة، وأن يترك ما سواها، وكذلك القول في جميع أبواب العبادات. وأما المعاملات فكذلك مثل أنه تعالى شرع القصاص والدية والعفو، ولكنه ندب إلى العفو فقال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وعن ابن عباس أن المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ما سواه.

واعلم أنه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بأن قال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ وفي ذلك دقيقة عجيبة، وهي أن حصول الهداية في العقل والروح أمر حادث، ولا بد له من فاعل وقابل: أما الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأما القابل فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ فإن الإنسان ما لم يكن عاقلاً كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقية في قلبه. وإنما قلنا إن الفاعل لهذه الهداية هو الله، وذلك لأن جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والاعتقاد الباطل، وإذا كان الشيء قابلا للضدين كانت نسبة ذلك القابل إليهما على السوية، ومتى كان الأمر كذلك امتنع كون ذلك القابل سببًا لرجحان أحد الطرفين، ألا ترى أن الجسم لما كان قابلا للحركة والسكون على السوية، امتنع أن تصير ذات الجسم سببًا لرجحان أحد الطرفين على الآخر، فإن قالوا: لا نقول إن ذات النفس والعقل يوجب هذا الرجحان، بل نقول: إنه يريد

تحصيل أحد الطرفين، فتصير تلك الإرادة سببًا لذلك الرجحان، فنقول: هذا باطل، لأن ذات النفس كما أنها قابلة لهذه الإرادة، فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادة لتلك الإرادة، فيمتنع كون جوهر النفس سببًا لتلك الإرادة، فثبت أن حصول الهداية لا بد لها من فاعل ومن قابل أما الفاعل: فيمتنع أن يكون هو النفس، بل الفاعل هو الله تعالى، وأما القابل: فهو جوهر النفس، فلهذا السبب قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ثم قال: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في لفظ الآية سؤال وهو أنه يقال إنه قال: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ ولا يصح في الكلام العربي أن يدخل حرف الاستفهام على الاسم وعلى الخبر معًا، فلا يقال: أزيد أتقتله، بل ههنا شيء آخر، وهو أنه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء، فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معًا وهو قوله: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ﴾، ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ ولأجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوهًا الأول: قال الكسائي: الآية جملتان والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب، أفأنت تحميه، أفأنت تنقذ من في النار، الثاني: قال صاحب (الكشاف): أصل الكلام: أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه، وهي جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير: أأنت مالك أمرهم، فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه، والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من في النار موضع الضمير، والآية على هذا جملة واحدة، الثالث: لا يبعد أن يقال إن حرف الاستفهام إنما ورد ههنا لإفادة معنى الإنكار، ولما كان استنكاره هذا المعنى كاملاً تامًّا، لا جرم ذكر هذا الحرف في الشرط وأعاده في الجزاء تنبيهًا على المبالغة التامة في ذلك الإنكار.

المسألة الثانية: احتج الأصحاب بهذه الآية في مسألة الهدى والضلال، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ فإذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الإيمان والطاعة، وإلا لزم انقلاب خبر الله الصدق كذبًا، وانقلاب علمه جهلاً وهو محال، والوجه الثاني: في الاستدلال بالآية أنه تعالى حكم بأن حقية كلمة العذاب توجب الاستنكار التام من صدور الإيمان والطاعة عنه، ولو كان ذلك ممكنًا ولم تكن حقيقة كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار والاستبعاد معنى.

المسألة الثالثة: احتج القاضي بهذه الآية على أن النبي ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر، قال: لأنه حق عليهم العذاب فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى إنقاذهم من النار، وأن الله تعالى حكم عليهم بالإنكار والاستبعاد، فيقال له: لا نسلم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب وكيف يحق العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾

[النساء: ٤٨] ومع قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، والله أعلم.

النوع الثاني: من الأشياء التي وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأنابوا قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ وهذا كالمقابل لما ذكر في وصف الكفار ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزمر: ١٦] فإن قيل: ما معنى قوله ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾؟ قلنا: لأن المنزل إذا بني على منزل آخر تحته كان الفوقاني أضعف بناء من التحتاني فقوله: ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ معناه أنه وإن كان فوق غيره لكنه في القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل، والحاصل أن المنزل الفوقاني والتحتاني حصل في كل واحد منهما فضيلة ومنقصة، أما الفوقاني ففضيلته العلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة، وأما التحتاني فبالضد منه، أما منازل الجنة فإنها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهي عالية مرتفعة وتكون في غاية القوة والشدة، وقال حكماء الإسلام: هذه الغرف المبنية بعضها فوق البعض، مثاله من الأحوال النفسانية العلوم الكسبية فإن بعضها يكون مبنيًا على البعض والنتائج الآخرة التي هي عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون في غاية القوة بل تكون في القوة والشدة كالعلوم الأصلية البديهية.

ثم قال: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ وذلك معلوم، ثم ختم الكلام فقال: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ فقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ في معنى وعدهم الله ذلك وفي الآية دقيقة شريفة، وهي أنه تعالى في كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله وأنه لا يخلف وعده ولم يذكر في آيات الوعيد ألبتة مثل هذا التأكيد والتقوية، وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد بخلاف ما يقوله المعتزلة، فإن قالوا: أليس أنه قال في جانب الوعيد﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[ق: ٢٩]؟ قلنا: قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾[ق: ٢٩] ليس تصريحًا بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين أعني الوعد والوعيد، فثبت أن الترجيح الذي ذكرناه حق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها، وذلك أنه تعالى بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان في الأرض فهو من السماء، ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع في الأرض، أي فيدخله وينظمه ينابيع في الأرض عيونًا، ومسالك ومجاري كالعروق في الأجسام، يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، أو مختلفًا أصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج، وذلك لأنه إذا تم جفافه جاز له أن

ينفصل عن منابته، وإن لم تتفرق أجزاؤه، فتلك الأجزاء كأنها هاجت لأن تتفرق ثم يصير حطامًا يابسًا ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ يعني أن من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنه وإن طال عمره فلا بد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء، ثم تكون عاقبته الموت. فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال في النبات تذكره حصول مثل هذه الأحوال في نفسه وفي حياته، فحينئذ تعظم نفرته في الدنيا وطيباتها.

والحاصل أنه تعالى في الآيات المتقدمة ذكر ما يقوي الرغبة في الآخرة، وذكر في هذه الآية ما يقوي النفرة عن الدنيا، فشرح صفات القيامة يقوي الرغبة في طاعة الله، وشرح صفات الدنيا يقوي النفرة عن الدنيا، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا، لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض، فهذا تمام الكلام في تفسير الآية، بقي ههنا ما يتعلق بالبحث عن الألفاظ، قال الواحدي: والينابيع جمع ينبوع وهو يفعول من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبع وينبع ثلاث لغات ذكرها الكسائي والفراء، وقوله ﴿ يَنَٰبِيعَ﴾ نصب بحذف الخافض لأن التقدير فسلكه في ينابيع ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ [الحديد: ٢٠]أي يخضر، والحطام ما يجف ويتفتت ويكسر من النبت.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الإعراض عن الدنيا بين بعد ذلك أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

واعلم أنا بالغنا في سورة الأنعام في تفسير قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ

لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] في تفسير شرح الصدر وفي تفسير الهداية، ولا بأس بإعادة كلام قليل ههنا، فنقول: إنه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلهيات عظيمة الرغبة في الاتصال بالروحانيات، وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة إلى الجسمانيات، وفي هذا التفاوت أمر حاصل في جواهر النفوس البشرية، والاستقراء يدل على أن الأمر كذلك، إذا عرفت هذا فنقول: المراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود في فطرة النفس، وإذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلاً كفى خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بأدنى سبب، مثل الكبريت الذي يشتعل بأدنى نار، أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والأحوال الروحانية، بل كانت مستغرقة في طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الأحوال المناسبة للإلهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية، وكلما كان إيراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقل. إذا عرفت هذه القاعدة فنقول: أما شرح الصدر فهو ما ذكرناه، وأما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة، وما لم يحصل شرح الصدر أولا لم يحصل النور ثانيًا، وإذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع ألبتة بسماع الدلائل، وربما صار سماع الدلائل سببًا لزيادة القسوة ولشدة النفرة فهذه أصول يقينية يجب أن تكون معلومة عند الإنسان حتى يمكنه الوقوف على معاني هذه الآيات، أما استدلال أصحابنا في مسألة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هناك، والله أعلم.

المسألة الثانية: من محذوف الخبر كما في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ [الزمر: ٩] والتقدير: أفمن شرح الله صدره للإسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته، والجواب متروك لأن الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤال، وهو أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان كما قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فكيف جعله في هذه الآية سببًا لحصول قسوة القلب، والجواب أن نقول إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلى الطبائع البهيمية والأخلاق الذميمة، فإن سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة، وتقرير هذا الكلام بالأمثلة فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح، وقد نرى إنسانًا واحدًا يذكر كلامًا واحدًا في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره، وما ذاك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وإنسان آخر فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال كل واحد منهم: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤] فقال رسول الله ﷺ: «اكْتُبْ فَهَكَذَا

أُنزِلَتْ» فازداد عمر إيمانًا على إيمان وازداد ذلك الإنسان كفرًا على كفر، إذا عرفت هذا لم يبعد أيضًا أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية، ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية، إذا عرفت هذا فنقول: إن رأس الأدوية التي تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالى، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سببًا لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضًا لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت في نهاية الشر والرداءة، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا كلام كامل محقق، ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان، والمقصود منه بيان أن القرآن لما كان موصوفًا بهذه الصفات، ثم إنه في حق ذلك الإنسان صار سببًا لمزيد القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ في الرداءة والخساسة إلى أقصى الغايات، فنقول: إنه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال.

الصفة الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه: الأول: أنه تعالى وصفه بكونه حديثًا في هذه الآيات وفي آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١] والحديث لا بد وأن يكون حادثًا، قالوا: بل الحديث أقوى في الدلالة على الحدوث من الحادث لأنه يصح أن يقال هذا حديث وليس بعتيق، وهذا عتيق وليس بحادث، فثبت أن الحديث هو الذي يكون قريب العهد بالحديث، وسمي الحديث حديثًا لأنه مؤلف من الحروف والكلمات، وتلك الحروف والكلمات تحدث حالا فحالا وساعة فساعة، فهذا تمام تقرير هذا الوجه.

أما الوجه الثاني: في بيان استدلال القوم أن قالوا: إنه تعالى وصفه بأنه نزله والمنزل يكون في محل تصرف الغير، وما يكون كذلك فهو محدث وحادث.

وأما الوجه الثالث: في بيان استدلال القوم أن قالوا: إن قوله أحسن الحديث يقتضي أن يكون هو من جنس سائر الأحاديث كما أن قوله زيد أفضل الإخوة يقتضي أن يكون زيد مشاركًا لأولئك الأقوام في صفة الأخوة ويكون من جنسهم، فثبت أن القرآن من جنس سائر الأحاديث، ولما كان سائر الأحاديث حادثة وجب أيضًا أن يكون القرآن حادثًا.

أما الوجه الرابع: في الاستدلال أن قالوا: إنه تعالى وصفه بكونه كتابًا والكتاب مشتق من الكتبة وهي الاجتماع، وهذا يدل على أنه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف، وذلك يدل على كونه محدثًا، والجواب: أن نقول: نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والأصوات والألفاظ والعبارات، وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق، والله أعلم.

المسألة الثانية: كون القرآن أحسن الحديث، إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه.

القسم الأول: أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين: الأول: أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة، الثاني: أن يكون بحسب النظم في الأسلوب، وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر، ولا من جنس الخطب، ولا من جنس الرسائل، بل هو نوع يخالف الكل، مع أن كل ذي طبع سليم يستطيبه ويستلذه.

القسم الثاني: أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى، وفيه وجوه: الأول: أنه كتاب منزه عن التناقض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] ومثل هذا الكتاب إذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات، الوجه الثاني: اشتماله على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل، الوجه الثالث: أن العلوم الموجودة فيه كثيرة جدًّا.

وضبط هذه العلوم أن نقول: العلوم النافعة هي ما ذكره الله في كتابه في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة: ٢٨٥] فهذا أحسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة.

أما القسم الأول: وهو الإيمان بالله، فاعلم أنه يشتمل على خمسة أقسام: معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء؛ أما معرفة الذات فهي أن يعلم وجود الله وقدمه وبقاءه، وأما معرفة الصفات فهي نوعان:

أحدهما: ما يجب تنزيهه عنه، وهو كونه جوهرًا ومركبًا من الأعضاء والأجزاء وكونه مختصًّا بحيز وجهة، ويجب أن يعلم أن الألفاظ الدالة على التنزيه أربعة: ليس ولم وما ولا، وهذه الأربعة المذكورة، مذكورة في كتاب الله تعالى لبيان التنزيه.

أما كلمة ليس، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾[الشورى: ١١] وأما كلمة لم، فقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص: ٣، ٤] وأما كلمة ما، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم: ٦٤]، ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ﴾[مريم: ٣٥] وأما كلمة لا، فقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾[البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾[الأنعام: ١٤]، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[المؤمنون: ٨٨]، وقوله في سبعة وثلاثين موضعًا من القرآن ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[الصافات: ٣٥].

وأما النوع الثاني: وهي الصفات التي يجب كونه موصوفًا بها من القرآن فأولها العلم بالله، والعلم بكونه محدثًا خالقًا، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام: ١] وثانيها: العلم بكونه قادرًا، قال تعالى في أول سورة القيامة: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[القيامة: ٤] وقال في آخر هذه السورة: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[القيامة: ٤٠] وثالثها: العلم بكونه تعالى عالمًا، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ﴾[الحشر: ٢٢] ورابعها: العلم بكونه عالمًا بكل المعلومات، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا

هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد: ٨] وخامسها: العلم بكونه حيًّا، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ [غافر: ٦٥] وسادسها: العلم بكونه مريدًا، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وسابعها: كونه سميعًا بصيرًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وثامنها: كونه متكلما، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: ٢٧] وتاسعها: كونه آمرًا، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم: ٤] وعاشرها: كونه رحمانًا رحيمًا مالكًا، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣، ٤] فهذا ما يتعلق بمعرفة الصفات التي يجب اتصافه بها.

وأما القسم الثالث: وهو الأفعال، فاعلم أن الأفعال إما أرواح وإما أجسام. أما الأرواح فلا سبيل للوقوف عليها إلا للقليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١] وأما الأجسام، فهي إما العالم الأعلى وإما العالم الأسفل؛ أما العالم الأعلى فالبحث فيه من وجوه أحدها: البحث عن أحوال السموات، وثانيها: البحث عن أحوال الشمس والقمر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] وثالثها: البحث عن أحوال الأضواء، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥] ورابعها: البحث عن أحوال الظلال، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ [الفرقان: ٤٥] وخامسها: اختلاف الليل والنهار، قال الله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: ٥] وسادسها: منافع الكواكب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام: ٩٧] وسابعها: صفات الجنة، قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١] وثامنها: صفات النار، قال تعالى: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] وتاسعها: صفة العرش، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر: ٧] وعاشرها: صفة الكرسي، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وحادي عشرها: صفة اللوح والقلم؛ أما اللوح، فقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] وأما القلم، فقوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

وأما شرح أحوال العالم الأسفل فأولها: الأرض، وقد وصفها بصفات كثيرة إحداها: كونه مهدًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ [طه: ٥٣] وثانيها: كونه مهادًا، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ [النبأ: ٦] وثالثها: كونه كفاتًا، قال تعالى: ﴿كِفَاتًا ۝ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦] ورابعها: الذلول، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ [الملك: ١٥] وخامسها: كونه

بساطًا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠] والكلام فيه طويل، وثانيها: البحر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]، وثالثها: الهواء والرياح؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ورابعها: الآثار العلوية كالرعد والبرق، قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣] وقال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣] ومن هذا الباب ذكر الصواعق والأمطار وتراكم السحاب، وخامسها: أحوال الأشجار والثمار وأنواعها وأصنافها، وسادسها: أحوال الحيوانات، قال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ [النحل: ٥]، وسابعها: عجائب تكوين الإنسان في أول الخلقة، قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وثامنها: العجائب في سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه، وتاسعها: تواريخ الأنبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم إلى آخر قيام القيامة، وعاشرها ذكر أحوال الناس عند الموت وبعد الموت، وكيفية البعث والقيامة، وشرح أحوال السعداء والأشقياء، فقد أشرنا إلى عشرة أنواع من العلوم في عالم السموات، وإلى عشرة أخرى في عالم العناصر، والقرآن مشتمل على شرح هذه الأنواع من العلوم العالية الرفيعة.

وأما القسم الرابع: وهو شرح أحكام الله تعالى وتكاليفه، فنقول: هذه التكاليف إما أن تحصل في أعمال القلوب أو في أعمال الجوارح.

أما القسم الأول: فهو المسمى بعلم الأخلاق وبيان تمييز الأخلاق الفاضلة والأخلاق الفاسدة والقرآن يشتمل على كل ما لا بد منه في هذا الباب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأما الثاني: فهو التكاليف الحاصلة في أعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه، والقرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على أكمل الوجوه.

وأما القسم الخامس: وهو معرفة أسماء الله تعالى فهو مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فهذا كله يتعلق بمعرفة الله.

وأما القسم الثاني: من الأصول المعتبرة في الإيمان الإقرار بالملائكة كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال وأخرى على طريق التفصيل، أما بالإجمال فقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ وأما بالتفصيل فمنها ما يدل على كونهم رسل الله قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] ومنها أنها مدبرات لهذا العالم، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤] ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١] ومنها حملة العرش قال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] ومنها

الحافون حول العرش قال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]ومنها خزنة النار، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]ومنها الكرام الكاتبون قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]ومنها المعقبات قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [الرعد: ١١]وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين.

وأما القسم الثالث: من الأصول المعتبرة في الإيمان معرفة الكتب والقرآن يشتمل على شرح أحوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]ومنها أحوال صحف إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]ومنها أحوال التوراة والإنجيل والزبور.

وأما القسم الرابع: من الأصول المعتبرة في الإيمان معرفة الرسل والله تعالى قد شرح أحوال البعض وأبهم أحوال الباقين قال: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

القسم الخامس: ما يتعلق بأحوال المكلفين وهي على نوعين الأول: أن يقروا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، الثاني: أن يعترفوا بصدور التقصير عنهم في تلك الأعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير في مواقف العبودية بحسب المكاشفات في مطالعة عزة الربوبية أكثر، كانت المكاشفات في تقصير العبودية أكثر وكان قوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] أكثر.

القسم السادس: معرفة المعاد والبعث والقيامة وهو المراد من قوله: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وهذا هو الإشارة إلى معرفة المطالب المهمة في طلب الدين، والقرآن بحر لا نهاية له في تقرير هذه المطالب وتعريفها وشرحها ولا ترى في مشارق الأرض ومغاربها كتابًا يشتمل على جملة هذه العلوم كما يشتمل القرآن عليها. ومن تأمل في هذا التفسير علم أنا لم نذكر من بحار فضائل القرآن إلا قطرة، ولما كان الأمر على هذه الجملة، لا جرم مدح الله عز وجل القرآن فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، والله أعلم.

الصفة الثانية: من صفات القرآن قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أما الكتاب فقد فسرناه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] وأما كونه متشابهًا فاعلم أن هذه الآية تدل على أن القرآن كله متشابه. وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] يدل على كون البعض متشابهًا دون البعض. وأما كونه كله متشابهًا كما في هذه الآية، فقال ابن عباس: معناه أنه يشبه بعضه بعضًا، وأقول: هذا التشابه يحصل في أمور أحدها: أن الكاتب البليغ إذا كتب كتابًا طويلاً، فإنه يكون بعض كلماته فصيحًا، ويكون البعض غير فصيح، والقرآن يخالف ذلك فإنه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه، وثانيها: أن الفصيح

إذا كتب كتابًا في واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتابًا آخر في غير تلك الواقعة كان الغالب أن كلامه في الكتاب الثاني غير كلامه في الكتاب الأول، والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة في الفصاحة، وثالثها: أن كل ما فيه من الآيات والبيانات فإنه يقوي بعضها بعضًا ويؤكد بعضها بعضًا، ورابعها: أن هذه الأنواع الكثيرة من العلوم التي عددناها متشابهة متشاركة في أن المقصود منها بأسرها الدعوة إلى الدين وتقرير عظمة الله، ولذلك فإنك لا ترى قصة من القصص إلا ويكون محصلها المقصود الذي ذكرناه، فهذا هو المراد من كونه متشابهًا، والله الهادي.

الصفة الثالثة: من صفات القرآن كونه مثاني وقد بالغنا في تفسير هذه اللفظة عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧] وبالجملة فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل: الأمر والنهي، والعام والخاص، والمجمل والمفصل، وأحوال السموات والأرض، والجنة والنار، والظلمة والضوء، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسي، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف، والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج ويدل على أن كل شيء مبتلى بضده ونقيضه وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه.

الصفة الرابعة: من صفات القرآن قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: معنى (تقشعر جلودهم) تأخذهم قشعريرة وهي تغير يحدث في جلد الإنسان عند الوجل والخوف، قال المفسرون: والمعنى أنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان يحصل لهم الفرح فتلين قلوبهم إلى ذكر الله، وأقول: إن المحققين من العارفين قالوا: السائرون في مبدأ إجلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا، ويجب علينا أن نذكر في هذا الباب مزيد شرح وتقرير، فنقول: الإنسان إذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب تنزيه الله عن التحيز والجهة، فهنا يقشعر جلده، لأن إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارج ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم، مما يصعب تصوره فههنا تقشعر الجلود، أما إذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب أن يكون فردًا أحدًا، وثبت أن كل متحيز فهو منقسم فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله، وأيضًا إذا أراد أن يحيط عقله بمعنى الأزل فيتقدم في ذهنه بمقدار ألف ألف سنة ثم يتقدم أيضًا بحسب كل لحظة من لحظات تلك المدة ألف ألف سنة، ولا يزال يحتال ويتقدم ويتخيل في الذهن، فإذا بالغ وتوغل وظن أنه استحضر معنى الأزل قال العقل هذا ليس بشيء، لأن كل ما استحضرته في فهو متناه والأزل هو الوجود المتقدم على هذه المدة المتناهية، فههنا يتحير العقل ويقشعر الجلد، وأما إذا ترك هذا الاعتبار وقال ههنا موجود والموجود إما واجب وإما ممكن، فإن كان واجبًا فهو دائمًا منزه عن الأول

والآخر وإن كان ممكنًا فهو محتاج إلى الواجب فيكون أزليًا أبديًا، فإذا اعتبر العقل فهم معنى الأزلية فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله، فثبت أن المقامين المذكورين في الآية لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب وآية الرحمة، بل ذاك أول تلك المراتب وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر في حصول تلك الحالتين المذكورتين.

المسألة الثانية: روى الواحدي في (البسيط) عن قتادة أنه قال: القرآن دل على أن أولياء الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات، تارة تقشعر جلودهم وأخرى تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، وليس فيه أن عقولهم تزول وأن أعضاءهم تضطرب، فدل هذا على أن تلك الأحوال لو حصلت لكانت من الشيطان، وأقول ههنا بحث آخر وهو أن الشيخ أبا حامد الغزالي أورد مسألة في كتاب إحياء علوم الدين، وهي أنا نرى كثيرًا من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتملة على شرح الوصل والهجر، وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شيء من هذه الأحوال، ثم إنه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة، وأنا أقول: إني خلقت محرومًا عن هذا المعنى، فإني كلما تأملت في أسرار القرآن اقشعر جلدي وقف على شعري وحصلت في قلبي دهشة وروعة، وكلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل علي وما وجدت ألبتة في نفسي منها أثرًا، وأظن أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا، وبيانه من وجوه الأول: أن تلك الأشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر وبغض وحب تليق بالخلق، وإثباته في حق الله تعالى كفر، وأما الانتقال من تلك الأحوال إلى معان لائقة بجلال الله فلا يصل إليها إلا العلماء الراسخون في العلم، وأما المعاني التي يشتمل عليها القرآن فهي أحوال لائقة بجلال الله، فمن وقف عليها عظم الوله في قلبه، فإن من كان عنده نور الإيمان وجب أن يعظم اضطرابه عند سماع قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] إلى آخر الآية، والثاني: وهو أني سمعت بعض المشايخ قال: كما أن الكلام له أثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له أثر، لأن قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام في الروح، والقائل في القرآن هنا هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم، والقائل هناك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور، والثالث: أن مدار القرآن على الدعوة إلى الحق قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] أما الشعر فمداره على الباطل قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦] فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة، وأما ما يتعلق بالوجدان من النفس فإن كل أحد إنما يخبر عما يجده من نفسه والذي وجدته من النفس والعقل ما ذكرته، والله أعلم.

المسألة الثالثة: في بيان ما بقي من المشكلات في هذه الآية ونذكرها في معرض السؤال والجواب.

السؤال الأول: كيف تركيب لفظ القشعريرة؟ الجواب: قال صاحب (الكشاف): تركيبه من حروف التقشع وهو الأديم اليابس مضمومًا إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعيًا ودالاً على معنى زائد يقال: اقشعر جلده من الخوف وقف شعره، وذلك مثل في شدة الخوف.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وما الوجه في تعديه بحرف إلى؟ والجواب: التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها إلى حضرة الله وهو لا يحس بالإدراك.

السؤال الثالث: لم قال: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: إلى ذكر رحمة الله؟ والجواب: أن من أحب الله لأجل رحمته فهو ما أحب الله، وإنما أحب شيئًا غيره، وأما من أحب الله لا لشيء سواه فهذا هو المحب المحق وهو الدرجة العالية، فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمة الله بل قال: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وقد بين الله تعالى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وفي قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وأيضًا قال لأمة موسى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال أيضًا لأمة محمد ﷺ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

السؤال الرابع: لم قال في جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط، وفي جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معًا؟ والجواب: لأن المكاشفة في مقام الرجاء أكمل منها في مقام الخوف، لأن الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والأرواح، والله أعلم.

ثم إنه تعالى لما وصف القرآن بهذه الصفات قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب وهو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده وهو الذي شرح صدره أولاً لقبول هذه الهداية ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي من جعل قلبه قاسيًا مظلمًا بليد الفهم منافيًا لقبول هذه الهداية ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ واستدلال أصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات أصحابنا عين ما تقدم في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أما قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فاعلم أنه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا وبحكم في الآخرة، أما حكمهم في الدنيا فهو الضلال التام كما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣] وأما حكمهم في الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وتقريره أن أشرف الأعضاء هو الوجه لأنه محل الحسن والصباحة، وهو أيضًا صومعة الحواس، وإنما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه، وأثر السعادة والشقاوة لا يظهر إلا في الوجه قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤٢] ويقال لمقدم

القوم: يا وجه العرب، ويقال للطريق الدال على كنه حال الشيء وجه كذا هو كذا، فثبت بما ذكرنا أن أشرف الأعضاء هو الوجه، فإذا وقع الإنسان في نوع من أنواع العذاب فإنه يجعل يده وقاية لوجهه وفداءً له، وإذا عرفت هذا فنقول: إذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ما سوى الوجه فداء للوجه لا جرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء، ونظيره قول النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ[1]

أي لا عيب فيهم إلا هذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم إذن بوجه من الوجوه، فكذا ههنا لا يقدرون على الاتقاء بوجه من الوجوه إلا بالوجه وهذا ليس باتقاء، فلا قدرة لهم على الاتقاء ألبتة، ويقال أيضًا: إن الذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ولا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه، إذا عرفت هذا فنقول: جوابه محذوف وتقديره أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره، وسوء العذاب شدته.

ثم قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم في الآخرة بين أيضًا كيفية وقوعهم في العذاب في الدنيا فقال: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا تنبيه على حال هؤلاء لأن الفاء في قوله: ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ تدل على أنهم إنما أتاهم العذاب بسبب التكذيب، فإذا كان التكذيب حاصلاً ههنا لزم حصول العذاب استدلالاً بالعلة على المعلول، وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يحسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها، بينما هم آمنون إذ أتاهم العذاب من الجهة التي توقعوا الأمن منها، ولما بين أنه أتاهم العذاب في الدنيا بين أيضًا أنه أتاهم الخزي وهو الذل والصغار والهوان، والفائدة في ذكر هذا القيد أن العذاب التام هو أن يحصل فيه الألم مقرونًا بالهوان والذل.

ثم قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أن أولئك وإن نزل عليهم العذاب والخزي كما تقدم ذكره، فالعذاب المدخر لهم في يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذي وقع. والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب، فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة في هذه المطالب، بين تعالى أنه بلغت هذه البيانات إلى حد الكمال والتمام فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ والمقصود ظاهر، وقالت المعتزلة دلت الآية على أن أفعال الله وأحكامه معللة، ودلت أيضًا على أنه يريد الإيمان والمعرفة من الكل لأن قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ مشعر بالتعليل، وقوله في آخر الآية: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ مشعر بالتعليل أيضًا، ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الأمثال إرادة حصول التذكر والعلم، ولما كانت هذه البيانات النافعة والبينات الباهرة موجودة في القرآن، لا جرم وصف القرآن بالمدح والثناء،

(١) تقدمت ترجمة النابغة.

فقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه الأول: أن قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يدل على أنه تعالى إنما ذكر هذه الأمثال ليحصل لهم التذكر، والشيء الذي يؤتى به لغرض آخر يكون محدثًا، فإن القديم هو الذي يكون موجودًا في الأزل، وهذا يمتنع أن يقال إنه إنما أتى به لغرض كذا وكذا، والثاني: أنه وصفه بكونه عربيًّا وإنما كان عربيًّا لأن هذه الألفاظ إنما صارت دالة على هذه المعاني بوضع العرب وباصطلاحهم، وما كان حصوله بسبب أوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقًا محدثًا، الثالث: أنه وصفه بكونه قرآنًا والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلاً ومفعولاً، والجواب: أنا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والأصوات وهي حادثة ومحدثة.

المسألة الثانية: قال الزجاج قوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال والمعنى: ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيته وبيانه ويجوز أن ينتصب على المدح.

المسألة الثالثة: أنه تعالى وصفه بصفات ثلاثة أولها: كونه قرآنًا، والمراد كونه متلوًّا في المحاريب إلى قيام القيامة، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، وثانيها: كونه عربيًّا والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨]، وثالثها: كونه ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ والمراد براءته عن التناقض، كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] وأما قوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فالمعتزلة يتمسكون به في تعليل أحكام الله تعالى.

وفيه بحث آخر: وهو أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وقال في هذه الآية: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه، حصل الاتقاء والاحتراز، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ
إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ
وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل ما يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المتشاكسون المختلفون العسرون يقال شكس يشكس شكوسًا وشكسًا إذا عسر، وهو رجل شكس، أي عسر وتشاكس إذا تعاسر، قال الليث: التشاكس التنازع والاختلاف، ويقال الليل والنهار متشاكسان، أي أنهما متضادان إذا جاء أحدهما ذهب الآخر، وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو (سالمًا) بالألف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون ﴿سَلَمًا﴾ بفتح السين واللام بغير الألف، ويقال أيضًا بفتح السين وكسرها مع سكون العين أما من قرأ (سالمًا) فهو اسم الفاعل تقدير مسلم فهو سالم، وأما سائر القراءات فهي مصادر سلم والمعنى ذا سلامة، وقوله: ﴿لِّرَجُلٍ﴾ أي ذا خلوص له من الشركة من قولهم: سلمت له الضيعة، وقرئ بالرفع على الابتداء أي وهناك رجل سالم لرجل.

المسألة الثالثة: تقدير الكلام: اضرب لقومك مثلاً وقل لهم ما يقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، كل واحد منهم يدعي أنه عبده فهم يتجاذبونه في حوائجهم وهو متحير في أمره، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون، وإذا احتاج في مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر، فهو يبقى متحيرًا لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه، وأيهم يعينه في حاجاته، فهو بهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم، ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص، وذلك المخدوم يعينه على مهماته، فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأنًا، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢] وقال: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[المؤمنون: ٩١] فيبقى ذلك المشرك متحيرًا ضالاً، لا يدري أي هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد، وممن يطلب رزقه، وممن يلتمس رفقه، فهمه شعاع، وقلبه أوزاع. أما من لم يثبت إلا إلهًا واحدًا فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه، فكان حال هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول، وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد، فإن قيل: هذا المثال لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات، فليس بينها منازعة ولا مشاكسة، قلنا: إن عبدة الأصنام مختلفون منهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة، فهم في الحقيقة إنما يعبدون الكواكب السبعة، ثم إن القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة، ألا ترى أنهم يقولون زحل هو النحس الأعظم، والمشتري هو السعد الأعظم، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكية، والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية، وحينئذٍ يحصل بين تلك الأرواح منازعة ومشاكسة، وحينئذٍ يكون المثل مطابقًا، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا، فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير أولئك الأشخاص

من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله، والقائلون بهذا القول تزعم كل طائفة منهم أن المحق هو ذلك الرجل الذي هو على دينه، وأن من سواه مبطل، وعلى هذا التقدير أيضًا ينطبق المثال، فثبت أن هذا المثال مطابق للمقصود.

أما قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ فالتقدير هل يستويان صفة، فقوله: ﴿مَثَلًا﴾ نصب على التمييز، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالتاهما، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ (مثلين)، ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والمعنى أنه لما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد، وثبت أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الحق، ثبت أن الحمد له لا لغيره، ثم قال بعده: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره، وأن المستحق للعبادة هو الله لا غيره، وقيل المراد أنه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبينات الباهرة، قال: الحمد لله على حصول هذه البيانات وظهور هذه البينات، وإن كان أكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها، ولما تمم الله هذه البيانات قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ والمراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا، فلا تبال يا محمد بهذا فإنك ستموت وهم أيضًا سيموتون، ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى، والعادل الحق يحكم بينكم فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه، وحينئذٍ يتميز المحق من المبطل، والصديق من الزنديق، فهذا هو المقصود من الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم في أعداد الموتى، لأن كل ما هو آت آت، ثم بين تعالى نوعًا آخر من قبائح أفعالهم، وهو أنهم يكذبون ويضمون إليه أنهم يكذبون القائل المحق؛ أما أنهم يكذبون، فهو أنهم أثبتوا لله ولدًا وشركاء، وأما أنهم مصرون على تكذيب الصادقين، فلأنهم يكذبون محمدًا ﷺ بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقًا في ادعاء النبوة، ثم أردفه بالوعيد فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ومن الناس من تمسك بهذه الآية في تكفير المخالف من أهل القبلة، وذلك لأن المخالف في المسائل القطعية كلها يكون كاذبًا في قوله، ويكون مكذبًا للمذهب الذي هو الحق، فوجب دخوله تحت هذا الوعيد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذبين للصادقين ذكر عقيبه وعد الصادقين ووعد المصدقين، ليكون الوعد مقرونًا بالوعيد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ تقديره: والذي جاء بالصدق والذي صدق به، وفيه قولان الأول: أن المراد شخص واحد فالذي جاء بالصدق محمد، والذي صدق به هو أبو بكر، وهذا القول مروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضي الله عنهم، والثاني: أن المراد منه كل من جاء بالصدق، فالذي جاء بالصدق الأنبياء، والذي صدق به الأتباع، واحتج القائلون بهذا القول بأن الذي جاء بالصدق جماعة وإلا لم يجز أن يقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

المسألة الثانية: أن الرسالة لا تتم إلا بأركان أربعة: المرسِل والمرسَل والرسالة والمرسل إليه، والمقصود من الإرسال إقدام المرسل إليه على القبول والتصديق، فأول شخص أتى بالتصديق هو الذي يتم به الإرسال، وسمعت بعض القاصين من الذي يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «دَعُوا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ مِنْ تَتِمَّةِ النُّبُوَّةِ».

واعلم أنا سواء قلنا المراد بالذي صدق به شخص معين، أو قلنا المراد منه كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، فإن أبا بكر داخل فيه.

أما على التقدير الأول: فدخول أبي بكر فيه ظاهر، وذلك لأن هذا يتناول أسبق الناس إلى التصديق، وأجمعوا على أن الأسبق الأفضل إما أبو بكر وإما علي، وحمل هذا اللفظ على أبي بكر أولى، لأن عليًّا عليه السلام كان وقت البعثة صغيرًا، فكان كالولد الصغير الذي يكون في البيت، ومعلوم أن إقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة، أما أبو بكر فإنه كان رجلاً كبيرًا في السن كبيرًا في المنصب، فإقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة في الإسلام، فكان حمل هذا اللفظ إلى أبي بكر أولى.

وأما على التقدير الثاني: فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخلاً فيه.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): قرئ (وصَدَق) بالتخفيف أي صدق به الناس، ولم يكذبهم يعني أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف، وقيل صار صادقًا به أي بسببه، لأن القرآن معجزة، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح فيصير المدعي للرسالة صادقًا بسبب تلك المعجزة وقرئ ﴿وَصَدَّقَ﴾.

واعلم أنه تعالى أثبت للذي جاء بالصدق وصدق به أحكامًا كثيرة.

فالحكم الأول: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثاني أخس وأرذل، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء، والآتي بأحد الضدين يكون تاركًا للضد الثاني، فالآتي

بالتوحيد الذي هو أفضل الأشياء يكون تاركًا للشرك الذي هو أخس الأشياء وأرذلها، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين.

الحكم الثاني: للمصدقين قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا الوعد يدخل فيه كل ما يرغب المكلف فيه، فإن قيل لا شك أن الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته، وأهل الجنة لا شك أنهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية التي هي للأنبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنها خيرات عالية ودرجات كاملة، والعلم بالشيء من حيث إنه كمال، وخير يوجب الميل إليه والرغبة فيه، وإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية، وأيضًا فإن لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا في الغصة ووحشة القلب، وأجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب أهل الآخرة، وذلك يقتضي أن أحوالهم في الآخرة بخلاف أحوالهم في الدنيا، ومن الناس من تمسك بهذه الآية في أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة، قالوا: إن الذين يعتقدون أنهم يرون الله تعالى لا شك أنهم داخلون تحت قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ لأنهم صدقوا الأنبياء عليهم السلام، ثم إن ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب أن يحصل له ذلك لقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ فإن قالوا: لا نسلم أن أهل الجنة يشاءون ذلك، قلنا: هذا باطل لأن الرؤية أعظم وجوه التجلي وزوال الحجاب، ولا شك أنها حالة مطلوبة لكل أحد نظرًا إلى هذا الاعتبار، بل لو ثبت بالدليل كون هذا المطلوب ممتنع الوجود لعينه فإنه يترك طلبه، لا لأجل عدم المقتضى للطلب، بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعًا في نفسه، فثبت أن هذه الشبهة قائمة والنص يقتضي حصول كل ما أرادوه وشاءوه فوجب حصولها.

واعلم أن قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لا يفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والإخلاص كما في قوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]واعلم أن المعتزلة تمسكوا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على أن هذا الأجر مستحق لهم على إحسانهم في العبادة.

الحكم الثالث: قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه وقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه، فقيل المراد أنهم إذا صدقوا الأنبياء عليهم فيما أوتوا فإن الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الإيمان، ويوصل إليهم أحسن أنواع الثواب، وقال مقاتل يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوئ، واعلم أن مقاتلًا كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شيء من المعاصي مع الإيمان، كما لا ينفع شيء من الطاعات مع الكفر، واحتج بهذه الآية فقال: إنها تدل على أن من صدق الأنبياء والرسل فإنه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ولا يجوز حمل هذا الأسوأ على الكفر السابق، لأن الظاهر من الآية يدل على أن التكفير إنما حصل

في حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التي يأتي بها بعد الإيمان، فتكون هذه الآية تنصيصًا على أنه تعالى يكفر عنهم بعد إيمانهم أسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر.

الحكم الرابع: أنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك في النفوس والأمر كذلك، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غني عن كل الحاجات فهو تعالى عالم حاجات العباد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات، وهو ليس بخيلاً ولا محتاجًا حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات، فلهذا قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثًا وباطلاً، قرأ أكثر القراء ﴿عَبْدَهُۥ﴾ بلفظ الواحد وهو اختيار أبي عبيدة لأنه قال له: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ روي أن قريشًا قالت للنبي ﷺ: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقرأ جماعة: (عباده) بلفظ الجميع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحًا كفاه الغرق، وإبراهيم النار، ويونس بالإنجاء مما وقع له، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ﴾ [غافر: ٥] وكفاهم الله شر من عاداهم.

واعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل الحق فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ يعني هذا الفصل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ تهديد للكفار.

واعلم أن أصحابنا يتمسكون في مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون على صحة مذهبهم في هاتين المسألتين بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ

ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام، وبنى هذا التزييف على أصلين:

الأصل الأول: هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ واعلم أن من الناس من قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض وفي عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم.

والأصل الثاني: أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ﴾ فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم، وثبت أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية، وكان الاعتماد عليه كافيًا وهو المراد من قوله: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل إلى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ وقرئ: (كاشِفاتُ ضُرِّهِ) و(مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ) بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف، فإن قيل كيف قوله: ﴿كَـٰشِفَـٰتُ﴾ و﴿مُمْسِكَـٰتُ﴾ على التأنيث بعد قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ ؟ قلنا: المقصود التنبيه على كمال ضعفها فإن الأنوثة مظنة الضعف ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة، ولما أورد الله عليهم هذه الحجة التي لا دفع لها قال بعده على وجه التهديد: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي أنتم تعتقدون في أنفسكم أنكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم، فإني عامل أيضًا في تقرير ديني ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أن العذاب والخزي يصيبني أو يصيبكم والمقصود منه التخويف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦۖ
وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ
حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ

﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٤٤﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن النبي ﷺ كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ [الكهف: ٦] وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] فلما أطنب الله تعالى في هذه الآية في فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا إنزاله مقرونًا بالحق وهو المعجز الذي يدل على أنه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود إليه، ومن ضل فضير ضلاله يعود إليه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ والمعنى أنك لست مأمورًا بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم، وذلك لتسلية الرسول في إصرارهم على الكفر، ثم بين تعالى أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى، وذلك لأن الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم، وكما أن الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان إلا بتخليق الله عز وجل وإيجاده فكذلك الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى، ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى في القدر، ومن عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب، فيصير التنبيه على هذه الدقيقة سببًا لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول ﷺ فهذا وجه النظم في الآية، وقيل نظم الآية أنه تعالى ذكر حجة أخرى في إثبات أنه الإله العالم ليدل على أنه بالعبادة أحق من هذه الأصنام.

المسألة الثانية: المقصود من الآية أنه تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم إلا أنه يمسك الأنفس التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى وهي النائمة إلى أجل مسمى أي إلى وقت ضربه لموتها فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ يعني أنه تعالى يتوفى الأنفس التي يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها إلى البدن وقوله: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ يعني أن النفس التي يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة إلى أجل مسمى، وذلك الأجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهي مطابقة للحقيقة، ولكن لا بد فيه من مزيد بيان، فنقول: النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق بالبدن حصل ضوءه في جميع الأعضاء وهو الحياة، فنقول: إنه في وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوءه عن باطن البدن، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن

الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه، وإذا ثبت هذا ظهر أن القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه أحدها: أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك اليقظة، وثانيها: أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم، وثالثها: أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت، فثبت أن الموت والنوم يشتركان في كون كل واحد منهما توفيًا للنفس، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة في صفات معينة، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم، وهو المراد من قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهذا أن الدليل يدل على أن الواجب على العاقل أن يعبد إلهًا موصوفًا بهذه القدرة وبهذه الحكمة وأن لا يعبد الأوثان التي هي جمادات لا شعور لها ولا إدراك، واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالاً، فقالوا: نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها، والأول: باطل لأن هذه الجمادات وهي الأصنام لا تملك شيئًا ولا تعقل شيئًا فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها، والثاني: باطل لأن في يوم القيامة لا يملك أحد شيئًا ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذي يأذن في تلك الشفاعة، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ ثم بين أنه لا ملك لأحد غير الله بقوله: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ومنهم من تمسك في نفي الشفاعة مطلقًا بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ وهذا ضعيف لأنا نسلم أنه سبحانه ما لم يأذن في الشفاعة لم يقدر أحد على الشفاعة، فإن قيل قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] فيه سؤال لأن هذا يدل على أن المتوفى هو الله فقط، وتأكد هذا بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] وبقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وبقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] ثم إن الله تعالى قال في آية أخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] وقال في آية ثالثة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وجوابه أن المتوفي في الحقيقة هو الله، إلا أنه تعالى فوض في عالم الأسباب كل نوع من أنواع الأعمال إلى ملك من الملائكة، ففوض قبض الأرواح إلى ملك الموت وهو رئيس وتحته أتباع وخدم فأضيف التوفي في هذه الآية إلى الله تعالى بالإضافة الحقيقية، وفي الآية الثانية إلى ملك الموت لأنه هو الرئيس في هذا العمل وإلى سائر الملائكة لأنهم هم الأتباع لملك الموت، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين، وهو أنك إذا ذكرت الله وحده تقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم، وذلك يدل على الجهل والحماقة، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات، وأما ذكر الأصنام التي هي الجمادات الخسيسة، فهو رأس الجهالات والحماقات، فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الأصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد، قال صاحب (الكشاف): وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورًا حتى يظهر أثر ذلك السرور في بشرة وجهه ويتهلل، والاشمئزاز أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب فيبقى في أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية، ولما حكى عنهم هذا الأمر العجيب الذي تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بأمرين أحدهما: أنه ذكر الدعاء العظيم، فوصفه أولا بالقدرة التامة وهي قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وثانيًا بالعلم الكامل وهو قوله تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، وإنما قدم فذكر القدرة على ذكر العلم لأن العلم بكونه تعالى قادرًا متقدم على العلم بكونه عالمًا، ولما ذكر هذا الدعاء قال: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يعني أن نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك أمر معلوم الفساد ببديهة العقل، ومع ذلك، القوم قد أصروا عليه، فلا يقدر أحد على إزالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل إلا أنت، عن أبي سلمة قال: سألت عائشة: بِمَ كان يفتتح رسول الله ﷺ صلاته بالليل؟ قالت «كَانَ يَقُولُ اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وإسرافيل فاطر السموات وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم».

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر في وعيدهم أشياء أولها: أن هؤلاء الكفار لو ملكوا كل ما في الأرض من الأموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد، وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ظهرت

لهم أنواع من العقاب لم تكن في حسابهم، وكما أنه ﷺ قال في صفة الثواب في الجنة: «فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خطر عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» فكذلك في العقاب حصل مثله وهو قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾، وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيئات التي اكتسبوها أي ظهرت لهم أنواع من العقاب آثار تلك السيئات التي اكتسبوها. ثم قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به، فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة، وذلك لأنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة، وهي إما السعة في المال أو العافية في النفس، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه وبسبب جهده وجده، فإن كان مالاً قال: إنما حصل بكسبي، وإن كان صحة قال: إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني، وهذا تناقض عظيم، لأنه كان في حال العجز والحاجة أضاف الكل إلى الله وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله، وأسنده إلى كسب نفسه، وهذا تناقض قبيح، فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة، فقال ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ يعني النعمة التي خولها هذا الكافر فتنة، لأن عند حصولها يجب الشكر، وعند فواتها يجب الصبر، ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتي النعمة، كما يقال فتنت الذهب بالنار، إذا عرضته على النار لتعرف خلاصته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمعنى ما قدمنا أن هذا التخويل إنما كان لأجل الاختبار. وبقي في الآية أبحاث نذكرها في معرض السؤال والجواب.

السؤال الأول: ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء ههنا، وعطف مثلها في أول السورة بالواو؟ والجواب: أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء، ثم ذكر بفاء التعقيب أنهم إذا وقعوا في الضر والبلاء والتَجَئُوا إلى الله تعالى وحده، كان الفعل الأول مناقضًا للفعل الثاني، فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون في المناقضة الصريحة في الحال، وأنه ليس بين الأول والثاني فاصل مع أنّ كل واحد

منهما مناقض للثاني، فهذا هو الفائدة في ذكر فاء التعقيب ههنا. فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم في التناقض في الحال، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو لا بحرف الفاء.

السؤال الثاني: ما معنى التخويل؟ الجواب: التخويل هو التفضل، يعني نحن نتفضل عليه وهو يظن أنه إنما وجده بالاستحقاق.

السؤال الثالث: ما المراد من قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾؟ الجواب: يحتمل أن يكون المراد، إنما أوتيته على علم الله بكوني مستحقًا لذلك، ويحتمل أن يكون المراد، إنما أوتيته على علمي بكوني مستحقًا له، ويحتمل أن يكون المراد، إنما أوتيته على علم لأجل ذلك العلم قدرت على اكتسابه مثل أن يكون مريضًا فيعالج نفسه، فيقول إنما وجدت الصحة لعلمي بكيفية العلاج، وإنما وجدت المال لعلمي بكيفية الكسب.

السؤال الرابع: النعمة مؤنثة، والضمير في قوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ عائد على النعمة، فضمير التذكير كيف عاد إلى المؤنث، بل قال بعده: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٌ﴾ فجعل الضمير مؤنثًا فما السبب فيه؟ والجواب: أن التقدير حتى إذا خولناه شيئًا من النعمة، فلفظ النعمة مؤنث ومعناه مذكر، فلا جرم جاز الأمران.

ثم قال تعالى: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ الضمير في ﴿قَالَهَا﴾ راجع إلى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ لأنها كلمة أو جملة من المقول، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ هم قارون وقومه حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ وقومه راضون به فكأنهم قالوها، ويجوز أيضًا أن يكون في الأمم الخالية قائلون مثلها.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي ما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذي اكتسبوه من عذاب الله شيئًا بل أصابهم سيئات ما كسبوا، ولما بين في أولئك المتقدمين فإنهم أصابهم سيئات ما كسبوا أي عذاب عقائدهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة قال: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي لا يعجزونني في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ يعني: أو لم يعلموا أن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء تارة، ويقبض تارة أخرى، وقوله: ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ أي ويقتر ويضيق، والدليل عليه أنا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه ولا بد من سبب، وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله، لأنا نرى العاقل القادر في أشد الضيق، ونرى الجاهل المريض الضعيف في أعظم السعة، وليس ذلك أيضًا لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك لأن في الساعة التي ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر، قد ولد فيها أيضًا عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الإنسان، ويولد أيضًا في تلك الساعة عالم من النبات، فلما شاهدنا حدوث هذه الأشياء الكثيرة في تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة،

علمنا أنه ليس المؤثر في السعادة والشقاوة هو الطالع، ولما بطلت هذه الأقسام، علمنا أن المؤثر فيه هو الله سبحانه، وصح بهذا البرهان العقلي القاطع على صحة قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

قال الشاعر:

فَلَا السَّعْدُ يَقْضِي بِهِ الْمُشْتَرِي ... وَلاَ النَّحْسُ يَقْضِي عَلَيْنَا زحل
ولكنه حكم رب السما ... ء وقاضي القضاة تعالى وجل

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد، أردفه بشرح كمال رحمته وفضله وإحسانه في حق العبيد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يعفو عن الكبائر، فقالوا: إنّا بيّنّا في هذا الكتاب أن عرف القرآن جارٍ بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين(١) قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] ولأن لفظ العباد مذكور في معرض التعظيم، فوجب أن لا يقع إلا على المؤمنين، إذا ثبت هذا ظهر أن قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ مختص بالمؤمنين، ولأن المؤمن هو الذي يعترف بكونه عبد الله، أما المشركون فإنهم يسمون أنفسهم بعبد اللات والعزى وعبد المسيح(٢)، فثبت أن قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ لا يليق إلا بالمؤمنين. إذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا عام في حق جميع المسرفين، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وهذا يقتضي كونه غافرًا لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين، وذلك هو المقصود. فإن قيل: هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها، وإلا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعًا، وأنتم لا تقولون به، فما هو مدلول هذه الآية لا تقولون به، والذي

---

(١) الصواب أن يقال: بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين إذا أضيف إلى الله تعالى، كما في الآية والآيتين اللتين استشهد بهما وإلا فإن هذا يعارضه قول الله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] فالذين يستهزئون برسل الله ليسوا بمؤمنين، والذين يتحسر عليهم لم يُذكروا في معرض التعظيم وإنما ذُكروا في معرض الذم والإهانة كما هو صريح الآية، ولو صح ذلك لم يحتج إلى نعت العباد ووصفهم بصفات تقتضي المدح أو القدح، فلفظ العباد يشمل المؤمن والكافر ولذا خصصه بالصفة.

(٢) وهذا أيضًا هو الغالب، وإلا فقد سموا عبد الله كثيرًا قبل الإسلام وبعده؛ لأن الكافرين لا ينكرون وجود الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

تقولون به لا تدل عليه هذه الآية، فسقط الاستدلال، وأيضًا إنه تعالى قال عقيب هذه الآية: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب قطعًا، لَمَا أمر عقيبه بالتوبة، ولَمَا خوَّفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون، وأيضًا قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ولو كانت الذنوب كلها مغفورة، فأي حاجة به إلى أن يقول: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؟ وأيضًا فلو كان المراد ما يدل عليه ظاهر لفظ الآية، لكان ذلك إغراء بالمعاصي وإطلاقًا في الإقدام عليها، وذلك لا يليق بحكمة الله، وإذا ثبت هذا وجب أن يُحمل على أن يقال: المراد منه التنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا مخلص له من العذاب ألبتة، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله، إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة، فمعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي بالتوبة والإنابة.

والجواب: قوله: الآية تقتضي كون كل الذنوب مغفورة قطعًا وأنتم لا تقولون به. قلنا: بل نحن نقول به ونذهب إليه، وذلك لأن صيغة (يغفر) صيغة المضارع، وهي للاستقبال، وعندنا أن الله تعالى يُخرج من النار من قال: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعًا، إما قبل الدخول في نار جهنم، وإما بعد الدخول فيها، فثبت أن ما يدل عليه ظاهر الآية فهو عين مذهبنا.

أما قوله: لو صارت الذنوب بأسرها مغفورة لما أمر بالتوبة، فالجواب: أن عندنا التوبة واجبة وخوف العقاب قائم، فإنا لا نقطع بإزالة العقاب بالكلية، بل نقول: لعله يعفو مطلقًا، ولعله يعذب بالنار مدة ثم يعفو بعد ذلك، وبهذا الحرف يخرج الجواب عن بقية الأسئلة، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أن هذه الآية تدل على الرحمة من وجوه: الأول: أنه سمى المذنب بالعبد، والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة، واللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج. الثاني: أنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾ وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب. الثالث: أنه تعالى قال: ﴿أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ما عاد إليه بل هو عائد إليهم، فيكفيهم من تلك الذنوب عود مضارها إليهم، ولا حاجة إلى إلحاق ضرر آخر بهم. الرابع: أنه قال: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ نهاهم عن القنوط فيكون هذا أمرًا بالرجاء، والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم. الخامس: أنه تعالى قال أولاً: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ وكان الأليق أن يقول: (لا تقنطوا من رحمتي) لكنه ترك هذا اللفظ وقال: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لأن قولنا (الله) أعظم أسماء الله وأجلُّها، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل. السادس: أنه لما قال: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ كان الواجب أن يقول: (إنه يغفر الذنوب جميعًا) ولكنه لم يقل ذلك، بل أعاد اسم الله وقرن به لفظة (إنَّ) المفيدة لأعظم وجوه التأكيد، وكل ذلك يدل على المبالغة في

الوعد بالرحمة. السابع: أنه لو قال: ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ لكان المقصود حاصلاً، لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال (جميعًا) وهذا أيضًا من المؤكدات. الثامن: أنه وصف نفسه بكونه غفورًا، ولفظ الغفور يفيد المبالغة. التاسع: أنه وصف نفسه بكونه رحيمًا، والرحمة تفيد فائدة على المغفرة، فكان قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ إشارة إلى إزالة موجبات العقاب، وقوله: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة والثواب. العاشر: أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يفيد الحصر، ومعناه أنه لا غفور ولا رحيم إلا هو، وذلك يفيد الكمال في وصفه سبحانه بالغفران والرحمة. فهذه الوجوه العشرة مجموعة في هذه الآية، وهي بأسرها دالة على كمال الرحمة والغفران، ونسأل الله تعالى الفوز بها والنجاة من العقاب بفضله ورحمته.

المسألة الثالثة: ذكروا في سبب النزول وجوهًا: قيل: إنها نزلت في أهل مكة فإنهم قالوا: يزعم محمد أن مَن عَبَد الأوثان وقَتَل النفس لم يُغفر له، وقد عَبَدْنا وقَتَلْنا فكيف نُسْلم؟ وقيل: نزلت في وحشي قاتِل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لا تُقبل توبته، فلما نزلت الآية أسلم، فقيل لرسول الله ﷺ: هذه له خاصة أم للمسلمين عامة؟ فقال «بَلْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً» [1]. وقيل: نزلت في أناس أصابوا ذنوبًا عظامًا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام أشفقوا أن لا يقبل الله توبتهم، وقيل: نزلت في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين أسلموا ثم فُتنوا فافتتنوا، وكان المسلمون يقولون فيهم: (لا يقبل الله منهم توبتهم) فنزلت هذه الآيات فكتبها عمر، وبعث بها إليهم فأسلموا وهاجروا. واعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فنزول هذه الآيات في هذه الوقائع لا يمنع من عمومها.

المسألة الرابعة: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم (ياعباديَ) بفتح الياء، والباقون وعاصم في بعض الروايات بغير فتح، وكلهم يقفون عليه بإثبات الياء لأنها ثابتة في المصحف، إلا في بعض رواية أبي بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء. وقرأ أبو عمرو والكسائي (تقنِطوا) بكسر النون والباقون بفتحها وهما لغتان. قال صاحب (الكشاف): وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود: (يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قال صاحب (الكشاف): أي وتوبوا إليه وأسلِموا له، أي وأخلِصوا له العمل، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه. وأقول: هذا الكلام ضعيف جدًّا لأن عندنا التوبة عن المعاصي واجبة فلم يلزم من ورود الأمر بها طعن في الوعد بالمغفرة، فإن قالوا: لو

---

(١) رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٤٠١) من طريق المؤمل بن الحسن بن عيسى قال: حدثنا الحسن بن محمد قال: حدثنا حجاج عن ابن جريج قال: أخبرني يعلى - يعني ابن مسلم - عن سعيد بن جبير سمعه يحدث عن ابن عباس... فذكره. وأورده الفراء في (معاني القرآن) (٤/ ١٢٠). قال: وحدثني أبو إسحاق التيمي عن أبي روق عن إبراهيم التيمي عن ابن عباس... به، وفي إسناده انقطاع بين إبراهيم التيمي وابن عباس فإنه لم يسمع منه.

كان الوعد بالمغفرة حاصلًا قطعًا لما احتيج إلى التوبة؛ لأن التوبة إنما تراد لإسقاط العقاب، فإذا سقط العقاب بعفو الله عنه فلا حاجة إلى التوبة، فنقول: هذا ضعيف لأن مذهبنا أنه تعالى وإن كان يغفر الذنوب قطعًا ويعفو عنها قطعًا، إلا أن هذا العفو والغفران يقع على وجهين: تارة يقع ابتداء، وتارة يعذب مدة في النار ثم يخرجه من النار ويعفو عنه، ففائدة التوبة إزالة هذا العقاب، فثبت أن الذي قاله صاحب (الكشاف) ضعيف ولا فائدة فيه.

ثم قال: ﴿وَاتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ واعلم أنه تعالى لما وعد بالمغفرة أمَر بعد هذا الوعد بأشياء: فالأول: أمَر بالإنابة وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ والثاني: أمَر بمتابعة الأحسن، وفي المراد بهذا الأحسن وجوه: الأول: أنه القرآن ومعناه: واتبِعوا القرآن. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا﴾ [الزمر: ٢٣] الثاني: قال الحسن: معناه: والتزموا طاعة الله واجتنِبوا معصية الله، فإن الذي أُنزل على ثلاثة أوجه: ذكر القبيح ليجتنب عنه، والأدون لئلا يرغب فيه، والأحسن ليتقوى به ويُتبع. الثالث: المراد بالأحسن الناسخ دون المنسوخ لأن الناسخ أحسن من المنسوخ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] ولأن الله تعالى لما نسخ حكمًا وأثبت حكمًا آخر كان اعتمادنا على المنسوخ.

ثم قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ والمراد منه التهديد والتخويف، والمعنى أنه يفجأ العذاب وأنتم غافلون عنه، واعلم أنه تعالى لما خوَّفهم بالعذاب بيّن تعالى أن بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا يقولون؟ فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلمات:

فالأول: قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَن تَقُولَ﴾ مفعول له، أي كراهة أن تقول: ﴿يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ وأما تنكير لفظ النفس ففيه وجهان: الأول: يجوز أن تراد نفس ممتازة عن سائر النفوس لأجل اختصاصها بمزيد إضرار بما لا ينفي رغبتها في المعاصي. والثاني: يجوز أن يراد به الكثرة، وذلك لأنه ثبت في علم أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب وصف يناسبه يفيد الظن بأن ذلك الحكم معلل بذلك الوصف، فقوله: ﴿يَـٰحَسْرَتَىٰ﴾ يدل على غاية الأسف ونهاية الحزن، وأنه مذكور عقيب قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ والتفريط في طاعة الله تعالى يناسب شدة الحسرة، وهذا يقتضي حصول تلك الحسرة عند حصول هذا التفريط، وذلك يفيد العموم بهذا الطريق.

المسألة الثانية: القائلون بإثبات الأعضاء لله تعالى استدلوا على إثبات الجنب بهذه الآية، واعلم أن دلائلنا على نفي الأعضاء قد كثرت، فلا فائدة في الإعادة، ونقول: بتقدير أن يكون المراد من هذا الجنب عضوًا مخصوصًا لله تعالى، فإنه يمتنع وقوع التفريط فيه، فثبت أنه لا بد من المصير إلى التأويل، وللمفسرين فيه عبارات: قال ابن عباس: يريد ضيعت من ثواب الله.

وقال مقاتل: ضيعت من ذكر الله. وقال مجاهد: في أمر الله. وقال الحسن: في طاعة الله. وقال سعيد بن جبير: في حق الله. واعلم أن الإكثار من هذه العبارات لا يفيد شرح الصدور وشفاء الغليل، فنقول: الجنب سمي جنبًا لأنه جانب من جوانب ذلك الشيء، والشيء الذي يكون من لوازم الشيء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه، فلما حصلت هذه المشابهة بين الجنب الذي هوَ العضو وبين ما يكون لازمًا للشيء وتابعًا له، لا جرم حسن إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر والطاعة، قال الشاعر:

أَمَا تتقين الله جنب وامق   له كبد حَرَّى عليك تقطع(١)

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): قرئ: (يَا حَسْرَتى) على الأصل و(يا حَسْرَتَايَ) على الجمع بين العوض والمعوض عنه.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي أنه ما كان مكتفيًا بذلك التقصير بل كان من المستهزئين بالدين، قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها. ومحل ﴿وَإِن كُنتُ﴾ نصب على الحالة كأنه قال: فرطت فيَ جنب الله وأنا ساخر أي فرطت في حال سخريتي.

النوع الثاني من الكلمات التي حكاها الله تعالى عن أهل العذاب أنهم يذكرونه بعد نزول العذاب عليهم: قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

النوع الثالث: قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وحاصل الكلام أن هذا المقصر أتى بثلاثة أشياء: أولها: الحسرة على التفريط في الطاعة. وثانيها: التعلل بفقد الهداية. وثالثها: بتمني الرجعة. ثم أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال التعلل بفقد الهداية باطل؛ لأن الهداية كانت حاضرة والأعذار زائلة، وهو المراد بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: (بلى) جواب النفي، وليس في الكلام لفظ النفي إلا أنه حصل فيه معنى النفي، لأن معنى قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أنه ما هداني، فلا جرم حسن ذكر لفظة ﴿بَلَىٰ﴾ بعده.

---

(١) هذا البيت لجميل بثينة وهو هكذا:

أَلا تَتَّقِين اللَّهَ في قَتلِ عاشِقٍ   لَهُ كَبِدٌ حَرّى عَلَيكِ تَقَطَّعُ

وجميل بثينة هو: جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، أبو عمرو. ؟- ٨٢هـ/ ؟- ٧٠١م، شاعر من عشاق العرب، افتتن ببثينة من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما. شعره يذوب رقة، أقل ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر، كانت منازل بني عذرة في وادي القرى من أعمال المدينة ورحلوا إلى أطراف الشام الجنوبية. فقصد جميل مصر وافدًا على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه وأمَر له بمنزل فأقام قليلاً ومات فيه.

المسألة الثانية: قال الواحدي رحمه الله: القراءة المشهورة واقعة على التذكير في قوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى فخوطب المذكر، وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأ على التأنيث[١]، قال أبو عبيد: لو صح هذا عن النبي ﷺ لكان حجة لا يجوز لأحد تركها ولكنه ليس بمسند؛ لأن الربيع لم يدرك أم سلمة، وأما وجه التأنيث فهو أنه ذكر النفس ولفظ النفس ورد في القرآن في أكثر الأمر على التأنيث بقوله: ﴿سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦] و﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] و﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧].

المسألة الثالثة: قال القاضي: هذه الآيات دالة على صحة القول بالقدر من وجوه: الأول: أنه لا يقال: (فلان أسرف على نفسه) على وجه الذم إلا لما يكون من قِبله، وذلك يدل على أن أفعال العباد تحصل من قِبلهم لا من قِبل الله تعالى. وثانيها: أن طلب الغفران والرجاء في ذلك أو اليأس لا يحسن إلا إذا كان الفعل فعل العبد، وثالثها: إضافة الإنابة والإسلام إليه من قبل أن يأتيه العذاب، وذلك لا يكون إلا مع تمكنه من محاولتهما مع نزول العذاب، ومذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك. ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وذلك لا يتم إلا بما هو المختار للاتباع. وخامسها: ذمُّه لهم على أنهم لا يشعرون بما يوجب العذاب، وذلك لا يصح إلا مع التمكن من الفعل. وسادسها: قولهم: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ولا يتحسر المرء على أمر سبق منه إلا وكان يصح منه أن يفعله. وسابعها: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ومن لا يقدر على الإيمان كما يقول القوم ولا يكون الإيمان من فعله - لا يكون مفرطًا. وثامنها: ذمُّه لهم بأنهم من الساخرين، وذلك لا يتم إلا أن تكون السخرية فعلهم وكان يصح منهم أن لا يفعلوه. وتاسعها: قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي مكنني ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وعلى هذا قولهم إذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه؟ وعاشرها: قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وعلى قولهم لو رده الله أبدًا كرة بعد كرة، وليس فيه إلا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسنًا. والحادي عشر: قوله تعالى موبخًا لهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبيّن تعالى أن الحجة عليهم لله، لا أن الحجة لهم على الله، ولو أن الأمر كما قالوا لكان لهم أن يقولوا: قد جاءتنا الآيات ولكنك خلقت فينا التكذيب بها ولم تقدرنا على التصديق بها. والثاني عشر: أنه تعالى وَصَفهم بالتكذيب والاستكبار والكفر على وجه الذم، ولو لم تكن هذه الأشياء أفعالاً لهم لما صح الكلام، والجواب عنه: أن هذه الوجوه معارضة بما أن القرآن مملوء من أن الله تعالى يضل ويمنع ويصدر منه اللين والقسوة والاستدراج، ولما كان هذا التفسير مملوءًا منه لم يكن إلى الإعادة حاجة.

(١) لم أجده.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۞ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من تقرير الوعيد والوعد:
أما الوعيد فقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾.

وفيه بحثان:

أحدهما: أن هذا التكذيب كيف هو؟

والثاني: أن هذا السواد كيف هو؟

البحث الأول: عن حقيقة هذا التكذيب، فنقول: المشهور أن الكذب هو الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه، ومنهم من قال: هذا القدر لا يكون كذبًا بل الشرط في كونه كذبًا أن يقصد الإتيان بخبر يخالف المخبر عنه. إذا عرفت هذا الأصل فنذكر أقوال الناس في هذه الآية:

قال الكعبي: ويرد الجبر بأن هذه الآية وردت عقيب قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ [الزمر: ٥٧] يعني أنه ما هداني بل أضلني، فلما حكى الله عن الكفار ثم ذكر عقيبه ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ وجب أن يكون هذا عائدًا إلى ذلك الكلام المتقدم، ثم روي عن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُصَلُّونَ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، يَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ الذُّنُوبَ عَلَى الْعِبَادِ، وَهُمْ كَذَبَةٌ عَلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ مُسَوِّدٌ وُجُوهَهُمْ**»(١). واعلم أن أصحابنا قالوا: آخر الآية يدل على فساد هذا التأويل لأنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وهذا يدل على أن أولئك الذين صارت وجوههم مسودة أقوام متكبرون، والتكبر لا يليق بمن يقول أنا لا أقدر على الخلق والإعادة والإيجاد، وإنما القادر عليه هو الله سبحانه وتعالى، أما الذين يقولون: إن الله يريد شيئًا وأنا أريد بضده، فيحصل مرادي ولا يحصل مراد الله، فالتكبر بهذا القائل أليق، فثبت أن هذا التأويل الذي ذكروه فاسد. ومن الناس من قال: إن هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى. ومنهم من قال: إنه مختص بمشركي العرب. قال القاضي: يجب حمل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة، وكذلك كل من وصف الله بما لا يليق به نفيًا وإثباتًا، فأضاف إليه ما يجب تنزيهه عنه أو نزهه عما يجب أن يضاف إليه، فالكل منهم داخلون تحت هذه الآية؛ لأنهم كذبوا على الله، فتخصيص الآية بالمجبرة والمشبهة أو اليهود والنصارى لا يجوز. واعلم: أنا لو أجرينا هذه الآية على عمومها كما ذكره القاضي لزمه تكفير الأمة، لأنك لا ترى فرقة من فرق الأمة إلا وقد حصل بينهم اختلاف شديد في صفات الله تعالى، ألا ترى أنه

---

(١) لم أجده.

حصل الاختلاف بين أبي هاشم وأهل السنة في مسائل كثيرة من صفات الله تعالى؟! ويلزم على قانون قول القاضي تكفير أحدهما، فثبت أنه يجب أن يُحمل الكذب المذكور في الآية على ما إذا قصد الإخبار عن الشيء، مع أنه يعلم أنه كاذب فيما يقول، ومثال هذا: كفار قريش فإنهم كانوا يصفون تلك الأصنام بالإلهية مع أنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنها جمادات، وكانوا يقولون: إن الله تعالى حرم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، مع أنهم كانوا ينكرون القول بأن الله حرم كذا وأباح كذا، وكان قائله عالمًا بأنه كذب. وإذا كان كذلك فإلحاق مثل هذا الوعيد بهذا الجاهل الكذاب الضال المضل - (يكون) مناسبًا، أما من لم يقصد إلا الحق والصدق لكنه أخطأ، يبعد إلحاق هذا الوعيد به.

البحث الثاني: الكلام في كيفية السواد الحاصل في وجوههم، والأقرب أنه سواد مخالف لسائر أنواع السواد، وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله، وأقول: إن الجهل ظلمة، والظلمة تتخيل كأنها سواد، فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم، وتحت هذا الكلام أسرار عميقة من مباحث أحوال القيامة. فلما ذكر الله هذا الوعيد أردفه بالوعد فقال: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ الآية، قال القاضي: المراد به من اتقى كل الكبائر إذ لا يوصف بالاتقاء المطلق إلا من كان هذا حاله. فيقال له: أمرك عجيب جدًّا!! فإنك قلت لما تقدم قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] وجب أن يُحمل قوله (وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ) على الذين قالوا ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ فعلى هذا القانون لما تقدم قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾. ثم قال تعالى بعده: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وجب أن يكون المراد هم الذين اتقوا ذلك الكذب، فهذا يقتضي أن كل من لم يتصف بذلك الكذب أنه يدخل تحت ذلك الوعد المذكور بقوله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وأن يكون قولك: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ المراد منه من اتقى كل الكبائر فاسدًا، فثبت أن التعصب يحمل الرجل العاقل على الكلمات المتناقضة، بل الحق أن تقول المتقي هو الآتي بالاتقاء والآتي بالاتقاء في صورة واحدة آتٍ بمسمى الاتقاء، وبهذا الحرف قلنا: الأمر المطلق لا يفيد التكرار، ثم ذلك الاتقاء غير مذكور بعينه في هذه اللفظة فوجب حمله على الاتقاء عن الشيء الذي سبق ذكره وهذا هو الكذب على الله تعالى، فثبت أن ظاهر الآية يقتضي أن من اتقى عن تلك الصفة وجب دخوله تحت هذا الوعد الكريم.

ثم قال تعالى: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (بمفازاتهم) على الجمع، والباقون (بمفازتهم) على التوحيد، وحكى الواحدي عن الفرّاء أنه قال: كلاهما صواب، إذ يقال في الكلام: قد تبين أمر القوم وأمور القوم. قال أبو علي الفارسي: الإفراد للمصدر ووجه الجمع أن المصادر قد تُجمع إذا اختلفت أجناسها، كقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] ولا

شك أن لكل متقٍ نوعًا آخر مِن المفازة.

المسألة الثانية: المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة، فكأن المعنى أن النجاة في القيامة حصلت بسبب فوزهم في الدنيا بالطاعات والخيرات، فعبر عن الفوز بأوقاتها ومواضعها.

ثم قال: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمراد أنه كالتفسير لتلك النجاة، كأنه قيل: كيف ينجيهم؟ فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذه كلمة جامعة لأنه إذا علم أنه لا يمسه السوء كان فارغ البال بحسب الحال عما وقع في قلبه بسبب فوات الماضي، فحينئذٍ يظهر أنه سلم عن كل الآفات، ونسأل الله الفوز بهذه الدرجات بمنه وكرمه.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب في القيامة، وتأكد هذا بقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

واعلم أنه لما أطال الكلام في شرح الوعد والوعيد، عاد إلى دلائل الإلهية والتوحيد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في سورة الأنعام أن أصحابنا تمسكوا بقوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] على أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى، وأطنبنا هناك في الأسئلة والأجوبة، فلا فائدة ههنا في الإعادة، إلا أن الكعبي ذكر هاهنا كلمات فنذكرها ونجيب عنها، فقال: إن الله تعالى مدح نفسه بقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وليس من المدح أن يخلق الكفر والقبائح فلا يصح أن يحتج المخالف به، وأيضًا فلم يكن في صدر هذه الأمة خلاف في أعمال العباد، بل كان الخلاف بينهم وبين المجوس والزنادقة في خلق الأمراض والسباع والهوام، فأراد الله تعالى أن يبين أنها جمع من خلقه، وأيضًا لفظة (كل) قد لا توجب العموم لقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] وأيضًا لو كانت أعمال العباد من خلق الله لما أضافها إليهم بقوله: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] ولَمَا صح قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨] ولَمَا صح قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] فهذا جملة ما ذكره الكعبي في تفسيره، وقال الجبائي: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ سوى أفعال خلقه التي صح فيها الأمر والنهي واستحقوا بها الثواب والعقاب، ولو كانت أفعالهم خلقًا

لله تعالى ما جاز ذلك فيه كما لا يجوز مثله في ألوانهم وصورهم. وقال أبو مسلم: الخلق هو التقدير لا الإيجاد، فإذا أخبر الله عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلاني فقد قدر ذلك الفعل، فيصح أن يقال: إنه تعالى خلقه وإن لم يكن موجدًا له.

واعلم أن الجواب عن هذه الوجوه قد ذكرناه بالاستقصاء في سورة الأنعام، فمن أراد الوقوف عليه فليطالع هذا الموضوع من هذا الكتاب، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فالمعنى أن الأشياء كلها موكولة إليه، فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع ولا مشارك، وهذا أيضًا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى؛ لأن فعل العبد لو وقع بتخليق العبد لكان ذلك الفعل غير موكول إلى الله تعالى، فلم يكن الله تعالى وكيلاً عليه، وذلك ينافي عموم الآية.

ثم قال تعالى: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى أنه سبحانه مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية؛ لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي بيده مقاليدها، ومنه قولهم: (فلان أُلقيت مقاليد المُلك إليه) وهي المفاتيح، قال صاحب (الكشاف): ولا واحد لها من لفظها، وقيل: مقليد ومقاليد، وقيل: مقلاد ومقاليد مثل مفتاح ومفاتيح، وقيل: إقليد وأقاليد، قال صاحب (الكشاف): والكلمة أصلها فارسية إلا أن القوم لما عربوها صارت عربية.

واعلم أن الكلام في تفسير قوله: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قريب من الكلام في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقد سبق الاستقصاء هناك، قيل: سأل عثمان رسول الله ﷺ عن تفسير قوله: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال: «**يَا عُثْمَانُ مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، تَفْسِيرُهَا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ، هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(١). هكذا نقله صاحب (الكشاف).

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: صريح الآية يقتضي أنه لا خاسر إلا كافر، وهذا يدل على أن كل من لم يكن

---

(١) ضعيف: الثعلبي في (الكشف والبيان) (١١/ ٤٥١) من طريق أبي حامد أحمد بن جعفر المستملي، حدثنا عمر بن أحمد بن شنبه، حدثنا إسماعيل بن سعيد الخدري، حدثنا أغلب بن تميم عن مخلد أبي الهذيل عن عبد الرحمن أخيه قال ابن عيينة عن عبد الله بن عمر عن عثمان بن عفان أنه سأل رسول الله ﷺ... فذكره.

وأخرجه أبو يعلى كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١١٥) قال الهيثمي: فيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف. والعقيلي (٤/ ٢٣١، ترجمة ١٨٢٥ مخلد أبو الهذيل)، وقال: في إسناده نظر. وأخرجه أيضًا: الرافعي (٤/ ١٦٣) قال المنذري (١/ ٢٦٢): رواه ابن أبي عاصم وأبو يعلى وابن السني وهو أصلحهم إسنادًا وغيرهم، وفيه نكارة وقد قيل فيه: موضوع، وليس ببعيد، والله أعلم.

كافرًا فإنه لا بد وأن يحصل له حظ من رحمة الله.

المسألة الثانية: أورد صاحب (الكشاف) سؤالاً، وهو أنه بمَ اتصل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟ وأجاب عنه بأنه اتصل بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الزمر: ٦١] أي ينجي الله المتقين بمفازتهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ واعترض ما بينهما أنه خالق للأشياء كلها، وأن له مقاليد السموات والأرض. وأقول: هذا عندي ضعيف من وجهين: الأول: أن وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد. الثاني: أن قوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ جملة فعلية، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ جملة اسمية، وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز، بل الأقرب عندي أن يقال: إنه لما وصف الله تعالى نفسه بالصفات الإلهية والجلالية، وهو كونه خالقًا للأشياء كلها، وكونه مالكًا لمقاليد السموات والأرض بأسرها، قال بعده: والذين كفروا بهذه الآيات الظاهرة الباهرة أولئك هم الخاسرون.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر: (تأمرونني) بنونين ساكنة الياء، وكذلك هي في مصاحف الشام، قال الواحدي: وهو الأصل. وقرأ ابن كثير: (تأمرونِّي) بنون مشددة على إسكان الأولى وإدغامها في الثانية. وقرأ نافع: (تأمرونِي) بنون واحدة خفيفة، على حذف إحدى النونين، والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة.

المسألة الثانية: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ منصوب بأعبد وتأمروني اعتراض، ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم؟ وذلك حين قال له المشركون أسلِم ببعض آلهتنا ونؤمن بإلهك. وأقول: نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] وقد ذكرنا في تلك الآية وجه الحكمة في تقديم الفعل.

المسألة الثالثة: إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقًا للأشياء وبكونه مالكًا لمقاليد السموات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومَن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة؛ فقد بلغ في الجهل مبلغًا لا مزيد عليه؛ فلهذا السبب قال: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

واعلم أن الكلام التام مع الدلائل القوية، والجواب عن الشبهات في مسألة الإحباط قد ذكرناه في سورة البقرة فلا نعيده، قال صاحب (الكشاف): قرئ: (ليُحبَطن عملك) على البناء للمفعول وقرئ بالياء والنون أي: ليحبطن الله أو الشرك.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: كيف أوحي إليه وإلى من قبله حال شركه على التعيين؟

والجواب: تقدير الآية: أوحي إليك لئن أشركت ليحبطن عملك، وإلى الذين من قبلك مثله. أو أوحي إليك وإلى كل واحد منهم: (لئن أشركت)، كما تقول: (كسانا حلة) أي كل واحد منا.

السؤال الثاني: ما الفرق بين اللامين؟

الجواب: الأولى موطئة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب.

السؤال الثالث: كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟

والجواب: أن قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها، ألا ترى أن قولك: (لو كانت الخمسة زوجًا لكانت منقسمة بمتساويين) قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا.

السؤال الرابع: ما معنى قوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؟

والجواب: كما أن طاعات الأنبياء والرسل أفضل من طاعات غيرهم، فكذلك القبائح التي تصدر عنهم فإنها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥] فكان المعنى ضعف الشرك الحاصل منه، وبتقدير حصوله منه يكون تأثيره في جانب غضب الله أقوى وأعظم.

واعلم أنه تعالى لما قدَّم هذه المقدمات ذكر ما هو المقصود فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، والمقصود منه ما أمروه به من الإسلام ببعض آلهتهم، كأنه قال: إنكم تأمرونني بأن لا أعبد إلا غير الله. لأن قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ يفيد أنهم عينوا عليه عبادة غير الله، فقال الله إنهم بئسما قالوا ولكن أنت على الضد مما قالوا، فلا تعبد إلا الله. وذلك لأن قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ يفيد الحصر. ثم قال: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على ما هداك إلى أنه لا يجوز إلا عبادة الإله القادر على الإطلاق العليم الحكيم، وعلى ما أرشدك إلى أنه يجب الإعراض عن عبادة كل ما سوى الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾

واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا الرسول بعبادة الأصنام، ثم إنه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم، وأَمَر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئًا آخر سواه، بَيَّن أنهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاركة له في المعبودية، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتج بعض الناس بهذه الآية على أن الخلق لا يعرفون حقيقة الله. قالوا: لأن قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ يفيد هذا المعنى. إلا أنا ذكرنا أن هذا صفة حال الكفار فلا يلزم من وصف الكفار بأنهم ما قدروا الله حق قدره وَصْف المؤمنين بذلك، فسقط هذا الكلام.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه، وهذه الآية مذكورة في سور ثلاث: في سورة الأنعام، وفي سورة الحج، وفي هذه السورة.

واعلم أنه تعالى لما بَيَّن أنهم ما عظموه تعظيمًا لائقًا به، أردفه بما يدل على كمال عظمته ونهاية جلالته فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قال القفال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كقول القائل: وما قدرتني حق قدري وأنا الذي فعلت كذا وكذا، أي لما عرفت أن حالي وصفتي هذا الذي ذكرت، فوجب أن لا تحطني عن قدري ومنزلتي، ونظيره قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه؟! فكذا هاهنا، والمعنى ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ إذ زعموا أن له شركاء وأنه لا يقدر على إحياء الموتى، مع أن الأرض والسموات في قبضته وقدرته؟! قال صاحب (الكشاف): الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه - تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز، وكذلك ما روي أن يهوديًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال[(١)]، قال صاحب (الكشاف): وإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول كل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة، التي هي الدلالة على القدرة

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير)، باب: (وما قدروا الله حق قدره) (٤/ ١٨١)، حديث رقم (٤٥٣٣)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٤٧/ ٢٧٨٦)، كلاهما من طريق إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله... به.

الباهرة، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام ولا تكتنهها الأذهان هينة عليه. قال: ولا نرى بابًا في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب. فيقال له: هل تُسلِّم أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة، وأنه إنما يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز عند قيام الدلالة على أن حمله على حقيقته ممتنع، فحينئذٍ يجب حمله على المجاز، فإن أنكر هذا الأصل فحينئذٍ يُخرج القرآن بالكلية عن أن يكون حجة، فإن لكل أحد أن يقول: المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فأنا أحمل الآية على ذلك المقصود، ولا ألتفت إلى الظواهر. مثاله من تمسك بالآيات الواردة في ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار، قال: المقصود بيان سعادات المطيعين وشقاوة المذنبين، وأنا أحمل هذه الآيات على هذا المقصود، ولا أُثبت الأكل والشرب ولا سائر الأحوال الجسمانية. ومن تمسك بالآيات الواردة في إثبات وجوب الصلاة فقال: المقصود منه إيجاب تنوير القلب بذكر الله، فأنا أكتفي بهذا القدر ولا أوجب هذه الأعمال المخصوصة. وإذا عرفت الكلام في هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الأصولية والفروعية، وحينئذٍ يخرج القرآن عن أن يكون حجة في المسائل الأصولية والفروعية، وذلك باطل قطعًا، وأما إن سَلَّم أن الأصل في علم القرآن أن يعتقد أن الأصل في الكلام حمله على حقيقته، فإن قام دليل منفصل على أنه يتعذر حمله على حقيقته، فحينئذٍ يتعين صرفه إلى مجازه، فإن حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه إلى مجاز معين إلا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين، فنقول: هاهنا لفظ اليمين حقيقة في الجارحة المخصوصة، ولا يمكنك أن تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى إلا إذا أقمت الدلالة على أن حمل هذه الألفاظ على ظواهرها ممتنع، فحينئذٍ يجب حملها على المجازات، ثم تبين بالدليل أن المعنى الفلاني يصح جعله مجازًا عن تلك الحقيقة، ثم تبين بالدليل أن هذا المجاز أَوْلى من غيره، وإذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذي عليه تعويل أهل التحقيق، فأنت ما أتيت في هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب، بل هو عين ما ذكره أهل التحقيق، فثبت أن الفرح الذي أظهره من أنه اهتدى إلى الطريق الذي لم يعرفه غيره - طريق فاسد، دال على قلة وقوفه على المعاني. ولنرجع إلى الطريق الحقيقي فنقول: لا شك أن لفظ القبضة واليمين مُشعر بهذه الأعضاء والجوارح، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح لله تعالى، فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز، فنقول: إنه يقال: (فلان في قبضة فلان) إذا كان تحت تدبيره وتسخيره. قال تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] والمراد منه كونه مملوكًا له، ويقال: هذه الدار في يد فلان، وفلان صاحب اليد، والمراد من الكل القدرة، والفقهاء يقولون في الشروط: وقبض فلان كذا وصار في قبضته، ولا يريدون إلا خلوص ملكه، وإذا ثبت تعذر حمل هذه الألفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صونًا لهذه النصوص عن التعطيل، فهذا هو الكلام الحقيقي في هذا الباب، ولنا كتاب مفرد في إثبات تنزيه الله تعالى عن الجسمية

والمكان، سميناه بتأسيس التقديس، من أراد الإطناب في هذا الباب فليرجع إليه.

المسألة الثالثة: في تفسير ألفاظ الآية: قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾ المراد منه الأرضون السبع، ويدل عليه وجوه: الأول: قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فإن هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجمع، ونظيره قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ [آل عمران: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١] وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [ق: ١٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٢، ٣] فإن هذه الألفاظ الملحة باللفظ المفرد تدل على أن المراد منه الجمع، فكذا هاهنا. والثاني: أنه قال بعده: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ﴾ فوجب أن يكون المراد بالأرض الأرضون. الثالث: أن الموضع موضع تعظيم وتفخيم، فهذا مقتضى المبالغة. وأما القبضة فهي المرة الواحدة من القبض، قال تعالى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦] والقُبضة بالضم: المقدار المقبوض بالكف، ويقال أيضًا (أعطني قُبضة من كذا)، يريد معنى القبضة، تسمية بالمصدر، والمعنى والأرضون جميعًا قبضته، أي ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة من قبضاته، يعني أن الأرضين مع ما لها من العظمة والبسطة لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته، أما إذا أريد معنى القبضة، فظاهر لأن المعنى أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة. فإن قيل: ما وجه قراءة من قرأ (قبضتَه) بالنصب؟ قلنا: جعل القبضة ظرفًا. وقوله: ﴿مَطۡوِيَّٰتُۢ﴾ من الطي الذي هو ضد النشر، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعادة طاوي السجل أن يطويه بيمينه، ثم قال صاحب الكشاف: وقيل: قبضته ملكه ويمينه قدرته، وقيل: مطويات بيمينه أي مفنيات بقسمه لأنه أقسم أن يقبضها. ولما ذكر هذه الوجوه عاد إلى القول الأول بأنها وجوه ركيكة، وأن حمل هذا الكلام على محض التمثيل أولى، وبالغ في تقرير هذا الكلام فأطنب، وأقول: إن حال هذا الرجل في إقدامه على تحسين طريقته، وتقبيح طريقة القدماء - عجيب جدًّا، فإنه إن كان مذهبه أنه يُجوز ترك ظاهر اللفظ والمصير إلى المجاز من غير دليل، فهذا طعن في القرآن وإخراج له عن أن يكون حجة في شيء، وإن كان مذهبه أن الأصل في الكلام الحقيقة، وأنه لا يجوز العدول عنه إلا لدليل منفل، فهذا هو الطريقة التي أطبق عليها جمهور المتقدمين، فأين الكلام الذي يزعم أنه علمه؟ وأين العلم الذي لم يعرفه غيره؟ مع أنه وقع في التأويلات العسرة والكلمات الركيكة، فإن قالوا: المراد أنه لما دل الدليل على أنه ليس المراد من لفظ القبضة واليمين هذه الأعضاء، وجب علينا أن نكتفي بهذا القدر ولا نشتغل بتعيين المراد، بل نفوض علمه إلى الله تعالى. فنقول: هذا هو طريق الموحدين الذين يقولون: إنا نعلم أنه ليس مراد الله من هذه الألفاظ هذه الأعضاء، فأما تعيين المراد فإنا نفوض ذلك العلم إلى الله تعالى، وهذا هو طريقة السلف المعرضين عن التأويلات، فثبت أن هذه التأويلات التي أتى بها هذا الرجل ليس تحتها شيء من الفائدة أصلاً، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما بَيَّن عظمته من الوجه الذي تقدم قال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني أن هذا القادر القاهر العظيم الذي حارت العقول والألباب في وصف عظمته - تنزّه وتقدس عن أن تُجعل الأصنام شركاء له في المعبودية، فإن قيل: السؤال على هذا الكلام من وجوه:

الأول: أن العرش أعظم من السموات السبع والأرضين السبع، ثم إنه قال في صفة العرش: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] وإذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم، فكيف يجوز تقدير عظمة الله بكونه حاملاً للسموات والأرض؟

السؤال الثاني: أن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ شرح حالة لا تحصل إلا في يوم القيامة، والقوم ما شاهدوا ذلك، فإن كان هذا الخطاب مع المصدقين للأنبياء فهم يكونون معترفين بأنه لا يجوز القول بجعل الأصنام شركاء لله تعالى، فلا فائدة في إيراد هذه الحجة عليهم، وإن كان هذا الخطاب مع المكذبين بالنبوّة وهم ينكرون قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فكيف يمكن الاستدلال به على إبطال القول بالشرك؟

السؤال الثالث: حاصل القول في القبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الأجسام العظيمة، وكما أن حِفظها وإمساكها يوم القيامة ليس إلا بقدرة الله، فكذلك الآن، فما الفائدة في تخصيص هذه الأحوال بيوم القيامة؟

الجواب عن الأول: أن مراتب التعظيم كثيرة، فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادرًا على حفظ هذه الأجسام العظيمة، ثم بعد تقرير عظمته بكونه قادرًا على إمساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش.

الجواب عن الثاني: أن المقصود أن الحق سبحانه هو المتولي لإبقاء السموات والأرضين على وجوه العمارة في هذا الوقت، وهو المتولي لتخريبها وإفنائها في يوم القيامة، فذلك يدل على حصول قدرة تامة على الإيجاد والإعدام، وتنبيه أيضًا على كونه غنيًّا على الإطلاق، فإنه يدل على أنه إذا حاول تخريب الأرض فكأنه يقبض قبضة صغيرة ويريد إفناءها، وذلك يدل على كمال الاستغناء.

الجواب عن الثالث: أنه إنما خصص تلك بيوم القيامة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته في الإيجاد عند عمارة الدنيا، فكذلك ظهر كمال قدرته عند خراب الدنيا، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما قرر كمال عظمته بما سبق ذكره، أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضًا على كمال قدرته وعظمته، وذلك شرح مقدمات يوم القيامة لأن نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ واختلفوا في الصعقة: منهم من قال: إنها غير الموت بدليل قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] مع أنه لم يمت، فهذا هو النفخ الذي يورث الفزع الشديد، وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد، وهو المذكور في

سورة النمل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧] وعلى هذا القول فنفخ الصور ليس إلا مرتين.

والقول الثاني: أن الصعقة عبارة عن الموت. والقائلون بهذا القول قالوا: إنهم يموتون من الفزع وشدة الصوت. وعلى هذا التقدير فالنفخة تحصل ثلاث مرات أولها: نفخة الفزع وهي المذكورة في سورة النمل. والثانية: نفخة الصعق. والثالثة: نفخة القيام. وهما مذكورتان في هذه السورة.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ففيه وجوه: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: عند نفخة الصعق يموت من في السموات ومن في الأرض إلا جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يميت الله ميكائيل وإسرافيل ويبقي جبريل وملك الموت ثم يميت جبريل.

والقول الثاني: أنهم هم الشهداء لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «هُمُ الشُّهَدَاءُ، مُتَقَلِّدُونَ أَسْيَافَهُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ»(١).

القول الثالث: قال جابر: هذا المستثنى هو موسى عليه السلام لأنه صعق مرة فلا يُصعق ثانيًا.

القول الرابع: أنهم الحور العين وسكان العرش والكرسي.

والقول الخامس: قال قتادة: الله أعلم بأنهم من هم، وليس في القرآن والأخبار ما يدل على أنهم من هم.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ **وفيه أبحاث:**

الأول: لفظ القرآن دل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الأولى؛ لأن لفظ ﴿ثُمَّ﴾ يفيد التراخي، قال الحسن رحمه الله: القرآن دل على أن هذه النفخة الأولى. وروي عن النبي ﷺ: «أَنَّ بَيْنَهُمَا أَرْبَعِينَ» وَلاَ أَدْرِي أَرْبَعُونَ يَوْمًا أَوْ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعُونَ سَنَةً أَوْ أَرْبَعُونَ أَلْفَ سَنَةٍ(٢).

الثاني: قوله ﴿أُخْرَىٰ﴾ تقدير الكلام: ونُفخ في الصور نفخة واحدة ثم نُفخ فيه نفخة أخرى، وإنما حسن الحذف لدلالة (أخرى) عليها ولكونها معلومة.

الثالث: قوله ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ يعني قيامهم من القبور يحصل عقيب هذه النفخة الأخيرة في الحال من غير تراخ لأن الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ تدل على التعقيب.

الرابع: قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ وفيه وجهان: الأول: ينظرون: يُقَلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم. والثاني: ينظرون ماذا يُفعل بهم. ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والخمود في مكان لأجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم.

ولما بيّن الله تعالى هاتين النفختين قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

---

(١) الثعلبي في (الكشف والبيان) (١١/ ٤٥٩) من طريق محمد بن مصفى، حدثنا بقية عن محمد عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة... به، في إسناده محمد بن مصفى بن بهلول، صدوق له أوهام، وكان يدلس، وشيخه بقية بن الوليد كثير التدليس عن الضعفاء.

(٢) لم أجده.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذه الأرض المذكورة ليست هي هذه الأرض التي يُقعد عليها الآن؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وبدليل قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] بل هي أرض أخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة.

المسألة الثانية: قالت المجسمة: إن الله تعالى نور محض، فإذا حضر الله في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده، أشرقت تلك الأرض بنور الله. وأكدوا هذا بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه: الأول: أنا بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] أنه لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نورًا بمعنى كونه من جنس هذه الأنوار المشاهدة، وبينا أنه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ النور ههنا على العدل، فنحتاج ههنا إلى بيان أن لفظ النور قد يُستعمل في هذا المعنى، ثم إلى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس إلا هذا المعنى: أما بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك. كما يقولون: أظلمت البلاد بجورك. وقال ﷺ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١). وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط أنه قال: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ ومعلوم أن المجيء بالشهداء ليس إلا لإظهار العدل، وأيضًا قال في آخر الآية: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فدل هذا على أن المراد من ذلك النور إزالة ذلك الظلم، فكأنه تعالى فتح هذه الآية بإثبات العدل وختمها بنفي الظلم. والوجه الثاني في الجواب عن الشبهة المذكورة: أن قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يدل على أنه يحصل هناك نور مضاف إلى الله تعالى، ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى؛ لأنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب، فلما كان ذلك النور من خلق الله وشَرَّفه بأن أضافه إلى نفسه كان ذلك النور نور الله، كقوله: بيت الله، وناقة الله. وهذا الجواب أقوى من الأول؛ لأن في هذا الجواب لا يُحتاج إلى ترك الحقيقة والذهاب إلى المجاز. والوجه الثالث: أنه قد يقال: فلان رب هذه الأرض ورب هذه الدار ورب هذه الجارية، ولا يبعد أن يكون رب هذه الأرض ملكًا من الملوك، وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نورًا.

المسألة الثالثة: أنه تعالى ذكر في هذه الآية من أحوال ذلك اليوم أشياء: أولها: قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وقد سبق الكلام فيه. وثانيها: قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وفي المراد بالكتاب وجوه: الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت قيام القيامة. الثاني: المراد كُتُب الأعمال، كما قال تعالى في سورة سبحان: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (المظالم)، باب: (عفو المظلوم) (٢/ ٨٦٤)، حديث رقم (٢٣١٥)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٩٦/ ٢٥٧٨)، كلاهما من طريق عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر... به.

أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وقال أيضًا في آية أخرى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف: ٤٩] وثالثها: قوله: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ والمراد أن يكونوا شهداء على الناس، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ﴾ [المائدة: ١٠٩] ورابعها: قوله ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ والمراد ما قاله في ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] أو أراد بالشهداء المؤمنين، وقال مقاتل: يعني الحفظة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] وقيل: أراد بالشهداء المستشهدين في سبيل الله. ولما بيَّن الله تعالى أنه يحضر في محفل القيامة جميع ما يحتاج إليه في فصل الحكومات وقطع الخصومات، بيّن تعالى أنه يوصل إلى كل أحد حقه، وعبّر تعالى عن هذا المعنى بأربع عبارات: أولها: قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وثانيها: قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وثالثها: قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي وفيت كل نفس جزاء ما عملت، ورابعها: قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يعني أنه تعالى إذا لم يكن عالمًا بكيفيات أحوالهم فلعله لا يقضي بالحق لأجل عدم العلم، أما إذا كان عالمًا بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع دخول الخطأ في ذلك الحكم، فثبت أنه تعالى عبّر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة، والمقصود المبالغة في تقرير أن كل مكلف فإنه يصل إلى حقه.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال فقال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٧٠] بيّن بعده كيفية أحوال أهل العقاب، ثم كيفية أحوال أهل الثواب، وختم السورة.

أما شرح أحوال أهل العقاب فهو المذكور في هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ﴾ قال ابن زيدان: سَوْق الذين كفروا إلى جهنم يكون بالعنف والدفع، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي يُدفعون دفعًا، نظيره قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢] أي يدفعه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

وأما الزمر، فهي الأفواج المتفرقة بعض في أثر بعض، فبين الله تعالى أنهم يساقون إلى جهنم، فإذا جاءوها فتحت أبوابها، وهذا يدل على أن أبواب جهنم إنما تُفتح عند وصول أولئك

إليها، فإذا دخلوا جهنم قال لهم خزنة جهنم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فإن قيل: فلمَ أضيف اليوم إليهم؟ قلنا: أراد لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار، لا يوم القيامة، واستعمال لفظ اليوم والأيام في أوقات الشدة مستفيض، فعند هذا تقول الكفار: بلى قد أتونا وتلوا علينا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وفي هذه الآية مسألتان:

المسألة الأولى: تقدير الكلام أنه حقت علينا كلمة العذاب، ومن حقت عليه كلمة العذاب فكيف يمكنه الخلاص من العذاب؟ وهذا صريح في أن السعيد لا ينقلب شقيًّا، والشقي لا ينقلب سعيدًا، وكلمات المعتزلة في دفع هذا الكلام معلومة، وأجوبتنا عنها أيضًا معلومة.

المسألة الثانية: دلت الآية على أنه لا وجوب قبل مجيء الشرع؛ لأن الملائكة بينوا أنه ما بقي لهم علة ولا عذر بعد مجيء الأنبياء عليهم السلام، ولو لم يكن مجيء الأنبياء شرطًا في استحقاق العذاب لما بقي في هذا الكلام فائدة، ثم إن الملائكة إذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ قالت المعتزلة: لو كان دخولهم النار لأجل أنه حقت عليهم كلمة العذاب لم يبق لقول الملائكة: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فائدة، بل هذا الكلام إنما يبقى مفيدًا إذا قلنا: إنهم إنما دخلوا النار لأنهم تكبروا على الأنبياء، ولم يقبلوا قولهم، ولم يلتفتوا إلى دلائلهم، وذلك يدل على صحة قولنا، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب في الآية المتقدمة، شرح أحوال أهل الثواب في هذه الآية، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ فإن قيل: السَّوق في أهل النار للعذاب معقول؛ لأنهم لما أُمروا بالذهاب إلى موضع العذاب والشقاوة لا بدّ وأن يساقوا إليه، وأما أهل الثواب فإذا أُمروا بالذهاب إلى موضع الكرامة والراحة والسعادة، فأي حاجة فيه إلى السَّوق؟

والجواب من وجوه: الأول: أن المحبة والصداقة باقية بين المتقين يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] فإذا قيل لواحد منهم: اذهب إلى

الجنة. فيقول: لا أدخلها حتى يدخلها أحبائي وأصدقائي. فيتأخرون لهذا السبب، فحينئذٍ يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة. والثاني: أن الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار، فتصير شدة استغراقهم في مشاهدة مواقف الجلال والجمال مانعة لهم عن الرغبة في الجنة، فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة. والثالث: أن النبي ﷺ قال: «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِلْأَبْرَارِ»[1] فلهذا السبب يساقون إلى الجنة. والرابع: أن أهل الجنة وأهل النار يساقون إلا أن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يُفعل بالأسير إذ سيق إلى الحبس والقيد، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين، والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يُفعل بمن يُشرف ويُكرم من الوافدين على الملوك، فشتان ما بين السوقين.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ الآية، واعلم أن جملة هذا الكلام شرط واحد مركب من قيود: القيد الأول: هو مجيئهم إلى الجنة. والقيد الثاني: قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ فإن قيل: قال في أهل النار: فتحت أبوابها بغير الواو، وقال هاهنا بالواو فما الفرق؟ قلنا: الفرق أن أبواب جهنم لا تُفتح إلا عند دخول أهلها فيها، فأما أبواب الجنة ففتحها يكون متقدمًا على وصولهم إليها بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] فلذلك جيء بالواو، كأنه قيل: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها. القيد الثالث: قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ فبيّن تعالى أن خزنة الجنة يذكرون لأهل الثواب

---

(١) منكر: القضاعي في (مسند الشهاب) (٢/ ١١٠)، حديث رقم (٩٨٩) من طريق يحيى بن الربيع العبدي، أنبأنا عبد السلام بن محمد الأموي، حدثنا سعيد بن كثير بن عفير، حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عقيل عن ابن شهاب عن أنس... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ١٢٦)، حديث رقم (١٣٦٧) من طريق عقيل عن ابن شهاب عن أنس... به. وأورده ابن عدي في (الكامل في ضعفاء الرجال) (٣/ ٣١٣) بإسناد البيهقي وقال: وهذا الحديث بهذا الإسناد منكر. ورواه الهروي في (المطبوع) (١/ ٥٧/ ٣٤). وقال: رواه البزار مضعفًا والقرطبي مصححًا وروي بزيادة (وعليون لذوي الألباب) وهي ليس لها أصل. وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٨٦)، حديث رقم (٤٩٥). وقال: رواه البيهقي والبزار والديلمي والخلعي بسند فيه لين عن أنس رفعه، وله شاهد عند البيهقي من حديث مصعب بن ماهان عن جابر، لكن قال عقبه: إنه بهذا الإسناد منكر. وقال القاري في الموضوعات: وصححه في التذكرة، وليس كذلك، بل قال ابن عدي: إنه منكر. انتهى وقال فيها أيضًا: وروي بزيادة (وعليون لذوي الألباب) ولم يوجد لها أصل كما قال العراقي، بل هي مدرجة من كلام أحمد بن أبي الحواري. انتهى وأقول: لكنه في التذكرة ذكرها تعقب وجاء عن سهل التستري في تفسير البله بأنهم الذين ولهت قلوبهم وشُغلت بالله عز وجل. وعن أبي عثمان: الأبله في دنياه: الفقيه في دينه. وروى البيهقي عن الأوزاعي أنه قال: هو الأعمى عن الشر البصير بالخير. ومثله قول القرطبي: هم البله عن معاصي الله. وقال في النهاية: البله هم الذين غلبت عليهم بالإجماع الصدور وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة، فأما الأبله وهو الذي لا عقل له فغير مُرادٍ في الحديث وأنشدوا:

ولقد لهوت بطفلة ميالة   بلهاء تطلعني على أسرارها

هذه الكلمات الثلاث. فأولها: قولهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهذا يدل على أنهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات. وثانيها: قولهم: ﴿طِبۡتُمۡ﴾ والمعنى طبتم من دنس المعاصي وطُهرتم من خبث الخطايا وثالثها: قولهم ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ والفاء في قوله: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا﴾ يدل على كون ذلك الدخول معللاً بالطيب والطهارة، قالت المعتزلة: هذا يدل على أن أحدًا لا يدخلها إلا إذا كان طاهرًا عن كل المعاصي. قلنا: هذا ضعيف لأنه تعالى يبدل سيئاتهم حسنات، وحينئذٍ يصيرون طيبين طاهرين بفضل الله تعالى، فإن قيل: فهذا الذي تقدم ذكره هو الشرط فأين الجواب؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أن الجواب محذوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ في الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره. الثاني: أن الجواب هو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ والواو محذوف، والصحيح هو الأول. ثم أخبر الله تعالى بأن الملائكة إذا خاطبوا المتقين بهذه الكلمات، قال المتقون عند ذلك: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ في قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ والمراد بالأرض أرض الجنة، وإنما عبر عنه بالإرث لوجوه: الأول: أن الجنة كانت في أول الأمر لآدم عليه السلام؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]فلما عادت الجنة إلى أولاد آدم كان ذلك سببًا لتسميتها بالإرث. الثاني: أن هذا اللفظ مأخوذ من قول القائل: هذا أورث كذا وهذا العمل أورث كذا. فلما كانت طاعتهم قد أفادتهم الجنة، لا جرم قالوا: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ والمعنى أن الله تعالى أورثنا الجنة بأن وفقنا للإتيان بأعمال أورثت الجنة. الثالث: أن الوارث يتصرف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع، فكذلك المؤمنون المتقون يتصرفون في الجنة كيف شاءوا وأرادوا، والمشابهة علة حسن المجاز. فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿حَيۡثُ نَشَآءُ﴾ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟ قلنا: يكون لكل أحد جنة لا يحتاج معها إلى جنة غيره، قال حكماء الإسلام: الجنات نوعان: الجنات الجسمانية والجنات الروحانية: فالجنات الجسمانية لا تحتمل المشاركة فيها، أما الروحانيات فحصولها لواحد لا يمنع من حصولها للآخرين. ولما بيّن الله تعالى صفة أهل الجنة قال: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ قال مقاتل: ليس هذا من كلام أهل الجنة، بل من كلام الله تعالى لأنه لما حكى ما جرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنة قال بعده: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ ولما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال: كما أن دار ثواب المتقين المؤمنين هي الجنة، فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش وأطرافه. فلهذا قال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي محفين بالعرش. قال الليث: يقال: حف القوم بسيدهم يحفون حفًا، إذا طافوا به. إذا عرفت هذا فنقول: بيّن تعالى أن دار ثوابهم هو جوانب العرش وأطرافه ثم قال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ وهذا مُشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التحميد والتسبيح، وحينئذٍ رجع حاصل الكلام إلى أن أعظم درجات الثواب استغراق قلوب

العباد في درجات التنزيه ومنازل التقديس .

ثم قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ والمعنى أنهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوتة، فلكل واحد منهم في درجات المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه، وهو المراد من قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الملائكة لما قضي بينهم بالحق قالوا: الحمد لله ربّ العالمين على قضائه بيننا بالحق، وههنا دقيقة أعلى مما سبق وهي أنه سبحانه لما قضى بينهم بالحق، فهم ما حمدوه لأجل ذلك القضاء، بل حمدوه بصفته الواجبة وهي كونه ربًّا للعالمين، فإن من حمد المنعم لأجل أن إنعامه وصل إليه فهو في الحقيقة ما حمد المنعم وإنما حمد الإنعام، وأما من حمد المنعم لا لأنه وصل إليه النعمة فههنا قد وصل إلى لجة بحر التوحيد، هذا إذا قلنا: إن قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ شرح أحوال الملائكة في الثواب، أما إذا قلنا: إنه من بقية شرح ثواب المؤمنين، فتقريره أن يقال: إن المتقين لما قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ فقد ظهر منهم أنهم في الجنة اشتغلوا بحمد الله وبذكره بالمدح والثناء، فبيّن تعالى أنه كما أن حرفة المتقين في الجنة الاشتغال بهذا التحميد والتمجيد، فكذلك حرفة الملائكة الذين هم حافون حول العرش الاشتغال بالتحميد والتسبيح، ثم إن جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة، وحينئذٍ يظهر منه أن المؤمنين المتقين وأن الملائكة المقربين يصيرون متوافقين على الاستغراق في تحميد الله وتسبيحه، فكان ذلك سببًا لمزيد التذاذهم بذلك التسبيح والتحميد .

ثم قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بين البشر .

ثم قال: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والمعنى أنهم يقدمون التسبيح، والمراد منه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بالإلهية .

وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالمراد وصفه بصفات الإلهية، فالتسبيح عبارة عن الاعتراف بتنزيهه عن كل ما لا يليق به وهو صفات الجلال .

وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عبارة عن الإقرار بكونه موصوفًا بصفات الإلهية، وهي صفات الإكرام، ومجموعهما هو المذكور في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] وهو الذي كانت الملائكة يذكرونه قبل خلق العالم وهو قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وفي قوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دقيقة أخرى، وهي أنه لم يبين أن ذلك القائل من هو، والمقصود من هذا الإبهام التنبيه على أن خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس إلا أن يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتأكد هذا بقوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

قال المصنف رحمه الله تعالى: تم تفسير هذه السورة في ليلة الثلاثاء آخر ذي القعدة من سنة

ثلاث وستمائة. يقول مصنف هذا الكتاب: الملائكة المقربون عجزوا عن إحصاء ثنائك، فمَن أنا؟ والأنبياء المرسلون اعترفوا بالعجز والقصور، فمن أنا؟ وليس معي إلا أن أقول: أنت أنت وأنا أنا، فمنك الرحمة والفضل والجود والإحسان، ومني العجز والذلة والخيبة والخسران، يا رحمن يا ديان يا حنان يا منان أَفِض عليَّ سجال الرحمة والغفران برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

سورة الزُّمَر

ويقال: سورة الغرف. قال وهب بن مُنبِّه: مَن أحبَّ أن يعرفَ قضاءَ الله عز وجل في خَلْقه فَلْيقرَأ سورة الغرف[1]. وهي مكيةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد. وقال ابن عباس: إلا آيتين نزلتا بالمدينة؛ إحداهما: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الآية:٢٣] والأُخرى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الآية [٥٣]. وقال آخرون: إلا سبعَ آيات؛ من قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ إلى آخر سبع آيات نزلت في وحشيٍّ وأصحابه على ما يأتي[2].

روى الترمذي عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ «الزمر» وبني إسرائيل[3]. وهي خمسٌ وسبعون آية[4]. وقيل: اثنتان وسبعون آية[5].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٤٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١١٣ ، وينظر زاد المسير ٧/ ١٦٠ .

(٣) سنن الترمذي (٣٤٠٥).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٧١ .

(٥) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤ .

ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى: هذا تنزيلُ، قاله الفراء[١]. وأجاز الكسائي والفراء أيضاً «تَنْزِيلَ» بالنصب على أنه مفعول به[٢]. قال الكسائي: أي: اتَّبِعوا واقرؤوا «تنزِيلَ الكتاب». وقال الفراء: هو على الإغراء، مثل قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٤] أي: الزموا[٣]. والكتاب القرآن سُمِّي بذلك لأنه مكتوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: هذا تنزيلُ الكتاب من الله، وقد أنزلناه بالحقّ؛ أي: بالصِّدق، وليس بباطل وهَزْل.

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصًا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: «مُخْلِصاً» نصب على الحال، أي: مُوحِّداً لا تُشرك به شيئاً ﴿لَّهُ ٱلدِّينَۚ﴾ أي: الطاعة. وقيل: العبادة[٤]. وهو مفعول به.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أي: الذي لا يَشوبه شيء. وفي حديث الحسن عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، إني أَتصدَّق بالشيء، وأصنع الشيء أُريد به وجهَ الله وثَناءَ الناس. فقال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يقبلُ اللهُ شيئاً شُورك فيه» ثم تلا رسولُ الله ﷺ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[٥].

وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» و«النساء» و«الكهف» مستوفىً[٦].

الثانية: قال ابن العربي[٧]: هذه الآيةُ دليلٌ على وجوب النية الخالصة[٨] في كل عمل، وأعظمُه الوضوء الذي هو شَطْر الإيمان، خلافاً لأبي حنيفة والوليد بن مسلم

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤١٤ .

(٢) قرأ بها عيسى بن عمر وإبراهيم بن أبي عبلة، كما في القراءات الشاذة ص١٣١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ ، والحديث لم نقف عليه.

(٦) ٤/ ٣٢٣ - ٣٢٤ و٦/ ٢٩٧ وما بعدها و١٣/ ٣٩٨ وما بعدها.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٤ .

(٨) قوله: الخالصة، ليس في (م) ولا في أحكام القرآن.

عن مالك اللَّذَيْن يقولان: إن الوضوء يكفي من غير نية، وما كان ليكون من الإيمان شطراً، ولا لِيُخرِجَ الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني الأصنام، والخبر محذوف. أي: قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(١) قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم: مَن ربُّكم وخالقُكم؟ ومَن خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماءً؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم الأصنامَ؟ قالوا: ليُقرِّبونا إلى الله زُلفى، ويشفعوا لنا عنده(٢).

قال الكلبي: جواب هذا الكلام في «الأحقاف»: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ [الآية:٢٨] والزُّلفى القُربة؛ أي: لِيقرِّبونا إليه تقريباً، فوضع «زُلْفَى» في موضع المصدر(٣).

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد: «والذين اتَّخذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قالوا ما نَعبُدُهم إِلَّا لِيقرِّبونا إلى الله زُلْفَى» وفي حرف أُبَيّ: «والذين اتَّخذُوا مِنْ دُونه أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى» ذكره النحاس(٤). قال: والحكاية في هذا بيِّنة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل الأديان يومَ القيامة فيُجازي كلّاً بما يستحقّ(٥). ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: مَنْ سبق له القضاء بالكُفر لم يهتدِ؛ أي: للدِّين الذي ارتضاه، وهو دين الإسلام؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] وفي هذا ردٌّ على القدرية وغيرهم على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لو أراد

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ .

(٤) في معاني القرآن ٦/ ١٥٠ – ١٥١ ، وذكرالقراءتين ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥١٨ .

(٥) زاد المسير ٧/ ١٦٢ .

أن يُسمِّيَ أحداً من خَلْقه بهذا ما جعله عزَّ وجلَّ إليهم .﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له عن[1] الولد ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: هو القادرُ على الكمال، المُستغني عن الصاحبة والولد، ومَن كان هكذا فحقُّه أن يُفرَدَ بالعبادة، لا أنه يُشرَكُ به. ونبَّه بهذا على أن له أن يَتعبَّد العباد بما شاء، وقد فعل.

قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ قال الضحاك: أي: يُلقي هذا على هذا وهذا على هذا. وهذا على معنى التكوير في اللغة[2]، وهو طرح الشيء بعضه على بعض؛ يقال: كوَّر المَتاع، أي: ألقى بعضَه على بعض؛ ومنه كَوْر العِمامة[3].

وقد رُوي عن ابن عباس [غير] هذا في معنى الآية. قال: ما نقصَ من الليل دخلَ في النهار، وما نقصَ من النهار دخلَ في الليل[4]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١].

وقيل: تكوير الليل على النهار: تَغْشيته إيَّاه حتى يُذهِبَ ضوءَه، ويُغشي النهار

(١) في النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس (والكلام منه) ٤/ ٤ : من، والمثبت من (م).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ .

(٣) زاد المسير ٧/ ١٦٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ ، وما بين حاصرتين منه.

على الليل فيُذهب ظُلمته، وهذا قول قتادة[١]. وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: بالطُّلوع والغُروب لمنافع العباد. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: في فَلَكه إلى أن تنصرمَ الدنيا، وهو يومُ القيامة حتى[٢] تنفطر السماء وتنتثر الكواكب. وقيل: الأجلُ المسمى هو الوقتُ الذي ينتهي فيه سَيْرُ الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لِغُروبها وطُلوعها.

قال الكلبي: يسيران إلى أقصى منازلهما، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يُجاوزانه. وقد تقدَّم بيانُ هذا في سورة «يس»[٣]. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ «ألا» تنبيه، أي: تنبَّهوا، فإني أنا «العزيزُ» الغالب «الغفَّارُ» الساتر لذنوب خلقه برحمته.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدمَ عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: لِيحصل التناسلُ، وقد مضى هذا في «الأعراف»[٤] وغيرها.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أخبر عن الأزواج بالنُّزول، لأنها تكوَّنت بالنبات، والنبات بالماء المُنزَل. وهذا يُسمَّى التدريج[٥]؛ ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الآية [الأعراف: ٢٦]. وقيل: أنزل: أنشأ وجعل. وقال سعيد بن جُبير: خَلَق. وقيل: إنَّ الله تعالى خَلَق هذه الأنعامَ في الجنة، ثم أنزلها إلى الأرض[٦]؛ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنَّ آدمَ لما هبطَ إلى الأرض أُنزل معه الحديد. وقيل: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: أعطاكم. وقيل: جعل الخلق

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١١٥، وأخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٠ بنحوه.

(٢) كذا في النسخ: حتى، وفي هامش (ز): لعلّه حين. قلنا: هو أوجه.

(٣) ١٧/ ٤٥٠ وما بعدها، وسلف قول الكلبي ١٧/ ٤٤٤.

(٤) ٩/ ٤٠٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٥.

إنزالاً؛ لأن الخَلْق إنما يكون بأمر ينزل من السماء. فالمعنى: خلقَ لكم كذا بأمره النازل[١].

قال قتادة: من الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضَّأْن اثنين، ومن المَعْز اثنين، كل واحد زوج[٢]. وقد تقدّم هذا[٣].

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ قال قتادة والسّدّي: نُطفةً، ثم علقةً، ثم مُضغةً، ثم عظماً، ثم لحماً. ابن زيد: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: خلقاً في بطون أُمهاتِكم من بعد خَلْقكم في ظهر آدم. وقيل: في ظهر الأب، ثم خلقاً في بطن الأمّ، ثم خلقاً بعد الوضع. ذكره الماوردي[٤].

﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظُلمة البطن وظُلمة الرحم وظُلمة المَشِيمَة. قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك[٥]. وقال ابن جُبير: ظُلمة المَشيمَة وظُلمة الرَّحِم وظُلمة الليل[٦]. والقول الأول أصح. وقيل: ظلمة صُلْب الرجل وظُلمة بطن المرأة وظُلمة الرَّحِم. وهذا مذهب أبي عُبيدة[٧]. أي: لا تمنعه الظُّلمة كما تمنع المخلوقين[٨]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: الذي خلق هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره[٩].

وقرأ حمزة: «إِمِّهَاتِكُمْ» بكسر الهمزة والميم. والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم. الباقون بضم الهمزة وفتح الميم[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٣ .

(٣) ٩/ ٧٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٥ ، وأقوال قتادة والسدي وابن زيد أخرجها الطبري ٢٠/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٦٥ - ١٦٦ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٦ دون نسبة.

(٧) مجاز القرآن ٢/ ١٨٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ١٥٤ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤ .

(٩) تفسير الطبري ٢٠/ ١٦٧ .

(١٠) قراءة حمزة والكسائي في الوصل. السبعة ص٢٢٧ - ٢٨٨ ، والتيسير ص٩٤ .

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: أن يكفروا، أي: لا يُحبُّ ذلك منهم. وقال ابن عباس والسّدي: معناه: لا يرضى لعباده المؤمنين الكُفر، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢]، وكقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] أي: المؤمنون[١]. وهذا على قول مَن لا يُفرق بين الرِّضا والإرادة.

وقيل: لا يرضى الكُفْرَ وإن أراده؛ فالله تعالى يُريد الكفر من الكافر وبإرادته كَفَر، ولايرضاه[٢] ولا يُحِبُّه، فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خَلْقَ إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير الرِّضا. وهذا مذهبُ أهل السنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرضى الشُّكر لكم؛ لأنّ «تَشْكُرُوا» يدلُّ عليه. وقد مضى القولُ في الشُّكر في«البقرة»[٤] وغيرها. ويَرضى بمعنى يُثيب ويُثني، فالرِّضا على هذا إما ثوابُه فيكون صفةَ فعل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، وإما ثناؤه، فهو صفةُ ذات.

و«يَرْضَهْ» بالإسكان في الهاء قرأ أبو جعفر[٥] وأبو عمرو وشيبة وهُبيرة عن عاصم. وأشبع الضَّمَّة ابنُ ذكوان وابنُ كثير وابنُ محيصن والكسائي وورش عن

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٢ ، وأخرجه بنحوه عنهما الطبري ٢٠/ ١٦٨ .

(٢) في (م): كفر لا يرضاه.

(٣) ذكر هذه المسألة الرازي في تفسيره ٢٦/ ٢٤٦ -٢٤٧ .

(٤) ٢/ ١٠٤ وما بعدها.

(٥) قراءة أبي جعفر في رواية ابن جمّاز.

نافع[١]. واختلس الباقون.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تقدَّم في غير موضع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ يعني الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ أي: شدّة من الفقر والبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: راجعاً إليه، مُخْبِتاً مطيعاً له، مُستغيثاً به في إزالة تلك الشِّدَّة عنه.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: أعطاه وملّكه. يقال: خوّلك الله الشيء، أي: ملّكك إياه؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد:

هُنَالِكَ إن يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخْوِلوا ... وإن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يُغْلُوا[٣]

وخَوَلُ الرجل: حَشَمُه، الواحد خائل[٤]. قال أبو النّجم:

أَعْطَى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ ... كُومَ الذُّرى مِن خَوَلِ المُخَوِّلِ[٥]

---

(١) المشهور عن ورش أنه قرأ بضم الهاء من غير صلة. السبعة ص٥٦٠ ، والتيسير ص١٨٩ ، والنشر ١/ ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٢) ٩/ ١٤٥ و١٣/ ٤٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥٥ ، والبيت لزهير، ويروى: هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا يُخْبِلوا.. وقد سلف بهذه الرواية ١/ ٤٤٨ . وقوله: إن يَيْسِروا يُغلوا، أي: إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الجزر فيقامرون عليها، ولا ينحرون إلا غالية. قاله الشنتمري في شرح ديوان زهير ص٢٢ .

(٤) الصحاح (خول).

(٥) ديوان أبي النجم ص١٧٥ .

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربَّه الذي كان يدعوه من قبل في كَشْف الضُّر عنه. فـ «ما» على هذا الوجه لله عز وجل، وهي بمعنى الذي. وقيل: بمعنى مَنْ، كقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] والمعنى واحد. وقيل: نسي الدعاءَ الذي كان يتضرع به إلى الله عز وجل. أي: ترك كونَ الدعاء منه إلى الله، فـ «ما» والفعل على هذا القول مصدر[١]. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أوثاناً وأصناماً. وقال السّدي: يعني: أنداداً من الرجال يعتمدون عليهم في جميع أمورهم[٢]. ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي: ليقتديَ به الجُهَّال.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: قُلْ لهذا الإنسان: «تَمَتَّع» وهو أمرُ تهديد، فمتاع الدنيا قليل. ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: مصيرك إلى النار.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ بيَّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضَى ذِكْره. وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائي: «أَمَّنْ» بالتشديد. وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثَّاب والأعمش وحمزة: «أَمَنْ هو» بالتخفيف على معنى النداء[٣]؛ كأنه قال: يا من هو قانت. قال الفراء[٤]: الألف بمنزلة يا، تقول: يا زيدُ أقبِلْ، وأَزَيدُ أقبِلْ. وحُكِيَ ذلك عن سيبويه وجميع النحويين؛ كما قال أوسُ بن حَجَر:

أَبَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بِيَدٍ إِلَّا يداً ليست لها عَضُدُ[٥]

وقال آخر هو ذو الرُّمّة:

أداراً بِحُزْوَى هِجْتِ لِلعينِ عَبْرةً فماءُ الهوى يَرْفضُّ أو يَتَرَقْرَقُ[٦]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٧٣ بنحوه.

(٣) السبعة ص٥٦١ ، والتيسير ص١٨٩ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤١٦ .

(٥) ديوان أوس بن حَجَر ص٢١ .

(٦) ديوان ذي الرُّمة ١/ ٤٥٦ . قال شارحه أبو نصر: ماء الهوى، أراد الدمع الذي يدمعه من الهوى، يرفضّ: يسيل متفرقاً.

فالتقدير على هذا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يا مَنْ هو قانتٌ، إنَّك من أصحاب الجنة؛ كما يقال في الكلام: فلانٌ لا يُصلِّي ولا يصوم، فيا من يُصلِّي ويَصوم أَبْشِرْ؛ فحذف لدلالة الكلام عليه.

وقيل: إنَّ الألفَ في «أَمَنْ» ألفُ استفهام، أي: «أَمَنْ هو قَانتٌ آناءَ الليل» أفضلُ؟ أَمْ مَنْ جعل لله أنداداً؟ والتقدير: الذي هو قانتٌ خيرٌ.

ومَنْ شدَّد «أَمَّنْ» فالمعنى: العاصون المتقدِّم ذِكْرهم خيرٌ «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ»؟، فالجملة التي عادلت أَمْ محذوفة، والأصل: أَمْ مَنْ، فأدغمت في الميم. النحاس[١]: وأم بمعنى بل، ومَن بمعنى الذي؛ والتقدير: بل[٢] الذي هو قانتٌ أفضلُ ممن ذُكِرَ.

وفي قانت أربعةُ أوجه: أحدها: أنه المُطيع؛ قاله ابن مسعود. الثاني: أنه الخاشعُ في صلاته؛ قاله ابن شهاب. الثالث: أنه القائم في صلاته؛ قاله يحيى بن سلّام. الرابع: بأنه الداعي لربه[٣]. وقول ابن مسعود يجمع ذلك. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ قنوتٍ في القرآن فهو طاعةٌ لله عزّ وجلّ»[٤]. ورُوي عن جابر عن النبي ﷺ أنه سُئل: أيُّ الصلاة أفضل؟ فقال: «طولُ القنوت»[٥] وتأوَّله جماعةٌ من أهل العلم على أنه طُول القيام.

وروى عُبيد الله[٦] عن نافع عن ابن عمر سُئل عن القنوت فقال: ما أعرفُ القنوت إلا طولَ القيام، وقراءة القرآن. وقال مجاهد: من القنوت طولُ الركوع وغضُّ البصر، وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضُّوا أبصارَهم، وخضعوا ولم يلتفتوا في

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٥ - ٦ وما قبله منه بنحوه، وينظر الحجة للفارسي ٦/ ٩٢ - ٩٣.

(٢) في النسخ: أم، والمثبت من البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١١٧.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٢٩) وفي إسناده رِشْدين بن سعد، وهو ضعيف، كما في التقريب وسلف ١٦/ ٤١٦.

(٥) أخرجه مسلم (٧٥٦)، وسلف ٢/ ٣٣٤.

(٦) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ (والكلام منه): عبد الله، والمثبت موافق لمصادر التخريج، وهو عبيد الله بن عمر العمري، والأثر أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٠٦، والطبري ٢٠/ ١٧٦.

صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئاً من أمر الدنيا إلا ناسين.

قال النحاس[١]: أصلُ هذا أن القنوت الطاعة، فكلُّ ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل، فهذه الأشياء كلُّها داخلةٌ في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع: قال لي ابن عمر: قُمْ فصلِّ، فقمتُ أُصلِّي وكان عليَّ ثوبٌ خَلَقٌ، فدعاني فقال لي: أرأيتَ لو وجَّهتك في حاجة، أكنتَ تمضي هكذا؟ فقلت: كنت أتزيَّن، قال: فاللهُ أحقُّ أن تتزيَّن له[٢].

واختلف في تعيين القانت هاهنا، فذكر يحيى بن سلام أنه رسولُ الله ﷺ. وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن عمر: هو عثمانُ ﷺ. وقال مقاتل: إنه عمَّار بن ياسر. الكلبي: صُهَيب وأبو ذرّ وابن مسعود. وعن الكلبي أيضاً أنه مرسلٌ فيمن كان على هذه الحال[٣].

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال الحسن: ساعاته؛ أوله وأوسطه وآخره. وعن ابن عباس: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ جوف الليل[٤]. قال ابن عباس: مَن أحبَّ أن يُهوِّن الله عليه الوقوفَ يومَ القيامة، فَلْيَرَهُ اللهُ في ظُلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمةَ ربِّه[٥]. وقيل: ما بين المغرب والعشاء[٦]. وقول الحسن عامّ.

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ قال سعيد بن جُبير: أي: عذاب الآخرة[٧].

﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ أي: نعيم الجنة. ورُوي عن الحسن أنه سُئل عن رجل يتمادى

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٦ ، وما قبله منه.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في المصنف (١٣٩٠) و(١٣٩١).

(٣) النكت والعيون ٥/ ١١٧ ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٧٣ ، وزاد المسير ٧/ ١٦٦ - ١٦٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٧ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦ .

في المعاصي ويرجو فقال: هذا مُتَمَنٍّ[١].

ولا يقف على قوله: «رَحْمَةَ رَبِّهِ» مَن خفَّف «أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ» على معنى النداء؛ لأن قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ متصلٌ إلا أن يُقدَّر في الكلام حذفٌ، وهو أيسر[٢]، على ما تقدَّم بيانُه. قال الزجاج[٣]: أي: كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المُطيع والعاصي.

وقال غيره: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة مَن لم يعلم.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحاب العقول من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: قل: يا محمد لعبادي المؤمنين: ﴿ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اتقوا معاصِيَه، والتاء مُبدَلة من واو، وقد تقدم[٤]. وقال ابن عباس: يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة[٥]. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني بالحسنة الأُولى الطاعة، وبالثانية الثواب في الجنة. وقيل: المعنى: للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الدنيا، يكون ذلك زيادةً على ثواب الآخرة، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحةُ والعافية والظَّفَر والغَنيمة[٦]. قال القُشَيري: والأول أصحُّ؛ لأن الكافر قد ينال[٧] نِعَمَ الدنيا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢ - ٥٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٧، وما بعده منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧، وتقدم ١/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣ دون نسبة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١١٨ بنحوه.

(٧) في (م): نال.

قلت: وينالها معه المؤمن ويُزاد الجنةَ إذا شكر تلك النِّعم. وقد تكون الحسنة في الدنيا الثناءَ الحسن، وفي الآخرة الجزاء.

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجِروا فيها ولا تُقيموا مع من يعمل بالمعاصي. وقد مضَى القولُ في هذا مستوفى في «النساء»(١). وقيل: المراد أرضُ الجنة؛ رغَّبهم في سَعَتها وسَعَةِ نعيمها(٢)؛ كما قال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] والجنة قد تُسمَّى أرضاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] والأول أظهرُ، فهو أمر بالهجرة. أي: ارحلوا من مكةَ إلى حيث تأْمَنوا(٣).

الماوردي(٤): ويَحتمِلُ أن يُريدَ بسعة الأرض سَعَةَ الرِّزق؛ لأنه يرزقُهم من الأرض فيكون معناه: ورِزْقُ الله واسعٌ، وهو أشبهُ؛ لأنه أخرج سعتها مُخْرَجَ الامتنان.

قلت: فتكون الآيةُ دليلاً على الانتقال من الأرض الغالية إلى الأرض الراخية؛ كما قال سفيان الثوري: كن في موضعٍ تملأ فيه جِرابك خبزاً بدرهم.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير. وقيل: يُزاد على الثواب؛ لأنه لو أُعطيَ بقدر ما عَمِلَ لكان بحساب. وقيل: «بغير حسابٍ» أي: بغير متابعة ولا مُطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا(٥).

و«الصَّابِرُونَ» هنا الصائمون؛ دليله قولُه عليه الصلاة والسلام مُخبراً عن الله عزَّ وجلَّ: «الصومُ لي وأنا أجزي به»(٦). قال أهل العلم: كلُّ أجرٍ يُكال كيلاً ويُوزَن

---

(١) ٧/ ٦٥ وما بعدها.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١١٨.

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٥٣ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١١٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧.

(٦) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، وسلف ٢/ ٦٧.

وزناً إلا الصبر[١]، فإنه يُحْثَى حَثْواً ويُغرَف غَرْفاً؛ وحُكي عن علي ﷺ.

وقال مالك بن أنس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: هو الصبرُ على فجائع الدنيا وأحزانها. ولا شكَّ أن كل مَن سلَّم فيما أصابه، وترك ما نُهي عنه، فلا مقدارَ لأجره[٢].

وقال قتادة: لا والله، ما هناك مِكيال ولا ميزان؛ حدثني أنس أن رسولَ الله ﷺ قال: «تُنصَبُ الموازين، فيُؤتَى بأهل الصَّدَقة فيُوفَّون أُجورَهم بالموازين، وكذلك الصلاة والحج، ويُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان ولا يُنشر لهم ديوان، ويُصَبُّ عليهم الأجر بغير حساب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهلُ العافية في الدنيا أن أجسادهم تُقرَض بالمقاريض مما يذهبُ به أهل البلاء من الفضل»[٣].

وعن الحسن بن علي[٤] رضي الله عنهما قال: سمعتُ جدي رسول الله ﷺ يقول: «أَدِّ الفرائضَ تكن من أعبدِ الناس، وعليك بالقُنوع تكن من أغنى الناس، يا بُنيّ، إن في الجنة شجرةً يقال لها: شجرة البلوى، يُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، يُصبُّ عليهم الأجر صبّاً، ثم تلا النبيُّ ﷺ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾»[٥].

ولفظ صابر يُمدح به، وإنما هو لمن صَبَر عن المعاصي، وإذا أردتَ أنه صبر على

---

(١) في النسخ: الصوم، والمثبت موافق لمعنى ما في المصادر. ينظر النكت والعيون ٥/ ١١٩، وتفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٤٤ - ١٦٤٥.

(٣) قول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ١٧٩، وحديث أنس ﷺ أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٣٢٣.

(٤) في (د) و(ز) و(ف) و(م): الحسين بن علي، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لمصادر الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٦٠) دون قوله: «. . إن في الجنة شجرة. .» إلى آخره، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٣٥: وفيه سعد بن طريف، وهو ضعيف جداً. قلنا: قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: متروك، ورماه ابن حبان بالوضع. وقوله منه: «أَدِّ الفرائض تكن من أعبد الناس، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس» أخرجه الدارقطني في العلل ٥/ ٨٤ من حديث ابن مسعود ﷺ، وقال الدارقطني: رفعه وهم، والصحيح من قول ابن مسعود ﷺ.

المصيبة قلت: صابر على كذا؛ قاله النحاس[1]. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[2].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ تقدَّم أولَ السورة ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأُمة، وكذلك كان؛ فإنه كان أولَ من خالفَ دينَ آبائه، وخلع الأصنام وحطَّمها، وأسلم لله وآمنَ به، ودعا إليه ﷺ.

واللام في قوله: «لِأَنْ أَكُونَ» صلة زائدة؛ قاله الجُرجاني وغيره. وقيل: لام أَجْل. وفي الكلام حذف، أي: أُمرت بالعبادة «لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين».

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد عذابَ يوم القيامة. وقاله حين دعاه قومُه إلى دين آبائه؛ قاله أكثرُ أهل التفسير[3].

وقال أبو حمزة الثُّمالي وابن المسيَّب: هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فكانت هذه الآيةُ من قبل أن يُغفر ذنبُ النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ «اللهَ» نصب بـ «أَعْبُدُ»[4] ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ طاعتي وعبادتي. ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أمرُ تهديد ووعيد وتوبيخ؛ كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. وقيل: منسوخة بآية السيف[5].

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٧ .

(٢) ٢/ ٤٦٣ وما بعدها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٧٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧ .

(٥) زاد المسير ٧/ ١٦٩ ، قال ابن الجوزي: وهذا باطل، لأنه لو كان أمراً، كان منسوخاً، فأما أن يكون بمعنى الوعيد فلا وجه لنسخه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قال ميمون بن مِهْران عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وقد خلق اللهُ له زوجةً في الجنة، فإذا دخل النارَ خَسِرَ نَفْسَه وأهلَه[١]. وفي رواية عن ابن عباس: فمن عَمِلَ بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبلَ ذلك[٢]، وهو قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ سمَّى ما تحتهم ظُللاً؛ لأنها تُظِلُّ مَن تحتهم، وهذه الآية نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[٣] [الأعراف: ٤١]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ قال ابن عباس: أولياءه. ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: يا أَوليائي فخافون. وقيل: هو عامٌّ في المؤمن والكافر. وقيل: خاصٌّ بالكفار.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ قال الأخفش[٤]: الطاغوت جمع، ويجوز أن تكون واحدةً مؤنثة. وقد تقدم[٥]. أي: تباعدوا من الطاغوت، وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها. قال مجاهد وابن زيد: هو الشيطان. وقال الضحاك والسدي: هو الأوثان. وقيل: إنه الكاهن. وقيل: إنه اسمٌ أعجمي مثل:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٦٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨.

(٥) ٦/ ٤٦١.

طالوت وجالوت وهاروت، ماروت. وقيل: إنه اسم عربي مشتق من الطُّغيان(١)، و«أن» في موضع نصب بدلاً من الطاغوت، تقديره: والذين اجتنبوا عبادةَ الطاغوت. ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: رَجَعوا إلى عبادته وطاعته. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الحياة الدنيا بالجنة في العُقبى.

رُوي أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير ﷺ؛ سألوا أبا بكر ﷺ فأخبرهم بإيمانه فآمنوا. وقيل: نزلت في زيد بن عمرو ابن نُفيل وأبي ذرّ وغيرهما ممن وحّد الله تعالى قبل مبعث النبي ﷺ(٢).

وقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس: هو الرجلُ يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكفُّ عن القبيح فلا يتحدَّث به(٣). وقيل: يستمعون القرآنَ وغيره فيتَّبعون القرآن(٤). وقيل: يستمعون القرآن وأقوالَ الرسول فيتَّبعون أحسنه، أي: محكمه فيعملون به. وقيل: يستمعون عَزْماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص. وقيل: يستمعون العقوبةَ الواجبةَ لهم والعفوَ فيأخذون بالعفو(٥).

وقيل: إنَّ أحسنَ القول على من جعل الآية فيمن وحَّد الله قبلَ الإسلام «لا إله إلا الله».

وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت في زيد بن عمرو بن نُفيل وأبي ذرّ الغفاري وسلمان الفارسي، اجتنَبوا الطاغوتَ أن يعبدوها في جاهليتهم، واتَّبعوا أحسنَ ما صار من القول إليهم(٦).

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٢٠ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٠ ، وقول مجاهد وابن زيد أخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٥ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٢١ بنحوه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٦٣ .

(٥) المصدر السابق.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٢١ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٥ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ لما يرضاه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: الذين انتفعوا بعقولهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ كان النبي ﷺ يَحرِصُ على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشَّقاوة، فنزلت هذه الآية. قال ابن عباس: يُريد أبا لهب وولده ومَن تخلَّف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان[1]. وكرَّر الاستفهام في قوله: «أَفَأَنْتَ» تأكيداً لِطُول الكلام، وكذا قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] على ما تقدَّم. والمعنى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أفأنت تُنقذه. والكلام شرط وجوابه. وجيء بالاستفهام؛ ليدلَّ على التوقيف والتقرير. وقال الفراء[2]: المعنى: أفأنتَ تُنقذ من حقَّت عليه كلمةُ العذاب. والمعنى واحد. وقيل: إنَّ في الكلام حذفاً، والتقدير: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب ينجو منه، وما بعده مُستأنَف.

وقال: «أفمن حَقَّ عليه» وقال في موضع آخر: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [يونس: ٣٣] لأن الفعلَ إذا تقدَّم ووقع بينه وبين الموصوف به حائلٌ جاز التذكير والتأنيث، على أن التأنيثَ هنا ليس بحقيقي، بل الكلمة في معنى الكلام والقول؛ أي: أفمن حقَّ عليه قول العذاب.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ لما بيَّن أن للكفار ظُللاً من النار مِن فوقهم

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٥ بنحوه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ١٦٣ - ١٦٤، وما قبله وما بعده فيه بنحوه.

ومن تحتهم بيَّن أن للمتقين غُرَفاً فوقَها غرف؛ لأن الجنةَ درجاتٌ يعلو بعضُها بعضاً و«لَكِن» ليس للاستدراك؛ لأنه لم يأت نفي، كقوله: ما رأيتُ زيداً لكن عَمراً، بل هو لترك قصةٍ إلى قصة مُخالفةٍ للأُولى، كقولك: جاءني زيدٌ لكن عمرو لم يأتِ.

﴿غُرَفٌ مَّبۡنِيَّةٌ﴾ قال ابن عباس: مِن زَبَرجد وياقوت ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أي: هي جامعةٌ لأسباب النُّزهة.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ نصب على المصدر؛ لأن معنى «لهم غُرَفٌ»: وَعَدَهم الله ذلك وعداً. ويجوز الرفع بمعنى: ذلك وَعْدُ الله[١]. ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي: ما وعدَ الفريقين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي: إنه لا يُخلف الميعاد في إحياء الخَلْق، والتمييز بين المؤمن والكافر، وهو قادرٌ على ذلك كما أنه قادرٌ على إنزال الماء من السماء.

«أنزلَ مِنَ السَّماءِ» أي: من السَّحاب «ماءً» أي: المطر ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي: فأدخله في الأرض وأسكنه فيها؛ كما قال: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [المؤمنون:١٨]. ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَع يَنْبُع ويَنْبَع ويَنْبِعُ، بالرفع والنصب والخفض ـ النحاس[٢]: وحكى لنا ابنُ كَيْسان في قول الشاعر:

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ[٣]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٨/٤.

(٢) في إعراب القرآن ٨/٤، وما قبله منه.

(٣) قائله عنترة، وهو من معلقته. الديوان ص٢٢. وعجزه: زيَّافة مثل الفنيق المُكْدَم. والذِّفْرى من القفا: الموضع الذي يعرق من الإبل خلفَ الأذن، والغضوب: الناقة العبوس، والجَسْرة: الماضية في سيرها، والزيَّافة: مبالغة زائف؛ إذا تبختر في مشيه، والفنيق: الفحل. والمُكْدَم: الذي لا يُؤذى ولا يُركَب لكرامته على أهله. خزانة الأدب ١/ ١٢٤ - ١٢٥.

أنَّ معناه: يَنْبَع، فأشبع الفتحةَ فصارتْ ألفاً ـ نُبوعاً: خرج. واليَنْبوع عينُ الماء والجمع الينابيع[١]. وقد مضى في «سبحان»[٢].

«ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ» أي: بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿زَرْعًا﴾ هو للجنس، أي: زروعاً شتى لها ألوانٌ مختلفة، حُمرة وصُفرة وزُرقة وخُضرة ونوراً. قال الشعبي والضحاك: كلُّ ماء في الأرض فمن السماء نزل، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة، ثم تقسم منها العيون والرَّكايا. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ييبس. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ أي: بعد خُضرته ﴿مُصْفَرًّا﴾[٣].

قال المبرد: قال الأصمعي: يقال: هاجت الأرض تهيجُ إذا أَدبر نَبْتُها وولَّى. قال: وكذلك هاج النبتُ. قال: وكذلك قال غير الأصمعي[٤].

وقال الجوهري[٥]: هاج النبتُ هِياجاً، أي: يَبِسَ. وأرضٌ هائجة يَبِسَ بَقْلُها أو اصفرَّ، وأهاجت الريحُ النَّبْتَ: أَيْبسَتْه، وأهيجنا الأرضَ، أي: وجدْناها هائجةَ النبات، وهاج هائجه، أي: ثار غضبه، وهدأ هائجه، أي: سكنت فَوْرته.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: فُتاتاً مُكَسَّراً، من: تحطَّم العودُ، إذا تَفتَّتَ من اليبس[٦]. والمعنى: أن مَن قَدَر على هذا قَدَر على الإعادة. وقيل: هو مَثَلٌ ضربه الله للقرآن ولصدور مَن في الأرض، أي: أنزل من السماء قرآناً فسلكه في قلوب المؤمنين ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ديناً مُختلفاً بعضُه أفضلُ من بعض، فأما المؤمن فيزداد إيماناً ويقيناً، وأما الذي في قلبه مرضٌ فإنه يهيج كما يهيج الزرع. وقيل: هو مثلٌ ضربه الله للدنيا؛ أي: كما يتغير النبت الأخضر فيصفرّ كذلك الدنيا بعد بَهْجتها. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

---

(١) الصحاح (نبع).

(٢) ١٣/ ١٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٧٦ بنحوه، وقول الشعبي أخرجه الطبري ٢٠/ ١٨٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨ - ٩ .

(٥) في الصحاح (هيج).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ شرحَ: فتح ووسَّع. قال ابن عباس: وسَّع صدره للإسلام حتى ثبتَ فيه. وقال السدي: وسَّع صَدْره بالإسلام للفرح به والطُّمأنينة إليه؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشَّرح قبلَ الإسلام[1].

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على هُدىً من ربِّه كمن طبع على قلبه وأقساه. ودلَّ على هذا المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾[2]. قال المبرد: يقال: قسا القلبُ، إذا صَلُب، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها. وقلبٌ قاسٍ، أي: صُلْب لا يرقّ ولا يَلين[3]. والمراد بمن شرح الله صَدْرَه هاهنا فيما ذكر المفسرون عليٌّ وحمزةُ رضي الله عنهما[4]. وحكى النقَّاش أنه عمرُ بن الخطاب ﷺ. وقال مقاتل: عمار بن ياسر. وعنه أيضاً والكلبي: رسولُ الله ﷺ[5].

والآية عامةٌ فيمن شرح اللهُ صَدْره بِخَلْق الإيمان فيه.

وروى [عمرو بن] مُرَّة [عن أبي عبيدة][6] عن ابن مسعود قال: قلنا: يا رسولَ الله، قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرح وانفتح» قلنا: يا رسولَ الله، وما علامةُ ذلك؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢١، ونسب القول الأول لابن عباس رضي الله عنهما والسدي، ولم ينسب الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٢٢.

(٦) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج، وينظر التعليق التالي.

قبلَ نُزوله»[١]، وخرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث ابن عمر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي: المؤمنين أكيسُ؟ قال: «أكثرُهم للموت ذِكْراً، وأحسنُهم له استعداداً، وإذا دخل النورُ في القلب انفسح واستوسع» قالوا: فما آيةُ ذلك يا نبيَّ الله؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخُلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت»[٢] فذكر ﷺ خِصالاً ثلاثة، ولا شكَّ أن من كانت فيه هذه الخِصال فهو الكامل الإيمان، فإنَّ الإنابةَ إنما هي أعمال البر؛ لأن دارَ الخُلود إنما وضعت جزاءً لأعمال البر، ألا ترى كيف ذكره الله في مواضعَ في تنزيله، ثم قال بعقب ذلك: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] فالجنةُ جزاء الأعمال؛ فإذا انكمش العبدُ في أعمال البر فهو إنابتُه إلى دار الخلود، وإذا خَمَد حِرْصه عن الدنيا، ولَها عن طلبها، وأقبل على ما يُغنيه منها فاكتفى به وقَنِعَ، فقد تجافى عن دار الغرور. وإذا أَحكم أموره بالتقوى فكان ناظراً في كل أمر، واقفاً متأدِّباً مُتثبِّتاً حَذِراً يتورَّع عما يُريبه إلى ما لا يُريبه، فقد استعدَّ للموت. فهذه علامتُهم في الظاهر. وإنما صار هكذا لرؤية الموت، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا، ورؤية الدنيا أنها دارُ الغرور، وإنما صارت له هذه الرؤيةُ بالنور الذي وَلَج القلب[٣].

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قيل: المراد أبو لهب وولده، ومعنى: «مِنْ ذِكْرِ اللهِ» أن قلوبهم تزداد قسوةً من سماع ذِكْره. وقيل: إن «مِن» بمعنى عن والمعنى: قَسَتْ عن قَبول ذِكْر الله. وهذا اختيار الطبري[٤].

---

(١) وهو حديث ضعيف جداً، قال الدارقطني في العلل ١٨٩/٥: يرويه عمرو بن مرة، واختلف عنه... وذكر عدة طرق له ثم قال: وكلها وهم، والصواب: عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ، كذلك قاله الثوري، وعبد الله بن المسور هذا متروك. اهـ قلنا: وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه ابن مسعود ﷺ، وقد سلف الحديث ٢٣/٩، ينظر ما ذكرناه ثمة.

(٢) نوادر الأصول ص١٢٥ - ١٢٦. وأخرجه مختصراً ابن ماجه (٤٢٥٩) وفي إسناده نافع بن عبد الله عن فروة بن قيس، وهما مجهولان كما في التقريب.

(٣) نوادر الأصول ص١٢٧.

(٤) تفسير الطبري ١٩٠/٢٠، وينظر زاد المسير ١٧٤/٧.

وعن أبي سعيد الخُدري أن رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: اطلُبوا الحوائج من السُّمَحاء، فإني جعلتُ فيهم رحمتي، ولا تطلبوها من القاسية قُلوبهم، فإني جعلتُ فيهم سَخَطي»(١).

وقال مالك بن دينار: ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قسوة قلب، وما غَضِبَ اللهُ على قوم إلا نَزَعَ الرحمةَ من قلوبهم(٢).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن لما قال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ بيَّن أن أحسنَ ما يُسمع ما أنزله الله، وهو القرآن. قال سعدُ بن أبي وقَّاص: قال أصحابُ رسول الله ﷺ: لو حدَّثتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فقالوا: لو قصصتَ علينا فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] فقالوا: لو ذكَّرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية(٣) [الحديد: ١٦].

وعن ابن مسعود ﷺ أن أصحابَ رسول الله ﷺ مَلُّوا مَلَّة فقالوا له: حدِّثنا، فنزلتْ(٤).

---

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٢/٢٨٦ ، بلفظ: «إن الله يقول: اطلبوا الفضل من الرُّحَماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم...». وفي إسناده محمد بن مروان السدي كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات، لا يحل كتابة حديثه إلا على جهة الاعتبار، قاله ابن حبان، وينظر لسان الميزان ٣/٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/٥٢٧ ، وتفسير البغوي ٤/٧٦ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٢/٤٠٨ ، وسلف ١١/ ٢٤٠ دون قولهم: لو ذكّرتنا...

(٤) المحرر الوجيز ٣/٢١٨ - ٢١٩ .

والحديث ما يُحدِّثُ به المُحدِّث. وسُمِّي القرآن حديثاً؛ لأن رسولَ الله ﷺ كان يُحدِّث به أصحابَه وقومَه، وهو كقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩] وقوله: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤].

قال القشيري: وتوهَّم قومٌ أن الحديثَ من الحُدوث، فليدلَّ على أن كلامه مُحدَث، وهو وهم؛ لأنه لا يُريد لفظَ الحديث على ما في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وقد قالوا: إنَّ الحُدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المَتْلوّ، وهو كالذِّكر مع المذكور، إذا ذكرنا أسماءَ الربّ تعالى.

﴿كِتَٰبًا﴾ نصب على البدل من «أَحْسَنَ الحَدِيثِ» ويَحتمل أن يكون حالاً منه. ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ يُشبه بعضُه بعضاً في الحُسن والحِكمة ويُصدِّق بعضُه بعضاً[١]، ليس فيه تناقضٌ ولا اختلاف. وقال قتادة: يُشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف. وقيل: يُشبه كُتبَ الله المُنزلة على أنبيائه؛ لما يتضمَّنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإنْ كان أعمَّ وأعجزَ[٢]. ثم وصفه فقال: ﴿مَّثَانِىَ﴾ تُثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، وثُني للتلاوة فلا يُمَلّ.

﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عند آية الرحمة. وقيل: إلى العمل بكتاب الله والتصديق به. وقيل: «إِلى ذِكْرِ اللهِ» يعني الإسلام.

الثانية: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: كان أصحابُ النبي ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن كما نَعتَهم الله؛ تدمع أعينُهم وتقشعرُّ جلودهم. قيل لها: فإن أناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خَرَّ أحدُهم مَغْشِيّاً عليه. فقالت: أعوذُ بالله

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ١٩١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٢٢ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ١٩١ .

من الشيطان الرجيم.

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجُمحي: مرَّ ابنُ عمر برجل من أهل القرآن ساقط فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قُرئ عليه القرآن وسَمِعَ ذِكْر الله سقط. فقال ابن عمر: إنا لَنخشى الله وما نسقط. ثم قال: إن الشيطانَ يدخلُ في جوف أحدِهم؛ ما كان هذا صنيعَ أصحاب محمد ﷺ[١].

وقال عمر بن عبد العزيز: ذُكر عند ابن سيرين الذين يُصرعون إذا قُرئ عليهم القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدُهم على ظهر بيت باسطاً رجليه، ثم يُقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإنْ رمى بنفسه فهو صادق[٢].

وقال أبو عِمران الجوني: وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذاتَ يوم فشقّ رجلٌ قميصه، فأوحى الله إلى موسى: قل لصاحب القميص: لا يشقَّ قميصَه، فإني لا أُحِبُّ المُبذرين؛ يشرح لي عن قلبه[٣].

الثالثة: قال زيد بن أسلم: قرأ أُبيّ بن كعب عند النبي ﷺ ومعه أصحابه[٤] فرقّوا، فقال النبيُّ ﷺ: «اغتنموا الدُّعاء عند الرِّقة، فإنها رحمةٌ»[٥]. وعن العباس أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: «إذا اقشعرَّ جلدُ المؤمن من مَخافةِ الله تحاتَّتْ عنه خطاياه كما يَتحاتُّ عن الشجرة البالية ورقُها»[٦].

وعن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما اقشعرَّ جلدُ عبدٍ من خَشيةِ الله إلا حرَّمه اللهُ على النار»[٧]. وعن شهر بن حَوْشَب عن أُمِّ الدرداء قالت: إنما الوجل في

(١) أخرج الخبرين البغوي في تفسيره ٤/ ٧٧ ، وذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٨ .

(٢) المصدران السابقان دون ذكر عمر بن عبد العزيز ﷺ، ولم نقف عليه من قوله.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣١٤ - ٣١٥ .

(٤) قوله: ومعه أصحابه، من (م).

(٥) أخرجه الشهاب في مسنده (٦٩٢) وهو مرسل، فإن زيداً لم يدرك أُبيّاً ﷺ.

(٦) أخرجه البزار في مسنده (١٣٢٢).

(٧) لم نقف عليه.

قلب الرجل كاحتراق السَّعفة، أما تَجِدُ إلا قُشَعْريرة؟ قلت: بلى؛ قالت: فادعُ اللهَ، فإن الدعاء عند ذلك مُستجاب[١]. وعن ثابت البُنَاني قال: قال فلان: إني لأعلمُ متى يُستجاب لي. قالوا: ومن أين تعلم ذلك؟ قال: إذا اقشعرَّ جلدي، ووَجِلَ قلبي، وفاضتْ عيناي، فذلك حين يُستجاب لي[٢].

يقال: اقشعرّ جلدُ الرجل اقشعراراً فهو مُقْشَعِرّ، والجمع قشاعر، فَتُحذَف الميم، لأنها زائدة؛ يقال: أخذَتْه قُشَعْريرة[٣]. قال امرؤ القيس:

فَبِتُّ أكابِدُ ليلَ التِّمَا ... مِ والقلبُ مِن خشيةٍ مُقْشَعِرّ[٤]

وقيل: إن القرآنَ لما كان في غاية الجَزالة والبلاغة، فكانوا إذا رَأَوْا عَجْزَهم عن معارضته، اقشعرَّت الجلودُ منه إعظاماً له، وتَعجُّباً من حُسن ترصيفه[٥] وتَهَيُّباً لِمَا فيه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فالتصدُّع قريبٌ من الاقشعرار، والخُشوع قريبٌ من قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ومعنى لين القلب رِقَّته وطمأنينته وسُكونه.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن هُدَى الله. وقيل: أي: الذي وهبه اللهُ لهؤلاء من خَشية عقابه ورجاء ثوابه هُدَى الله[٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مَن خَذَله فلا مُرشِدَ له. وهو يردُّ على القَدَرية وغيرهم. وقد مضى معنى هذا كلِّه مستوفىً في غير موضع، والحمد لله.

ووقف ابن كثير وابن مُحيصن على قوله: «هادٍ» في الموضعين بالياء، الباقون بغير ياء[٧].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٣٨).
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١١٣٩)، وذكره الحكيم في نوادر الأصول ص١١٤ .
(٣) الصحاح (قشعر).
(٤) ديوان امرئ القيس ص١٥٨ . قال شارحه: ليل التِّمام: أطول ليل في الشتاء.
(٥) في (م): ترصيعه.
(٦) المحرر الوجيز ٥٢٨/٤ ، وزاد المسير ١٧٨/٧ بمعناه.
(٧) السبعة ص٣٦٠ ، والتيسير ص١٣٣ .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال عطاء وابن زيد: يُرْمَى به مكتوفاً في النار، فأوّل شيء تَمسُّ منه النار وجهه. وقال مجاهد: يُجَرُّ على وجهه في النار. وقال مقاتل: هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولةً يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت، فتشتعل النار في الحجر وهو مُعلَّق عنقه، فحرُّها ووَهجها على وجهه؛ لا يُطيق دَفْعها عن وجهه من أجل الأغلال[(١)].

والخبر محذوف. قال الأخفش[(٢)]: أي: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أفضلُ أَمْ من سَعِدَ، مثل: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: وتقول الخَزنة للكافرين: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاءَ كَسْبِكُم من المعاصي. ومثله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تقدَّم معناه[(٣)]. وقال المبرد: يقال لكلِّ ما نال الجارحة من شيء: قد ذاقته، أي: وصل إليها كما تَصِلُ الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما. قال: والخِزي المكروه[(٤)]، والخَزاية من الاستحياء[(٥)].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٧.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٩.

(٣) ٢/ ٣٢٤.

(٤) في (م): من المكروه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩ - ١٠.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل مثل يحتاجون إليه؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] وقيل: أي: ما ذكرنا[١] من إهلاك الأُمم السالفة مَثَلٌ لهؤلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتَّعظون.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال. قال الأخفش[٢]: لأن قوله جلّ وعزّ: «في هذا القرآن» معرفة. وقال علي بن سليمان: «عَرَبيّاً» نصب على الحال، و«قُرْآناً» توطئة للحال كما تقول: مررتُ بزيد رجلاً صالحاً، فقولك: صالحاً هو المنصوبُ على الحال. وقال الزجاج[٣]: «عَرَبيّاً» منصوب على الحال و«قُرْآناً» توكيد.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ النحاس[٤]: أحسنُ ما قيل فيه قول الضحاك: قال: غير مختلف. وهو قول ابن عباس، ذكره الثعلبي[٥]. وعن ابن عباس أيضاً: غير مخلوق، ذكره المهدوي[٦] وقاله السدي فيما ذكره الثعلبي. وقال عثمان بن عفان: غير مُتضاد. وقال مجاهد: غير ذي لَبْس. وقال بكر بن عبد الله المُزَني: غير ذي لَحْن[٧]. وقيل: غير ذي شكٍّ. قاله السُّدي فيما ذكره الماوردي[٨]. قال:

---

(١) في (م): ما ذكرناه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠ وما بعده منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ١٠ ، وما قبله منه.

(٥) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ .

(٦) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٧٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ .

(٨) في النكت والعيون ٥/ ١٢٤ .

وقـد أتـاكَ يـقـيـنٌ غـيـرُ ذي عِـوَجٍ   مِـن الإلـهِ وقـولٌ غـيـرُ مـكـذوبِ[١]

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكُفرَ والكذب.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ قال الكسائي: نصب «رَجُلاً» لأنه ترجمةٌ للمَثَل وتفسيرٌ له[٢]، وإن شئتَ نصبته بنزع الخافض، مجازه: ضرب الله مثلاً برجل ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾[٣].

قال الفرّاء[٤]: أي: مختلفون. وقال المبرّد: أي: متعاسرون، من: شَكِسَ يَشْكَسُ شَكَساً، فهو شَكِسٌ، مثل: عَسِرَ يَعْسَرُ عَسَراً، فهو عَسِرٌ، يقال: رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرِسٌ وضَبِسٌ. ويقال: رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ، أي: شَرِسٌ عَسِرٌ شَكِسٌ؛ قاله الجوهري[٥].

الزمخشري[٦]: والتشاكسُ والتشاخسُ الاختلافُ. يقال: تشاكسَتْ أحوالُه وتشاخسَتْ أسنانُه.

ويقال: شاكسني فلان، أي: ما كسني وشاحّني في حقِّي. قال الجوهري[٧]: رجل شَكْس ـ بالتسكين ـ أي: صَعْب الخُلُق. قال الراجز:

شَـكْـسٌ عَـبُـوسٌ عَـنْـبَـسٌ عَـذَوَّرُ

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٩٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩ .

(٤) معاني القرآن ٢/ ٤١٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠ وما بعده منه.

(٥) في الصحاح (ضبس).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٩٧ .

(٧) في الصحاح (شكس).

وقوم شُكُسٌ، مثال: رَجلٌ صَدْق، وقوم صُدْق. وقد شَكِس ـ بالكسر ـ شَكَاسةً. وحكى الفراء[١]: رجل شَكِسٌ. وهو القياس، وهذا مَثَلُ مَنْ عَبَدَ آلهةً كثيرة.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً لِسيِّد واحد، وهو مَثَلُ مَنْ يعبد اللهَ وحدَه. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ هذا الذي يخدُم جماعةَ شُركاءَ، أخلاقُهم مختلفة، ونيَّاتهم مُتباينة، لا يلقاه رجلٌ إلا جرَّه واستخدمه؛ فهو يَلقى منهم العَناء والنَّصَب والتعب العظيم، وهو مع ذلك كلِّه لا يُرضي واحداً منهم بخدمته لِكَثْرة الحقوق في رقبته، والذي يخدُم واحداً لا يُنازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحدَه عَرَفَ ذلك له؛ وإن أخطأ صَفَحَ عن خطئه، فأيهما أقلُّ تعباً أو على هُدى مستقيم[٢].

وقراءة أهل الكوفة وأهل المدينة: «وَرَجُلاً سَلَماً» وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الحَجْدَري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب: «وَرَجُلاً سَالِماً»[٣] واختاره أبو عُبيد لِصحة التفسير فيه. قال: لأن السالمَ الخالصُ ضدُّ المُشتَرك، والسَّلم ضِدّ الحرب، ولا موضعَ للحربِ هنا.

النحاس[٤]: وهذا الاحتجاجُ لا يلزم، لأن الحرفَ إذا كان له مَعنيان لم يُحمل إلا على أَولاهما، فهذا وإن كان السَّلمُ ضدَّ الحرب فله موضعٌ آخر؛ كما يقال: لك في هذا المنزل شُركاء فصار سَلَماً لك. ويلزمه أيضاً في سالم ما ألزم غيره؛ لأنه يقال: شيء سالم، أي: لا عاهةَ به. والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة.

واختار أبو حاتم قراءةَ أهل المدينة «سَلَماً» قال: وهذا الذي لا تنازع فيه. وقرأ سعيد بن جُبير وعكرمة وأبو العالية ونصر: «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام[٥].

---

(١) نقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (شكس).

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٢٤ ، والكشاف ٣/ ٣٩٦ - ٣٩٧ ، وزاد المسير ٧/ ١٧٩-١٨٠ .

(٣) السبعة ص ٥٦٢ ، والتيسير ص١٨٩ ، والنشر ٢/ ٣٦٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ١٠ - ١١ ، وما قبله منه.

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠ عن سعيد بن جبير.

وسِلْماً وسَلَماً مصدران، والتقدير: ورجلاً ذا سلم فحذف المضاف. و«مَثَلاً» صفةً، على التمييز، والمعنى: هل تستوي صِفتاهما وحالاهما. وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لِبيان الجنس[(١)]. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ فيتبعونه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقرأ ابن مُحيصن وابن أبي عَبْلة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «إِنَّكَ مَائِتٌ وإِنَّهُمْ مَائِتُونَ» وهي قراءةٌ حسنةٌ، وبها قرأ عبدالله ابن الزُّبير[(٢)]. النحاس[(٣)]: ومثل هذه الألف تُحذف في الشواد[(٤)]، و«مائت» في المستقبل كثيرٌ في كلام العرب؛ ومثلُه: ما كان مريضاً وإنه لمارض من هذا الطعام.

وقال الحسن والفراء والكسائي: الميّت بالتشديد: من لم يَمُتْ وسيموت، والمَيْت بالتخفيف: مَنْ فارقته الروح؛ فلذلك لم تُخفف هنا[(٥)]. قال قتادة: نُعِيتْ إلى النبي ﷺ نَفْسُه، ونُعِيَتْ إليكم أنفسُكم[(٦)]. وقال ثابت البُناني: نَعَى رجلٌ إلى صِلَةَ ابن أَشْيَم أخاً له فوافقه يأكل، فقال: ادْنُ فَكُلْ، فقد نُعِيَ إليَّ أخي منذ حين؛ قال: وكيف وأنا أوّل من أتاك بالخبر. قال: إن الله تعالى نعاه إليّ فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[(٧)].

وهو خطابٌ للنبي ﷺ أخبره بموته وموتهم؛ فاحتمل خمسةَ أوجه: أحدها أن

---

(١) الكشاف ٣/٣٩٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١.

(٣) إعراب القرآن ٤/ ١١، وما قبله منه.

(٤) في (د) و(ز) و(م): الشواذ، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن.

(٥) ذكر قول الفراء والكسائي البغوي في تفسيره ٤/٧٨.

(٦) ذكره العيني في عمدة القاري ١٨/ ٦٠.

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/٢٣٨. وصلة بن أَشْيَم: أبو الصهباء، العدوي، البصري، زوج العالمة معاذة العدوية، مات سنة (٦٢هـ). السير ٣/٤٩٧.

يكون ذلك تحذيراً من الآخرة. الثاني: أن يُذكِّره حثّاً على العمل. الثالث: أن يُذكِّره توطئة للموت. الرابع: لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأُمَمُ في غيره، حتى إن عمرَ ﷺ لما أنكر موتَه احتجَّ أبو بكر ﷺ بهذه الآية فأمسك. الخامس: لِيُعْلمه أن الله تعالى قد سوَّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره؛ لِتكثر فيه السَّلوة وتقلَّ فيه الحَسْرة[١].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم؛ قاله ابن عباس[٢] وغيره. وفي خبر فيه طول: إن الخصومةَ تبلغ يومَ القيامة إلى أن يُحاجَّ الروحُ الجسد[٣].

وقال الزبير: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول الله، أيُكَرَّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواصِّ الذنوب؟ قال: «نعم، لَيُكرَّرنَّ عليكم حتى يؤدَّى إلى كل ذي حقٍّ حقَّه» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد[٤].

وقال ابن عمر: لقد عِشنا بُرهةً من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابَيْن ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فقلنا: وكيف نختصمُ ونبينا واحد وديننا واحد، حتى رأيتُ بعضنا يضربُ وجوهَ بعض بالسيف؛ فعرفتُ أنها فينا نزلت[٥].

وقال أبو سعيد الخُدري: كنا نقول: ربنا واحد، وديننا واحد، ونبيُّنا واحد فما هذه الخصومة. فلما كان يوم صِفِّين وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٥ ، وخبر إنكار عمر ﷺ موتَ النبي ﷺ عند البخاري (١٢٤١) وسلف ٥/ ٣٤٢ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠١ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠ .

(٤) أخرجه أحمد (١٤٣٤) بهذا اللفظ، وأخرجه الترمذي (٣٢٣٦) بنحوه مختصراً.

(٥) ذكره بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ ، وأخرجه بنحوه النسائي في الكبرى (١١٣٨٣)، والطبري ٢٠/ ٢٠٢ ، وقوله: حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف. يعني فتنة مقتل عثمان ﷺ.

وقال إبراهيم النَّخَعي: لما نزلت هذه الآية جعل أصحابُ رسول الله ﷺ يقولون: ما خصومتنا بيننا؟ فلما قُتل عثمان ﵁ قالوا: هذه خصومتنا بيننا(١).

وقيل: تخاصُمهم هو تحاكُمهم إلى الله تعالى، فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مَظْلِمته، ويردُّها في حسنات مَن وَجَبتْ له.

وهذا عامٌّ في جميع المظالم، كما في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المُفْلس؟» قالوا: المُفْلس فينا مَن لا درهمَ له ولا مَتاع. قال: «إنَّ المفلسَ من أمّتي مَن يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دم هذا، وضرب هذا، فيعطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإنْ فَنِيتْ حسناتُه قبل أن يُقْضَى(٢) ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحت عليه، ثم طُرِحَ في النار» خرجه مسلم(٣). وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «آل عمران».

وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «من كانت له مَظْلِمةٌ لأحد(٤) من عِرْضه أو شيء فَلْيتحلله منه اليومَ قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرهم، إن كان له عملٌ صالح أُخِذَ منه بقدر مَظْلِمته وإن لم تكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئات صاحبه فحمل عليه»(٥) وفي الحديث المسند: أوّلُ ما تقع الخُصومات في الدنيا(٦). وقد ذكرنا هذا الباب كلَّه في «التذكرة» مستوفى(٧).

---

(١) ذكر هذا الخبر والذي قبله البغوي في تفسيره ٤/ ٧٨ . وقول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٢ .

(٢) في النسخ: قبل انقضاء، والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح مسلم، والحديث منه كما سيأتي.

(٣) الحديث (٢٥٨١)، وسلف ٥/ ٤١٤ .

(٤) في النسخ: من كانت له عنده لأخيه مظلمة. والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح البخاري.

(٥) صحيح البخاري (٢٤٤٩) وسلف ٢/ ٧٦ .

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (برواية نعيم بن حماد) (٣٨٨) من قول ابن مسعود ﵁ مطولاً بلفظ: إن الله يجمع الناس في صعيد واحد... ثم يكون أول ما يبدؤون من الخصومات في الدنيا، فيؤتى بالقاتل والمقتول...

(٧) ص٢٦٧ .

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزعم أنَّ له ولداً وشريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ يعني القرآن، ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ استفهامُ تقرير ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مقامٌ للجاحدين(١)، وهو مشتقٌّ من: ثَوَى بالمكان، إذا أقام به يَثْوِي ثَوَاء وثُوِيّاً، مثل: مَضَى مَضَاء ومُضِيّاً(٢)، ولو كان من أَثْوَى لكان مُثْوًى. وهذا يدلّ على أن ثَوَى هي اللغةُ الفصيحة. وحكى أبو عُبيدة(٣): أثوى، وأنشد قول الأعشى:

أَثْـوَى وقَـصَّـر لَـيْـلَـةً لِـيُـزَوَّدا ومَضَى وأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدا(٤)

والأصمعيُّ لا يعرف إلا ثَوَى، ويروي البيت: أَثَوَى، على الاستفهام. وأَثْوَيتُ غيري يتعدَّى ولا يتعدَّى(٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(٦)، واختلف في الذي جاء بِالصدقِ وصَدَّقَ بِهِ؛ فقال عليٌّ ﷺ: «الذي جاءَ بالصِّدْق» النبيُّ ﷺ، «وَصدَّقَ بِهِ» أبو بكر ﷺ(٧). وقال مجاهد: النبيُّ عليه الصلاة والسلام وعليّ ﷺ(٨). السّدي: الذي جاء بالصِّدق جبريلُ ﷺ، والذي صدَّق به

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٩ .
(٢) الصحاح (ثوي).
(٣) في النسخ: أبو عبيد، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١ ، والكلام منه.
وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٠٧ .
(٤) ديوان الأعشى ص٢٧٧ .
(٥) الصحاح (ثوي).
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ .
(٧) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٤ .
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١ .

محمدٌ ﷺ[١]. وقال ابن زيد ومقاتل وقتادة: «الذي جاءَ بِالصِّدْق» النبيُّ ﷺ «وَصَدَّقَ به» المؤمنون. واستدلوا على ذلك بقوله: «أولئك هم المُتَّقُونَ»[٢]، كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال النَّخَعي ومجاهد: «الذي جاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّقَ به» المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يومَ القيامة فيقولون: هذا الذي أعطيتمُونا قد اتَّبعنا ما فيه[٣]؛ فيكون «الذي» على هذا بمعنى جمع، كما تكون مَنْ بمعنى جمع، وقيل: بل حُذفت منه النون لِطُول الاسم. وتأوَّله الشعبي على أنه واحد، وقال: «الذي جاءَ بِالصِّدْقِ» محمد ﷺ، وصدَّق به محمد ﷺ[٤]، فيكون على هذا خبره جماعة؛ كما يقال لمن يُعظَّم: هو فعلوا، وزيد فعلوا كذا وكذا.

وقيل: إن ذلك عامٌّ في كل مَن دعا إلى توحيد الله عز وجل؛ قاله ابن عباس وغيره، واختاره الطبري[٥].

وفي قراءة ابن مسعود: «والذي جَاؤُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ»[٦] وهذه قراءة على التفسير. وفي قراءة أبي صالح الكوفي: «والذي جاءَ بِالصِّدْق وصَدَقَ به» مُخَفَّفاً على معنى: وصَدَقَ بمجيئه به، أي: صَدَقَ في طاعة الله عز وجل[٧]، وقد مضى في «البقرة» الكلامُ في «الَّذِي» وأنه يكون واحداً ويكون جمعاً[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٧٩، وقول قتادة وابن زيد أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٥.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٠٦ عن مجاهد.

(٤) قوله وصدَّق به محمد ﷺ، ليس في (د) و(ز) و(م)، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢ وعبارته: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وصدَّق به أبو بكر الصديق ﷺ والصحابة. والمثبت من (ظ) ونسخة من إعراب القرآن للنحاس أشار إليها محققه، وهو الصواب.

(٥) في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٦، وأخرج قول ابن عباس ﷺ ٢٠/ ٢٠٤.

(٦) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣١، والدر المصون ٩/ ٤٢٧، ووقع في القراءات الشاذة: جاء، بدل: جاؤوا.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢، وقراءة أبي صالح في المحتسب ٢/ ٢٣٧.

(٨) ١/ ٣٢٠ - ٣٢١.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من النعيم في الجنة، كما يقال: لك إكرامٌ عندي؛ أي: ينالك: مني ذلك. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الثَّناء في الدنيا والثوابُ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: صَدَّقوا «لِيُكَفِّرَ اللهُ عنهم» ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي: يُكرمهم ولا يُؤاخذهم بما عملوا قبلَ الإسلام ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: يُثيبهم على الطاعات في الدنيا ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ حُذفت الياء من «كاف» لِسُكونها وسكون التنوين بعدها؛ وكان الأصل ألا تُحذف في الوقف لِزوال التنوين، إلا أنها حُذفت لِيُعْلَمَ أنها كذلك في الوصل. ومن العرب من يُثبتها في الوقف على الأصل فيقول: كافي[(١)].

وقراءة العامة: «عَبْدَهُ» بالتوحيد؛ يعني محمداً ﷺ يَكفيه اللهُ وعيدَ المشركين وكَيْدَهم. وقرأ حمزة والكسائي: «عِبَادَهُ»[(٢)] وهم الأنبياء، أو الأنبياء والمؤمنون بهم. واختار أبو عُبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[(٣)]. ويَحتمِلُ أن يكون العبدُ لفظ الجنس؛ كقوله عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] وعلى هذا تكون القراءةُ الأولى راجعةً إلى الثانية.

والكفاية [من][(٤)] شر الأصنام، فإنهم كانوا يُخوِّفون المؤمنين بالأصنام، حتى قال إبراهيم عليه السلام. ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢.
(٢) السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٨٨.
(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٨١.
(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

﴿بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال الجُرجاني: إنَّ الله كافٍ عبدَه المؤمن وعبدَه الكافر، هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وذلك أنهم خوَّفوا النبيَّ ﷺ مَضرَّةَ الأوثان، فقالوا: أتسبُّ آلهتَنا؟ لئن لم تَكُفَّ عن ذِكْرِها لَتَخْبِلَنَّكَ أو تُصيبنَّك بسوء[1]. وقال قتادة: مشى خالدُ بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرَها بالفأس، فقال له سادِنها: أُحَذِّرُكَها يا خالد، فإن لها شدّةً لا يقوم لها شيء، فعَمَدَ خالد إلى العُزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس[2]. وتخويفُهم لخالد تخويفٌ للنبيِّ ﷺ؛ لأنه الذي وجَّه خالداً. ويدخل في الآية تخويفُهم النبيّ ﷺ بِكَثْرة جَمْعهم وقُوَّتِهم؛ كما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ تقدَّم. ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: ممن عاداه أو عادَى رُسُلَه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولئن سألتَهم يا محمد ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ بيَّنَ أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقِرُّون بأنَّ الخالقَ هو الله، وإذا

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٢ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٠.

كان الله هو الخالقَ فكيف يُخوِّفونَك بآلهتهم التي هي مخلوقةٌ لله تعالى، وأنت رسولُ اللهِ الذي خلقها وخلقَ السماواتِ والأرضَ؟!.

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ أي: قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا: «أفرأيتُم» ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلاء ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ يعني هذه الأصنام ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ نعمة ورَخاء ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ قال مقاتل: فسألهم النبيُّ ﷺ فسكتوا[(١)]. وقال غيره: قالوا: لا تَدْفَعُ شيئاً قدَّره الله، ولكنها تشفع، فنزلت: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه؛ يعني فسيقولون: لا، ف «قُلْ» أنت: «حَسْبِيَ اللهُ» أي: عليه توكَّلتُ، أي: اعتمدتُ و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعتمد المعتمدون[(٢)]. وقد تقدّم الكلام في التوكل[(٣)].

وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا عاصماً: «كَاشفَاتُ ضُرِّه» بغير تنوين[(٤)]. وقرأ أبو عمرو وشيبة ـ وهي المعروفة من قراءة الحسن ـ وعاصم[(٥)]: «هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ»، «مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ» بالتنوين على الأصل[(٦)]، وهو اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم؛ لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال، وإذا كان كذلك كان التنوين أجودَ. قال الشاعر:

الضاربون عُمَيْراً عن بيوتهم ... بالليل يوم عُمَير ظالمٌ عادي[(٧)]

ولو كان ماضياً لم يَجُزْ فيه التنوين، وحذفُ التنوين على التخفيف[(٨)]، فإذا

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٠.
(٢) الكلام السالف في تفسير الطبري ٢٠/ ٢١١-٢١٢ بنحوه.
(٣) ٥/ ٢٩١ و٣٨٥.
(٤) السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠، وقراءة عاصم المشهورة عنه بغير تنوين، وقرأ بها ابن عامر أيضاً.
(٥) هذه رواية الكسائي عن أبي بكر عن عاصم، كما في السبعة ص٥٦٢، وهو غير المشهورة عنه.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣.
(٧) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٨٨، وفي الحُلل للبطليوسي ص١١٩.
(٨) في (ف) و(م): التحقيق، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣، والكلام منه.

حذفت التنوين لم يَبْقَ بين الاسمين حاجزٌ، فخفضت الثاني بالإضافة. وحذفُ التنوين كثيرٌ في كلام العرب موجودٌ حسن؛ قال الله تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] وقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ [القمر: ٢٧] قال سيبويه: ومثل ذلك ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] وأنشد سيبويه[١]:

هل أنتَ باعِثُ دِينارٍ لحاجتِنا أو عَبْدَ رَبٍّ أخا عَوْنِ بنِ مِخْراقِ[٢]

وقال النابغة:

احْكُمْ كَحُكْمِ فتاةِ الحَيِّ إذْ نَظَرَتْ إلى حَمَامِ شِراعٍ وارِدِ الثَّمَدِ[٣]

معناه: واردِ الثَّمَدَ، فحذف التنوين؛ مثل «كَاشِفَاتُ ضُرِّه»[٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي: على مكانتي، أي: على جهتي التي تمكَّنَتْ عندي[٥] ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقرأ أبو بكر: «مَكَانَاتِكُمْ» وقد مضى في «الأنعام»[٦]. ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يُهينه ويُذِلُّه، أي: في الدنيا، وذلك بالجوع والسيف. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تقدَّم الكلامُ في هذه الآيةِ مستوفىً في غير موضع[٧].

---

(١) في الكتاب ١/ ١٧١.

(٢) قال البغدادي في الخزانة ٨/ ٢١٩: والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، وقال ابن خلف: وقيل: هو لجابر بن رألان السِّنبسي، وسِنبس: أبو حي من طيئ، ونسبه غير خَدمة سيبويه إلى جرير، وإلى تأبط شرًّا، وإلى أنه مصنوع. اهـ.

(٣) ديوان النابغة ص٣٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣-١٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤.

(٦) ٩/ ٣٥، وقراءة أبي بكر في السبعة ص٢٦٩، والتيسير ص١٠٧.

(٧) ١١/ ٦٠.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يَقْبِضها عند فَناء آجالها ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾ اختلف فيه. فقيل: يَقْبِضها عن التصرف مع بقاء أرواحها في أجسادها. ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي النائمة، فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها؛ قاله ابن عيسى[١]. وقال الفراء[٢]: المعنى: ويَقْبِض التي لم تَمُتْ في منامها عند انقضاء أَجَلها. قال: وقد يكون تَوَفِّيها نَوْمَها؛ فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمتْ وفاتُها نومُها.

وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواحَ الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعُها الرُّجوعَ إلى الأجساد أَمْسك الله أرواحَ الأموات عنده، وأرسل أرواحَ الأحياء إلى أحسادها.

وقال سعيد بن جُبير: إن الله يقبض أرواحَ الأموات إذا ماتوا وأرواحَ الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فيُعيدها[٣].

قال علي ﷺ: فما رأته نَفْسُ النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها تلقيها الشياطين، وتُخيِّل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة[٤]. وقال ابن زيد: النوم وفاةٌ والموتُ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٠ .

(٣) في (م): أي: يعيدها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٢٨ - ١٢٩ ، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٥ .

وفاة[١]. وعن النبي ﷺ قال: «كما تنامون فكذلك تموتون، وكما توقظون فكذلك تُبعثون»[٢]. وقال عمر: النوم أخو الموت. ورُوي مرفوعاً من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسولَ الله، أينام أهلُ الجنة؟ قال: «لا، النومُ أخو الموت، والجنةُ لا موتَ فيها» خرجه الدارقطني[٣]. وقال ابن عباس: في ابن آدم نفسٌ وروح بينهما مثلُ شعاع الشمس، فالنفسُ التي بها العقل والتمييز، والروحُ التي بها النَّفَسُ والتحريك، فإذا نام العبدُ قبضَ اللهُ نَفْسَه ولم يقبضْ رُوحَه[٤]. وهذا قولُ ابن الأنباري والزجاج[٥].

قال القشيري أبو نصر: وفي هذا بُعْدٌ، إذ المفهوم من الآية أنّ النَّفْسَ المقبوضة في الحالين شيء واحد؛ ولهذا قال: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ فإذاً يَقبِضُ اللهُ الروحَ في حالين، في حالة النوم وحالة الموت، فما قبضَه في حال النوم فمعناه أنه يَغْمُرُه بما يَحْبِسُه عن التصرف، فكأنه شيء مقبوض، وما قبضَه في حال الموت فهو يُمسكه ولا يُرسله إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: يُزيل الحابسَ عنه فيعود كما كان. فَتَوفِّي الأنفس في حال النوم بإزالة الحِسّ وخَلْق الغَفْلة والآفة في مَحَلّ الإدراك. وتوفِّيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالةِ الحِسّ بالكُلِّية.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ بألا يَخلُقَ فيها الإدراكَ، كيف وقد خلقَ فيها الموت؟ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ بأنْ يُعيدَ إليها الإحساسَ.

الثانية: وقد اختلف الناسُ من هذه الآية في النفس والروح؛ هل هما شيءٌ واحد أو شيئان على ما ذكرنا. والأظهر أنهما شيءٌ واحد، وهو الذي تدلُّ عليه

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٢١٦ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) لم نقف عليه عند الدارقطني، وسلف ٥/١٥٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/٥٣٤ بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٤/٣٥٦ .

الآثار الصحاح على ما نذكره في هذا الباب، من ذلك حديث أُمِّ سلمة قالت: دخل رسولُ الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقَّ بصرُه فأغمضه، ثم قال: «إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِض تَبِعه البصرُ» وحديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألم تروا الإنسانَ إذا مات شَخَصَ بَصرُه» قال: «فذلك حين يَتْبع بَصَرُه نَفْسَه» خرجهما مسلم[١].

وعنه عن النبي ﷺ قال: «تحضرُ الملائكةُ فإذا كان الرجلُ صالحاً قالوا: اخرجي أيتها النَّفْسُ الطَّيِّبة كانت في الجسدِ الطَّيِّب، اخرجي حميدةً، وأَبشري برَوْح ورَيْحان وربٍّ راضٍ غيرِ غَضْبان، فلا يزالُ يقال لها ذلك حتى تخرجَ، ثم يُعرج بها إلى السماء» وذكر الحديث، وإسناده صحيح، خرجه ابن ماجه[٢]؛ وقد ذكرناه في «التذكرة»[٣].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: «إذا خَرَجَتْ روحُ المؤمن تلقَّاها مَلَكان يَصْعَدان بها». وذكر الحديث[٤].

وقال بلال في حديث الوادي: أخذ بنَفْسي يا رسول الله الذي أَخَذَ بنفسك[٥]. وقال رسولُ الله ﷺ مقابلاً له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي: «يا أيها الناس، إن الله قبضَ أرواحَنا، ولو شاء ردَّها إلينا في حينٍ غيرِ هذا»[٦].

الثالثة: والصحيح فيه أنه جسمٌ لطيفٌ مُشابِكٌ للأجسام المحسوسة، يُجذَب ويُخْرج وفي أكفانه يُلَف ويُدرَج، وبه إلى السماء يُعرَج، لا يموت ولا يفنى، وهو مما له أوّل وليس له آخر، وهو بعينين ويدين، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة؛ كما في حديث

---

(١) برقم (٩٢٠) و(٩٢١)، والحديث الأول أخرجه أحمد (٢٦٥٤٣).

(٢) الحديث (٤٢٦٢)، وهو في مسند أحمد (٨٧٦٩).

(٣) ص٥٠ .

(٤) صحيح مسلم (٢٨٧٢).

(٥) أخرجه مسلم (٦٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه مالك ١/ ١٤ بهذا اللفظ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٦١١)، والبخاري (٥٩٥) من حديث أبي قتادة ﷺ.

أبي هريرة. وهذه صفةُ الأجسام لا صفة الأعراض؛ وقد ذكرنا الأخبارَ بهذا كلِّه في كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»[١]. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] يعني النَّفْس إلى خروجها من الجسد؛ وهذه صفةُ الجسم. والله أعلم.

الرابعة: خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أوى أحدُكم إلى فِراشه فَلْيأخُذْ داخِلةَ إزاره فلينفُضْ بها فِراشَه وَلْيُسَمِّ اللهَ، فإنه لا يعلم ما خَلَفَهُ بعده[٢] على فراشه، فإذا أرادَ أن يضطجعَ فَلْيضطجِعْ على شِقِّه الأيمن، وليقل: سبحانك ربي، بك[٣] وضعتُ جنبي وبك أَرفعه، إن أمسكتَ نَفْسي فاغفِرْ لها». وقال البخاري وابن ماجه والترمذي: «فارحمها» بدل«فاغفر لها»، «وإنْ أَرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» زاد الترمذي «وإذا استيقظ فليقل: الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردَّ عليَّ روحي، وأَذِنَ لي بذِكْره»[٤].

وخرج البخاري عن حُذَيْفة قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أخذ مَضْجعه من الليل وضعَ يدَه تحت خدِّه؛ ثم يقول: «اللهم باسمك أموتُ وأحيا» وإذا استيقظ قال «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتَنا وإليه النُّشور»[٥].

قوله تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمَّى الفاعل «الموْتَ» نصباً؛ أي: قضى الله عليها، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عُبيد؛ لقوله في أول الآية: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ فهو يقضي عليها.

---

(١) ص٥٧ وما بعدها.

(٢) في النسخ: بعد، والمثبت من صحيح مسلم.

(٣) قوله: بك، ليس في (د) و(ز) و(م)، وفي (ف): لك وأثبتناه من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٦٣٢٠)، وصحيح مسلم(٢٧١٤)، وسنن ابن ماجه (٣٨٧٤) وسنن الترمذي (٣٤٠١). وهو في مسند أحمد (٧٨١١)، وقوله: بداخلة إزاره: أي: بالطرف الذي يلي الجسد. قاله السندي في حاشية مسند أحمد.

(٥) صحيح البخاري (٦٣١٤)، وهو في مسند أحمد (٢٣٢٨٦).

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائي: «قُضِيَ عليها الموتُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله[١]. النحاس[٢]: والمعنى واحدٌ غير أن القراءةَ الأُولى أبينُ وأشبهُ بنسق الكلام؛ لأنهم قد أجمعوا على «وَيُرْسِلُ» ولم يقرؤوا: «ويُرسَل».

وفي الآية تنبيهٌ على عظيم قُدرته وانفراده بالألوهية، وأنه يفعل ما يشاء، ويُحيِي ويُميت، لا يقدر على ذلك سواه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ يعني في قبض الله نَفْسَ الميت والنائم، وإرساله نَفْسَ النائم وحَبْسه نَفْسَ الميت ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال الأصمعي: سمعتُ معتمراً يقول: روحُ الإنسان مثلُ كُبَّة الغَزْل، فترسل الروح، فتمضي ثم تمضي، ثم تُطوى فتجيء فتدخل، فمعنى الآية أنه يُرسَل من الروح شيء في حال النوم ومعظمُها في البدن متصلٌ بما يخرج منها اتصالاً خفيّاً، فإذا استيقظ المرءُ جذب معظمَ روحه ما انبسط منها فعاد. وقيل غير هذا؛ وفي التنزيل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] أي: لا يعلم حقيقته إلا الله. وقد تقدّم في «سبحان».

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أي: بل اتَّخذوا، يعني: الأصنام، وفي الكلام ما يتضمَّن لم؛ أي: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لم يتفكَّروا، ولكنهم اتَّخذوا آلهتهم شُفعاء.

---

(١) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ١٤، وما قبله منه.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: أتتخذونهم شُفعاءَ وإن كانوا لا يَملِكون شيئاً من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنها جمادات[١]. وهذا استفهامُ إنكار.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ نصٌّ في أن الشفاعةَ لله وحدَه كما قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٤] فلا شافعَ إلا من شفاعته ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

«جَميعاً» نصب على الحال. فإن قيل: «جَميعاً» إنما يكون للاثنين فصاعداً والشفاعة واحدة. فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدَّى عن الاثنين والجميع[٢] ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه، وعلى الحال عند يونس. ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ قال المبرد: انقبضت[٣]. وهو قول ابن عباس ومجاهد[٤]. وقال قتادة: نفرتْ واستكبرتْ وكَفرتْ وتعصَّتْ[٥]. وقال المُؤَرِّج: أنكرت. وأصلُ الاشمئزاز النُّفور والازورار. قال عمرو بن كُلْثوم:

إذا عَضَّ الـثِّـقَـافُ بِـهـا اشْـمَـأَزَّتْ وَوَلَّـتْـهُـمْ عَـشَـوْزَنَـةً زَبُـونـا[٦]

وقال أبو زيد: اشمأزَّ الرجلُ: ذُعِرَ من الفَزَع، وهو المذعور[٧]. وكان المشركون إذا قيل لهم: لا إله إلا الله نفروا وكفروا[٨]، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٨١ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢١٦ بنحوه.

(٦) معلقة عمرو بن كلثوم (بشرح ابن كيسان) ص٨٥ . قال الشارح: الثِّقاف: الخشبة التي تُقوِّم بها الرماح، والعَشَوْزَنة: الناقة السيئة الخلق التي تزبن من يحتلبها، أي: تدفعه بيدها ورجلها.

(٧) الصحاح (شمز).

(٨) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٦ .

الأوثان حين ألقى الشيطان في أُمنية النبي ﷺ عند قراءته سورة «والنجم»: تلك الغرانيقُ العُلَى وإن شفاعتَهم تُرْتَجَى. قاله جماعةُ المفسرين[١]. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يظهر في وجوههم البِشر والسُّرور.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نصب لأنه نداء مضاف، وكذا ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتاً[٢].

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي «صحيح» مسلم: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشةَ رضي الله عنها: بأي شيء كان النبيُّ ﷺ يستفتح صلاتَه إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاتَه: «اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ اهدني لما اختُلف فيه من الحقّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[٣].

ولمَّا بلغ الربيع بن خُثيم[٤] قَتْلَ الحسين بن علي رضي الله عنه قرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٨١ بنحوه، وقصة الغرانيق باطلة موضوعة، وسلفت ١٤/ ٤٢٧ ، ينظر الكلام عليها ثمة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ .

(٣) صحيح مسلم (٧٧٠)، وأخرجه أحمد (٢٥٢٢٥).

(٤) في (د) و(ظ) و(ف) و(م): خيثم، والمثبت من (ز) وكتب الرجال.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[١].

وقال سعيد بن جُبير: إني لأعرفُ آيةً ما قرأها أحدٌ قطُّ فسألَ اللهَ شيئاً إلاَّ أعطاه إيَّاه؛ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: كذَّبوا وأَشركوا ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: من سوء عذاب ذلك اليوم. وقد مضى هذا في سورة «آل عمران» و«الرعد»[٣].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ من أجلِّ ما رُوي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال: عَمِلوا أعمالاً توهَّموا أنها حسناتٌ فإذا هي سيئات. وقاله السدي. وقيل: عملوا أعمالاً توهَّموا أنهم يتوبون منها قبلَ الموت، فأدركهم الموتُ قبل أن يتوبوا، وقد كانوا ظنُّوا أنهم ينجون بالتوبة. ويجوز أن يكونوا توهَّموا أنه يُغفر لهم من غير توبة فـ ﴿بَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ من دخول النار[٤].

وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويلٌ لأهل الرِّياء، ويلٌ لأهل الرِّياء، هذه آيتُهم وقصَّتُهم. وقال عكرمة بن عمار[٥]: جَزِعَ محمدُ بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آيةً من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١١١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٣٠.

(٣) ٥/ ١٩٨ وما بعدها و١٢/ ٥٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥ دون قوله: وقاله السدي، وذكره عن السدي البغوي في تفسيره ٤/ ٨٢.

(٥) أبو عمار العجلي، البصري، الحافظ، من حملة الحجة وأوعية الصدق، مات سنة (١٥٩هـ). السير ٧/ ١٣٤. وقوله هذا في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٥، وقول سفيان الذي قبله فيه وفي الكشاف ٣/ ٤٠١.

﴿لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ فأنا أخشى أن يبدوَ لي ما لم أكن أحتسب.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: عقابُ ما كسبوا من الكُفر والمعاصي. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم ونزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ قيل: إنها نزلت في أبي[١] حُذَيفة بن المغيرة.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ قال قتادة: «على عِلْم»[٢] عندي بوجوه المكاسب، وعنه أيضاً «على عِلْم» على خير عندي. وقيل: «على عِلْم» أي: على علم من الله بفضلي. وقال الحسن: «على عِلْم» أي: بعلم علَّمني اللهُ إيَّاه[٣]. وقيل: المعنى أنه قال: قد علمتُ أني إذا أُوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلةً؛ فقال الله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: بل النِّعم التي أُوتيتَها فتنةٌ تُختبر بها[٤].

قال الفراء[٥]: أنَّثَ «هي» لِتأنيث الفتنة، ولو كان: بل هو فتنة لجاز. النحاس: التقدير: بل أُعطِيتَهُ فتنةً.

---

(١) لفظة: أبي، ليست في (م). والكلام من النكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٢) قوله قال: قتادة: «على علم» من (م).

(٣) الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٦ ، والنكت والعيون ٥/ ١٣٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٥ .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن إعطاءهم المالَ اختبار.

قوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ أنَّث على تأنيث الكلمة[(١)] ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني الكفار قبلَهم، كقارون وغيره حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «ما» للجحد، أي: لم تُغن عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من عذاب الله شيئاً[(٢)]. وقيل: أي: فما الذي أغنى أموالهم؟ فـ «ما» استفهام.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: جزاء سيئات أعمالهم. وقد يُسمَّى جزاء السيئة سيئةً. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ﴿مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ الأُمة ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: بالجوع والسيف. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين الله ولا سابقيه. وقد تقدّم[(٣)].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خصَّ المؤمن بالذِّكر؛ لأنه هو الذي يتدبَّر الآياتِ وينتفع بها. ويعلم أن سَعةَ الرِّزق قد يكون مكراً واستدراجاً، وتقتيره رِفعةً وإعظاماً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإنْ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٨٢ بنحوه.

(٣) ٩/ ٣٥ و١١/ ٨.

شئتَ حذفتَ الياء؛ لأن النداء موضع حذف. النحاس[١]: ومن أجلّ ما رُوي فيه ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: لما اجتمعنا على الهجرة، اتَّعَدْتُ أنا وهشام بن العاصي بن وائل السَّهْمي وعَيَّاش بن أبي ربيعة بن عُتْبة[٢]، فقلنا: الموعد أَضاةَ[٣] بني غفار، وقلنا: من تأخَّر منا فقد حُبِس فَلْيمضِ صاحبُه، فأصبحتُ أنا وعيَّاش بن عُتبة، وحُبس عنا هشام، وإذا به قد فُتن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عَرَفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله ﷺ، ثم افتتنوا لبلاءٍ لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قال عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثتُها إلى هشام. قال هشام: فلما قدمَتْ عليَّ خرجت بها إلى ذي طُوًى، فقلت: اللهم فَهِّمْنيها، فَعَرَفْتُ أنها نزلت فينا، فرجَعْتُ فجلست على بعيري، فلحقتُ برسول الله ﷺ[٤].

وعن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كان قومٌ من المشركين قَتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنبيِّ ﷺ، أو بعثوا إليه: إنَّ ما تدعو إليه لحسن، لو تُخبرنا[٥] أن لنا توبةً؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٦]

(١) إعراب القرآن ٤/ ١٦ ، وما قبله منه.

(٢) كذا في النسخ: عيَّاش بن أبي ربيعة بن عتبة، وفي إعراب القرآن للنحاس: عيَّاش بن عتبة، والذي في المصادر: عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله القرشي المخزومي. الإصابة ٧/ ١٨٤ ، والقصة فيها في ترجمة هشام بن العاص ١٠/ ٢٤٦ وصحَّح الحافظ ابن حجر إسنادها.

(٣) الأضاة: الغدير. اللسان (أضي).

(٤) السيرة النبوية ١/ ٤٧٥ - ٤٧٦ ، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٠-٣٩١ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): أو تخبرنا، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦ .

ذكره البخاري بمعناه[١]. وقد مضى في آخر «الفرقان»[٢].

وعن ابن عباس أيضاً نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ أن مَن عَبَدَ الأوثانَ وقتلَ النَّفس التي حرَّم الله لم يُغفر له، وكيف نُهاجر ونُسْلم وقد عَبَدنا مع الله إلهاً آخرَ، وقتلنا النَّفْس التي حرَّم الله؟! فأنزل الله هذه الآية[٣].

وقيل: إنها نزلتْ في قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في العبادة، وخافوا ألّا يتقبلَ منهم لذنوب سبقتْ لهم في الجاهلية.

وقال ابن عباس أيضاً وعطاء: نزلت في وحشيّ قاتل حمزةَ؛ لأنه ظنَّ أن الله لا يقبل إسلامَه. وروى ابن جُريج عن عطاء عن ابن عباس قال: أتَى وَحْشيٌّ إلى النبيّ ﷺ؛ فقال: يا محمد، أتيتُك مُستجيراً فأجِرْني حتى أسمعَ كلامَ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: «قد كنتُ أُحِبُّ أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مُستجيراً فأنت في جواري حتى تسمعَ كلامَ الله» قال: فإني أشركتُ بالله وقتلتُ النفس التي حرم الله وزنيتُ، هل يقبلُ الله مني توبة؟ فصمتَ رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] إلى آخر الآية، فتلاها عليه؛ فقال: أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمعَ كلام الله. فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] فدعا به فتلاها عليه؛ قال: فلعلي ممن لا يشاء، أنا في جوارك حتى أسمع كلامَ الله. فنزلت: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ فقال: نعم، الآن لا أرى شرطاً. فأسلم[٤].

---

(١) الحديث (٤٨١٠)، والسائل هو وحشي بن حرب قاتل حمزة رضي الله عنهما فيما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٥٠.

(٢) ١٥/ ٤٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٢٤، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٨٩.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٧١٤٠)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٤٩ - ٣٥٠.

وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شَهْر بن حَوْشَب عن أسماء أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ: «قُلْ يا عبادِيَ الذين أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحمةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جمِيعاً ولا يُبالي، إِنَّه هو الغَفُورُ الرحيمُ»(١). وفي مصحف ابن مسعود: «إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جميعاً لِمَنْ يشاءُ»(٢).

قال أبو جعفر النحاس(٣): وهاتان القراءتان على التفسير، أي: يغفر الله لمن يشاء. وقد عرَّف الله عز وجل من شاء أن يغفر له، وهو التائب أو من عمل صغيرةً ولم تكن له كبيرة، ودلّ على أنه يريد التائب ما بعده «وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ» فالتائب مغفور له ذنوبُه جميعاً، يدل على ذلك ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢] فهذا لا إشكالَ فيه.

وقال عليّ بن أبي طالب: ما في القرآن آيةٌ أوسعَ من هذه الآية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾(٤) وقد مضى هذا في «سبحان»(٥).

وقال عبد الله بن عمر: وهذه أرجى آية في القرآن، فردَّ عليهم ابن عباس وقال: أرجى آية في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾(٦) وقد مضى في «الرعد» [الآية: ٦].

وقُرِئ: «لا تَقْنِطُوا» بكسر النون وفتحها(٧). وقد مضى في «الحجر» بيانه(٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة. لمَّا بيَّن أن من تاب

---

(١) أخرجه الدوري في قراءات النبي ﷺ (٦٠)، والترمذي (٣٢٣٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ثابت عن شهر بن حوشب. وأسماء: هي بنت يزيد أم سلمة الأنصارية رضي الله عنها.

(٢) ذكره ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٤/ ١٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣١ .

(٥) ١٠/ ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦ .

(٧) قرأ بكسر النون أبو عمرو والكسائي، والباقون بفتحها. السبعة ص٣٦٧ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٨) ١٢/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

من الشِّرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه، والإنابةُ الرجوع إلى الله بالإخلاص. ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُۥ﴾ أي: اخضعوا له وأطيعوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا تُمنعون من عذابه. ورُوي من حديث جابر أن رسولَ الله ﷺ قال: «مِن السعادة أن يُطيل اللهُ عُمُرَ المرء في طاعة الله[1] ويرزقه الإنابةَ، وإنَّ من الشَّقاوة أن يعملَ المرءُ ويُعجب بعمله»[2].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ «أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ» هو القرآن، وكلُّه حسنٌ، والمعنى ما قال الحسن: التزموا طاعتَه، واجتنبوا معصيتَه. وقال السدّي: الأحسنُ ما أمر الله به في كتابه[3].

وقال ابن زيد: يعني المُحكمات، وكِلُوا عِلْمَ المُتشابه إلى عالمه. وقيل: أنزل الله كُتباً: التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن، وأمر باتّباعه، فهو الأحسن، وهو المُعجِز. وقيل: هذا أحسنُ، لأنه ناسخٌ قاض على جميع الكتب، وجميع الكتب منسوخة. وقيل: يعني العفو؛ لأن الله تعالى خيَّر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بين العفو والقِصاص. وقيل: ما علَّم الله النبيَّ عليه الصلاة والسلام وليس بقرآن فهو حسن، وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن. وقيل: أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأُمم الماضية.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ﴾ «أنْ» في موضع نصب، أي: كراهةَ «أنْ تقولَ» وعند الكوفيين: لئلا تقول[4]، وعند البصريين حَذَرَ «أنْ تقولَ». وقيل: أي:

---

(١) في (م): الطاعة.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٨٩)، وفي إسناده كثير بن زيد الأسلمي. ضعَّفه أكثرهم. كما في الميزان ٣/ ٤٠٤ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٨٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

من قبل «أَنْ تقولَ نَفْسٌ» لأنه قال قبل هذا: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[١].

الزمخشري[٢]: فإنْ قلتَ: لم نُكِّرتْ؟ قلت: لأن المُرادَ بها بعضُ الأنفس، وهي نفسُ الكافر. ويجوز أن يُريد نفساً متميزة من الأنفس، إمّا بلجاج في الكفر شديد، أو بعقاب عظيم. ويجوز أن يُراد التكثير كما قال الأعشى:

وربَّ بَقيعٍ لو هَتَفْتُ بِجَوِّهِ أتاني كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرأسَ مُغْضَبا[٣]

وهو يريد أفواجاً من الكرام ينصرونه، لا كريماً واحداً، ونظيره: رُبَّ بلدٍ قطعتُ، وربَّ بطلٍ قارعتُ، ولا يقصد إلا التكثير[٤].

«يا حَسْرَتا» والأصل «يا حَسْرَتي» فأُبدل من الياء ألف؛ لأنها أخفُّ وأمكن في الاستغاثة بمد الصوت[٥]، وربما ألحقوا بها الهاء؛ أنشد الفراء:

يا مَرْحَباهِ بحمارٍ ناجِيَهْ إذا أَتى قَرَّبْتُه لِلسَّانِيَهْ[٦]

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف؛ لتدلَّ على الإضافة. وكذلك قرأها أبو جعفر: «يا حَسْرتايَ»[٧]. والحَسْرة الندامة.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن: في طاعة الله[٨]. وقال الضحاك: أي: في ذكر الله عزّ وجلّ. قال: يعني القرآن والعمل به[٩]. وقال أبو عُبيدة: «في جَنْب

(١) زاد المسير ٧/ ١٩٢ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٣) ديوان الأعشى ص١٦٥ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٢ ، وفيه: ناهيه، بدل ناجيه. والرجز في الخزانة ٢/ ٣٨٧ . وفيها: السانية: الدلو العظيمة وأداتها.

(٧) النشر ٢/ ٣٦٢ .

(٨) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٥ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

الله» أي: في ثواب الله[1]. وقال الفراء: الجَنْب القُرب والجوار؛ يقال: فلان يعيشُ في جَنْبِ فلان، أي: في جِواره؛ ومنه ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦] أي: على ما فرَّطْتُ في طلب جِواره وقُربه ، وهو الجنة[2]. وقال الزجاج[3]: أي: على ما فرَّطتُ في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه.

والعرب تُسمِّي السببَ والطريق إلى الشيء جَنْباً؛ تقول: تجرعتُ في جَنْبك غصصاً؛ أي: لأجلك وسببك ولأجل مَرْضاتك. وقيل: «في جَنْبِ اللهِ» أي: في الجانب الذي يؤدِّي إلى رضا الله عزّ وجلّ وثوابه، والعرب تُسمِّي الجانبَ جَنْباً[4]، قال الشاعر:

قُسِمَ مَجْهُوداً لِذاكَ القَلْبُ ... النَّاسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ[5]

يعني: الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفةَ: أي: تركتُ من أمر الله؛ يقال: ما فعلت ذلك في جَنْب حاجتي؛ قال كُثَيِّر:

ألا تَتَّقِينَ اللهَ في جَنْبِ عاشِقٍ ... له كَبِدٌ حرَّى عليكِ تَقَطَّعُ[6]

وكذا قال مجاهد؛ أي: ضيعت من أمر الله[7]. ويُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جلسَ رجلٌ مَجْلِساً، ولا مَشَى ممشى، ولا اضطجع مُضطجعاً لم يذكُرِ اللهَ عزَّ وجلَّ فيه إلا كان عليه تِرَةً يومَ القيامة» أي: حسرةً؛ خرجه أبو داود بمعناه[8]. وقال إبراهيم التيمي: من الحَسَرات يومَ القيامة أن يرى الرجلُ مالَه الذي آتاه اللهُ في الدنيا يومَ

---

(١) في مجاز القرآن، ٢/ ١٩٠ لأبي عبيدة: «في جنب الله» وفي ذات الله واحد.

(٢) ذكره عن الفراء ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٩٢ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٩ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٥ .

(٥) لم نقف على قائل هذا الرجز، وأورد البيت الثاني الأخفش في معاني القرآن ١/ ٤٤٦ .

(٦) ديوان كُثَيِّر ص١٧٧ ، وفيه: حبّ، بدل: جنب، وتصدّع، بدل: تقطّع.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨ بنحوه.

(٨) سنن أبي داود (٤٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٩٥٨٣) بنحوه، واللفظ الذي أورده المصنف في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

القيامة في ميزان غيره قد وَرِثه وعَمِلَ فيه بالحق، كان له أجرُه وعلى الآخر وِزْرُه، ومن الحَسَرات أن يرى الرجلُ عبدَه الذي خوَّله الله إياه في الدنيا أقربَ منزلةً من الله عزّ وجلّ، أو يرى رجلاً يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يومَ القيامة وعَمِيَ هو(١).

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: وما كنت إلا من المُستهزئين بالقرآن وبالرسول في الدنيا بأولياء الله، قال قتادة: لم يَكْفِهِ أن ضيَّع طاعةَ الله حتى سَخِرَ من أهلها(٢).

ومحلّ «إن كنت» النصب على الحال؛ كأنه قال: فرَّطْتُ وأنا ساخر؛ أي: فرَّطت في حال سُخريتي(٣). وقيل: وما كنت إلا في سُخرية ولعب وباطل؛ أي: ما كان سعيي إلا في عبادة غيرِ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ هذه النَّفس ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي: أرشدني إلى دينه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الشِّركَ والمعاصي. وهذا القولُ: لو أن الله هداني لاهتديت، قولُ صِدْق. وهو قريبٌ من احتجاج المشركين فيما أخبر الربُّ جلّ وعزّ عنهم في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] فهي كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل؛ كما قال عليٌّ ﷺ لمَّا قال قائلٌ من الخوارج: لا حكم إلا لله(٤).

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ يعني هذه النَّفس ﴿حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رَجْعة. ﴿فَأَكُونَ﴾ نصب على جواب التمني، وإن شئت كان معطوفاً على «كَرَّة» لأن معناه: أنْ أكرَّ؛ كما قال الشاعر:

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ(٥)

وأنشد الفراء:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٣٤ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٠٤ .

(٤) أخرجه مسلم (١٠٦٦): (١٥٧).

(٥) قائلته ميسون بنت بحدل الكلبية، وسلف الشطر الأول ٨/ ٥٠ ، ينظر تخريجه ثمة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨ .

فما لكَ مِنها غيرُ ذِكْرى وخَشْيَةٍ وتسألَ عن رُكْبانِها أين يَمَّمُوا[(١)]

فنصب وتسألَ على موضع الذِّكرى؛ لأن معنى الكلام: فمالكَ منها إلا أن تذكرَ. ومنه: لَلُبْسُ عباءة وتَقَرَّ؛ أي: لأنْ أَلْبَسَ عباءةً وتقرَّ.

وقال أبو صالح: كان رجلٌ عالم في بني إسرائيل وجد رقعة: إنَّ العبدَ لَيعملُ الزمانَ الطويل بطاعة الله، فيختمُ له عملُه بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجلَ لَيعمل الزمنَ الطويل بمعصية الله، ثم يختمُ له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة؛ فقال: ولأي شيء أُتعِبُ نفسي، فترك عملَه وأخذ في الفسوق والمعصية، وقال له إبليس: لك عمرٌ طويل، فتمتَّعْ في الدنيا ثم تتوب، فأخذ في الفسوق وأنفق مالَه في الفجور، فأتاه ملكُ الموت في ألذِّ ما كان، فقال: يا حسرتا على ما فرَّطتُ في جَنْب الله؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان، فندم حين لا ينفعه النَّدم؛ فأنزل الله خبره في القرآن[(٢)].

وقال قتادة: هؤلاء أصناف؛ صِنْفٌ منهم قال: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وصنفٌ منهم قال: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وقال آخر: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[(٣)]. فقال الله تعالى ردّاً لِكلامهم: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ .

قال الزجاج[(٤)]: «بلى» جوابُ النفي، وليس في الكلام لفظُ النفي، ولكن معنى «لو أنَّ الله هَدَاني» ما هداني، وكأن هذا القائلَ قال: ما هُدِيت؛ فقيل: بلى، قد بُيِّن لك طريق الهُدى، فكنت بحيث لو أردتَ أن تُؤمِنَ أمكنك أن تُؤمن.

«آيَاتِي» أي: القرآن. وقيل: عنى بالآياتِ المُعجزاتِ؛ أي: وَضَحَ الدليل فأنكرته وكذَّبته ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ أي: تكبَّرت عن الإيمان ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وقال: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ﴾ وهو خِطاب الذَّكر؛ لأن النَّفس تقع على الذَّكر

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٣ ، وفيه: وحسبة، بدل: وخشية. ولم نهتد إلى قائله.

(٢) ذكر القصة بنحوها ومختصرة الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٠٤ ولم ينسبها.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٣٦ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

والأُنثى. يقال: ثلاثة أنفس. وقال المبرّد: تقول العرب: نفسٌ واحدٌ، أي: إنسان واحد.

وروى الربيع بن أنس عن أُمّ سَلَمة عن النبي ﷺ قرأ: «قد جاءَتْكِ آياتي فَكَذَّبْتِ بهَا واستَكْبَرْتِ وكنت من الكافرين»[١].

وقرأ الأعمش: «بلى قد جاءَتْهُ آيَاتي»[٢] وهذا يدلُّ على التذكير. والربيع بن أنس لم يَلْحَقْ أُمَّ سَلَمَةَ إلا أن القراءةَ جائزة؛ لأن النَّفس تقع للمذكَّر والمؤنث. وقد أنكر هذه القرءاةَ بعضُهم وقال: يجب إذا كسر التاء أن تقول: وكنتِ من الكوافر أو من الكافرات.

قال النحاس[٣]: وهذا لا يلزم؛ ألا ترى أن قبلَه «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ ولم يقل: من السواخر، ولا من الساخرات. والتقدير في العربية على كسر التاء: «واستَكْبَرْتِ وكنتِ» من الجمع[٤] الساخرين، أو من الناسِ الساخرين، أو من القوم الساخرين.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ أي: مما حاط بهم من غضب الله ونقمته. وقال الأخفش[٥]: «تَرَى» غير عامل في قوله:

---

(١) أخرجها الدوري في قراءات النبي ﷺ (٩٩)، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣١، والكلام من معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨.

(٣) في معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٨٧ - ١٨٨، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: الجميع، والمثبت من (م).

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٢.

«وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ» إنما هو ابتداءٌ وخبر.

الزمخشري[١]: جملة في موضع الحال إنْ كان «تَرَى» من رؤية البصر، ومفعولٌ ثانٍ إنْ كان من رؤية القلب.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وبيَّن رسولُ الله ﷺ معنى الكِبْر فقال عليه الصلاة والسلام: «سَفَهُ الحقِّ وغَمْصُ الناس» أي: احتقارهم. وقد مضى في «البقرة»[٢] وغيرها.

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «يُحشَرُ المُتكبِّرون يومَ القيامة كالذَّرِّ يلحقهم الصَّغار حتى يُؤتى بهم إلى سجن جهنم»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقُرِئ: «ويُنْجي»[٤] أي: من الشِّرك والمعاصي. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ على التوحيد قراءة العامة؛ لأنها مصدر. وقرأ الكوفيون: «بمَفَازَاتهِمْ»[٥]، وهو جائز كما تقول: بسعاداتهم.

وعن النبي ﷺ تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة، قال: «يَحشُر اللهُ مع كلِّ امرئ عملَه، فيكون عملُ المؤمن معه في أحسن صورة وأطيبِ ريح، فكلما كان رُعْبٌ أو خَوْفٌ قال له: لا تُرَعْ، فما أنت بالمُراد به، ولا أنت بالمَعْنيِّ به، فإذا كَثُرَ ذلك عليه قال: فما أحسنك، فمن أنت؟! فيقول: أما تَعرفني، أنا عَمَلُكَ الصالح حملتَني على ثِقَلي، فوالله لأحملنَّكَ ولأدفعنَّ عنك، فهي التي قال الله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[٦].

---

(١) الكشاف ٣/٤٠٦.

(٢) ١/٤٤١، والحديث أخرجه أحمد (٦٥٨٣) مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «.. الكِبْر بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ الناس».

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. والكلام السالف من إعراب القرآن للنحاس ٤/١٩.

(٤) قرأ بها يعقوب في رواية روح. النشر ٢/٢٥٩.

(٥) قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «بمفازاتهم» بالألف على الجمع، والباقون بغير ألف على التوحيد. السبعة ص٥٦٢، والتيسير ص١٩٠.

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، ونقله المصنف من إعراب القرآن للنحاس ٤/١٩.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظ وقائم به. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ واحدُها مِقْليد. وقيل: مِقْلاد، وأكثر ما يُستعمل فيه إقليد. والمَقاليد المفاتيح؛ عن ابن عباس وغيره. وقال السُّدي: خزائن السماوات والأرض[١]. وقال غيره: خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات[٢]. وفيه لغةٌ أخرى: أقاليد، وعليها يكون واحدُها إقليد[٣].

قال الجوهري[٤]: والإقليد المِفْتاح، والمِقْلَد مِفْتاحٌ كالمِنْجل، ربما يُقلد به الكلأ كما يُقلد القَتُّ إذا جعل حِبالاً؛ أي: يُفتل، والجمع المَقاليد. وأقلدَ البحرُ على خلقٍ كثير، أي: غرَّقهم، كأنه أُغلقَ عليهم.

وخرَّج البيهقي عن ابن عمر أن عثمانَ بن عفان ﷺ سأل رسولَ الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ فقال رسولُ الله ﷺ: «ما سألني عنها أحدٌ؛ لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، يُحيي ويُميت؛ بيده الخير وهو على كل شيء قدير»[٥]. ذكره الثعلبي في «تفسيره»، وزاد: «مَنْ قالها إذا أصبح أو أمسى عشرَ مرات أعطاه الله ستَّ خِصال: أولها: يُحرَس من إبليس، والثانية: يحضره اثنا عشر ألف ملك، والثالثة: يُعطى قنطاراً من الأجر، والرابعة: تُرفع له درجة، والخامسة: يُزوِّجه الله من الحور العين، والسادسة: يكون له من الأجر كمن قرأ القرآنَ والتوراةَ والإنجيل والزَّبور، وله أيضاً من الأجر كمن حجَّ واعتمر فَقُبلت

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٩، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠، وقولا ابن عباس رضي الله عنهما والسدي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٢٤٢.

(٢) زاد المسير ٧/ ١٩٤.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٢.

(٤) في الصحاح (قلد).

(٥) الأسماء والصفات للبيهقي (١٩)، وينظر التعليق التالي.

حجَّته وعُمرته، فإنْ مات من ليلته مات شهيداً»(١).

وروى الحارث(٢) عن عليٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن تفسير المقاليد فقال: «يا عليّ، لقد سألتَ عن عظيم، المقاليد: هو أن تقول عشراً إذا أصبحت وعشراً إذا أمسيت: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وأستغفر الله، ولا قوّة إلا بالله الأوّلِ والآخرِ والظاهرِ والباطنِ، له الملك وله الحمد، بيده الخيرُ وهو على كلِّ شيء قدير» من قالها عشراً إذا أصبح وعشراً إذا أمسى أعطاه الله خِصالاً ستّاً: أولها يَحْرُسه من الشيطان وجنودِه، فلا يكون لهم عليه سلطان، والثانية: يُعطى قِنطاراً في الجنة هو أثقلُ في ميزانه من جبل أحد، والثالثة: تُرفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار، والرابعة: يُزوِّجه الله من الحور العين، والخامسة: يشهده اثنا عشرَ ألف مَلَك يكتبونها له في رَقٍّ منشور ويشهدون له بها يومَ القيامة، والسادسة: يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكمن حجَّ واعتمر فَقَبِلَ اللهُ حِجَّته وعُمرتَه، وإنْ مات من يومه أو ليلته أو شهره طُبِعَ بطابَع الشهداء.

وقيل: المقاليد الطاعة يقال: ألقى إلى فلان بالمقاليد، أي: أطاعه فيما يأمره؛ فمعنى الآية: له طاعةُ من في السماوات والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالقرآن والحُجَج والدلالات. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ وذلك حين دعوا النبيَّ ﷺ إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام، وقالوا: هو دينُ آبائك.

---

(١) أخرجه بتمامه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٩٦ - ٩٧ ، وقال: وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله ﷺ، لأنه مُنزَّه عن الكلام الركيك والمعنى البعيد. قال الذهبي في الميزان ٤/ ٨٤ - ٨٥ بعد أن أورد الحديث: هذا موضوع فيما أرى، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١١٢ : غريب، فيه نكارة شديدة، وفي صحته نظر.

(٢) هو الحارث بن عبد الله الهمداني الأعور، كذَّبه الشعبي وابن المديني، وكان ابن سيرين يرى أن عامَّة ما يرويه عن علي ﷺ باطل. ميزان الاعتدال ١/ ٤٣٦ .

و«غير» نصب بـ «أَعْبُدُ» على تقدير: أعبدُ غيرَ اللهِ فيما تأمرونني. ويجوز أن ينتصب بـ «تَأْمُرُونِّي» على حَذْف حرف الجرّ؛ التقدير: أتأمرونِّي بغير الله أن أعبُدَه، لأنّ أن مُقَّدرة، وأنْ والفعل مصدر، وهي بدل من غير؛ التقدير: أتأمرونّي بعبادة غير الله[١].

وقرأ نافع: «تَأْمُرُونيَ» بنون واحدة مخففَّة وفتح الياء. وقرأ ابن عامر: «تَأْمُرُونَنِي» بنونين مُخفَّفتين على الأصل. الباقون بنون واحدة مُشدَّدة على الإدغام[٢]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة. وقرأ نافع على حذف النون الثانية، وإنما كانت المحذوفة الثانية؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها، وأيضاً حذفُ الأُولى لا يجوز؛ لأنها دلالةُ الرفع. وقد مضى في «الأنعام» بيانُه عند قوله تعالى: «أَتُحَاجُونِّي»[٣].

«أَعْبُدُ» أي: أن أعبدَ، فلما حذف «أن» رفع؛ قاله الكسائي[٤]. ومنه قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَذا الزاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى[٥]

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ: «أَعْبُدَ» بالنصب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ قيل: إنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً؛ والتقدير: لقد أُوحي إليك لئن أشركتَ، وأُوحي إلى الذين من قبلك

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٣٢ .

(٢) السبعة ص٥٦٣ ، والتيسير ص١٩٠ .

(٣) ٨/ ٤٤٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠ .

(٥) قائله طرفة، وسلف بتمامه ١٤/ ١٨ .

كذلك. وقيل: هو على بابه[١]؛ قال مقاتل: أي: أُوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد، والتوحيد محذوف. ثم قال: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ» يا محمد ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وهو خِطابٌ للنبي ﷺ خاصَّةً. وقيل: الخِطاب له والمُراد أُمته؛ إذْ قد عَلِمَ اللهُ أنه لا يُشرك، ولا يقع منه إشراك. والإحباطُ الإبطالُ والفساد. قال القُشيري: فمن ارتدَّ لم تنفعه طاعاته السابقة، ولكن إحباط الرِّدة العملَ مشروطٌ بالوفاة على الكُفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة:٢١٧] فالمُطلق ها هنا محمولٌ على المُقيّد؛ ولهذا قلنا: مَن حَجَّ ثم ارتدَّ؛ ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادةُ الحجِّ.

قلت: هذا مذهب الشافعي. وعند مالك تجب عليه الإعادة، وقد مضى في «البقرة» بيانُ هذا مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ النحاس[٣]: في كتابي عن أبي إسحاق[٤] لفظ اسم الله عز وجل منصوب بـ «اعبُدْ» قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين.

قال النحاس: وقال الفراء[٥] يكون منصوباً بإضمار فعل. وحكاه المهدوي عن الكسائي. فأما الفاء، فقال الزجاج: إنها للمجازاة. وقال الأخفش: هي زائدة.

وقال ابن عباس: «فاعْبُدْ» أي: فوحِّد. وقال غيره: «بَلِ اللهَ» فأطِعْ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمه بخلاف المشركين[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٠ بنحوه.

(٢) ٣/ ٤٣٠ .

(٣) إعراب القرآن ٤/ ٢١ .

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٦١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤٢٤ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ قال المبرد: ما عظَّموه حقَّ عَظَمته من قولك: فلانٌ عظيم القدر. قال النحاس[1]: والمعنى على هذا: وما عظَّموه حقَّ عَظَمته إذ[2] عبدوا معه غيره، وهو خالقُ الأشياء ومالكها. ثم أخبر عن قُدرته وعَظَمته، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

ثم نزّه نفسَه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وفي الترمذي عن عبد الله قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، إنَّ الله يُمسك السماوات على إصبع [والأرَضين على إصبع، والجبال على إصبع] والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدَتْ نواجِذُه، ثم قال: «ومَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[3].

وفي البخاري ومسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامة ويطوي السماءَ بيمينه، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أين مُلوكَ الأرض»[4]. وفي الترمذي: عن عائشة أنها سألت رسولَ الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قالت: قلت: فأين الناسُ يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على جِسْر جهنم» في رواية «على الصِّراطِ يا عائشة» قال:

---

(١) في إعراب القرآن ٤/ ٢١ - ٢٢، وما قبله منه.

(٢) في (م): إذا، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٨)، وأخرجه أحمد (٤٠٨٧)، والبخاري (٧٤١٤)، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٦٥١٩)، وصحيح مسلم (٢٧٨٧)، وأخرجه أحمد (٨٨٦٣).

حديثٌ حسنٌ صحيحٌ(١).

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾، و«يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ» عبارة عن قُدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته(٢)؛ يقال: ما فلان إلا في قبضتي بمعنى: ما فلان إلا في قُدرتي، والناس يقولون: الأشياء في قبضته، يريدون في مُلكه وقُدرته. وقد يكون معنى القَبْض والطَّي إفناءَ الشيء وإذهابَه فقوله جلّ وعزّ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون المرادُ به: والأرض جميعاً ذاهبةٌ فانيةٌ يومَ القيامة. والمراد بالأرض الأَرَضون السَّبع؛ يشهد لذلك شاهدان: قوله: «والأَرْضُ جميعاً»، ولأن الموضعَ موضعُ تفخيم، فهو مُقتضٍ للمبالغة. وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ ليس يريد به طيّاً بعلاج وانتصاب، وإنما المرادُ بذلك الفَناء والذَّهاب؛ يقال: قد انطوى عنّا ما كنا فيه وجاءنا غيره. وانطوى عنّا دهرٌ بمعنى المُضِيّ والذهاب. واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القُدرة والمُلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] يريد به الملك؛ وقال ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥] أي: بالقوّة والقُدرة، أي: لأخذنا قوتَه وقُدرتَه. قال الفرّاء(٣) والمبرد: اليمين القوّة والقدرة. وأنشدا:

إذا ما رايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاها عَرابَةُ بِاليَمِينِ(٤)

قال آخر:

ولمّا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَق نورُها ... تَناولتُ مِنها حاجتي بِيَمينِ

قتلتُ شُنَيْفاً ثم فارانَ بَعده ... وكان على الآيات غيرَ أمينِ

وإنما خصَّ يوم القيامة بالذِّكر وإن كانت قُدرته شاملةً لكل شيء أيضاً؛ لأن

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٤١) و(٣٢٤٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٥٦) و(٢٤٠٦٩).

(٢) الصواب إثبات صفة القبضة لله عز وجل من غير تشبيه ولا تأويل ولا تمثيل.

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة البيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ١٥٩ - ١٦٠، والكلام السالف منه.

(٤) قائله الشماخ بن ضرار، وسلف ٦/ ٣٨.

الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وقال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ حسب ما تقدَّم في «الفاتحة»[١] ولذلك قال في الحديث: «ثم يقول: أنا الملكُ، أين ملوكُ الأرض» وقد زدنا هذا الباب في «التذكرة» بياناً[٢]، وتكلَّمنا على ذكر الشِّمال في حديث ابن عمر قوله: «ثم يطوي الأرضَ بشماله»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ بيَّن ما يكون بعد قبض الأرض وطيِّ السماء، وهو النفخ في الصور، وإنما هما نفختان؛ يموت الخَلْق في الأُولى منهما ويحيون في الثانية، وقد مضى الكلامُ في هذا في «النمل» و«الأنعام» أيضاً[٤]. والذي ينفخ في الصور هو إسرافيلُ عليه السلام. وقد قيل: إنه يكون معه جبريلُ؛ لحديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ صاحِبَي الصور بأيديهما ـ أو في أيديهما ـ قرنان يُلاحظان النَّظر متى يُؤمران» خرجه ابن ماجه في «السنن»[٥].

وفي كتاب أبي داود: عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسولُ الله ﷺ صاحبَ الصُّور، وقال: «عن يمينه جبرائيلُ وعن يساره ميكائيلُ»[٦].

واختلف في المُستثنى مَنْ هم. فقيل: هم الشهداء مُتقلِّدين أسيافَهم حولَ العرش. روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة فيما ذكر القشيري[٧]، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي.

---

(١) ١/ ٢١٥ وما بعدها.

(٢) ص١٩٠ .

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) وفيه: الأرضين، بدل: الأرض.

(٤) ١٣/ ٢٣٩ وما بعدها، ٨/ ٤٣٠ وما بعدها.

(٥) الحديث (٤٢٧٣)، وفي إسناده الحجاج بن أرطاة وعطية العوفي، وكلاهما ضعيف. تهذيب التهذيب ١/ ٣٥٦ و٣/ ١١٤ .

(٦) سنن أبي داود (٣٩٩٩)، وأخرجه أحمد (١١٠٦٩)، وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف كما ذكرنا في التعليق السابق.

(٧) وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٧) .

وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام.ورُوي من حديث أنس أن النبي ﷺ تلا ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقالوا: يا نبيَّ الله، مَنْ هم الذين استثنى الله تعالى؟ قال: «هم جبريلُ وميكائيل وإسرافيلُ ومَلَك الموت، فيقول الله تعالى لمَلَك الموت: يا مَلَكَ الموت، مَن بقي من خَلْقي، وهو أعلمُ فيقول: يا رب، بقي جبريلُ وميكائيل وإسرافيل وعبدُك الضعيف مَلَكُ الموت، فيقول الله تعالى: خُذْ نَفْسَ إسرافيلَ وميكائيلَ، فَيَخِرَّان ميتين كالطَّوْدين العظيمين، فيقول: مُتْ يا مَلَك الموت، فيموت، فيقول الله تعالى لجبريل: يا جبريل، مَن بقي، فيقول: تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام، وجهُك الباقي الدائم وجبريلُ الميتُ الفاني، فيقول الله تعالى: يا جبريل، لا بدَّ من موتك فيقع ساجداً يخفقُ بجناحيه يقول: سبحانك ربي، تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام» فقال النبي ﷺ: «إنَّ فَضْلَ خَلْقه على خَلْق ميكائيل كالطَّود العظيم على الظَّرِب من الظِّراب» ذكره الثعلبي[١]. وذكره النحاس أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، عن يزيد الرَّقاشي، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ في قوله جلّ وعزّ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال: «جبريلُ وميكائيلُ وحَمَلةُ العرش ومَلَك الموت وإسرافيل»[٢].

وفي هذا الخبر[٣] أنَّ آخرَهم موتاً جبريل عليه وعليهم السلام، وحديث أبي هريرة في الشهداء أصحُّ على ما تقدَّم في «النمل»[٤].

وقال الضحاك: هو رضوان والحور ومالك والزَّبانية. وقيل: عقاربُ أهل النار وحيَّاتُها.

---

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٨) وسنده ضعيف فيما قاله الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٧١ . والظَّرِب: الجبل الصغير. القاموس (ظرب).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٩٣ - ١٩٤ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥٤ من طريق محمد بن إسحاق به ويزيد الرَّقاشي ضعيف كما في تهذيب التهذيب ٤/ ٤٠٣ .

(٣) في (م): الحديث.

(٤) ١٣/ ٢٤١ .

وقال الحسن: هو اللهُ الواحد القهَّار وما يدعُ أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقَه الموت[١]. وقال قتادة: اللهُ أعلمُ بِثُنْياه[٢].

وقيل: الاستثناء في قوله: «إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ» يرجع إلى مَنْ مات قبلَ النفخةِ الأُولى؛ أي: فيموت مَن في السماوات والأرض إلا من سبق موتُه؛ لأنهم كانوا قد ماتوا.

وفي «الصحيحين» وابن ماجه ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة قال: قال رجلٌ من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البَشر؛ فرفع رجلٌ من الأنصار يدَه فَلَطمه؛ قال: تقولُ هذا وفينا رسولُ الله ﷺ. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «قال الله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فأكون أوَّلَ من رفع رأسَه، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أرَفَعَ رأسَه قبلي أو كان ممن استثنى اللهُ؟ ومن قال: أنا خيرٌ من يونس بن متّى فقد كذب»[٣] وخرَّجه الترمذي أيضاً وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[٤].

قال القشيري: ومَن حمل الاستثناءَ على موسى والشهداء فهؤلاءِ قد ماتوا غير أنهم أحياءٌ عند الله. فيجوز أن تكون الصَّعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكونَ بالموت، ولا يبعدُ أن يكونَ الموتُ والحياة، فكلٌّ ذلك مما يُجوِّزه العقلُ، والأمر في وقوعه موقوفٌ على خبر صدق.

قلت: جاء في بعض طرق أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا تُخيِّروني

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٣٦ مختصراً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥٨ .

(٣) صحيح البخاري (٣٤١٤) و(٣٤١٥)، وصحيح مسلم (٢٣٧٣)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٤)، وأخرجه أحمد (٩٨٢١).

(٤) سنن الترمذي (٣٢٤٥).

على موسى، فإنَّ الناسَ يَصْعَقون، فأكونُ أوّلَ من يُفيق، فإذا موسى باطِشٌ بجانب العرش، فلا أَدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي أَمْ كان ممن استثنى الله؟» خرجه مسلم[١]. ونحوه عن أبي سعيد الخدري[٢]؛ والإفاقةُ إنما تكون عن غشيةٍ وزوالِ عقل، لا عن موت بردِّ الحياة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أي: فإذا الأمواتُ من أهل الأرض والسماء أحياء بُعثوا من قبورهم، وأُعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم، فقاموا ينظرون ماذا يُؤمرون. وقيل: قيامٌ على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وُعدوا به. وقيل: هذا النظر بمعنى الانتظار؛ أي: ينتظرون ما يفعل بهم.

وأجاز الكسائي قياماً بالنصب؛ كما تقول: خرجتُ فإذا زيدٌ جالساً[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إشراقُها إضاءتها؛ يقال: أشرقت الشمسُ إذا أضاءتْ، وشَرَقت إذا طَلَعتْ. ومعنى: «بِنُورِ رَبِّها» بعدل ربِّها؛ قاله الحسن[٤] وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربِّها؛ والمعنى واحد؛ أي: أنارتْ وأضاءتْ بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظُّلم ظُلُماتٌ والعَدْل نور.

وقيل: إن الله يخلقُ نوراً يومَ القيامة يُلبسه وجهَ الأرض فَتُشرق الأرضُ به.

وقال ابن عباس: النور المذكور ها هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نورٌ

---

(١) الحديث (٢٣٧٣): (١٦٠)، وهو في صحيح البخاري (٢٤١١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١٧)، ومسلم (٢٣٧٤).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٦.

يخلقه اللهُ فيضيء به الأرض. وروي أن الأرضَ يومئذ من فضة تُشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء. والمعنى: أنها أشرقتْ بنورٍ خَلَقه الله تعالى، فأضاف النورَ إليه على حدِّ إضافة المُلك إلى المالك. وقيل: إنه اليومُ الذي يقضي فيه بين خلقه؛ لأنه نهارٌ لا ليلَ معه.

وقرأ ابن عباس وعُبيد بن عُمير: «وأُشْرِقَتِ الأَرْضُ» على ما لم يُسَمَّ فاعله[١]، وهي قراءة على التفسير.

وقد ضلَّ قومٌ ها هنا فتوهَّموا أن الله عزّ وجلّ من جنس النور والضِّياء المحسوس، وهو مُتعالٍ عن مُشابهة[٢] المحسوسات، بل هو مُنوِّر السماوات والأرض، فمنه كلُّ نور خلقاً وإنشاء.

وقال أبو جعفر النحاس[٣]: وقوله عز وجل ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يُبيِّن هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح: «تنظرون إلى الله عزّ وجلّ لا تُضامون في رؤيته»[٤] وهو يُروى على أربعة أوجه: لا تُضامُون، ولا تضارُون، ولا تضامُّون، ولا تضارُّون؛ فمعنى «لاتُضامُون» لا يلحقكم ضَيْم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك. و«لا تُضارُون» لا يلحقكم ضَيْر. و«لا تَضامُّون» لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يُريه. و«لا تضارُّون» لا يُخالف بعضُكم بعضاً؛ يقال: ضارَّه مُضارَّة وضِراراً، أي: خالفه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، والمحتسب ٢/ ٢٣٩ .

(٢) في النسخ الخطية: مباينة. وهو خطأ.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ١٩٥ - ١٩٦ .

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ بلفظ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر، لا تُضامون في رؤيته...» وسلف ٤/ ١٨٠ . وأخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مطولاً وفيهما: «.. ما تُضارّون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تُضارّون في رؤية أحدهما..» يعني الشمس والقمر، وهو في مسند أحمد (١٩١٩٠) و(١١١٢١) ينظر أحاديث الباب ثمة.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ قال ابن عباس: يريد اللَّوح المحفوظ[١]. وقال قتادة: يُريد الكتب[٢] والصُّحف التي فيها أعمال بني آدم، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله[٣]. ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أُممهم.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين شَهِدوا على الأُمم من أُمة محمد ﷺ[٤]؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل: المرادُ بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يومَ القيامة لمن ذبَّ عن دين الله؛ قاله السُّدي. وقال ابن زيد: هم الحَفَظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: ٢١] فالسائق يسوقُها إلى الحساب والشهيدُ يشهد عليها، وهو المَلَكُ المُوكَّل بالإنسان، على ما يأتي بيانُه في «ق». ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق والعَدْل. ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ قال سعيد بن جُبير: لا ينقص من حسناتهم ولا يُزاد على سيئاتهم[٥]. ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ من خير أو شرٍّ. ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ في الدنيا، ولا حاجةَ به عزَّ وجلَّ إلى كتابٍ ولا شاهد، ومع ذلك فتشهد الكُتب والشهود إلزاماً لِلحُجَّة.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ هذا بيانُ توفية كلِّ نفس

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٢ دون نسبة، وقال: وهذا شاذ، وليس فيه معنى التوعّد، وهو مقصد الآية.

(٢) في (م): الكتاب.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٣٦، وزاد المسير ٧/ ١٩٨ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٨ وزاد المسير ٧/ ١٩٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣٧.

عملها، فيساقُ الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة. والزُّمَر: الجماعاتُ، واحدتها زُمْرة، كظُلْمة وغُرْفة. وقال الأخفش وأبو عبيدة(١): «زُمَراً» جماعاتٍ متفرقةً بعضها إثر بعض. قال الشاعر:

وتَرى النَّاسَ إلى مَنْزِلِهِ زُمَراً(٢) تَنْتَابُه بَعْدَ زُمَر

وقال آخر:

حتّى احْزَأَلَّتْ زُمَرٌ بعد زُمَرْ(٣)

وقيل: دفعاً وزجراً بصوت كصوت المزمار(٤).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جواب إذا، وهي سبعةُ أبواب. وقد مضى في «الحجر»(٥).

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ واحدهم خازن، نحو سَدَنة وسادِن، يقولون لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: الكُتب المُنزلة على الأنبياء، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ أي: يُخوِّفونكم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: قد جاءتنا، وهذا اعترافٌ منهم بقيام الحُجَّة عليهم، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا جهنم. وقد مضَى الكلامُ في

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٩١، وقول الأخفش ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٨.

(٢) في النسخ الخطية: زمرة، والمثبت من (م). والبيت لم نقف عليه.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤١٠، والسمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٤٤٦، وقوله: احزألَّت، جاء في اللسان (حزل): احزألَّت الإبل، إذا اجتمعت ثم ارتفعت عن متن من الأرض في ذهابها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٧.

(٥) ١٢/ ٢١٧ وما بعدها.

أبوابها. قال وهب: تستقبلُهم الزَّبانية بمقامعَ من نار، فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع في الدَّفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعةَ ومُضر. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقدَّم بيانُه[1].

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ يعني من الشهداء والزُّهَّاد والعلماء والقُرَّاء وغيرهم، ممن اتَّقى الله تعالى وعَمِلَ بطاعته. وقال في حقِّ الفريقين: «وَسِيق» بلفظ واحد، فسوقُ أهل النار طَرْدُهم إليها بالخِزْي والهَوان، كما يُفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سِيقوا إلى حَبْس أو قتل، وسَوْقُ أهل الجِنان سوقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرِّضوان؛ لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين كما يُفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السَّوقين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قيل: الواو ها هنا للعطف عطف على جملة، والجواب محذوف. قال المبرد: أي: سعدوا وفُتحت، وحذفُ الجواب بليغٌ في كلام العرب. وأنشد:

فلو أنَّها نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً ... ولكنَّها نَفْسٌ تَسَاقَطُ أنْفُسا[2]

فحذف جواب لو، والتقدير: لكان أروح.

وقال الزجاج[3]: «حتى إذا جاءُوها» دخلوها، وهو قريبٌ من الأول. وقيل:

---

(١) ١٢/٣١٧.

(٢) قائله امرؤ القيس، وسلف ١٢/ ٧١، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ - ٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٤.

الواو زائدة. قاله الكوفيون، وهو خطأ عند البصريين[(١)].

وقد قيل: إن زيادةَ الواو دليلٌ على أن الأبوابَ فُتحت لهم قبلَ أن يأتوا، لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير: حتى إذا جاءوها وأبوابُها مفتحة، بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ وحذف الواو في قصة أهل النار؛ لأنهم وقفوا على النار وفُتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً لهم. ذكره المهدوي، وحكى معناه النحاس قبلَه. قال النحاس[(٢)]: فأما الحِكمة في إثبات الواو في الثاني وحَذْفِها من الأول، فقد تكلَّم فيه بعضُ أهل العلم بقول لا أعلمُ أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عزّ وجلّ في أهل النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ دلَّ بهذا على أنها كانت مغلقةً، ولما قال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ دلَّ بهذا على أنها كانت مُفتحةً قبل أن يجيئوها؛ والله أعلم.

وقيل: إنها واو الثمانية. وذلك من عادة قريش أنهم يَعُدُّون من الواحد فيقولون: خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، فإذا بلغوا السبعة قالوا: وثمانية. قاله أبو بكر بن عياش[(٣)].

قال الله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة:٧] وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة:١١٢] ثم قال في الثامن: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ﴾ [الكهف:٢٢] وقال ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم:٥] وقد مضى القول في هذا في «براءة» مستوفى، وفي «الكهف» أيضاً[(٤)].

قلت: وقد استدلَّ بهذا مَن قال: إن أبوابَ الجنة ثمانية؛ وذكروا حديثَ عمر بن الخطاب، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منكم مِن أحدٍ يتوضأ فيُبْلِغُ ـ أو فيُسْبِغ ـ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢ .

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ٢٣ .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٠٠ ، ونسبه للثعلبي.

(٤) ١٠/ ٣٩٧ و١٣/ ٢٤٦ .

الوضوء، ثم قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدُه ورسوله إلا فُتحت له أبوابُ الجنة الثمانية يدخلُ من أيِّها شاء» خرَّجه مسلم وغيره(١). وقد خرج الترمذي حديثَ عمر هذا وقال فيه: «فُتِحَ له من أبواب الجنة ثمانيةُ أبواب يومَ القيامة»(٢) بزيادة «مِن»، وهو يدلُّ على أن أبوابَ الجنة أكثرُ من ثمانية. وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة»(٣) وانتهى عددُها إلى ثلاثةَ عشرَ باباً، وذكرنا هناك عِظَم أبوابها وسَعتها حَسَبَ ما ورد في الحديث من ذلك، فمن أراده وَقَفَ عليه هناك.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ قيل: الواو مُلغاة تقديره: حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها «قال لهم خَزَنَتُها»(٤).

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: في الدنيا. قال مجاهد: بطاعة الله. وقيل: بالعمل الصالح. حكاه النقاش، والمعنى واحد(٥). وقال مقاتل: إذا قطعوا جسرَ جهنم حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، بمعنى التحية ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾(٦).

قلت: خرج البخاري حديثَ القنطرة هذا في «جامعه» من حديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَخْلُص المؤمنون من النار فَيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده، لأَحدهم أهدى

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٤)، وأخرجه أحمد (١٧٣١٤).

(٢) سنن الترمذي (٥٥) والمثبت في مطبوعه مثل رواية مسلم السالفة، وذكر محققو سنن الترمذي أنه في أكثر النسخ: ثمانية أبواب من الجنة.

(٣) ص٤٥٥ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٨٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣٨ .

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٨٩ بنحوه ونسبه لقتادة.

بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»(١).

وحكى النقّاش: إنَّ على باب الجنة شجرةً ينبع من ساقها عينان، يشرب المؤمنون من أحداهما فتطهر أجوافُهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] ثم يغتسلون من الأخرى فتطيبُ أبشارهم، فعندها يقول لهم خزنتُها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وهذا يُروى معناه عن عليٍّ ﷺ(٢).

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: إذا دخلوا الجنة قالوا هذا، ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة. قيل: إنهم وَرِثوا الأرضَ التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسُّدي وأكثرُ المفسرين وقيل: إنها أرضُ الدنيا على التقديم والتأخير(٣).

قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ قيل: هو من قولهم، أي: نعم الثوابُ هذا. وقيل: هو مِن قول الله تعالى؛ أي: نعم ثواب المُحسنين هذا الذي أعطيتُهم(٤).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يا محمد ﴿حَآفِّينَ﴾ أي: مُحدِقين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ في ذلك اليوم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُتلذِّذين بذلك لا مُتعبدين به؛ أي: يُصلّون حولَ العرش شُكراً لربهم. والحافُّون أُخِذَ من حافَّات الشيء ونواحيه. قال الأخفش: واحدُهم حافٌّ. وقال الفرَّاء: لا واحدَ له إذْ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين(٥).

ودخلت «مِن» على «حَوْل» لأنه ظرف، والفعل يتعدَّى إلى الظرف بحرف وبغير

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٣٥)، وأخرجه أحمد (١١٠٩٥).

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٢٦٦ - ٢٦٧ عن علي ﷺ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/١٣٨ عن مقاتل.

(٣) النكت والعيون ٥/٢٨٧ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٣ .

(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/٢٣ عن مقاتل.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٣ .

حرف. وقال الأخفش[(١)]: «مِنْ» زائدة، أي: حافّين حولَ العرش. وهو كقولك: ما جاءني من أحد، فمن توكيد.

الثعلبي: والعرب تُدخل الباء أحياناً في التسبيح وتحذفها أحياناً، فيقولون: سبِّح بحمدِ ربِّك، وسبِّح حمداً لله؛ قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بين أهل الجنة والنار. وقيل: قُضي بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء وبين أُممهم بالحقّ والعَدْل[(٢)].

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يقول المؤمنون: الحمدُ لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونَصَرنا على مَن ظَلَمنا.

وقال قتادة في هذه الآية: افتتح اللهُ أولَ الخَلْق بالحمد لله، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وخَتَم بالحمد، فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)]. فلزم الاقتداء به، والأخذ في ابتداء كلِّ أمر بحمده وخاتمته بحمده.

وقيل: إن قول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾من قول الملائكة، فعلى هذا يكون حَمْدُهم لله تعالى على عَدْله وقضائه[(٤)]. ورُوِيَ من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر سورة «الزمر» فتحرَّك المِنبر مرَّتين[(٥)].

تم تفسير سورة «الزمر».

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٣ .

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٢ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٣٩ .

(٥) أخرجه أحمد (٥٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٨) بنحوه، وأورده بلفظ المصنف الذهبي في الميزان ٢/ ٣٧٨ وفي إسناده عبّاد بن ميسرة، ضعَّفه أحمد ويحيى فيما قاله الذهبي.

سُورَةُ الزُّمَرِ

مَكِّيَّةٌ، إلَّا قولَه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ﴾ الآيةَ[1]. وآيُها خمسٌ وسَبعونَ أو ثنتانِ وسبعونَ[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرُ مَحذوفٍ مثل: هذا، أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وهو على الأوَّلِ صِلَةُ التَّنزيلِ، أو خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ عملَ فيها معنى الإشارةِ أو التنزيلِ، والظَّاهرُ أنَّ (الكتاب) على الأوَّلِ: السُّورةُ، وعلى الثَّاني: القُرآنُ.

وقُرِئَ: (تنزيلَ) بالنَّصبِ[3] على إضمارِ فعلٍ نحو: اقرَأْ أو الزَمْ.

(٢) ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُلتَبِسًا بالحقِّ، أو بسببِ إثباتِ الحقِّ وإظهارِه وتَفصيلِه.

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢١٦)، وفيه: «مَكِّيَّة، قال ابن عبَّاس وعطاء: إلاَّ ثلاث آيات منها فإنها نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة، وهن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾».

(٢) انظر المصدر السابق، وفيه: «وهي سبعون وخمس آيات في الكوفي، وثلاث في الشَّامي، واثنتان في عدد الباقين، اختلافها سبع آيات...». وتنظر ثمة.

(٣) هي قراءة عيسى بن عمر، وإبراهيم بن أبي عبلة كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣١).

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مُمَحِّضًا له الدِّينَ مِن الشِّركِ والرِّياءِ.

وقُرِئَ برفعِ (الدِّينُ)[1] على الاستئنافِ لتَعليلِ الأَمرِ، وتقديمُ الخبرِ لتَأكيدِ الاختصاصِ المستفادِ مِن اللامِ كما صَرَّحَ بهِ مُؤكَّدًا، وأجراه مُجرى المعلومِ المقرَّرِ لِكَثرةِ حُجَجِهِ وظهورِ بَراهينِهِ فقال:

(٣) ـ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ أي: ألا هو الذي وجبَ اختصاصُهُ بأن تُخلَصَ له الطَّاعةُ، فإنَّه المتفرِّدُ بصفاتِ الألوهيَّةِ والاطِّلاعِ على الأسرارِ والضَّمائرِ.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يحتمـلُ المُتَّخِذِينَ مِن الكفرَةِ والمُتَّخَذينَ مِـن الملائكـةِ وعيسـى والأصنام علـى حذفِ الرَّاجـعِ، وإضمـارُ المُشـركينَ مِن غيرِ ذكـرٍ لدلالـةِ المسـاقِ عليهم، وهـو مُبتـدأٌ خبـرُه علـى الأوَّلِ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ بإضمـارِ القَـوْلِ، أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وهـو مُتعيِّـنٌ علـى الثَّانـي، وعلـى هذا يكـونُ القـولُ المُضمَرُ بما في حَيِّـزِه حَالًا أو بـدلًا مِن الصِّلَـةِ، و﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ مصدرٌ أو حالٌ.

---

(١) هي قراءة ابن أبي عبلة كما في «الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٩)، و«البحر» (١٨/ ٣٠٦). ونفى الزجاج أن تكون قراءة، وذلك في معرض رده على الفراء الذي أجاز الرفع دون التصريح بكونه قراءة، على أن تكون الجملة قد انتهت عند ﴿مُخۡلِصٗا﴾، ويكون ﴿لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ابتداء؛ كأنك قلت: اعبد الله مُطيعًا، فَلَه الدين. فقال الزجاج: وهذا لا يجوز من جهتين: إحداهما: أنه لم يقرأ به، والأخرى: أنه يفسده ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، فيكون ﴿له الدينُ﴾ مكرراً في الكلام لا يحتاج إليه، قال: وإنما الفائدة في ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ تحسن بقوله: ﴿مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤١٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٤٣ـ ٣٤٤).

وقُرِئَ: (قالوا ما نعبدُهُم)[١]، و(ما نعبدُكُم إلا لتُقرِّبُونَا)[٢] حكايةً لِمَا خاطَبُوا به آلهتَهُم، و(نُعْبُدهم) بضمِّ النُّونِ[٣] إتبَاعًا.

﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن الدِّينِ بإدخالِ المحقِّ الجنَّةَ والمبطلِ النَّارَ، والضَّميرُ للكَفَرةِ ومُقابليهِم.

وقيل: لَهُم ولِمَعبوديهِم، فإنَّهُم يرجُونَ شَفاعتَهُم وهم يَلعنونَهُم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ لا يُوفِّقُ للاهتداءِ إلى الحقِّ ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فإنَّهُما فاقِدا[٤] البصيرةِ.

(٤) ـ ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زَعموا ﴿لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إذ لا موجودَ سِواهُ إلَّا وهو مخلوقُه لقيامِ الدَّلالةِ على امتناعِ وجودِ واجِبَيْنِ ووجوبِ استنادِ ما عدا الواجبَ إليه، ومِن البيِّنِ أنَّ المخلوقَ لا يُماثِلُ الخالقَ فيقومُ مقامَ الولدِ له، ثمَّ قَرَّر ذلك بقولِه:

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فإنَّ الألوهيَّةَ الحقيقيَّةَ تتبعُ الوُجوبَ المُستلزِمَ للوحدةِ الذَّاتيَّةِ وهي تُنافي المماثلةَ فضلًا عن التَّوالُدِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن المثلينِ مُركَّبٌ مِن الحقيقةِ المُشتركَةِ والتَّعيُّنِ المخصوصِ، والقَهَّاريَّةُ المُطلقَةُ تنافي قبولَ الزَّوالِ المُحْوِجِ إلى الولدِ، ثمَّ استدلَّ على ذلك بقولِه:

---

(١) هي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ١٥٦)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ١٥٠)، و«تفسير البغوي» (٧/ ١٠٤).

(٢) وهي قراءة أبي رضي الله عنه، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤١٤)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ١٥٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٤٤)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ١٥١).

(٣) انظر: «الكشاف» (٧/ ٤٦٦) و«البحر» (١٨/ ٣٠٨).

(٤) في نسخة الخيالي: «عادما»، وفي نسخة الفاروقي: «فإنهما في علم الله كذلك لعدم».

(٥) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ يُغْشِي كلَّ واحدٍ مِنْهُما الآخرَ، كأنَّه يَلُفُّ عليه لَفَّ اللباسِ باللابسِ، أو يُغيبُهُ به كما يُغَيَّبُ الملفوفُ باللِّفافَةِ، أو يجعلُه كارًّا عليهِ كرورًا مُتَتابعًا تتابُعَ أكوارِ العِمامَةِ.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو مُنتهى دورِهِ، أو مُنقَطَعُ حَركتِهِ.

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ على كلِّ ممكنٍ، الغالبُ على كلِّ شيءٍ.

﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ حيثُ لم يُعاجِلْ بالعُقوبَةِ وسَلْبِ ما في هذه الصَّنائعِ مِن الرَّحمةِ وعُمومِ المنفعةِ.

(٦) ـ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ استدلالٌ آخرُ بما أوجدَهُ في العالمِ السُّفليِّ مبدوءًا بهِ مِن خلقِ الإنسانِ لأنَّه أقربُ وأكثرُ دلالةً وأعجَبُ، وفيه على ما ذكرَه ثلاثُ دلالاتٍ:

خلقُ آدمَ أوَّلًا مِن غيرِ أبٍ وأُمٍّ.

ثمَّ خلقُ حوَّاءَ مِن قُصَيْراهُ[١].

ثمَّ تَشعيبُ الخلقِ الفائتِ للحَصرِ مِنْهُما.

و(ثمَّ) للعَطفِ على مَحذوفٍ هو[٢] صِفَةُ ﴿نَّفْسٍ﴾، مثل: خَلَقَها، أو على مَعنى ﴿وَٰحِدَةٍ﴾، أي: مِن نَفسٍ وُحِّدَت ثمَّ جعلَ منها زوجَها فشفعَها بها، أو على ﴿خَلَقَكُم﴾ لتَفاوُتِ ما بين الآيتينِ؛ فإنَّ[٣] الأولى عادةٌ مُستمرَّةٌ دونَ الثَّانيةِ.

---

(١) قال الجوهريُّ: (القُصْرى والقُصَيرى): الضِّلعُ التي تلي الشَّاكلةَ، وهي الواهنةُ في أسفلِ الأضلاعِ، انظر: «الصحاح»: (مادة: قصر).

(٢) في نسخة التفتازاني: «وهو».

(٣) في نسخة الخيالي زيادة: «الآية».

وقيل: أخرجَ مِن ظهرِهِ ذُرِّيَّته كالذَّرِّ، ثمَّ خلقَ منها[1] حوَّاءَ.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقضى أو قسمَ لَكُم؛ فإنَّ قَضاياهُ وقَسْمَهُ توصَفُ بالنُّزولِ مِن السَّماءِ حيثُ كَتَبَ في اللوحِ، أو أحدثَ لَكُم بأسبابٍ نازلةٍ كأشعَّةِ الكواكبِ والأمطارِ. ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكرًا وأُنثى مِن الإبلِ والبقرِ والضَّأنِ والمعزِ.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ خلقِ ما ذكرَ مِن الأناسيِّ والأنعامِ إظهارًا لِمَا فيها مِن عَجائبِ القُدرَةِ، غيرَ أنَّه غلَّبَ أولي العقلِ أو خصَّهُم بالخطابِ لأنَّهُم المَقصودونَ.

﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ حَيوانًا سَوِيًّا مِن بعدِ عظامٍ مَكسوَّةٍ لحمًا مِن بعدِ عظامٍ عاريةٍ مِن بعدِ مُضَغٍ مِن بعدِ عَلَقٍ مِن بعدِ نُطَفٍ ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمةُ البَطنِ والرَّحمِ والمشيمةِ، أو الصُّلبِ والرَّحِمِ والبطنِ.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه أفعالُه ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو المستحقُّ لعِبادَتِكُم والمالكُ ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يُشارِكُه في الخلقِ غيرُه.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يُعْدَلُ[2] بكم عن عِبادَتِه[3] إلى الإشراكِ.

(٧) - ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ عن إيمانِكُم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ لاستضرارِهِم به رحمةً عليهِم.

﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنَّه سَببُ فَلاحِكُم. وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ في روايةٍ وأبو

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «منه»، وفي نسخة الطبلاوي: «ثم خلق منها بعد ذلك». قال الخفاجي في «حاشيته»: (٧/ ٣٢٨): قوله: «ثم خلق منها» أي: من قصيراهُ، وفي نسخة: منه، أي من آدم عليه الصلاة والسلام، ومن أرجع ضمير منها للذرية فقد سها.

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «كيف يعدل».

(٣) في نسخة الفاروقي: «العبادة».

عمرٍو والكِسائيُّ بإشباعِ ضَمَّةِ الهاءِ لأنَّها صارَتْ بحَذفِ الألفِ موصولةً بمُتحرِّكٍ، وعن أبي عمرٍو ويعقوبَ إسكانُها وهو لُغَةٌ فيها[1].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمُحاسبَةِ والمُجازاةِ.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلا تَخفى عليه خافيَةٌ من أعمالِكُم.

(٨) ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ لزوالِ ما ينازعُ العقلَ في الدلالةِ على أنَّ مبدأَ الكلِّ منه.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أعطاهُ، مِن الخَوَلِ وهو التَّعهُّدُ، أو الخَوْلِ وهو الافتخارُ.

﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ مِن اللهِ.

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ أي نَسِيَ الضرَّ الذي كانَ يدعو اللهَ إلى كشفِهِ، أو ربَّهُ الذي كان يَتضرَّعُ إليه، و(ما) مثله الذي في قولِه: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ النعمَةِ.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورُوَيسٌ بفتحِ الياءِ[2]،

---

(١) قرأ نافع وعاصم ويعقوب وحمزة بضم الهاء من غير صلة، وابن كثير وابن ذكوان والكسائي وابن وردان وخلف في اختياره بالضم مع الصلة، والسوسي وابن جماز بإسكانها، وللدوريّ عن أبي عمرو وجهان: الإسكان والضم مع الصلة، ولهشام وجهان أيضاً: الإسكان والضم من غير صلة، هذا ما يؤخذ له من «الشاطبية»، ولكن صاحب «النشر» ذكر أن الإسكان له ليس من طرق «التيسير» و«الشاطبية» وإن كان صحيحاً عنه، وعلى هذا ينبغي الاقتصار له على وجه الضم مع عدم الصلة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٠ـ٥٦١)، و«التيسير» (ص: ١٨٩)، و«النشر» (١/ ٣٠٥)، و«البدور الزاهرة» (ص: ٢٧٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٤)، و«النشر» (١/ ٣٠٧)، وهي بخلاف عن رويس كما ذكر ابن الجزري، وقراءة الباقين بالضم.

والضَّلالُ والإضلالُ لَمَّا كانا نتيجةَ جَعلِه؛ صحَّ تعليلُهُ بهما وإن لم يكونَا غَرَضينِ[١].

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمرُ تَهديدٍ فيه إشعارٌ بأنَّ الكُفرَ نوعُ تَشهٍّ لا سندَ له، وإقناطٌ للكافرِ مِن التَّمتُّعِ في الآخرةِ، ولذلك علَّلَه بقولِه: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ على سبيلِ الاستئنافِ للمُبالغَةِ.

(٩) ـ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ قائم بوظائفِ الطَّاعاتِ.

﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاتِه، و(أم) مُتَّصلَةٌ بمحذوفٍ تَقديرُه: الكافرُ خَيرٌ أم مَن هوَ قانِتٌ، أو مُنقطعَةٌ والمعنى: بل أَمَن هو قانِتٌ كمَنْ هو بضِدِّه. وقرأ الحِجازيَّانِ وحمزةُ بتَخفيفِ الميمِ[٢] بمعنى: أَمَن هو قانتٌ للهِ كمَن جعلَ له أندادًا.

﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ حالانِ مِن ضميرِ ﴿قَانِتٌ﴾، وقُرئَا بالرَّفعِ[٣] على الخبرِ بعدَ الخبرِ، والواوُ للجمعِ بينَ الصِّفتينِ. ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ في مَوقعِ الحالِ أو الاستئنافِ للتَّعليلِ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفيٌ لاستواءِ الفَريقَيْنِ باعتبارِ القُوَّةِ العِلميَّةِ بعدَ نَفيِهَا باعتبارِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ على وجهٍ أبلغَ لِمَزيدِ فضلِ العلمِ.

---

(١) قال الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «والضلال والإضلال... إلخ» يعني: أن اللام هنا لام العاقبة والمآل لترتب ما ذكر على هذا الجعل، وهي مستعارة من لام التعليل الداخلة على الغرض استعيرت لما ذكر كما مر تحقيقه، لكن فيه أن الضلال ليس نتيجة جعل الأنداد بل سبب مقدم عليه كما لا يخفى، والإضلال لا يمتنع فيه أن يكون غرضاً إلا أن يقال: المترتب عليه الضلال الكامل أو ضلال مخصوص أو استمراره، والإضلال وإن قصد من فعلهم لكنهم لا يعتقدون أو لا يظهرون أنه إضلال بل إرشاد، والمراد بالنتيجة ما يؤدي إليه الفعل، والغرض ما يقصد ترتبه على الفعل.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٦١)، و«التيسير» (ص: ١٨٩)، وقرأ الباقون بالتشديد.

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٢٣)، و«البحر» (١٨/ ٣١٧)، عن الضحاك.

وقيل: تقريرٌ للأوَّلِ على سبيلِ التَّشبيهِ؛ أي: كمَا لا يَستَوِي العالِمُونَ والجاهلونَ لا يَستَوِي القانِتونَ والعاصونَ[١].

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ بأمثالِ هذه البياناتِ. وقُرِئَ: (يذَّكَّرُ) بالإدغامِ[٢].

(١٠) ـ ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بلزومِ طاعتِه.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي للذينَ أحسَنُوا بالطَّاعاتِ في الدُّنيا مثوبةٌ حَسنةٌ في الآخرةِ. وقيل معناهُ: للذينَ أحسَنُوا حسنةٌ في الدُّنيا هي الصِّحَّةُ والعافيةُ، وفي ﴿هَذِهِ﴾ بيانٌ لِمَكانِ ﴿حَسَنَةٌ﴾.

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمَن تعسَّرَ عليه التوفُّرُ على الإحسانِ في وَطنِه فليُهاجِر إلى حيثُ يتمكَّنُ منه.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ على مَشاقِّ الطَّاعةِ مِن احتمالِ البلاءِ ومُهاجرةِ الأوطانِ لها ﴿أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أجرًا لا يَهتدي إليه حسابُ الحُسَّابِ.

وفي الحديثِ: أنَّه «يُنصَبُ الموازينُ يومَ القيامةِ لأهلِ الصَّلاةِ والصَّدقَةِ والحجِّ فيوفونَ بها أجورَهُم، ولا يُنصبُ لأهلِ البَلاءِ بل يُصَبُّ عليهم الأجرُ صَبًّا حتَّى يَتمنَّى أهلُ العافِيَةِ في الدُّنيا أنَّ أجسادَهُم تُقرضُ بالمَقاريضِ ممَّا يذهَبُ به أهلُ البلاءِ مِن الفَضلِ»[٣].

---

(١) وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون، ويفتنُّون فيها ثم يُفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء. انظر: «الكشاف» (٧/ ٤٧٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٤٧٧)، و«البحر» (١٨/ ٣١٨).

(٣) رواه ابن مردويه كما في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٢)، من حديث أنس رضى الله عنه. قال الحافظ: وإسناده ضعيف جدًّا.

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مُوَحِّدًا له ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وأُمِرتُ بذلك لأجلِ أَنْ أكونَ مُقدَّمَهُم في الدُّنيا والآخرةِ لأنَّ قصبَ السَّبقِ في الدِّينِ بالإخلاصِ، أو لأنَّهُ أوَّلُ مَن أسلمَ وجهَهُ للهِ مِن قُرَيشٍ ومَن دانَ بدينِهم، والعَطفُ لِمُغايرَةِ الثَّاني الأوَّلَ بتَقيُّدِهِ بالعِلَّةِ والإشعارِ بأنَّ العِبادةَ المقرونةَ بالإخلاصِ وإن اقتضَتْ لذاتِها أن يُؤمرَ بها؛ فهيَ أيضًا تقتضيهِ لِمَا يلزمُهُ مِن السبَقةِ في الدِّينِ.

ويجوزُ أن تجعلَ اللامُ مَزيدَةً كما في: أَردْتُ لِأَنْ أفعلَ، فيكونُ أمرًا بالتقدُّمِ في الإخلاصِ والبدءِ بنَفسِهِ في الدُّعاءِ إليه بعدَ الأمرِ به.

(١٣) ـ ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ بتركِ الإخلاصِ والميلِ إلى ما أَنتُم عليه مِن الشِّركِ والرِّياءِ.

﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ لعظمةِ ما فيهِ.

(١٤) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ أمرٌ بالإخبارِ عن إخلاصِه[1]، وأن[2] يكونَ

= ورواه بنحوه الطَّبَراني في «الكبير» (١٢٨٢٩) عن ابن عبَّاس مرفوعاً بلفظ: «يُؤْتَى بالشَّهيد يوم القيامة فينصبُ للحساب، ويُؤْتَى بالمتصدق فينصبُ للحساب، ثم يُؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصبُ لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، فيُصبُّ عليهم الأجر حتى إن أهل العافية لَيَتَمَنَّوْن في الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله لهم».

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٠٥): فيه مجاعة بن الزبير، وثقه أحمد وضعفه الدارقطني.
ولقوله في آخره: «حتى يتمنَّى أَهْلُ العَافية...» شاهد من حديث جابر رضي الله عنه، رواه الترمذي (٢٤٠٢) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرِفُه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، وقد رَوَى بعضُهم هذا الحديثَ عن الأعمش، عن طلحةَ بن مُصَرِّفٍ، عن مسروقٍ قولَه شيئًا من هذا.

(١) في نسخة التفتازاني: «أمرٌ بإخلاصه».

(٢) في نسخة التفتازاني: «وعن أن».

مُخلِصًا لـه دينَهُ بعدَ الأمرِ بالإخبارِ[١] عن كونِه مأمورًا بالعبادةِ والإخلاصِ خائفًا عن المُخالفَةِ مِـن العقابِ قَطْعًا لأطماعِهِم، ولذلك رتَّـبَ عليهِ قولَه: (١٥) ـ ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ تهديدًا وخذلانًا لهم.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ الكامليـنَ فـي الخُسـرانِ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالضَّـلالِ، ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ بالإضـلالِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ حيـن يَدخلـونَ النَّارَ بـدلَ الجنَّـةِ لأنَّهُم جمعوا وُجوهَ الخُسـرانِ.

وقيل: فخَسِرُوا أهلِيهِم لأنَّهُم إنْ كانوا مِن أَهلِ النَّارِ فقد خَسِرُوهم كما خَسِرُوا أنفُسَهُم، وإن كانوا مِن أهلِ الجنَّةِ فقَدْ ذهبُوا عنهم ذَهابًا لا رُجوعَ بعدَهُ.

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ مُبالغةٌ في خُسرانِهم لِمَا فيهِ من الاستئنافِ والتَّصديرِ بـ(ألا) وتوسيطِ الفصلِ وتَعريفِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ ووصفِه بـ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾.

(١٦) ـ ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ شرحٌ لخُسرانِهم ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ أطباقٌ مِن النَّارِ هي ظلَلُ الآخرينَ.

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ذلـك العَـذابُ هـو الـذي يُخَوِّفُهـم بـه ليَجتَنِبُـوا مـا يُوقِعُهـم فيه.

﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرَّضُوا لِمَا يوجِبُ سَخَطِي.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ البالغَ غايةَ الطُّغيانِ، (فَعَلُوتٌ) مِنه بتَقديمِ اللامِ على العينِ، بُنِيَ للمُبالغَةِ في المصدرِ كالرَّحمُوتِ، ثمَّ وُصِفَ به للمُبالغَةِ في النَّعتِ، ولذلك اختصَّ بالشَّيطانِ ﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ بدلُ اشتمالٍ منه ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾

---

(١) في نسخة الخيالي: «بعد الإخبار».

وأقبَلُوا إليه بشَراشِرِهِم عمَّا سِواهُ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثَّوابِ على ألسِنَةِ الرُّسُلِ، أو الملائكةِ عندَ حُضورِ المَوتِ.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وُضِعَ فيه الظَّاهِرُ مَوضِعَ ضميرِ (الذين اجتَنبُوا) للدَّلالةِ على مبدأِ اجتِنابِهم وأَنَّهُم نُقَّادٌ في الدِّينِ يَمِيزُونَ بينَ الحقِّ والباطلِ، ويُؤثرونَ الأفضلَ فالأفضلَ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لدينِه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقولِ السَّليمَةِ عن مُنازعَةِ الوَهمِ والعادةِ، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ الهِدايةَ تَحصُلُ بفعلِ اللهِ وقَبولِ النَّفسِ لها.

(١٩) - ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ جملةٌ شَرطيَّةٌ مَعطوفَةٌ[1] على محذوفٍ دلَّ عليه الكَلامُ، تقديرُهُ: أأنتَ مالِكُ أمرِهِم فمَنْ حَقَّ عليه العَذابُ فأنتَ تُنقِذُهُ؟! فكُرِّرَت الهمزةُ في الجزاءِ لتأكيدِ الإنكارِ والاستبعادِ، ووُضِعَ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ موضِعَ الضَّميرِ لذلك، وللدَّلالةِ على أنَّ مَن حُكِمَ عليه بالعذابِ كالواقعِ فيه؛ لامتناعِ الخُلْفِ فيه، وأنَّ اجتهادَ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ في دُعائِهم إلى الإيمانِ سَعيٌ في إنقاذِهِم مِن النَّارِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ جُملَةً مُستأنَفَةً للدَّلالةِ على ذلك والإشعارِ بالجَزاءِ المَحذوفِ.

(٢٠) - ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ عَلاليَ بعضُها فوقَ بَعضٍ ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بُنِيتَ بناءَ المنازلِ على الأرضِ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي مِن تحتِ تلك الغُرَفِ.

---

(١) قال الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «جملة شرطية معطوفة... إلخ» هو أحد قولين للنحاة فيه؛ فمنهم من يجعله عطفًا على المقدَّر الذي دخلت عليه الهمزة كما ذكره المصنف، ومنهم من يجعل الهمزة متقدمةً من تأخير لأصالتها في الصَّدارة، وهو الذي رجحه في «المغني». وانظر: «مغني اللبيب»: (ص: ٤٣).

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ لأنَّ قولَه: لهم غُرَفٌ في مَعنى الوَعدِ.

﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ لأنَّ الخُلْفَ نقصٌ، وهو على اللهِ مُحَالٌ.

(٢١) ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ هو المطرُ ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخلَهُ ﴿يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي عيونٌ ومجارٍ كائنةٌ فيها، أو مياهٌ نابعاتٌ فيها، إذ الينبوعُ جاءَ للمَنبعِ وللنَّابعِ[1]، فنصبُها على المصدرِ أو الحالِ[2].

﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ أصنافُه مِن بُرٍّ وشَعيرٍ وغيرِهما، أو كيفيَّاتُه مِن خُضرةٍ وحُمرةٍ وغيرِهما.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ثم يَتِمُّ جَفافُه، لأنَّه إذا تمَّ جَفافُهُ حانَ له أن يثورَ عن منبتِه.

﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ مِن يُبْسِهِ ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فُتاتًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾ لَتذكيرًا بأنَّهُ لا بُدَّ مِن صانعٍ حكيمٍ دبَّرَه وسَوَّاهُ، وبأنَّه مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا فلا يُغترُّ بها.

﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إذ لا يَتذكَّرُ[3] به غيرُهُم.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «للمنبع والينابيع» وفي نسخة الفاروقي: «للمنبع والنابع».

(٢) الخفاجي في «حاشيته»: (٧/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥): قوله: «فنصبها» أي: الينابيع، فيه أنه سواءٌ جعل اسماً للمجرى، أو لما جرى فيه اسم عين، فلا ينتصبُ على المصدريَّة ولا الحاليَّة، بل الظَّاهرُ أنه على الأوَّل منصوبٌ على الظَّرفية، أو بنزع الخافضِ، وأصلُه: في ينابيع، ويؤيِّده أنه في بعض النُّسخ: «على الظرف» بدل قوله: «على المصدر»، ووُجِّهَت الأولى بأنَّ الأصل: سُلوكًا في ينابيع، فلما حُذِفَ المصدرُ وأقيمت صفته مقامَه جعلها منصوبةً على المصدريَّةِ تسمُّحًا، أو أصله: سلوكُ ينابيعَ فحذفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه، وعلى الثَّاني يصحُّ نصبهُ على الحاليَّة بتأويله بـ: نابعًا، لكنَّه لا يخلو من الكدرِ لأنَّه لو قصدَ هذا كان حقُّه أن يقال مِن الأرضِ وفي الأرضِ على الوجهينِ صفة ينابيعَ، وقيل (ينابيعُ) مفعول: سلك على الحذفِ والإيصالِ.

(٣) في نسخة الفاروقي: «متذكر».

(٢٢) ـ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ حتَّى تمكَّنَ فيه بيُسرٍ، عبَّر به عمَّن خلقَ نفسَهُ شديدةَ الاستعدادِ لقبولِهِ غيرَ مُتأبِّيَةٍ عنه مِن حيثُ إنَّ الصَّدرَ محلُّ القَلبِ المَنبعِ للرُّوحِ المُتعلِّقِ للنَّفسِ القابلِ للإسلامِ.

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني المعرفةَ والاهتداءَ إلى الحقِّ، وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إذا دخلَ النُّورُ القلبَ انشرحَ وانفَسَحَ» فقيل: فما علامةُ ذلك؟ قال: «الإنابةُ إلى دارِ الخُلودِ، والتَّجافي عن دارِ الغُرورِ، والتأهُّبُ للمَوتِ قبلَ نُزولِه»[١].

وخبرُ (مَن) مَحذوفٌ[٢] دلَّ عليه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مِن أجلِ ذكرِهِ، وهو أبلَغُ مِن أَنْ يكونَ (عن) مكانَ (مِن)؛ لأنَّ القاسيَ مِن أجلِ الشَّيءِ أشدُّ تأبِّيًا مِن قبولِه مِن القاسي عنهُ لسَببٍ آخرَ، وللمُبالغَةِ في وصفِ أولئكَ بالقَبولِ وهؤلاءِ بالامتناعِ = ذَكَرَ شَرحَ الصَّدرِ وأسندَهُ إلى اللهِ، وقابَلَهُ بقَساوَةِ القلبِ وأسندَهُ إليه.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يظهرُ للنَّاظرِ بأدنى نظرٍ.

والآيةُ نزلَتْ في حمزةَ وعَلِيٍّ وأبي لهبٍ وولدِهِ[٣].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٦٨) و«الزهد» (٩٧٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٣١٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.
ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (٨٥٢)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٩١٨ ـ تفسير)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٢٦) عن عبد الله بن المسور عن النبي ﷺ مرسلاً.
وذكر له الدارقطني في «علله» (٥/ ١٨٩) طرقاً ثم قال: وكلها وهم، والصواب عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبي ﷺ، وعبد الله بن المسور هذا متروك.
والآية التي ذكرها الحاكم في «المستدرك» والبيهقي في «الشعب»: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ورواه البيهقي في «الزهد» (٩٧٤) بذكر آية الزمر.

(٢) قوله: «وخبر مَن محذوف» تقديره: كمن قسا قلبه عن الإسلام. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ١٥).

(٣) ذكره مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١٠/ ٦٣٢٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٦٩)، والكرماني في «لباب التفاسير» (٨/ ٢٦).

(٢٣) ـ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ، رُوِيَ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ مَلُّوا مَلَّةً فقالوا له: حَدِّثْنا، فنزلَتْ[١].

وفي الابتداءِ باسمِ اللهِ وبناءِ ﴿نَزَّلَ﴾ عليه تأكيدٌ للإسنادِ إليه وتَفخيمٌ للمُنزَّلِ واستشهادٌ على حُسنِه.

﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ بدلٌ مِن ﴿أَحْسَنَ﴾ أو حالٌ منه، وتَشابُهه تَشابهُ أبعاضِه في الإعجازِ وتجاوُبِ النَّظمِ وصِحَّةِ المعنى والدَّلالةِ على المنافعِ العامَّةِ.

﴿مَّثَانِيَ﴾ جمعُ مُثَنًّى أو مَثْنًى أو مَثْنِيٍّ؛ على ما مرَّ في (الحِجْر)[٢]، وصفَ به ﴿كِتَٰبًا﴾ باعتبارِ تفاصيلِه كقولك: القرآنُ سُوَرٌ وآياتٌ، والإنسانُ عُروقٌ وعِظامٌ وأعصابٌ، أو جُعِلَ تَمييزًا مِن ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ كقولك: رأيتُ رَجُلًا حسنًا شمائلَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٨) وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٤٨)، من طريق المسعودي عن عون بن عبد الله (هو ابن عتبة بن مسعود) مرسلاً.

ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١٠٠) من طريق المسعودي عن القاسم (هو ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود) مرسلاً أيضاً.

أما حديث ابن مسعود فرواه ابن مردويه من طريق عون بن عبد الله عن ابن مسعود رَضِي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾. انظر: «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٦).

ولحديث ابن مسعود بهذا اللفظ شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رواه البخاري في «تاريخ الكبير» (٦/ ٣٧٤)، والبزار في «مسنده» (١١٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣١٩) وصححه، والضياء في «المختارة» (١٠٦٩).

(٢) كذا في النسخ، والثالثة لم ترد في نسخ «تفسير البيضاوي» المطبوعة مع «حاشية الأنصاري» و«حاشية الخفاجي» ولم يشيرا إليها، وقوله: «مَثْنِي» أي: مثنيٌّ عليه، انظر: (٨/ ١٦٢).

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ تشمئزُّ خَوْفًا ممَّا فيهِ مِن الوَعيدِ، وهو مَثَلٌ في شِدَّةِ الخوفِ، واقشعرارُ الجلدِ: تقبُّضُه، وتركيبُهُ مِن حُروفِ القَشْعِ وهو الأديمُ اليابسُ بزيادةِ الرَّاءِ ليصيرَ رُبَاعِيًّا، كتركيبِ (اقمَطَرَّ) مِن القَمْطِ وهو الشَّدُّ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالرَّحمةِ وعمومِ المَغفِرَةِ، والإطلاقُ للإشعارِ بأنَّ أصلَ أمرِهِ الرَّحمَةُ وأنَّ رحمتَهُ سَبقَتْ غضبَهُ، والتَّعدِيَةُ بـ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمينِ مَعنى السُّكونِ والاطمئنانِ، وذكرُ القُلوبِ لتقدُّمِ الخشيَةِ التي هيَ مِن عَوارِضِهَا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الكتابُ، أو الكائنُ مِن الخشيةِ والرَّجاءِ، ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ هِدايتَه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومَن يخذُلْه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يُخرِجُهُ من الضَّلالِ.

(٢٤) ـ ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾ يجعلُهُ دَرَقَةً[١] يَقِي به نفسَهُ لأنَّه يكون مغلولةً يداهُ إلى عنقِهِ فلا يقدرُ أنْ يتَّقِيَ إلَّا بوَجهِه ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كمَنْ هو آمِنٌ منه، فحُذِفَ الخبرُ كما حُذِفَ في نظائرِه.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لهم، فوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَهُ تسجيلًا عليهم بالظُّلمِ وإشعارًا بالموجبِ لِمَا يقالُ لهم، وهو: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: وَبَالَهُ، والواوُ للحالِ و(قد) مُقدرةٌ.

(٢٥) ـ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مِن الجهَةِ التي لا يخطرُ ببالِهم أنَّ الشرَّ يأتيهم مِنها.

(٢٦) ـ ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ الذُّلَّ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمَسْخِ والخَسْفِ والقَتْلِ والسَّبيِ والإجلاءِ، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المُعَدُّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشِدَّتِه ودَوامِه ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا مِن أهلِ العلمِ والنَّظرِ لعَلِمُوا ذلك واعتبروا به.

---

(١) أي: تُرْسًا.

(٢٧) ـ ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتاجُ إليه النَّاظرُ في أمرِ دينِه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتَّعِظونَ به.

(٢٨) ـ ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ مِن ﴿هَٰذَا ﴾، والاعتمادُ فيها على الصِّفَةِ؛ كقولِك[١]: جاءَنِي زَيدٌ رَجُلًا صالحًا، أو مدحٌ له.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ لا اختلالَ[٢] فيه بوجهٍ ما، وهو أبلغُ مِن المستقيمِ وأخَصُّ[٣] بالمعاني، وقيل: بالشَّكِّ، استشهادًا بقولِهِ:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ ... مِنَ الإلَهِ وقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ[٤]

وهو تخصيصٌ له ببعضِ مَدلولِه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ علةٌ أُخرى مُرتَّبةٌ على الأُولى.

(٢٩) ـ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا ﴾ للمُشرِكِ والمُوحِّدِ ﴿فيه شركاءُ مُتشاكِسُونَ ورجلًا سالِمًا لرجلٍ﴾ مثَّلَ المُشركَ على ما يَقتضيهِ مَذهبُهُ مِن أن يدَّعِيَ كلُّ واحدٍ مِن مَعبوديهِ عُبودِيَّتَه، ويَتنازعونَ فيه بعبدٍ يَتشارَكُ فيه جمعٌ يَتجاذبونَهُ ويَتعاورُونَهُ في مهامِّهم المُختلفَةِ في تَحيُّرِه وتوزُّعِ قلبِهِ، والموحِّدَ بمَنْ خَلَصَ لواحدٍ ليسَ لغيرِه عليهِ سَبيلٌ. و﴿رَّجُلًا ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَثَلًا﴾، و﴿فِيهِ﴾ صِلَةُ ﴿شُرَكَآءُ ﴾، والتَّشاكُسُ والتَّشاخُسُ: الاختلافُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «نحو».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «لا اختلاف»، وفي هامشها نسخة كالمثبت.

(٣) في نسخة التفتازاني وفي هامش نسخة الخيالي: «واختص»، وأشار إليها الخفاجي في «حاشيته».

(٤) ذكره في «الكشاف» (٧/ ٤٩٥)، ولم أقف عليه قبله.

وقـرأ نافِعٌ وابـنُ عامرٍ والكوفِيُّـونَ: ﴿سَلَمًا﴾ بفتحتيـنِ[1]، وقُرِئَ بفَتحِ السِّـينِ وكسـرِها مع سُـكونِ العيـنِ[2]، وثلاثَتُهـا مَصادِرُ (سَـلِمَ) نُعِـتَ بها، أو حُـذِفَ مِنها ذا، و: (رجـلٌ سـالمٌ)[3]؛ أي: وهنـاكَ رَجـلٌ سـالِمٌ، وتَخصيـصُ الرَّجُلِ لأنَّـه أفطَنُ للضـرِّ والنَّفعِ.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صِفةً وحالًا، ونَصبَهُ على التَّمييزِ، ولذلك وحَّدَه.

وقُرِئَ: (مَثَلَينِ)[4] للإشعارِ باختلافِ النَّـوعِ، أو لأنَّ المرادَ: هل يستويانِ في الوصفينِ؟ على أنَّ الضَّميرَ للمِثلينِ؛ فإنَّ التَّقديرَ: مثلُ رجلٍ ومثلُ رجلٍ.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ كلُّ الحمدِ له لا يُشارِكُه فيه على الحقيقةِ سِواهُ؛ لأنَّهُ المنعمُ بالذَّاتِ والمالكُ على الإطلاقِ.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيشركونَ بهِ غيرَهُ مِن فَرْطِ جَهلِهِم.

(٣٠) ـ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فإنَّ الكُلَّ بصَدَدِ الموتِ وفـي عدادِ الموتى، وقُرِئَ: (مائِتٌ و... مائتونَ)[5]؛ لأنَّه مما سَيحدثُ.

(٣١) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ﴾ عـلى تغـليبِ المُـخاطبِ عـلى الغُـيَّـبِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ

---

(١) قرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿سالِمًا﴾، والباقون: ﴿سلمًا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٩).

(٢) الأولى: (سَلْماً) لعل في كلام الزجاج إشارة لها، انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٥٢)، و«الكشاف» (٧/ ٤٩٦)، و«زاد المسير» (٤/ ١٧)، والثانية: (سِلْماً) هي قراءة سعيد بن جبير كما في «تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٥٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣٠)، و«البحر» (١٨/ ٣٣٢).

(٣) وهي رواية عن عبد الوارث عن أبي عمرو، كما في «زاد المسير» (٤/ ١٧).

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ٤٩٧)، و«البحر» (١٨/ ٣٣٣).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣١) عن ابن الزبير وابن محيصن وعيسى وابن أبي إسحاق.

رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فتحتجُّ عليهم بأنَّكَ كنتَ على الحقِّ في التَّوحيدِ وكانوا على الباطلِ في التَّشريكِ واجتهدتَ في الإرشادِ والتَّبليغِ ولَجُّوا في التَّكذيبِ والعِنادِ، ويَعتذرونَ بالأباطيلِ مثل: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأنبياء: ٥٣]. وقيل: المرادُ به الاختصامُ العامُّ؛ يخاصِمُ النَّاسُ بعضُهُم بعضًا فيما دارَ بينَهُم في الدُّنيا.

(٣٢) ـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بإضافةِ الولدِ والشَّريكِ إليه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وهو ما جاءَ بهِ مُحمَّدٌ عليه السَّلامُ ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ مِن غيرِ تَوقُّفٍ وتفكُّرٍ في أمرِه.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وذلك يكفيهم مُجازاةً لأعمالِهم، واللامُ تَحتَمِلُ العهدَ والجنسَ، واستُدِلَّ به على تكفيرِ المُبتدعَةِ فإنَّهُم مكذِّبونَ بما عُلِمَ صِدقُهُ، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّه مَخصوصٌ بمَن فاجأَ ما عَلِمَ مجيءَ الرَّسولِ به بالتَّكذيبِ.

(٣٣) ـ ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ للجنسِ، ليتناولَ الرُّسُلَ(١) والمُؤمنينَ؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

وقيل: هو النبيُّ عليه السَّلامُ، والمرادُ هو ومَن تَبِعَهُ، كما في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩].

وقيل: الجائي هو الرَّسولُ عليهِ السَّلامُ، والمصدِّقُ هو أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، وذلك يقتضي إضمارَ (الذي)، وهو غيرُ جائزٍ(٢).

---

(١) في نسخة الفاروقي: «المتناول للرسل».

(٢) قال الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «وذلك يقتضي إضمار (الذي) وهو غير جائز» على الأصح عند النحاة من أنه لا يجوز حذف الموصول، وإبقاء صلته وإن جوزه بعضهم مطلقاً، وشرط بعضهم لجوازه عطفه على موصول آخر، ويضعفه أيضاً الإخبار عنه بالجمع فإنه يأباه كما يأباه المعنى أيضًا، وأمَّا إنه يراد بالذي النبيُّ ﷺ والصِّدِّيق معًا على أن الصلة للتوزيعِ لِيندفعَ المحذور فهو تكلفٌ.

وقُرِئَ: (وصَدَقَ بِهِ) بالتَّخفيفِ[١] أي: صَدَقَ بِهِ الناسَ فأدَّاهُ إليهم كما نزلَ، أو صارَ صادِقًا بسببِهِ لأنَّه مُعجِزٌ يدلُّ على صدقِهِ، و: (صُدِّقَ به) على البناءِ للمَفعولِ[٢].

(٣٤) ـ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنَّةِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانِهم.

(٣٥) ـ ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ خصَّ الأسوأَ للمُبالغَةِ؛ فإنَّه إذا كفرَ كان غيرُه أولى بذلك، أو للإشعارِ بأنَّهم لاستعظامِهم الذُّنوبَ يحسَبُونَ أنَّهم مُقصِّرُونَ مُذنِبُونَ وأنَّ ما يَفرُطُ مِنهم مِن الصَّغائرِ أسوَأُ ذُنوبِهم، ويجوزُ أن يكونَ بمَعنى السَّيِّئِ كقولِهم: النَّاقصُ والأَشَجُّ أعدَلَا بني مروانَ[٣].

وقُرِئَ: (أسواءَ) جمعُ سوءٍ[٤].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣٧)، عن أبي صالح الكوفي ومحمد بن جحادة وعكرمة بن سليمان.

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٥٠١)، و«البحر» (١٨/ ٣٤١).

(٣) قال الخفاجي: قوله: «ويجوز أن يكون بمعنى السيئ... إلخ»، يعني (أفعل) ليس على حقيقته وظاهره، وليس مضافًا إلى المفضل عليه فهو بمعنى السيء صغيرًا كان أو كبيرًا كما في المثال المذكور، فإن المراد أنهما العادلان من بني مروان لا أنهم أعدل من بقيتهم، قال: وما ذكره في المثال من كون أعدل بمعنى عادل وجهٌ فيه، والآخرُ أن (أفعل) للتفضيل والزيادة مطلقًا لا على المضاف إليه فقط وإنما أضيف للبيان له، سواء كان بعضًا من المضافِ إليه كما في: أعدل بني مروان، أو لا كـ: يوسف أحسن إخوته، كما بينه النحاة في معاني (أفعل) التفضيل.
والناقصُ: يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، لُقِّبَ بالناقصِ لأنه نقص ما كانوا يأخذونه من بيت المال وردَّ المظالم على أهلها، والأشجُّ: عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، لقب به لشجة كانت في رأسه، وأمرها مفصل في السير، وعدله وزهده معروف، انظر: «حاشية الخفاجي على البيضاوي» بتصرف. و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ١١٦، ٣٧٤).

(٤) رويت عن أبي عمرو من طريق البزي، وهي خلاف المشهور عنه، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣).

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ ويُعطيهم ثوابَهم. ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيعدُّ لهم محاسِنَ أعمالِهم بأحسَنِها[1] في زيادةِ الأجرِ وعِظَمِه لفرطِ إخلاصِهم فيها.

(٣٦) - ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ استفهامُ إنكارٍ للنَّفي مُبالغَةً في الإثباتِ، والعَبدُ: رَسولُ اللهِ ﷺ، ويحتملُ الجنسَ، ويؤيِّدُه قراءةُ حمزَةَ والكِسائيِّ: ﴿عبادَه﴾[2]، وفُسِّرَ بالأنبياءِ.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يَعني قُرَيشًا فإنَّهُم قالوا له: إنَّا نخافُ أن تُخبِّلَكَ آلهتُنا لعيبِكَ إيَّاها[3].

وقيل: إنَّه بعثَ خالدًا ليكسرَ العُزَّى فقال له سادِنُها: أحَذِّرُكَها فإنَّ لها شِدَّةً، فعَمِدَ إليها خالدٌ فهشَمَ أنفَها، فنُزِّلَ تخويفُ خالدٍ مَنزِلةَ تخويفِه لأنَّه الآمرُ له بما خُوِّفَ عليهِ[4].

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ حتى غَفَلَ عن كفايةِ اللهِ له وخوفِهِ بما لا ينفعُ ولا يضرُّ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديهِمْ إلى[5] الرَّشادِ.

(٣٧) - ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ لا رادَّ لفِعلِه كما قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالبٍ مَنيعٍ، ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ ينتقمُ مِن أعدائِه.

(٣٨) - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لوُضوحِ البُرهانِ على تَفرُّدِه بالخالقِيَّةِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بأحاسنها».

(٢) وقرأ الباقون بالإفراد، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٩).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٧٨).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٣٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٣٩٤) عن قتادة.

(٥) في نسخة الخيالي زيادة: «سبيل».

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي: أرأيتُم بعدما تحقَّقْتُم أنَّ خالقَ العالمِ هو اللهُ أنَّ آلهتَكُم إن أرادَ اللهُ أن يصيبَنِي ضرًّا هل يَكْشِفْنَهُ؟

﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ بنفعٍ ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ فيُمسِكْنَها عنِّي.

وقرأ أبو عمرٍو ﴿كاشِفاتٌ ضرَّهُ﴾ و﴿ممسكاتٌ رحمتَهُ﴾ بالتَّنوينِ فيهما ونصبِ ﴿ضرَّه﴾ و﴿رحمتَه﴾[1].

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ كافيًا في إصابةِ الخيرِ ودَفعِ الضرِّ، إذ تقرَّرَ بهذا الَّتقريرِ أنَّه القادرُ الذي لا مانعَ لِمَا يُريدُه من خيرٍ أو شرٍّ.

رُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ سألَهُم فسَكَتُوا، فنزلَ ذلك[2].

وإنَّما قال: ﴿كَـٰشِفَـٰتُ﴾ و﴿مُمْسِكَـٰتُ﴾ على ما يَصفونَها به مِن الأنوثةِ؛ تَنبيهًا على كمالِ ضَعفِها.

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لعِلْمِهم بأنَّ الكُلَّ منه.

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالِكُم، اسمٌ للمَكانِ استُعِيرَ للحالِ كما استُعيرَ (هنا) و(حيث) مِن المكانِ للزَّمانِ.

وقُرِئَ: ﴿مكاناتِكُم﴾[3].

---

(١) وقرأ الباقون بغير تنوين وخفضِ ﴿ضره﴾ و﴿رحمته﴾، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٨٩).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٦٦) عن مقاتل.

(٣) في نسخة التفتازاني: «وقرأ أبو بكر: ﴿على مكاناتكم﴾». وهي رواية أبي بكر عن عاصم، والباقون بالإفراد، انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٩)، و«التيسير» (ص: ١٠٧).

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: على مَكانَتِي، فحُذِفَ للاختصارِ والمُبالغَةِ في الوعيدِ، والإشعارِ بأنَّ حالَهُ لا يَقِفُ؛ فإنَّه تعالى يزيدُهُ على مرِّ الأيَّامِ قُوَّةً ونُصرَةً، ولذلك توعَّدَهُم لكونِه مَنصُورًا عَلَيهم في الدَّارينِ فقال:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإنَّ خِزيَ أعدائِهِ دليلُ غلبَتِهِ، وقَدْ أخزاهُم اللهُ يومَ بدرٍ، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائمٌ وهو عذابُ النَّارِ.

(٤١) - ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ لأَجلِهِم؛ فإنَّه مَناطُ مَصالِحِهم في مَعاشِهِم ومَعادِهِم، ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُلتَبِسًا به.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ إذ[1] نفعَ بهِ نفسَهُ.

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فإنَّ وبالَهُ لا يَتخطَّاهَا.

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وما وُكِّلْتَ عليهِمْ لتُجبِرَهُم على الهُدى، وإنَّما أُمرتَ بالبَلاغِ، وقَدْ بلَّغْتَ.

(٤٢) - ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي: يَقبِضُها عن الأبدانِ بأَنْ يقطعَ تعلُّقَها عنها وتصرُّفَها فيها إمَّا ظاهرًا وباطنًا وذلك عندَ الموتِ، أو ظاهرًا لا باطنًا وهو في النَّومِ.

﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ ولا يَرُدُّها إلى البدنِ، وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿قُضِي﴾ بضمِّ القافِ وكسرِ الضَّادِ و﴿الموتُ﴾ بالرَّفعِ[2].

﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ أي النَّائمةَ إلى بَدنِها عندَ اليقظةِ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الوقتُ المَضروبُ لِمَوتِهِ، وهو غايةُ جنسِ[3] الإرسالِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «أي».

(٢) وقرأ الباقون بالمبني للمعلوم، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

(٣) في نسخة الخيالي: «حين». وأشار إليها الخفاجي في «حاشيته».

وما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عَنهُما: أنَّ في ابنِ آدمَ نفسًا وروحًا بينَهُما مثلُ شُعاعِ الشَّمسِ، فالنَّفسُ التي بها العَقلُ والتَّمييزُ، والرُّوحُ التي بها النَّفسُ والحياةُ، فيُتَوَفَّيَانِ عندَ الموتِ، وتُتوفَّى النَّفسُ وَحدَها عندَ النَّومِ[1] = قريبٌ ممَّا ذَكرناهُ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ مِن التَّوفِّي والإمساكِ والإرسالِ ﴿لَآيَـٰتٍ﴾ على كمالِ قُدرَتِه وحِكمَتِه وشمولِ رَحمَتِه[2] ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفيَّةِ تَعلُّقِها بالأبدانِ، وتَوفِّيها عنها بالكُلِّيَّةِ حينَ الموتِ، وإمساكِها باقيةً لا تفنى بفَنائِها، وما يعتريها مِن السَّعادةِ والشَّقاوةِ والحكمةِ في توفِّيها عن ظواهرِها وإرسالِها حينًا بعد حينٍ إلى توفِّي آجالِها.

(٤٣) - ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ بل اتَّخذَ قريشٌ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ تشفعُ لهم عندَ اللهِ.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أيشفعونَ ولو كانوا على هذهِ الصفةِ كما تُشاهِدُونَهُم جماداتٍ لا تقدرُ ولا تعلمُ[3].

(٤٤) - ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ لعلَّهُ ردٌّ لِمَا عسى يُجيبونَ به، وهو أنَّ الشُّفعاءَ أشخاصٌ مُقرَّبونَ هي تماثيلُهُم، والمعنى أنَّه مالكُ الشَّفاعةِ كلِّها لا يستطيعُ أحدٌ شفاعةً إلَّا بإذنِه[4]، ولا يستقلُّ بها، ثمَّ قرَّرَ ذلك فقال: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنَّه مالكُ الملكِ كلِّه لا يملكُ أحدٌ أن يَتكلَّمَ في أمرِهِ دونَ إذنِه ورضاهُ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يومَ القيامةِ، فيكونُ الملكُ له أيضًا حينئذٍ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٣٠)، وذكره ابن طاهر المقدسي في «البدء والتاريخ» (٢/ ١١٠) من طريق ابن جريج عن ابن عباس.

(٢) في نسخة التفتازاني: «وشمولها».

(٣) في نسخة الفاروقي: «لا يقدرون ولا يعلمون».

(٤) في نسخة الخيالي: «إلا بإذن ربهم».

(٤٥) ـ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ دونَ آلهتِهم ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ انقبضَتْ ونفَرتْ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأوثانَ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفرطِ افتِتانِهم بها ونسيانِهم حقَّ اللهِ، ولقد بالغَ في الأمرينِ حتَّى بيَّنَ الغايةَ[1] فيهما؛ فإنَّ الاستبشارَ أَنْ يمتلئَ قلبُه سرورًا حتَّى تنبَسِطَ له بشرةُ وَجهِه، والاشمئزازُ أَنْ يَمتلِئَ غمًّا[2] حتَّى ينقبضَ أديمُ وَجهِهِ، والعاملُ في (إذا) المُفاجأةُ.

(٤٦) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ألتجِئُ إلى اللهِ تَعالى بالدُّعاءِ لَمَّا تحيَّرْتُ في أمرِهم وعَجَزْتُ في عِنادِهم وشِدَّةِ شَكيمَتِهم، فإنَّه القادرُ على الأشياءِ والعالمُ بالأحوالِ كُلِّها.

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فأنتَ وحدَكَ تقدرُ أَنْ تحكُمَ بيني وبينَهُم.

(٤٧) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وعيدٌ شديدٌ وإقناطٌ كُلِّيٌّ لهم مِن الخَلاصِ.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ زيادةُ مبالغةٍ فيه، وهو نظيرُ قولِه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ [السجدة: ١٧] في الوعدِ.

(٤٨) ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ سيئاتُ أعمالِهم أو كسبِهم حينَ تُعرَضُ صحائِفُهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاطَ بهم جَزاؤُهُ.

(٤٩) ـ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبارٌ عن الجنسِ بما يَغلِبُ فيه، والعطفُ على قولِه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ بالفاءِ لبيانِ مُناقضَتِهم وتعكيسِهم في التَّسبُّبِ[3]

---

(١) في نسخة التفتازاني: «حين ذكر الغاية»، وفي نسخة الفاروقي: «حتى ذكر الغاية».

(٢) في نسخة الخيالي زيادة: «وغيظا».

(٣) في نسخة التفتازاني: «السبب»، وفي نسخة الفاروقي: «التسبيب».

بمَعنى أنَّهُم يَشمَئِزُّونَ عن ذكرِ اللهِ وحدَهُ، ويستبشرونَ بذكرِ الآلهةِ، فإذا مَسَّهُم ضرٌّ دَعَوا مَن اشمأزُّوا مِن ذكرِهِ دونَ مَن استَبْشَرُوا بذكرِهِ، وما بينَهُما اعتراضٌ مؤكِّدٌ لإنكارِ ذلك عليهِم.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناهُ إيَّاها تفضُّلًا؛ فإنَّ التَّخويلَ مُختَصٌّ به.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ علـى علمٍ مني بوُجوهِ كَسبِهِ، أو بأنِّي سأُعطاهُ لِمَا لي مِن استحقاقِهِ أو مِن اللهِ بي واستيجابي، والهاءُ لِـ(ما) إن جُعِلَت موصولةً، وإلا فللنِّعمَةِ، والتَّذكيرُ لأنَّ المرادَ: شَيءٌ منها.

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ امتحانٌ له أيشكرُ أَمْ يَكفرُ، وهو رَدٌّ لما قالَهُ، وتأنيثُ الضَّميرِ باعتبارِ الخبرِ، أو لفظِ النِّعمَةِ، وقُرِئَ بالتَّذكيرِ(١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وهو دليلٌ على أنَّ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ للجنسِ.

(٥٠) ـ ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الهـاءُ لقولِـه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ لأنَّهـا كَلِمَةٌ أو جملـةٌ، وقُرِئَ بالتَّذكيـرِ(٢)، و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: قـارونُ وقومُه؛ فإنَّه قالَـهُ ورَضِيَ بـه قومُه.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن مَتاعِ الدُّنيا.

(٥١) ـ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ جزاءُ سَيِّئاتِ أعمالِهم، أو جزاءُ أَعمالِهم، وسمَّاهُ سَيِّئَةً لأنَّه في مُقابلَةِ أَعمالِهم السيئةِ رَمزًا إلى أنَّ جميعَ أعمالِهم كذلك.

---

(١) ذكرها في «الكشاف» (٧/ ٥١٢)، وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٤٢٠) من حيث المعنى لكن لم يصرح بكونها قراءة.

(٢) أي: (قد قاله)، ذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ٥١٥)، وأبو حيان في «البحر» (١٨/ ٣٥٢)، وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٤٢١) من حيث المعنى لكن لم يصرح بكونها قراءة.

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالعتوِّ، ﴿مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ المشركينَ، و(مِن) للبَيانِ أو التَّبعيضِ ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصابَ أولئكَ، وقد أصابَهُم فإنَّهُم قُحِطُوا سبعَ سنينَ، وقُتِلَ ببدرٍ صَنادِيدُهُم، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتينَ.

(٥٢) ـ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ حيثُ حبسَ عَنْهُم الرِّزقَ سَبْعًا، ثمَّ بسطَ لهم سَبْعًا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأنَّ الحَوادِثَ كُلَّها مِن اللهِ بوسَطٍ أو غيرِه.

(٥٣) ـ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ أفرَطُوا في الجنايةِ عليها بالإسرافِ في المعاصي، وإضافةُ العبادِ تخصِّصُه[1] بالمؤمنينَ على ما هو عُرْفُ القرآنِ.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيْأَسُوا مِن مَغفِرَتِه أوَّلًا وتفضُّلِه ثانيًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفوًا ولو بَعدَ بُعدٍ[2]، وتقييدُه بالتَّوبَةِ خلافُ الظَّاهرِ، ويدلُّ على إطلاقِه فيما عدا الشِّركَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ...﴾ الآية [النساء: ٤٨]، والتَّعليلُ بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على المبالغةِ وإفادةِ الحصرِ والوعدِ بالرَّحمةِ بعدَ المغفرةِ، وتقديمُ ما يَستدعِي عمومَ المغفرةِ ممَّا في ﴿عبادي﴾ مِن الدَّلالةِ على الذِّلَّةِ والاختصاصِ المُقتَضِيَيْنِ للتَّرحُّمِ وتخصيصِ ضررِ الإسرافِ بأنفُسِهِم، والنَّهيُ عن القُنوطِ مُطلَقًا عن الرَّحمةِ فَضْلًا عن المغفرةِ وإطلاقِها، وتعليلُهُ بأنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ، ووضعُ اسمِ اللهِ مَوضِعَ[3] الضَّميرِ = لدَلالتِهِ على أنَّه المستغني والمنعمُ على الإطلاقِ والتَّأكيدِ بالجَميعِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «تخصصهم»، وفي نسخة التفتازاني: «تخصيص»، وفي نسخة الطبلاوي: «تخصيصه».

(٢) في نسخة الفاروقي: «تعذيب». وكتبها الطبلاوي في نسخته بالوجهين.

(٣) قوله: «والنهيُ.. وتعليلهُ.. ووضعُ» عطف على فاعل «يدل». انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٢٦).

وما رُوِيَ أنه عليه السَّلامُ قال «ما أُحِبُّ أنَّ[1] لِيَ الدُّنيا وما فيها بها» فقال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ! ومَن أشركَ؟ فسكتَ ساعةً ثمَّ قال: «أَلَا ومَنْ أَشركَ» ثلاثَ مرَّاتٍ[2].

وما رُوِيَ أنَّ أهلَ مَكَّةَ قالوا: يزعمُ مُحمَّدٌ أنَّ مَن عبدَ الوثنَ وقتلَ النَّفسَ بغيرِ حَقٍّ لم يُغْفَرْ لهُ، فكيفَ ولم نهاجِرْ وقد عبَدْنَا الأوثانَ وقَتَلْنَا النَّفسَ؟! فنزَلَتْ[3].

وقيل: في عيَّاشٍ والوليدِ بنِ الوليدِ في جماعةٍ فُتِنُوا فافتتنُوا[4]، أو في الوحشيِّ[5] = لا ينفي عمومَها.

وكذا قولُه: (٥٤) ـ ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، فإنَّها[6] لا تدلُّ على حصولِ المَغفِرَةِ لكلِّ أحدٍ مِن غيرِ توبَةٍ وسبقِ تعذيبٍ، لتُغنِيَ عن التَّوبةِ والإخلاصِ في العملِ، وتُنافيَ الوعيدَ بالتعذيبِ[7].

(٥٥) ـ ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ القرآنَ، أو المأمورَ به دونَ

---

(١) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «أنْ تكون».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٧٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٣٥)، ورواه أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٦٢) عن ثوبان رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٠): «رواه الطبراني في الأوسط وأحمد بنحوه وقال: «إلا من أشرك» ثلاث مرات، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٤٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٥) عن عطاء بن يسار.

(٦) قوله: «فإنها» أي: الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾، انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٢٦).

(٧) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بالعذاب».

المَنهيِّ عنه، أو العزائمَ دونَ الرُّخصِ، أو النَّاسِخَ دونَ المنسوخِ، ولعلَّهُ ما هو أَنْجى وأَسْلمُ؛ كالإنابةِ والمواظبةِ على الطَّاعةِ.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بمجيئِه فتتداركونَ.

(٥٦) ـ ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ﴾ كراهةَ أَنْ تقولَ، وتنكيرُ ﴿نَفۡسٌ﴾ لأنَّ القائلَ بَعضُ الأنفُسِ، أو للتَّكثيرِ كقولِ الأعشى:

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبَا[1]

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ وقُرِئَ بالياءِ على الأصلِ[2].

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ ما قصَّرْتُ، ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في جانبِهِ؛ أي: في حَقِّهِ وهو طاعتهُ، قالَ سابِقٌ البَرْبَرِيُّ:

أَمَا تَتَّقِينَ اللهَ فِي جَنْبِ وَامِقٍ لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكِ تَقَطَّعُ[3]

---

(١) انظر: «ديوان الأعشى» (ص: ١٥٥)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (٣/ ١٠٤)، و«مقاييس اللغة» (١/ ٢٨٢).

قال الطِّيبيُّ: البَقيعُ مَوضِعٌ فيه أروم الشَّجرِ مِن ضُروبٍ شَتَّى، كريمٌ: أي كرامٌ كثيرون، والتَّنكيرُ للتَّكثيرِ، ينفضُ الرَّأسَ أي: يحرِّكُه غضبًا، يشكُو مِن قَومِهِ حينَ قَعَدُوا عَن نصرِه. «فتوح الغيب» (١٣/ ٤١٣).

(٢) قرأ بها الحسن وأبو العالية وأبو عمران وأبو الجوزاء كما في «زاد المسير» (٤/ ٢٤)، ورويت عن أبي جعفر كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٣٨).

(٣) نسبه الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ٥١٩) لسابِقٍ البربريِّ، ولم أجد هذه النسبة عند من تقدمه. ونُسِبَ لكثيِّر في «غريب القرآن» لابن عُزَيز (ص: ٣٦٥)، و«الغريبين» (مادة: جنب)، و«الإبانة» للعوتبي (٣/ ٦٤٤)، و«مجمع الأمثال» للميداني (١/ ١٤١)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ١٢٢)، وهو في «ديوان كثير» (ص: ١٧٧) برواية: «حب» بدل: «جنب»، و«تصدع» بدل: «تقطع»، ومثله رواية «الحماسة البصرية»، وجاء في جميع المصادر: «عاشق» بدل: «وامق».

وهو كِنايةٌ فيها مبالغةٌ كقولِه:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ[1]

وقيل: في ذاتِه، على تقديرِ مُضافٍ كالطَّاعةِ.

وقيل: في قُربِه؛ مِن قولِه: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾.

وقُرِئَ: (في ذكرِ اللهِ)[2].

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ المستهزئينَ بأهلِه، ومحلُّ ﴿إِن كُنتُ﴾ نصبٌ على الحالِ كأنَّهُ قال: فرَّطْتُ وأنا ساخِرٌ.

(٥٧) ـ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ بالإرشادِ إلى الحقِّ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الشِّرْكَ والمعاصِيَ.

(٥٨) ـ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدةِ والعملِ، و(أو) للدَّلالةِ على أنَّه لا يخلو مِن هذهِ الأقوالِ تَحيُّرًا وتعلُّلًا بما لا طائلَ تحتَه.

(٥٩) ـ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ردٌّ مِن اللهِ عليه لِمَا تضمَّنَه قولُه: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ مِن مَعْنى النَّفْيِ، وفَصْلُه

---

(١) البيت لزياد بن الأعجم، وهو في مدح عبد الله بن الحشرج وكان سيداً من سادات قيس وأميراً من أمرائها، ولي أكثر أعمال خراسان، وكان جوادًا ممدَّحاً، وفد عليه زياد الأعجم وهو بسابور أميراً عليها، فأمر بإنزاله وألطفه وبعث إليه ما يحتاج إليه، ثم غدا عليه زياد فأنشده أبياتاً منها هذا البيت. انظر: «الأغاني» (١٢/ ٢٨ و٤٠). ونسبه لزياد أيضاً الجرجاني في «دلائل الإعجاز» (ص: ٣٠٦)، والزمخشري في «ربيع الأبرار» (٤/ ٣٨٦).

(٢) نسبها الزمخشري في «الكشاف» (٧/ ٥٢١) إلى عبد الله وحفصة، وذُكرَ هذا اللفظ عن الضحاك تفسيرًا لا قراءةً. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٤).

عنه[١]؛ لأنَّ تَقديمَهُ يُفرِّقُ القرائنَ، وتأخيرُ المردودِ يُخِلُّ بالنَّظمِ المطابقِ للوُجودِ؛ لأنه يتحسَّرُ بالتَّفريطِ، ثمَّ يتعلَّلُ بفَقدِ الهدايةِ، ثمَّ يَتمنَّى الرَّجعَةَ، وهو لا يمنعُ تأثيرَ قُدرةِ اللهِ في فعلِ العَبدِ ولا ما فيهِ مِن إسنادِ الفعلِ إليه كما عرفت.

وتذكيرُ الخطابِ على المعنى، وقُرِئَ بالتَّأنيثِ للنَّفسِ[٢].

(٦٠) ـ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأَنْ وَصَفوهُ بما لا يجوزُ كاتِّخاذِ الوَلدِ.

﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما[٣] ينالُهُم مِن الشدَّةِ، أو بما يتخيلُ عليها مِن ظُلمَةِ الجَهلِ، والجملةُ حالٌ؛ إذ الظَّاهرُ أن (ترى) مِن رؤيَةِ البَصرِ، واكتُفِيَ فيها بالضَّميرِ عن الواوِ.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مقامٌ ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمانِ والطَّاعةِ، وهو تَقريرٌ لأنَّهُم يرونَ كذلك.

(٦١) ـ ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ وقُرِئَ ﴿وَيُنْجِي﴾[٤].

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفَلاحِهِم، مَفْعَلَةٌ مِن الفوزِ، وتَفسيرُها بالنَّجاةِ تَخصيصُها بأهمِّ أَقسامِه، وبالسَّعادةِ والعملِ الصَّالحِ إطلاقٌ لها على السَّببِ، وقرأَ الكوفيُّونَ غيرَ حَفصٍ بالجمعِ[٥] تطبيقًا له بالمُضافِ إليه، والباءُ فيها للسَّببيَّةِ

---

(١) أي: فَصْلُ قولِه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ عن قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ بآية.

(٢) أي: (بلى قد جاءتكِ آياتي فكذبتِ بها واستكبرتِ وكنتِ) قرأ بها أبو بكر رضي الله عنه كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢).

(٣) في نسخة التفتازاني: «مما».

(٤) قرأ بها روح عن يعقوب، انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٣).

(٥) أي: ﴿بمفازاتهم﴾، والباقون ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بالإفراد، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

صِلَـةً لـ﴿ينجـي﴾، أو لقولِـه: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، وهـو حـالٌ أو اسـتئنافٌ لبَيـانِ المَفَـازةِ.

(٦٢) ـ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِن خيرٍ وشَرٍّ وإيمانٍ وكُفْرٍ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ يتولَّى التَّصرُّفَ فيه.

(٦٣) ـ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يملِكُ أمرَها ولا يتمكَّنُ مِن التَّصرُّفِ فيها غيرُه، وهو كنايةٌ عن قدرتِه وحفظِه لها، وفيها مزيدُ دلالةٍ على الاختصاصِ؛ لأنَّ الخزائنَ لا يَدخلُها ولا يتصرَّفُ فيها إلا مَن بيدِه مَفاتيحُها، وهو جمعُ (مِقْلِيدٍ) أو (مِقْلَادٍ) مِن قلَّدْتُه: إذا ألزَمْتَه، وقيل: جمعُ (إقليدٍ) مُعرَّبِ إِكْليد على الشُّذوذِ، كمَذَاكيرَ[1].

وعن عثمانَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّه سألَ النَّبيَّ ﷺ عن المقاليدِ فقال: «تفسيرُها: لا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، وسُبحانَ اللهِ وبحمدِه، وأستغفرُ اللهَ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ، هو الأوَّلُ والآخرُ والظَّاهرُ والباطِنُ بيدِهِ الخيرُ يُحيي ويُميتُ وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ»، والمعنى على هذا: إنَّ للهِ هذه الكلماتِ يُوحَّدُ بها ويُمَجَّدُ وهي مفاتيحُ خيرِ السَّماواتِ والأرضِ مَن تكلَّمَ بها[2] أصابَه[3].

---

(١) ذكره ابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص: ٣٨٤)، وذكره الكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ١٠١٩)، واستغربه، وانظر: «لباب التفاسير» له (٨/ ٥٥).

(٢) في هامش نسخة الخيالي زيادة: «من المتقين»، وهي كذلك في «الكشاف».

(٣) رواه أبو يعلى كما في «المطالب العالية»: (٣٧٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٥٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ١١٧) و(٤/ ٢٣١)، والطبراني في «الدعاء» (١٧٠٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٤٦)، من حديث ابن عمر. وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٤٥) وقال: لا يصح.، وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٤/ ٨٥): هذا موضوع فيما أرى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ للدَّلالةِ على أنَّه مُهيمِنٌ على العبادِ مُطَّلِعٌ على أفعالِهم مُجازٍ عليها، وتَغييرُ النَّظمِ للإشعارِ بأنَّ العُمدةَ في فلاحِ المؤمنينَ فَضلُ اللهِ، وفي هلاكِ الكافرينَ بأنْ خَسِرُوا أنفُسَهُم، وللتَّصريحِ بالوَعدِ والتَّعريضِ بالوعيدِ قضيَّةً للكرمِ، أو بما يليهِ[1]، والمرادُ (بآياتِ اللهِ): دلائلُ قُدرَتِه واستبدادُهُ بأمرِ السَّماواتِ والأرضِ، أو كلماتُ تَوحيدِهِ وتَمجيدِهِ، وتَخصيصُ الخسَارِ بهم لأنَّ غيرَهُم له[2] حَظٌّ مِن الرَّحمةِ والثَّوابِ.

(٦٤) ـ ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ أي: أفغيرَ اللهِ أعبدُ بعدَ هذه الدَّلائلِ والمواعيدِ، و﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ اعتراضٌ للدَّلالةِ على أنَّهم أمروهُ بهِ عَقِيبَ ذلك وقالوا: استَلِمْ بعضَ آلِهَتِنا ونؤمِنُ بإلهكَ؛ لفرطِ غَباوَتِهم، ويجوزُ أن ينتصبَ (غير) بما دلَّ عليهِ ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾ لأنَّه بمعنى: تُعَبِّدُونَنِي على أنَّ أصله: تأمرونَنِي أَنْ أعبُدَ، فحُذِفَ (أن) ورُفِعَ كقولِه:

أَحْضُرُ الوَغَى[3]

---

(١) (قضيةً للكرم): بالنصبِ تعليلٌ للتصريح والتعريض، بما ذكره، [أو بما يليه] عطفٌ على «بقوله»: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ﴾ أو متصلاً بما يلي قوله: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ﴾، وهو ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣٠)

(٢) في نسخة التفتازاني: «ذو».

(٣) قطعة من صدر بيت لطرفة بن العبد، وهو في «ديوانه» (ص: ٣٢)، و«الكتاب» (٣/ ٩٩)، وقد تقدمَ مرارًا، وتمام البيت:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنت مُخلِدي

و«أحضر» وروي بالرفع والنصب كما ذكر السمين الحلبي في «الدر المصون».

ويُؤيِّدُه قراءةُ (أعبُدَ) بالنَّصبِ[1]، وقرأَ ابنُ عامرٍ ﴿تَأْمُرُونَنِي﴾ بإظهارِ النُّونَينِ على الأصلِ، ونافعٌ بحذفِ الثَّانيةِ فإنَّها تُحذَفُ كثيرًا[2].

(٦٥) ـ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: مِن الرُّسُلِ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ كلامٌ على سبيلِ الفَرضِ، والمرادُ به تهييجُ الرُّسُلِ وإقناطُ الكفرةِ والإشعارُ على حكمِ الأمَّةِ، وإفرادُ الخطابِ باعتبارِ كلِّ واحدٍ، واللامُ الأولى مُوطِّئَةٌ للقسمِ، والأُخْرَيانِ[3] للجَوابِ، وإطلاقُ الإحباطِ يحتملُ أَنْ يكونَ مِن خَصائِصِهم لأنَّ شِرْكَهُم أقبَحُ، وأَنْ يكونَ على التَّقييدِ بالموتِ كما صرحَ بِهِ في قولِه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾. وعطفُ الخُسرانِ عليه مِن عطفِ المُسبَّبِ على السَّببِ.

(٦٦) ـ ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ رَدٌّ لما أَمروهُ بِهِ، ولولا دلالةُ التَّقديمِ على الاختصاصِ لَمْ يَكُن كذلك.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إنعامَهُ عليه، وفيه إشارةٌ إلى موجبِ الاختصاصِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢) عن بعضهم.

(٢) قرأ ابن عامر بنونين الأولى مفتوحة، ونافع بواحدة مخفَّفةٍ، والباقونَ بواحدةٍ مشدَّدة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٠).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «والأخيرتان». قال الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «واللام الأولى موطئة... إلخ» الأولى لام ﴿لَئِنْ﴾، والأخريان ـ وفي نسخة: الأخيرتان ـ هما ما بعدها، وأما اللام الداخلة على (لقد) فقسمية من غير شبهة، ولما كانت المعطوفة كذلك سأل الزمخشري عن اللامين، وقيل إنه لم يقل: «والثانية» كما في «الكشاف» لئلا يتوهم أن المرادَ بالأولى لام (لقد)، ولعمري إن من يتوهمُ مثله لا يفهم «الكشاف» ولا يليق به مطالعته.

(٦٧) ـ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما قدرُوا عظمتَهُ في أنفُسِهم حقَّ تعظيمِه حيثُ جَعلوا له شريكًا ووصفوهُ بما لا يليقُ به، وقُرِئَ بالتَّشديدِ[1].

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ تنبيهٌ على عَظمَتِه وحَقارةِ الأفعالِ العِظَامِ التي تتحيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافةِ إلى قُدرَتِه، ودلالةٌ على أنَّ تخريبَ العالَمِ أهوَنُ شَيءٍ عليه على طريقَةِ التَّمثيلِ والتَّخييلِ مِن غيرِ اعتبارِ القبضَةِ واليَمينِ حقيقةً ولا مَجازًا، كقولِهم: شَابَتْ لِمَّةُ الليلِ.

والقَبضَةُ: المرَّةُ من القَبْضِ، أُطلِقَت بمعنى (القُبْضَةِ) وهي المقدارُ المَقبوضُ بالكَفِّ تَسمِيَةً بالمصدرِ، أو بتقديرِ: ذات قبضةٍ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[2] على الظَّرفِ تَشبيهًا للمؤقتِ بالمُبهَمِ، وتأكيدُ الأَرضِ بالجميعِ؛ لأنَّ المُرادَ بها الأَرَضُونَ السَّبعُ، أو جميعُ أَبعاضِهَا البادِيَةِ والغائِرَةِ.

وقُرِئَ: (مَطْوِيَّاتٍ)[3] على أنَّها حالٌ، و﴿السماوات﴾ معطوفةٌ على ﴿الأرض﴾ مَنظومةٌ في حكمِها.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعدَ وأَعْلى مَن هذه قُدرَتُه وعظمَتُه عن إشراكِهم، أو مَا يُضافُ[4] إليهِ مِن الشُّرَكاءِ.

(٦٨) ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ يعني: المرَّةَ الأولى، ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَرُّوا مِيِّتًا أو مَغشيًّا عليهِ ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل: جبريلُ ومِيكائيلُ وإِسرافيلُ فإنَّهُم يموتونَ بَعدُ، وقيل: حملَةُ العَرشِ.

---

(١) أي: (قدَّروا)، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢) عن الأعمش وأبي حيوة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢) عن الحسن.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢) عن عيسى بن عمر.

(٤) في نسخة التفتازاني والخيالي: «يضيفون».

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ نفخةً أُخرى، وهي تدلُّ على أنَّ المُرادَ بالأوَّلِ: ونُفِخَ في الصُّورِ نفخةٌ واحدةٌ كما صرحَ به في مواضِعَ، و﴿أُخْرَىٰ﴾ تحتملُ النَّصبَ والرَّفعَ، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمونَ مِن قُبورِهِم أو مُتوقِّفُونَ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[1] على أنَّ الخبرَ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ وهو حالٌ مِن ضَميرِه، والمعنى: يُقلِّبونَ أبصارَهُم في الجوانبِ كالمَبهوتينَ، أو ينتظرونَ ما يُفعَلُ بهم.

(٦٩) ـ ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقامَ فيها مِن العَدْلِ، سَمَّاهُ نورًا لأنَّه يزيِّنُ البقاعَ ويُظهِرُ الحُقوقَ كما سَمَّى الظُّلمَ ظلمةً، وفي الحديثِ: «الظلمُ ظُلُماتٌ يومَ القِيامَةِ»، ولذلك أضافَ اسمَهُ إلى الأرضِ، أو بنورٍ خُلِقَ فيها بلا توسُّطِ أجسامٍ مُضيئَةٍ، ولذلك أضافَها إلى نفسِه.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الحسابُ والجَزاءُ، مِن وَضعِ المُحاسِبِ كتابَ المحاسبةِ بين يديهِ، أو صحائفَ الأعمالِ في أيدي العُمَّالِ، واكتُفِيَ باسمِ[2] الجنسِ عن الجمعِ.

وقيل: اللَّوحُ المحفوظُ يُقابَلُ به الصَّحائفَ[3].

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين يَشهدون للأُمَمِ وعليهِمْ مِن الملائكةِ والمؤمنينَ، وقيل: المُستشهَدُونَ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بينَ العبادِ ﴿بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ أو زيادَةِ عِقَابٍ على ما جرى به الوعدُ.

(٧٠) ـ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ جزاءَهُ، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوتُهُ شَيءٌ مِن أَفعالِهِم، ثمَّ فصَّلَ التَّوفيةَ وقال:

---

(١) انظر: «البحر» (١٨/ ٣٧٣) عن زيد بن علي، وهو في «الكشاف» (٧/ ٥٣٥) من غير نسبة.

(٢) في نسخة التفتازاني: «بذكر اسم».

(٣) انظر: «لباب التفاسير» للكرماني (٨/ ٦٢).

(٧١) ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أفواجًا مُتفرِّقَةً بعضُها في إثرِ بَعضٍ، على تَفاوُتِ أَقدامِهم في الضَّلالةِ والشَّرارةِ، وهي الجمعُ القليلُ جمعُ زُمْرَةٍ، واشتقاقُها مِن الزَّمْرِ: وهو الصَّوتُ، إذ الجماعةُ لا تخلو عنه[1]، أو مِن قَولِهم: شاةٌ زَمِرَةٌ: قليلةُ الشَّعرِ، ورجلٌ زَمِرٌ: قليلُ المروءةِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِّحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ليَدخلوهَا، و(حتَّى) هي التي تُحكَى بعدَها الجملَةُ، وقرأ الكوفيونَ ﴿فُتِحَتۡ﴾ بتخفيفِ التَّاءِ[2].

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعًا وتوبيخًا ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ مِن جِنسِكُم ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ وقتِكُم هذا، وهو وقتُ دُخولِهم النَّارَ، وفيه دليلٌ على أنَّه لا تكليفَ قبلَ الشَّرعِ مِن حيثُ إنَّهُم علَّلوا تَوبيخَهُم بإتيانِ الرُّسُلِ وتَبليغِ الكتبِ.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كلمةُ اللهِ بالعَذابِ علينا، وهو الحكمُ عليهم بالشَّقاوةِ وأنَّهُم مِن أهلِ النَّارِ، ووُضِعَ الظَّاهرُ فيه مَوضِعَ الضَّميرِ للدَّلالةِ على اختصاصِ ذلك بالكَفَرَةِ، وقيل: هو قولُه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

(٧٢) ـ ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبهَمَ القائلَ لتَهويلِ ما يقالُ لهم، ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللامُ فيه للجنسِ، والمخصوصُ بالذَّمِّ سبقَ ذكرُهُ، ولا يُنافِي إِشعارُهُ بأنَّ مَثواهُم في النَّارِ لتَكبُّرِهم عن الحقِّ أن يكونَ دُخولُهُم فيها؛ لأنَّ كلمةَ العَذابِ حقَّتْ عليهِم، فإنَّ تكبُّرَهُم وسائرَ مَقابِحِهم مُسبَّبَةٌ عنه، كما

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «غالباً».

(٢) وقرأ الباقون بالتشديد، انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٤).

قالَ عليهِ السَّلامُ: «إنَّ اللهَ إذا خلقَ العبدَ للجنَّةِ استَعْمَلَهُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ حتَّى يَمُوتَ على عملٍ مِن أعمالِ أهلِ الجنَّةِ فيدخلُ بهِ الجنَّةِ، وإذا خلقَ العبدَ للنَّارِ استعملَهُ بعملِ أهلِ النَّارِ حتَّى يَمُوتَ على عَمَلٍ مِن أعمالِ أهلِ النَّارِ فيدخلُ به النَّارَ»[1].

(٧٣) ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ إسراعًا بهِمْ إلى دارِ الكرامَةِ، وقيل: سيق مراكبُهُم؛ إذ لا يُذهَبُ بهم إلا راكبينَ ﴿زُمَرًا﴾ على تفاوُتِ مَراتِبِهم في الشَّرَفِ وعلوِّ الطَّبقةِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِّحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ حُـذِفَ جَـوابُ ﴿إِذَا﴾ وجعلَ ﴿فتحت﴾ حـالًا بإضمـارِ (قـد) للدَّلالةِ علـى أنَّ لهـم حينَئذٍ مِـن الكرامَةِ والتَّعظيـم ما لا يُحيطُ بـه الوَصفُ، وأنَّ أبـوابَ الجنَّةِ تُفتَـحُ لهم قبلَ مَجيئِهـا[2] مُنتَظِرينَ، وقـرأَ الكوفيُّونَ ﴿فُتِحَت﴾ بالتَّخفيفِ.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يَعتَرِيكُـم بعدُ مَكـروهٌ ﴿طِبْتُمْ﴾ طَهرْتُم مِـن دنـسِ المعاصـي ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ مُقدِّريـنَ الخلـودَ، والفـاءُ للدَّلالـةِ على أنَّ طيبَهُـم سـببٌ لدُخولِهـم وخُلودِهـم، وهـو لا يمنَعُ دخـولَ العاصي بعفـوِهِ لأنَّه يُطهِّرُه.

(٧٤) ـ ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالبعثِ والثَّوابِ ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يريدونَ المكانَ الذي استقرُّوا فيه على الاستعارةِ، وإيراثُها: تَمليكُها مُخَلَّفةً عليهِمْ مِن أعمالِهم، أو تمكينُهُم مِن التَّصرُّفِ فيها تمكينَ الوارثِ فيما يَرِثُه.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٣١١)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، من حديث عمر رضي الله عنه، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً».

(٢) في نسخة التفتازاني: «مجيئهم».

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: يتبوَّأُ كلٌّ مِنَّا في أيِّ مَقامٍ أرادَهُ مِن جنَّتِه الواسِعَةِ، مع أنَّ في الجنَّةِ مَقاماتٍ مَعنويَّةً لا يتمانَعُ وارِدُوها ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجنَّةُ.

(٧٥) - ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ مُحْدِقينَ، ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي حولَهُ، و﴿مِنْ﴾ مزيدَةٌ، أو لابتداءِ الحُفوفِ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُلتَبِسينَ بحَمْدِه، والجُملَةُ حالٌ ثانيةٌ، أو مُقيِّدَةٌ للأُولى، والمعنى: ذاكِرينَ له بوَصْفَيْ جلالِهِ وإكرامِه تَلذُّذًا به، وفيه إشعارٌ بأنَّ مُنتَهَى درجاتِ العِلِّيِّينَ وأعلى لذائذِهِم هو الاستغراقُ في صِفَاتِ الحقِّ.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بينَ الخلقِ، بإدخالِ بَعضِهِم النَّارَ وبعضِهِم الجنَّةَ، أو بين الملائكةِ بإقامَتِهِم في منازِلِهم على حَسَبِ تَفاضُلِهِم.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على ما قَضى بيننا بالحقِّ، والقائلونَ هُم المؤمنونَ مِن المقضيِّ بينَهُم، أو الملائكةُ، وطَيُّ ذِكرِهِم لتَعيُّنِهِم وتَعظيمِهِم.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورةَ الزُّمَرِ لم يقطعِ اللهُ رجاءَهُ يومَ القيامَةِ، وأعطاهُ اللهُ ثوابَ الخائفينَ»(١).

وعنه عليهِ السَّلامُ: أنَّه كان يقرَأُ كلَّ ليلَةٍ بني إسرائيلَ والزُّمَرَ(٢).

***

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٨٠)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٦٩)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وتقدم الكلام عليه مراراً.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٢٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٨٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٢٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، ورواه أحمد في «المسند» (٢٤٣٨٨) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٧٢): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٣٩) سُورَةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّة
وآياتها خمس وسبعون

روى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو (القرآن العظيم) من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك كما قال عزّ وجل: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾، وقال تعالى: ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾، وقال هاهنا ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز﴾ أي المنيع الجناب ﴿الحكيم﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾ أي فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، ولهذا قال تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، وقال قتادة ﴿ألا لله الدين الخالص﴾: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم أخبر عزّ وجلّ عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام، اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله تعالى، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به، قال قتادة والسدي: ﴿إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم

(١) أخرجه النسائي من حديث عائشة رضي الله عنها.

إذا حجوا في جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هـذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه، ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إِلَه إلا أنا فاعبدون﴾، وأخبر أن الملائكة التي في السماوات، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن الله يحكم بينهم﴾ أي يوم القيامة ﴿فيما هم فيه يختلفون﴾ أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ أي لا يرشد إلى الهداية، من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه؛ ثم بيّن تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى، فقال تبارك وتعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عزّ وجلّ: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، فهذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم، وقوله تعالى: ﴿سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ أي تعالى وتنزّه وتقدس، عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي قهر الأشياء، فدانت له وذلت وخضعت، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السماوات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وبأنه مالك الملك المتصرف فيه يقلّب ليله ونهاره ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين، لا يفترقان، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، كقوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمى﴾ أي إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة ﴿ألا هو العزيز الغفار﴾ أي مع عزته وعظمته وكبريائه، هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه، وقوله جلت عظمته: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم ﴿من نفس واحدة﴾ وهو آدم عليه الصلاة

والسلام ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وهي حواء عليها السلام كقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾، وقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ أي وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، وقوله عزّ وجل: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم﴾ أي قدّركم في بطون أمهاتكم ﴿خلقاً من بعد خلق﴾ يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾، وقوله جل وعلا: ﴿في ظلمات ثلاث﴾ يعني ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وظلمة البطن، كذا قال ابن عباس ومجاهد[1]. وقوله جل جلاله: ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي هذا الذي خلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿لا إله إلا هو﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿فأنّى تصرفون﴾؟ أي فكيف تعبدون معه غيره؟ وأين يذهب بعقولكم؟

إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ * وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه جل وعلا أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾، وفي الصحيح: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»[2]، وقوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ أي لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أي يحبه لكم، ويزدكم من فضله، ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كلٌّ مطالب بأمر نفسه، ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون * إنه عليم بذات الصدور﴾ أي فلا تخفى عليه خافية، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه﴾ أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل﴾ أي في حال الرفاهية، ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال جل جلاله: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، وقوله تعالى: ﴿وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله﴾ أي في

(١) وهو قول عكرمة والضحّاك والسدي وقتادة وابن زيد وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه وهو جزء من حديث قدسي طويل.

حال العافية يشرك بالله ويجعل له أنداداً، ﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه ﴿ تمتع بكفرك قليلاً ﴾ وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ .

أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾

يقول تعالى: أمن هذه صفته، كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ ليسوا سواء ﴾، وقال تعالى ههنا: ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾[1] أي في حال سجوده، وفي حال قيامه، ولهذا استدل بهذه الآية، من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، قال ابن مسعود: «القانت المطيع لله عزّ وجلّ، ولرسوله ﷺ»، وقال ابن عباس: ﴿ آناء الليل ﴾ جوف الليل[2]، وقال الثوري: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء، وقال الحسن وقتادة: ﴿ آناء الليل ﴾ أوله وأوسطه وآخره، وقوله تعالى: ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ أي في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، ولهذا قال تعالى: ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ فإذا كان عند الاحتضار، فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال أَنس رضي الله عنه: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له: «كيف تجدك»؟ فقال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن، إلاّ أعطاه الله عزّ وجلّ الذي يرجو، وأمّنه الذي يخافه»[3]. وعن يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقرأ: ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ قال ابن عمر: ذاك (عثمان بن عفان) رضي الله عنه»[4] وإنما قال ابن عمر رضي الله عنهما ذلك، لكثرة صلاة عثمان رضي الله عنه بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، قال الشاعر:

«يقطّع الليل تسبيحاً وقرآناً»

وقوله تعالى: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾؟ أي هل يستوي هذا، والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله؟ ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا، من له لب، وهو العقل، والله أعلم.

قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى

---

(١) أخرج جويبر عن ابن عباس قال: نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة.
(٢) وهو قول الحسن والسدي وابن زيد.
(٣) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا، حسنة في دنياهم وأخراهم، ﴿وأرض الله واسعة﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان، وقال: إذا دعيتم إلى معصيته فاهربوا، ثم قرأ: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾؟ وقوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفاً، وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك، وقال السدي: يعني في الجنة، وقوله: ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ قال السدي: يعني من أمته ﷺ.

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة، ومعناه التعريض بغيره، بطريق الأولى والأحرى، ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾، وهذا أيضاً تهديد، وتبرٍّ منهم. ﴿قل إن الخاسرين﴾ أي إنما الخاسرون كل الخسران ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً، وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة، وذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ أي هذا هو الخسران المبين، الظاهر الواضح، ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾، كما قال عزّ وجل: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾، وقال تعالى: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ وقوله جل جلاله: ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾ أي إنما يقص خبر هذا ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم، وقوله تعالى: ﴿يا عبادِ فاتقون﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي.

۞ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

قال زيد بن أسلم: نزلت الآية في (زيد بن عمرو) و (أبي ذر) و (سلمان الفارسي) رضي الله تعالى عنهم،

والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان ، وأناب إلى عبادة الرحمن، فهؤلاء لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ فبشر عبادِ ۝ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ أي يفهمونه ويعملون بما فيه كقوله تبارك وتعالى: ﴿ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، ﴿ وأولئك هم أولو الألباب ﴾ أي ذوو العقول الصحيحة، والفطر المستقيمة .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شقي هل تقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله ، ثم أخبر عزّ وجلّ عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة، وهي القصور الشاهقة، ﴿ من فوقها غرف مبنية ﴾ طباق فوق طباق، مبنيات محكمات، مزخرفات عاليات، وفي الصحيح : « إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها » فقال أعرابي : لمن هي يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل والناس نيام »[1] ، وروى الإمام أحمد، عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في أفق السماء »[2]. وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله ! إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد، قال ﷺ : « لو أنكم تكونون على كل حال، على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله عزّ وجلّ بقوم يذنبون كي يغفر لهم » قلنا : يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال ﷺ : « لبنة ذهب ولبنة فضة ، وبلاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماوات، ويقول الرب تبارك وتعالى: وعزتي لأنصرك ولو بعد حين »[3] .وقوله تعالى: ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما شاءوا ، وأين أرادوا ﴿ وعد الله ﴾ أي هذا الذي ذكرناه وعد وعده الله عباده المؤمنين ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب .

(٢) أخرجه أحمد ورواه الشيخان بلفظ : « كما تراءون الكوكب الذي في الأفق الشرقي أو الغربي » .

(٣) أخرجه الإمام أحمد، وروى الترمذي وابن ماجة بعضه .

يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾، عن ابن عباس قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾ فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعده[1]، وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج يعني أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها، وقوله تعالى: ﴿ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾، أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض ﴿زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ أي أشكاله وطعومه، وروائحه ومنافعه، ﴿ثم يهيج﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل، فتراه مصفراً قد خالطه اليبس، ﴿ثم يجعله حطاماً﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم، ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ أي الذين يتذكرون بهذا، فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشاب يعود شيخاً هرماً، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت؛ فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ أي هل يستوي هذا، ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟ كقوله عزّ وجلّ: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾؟ ولهذا قال تعالى: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿أولئك في ضلال مبين﴾.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

هذا مدح من الله عزّ وجلّ لكتابه (القرآن العظيم) المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾ قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني، وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف، وقال الضحاك ﴿مثاني﴾ ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى، وقال عبد الرحمن ابن زيد: ﴿مثاني﴾ مردَّد، ردد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة، وقال ابن عباس ﴿مثاني﴾ أي القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرَدُّ بعضه على بعض. وقوله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار. لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه: (أحدها) أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات. (الثاني) أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن ﴿خروا سجداً وبكياً﴾ بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي لم يكونوا عند

(١) رواه ابن أبي حاتم، وهكذا قال الشعبي وسعيد بن جبير ان كل ماء في الأرض فأصله من السماء

سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها، ويسجدون عندهـا عن بصيرة لا عن جهل ومتابعـة لغيرهم.
﴿الثالث﴾ أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحـابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصـارخون، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية، ما لا يلحقهم أحد في ذلك، تلا قتادة رحمه الله: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ قال: هـذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عزّ وجلّ بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البـدع، وهذا من الشيطان، وقال السدي ﴿إلى ذكر الله﴾ أي إلى وعد الله، وقوله ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده﴾ أي هـذه صفة من هـداه الله، ومن كان على خلاف ذلك، فهو ممن أضـله الله ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: ﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيـامة﴾ ويقرع فيقال له ولأمثاله من الظالمين، ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ كمن يأتي آمناً يوم القيامة؟ كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾؟ وقال تبارك وتعالى: ﴿أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾، واكتفى في هذه الآية بأحـد القسمين عن الآخر، وقوله جلت عظمته: ﴿كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ يعني القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، وقوله جلّ وعلا ﴿فأذاقهم الله الخزي في الحيـاة الدنيا﴾ أي بمـا أنزل بهم من العذاب والنكال، وتشفي المؤمنين منهم، فليحذر المخاطبون من ذلك فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ، والذي أعده الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد، أعظم ممـا أصابهم في الدنيا، ولهذا قـال عزّ وجلّ: ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كـانوا يعلمون﴾.

۞ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿لعلهم يتذكَّرون﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها

إلا العالمون﴾، وقوله جل وعلا: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه، ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك ﴿لعلهم يتقون﴾ أي يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد، ثم قال: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿ورجلاً سلماً﴾ أي سالماً ﴿لرجل﴾ أي خالصاً لا يملكه أحد غيره، ﴿هل يستويان مثلاً﴾؟ أي لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له؟ فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس ومجاهد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال: ﴿الحمد لله﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي فلهذا يشركون بالله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ أي إنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عزّ وجلّ، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين، ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. روي أنه لما نزلت ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير رضي الله عنه: يا رسول الله! أتكرر علينا الخصومة؟ قال ﷺ: «نعم»، قال رضي الله عنه: إن الأمر إذاً لشديد[1]، وعن الزبير ابن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ ﴿إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾، قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال ﷺ: «نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه» قال الزبير رضي الله عنه: والله إن الأمر لشديد[2].

وفي الحديث: «أول الخصمين يوم القيامة جاران»[3]. وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر»، قلت: لا، قال ﷺ: «لكن الله يدري وسيحكم بينهما»[4]. وقال الحافظ أبو بكر البزار، عن أَنَس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الجائر الخائن يوم القيامة فتخاصمه الرعية، فيفلحون عليه، فيقال له: سدّ ركناً من أركان جهنم»[5]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت، ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي والإمام أحمد وابن ماجة بزيادة فيه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر مرفوعاً.

(٤) أخرجه الإمام أحمد أيضاً.

(٥) رواه الحافظ البزار.

فيبعث الله تعالى ملكاً يفصل بينهما، فيقول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير، والآخر ضرير، دخلا بستاناً، فقال المقعد للضرير: إني أرى ههنا ثماراً، ولكن لا أصل إليها، فقال له الضرير: اركبني فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدي؟ فيقولان: كلاهما، فيقول لهما الملك: فإنكما قد حكمتما على أنفسكما، يعني أن الجسد للروح كالمطية وهو راكبه[١]، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال، قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: هذا الذي وعدنا ربنا عزّ وجلّ نختصم فيه[٢]، وقال أبو العالية: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يعني أهل القبلة، وقال ابن زيد: يعني أهل الإسلام وأهل الكفر، وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول عزّ وجلّ مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا إن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً – ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه﴾ أي لا أحد أظلم من هذا، لأنه جمع بين طرفي الباطل: كذب على الله، وكذّب رسول الله ﷺ، قال الباطل، ورد الحق، ولهذا قال جلت عظمته متوعداً لهم ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾؟ وهم الجاحدون المكذبون، ثم قال جل وعلا ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾، قال مجاهد وقتادة: ﴿الذي جاء بالصدق﴾ هو الرسول ﷺ، وقال السدي: هو جبريل عليه السلام، ﴿وصدّق به﴾ يعني محمداً ﷺ، وقال ابن عباس: من جاء بلا إلّه إلا الله ﴿وصدّق به﴾ يعني رسول الله ﷺ، وقيل: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا، وهذا القول[٣] يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية، فإنه جاء بالصدق وصدّق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه، وقال ابن زيد: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿وصدّق به﴾ قال المسلمون ﴿أولئك هم المتقون﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ يعني في الجنة، مهما طلبوا وجدوا ﴿ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ كما قال عزّ وجل في الآية الأخرى: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾.

---

(١) رواه ابن منده في كتاب الروح ولم يشر له ابن كثير بضعف.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه النسائي عن ابن عمر.
(٣) وهو رواية ليث عن مجاهد وهو اختيار ابن كثير.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

يقول الله تعالى: ﴿ أليس الله بكاف عبده﴾ يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكّل عليه، وفي الحديث: « أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به »[1]. ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه﴾ يعني المشركين يخوّفون الرسول ﷺ، ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم، التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً[2]، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام؟﴾ أي منيع الجناب لا يضام من استند إلى جنابه، ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه، ممن كفر به وأشرك، وعاند رسوله ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله عزّ وجلّ هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره؟ أوأرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾؟ أي لا تستطيع شيئاً من الأمر، وفي الحديث: « احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة »[3] الحديث. ﴿ قل حسبي الله﴾ أي الله كافي، ﴿ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾، كما قال (هود) عليه الصلاة والسلام: ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عزّ وجلّ أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عزّ وجلّ »[4]، وقوله تعالى ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد، ﴿ إني عامل﴾ أي على طريقتي ومنهجي، ﴿ فسوف تعلمون﴾ أي ستعلمون غبّ ذلك ووباله، ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي في الدنيا، ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أي دائم مستمر، لا محيد له عنه، وذلك يوم القيامة، أعاذنا الله منها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري مرفوعاً ورواه الترمذي والنسائي بنحوه.

(٢) عن معمر قال: قالوا للنبي ﷺ: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبلنك، فنزلت: ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه﴾، أخرجه عبد الرزاق كما في اللباب.

(٣) الحديث رواه ابن أبي حاتم والترمذي.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً.

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿للناس بالحق﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن، لتنذرهم به، ﴿فمن اهتدى فلنفسه﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي بموكل أن يهتدوا، ﴿إنما أنت نذير﴾، ﴿إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ الآية، وقال: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾، فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى، كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلَفه عليه، ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»(١)، وقال بعض السلف: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت﴾ التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، قال السدي: إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوانات بكثير، ثم قال ﴿قل﴾ أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.

أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك، ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلا بعمله، ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: ﴿وإذا ذكر الله وحده﴾ أي إذا قيل لا إله إلا الله وحده، ﴿اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ قال مجاهد: اشمأزت انقبضت، وقال السدي: نفرت، وقال قتادة: كفرت واستكبرت، كما قال تعالى: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ أي عن المتابعة والانقياد لها، فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿إذا هم يستبشرون﴾ أي يفرحون ويسرون.

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

يقول تبارك وتعالى، بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد ﴿قل اللهمَّ فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة﴾ أي ادع أنت الله وحده لا شريك له الذي خلق السماوات والأرض وفطرها، أي جعلها على غير مثال سبق، ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي السر والعلانية، ﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي في دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم، روى مسلم في صحيحه، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١). وقال رسول الله ﷺ: «من قال: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الدنيا، أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله عزّ وجلّ لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إليَّ عهداً فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة»(٢).

وروى الإمام أحمد، عن أبي راشد الحبراني قال: أتيت (عبد الله بن عمرو) رضي الله عنهما فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ، فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ، فنظرت فيها، فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت؟ فقال له رسول

---

(١) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه.

الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، أن أقترف على نفسي سوءاً، أو أجره إلى مسلم»(١)، وقوله عز وجل: ﴿ولو أن للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾ أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿لافتدوا به من سوء العذاب﴾ أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم، ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم، ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

* فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوّله نعمة منه بغى وطغى، وقال: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيص لما خولني هذا، قال قتادة ﴿على علم عندي﴾ على خبر عندي، قال الله عزّ وجلّ: ﴿بل هي فتنة﴾ أي ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك فهي ﴿فتنة﴾ أي اختبار ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، فلهذا يقولون ويدعون ما يدعون، ﴿قد قالها الذين قبلهم﴾ أي قد قال هذه المقالة وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي فما صح قولهم ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء﴾ أي من المخاطبين ﴿سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾، أي كما أصاب أولئك ﴿وما هم بمعجزين﴾، كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾؟ وقال تعالى: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي لعبراً وحججاً.

* قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي وقال: حسن غريب.

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾، ونزل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾(١). وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾»(٢) إلى آخر الآية. وعن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدعم على عصاً له فقال: يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات، فهل يغفر لي؟ فقال ﷺ: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك»(٣). وروى الإمام أحمد، عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ وسمعته ﷺ يقول: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾(٤).

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال الله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾، وقال جلّ وعلا في حق المنافقين: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا﴾ قال الحسن البصري رحمه الله: انظروا إلى

(١) أخرجه البخاري ورواه مسلم وأبو داود والنسائي.
(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه.
(٣) تفرد به أحمد من حديث عمرو بن عنبسة.
(٤) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي.

هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، والآيات في هذا كثيرة جداً، وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً، ثم ندم وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل هل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله وأكمل به مائة، ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها، فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عزّ وجلّ أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة، هذا معنى الحديث، وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه، وقال ابن عباس في قوله عزّ وجلّ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ الآية، قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾. ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وقال: ﴿ما علمت لكم من إلٰه غيري﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عزّ وجلّ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه، وروى الطبراني عن ابن مسعود قال: إن أعظم آية في كتاب الله ﴿الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم﴾ وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾، وإن أكثر آية في القرآن فرحاً ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾(١). ومرَّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على قاصّ وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر لِمَ تقنطِ الناسَ من رحمة الله؟ ثم قرأ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾(٢)

(ذكر أحاديث فيها نفي القنوط)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عزَّ وجلَّ بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم»(٣)، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله عزَّ وجلَّ قوماً يذنبون فيغفر لهم»(٤)، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب الندامة»(٥)، وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيغفر لهم»(٦). ثم استحث تبارك

---

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود موقوفاً.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أيضاً.

(٣) تفرد به الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك.

(٤) أخرجه أحمد ورواه مسلم والترمذي.

(٥) أخرجه أحمد عن ابن عباس مرفوعاً.

(٦) تفرد به الإمام أحمد.

وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ الخ، أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ وهو القرآن العظيم ﴿من قبل أن يأتيكم العذابُ بغتةً وأنتم لا تشعرون﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون، ثم قال تعالى: ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عزَّ وجلَّ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق، ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ أي تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل، قال ابن عباس: أخبر الله سبحانه وتعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، وقال تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾، ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ فأخبر الله عزَّ وجلَّ أن لو ردوا لما قدروا على الهدى فقال: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، وفي الحديث: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني قال: فيكون له الشكر»[1]، ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ أي قد جاءتك أيها العبد النادم آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله﴾ أي في دعواهم له شريكاً وولداً، ﴿وجوههم مسودة﴾ أي بكذبهم وافترائهم. وقوله تعالى: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾؟ أي أليست جهنم كافية سجناً وموئلاً، لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم عن الانقياد للحق؟ وفي الحديث: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً من النار في واد يقال له (بولس) من نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال»[2]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لا يمسهم السوء﴾ أي يوم القيامة ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزحون عن كل شر، نائلون كل خير.

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي عن أبي هريرة مرفوعاً. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً.

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكلٌ تحت تدبيره وقهره وكلاءته، قال مجاهد: المقاليد هي المفاتيح بالفارسية، وقال السدي: ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ أي خزائن السماوات والأرض، والمعنى على كلا القولين أن أزمَّة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أي حججه وبراهينه ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾؟ ذكروا في سبب نزولها أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه فنزلت: ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون؟ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾[1] وهذه كقوله تعالى: ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قدره وقدرته، قال مجاهد: نزلت في قريش، وقال السدي: ما عظموه حق تعظيمه، وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوا، وقال ابن عباس: ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف، قال البخاري: قوله تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله عزّ وجلّ يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ الآية[2]، وروى الإمام أحمد، عن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب

(١) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على إصبع، والسماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، قال: وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ إلى آخر الآية[١]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله تعالى الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟»[٢]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر: يمجّد الرب نفسه أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم»، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرنَّ به[٣].

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي (نفخة الصعق) وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لله الواحد القهار﴾ أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء، وحكمت بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أُخرى وهي النفخة الثالثة (نفخة البعث) قال الله عزّ وجلّ: ﴿ثم نفخ فيه أُخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾، وقال تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾.

روى الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين -لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، أو أربعين ليلة[٤]- فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه (عروة بن مسعود الثقفي)، فيظهر فيهلكه الله تعالى، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال

---

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري ومسلم والنسائي.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.
(٣) أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة.
(٤) الشك من الراوي وليس من لفظ النبوة فتنبه.

ذرة من إيمان إلا قبضته ، إنَّ أحدهم لو كان في كبد جبل لدخلت عليه » ؛ قال : سمعتها من رسول الله ﷺ : « ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارةٌ أرزاقهم، حسنٌ عيشهم؛ ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم يرسل الله تعالى - أو ينزل الله عزّ وجلّ - مطراً كأنه الطل أو الظل - شك نعمان - فتنبت منه الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ قال، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: كم ؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فيومئذ تبعث الولدان شيباً ويومئذ يكشف عن ساق »[1]. وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « ما بين النفختين أربعون »، قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال رضي الله تعالى عنه: أبيت، قالوا: أربعون سنة ؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً ؟ قال: أبيت، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْب ذنبه فيه يركب الخلق[2] .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء، ﴿ ووضع الكتاب ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿ وجيء بالنبيين ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم، ﴿ والشهداء ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي بالعدل، ﴿ وهم لا يظلمون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾، ولهذا قال: ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ أي من خير أو شر، ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾.

۞ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار، كيف يساقون إلى النار سوقاً عنيفاً، بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دعّاً ﴾ أي يدفعون إليها دفعاً وهم عطاش ظماء، كما قال جلّ وعلا في الآية الأخرى: ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾، وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي، كما قال تعالى: ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾ أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية، الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى، على وجه التقريع

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم في صحيحه واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة . وعجب الذنب : العصعص .

والتوبيخ والتنكيل: ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ ؟ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم: ﴿ بلى ﴾ أي قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾. وقوله تعالى: ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه، بما حكم العدل الخبير عليهم به، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها، ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي فبئس المصير وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإبائكم عن اتباع الحق، فبئس الحال وبئس المآل.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

وهذا إخبار عن حال **السعداء المؤمنين**، حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة، ﴿ زمراً ﴾ أي جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، وكل زمرة تناسب بعضها بعضاً. ﴿ حتى إذا جاءوها ﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذّبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنَس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « أنا أول شفيع في الجنة »، وفي لفظ: « وأنا أول من يقرع باب الجنة »[1]. وروى الإمام أحمد عن أنَس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: (آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد - قال - فيقول: بك أُمرت أن لا أفتح لأحد قبلك »[2]، وقال رسول الله ﷺ: « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتفلون فيها، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألُوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبّحون الله تعالى بكرة وعشياً »[3]. وروى الحافظ أبو يعلى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

(١) أخرجه مسلم عن أنَس مرفوعاً.

(٢) أخرجه أحمد ورواه مسلم بنحوه.

(٣) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلتون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوّة[1] ، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء » .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره : إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله تعالى دعي من أبواب الجنة وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريّان »، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله : ما على أحد من ضرورة دعي من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم وأرجو أن تكون منهم »[2] ، وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء »، وعن معاذ رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الجنة لا إله إلا الله »[3] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل : « فيقول الله تعالى : يا محمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخر ، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ما بين عضادتي الباب لكما بين مكة أو هجر – وهجر مكة – وفي رواية – مكة وبصرى[4] ، وفي صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها، ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام[5] ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم﴾ أي طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وجزاؤكم، وقوله: ﴿ فادخلوها خالدين﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً ، ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم والملك الكبير يقولون عند ذلك: ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾، ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾، وقوله: ﴿ وأورثنا الأرض

---

(١) الألوة : العود الذي يتبخر به .

(٢) أخرجه أحمد ورواه البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن معاذ رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه .

نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾. قال أبو العالية وقتادة والسدي : أي أرض الجنة، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾، ولهذا قالوا: ﴿نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفي الصحيحين عن أنَس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ: «أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ[1] اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة فقال: «درمكة بيضاء مسك خالص»[2]

وروى ابن أبي حاتم، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم تغير أبشارهم بعدها أبداً، ولم تشعث أشعارهم بعدها أبداً، فإنما دهنوا بالدهان ثم عمدوا إلى الأخرى، كأنما أمروا بها فشربوا منها فأذهب ما كان في بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة: ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾، وتلقى كل غلمان صاحبهم يطوفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة، أبشر قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان باسمه في الدنيا، فيقلن: أنت رأيته، فيقول: نعم، فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة الباب، قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة وأكواب موضوعة وزرابي مبثوثة، قال، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، ومن كل لون ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله تعالى قدره له لألم أن يذهب ببصره إنه لمثل البرق، ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكئ إلى أريكة من أرائكه ثم يقول: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ .

* وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزَّل كلا في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه، ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية وقضى الأمر وحكم بالعدل، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿وقضي بينهم﴾ أي بين الخلائق ﴿بالحق﴾، ثم قال ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ أي نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض﴾ ، واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى: ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ .

[آخر تفسير سورة الزمر ، ولله الحمد والمنة]

---

(١) الجنابذ: ما ارتفع من الأرض وغيرها والمراد عقود اللؤلؤ. (٢) أخرجه مسلم وعبد بن حميد. الدرمك: التراب الناعم.

تفسير سورة الزمر

وهى مكية .

قال النسائى: حدثنا محمد بن النضر بن مساور، حدثنا حماد، عن مروان أبى لبابة[(١)]، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر[(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾ .

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن العظيم ـ من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ـ ١٩٥]. وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. وقال هاهنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى: المنيع الجناب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أى: فى أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له [وحده][(٣)]، وأنه[(٤)] ليس له شريك ولا عديل ولا نديد؛ ولهذا قال: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أى: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له.

وقال قتادة فى قوله: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر تعالى عن عُبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أى: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم، فعبدوا[(٥)] تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله فى

---

(١) فى ت: «روى النسائى بإسناده عن عائشة» .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٤).

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «فإنه» . (٥) فى أ: «فعدوا».

نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر[١] الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.

قال قتادة، والسدى، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أى: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك[٢]، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهى عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شىء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزى كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ[٣] لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أى: لا يرشد إلى الهداية من قصده[٤] الكذب والافتراء على الله، وقلبه كفار يجحد بآياته [وحججه][٥] وبراهينه.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة، والمعاندون[٦] من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى، فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون[٧]. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم[٨] فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى كل شىء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغنى عما سواه، الذى قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

---

(١) فى س، أ: «أمور».
(٢) فى أ: « لك لبيك».
(٣) فى أ: «نقول».
(٤) فى أ: «قصد».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى أ: «المعاندين».
(٧) فى س: «تزعمون».
(٨) فى أ: «بجهلهم».

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) ﴾.

يخبر تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أى: سخرهما يجريان[(١)] متعاقبين لا يقران[(٢)]، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، كقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة. ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم، عليه السلام، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهى حواء، عليهما السلام، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أى: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهى المذكورة فى سورة الأنعام: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ[(٣)] فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أى: قدركم[(٤)] فى بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾أى: يكون أحدكم أولا نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ يعنى: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[(٥)] ـ التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد ـ وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، والسدى، وابن[(٦)] زيد [وغيرهم][(٧)].

وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم[(٨)]، هو الرب له الملك والتصرف[(٩)] فى جميع ذلك، ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: الذى لا تنبغى

---

(١) فى س: «تجريان». (٢) فى أ: «لا يفتران». (٣) فى ت، س: «يذرأكم».
(٤) فى ت، س: «يخلقكم»، وفى أ: «يذرأكم». (٥) فى ت، س: «الشيمة». (٦) فى ت، س: «وأبو».
(٧) زيادة من ت. (٨) فى أ: «آباءكم وإياكم». (٩) فى أ: «والتصريف».

العبادة إلا له وحده، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذْهَبُ بعقولكم؟!

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن نفسه تعالى: أنه[1] الغنى عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وفى صحيح مسلم: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئا»[2].

وقوله ﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحبه منكم ويزدكم[3] من فضله.

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئا، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أي: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: فى حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي: فى حال العافية يشرك بالله، ويجعل له[4] أندادا. ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلا. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٩) ﴾.

---

(١) فى ت، أ: «بأنه».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «ويزيدكم».

(٤) فى ت: «لله».

يقول تعالى: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له[١] أندادا؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال هاهنا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أى: فى حال سجوده وفى حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون.

قال الثورى، عن فراس، عن الشعبى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: القانت: المطيع لله ولرسوله.

وقال ابن عباس، والحسن، والسدى، وابن زيد: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: جوف الليل.

وقال الثورى، عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء.

وقال الحسن، وقتادة: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أى: فى حال عبادته خائف راج[٢]، ولابد فى العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال[٣] الإمام عبد بن حميد فى مسنده.

حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك[٤]؟» قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو، وأمنه الذى يخافه».

ورواه الترمذى والنسائى فى «اليوم والليلة»، وابن ماجه، من حديث سَيَّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، به[٥]. وقال الترمذى: «غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن أنس، عن النبى ﷺ مرسلا».

وقال[٦] ابن أبى حاتم، حدثنا عمر بن شبَّة[٧]، عن عبيدة النميرى، حدثنا أبو خَلَف عبد الله بن عيسى الخَزَّاز، حدثنا[٨] يحيى البَكَّاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان، رضى الله عنه.

وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن فى ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه، رضى الله عنه[٩]، وقال الشاعر[١٠].

---

(١) فى أ: «لله». (٢) فى ت: «خائفا راجيا». (٣) فى ت: «روى»

(٤) فى أ: «تجدر».

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣٦٨) وسنن الترمذى برقم (٩٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٦١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠١).

(٦) فى ت: «روى». (٧) فى أ: «شيبة». (٨) فى ت: «عن».

(٩) فى ت: «عنهما».

(١٠) هو حسان بن ثابت الأنصارى، والبيت فى ديوانه (ص ٢٤٨).

ضَحُّوا بأشْمَطَ عُنوانُ السُّجُود بِهِ   يُقَطِّع الليلَ تَسْبيحا وقُرآنا

وقال[١] الإمام أحمد: كتب إلى الربيع بن نافع: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة[٢]، عن تميم الدارى قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بمائة آية فى ليلة، كتب له قنوت ليلة».

وكذا رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حميد، به[٣].

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) ﴾.

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أى: لمن أحسن العمل فى هذه الدنيا حسنة فى دنياهم وأخراهم.

وقوله: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان.

وقال شريك، عن منصور، عن عطاء فى قوله: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، قال الأوزاعى: ليس يوزن لهم ولا يكال[٤]، إنما يغرف لهم غرفا.

وقال ابن جريج: بلغنى أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون[٥] على ذلك.

وقال السدى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يعنى فى الجنة.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال السدى: يعنى من أمته ﷺ.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا

(١) فى ت: «روى».   (٢) فى ت: «بإسناده».
(٣) المسند (٤/١٠٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٥٥٣).
(٤) فى ت، أ: «يكال لهم».   (٥) فى ت: «يزدادون».

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿ **إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾، وهو يوم القيامة. وهذا شَرْط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ** ﴾، وهذا أيضا تهديد وتَبَرٍّ[١] منهم، ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ** ﴾ أى: إنما الخاسرون كل الخسران[٢] ﴿ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أى: تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا، سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿ **ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ أى: هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح.

ثم وصف حالهم فى النار فقال: ﴿ **لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** ﴾، كما قال: ﴿ **لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿ **يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقوله: ﴿ **ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ** ﴾ أى: إنما يَقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم.

وقوله: ﴿ **يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ** ﴾ أى: اخشوا بأسى وسطوتى، وعذابى ونقمتى.

﴿ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)** ﴾

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا** ﴾ نزلت فى زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبى ذر، وسلمان الفارسى.

والصحيح أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

ثم قال: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ أى: يفهمونه ويعملون بما فيه، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة: ﴿ **فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ** ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله فى الدنيا والآخرة[٣]، أى: ذوو العقول الصحيحة، والفطَر المستقيمة.

﴿ **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)** ﴾.

---

(١) فى أ: «وتبرى». (٢) فى ت، س: «الخاسرون». (٣) فى س: «والأخرى».

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شَقِى تَقْدرُ تُنْقذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أى: لا يهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضلل الله فلا هادى له، ومن يهده فلا مضل له.

ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف فى الجنة، وهى القصور الشاهقة، ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ ،أى: طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عباد بن يعقوب الأسدى، حدثنا محمد بن فضيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن على، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفاً يُرَى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها». فقال أعرابى: لمن هى يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام».

ورواه الترمذى من حديث عبد الرحمن بن إسحاق[١]، وقال: «حسن غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبَل حفظه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبى كثير، عن ابن مُعانق ـ أو: أبى مُعَانق ـ عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفة[٢] يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام».

تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن مُعَانق الأشعرى، عن أبى مالك، به[٣].

وقال[٤] الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبى حازم[٥]، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء». قال: فحدثتُ بذلك النعمان بن أبى عياش، فقال: سمعت أبا سعيد الخدرى يقول: «كما تراءون الكوكب الدرى[٦] فى الأفق الشرقى أو الغربى».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث أبى حازم[٧]، وأخرجاه أيضاً فى الصحيحين من حديث مالك، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا فَزارة، أخبرنى فُلَيح، عن هلال بن على، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدرى الغارب فى الأفق الطالع، فى تفاضل أهل الدرجات». فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال: «بلى، والذى نفسى بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل».

---

(١) زوائد عبد الله على المسند (١/ ١٥٥) وسنن الترمذى برقم (١٩٨٤).
(٢) فى س، أ: «غرفة».
(٣) المسند (٥/ ٣٤٣).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت: «بإسناده».
(٦) فى س، أ: «الذى».
(٧) المسند (٥/ ٣٤٠) وصحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠).
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١).

ورواه الترمذى عن سُويد[١]، عن ابن المبارك، عن فُلَيح، به[٢]، وقال: حسن صحيح.

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو كامل[٤] قالا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائى، حدثنا أبو المدلّه ـ مولى أم المؤمنين ـ أنه سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشَمِمْنَا النساء والأولاد. قال: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم فى بيوتكم. ولو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حَدّثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ ذهب ولَبِنَةٌ فضّة، وملاطها المسك الأذْفَر، وحَصْباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يَبْأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا تُرَدّ دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تُحمَل على الغَمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»[٥].

وروى الترمذى، وابنُ ماجه بعضَه، من حديث سعد[٦] أبى مجاهد الطائى ـ وكان ثقة ـ عن أبى المُدلّه ـ وكان ثقة ـ به[٧].

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: تسلك[٨] الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤوا[٩] وأين أرادوا، ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى ذكرناه وَعْدٌ وعَدَه الله عباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾.

يخبر تعالى: أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن فى الأرض، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبِعهُ عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾.

قال[١٠] ابن أبى حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبوقتيبة عتبة بن يقظان، عن عكرمة[١١]، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾، قال: ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق فى الأرض

(١) فى أ: «يزيد».
(٢) المسند (٢/٣٣٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٥٦).
(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى أ: «وأبو عامر».
(٥) المسند (٢/٣٠٤).
(٦) فى أ: «سعيد».
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٩٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٥٢) قال الترمذى: «هذا حديث حسن»، ثم أشار إلى رواية أحمد المطولة.
(٨) فى ت: «تلك». (٩) فى أ: «يشاؤون». (١٠) فى ت: «روى». (١١) فى ت: «بسنده».

تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾، فمن سره أن يعود الملح عذاب فليصعده.

وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى: أن كل ماء فى الأرض فأصله من السماء.

وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعنى: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن فى قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أى: بعد نضارته وشبابه يكتهل [(١)] ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾، قد خالطه اليُبْس، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أى: ثم يعود يابسا يتحطم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ أى: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَضِرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزا شوهاء، والشاب يعود شيخا هَرِما كبيرا ضعيفا [قد خالطه اليبس][(٢)]، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعا وثمارا، ثم يكون بعد ذلك حُطاما، كما قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: فلا تلين عند ذكره[(٣)]، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم، ﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾.

هذا مَدْحٌ من الله ـ عز وجل ـ لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ قال مجاهد: يعنى القرآن كله متشابه مثانى.

وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف.

وقال الضحاك: ﴿ مَّثَانِيَ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل.

وقال عكرمة، والحسن: ثنَّى الله فيه القضاء ـ زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفى السورة الأخرى آية تشبهها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَّثَانِيَ﴾: مُرَدَّد، رُدِّد موسى فى القرآن، وصالح وهود

(١) فى ت، أ: «يتكهل». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «ذكر الله».

والأنبياء، عليهم السلام، فى أمكنة كثيرة.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مَثَانِيَ﴾ قال: القرآن يشبه بعضه بعضا، ويُرَدُّ[١] بعضه على بعض.

وقال بعض العلماء: ويُرْوى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾: أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ فى معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثانى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وكقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، إلى أن قال: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص: ٤٩]. إلى أن قال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من[٢] المثانى، أى: فى معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور فى قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ذلك معنى آخر.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته[٣] ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار[٤] من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نَغَمات لأبيات، من أصوات القَيْنات.

الثانى: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] أى: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم [أى يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعا له][٥].

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، رضى الله عنهم، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المُعَلّى فى الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَر قال: تلا قتادة، رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

---

(١) فى أ: «يردد». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى ت: «من رحمة الله».
(٤) فى ت، س، أ: «الفجار». (٥) زيادة من أ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكى أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا فى أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السُّدِّى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: إلى وعد الله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويُقَرَّعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، كمن يأتى آمنا يوم القيامة؟! كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، وقال [تعالى][1]: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، واكتفى فى هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر[2]:

فَمَا أدْرى إذَا يَمَّمْتُ أرْضاً ... أريدُ الخيرَ: أيّهما يَلينى؟

يعنى: الخير أو الشر.

وقوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

وقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفى[3] المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء، والذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم فى الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾.

---

(١) زيادة من ت.

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢/٩٨).

(٣) فى س، أ: «يشفى».

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى: بينا للناس فيه بضرب الأمثال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فإن المثل يُقَرِّب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أى: تعلمونه من أنفسكم، وقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أى: هو قرآن بلسان عربى مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله [عز وجل][1] كذلك، وأنزله بذلك، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما[2] فيه من الوعد[3].

ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أى: يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أى: خالصا لرجل، لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ أى: لا يستوى هذا وهذا. كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثلُ ظاهرا بَيِّنا جليا، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أى: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا يشركون بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق [رضى الله عنه][4] عند موت الرسول[5] ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية ـ وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ـ فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة.

قال[6] ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن ابن حاطب ـ يعنى يحيى بن عبد الرحمن ـ عن ابن الزبير، عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال: «نعم». قال: إن الأمر إذاً لشديد.

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، أ: «لما». (٣) فى ت، أ: «الوعيد».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «رسول الله». (٦) فى ت: «روى».

[التكاثر: ٨] قال الزبير: أى رسول الله، أى نعيم نسأل عنه؟ وإنما ـ يعنى: هما[١] الأسودان: التمر والماء ـ قال: «أما إن ذلك سيكون».

وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه، من حديث سفيان، به[٢]. وقال الترمذى: حسن.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا ابن نمير، حدثنا محمد ـ يعنى ابن عمرو ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام[٣] قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: أى رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم، حتى يُؤدَّى إلى كل ذى حق حقه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

ورواه الترمذى من حديث محمد بن عمرو، به[٤] وقال: حسن صحيح.

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهِيعة، عن أبى عُشَّانة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران». تفرد به أحمد[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم[٧]، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليختصم[٨]، حتى الشاتان فيما انتطحتا» تفرد به أحمد[٩].

وفى المسند عن أبى ذر، رضى الله عنه [أنه][١٠] قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدرى فيم ينتطحان يا أبا ذر؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدرى وسيحكم بينهما»[١١].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا حيان بن أغلب، حدثنا أبى، حدثنا ثابت عن أنس[١٢] [رضى الله عنه][١٣]، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الخائن[١٤] يوم القيامة، فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه، فيقال له: سد ركنا من أركان جهنم».

ثم قال: الأغلب بن تميم ليس بالحافظ[١٥].

---

(١) فى أ: «بهما».

(٢) المسند (١/ ١٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٥٩).

(٣) فى م: «العوام رضى الله عنه».

(٤) المسند (١/ ١٦٧) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٦).

(٥) فى ت: «وروى».

(٦) المسند (٤/ ١٥١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ٣٠٣) من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبى عشانة به.

(٧) فى ت: «وروى أيضا». (٨) فى أ: «يختصم».

(٩) المسند (٣/ ٢٩) ودراج أبو السمح عن أبى الهيثم ضعيف.

(١٠) زيادة من ت.

(١١) المسند (٥/ ١٦٢).

(١٢) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أنس». (١٣) زيادة من أ. (١٤) فى أ: «الجائر».

(١٥) مسند البزار برقم (١٦٤٤) «كشف الأستار» ولفظه: «يجاء بالإمام الجائر يوم القيامة فيخاصمه الرعية، فيفلحوا عليه.» ثم ذكر بقية الحديث كما هو هنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[١]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهدى الضال، والضعيف المستكبر[٢].

وقد روى ابن منده فى كتاب «الروح»، عن ابن عباس أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة، حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت. فيبعث الله ملكا يفصل بينهما، فيقول [لهما][٣]: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستانا، فقال المقعد للضرير: إنى أرى هاهنا ثمارا، ولكن لا أصل إليها. فقال له الضرير: اركبنى فتناولها، فركبه فتناولها، فأيهما المعتدى؟ فيقولان: كلاهما. فيقول لهما الملك. فإنكما قد حكمتما على أنفسكما. يعنى: أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا جعفر بن أحمد بن عَوْسَجة، حدثنا ضرار، حدثنا أبو سلمة الخزاعى منصور بن سلمة، حدثنا القمى ـ يعنى يعقوب بن عبد الله ـ عن جعفر بن المغيرة، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عمر[٤] [رضى الله عنهما][٥] قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم فى أى شىء نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [قال][٦]: قلنا: من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر: هذا الذى وعدنا ربنا ـ عز وجل ـ نختصم فيه.

ورواه النسائى عن محمد بن عامر، عن منصور بن سلمة، به[٧].

وقال أبو العالية [فى قوله][٨]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: يعنى أهل القبلة.

وقال ابن زيد: يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر.

وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله أعلم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدا ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله، صلوات الله [وسلامه][٩] عليهم أجمعين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أى: لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفى الباطل،

(١) فى ت: «عنه».
(٢) فى أ: «المتكبر».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى ابن عمر».
(٥) زيادة من أ.
(٦) زيادة من أ.
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٧).
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩) زيادة من أ.

كذب على الله، وكَذَّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق؛ ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن[1] زيد: ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: هو الرسول.

وقال السدى: هو جبريل عليه السلام، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: محمدا ﷺ.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعنى: رسول الله ﷺ.

وقرأ الربيع بن أنس: «الذين جاؤوا [2]بالصدق» يعنى: الأنبياء، «وصدقوا به» يعنى: الأتباع.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيؤون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا، فعملنا فيه بما أمرتمونا.

وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير، فإنه جاء بالصدق[3]، وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: المسلمون[4].

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك.

﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعنى: فى الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)﴾.

---

(١) فى أ: «وأبو».
(٢) فى أ: «والذى جاء».
(٣) فى أ: «جاء بالحق».
(٤) فى ت، س، أ: «قال المسلمون».

يقول تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ـ وقرأ بعضهم: «عباده» ـ يعنى أنه تعالى يكفى من عبده وتوكل عليه.

وقال[1] ابن أبى حاتم هاهنا: حدثنا أبو عبيد الله[2] ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا أبوهانئ، عن أبى على عمرو بن مالك الجنبى[3]، عن فضالة بن عبيد الأنصارى؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقَنَعَ به».

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث حيوة بن شريح، عن أبى هانئ الخولانى، به[4]. وقال الترمذى: صحيح.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعنى: المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها[5] من دونه؛ جهلا منهم وضلالا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ أى: منيع الجناب لا يضام، من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذى لا أعز منه، ولا أشد انتقاما منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعنى: [أن][6] المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما[7] لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ أى: لا تستطيع شيئا من الأمر[8].

وذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديث قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعانى، عن[9] ابن عباس مرفوعا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر فى اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[10].

﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى: الله كافىّ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود، عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى أ: «عبد الله». (٣) فى أ: «الحسينى».
(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٢٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ٣٠٦) من طريق عبد الله بن وهب عن أبى هانئ به.
(٥) فى أ: «يدعون بها». (٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت، س، أ: «ممن».
(٨) فى ت: «الأمور». (٩) فى ت: «حديثا بسنده إلى».
(١٠) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٣) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١٦) من طريق الليث بن سعد عن قيس بن الحجاج به، قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى، حدثنا عبد الله بن بكر[١] السهمى، حدثنا محمد بن حاتم، عن أبى المقدام ـ مولى آل عثمان ـ عن محمد بن كعب القرظى، حدثنا ابن عباس[٢] [رضى الله عنهما][٣] ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق [منه][٤] بما فى يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس، فليتق الله»[٥].

وقوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أى: على طريقتى ومنهجى، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾.

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعنى: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أى: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أى: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أى: بموكل أن يهتدوا، ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[الرعد: ٤٠].

ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف فى الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠، ٦١]. فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفى هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيه دلالة على أنها تجتمع فى الملأ الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذى رواه ابن منده وغيره. وفى صحيحى البخارى ومسلم من حديث عبيد الله[٦] بن عمر، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه،

(١) فى أ: «بكير». (٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده إلى ابن عباس».
(٣) زيادة من ت. (٤) زيادة من ت، س، أ.
(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣/٢١٨) من طرق عن أبى المقدام به، ورواه ابن عدى فى الكامل (٥/٢٤١) من طريق شيبان عن عيسى ابن ميمون عن محمد بن كعب القرظى به.
(٦) فى أ: «عبد الله».

الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلْيَنْفُضْه بداخلة إزاره، فإنه لا يدرى ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»(١).

وقال بعض السلف [رحمهم الله](٢): يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ التى قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى.

قال السدى: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾.

يقول تعالى ذاما للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهى لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير(٣).

ثم قال: قل: أى يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه(٤) شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: هو المتصرف فى جميع ذلك، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزى كلا بعمله.

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضا: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أى: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ قال مجاهد: ﴿ اشْمَأَزَّتْ ﴾: انقبضت.

وقال السدى: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥]، أى: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم(٥) لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد، ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى: يفرحون ويسرون.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧١٤).

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى س: «بكبير».

(٤) فى ت: «ما اتخذوا».

(٥) فى ت: «بقلوبهم».

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾.

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم فى حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذى خلق السموات والأرض وفطرها، أى: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: السر والعلانية، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: فى دنياهم[1]، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم.

وقال[2] مسلم فى صحيحه: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا يحيى بن أبى كثير، حدثنى أبو سلمة[3] بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة [رضى الله عنها][4]: بأى شىء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»[5].

وقال[6] الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، وأخبرنا سهيل بن أبى صالح وعبد الله ابن عثمان بن خُثَيم، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عبد الله بن مسعود[7] أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إنى أعهد إليك فى هذه الدنيا[8] أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، فإنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لى عندك عهدا تُوَفِّينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله، عز وجل، لملائكته يوم القيامة: إن عبدى قد عهد إلى عهدا فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة».

قال سهيل: فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عونا أخبر بكذا وكذا؟ فقال: ما فى أهلنا جارية إلا وهى تقول هذا فى خدرها. انفرد به الإمام أحمد[9].

وقال[10] الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى حُيَىّ[11] بن عبد الله؛ أن

---

(١) فى أ: «دينا لهم».
(٢) فى ت: «روى».
(٣) فى ت: «عن أبى سلمة».
(٤) زيادة من ت.
(٥) صحيح مسلم برقم (٧٧٠).
(٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه».
(٨) فى أ: «فى الحياة الدنيا».
(٩) المسند (١/ ٤١٢) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٧٤): «رجاله رجال الصحيح».
(١٠) فى ت: «وروى».
(١١) فى ت: «يحيى».

أبا عبد الرحمن حدثه قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما، أو أجره إلى[١] مسلم».

قال أبو عبد الرحمن: كان رسول الله ﷺ يعلمه[٢] عبد الله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام. تفرد به أحمد أيضا[٣].

وقال[٤] [الإمام][٥] أحمد أيضا: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش[٦]، عن محمد بن زياد الألهانى، عن أبى راشد الحُبْرَانى قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يَدَى صحيفة فقال: هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق[٧] قال: يا رسول الله، علمنى، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسى، وشر الشيطان وشركه، أو[٨] أقترف على نفسى سوءا، أو أجره إلى مسلم».

ورواه الترمذى، عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن عياش[٩]، به[١٠]، وقال: حسن غريب من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا شيبان، عن ليث، عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصديق: أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعى من الليل: «اللهم فاطر السموات والأرض» إلى آخره[١١].

وقوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ وهم المشركون، ﴿ **مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ** ﴾ أى: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿ **لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ** ﴾ أى: الذى أوجبه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ أى: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم، ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا** ﴾ أى: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿ **وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ أى: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا.

﴿ **فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ**

---

(١) فى أ: «على». (٢) فى ت، س: «يعلم».
(٣) المسند (٢/ ١٧١).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت: «عباس».
(٧) فى ت: «الصديق رضى الله عنه». (٨) فى ت، أ: «أن». (٩) فى أ: «عباس».
(١٠) المسند (٢/ ١٩٦) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٩).
(١١) المسند (١/ ١٤).

فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن[1] الإنسان أنه فى حال الضراء يَضْرَع إلى الله، عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا[2] خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: لما يعلم الله من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خوَّلنى هذا!

قال قتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾: على خير عندى.

قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، بل [إنما][3] أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهى فتنة أى: اختبار، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويَدّعون ما يَدّعون.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ﴾ أى: من المخاطبين[4] ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٦ ـ ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسعه على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لعبرا وحججا.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ

---

(١) فى ت: «عن حال». (٢) فى ت: «فإذا».
(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «المخلطين».

لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾.

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه [الآية](١) على غير توبة(٢)؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف؛ أن ابن جريج أخبرهم: قال يعلى: إن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس(٣) [رضى الله عنهما](٤)؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل [قوله](٥): ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾.

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث ابن جريج، عن يعلى بن مسلم المكى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به(٦).

والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

وقال(٧) الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبدالرحمن المرى(٨) يقول: سمعت(٩) ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ** ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبى(١٠) ﷺ، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات. تفرد به الإمام أحمد(١١).

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا سريج(١٢) بن النعمان، حدثنا روح بن قيس، عن أشعث بن جابر الحدانى، عن مكحول، عن(١٣) عمرو بن عَبَسة(١٤) قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، شيخ كبير يدعم على عصا له، فقال: يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات، فهل يغفر لى؟ فقال: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك». تفرد به أحمد(١٥).

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «التوبة».
(٣) فى ت: «روى البخارى بسنده عن ابن عباس». (٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من ت، س.
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١٠) وصحيح مسلم برقم (١٢٢) وسنن أبى داود برقم (٧٢٧٤) وسنن النسائى (٧/ ٨٦).
(٧) فى ت: «وروى». (٨) فى أ: «السرى».
(٩) فى ت: «سمعت عن». (١٠) فى ت: «رسول الله».
(١١) المسند (٥/ ٢٧٥).
(١٢) فى أ: «شريح». (١٣) فى ت: «وعن». (١٤) فى ت، أ: «عنبسة».
(١٥) المسند (٤/ ٣٨٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب(١)، عن أسماء بنت يزيد (٢) قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦]، وسمعته يقول: «﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ولا يبالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾».

ورواه أبو داود والترمذى، من حديث ثابت، به(٣).

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن(٤) عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى فى حق المنافقين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾[البروج: ١٠] .

قال الحسن البصرى: انظر(٥) إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!

والآيات فى هذا كثيرة جدا.

وفى الصحيحين عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذى(٦) قتل تسعا(٧) وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عابدا من عُبَّاد بنى إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل(٨) به مائة. ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأتاه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد(٩) (١٠).

هذا معنى الحديث، وقد كتبناه فى موضع آخر بلفظه.

---

(١) فى ت: «وروى أيضا».

(٢) فى أ: «يزيد رضى الله عنها».

(٣) المسند (٦/ ٤٥٤) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٧)

(٤) فى ت: «ولا يقنط».

(٥) فى ت: «انظروا».

(٦) فى ت: «أن رجلا». (٧) فى أ: «تسعة».

(٨) فى ت: «فأكمل». (٩) فى أ: «تبتعد».

(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٧٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٧٦٦).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما[١]، [فى][٢] قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرا[٣] ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس [رضى الله عنهما][٤]: من آيس عباد الله[٥] من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبرانى من طريق الشعبى، عن شُتَير بن شكَل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية فى كتاب الله: ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية فى القرآن فرجا فى سورة الغرف: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية فى كتاب الله تصريفا[٦]: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فقال له مسروق: صدقت.

وقال الأعمش، عن أبى سعيد، عن أبى الكنود قال: مر عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تُقَنِّط[٧] الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

ذكر أحاديث فيها نفى القنوط:

قال[٨] الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله[٩]، حدثنى أخشن السدوسى قال: دخلت على أنس بن مالك[١٠] فقال[١١]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذى نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا[١٢] لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به [الإمام][١٣] أحمد[١٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى[١٥]، حدثنى ليث، حدثنى محمد بن قيس ـ قاص عمر بن عبد العزيز ـ عن أبى صِرْمة، عن أبى أيوب الأنصارى، رضى الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله

(١) فى س: «عنه». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «العزير».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى أ: «العباد». (٦) فى ت، س: «تفويضا».
(٧) فى س: «يقنط». (٨) فى ت: «روى». (٩) فى أ: « عبيد الله السدوسى».
(١٠) فى ت: «عن ابن مالك»، وفى أ: «أنس بن مالك رضى الله عنه». (١١) فى ت: «قال».
(١٢) فى ت: «تخطئون». (١٣) زيادة من أ.
(١٤) المسند (٣/٢٣٨).
(١٥) فى أ: «إسحاق بن أبى عيسى».

قوما يذنبون فيغفر لهم».

هكذا[١] رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، به[٢]. ورواه مسلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظى، عن أبى صرمة ـ وهو الأنصارى صحابى ـ عن أبى أيوب، به[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحرانى، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النُّكرى قال: سمعت أبى يحدث عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب[٥] الندامة»، وقال رسول الله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون، فيغفر لهم» تفرد به أحمد[٦].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنى عبد الأعلى بن حماد النَّرسِى، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مسلمة الرازى، عن أبى عمرو البجلى، عن عبد الملك بن سفيان الثقفى، عن أبى جعفر محمد بن على، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه، على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المفتن التواب». لم يخرجوه من هذا الوجه[٧].

وقال[٨] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت وحميد، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: إن إبليس ـ عليه لعائن الله ـ قال: يارب، إنك أخرجتنى من الجنة من أجل آدم، وإنى لا أستطيعه إلا بسلطانك. قال: فأنت مسلط. قال: يارب، زدنى. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: يارب، زدنى. قال: أجعل صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرى الدم. قال: يارب، زدنى. قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم فى الأموال والأولاد، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. فقال آدم [عليه السلام][٩]: يارب، قد سلطته على، وإنى لا أمتنع [منه][١٠] إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يارب، زدنى. قال: الحسنة عشر أو أزيد، والسيئة واحدة أو أمحوها. قال: يارب، زدني. قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد. قال: يارب، زدني. قال: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**.

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن عبد الله بن عمير، عن عمر، رضى الله عنه، فى حديثه قال: وكنا نقول ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ.**

---

(١) فى س: «كذا».

(٢) المسند (٥/ ٤١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٤٨) وسنن الترمذى برقم (٣٥٣٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٨).

(٤) فى أ: «ابن عباس رضى الله عنهما». (٥) فى أ: «الذنوب».

(٦) المسند (١/ ٢٨٩).

(٧) زوائد عبد الله على المسند (١/ ٨٠).

(٨) فى ت: «وروى». (٩) زيادة من ت، س، أ. (١٠) زيادة من ت، س، أ.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾. قال عمر، رضى الله عنه: فكتبتها بيدى فى صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال: فقال هشام: لما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طُوًى أصَعِّد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها. قال: فألقى الله فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول فى أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

ثم استحث [سبحانه][(١)] وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: **﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾** أى: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، **﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾** أى: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، **﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾**، وهو القرآن العظيم، **﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾** أى: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال: **﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾** أى: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل.

وقوله: **﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾** أى: إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: تود أن لو [(٢)] أعيدت إلى الدار فتحسن[(٣)] العمل.

قال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه[(٤)]، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه[(٥)]. وقال: **﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾**[فاطر: ١٤]، **﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** فأخبر الله تعالى: أن لو رُدوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: **﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** [الأنعام:٢٨].

وقد قال[(٦)] الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هدانى؟! فتكون عليه حسرة». قال: «وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هدانى!» قال: «فيكون له الشكر».

ورواه النسائى من حديث أبى بكر بن عياش، به[(٧)].

---

(١) زيادة من ت، وفى أ: «الله».
(٢) فى ت: «أن لو أن».
(٣) فى أ: «لتحسن».
(٤) فى أ: «أخبرنا الله تعالى».
(٥) فى ت، س: «وعلمهم قبل أن يعلموه».
(٦) فى ت: «روى».
(٧) المسند (٢/ ٥١٢).

ولما تمنى أهل الجرائم العَودَ إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال [الله سبحانه وتعالى][(١)]: ﴿ بَلَى[(٢)] قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه [(٣)] آياتى فى الدار الدنيا، وقامت حججى عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾.

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى: فى دعواهم له شريكا وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أى: بكذبهم وافترائهم.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: أليست جهنم كافية لها[(٤)] سجنا وموئلا، لهم فيها [دار][(٥)] الخزى والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا عيسى بن أبى عيسى الخياط، عن عمرو بن شعيب[(٦)]، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس، من نار الأنيار، ويسقون عصارة أهل النار، من طينة الخَبَال»[(٧)].

وقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أى: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى: ولا يحزنهم[(٨)] الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فَزَع، مزحزحون عن كل شر، مُؤَمَّلون كل خير.

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾.

يخبر تعالى أنه خالق[(٩)] الأشياء كلها، وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته.

---

(١) زيادة من ت، س، أ. (٢) فى ت: «قل» وهو خطأ. (٣) فى أ: «منه جاءتك».
(٤) فى ت، س: «لهم». (٥) زيادة من ت، س.
(٦) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بإسناده عن عمرو بن شعيب».
(٧) ورواه أحمد فى مسنده (٢/١٧٨) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٢) من طريق محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب بنحوه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».
(٨) فى ت: «أى لا يجزيهم». (٩) فى ت: «خلق».

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ، قال مجاهد: المقاليد هى: المفاتيح بالفارسية. وكذا قال قتادة، وابن زيد، وسفيان بن عيينة.

وقال السدى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: خزائن السموات والأرض.

والمعنى على كلا القولين: أن أزمَّة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: حججه وبراهينه، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً غريبا جداً ـ وفى صحته نظر ـ ولكن[(١)] نذكره كما ذكره، فإنه قال:

حدثنا يزيد[(٢)] بن سنان البصرى بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مَخْلد بن هذيل العبدى، عن عبد الرحمن المدنى، عن عبد الله بن عمر، عن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فقال: «ما سألنى عنها أحد قبلك يا عثمان»، قال: «تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير، من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرار أعطى خصالا ستا: أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية: فيعطى قنطارا من الأجر، وأما الثالثة: فترفع[(٣)] له درجة فى الجنة، وأما الرابعة: فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره[(٤)] اثنا عشر ملكا، وأما السادسة: فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء».

ورواه أبو يعلى الموصلى من حديث يحيى بن حماد، به مثله[(٥)]. وهو غريب، وفيه نكارة شديدة، والله أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾: ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم وغيره، عن ابن عباس [رضى الله عنهما أنه قال][(٦)]: إن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: أخلص العبادة لله وحده، لا شريك له، أنت

---

(١) فى أ: «ولكن نحن». (٢) فى أ: «زيد».

(٣) فى ت: «فيرفع». (٤) فى س: «فتحضره».

(٥) ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم (٧٣) من طريق أبى عن شجاع بن مخلد عن يحيى بن حماد به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١١٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير، وفيه الأغلب بن تميم، وهو ضعيف».

(٦) زيادة من ت، س.

ومن معك، أنت ومن اتبعك وصدقك.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾.

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذى لا أعظم منه، القادر على كل شىء، المالك لكل شىء، وكل شىء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت فى قريش. وقال السدى: ما عظموه حق عظمته.

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما](١): ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله [تعالى](٢) عليهم، فمن آمن أن الله على كل شىء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت(٣) أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

قال البخارى: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود(٤) قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد: إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء(٥)، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية(٦).

و[قد](٧) رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع من(٨) صحيحه، والإمام أحمد، ومسلم، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم عن عبيدة، عن [عبد الله](٩) ابن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه(١٠).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، أبلغك أن الله [تعالى](١١) يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على

(١، ٢) زيادة من أ.
(٣) فى ت: «ورد».
(٤) فى ت، أ: «مسعود رضى الله عنه».
(٥) فى ت، أ: «والماء على إصبع».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨١١).
(٧) زيادة من أ.
(٨) فى أ: «فى».
(٩) زيادة من ت.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١) والمسند (١/ ٤٢٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٥١).
(١١) زيادة من أ.

إصبع، والثرى على إصبع؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى آخر الآية.

وهكذا رواه البخارى، ومسلم، والنسائى ـ من طرق ـ عن الأعمش[1]، به[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة، عن عطاء، عن أبى الضحى، عن ابن عباس[3] قال: مر يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله السماء على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق[4] على ذه ـ كل ذلك يشير بإصبعه[5] ـ قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية.

وكذا رواه الترمذى فى التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن محمد بن الصَّلْت أبى جعفر، عن أبى كدينة يحيى بن المهلب، عن عطاء بن السائب، عن أبى الضحى مسلم بن صبيح، به[6]، وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخارى: حدثنا سعيد بن غفير، حدثنا الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن: أن أبا هريرة[7]، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض».

تفرد به من هذا الوجه[8]، ورواه مسلم من وجه آخر[9].

وقال[10] البخارى ـ فى موضع آخر ـ: حدثنا مُقَدَّم بن محمد، حدثنا عمى القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر[11]، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك».

تفرد به أيضا من هذا الوجه[12]، ورواه مسلم من وجه آخر[13]. وقد رواه[14] الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول، فقال:

حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر[15] أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا

(١) فى ت: «من طريق الأعمش».
(٢) المسند (١/ ٣٧٨) وصحيح البخارى برقم (٧٤٥١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٥٢).
(٣) فى ت: «عن ابن عباس رضى الله عنهما». (٤) فى أ: «الخلائق». (٥) فى ت: «بأصابعه».
(٦) المسند (١/ ٣٢٤) وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٠).
(٧) فى ت: «وروى البخارى بإسناده أن أبا هريرة».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨١٢).
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٧) من طريق الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة به.
(١٠) فى ت: «وروى». (١١) فى أ: «عن ابن عمر رضى الله عنهما».
(١٢) صحيح البخارى برقم (٧٤١٢).
(١٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من طريق سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر به.
(١٤) فى ت: «وروى». (١٥) فى أ: «عن ابن عمر رضى الله عنهما».

الملك، أنا العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّن به.

وقد رواه مسلم، والنسائى، وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبى حازم ـ زاد مسلم: ويعقوب بن عبد الرحمن، كلاهما عن أبى حازم، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن[(١)] عمر، به، نحوه[(٢)].

ولفظ مسلم ـ عن عبيد الله بن مقسم[(٣)] فى هذا الحديث ـ: أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكى النبى ﷺ، قال: يأخذ الله سمواته وأرضيه بيده ويقول: أنا الملك، ويقبض أصابعه ويبسطها: أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شىء منه، حتى إنى لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟

وقال البزار: حدثنا سليمان بن سيف[(٤)]، حدثنا أبو على الحنفى، حدثنا عباد المِنْقَرِى، حدثنى محمد بن المنكدر قال: حدثنا عبد الله بن عمر[رضى الله عنهما][(٥)]، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حتى بلغ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقال المنبر هكذا، فجاء وذهب ثلاث مرات[(٦)].

ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث عبيد بن عمير، عن عبد الله بن عمرو، وقال: صحيح[(٧)].

وقال الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العُتْبى، حدثنا حيان بن نافع بن صخر بن جويرية، حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن معمر بن الحسن، عن بكر بن خُنَيْس، عن أبى شيبة، عن عبد الملك بن عمير، عن جرير[(٨)] قال: قال رسول الله ﷺ لنفر من أصحابه: «إنى قارئ عليكم آيات من آخر سورة الزمر، فمن بكى منكم وجبت له الجنة»؟ فقرأها من عند قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، إلى آخر السورة، فمنا من بكى، ومنا من لم يبك، فقال الذين لم يبكوا: يا رسول الله، لقد جهدنا أن نبكى، فلم نبك؟ فقال: «إنى سأقرؤها عليكم، فمن لم يبك فليتباك». هذا حديث غريب جدا[(٩)].

وأغرب منه ما رواه فى المعجم الكبير أيضا: حدثنا هاشم بن مُرْثَد[(١٠)]، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنى أبى، حدثنى ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبى مالك

---

(١) فى أ: «أبى».

(٢) المسند (٢/ ٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٦٨٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٧٥).

(٣) فى ت: «عمر». (٤) فى أ: «يوسف». (٥) زيادة من أ.

(٦) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٢٨): حدثنا أبو بكر البرذعى عن سليمان بن سيف به، ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/ ٣٤٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ٣٥٢) من طريق عبادة بن ميسرة به، وفى إسناده عباد بن ميسرة المنقرى، وهو ضعيف، وعند ابن عدى: «فتحرك المنبر مرتين».

(٧) لم أجده فى المطبوع من مسند عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.

(٨) فى ت: «وروى الطبرانى فى المعجم الكبير بإسناده عن جرير».

(٩) المعجم الكبير (٢/ ٣٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٠١): «فيه بكر بن خنيس وهو متروك».

(١٠) فى هـ، ت، أ: «زيد» والتصويب من المعجم.

الأشعرى [(١)] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ثلاث خلال غَيَّبْتُهُنَّ عن عبادى، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبدا: لو كشفت غطائى فرآنى حتى نستيقن ويعلم كيف أفعل بخلقى إذا أتيتهم، وقبضت السموات بيدى، ثم قبضت الأرض[(٢)] والأرضين، ثم قلت: أنا الملك، من ذا الذى له الملك دونى؟ ثم أريتهم[(٣)] الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير، فيستيقنوها. وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها، ولكن عمدا غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون، وقد بينته لهم»[(٤)].

وهذا إسناد متقارب، وهى نسخة تروى بها أحاديث جمة، والله أعلم.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾**، هذه النفخة هى الثانية، وهى نفخة الصعق، وهى التى يموت[(٥)] بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما هو[(٦)] مصرح[(٧)] به مفسرا فى حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا، وهو الباقى آخرا بالديمومة[(٨)] والبقاء، ويقول: **﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾** [غافر:١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: **﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾** أى: الذى هو واحد وقد قهر كل شىء، وحكم بالفناء على كل شىء. ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث، قال تعالى: **﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾** أى: أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾** [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: **﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾** [الروم: ٢٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم قال: سمعت

---

(١) فى أ: «الأشعرى رضى الله عنه».

(٢) فى هـ: «قبضت الأرضين»، وفى س، ت، أ: «قبضت الأرض ثم الأرضين» والمثبت من المعجم.

(٣) فى س: «أريهم».

(٤) المعجم الكبير (٣/ ٢٩٤)، وفى إسناده: محمد بن إسماعيل بن عياش، ضعيف ولم يسمع من أبيه.

(٥) فى س: «تموت». (٦) فى أ: «جاء».

(٧) فى ت، س: «مصرحا». (٨) فى أ: «بالديمومية».

يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو [(١)]: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئا، إنما قلت: سترون بعد قليل أمرا عظيما. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فى أمتى، فيمكث فيهم أربعين ـ لا أدرى أربعين يوما أو أربعين عاما أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة ـ فيبعث الله [(٢)] عيسى ابن مريم [(٣)]، كأنه عروة بن مسعود الثقفى، فيظهر فيهلكه الله[(٤)]. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن[(٥)] أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس فى خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا». قال: «فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله ـ أو: ينزل الله مطرا كأنه الطل ـ أو الظل، شك نعمان ـ فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يأيها الناس، هلموا إلى ربكم: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ**﴾ [الصافات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: أخرجوا بعث النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[(٦)]. فيومئذ تبعث الولدان شيبا، ويومئذ يكشف عن ساق».

انفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه[(٧)].

وقال البخارى: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش قال: سمعت أبا صالح قال: سمعت أبا هريرة [رضى الله عنه][(٨)] عن النبى ﷺ قال: «بين النفختين أربعون»[(٩)]. قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، ويبلى كل شىء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه، فيه يركب الخلق[(١٠)].

وقال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر ابن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][(١١)]، عن النبى ﷺ قال: «سألت جبريل، عليه السلام، عن هذه الآية: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ**﴾: من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم الشهداء، مقلدون أسيافهم حول عرشه، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت نمارها ألين من الحرير، مَدُّ[(١٢)] خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون فى الجنة يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا، عز وجل، لننظر كيف يقضى بين خلقه، يضحك إليهم إلهى، وإذا ضحك إلى عبد فى موطن فلا حساب عليه».

---

(١) فى أ: «عمرو رضى الله عنهما». (٢) فى أ: «الله تعالى». (٣) فى أ: «ابن مريم عليه السلام».
(٤) فى أ: «فيهلكه الله على يده».
(٥) فى ت، س، أ: «حتى أن لو كان». (٦) فى س: «وتسعون».
(٧) المسند (٢/ ١٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٩٤٠). (٨) زيادة من أ. (٩) فى ت: «أربعين».
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٨١٤). (١١) زيادة من ت، أ. (١٢) فى أ: «قدر».

رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش، فإنه غير معروف، والله أعلم[١].

وقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات[٢] الله إليهم، ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ . قال الله [تعالى][٣]: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال [الله][٤] تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير أو شر، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار؟ وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي: يدفعون إليها دفعا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. وهم في تلك الحال صُمٌّ وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية ـ الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ـ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين[٥] على صحة ما دعوكم إليه، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

(١) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٥٣) من طريق أبى أسامة عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم بنحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٢) فى س، أ: «رسالة».

(٣) زيادة من ت، س، أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى س، أ: «والبرهان».

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا[١] من الشّقْوة التى كنا نستحقها حيث عَدَلْنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى الآية الأخرى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[الملك: ٨ ـ ١٠] أى: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١] أى: بعدا لهم وخسارا.

وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد[٢] عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول[٣] إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم فى الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة ﴿ زُمَرًا ﴾ أى: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أى: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا فى العرصات[٤] عند استشفاعهم إلى الله، عز وجل، أن يأتى لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها.

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع فى الجنة» وفى لفظ لمسلم: «وأنا أول من يقرع باب الجنة»[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضى الله

(١) فى س، أ: «لنا».
(٢) فى أ: «شهد».
(٣) فى أ: «هذا الذى قاله».
(٤) فى ت، أ: «الصرخات».
(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٦).

عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أُمِرْتُ ألا أفتح لأحد قبلك».

ورواه مسلم عن عمرو[١] الناقد وزهير بن حرب، كلاهما عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن سليمان ـ وهو ابن المغيرة القيسى ـ عن ثابت، عن أنس، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر عن همام بن منبه، عن أبى هريرة[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج[٤] الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة[٥]، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد[٦]، يسبحون الله بكرة وعشيا».

رواه البخارى عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك. ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبدالرزاق، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه[٧]. وكذا رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٨]، عن رسول الله ﷺ[٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمة، حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][١٠] قال: قال رسولِ الله ﷺ: «أول زُمْرَة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشدِّ كوكب دُرِّى فى السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتْفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا فى السماء»[١١].

وأخرجاه أيضا من حديث جرير[١٢].

وقال الزهرى، عن سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتى زُمْرَة، هم سبعون ألفا، تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عُكَّاشة بن محْصَن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم: فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عُكَّاشة».

أخرجاه[١٣][١٤]. وقد روى هذا الحديث ـ فى السبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ـ البخارى ومسلم، عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين، وابن مسعود، ورفاعة بن عرابة

(١) فى أ: «عمرو بن محمد الناقد».
(٢) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٧).
(٣) فى أ: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٤) فى ت: «يدخلون».
(٥) فى س، أ: «ومجامرهم من الألوة».
(٦) فى أ: «قلب رجل واحد».
(٧) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح البخارى برقم (٣٢٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(٨) زيادة من أ.
(٩) أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٤٦).
(١٠) زيادة من أ.
(١١) مسند أبى يعلى (١٠/ ٤٧٠).
(١٢) صحيح البخارى برقم (٣٣٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤).
(١٣) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(١٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥).

الجهنى، وأم قيس بنت محصن.

ولهما عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا ـ أو: سبعمائة ألف ـ آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»[١].

وقال[٢] أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا أمامة[٣] الباهلى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وعدني ربى، عز وجل، أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا، ولا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حَثَيَات من حثيات ربى عز وجل»[٤].

وكذا رواه الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن سليم بن عامر، [و][٥] أبى اليمان عامر ابن عبد الله بن لُحَيّ[٦] عن أبى أمامة [رضى الله عنه][٧][٨].

ورواه الطبرانىَ، عن عتبة بن عَبْدٍ السُّلمى: «ثم يشفع كل ألف فى سبعين ألفا»[٩].

وروى مثله عن ثوبان، وأبى سعيد الأنمارى. وله شواهد من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب[١٠] والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهنَ كل مذهب فى الرجاء والأمل.

ومن زعم أن «الواو» فى قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النّجْعَة، وأغرق فى النَزْع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن[١١]، عن أبى هريرة[١٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله، دعى من أبواب الجنة، وللجنة أبواب[١٣]، فمن كان من أهل الصلاة دُعِى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢١٩).
(٢) فى ت: «وروى». (٣) فى ت: «عن أبى أمامة».
(٤) المصنف (١١/٤٧١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٣٧) من طريق إسماعيل بن عياش به، وقال: «هذا حديث حسن غريب».
(٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «يحيى». (٧) زيادة من أ.
(٨) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/١٨٧)
(٩) المعجم الكبير (١٧/١٢٦، ١٢٧).
(١٠) فى أ: «بالذم». (١١) فى ت: «فروى البخارى ومسلم». (١٢) فى أ: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(١٣) فى أ: «أبواب ثمانية».

على أحد من ضرورة دُعى، من أيها[١] دعى، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

ورواه البخارى ومسلم، من حديث الزهرى، بنحوه[٢].

وفيهما من حديث أبى حازم سلمة بن دينار[٣]، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»[٤].

وفى صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ ـ أو: فيسبغ الوضوء ـ ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»[٥].

وقال[٦] الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حُسَين، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن معاذ، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله»[٧].

ذكر سعة أبواب الجنة ـ نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها ـ:

فى الصحيحين من حديث أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٨] فى حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله[٩]: يا محمد، أدخل من لا حساب عليه[١٠] من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر. والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ـ ما بين عضادتى الباب ـ لكما بين مكة وهجر ـ أو: هجر ومكة». وفى رواية: «مكة وبصرى»[١١].

وفى صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»[١٢].

وفى المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، مثله[١٣].

وقال عبد بن حميد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن ما بين مصراعين فى الجنة مسيرة أربعين سنة»[١٤].

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم، كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين فى بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة» وفى رواية: «مؤمنة»[١٥].

---

(١) فى أ: «أيتهما».
(٢) المسند (٢/ ٢٦٨) وصحيح البخارى برقم (٣٦٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٧).
(٣) فى ت: «وفى الصحيحين».
(٤) صحيح البخارى برقم (١٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (١١٥٢).
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٣٤). (٦) فى ت: «وروى».
(٧) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش به، وشهر بن حوشب فيه كلام ولم يسمع من معاذ.
(٨) زيادة من أ. (٩) فى أ: «قال الله عز وجل». (١٠) فى أ: «لا حساب عليه ولا ملامة».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧١٢) وصحيح مسلم برقم (١٩٤).
(١٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٧).
(١٣) المسند (٥/ ٣).
(١٤) المنتخب برقم (٩٢٤) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف. (١٥) رواه النسائى فى السنن (٥/ ٢٣٤) من حديث أبى هريرة.

وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي: ماكثين فيها أبدا، لا يبغون عنها حولا.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، وابن زيد[(١)]: أي أرض الجنة.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: أين[(٢)] شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا.

وفي الصحيحين من حديث الزهري، عن أنس في قصة المعراج قال النبي ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[(٣)].

وقال عبد بن حميد: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد [رضي الله عنه][(٤)] أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: دَرْمَكة بيضاءُ مِسْك خالص: فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

وكذا رواه مسلم، من حديث أبي مسلمة[(٥)]، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، به[(٦)].

ورواه مسلم [أيضا][(٧)] عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي أسامة، عن الجُرَيْري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد؛ أن ابن صائد[(٨)] سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «دَرْمَكة بيضاء، مسك خالص»[(٩)].

وقول ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضمرة[(١٠)]، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة

---

(١) في ت: «وأبو صالح وغيرهما». (٢) في أ: «حيث».
(٣) انظر: الحديث بطوله عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
(٤) زيادة من أ. (٥) في س: «سلمة».
(٦) المنتخب برقم (٨٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).
(٧) زيادة من أ. (٨) في س: «صياد».
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٩٢٨).
(١٠) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده عن علي»، وفي أ: «حمزة».

النعيم، فلم تُغَير أبشارهم بعدها أبدا، ولم تُشْعَث أشعارهم أبدا بعدها، كأنما دهنوا بالدهان، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها، فشربوا منها، فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب[١] الجنة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. ويلقى كل غلمان صاحبهم يُطِيفُون به، فعل[٢] الولدان بالحميم جاء من الغيبة: أَبْشِر، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا. وقال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان ـ باسمه في الدنيا ـ فيقلن: أنت رأيتَه؟ فيقول: نعم. فيستخففهن الفرح حتى تخرج إلى أَسْكُفَّة[٣] الباب. قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابي مبثوبة. قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه[٤]، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر [وأبيض][٥]، ومن كل لون. ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله قدره له، لألمَّ أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق. ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكيء على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] الآية[٦].

ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النَّهْدِي، حدثنا مسلمة[٧] بن جعفر البَجَلِي قال: سمعت أبا معاذ البصري يقول: إن عليا، رضي الله عنه، كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ، فقال النبي[٨] ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يُستَقبلون ـ أو: يُؤْتون ـ بنوق لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما فيُغْسَل ما في بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى، فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا، وتجري عليهم نضرة النعيم، فينتهون ـ أو: فيأتون ـ باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة[٩]، فيسمع [١٠]لها طنين يا علي، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قَيِّمها فيفتح له، فإذا رآه خَرّ له ـ قال مسلمة: أراه قال: ساجداً [١١]ـ فيقول: ارفع رأسك، فإنما أنا قَيِمك، وُكِّلْتُ بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلة، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت حبي، وأنا حبك، وأنا الخالدة التي لا أموت، وأنا الناعمة التي لا أبأس، وأنا الراضية التي لا أسخط، وأنا المقيمة التي لا أظعن». فيدخل بيتاً من أسّه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر، ليس فيها [١٢]طريقة تشاكل صاحبتها، في البيت سبعون سريرا، على كل سرير سبعون حَشْيَة، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مُخّ ساقها من باطن الحُلَل، يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار

---

(١) في أ: «باب». (٢) في أ: «مثل». (٣) في س: «أسفكة».

(٤) في أ: «بنائه». (٥) زيادة من ت، س، أ.

(٦) ورواه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٣٥) وابن المبارك في الزهد برقم (١٤٥٠) والضياء المقدسي في المختارة برقم (٥٤١) من طرق عن أبي إسحاق بنحوه.

(٧) في ت، أ: «سلمة». (٨) في ت: «رسول الله». (٩) في س: «الصفحة».

(١٠) في أ: «فلو سمع». (١١) في ت: «خر له ساجد» وهو خطأ، والصواب: «ساجدا».

(١٢) في ت، س: «منها».

من تحتهم تَطَّرد، أنهار من ماء غير آسن ـ قال: صاف، لا كدر فيه ـ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ـ قال: لم يخرج من ضروع الماشية ـ وأنهار من خمر لذة للشاربين ـ قال: لم تعصرها الرجال بأقدامهم ـ وأنهار من عسل مصفى ـ قال: لم يخرج من بطون النحل. يستجني الثمار، فإن شاء قائما، وإن شاء قاعدا، وإن شاء متكئا ـ ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤] ـ فيشتهى الطعام فيأتيه طير أبيض ـ قال: وربما قال: أخضر. قال: ـ فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها، أى الألوان شاء، ثم يطير فيذهب[١]، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم، تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. ولو أن شعرة من شعر[٢] الحوراء وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواداً فى نور».

هذا حديث غريب، وكأنه مرسل، والله أعلم.

﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾.

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار، وأنه نَزّل كُلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ـ أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه[٣] ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أى: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: ونطق الكون أجمعه[٤] ـ ناطقه وبهيمه ـ لله رب العالمين، بالحمد فى حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شَهِدَت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد فى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتم بالحمد فى قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

آخر تفسير سورة الزمر ولله الحمد[٥] [أولاً وآخراً ظاهراً وباطنًا][٦]

---

(١) فى س: «ثم تطير فتذهب». (٢) فى ت: «شعور». (٣) فى أ: «ويحمدونه».
(٤) فى ت، س: «جميعه». (٥) فى أ: «والله أعلم». (٦) زيادة من س.

/ سورة الزمر [١ظ]

سورة الزمر مكيّة إلّا قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾ الآية.[١]
وهي خمس وسبعون، أو ثنتان وسبعون[٢] آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ[٣]

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خبر لِمبتدأ محذوف هو اسم إشارةٍ أُشير به إلى السورة تنزيلًا لها منزلةَ الحاضر المُشارِ إليه لكونها على شرف الذِّكرِ والحضورِ كما مرّ مرارًا. وقد قيل: هو ضمير عائد إلى "الذِّكر" في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.[٤]

وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ صِلة لـ"التنزيل"، أو خبر ثانٍ، أو حال مِن "التنزيل"، عامِلُها معنى الإشارة، أو مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الذي هو مفعولٌ معنًى، عامِلُها المضاف. وقيل: هو خبرٌ لـ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. والوجه الأوّل أوفى بمقتضى المقام الّذي هو بيانُ أنّ السورة أو القرآنَ تنزيل الكتاب مِن الله تعالى، لا بيانُ أنّ تنزيل الكتاب منه تعالى لا مِن غيره كما يُفيده الوجه الأخير. وقُرِئ: "تَنْزِيلَ الْكِتَابِ" بالنصب[٥] على إضمار فعلٍ نحو: اقرأ، أو الزَمْ.

والتعرّض لوصفَي العزّة والحكمة للإيذان بظهور أثَرَيْهما في الكتاب بجَريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه مِن غير مُدافع ولا مُمانع، وبِابتِناءِ جميع ما فيه على أساس[٦] الحِكَم الباهرة.

---

[١] س ي - إلّا قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾ الآية. | تمامها: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٣].

[٢] س ي - أو ثنتان وسبعون.

[٣] س - الرحيم.

[٤] ص، ٣٨/٨٧.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

[٦] م - أساس. [وثبتت في النصّ المكرّر. انظر التعليق التالي].

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾

[٢و] وقوله تعالى:[١] / ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ شروع في بيان شأن المُنزَل إليه وما يجب عليه إثرَ بيان شأن المُنزَلِ وكونِه مِن عند الله تعالى. والمراد بـ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هو القرآن، وإظهاره -على تقدير كونِه هو المراد بالأوّل أيضًا- لتعظيمه ومزيدِ الاعتناءِ بشأنه. والباء إمّا متعلِّقة بالإنزال، أي: بسبب الحقِّ وإثباته وإظهارِه، أو بداعية الحقِّ واقتضائه للإنزال، وإمّا بمحذوف هو حال مِن نون العظمة، أو مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: أنزلناه إليك مُحقِّين في ذلك، أو أنزلناه مُلتبِسًا بالحقّ والصواب، أي: كلُّ ما فيه حقٌّ لا ريبَ فيه موجِبٌ للعمل به حَتمًا.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه السلام بالحقّ، أي: فاعْبُده تعالى مُمحِّضًا له الدِّينَ مِن شوائب الشِّرك والرِّياء حسبما بُيِّن في تضاعيف ما أُنزِل إليك.

وقُرئ برفع "الدِّينُ"[٢] على أنّه مبتدأ خبرُه الظرف المقدَّمُ عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد مِن اللام. والجملة استئناف وقَع تعليلًا للأمر بإخلاص العبادة.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن الأمر بإخلاص الدِّين له تعالى، ووجوبِ الامتثالِ به. وعلى القراءة الأخيرة مؤكِّدٌ لاختصاصِ الدِّين به تعالى، أي: ألا هو الذي يجب أنْ يُخصَّ بإخلاص الطاعة له؛[٣] لأنّه المُتفرِّد بصفات الألوهيّة التي مِن جُملتها الاطِّلاعُ على السرائر والضمائر.

---

[١] م + مِن الله تعالى، لا بيانُ أنّ تنزيل الكتاب منه تعالى لا مِن غيره كما يُفيده الوَجه الأخير. وقُرئ: "تَنْزِيلَ الْكِتَابِ" بالنصب على إضمار فعلٍ نحو: اقرأ، أو الزَمْ. والتعرُّض لوصفَي العزّةِ والحكمةِ للإيذان بظهور أثَرَيهما في الكتاب بجَريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه مِن غير مُدافع ولا مُمانع، وبِابتِناءِ جميع ما فيه على أساس الحِكَم الباهرة. وقوله تعالى. [كُتب فوقها بالمداد الأحمر: مكرّر].

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

[٣] س – له.

وقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾... إلخ[1] تحقيقٌ لحقِّيّة ما ذُكر مِن إخلاص الدِّين / الّذي هو عبارة عن التوحيد ببيان بُطلان الشِّرك الذي هو عبارة عن ترك إخلاصه. والموصول عبارة عن المشركين ومَحلُّه الرفعُ على الابتداء خبرُه ما سيأتي مِن الجملة المُصدَّرة بـ﴿إِنَّ﴾. والأولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام. [٢ظ]

وقوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ حال بتقدير القَول مِن واوِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، مبيّنةٌ لكيفيَّة إشراكِهم وعدمِ خُلوصِ دينهم. والاستثناء مفرَّغ مِن أعمِّ العِلل. و﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ مصدر مؤكِّد على غير لفظ الصدرِ، مُلاقٍ له في المعنى، أي: والّذين لم يُخلِصوا العبادةَ لله تعالى؛ بل شَابُوها بعبادة غيره قائلين: ما نعبدُهم لشيءٍ مِن الأشياء إلّا ليقرِّبونا إلى الله تعالى تقريبًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: وبين خُصَمائهم الذين هم المُخلِصون للدِّين. وقد حُذف لِدلالة الحال عليه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٥]، على أحد الوجهينِ، أي: بين أحدٍ منهم وبين غيره، وعليه قول النابِغة:[2]

فمَا كانَ بينَ الخيرِ لو جاءَ سالمًا ... أبو حَجَرٍ[3] إلّا لَيالٍ قلائلُ[4]

أي: بين الخيرِ وبَيني.

وقيل: ضمير ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ للفريقينِ جميعًا.

---

[1] س ي – الخ.

[2] هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري، أبو ليلى (ت. نحو ٥٠هـ/٦٧٠م)، شاعر مفلق، صحابي مِن المعمَّرين. اشتهر في الجاهليّة. وسمّي النابغة لأنّه أقام ثلاثين سنةً لا يقول الشعر ثمّ نبغ فقاله. وكان ممّن هجَر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام. ووفَد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأسلم. وأدرك صِفّين، فشهدها مع عليّ. ثمّ سكن الكوفة، فسيّره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها، فمات فيها، وقد كُفّ بصره، وجاوز المائة. وأخباره كثيرة. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ١/٢٨٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٢٠٨.

[3] كذا وقع ضبطها في "م" بفتح الحاء والجيم، وضبَطها العيني "أبو حُجُر" بالضمّ فيهما. انظر: **المقاصد النحويّة** للعيني، ٤/١٦٥٣. وهو النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث الغسّاني (ت. نحو ٤٣ق هـ/٥٨١م)، مِن ملوك الغسّانيّين في أطراف الشام. كان ممدوحًا في الجاهليّة. ملك بعد أبيه نحو سنة ٥٧٠م. **الأعلام** للزركلي، ٨/٣٧.

[4] للنابغة الذبياني في ديوانه، ص ١١٩. مِن قصيدة يرثي بها النعمان بن الحارث الغسّاني. وأبو حُجُر: كنية النعمان. انظر: **المقاصد النحويّة** للعيني، ٤/١٦٥٣.

﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن الدِّين الّذي اختلفوا فيه بالتوحيد والإشراك، وادَّعى كلّ فريقٍ صِحَّةَ ما انتحَله. وحُكمُه تعالى في ذلك إدخالُ الموحِّدين الجنّةَ، والمشركين النّارَ. فالضَّمير للفريقينِ، هذا هو الذي يَستدعيه مَساقُ النظم الكريم.

وأمّا تجويز أن يكون الموصول عبارةً عن المعبودين -على حذف العائد إليه وإضمارِ المشركين مِن غير ذِكرٍ تَعويلًا على دلالة المَساق عليهم- ويكونَ التقديرُ: والذين اتَّخذهم المشركون أولياءَ قائلين: ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله تعالى، إنّ الله يَحكم بينهم -أي: بين العَبَدة والمَعبودين- فيما هم فيه يختلفون، حيثُ يرجُو العَبَدةُ شفاعتَهم وهم يلعنونهم، فبَعد الإغضاءِ عمّا فيه مِن التعسُّفاتِ بمَعزِل مِن السَّداد. كيف لا، وليس فيما ذُكِر مِن طلب الشفاعة واللَّعن مادّةٌ يَختلف فيها الفريقان اختلافًا مُحوِجًا إلى الحُكمِ والفَصلِ؟ وإنّما ذاك ما بين فريقَي الموحِّدين والمشركين في الدّنيا مِن الاختلاف في الدِّين الباقي إلى يوم القيامة.

وقُرئ: "قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ"،[1] فهو بدل مِن الصِّلة، لا خبر للموصول، كما
[٣و] قيل؛[2] إذ ليس في / الإخبار بذلك مزيد مزيّة.

وقُرئ: "مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا"؛[3] حكايةً لِما خاطبوا به آلهتَهم. وقُرئ: "نُعْبُدُهُمْ"[4] إتْباعًا للباء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي: لا يُوفِّق للاهتداء إلى الحقّ الذي هو طريق النجاةِ عن المكروه والفوزِ بالمطلوب ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: راسخ في الكذِب مبالِغ في الكفر، كما يُعرِب عنه قراءةُ "كَذَّابٌ"[5] و"كَذُوبٌ"،[6] فإنّهما فاقدان للبصيرة

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٣.

٢ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤/١١١؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥/٣٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه. **معاني القرآن** للفرّاء، ٢/٤١٤؛ **معاني القرآن** للزجّاج، ٤/٣٤٤.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤/١١١؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥/٣٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٣.

غيرُ قابلَين للاهتداء لتغييرهما الفِطرةَ الأصليّة بالتمرُّن في الضَّلالة والتَّمادي في الغَيّ. والجملة تعليل لِما ذُكر مِن حُكمه تعالى.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ④﴾

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾... إلخ استئناف مَسوق لتحقيق الحقّ وإبطالِ القول بأنّ الملائكة بنات الله[١] وعيسى ابنُه -تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا- ببيان استحالة اتّخاذ الولد في حقّه تعالى على الإطلاق ليَندرج فيه استحالة ما قيل اندراجًا أوّليًّا، أي: لو أراد الله تعالى أنْ يتّخذ وَلَدًا ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ أي: لاتّخذَ ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي: مِن جملة ما يخلقه، أو مِن جنس ما يخلقه ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يتّخذَه؛ إذ لا موجودَ سواه إلّا وهو مخلوق له تعالى؛ لامتناعِ تعدُّد الواجب، ووجوب استناد جميع ما عَداه إليه.

ومِن البيّن أنّ اتّخاذ الولد مَنوط بالمماثلة بين المتّخِذ والمتّخَذ، وأنّ المخلوق لا يُماثل خالقَه حتّى يمكن اتّخاذُه ولدًا، فما فرضناه اتّخاذَ ولدٍ لم يكن اتّخاذَ ولدٍ؛ بل اصطفاءَ عَبدٍ. وإليه أُشير حيث وُضع الاصطفاء موضع الاتّخاذ الذي يقتضيه الشرطيّة تنبيهًا على استحالة مُقدَّمها لاستلزام فرضِ وقوعه -بل فرضِ إرادةِ وقوعِه- انتفاءَه، أي: لو أراد الله تعالى أنْ يتّخذ ولدًا لفَعَل شيئًا ليس هو مِن اتّخاذ الولد في شيء أصلًا؛ بل إنّما هو اصطفاء عَبدٍ، ولا ريب في أنّ ما يستلزم فرضُ وقوعه انتفاءَه فهو ممتنع قطعًا، فكأنّه قيل: لو أراد الله أن يتّخذ ولدًا لَامتنع ولم يصحّ، لكن لا على أنّ الامتناع مَنوط بتحقُّق الإرادة؛ بل على أنّه مُتحقِّق عند عدمها بطريق الأَولويّة، على مِنوال: «لو لم يخَفِ اللهَ لم يعصِه».[٢]

---

١ س + تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٧/٢ (النحل، ٤١/١٦)، مِن قول عمر: «نِعمَ الرجل صُهيب، لو لم يخَفِ الله لم يعصِه». قال السيوطي: لم نظفَر به في شيء مِن كتب الحديث. قال ابن حجر: إنّه ظفِر به لابن قتيبة، لكن بغير سنَد. الفوائد المجموعة للشوكاني، ص ٤٠٩، وقال السخاوي: «أراد أن صهيبًا إنّما يُطيع الله حبًّا، لا لمخافةِ عقابه». الأجوبة المرضيّة للسخاوي، ١٠٠/١.

[٣ظ] / وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تقرير لِما ذُكر مِن استحالة اتّخاذ الولد في حقّه تعالى، وتأكيد له ببيان تَنَزّهِه تعالى عنه. أي: تنزّه بالذّات عن ذلك تَنَزُّهَهُ الخاصَّ به، على أنّ السُّبْحان مصدر مِن "سبَحَ" إذا بَعُدَ. أو أُسبّحه تسبيحًا لائقًا به، على أنّه عَلَمٌ للتسبيح مَقولٌ على ألسنة العباد، أو سَبّحوهُ تسبيحًا حقيقًا بشأنه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ استئناف مبيّن لتنزّهه تعالى بحسب الصِّفات إثرَ بيان تَنزّهه تعالى عنه بحسب الذّات، فإنّ صفة الأُلوهيّة المستتبِعة لسائر صفات الكمال النافيةِ لسِماتِ النُّقصانِ، والوَحدة الذّاتيّة الموجبة لامتناعِ المُماثلة والمُشاركة بينه تعالى[١] وبين غيره على الإطلاق؛ ممّا يقضِي بتَنزّهه تعالى عمّا قالوا قضاءً مُتقَنًا، وكذا وصف القَهّاريّة؛ لِما أنّ اتّخاذ الولد شأنُ مَن يكون تحت ملكوت الغير عُرضةً للفَناء ليَقومَ ولَده مقامَه عند فَنائِه، ومَن هو مستحيلُ الفَناء قهّارٌ لكلِّ الكائنات كيفَ يُتصوَّر أن يتّخذ مِن الأشياء الفانية ما يقوم مقامَه؟!

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدّالّةِ على تفرّده تعالى بما ذُكر مِن الصفات الجليلة، أي: خلَقهما وما بينهما مِن الموجودات ملتبِسةً بالحقّ والصواب، مشتملة على الحِكَم والمصالح.

وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ بيان لكيفيّة تصرُّفه تعالى فيهما بعد بيان خلقهما، فإنّ حدوث اللّيل والنهار في الأرض مَنوطٌ بتَحريك السّماوات، أي: يغشّي كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ كأنّه يلفّه عليه لفَّ اللباسِ على اللّابس أو يُغيّبه به كما يُغيّبُ الملفوف باللفافة، أو يجعله كارًّا عليه كُرُورًا متتابعًا تتابُعَ أكوارِ العمامة. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد.

---

[١] م - تعالى.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ جعلهما منقادين لأمره تعالى. وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ / مُّسَمًّى﴾ بيان لكيفيّة تسخيرهما، أي: كلّ منهما يجري لمُنتهى دَورتِه أو مُنقطَعِ حركتِه، وقد مرَّ تفصيلُه غيرَ مرّة. [٩٤و]

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على كلّ شيء مِن الأشياء التي مِن جُملتها عقاب العُصاة. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ المبالِغ في المغفرة، ولذلك لا يُعاجل بالعقوبة وسلبِ ما في هذه الصنائع البديعة مِن آثار الرّحمة. وتصدير الجملة بحرف التنبيه لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ بيان لبعض آخر مِن أفعاله الدالّة على ما ذُكر، وتركُ عطفِه على ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للإيذان باستقلاله في الدّلالة ولتعلُّقه بالعالم السّفلي، والبدايةُ بخلق الإنسان لعَراقته في الدّلالة لِما فيه مِن تعاجيب آثار القدرة وأسرار الحكمة، وأصالتِه في المعرفة، فإنّ الإنسان بحال نفسه أعرف. والمراد بالنفس نفس آدم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ عطف على محذوف، هو صفة لـ﴿نَفْسٍ﴾، أي: مِن نفسٍ خلَقها ثمّ جعل منها زوجَها أو على معنَى ﴿وَٰحِدَةٍ﴾، أي: مِن نفس وَحَدَتْ ثمّ جعل منها زوجها فَشَفَعَهَا، أو على ﴿خَلَقَكُم﴾ لتفاوت ما بينهما في الدلالة، فإنّهما وإن كانتا آيتينِ دالّتينِ على ما ذُكر لكنّ الأُولى لاستمرارها صارت معتادة، وأمّا الثانية فحيث لم تكن معتادةً خارجةً عن قياس الأُولى -كما يشعر به التعبيرُ عنها بالجَعل دون الخلق- كانت أدخلَ في كونها آيةً وَأَجْلَبَ لِلتعجّب مِن السامع، فعطفت على الأُولى بـ﴿ثُمَّ﴾ دلالةً على مباينتها لها فضلًا ومزيّةً وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آيةً فهو مِن التراخي في الحال والمنزلة.

وقيل: أخرج ذريّة آدم مِن ظهره كالذرّ ثمّ خلق منه حوّاء، ففيهِ ثلاث آيات مترتّبة: خلقُ آدمَ عليه السلام بلا أب وأمّ، وخلقُ حوّاء مِن قُصَيْراه،[١] ثمّ تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ بيان لبعض آخر مِن أفعاله الدالّة على ما ذُكر، / أي: قضى، أو قسم لكم، فإنّ قضاياه وَقِسَمَهُ توصفُ بالنزول مِن السماء [٤ظ] حيث تُكتَبُ في اللّوح المحفوظ. أو أحدَث لكم بأسباب نازلة مِن السماء كالأمطار وأشعّة الكواكب ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكَرًا وَأنثى، هي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز. وقيل: خلَقَها في الجنّة ثمّ أنزلها.

وتقديم الظرفين على المفعول الصريحِ لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم والتشويقِ إلى ما أُخِّر فإنّ كون الإنزال لمنافعهم وكونه مِن الجهة العالية مِن الأمور المهمّة المشوّقة إلى ما أُنْزِل لا محالةَ.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ استئناف مَسوق لبيان كيفيّة خلقهم وأطواره المختلفةِ الدالّة على القدرة الباهرة. وصيغة المضارع للدلالة على التدرّج والتجدّد. وقوله تعالى: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ مصدر مؤكِّد، أي: يخلقكم فيها خلقًا كائنًا مِن بعد خلقٍ، أي: خلقًا مدرَّجًا؛ حيوانًا سَويًّا مِن بعد عظام مَكسوّة لحمًا مِن بعد عظام عارية مِن بعد مُضَغ مُخلَّقة مِن بعد مُضَغ غير مخلَّقة مِن بعد علقة مِن بعد نطفة. ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ متعلِّق بـ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾، وهي: ظلمة البطن، وظلمة الرَّحِم، وظُلمة المَشِيمَةِ. أو ظلمة الصُّلب، والبطن، والرَّحِم.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلته تعالى في العظمة والكبرياء. ومحلّه الرفع على الابتداء، أي: ذلكم العظيم الشأن الذي عُدّدت أفعاله ﴿ٱللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر آخَر، أي: مربّيكم فيما ذكر مِن الأطوار وفيما بعدها، وَمالكُكم المستحِقّ لتخصيص العبادةِ به.

---

[١] القُصَيرَى: أسفل الأضلاع. لسان العرب لابن منظور، «قصر».

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة في ذلك بوجه مِن الوجوه. والجملة خبر آخَر، وكذا قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما ذُكر مِن شئونه تعالى، أي: فكيف تُصْرَفُون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلّيّة إلى عبادة غيره مِن غير داعٍ إليها مع كثرة / الصوارف عنها. [٥و]

﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

﴿إِن تَكْفُرُواْ﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذُكر مِن فنون نَعمائه ومعرفة شئونه العظيمة الموجبة للإيمان والشكر، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ أي: فاعلموا أنّه تعالى غنيّ عن إيمانكم وشُكركم، غير متأثّر مِن انتفائهما. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: عدمُ رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفعِ مَضرّتهم رحمةً عليهم، لا لتضرّره تعالى به.

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يَرضَ الشكرَ لأجلكم ومنفعتكم؛ لأنّه سبب لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به. وإنّما قيل: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ لَا لَكُم لتعميم الحُكم وتعليله بكونهم عبادَه تعالى. وقُرئ بإسكان الهاء.[١]

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بيان لعدم سِراية كفر الكافر إلى غيره أصلًا، أي: لا تَحمل نفس حاملة للوِزر حِملَ نفسٍ أخرى. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ بالبعث بعد الموت، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عند ذلك ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: كنتم تعملونه في الدنيا مِن أعمال الكفر والإيمان، أي: يجازيكم بذلك ثوابًا وعقابًا.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بمضمرات القلوب، فكيف بالأعمال الظّاهرة؟ وهو تعليل للتّنبئة.

---

١ قرأ بها أبو عمرو بخُلف عن الدُّوري عنه، وكذا هو أحد الوجهين عن كلّ مِن هشام وشعبة وابن جمّاز. والوجه الثاني للدُّوري وابن جمّاز: إشباع ضمّة الهاء. ولهشام وشعبة: ضمّ الهاء مِن غير إشباع. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٧/١.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ مِن مرض وغيره ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعًا إليه ممّا كان يدعوه في حالة الرَّخاء لعلمه بأنّه بمَعزِل مِن القدرة على كشف ضرّه، وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم، ١٤/٣٤].

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: أعطاه نعمةً عظيمةً مِن جنابه تعالى، مِن التخوّل، وهو التعهّد، أي: جَعلَه خائلَ مال، مِن قولهم: فلان خائلُ مال إذا كان متعهِّدًا له حسَنَ القيام به. أو مِن الخَول، وهو الافتخار، أي: جعلَه يخول، أي: يختال ويَفتَخرُ.

﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: نسي الضرّ الذي كان يدعو الله تعالى فيما سبق إلى كشفه. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل التخويل، أو نسي ربّه الذي كان يدعو ويتضرّع إليه، إمّا بناءً على أنّ ﴿مَا﴾ بمعنى "مَن" كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل، ٩٢/٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون، ١٠٩/٣]. وإمّا إيذانًا بأنّ نسيانه بلغ إلى حيثُ لا يعرف مَدعُوَّه مَا هُو، فضلًا مِن أن يعرفه مَن هو، / كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج، ٢٢/٢]. [٥ظ]

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاءَ في العبادة ﴿لِّيُضِلَّ﴾ الناسَ بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو التوحيد. وقُرِئ: "لِيَضِلَّ" بفتح الياء،[١] أي: ليزداد ضلالًا أو يثبت عليه، وإلّا فأصلُ الضلال غيرُ متأخِّر عن الجعل المذكور. واللام لام العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص، ٢٨/٨]، خلا أنّ هذا أقرب إلى الحقيقة؛ لأنّ الجاعل ههنا قاصِد بجعله المذكور حقيقةَ الإضلال والضلال، وإن لم يعرف لجهله أنّهما إضلال وضلال. وأمّا آلُ فرعونَ فهم غيرُ قاصدين بالتقاطهم العداوةَ أصلًا.

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٩.

﴿قُلْ﴾ تهديدًا لذلك الضالّ المُضِلّ، وبيانًا لحاله ومآله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: تمتُّعًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: مِن مُلازميها والمعذَّبين فيها على الدوام، وهو تعليل لِقِلّة التمتّع. وفيه مِن الإقناط مِن النجاة ما لا يخفى، كأنّه قيل: إذ قد أبَيْتَ قبولَ ما أُمِرتَ به مِن الإيمان والطاعة فمِن حقّك أن تؤمَر بتركه لتذوق عقوبته.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾... إلخ مِن تمام الكلام المأمور به. و"أم" إمّا متّصلة قد حُذف معادلُها ثقةً بدلالة مَساق الكلام عليه، كأنّه قيل له تأكيدًا للتهديد وتهكّمًا به: أأنتَ أحسنُ حالًا ومآلًا أم مَن هو قائمٌ بمَواجب الطاعاتِ ودائمٌ على أداء وظائف العبادات في ساعات الليل حالتَي السّرّاء والضّرّاء -لا عند مساس الضرّ فقط كدأبك- حال كونه ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ أي: جامعًا بين الوصفين المحمودينِ؟ وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة. وقُرئ كلاهما بالرفع[1] على أنّه خبر بعد خبر.

﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ حال أُخرى على الترادف أو التداخل. أو استئناف وقع جوابًا عمّا نشأ مِن حكاية حاله مِن القنوت والسجود والقيام، كأنّه قيل: ما بالُه يفعل ذلك؟ فقيل: يحذَر عذاب الآخرة ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ / فينجو بذلك [٦٥و]
ممّا يحذره، ويفوز بما يرجوه، كما يُنبئ عنه التعرّض لعُنوان الربوبيّة المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضمير الراجي، لا أنّه يحذر ضُرَّ الدنيا ويرجو خيرَها فقط.

وإمّا منقطعة،[2] وما فيها مِن الإضراب للانتقال مِن التهديد إلى التبكيت بتكليف الجواب المُلجئ إلى الاعتراف بما بينهما مِن التباين البيّن، كأنّه قيل:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

[2] السياق: و"أم" إمّا متّصلة... وإمّا منقطعة...

بل أَمَنْ هو قانت... إلخ أفضل أم مَن هو كافر مثلك؟ كما هو المعنى على قراءة التخفيف.[١]

﴿قُلْ﴾ بيانًا للحقّ وتنبيهًا على شرَف العلم والعمل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ حقائقَ الأحوال فيعملون بموجَب علمهم، كالقانت المذكور، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ما ذُكر، أو شيئًا، فيعمَلون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدَأبك؟ والاستفهام للتنبيه على أنّ كون الأوّلِين في أعلى معارج الخير وكون الآخِرين في أقصى مدارج الشرّ مِن الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحدٍ مِن منصِف ومُكابر. وقيل: هو وارد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالِمون والجاهلون لا يستوي القانتون والعاصون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كلام مستقِلّ غير داخل في الكلام المأمور به واردٌ مِن جهته تعالى بعد الأمر بما ذُكر مِن القَوارعِ الزاجرة عن الكفر والمعاصي لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم، كما في قَول مَن قال:

عُوجُوا فَحَيُّوا[٢] لِنُعْمٍ[٣] دِمنةَ الدارِ ماذا تُحَيُّون مِن نُؤْيٍ وأَحْجارِ[٤]

أي: إنّما يتّعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل، وهؤلاء بمَعزِل مِن ذلك. وقُرئ: "إنَّما يَذَّكَّرُ" بالإدغام.[٥]

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ⑩﴾

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ أُمِر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بتذكير المؤمنين وحملِهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكّر بأولي الألباب

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٤١٦/٢.

٢ م: فحيّو.

٣ م س: لنُعمى [صُحّح في هامش م س].

٤ للنابغة الذبياني في ديوانه، ص ٢٠٢. والعَوْج: عطف رأس البعير بالزِّمام. ونُعْم: اسم المحبوبة. والدِّمْنة: ما تلبّد مِن البعر والقمامة، وربّما نبَت فيها النبات. والنُّؤي: الحاجز حول الخِباء لئلّا يدخله ماء المطر. شرح شواهد الكشّاف لمحبّ الدين أفندي، ص ١٠٥.

٥ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١١٧/٤.

إيذانًا بأنّهم هم كما سيُصرِّح به، / أي: قُل لهم قَولِي هذا بعينه. وفيه تشريف لهم [٦ظ]
بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، ومزيدُ اعتناء بشأن المأمور به، فإنّ نَقْلَ عين أمرِ الله تعالى أدخل في إيجاب الامتثال به.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب الامتثال به. وإيراد الإحسان في حيّز الصِّلة دون التقوى للإيذان بأنّه مِن باب الإحسان، وأنّهما متلازمان، وكذا الصبر كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل، ١٦/١٢٨]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف، ١٢/٩٠].

وقوله تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ متعلِّق بـ﴿أَحۡسَنُواْ﴾، أي: عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص، وهو الذي عَبّر عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين سُئل عن الإحسان بقوله عليه السلام: «أنْ تعبدَ الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[١] ﴿حَسَنَةٞ﴾ أي: حسنة عظيمة لا يُكتَنَه كُنهُها، وهي الجنّة.

وقيل: هو متعلّق بـ﴿حَسَنَةٞ﴾ على أنّه بيان لمكانها، أو حال مِن ضميرها في الظرف، فالمراد بها حينئذٍ الصحّة والعافية.

﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمَن تعسّر عليه التوفّر على التقوى والإحسانِ في وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكّن فيه مِن ذلك كما هو سنّة الأنبياء والصالحين، فإنّه لا عذر له في التفريط أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾... إلخ ترغيب في التقوى المأمور به. وإيثار الصابرين على المتّقين للإيذان بأنّهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة الإحسان؛ لِما أشير إليه مِن استلزام التقوى لهما مع ما فيه مِن زيادة حثٍّ على المصابرة والمجاهدة في تحمّل مشاقّ المهاجَرة ومتاعبها، أي: إنّما يوفّى الذين صبروا على دينهم، وحافظوا على حدوده، ولم يفرِّطوا في مراعاة حقوقه

---

١ صحيح البخاري، ١/١٩ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ١/٣٦ (٨).

لِما اعتراهم في ذلك مِن فُنون الآلامِ والبَلايا التي مِن جُملتها[١] مهاجرة الأهل ومفارقة الأوطان ﴿أَجْرَهُم﴾ بمقابلة ما كابدوا مِن الصبرِ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بحيث لا يُحصَى ولا يُحصَر.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لا يهتدي إليه حسابُ الحُسّاب ولا
[٧و] يعرف».[٢] وَفي الحديث أنّه «يُنصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة / والصدقة والحجّ فيُوَتَوْن بها أجورَهم، ولا تُنصَبُ لأهل البلاء؛ بل يُصَبُّ عليهم الأجر صبًا، حتّى يتمنّى أهلُ العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تُقرَضُ بالمقاريضِ ممّا يذهب به أهل البلاء مِن الفضل».[٣]

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: مِن كلّ ما ينافيه مِن الشرك والرياء وغير ذلك. أُمِرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببيان ما أُمِر به نفسُه مِن الإخلاص في عبادة الله تعالى الذي هو عبارة عمّا أُمِر به المؤمنون مِن التقوى مبالغة في حثّهم على الإتيان بما كُلِفوه، وتمهيدًا لِما يَعقُبه ممّا خُوطب به المشركون.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأُمرت بذلك لأجل أن أكون مقدّمَهم في الدنيا والآخرة؛ لأنّ إحراز قصَب السَّبق في الدِّين بالإخلاص فيه. والعطف لمغايرة الثاني الأوّلَ بتقيّده بالعلّة، والإشعارِ بأنّ العبادة المذكورة كما تقتضي الأمرَ بها لذاتها تقتضيه لِما يلزمها مِن السَّبق في الدِّين. ويجوز أن تُجعلَ اللام مزيدة كما في: أردتُ لأن أقوم، بدليل قوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ[٤] أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾

---

[١] س – جملتها.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ١١٨/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨/٥.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١١٨/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨/٥.

[٤] م س ي: وأُمِرتُ.

[الأنعام، ١٤/٦]، فالمعنى وأُمرتُ أن أكون أوّل مَن أسلم مِن أهل زماني، أو مِن قومي، أو أكون أوّلَ مَن دعا غيره إلى ما دعا إليه نفسَه.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه مِن الشرك ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هو يوم القيامة، وُصِف بالعظَمة لعظَمة ما فيه مِن الدواهي والأهوال.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ لا غيرَه لا استقلالًا ولا إشراكًا[1] ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ مِن كلّ شَوب. أُمر عليه السلام أوّلًا ببيان[2] كونه مأمورًا بعبادة الله تعالى وإخلاصِ الدين له، ثمّ بالإخبار بخوفه مِن العذاب على تقدير العصيان، ثمّ بالإخبار بامتثاله بالأمرِ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه؛ إظهارًا لتصلُّبه في الدِّين، وحسمًا لِأطماعهم الفارغة، / وتمهيدًا لتهديدهم بقوله تعالى: [٧ظ]

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٥﴾

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم﴾ أن تَعبدوه ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى. وفيه مِن الدلالة على شدّة الغضب عليهم ما لا يخفى، كأنّهم لمّا لم ينتهوا عمّا نُهُوا عنه أُمِرُوا به كي يحِلّ بهم العقاب.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخُسران، الذي هو عبارة عن إضاعة ما يهمّه، وإتلافِ ما لا بدّ منه، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ باختيارِهم الكفر لهما، أي: أضاعوهما وأتلفوهما ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ حين يدخلون النار حيث عرّضوهما للعذاب السرمدي، وأوقعوهما في هلَكةٍ لا هلكةَ وراءَها.

وقيل: خسروا أهليهم لأنّهم إنْ كانوا مِن أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا مِن أهل الجنّة فقد ذهبوا عنهم ذهابًا لا إيابَ بعده.

---

[1] س ي: اشتراكًا.

[2] م س - ببيان ["صح" في هامش م س].

وفيه أنّ المحذور ذهابُ مَا لَو آبَ لانتفع به الخاسرُ، وذلك غير متصوَّرٍ في الشِّقّ الأخير.

وقيل: خَسِرُوهم لأنّهم لم يدخلُوا مدخل الذين لهم أهل في الجنّة، وخسِروا أهليهم الذين كانوا يتمتّعون بهم لو آمنوا.

وأيًا ما كان فليس المرادُ مجرّد تعريف الكاملين في الخُسران بما ذُكر؛ بل بيانُ أنّهم هُمْ، إمّا بجعل الموصول عبارةً عنهم، أو عمّا هم مندرجون فيه اندراجًا أوّليًا.

وما في قوله تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ مِن استئناف الجملة، وتصديرِها بحرف التنبيه، والإشارةِ بذلك إلى بُعد منزلة المشار إليه في الشرِّ، وتوسيطِ ضمير الفَصل، وتعريف الخسران، ووصفِه بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾، مِن الدلالة على كمال هَولِه وفظاعته وأنّه لا خسرانَ وراءه ما لا يخفى.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾... إلخ نوعُ بيانٍ لخُسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام على أنّ ﴿لَهُم﴾ خبرٌ لـ﴿ظُلَلٌ﴾. و﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوف، قيل: هو حال مِن ﴿ظُلَلٌ﴾. والأظهر أنّه حال مِن الضميرِ في الظرفِ المقدَّم. و﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ صفةٌ لـ﴿ظُلَلٌ﴾، أي: لهم كائنةٌ مِن فوقهم ظُلَل كثيرة مُتراكبة بعضها فوق بعضٍ كائنةٌ مِن النار. ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾ / أيضًا ﴿ظُلَلٌ﴾ أي: أطباق كثيرة [٨و]
بعضُها تحت بعض ظُلَلٌ لِآخرين؛ بل لهم أيضًا عند تَرَدِّيهم في درَكاتها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الفظيع هو الذي ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ويحذّرهم إيّاه بآيات الوعيد؛ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه. ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرّضوا لِما يوجب سَخَطي. وهذه عِظة مِن الله تعالى بالغة مُنطوية على غاية اللّطف والمَرحمة. وقُرئ: "يَا عِبَادِي".[١]

---

١ قرأ بذلك رُويس بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٢.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: البالِغَ أقصى غاية الطغيان، "فَعَلُوت" منه بتقديم اللام على العين، بُني للمبالغة في المصدر، كالرَّحَموت والعَظَموت، ثمّ وُصِف به للمبالغة في النعت. والمراد هو الشَّيطان. ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدلُ الاشتمال منه، فإنّ عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان؛ إذ هو الآمر بها والمزَيِّنُ لها. ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه معرضين عمّا سواه إقبالًا كلّيًا.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب على ألسِنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت وحين يُحشرون وبعد ذلك. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم، لكن وُضِع موضعَ ضميرهم الظاهرُ تشريفًا لهم بالإضافة، ودلالةً على أنّ مدار اتّصافهم بالوصفَين الجليلَين كونهم نُقّادًا في الدِّين، يميّزون الحقّ مِن الباطل، ويُؤْثرون الأفضلَ فالأفضل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبارِ اتّصافهم بما ذُكر مِن النعوت الجليلة، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل. ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبره ما بعده مِن الموصول، أي: أولئك المَنعوتون بالمحاسن الجميلة ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ للدِّين الحقّ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى، المستحِقّون للهداية لا غيرُهم. وفيه دلالة على أنّ الهداية / تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها. [٨ظ]

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ بيان لأحوال أضداد المذكورين على طريقة الإجمال، وتسجيلٌ عليهم بحرمان الهداية، وهم عبَدة الطاغوت، ومُتَّبعُوا خُطواتِها كما يلوّح به التعبير عنهم بـ﴿مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾،

فإنّ المراد بها قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف، ١٨/٧].

وأصل الكلام: أَمَن حقّ عليه كلمة العذاب فأنت تُنقِذه، على أنّها شرطيّة دخل عليها الهمزة لإنكار مضمونها. ثمّ الفاءُ لعطفها على جملة مستتبِعة لها مقدَّرةٍ بعدَ الهمزة ليتعلّق الإنكار والنفي بمضمونَيهما معًا، أي: أأنتَ مالكُ أمرِ الناس، فمَن حقّ عليه كلمةُ العذاب فأنت تُنقذه؟ ثمّ كُرِّرَت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار وتذكيرِه لِما طال الكلام، ثمّ وُضع موضع الضميرِ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد والتنبيه على أنّ المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقعِ في النار، وأنّ اجتهاده عليه السلام في دعائهم إلى الإيمان سَعْيٌ في إنقاذهم مِن النار.

ويجوز أن يكون الجزاء محذوفًا، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ﴾... إلخ جملة مستقلّة مَسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة وتعيين ما حُذِف منها وتشديدِ الإنكار بتنزيل مَن استَحقّ العذابَ منزلةَ مَن دخل النار، وتصوير الاجتهاد في دعائه إلى الإيمان بصورة الإنقاذ مِن النار، كأنّه قيل أوّلًا: أفمَن حقّ عليه العذاب فأنت تخلّصه منه، ثمّ شُدِّد النكير فقيل: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾. وفيه تلويح بأنّه تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ لا غير.

وحيث كان المراد بـ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ الذين قيل في حقّهم: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[١] استُدرك عنهم بقوله تعالى: / ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾،[٢] [٩و]
ووُصفوا بما عُدِّد مِن الصفات الفاضلة، وهم المخاطَبون أيضًا فيما سبَق بقوله تعالى: ﴿قُلْ[٣] يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الآيةَ،[٤] وبيّن أنّ لهم درجات عالية في جنّات النعيم بمقابلة ما للكفرة مِن دركات سافلة في الجحيم، أي: لهم علاليّ بعضها فوق بعض، ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بناءَ المنازل المبنيّة المؤسّسة على الأرض

---

١ الزمر، ١٦/٣٩.
٢ الزمر، ١٦/٣٩.
٣ م س ي - قل.
٤ الزمر، ١٠/٣٩.

في الرصانة والإحكام، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ مِن تحت تلك الغُرف ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مِن غير تفاوت بين العلوّ والسفل.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾... إلخ، فإنّه وَعدٌ، وأيّ وعد. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لاستحالتِه عليه سبحانه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استئناف وارد إمّا لتمثيل الحياة الدنيا في سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذُكر مِن أحوال الزرع؛ ترغيبًا عن زخارفها وزينتها، وتحذيرًا مِن الاغترار بزهرتها، كما في نظائر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيةَ [يونس، ٢٤/١٠]، أو للاستشهاد على تحقّق الموعود مِن الأنهار الجارية مِن تحت الغُرَف بما يشاهَد مِن إنزال الماء مِن السماء، وما يترتّب عليه مِن آثار قدرته تعالى، وأحكام حِكمته ورحمته.

والمراد بالماء المطر. وقيل: كلّ ماء في الأرض، فهو مِن السماء، ينزل منها إلى الصخرة، ثمّ يقسمه الله تعالى بين البِقاع. ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ونظمه ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عيونًا ومجاري كالعُروق في الأجساد. وقيل: مياهًا نابعةً فيها، فإنّ الينبوع يُطلَق على المَنْبَع والنابع، فنصبُها على الحال، وعلى الأوّل بنزع الجارِّ، أي: في ينابيعَ.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أصنافُه مِن بُرّ وشعير وغيرهما، أو كيفيّاته مِن الألوان والطعوم / وغيرِهما. وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة أو الزمان. [٩ظ]
وصيغة المضارع لاستحضار الصورة. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يتمّ جفافه ويشرف على أن يثور مِن منابته. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ مِن بعد خُضرته ونُضرته. وقُرئ: "مُصْفَارًا".[١]
﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فُتاتًا متكسِّرةً كأن لم يَغنَ بالأمس. ولكون هذه الحالة مِن الآثار القويّة عُلِّقَت بجعلِ الله تعالى كالإخراج.

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٢٢/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٨٨/١٨. وفي سورة الروم تُعزَى إلى جَناح بن حُبيش. انظر: اللباب لابن عادل، ٤٢٨/١٥ (الروم، ٥١/٣٠).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر تفصيلًا، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بُبعد منزلته في الغرابة والدلالة على ما قُصِد بيانه. ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيرًا عظيمًا ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلَل وتنبيهًا لهم على حقيقة الحال، يتذكَّرون بذلك أنّ حال الحياة الدنيا في سرعة التقضّي والانصِرام كما يشاهدونه مِن حال الحُطام كلَّ عام، فلا يغترّون ببَهجتها، ولا يُفتتنون بفتنتها. أو يَجزمون بأنّ مَن قدَر على إنزال الماء مِن السماء وإجرائِه في ينابيع الأرض قادر على إجراء الأنهار مِن تحت الغُرَف.

هذا، وأمّا ما قيل:[١] إنّ في ذلك لَتذكيرًا وتنبيهًا على أنّه لا بدّ مِن صانع حكيم، وأنّه كائن عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل وإهمال، فبمَعزِل مِن تفسير الآية الكريمة، وإنّما يَليق ذلك بما لو ذُكِر مَا ذُكِر مِن الآثار الجليلة والأفعال الجميلة مِن غير إسنادٍ لها إلى مؤثّر ما، فحيث ذُكِرت مسنَدةً إلى الله عزّ وجلّ تعيّن أن يكون متعلَّقُ التذكير والتنبيه شُئونَه تعالى أو شئونَ آثارِه حسبما بيِّن، لا وجودَه تعالى.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾... إلخ استئناف جارٍ مَجرى التعليلِ لِما قبله مِن تخصيص الذكرى بأولي الألباب. وشرحُ الصدر للإسلام عبارة عن تكميلِ الاستعداد له، فإنّه محلّ للقلب الذي[٢] هو منبع للروح التي تتعلّق بهَا النفس القابلة للإسلام، فانشراحه مستدعٍ لاتّساعِ القلب واستضاءتِه بنوره، فإنّه رُوي أنّه عليه السلام قال: «إذا دخل النور القلبَ انشرَح وانفسَح»، فقيل: فما علامة ذلك؟ قال عليه السلام: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهّبُ للموت قبل نزوله».[٣]

---

[١] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٢٢/٤.
[٢] س – الذي.
[٣] جامع البيان للطبري، ٥٤١/٩ (الأنعام، ١٢٥/٦)؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٧٧/٧ (٣٤٣١٥).

والكلام في الهمزة والفاء كالذي مرّ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾.[١] وخبر ﴿مَن﴾ محذوف لدلالة ما بعده عليه، والتقدير: أكُلُّ الناس سوَاء؟ فمَن شرح الله صدرَه -أي: خلقَه متَّسِع الصدر مستعِدًّا للإسلام- فبقي على الفطرة الأصليّة ولم يتغيّر بالعوارض / المكتسَبة القادحة فيها، ﴿فَهُوَ﴾ بموجب [١٠و] ذلك مستقِرّ ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو اللطف الإلهي الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينيّة والتنزيليّة، والتوفيقُ للاهتداء بها إلى الحقّ، كمَن قَسَا قَلبُه وحَرِجَ صدرُه بسبب تبديل فطرة الله بسوءِ اختيارِه، واستولى عليه ظلمات الغيّ والضّلالة، فأعرض عن تلك الآيات بالكلّيّة حتّى لا يتذكّرُ بها ولا يغتنمها؟

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن أجل ذِكره الذي حقّه أن تنشَرح له الصدور وتطمئنّ به القلوب، أي: إذا ذُكر الله تعالى عندهم أو آياتُه اشمأزّوا مِن أجله وازدادت قلوبهم قساوةً، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة، ٩/١٢٥]. وقُرئ: "عَنْ ذِكْرِ اللهِ"،[٢] أي: عن قَبوله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البُعَداءُ الموصوفون بما ذُكر مِن قساوَة القلوب ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ بعيدٍ مِن الحقّ ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهرٍ كونه ضلالًا لكلّ أحدٍ. قيل: نزلت الآية في حمزة وعليّ رضي الله عنهما، وأبي لهبٍ وولده.[٣] وقيل: في عمّار بن ياسرٍ رضي الله عنه، وأبي جهلٍ وذَوِيه.[٤]

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ هو القرآن الكريم. رُوي أنّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مَلُّوا ملّةً فقالوا له عليه السلام: حَدِّثنا حدِيثًا[٥] -وعن ابن مسعود

---

[١] الزمر، ٣٩/١٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٣.

[٣] التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٥٧٧؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤/٥٢٧.

[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٢٩؛ تفسير القرطبي، ١٥/٢٤٧.

[٥] الكشّاف للزمخشري، ٤/١٢٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٤٠. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٣/٨ (يوسف، ١٢/٣).

وابن عبّاس: قالوا: لو حدّثتنا-[١] فنزلت. والمعنى: أنّ فيه مندوحةً عن سائر الأحاديث. وفي إيقاع الاسم الجليل مبتدأً وبناءِ ﴿نَزَّلَ﴾ عليه مِن تفخيمِ ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ورفعِ محلِّه والاستشهادِ على حُسنه وتأكيدِ استناده إليه تعالى وأنّه مِن عنده لا يمكن صدوره عن غيره والتنبيهِ على أنّه وحي معجِز، ما لا يخفى.

﴿كِتَٰبًا﴾ بدل مِن ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، أو حال منه سواء اكتسب مِن المضاف إليه تعريفًا أو لا، فإنّ مَساغ مجيء الحال مِن النكرة المضافة اتفاقي، ووقوعه حالًا مع كونه اسمًا لا صفة إمّا لاتّصافه بقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، أو لكونه في قوّة "مكتوبًا". ومعنى كونه ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: تشابه معانيه في الصحّة والإحكام والابتناءِ على الحقّ والصِّدق واستتباع منافعِ الخلق في المعاد والمعاش وتناسبِ ألفاظه في الفصاحة وتجاوبِ نظمه في الإعجازِ.

[١٠ظ] ﴿مَّثَانِيَ﴾ صفة أخرى / لـ﴿كِتَٰبًا﴾، أو حال أُخرى منه، وهو جمعُ "مُثَنًّى"، بمعنى: مُردَّد ومُكرَّر لِما ثُنّي مِن قَصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه. وقيل: لأنّه يثنّى في التلاوة. وقيل: هو جمع "مَثْنَى"، مَفْعَل مِن التثنية بمعنى التكريرِ والإعادة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ[٢] ٱرْجِعِ[٣] ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك، ٦٧/٤]، أي: كرّةً بعدَ كرّة.

وقوعه[٤] صفةً لِـ﴿كِتَٰبًا﴾ باعتبار تفاصيله، كما يقال: القرآن سُوَر وآيات. ويجوز أن ينتصب على التمييز مِن ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، كما يُقال: رأيت رجلًا حسنًا شمائلَ، أي: شمائله، والمعنى متشابهة مَثانيه.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: صفة لِـ﴿كِتَٰبًا﴾، أو حال منه لتخصّصه بالصفة، والأظهر أنّه استئناف مَسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه بعد بيان أوصافه في نفسه، ولتقرير كونه "أحسنَ الحديث". والاقشعرار: التقبّض، يقال: اقشعَرَ الجلد إذا تقبّض تقبّضًا شديدًا، وتركيبه مِن القَشع؛ وهو الأديم اليابس،

---

[١] جامع البيان للطبري، ١٩٣/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٠/٨.

[٢] م س ي – ثمّ.

[٣] م س ي: "فارْجِع".

[٤] س ي: ووقوعه.

قد ضُمّ إليه الراء ليكون رباعيًا ودالًا على معنًى زائدٍ، يقال: اقشعَرّ جلده وقَفَّ شعرُه إذا عرض له خوف شديد مِن منكرٍ هائلٍ دَهِمَهُ بَغْتةً.

والمراد إمّا بيان إفراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير، أو بيان حصول تلك الحالة وعروضِها لهم بطريق التحقيق. والمعنى: أنّهم إذا سمعوا القرآن وقوارعَ آيات وعيده أصابتهم هَيبة وخشية تقشعِرّ منها جلودهم، وإذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدّلت خشيتُهم رجاءً ورهبتُهم رغبةً، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ساكنة مطمئنّة إلى ذكر رحمته تعالى، وإنّما لم يصرّح بها إيذانًا بأنّها أوّلُ ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الكتاب الذي شُرح أحواله ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أنْ يهديه لصَرف مقدوره إلى الاهتداء بتأمّله فيما في تضاعيفه مِن شواهد الحقّيّة ودلائل كونه مِن عند الله تعالى. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾[1] أي: يخلق فيه الضّلالة / لصرف قدرته إلى مباديها، وإعراضِه عمّا يُرشده إلى الحقّ بالكلّيّة، وعدمِ [١١و]
تأثّره بوعيده ووعده أصلًا. أو ومَن يخذل ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يخلّصه مِن وَرطة الضلال. وقيل: ذلك الذي ذُكر مِن الخشية والرجاء أثرُ هداه تعالى، يهدي بذلك الأثر مَن يشاء مِن عباده، ومَن يُضلل -أي: ومَن لم يُؤثّر فيه لطفه، لقسوة قلبه، وإصراره على فُجوره- فما له مِن هادٍ؛ مِن مُؤثّر فيه بشيء قطّ.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ﴾... إلخ استئناف جارٍ مجرى التعليل لِما قبله مِن تباين حالَي المهتدي والضالّ. والكلام في الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذي مرّ في نَظِيرَيه. والتقدير: أكُلُّ الناسِ سواء؟! فمَن شأنه أنّه يقِي نفسَه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: العذاب السيِّء الشديد ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لكون يده التي بها كان يتّقي المَكاره والمَخاوف مغلولةً إلى عُنقه

---

[1] م - ﴿ٱللَّهُ﴾.

كمَن هو آمِن لا يَعتريه مكروه، ولا يحتاج إلى الاتّقاء بوجهٍ مِن الوجوه. وقيل: نزلت في أبي جهلٍ.[١]

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ عطف على ﴿يَتَّقِي﴾، أي: ويقال لهم مِن جهة خزَنة النار. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق والتقرّر. وقيل: هو حال مِن ضميرِ ﴿يَتَّقِي﴾ بإضمار "قد"، ووضع المُظهر في مَقام المُضمر للتسجيل عليهم بالظلم، والإشعار بعلّة الأمر في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي: وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا على الدوام مِن الكفر والمعاصي.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥﴾

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ استئناف مَسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة مِن العذاب الدنيوي إثرَ بيان ما يُصيب الكلّ مِن العذاب الأخروي. أي: كذّب الذين مِن قبلهم مِن الأمم السالفة. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ المقدَّر لكلّ أمّة منهم ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ مِن الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم إتيان الشرّ منها.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾

[١١ظ] ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ﴾ أي: الذُّلَّ والصَّغارَ / ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ كالمَسخ والخَسف والقتل والسبْي والإجلاءِ ونحو ذلك مِن فنون النَّكال. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المُعَدُّ لهم ﴿أَكۡبَرُ﴾ لشدّته وسَرْمديّته. ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لو كان مِن شأنهم أن يعلموا شيئًا لَعلِموا ذلك واعتبروا به.

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧﴾

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمور دينه ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كَي يتذكّروا به ويتّعِظوا.

---

[١] التفسير الوسيط للواحدي، ٥٧٩/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢٥/٤.

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكِّدة مِن هذا على أنّ مدار التأكيد هو الوصف، كقولك: جاءني زيد رجلًا صالِحًا، أو مدحٌ له. ﴿غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ لا اختلافَ فيه بوجهٍ مِن الوجوه، فهو أبلغُ مِن المستقيم، وأخصُّ بالمعانِي. وقيل: المراد بالعِوَج: الشكّ. ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ عِلَّة أُخرى مترتِّبةٌ على الأولى.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ إيراد لمَثَلٍ مِن الأمثال القرآنيّة بعدَ بيان أنّ الحكمة في ضربِها هو التذكّر والاتّعاظ بها وتحصيل التقوى. والمراد بـ"ضرب المَثَل" ههنا: تطبيقُ حالة عجيبة بأُخرى مثلِها، وجعلُها مِثلَها كما مرّ في سورة يس.[1]

و﴿مَثَلٗا﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿ضَرَبَ﴾، و﴿رَّجُلٗا﴾ مفعولُه الأوّل أُخِر عن الثّاني للتشويق إليه، وليتّصل به ما هو مِن تَتمّته التي هي العمدة في التمثيل. و﴿فِيهِ﴾ ليس بصلة لـ﴿شُرَكَآءُ﴾ كما قيل؛[2] بل هو خبر له،[3] وبيانُ أنّه في الأصل كذلكَ[4] ممّا لا حاجة إليه. والجملة في حيّز النصب على أنّه وصف لـ﴿رَّجُلٗا﴾، أو الوصف هو الجارّ والمجرور، و﴿شُرَكَآءُ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة لاعتماده على الموصوف، فالمعنى: جعَل الله تعالى مَثلًا للمُشرك حسبما يقود إليه مذهبه مِن ادّعاء كلٍّ مِن مَعبوديه عبوديّتَه عبدًا يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاوَرونه في مهمّاتهم المتباينة في تحيّره وتوزّعِ قلبه.

---

[1] عند قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس، ١٣/٣٦].

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٢٦/٤؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٢/٥.

[3] قال الشهاب الخفاجي: «الظاهر أنّه خبر مقدّم؛ لأنّ النكرة وإن وصفت يحسُن تقدّم خبرها، ولو كان صلة لم يكن لتقديمه نكتة ظاهرة». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٣٧/٣.

[4] أي: أنه في الأصل يتعدّى بـ"في"، كما تقول: اشتركوا فيه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٢٦/٤.

﴿وَرَجُلًا﴾ أي: وجَعَل للموحِّد مَثَلًا رجلًا ﴿سَلَمًا﴾ أي: خالصًا ﴿لِرَجُلٍ﴾ فرد ليس لغيره عليه سبيل أصلًا. وقُرئ: "سِلْمًا" بفتح السين[١] وكسرها[٢] مع سكون اللام. والكلّ مصادرٌ مِن "سَلِم له كذا"، أي: خلَص، نُعِتَ بها مبالغةً، أو حُذِف منها "ذُو". / وقُرئ: "سَالِمًا"[٣] و"سَالِمٌ"،[٤] أي: وهناك رجل سالم. [١٢و] وتخصيص الرجل لأنّه أفطَن لِما يجري عليه مِن الضرّ والنفع.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ إنكار واستبعاد لاستوائهما، ونفيٌ له على أبلغ وجه وآكدِه، وإيذان بأنّ ذلك مِن الجلاء والظهور بحيث لا يقدِر أحد أن يتفوَّه باستوائهما أو يتلعثَم في الحكم بتباينهما ضرورة أنّ أحدهما في أعلى علّيِّين والآخرَ في أسفل سافلين. وهو السرّ في إبهام الفاضل والمفضول.

وانتصابُ ﴿مَثَلًا﴾ على التمييز، أي: هل يستوي حالاهما وصفتاهما؟ والاقتصار في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقُرئ: "مَثَلَيْنِ"[٥] -كقوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرَ[٦] أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ [التوبة، ٦٩/٩]- للإشعار باختلاف النوع، أو لأنّ المراد: هل يستويان في الوصفين؟ على أنّ الضمير للمَثَلَين؛ لأنّ التقدير: مَثَل رجلٍ فيه... إلخ، ومَثَل رجلٍ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ تقرير لِما قبله مِن نفي الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحِّدين على أنّ ما لهم مِن المزيّة بتوفيق الله تعالى، وأنّها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته، أو على أنّ بيانه تعالى بضرب المَثل -أنّ لهم المَثل الأعلى، وللمشركين مَثل السَّوء- صنع جميل ولطف تامّ منه عزّ وجلّ مستوجِب لحَمده وعبادته.

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إضراب وانتقال مِن بيان عدم الاستواء

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٦ م س ي: أَكثَرَ.

على الوجه المذكور إلى بيان أنّ أكثرَ الناس -وهم المشركون- لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره، فيبقَوْن في وَرطةِ الشرك والضلال.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ تمهيد لِما يَعقُبه مِن الاختصام يوم القيامة. وقُرئ: "مَائِتٌ" و"مَائِتُونَ".[١] وقيل: كانوا يتربّصونَ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم موتَه.[٢] أي: إنكم جميعًا بصدد الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: مالكِ أمورِكم ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتجّ أنت[٣] عليهم بأنّك بلّغتهم ما أُرسِلتَ به مِن الأحكام والمواعظ التي مِن جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات، واجتهدْتَ في الدَّعوة إلى الحقّ / حقَّ الاجتهاد، [١٢ظ]
وهم قد لَجّوا في المكابرة والعناد. وقيل: المراد به الاختصام العامّ الجاري في الدنيا بين الأنام.[٤] والأوّل هو الأظهر الأنسب بقوله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنّه إلى آخره مَسوق لبيان حال كلٍّ مِن طرفَي الاختصام الجاري في شأن الكفر والإيمان لا غيرُ. أي: أظلَمُ مِن كلّ ظالم مَن افترى على الله سبحانه[٥] بأن أضاف إليه الشريكَ والولد. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بالأمر الذي هو عين الحقّ ونفس الصدق، وهو ما جاء به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: في أوّل مجيئه مِن غير تدبّر فيه ولا تأمّل.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب بالصدق مِن أوّلِ الأمر. والجمع باعتبار معنى "مَن"،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزبير وابن مُحيصن وعيسى. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٤.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/١٢٧.

٣ س - أنت.

٤ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥/٤٢.

٥ س + وتعالى.

كما أنّ الإفراد في الضمائر السابقة باعتبار لفظها. أو لجنس الكفَرة، وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًا.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ٣٣﴾

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الموصول عبارة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومَن تبعه كما أنّ المراد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون، ٤٩/٢٣] هو عليه السلام وقومُه. وقيل: عن الجنس المتناوِل للرسل والمؤمنين بهم. ويؤيّدُه قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ".[١] وقيل: هو صفة لموصوف محذوف، هو الفوج أو الفَرِيق.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن المجيء بالصِّدق والتصديقِ به ﴿هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المنعوتون بالتقوى الذي هو[٢] أجلّ الرّغائب. وقُرئ: "وَصَدَقَ بِهِ" بالتخفيف،[٣] أي: صدَق به الناسَ فأدّاه إليهم كما نزل عليه مِن غيرِ تغيير. وقيل: وصار صادقًا به، أي: بسببه؛ لأنّ ما جاء به مِن القرآن معجزة دالّة على صِدقه عليه السلام. وقُرئ: "صُدِّقَ بِهِ"[٤] على البناء للمفعول.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٤﴾

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بيان لِما لَهم فِي الآخرة مِن حُسن المآب بعد بيان ما لهم في الدنيا مِن محاسن الأعمال، أي: لهم كلّ ما يشاءونه مِن جلب المنافع ودفعِ المضارّ في الآخرة، لا في الجنّة فقط؛ لِما أنّ بعض ما يشاءونه مِن تكفير السيئات والأمن مِن الفزَع الأكبر، وسائر أهوال القيامة إنّما يقع قبل دخول الجنّة.

[١٣و] ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن حصول كلّ ما يشاءونه ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ / أي: الذين أحسنوا أعمالهم، وقد مرّ تفسير الإحسان غيرَ مرّة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ والأعمش رضي الله عنهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٢ س: التي هي.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن حجار وعكرمة بن سليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٤.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾... إلخ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾؛[1] لكن لا باعتبارِ منطوقه ضرورةَ أنّ التكفير المذكور لا يُتصوّر كونه غايةً لثبوت ما يشاءون لهم في الآخرة. كيف لا، وهو بعض ما سَيَثبت لهم فيها؟ بل باعتبار فَحواه، فإنّه حيث لم يكن إخبارًا بما ثبت لهم فيما مضى -بل بما سَيَثبت لهم فيما سيأتي- كان في معنى الوعد به كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾،[2] فإنّه مصدر مؤكِّد لِما قبله مِن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾،[3] فإنّه في معنى: وعدَهم اللهُ غُرفًا، فانتصب به: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾،[4] كأنّه قيل: وعدهم اللهُ جميعَ ما يشاءونه مِن زوال المضارّ وحصولِ المسارّ؛ ليكفّر عنهم بموجَب ذلك الوعدِ أسوأَ الذي عمِلوا دفعًا لمضارّهم.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إعطاءً لمنافعهم. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام.

وإضافة "الأسوء" و"الأحسن" إلى ما بعدهما ليست مِن قبيل إضافة المفضَّل إلى المفضَّل عليه؛ بل مِن إضافة الشيء إلى بعضه للقصد إلى التحقيق والتوضيحِ مِن غير اعتبار تفضيله عليه. وإنّما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة، لا على المضاف إليه المعيَّن بخصوصه، كما في قولهم: «الناقص[5] والأشَجّ[6] أعدَلا بني مروان».

---

[1] في الآية السابقة. | وفي هامش م: وقيل: متعلِّق بمحذوف، أي: يسِّر لهم ذلك ليكفِّر، وقيل:[(١)] بنفس ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، كأنّه قيل: الذين أحسنوا ليكفِّر... إلخ، وليس بذلك «منه». | [(١)] اللباب لابن عادل، ٥١٥/١٦.

[2] الزمر، ٢٠/٣٩.

[3] الزمر، ٢٠/٣٩.

[4] الزمر، ٢٠/٣٩.

[5] هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان القرشي الأموي، أبو خالد (ت. ١٢٦هـ/٧٤٤م). تمّ ليزيد أمر الخلافة في مستهلّ رجب ١٢٦هـ، ومات في ذي الحجّة بالطاعون، وقيل: مسمومًا. قال اليعقوبي: «كانت ولايته خمسة أشهر، والفتنة عامّة في البلاد». وكان يزيد مِن أهل الورع والصلاح. قال نشوان الحِميري: «لم يكن في بني أميّة مثله ومثلُ عمر بن عبد العزيز»، كان لقبه "الشاكر لأنعُم الله"، ويقال له: "الناقص"؛ لأنّ سلفه الوليد بن يزيد كان قد زاد في أُعطيات الجند، فلمّا ولي يزيد نقص الزيادة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٧٤/٥؛ والأعلام للزركلي، ١٩٠/٨.

[6] هو عمر بن عبد العزيز بن مروان القرشي، الأموي، المدني، أبو حفص (ت. ١٠١هـ/٧٢٠م)، ◄

خلا أنّ الزيادة المعتبرة فيهما ليست بطريق الحقيقة؛ بل هي في الأوّل بالنظر إلى ما يَليق بحالهم مِن استعظام سيّئاتهم وإن قلّت، واستصغار حسناتهم وإن جلّت. والثاني بالنظرِ إلى لُطف أكرم الأكرمين مِن استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها بالمثوبات الكثيرة.

وحَملُ الزيادة على الحقيقة وإن أمكن في الأوّل بناءً على أنّ تخصيص الأسوء بالذكر لبيان تكفيرِ ما دونه بطريق الأولويّة ضرورةَ استلزام تكفير الأسوء لتكفير السيّء، لكن لمّا لم يمكن ذلك في الأحسن كان الأحسنُ نظمَهما في سِلك واحد مِن الاعتبار.

[١٣ظ] والجمع / بين صيغتَي الماضي والمستقبل في صِلة الموصول الثاني دون الأوّل للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيّئة.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦﴾

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ إنكار ونفي لعدم كفايته تعالى على أبلغِ وجه وآكَدِه، كأنّ الكفاية مِن التحقّق والظهورِ بحيث لا يقدِر أحد على أن يتفوَّه بعدمها، أو يتلعثَم في الجواب بوجودها. والمراد بـ"العبد" إمّا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو الجنس المنتظِم له عليه السلام انتظامًا أوّليًا. ويُؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "عِبَادَهُ".[١] وفُسّر بالأنبياء عليهم السلام. وكذا قراءةُ مَن قرأ: "بِكَافِي عِبَادِهِ"[٢] على الإضافة، و"يُكَافِي عِبَادَهُ"[٣] على صيغة المغالبة، إمّا مِن الكفاية لإفادة المبالغة فيها، وإمّا مِن المكافأة بمعنى المُجازاة.

< الخليفة، الصالح، الزاهد، الراشد. ولي الخلافة بعهد مِن سليمان سنة ٩٩هـ، فبويع في مسجد دمشق، وسكن الناس في أيّامه، ولم تطل مدّته، قيل: دُسّ له السمّ وهو بدير سمعان مِن أرض المعرّة، فتوفّي به. ومدّة خلافته سنتان ونصف. وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة. كان يُدعى "أشجّ بني أميّة"؛ لأنّ دابّة رمَحته وهو غلام فشجّته. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ١١٤/٥؛ **والأعلام** للزركلي، ٥٠/٥.

١ قرأ بها أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٤.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٢٩/٤؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٠٥/٩.

وهذه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم[1] عمّا قالت له قريش: إنّا نخاف أن يُخبّلك آلهتنا ويصيبك مَعرّتها[2] لعَيبك إيّاها.[3] وفي رواية: قالوا: لتكُفّنّ عن شَتم آلهتنا أو ليُصيبنّك منهم خَبَل أو جنون،[4] كما قال قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود، ٥٤/١١]، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: الأوثان التي[5] اتّخذوها آلهة مِن دونه تعالى. والجملة استئناف، وقيل: حال.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتّى غفل عن كفايته تعالى وعِصمته له عليه السلام وخوّفه بما لا ينفع ولا يضرّ أصلًا ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى خيرٍ ما.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ يصرفه عن مقصده، أو يصيبه بسوءٍ يُخلّ بسلوكه؛ إذ لا رادَّ لفعله، ولا معارض لإرادته، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب لا يُغالَب، منيعٍ لا يُمانَع ولا يُنازَع. ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم مِن أعدائه لأوليائه. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوحِ الدليل، وسنوح السبيل. ﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ/ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي: بعد ما تحقّقتم أنّ خالق العالَم العلوي والسفلي هو الله عزّ وجلّ فأخبروني أنّ آلهتكم إن أرادني الله بضرٍ هل يَكْشِفْن عنّي ذلك الضرّ؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ أي: أو إن أرادني بنفعٍ ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [١٤و]

---

١ م – وسلّم.

٢ المعرّة: الأذى. لسان العرب لابن منظور، «عرر».

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٢٩/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣/٥.

٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٨٢/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥١٧/١٦.

٥ س: الذي.

فَيَمْنَعْنَها عنّي؟ وقُرئ: "كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ" و"مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ" بالتنوينِ فيهما ونصبِ "ضُرَّهُ" و"رَحْمَتَهُ".[١]

وتعليقُ إرادة الضرّ والرحمة بنفسه عليه السلام للردّ في نحورهم حيث كانوا خوّفوه معرّةَ الأوثان، ولِما فيه مِن الإيذان بإمحاض النصيحة. ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: في جميعِ أموري مِن إصابة الخير ودفعِ الشرّ. رُوي أنّه عليه السلام لمّا سألهم سكتوا فنزل ذلك.[٢] ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا على غيره أصلًا لعلمهم بأنّ كلّ ما سواه تحت ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٤٠﴾

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها مِن العداوة التي تمكّنتم فيها، فإنّ المكانة تُستَعارُ مِن العين للمعنى كما يستعار "هنا" و"حيث" للزمان مع كونهما للمكان. وقُرئ: "عَلَى مَكَانَاتِكُمْ".[٣]

﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ أي: على مكانتي، فحُذف للاختصار والمبالغة في الوعيد والإشعار بأنّ حاله لا تزال تزداد قوّةً بنصر الله عزّ وجلّ وتأييده؛ ولذلك توعّدهم بكونه منصورًا عليهم في الدارين بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، فإنّ خزي أعدائه دليل غلبته عليه السلام، وقد عذّبهم الله تعالى وأخزاهم يومَ بدر.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم، هو عذاب النار.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ٤١﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، فإنّه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال مِن فاعل ﴿أَنزَلْنَا﴾، أو مِن مفعوله. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بأن عمل

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢٩/٤.

٣ قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٦٣/٢.

بما فيه ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: إنّما نفع به نفسَه. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بأن لم يعمل بموجَبه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لِما أنّ وبال ضلاله مقصور عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ لتُجبِرهم على الهدى، وما وظيفتك إلّا البلاغ، وقد بلّغت أيّ بلاغ.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ / حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي: يقبضها مِن [١٤ظ] الأبدان بأن يقطع تعلُّقها عنها وتصرُّفها فيها، إمّا ظاهرًا وباطنًا كما عند الموت، أو ظاهرًا فقط كما عند النوم.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردّها إلى البدن. وقُرئ: "قُضِيَ" على البناء للمفعولِ ورفعِ "المَوْتُ".[١] ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: النائمة إلى بدنها عند التيقّظ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الوقت المضروب لمَوته، وهو غاية لجنس الإرسال الواقع بعد الإمساك، لا لفرد منه، فإنّ ذلك ممّا لا امتداد فيه ولا كمّيّةَ.

وما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ في ابن آدم نَفْسًا وروحًا، بينهما مِثل شعاع الشمس، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النفَس والتحرّك، فَتُتوفَّيان عند الموت، وتُتوفّى النَّفْسُ وحدَها عند النوم»[٢] قريب ممّا ذُكر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن التوفّي على الوجهين، والإمساكِ في أحدهما، والإرسالِ في الآخَر، ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عجيبةً دالّة على كمالِ قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفيّة تعلُّقها بالإبدان وتوفّيها عنها، تارةً بالكلّيّة كما عند الموت، وإمساكِها باقيةً لا تفنى بفَنائها، وما يعتريها مِن السعادة والشقاوة، وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم، وإرسالِها حينًا بعد حين إلى انقضاء آجالها.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣١/٤.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ أي: بل اتخذَ قُريش ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن دون إذنه تعالى ﴿شُفَعَآءَ﴾ تَشفع لهم عنده تعالى؟

﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخِ عليه، أي: قل: أتتَّخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئًا مِن الأشياء ولا يعقلونه فضلًا عن أنْ يَملكوا الشفاعة عند الله تعالى؟ أو هي لإنكارِ الوقوع ونَفيه على أنّ المراد بيان أنّ ما فَعلوا ليس مِن اتّخاذ الشفعاءِ في شيء؛ لأنّه فرعُ كون الأوثان شفعاءَ، وذلك أظهر المُحالات، / فالمقدَّر حينئذٍ غير ما قُدِّر أوّلًا. [١٥و]

وعلى أيّ تقدير كان فالواو للعطف على شرطيّةٍ قد حُذفت لدلالة المذكورة عليها، أي: أيشفعون لو كانوا يملكون شيئًا ولو كانوا لا يملكون... إلخ. وجواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف لدلالة المذكور عليه، وقد مرّ تحقيقه مرارًا.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٤٤﴾

﴿قُل﴾ بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذُكر تحقيقًا للحقّ: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ أي: هو مالكها، لا يستطيع أحدٌ شفاعةً مّا إلّا أن يكون المشفوعُ له مرتضًى، والشفيع مأذونًا له، وكلاهما مفقود ههنا.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تقرير له وتأكيد، أي: له ملكهما وما فيهما مِن المخلوقات، لا يملك أحد أنْ يتكلّم في أمر مِن أموره بدونِ إذنه ورضاه. ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة لا إلى أحد سواه، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، فيفعل يومئذ ما يريد.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥﴾

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ دون آلهتهم ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: انقبضت ونفَرت، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ [الإسراء، ٤٦/١٧].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ فرادى أو مع ذكرِ الله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفَرط افتتانهم بها ونسيانهم حقّ الله تعالى، ولقد بُولغ في بيان حالَيْهم القبيحتين حيث بُيّن الغايةُ فيهما، فإنّ الاستبشار هو أن يمتلئ القلب سرورًا حتّى ينبسط له بشَرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلئ غيظًا وغمًّا ينقبض منه أديم الوجه. والعامل في ﴿إِذَا﴾ الأولى ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾، وفي الثانية ما هو العامل في "إذا" المفاجأة، تقديره: وقتَ ذكر الذين مِن دونه فاجئوا وقتَ الاستبشار.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: التجِئ إليه تعالى بالدعاء لمّا تحيّرتَ في أمر الدعوة وضجِرتَ مِن شدّة شكيمتهم في المكابرة والعناد، فإنّه القادر على الأشياء بجملتها / والعالِمُ بالأحوال برُمّتها. [١٥ظ]

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: حُكمًا يسلّمه كلّ مكابر معانِد، ويخضع له كلّ عاتٍ مارد، وهو العذابُ الدنيوي أو الأخروي.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾... إلخ كلام مستأنَف مَسوق لبيان آثار الحُكم الذي استدعاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وغايةِ شدّته وفظاعته، أي: لو أنّ لهم جميع ما في الدنيا مِن الأموال والذخائر. ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لجعلوا كلّ ذلك فدية لأنفسهم مِن العذاب الشديد، وهيهات، ولاتَ حينَ مَناص. وهذا كما ترى وعيد شديد، وإقناط كلّي لهم مِن الخلاص.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: ظهر لهم مِن فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم. وهذه غاية مِن الوعيد لا غايةَ وراءها، ونظيره في الوعد قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة، ١٧/٣٢].

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤٨﴾

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ سيّئات أعمالهم أو كسبِهم حين يُعرض عليهم صحائفهم. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: أحاط بهم جزاؤه.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩﴾

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبار عن الجنس بما يفعله غالبُ أفراده. والفاء لترتيب ما بعدها مِن المناقضة والتعكيس على ما مرّ مِن حالَتَيْهم القَبيحتين. وما بينهما اعتراض مؤكِّد للإنكار عليهم، أي: إنّهم يشمئِزّون عن ذِكر الله تعالى وحدَه، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسّهم ضرّ دعَوا مَن اشمأزّوا عن ذكره دون مَن استبشَروا بذكره.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناه إيّاها تفضّلًا، فإنّ التخويل مختصّ به لا يطلق على ما أُعطي جزاءً، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على عِلم منّي بوجوه كسبه، أو بأنّي سأُعطَاه لِما لي مِن الاستحقاق، أو على عِلمٍ مِن الله تعالى بي وباستحقاقي. والهاء لِـ"مَا" إن جُعلت موصولة، وإلّا فلِـ﴿نِعْمَةً﴾. والتذكير لِما أنّ المراد: شيئًا مِن النعمة.

[١٦و] ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ / أي: مِحنة وابتلاء له أيَشكر أم يكفر؟ وهو ردّ لِما قاله. وتغيير السَّبك للمبالغة فيه، والإيذانِ بأنّ ذلك ليس مِن باب الإيتاء المُنْبِئ عن الكرامة، وإنّما هو أمر مباين بالكلّيّة. وتأنيث الضمير باعتبار لفظ "النعمة"، أو باعتبار الخبر. وقُرئ بالتذكير.[١]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك. وفيه دلالة على أنّ المراد بالإنسان هو الجنس.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٥.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الهاء لقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾،[1] لأنّها كلمة أو جملة. وقُرئ بالتذكير.[2] والموصول عبارة عن قارونَ وقومه حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص، ٧٨/٢٨]، وهم راضون به. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ مِن متاع الدنيا ويجمعون منه.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١﴾

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ جزاء سيّئات أعمالهم، أو أجزيةُ ما كسبوا. وتسميتها ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ لأنّها في مقابلة سيّئاتهم، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى، ٤٠/٤٢]. ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين. و﴿مِنْ﴾ للبيان أو للتبعيض، أي: أفرطوا في الظلم والعتوّ.

﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ مِن الكفر والمعاصي كما أصاب أولئك. والسين للتأكيد. وقد أصابهم أيَّ إصابة حيث قُحِطوا سبعَ سنينَ، وقُتل صناديدهم يوم بدر. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: أقالوا ذلك ولم يعلموا، أو أَغفَلوا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه[3] له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمَن يشاء[4] أن يقدره له مِن غير أن يكون لأحد مَدخل مّا في ذلك، حيث حُبس عنهم الرزق سبعًا، ثمّ بسطه[5] لهم سبعًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دالّةً على أنّ الحوادث كافّةً مِن الله عزّ وجلّ.[6] ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إذ هم المستدِلّون بها على مدلولاتها.

---

١ في الآية السابقة.
٢ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٣٥/٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢١١/٩.
٣ س: يبسط.
٤ س + له.
٥ س: بسط.
٦ س: تعالى.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي. وإضافة "العباد" / تُخَصِّصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن الكريم. [١٦ظ]

﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لا تيأسوا مِن مغفرته أوّلًا وتفضّله ثانيًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفوًا لمَن يشاء ولو بَعد حينٍ بتعذيبٍ في الجملة وبغيره حسبما يشاء. وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر، كيف لا وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء، ٤/٤٨] ظاهر في الإطلاق فيما عدا الشركَ؟

وممّا يدلّ عليه التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على المبالغة، وإفادةِ الحصر، والوعدِ بالرحمة بعد المغفرة، وتقديمُ ما يستدعي عمومَ المغفرة ممّا في "عبادي" مِن الدلالة على الذلّة والاختصاصِ المُقتضيَينِ للترحّم، وتخصيصُ ضرر الإسراف بأنفسهم، والنهيُ عن القنوط مطلقًا عن الرحمة فضلًا عن المغفرة، وإطلاقُها، وتعليلُه بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾، ووضعُ الاسم الجليل موضعَ الضمير لدلالته على أنّه[١] المستغني والمنعِم على الإطلاق، والتأكيدُ بالجميع.[٢]

وما رُوي مِن أسباب النزول الدالّة على ورود الآية فيمَن تاب[٣] لا يقتضي اختصاص الحُكم بهم. ووجوب حَمل المطلق على المقيّد في كلام واحد -مثل: أكرِم الفضلاءَ أكرِم الكاملين- غير مسلَّم، فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد؟ ولا يُخِلّ بذلك الأمرُ بالتوبة والإخلاص في قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ إذ ليس المدَّعَى أنّ الآية تدلّ على حصول المغفرة لكلّ أحد مِن غير توبة وسبْقِ تعذيب لِتُغني عن الأمر بهما وتنافيَ الوعيد بالعذاب.

---

١ س: أن.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٤٦.

٣ رُوي: أنّ أهل مكّة قالوا: يزعم محمّد أنّ مَن عبَد الوَثن وقتل النفس بغير حقّ لم يغفر له، فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس؟ فنزلت. الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٤١؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/١٣٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٤٦.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: القرآنَ، أو المأمورَ به دون المنهيّ عنه، أو العزائم دون الرُّخَص، أو الناسخ دون المنسوخ. ولعلّه ما هو أنْجى وأَسْلَمُ كالإنابة والمواظبة / على الطاعة. ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ [١٧و] وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بمجيئه لتتداركوا وتتأهّبوا له.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ أي: كراهةَ أن تقول. والتنكير للتكثير كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير، ١٤/٨١]، فإنّه مسلك ربّما يُسلَكُ عند إرادة التكثير والتعميم، وقد مرّ تحقيقه في مطلع سورة الحِجر.

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ بالألِف بدلًا مِن ياء الإضافة. وقُرئ: "يَا حَسْرَتَاهْ" بهاء السَّكتِ وقفًا.[١] وقُرئ: "يَا حَسْرَتَايَ" بالجمع بين العوضَين.[٢] وقُرئ: "يَا حَسْرَتِي"[٣] على الأصلِ، أي: احضري فهذا أوانُ حضورِكِ. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي: على تفريطي وتقصيري ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: جانبه، وفي حقّه وطاعته، وعليه قول مَن قال:

أَمَا تتّقينَ اللهَ في جنب وامق   له كبِد حَرَّى وعَينٌ تَرَقْرَقُ[٤]

وهو كناية فيها مبالغة.

وقيل: في ذات الله، على تقدير مضاف، كالطاعة. وقيل: في قربه، مِن قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [النساء، ٣٦/٤]. وقُرئ: "فِي ذِكْرِ اللهِ".[٥]

---

١ قرأ بها رُويس عن يعقوب بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ١٣٦/٢.

٢ قرأ بها أبو جعفر المدني بخُلف عن ابن وَردان، والوجه الثاني لابن وَردان بإسكان الياء بعد الألف مع إشباع المدّ. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر المدني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٥.

٤ لجميل بثينة في ديوانه، ص ١١٩، بلفظ:
أما تتّقينَ الله في قتلِ عاشق
له كبِد حَرّى عليكِ تقطّعُ

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود وحفصة رضي الله عنهما. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٤.

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: المُستهزئين بدين الله تعالى وأهله. ومحلّ الجملة النصب على الحال، أي: فرّطتُ وأنا ساخر.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ بالإرشاد إلى الحقّ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِن الشرك والمعاصي.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ رجعةً إلى الدنيا، ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل. و﴿أَوْ﴾ للدلالة على أنّها لا تخلو عن هذه الأقوال تحسّرًا وتحيّرًا وتعلّلًا بما لا طائل تحته.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ردّ مِن الله تعالى عليه لِما تضمّنه قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾[1] مِن معنى النفي. وفصلُه عنه لِما أنّ تقديمه يُفرّق القرائن، وتأخيرَ المردود يُخلّ بالترتيب الوجودي؛ لأنّه يتحسّر بالتفريط ثمّ / يتعلّلُ بفَقد الهداية ثمّ يتمنّى الرجعةَ. وهو لا يمنع تأثير قُدرة الله في فعل العبد، ولا ما فيه مِن إسناد الفعل إليه كما عرفت.[2] وتذكير الخطاب باعتبار المعنى. وقُرئ بالتأنيث.[3] [١٧ظ]

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن وصَفوه بما لا يليق بشأنه كاتّخاذ

---

١ الزمر، ٥٧/٣٩.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧/٥. قال الشهاب الخفاجي: «جواب عن استدلال المعتزلة بهذه الآيات على أنّ العبد مستقِلّ في إيجاد أفعاله، فأشار إلى أنّه لا ينافي مذهب أهل الحقّ مِن أنّ فعل العبد بقدرة مِن الله وتأثيره». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٤٧/٧.

٣ بكسر الكاف مِن "جَاءَتْكِ"، والتاءات مِن "فَكَذَّبْتِ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر والجحدري، ونُسبت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر رضي الله عنه. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٥.

الولد ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم مِن الشدّة، أو بما يتخيّل عليها مِن ظلمة الجهل. والجملة حال قد اكتُفي فيها بالضمير عن الواو على أنّ الرؤية بصريّة، أو مفعول ثانٍ لها على أنّها عِرفانيّة.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ أي: مقامٌ ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة، وهو تقرير لِما قبله مِن رؤيتهم كذلك.

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك والمعاصي، أي: مِن جهنّم. وقُرئ: "يُنْجِي"[1] مِن الإنجاء. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ مصدر ميمي إمّا مِن "فاز بالمطلوب"، أي: ظفِر به، والباء متعلِّقة بمحذوف هو حال مِن الموصول، مفيدة لِمقارَنة تنجيتهم مِن العذاب لنيل الثواب، أي: ينجّيهم الله تعالى مِن مثوى المتكبّرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم الذي هو الجنّة. وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إمّا حال أخرى مِن الموصول، أو مِن ضميرِ ﴿مَفَازَتِهِمْ﴾، مفيدة لكون نجاتهم أو فوزهم بالجنّة غيرَ مسبوقة بمساس العذاب والحُزن.

وإمّا مِن "فاز منه"،[2] أي: نجا منه، والباء للملابسة، وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ﴾... إلخ تفسير وبيان لـ"مَفازتهم"، أي: يُنجّيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصّة بهم، أي: بنفي السوء والحُزن عنهم. أو للسببيّة، إمّا على حذف المضاف، أي: يُنجّيهم بسبب مفازتهم التي هي تقواهم، كما يُشعر به إيراده في حيّز الصلة، وإمّا على إطلاق المَفازة على سببها الذي هو التقوى. وليس المراد نفيَ دوام المساس والحُزن؛ بل دوامُ نفيهما كما مرّ مرارًا.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن خير وشرّ، وإيمان وكفر، لكن لا بالجبر؛ بل بمباشرة الكاسب لأسبابها. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولّى التصرّف فيه كيفما يشاء.

---

[1] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٩.

[2] السياق: مصدر ميميّ إمّا مِن "فاز بالمطلوب"... وإمّا مِن "فاز منه"...

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكّن مِن التصرّف فيها غيره، وهو عبارة عن قدرته تعالى وحفظِه لها. وفيها مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد؛ لأنّ الخزائن لا يدخلها ولا يتصرّف فيها إلّا مَن بيده مفاتيحها. وهو
[١٨و] جمع مِقلِيد أو مِقلاد، مِن "قلّدتُه" إذا ألزمتَه. وقيل: / جمعُ إقليد، معرّب: كِلِيد على الشذوذ، كالمذاكير.

وعن عثمان رضي الله عنه أنّه سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن المقاليد، فقال عليه السلام: «تفسيرها: لا إله إلّا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، هو الأوّل والآخِر، والظّاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كلّ شيء قدير».[١] والمعنى على هذا: أنّ لله هذه الكلمات، يوحَّدُ بها ويمجَّد، وهي مفاتيح خير السماوات والأرض، مَن تكلّم بها أصابه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ متّصل بما قبله. والمعنى: أنّ الله تعالى خالق لجميع الأشياء ومتصرّف فيها كيفما يشاء بالإحياء والإماتة، بيده مقاليد العالَم العلوي والسفلي. والذين كفروا بآياته التكوينيّة المنصوبة في الآفاق والأنفس والتنزيليّة التي مِن جملتها هاتيك الآياتُ الناطقة بذلك هم الخاسرون خسرانًا لا خَسار وراءه. هذا، وقيل: هو متّصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ﴾،[٢] وما بينهما اعتراض، فتدبّر.

﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾

﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ أي: أبَعد مشاهدة هذه الآيات غيرَ الله أعبُد؟ و﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ اعتراض للدلالة على أنّهم أمروه به عقيب ذلك، وقالوا: استَلِمْ بعض آلهتنا نؤمِن بإلٰهك لفَرط غباوتهم. ويجوز أن ينتصب "غيرَ"

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤/١٤١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٤٧. وأخرجه ابن السنّي في عمل اليوم والليلة، ص ٦٨. قال الحافظ المنذري: «وفيه نكارة، وقد قيل فيه: موضوع، وليس ببعيد». انظر: اتحاف الخيرة للبوصيري، ٦/٣٩٩.

٢ الزمر، ٣٩/٦١.

بما يدلّ عليه ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾؛ لأنّه بمعنى: تُعَبِّدُونَنِي، وتقولون لي: أُعبُدْ، على أنّ أصله: تأمرونني أن أعبُد، فحُذف "أن"، ورُفع ما بعدها، كما في قوله:

ألا أيّهذا الزاجري أحضُرُ الوَغا وأن أشهد اللذّاتِ هل أنت مُخلدي[1]

ويؤيّده قراءة "أَعْبُدَ" بالنصب.[2] وقُرئ: "تَأْمُرُونَنِي" بإظهارِ النُّونَينِ على الأصلِ،[3] وبحذف الثانية.[4]

﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾

﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: مِن الرسل عليهم السلام: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[5] / كلام وارد على طريقة الفَرْض [١٨ظ] لتهييج الرسل، وإقناطِ الكفَرة، والإيذانِ بغاية شَناعة الإشراك وقُبحه، وكونِه بحيث يُنهى عنه مَن لا يكاد يمكن أن يُباشره، فكيف بمَن عداه؟

وإفراد الخطاب باعتبار كلّ واحد. واللام الأولى موطّئة للقسم، والأخريانِ للجواب. وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون مِن خصائصهم؛ لأنّ الإشراك مِنهم أشدّ وأقبح، وأن يكون مقيّدًا بالموت، كما صُرّح به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ[6] حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [البقرة، ٢/٢١٧]. وعطف الخسران عليه مِن عطف المسبَّب على السبب.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ ردّ لِما أَمروه. ولولا دلالة التقديم على القصر لم يكن كذلك، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إنعامَه عليك. وفيه إشارة إلى ما يوجب الاختصاص ويقتضيه.

---

[1] لطرفة بن العبد في ديوانه بشرح الأعلم الشمنتري، ص ٤٥. ومعنى البيت: يا مَن يلومني في حضور الحرب لئلّا أُقتل، وفي أن أُنفق مالي لئلّا أفتقر، ما أنت بمخلدي إن قبلت منك، فدعني أنفق مالي في الفتوّة ولا أخلفه لغيري. شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٦/١٨٢.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها ابن خالويه عن بعضهم. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٢.

[3] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٣.

[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٣.

[5] س - ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

[6] م س ي: أولئك.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حقّ عظمته، حيث جعلوا له شريكًا، ووصَفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة. وقُرئ بالتشديد.[١]

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ تنبيه على غاية عظمته، وكمال قدرته، وحقارة الأفعال العظام التي تتحيّر فيها الأوهام بالنسبة إلى قدرته تعالى. ودلالة على أنّ تخريب العالَم أهون شيء عليه. على طريقة التمثيل والتخييل مِن غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازًا، كقولهم: شابت لِمّة الليل.

والقَبضة: المرّة مِن القَبض، أُطلقت بمعنى القُبضة -وهي المقدار المقبوض بالكفّ- تسميةً بالمصدر، أو بتقدير: ذاتُ قَبضة. وقُرئ بالنصب[٢] على الظرف تشبيهًا للموقّت بالمبهَم. وتأكيد ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ بالجميع لأنّ المراد بها الأرضون السبع، أو جميع أبعاضها البادِية والغائرة. وقُرئ: "مَطْوِيّاتٍ"[٣] على أنّها حال، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ معطوفة على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، منظومة في حكمها.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعَد وما أعلى مَن هذه قدرتُه وعظمتُه عن إشراكهم أو عمّا يشركونه مِن الشركاء!

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

[١٩و] ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الأولى، ﴿فَصَعِقَ/ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خرّوا أمواتًا أو مغشيًّا عليهم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل: هم[٤] جبريل وميكائيل وإسرافيل، فإنّهم لا يموتون بعدُ. وقيل: حمَلة العرش. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن بن عمران. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن البصري. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٦.

[٤] س ي - هم.

نفخة أخرى، هي النفخة الثانية. و﴿أُخۡرَىٰ﴾ يحتمل النصب والرفع. ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ﴾ قائمون مِن قبورهم، أو متوقِّفون. وقُرئ بالنصب[1] على أنّ الخبر ﴿يَنظُرُونَ﴾، وهو حال مِن ضميره، والمعنى: يقلِّبون أبصارهم في الجوانب كالمَبهوتين،[2] أو ينتظرون ما يُفعَلُ بهم.

﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩﴾

﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها مِن العدل، استعير له النور لأنّه يزيِّن البِقاع ويُظهر الحقوق، كما يسمّى الظلم ظُلمة. وفي الحديث: «الظُّلم ظلمات يوم القيامة»،[3] ولذلك أضيف الاسم الجليل إلى ضمير ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾. أو بنور خلَقَه فيها بلا توسّط أجسام مضيئة، ولذلك أُضيف إلى الاسم الجليل.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ الحساب والجزاء، مِن وضع المحاسِب كتاب المحاسبة بين يديه، أو صحائف الأعمال في أيدي العمّال. واكتفى باسم الجنسِ عن الجمعِ. وقيل: اللوح المحفوظ يقابَلُ به الصحائف.

﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ للأمم وعليهم مِن الملائكة والمؤمنين، وقيل: المستشهَدون. ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم﴾ بين العباد ﴿بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد.

﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾

﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي: جزاءَه، ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ فلا يفوته شيءٌ مِن أفعالهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٦.

٢ بَهِتَ الرجل -بالكسر- إذا دَهِش وتَحيّر. وبَهُتَ بالضمّ مثله، وأفصَحُ منهما بُهِتَ، يقال: رجل مَبهوت. انظر: الصحاح للجوهري، «بهت».

٣ صحيح البخاري، ١٢٩/٣ (٢٤٤٧)؛ صحيح مسلم، ١٩٩٦/٤ (٢٥٧٨).

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾... إلخ تفصيل للتوفية، وبيان لكيفيّتها، أي: سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجًا متفرِّقةً بعضها في إثر بعض، مترتّبة حسب تَرتُّب طبقاتهم في الضلالة والشرارة. والزُّمَر: جمع زُمرة، واشتقاقها مِن الزَّمرِ، وهو الصوت؛ إذ الجماعة لا تخلو عنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ليَدخلوها. و﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي تُحكى بعدها الجملة. وقُرئ بالتشديد.[١] ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ مِن جنسكم. وقُرئ: "نُذُرٌ مِنكُم".[٢] ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ أي: وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار. وفيه دليل على أنّه لا تكليف قبل الشرعِ مِن حيث إنّهم علّلوا توبيخهم بإتيان الرسلِ وتبليغ الكتب.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد أتَونا وأنذَرونا، ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حيث قال الله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، وقد كنّا ممّن تبعه وكذّبنا الرسل، وقلنا: ما نزّل مِن شيء، إن أنتم إلّا تكذبون.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقدَّرًا خلودُكم فيها. وإبهام القائلِ لتهويل المَقول. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام للجنس. والمخصوص بالذمّ محذوف ثقةً بذكره آنفًا، أي: فبئس مثواهم جهنّم. ولا يقدح ما فيه مِن الإشعار بأنّ كون مثواهم جهنّم لتكبّرهم عن الحقّ في أنّ دخولهم النار

---

١ أي: "فُتِّحَتْ"، قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري مِن غير نسبة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٦/٤.

لسبق كلمة العذاب عليهم، فإنّها إنّما حقّت عليهم بناءً على تكبّرهم وكفرهم. وقد مرّ تحقيقه في سورة ﴿الٓمٓ﴾ السجدة.[١]

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ مساقَ إعزاز وتشريف للإسراعِ بهم إلى دار الكرامة. وقيل: سيق مراكبهم؛ إذ لا يُذهب بهم إلّا راكبين. ﴿زُمَرًا﴾ متفاوتين حَسْبَ تفاوت مراتبهم في الفضل وعلوّ الطبقة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وقُرئ بالتشديد.[٢] وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف للإيذان بأنّ لهم حينئذٍ مِن فُنون الكرامات ما لا يُحدِق به نطاق العبارات، كأنّه قيل: حتّى إذا جاءوها وقد فُتحت أبوابها. ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ مِن جميع المكاره والآلام، ﴿طِبۡتُمۡ﴾ طَهُرتم مِن دنس المعاصي، أو طِبتم نفْسًا بما أُتيح لكم مِن النعيم. ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ كان ما كان ممّا يقصر عنه البيان.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

/ ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ بالبعث والثواب، ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ [١٩ظ] يريدون المكان الذي استقرّوا فيه على الاستعارة، وإيراثُها تمليكُها مخلّفة عليهم مِن أعمالهم، أو تمكينُهم مِن التصرّف فيها تمكينَ الوارث فيما يرثه.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ﴾ أي: يتبوّء كلّ واحد منّا في أيّ مكان أراده مِن جنّته الواسعة، على أنّ فيها مقاماتٍ معنويّةً لا يتمانع وارِدوها. ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ الجنّةُ.

---

١ عند قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة، ١٣/٣٢].

٢ أي: "وَفُتِّحَتْ"، قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ مُحدِقين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: حولَه. و﴿مِنْ﴾ مزيدة، أو لابتداء الحُفوف. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزّهونه تعالى عمّا لا يليق به ملتبسين بحمده. والجملة حال ثانية، أو مقيِّدة للأولى. والمعنى: ذاكرين له تعالى بوصفَي جلاله وإكرامه تلذّذًا به. وفيه إشعار بأنّ أقصى درجات العلّيّين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في شئونه عزّ وجلّ.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بين الخَلق، بإدخال بعضهم النارَ وبعضهم الجنّة. أو بين الملائكة، بإقامتهم في منازلهم على[1] حسب تفاضلهم.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على ما قضى بيننا بالحقّ، وأنزَل كلًّا منّا منزلته التي هي حقّه. والقائلون هم المؤمنون ممّن قضي بينهم، والملائكة، وطيّ ذكرهم لتعيّنهم وتعظيمهم.

عنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الزُّمر لم يقطعِ الله تعالى رجاءه يومَ القيامة، وأعطاه ثواب الخائفين».[2]

وعن عائشة رضي الله عنها أنّه عليه السلام كان يقرأ كلَّ ليلة: بني إسرائيل، والزُّمر.[3]

---

[1] س - على.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٠/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٦٩/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

[3] الكشّاف للزمخشري، ١٤٨/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٠/٥. وهو في سنن الترمذي، ٤٧٥/٥ (٣٤٠٥)، بلفظ: قالت عائشة: «كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا ينام حتى يقرأ: الزمر، وبني إسرائيل». | وسورة بني إسرائيل هي سورة الإسراء.

٣٩

سُورَةُ الزُّمَرِ

مكية إلاّ «قل يا عباديَ الذين أسرفوا» الآيةَ فمدنية، وهي خمس وسبعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾: القُرآنِ، مبتدأٌ ﴿مِنَ اللهِ﴾: خبرُه، ﴿العَزِيزِ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمِ﴾ في صُنعه.
٢ ـ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿الكِتَابَ بِالحَقِّ﴾: مُتعلّق بـ«أنزل». ﴿فاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ من الشِّرك، أي: مُوحّدًا له.

٣ ـ ﴿أَلا لِلهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾، لا يستحقّه غيره، ﴿والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ الأصنامَ ﴿أَولِيَاءَ﴾ ـ وهم كُفّار مكّة ـ قالوا: ﴿ما نَعبُدُهُم إلاّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلفَى﴾:..........

سُورَةُ الزُّمَرِ

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ) أو خبرُ محذوفٍ مثلَ: هذا.

قولُهُ: (خَبَرُهُ) أو خبرٌ ثانٍ.

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ بـ«أَنزَل») أي: بسببِ إثباتِ الحقِّ وإظهارِهِ وتفصيلِهِ.

قولُهُ: (مِنَ الشِّركِ) والرِّياءِ.

قولُهُ: (أي: مُوَحِّداً لَهُ) أي: الطَّاعةَ، قيل: الإخلاصُ في العملِ أشدُّ من العملِ.

قولُهُ: (لا يَستَحِقُّهُ غَيرُهُ) أو: لا يَقبلُ سواهُ.

قولُهُ: (الأَصنَامَ) مفعولٌ أوَّلُ.

قولُهُ: (وهُم كُفَّارُ مَكَّةَ) أُضمِروا من غيرِ ذكرٍ لدلالةِ المساقِ عليهم.

قولُهُ: (قَالُوا) خبرٌ لـ﴿الَّذِينَ﴾ وبه قُرِئَ[1].

---

(١) أي: (قالوا ما نعبدهم) ونسبت لابن عباس ومجاهد، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤١٣).

قُرَبَى مصدر بمعنى: تقريبًا. ﴿إِنَّ اللهَ يَحكُمُ بَينَهُم﴾ وبين المسلمين﴿فِيما هُم فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين، فيُدخل المؤمنين الجنّة والكافرين النار. ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهدِي مَن هُوَ كاذِبٌ﴾ في نِسبة الولد إلى الله ﴿كَفّارٌ﴾ بعِبادته غيرَ الله.

٤ ـ ﴿لَو أَرادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما قالوا: «اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَدًا» ﴿لَاصطَفَى مِمّا يَخلُقُ ما يَشاءُ﴾ واتّخذه ولدًا غيرَ مَن قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وعُزيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله. ﴿سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له عن اتّخاذ الولد. ﴿هُوَ اللهُ الواحِدُ القَهّارُ﴾ لخلقه! ٥ ـ ﴿خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ﴾: مُتعلّق بـ«خلق»، ﴿يُكَوِّرُ﴾: يُدخِل ﴿اللَّيلَ عَلَى النَّهارِ﴾ فيزيد، ﴿ويُكَوِّرُ النَّهارَ﴾: يُدخِله ﴿عَلَى اللَّيلِ﴾ فيزيد، ﴿وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلٌّ يَجرِي﴾ في فلَكه ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾: لِيوم القِيامة. ﴿أَلا هُوَ العَزِيزُ﴾: الغالب على أمره المُنتقم من أعدائه ﴿الغَفّارُ﴾ لأَوليائه.

٦ ـ ﴿خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدةٍ﴾ أي: آدم ـ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنها زَوجَها﴾ حوّاءَ ـ ﴿وأَنزَلَ لَكُم مِنَ الأَنعامِ﴾: الإبلِ والبقر والغنم الضأنِ والمعزِ ﴿ثَمانِيَةَ أَزواجٍ﴾ من كُلٍّ زوجانِ: ذكر وأُنثى كما بيّنَ في سورة «الأنعام»، ﴿يَخلُقُكُم في بُطُونِ أُمَّهاتِكُم خَلقًا مِن بَعدِ خَلقٍ﴾ أي: نُطَفًا ثمّ عَلَقًا ثمّ مُضَغًا، ﴿في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾..

قولُهُ: (وبَينَ المُسلِمِينَ) الظّاهِرُ: بين المسلمينَ والكافرينَ؛ لأنَّ الضَّميرَ فيما قبلَهُ راجعٌ إلى الأصنامِ، وفيما بعدَهُ إلى الفريقينِ.

قولُهُ: (واتَّخَذَهُ وَلَداً) يعني: لكنْ ما أرادَهُ، وفيه: أنَّ هذا غيرُ ملائمٍ للتَّنزيهِ المطلقِ الدالِّ عليه الوحدانيَّةُ والقهاريَّةُ، والأظهرُ ما في «المداركِ»: لو جازَ اتِّخاذُ الولدِ[1].

قولُهُ: (يُدخِلُ) أي: يُغَشِّي كلَّ واحدٍ منهما الآخرَ، كأنَّه يُلفُّ عليه لفَّ اللِّباسِ على اللَّابسِ.

قولُهُ: (لِيومِ القِيامَةِ) فإنَّه منقطَعُ حركتِهِ، وقيل: هو منتَهَى دورِهِ.

قولُهُ: (لأَولِيائِهِ) غيرُ عجولٍ بالانتقامِ على أعدائِهِ.

قولُهُ: (الإِبلِ) أي: قضى أو قسَمَ لكم، فإنَّ قضاياهُ وقِسَمَهُ توصَفُ بالنُّزولِ من السَّماءِ حيثُ كتبَ في اللَّوحِ، وقيل: خلقَها في الجنَّةِ ثمَّ أنزَلها.

قولُهُ: (ثُمَّ مُضَغاً) ثمَّ عِظاماً عاريةً، ثمَّ عظاماً مكسوَّةً، ثمَّ حيواناً سويًّا.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ١٦٩).

هي: ظُلمة البطن وظُلمة الرحم وظُلمة المَشيمة. ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم، لَهُ المُلكُ، لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ. فأنّى تُصرَفُونَ﴾ عن عِبادته إلى عِبادة غيره؟

٧ ـ ﴿إن تَكفُرُوا فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عَنكُم، ولا يَرضَى لِعِبادِهِ الكُفرَ﴾، وإن أراده من بعضهم، ﴿وإن تَشكُرُوا﴾ اللهَ فتؤمنوا ﴿يَرضَهْ﴾ ـ بسكون الهاء، وضمّها مع إشباع ودونَه ـ أي: الشُّكرَ ﴿لَكُم، ولا تَزِرُ﴾ نفسٌ ﴿وازِرةٌ وِزرَ﴾ نفسٍ ﴿أُخرَى﴾ أي: لا تحمله، ﴿ثُمَّ إلَى رَبِّكُم مَرجِعُكُم، فيُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلُونَ. إنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما في القُلوب.

٨ ـ ٩ ـ ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ﴾ أي: الكافرَ ﴿ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيبًا﴾: راجعًا ﴿إلَيهِ، ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعمَةً﴾: أعطاه إنعامًا ﴿مِنهُ نَسِيَ﴾: ترك ﴿ما كانَ يَدعُو﴾: يتضرّعُ ﴿إلَيهِ مِن قَبلُ﴾ وهو الله ـ فما: في موضع: مَن ـ ﴿وجَعَلَ لِلهِ أندادًا﴾: شُركاءَ ﴿لِيَضِلَّ﴾، بفتح الياء وضمّها، ﴿عَن سَبِيلِهِ. قُلْ: تَمَتَّعْ بِكُفرِكَ قَلِيلاً﴾: بقيّةَ أجلك. ﴿إنَّكَ مِن أصحابِ النّارِ. أمَن﴾، بتخفيف الميم،...........................

قولُهُ: (المَشِيمَةِ) محلّ الولدِ.

قولُهُ: (وإنْ أرَادَهُ) ففرَّقَ بين الرِّضا والإرادةِ، وهو مذهبُ كثيرٍ من السَّلفِ، وقالَ جماعةٌ منهُم[1]: معناهُ: أنَّ اللهَ لا يرضى لعبادِهِ المؤمنينَ الكفرَ.

قولُهُ: (بسُكُونِ الهَاءِ) سُوسيٌّ ودُوريٌّ وهشامٌ بخلفٍ عنهما[2].

قولُهُ: (مَعَ إِشبَاعٍ) لابنِ كثيرٍ والدُّوريِّ وابنِ ذكوانَ والكسائيِّ[3].

قولُهُ: (وهُو اللهُ) أو الضُّرُّ الَّذي كانَ يَدعو اللهَ إلى كشفِهِ.

قولُهُ: (بفَتحِ اليَاءِ) مكّيٌّ وبصريٌّ[4].

قولُهُ: (بَقِيَّةَ أَجَلِكَ) أمرُ تهديدٍ.

قولُهُ: (بتَخفِيفِ المِيمِ) حِرْميٌّ وحمزةُ[5].

---

(١) ومنهم السدي، رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٠).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٠)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٠٥).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٠)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٠٥).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٦٧)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٦٥).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦١)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٦٥).

﴿هُوَ قَانِتٌ﴾: قائم بوظائف الطاعات ﴿آناءَ اللَّيلِ﴾: ساعاتِه ﴿ساجِدًا وقائمًا﴾ في الصلاة، ﴿يَحذَرُ الآخِرَةَ﴾ أي: يخاف عذابها، ﴿ويَرجُو رَحْمَةَ﴾: جنّةَ ﴿رَبِّهِ﴾، كمن هو عاصٍ بالكُفر أو غيره؟ وفي قراءة: «أم مَن» بمعنى: بل والهمزة. ﴿قُلْ: هَل يَستَوِي الَّذِينَ يَعلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعلَمُونَ﴾؟ أي: لا يستويان كما لا يستوي العالم والجاهل. ﴿إنَّما يَتَذَكَّرُ﴾: يتّعظ ﴿أُولُو الألبابِ﴾: أصحاب العُقول.

١٠ ـ ﴿قُلْ: ياعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ أي: عذابَه بأن تُطيعوه. ﴿لِلَّذِينَ أحسَنُوا في هذِهِ الدُّنيا﴾ بالطاعة ﴿حَسَنَةٌ﴾ هي الجنّة، ﴿وأرضُ اللهِ واسِعةٌ﴾. فهاجروا إليها من بين الكُفّار ومُشاهدة المُنكرات. ﴿إنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ﴾ على الطاعة وما يُبتلَون به ﴿أجرَهُم بِغَيرِ حِسابٍ﴾: بغير مِكيال ولا مِيزان.

١١ ـ ﴿قُلْ: إنِّيَ أُمِرتُ أن أعبُدَ اللهَ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ من الشِّرك، ١٢ ـ ﴿وأُمِرتُ لِأَنْ﴾ أي: بأن ﴿أكُونَ أوَّلَ المُسلِمِينَ﴾ من هذه الأُمّة. ١٣ ـ ١٤ ـ ﴿قُلْ: إنِّيَ أخافُ، إن عَصَيتُ رَبِّي، عَذابَ يَومٍ عَظِيمٍ. قُلِ: اللهَ أعبُدُ مُخلِصًا لَهُ دِينِي﴾ من الشِّرك. ١٥ ـ ﴿فاعْبُدُوا ما شِئتُم مِن دُونِهِ﴾: غيرَه. فيه تهديد لهم وإيذان بأنهم لا يعبدون الله تعالى.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) هذا قد مرَّ[1]، ولعلَّهُ كرَّرَهُ ليرتِّبَ عليه ما بعدَهُ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: بَلْ) فـ(أم) منقطعةٌ، وقيل: متَّصلةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: الكافرُ خيرٌ أمَّن هو قانتٌ.

قولُهُ: (أي: لا يَستَوِيَانِ) يعني: القانتينَ وغيرَهُم، فيكونُ تقديرًا للأوَّلِ على سبيلِ التَّشبيهِ، وقيل: نفيٌ لاستواءِ الفريقينِ باعتبارِ القوَّةِ العلميَّةِ بعدَ نفيِهِ باعتبارِ القوَّةِ العمليَّةِ على وجهٍ أبلغَ لمزيدِ فضْلِ العلمِ.

قولُهُ: (يتَّعِظُ) بأمثالِ هذهِ البياناتِ.

قولُهُ: (أي: عَذَابَهُ) أو: مخالفتَهُ.

قولُهُ: (هِيَ الجَنَّةُ) أي: مثوبةٌ حسنةٌ، وقيل: هي الصِّحَّةُ والعافيةُ.

قولُهُ: (ومَا يُبْتَلُونَ بِهِ) مِن مُهاجرةِ الأوطانِ وغيرِها.

قولُهُ: (بِغَيرِ مِكيَالٍ) أي: أجراً لا يهتدي إليه حسابُ الحسَّابِ.

قولُهُ: (أي: بِأَنْ) يعني: اللَّامُ زائدةٌ كما في: أردتُ لأنْ أفعلَ، وتقدَّرُ الباءُ، أو أرادَ أنَّ اللَّامَ بمعنى الباءِ على القولِ بأنَّ الحروفَ تتناوَبُ، والأحسنُ ما قالَ القاضي: أمِرتُ بذلك لأجلِ أن أكونَ مقدَّمَهُم في الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّ إحرازَ السَّبقِ في الدَّارينِ بالإخلاصِ[2].

---

(١) أي: عند قوله السابق: «بتخفيف الميم».

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣٩).

﴿قُلْ: إِنَّ الخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُم وأهلِيهِم يَومَ القِيامةِ﴾ بتخليد الأنفس في النار، وبعدم وصولهم إلى الحُور المُعدّة لهم في الجنّة، لو آمنوا. ﴿ألا ذلِكَ هُوَ الخُسرانُ المُبِينُ﴾: البيّنُ. ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ﴿لَهُم مِن فَوقِهِم ظُلَلٌ﴾: طِباق ﴿مِنَ النّارِ ومِن تَحتِهِم ظُلَلٌ﴾ من النار. ﴿ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ﴾ أي: المؤمنين ليتّقوه ـ يدلّ عليه: ﴿يا عِبادِ، فاتَّقُونِ ـ والَّذِينَ اجتَنَبُوا الطّاغُوتَ﴾: الأوثانَ ﴿أن يَعبُدُوها، وأنابُوا﴾: أقبلوا ﴿إلَى اللهِ، لَهُمُ البُشرَى﴾ بالجنّة. ﴿فبَشِّرْ عِبادِيَ الَّذِينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فيَتَّبِعُونَ أحسَنَهُ﴾، وهو ما فيه فلاحهم. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ، وأُولئِكَ هُم أُولُو الألبابِ﴾: أصحاب العقول.

١٩ ـ ﴿أفمَن حَقَّ علَيهِ كَلِمةُ العَذابِ﴾، هي: «لَأملأنَّ جَهَنَّمَ» الآيةَ، ﴿أفأنتَ تُنقِذُ﴾: تُخرج ﴿مَن في النّارِ﴾؟ جوابُ الشرط. وأُقيم فيه الظاهر مَقام المُضمر، والهمزةُ: للإنكار. والمعنى: لا تقدرُ على هِدايته فتُنقذَه من النار. ٢٠ ـ ﴿لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُم﴾ بأن أطاعوه ﴿لَهُم غُرَفٌ، مِن فَوقِها غُرَفٌ، مَبنِيّةٌ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ﴾ ....

قولُهُ: (وبِعَدَمِ وُصُولِهِم) أو: الَّذينَ خَسِروا أنفسَهُم بالضَّلالِ وأهليهم بالإضلالِ؛ أي: ظهرَ خسرانُهُم يومَ القيامةِ.

قولُهُ: (طِبَاقٌ) أو أطباقٌ.

قولُهُ: (مِنَ النَّارِ) وهي ظُلَلٌ للآخَرينَ، جمعُ: ظلَّةٍ.

قولُهُ: (أي: المُؤمِنِينَ) الظَّاهرُ: تعميمُ التَّخويفِ وتخصيصُ النِّداءِ.

قولُهُ: (الأَوثَانَ) وقالَ القاضي: الشَّيطانَ[1]، والأظهرُ: كلُّ ما عُبِدَ من دونِ اللهِ أو أُطِيعَ، وقالَ سهلٌ: الطَّاغوتُ: الدُّنيا[2].

قولُهُ: (أَقبَلُوا) بكلِّيَّتِهم عمَّا سواهُ.

قولُهُ: (بالجَنَّةِ) أو بالثَّوابِ على ألسنةِ الرُّسلِ، أو الملائكةِ عندَ حضورِ الموتِ.

قولُهُ: (والهَمزَةُ: للإنكَارِ) وإعادتُها لمزيدِ التَّأكيدِ.

قولُهُ تعالى: (﴿مَبنِيَّةٌ﴾) لعلَّها إشارةٌ إلى أنَّ الغُرفَ عوالي[3] حسِّيَّةٌ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٣٣).

(٣) كذا في النسخ، والجادة: «عوالٍ».

أي: من تحت الغُرف الفَوقانيّة والتحتانيّة، ﴿وَعْدَ اللهِ﴾: منصوب بفعله المُقدَّر، ﴿لا يُخلِفُ اللهُ المِيعادَ﴾: وعدَه.

٢١ - ﴿أَلَم تَرَ﴾: تعلمْ ﴿أنَّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فسَلَكَهُ يَنابِيعَ﴾: أدخله أمكنةَ نبعٍ ﴿في الأرضِ، ثُمَّ يُخرجُ بِهِ زَرعًا مُختَلِفًا ألوانُهُ، ثُمَّ يَهِيجُ﴾: يَيبَسُ، ﴿فتَراهُ﴾ بعد الخُضرة مَثلاً ﴿مُصفَرًّا، ثُمَّ يَجعَلُهُ حُطامًا﴾: فُتاتًا؟ ﴿إنَّ في ذلِكَ لَذِكرَى﴾: تذكيرًا، ﴿لِأُولِي الألبابِ﴾ يتذكّرون به لدلالته على وحدانيّة الله - تعالى - وقُدرته. ٢٢ - ﴿أفمَن شَرَحَ اللهُ صَدرَهُ لِلإسلامِ﴾ فاهتدى، ﴿فهُوَ علَى نُورٍ مِن رَبِّهِ﴾، كمن طَبع على قلبه؟ دلَّ على هذا: ﴿فوَيلٌ﴾: كلمةُ عذاب ﴿لِلقاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِن ذِكرِ اللهِ﴾ أي: عن قَبول القُرآن. ﴿أُولئِكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ.

قولُهُ: (بِفِعْلِهِ) أو مصدرٌ مؤكِّدٌ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ في معنى الوعدِ.

قولُهُ: (أَمكِنَةَ نَبْعٍ) هي عيونٌ ومجارٍ كائنةٌ فيها.

قولُهُ تعالى: (﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾) أي: أصنافُهُ من بُرٍّ وشعيرٍ وغيرِهما، أو: كيفيَّاتُه مِن خضرةٍ وحمرةٍ وغيرِهِما.

قولُهُ: (يَيْبَسُ) لأنَّهُ إذا يبسَ حانَ له أن يثورَ عن منبتِه.

قولُهُ: (دَلِيلاً)[1] أو بأنَّه مثلُ الحياةِ الدُّنيا فلا يُغتَرَّ بها.

قولُهُ: (فاهْتَدَى) وعنهُ ﷺ: «إذا دخَلَ النُّورُ القلبَ[2] انشرحَ وانفسَحَ»، قيلَ: فما علامةُ ذلك؟ قالَ: «الإنابةُ إلى دارِ الخلودِ، والتَّجافي عن دارِ الغرورِ، والتَّأهُّبُ للموتِ قبلَ نزولِهِ»، رواهُ الحاكمُ وغيرُهُ[3].

قولُهُ: (عَلى هَذَا) أي: على خبرِ (مَنْ) المحذوفِ.

قولُهُ: (عَن قَبُولِ القُرآنِ) أو: من أجلِ ذكرِه، وهو أبلغُ من أن يكونَ (عن) مكان ﴿مِن﴾؛ لأنَّ القاسيَ من أجلِ الشَّيءِ أشدُّ تأبّيًا عن قبولِه من القاسي عنه لسببٍ آخرَ.

قولُهُ: (بيِّنٍ) يظهرُ للنَّاظرِ بأدنى نَظرٍ.

---

(١) الذي في المتن: «لدلالته».

(٢) في (م): «قلب المؤمن».

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٣١٥)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١٣١)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٦٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

٢٣ ـ ﴿اللهُ نَزَّلَ أحسَنَ الحَدِيثِ، كِتابًا﴾: بدلٌ من «أحسنَ» أي: قُرآنًا ﴿مُتَشابِهًا﴾ أي: يُشبه بعضه بعضًا في النظم وغيره، ﴿مَثانِيَ﴾: ثُنِيَ فيه الوعدُ والوعيد وغيرُهما، ﴿تَقشَعِرُّ مِنهُ﴾: ترتعد عِند ذِكر وعيده ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم، ثُمَّ تَلِينُ﴾: تطمئنّ ﴿جُلُودُهُم وقُلُوبُهُم إلَى ذِكرِ اللهِ﴾ أي: عِندَ ذِكر وعده. ﴿ذلِكَ﴾ أي: الكتاب ﴿هُدَى اللهِ، يَهدِي بِهِ مَن يَشاءُ، ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لَهُ مِن هادٍ﴾.
٢٤ ـ ﴿أفمَن يَتَّقِي﴾: يلقى ﴿بِوَجهِهِ سُوءَ العَذابِ يَومَ القِيامةِ﴾ أي: أشدَّه بأن يُلقى في النار مغلولةً يداه إلى عُنقه كمن أمِنَ منه بدُخول الجنّة؟ ﴿وقِيلَ لِلظّالِمِينَ﴾ أي: كُفّارِ مكّة: ﴿ذُوقُوا ما كُنتُم تكسِبُونَ﴾ أي: جزاءه.

٢٥ ـ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ رُسلَهم في إتيان العذاب، ﴿فأتاهُمُ العَذابُ مِن حَيثُ لا يَشعُرُونَ﴾: من جِهةٍ لا تخطر ببالهم، ٢٦ ـ ﴿فأذاقَهُمُ اللهُ الخِزيَ﴾: الذّلّ والهوان من المسخ والقتل وغيرهما ﴿في الحَياةِ الدُّنيا. ولَعَذابُ الآخِرةِ أكبَرُ. لَو كانُوا﴾ أي المُكذّبون ﴿يَعلَمُونَ﴾ عذابها ما كذّبوا.

٢٧ ـ ﴿ولَقَد ضَرَبْنا﴾: جعلنا ﴿لِلنّاسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ، لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتّعظون، ٢٨ ـ ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾: حالٌ مُؤكّدة، ﴿غَيرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: لَبسٍ واختلاف، ﴿لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ الكُفر.

قولُهُ: (بَدَلٌ مِنْ: ﴿أَحْسَنَ﴾) أو حالٌ منه.

قولُهُ: (في النَّظمِ) أي: تَجاوُبه.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) من وجوهِ الإعجازِ وصحَّةِ المعنى والدِّلالةِ على المنافعِ العامَّةِ.

قولُهُ: (وغَيرُهُمَا) مِنَ الحلالِ والحرامِ وسائرِ الأحكامِ، وقصصِ الأنبياءِ عليهِم السَّلامُ.

قولُهُ: (تَطمَئِنُّ) يعني: التَّعديةُ بـ﴿إلَى﴾ لتضمينِ معنى السُّكونِ والاطمئنانِ.

قولُهُ: (يَلقَى) معلومٌ؛ أي: يجعلُهُ درقَةً لأنَّهُ يقي به نفسَهُ.

قولُهُ: (بِأنْ يُلقَى) مَجهولٌ.

قولُهُ: (إلى عُنُقِهِ) فلا يقدرُ أن يتَّقي إلَّا بوجهِهِ.

قولُهُ: (كمَنْ أَمِنَ) أو: كمَنْ هو آمنٌ، فحُذِفَ الخبرُ كما حُذِفَ في نظائرِهِ.

قولُهُ: (أي: كُفَّارِ مَكَّةَ) وغيرِهِم.

قولُهُ: (وغَيرِهِمَا) من السَّبيِ والإجلاءِ.

قولُهُ: (حَالٌ مُؤَكِّدةٌ) من هذا، والاعتمادُ فيها على الصِّفةِ كقولك: جاءَني زيدٌ رجلاً صالحاً، أو مدحٌ له.

قولُهُ: (أي: لَبْسٍ) يعني: لا اختِلالَ فيه بوجهٍ ما، فهو أبلغُ منَ المستقيمِ، وقيل: غيرَ مخلوقٍ.

٢٩ ـ ﴿ضَرَبَ اللهُ﴾ للمُشرك والمُوحِّد ﴿مَثَلاً رَجُلاً﴾: بدلٌ من «مثلاً» ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾: متنازعون سيِّئةٌ أخلاقُهم، ﴿ورَجُلاً سالِمًا﴾: خالصًا ﴿لِرَجُلٍ. هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً﴾؟ تمييزٌ، أي: لا يستوي العبد لجماعة والعبد لواحد. فإنّ الأوّل إذا طلَبَ منه كُلٌّ من مالكيه خِدمته في وقت واحد تحيَّر فيمن يخدمه منهم. وهذا مَثل للمُشرك، والثاني مَثل للمُوحِّد. ﴿الحَمْدُ لِلّهِ﴾ وحدَه. ﴿بَلْ أكثَرُهُم﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه من العذاب فيُشركون.

٣٠ ـ ﴿إنَّكَ﴾ ـ خِطاب للنبيّ ـ ﴿مَيِّتٌ وإنَّهُم مَيِّتُونَ﴾: ستموت ويموتون، فلا شماتةَ بالموت ـ نزلتْ لمّا استبطؤوا موته ﷺ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿ثُمَّ إنَّكُم﴾، أيها الناس، فيما بينكم من المظالم ﴿يَومَ القِيامةِ عِندَ رَبِّكُم تَختَصِمُونَ. فمَن﴾ أي: لا أحدَ ﴿أظلَمُ مِمَّن كَذَبَ علَى اللهِ﴾ بِنسبة الشريك والولد إليه، ﴿وكَذَّبَ بِالصِّدقِ﴾: بالقرآن، ﴿إذ جاءَهُ؟ ألَيسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾: مأوًى ﴿لِلكافِرِينَ﴾؟ بلى.

٣٣ ـ ﴿والَّذِي جاءَ بِالصِّدقِ﴾ هو النبيّ، ﴿وصَدَّقَ بِهِ﴾، هم المؤمنون ـ فالذي بمعنى: الذين ـ ﴿أُولئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾ الشِّركَ،........................

قولُه: (سَيِّئةٌ أخلاقُهم) في «القاموسِ»: ﴿متشاكسُونَ﴾: متخالِفونَ عسِرونَ(١).

قولُهُ: (خَالِصاً) وقرأ غيرُ المكيِّ والبصريِّ: (سلَمًا) بفتحتينِ(٢).

قولُهُ: (تَميِيزٌ) ولذلك وحَّدَه؛ أي: صِفةً وحالاً.

قولُهُ: (وَحدَهُ) لا يشاركُهُ في الحقيقةِ سواهُ؛ لأنَّهُ المنعِمُ بالذَّاتِ والمالِكُ على الإطلاقِ.

قولُهُ: (مَا يَصِيرُونَ) أو: مضمُونَ المثلِ، فيشرِكونَ به غيرَهُ من فَرْطِ جهلِهِم.

قولُهُ: (أَيُّهَا النَّاسُ) فيه تغليبُ المخاطَبِ على الغُيَّبِ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: الَّذِينَ) يعني: للجِنسِ المتناوِلِ للرُّسلِ والمؤمنينَ، وقيل: هو النَّبيُّ والمرادُ: هو ومَن تبعَهُ، قالَ القاضي: وقيل: الجائي الرَّسولُ والمصدِّقُ أبو بكرٍ، وذلك يقتضِي إضمارَ (الَّذي) وهو غيرُ جائزٍ(٣). انتهى.

قلتُ: ثبتَ هذا عن السَّلفِ بِرواياتٍ متعدِّدةٍ على ما في «الدُّرِّ»(٤)،........................

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٥٥٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٩).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٤٢).

(٤) انظر: «الدر المنثور» (٧/ ٢٢٨).

٣٤ ـ ﴿لَهُم ما يَشاؤُونَ عِندَ رَبِّهِم. ذٰلِكَ جَزاءُ المُحسِنِينَ﴾ لأنفسهم بإيمانهم، ٣٥ ـ ﴿لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنهُم أسوَأَ الَّذِي عَمِلُوا، ويَجزِيَهُم أجرَهُم بِأحسَنِ الَّذِي كانُوا يَعمَلُونَ﴾. أسوأُ وأحسنُ بمعنى: السيّئ والحَسَن.

٣٦ ـ ٣٧ ـ ﴿ألَيسَ اللهُ بِكافٍ عَبدَهُ﴾ أي: النبيَّ؟ بلى، ﴿ويُخَوِّفُونَكَ﴾ ـ الخِطابُ له ـ ﴿بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: الأصنامِ أن تقتله أو تَخبِله، ﴿ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لَهُ مِن هادٍ، ومَن يَهدِ اللهُ فما لَهُ مِن مُضِلٍّ. ألَيسَ اللهُ بِعَزِيزٍ﴾: غالبٍ على أمره ﴿ذِي انتِقامٍ﴾ من أعدائه؟ بلى.

٣٨ ـ ﴿ولَئِن﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿سَألتَهُم: مَن خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ. قُل: أفَرَأَيتُم ما تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: الأصنامَ؟ ﴿إن أرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ، هَل هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ﴾؟ لا، ﴿أو أرادَنِي بِرَحمَةٍ، هَل هُنَّ مُمسِكاتُ رَحمَتِهِ﴾؟ لا. وفي قراءة بالإضافة، فيهما. ﴿قُل: حَسبِيَ اللهُ. علَيهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ﴾: يثق الواثقون.

وفي روايةٍ: المصدِّقُ: عليٌّ[1]، فيُحمَلُ على مذهبِ الكوفيِّينَ والأخفشِ من جوازِ إضمارِ (الَّذي) إن كانَ المرادُ به المصدِّقَ أوَّلاً، ويمكنُ أن يكونَ مرادُهُم: مَثَلاً، فيكونُ كلٌّ داخلاً دخولاً أوَّليًّا في المؤمنينَ فلا يحتاجُ إلى إضمارٍ، واللهُ أعلمُ.

قولُهُ: (لِأَنفُسِهِم) على إحسانِهِم.

قولُهُ: (بِمَعنَى: السَّيِّئِ) أو ﴿أسوَأَ﴾ على بابِهِ؛ لأنَّه إذا كُفِّرَ فالسَّيِّئُ بالأَولى، والأحسنُ أن يكونَ الأحسنُ على بابِهِ أيضاً بأن يجزيَهُ على عملِهِ الحسنِ جزاءً، والأحسنِ فضلاً وإحساناً.

قولُهُ: (أي: النَّبِيَّ) ويحتملُ: الجنسَ، ويؤيِّدُهُ قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ: (عبادَهُ)[2] وفُسِّرَ بالأنبياءِ.

قولُهُ: (أو تَخبِلَهُ) بعَيبِه إيَّاها، التَّخبيلُ: إفسادُ العقلِ.

قولُهُ: (تَعبُدُونَ) أو: تطلبُونَ النَّفعَ والدَّفعَ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ البصريِّ[3].

قولُهُ: (فِيهِمَا) أي: ﴿كاشفات﴾ و﴿ممسكات﴾.

قولُهُ: (يَثِقُ الوَاثِقُونَ) لعلمِهِم بأنَّ الكلَّ من عندِ اللهِ.

---

(١) رواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٢٨).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٩).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٠).

٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿قُلْ: يا قَومِ، اعمَلُوا علَى مَكانتِكُم﴾: حالتِكم. ﴿إنِّي عامِلٌ﴾ على حالتي. ﴿فسَوفَ تَعلَمُونَ مَن﴾: موصولةٌ مفعولُ العِلم ﴿يأتِيهِ عَذابٌ يُخزِيهِ، ويَحِلُّ﴾: يَنزل ﴿علَيهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾: دائمٌ، هو عذاب النار. وقد أخزاهم الله ببَدر.

٤١ ـ ﴿إنّا أنزَلْنا علَيكَ الكِتابَ لِلنّاسِ بِالحَقِّ﴾: مُتعلّق بـ «أنزل». ﴿فمَنِ اهتَدَى فلِنَفسِهِ﴾ اهتداؤه، ﴿ومَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ علَيها، وما أنتَ علَيهِم بِوَكِيلٍ﴾، فتُجبرَهم على الهُدى. ٤٢ ـ ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوتِها، و﴾ يتوفّى ﴿الَّتِي لَم تَمُتْ في مَنامِها﴾ أي: يتوفّاها وقت النوم، ﴿فيُمسِكُ الَّتِي قَضَى علَيها المَوتَ، ويُرسِلُ الأُخرَى إلَى أجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: وقتِ موتها. والمُرسَلةُ نفْسُ التمييزِ، تبقى بدونها نفْس الحياة بخلاف العكس. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَآياتٍ﴾: لَدلالاتٍ ﴿لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيعلمون أنّ القادر على ذلك قادر على البعث. وقُريش لم يتفكّروا في ذلك.

قولُهُ: (حَالَتِكُم) اسمٌ لمكانٍ استُعيرَ للحالِ، وشعبَةُ: بالجمعِ[١].

قولُهُ: (عَلى حَالَتِي) فحُذِفَ للاختِصارِ والمبالغَةِ في الوعيدِ.

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ بـ«أنزلَ») وقولُهُ: (﴿للنَّاسِ﴾) أي: لأجلِهِم، فإنَّهُ مَناطُ مصالحِهِم في معاشِهِم ومعادِهِم.

قولُهُ: (يَتَوَفَّى) يعني: ﴿الَّتي﴾ عطفٌ على: ﴿الأنفسَ﴾.

قولُهُ: (والمُرْسَلَةُ... إلخ) رويَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ: في ابنِ آدمَ نَفْسٌ وروحٌ بينهما مثلُ شعاعِ الشَّمسِ، فالنَّفْسُ الَّتي بها العقلُ والتَّمييزُ، والرُّوحُ الَّتي بها النَّفَسُ والحياةُ، فيُتوفَّيَانِ عندَ الموتِ، وتُتوفَّى النَّفسُ وحدَهَا عندَ النَّومِ[٢].

والحاصلُ: أنَّ اللهَ تعالى يقبضُ الأنفسَ عن الأبدانِ بقطعِ تعلُّقِها عنها وتصرُّفِها فيها، إمَّا بالكلِّيَّةِ وذلك عندَ الموتِ، أو ظاهراً وهو في النَّومِ.

قولُهُ: (المَذكُورِ) من التَّوفِّي والإمساكِ والإرسالِ.

قولُهُ: (وقُرَيشٌ لَمْ يَتَفَكَّرُوا) ظاهرُهُ: أنَّه قدَّرَ لتكونَ ﴿أَمْ﴾ متَّصلةً، لكنَّ قولَهُ: (بل) يأباهُ، أو ليعطفَ عليهِ ﴿اتَّخَذُوا﴾ ففيه: أنَّهُ لا عطفَ، و(بل) للانتقالِ، وما بعدَهُ مصدَّرٌ بهمزةِ الاستفهامِ للإنكارِ، فيُحتمَلُ كلامُهُ على أنَّه لحلِّ المعنى ومناسبةِ المبنى.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٧).

(٢) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٣/ ٦٩) بنحوه. وروى ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٣٠) عن ابن عباس في قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ الآية، قال: نفس وروح بينهما شعاع الشمس، فيتوفى الله النفس في منامه، ويدع الروح في جسده وجوفه يتقلب ويعيش، فإن بدا لله أن يقبضه قبض الروح فمات، أو أخر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه.

٤٣ ـ ﴿أَمِ﴾: بل ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: الأصنامَ آلهةً ﴿شُفَعاءَ﴾ عند الله بزعمهم. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَ﴾ يشفعون ﴿وَلَو كانُوا لا يَملِكُونَ شَيئًا﴾ من الشفاعة وغيرها ﴿ولا يَعقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم ولا غيرَ ذلك؟ لا. ٤٤ ـ ﴿قُلْ: الشَّفاعةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مُختصّ بها، فلا يشفع أحد إلاّ بإذنه. ﴿لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، ثُمَّ إلَيهِ تُرجَعُونَ﴾.

٤٥ ـ ٤٦ ـ ﴿وإذا ذُكِرَ اللهُ وَحدَهُ﴾ أي: دُونَ آلهتهم ﴿اشمَأَزَّتْ﴾: نفرت وانقبضت ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرةِ، وإذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: الأصنامُ ﴿إذا هُم يَستَبشِرُونَ. قُلِ: اللَّهُمَّ﴾ بمعنى: يا أللهُ، ﴿فاطِرَ السَّماواتِ والأرضِ﴾: مُبدعَهما، ﴿عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ﴾: ما غابَ وما شُوهد، ﴿أنتَ تَحكُمُ بَينَ عِبادِكَ فِيما كانُوا فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين، «اهدِني لِما اختُلفَ فيه منَ الحقّ». ٤٧ ـ ﴿ولَو أنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما في الأرضِ جَمِيعًا ومِثلَهُ مَعَهُ لَافتَدَوا بِهِ مِن سُوءِ العَذابِ يَومَ القِيامةِ، وبَدا﴾: ظهرَ ﴿لَهُم مِنَ اللهِ ما لَم يَكُونُوا يَحتَسِبُونَ﴾: يظنّون، ٤٨ ـ ﴿وبَدا لَهُم سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا، وحاقَ﴾ نزل ﴿بِهِم ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ أي: العذابُ.

٤٩ ـ ﴿ فإذا مَسَّ الإنسانَ﴾: الجنسَ ﴿ضُرٌّ دَعانا، ثُمَّ إذا خَوَّلْناهُ﴾: أعطَيناه ﴿نِعْمةً﴾: إنعامًا ﴿مِنَّا قالَ: إنَّما أُوتِيتُهُ علَى عِلمٍ﴾ من الله بأني له أهل..

قولُهُ: (لا) أي: لا شفاعَةَ لهم.

قولُهُ: (أي: دُونَ آلِهَتِهِم) ﴿وَحْدَهُ﴾ منصوبٌ على الحاليَّةِ؛ بمعنى: منفرداً؛ لوجوبِ كونِ الحالِ نكرةً عندَ البصريينَ خلافاً للكوفيِّينَ.

قولُهُ: (أوِ انقَبَضَتْ) الظَّاهرُ: بالواوِ.

قولُهُ: (بمَعنَى: يا اللهُ) المشهورُ أنَّ أصلَهُ: يا اللهُ، كما تقدَّمَ(١).

قولُهُ: (أي: العَذَابُ) بالرَّفعِ، أو: جزاؤُهُ.

قولُهُ: (الجِنسَ) إخبارٌ عنه باعتبارِ الغالبِ فيهِ.

قولُهُ: (إنعَاماً) هذا غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ الإنعامَ ممَّا لا يُعطى، اللَّهمَّ إلَّا أن يُقالَ: معناهُ: إحساناً وتفضُّلاً، على أنَّهُ تمييزٌ أو علَّةٌ.

قولُه: (مِنَ اللهِ) أو: منِّي بوجوهِ كسبِهِ من الزِّراعةِ أو التِّجارةِ أو الكيمياءِ، أو: بأنِّي سأُعطاهُ لِمَا لي من استحقاقِهِ، والهاءُ فيه لـ﴿مَا﴾ إن جُعِلَت موصولةً لا كافَّةً، وإلَّا فللنِّعمةِ، والتَّذكيرُ لأنَّ المرادَ شيءٌ منها.

---

(١) عند الآية رقم: (٢٦) من سورة آل عمران، قال القاري عندها: وقيل: أصله يا الله أُمَّنا بخير... إلخ.

﴿بَل هِيَ﴾ أي: القَولةُ ﴿فِتنَةٌ﴾: بليّة يُبتلى بها العبدُ، ﴿ولكِنَّ أكثرَهُم لا يَعلَمُونَ﴾ أنّ التخويل استدراج وامتحان. ٥٠ ـ ٥١ ـ ﴿قَد قالَها الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ من الأمم كقارونَ وقومه الراضين بها، ﴿فما أغنَى عَنهُم ما كانُوا يَكسِبُونَ، فأصابَهُم سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾ أي: جزاؤها. ﴿والَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هؤُلاءِ﴾ أي: قُريشٍ ﴿سَيُصِيبُهُم سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا، وما هُم بِمُعجِزِينَ﴾: بفائتين عذابَنا. فقُحِطوا سبعَ سنينَ ثمّ وُسّع عليهم. ٥٢ ـ ﴿أوَلَم يَعلَمُوا أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ﴾ امتحانًا، ﴿ويَقدِرُ﴾: يُضيّقه لمن يشاء ابتلاء؟ ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ به.

٥٣ ـ ٥٤ ـ ﴿قُل: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أسرَفُوا علَى أنفُسِهِم، لا تَقنِطُوا﴾، بكسرِ النون وفتحِها، وقُرئ بضمّها: تيأسوا ﴿مِن رَحمةِ اللهِ ـ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن تاب من الشِّرك، ﴿إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ـ وأنِيبُوا﴾: ارجِعوا ﴿إلَى رَبِّكُم، وأسلِمُوا﴾: أخلصوا العمل ﴿لَهُ مِن قَبلِ أن يأتِيَكُمُ العَذابُ ـ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ بمنعه،..

قولُهُ: (أي: القَولَةُ) فيه: أنَّ القولَ ليسَ ببليَّةٍ، وإنَّما البليَّةُ النِّعمةُ، فهي امتحانٌ له أيَشكُرُ أم يكفُرُ، وهو ردٌّ لِمَا قالَهُ، فالضَّميرُ راجعٌ إلى التَّخويلِ، وتأنيثُهُ باعتبارِ الخبرِ أو لفظِ النِّعمةِ.

قولُهُ: (مِنَ الأُمَمِ) والهاءُ لقولِهِ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾؛ لأنَّها كلمةٌ أو جملةٌ.

قولُهُ: (أي: قُرَيشٍ) ممَّا بَقُوا.

قولُهُ: (قُحِطُوا) وقُتِلَ ببدرٍ صناديدُهُم.

قولُهُ: (ثُمَّ وَسَّعَ عَلَيهِمْ) سبعاً.

قولُهُ: (بِكَسرِ النُّونِ) بصريٌّ وكسائيٌّ[1].

قولُهُ: (بِضَمِّهَا) في «القاموسِ»: قَنَطَ كنَصَرَ وضَرَبَ وحَسِبَ وكَرُمَ[2].

قولُهُ: (لِمَنْ تَابَ) أو: إلَّا الشِّركُ، ولو بعدَ تعذيبٍ.

قولُهُ: (ارجِعُوا) من المعصيةِ إلى الطَّاعةِ، أو: من الغفلةِ إلى الذِّكرِ، أو: من الغيبةِ إلى الحضُورِ، أو: من التَّوجُّهِ بما سواهُ إلى اللهِ.

قولُهُ: (أَخلِصُوا العَمَلَ) أو: سَلِّمُوا له العملَ، واترُكوا منكُمُ الأمَلَ.

قولُهُ: (بِمَنْعِهِ) أي: العذابِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٣٦).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٦٨٤).

إن لم تتوبوا ـ ٥٥ ـ ﴿واتَّبِعُوا أحسَنَ ما أُنزِلَ إلَيكُم مِن رَبِّكُم﴾ هو القُرآن ﴿مِن قَبلِ أن يأتِيَكُمُ العَذابُ بَغتَةً، وأنتُم لا تَشعُرُونَ﴾ قبل إتيانه بوقته.

بادروا قبل ٥٦ ـ ﴿أن تَقُولَ نَفسٌ: يا حَسرَتا﴾ ـ أصله «يا حسرتِي» ـ أي: نَدامتي ﴿علَى ما فَرَّطتُ في جَنبِ اللهِ﴾ أي: طاعته، ﴿وإنْ﴾: مُخففةٌ من الثقيلة، أي: وإنّي ﴿كُنتُ لَمِنَ السّاخِرِينَ﴾ بدِينه وكِتابه، ٥٧ ـ ﴿أو تَقُولَ: لَو أنَّ اللهَ هَدانِي﴾ بالطاعة فاهتدَيت ﴿لَكُنتُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾ عذابَه، ٥٨ ـ ﴿أو تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذابَ: لَو أنَّ لِي كَرَّةً﴾: رجعة إلى الدنيا، ﴿فأكُونَ مِنَ المُحسِنِينَ﴾ المؤمنين. فيقالَ له من قِبَلِ الله: ٥٩ ـ ﴿بَلَى قَد جاءَتْكَ آياتِي﴾ أي: القُرآنُ، وهي سبب الهِداية، ﴿فكَذَّبتَ بِها واستَكبَرتَ﴾: تكبّرت عن الإيمان بها، ﴿وكُنتَ مِنَ الكافِرِينَ﴾.

٦٠ ـ ﴿ويَومَ القِيامةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا علَى اللهِ﴾........................

قولُهُ: (إنْ لَمْ تَتُوبُوا) أو لم تُدرِكْكُمُ المغفرَةُ.

قولُهُ: (هُو القُرْآنُ) أو المأمورُ به دونَ المنهيِّ عنه، أو العزائمُ دونَ الرُّخصِ.

وقيل: ما هو أنجى وأسلمُ كالإنابةِ والمواظبَةِ على الطَّاعةِ.

قولُهُ: (بَادِرُوا قَبْلَ) التَّقديرُ الصَّحيحُ: كراهَةَ أن تقولَ، وهو علَّةٌ لـ﴿اتَّبِعُوا﴾.

قولُهُ: (حَسْرَتِي) وقُرِئَ به[1].

قولُهُ: (طَاعَتِهِ) أي: قصَّرتُ فيها.

قولُهُ: (وكِتَابِهِ) أو: بأهلِه.

قولُهُ: (بألطَافِهِ)[2] جمعُ: لطفٍ.

قولُهُ: (عَذَابَهُ) أو: الشِّركَ والمعاصيَ.

قولُهُ: (المُؤمِنِينَ) أو: في العقيدةِ والعملِ.

و﴿أَو﴾ للدِّلالةِ على أنَّه لا يخلو من هذهِ الأقوالِ تحيُّراً وتعلُّلاً بما لا طائلَ تحتَهُ، كذا قالَهُ القاضي[3]، والأظهرُ: أنَّ ﴿أو﴾ للتَّوزيعِ والتَّنويعِ من غيرِ دلالةٍ على عدمِ الخلوِّ، بل المرادُ هذا وأمثالُهُ ممَّا لا ينفعُهُم.

---

(١) أي: (يا حسرتي) ونسبت لأبي جعفر، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤١٥).

(٢) في نسخ المتن: «بالطاعة».

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٤٧).

بِنسبة الشريك والولد إليه ﴿وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ ـ أَلَيسَ في جَهَنَّمَ مَثوًى﴾: مأوًى ﴿لِلمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان؟ بلى ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ ﴿ويُنَجِّي اللهُ﴾ من جهنّم ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشِّركَ ﴿بِمَفازتِهِم﴾ أي: بمكان فوزهم من الجنّة، بأن يُجعلوا فيه، ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ولا هُم يَحزَنُونَ ـ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ﴾: متصرّف فيه كيف يشاء، ٦٣ ـ ﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: مفاتيحُ خزائنهما من المطر والنبات وغيرهما ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ﴾: القُرآن ﴿أُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ﴾. متّصل بقوله: «وينجّي الله الذين اتقوا» إلى آخره، وما بينهما اعتراض.

٦٤ ـ ﴿قُلْ: أفغيرَ اللهِ تأمُرُونِيَ أعبُدُ، أيُّها الجاهِلُونَ﴾؟ غيرَ: منصوب بـ «أعبدُ» المعمولِ لـ «تأمروني»، بنون واحدة، ....

قولُهُ: (الشَّرِيكِ والوَلَدِ) [أي: بأَنْ وَصَفوهُ بما لا يجوزُ كاتِّخاذِ الوَلدِ][1].

قولُهُ: (أي: بِمَكَانِ فَوزِهِم) والكوفيُّ غيرَ حفصٍ بالجمعِ[2]، وقيل: بالسَّعادةِ والعملِ الصَّالحِ.

قولُهُ: (أي: مَفَاتِيحُ) يعني: لا يملكُ أمرَها ولا يتمكَّنُ من التَّصرُّفِ فيها غيرُه، وهو كنايةٌ عن قدرتِهِ وحفظِهِ لها، وفي الآيةِ مزيدُ دلالةٍ على الاختصاصِ؛ لأنَّ الخزائنَ لا يدخلُ ولا يتصرَّفُ فيها إلَّا مَن بيدِهِ مفاتيحُها، وهو جمعُ: مِقليدٍ أو مِقلادٍ، من قلَّدْتُه إذا ألزمْتُهُ.

وقيل: جمعُ: إقليدٍ معرَّبِ إكليدَ على الشُّذوذِ، فإنَّ قياسَهُ: أقاليدُ[3].

قولُهُ: (بِتَقْدِيرِ أَنْ)[4] ضعَّفَ هذا القولَ أبو البقاءِ في «إعرابِهِ»[5]، وقالَ: لا يجوزُ مثلُ هذا إلَّا في ضرورةِ الشِّعرِ، وذكرَ وجهينِ، والأظهرُ: ما قالَ القاضي: أي: أغيرَ اللهِ أعبدُ بعد هذهِ الدَّلائلِ والمواعيدِ، و﴿تَأْمُرُونِّي﴾ اعتراضٌ[6].

قولُهُ: (بِنُونٍ وَاحِدَةٍ) نافعٌ، وفتَحَ الياءَ هو والمكِّيُّ[7].

---

(١) ما بين معكوفتين من البيضاوي، وقد وقع في الأصول دون شرح.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٠).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٩/ ٦٥).

(٤) «بتقدير أن» ليست في نسخ المتن المعتمدة، ولعل مكانها عقب قوله: «المعمول لـ﴿تأمروني﴾»

(٥) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١١١٣).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٤٨).

(٧) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٣)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧٠).

وبنونين بإدغام وفكّ. ٦٥ ـ ٦٦ ـ ﴿ولَقَد أُوحِيَ إلَيكَ وإلَى الَّذِينَ مِن قَبلِكَ﴾: والله ﴿لَئِنْ أشرَكتَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ فَرْضًا ﴿لَيَحبَطَنَّ عَمَلُكَ، ولَتكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ. بَلِ اللهَ﴾ وحدَه ﴿فاعبُدْ، وكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ﴾ إنعامَه عليك. ٦٧ ـ ﴿وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: ما عرَفوه حقّ معرفته، أو ما عظّموه حقّ عظمته حين أشركوا به غيره، ﴿والأرضُ جَمِيعًا﴾: حالٌ، أي: السبعُ، ﴿قَبضتُهُ﴾ أي: مقبوضة له، أي: في مُلكه وتصرّفه ﴿يَومَ القِيامةِ، والسَّماواتُ مَطوِيّاتٌ﴾: مجموعات ﴿بِيَمِينِهِ﴾: بقُدرته. ﴿سُبحانَهُ وتَعالَى عَمّا يُشرِكُونَ﴾ معه!

٦٨ ـ ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ﴾ النفخةَ الأُولى، ﴿فصَعِقَ﴾: مات ﴿مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ إلاّ مَن شاءَ اللهُ﴾ من الحُور والوِلدان وغيرهما، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرَى، فإذا هُم﴾ أي: جميع الخلائق الموتى ﴿قِيامٌ، يَنظُرُونَ﴾: ينتظرون ما يُفعل بهم، ٦٩ ـ ﴿وأشرَقَتِ الأرضُ﴾: أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّها﴾ حين يتجلّى الله لفصل القضاء، ﴿ووُضِعَ الكِتابُ﴾: كِتاب الأعمال للحِساب،..............

قولُهُ: (بإِدغَامٍ) عندَ الشَّاميِّ[1].

قولُهُ: (يا مُحَمَّدُ) الصَّوابُ: أيُّها النَّبيُّ؛ لأنَّه تعالى ما خاطبَهُ باسمِهِ قطُّ، ولأنَّهُ يعمُّهُ وغيرَه على أنَّ إفرادَ الخطابِ باعتبارِ كلِّ واحدٍ من الرُّسلِ، أو يُفهَمُ غيرُه بالأَولى.

قولُهُ: (وَحدَهُ) أي: مُنفرداً، والتَّخصيصُ يُفهَمُ منَ التَّقديمِ.

قولُهُ: (حَالٌ) على القولِ بجوازِ الحالِ من المبتَدأِ.

قولُهُ: (مَقبُوضَةٌ) مصدَرٌ بمعنى المفعولِ، أو التقديرُ: ذاتُ قبضَةٍ.

قولُهُ: (مَعَهُ) أو: عن إشراكِهِم.

قولُهُ: (مَاتَ) أي: خرَّ ميِّتاً أو مغشيًّا عليه.

قولُهُ: (وغَيرِهِمَا) وقيل: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وملكُ الموتِ وحمَلَةُ العرشِ، فإنَّهُم يموتونَ بعدُ.

قولُهُ: (لِفَصْلِ القَضَاءِ) كذا عن مُحيي السُّنَّةِ[2].

قولُهُ: (كِتَابُ الأَعمَالِ) أي: صحائِفُ الأعمالِ في أيدي العمَّالِ، واكتُفيَ باسمِ الجنسِ عن الجمعِ، وقيلَ: اللَّوحُ المحفوظُ تُقابَلُ به الصَّحائِفُ.

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٤/ ١٠١).

﴿وجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ والشُّهَداءِ﴾ أي: أُمّة مُحمّد، يشهدون للرُّسل بالبلاغ، ﴿وقُضِيَ بَينَهُم بِالحَقِّ﴾ أي: العدل، ﴿وهُم لا يُظلَمُونَ﴾ شيئًا، ٧٠ ـ ﴿ووُفِّيَتْ كُلُّ نَفسٍ ما عَمِلَتْ﴾ أي: جزاءه، ﴿وهُوَ أعلَمُ﴾ أي: عالمٌ ﴿بِما يَفعَلُونَ﴾، فلا يحتاج إلى شاهد.

٧١ ـ ٧٢ ـ ﴿وسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعُنف ﴿إلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾: جماعاتٍ في تفرقة. ﴿حَتَّى إذا جاؤُوها فُتِحَتْ أبوابُها﴾: جواب «إذا»، ﴿وقالَ لَهُم خَزَنَتُها: ألَم يأتِكُم رُسُلٌ مِنكُم، يَتلُونَ علَيكُم آياتِ رَبِّكُم﴾: القُرآنَ وغيره ﴿ويُنذِرُونكُم لِقاءَ يَومِكُم هذا؟ قالُوا: بَلَى، ولكِن حَقَّتْ كَلِمةُ العَذابِ﴾، أي: «لَأملأنَّ جَهنَّمَ» الآيَةَ، ﴿علَى الكافِرِينَ. قِيلَ: ادخُلُوا أبوابَ جَهَنَّمَ، خالِدِينَ﴾: مُقدَّرينَ الخُلودَ ﴿فِيها. فبِئسَ مَثوَى﴾: مأوى ﴿المُتكَبِّرِينَ﴾ جهنّمُ!

٧٣ ـ ﴿وسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُم﴾ بلُطف ﴿إلَى الجَنّةِ زُمَرًا. حَتَّى إذا جاؤُوها، وفُتِحَت أبوابُها﴾ ـ الواو فيه للحال بتقدير «قد» ـ ﴿وقالَ لَهُم خَزَنَتُها: سَلامٌ علَيكُم. طِبتُم﴾ حالاً. ﴿فادخُلُوها خالِدِينَ﴾ مقدّرين الخُلودَ فيها...

قولُهُ: (أي: أُمّة مُحَمَّدٍ) أو: الملائكةُ والمؤمنونُ والمستشهدونَ.

قولُهُ: (للرُّسُلِ) على الأمَمِ.

قولُهُ: (أي: العَدلِ) بين العِبادِ.

قولُهُ: (شَيئاً) بنَقصِ ثوابٍ أو زيادةِ عقابٍ على ما جرى به الوعدُ.

قولُهُ: (أي: جَزَاءَهُ) بالنَّصبِ مفعولٌ ثانٍ.

قولُهُ: (أي: عَالِمٌ) بل هو أعلمُ من كلِّ عالمٍ، فلا يفوتُهُ شيءٌ من أعمالِهِم.

قولُهُ: (مُتفَرِّقَةٌ) بعضُها في إثرِ بعضٍ على تفاوُتِ إقدامِهِم في الضَّلالةِ والشَّرارةِ.

قولُهُ: (جَوَابُ ﴿إِذَا﴾) والكوفيُّ بالتَّخفيفِ[١].

قولُهُ: (جَهَنَّمُ) يعني: المخصُوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ.

قولُهُ: (بلُطْفٍ) إسراعاً بهم إلى دارِ الكرامةِ، وقيل: ساقَ مراكبَهُم، إذ لا يذهبُ بهم إلّا راكبينَ.

قولُهُ: (بتَقْدِيرِ: قَد) وقيل: الواو زائدةٌ أو واوُ الثمانيةِ وما بعدَها الجوابُ.

قولُهُ: (حَالاً) تمييزٌ عن النِّسبةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٤)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧٠).

وجواب «إذا» مقدّرٌ أي: دخلوها ـ وسَوقُهم وفتحُ الأبواب قبل مجيئهم تكرمةٌ لهم، وسوقُ الكُفّار وفتحُ أبواب جهنّم عِند مجيئهم ليبقى حرّها إليه إهانةٌ لهم ـ ٧٤ ـ ﴿وقالُوا﴾: عطف على «دخلوها» المُقدّرِ: ﴿الحَمدُ لِلهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعدَهُ﴾ بالجنّة، ﴿وأورَثَنا الأرضَ﴾ أي: أرض الجنّة، ﴿نَتبوَّأُ﴾: ننزل ﴿مِنَ الجَنّةِ حَيثُ نَشاءُ﴾. لأنها كُلّها لا يُختار فيها مكان على مكان. ﴿فنِعمَ أجرُ العامِلِينَ﴾ الجنّةُ!

٧٥ ـ ﴿وتَرَى المَلائكةَ حافِّينَ﴾: حالٌ ﴿مِن حَولِ العَرشِ﴾ من كُلّ جانب منه، ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: حالٌ من ضمير «حافّين»، ﴿بِحَمدِ رَبِّهِم﴾: ملابسين للحمد، أي: يقولون: سُبحان الله وبحمده، ﴿وقُضِيَ بَينَهُم﴾: بين جميع الخلائق ﴿بِالحَقِّ﴾ أي: العدل، فيُدخِلُ المؤمنين الجنّة، والكافرين النار، ﴿وقِيلَ: الحَمدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾. خُتِمَ استقرارُ الفريقين بالحمد من الملائكة.

قولُهُ: (لأنَّهَا كُلَّهَا) والأظهرُ: ما قالَ القاضي: يتبوَّأ كلٌّ منَّا في أيِّ مقامٍ أرادَهُ من جنَّتِهِ الواسعةِ، معَ أنَّ في الجنَّةِ مقاماتٍ معنويَّةً لا يتمانَعُ وارِدُوها[1].

قولُهُ: (حَالٌ) أي: مُحْدقينَ.

قولُهُ: (مِنْ كُلِّ جَانِبٍ) و﴿مِنْ﴾ لابتداءِ الحفوفِ، وقيلَ: زائدةٌ، أي: حولَهُ.

قولُهُ: (مِنْ ضَمِيرِ: ﴿حَافِّينَ﴾) أي: حالٌ مقيِّدةٌ للأولى، والمعنى: ذاكرينَ له بوصفي جلالِهِ وإكرامِهِ تلذُّذاً به، وفيه إشعارٌ بأنَّ منتهى درجاتِ العلِّيِّينَ وأعلى لذائذِهم هو الاستغراقُ في صفاتِ الحقِّ.

قولُهُ: (مِنَ المَلائِكَةِ) أو المؤمنينَ، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٥٠).

سُورَةُ الزُّمَرِ

وتُسَمَّى: سورةَ الغُرَف، كما في «الإتقان» و«الكشَّاف»[1]، لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزمر: ٢٠].

أخرج ابن الضُّريس وابن مردويه والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن عباس أنَّها أنزلت بمكة[2]، ولم يَسْتَثْنِ. وأخرج النحَّاس عنه أنه قال: نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاثِ آياتٍ نزلت بالمدينة في وحشيٍّ قاتلِ حمزةَ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] إلى ثلاث آيات[3]. وزاد بعضهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الآية [الزمر: ١٠] ذكره السخاويُّ في «جمال القراء»، وحكاه أبو حيَّان عن مقاتل[4]. وزاد بعضٌ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] حكاه ابن الجوزي[5].

والمذكور في «البحر» عن ابن عباس استثناءُ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وقولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ إلخ. وعن بعضهم: إلَّا سبعَ آياتٍ من قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ إلى آخر السبع[6].

وآيُها خمسٌ وسبعون في الكوفيِّ، وثلاثٌ في الشاميِّ، واثنتان في الباقي، وتفصيلُ الاختلاف في «مجمع البيان» وغيرِه[7].

---

(١) الإتقان ١/ ١٧٤، والكشاف ٣/ ٣٨٥.

(٢) فضائل القرآن لابن الضُّريس ص٣٤، ودلائل النبوة ٧/ ١٤٤، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٢.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦٠٥.

(٤) جمال القرَّاء ١/ ١٣٦، والبحر المحيط ٧/ ٤١٤.

(٥) في زاد المسير ٧/ ١٦٠.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٤١٤.

(٧) مجمع البيان ٥/ ١٣٥، وجمال القراء ٢/ ٥٤٠-٥٤١.

ووجهُ اتصال أوَّلها بآخِرِ «ص» أنَّه قال سبحانه هناك: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص:٨٧] وقال جلَّ شأنُه هنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ [الزمر:١]، وفي ذلك كمالُ الالتئام بحيثُ لو أسقطت البَسْملة لم يتنافر الكلام.

ثم إنه تعالى ذكَرَ آخِرَ «ص» قصةَ خَلْقِ آدم، وذكر في صدرِ هذه قصةَ خلْقِ زوجِه منه وخلقِ الناسِ كلِّهم منه، وذكر خلقَهم في بطونِ أمَّهاتهم خَلْقاً من بعدِ خلقٍ، ثم ذكر أنهم ميِّتون، ثم ذكر سبحانه القيامةَ والحسابَ والجنةَ والنارَ، وختم بقوله سبحانه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر:٧٥]، فذكر جلَّ شأنه أحوالَ الخلق من المبدأ إلى آخِرِ المعادِ متَّصِلاً بخلقِ آدمَ عليه السلام المذكورِ في السورة قبلَها.

وبين السورتين أوجهٌ أُخَرُ من الربط تظهرُ بالتأمُّل، فتأمَّل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ قال الفرَّاء والزَّجاج: هو مبتدأٌ، وقولُه تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ خبرُه، أو: خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذا المذكورُ تنزيل، و«من الله» متعلِّقٌ بـ «تنزيل»[١]. والوجهُ الأولُ أوجَهُ كما في «الكشف».

و«الكتاب» القرآنُ كلُّه، وكأنَّ الجملةَ عليه تعليلٌ لكونه ذِكْراً للعالمين، أو لقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٨]، والظاهر أنَّ المرادَ بـ «الكتاب» على الوجهِ الثاني السورةُ؛ لكونها على شرفِ الذِّكْر، فهي أقربُ لاعتبار الحضور الذي يقتضيه اسمُ الإشارة فيها. و«تنزيل» بمعنى منزَّل، أو قُصد به المبالغةُ.

وقدَّر أبو حيان المبتدأ «هو» عائداً على الذكر في ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص:٨٧]، وجعل الجملةَ مستأنفةً استئنافاً بيانيّاً، كأنَّه قيل: هذا الذكر ما هو؟ فقيل: هو تنزيل الكتاب[٢]. و«الكتاب» عليه القرآن، وفي «تنزيل» الاحتمالان.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٤، وللزجاج ٤/ ٣٤٣.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤١٤.

وجُوِّز على احتمالِ كونه خبرَ مبتدأ محذوفٍ كونُ «من الله» خبراً ثانياً، وكونُه خبرَ مبتدأ محذوفٍ أيضاً، أي: هذا أو هو تنزيل الكتاب هذا أو هو من الله، وكونُه حالاً من «الكتاب»، وجاز الحالُ من المضاف إليه؛ لأنَّ المضافَ مما يعمل عملَ الفعل، وكونُه حالاً من الضمير المستترِ في «تنزيل» على تقديرِ كونه بمعنى منزَّل. وكونُه حالاً من «تنزيل» نفسِه والعاملُ فيه معنى الإشارة، وتُعُقِّب بأنَّ معاني الأفعال لا تعمل إذا كان ما هي فيه محذوفاً؛ ولذلك رَدُّوا على المبرِّد قولَه في بيت الفرزدق:

وإذ ما مثلَهم بشرُ[1]

إنَّ «مثلهم» منصوبٌ على الحالية وعاملُه الظرف المقدَّر، أي: ما في الوجود بشرٌ مماثلاً لهم = بأنَّ الظرف عاملٌ معنويٌّ لا يعمل محذوفاً.

وقرأ ابن أبي عبلة وزيد بن عليٍّ وعيسى: «تنزيلَ» بالنصب[2] على إضمارِ فعلٍ، نحو: اقرأ والْزَم.

والتعرُّضُ لوصفَي العزةِ والحكمةِ للإيذان بظهورِ أثرَيْهما في الكتاب بِجَرَيانِ أحكامه ونَفاذِ أوامره ونواهيه من غير مُدافع ولا ممانع، وبابتناءِ جميعِ ما فيه على أساس الحِكَم الباهرة.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ بيانٌ لكونه نازلاً بالحقِّ وتوطئةٌ لِمَا يُذكَر بعدُ. وفي «إرشاد العقل السليم» أنه شروعٌ في بيانِ المنزَّل إليه وما يجب عليه إثر بيانِ شأنِ المنزَّل وكونِه من عند الله تعالى. وأيَّاما كان لا يتكرَّر مع ما تقدَّم، نعم كان الظاهرُ ـ على تقدير كون المرادِ بـ «الكتاب» هناك القرآن ـ الإتيانَ بضميرِه هاهنا، إلَّا أنَّه أُظْهر قَصْداً إلى تعظيمه ومزيدِ الاعتناء بشأنه[3].

---

(١) ينظر المقتضب ٤/ ١٩١-١٩٢، والبيت في ديوان الفرزدق ١/ ١٨٥، وتمامه:

فأصبحوا قد أعاد الله نعمتَهم إذ هم قريش، وإذ ما مثلَهم بشر

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر المحيط ٧/ ٤١٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٠.

وقال ابن عطية: الذي يظهر لي أنَّ الكتابَ الأوَّلَ عامٌّ لجميعِ ما تنزَّل من عند الله تعالى، والكتابَ الثاني خاصٌّ بالقرآن، فكأنَّه أخبرَ إخباراً مجرَّداً أنَّ الكتبَ الهاديةَ الشارعةَ تنزيلُها من الله عز وجل، وجَعَله توطئةً لقوله سبحانه: (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ)[1]. اهـ، وهو كما ترى.

والباء متعلِّقةٌ بالإنزال وهي للسببية، أي: أنزلناه بسبب الحقِّ، أي: إثباتِه وإظهارِه. أو بمحذوفٍ وقع حالاً من المفعول، وهي للملابَسة، أي: أنزلناه ملتبساً بالحقِّ والصوابِ. والمراد أنَّ كلَّ ما فيه موجِبٌ للعمل والقَبول حتماً. وجُوِّز كونُ المحذوف حالاً من الفاعل، أي: أنزلناه ملتبسين بالحقِّ، أي: مُحقِّين في ذلك.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه الصلاة والسلام بالحقِّ، أي: فاعبُدْه تعالى مُمْحِضاً له الدينَ من شوائبِ الشرك والرياءِ حسْبَما بُيِّن في تضاعيفِ ما أُنزل إليك. والعدولُ إلى الاسم الجليل مما يلائم هذا الأمرَ أتمَّ ملاءَمةٍ.

وقرأ ابن أبي عبلة: «الدينُ» بالرفع[2]، كما رواه الثِّقات، فلا عبرةَ بإنكار الزجَّاج[3]، وخرَّج ذلك الفرَّاءُ[4] على أنَّه مبتدأ، خبرُه الظرفُ المقدَّم للاختصاص أو لتأكيده.

واعتُرِض بأنَّه يتكرَّر مع قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وأجيب بأنَّ الجملة الأولى استئنافٌ وقع تعليلاً للأمر بإخلاص العبادة، وهذه الجملة تأكيدٌ لاختصاص الدين به تعالى، أي: ألا هو سبحانه الذي يجب أنْ يُخَصَّ بإخلاص الدين له تعالى؛ لأنه المتفرِّدُ بصفاتِ الألوهية التي من جملتها الاطلاعُ على السرائر والضمائر. وهي على قراءة الجمهور استئنافٌ مقرِّرٌ لِمَا قبلَه من الأمر بإخلاص الدِّين له عزَّ وجل ووجوبِ الامتثال به.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٧. ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٤١٤.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤١٤.
(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٣-٣٤٤.
(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤١٤.

وفي الإتيان بـ «إلا»، واسمية الجملة، وإظهارِ الجلالة والدينِ، ووصفِه بالخالص، والتقديم المفيدِ للاختصاص مع اللّام الموضوعة له عند بعضٍ = ما لا يخفى من الدلالة على الاعتناء بالدين الذي هو أساسُ كلِّ خير، قيل: ومن هنا يُعْلم أنَّه لا بأسَ بجعل الجملةِ تأكيداً للجملة قبلَها على القراءة الأخيرة، وإليه ذهب صاحب «التقريب» وقال بتغايُرِ دلالَتَي الجملتين إجمالاً وتفصيلاً. وردَّ بذلك زَعْمَ إباء هذه الجملة صحةَ تخريج الفرّاء.

والحقُّ أنَّه تخريجٌ لا يعوَّل عليه، ففي «الكشف»: لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ بمنزلة التعليل لقوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا﴾، كان الأصل أن يقال: فَلِلّه الدين الخالص، ثم تُرِكَ إلى «ألا لله الدين الخالص» مبالغةً لِمَا عرفتَ مِن أنَّه أقوى الوصلين، ثم صدِّر بحرف التنبيه زيادةً على زيادةٍ وتحقيقاً بأنَّ غيرَ الخالص كالعدم، فلو قدِّر الاستئنافُ التعليليُّ أولاً من دون الوصفِ المطلوبِ الذي هو الأصلُ في العِلَّة، ومن دون حرفِ التنبيه للفائدة المذكورة، كان كلاماً متنافراً، ويلزمُ زيادةُ التنافر من وصف الدين بالخلوص ثانياً لدلالته على العِيِّ في الأوَّل، إذ ليس فيه ما يُرشِد إلى هذا الوصف حتى يُجْعلَ من باب الإجمال والتفصيل. وأمَّا جعلُه تأكيداً فلا وجه له للوصف المذكور، ولأنَّ حرف التنبيه لا يحسُنُ موقعُها حينئذٍ؛ فإنّها يُؤتى بها في ابتداء الاستئنافِ المضادِّ لقصد التأكيد. اهـ.

ونصَّ العلَّامة الثاني أيضاً على أنَّ كونَ الجملة الثانيةِ تأكيداً للأولى فاسدٌ عند مَن له معرفةٌ بأساليب الكلام وصِيَاغات المعاني، ففيها ما ينبو عنه مقامُ التأكيد ولا يكاد يقترِنُ به المؤكّد. لكنَّ في قول صاحب «الكشف»: ليس في الأول ما يُرشِد إلى وصف الخلوص حتى يُجْعل من باب الإجمال والتفصيل = بحثاً؛ إذ لقائلٍ أن يقول: إنَّ «له الدين» على معنى: له الدين الكامل، ومن المعلوم أنَّ كمالَ الدين بكونه خالصاً، فيكون في الأوَّلِ ما يُرشِد إلى هذا الوصف.

نعم وَهْنُ ذلك التخريجِ على حاله، قُبِل هذا البحثُ أم لم يُقْبل.

وقال أبو حيَّان: «الدينُ» مرفوعٌ على أنَّه فاعلٌ بـ «مخلصاً» الواقع حالاً، والراجعُ لِذِي الحال محذوفٌ على رأي البصريين، أي: الدينُ منك. أو تكونُ «أل»

عوضاً من الضمير، أي: دينُك[1]. وعليه يكون وصفُ الدين بالإخلاص ـ وهو وصف صاحبه ـ من باب الإسناد المجازيِّ كقولهم: شعرٌ شاعرٌ. وفي الآية دلالةٌ على شَرَف الإخلاص بالعبادة، وكم من آية تدلُّ على ذلك.

وأخرج ابن مردويه عن يزيدَ الرَّقاشِيِّ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّا نعطي أموالَنا التماسَ الذكر، فهل لنا من أجرٍ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا». قال: يا رسول الله، إنَّا نعطي التماسَ الأجر والذكر، فهل لنا أجرٌ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى لا يقبل إلَّا مَن أخلَصَ له»، ثم تلا رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الآية: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[2].

ويؤيِّد هذا أنَّ المرادَ بـ «الدين» في الآية الطاعةُ، لا كما رُوي عن قتادة مِن أنَّه شهادةُ أن لا إله إلا الله، وعن الحسن من أنَّه الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إلخ تحقيقٌ لحقِّيَّة التوحيد ببطلان الشرك، ليُعْلم منه حَقِّيَّةُ الإخلاص وبطلانُ تركه، وفيه من ترغيبِ المخلصين وترهيبِ غيرِهم ما لا يخفى. والموصولُ عبارةٌ عن المشركين من قريش وغيرِهم كما روي عن مجاهد.

وأخرج جُوَيْبر عن ابن عبَّاس أنَّ الآية نزلت في ثلاثة أحياء: عامرٍ وكنانةَ وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثانَ، ويقولون: الملائكةُ بناتُ الله[3]. فالموصولُ إمَّا عبارةٌ عنهم، أو عبارةٌ عمَّا يعمُّهم وأضرابَهم من عَبَدَةِ غير الله سبحانه، وهو الظاهر، فيكون الأولياءُ عبارةً عن كلِّ معبودٍ باطلٍ كالملائكةِ وعيسى عليهم السلام والأصنام.

ومحلُّ الموصول رفعٌ على الابتداء، خبره الجملة الآتية المصدَّرة بـ «إنَّ».

وقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ حالٌ بتقدير القول من واوِ «اتخذوا» مُبيِّنةٌ لكيفيةِ إشراكِهم وعدمِ خلوصِ دينهم، أي: اتخذوا قائلين ذلك.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤١٤.

(٢) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٢، ويزيد الرقاشي ضعيف.

(٣) أسباب النزول للسيوطي ص٣١٨.

وجُوِّز أن يكون القول المقدَّرُ «قالوا»، ويكون بدلاً من «اتخذوا»[(١)]، وأن يكون المقدَّر ذلك ويكون هو الخبرَ للموصولِ، والجملةُ الآتية استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل بعد حكايةِ ما ذُكر: فماذا يفعل الله تعالى بهم؟ فقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ إلخ.

والوجهُ الأول هو المُنْساق إلى الذهن، نعم قرأ عبد الله وابنُ عباس ومجاهدٌ وابن جبير: «قالوا ما نعبدهم» الآية[(٢)]، لكن لا يتعيَّنُ فيه البدليةُ أو الخبرية.

وقد اعترض البدليةَ صاحبُ «الكشف» بأنَّ المقامَ ليس مقامَ الإبدال، إذ ليس فيه إعادةُ الحكم لكون الأولِ غيرَ وافٍ بالغَرَض اعتناءً بشأنه، لا سِيَّما وحذفُ البدل ضعيفٌ، بل يُنافي الغرضَ مِن الإتيان به.

والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ العلل، و«زلفى» مصدرٌ مؤكِّد على غيرِ لفظِ المصدر، أي: والذين لم يُخْلِصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادةِ غيرِه سبحانه قائلين: ما نعبدهم لشيءٍ من الأشياء إلَّا ليقرِّبونا إلى الله تعالى تقريباً.

وقرئ: «نُعْبُدهم» بضمِّ النون إتباعاً لحركة الباء[(٣)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: وبينَ خُصَمائهم الذين هم المخلِصون للدين، وقد حُذف لدلالة الحال عليه كما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] على أحد الوجهين، أي: بينَ أحدٍ منهم وبينَ غيره، وعليه قول النابغة:

فما كان بينَ الخير لو جاء سالماً ... أبو حُجُرٍ إلَّا ليالٍ قلائلُ[(٤)]

أي: بين الخير وبيني.

---

(١) في هامش الأصل و(م): قوله: بدلاً من اتخذوا، قال في البحر: كأنه بدل اشتمال. اهـ. وهو في البحر ٧/ ٤١٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٤، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨، والبحر المحيط ٧/ ٤١٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٨٦، البحر المحيط ٧/ ٤١٥.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص٩٠، والبيت في رثاء النعمان بن الحارث، وأبو حُجر كنيته.

وقيل: الضمير للفريقين المتخِذِين والمتخَذِين، وكذا الكلام في ضميرَي الجمع في قوله تعالى: ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

والمعنى على الأوَّل أنَّه تعالى يفصِل الخصومةَ بين المشركين والمخلصين فيما اختلفوا فيه من التوحيد والإشراك وادِّعاء كلٍّ صحةَ ما اتَّصَفَ به، بإدخال المخلصين الموحِّدين الجنةَ وإدخالِ المشركين النارَ، أو يميِّزهم سبحانه تمييزاً يُعْلم منه حالُ ما تنازعوا فيه بذلك.

والمعنى على الثاني أنَّه تعالى يحكُم بين العابدين والمعبودين فيما يختلفون، حيثُ يرجو العابدون شفاعتَهم وهم يتبرَّؤُون منهم ويلعنونهم قالاً أو حالاً، بإدخالِ مَنْ له أهليةُ دخولِ الجنة من المعبودين الجنةَ؛ وإدخالِ العابدين ومَن ليس له أهليةُ دخولِ الجنة ممن عُبِد كالأصنام النارَ. وإدخالُ الأصنام النارَ ليس لتعذيبها، بل لتعذيب عَبَدَتِها بها. وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يضعِّفه.

وأجاز الزمخشريُّ[(١)] كونَ الموصول السابق عبارةً عن المعبودِينَ على حذفِ العائد إليه، وإضمارِ المشركين من غيرِ ذكرٍ تعويلاً على دلالة السياق عليهم، ويكون التقدير: والذين اتخذَهم المشركون أولياءَ قائلين: ما نعبدهم إلَّا ليقرِّبونا عند الله زلفى، إنَّ الله يَحكُم بينَهم وبين عَبَدَتِهم فيما الفريقان فيه يختلفون ـ حيثُ يرجو العَبَدَةُ شفاعتَهم وهم يلعنونهم ـ بإدخالِ ما هو منهم أهلٌ للجنة الجنةَ وإدخالِ العبدة مع أصنامهم النارَ.

وتُعقِّب بأنَّه بعد الإغضاء عمَّا فيه من التعسُّفات بمعزِلٍ من السَّداد، كيف لا، وليس فيما ذُكر مِنْ طلب الشفاعة واللعن مادَّةٌ يختلف فيها الفريقان اختلافاً مُحْوِجاً إلى الحكم والفصل، فإنَّما ذاك ما بين فريقَي الموحِّدين والمشركين في الدنيا من الاختلاف في الدين الباقي إلى يوم القيامة. فتدبَّرْ ولا تغفُلْ.

وقُرِئ: «ما نعبدكم إلا لتقرِّبونا»[(٢)] حكايةً لِمَا خاطبوا به آلهتَهم.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٨٦.

(٢) وهي قراءة أبيٍّ كما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٤، وللزجاج ٤/ ٣٤٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨، والكشاف ٣/ ٣٨٦.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى﴾ أي: لا يوفِّق للاهتداء الذي هو طريقُ النجاة عن المكروه والفوزِ بالمطلوب ﴿مَنۡ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ في حدِّ ذاته، وموجب سيِّئ استعدادِه؛ لأنَّه غيرُ قابل للاهتداء، والله عز وجل لا يُفِيْض على القوابل إلَّا حسب القابليات؛ كما يشير إليه قولُه سبحانه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ كُلٌّ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] وقوله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨] وهذا هو الذي حَتَم عليه جلَّ شأنُه لسيِّئ استعداده بالموافاة على الضلال، قاله بعض الأجلَّة.

وقال الطبرسيُّ: لا يهدي إلى الجنة ـ أي: يوم القيامة ـ من هو كاذبٌ كفَّارٌ في الدنيا[١].

وقال ابن عطية: المراد: لا يهدي الكاذبَ الكافرَ في حالِ كذبه وكفره[٢]. وهذا ليس بشيء أصلاً.

والمرادُ بـ «من هو كاذبٌ كفَّار» قيل: من يعمُّ أولئك المحدَّثَ عنهم وغيرَهم. وقيل: أولئك المحدَّث عنهم. وكذبُهم في دعواهم استحقاقَ غير الله تعالى للعبادة، أو قولِهم في بعضِ مَن اتخذوهم أولياءَ من دون الله: إنَّهم بناتُ الله سبحانه، أو أنَّ المتخَذَ ابنُ الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، فـ «من هو كاذب» مِن الظاهر الذي أقيم مقامَ المضمَر على معنى أنَّ الله تعالى لا يهديهم ـ أي: المتخِذينَ ـ تسجيلاً عليهم بالكذب والكفر، وجُعِل تمهيداً لما بعده، وقال بعضهم: الجملة تعليلٌ للحكم.

وقرأ أنس بن مالك والجحدريُّ والحسنُ والأعرجُ وابنُ يعمر: «كذَّاب كفَّار»[٣].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «كَذُوبٌ كَفُور»[٤].

---

(١) مجمع البيان ٥/ ١٣٧-١٣٨.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٨.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣١، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٨، والبحر المحيط ٧/ ٤١٥.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤١٥.

وحملوا «الكاذب» هنا على الراسخ في الكذب لهاتين القراءتين، وكذا حملوا الكفرَ على كُفر النِّعَم دون الكفر في الاعتقاد؛ لقراءة زيد، وذكر الإمامُ فيه احتمالين(١).

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتحقيق الحقِّ وإبطالِ القول بأنَّ الملائكةَ بناتُ الله وعيسى ابنُه ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ـ ببيانِ استحالةِ اتخاذِ الولد في حقِّه سبحانه على الإطلاق؛ ليندرجَ فيه استحالةُ ما قيل اندراجاً أوَّلياً. وحاصلُ المعنى: لو أراد الله سبحانه اتخاذَ الولد لامتنعت تلك الإرادةُ لتعلُّقِها بالممتنِع ـ أعني الاتخاذَ ـ لكنْ لا يجوز للباري إرادةٌ ممتنِعةٌ؛ لأنَّها تُرَجِّح بعضَ الممكنات على بعضٍ.

وأصل الكلام: لو اتخذ الولدَ لامتنع؛ لاستلزامِه ما ينافي الألوهيةَ، فعُدل إلى: لو أراد الاتخاذَ لامتنع أن يُريدَه، ليكونَ أبلغَ وأبلغَ، ثم حُذف هذا الجوابُ وجيء بدله: «لاصطفى» تنبيهاً على أنَّ الممكنَ هذا، لا الأوَّلُ، وأنَّه لو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز اتخاذُ الولد عليه؛ سبحانه وتعالى شأنُه عن ذلك، فقد تحقَّق التلازمُ وحقَّ نفيُ اللازم وإثباتُ الملزوم دونَ صعوبة.

ويجوز أن يكونَ المرادُ: لو أراد الله أن يتخذ لامتنع ولم يصحَّ، لكن على إرادة نفي الصحَّة ـ على كلِّ تقدير من تقديرَي الإرادة وعدمها ـ من باب: لو لم يَخَفِ اللهَ لم يعْصِه(٢)، فلا ينفى الثاني إذ ذاك، ولا يحتاج إلى بيان الملازمة، وإذا امتنعَ ذلك فالممكنُ الاصطفاء، وقد اصطفى سبحانه مِن مخلوقاته مَن شاء كالملائكة وعيسى، وذهب عليكم أنَّ الاصطفاء ليس باتخاذٍ. والجواب على هذا الوجه أيضاً محذوفٌ أقيم مقامَه ما يفيدُ زيادةَ مبالغةٍ، وإنَّما لم يُجعل «لاصطفى» هو الجوابَ عليه لصيرورة المعنى حينئذٍ: لو أراد اتخاذَ الولد لاصطفى، ولو لم يُرِدْ لاصطفى من طريق الأولى، وحينئذٍ يكون إثباتُ الاصطفاء هو المطلوبَ من الإيراد، كما أنَّ

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦/ ٢٤٢.
(٢) سلف ١/ ٤٩٢.

التمدُّحَ بنفْي العصيان في مثال الباب هو المطلوبُ، وليس الكلام فيه، وعلى الوجهين هو من أسلوبِ:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم بهنَّ فُلولٌ من قِراع الكَتائبِ[1]

وجُوِّز أن يكونَ المعنى في الآية: لو أراد الله تعالى أن يتَّخِذ ولداً لجعَلَ المخلوقَ ولداً، إذ لا موجودَ سواه إلَّا وهو مخلوقٌ له تعالى، والتالي محالٌ للمباينة التامَّة بين المخلوق والخالق؛ والولديَّةُ تأبى تلك المباينة، فالمقدَّمُ مثلُه، ويكون قولُه تعالى: ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ على معنى: لاتخذه ابناً على سبيل الكناية.

وما تقدَّم أولى لِمَا فيه من المبالغة التي نَبَّهْتُ عليها.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تقريرٌ لِمَا ذُكر من استحالةِ اتخاذِ الولد في حقِّه تعالى، وتأكيدٌ له ببيان تنزُّهِه سبحانه عنه، أي: تنزُّهِه الخاصِّ به تعالى، على أنَّ «سبحان» مصدرٌ من «سبَح» إذا بَعُد، أو: أسبِّحُه تسبيحاً لائقاً به؛ لأنَّه عَلَمٌ للتسبيح مقولٌ على ألسنة العباد، أو: سبِّحوه تسبيحاً لائقاً بشأنه جلَّ شأنه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لتنزُّهِه عن ذلك أيضاً، فإنَّ اتخاذَ الولد يقتضي تبعُّضاً وانفصالَ شيءٍ من شيءٍ، وكذا يقتضي المماثلةَ بين الولد والوالد، والوحدةُ الذاتيةُ الحقيقيةُ التي هي في أعلى مراتب الوحدة الواجبةِ له تعالى بالبراهين القطعية العقلية تأبى التبعُّضَ والانفصالَ إباءً ظاهراً؛ لأنَّهما من خواصِّ الكمِّ، وقد اعتُبِر في مفهوم الوحدةِ الذاتية سلبُه فتأبى الاتخاذ المذكورَ وكذا تأبى المماثلةَ؛ سواءٌ فُسِّرتْ بما ذهب إليه قدماءُ المعتزلة كالجُبَّائي وابْنِه أبي هاشم؛ وهي المشاركةُ في أخصِّ صفاتِ الذات؛ كمشاركةِ زيدٍ لعمرو في الناطقية، أم فُسِّرت بما ذهب إليه المحقِّقون من الماتريدية، وهي المشاركة في جميع الصفات الذاتية كمشاركته له في الحيوانية والناطقية، أم فُسِّرتْ بما نُسِب إلى الأشعريِّ وهو التساوي بين الشيئين من كلِّ وجهٍ، ولعلَّ مرادَه نحوُ

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وقد سلف ٥/ ٤٠٧.

ما مرَّ عن الماتريديِّ، وإلَّا فمع التساوي من كلِّ وجهٍ ينتفي التعدُّدُ، فينتفي التماثلُ بناءً على ما قرَّرُوا مِنْ أنَّ الوحدةَ الذاتية كما تقتضي نَفْي الأبعاضِ المقدارِيَّةِ؛ تقتضي نفيَ الكثرة العقلية، وأنَّ التماثلَ يقتضي التعدُّدَ وهو يقتضي ثبوتَ الأجزاء المذكورة، كذا قيل.

وفيه بحثٌ طويلٌ وكلامٌ غيرُ قليلٍ، وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الإخلاص، فالأولى أن يُقْتَصَرَ على منافاة الوحدة الذاتية للتبعُّض والانفصالِ لاستلزامهما التركُّبَ الخارجيَّ. والحكماءُ والمتكلِّمون مُجمِعون على استحالته في حقِّه تعالى، ودليلُها أظهرُ من أن يُذكر.

وكذا وصفُ القهَّارية يأبى اتخاذَ الولد، وقُرِّر ذلك على أوجُهٍ:

فقيل: وجهُ إبائها ذلك أنَّ القهَّارية تقتضي الغنى الذاتيَّ الذي هو أعلى مراتب الغِنى، وهو يقتضي التجرُّدَ عن المادَّة، وتولُّدُ الولد عن الشيء يقتضيها.

وقيل: إنَّ القهاريةَ تقتضي كمالَ الغنى، وهو يقتضي كمالَ التجرُّدِ الذي هو البساطةُ من كلِّ الوجوه، فلا يكون هناك جنسٌ وفصلٌ ومادةٌ وصورةٌ وأعراضٌ وأبعاضٌ إلى غير ذلك مما يُخِلُّ بالبساطةِ الكاملة الحقيقية، واتخاذُ الولد لِمَا فيه من الانفصال والمِثْلية مُخِلٌّ بتلك البساطة؛ فيُخِلُّ بالغنى فيخلُّ بالقهارية. وقد أشار سبحانه إلى أنَّ الغنى ينافي أن يكونَ له سبحانه ولدٌ بقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨].

وقيل: إنَّ اتخاذَ الولد يقتضي انفصالَ شيء عنه تعالى، وذلك يقتضي أن يكونَ متأثِّراً مقهوراً لا مؤثِّراً قهَّاراً، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً. فحيثُ كان جلَّ وعلا قهَّاراً كما هو مُقتضَى الألوهية؛ استحال أن يكونَ له عزَّ وجل ولدٌ.

وقيل: إنَّ القهاريةَ منافيةٌ للزوال؛ لأنَّ القهَّارَ لو قَبِلَه كان مقهوراً، إذ المزيلُ قاهرٌ له، ولذا قيل: سبحانَ مَن قهر العبادَ بالموت. والولدُ من أعظم فوائده عندهم قيامُه مقامَ الأب بعد زواله؛ فإذا لم يكن الزوالُ لم يكن حاجةٌ إلى الولد، وهذا مع كونه إلزاميًّا لا يخلو عن بحثٍ كما لا يخفى.

والزمخشريُّ جعل قولَه تعالى: (سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ) إلخ متصلاً بقوله عز وجل: (وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ) إلخ، على أنَّه مقرِّرٌ نفي أن يكونَ له تعالى وليٌّ، ونفيَ أن يكونَ له ولدٌ[1]. ولعلَّ بيانَ ذلك لا يخفى فتدبَّر.

وقولُه سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ إثباتٌ لِمَا ذكر أولاً من الوحدة والقهر، وفيه أيضاً ما سَتَعْلَمُه إن شاء الله تعالى. أي: خَلَق هذا العالَمَ المشاهَدَ ملتبساً بالحقِّ والصواب؛ مشتملاً على الحِكَم والمصالح.

وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ بيانٌ لكيفيةِ تصرُّفِه فيما ذُكر بعدَ بيان الخلق، فإنَّ حدوثَ الليل والنهار مَنُوطٌ بتحريك أجرامٍ سماوية.

والتكويرُ في الأصل هو: اللَّفُّ واللَّيُّ، من: كَارَ العمامةَ على رأسِه وكوَّرها، والمراد على ما روي عن قتادة: يُغْشِي أحدَهما الآخَرَ، وهو - على ما قيل - على معنى: يُذهب أحدَهما ويُغْشي مكانَه الآخَرَ، أي: يُلْبِسُه مكانَه فيصيرُ أسودَ مظلِماً بعد ما كان أبيضَ مُنيراً، وبالعكس. فالمَغشيُّ حقيقةً المكانُ.

ويجوز أن يكونَ المَغشيُّ الليلَ والنهارَ على الاستعارة، ويكون المكانُ ظرفاً، والمقصودُ أنَّه لَمَّا كان أحدُهما غاشياً للآخر أَشْبَهَ اللباسَ الملفوف على لابسه في سَترِه إياه واشتمالِه عليه وتغطِّيهِ به. وتحقيقُه أنَّ أحدَهما لَمَّا كان محيطاً على جميعِ ما أحاط به الآخَرُ من غيرِ أن يكونَ ثَمَّ شيءٌ زائدٌ غير الظهور والخفاءِ، جعل إحاطته على مُحاط الآخَر إحاطةً عليه مجازَ ملابستِه، وعُبِّر عنها بالغَشَيَان والتكويرِ للشَّبَه المذكور.

وجوِّز أن يكونَ المرادُ أنَّ كلَّ واحدٍ من الليل والنهار يُغَيِّبُ الآخَرَ إذا طرأ عليه، فشُبِّه في تغييبه إياه بشيءٍ ظاهرٍ لُفَّ عليه ما غيَّبه عن مطامحِ الأبصار.

ورُجِّح الأولُ بأنَّ فيه مع اعتبار الستر اعتبارَ اللَّيِّ وإحاطةِ الأطراف، ثُمَّ إنَّ هذا لظهورهِ تشبيهٌ مبذولٌ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨٧.

وأنْ يكونَ المرادُ أنَّ هذا يكرُّ على هذا كروراً متتابعاً، فشُبِّه ذلك بتتابُع أكوارِ العِمامةِ بعضِها على إثر بعضٍ، قيل: وهو الأرجحُ؛ لأنَّه اعتُبِر فيه ما اعْتُبِر مع الأوَّل مع النظر إلى المطَّرِد فيه لفظُ الكور، فإنَّه لفٌّ بعد لفٍ وهو أيضاً كذلك، إلَّا أنَّ أكوار العمامة متظاهرةٌ، وفيما نحن فيه متعاوِرَةٌ، وهذا مما لا بأس به فإنَّ كلَّ ليَّةٍ يُسَمَّى كوراً حقيقةً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّ المعنى: يَحمِل أحدَهما على الآخر(١). وفُسِّر هذا الحمل بالضمِّ والزيادة، أي: يزيد الليلَ على النهار ويضمُّه إليه بأنْ يجعلَ بعضَ أجزاء الليل نهاراً فيطول النهار ويقصُر الليل، ويزيدُ النهارَ على الليل ويضمُّه إليه بأن يجعلَ سبحانه بعضَ أجزاءِ النهار ليلاً فيطول الليل ويقصُر النهار.

وإلى هذا ذهب الراغب(٢)، وهو معنًى واضحٌ، والآية عليه كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦] في قول.

وذكر بعضُ الفضلاء أنَّها على المعنى الأول فيها شيءٌ من قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢].

وعلى المعنى الثاني فيها شيءٌ من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١-٢].

وعلى الثالث شيءٌ من قوله سبحانه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

وأنها يُحْتَمل أن يكونَ فيها الاستعارةُ التبعيةُ، والمكنيةُ، والتخييليةُ، والتمثيليةُ؛ والتمثيلُ أولى بالاعتبار. وأيًّا ما كان فصيغةُ المضارع للدلالة على التجدُّد.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ جعلَهما منقادَين لأمره عزَّ وجل.

﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بيانٌ لكيفيةِ تسخيرِهما، أي: كلٌّ منهما يجري لمنتهىَ دورتِه؛ أو منقطَع حركتِه، وقد مرَّ تمامُ الكلام عليه، وفيه دليلٌ على أنَّ

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/١٥٩-١٦٠، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٢٤٨.
(٢) في المفردات (كور).

الشمسَ متحرِّكةٌ، وزعم بعضُ الكَفَرة أنها ساكنةٌ، وأنها مركزُ العالم، وسمعتُ في هذه الأيام أنَّه ظهر في الإفرنج منذ سنتين تقريباً مَن يزعم أنها تتحرَّك على مركز آخَرَ كما تتحركُ الأرض عليها نفسِها بزعمهم وزعم بعضِ المتقدِّمين.

ولهم في الهيئة كلامٌ غيرُ هذا، وفيه الغثُّ والسمين، إلَّا أنَّ نَفْيَهم السماوات الناطقةَ بها الشرائعُ بالكلية من العَجَب العجاب، وأنظارُهم السخيفة تُفْضِي بهم إلى ما هو أعجبُ من ذلك عند ذَوِي العقول السليمة، نسأل الله تعالى السلامةَ والتوفيق.

ولي عزمٌ على تأليف كتابٍ أبيِّنُ فيه إن شاء الله تعالى ما هو الأقربُ إلى مركز[1] الحقِّ من الهيئتينِ القديمةِ والجديدةِ، متحرِّكاً على مِحوَرِ الإنصاف، ساكناً عن سلوك مسالك الاعتساف، والله تعالى الموفِّق لذلك.

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ على عقاب المصِرِّين ﴿ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ لذنوب التائبين، أو الغالبُ الذي يقدِر أن يعاجِلَهم بالعقوبة، وهو سبحانه يحلُم عليهم ويؤخِّرهم إلى أجلٍ مسمًّى، فيكون قد سمَّى الحِلْمَ عنهم - وقد ترك تعجيلَ العقوبة - بالمغفرة التي هي تركُ العقاب على طريق الاستعارة للمناسبة بينهما في الترك. وجوِّز كونُ ذلك من باب المجاز المرسَل، والأوَّلُ أبلغ وأحسن.

وهذان الوجهان في «العزيز الغفار» قد ذكرهما الزمخشريُّ[2]، وظنَّ بعضُهم أنَّ الداعيَ للأول رعايةُ مذهب الاعتزال، حيثُ خصَّ فيه المغفرةَ بذنوب التائبين، فتركه وقال: «العزيزُ»: القادر على كلِّ ممكنٍ، الغالبُ على كلِّ شيء، «الغفَّارُ»: حيثُ لم يعاجِلْ بالعقوبة وسلْبِ ما في هذه الصنائعِ من الرحمة وعموم المنفعة.

وما علينا أن نفسِّر كما فسَّر ونقول بأنَّ مغفرتَه تعالى لا تخصُّ التائبين؛ بل قد يغفر جلَّ شأنه لغيرهم، إلَّا أنَّ التقييدَ ليلائمَ ما تقدَّم أتمَّ ملاءَمةٍ، ففي «الكشف» أنَّ الوجهَ الأول من ذَينكَ الوجهينِ المذكورينِ يناسبُ قولَه تعالى: (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ) من وجهين:

(١) كلمة «مركز»: ليست في «م».
(٢) في الكشاف ٣/ ٣٨٧-٣٨٨.

أحدهما: ما فيه من الدلالة على كمال القُدرة وكمالِ الرحمة المقتضي لعِقاب المصِرِّ وغفرانِ ذنوب التائب.

وثانيهما: أنَّ قوله تعالى: (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ) إلخ مسوقٌ لأمرَين: إثباتِ الوحدة والقهر المذكورَيْنِ فيما قبلُ نفياً للولد بل حَسْماً للشرك من أصله، والتسلُّقِ إلى ما مهَّدَ أولاً من العبادة والإخلاص لئلَّا يزولَ عن الخاطر؛ فقيل: (بِٱلْحَقِّ)، كما قيل هنالك: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]. وأُدْمِجَ فيه أنَّ إنزالَ الكتاب كما يدلُّ على استحقاقه تعالى للعبادة، فكذلك خلقُ السماوات والأرضِ بالحقِّ والحكمةِ التي منها الجزاءُ على ما سلَفَ، فالتذييلُ بـ «ألا هو العزيز الغفار» للترغيب في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص، والتحذيرِ عن خلاف ذلك، سواءٌ خالفَ أصلَ الدين كالكفر، أو خالَفَ الإخلاصَ فيه كسائر المعاصي = في غاية الملاءمة.

وإنما أفْرَد مخالفةَ الدين بالذكر صريحاً في قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا) إلخ تحذيراً من حالهم؛ لأنَّها هاتكةٌ لعصمة النجاة، فكانت أحقَّ بالتحذير، ورَمَز إلى هذا الثاني بالتذييل المذكور تكميلاً للمعنى المراد، ومدارُ هذه السورة الكريمة على الأمر بالعبادة والإخلاص، والتحذيرِ من الكفر والمعاصي.

والوجه الثاني من ذينك الوجهين يناسبُ حديثَ الشرك، والتذييلُ به لتوكيدِ تفظيعِ ما نسبوا إليه. ولمَّا ذكر تنزيلَ الكتاب وعقَّبَ بالأوصاف المقتضية للعبادة والإخلاص ذيَّلَه بقوله سبحانه: (أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ) على ما تحقَّق وجهُه، وقد نقلناه نحن عنه[1] فيما مرَّ. ثمّ لَمَّا ذَكر بعدَه عظيمَ ما نسبوا إليه سبحانه من الشرك والأولاد، وما دلَّ على تنزُّهِه تعالى بالألوهية ناسَبَ أن يُذَيِّلَه بقوله تعالى: (أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ) للتوكيد المذكور. وقد آثر هذا العلامةُ الطيبيُّ. ويُعلم مما ذكرنا وجهُ رجحان الأول. اهـ.

والوجه الثاني من وجهَي المناسبةِ على الوجهِ الأول أَوْلى الوجهين. والآية على ما ذكره البعضُ يجوز ارتباطُها بما عندَها مِن الخلق والتكوير والتسخير.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلخ دليلٌ آخر على الوحدة والقهر.

---

(١) أي: عن صاحب الكشف.

وتركُ عطفِه على «خلق السماوات» للإيذان باستقلاله في الدلالة، ولتعلُّقِه بالعالم السفلي، والبداءةِ بخلق الإنسان؛ لأنَّه أقربُ وأعجبُ بالنسبة إلى غيره باعتبار ما فيه من العقل وقَبولِ الأمانة الإلهية وغير ذلك، حتى قيل:

وتزعم أنَّك جِرْمٌ صغير وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ(١)

والمراد بالنفس آدمُ عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء، فإنَّها خُلقت من قُصَيرى ضِلعه عليه السلام اليُسرى - وهي أسفلُ الأضلاع - على معنى أنَّها خُلِقَت من بعضها، أو خلِقت منها كلِّها وخَلَق الله تعالى لآدمَ مكانَها. عَطفٌ على محذوفٍ هو صفةٌ ثانية لـ «نفس»، أي: من نفسٍ واحدة خَلقَها ثم جعل منها زوجَها. أو على «واحدة»؛ لأنَّه في الأصل اسم مشتقٌّ، فيجوز عطفُ الفعل عليه كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام:٩٦] ويُعْتبر ماضياً؛ لأنَّ اسمَ الفاعل قد يكون للمُضيِّ إذا لم يَعْمَل، أي: من نفسٍ وَحدت ثم جَعَل منها زوجَها، ورُجِّح بسلامته من التقدير الذي هو خلافُ الأصل. أو على «خَلَقكم» لتفاوتِ ما بينهما في الدلالة، فإنَّهما وإن كانتا آيتين دالَّتين على ما مرَّ من الصفات الجليلة، لكنَّ خلقَ حواءَ من الضِّلع أعظمُ وأجلبُ للتعجُّب، ولذا عبّر بالجعل دون الخلق، فـ «ثم» للتراخي الرُّتبي. ويجوز فيه كونُ الثاني أعلى مرتبةً من الأوَّلِ وعكسُه.

وقيل: إنه تعالى أخرجَ ذرِّيَّةَ آدم عليه السلام من ظهره كالذَّرِّ، ثم خلق منه حواء(٢)، فالمراد بخلقهم منه إخراجُهم من ظهره كالذرِّ، فالعطفُ على «خلقكم»، و«ثُمَّ» على ظاهرها، وهذا لا يُقْبل إلَّا إذا صحَّ مرفوعاً أو في حكمه.

---

(١) البيت نسب إلى علي كرم الله وجهه، وقد سلف ١٨/ ٣٥.

(٢) رجح هذا القول الطبري ٢٠/ ١٦٢ بناءً على ما روي معناه عن النبيِّ ﷺ وعن الصحابة من الروايات. فقد روى الترمذي (٣٠٧٦) وصححه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسحَ ظهره، فسقط من ظهره كلُّ نسمة هو خالقها من ذرية آدم إلى يوم القيامة...» إلخ. وأخرج الطبري ١٠/ ٥٥٥ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، قال: إن الله خلق آدم، ثم أخرج ذريته من صلبهِ مثل الذر، فقال لهم: من ربكم؟ قالوا: الله ربنا. ثم أعادهم في صلبه... الخبر.

وقد تضمَّنت الآية ثلاثَ آيات: خَلْق آدم عليه السلام بلا أبٍ وأمٍّ، وخَلْق حواء من قُصَيْرَاه، وخَلْق ذرِّيَّته التي لا يُحصِي عددَها إلا اللهُ عزَّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ استدلالٌ بنوعٍ آخر من العالم السفليِّ، والإنزالُ مجازٌ عن القضاء والقسمة، فإنَّه تعالى إذا قضى وقَسَم أثبت ذلك في اللوح المحفوظ، ونزلت به الملائكةُ الموكَّلة بإظهاره، ووصْفُه بالنزول مع أنه معنًى شائعٌ متعارَفٌ كالحقيقة، والعلاقةُ بين الإنزال والقضاء الظهورُ بعد الخفاء، ففي الكلام استعارةٌ تبعيَّةٌ، وجُوِّز أن يكون فيه مجازٌ مرسَلٌ.

ويجوزُ أن يكون التجوُّز في نسبةِ الإنزال إلى الأنعام، والمنزَّلُ حقيقةً أسبابُ حياتها كالأمطار، ووجهُ ذلك الملابسةُ بينهما.

وقيل: يرادُ بالأزواج أسبابُ تعيُّشِها. أو يُجعلُ الإنزالُ مجازاً عن إحداثِ ذلك بأسبابٍ سماويةٍ، وهو كما ترى.

وقيل: الكلام على ظاهره، والله تعالى خَلَق الأنعام في الجنة ثم أنزلها منها[1]، ولا أرى لهذا الخبر صحةً.

والأنعام: الإبل والبقر والضأن والمعز، وكانت ثمانيةَ أزواجٍ لأنَّ كلًّا منها ذكرٌ وأنثى. وتقديمُ الظرفين على المفعولِ الصريحِ لِمَا مرَّ مِراراً من الاعتناء بما قُدِّم والتشويقِ إلى ما أُخِّر.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ بيانٌ لكيفيةِ خَلْقِ مَن ذُكِرَ من الأناسيِّ والأنعام، إظهاراً لِمَا فيه مِن عجائب القدرة، وفيه تغليبان: تغليبُ أُولي العقلِ على غيرهم، وتغليبُ الخِطابِ على الغَيبة، كذا قيل. والأظهرُ أنَّ الخطابَ خاصٌّ. وصيغةُ المضارع للدلالة على التدرُّج والتجدُّد.

وقوله تعالى: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ إنْ تعلَّقَ «من بعد» بالفعل، وإلَّا فغيرُ مؤكِّد، أي: يخلقكم فيها خلقاً مدرَّجاً، حيواناً سويّاً من بعدِ عظامٍ مكسُوَّةٍ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١١٥.

لحماً، من بعد عظامٍ عاريةٍ، من بعد مُضَغٍ غير مخلَّقةٍ، من بعد عَلَقةٍ، من بعد نطفة. فقوله سبحانه: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ لمجرَّد التكرير، كما يقال: مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، لا أنَّه مخصوصٌ بخَلْقَيْن.

وقرأ عيسى وطلحة: «يَخْلُقكّم» بإدغام القاف في الكاف(١).

﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمة البطن والرَّحِم والمَشِيْمَة. وقيل: ظلمة الصُلب والبطن والرحِم. والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «يخلقكم». وجوَّز الشهابُ تعلُّقَه بـ «خَلْقاً» بناءً على أنَّه غيرُ مؤكِّد، وكونَه بدلاً من قوله تعالى: ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾(٢).

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ إشارةٌ إليه تعالى باعتبارِ أفعاله المذكورة على وجهٍ يدلُّ على بُعدِ منزلته تعالى في العظمة والكبرياء. واسمُ الإشارة مبتدأٌ والاسمُ الجليل خبرُه، و«رَبُّكُم» خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو الاسمُ الجليلُ نعتٌ أو بدلٌ، وهو الخبر، أي: ذلكم العظيمُ الشأنِ الذي عُدِّدت أفعاله اللهُ مربِّيكم فيما ذُكر من الأطوار وفيما بعدها، ومالكُكم المستحِقُّ لتخصيص العبادة به سبحانه، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة، ليس لغيره تعالى شركةٌ مّا في ذلك بوجهٍ من الوجوه، والجملة خبرٌ آخَرُ.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملةٌ متفرِّعةٌ على ما قبلَها، ولم يصرَّح معها بالفاء التفريعيةِ اعتماداً على فهم السامع. وفي «إرشاد العقل السليم» أنَّه خبرٌ آخَرُ(٣).

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما ذُكر من شؤُونه عزَّ وجل، أي: فكيف تُصْرَفون عن عبادته تعالى - مع وفورِ مُوجِباتها ودَواعيها وانتفاءِ الصارف عنها بالكلِّية - إلى عبادةِ غيرِه سبحانه من غير داعٍ إليها مع كثرة الصوارف عنها.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٠، والبحر المحيط ٧/ ٤١٧.
(٢) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٧/ ٣٢٨.
(٣) تفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٤.

﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ به تعالى مع مشاهدةِ ما ذُكر من موجبات الإيمان والشكر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ أي: فأُخبِرُكم أنه عزَّ وجلَّ غنيٌّ عن إيمانكم وشُكْرِكم، غيرُ متأثِّر من انتفائهما. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ لِمَا فيه من الضَّرر عليهم.

﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ﴾ أي: الشكرَ ﴿لَكُمْ﴾ لِمَا فيه من نفعكم، ومَن قال بالحُسْن والقُبْح العقلِيَّيْنِ قال: عدمُ الرضا بالكفر لقُبحه العقليِّ، والرضا بالشكر لحُسْنه العقليِّ.

والرضا إما بمعنى المحبة، أو بمعنى الإرادة مع ترك الاعتراض، ويقابله السخط كما في «شرح المسايرة»(١). فـ «عِبَادِهِ» على ظاهره من العموم.

ومنهم من فسَّره بالإرادة من غير قيدٍ، ويقابله الكُرْهُ، وهؤلاء يقولون: قد يرضى بالكفر، أي: يريده لبعض الناس كالكَفَرة، ونقله السخاويُّ عن النوويِّ في كتابه «الأصول والضوابط»(٢). وابن الهمام عن الأشعريِّ وإمام الحرمين(٣)، كذا قاله الخفاجي في حواشيه على «تفسير البيضاوي»(٤). والذي رأيته في «الضوابط» ـ وهي نسخةٌ صغيرة جداً ـ ما نصُّه:

مسألةٌ: مذهبُ أهل الحق الإيمانُ بالقدر وإثباتُه، وأنَّ جميعَ الكائنات خيرها وشرّها بقضاء الله تعالى وقدره، وهو مريدٌ لها كلِّها، ويكرهُ المعاصِيَ مع أنه سبحانه مريدٌ لها لحكمةٍ يَعْلَمها جلَّ وعلا. وهل يقال: إنَّه تعالى يرضى المعاصي ويحبُّها؟ فيه مذهبان لأصحابنا المتكلِّمين، حكاهما إمامُ الحرمين وغيرُه، قال إمام الحرمين في «الإرشاد»: مما اختلَف فيه أهلُ الحقِّ إطلاقُ المحبة والرضا، فقال بعضُ أصحابنا: لا يُطلَقُ القولُ بأنَّ الله تعالى يحبُّ المعاصيَ ويرضاها؛ لقوله تعالى: (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ)، ومن حقَّق من أَئِمَّتِنَا لم يلتفِتْ إلى تهويلِ المعتزِلة بل قال: الله تعالى يريدُ الكفرَ ويحبُّه ويرضاه، والإرادةُ والمحبَّةُ والرِّضا

---

(١) المسامرة شرح المسايرة ص١٢٩.
(٢) نقله المصنف عن حاشية الشهاب ٣٢٩/٧.
(٣) المسامرة شرح المسايرة ص١٢٨.
(٤) ٣٢٩/٧.

بمعنى واحدٍ، قال: والمراد بـ «عباده» في الآية: الموفَّقون للإيمان، وأُضيفوا إلى الله تعالى تشريفاً لهم كما في قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] أي: خواصُّهم لا كلُّهم[١]. اهـ.

فلا تغفلْ عن الفرق بينه وبين ما ذكره الخفاجي[٢].

وحُكي تخصيصُ العباد في «البحر» عن ابن عبَّاس[٣]. وقيل: يجوز مع ذلك حملُ العباد على العموم، ويكون المعنى: ولا يرضى لجميع عباده الكفر، بل يرضاه ويريده لبعضهم، نظيرَ قولِه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] على قول.

ولعلَّامةِ الأعصار صاحبِ «الكشف» تحقيقٌ نفيسٌ في هذا المقام لم أَرَهُ لغيره من العلماء الأعلام، وهو أنَّ الرضا يقابلُ السخطَ، وقد يُستعمل بـ «عن» و«الباء»، ويعدَّى بنفسه، فإذا قلتَ: رضيتُ عن فلانٍ، فإنَّما يدخل على العين لا المعنى، ولكن باعتبارِ صدورِ معنًى منه يُوجب الرِّضا، وفي مُقابِله: سَخِطْتُ عليه، وبينهما فرقان: أنك إذا قلتَ: رضِيْتُ عن فلان بإحسانه، لم يتعيَّن الباءُ للسببية، بل جاز أن يكونَ صلةً، ومثلُه في: رضيت بقضاء الله تعالى. وإذا قلتَ: سخِطْتُ عليه بإساءته، تعيَّن السببية، فكان الأصلُ هاهنا ذكرَ الصلة، لكنَّه كثُر الحذفُ في الاستعمال، بخلافِهِ ثَمَّة إذ لا حذفَ. وإذا قيل: رضيتُ به، فهذا يجبُ دخولُه على المعنى، إلَّا إذا دخل على الذات تمهيداً للمعنى؛ ليكونَ أبلغ، تقول: رضيتُ بقضاء الله تعالى ورضيتُ بالله عزَّ وجلَّ ربًّا وقاضياً، وقريبٌ منه: سمعتُ حديثَ فلان وسمعتُه يتحدَّث.

وإذا عُدِّي بنفسه جاز دخولُه على الذات كقولك: رضيتُ زيداً، وإن كان باعتبار المعنى تنبيهاً على أنَّ كلَّه مرضيٌّ بتلك الخصلة، وفيه مبالغةٌ. وجاز دخولُه

---

(١) الإرشاد ص ٢١١-٢١٢ و٢٢٠.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٧/ ٣٢٩.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤١٧.

على المعنى كقولك: رضيتُ إمارةَ فلانٍ. والأوَّلُ أكثرُ استعمالاً، وهو على نحوِ قولِهم: حمِدْتُ زيداً وحمِدْتُ علمَه.

وأمَّا إذا اسْتُعْمِل باللَّام تعدَّى بنفسه؛ كقولك: رضيتُ لك هذا، فمعناه ما سيجيء إن شاء الله تعالى قريباً.

وإذا تمهَّد هذا؛ لَاحَ لك أنَّ الرضا في الأصل متعلَّقُه المعنى، وقد يكون الذاتَ باعتبارِ تعلُّقِه بالمعنى، أو باعتبار التمهيد. فهذه ثلاثةُ أقسامٍ حُقِّقَتْ بأمثلتها. وأنَّه في الحقيقة حالةٌ نفسانيةٌ تَعْقبُ حصولَ ملائِم مع ابتهاجٍ به واكتفاءٍ، فهو غيرُ الإرادة بالضرورة؛ لأنَّها تَسْبِق الفعلَ وهذا يَعْقُبه. وهذا المعنى في غير المستعمَلِ باللَّام من الوضوح بمكانٍ لا يخفى على ذي عينين. وأمَّا فيه(١) فإنمَّا اشتبهَ الأمرُ، لأنَّك إذا قلت: رضيتُ لك التجارةَ، فالراضي بالتِّجارة هو مخاطَبُك، وإنمَّا أنتَ بيَّنتَ له أنَّ التجارةَ مما يحقُّ أنْ يُرْضَى به، وليس المعنى: رضيتُ بتجارتك، بل المعنى استحمادُك التجارةَ له، فالملاءَمةُ هاهنا بينَ الواقع عليه الفعلُ والداخلِ عليه اللَّامُ. ثُمَّ إنَّه قد يَرْضى بما ترضاه له، إذا عرف وجه الملاءمة، وقد لا يرضى، وفيه تجوُّزٌ: إمَّا لجَعْل الرِّضا مجازاً عن الاستحماد؛ لأنَّ كلَّ مرضيٍّ محمودٌ، أو لأنَّكَ جعلتَ كونَه مرضيّاً له بمنزلة كونه مرضيّاً لك.

فاعلم أنَّ الرضا في حقِّ الله تعالى شأنه محالٌ؛ لأنَّه سبحانه لا يَحْدُثُ له صفةٌ عَقِيْبَ أمرٍ ألبتةَ، فهو مجازٌ ـ كما أنَّ الغضب كذلك ـ إما من أسماء الصفات؛ إذا فسِّر بإرادةِ أن يثيبَهم إثابةَ مَنْ رضي عمن تحتَ يدِه، وإمَّا من أسماء الأفعال إذا أرِيْد الاستحمادُ. وأنَّ مثلَ قوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [البينة:٨] إمَّا من باب المشاكلة، وإمَّا من باب المجاز المذكور. وأنَّ مثلَ قوله سبحانه: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٣] متعيِّن أن يكونَ من ذلك البابِ بالنسبة إلى مَنْ يصحُّ اتصافُه بالرضا حقيقةً أيضاً، فإذَنْ قوله تعالى: (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ) كلامٌ واردٌ على نهجه من غير تأويلٍ، دالٌّ على أنَّه جلَّ شأنه لا يستحمِدُ الكفرَ لعباده كما يستحمد الإسلامَ لهم ويرتضيه.

---

(١) أي: في المستعمل باللّام.

وأمَّا أنَّه لا يريد الكفر أن يُوجَد فليس من هذا الباب في شيء، ولا هو من مقتَضَيات هذا التركيب، وأنَّ الخروج إلى تخصيصِ العباد من ضِيق العطَن، وأنَّ قولَ المحقِّقين ﷺ: إنَّ الطاعات برضى اللهِ تعالى والمعاصي ليست كذلك، ليس لهذه الآية، بل لأنَّ الرضا بالمعنى الأصليِّ يستحيل عليه تعالى، وقد أخبر أنَّه رَضِي عن المؤمنين بسبب طاعتهم في مواضعَ عديدةٍ من كتابه الكريم.

والزمخشريُّ ـ عامله الله تعالى بعَدْله ـ فسَّر الرضا في نحوه بالاختيار[١]، وهو لا ينفكُّ عن الإرادة. وأنت تعلم سقوطَه مما حُقِّق.

هذا، ثم إنَّا نقول: لمَّا أرشدَ سبحانه إلى الحقِّ وهدَّد على الباطل إكمالاً للرحمة على عباده كلِّهم [خاطب][٢] الفَريقَين بقوله تعالى: «إن تكفروا» إلى قوله سبحانه: «يرضه لكم» تنبيهاً على الغنى الذاتيِّ، وأنَّه ـ سبحانه ـ تعالى أن يكون أمرُه بالخير لانتفاعه به، ونهيُه عن الشرِّ لتضرُّره منه. ثم في العدول عن مقتضَى الظاهر من الخطاب إلى قوله تعالى: «ولا يرضى لعباده الكفر» ما ينبِّهُ على أنَّ عبوديتَهم وربوبيتَه جل شأنه تقتضي[٣] أن لا يرضى لهم ذلك. وفيه أنهم إذا اتَّصفُوا بالكفر فكأنَّهم قد خرجوا عن رتبة عبوديته تعالى، وبقوا في الذُّل الدائم، ثمَّ قيل: «يَرْضَهُ لَكُم» للتنبيه على مزيد الاختصاص. فهذا هو النظمُ السرِّيُّ الذي يحارُ دونَ إدراك طائفةٍ من لطائفهِ الفكرُ البشريُّ، والله تعالى أعلم. اهـ[٤].

وهو كلامٌ رصينٌ وبالقبول قمينٌ، إلَّا أنَّه رُبَّما يقال: إنه لا يتمشَّى على مذهب السلف حيثُ إنَّهم لا يؤوِّلون الرضا في حقِّه تعالى، وكونُه عبارةً عن حالةٍ نفسانيةٍ إلى آخر ما ذُكر في تفسيره إنَّما هو فينا، وحيثُ إنَّ ذاتَه تعالى مبايِنةٌ لسائر الذوات، فصفاتُه سبحانه كذلك، فحقيقةُ الرضا في حقِّه تعالى مبايِنةٌ لحقيقته فينا، وأين الترابُ من ربِّ الأرباب؟ وقد تقدَّم الكلام في هذا المقام على وجهٍ يروِي الأُوَامَ ويُبْرِئُ السَّقامَ.

---

(١) الكشاف ١/ ٥٩٣.
(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٣٢٩، والكلام فيه بنحوه.
(٣) في (م): يقتضي.
(٤) أي: انتهى كلام صاحب «الكشف».

فنقول: عدمُ التأويل لا يضرُّ فيما نحن بصدده، فالرضا - إن أوِّل أوْ لم يؤوَّل - غيرُ الإرادة؛ لحديث السبق والتأخُّرِ السابق. وممن صرَّح بذلك ابنُ عطية، قال: تأمَّل الإرادةَ، فإنَّ حقيقتَها إنَّما هي فيما لم يقعْ بعدُ، والرضا حقيقتُه إنما هي فيما وقع، واعتَبرْ هذا في آياتِ القرآن تجدْه، وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها - على جهةِ التجوُّز - هذا بدلَ هذا[1].

وقد ذهب إلى المغايَرةِ بينهما بما ذُكر هنا ابنُ المنيِّر[2] أيضاً، إلّا أنَّه أوَّلَ الرضا، وذكر أنَّه لا يتأتَّى حملُه في الآية على الإرادة، وشنَّع على الزمخشريِّ في ذلك جزاءَ ما تكلَّم على بعض أهلِ السنة المخالفين للمعتزلة في زعمهم اتحادَ الرضا والإرادة، وأنَّه تعالى قد يُريد مَا لا يفعله العبدُ، وقد يفعل العبدُ ما لا يريدُه عزَّ وجل، فقال:

هَبْ أنَّ المصِرَّ على هذا المعتقَد على قلبه رينٌ، أو في ميزانِ عقله غَينٌ، أليس يدَّعي أو يُدَّعَى له أنَّه الخِرِّيْتُ في معابر العبارات؟ فكيف هامَ عن جادَّة الإجادة في بهماءَ، وأعارَ مُنادِي الحِذاقة أذُناً صمَّاء؟ اللَّهم إلَّا أنْ يكونَ الهوى إذا تمكَّن أرى الباطلَ حقّاً، وغطى على مكشوف العبارة، فسُحقاً سُحقاً، أليس مقتضى العربية - فضلاً عن القوانين العقلية - أنَّ المشروطَ مرتَّب على الشرط، فلا يُتَصوَّرُ وجودُ المشروط قبلَ الشرط عقلاً، ولا مُضِيُّه واستقبالُ الشرط لغةً ونقلاً، واستقرَّ باتفاق الفريقَيْنِ أهل السنة وأهلِ البدعة أنَّ إرادةَ الله تعالى لشكر العباد مثلاً مقدَّمةٌ على وجودِ الشكر منهم، فحينئذ كيف ينساغُ حملُ الرضا على الإرادة، وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاءً وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزيّاً؟ واللازمُ من ذلك عقلاً تقدُّم المراد - وهو الشكر - على الإرادة وهي الرضا، ولغةً تقدُّم المشروط على الشرط، فإذا ثبتَ بطلانُ حملِ الرضا على الإرادة عقلاً ونقلاً تعيَّن المحملُ الصحيحُ له، وهو المجازاةُ على الشكر بما عُهِد أنْ يُجازَى به المرضيُّ عنه من

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢١.
(٢) في الانتصاف ٤/ ٣٨٨-٣٩٠.

الثواب والكرامة، فيكون معنى الآية والله تعالى أعلم: وإن تشكروا يجازِكم على شكركم جزاءَ المرضيِّ عنه. ولا شكَّ أنَّ المجازاةَ مستقبلةٌ بالنسبة إلى الشكر، فجَرى الشرطُ والجزاءُ على مقتضاهما لغةً، وانتظم ذلك بمقتضى الأدِلَّة العقلية على بطلانِ تقدُّمِ المراد على الإرادة عقلاً، ومثلُ هذا يقال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لا يجازي الكافرَ مجازاةَ المرضيِّ عنه، بل مجازاةَ المغضوبِ عليه من النكالِ والعقوبة[1]. انتهى.

لا يقال: حيثُ كان قوله تعالى: «فإن الله غني عنكم» جزاءً باعتبار الإخبار كما أشير إليه فيما سلف، فليكنْ قولُه تعالى «يرضه لكم» جزاءً بذلك الاعتبار، فحينئذ لا يلزم أن يكون نفسُ الرضا مؤخَّراً. لأنَّا نقول: مثلُ هذا الاعتبار شائعٌ في الجملة الاسمية المتحقِّق مضمونُها قبلَ الشرط، نحوُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧] وفي الفعل الماضي إذا وقَع جزاءً، نحوُ: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٧٧] وأما في الفعل المضارع فليس كذلك، والذوقُ السليم يأبى هذا الاعتبارَ فيه، ومع هذا أيُّ حاجةٍ تدعو إلى ذلك هنا؟! ولا أُراها إلَّا نصرةَ الباطل، والعياذ بالله تعالى.

ثم إنَّه يُعلمُ من مجموع ما قدَّمنا حقِّيَّة ما قالوا من أنَّه لا تلازُمَ بينَ الإرادة والرضا، كما أنَّ الرضا ليس عبارةً عن حقيقةِ الإرادة، لكنَّ ابن تيميةَ وتلميذَه ابنَ القيِّم قسَما الإرادة إلى قسمين: تكوينيَّةٍ وشرعيَّةٍ، وذكرا أنَّ المعاصيَ كالكُفْر وغيرِه واقعةٌ بإرادة الله تعالى التكوينيَّة دونَ إرادته سبحانَه الشرعيَّةِ، وعلى هذا فالرضا لا ينفكُّ عن الإرادة الشرعيَّة، فكلُّ مرادٍ لله تعالى بالإرادة الشرعيَّة مرضيٌّ له سبحانه[2]. وهذا التقسيم لا أتعقَّلُه إلَّا أن تكونَ الإرادةُ الشرعيَّةُ هي الإرادةَ التي يُرتضَى المرادُ بها، فتدبَّرْ هذا.

وقرأ ابنُ كثير ونافع في رواية وأبو عمرو والكسائيُّ: «يَرْضَهُ» بإشباع ضمةِ

---

(١) الانتصاف ٣/ ٣٨٨-٣٩٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ١٨٨-١٨٩، وشفاء العليل لابن القيم ص١٠٣-١٠٤.

الهاء[١]. والقاعدة في إشباع الهاء وعدمِه أنَّها إنْ سكن ما قبلها لم تُشْبع نحوُ «عليه» و«إليه»، وإن تحرَّكَ أُشْبعت نحوُ «به» و«غلامه»، وهاهنا قبلَها ساكنٌ تقديراً، وهو الألف المحذوفة للجازم، فإنْ جُعلتْ موجودةً حكماً لم تُشْبع؛ كما في قراءةِ ابن عامر وحفص[٢]، وإن قُطع النظرُ عنها أشْبعت؛ كما في قراءةِ مَنْ سمعتَ، وهذا هو الفصيح، وقد تُشْبع وتُخْتلس في غير ذلك، وقد يحْسُن إشباعها مع فقدِ الشرط لنُكتةٍ.

وقرأ أبو بكر: «يرضَهْ» بسكون الهاء[٣]، ولم يَرْضَهُ أبو حاتم وقال: هو غلطٌ لا يجوز، وفيه أنَّه لغةٌ لبني كلاب وبني عقيل[٤]، إجراءً للوصل مُجرى الوقف.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بيانٌ لعَدَم سراية كفر الكافر إلى غيره، وقد تقدَّم الكلام في هذه الجملة، وكذا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ فتذكَّرْ.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ من مرضٍ وغيرِه من المكاره ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً ممن كان يدعوه في حالةِ الرَّخاءِ من دون الله عزَّ وجلَّ؛ لعلمِه بأنَّه بِمعزِل من القدرة على كشفِ ضرِّه.

وهذا وصفٌ للجنس بحالِ بعضِ أفرادِه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤] واستظهر أبو حيان[٥] أنَّ المرادَ بالإنسان جنسُ الكافر. وقيل: هو معيَّن كعتبة بن ربيعة.

---

(١) تفسير البيضاوي ٧/ ٣٢٩، وهي في البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص ٢٧٤ عن ابن كثير والكسائي وابن ذكوان راوية ابن عامر، وخلف، وابن وردان راوية أبي جعفر. وينظر التيسير ص ١٨٩، والنشر ١/ ٣٠٥ - ٣٠٩.

(٢) البحر ٧/ ٤١٧، وهي في البدور الزاهرة عن نافع وعاصم وحمزة ويعقوب.

(٣) البحر ٧/ ٤١٧، وهي في البدور الزاهرة عن السوسي راوية أبي عمرو، وابن جماز راوية أبي جعفر.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٤١٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢١.

(٥) في البحر المحيط ٧/ ٤١٨.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: أعطاه نعمةً عظيمةً من جنابه من الخَوَل - بفتحتين - وهو تعهُّدُ الشيء، أي: الرجوعُ إليه مرةً بعدَ أخرى، وأُطْلِق على العطاءِ لِمَا أنَّ المعطِي الكريمَ يتعهَّدُ مَنْ هو ربيبُ إحسانِه ونَشْوُ امتنانه[1] بتكرير العطاءِ عليه مرَّةً بعدَ أُخْرى.

وقال بعضهم: معنى «خوَّله» في الأصل: أعطاه خَوَلاً - بفتحتين - أي: عَبيداً وخَدَماً، أو: أعطاه ما يحتاج إلى تعهُّدِه والقيام عليه، ثُمّ عُمِّمَ لمطلَقِ العطاء.

وجوَّز الزمخشريُّ كونَه من: خال يخول خَوْلاً - بسكون الواو - إذا افتخر[2].

واعتُرِض بأنَّه صرَّح في «الصحاح» أنَّ «خال» بمعنى «افتخر» يائيٌّ[3]، والخُيَلاء بمعنى التكبُّر يدلُّ عليه دلالةً بينةً، وأيضاً «خوَّل» متعدٍّ إلى مفعولين، وأَخْذُه منه لا يقتضي أن يتعدَّى للمفعول الثاني.

وأجيب عن الأوَّل بأنَّ الزمخشريَّ من أئمَّة النقل، وقد ثبت عنده. وأصلُه من الخال الذي هو العَلَامةُ، وقد نُقِل فيه الواوُ والياء، ثم قيل لسِيْما الجمالِ والخير: خالٌ؛ من ذلك، وأُخِذ منه الخيالُ. وأمَّا الاختيالُ بمعنى التكبُّر فهو مأخوذٌ من الخيال؛ لأنَّه خالَ نفسه فوقَ قَدْرِه، أو جعلَ لنفسه خالَ الخير، كما يقال: أُعجِب الرجل، فقد وضَح أنَّ الاشتقاقَ يناسبُهما، ولا يُنكَرُ ثبوتُ الياء بدليل الخيلاء، لكنْ لا مانعَ من ثبوت الياء أيضاً، وليس الاختيال مأخوذاً من الخيلاء؛ بل الخيلاءُ هو الاسم منه، فلا يصلُح مانعاً، لكنْ يصلُح مُثبِتاً للياء.

وعن الثاني بأنَّه ليس المرادُ أنَّ «خوَّل» مضعَّفَ «خال» بمعنى «افتخر»، حتى يُشكِل تعديتُه للمفعول الثاني، بل إنَّه موضوعٌ في اللغة لمعنى «أعطى»، وما ذُكر بيانٌ لِمأخذِ اشتقاقه وأصلِ معناه الملاحظِ في وضعه له، ومثلُه كثيرٌ. فأصلُ «خوَّله»: جعله مفتَخِراً بما أَنْعَم عليه، ثم قُطع النظرُ عنه، وصار بمعنى أعطاه مطلقاً.

---

(١) النَّشْوَ: أحداث الناس، فإذا طرحوا الهمزة قالوا: نَشْوٌ. تاج العروس (نشأ).

(٢) الكشاف ٣/ ٣٨٩.

(٣) الصحاح (خيل).

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: نسي الضُّرَّ الذي كان يدعو الله تعالى إلى إزالتِه وكشفِه ﴿مِن قَبْلُ﴾ التخويل، فـ «ما» واقعةٌ على الضُّرِّ، و«دعا» من الدعوة، وهو يتعدَّى بـ «إلى» يقال: دعا المؤذِّن الناسَ إلى الصلاة، ودعا فلانٌ الناسَ إلى مأدُبته، والدعوة مجازٌ عن الدعاء، والمعنى على اعتبار المضاف كما أشيرَ إليه.

ويجوز أن يراد بـ «ما» معنى «مَنْ» للدلالة على الوصفية والتفخيم؛ واقعاً عليه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:٣]، وقولِه سبحانه: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] والدعاءُ على ظاهره، وتعديتُه بـ «إلى» لتضمينه معنى الإنابة أو التضرُّعِ والابتهالِ، والمعنى: نَسِي ربَّه الذي كان يدعو منيباً أو متضرِّعاً إليه، وهو وجهٌ لا بأسَ به.

وما قيل من أنَّه تكلُّف، إذ لا يقال: دعا إليه، بمعنى: دعاه، ولا حاجةَ إلى جَعلِ «ما» بمعنى «من» = مردودٌ لحُسْن موقعِ التضمين واستعمالِ «ما» في مقام التفخيم. وفي «الإرشاد» أنَّ في ذلك الجعلِ إيذاناً بأنَّ نسيانَه بلغ إلى حيثُ لا يعرفُ مدعوَّه ما هو، فضلاً مِن أنْ يعرفَه مَن هو[(١)].

وقيل: «ما» مصدرية، أي: نسي كونَه يدعو.

وقيل: هي نافيةٌ، وتمَّ الكلامُ عندَ قوله تعالى: (نَسِيَ)، أي: نسي ما كان فيه من الضُّرِّ، ثم نَفَى أنْ يكونَ دعاءُ هذا الكافرِ خالصاً لله تعالى من قبل، أي: من قبلِ الضرِّ. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاءَ في العبادة، والظاهر من استعمالاتهم إطلاقُ الأنداد على الشركاء مطلَقاً، وفي «البحر»: «أنداداً» أي: أمثالاً يُضَادُّ بعضُها بعضاً ويعارِضُ[(٢)]. قال قتادة: أي: الرجالَ يطيعهم في المعصية. وقال غيره: أوثاناً. ﴿لِّيُضِلَّ﴾ الناسَ بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عزَّ وجلَّ الذي هو التوحيد.

(١) إرشاد العقل السليم ٧/ ٢٤٤.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤١٨.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعيسى: «لَيَضِلَّ» بفتح الياء[1]، أي: ليزدادَ ضلالاً، أو: ليَثْبُتَ عليه، وإلَّا فأصْلُ الضَّلالِ غيرُ متأخِّر عن الجعل المذكور، واللّام لامُ العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] بيدَ أنَّ هذا أقربُ إلى الحقيقة؛ لأنَّ الجاعلَ هاهنا قاصدٌ بجعله المذكورِ حقيقةَ الإضلالِ والضلال، وإنْ لم يعرفْ بجهله أنهما إضلالٌ وضلال، وأمَّا آلُ فرعون فهم غيرُ قاصدين بالتقاطهم العداوةَ أصلاً.

﴿قُلْ﴾ تهديداً لذلك الجاعلِ وبياناً لحالِه ومآله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: تمتُّعاً قليلاً، أو: زماناً قليلاً، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ أي: مُلازِميها والمعذَّبين فيها على الدوام. وهو تعليلٌ لقلَّةِ التمتُّع، وفيه من الإقناط من النجاة وذمِّ الكفر ما لا يخفى؛ كأنه قيل: إذ قَدْ أبيتَ ما أُمِرْتَ به من الإيمان والطاعةِ فمِنْ حقِّك أن تُؤْمرَ بتركه لِتَذُوقَ عقوبتَه.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ إلخ من تمام الكلام المأمور به في قولٍ، و«أم» إمَّا متَّصلةٌ قد حُذف مُعادِلُها ثقةً بدلالةِ مَساقِ الكلام عليه، كأنه قيل له تأكيداً للتهديد وتهكُّماً به: أأنتَ أحسنُ حالاً ومآلاً أم من هو قائمٌ بمَواجبِ الطاعات ودائمٌ على وظائف العبادات في ساعات الليل التي فيها العبادةُ أقربُ إلى القَبول وأبعدُ عن الرياء، حالتَي السرَّاء والضرَّاء، لا عندَ مَساسِ الضرِّ فقط كدأبك، حالَ كونه ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾!

وإلى كون المحذوف المُعادلَ الأوَّل ذهبَ الأخفش، ووافقه غيرُ واحد، ولا بأس به عند ظهور المعنى، لكن قال أبو حيان: إنَّ مثلَ ذلك يحتاج إلى سماعٍ من العرب[2].

ونصبُ «ساجداً وقائماً» على الحالية كما أشير إليه، أي: جامعاً بين الوصفين المحمودين، وصاحبُ الحال الضميرُ المستتر في «قانت».

وجُوِّز كونُ الحال من ضمير «يحذر» الآتي، قدِّم عليه، ولا داعيَ لذلك.

---

(١) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٩ عن ابن كثير وأبي عمرو، والكلام من البحر ٧/ ٤١٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤١٨-٤١٩، وعنه نقل المصنف قول الأخفش.

وقرأ الضحَّاك: «ساجدٌ وقائمٌ»[١] برفع كلٍّ على أنَّه خبرٌ بعدَ خبر. وجوَّز أبو حيان كونَه نعتاً لـ «قانت»[٢]، وليس بذاك.

والواو ـ كما أشيرَ إليه ـ للجمع بينَ الصِّفتين. وتركُ العطف على «قانت» قيل: لأنَّ القنوتَ مطلقُ العبادة، فلم يكن مغايراً للسجود والقيام، فلم يُعْطَفا عليه، بخلاف السُّجود والقيام فإنَّهما وصفان متغايران، فلذا عُطف أحدُهما على الآخر.

وتقديمُ السجود على القيام لكونه أدخلَ في معنى العبادة، وذهب المعظم إلى أنَّه أفضلُ من القيام؛ لحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد»[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ حالٌ أُخرى على التداخُل أو الترادُف، أو استئنافٌ وقع جواباً عمَّا نشأ من حكايةِ حالِه؛ كأنَّه قيل: ما باله يفعل ذلك؟ فقيل: يحذرُ الآخرةَ، أي: عذابَ الآخرة؛ كما قرأ به ابنُ جُبير[٤].

﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ فينجو بذلك مما يحذَرُه، ويفوز بما يرجوه؛ كما ينبئ عنه التعرُّض لعنوان الربوبية المنبئةِ عن التبليغ إلى الكمال، مع الإضافة إلى ضميرِ الراجي، لا أنَّه يحذَرُ ضرَّ الدنيا ويرجو خيرَها فقط.

وإمَّا منقطعةٌ، وما فيها من الإضراب للانتقال من التبكيت بتكليفِ الجواب الملجئِ إلى الاعتراف بما بينَهما من التباين البيِّن، كأنَّه قيل: بل أَمَّنْ هو قانتٌ.. إلخ، مثلُك أيها الكافر، وقدَّر الزمخشريّ: كغيره[٥].

وقال النَّحاس: «أم» بمعنى «بل»، و«مَنْ» بمعنى «الذي»، والتقديرُ: بل الذي هو قانتٌ.. إلخ أفضلُ مما قبله[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣، والبحر ٧/ ٤١٩.
(٢) البحر ٧/ ٤١٩.
(٣) سلف ٤/ ١٨٦.
(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣.
(٥) الكشاف ٣/ ٣٩٠، ووقع في (م): بل أمن هو قانت إلخ، وقدر الزمخشري كغيره مثلك أيها الكافر. والمثبت من الأصل، وهو الصواب.
(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥٨، وإعراب القرآن له ٤/ ٦. ونقله المصنف من البحر ٧/ ٤١٩.

وتعقَّبه في «البحر» بأنَّه لا فضلَ لمن قبلَه حتى يُجعل هذا أفضلَ، بل يقدَّر الخبر: من أصحاب الجنة، لدلالةِ مقابِله ـ أعني: «إنك من أصحاب النار» ـ عليه[1]. ولا يبعدُ أن يقدَّر: أفضل منك، ويكون ذلك من باب التهكُّم.

وقرأ ابنُ كثير ونافعٌ وحمزةُ والأعمش وعيسى وشيبةُ والحسن في رواية: «أَمَنْ» بتخفيف الميم[2]، وضعَّفها الأخفش وأبو حاتم[3]، ولا التفاتَ إلى ذلك، وخُرِّجتْ على إدخال همزة الاستفهام التقريري على «مَن»، والمقابلُ محذوفٌ، أي: آلذي هو قانت.. إلخ خيرٌ أم أنت أيها الكافر؟ ومثلُه في حذفِ المعادِل قوله:

دعاني إليها القلبُ إنِّي لأمْرِه ... سميعٌ فما أدري أرُشْدٌ طِلابُها[4]

فإنه أراد: أم غيٌّ.

وقال الفرَّاء[5]: الهمزة للنداء، كأنه قيل: يا من هو قانت، وجَعل قولَه تعالى: «قل» خطاباً له. وضعَّف هذا القولَ أبو علي الفارسيّ[6]، وهو كذلك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ على معنى: قل له أيضاً بياناً للحقِّ وتصريحاً به وتنبيهاً على شرَف العلم والعمل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ فيعملون بمقتضى عِلْمِهم، ويَقْنُتون الليلَ سجَّداً وركَّعاً يحذَرون الآخرة ويرجون رحمةَ ربِّهم، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيعملون بمقتضى جهلِهم وضلالِهم، كدأبك أيُّها الكافر الجاعلُ لله تعالى أنداداً. والاستفهام للتنبيه على أنَّ كونَ الأوَّلينَ في أعلى معارِج الخير، وكونَ الآخِرين في أقصى مدارج الشرِّ، من الظهور بحيثُ لا يكاد يخفى على أحدٍ من مُنْصفٍ ومكابر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٢) التيسير ص١٨٩، والنشر ٢/ ٣٦٢ عن نافع وابن كثير وحمزة، والكلام من البحر ٧/ ٤١٨.

(٣) كما في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢٢، والبحر ٧/ ٤١٨.

(٤) البيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ١/ ٧١، والبحر ٧/ ٤١٨، ورواية الديوان: عصاني إليها القلب، أي: ذهب إليها سَفَهاً.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٤١٦.

(٦) في الحجة للقراء السبعة ٦/ ٩٣.

ويُعلم مما ذكرنا أنَّ المرادَ بـ «الذين يَعْلَمون»: العاملون من علماء الديانة. وصرَّح بإرادة ذلك بعضُ الأجلَّة على تقديرَي الاتصال والانقطاع، وأنَّ الكلام تصريحٌ بنَفْي المساواةِ بينَ القانت وغيرِه المضمَّنةِ من حرفَي الاستفهام، أعني: الهمزة و«أم» على الاتصال، أو من التشبيه على الانقطاع، وعلى قراءة التخفيف أيضاً؛ وقال: إنمَّا[1] عُدل إلى هذه العبارة دلالةً على أنَّ ذلك مقتضى العلم، وأنَّ العلمَ الذي لا يترتَّب عليه العملُ ليس بعلم عندَ الله تعالى، سواء جُعل من باب إقامة الظاهر مُقامَ المضمَر للإشعار المذكور، أو استئناف سؤالٍ تبكيتيٍّ؛ توضيحاً للأوَّل من حيثُ التصريحُ، ومن حيثُ إنَّهم وُصِفوا بوصفٍ آخَرَ يقتضي اتصافهم بتلك الأوصاف، ومباينتَهم لطبقةِ مَنْ لا يتَّصف به[2]. وهذا أبلغُ وأظهر لفظاً لقوله تعالى: «قل».

وجوِّز أن يكون الكلامُ وَارِداً على سبيل التشبيه فيكونُ مقرِّراً لنَفْي المساواة، لا تصريحاً بمقتضى الأوَّل، أي: كما لا استواءَ بينَ العالِم وغيرِه عندَكم من غيرِ ريبةٍ، فكذلك ينبغي أن لا يكون لكم ارتيابٌ في نفْي المساواة بينَ القانت المذكور وغيره.

وكونُه للتصريح بنفي المساواة، وحَمْلُ «الذين يعلمون» على العامِلين من علماء الديانة على ما سمعتَ، مما لا ينبغي أن يُختارَ غيرُه لتكثير الفائدة.

وأمَّا مَن ارتابَ في ذلك الواضح فلا يبعدُ منه الارتيابُ في هذا الواضح أيضاً، فجوابُه أنَّ الاستنكافَ عن الجهل مركوزٌ في الطباع بخلاف الأول.

ويُشعر كلامُ كثيرٍ أنَّ قولَه تعالى: «أم من هو» إلخ غيرُ داخل في حيِّز القول، والمعنى عليه كما في الأول بتغييرٍ يسير لا يخفى.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه تلا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ الآية، فقال: نزلت في عثمانَ بن عفان[3].

---

(١) في (م): قال: وإنما.

(٢) قوله: به، ليس في (م).

(٣) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٣٢.

وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عبَّاس أنَّها نزلت في عمَّار بن ياسر[(١)].

وأخرج جُويبر عنه أنها نزلت في عمارٍ وابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة. وعن عكرمة الاقتصار على عمار[(٢)].

وعن مقاتل: المراد بـ «من هو قانت»: عمارٌ وصهيبٌ وابنُ مسعود وأبو ذرٍّ[(٣)].

وفي رواية الضحَّاك عن ابن عباس: أبو بكر وعمر[(٤)].

وقال يحيى بن سلَّام: رسول الله ﷺ[(٥)].

والظاهر أنَّ المرادَ المتَّصِفُ بذلك من غير تعيين، ولا يمنع من ذلك نزولُها فيمن علمتَ، وفيها دلالةٌ على فضل الخوف والرجاء، وقد أخرج الترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك»؟ قال: أرجو وأخاف، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يجتمعان في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطن إلَّا أعطاه الذي يرجو، وآمنه الذي يخاف»[(٦)].

وفيها ردٌّ على من ذمَّ العبادة خوفاً من النار أو رجاء الجنة، وهو الإمام الرازيُّ كما قال الجلال السيوطيُّ[(٧)]. نعم؛ العبادةُ لذلك ليس إلَّا مذمومةٌ، بل قال بعضُهم بكفرِ من قال: لولا الجنة والنار ما عبدتُ الله تعالى، على معنى نَفْي الاستحقاق الذاتيِّ.

وفيها دلالةٌ أيضاً على فضل صلاة الليل وأنَّها أفضلُ مِنْ صلاةِ النهار.

---

(١) الطبقات الكبرى ٣/ ٢٥٠، وتاريخ دمشق ٤٣/ ٣٧٧، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٣.

(٢) أسباب النزول للسيوطي ص٣١٩.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٤) تفسير البغوي ٦/ ٦٩، والبحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١١٧.

(٦) الترمذي (٩٨٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٣٤)، وابن ماجه (٤٢٦١).

(٧) في الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص٢٢٤.

ودلَّ قولهُ تعالى: (هَلْ يَسْتَوِى) إلخ على فضل العلم ورِفعة قَدْرِه، وكونِ الجهل بالعكس. واستدلَّ به بعضُهم على أنَّ الجاهلَ لا يكافئ العالِمَة كما أنَّه لا يكافئ بنتَ العالم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ كلامٌ مستقلٌّ غيرُ داخل عند الكافَّة في الكلام المأمور، واردٌ من جهته تعالى بعدَ الأمر بما تضمَّن القوارعَ الزاجرةَ عن الكفر والمعاصي؛ لبيانِ عدمِ تأثيرها في قلوبِ الكفرة لاختلال عقولهم، كما في قوله:

عُوجُوا فحَيُّوا لنُعْمَى دِمْنَةَ الدارِ ... ماذا تُحَيُّون من نُؤْيٍ وأَحْجارِ[1]

وهو أيضاً كالتوطئة لأفراد المؤمنين بعدُ بالخطاب والإعراض عن غيرهم، أي: إنَّما يتَّعظ بهذه البيانات الواضحة أصحابُ العقول الخالصة عن شوائب الخلل، وأما هؤلاء فبمعزلٍ عن ذلك.

وقرئ: «يذَّكَّرُ» بالإدغام[2].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أُمِرَ رسولُ الله ﷺ أنْ يذكِّر المؤمنين ويحملَهم على التقوى والطاعة إثْرَ تخصيصِ التذكُّرِ بأولي الألباب، وفيه إيذانٌ بأنَّهم هم، أي: قلْ لهم قَولي هذا بِعَينه، وفيه تشريفٌ لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، ومزيدُ اعتناءٍ بشأنِ المأمور به؛ فإنَّ نقلَ عينِ أمر الله تعالى أدخلُ في إيجاب الامتثال به.

وقولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ إلى آخره تعليلٌ للأمر؛ أو لوجوبِ الامتثال به، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو خبرٌ مقدَّم. وقولُه سبحانه: ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّقٌ بـ «أحسَنوا»، واسم الإشارة للإحضار، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿حَسَنَةٌ﴾ مبتدأ، وتنوينُه للتفخيم، أي: للمحسنين في الدنيا حسنةٌ في الآخرة أيُّ حسنةٍ، والمرادُ بها الجنة.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وقد سلف ١٧/ ١٠٧.
(٢) البحر ٧/ ٤١٩.

وقولُه عزَّ وجل: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ جملةٌ معترضة إزاحةً لِمَا عسى أنْ يُتوهَّم من التعلُّل في التفريط بعَدمِ التمكُّن في الوطن من رعاية الأوامر والنواهي على ما هي عليه. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ من تتمَّة الاعتراض، فكأنَّه قيل: اتقوا ربَّكم فإنَّ للمحسنين في هذه الدنيا الجنةَ في الأُخرى، ولا عُذْرَ للمفرِّطين في الإحسان بعدَمِ التمكُّن في الأوطان؛ فإنَّ أرضَ الله تعالى واسعةٌ وبلادَه كثيرةٌ، فليتحوَّلُوا ـ إن لم يتمكَّنُوا ـ عنها، وليهاجِرُوا إلى ربِّهم لنيلِ الرضوان، فإنَّ لهم في جنبِ ذلك ما يتقاصرُ عنه الجنَّة، ويستلذُّ له كلُّ محنة.

وكأنَّه لمَّا أزاحَ سبحانه عِلَّتَهم بأنَّ في أرضِ الله تعالى سعةً وقع في خَلَدِهم: هل نكون نحن ومن يتمكَّن من الإحسان في بلدته فارغَ البال رافغَ الحال(١) سواءً بسواء؟ فأجيبوا: «إنما يوفَّى الصابرون» الذين صبَروا على الهجرة ومفارقة المحابِّ والاقتداء بالأنبياء والصالحين «أجرَهم بغير حساب». وأصلُه: إنَّما توفَّون أجورَكم بغير حساب؛ على الخطاب، وعُدل عنه إلى المنزَّل تنبيهاً على أنَّ المقتضي لذلك صبرُهم، فيفيد أنكم توفَّون أجورَكم بصبركم كما وُفِّيَ أجرُ مَنْ قبلَكم بصبرهم. وهو محمولٌ على العموم شاملٌ للصبر على كلِّ بلاء غيرُ مخصوص بالصبر على المهاجرة؛ لكنَّه إنمَّا جيء به في الآية لذلك وليشمَلَ الصابرينَ على ألَمِ المهاجَرةِ شُمولاً أوَّليّاً.

والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال إمَّا من الأجر، أي: إنمَّا يوفَّون أجرَهم كائناً بغير حساب، وذلك بأن يُغرَفَ لهم غَرْفاً ويُصَبَّ عليهم صبّاً، وإمَّا من الصابرين، أي: إنمَّا يوفَّون ذلك كائنين بغيرِ حساب عليه. والمرادُ على الوجهين المبالغةُ في الكثرة، وهو المراد بقول ابن عباس: لا يهتدِي إليه حِسابُ الحُسَّاب ولا يُعْرف(٢).

وجُوِّز جعلُ الحال من الصابرين على معنى: لا يحاسبون أصلاً، والمتبادِرُ ما يفيد المبالغةَ في كثرة الأجر، ومعنى القصر: ما يوفَّى الصابرون أجرَهم إلَّا بغير

---

(١) قوله: رافغ الحال، في اللسان (رفغ): عيشٌ رافغٌ: خصيبٌ واسع.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٩١، وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٦.

حساب، جُعل الجارُّ والمجرور حالاً من المنصوب أو المرفوع؛ لأنَّ القصرَ في الجزء الأخير، وفيه من الاعتناء بأمرِ الأجر ما فيه. وأمَّا اختصاصُه بالصابرين دونَ غيرهم فمِنْ ترتُّب الحكم على المشتقِّ.

هذا، ونُقل عن السدِّيِّ أنَّ قوله تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّقٌ بـ «حسنة» من حيثُ المعنى[1]، فقيل: هو حينئذٍ حالٌ من «حسنة». ورُدَّ بأنَّها مبتدأ، ولا يجوزُ الحال منه على الصحيح. فإن قيل: يلتزمُ جعلها فاعلَ الظرف، قيل: لا يتسنَّى إلَّا على مذهب الأخفش، وهو ضعيف. وقيل: حالٌ من الضمير المستتر في الخبر الراجع إلى «حسنة».

وقال الزمخشريُّ[2]: هو بيانٌ لـ «حسنة»، والتقديرُ: هي في الدنيا، والمراد بها الصحةُ والعافية، أي: للمحسنين صحَّةٌ وعافيةٌ في الدنيا.

قال في «الكشف»: وإنما آثر كونَه بياناً مع جوازِ كونه حالاً عن الضمير الراجعِ إلى «حسنة» في الخبر؛ لأنَّ المعنى على البيان، لا على التقييد بالحال، وذلك لأنَّ المعنى على هذا الوجه: إنَّ للمحسنين جزاءً يسيراً في الدنيا هو الصحة والعافية، وإنما توفيةُ أجورِهم في الآخرة، ولو قُيِّد بالحال لم يلائم على ما لا يخفى.

وحَقُّ قولِه تعالى: «وأرض الله واسعة» على هذا أن يكونَ اعتراضاً إزاحةً لِمَا قد يختلِجُ في بعضِ النفوس من خلافِ ذلك الجزاءِ بواسطة اختلافِ الهواء والتُّربة وغيرِ ذلك مما يؤدي إلى آفاتٍ في البدن، فقيل: وأرضُ الله تعالى واسعة فلا يعدِم أحدٌ محلًّا يناسِبُ حالَه فليتحوَّلْ عنه إليه إن لم يلائمْه. ثم يكون فيه تنبيهٌ على أنَّ مَنْ جَعَل الأرضَ ذاتَ الطول والعرض قِطَعاً متجاوِراتٍ تكميلاً لانتعاشهم وارتياشهم يجب أن تُقابَل نِعَمُه بالشكر ليُعَدُّوا من المحسنين. ثم قيل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: توفيةُ الأجر لهؤلاء المحسنين إنَّما يكون في الآخرة، والذي نالوه في الدنيا عاجلُ حظِّهم، وأمَّا الأجرُ الموَفَّى بغير حسابٍ فذلك للصابرين ومَن

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ١٧٨-١٧٩، والكشاف ٣/ ٣٩١.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٩١.

سَلَبْنَاه تلك العاجلَة تمحيصاً له وتقريباً، وفي ذلك تسليةٌ لأهل البلاء وتنشيطٌ للعباد على مكابَدة العبادات، وتحريضٌ على ملازمة الطاعات.

ثم قال: وهذا أيضاً وجهٌ حسنٌ دقيقٌ، والرُجحان للأوَّل من وجوه:

أحدها: أنَّ الاعتراضَ لإزاحةِ العِلَّة في التفريط أظهرُ؛ لأنَّه المقصودُ من السياق على ما يظهر من قوله تعالى: «اتقوا ربَّكم».

الثاني: أنَّه المطابِقُ لِمَا وَرَد في التنزيل من نحوِ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [العنكبوت: ٥٦].

الثالث: أنَّ تعلُّقَ الظرف بالمذكور المتقدِّم هو الوجه ما لم يَصْرِفْ صارفٌ.

الرابع: أنَّه على ذلك التقدير ليس بمطَّرِدٍ ولا أكثريٍّ، فإنَّ الحسنة بذلك المعنى في شأن المخالفين أتمُّ، والقولُ بأنَّها استدراجٌ في شأنهم لا حسنةٌ؛ ليس بالظاهر، فقد قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٣١]. انتهى.

ولعمري إنَّ ما رجَّحه بالترجيح حقيقٌ، وما استحسنه واستدقَّه ليس بالحَسَن ولا الدقيق. والذي نقله الطبرسيُّ[١] عن السديِّ تفسير الحسنة في الدنيا بالثناء الحَسَن والذكر الجميل والصحَّة والسلامة، وفسَّرها بعضُهم بولاية الله تعالى، وعليه فليس للمخالفين منها نصيبٌ.

وفي الآية أقوالٌ أُخَر، فعن عطاء: أرضُ الله تعالى المدينةُ، قال أبو حيَّان: فعلى هذا يكون «أحسنوا» هاجروا، و«حسنة» راحةٌ من الأعداء[٢].

وقال قوم: أرض الله تعالى الجنة. وتعقَّبه ابن عطية بأنَّه تحكُّمٌ لا دليلَ عليه[٣]. وقال أبو مسلم: لا يمتنع ذلك لأنَّه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى، ثم بيَّن سبحانه أنَّه مَن اتقى له في الآخرة الحسنةُ، وهي الخلودُ في الجنة، ثم بيَّن جلَّ

---

(١) في مجمع البيان ٥/ ١٤٣.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣.

شأنه أنَّ أرضَ الله واسعةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣][(١)]. والرجحانُ لِمَا سمعتَ أوَّلاً، واختير فيه شمولُ «الحسنة» لحسنات الدنيا والآخرة.

والمراد بالإحسان الإتيانُ بالأعمال الحسنة القلبية والقالَبية، وقال النبيُّ ﷺ في تفسيره في حديثِ جبريلَ عليه السلام: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك»[(٢)].

والآيةُ على ما في بعض الآثار نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابِه حين عزَموا على الهجرة إلى أرض الحبشة[(٣)]. وفيها من الدلالة على فضل الصابرين ما فيها.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ أي: من كلِّ ما يخلُّ به من الشرك والرياء وغير ذلك، أُمِر عليه الصلاة والسلام ببيان ما أُمِر به نفسُه من الإخلاص في عبادة الله عزَّ وجل الذي هو عبارة عما أُمِر به المؤمنون من التقوى، مبالغةً في حثِّهم على الإتيان بما كُلِّفوه، وتمهيداً لِمَا يعقبه مما خوطِب به المشركون.

وعدمُ التصريح بالآمر لتعيُّنِ أنَّه اللهُ عز وجل. وقيل: للإشارة إلى أنَّ هذا الأمرَ مما ينبغي امتثالُه سواءٌ صدَر منه تعالى أم صدَر من غيره سبحانه.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي: وأُمرتُ بذلك لأجلِ أن أكونَ مقدَّم المسلمين في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ إحرازَ قَصَب السَّبْق في الدين بالإخلاص فيه، وإخلاصُه عليه الصلاة والسلام أتمُّ من إخلاص كلِّ مخلِصٍ، فالمرادُ بالأوَّلية الأوَّليةُ في الشرَف والرُّتبة. والعطف لمغايرةِ الثاني الأولَ بتقييده بالعلَّة، والإشعار بأنَّ العبادة المذكورةَ كما تقتضي الأمْرَ بها لذاتها تقتضيه لِمَا يلزَمُها من السَّبْق في الدين.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤١٩.

(٢) سلف ١/ ٢٩٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٣.

وإلى حذفِ متعلّق الأمر وكونِ اللّام تعليليةً ذهبَ البصريُّون في هذه الآية ونحوها. وذهب غيرُهم إلى أنَّها زائدة، واستُدِلَّ له بتركها في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [يونس:١٠٤]، ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام:١٤]، وكلٌّ ذلك محتمِلٌ لتقدير اللّام؛ فلا تغفلْ، ولا تُزاد إلَّا مع «أنْ» لفظاً أو تقديراً دونَ الاسم الصريح، وذلك لأنَّ الأصل في المفعول به أن يكون اسماً صريحاً، فكأنَّها زيدت عوَضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامَه، كما يعوَّض السين في: اسطاع، عوضاً من ترك الأصل الذي هو: أطْوَعَ، وهذه الزيادة وإن كانت شاذَّةً قياساً إلَّا أنَّها لَمَّا كثُرت استعمالاً جاز استعمالها في القرآن والكلامِ الفصيح. ومثلُ هذا يقال في زيادتها مع فعل الإرادة نحو: أردت لأنْ أفعل.

وجعل الزمخشريُّ وجهَ زيادتها معه أنها لَمَّا كان فيها معنى الإرادة زيدت تأكيداً لها، وجعل وجهاً في زيادتها مع فعل الأمر أيضاً، لا سيَّما والطلبُ والإرادةُ عندَهم من بابٍ واحد. وفي المعنى أوجهٌ: أن أكون أوَّلَ مَن أسلم في زماني ومِن قومي، أي: إسلاماً على وفق الأمر، وأن أكونَ أولَ الذين دعوتُهم إلى الإسلام إسلاماً. وأن أكونَ أولَ مَن دعا نفسَه إلى ما دعا إليه غيرَه؛ لأكون مقتدًى بي قولي وفعلي جميعاً، ولا تكون صفتي صفةَ الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعلَ ما أستحقُّ به الأوَّليَّةَ والشرَفَ من أعمال السابقين، دلالةً على السبب - وهي الأعمال التي يُستحقُّ بها الشرفُ - بالمسبَّب وهو الأوَّلية والشرَفُ المذكور في النظم الجليل. ذكر ذلك الزمخشريُّ[2].

وفي «الكشف»: المختارُ من الأوجه الأربعةِ الوجهُ الثاني، فإنَّه المكرَّر الشائعُ في القرآن الكريم، وفيه سائرُ المعاني الأُخَر من موافقةِ القول الفعلَ، ولزومِ أوَّليَّة الشرَف من أوَّليَّة التأسيس، مع أنَّه ليس فيه أنّه أُمر بأن يكونَ أشرفَ وأسبق، فافهم.

---

(١) قوله تعالى: «وأمرت أن أكون من المؤمنين»، ساقط في الأصل، والمثبت من (م) والكشاف ٣/ ٣٩٢، والكلام منه.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٩٢.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بترك الإخلاص والميلِ إلى ما أنتم عليه من الشرك. وجُوِّز العموم، أي: أخافُ إن عصيتُه بشيء من المعاصي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ هو يومُ القيامة، ووَصَفه بالعظمةِ لعظمةِ ما فيه من الدَّواهي والأهوال، وهو مجازٌ في الظرف أو الإسناد، وهو أبلغ، ولذا عُدل عن توصيف العذاب بذاك، والمقصودُ من قولِ ذلك لهم تهديدُهم والتعريضُ لهم بأنَّه عليه الصلاة والسلام مع عظمته لو عصى الله تعالى ما أَمِن العذابَ، فكيفَ بهم.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ لا غيرَه سبحانه، لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ حالٌ من فاعلِ «أعبدُ»، فقيل: مؤكِّدةٌ؛ لِمَا أنَّ تقديمَ المفعول قد أفاد الحصرَ وهو يدلُّ على إخلاصه عن الشرك الظاهر والخفيِّ. وقيل: مؤسِّسةٌ.

وفسِّر إخلاصُ الدين له تعالى بعبادته سبحانه لذاته من غير طلبِ شيء؛ كقول رابعة: سبحانك ما عبدتُك خوفاً من عقابك ولا رجاءَ ثوابك.

ويفسَّر بتجريده عن الشرك بقِسْمَيه وأن يكونَ معه ما يَشينه من غير ذلك؛ كما أشير إليه آنفاً. والفرقُ بين هذا وقولِه سبحانه: (قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ) إلخ أنَّ ذاك أمرٌ ببيانِ كونِه عليه الصلاة والسلام مأموراً بعبادته تعالى مخلصاً له الدينَ، وهذا أمرٌ بالإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، إظهاراً لتصلُّبه ﷺ في الدين؛ وحسماً لأطماعهم الفارغةِ حيثُ إنَّ كفَّارَ قريشٍ دعوه ﷺ إلى دينهم فنزلت لذلك[(١)]، وتمهيداً لتهديدهم بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم﴾ أن تعبدوه ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ عزَّ وجلَّ، وفيه من الدلالة على شدَّة الغضب عليهم ما لا يخفى، كأنَّهم لمَّا لم ينتهوا عمَّا نُهُوا عنه أُمِروا به كي يحلَّ بهم العقابُ.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخسران، وهو إضاعةُ ما يهمُّ[(٢)] وإتلافُ ما لا بدَّ منه، لجمعهم أعاظمَ أنواعِ الخسران.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٣٣، ونسبه إلى مقاتل.

(٢) في (م): ما بهم. بالباء الموحدة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٦، والكلام منه.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ باختيارهم الكفرَ لهما، فالمراد بالأهلِ أتباعُهم الذين أضلُّوهم، أي: أضاعوا أنفسَهم وأضاعوا أهليهم وأتلفوهما ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حين يدخلون النارَ حيثُ عرَّضوهما للعذاب السرمديِّ وأوقعوهما في هَلَكَةٍ ما وراءها هَلَكَةٌ.

ولو أُبقي «يومَ القيامة» على ظاهره ـ لأنَّه يتبيَّن فيه أمرُهم ويتحقَّق مبدأ خسرانهم ـ صحَّ على ما قيل.

وقيل: المرادُ بالأهل الأتباعُ مطلقاً، وخسرانُهم إياهم؛ لأنَّهم إنْ كانوا من أهل النار فقد خسِروهم كما خسروا أنفسَهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا إيابَ بعدَه. وتعقِّب بأنَّ المحذورَ ذهابُ مَن لو آب لانتفع به الخاسرُ، وذلك غير متصوَّرٍ في الشِّقِّ الأخير.

وقيل: المرادُ بالأهل ما أعدَّه الله تعالى لمن يدخلُ الجنة من الخاصَّة، أي: وخسِروا أهليهم الذين كانوا يكونونَ لهم في الجنة لو آمنوا؛ أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال: ليس أحدٌ إلَّا قد أعدَّ الله تعالى له أهلاً في الجنة إن أطاعه[1]. وأخرجا نحوَه عن مجاهد[2]. وروي أيضاً عن ميمون بن مهرانَ، وكلُّهم ذكروا ذلك في الآية[3].

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال فيها أيضاً: خسِروا أهليهم من أهل الجنة كانوا أُعِدُّوا لهم لو عملوا بطاعة الله تعالى، فَغَبَنُوهم[4]. وهو الذي يقتضيه كلامُ الحسن، فقد روي عنه أنَّه فسَّر الأهل بالحور العين[5]. ولا يخفى أنَّ حملَ الآية على ذلك لا يخلو عن بُعد.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٧١، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٤.
(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٧١، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٤ ووقع في (م): وأخرج.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٣٢٤.
(٥) النكت والعيون ٤/ ١١٩.

وأيًّاما كان فليس المرادُ مجردَ تعريف الكاملين في الخسران بما ذُكر، بل بيان أنَّهم المخاطَبون بما تقدَّم؛ إمَّا بجعل الموصول عبارةً عنهم، أو بجعلِه عبارةً عمَّا هم مندرِجون فيه اندراجاً أوَّليًّا.

وما في قوله تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ من استئناف الجملة، وتصديرِها بحرف التنبيه، والإشارةِ بـ «ذلك» إلى بُعدِ منزلةِ المشار إليه في الشَّرِّ، وأنَّه لِعظَمه بمنزلة المحسوس، وتوسيطِ ضميرِ الفصل، وتعريفِ «الخسران»؛ والإتيانِ به على «فُعلان» الأبلغِ من فعل[1]، ووصفِه بـ «المبين» = من الدلالة على كمالِ هَوله وفظاعتِه وأنَّه لا نوعَ من الخُسرِ وراءه ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إلى آخره نوعُ بيانٍ لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام، على أنَّ «لهم» خبرٌ لـ «ظلل»، و«من فوقهم» متعلِّقٌ بمحذوفِ حالٍ من ضميرها في الظرف المقدَّم، لا منها نفسِها؛ لضعف الحال من المبتدأ، وجعلُها فاعل الظرف حينئذٍ اتِّباعٌ لنظر الأخفش، وهو ضعيف. و«من النار» صفةٌ لـ «ظلل». والكلامُ جارٍ مَجرى التهكُّم بهم، ولذا قيل: «لهم»، وعبَّر عمَّا علاهم من النار بالظلل. أي: لهم كائنةً من فوقهم ظللٌ كثيرةٌ متراكمةٌ بعضُها فوقَ بعضٍ[2] كائنةٌ من النار.

﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ كائنةٌ من النَّار أيضاً، والمرادُ أطباقٌ كثيرةٌ منها، وتسميتُها ظللاً من باب المشاكلة.

وقيل: هي ظللٌ لمن تحتَهم في طبقة أخرى من طبقات النار، ولا يطَّرِدُ في أهل الطبقة الأخيرة من هؤلاء الخاسرين، إلَّا أن يقال: إنَّها للشياطين ونحوِهم مما لا ذِكْر لهم هنا.

وقيل: إنَّ ما تحتهم يلتَهب ويتصاعد منه شيءٌ حتى يكونَ ظُلَّةً فسُمِّيَ ظلةً باعتبار ما آلَ إليه أخيراً. وليس بذاك، والمرادُ أنَّ النارَ محيطةٌ بهم.

---

(١) بفتح الفاء مع تسكين العين وفتحها، وضم الفاء مع تسكين العين وضمها، قال في القاموس (خسر): خَسر كفرح وضرب، خَسْراً وخَسَراً وخُسْراً وخُسُراً وخُسْراناً. . .

(٢) في الأصل: بعضاً فوق بعضٍ، والمثبت من (م)، وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٨.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الفظيع ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ يذكره سبحانَه لهم بآياتِ الوعيد ليخافوا فيجتنبوا ما يُوقِعُهم فيه. وخصَّ بعضُهم «العبادَ» بالمؤمنين؛ لأنَّهم المنتفعون بالتخويف، وعمَّم آخرون. وكذا في قوله سبحانه: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ ولا تتعرَّضوا لِمَا يوجِبُ سَخَطِي. ويختلف المرادُ بالأمر على الوجهين كما لا يخفى، وهذه عِظَةٌ من الله جلَّ جلالُه وعمَّ نوالُه منطويةٌ على غاية اللطفِ والرحمة.

وقرئ: «يا عبادي» بالياء[١].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ إلخ، قال ابن زيد: نزلت في ثلاثة نفرٍ كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله: زيدِ بن عمرو بن نفيل، وسلمانَ، وأبي ذرٍّ[٢].

وقال ابن إسحاق: أشير بها إلى عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد والزبير، وذلك أنه لمَّا أسلم أبو بكر سمعوا ذلك، فجاؤوه وقالوا: أسلمتَ؟ قال: نعم، وذكَّرهم بالله تعالى، فآمنوا بأجمعِهم، فنزلت فيهم[٣]. وهي محكمة في الناس إلى يوم القيامة.

و«الطَّاغُوْت»: فعلوت[٤]، من الطغيان كما قالوا ـ لا: فاعول، كما قيل ـ بتقديم اللام على العين، نحو: صاعقة، وصاقعة، ويدلُّ على ذلك الاشتقاقُ، وأنَّ طوغ وطيغ، مهملان.

وأصلُه: طغيوت، أو: طغووت، من الياء أو الواو؛ لأنَّ طغى يطغى، ويطغو، كلاهما ثابتان في العربية، نقله الجوهريُّ، ونقل أنَّ الطغيان والطغوان بمعنًى[٥]، وكذا الراغب[٦]. وجمعُه على الطواغيت يدلُّ على أنَّ الجمعَ بُني على الواو.

---

(١) النشر ٢/ ٣٦٤ عن رويس.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ١٨٥، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٤٩.

(٣) نقله المصنف من البحر ٧/ ٤٢٠.

(٤) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر المحيط ٢/ ٢٧٢، والصواب كما في الدر المصون ٢/ ٥٤٨: فَلَعُوت. بدليل ما عقَّب عليه الآلوسي بقوله الآتي: بتقديم اللام على العين.

(٥) الصحاح (طغا).

(٦) المفردات (طغى).

وقولُهم: من الطغيان، لا يريدون به خصوصَ الياء، بل أرادوا المعنى، وهو على ما في «الصحاح»: الكاهنُ والشيطان، وكلُّ رأسٍ في الضلال[١].

وقال الراغب: هو عبارةٌ عن كلِّ متعدٍّ وكلِّ معبود من دون الله تعالى، وسمِّي به الساحرُ والكاهنُ والماردُ من الجِنِّ والصارفُ عن الخير، ويستعمل في الواحد والجمع[٢].

وقال الزمخشريُّ في هذه السورة: لا يطلق على غير الشيطان، وذكر أنَّ فيه مبالغاتٍ من حيثُ البِناءُ، فإنَّ صيغةَ: فعلوت، للمبالغة، ولذا قالوا: الرحموت: الرحمة الواسعة، ومن حيثُ التسميةُ بالمصدر، ومن حيثُ القلبُ، فإنَّه للاختصاص كما في: الجاه[٣]. وقد أطلقه في «النساء» على كعب بن الأشرف، وقال: سمِّي طاغوتاً؛ لإفراطه في الطغيان وعداوةِ رسولِ الله ﷺ، أو على التشبيه بالشيطان[٤]. فلعلَّه أراد: لا يطلق على غير الشيطان على الحقيقة، وكأنَّه جعل كعباً على الأول من الوجهين من شياطين الإنس.

وفي «الكشف»: كأنه لمَّا رآه مصدراً في الأصل، منقولاً إلى العين، كثيرَ الاستعمال في الشيطان؛ حكم بأنَّه حقيقةٌ فيه بعدَ النقل؛ مجازٌ في الباقي لظهور العلاقَة، إما استعارة وإما نظر إلى تناسُب المعنى.

والذي يغلب على الظن أنَّ «الطاغوت» في الأصل مصدرٌ نُقل إلى البالغ الغايةَ في الطغيانِ وتجاوُزِ الحدِّ، واستعمالُه في فردٍ من هذا المفهوم العامِّ - شيطاناً كان أو غيرَه - يكونُ حقيقةً ويكون مجازاً، على ما قرَّروا في استعمال العامِّ في فرد من أفراده، كاستعمال الإنسان في زيد، وشيوعُه في الشيطان ليس إلَّا لكونه رأسَ الطاغين.

(١) الصحاح (طغا).
(٢) المفردات (طغى).
(٣) الكشاف ٣/ ٣٩٢-٣٩٣.
(٤) الكشاف ١/ ٥٣٦.

وفسَّره هنا بالشيطان مجاهدٌ. ويجوز تفسيرُها بالشياطين جمعاً على ما سمعتَ عن الراغب، ويؤيِّده قراءةُ الحسن: «اجتنبوا الطواغيت»[١].

﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدلُ اشتمالٍ من «الطاغوت»، وعبادةُ غير الله تعالى عبادةٌ للشيطان؛ إذ هو الآمرُ بها والمزيِّنُ لها، وإذا فُسِّر «الطاغوتُ» بالأصنام فالأمر ظاهرٌ. ﴿وَأَنَابُوٓا إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه سبحانه معرضين عمَّا سِواه إقبالاً كلِّياً. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب من الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام، أو الملائكةِ عندَ حضور الموت وحين يحشرون وبعدَ ذلك.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ مدحٌ لهم بأنَّهم نُقَّادٌ في الدين يميِّزُون بينَ الحَسَن والأحسن، والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران: واجبٌ وندبٌ، اختاروا الواجبَ، وكذلك المباحُ والندبُ.

وقيل: يستمعون أوامرَ الله تعالى فيتَّبعون أحسنَها نحو القِصاصِ والعفو، والانتصارِ والإغضاء؛ والإبداء والإخفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١]. والفرق بين الوجهين أنَّ هذا أخصُّ لأنَّه مخصوصٌ بأوامرَ فيها تخييرٌ بين راجحٍ وأرجحَ كالعفو والقِصاص مثلاً، كأنَّه قيل: يتَّبعون أحسنَ القولين الواردين في معيَّن، وفي الأول: يتبعون الأحسنَ من القولين مطلقاً؛ كالإيجاب بالنسبة إلى الندب مثلاً. وعن الزجّاج: يستمعون القرآن وغيرَه، فيتبعون القرآن[٢].

وقيل: يستمعون القولَ ممن كان فيتبعون أَولاه بالقَبول وأرشدَه إلى الحقِّ. ويلزَمُ مِن وصفِهم بذلك أنَّهم يميِّزون القبيحَ من الحَسن ويجتنبون القبيح.

وأريد بهؤلاء العباد الذين اجتنَبوا وأنابوا لا غيرُهم؛ لئلَّا ينفكَّ النظم، فإنَّ قولَه تعالى: «فبشر» مرتَّبٌ على قوله سبحانه: «لهم البشرى»، ووضع الظاهر موضعَ الضمير ليشرِّفهم تعالى بالإضافة إليه؛ ولتكرير بيانِ الاستحقاق؛ وليدُلَّ

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٣٦، والبحر المحيط ٧/ ٤٢١.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٤٩.

على أنَّهم نَقَّادون[1] حرصاً على إيثار الطاعة ومزيدِ القرب عند الله تعالى، وفيه تحقيقٌ للإنابة وتتميمٌ حسن.

وقيل: الوقفُ على «عبادي»، فيكون «الذين» مبتدأً خبرُه جملةُ قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي: لدينه، والكلامُ استئنافٌ بإعادةِ صفةِ مَن استُؤْنِف عنه الحديثُ. وما تقدَّم أرجحُ لِمَا سلف من الفوائد من إقامة الظاهر مقامَ المضمر والتتميم، فإنَّ ذلك دون الوصف لا يتمُّ، ولأنَّ محرِّك السؤال المجابِ بالجملة بعدَ قوله تعالى: «يتبعون أحسنه» أقوى؛ وذلك الأصلُ في حُسن الاستئناف.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ أي: هم أصحابُ العقول السليمة عن معارَضةِ الوهم ومنازعةِ الهوى المستحقُّون للهداية، لا غيرُهم. وفي الآية دلالةٌ على حطِّ قَدْر التقليد المحْضِ، ولذا قيل:

شمِّرْ وكُنْ في أمور الدين مجتهداً ... ولا تكن مثلَ عَيْرٍ قِيْدَ فانقادا

واستُدِلَّ بها على أنَّ الهداية تحصُل بفعل الله تعالى وقَبول النفس لها كما ذهب إليه الأشاعرة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾ بيانٌ لأضداد المذكورين على طريقة الإجمال، وتسجيلٌ عليهم بِحِرْمان الهداية وهم عَبَدَةُ الطاغوت ومتَّبِعو خطواتِها؛ كما يلوِّح به التعبير عنهم بـ «مَن حقَّ عليه كلمةُ العذاب»، فإنَّ المرادَ بتلك الكلمة قولُه تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] والآية على ما قيل: نزلت في أبي جهل وأضرابه[2].

والهمزةُ للإنكار، والفاءُ للعطف على مقدَّر، و«مَن» شرطيةٌ على ما ذهب إليه الحوفي وغيرُه[3]، وجواب الشرط «فأنت تنقذ» إلخ، والهمزة قبله لاستطالة الكلام على نحوِ قوله:

---

(١) أي: في الدِّين يميِّزون بين الحق والباطل. تفسير البيضاوي ٧/ ٣٣٢، وأبي السعود ٧/ ٢٤٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٢١.
(٣) كما في البحر المحيط ٧/ ٤٢١.

لقد عَلِم الحزبُ اليمانونَ أنَّني إذا قلتُ: أما بعد، أنّي خطيبُها[1]

لأنَّ دخول الهمزة في الجواب أو الشرط كافٍ، تقول: أإن أكرمك تكرمه، كما تقول: إن أكرمك أتكرمه. ولا تكرِّرها فيهما إلَّا للتأكيد؛ لأنَّ الجملتين ـ أعني الشرطَ والجزاء ـ بعد دخول الأداة مفردان، والاستفهامُ إنَّما يتوجَّهُ على مضامين الجمل إذا كان المطلوبُ تصديقاً، والإنكارُ المُفادُ بالهمزة متعلِّقٌ بمضمون المعطوف والمعطوف عليه، إلَّا أنَّ المقصود في المعطوف إنكارُ الجزاء[2]، والتقدير: أأنت مالكُ أمرِ الناس قادرٌ على التصرُّف فيه، فمن حقَّ عليه كلمةُ العذاب فأنت تنقذه؟ على معنى: لست أنتَ مالك أمرِ الناس ولا أنت تَقْدِر على الإنقاذ، بل المالكُ والقادرُ على الإنقاذ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

وعُدل عن: فأنت تنقذه، إلى ما في النظم الكريم؛ لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد، مع ما فيه من الإشارة إلى أنَّه نُزِّل استحقاقُهم للعذاب وهم في الدنيا المشعِرُ به الشرطُ منزلةَ دخولهم النارَ، وأنَّه مُثِّل حالُه عليه الصلاة والسلام في المبالغة في تحصيل هدايتهم والاجتهاد في دعائهم إلى الإيمان بحالِ مَن يريد أن يُنْقِذَ مَن في النار مِنها.

وفي «الحواشي الخفاجيَّة» نقلاً عن السعد أنَّ في هذه الآية استعارةً لا يعرفها إلَّا فُرسانُ البيان، وهي الاستعارة التمثيلية المكنية؛ لأنَّه نُزِّل ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: «أفمن» إلخ من استحقاقهم العذابَ وهم في الدنيا منزلةَ دخولهم النارَ في الآخرة، حتى يترتَّبَ عليه تنزيلُ بَذْلِه عليه الصلاة والسلام جهدَه في دعائهم إلى الإيمان منزلةَ إنقاذِهم من النار الذي هو من ملائمات دخول النار. ثم قال: وقد عرفتَ من مذهبه أنَّ قرينة المكنية قد تكون تحقيقيةً كما في نقضِ العهد[3]. انتهى، فتأمَّل.

---

(١) البيت نسب إلى سحبان بن زفر الباهلي. جمهرة الأمثال ١/ ٢٤٨، وخزانة الأدب ١/ ٣١٥ وورد فيهما: الحيُّ، بدل: الحزب. وينظر المنتظم ٥/ ٢٨٣ وسلف البيت ١٠/ ٤٠٠.

(٢) ورد هنا في هامش الأصل ما نصه: الخلاف بين سيبويه ويونس في المستفهم عنه ـ إذا دخلت الهمزة على الشرط ـ هل المجموع، أو جواب الشرط؟ معروف بين النحاة. اهـ.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٣٣٤.

وقيل: إنَّ النارَ مجازٌ عن الضلال من باب إطلاق اسم المسبَّب على السبب، والإنقاذ بدلَ الهداية من ترشيح المجاز، أو مجازٌ عن الدعاء للإيمان والطاعة. وليس بذاك.

وجوِّز أن يكون الجزاءُ محذوفاً، وجملةُ «فأنت تنقذ» إلخ مستأنَفةٌ مقرِّرةٌ للجملة الأولى، والتقدير: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب فأنت تخلِّصه، أفأنت تنقذ من في النار؟.

ولا فرقَ بين الوجهين في أنَّ «الفاء» في الأولى للعطف على محذوف، ولا في كون المعنى على تنزيل استحقاقِ العذاب وهم في الدنيا منزلةَ دخولهم النارَ، وتمثيلِ حاله عليه الصلاة والسلام في المبالغة في تحصيل هدايتهم بحالِ مَن يريد أن يُنْقِذَ مَن في النار منها، نعم الكلامُ على الأول جملة، وعلى الثاني جملتان.

واستظهر أبو حيان أنَّ «مَن» موصولةٌ مبتدأ، والخبر محذوف، وحَكى أنَّ منهم مَن يقدِّره: يتأسَّفُ عليه، ومنهم من يقدِّره: يتخلَّص منه، ومنهم من يقدِّره: فأنت تخلِّصه[١]. ولا يخفى أنَّ التقديرَ الأخير أولى. وذكر أنَّ النحاةَ على أنَّ «الفاء» في مثل هذا التركيب للعطف وموضعُها قبلَ الهمزة، لكن قدِّمت الهمزةُ لأنَّ لها صدر الكلام، وقال: إن القول بأنَّ كلًّا منهما في مكانه، قولٌ انفرد به الزمخشريُّ فيما علمنا[٢].

وفي «المغني» ترجيحُ القول بأنَّ الهمزةَ مقدَّمة من تأخيرٍ[٣]، وعليه يقدَّر المعطوف عليه: ما أنت مالكُ أمرِهم، أو: ما أخبر الله تعالى به واقعٌ لا محالةَ، أو: كلُّ كافرٍ مستحقٌّ للعذاب، أو نحوُ ذلك مما يناسبُ المعنى المراد.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٢١.

(٢) البحر ٧/ ٤٢١، وقال: قدر الزمخشري بين الهمزة والفاء جملة حتى تقرأ الهمزة في مكانها والفاء في مكانها، فقال: التقدير: أأنت مالك أمرهم فمن حقَّ عليه كلمة العذاب، إلخ. ينظر الكشاف ٣/ ٣٩٣.

(٣) مغني اللبيب ص٢٢.

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ استدراكٌ بينَ ما يشبه النقيضَين والضدَّين وهما المؤمنون والكافرون وأحوالهما، والمراد بـ «الذين اتقوا» الموصوفون بما عدِّد من الصفات الفاضلة. والغرفُ: جمعُ غرفةٍ، وهي العلِّيَّة، أي: لهم علاليُّ كثيرةٌ جليلة بعضُها فوقَ بعض.

﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ قيل: هو كالتمهيد لقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت تلك الغُرَف الفوقانيات والتحتانيات ﴿الْأَنْهَارُ﴾ أي: مبنيةٌ بناءً يتأتَّى معه جريُ الأنهار من تحتها، وذلك على خلاف علاليِّ الدنيا، فيفيد الوصفُ بذلك أنَّها سُوِّيت تسويةَ البناء على الأرض وجُعلت سطحاً واحداً يتأتَّى معه جري الأنهار عليه على أنَّ مياهَ الجنة لمَّا كانت منحدرةً من بُطْنانِ العرش ـ على ما في الحديث[1] ـ فهي أعلى من الغُرف، فلا عجبَ من جري الماء عليها فوقاً وتحتاً، لكن لا بدَّ من وضعٍ يتأتَّى معه الجريُ، فالوصف المذكور لإفادة ذلك.

وقال بعض الأجلة: الظاهر أنَّ هذا الوصف تحقيقٌ للحقيقة وبيان أنَّ الغرف ليست كالظُّلَل حيثُ أُريد بها المعنى المجازيُّ على الاستعارة التهكُّميَّة.

وقال بعضُ فضلاءِ إخوانِنا المعاصرين: فائدةُ التوصيف بما ذُكر الإشارةُ إلى رفعةِ شأن الغرف حيثُ آذَنَ أنَّ الله تعالى بانيها، وماذا عسى يقال في بناءٍ بناهُ الله جلَّ وعلا.

وأقول والله تعالى أعلم: وُصفت الغرفُ بذلك؛ للإشارة إلى أنَّها مهيَّأةٌ معدَّةٌ لهم قد فُرغ من أمرها كما هو ظاهر الوصف، لا أنَّها تُبنى يوم القيامة لهم. وفي ذلك من تعظيم شأن المتقين ما فيه. وفي الآية على هذا ردٌّ على المعتزلة، وكأنَّ الزمخشريَّ لذلك لم يحُم حولَ هذا الوجه واقتصر على ما حكيناه أولاً، مع أنَّ ما قلناه أقربُ منه، فليُحْفظ.

---

(١) منه ما أخرجه البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة.. فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة ـ أراهُ ـ فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة».

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكِّد لمضمون الجملة قبلَه فإنَّه وعدٌ أيُّ وَعْدٍ.

﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ لِمَا في خُلْفه من النقص المستحيلِ عليه عزَّ وجلَّ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استئنافٌ واردٌ إمَّا لتمثيل الحياة الدنيا في سرعةِ الزوال وقُربِ الاضمحلال بما ذُكر من أحوال الزرع تحذيراً من الاغترار بزهرتها، أو للاستشهاد على تحقُّق الموعود من الأنهار الجارية من تحتِ الغُرَف بما يشاهَد من إنزال الماء من السماء وما يترتَّب عليه من آثارِ قدرتِه سبحانه وإحكام حكمتِه ورحمته.

والمرادُ بالماء المطرُ، وبالسماء جهةُ العلو. وقيل: الأجرامُ العُلوية، وكونُ إنزال المطر منها باعتبارِ أنَّه بأسبابٍ ناشئة منها، فإنَّ تصاعُد الأبخرة وتكوُّنَ الغيوم بسببِ جذبِ الشمس واختلافِ أوضاعها ونحو ذلك من الأسباب التي يعلمها الله تعالى.

وأمَّا كونُ إنزال المطر نفسِه من جِرم السماء المعروفة نفسها، فكثيراً ما يرتفع سحابٌ ويُمْطِرُ مطراً غزيراً، وهناك مَن هو على ذِروة جبلٍ لا سحابَ عنده ولا مطرَ.

والتزامُ أنَّ المطر في ذلك نازلٌ من جِرم السماء أيضاً على السحاب لكن لا يشاهده من هو مشرِفٌ على السحاب وواقفٌ(١) فوق الجبل = لا يخفى حالُه.

وقيل: المراد بالماء كلُّ ماء في الأرض، والمراد بالإنزال المذكور الإنزالُ في مبدأ الخليقة، وذلك أنَّه عزَّ وجلَّ لمَّا خَلَق الأرضَ خلقها خاليةً من الماء فأنزل من بحرٍ تحتَ العرش ماءً ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في ينابيع، أي: عيونٍ ومجاري كائنةٍ في الأرض كالعروق في الأجساد، فعلى الأول يقتضي ظاهرُ الآية أنَّ ماء العيون والقنوات من ماء المطر، وعلى الثاني ليس منه.

وشاع عن الفلاسفة أنَّ ماء العيون وما يجري مجراها من الأبخرة، قالوا: إنَّ البخار إذا احتبس في الأرض يميل إلى جهة ويتبرَّد(٢) بها فينقلب مياهً مختلطة بأجزاءٍ

---

(١) في الأصل: وافق، بدل: واقف، وهو تصحيف.

(٢) في (م): وتبرد.

بخارية، فإذا كثر بحيثُ لا تَسعه الأرضُ أَوْجَبَ انشقاقَها فانفجر منها العيونُ.

وردَّه أبو البركات البغداديُّ فقال في «المعتبر»[1]: السببُ في العيون وما يجري مجراها هو ما يسيل من الثلوج ومياهِ الأمطار؛ لأنَّا نجدها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصانها، وأنَّ استحالة الأهوية والأبخرة المنحصرة في الأرض لا مدخلَ لها في ذلك، فإنَّ باطنَ الأرض في الصيف أشدُّ برداً منه في الشتاء، فلو كان سببَ هذه استحالَتُها[2] لوجب أن تكون العيونُ والقنواتُ ومياهُ الآبار في الصيف أَزْيَدَ، وفي الشتاء أنقص، مع أنَّ الأمرَ بخلاف ذلك على ما دلَّتْ عليه التجربة.

وقال المَيْبُذي[3]: الحقُّ أنَّ السببَ الذي ذكره صاحب «المعتبر» معتبرٌ لا محالة، إلَّا أنَّه غيرُ مانع من اعتبار السبب الذي ذُكر - يعني: ما شاع -، واحتجاجُه في المنع إنما يدلُّ على أنَّه لا يجوز أن يكون ذلك هو السببَ التامَّ، لا على أنَّه لا يجوز أن يكون ذلك سبباً في الجملة. اهـ.

وفي «شرح المواقف»: اختلفوا في أنَّ المياه متولِّدةٌ من أجزاءٍ مائيةٍ متفرِّقةٍ في عُمق الأرض إذا اجتمعت، أو مِن الهواء البخاريِّ الذي ينقلبُ ماء. وهذا الثاني وإن كان ممكناً إلَّا أنَّ الأول أَولى؛ لأنَّ مياهَ العيونِ والقنوات والآبار تَزيد بزيادة الثلوج والأمطار[4].

والأَوْلَى عندي أن يحمل الماء في الآية على المطر ونحوِه من الثلج، والآية تدلُّ على أنَّ ذلك الماء يسلُكه الله تعالى في ينابيعَ في الأرض، ولا تدلُّ على أنَّ ما في الينابيع ليس إلا ذلك الماء، فيجوز أن يكونَ بعضُ ما فيها هو الماءَ المنزلَ من السماء، والبعضُ الآخرُ حادثاً من الهواء البخاريِّ بانقلابه ماءً بأسبابٍ يعلمها الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) سلف كلامه ١٨/ ٤٣.

(٢) جاءت العبارة فيما سلف من كلامه ١٨/ ٤٣: فلو كان ذلك سبب استحالتها...

(٣) في الأصل و(م): المبيدي، والصواب ما أثبتناه، وهو حسين بن معين الدين المعروف بقاضي مير، وسلف كلامه بنحوه ١٨/ ٤٤.

(٤) شرح المواقف للجرجاني ٧/ ٢١٨.

وحمُل الإنزال على الإنزال في مبدأ الخليقة على ما سمعتَ ـ مع كونه مما لم أقفْ على خبرٍ صحيح يقتضيه ـ خلافُ الظاهر في الآية جدّاً؛ لأنَّ الخطابَ في «ألم تر» عامٌّ، ولا يتأتّى العمومُ في رؤيةِ ذلك، وكأنه يتعيَّن عليه جعلُ الخطاب خاصّاً بسيِّد المخاطَبين ﷺ، والمراد: ألم تعلم ذلك بالوحي؟ ومع ذلك لا يخفى حال حمل الآية على ما ذُكر.

وقريبٌ مما قيل ما حكاه الزمخشريُّ في الآية عن بعضٍ مِنْ أنَّ كلَّ ماءٍ في الأرض فهو من السماء، ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البِقاع[1].

هذا، لكن يعكِّر على ما اخترناه ظاهرُ ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: ليس في الأرض ماءٌ إلَّا ما أنزل الله تعالى من السماء، ولكنْ عروقٌ في الأرض تُغيره، فمن سرَّه أن يعود الملحُ عذْباً فليصعد[2]. وأخرج نحوه عن سعيد بن جبير والشعبي[3]. فإنْ صحَّ هذا الخبرُ وقلنا: إنَّه في حكم المرفوع، فما علينا إذا قلنا بظاهره فالعقل لا يأباه، والله تعالى على كل شيء قدير.

هذا، وجوِّز أن تكون الينابيعُ جمعَ ينبوعٍ بمعنى النابع، فإنَّه كما يُطلَق على المَنْبَع يُطْلَق على ما ذُكر، وحينئذ تكونُ منصوبةً على الحال، والمعنى: فسلكه مياهاً نابعةً في الأرض. ولا يخلو من الكدر؛ لأنَّه لو قصد هذا كان الظاهر أن يقال: من الأرض، وعلى ما هو المشهور يكون «ينابيع» منصوباً بنزع الخافض كما أشرنا إليه.

واحتمالُ كونِه منصوباً على المصدرية في إطلاقَيه بأن يكون الأصلُ: فسلكه سلوكاً في ينابيع، أي: مجاري، فحذف المصدر وأقيم ما هو في موضع الصفة مقامه، أو يكون الأصلُ: فسلكه سلوكَ ينابيعَ، أي: مياهاً نابعةً، فحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامَه = بعيدٌ كما لا يخفى.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي: بواسطته؛ مراعاةً للحكمة، لا لتوقُّف الإخراج عليه في

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٤.

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وفيه: فليُصْعِدْه. وفي إسناده عتبة بن يقظان، قال عنه النسائي: غير ثقة. وقال علي بن الحسين بن الجنيد: لا يساوي شيئاً. الميزان ٣/ ٣٠.

(٣) ذكره عنهما ابن كثير، وأخرجه عن الشعبي ابن جرير في تفسيره ٢٠/ ٢٥٦.

نفس الأمر. وقالت الأشاعرة: أي: يُخْرِج عندَه بلا مَدْخليَّةٍ له بوجهٍ من الوجوه سوى المقارنة.

﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: أنواعُه وأصنافُه من بُرٍّ وشعير وغيرِهما، أو: كيفياتُه المدرَكةُ بالبصر من خُضرة وحُمرة وغيرِهما، أو: كيفياتُه مطلقاً من الألوان والطعومِ وغيرِهما على ما قيل. وشَمَل الزرعُ المُقتاتَ وغيرَه. و«ثم» للتراخي في الرُّتبة أو الزمان، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يَيْبَس، وظاهرُ كلام أهل اللغة أنَّ هذا معنًى حقيقيٌّ للهيجان، ويُفْهَم من كلام بعض المفسرين أنَّ «يهيج» بمعنى «يثور»، واستعماله بمعنى «يَيْبَس» من مجاز المشارَفةِ؛ لأنَّ الزرع إذا يبس وتمَّ جفافُه يُشرف على أن يثورَ ويذهبَ من منابته. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ من بعدِ خُضرته ونضارته، وقرئ: «مصفارّاً»[(١)].

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فُتاتاً متكسِّراً كأنْ لم يغْنَ بالأمس، ولكونِ هذه الحالة من الآثار القويَّةِ علِّقت بجعل الله تعالى كالإخراج.

وقرأ أبو بشر: «ثم يجعلَه» بالنصب، قال صاحب «الكامل»: وهو ضعيفٌ[(٢)]. ولم يبيِّن وجهَ النصب، وكأنَّه إضمارُ «أن» كما في قوله:

إنِّـي وقَـتْـلـي سُـلـيـكـاً ثـم أعـقِـلَـه[(٣)]

ولا يخفَى وجهُ ضَعْفِه هنا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٤، وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٥٠.

(٢) البحر ٧/ ٤٢٢، قال السمين في الدر ٩/ ٤٢١: يعني بصاحب الكامل: الهذليَّ، ولم يبيِّن هو (يعني: أبا حيان) ولا صاحب الكامل وجه ضعفه ولا تخريجه. فأما ضعفه فواضح حيث لم يتقدم ما يقتضي نصبه في الظاهر. اهـ. ثم ذكر تخريجه كما سيذكره المصنف. والهذلي هو أبو القاسم يوسف بن علي المغربي، وكتابه هو: الكامل في القراءات الخمسين. كشف الظنون ٢/ ١٣٨١.

(٣) هذا صدر بيت، وعجزه:

كـالـثـور يُـضْـرَبُ لـمَّـا عـافـت الـبـقـرُ

وقائله أنس بن مدركة الخثعمي. وموطن الشاهد فيه قوله: ثم أعقلَه حيث نصب الفعل المضارع بإضمار «أن» جوازاً بعد «ثم» عطفاً على اسم صريح. لسان العرب (ودع)، وشرح شذور الذهب ص٤٠٦.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر تفصيلاً، وما فيه من معنى البُعْدِ للإيذان ببُعْدِ منزلته في الغرابة والدَّلالةِ على ما قُصِد بيانُه، ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لَتذكيراً عظيماً ﴿لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخَلَل، وتنبيهاً لهم على حقيقة الحال، يتذكَّرون بذلك حالَ الحياة الدنيا وسرعةَ تقضِّيها فلا يغترُّون ببَهْجتها ولا يُفْتنون بفتنتها، أو يجزمون بأنَّ مَن قَدَر على إنزالِ الماء من السماء والتصرُّفِ به على أتمِّ وجهٍ قادرٌ على إجراء الأنهارِ من تحتِ تلك الغرف. وكأنَّ الأول أولى ليكونَ ما تقدَّم ترغيباً في الآخرة وهذا تنفيراً عن الدنيا.

وقيل: المعنى: إنَّ في ذلك لتذكيراً وتنبيهاً على أنَّه لابدَّ لذلك من صانع حكيم، وأنَّه كائنٌ على تقدير وتدبيرٍ لا عن تعطيل وإهمال. وهو بمعزلٍ عمَّا يقتضيه السياقُ، على أنَّ الأنسبَ بإرادةِ ذلك ذكرُ الآثار غيرَ مسنَدةٍ إليه عزَّ وجلَّ، فحيثُ ذُكرتْ مسنَدَةً إليه سبحانه فالظاهرُ أن يكونَ متعلَّقُ التذكير والتنبيه شؤونَه تعالى أو شؤونَ آثاره حسبما أشير إليه، لا وجودَه جلَّ وعلا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ إلخ استئنافٌ جارٍ مجرى التعليل لِمَا قبله من تخصيص الذكرى بـ «أولي الألباب».

والشرحُ في الأصل: البسطُ والمدُّ للَّحم ونحوه، ويُكنى به عن التوسيع، وتجوِّز به هنا عن خَلْق النَّفْس الناطقة مستعدَّةً استعداداً تامّاً للقبول بجامع عدم التأبِّي عن القبول وسهولة الحصول، وذلك بعدَ التجوُّز في الصدر. وإرادةُ[1] النفس الناطقة منه من حيثُ إنَّه محلٌّ للقلب، وفي تجويفِه بخارٌ لطيف يتكوَّن من صفْوةِ الأغذية، وبه تتعلَّق النفسُ أوَّلاً، وبواسطته تتعلَّق بسائر البدن تعلُّقَ التدبير والتصريف، وتلك النفس هي التي تتصف بالإسلام والإيمان. وجعل بعضُ الأجلَّة «شرح الله صدره» استعارةً تمثيلية.

والهمزةُ للإنكار داخلةٌ على محذوفٍ على أحد القولين المارَّين آنفاً، والفاءُ للعطف على ذلك المحذوف، وخبرُ «من» محذوفٌ لدلالةِ ما بعده عليه، والتقدير:

---

(١) في الأصل: وأراد. بصيغة الماضي.

أكلُّ الناس سواءٌ، فمن شَرَح الله تعالى صدرَه وخَلَقَه مستعِدّاً للإسلام فبقي على الفطرة الأصلية ولم تتغيَّرْ بالعوارض المكتسبة القادحة فيها ﴿فَهُوَ﴾ بموجب ذلك مستقرٌّ ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو اللطفُ الإلهيُّ المشرق عليه من بُروج الرحمة عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها إلى الحقِّ، كمن قسا قلبُه وحرِج صدرُه بتبديل فطرةِ الله تعالى بسوء اختيارِه واستولى عليه ظلماتُ الغيِّ والضلال فأعرَضَ عن تلك الآيات بالكلِّية حتى لا يتذكَّرَ بها ولا يغتنمَها؟!

وعُدِل عن: فعندَه، أو: فله نور، إلى ما في النظم الجليل؛ للدلالة على استمرارِ ذلك واستقرارِه في النور، وهو مستعارٌ للُّطف والتوفيق للاهتداء، وقد يقال: هو أمرٌ إلهيٌّ غيرُ اللطف والتوفيق يُدرَك به الحقُّ، وجاء بروايةِ الثعلبيِّ في تفسيره، والحاكم في «مستدركه»، والبيهقيِّ في «شعب الإيمان»، وابن مردويه، عن ابن مسعود أنَّه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ إلخ، فقلنا: يا رسول الله، كيف انشراحُ الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلبَ انشرح وانفسح» قلنا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهُّبُ للموت قبل نزوله»(١).

واستشكل ذلك بأنَّ ظاهر الآية ترتُّبُ دخول النور على الانشراح، لأنَّه الاستعدادُ لقبوله، وما في الحديث الشريف عكسُه، والظاهر أنَّ السؤال عمَّا في الآية، وأنَّ الجواب بيانٌ لكيفيته.

وأجيب بأنَّ الاهتداء له مراتبُ بعضُها مقدَّمٌ وبعضها مؤخَّر، وانشراح الصدر بحسب الفطرة والخَلْقِ وبحسب ما يطرأ عليه بعدَ فيضِ الألطاف عليه،

---

(١) المستدرك ٤/ ٣١١، وشعب الإيمان ٧/ ٣٥٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٥، وللثعلبيِّ الحافظ ابنُ حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٣، وأخرجه البيهقيّ في الزهد الكبير (٩٧٤)، وجاء في المستدرك وشعب الإيمان آية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، بدل آية: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٢٥) من سورة الأنعام.

وبينهما تلازم، والمراد بانشراح الصدر في الحديث ما يكون بعد التمكُّن فيه، وفي الآية ما تقدَّمه، وقِسْ عليه النورَ، والجواب من قبيل الأسلوب الحكيم، فتأمَّل[(١)].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من أجل ذكره سبحانه الذي حقُّه أنْ تلينَ منه القلوبُ، أي: إذا ذُكر الله تعالى عندَهم أو آياتُه عزَّ وجلَّ اشمأزُّوا من ذلك وزادت قلوبُهم قساوةً.

وقرئ: «عن ذكر الله»[(٢)]، والمتواترةُ أبلغ؛ لأنَّ القاسيَ من أجل الشيء أشدُّ تأبِّياً من قبوله من القاسي عنه بسبب آخر.

وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ذُكِرَ شرحُ الصدر؛ لأنَّ توسعَتَه وجَعْلَه محلًّا للإسلام دونَ القلب الذي فيه يدلُّ على شدَّتِه وإفراطِ كثرتِه التي فاضَتْ حتى ملأَتْ الصدرَ فضلاً عن القلب. وإسنادُه[(٣)] إلى الله تعالى الظاهرُ في أنَّه على أتمِّ الوجوه؛ لأنَّه فعلُ قادرٍ حكيمٍ، وقابَلَه بالقساوة مع أنَّ مقتضَى المقابلة أنْ يعبَّر بالضيق؛ لأنَّ القساوة - كما في الصخرة الصَّمَّاء - تقتضي عدمَ قبولِ شيء، بخلاف الضيق فإنَّه مُشْعِرٌ بقَبولِ شيء قليل.

وعُدل عن التعبير بما يفيدُ مجعوليةَ القساوةِ له تعالى وخلقَه إياها؛ للإشارة إلى غايةِ لُزومِها لهم، حتى كأنَّها لو لم تُجعل لتحقَّقَتْ فيهم بمقتضَى ذَوَاتِهم. وأمَّا إسنادُها إلى القلوب دونَ الصدور فللتنصيص على فسادِ هذا العُضْو الذي إذا فَسَد فَسَد الجسدُ كلُّه.

واعتُبِرَ الجمعُ في هؤلاء الكَفَرَةِ والإفرادُ في أولئك المؤمنين حيثُ قال سبحانه: (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ) دون: أفمن شرح الله صدورهم، للإشارة إلى أنَّ المؤمنين وإن تعدَّدُوا كرجلٍ واحد، ولا كذلك الكُفَّار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البُعَداءُ المتَّصفون بما ذُكر من قساوة القلوب ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾، ظاهرٍ كونهُ ضلالاً لكلِّ أحدٍ.

---

(١) قوله: فتأمل، ليس في الأصل.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٨، والكشاف ٣/ ٣٩٤.

(٣) في الأصل: وأسنده. وينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٣٥.

والآية نزلتْ في عليٍّ وحمزةَ رضي الله عنهما وأبي لهب وابنه، فعليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وحمزةُ رضي الله عنه ممن شرح الله تعالى صدرَه للإسلام، وأبو لهب وابنُه من القاسية قلوبهم[١].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ هو القرآنُ الكريم، وكونُه حديثاً بمعنى كونِه كلاماً محدَّثاً به لا بمعنى كونِه مقابِلاً للقديم. ومَن قال بالتلازُم مِنَ الأشاعرة القائلين بحُدوثِ الكلام اللفظيِّ جَعَلَ الأوصافَ الدَّالة على الحدوث لذلك الكلام.

وجوَّز أن يكون إطلاق الحديث هنا على القرآن من باب المشاكلة، عن ابن عباس أنَّ قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله، حدِّثْنا بأحاديثَ حِسَانٍ وبأخبارِ الدهر، فنزلت[٢].

وعن ابن مسعود أنَّ الصحابةَ ملُّوا مَلَّة، فقالوا له عليه الصلاة والسلام: حدِّثْنا، فنزلت[٣]. أي: إرشاداً لهم إلى ما يُزيل مَلَلَهم وهو تلاوةُ القرآن واستماعُه منه ﷺ غضّاً طريّاً.

وفي إيقاع اسم الله تعالى مبتدأً، وبناءِ «نزَّل» عليه تفخيمٌ لـ «أحسن الحديث»، واستشهادٌ على أحسنيَّتِه، وتأكيدٌ لاستنادِه إلى الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ مثلَه لا يمكن أنْ يتكلَّمَ به غيرُه سبحانه، أمَّا التفخيمُ فلأنَّه من باب: الخليفة عند فلان، وأما الاستشهادُ على أحسنيَّتِه فلكونِه ممنْ لا يُتَصَوَّرُ أكملُ منه، بل لا كمالَ لشيءٍ مّا في جنبِه بوجهٍ، وأمَّا توكيدُ الاستنادِ إليه تعالى فمِن التقوِّي، وأما أنَّ مثلَه لا يمكِنُ أن يتكلَّمَ به غيرُه سبحانه فلِمَكان التناسُبِ؛ لأنَّ أكملَ الحديث إنَّما يكونُ من أكمل متكلِّم ضرورةً. ومذهبُ الزمخشريِّ أنَّ مثلَ هذا التركيب يفيدُ الحصر، وأنَّه لا تنافيَ بينَه وبينَ التقوِّي جَمْعاً، فافْهَمْ[٤].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢٧.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ١٩٣، ونقله المصنف عن البحر ٧/ ٤٢٣.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٨ عن عون بن عبد الله.

(٤) ينظر ما سلف ١٩/ ٣٢٢.

﴿كِتَٰبًا﴾ بدلٌ من: «أحْسَنَ الحَدِيْث»، أو حالٌ منه كما قال الزمخشريُّ(١)، وليس مبنيّاً على القول بأنَّ إضافةَ أفعل التفضيل تفيدُه تعريفاً كما ظنَّ أبو حيان(٢)، فإنَّ مطلَق الإضافةِ كافيةٌ في صحَّةِ الحاليَّة كما لا يَخْفَى على مَن له أدْنَى إلمامٍ بالعربية. ووقوعُه حالاً مع كونه اسماً لا صفةً؛ إمَّا لوَصْفِه بقوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، أو لكونه في قوّةِ: مكتوباً.

والمرادُ بكونه «متشابهاً» هنا تشابُهُ معانيه في الصحَّةِ والإحكامِ، والابتناءِ على الحقِّ والصدقِ، واستتباعِ منافع الخَلق في المعاد والمعاشِ، وتناسُب ألفاظِه في الفصاحة، وتجاوُب نَظْمِه في الإعجاز، وما أَشْبَهَ هذا بقولِ العرب في الوجه الكامل حُسْناً: وجهٌ متناصفٌ، كأنَّ بعضه أَنْصَفَ بعضاً في القسط من الجمال.

وقوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ صفةٌ أخرى لـ «كتاباً»، أو حالٌ أخرى منه، وهو جمعُ: مُثَنًّى ـ بضم الميم وفتح النون المشدَّدة على خلاف القياس، إذ قياسُه «مُثنَّيات» ـ بمعنى مردَّدٍ ومكرَّر؛ لِمَا كُرِّر وثُنِّيَ من أحكامه ومَواعظِه وقِصَصِه، وقيل: لأنَّه يُثَنَّى في التلاوة.

وجوِّزَ أن يكون جمعَ: مَثْنَى ـ بالفتح مخفَّفاً ـ من التثنية بمعنى التكرير والإعادة، كما كان قولُه تعالى: ﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] بمعنى: كرَّةً بعدَ كرَّة، وكذلك: لبيك وسعديك، والمراد أنَّه جُمِعَ لمعنى التكرير والإعادة كما ثُنِّيَ ما ذُكِر لذلك، لكنَّ استعمالَ المُثنَّى في هذا المعنى أكثرُ؛ لأنَّه أوَّلُ مراتبِ التكرار. ويحتمل أن يراد أنَّ مَثْنى بمعنى التكرير والإعادة كما أنَّ صريحَ المُثَنَّى كذلك في نحو «كرَّتين»، ثم جُمِع للمبالغة.

وقيل: جمعُ: مُثْنِيَةٍ، لاشتمالِ آياته على الثناء على الله تعالى، أو: لأنَّها تُثْني ببلاغتها وإعجازها على المتكلِّم بها. ولا يخفى أنَّ رعايةَ المناسَبة مع «متشابهاً» تَجْعَل ذلك مرجوحاً، وأنَّه حَسَنٌ إذا حُمل على الثناء باعتبار الإعجاز.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٩٤.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٢٣.

وفي «الكشف»: الأقْيسُ بحسب اللفظ أنَّ «مثانِي» اشتُقَّتْ من الثناء أو الثَّنَى، جمعُ مَثْنَى ـ مَفْعل ـ منهما، إما بمعنى المصدر، جُمِع لَمَّا صُيِّرَ صفةً، أو بمعنى المكان في الأصل، نُقِل إلى الوصف مبالغةً نحو: أرضٌ مأسَدةٌ؛ لأنَّ محلَّ الثناء يقعُ على سبيل المجاز على الثاني والمَثْنيِّ عليه، وكذلك محلُّ الثَّنَى. انتهى.

ووقوعُه صفةً لكتاب باعتبار تفاصيله، وتفاصيلُ الشيء هي جملتُه لا غير، ألا تراك تقول: القرآنُ أسباعٌ وأخماسٌ وسورٌ وآياتٌ، فكذلك تقول: هو أحكامٌ ومواعظُ وأقاصيصُ مثاني، ونظيرُه قولك: الإنسان عروق وعظام وأعصابٌ. إلَّا أنَّك تركْتَ الموصوفَ إلى الصفة، والأصلُ: كتاباً متشابهاً فصولاً مثانيَ، ويجوز أن يكون تمييزاً محوَّلاً عن الفاعل، والأصلُ: متشابهاً مثانيه، فحوِّلَ ونُكِّرَ؛ لأنَّ الأكثرَ فيه التنكيرُ، وهذا كقولك: رأيتُ رجلاً حسناً شمائلَ.

وقرأ هشام وأبو بشر: «مثانِيْ» بسكون الياء[1]، فاحتمل أن يكون خبرَ مبتدأ محذوفٍ، وأن يكونَ منصوباً، وسكّن الياء على لغةِ مَن يسكِّنُها في كلِّ الأحوال لانكسارِ ما قبلَها؛ استثقالاً للحركة عليها.

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: صفةٌ لـ «كتاباً»، أو حالٌ منه لتخصُّصِه بالصفة. وقال بعض: الأظهرُ أنَّه استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ آثارِه الظاهرةِ في سامعيه بعدَ بيان أوصافِه في نفسه، ولتقريرِ كونِه أحسنَ الحديث.

والاقشعرارُ: التقبُّض، يقال: اقشعرَّ الجِلْدُ، إذا تقبَّض تقبُّضاً شديداً، وتركيبه من القِشع، وهو الأديم اليابس، قد ضُمَّ إليه الراءُ ليكون رباعياً ودالًّا على معنًى زائدٍ، يقال: اقشعرَّ جِلدُه وقَفَّ شعرُه، إذا عرَض له خوفٌ شديدٌ من أمرٍ هائلٍ دَهَمَه بغْتةً، والمراد تصويرُ خوفِهم بذكرِ لوازمِه المحسوسة، ويطلق عليه التمثيل وإن كان من باب الكناية.

وقيل: هو تصويرٌ للخوف بذكرِ آثارِه وتشبيه حالةٍ بحالةٍ، فيكونُ تمثيلاً حقيقةً.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٢٣.

والأولُ أحسنُ، لأنَّ تشبيهَ القِصَّة بالقصة على سبيل الاستعارة هاهنا لا يخلو عن تكلُّف.

واستُظْهِرَ كونُ المراد بيانَ حصولِ تلك الحالةِ وعروضِها لهم بطريق التحقيق، والمعنى أنهم إذا سمِعُوا القرآن وقوارعَ آياتِ وعيدِه أصابتْهم رهبةٌ وخشيةٌ تقشعرُّ منها جلودُهم، وإذا ذكَروا رحمةَ الله تعالى عند سَماعِ آياتِ وعدِه تعالى وألطافِه تبدَّلَتْ خشيتُهم رجاءً ورهبتُهم رغبةً، وذلك قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ساكنةً مطمئنةً إلى ذكر رحمته تعالى، وإنما لم يصرِّحْ بالرحمة؛ إيذاناً بأنَّها أولُ ما يخطرُ بالبال عند ذكره تعالى لأصالَتِها، كما يُرشِد إليه خبر: «سَبَقَتْ رَحْمَتي غَضَبي»(١).

وذكرُ القلوب لتقدُّم الخشية التي هي من عوارضها، ولعلَّه إنَّما لم تُذْكر هناك على طِرْزِ ذكرِها هنا لأنَّها لا تُوصف بالاقشعرار وتوصف باللين.

وليس في الآية أكثرُ من نعتِ أوليائه باقشعرار الجلود من القرآن، ثم سكونِهم إلى رحمته عزَّ وجلَّ، وليس فيها نعتُهم بالصَّعْق والتواجُد والصَّفْق كما يفعلُه بعضُ الناس؛ أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلتُ لجَدَّتي أسماء: كيف كان يصنعُ أصحابُ رسولِ الله ﷺ إذا قرؤوا القرآنَ؟ قالت: كانوا كما نَعَتَهم الله تعالى، تَدْمَعُ أعينُهم وتقشعِرُّ جلودُهم. قلت: فإنَّ ناساً هاهنا إذا سمِعوا ذلك تأخذُهم غَشْيةٌ. قالت: أعوذ بالله تعالى من الشيطان(٢).

وأخرج الزبير بن بكَّارٍ في «الموفَّقيات» عن عامر عن عبد الله بن الزبير قال: جئتُ أمي فقلت: وجدتُ قوماً ما رأيتُ خيراً منهم قطُّ، يذكرون الله تعالى فيرعدُ أحدُهم حتى يُغْشَى عليه من خشية الله تعالى. فقالت: لا تقعُدْ معهم. ثم قالت:

---

(١) سلف ١/ ١١٤.

(٢) سعيد بن منصور (٩٥ - تفسير)، وتاريخ دمشق ٦٩/ ١٩، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٦.

رأيتُ رسول الله ﷺ يتلو القرآنَ ورأيتُ أبا بكر وعمرَ يتلوانِ القرآنَ فلا يصيبُهم هذا، أَفَتراهم أَخْشَى من أبي بكر وعمر(١)؟!

وقال ابن عمر وقد رأى ساقطاً من سماع القرآن، فقال: إنَّا لنخشى الله تعالى وما نسقُط، هؤلاء يَدخُل الشيطانُ في جوفِ أحدِهم(٢).

وأخرج عبدُ الرزاق وعبدُ بن حُميد وابن المنذر عن قتادة أنَّه قال في الآية: هذا نعتُ أولياء الله تعالى، قال: تقشعرُّ جلودُهم وتبكي أعينُهم وتطمئنُّ قلوبُهم إلى ذكر الله تعالى، ولم ينعَتْهم اللهُ سبحانه بذَهاب عقولهم والغَشَيَانِ عليهم، إنَّما هذا في أهلِ البدَع، وإنَّما هو من الشيطان(٣).

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن جُبير قال: الصَّعْقةُ من الشيطان(٤).

وقال ابن سيرين: بيننا وبين هؤلاء الذين يُصْرَعون عند قراءة القرآن أن يُجْعل أحدُهم على حائطٍ باسطاً رِجليه، ثم يُقْرأ عليهم القرآنُ كلُّه، فإنْ رمى بنفسه فهو صادق(٥).

فهذه أخبارٌ ناعيةٌ على بعض المتصوِّفةِ صعقَهم وتواجُدَهم، وضربَ رؤوسِهم الأرضَ عند سَماع القرآن، ويقول مشايخُهم: إنَّ ذلك لضَعْفِ القلوب عن تحمُّل الوارد، وليس فاعلو ذلك في الكمال كالصحابة أهلِ الصدر الأول في قوَّةِ التحمُّل، فما هو إلَّا دليلُ النقص، بدليلِ أنَّ السالك إذا كمل رَسَخَ وقَوِيَ قلبه، ولم يصدُرْ منه شيءٌ من ذلك، ويقولون: ليس في الآية أكثرُ من إثبات الاقشعرار واللين، وليس فيها نفيُ أنْ يعترِيَهُمْ حالٌ آخَرُ، بل في الآية إشْعارٌ بأنَّ المذكورَ حالُ

(١) عزاه للزبير بن بكار السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٦، ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٦٧، وفيه: جئت أبي...، وكذا أخرجه الطبري كما في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٠.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص١١١.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٧٢، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٥-٣٢٦.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٤٩، عن قيس بن حَبْتر بالمهملة، ثم الموحدة، ثم المثناة فوق. فقول المصنف: ابن جبير، تصحيف عن: ابن حبتر. ينظر المستطرف ١/ ٢٢٥، وتهذيب الكمال ٢٤/ ١٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٨.

الراسخين الكاملين حيثُ قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ [الأنبياء:٤٩] فعبَّر بالموصول، ومقتضَى معلوميَّة الصلة أنَّ لهم رسوخاً في الخشية حتى يُعْلَموا بها، فلا يلزم من كونِ حالهم ما ذُكر ليس إلا ـ على فرضِ دلالتها على الحصر ـ كونُ حالِ غيرهم كذلك، ثم إنَّه متى كان الأمرُ ضرورياً كالعُطاس لا اعتراضَ على من يتَّصفُ به. وفي كلام ابن سيرين ما يؤيِّد ذلك، وهذا غاية ما يقال في هذا المجال، ونحن نسأل الله تعالى أنْ يتفضَّل علينا بما تفضَّل به على أصحابِ نبيِّه ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ إلى الكتاب الذي شرحَ أحوالَه ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من يشاءُ الله تعالى هدايتَه بأن يوفِّقَه سبحانه للتأمُّلِ فيما في تَضاعيفِه من شواهدِ الحقِّية ودلائلِ كونه مِنْ عندِه عزَّ وجلَّ.

وجوِّز أن يكونَ ضميرُ «يشاء» لـ «مَنْ»، والمعنى: يهدي به الله تعالى مَن يشاء هدايةَ اللهِ تعالى. وليس بذاك.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يخلقْ سبحانه فيه الضلالَ لإعراضِه عمَّا يُرشِده إلى الحقِّ بسُوءِ استعدادِه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ يُخلِّصُه من وَرْطة الضلال.

وقيل: الإشارةُ بذلك إلى المذكور من الاقشعرار واللين، والمعنى: ذلك الذي ذُكِرَ مِنَ الخشية والرجاء أَثَرُ هُداه تعالى، يهدي بذلك الأثرِ مَنْ يشاء من عباده، ومَنْ يُضْلِلْه، أي: ومَنْ لم يؤثِّر فيه لقَسْوةِ قلبِه وإصرارِه على فُجورِه (فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ) أي: مِنْ مؤثِّرٍ فيه بشيءٍ قطُّ. وهو كما ترى.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التعليل لِمَا قبلَه مِنْ تبايُن حالِ المُهْتدِي والضالِّ. والكلام في الهمزة والفاءِ والخبرِ كالذي مرَّ في نظائره، ويقال هنا على أحد القولين: التقدير: أكلُّ الناس سواءٌ، فمَنْ شأنُه أن يتَّقِيَ بوجهه الذي هو أشرفُ أعضائِه يومَ القيامة العذابَ السيِّئَ الشديدَ لكون يدِه التي بها كان يتَّقي المكارهَ مغلولةً إلى عُنقِه، كَمَنْ هو آمِنٌ لا يعتريه مكروه، ولا يحتاج إلى الاتِّقاء بوجه من الوجوه؟ فالوجهُ على حقيقته.

وقد يُحمل على ذلك من غيرِ حاجةٍ إلى حديثِ كونِ اليد مغلولةً، تصويراً

لكمالِ اتِّقائه وجِدِّه فيه، وهو أبلغ، وفي هذا المضمار يجري قولُ الشاعر:

يَلْقَى السيوفَ بوَجْهه وبنَحْرِه ويُقِيم هامَتَه مقامَ المِغْفَرِ(١)

وجوّز أن يكون الوجه بمعنى الجملة، والمبالغةُ عليه دونَ المبالغة فيما قبله.

وقيل: الاتقاءُ بالوجه كنايةٌ عن عَدَمِ مَا يُتَّقى به؛ إذ الاتقاء بالوجه لا وجهَ له؛ لأنَّه مما لا يُتَّقى به. ولا يخلو عن خَدْش.

وإضافةُ «سوء» إلى «العذاب» من إضافةِ الصفة إلى الموصوفِ. و«يوم القيامة» معمولُ «يتَّقِي» كما أشرنا إلى ذلك.

وجوّز أن يكون مِنْ تتمَّةِ سوءِ العذاب، والمعنى: أفمن يَتَّقي عذابَ يوم القيامة كالمُصِرِّ على كُفْرِه، وهو وجهٌ حسن، والوجهُ حينئذ ـ كما في الوجهِ السابق ـ إمَّا الجملةُ مبالغةً في تقواه، وإمَّا على الحقيقةِ تصويراً لِكمالِ تقواه وجِدِّه فيها، وهو أبلغ. والمتبادِرُ إلى الذهنِ المعنَى السابقُ. والآية قيل: نزلت في أبي جهل.

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ عطفٌ على «يتقي»، أي: ويُقال لهم من جهةِ خَزَنَةِ النار. وصيغةُ الماضي للدَّلالة على التحقُّقِ والتقرُّر. وقيل: الواوُ للحالِ، والجملةُ حالٌ من ضميرِ «يتقي» بإضمارِ «قد» أو بدونه.

ووَضْعُ المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَرِ للتسْجِيلِ عليهم بالظلم، والإشعارِ بعلَّة الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: وبالَ ما كُنتم تكسِبُون في الدنيا على الدوام من الكُفرِ والمعاصِي.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ ما أصابَ بعضَ الكَفَرةِ من العذاب الدنيويِّ إثرَ بيانِ ما يُصيبُ الكلَّ من العذابِ الأخرويِّ، أي: كذَّب الذين مِنْ قبلهم من الأُمَم السالفة ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ المقدَّرُ لكُلِّ أمةٍ منهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ مِنَ الجهة التي لا يحتَسِبون، ولا يخطُرُ ببالهم إتيانُه منها، لأنَّ ذلك أشدُّ على النفس.

(١) نسب البيت إلى عبد الملك بن معاوية الحارثي، وأبي علي، وابن المولى، ونسب إلى غيرهم، ينظر الحماسة البصرية ١/ ٢٠، وسمط اللآلي ١/ ١٨٢، ٢٧٨.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ أي: الذُّلَّ والصَّغار ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كالمسخِ والخَسْف والقتل والسَّبْيِ والإجلاء وغيرِ ذلك من فُنون النَّكالِ. والفاء قيل: تفسيريةٌ، مثلُها في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ﴾ [الأنبياء:٧٦].

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعدُّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدَّته وسَرْمَديته ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: لو كانوا مِن شأنِهم أن يعلَموا شيئاً لعَلِموا ذلك واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ العظيم الشأن ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجُ إليه الناظرُ في أمورِ دينه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: كَي يتذكَّروا ويتَّعِظوا، أو: مرجُوّاً تذكُّرُهم واتِّعاظُهم، والرجاءُ بالنسبة إلى غيره تعالى، والتعليلُ أظهرُ.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من «هذا»، والاعتمادُ فيها على الصفة أعني: «عربيّاً»، وإلا فـ«قرآنا» جامدٌ لا يصلُح للحالية، وهو أيضاً عينُ ذي الحال فلا يظهرُ حاله، فالحال في الحقيقة «عربيّاً»، و«قرآناً» للتمهيدِ، ونظيرُه: جاء زيدٌ رجلاً صالحاً. قيل: وذلك بمنزلةِ: عربيّاً محقَّقاً.

وجوِّز أن يكون منصوباً بمقدَّرٍ تقديرُه: أعني، أو: أخصُّ، أو: أمدحُ، ونحوه، وأن يكونَ مفعولَ «يتذكَّرون»، وهو كما ترى.

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ لا اختلالَ فيه بوجهٍ من الوجوه، وهو أبلغُ من «مستقيم»، لأنَّ «عوجاً» نكرةٌ وقعَتْ في سياقِ النفْي لِمَا في «غير» من معناه، والاستقامةُ يجوزُ أن تكونَ من وجهٍ دونَ وجهٍ، ونفْيُ مُصاحبةِ العِوَج عنه يقتضِي نفْيَ اتِّصافِه به بالطريقِ الأولى، فهو أبلغُ من: غير مُعْوجٍّ.

والعِوَجُ ـ بالكسر ـ يقالُ فيما يُدْرَكُ بفكرٍ وبصيرةٍ، والعَوَج ـ بالفتح ـ يقال فيما يُدْرَك بالحسِّ، وعبَّر بالأول ليدلَّ على أنَّه بلغَ إلى حدٍّ لا يُدْرِك العقلُ فيه عِوَجاً فضلاً عن الحِسِّ، وتمامُ الكلام مرَّ في «الكهف».

وقيل: المرادُ بالعِوَج الشكُّ واللَّبْس، ورويَ ذلك عن مجاهد(١)، وأنشدوا قولَ الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٢٤.

وقَـدْ أتـاكَ يـقـيـنٌ غـيـرُ ذِي عِـوَجٍ مِـن الإلـهِ وقـولٌ غـيـرُ مـكـذوبِ[(١)]

ولا استدلالَ به على أنَّ العِوَجَ بمعنى الشَّكِّ؛ لأنَّ عِوَجَ اليقينِ هو الشكُّ لا محالةَ، والقول في وجهِ الاستدلال أنَّ الشاعرَ فهِمَ هذا المعنى من الآية لأنَّه اقتباسٌ، وإذا فهِمَه الفصيحُ مع صحَّةِ التجوُّزِ كان مَحْملاً = تعسفٌ ظاهرٌ، لأنَّه لم يتبيَّنْ أنَّه اقتبَسَه منها، ولو سلِّم يكونُ محتمِلاً لِمَا يحتمِله العوجُ في النظم الذي لا عوجَ فيه.

وقد يقال: مرادُ مَنْ قال: أي: لا لبسَ فيه ولا شكَّ، نفيُ بعضِ أنواعِ الاختلالِ، وعلى ذلك ما روي عن عثمانَ بن عفانَ مِنْ أنَّه قال: أي: غيرَ مضطرِبٍ ولا متناقِضٍ[(٢)]. وما قيل: أي: غيرَ ذي لَحْن.

وأخرجَ الديلميُّ في «مسند الفردوس» عن أنس عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «غيرَ ذي عوج: غيرَ مخلوق»[(٣)]. ولعلَّه ـ إن صحَّ الخبر ـ تفسيرٌ باللازم، فتأمَّلْ.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ علَّةٌ أُخْرى مترتِّبةٌ على الأولى.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ إيرادٌ لمَثَلٍ من الأمثالِ القرآنية بعدَ بيانِ أنَّ الحكمةَ في ضَرْبِها هو التذكُّر والاتِّعاظُ بها وتحصيلُ التقْوَى، والمرادُ بضربِ المَثَل هاهنا تطبيقُ حالةٍ عجيبةٍ بأخرى مثلِها، وجعلُها مثلَها.

و«مثلاً» مفعولٌ ثانٍ لـ «ضرب»، و«رجلاً» مفعولُه الأول، أُخِّر عن الثاني للتشويق إليه، وليتَّصلَ به مَا هو مِنْ تتمَّته التي هي العمدة في التمثيل. أو «مثلاً» مفعولُ «ضرب»، و«رجلاً» إلخ بدلٌ منه، بدلَ كلٍّ من كلٍّ.

وقال الكسائيُّ: انتصب «رجلاً» على إسقاطِ الخافض، أي: مثلاً في رجل[(٤)]. وقيل غير ذلك، وقد تقدَّم الكلامُ في نظيره. و«فيه» خبرٌ مقدَّمٌ، و«شركاء» مبتدأٌ،

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٣٩٦، وأبو حيان في البحر ٧/ ٤٢٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٤٢٤.

(٣) مسند الفردوس ٣/ ٢١٧. وأخرجه أيضاً القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٩٥، وفي إسناده عبد الرحمن بن محمد بن علويه الأبهري، حدَّث بأحاديث موضوعة كان يتهم بها. ينظر تنزيه الشريعة ١/ ٧٩ و١٣٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٢٩، والبحر ٧/ ٤٢٤.

و«متشاكِسُون» صفتُه، والنكرةُ ـ وإنْ وصفت ـ يَحْسُن تقديمُ خبرِها، والجملةُ صفةُ «رجلاً» والرابطُ الهاء أو الجارُّ والمجرورُ في موضع الصفة له، و«شركاءُ» مرتفعٌ به على الفاعلية لاعتمادِه على الموصوف. وقيل: «فيه» صلةُ «شركاء» وهو مبتدأ، خبرُه: «متشاكسون»، وفيه أنه ليس لتقديمه نكتةٌ ظاهرةٌ.

والمعنى: ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك ـ حَسْبَما يقودُ إليه مذهبُه مِن ادِّعاءِ كلٍّ مِنْ مَعْبودِيْه عبوديَّتَه ـ عبداً يتشارَكُ فيه جماعةٌ متشاجِرونُ لشَكاسةِ أخلاقِهم وسوءِ طبائِعهم يتجَاذَبونَه ويتعاوَرُونَه في مهماتِهم المتباينة، في تحيُّره وتوزُّعِ قلبِه، ﴿وَرَجُلًا﴾ أي: وضرب للموحِّد مَثَلاً رجلاً ﴿سَلَمًا﴾ أي: خالصاً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ فردٍ ليس لغيرِه سبيلٌ إليه أصلاً، فهو في راحةٍ عن التحيُّر وتوزُّعِ القلب.

وضَرْبُ الرجُلِ مثلاً؛ لأنَّه أفطنُ لِمَا شقِيَ به أو سعِد، فإنّ الصبيَّ والمرأةَ قد يغفلان عن ذلك.

وقرأ عبد الله وابنُ عباس وعكرمةُ ومجاهدٌ وقتادةُ والزهريُّ والحسنُ بخلاف عنه والجَحْدَريُّ وابنُ كثير وأبو عمرو: «سَالِماً»، اسمُ فاعل من «سَلِم»[١]، أي: خالصاً له من الشركة.

وقرأ ابنُ جبير: «سِلْماً» بكسر السين وسكون اللام[٢]، وقرئ: «سَلْماً» بفتحٍ فسكون[٣]، وهما مصدران وُصِف بهما مبالغةً في الخلوصِ من الشركة.

وقرئ: «ورجلٌ سالمٌ» برفعهما[٤]، أي: وهناكَ رجلٌ سالمٌ. وجُوِّز أن لا يقدَّر شيءٌ ويكون «رَجُلٌ» مبتدأ، و«سالمٌ» خبرهُ؛ لأنَّه موضعُ تفصيلٍ إذ قد تقدَّم ما يدلُّ عليه، فيكون كقول امرئ القيس:

إذا ما بَكى مِنْ خَلْفِها انْحَرَفَتْ له بِشِقٍّ وشِقٌّ عندَنا لم يُحَوَّلِ[٥]

---

(١) التيسير ص ١٨٩، والنشر ٢/ ٣٦٢ عن ابن كثير وأبي عمرو، والكلام من البحر ٧/ ٤٢٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٩٧.
(٤) الكشاف ٣/ ٣٩٧، والبحر ٧/ ٤٢٤.
(٥) ديوان امرئ القيس ص١٢، وقد سلف ١١/ ٤٩٤.

وقولُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ إنكارٌ واستبعادٌ لاستوائهما، ونَفْيٌ له على أبلغ وجْهٍ وآكَدِهِ، وإيذانٌ بأنَّ ذلك من الجَلَاءِ والظهورِ بحيثُ لا يقدِر أحدٌ أن يتفوَّهَ باستوائهما أو يتلَعْثَمَ في الحكم بتبايُنِهما؛ ضرورةَ أنَّ أحدَهما في لَومٍ وعناءٍ والآخرُ في راحةِ بالٍ ورضاءٍ. وقيل: ضرورةَ أنَّ أحدَهما في أعلى عِلِّيين والآخرُ في أسفلِ سافلين.

وأيًّاما كان فالسرُّ في إبهام الفاضِل والمفضولِ الإشارةُ إلى كمال الظهور عندَ مَنْ له أدنَى شعور.

وانتصابُ «مثلاً» على التمييزِ المحوَّل عن الفاعل، إذ التقديرُ: هل يستوي مَثَلُهما وحالُهما؟ والاقتصارِ في التمييز على الواحدِ لبيان الجنسِ، والاقتصارُ عليه أوّلاً في قوله تعالى: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا).

وقرئ: «مَثَلَيْن»[1]، أي: هل يستوي مَثَلَاهما وحَالَاهما، وثُنِّي معَ أنَّ المقصودَ من التمييزِ حاصلٌ بالإفرادِ مِنْ غيرِ لَبْس؛ لقصدِ الإشعارِ بمعنًى زائدٍ وهو اختلافُ النوع.

وجوِّز أن يكونَ ضميرُ «يستويان» للمَثَلين، لأنَّ التقْديرَ فيما سبق: مثلُ رجلٍ ومثلُ رجلٍ، أي: هل يستوي المَثَلان مَثَلَيْن، وهو على نحوِ: كفَى بهما رجلَين، وهو من باب: لله تعالى دَرُّه فارِساً. ويرجع ذلك إلى: هل يَسْتَوِيان رجلَين فيما ضُرِب من المثال، ولمَّا كان المَثَلُ بمعنى الصفةِ العجيبة التي هي كالمثل، كان المعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفيَّة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقريرٌ لِمَا قبلَه مِنْ نَفْيِ الاستواءِ بطريقِ الاعتراضِ، وتنبيهٌ للموحِّدين على أنَّ ما لهم مِن المَزِيةِ بتوفيقِ الله تعالى، وأنَّها نِعمةٌ جليلةٌ تقتَضِي الدوامَ على حمدِه تعالى وعبادتِه. أو على أنَّ بيانَه تعالى بضَرْبِ المَثَل أنَّ لهم المَثَل الأعلى وللمشركين مثل السوء، صُنْعٌ جميلٌ ولطفٌ تامٌّ منه عزَّ وجلَّ مستوجِبٌ لحمدِه تعالى وعبادتِه.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٧، والبحر ٧/ ٤٢٥.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ إضرابٌ وانتقالٌ مِن بيانِ عدمِ الاستواء على الوجْهِ المذكورِ إلى بيانِ أنَّ أكثر الناسِ ـ وهم المشركون ـ لا يعلمون ذلكَ مع كمالِ ظهورِه، أو: ليسوا من ذوي العلم فلا يعلمون ذلك، فيَبْقَون في ورْطة الشرك والضلال.

وقيل: المرادُ أنَّهم لا يعلمون أنَّ الكلَّ منه تعالى، وأنَّ المحامِدَ إنَّما هي له عزَّ وجلَّ، فيشرِكون به غيرَه سبحانه. فالكلامُ مِنْ تتمَّةِ «الحمد لله»، ولا اعتراضَ. ولا يخفى أنَّ بناءَ الكلام على الاعتراض ـ كما سمعت ـ أَولى.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ تمهيدٌ لِمَا يَعْقبه من الاختصام يوم القيامة.

وفي «البحر»: أنَّه لمَّا لم يلتفِتُوا إلى الحقِّ ولم ينتفعوا بضَرْبِ المَثَل أخبَرَ سبحانه بأنَّ مصيرَ الجميع بالموت إلى الله تعالى، وأنَّهم يختصِمُون يومَ القيامة بينَ يديه وهو عزَّ وجلَّ الحَكَم العَدْل، فيتميَّزُ هناك المحِقُّ والمُبطِل[١].

وقال بعضُ الأجلَّة: إنَّه لمَّا ذُكِرتْ من أوَّل السورة إلى هنا البراهينُ القاطعةُ لعِرْق الشركة المسجِّلةُ لفَرْطِ جَهْلِ المشركين وعدَمِ رجوعهم، مع جُهْده ﷺ في ردِّهم إلى الحقِّ وحِرْصه على هدايتهم، اتَّجه السؤالُ منه عليه الصلاة والسلام بعدَما قاساه منهم بأن يقول: ما حالي وحالهم؟ فأجيب بـ: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) الآية.

وقرأ ابن الزبير وابن أبي إسحاق وابن محيصِنٍ وعيسى واليماني وابن أبي غوث وابن أبي عبلة: «إنَّكَ مَائِتٌ وإنَّهُم مَائِتُون»[٢].

والفرقُ بين «ميِّت» و«مائِت» أنَّ الأولَ صفةٌ مشبَّهة وهي تدلُّ على الثبوت، ففيها إشعارٌ بأنَّ حياتَهم عينُ الموت، وأنَّ الموتَ طوقٌ في العُنق لازمٌ. والثاني اسمُ فاعل وهو يدلُّ على الحدوث، فلا يفيدُ هنا مع القرينةِ أكثرَ مِنْ أنَّهم سيَحْدُث لهم الموت.

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٢٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣١، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣٠، والبحر ٤/ ٤٢٥.

وضميرُ الخطاب ـ على ما سمعت ـ للرسول ﷺ، قال أبو حيان: ويدخُل معه عليه الصلاة والسلام مؤمنو أمَّته. وضميرُ الجمع الغائب للكُفَّار(١). وتأكيدُ الجملة في «إنَّهم مَيِّتُوْن» للإشعار بأنَّهم في غفلة عظيمةٍ كأنَّهم يُنْكرون الموتَ، وتأكيدُ الأُوْلى دفعاً لاستبعادِ موتِه عليه الصلاة والسلام. وقيل: للمشاكلة.

وقيل: إنَّ الموتَ مما تكرَهُه النفوسُ، وتكرَهُ سماعَ خبرِه طبعاً، فكان مظِنَّةَ أن لا يُلْتفَتَ إلى الإخبار به أو أن يُنْكَرَ وقوعُه ولو مُكابرةً، فأكَّدَ الحكمَ بوقوعه لذلك، ولا يَضُرُّ في ذلك عدمُ الكراهة في بعضٍ لخصوصيةٍ فيه، كسيِّد العالمين ﷺ.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليبِ المخاطَب على الغيَّب(٢) ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: مالكِ أمورِكم ﴿تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ فتحتجُّ أنتَ عليهم بأنَّك بلَّغتَهم ما أُرْسِلْتَ به من الأحكام والمواعظِ التي من جُملتها ما في تضاعيفِ هذه الآيات، واجتهدتَ في دعوتِهم إلى الحقِّ حقَّ الاجتهاد، وهم قد لجُّوا في المُكابَرةِ والعنادِ، ويعتذرون بالأباطيل مثل: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] و: ﴿وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا﴾ [الأنبياء: ٥٣ والشعراء: ٧٤] و: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

والجمعُ بينَ «يوم القيامة» و«عند ربكم» لزيادة التهويل ببيانِ أنَّ اختصامَهم ذلك في يومٍ عظيم عندَ مالكٍ لأمورهم نافذٍ حكمُه فيهم، ولو اكتفى بالأوَّل لاحتَمَلَ وقوعَ الاختصام فيما بينَهم بدونِ مرافعةٍ، أو بمرافعةٍ لكنْ ليستْ لدى مالكٍ لأمورِهم، والاكتفاءُ بالثاني ـ على تسليم فَهْمِ كونِ ذلك يومَ القيامة معه بدونِ احتمال ـ لا يقومُ مقامَ ذكرِهما، لِمَا في التصريح بما هو كالعَلَم من التهويلِ ما فيه.

وقال جمعٌ: المرادُ بذلك الاختصامُ العامُّ فيما جرى في الدنيا بين الأنام، لا خصوصُ الاختصامِ بينه عليه الصلاة والسلام وبينَ الكَفَرة الطَّغَامِ.

وفي الآثار ما يأبَى الخصوصَ المذكور؛ أخرج عبد الرزاق وعبد بنُ حميد وابن جرير وابن عساكر عن إبراهيم النخعيِّ قال: نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكَ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٢٥.

(٢) في الأصل: على المغيّب، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٣٩٧، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٣٨.

مَيِّتٌ﴾ إلخ، فقالوا: وما خصومتُنا ونحن إخوان؟ فلمَّا قُتِل عثمان بنُ عفَّان قالوا: هذه خصومةٌ ما بيننا(١).

وأخرج سعيد بنُ منصور عن أبي سعيد الخدريِّ قال: لمَّا نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، كنا نقول: ربُّنا واحدٌ، ودِيننا واحدٌ، فلمَّا كانَ يومُ صفِّين وشدَّ بعضُنا على بعضٍ بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا(٢).

وأخرج عبد بن حميد والنسائيُّ وابن أبي حاتم والطبرانيُّ وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لقد لبثنا بُرْهةً من دهرِنا ونحن نرى أنَّ هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين من قبلُ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، قلنا: كيف نختصم ونبيُّنا واحدٌ وكتابنا واحدٌ؟ حتى رأيتُ بعضَنا يضرِبُ وجوهَ بعضٍ بالسيف، فعرفتُ أنَّها نزلت فينا(٣).

وفي روايةٍ أخرى عنه بلفظِ: نزلت علينا الآيةُ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، وما ندري فيمَ نزلت، قلنا: ليس بيننا خصومةٌ، فما التخاصُم؟ حتى وقعت الفتنةُ، فقلتُ: هذا الذي وَعَدَنا ربُّنا أن نختصِمَ فيه(٤).

وأخرج أحمد وعبد الرزاق وعبد بن حميد، والترمذيُّ وصحَّحه، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقيُّ في «البعث والنشور» عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قلت: يا رسول الله أيُنْكَرُ علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواصِّ الذنوب؟ قال: «نعم يُنْكر ذلك عليكم حتى يؤدَّى إلى كلِّ ذي حقٍّ حقُّه» قال الزبير: فوالله إنَّ الأمر لشديد(٥).

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٧٢، وتفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٢، وتاريخ دمشق ٣٩/ ٤٩٣، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٧.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٣٢٧-٣٢٨، وعزاه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٣ للثعلبي.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٣٢٧، وهو في السنن الكبرى للنسائي (١١٣٨٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٢٣: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٢، وعزاه السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٧ لعبد بن حميد وابن مردويه.

(٥) مسند أحمد (١٤٣٤)، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ١٧٣، وسنن الترمذي (٣٢٣٦)، وتفسير ابنِ

وزعم الزمخشريُّ(١) أنَّ الوجهَ الذي يدلُّ عليه كلامُ الله تعالى هو ما ذُكر أولاً، واستَشهَد بقوله تعالى: (فَمَنْ أَظْلَمُ) إلخ، وبقوله سبحانه: (وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ) إلخ، لدلالتهما على أنَّهما اللذان تكونُ الخصومةُ بينَهما، وكذلك ما سبق من قوله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا) إلخ.

وتعقَّب ذلك في «الكشف» فقال: أقولُ: قد نُقِل عن جلَّة الصحابةِ والتابعين رضي الله عنهم ما يدلُّ على أنَّهم فهِمُوا الوجهَ الثاني، أي: العمومَ، بل ظاهرُ قولِ النخعيِّ: قالت الصحابة: ما خصومتُنا ونحن إخوان؟! يدلُّ على أنَّه قولُ الكلِّ، فالوجهُ إيثارُ ذلك.

وتحقيقُه أنَّ قولَه تعالى: (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ) كلامٌ مع الأُمَّة كلِّهم موحِّدِهم ومُشركهم، وكذلك قوله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا) (وَرَجُلًا) (بَلْ أَكْثَرُهُمْ)، دون: بل هم، كالنصِّ على ذلك. فإذا قيل: «إنك ميِّت» وَجَب أن يكونَ على نحوِ ﴿يَٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ [الطلاق: ١] أي: إنَّكم أيُّها النبيُّ والمؤمنون، وأبْهَمَ ليعُمَّ القبيلين ولا يتنافر النظمُ، فقد رُوْعِيَ من مُفتَتَح السورة إلى هذا المقام التقابلُ بين الفريقين، لا بينَه عليه الصلاة والسلام وحدَه وبينَ الكفَّار. ثم إذا قيل: «ثم إنكم» على التغليب، يكون تغليباً للمخاطَبين على جميع الناس، فهذا مِنْ حيثُ اللفظُ والمساقُ الظاهرُ.

ثم إذا كان الموتُ أمراً عمَّه والناسَ جميعاً كان المعنى عليه أيضاً. وأما حديثُ الاختصام والطباق الذي ذكره فليس بشيء؛ لأنَّه لِعُمومِه يشمَلُه شُمولاً أولياً كما حُقِّق هذا المعنى مراراً. والتعقيبُ بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الآية: ٣٢] للتنبيه على أنَّه مصبُّ الغَرَض، وأنَّ المقصودَ التسلُّقُ إلى تلك الخصومةِ.

ولا أُنكِرُ أنَّ قولَه تعالى: (عِندَ رَبِّكُمْ) يدلُّ على أنَّ الاختصامَ يوم القيامة،

= أبي حاتم ١٠/ ٣٢٥٠، ومستدرك الحاكم ٢/ ٤٣٥، والحلية ١/ ٩١، ولم نقف عليه في مطبوع البعث والنشور، ونقله المصنف من الدر المنثور ٥/ ٣٢٧، وهو في السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٩٣-٩٤.

(١) في الكشاف ٣/ ٣٩٨.

ولكنْ أُنكِر أنْ يختصَّ باختصامِ النبيِّ ﷺ وحدَه والمشركين، بل يتناولُه أوّلاً وكذلك اختصامَ المؤمنين والمشركين، واختصامَ المؤمنين بعضِهم مع بعض، كاختصام عثمانَ رضي الله عنه يومَ القيامة وقاتليه، وهذا ما ذهب إليه هؤلاء، وهم هم رضي الله عنهم. انتهى.

وكأنَّه عنى بقوله: ولا أُنكِر.. إلخ، ردَّ ما يقال: إنَّ «عند ربكم» يدلُّ على أنَّ الاختصامَ يومَ القيامة، وقد صرَّح في النظم الجليل بذلك، فيكون تأكيداً مُشْعِراً بالاهتمام بأمرِ ذلك الاختصام، فليس هو إلَّا اختصامَ حبيبه ﷺ مع أعدائه الطَّغَام. ووجه الردِّ أنَّه إنْ سُلِّم أنَّ فائدةَ الجمع ما ذُكِر، فلا نُسَلِّم استدعاءَ ذلك لاعتبارِ الخصوص، بل يكفي للاهتمام دخولُ اختصامِ الحبيب مع أعدائه عليه الصلاة والسلام، فتأمَّله.

ثم أنت تعلم أنَّه لو لم يكن في هذا المقام سوى الحديثِ الصحيح المرفوع لكفى في كونِ المرادِ عمومَ الاختصام، فالحقُّ القولُ بعُمومه، وهو أنواعٌ شتَّى، فقد أخرج ابنُ جرير عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: يخاصِمُ الصادقُ الكاذِبَ، والمظلومُ الظالمَ، والمهتدِي الضالَّ، والضعيفُ المستكبِرَ[1].

وأخرج الطبرانيُّ وابنُ مردويه بسندٍ لا بأسَ به عن أبي أيوبَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أولُ مَنْ يختصِمُ يومَ القيامة الرجلُ وامرأتُه، والله ما يتكلَّمُ لسانُها، ولكنْ يداها ورِجلاها يشهدان عليها بما كان لزوجها، وتَشهَدُ يداه ورِجْلاه بما كان لها، ثمَّ يُدْعَى الرجلُ وخادمُه بمثلِ ذلك، ثم يُدْعَى أهلُ الأسواق، وما يوجَدُ ثَمَّ دانِقٌ ولا قراريطُ، ولكنْ حسناتُ هذا تُدْفَعُ إلى هذا الذي ظَلَمه، وسيئاتُ هذا الذي ظَلَمه توضَع عليه، ثم يُؤتى بالجبَّارِيْن في مقامعَ مِنْ حديدٍ، فيقال: أَوْرِدُوهم إلى النار، فوالله ما أدري يدخلُونها أو كما قال الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١][2]».

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠١.
(٢) المعجم الكبير ٤/ ١٤٨، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٨.

وأخرج البزَّار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالأميرِ الجائرِ فتُخاصمه الرعية»(١).

وأخرج أحمدُ والطبرانيُّ بسندٍ حَسَنٍ عن عقبة بنِ عامرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ خصمين يومَ القيامة جارَان»(٢). ولعلَّ الأوليَّةَ إضافيةٌ؛ لحديثِ أبي أيوب السابقِ.

وجاء عن ابن عباس اختصامُ الروحِ مع الجسد أيضاً(٣)، بل أخرج أحمد بسندٍ حَسَنٍ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليختصمَنَّ يومَ القيامة كلُّ شيء حتى الشاتان فيما انتطحا»(٤).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن أضاف إليه سبحانه وتعالى الشريكَ أو الولدَ، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بالأمر الذي هو عينُ الحقِّ ونفسُ الصدق، وهو ما جاء به النبيُّ ﷺ ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: في أوَّل مجيئه من غير تدبُّرٍ فيه ولا تأمُّلٍ، فـ «إذ» فجائيةٌ كما صرَّح به الزمخشريُّ(٥)، لكن اشترط فيها في «المغني» أن تقعَ بعد «بينا» أو «بينما»، ونقله عن سيبويه(٦)، فلعلَّه أغلبيٌّ. وقد يقال: هذا المعنى يقتضيه السياقُ من غير توقُّفٍ على كونِ «إذ» فجائيَّة، ثم المرادُ أن هذا الكاذب المكذِّب أظلمُ مِن كلِّ ظالم.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وتعالى وسارَعوا إلى التكذيب بالصدْق. ووَضعُ الظاهر موضعَ الضمير للتسجيلِ عليهم بالكفر. والجمعُ باعتبارِ معنى «مَن»، كما أنَّ الإفراد في الضمائر

---

(١) مسند البزار (١٦٤٤ - كشف)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٥: فيه الأغلب بن تميم، وهو ضعيف.

(٢) مسند أحمد (١٧٣٧٢)، والمعجم الكبير ١٧/ ٣٠٣-٣٠٩.

(٣) عزاه السيوطي في الدر ٥/ ٣٢٨ لابن منده.

(٤) مسند أحمد (٩٠٧٢). وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٩٨.

(٦) مغني اللبيب ص١١٥.

السابقة باعتبارِ لفظها، أو لجنسِ الكَفَرة، فيشملُ أهلَ الكتاب ويدخل هؤلاء في الحكم دخولاً أوليًّا.

وأيَّاما كان فالمعنى على كفايةِ جهنَّمَ مجازاةً لهم، كأنه قيل: أليست جهنَّمُ كافيةً للكافرين مثوًى؟ كقوله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ [المجادلة: ٨] أي: هي تكفي عقوبةً لكفرِهم وتكذيبهم. والكفايةُ مفهومة من السياق كما تقول لمن سألك شيئاً: ألم أُنعِمْ عليك؟ تُريد: كفاكَ سابقُ إنعامي عليك.

واستُدِلَّ بالآية على تكفيرِ أهلِ البدَع؛ لأنَّهم مكذِّبون بما عُلِم صدقُه.

وتعقِّبَ بأنَّ «مَن كَذَبَ» مخصوصٌ بمن كذب الأنبياءَ شِفاهاً في وقتِ تبليغهم لا مطلقاً؛ لقوله تعالى: «إذ جاءه». ولو سلِّم إطلاقُه فهم لكونهم يتأوَّلون ليسوا مكذِّبين، وما نَفوه وكذَّبوه ليس معلوماً صدقُه بالضرورة، إذ لو عُلم من الدين ضرورةً كان جاحدُه كافراً كمنكِرِ فَرْضيَّةِ الصلاةِ ونحوها.

وقال الخفاجي: الأظهرُ أنَّ المرادَ تكذيبُ الأنبياء عليهم السلام بعد ظهور المعجزات في أنَّ ما جاؤوا به من عند الله تعالى، لا مطلقُ التكذيب[١].

وكأني بك تختارُ أنَّ المتأوِّلَ غيرُ مكذِّب، لكن لا عذرَ في تأويلٍ يَنْفي ما عُلم مِن الدين ضرورةً.

﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الموصولُ عبارةٌ عن رسول الله ﷺ كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس، وفسَّر الصدقَ بـ «لا إله إلا الله»[٢]. والمؤمنون داخلون بدلالة السياق وحُكمِ التبعيَّة دخولَ الجند في قولك: نزل الأمير موضعَ كذا، وليس هذا من الجمع بين الحقيقةِ والمجازِ في شيء؛ لأنَّ الثاني لم يُقْصَد مِن حاقِّ اللفظِ، ولا يضرُّ في ذلك أنَّ المجيءَ بالصدقِ ليس وصفاً للمؤمنين الأتباعِ

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٣٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٤-٢٠٥، والأسماء والصفات (٢٠٦)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٨.

كما لا يخفى، والموصولُ على هذا مفردٌ لفظاً ومعنًى، والجمعُ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ٣٣﴾ باعتبارِ دخولِ الأتباع تبعاً. ومراتبُ التقوى متفاوتةٌ، ولرسولِ الله ﷺ أعلاها.

وجُوِّز أن يكون الموصول صفةً لمحذوفٍ، أي: الفوج الذي، أو: الفريق الذي.. إلخ، فيكون مفردَ اللفظ مجموعَ المعنى، فقيل: الكلامُ حينئذٍ على التوزيع؛ لأن المجيء بالصدق على الحقيقة له عليه الصلاة والسلام، والتصديقُ بما جاء به وإنْ عمَّه وأتباعَه ﷺ، لكنَّه فيهم أظهرُ، فليُحْمَل عليه للتقابل.

وفي «الكشف»: الأَوْجَهُ أن لا يُحْمَل على التوزيع، غايةُ ما في الباب أنَّ أحدَ الوصفين في أحدِ الموصوفين أظهرُ، وعليه يحملُ كلام الزمخشريِّ الموهِمُ للتوزيع[1].

وحمل بعضُهم الموصولَ على الجنس، فإنَّ تعريفَه ـ كتعريف ذي اللام ـ يكون للجنس والعهد، والمرادُ حينئذ به الرسلُ والمؤمنون. وأيَّد إرادةَ ما ذَكر بقراءة ابن مسعود: «والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به»[2].

وزعم بعضهم أنه أريد: «والذين»، فحذفت النونُ كما في قوله:

إن الذي حانتْ بفَلْجٍ دماؤُهم ... هم القومُ كلُّ القوم يا أمَّ مالك[3]

وتعقَّبه أبو حيان[4] بأنَّه ليس بصحيح؛ لوجوب جمع الضمير في الصلة حينئذٍ كما في البيت، ألا ترى أنَّه إذا حُذفت النونُ من «اللَّذان» كان الضمير مثنًى كقوله:

أبني كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللذا ... قَتَلا الملوكَ وفكَّكا الأغلالا[5]

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢، والكشاف ٣/ ٣٩٨. وقد وردت قراءته بحذف النون أيضاً «والذي جاؤوا بالصدق وصدقوا به» كما في المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١، والبحر ٧/ ٤٢٨.

(٣) البيت للأشهب بن رُميلة، وسلف ٣/ ٤٤٨.

(٤) البحر ٧/ ٤٢٨.

(٥) البيت للأخطل، وسلف ١٧/ ٣٢٣.

وقال عليٌّ[1] وأبو العالية والكلبيُّ وجماعة: «الذي جاء بالصدق» هو الرسولُ ﷺ، والذي «صدَّق به» هو أبو بكر ﷺ. وأخرج ذلك ابن جرير والباورديُّ في «معرفة الصحابة» وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان ـ وله صحبة ـ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه[2].

وقال أبو الأسود ومجاهدٌ في روايةٍ وجماعةٌ من أهل البيت وغيرُهم: الذي صدَّق به هو عليٌّ كرم الله تعالى وجهه[3].

وأخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ[4].

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدِّيِّ أنه قال: «الذي جاء بالصدق» جبريل عليه السلام، «وصدق به» هو النبيُّ ﷺ[5].

قيل: وعلى الأقوال الثلاثة يقتضي إضمار «الذي»، وهو غيرُ جائزٍ على الأصحِّ عند النحاة من أنَّه لا يجوز حذفُ الموصول وإبقاءُ صلتِه مطلقاً، أي: سواءٌ عُطف على موصولٍ آخر أم لا. ويضعِّفه أيضاً الإخبار عنه بالجمع.

وأجيب بأنَّه لا ضرورةَ إلى الإضمار، ويراد بـ «الذي» الرسولُ ﷺ والصدِّيقُ أو عليٌّ ـ كرَّم الله تعالى وجهَهما ـ معاً، على أنَّ الصلة للتوزيع، أو يراد بـ «الذي» جبريلُ عليه السلام والرسولُ ﷺ معاً كذلك؛ وضميرُ الجمع قد يرجع إلى الاثنين وقد أريدا بـ «الذي».

ولا يخفى ما في ذلك من التكلُّف، والله تعالى أعلم بحال الأخبار، ولعلَّ ذِكْرَ أبي بكر مثلاً ـ على تقدير الصحَّة ـ من باب الاقتصارِ على بعضِ أفرادِ العامِّ لنكتةٍ،

(١) وقع في الأصل و(م): «علية»، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١، والبحر ٧/ ٤٢٨ والكلام وما بعده منه.

(٢) تفسير الطبري: ٢/ ٢٠٤-٢٠٥، وتاريخ دمشق ٣٠/ ٤٤٠، وعزاه للباوردي السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣١، والبحر المحيط ٧/ ٤٢٨.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٣٢٨.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٠٥، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٨.

وهي في أبي بكرٍ رضي الله عنه كونه أوَّلَ مَن آمن وصدَّق من الرجال، وفي عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه كونه أولَ مَن آمن وصدَّق من الصبيان. ويقال نحو ذلك على تقدير صحَّةِ خبرِ السدِّيِّ، ولا يكاد يصحُّ لقوله تعالى فيما بعد: «ليُكفِّر» إلخ. وبما ذكر يُجمع بين الأخبار إن صحَّت، ولا يُعتبَر في شيء منها الحصرُ، فتدبَّر.

وقرأ أبو صالح وعكرمة بن سليمان: «وصَدَقَ به» مخفَّفاً[١]، أي: وصدَق به الناسَ ولم يكذبْهم به، يعني: أدَّاه إليهم كما نزل عليه من غيرِ تحريفٍ، فالمفعولُ محذوفٌ؛ لأنَّ الكلامَ في القائم به الصدقُ وفي الحديثِ الصدقِ، والكلامُ على العموم دونَ خصوصِه عليه الصلاة والسلام، فإنَّ جملةَ القرآن حَفِظه الصحابةُ عنه عليه الصلاة والسلام وأدَّوه كما أنزل.

وقيل: المعنى: وصار صادقاً به، أي: بسببه؛ لأنَّ القرآن معجِزٌ والمعجزُ يدلُّ على صدقِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا فالوصفُ خاصٌّ. وقد تجوَّز في ذلك باستعمال «صَدَق» بمعنى: صار صادقاً به، ولا كنايةَ فيه كما قيل.

وقال أبو صالح[٢]: أي: وعَمِلَ به. وهو كما ترى.

وقرئ: «وصُدِّق به» مبنيًّا للمفعول مشدَّداً[٣].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ بيانٌ لِمَا لأولئك الموصوفين بالمجيء بالصدقِ والتصديق به في الآخرة مِن حُسن المآب بعدَ بيانِ ما لهم في الدنيا مِن حُسن الأعمال، أي: لهم كلُّ ما يشاؤونه مِن جلْب المنافع ودفْع المضارِّ في الآخرة لا في الجنَّة فقط؛ لِمَا أنَّ بعضَ ما يشاؤونه من تكفيرِ السيئات والأمن من الفَزَع الأكبر وسائرِ أهوال القيامة إنما يقعُ قبلَ دخول الجنة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من حصولِ كلِّ ما يشاؤونه ﴿جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: الذين أحسنوا أعمالَهم، والمرادُ بهم أولئك المحدَّثُ عنهم لكن أقيمَ الظاهرُ مقامَ

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٣٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣١.
(٢) كما في القراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٢٨.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٢٨.

الضمير تنبيهاً على العلة لحصول الجزاء. وقيل: المرادُ ما يعمُّهم وغيرَهم ويدخلون دخولاً أوليًّا.

وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ إلخ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: ليكفِّر الله عنهم ويجزيَهم خصَّهم سبحانه بما خصَّ. أو بما قبله باعتبارِ فحواه على ما قيل، أي: وعدَهم اللهُ جميعَ ما يشاؤونه من زوال المضارِّ وحصولِ المسارِّ ليكفِّر عنهم بموجب ذلك الوعدِ أسوأَ الذي عملوا.. إلخ، وليس ببعيدٍ معنًى عن الأوَّل.

وجوِّز أن يكون متعلِّقاً بقوله سبحانه: (ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) أي: بما يدلُّ عليه من الثبوت، أو بـ «المحسنين» كما قال أبو حيان[١]، فكأنه قيل: وذلك جزاء الذين أحسنوا أعمالهم ليكفِّر الله عنهم أسوأَ الذي عملوه.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ ويعطيهم ثوابَهم ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وتقديمُ التكفير على إعطاء الثواب؛ لأنَّ درءَ المضارِّ أهمُّ مِن جلبِ المسارِّ.

وأقيم الاسم الجليلُ مقامَ الضمير الراجع إلى «ربهم» لإبراز كمالِ الاعتناء بمضمون الكلام، وإضافةُ «أسوأ» و«أحسن» إلى ما بَعْدَهما من إضافة أفعل التفضيل إلى غيرِ المفضَّل عليه للبيانِ والتوضيح، كما في: الأشجُّ أعدلُ بني مروانَ[٢]، ويوسفُ أحسنُ إخوته[٣]. والتفضيل ـ على ما قال الزمخشريُّ ـ للدلالة على أنَّ الزلَّة المكفَّرة عندَهم هي الأسوأ؛ لاستعظامهم المعصيةَ مطلقاً لشدَّةِ خوفِهم، والحَسَن الذي يعملونه عند الله تعالى هو الأحسنُ لحُسن إخلاصهم فيه[٤]. وذلك على ما قرِّر في «الكشف»، لأنَّ التفضيلَ هنا من باب الزيادةِ المطلقةِ من غير نظرٍ إلى مفضَّلٍ عليه، نظراً إلى وصولِه إلى أقصى الغاية الكمالية. ثم لَمَّا كانوا متَّقين كاملي التقى لم يكن في عملهم أسوأ إلَّا فرضاً وتقديراً.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الأشج: هو عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي. (توفي ١٠١هـ)، سمي بالأشج لشجَّة كانت في رأسه. سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٦.

(٣) ينظر ١٠/ ٩٣.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٩٨.

وقوله سبحانه: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دونَ: أحسن الذي كانوا يعملون، يدلُّ على أنَّ حَسَنَهم عند الله تعالى من الأحسن؛ لدلالته على أنَّ جميعَ أجرهم يجري على ذلك الوجه، فلو لم يعملوا إلَّا الأحسن كان التفضيلُ بحسب الأمرِ نفسهِ. ولو كان في العمل الأحسنُ والحَسَنُ وكان الجزاءُ بالأحسن بأن يُنظَر إلى أحسن الأعمال فيجري الباقي في الجزاء على قياسه دلَّ أنَّ الحسَنَ عند المجازِي كالأحْسن، فصحَّ على التقديرين أنَّ حَسَنَهم عند الله تعالى هو الأحسنُ. ويُعلم من هذا أن لا اعتزالَ فيما ذكره الزمخشريُّ(١) كما توهَّمه أبو حيان، وأما قولُه في الاعتراض عليه: إنه قد استعمَل «أسوأ» في التفضيل على معتقَدهم، و«أحسنَ» في التفضيل على ما هو عندَ الله عزَّ وجلَّ، وذلك توزيعٌ في أفعل التفضيل وهو خلاف الظاهر(٢). فقد يسلَّم إذا لم يكن في الكلام ما يؤذِن بالمغايرة، فحيثُ كان فيه هاهنا ذلك على ما قرِّر، لا يسلَّم أنَّ التوزيعَ خلافُ الظاهر.

وقيل: إنَّ «أسوأ» على ما هو الشائع في أفعل التفضيل، وليس المرادُ أنَّ لهم عملاً سيئاً وعملاً أسوأ، والمكفَّر هو الأسوأ، فإنَّهم المتقون الذين وإن كانت لهم سيئاتٌ لا تكون سيئاتُهم من الكبائر العظيمة، ولا يناسب التعرُّض لها في مقام مدحهم، بل الكلام كنايةٌ عن تكفير جميع سيئاتهم بطريق برهانيٍّ، فإنَّ الأسوأ إذا كفِّر كان غيرُه أولى بالتكفير، لا أنَّ ذلك صدَر منهم، ولا نسلِّم وجوبَ تحقُّقِ المعنى الحقيقيِّ في الكناية. وهو كما ترى.

وقال غير واحد: «أفعل» على ما هو الشائعُ، والأسوأ: الكفرُ السابق على التقوى والإحسان، والمراد تكفيرُ جميع ما سلَفَ منهم قبل الإيمان من المعاصي بطريق برهانيٍّ. وعلى هذا لا يتسنَّى تفسيرُ «وصدَّق به» بعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، إذ لم يسبقْ له كفْرٌ أصليٌّ، ولا يكاد يعبَّر عن الكفر التبعيِّ بأسوأ العمل.

وقيل: «أفعل» ليس للتفضيل أصلاً، فـ«أسوأ» بمعنى السيِّئ صغيراً كان أو كبيراً، كما هو وجهٌ أيضاً في: الأشجُّ أعدلُ بني مروان، وأُيِّدَ بقراءة ابن مقسم وحامد بن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٢٩.

يحيى عن ابن كثير روايةً عن البزيِّ عنه: «أسواء» بوزن «أفعال» جمع: سوء[1].

و«أحسن» عندَ أكثر أهل هذه الأقوال على بابه، على معنى أنَّه تعالى ينظُر إلى أحسنِ طاعاتهم فيُجْري سبحانه الباقي في الجزاء على قياسه لطفاً وكرماً.

وزعم الطبرسيُّ[2] أنَّ الأحسن الواجبُ والمندوبُ، والحسنَ المباحُ، والجزاءُ إنَّما هو على الأوَّلين دونَ المباح.

وقيل: المرادُ: يجزِيهم بأحسنَ مِنْ عملِهم وهو الجنة. وفيه ما فيه.

والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في صلة الموصول الثاني دون الأول؛ للإيذانِ باستمرارِهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيئة.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ إنكارٌ ونَفْيٌ لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه، كأنَّ الكفايةَ من التحقُّق والظهور بحيثُ لا يقدِرُ أحد على أن يتفوَّهَ بعدمِها أو يتلعثمَ في الجواب بوجودها.

والمراد بـ«عبده» إمَّا رسولُ الله ﷺ على ما روي عن السديِّ، وأيِّد بقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: الأوثان التي اتخذوها آلهةً؛ فإنَّ الخطابَ ـ سواءٌ كانت الجملة استئنافاً أو حالاً ـ له ﷺ. وقد روي أنَّ قريشاً قالت له عليه الصلاة والسلام: إنَّا نخافُ أن تخبلك آلهتُنا وتصيبك معرَّتُها؛ لعيبكَ إياها، فنزلت. وفي روايةٍ قالوا: لتكُفَّنَّ عن شتمِ آلهتِنا أو ليصيبنَّك منها خَبَلٌ، فنزلت[3]. أو الجنسُ المنتظِمُ له عليه الصلاة والسلام انتظاماً أوليًّا، وأيِّد بقراءة أبي جعفر ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائيِّ: «عبادَه» بالجمع[4]،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٢٩.

(٢) في مجمع البيان ٢٤/ ١٥٥.

(٣) نقلهما المصنف من تفسير أبي السعود ٧/ ٢٥٥، وروى عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٢ عن معمر في قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ قال: قال لي رجل: إنهم قالوا للنبيِّ ﷺ: لتكفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبلنَّك.

(٤) التيسير ص١٨٩، والنشر ٢/ ٣٦٢، عن حمزة والكسائي وأبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ٤٢٩.

وفسِّر بالأنبياء عليهم السلام والمؤمنين. وعلى الأول يرادُ أيضاً الأتباعُ كما سمعتَ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الآية: ٣٣]. و«يخوفونك» شاملٌ لهم أيضاً على ما سلف.

والتئام الكلام بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الآية: ٣٢] إلى هذا المقام؛ لدلالته على أنَّه تعالى يكفي نبيَّه ﷺ مُهِمَّ دينه ودنياه، ويكفي أتباعَه المؤمنين أيضاً المهمَّين. وفيه أنَّه سبحانه يكفيهم شرَّ الكافرين من وجهين: من طريق المقابلة، ومِن أنَّه داخلٌ في كفايةِ مهمَّي الرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعِه. وهذا ما تقتضيه البلاغةُ القرآنية، ويلائمُ ما بني عليه السورة الكريمة من ذكر الفريقَين وأحوالهما توكيداً لِمَا أمر به أوَّلاً من العبادة والإخلاص.

وقرئ: «بكافي عِبادِه» بالإضافة، و«يُكافِي عِبادَه» مضارع «كافى» ونصب «عباده»(١)، فاحتمل أن يكون مفاعلةً من الكفاية، كقولك: «يُجاري» في «يجري»، وهو أبلغ من «كفى» لبنائه على لفظ المبالغة، وهو الظاهر لكثرةِ تردُّدِ هذا المعنى في القرآن نحو ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

ويحتمل أن يكون مهموزاً من المكافأة، وهي المجازاةُ. ووجه الارتباط أنه تعالى لَمَّا ذكر حالَ مَن كذَب على الله وكذَّب بالصدق وجزائِه، وحالَ مقابِله - أعني: الذي جاءَ بالصدق وصدَّق به - وجزاءَه، وعرَّض بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٣٤] بأنَّ ما سلف جزاءُ الكافرين المسِيْئين؛ لِمَا هو معروفٌ من فائدةِ البناء على اسم الإشارة، ثم عقَّبه تعالى بقوله عزَّ وجلَّ: «ليكفِّر» إلخ على معنى: ليكفِّرَ عنهم ويَجْزِيَهم خصَّهم بما خصَّ، فنبَّه على المقابِل أيضاً من ضرورةِ الاختصاصِ والتعليل، وفيه أيضاً ما يدلُّ على حكم المقابِل على اعتبارِ المتعلَّق غيرَ ما ذُكر كما يظهر بأدنى التفات = أَردفَ بقوله تعالى: «أليس الله يكافي عبادَه»(٢)، وحيث إنَّ مطمحَ النظر من العباد السَّيِّدُ الحبيبُ ﷺ، كان المعنى: الله تعالى يجازي عبدَه ونبيَّه عليه الصلاة والسلام هذا الجزاء المذكور. وفيه أنَّه الذي يجزيه

(١) الكشاف ٤/ ٣٩٨-٣٩٩، والبحر ٧/ ٤٢٩.

(٢) وقع في (م): «بكاف عبده».

البتة، ويلائمه قولُه تعالى: (وَيُخَوِّفُونَكَ)، فإنَّه لَمَّا كان في مقابلةِ ذمِّ آلهتِهم كما سمعتَ في سبب النزول كان تحذيراً من جزاءِ الآلهة، فلا مغمزَ بعدم الملاءَمَةِ. نعم لا ننكِر أنَّ معنى الكفاية أبلغُ كما هو مقتضَى القراءة المشهورة، فاعلم ذاك، والله تعالى يتولَّى هُداك.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتى غَفَل عن كفايته تعالى عبدَه، وخوَّفَ بما لا ينفع ولا يضرُّ أصلاً ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ يهديه إلى خيرٍ مَّا.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ فيَجعل كونَه تعالى كافياً نُصْبَ عينِه عاملاً بمقتضاه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ يصرفُه عن مقصدِه أو يصيبُه بسوءٍ يُخِلُّ بسلوكه، إذ لا رادَّ لفعله ولا معارِض لإرادته عزَّ وجلَّ كما ينطِقُ به قولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالبٍ لا يُغالَب، منيعٍ لا يمانَع ولا ينازَع ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ ينتقم من أعدائِه لأوليائه. وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمار؛ لتحقيقِ مضمونِ الكلام وتربيةِ المهابة.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لظهورِ الدليل ووضوحِ السبيل، فقد تقرَّر في العقول وجوبُ انتهاء الممكنات إلى واجب الوجود(١). والاسم الجليلُ فاعلٌ لفعلٍ محذوف، أي: خلقهنَّ الله.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي: إذا كان خالقُ العالم العلويِّ والسفليِّ هو اللهَ عزَّ وجلَّ كما أقررتُم، فأخبِروني أنَّ آلهتَكم إن أرادني اللهُ سبحانه بضرٍّ هل هنَّ يَكْشِفْن عنِّي ذلك الضرَّ؟ فالفاء واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّر. وقال بعضهم: التقديرُ: إذا لم يكن خالقٌ سواه تعالى فهل يُمكِن غيرَه كشفُ ما أراد من الضُّرِّ؟ وجوِّز أن تكون عاطفة على مقدَّرٍ، أي: أتفكَّرتم بعد ما أقررتم فرأيتم ما تدعون.. إلخ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ أي: أو: إنْ أرادني بنفعٍ ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ فيمنعُها سبحانه عنِّي.

---

(١) في الأصل: «واجب الوجوب»، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٣٤٠، والكلام منه.

وقرأ الأعرج وشيبة وعمرو بن عبيد وعيسى بخلاف عنه وأبو عمرو وأبو بكر: «كاشفاتٌ» و«ممسكاتٌ» بالتنوين فيهما ونصبِ ما بعدهما[١].

وتعليقُ إرادة الضرِّ والرحمة بنفسه النفيسة عليه الصلاة والسلام للردِّ في نحورهم حيث كانوا خوَّفوه معرَّةَ الأوثان، ولِمَا فيه من الإيذان بإمحاضِ النصيحة. وقدَّم الضرُّ؛ لأنَّ دفعَه أهمُّ.

وقيل: «كاشفات» و«ممسكات» على ما يصفونها به من الأُنوثة؛ تنبيهاً على كمال ضعفها.

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ كافيَّ جلَّ شأنه في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشرِّ. روي عن مقاتل أنه ﷺ لَمَّا سألهم سكتوا؛ فنزل ذلك.

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ﴾ لا على غيرِه في كلِّ شيء ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ لعِلْمِهم أنَّ كلَّ ما سواه تحتَ ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالتِكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكَّنْتُم فيها، فإنَّ المكانةَ نُقلت من المكان المحسوس إلى الحالة التي عليها الشخصُ واستعيرتْ لها استعارة محسوسٍ لمعقول، وهذا كما تُستعار «حيث» و«هنا» للزمان بجامع الشمول والإحاطة. وجوِّز أن يكون المعنى: اعملوا على حسبِ تمكُّنِكم واستطاعتِكم.

وروي عن عاصم: «مكاناتكم» بالجمع[٢].

والأمرُ للتهديد، وقوله تعالى: ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ وعيدٌ لهم، وإطلاقُه لزيادة الوعيد لأنَّه لو قيل: على مكانتي، لتَراءَى أنَّه عليه الصلاة والسلام على حالةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر ولا تزداد، فلمَّا أُطلِق أَشْعَرَ بأنَّ له ﷺ كلَّ زمانٍ مكانةٌ أخرى، وأنَّه لا يزال يزداد قوَّةً بنصر الله تعالى وتأييدِه، ويؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فإنَّه دالٌّ على أنه ﷺ منصورٌ عليهم في الدنيا والآخرة بدليل قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ

---

(١) التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٣ عن أبي عمرو ويعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٣٠.
(٢) هي رواية أبي بكر عن عاصم، كما في التيسير ص١٠٧، والنشر ٢/ ٢٦٣.

﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ فإنَّ الأولَ إشارةٌ إلى العذاب الدنيويِّ وقد نالهم يوم بدر، والثاني إشارةٌ إلى العذاب الأخرويِّ، فإنَّ العذابَ المقيمَ عذابُ النار. فلو قيل: إنِّي عاملٌ على مكانتي، وكان إذ ذاك غير غالبٍ بل الأمرُ بالعكس؛ لم يلائم المقصود.

و«مَن» تحتمِلُ الاستفهام(١) والموصولية. وجملةُ «يخزيه» صفةُ «عذاب»، والمرادُ بـ «مقيم»: دائمٌ. وفي الكلام مجازٌ في الطرَف(٢) أو الإسناد، وأصلُه: مقيمٌ فيه صاحبُه.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، فإنَّه مناطُ مصالِحهم في المعاشِ والمعادِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حالٌ من مفعولِ «أنزلنا»، أو مِن فاعلِه، أي: أنزلنا الكتابَ ملتبِساً أو ملتبسينَ بالحقِّ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بأنْ عمِل بما فيه ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفعَ به نفسَه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بأن لم يعمَلْ بموجبه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لِمَا أنَّ وبالَ ضلاله مقصورٌ عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ لتُجبرهم على الهدى، وما وظيفتُك إلَّا البلاغ، وقد بلَّغتَ أيَّ بلاغٍ.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ أي: يقبضُها عن الأبدان بأن يقطع تعلُّقَها ـ تعلُّقَ التصرُّفِ فيها ـ عنها ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: في وقت موتها، ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ أي: ويتوفَّى الأنفسَ التي لم تَمُتْ ﴿فِى مَنَامِهَا﴾ متعلِّقٌ بـ «يتوفى»، أي: يتوفَّاها في وقت نومها على أنَّ مناماً اسمُ زمان. وجوِّز فيه كونُه مصدراً ميميًّا، بأن يقطعَ سبحانه تعلُّقَها بالأبدان تعلُّقَ التصرُّفِ فيها عنها أيضاً، فتَوَفِّي الأنفس حين الموت، وتَوَفِّيها في وقت النوم بمعنى قَبْضِها عن الأبدان وقطعِ تعلُّقِها بها تعلُّق التصرف، إلَّا أنَّ تَوَفِّيها حينَ الموت قطعٌ لتعلُّقِها بها تَعلُّقَ التصرُّف ظاهراً وباطناً، وتوفِّيها في وقتِ النوم

---

(١) في الأصل: «الاستفهامية»، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٣٤١.

(٢) في (م): «الظرف»، بالظاء المعجمة، والمثبت من الأصل، وهو موافق لما في حاشية الشهاب ٧/ ٣٤١، وهو الصواب.

قطعٌ لذلك ظاهراً فقط، وكأنَّ التوفِّي الذي يكون عندَ الموت ـ لكونه شيئاً واحداً في أوَّلِ زمانِ الموت وبعد مُضِيِّ أيام منه ـ قيل: «حين موتها»، والتوفِّي الذي يكونُ في وقت النوم لكونه يتفاوَتُ في أوَّل وقت النوم وبعد مُضيِّ زمانٍ منه قوةً وضعفاً قيل: «في منامها»، أي: في وقتِ نومها، كذا قيل، فتدبَّره، ولمسلكِ الذهن السليم اتساعٌ.

وإسنادُ الموت والنوم إلى الأنفس قيل: مجازٌ عقليّ؛ لأنَّهما حالَا أبدانِها، لا حالاها. وزعم الطبرسيُّ[1] أنَّ الكلامَ على حذف مضافٍ، أعني: الأبدان.

وجعل الزمخشريُّ «الأنفسَ» عبارةً عن الجملة دونَ ما يقابل الأبدان، وحَمل توفِّيها على إماتتها وسلبِ صحَّةِ أجزائها بالكلية، فلا تبقى حيَّةً حسَّاسةً درَّاكةً حتى كأنَّ ذاتَها قد سُلبت، وحيثُ لم يتحقَّق هذا المعنى في التوفِّي حينَ النوم؛ لأنَّه ليس إلَّا سلبَ كمال الصحة وما يترتَّبُ عليه من الحركات الاختيارية وغيرِها، قال في قوله تعالى: (وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا)، أي: يتوفَّاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِالَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] حيث لا تميِّزون ولا تتصرَّفون كما أنَّ الموتى كذلك[2].

وما يتخايل فيه من الجمع بين الحقيقة والمجاز يُدْفع بالتأمُّل. وتقديمُ الاسم الجليل وبناءُ «يتوفَّى» عليه؛ للحصر، أو للتقوِّي، أو لهما، واعتبارُ الحصر أوفقُ بالمقام من اعتبار التقوِّي وحده، أي: الله يتوفَّى الأنفسَ حقيقةً لا غيرُه عزَّ وجلَّ.

﴿فَيُمْسِكُ الَّتِى﴾ أي: الأنفس التي ﴿قَضَىٰ﴾ في الأزل ﴿عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾، ولا يردُّها إلى أبدانها، بل يُبقيها على ما كانت عليه، وينضمُّ إلى ذلك قطعُ تعلُّقِ التصرُّفِ باطناً، وعبَّر عن ذلك بالإمساك ليناسِبَ التوفِّي.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وعيسى وطلحة والأعمش وابن وثاب: «قُضي» على البناء للمفعول، ورفع «الموت»[3].

---

(١) في مجمع البيان ٢٤/ ١٥٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٠.

(٣) التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٣، عن حمزة والكسائي، والكلام من البحر ٧/ ٤٣١.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: الأنفس الأخرى ـ وهي النائمة ـ إلى أبدانها فتكون كما كانت حالَ اليقظة متعلّقة بها تعلُّقَ التصرُّف ظاهراً وباطناً، وعبّر بالإرسال رعايةً للتقابل، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الوقت المضروبُ للموت حقيقةً، وهو غايةٌ لجنس الإرسال الواقعِ بعدَ الإمساك، لا لفردٍ منه، فإنَّه آنيٌّ لا امتدادَ له فلا يُغَيَّا. واعتبر بعضُهم كونَ الغاية للجنس لئلا يَرِدَ لزومُ أنْ لا يقع نومٌ بعد اليقظة الأولى أصلاً، وهو حَسن.

وقيل: «يرسل» مضمَّنٌ معنى الحفظ، والمراد: يرسل الأخرى حافظاً إياها عن الموت الحقيقيِّ إلى أجلٍ مسمًّى.

وروي عن ابن عباس أنَّ في ابن آدم نَفْساً وروحاً بينهما مثلُ شعاع الشمس، فالنفسُ هي التي بها العقلُ والتمييزُ، والروحُ هي التي بها النَّفَسُ والتحرُّك، فيُتوفَّيان عند الموت، وتُتوفَّى النفس وحدها عند النوم(١). وهو قولٌ بالفرق بين النفس والروح، ونسبه بعضُهم إلى الأكثرين.

ويعبَّر عن النفس بالنفس الناطقة؛ وبالروح الأمرية؛ وبالروح الإلهية، وعن الروح بالروح الحيوانية؛ وكذا بالنفس الحيوانية، والثانيةُ كالعرش للأولى.

قال بعض الحكماء المتألهين: إن القلب الصنوبري فيه بخارٌ لطيف هو عرشٌ للروح الحيوانية وحافظٌ لها وآلةٌ يتوقَّفُ عليها آثارُها، والروحُ الحيوانية عرشٌ ومرآةٌ للروح الإلهية التي هي النفس الناطقةُ، وواسطةٌ بينها وبينَ البدن، بها يصلُ حكم تدبير النفس إليه.

وإلى عدم التغاير ذهب جماعةٌ، وهو قول ابن جبير؛ وأحد قولين لابن عباس، وما روي عنه أولاً في الآية يوافقُ ما ذكرناه من حيث إنَّ النفس عليه ليست بمعنى الجملة كما قال الزمخشريُّ وادَّعى أنَّ الصحيحَ ما ذكره دون هذا المروي بدليلِ

(١) عزاه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٢٩ لابن أبي حاتم، ونقله المصنف من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٤١.

موتها ومنامها، والضمير لـ «الأنفس» وما أريد منها غيرُ متَّصفٍ بالموت والنوم، وإنما الجملة هي التي تتَّصِف بهما[١].

وقال في «الكشف»: ولأنَّ الفرق بين النفسين رأيٌ يدفعه البرهان، وإيقاع الاستيفاء أيضاً لا بدَّ له من تأويلٍ أيضاً، فلا ينبغي أن يُعدل عن المشهور الملائم - يعني حمل التوفِّي على الإماتة - فإنَّ أصلَه أخذُ الشيء من المستوفَى منه وافياً كَمَلاً وسلبُه منه بالكلية، ثم نُقل عن ذلك إلى الإماتة لِمَا أنَّه موجودٌ فيها حتى صارت المتبادرةَ إلى الفهم منه. وفيه دغدغةٌ.

والذي يشهد له كثيرٌ من الآثار الصحيحة أنَّ المتوفَّى الأنفسُ التي تُقابل الأبدانَ دون الجملة؛ أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أَوَى أحدُكم إلى فراشِه فَلْيَنفُضْه بداخلةِ إزاره فإنه لا يدري ما خَلَفَه عليه، ثم ليقل: اللهمَّ باسمك ربِّي وضعتُ جنبي وباسمك أرفعه، إن أمسكتَ نفسي فارحَمْها، وإن أرسلتَها فاحفظْها بما تحفظُ به الصالحين مِن عبادِك»[٢].

وأخرج أحمد والبخاريُّ وأبو داود والنسائيُّ وابن أبي شيبة عن أبي قتادة أنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم ليلة الوادي: «إنَّ الله تعالى قَبَضَ أرواحَكم حين شاء وردَّها عليكم حينَ شاء»[٣].

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: كنت مع النبيِّ ﷺ في سفرٍ فقال: «من يَكْلَؤُنَا الليلة»؟ فقلت: أنا، فنام ونام الناسُ ونمتُ فلم نستيقظ إلا بِحَرِّ الشمس، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أيُّها الناس، إنَّ هذه الأرواحَ عارِّيَةٌ في أجسادِ العباد، فيقبِضُها اللهُ إذا شاء ويُرسِلُها إذا شاء»[٤].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٠.

(٢) صحيح البخاري (٦٣٢٠)، وصحيح مسلم (٢٧١٤).

(٣) مسند أحمد (٢٢٦١١)، وصحيح البخاري (٥٩٥)، وسنن أبي داود (٤٣٩)، وسنن النسائي ٢/ ١٠٦، ومصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٦٦.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٣٢٩، وأخرجه أيضاً البزار (٣٩٦ - كشف)، والدولابي في الكنى (١٣٦٧)، والإسماعيلي في معجم الشيوخ ١/ ٤٤٥، وفي إسناده أبو عمرو عتبة بن يقظان، وهو ضعيف كما في التقريب.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أنَّ عمر بن الخطاب قال: العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيءَ لم يخطُر له على بالٍ فتكون رؤياه كأخذٍ باليد، ويرى الرجلُ الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً. فقال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه: أفلا أخبرُك بذلك يا أمير المؤمنين؟ يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ فالله تعالى يتوفَّى الأنفسَ كلَّها فما رأت وهي عنده سبحانه في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت إذا أُرسِلَتْ إلى أجسادِها فهي الرؤيا الكاذبة؛ لأنَّها إذا أرسِلَتْ إلى أجسادها تلقَّتْها الشياطينُ في الهواءِ فكَذَبَتْها وأخْبَرَتْها بالأباطيل فكذبتْ فيها. فعَجِبَ عمرُ من قولِه رضي الله عنهما[1].

وظاهرُ هذا الأثر أنَّ النفسَ النائمةَ المقبوضةَ تكون في السماء حتى تُرسَل، ومثلُ ذلك مما يجب تأويلُه على القول بتجرُّدِ النفس ولا يجب على القول الآخر. نعم لعلَّك تختارُه، وكأنَّك تقول: إنَّ النفسَ شريفةٌ علويةٌ هبطَتْ من المحلِّ الأرفع، وأرْسِلت من حِمًى ممنَّعٍ، وشُغلت بتدبيرِ منزلها في نهارها وليلها، ولم تزل تنتظِرُ فرصةَ العودِ إلى ذيَّاك الحمى، والمحلِّ الرفيع الأسمى، وعند النوم تنتهز تلك الفرصة، وتهونُ عليها في الجملة هاتيك الغصَّة، فيحصلُ لها نوعُ توجُّهٍ إلى عالم النور ومعلَم السرور الخالي من الشرور، بحيثُ تستعدُّ استعداداً مّا لقبولِ بعضِ آثاره، والاستضاءةِ بشيءٍ من أنواره، وجعلُها كذلك هو قبضُها، وبه لعمري بسطُها وفيضها، فمتى رأت وهي في تلك الحال مستفيضةً مِن ذلك العالم الموصوفِ بالكمال رؤيا، كانت صادقةً، ومتى رأتْ وهي في راجعة القهقرى إلى ما ابتُلِيَتْ به من تدبيرِ منزلٍ تَحُوم فيه شياطينُ الأوهام، وتزدَحِمُ فيه أيَّ ازدحامٍ، كانت رؤياها كاذبةً، ثم إنَّها في كلا الحالين متفاوِتةُ الأفراد فيما يكون من الاستعداد، والوقوف على حقيقة الحال لا يتمُّ إلَّا بالكشف دون القيل والقال.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ الإشارةُ إلى ما ذُكر من التوفِّي والإمساكِ والإرسال، والإفرادُ لتأويله بالمذكور أو نحوه، وصيغةُ البعيد باعتبارِ

(١) الدر المنثور ٥/ ٣٢٩.

مبدئِه أو تقضِّي ذكرِه أو بُعْدِ منزلته، والتنوينُ في «آياتٍ» للتكثير والتعظيم، أي: إنَّ فيما ذُكر لآياتٍ كثيرةً عظيمةً دالَّةً على كمالِ قدرته تعالى وحكمتِه وشمولِ رحمتِه سبحانه لقومٍ يتفكَّرون في كيفيةِ تعلُّق الأنفس بالأبدان، وتوفِّيها عنها تارةً بالكلِّية عند الموت، وإمساكِها باقيةً لا تفنى بفنائها إلى أن يعيدَ الله تعالى الخلقَ، وما يعتريها من السعادة والشقاوةِ، وأخرى عن ظواهرِها فقط كما عند النوم، وإرسالها حيناً بعد حينٍ إلى انقضاءِ آجالها.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ أي: بل اتَّخذَ قريشٌ، فـ «أم» منقطعةٌ والاستفهامُ المقدَّرُ لإنكارِ اتخاذهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ تشفَعُ لهم عندَ الله تعالى في رفع العذاب. وقيل: في أمورهم الدنيوية والأخروية. وجوَّز كونَها متصلةً بتقدير معادلٍ، كما ذكره ابنُ الشيخ في «حواشي البيضاوي»، وهو تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه.

ومعنى «من دون الله»: من دونِ رضاه، أو إذنِه؛ لأنَّه سبحانه لا يشفَعُ عندَه إلَّا مَن أذِن له ممن ارتضاه[1]، ومثلُ هذه الجماداتِ الخسيسة ليست مرضيةً ولا مأذونةً. ولو لم يلاحَظ هذا اقتضى أنَّ الله تعالى شفيعٌ، ولا يطلَقُ ذلك عليه سبحانه. أو التقدير: أم اتخذوا آلهةً سواه تعالى لتشفع لهم؟! وهو يؤولُ لِمَا ذُكِر.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: أيشفعون حالَ تقديرِ عدم ملكهم شيئاً من الأشياء وعدم عقلهم إياه؟ وحاصله: أيشفعون وهم جمادات لا تقدر ولا تعلم؟ فالهمزة داخلة على محذوف، والواو للحال، والجملة حالٌ من فاعلِ الفعل المحذوف.

وذهب بعضهم إلى أنَّها للعطف على شرطيةٍ قد حُذفَتْ لدلالةِ «لو كانوا لا يملكون» إلخ عليها، أي: أيشفعون لو كانوا يملكون شيئاً ويعقلون ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟ والمعنى على الحالية أيضاً، كأنه قيل: أيشفعون على كلِّ حال.

وقال بعضُ المحقِّقين من النحاة: إنها اعتراضيةٌ، ويعني بالجملة الاعتراضية

---

(١) في (م): أرضاه.

ما يتوسَّطُ بين أجزاء الكلام متعلِّقاً به معنًى، مستأنفاً لفظاً، على طريق الالتفات، كقوله:

فأنتِ طلاقٌ والطلاقُ أَلِيَّةٌ(١)

وقوله:

ترى كلّ مَنْ فيها وحاشاك فانيا(٢)

وقد تجيء بعد تمام الكلام كقوله ﷺ: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ»(٣). وفي احتياج أداةِ الشرط في مثل هذا التركيب إلى الجواب خلافٌ، وعلى القَول بالاحتياج هو محذوفٌ لدلالةِ ما قبلُ عليه، وتحقيقُ الأقوال في كتب العربية.

وجوَّز أن يكون مدخولُ الهمزة المحذوفُ هنا الاتخاذَ، أي: قل لهم: أتتَّخِذونهم شفعاءَ ولو كانوا لا يملكون شيئاً من الأشياء ـ فضلاً عن أن يملكوا الشفاعةَ عند الله تعالى ـ ولا يعقلون؟!

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ لعلَّه كما قال الإمام ردٌّ لِمَا يجيبون به، وهو أنَّ الشفعاءَ ليست الأصنامَ أنفسَها، بل أشخاصٌ مقرَّبون هي تماثيلُهم، والمعنى أنَّه تعالى مالكُ الشفاعة كلِّها، لا يستطيع أحدٌ شفاعةً مّا إلا أن يكونَ المشفوعُ مرتضًى والشفيعُ مأذوناً له، وكلاهما مفقودان هاهنا.

وقد يُستدلُّ بهذه الآية على وجود الشفاعة في الجملة يوم القيامة؛ لأنَّ المِلكَ

---

(١) وعجزه:

ثلاثاً ومَن يَخْرِق أعقُّ وأظلمُ

وهو في الحماسة البصرية ٢/ ٣١٤، والمغني ص٧٦، والخزانة ٣/ ٤٥٩، وروايته في المغني: . . . والطلاق عزيمة، وصحح هذه الرواية البغداديُّ في الخزانة ٣/ ٤٦٠. وقوله: أَلِيَّةٌ، أي: يمين. ويَخْرِق: مضارع خرق: إذا عمل شيئاً لم يرفُق فيه. والشاهد فيه قوله: والطلاق ألية، وقع اعتراضاً بين قوله: فأنتِ طلاقٌ، وقوله: ثلاثاً. الخزانة ٣/ ٤٥٩.

(٢) عجز بيت للمتنبي وهو في ديوانه ٤/ ٤٢٧، وصدره:

وتَحْتَقِرُ الدنيا احتقار مجرِّبِ

(٣) سلف ١٢/ ٣٧٨.

أو الاختصاصَ الذي هو مفادُ اللام هنا يقتضِي الوجودَ، فالاستدلالُ بها على نفْي الشفاعة مطلقاً في غاية الضعف.

وقولُه تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ تعليليٌّ لكونِ الشفاعة جميعاً له عزَّ وجلَّ، كأنه قيل: له ذلك لأنَّه جلَّ وعلا مالكُ الملك كلِّه فلا يتصرَّف أحدٌ بشيءٍ منه بدون إذنه ورضاه، فالسماوات والأرضُ كنايةٌ عن كلِّ ما سواه سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ عطفٌ على قوله تعالى: «له ملك» إلخ، وكأنه تنصيصٌ على مالكية الآخرة التي فيها معظمُ نفع الشفاعة، وإيماءٌ إلى انقطاع المِلك الصوريِّ عما سواه عزَّ وجلَّ. وجوِّز أن يكونَ عطفاً على قوله تعالى: «لله الشفاعة». وجعلَه في «البحر»[1] تهديداً لهم، كأنَّه قيل: ثم إليه تُرجعون فتَعْلمون أنهم لا يشفعون لكم، ويخيب سعيكم في عبادتكم[2] إياهم.

وتقديمُ «إليه» للفاصلة وللدلالة على الحصر، إذ المعنى: إليه تعالى لا إلى أحد غيرِه سبحانه ـ لا استقلالاً ولا اشتراكاً ـ ترجعون.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: مفرَداً بالذكر ولم تُذكرْ معه آلهتُهم. وقيل: أي: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: انقبضت ونفرت كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ فُرادى أو مع ذكر الله عزَّ وجلَّ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ لفرْط افتتانهم بهم ونسيانهم حقَّ الله تعالى. وقد بولِغ في بيانِ حالهم القبيحةِ حيث بيِّن الغايةَ فيهما، فإنَّ الاستبشارَ أن يمتلئَ القلبُ سروراً حتى تنبسطَ له بَشَرَةُ الوجهِ، والاشمئزازَ أن يمتلئَ غيظاً وغمًّا ينقبضُ عنه أديمُ الوجه كما يشاهَدُ في وجهِ العابس المحزون.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٣١.

(٢) في (م): عبادتهم.

و«إذا» الأولى شرطية محلُّها النصبُ على الظرفية، وعاملُها الجواب عند الأكثرين وهو «اشمأزت»، أو الفعلُ الذي يليها وهو «ذُكِرَ» عند أبي حيان[1] وجماعة، وليست مضافةً إلى الجملة التي تليها عندهم، وكذا «إذا» الثانية فالعاملُ فيها إما «ذُكر» بعدها، وإمَّا «يستبشرون». و«إذا» الثالثةُ فجائيةٌ رابطةٌ لجملةِ الجزاء بجملة الشرط كالفاء، فعلى القول بحرفيَّتها لا يعمل فيها شيءٌ، وعلى القول باسميَّتها وأنها ظرفُ زمانٍ أو مكانٍ عاملُها هنا خبرُ المبتدأ بعدَها.

وقال الزمخشريُّ[2]: عاملُها فعلٌ مقدَّر مشتقٌّ من لفظِ المفاجأة، تقديرُه: فاجؤوا وقتَ الاستبشار، فهي مفعولٌ به، وجوَّز أن تكون فاعلاً على معنى: فاجأهم وقت الاستبشار، وهذا الفعل المقدَّرُ هو جوابُ «إذا» الثانيةِ، فتتعلَّقُ به بناءً على قول الأكثرين من أنَّ العاملَ في «إذا» جوابُها، ولا يلزَمُ تعلُّقُ ظرفين بعاملٍ واحدٍ؛ لأنَّ الثانيَ منهما ليس منصوباً على الظرفية.

نعم قيل على الزمخشري: إنَّه لا سلفَ له فيما ذهب إليه، وأنت تعلم أنَّ الرجل في العربية لا يقلِّد غيره.

ومن العجيب قولُ الحوفي: إنَّ «إذا» الثالثة ظرفيةٌ جيء بها تكريراً لـ «إذا» قبلها وتوكيداً، وقد حذف شرطُها، والتقديرُ: إذا كان ذلك هم يستبشرون[3]. ولا ينبغي أن يُلتفتَ إليه أصلاً.

والآية في شأن المشركين مطلقاً؛ وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنَّه فسَّر: «الذين لا يؤمنون بالآخرة» بأبي جهل بن هشام والوليد بن عقبةَ وصفوانَ وأُبيِّ بن خلف، وفسَّر: «الذين من دونه» باللات والعزى[4]. وكأن ذلك تنصيص على بعض أفراد العامِّ.

وأخرج ابن المنذر وغيرُه عن مجاهد أنَّ الآية حكت ما كان من المشركين يوم

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٣٢.
(٢) في الكشاف ٣/ ٤٠١.
(٣) البحر ٧/ ٤٣١.
(٤) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٣٠.

قرأ النبيُّ ﷺ: «والنجم» عند باب الكعبة[1]، وهذا أيضاً لا ينافي العمومَ كما لا يخفى.

وقد رأينا كثيراً من الناس على نحوِ هذه الصفة التي وصفَ الله تعالى بها المشركين يَهُشُّون لذكر أمواتٍ يستغيثون بهم ويطلبون منهم، ويطرَبون من سَماع حكاياتٍ كاذبةٍ عنهم توافِقُ هواهم واعتقادَهم فيهم، ويعظِّمون من يحكي لهم ذلك، وينقبِضون مِن ذكرِ الله تعالى وحدَه ونسبةِ الاستقلال بالتصرُّف إليه عزَّ وجلَّ وسردِ ما يدلُّ على مزيدِ عظمته وجلاله، وينفرون ممن يفعل ذلك كلَّ النَّفْرة، وينسُبونه إلى ما يكره، وقد قلت يوماً لرجلٍ يستغيث في شدَّةٍ ببعض الأموات وينادي: يا فلانُ، أغِثْني. فقلت له: قل: يا الله، فقد قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فغضِب، وبلغني أنَّه قال: فلانٌ منكرٌ على الأولياء. وسمعتُ عن بعضهم أنه قال: الوليُّ أسرعُ إجابةً من الله عزَّ وجلَّ. وهذا من الكفر بمكانٍ، نسأل الله تعالى أن يعصِمَنا من الزيغ والضلال[2].

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أُمِر بالدعاء والالتجاء إلى الله تعالى لِمَا قاساه في أمرِ دعوتهم ونالَه من شدَّةِ شكيمتهم في المكابرة والعنادِ، فإنَّه تعالى القادرُ على الأشياء بجملتها، والعالمُ بالأحوال برُمَّتها، والمقصودُ من الأمر بذلك بيانُ حالهم ووعيدِهم، وتسليةُ حبيبه الأكرم ﷺ، وأنَّ جدَّه وسعْيَه معلومٌ مشكورٌ عنده عزَّ وجلَّ، وتعليمُ العباد الالتجاءَ إلى الله تعالى والدعاءَ بأسمائه العظمى.

ولله تعالى دَرُّ الربيع بن خثيم فإنَّه لَمَّا سئل عن قتل الحسين رضي الله عنه تأوَّه وتلا هذه الآية. فإذا ذُكر لك شيءٌ مما جرى بين الصحابة قل: «اللهم فاطر السموات» إلخ، فإنه من الآداب التي ينبغي أن تحفظ.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/٢١٨-٢١٩، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/٣٢٩-٣٣٠.
(٢) في (م): والطغيان.

وتقديمُ المسنَد إليه في «أنت تحكم» للحصر، أي: أنت تحكم وحدَك بين العباد فيما استمرَّ اختلافُهم فيه حكماً يسلِّمه كلُّ مكابرٍ معاندٍ، ويخضَعُ له كلُّ عاتٍ ماردٍ، وهو العذابُ الدنيويُّ أو الأخرويُّ، والمقصود من الحكم بين العباد: الحكمُ بينه عليه الصلاة والسلام وبينَ هؤلاء الكَفَرَة.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إلخ قيل: مستأنَفٌ مسوقٌ لبيانِ آثارِ الحكم الذي استدعاه النبيُّ ﷺ وغايةِ شدَّته وفظاعتِه، أي: لو أنَّ لهم جميعَ ما في الدنيا من الأموال والذخائر ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: لجعلوا كلَّ ذلك فديةً لأنفسِهم من العذاب السيِّئ الشديد.

وقيل: الجملةُ معطوفةٌ على مقدَّرٍ، والتقدير: فأنا أحكم بينهم وأعذِّبهم، ولو علموا ذلك ما فعلوا ما فعلوا، والأولُ أظهر. وليس المراد إثباتَ الشرطية، بل التمثيل لحالِهم بحالِ مَن يحاولُ التخلُّصَ والفداءَ مما هو فيه بما ذُكر فلا يُتقبَّلُ منه، وحاصلُه أنَّ العذابَ لازمٌ لهم لا يخلَّصُون منه ولو فُرض هذا المحالُ، ففيه من الوعيدِ والإقناطِ ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)﴾ - أي: ظهرَ لهم من فنُون العقوبات ما لم يكن في حسابهم - زيادةُ مبالَغةٍ في الوعيد، ونظيرُ ذلك في الوعد قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] والجملةُ قيل: الظاهرُ أنها حالٌ من فاعلِ «افتدوا».

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ حينَ تُعرض عليهم صحائفُهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: الذي كسبوه وعمِلوه، على أنَّ «ما» موصولةٌ، أو: كَسْبُهم وعملُهم على أنَّها مصدريةٌ، وإضافةُ «سيئات» على معنى «مِنْ» أو اللام.

﴿وَحَاقَ﴾ أي: أحاط ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾ أي: جزاءُ ذلك، على أنَّ الكلام على تقديرِ المضاف، أو على أنَّ هناك مجازاً بذكر السبب وإرادةِ مسبَّبه، و«ما» محتمِلَةٌ للموصوليةِ والمصدريةِ أيضاً.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبارٌ عن الجنسِ بما يغلب فيه، وقيل: المرادُ

بـ «الإنسان» [أبو] حذيفةُ بن المغيرة(١)، وقيل: الكَفَرة.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي: أعطيناه إياها تفضُّلاً، فإنَّ التخويلَ على ما قيل: مختصٌّ به، لا يطلَقُ على ما أعطِيَ جزاءً.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ أي: على علمٍ منِّي بوجوهِ كسبِه، أو: بأنِّي سأُعطاه لِمَا لي من الاستحقاق، أو: على علمٍ من الله تعالى بي وباستيجابي.

و«إنما» للحصر، أي: ما أوتيته لشيء من الأشياء إلا لأجلِ علمٍ.

والهاء للنعمة، والتذكيرُ لتأويلها بشيءٍ من النِّعَم، والقرينة على ذلك التنكيرُ. وقيل: لأنَّها بمعنى الإنعام. وقيل: لأنَّ المرادَ بها المالُ، وقيل: لأنها تشتمِلُ على مذكَّرٍ ومؤنَّثٍ فغلِّبَ المذكَّرُ. وجوِّز أن يكون لـ «ما» في «إنما» على أنَّها موصولة، أي: إنَّ الذي أوتِيْتُه كائنٌ على علمٍ، ويُبعِد موصوليتَها كتابتُها متصلةً في المصاحف.

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ ردٌّ لقوله ذلك، والضميرُ للنعمة باعتبارِ لفظِها كما أنَّ الأولَ لها باعتبارِ معناها، واعتبارُ اللفظ بعدَ اعتبارِ المعنى جائزٌ وإن كانَ الأكثرُ العكسَ. وجوِّز أن يكونَ التأنيثُ باعتبارِ الخبر. وقيل: هو ضميرُ الإتيانة. وقرئ بالتذكير(٢)، فهو للنعمة أيضاً كالذي مرَّ، أو للإتيان، أي: ليس الأمرُ كما يقول بل ما أوتِيَه امتحانٌ له أيشكُر أم يكفر؟ وأُخبِرَ عنه بالفتنة ـ مع أنَّه آلةٌ لها ـ لقصد المبالغة، ونحو هذا يقال على تقدير عود الضمير للإتيانة أو الإتيان.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أنَّ الأمرَ كذلك، وهذا ظاهرٌ في أنَّ المرادَ بـ «الإنسان» الجنسُ، إذ لو أريد العهد لقيل: لكنَّه لا يعلم، أو: لكنهم لا يعلمون. وإرادةُ العهد هناك وإرجاعُ الضمير للمطلق هنا على أنَّه استخدامٌ نظير: عندي درهمٌ ونِصْفُه = تكلُّفٌ.

والفاءُ للعطف، وما بعدها عطفٌ على قوله تعالى: (وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ) إلخ،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٣٠، وزاد المسير ٧/ ١٨٨، وما بين حاصرتين منهما.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٢.

وهي لترتيبه عليه، والغرضُ منه التهكُّم والتحميق، وفيه ذمُّهم بالمناقضة والتعكيس حيث إنهم يشمَئِزُّون عن ذكر الله تعالى وحدَه ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسَّهم ضرٌّ دعَوا مَن اشمأزُّوا مِنْ ذكره دونَ مَن استبشروا بذكره، وهذا كما تقول: فلانٌ يسيء إلى فلانٍ، فإذا احتاج سأله فأحسن إليه، ففي الفاء استعارةٌ تبعيةٌ تهكُّمِية.

وقيل: يجوز أن تكونَ للسببية داخلةً على السبب؛ لأنَّ ذِكرَ المسبَّب يقتضي ذكرَ سببِه؛ لأنَّ ظهورَ «ما لم يكونوا يحتسبون» إلخ مسبَّب عمَّا بعد الفاء إلا أنَّه يتكرَّرُ مع قوله تعالى الآتي: «والذين ظلموا منهم» إلى آخره إن لم يتغايرا بكون أحدهما في الدنيا والآخَرِ في الأُخرَى. وإلى ما قدَّمنا ذهب الزمخشريُّ[1].

والجملُ الواقعة في البين عليه أعني قوله سبحانه: «قل اللَّهمَّ» إلى «يستهزئون» اعتراضٌ مؤكِّدٌ للإنكار عليهم. وزعم أبو حيان أنَّ في ذلك تكلُّفاً واعتراضاً بأكثر من جملتين، وأبو علي الفارسيُّ لا يجيزُ الاعتراضَ بجملتين، فكيف يجيزه بالأكثر[2]. وأنا أقول: لا بأس بذلك لاسيَّما وقد تضمَّنَ معنًى دقيقاً لطيفاً، والفارسيُّ محجوجٌ بما وردَ في كلام العرب من ذلك.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ضميرُ «قالها» لقوله تعالى: (إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ) لأنَّها كلمةٌ أو جملةٌ. وقرئ بالتذكير[3]، أي: القولَ، أو: الكلامَ المذكور، و«الذين من قبلهم» قارونُ وقومُه، فإنَّه قالَ ورضُوا به، فالإسنادُ من بابِ إسنادِ ما للبعض إلى الكلِّ، وهو مجازٌ عقليٌّ.

وجوِّز أن يكون التجوُّز في الطرفِ، فـ «قالها الذين من قبلهم» بمعنى: شاعت فيهم، والشائع الأول، والمراد: قالوا مثلَ هذه المقالة، أو: قالوها بعينها، ولاتحادِ صورةِ اللفظ تُعَدُّ شيئاً واحداً في العرف.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ من متاع الدنيا، ويجمعونه منه.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) البحر ٧/ ٤٣٣.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٠٢.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: أصابهم جزاءُ سيئاتِ كسبهم، أو: الذي كَسَبُوه؛ على أنَّ الكلامَ بتقدير مضافٍ، أو أنه تجوُّزٌ بالسيئات عما تسبَّب عنها، وقد يقال لجزاء السيئة: سيئةٌ، مشاكلةً، نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فيكون ما هنا من المشاكلة التقديرية، وإذا كان المعنى على جعلِ جزاءِ جميعِ ما كسبوا سيِّئاً، دلَّ الكلامُ على أنَّ جميعَ ما كسبوا سيِّئٌ، إذ لو كان فيه حَسَنٌ جوزِيَ عليه جزاءً حَسَناً، وفيه مِن ذمِّهم ما فيه.

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ المشركين، و«مِن» للبيان، فإنَّهم كلَّهم كانوا ظالمين إذ الشركُ ظلمٌ عظيمٌ، أو للتبعيض، فالمراد بـ «الذين ظلموا»: مَن أصرَّ على الظلم حتى تصيبَهم قارعةٌ، وهم بعضٌ منهم.

﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب الذين من قبلهم، والمراد به العذابُ الدنيويُّ، وقد قُحِطوا سبعَ سنين، وقتل ببدْرٍ صناديدُهم. وقيل: العذابُ الأخرويُّ. وقيل: الأعمُّ. ورُجِّح الأولُ بأنَّه الأوفقُ للسياق، وأشير بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ ـ أي: بفائتين على ما قيل ـ إلى العذاب الأخرويِّ.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يبسطَه له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء أن يقدِرَ له، مِن غيرِ أن يكونَ لأحدٍ ما مدخلٌ في ذلك، حيثُ حَبَس عنهم الرزقَ سبعاً ثم بسطه لهم سبعاً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذُكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالَّةً على أنَّ الحوادثَ كافةً مِن الله تعالى شأنه، والأسباب في الحقيقة ملغاةٌ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إذ هم المستدِلُّون بها على مدلولاتها.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أفرطوا في المعاصي جانين عليها. وأصلُ الإسراف: الإفراطُ في صَرْف المال، ثم استُعْمِل فيما ذُكر مجازاً بمرتبتين على ما قيل. وقال الراغب: هو تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فعلٍ يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر[1]. وهذا ظاهرٌ في أنه حقيقةٌ فيما ذكرنا، وهو حَسَنٌ.

---

(١) المفردات (سرف).

وضُمِّن معنى الجناية ليصحَّ تعدِّيه بـ «على»، والمضمَّن لا يلزم فيه أن يكون معناه حقيقيًّا. وقيل: هو مضمَّنٌ معنى الحمل.

وحَمل غيرُ واحد الإضافةَ في «عبادي» على العهد أو على التشريف، وذهبوا إلى أنَّ المرادَ بالعبادِ المؤمنون، وقد غلب استعمالُه فيهم مضافاً إليه عزَّ وجلَّ في القرآن العظيم، فكأنه قيل: أيُّها المؤمنون المذنبون ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: لا تيأسوا من مغفرته سبحانه وتفضُّله عزَّ وجلَّ، على أنَّ المغفرةَ مُدْرَجةٌ في الرحمة، أو أنَّ الرحمةَ مستلزِمة لها؛ لأنه لا يُتصوَّر الرحمةُ لمن لم يُغْفر له.

وتعليلُ النهي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يقتضي دخولَها في المعلَّل، والتذييلُ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ كالصريح في ذلك.

وجوِّز أن يكونَ في الكلام صنعةُ الاحتباك، كأنه قيل: لا تقنطوا من رحمة الله ومغفرته، إنَّ الله يغفر الذنوبَ جميعاً ويرحم. وفيه بُعْدٌ.

وقالوا: المرادُ بمغفرة الذنوب التجافي عنها وعدمُ المؤاخذة بها في الظاهر والباطن وهو المرادُ بسترها.

وقيل: المرادُ بها مَحْوُها من الصحائف بالكلية مع التجافي عنها، وأنَّ الظاهرَ إطلاقُ الحكم، وتقييدُه بالتوبة خلافُ الظاهر، كيف لا وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] ظاهرٌ في الإطلاق فيما عدا الشرك، ويشهَدُ للإطلاق أيضاً أمورٌ:

الأول: نداؤهم بعنوان العبودية؛ فإنَّها تقتضي المذلَّة وهي أنسبُ بحال العاصي إذا لم يتُبْ، واقتضاؤها للترحُّم ظاهر.

الثاني: الاختصاص الذي تُشْعِر به الإضافةُ إلى ضميره تعالى، فإنَّ السَّيِّدَ مِن شأنه أن يرحَمَ عبدَه ويشفق عليه.

الثالث: تخصيصُ ضررِ الإسراف ـ المشعِرَة به «على» ـ بأنفسهم؛ فكأنه قيل: ضررُ الذنوب عائدٌ عليهم لا عليَّ، فيكفي ذلك من غيرِ ضررٍ آخرَ، كما في المثل: أحسِنْ إلى مَن أساء كفى المسيءَ إساءتُه، فالعبد إذا أساء ووقف بين يدي سيِّدِه

ذليلاً خائفاً عالماً بسخَطِ سيِّده عليه ناظراً لإكرامِ غيره ممن أطاع لَحِقَه ضررٌ؛ إذ استحقاقُ العقاب عقابٌ عندَ ذوي الألباب.

الرابع: النهيُ عن القنوط مطلقاً عن الرحمة، فضلاً عن المغفرة وإطلاقِها.

الخامس: إضافةُ الرحمةِ إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء على طريق الالتفات، فإنَّ ذلك ظاهرٌ في سعَتها، وهو ظاهرٌ في شمولها التائبَ وغيرَه.

السادس: التعليلُ بقوله تعالى: «إن الله» إلخ، فإنَّ التعليلَ يحسُن مع الاستبعاد، وترك القنوط من الرحمة مع عدم التوبة أكثرُ استبعاداً مِن تركه مع التوبة.

السابع: وضعُ الاسم الجليل فيه موضعَ الضمير لإشعارِه بأنَّ المغفرةَ من مقتضياتِ ذاته لا لشيءٍ آخرَ من توبةٍ أو غيرها.

الثامن: تعريفُ الذنوب، فإنَّه في مقام التمدُّح ظاهرٌ في الاستغراق، فتشمل الذنبَ الذي تعقبه التوبةُ والذي لا تعقبُه.

التاسع: التأكيدُ بالجميع.

العاشر: التعليل بـ «إنه هو» إلخ.

الحادي عشر: التعبيرُ بالغَفور، فإنه صيغةُ مبالغةٍ، وهي إن كانت باعتبارِ الكمِّ شملت المغفرةُ جميعَ الذنوب، أو باعتبارِ الكيف شملت الكبائرَ بدون توبة.

الثاني عشر: حذفُ معمولِ «الغفور»، فإنَّ حذفَ المعمولِ يفيد العمومَ.

الثالث عشر: إفادةُ الجملة الحصرَ، فإنَّ مِن المعلوم أنَّ الغفرانَ قد يوصَفُ به غيرُه تعالى، فالمحصورُ فيه سبحانه إنما هو الكامل العظيمُ، وهو ما يكون بلا توبة.

الرابع عشر: المبالغةُ في ذلك الحصر.

الخامس عشر: الوعدُ بالرحمة بعد المغفرة، فإنَّه مشعِرٌ بأنَّ العبدَ غيرُ مستحِقٍّ للمغفرة لولا رحمتُه، وهو ظاهرٌ فيما إذا لم يتب.

السادس عشر: التعبيرُ بصيغة المبالغةِ فيها.

السابع عشر: إطلاقُها.

ومنَع المعتزلةُ مغفرةَ الكبائر والعفوَ عنها من غير توبةٍ، وقالوا: إنها وردت في غير موضعٍ من القرآن الكريم مقيَّدةً بالتوبة، فإطلاقُها هنا يُحمل على التقييد؛ لاتحاد الواقعة، وعدم احتمال النسخ، وكونِ القرآن في حكم كلام واحد. وأيَّدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فإنَّه عطفٌ على «لا تقنطوا» والتعليلُ معترِضٌ، وبعدَ تسليم حديثِ حملِ الإطلاقِ على التقييد يكونُ عطفاً لتتميمِ الإيضاح، كأنه قيل: لا تقنطوا من رحمة الله تعالى فتظنوا أنه لا يقبل توبتَكم، وأنيبوا إليه تعالى وأخلِصوا له عزَّ وجلَّ.

وأجاب بعضُ الجماعة بمنع وجوبِ حملِ الإطلاق على التقييد في كلامٍ واحدٍ نحو: أكرمُ الفضلاءِ أكرمُ الكاملين، فضلاً عن كلامٍ لا يسلَمُ كونُه في حكمِ كلامٍ واحدٍ، وحينئذٍ لا يكون المعطوفُ شرطاً للمعطوفِ عليه، إذ ليس من تتمَّته.

وقيل: إن الأمرَ بالتوبة والإخلاصِ لا يُخِلُّ بالإطلاق، إذ ليس المدَّعى أن الآيةَ تدلُّ على حصولِ المغفرة لكلِّ أحدٍ من غير توبة وسبْقِ تعذيب لتُغْني عن الأمرِ بهما، وتُنافي الوعيدَ بالعذاب.

وقال بعض أجلَّةِ المدقِّقين: إنَّ قولَه تعالى: (يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ) خطابٌ للكافرين والعاصين وإن كان المقصودُ الأولى الكفَّارَ؛ لمكان القُرب وسبب النزول؛ فقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنَّه قال: إنَّ أهلَ مكة قالوا: يزعم محمد ـ ﷺ ـ أنه مَن عَبد الأوثانَ، ودعا مع الله تعالى إلهاً آخرَ، وقتلَ النفس التي حرَّم الله، لم يُغْفَرْ له، فكيف نُهاجِر ونُسلِم، وقد عبدْنا الآلهة، وقتلْنا النفسَ، ونحن أهلُ شرك؟! فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إلخ[1].

وأخرج ابن جرير عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآياتُ في عياش بن أبي ربيعة والوليدِ بن الوليد ونفرٍ من المسلمين، كانوا أسلموا، ثم فُتنوا وعُذِّبوا

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٢٤، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٣١.

فافتُتِنوا، فكنا نقول: لا يقبل الله تعالى من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً، أقوامٌ أَسلموا ثم تركوا دينَهم بعذاب عُذِّبوه، فنزلت هؤلاء الآيات، وكان عمرُ ﷺ كاتباً فكتبها بيده ثم كتب بها إلى عياشٍ وإلى الوليدِ وإلى أولئك النفر، فأسلموا وهاجروا[١].

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآيات الثلاث: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ إلى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بالمدينة في وحشيٍّ وأصحابه[٢].

وتخلَّل قولُه تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) بين المعطوفين تعليلاً للجزء الأول قبل الوصول إلى الثاني؛ للدلالة على سعة رحمته تعالى وأنَّ مثلَه حقيقٌ بأن يُرجى وإن عظُم الذنبُ، لاسيما وقد عقّب بقوله تعالى: (إِنَّهُۥ هُوَ) الآية الدالُّ على انحصار الغُفران والرحمة على الوجه الأبلغ، فالوجهُ أن يجريَ على عمومه ليناسِبَ عمومَ الصدر، ولا يقيَّدُ بالتوبة، لئلّا ينافيَ غرضَ التخلُّل مع أنه جمعٌ محلًّى باللام، وقد أكِّد بما صار نصًّا في الاستغراق. ولا يُغْني المعتزليَّ أنَّ القرآنَ العظيم كالكلامِ الواحدِ، وأنه سليمٌ من التناقُض، بل يضرُّه، وكذلك ما ذُكر من أسباب النزول. انتهى.

وقد تضمَّن الإشارةَ إلى بعضِ مؤكِّدات الإطلاقِ التي حكيناها آنفاً، والذي يترجَّحُ في نظري ما اختاره من عموم الخطاب في «يا عبادي» للعاصين والكافرين، وأمرُ الإضافة سهلٌ، وأنَّ قولَه تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) مقيَّد بـ «لِمَن يشاء» بقرينة التصريح به في قراءة عبد الله هنا[٣]، وكونِ الأمور كلِّها معلَّقةً بالمشيئة، ولا نسلِّم أنَّ متعلَّقَ المشيئةِ التائبُ وحدَه، وكونُها تابعةً للحكمة على تقدير صحَّته لا ينفع، إذ دونَ إثباتِ كون المغفرة لغير التائب منافيةً للحكمة خَرْطُ القَتاد.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٢٧-٢٢٨.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٢٥.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢.

نعم لا تتعلَّقُ بالمشرك ما لم يؤمِنْ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، فمغفرةُ الشرك مشروطةٌ بالإيمان، فالمشركُ داخلٌ في «من يشاء» لكن بالشرط المعروف، واعتبارُ الشرط فيه لا يضرُّ في عدم اعتبار شرطِ التوبة في العاصي بما دونه.

ويشهد لذلك ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ثوبانَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما أُحِبُّ أنَّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ إلى آخر الآية»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، ومَن أَشرَكَ؟ فسكت النبيُّ ﷺ ساعةً ثم قال: «ألا ومَنْ أَشرَكَ» ثلاثَ مراتٍ[1].

لا يقال: المغفرةُ لِمَنْ أشركَ بشرط الإسلام أمرٌ واضحٌ، فلا يجوزُ أن تخفى على السائل وعليه عليه الصلاة والسلام حتى يسكُتَ لانتظار الوحي أو الاجتهاد. لأنا نقول: السؤالُ للاستبعاد مِن حيث العادةُ، والسكوتُ لتعليم سلوكِ طريق التأنِّي والتدبُّر، وإن كان الأمر واضحاً.

وقيل: الظاهر أنه لانتظارِ الإذنِ، أو الاجتهاد في التصريح بعموم المغفرة فإنَّهم ربما اتَّكلوا على ذلك فيُخشى التفريطُ في العمل، وهو لا ينافي التعليمَ فإنَّه عليه الصلاة والسلام إنما يعلِّمهم التدبُّرَ بعد أن يتدبَّرَ هو في نفسه ﷺ. وزعمُ أنَّ الحديثَ دالٌّ على اشتراط التوبة، ليس بشيء.

ويؤيِّدُ إطلاقَ المغفرة عن قيد التوبة ما أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسَّنه وابنُ المنذر، وابن الأنباري في «المصاحف» والحاكم وابن مردويه عن أسماءَ بنتِ يزيدَ قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ: «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٣٣١، وهو في مسند أحمد (٢٢٣٦٢)، وتفسير الطبري ٢٠/ ٢٢٨-٢٢٩، وشعب الإيمان (٧١٣٧) وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

ولا يبالي، إنه هو الغفور الرحيم»(١). فإنه ليس لـ «لا يبالي» كثيرُ حُسْنٍ إن كانت المغفرةُ مشروطةً بالتوبة كما لا يخفى.

وكذا ما أخرجه ابنُ جرير عن ابن سيرين قال: قال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: أيُّ آيةٍ أوسعُ؟ فجعلوا يذكرون آياتٍ من القرآن: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ الآية [النساء: ١١٠] ونحوَها، فقال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: ما في القرآن أوسعُ آيةً مِن: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية(٢).

والمؤكِّدات السابقةُ - أعني السبعةَ عشر - لا يخلو بعضُها عن بحثٍ، والظاهرُ أنَّ مغفرةَ ذنبٍ لا تجامِعُ العذابَ عليه أصلاً، وذهبَ بعضُهم إلى أنها تُجامِعه إذا كان أنقصَ(٣) من الذنب لا إذا كان بمقداره، فمن عذِّب بمقدارِ ذنبه في النارِ وأُخرِج منها لا يقال: إنه غُفر له. إذ السيئاتُ إنما تُجزى بأمثالها.

وقيل: تُجامِعه مطلقاً، وكونُ السيئات لا تُجزى إلا بأمثالها بلطفه تعالى أيضاً فهو نوعٌ من عفوِه عزَّ وجلَّ. وفيه ما فيه، فتأمَّل.

وأصل الإنابة: الرجوعُ، ومعنى: «وأنيبوا إلى ربكم» إلخ، أي: ارجعوا إليه سبحانه بالإعراض عن معاصيه والنَّدَم عليها، وقيل: بالانقطاع إليه تعالى بالعبادة، وذكرُ الربِّ كالتنبيه على العِلَّة.

وقال القشيريُّ: الإنابة: الرجوع بالكلية، والفرقُ بين الإنابة والتوبة أنَّ التائبَ يرجع من خوف العقوبة والمنيب يرجع استحياءً لكرمه تعالى. والإسلامُ له سبحانه الإخلاصُ في طاعاته عزَّ وجلَّ. وذَكَر أنَّ الإخلاص بعد الإنابة أن يَعلم العبدُ أنَّ

(١) مسند أحمد (٢٧٥٦٩)، وسنن الترمذي (٣٢٣٧)، والمستدرك ٢/ ٢٤٩ ولم نقف عليه في سنن أبي داود، وعزاه إليه السيوطي في الدر ٥/ ٣٣١، وعنه نقل المصنف. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٢٨.

(٣) وقع في (م): أنقض، بالضاد المعجمة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٣٤٤، والكلام منه.

نجاتَه بفضل الله تعالى، لا بإنابته، فبفضله سبحانه وصل إلى إنابته، لا بإنابته وصل إلى فضله، جلَّ فضلُه[١].

وعن ابن عباس من حديثٍ أخرجه ابن جرير وابن المنذر عنه: من آيَسَ العبادَ من التوبة فقد جَحَدَ كتابَ الله تعالى، ولكن لا يقدِرُ العبد أن يتوبَ حتى يتوبَ الله تعالى عليه[٢].

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ الظاهرُ أنَّه خطابٌ للعباد المخاطَبين فيما تقدَّم، سواءٌ أُريد بهم المؤمنون، أو ما يعمُّهم والكافرين، والمرادُ بـ «ما أنزل» القرآن، وهو كما أُنزِل إلى المؤمنين أُنزل إلى الكافرين؛ ضرورةَ أنه أُنزِلَ عليه ﷺ لدعوة الناس كافَّة، والمرادُ بأحسنه ما تضمَّن الإرشادَ إلى خير الدارَين دونَ القِصَص ونحوها، أو المأمورُ به، أو العزائمُ، أو الناسخُ، و«أفعل» على الأولِ والثالثِ على ظاهره، وعلى الثاني والرابع فيه احتمالان.

وقيل: لعلَّ الأحسنَ ما هو أَنْجَى وأسلمُ كالإنابة والمواظبة على الطاعة، و«أفعل» فيه على ظاهرِه أيضاً.

وجوَّز أن يكونَ الخطابُ للجنس، والمرادُ بـ «ما أنزل» الكتبُ السماوية، وبأحسنه القرآنُ. وفيه ارتكابُ خلافِ الظاهر، وفي ذكرِ الربِّ ترغيبٌ في الاتِّباع.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ أي: فَجْأَةً ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٥٥﴾ لا تعلمون أصلاً بمجيئه فتتداركُون ما يدفعُه.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ في موضع المفعولِ له بتقدير مضافٍ، وقدَّره الزمخشريُّ «كراهةَ»[٣]، وهو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ يدلُّ عليه ما قبلُ، أي: أنذِرُكم وآمُرُكم بأحسنِ ما أُنزِلَ إليكم كراهةَ أن تقول. ومَن لا يشترِطُ للنصب اتحادَ الفاعل يُجوِّز كونَ الناصب «أنيبوا» أو «اتبعوا».

---

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٢٨٨.

(٢) عزاه لابن جرير وابن المنذر السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٣١، ولم نقف عليه في مطبوع تفسير الطبري.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٠٤.

وأيَّاما كان فهذه الكراهةُ مقابِلَ الرضا دونَ الإرادة، فلا اعتزالَ في تقديرها، وهو أولى من تقدير: مخافةَ، كما فعل الحوفيُّ حيث قال: أي: أنذرْناكم مخافةَ أن تقول[١]، وابن عطية جعلَ العاملَ «أنيبوا» ولم يقدِّر شيئاً من الكراهة والمخافةِ حيثُ قال: أي: أنيبوا من أجلِ أن تقول[٢]. وذهب بعضُ النحاة إلى أنَّ التقديرَ: لئلا تقول. وتنكيرُ «نفس» للتكثير بقرينةِ المقام كما في قول الأعشى:

وربَّ بـقـيـعٍ لـو هـتـفْـتُ بِـجَـوِّه أتاني كريمٌ ينفُضُ الرأسَ مغْضَبا[٣]

فإنَّه أرادَ أفواجاً من الكرام ينصرونه، لا كريماً واحداً.

وجوِّز أن يكونَ للتبعيض؛ لأنَّ القائلَ بعضُ الأنفس. واستظهره أبو حيان[٤]. قيل: ويكفي ذلك في الوعيد؛ لأنَّ كلَّ نفسٍ يحتمل أن تكونَ تلك.

وجوِّز أيضاً أن يكونَ للتعظيم، أي: نفسٌ متميزةٌ من الأنفس إمَّا بلَجاجٍ في الكفر شديدٍ، أو بعذابٍ عظيمٍ، وليس بذاك.

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ بالألف بدل ياء الإضافة، والمعنى كما قال سيبويه: يا حسرتي احضُري فهذا وقتُكِ.

وقرأ ابن كثير في الوقف «يا حسرتاهْ» بهاء السكت[٥].

وقرأ أبو جعفر «يا حسرتي» بياء الإضافة[٦]، وعنه: «يا حسرتايْ» بالألف والياء التحتية مفتوحةً أو ساكنةً جمعاً بين العِوض والمعوَّض[٧]، كذا قيل.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٣٥.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣٨.
(٣) ديوان الأعشى ص٨.
(٤) في البحر المحيط ٧/ ٤٣٥.
(٥) البحر ٧/ ٤٣٥، وهي خلاف المشهور عن ابن كثير، وقرأ بها رويس عن يعقوب، كما في النشر ٢/ ١٣٦.
(٦) المحتسب ٢/ ٢٣٧، والبحر ٧/ ٤٣٥، والكلام منه.
(٧) البحر ٧/ ٤٣٥، والقراءة بفتح الياء هي رواية ابن جماز عن أبي جعفر، واختلف عن ابن وردان، فروي عنه الإسكان والفتح، قال في النشر ٢/ ٣٦٣: وكلاهما صحيح، نص عليهما عنه غير واحد.

ولا يخفى أنَّ مثلَ هذا غيرُ جائز، اللَّهم إلَّا شاذًّا استعمالا وقياساً، فالأوْجه أن يكون ثنَّى الحسرة مبالغةً على نحو: لبيك وسعديك، وأقامَ بين ظهرَيْهم، وظهرانَيْهم، على لغة بلحارث بن كعب من إبقاء المثنى على الألف في الأحوال كلِّها، واختار ذلك صاحب «الكشف»، وجوَّز أبو الفضل الرازي أيضاً في كتابه «اللوامح» أن تكون التثنيةُ على ظاهرِها على تلك اللغة، والمراد حسرةُ فوت الجنة وحسرةُ دخول النار[1]. واعتبار التكثير أولى؛ لكثرةِ حسَرَاتهم يومَ القيامة.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي: بسبب تفريطي، فـ «على» تعليليةٌ و«ما» مصدرية كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] والتفريطُ: التقصير.

﴿فِي جَنۢبِ اللَّهِ﴾ أي: جانبه، قال الراغب: أصلُ الجنب: الجارحةُ، ثم يُستعار للناحيةِ والجهةِ التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك، نحو: اليمين والشمال[2]. والمراد هنا الجهةُ مجازاً، والكلامُ على حذفِ مضافٍ، أي: في جنب طاعة الله، أو: في حقِّه تعالى، أي: ما يحِقُّ له سبحانه ويلزم وهو طاعته عزَّ وجلَّ؛ وعلى ذلك قول سابق البربري[3] من شعراء الحماسة:

أما تَتَّقينَ اللهَ في جَنْبِ عاشقٍ ... له كبِدٌ حرَّى عليكِ تقطَّعُ[4]

والتفريطُ في جهة الطاعة كنايةٌ عن التفريط في الطاعة نفسها؛ لأنَّ من ضيَّع جهةً ضيَّع ما فيها بطريق الأَولى الأبلغِ لكونه بطريق برهانيٍّ، ونظيرُ ذلك قول زياد الأعجم:

(١) نقله المصنف من البحر ٧/ ٤٣٥.
(٢) المفردات (جنب).
(٣) هو أبو سعيد سابق بن عبد الله، والبربري لقبه، شاعر زاهد سكن الرقة، وَفَد على عمر بن عبد العزيز، وله معه حكايات. تاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ٨٦٩، والوافي بالوفيات ١٥/ ٦٩، وخزانة الأدب ٩/ ٥٣٢-٥٣٣.
(٤) البيت في الكشاف ٣/ ٤٠٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٤٧، والبحر ٧/ ٤٣٥، منسوب إلى سابق، وهو في جمهرة الأمثال ١/ ٢٢٨ دون نسبة. ونسب في الحماسة البصرية ٢/ ١٢٢ إلى كُثير، وهو في ديوانه ص١٧٧ بلفظ: حُبٌّ، بدل: جنب. وتصدَّع، بدل: تقطَّع. قوله: حرَّى: تأنيث حرّان من الحرِّ، وهما للمبالغة، أي: لشدَّة حرِّها قد عَطِشَتْ ويبستْ من العطش. تاج العروس (حرر).

إنَّ السماحةَ والمروءةَ والندَى   في قبةٍ ضُرِبَتْ على ابن الحَشْرَج[١]

ولا مانعَ مِن أن يكونَ للطاعة ـ وكذا حقُّ الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه ـ جهةٌ بالتبعية للمطيع كمكان السماحة وما مَعها في البيت، ومما ذكرنا يُعلم أنَّه لا مانعَ من الكناية كما تُوُهِّم.

وقال الإمام: سمِّي الجنبُ جنباً؛ لأنَّه جانبٌ من جوانب الشيء، والشيء الذي يكونُ من لوازم الشيء وتوابعِه يكون كأنَّه جندٌ من جنوده وجانبٌ من جوانبه، فلمَّا حصلَت المشابهةُ بين الجنب الذي هو العُضْو وبين ما يكون لازماً للشيء وتابعاً له، لا جرمَ حسُن إطلاقُ لفظِ الجنب على الحقِّ والأمر والطاعة[٢]. انتهى.

وجعلوا في الكلام عليه استعارةً تصريحيةً وليس هناك مضافٌ مقدَّرٌ، وليس بذاك.

وقولُ ابن عباس: يريدُ: على ما ضيَّعْتُ من ثواب الله. ومقاتل: على ما ضيَّعْتُ مِن ذكرِ الله. ومجاهد والسديِّ: على ما فرَّطتُ في أمر الله. والحسنِ: في طاعة الله. وسعيد بن جبير: في حقِّ الله[٣] = بيانٌ لحاصل المعنى.

وقيل: الجنبُ مجازٌ عن الذات كالجانب أو المجلس، يُستعمل مجازاً لربِّه، فيكون المعنى: على ما فرطتُ في ذات الله. وضعِّف بأنَّ الجنبَ لا يليق إطلاقُه عليه تعالى ولو مجازاً، وركاكتُه ظاهرةٌ أيضاً.

وقيل: هو مجازٌ عن القرب، أي: على ما فرطتُ في قرب الله. وضعِّف بأنَّه محتاجٌ إلى تجوُّزٍ آخر، ويرجع الأمرُ في الآخرة إلى طاعة الله تعالى ونحوها.

وبالجملة لا يمكن إبقاءُ الكلام على حقيقته؛ لتنزُّهه عزَّ وجلَّ من الجنب بالمعنى الحقيقيِّ.

---

(١) الأغاني ١٥/ ٣٨٦، ومعاهد التنصيص ٢/ ١٧٣-١٧٤، والبيت في مدح عبد الله بن الحشرج والي سابور، من سادات قيس وأمرائها.

(٢) التفسير الكبير ٢٧/ ٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٣٤-٢٣٥، وتفسير السمرقندي ٣/ ٥٥، وتفسير البغوي ٤/ ٨٥، وزاد المسير ٧/ ١٩٢.

ولم أقِفْ على عدِّ أحدٍ من السلف إيَّاه من الصفات السمعيَّة، ولا أعوِّل على ما في «المواقف»[1]، وعلى فرض العدِّ كلامُهم فيها شهيرٌ، وكلُّهم مُجمِعون على التنزيه، وسبحانَ مَن ليس كمثلِه شيء وهو السميع البصير.

وفي حرفِ عبد الله وحفصةَ: «في ذكر الله»[2].

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ أي: المستهزئين بدين الله تعالى وأهلِه، و«إن» هي المخفَّفةُ من الثقيلة، واللامُ هي الفارقة، والجملةُ في محلِّ النصب على الحال عند الزمخشريِّ، أي: فرَّطتُ في حالِ سخريتي[3].

وقال في «البحر»: ويظهرُ أنَّها استئنافُ إخبارٍ عن نفسه بما كان عليه في الدنيا، لا حالٌ[4]، والمقصودُ من ذلك الإخبارِ التحسُّرُ والتحزُّنُ.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧﴾ أي: من الشرك والمعاصِي. وفسَّر غيرُ واحدٍ الهدايةَ هنا بالإرشاد والدلالةِ الموصِلَةِ بناءً على أنَّه الأنسبُ بالشرطية والمطابقُ للردِّ بقوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ﴾ إلخ. وفسَّرها أبو حيان بخلق الاهتداء[5]، وأيًّا ما كان فالظاهرُ أنَّ هذه المقالةَ في الآخرة.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رجوعاً إلى الحياة الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ في العقيدة والعمل، و«لو» للتمنِّي، «فأكونَ» منصوبٌ في جوابها. وجوَّز في «البحر» أن يكون منتصِباً بالعطف على «كرَّةً» إذ هو مصدر، فيكون مثل قوله:

فما لكَ عنها غيرُ ذِكرى وحَسرةٍ وتسألَ عن رُكبانها أين يَمَّمُوا[6]

(١) المواقف ص٢٩٨.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٠٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٣٥.
(٥) المصدر السابق.
(٦) البحر ٧/ ٤٣٦، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٣، وفيه: «وحسبة»، بدل: «وحَسْرة»، وتفسير القرطبي ١٨/ ٣٠١، وفيه: وخشية، ولم نهتد إلى قائله.

وقول الآخر:

ولُبْسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني أحبُّ إليَّ من لُبسِ الشُّفُوفِ[(١)]

ثم قال: والفرقُ بينهما أنَّ الفاءَ إذا كانت في جواب التمنِّي كانت «أنْ» واجبةَ الإضمارِ، وكان الكونُ مترتِّباً على حصولِ المتمنَّى لا متمنًّى، وإذا كانت للعطف على «كرَّةً» جاز إظهارُ «أنْ» وإضمارُها، وكان الكونُ متمنًّى[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ جوابٌ من الله عزَّ وجلَّ لِمَا تضمَّنه قولُ القائل: «لو أن الله هداني» مِن نفْي أن يكونَ اللهُ تعالى هداه؛ وردٌّ عليه، ولا يشترطُ في الجواب بـ «بلى» تقدُّمُ النفْي صريحاً، وقد وقعَ في موقعِه اللائقِ به؛ لأنَّه لو قدَّمَ على القرينة الأخيرةِ؛ أعني: «أو تقولَ حين ترى العذاب» إلخ، وأُوْقِعَ بعدَه غيرَ مفصول بينَهما بها، لم يحسُنْ، لتبتيرِ النظم الجليل، فإنَّ القرائنَ الثلاثَ متناسبةٌ متناسِقةٌ متلاصقةٌ، والتناسُب بينَهنَّ أتمُّ مِن التناسُبِ بينَ القرينةِ الثانيةِ وجوابِها، ولو أُخِّرَت القرينةُ الثانية وجُعِلَت الثالثةُ ثانيةً، لم يحسُن أيضاً، لأنَّ رعايةَ الترتيب المعنويِّ - وهي أهمُّ - تَفُوت إذ ذاك، وذلك لأنَّ التحسُّرَ على التفريط عند تطايُرِ الصُّحُف على ما يدلُّ عليه مواضعُ من القرآن العظيم، والتعلُّلُ بعدم الهداية إنَّما يكون بعد مشاهدةِ حالِ المتقين واغتباطِهم، ولأنَّه للتسلِّي عن بعض التحسُّرِ أو مِن باب تمسُّكِ الغريق، فهو لاحِقٌ، وتمنِّي الرجوع بعد ذَوْقِ النار، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وكذلك لو حُمِل الوقوفُ على الحبس على شَفيرِها أو مشاهدتِها، وكلٌّ بعدَ مشاهدةِ حالِ المتقين وما لقوا من خِفَّةِ الحساب والتكريم في الموقف، ولأنَّ اللَّجأَ إلى التمنِّي بعد تحقُّقِ أن لا جدوى[(٣)]؛ للتعليل.

---

(١) البيت لميسون بنت بحدل، وسلف ٤/ ٣١٢.

(٢) البحر ٧/ ٤٣٦.

(٣) في الأصل: «جَدًى» بالقصر، وهما بمعنًى. ينظر الصحاح (جدى).

وقال الطيبيُّ: إنَّ النفسَ عندَ رؤية أهوالِ يوم القيامة يرى الناس مَجْزِيِّيْنَ بأعمالهم فيتحسَّر على تفويت الأعمال عليها، ثم قد يتعلَّلُ بأنَّ التقصيرَ لم يكن منِّي، فإذا نَظر وعَلِم أنَّ التقصيرَ كان منه تمنَّى الرجوعَ.

ثم الظاهرُ من السياق أنَّ النفوسَ جَمعت بين الأقوالِ الثلاثة، فـ «أو» لمنع الخلوِّ، وجيء بها تنبيهاً على أنَّ كلَّ واحدٍ يكفي صارفاً عن إيثار الكفر وداعياً إلى الإنابة واتباع أَحْسنِ ما أُنزل. وتذكيرُ الخطاب في «جاءتكَ» إلخ على المعنى؛ لأنَّ المرادَ بالنفس الشخصُ وإن كان لفظُها مؤنَّثاً سَماعياً.

وقرأ ابن يعمر والجحدريُّ وأبو حيوة والزعفرانيُّ وابنُ مقسم ومسعود بن صالح والشافعيُّ عن ابن كثير ومحمد بن عيسى في اختياره والعبسيُّ: «جاءتكِ» إلخ، بكسر الكاف والتاء[(١)]، وهي قراءةُ أبي بكر الصديق وابنته عائشةَ رضي الله عنهما، وروتها أمُّ سلمةَ عن النبيِّ ﷺ[(٢)].

وقرأ الحسنُ والأعمش والأعرج: «جَأَتْكَ» بالهمز من غير مدٍّ بوزن: فَعَتْكَ[(٣)]، وهو على ما قال أبو حيان: مقلوبٌ من «جاءتك»، قُدِّمت لامُ الكلمة وأُخِّرت العينُ فسقطَت الألفُ[(٤)].

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ العبدَ خالقٌ لأفعاله. وأجابَ الأشاعرةُ بأنَّ إسنادَ الأفعالِ إلى العبد باعتبارِ قدرتِه الكاسبةِ. وحقَّق الكورانيُّ أنه باعتبار قدرته المؤثِّرةِ بإذنِ الله عزَّ وجلَّ، لا كما ذهب إليه المعتزلةُ مِن أنَّه باعتبار قدرته المؤثِّرةِ أذِنَ الله تعالى أم لم يأذَنْ.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالُهم من الشدَّةِ التي تغيِّر ألوانَهم حقيقةً، ولا مانعَ من أن يُجعل سوادُ الوجوه حقيقةً علامة لهم غيرَ

---

(١) يريدُ بالتاء تاء: «فكذبتِ»، و«استكبرتِ»، و«كنتِ».

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١، والمحرر الوجيز ٤/٥٣٨، والبحر ٧/٤٣٦، وأخرجه عن أم سلمة الدوريُّ في جزء قراءات النبي ﷺ (٩٩).

(٣) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/٤٣٦.

(٤) البحر المحيط ٧/٤٣٦.

مترتِّبٍ على ما ينالهم، وجوَّز أن يكونَ ذلك من باب المجاز، لا أنَّها تكونُ مسودَّةً حقيقةً، بأن يقال: إنَّهم لِمَا يلحَقُهم من الكآبةِ ويظهرُ عليهم من آثار الجهل بالله عزَّ وجلَّ يُتوهَّم فيهم ذلك. والظاهرُ أنَّ الرؤيةَ بصريةٌ. والخطابُ إمَّا لسيِّد المخاطَبين عليه الصلاة والسلام، وإما لكلِّ مَن تتأتَّى منه الرؤيةُ.

وجملةُ «وجوهُهم مسودَّةٌ» في موضع الحال على ما استظهره أبو حيان(١)، وكونُ المقصود رؤيةَ سوادِ وجوهِهم لا ينافِي الحاليةَ كما توهِّم؛ لأنَّ القيدَ مَصَبُّ الفائدة، ولا بأسَ بتركِ الواو والاكتفاءِ بالضمير فيها، لاسيما وفي ذكرِها هاهنا اجتماعُ واوين وهو مستثقَلٌ.

وزعم الفرَّاءُ شذوذَ ذلك(٢)، ومن سلَّمه جعلَ الجملةَ هنا بدلاً من «الذين» كما ذهب إليه الزجَّاج(٣)، وهم جوَّزوا إبدالَ الجملة من المفردِ، أو مستأنفةً كالبيان لِمَا أشعرَتْ به الجملةُ قبلَها وأدْرَكه الذوقُ السليمُ منها مِن سوء حالهم، أو جعَلَ الرؤية علميةً والجملةَ في موضع الثاني، وأُيِّد بأنه قرئ: «وجوهَهم مسودةً» بنصبهما على أنَّ «وجوهَهم» مفعولٌ ثانٍ و«مسودَّةً» حالٌ منه. وأنت تعلم أنَّ اعتبارَ الرؤية بصريةً أبلغُ في تفضيحِهم وتشهيرِ فَظاعةِ حالِهم لاسيَّما مع عموم الخطاب، والنصْبُ في القراءة الشاذَّةِ يجوزُ أن يكونَ على الإبدال.

والمرادُ بـ «الذين ظلموا»(٤) أولئك القائلون المتحسِّرون، فهو من باب إقامة الظاهر مقامَ المضمَر. وينطبقُ على ذلك أشدَّ الانطباقِ قولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ أي: مقامٌ ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ الذين جاءتْهم آياتُ الله فكذَّبوا بها واستكبروا عن قبولها والانقيادِ لها؟ وهو تقريرٌ لرؤيتهم كذلك، وينطبقُ عليه أيضاً قولُه الآتي: ﴿وَيُنَجِّى﴾ إلخ. وكذِبُهم على الله تعالى لوصفِهم له سبحانه بأنَّ له شريكاً ونحوِ ذلك؛ تعالى عمَّا يصفون علوًّا كبيراً. وقيل: لوصفهم له تعالى

---

(١) في البحر ٧/ ٤٣٧.

(٢) سلف هذا النقل عنه ٢/ ١٢٥.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٠.

(٤) كذا في الأصل و(م)، والصواب: «الذين كذبوا»، كما يدلُّ عليه السياق.

بما لا يليق في الدنيا، وقولِهم في الأخرى: «لو أنَّ الله هداني» المتضمِّنِ دعوى أنَّ اللهَ سبحانه لم يَهْدِهم ولم يُرْشِدهم.

وقيل: هم أهل الكتابينِ.

وعن الحسن: أنَّهم القدريَّةُ القائلون: إن شِئْنا فعلْنا وإن لم يشأ الله تعالى، وإن شئنا لم نفعل وإن شاء الله سبحانه[1].

وقيل: المرادُ كلُّ مَن كذَب على الله تعالى ووَصَفَه بما لا يليق به سبحانه نفياً وإثباتاً، فأضافَ إليه ما يجب تنزيهُه تعالى عنه، أو نزَّهه سبحانه عمَّا يجب أن يضافَ إليه، وحُكي ذلك عن القاضي[2]، وظاهرُه يقتضي تكفيرَ كثيرٍ من أهل القبلة، وفيه ما فيه.

والأوفقُ لنظم الآية الكريمة ما قدَّمنا، ولا يبعُد أن يكونَ حكمُ كلِّ مَن كذَب على الله تعالى ـ عالماً بأنه كذَب عليه سبحانه، أو غيرَ عالم لكنَّه مستنِدٌ إلى شبهةٍ واهيةٍ ـ كذلك، وكلامُ الحسن ـ إن صحَّ ـ لا أظنه إلَّا من باب التمثيل. وتعريضُ الزمخشريِّ بأهل الحقِّ بما عرَّض[3] خارجٌ عن دائرة العدل، فما ذهبوا إليه ليس من الكذِب على الله تعالى في شيء، والكذِبُ فيه وفي أصحابه ظاهرٌ جدًّا.

وقرأ أُبَيٌّ: «أُجُوههم» بإبدالِ الواو همزةً[4].

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ ما اتَّصف به أولئك المتكبِّرُون من جهنمَ. وقرئ: «يُنْجِي» بالتخفيف من الإنجاء[5].

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ اسمُ مصدرٍ كالفَلَاح على ما في «الكشف»، أو مصدرٌ ميميٌّ على ما في غيره، من: فاز بكذا؛ إذا أفلح به وظفر بمرادِه منه، وقال الراغب: هي

---

(١) زاد المسير ٧/ ١٩٣.

(٢) في التفسير الكبير ٢٧/ ٨، والقاضي هو عبد الجبار.

(٣) في الكشاف ٣/ ٤٠٥ بقوله: ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح وتجويزِ أن يخلقَ خلقاً لا لغرض، ويؤلم لا لعوضٍ.. إلخ.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٣٧.

(٥) النشر ٢/ ٢٥٩، وهي قراءة روح عن يعقوب.

مصدر فاز[١]، أو اسم الفوز، ويرادُ بها الظَّفَرُ بالبُغْية على أتمِّ وجهٍ كالفلاح، وبه فسَّرها السديُّ[٢].

والباء للملابسة متعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من الموصول مفيدةٌ لمقارنةِ تنجِيَتِهم من العذاب لنيل الثواب، أي: يَنجِّيهم الله تعالى من جهنَّمَ مثوى المتكبِّرين لتقواهم مما اتَّصف المتكبِّرون به ملتبسين بفلاحهم وظفرِهم بالبغية وهي الجنة، ومآلُه: ينَجِّيهم من النار ويُدْخِلُهم الجنةَ. وكونُ الجنة بغيةَ المتقي كائناً مَن كان مما لا شبهةَ فيه، نعم هي بغيةٌ لبعض المتقين مِن حيثُ إنَّها محلُّ رؤية محبوبهم التي هي غايةُ مطلوبهم، ولك أن تعمِّم البغيةَ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ في موضع الحال أيضاً إما من الموصول، أو من ضميرِ «مفازتهم»، مفيدة لكونهم مع التنجية أو الفوز منفيًّا عنهم على الدوام مساسُ جنسِ السوءِ والحزن. والظاهرُ أنَّ هذه الحالَ مقدَّرةٌ. وقيل: إنها مقارِنةٌ مفيدةٌ لكونِ تنجيتهم أو مفازتهم بالجنَّة غيرَ مسبوقةٍ بمساسِ العذاب والحزن، ولا يخفَى أنه لا يتسنَّى بالنسبة إلى جميع المتقين إذ منهم مَن يَمَسُّه العذابُ ويحزَنُ لا محالةَ. وعدُّ وجودِ ذلك لقلَّته وانقطاعِه كَلَا وجودٍ، تكلُّفٌ بعيدٌ.

وجوِّز أن يراد بالمفازة الفلاحُ، ويُجْعَلَ قولُه تعالى: (لَا يَمَسُّهُمُ) إلخ استئنافاً لبيانها، كأنه قيل: ما مفازتُهم؟ فقيل: لا يمسُّهم إلخ. والباء حينئذٍ على ما في «الكشف» سببيَّةٌ متعلِّقةٌ بـ «ينجِّي»، أي: ينجِّيهم بنفْي السوء والحُزْنِ عنهم.

وتعقِّب بأنَّ في جعل عدم الحزن وعدم السوء سببَ النجاة تكلُّفاً، فهُمَا من النجاة، والظاهر أنَّه لو جُعلت الباءُ على هذا الوجه أيضاً للملابسة لا يَرِدُ ذلك.

وجوِّز كونُ المفازة اسمَ مكانٍ، أي: محلَّ الفوز، وفُسِّرت بالمنجاة مكانِ النجاة، وصحَّ ذلك لأنَّ النجاةَ فوزٌ وفلاحٌ، وجُعلت الباءُ عليه للسببيَّة، وهناك

---

(١) المفردات (فوز).
(٢) البحر ٧/ ٤٣٧.

مضافٌ محذوفٌ بقرينةِ باءِ السببيَّة وأنَّ المنجاةَ لا تصلحُ سبباً، أي: ينجِّيهم بسبب منجاتهم وهو الإيمان، وهو كالتصريح بما اقتضاه تعليقُ الفعل بالموصول السابق. وفسَّره الزمخشريُّ بالأعمال الصالحة، وقوَّاه بما حكاه عن ابن عباس ليتمَّ مذهبُه[1]. أو لا مضافَ بل هناك مجازٌ بتلك القرينة من إطلاق اسم المسبَّب على السبب، والجملةُ بعدُ ـ على الاحتمالين في هذا الوجه ـ حالٌ، ولا يخفى أنَّ المفازة بمعنى المنجاة مكانِ النجاة هي الجنةُ، والإيمانُ أو العملُ الصالح ليس سبباً لها نفسِها، وإنَّما هو سببٌ لدُخولها، فلا بدَّ من اعتباره، فلا تغفل.

وجوِّز أن تكونَ المفازةُ مصدراً ميميًّا مِن: فاز منه، أي: نجا منه، يقال: طوبى لمن فاز بالثواب وفاز من العقاب، أي: ظفِرَ به ونجا، والباء إما للملابسة والجملةُ بيانٌ للمفازة، أي: ينجِّيهم اللهُ تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصَّة لهم، أي: بنفي السوء والحُزنِ عنهم، ولا يخفى ركاكةُ هذا المعنى.

وإما للسببيَّة: إمَّا على حذف المضاف، أو التجوُّزِ نظيرَ ما مرَّ آنفاً، ولا يحتاج هنا إلى اعتبار الدخول كما لا يخفى، والجملة في موضع الحال أيضاً.

وجوِّز على بعض الأوْجُه تعلُّقُ «بمفازتهم» بما بعده، ولا يخفى أنَّه خلافُ الظاهر.

وبالجملة الاحتمالاتُ العقلية في الآية كثيرةٌ؛ لأنَّ المفازةَ إما اسمُ مصدرٍ، أو مصدرٌ ميميٌّ، أو اسمُ مكانٍ، مِن فازَ به: ظَفِر، أو مِن فازَ منه: نجا. والباءُ إما للملابسةِ أو للسببيةِ أو للاستعانةِ، وهي إما متعلِّقةٌ بما قبلَها، أو بما بعدها. وهذه ستَّة وثلاثونَ احتمالاً. وإذا ضممتَ إليها احتمالَ حذف المضاف في «بمفازتهم» بمعنى منجاتهم أو نجاتهم، واحتمالَ التجوُّز فيه كذلك، وكذا احتمالَ كون جملة «لا يمسُّهم» إلخ حالاً من الموصول، واحتمالَ كونها حالاً من ضمير «مفازتهم»، واحتمالَ كون الحال مقدَّرة، وكونِها مقارِنةً، زادت كثيراً، ولا يخفى أنَّ فيها المقبولَ ودونَه، بل فيها ما لا يتسنَّى أصلاً، فأمعِن النظرَ ولا تجمدْ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٦.

وقرأ السلميُّ والحسن والأعرج والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر: «بمفازاتهم» جمعاً[1]؛ لتكونَ على طِبْق المضاف إليه في الدلالة على التعدُّد صريحاً.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خيرٍ وشرٍّ وإيمانٍ وكفرٍ لكنْ لا بالجبر، بل بمباشرةِ المتَّصِف بهما لأسبابهما، فالآيةُ رادَّةٌ على المعتزلة ردًّا ظاهراً.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ يتولَّى التصرُّفَ فيه كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمةُ، وكأنَّ ذِكرَ ذلك للدلالة على أنَّه سبحانه الغنيُّ المطلَقُ وأنَّ المنافعَ والمضارَّ راجعةٌ إلى العباد.

ولك أن تقول: المعنى أنَّه تعالى حفيظٌ على كلِّ شيءٍ، كما قيل نحوُ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، وحاصلُه أنه تعالى يتولَّى حفظَ كلِّ شيءٍ بعدَ خلْقِه، فيكون إشارةً إلى احتياج الأشياء إليه تعالى في بقائها كما أنَّها محتاجةٌ إليه عزَّ وجلَّ في وجودِها.

﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيحُها، كما قال ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم[2]، فقيل: هو جمعٌ لا واحدَ من لفظه، وقيل: جمعُ: مقليد، وقيل: جمعُ: مِقْلاد، من التقليد بمعنى الإلزام، ومنه تقليدُ القضاء وهو إلزامه النظرَ في أموره، وكذا القلادةُ لِلُزومها للعُنُقِ، وجُعل اسماً للآلة المعروفةِ للإلزام بمعنى الحفظ. وهو على جميع هذه الأقوالِ عربيٌّ، والأشهرُ الأظهرُ كونُه معرَّباً، فهو جمعُ: إقليد، معرَّبُ: إكليد، وهو جمعٌ شاذٌّ؛ لأنَّ جمع إفعيل على مفاعيل مخالفٌ للقياس، وجاء: أقاليدُ، على القياس، ويقال في إكليد: كَلِيد، بلا همزةٍ.

وذكر الشهابُ أنه بلُغة الروم: إقليدس، وكليد، وإكليد منه[3]. والمشهورُ أنَّ كليد، فارسيٌّ، ولم يشتهرْ في الفارسية «إكليد» بالهمز.

---

(١) التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٣ عن حمزة والكسائي وأبي بكر، والكلام من البحر ٧/ ٤٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٢، وتفسير البغوي ٤/ ٨٦.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٣٤٩.

و: له مقاليدُ كذا؛ قيل: مجازٌ عن كونه مالكَ أمره ومتصرِّفاً فيه بعلاقة اللزوم، ويُكْنَى به عن معنى القدرة والحفظ.

وجوِّز كونُ المعنى الأولِ كنائيًّا، لكن قد اشتَهَرَ فنزِّلَ منزلةَ المدلول الحقيقيِّ، فكُنِيَ به عن المعنى الآخر، فيكونُ هناك كنايةٌ على كنايةٍ، وقد يقتصرُ على المعنى الأول في الإرادة، وعليه قيل هنا: المعنى: لا يملكُ أمرَ السماوات والأرض ولا يتمكَّنُ من التصرُّف فيها غيرُه عزَّ وجلَّ.

والبيضاويُّ بعد ذكرِ ذلك، قال: هو كنايةٌ عن قدرته تعالى وحفظِه لها[1]. وفيه مزيدُ دلالةٍ على الاستقلال والاستبداد لمكان اللام والتقديم.

وقال الراغب: «مقاليد السماوات والأرض»: ما يحيطُ بها، وقيل: خزائنها، وقيل: مفاتيحها، والإشارة بكلِّها إلى معنًى واحدٍ وهو قدرتُه تعالى عليها وحفظُه لها[2]. انتهى.

وجوِّز أن يكون المعنى: لا يملك التصرُّفَ في خزائن السماوات والأرض ـ أي: ما أُودِعَ فيها واستعدَّت له من المنافع ـ غيرُه تعالى.

ولا يخفى أنَّ هذه الجملةَ إنْ كانت في موضع التعليل لقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ على المعنى الأول، فالأظهرُ الاقتصارُ في معناها على أنَّه لا يملك أمرَ السماوات والأرضِ ـ أي: العالم بأسرِه ـ غيرُه تعالى، فكأنَّه قيل: هو تعالى يتولَّى التصرُّفَ في كلِّ شيء؛ لأنَّه لا يملك أمرَه سواه عزَّ وجلَّ. وإن كانت تعليلاً له على المعنى الثاني فالأظهر الاقتصارُ في معناها على أنَّه لا قدرةَ عليها لأحدٍ غيرِه جلَّ شأنه، فكأنه قيل: هو تعالى يتولَّى حفظَ كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه لا قدرةَ لأحدٍ عليه غيره تعالى.

وجوِّز أن تكونَ عطفَ بيانٍ للجملة قبلَها، وأن تكونَ صفةَ «وكيل»، وأن تكونَ خبراً بعد خبرٍ، فأمعِن النظرَ في ذلك وتدبَّره.

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٤٨.
(٢) المفردات (قلد).

وأخرج أبو يعلى، ويوسفُ القاضي[١] في «سننه»، وأبو الحسن القطّان[٢] في «المطولات»، وابن السنِّي في «عمل اليوم والليلة»، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال: «لا إله إلا الله والله أكبر، سبحان الله والحمد لله، أستغفِرُ اللهَ الذي لا إلهَ إلَّا هو، الأول والآخِر، والظاهر والباطن، يحيي ويُميتُ وهو حَيٌّ لا يموتُ، بيدِه الخيرُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ» الحديث[٣].

وفي رواية ابن مردويه عن ابن عباس أنَّ عثمانَ جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال له: أخبِرْني عن «مقاليد السماوات والأرض»؟ فقال: «سبحان الله والحمدُ لله ولا إلهَ إلا اللهُ والله أكبر، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله العليِّ العظيم، الأولِ والآخرِ والظاهرِ والباطنِ، بيده الخيرُ، يحيي ويميتُ وهو على كلِّ شيء قديرٌ، يا عثمان، مَن قالها إذا أصبح عشْر مرَّاتٍ وإذا أمسى، أعطاه الله سِتَّ خصالٍ: أمَّا أوَّلُهنَّ فيُحْرَسُ من إبليسَ وجنودِه، وأمَّا الثانيةُ فيُعْطى قِنْطاراً مِن الأجْرِ، وأمَّا الثالثةُ فيَتَزَوَّجُ من الحُورِ العِيْن، وأمَّا الرابعةُ فيُغْفَرُ له ذنوبُه، وأمَّا الخامسةُ فيكونُ معَ إبراهيمَ عليه السلام، وأمَّا السادسةُ فيَحْضُرُه اثنا عشَرَ ملَكاً عندَ موته يبشِّرُونه بالجنة ويزُفُّونه مِن قبْرِه إلى الموقِف، فإن أصابه شيءٌ مِن أهاويلِ يومِ القيامة قالوا له: لا تَخَفْ إنَّكَ من الآمنين. ثُمَّ يحاسِبُه اللهُ حِساباً يسيراً، ثم يُؤْمَرُ به إلى الجنة، فيزُفُّونه إلى الجنة من

---

(١) هو أبو محمد يوسف بن يعقوب الأزدي، صاحب التصانيف في السنن، سمع مسلم بن إبراهيم وسليمان بن حرب وابن المديني وطبقتهم. كان ثقةً حافظاً، توفي (٢٩٧هـ). سير أعلام النبلاء ١٤/ ٨٥، وشذرات الذهب ٣/ ٤١٤.

(٢) هو علي بن إبراهيم القزويني، روى عن ابن ماجه «سننه»، وروى عن أبي حاتم وطبقته، جمع وصنف، كان ثقةً فاضلاً زاهداً، توفي سنة (٣٤٥هـ). تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٥٦، وشذرات الذهب ٤/ ٢٤١.

(٣) مسند أبي يعلى الكبير كما في المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي للهيثمي (١٦٤٧)، وعمل اليوم والليلة (٧٣). وعزاه ليوسف القاضي وأبي الحسن القطان وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٣٣-٣٣٤. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: غريب جدًّا وفي صحَّته نظر، وفيه نكارة شديدة. اهـ. وقال الذهبي في الميزان ٤/ ٨٥: هذا موضوع فيما أرى.

موقِفه كما تُزَف العروسُ، حتى يُدْخِلوه الجنةَ بإذن الله تعالى والناسُ في شدَّة الحساب[(١)].

وفي رواية العقيليِّ، والبيهقيِّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عمرَ أنَّ عثمانَ سأل النبيَّ ﷺ عن تفسير ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «ما سألني عنها أحدٌ، تفسيرُها: لا إلهَ إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفرُ اللهَ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله، هو الأولُ والآخِرُ، والظاهرُ والباطن، بيده الخيرُ، يُحْيي ويُميتُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير»[(٢)].

وفي رواية الحارث بن أبي أسامةَ وابنِ مردويه عن أبي هريرةَ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «هي: سبحان الله والحمدُ لله ولا إلهَ إلا اللهُ والله أكبر ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله»[(٣)].

وبالجملة اختَلَفَت الرواياتُ في الجواب، وقيل في حديث ابن عمرَ رضي الله عنهما: إنَّه ضعيفٌ، في سنده مَن لا تصلُح روايتُه، وابن الجوزي قال: إنه موضوعٌ[(٤)]. ولم يُسلَّم له[(٥)]. وحالُ الأخبار الأُخَر اللهُ تعالى أعلَمُ به، والظنُّ الضَّعْفُ[(٦)].

والمعنى عليها أنَّ للهِ تعالى هذه الكلمات يوحَّدُ بها سبحانه ويمجَّدُ، وهي مفاتيحُ خيرِ السماوات والأرضِ، من تكلَّم بها من المؤمنين أصابه، فوَجْهُ إطلاقِ المقاليد عليها أنَّها مُوصِلَةٌ إلى الخير كما تُوصِلُ المفاتيحُ إلى ما في الخزائن. وقد

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٣٤.

(٢) الضعفاء للعقيلي ٤/ ٢٣١-٢٣٢، والأسماء والصفات (١٩).

(٣) مسند الحارث بن أبي أسامة (١٠٤٥ - بغية الباحث) عن أبي هريرة عن عثمان بنحوه، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٤.

(٤) الموضوعات ٢/ ١٧٤.

(٥) يشير إلى قول الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٧/ ٣٤٩: وقول ابن الجوزي: إنه موضوع، غير مسلم وموضوعاته أكثرها منتقدة.

(٦) نقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ١٩٢ عن ابن حجر أن هذا الحديث منكر من جميع طرقه، وعن النباتي قوله: لا يعرف من وجه يصح، وما أشبهه بالوضع.

ذَكَر ﷺ شيئاً من الخير في حديث ابن عباس، وعدَّ في الحديث قبلَه عشرَ خصالٍ لمن قالها كلَّ يوم مئةَ مرَّةٍ، وهو بتمامه في «الدر المنثور»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: «الله خالقُ كلِّ شيء» إلخ، أي: إنه عزَّ شأنُه متَّصِفٌ بهذه الصفاتِ الجليلة الشأنِ والذين كفروا وجَحَدوا ذلك أولئك هم الكاملون في الخسران.

وقيل: على قوله تعالى: «له مقاليد السماوات والأرض»، ولا يظهَرُ ذلك على بعض الأوجُهِ السابقة فيه.

وقيل: على مقدَّرٍ تقديرُه: فالذين اتقوا، أو: فالذين آمنوا بآيات الله هم الفائزون، والذين كفروا إلخ، وفيه تكلُّفٌ.

وجوِّز أن يكون معطوفاً على قوله تعالى: «وينجي الله».. إلخ. فيكونُ التقدير: وينجِّي الله المتقين، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون، وما بينهما اعتراضٌ للدلالة على أنَّه تعالى مهيمِنٌ على العباد مطَّلِعٌ على أفعَالهم مُجازٍ عليها، وفيه تأكيدٌ لثواب المؤمنين وفلاحِهم وعقابِ الكَفَرة وخُسرانِهم، ولم يقل: ويُهْلِكُ الذين كفروا بخسرانهم، كما قال سبحانه: «وينجي» إلخ؛ للإشعار بأنَّ العُمدةَ في فوز المؤمنين فضلُه تعالى فلِذا جَعل نجاتَهم مسنَدَةً له تعالى حادثةً لهم[2] يومَ القيامة غيرَ ثابتةٍ قبلَ ذلك بالاستحقاق والأعمال، بخلاف هلاك الكَفَرة فإنَّهم قدَّموه لأنفسهم بما اتَّصفوا به من الكُفر والضلال، ولم يُسْند له تعالى ولم يعبر عنه بالمضارع أيضاً، وفي ذلك تصريحٌ بالوعد وتعريضٌ بالوعيد حيثُ قيل: «الخاسرون» ولم يُقَلْ: الهالكون، أو: المعذَّبون، أو نحوه، وهو قضيةُ الكرم.

وعطفُ الجملة الاسمية على الفعلية مما لا شبهةَ في جوازه عند النحويين، ومما ذكرنا يُعلَم ردُّ قولِ الإمام الرازيِّ: إنَّ هذا الوجهَ ضعيفٌ من وجهين:

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٣٣٤، وهو حديث عثمان بن عفان الذي رواه أبو يعلى ويوسف القاضي والقطان وابن السني وغيرهم، وقد سلف قريباً.

(٢) في (م): حادثةٌ له، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٣٤٩، وهو الصواب.

الأولُ: وقوعُ الفصل الكثير بين المعطوف والمعطوف عليه.

الثاني: وقوع الاختلاف بينهما في الفعلية والاسمية، وهو لا يجوز[1].

والإمام أبو حيان منع كونَ الفاصل كثيراً. وقال في الوجه الثاني: إنه كلامُ مَن لم يتأمَّل كلامَ العرب ولا نَظَر في أبواب الاشتغال[2].

نعم قال في «الكشف»: يؤيِّد الاتصالَ بما يليه دون قوله تعالى: «وينجي» أنَّ قولَه سبحانه: «وينجي الله» متصلٌ بقوله تعالى: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا»، فلو قيل بعده: «والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون» لم يحسُنْ؛ لأنَّ الأحسنَ على هذا المساقِ أن يقدَّمَ على قوله تعالى: «وينجي الله» على ما لا يخفى؛ ولأنَّه كالتخلُّصِ إلى ما بعدَه مِن حديث الأمر بالعبادة والإخلاص إذ ذاك. وهو كلامٌ حَسَنٌ.

ثم الحصرُ الذي يقتضيه تعريفُ الطرفين[3] وضميرُ الفصل باعتبار الكمال كما أشرنا إليه؛ لا باعتبار مطلَق الخسران فإنَّه لا يختصُّ بهم. وجوِّز أن يكونَ قصْرَ قلبٍ فإنَّهم يزعمون المؤمنين خاسرين.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: أَبَعْدَ الآياتِ المقتضِيةِ لعبادته تعالى وحدَه غيرَ الله أعبُدُ؟! فـ «غير» مفعولٌ مقدَّمٌ لـ «أعبد»، و«تأمرونِّي» اعتراضٌ للدلالة على أنَّهم أمروه به عقيبَ ذلك وقالوا له ﷺ: استلِمْ بعضَ آلهتِنا ونُؤمنْ بإلهك[4]. لفَرْط غباوتهم، ولذا نُودوا بعنوان الجهل.

وجوِّز أن يكون «أعبد» في موضع المفعول لـ «تأمرونِّي» على أنَّ الأصلَ: تأمروني أن أعبدَ، فُحذِفَت «أن» وارتفع الفعلُ كما قيل في قوله:

ألا أيُّهذا الزاجري أحضُرُ الوغى[5]

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٢.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٣٨.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: الطريفين، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٣٤٩، والكلام منه.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٠٧.

(٥) وعجزه: وأنْ أَشْهدَ اللذَّاتِ هل أنتَ مُخْلِدِ، والبيت لطرفة، وسلف ٢/ ٢٧٧.

ويؤيِّده قراءة من قرأ: «أعبدَ» بالنصب[١]، و«غير» منصوبٌ بما دلَّ عليه «تأمرونِّي أعبُدُ»، أي: تُعَبِّدونني غيرَ الله، أي: أتصيِّرونني عابداً غيرَه تعالى؟ ولا يصحُّ نصبُه بـ «أعبد»؛ لأنَّ الصلةَ لا تعمَلُ فيما قبلَها والمقدَّرُ كالموجود. وقال بعضهم: هو منصوبٌ به و«أن» بعدَ الحذف يُبطِل حكمَها المانعُ عن العمل.

وقرأ ابن كثير: «تأمرونِّيَ» بالإدغام وفتح الياء. وقرأ ابن عامر: «تأمرونَنِي» بإظهار النونين على الأصل، ونافع: «تأمرونِيَ» بنونٍ واحدةٍ مكسورةٍ وفتح الياء[٢].

وفي تعيينِ المحذوف من النونين خلافٌ، فقيل: الثانيةُ؛ لأنَّها التي حصَل بها التكرارُ، وقيل: الأولى؛ لأنَّها حرفُ إعرابٍ عرضةٌ للتغيير.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: من الرسُل عليهم السلام ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أي: بالله تعالى شيئاً ما ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾. الظاهرُ أنَّ جملةَ «لئن» إلخ نائبُ فاعلِ «أوحي»، لكن قيل: في الكلام حذفٌ، والأصلُ: أوحي إليك لئن أشركتَ ليحبَطَنَّ عملك.. إلخ، وإلى الذين من قبلك مثلُ ذلك. وقيل: لا حذف. وإفرادُ الخطاب باعتبار كلٍّ واحدٍ منه ﷺ والمرسلين الموحَى إليهم، فإنَّه أوحِيَ لكلٍّ: «لئن أشركت» إلخ بالإفراد.

وذهب البصريون إلى أنَّ الجملَ لا تكون فاعلةً فلا تقوم مقامَ الفاعل، ففي «البحر» أنَّ «إليك» حينئذٍ نائبُ الفاعل، والمعنى كما قال مقاتل: أوحي إليك وإلى الذين مِن قبلك بالتوحيد، وقوله تعالى: «لئن أشركت» إلخ استئنافٌ خوطِب به النبيُّ ﷺ خاصَّةً[٣]. وهو كما ترى.

وأيًّاما كان فهو كلامٌ على سبيل الفرض لِتَهْيِيج المخاطَب المعصوم وإقناطِ الكَفَرة؛ والإيذان بغاية شَناعةِ الإشراك وقُبحِه؛ وكونِه بحيث يُنْهَى عنه مَن لا يكاد

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٣٩.

(٢) التيسير ص١٩٠-١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٣-٣٦٤.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٣٩.

يباشرُه فكيف بمَن عَدَاه، فالاستدلالُ بالآية على جواز صدورِ الكبائر مِن الأنبياء عليهم السلام كما في «المواقف»(١)، ليس بشيء، فاحتمال الوقوع فرضاً كافٍ في الشرطيَّة لكن ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ استحالةَ الوُقوع شرعيَّةٌ.

ولاما «لقد» و«لئن» موطِّئتان للقسم، واللامان بعدُ للجواب.

وفي عدَم تَقْييد الإحباط بالاستمرار على الإشراك إلى الموت دليلٌ للحنفية الذاهبين إلى أنَّ الردَّةَ تُحبِط الأعمالَ التي قبلَها مطلقاً. نعم قالوا: لا يقْضِي منها بعدَ الرجوع إلى الإسلام إلا الحجَّ(٢).

ومذهبُ الشافعيِّ أنَّ الردَّةَ لا تُحبط العملَ السابقَ عليها ما لم يستمرَّ المرتدُّ على الكفر إلى الموت، وتركُ التقييد هنا اعتماداً على التصريح به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] ويكون ذلك من حمل المطلق على المقيَّد(٣).

وأجابَ بعضُ الحنفية بأنَّ في الآية المذكورة توزيعاً: (فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ) ناظرٌ إلى الارتداد عن الدين، (وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ) إلخ ناظرٌ إلى الموت على الكفر، فلا مقيَّدَ ليُحمل المطلَقُ عليه(٤).

ومن هذا الخلاف نشأ الخلاف في الصحابيِّ إذا ارتدَّ ثم عاد إلى الإسلام بعد وفاته ﷺ، أو قبلَها ولم يَرَهُ، هل يقال له: صحابيٌّ أم لا؟ فمن ذهب إلى الإطلاق قال: لا، ومن ذهب إلى التقييد قال: نعم(٥).

وقيل: يجوز أن يكون الإحباطُ مطلقاً من خصائص النبيِّ عليه الصلاة والسلام؛ إذ شِرْكُه ـ وحاشاه ـ أقبح. وفيه ضعفٌ؛ لأنَّ الغرضَ تحذيرُ أمته وتصويرُ

(١) المواقف ص٣٥٩.
(٢) حاشية ابن عابدين ٢/ ٧٥.
(٣) المجموع ٣/ ٦.
(٤) حاشية ابن عابدين ٢/ ٧٦، وينظر بدائع الصنائع ١/ ٤٧٨.
(٥) ينظر فتح المغيث ٣/ ٩٩-١٠٠، وشرح شرح نخبة الفكر لعلي القاري ص٥٧٦ و٥٨٤.

فظاعةِ الكفر، فتقديرُ أمرٍ يختصُّ به لا يتعدَّى من النبيِّ إلى الأمة لا اتجاهَ له مع أنَّه لا مستَنَدَ له من نقلٍ أو عقلٍ.

والمرادُ بالخسران على مذهب الحنفية ما لَزِمَ من حَبْط العمل، فكان الظاهرُ: فتكون، إلَّا أنه عُدل إلى ما في النظم الجليل؛ للإشعار بأنَّ كلًّا من الإحباط والخسران يستقلُّ في الزجر عن الإشراكِ.

وقيل: الخلود في النار، فيلزَمُ التقييدُ بالموت كما هو عند الشافعي عليه الرحمة.

وقرئ: «لِيُحْبِطَنَّ» مِن أَحْبَطَ، «عملَكَ» بالنصب، أي: لَيُحْبِطَنَّ اللهُ تعالى - أو: الإشراكُ - عملَك. وقرئ بالنون ونصبِ «عملك» أيضاً[(١)].

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ردٌّ لِمَا أمروه به مِن استلام بعضِ آلهتهم، والفاءُ جزائيةٌ في جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، كأنه قيل: إن كنتَ عابداً أو عاقلاً فاعبُدِ اللهَ، فحُذِف الشرطُ وجُعل تقديمُ المفعول عوضاً عنه، وإلى هذا ذهب الزمخشريُّ[(٢)]، وسلَفه في كونها جزائيةً الزجَّاجُ[(٣)]، وأنكر أبو حيان كونَ التقديم عوضاً عن الشرط[(٤)].

ومذهب الفراء والكسائي أن الفاء زائدة بين المؤكِّد والمؤكَّد، والاسم الجليل منصوب بفعل محذوف والتقدير: اللهَ أَعبدُ، فاعبُدْه[(٥)]. وقدِّر مؤخَّراً ليفيدَ الحصرَ.

وفي «الانتصاف»: مقتضى كلام سيبويه أنَّ الأصلَ: تنبَّهْ فاعبدِ الله، فحذفُوا الفعلَ الأوَّلَ اختصاراً، واستنكروا الابتداءَ بالفاء - ومن شأنها التوسُّطُ بين المعطوف والمعطوف عليه - فقدَّموا المفعولَ، فصارت الفاءُ متوسطةً لفظاً ودالَّةً على المحذوف، وانضافَ إليها فائدةُ الحصر لإشعار التقديم بالاختصاص[(٦)].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٧، والبحر ٧/ ٤٣٩.
(٢) في الكشاف ٣/ ٤٠٧.
(٣) إعراب القرآن للزجاج ٤/ ٣٦١.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٣٩.
(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٢٤، ونقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٠.
(٦) الانتصاف ٣/ ٤٠٨.

واعتبار الاختصاص قيل: مما لا بدَّ منه؛ لأنه لم يكن الكلامُ ردًّا عليهم فيما أمَروه به لولاه، فإنَّهم لم يطلبوا منه عليه الصلاة والسلام تركَ عبادةِ الله سبحانه، بل استلامَ آلهتهم والشركَ به عزَّ وجلَّ، اللهمَّ إلا أن يقال: عبادةُ الله سبحانه مع الشركِ كَلَا عبادةٍ، واللهُ جلَّ وعلا أغنى الشركاء، فمن أشرك في عمله أحداً معه عزَّ وجلَّ فعملُه لمن أشركَ، كما يدلُّ عليه كثيرٌ من الأخبار.

وقرأ عيسى: «بل اللهُ» بالرفع(١).

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ إنعامَه تعالى عليك الذي يضيق عنه نِطاقُ الحصر، وفيه إشارةٌ إلى موجِب الاختصاص.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عظَّموه جلَّ جلالُه حقَّ عظَمتِه إذ عبدوا غيرَه تعالى وطلبوا من نبيه ﷺ عبادةَ غيره سبحانه، قاله الحسن والسديُّ(٢).

وقال المبرِّد(٣): أصلُه من قولهم: فلان عظيمُ القدر، يريدونَ بذلك جلالَتَه. وأصلُ القدر اختصاصُ الشيء بعِظَمٍ أو صِغَرٍ أو مُساواةٍ.

وقال الراغب: أي ما عرفوا كنهه عزَّ وجلَّ(٤). وتُعقِّب بأن عدمَ(٥) معرفةِ كنهه تعالى - أي: حقيقتِه سبحانَه - لا يَخُصُّ هؤلاء؛ لتعذُّرِ الوقوف على الحقيقة، ومن هنا قيل:

العجزُ عن دَرَك الإدراكِ إدراكُ والبحثُ عن كُنْهِ ذاتِ الله إشراكُ(٦)

ولا يخفى أنَّ المسألةَ خلافيةٌ، وما ذُكر على تقدير التسليم يُمكن دفعُه بالعناية.

نعم أولى منه ما قيل: أي: ما عرفوه كما يليق به سبحانه، حيثُ جعلوا له سبحانه شريكاً. وظاهر كلامِ بعضهم أنَّ الكلامَ على تقديرِ مضافٍ، أي: ما قدَروا

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٣٩.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٥، والنكت والعيون ٥/ ١٣٤.
(٣) كما إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢١.
(٤) المفردات (قدر).
(٥) سقطت كلمة «عدم» من (م). والصواب إثباته.
(٦) البيت في الديوان المنسوب إلى علي ﷺ ص٧٣، ونسب إلى غيره.

في أنفسهم وما تصوَّرُوا عظَمةَ الله حقَّ التصوُّرِ فلم يعظِّموه كما هو حقُّه عزَّ وجلَّ، حيث وصفوه بما لا يليق بشؤونه الجليلة من الشركة ونحوِها.

وأيًّاما كان فهو متعلِّقٌ بما قبلَه مِن حيث إنَّ فيه تجهيلَهم في الإشراك ودعائهم[(١)] رسولَه ﷺ إليه.

وقيل: المعنى: ما وصفوا الله تعالى حقَّ صفتِه إذ جحدوا البعثَ، ووصفوه سبحانه بأنَّه خالقُ الخلق عبثاً، وأنه سبحانه عاجزٌ عن الإعادة والبعث. وهو خلافُ الظاهر، وعليه يكون للتمهيد لأمر النفخ في الصور.

وضميرُ الجمع على جميع ما ذكر لكفَّارِ قريش كما روي عن ابن عباس ﵄[(٢)].

وقيل: الضميرُ لليهود، تكلَّموا في صفات الله تعالى وجلالِه فألحدوا وجسَّموا وجاؤوا بكلِّ تخليط، فنزلت[(٣)].

وقرأ الأعمش: «حقَّ قدَره» بفتح الدال. وقرأ الحسن وعيسى وأبو نوفل وأبو حيوة: «وما قدَّروا» بتشديد الدال «حقَّ قدَره» بفتح الدال[(٤)].

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ الجملة في موضع الحال من الاسم الجليل، و«جميعاً» حالٌ من المبتدأ عندَ مَن يجوِّزه، أو مِن مقدَّرٍ كـ: أُثبِتُها جميعاً، كما قيل، وهو جارٍ مَجرى الحال المؤكِّدةِ في أنَّ العاملَ منتزَعٌ من مضمون الجملة. وفي «التقريب»: هو حالٌ مِن الضمير في «قبضتُه»؛ لأنه بمعنى: مقبوضة، وكان الظاهرُ أن يؤخَّرَ عنه، وإنَّما قدِّم عليه ليُعلم أول الأمر أنَّ الخبرَ الذي يَرِد لا يقع عن أرضٍ واحدةٍ أو بعضٍ دونَ بعضٍ، ولكنْ عن الأرَضين كلِّها أو عن جميع أبعاضها. وجازَ هذا التقديمُ؛ لأنَّ المصدرَ لم يعمَل مِن حيث كونُه مصدراً، بل لكونه بمعنى اسمِ المفعول.

---

(١) وقع في (م): دعاثهم، بالمثلثة، وفي الأصل: دعانهم، بالنون، والصواب المثبت، وهو ما يقتضيه السياق.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣١، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٤١، والبحر ٧/ ٤٣٩.

وقال الحوفي: العاملُ في الحال ما دلَّ عليه «قبضتُه» لا هي[١]. وهو كما ترى.

و«يوم القيامة» معمولُ «قبضته»؛ وهي في الأصل: المرَّةُ الواحدةُ من القَبض، وتُطلَق على المقدار المقبوضِ كالقُبضة بضمِّ القاف، وجُعلت صفةً مشبَّهةً حينئذٍ. وجوَّز كلٌّ مِن إرادة المقبوضة والمعنى المصدريِّ هنا، والكلامُ على الثاني على تقدير مُضافٍ، أي: ذواتُ قَبضتِه، أي: يقبِضُهنَّ سبحانه قَبضةً واحدةً.

وقرأ الحسن: «قبضتَه» بالنصب[٢] على أنه ظرفٌ مختصٌّ مشبَّهٌ بالمبهَم؛ ولذا لم يصرَّحْ بـ «في» معه، وهو مذهب الكوفيين، والبصريون يقولون: إنَّ النصبَ في مثل ذلك خطأٌ غيرُ جائزٍ، وأنَّه لا بدَّ مِن التصريح بـ «في».

وقرأ عيسى والجحدري: «مطوياتٍ» بالنصب[٣] على أنَّ «السماوات» عطفٌ على «الأرض» مشارِكةٌ لها في الحكم، أي: والسماواتُ قبضتُه، و«مطويات» حالٌ مِن «السماوات» عندَ مَن يجوِّز مجيءَ الحال مِن مثلِ ذلك، أو مِن ضميرها المستتِر في «قبضته» على أنَّها بمعنى: مقبوضته، أو من ضميرِها محذوفاً، أي: أثبِتُها مطوياتٍ، و«بيمينه» متعلِّقٌ بـ «مطويَّات». أو على أنَّ «السماوات» مبتدأ و«بيمينه» الخبرُ، و«مطويات» حالٌ أيضاً إمَّا من المبتدأ، أو من الضمير المحذوف، أو من الضمير المستتر في الخبر بناءً على مذهب الأخفش مِن جوازِ تقديم الحال في مثلِ ذلك.

والكلامُ عند كثيرٍ مِن الخلف تمثيلٌ لحالِ عظَمته تعالى ونفاذِ قدرته عزَّ وجلَّ، وحقارةِ الأفعال العِظام التي تتحيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافة إليها، بحالِ مَن يكونُ له قَبضةٌ فيها الأرضُ جميعاً، ويمينٌ بها يطوِي السماواتِ، أو بحالِ مَن يكونُ له قبضةٌ فيها الأرضُ والسماواتُ ويمينٌ بها يطوي السماواتِ مِن غير ذَهاب بالقبضةِ ولا باليمينِ إلى جهة حقيقة، أو مجازٌ بالنسبة إلى المُجرَى عليه وهو الله عزَّ شأنه.

---

(١) البحر ٧/ ٤٤٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٤٠.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٤٠.

وقال بعضهم: المراد التنبيهُ على مزيد جلالته عزَّ وجلَّ وعظَمتِه سبحانه بإفادةِ أنَّ الأرضَ جميعاً تحتَ مُلكه تعالى يوم القيامة فلا يتصرَّفُ فيها غيرُه تعالى شأنه بالكلية كما قال سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] والسماوات مطوياتٌ طيَّ السجِلِّ للكتُب بقدرته التي لا يتعاصاها شيءٌ. وفيه رمزٌ إلى أنَّ ما يُشركونه معه عزَّ وجلَّ أرضيًّا كانَ أم سماويًّا مقهورٌ تحتَ سلطانه جلَّ شأنه وعزَّ سلطانُه، فالقَبضة مجازٌ عن الملك أو التصرُّف، كما يقال: بلدُ كذا في قبضةِ فلانٍ، واليمينُ مجازٌ عن القدرةِ التامَّةِ.

وقيل: القبضةُ مجازٌ عمَّا ذُكر ونحوِه، والمرادُ باليمين القَسَم، أي: والسماوات مُفْنَياتٌ بسبب قَسَمِه تعالى؛ لأنه عزَّ وجلَّ أقسم أن يُفْنِيَها. وهو مما يُهْزَأُ منه لا مما يُهْتَزُّ استحساناً له.

والسلفُ يقولون أيضاً: إنَّ الكلامَ تنبيهٌ على مزيدِ جلالته تعالى وعظمته سبحانه، ورمزٌ إلى أنَّ آلهتهم أرضيةً أم سماويةً مقهورةٌ تحتَ سلطانه عزَّ وجلَّ، إلَّا أنَّهم لا يقولون: إنَّ القبضة مجازٌ عن الملك أو التصرُّفِ، ولا اليمين مجازٌ عن القدرة، بل ينزِّهونَ الله تعالى عن الأعضاء والجوارِح ويؤمنون بما نَسبه إلى ذاته بالمعنى الذي أراده سبحانه.

وكذا يفعلون في الأخبار الواردة في هذا المقام؛ فقد أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ وغيرُهم عن ابن مسعود قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنَّا نجد: اللهُ يحمِلُ السماواتِ يومَ القيامة على إصبعٍ، والأرَضين على إصبعٍ، والشجرَ على إصبعٍ، والماءَ والثرى على إصبعٍ، وسائرَ الخلقِ على إصبعٍ، فيقول: أنا الملِكُ، فضحِك رسولُ الله ﷺ حتى بدَتْ نواجذُه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسولُ الله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية[1].

---

(١) صحيح البخاري (٤٨١١)، وصحيح مسلم (٢٧٨٦)، وسنن الترمذي (٣٢٣٨)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٣٨٦)، وهو في مسند أحمد (٤٣٦٨).

والمتأوِّلون يتأوَّلون الأصابعَ على الاقتدار وعدمِ الكلفة كما في قول القائل: أقتل زيداً بإصبعي. ويُبعِد ذلك ظاهرُ ما أخرجه الإمام أحمد، والترمذيُّ وصححه، والبيهقيُّ، وغيرُهم، عن ابن عباس قال: مرَّ يهودي على رسول الله ﷺ وهو جالسٌ؛ قال: كيف تقول يا أبا القاسم، إذا وضع الله السماواتِ على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرضين على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ كلُّ ذلك يشيرُ بأصابِعه فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1].

وجعل بعضُ المتأوِّلين الإشارةَ إعانةً على التمثيل والتخييل.

وزعم بعضهم أنَّ الآيةَ نزلت ردًّا لليهوديِّ حيث شبَّه وذهب إلى التجسيم، وأنَّ ضحكَه عليه الصلاة والسلام المحكيَّ في الخبر السابق كان للردِّ أيضاً، وأنَّ «تصديقاً له» في الخبر من كلام الراوي على ما فهِم. ولا يخفى أنَّ ذلك خلافُ الظاهر جدًّا، وجعلوا أيضاً من باب الإعانة على التمثيل وتخييل العظمةِ فعْلَه عليه الصلاة والسلام حين قرأ هذه الآيةَ، فقد أخرج الشيخان والنسائيُّ وابنُ ماجه وجماعةٌ عن ابن عمرَ أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآيةَ ذاتَ يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده ويحرِّكها يُقبِل بها ويُدْبِر «يمجِّدُ الربُّ نفسَه: أنا الجبارُ، أنا المتكبر، أنا المَلِك، أنا العزيز، أنا الكريم»، فرجَف برسول الله ﷺ المنبرُ حتى قلنا: ليخِرَّنَّ به[2].

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مقسم أنَّه نظر إلى ابن عمرَ كيف يحكي رسولَ الله ﷺ، قال: «يأخذُ اللهُ تعالى سماواتِه وأرضيه بيدَيه، ويقول: أنا الله ـ ويقبِضُ أصابعَه ويبسطها ـ أنا الملك»[3].

---

(١) مسند أحمد (٢٩٨٨)، وسنن الترمذي (٣٢٤٠)، ونقله المصنف عن السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٥.

(٢) صحيح البخاري (٧٤١٢)، وصحيح مسلم (٢٧٨٨) بلفظٍ مختلف مختصراً، والسنن الكبرى للنسائي (٧٦٤٩)، وسنن ابن ماجه (١٩٨)، وهو في مسند أحمد (٥٤١٤).

(٣) صحيح مسلم (٢٧٨٨) (٢٥).

وفي «شرح الصحيح» للإمام النوويِّ نقلاً عن المازري أنَّ قبضَ النبيِّ ﷺ أصابعَه وبسطَها تمثيلٌ لقبضِ هذه المخلوقات وجمعِها بعدَ بسطِها، وحكايةٌ للمبسوط المقبوضِ وهو السماواتُ والأَرَضون، لا إشارةٌ إلى القبض والبسط الذي هو صفةٌ للقابضِ والباسطِ سبحانه وتعالى، ولا تمثيل لصفةِ الله تعالى السمعية المسماة باليد التي ليست بجارحةٍ[1]. انتهى.

ثم إنَّ ظاهرَ بعضِ الأخبار يقتضي أنَّ قبضَ الأرضِ بعد طيِّ السماوات، وأنَّه بيدٍ أخرى؛ أخرج مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله تعالى السماوات يومَ القيامة ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبِّرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أين الجبارون؟ أين المتكبِّرون؟»[2].

وفي «الشرح» نقلاً عن المازريِّ أيضاً: أنَّ إطلاقَ اليدَين لله تعالى متأوَّلٌ على القدرة، وكنى عن ذلك باليدين؛ لأنَّ أفعالَنا تقع باليدين فخُوطبنا بما نفهمه ليكونَ أوضحَ وأوكدَ في النفوس، وذكر اليمين والشمالَ حتى يتمَّ التأوُّل؛ لأنَّا نتناولُ باليمين ما نُكرمه وبالشمال ما دونه؛ ولأنَّ اليمينَ في حقِّنا تقوَى لِمَا لا تقوى له الشمالُ، ومعلومٌ أنَّ السماواتِ أعظمُ من الأرضِ فأضافها إلى اليمين وأضافَ الأرضين إلى الشمال ليظهر التقريبُ في الاستعارة، وإن كان اللهُ سبحانه وتعالى لا يُوصَف بأنَّ شيئاً أخفُّ عليه من شيء ولا أثقلُ من شيء[3]. انتهى.

والصوفيةُ يقولون بالتجلِّي الصوريِّ مع بقاء الإطلاق والتنزيهِ المدلولِ عليه بـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، والأمرُ عليه سهلٌ جدًّا.

ثم إنَّ التصرُّفَ في الأرضِ والسماواتِ يكونُ والناس على الصراط، كما جاء في خبرٍ رواه مسلم عن عائشةَ مرفوعاً[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٣٢، والكلام فيه منسوب للقاضي عياض لا للمازري، وهو في إكمال المعلم ٨/ ٣١٩.
(٢) صحيح مسلم (٢٧٨٨) (٢٤).
(٣) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٣٢، وكلام المازري في المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٩٦.
(٤) صحيح مسلم (٢٧٩١).

ورَوَى أيضاً عن أبي سعيد الخدريِّ عن رسول الله ﷺ قال: «تكون الأرضُ يوم القيامة خبزةً واحدةً يكفَؤُها الجبَّارُ بيده كما يكفَأُ أحدُكم خبزتَه في السَّفَر؛ نزلاً لأهل الجنة»[١]. والكلام في هذا الخبر كالكلام في نظائره، وإياك من التشبيه والتجسيم، وكذا مِن نسبةِ ذلك إلى السلف، ولا تكُ كالمعتزلةِ في التحامُل عليهم والوقيعة فيهم، ويكفي دليلاً على جَهْلِ المعتزلة بربِّهم زعمُهم أنَّه عزَّ وجلَّ فوَّض العبادَ، فهم يفعلون ما لا يشاء، ويشاء ما لا يفعلون.

﴿سُبْحَانَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: ما[٢] أبعدَ مَن هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم، أو عمَّا يُشركونه من الشركاء، فـ «سبحان» للتعجُّب، وتتعلَّقُ به «عن» بالتأويل بما ذُكر، و«ما» تحتمِلُ المصدريةَ والموصوليةَ.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ المشهورُ أنَّ النافخَ فيه ملَكٌ واحدٌ وأنه إسرافيل عليه السلام، بل حكى القرطبيُّ الإجماعَ عليه[٣]. وفي حديثٍ أخرجه ابن ماجه والبزار وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: أنَّ النافخَ اثنان[٤]. ويدلُّ عليه أيضاً أخبارٌ أُخَر، منها ما أخرجه أحمد والحاكم عن ابن عمرو[٥] أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «النافخان في السماء الثانية، رأسُ أحدهما بالمشرق ورِجلاه بالمغرب، ينتظران متى يُؤْمران أن يَنْفخا في الصور فينفخا»[٦].

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٩٢).

(٢) قوله: ما، ليست في (م)، وأثبتناها من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٦٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٤٣٠.

(٤) سنن ابن ماجه (٤٢٧٣)، ومسند البزار (٣٤٢٤ - كشف)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٣٨.

(٥) وقع في الأصل و(م): ابن عمر، وهو تصحيف، والمثبت من المصادر.

(٦) أخرجه أحمد (٦٨٠٤) من طريق أسلم عن أبي مُرَيَّةَ عن النبي ﷺ، أو عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ. وإسناده ضعيف للشك بين إرساله ووصله، ولجهالة حال أبي مُرَيَّةَ.
قال الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٩: أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو من غير شك. اهـ. وكذا عزاه للحاكم السيوطي في الدر ٥/ ٣٣٨ من حديث ابن عمر، ولم نقف عليه في مطبوع المستدرك.

وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أنه واحدٌ وأنه شاخصٌ ببصره إلى إسرافيل عليه السلام، ما طَرَف منذُ خلقه الله تعالى، ينتظر(١) متى يشير إليه فينْفُخُ في الصور(٢).

والصورُ قرنٌ عظيمٌ فيه ثُقْبٌ بعدد كلِّ روحٍ مخلوقةٍ ونفسٍ منفوسةٍ، وأخرج أبو الشيخ عن وهب أنَّه من لؤلؤةٍ بيضاءَ في صفاءِ الزجاجة، به ثُقْبٌ دقيقةٌ بعدد الأرواح، وفي وسَطِهِ كُوَّةٌ كاستدارةِ السماء والأرض(٣).

ونحن نؤمن به ونفوِّضُ كيفيتَه إلى علَّام الغُيوب جلَّ شأنه. وأنكر بعضُهم ذلك، وقال: هو جمعُ صورة، كما في قراءة قتادةَ وزيد بن عليٍّ: «في الصُّوَر» بفتح الواو(٤)، وقد مرَّ الكلامُ في ذلك(٥).

والتعبيرُ بالماضي لتحقُّق الوقوع، وبُني الفعلُ للمفعول؛ لعدم تعلُّق الغرض بالفاعل، بل الغرضُ إفادةُ هذا الفعل من أيِّ فاعلٍ كان، فكأنه قيل: ووقع النفخُ في الصور.

﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ماتوا بسبب ذلك، ويحتمِلُ أنَّهم يُغشى عليهم أوّلاً ثم يموتون، ففي «الأساس»: صَعِقَ الرجلُ [وصُعِقَ]: إذا غُشي عليه من هدَّةٍ أو صوتٍ شديدٍ يسمعه، وصَعِقَ: إذا مات(٦).

وفي «صحيح مسلم» من حديثٍ طويل فيه ذكرُ الدجال: «ثم يُنْفَخ في الصُّور فلا يسمعه أحدٌ إلا أصغى لِيتاً(٧) ورفع لِيتاً، فأوّلُ من يسمعه رجلٌ يلوطُ حوضَ إبله، فيصعَقُ ويصعق الناس»(٨).

---

(١) تحرَّف في الأصل إلى: ينظر.
(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٨٠) عن أبي بكر الهذلي، وهو متروك الحديث.
(٣) العظمة (٣٩١).
(٤) البحر ٧/ ٣٤١.
(٥) ينظر ٧/ ١٩١.
(٦) أساس البلاغة (صعق) وما بين حاصرتين منه.
(٧) في هامش الأصل: الليت: صفحة العنق. وأصغى: أمال.
(٨) صحيح مسلم (٢٩٤٠) عن عبد الله بن عمرو ﵄.

وقرئ: «فصُعِقَ» بضمِّ الصاد[1].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال السديُّ: جبريلُ وإسرافيلُ وميكائيلُ وملَكُ الموت عليهم السلام[2]. وقيل: هم وحَمَلةُ العرش، فإنَّهم يموتون بعدُ. وفي ترتيب موتهم اضطرابٌ مذكورٌ في «الدر المنثور»[3].

وقيل: رضوانُ والحورُ ومالكٌ والزبانيةُ. وروي ذلك عن الضحاك.

وقيل: مَن مات قبل ذلك، أي: يموت مَن في السماوات والأرض إلا من سبق موتُه؛ لأنهم كانوا قد ماتوا. قال في «البحر»[4]: وهذا نظيرُ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

ومن الغريب ما حُكي فيه أنَّ المستثنى هو اللهُ عزَّ وجلَّ، ولا يخفى عليك حالُه متصلاً كانِ الاستثناءُ أم منقطعاً.

وقيل: هو موسى عليه السلام. وسيأتي الكلامُ إن شاء الله تعالى في تحقيق ذلك. وقيل غير ذلك.

ويراد بـ: «السماوات» على أكثر الأقوال جهةُ العلوِّ، وإلَّا لم يتَّصل الاستثناءُ، فإنَّ حملةَ العرش مثلاً ليسوا في السماواتِ بالمعنى المعروف، وقيل: إنه لم يَرِدْ في التعيين خبرٌ صحيحٌ.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي: في الصور، وهو ظاهرٌ في أنه ليس بجمع، وإلا لقيل: فيها. ﴿أُخْرَىٰ﴾ أي: نفخةٌ أخرى، وهو يدلُّ على أنَّ المرادَ بالأول: ونُفِخ في الصور نفخةٌ واحدةٌ، كما صرِّح به في مواضع؛ لأنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ، فلو أريد المطلقُ الشاملُ للأخرى لم يكن لذكرِها هاهنا وجهٌ، و«أخرى» تحتمِلُ النصبَ على أنها صفةُ مصدرٍ مقدَّر، أي: نفخةً أخرى، والرفعَ على أنها صفةٌ لنائِب الفاعل، وعلى الأول كان النائبُ عنه الظرفَ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣١، والبحر ٧/ ٤٤١.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٥٤.
(٣) ٥/ ٣٣٦ وما بعدها.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٤١.

وصحَّ في صحيحَي البخاريِّ ومسلم أنَّ الله تعالى يُنْزِلُ بينَ النفختين ماءً من السماء ـ جاء في بعض الروايات أنه كالطَّلِّ بالمهملة، وفي بعضها: كمنيِّ الرجال ـ فتنبُتُ منه أجسادُ الناس، وأنَّ بين النفختين أربعين، وهذا عن أبي هريرة مرفوعاً، لم يبيِّن فيه ما هذه الأربعون(١).

وفي حديثٍ أخرجه أبو داود أنها أربعون عاماً(٢).

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن العاص(٣) قال: يُنفخ في الصور النفخة الأولى من باب إيلياء الشرقيِّ، أو قال: الغربيِّ، والنفخةُ الثانيةُ من بابٍ آخرَ.

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمون من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ينتظرون ما يُؤمَرون، أو: ينتظرون ماذا يُفعل بهم. وقيل: يُقلِّبون أبصارَهم في الجهات نظرَ المبهوت إذا فاجأه خطْبٌ عظيمٌ. وتُعقِّب بأنَّ قولَهم عند قيامهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] يأباه ظاهراً نوعَ إباءٍ.

وجوِّز أن يكون «قيام» من القيام مقابِلَ الحركة، أي: فإذا هم متوقِّفون جامدُون في أمكنتهم لتحيُّرهم. واعتُرِض بأنَّ قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] ظاهرٌ في خلافه؛ لأن النسل: الإسراعُ في المشي، وكذا قولُه تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «قياماً» بالنصب(٤) على أنَّ جملةَ «ينظرون» خبرُ «هم»،

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٥)، وصحيح مسلم (٢٩٥٥)، ورواية: «كالطل»أخرجها الإمام أحمد في مسنده (٦٥٥٥)، ومسلم في صحيحه (٢٩٤٠) عن عبد الله بن عمرو، ورواية: «كمنيِّ الرجال» أخرجها الحاكم في المستدرك ٤/ ٤٩٧، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وسلف ٢١/ ١٠٦ و٢٢/ ١٧٥.

(٢) قوله: أبو داود، كذا في الأصل و(م) ومطبوع الدر المنثور ٥/ ٣٣٧، وهو تصحيف، والصواب: ابن أبي داود، وهي رواية شاذة كما في فتح الباري ٨/ ٥٥٢. وينظر ما سلف ٢٠/ ٤٩٥.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ومطبوع الدر المنثور ٥/ ٣٣٩، والصواب: عبد الله بن عمرو بن العاص، كما أخرجه عنه الدولابي في الكنى (١٦٠٣).

(٤) البحر ٧/ ٤٤١.

و«قياماً» حالٌ من ضميرِ «ينظرون» قدِّم للفاصلة، أو من المبتدأ عند من يجوِّز ذلك.

وفي «البحر»: النصبُ على الحال، وخبرُ المبتدأ الظرفُ الذي هو «إذا» الفجائيةُ، وهي حالٌ لا بدَّ منها، إذ هي محطُّ الفائدةِ، إلا أن يقدَّرَ الخبرُ محذوفاً، أي: فإذا هم مبعوثون، أو: موجودون قياماً، وإذا نُصِب «قياماً» على الحال فالعامل فيها ذلك الخبرُ المحذوفُ إن قلنا به، وإلا فالعاملُ هو العامل في الظرف، فإن كان «إذا» ظرفَ مكان على ما يقتضيه ظاهرُ كلامِ سيبويه، فتقديرُه: فبالحضرة هم قياماً، وإن كان ظرفَ زمانٍ كما ذهب إليه الرياشيُّ، فتقديره: ففي ذلك الزمان الذي نفخ فيه هم، أي: وجودُهم، واحتيج إلى تقدير هذا المضاف لأنَّ ظرفَ الزمانِ لا يكون خبراً عن الجثة، وإن كانت «إذا» حرفاً كما زعم الكوفيون فلا بدَّ من تقدير الخبر، إلا إن اعتقدنا أنَّ «ينظرون» هو الخبرُ، ويكون عاملاً في الحال(١). انتهى.

ولعمري إنَّ مذهب الكوفيين أقلُّ تكلُّفاً.

هذا، وهاهنا إشكالٌ بناءً على أنَّهم فسَّروا نفخةَ الصعق بالنفخة الأولى التي يموت بها من بقي على وجه الأرض؛ فإنه قد أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وابن ماجه والإمام أحمد وغيرُهم عن أبي هريرة قال: قال رجلٌ من اليهود بسوق المدينة: والذي اصطفى موسى على البشر. فرفع رجلٌ من الأنصار يدَه فلطمه، قال: أتقول هذا وفينا رسول الله ﷺ؟ فذكرتُ ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: «قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فأكونُ أوَّلَ من يرفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أَرَفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى اللهُ تعالى»(٢). وهو يأبى تفسيرَ النفخة بذلك ضرورةَ أنَّ موسى عليه السلام قد مات قبل تلك النفخة بألوفِ سنين، واحتمالُ أنه عليه السلام لم يمت كما قيل

(١) المصدر السابق.

(٢) مسند أحمد (٩٨٢١)، وصحيح البخاري (٢٤١١)، وصحيح مسلم (٢٣٧٣)، وسنن الترمذي (٣٢٤٥)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٤).

في الخضر وإلياس مما لا ينبغي أن يتفوَّه به حيٌّ، ويدلُّ كما قال بعض الأ . . على أنها نفخة البعث.

وقال القاضي عياض[١]: يحتمل أن تكونَ هذه صعقةُ فَزَعٍ بعد النشر حين تنشقُّ السماواتُ، فتتوافقُ الآياتُ والأحاديثُ، وتكون النفخاتُ ثلاثاً. وهو اختيار ابن العربي، وردَّه القرطبيُّ بأنَّ أخذَ موسى عليه السلام بقائمة العرش إنما هو عند نفخة البعث، وادَّعى أنَّ الصحيحَ أنْ ليس إلا نفختان، لا ثلاث ولا أربع كما قيل. ثم قال: والذي يُزيح الإشكال ما قال بعضُ مشايخنا: إنَّ الموتَ ليس بعدمٍ محضٍ بالنسبة للأنبياء عليهم السلام والشهداءِ، فإنَّهم موجودون أحياءُ وإن لم نَرَهم، فإذا نُفِخَتْ نفخةُ الصعق صَعِق كلُّ مَن في السماء والأرض، وصعقةُ غيرِ الأنبياء موتٌ، وصعقتُهم غشيٌ، فإذا كانت نفخةُ البعث عاش من مات وأفاق من غُشي عليه، ولذا وقع في الصحيحين: «فأكون أوَّل من يفيق»[٢]. انتهى.

ولا يخفى أنَّه يحتاج إلى القول بجواز استعمال المشتَركِ في معنَيَيْهِ معاً، أو إلى ارتكاب عموم المجاز، أو التزام إرادة غشي عليهم، وأنَّ موتَ مَن يموت بعد الغشي مُفادٌ من أمرٍ آخر، فتدبَّر.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: أرضُ المحشر وهي الأرض المبدَّلةُ من الأرض المعروفة. وفي الصحيح: «يُحْشَرُ الناسُ على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ كقُرْصَةِ النَقِيِّ، ليس فيها علَمٌ لأحدٍ»[٣]. وهي أوسع بكثير من الأرض المعروفة، وفي بعض الروايات أنها يومئذ من فضَّة[٤]، ولا يصحُّ.

أي: أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ هو على ما روي عن ابن عباس: نورٌ يَخلُقه الله

---

(١) في إكمال المعلم ٧/ ٣٥٧.

(٢) التذكرة ص١٦٩ و١٨٤، وحديث: «فأكون أول من يفيق» أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣) (١٦٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٩٠) من حديث سهل بن سعد، قوله: عفراء: قال النووي: بيضاء إلى حمرةٍ. قوله: النقِيُّ: قال: هو الدقيق الحوَّارى. شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٣٤.

(٤) سلف ١٣/ ٣٥٩-٣٦٠.

تعالى بلا واسطةِ أجسامٍ مُضيئةٍ كشمسٍ وقمرٍ[١]. واختاره الإمام وجعل الإضافةَ من باب: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣][٢].

وعن محيي السنة تفسيرُه بتجلِّي الربِّ لفصل القضاء[٣]. وعن الحسن والسديِّ تفسيرُه بالعدل[٤]، وهو من باب الاستعارة، وقد استُعير لذلك وللقرآن والبرهانِ في مواضعَ من التنزيل، أي: وأشرقت الأرضُ بما يقيمه فيها من الحقِّ والعدل ويَبسُطه سبحانه من القسط في الحساب ووزنِ الحسنات والسيئات.

واختار هذا الزمخشريُّ وصحَّح أولاً تلك الاستعارةَ بتكرُّرها في القرآن العظيم.

وحقَّقها ثانياً بقوله: وينادي على ذلك إضافتُه إلى اسمه تعالى؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ هو الحقُّ العدلُ إشارةً إلى الصارف إلى التأويل.

وعيَّنها ثالثاً بإضافةِ اسمه تعالى الربِّ إلى الأرض؛ لأنَّ العدلَ هو الذي يتزيَّنُ به الأرض لا البرهان مثلاً.

ورابعاً بما عُطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب، والمجيء بالنبيين والشهداءِ، والقضاءِ بالحقِّ؛ لأنَّه كلُّه تفصيلُ العدل بالحقيقة.

وأيَّدها خامساً بالعرف العامِّ؛ فإنَّ الناسَ يقولون للملك العادل: أشرقَتِ الآفاقُ بعَدْلك، وأضاءتِ الدنيا بقِسطك.

وسادساً بقوله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[٥] فإنَّه يقتضي أن يكون العدلُ نوراً فيه.

وسابعاً بأنَّ فتحَ الآية وختمَها بنفي الظلم يدلُّ عليه ليكونَ من باب ردِّ العَجُز على الصدر على طريقة الطرد والعكس[٦].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٤٢.
(٢) التفسير الكبير ٢٧/ ١٩.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٨٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) سلف ١٨/ ٤٠٠.
(٦) الكشاف ٣/ ٤١٠.

ورجّح ما اختار الإمامُ بأنَّ الأصلَ الحقيقةُ، ولا صارفَ، لأنَّ الإضافةَ تصحُّ بأدنى ملابسةٍ. وأيّد ما حُكي عن محيي السنة ببعض الأحاديث.

وتعقَّب ذلك صاحبُ «الكشف» فقال: إن إضافة الملابسة مجازٌ[(١)]، والترجيحُ لِمَا اختاره جارُ الله لِما ذُكِر من الفوائد، ولأنَّه الشائعُ في استعمال القرآن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وأما تجلِّي الربِّ سبحانه فسواءٌ حُمل على تجلِّي الجلال أو تجلِّي الجمال لا يقتضي إشراقَ الأرض بنورٍ إلَّا بأحد المعنيين، أعني: العدلَ، أو عرضاً يخلقهُ الله تعالى عند التجلِّي في الأرض، فلو تُوهِّم من تجلِّيه تعالى أنَّه ينعكس نورٌ منه على الأرض لاستحال إلا بالتفسير المذكور، فليس قولاً ثالثاً ليُنْصر ويؤيَّدَ بالحديث الذي لا يدلُّ على أنه تفسيرُ الآية المشتمِلِ على حديث الرؤية وإلقاءِ ستره تعالى على العبد يذكر ما فَعل به وما جنى. انتهى.

ولعلَّ الأوفقَ بما يُشعر به كثيرٌ من الأخبار أنَّ قوله سبحانه: (وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) إشارةٌ إلى تجلِّيه عزَّ وجلَّ لفصل القضاء، وقد يعبَّر عنه بالإتيان، وقد صرَّح به في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ولم يتأوَّلْ ذلك السلفُ، بل أثبتوه له سبحانه ـ كالنزول ـ على الوجه الذي أثبته عزَّ وجلَّ لنفسه.

ولا يبعُد أن يكون هذا النورُ هو النورَ الواردَ في الحديث الصحيح: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفِضُ القِسْطَ ويرفعه، يُرفع إليه عملُ الليل قبلَ عمل النهار، وعملُ النهار قبلَ عمل الليل، حجابه النورُ»[(٢)]. ويقال فيه: كالحجاب، نحوَ ما قال السلف في سائر المتشابهات، أو هو نورٌ آخرُ يظهر عند ذلك التجلِّي، ولا أقول: هو نورٌ منعكسٌ من الذات المقدَّس انعكاسَ نورِ الشمس مثلاً من الشمس، بل الأمرُ فوقَ ما تنتهي إليه العقولُ، وأنَّى وهيهات وكيف ومتى يتصوَّرُ إلى حقيقة ذلك الوصول؟ ويُومئُ إلى أنَّ ذلك التجلِّي مقرونٌ بالعدل التعبيرُ بعنوان الربوبية مضافاً إلى ضمير الأرض، والله تعالى أعلم بمراده.

---

(١) ورد هنا في هامش الأصل و(م) ما نصه: هو اختيار لأحد قولين في المسألة. اهـ منه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٩) عن أبي موسى ﷺ.

وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير وأبو الجوزاء: «أُشرقت» بالبناء للمفعول[١].
قال الزمخشريُّ: مِن شرِقَتْ بالضوء تَشْرَقُ: إذا امتلأت به واغتصَّت، وأشرقها اللهُ تعالى، كما تقول: ملأ الأرضَ عدلاً، وطبَّقها عدلاً[٢].

وقال ابن عطية: هذا إنما يترتَّبُ من فعلٍ يتعدَّى، فهذا على أن يقال: أشرق[٣] البيتُ وأشرقَه السراجُ، فيكون الفعل مجاوزاً وغير مجاوزٍ.

وقال صاحب «اللوامح»: وجب أن يكون الإشراقُ على هذه القراءة منقولاً من: شرقت الشمس، إذا طلعت، فيصيرُ متعدِّياً، والمعنى: أُذهبَت ظلمةُ الأرض، ولا يجوز أن يكون من: أشرقَتْ، إذا أضاءت، فإنَّ ذلك لازمٌ، وهذا قد يتعدَّى إلى المفعول.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قال السديُّ: الحساب[٤]، فالكتاب مجازٌ عن الحساب، ووضْعُه ترشيحٌ له، والمراد به الشروعُ فيه، ويجوز جعل الكلام تمثيلاً.

وقال بعضهم: صحائفُ الأعمال وُضعت بأيدي العُمَّال، فالتعريفُ للجنس أو الاستغراق.

وقيل: اللوحُ المحفوظ، وضع ليقابَل به الصحائفُ. فالتعريفُ للعهد، وروي هذا القول عن ابن عباس، واستبعده أبو حيان، وقال: لعلَّه لا يصحُّ عن ابن عباس[٥].

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قيل: ليُسألوا: هل بلَّغوا أُمَمَهم؟ وقيل: ليحضُروا حسابَهم.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ قال عطاء ومقاتل وابن زيد: الحفَظَة[٦]. وكأنَّهم أرادوا أنَّهم يشهدون على كلٍّ مِن الأمم أنَّهم بُلِّغوا، أو يشهدون على كلٍّ بعمله، كما قال سبحانه: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٣٩، والبحر ٧/ ٤٤١.
(٢) الكشاف ٣/ ٤١٠.
(٣) في الأصل: أشرقت، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز ٤/ ٥٤٢.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٦٢.
(٥) البحر ٧/ ٤٤٢.
(٦) المصدر السابق.

وفي بعض الآثار: أنَّه يُؤتى باللوح المحفوظ وهو يرتَعِد، فيقال له: هل بلَّغتَ إسرافيل؟ فيقول: نعم يا ربِّ، بلَّغتُه. فيؤتى بإسرافيل وهو يرتعد، فيقال له: هل بلَّغك اللوح؟ فيقول: نعم يا رب. فعند ذلك يسكُن رَوعُ اللوح، ثم يقال لإسرافيل: فأنت هل بلَّغْتَ جبرائيل؟ فيقول: نعم يا رب. فيؤتى بجبرائيل وهو يرتعد، فيقال له: هل بلَّغك إسرافيل؟ فيقول: نعم يا رب. فعند ذلك يسكُن رَوع إسرافيل، ثم يقال لجبرائيل: فأنت هل بلَّغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيؤتى بالمرسلين وهم يرتعدون، فيقال لهم: هل بلَّغكم جبرائيل؟ فيقولون: نعم. فيسكُن عند ذلك رَوع جبرائيل، ثم يقال لهم: فأنتم هل بلَّغتم؟ فيقولون: نعم. فيقال للأمم: هل بلَّغكم الرسل؟ فيقول كَفَرَتُهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فيعظُمُ على الرسل الحالُ ويشتدُّ البَلْبال[1]، فيقال لهم: من يشهَدُ لكم؟ فيقولون: النبيُّ الأميُّ وأمته، فيؤتى بالأمة المحمدية فيشهدون لهم أنهم بلَّغوا، فيقال لهم: من أين علِمْتُم ذلك؟ فيقولون: من كتابٍ أنزله الله تعالى علينا، ذَكر سبحانه فيه أنَّ الرسلَ بلَّغوا أمَمَهم، ويزكِّيهم النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][2]. ومن هنا قيل: المراد بالشهداء في الآية أمةُ نبيِّنا ﷺ.

وقال الجبائي وأبو مسلم: هم عدول الآخرة يشهدون للأمم وعليهم[3].

وقيل: جميعُ الشهداء من الملائكة وأمة محمد صلى الله عليه وسلم والجوارح والمكان.

وأيًّاما كان فالشهداءُ جمع: شاهدٍ. وقال قتادة والسديُّ: المراد بهم المستشهَدُون في سبيل الله تعالى[4]. فهو جمعُ شهيدٍ، وليس بذاك.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين العباد المفهوم من السياق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لَا

---

(١) البَلْبال: الهمُّ ووِسواس الصدر، مختار الصحاح (بلل).

(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٣٨.

(٣) مجمع البيان ٥/ ١٧٣.

(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٦٣، وزاد المسير ٧/ ١٩٨.

يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بنقص ثوابٍ أو زيادةِ عقابٍ على ما جَرى به الوعدُ، بناءً على أنَّ الظلم حقيقةً لا يُتَصَوَّرُ في حقِّه تعالى، فإنَّ الأمرَ كلَّه له عزَّ وجلَّ.

﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي: أُعطِيَتْ جزاءَ ذلك كاملاً ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ فَلا يفوته سبحانه شيءٌ من أعمالهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ إلخ تفصيلٌ للتوفية وبيانٌ لكيفيتها، والفاءُ ليس بلازم، والسَّوقُ يقتضي الحثَّ على المسير بعُنْفٍ وإزعاجٍ وهو الغالبُ، ويُشعِر بالإهانة، وهو المراد هنا، أي: سِيْقوا إليها[1] بالعنف والإهانة أفواجاً متفرِّقة بعضها في إثرِ بعض مترتِّبةً حسبَ ترتُّبِ طبقاتهم في الضلالة والشرارة.

والزُّمَرُ جمعُ زُمْرَةٍ، قال الراغب: هي الجماعةُ القليلةُ، ومنه قيل: شاة زَمِرَةٌ: قليلةُ الشعر، ورجلٌ زَمِرٌ: قليلُ المروءة، ومنه اشتُقَّ الزَّمْرُ، والزمَّارةُ كنايةٌ عن الفاجرة[2].

وقال بعضُهم: اشتقاقُ الزُّمْرَةِ من الزَّمْر وهو الصوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ليدخلوها وكانت قبلَ مجيئهم غيرَ مفتوحةٍ، فهي كسائر أبواب السجون لا تزال مغلقةً حتى يأتي أصحابُ الجرائم الذين يُسجنون فيها فتُفتح ليدخلوها، فإذا دخلوها أُغلقت عليهم. و«حتى» التي تُحكى بعدَها الجملةُ، والكلامُ على «إذا» الواقعةِ بعدَها قد مرَّ في الأنعام[3].

وقرأ غيرُ واحد: «فتِّحت» بالتشديد[4].

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: مِن جنسكم، تفهمون ما ينبِّئونكم به ويسهُلُ عليكم مراجعتُهم.

---

(١) في الأصل: إلينا، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٦٣، والكلام منه.
(٢) المفردات (زمر).
(٣) في تفسير الآية (٦١).
(٤) وهي قراءة غير الكوفيين من العشرة، كما في التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٤.

وقرأ ابن هرمز «تأتكم» بتاء التأنيث[١]. وقرئ: «نُذُرٌ منكم»[٢].

﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ المنزَّلةَ لمصلحتكم ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وقتِكم هذا، وهو وقتُ دخولكم النارَ؛ لأنَّ المنذَرَ به في الحقيقة العذابُ ووقتُه، وجوِّز أن يرادَ به يومُ القيامةِ والآخرة؛ لاشتماله على هذا الوقت أو على ما يختصُّ بهم من عذابه وأهواله، ولا ينافيه كونُه في ذاته غيرَ مختصٍّ بهم، والإضافةُ لاميَّةٌ تفيدُ الاختصاص؛ لأنه يكفي للاختصاص ما ذكر، نعم الأولُ أظهرُ فيه.

واستُدِلَّ بالآية على أنَّه لا تكليفَ قبلَ الشرع؛ لأنهم وبَّخوهم بكفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وإنذارِهم، ولو كان قبحُ الكفر معلوماً بالعقل دونَ الشرع لقيل: ألم تعلموا بما أودَع الله تعالى فيكم من العقل قبحَ كفركم؟ ولا وجهَ لتفسير الرسل بالعقول؛ لإباء الأفعال المستندة إليها عن ذلك، نعم هو دليلٌ إقناعيٌّ؛ لأنَّه إنَّما يتمُّ على اعتبارِ المفهوم وعمومِ «الذين كفروا»، وكلاهما محلُّ نِزاعٍ.

وقيل في وجه الاستدلال: إنَّ الخطابَ للداخلين عموماً يقتضي أنَّهم جميعاً أنذَرَهم الرسلُ، ولو تحقَّق تكليفٌ قبلَ الشرع لم يكن الأمرُ كذلك. وتعقِّب بأنَّ للخصم أن لا يسلِّم العمومَ، ولمن قال بوجوب الإيمان عقلاً أن يقول: إنَّما وبَّخُوهم بالكفر بعد التبليغ؛ لأنَّه أبعدُ عن الاعتذار وأحقُّ بالتوبيخ والإنكار.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد أتانا رسلٌ منَّا تلَوا علينا آياتِ ربِّنا وأنذرونا لقاءَ يومِنا هذا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ﴾ أي: وجبتْ ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: كلمةُ الله تعالى المقتضيةُ له ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ والمرادُ بها الحكمُ عليهم بالشقاوة وأنَّهم من أهل النار؛ لسوء اختيارهم، أو قولُه تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] ووَضَعُوا «الكافرين» موضعَ ضميرهم للإيماء إلى عِلِّيَّة الكفر، والكلام اعترافٌ لا اعتذارٌ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٤٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٤١٠.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقدَّراً خلودُكم فيها، والقائلُ يَحتمل أن يكونَ الخزنةَ وتُرك ذكرُهم للعلم به مما قبلُ، ويَحتمل أن يكون غيرَهم ولم يُذكر لأنَّ المقصودَ ذكرُ هذا المقول المهول من غير نظرٍ إلى قائله.

وقال بعض الأجلَّة: أبهم القائل؛ لتهويل المقول.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ «أل» فيه سواءٌ كانت حرفَ تعريفٍ أم اسمَ موصولٍ للجنس، وفاءٌ بحقِّ فاعلِ بابِ: نِعْمَ وبئسَ[1]، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ ثقةً بذكره آنفاً، أي: فبئس مثواهم جهنمُ. والتعبير بالمثوى لمكان «خالدين».

وفي التعبير بـ «المتكبرين» إيماءٌ إلى أنَّ دخولَهم النارَ لتكبُّرهم عن قبولِ الحقِّ والانقيادِ للرسل المنذِرين عليهم الصلاة والسلام، وهو في معنى التعليل بالكفر، ولا ينافي تعليلَ ذلك بسبقِ كلمة العذاب عليهم[2]؛ لأنَّ حكمَه تعالى وقضاءَه سبحانه عليهم بدخول النار ليس إلا بسببِ تكبُّرهم وكفرهم؛ لسوء اختيارهم المعلومِ له سبحانه في الأزل، وكذا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ [ص: ٨٥] فهناك سببان قريبٌ وبعيدٌ، والتعليلُ بأحدهما لا ينافي التعليلَ بآخَر، فتذكَّرْ وتدبَّرْ.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ جماعاتٍ مرتَّبةً حسبَ ترتُّب طبقاتهم في الفضل، وفي «صحيح مسلم» وغيرِه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ زمرةٍ تدخلُ الجنة من أمتي على صورة القمر ليلةَ البدر، ثم الذين يلونهم على أشدِّ نجمٍ في السماء إضاءةً، ثم هم بعدَ ذلك منازل»[3].

والمراد بالسَّوق هنا الحثُّ على المسير للإسراع إلى الإكرام، بخلافه فيما تقدَّم فإنَّه لإهانة الكَفَرة وتعجيلِهم إلى العقاب والآلام، واختير للمشاكلة، وقولُه سبحانه: «إلى الجنة» يدفع إيهامَ الإهانة، مع أنه قد يقال: إنَّهم لَمَّا أحبُّوا لقاءَ الله

---

(١) لأن فاعل هذا الباب يكون عامًّا معرَّفاً بلام الجنس، أو مضافاً للمعرَّف بها. حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٤.

(٢) كلمة «عليهم» سقطت من الأصل، والمثبت من (م) وتفسير البيضاوي ٧/ ٣٥٤، والكلام منه.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٣٤): (١٦)، وهو في مسند أحمد (٧٤٣٥).

تعالى أحبَّ الله تعالى لقاءهم فلذا حُثُّوا على دخول دار كرامته جلَّ شأنُه. قاله بعض الأجلَّة.

واختار الزمخشريُّ أنَّ المراد هنا بسَوقهم سَوْقُ مراكبهم؛ لأنَّه لا يُذهَبُ بهم إلا راكبين، وهذا السَّوق والحثُّ أيضاً للإسراع بهم إلى دار الكرامة[1].

وتعقِّب بأنه لا قرينةَ على إرادةِ ذلك، وكونُ جميع المتقين لا يُذهب بِهم إلَّا راكبين يحتاجُ إلى دليلٍ، والاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] لا يتمُّ إلَّا على القول بأنَّ الوفدَ لا يكونون إلا رُكباناً، وأنَّ الركوبَ يستمرُّ لهم إلى أن يدخلوا الجنة.

وفي «الكشف» أنَّه تفسيرٌ ظاهرٌ يؤيِّدُه الأحاديث الكثيرةُ، ويناسب المقامَ؛ لأنَّ السَّوقَيْن بعد فصل القضاء، واللطف الخالص في شأن البعض، والقهر الخالص في شأن البعض، ولا ينافي مقامَ عظمة مالك الملوك على ما توهم. انتهى.

وأقول: إنْ حُمِلَ «الذين اتقوا» على المخلِصين فالقولُ بركوبهم قولٌ قويٌّ، وإن حُمل على المحترِز عن الشِّرك خاصَّةً ليشمَل المخلصين فالقولُ بذلك قولٌ ضعيفٌ؛ إذ منهم من لا يدخلُ الجنةَ إلا بعدَ أن يدخُلَ النارَ ويعذَّبَ فيها، وظاهرُ كثيرٍ من الأخبار أنَّ مِن هذا الصنف مَن يذهب إلى الجنة مَشْياً؛ ففي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «آخِرُ مَن يدخلُ الجنة رجلٌ، فهو يمشي مرَّةً ويكبو أخرى، وتَسْفَعُه النارُ مرَّةً، فإذا ما جاوزها التَفَتَ إليها فقال: تبارك الذي نَجَّاني منكِ، لقد أعطاني الله تعالى شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخِرين. فتُرفع له شجرةٌ فيقول: أي ربِّ، أَدنِني من هذه الشجرة فلأستظلَّ بظلِّها فأشربَ من مائها. فيقول الله تعالى: يا ابنَ آدم، لعلِّي إن أعطيتُكها سألتَني غيرَها؟ فيقول: لا يا ربِّ. ويعاهِدُه أن لا يسألَه غيرَها، وربُّه يَعذِرُه لأنَّه يرى ما لا صبرَ له عليه فيُدنِيه». الحديث[2].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤١٠.

(٢) صحيح مسلم (١٨٧).

وقال بعض العارفين: إنَّ المتقين يُساقُون إلى الجنة لأنَّهم قد رأوا الله تعالى في المحشر، فلرغبتهم في رؤيته عزَّ وجلَّ ثانياً لا يُحِبُّون فراقَ ذلك الموطِنِ الذي رأوه فيه، ولشدَّةِ حبِّهم وشَغَفِهم لا يكادُ يخطرُ لهم أنَّهم سيرونه سبحانه إذا دخلوا الجنة، والمحبَّةُ إذا عظُمت فعلَتْ بصاحبِها أعظمَ من ذلك وأعظم، فكأنها غلبتْهم حتى خَيَّلَتْ إليهم أنَّ ذلك الموطن هو الموطنُ الذي يُرى فيه عزَّ وجلَّ، وهو محلُّ تجلِّيه على مُحبِّيه جل جلاله وعظُم نوالُه، فأحْجَموا عن المسير ووقفوا منتظرين رؤيةَ اللطيف الخبير، وغدا لسانُ حالِ كلٍّ منهم يقول:

وقف الهوى بي حيثُ أنتَ فليس لي   متأخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ[1]

ويدلُّ على رؤيتهم إياه عزَّ وجلَّ هناك ما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: إنَّ أناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يومَ القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضارُّون في القَمَر ليلةَ البدْرِ»؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: «هل تُضارُّون في الشمس ليس دونَها سَحَابٌ»؟ قالوا: لا. قال: «فإنَّكم ترونه كذلك، يجمعُ اللهُ الناسَ يومَ القيامة فيقول: مَن كان يعبُد شيئاً فليتَّبِعْه، فيتَّبعُ مَن يعبد الشمسَ الشمسَ، ويتَّبعُ مَن يعبدُ القمرَ القمرَ، ويتَّبعُ مَن يعبُدُ الطواغيتَ الطواغيتَ، وتبقى هذه الأمةُ فيها منافقوها، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورةٍ غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: نعوذُ بالله منك، هذا مكانُنا حتى يأتينا ربُّنا، فإذا جاء ربُّنا عرفناه. فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: أنت ربُّنا. فيتَّبِعُونه، ويُضرب الصراطُ بين ظهرانَي جهنَّم فأكونُ أنا وأمتي أوَّل من يجيز، ولا يتكلَّمُ يومئذٍ إلا الرسلُ، ودعوى الرسل يومئذ: اللَّهم سلِّم سلِّم» الحديث[2]. ومع هذا فسَوقُهم ليس كسَوق الذين كفروا كما لا يخفى.

وقيل: السائق للكَفَرة ملائِكةُ الغَضَب، والسائقُ للمتقين شوقُهم إلى مولاهم، فهو سبحانه لهم غايةُ الأرب، وليست الجنةُ عندَهم هي المقصودةَ بالذات،

(١) البيت لأبي الشيص الخزاعي، وسلف ١١/ ١٦٥.
(٢) صحيح مسلم (١٨٢).

ولا مجرَّدُ الحلول بها أقصَى اللذاتِ، وإنَّما هي وسيلةٌ للقاءِ محبوبِهم الذي هو نهايةُ مطلوبهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وقرئ بالتشديد(١)، والواوُ للحال، والجملةُ حاليةٌ بتقديرِ «قد» على المشهور، أي: جاؤوها وقد فتحت لهم أبوابها، كقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠]، ويُشعر ذلك بتقدُّم الفتح، كأنَّ خَزَنَةَ الجناتِ فتحوا أبوابَها ووقفوا منتظرين لهم، وهذا كما تَفْتَح الخدَمُ بابَ المنزل للمدعوِّ للضيافة قبلَ قدومه وتقف منتظرَةً له، وفي ذلك من الاحترام والإكرام ما فيه.

والظاهرُ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾ إلخ عطفٌ على «فتحت أبوابها»، وجوابُ «إذا» محذوفٌ مقدَّرٌ بعد «خالدين» للإيذان بأنَّ لهم حينئذٍ من فنون الكرامات ما لا يُحيط به نِطاقُ العبارات، كأنه قيل: إذا جاؤوها مفتَّحةً لهم أبوابُها، وقال لهم خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: من جميع المكاره والآلام، وهو يحتمل الإخبارَ والإنشاءَ.

﴿طِبۡتُمۡ﴾ أي: من دَنَس المعاصي. وقيل: طبتم نفساً بما أُتيح لكم من النعيم المقيم، والأولُ مرويٌّ عن مجاهد وهو الأظهرُ، والجملةُ في موضع التعليل.

﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ أي: مقدّرين الخلودَ(٢)، كان ما كان(٣) مما يقصُر عنه البيانُ، أو: فازوا بما لا يعَدُّ ولا يُحصى من التكريم والتعظيم، وقدَّره المبرِّد: سعِدوا، بعد: «خالدين» أيضاً. ومنهم من قدَّره قبلَ: «وفتحت»، أي: حتى إذا جاءوها، جاؤوها وقد فتحت، وليس بشيء. ومنهم من قدَّره نحوَ ما قلنا قبلَ «وقال»، وجعلَ جملةَ «قال» إلخ معطوفةً عليه، وما تقدَّم أقوى معنًى وأظهر.

---

(١) التيسير ص١٩٠، والنشر ٢/ ٣٦٤ عن نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر.

(٢) قوله: مقدّرين، هو بصيغة الفاعل أو المفعول، إشارة إلى أنها حالٌ مقدَّرة. حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٧.

(٣) قوله: كان ما كان...، هو تقدير لجواب «إذا» الشرطية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾.

وقال الكوفيون: واوُ «وفتحت» زائدةٌ، والجوابُ جملةُ «فتحت». وقيل: الجوابُ: «قال لهم خزنتها»، والواو زائدة.

والمعوَّل عليه ما ذكرنا أولاً، وبه يُعلم وجهُ اختلاف الجملتين، أعني قولَه تعالى في أهل النار: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا)، وقولَه جلَّ شأنه في أهل الجنة: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا) حيثُ جيء بواوٍ في الجملة الثانية وحُذف الجواب، ولم يُفعل كذلك في الجملة الأولى، فما قيل: إنَّ الواو في الثانية واو الثمانية لأنَّ المفتَّح ثمانيةُ أبوابٍ، ولَمَّا كانت أبوابُ النار سبعةً لا ثمانيةً لم يؤتَ بها = وجهٌ ضعيفٌ لا يعوَّل عليه.

واستدلَّ المعتزلةُ بقوله: «طبتم فادخلوها» ـ حيثُ رتَّب فيه الأمرَ بالدخول على الطيب والطهارة من دَنَسِ المعاصي ـ على أنَّ أحداً لا يدخلُ الجنةَ إلا وهو طيِّبٌ طاهرٌ من المعاصي، إمَّا لأنَّه لم يفعلْ شيئاً منها، أو لأنه تاب عما فعلَ توبةً مقبولةً في الدنيا. ورُدَّ بأنَّه وإن دلَّ على أنَّ أحداً لا يدخلها إلا وهو طيِّبٌ، لكن قد يحصُل ذلك بالتوبة المقبولة، وقد يكون بالعَفْو عنه، أو الشفاعةِ له، أو بعدَ تمحيصِه بالعذاب. فلا متمسَّك فيها للمعتزلة.

وقيل: المرادُ بـ «الذين اتقوا»: المحترِزون عن الشرك خاصَّةً، فـ «طبتم» على معنى: طبتم عن دنس الشرك، ولا خلافَ في أنَّ دخولَ الجنةِ مسبَّبٌ عن الطِّيْب والطهارة عنه. وتعقَّب بأنَّ ذاك خلافُ الظاهر؛ لأنَّ التقْوى في العرف الغالبِ تقع على أخصَّ مِن ذلك، لاسيما في معرِض الإطلاق والمدحِ بما عقَّبه من قوله تعالى: (فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ) فتدبَّر.

﴿وَقَالُوا۟﴾ عطفٌ على «قال»، أو على الجواب المقدَّر بعدَ «خالدين»، أو على مقدَّرٍ غيره، أي: فدخلوها وقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالبعث والثواب ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يريدون المكانَ الذي استقرُّوا فيه، فإن كانت أرضُ الآخرة التي يُمشى عليها تسمَّى أرضاً حقيقةً فذاك، وإلَّا فإطلاقُهم «الأرضَ» على ذلك من باب الاستعارة تشبيهاً له بأرض الدنيا، والظاهرُ الأولُ.

وحُكي عن قتادة وابن زيد والسديِّ أنَّ المرادَ أرضُ الدنيا(١). وليس بشيء.

وإيراثها تمليكُها مخلَفَةً عليهم من أعمالهم، أو تمكينُهم من التصرُّفِ فيها تمكينَ الوارث فيما يرثه، بناءً على أنَّه لا مِلكَ في الآخرة لغيره عزَّ وجلَّ، وإنما هو إباحة التصرُّفِ والتمكينِ مما هو ملكُه جلَّ شأنه.

وقيل: ورِثوها من أهل النار، فإنَّ لكلٍّ منهم مكاناً في الجنة كُتب له بشرط الإيمان.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: يتبوَّأ كلٌّ مِنَّا في أيِّ مكانٍ أراده مِن جنته الواسعة، لا أنَّ كلًّا منهم يتبوَّأ في أيِّ مكانٍ من مطلَق الجنة أو من جنات غيره المعيَّنة لذلك الغير، فلا يقال: إنَّه يلزم جوازُ تبوُّء الجميع في مكانٍ واحدٍ وحدةً حقيقةً وهو محال(٢)، أو أن يأخذَ أحدُهم جنةَ غيره وهو غيرُ مرادٍ.

وقيل: الكلامُ على ظاهره، ولكلٍّ منهم أن يتبوَّأ في أيِّ مكانٍ شاء من مطلَق الجنة ومن جنات غيره، إلَّا أنه لا يشاء غيرَ مكانه لسلامةِ نفسه وعصمةِ الله تعالى له عن تلك المشيئة. وقال الإمام: قالت حكماء الإسلام: إنَّ لكلٍّ جنتين جسمانيةً وروحانيةً، ومقاماتُ الثانية لا تمانُعَ فيها(٣). فيجوزُ أن يكونَ في مقامٍ واحدٍ منها ما لا يتناهى من أربابِها.

وهذه الجملةُ حاليةٌ، فالمعنى: أورثَنا مقاماتِ الجنة حالةَ كوننا نسرَحُ في منازل الأرواح كما نشاء.

وقد قال بعضُ متألِّهي الحكماء: الدارُ الضيِّقة تسع ألفَ ألفٍ من الأرواح والصوَرِ المثالية التي هي أبدانُ المتجرِّدين عن الأبدان العُنصرية لعدم تمانُعِها كما قيل:

---

(١) البحر ٧/ ٤٤٣. وأخرج الطبري ٢٠/ ٢٧٠ عن الثلاثة أنهم قالوا: أرض الجنة.

(٢) يعني لو حمل النظم على ظاهره وأراد خلقٌ كثير مكاناً واحداً منها، لزم تبوُّءُ الجميع مكاناً واحداً بالوحدة الحقيقية، وهو محال. حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٥.

(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٣.

سَمُّ الـخِـيـاطِ مـع الأحـبـابِ مَـيـدانُ[1]

وفسّر المقام الروحانيّ بما تُدركه الروحُ من المعارف الإلهية، وتُشاهِده من رضوان الله تعالى وعنايتِه القُدْسية، مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت.

وتعقّب بأنَّ هذا إن عُدَّ من بطون القرآن العظيم فلا كلامَ، وإلّا فحملُ الجنة على مثلِ ذلك مما لا تعرفه العربُ، ولا ينبغي أن يفسَّر به، على أنَّه ربما يقال: يرِدُ عليه أنه يقتضي أنَّ لكلِّ أحدٍ أن يصِلَ إلى مقامٍ روحانيٍّ من مقاماتها، مع أنَّ منها ما يَخُصُّ الأنبياءَ المكرَّمين والملائكة المقرَّبين، والظاهرُ أنَّه لا يصل إلى مقاماتهم كلُّ أحدٍ من العارفين، فافهمْ ولا تغفلْ.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ من كلامِ الداخلين عندَ الأكثر، والمخصوصُ بالمدح محذوفٌ، أي: هذا الأجرُ أو الجنةُ. ولعلَّ التعبير بـ «أجر العاملين» دونَ: أجرنا؛ للتعريض بأهل النار أنَّهم غيرُ عاملين.

وقال مقاتل: هو من كلام الله تعالى.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ أي: مُحدِقين، من الحِفاف بمعنى الجانب، جمعُ: حافٍّ، كما قال الأخفش، وقال الفرَّاء[2]: لا يفرد. فقيل: أراد أنَّ المفردَ لا يكون حافًّا، إذ الإحداقُ والإحاطةُ لا يُتصوَّر بفرد وإنَّما يتحقَّق بالجمع. وقيل: أراد أنَّه لم يَرِد استعمالُ مفردِه.

وأُورِدَ على الأول أنَّ الإحاطة بالشيء بمعنى محاذاةِ جميع جوانبه، فتُتَصوَّر في الواحد بدَوَرانه حولَ الشيء، فإنه حينئذٍ يحاذِي جميعَ جوانبِه تدريجاً، فيكون الحفوفُ بمعنى الدوَران حولَه، أو يراد بكونه حافًّا أنَّه جزءٌ من الحافِّ، وله مدخلٌ في الحفوف، ولو صحَّ ما ذكر لم يصحَّ أن يقال: طائفٌ أو محدِقٌ أو محيطٌ أو نحوُه مما يدلُّ على الإحاطة.

---

(١) وصدره: وأطيب الأرض ما للقلب فيه هوى، وقائله إبراهيم العنزي، كما في المدهش ص٣٨٥، والكشكول ١/ ٢٨٨. قوله: سمُّ الخياط، السمُّ بالفتح والضم: الثقب.

(٢) كما في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣، والبحر ٧/ ٤٤٣، وعنه نقل المصنف.

وأُورِدَ على الثاني أنّا لم نجد وُرودَ جمعٍ سالمٍ لَم يَرِدْ استعمالُ مفرده، فبعدَ وُرودِ «حافِّين» الظاهرُ وُرودُ: حافٌّ، كما لا يخفى.

والخطاب لسيِّد المخاطَبين ﷺ، وجوَّز أن يكونَ لكلِّ مَن تصحُّ منه الرؤيةُ، كأنه قيل: وترى أيها الرائي الملائكةَ حافِّين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي: حولَ العرش، على أنَّ «من» مزيدةٌ على رأي الأخفش[1]، وهو الأظهرُ.

وقيل: هي للابتداء، فـ «حول العرش» مبتدأُ الحفوف، وكأنَّ الحفوفَ حينئذٍ للخلق. وفي بعض الآثار ما هو ناطقٌ بذلك، وفيها ما يدلُّ على أنَّ العرشَ يومَ فصل القضاء يكون في الأرض حيث يشاء الله تعالى، والأرضُ يومئذٍ غيرُ هذه الأرض، على أنَّ أحوالَ يوم القيامة وشؤونَ الله تعالى وراءَ عقولنا، وسبحانَ مَن لا يُعجِزُه شيءٌ.

والظاهر أنَّ الرؤيةَ بَصَريَّة، فـ «حافِّين» حالٌ أولى، وقولُه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حالٌ ثانيةٌ. ويَجوز أن يكون حالاً من ضمير «حافِّين» المستتِر. وجوَّز كونُ الرؤية عِلْميةً، فـ «حافِّين» مفعولٌ ثانٍ، وجملةُ «يسبحون» حالٌ مِن «الملائكة»، أو من ضميرهم في «حافِّين».

والباءُ في «بحمده» للملابسة، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، أي: ينزِّهونه تعالى عمَّا لا يليق به ملتبسين بحمدِه، وحاصلُه: يذكرون اللهَ تعالى بوصفي جلالِه وإكرامه تبارك وتعالى، وهذا الذكرُ إمَّا من باب التلذُّذِ فإنَّ ذكرَ المحبوب من أعظم لذائذِ المحبِّ كما قيل:

أجد الملامةَ في هواكِ لذيذةً   حُبًّا لذكركِ فليلُمْني اللُّوَّمُ[2]

أو من باب الامتثال، ويُدَّعى أنَّهم مكلَّفون، ولا يسلَّم أنَّهم خارجون عن خطَّة التكليف أو يخرجون عنها يوم القيامة، نعم لا يرون ذلك كُلْفةً وإن أُمروا به. وفي حديثٍ طويلٍ جدًّا أخرجه عبد بن حميد وعليُّ بن معبد في «كتاب الطاعة

(١) البحر ٧/ ٤٤٣.
(٢) البيت لأبي الشيص الخزاعي، وقد سلف ١٣/ ٥٤٣.

والمعصية»[١] وأبو يعلى، وأبو الحسن القطّان في «المطولات»، وأبو الشيخ في «العظمة»، والبيهقيُّ في «البعث والنشور»، عن أبي هريرة: «فبينما نحن وقوف ـ أي: في المحشر ـ إذ سمعنا حسًّا من السماء شديداً، فينزِلُ أهل سماء الدنيا بمثلَي مَن في الأرض مِن الجنِّ والإنس، حتى إذا دنَوا من الأرض أشرقت الأرضُ بنورهم، وأخذوا مصافَّهم، ثم تنزل أهلُ السماء الثانية بمثلَي مَن نزل مِن الملائكة ومثلَي مَن فيها من الجنِّ والإنس، حتى إذا دنَوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافَّهم، ثم تنزل أهلُ السماء الثالثة بمثلَي مَن نزل مِن الملائكة ومثلَي مَن فيها من الجنِّ والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافَّهم، ثم ينزلون على قَدْرِ ذلك من التضعيف إلى السماوات السبع، ثم ينزل الجبَّارُ في ظُلَلٍ من الغمام والملائكةُ، تحمل عرشَه يومئذٍ ثمانيةٌ، وهم اليومَ أربعةٌ، أقدامُهم على تُخوم[٢] الأرض السفليِّ، والأرضون والسماواتُ إلى حُجَزِهم، والعرشُ على مناكبهم، لهم زجَلٌ[٣] بالتسبيح فيقولون: سبحان ذي العزَّة والجبروت، وسبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحيِّ الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبُّوحٌ قدُّوسٌ ربُّ الملائكة والروح، سبحان ربِّنا الأعلى الذي يميت الخلائقَ ولا يموت، فيضع عرشَه حيث يشاء مِن الأرض، ثم يهتف سبحانه بصوته فيقول عزَّ وجلَّ: يا معشرَ الجنِّ والإنس، إنِّي قد أنصتُّ لكم منذُ يوم خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأُبصر أعمالكم فأنصِتوا إليَّ، فإنما هي أعمالكم وصُحفكم تُقرأ عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجدَ غير ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نفسه» الحديث[٤].

(١) وقع في الأصل و(م) ومطبوع الدر المنثور ٥/ ٣٣٩ (والكلام منه): علي بن سعيد في كتاب الطاعة والعصيان، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه، كما أورده الزيلعي في نصب الراية ٤/ ٣٤٦، والعراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١/ ١٥٠، ٢/ ٣٠٨، ٢/ ٣١١، والحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨-٣٦٩، وفي لسان الميزان ٥/ ٤٢.

(٢) تخوم: جمع: تَخم، وهو منتهى كل أرض، وقال الفراء: تخومها: حدودها. الصحاح (تخم).

(٣) الزَّجَل ـ متحركة ـ: رَفْع الصوت. القاموس (زجل).

(٤) كتاب العظمة (٣٨٨)، والبعث والنشور (٦٦٩)، وعزاه لعبد بن حميد وعلي بنِ

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بينَ العباد كلِّهم بإدخالِ بعضهم الجنةَ وبعضِهم النارَ، فإنَّ القضاءَ المعروف يكون بينهم، ولوضوحِ ذلك لا يضرُّ كونُ الضمير لغير الملائكة مع أنَّ ضميرَ «يسبِّحون» لهم، إذ التفكيكُ لا يمتنع مطلقاً كما تُوهِّم.

وقيل: ضميرُ «بينهم» للملائكة، واستظهره أبو حيان، وثوابُهم ـ وإن كانوا كلُّهم معصومين ـ يكون على حسب تفاضُلِ أعمالهم، فيختلفُ تفاضلُ مراتِبهم، فإقامةُ كلٍّ في منزلته حسبَ عمله هو القضاءُ بينهم بالحقِّ(١).

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: على ما قَضَى بيننا بالحقِّ، والقائل قيل: هم المؤمنون المقضيُّ لهم، لا ما يعمُّهم والمقضيَّ عليهم، وحمدُهم الأوَّل على إنجازِ وعده سبحانه وإيراثِهم الأرضَ يتبوَّؤون من الجنة ما شاؤوا، وحمدُهم هذا على القضاء بالحقِّ بينهم فلا تكرار.

وقال الطيبيُّ: إنَّ الأولَ للتفْصِلة بين الفريقين بحسب الوعد والوعيد والسخط والرضوان، والثاني للتفْرِقة بينهما بحسب الأبدان، ففريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير. والأول أحسن.

وقيل: هم الملائكة يحمَدونه تعالى على قضائه سبحانه بينهم بالحقِّ وإنزالِ كلٍّ منهم منزلتَه. وعليه ليس في الحمدَين شائبةُ تكرارٍ لتغايُرِ الحامِدِين.

وقيل: «قيل» دون: قالوا؛ لتعيُّنهم وتعظيمهم. وجوَّز كونُ القائل جميعَ العباد مُنعَّمِهم ومُعذَّبِهم؛ وكأنَّه أُريد أنَّ الحمدَ من عموم الخلق المقضيِّ بينهم هنا إشارةٌ إلى التَّمام وفصلِ الخصام كما يقوله المنصرفون مِن مجلسِ حكومةٍ ونحوها،

= معبد وأبي يعلى وأبي الحسن القطان السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٣٩، وأخرجه الطبري مطولاً ومختصراً في تفسيره ٢/ ٦١١، ٢٠/ ٢٥٦. وإسناده ضعيف فيه جهالة واضطراب، وأورده الحافظ ابن كثير بطوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ثم قال: هذا حديث مشهور، وهو غريب جدًّا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة. وقال الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨: مداره على إسماعيل بن رافع، واضطَرَب في سنده مع ضعفه. وقال ابن عدي في إسماعيل بن رافع: أحاديثه كلها فيها نظر، إلّا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. الكامل ١/ ٢٧٩.

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٤٣.

فيحمَدُه المؤمنون لظهور حقِّهم، وغيرُهم لعدله واستراحتِهم من انتظار الفصل، ففي بعض الآثار أنَّه يطول الوقوف في المحشر على العباد حتى إنَّ أحدَهم ليقول: ربِّ أرِحْني ولو إلى النار[1]. وقيل: إنَّهم يحمدونه إظهاراً للرضا والتسليم.

وقال ابن عطية: هذا الحمدُ ختمٌ للأمر يقال عند انتهاء فصلِ القضاء، أي: إنَّ هذا الحاكم العدْلَ ينبغي أن يُحْمَدَ عند نفوذ حكمِه وإكمالِ قضائه، ومن هذه الآية جُعلت «الحمد لله رب العالمين» خاتمةَ المجالس في العلم[2].

هذا والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على رسوله محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في بعض الآيات: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اعبدْه تعالى بنفسك وقلبك وروحك مُخلِصاً، وإخلاصُ العبادة بالنفس التباعُدُ عن الانتقاص، وإخلاصُ العبادة بالقلب العمى عن رؤية الأشخاص، وإخلاصُ العبادة بالروح نفْيُ طلبِ الاختصاص. وذُكر أنَّ المخلصَ مَن خَلُص بالجود عن حبْس الوجود.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى تهديد مَن يدَّعي رتبةً من الولاية ليس بصادقٍ فيها، وعقوبتُه حرمانُ تلك الرتبة.

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أحوالِ السائرين إلى الله سبحانه من القبض والبسط، والصحْوِ والسكر، والجمع والفرق، والستر والتجلِّي، وغير ذلك.

﴿فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾ قيل: يشير إلى ظلمة الإمكان، وظلمة الهيولى، وظلمة الصورة.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٩٨٢)، وابن حبان (٧٣٣٥)، والطبراني في الكبير (١٠٠٨٣) من حديث ابن سعود ﷺ مرفوعاً. وأخرجه الطبراني في الكبير (٨٧٧٩) عن ابن مسعود موقوفاً.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٤.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يشير إلى القيام بآداب العبودية ظاهراً وباطناً من غير فُتورٍ ولا تقصير. ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ ونعيمَها كما يحذر الدنيا وزينتَها ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ رضاه سبحانه عنه وقربَه عزَّ وجلَّ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ قدرَ معبودِهم جلَّ شأنه فيطلبونه ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيطلبون ما سواه، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ حقيقةَ الأمر ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهم الذين انسلخوا من جِلْدِ وجودهم وصَفَوا عن شوائب أنانيتهم.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بي شوقاً إليَّ ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ فلا تطلبوا غيرَه سبحانه.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ في طلبي ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بأن لم يطلبوا مني غيري ﴿حَسَنَةٌ﴾ عظيمةٌ وهي حسنةُ وِجداني ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ وهي حضرةُ جلاله وجماله فإنَّها لا نهايةَ لها، فليَسر فيها ليَرَى ما يرى، ولا يَظُنَّ بما فُتِحَ عليه انتهاءَ السير وانقطاعَ الفيض ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على صدق الطلب ﴿أَجْرَهُم﴾ من التجلِّيات ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، إذ لا نهايةَ لتجلِّياته تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بطلبِ ما سواه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب القطيعة والحرمان.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ فلا أطلب دنيا ولا أخرى، كما قيل:

وكلٌّ له سؤلٌ ودينٌ ومذهبٌ ... ولي أنتمُ سؤلٌ وديني هواكمُ

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: الذين تبيَّن خسرانُ أنفسهم بإفساد استعدادِها للوصول والوصال ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ من القلوب والأسرار والأرواح بالإعراض عن طلب المولى ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الذي تتبيَّنُ فيه الحقائق ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي لا خفاءَ فيه لفوات رأس المال وعدم إمكان التلافي.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ للإنسان قوتين يستكمل بإحداهما علماً وبالأخرى عملاً، والآلة الواسطةُ في القسم الأول هي العلومُ المسمَّاةُ بالمقدِّمات، وترتيبُها على الوجه المؤدي إلى النتائج التي هي بمنزلةِ الربح يشبه تصرُّفَ التاجر في رأس المال بالبيع والشراء. والآلةُ في القسم العمليِّ هو القُوَى البدنية وغيرُها من

الأسباب الخارجية المُعِينةِ عليها، واستعمالُ تلك القوى في وجوه أعمالِ البرِّ التي هي بمنزلة الربح يُشبه التجارةَ، فكلُّ مَن أعطاه الله تعالى العقلَ والصحَّةَ والتمكينَ، ثم إنَّه لم يستفِدْ منها معرفةَ الحقِّ ولا عملَ الخير، فإذا مات فات رِبْحه وضاع رأسُ ماله، ووقع في عذابِ الجهل وألَم البُعْدِ عن عالَمه والقربِ مما يضادُّه أبدَ الآباد، فلا خسرانَ فوق هذا، ولا حرمانَ أبينُ منه، وقد أشار سبحانه إلى هذا بقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وهذا على الأول إشارةٌ إلى إحاطةِ نارِ الحسرة بهم.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قيل: الغرف المبنيةُ بعضُها فوق بعض إشارةٌ إلى العلوم المكتسَبة المبنيَّةِ على النظريات، وأنَّها تكون في المتانة واليقين كالعلوم الغريزية البديهية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن سماءِ حضرته سبحانه، أو من سماء القلب ﴿مَآءً﴾ ماءَ المعارف والعلوم ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ﴾ مداركَ وقوًى ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ البشرية ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ من الأعمال البدنية والأقوال اللسانية.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ إشارةٌ إلى أفعال المُرائين وأقوالهم؛ تُرى مخضرَّة وفقَ الشرع، ثم تصفرُّ مِن آفةِ الرياء، ثم تكون حطاماً لا حاصلَ لها إلا الحسرةُ.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ للانقياد إليه سبحانه ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يستضيء به في طلبه سبحانه. ومن علاماتِ هذا النور محْوُ ظلمات الصفات الذميمة النفسانية، والتحليةُ بالأخلاق الكريمة القدسية.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إذا قَرعَتْ صفاتُ الجلال أبوابَ قلوبهم ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالشوق والطلب.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ يتجاذبونه، وهم: شغلُ الدنيا وشغلُ العيال وغيرُ ذلك من الأشغال، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ إشارةٌ إلى المؤمن الخالص الذي لم يشغلْه شيء عن مولاه عزَّ شأنه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يشير إلى حال الكاذبين في دعوى الولاية ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ يشير إلى حالِ أقوامٍ نبذوا الشريعةَ وراءَ ظهورهم وقالوا: هي قشرٌ. والعياذ بالله تعالى.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ قيل: هو سوادُ قلوبهم ينعكس على وجوههم.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ قيل: المتقون قد عبدوا الله تعالى لله جلَّ شأنه لا للجنة، فتصير شدَّةُ استغراقهم في مشاهدة مطالعِ الجمال والجلال مانعةً لهم عن الرغبة في الجنة، فلا جرمَ يفتقرون إلى السَّوق.

وقيل: كلُّ خصلةٍ ذميمةٍ أو شريفةٍ في الإنسان، فإنها تجرُّه من غير اختيارٍ ـ شاء أم أبَى ـ إلى ما يضاهي حالَه، فذاك معنى السَّوق في الفريقَين.

وقيل: القومُ أهلُ وفاءٍ، فهم يقولون: لا ندخلُ الجنةَ حتى يدخُلَها أحبابُنا، فلذا يُساقون إليها ولكن لا كسَوقِ الكَفَرة.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ إشارة إلى أنه ﷺ في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدرٍ، بناءً على أنَّ العرش لا يتحوَّل.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إشارةٌ إلى نعيمهم ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أعطيَ كلٌّ ما يستحقُّه ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على انقضاء الأمر، وفصل القضاء بالعدل الذي لا شبهةَ فيه ولا امتراءَ.

هذا، والحمد لله تعالى على أفضاله، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله.

انتهى بعون الله تعالى الجزء الثالث والعشرون من روح المعاني

ويليه إن شاء الله الجزء الرابع والعشرون ويبدأ

بسورة غافر

(٤٠) سُورَة غافر مكيّة
وآياتها خمس وثمانون

سورة غافر من السور المكية التي تهتم بقضايا العقيدة ، وتُعْنى ببناء صرح الإيمان ، شأنَ سائر السور المكية التي تعالج قضية التوحيد ، وقضية البعث ، وقضية الوحي والرسالة ، ولكنَّ هذه القضايا الأساسية لم تكن موضوعَ السورة البارز ، إنما كان موضوعُها المعركة بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين الإصلاح في الأرض والعلوّ والطغيان ، ولهذا جاء جوُّ السورة مشحوناً بطابعَ العنف والشدَّة ، وكأنه جوُّ معركةٍ رَهيبة يكون فيها الطعنُ والنزال ثم تُسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حُطام وركام .

تبتدىء السورة الكريمة بإثبات صدقِ القرآن ، ومع وضوحه وسطوعه فقد جادل فيه المجادلون ، وكابر فيه المكابرون ، شأن الطغاة في كل زمان ومكان ﴿حـم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافرِ الذنبِ وقابلِ التوبِ شديدِ العقاب ، ذي الطّوْل ، لا إله إلا هو إليه المصير . ما يجادل في آيات اللهِ إلا الذين كفروا فلا يغرُرْك تقلُّبهم في البلاد﴾ وتعرض السورة مصارع الغابرين ، وقد أخذهم الله أخذَ عزيز مقتدر ، فلم يُفلت منهم أحد ﴿كذبتْ قبلَهم قومُ نوح والأحزابُ من بعدهم وهمَّتْ كلُّ أُمةٍ برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليُدحضوا به الحقَّ فأخذتُهم فكيف كان عقاب ؟ وكذلك حقت كلمةُ ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ وفي ثنايا هذا الجوِّ الرهيب ، يأتي مشهد

حملة العرش في دعائهم الخاشع المنيب ﴿الذين يحملون العرش ومن حولَه يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعتَ كل شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جناتِ عدنٍ التي وعدتهم ، ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقِهم السيئاتِ ومن تقِ السيئاتِ يومئذٍ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم﴾ . وتتحدث السورة الكريمة عن مشاهد الآخرة وأهوالها ، فإذا الناس بارزون أمام الملِكِ الديان ، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع تنخلع ، وإذا العباد واقفون للحساب يغمرهم رهبةٌ وخشوع ، ويخيِّم عليهم الجلالُ والصمتُ ﴿لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحدِ القهار . اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب . وأنذرهم يوم الآزفةِ إذِ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع﴾ ويأتي الحديث عن قصة فرعون الطاغية مع موسى وهارون ، تمثّل موقف الطغيان من دعوة الحق ، ففرعون يريد بكبريائه وجبروته أن يقضي على موسى ودعوته خشيةً من انتشار دينه بين الأقوام ﴿وقال فرعونُ ذروني أقتلْ موسى ولْيدْعُ ربه ، إني أخاف أن يُبدّلَ دينكم ، أو أن يظهر في الأرضِ الفساد﴾ وهذا هو منطق الطغيان في كل زمانٍ ومكان ، وأما موسى فيلتجيء إلى الحِصن الحصين والركن الركين ، ويلوذ بجناب الله ليدفع عنه شرَّ الطاغية المتجبر ﴿وقال موسى إني عُذتُ بربي وربكم من كل متكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب﴾ ويبرز في ثنايا هذه القصة حلقةٌ جديدة لم تُعْرض في قصة موسى من قبل ، وهي ظهورُ رجلٍ مؤمنٍ من آل فرعون يُخفي إيمانه ، يصدع بكلمة الحقِّ في تلطُّفٍ وحذَر ، ثم في صراحةٍ ووضوح

﴿وقال جلٌ من آل فرعون يكتم إيمانه ؛ أتقتلون رجلاً أن يقول ربيَ اللهُ ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبُه وإن يك صادقاً يصبكم بعضُ الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذاب ؟﴾ ومرةً أخرى يذكّرهم ذلك المؤمن عذابَ الله وانتقامَه ، فما يكون من فرعونَ إلا الاستبدادُ بالرأي والتجُبر والطغيان ﴿قال فِرعونُ ما أُريكم إلاّ ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ ويكرِّر المؤمنُ النصيحةَ ويحذِّر قومَه عذاب الله وبطشه ، ويكشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا الزائلة ﴿وقال الذي آمن يا قومِ اتبعونِ أهدكم سبيلَ الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار﴾ ثم يكرر الموعظة والنصيحة مرة أخرى ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ، تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جَرَم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري الى الله ، إن الله بصير بالعباد﴾ . وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية مع أنصاره وأعوانه ، وبنجاة المؤمن من ذلك الكرب الشديد الذي كاد يقع عليه ﴿فوقاه الله سيئاتِ ما مكروا وحاقَ بآلِ فرعونَ سوءُ العذاب . النارُ يُعْرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقومُ الساعةُ أَدْخلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب﴾ .

وينتقل السياق إلى الحديث عن المجرمين ، وهم بين أطباقِ جهنم يتلَظَّوْن سعيرها ، وقد ثار بينهم الخِصام والجدال على أشدّه ، فالضعفاء يُلْقون باللائمةِ على الكُبَراء الذين كانوا سبباً في إضلالهم ، يسبونهم ويلعنونهم ، وأولئك يتبرءون منهم ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تَبَعاً ، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً

من النار ؟ قال الذين استكبروا إنّا كلٌّ فيها ، إن الله قد حكم بين العباد﴾ ثم يَعْرِض السياقُ مشهدهم في النار أذلاء ضارعين ، يدعون خزنة جهنم فلا يُستجاب لهم ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخففْ عنا يوماً من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا بلى ، قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ ثم تعرض السورةُ الكريمة إلى بعض الآيات الكونية الدالة إلى عظمة هذا الكون ، والشاهدة بوجدانيةِ الخالقِ المُبدع ، الذي يشركون به ويكفرون بآياته ودلائل قدرته ، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالأعمى والبصير ، فكما لا يتساوي البصير الذي يرى بعينيه آثار عظمة الله ، مع الأعمى الذي لا يرى ما حوله ولا يُبصر معالِمَ الطريق ، فكذلك لا يستوي المؤمن العاقل مع الكافر الغافل ﴿لخلقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خلق الناس ، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون . وما يستوي الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ، قليلاً ما تتذكرون . إن الساعة لآتيةٌ لا ريبَ فيها ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ ويختم السورةُ الكريمة ببيان مصارع المكذبين ، والطغاةِ المتجبرين ، ومشهدِ بأس الله يأخذهم بغتةً فيستغيثون ويفزعون ، ولكنْ هيهات أن تنفع التوبة والندام ، فقد كانوا مغترين بما عندهم من العلم والقوة ، وها هم اليوم يعلنون الاستسلام ﴿أفلم يسيروا في الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشدَّ قوةً وآثاراً في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا باللهِ وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾

سورة غافر

[٧٩٧] أخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن أبي مالك في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾(١) قال: نزلت في الحارث بن قيس السهمي.

[٧٩٨] وأخرج عن أبي العالية قال: جاءت اليهود إلى رسول الله [ﷺ] فذكروا الدجال فقالوا: يكون منا في آخر الزمان فعظموا أمره وقالوا يصنع كذا فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾(٢) فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾(٣) قال من خلق الدجال.

[٧٩٩] وأخرج عن كعب الأحبار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾(٤) قال: هم اليهود نزلت فيما ينتظرونه من أمر الدجال.

[٨٠٠] وأخرج جويبر عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا: يا محمد ارجع عما تقول وعليك بدين آبائك وأجدادك فأنزل الله: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(٥) الآية.

* * *

---

[٧٩٧] (١) سورة غافر: الآية (٤).
[٧٩٨] (٢) سورة غافر: الآية (٥٦).
(٣) سورة غافر: الآية (٥٧).
[٧٩٩] (٤) سورة غافر: الآية (٥٦).
[٨٠٠] (٥) سورة غافر: الآية (٦٦).

سورة غافر

ثمانون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ② غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ③ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ④ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ⑤ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ⑥﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي (حِم) بكسر الحاء، والباقون بفتح الحاء، ونافع في بعض الروايات وابن عامر بين الفتح والكسر وهو أن لا يفتحها فتحًا شديدًا، قال صاحب (الكشاف): قرىء بفتح الميم وتسكينها، ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو: أين وكيف، أو النصب بإضمار اقرأ، ومَنْع الصرف إما للتأنيث والتعريف، من حيث إنها اسم للسورة وللتعريف، وإنها على زنة أعجمي نحو قابيل وهابيل، وأما السكون فلأنا بينا أن الأسماء المجردة تُذكر موقوفة الأواخر.

المسألة الثانية: الكلام المستقصى في هذه الفواتح مذكور في أول سورة البقرة، والأقرب هاهنا أن يقال: (حم) اسم للسورة، فقوله: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ، وقوله ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر والتقدير أن هذه السورة المسماة بحم تنزيل الكتاب، فقوله ﴿تَنزِيلُ﴾ مصدر، لكن المراد منه المنزل.

وأما قوله ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ فاعلم أنه لما ذكر أن ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وجب بيان أن المُنزِّل من هو؟ فقال: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ثم بيّن أن الله تعالى موصوف بصفات الجلال وسمات العظمة ليصير ذلك حاملاً على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع وزجره عن التهاون والتواني فيه، فبَيّن أن المنزل هو ﴿ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

واعلم أن الناس اختلفوا في أن العلم بالله ما هو؟ فقال جمع عظيم: إنه العلم بكونه قادرًا

وبعده العالم بكونه عالمًا، إذا عرفت هذا فنقول: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ له تفسيران: أحدهما: الغالب فيكون معناه القادر الذي لا يساويه أحد في القدرة. والثاني: الذي لا مثل له، ولا يجوز أن يكون المراد بالعزيز هنا القادر؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ﴾ يدل على كونه قادرًا، فوجب حمل ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على المعنى الثاني وهو الذي لا يوجد له مثل، وما كان كذلك وجب أن لا يكون جسمًا، والذي لا يكون جسمًا يكون منزّهًا عن الشهوة والنفرة، والذي يكون كذلك يكون منزّهًا عن الحاجة. وأما ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ فهو مبالغة في العلم، والمبالغة التامة إنما تتحقق عند كونه تعالى عالمًا بكل المعلومات، فقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ يرجع معناه إلى أن هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق، الغني المطلق، العالم المطلق، ومن كان كذلك كان عالمًا بوجوه المصالح والمفاسد، وكان عالمًا بكونه غنيًّا عن جر المصالح ودفع المفاسد، ومن كان كذلك كان رحيمًا جوادًا، وكانت أفعاله حكمة وصوابًا منزّهة عن القبيح والباطل، فكأنه سبحانه إنما ذكر عقيب قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ هذه الأسماء الثلاثة لكونها دالة على أن أفعاله سبحانه حكمة وصواب، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقًّا وصوابًا، وقيل: الفائدة في ذكر ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أمران: أحدهما: أنه بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحد الذي يتضمن المصالح والإعجاز، ولولا كونه عزيزًا عليمًا لما صح ذلك. والثاني: أنه تكفل بحفظه وبعموم التكليف فيه وظهوره إلى حين انقطاع التكليف، وذلك لا يتم إلا بكونه عزيزًا لا يُغلب وبكونه عليمًا لا يخفى عليه شيء. ثم وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترهيب والترغيب فقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فهذه ستة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ قال الجبائي: معناه أنه غافر الذنب إذا استحق غفرانه إما بتوبة أو طاعة أعظم منه. ومراده منه أن فاعل المعصية إما أن يقال: إنه كان قد أتى قبل ذلك بطاعة كان ثوابها أعظم من عقاب هذه المعصية، أو ما كان الأمر كذلك، فإن كان الأول كانت هذه المعصية صغيرة فيحبط عقابها، وإن كان الثاني كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها إلا بالتوبة، ومذهب أصحابنا أن الله تعالى قد يعفو عن الكبيرة بعد التوبة، وهذه الآية تدل على ذلك وبيانه من وجوه: الأول: أن غفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة من الأمور الواجبة على العبد، وجميع الأنبياء والأولياء والصالحين من أوساط الناس مشتركون في فعل الواجبات، فلو حملنا كونه تعالى غافر الذنب على هذا المعنى لم يبق بينه وبين أقل الناس من زمرة المطيعين فرق في المعنى الموجب لهذا المدح، وذلك باطل، فثبت أنه يجب أن يكون المراد منه كونه غافر الكبائر قبل التوبة وهو المطلوب. الثاني: أن الغفران عبارة عن الستر، ومعنى الستر إنما يُعقل في الشيء الذي يكون باقيًا موجودًا فيُستر، والصغيرة تحبط بسبب كثرة ثواب فاعلها، فمعنى الغفر فيها غير معقول، ولا يمكن حمل قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ على الكبيرة

بعد التوبة؛ لأن معنى كونه قابلاً للتوب ليس إلا ذلك، فلو كان المراد غافر الذنب هذا المعنى لزم التكرار وإنه باطل، فثبت أن كونه غافر الذنب يفيد كونه غافرًا للذنوب الكبائر قبل التوبة.

الثالث: أن قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ مذكور في معرض المدح العظيم، فوجب حمله على ما يفيد أعظم أنواع المدح، وذلك هو كونه غافرًا للكبائر قبل التوبة، وهو المطلوب.

الصفة الثانية: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ وفيه بحثان:

الأول: في لفظ (التوب) قولان: الأول: أنه مصدر، وهو قول أبي عبيدة. والثاني: أنه جماعة التوبة، وهو قول الأخفش، قال المبرد: يجوز أن يكون مصدرًا، يقال: تاب يتوب توبًا وتوبة، مثل قال يقول قولاً وقولة، ويجوز أن يكون جمعًا لتوبة فيكون توبة وتوب، مثل ثمرة وثمر، إلا أن المصدر أقرب لأن على هذا التقدير يكون تأويله أنه يقبل هذا الفعل.

الثاني: مذهب أصحابنا أن قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضل، وليس بواجب على الله، وقالت المعتزلة: إنه واجب على الله. واحتج أصحابنا بأنه تعالى ذكر كونه قابلاً للتوب على سبيل المدح والثناء، ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح إلا القليل، وهو القدر الذي يحصل لجميع الصالحين عند أداء الواجبات والاحتراز عن المحظورات.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ **وفيه مباحث:**

البحث الأول: في هذه الآية سؤال وهو أن قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ يصلح أن يكون نعتًا للنكرة ولا يصلح أن يكون نعتًا للمعرفة، تقول: مررت برجل شديد البطش. ولا تقول: مررت بعبد الله شديد البطش. وقوله: (الله) اسم علم فيكون معرفة فكيف يجوز وصفه بكونه شديد العقاب مع أنه لا يصلح إلا أن يُجعل وصفًا للنكرة؟ قالوا: وهذا بخلاف قولنا: غافر الذنب وقابل التوب؛ لأنه ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقبل التوبة الآن أو غدًا، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش، وأما ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فمشكل لأنه في تقدير (شديدٌ عقابه) فيكون نكرة فلا يصح جعله صفة للمعرفة. وهذا تقرير السؤال. وأجيب عنه بوجوه: الأول: أن هذه الصفة وإن كانت نكرة إلا أنها لما ذُكرت مع سائر الصفات التي هي معارف حسُن ذكرها كما في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤- ١٦] والثاني: قال الزجاج: إن خفض ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ على البدل؛ لأنَّ جعل النكرة بدلاً من المعرفة وبالعكس أمر جائز. واعترضوا عليه بأن جعله وحده بدلاً من الصفات فيه نَبْوة ظاهرة. الثالث: أنه لا نزاع في أن قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يحسن جعلهما صفة، وإنما كان كذلك لأنهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار، فكذلك قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ يفيد معنى الدوام والاستمرار، لأن صفات الله تعالى منزّهة عن الحدوث والتجدد، فكونه ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ معناه كونه بحيث يشتد عقابه، وهذا المعنى حاصل أبدًا، وغير موصوف

بأنه حصل بعد أن لم يكن كذلك. فهذا ما قيل في هذا الباب.

البحث الثاني: هذه الآية مُشعرة بترجيح جانب الرحمة والفضل؛ لأنه تعالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه شديد العقاب ذكر قبله أمرين كل واحد منهما يقتضي زوال العقاب، وهو كونه غافر الذنب وقابل التوب، وذكر بعده ما يدل على حصول الرحمة العظيمة، وهو قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، فكونه شديد العقاب لما كان مسبوقًا بتينك الصفتين وملحوقًا بهذه الصفة، دل ذلك على أن جانب الرحمة والكرم أرجح.

البحث الثالث: لقائل أن يقول: ذكَر الواو في قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ ولم يذكرها في قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ فما الفرق؟ قلنا: إنه لو لم يذكر الواو في قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ لاحتمل أن يقع في خاطر إنسان أنه لا معنى لكونه غافر الذنب إلا كونه قابل التوب، أما لما ذكر الواو زال هذا الاحتمال؛ لأن عطف الشيء على نفسه محال، أما كونه شديد العقاب فمعلوم أنه مغاير لكونه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ فاستغنى به عن ذكر الواو.

الصفة الرابعة: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي ذي التفضل، يقال: طال علينا طَوْلاً أي تفضَّل علينا تفضلاً، ومن كلامهم (طُلْ عليَّ بفضلك)، ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [الزمر: ٨٦] ومضى تفسيره عند قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] واعلم أنه لم يصف نفسه بكونه ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لا بد وأن يكون المراد بكونه تعالى آتيًا بالعقاب الشديد الذي لا يقبح منه إتيانه به، بل لا يجوز وصفه تعالى بكونه آتيًا لفعل القبيح، وإذا ثبت هذا فنقول: ذكر بعده كونه ذا الطول وهو كونه ذا الفضل، فيجب أن يكون معناه كونه ذا الفضل بسبب أن يترك العقاب الذي له أن يفعله؛ لأنه ذكر كونه ذا الطول ولم يبين أنه ذو الطول فيماذا؟ فوجب صرفه إلى كونه ذا الطول في الأمر الذي سبق ذكره، وهو فعل العقاب الحسن دفعًا للإجمال، وهذا يدل على أنه تعالى قد يترك العقاب الذي حسن منه تعالى فعله، وذلك يدل على أن العفو عن أصحاب الكبائر جائز، وهو المطلوب.

الصفة الخامسة: التوحيد المطلق وهو قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والمعنى أنه وصف نفسه بصفات الرحمة والفضل، فلو كان معه إله آخر يشاركه ويساويه في صفة الرحمة والفضل، لما كانت الحاجة إلى عبوديته شديدة، أما إذا كان واحدًا وليس له شريك ولا شبيه، كانت الحاجة إلى الإقرار بعبوديته شديدة، فكان الترغيب والترهيب الكاملان يحصلان بسبب هذا التوحيد.

الصفة السادسة: قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهذه الصفة أيضًا مما يقوي الرغبة في الإقرار بعبوديته؛ لأنه بتقدير أن يكون موصوفًا بصفات الفضل والكرم وكان واحدًا لا شريك له، إلا أن القول بالحشر والنشر إن كان باطلاً لم يكن الخوف الشديد حاصلاً من عصيانه، أما لما كان القول بالحشر والقيامة حاصلاً، كان الخوف أشد والحذر أكمل؛ فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الصفات. واحتج أهل التشبيه بلفظة (إلى)، وقالوا: إنها تفيد انتهاء الغاية. والجواب عنه مذكور في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

واعلم أنه تعالى لما قرر أن القرآن كتاب أنزله ليهتدى به في الدين، ذكَر أحوال من يجادل لغرض إبطاله وإخفاء أمره فقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن الجدال نوعان: جدال في تقرير الحق، وجدال في تقرير الباطل: أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ﴾[النحل: ١٢٥] وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾[هود: ٣٢] وأما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم، وهو المراد بهذه الآية حيث قال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف: ٥٨] وقال: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ وقال ﷺ: «**إِنَّ جِدَالاً فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**»(١) فقوله: (إن جدالاً) على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدال وجدال، واعلم أن لفظ الجدال في الشيء مُشعر بالجدال الباطل، ولفظ الجدال عن الشيء مُشعر بالجدال لأجل تقريره والذب عنه، قال ﷺ: «**إِنَّ جِدَالاً فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**» وقال: «**لاَ تُمَارُوا فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّ الْمِرَاءَ فِيهِ كُفْرٌ**»(٢).

المسألة الثانية: الجدال في آيات الله هو أن يقال مرة: إنه سحر ومرة: إنه شعر ومرة: إنه قول الكهنة ومرة: أساطير الأولين ومرة: إنما يُعلمه بشر، وأشباه هذا مما كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة، فذكَر تعالى أنه لا يفعل هذا إلا الذين كفروا وأعرضوا عن الحق.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي لا ينبغي أن تغتر بأني أمهلهم وأتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يتقلبون في البلاد - أي يتصرفون للتجارات وطلب المعاش - فإني وإن أمهلتهم فإني سآخذهم وأنتقم منهم كما فعلت بأشكالهم من الأمم الماضية، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن ولهم الأموال الكثيرة يتجرون فيها ويربحون. ثم كشف عن هذا المعنى فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾ فذكَر من أولئك المكذبين قوم نوح والأحزاب من بعدهم، أي الأمم المستمرة على الكفر كقوم عاد وثمود وغيرهم، كما قال في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة)، باب: (النهي عن الجدال في القرآن) (٤/ ١٩٧٢)، حديث رقم (٤٦٠٣)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٨٦/ ٣٠٠/ ٤٢٤/ ٤٧٥)، جميعًا من طريق أبي سلمة... به.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في (الأوسط) (٤/ ١٩٧)، حديث رقم (٣٩٦١) من طريق فليح بن سليمان عن سالم أبي النضر عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عمرو... فذكره. ورواه في (الكبير) (٥/ ١٥٢)، حديث رقم (٤٩١٦) من طريق ابن أبي فديك عن ابن وهب عن عبد الله بن عبد الرحمن عن زيد بن ثابت... به، ورواه القاسم بن سلام في (فضائل القرآن) (٢/ ١٩٤)، حديث رقم (٦٣٢) من طريق الليث عن يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن بسر بن سعيد عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص... فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ٣٩٠)، وقال: عن زيد بن ثابت، رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون، وأورده الألباني في (الصحيحة) (١٥٢٢) وقال: صحيح.

﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ [١٢، ١٣] وقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي وعزمت كل أمة من هؤلاء الأحزاب أن يأخذوا رسولهم ليقتلوه ويعذبوه ويحبسوه ﴿وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي هؤلاء جادلوا رسلهم بالباطل، أي بإيراد الشبهات ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي أن يزيلوا بسبب إيراد تلك الشبهات الحق والصدق ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فأنزلتُ بهم من الهلاك ما هَمُّوا بإنزاله بالرسل، وأرادوا أن يأخذوهم فأخذتهم أنا، فكيف كان عقابي إياهم، أليس كان مهلكًا مستأصلاً مهيبًا في الذكر والسماع، فأنا أفعل بقومك كما فعلت بهؤلاء إن أصروا على الكفر والجدال في آيات الله. ثم كشف عن هذا المعنى فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي ومثل الذي حق على أولئك الأمم السالفة من العقاب، حقت كلمتي أيضًا على هؤلاء الذين كفروا من قومك، فهم على شرف نزول العقاب بهم. قال صاحب (الكشاف): ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في محل الرفع بدل من قوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار، ومعناه كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة. أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل. واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن قضاء الله بالسعادة والشقاوة لازم لا يمكن تغييره، فقالوا: إنه تعالى أخبر أنه حقت كلمة العذاب عليهم، وذلك يدل على أنهم لا قدرة لهم على الإيمان؛ لأنهم لو تمكنوا منه لتمكنوا من إبطال هذه الكلمة الحقة، ولتمكنوا من إبطال علم الله وحكمته، ضرورة أن المتمكن من الشيء يجب كونه متمكنًا من كل ما هو من لوازمه، ولأنهم لو آمنوا لوجب عليهم أن يؤمنوا بهذه الآية، فحينئذٍ كانوا قد آمنوا بأنهم لا يؤمنون أبدًا، وذلك تكليف ما لا يطاق. وقرأ نافع وابن عامر (حقت كلمات ربك) على الجمع، والباقون على الواحد.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين، بيّن أن أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حول العرش يبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين، كأنه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الأراذل يبالغون في العداوة،

فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم ولا تُقم لهم وزنًا؛ فإن حَمَلة العرش معك، والحافون من حول العرش معك ينصرونك.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى حكى عن نوعين من فرق الملائكة هذه الحكاية:

القسم الأول: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ وقد حكى تعالى أن الذين يحملون العرش يوم القيامة ثمانية، فيمكن أن يقال: الذين يحملون في هذا الوقت هم أولئك الثمانية الذين يحملونه يوم القيامة، ولا شك أن حملة العرش أشراف الملائكة وأكابرهم، روى صاحب (الكشاف) أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وعن النبي ﷺ: «**لاَ تَتَفَكَّرُوا فِي عِظَمِ رَبِّكُمْ، وَلَكِنْ تَفَكَّرُوا فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؛ فَإِنَّ خَلْقًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يُقَالُ لَهُ إِسْرَافِيلُ زَاوِيَةٌ من زوايا الْعَرْشِ عَلَى كَاهِلِهِ، وَقَدَمَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَقَدْ مَرَقَ رَأْسُهُ مِن سَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَإِنَّهُ لَيَتَضَاءَلُ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ الْوَضْعُ**»[(١)] قيل: إنه طائر صغير، وروي أن الله تعالى أمَر جميع الملائكة أن يغدو ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة، وقيل: خَلَق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام، وقيل: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا ويسبح بما لا يسبح به الآخر. هذه الآثار نقلتها من (الكشاف).

وأما القسم الثاني من الملائكة الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية: فقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ والأظهر أن المراد منهم ما ذكره في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الزمر: ٧٥] وأقول: العقل يدل على أن حملة العرش والحافين حول العرش يجب أن يكونوا أفضل الملائكة؛ وذلك لأن نسبة الأرواح إلى الأرواح كنسبة الأجساد إلى الأجساد، فلما كان العرش أشرف الموجودات الجسمانية كانت الأرواح المتعلقة بتدبير العرش يجب أن تكون أفضل من الأرواح المدبرة للأجساد، وأيضًا يشبه أن يكون هناك أرواح حاملة لجسم العرش ثم يتولد عن تلك الأرواح القاهرة المستعلية لجسم العرش أرواح أُخر من جنسها، وهي متعلقة بأطراف العرش، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الزمر: ٧٥] وبالجملة فقد ظهر بالبراهين اليقينية وبالمكاشفات الصادقة أنه لا نسبة لعالم الأجساد إلى عالم

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٩٧) (رقم: (٢٨٨)، (٣/ ٩٤٩) (رقم: ٤٧٧) وأبو نعيم في (الحلية) (٦/ ٦٥) من طريق محمد بن مصفى، حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل بن عياش، عن الأحوص بن حكيم عن شهر بن حوشب عن ابن عباس. وفي إسناده يحيى بن سعيد العطار وهو ضعيف، والأحوص بن حكيم ضعيف الحفظ.

الأرواح، فكل ما شاهدته بعين البصر في اختلاف مراتب عالم الأجساد، فيجب أن تشاهده بعين بصيرتك في اختلاف مراتب عالم الأرواح.

المسألة الثانية: دلت هذه الآية على أنه سبحانه منزّه عن أن يكون في العرش؛ وذلك لأنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧] ولا شك أن حامل العرش يكون حاملاً لكل من في العرش، فلو كان إله العالم في العرش لكان هؤلاء الملائكة حاملين لإله العالم، فحينئذٍ يكونون حافظين لإله العالم والحافظ القادر أَوْلى بالإلهية والمحمول المحفوظ أَوْلى بالعبودية، فحينئذٍ ينقلب الإله عبدًا والعبد إلهًا، وذلك فاسد، فدل هذا على أن إله العرش والأجسام متعالٍ عن العرش والأجسام.

واعلم أنه تعالى حكى عن حملة العرش، وعن الحافين بالعرش ثلاثة أشياء:

النوع الأول: قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ ونظيره قوله حكاية عن الملائكة: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الزمر: ٧٥] فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي، والتحميد الاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق، فالتسبيح إشارة إلى الجلال، والتحميد إشارة إلى الإكرام، فقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ قريب من قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

النوع الثاني مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة: هو قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ فإن قيل: فأي فائدة في قوله: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ فإن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا وقد سبق الإيمان بالله؟ قلنا: الفائدة فيه ما ذكره صاحب (الكشاف)، وقد أحسن فيه جدًا فقال: إن المقصود منه التنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضرًا بالعرش لكان حملة العرش والحافون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه، ولما كان إيمانهم بوجود الله موجبًا للمدح والثناء لأن الإقرار بوجود شيء حاضر مشاهد معاين لا يوجب المدح والثناء، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والثناء، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم، عُلم أنهم آمنوا به بدليل أنهم ما شاهدوه حاضرًا جالسًا هناك. ورحم الله صاحب (الكشاف) فلو لم يُحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخرًا وشرفًا.

النوع الثالث مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة: قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ اعلم أنه ثبت أن كمال السعادة مربوط بأمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، ويجب أن يكون التعظيم لأمر الله مقدمًا على الشفقة على خلق الله، فقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ مُشعر بالتعظيم لأمر الله، وقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ مُشعر بالشفقة على خلق الله.

ثم في الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتج كثير من العلماء بهذه الآية في إثبات أن المَلَك أفضل من البشر، قالوا: لأن هذه الآية تدل على أن الملائكة لما فرغوا من ذكر الله بالثناء والتقديس، اشتغلوا

بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنون، وهذا يدل على أنهم مستغنون عن الاستغفار لأنفسهم؛ إذ لو كانوا محتاجين إليه لقدموا الاستغفار لأنفسهم على الاستغفار لغيرهم؛ بدليل قوله ﷺ: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ»(١) وأيضًا قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] فأمَر محمدًا أن يذكر أولاً الاستغفار لنفسه ثم بعده يذكر الاستغفار لغيره، وحكى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨] وهذا يدل على أن كل من كان محتاجًا إلى الاستغفار، فإنه يقدم الاستغفار لنفسه على الاستغفار لغيره، فالملائكة لو كانوا محتاجين إلى الاستغفار لكان اشتغالهم بالاستغفار لأنفسهم مقدمًا على اشتغالهم بالاستغفار لغيرهم، ولما لم يذكر الله تعالى عنهم استغفارهم لأنفسهم علمنا أن ذلك إنما كان لأنهم ما كانوا محتاجين إلى الاستغفار، وأما الأنبياء عليهم السلام فقد كانوا محتاجين إلى استغفار بدليل قوله تعالى لمحمد عليه السلام: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ وإذا ثبت هذا فقد ظهر أن المَلَك أفضل من البشر، والله أعلم.

المسألة الثانية: احتج الكعبي بهذه الآية على أن تأثير الشفاعة في حصول زيادة الثواب للمؤمنين لا في إسقاط العقاب عن المذنبين. قال: وذلك لأن الملائكة قالوا: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ قال: وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفر، سواء كان مصرًّا على الفسق أو لم يكن كذلك؛ لأن مَن هذا حاله لا يوصف بكونه متبعًا سبيل ربه ولا يطلق ذلك فيه، وأيضًا إن الملائكة يقولون: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ وهذا لا يليق بالفاسقين؛ لأن خصومنا لا يقطعون على أن الله تعالى وعدهم الجنة وإنما يجوزون ذلك، فثبت أن شفاعة الملائكة لا يتناول إلا أهل الطاعة، فوجب أن تكون شفاعة الأنبياء كذلك، ضرورة أنه لا قائل بالفرق.

والجواب أن نقول: هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين، فنبين هذا ثم نجيب عما ذكره الكعبي: أما بيان دلالة هذه الآية على ما قلناه فمن وجوه: الأول: قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والاستغفار طلب المغفرة، والمغفرة لا تُذكر إلا في إسقاط العقاب. أما طلب النفع الزائد فإنه لا يسمى استغفارًا. الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا يدل على أنهم يستغفرون لكل أهل الإيمان، فإذا دللنا على أن صاحب الكبيرة مؤمن وجب دخوله تحت هذه الشفاعة. الثالث: قوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ طلب المغفرة للذين تابوا، ولا يجوز أن يكون المراد إسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة؛ لأن ذلك واجب على الله عند الخصم، وما كان فعله واجبًا كان طلبه بالدعاء قبيحًا، ولا يجوز أيضًا أن يكون المراد إسقاط عقوبة الصغائر؛ لأن ذلك أيضًا واجب فلا يحسن طلبه بالدعاء، ولا يجوز أن يكون المراد طلب

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الزكاة)، باب: (الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة) (٢/ ٤١/ ٦٩٢). قال: حدثنا قتيبة... به، والنسائي في كتاب (الزكاة)، باب: (أي الصدقة أفضل؟) (٣/ ٢٣)، حديث رقم (٢٥٤٥). قال: حدثنا الليث... به.

زيادة منفعة على الثواب؛ لأن ذلك لا يسمى مغفرة، فثبت أنه لا يمكن حمل قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ إلا على إسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة، وإذا ثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الأنبياء لانعقاد الإجماع على أنه لا فرق. أما الذي يتمسك به الكعبي وهو أنهم طلبوا المغفرة للذين تابوا، فنقول: يجب أن يكون المراد منه الذين تابوا عن الكفر واتبعوا سبيل الإيمان، وقوله: إن التائب عن الكفر المصر على الفسق لا يسمى تائبًا ولا متبعًا سبيل الله. قلنا: لا نسلِّم قوله، بل يقال: إنه تائب عن الكفر وتابع سبيل الله في الدين والشريعة، وإذا ثبت أنه تائب عن الكفر ثبت أنه تائب، ألا ترى أنه يكفي في صدق وصفه بكونه ضاربًا وضاحكًا صدور الضرب والضحك عنه مرة واحدة، ولا يتوقف ذلك على صدور كل أنواع الضرب والضحك عنه؟ فكذا هاهنا.

المسألة الثالثة: قال أهل التحقيق: إن هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة في حق البشر - تجري مجرى اعتذار عن زلة سبقت، وذلك لأنهم قالوا في أول تخليق البشر: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فلما سبق منهم هذا الكلام تداركوا في آخر الأمر بأن قالوا: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وهذا كالتنبيه على أن من آذى غيره، فالأَولى أن يجبر ذلك الإيذاء بإيصال نفع إليه.

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الملائكة أنهم يستغفرون للذين تابوا، بيّن كيفية ذلك الاستغفار، فحكى عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن الدعاء في أكثر الأمر مذكور بلفظ: ﴿رَبَّنَا﴾ ويدل عليه أن الملائكة عند الدعاء قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ بدليل هذه الآية، وقال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ [هود: ٤٧] وقال أيضًا: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ [نوح: ٥] وقال أيضًا: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨] وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] وقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال عن يوسف: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [يوسف: ١٠١] وقال عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال في قصة الوكز: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٦، ١٧] وحكى تعالى عن داود: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] وعن سليمان أنه قال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ [ص: ٣٥] وعن زكريا أنه ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣] وعن عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤] وعن محمد ﷺ أن الله تعالى قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وحكى عن المؤمنين أنهم

قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]وأعادوا هذه اللفظة خمس مرات، وحكى أيضًا عنهم أنهم قالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]إلى آخر السورة.

فثبت بما ذكرنا أن من أرضى الدعاء أن ينادي العبد ربه بقوله: (يا رب) وتمام الإشكال فيه أن يقال: لفظ (الله) أعظم من لفظ (الرب)، فلمَ صار لفظ الرب مختصًا بوقت الدعاء؟ والجواب: كأن العبد يقول: كنتُ في كتم العدم المحض والنفي الصرف، فأخرجتني إلى الوجود وربيتني، فاجعل تربيتك لي شفيعًا إليك في أن لا تخليني طرفة عين عن تربيتك وإحسانك وفضلك.

المسألة الثانية: السُّنة في الدعاء أن يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى، ثم يذكر الدعاء عقيبه، والدليل عليه هذه الآية، فإن الملائكة لما عزموا على الدعاء والاستغفار للمؤمنين بدءوا بالثناء فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وأيضًا أن الخليل عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء ذكر الثناء أولاً فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢] فكل هذا ثناء على الله تعالى، ثم بعده ذكر الدعاء فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

واعلم أن العقل يدل أيضًا على رعاية هذا الترتيب، وذلك ذكر الله بالثناء والتعظيم بالنسبة إلى جوهر الروح كالإكسير الأعظم بالنسبة إلى النحاس، فكما أن ذرة من الإكسير إذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكل ذهبًا إبريزًا [1] فكذلك إذا وقعت ذرة من إكسير معرفة جلال الله تعالى على جوهر الروح النطقية، انقلب من نحوسة النحاسة إلى صفاء القدس وبقاء عالم الطهارة، فثبت أن عند إشراق نور معرفة الله تعالى في جواهر الروح، يصير الروح أقوى صفاء وأكمل إشراقًا، ومتى صار كذلك كانت قوته أقوى وتأثيره أكمل، فكان حصول الشيء المطلوب بالدعاء أقرب وأكمل، وهذا هو السبب في تقديم الثناء على الله على الدعاء.

المسألة الثالثة: اعلم أن الملائكة وصفوا الله تعالى بثلاثة أنواع من الصفات: الربوبية والرحمة والعلم: أما الربوبية فهي إشارة إلى الإيجاد والإبداع، وفيه لطيفة أخرى وهي أن قولهم ﴿رَبَّنَا﴾ إشارة إلى التربية، والتربية عبارة عن إبقاء الشيء على أكمل أحواله وأحسن صفاته، وهذا يدل على أن هذه الممكنات كما أنها محتاجة حال حدوثها إلى إحداث الحق سبحانه

---

(١) رحم الله الفخر فيظهر من كلامه هذا أنه كان مشغولاً بصنعة الكيمياء التي فتنت عقول أكثر الناس، ووقع بسببها مصائب كثيرة للمسلمين فشُغلوا بها عن المطالب الحقيقية وعن العليات مع أن التجارب والأحداث دلت على أنها خدعة ووهم باطل وأنها لا حقيقة لها، وأحسن ما رُد به على من يقول بالصنعة ما رأيته للصفدي في شرح اللامية: إن الذهب من عمل الطبيعة، كما أن ما يعمله الإنسان من المصنوعات لا يمكن للطبيعة أن تعمله. اهـ.

فسبحان من تفرد بالعزة والخلق والإيجاد، أكتب هذا عسى أن يهدي الله مسلمًا تشغل نفسه بهذا الفن الزائف والوهم الباطل، وأقول: إن الكيمياء الحقيقية هي الاشتغال بالعلم والتجارة والصناعة، فهي سبب نماء المال الذي هو أفضل الكيمياء.

وتعالى وإيجاده، فكذلك إنها محتاجة حال بقائها إلى إبقاء الله. وأما الرحمة فهي إشارة إلى أن جانب الخير والرحمة والإحسان راجح على جانب الضر، وأنه تعالى إنما خلق الخلق للرحمة والخير، لا للإضرار والشر، فإن قيل: قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فيه سؤال، لأن العلم وسع كل شيء، أما الرحمة فما وصلت إلى كل شيء؛ لأن المضرور حال وقوعه في الضر لا يكون ذلك الضرر رحمة، وهذا السؤال أيضًا مذكور في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف: ١٥٦] قلنا: كل موجود فقد نال من رحمة الله تعالى نصيبًا، وذلك لأن الموجود إما واجب وإما ممكن: أما الواجب فليس إلا الله سبحانه وتعالى، وأما الممكن فوجوده من الله تعالى وبإيجاده، وذلك رحمة، فثبت أنه لا موجود غير الله إلا وقد وصل إليه نصيب ونصاب من رحمة الله؛ فلهذا قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وفي الآية دقيقة أخرى، وهي أن الملائكة قدموا ذكر الرحمة على ذكر العلم فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وذلك لأن مطلوبهم إيصال الرحمة وأن يتجاوز عما علمه منهم من أنواع الذنوب، فالمطلوب بالذات هو الرحمة، والمطلوب بالعَرَض أن يتجاوز عما علمه منهم، والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعَرَض، ألا ترى أنه لما كان إبقاء الصحة مطلوبًا بالذات وإزالة المرض مطلوبًا بالعَرَض، لا جرم لما ذكروا حد الطب قدموا فيه حفظ الصحة على إزالة المرض، فقالوا: الطب علم يُتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصلح ويزول عن الصحة لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة، فكذا هاهنا المطلوب بالذات هو الرحمة، وأما التجاوز عما علمه منهم من أنواع الذنوب فهو مطلوب بالعَرَض؛ لأجل أن حصول الرحمة على سبيل الكمال لا يحصل إلا بالتجاوز عن الذنوب؛ فلهذا السبب وقع ذكر الرحمة سابقًا على ذكر العلم.

المسألة الرابعة: دلت هذه الآية على أن المقصود بالقصة الأولى في الخلق والتكوين إنما هو الرحمة والفضل والجود والكرم، ودلت الدلائل اليقينية على أن كل ما دخل في الوجود من أنواع الخير والشر والسعادة والشقاوة، فبقضاء الله وقدره، والجمع بين هذين الأصلين في غاية الصعوبة، فعند هذا قالت الحكماء: الخير مراد مَرضي، والشر مراد مكروه، والخير مقضي به بالذات، والشر مقضي به بالعَرَض، وفيه غور عظيم.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ يدل على كونه سبحانه عالمًا بجميع المعلومات التي لا نهاية لها من الكليات والجزئيات، وأيضًا فلولا ذلك لم يكن في الدعاء والتضرع فائدة؛ لأنه إذا جاز أن يخرج عن علمه بعض الأشياء، فعلى هذا التقدير لا يعرف هذا الداعي أن الله سبحانه يعلمه ويعلم دعاءه، وعلى هذا التقدير لا يبقى في الدعاء فائدة ألبتة.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم كيفية ثنائهم على الله تعالى، حكى عنهم كيفية دعائهم، وهو أنهم قالوا: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ واعلم أن الملائكة طلبوا بالدعاء

من الله تعالى أشياء كثيرة للمؤمنين: فالمطلوب الأول الغفران، وقد سبق تفسيره في قوله: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ فإن قيل: لا معنى للغفران إلا إسقاط العذاب، وعلى هذا التقدير فلا فرق بين قوله: فاغفر لهم، وبين قوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ قلنا: دلالة لفظ المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم دلالة حاصلة على الرمز والإشارة، فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز والإشارة أردفوه بذكره على سبيل التصريح لأجل التأكيد والمبالغة، واعلم أنهم لما طلبوا من الله إزالة العذاب عنهم أردفوه بأن طلبوا من الله إيصال الثواب إليهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ فإن قيل: أنتم زعمتم أن هذه الشفاعة إنما حصلت للمذنبين، وهذه الآية تُبطل ذلك لأنه تعالى ما وعد المذنبين بأن يدخلهم في جنات عدن، قلنا: لا نسلِّم أنه ما وعدهم بذلك؛ لأنا بينا أن الدلائل الكثيرة في القرآن دلّت على أنه تعالى لا يخلد أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله في النار، وإذا أخرجهم من النار وجب أن يدخلهم الجنة، فكان هذا وعدًا من الله تعالى لهم بأن يدخلهم في جنات عدن، إما من غير دخول النار وإما بعد أن يدخلهم النار.

قال تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ يعني وأدخِل معهم في الجنة هؤلاء الطوائف الثلاث، وهم الصالحون من الآباء والأزواج والذريات، وذلك لأن الرجل إذا حضر معه في موضع عيشه وسروره أهله وعشيرته كان ابتهاجه أكمل، قال الفرّاء والزجاج: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ نصب من مكانين، فإن شئت رددته على الضمير في قوله: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ وإن شئت في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾ والمراد من قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ أهل الإيمان. ثم قالوا: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وإنما ذكروا في دعائهم هذين الوصفين لأنه لو لم يكن عزيزًا بل كان بحيث يُغلب ويُمنع لما صح وقوع المطلوب منه، ولو لم يكن حكيمًا لما حصل هذا المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة. ثم قالوا بعد ذلك: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال بعضهم: المراد وقهم عذاب السيئات، فإن قيل: فعلى هذا التقدير لا فرق بين قوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وبين ما تقدم من قوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وحينئذٍ يلزم التكرار الخالي عن الفائدة وإنه لا يجوز. قلنا: بل التفاوت حاصل من وجهين: الأول: أن يكون قوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ دعاء مذكورًا للأصول وقوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ دعاءً مذكورًا للفروع. الثاني: أن يكون قوله ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ مقصورًا على إزالة الجحيم وقوله ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف القيامة وعذاب الحساب والسؤال.

والقول الثاني في تفسير ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: هو أن الملائكة طلبوا إزالة عذاب النار بقولهم: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وطلبوا إيصال ثواب الجنة إليهم بقولهم: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا عن العقائد الفاسدة والأعمال الفاسدة، وهو المراد بقولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ثم قالوا: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ يعني ومن تق السيئات في الدنيا فقد رحمته في يوم القيامة، ثم قالوا: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيمًا لا ينقطع، وبأعمال حقيرة مُلكًا لا تصل العقول إلى كنه جلالته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾

اعلم أنه تعالى لما عاد إلى شرح أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [غافر: ٤] بَيَّن أنهم في القيامة يعترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذي ينزل بهم ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الآية حذف وفيها أيضًا تقديم وتأخير: أما الحذف فتقديره: لمقت الله إياكم. وأما التقديم والتأخير فهو أن التقدير أن يقال: لمقت الله لكم حال ما تُدعون إلى الإيمان فتكفرون - أكبر من مقتكم أنفسكم. **وفي تفسير مقتهم أنفسهم وجوه:**

الأول: أنهم إذا شاهدوا القيامة والجنة والنار، مقتوا أنفسهم على إصرارهم على التكذيب بهذه الأشياء في الدنيا.

الثاني: أن الأتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين دعوهم إلى الكفر في الدنيا، والرؤساء أيضًا يشتد مقتهم للأتباع، فعَبَّر عن مقت بعضهم بعضًا بأنهم مقتوا أنفسهم، كما أنه تعالى قال: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] والمراد قتل بعضهم بعضًا.

الثالث: قال محمد بن كعب: إذا خطبهم إبليس وهم في النار بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم.

واعلم أنه لا نزاع أن مقتهم أنفسهم إنما يحصل في يوم القيامة، أما مقت الله لهم ففيه وجهان: الأول: أنه حاصل في الآخرة، والمعنى لمقت الله لكم في هذا الوقت أشد من مقتكم أنفسكم في هذا الوقت. والثاني: - وعليه الأكثرون - أن التقدير: لمقت الله لكم في الدنيا إذ تُدعون إلى الإيمان فتكفرون - أكبر من مقتكم أنفسكم الآن. وفي تفسير الألفاظ المذكورة في الآية أوجه: الأول: أن الذين ينادونهم ويذكرون لهم هذا الكلام هم خزنة جهنم. الثاني: المقت أشد البغض وذلك في حق الله تعالى محال، فالمراد منه أبلغ الإنكار والزجر. الثالث: قال الفراء: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ معناه إنهم ينادون إن مقت الله أكبر، يقال: ناديت إن زيدًا قائم وإن زيدًا لقائم. الرابع: قوله ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ فيه حذف والتقدير: لمقت الله لكم إذ تُدعون إلى الإيمان فتأتون بالكفر - أكبر من مقتكم الآن أنفسكم.

ثم إنه تعالى بيّن أن الكفار إذا خوطبوا بهذا الخطاب ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إلى آخر الآية، والمعنى أنهم لما عرفوا أن الذي كانوا عليه في الدنيا كان فاسدًا باطلاً، تمنوا الرجوع إلى الدنيا لكي يشتغلوا عند الرجوع إليها بالأعمال الصالحة. **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: احتج أكثر العلماء بهذه الآية في إثبات عذاب القبر، وتقرير الدليل أنهم أثبتوا لأنفسهم موتتين حيث قالوا ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فأحد الموتتين مشاهد في الدنيا، فلا بد من إثبات حياة أخرى في القبر حتى يصير الموت الذي يحصل عقيبها موتًا ثانيًا، وذلك يدل على حصول حياة في القبر، فإن قيل: قال كثير من المفسرين: الموتة الأولى إشارة إلى الحالة الحاصلة عند كون الإنسان نطفة وعلقة، والموتة الثانية إشارة إلى ما حصل في الدنيا، فلمَ لا يجوز أن يكون الأمر كذلك، والذي يدل على أن الأمر ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] والمراد من قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ الحالة الحاصلة عند كونه نطفة وعلقة، وتحقيق الكلام أن الإماتة تُستعمل بمعنيين: أحدهما: إيجاد الشيء ميتًا. والثاني: تصيير الشيء ميتًا بعد أن كان حيًّا كقولك (وسّع الخياط ثوبي)، يحتمل أنه خاطه واسعًا ويحتمل أنه صيره واسعًا بعد أن كان ضيقًا، فلمَ لا يجوز في هذه الآية أن يكون المراد بالإماتة خلقها ميتة، ولا يكون المراد تصييرها ميتة بعد أن كانت حية؟

السؤال الثاني: أن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة.

السؤال الثالث: أن هذه الآية تدل على المنع من حصول الحياة في القبر، وبيانه أنه لو كان الأمر كذلك لكان قد حصلت الحياة ثلاث مرات: أولها: في الدنيا، وثانيها: في القبر، وثالثها: في القيامة، والمذكور في الآية ليس إلا حياتين فقط، فتكون إحداهما الحياة في الدنيا والحياة الثانية في القيامة، والموت الحاصل بينهما هو الموت المشاهد في الدنيا.

السؤال الرابع: أنه إن دلت هذه الآية على حصول الحياة في القبر فهاهنا ما يدل على عدمه، وذلك بالمنقول والمعقول: أما المنقول فمن وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] فلم يذكر في هذه الآية إلا الحذر عن الآخرة، ولو حصلت الحياة في القبر لكان الحذر عنها حاصلاً، ولو كان الأمر كذلك لذكره، ولما لم يذكره علمنا أنه غير حاصل. الثاني: أنه تعالى حكى في سورة الصافات عن المؤمنين المحققين أنهم يقولون بعد دخولهم في الجنة: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [الصافات: ٥٨، ٥٩] ولا شك أن كلام أهل الجنة حق وصدق، ولو حصلت لهم حياة في القبر لكانوا قد ماتوا موتتين، وذلك على خلاف قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ قالوا: والاستدلال بهذه الآية أقوى من الاستدلال بالآية التي ذكرتموها؛ لأن الآية التي تمسكنا بها حكاية قول المؤمنين الذين دخلوا الجنة، والآية التي تمسكتم بها حكاية قول الكافرين الذين دخلوا النار.

وأما المعقول فمن وجوه: الأول: وهو أن الذي افترسته السباع وأكلته لو أعيد حيًّا، لكان إما أن

يعاد حيًا بمجموعه أو بآحاد أجزائه، والأول باطل لأن الحس يدل على أنه لم يحصل له مجموع، والثاني باطل لأنه لما أكلته السباع، فلو جُعلت تلك الأجزاء أحياء لحصلت أحياء في معدة السباع وفي أمعائها، وذلك في غاية الاستبعاد. الثاني: أن الذي مات لو تركناه ظاهرًا بحيث يراه كل واحد فإنهم يرونه باقيًا على موته، فلو جوزنا مع هذه الحالة أنه يقال: إنه صار حيًا، لكان هذا تشكيكًا في المحسوسات، وإنه دخول في السفسطة. (والجواب): قوله: لمَ لا يجوز أن تكون الموتة الأولى هي الموتة التي كانت حاصلة حال ما كان نطفة وعلقة؟ فنقول: هذا لا يجوز، وبيانه أن المذكور في الآية أن الله أماتهم ولفظ الإماتة مشروط بسبق حصول الحياة؛ إذ لو كان الموت حاصلاً قبل هذه الحالة امتنع كون هذا إماتة، وإلا لزم تحصيل الحاصل وهو محال، وهذا بخلاف قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨] لأن المذكور في هذه الآية أنهم كانوا أمواتًا وليس فيها أن الله أماتهم بخلاف الآية التي نحن في تفسيرها؛ لأنها تدل على أن الله تعالى أماتهم مرتين، وقد بينا أن لفظ الإماتة لا يصدق إلا عند سبق الحياة، فظهر الفرق.

أما قوله: إن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة. قلنا: لما ذكروا ذلك لم يكذبهم الله تعالى إذ لو كانوا كاذبين لأظهر الله تكذيبهم، ألا ترى أنهم لما كذبوا في قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] كَذَّبهم الله في ذلك فقال: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾ [الأنعام: ٢٤]. وأما قوله: ظاهر الآية يمنع من إثبات حياة في القبر؛ إذ لو حصلت هذه الحياة لكان عدد الحياة ثلاث مرات لا مرتين. فنقول: (الجواب) عنه من وجوه:

الأول: هو أن مقصودهم تعديد أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة: الموتة الأولى، والحياة في القبر، والموتة الثانية، والحياة في القيامة، فهذه الأربعة أوقات البلاء والمحنة، فأما الحياة في الدنيا فليست من أقسام أوقات البلاء والمحنة فلهذا السبب لم يذكروها.

الثاني: لعلهم ذكروا الحياتين: وهي الحياة في الدنيا، والحياة في القيامة، أما الحياة في القبر فأهملوا ذكرها لقلة وجودها وقِصر مدتها.

الثالث: لعلهم لما صاروا أحياء في القبور لم يموتوا، بل بقوا أحياء إما في السعادة وإما في الشقاوة، واتصل بها حياة القيامة فكانوا من جملة من أرادهم الله بالاستثناء في قوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

الرابع: لو لم تثبت الحياة في القبر لزم أن لا يحصل الموت إلا مرة واحدة فكان إثبات الموت مرتين كذبًا وهو على خلاف لفظ القرآن، أما لو أثبتنا الحياة في القبر لزمنا إثبات الحياة ثلاث مرات والمذكور في القرآن مرتين، أما المرة الثالثة فليس في اللفظ ما يدل على ثبوتها أو عدمها، فثبت أن نفي حياة القبر يقتضي ترك ما دل اللفظ عليه، فأما إثبات حياة القبر فإنه يقتضي إثبات شيء زائد على ما دل عليه اللفظ، مع أن اللفظ لا إشعار فيه بثبوته ولا بعدمه، فكان هذا

أوْلى، وأما ما ذكروه في المعارضة الأولى. فنقول: قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الزمر: ٩] تدخل فيه الحياة الآخرة سواء كانت في القبر أو في القيامة، وأما المعارضة الثانية فجوابها أنا نرجح قولنا بالأحاديث الصحيحة الواردة في عذاب القبر.

وأما الوجهان العقليان فمدفوعان؛ لأنا إذا قلنا: إن الإنسان ليس عبارة عن هذا الهيكل بل هو عبارة عن جسم نوراني سار في هذا البدن. كانت الإشكالات التي ذكرتموها غير واردة في هذا الباب، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أنا لما أثبتنا حياة القبر فيكون الحاصل في حق بعضهم أربعة أنواع من الحياة وثلاثة أنواع من الموت، والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] فهؤلاء أربعة مراتب في الحياة، حياتان في الدنيا، وحياة في القبر، وحياة رابعة في القيامة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ نعت لمصدر محذوف والتقدير: إماتتين اثنتين. ثم حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فإن قيل: الفاء في قوله: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا﴾ تقتضي أن تكون الإماتة مرتين والإحياء مرتين سببًا لهذا الاعتراف فبينوا هذه السببية. قلنا: لأنهم كانوا منكرين للبعث فلما شاهدوا الإحياء بعد الإماتة مرتين لم يبق لهم عذر في الإقرار بالبعث، فلا جرم وقع هذا الإقرار كالمسبب عن ذلك الإحياء وتلك الإماتة. ثم قال: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي هل إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء من سبيل، أم اليأس وقع فلا خروج ولا سبيل إليه؟ وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، واعلم أن الجواب الصريح عنه أن يقال: لا أو نعم، وهو تعالى لم يفعل ذلك بل ذكر كلامًا يدل على أنه لا سبيل لهم إلى الخروج فقال: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي ذلكم الذي أنتم فيه – وهو أن لا سبيل لكم إلى الخروج قط – إنما وقع بسبب كفركم بتوحيد الله تعالى، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدي، وقوله: ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة، وعلى أن عقابه لا يكون إلا كذلك. والمشبهة استدلوا بقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾ على العلو الأعلى في الجهة، وبقوله ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ على كبر الجثة والذات، وكل ذلك باطل، لأنا دللنا على أن الجسمية والمكان محالان في حق الله تعالى، فوجب أن يكون المراد من ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ العلو والكبرياء بحسب القدرة والإلهية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١٤﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته؛ ليصير ذلك دليلاً على أنه لا يجوز جعل هذه الأحجار المنحوتة والخُشُب

المصورة شركاء لله تعالى في المعبودية، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ واعلم أن أهم المهمات رعاية مصالح الأديان ومصالح الأبدان، فهو سبحانه وتعالى راعى مصالح أديان العباد بإظهار البينات والآيات، وراعى مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السماء، فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان، فالآيات لحياة الأديان، والأرزاق لحياة الأبدان، وعند حصولهما يحصل الإنعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات.

ثم قال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ والمعنى أن الوقوف على دلائل توحيد الله تعالى كالأمر المركوز في العقل، إلا أن القول بالشرك والاشتغال بعبادة غير الله يصير كالمانع من تجلي تلك الأنوار، فإذا أعرض العبد عنها وأناب إلى الله تعالى، زال الغطاء والوطاء فظهر الفوز التام، ولما قرر هذا المعنى صرح بالمطلوب وهو الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقال: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك، ومن الالتفات إلى غير الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ قرأ ابن كثير ينزل خفيفة والباقون بالتشديد.

قوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر من صفات كبريائه وإكرامه كونه مُظهرًا للآيات مُنزلاً للأرزاق، ذكر في هذه الآية ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهو قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ قال صاحب (الكشاف): ثلاثة أخبار لقوله ﴿هُوَ﴾ مرتبة على قوله: ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ [غافر: ١٣] أو أخبار مبتدأ محذوف، وهي مختلفة تعريفًا وتنكيرًا، قرئ (رفيع الدرجات) بالنصب على المدح. وأقول: لا بد من تفسير هذه الصفات الثلاثة:

الصفة الأولى: قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ واعلم أن الرفيع يحتمل أن يكون المراد منه الرافع، وأن يكون المراد منه المرتفع: أما إذا حملناه على الأول ففيه وجوه: الوجه الأول: أنه تعالى يرفع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة. والثاني: رافع درجات الخلق في العلوم والأخلاق الفاضلة، فهو سبحانه عَيَّن لكل أحد من الملائكة درجة معينة، كما قال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وعَيَّن لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وعَيَّن لكل جسم درجة معينة، فجعل بعضها سفلية عنصرية، وبعضها فلكية كوكبية، وبعضها من جواهر العرش والكرسي، فجعل لبعضها درجة أعلى من درجة الثاني، وأيضًا جعل لكل واحد مرتبة معينة في الخلق والرزق والأجل، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وجعل لكل أحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة، وفي الآخرة آثار لظهور تلك السعادة والشقاء، فإذا حملنا الرفيع على الرفع كان معناه ما ذكرناه. وأما إذا حملناه على المرتفع فهو سبحانه أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال، أما في الأصل الوجود فهو أرفع الموجودات؛ لأنه واجب الوجود لذاته وما سواه ممكن ومحتاج إليه، وأما في دوام الوجود فهو أرفع الموجودات؛ لأنه واجب الوجود لذاته وهو الأزلي والأبدي والسرمدي، الذي هو أول لكل ما سواه، وليس له أول وآخر لكل ما سواه، وليس له آخر، أما في العلم فلأنه هو العالم بجميع الذوات والصفات والكليات والجزئيات، كما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وأما في القدرة فهو أعلى القادرين وأرفعهم؛ لأنه في وجوده وجميع كمالات وجوده غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فإنه محتاج في وجوده وفي جميع كمالات وجوده إليه، وأما في الوحدانية فهو الواحد الذي يمتنع أن يحصل له ضد وند وشريك ونظير. وأقول: الحق سبحانه له صفتان: أحدهما: استغناؤه في وجوده وفي جميع صفات وجوده عن كل ما سواه. الثاني: افتقار كل ما سواه إليه في وجوده وفي صفات وجوده. فالرفيع إن فسرناه بالمرتفع، كان معناه أنه أرفع الموجودات وأعلاها في جميع صفات الجلال والإكرام، وإن فسرناه بالرافع، كان معناه أن كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشيء سواه، فإنما حصلت بإيجاده وتكوينه وفضله ورحمته.

الصفة الثانية: قوله ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ ومعناه أنه مالك العرش ومدبره وخالقه، واحتج بعض الأغمار من المشبهة بقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ وحملوه على أن المراد بالدرجات: السموات، وبقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أنه موجود في العرش فوق سبع سموات. وقد أعظموا الفرية على الله تعالى، فإنا بينا بالدلائل القاهرة العقلية أن كونه تعالى جسمًا وفي جهة محال، وأيضًا فظاهر اللفظ لا يدل على ما قالوه؛ لأن قوله ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ لا يفيد إلا إضافته إلى العرش ويكفي في إضافته إليه بكونه مالكًا له ومُخرجًا له من العدم إلى الوجود، فأي ضرورة تدعونا إلى الذهاب إلى القول الباطل والمذهب الفاسد؟ والفائدة في تخصيص العرش بالذكر هو أنه أعظم الأجسام، والمقصود بيان كمال إلهيته ونفاذ قدرته، فكل ما كان محل التصرف والتدبير أعظم، كانت دلالته على كمال القدرة أقوى.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: اختلفوا في المراد بهذا الروح، والصحيح أن المراد هو الوحي، وقد أطنبنا في بيان أنه لـمَ سمي الوحي بالروح في أول سورة النحل في تفسير قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢] وقال أيضًا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وحاصل الكلام فيه أن حياة

الأرواح بالمعارف الإلهية والجلايا القدسية، فإذا كان الوحي سببًا لحصول هذه الأرواح سمي بالروح، فإن الروح سبب لحصول الحياة، والوحي سبب لحصول هذه الحياة الروحانية.

واعلم أن هذه الآية مشتملة على أسرار عجيبة من علوم المكاشفات، وذلك لأن كمال كبرياء الله تعالى لا تصل إليه العقول والأفهام، فالطريق الكامل في تعريفه بقدر الطاقة البشرية أن يُذكر ذلك الكلام على الوجه الكلي العقلي، ثم يذكر عقيبه شيء من المحسوسات المؤكدة لذلك المعنى العقلي ليصير الحصر بهذا الطريق معاضدًا للعقل، فههنا أيضًا كذلك، فقوله ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ إما أن يكون بمعنى كونه رافعًا للدرجات، وهو إشارة إلى تأثير قدرة الله تعالى في إيجاد الممكنات على احتلاف درجاتها وتباين منازلها وصفاتها، أو إلى كونه تعالى مرتفعًا في صفات الجلال ونعوت العزة عن كل الموجودات، فهذا الكلام عقلي برهاني، ثم إنه سبحانه بَيَّن هذا الكلام الكلي بمزيد تقرير، وذلك لأن ما سوى الله تعالى إما جسمانيات وإما روحانيات: فبَيَّن في هذه الآية أن كلا القسمين مسخر تحت تسخير الحق سبحانه وتعالى، أما الجسمانيات فأعظمها العرش، فقوله ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ يدل على استيلائه على كلية عالم الأجسام، ولما كان العرش من جنس المحسوسات كان هذا المحسوس مؤكدًا لذلك المعقول، أعني قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ وأما الروحانيات فكلها مسخرة للحق سبحانه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾.

وإعلم أن أشرف الأحوال الظاهرة في روحانيات هذا العالم ظهور آثار الوحي، والوحي إنما يتم بأركان أربعة: فأولها: المرسِل وهو الله سبحانه وتعالى؛ فلهذا أضاف إلقاء الوحي إلى نفسه فقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ والركن الثاني: الإرسال والوحي وهو الذي سماه بالروح. والركن الثالث: أن وصول الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء لا يمكن أن يكون إلا بواسطة الملائكة، وهو المشار إليه في هذه الآية بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ فالركن الروحاني يسمى أمرًا، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]والركن الرابع: الأنبياء الذين يلقي الله الوحي إليهم وهو المشار إليه بقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ والركن الخامس: تعيين الغرض والمقصود الأصلي من إلقاء هذا الوحي إليهم، وذلك هو أن الأنبياء عليهم السلام يصرفون الخلق من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، ويحملونهم على الإعراض عن هذه الجسمانيات والإقبال على الروحانيات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ فهذا ترتيب عجيب يدل على هذه الإشارات العالية من علوم المكاشفات الإلهية.

وبقي هاهنا أن نبين أنه ما السبب في تسمية يوم القيامة بيوم التلاق؟ وكم الصفات التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة ليوم التلاق؟

أما السبب في تسمية يوم القيامة بيوم التلاق ففيه وجوه:

الأول: أن الأرواح كانت متباينة عن الأجساد، فإذا جاء يوم القيامة صارت الأرواح ملاقية للأجساد، فكان ذلك اليوم يوم التلاق. الثاني: أن الخلائق يتلاقون فيه فيقف بعضهم على حال

البعض. الثالث: أن أهل السماء ينزلون على أهل الأرض فيلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]الرابع: أن كل أحد يصل إلى جزاء عمله في ذلك اليوم، فكان ذلك من باب التلاق، وهو مأخوذ من قولهم فلان لقي عمله. الخامس: يمكن أن يكون ذلك مأخوذًا من قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]ومن قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]السادس: يوم يلتقي فيه العابدون والمعبودون. السابع: يوم يلتقي فيه آدم عليه السلام وآخر ولده. الثامن: قال ميمون بن مهران: يوم يلتقي فيه الظالم والمظلوم، فربما ظلم الرجل رجلًا وانفصل عنه، ولو أراد أن يجده لم يقدر عليه ولم يعرفه، ففي يوم القيامة يحضران ويلقى بعضهم بعضًا. قرأ ابن كثير (التلاقي والتنادي) بإثبات الياء في الوصل والوقف، و(هادي وواقي) بالياء في الوقف وبالتنوين في الوصل.

وأما بيان أن الله تعالى كم عدد من الصفات ووصف بها يوم القيامة في هذه الآية، فنقول:

الصفة الأولى: كونه يوم التلاق، وقد ذكرنا تفسيره.

الصفة الثانية: قوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ وفي تفسير هذا البروز وجوه: الأول: أنهم برزوا عن بواطن القبور. الثاني: بارزون، أي ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء؛ لأن الأرض بارزة قاع صفصف، وليس عليهم أيضًا ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث: «يُحْشَرُونَ عُرَاةً حُفَاةً غُرْلاً»[1] الثالث: أن يُجعل كونهم بارزين كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]الرابع: أن هذه النفوس الناطقة البشرية كأنها في الدنيا انغمست في ظلمات أعمال الأبدان، فإذا جاء يوم القيامة أعرضت عن الاشتغال بتدبير الجسمانيات وتوجهت بالكلية إلى عالم القيامة ومجمع الروحانيات، فكأنها برزت بعد أن كانت كامنة في الجسمانيات مستترة بها.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ والمراد يوم لا يخفى على الله منهم شيء، والمقصود منه الوعيد فإنه تعالى بيّن أنهم إذا برزوا من قبورهم واجتمعوا وتلاقوا، فإن الله تعالى يعلم ما فعله كل واحد منهم، فيجازي كلًا بحسبه إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، فهم وإن لم يعلموا تفصيل ما فعلوه، فالله تعالى عالم بذلك، ونظيره قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]وقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]وقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]فإن قيل: الله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء في جميع الأيام، فما معنى تقييد هذا المعنى بذلك اليوم؟ قلنا: إنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم، فهم في

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق)، باب: (الحشر) (١١/ ٣٨٥)، حديث رقم (٦٥٢٥) من طريق عمرو بن دينار... به، ومسلم في كتاب (الجنة)، باب: (فناء الدنيا وبيان الحشر) (٤/ ٥٧/ ٢١٩٤) من طريق عمرو بن دينار... به، كلاهما (عمرو، المغيرة) عن سعيد بن جبير... به.

ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمونه في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] وقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨] وهو معنى قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ والتقدير: يوم ينادى فيه: لمن الملك اليوم؟ وهذا النداء في أي الأوقات يحصل؟

فيه قولان:

الأول: قال المفسرون: إذا هلك كل من في السموات ومن في الأرض فيقول الرب تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ يعني يوم القيامة، فلا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ قال أهل الأصول: هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه: الأول: أنه تعالى بيّن أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاق ويوم البروز ويوم تجزى كل نفس بما كسبت، والناس في ذلك الوقت أحياء، فبطل قولهم: إن الله تعالى إنما ينادي بهذا النداء حين هلك كل من في السموات والأرض. والثاني: أن الكلام لا بد فيه من فائدة؛ لأن الكلام إما أن يُذكر حال حضور الغير، أو حال ما لا يحضر الغير، والأول باطل هاهنا لأن القوم قالوا إنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل، والثاني أيضًا باطل لأن الرجل إنما يحسن تكلمه حال كونه وحده إما لأنه يحفظ به شيئًا كالذي يكرر على الدرس وذلك على الله محال، أو لأجل أنه يحصل سرور بما يقوله وذلك أيضًا على الله محال، أو لأجل أن يُعبد الله بذلك الذكر، وذلك أيضًا على الله محال، فثبت أن قول من يقول: إن الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له.

والقول الثاني: أن في يوم التلاق إذا حضر الأولون والآخرون وبرزوا لله نادى منادٍ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيقول كل الحاضرين في محفل القيامة: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فالمؤمنون يقولون تلذذًا بهذا الكلام، حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة، والكفار يقولونه على الصَّغار والذلة على وجه التحسر والندامة على أن فاتهم هذا الذكر في الدنيا. وقال القائلون بهذا القول: إن صح القول الأول عن ابن عباس وغيره لم يمتنع أن يكون المراد أن هذا النداء يُذكر بعد فناء البشر إلا أنه حضر هناك ملائكة يسمعون ذلك النداء، وأقول أيضًا على هذا القول: لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى، ولا يبعد أيضًا أن يكون السائل جمعًا من الملائكة والمجيب جمعًا آخرين، الكل ممكن وليس على التعيين دليل. فإن قيل: وما الفائدة في تخصيص هذا اليوم بهذا النداء؟

فنقول: الناس كانوا مغرورين في الدنيا بالأسباب الظاهرة، وكان الشيخ الإمام الوالد عمر رضي الله عنه يقول: لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب، وفي يوم القيامة زالت الأسباب، وانعزلت الأرباب، ولم يبق ألبتة غير حكم مسبب الأسباب؛ فلهذا اختص النداء بيوم القيامة، واعلم أنه وإن كان ظاهر اللفظ يدل على اختصاص ذلك النداء بذلك اليوم إلا أن قوله: ﴿لِلَّهِ

﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ يفيد أن هذا النداء حاصل من جهة المعنى أبدًا، وذلك لأن قولنا: (الله) اسم لواجب الوجود لذاته، وواجب الوجود لذاته واحد وكل ما سواه ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، ومعنى الإيجاد هو ترجيح جانب الوجود على جانب العدم، وذلك الترجيح هو قهر للجانب المرجوح، فثبت أن الإله القهار واحد أبدًا، ونداء (لمن الملك اليوم) إنما ظهر من كونه واحدًا قهارًا، فإذا كان كونه قهارًا باقيًا من الأزل إلى الأبد، لا جرم كان نداء ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ باقيًا في جانب المعنى من الأزل إلى الأبد.

الصفة الخامسة من صفات ذلك اليوم: قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

واعلم أنه سبحانه لما شرح صفات القهر في ذلك اليوم أردفه ببيان صفات العدل والفضل في ذلك اليوم فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا الكلام اشتمل على أمور ثلاثة: أولها: إثبات الكسب للإنسان. والثاني: أن كسبه يوجب الجزاء. والثالث: أن ذلك الجزاء إنما يستوفى في ذلك اليوم، فهذه الكلمة على اختصارها مشتملة على هذه الأصول الثلاثة في هذا الكتاب، وهي أصول عظيمة الموقع في الدين، وقد سبق تقرير هذه الأصول مرارًا، ولا بأس بذكر بعض النكت في تقرير هذه الأصول: أما الأول: فهو إثبات الكسب للإنسان وهو عبارة عن كون أعضائه سليمة صالحة للفعل والترك، فما دام يبقى على هذا الاستواء امتنع صدور الفعل والترك عنه، فإذا انضاف إليه الداعي إلى الفعل أو الداعي إلى الترك وجب صدور ذلك الفعل أو الترك عنه. وأما الثاني: وهو بيان ترتب الجزاء عليه، فاعلم أن الأفعال على قسمين: منها ما يكون الداعي إليه طلب الخيرات الجسمانية الحاصلة في عالم الدنيا، ومنها ما يكون الداعي إليه طلب الخيرات الروحانية التي لا يظهر كمالها إلا في عالم الآخرة، وقد ثبت بالتجربة أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات الراسخة، فمن غلب عليه القسم الأول استحكمت رحمته رغبته في الدنيا وفي الجسمانيات، فعند الموت يحصل الفراق بينه وبين مطلوبه على أعظم الوجوه ويعظم عليه البلاء، ومن غلب عليه القسم الثاني فعند الموت يفارق المبغوض ويتصل بالمحبوب فتعظم الآلاء والنعماء، فهذا هو معنى الكسب، ومعنى كون ذلك الكسب موجبًا للجزاء، فظهر بهذا أن كمال الجزاء لا يحصل إلا في يوم القيامة، فهذا قانون كلي عقلي، والشريعة الحقة أتت بما يقوي هذا القانون الكلي في تفاصيل الأعمال والأقوال، والله أعلم.

المسألة الثانية: هذه الآية أصل عظيم في أصول الفقه، وذلك لأنا نقول: لو كان شيء من أنواع الضرر مشروعًا لكان إما أن يكون مشروعًا لكونه جزاء على شيء من الجنايات أو لا لكونه جزاء، والقسمان باطلان، فبطل القول بكونه مشروعًا، أما بيان أنه لا يجوز أن يكون مشروعًا ليكون جزاء على شيء من الأعمال، فلأن هذا النص يقتضي تأخير الأجزية إلى يوم القيامة،

فإثباته في الدنيا يكون على خلاف هذا النص، وأما بيان أنه لا يجوز أن يكون مشروعًا للجزاء لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ولقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ولقوله ﷺ: «لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ فِي الإِسْلَامِ»(١) عدلنا عن هذه العمومات فيما إذا كانت المضار أجزية، وفيما ورد نص في الإذن فيه كذبح الحيوانات، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة فيما عداه، فثبت بما ذكرنا أن الأصل في المضار والآلام التحريم، فإن وجدنا نصًا خاصًا يدل على الشرعية قضينا به تقديمًا للخاص على العام، وإلا فهو باقٍ على أصل التحريم، وهذا أصل كلي منتفع به في الشريعة، والله أعلم.

الصفة السادسة من صفات ذلك اليوم: قوله: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ والمقصود أنه لما قال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أردفه بما يدل على أنه لا يقع في ذلك اليوم نوع من أنواع الظلم، قال المحققون: وقوع الظلم في الجزاء يقع على أربعة أقسام: أحدها: أن يستحق الرجل ثوابًا فيُمنع منه. وثانيها: أن يعطي بعض بعض حقه ولكنه لا يوصل إليه حقه بالتمام. وثالثها: أن يعذب من لا يستحق. العذاب ورابعها: أن يكون الرجل مستحقًا للعذاب فيعذب ويزداد على قدر حقه. فقوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ يفيد نفي هذه الأقسام الأربعة، قال القاضي: هذه الآية قوية في إبطال قول المجبرة لأن على قولهم لا ظلم غالبًا وشاهدًا إلا من الله، ولأنه تعالى إذا خلق فيه الكفر ثم عذبه عليه، فهذا هو عين الظلم. والجواب عنه معلوم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وذِكر هذا الكلام في هذا الموضع لائق جدًا؛ لأنه تعالى لما بيّن أنه لا ظلم، بَيَّن أنه سريع الحساب، وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه في الحال، والله أعلم.

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ٧٨٤)، حديث رقم (٢٣٤٠) من طريق موسى بن عقبة، حدثنا إسحاق بن يحيى بن الوليد عن عبادة بن الصامت... به، ورواه أحمد في (مسنده) (١/ ٢٥٥)، حديث رقم (٢٣٠٧) من طريق أبي الأسود عن عكرمة عن ابن عباس... به، وأيضًا في (١/ ٣١٣)، حديث رقم (٢٨٦٧) من طريق معمر عن جابر عن عكرمة عن ابن عباس... به، ورواه الطبراني في (الأوسط) (١/ ٩٠)، حديث رقم (٢٦٨) من طريق سعيد بن أبي أيوب عن أبي سهل عن القاسم بن محمد عن عائشة... به، ورواه أيضًا في (٤/ ١٢٥)، حديث رقم (٣٧٧٧) من طريق محمد بن ثور عن معمر عن جابر عن عكرمة عن ابن عباس... به، ورواه أيضًا في (٢/ ٢٣٨) حديث رقم (٥١٩٣) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن يحيى بن حبان، عن عمه واسع بن حبان، عن جابر بن عبد الله... به، ورواه أيضًا في (الكبير) (٢/ ٨٦)، حديث رقم (١٣٨٧) من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم مولى قرينة عن صفوان بن سليم عن ثعلبة بن أبي مالك... به، ورواه البيهقي في (معرفة السنن والآثار) (١٠/ ٢٢٢)، حديث رقم (٢٨٦٣) من طريق الشافعي قال: إن مالكًا أخبره عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال... فذكره. ورواه في (السنن الكبرى) (٦/ ٦٩) من طريق عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري... فذكره. ورواه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٤/ ٢٨٧)، حديث رقم (١٣٠٠) من طريق يعقوب بن كاسب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، عن صفوان بن سليم، عن ثعلبة بن مالك أن النبي ﷺ... فذكره.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة المهيبة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير يوم الآزفة وجوهًا: الأول: أن يوم الآزفة هو يوم القيامة، والآزفة فاعلة من أزف الأمر، إذا دنا وحضر؛ لقوله في صفة يوم القيامة: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[النجم: ٥٧، ٥٨] وقال شاعر:

أَفِدَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا ... لَمَّا تَزُلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ(١)

والمقصود منه التنبيه على أن يوم القيامة قريب، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[القمر: ١] قال الزجاج: إنما قيل لها آزفة لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها، وما هو كائن فهو قريب.

واعلم أن الآزفة نعت لمحذوف مؤنث على تقدير يوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة. قال القفال: وأسماء القيامة تجري على التأنيث كالطامة والحاقة ونحوها، كأنها يرجع معناها إلى الداهية.

والقول الثاني: أن المراد بيوم الآزفة وقت الآزفة وهي مسارعتهم إلى دخول النار، فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف.

والقول الثالث: قال أبو مسلم: يوم الآزفة يوم المنية وحضور الأجل، والذي يدل عليه أنه تعالى وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق، و ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾ فوجب أن يكون هذا اليوم غير ذلك اليوم، وأيضًا هذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات بيوم الموت، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾[الواقعة: ٨٣، ٨٤] وقال: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾[القيامة: ٢٦] وأيضًا فوصف يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب،

(١) هذا البيت للشاعر النابغة الذبياني، وقد سبق ترجمته.

وأيضًا الصفات المذكورة بعد قوله الآزفة لائقة بيوم حضور الموت لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفه، فكأن قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف، ويبقوا كاظمين ساكتين عن ذكر ما في قلوبهم من شدة الخوف، ولا يكون لهم حميم ولا شفيع يدفع ما بهم من أنواع الخوف والقلق.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن المراد من قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ كناية عن شدة الخوف أو هو محمول على ظاهره: قيل: المراد وصف ذلك اليوم بشدة الخوف والفزع، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] وقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤] وقيل: بل هو محمول على ظاهره، قال الحسن: القلوب انتزعت من الصدور بسبب شدة الخوف، وبلغت القلوب الحناجر فلا تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروحوا، ولكنها مقبوضة كالسجال كما قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧] وقوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي مكروبين، والكاظم: الساكت حال امتلائه غمًّا وغيظًا. فإن قيل: بمَ انتصب ﴿كَٰظِمِينَ﴾؟ قلنا: هو حال أصحاب القلوب على المعنى لأن المراد إذ قلوبهم لدى الحناجر حال كونهم كاظمين، ويجوز أيضًا أن يكون حال عن القلوب، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، وإنما جمع الكاظمة جمع السلامة لأنه وَصَفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ويعضده قراءة من قرأ (كاظمون) وبالجملة فالمقصود من الآية تقرير أمرين: أحدهما: الخوف الشديد وهو المراد من قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾، والثاني: العجز عن الكلام وهو المراد من قوله ﴿كَٰظِمِينَ﴾ فإن الملهوف إذا قدر على الكلام حصلت له خفقة وسكون، أما إذا لم يقدر على الكلام وبث الشكوى عظم قلقه وقوي خوفه.

المسألة الثالثة: احتج أكثر المعتزلة في نفي الشفاعة عن المذنبين بقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ قالوا: نفى حصول شفيع لهم يطاع، فوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع. أجاب أصحابنا عنه من وجوه: الأول: أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع، وهذا لا يدل على نفي الشفيع، ألا ترى أنك إذا قلت (ما عندي كتاب يباع) فهذا يقتضي نفي كتاب يباع ولا يقتضي نفي الكتاب، وقالت العرب:

وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ(١)

ولفظ الطاعة يقتضي حصول المرتبة، فهذا يدل على أنه ليس لهم يوم القيامة شفيع

---

(١) هذا عجز بيت من قصيدة للشاعر ابن أحمر الباهلي، والبيت كاملاً هكذا:

لا تُفْزِعُ الأرنبَ أهْوَالُهَا ... وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ

وقد سبق ترجمته.

يطيعه الله، لأنه ليس في الوجود أحد أعلى حالاً من الله تعالى حتى يقال: إن الله يطيعه الوجه الثاني في الجواب: أن المراد من الظالمين هاهنا الكفار، والدليل عليه أن هذه الآية وردت في زجر الكفار الذين يجادلون في آيات الله، فوجب أن يكون مختصًا بهم، وعندنا أنه لا شفاعة في حق الكفار. والثالث: أن لفظ الظالمين إما أن يفيد الاستغراق، وإما أن لا يفيد: فإن أفاد الاستغراق كان المراد من الظالمين مجموعهم وجملتهم، ويدخل في مجموع هذا الكلام الكفار، وعندنا أنه ليس لهذا المجموع شفيع لأن بعض هذا المجموع هم الكفار، وليس لهم شفيع، فحينئذٍ لا يكون لهذا المجموع شفيع، وإن لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض من كان موصوفًا بهذه الصفة، وعندنا أن بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع وهم الكفار. أجاب المستدلون عن السؤال الأول فقالوا: يجب حمل كلام الله تعالى على محمل مفيد، وكل أحد يعلم أنه ليس في الوجود شيء يطيعه الله لأن المطيع أدون حالاً من المطاع، وليس في الوجود شيء أعلى مرتبة من الله تعالى حتى يقال: إن الله يطيعه، وإذا كان هذا المعنى معلومًا بالضرورة كان حمل الآية عليه إخراجًا لها عن الفائدة، فوجب حمل الطاعة على الإجابة، والذي يدل على ورود لفظ الطاعة بمعنى الإجابة قول الشاعر:

رُبَّ مَنْ أَنْضَجْتُ غَيْظًا صَدْرَهُ قَدْ تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطَعْ[١]

أما السؤال الثاني: فقد أجابوا عنه بأن لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم، أقصى ما في الباب أن هذه الآية وردت لذم الكفار؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أما السؤال الثالث: فجوابه أن قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يفيد أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع يطاع. فهذا تمام كلام القوم في تقرير ذلك الاستدلال.

أجاب أصحابنا عن السؤال الأول فقالوا: إن القوم كانوا يقولون في الأصنام: إنها شفعاؤنا عند الله. وكانوا يقولون: إنها تشفع لنا عند الله من غير حاجة فيه إلى إذن الله. ولهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله إجابة الأصنام في تلك الشفاعة، وهذا نوع طاعة، فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾. وأجابوا عن الكلام الثاني بأن قالوا: الأصل في حرف التعريف أن ينصرف إلى المعهود السابق، فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق، انصرف إليه، وقد حصل في هذه الآية معهود سابق

---

(١) هذا البيت للشاعر سويد البشكري، وفيه (غيظًا قلبه)... وهو: سويد بن أبي كاهل (غطيف أو شبيب) بن حارثة بن حسل الذبياني الكناني اليشكري، ؟- ٦٠/ ؟- ٦٧٩م، شاعر من مخضرمي الجاهلية والإسلام، عدّه ابن سلام في طبقة عنترة، كان يسكن بادية العراق، وسُجن بالكوفة لمهاجاته أحد بني يشكر، فعمل بنو عبس وذبيان على إخراجه لمديحه، فأُطلق بعد أن حلف على أن لا يعود إلى المهاجاة.

وهم الكفار الذين يجادلون في آيات الله، فوجب أن ينصرف إليه. وأجابوا عن الكلام الثالث بأن قالوا: قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ يحتمل عموم السلب، ويحتمل سلب العموم: أما الأول: فعلى تقدير أن يكون المعنى أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع، وأما الثاني: فعلى تقدير أن يكون المعنى أن مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع، ولا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع، والذي يؤكد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] فقوله: (إن الذين كفروا لا يؤمنون)، إن حملناه على أن كل واحد منهم محكوم عليه بأنه لا يؤمن لزم وقوع الخلف في كلام الله؛ لأن كثيرًا ممن كفر فقد آمن بعد ذلك، أما لو حملناه على أن مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن، صدق وتخلص عن الخلف، فلا جرم حملنا هذه الآية على سلب العموم ولم نحملها على عموم السلب، فكذا قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب، وحينئذٍ استدلال المعتزلة بهذه الآية، فهذا غاية الكلام في هذا الباب.

المسألة الرابعة: في بيان نظم الآية فنقول: إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف: فأولها: أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة، أي يوم القرب من عذابه لمن ابتلي بالذنب العظيم؛ لأنه إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف، حتى قيل: إن تلك الغموم والهموم أعظم في الإيحاش من عين تلك العقوبة. والثاني: قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها، وصار مانعًا من دخول النفس. والثالث: قوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ والمعنى أنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب. الرابع: قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فبيّن أنه ليس لهم قريب ينفعهم، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته. والخامس: قوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدًا جدًا، قال صاحب (الكشاف): الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخائنة، كالعافية المعافاة، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، والمراد بقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ مضمرات القلوب، والحاصل أن الأفعال قسمان: أفعال الجوارح وأفعال القلوب، أما أفعال الجوارح فأخفاها خائنة الأعين، والله أعلم بها، فكيف الحال في سائر الأعمال؟ وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ فدل هذا على كونه تعالى عالمًا بجميع أفعالهم. السادس: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا أيضًا يوجب عظم الخوف؛ لأن الحاكم إذا كان عالمًا بجميع الأحوال، وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل، كان خوف المذنب منه في الغاية

القصوى. السابع: أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام، وقد بيّن الله تعالى أنه لا فائدة فيها ألبتة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ الثامن: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله، ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله. فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه كان بالغًا في التخويف إلى الحد الذي لا تُعقل الزيادة عليه. ثم إنه تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة، أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ والمعنى أن العاقل من اعتبر بغيره، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار، وأقوى آثارًا في الأرض منهم، والمراد حصونهم وقصورهم وعساكرهم، فلما كَذَّبوا رسلهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلاً، حتى إن هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار، فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول، وبَيَّن بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى لهم، لم يجدوا من يعينهم ويخلصهم، ثم بَيَّن أن ذلك نزل بهم لأجل أنهم كفروا وكَذَّبوا الرسل، فحذر قوم الرسول من مثله، وختم الكلام بـ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ مبالغة في التحذير والتخويف، والله أعلم.

وقرأ ابن عامر وحده: (كانوا هم أشد منكم) بالكاف، والباقون بالهاء، أما وجه قراءة ابن عامر فهو انصراف من الغيبة إلى الخطاب، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والوجه في حسن هذا الخطاب أنه في شأن أهل مكة، فجعل الخطاب على لفظ المخاطب الحاضر لحضورهم، وهذه الآية في المعنى كقوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾[الأنعام: ٦] وأما قراءة الباقين على لفظ الغيبة فلأجل موافقة ما قبله من ألفاظ الغيبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما سلَّى رسوله بذكر الكفار الذين كذبوا الأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم، سلاَّه أيضًا بذكر موسى عليه السلام، وأنه مع قوة معجزاته بعثه إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وكابروه، وقالوا: هو ساحر كذاب.

واعلم أن موسى عليه السلام لما جاءهم بتلك المعجزات الباهرة وبالنبوّة وهي المراد بقوله ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا﴾ حكى الله تعالى عنهم ما صدر عنهم من الجهالات: فالأول: أنهم وصفوه بكونه ساحرًا كاذبًا، وهذا في غاية البعد؛ لأن تلك المعجزات كانت قد بلغت في القوة والظهور إلى حيث يشهد كل ذي عقل سليم بأنه ليس من السحر ألبتة. الثاني: أنهم قالوا: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ والصحيح أن هذا القتل غير القتل الذي وقع في وقت ولادة موسى عليه السلام؛ لأن في ذلك الوقت أخبره المنجمون بولادة عدو له يظهر عليه، فأمر بقتل الأولاد في ذلك الوقت، وأما في هذا الوقت فموسى عليه السلام قد جاءه وأظهر المعجزات الظاهرة، فعند هذا أَمَر بقتل أبناء الذين آمنوا معه لئلا ينشئوا على دين موسى فيقوى بهم، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات؛ فلهذا السبب أَمَر بقتل الأبناء. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ ومعناه أن جميع ما يسعون فيه من مكايدة موسى ومكايدة من آمن معه - يبطل؛ لأن ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها. النوع الثالث من قبائح أفعال أولئك الكفار مع موسى عليه السلام: ما حكاه الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ وهذا الكلام كالدلالة على أنهم كانوا يمنعونه من قتله.

وفيه احتمالان:

والاحتمال الأول: أنهم منعوه من قتله لوجوه: الأول: لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقًا، فيأتي بوجوه الحيل في منع فرعون من قتله. الثاني: قال الحسن: إن أصحابه قالوا له: لا تقتله فإنما هو ساحر ضعيف ولا يمكنه أن يغلب سحرتك، وإن قتلته أدخلت الشبهة على الناس وقالوا: إنه كان محقًّا وعجزوا عن جوابه فقتلوه. الثالث: لعلّهم كانوا يحتالون في منعه من قتله؛ لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب أولئك الأقوام، فإن من شأن الأمراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجي حتى يصيروا آمنين من شر ذلك الملك.

والاحتمال الثاني: أن أحدًا ما منع فرعون من قتل موسى وأنه كان يريد أن يقتله، إلا أنه كان خائفًا من أنه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه عن قتله فيفتضح، إلا أنه لوقاحته قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ وغرضه منه أنه إنما امتنع عن قتله رعايةً لقلوب أصحابه، وغرضه منه إخفاء خوفه.

أما قوله: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ فإنما ذكره على سبيل الاستهزاء، يعني أني أقتله فليقل لربه حتى يخلصه مني.

وأما قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: فتح ابن كثير الياء من قوله ﴿ذَرُونِيٓ﴾ وفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو الياء من ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وأيضًا قرأ نافع وابن عمرو: (وأن يُظهر) بالواو وبحذف أو، يعني أنه يجمع بين

تبديل الدين وبين إظهار المفاسد، والذين قرأوا بصيغة (أو) فمعناه أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين. وقرئ (يُظهر) بضم الياء وكسر الهاء والفساد بالنصب على التعدية، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بلفظ (أو يَظهر) بفتح الياء والهاء والفساد بالرفع، أما وجه القراءة الأولى فهو أنه أسند الفعل إلى موسى في قوله: ﴿يُبَدِّلَ﴾ فكذلك في (يُظهر) ليكون الكلام على نسق واحد، وأما وجه القراءة الثانية فهو أنه إذا بدل الدين فقد ظهر الفساد الحاصل بسبب ذلك التبديل.

المسألة الثانية: المقصود من هذا الكلام بيان السبب الموجب لقتله وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا: أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذي كانوا عليه، فلما كان موسى ساعيًا في إفساده كان في اعتقادهم أنه ساعٍ في إفساد الدين الحق. وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سببًا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم، لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذا الكلام حكى بعده ما ذكره موسى عليه السلام فحكى عنه أنه قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي عذت بإدغام الذال في التاء، والباقون بالإظهار.

المسألة الثانية: المعنى أنه لم يأتِ في دفع شره إلا بأن استعاذ بالله، واعتمد على فضل الله، لا جرم صانه الله عن كل بلية وأوصله إلى كل أمنية.

واعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام - تشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: أن لفظة ﴿إِنِّي﴾ تدل على التأكيد، فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر في دفع الشرور والآفات عن النفس - الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى.

الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ فكما أن عند القراءة يقول المسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم: (أعوذ بالله) فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ والمعنى كأن العبد يقول: إن الله سبحانه هو الذي رباني وإلى درجات الخير رقاني، ومن الآفات وقاني، وأعطاني نعمًا لا حد لها ولا حصر، فلما كان المولى ليس إلا الله، وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أن قوله ﴿وَرَبِّكُم﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوي ذلك التأثير جدًّا، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات.

الفائدة الخامسة: أنه لم يذكر فرعون في هذا الدعاء؛ لأنه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه، فترك التعيين رعاية لذلك الحق.

الفائدة السادسة: أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه، بل الأَوْلى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفًا بتلك الصفة، حتى يدخل فيه كل من كان عدوًّا، سواء كان مُظهرًا لتلك العداوة أو كان مُخفيًا لها.

الفائدة السابعة: أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران: أحدهما: كون الإنسان متكبرًا قاسي القلب. والثاني: كونه منكرًا للبعث والقيامة، وذلك لأن المتكبر القاسي قد يحمله طبعه على إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقرًّا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعًا له من الجري على موجب تكبره، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء، والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلًا، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلًا فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء.

الفائدة الثامنة: أن فرعون لما قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال على سبيل الاستهزاء: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فقال موسى: إن الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير، وأنا أدعو ربي وأطلب منه أن يدفع شرَّك عني، وسترى أن ربي كيف يقهرك، وكيف يسلطني عليك.

واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد، علم أنه لا طريق أصلح ولا أصوب في دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله والرجوع إلى حفظ الله، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله، بيّن أنه تعالى قيض إنسانًا أجنبيًّا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه، وبالغ في تسكين تلك الفتنة، واجتهد في إزالة ذلك الشر.

يقول مصنف هذا الكتاب رحمه الله: ولقد جربت في أحوال نفسي أنه كلما قصدني شرير

بشَرٌ ولم أتعرض له وأكتفي بتفويض ذلك الأمر إلى الله، فإنه سبحانه يقيض أقوامًا لا أعرفهم ألبتة يبالغون في دفع ذلك الشر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في ذلك الرجل الذي كان من آل فرعون: فقيل: إنه كان ابن عم له، وكان جاريًا مجرى ولي العهد ومجرى صاحب الشرطة. وقيل: كان قبطيًّا من آل فرعون وما كان من أقاربه. وقيل: إنه كان من بني إسرائيل، والقول الأول أقرب لأن لفظ الآل يقع على القرابة والعشيرة، قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤] وعن رسول الله أنه قال: «الصِّدِّيقُونَ ثَلَاثَةٌ: حَبِيبُ النَّجَّارُ مُؤْمِنُ آلِ يَاسِينَ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي قَالَ: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وَالثَّالِثُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ»(١) وعن جعفر بن محمد أنه قال: كان أبو بكر خيرًا من مؤمن آل فرعون لأنه كان يكتم إيمانه، وقال أبو بكر جهارًا: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فكان ذلك سرًّا وهذا كان جهارًا.

المسألة الثانية: لفظ (مِن) في قوله: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ يجوز أن يكون متعلقًا بقوله: ﴿مُّؤۡمِنٞ﴾ أي كان ذلك المؤمن شخصًا من آل فرعون، ويجوز أن يكون متعلقًا بقوله: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ والتقدير رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون، وقيل: إن هذا الاحتمال غير جائز لأنه يقال: كتمت من فلان كذا، إنما يقال كتمته كذا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢].

المسألة الثالثة: (رجل مؤمن) الأكثرون قرأوا بضم الجيم وقرئ (رجِل) بكسر الجيم كما يقال عضِد في عضُد.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، وقد ذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار، وذلك لأنه ما زاد على أن قال: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وجاء بالبينات، وذلك لا يوجب القتل ألبتة، وقوله: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ يحتمل وجهين: الأول: أن قوله: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إشارة إلى الدلائل الدالة على التوحيد، وهو قوله في سورة طه ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقوله في سورة الشعراء ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] إلى آخر الآيات، ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية في أن الإقدام على قتله غير جائز

---

(١) موضوع: أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١/ ٣٦٥)، حديث رقم (٣٢٣)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٤٢/ ٣١٣)، كلاهما من طريق الحسن بن عبد الرحمن، حدثنا عمرو بن جميع، عن ابن أبي ليلى عن أخيه عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره. وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، صدوق سيئ الحفظ جدًا، وفيه أيضًا عمرو بن جميع، قال ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل) (٦/ ٢٢٤) عن يحيى بن معين قال: عمرو بن جميع المدني روى عن الأعمش والليث كان كذابًا. وعند الذهبي في (الضعفاء) (٢/ ٤٨٢) قال: قال ابن عدي: يُتهم بوضع الحديث، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٣٥٥) وقال: موضوع.

وهي حجة مذكورة على طريقة التقسيم، فقال: إن كان هذا الرجل كاذبًا كان وبال كذبه عائدًا عليه فاتركوه، وإن كان صادقًا يصبكم بعض الذي يعدكم، فثبت أن على كلا التقديرين كان الأَوْلى إبقاؤه حيًّا.

فإن قيل: السؤال على هذا الدليل من وجهين:

الأول: أن قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ﴾ معناه أن ضرر كذبه مقصور عليه ولا يتعداه، وهذا الكلام فاسد لوجوه: أحدها: أنا لا نُسلِّم أن بتقدير كونه كاذبًا كان ضرر كذبه مقصورًا عليه؛ لأنه يدعو الناس إلى ذلك الدين الباطل، فيغتر به جماعة منهم، ويقعون في المذهب الباطل والاعتقاد الفاسد، ثم يقع بينهم وبين غيرهم الخصومات الكثيرة، فثبت أن بتقدير كونه كاذبًا لم يمكن ضرر كذبه مقصورًا عليه، بل كان متعديًا إلى الكل، ولهذا السبب العلماء أجمعوا على أن الزنديق الذي يدعو الناس إلى زندقته يجب قتله وثانيها: أنه إن كان الكلام حجة له، فلا كذاب إلا ويمكنه أن يتمسك بهذه الطريقة، فوجب تمكن جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير أديانهم الباطلة. وثالثها: أن الكفار الذين أنكروا نبوّة موسى عليه السلام وجب أن لا يجوز الإنكار عليهم؛ لأنه يقال: إن كان ذلك المنكر كاذبًا في ذلك الإنكار فعليه كذبه، وإن يك صادقًا انتفعتم بصدقه، فثبت أن هذا الطريق يوجب تصويب ضده، وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلاً.

السؤال الثاني: أنه كان من الواجب أن يقال: (وإن يك صادقًا يصبكم كل الذي يعدكم) لأن الذي يصيب في بعض ما يَعِد دون البعض هم أصحاب الكهانة والنجوم، أما الرسول الصادق الذي لا يتكلم إلا بالوحي فإنه يجب أن يكون صادقًا في كل ما يقول، فكان قوله: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ غير لائق بهذا المقام. والجواب عن الأسئلة الثلاثة بحرف واحد: وهو أن تقدير الكلام أن يقال: إنه لا حاجة بكم في دفع شره إلى قتله، بل يكفيكم أن تمنعوه عن إظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله، فإن كان كاذبًا فحينئذٍ لا يعود ضرره إلا إليه، وإن يك صادقًا انتفعتم به، والحاصل أن المقصود من ذكر ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة إلى قتله، بل يكفيكم أن تُعْرِضوا عنه وأن تمنعوه عن إظهار دينه، فبهذا الطريق (تكون) الأسئلة الثلاثة مدفوعة.

وأما السؤال الثاني: - وهو قوله: (كان الأَوْلى أن يقال: يصبكم كل الذي يعدكم) - فالجواب عنه من وجوه: الأول: أن مدار هذا الاستدلال على إظهار الإنصاف وترك اللجاج؛ لأن المقصود منه إن كان كاذبًا كان ضرر كذبه مقصورًا عليه، وإن كان صادقًا فلا أقل من أن يصل إليكم بعض ما يعدكم، وإن كان المقصود من هذا الكلام ما ذكر صح، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، والوجه الثاني: أنه عليه السلام كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة، فإذا وصل إليهم في الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذي يعدهم به. الوجه الثالث: حُكي عن أبي عبيدة أنه قال: ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز. واحتج بقول لبيد:

فرعون وعلى دينه، إلا أنه زعم أن المصلحة تقتضي ترك قتل موسى؛ لأنه لم يصدر عنه إلا الدعوة إلى الله والإتيان بالمعجزات القاهرة وهذا لا يوجب القتل، والإقدام على قتله يوجب الوقوع في ألسنة الناس بأقبح الكلمات، بل الأَوْلى أن يُؤخَّر قتله وأن يُمنع من إظهار دينه؛ لأن على هذا التقدير إن كان كاذبًا كان وبال كذبه عائدًا إليه، وإن كان صادقًا حصل الانتفاع به من بعض الوجوه، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[غافر: ٢٨] يعني أنه إن صدق فيما يدعيه من إثبات الإله القادر الحكيم فهو لا يهدي المسرف الكذاب، فأوهم فرعونَ أنه أراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أنه يريد موسى وهو إنما كان يقصد به فرعون؛ لأن المسرف الكذاب هو فرعون والقول الثاني: أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه أولاً، فلما قال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أزال الكتمان وأظهر كونه على دين موسى، وشافه فرعون بالحق.

واعلم أنه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعًا من الكلمات ذكرها لفرعون: الأول: قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ والتقدير مثل أيام الأحزاب، إلا أنه لما أضاف اليوم إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد ثمود، فحينئذٍ ظهر أن كل حزب كان له يوم معين في البلاء، فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس، ثم فسّر قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ بقوله: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ ودأب هؤلاء دونهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي، فيكون ذلك دائبًا ودائمًا لا يفترون عنه، ولا بد من حذف مضاف، يريد مثل جزاء دأبهم، والحاصل أنه خوَّفهم بهلاك معجل في الدنيا، ثم خوفهم أيضًا بهلاك الآخرة، وهو قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ والمقصود منه التنبيه على عذاب الآخرة.

والنوع الثاني من كلمات ذلك المؤمن: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ يعني أن تدمير أولئك الأحزاب كان عدلاً؛ لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء، فتلك الجملة قائمة ههنا، فوجب حصول الحكم ههنا، قالت المعتزلة: (وما الله يريد ظلمًا للعباد) يدل على أنه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضًا، ويدل على أنه لا يريد ظلم أحد من العباد، فلو خَلَق الكفر فيهم ثم عذبهم على ذلك الكفر لكان ظالمًا، وإذا ثبت أنه لا يريد الظلم ألبتة ثبت أنه غير خالق لأفعال العباد؛ لأنه لو خلقها لأرادها، وثبت أيضًا أنه قادر على الظلم، إذ لو لم يقدر عليه لما حصل المدح بترك الظلم. وهذا الاستدلال قد ذكرناه مرارًا في هذا الكتاب مع الجواب، فلا فائدة في الإعادة.

النوع الثالث من كلمات هذا المؤمن: قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التنادي تفاعُل من النداء، يقال: تنادى القوم، أي نادى بعضهم بعضًا، والأصل الياء وحذف الياء حسن في الفواصل، وذكرنا ذلك في ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[غافر: ١٥] وأجمع المفسرون على أن ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة، وفي سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه:

تَـرَاكُ أَمْـكِـنَـةٍ إِذَا لَـمْ أَرْضَـهَـا أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا[1]

والجمهور على أن هذا القول خطأ، قالوا: وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه، والله أعلم.

ثم حكى الله تعالى عن هذا المؤمن حكاية ثالثة في أنه لا يجوز إيذاء موسى عليه السلام فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وتقرير هذا الدليل أن يقال: إن الله تعالى هدى موسى إلى الإتيان بهذه المعجزات الباهرة، ومَن هداه الله إلى الإتيان بالمعجزات لا يكون مسرفًا كذابًا، فهذا يدل على أن موسى عليه السلام ليس من الكاذبين، فكان قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض، ويحتمل أيضًا أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يُبطله ويهدم أمره.

قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

اعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى، خوَّفهم في ذلك بعذاب الله فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني قد علوتم الناس وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه؛ فإنه لا قِبل لكم به، وإنما قال: ﴿يَنصُرُنَا﴾ و ﴿جَآءَنَا﴾ لأنه كان يُظهر من نفسه أنه منهم وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه، ولما قال ذلك المؤمن هذا الكلام ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي لا أشير إليكم برأي سوى ما ذكرته أنه يجب قتله حسمًا لمادة الفتنة ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ والصلاح. ثم حكى تعالى أن ذلك المؤمن رد هذا الكلام على فرعون فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

واعلم أنه تعالى حكى عن ذلك المؤمن أنه كان يكتم إيمانه، والذي يكتم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون؟! ولهذا السبب حصل هاهنا قولان: الأول: أن فرعون لما قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦] لم يصرح ذلك المؤمن بأنه على دين موسى، بل أوهم أنه مع

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل للشاعر لبيد بن ربيعة العامري، وتقدمت ترجمته.

الأول: أن أهل النار ينادون أهل الجنة، وأهل الجنة ينادون أهل النار، كما ذكر الله عنهم في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[الأعراف: ٥٠]، ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، الثاني: قال الزجاج: لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾[الإسراء: ٧١]، الثالث: أنه ينادي بعض الظالمين بعضًا بالويل والبثور فيقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾[الأنبياء: ١٤]، الرابع: ينادون إلى المحشر، أي يُدعون. الخامس: ينادي المؤمن ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾[الحاقة: ١٩] والكافر ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾[الحاقة: ٢٥]، السادس: ينادى باللعنة على الظالمين. السابع: يجاء بالموت على صورة كبش أملح، ثم يُذبح، وينادى: يا أهل القيامة لا موت! فيزداد أهل الجنة فرحًا على فرحهم، وأهل النار حزنًا على حزنهم. الثامن: قال أبو علي الفارسي: التنادي مشتق من التنادِّ، من قولهم: (ندّ فلان) إذا هرب، وهو قراءة ابن عباس وفسرها، فقال: يندون كما تند الإبل. ويدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[عبس: ٣٤] الآية. وقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ لأنهم إذا سمعوا زفير النار يندون هاربين، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفًا، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه.

المسألة الثانية: انتصب قوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ لوجهين: أحدهما: الظرف للخوف، كأنه خاف عليهم في ذلك اليوم، لما يلحقهم من العذاب إن لم يؤمنوا. والآخر: أن يكون التقدير: إني أخاف عليكم عذاب يوم التناد، وإذا كان كذلك كان انتصاب يوم انتصاب المفعول به لا انتصاب الظرف؛ لأن إعرابه إعراب المضاف المحذوف. ثم قال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ وهو بدل من قوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ عن قتادة: منصرفين عن موقف يوم الحساب إلى النار. وعن مجاهد: فارين عن النار غير معجزين. ثم أكد التهديد فقال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ثم نبه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

واعلم أن مؤمن آل فرعون لما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[غافر: ٣٣] ذكر لهذا مثلاً، وهو أن يوسف لما جاءهم بالبينات الباهرة فأصروا على الشك والشبهة، ولم ينتفعوا بتلك الدلائل، وهذا يدل على أن من أضله الله فما له من هادٍ.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قيل: إن يوسف هذا هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام، ونقل صاحب (الكشاف) أنه يوسف بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب، أقام فيهم نيفًا وعشرين سنة، وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف، بقي حيًا إلى زمانه وقيل: فرعون آخر، والمقصود من الكل شيء واحد وهو أن يوسف جاء قومه بالبينات، وفي المراد بها قولان:

الأول: أن المراد بالبينات قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

والثاني: المراد بها المعجزات. وهذا أَوْلى. ثم إنهم بقوا في نبوته شاكّين مرتابين، ولم ينتفعوا ألبتة بتلك البينات، فلما مات قالوا إنه ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ وإنما حكموا بهذا الحكم على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان، بل إنما ذكروا ذلك ليكون ذلك أساسًا لهم في تكذيب الأنبياء الذين يأتون بعد ذلك وليس في قولهم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ لأجل تصديق رسالة يوسف، وكيف وقد شكّوا فيها وكفروا بها؟! وإنما هو تكذيب لرسالة من هو بعده مضمومًا إلى تكذيب رسالته.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي مثل هذا الضلال يضل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه. قال الكعبي: هذه الآية حجة لأهل القدر لأنه تعالى بَيَّن كفرهم، ثم بَيَّن أنه تعالى إنما أضلهم لكونهم مسرفين مرتابين، فثبت أن العبد ما لم يضل عن الدين، فإن الله تعالى لا يضله.

ثم بيّن تعالى ما لأجله بقوا في ذلك الشك والإسراف فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي بغير حجة، بل إما بناء على التقليد المجرد، وإما بناء على شبهات خسيسة ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ والمقت هو أن يبلغ المرء في القول مبلغًا عظيمًا، فيمقته الله ويبغضه ويُظهر خزيه وتعسه. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في ذمه لهم بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على أن الجدال بالحجة حسن وحق، وفيه إبطال للتقليد.

المسألة الثانية: قال القاضي: مقت الله إياهم يدل على أن فعلهم ليس بخلق الله؛ لأن كونه فاعلاً للفعل وماقتًا له محال.

المسألة الثالثة: الآية تدل على أنه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد يمقت بعض عباده، إلا أن ذلك صفة واجبة التأويل في حق الله كالغضب والحياء والتعجب، والله أعلم. ثم بيّن أن هذا المقت كما حصل عند الله فكذلك قد حصل عند الذين آمنوا.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر وأبو عمرون وقتيبة عن الكسائي: (قلبٍ) منونًا ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ صفة للقلب، والباقون بغير تنوين على إضافة القلب إلى المتكبر، قال أبو عبيد: الاختيار الإضافة

لوجوه: الأول: أن عبد الله قرأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ وهو شاهد لهذه القراءة. الثاني: أن وصف الإنسان بالتكبر والجبروت أَوْلى من وصف القلب بهما. وأما الذين قرأوا بالتنوين فقالوا: إن الكبر قد أضيف إلى القلب في قوله: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[غافر: ٥٦] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[البقرة: ٢٨٣] وأيضًا فيمكن أن يكون ذلك على حذف المضاف، أي على كل ذي قلب متكبر، وأيضًا قال قوم: الإنسان الحقيقي هو القلب. وهذا البحث طويل وقد ذكرناه في تفسير قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] قالوا: ومن أضاف فلا بد له من تقدير حذف، والتقدير يطبع الله على قلب كل متكبر.

المسألة الثانية: الكلام في الطبع والرين والقسوة والغشاوة قد سبق في هذا الكتاب بالاستقصاء، وأصحابنا يقولون: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ يدل على أن الكل من الله. والمعتزلة يقولون: إن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ يدل على أن هذا الطبع إنما حصل من الله لأنه كان في نفسه متكبرًا جبارًا. وعند هذا تصير الآية حجة لكل واحد من هذين الفريقين من وجه، وعليه من وجه آخر، والقول الذي يخرج عليه الوجهان ما ذهبنا إليه وهو أنه تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب، فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعون إلى الطاعة والانقياد لأمر الله، فيكون القول بالقضاء والقدر حيًّا ويكون تعليل الصد عن الدين بكونه متجبرًا متكبرًا باقيًا، فثبت أن هذا المذهب الذي اخترناه في القضاء والقدر هو الذي ينطبق لفظ القرآن من أوله إلى آخره عليه.

المسألة الثالثة: لا بد من بيان الفرق بين المتكبر والجبار، قال مقاتل: ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ عن قبول التوحيد ﴿جَبَّارٍ﴾ في غير حق. وأقول: كمال السعادة في أمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فعلى قول مقاتل التكبر كالمضاد للتعظيم لأمر الله، والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف فرعون بكونه متكبرًا جبارًا بَيَّن أنه بلغ في البلادة والحماقة إلى أن قصد الصعود إلى السموات.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتج الجمع الكثير من المشبهة بهذه الآية في إثبات أن الله في السموات، وقرروا ذلك من وجوه: الأول: أن فرعون كان من المنكرين لوجود الله، وكل ما يذكره في

صفات الله تعالى فذلك إنما يذكره لأجل أنه سمع أن موسى يصف الله بذلك، فهو أيضًا يذكره كما سمعه، فلولا أنه سمع موسى يصف الله بأنه موجود في السماء، وإلا لما طلبه في السماء. الوجه الثاني: أنه قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، ولم يبين أنه كاذب فيماذا، والمذكور السابق متعين لصرف الكلام إليه فكأن التقدير: فأطلع إلى الإله الذي يزعم موسى أنه موجود في السماء. ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي وإني لأظن موسى كاذبًا في إدعائه أن الإله موجود في السماء، وذلك يدل على أن دين موسى هو أن الإله موجود في السماء. الوجه الثالث: العلم بأنه لو وُجد إله لكان موجودًا في السماء عِلم بديهي متقرر في كل العقول، ولذلك فإن الصبيان إذا تضرعوا إلى الله رفعوا وجوههم وأيديهم إلى السماء، وإن فرعون مع نهاية كفره لما طلب الإله فقد طلبه في السماء، وهذا يدل على أن العلم بأن الإله موجود في السماء عِلم متقرر في عقل الصِّديق والزنديق، والملحد والموحد، والعالم والجاهل.

فهذا جملة استدلالات المشبهة بهذه الآية، والجواب: أن هؤلاء الجهال يكفيهم في كمال الخزي والضلال أن جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم، وأما موسى عليه السلام فإنه لم يزد في تعريف إله العالم على ذكر صفة الخلاقية فقال في سورة طه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقال في سورة الشعراء: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٨] فظهر أن تعريف ذات الله بكونه في السماء دين فرعون، وتعريفه بالخلاقية والموجودية دين موسى، فمن قال بالأول كان على دين فرعون، ومن قال بالثاني كان على دين موسى.

ثم نقول: لا نُسلِّم أن كل ما يقوله فرعون في صفات الله تعالى فذلك قد سمعه من موسى عليه السلام، بل لعله كان على دين المشبهة، فكان يعتقد أن الإله لو كان موجودًا لكان حاصلًا في السماء، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قِبل نفسه لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام.

وأما قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ فنقول: لعله لما سمع موسى عليه السلام قال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ظن أنه عنى به أنه رب السموات، كما يقال للواحد منا: (إنه رب الدار) بمعنى كونه ساكنًا فيه، فلما غلب على ظنه ذلك حكى عنه، وهذا ليس بمستبعد، فإن فرعون كان بلغ في الجهل والحماقة إلى حيث لا يبعد نسبة هذا الخيال إليه، فإن استبعد الخصم نسبة هذا الخيال إليه كان ذلك لائقًا بهم؛ لأنهم لما كانوا على دين فرعون وجب عليهم تعظيمه.

وأما قوله: إن فطرة فرعون شهدت بأن الإله لو كان موجودًا لكان في السماء. قلنا: نحن لا ننكر أن فطرة أكثر الناس تخيل إليهم صحة ذلك لا سيما من بلغ في الحماقة إلى درجة فرعون، فثبت أن هذا الكلام ساقط.

المسألة الثانية: اختلف الناس في أن فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه إلى السماء أم

لا؟ أما الظاهريون من المفسرين فقد قطعوا بذلك، وذكروا حكاية طويلة في كيفية بناء ذلك الصرح، والذي عندي أنه بعيد، والدليل عليه أن يقال: إن فرعون لا يخلو إما أن يقال: إنه كان من المجانين أو كان من العقلاء: فإن قلنا: إنه كان من المجانين لم يجز من الله تعالى إرسال الرسول إليه؛ لأن العقل شرط في التكليف، ولم يجز من الله أن يذكر حكاية كلام مجنون في القرآن، وأما إن قلنا: إنه كان من العقلاء فنقول: إن كل عاقل يعلم ببديهة عقله أنه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالي، ويعلم أيضًا ببديهة عقله أنه لا يتفاوت في البصر حال السماء بين أن ينظر إليه من أسفل الجبال وبين أن ينظر إليه من أعلى الجبال، وإذا كان هذا العلمان بديهيين امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه إلى السماء، وإذا كان فساد هذا معلومًا بالضرورة امتنع إسناده إلى فرعون.

والذي عندي في تفسير هذه الآية: أن فرعون كان من الدهرية، وغرضه من ذكر هذا الكلام إيراد شبهة في نفي الصانع، وتقريره أنه قال: إنا لا نرى شيئًا نحكم عليه بأنه إله العالم، فلم يجز إثبات هذا الإله، أما إنه لا نراه فلأنه لو كان موجودًا لكان في السماء ونحن لا سبيل لنا إلى صعود السموات فكيف يمكننا أن نراه؟ ثم إنه لأجل المبالغة في بيان أنه لا يمكنه صعود السموات ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ والمقصود أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحس ممتنعًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥] وليس المراد منه أن محمدًا ﷺ طلب نفقًا في الأرض أو وضع سلمًا إلى السماء، بل المعنى أنه لما عرف أن هذا المعنى ممتنع فقد عرف أنه لا سبيل لك إلى تحصيل ذلك المقصود، فكذا ههنا غرض فرعون من قوله: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ يعني أن الاطلاع على إله موسى لما كان لا سبيل إليه إلا بهذا الطريق وكان هذا الطريق ممتنعًا، فحينئذٍ يظهر منه أنه لا سبيل إلى معرفة الإله الذي يثبته موسى. فنقول: هذا ما حصلته في هذا الباب.

واعلم أن هذه الشبهة فاسدة لأن طرق العلم ثلاثة: الحس والخبر والنظر، ولا يلزم من انتفاء طريق واحد وهو الحس انتفاء المطلوب، وذلك لأن موسى عليه السلام كان قد بيّن لفرعون أن الطريق في معرفة الله تعالى إنما هو الحجة والدليل، كما قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] إلا أن فرعون لخبثه ومكره تغافل عن ذلك الدليل، وألقى إلى الجهال أنه لما كان لا طريق إلا الإحساس بهذا الإله وجب نفيه، فهذا ما عندي في هذا الباب وبالله التوفيق والعصمة.

المسألة الثالثة: ذهب قوم إلى أنه تعالى خلق جواهر الأفلاك وحركاتها، بحيث تكون هي الأسباب لحدوث الحوادث في هذا العالم الأسفل.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ومعلوم أنها ليست أسبابًا إلا

لحوادث هذا العالم. قالوا: ويؤكد هذا بقوله تعالى في سورة ص: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾[ص: ١٠].

أما المفسرون فقد ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أن المراد بأسباب السموات طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب كالرشاء ونحوه.

المسألة الرابعة: قالت اليهود: أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجودًا ألبتة في زمان موسى وفرعون، وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر، فالقول بأن هامان كان موجودًا في زمان فرعون خطأ في التاريخ، وليس لقائل أن يقول: إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم في زمانه. قالوا: لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذي كان موجودًا في زمان فرعون ما كان شخصًا خسيسًا في حضرة فرعون بل كان كالوزير له، ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية، فلو كان موجودًا لعُرف حاله، وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ما كان موجودًا في زمان فرعون وإنما جاء بعده بأدوار، عُلم أن غلط وقع في التواريخ. قالوا: ونظير هذا أنا نعرف في دين الإسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد ﷺ فلو أن قائلاً ادعى أن أبا حنيفة كان موجودًا في زمان محمد عليه السلام، وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو يسمى بأبي حنيفة، فإن أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه، فكذا هاهنا. والجواب: أن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار، فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد في هذا الباب، فكان الأخذ بقول الله تعالى أَوْلَى، بخلاف حال رسولنا مع أبي حنيفة فإن هذه التواريخ قريبة غير مضطربة بل هي مضبوطة، فظهر الفرق بين البابين. فهذا جملة ما يتعلق بالمباحث المعنوية في هذه الآية، وبقي ما يتعلق بالمباحث اللفظية:

قيل: الصرح: البناء الظاهر لا يخفى على الناظر وإن بَعُد، اشتقوه من صرح الشيء، إذا ظهر و﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: طرقها، فإن قيل: ما فائدة هذا التكرير. ولو قيل: لعلي أبلغ الأسباب السموات، كان كافيًا؟ أجاب صاحب (الكشاف) عنه فقال: إذا أُبهم الشيء ثم أُوضح كان تفخيمًا لشأنه، فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها. وقوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بفتح العين، والباقون بالرفع، قال المبرد: من رفع فقد عطفه على قوله: ﴿أَبْلُغُ﴾ والتقدير (لعلي أبلغ الأسباب ثم أطلع) إلا أن حرف (ثم) أشد تراخيًا من الفاء، ومَن نَصَب جعله جوابًا، والمعنى لعلي أبلغ الأسباب فمتى بلغتها أطلع. والمعنى مختلف، لأن الأول: (لعلي أطلع) والثاني: (لعلي أبلغ وأنا ضامر أني متى بلغت فلا بد وأن أطلع).

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذه القصة قال بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿وَصُدَّ﴾ بضم الصاد، قال أبو عبيدة: وبه يُقرأ؛ لأن ما قبله فعل مبني للمفعول به فجُعل ما عطف عليه مثله، والباقون (وصَدَّ) بفتح الصاد على أنه مَنَع الناس عن الإيمان، قالوا: ومِن صَدِّه قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ [الأعراف: ١٢٤] ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧] وقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥].

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ﴾ لا بد له من المزين، فقالت المعتزلة: إنه الشيطان. فقيل لهم: إن كان المزين لفرعون هو الشيطان، فالمزين للشيطان إن كان شيطانًا آخر لزم إثبات التسلسل في الشياطين أو الدور وهو محال، ولما بطل ذلك وجب انتهاء الأسباب والمسببات في درجات الحاجات إلى واجب الوجود، وأيضًا فقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ يدل على أن الشيء إن لم يكن في اعتقاد الفاعل موصوفًا بأنه خير وزينة وحسن فإنه لا يقدم عليه، إلا أن ذلك الاعتقاد إن كان صوابًا فهو العلم، وإن كان خطأ فهو الجهل، ففاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الإنسان؛ لأن العاقل لا يقصد تحصيل الجهل لنفسه، ولأنه إنما يقصد تحصيل الجهل لنفسه إذا عرف كونه جهلًا، ومتى عرف كونه جهلًا امتنع بقاؤه جاهلًا، فثبت أن فاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الإنسان، ولا يجوز أن يكون فاعله هو الشيطان؛ لأن البحث الأول بعينه عائد فيه، فلم يبق إلا أن يكون فاعله هو الله تعالى، والله أعلم. ويقوي ما قلناه أن صاحب (الكشاف) نقل أنه قرئ (وَزَيَّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ) على البناء للفاعل والفعل لله عزّ وجلّ، ويدل عليه قوله: ﴿إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ والتباب: الهلاك والخسران، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ
سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي
أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ

لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

اعلم أن هذا من بقية كلام الذي آمن من آل فرعون، وقد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى والتمسك بطريقته. واعلم أنه نادى في قومه ثلاث مرات: في المرة الأولى دعاهم إلى قبول ذلك الدين على سبيل الإجمال، وفي المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل.

أما الإجمال: فهو قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وليس المراد بقوله: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ طريقة التقليد؛ لأنه قال بعده: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ والهدى هو الدلالة، ومَن بَيَّن الأدلة للغير يوصف بأنه هداه، وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يؤدي إليه؛ لأن الرشاد نقيض الغي، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي.

وأما التفصيل: فهو أنه بَيَّن حقارة حال الدنيا وكمال حال الآخرة: أما حقارة الدنيا فهي قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ والمعنى أنه يُستمتع بهذه الحياة الدنيا في أيام قليلة، ثم تنقطع وتزول، وأما الآخرة فهي دار القرار والبقاء والدوام، وحاصل الكلام أن الآخرة باقية دائمة والدنيا منقضية منقرضة، والدائم خير من المنقضي، وقال بعض العارفين: لو كانت الدنيا ذهبًا فانيًا، والآخرة خزفًا باقيًا، لكانت الآخرة خيرًا من الدنيا، فكيف والدنيا خزف فانٍ، والآخرة ذهب باقٍ؟

واعلم أن الآخرة كما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فيها دائم، وإن الترغيب في النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم من أقوى وجوه الترغيب والترهيب، ثم بَيَّن كيف تحصل المجازاة في الآخرة، وأشار فيه إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ والمراد بالمثل ما يقابلها في الاستحقاق، فإن قيل: كيف يصح هذا الكلام، مع أن كفر ساعة يوجب عقاب الأبد؟ قلنا: إن الكافر يعتقد في كفره كونه طاعة وإيمانًا فلهذا السبب يكون الكافر على عزم أن يبقى مصرًّا على ذلك الاعتقاد أبدًا، فلا جرم كان عقابه مؤبدًا، بخلاف الفاسق فإنه يعتقد فيه كونه خيانة ومعصية، فيكون على عزم أن لا يبقى مصرًّا عليه، فلا جرم قلنا: إن عقاب الفاسق منقطع. أما الذي يقوله المعتزلة من أن عقابه مؤبد فهو باطل؛ لأن مدة تلك المعصية منقطعة والعزم على الإتيان بها أيضًا ليس دائمًا بل منقطعًا، فمقابلته بعقاب دائم يكون على خلاف قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾. واعلم أن هذه الآية أصل كبير في علوم الشريعة فيما يتعلق بأحكام الجنايات، فإنها تقتضي أن يكون المثل مشروعًا، وأن يكون الزائد على المثل غير مشروع، ثم نقول: ليس في الآية بيان أن تلك المماثلة معتبرة في أي الأمور، فلو حملناه على رعاية المماثلة في شيء معين، مع أن ذلك

المعين غير مذكور في الآية صارت الآية مجملة، ولو حملناه على رعاية المماثلة في جميع الأمور صارت الآية عامًّا مخصوصًا، وقد ثبت في أصول الفقه أن التعارض إذا وقع بين الإجمال وبين التخصيص كان دفع الإجمال أَوْلى، فوجب أن تُحمل هذه الآية على رعاية المماثلة من كل الوجوه إلا في مواضع التخصيص، وإذا ثبت هذا فالأحكام الكثيرة في باب الجنايات على النفوس، وعلى الأعضاء، وعلى الأموال - يمكن تفريعها على هذه الآية.

ثم نقول: إنه تعالى لما بيّن أن جزاء السيئة مقصور على المثل بَيَّن أن جزاء الحسنة غير مقصور على المثل بل هو خارج عن الحساب فقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية فقالوا: قوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ نكرة في معرض الشرط في جانب الإثبات، فجرى مجرى أن يقال: مَن ذكَر كلمة أو مَن خطا خطوة فله كذا؛ فإنه يدخل فيه كل من أتى بتلك الكلمة أو بتلك الخطوة مرة واحدة، فكذلك ههنا وجب أن يقال: كل من عمل صالحًا واحدًا من الصالحات فإنه يدخل الجنة ويُرزق فيها بغير حساب، والآتي بالإيمان والمواظب على التوحيد والتقديس مدة ثمانين سنة قد أتى بأعظم الصالحات وبأحسن الطاعات، فوجب أن يدخل الجنة، والخصم يقول: إنه يبقى مخلدًا في النار أبد الآباد، فكان ذلك على خلاف هذا النص الصريح. قالت المعتزلة: إنه تعالى شرط فيه كونه مؤمنًا وصاحب الكبيرة عندنا ليس بمؤمن، فلا يدخل في هذا الوعد. والجواب: أنا بينا في أول سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] أن صاحب الكبيرة مؤمن فسقط هذا الكلام. واختلفوا في تفسير قوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: فمنهم من قال: لما كان لا نهاية لذلك الثواب قيل بغير حساب. وقال الآخرون: لأنه تعالى يعطيهم ثواب أعمالهم ويضم إلى ذلك الثواب من أقسام التفضل ما يخرج عن الحساب، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واقع في مقابلة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ يعني أن جزاء السيئة له حساب وتقدير؛ لئلا يزيد على الاستحقاق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة، وأقول: هذا يدل على أن جانب الرحمة والفضل راجح على جانب القهر والعقاب، فإذا عارضنا عمومات الوعد بعمومات الوعيد، وجب أن يكون الترجيح بجانب عمومات الوعد وذلك يهدم قواعد المعتزلة. ثم استأنف ذلك المؤمن ونادى في المرة الثالثة وقال: ﴿وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يعني أنا أدعوكم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة، وتدعونني إلى الكفر الذي يوجب النار، فإن قيل: لم كرر نداء قومه، ولِمَ جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ قلنا: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ من سِنة الغفلة، وإظهار أن له بهذا المهم مزيد اهتمام، وعلى أولئك الأقوام فرط شفقة، وأما المجيء بالواو العاطفة فلأن الثاني يقرب من أن يكون عين الأول؛ لأن الثاني بيان للأول والبيان عين المبين، وأما الثالث فلأنه كلام مباين للأول والثاني فحسن إيراد الواو العاطفة فيه. ولما ذكر هذا

المؤمن أنه يدعوهم إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار، فسّر ذلك بأنهم يدعونه إلى الكفر بالله وإلى الشرك به، أما الكفر بالله فلأن الأكثرين من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الإله، ومنهم من كان يقر بوجود الله إلا أنه كان يثبت عبادة الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ المراد بنفي العلم نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يُعقل جعله شريكًا للإله؟ ولما بيّن أنهم يدعونه إلى الكفر والشرك بيّن أنه يدعوهم إلى الإيمان بالعزيز الغفار فقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ إشارة إلى كونه كامل القدرة، وفيه تنبيه على أن الإله هو الذي يكون كامل القدرة، وأما فرعون فهو في غاية العجز فكيف يكون إلهًا؟! وأما الأصنام فإنها أحجار منحوتة فكيف يُعقل القول بكونها آلهة وقوله ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ إشارة إلى أنه لا يجب أن يكونوا آيسين من رحمة الله بسبب إصرارهم على الكفر مدة مديدة، فإن إله العالم وإن كان عزيزًا لا يُغلب قادرًا لا يُغالَب، لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بإيمان ساعة واحدة، ثم قال ذلك المؤمن: ﴿لَا جَرَمَ﴾ والكلام في تفسير (لا جرم) مرّ في سورة هود في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] وقد أعاده صاحب (الكشاف) هاهنا فقال: ﴿لَا جَرَمَ﴾ مساقه على مذهب البصريين أن يُجعل (لا) ردًّا لما دعاه إليه قومه و ﴿جَرَمَ﴾ فعل بمعنى حق و ﴿أَنَّمَا﴾ مع ما في حيزه فاعله، أي حق ووجب بطلان دعوته أو بمعنى كسب من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢] أي كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته بمعنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته، ويجوز أن يقال: إن ﴿لَا جَرَمَ﴾ نظيره (لا بد) فعل من الجرم وهو القطع كما أن بد فعل من التبديد وهو التفريق، وكما أن معنى (لا بد) أنك تفعل كذا أنه لا بد لك من فعله، فكذلك ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النحل: ٦٢] أي لا قطع لذلك بمعنى أنهم أبدًا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم، ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام، أي لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقًّا، وروي عن بعض العرب (لا جُرْم أنه يفعل) بضم الجيم وسكون الراء بزنة (بد)، وفَعَل وفُعل: أخوان كرَشَد ورُشْد وكعَدَم وعُدْم، هذا كله ألفاظ صاحب (الكشاف).

ثم قال: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ والمراد أن الأوثان التي تدعونني إلى عبادتها ليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة.

وفي تفسير هذه الدعوة احتمالان:

الأول: أن المعنى ما تدعونني إلى عبادته ليس له دعوة إلى نفسه؛ لأنه جمادات والجمادات لا تدعو أحدًا إلى عبادة نفسها. وقوله: ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني أنه تعالى إذا قلبها حيوانًا في الآخرة فإنها تتبرأ من هؤلاء العابدين.

والاحتمال الثاني: أن يكون قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ معناه ليس له استجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، فسميت استجابة الدعوة بالدعوة إطلاقًا لاسم أحد المتضايفين

على الآخر، كقوله ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]ثم قال: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فبيّن أن هذه الأصنام لا فائدة فيها ألبتة، ومع ذلك فإن مردنا إلى الله، العالم بكل المعلومات، القادر على كل الممكنات، الغني عن كل الحاجات، الذي لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد، فأي عاقل يُجوز له عقله أن يشتغل بعبادة تلك الأشياء الباطلة، وأن يُعْرض عن عبادة هذا الإله الذي لا بد وأن يكون مرده إليه؟!

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قال قتادة يعني المشركين. وقال مجاهد: السفاكين للدماء. والصحيح أنهم أسرفوا في معصية الله بالكمية والكيفية: أما الكمية فالدوام، وأما الكيفية فبالعود والإصرار. ولما بالغ مؤمن آل فرعون في هذه البيانات ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ وهذا كلام مبهم يوجب التخويف، ويحتمل أن يكون المراد أن هذا الذكر يحصل في الدنيا وهو وقت الموت، وأن يكون في القيامة وقت مشاهدة الأهوال، وبالجملة فهو تحذير شديد.

ثم قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهذا كلام مَن هُدد بأمر يخافه، فكأنهم خوفوه بالقتل وهو أيضًا خوفهم بقوله: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ ثم عوَّل في دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل الله تعالى فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهو إنما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام، فإن فرعون لما خَوَّفه بالقتل رجع موسى في دفع ذلك الشر إلى الله حيث قال: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]فتح نافع وأبو عمرو الياء من ﴿أَمۡرِيٓ﴾ والباقون بالإسكان.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي عالم بأحوالهم وبمقادير حاجاتهم. وتمسَّك أصحابنا بقوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ على أن الكل من الله، وقالوا: إن المعتزلة الذين قالوا: (إن الخير والشر يحصل بقدرتهم) قد فوضوا أمر أنفسهم إليهم وما فوضوها إلى الله، والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية فقالوا: إن قوله ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ اعتراف بكونه فاعلًا مستقلًّا بالفعل. والمباحث المذكورة في قوله: (أعوذ بالله) عائدة بتمامها في هذا الموضع. وههنا آخر كلام مؤمن آل فرعون، والله الهادي.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ۝٤٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي

ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ
تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن ذلك الرجل لم يقصر في تقرير الدين الحق وفي الذب عنه، فالله تعالى رد عنه كيد الكافرين وقَصْد القاصدين، وقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ يدل على أنه لما صرّح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء، قال مقاتل: لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله، فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه. وقيل: المراد بقوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ أنهم قصدوا إدخاله في الكفر وصَرْفه عن الإسلام، فوقاه الله عن ذلك. إلا أن الأول أَوْلى لأن قوله بعد ذلك: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ لا يليق إلا بالوجه الأول، وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي أحاط بهم ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي غُرقوا في البحر، وقيل: بل المراد منه النار المذكورة في قوله ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ قال الزجاج: ﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل من قوله ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: وجائز أيضًا أن تكون مرتفعة على إضمار تفسير ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ كأن قائلاً قال: ما سوء العذاب؟ فقيل: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾.

قرأ حمزة (حاق) بكسر الحاء وكذلك في كل القرآن، والباقون بالفتح. أما قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر قالوا: الآية تقتضي عرض النار عليهم غدوًّا وعشيًّا، وليس المراد منه يوم القيامة لأنه قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وليس المراد منه أيضًا الدنيا لأن عرض النار عليهم غدوًّا وعشيًّا ما كان حاصلاً في الدنيا، فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة، وذلك يدل على إثبات عذاب القبر في حق هؤلاء، وإذا ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم لأنه لا قائل بالفرق. فإن قيل: لـمَ لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدوًّا وعشيًّا عرض النصائح عليهم في الدنيا؟ لأن أهل الدين إذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوفوهم بعذاب الله، فقد عرضوا عليهم النار، ثم نقول: في الآية ما يمنع من حمله على عذاب القبر وبيانه من وجهين: الأول: أن ذلك العذاب يجب أن يكون دائمًا غير منقطع، وقوله: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ يقتضي أن لا يحصل ذلك العذاب إلا في هذين الوقتين، فثبت أن هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر. الثاني: أن الغدوة والعشية إنما يحصلان في الدنيا، أما في القبر فلا وجود لهما، فثبت بهذين الوجهين أنه لا يمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر. والجواب عن السؤال الأول: أن في الدنيا عرض عليهم كلمات تذكرهم أمر النار، لا أنه يعرض عليهم نفس النار، فعلى قولهم يصير معنى الآية الكلمات المذكرة لأمر النار كانت تُعرض عليهم،

وذلك يفضي إلى ترك ظاهر اللفظ والعدول إلى المجاز. أما قوله: الآية تدل على حصول هذا العذاب في هذين الوقتين وذلك لا يجوز. قلنا: لمَ لا يجوز أن يكتفي في القبر بإيصال العذاب إليه في هذين الوقتين، ثم عند قيام القيامة يلقى في النار فيدوم عذابه بعد ذلك؟! وأيضًا لا يمتنع يأن يكون ذكر الغدوة والعشية كناية عن الدوام كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] أما قوله: إنه ليس في القبر والقيامة غدوة وعشية. قلنا: لمَ لا يجوز أن يقال: إن عند حصول هذين الوقتين لأهل الدنيا يعرض عليهم العذاب؟ والله أعلم.

المسألة الثانية: قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم (أدخِلوا آل فرعون) أي يقال لخزنة جهنم: أدخِلوهم في أشد العذاب، والباقون (ادخلوا) على معنى أنه يقال لهؤلاء الكفار: ادخلوا أشد العذاب، والقراءة الأولى اختيار أبي عبيدة، واحتج عليها بقوله تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ﴾ فهذا يُفعل بهم فكذلك ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ وأما وجه القراءة الثانية فقوله: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢]، وهاهنا آخر الكلام في قصة مؤمن آل فرعون.

واعلم أن الكلام في تلك القصة لما انجر إلى شرح أحوال النار، لا جرم ذكر الله عقيبها قصة المناظرات التي تجري بين الرؤساء والأتباع من أهل النار فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ والمعنى: اذكر يا محمد لقومك إذ يتحاجون، أي يحاجج بعضهم بعضًا، ثم شرح خصومتهم، وذلك أن الضعفاء يقولون للرؤساء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في الدنيا، قال صاحب (الكشاف): تبعًا كخَدَم في جمع خادم، أو ذوي تبع أي أتباع، أو وصفًا بالمصدر ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي فهل تقْدرون على أن تدفعوا أيها الرؤساء عنا نصيبًا من العذاب؟ واعلم أن أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم؛ لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الأتباع في أنواع الضلالات، فعند هذا يقول الرؤساء: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ يعني أن كلنا واقعون في هذا العذاب، فلو قَدَرْتُ على إزالة العذاب عنك لدفعته عن نفسي، ثم يقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ يعني يوصل إلى كل أحد مقدار حقه من النعيم أو من العذاب، ثم عند هذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين، فيرجعون إلى خزنة جهنم ويقولون لهم: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فإن قيل: لم لم يقل: (وقال الذين في النار لخزنتها) بل قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أن يكون المقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع. والثاني: أن يكون جهنم اسمًا لموضع هو أبعد النار قعرًا، من قولهم (بئر جهنام) أي بعيدة القعر، وفيها أعظم أقسام الكفار عقوبة وخزنة ذلك الموضع تكون أعظم خزنة جهنم عند الله درجة، فإذا عرف الكفار أن الأمر كذلك استغاثوا بهم، فأولئك الملائكة يقولون لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والمقصود أن قبل إرسال الرسل كان للقوم أن يقولوا: إنه ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] أما بعد مجيء الرسل فلم يبق

عذر ولا علة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وهذه الآية تدل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد مجيء الشرع، ثم إن أولئك الملائكة يقولون للكفار: ادعوا أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين: أحدهما: كون المشفوع له مؤمنًا. والثاني: حصول الإذن في الشفاعة. ولم يوجد واحد من هذين الشرطين، فإقدامنا على هذه الشفاعة ممتنع، لكن ادعوا أنتم، وليس قولهم (فادعوا) لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة، فإن المَلَك المقرب إذا لم يُسمع دعاؤه فكيف يُسمع دعاء الكفار؟! ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ فإن قيل: إن الحاجة على الله محال، وإذا كان كذلك امتنع أن يقال: إنه تأذى من هؤلاء المجرمين بسبب جرمهم، وإذا كان التأذي محالاً عليه كانت شهوة الانتقام ممتنعة في حقه، إذا ثبت هذا فنقول: إيصال هذه المضار العظيمة إلى أولئك الكفار إضرار لا منفعة فيه إلى الله تعالى ولا لأحد من العبيد، فهو إضرار خالٍ عن جميع الجهات المنتفعة، فكيف يليق بالرحيم الكريم أن يبقى على ذلك الإيلام أبد الآباد ودهر الداهرين، من غير أن يرحم حاجتهم، ومن غير أن يسمع دعاءهم، ومن غير أن يلتفت إلى تضرعهم وانكسارهم، ولو أن أقسى الناس قلبًا فعل مثل هذا التعذيب ببعض عبيده. لدعاه كرمه ورحمته إلى العفو عنه مع أن هذا السيد في محل النفع والضرر والحاجة، فأكرم الأكرمين كيف يليق به هذا الإضرار؟! قلنا: أفعال الله لا تعلل و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فلما جاء الحكم الحق به في الكتاب الحق وجب الإقرار به، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

اعلم أن في كيفية النظم وجوهًا: الأول: أنه تعالى لما ذكر وقاية الله موسى صلوات الله عليه وذلك المؤمن من مكر فرعون، بيَّن في هذه الآية أنه ينصر رسله والذين آمنوا معه. والثاني: لما بيَّن من قبل ما يقع بين أهل النار من التخاصم وأنهم عند الفزع إلى خزنة جهنم يقولون: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [غافر: ٥٠] أتبع ذلك بذكر الرسل وأنه ينصرهم في الدنيا والآخرة. والثالث وهو الأقرب عندي: أن الكلام في أول السورة إنما وقع من قوله: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [غافر: ٤] وامتد الكلام في الرد على أولئك المجادلين وعلى أن المُحقين أبدًا كانوا مشغولين بدفع كيد المبطلين، وكل ذلك إنما ذكره الله تعالى تسلية

للرسول ﷺ وتصبيرًا له على تحَمُّل أذى قومه. ولما بلغ الكلام في تقرير المطلوب إلى الغاية القصوى، وَعَد تعالى رسوله ﷺ بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية، أما في الدنيا فهو المراد بقوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وأما في الآخرة فهو المراد بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ فحاصل الكلام أنه تعالى وعد بأنه ينصر الأنبياء والرسل، وينصر الذين ينصرونهم نصرة يظهر أثرها في الدنيا وفي الآخرة.

واعلم أن نصرة الله المحقين تحصل بوجوه: أحدها: النصرة بالحجة، وقد سمى الله الحجة سلطانًا في غير موضع، وهذه النصرة عامة للمحقين أجمع، ونِعم ما سمى الله هذه النصرة سلطانًا لأن السلطنة في الدنيا قد تبطل، وقد تتبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور، أما السلطنة الحاصلة بالحجة فإنها تبقى أبد الآباد، ويمتنع تطرق الخلل والفتور إليها. وثانيها: أنهم منصورون بالمدح والتعظيم، فإن الظَّلَمة وإن قهروا شخصًا من المحقين إلا أنهم لا يقدرون على إسقاط مدحه عن ألسنة الناس. وثالثها: أنهم منصورون بسبب أن بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين، فإنهم إنما ينظرون إلى الظَّلَمة والجهال كما تنظر ملائكة السموات إلى أخس الأشياء. ورابعها: أن المبطلين وإن كان يتفق لهم أن يحصل لهم استيلاء على المحقين، ففي الغالب أن ذلك لا يدوم بل يكشف للناس أن ذلك كان أمرًا وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق. وخامسها: أن المُحق إن اتفق له أن وقع في نوع من أنواع المحذور، فذلك يكون سببًا لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته. وسادسها: أن الظَّلَمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم ولا يبقى لهم في الدنيا أثر ولا خبر، وأما المحقون فإن آثارهم باقية على وجه الدهر، والناس بهم يقتدون في أعمال البر والخير ولمحنهم يتركون. فهذا كله أنواع نصرة الله للمحقين في الدنيا وسابعها: أنه تعالى قد ينتقم للأنبياء والأولياء بعد موتهم، كما نصر يحيى بن زكريا فإنه لما قُتل، قُتل به سبعون ألفًا. وأما نصرته تعالى إياهم في الآخرة فذلك بإعلاء درجاتهم في مراتب الثواب وكونهم مصاحبين لأنبياء الله، كما قال: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

واعلم أن في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ دقيقة معتبرة، وهي أن السلطان العظيم إذا خص بعض خواصه بالإكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب، كان ذلك ألذ وأبهج، فقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ المقصود منه هذه الدقيقة. واختلفوا في المراد بالأشهاد: والظاهر أن المراد كل من يشهد بأعمال العباد يوم القيامة من ملك ونبي ومؤمن: أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا، وأما الأنبياء فقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] قال المبرد: يجوز أن يكون واحد الأشهاد شاهدًا، كأطيار وطائر

وأصحاب وصاحب، ويجوز أن يكون واحد الأشهاد شهيدًا، كأشراف وشريف وأيتام ويتيم.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (لا تنفع) بالتاء لتأنيث المعذرة، والباقون بالياء كأنه أريد الاعتذار.

واعلم أن المقصود أيضًا من هذا شرح تعظيم ثواب أهل الثواب، وذلك لأنه تعالى بيّن أنه ينصرهم في يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون، فحالهم في علو الدرجات في ذلك اليوم ما ذكرناه، وأما حال أعدائهم فهو أنه حصلت لهم أمور ثلاثة: أحدها: أنه لا ينفعهم شيء من المعاذير ألبتة. وثانيها: أن لهم اللعنة، وهذا يفيد الحصر، يعني اللعنة مقصورة عليهم وهي الإهانة والإذلال. وثالثها: سوء الدار، وهو العقاب الشديد. فهذا اليوم إذا كان الأعداء واقعين في هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية، ثم إنه خص الأنبياء والأولياء بأنواع التشريفات الواقعة في الجمع الأعظم؛ فهنا يظهر أن سرور المؤمن كم يكون، وأن غموم الكافرين إلى أين تبلغ؟ فإن قيل: قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يدل على أنهم يذكرون الأعذار إلا أن تلك الأعذار لا تنفعهم، فكيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] قلنا: قوله: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا يدل على أنهم ذكروا الأعذار، بل ليس فيه إلا أنه ليس عندهم عذر مقبول نافع، وهذا القدر لا يدل على أنهم ذكروه أم لا. وأيضًا فيقال: يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت آخر. ولما بَيّن الله تعالى أنه ينصر الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة، ذكر نوعًا من أنواع تلك النصرة في الدنيا فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ويجوز أن يكون المراد من الهدى ما آتاه الله من العلوم الكثيرة النافعة في الدنيا والآخرة، ويجوز أن يكون المراد تلك الدلائل القاهرة التي أوردها على فرعون وأتباعه وكادهم بها، ويجوز أن يكون المراد هو النبوّة التي هي أعظم المناصب الإنسانية، ويجوز أن يكون المراد إنزال التوراة عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يجوز أن يكون المراد منه أنه تعالى لما أنزل التوراة على موسى، بقي ذلك العلم فيهم وتوارثوه خلفًا عن سلف، ويجوز أن يكون المراد سائر الكتب التي أنزلها الله عليهم، وهي كتب أنبياء بني إسرائيل التوراة والزبور والإنجيل، والفرق بين الهدى والذكرى أن الهدى ما يكون دليلاً على الشيء، وليس من شرطه أن يذكر شيئًا آخر كان معلومًا ثم صار منسيًا، وأما الذكرى فهي التي تكون كذلك فكتب أنبياء الله مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل في أنفسها، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة. ولما بيّن أن الله تعالى ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة وضرب المثال في ذلك بحال موسى خاطب بعد ذلك محمدًا ﷺ فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فالله ناصرك كما نصرهم ومنجز وعده في حقك كما كان كذلك في حقهم، ثم أمره بأن يُقْبِل على طاعة الله النافعة في الدنيا والآخرة، فإن من كان لله كان الله له. واعلم أن مجامع

الطاعات محصورة في قسمين: التوبة عما لا ينبغي، والاشتغال بما ينبغي، والأول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية، فوجب أن يكون مقدمًا عليه في الذكر، أما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ والطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون به، ونحن نحمله على التوبة عن ترك الأَوْلى والأفضل، أو على ما كان قد صدر عنهم قبل النبوة، وقيل أيضًا: المقصود منه محض التعبد كما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] فإن إيتاء ذلك الشيء واجب ثم إنه أمرنا بطلبه، وكقوله: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] من أنا نعلم أنه لا يحكم إلا بالحق، وقيل: إضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول فقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ من باب إضافة المصدر إلى المفعول أي واستغفر لذنب أمتك في حقك. وأما الاشتغال بما ينبغي فهو قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ والتسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل ما لا يليق به، والعشي والإبكار: قيل صلاة العصر وصلاة الفجر، وقيل: الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف، والعشي عبارة عن النصف إلى آخر النهار، فيدخل فيه كل الأوقات، وقيل: المراد طرفا النهار، كما قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤] وبالجملة فالمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله، وأن لا يفتر اللسان عنه، وأن لا يغفل القلب عنه، حتى يصير الإنسان بهذا السبب داخلاً في زمرة الملائكة، كما قال في وصفهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

اعلم أنا بينا أن الكلام في أول هذه السورة إنما ابتدئ ردًّا على الذين يجادلون في آيات الله، واتصل البعض بالبعض وامتد على الترتيب الذي لخصناه والنسق الذي كشفنا عنه إلى هذا الموضع، ثم إنه تعالى نبّه في هذه الآية على الداعية التي تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ إنما يحملهم على هذا الجدال الباطل كِبر في صدرهم، فذلك الكِبر هو الذي يحملهم على هذا الجدال الباطل، وذلك الكبر هو أنهم لو سلموا نبوتك لزمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك؛ لأن النبوّة تحتها كل مُلك ورياسة، وفي صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا في خدمتك، فهذا هو الذي يحملهم على هذه المجادلات

الباطلة والمخاصمات الفاسدة. ثم قال تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ يعني أنهم يريدون أن يكونوا تحت يدك ولا يصلون إلى هذا المراد، بل لا بدّ وأن يصيروا تحت أمرك ونهيك، ثم قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ﴾ أي فالتجئ إليه من كيد من يجادلك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بما يقولون أو تقول ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون، فهو يجعلك نافذ الحكم عليهم، ويصونك عن مكرهم وكيدهم.

واعلم أنه تعالى لما وصف جدالهم في آيات الله بأنه بغير سلطان ولا حجة، ذكر لهذا مثالاً، فقال ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ والقادر على الأكبر قادر على الأصغر لا محالة، وتقرير هذا الكلام أن الاستدلال بالشيء على غيره على ثلاثة أقسام: أحدها: أن يقال: لما قدر على الأضعف وجب أن يقدر على الأقوى. وهذا فاسد. وثانيها: أن يقال: لما قدر على الشيء قدر على مثله، فهذا استدلال حق لما ثبت في العقول أن حكم الشيء حكم مثله. وثالثها: أن يقال: لما قدر على الأقوى الأكمل فبأن يقدر على الأقل الأرذل كان أَوْلى. وهذا الاستدلال في غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل ألبتة، ثم إن هؤلاء القوم يُسَلمون أن خالق السموات والأرض هو الله سبحانه وتعالى، ويعلمون بالضرورة أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والأرض يكون قادرًا على إعادة الإنسان الذي خلقه أولاً، فهذا برهان جلي في إفادة هذا المطلوب، ثم إن هذا البرهان على قوته صار بحيث لا يعرفه أكثر الناس، والمراد منهم الذين ينكرون الحشر والنشر، فظهر بهذا المثال أن هؤلاء الكفار يجادلون في آيات الله بغير سلطان ولا حجة، بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب. ولما بيّن الله تعالى أن الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون، وأن الجدال المقرون بالحجة والبرهان كيف يكون، نبّه تعالى على الفرق بين البابين بذكر المثال فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ يعني وما يستوي المستدل والجاهل المقلد، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُۚ﴾ فالمراد بالأول التفاوت بين العالم والجاهل، والمراد بالثاني التفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة وبين الآتي بالأعمال الفاسدة الباطلة، ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني أنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل، وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسد، إلا أنه قليلاً ما تتذكرون في النوع المعين من الاعتقاد أنه علم أو جهل، والنوع المعين من العمل أنه عمل صالح أو فاسد، فإن الحسد يعمي قلوبهم، فيعتقدون في الجهل والتقليد أنه محض المعرفة، وفي الحسد والحقد والكبر أنه محض الطاعة، فهذا هو المراد من قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، أي قل لهم قليلاً ما تتذكرون، والباقون بالياء على الغيبة.

ولما قرر الدليل الدال على إمكان وجود يوم القيامة، أردفه بأن أخبر عن وقوعها ودخولها في الوجود فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن القول بالقيامة حق وصدق، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بطاعة الله تعالى، لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات، ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع، لا جرم أمَر الله تعالى به في هذه الآية فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ واختلف الناس في المراد بقوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ فقيل: إنه الأمر بالدعاء، وقيل: إنه الأمر بالعبادة، بدليل أنه قال بعده: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ ولولا أن الأمر بالدعاء أمر بمطلق العبادة لما بقي لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ معنى، وأيضًا الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، كقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ [النساء: ١١٧] وأجيب عنه بأن الدعاء هو اعتراف بالعبودية والذلة والمسكنة، فكأنه قيل: إن تارك الدعاء إنما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبودية. وأجيب عن قوله: إن الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، بأن ترك الظاهر لا يصار إليه إلا بدليل منفصل، فإن قيل: كيف قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقد يدعى كثيرًا فلا يستجاب؟ أجاب الكعبي عنه بأن قال: الدعاء إنما يصح على شرط، ومن دعا كذلك استجيب له، وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة. ثم سأل نفسه فقال: فما هو أصلح يفعله بلا دعاء، فما الفائدة في الدعاء؟! وأجاب عنه من وجهين: الأول: أن فيه الفزع والانقطاع إلى الله. والثاني: أن هذا أيضًا وارد على الكل؛ لأنه إن علم أنه يفعله فلا بدّ وأن يفعله، فلا فائدة في الدعاء، وإن علم أنه لا يفعله فإنه ألبتة لا يفعله، فلا فائدة في الدعاء، وكل ما يقولونه هاهنا فهو جوابنا، هذا تمام ما ذكره، وعندي فيه وجه آخر: وهو أنه قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فكل من دعا الله وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأقاربه وأصدقائه وجده واجتهاده، فهو في الحقيقة ما دعا الله إلا باللسان، أما بالقلب فإنه معول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله، فهذا الإنسان ما دعا ربه في وقت، أما إذا دعا في وقت لا يبقى في القلب التفات إلى غير الله، فالظاهر أنه تحصل الاستجابة، إذا عرفت هذا ففيه بشارة كاملة، وهي أن انقطاع القلب بالكلية عما سوى الله لا يحصل إلا عند القرب من الموت، فإن الإنسان قاطع في ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شيء سوى فضل الله تعالى، فعلى القانون الذي ذكرناه وجب أن يكون الدعاء في ذلك الوقت مقبولاً عند الله، ونرجو من

فضل الله وإحسانه أن يوفقنا للدعاء المقرون بالإخلاص والتضرع في ذلك الوقت، واعلم أن الكلام المستقصى في الدعاء قد سبق ذكره في سورة البقرة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين، وهذا إحسان عظيم من الله تعالى، حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء، فإن قيل: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال حكاية عن رب العزة أنه قال: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»[1] فهذا الخبر يقتضي أن ترك الدعاء أفضل، وهذه الآية تدل على أن ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد، فكيف الجمع بينهما؟ قلنا: لا شك أن العقل اذا كان مستغرقًا في الثناء كان ذلك أفضل من الدعاء؛ لأن الدعاء طلب للحظ والاستغراق في معرفة جلال الله أفضل من طلب الحظ، أما إذا لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعاء أَوْلى؛ لأن الدعاء يشتمل على معرفة عزة الربوبية وذلة العبودية. ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ واعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين: الأول: كأنه تعالى قال: إني أنعمت عليك قبل طلبك لهذه النعم الجليلة العظيمة، ومَن أنعم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال؟! والثاني: أنه تعالى لما أمر بالدعاء، فكأنه قيل: الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقًا بحصول المعرفة، فما الدليل على وجود الإله القادر؟ وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته، واعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته إما فلكية وإما عنصرية: أما الفلكيات فأقسام كثيرة أحدها: تعاقب الليل والنهار، و(لَمَّا) كان أكثر مصالح العالم مربوطًا بهما ذكرهما الله تعالى في هذا المقام، وبيّن أن الحكمة في خلق الليل حصول الراحة بسبب النوم والسكون، والحكمة في خلق النهار إبصار الأشياء ليحصل مكنة التصرف فيها على الوجه الأنفع، أما أن السكون في وقت النوم سبب للراحة فبيانه من وجهين: الأول: أن الحركات توجب الإعياء من حيث إن الحركة توجب السخونة والجفاف، وذلك يوجب التألم. والثاني: أن الإحساس بالأشياء إنما يمكن بإيصال الأرواح الجسمانية إلى ظاهر الحس، ثم إن تلك الأرواح تتحلل بسبب كثرة الحركات فتضعف الحواس والإحساسات، وإذا نام الإنسان عادت الأرواح الحساسة في باطن البدن وركزت وقويت وتخلصت عن الإعياء، وأيضًا الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل في النهار من الحر والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات، فهذه هي المنافع المعلومة من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾. وأما قوله ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ فاعلم أن الإنسان مدني بالطبع، ومعناه أنه ما لم يحصل مدينة تامة لم تنتظم مهمات الإنسان في مأكوله ومشروبه وملبسه ومنكحه، وتلك المهمات لا تحصل إلا بأعمال كثيرة، وتلك الأعمال تصرفات في أمور، وهذه التصرفات لا

---

(١) تقدم تخريجه.

تكمل إلا بالضوء والنور حتى يميز الإنسان بسبب ذلك النور بين ما يوافقه وبين ما لا يوافقه، فهذا هو الحكمة في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ فإن قيل: كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال: هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه، أو فجعل لكم الليل ساكنًا. ولكنه لم يقل كذلك بل قال في الليل لتسكنوا فيه، وقال في النهار مبصرًا، فما الفائدة فيه؟ وأيضًا فما الحكمة في تقديم ذكر الليل على ذكر النهار مع أن النهار أشرف من الليل؟ قلنا: أما الجواب عن الأول: فهو أن الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات، أما اليقظة فأمور وجودية، وهي مقصودة بالذات، وقد بيّن الشيخ عبد القاهر النحوي في (دلائل الإعجاز) أن دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما، فهذا هو السبب في هذا الفرق، والله أعلم، وأما الجواب عن الثاني: فهو أن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية، والعدم في المحدثات مقدم على الوجود؛ ولهذا السبب قال في أول سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾[الأنعام: ١].

واعلم أنه تعالى لما ذكر ما في الليل والنهار من المصالح والحِكم البالغة قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ والمراد أن فضل الله على الخلق كثير جدًّا ولكنهم لا يشكرونه، واعلم أن ترك الشكر لوجوه: أحدها: أن يعتقد الرجل أن هذه النعم ليست من الله تعالى، مثل أن يعتقد أن هذه الأفلاك واجبة الوجود لذواتها وواجبة الدوران لذواتها، فحينئذٍ هذا الرجل لا يعتقد أن هذه النعم من الله. وثانيها: أن الرجل وإن اعتقد أن كل العالم حصل بتخليق الله وتكوينه إلا أن هذه النعم العظيمة - أعني نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت - نسيها الإنسان، فإذا ابتلي الإنسان بفقدان شيء منها عرف قدرها، مثل أن يتفق لبعض الناس والعياذ بالله أن يحبسه بعض الظَّلَمة في آبار عميقة مظلمة مدة مديدة، فحينئذٍ يعرف ذلك الإنسان قدر نعمة الهواء الصافي وقدر نعمة الضوء، ورأيت بعض الملوك كان يعذب بعض خدمه بأن أمر أقوامًا حتى يمنعوه عن الاستناد إلى الجدار، وعن النوم، فعظم وقع هذا التعذيب. وثالثها: أن الرجل وإن كان عارفًا بمواقع هذه النعم إلا أنه يكون حريصًا على الدنيا محبًّا للمال والجاه، فإذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع في كفران هذه النعم العظيمة، ولما كان أكثر الخلق هالكين في أحد هذه الأودية الثلاثة التي ذكرناها، لا جرم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣] وقول إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف: ١٧]. ولما بيّن الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الإله القادر الرحيم الحكيم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ قال صاحب (الكشاف): ذلكم المعلوم المميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد - هو الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو، أخبار مترادفة، أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخَلَق كل شيء وأنه لا ثاني له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ والمراد فأنى تصرفون ولِمَ تعدلون

عن هذه الدلائل وتكذبون بها . ثم قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يعني أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة لطلب الحق وخوف العاقبة ، أُفك كما أُفكوا .

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

اعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته إما أن تكون من دلائل الآفاق ، أو من باب دلائل الأنفس : أما دلائل الآفاق فالمراد كل ما هو غير الإنسان من كل هذا العالم ، وهي أقسام كثيرة ، والمذكور منها في هذه الآية أقسام ، منها : أحوال الليل والنهار وقد سبق ذكره ، وثانيها : الأرض والسماء وهو المراد من قوله ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ قال ابن عباس في قوله ﴿ قَرَارًا﴾ : أي منزلاً في حال الحياة وبعد الموت ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ كالقبة المضروبة على الأرض ، وقيل : مسك الأرض بلا عمد حتى أمكن التصرف عليها ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي قائمًا ثابتًا وإلا لوقعت علينا . وأما دلائل الأنفس فالمراد منها دلالة أحوال بدن الإنسان ودلالة أحوال نفسه على وجود الصانع القادر الحكيم ، والمذكور منها في هذه الآية قسمان : أحدها : ما هو حاصل مشاهد حال كمال حاله . والثاني : ما كان حاصلاً في ابتداء خلقته وتكوينه .

أما القسم الأول: فأنواع كثيرة والمذكور ، منها في هذه الآية أنواع ثلاثة : أولها : حدوث صورته وهو المراد من قوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ﴾ وثانيها : حسن صورته وهو المراد من قوله : ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ ، وثالثها : أنه رزقه من الطيبات وهو المراد من قوله : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقد أطنبنا في تفسير هذه الأشياء في هذا الكتاب مرارًا لا سيما في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. ولما ذكر الله تعالى هذه الدلائل الخمسة : اثنين من دلائل الآفاق وثلاثة من دلائل الأنفس قال : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتفسير (تبارك) إما الدوام والثبات ، وإما كثرة الخيرات . ثم قال : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا يفيد الحصر

وأن لا حي إلا هو، فوجب أن يُحمل ذلك على الحي الذي يمتنع أن يموت امتناعًا ذاتيًا، وحينئذٍ لا حي إلا هو، فكأنه أجرى الشيء الذي يجوز زواله مجرى المعدوم.

واعلم أن الحي عبارة عن الدَّرَّاك الفَعَّال، والدراك إشارة إلى العلم التام، والفعال إشارة إلى القدرة الكاملة، ولما نبه على هاتين الصفتين من صفات الجلال نبه على الصفة الثالثة وهي: الوحدانية بقوله: (لا إله إلا هو)، ولما وصفه بهذه الصفات أمر العباد بشيئين: أحدها: بالدعاء والثاني: بالإخلاص فيه، فقال: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ ثم قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيجوز أن يكون المراد قول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ويجوز أن يكون المراد أنه لما كان موصوفًا بصفات الجلال والعزة، استحق لذاته أن يقال له: الحمد لله رب العالمين. ولما بيّن صفات الجلال والعظمة قال: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فأورد ذلك على المشركين بألين قول ليصرفهم عن عبادة الأوثان، وبيّن أن وجه النهي في ذلك ما جاءه من البينات، وتلك البينات أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفًا بصفات الجلال والعظمة على ما تقدم ذكره، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به، وأن جعل الأحجار المنحوتة والخُشُب المصورة شركاء له في المعبودية - مستنكر في بديهة العقل.

ولما بيّن أنه أمر بعبادة الله تعالى فقال: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وإنما ذكر هذه الأحكام في حق نفسه لأنهم كانوا يعتقدون فيه أنه في غاية العقل وكمال الجوهر، ومن المعلوم بالضرورة أن كل أحد فإنه لا يريد لنفسه إلا الأفضل الأكمل، فإذا ذكر أن مصلحته لا تتم إلا بالإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على طاعة الله، ظهر به أن هذا الطريق أكمل من كل ما سواه، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾، واعلم أنا قد ذكرنا أن الدلائل على قسمين: دلائل الآفاق والأنفس، أما دلائل الآفاق فكثيرة والمذكور منها في هذه الآية أربعة: الليل والنهار والأرض والسماء، وأما دلائل الأنفس فقد ذكرنا أنها على قسمين: أحدها: الأحوال الحاضرة حال كمال الصحة وهي أقسام كثيرة، والمذكور ههنا منها ثلاثة أنواع: الصورة وحسن الصورة ورزق الطيبات.

وأما القسم الثاني: - وهو كيفية تكوُّن هذا البدن من ابتداء كونه نطفة وجنينًا إلى آخر الشيخوخة والموت - فهو المذكور في هذه الآية فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ فقيل: المراد آدم، وعندي لا حاجة إليه لأن كل إنسان فهو مخلوق من المني ومن دم الطمث، والمني مخلوق من الدم فالإنسان مخلوق من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، والحال في تكون ذلك الحيوان كالحال في تكون الإنسان، فالأغذية بأسرها منتهية إلى النباتية، والنبات إنما يكون من التراب والماء، فثبت أن كل إنسان فهو متكون من التراب، ثم إن ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة بعد كونه علقة مراتب كثيرة إلى أن ينفصل من بطن الأم، فالله تعالى ترك ذكرها ههنا لأجل أنه تعالى ذكرها في سائر الآيات.

واعلم أنه تعالى رَتَّب عمر الإنسان على ثلاث مراتب: أولها: كونه طفلاً، وثانيها: أن يبلغ أشده، وثالثها: الشيخوخة. وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل، وذلك لأن الإنسان في أول عمره يكون في التزايد والنشوء والنماء وهو المسمى بالطفولية. والمرتبة الثانية: أن يبلغ إلى كمال النشوء وإلى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف، وهذه المرتبة هي المراد من قوله: ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ والمرتبة الثالثة: أن يتراجع ويظهر فيه أثر من آثار الضعف والنقص، وهذه المرتبة هي المراد من قوله: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ وإذا عرفت هذا التقسيم عرفت أن مراتب العمر بحسب هذا التقسيم لا تزيد على هذه الثلاثة، قال صاحب (الكشاف): قوله ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره: ثم يبقيكم لتبلغوا.

ثم قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل الشيخوخة، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطًا.

ثم قال: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ ومعناه يفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى وهو وقت الموت، وقيل: يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في هذه الأحوال العجيبة من أنواع العبر وأقسام الدلائل.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر انتقال الإنسان من كونه ترابًا إلى كونه نطفة ثم إلى كونه علقة ثم إلى كونه طفلاً ثم إلى بلوغ الأشد ثم إلى الشيخوخة، واستدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر قال بعده: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ يعني كما أن الانتقال من صفة إلى صفة أخرى من الصفات التي تقدم ذكرها يدل على الإله القادر، فكذلك الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس يدل على الإله القادر.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيه وجوه: الأول: معناه أنه لما نقل هذه الأجسام من بعض هذه الصفات إلى صفة أخرى، لم يتعب في ذلك التصرف ولم يحتج إلى آلة وأداة، فعبّر عن نفاذ قدرته في الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع بما إذا قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الوجه الثاني: أنه عبّر عن الإحياء والإماتة بقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فكأنه قيل: الانتقال من كونه ترابًا إلى كونه نطفة، ثم إلى كونه علقة انتقالات تحصل على التدرج قليلاً قليلاً، وأما صيرورة الحياة فهي إنما تحصل لتعليق جوهر الروح النطقية به، وذلك يحدث دفعة واحدة، فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الوجه الثالث: أن من الناس من يقول: إن تكوُّن الإنسان إنما ينعقد من المني والدم في الرحم في مدة معينة، وبحسب انتقالاته من حالات إلى حالات، فكأنه قيل: إنه يمتنع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر؛ لأن التسلسل محال، ووقوع الحادث في الأزل محال، فلا بد من الاعتراف بإنسان هو أول الناس، فحينئذٍ

يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المني والدم، بل بإيجاد الله تعالى ابتداء، فعبّر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ وهذا ذم لهم على أن جادلوا في آيات الله ودَفْعها والتكذيب بها، فعجب تعالى منهم بقوله: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ كما يقول الرجل لمن لا يبين: (أنى يُذهب بك؟!) تعجبًا من غفلته، ثم بيّن أنهم هم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي بالقرآن ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من سائر الكتب، فإن قيل: سوف للاستقبال، وإذ للماضي فقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ مثل قولك: سوف أصوم أمس. قلنا: المراد من قوله ﴿إِذِ﴾ هو إذا؛ لأن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعًا بها، عبر عنها بلفظ ما كان ووُجد، والمعنى على الاستقبال، هذا لفظ صاحب (الكشاف).

ثم إنه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ﴾ والمعنى: أنه يكون في أعناقهم الأغلال والسلاسل، ثم يُسحبون بتلك السلاسل في الحميم، أي في الماء المسخن بنار جهنم ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ والسجر في اللغة: الإيقاد في التنور، ومعناه أنهم في النار فهي محيطة بهم، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٦، ٧] ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم. ثم قالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي تبيّن أنهم لو لم يكونوا شيئًا، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئًا، كما تقول: (حسبت أن فلانًا شيء، فإذا هو ليس بشيء) إذا جربته فلم تجد عنده خيرًا، ويجوز أيضًا أن يقال: إنهم كَذَبوا وأنكروا أنهم عبدوا غير الله، كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأنعام أنهم قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ قال القاضي: معناه أنه يضلهم

عن طريق الجنة، إذ لا يجوز أن يقال: يضلهم عن الحجة. إذ قد هداهم في الدنيا إليها، وقال صاحب (الكشاف): ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم، حتى أنهم لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يجد أحدهما الآخر، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ذلكم الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق، وهو الشرك وعبادة الأصنام ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم، قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ والمراد منه ما قال في الآية المتقدمة في صفة هؤلاء المجادلين: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٧٨﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم من أول السورة إلى هذا الموضع في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله، أمَر في هذه الآية رسوله بأن يصبر على إيذائهم وإيحاشهم بتلك المجادلات، ثم قال: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وعنى به ما وعد به الرسول من نصرته، ومن إنزال العذاب على أعدائه، ثم قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ يعني أولئك الكفار من أنواع العذاب، مثل القتل يوم بدر، فذلك هو المطلوب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل إنزال العذاب عليهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ والمعنى أنه قال لمحمد ﷺ: أنت كالرسل من قبلك، وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين، وليس فيهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات إلا وقد جادله قومه فيها، وكذّبوه فيها، وجرى عليهم من الهم ما يقارب ما جرى عليك فصبروا، وكانوا أبدًا يقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل العناد والتعنت، ثم إن الله تعالى لمّا علم أن الصلاح في إظهار ما أظهره، وإلا لم يُظهره، ولم يكن ذلك قادحًا في نبوتهم، فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة، لما لم يكن إظهارها صلاحًا، لا جرم ما أظهرناها، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ القيامة و﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هم المعاندون الذين يجادلون في آيات الله، ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في تقرير الوعيد عاد إلى ذكر ما يدل على وجود الإله الحكيم الرحيم، وإلى ذكر ما يصلح أن يعد إنعامًا على العباد، قال الزجاج: الأنعام: الإبل خاصة. وقال القاضي: هي الأزواج الثمانية.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أنه لمَ أدخل لام الغرض على قوله: ﴿لِتَرْكَبُوا﴾ وعلى قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ ولمْ يُدخل على البواقي فما السبب فيه؟

الجواب: قال صاحب (الكشاف): الركوب في الحج والغزو إما أن يكون واجبًا أو مندوبًا، فهذان القسمان أغراض دينية، فلا جرم أدخل عليهما حرف التعليل، وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباحات، فلا جرم ما أدخل عليها حرف التعليل، نظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[النحل: ٨] فأدخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة.

السؤال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ معناه تُحملون في البر والبحر، إذا عرفت هذا فنقول: لمَ لم يقل: (وفي الفلك) كما قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠].

والجواب: أن كلمة (على) للاستعلاء فالشيء الذي يوضع في الفلك كما يصح أن يقال وُضع فيه. يصح أن يقال وُضع عليه، ولما صح الوجهان كانت لفظة (على) أَوْلى حتى يتم المراد في قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾. ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة قال: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ يعني أن هذه الآيات التي عددناها كلها - ظاهرة باهرة، فقوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ تنبيه على أنه ليس في شيء من الدلائل التي تقدم ذكرها ما يمكن إنكاره، قل صاحب (الكشاف): قوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جاء على اللغة المستفيضة، وقولك: (فأية آيات الله) قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات، نحوحمار وحمارة - غريب، وهي في (أي) أغرب لإبهامه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ

بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى راعى ترتيبًا لطيفًا في آخر هذه السورة، وذلك أنه ذكر فصلاً في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة، ثم أردفه بفصل التهديد والوعيد، وهذا الفصل الذي وقع عليه خَتْم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكِبر العظيم في صدورهم بهذا، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا، فبيَّن تعالى أن هذه الطريقة فاسدة؛ لأن الدنيا فانية ذاهبة، واحتج عليه بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ يعني لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين - ليست إلا الهلاك والبوار، مع أنهم كانوا أكثر عددًا ومالاً وجاهًا من هؤلاء المتأخرين، فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة إلا الخيبة والخسار والحسرة والبوار، فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين؟! أما بيان أنهم كانوا أكثر من هؤلاء عددًا فإنما يُعرف في الأخبار، وأما أنهم كانوا أشد قوة وآثارًا في الأرض، فلأنه قد بقيت آثارهم بحصون عظيمة بعدهم، مثل الأهرام الموجودة بمصر، ومثل هذه البلاد العظيمة التي بناها الملوك المتقدمون، ومثل ما حكى الله عنهم من أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (ما) في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب، و(ما) في قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع، يعني: أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم؟!

ثم بيّن تعالى أن أولئك الكفار لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات، فرحوا بما عندهم من العلم، واعلم أن الضمير في قوله: ﴿فَرِحُوا۟﴾ يحتمل أن يكون عائدًا إلى الكفار، وأن يكون عائدًا إلى الرسل: أما إذا قلنا: إنه عائد إلى الكفار، فذلك العلم الذي فرحوا به أي علم كان؟ وفيه وجوه: الأول: أن يكون المراد الأشياء التي كانوا يسمونها بالعلم، وهي الشبهات التي حكاها الله عنهم في القرآن كقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤] وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقولهم: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الأنبياء، كما قال: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، الثاني: يجوز أن يكون المراد علوم الفلاسفة، فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصَغَّروا علم الأنبياء إلى علومهم، وعن

سقراط أنه سمع بمجيء بعض الأنبياء فقيل له: لو هاجرتَ. فقال: نحن قوم مهديون، فلا حاجة بنا إلى من يهدينا!! الثالث: يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل؛ لم يلتفتوا إليها واستهزؤوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به. أما إذا قلنا: الضمير عائد إلى الأنبياء ففيه وجهان: الأول: أن يُجعل الفرح للرسل، ومعناه أن الرسل لما رأوا من قومهم جهلاً كاملاً، وإعراضًا عن الحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم وإعراضهم، فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم. الثاني: أن يكون المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به، كأنه قال: استهزؤوا بالبينات، وبما جاؤوا به من علم الوحي فرحين، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ البأس شدة العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥] فإن قيل: أي فرق بين قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ وبين ما لو قيل: فلم ينفعهم إيمانهم؟ قلنا: هو مثل كان في نحو قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم. فإن قيل: اذكروا ضابطًا في الوقت الذي لا ينفع الإتيان بالإيمان فيه. قلنا: إنه الوقت الذي يعاين فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب؛ لأن في ذلك الوقت يصير المرء مُلجأ إلى الإيمان، فذلك الإيمان لا ينفع إنما ينفع مع القدرة على خلافه، حتى يكون المرء مختارًا، أما إذا عاينوا علامات الآخرة فلا.

ثم قال تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ والمعنى أن عدم قبول الإيمان حال اليأس سنة الله مطردة في كل الأمم.

ثم قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ فقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ مستعار للزمان، أي وخسروا وقت رؤية البأس، والله الهادي للصواب.

تم تفسير هذه السورة يوم السبت، الثاني من ذي الحجة، من سنة ثلاث وستمائة من الهجرة، في بلدة هراة.

يا من لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من جلالك وعزتك أقصى نعوت الناعتين، يا من تقاصرت عن الإحاطة بمبادئ أسرار كبريائه أفهام المتفكرين، وأنظار المتأملين لا تجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين المبطلين، ولا تجعلنا يوم القيامة من المحرومين، فإنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين، وصلوات الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة غافر

وهي سورة المؤمن، وتسمى سورة الطَّوْل

وهي مكيةٌ في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر[1]. وعن الحسن إلا قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» لأن الصلواتِ نزلت بالمدينة[2]. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهما ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٣٥] والتي بعدها[3]. وهي خمسٌ وثمانون آية. وقيل: ثنتان وثمانون آية[4].

وفي «مسند» الدارمي قال: حدّثنا جعفر بن عون، عن مِسْعر، عن سعد بن إبراهيم قال: كنَّ الحواميم يُسمَّين العرائسَ[5]. ورُوي من حديث أنس أن رسولَ الله ﷺ قال: «الحواميمُ دِيباجُ القرآن»[6]. ورُوي عن ابن مسعود مثلُه. وقال الجوهري وأبو عُبيد[7]: وآل حم سورٌ في القرآن. قال ابن مسعود: آلُ حم دِيباجُ القرآن[8]. قال الفراء: إنما هو كقولك: آلُ فلان وآلُ فلان، كأنه نَسَبَ السورةَ كلَّها إلى حم؛ قال الكُمَيْت:

وَجَدْنا لكم في آلِ حَاميمَ آيةً   تَأَوَّلَها مِنَّا تَقيٌّ ومُعْزِبُ[9]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٤١ .

(٢) مجمع البيان ٢٤/ ١٧٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤١ ، وزاد المسير ٧/ ٢٠٤ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٥ : هذه السورة مكية بإجماع، وقد روي في بعض آياتها أنها مدنية، وهذا ضعيف، والأول أصح.

(٤) ذكرهما السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤ .

(٥) سنن الدارمي (٣٤٢٢).

(٦) أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم كما في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ .

(٧) في (د) و(م): أبو عبيدة.

(٨) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٤٧١).

(٩) ديوان الكميت بن زيد ص١٨ ، وفيه وفي الصحاح (حمم) والخزانة ٤/ ٣١٨: ومعرب. قال البغدادي: يقول الشاعر: من تأوّل هذه الآية لم يسعه إلا التشيّع في آل النبي ﷺ وإبداء المودة لهم على تَقِيَّة كانت أو غير تقية. وقوله: تقيٌّ ومعرب، قال الجوهري [الصحاح (عرب)]: أعرب بحجته إذا أفصح بها ولم يتقِ أحداً.

قال أبو عُبيد[١]: هكذا رواها الأُموي بالزاي، وكان أبو عمرو يرويها بالراء. فأما قولُ العامة: الحواميم، فليس من كلام العرب.

وقال أبو عُبيدة: الحواميمُ سورٌ في القرآن على غير قياس؛ وأنشد:

وبالحواميم التي قد سُبِّعَتْ[٢]

قال: والأَولى أن تُجمع بذوات حم[٣].

ورُوي أن النبي ﷺ قال: «لكلِّ شيء ثمرةٌ، وإن ثمرةَ القرآن ذواتُ حم، هنَّ روضاتٌ حِسان مُخصبات مُتجاورات، فمن أحبَّ أن يرتعَ في رياض الجنة فَلْيقرأ الحواميم»[٤]. وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ الحواميم في القرآن كمثل الحِبَرَاتِ في الثياب» ذكرهما الثعلبي[٥].

وقال أبو عُبيد: وحدّثني حجَّاج بن محمد عن أبي مَعْشر، عن محمد بن قيس قال: رأى رجلٌ سبعَ جوارٍ حِسان مُزيَّنات في النوم، فقال: لمن أنتنَّ بارك الله فيكنَّ؟ فقلن: نحن لمن قرأنا، نحن الحواميم[٦].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ اختلف في معناه؛ فقال عكرمة: قال النبيُّ ﷺ: «حم» اسمٌ

---

(١) في (م): أبو عبيدة. والكلام في غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٩٤ .

(٢) ذكره صاحب اللسان (حمم)، وقبله: وبالطواسين التي قد ثُلِّثتْ.

(٣) الصحاح (حمم).

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ ، وعزاه لابن الضُّريس.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) غريب الحديث ٤/ ٩٣ .

من أسماء الله تعالى، وهي مفاتيحُ خزائن ربِّك»[١] قال ابن عباس: «حم» اسمُ الله الأعظم. وعنه: «الر» و«حم» و«ن» حروفُ الرحمنُ مقطَّعة. وعنه أيضاً: اسمٌ من أسماء الله تعالى أقسم به. وقال قتادة: إنه اسمٌ من أسماء القرآن. مجاهد: فواتحُ السُّور[٢].

وقال عطاء الخُراساني: الحاء افتتاحُ اسمه حَميدٌ وحنانٌ وحليمٌ وحكيمٌ، والميم افتتاحُ اسمه مَلِكٌ ومجيدٌ ومنَّانٌ ومُتكبِّرٌ ومصوِّرٌ[٣]؛ يدلُّ عليه ما روى أنسٌ أن أعرابيًّا سأل النبيَّ ﷺ: ما «حم» فإنَّا لا نعرفها في لساننا؟ فقال النبيُّ ﷺ: «بَدْءُ أسماء وفواتح سُوَره»[٤]. وقال الضحاك والكسائي: معناه: قُضِي ما هو كائن. كأنه أراد الإشارة إلى تهجِّي «حم»؛ لأنها تصير حُمَّ، بضم الحاء وتشديد الميم؛ أي: قُضِي ووَقَع[٥]. قال كعب بن مالك:

فلما تَلاقَينا ودارت بِنَا الرَّحى وليس لِأَمْرٍ حَمَّهُ اللهُ مَدْفَعُ[٦]

وعنه أيضاً: إن المعنى: حُمَّ أمرُ الله، أي: قَرُبَ؛ كما قال الشاعر:

قد حُمَّ يومي فسُرَّ قومٌ قومٌ بهم غَفْلَةٌ ونَومٌ

ومنه سُمِّيت الحُمَّى؛ لأنها تُقرِّب من المَنِيَّة[٧].

والمعنى المراد: قَرُبَ نصرُه لأوليائه، وانتقامُه من أعدائه كيوم بدر. وقيل: حروف هجاء؛ قال الجَرْمي: ولهذا تُقرأ ساكنةَ الحروف، فخرجت مخرجَ التهجِّي،

(١) لم نقف عليه، وهو هكذا مرسل.
(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٤-٢٧٥، والنكت والعيون ٥/ ١٤١، وتفسير البغوي ٤/ ٩٠.
(٣) أورده البغوي في تفسيره ٤/ ٩٠.
(٤) لم نقف عليه.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٩٠.
(٦) ديوان كعب بن مالك ص١٨٣.
(٧) النكت والعيون ٥/ ١٤١.

وإذا سَمَّيت سورةً بشيء من هذه الحروف أعربت؛ فتقول: قرأتُ «حمَ» فتنصب؛ قال الشاعر:

يُذَكِّرني حاميم والرُّمح شاجِرٌ فهلَّا تلا حاميمَ قَبْلَ التَّقدُّمِ[1]

وقرأ عيسى بن عمر الثقفي: «حمَ» بفتح الميم على معنى: اقرَأْ حم، أو لالتقاء الساكنين. وابن أبي إسحاق وأبو السَّمَّال بكسرها. والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين[2]، أو على وجه القسم. وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم. الباقون بالوصل. وكذلك في ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١-٢]. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بالإمالة في الحاء. ورُوي عن أبي عمرو بين اللَّفظين، وهي قراءة نافع وأبي جعفر وشيبة. الباقون بالفتح مُشبعاً[3].

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ابتداء، والخبر ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. ويجوز أن يكون «تَنْزِيلُ» خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ»[4]. ويجوز أن يكون «حم» مبتدأ و«تَنْزِيلُ» خبره، والمعنى: إن القرآنَ أنزله اللهُ، وليس منقولاً ولا مما يجوز أن يُكذَّب به.

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ قال الفراء[5]: جعلها كالنعت للمعرفة، وهي نكرة. وقال الزجاج: هي خفضٌ على البدل[6]. النحاس[7]:

---

(١) قائله شريح بن أبي أوفى العبسي، أورده البخاري قبل الحديث (٤٨١٥)، والطبري ٢٠/ ٢٧٥، وقيل: البيت للأشتر النخعي، وقيل غير ذلك، كما في فتح الباري ٨/ ٥٥٤ .

(٢) قراءة عيسى بن عمر في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥ ، وقراءة أبي السمّال في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٦ .

(٣) السبعة ص٥٦٦ ، والتيسير ص١٩١ ، والنشر ٢/ ٧٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٦ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٦٦ ، وفيه: «غافرِ الذنب وقابلِ التوب» على صفات الله، فأما خفض «شديدِ العقاب» فعلى البدل لأنه مما يوصف به النكرة.

(٧) إعراب القرآن ٤/ ٢٦ .

وتحقيقُ الكلام في هذا وتلخيصُه أن ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لِمَا مضَى فيكونا نعتين، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين، ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا، ولكن يكون خَفْضُها على البدل، ويجوز النصب على الحال، فأما «شديدِ العقابِ» فهو نكرةٌ، ويكون خفضُه على البدل.

قال ابن عباس: «غَافِرِ الذَّنْبِ» لمن قال: «لا إله إلا الله» «وقَابِلِ التَّوْبِ» ممن قال: «لا إله إلا الله» «شَدِيدِ العقابِ» لمن لم يقل: «لا إله إلا الله»[(١)].

وقال ثابت البُنَاني: كنتُ إلى سرادق مُصْعَب بن الزبير في مكان لا تمرُّ فيه الدوابُّ، قال: فاستفتحت ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فمر عليَّ رجلٌ على دابة، فلما قلت: «غَافِرِ الذَّنْبِ» قال: قل: يا غافرَ الذنب، اغفِرْ لي ذنبي، فلما قلت: «قَابِلِ التوْبِ» قال: قل: يا قابلَ التوب، تقبَّل توبتي، فلما قلت: «شَدِيدِ العقابِ» قال: قلْ: يا شديدَ العقاب، اعفُ عني، فلما قلتُ: «ذِي الطَّوْلِ» قال: قل: يا ذا الطَّول، طُلْ عليّ بخير؛ فقمتُ إليه فَأُخِذَ ببصري، فالتفتُّ يميناً وشمالاً فلم أرَ شيئاً[(٢)].

وقال أهلُ الإشارة: «غَافِرِ الذَّنْبِ» فَضْلاً «وَقَابِلِ التَّوبِ» وعداً «شَدِيدِ العِقَابِ» عدلاً «لا إله إلا هو إليه المصيرُ» فرداً.

ورُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام؛ فقيل له: تتابعَ في هذا الشَّراب؛ فقال عمر لكاتبه: اكتبْ: من عمرَ إلى فلان، سلامٌ عليك، وأنا أحمدُ اللهَ إليك الذي لا إله إلا هو ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ثم ختمَ الكتابَ، وقال لرسوله: لا تدفَعْه إليه حتى تَجِدَهُ صاحياً، ثم أمر مَن عنده بالدُّعاء له بالتوبة، فلما أتَتْه الصحيفةُ جعل يقرؤها ويقول:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٩٠ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٢٨ بنحوه.

قد وعدني الله أن يغفِرَ لي، وحذَّرني عِقابَه، فلم يبرحْ يُرَدِّدها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النَّزع وحسنت توبته. فلما بلغ عمرَ أمرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحدَكم قد زلَّ زلَّةً، فسدِّدوه وادعوا اللهَ له أن يتوبَ عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه[1].

و«التَّوْب» يجوز أن يكون مصدر تابَ يتوبُ تَوْباً، ويَحتمِلُ أن يكون جمعَ توبة، نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمة وعَزْم؛ ومنه قوله:

فَيَخْبو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا[2]

ويجوز أن يكون التوبُ بمعنى التوبة. قال أبو العباس: والذي يسبق إلى قلبي أن يكون مصدراً؛ أي: يقبل هذا الفعل، كما تقول: قال قولاً، وإذا كان جمعاً فمعناه: يقبل التوبات. ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ على البدل [لأنه نكرة] وعلى النعت، لأنه معرفة[3].

وأصل الطول الإنعام والفضل يقال منه: اللهم طُلْ علينا، أي: أَنعم وتفضَّل. قال ابن عباس: «ذِي الطَّوْلِ» ذي النعم. وقال مجاهد: ذي الغنى والسَّعة[4]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] أي: غِنًى وسَعَةً. وعن ابن عباس أيضاً: «ذِي الطَّوْلِ» ذي الغِنى عمن لا يقول: لا إله إلا الله[5]. وقال عكرمة: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ ذي المَنّ[6].

قال الجوهري[7]: والطَّوْل بالفتح المنّ؛ يقال منه: طال عليه وتطوَّل عليه، إذا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٩٧ بنحوه.

(٢) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٣٤، وصدره: وكنا كالحريق أصاب غابا.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦، وما بين حاصرتين منه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٤٢، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧٨.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٤٢.

(٧) في الصحاح (طول).

امتنَّ عليه. وقال محمد بن كعب: «ذِي الطَّوْلِ» ذي التفضُّل؛ قال الماوردي[(١)]: والفرق بين المَنِّ والتفضُّل أن المنَّ عفوٌ عن ذنب. والتفضل إحسانٌ غيرُ مُستَحَق. والطَّول مأخوذٌ من الطُّول، كأنه طال بإنعامه على غيره. وقيل: لأنه طالت مُدَّة إنعامه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المرجع.

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ سجَّل سبحانه على المُجادِلين في آيات الله بالكُفر، والمراد الجِدالُ بالباطل؛ من الطَّعن فيها، والقَصْد إلى إدحاض الحقِّ، وإطفاءِ نور الله تعالى. وقد دلَّ على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

فأما الجِدال فيها لإيضاح مُلتبَسها، وحلِّ مُشْكِلها، ومُقادحة أهل العلم في استنباط مَعانيها، وردِّ أهل الزَّيْغ بها وعنها، فأعظمُ جهاد في سبيل الله. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية: ٢٥٨] مستوفى.

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾ وقُرِئ: «فَلَا يَغُرَّكَ»[(٢)]، ﴿تَقَلُّبُهُمۡ﴾ أي: تصرُّفهم ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ فإني وإن أمهلتُهم لا أُهمِلُهم، بل أُعاقبهم. قال ابن عباس: يُريد تجارتهم من مكة إلى الشام وإلى اليمن. وقيل: «لَا يَغْرُرْكَ» ما هم فيه من الخير والسَّعة في الرزق، فإنه متاعٌ قليلٌ في الدنيا. وقال الزجاج[(٣)]: «لَا يَغْرُرْكَ» سلامتُهم بعد كُفرهم، فإن عاقبتَهم الهَلاك. وقال أبو العالية: آيتان ما أشدّهما على الذين يُجادلون في القرآن: قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[(٤)] [البقرة: ١٧٦].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٤٢، وقول محمد بن كعب الذي قبله منه.

(٢) قرأ بها زيد بن علي وعبيد بن عمير، كما في البحر المحيط ٧/ ٤٤٩.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٦.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٩١.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ على تأنيث الجماعة، أي: كذَّبتِ الرُّسُلَ[١]. ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: والأمم الذين تحزَّبوا على أنبيائهم بالتكذيب، نحو عاد وثمود فَمن بعدَهم[٢].

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: ليحبسوه ويُعذِّبوه. وقال قتادة والسُّدِّي: لِيقتلوه[٣] والأَخْذ يَرِد بمعنى الإهلاك؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]. والعرب تُسمِّي الأسيرَ الأخيذ؛ لأنه مأسورٌ للقتل؛ وأنشد قطرب قول الشاعر:

فَــإِمَّــا تَــأْخُــذونِــي تَــقْــتُــلــونِــي ... فَــكَــمْ مِــنْ آخِــذٍ يَــهْــوَى خُــلــودِي[٤]

وفي وقت أَخْذهم لرسولهم قولان: أحدهما: عند دعائه لهم. الثاني: عند نزول

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٩١.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤٣.

(٤) جاء الشطر الثاني في النسخ الخطية: ومن أخذ فليس إلى خلودي، وضبط في (ز): أَخْذٍ، ووضع عليها «صح». والمثبت من (م)، وهو كذلك في الدر المصون ٩/ ٤٥٨، والبيت أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٤٣ (والكلام منه) وعجز البيت فيه: ومن يأخذ فليس إلى خلودي.

العذاب بهم.

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي: لِيُزيلوا. ومنه: مكان دَحْض، أي: مَزْلَقة[1]، والباطل داحض؛ لأنه يَزْلَق ويَزِلّ فلا يستقر. قال يحيى بن سلّام: جادَلوا الأنبياء بالشِّرك لِيبطلوا به الإيمان[2]. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بالعذاب. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: عاقبة الأمم المُكذِّبة. أي: أليس وجدوه حقًّا؟!.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ أي: وجبت ولَزِمتْ؛ مأخوذٌ من الحق لأنه اللازم[3]. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هذه قراءةُ العامة على التوحيد. وقرأ نافع وابن عامر: «كَلِمَاتُ» جمعاً[4].

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ﴾ قال الأخفش[5]: أي: لأنهم وبأنهم. قال الزجاج: ويجوز: إنهم بكسر الهمزة[6]. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: المُعذَّبون بها، وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ويُروى: أن حَمَلَة العرش أرجلُهم في الأرض السُّفلى ورؤوسهم قد خَرقت العرش، وهم خشوعٌ لا يرفعون طَرْفهم، وهم أشرافُ الملائكة وأفضلُهم. ففي الحديث: «إن اللهَ تبارك وتعالى أمرَ جميعَ الملائكة أن يَغْدُوا ويروحوا بالسَّلام على حَمَلةِ العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»[7].

ويقال: خلقَ اللهُ العرشَ من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خَفَقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل: حولَ العرش سبعون ألف صفٍّ من الملائكة

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٤٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦.

(٤) السبعة ص٥٦٧، والتيسير ص١٢٢.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٦ وما بعده منه.

(٦) يعني في اللغة لا في التلاوة، والكلام في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٦٧.

(٧) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥، ولم نقف عليه عند غيره.

يَطوفون به مُهَلِّلين مُكَبِّرين، ومِن ورائهم سبعون ألف صفٍّ قيام، قد وَضَعوا أيديَهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومِن ورائهم مئة ألف صفٍّ، قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يُسبِّح بما لا يُسبِّح[1] به الآخر.

وقرأ ابن عباس: «العُرْش» بضم العين[2]؛ ذَكَر جميعه الزمخشري رحمه الله.

وقيل: اتصل هذا بذكر الكفار؛ لأن المعنى - والله أعلم -: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ يُنزِّهون الله عزَّ وجلَّ عما يقوله الكفار ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يسألون لهم المغفرة من الله تعالى[3].

وأقاويلُ أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مُجَسَّم خلقه اللهُ عزّ وجلّ، وأمرَ ملائكةً بحمله، وتَعبَّدهم بتعظيمه والطَّوافِ به؛ كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة[4].

وروى ابن طَهْمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أُذِنَ لي أنْ أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حَمَلة العرش ما بين شحمةِ أُذنه إلى عاتقه مسيرُ سبع مئة عام» ذكره البيهقي[5]، وقد مضى في «البقرة» في آية الكرسي عِظَم العرش، وأنه أعظمُ المخلوقات[6].

وروى ثور بن يزيد، عن خالد بن مَعْدان، عن كعب الأحبار أنه قال: لما خَلَقَ اللهُ تعالى العرشَ قال: لن يخلقَ اللهُ خلقاً أعظمَ مني؛ فاهتزَّ فطوَّقه الله بحية، للحية

---

(١) في النسخ الخطية: بما سبّح، والمثبت من (م)، وهو الموافق للكشاف ٣/ ٤١٥ ، والكلام منه كما سيذكر المصنف.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦-٢٧ .

(٤) الأسماء والصفات ٢/ ٢٧٢ .

(٥) في الأسماء والصفات (٨٤٦).

(٦) ٤/ ٢٧٥ وما بعدها.

سبعون ألفِ جناح، في الجناح سبعون ألفِ ريشة، في كلِّ ريشة سبعون ألف وجه، في كلِّ وجه سبعون ألف فم، في كلِّ فم سبعون ألف لسان. يخرجُ من أفواهها في كلِّ يوم من التسبيح عَدَدَ قَطْر المطر، وعددَ ورق الشجر، وعددَ الحصى والثرى، وعددَ أيام الدنيا، وعددَ الملائكة أجمعين، فالتَوَت الحيةُ بالعرش، فالعرشُ إلى نصف الحية وهي ملتوية به[١].

وقال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظُلْمة، وحجاب نور وحجاب ظُلمة[٢].

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وَسِعَتْ رحمتُك وعِلْمُك كلَّ شيء، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير[٣]. ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: من الشِّرك والمعاصي ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: دين الإسلام. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: اصرفه عنهم حتى لا يَصِلَ إليهم.

قال إبراهيم النخعي: كان أصحابُ عبد الله يقولون: الملائكةُ خيرٌ من ابن الكَوَّاء؛ هم يستغفرون لمن في الأرض وابن الكَوَّاء يشهد عليهم بالكفر[٤]، قال إبراهيم: وكانوا يقولون: لا يَحْجُبون الاستغفار عن أحد من أهل القبلة. وقال مُطَرِّف ابن عبد الله: وجدنا أنصحَ عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغشَّ عبادِ الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية[٥].

وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها، فما في العالم جنةٌ أرجى منها؛ إنَّ مَلَكاً واحداً لو سأل الله أن يغفرَ لجميع المؤمنين لَغفرَ لهم، كيف

---

(١) هذا الخبر من الإسرائيليات التي يرويها كعب الأحبار عن كتب أهل الكتاب.

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٥٦).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧، وتفسير البغوي ٤/ ٩٣ بنحوه.

(٤) أخرجه أبو عبيد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣، وعبد الله هو ابن مسعود ﷺ، وابن الكوَّاء رجل من الخوارج، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٢ والخبر فيه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٨-١٧٩.

وجميعُ الملائكة وَحَملةُ العرش يستغفرون للمؤمنين. وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنتُ أقرأُ على سليم بن عيسى فلما بلغتُ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بكى، ثم قال: يا خلف، ما أكرمَ المؤمن على الله، نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يُروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: ما جنات عدن. قال: قصورٌ من ذهب في الجنة يدخلُها النبيُّون والصِّدِّيقون والشهداء وأئمةُ العدل[١].

﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ «التي» في محل نصب نعتاً للجنات. ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ «مَنْ» في محل نصب عطفاً على الهاء والميم في قوله: «وَأَدْخِلْهُم»[٢]. «وَمَنْ صَلَحَ» بالإيمان.

﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ وقد مضى في «الرعد» نظيرُ هذه الآية[٣]. قال سعيد ابن جُبير: يدخلُ الرجلُ الجنة، فيقول: يا رب، أين أبي وجدِّي وأُمي؟ وأين ولدي وولدُ ولدي؟ وأين زوجاتي؟ فيقال: إنهم لم يعملوا كعملك؛ فيقول: يارب، كنتُ أعملُ لي ولهم؛ فيقال: أدخِلوهم الجنة. ثم تلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾[٤]. ويقربُ من هذه الآية قوله: ﴿والَّذين آمَنُوا وأَتْبعناهم ذُرِّيَّاتِهم بإيمانٍ أَلْحَقْنا بهم ذُرِّيَّاتهم﴾[٥] [الطور: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال قتادة: أي: وَقِهم ما يسوءهم، وقيل: التقدير: وَقِهم عذابَ السيئات[٦]، وهو أمْرٌ من: وَقَاه الله يَقِيه وِقايةً؛ بالكسر؛ أي: حَفِظَه. ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أي: بدخول الجنة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: النجاة الكبيرة.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/١٧٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٧.

(٣) ١٢/٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/٢٨٦.

(٥) هذه قراءة أبي عمرو. السبعة ص٦١٢، والتيسير ص٢٠٣.

(٦) المحرر الوجيز ٤/٥٤٨ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ⑩ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ⑪ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ⑫﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال الأخفش[١]: «لَمَقْتُ» هذه لام الابتداء وقعت بعد «يُنَادَوْنَ» لأن معناه: يقال لهم، والنداء قول. وقال غيره: المعنى: يقال لهم: «لَمَقْتُ اللهِ» إيَّاكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ «أَكْبَرُ» من مقت بعضِكم بعضاً يومَ القيامة؛ لأن بعضَهم عادَى بعضاً وَمقَتَهُ يومَ القيامة، فأذعنوا عند ذلك، وخَضَعوا وطلبوا الخُروجَ من النار[٢].

وقال الكلبي: يقول كلُّ إنسان من أهل النار لنفسه: مَقَتُّكِ يا نفس؛ فتقول الملائكة لهم وهم في النار: لَمقتُ الله إيَّاكم إذ أنتم في الدنيا وقد بُعِثَتْ[٣] إليكم الرُّسل فلم تؤمنوا أشدُّ من مَقْتكم أَنْفُسَكم اليوم.

وقال الحسن: يُعْطَون كتابَهم، فإذا نظروا إلى سيئاتكم مقتوا أنفسَهم، فينادَوْن «لَمَقْتُ الله» إيَّاكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اليوم. وقال معناه مجاهد[٤]. وقال قتادة: المعنى: «لَمَقْتُ اللهِ» لكم «إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمانِ فَتَكْفُرُونَ» «أكبرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ» إذ عاينتم النار[٥]. فإن قيل: كيف يَصِحُّ أن يَمقُتوا أَنْفُسَهم؟ ففيه وجهان: أحدهما: أنهم أحلوها بالذُّنوب محلَّ

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧ .

(٣) في (م): بعث.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٠٦-٢٠٧ .

(٥) أخرج قول مجاهد بنحوه وقول قتادة الطبري ٢٠/ ٢٨٨ .

الممقوت. الثاني: أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى وعلموا أن نفوسَهم هي التي أوْبقتهم[١] في المعاصي مَقَتُوها[٢].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: إنَّ أهل النار لمَّا يَئِسوا مما عند الخَزَنَةِ وقال لهم مالك: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] على ما يأتي. قال بعضُهم لبعض: يا هؤلاء، إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون، فهلمَّ فلنصبر، فلعلَّ الصبر ينفعنا كما صبر أهلُ الطاعة على طاعة الله، فنفعهم الصبرُ إذ صبروا، فأجمعوا رأيَهم على الصبر، فصبروا، فطال صبرُهم، ثم جَزِعوا فنادَوْا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من ملجأ؛ فقال إبليسُ عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ يقول: بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فلما سَمِعوا مَقَالته مَقَتُوا أنفُسَهم. قال: فَنُودوا: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ قال: فردَّ عليهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ ذكره ابن المبارك[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ اختلف أهلُ التأويل في معنى قولهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، ثم أحياهم، ثم أماتَهم المَوْتَةَ التي لابدَّ منها في الدنيا، ثم أحياهم للبعث والقيامة، فهاتان حياتان وموتتان، وهو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

---

(١) في (م): أبقتهم.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٤٥-١٤٦ .

(٣) وأخرجه الطبري ٦٢٧/١٣ و٦٣١ من طريق ابن المبارك.

وقال السدي: أُميتوا في الدنيا، ثم أَحياهم في قبورهم[١] للمسألة، ثم أُميتوا، ثم أُحيوا في الآخرة[٢]. وإنما صار إلى هذا؛ لأن لفظَ الميت لا ينطلق في العُرف على النطفة.

واستدلَّ العلماء من هذا في إثبات سؤال القبر، ولو كان الثوابُ والعقابُ للروح دون الجسد، فما معنى الإحياء والإماتة؟ والروحُ عند من يقصر أحكامَ الآخرة على الأرواح لا تموتُ ولا تتغير ولا تفسدُ، وهو حيٌّ لنفسه لا يتطرَّق إليه موتٌ ولا غشية ولا فَناء.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الآية قال: خلقَهم في ظهر آدم، وأخرجهم[٣] وأحياهم، وأخذَ عليهم المِيثاق، ثم أماتَهم، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم[٤]. وقد مضى هذا في «البقرة»[٥].

﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف ونَدِمُوا حين لا ينفع[٦] النَّدم.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: هل نُرَدُّ إلى الدنيا لِنعملَ بطاعتك؛ نظيره: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقوله: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] وقوله: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ الآية [الأنعام: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ «ذلكم» في موضع رفع، أي: الأمر «ذَلكُم» أو «ذَلِكُم» العذاب الذي أنتم فيه بكفركم. وفي الكلام متروكٌ تقديره: فأُجيبوا بأن لا سبيلَ إلى الردّ. وذلك لأنكم «إذا دُعِيَ الله» أي: وُحِّدَ الله

---

(١) في (م): القبور.

(٢) أخرج الأقوال السالفة الطبري ٢٠/ ٢٩٠-٢٩٢ .

(٣) في النسخ الخطية: واستخرجهم، والمثبت من (م).

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٩ بنحوه، وقال: هذا قول ضعيف، لأن الإحياء فيه ثلاث مرات.

(٥) ١/ ٣٧٤-٣٧٥ .

(٦) في (م): حيث لا ينفعهم.

«وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ» وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة، وإن أشركَ به مشركٌ صدَّقتموه وآمنتم بقوله[١].

قال الثعلبي: وسمعتُ بعضَ العلماء يقول: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ بعد الردّ إلى الدنيا لو كان ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ تُصدِّقوا المُشرِك؛ نظيره: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ عن أن يكون له صاحبة أو ولد.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: دلائلَ توحيده وقُدرته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ جَمَعَ بين إظهارِ الآيات وإنزال الرِّزق؛ لأن بالآيات قِوامَ الأديان، وبالرِّزق قِوامَ الأبدان. وهذه الآياتُ هي السماوات والأرَضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هَلَكوا.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: ما يَتَّعِظُ بهذه الآياتِ، فيوحِّد الله ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي: يرجع إلى طاعة الله ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادة. وقيل: الطاعة[٢]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عبادةَ الله، فلا تعبدوا أنتم غيرَه.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ «ذُو العَرْش» على إضمار مبتدأ. قال

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٩٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٩٤ بنحوه.

الأخفش[١]: ويجوز نصبُه على المدح.

ومعنى «رَفِيعُ الدَّرَجات» أي: رفيع الصِّفات. وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جُبير: رَفَعَ[٢] السماواتِ السَّبع. وقال يحيى بن سلَّام: هو رفعه درجات[٣] أوليائه في الجنة. فـ«رَفِيعُ» على هذا بمعنى رافع؛ فَعِيل بمعنى فاعل. وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه: الذي لا أرفع قدراً منه، وهو المُستَحِقُّ لدرجات المَدْحِ والثناء، وهي أصنافُها وأبوابها لا مُستَحِقَّ لها غيره؛ قاله الحَلِيمي[٤]. وقد ذكرناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٥] والحمد لله.

«ذُو العَرْشِ» أي: خالقه ومالِكه، لا أنه مُحتاج إليه. وقيل: هو من قولهم: ثُلَّ عرشُ فلان، أي: زال مُلكه وعِزُّه[٦]، فهو سبحانه «ذُو العَرْش» بمعنى ثبوت مُلكه وسُلطانه، وقد بيَّناه في «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٧].

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحي والنبوة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وسُمِّي ذلك روحاً لأن الناس يَحيون به؛ أي: يَحيَوْن من موت الكفر كما تحيا الأبدانُ بالأرواح[٨]. وقال ابن زيد: الرُّوح القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[٩] [الشورى: ٥٢]. وقيل: الروح جبريل؛ قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: من قوله. وقيل: من قَضائه. وقيل: «مِنْ» بمعنى الباء، أي:

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٨.

(٢) في النسخ: رفيع، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ١٤٧. والكلام منه.

(٣) في (م): رفعة درجة.

(٤) في المنهاج في شعب الإيمان ١/ ١٩٠.

(٥) ص١٧٧.

(٦) الصحاح (عرش) بنحوه.

(٧) ص١٨٣.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٩٤.

(٩) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٩٥.

بأمره[١]. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الأنبياءُ، يشاء هو أن يكونوا أنبياءَ، وليس لأحد فيهم مشيئة.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث. فقوله: «لِيُنْذِرَ» يرجع إلى الرسل[٢]. وقيل: أي: لينذر اللهُ ببعثه الرُّسلَ إلى الخلائق «يَوْمَ التَّلَاقِ». وقرأ ابن عباس والحسن وابن السَّمَيْفَع: «لِتُنْذِرَ» بالتاء خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام[٣].

«يَوْمَ التَّلَاقِ» قال ابن عباس وقتادة: يوم تلتقي أهلُ السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضاً وأبو العالية ومقاتل: يلتقي فيه الخَلْق والخالق. وقيل: العابدون والمعبودون. وقيل: الظالم والمظلوم. وقيل: يَلْقى[٤] كل إنسان جزاءَ عمله. وقيل: يلتقي الأولون والآخرون على صعيدٍ واحد؛ رُوي معناه عن ابن عباس[٥]. وكلُّه صحيح المعنى.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ يكون بدلاً من «يوم» الأول[٦]. وقيل: «هم» في موضع رفع بالابتداء، و«بَارِزُونَ» خبرُه، والجملة في موضع خفض بالإضافة؛ فلذلك حذف التنوين من «يومَ» وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ؛ تقول: لقيتك يومَ زيدٌ أميرٌ. فإن كان بمعنى إذا لم يَجُزْ، نحو: أنا ألقاك يومَ زيدٌ أميرٌ[٧].

ومعنى «بَارِزُونَ» خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء[٨]؛ لأن الأرضَ يومئذ

---

(١) زاد المسير ٧/ ٣١٠-٣١١ .

(٢) في (م): الرسول.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨ .

(٤) في النسخ الخطية: يلتقي، والمثبت من (م).

(٥) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٤٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٩٤ ، وزاد المسير ٧/ ٣١١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥١ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨ .

(٨) تفسير البغوي ٥/ ٩٤ .

قاع صفصف، لا عوج فيها ولا أمْتًا على ما تقدَّم في «طه» بيانه[(١)].

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ قيل: إن هذا هو العامل في «يومَ هم بارِزُون»، أي: لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم «يوم هم بارِزُونَ»[(٢)].

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ وذلك عند فَناء الخَلْق. وقال الحسن: هو السائل تعالى وهو المُجيبُ[(٣)]؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يُجيبه، فَيُجيب نَفْسه سبحانه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

النحاس[(٤)]: وأصحُّ ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال: يُحشَرُ الناسُ على أرض بيضاءَ مثل الفضة لم يُعْصَ اللهُ جلّ وعزّ عليها، فيؤمر منادٍ ينادي: «لِمَن المُلْكُ اليوم» فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم: «للهِ الواحدِ القهَّارِ» فيقول المؤمنون هذا سروراً وتلذُّذاً، ويقول الكافرون غمًّا وانقياداً وخُضوعاً. فأما أن يكون هذا والخَلْق غير موجودين فبعيد؛ لأنه لا فائدةَ فيه، والقولُ صحيح عن ابن مسعود، وليس هو مما يُؤخذ بالقياس ولا بالتأويل.

قلت: والقولُ الأول ظاهرٌ جدًّا؛ لأن المقصودَ إظهارُ انفراده تعالى بالمُلك عند انقطاع دعاوى المُدَّعين وانتساب المُنتسبين؛ إذ قد ذهب كلُّ مَلِك ومُلْكه ومُتكبِّر ومُلكه، وانقطعت نسبهم ودعاويهم، ودلَّ على هذا قولُه الحقّ عند قَبْضِ الأرواح وطيّ السماء: «أنا الملِك، أين ملوكُ الأرض» كما تقدَّم في حديث أبي هريرة[(٥)]، وفي حديث ابن عمر: «ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبَّارون، أين المتكبِّرون»[(٦)]. وعنه: قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ هو انقطاعُ زمن الدنيا وبعدَه يكون البعثُ والنَّشْر.

---

(١) ١٤/١٣٦ وما بعدها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٥٥١ بنحوه.

(٣) المصدر السابق.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٨-٢٩ .

(٥) ١/٢١٨ و١٨/٣٠٨ ، وهو عند البخاري (٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٦) أخرجه البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨).

قال محمد بن كعب: قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ بين النفختين حين فني الخلائق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكاً ولا مملوكاً فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يُجيبه أحد؛ لأن الخَلْقَ أمواتٌ فيجيب نفسَه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ لأنه بقي وحده وقهر خَلْقَه[1]. وقيل: إنه ينادي منادٍ فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيجيبه أهل الجنة: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فالله أعلم. ذكره الزمخشري[2].

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: يقال لهم إذا أقرُّوا بالملك يومئذ لله وحده: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا يُنقَص أحدٌ شيئاً مما عَمِلَه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا يحتاجُ إلى تفكُّر وعَقْدِ يدٍ كما يفعله الحُسَّاب؛ لأنه العالم الذي لا يَعزُبُ عن عِلْمه شيء، فلا يُؤخِّرُ جزاءَ أحدٍ للاشتغال بغيره؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يُحاسبهم كذلك في ساعة واحدة. وقد مضَى هذا المعنى في «البقرة»[3]. وفي الخبر: لا ينتصف النهار حتى يقيل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة. سُمِّيت بذلك لأنها قريبة؛ إذْ

---

(١) النكت والعيون ٥/١٤٨ .

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٢٠ .

(٣) ٣/٣٥٩ وما بعدها.

(٤) قاله ابن عباس وابن مسعود ﷺ كما سلف ١٥/ ٣٩٨ .

كل ما هو آتٍ قريب. وأَزِفَ فلانٌ، أي: قرب يَأْزَفُ أزَفًا؛ قال النابغة:

أَزِف التَّرحُّلُ غيرَ أنَّ رِكابَنا لَمَّا تَزَلْ بِرحالِنا وَكَأنْ قَدِ[١]

أي: قَرُبَ. ونظيرُ هذه الآية: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧] أي: قَرُبت الساعة. وكان بعضهم يتمثل ويقول:

أزِف الرَّحيلُ وليس لي مِن زَادِ غير الذُّنُوب لِشِقْوَتي ونَكادِي[٢]

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ على الحال، وهو محمول على المعنى. قال الزجاج[٣]: المعنى: إذ قلوبُ الناس «لَدَى الحناجِرِ» في حال كَظْمهم. وأجاز الفراء[٤] أن يكون التقدير: «وأَنْذِرْهُمْ» كاظِمِينَ. وأجاز رفع «كَاظِمِينَ» على أنه خبرٌ للقلوب[٥]. وقال: المعنى: إذ هم كاظمون. وقال الكسائي: يجوز رفع ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ على الابتداء.

وقد قيل: إن المراد بـ«يوم الآزِفَةِ» يوم حضور المنية؛ قاله قطرب، وكذا ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ عند حضور المَنِيَّة. والأوّل أظهر. وقال قتادة: وقعت في الحناجر من المَخافة، فهي لا تخرجُ ولا تعود في أمكنتها[٦]، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣].

وقيل: هذا إخبارٌ عن نهاية الجَزَع؛ كما قال: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]. وأُضيف اليومُ على ﴿ٱلْآزِفَةِ﴾ على تقدير: يوم القيامةِ ﴿ٱلْآزِفَةِ﴾، أو يوم المجادلة ﴿ٱلْآزِفَةِ﴾. وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، مثل:

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٣٨، وفيه: أَفِدَ، بدل: أزف، وهو برواية المصنف في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٣، وتفسير الرازي ٢٧/ ٤٩.

(٢) قائله ابن الجهم الحوفي المصري، كما في خريدة القصر للعماد الأصفهاني (شعراء مصر) ٢/ ٢٠٠.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦.

(٥) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٤٩.

مسجد الجامع، وصلاة الأولى[١].

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: من قريب ينفع ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فيشفع فيهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ قال المُؤَرِّجُ: فيه تقديمٌ وتأخير، أي: يعلم الأعينَ الخائنة. وقال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمرُّ المرأةُ فَيُسارقهم النظرَ إليها. وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة، فإذا نظر إليه أصحابُه غَضَّ بصرَه، فإذا رأى منهم غَفْلَةً تدسَّسَ بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابُه غَضَّ بصره، وقد علم الله عزَّ وجلَّ منه أن يودّه[٢] لو نظر إلى عورتها[٣].

وقال مجاهد: هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وقال قتادة: هي الهَمْزة بعينه وإغماضه فيما لا يحبُّ الله تعالى[٤].

وقال الضحاك: هو قول الإنسان: ما رأيتُ، وقد رأى، ورأيتُ، وما رأى. وقال السدي: إنها الرَّمْز بالعين. وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة[٥].

وقال الفراء[٦]: «خَائِنَةَ الأَعْيُنِ» النظرة الثانية، «وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» النظرة الأولى. وقال ابن عباس: «وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» أي: هل يزني بها لو خلا بها أو لا. وقيل: «وما تُخْفي الصُّدورُ» تُكِنُّه وتُضْمِرُه[٧].

ولما جيء بعبد الله بن أبي سَرْح إلى رسول الله ﷺ، بعد ما اطمأنَّ أهلُ مكة وطلب له الأمانَ عثمانُ رضي الله عنه، صَمَتَ رسولُ الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم» فلما انصرف، قال رسولُ الله ﷺ لمن حوله: «ما صَمَتُّ إلا لِيقومَ إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه» فقال رجلٌ من

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ .
(٢) في (م): أنه يودّ.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢١٤ .
(٤) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٠٤ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ١٥٠ .
(٦) معاني القرآن ٣/ ٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٩ .
(٧) النكت والعيون ٥/ ١٥٠ .

الأنصار: فهلَّا أومأتَ إليَّ يا رسولَ الله؛ فقال: «إنَّ النبيَّ لا تكون له خائنةُ أعين»[١].

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يُجازي من غَضَّ بصرَه عن المحارم، ومَن نظر إليها، ومن عَزَمَ على مُواقعة الفواحش إذا قدر عليها[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأوثان ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لأنها لا تعلم شيئاً ولا تقدر عليه ولا تملك[٣].

وقراءة العامة بالياء على الخبر على الظالمين، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وهشام: «تَدْعُونَ» بالتاء[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «هو» زائدة فاصلة. ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبرٌ، والجملة خبر «إن»[٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ في موضع جزم عطف على «يَسِيرُوا»، ويجوز أن يكونَ في موضع نصب على أنه جواب، والجزم والنصب في التثنية والجمع واحد. ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ اسم كان، والخبر في «كيف». و﴿وَاقٍ﴾ في موضع خَفْض معطوف على اللفظ. ويجوز أن يكون في موضع رَفْع على الموضع، فرفعُه وخَفْضُه واحد؛ لأن الياء تُحذف وتبقى الكسرة دالَّةً عليها[٦]. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في غير موضع، فأغنى عن الإعادة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي ٧/ ١٠٥-١٠٦ من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، وعبد الله بن أبي سرح كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتدّ ولحق بالمشركين، فأمر النبي ﷺ يوم فتح مكة بقتله... وأسلم أيام الفتح، وولاّه عثمان رضي الله عنهما مصر، وسلفت قصته ٨/ ٤٥٩ وما بعدها.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٠٣ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٩٥ .

(٤) السبعة ص٥٦٨ ، والتيسير ص١٩١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ وهي التسعُ الآياتُ المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وقد مضَى تعيينها[١]. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بِحُجَّة واضحةٍ بينة، وهو يُذكَّر ويُؤنَّث[٢]. وقيل: أراد بالسلطان التوراة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ خصَّهم بالذِّكر لأن مدارَ التدبير في عداوة موسى كان عليهم[٣]؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه اللهُ معهما؛ لأن عمله في الكفر والتكذيب كأعمالهما.

﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ لما عَجزوا عن معارضته حملوا المُعجزات على السِّحر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهي المُعجزة الظاهرة ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قال قتادة: هذا قَتْلٌ غير القتل الأول؛ لأنَّ فرعون كان قد أَمسك عن قتل الوِلدان وقت[٤] ولادة موسى، فلما بعثَ اللهُ موسى أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبةً لهم، فيمتنع الإنسان من الإيمان؛ ولئلا يَكثُرَ جمعُهم فيعتضدوا بالذُّكور من أولادهم، فشغلهم اللهُ عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب،

---

(١) ١٨/ ١٨١ وما بعدها.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٤ ، بنحوه.

(٤) في (م): بعد.

كالضفادع والقُمَّل والدَّم والطُّوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في خُسران وهَلاك، وإن الناسَ لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلاً[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ «أَقْتُلْ» جزم؛ لأنه جوابُ الأمر. «وَلْيَدْعُ» جزم؛ لأنه أمر، و«ذَرُونِي» ليس بمجزوم وإن كان أمراً، ولكن لفظُه لفظُ المجزوم، وهو مَبنيّ. وقيل: هذا يدلُّ على أنه قيل لفرعون: إنا نخاف أن يدعوَ عليك فيجاب؛ فقال: «وَلْيَدْعُ رَبَّه»[٢] أي: لا يهولنَّكم ما يذكر من ربِّه، فإنه لا حقيقةَ له، وأنا ربُّكم الأعلى.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: عبادتَكم لي إلى عبادة ربِّه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ إنْ لم يُبدلْ دينكم، فإنه يظهر في الأرض الفساد. أي: يقع بين الناس بسببه الخلاف.

وقراءة المدنيين وأبي عبد الرحمن السُّلَمي وابن عامر وأبي عمرو: «وَأَنْ يُظْهِرَ في الأَرْضِ الفَسَادَ»، وقراءة الكوفيين: «أَوْ أَنْ يَظْهرَ» بفتح الياء «الفَسَادُ» بالرفع[٣]، وكذلك هي في مصاحف الكوفيين: «أو» بألف، وإليه يذهب أبو عُبيد؛ قال: لأن فيه زيادَة حرف، وفيه فصل؛ ولأن «أو» تكون بمعنى الواو. النحاس[٤]: وهذا عند حُذَّاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو؛ لأن في ذلك بطلانَ المعاني، ولو جاز أن

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ بنحوه، وقول قتادة ذكره أيضاً البغوي في تفسيره ٤/ ٩٥ وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢١٥ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١.

(٣) قرأ نافع أبو عمرو: «وأن يُظْهِرَ»، وقرأ ابن كثير وابن عامر: «وأَنْ يَظْهَرَ»، وقرأ عاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي: «أو أنْ يَظْهر»، وقرأ عاصم في رواية حفص: «أَوْ أنْ يُظْهِرَ». ومن قرأ: «يُظهِرَ» بضم الياء، قرأ: «الفسادَ» بالنصب، ومن قرأ: «يَظْهر» بفتح الياء، قرأ: «الفسادُ» بالضم. السبعة ص٥٦٩، والتيسير ص١٩١.

(٤) إعراب القرآن ٤/ ٣١، وما قبله منه.

تكون بمعنى الواو لما احتيج إلى هذا ها هنا؛ لأن معنى الواو «إنِّي أخَافُ» الأمرين جميعاً، ومعنى «أو» لأحد الأمرين، أي: «إنِّي أخَافُ أن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ» فإن أعوزَه ذلك أظهرَ في الأرض الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ لما هدَّده فرعون بالقتل استعاذ موسى بالله ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: مُتعظِّم عن الإيمان بالله، وصفتُه أنه ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «وَقَالَ رَجُلٌ مؤْمِنٌ» ذكر بعض المفسرين: أن اسم هذا الرجل حبيب[١]. وقيل: شمعان، بالشين المعجمة. قال السُّهيلي[٢]: وهو أصحُّ ما قيل فيه. وفي «تاريخ» الطبري رحمه الله: اسمه خير[٣]. وقيل: حزفيل؛ ذكره الثعلبي عن ابن عباس[٤] وأكثرِ العلماء. الزمخشري[٥]: واسمه سمعان أو حبيب. وقيل: خربيل أو حزبيل.

واختُلف هل كان إسرائيلياً أو قِبْطيّاً، فقال الحسن وغيره: كان قبطياً. ويقال: إنه

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٢ وعزاه لابن إسحاق.

(٢) في التعريف والإعلام ص١٣١ و١٥١ . وعنه نقل المصنف قول الطبري التالي، وهو في تاريخه ١/ ٤٠٧ .

(٣) في (ظ): جبر، والمثبت موافق للتعريف والإعلام، وفي تاريخ الطبري: حبرك، وفي تفسير الطبري ٢٠/ ٣١١ : خبرك.

(٤) في كتب التفسير أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اسم الرجل: حزبيل.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٤ .

كان ابنَ عم فرعون؛ قاله السدي. قال: وهو الذي نجا مع موسى عليه السلام؛ ولهذا قال: «مِنْ آلِ فِرعونَ» وهذا الرجُل هو المُرادُ بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ الآية [القصص: ٢٠]. وهذا قول مقاتل. وقال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[(١)].

وفي هذا تسليةٌ للنبي ﷺ، أي: لا تَعْجب من مُشركي قومك. وكان هذا الرجل له وَجاهة عند فرعون؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء. وقيل: كان هذا الرجلُ من بني إسرائيل يَكتُم إيمانَه من آل فرعون؛ عن السُّدي أيضاً. ففي الكلام على هذا تقديم وتأخير، والتقدير: وقال رجلٌ مؤمنٌ يَكْتُم إيمانَه من آل فرعون[(٢)].

فمن جعل الرجل قِبطيًّا فـ«من» عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل؛ التقدير: وقال رجلٌ مؤمن منسوبٌ من آل فرعون؛ أي: من أهله وأقاربه. ومن جعله إسرائيليًّا فـ«مِن» مُتعلِّقة بـ«يكتم». في موضع المفعول الثاني لـ«يكتم» القشيري: ومن جعله إسرائيليًّا ففيه بُعْدٌ؛ لأنه يقال: كَتَمه أمر كذا، ولا يقال: كَتَم منه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[(٣)] [النساء: ٤٢] وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثلَ هذا القول.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي: لِأَنْ يقول، ومن أجل «أنْ يقولَ رَبِّيَ اللهُ» فـ «أنْ» في موضع نصب بنزع الخافض.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الآيات التسع ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ ولم يكن ذلك لشكٍّ منه في رسالته وصِدْقه، ولكن تَلطُّفًا في الاستكفاف

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ٩٦، وزاد المسير ٧/ ٢١٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٦، وتفسير البغوي ٤/ ٩٦ بنحوه.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٧/ ٥٧.

واستنزالاً عن الأذى[١]. ولو كان و«إنْ يكن» بالنون جاز[٢]، ولكن حُذفت النون لِكَثْرةِ الاستعمال على قول سيبويه؛ ولأنها نونُ الإعراب على قول أبي العباس[٣].

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: إن لم يُصبكم إلا بعضُ الذي يعدكم، به هَلَكْتُم. ومذهبُ أبي عُبيدة[٤] أن معنى ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ كل الذي يَعِدُكم وأنشد قولَ لبيد:

تَــرَّاكُ أَمِــكِــنَــةٍ إذا لــم أرْضَــهــا ... أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها[٥]

فبعض بمعنى كلّ[٦]؛ لأن البعضَ إذا أصابهم أصابهم الكلّ لا محالةَ؛ لدخوله في الوعيد، وهذا ترقيق الكلام في الوعظ. وذكر الماوردي[٧]: أن البعض قد يستعمل في موضع الكلّ تلطُّفاً في الخِطاب وتوسُّعاً في الكلام؛ كما قال الشاعر:

قد يُدْرِك المتأنّي بعضَ حَاجتِهِ ... وقد يكون مع المُستعجِلِ الزَّلَلُ[٨]

وقيل أيضاً: قال ذلك لأنه حذَّرهم أنواعاً من العذاب كل نوع منها مُهلِكٌ؛ فكأنه حذَّرهم أن يُصيبهم بعضُ تلك الأنواع. وقيل: وعدَهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى: يُصبكم أحدُ العذابين. وقيل: أي: يُصِبْكم هذا العذابُ الذي يقوله في الدنيا وهو بعضُ الوعد[٩]، ثم يترادف العذابُ في الآخرة أيضاً.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٢) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١ .

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥ .

(٥) شرح ديوان لبيد ص٣١٣ ، وفيه: يعتلق، بدل: يرتبط.

(٦) قال النحاس في معاني القرآن ٦/ ٢١٦ : وهذا قول مرغوب عنه، لأن فيه بطلان المعاني. وقال الرازي في تفسيره ٢٧/ ٥٨ : والجمهور على أن هذا القول خطأ، قالوا: وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٨) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٢٥ .

(٩) في (م): الوعيد.

وقيل: وعدَهم العذابَ إن كفروا والثوابَ إنْ آمنوا، فإذا كفروا يُصيبهم بعضُ ما وُعِدوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ على نفسه ﴿كَذَّابٌ﴾ على ربِّه، إشارة إلى موسى، ويكون هذا من قول المؤمن. وقيل: «مُسْرِفٌ» في عناده، «كَذَّابٌ» في ادّعائه إشارة إلى فرعون، ويكون هذا من قول الله تعالى[1].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي[2]: ظنَّ بعضُهم أن المُكلَّف إذا كتم إيمانَه ولم يتلفَّظ به بلسانه أنه لا يكون مؤمناً باعتقاده، وقد قال مالك: إن الرجلَ إذا نوى بقلبه طلاقَ زوجته أنه يلزمه، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه. فجعل مدارَ الإيمان على القلب وأنه كذلك، لكن ليس على الإطلاق، وقد بيَّناه في أصول الفقه؛ بما لُبابه أن المُكلَّف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافراً وإن لم يتلفَّظ بلسانه، وأما إذا نوى الإيمانَ بقلبه فلا يكون مؤمناً بحال حتى يتلفظ بلسانه، ولا تمنعه التَّقِيَّةُ والخوف من أن يتلفَّظَ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى، إنما تمنعه التَّقِيَّةُ من أن يسمعه غيره، وليس من شرط الإيمان أن يسمعَه الغيرُ في صحته من التكليف، وإنما يُشترط سماعُ الغير له ليكفَّ عن نفسه وماله.

الرابعة: روى البخاري ومسلم عن عروةَ بن الزبير قال: قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص: أَخْبِرْني بأشدِّ ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؛ قال: بينا رسولُ الله ﷺ بِفِنَاء الكعبة، إذ أقبل عقبةُ بن أبي مُعَيط، فأخذ بِمَنْكِبِ رسول الله ﷺ، ولوى ثوبَه في عُنقه فخنقه به خَنْقًا شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بِمَنْكِبِهِ ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لفظ البخاري[3].

خرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي ﷺ قال: اجتمعَتْ قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث، فأرادوا قَتْلَ

(١) النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٧ .

(٣) الحديث (٤٨١٥)، ولم نقف عليه في صحيح مسلم، وأخرجه أحمد (٦٩٠٨).

رسول الله ﷺ، فأقبل هذا يجؤه وهذا يُتَلتله[١]، فاستغاث النبيُّ ﷺ يومئذ فلم يُغِثه أحدٌ إلا أبو بكر، وله ضفيرتان، فأقبل يَجَأُ ذا ويُتلتل ذا، ويقول بأعلى صوته: ويلكم «أتَقْتُلُونَ رَجُلًا أن يقولَ رَبِّيَ الله» والله، إنه لرسول الله؛ فَقُطِعَتْ إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ. فقال عليٌّ: والله، لَيوم أبي بكر خيرٌ من مؤمن آل فرعون؛ إنَّ ذلك رجلٌ كَتَمَ إيمانَه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أَظهر إيمانَه وبذلَ مالَه ودمَه لله عزّ وجل»[٢].

قلت: قول عليّ ﷺ: إن ذلك رجلٌ كَتَم إيمانه يُريد في أول أمره بخلاف الصدّيق، فإنه أَظهر إيمانَه ولم يَكْتُمْه؛ وإلا فالقرآن مُصَرِّح بأن مؤمنَ آل فرعون أظهر إيمانه لمَّا أرادوا قَتْلَ موسى عليه السلام على ما يأتي بيانه[٣].

وفي «نوادر الأصول» أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالوا لها: ما أشدُّ شيءٍ رأيتِ المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد، ويتذاكرون رسولَ الله ﷺ ما يقول في آلهتهم، فبيناهم كذلك إذ دخل رسولُ الله ﷺ، فقاموا إليه بأجمعهم، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدَقهم، فقالوا: ألستَ تقول كذا في آلهتنا، قال: «بلى» فَتَشبَّثوا فيه بأجمعهم فأتى الصَّريخ إلى أبي بكر فقال له: أدرِكْ صاحبَك. فخرج من عندنا وإن له غدائرَ، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فَرَجَعَ إلينا أبو بكر فجعل لا يمسُّ شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام، إكرام إكرام[٤].

---

(١) قوله: يجؤه، أي: يضربه، والتَّلْتلة: التحريك، والإقلاق، والزعزعة. القاموس المحيط (وجأ) و(تلل).

(٢) نوادر الأصول ص٢٤٤ ، وأخرجه البزار في البحر الزخار (٧٦١) بنحوه مطولاً وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن علي إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

(٣) في الآيات التالية.

(٤) نوادر الأصول ص٢٤٥ ، وأخرجه الحميدي في مسنده (٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفي قوله «يا قَوْمِ» دليل على أنه قبطيّ، ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال: «يَا قَوْمِ» ليكونوا أقربَ إلى قَبول وَعْظه «لكم المُلْكُ» فاشكروا الله على ذلك.

﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غالبين، وهو نصب على الحال[1]، أي: في حال ظُهوركم. والمراد بالأرض أرضُ مصر في قول السدي وغيره؛ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] أي: في أرض مصر.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: من عذاب الله؛ تحذيراً لهم من نِقَمِهِ إن كان موسى صادقاً، فذكَّر وحذَّر، فعلم فرعون ظُهور حُجَّته فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما أُشير عليكم إلا ما أرى لنفسي ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ﴾ زادهم في الوعظ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني أيام العذاب التي عُذِّب فيها المتحزِّبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ زاد في الوعظ والتخويف وأفصحَ عن إيمانه، إما مستسلماً مُوَطِّنًا نفسَه على القتل، أو واثقاً بأنهم لا يَقصِدونه

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٥٤.

بسوء، وقد وَقَاهُ الله شرَّهم بقوله الحق ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾. وقراءة العامة ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ بتخفيف الدال وهو يوم القيامة؛ قال أمية بن أبي الصَّلت:

وبَـثَّ الـخَـلْـق فـيـهـا إذْ دَحـاهـا فـهـم سُـكَّـانُـهـا حـتـى الـتَّـنَـاد[١]

سُمِّي بذلك لمناداة الناس بعضَهم بعضاً؛ فينادي أصحابُ الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، ويُنادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ ويُنادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ويُنادي المنادي أيضاً بالشِّقوة والسعادة: ألا إنَّ فلانَ بن فلان قد شقي شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً، ألا إن فلان بن فلان قد سَعِدَ سعادةً لا يشقى بعدَها أبداً. وهذا عند وزن الأعمال. وتُنادي الملائكةُ أصحابَ الجنة: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] ويُنادَى حين يذبح الموت: يا أهلَ الجنة، خلودٌ لا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ لا موت. ويُنادَى كلُّ قوم بإمامهم، إلى غير ذلك من النداء[٢].

وقرأ الحسن وابن السَّميفع ويعقوب وابن كثير ومجاهد: «التَّنَاد» بإثبات الياء في الوصل والوقف على الأصل[٣]. وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة: «يوم التَّنَادِّ» بتشديد الدال[٤]. قال بعضُ أهل العربية: هذا لحنٌ؛ لأنه من نَدَّ يَنِدُّ، إذا مَرَّ على وجهه هارباً؛ كما قال الشاعر:

وبَـرْكٍ هُـجُـودٍ قـد أثـارتْ مَـخَـافـتـي نَـواديَـهـا أَسْـعـى بِـعَـضْـبٍ مُـجَـرَّدِ[٥]

قال: فلا معنى لهذا في القيامة. قال أبو جعفر النحاس[٦]: وهذا غلطٌ، والقراءة

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٤.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٥٤-١٥٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨، وتفسير الرازي ٢٧/ ٦١.

(٣) قراءة ابن كثير في التيسير ص١٩٢، وقراءة يعقوب من العشرة في النشر ٢/ ٣٦٦.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٤٣.

(٥) قائله طرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٣٧، وفيه: بواديها أمشي، بدل: نواديها أسعى. وقوله: بَرْك: أي: جماعة الإبل الباركة، وهجود: جمع هاجد، وهو النائم. والعَضْب: السيف القاطع. اللسان (برك) و(هجد) و(عضب).

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٢٢٠، وما قبله منه.

بها حسنةٌ على معنى يوم التنافر.

قال الضحاك: ذلك إذا سَمِعوا زفيرَ جهنم نَدُّوا هرباً، فلا يأتون قِطْراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فيرجِعون إلى المكان الذي كانوا فيه[١]؛ فذلك قوله: «يَوْمَ التَّنَادِ»، وقوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية [الرحمن: ٣٣]، وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ [الحاقة: ١٧] ذكره ابن المبارك بمعناه؛ قال: وأخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدّثنا عبد الجبار بن عُبيد الله بن سلمان في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ * يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ ثم تستجيبُ لهم أعينُهم بالدَّمع فيبكون حتى يَنْفَدَ الدَّمع، ثم تستجيبُ لهم أعينُهم بالدَّم فيبكون حتى يَنْفَدَ الدم، ثم تستجيب لهم أعينُهم بالقَيْح. قال: يُرسَل عليهم من الله أمرٌ، فَيُوَلُّون مُدْبرين، ثم تستجيبُ لهم أعينهم بالقيح، فيبكون حتى يَنْفَدَ القيح، فتغورُ أعينُهم كالخَرْق في الطين.

وقيل: إن هذا يكون عند نَفْخِ إسرافيلَ عليه السلام في الصُّور نَفْخةَ الفَزَع[٢].

ذكره علي بن مَعْبد والطبري وغيرهما من حديث أبي هريرة، وفيه: «فتكون الأرضُ كالسفينة في البحر تَضْرِبها الأمواجُ، فيميدُ الناسُ على ظَهْرها وتَذْهَلُ المراضعُ، وتضعُ الحواملُ ما في بطونها، وتشيبُ الوِلدانُ، وتتطاير الشياطين هاربةً، فتلقاها الملائكةُ تضربُ وجوهَها، ويُوَلِّي الناس مُدبرين يُنادي بعضُهم بعضاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ * يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ الحديثَ بكماله[٣]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٤] وتكلَّمنا عليه هناك.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٢٠.

(٢) الزهد لابن المبارك (زوائد نعيم) (٣٥٦).

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٣١٧. وهو حديث طويل أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦) وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٨٢-٢٨٧ بطوله، ثم قال: هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة.

(٤) ص١٧٣ و١٩٣.

وروى عليّ(١) بن نصر عن أبي عمرو إسكانَ الدال من «التَّناد» في الوصل خاصة. وروى أبو معمر عن عبد الوارث(٢) زيادةَ الياء في الوصل خاصة، وهو مذهبُ ورش. والمشهور عن أبي عمرو حَذْفُها في الحالين. وكذلك قرأ سائرُ السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه، وسوى ابن كثير على ما تقدَّم(٣).

وقيل: سُمِّي يومُ القيامة يومَ التَّناد؛ لأن الكافرَ ينادي فيه بالويل والثُّبور والحَسْرة. قاله ابن جريج(٤). وقيل: فيه إضمارٌ، أي: إني أخافُ عليكم عذابَ يوم التناد؛ فالله أعلم.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ على البدل من «يوم التَّناد»(٥).

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مَن خَلَق اللهُ في قلبه الضَّلالَ فلا هاديَ له. وفي قائله قولان: أحدُهما: موسى. الثاني: مؤمن آل فرعون(٦)، وهو الأظهرُ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيل: إنَّ هذا من قول موسى. وقيل: هو من تَمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذَكَّرهم قديمَ عُتُوِّهم على الأنبياء؛

---

(١) في (م): عن علي.

(٢) كذا في النسخ: عن عبد الوارث، ولعله يريد: عبد الوارث عن أبي عمرو.

(٣) التيسير ص١٩٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٥٥ .

وأراد: يوسفُ بن يعقوب جاءهم بالبينات: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[١] [يوسف:٣٩]. قال ابن جُريج: هو يوسفُ بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولاً إلى القِبط بعد موت الملك من قَبْلِ موسى بالبينات؛ وهي الرؤيا[٢]. وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيّاً عشرين سنة[٣]. وحكى النقاش عن الضحاك: إن الله تعالى بعثَ إليهم رسولاً من الجن يقال له: يوسف[٤].

وقال وهب بن منبِّه: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر. وغيره يقول: هو آخر.

النحاس[٥]: وليس في الآية ما يدلُّ على أنه هو؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبيٌّ لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعاً بها، وعليهم أن يُصدِّقوه بها.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: أسلافكم كانوا في شكٍّ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي: مَن يدَّعي الرسالة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي: مثل ذلك الضَّلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشرِكٌ ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ في وحدانية الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُجَجِهِ الظاهرة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي: بغير حُجَّة وبرهان، و«الذين» في موضع نَصْب على البدل من «مَنْ»، وقال الزجاج[٦]: أي: كذلك يُضِلُّ الله الذين يُجادلون في آيات الله فـ«الذين» نصب.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٩٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٥٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٢٦ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٥. قال ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٢١ هو يوسف بن يعقوب، ويقال: إنه ليس به، وليس بشيء.

(٥) إعراب القرآن ٤/ ٣٣.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٣، وما قبله منه.

قال: ويجوز أن يكون رَفْعًا على معنى: هم الذين، أو على الابتداء، والخبر ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾.

ثم قيل: هذا من كلام مؤمن آل فرعون. وقيل: ابتداء خطاب من الله تعالى. «مَقْتًا» على البيان، أي: «كَبُرَ» جِدالهم «مَقْتًا»؛ كقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾[١] [الكهف: ٥] ومَقْتُ الله تعالى ذَمُّه لهم ولَعْنُه إيَّاهم وإحلالُ العذاب بهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبعَ الله على قلوب هؤلاء المُجادلين، فكذلك ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ أي: يَختِمُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ حتى لا يعقل الرَّشاد، ولا يقبلَ الحقَّ.

وقراءة العامة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ بإضافة قلب إلى المتكبر، واختاره أبو حاتم وأبو عُبيد.

وفي الكلام حذف، والمعنى: «كذلكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ» على كل «مُتَكبِّرٍ جَبَّارٍ» فحذف «كُلّ» الثانية لِتقدُّم ما يدلُّ عليها. وإذا لم يُقدَّر حذفُ «كلّ» لم يستقم المعنى؛ لأنه يصير معناه: أنه يطبعُ على جميع قلبه، وليس المعنى عليه. وإنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلباً قلباً. ومما يدلُّ على حذف «كُلّ» قول أبي دُؤَاد:

أكُلَّ امرِئٍ تَحْسَبِينَ امرأً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا[٢]

يريد: وكلّ نارٍ. وفي قراءة ابن مسعود: «على قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ»[٣] فهذه قراءةٌ على التفسير والإضافة. وقرأ أبو عمرو وابن مُحيصن وابن ذكوان عن أهل الشام: «قلبٍ» مُنَوَّن[٤] على أن «متكبرٍ» نعت للقلب، فكَنَى بالقلب عن الجُملة؛ لأن القلب هو الذي يتكبَّر، وسائرُ الأعضاء تَبَعٌ له؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ في الجسد مُضغةً إذا صَلَحَتْ

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ٣٣ ، بنحوه.

(٢) البيت في الكتاب ١/ ٦٦ ، والحجة للفارسي ٦/ ١١٠-١١١ والكلام الذي قبله فيه بنحوه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٤) السبعة ص٥٧٠ ، والتيسير ص١٩١ . وينظر الحجة للفارسي ٦/ ١٠٩-١١٠ .

صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسدَت فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[١] ويجوز أن يكون على حذف المضاف؛ أي: على كل ذي قلب مُتكبِّر؛ تجعلُ الصفةَ لصاحب القلب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ لما قال مؤمنُ آل فرعون ما قال، وخاف فرعونُ أن يتمكَّن كلامُ هذا المؤمن في قلوب القوم، أوْ هَمَ أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فإنْ بانَ له صوابُه لم يُخفِه عنهم، وإن لم يَصِحَّ ثَبَّتَهُمْ على دينهم؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصَّرح. وقد مضى في «القصص» ذكره[٢].

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ . أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ «أسْبابَ السَّمواتِ» بدل من الأوَّل. وأسبابُ السماء أبوابُها في قول قتادة والزهري والسُّدِّي والأخفش؛ وأنشد:

ومَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ولو رامَ أسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ[٣]

وقال أبو صالح: أسباب السماوات طُرقها[٤]. وقيل: الأمور التي تستمسك بها السماوات. وكرَّر «أسباب» تفخيماً؛ لأن الشيء إذا أُبهم ثم أُوضح كان تفخيماً لشأنه[٥]. والله أعلم.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فأنظرَ إليه نظرَ مُشْرِفٍ عليه. تَوهَّم أنه جسمٌ تحويه الأماكن. وكان فرعون يدَّعي الألوهية، ويرى تحقيقها بالجلوس في مكان مُشرِف.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بَشير ﷺ، وسلف ١/ ٢٨٧ .

(٢) ١٣/ ٢٨٨ .

(٣) قائله زهير، وهو في شرح ديوانه ص٣٠ ، والبيت من معلقته، ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٨٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٦ . والبيت وما قبله منه.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٨ .

وقراءة العامة: «فَأَطَّلِعُ» بالرفع نسقاً على قوله: «أَبْلُغُ»، وقرأ الأعرج والسُّلَمي وعيسى وحفص: «فَأَطَّلِعَ» بالنصب[١]؛ قال أبو عُبيد[٢]: على جواب «العل» بالفاء. النحاس: ومعنى النصب خلافُ معنى الرفع؛ لأن معنى النصب: متى بلغتُ الأسباب اطَّلعتُ. ومعنى الرفع لعلّي أبلغُ الأسبابَ، ثم لَعلّي أَطَّلِعُ بعد ذلك؛ إلا أن ثم أشدُّ تراخياً من الفاء.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ أي: وإني لأظن موسى كاذباً في ادّعائه إلهاً دوني، وإنما أفعلُ ما أفعلُ لإزاحةِ العِلَّة. وهذا يوجب شكَّ فرعون في أمر الله. وقيل: إن الظن بمعنى اليقين، أي: وأنا أتيقَّن أنه كاذب، وإنما أقولُ ما أقولُه لإزالة الشُّبهة عمن لا يَتيقّن[٣] ما أتيقَّنه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: كما قال هذه المَقالة وارتابَ زَيَّن له الشيطانُ، أو زَيَّن الله سوءَ عمله، أي: الشرك والتكذيب.

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ قراءة الكوفيين «وصُدَّ» على ما لم يُسمَّ فاعلُه[٤]، وهو اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. ويجوز على هذه القراءة «وَصِدَّ» بكسر الصاد، نُقلت كسرة الدال[٥] على الصاد؛ وهي قراءة يحيى بن وثّاب[٦] وعلقمة. وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بَكْرة «وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ» بالرفع والتنوين[٧]. الباقون «وَصَدَّ» بفتح الصاد والدال. أي: صدَّ فرعونُ الناسَ عن السبيل.

---

(١) السبعة ص٥٧٠ ، والتيسر ص١٩٢ .

(٢) في (م): أبو عبيدة، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣ ، والكلام منه.

(٣) في (م): أتيقن.

(٤) السبعة ص٥٧١ ، والتيسير ص١٣٣ .

(٥) يعني الدال الأولى من «صُدَّ». والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣ ، وينظر الدر المصون ٩/ ٤٨٣ .

(٦) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٦ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣-٣٤ . وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ .

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: في خُسران وضلال، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[١] [المسد: ١] وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] وفي موضع ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] فهدّ الله صرحه، وغرَّقه هو وقومه على ما تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمنُ آل فرعون؛ أي: اقتدوا بي في الدين، ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: طريقَ الهُدى، وهو الجنة. وقيل: من قول موسى[٣].

وقرأ معاذ بن جبل: «الرَّشَّادِ» بتشديد الشين[٤]، وهو لحنٌ عند أكثر أهل العربية؛ لأنه إنما يقال: أرشد يُرشد، ولا يكون فَعَّال من أفعل، إنما يكون من الثلاثي، فإن أردتَ التكثيرَ من الرُّباعي قلت: مِفْعال. قال النحاس[٥]: يجوز أن يكون رَشَّاد بمعنى

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ .

(٢) ١٣/ ٢٨٨ وما بعدها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ ، وزاد المسير ٧/ ٢٢٤ بنحوه.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، والمحتسب ٢/ ٢٤١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨-٢١٩ وما قبله منه.

يُرشد لا على أنه مشتقٌّ منه، ولكن كما يقال: لَأّال من اللؤلؤ. فهو بمعناه، وليس جارياً عليه، ويجوز أن يكون رشَّاد من رَشَدَ يَرشُدُ، أي: صاحب رشاد؛ كما قال:

كـلِـيـنِـي لِـهَـمٍّ يـا أمَـيْـمَـةَ نـاصِـبِ[١]

الزمخشري[٢]: وقُرئ: «الرَّشَّادِ» فَعَّال من رَشِد[٣] ـ بالكسر ـ كعَلَّام، أو من رَشَد بالفتح، كعبَّاد. وقيل: من أرشد كجبَّار من أجبر، وليس بذاك؛ لأن فعَّالاً من أفعل لم يجئ إلا في عدّة أحرف: نحو درَّاك وسأَّرٍ وقصَّار وجَبَّار. ولا يصحُّ القياس على هذا القليل. ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد، كعَوَّاج وبتّات[٤] غير منظور فيه إلى فعل.

ووقع في المصحف «اتَّبِعْونِ» بغير ياء، وقرأها يعقوب وابن كثير بالإثبات في الوصل والوقف. وحَذَفَها أبو عمرو ونافع[٥] في الوقف، وأثبتوها في الوصل، إلا وَرْشًا حذفها في الحالتين، وكذلك الباقون[٦]؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء، ومَن أثبتها فعلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ أي: يُتَمتَّع بها قليلاً، ثم تنقطع وتَزول. ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ أي: الاستقرار والخُلود. ومُراده بالدار الآخرة الجنة والنار، لأنهما لا يَفنيان. بيَّن ذلك بقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ﴾ يعني: الشِّرك ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ وهو العذاب[٧]. ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ قال ابن عباس:

---

(١) قائله النابغة الذبياني وهو في ديوانه ص٩ ، وعجزه: وليلٍ أُقاسيه بطيء الكواكبِ.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٢٥ .

(٣) في النسخ الخطية: أرشد، والمثبت من (م)، وهو الموافق للكشاف.

(٤) العوَّاج: بائع العاج. والبتَّات: بائع البتّ، وهو الطيلسان من خزّ ونحوه. القاموس المحيط (عوج) و(بتت).

(٥) يعني في رواية قالون.

(٦) السبعة ص٥٧٣ ، والتيسير ص١٨٢ ، والنشر ٢/ ٣٦٦ .

(٧) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٢٩-٣٣٠ بنحوه.

يعني لا إله إلا الله[١]. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مُصَدِّق بقلبه لله وللأنبياء.

﴿فأُولئكَ يُدْخَلُونَ الجنَّةَ﴾ بضمِّ الياء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه. وهي قراءةُ ابن كثير وابن مُحَيْصن وأبي عمرو ويعقوب وأبي بكر عن عاصم[٢]، يدلُّ عليه ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الباقون: «يَدْخُلُونَ» بفتح الياء.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أي: إلى طريق الإيمان المُوصل إلى الجنان ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بيَّن أن ما قال فرعون من قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيل الغيّ عاقبته النار، وكانوا دَعَوْه إلى اتّباعه؛ ولهذا قال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو فرعون ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه[٣]، ومعناه: حقًّا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ «ما» بمعنى الذي[٤] ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ قال الزجاج[٥]: ليس له استجابةُ دعوة تنفع؛ وقال غيره: ليس له دعوةٌ تُوجب له الألوهية ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

وقال الكلبي: ليس له شفاعةٌ في الدنيا ولا في الآخرة[٦]. وكان فرعون أولًا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، فكانت تُعبَدُ ما كانت شابَّة، فإذا هَرِمت أمر بِذَبْحها، ثم دعا بأُخرى لِتُعبد، ثم لما طال عليه الزمان قال: أنا ربُّكم الأعلى.

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قال قتادة وابن سيرين: يعني المشركين.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٢٤ دون نسبة.

(٢) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. السبعة ص٥٧١، والتيسير ص٩٧، والنشر ٢/ ٢٥٢.

(٣) ١١/ ٩٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦١.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٦. ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٤، وما بعده منه.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٥٨.

وقال مجاهد والشعبي: هم السفهاءُ السفَّاكون للدِّماء بغير حقِّها[١]. وقال عكرمة: الجبَّارون والمُتكبِّرون. وقيل: هم الذين تعدَّوا حُدودَ الله. وهذا جامعٌ لما ذُكر.

و«أنَّ» في المواضع في موضع نصب بإسقاط حرف الجر. وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن «لَا جَرَمَ» ردٌّ لكلام يجوز أن يكون موضعُ «أنَّ» رفعاً على تقدير: وجب أن ما تدعونني إليه، كأنه قال: وجب بُطلانُ ما تدعونني إليه، والمَردُّ إلى الله، وكون المسرفين هم أصحاب النار[٢].

قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ تهديد ووعيد، و«ما» يجوز أن تكون بمعنى الذي، أي: الذي أقولُه لكم. ويجوز أن تكون مصدريةً، أي: فستذكرون قولي لكم إذا حلَّ بكم العذاب. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أتوكَّل عليه وأُسَلِّم أمري إليه. وقيل: هذا يدلُّ على أنهم أرادوا قَتْلَه. وقال مقاتل: هربَ هذا المؤمنُ إلى الجبل فلم يقدروا عليه. وقد قيل: القائل موسى[٣]. والأظهرُ أنه مؤمن آل فرعون، وهو قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي: من إلحاق أنواعِ العذاب به، فطلبوه فما وجدوه؛ لأنه فَوَّضَ أمرَه إلى الله. قال قتادة: كان قبطيًّا فنجَّاه الله مع بني إسرائيل[٤]. فالهاء على هذا لمؤمن آل فرعون. وقيل: إنها لموسى على ما تقدَّم من الخِلاف.

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٨ دون ذكر ابن سيرين، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٤ .

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦١ ، وينظر ما سلف ١١/ ٩٤ .

(٣) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٥٩ دون ذكر مقاتل.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٩٩ .

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قال الكسائي: يقال: حاق يَحِيقُ حَيْقاً وحُيُوقاً؛ إذا نزل ولزم[١]. ثم بيَّن العذاب فقال: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وفيه ستةُ أوجه: يكون رفعاً على البدل من «سُوءُ». ويجوز أن يكون بمعنى هو النار. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء. وقال الفراء[٢]: يكون مرفوعاً بالعائد على معنى: النار عليها يُعرَضون، فهذه أربعةُ أوجه في الرفع، وأجاز الفراء النصب؛ لأن بعدها عائداً وقبلَها ما يتَّصل به، وأجاز الأخفشُ[٣] الخفضَ على البدل من «العَذَابِ». والجمهور على أن هذا العَرْضَ في البرزخ.

واحتجَّ بعضُ أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ما دامت الدنيا[٤]. كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدلُّ على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وفي الحديث عن ابن مسعود: إن أرواحَ آل فرعون ومَن كان مِثْلَهم من الكفار تُعرَض على النار بالغَداة والعَشِيّ، فيقال: هذه دارُكم[٥]. وعنه أيضاً: إنّ أرواحَهم في أجواف طير سُود تغدو على جهنم وتروح كلَّ يوم مرتين، فذلك عَرضُها[٦].

وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال: سمعتُ ميمون بن مَيْسرة[٧] يقول: كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي: أصبحنا والحمدُ لله، وعُرِضَ آلُ فرعون على النار. فإذا أمسى

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٤-٣٥ وما قبله منه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٧.

(٤) تفسير الرازي ٢٧/ ٧٣ بنحوه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥، وينظر التعليق التالي.

(٦) هذا الأثر والذي قبله واحد، أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٤٨.

(٧) غيَّرها محققوا (م) إلى مهران، وهو خطأ.

نادى: أمسينا والحمد لله، وعُرِض آلُ فرعون على النار؛ فلا يسمع أبا هريرة أحدٌ إلا تعوَّذ بالله من النار[١].

وفي حديث صخر بن جُوَيْرية عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الكافر إذا مات عُرِضَ على النار بالغَداة والعَشِيّ، ثم تلا: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ وإن المؤمنَ إذا مات عُرِضَ روحه على الجنة بالغَدَاة والعَشِيّ»[٢].

وخرَّج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقْعده بالغَداة والعشيّ، إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهلِ النار فمن أهلِ النار فيقال: هذا مَقْعدُك حتى يبعثكَ الله إليه يومَ القيامة»[٣].

قال الفراء[٤]: في الغَداة والعشِيّ بمقادير ذلك في الدنيا. وهو قول مجاهد. قال: «غُدُوًّا وَعَشِيًّا» قال: من أيام الدنيا[٥].

وقال حماد بن محمد الفزاريّ: قال رجلٌ للأوزاعي، رأينا طيوراً تخرجُ من البحر تأخذُ ناحية الغرب، بيضاً صِغاراً، فَوْجاً فَوْجاً لا يعلم عددَها إلا الله، فإذا كان العشاء رَجَعتْ مثلَها سوداً. قال: تلك الطيورُ في حواصلها أرواحُ آل فرعون، يُعرضون على النار غُدوًّا وعَشِيًّا، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رِياشُها وصارت سوداً، فينبتُ عليها من الليل رياشها بيضاً وتتناثر السود، ثم تغدو فَتُعرض على النار غُدوًّا وعشيًّا، ثم ترجع إلى وَكْرها، فذلك دَأْبها ما كانت في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ وهو الهاوية. قال

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٠).

(٢) ذكره بهذا الإسناد وهذا اللفظ النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٥، وعنه نقله المصنف، ولم نقف عليه بهذا السياق عند غيره، وينظر الحديث التالي.

(٣) صحيح البخاري (١٣٧٩)، وصحيح مسلم (٢٨٦٦)، وأخرجه أحمد (٥٩٢٦).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٥.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٢٩، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٦، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٩ ولفظه: يعني: ما كانت الدنيا.

الأوزاعي: فبلغنا أنهم ألفا ألفٍ وستُّ مئة ألف[(١)].

و«غُدُوًّا» مصدر جُعل ظرفاً على السعة. وَ«عَشِيًّا» عطف عليه وتم الكلام. ثم تبتدئ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ على أن تنصبَ يوماً بقوله: «أَدْخِلوا» ويجوز أن يكون منصوباً بـ«يُعْرَضُونَ» على معنى «يُعْرَضُونَ» على النار في الدنيا «ويومَ تَقُومُ الساعةُ» فلا يُوقف عليه[(٢)].

وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائي: «أَدْخِلُوا» بقطع الألف وكسر الخاء من أَدخل[(٣)]، وهي اختيار أبي عُبيد؛ أي: يأمر الله الملائكةَ أن يُدخلوهم، ودليلُه «النَّار يُعْرَضُونَ عليها». الباقون: «ادخُلُوا» بوصل الألف وضمّ الخاء من دخل، أي: يقال لهم: «ادْخُلُوا» يا «آل فرعونَ أَشَدَّ العذابِ» وهو اختيار أبي حاتم. قال: في القراءة الأولى: «آل» مفعولٌ أول و«أَشَدَّ» مفعولٌ ثانٍ بحذف الجر، وفي القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف[(٤)].

وآل فرعون: مَنْ كان على دينه وعلى مذهبه، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه في أشدّ العذاب كان هو أقربَ إلى ذلك. وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إنَّ العبدَ يُولَدُ مؤمناً، ويحيا مؤمناً، ويموت مؤمناً؛ منهم يحيى بن زكريا عليهما السلام، وُلِدَ مؤمناً، وحيي مؤمناً، ومات مؤمناً، وإنَّ العبدَ يُولَدُ كافراً، ويحيا كافراً، ويموت كافراً؛ منهم فرعون، وُلِدَ كافراً، وحيي كافراً، ومات كافراً» ذكره النحاس[(٥)].

وجعل الفرَّاء في الآية تقديماً وتأخيراً مجازه: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فجعل العرضَ في الآخرة، وهو خِلافُ

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٨ . وفيه: إنهم ست مئة ألف مقاتل.

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥ ، وينظر الدر المصون ٩/ ٤٨٥ .

(٣) وقرأ بها عاصم في رواية حفص، السبعة ص٥٧٢ ، والتيسير ص١٩٢ ، والنشر ٢/ ٣٦٥ .

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ١١٣ بنحوه.

(٥) في إعراب القرآن ٤/ ٣٥ ، وما قبله منه. والحديث أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس ﷺ كما في الدر المنثور ٦/ ٢٢٧ وليس فيه ذكر يحيى عليه السلام ولا فرعون.

ما ذهب إليه الجمهور من انتظام الكلام على سياقه على ما تقدَّم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: يختصمون فيها ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ عن الانقياد لِلأنْبِياءِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ فيما دعوتمونا إليه من الشِّرك في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي: مُتَحمِّلون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: جزءاً من العذاب. والتَّبَعُ يكون واحداً، ويكون جمعاً في قول البصريين، واحدُه تابع. وقال أهلُ الكوفة: هو جمعٌ لا واحدَ له كالمصدر، فلذلك لم يُجمع، ولو جُمع لقيل: أتباع[1].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: في جهنم. قال الأخفش[2]: «كُلٌّ» مرفوعٌ بالابتداء. وأجاز الكسائي والفراء[3] «إنَّا كُلًّا فيها» بالنصب على النعت والتأكيد للمضمر في «إنَّا»، وكذلك قرأ ابن السَّمَيْفَع وعيسى بن عمر[4]. والكوفيون يُسمُّون التأكيد نعتًا. ومنع ذلك سيبويه؛ قال: لأن «كُلًّا» لا تُنعت ولا يُنعت بها. ولا يجوز البدلُ فيه؛ لأن المُخبر عن نفسه لا يُبدل منه غيره، وقال معناه المبرد، قال: لا

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٠٠ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ٦٧٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٦ ، وما بعده منه.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ١٠ .

(٤) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٩ .

يجوز أن يُبدل من المُضمر هنا؛ لأنه مُخاطَب، ولا يُبدل من المُخاطَب ولا من المُخاطِب؛ لأنهما لا يُشكلان فَيُبدَل منهما؛ هذا نصُّ كلامه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي: لا يُؤاخِذُ أحداً بذنب غيره؛ فكلٌّ منّا كافر[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ من الأمم الكافرة. ومن العرب من يقول: اللذون على أنه جمعٌ مُسلَّم مُعرب، ومن قال: «الذين» في الرفع بَنَاه كما كان في الواحد مَبْنيًّا. وقال الأخفش: ضُمَّت النون إلى الذي فأشبه خمسةَ عشرَ، فَبُنيَ على الفتح. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ خزنة جمع خازن، ويقال: خُزَّان وخُزَّن. ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ «يُخَفِّفْ» جواب مجزوم، وإن كان بالفاء كان منصوباً، إلا أن الأكثرَ في كلام العرب في جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء، وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللُّغات كما قال:

قِفا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ[2]

قال محمد بن كعب القُرَظي: بلغني ـ أو ذُكِرَ لي ـ أن أهلَ النار استغاثوا بالخَزَنةِ؛ فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فسألوا يوماً واحداً يُخفَّف عنهم فيه العذابُ فَرُدَّت عليهم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ الخبر بطوله[3].

وفي الحديث عن أبي الدرداء ـ خرجه الترمذي وغيره ـ قال: يُلقى على أهل النار الجوع حتى يَعْدِلَ ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه فَيُغاثون بالضَّريع لا يُسمن ولا يُغني من جوع، فيأكلونه لا يُغني عنهم شيئاً، فيستغيثون فَيُغاثون بطعام ذي غُصَّة،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/٣٦-٣٧ ، والبيت لامرئ القيس، وهو من معلقته، وسلف ١٠/ ٣٦٤ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠ .

فَيَغَصُّون به، فيذكرون أنهم كانوا في الدنيا يُجيزون الغَصَص بالماء، فيستغيثون بالشَّراب فَيُرفَعُ لهم الحميم بالكلاليب، فإذا دنا من وجوههم شواها، فإذا وقع في بطونهم قطَّع أمعاءهم وما في بطونهم، فيستغيثون بالملائكة يقولون: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيُجيبونهم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[١] أي: خسار وتَبار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾، ويجوز حذفُ الضَّمة لِثقلِها، فيقال: «رُسْلنا» والمراد موسى عليه السلام. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في موضع نصب عطف على الرُّسل[٢]، والمراد المؤمن الذي وعظ. وقيل: هو عامٌّ في الرُّسل والمؤمنين. ونَصْرهم بإعلاء الحُجج وإفلاحها في قول أبي العالية. وقيل: بالانتقام من أعدائهم. قال السدي: ما قَتَل قومٌ قطُّ نبيًّا أو قوماً من دُعاة الحقِّ من المؤمنين إلا بعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ من ينتقم لهم، فصاروا منصورين فيها وإن قُتِلوا[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يعني: يومَ القيامة. قال زيد بن أسلم: «الأشْهادُ» أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد[٤]. وقال مجاهد والسدي: «الأشْهادُ» الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأُمم بالتكذيب. وقال قتادة:

---

(١) نقله المصنف بهذا اللفظ من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧، وأخرجه الترمذي (٢٥٨٦) بنحوه وقال: إنما نعرف هذا الحديث..... عن أبي الدرداء قوله، وليس بمرفوع.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٦٠.

(٤) في النسخ الخطية: الأشهاد، والمثبت من (م).

الملائكةُ والأنبياء[١].

ثم قيل: «الأَشْهَادُ» جمع شهيد مثل شريف وأشراف[٢]. وقال الزجاج[٣]: «الأَشْهَادُ» جمع شاهد، مثل صاحب وأصحاب. النحاس[٤]: ليس باب فاعل أن يُجمع على أفعال، ولا يُقاس عليه، ولكن ما جاء منه مسموعاً أُدِّيَ كما سُمع، وكان على حذف الزائد. وأجاز الأخفش والفراء: «وَيَوْمَ تَقُومُ الأَشْهَادُ» بالتاء على تأنيث الجماعة[٥].

وفي الحديث عن أبي الدرداء ـ وبعض المُحدِّثين يقول عن النبي ﷺ ـ قال: «من ردَّ عن عِرْض أخيه المسلم كان حقًّا على الله عزَّ وجلَّ أن يَرُدَّ عنه نارَ جهنم، ثم تلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾»[٦]. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَن حمى مؤمناً مِن منافق يغتابُه بعثَ اللهُ عزّ وجلّ يومَ القيامة مَلَكاً يحميه من النار. ومَن ذَكَر مسلماً بشيء يَشِينه به وَقَفَهُ اللهُ عزّ وجلّ على جسرٍ من جهنم حتى يخرجَ مما قال»[٧].

﴿يَوْمَ﴾ بدل من «يوم» الأول[٨]. ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ قرأ نافع والكوفيون: «يَنْفَعُ» بالياء. الباقون بالتاء[٩]. ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ «اللَّعنةُ»

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٦٠-١٦١ ، وقولا مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٤٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ٣٨ . وقول الزجاج الذي قبله عنه.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٠ ، و«تقوم» بالتاء؛ قرأ بها ابن هرمز وإسماعيل، كما في البحر المحيط ٧/ ٤٧٠ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٥٣٦) مرفوعاً، وأشار إلى الموقوف أبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٧) أخرجه أحمد (١٥٦٤٩)، وأبو داود (٤٨٨٣) من حديث معاذ بن أنس الجهني ﷺ، وفي إسناده إسماعيل بن يحيى المعافري، قال الذهبي في الميزان ١/ ٢٥٤ : فيه جهالة، وذكر هذا الحديث من غرائبه. وهذا الحديث والذي قبله نقلهما المصنف من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤ .

(٩) السبعة ص٥٧٣ ، والتيسير ص١٩٢ .

البُعد من رحمة الله، و«سُوءُ الدَّارِ» جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هذا دخل في نُصرة الرُّسل في الدنيا والآخرة، أي: آتيناه التوراة والنبوة. وسُمِّيت التوراة هدًى بما فيها من الهُدى والنور؛ وفي التنزيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة جعلناها لهم ميراثاً. ﴿هُدًى﴾ بدل من «الكتاب»، ويجوز بمعنى هو هُدًى؛ يعني ذلك الكتاب. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: موعظة لأصحاب العقول.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: فاصبِرْ يا محمد على أذى المشركين. كما صبر مَن قبلك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بنصرك وإظهارك، كما نصرتُ موسى وبني إسرائيل. وقال الكلبي: نُسِخَ هذا بآية السيف[1].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ قيل: لذنب أُمَّتك، حُذف المُضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه. وقيل: لذنب نَفْسِكَ على من يُجَوِّز الصغائر على الأنبياء[2]. ومَن قال: لا تجوز قال: هذا تعبُّد للنبي عليه الصلاة والسلام بالدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ [آل عمران: ١٩٤] والفائدة زيادةُ الدرجات، وأن يصيرَ الدعاءُ سنةً لمن

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٠١ .

(٢) تفسير الرزاي ٢٧/ ٧٧-٧٨ بنحوه.

بعده[١]. وقيل: فاستغفر الله من ذنب صَدَرَ منك قبلَ النبوة.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ يعني صلاة الفجر وصلاةَ العصر؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: هي صلاةٌ كانت بمكة قبل أن تُفرضَ الصلواتُ الخمس؛ ركعتان غُدْوة وركعتان عشيّة. عن الحسن أيضاً، ذكره الماوردي[٢]. فيكون هذا مما نُسخ والله أعلم.

وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بالشُّكر له والثناء عليه. وقيل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: استدم التسبيحَ في الصلاة وخارجاً منها لِتشتغلَ بذلك عن استعجال النصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يُخاصِمون ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حُجَّة ﴿أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ قال الزجاج[٣]: المعنى: ما في صدورهم إلا كِبْرٌ ما هم ببالغي إرادتهم فيه. قدَّره على الحذف. وقال غيره: المعنى: ما هم ببالغي الكِبْر، على غير حذف؛ لأن هؤلاء قومٌ رأَوْا أنهم إن اتَّبعوا النبيَّ ﷺ قلَّ ارتفاعهم، ونقصتْ أحوالُهم، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تَبَعاً، فأَعْلم اللهُ عزَّ وجلَّ أنهم لا يَبلُغون الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب[٤]. والمراد المشركون. وقيل: اليهود[٥]؛ فالآيةُ مدنيةٌ على هذا كما تقدَّم أولَ السورة.

والمعنى: إن تَعَظَّموا عن اتّباعِ محمد ﷺ، وقالوا: إن الدجّال سيخرج عن قريب فيردّ المُلك إلينا، وتسير معه الأنهار، وهو آيةٌ من آيات الله، فنزلت الآية فيهم. قاله أبو العالية وغيره[٦]. وقد تقدَّم في «آل عمران» أنه يخرج ويطأُ البلادَ كلَّها إلا مكةَ

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٠١ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٦١ ، وفيه قول قتادة السالف، وقول الحسن الأول ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٥ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٠١ بنحوه.

والمدينة[١]. وقد ذكرنا خبره مستوفى في كتاب «التذكرة»[٢] وهو يهودي، واسمه صاف، ويُكْنَى أبا يوسف[٣].

وقيل: كل مَن كَفَرَ بالنبيِّ ﷺ. وهذا حسن؛ لأنه يَعُمُّ. وقال مجاهد: معناه: في صدورهم عظمةٌ ما هم ببالغيها، والمعنى واحد[٤]. وقيل: المراد بالكِبْر الأمرُ الكبير. أي: يطلبون النبوة أو أمراً كبيراً يَصِلُون به إليك من القتل ونحوه، ولا يبلغون ذلك. أو يتمنَّون موتَك قبل أن يتمَّ دينُك، ولا يبلغونه.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ قيل: من فتنة الدجال على قول من قال: إن الآية نزلت في اليهود. وعلى القول الآخر من شرِّ الكفار. وقيل: من مثل ما ابتُلوا به من الكفر والكِبْر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «هو» يكون فاصلاً، ويكون مبتدأ، وما بعده خبرُه، والجملة خبرُ إنَّ على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبره. قال أبو العالية: أي: أعظم من خَلْق الدجال حين عظَّمَتْه اليهود. وقال يحيى بن سلام: هو احتجاجٌ على مُنكري البعث؛ أي: هما أكبرُ من إعادة خَلْق الناس، فَلِمَ اعتقدوا عجزي عنها[٥]؟! ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: المؤمن والكافر والضالُّ والمهتدي. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ولا يستوي العاملُ للصالحات

---

(١) ٥/ ١٣٦ وما بعدها.

(٢) ص٦٥٨ وما بعدها.

(٣) صاف هو اسم ابن صياد. قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٨/ ٤٦ : قال العلماء: وقصته مُشكلة، وأمره مُشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره، ولا شك في أنه دجّال من الدجاجلة. اهـ. وحديث ابن صياد أخرجه أحمد (٦٣٦٣)، والبخاري (١٣٥٥)، ومسلم (٢٩٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦٢ .

﴿وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾ الذي يعمل السيئات. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قراءةُ العامة بياء على الخبر، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده. وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ هذه لامُ التأكيد دخلت في خبر إنَّ، وسبيلُها أن تكون في أوّل الكلام؛ لأنها توكيدُ الجملة إلا أنها تُزحلَق عن موضعها؛ كذا قال سيبويه. تقول: إنَّ عَمراً لخارجٌ؛ وإنما أُخِّرتْ عن موضعها لئلا يُجمع بينها وبين إنَّ؛ لأنهما يُؤدِّيان عن معنى واحد، وكذا لا يُجمع بين إنَّ وأنَّ عند البصريين. وأجاز هشام: إنَّ أنَّ زيداً منطلقٌ حقّ؛ فإن حذفت حقًّا لم يَجُزْ عند أحدٍ من النحويين عَلِمتُه؛ قاله النحاس(٢).

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكَّ ولا مِرْية. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها، وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية؛ روى النُّعمان بن بَشِير

---

(١) السبعة ص٥٧٢، والتيسير ص١٩٢.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ٣٩-٤٠.

قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «الدُّعاءُ هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح(١). فدلَّ هذا على أن الدعاءَ هو العبادة. وكذا قال أكثرُ المفسرين؛ وأن المعنى: وَحِّدوني واعبُدوني أتقبَّلْ عبادتكم وأغفِر لكم. وقيل: هو الذِّكر والدعاء والسؤال. قال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «لِيسألْ أحدُكم ربَّه حاجتَه كلَّها حتى يسألَه شِسْعَ نَعْله إذا انقطع»(٢). ويقال: الدُّعاء: هو تَرْكُ الذُّنوب(٣). وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال: أُعطِيَتْ هذه الأمةَ ثلاثاً لم تُعْطَهن أمةٌ قبلَهم إلا نبيّ: كان إذا أُرسل نبيٌّ قيل له: أنت شاهدٌ على أمتك، وقال تعالى لهذه الأمة: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]. وكان يقال للنبيّ: ليس عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] وكان يقال للنبيّ: ادعُني أَستجِبْ لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٤).

قلت: مثل هذا لا يقال من جهة الرأي. وقد جاء مرفوعاً؛ رواه ليثٌ، عن شَهْر ابن حَوْشَب، عن عُبادة بن الصامت، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أُعطِيَتْ أمتي ثلاثاً لم تُعطَ إلا للأنبياء: كان اللهُ تعالى إذا بعثَ النبيَّ قال: ادعُني أستجِبْ لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وكان اللهُ إذا بعثَ النبيَّ قال: ما جعلَ عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] وكان اللهُ إذا بعثَ النبيَّ جعله شهيداً على قومه، وجعل هذه الأمةَ شهداءَ

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٧٢)، وأخرجه أحمد (١٨٣٥٢)، وسلف ٣/ ١٧٨ .

(٢) أخرجه الترمذي كما في تحفة الأشراف ١/ ١٠٧ ، وابن حبان (٨٦٦). وفي إسناده قَطَن بن نُسَير، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٣٩١ : كان أبو حاتم يحمل عليه، وقال ابن عدي: كان يسرق الحديث... رواه القواريري عن جعفر فأرسله، فقيل للقواريري: إن شيخنا يوصله. فقال القواريري: باطل. يعني وَصْلَه. اهـ.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٣ عن الثوري.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٦٢-١٦٣ .

على الناس» ذكره الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»[١].

وكان خالد الربعي يقول: عَجِبتُ[٢] لهذه الأمة! قيل لها: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ أَمرهم بالدُّعاء ووَعَدَهم الاستجابة، وليس بينهما شرط. قال له قائل: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] فهاهنا شرطٌ، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ [يونس: ٢] فليس فيه شرطُ العمل؛ ومثل قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] فهاهنا شرط، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ليس فيه شرط، وكانت الأمة تَفزَعُ إلى أنبيائها في حوائجها حتى تسأل الأنبياءُ لهم ذلك[٣].

وقد قيل: إن هذا من باب المُطلق والمُقيد على ما تقدَّم في «البقرة» بيانه[٤]. أي: «أسْتَجِبْ لكم» إنْ شئت؛ كقوله: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾. وقد تكون الاستجابةُ في غير عين المطلوب على حديث أبي سعيد الخدري على ما تقدَّم في «البقرة» بيانُه فتأمَّلْه هناك[٥].

وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب، وعَباس[٦] عن أبي عمرو، وأبو بكر والمُفضَّل عن عاصم: «سيُدخَلون» بضمِّ الياء وفتح الخاء على ما لم يُسَمَّ فاعله[٧]. الباقون: ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ بفتح الياء وضمِّ الخاء. ومعنى ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين

---

(١) ص٣٩١، وليث بن أبي سُليم وشهر بن حوشب ضعيفان كما في تقريب التهذيب، وسلف الحديث ٢/ ٤٣٦.

(٢) في (م): عجيب.

(٣) نوادر الأصول ص٣٩١، وسلف ٣/ ١٧٨-١٧٩.

(٤) ٣/ ١٧٩.

(٥) ٣/ ١٨٠، وينظر متن الحديث وتخريجه ثمة.

(٦) في (م): عيّاش، وهو خطأ، وعباس: هو ابن الفضل بن عمرو الواقفي الأنصاري، قاضي الموصل، من أكابر أصحاب أبي عمرو في القراءة. غاية النهاية ٢/ ٣٥٣.

(٧) وقرأ بها أبو جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٢٥٢، وينظر السبعة ص٥٧٢، والتيسير ص١٩٢.

أَذِلَّاء، وقد تقدَّم[١].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ «جَعَلَ» هنا بمعنى خَلَقَ؛ والعربُ تُفرِّق بين جَعَلَ إذا كانت بمعنى خَلَقَ، وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خَلَقَ؛ فإذا كانت بمعنى خَلَقَ فلا تُعدِّيها إلا إلى مفعول واحد، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدَّتها إلى مفعولين؛ نحو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣][٢] وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[٣].

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُضيئاً، لِتُبصروا فيه حوائجَكم، وتتصرَّفوا في طلب معائشكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فَضْلَه وإنعامَه عليهم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ بيَّن الدلالةَ على وحدانيته وقُدرته. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبيَّنت لكم دلائِلُه كذلك؛ أي: كما صُرِفتم عن الحقّ مع قيام الدليل عليه فـ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ يُصْرَفُ عن الحقّ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ زاد في تأكيد التعريف والدليل؛ أي: جعل لكم الأرضَ مستقرًّا لكم في حياتكم وبعد الموت. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ تقدَّم[٤]. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: خَلَقَكم في أحسن صورة. وقرأ أبو رَزين والأشهبُ العُقَيلي: «صِوَرَكُمْ» بكسر الصاد[٥].

قال الجوهري[٦]: والصِّوَر ـ بكسر الصاد ـ لغة في الصُّوَر، جمع صورة، ويُنشد

---

(١) ١٢/ ٣٣٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠.

(٣) ٨/ ٣١٧.

(٤) ١/ ٣٤٤-٣٤٥.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠.

(٦) في الصحاح (صور).

هذا البيت على هذه اللغة يصفُ الجواري:

أَشبَهْنَ مِن بَقَرِ الخَلْصَاءِ أعيُنَها وهُنَّ أحْسَنُ مِن صِيرانِها صِورا(١)

[والصِّيران جمع صِوار، وهو القطيع من البقر، والصِّوار أيضاً وِعاءُ المِسْك](٢) وقد جمعهما الشاعر بقوله:

إذا لاحَ الصِّوارُ ذكَرتُ لَيْلَى وأذْكُرُها إذا نَفَح الصِّوَارُ(٣)

والصِّيارُ لغة فيه.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تقدَّم. ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ أي: الباقي الذي لا يموت ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ﴾ أي: الطاعة والعبادة. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قال الفراء: هو خبرٌ، وفيه إضمارُ أمر، أي: ادعوه واحمَدُوه. وقد مضى هذا كلُّه مستوفى في «البقرة» وغيرها(٤). وقال ابن عباس: من قال: لا إله إلَّا الله، فليقل: الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين(٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ﴾ أي: قل يا محمد: نهاني الله الذي هو الحيُّ القيوم، ولا إلهَ غيره ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ غيره. ﴿لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى﴾ أي: دلائلُ توحيده ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أذِلَّ وأخضعَ ﴿لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وكانوا دَعَوْه إلى دين آبائه،

---

(١) قائله أبو ثروان كما في إصلاح المنطق ص١٥٠ . والخَلْصاء: ماء بالبادية. اللسان (خلص).

(٢) ما بين حاصرتين من الصحاح.

(٣) قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٣٣١ .

(٤) ١/ ٢٠٢ في سورة الفاتحة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٠٤ ، وفيه قول الفراء، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٥٧ .

فَأُمِرَ أن يقولَ هذا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً. وقد تقدَّم هذا[١]. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ وهي حالة اجتماع القوّة وتمام العقل. وقد مضى في «الأنعام» بيانه[٢].

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ بضم الشين قراءةُ نافع وابن مُحيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل؛ لأنه جمع فَعْل، نحو: قَلْب وقُلُوب، ورأس ورؤوس.

وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء[٣]، وكلاهما جمع كَثْرة، وفي العدد القليل أشياخ، والأصل أشْيُخ؛ مثل فَلْس وأَفْلُس، إلا أن الحركة في الياء ثقيلة[٤]. وقرئ: «شَيْخًا» على التوحيد[٥]؛ كقوله: «طِفْلًا» والمعنى: كلُّ واحد منكم. واقتصر على الواحد لأن الغرضَ بيانُ الجنس. وفي «الصحاح»[٦]: جمع الشّيخ شُيوخ وأشياخ وشِيَخة وشِيخان ومَشْيَخة ومَشَايخ ومَشْيُوخاء، والمرأة شَيخة. قال عَبيد:

كـأنَّـهـا شَـيْـخَـةٌ رَقُـوبُ[٧]

وقد شاخ الرجلُ يَشِيخ شَيَخًا ـ بالتحريك على أَصْله ـ وشَيْخوخةً، وأصلُ الياء متحركة فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فَعَلول. وشَيَّخ تَشْييخًا، أي: شاخ. [وشَيَّخْته] دعوته شيخًا للتبجيل. وتصغير الشيخ شُيَيْخ وشِيَيْخ أيضاً ـ بكسر الشين ـ ولا تقل: شُوَيخ[٨].

(١) ١٤/ ٣٢١ وما بعدها.

(٢) ٩/ ١١١ وما بعدها.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وابن كثير، وأبو بكر وابن ذكوان بكسر الشين، والباقون بضمها. السبعة ص١٧٨ ، والتيسير ص١٩٢ ، والنشر ٢/ ٢٢٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١ .

(٥) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٦ .

(٦) الصحاح (شيخ).

(٧) ديوان عَبيد بن الأبرص ص٢٩ ، وصدره: باتَتْ على إِرَم عذوباً.

(٨) الصحاح (شيخ) وما بين حاصرتين منه.

النحاس[١]: وإن اضطرَّ شاعرٌ جاز أن يقول: أشْيُخ، مثل: عَيْن وأعْيُن، إلا أنه حَسُنَ في عين؛ لأنها مؤنثة. والشيخُ مَن جاوز أربعين سنة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ قال مجاهد: أي: مِن قبل أن يكون شيخاً، أو مِن قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً. ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ قال مجاهد: الموتُ للكل. واللام لامُ العاقبة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إلهَ غيره.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ زاد في التنبيه، أي: هو الذي يقدرُ على الإحياء والإماتة. ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: أراد فِعْلَه قال: ﴿لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. ونصب «فيكون» ابن عامر على جواب الأمر[٢]. وقد مضى في «البقرة» القول فيه[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ قال ابن زيد: هم المشركون بدليل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾. وقال

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ٤١ .

(٢) السبعة ص١٦٨ ، والتيسير ص٧٦ .

(٣) ١/ ٣٣٩ .

أكثرُ المفسرين: نزلت في القَدَرية[١]. قال ابن سيرين: إنْ لم تكن هذه الآيةُ نزلَتْ في القَدَريّة، فلا أدري فيمن نزلت. قال أبو قَبِيل: لا أَحْسِبُ المُكَذِّبين بالقَدَر إلا الذين يُجادلون الذين آمنوا[٢]. وقال عقبة بن عامر: قال النبي ﷺ: «نزلَتْ هذه الآيةُ في القَدَرِيّة» ذكره المهدوي[٣].

قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ أي: عن قريب يعلمون بُطلانَ ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلَّت أيديهم إلى أعناقهم. قال التَّيمي: لو أن غُلًّا من أغلال جهنم وُضِع على جبل لوَهَصه حتى يبلغ الماء الأسود[٤]. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ بالرفع قراءة العامة عطفاً على الأغلال.

قال أبو حاتم: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ مستأنف على هذه القراءة. وقال غيره: هو في موضع نصب على الحال، والتقدير: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ مسحوبين. وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود: «والسَّلاسِلَ» بالنصب، «يَسْحَبُونَ» بفتح الياء، والتقدير في هذه القراءة: ويَسحبون السلاسلَ[٥]. قال ابن عباس: إذا كانوا يَجُرُّونها فهو أشدُّ عليهم[٦].

وحكي عن بعضهم: «والسلاسِلِ» بالجرّ[٧]، ووجهُه أنه محمولٌ على المعنى؛ لأن المعنى: أعناقهم في الأغلال والسلاسلِ؛ قاله الفرّاء[٨]. وقال الزجاج[٩]: ومن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٥٦٨ .

(٢) أخرجهما الطبري ٢٠/٣٦١ . وأبو قَبِيل: هو حيّ بن هانئ بن ناصر ـ بمعجمة ـ المعافري، المحدّث، يماني استوطن مصر. مات سنة (١٢٨هـ). السير ٥/ ٢١٤ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٨٣ . وقوله: وهصة: الوَهْص: الرمي العنيف. القاموس (وهص).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢ . وقراءة ابن عباس وابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص١٣٣ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٣٦ .

(٧) ذكرها السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٤٩٥ عن ابن عباس وجماعة.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ١١ .

(٩) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ .

قرأ: «والسلاسِلِ يُسحبون» بالخفض فالمعنى عنده: وفي «السلاسِل يُسْحَبُونَ».

قال ابن الأنباري(١): والخفضُ على هذا المعنى غير جائز؛ لأنك إذا قلت: زيد في الدار، لم يحسن أن تُضمر «في» فتقول: زيد الدارِ، ولكنَّ الخفضَ جائزٌ على معنى: إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل، فتخفض السلاسل على النَّسق على تأويل الأغلال؛ لأن الأغلالَ في تأويل الخفض؛ كما تقول: خاصمَ عبدُ الله زيداً العاقِلَيْن؛ فتنصب العاقِلَيْن، ويجوز رَفْعُهما؛ لأن أحدَهما إذا خاصمَ صاحبَه فقد خاصمَه صاحبُه؛ أنشد الفرّاء:

قد سَالَم الحياتِ مِنه القدَما الأُفْعُوانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَما(٢)

فنصب الأُفعوان على الإتباع للحيات [لأن الحيَّاتِ] إذا سالمت القدمَ فقد سالمتها القدمُ. فمن نَصَبَ السلاسل أو خَفَضَها لم يَقِفْ عليها(٣).

و«الحميم» المتناهي في الحر. وقيل: الصديد المَغْلي. ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ أي: يُطرحون فيها فيكونون وَقوداً لها؛ قاله مجاهد(٤). يقال: سَجَرتُ التنور، أي: أوقدته، وسَجَرته: ملأته؛ ومنه ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ [الطور:٦] أي: المملوء. فالمعنى على هذا: تُملأ بهم النار، وقال الشاعر يصف وَعْلاً:

إذا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً تَرَى حولها النَّبْعَ والسَّاسَما(٥)

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٧٣-٨٧٤ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١ ، والرجز قيل: هو لمساور العبسي، وقيل: للعجّاج، وقيل: لأبي حيان الفقعسي، وقيل: للدُّبَيري، وقيل: لعبد بني عبس، وقوله: الأُفعوان ـ بالضم ـ: الذكر من الأفاعي، والشُّجاع: الذكر من الحيات، والشجعم: الجريء، وقيل: الطويل مع عِظَم جسم، والميم زائدة. خزانة الأدب ١١/ ٤١٧-٤١٨ .

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٧٣-٨٧٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٣٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٥ .

(٥) في (ظ): السماسما، وفي (م): السِّمسما. والبيت للنمر بن تولب، وهو في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٣٤ (وما قبله منه) وخزانة الأدب ١١/ ٩٩ . والنَّبع والسَّاسَم: شجر يُعمل منه القسي. القاموس (نبع) و(سسم).

أي: عيناً مملوءة. ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا تقريعٌ وتوبيخ[١]. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب؛ مِنْ ضَلَّ الماءُ في اللبن، أي: خفي. وقيل: أي: صاروا بحيث لا نَجِدُهم.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: شيئاً لا يُبصر ولا يسمع ولا يضرُّ ولا ينفع[٢]. وليس هذا إنكاراً لعبادة الأصنام، بل هو اعترافٌ بأن عبادتَهم الأصنامَ كانت باطلةً؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: ذلكم العذابُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ بالمعاصي، يقال لهم ذلك توبيخاً. أي: إنما نالَكم هذا بما كنتم تُظهرون في الدنيا من السُّرور بالمعصية وكَثْرة المال والأتباع والصِّحة. وقيل: إن فرحَهم بها عندهم أنهم قالوا للرُّسل: نحن نعلمُ أنا لا نُبعث ولا نُعذَّب. وكذا قال مجاهد في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ قال مجاهد وغيره: أي: تَبْطَرون وتَأْشَرون[٣]. وقد مضى في «سبحان» بيانُه[٤].

وقال الضحاك: الفرحُ السرورُ، والمَرَحُ العُدوان.، وروى خالد عن ثور عن معاذ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهُ يُبغض البَذِخين الفرحين، ويحبُّ كلَّ قلبٍ حزين، ويُبغض أهلَ بيتٍ لَحِمين، ويُبغض كلَّ حِبْر سمين»[٥] فأما أهلُ بيت لَحِمين: فالذين يأكلون لحومَ الناس بالغِيبة. وأما الحِبْر السمين: فالمُتحبِّرُ بعلمه ولا يُخبر بعلمه الناس؛ يعنى المُستكثِرُ من عِلْمه ولا ينتفع به الناس. ذكره الماوردي. وقد قيل في

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٩ .
(٢) زاد المسير ٧/ ٢٣٧ بنحوه.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣ .
(٤) ١٣/ ٨١ .
(٥) نقله المصنف بهذا اللفظ عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦٥ ، وقوله منه: «إن الله يحب كل قلب حزين» أخرجه البيهقي في الشعب (٨٩٣) من طريق ضمرة بن حبيب عن أبي الدرداء مرفوعاً. وهذا إسناد منقطع، فإن ضمرة لم يلقَ أبا الدرداء ﷺ وقوله: «ويبغض أهل بيت لَحِمين، ويبغض كل حبر سمين» أخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٥٦٦٨) عن كعب قوله.

اللَّحِمِين: إنهم الذين يُكثرون أكل اللحم؛ ومنه قول عمر: اتقوا هذه المجازر فإنَّ لها ضراوةً كَضَراوة الخمر[١]؛ ذكره المهدوي. والأوّل قول سفيان الثوري[٢]. ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقال لهم ذلك اليوم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٍ﴾ [الحجر: ٤٤]. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقدم جميعه[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ﴾ هذا تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام؛ أي: إنا لَننتقم لك منهم إما في حياتك أو في الآخرة. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في موضع جزم بالشرط، وما زائدة للتوكيد، وكذا النون، وزال الجزم وبُني الفعل على الفتح. ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ عطف عليه ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ الجواب[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ عزّاه أيضاً بما لَقِيَتِ الرُّسل من قبله. ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ أي: أنبأناك بأخبارهم وما لَقُوا من قومهم. ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: من قِبَلِ نفسه ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا جاء الوقتُ المُسمى لِعذابهم أهلكهم اللهُ، وإنما التأخيرُ لإسلام من عَلِمَ اللهُ إسلامَه منهم، ولمن في أصلابهم من المؤمنين. وقيل: أشار بهذا إلى القَتْل ببدر. ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: الذين يتَّبعون الباطلَ والشِّرك.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٨٠ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ٨١﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج[٥]: الأنعام

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٥ بلفظ: إياكم واللحمَ، فإن له ضراوةً كضراوة الخمر. وسلف ٩/ ٢٠٨ .

(٢) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٣١٧ .

(٣) ١٢/ ٢١٤ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣ .

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ .

هاهنا الإبل. ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فاحتجَّ من مَنَعَ من أكل الخيل وأباح أكل الجِمال بأنّ الله عزَّ وجلَّ قال في الأنعام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وقال في الخيل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨] ولم يذكر إباحةَ أكلها[(١)]. وقد مضى هذا في «النحل» مستوفى[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ في الوبر والصوف والشَّعر واللَّبن والزُّبْد والسمن والجبن وغير ذلك. ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: تحمل الأثقالَ والأسفار. وقد مضى في «النحل» بيانُ هذا كلِّه فلا معنى لإعادته[(٣)]. ثم قال: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ يعني الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ. وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: آياتِهِ الدالَّة على وحدانيته وقُدرته فيما ذكر. ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ نصب «أيًا» بـ«تُنكرون» لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار في «أيّ» الرفع، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب[(٤)]، أي: إذا كنتم لا تُنكرون أن هذه الأشياء من الله، فلم تُنكرون قُدرته على البعث والنَّشر؟

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى يُشاهدوا آثارَ الأُمم السالفة. ﴿كَانُوا

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣-٤٤.
(٢) ١٢/ ٢٧٨ وما بعدها.
(٣) ١٢/ ٢٧٥.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٤.

﴿أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع؛ يقال: دلوت بفلان إليك، أي: استشفعت به إليك. وعلى هذا «ما» للجحد، أي: فلم يُغْنِ عنهم ذلك شيئاً. وقيل: «ما» للاستفهام، أي: أيّ شيء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا[1]. ولم ينصرف «أكْثَرَ»؛ لأنه على وزن أفعل. وزعم الكوفيون أن كل مالا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا، فإنه لا يجوز صرفه بوجه في شِعْرٍ[2] ولا غيره إذا كانت معه من. قال أبو العباس: ولو كانت من المانعةَ من صرفه لَوجب ألا يقال: مررت بخير منك وشر من عمرو.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيات الواضحات ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في معناه ثلاثة أقوال؛ قال مجاهد: إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا: نحن أعلم منهم، لن نُعذّب ولن نُبعث. وقيل: فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم:٧]. وقيل: الذين فرحوا الرُّسلُ، لمَّا كذَّبهم قومُهم أعلمهم الله عزَّ وجلَّ أنه مُهلك الكافرين ومُنجيهم والمؤمنين، فـ «فرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» بنجاة المؤمنين ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: بالكفار ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: عقاب استهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم[3].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا العذاب. ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي: بالأوثان التي أشركناهم في العبادة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ بالله عند مُعاينة العذاب وحين رَأَوُا البأس. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ مصدر؛ لأن العرب تقول: سَنَّ يسن سنًّا وسُنةً؛ أي: سنّ الله عزَّ وجلَّ في الكفار أنه لا

(١) تفسير البغوي ٤/١٠٦ .

(٢) في النسخ الخطية: معرفة، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/٤٤ ، والكلام منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/٤٤-٤٥ .

ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب[١]. وقد مضى هذا مُبيَّناً في «النساء» و«يونس»[٢] وأن التوبة لا تُقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضروري. وقيل: أي: احذروا يا أهل مكة سنَّة الله في إهلاك الكَفَرة فـ «سنَّةَ الله» منصوب على التحذير والإغراء[٣].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال الزجاج[٤]: وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه تبيَّن لهم[٥] الخُسران لما رأوا العذاب.

وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كَسُنَّتنا في جميع الكافرين فـ «سنة» نصب بنزع الخافض، أي: كسنّة الله في الأُمم كلِّها. والله أعلم.

تم تفسير سورة «غافر» والحمد لله.

(١) المصدر السابق بنحوه.

(٢) ٦/ ١٥٢ و١١/ ٥٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٠٦ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٤٥ .

(٥) في النسخ: بيّن لنا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وفي معاني القرآن للزجاج: بيَّن لهم.

سُورةُ المؤمنِ

مَكيَّةٌ، وآيُها خمسٌ أو ثمانٍ وثمانونَ[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿حمٓ﴾ أمالَهُ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ صريحًا، ونافعٌ بروايةِ وَرشٍ وأبو عَمرٍو بَيْنَ بَيْنَ[2]، وقُرِئَ بفتحِ الميم على التَّحريكِ لالتقاءِ السَّاكِنَيْنِ[3]، والنَّصبِ بإضمارِ: اقرأ، ومَنعُ صَرفِهِ للتَّعريفِ والتَّأنيثِ، أو لأنَّها على زِنَةِ أعجميٍّ كقابيلَ وهابيلَ.

(٢) - ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ لعلَّ تخصيصَ الوَصفَينِ لِما في القرآنِ مِن الإعجازِ والحِكَمِ الدَّالِّ على القُدرَةِ الكامِلَةِ والحكمةِ البالغَةِ.

(٣) - ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ صفاتٌ أُخَرُ لتَحقيقِ ما فيهِ مِن التَّرغيبِ والتَّرهيبِ والحَثِّ على ما هو المقصودُ منه، والإضافةُ فيها حقيقيَّةٌ على أنَّه لم يُرَدْ بها زمانٌ مَخصوصٌ.

---

(١) قال الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢١٨): وهي ثمانون وثنتان في البصري، وأربع في المدنيين والمكي، وخمس في الكوفي، وست في الشامي، اختلافها تسع آيات.

(٢) ورش من طريق الأزرق، وهي بخلف عن أبي عمرو، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٩١)، و«النشر» (٢/ ٧٠).

(٣) وهي قراءة أبي السمال كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، وعيسى بن عمر كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٤٥)، وقراءة الجمهور التسكين.

وأُريدَ بـ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ مُشدِّدَه، أو الشَّديدُ عِقابُه، فحذفَ الَّلامَ للازدواجِ وأمنِ الإلباسِ.

أو أبدالٌ[1]، وجعلُه وحدَه بَدَلًا مُشَوِّشٌ للنَّظمِ.

وتوسيطُ الواو بينَ الأَوَّلَينِ؛ لإفادةِ الجمعِ بين مَحْوِ الذنوبِ وقبولِ التَّوبةِ، أو تغايُرِ الوَصْفَينِ؛ إذ ربَّما يُتوهَّمُ الاتحادُ أو تغايرُ موقعِ الفعلينِ؛ لأنَّ الغفرَ هو السترُ فيكونُ لذنبٍ باقٍ وذلك لِمَن لم يَتُبْ؛ فإنَّ التَّائبَ من الذَّنبِ كمَن لا ذنبَ له.

والتَّوبُ: مَصدَرٌ كالتَّوبةِ، وقيل: جَمْعُها. والطَّوْلُ: الفَضلُ بتركِ العقابِ المستحقِّ.

وفي توحيدِ صفَةِ العَذابِ مغمورةً بصفاتِ الرَّحمةِ دليلُ رُجْحانِها[2].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجبُ الإقبالُ الكُلِّيُّ على عبادتِه.

﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فيُجازي المطيعَ والعاصيَ.

(٤) - ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لَمَّا حقَّقَ أمرَ التَّنزيلِ سجَّلَ بالكُفرِ على المجادِلِينَ[3] فيه بالطَّعنِ وإدحاضِ الحقِّ لقولِه[4]: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥]، فأمَّا الجِدالُ فيه لحلِّ عُقدِهِ واستنباطِ حَقائقِهِ وقَطعِ تَشبُّثِ أهلِ الزَّيغِ به وقطعِ مَطاعِنِهم فيه فمِنْ أعظَمِ الطَّاعاتِ، ولذلك قالَ عليه السَّلامُ: «إنَّ جِدالًا في القرآنِ كفرٌ»[5] بالتَّنكيرِ، مع أنَّه ليس جِدالًا فيه على الحقيقةِ.

---

(١) قوله: «أو أبدال» بفتح الهمزة عطف على «صفات»، انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣٨).

(٢) الضمير يعود للرحمة.

(٣) قوله: «سجل بالكفر على المجادلين» إلخ: أي أثبت ذلك لهم كما يثبت الشيء في السجل، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٤) في نسخة الفاروقي: «كقوله».

(٥) رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٤٠٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٦١) من حديث =

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ فلا يَغرُرْكَ إمهالُهم وإقبالُهم في دُنياهُم وتقلُّبُهم في بلادِ الشَّامِ واليمنِ في التِّجاراتِ المُربحةِ، فإنَّهُم مأخوذونَ عمَّا[1] قريبٍ بكُفرِهِم أخذَ مَنْ قبلَهُم كما قال:

(٥) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ والذين تحزَّبُوا على الرُّسُلِ وناصَبوهُمْ بعدَ قومِ نوحٍ كعادٍ وثمودَ.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ مِن هؤلاءِ ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾، وقُرِئَ: (برسولِها)[2].

﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليَتمكَّنُوا مِن إصابَتِه بما أرادوا مِن تَعذيبٍ وقتلٍ[3]، مِن الأخذِ؛ بمعنى الأَسْرِ.

﴿وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ بما لا حقيقةَ له ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليزيلوهُ بهِ.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاكِ جزاءً لهَمِّهِم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنَّكُم تمرُّونَ على دِيارِهِم وترَوْنَ أثرَهُ[4]، وهو تقريرٌ فيه تعجيبٌ[5].

= عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ١٦٧)، وعبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) في نسخة التفتازاني: «عن».

(٢) قرأ بها ابن مسعود كما في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٥)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٢٨١).

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وقيل». قال الشهاب في «حاشيته»: (وقتل) بالتاء المثناة الفوقية، والتمكن منه لا يستلزمه، إذ المتمكن من الشيء قد لا يفعله لمانع وغيره، وقوله: (من الأخذ بمعنى الأسر) فإنه يقال للأسير أخيذ، فهو مأخوذ منه فكني به عما ذكر، والتمكن من القتل لا ينافي الأسر كما توهم، وفي بعض النسخ: (وقيل) بالقاف والياء التحتية، فيكون الأخذ في الآية بمعنى الأسر، والأولى هي الموافقة لما في الكشاف، والمناسبة للمقام وجزالة المعنى.

(٤) في نسخة الخيالي: «أثرهم»، وفي نسخة الطبلاوي: «آثارهم».

(٥) في نسخة التفتازاني: «تعجب».

(٦) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: وعيدُهُ أو قَضاؤُهُ بالعذابِ.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ لكُفرِهِم.

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدلٌ مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدلَ الكلِّ أو الاشتمالِ على إرادةِ اللَّفظِ أو المَعْنَى.

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ الكَرُوبيُّونَ[1] أعلى طبقاتِ الملائكةِ وأوَّلُهم وجودًا، وحَمْلُهم إيَّاه وحَفِيفُهُم[2] حولَه مجازٌ عَن حفظِهِم وتَدبيرِهِم له، أو كنايةٌ عن قُربِهم مِن ذي العرشِ ومكانَتِهم عندَهُ وتوسُّطِهِم في نفاذِ أمرِهِ.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يذكرونَ اللهَ بمَجامعِ الثَّناءِ مِن صفاتِ الجلالِ والإكرامِ، وجَعَلَ التَّسبيحَ أَصْلًا والحمدَ حالًا؛ لأنَّ الحمدَ مُقتَضى حالِهم دونَ التَّسبيحِ.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أخبرَ عَنْهُم بالإيمانِ إظهارًا لفَضلِهِ وتعظيمًا لأهلِهِ، ومَساقُ الآيةِ لذلك كما صرَّحَ به بقولِه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وإشعارًا بأنَّ حَمَلَةَ العرشِ وسُكَّانَ الفَرشِ في مَعرِفَتِه سواءٌ ردًّا على المُجسِّمَةِ.

---

(١) قال الشهاب في «حاشيته»: الكروبيون جمع كروبي بفتح الكاف وضم الراء المهملة المخففة وتشديدها خطأ، ثم واو بعدها باء موحدة ثم ياء مشددة من كرب بمعنى قرب، وقد توقف بعضهم في سماعه من العرب وأثبته أبو علي الفارسي البغدادي، واستشهد له بقوله:

كروبيـــة منهـــم ركـــوع وســـجد

وفيه دلالة على المبالغة في قربهم بصيغة فعول والياء، فإنها تزاد لذلك.

وقيل الكرب أيضاً شدة القرب وهم سادة الملائكة كما في «الفائق» [(٣/ ٢٥٨)]: كجبريل وإسرافيل.

وقال البيهقي [في «شعب الإيمان» (١٤٦) عن وهب]: إنهم ملائكة العذاب فهو عنده من الكرب بمعنى الشدة والحزن كما صرح به ويجوز أخذه منه على المعنى الأول أيضاً لشدة خوفهم من الله وكلام المصنف على أن الكروبيين هم حملة العرش، اهـ.

(٢) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «وحفوفهم».

واستغفارُهُم: شَفاعَتُهُم وحَملُهُم على التَّوبةِ وإلهامُهُم ما يُوجِبُ المغفرةَ.

وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ المُشاركةَ في الإيمانِ تُوجِبُ النُّصحَ والشَّفقةَ وإنْ تَخالَفَتِ الأجناسُ؛ لأنَّها أقوى المناسباتِ كما قالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿رَبَّنَا﴾؛ أي يقولونَ: ربَّنا وهو بيانٌ لـ﴿يستغفرون﴾ أو حالٌ.

﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وَسِعَتْ رحمَتُه وعِلْمُه، فأُزيلَ عن أصلِه للإغراقِ في وَصفِهِ بالرَّحمةِ والعلمِ، والمبالغةِ[1] في عُمومِهما، وتقديمُ الرَّحمةِ؛ لأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ هاهنا.

﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ للذينَ عَلِمْتَ مِنْهُم التَّوبةَ واتِّباعَ سَبيلِ الحقِّ.

﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ واحفَظْهُم عنه، وهو تصريحٌ بعدَ إشعارٍ للتَّأكيدِ والدَّلالةِ على شِدَّةِ العذابِ.

(٨) - ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ وعدْتَهُم[2] إيَّاها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ عطفٌ على (هم) الأوَّلِ؛ أي: أدخِلْهُم ومَعَهُم هؤلاءِ[3] ليتِمَّ سُرورُهُم، أو الثَّاني لبيانِ عُمومِ الوعدِ.

وقُرِئَ: (جنَّةَ عدنٍ)[4]، و(صَلُح) بالضمِّ[5]، و(ذُرِّيَّتِهِم)[6] بالتَّوحيدِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وبالمبالغة».

(٢) «وعدتهم»: ليس في نسخة الخيالي.

(٣) قوله: «هؤلاء»: ليس في نسخة الفاروقي.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣) عن الأعمش.

(٥) انظر: «الكامل في القراءات» (ص: ٦٣١)، و«البحر» (١٨/ ٣٩٤)، عن ابن أبي عبلة.

(٦) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٤٨)، و«البحر» (١٨/ ٣٩٤)، عن عيسى بن عمر.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنعُ عليه مَقدورٌ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلَّا ما تقتضيهِ حِكمَتُه، ومِن ذلك الوَفاءُ بالوعدِ.

(٩) ـ ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ العقوباتِ أو جزاءَ السَّيِّئاتِ، وهو تعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ، أو مخصوصٌ بـ﴿من صَلَحَ﴾، أو المعاصي[1] في الدُّنيا لقولِه: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾؛ أي: ومَنْ تَقِها في الدُّنيا فقد رَحِمتَهُ في الآخرةِ، كأنَّهُم طَلَبُوا السَّبَبَ بعدَما سألُوا المُسبَّبَ[2].

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني الرَّحمةَ، أو الوقايةَ[3]، أو مجموعَهُما.

(١٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾ يومَ القيامةِ فيقالُ لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لَمَقتُ اللهِ إيَّاكم أكبرُ مِن مَقتِكُم أنفسَكُم الأمَّارةَ بالسُّوءِ.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ظرفٌ لفعلٍ دلَّ عليه المقتُ الأوَّلُ لا له؛ لأنَّه أخبرَ عنه، ولا للثَّاني؛ لأنَّ مَقتَهُم أنفُسَهُم يومَ القيامةِ حينَ عايَنُوا جزاءَ أعمالِهم الخبيثةِ إلَّا أن يُؤوَّلَ بنحوِ: (الصَّيفَ ضَيَّعْتِ اللبنَ)، أو تعليلٌ للحكمِ، وزمانُ المَقْتَيْنِ واحِدٌ[4].

(١١) ـ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إماتَتَيْنِ بأَنْ خلَقْتَنا أمواتًا أوَّلًا، ثمَّ صَيَّرْتَنا أمواتًا عند انقضاءِ آجالِنا، فإنَّ الإماتةَ جعلُ الشَّيءِ عادمَ الحياةِ ابتداءً، أو بتَصييرٍ كالتَّصغيرِ

---

(١) «أو المعاصي» عطف على «العقوبات أو جزاء السيئات».

(٢) قوله: «كأنهم طلبوا السبب» أي وهو وقايتهم السيئات (بعدما سألوا المسبَّب)؛ أي: وهو إدخالهم الجنات، انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤١ ـ ٤٢).

(٣) في نسخة الفاروقي: «أو الوفاء به»، وفي نسخة التفتازاني: «والوقاية».

(٤) انظر: «لباب التفاسير» (٨/ ٧٨)، وذكره الكرماني أيضاً في «غرائب التفسير» (٢/ ١٠٢٧) واستغربه.

والتَّكبيرِ، ولذلك قيل: سبحانَ مَن صغَّرَ البَعُوضَ وكبَّرَ الفيلَ، وإن خُصَّ بالتَّصييرِ فاختيارُ الفاعلِ المختارِ أحدَ مقبوليهِ تَصييرٌ وصَرْفٌ له عَن الآخرِ[1].

﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾: الإحياءَةَ الأولى وإحياءةَ البعثِ.

وقيل: الإماتةُ الأولى عندَ انخرامِ الأجَلِ، والثَّانيةُ في القبرِ بعدَ الإحياءِ للسُّؤالِ، والإحياءانِ ما في القبرِ والبَعثِ[2]؛ إذ المقصودُ اعتِرافُهُم بعدَ المعاينةِ[3] بما غَفَلوا عنه ولم يَكترِثُوا به، ولذلك تسبَّبَ لقولِه[4]: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فإنَّ اقترافَهُم لها مِن اغترارِهِم بالدُّنيا وإنكارِهِم للبَعثِ.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ نوعِ خُروجٍ من النَّارِ ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ طريقٍ فنَسْلُكَه، وذلك إنَّما يَقولونَهُ مِن فَرْطِ[5] قُنوطِهِم تَعلُّلًا وتحيُّرًا، ولذلك أُجيبوا بقولِه:

(١٢) - ﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي أنتُمْ فيه ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسببِ أنَّه ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ متَّحدًا أو توحَّدَ وحدَهُ، فحُذِفَ الفعلُ وأُقيمَ مُقامهُ في الحاليَّةِ ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بالتَّوحيدِ ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ بالإشراكِ.

﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ المستحقِّ للعبادةِ حيثُ حكمَ عَلَيكُم بالعذابِ السَّرمَدِ[6] ﴿ٱلْعَلِىِّ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «مفعوليه»، وقوله: (فاختيار الفاعل المختار أحد مقبوليه) الضمير للفاعل المختار أو هو للشيء، والمقبول ما يقبله الشيء من الحالين، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «والمبعث».

(٣) في نسخة الفاروقي: «المعاتبة».

(٤) في نسخة التفتازاني: «بقوله».

(٥) في نسخة الخيالي: «يقولونه لفرط».

(٦) «حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد»: ليس في نسخة التفتازاني والخيالي، وجاء في نسخة الفاروقي بعد قوله: «بغيره حيث حكم».

ٱلْكَبِيرِ ﴾ مِن أَنْ يُشرَكَ به ويسوَّى بغيرِهِ حيثُ حكمَ على مَن أشرَكَ وسَوَّى به بعضَ مخلوقاتِهِ في استحقاقِ العبادةِ = بالعذابِ السَّرمَدِ.

(١٣) ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدَّالَّةَ على التَّوحيدِ وسائرِ ما يجبُ أَنْ يُعلَمَ تكميلًا لنفوسِكُم ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ أسبابَ رزقٍ[1] كالمطرِ مُراعاةً لِمَعاشِكُم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ بالآياتِ التي هي كالمَركوزَةِ في العُقولِ لِظُهورِهَا المغفولِ عنها للانهماكِ في التَّقليدِ واتِّباعِ الهوى ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ يرجعُ عَن الإنكارِ بالإقبالِ عَلَيها والتَّفكُّرِ فيها، فإنَّ الجازمَ بشَيءٍ لا ينظرُ فيما يُنافيهِ.

(١٤) ـ ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِن الشِّرْكِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ إخلاصَكُم وشقَّ عليهِم.

(١٥) ـ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خبرانِ آخرانِ للدَّلالةِ على علوِّ صَمديَّتِه مِن حيثُ المعقولُ والمحسوسُ الدالُّ على تَفرُّدِه في الألوهيَّةِ؛ فإنَّ مَن ارتفعَتْ دَرجاتُ كَمالِه بحيثُ لا يظهَرُ دونَها كمالٌ، وكانَ العرشُ الذي هو أصلُ العالمِ الجسمانيِّ في قبضةِ قُدرَتِه؛ لا يَصِحُّ أن يشركَ به.

وقيلَ: الدَّرجاتُ مراتِبُ المخلوقاتِ، أو مَصاعِدُ الملائكةِ إلى العرشِ أو السَّمواتِ، أو درجاتُ الثَّوابِ.

وقُرِئَ: (رفيعَ) بالنَّصبِ على المدحِ[2].

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ خبرٌ رابعٌ للدَّلالةِ على أنَّ الرّوحانيَّاتِ

---

(١) «أسباب رزق»: ليس في نسخة التفتازاني والخيالي.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٩٩)، وقد أجازها الأخفش لكن لم يصرح بكونها قراءة.

أيضًا مُسَخَّراتٌ لأمرِه بإظهارِ آثارِهَا وهو الوحيُ، وتمهيدٌ للنبوَّةِ بعدَ تقريرِ التَّوحيدِ.

و﴿الرُّوح﴾: الوحيُ، و﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ بيانُه؛ لأنَّه أمرٌ بالخيرِ أو مبدؤهُ، والآمرُ هو المَلَكُ المُبلِّغُ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾: يختارهُ للنبوَّةِ، وفيه دليلٌ على أنَّها عَطائِيَّةٌ.

﴿لِيُنذِرَ﴾ غايةُ الإلقاءِ، والمستكِنُّ فيه (لله) أو لِـ(مَن) أو للرُّوحِ، واللامُ مع القربِ تُؤيِّدُ الثَّاني.

﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يومَ القيامةِ؛ فإنَّ فيه يتلاقى الأرواحُ والأجسادُ وأهلُ السَّماءِ والأرضِ والمعبودونَ والعِبادُ والأعمالُ والعُمَّالُ.

(١٦) ـ ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ خارجونَ مِن قُبورِهم، أو ظاهرونَ لا يسترُهُم شيءٌ، أو ظاهرةٌ نُفوسُهُم لا تحجُبُهم غواشِي الأبدانِ، أو أعمالُهُم[1] وسَرائِرُهم.

﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾ مِن أعيانِهم وأعمالِهم وأحوالِهم، وهو تقريرٌ لقولِه: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ وإزاحةٌ لنَحوِ ما يُتوهَّمُ في الدُّنيا.

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ حكايةٌ لِمَا يُسأَلُ عنه في ذلكَ اليومِ، ولِما يجابُ به، أو لِمَا دلَّ عليه ظاهرُ الحالِ فيه مِن زَوالِ الأسبابِ وارتفاعِ الوسائطِ، وأمَّا حقيقَةُ الحالِ فناطقَةٌ بذلك دائمًا.

(١٧) ـ ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ كأنَّه نتيجةٌ لِمَا سبقَ، وتَحقيقُهُ أنَّ النُّفوسَ تكتسبُ[2] بالعقائدِ والأعمالِ هيئاتٍ تُوجِبُ لذَّتَها وألَمَها لكنَّها لا تَشعرُ بها في الدُّنيا لعوائقَ تَشغَلُها، فإذا قامَتْ قِيامَتُها زالتِ العَوائِقُ وأدركت لذَّتَها وألَمَها[3].

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وأعمالهم».

(٢) في نسخة الفاروقي: «تكسب».

(٣) قال الآلوسي في «روح المعاني» معلقاً على هذاا لكلام: الظاهر أن هذا قول باللذة والألم =

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقصِ الثَّوابِ وزيادةِ العِقابِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذ[1] لا يَشغَلُهُ شأنٌ عن شأنٍ، فيَصِلُ إليهم ما يستحقُّونَهُ سَرِيعًا.

(١٨) ـ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ أي: القِيامةِ، سُمِّيَت بها لأُزوفِها؛ أي: قُرْبِها، أو الخُطَّةِ الآزِفَةِ وهي مُشارفَتُهم النَّارَ، وقيل: الموتَ[2].

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ فإنَّها ترتفعُ عَن أَماكنِها وتلتَصِقُ[3] بحُلوقِهم، فلا تعودُ فيتروَّحُوا ولا تخرجُ فيَستَرِيحُوا.

﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الغمِّ، حالٌ مِن أصحابِ القلوبِ على المعنى؛ لأنَّه على الإضافةِ أو مِنْها، أو مِن ضَمِيرِهَا في (لدى)، وجَمَعَهُ لذلك؛ لأنَّ الكظمَ مِن أفعالِ العُقَلاءِ كقولِه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، أو مِن مَفعولِ ﴿أَنْذِرْهُم﴾ على أنَّه حالٌ مُقدَّرَةٌ.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾: قريبٍ مُشفِقٍ ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾: ولا شفيعٍ مُشفَّعٍ.

والضَّمائرُ إن كانَتْ للكفَّارِ ـ وهو الظَّاهرُ ـ كان وَضعُ الظَّالِمِينَ مَوضِعَ ضَميرِهِم للدَّلالةِ على اختصاصِ ذلك بهم وأنَّه لظُلْمِهِم.

(١٩) ـ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ النَّظرةَ الخائنةَ، كالنَّظرةِ الثَّانيةِ إلى المحرَّمِ[4] واستراقِ النَّظرِ إليه، أو خيانةَ الأعيُنِ.

= الروحانيين ونحن لا ننكر حصولهما يومئذ لكن نقول: إن الجزاء لا ينحصر بهما بل يكون أيضا بلذة وألم جسمانيين. فالاقتصار في تفسير الآية على ذلك قصور.

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «أي».

(٢) انظر: «لباب التفاسير» (٨/ ٨٤).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فتلتصق».

(٤) في نسخة الفاروقي والخيالي: «غير المَحْرَمِ».

﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ مِن الضَّمائرِ، والجملَةُ خبرٌ خامِسٌ للدَّلالةِ على أنَّه ما مِن خَفِيٍّ إلا وهو مُتعلَّقُ العلمِ والجَزاءِ.

(٢٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ﴾ لأنَّه المالكُ الحاكمُ على الإطلاقِ فلا يقضي بشَيْءٍ إلَّا وهو حقُّهُ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ تهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ الجمادَ لا يُقَالُ فيه: إنَّه يَقضي أو لا يَقضي.

وقرأ نافِعٌ وهِشامٌ[١] بالتَّاءِ[٢] على الالتفاتِ، أو إضمارِ (قُلْ).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقريرٌ لعلمِهِ بخائنةِ الأعيُنِ وقَضائِهِ بالحقِّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولونَ ويفعلونَ، وتعريضٌ بحالِ ما يدعونَ مِن دونِه.

(٢١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مآلُ حالِ الذين كذَّبُوا الرُّسُلَ قبلَهُم كعادٍ وثمودَ.

﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: قُدرَةً وتَمكُّنًا.

وإنَّما جيءَ بالفصلِ وحَقُّهُ أن يقعَ بينَ مَعرِفتَينِ لِمُضارعَةِ (أَفعلَ مِن) للمَعرِفَةِ في امتناعِ دخولِ الَّلامِ عليه.

وقرأَ ابنُ عامرٍ ﴿أشدَّ مِنكُم﴾ بالكافِ[٣].

﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مثلَ القِلاعِ والمدائنِ الحصينَةِ.

---

(١) «وهشام»: ليس في نسخة الفاروقي.

(٢) وهي قراءة نافع، وابن عامر من رواية هشام، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٩١).

(٣) «وقرأ ابن عامر «أشد منكم» بالكاف» من نسخة التفتازني. وانظر: «السبعة» (ص: ٥٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٩١).

وقيل: المَعنى: وأكثرَ آثارًا كقولِه:

مُتَقلِّـــدًا سَـــيْفًا وَرُمْحَـــا[1]

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يمنعُ العَذابَ عَنْهُم.

(٢٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخـذُ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمُعجزاتِ أو الأحكامِ الواضِحَةِ، ﴿فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾ مُتمَكِّنٌ ممَّا يُريدُهُ غايةَ التَّمكُّنِ، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُؤبَهُ بعقابٍ دونَ عِقابِه.

(٢٣) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني المعجزاتِ.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحُجَّـةٍ قاهـرَةٍ ظاهرَةٍ[2]، والعطـفُ لتَغايُـرِ الوَصْفَيْنِ، أو لإفـرادِ بَعـضِ المُعجـزاتِ كالعَصَا تَفخيمًا لشَـأْنِه.

(٢٤) ـ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعنونَ مُوسى عليهِ السَّلامُ.

وفيه تَسليَةٌ لرَسُولِ اللهِ ﷺ، وبيانٌ لِعاقبَةِ مَن هوَ أشَدُّ الذين كانوا من قبلِهم بطشًا وأقرَبُهُم زمانًا.

---

(١) عجز بيت لعبد الله بن الزِّبَعْرى، وهو في «ديوانه» (ص: ٣٢)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٦٨)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ١٢١)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٧٧)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٢٩١) و(٢/ ٢٠٤)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣١) و«تفسير الطبري» (١/ ١٣٧). ومعناه: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً. وصدره:

يـــا ليـــت زوجـــك قـــد غـــدا

ويروى:

ورأيـــتُ زوجَـــك فـــي الوغـــى

(٢) «ظاهرة»: ليس في نسخة الخيالي والطبلاوي.

(٢٥) ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ أي: أعيدُوا عليهم ما كُنتُمْ تفعَلُونَ بـهـم أوَّلًا كي يصدُّوا عَنْ مُظاهرَةِ مُـوسـى.

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾: في ضَياعٍ.

ووضعُ الظَّاهرِ فيه موضِعَ الضَّميرِ لتَعميمِ الحُكمِ والدَّلالَةِ على العِلَّةِ.

(٢٦) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كانُوا يَكُفُّونَهُ مِن قتلِهِ ويقولون: إنَّه ليسَ الذي تخافُه بل هو ساحِرٌ ولو قتلتَهُ ظُنَّ أنَّكَ عَجَزْتَ عَن مُعارضَتِه بالحُجَّةِ، وتَعلُّلُه بذلك مع كونِه سَفَّاكًا في أهوَنِ شيءٍ دَليلٌ على أنَّه تيقَّنَ أنَّه نَبيٌّ فخافَ مِن قتلِهِ، أو ظَنَّ أنَّه لو حاولَه[1] لم يتيَسَّرْ له، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فإنَّه تَجلُّدٌ وعدمُ مُبالاةٍ بدُعائِه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إن لم أَقْتُلْه ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾: أن يُغيِّرَ مـا أنتُمْ عليهِ مِـن عبادتِه[2] وعبادةِ الأصنامِ؛ لقولِه: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ما يفسدُ دُنياكُمْ مِن التَّحارُبِ والتَّهارُجِ إن لم يَقْدِرْ أنْ يُبطِلَ[3] دينكُم بالكُلِّيَّةِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافِعٌ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ بالواوِ على مَعنى الجمعِ[4]، وابنُ كَثيرٍ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ والكوفيُّونَ غيرَ حَفصٍ بفتحِ الياءِ والهاءِ[5] ورفعِ (الفسادِ).

---

(١) في نسخة الفاروقي: «جادله».

(٢) في نسخة التفتازاني: «عبادتي». وفي هامش نسخة الفاروقي: «الأولى: عبادتي. سعدي».

(٣) في نسخة التفتازاني: «يبدل».

(٤) أي بالـواو العاطفـة: ﴿وأن يظهـر﴾، وقـراءة الكوفيين عاصم وحمـزة والكسـائي: ﴿أو أن﴾ بألف قبـل الـواو، وكذلـك هي فـي مصحاف أهـل الكوفـة، انظـر: «السـبعة» (ص: ٥٦٩)، و«التيسـير» (ص: ١٩١)، و«النشر» (٢/ ٣٦٥).

(٥) أي: (يَظْهَرَ) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٦)، و«التيسير» (ص: ١٩١)، و«النشر» (٢/ ٣٦٥)؟

(٢٧) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: لقومِه لَمَّا سَمِعَ بكَلامِهِ[١]: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صَدَّرَ الكلامَ بـ(إنَّ) تأكيدًا وإشعارًا على أنَّ السَّببَ المؤكَّدَ في دفعِ الشرِّ هو العياذُ باللهِ، وخَصَّ اسمَ الربِّ؛ لأنَّ المطلوبَ هو الحفظُ والتَّربيةُ، وأضافَه[٢] إليه وإليهم حثًّا لهم على مُوافقتِهِ لِمَا في تَظاهُرِ الأرواحِ مِن استجلابِ الإجابةِ.

ولم يُسَمِّ فِرعونَ وذَكَرَ وَصْفًا يعمُّه وغيرَهُ؛ لتَعميمِ الاستعاذةِ ورعايةِ الحقِّ والدَّلالةِ على الحاملِ له على القولِ.

وقرأَ أبو عَمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿عُتُّ﴾[٣] فيهِ وفي (الدخان) بالإدغامِ، وعن نافعٍ مِثلُه[٤].

(٢٨) ـ ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مِن أَقاربِه، وقيل: ﴿مِّنْ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ والرَّجلُ إسرائيليٌّ، أو غريبٌ مُوحِّدٌ كانَ يُنافِقُهم.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتقصدونَ قتلَهُ ﴿أَن يَقُولَ﴾ لأن يقولَ، أو: وقتَ أَنْ يقولَ مِن غيرِ رَوِيَّةٍ وتأمُّلٍ في أمرِهِ، ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وحدَهُ، وهو في الدَّلالةِ على الحصرِ مثل: صَدِيقِي زَيدٌ.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المتكثِّرَةِ على صدقِه مِن المعجزاتِ والاستدلالاتِ.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَهُ إليهِمْ بعدَ ذكرِ البيِّناتِ احتِجاجًا عليهم واستِدراجًا لهم إلى الاعترافِ به.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «كلامه».

(٢) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «وإضافته».

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ٤٤).

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ١٦).

ثُمَّ أخذَهُم بالاحتجاجِ مِن بابِ الاحتياطِ فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يَتخطَّاهُ وَبَالُ كذبِه فيُحتاجَ في دفعِهِ إلى قتلِه. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ فَلا أقلَّ مِن أَنْ يُصيبَكُم بعضُهُ.

وفيه مُبالغَةٌ في التَّحذيرِ، وإظهارٌ للإنصافِ وعَدمِ التَّعصُّبِ، ولذلك قدَّمَ كونَهُ كاذبًا.

أو يُصِبْكُم ما يَعِدُكُم مِن عذابِ الدُّنيَا وهو بعضُ مَواعيدِهِ؛ كأَنَّهُ خَوَّفَهُم بما هو أظهَرُ احتمالًا عندَهُم، وتفسيرُ البَعضِ بالكلِّ كقولِ لَبيدٍ:

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا ... أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا[1]

= مردودٌ؛ لأنَّه أرادَ بالبعضِ نفسَهُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ احتجاجٌ ثالِثٌ ذات وجهينِ:

أحدهما: أنَّه لو كانَ مُسرِفًا كذَّابًا لَمَا هداهُ اللهُ إلى البيِّناتِ ولَما عضدَهُ بتلكَ المُعجزاتِ.

وثانيهما: أنَّ مَن خذلَهُ اللهُ وأهلكَهُ فلا حاجةَ لَكُم إلى قتلِه، ولعلَّهُ أرادَ به المعنى الأوَّلَ وخيَّلَ إليهم الثَّاني؛ ليُلَيِّنَ[2] شَكِيمتَهُم، وعرَّضَ به لفرعونَ بأَنَّهُ مُسرِفٌ كذَّابٌ لا يهديهِ اللهُ[3] سبيلَ الصَّوابِ وطريقَ[4] النَّجاةِ.

---

(١) البيت في «ديوان لبيد» (ص: ١١٣)، وهو من معلقته المشهورة، وقد فسر أبو عبيدة البعض في البيت بالكل فقال: الموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض. وتعقبه الزجاج في «معاني القرآن» (١/ ٤١٥) ـ تفسير آل عمران ـ بقوله: إن البعض والجزءَ لا يُكونُ الكُل، وأنشد أبو عبيدة بيتًا غلط في معناه ـ يعني هذا البيت ـ وقال: المعنى: أو يعتلق كل النفوس حمامها، وإنما المعنى: أو يعتلق نفسي حمامها. وفي كلام الناس: بعض يعرفك، أي: أنا أعرفك.

(٢) في نسخة الخيالي: «لتليين».

(٣) في نسخة الخيالي زيادة: «إلى».

(٤) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والطبلاوي: «وسبيل» بدل «وطريق».

(٢٩) ـ ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ﴾: غالبيـنَ عاليـنَ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أرضِ مصـرَ.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: فلا تُفسِدُوا أمرَكُم ولا تتعرَّضُوا لبأسِ اللهِ بقَتلِهِ فإنَّه إنْ جاءَنا لم يمنَعْنَا منه أحدٌ.

وإنَّما أدرجَ نفسَهُ في الضَّمِيرَيْنِ؛ لأنَّه كانَ مِنْهُم في القرابةِ، وليريَهُم أنَّه معَهُم ومُساهِمُهُم فيما ينصحُ لهم.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ﴾ ما أشيرُ إليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وأستَصْوِبُه مِن قتلِه ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ وما أُعَلِّمُكُمْ إلَّا ما عَلِمْتُ مِـن الصَّوابِ، وقلبي ولِساني مُتواطِئَانِ عليه ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾: طريقَ الصَّوابِ[١].

وقُرِئَ بالتَّشديدِ[٢] على أنَّه فَعَّالٌ للمُبالغةِ مِن رَشِدَ كعَلَّامٍ، أو مِن رَشَدَ كعَبَّادٍ، لا مِن أرشدَ كجَبَّارٍ مِن أَجْبَرَ؛ لأنَّهُ مَقصورٌ على السَّماعِ، أو للنِّسبَةِ إلى الرُّشدِ كعَوَّاجٍ وبَتَّاتٍ[٣].

(٣٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ فـي تكـذيبِه والتَّعرُّضِ لـه، ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ مثلَ أيَّامِ الأُمَمِ الماضيةِ يعني وَقائِعَهُم، وجمعُ الأحزابِ مع التَّفسيرِ أَغْنى عن جمعِ اليَومِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وما أعلمكم إلا ما علمت من طريق الصواب وقلبي ولساني عليه» بدل من قوله: «﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ وما أعلمكم» إلى هاهنا، والمثبت من بقية النسخ.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٤١)، عن معاذ رضي الله عنه.

(٣) قوله: «كعواج وبتات»؛ أي: بيَّاع العاج وبيَّاع البتِّ، وهو الطيلسانُ من خَزٍّ أو صوف، انظر: «فتوح الغيب» (١٣/ ٥٠٥).

(٣١) ـ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مثلَ جزاءِ ما كانوا عليه دائبًا مِن الكفرِ وإيذاءِ الرُّسُلِ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقومِ لُوطٍ.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ فلا يُعاقِبُهم بغيرِ ذنبٍ ولا يُخلِّي الظَّالمَ منهم بغيرِ انتقامٍ، وهو أبلغُ مِن قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦][1] مِن حيثُ إنَّ المنفيَّ فيه نفيُ حُدوثِ تَعلُّقِ إرادَتِه بالظُّلم.

(٣٢) ـ ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾: يومَ القيامةِ، ينادي فيه بعضُهُم بعضًا للاستغاثةِ، أو يتصايَحُونَ بالويلِ والثُّبورِ، أو يتنادَى أصحابُ الجنَّةِ وأصحابُ النَّارِ كما حكى في (الأعراف).

وقُرِئَ بالتَّشديدِ[2]، وهو أن يَنِدَّ بعضُهم مِن بعضٍ، كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤].

(٣٣) ـ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ عن الموقفِ ﴿مُدْبِرِينَ﴾: منصرفينَ عنه إلى النَّارِ، وقيل: فارِّينَ عنها ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمُكُم مِن عَذابِه، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

(٣٤) ـ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ يوسفُ بنُ يعقوبَ على أنَّ فِرعونَهُ فرعونُ موسَى، أو على نسبَةِ أحوالِ الآباءِ إلى الأولادِ، أو سبطُه يوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يوسفَ.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ مِن قبلِ موسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمُعجزاتِ ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ مِن الدِّينِ ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ ماتَ ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ ضمًّا

---

(١) لأن نفي إرادة الشيء أبلغ من نفيه، ونفي النكرة أشمل إذ معناه لا يريد شيئاً من الظلم خصوصاً، والآية الثانية فيها نفي المبالغة، وقد ذكر ثمة أن فيها مبالغة من وجه آخر، قاله الخفاجي «حاشيته»، بتصرف.

(٢) أي: (التنادّ) بتشديد الدال، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٤٣)، عن ابن عباس والضحاك، وذكرها الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣١٨) دون نسبة.

إلى تكذيبِ رِسالَتِه تكذيبَ رِسالةِ مَن بعدَهُ، أو جزمًا بأَنْ لا يُبعَثَ بعدَهُ رَسولٌ مع الشَّكِّ في رسالتِهِ.

وقُرِئَ: (أَلَنْ يَبْعَثَ اللهُ)[1] على أنَّ بعضَهُم يُقرِّرُ بعضًا بنَفْيِ البعثِ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلكَ الإضلالِ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في العِصْيَانِ، ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ فيما يشهَدُ به البيِّناتُ لغَلَبةِ[2] الوهمِ والانهماكِ في التَّقليدِ.

(٣٥) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ مِن الموصولِ الأوَّلِ لأنَّه بمَعنى الجمعِ.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ بغيرِ حُجَّةٍ، بل إمَّا بتقليدٍ أو شُبهَةٍ داحِضَةٍ ﴿أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ضميرُ (مَنْ)، وإفرادُهُ للَّفْظِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُبتدأً وخبرُهُ ﴿كَبُرَ﴾ على حذفِ مُضافٍ؛ أي: وجدالُ[3] الذين يجادِلُونَ كَبُرَ مَقْتًا أو بغيرِ سلطانٍ، وفاعِلُ ﴿كَبُرَ﴾: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كَبُرَ مقتًا مثلُ ذلك الجدالِ، فيكونُ قولُه: ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ استئنافًا للدَّلالةِ على الموجِبِ لجِدالِهم.

وقرَأَ أبو عمرٍو وابنُ ذكوانَ[4]: ﴿قلبٍ﴾ بالتَّنوينِ[5] على وصفِه بالتَّكبُّرِ والتَّجبُّرِ لأنَّه مَنبَعُهُما كقولِهم: رأَتْ عَيني وسَمِعَتْ أُذُني، أو على حذفِ مُضافٍ؛ أي: على كلِّ ذي قلبٍ مُتكبِّرٍ.

---

(١) انظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ١٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٥٩)، عن أبيٍّ وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بغلبة».

(٣) في نسخة الفاروقي: «وجدل».

(٤) في نسخة الفاروقي: «لجدالهم وقُرِئَ».

(٥) والباقون بترك التنوين، انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٩١).

(٣٦) ـ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ بناءً مَكشُوفًا عالِيًا، مِن صَرَّحَ الشَّيءُ: إذا ظهرَ.

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ الطُّرقَ.

(٣٧) ـ ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ بيانٌ لها، وفي إبهامِها ثمَّ إيضاحِها تَفخيمٌ لشَأْنِها وتَشويقٌ للسَّامعِ إلى مَعرِفَتِها.

﴿فأطَّلعُ إلى إلهِ مُوسَى﴾ عطفٌ على ﴿أَبْلُغُ ﴾، وقرأَ حَفصٌ بالنَّصبِ[1] على جوابِ التَّرجِّي، ولعلَّهُ أرادَ أَنْ يَبنِيَ له رَصَدًا في موضعٍ عالٍ يرصُدُ منه أحوالَ الكواكبِ التي هي أسبابٌ سَماويَّةٌ تَدلُّ على الحوادثِ الأرضيَّةِ فيَرَى هل فيها ما يدلُّ على إرسالِ اللهِ تَعالى إيَّاه.

أو: أن يُرِيَ فسادَ قولِ مُوسى بأنَّ إخبارَهُ مِـن إلهِ السَّماءِ يتوقَّفُ[2] على اطلاعِه ووُصولِه إليه، وذلك لا يَتأَتَّى إلا بالصُّعودِ إلى السَّماءِ وهو ممَّا لا يَقْوَى عليهِ الإنسانُ وذلك لجَهْلِه باللهِ وكيفيَّةِ استنبائِه.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دَعْوَى الرِّسالةِ[3].

﴿وَكَذَٰلِكَ ﴾ ومثلَ ذلك التَّزيينِ ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيلِ الرَّشادِ، والفاعِلُ على الحقيقَةِ هو اللهُ، ويدلُّ عليه أنَّه قُرِئَ: (وزَيَّنَ) بالفتحِ[4]، وبالتوسُّطِ الشَّيطانُ.

---

(١) أي: ﴿فأطلعَ﴾، وقراءة الباقين بالرفع، انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٢).

(٢) في نسخة الفاروقي: «متوقفٌ».

(٣) في نسخة الفاروقي: «النبوة».

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ٥٧٩)، و«البحر» (١٨/ ٤٢٨).

وقرأ الحِجازيَّانِ والشَّاميُّ وأبو عمرٍو: ﴿وصَدَّ﴾[1] على أنَّ فِرعونَ صَدَّ النَّاسَ عَنِ الهُدى بأمثالِ هذه التَّمويهاتِ والشُّبُهاتِ، ويؤيِّدُه: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خَسَارٍ.

(٣٨) ـ ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ يعني مُؤمِنَ آلِ فرعونَ، وقيل: موسى: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ بالدَّلالةِ ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ سبيلًا يَصِلُ سالِكُهُ إلى المقصودِ، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما عليه فرعونُ وقومُهُ سبيلُ الغَيِّ.

(٣٩) ـ ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ تمتُّعٌ يَسيرٌ لسُرعَةِ زَوالِها ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لخُلودِها.

(٤٠) ـ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلًا مِن اللهِ، وفيه دليلٌ على أنَّ الجناياتِ تُغْرَمُ بمِثْلِها.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغيرِ تَقديرٍ ومُوازنَةٍ بالعملِ بل أضعافًا مُضاعفَةً فضلًا منهُ ورَحمةً، ولعلَّ تقسيمَ العُمَّالِ، وجعلَ الجزاءِ جُملَةً اسميَّةً مُصدَّرَةً باسمِ الإشارةِ، وتفضيلَ الثَّوابِ[2] لتَغليبِ الرحمَةِ، وجَعَلَ العملَ عُمدَةً والإيمانَ حالًا؛ للدَّلالةِ على أنَّه شَرطٌ في اعتبارِ العملِ، وأنَّ ثوابَهُ أعلى مِن ذلكَ.

(٤١) ـ ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ كرَّرَ نِداءَهُم إيقاظًا لهم عَن سِنَةِ الغَفلَةِ، واهتمامًا بالمُنادى له، ومبالغةً في تَوبيخِهم على ما

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٧١)، و«التيسير» (ص: ١٣٣)، و«النشر» (٢/ ٢٩٨).

(٢) قوله: «وتفضيل الثواب»: بالضاد المعجمة في جميع النسخ، وكذا قاله الخفاجي في «حاشيته» والمعنى: أنه جعله زائداً على العمل لكونه أضعافاً مضاعفة له. ثم قال: وجوِّز كونه بالصاد المهملة؛ أي جعله مفصلاً.

يقابلونَ به نُصحَهُ، وعَطفهُ[١] علـى النِّداءِ الثَّاني الدَّاخلِ على ما هو بيانٌ لِمَا قبلَهُ، ولذلك لم يَعطِف على الأوَّلِ؛ فإنَّ ما بعدَهُ أيضًا تفسيرٌ لِمَا أَجمَلَ فيه تصريحًا أو تعريضًا[٢] أو على الأوَّلِ.

(٤٢) ـ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدلٌ أو بيانٌ فيه تعليلٌ، والدُّعاءُ كالهدايةِ في التَّعدِيَةِ بـ(إلى) واللامِ.

﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ﴾ برُبوبيَّته ﴿عِلْمٌ﴾ والمرادُ نفيُ المعلومِ والإشعارُ بأنَّ الأُلوهِيَّةَ لا بُدَّ لها مِن بُرهانٍ واعتقادَهَا لا يَصِحُّ إلا عَنْ إيقانٍ.

﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ المستجمعِ لصِفَاتِ الأُلـوهيَّةِ مِـن كَـمالِ القُدرَةِ والغَلَبَةِ وما يتوقَّفُ عليه مِن العلمِ والإرادةِ والتَّمكُّنِ مِن المُجازاةِ والقُدرَةِ على التَّعذيبِ والغُفرانِ.

(٤٣) ـ ﴿لَا جَرَمَ﴾ (لا) ردٌّ لِمَـا دعـوهُ إليه و﴿جَرَمَ﴾ فَعَلَ بمعنى: حقَّ، وفاعِلُه: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: حـقَّ عـدمُ دَعـوةِ آلهتِكُم إلـى عِبادَتِهـا أَصْـلًا؛ لأنَّها جمـاداتٌ ليسَ لها مـا يَقتَضِـي أُلوهِيَّتَها، أو: عـدمُ دَعوَةٍ مُستجابةٍ، أو: عـدمُ استجابةِ دعوةٍ لها.

وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ بمَعنى كَسَبَ وفاعِلُه مُستكِنٌّ فيه؛ أي: كَسَبَ ذلك الدُّعاءَ إليه أَنْ لا دعوةَ له؛ بمعنى: ما حصلَ مِن ذلك إلا ظهورُ بُطلانِ دَعوَتِه.

وقيل: فَعَلٌ مِن الجَرْمِ بمعنى القَطْعِ، كمَا أنَّ (بُدًّا) مِن (لا بُدَّ) فُعْلٌ مِن (التَّبديدِ)

---

(١) قوله: «وعطفه»: اسم مبتدأ، أو فعل ماض معطوف على «كرر نداءهم». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الفاروقي: «وتعريضًا». وهي في نسخة كما قال الخفاجي في «حاشيته».

وهو التَّفريقُ، والمعنى: لا قطعَ لبُطلانِ دعوةِ[1] أُلوهيَّةِ الأصنامِ؛ أي: لا ينقطِعُ في وقتٍ ما فتَنْقَلِبُ حقًّا، ويؤيِّدُه قولُهم: (لا جُرْمَ أنَّه يفعلُ) لغةٌ فيه كالرُّشْدِ والرَّشَدِ.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالموتِ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الضَّلالةِ والطُّغيانِ كالإشراكِ وسَفْكِ الدِّماءِ ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ مُلازِمُوها.

(٤٤) - ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ فسيذكرُ بعضُكُم بعضًا عند مُعاينةِ العَذابِ ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مِن النَّصيحةِ ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ ليعصمَني مِن كُلِّ سُوءٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرسُهُم، فكأنَّهُ جوابُ تَوعُّدِهِم المفهومِ مِن قولِه:

(٤٥) - ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شَدائدَ مَكرِهِم، وقيل: الضَّميرُ لِمُوسى.

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ بفِرْعَونَ وقومِه، واستغنى بذِكرِهِم عَن ذكرِهِ للعلمِ بأنَّه أَوْلَى بذلك.

وقيل: بطَلَبةِ المؤمنِ مِن قومِهِ، فإنَّه فرَّ منه إلى جبلٍ فأَتْبعهُ طائفَةً فوَجدوهُ يُصَلِّي والوحوشُ صفوفٌ حولَهُ فرَجَعُوا رعبًا، فقتلَهُم.

﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرقُ، أو القتلُ، أو النَّارُ.

(٤٦) - ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملةٌ مُستأنفَةٌ، أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبرُ مَحذوفٍ و﴿يُعْرَضُونَ﴾ استئنافٌ للبيانِ، أو بدلٌ و﴿يُعْرَضُونَ﴾ حالٌ مِنها أو من الآلِ.

وقُرِئَتْ مَنصوبةً[2] على الاختصاصِ أو بإضمارِ فعلٍ يُفَسِّرُه ﴿يُعْرَضُونَ﴾

(١) في نسخة الخيالي: «دعوى».

(٢) أي: (النَّارَ)، انظر: «الكشاف» (٧/ ٥٨٥)، و«البحر» (١٨/ ٤٣٢)، وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٩)، لكن لم يصرح بأنها قراءة.

مثل: يُصْلَوْنَ؛ فإنَّ عرضَهُم على النَّارِ إحراقُهُم بها مِن قولِهِم: عُرِضَ الأُسارى على السَّيفِ: إذا قُتِلُوا به، وذلك لأرواحِهِم كما روى ابنُ مَسعودٍ: إنَّ أرواحَهُم في أَجوافِ طَيرٍ سُودٍ تُعرَضُ على النَّارِ بُكرةً وعَشِيًّا إلى يومِ القيامَةِ.

وذكرُ الوَقتينِ يحتملُ التَّخصيصَ والتَّأبيدَ، وفيهِ دَليلٌ على بقاءِ النَّفسِ وعَذابِ القَـبـرِ.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: هذا ما دامَت الدُّنيا، فإذا قامَتِ السَّاعَةُ قيلَ لهم: ﴿أُدْخُلُوا آلَ فِرعونَ﴾ يا آلَ فِرعونَ ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ عذابَ جهنَّمَ، فإنَّه أشَدُّ مما كانوا فيهِ أو أشدُّ عذابِ جَهنَّمَ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ ونافِعٌ ويعقوبُ وحَفصُ ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾[1] على أمرِ الملائكَةِ بإدخالِهم النَّارَ.

(٤٧) ـ ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ واذكُرْ وقتَ تَخاصُمِهِم فيها، ويحتملُ عطفه على ﴿غُدُوًّا﴾.

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ تفصيلٌ لهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تُبَّاعًا كخَدَمٍ في جمعِ خادِمٍ، أو ذَوِي تَبَعٍ بمعنى اتّباعٍ؛ على الإضمارِ أو التَّجوُّزِ.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بالدَّفعِ أو الحملِ، و﴿نَصِيبًا﴾ مفعولٌ لِمَا دَلَّ عليهِ ﴿مُّغْنُونَ﴾، أو له بالتَّضمينِ[2]، أو مَصدرٌ كـ(شيئًا) في قولِه: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠]، فيكون ﴿مِّنَ﴾ صِلَةً لـ﴿مُّغْنُونَ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢)، و«النشر» (٢/ ٣٦٥).

(٢) قوله: «مفعول»؛ أي به «لما دلَّ عليه مغنون»؛ أي: هل أنتم دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾، «أوله» أي: أو مفعول لـ ﴿مُّغْنُونَ﴾ «بالتضمين»؛ أي: بتضمنه معنى (حاملين) «حاشية الأنصاري» (٥/ ٥٧).

(٤٨) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ نحن وأنتُمْ فكيفَ نُغْنِي عَنْكُم ولـو قَدَرْنا لأغنينا عَنْ أنفُسِنَا.

وقُرِئَ: (كُلًّا)(١) على التَّأكيدِ؛ لأنَّه بمعنى: كلُّنا، وتنوينُه عِوَضٌ عن المضافِ إليهِ، ولا يجوزُ جعلُهُ حالًا مِن المُستكنِّ في الظَّرفِ، فإنَّه لا يعمَلُ في الحالِ المُتقدِّمَةِ كمَا يعملُ في الظَّرفِ المُتقدِّمِ كقولك: كلَّ يومٍ لكَ ثوبٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ بأَنْ أدخلَ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلَ النَّارِ النَّارَ ولا مُعَقِّبَ لحُكمِه.

(٤٩) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي: لخَزَنَتِها، ووَضعُ (جهنَّمَ) مَوضِعَ الضَّميرِ للتَّهويلِ أو لبيانِ مَحَلِّهِم فيها، إذ يحتملُ(٢) أن تكونَ جَهَنَّمُ أبعدَ دَرَكاتِها مِن قَوْلِهم: بِئْرٌ جِهِنَّامٌ: بعيدةُ القَعْرِ.

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قدرَ يومٍ ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ شيئًا مِن العَذابِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ المفعولُ ﴿يَوْمًا﴾ بحذفِ المضافِ و﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ بيانُه.

(٥٠) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أرادوا بهِ إلزامَهُم للحُجَّةِ، وتوبيخَهُم على إضاعَتِهِم أوقاتَ الدُّعاءِ وتعطيلِهِم أسبابَ الإجابةِ.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ فإنَّا لا نجترئُ فيه(٣) إذ لم يُؤذَنْ لنا في الدُّعاءِ لأَمثالِكُم، وفيه إقناطٌ لَهُم عن الإجابةِ.

---

(١) نسبت لابن السميفع، انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٢١٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٦٣)، و«البحر» (١٨/ ٤٣٥).

(٢) في نسخة الخيالي: «ويحتمل».

(٣) قال الشهاب في «حاشيته»: يعني ليس المقصود أمرهم بالدعاء، بل امتناعهم من الدعاء مع التوبيخ، وامتناعهم منه يتضمن إقناطهم من الإجابة لهم.

﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ في[1] ضياعٍ لا يُجَابُ.

(٥١) ـ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالحُجَّةِ والظَّفرِ والانتقامِ لَهُم مِن الكفرةِ، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ أي: في الدَّارينِ، ولا ينتقضُ ذلك بما كانَ لأعدائهم عليهم[2] مِن الغلبةِ امتحانًا[3]؛ إذ العبرةُ بالعواقبِ وغالبِ الأمرِ.

و﴿ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾: جمعُ شاهدٍ كصَاحبٍ وأَصحابٍ، والمرادُ بهم: مَن يَقومُ يومَ القِيامَةِ للشَّهادةِ على النَّاسِ مِن الملائكةِ والأنبياءِ والمُؤمنينَ.

(٥٢) ـ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدلٌ مِن الأوَّلِ، وعدمُ نَفعِ المعذرَةِ؛ لأَنَّها باطِلَةٌ، أو لأنَّه لا يُؤذَنُ لهم فيعتذرونَ.

وقرأَ غيرُ الكوفِيِّينَ ونافعٌ بالتَّاءِ[4].

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ البعدُ مِن الرَّحمَةِ ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ جهنَّمُ.

(٥٣) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يُهتدى به في الدِّينِ[5] مِن المعجزاتِ والصُّحُفِ والشَّرائعِ، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وتَركْنا عليهم بعدَهُ مِن ذلك التَّوراةَ.

---

(١) «في» من نسخة التفتازاني.

(٢) في كل النسخ عدا نسخة الفاروقي: «لهم» بدل: «لأعدائهم عليهم».

(٣) في نسخة الفاروقي: «أحياناً».

(٤) من قوله: «وقرأ غير الكوفيين ونافع بالتاء»: ليس في نسخة الفاروقي، انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢)، و«التيسير» (٢/ ٣٦٥).

(٥) في نسخة الخيالي: «الدارين».

(٥٤) ـ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ هدايةً وتذكرةً[١]، أو هاديًا ومُذكِّرًا[٢] ﴿لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ لذَوِي العُقولِ السَّليمَةِ.

(٥٥) ـ ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذى المشركينَ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بالنَّصرِ لا يُخْلِفُهُ واستشهِدْ[٣] بحالِ مُوسى وفِرعونَ، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ وأقبِلْ على أمرِ دينك، وتدارَكْ فَرَطاتِكَ بتركِ[٤] الأَولى والاهتمامِ بأمرِ العِدَى بالاستغفارِ؛ فإنَّهُ تَعالى كافيكَ بالنَّصرِ[٥] وإظهارِ الأمرِ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ ودُمْ على التَّسبيحِ والتَّحميدِ لرَبِّك.

وقيل: صَلِّ لهذينِ الوقتينِ؛ إذ كان الواجبُ بمكَّةَ ركعتينِ بُكْرةً وركعتينِ عَشِيًّا.

(٥٦) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ عامٌّ في كلِّ مُجادِلٍ مُبطِلٍ وإن نزلَت في مُشركي مكَّةَ أو اليهودِ حينَ قالوا: لستَ صاحبَنا بل هو المسيحُ بن داودَ[٦] يبلُغُ سلطانُهُ البرَّ والبحرَ ويسيرُ معه الأنهارُ[٧].

﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إلا تكبُّرٌ عن الحقِّ وتعظُّمٌ عَن التَّفكُّرِ والتَّعلُّمِ، أو إرادةُ الرِّياسَةِ، أو أنَّ النبوَّةَ والملكَ لا يكونان[٨] إلا لهم، ﴿مَا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ ببالغِي دفعِ الآياتِ أو المرادِ.

---

(١) في هامش نسخة الفاروقي: «إشارة إلى أنهما مفعول له».

(٢) في هامش نسخة الفاروقي: «إشارة إلى أنهما حال».

(٣) قوله: «واستشهد»: إما هو بصيغة الأمر، أو هو بصيغة الماضي. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «كترك».

(٥) في نسخة الفاروقي: «في النصر»، وفي نسخة التفتازاني: «من النصر».

(٦) يريدون: الدجال. كما في «الكشاف» (٧/ ٥٩١).

(٧) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، و«الكشاف» (٧/ ٥٩١).

(٨) في كل النسخ ما عدا نسخة الخيالي: «يكون».

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتَجِئ إليه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لأقوالِكُم وأفعالِكُم.

(٥٧) ـ ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فمَنْ قَدَرَ على خلقِها مع عِظَمِها أوَّلًا مِن غيرِ أصلٍ قَدَرَ على خلقِ الإنسانِ ثانيًا مِن أصلٍ وهو بيانٌ لأشْكَلِ ما يُجادِلُونَ فيه من أمرِ التَّوحيدِ.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنَّهُم لا ينظرونَ ولا يتأمَّلُونَ لفرطِ غَفْلَتِهِم واتِّباعِهِم أهواءَهُم.

(٥٨) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ الغافلُ والمُستَبْصِرُ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ والمحسِنُ والمُسيءُ، فينبَغِي أن يكونَ لَهُم حالٌ يظهرُ فيها التَّفاوُتُ وهي فيما بعدَ البَعثِ، وزيادةُ (لا) في المُسيءِ؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ مساواتِه للمُحسنِ فيما له مِن الفضلِ والكرامةِ.

والعاطفُ الثَّاني عطفَ المَوصولَ[1] بما عُطِفَ عليه على الأَعمى والبَصيرِ؛ لتَغايُرِ الوَصْفَيْنِ في المقصودِ، أو الدّلالةِ بالصَّراحةِ والتَّمثيلِ.

﴿قليلًا ما يتذكَّرونَ﴾ أي: تَذكُّرًا ما قليلًا يَتذكَّرونَ، والضَّمِيرُ للنَّاسِ أو الكُفَّارِ[2].

---

(١) قوله: (والعاطف الثاني عطف الموصول...) إلخ إشارة إلى أن المراد عطف المجموع على المجموع كما في قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ولم يترك العطف بينهما لأن الأول مشبه به والثاني مشبه فهما بحسب المآل متحدان، فكان ينبغي ترك العطف بينهما لأن كلاً من الوصفين مغاير لكل من الوصفين الآخرين، وتغاير الصفات كتغاير الذوات في صحة التعاطف، ووجه التغاير أن الغافل والمتبصر والمحسن والمسيء صفات متغايرة الفهوم بقطع النظر عن اتحاد ما صدقها، وعدمه ولا حاجة إلى القول بأن القصد في الأولين إلى العلم وفي الآخرين إلى العمل، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٢) في نسخة الخيالي: «أو للكفار».

وقرأ الكوفيُّونَ بالتَّاءِ[1] على تغليبِ المُخاطبِ، أو الالتفاتِ، أو أمرِ الرَّسولِ بالمُخاطبَةِ.

(٥٩) - ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ في مَجيئِهَا؛ لوُضوحِ الدَّلالةِ على جوازِهَا، وإجماعِ الرُّسُلِ على الوعدِ بوُقوعِها.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدِّقونَ بها؛ لقُصورِ نَظرِهِم على ظاهرِ ما يحسُّونَ به.

(٦٠) - ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ اعبُدُوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أُثِبْكُم[2]؛ لقولِه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرينَ، وإنْ فُسِّرَ الدُّعاءُ بالسُّؤالِ كان الاستكبارُ الصَّارِفُ عنه مُنزَّلًا مَنزِلَتَهُ للمُبالغَةِ، أو المرادُ بالعبادةِ الدُّعاءُ فإنَّه مِن أبوابِها.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ: ﴿سيُدْخَلُونَ﴾ بضمِّ الياءِ وفَتحِ الخاءِ[3].

(٦١) - ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ لتَسْتَريحُوا فيه؛ بأن خلقَهُ بارِدًا مُظلمًا ليؤدِّيَ إلى ضعفِ المُحرِّكاتِ وهدوءِ الحواسِّ.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبصَرُ فيه أو بِهِ، وإسنادُ الإبصارِ إليه مَجازٌ فيه مُبالغةٌ، ولذلك عُدِلَ بِهِ عن التَّعليلِ إلى الحالِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لا يُوازيـهِ فضـلٌ، وللإشـعارِ بـه لـم يَـقُل: لمُفضِّـلٌ.

---

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم، انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «أثب لكم».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢)، و«النشر» (٢/ ٢٥٢).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجَهْلِهِم بالمنعمِ، وإغفالِهِم مواقِعَ النِّعَمِ. وتكريرُ النَّاسِ؛ لتَخصيصِ الكُفرانِ بهم.

(٦٢) ـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصوصُ بالأفعالِ المُقتَضِيَةِ للألوهيَّةِ والرُّبوبِيَّةِ، ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبارٌ مُترادِفَةٌ، تُخصِّصُ اللاحقَةُ السَّابقةَ وتُقرِّرُهَا.

وقُرِئَ: (خالِقَ) بالنَّصبِ[1] على الاختصاصِ، فيكونُ ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافًا بما هو كالنَّتيجَةِ للأوصافِ المذكورةِ.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيفَ ومِن أيِّ وجهٍ تُصرَفُونَ مِن عبادتِهِ إلى عبادَةِ غيرِهِ؟!

(٦٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كمَا أُفِكُوا أُفِكَ عَنِ الحقِّ كلُّ مَن جحدَ بآياتِ الله ولم يَتأمَّلْهَا.

(٦٤) ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ استدلالٌ ثانٍ بأفعالٍ أُخَرَ مَخصوصةٍ.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأَنْ خَلقَكُم مُنتصبَ القامةِ باديَ البشرةِ مُتناسبَ الأعضاءِ والتَّخطيطاتِ مُتهيِّأً لِمُزاولَةِ الصِّناعاتِ[2] واكتسابِ الكَمالاتِ.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللَّذائذِ.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنَّ كُلَّ ما سِواهُ مربوبٌ مُفتَقِرٌ بالذَّاتِ معرَّضٌ للزَّوالِ.

---

(١) انظر: «البحر» (١٨/ ٤٤٦) عن زيد بن علي.

(٢) في نسخة التفتازاني: «الصنائع».

(٦٥) ـ ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ المتفرِدُ بالحياةِ الذَّاتيةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجودَ يُساويهِ أو يُدانيهِ في ذاتِهِ وصِفاتِه، ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾ فاعبدوهُ ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطَّاعةَ مِن الشِّركِ والرِّياءِ، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قائلينَ له.

(٦٦) ـ ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ مِـن الحججِ والآياتِ، أو مِـن الآياتِ فإنَّها مقويةٌ لأدلَّةِ العقلِ منبِّهةٌ عليها، ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أَنْ أنقادَ له وأخلصَ له ديني.

(٦٧) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أطفالًا، والتَّوحيدُ لإرادةِ الجنسِ، أو على تأويلِ كلِّ واحدٍ مِنْكُم.

﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ اللَّامُ فيه مُتعلِّقَةٌ بمَحذوفٍ تَقديرُهُ: ثـمَّ يُبقيـكُمْ لتَبْلُغوا، وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾، ويجوزُ عَطفُهُ على ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾.

وقُرِئَ[1]: ﴿شِيوخًا﴾ بالكسرِ[2]، و(شِيْخًا)[3] لقولِه ﴿طِفۡلٗا﴾.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ﴾ مِن قبلِ الشَّيخوخَةِ، أو بلوغِ الأَشُدِّ، ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ ويفعلُ ذلك لتَبْلُغوا ﴿أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ هو وقتُ المَوتِ أو يومُ القِيامةِ.

---

(١) فـي نسـخة التفتازاني: «لتبلغـوا وقرأ نافع وأبـو عمرو وحفص وهشـام» بدل: «وقـرئ»، والمثبت مـن بقيـة النسـخ، ولعل عبـارة النسـخة نسـخة التفتازاني غيـر تامّة، قـال الأنصاري في «حاشـيته» (٥/ ٦٣ ـ ٦٤): «وقـرأ نافـع وأبـو عمـرو وحفـص وهشـام ﴿شُيُوخاً﴾ بضم الشـين»: سـاقط من نسـخ، وبتقديـر ثبوتـه وصحتـه كان الأنسـب أن يقـول بـدل قولـه: «وقرئ ﴿شـيوخاً﴾ بالكسـر»: والباقون بالكسـر، اهـ. وانظـر التعليق الآتي.

(٢) وهـي قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وابن ذكوان وأبو بكر، انظر: «السبعة» (ص: ١٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٩٢)، و«النشر» (٢/ ٢٢٦).

(٣) انظر: «الكشاف» (٧/ ٥٩٨).

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك مِن الحُججِ والعِبَرِ.

(٦٨) ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ فإذا أرادَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فـلا يحتاجُ في تكوينِهِ إلى عُدَّةٍ وتَجشُّمِ كُلْفةٍ.

والفاءُ الأولى للدَّلالةِ على أنَّ ذلك نتيجةُ ما سبقَ مِن حيثُ إنَّه يَقتَضِي قدرةً ذاتيَّةً غيرَ مُتوقِّفَةٍ على العُدَدِ والموادِّ.

(٦٩) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ عن التَّصديقِ بـه، وتكريرُ ذمِّ المُجادلةِ؛ لتعدُّدِ المجادِلِ، أو المجادَلِ فيهِ، أو للتَّوكيدِ.

(٧٠) ـ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ بالقُـرآنِ، أو بجنـسِ الكُتُبِ السَّـماويَّةِ، ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ مِـن سـائرِ الكُتـبِ، أو الوحـيِ والشَّـرائعِ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جـزاءَ تكذيبِهـم.

(٧١ ـ ٧٢) ـ ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ظرفٌ لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إذ المعنى على الاستقبالِ، والتَّعبيرُ بلفظِ المُضيِّ[1] لتيقُّنِه.

﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ عطفٌ عـلى ﴿الأغـلال﴾، أو مُبتدأٌ خبرُه: ﴿يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ﴾، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: يُسحَبُونَ بها، وهو على الأوَّلِ حالٌ.

وقُـرِئَ: (والسَّلاسِـلَ يَسْـحَبُونَ) بالنَّصبِ وفتحِ اليـاءِ[2] على تقديـمِ المفعولِ وعطـفِ الفِعليَّـةِ علـى الاسـميَّةِ، و(السَّلاسـلِ) بالجـرِّ[3] حمـلًا علـى المعنـى؛ إذ

---

(١) في نسخة الخيالي: «الماضي».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٤٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٧٨)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٢٣٣)، و«إعراب القرآن» له (٤/ ٣١)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢/ ٦٣٨)، و«الكشاف» (٧/ ٥٩٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٦٩)، و«البحر» (١٨/ ٤٥٠).

الأغـلالُ فـي أعناقِهـم بمعنى: أعناقُهُم فـي الأَغـلالِ، أو إضمارًا للبـاءِ، ويدلُّ عليه القراءةُ به(١).

﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ يُحْرَقونَ، مِن سَجَرَ التَّنُّورَ: إذا ملأهُ بالوقودِ.

ومِنهُ: السَّجِيرُ(٢) للصَّدِيقِ كأنَّه سُجِرَ بالحُبِّ؛ أي: مُلِئَ، والمرادُ أنَّهُم يُعذَّبُونَ(٣) بأنواعٍ مِن العَذابِ وينقلونَ مِن بعضِهَا إلى بعضٍ.

(٧٣ ـ ٧٤) ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابُـوا عنـا، وذلك قبـلَ أَنْ يُقرَنَ بهـم آلهتُهـم، أو ضاعوا عنَّا فلـم نَجِدْ مِنْهُـم ما كُنَّا نَتوقَّـعُ منهم.

﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗا﴾ أي: بَلْ تبيَّنَ لَنا أنَّا لم نَكُن نعبدُ شيئًا بعبادَتِهِم فإنَّهُم ليسوا شيئًا يُعتَدُّ به، كقولك: حَسِبْتُه شيئًا؛ فلَمْ يَكُن.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ هذا(٤) الضَّلالِ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حتَّى لا يَهْتَدُوا إلى شيءٍ ينفَعُهُم في الآخرةِ، أو يضلُّهُم عَن آلِهَتِهِم حتَّى لو تَطَالَبُوا لَمْ يَتصادَفُوا.

(٧٥) ـ ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضـلالُ ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تبطرونَ وتَتكبَّرُونَ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو الشِّركُ والطُّغيانُ ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ تتوسَّعُونَ في الفرحِ، والعُدولُ إلى الخطابِ للمُبالغَةِ في التَّوبيخِ.

---

(١) أي: «وبالسلاسل يسحبون»، وهي قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٢٣٣)، وذكرها عنه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٦٩)، وأبو حيان في «البحر» (١٨/ ٤٥٠) بلفظ: (وفي السلاسل).

(٢) قوله: «ومنه السجير»، سجير الرجل خليله وصفيه، انظر: «الصحاح» (مادة: سجر).

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «والمراد تعذيبهم».

(٤) في نسخة التفتازاني: «ذلك».

(٧٦) ـ ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأبوابَ السَّبعةَ المقسومةَ لكُم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدِّرينَ الخُلودَ، ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ عَن الحقِّ جهنَّمُ، وكان مُقتضى النَّظمِ: فبِئْسَ مدخَلُ المُتكبِّرينَ، ولكن لَمَّا كان الدُّخولُ المقيَّدُ بالخلودِ سببَ الثَّواءِ عبَّرَ بالمَثْوَى[1].

(٧٧) ـ ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بهلاكِ الكُفَّارِ ﴿حَقّٞ﴾ كائنٌ لا مَحالةَ.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ فإنْ نُرِكَ، و(ما) مَزيدةٌ لتأكيدِ الشَّرطيَّةِ ولذلك لحقَتِ[2] النُّونُ الفِعلَ، ولا تلحقُ مع (إن) وحدَها.

﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ وهو القتلُ والأسرُ، ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ أَنْ تراهُ.

﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ يومَ القيامةِ فنجازيهم بأعمالِهم، وهو جوابُ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوفٌ مثلُ: فذاكَ.

ويجوزُ أن يكونَ جوابًا لهما بمعنى: إنْ نُعذِّبهُم في حياتِكَ أو لم نُعذِّبْهم فإنَّا نُعذِّبُهم في الآخرةِ أشدَّ العَذابِ، ويدلُّ على شِدَّتِه الاقتصارُ بذكرِ الرُّجوعِ في هذا المَعرِضِ.

(٧٨) ـ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾ إذ قيلَ: عددُ الأنبياءِ مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعِشرونَ ألفًا، والمذكورُ قِصَّتُهم أشخاصٌ مَعدودةٌ.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ المُعجزاتِ عطايا قسَمَها بينَهُم

---

(١) في نسخة الفاروقي: «ذكر المثوى».

(٢) في نسخة التفتازاني: «ألحقت».

على ما اقتضَتْه حكمتُه كسائرِ القِسَمِ ليسَ لهم[١] اختيارٌ في إيثارِ بعضِها والاستبدادِ بإتيانِ المقترحِ بها.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بالعذابِ في الدُّنيا أو الآخرةِ ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ بإنجاءِ المُحِقِّ وتعذيبِ المُبطِلِ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندونَ باقتراحِ الآياتِ بعدَ ظُهورِ ما يُغنيهم عنها.

(٧٩) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فإنَّ مِن جنسِها ما يُؤكَلُ كالغنمِ، ومِنْهَا ما يُؤكَلُ ويُركَبُ وهو الإبلُ والبقرُ.

(٨٠) ـ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كالألبانِ والجُلودِ والأوبارِ، ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بالمُسافرَةِ عليها، ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البرِّ ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البَحرِ ﴿تُحْمَلُونَ﴾.

وإنَّما قال: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، ولم يقل: (في الفُلكِ)؛ للمُزاوجَةِ.

وتَغييرُ النَّظْمِ في الأكلِ؛ لأنَّهُ في حَيِّزِ الضَّرورَةِ. وقيل: لأنه يُقصَدُ به التَّعيُّشُ والتَّلذُّذُ.

والرُّكوبُ، والمسافرةُ عليها قد تكونُ لأغراضٍ دينيَّةٍ واجبَةٍ أو مندوبةٍ.

أو للفرقِ بين العينِ والمنفعَةِ.

(٨١) ـ ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائِلَهُ الدَّالَّةَ على كمالِ قُدرَتِه وفرطِ رَحمَتِه.

﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: أيَّ آيةٍ مِن تلك الآياتِ ﴿تُنكِرُونَ﴾ فإنَّها لِظُهورِهَا لا تقبَلُ الإنكارَ، وهو ناصبُ (أيَّ)، إذ لَوْ[٢] قدَّرْتَهُ مُتعلِّقًا بضَمِيرِهِ كانَ الأَوْلَى رفعُهُ، والتَّفرِقَةُ بالتَّاءِ في (أي) أغرَبُ منها في الأسماءِ غيرِ الصِّفاتِ لإبهامِه.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لهم فيه».

(٢) في نسخة الفاروقي: «ولو».

(٨٢) ـ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ما بَقِيَ مِنْهُم مِن القُصورِ والمصانعِ ونحوهما.

وقيل: آثارَ أقدامِهم في الأرضِ لعِظَمِ أَجرامِهِم.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ الأولى نافِيَةٌ أو استفهاميَّةٌ مَنصوبَةٌ بـ(أغنى)، والثَّانيةُ موصولةٌ أو مَصدريَّةٌ مرفوعةٌ به.

(٨٣) ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ بالمُعجِزَاتِ أو الآياتِ الواضحاتِ ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ واستحقرُوا علمَ الرُّسلِ، والمرادُ بالعلمِ عَقائِدُهُم الزَّائفةُ وشُبَهُهم الدَّاحِضَةُ كقوله: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [النمل: ٦٦] وهو قولهم: لا نُبعَثُ، ولا نُعذَّبُ، وما أظنُّ السَّاعةَ قائمةً، ونحوُها.

وسمَّاها عِلْمًا على زَعمِهِم تهكُّمًا بهم، أو مِن علمِ الطَّبائعِ والتَّنجيمِ والصَّنائعِ ونحوِ ذلك، أو علمِ الأنبياءِ.

وفَرَحُهُم به فرحُ[1] ضَحِكِهم منه واستهزائِهم به، ويُؤيِّدُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وقيل: الفرحُ أيضًا للرُّسُلِ فإنَّهُم لَمَّا رَأَوْا تمادِيَ جهلِ الكُفَّارِ وسوءَ عاقِبَتِهِم فَرِحُوا بما أُوتوا مِن العلمِ وشَكروا اللهَ عليه، وحاقَ بالكافرينَ جزاءُ جهلِهِم واستِهزائِهِم.

(٨٤) ـ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾ شِدَّةَ عَذابِنا ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ يعنونَ الأصنامَ.

(٨٥) ـ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾؛ لامتناعِ قَبولِهِ حينئذٍ، ولذلك قال: (لم يَكُ) بمَعنى: لم يَصِحَّ ولم يَسْتَقِم.

---

(١) «فرح» من نسخة الفاروقي.

والفاءُ الأولى؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ كالنَّتيجَةِ لقولِه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾.

والثَّانيةُ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ﴾ كالتَّفسيرِ لقوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾.

والباقِيَتانِ؛ لأنَّ رؤيةَ البأسِ مُسبَّبَةٌ عَن مجيءِ الرُّسُلِ، وامتناعَ نفيِ الإيمانِ مُسبَّبٌ عن الرُّؤيَةِ.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ أي: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً ماضِيَةً في العبادِ، وهي مِن المصادرِ المؤكِّدةِ، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: وقتَ رُؤيَتِهم البأسَ، اسمُ مكانٍ استُعِيرَ للزَّمانِ.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورَةَ المُؤمِنِ لَمْ يبقَ رُوحُ نَبيٍّ وَلَا صِدِّيقٍ وَلَا شَهِيدٍ وَلَا مُؤْمِنٍ إلَّا صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ»[1].

***

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ١٥٧)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٥٨)، وهو قطعة من حديث أبي بن كعب الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٧٢).

(٤٠) سورة غافر مكية وآياتها خمس وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا،

وقوله تعالى: ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾، أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذّر وإن تكاثف حجابه، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه، وخضع لديه، وقوله جل وعلا ﴿ شديد العقاب ﴾ أي لمن تمرد وطغى، وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى، وهذه كقوله: ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرجاء والخوف، وقوله تعالى: ﴿ ذي الطول ﴾ قال ابن عباس: يعني السعة والغنى[1]، وقال يزيد بن الأصم ﴿ ذي الطول ﴾ يعني الخير الكثير، وقال عكرمة: ذي المن، وقال قتادة: ذي النعم والفواضل، **والمعنى** أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ الآية، وقوله جلت عظمته: ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره ولا رب سواه، ﴿ إليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، وقال أبو بكر ابن عياش: جاء رجل إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين إني قتلت فهل لي من توبة؟ فقرأ عمر رضي الله عنه: ﴿ حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾، وقال: اعمل ولا تيأس[2]، وعن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر

---

(١) وهو قول مجاهد وقتادة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

ابن الخطّاب رضي الله عنه، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان ابن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هـذا الشراب، قال، فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب «من عمر بن الخطّاب إلى فلان ابن فلان: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليـه المصير»، ثم قـال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه»، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرأه ويردّده ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قـد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي، فلم يزل يرددهـا على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع، فلمـا بلغ عمر خبره قـال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخـاً لكم زل زلة فسدّدوه ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه[1].

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إلا الذين كفروا﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ أي في أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال جل وعلا: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ۝ متـاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، ثم قـال تعالى مسلياً لنبيّـه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه قـد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿والأحزاب من بعدهم﴾ أي من كل أمة، ﴿وهمَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا بـه الحق﴾ أي ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي، روى ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أعان باطلاً ليدحض بـه حقاً فقد برئت منه ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ»[2].
وقوله جلّت عظمته ﴿فأخذتهم﴾ أي أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿فكيف كـان عقاب﴾ أي كيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم لقد كان شديداً موجعاً مؤلـماً؟ قال قتادة: كان شديداً والله.
وقوله جل جلاله: ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد، بطريق الأولى، لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك، والله أعلم.

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والحافظ أبو نعيم.
(٢) أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة، ومن حوله الملائكة من الكروبيين، بأنهم ﴿يسبّحون بحمد ربهم﴾ أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح، ﴿ويؤمنون به﴾ أي خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿يستغفرون للذين آمنوا﴾ أي من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في الصحيح: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثله»[1]. قال شهر بن حوشب رضي الله عنه: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾ أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾، أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا، وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخير وترك المنكرات، ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم، ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني، بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل، تفضلاً منا ومنة. وقال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل، فيقول: إني إنما عملت لي ولهم فيلحقون به في الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾، وقوله تبارك وتعالى ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي الذي لا يمانع ولا يغالب، ﴿وقهم السيئات﴾ أي فعلها، أو وبالها ممن وقعت منه، ﴿ومن تق السيئات يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿فقد رحمته﴾ أي لطفت به ونجيته من العقوبة ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم، وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا، حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم في هذه الحالة، قال قتادة: المعنى لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم، حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة[1]، وقوله: ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه الآية، كقوله تعالى: ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية، **والمقصود** أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عزّ وجلّ في عرصات القيامة، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ كقوله ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾، وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي قولهم: ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ أي قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً ثم أمتنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تمجه وتنفيه، ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ﴾ أي أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال عزّ وجلّ ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء. وقوله جل جلاله: ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة، الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها،

(١) وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي.

(٢) وكذا قال ابن عباس والضحّاك وقتادة.

﴿ وينزّل لكم من السماء رزقاً ﴾ وهو المطر الذي يخرج بـه من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختـلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بـين هذه الأشياء، ﴿ وما يتذكر ﴾ أي يعتبر ويتفكر في هـذه الأشياء ويستدل بهـا على عظمة خالقها ﴿ إلا من ينيب ﴾ أي من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعـاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم، قال الإمام أحمد: كان عبدالله بن الزبير يقول في دُبُر كل صلاة حين يسلم «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. قال: وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دُبُر كل صلاة»[1]، وقـد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله. ولا نعبد إلا إياه» الحديث، وقال النبي ﷺ: «ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجـابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعـاءً من قلب غـافل لاه»[2].

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه، وارتفـاع عرشه العظيم العـالي على جميع مخلوقاته، كالسقف لها كما قال تعالى: ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾. وقـد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفـاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة، وقوله تعالى: ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾، كقوله جلت عظمته: ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أن لا إله إلا أنا فاتقون ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ نزل بـه الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾، قال ابن عباس: ﴿ يوم التلاق ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده، يلتقي فيه آدم وآخر ولده، وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة والسدي: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق، وقال ميمون بن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم، وقـد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون. وقوله جلّ جلاله: ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم، ﴿ لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار ﴾ قـد تقدم في حديث ابن عمر

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم والترمذي والنسائي.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً.

رضي الله عنهما أنه تعالى يطوي السماوات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك ، أنا الجبار ، أنا المتكبر . أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ وفي حديث الصور أنه عزّ وجلّ إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه وحده لا شريك له ، حينئذ يقول: ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ينادي مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات، قال، وينزل الله عزّ وجلّ إلى السماء الدنيا ويقول : ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾[1] ، وقوله جلّت عظمته: ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ ، يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ ، كما ثبت في صحيح مسلم: « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال جلّ وعلا: ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

يوم الآزفة : اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقترابها ، كما قال تعالى: ﴿ أزفت الآزفة • ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ ، وقال عزّ وجلّ: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ الآية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ . قال قتادة : وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها[2] ، ومعنى ﴿ كاظمين ﴾ أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾، وقال ابن جريج ﴿ كاظمين ﴾ أي باكين، وقوله سبحانه ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ ، أي ليس للذين ظلموا من قريب ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير ، وقوله تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ يخبر عزّ وجلّ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس ربهم، فيتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه عزّ وجلّ يعلم العين الخائنة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر ، قال ابن عباس ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً .

(٢) وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد .

غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود لو اطلع على فرجها. وقال الضحّاك ﴿خائنة الأعين﴾: هو الغمز، وقول الرجل رأيت ولم ير، وقال ابن عباس: يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا؟ ﴿وما تخفي الصدور﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟ وقال السدي: ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي من الوسوسة، وقوله عزّ وجلّ ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي يحكم بالعدل. قال ابن عباس: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾، وقوله جلّ وعلا: ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لا يقضون بشيء﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء، ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

* أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى: ﴿أو لم يسيروا﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿وآثاراً في الأرض﴾ أي أثروا في الأرض من البنايات والمعالم ما لا يقدر هؤلاء عليه كما قال عزّ وجلّ، ﴿وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها﴾ مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ وهي كفرهم برسلهم، ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق، ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال تعالى ﴿ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿فكفروا﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا، ﴿فأخذهم الله﴾ تعالى أي أهلكهم ودمر عليهم، ﴿إنه قوي شديد العقاب﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿شديد العقاب﴾ أي عقابه أليم شديد وجيع، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيّه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا

والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، ولهذا قال تعالى: ﴿ بآياتنا وسلطان مبين ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان، ﴿ إلى فرعون ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية، ﴿ وهامان ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿ وقارون ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة، ﴿ فقالوا: ساحر كذاب ﴾ أي كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً، مموّهاً كذاباً في أن الله جل وعلا أرسله وهذه كقوله تعالى: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾، ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عزّ وجلّ أرسله إليهم، ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾، وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فلإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام، ولهذا قالوا: ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾، وهذا عزم من فرعون - لعنه الله تعالى - على قتل موسى عليه الصلاة والسلام، أي قال لقومه دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿ وليدع ربه ﴾ أي لا أبالي منه، وهذا في غاية الجحد والعناد ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مذكراً، يعني واعظاً، يشفق على الناس من موسى عليه السلام، ﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ قال موسى عليه السلام: استجرت بالله، وعذت به من شره وشر أمثاله، ولهذا قال: ﴿ إني عذت بربي وربكم ﴾ أيها المخاطبون ﴿ من كل متكبر ﴾ أي عن الحق مجرم ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾، ولهذا جاء في الحديث ان رسول الله ﷺ كان إذ خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم».

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان (قبطياً) من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون، واختاره ابن جرير، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجله بالعقوبة لأنه منهم، قال ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾[1]، وقد كان هذا الرجل يكتم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.

إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عزّ وجلّ، وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهي قوله: ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه عن عروة ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال، قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفِناء الكعبة إذ أقبل (عقبة بن أبي معيط) فأخذ بمنكِب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾[1]؟وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سئل: ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مَرّ ﷺ ذات يوم، فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: « أنا ذاك » فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيت أبا بكر رضي الله عنه محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه ليسيلان وهو يقول: يا قوم ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾؟ حتى فرغ من الآية كلها[2]، وقوله تعالى: ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أي كيف تقتلونه وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾، يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه سيجازيه على كذبه، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فينبغي أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وشأنه.

وقوله جل وعلا: ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ أي لو كان هذا كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين، لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله، ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ أي قد أنعم الله عليكم بهذا الملك، والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء. ﴿ قال فرعون ﴾ لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي، وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة، ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾، فقوله: ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ كذب فيه وافترى، وخان رعيته فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضاً في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تبارك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم والنسائي.

وتعالى: ﴿ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾، وقال جلّت عظمته: ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾. وفي الحديث: « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام ».

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

هذا إخبار من الله عزّ وجلّ عن هذا الرجل الصالح (مؤمن آل فرعون) أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة، فقال ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾، أي إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعني يوم القيامة، وسمي بذلك لما جاء في حديث الصور إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضاً، وقال الضحاك: بل ذلك إذا جيء بجهنم ذهب الناس هراباً منهم، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر وهو قوله تعالى: ﴿ والملك على أرجائها ﴾، وقيل: لأن الميزان عنده ملك إذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته، ألا قد سعد فلان ابن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف عمله نادى ألا قد شقي فلان بن فلان، وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم ﴾، ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة، وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف، واختار البغوي وغيره أنه سمي بذلك لمجموع ذلك، وهو قول حسن جيد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أي ذاهبين هاربين، ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أي من أضله الله فلا هادي له غيره، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعني أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة

والسلام وهو (يوسف) عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال تعالى: ﴿ فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ أي يئستم فقلتم طامعين ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم، ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى، فإن الله عزّ وجلّ يمقت على ذلك أشد المقت ، ولهذا قال تعالى ﴿ كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أي والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ أي على اتباع الحق ﴿ جبار ﴾ قال قتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق، والله تعالى أعلم .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه، وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام، أنه أمر وزيره ﴿ هامان ﴾ أن يبني له ﴿ صرحاً ﴾ وهو القصر العالي المنيف الشاهق، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي، كما قال تعالى: ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً ﴾، وقوله: ﴿ لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات ﴾ قال سعيد بن جبير : أبواب السماوات ، وقيل: طرق السماوات ﴿ فأطلع إلى آله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾، وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله عزّ وجلّ أرسله إليه، قال الله تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ أي بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية، أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم: ﴿ يا قوم اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾، ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أي قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل، ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الدار التي

لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال جلت عظمته ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ أي واحدة مثلها، ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ أي لا يتقدر بجزاء، بل يثيبه الله عزّ وجلّ ثواباً كثيراً، لا انقضاء له ولا نفاد.

* وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه ﴿وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾ أي على جهل بلا دليل ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴿لا جرم أنَّ ما تدعونني إليه﴾ يقول: حقاً، قال ابن جرير: معنى قوله ﴿لا جرم﴾: حقاً، وقال الضحاك ﴿لا جرم﴾: لا كذب، المعنى إنّ الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ قال مجاهد: الوثن ليس له شيء، وقال قتادة: يعني الوثن لا ينفع ولا يضر. وقال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ وقوله: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾، وقوله ﴿وأن مردنا إلى الله﴾ أي في الدار الآخرة فيجازي كلاً بعمله، ولهذا قال ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله عزّ وجلّ ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ أي هو بصير بهم تعالى وتقدس، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة فبالجنة، ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساء إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ أي أشده ألماً وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى:

﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾. وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهي تقول: أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود»، قالت عائشة: فلبثنا ليالي ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إنكم تفتنون في القبور»، قالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسول الله ﷺ بعد، يستعيذ من عذاب القبر[1]. وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، عن عذاب القبر، فقال ﷺ: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلَّى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[2]. وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً.

وقال قتادة ﴿غدواً وعشياً﴾: صباحاً ومساء ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم، توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم، وقال ابن زيد: هم فيها يُغْدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة، وقال ابن أبي حاتم، عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاءوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت، فتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها[3]، وفي حديث الإسراء، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ وآل فرعون كالابل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى قال، قلنا: يا رسول الله! ما إثابة الله الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته في الآخرة؟ قال ﷺ: «عذاباً دون العذاب»، وقرأ: ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[4]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عزّ وجل إليه يوم القيامة»[5]

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ

---

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم والبزار.

(٥) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَادْعُواْ ۗ وَمَا
دُعَٰٓؤُاْ الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن تحاجّ أهل النار وتخاصمهم وفرعون وقومه من جملتهم ﴿ فيقول الضعفاء ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أي أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ أي قسطاً تتحملونه عنا ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ أي لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا كما قال تعالى: ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾، ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ لما علموا أن الله عزّ وجلّ لا يستجيب منهم، ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجّانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾؟ أي أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل؟ ﴿ قالوا بلى قالوا فادعوا ﴾ أي أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم، ثم نخبركم أنه لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي لا يقبل ولا يستجاب.

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ
اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى
وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَٰرِ
﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ
إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

قد عُلِمَ أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه كيحيى وزكريا وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً إلى الله كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ أجاب ابن جرير على ذلك بجوابين:

(أحدهما) أن يكون الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض، وهذا سائغ في اللغة. (الثاني) أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم. وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود، فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وهذه نصرة عظيمة، وسنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم، ولهذا أهلك الله عزّ وجلّ قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس، وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله تعالى من بينهم

المؤمنين فلم يهلك منهم أحـــداً، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحـداً، قال السدي: « لم يبعث الله عزّ وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قومـاً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قـال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها »، وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده المشرف المعظم، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل النـاس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عزّ وجلّ، حتى انتشرت الدعوة المحمديه في مشارق الأرض ومغاربها؛ ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ أي يوم القيـامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل، قال مجاهد: الأشهاد الملائكة ﴿يوم لا ينفع الظالمين﴾ وهم المشركون ﴿معذرتهم﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ولهم اللعنة﴾ أي الإبعاد والطرد من الرحمة، ﴿ولهم سوء الدار﴾ وهي النـار، قال السدي: بئس المنزل والمقيل، وقال ابن عباس: أي سوء العاقبة.

وقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ وهو ما بعثه الله عزّ وجل به من الهدى والنور، ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ أي جعلنا لهم العـاقبة، وأورثـناهم ملك فرعون، وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿هدى وذكرى لأولى الألباب﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة، وقوله عزّ وجلّ ﴿فاصبر﴾ أي يا محمد ﴿إن وعد الله حق﴾ أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد، وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك، وقوله تبارك وتعالى: ﴿واستغفر لذنبك﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار، ﴿وسبح بحمد ربك بالعشي﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿والإبكار﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل. وقوله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ أي يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه - من إخماد الحق وإعلاء الباطل - بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصـدهم هو الموضوع ﴿فاستعذ بالله﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿إنه هو السميع البصير﴾، أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان، هذا تفسير ابن جرير.

* لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه، بأنه خلق السماوات والأرض،

وخلقهما أكبر من خلق النـاس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾، وقال ههنا: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق النـاس ولكن أكثر النـاس لا يعلمون﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً، وقـد اعترفوا بمـا هو أولى مما أنكروا، ثم قال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار ﴿قليلاً ما تتذكرون﴾ أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس، ثم قال تعالى: ﴿إن الساعة لآتية﴾ أي لكائنة وواقعة، ﴿لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بهـا بـل يكذبون بوجودها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه، أنه ندب عبـاده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجـابة، قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلها إلا نبي: كان إذا أرسل الله نبياً قال له: أنت شاهد على أمتك، وجعلكم شهداء على الناس، وكان يقال له: ليس عليك في الدين من حرج، وقال لهـذه الأمة: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وكان يقال له: ادعني أستجب لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾، وروى الإمـام أحمد، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «من لم يَدْعُ الله عزّ وجلّ غضب عليه»[2]. وروى الحافظ الرامهرمزي، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري، وجدنا في ذؤابة سيفه كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات فتعرضوا له، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً»، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ أي عن دعائي وتوحيدي، ﴿سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي صاغرين حقيرين، كما قال النبي ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة مثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له (بولس) تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبـال عصارة أهل النار»[3]. وقال وهيب بن الورد، حدثني رجل قال: كنت أسير ذات يوم في أرض الروم، فسمعت هاتفاً من فوق رأس جبل وهو يقول: يا رب عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحداً غيرك، يا رب عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك، قال: ثم عـاد الثانية فقال: يا رب عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء

(١) رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً.

من سخطك يرضي غيرك، قال، فناديته: أجني أنت أم إنسي؟ قال: بل إنسي، اشغل نفسك مما يعنيك عما لا يعنيك[١] وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[٢].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه، ويستريحون فيه من حركات ترددهم في المعايش بالنهار وجعل النهار مبصراً، أي مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يقومون بشكر نعم الله عليهم، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء هو الواحد الأحد، خالق الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿فأنّى تؤفكون﴾ أي فكيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة! وقوله عزّ وجلّ: ﴿كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره، بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته، وقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي جعلها لكم مستقراً، تعيشون عليها وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، ﴿والسماء بناء﴾ أي سقفاً للعالم محفوظاً، ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ أي فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم، ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي من المآكل والمشارب في الدنيا، فذكر أنه خلق الدار والسكان والأرزاق، فهو الخالق الرزّاق، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾. وقال تعالى ههنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ أي فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين، ثم قال تعالى: ﴿هو الحي لا إله إلا هو﴾ أي هو الحي أولا وأبداً، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا نظير له ولا عديل له ﴿فادعوه مخلصين له الدين﴾ أي موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين، عن ابن عباس قال: من قال: لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿فادعو الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾[٣]

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه أحمد والبزار.

(٣) رواه ابن جرير.

* ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله عزّ وجلّ ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بيّن تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته: ﴿هو الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم يخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم، ثم لتكونوا شيوخاً﴾ أي هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿ومنكم من يتوفى من قبل﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله تعالى: ﴿لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾، وقال عزّ وجلّ ههنا: ﴿ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون﴾. قال ابن جريج: تتذكرون البعث، ثم قال تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان لا محالة.

* ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا﴾ أي من الهدى والبيان ﴿فسوف يعلمون﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل﴾ أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم، ولهذا قال تعالى: ﴿يسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾، وقال تعالى: ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبّوا فوق رأسه من عذاب

الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتهكم والاستهزاء بهم، وقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله﴾؟ أي قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً﴾ أي جحدوا عبادتهم، كقوله جلَّت عظمته: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾، وقوله: ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾، أي فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحججه، والله أعلم.

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي في الدنيا وكذلك وقع، فإن الله تعالى أقر عينه يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة، ثم قال تعالى مسلياً له: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك﴾ أي منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء ولله الحمد والمنة، وقوله تعالى: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين، ﴿قضي بالحق﴾ فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال، إلى البلاد النائية والأقطار الشاسعة، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة ولذا قال عزّ وجلّ: ﴿لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾، وقوله جلَّ وعلا: ﴿ويريكم آياته﴾ أي حججه

وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ فأي آيات الله تنكرون﴾ ؟ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر ، وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم، وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس الله ، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل، قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب، وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به، ﴿ وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم ، ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه، ﴿ فلما رأوا بأسنا﴾ أي عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ أي وحدوا الله عزّ وجلّ وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فلم يقبل الله منه لأنه قد استجاب لنبيّه موسى عليه السلام . وهكذا قال تعالى ههنا ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وخسر هنالك الكافرون﴾ .

[آخر تفسير سورة غافر ، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة غافر[١]

وهى مكية.

قد كره بعض السلف، منهم محمد بن سيرين أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آل حم».

قال عبد الله بن مسعود: «آل حم» ديباج القرآن.

وقال ابن عباس: إن لكل شىء لباباً، ولُبَاب القرآن «آل حم» ـ أو قال: الحواميم.

قال مِسْعَر بن كِدَام: كان يقال لهن: «العرائس».

روى ذلك كله الإمام العَلَم[٢] أبو عُبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، فى كتاب: «فضائل القرآن»[٣].

وقال حُميد بن زَنْجويه: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص عن عبيد الله[٤] قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلا، فمر بأثر غيث فبينا هو يسير فيه ويتعجب [منه][٥]، إذ هبط على روضات دَمِثات فقال: عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب وأعجب فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عِظَم[٦] القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات، مثل آل حم فى القرآن. أورده البغوى[٧].

وقال ابن لَهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب: أن الجرّاح بن أبى الجراح حدثه عن ابن عباس، قال: لكل شىء لباب، ولباب القرآن الحواميم[٨].

وقال ابن مسعود: إذا وَقعتُ فى «آل حم» فقد وقعتُ فى روضات أتأنَّق فيهن[٩].

وقال أبو عبيد: حدثنا الأشجعى، حدثنا مسْعر ـ هو ابن كِدَام ـ عمن حدثه: أن رجلا رأى أبا الدرداء [رضى الله عنه][١٠] يبنى مسجداً، فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل «آل حم»[١١].

وقد يكون هذا المسجد الذى بناه أبو الدرداء، هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق. وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ما وُضع له، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء، كما قال رسول الله[١٢] ﷺ لأصحابه فى بعض الغزوات: «إن بَيّتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون». وفى رواية: «لا تنصرون»[١٣].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن الحكم بن ظِبْيان بن خَلَف المازنى، ومحمد بن

(١) فى ت، س: «المؤمن». (٢) فى أ: «العالم».
(٣) فضائل القرآن (ص١٣٧، ١٣٨).
(٤) فى ت: «عبد الله». (٥) زيادة من ت، س، أ. (٦) فى أ: «عظيم».
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٣٤).
(٨) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣٧) والبغوى فى تفسيره (٧/ ١٣٤).
(٩) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣٧). (١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص١٣٧).
(١٢) فى ت: «النبى».
(١٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٤/ ٦٥) وأبو داود فى السنن برقم (٢٥٩٧) والترمذى فى السنن برقم (١٦٨٢) عن المهلب بن أبى صفرة عمن سمع النبى ﷺ.

الليث الهمدانى قالا: حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى، عن زرارة ابن مصعب، عن أبى سلمة، عن أبى هُرَيرة، رضى الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسى وأول حم المؤمن، عُصِم ذلك اليوم من كل سوء».

ثم قال: لا نعلمه يُروى إلا بهذا الإسناد. ورواه الترمذى من حديث المليكى، وقال: تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقد قيل: إن ﴿حم﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، وأنشدوا فى ذلك[2].

يُذَكِّرُنى حاميمَ والرمحُ شَاجر فَهَلا تلا حَاميمَ قَبْل التَّقدُّمِ

وقد ورد[3] فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى، من حديث الثورى، عن أبى إسحاق، عن المهلب بن أبى صُفْرة قال: حدثنى من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن بَيَّتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون» وهذا إسناد صحيح[4].

واختار أبو عبيد أن يُروى: «فقولوا: حم، لا ينصروا» أى: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جعله جزاء لقوله: فقولوا.

وقوله: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى: تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن ـ من الله ذى العزة والعلم ،فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه.

وقوله: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أى: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخَضَع لديه.

وقوله: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أى: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن[5] أوامر الله، وبغى [وقد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف][6]. وهذه كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً فى مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: السعة والغنى. وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال يزيد بن الأصم: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: يعنى: الخير الكثير.

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٨٧٩).

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٤/٢٦) وفى صحيح البخارى (٨/٥٥٣) «فتح» منسوبا إلى شريح بن أوفى العبسى.

(٣) فى أ: «روى».

(٤) سنن أبى داود برقم (٢٥٩٧) وسنن الترمذى برقم (١٦٨٢).

(٥) فى أ: «على». (٦) زيادة من أ.

وقال عكرمة: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: ذى المن.

وقال قتادة: [يعنى][(١)]: ذى النعم والفواضل.

والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المنن والأنعام، التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا [إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ] [(٢)]﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: لا نظير له فى جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليه المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق السَّبيعى يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٣)] فقال: يا أمير المؤمنين، إنى قَتَلْتُ، فهل لى من توبة؟ فقرأ عليه: ﴿حم . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وقال: اعمل ولا تيأس.

رواه ابن أبى حاتم ـ واللفظ له ـ وابن جرير[(٤)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن مروان الرَّقِّى، حدثنا عمر ـ يعنى ابن أيوب ـ أخبرنا جعفر بن بَرْقان، عن يزيد بن الأصم[(٥)] قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٦)]، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع فى هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، [أما بعد][(٧)]: فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِل بقلبه، وأن يتوب الله عليه[(٨)]. فلما بلغ الرجل كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرنى عقوبته، ووعدنى أن يغفر لى.

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: «فلم يزل يُرَدّدها على نفسه، ثم بكى، ثم نَزَع فأحسن النَّزع فلما بلغ عمر [رضى الله عنه][(٩)] خبرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم زل زلَّة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه[(١٠)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمر بن شَبَّة[(١١)]، حدثنا حماد بن واقد ـ أبو عُمَر الصفار ـ، حدثنا ثابت البنانى، قال: كنت مع مصعب بن الزبير فى سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلى ركعتين، فافتتحت: ﴿ حم ﴾ المؤمن، حتى بلغت: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فإذا رجل خلفى على بغلة شهباء عليه مُقَطَّعات يمنية، فقال: إذا قلت: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ ﴾ فقل: «يا غافر الذنب، اغفر لى ذنبى».

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ت، وفى الأصل: «الآية». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/٢٧).
(٥) فى ت: «وروى أيضا بإسناده عن يزيد بن الأصم». (٦) زيادة من ت.
(٧) زيادة من أ. (٨) فى س، أ: «أن يقبل بقلبه ويتوب عليه».
(٩) زيادة من أ.
(١٠) حلية الأولياء (٤/ ٩٧).
(١١) فى أ: «ابن أبى شيبة».

وإذا قلت: ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾، فقل: «يا قابل التوب، اقبل توبتى». وإذا قلت: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾، فقل: «يا شديد العقاب، لا تعاقبنى». قال: فالتفت فلم أر أحداً، فخرجت إلى الباب فقلت: مَرّ بكم رجل عليه مقطعات يمنية؟ قالوا: ما رأينا أحداً فكانوا يُرَون أنه إلياس.

ثم رواه من طريق أخرى، عن ثابت، بنحوه. وليس فيه ذكر إلياس.

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) ﴾.

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿ فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴾ أى: فى أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤].

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه[(١)] محمد ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم[(٢)] أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل[(٣)]، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾، وهو أول رسول بَعَثه الله ينهى عن عبادة الأوثان، ﴿ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى: من كل أمة، ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أى: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله[(٤)]، ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أى: مَاحَلُوا بالشبهة[(٥)] ليردوا الحق الواضح الجلى.

وقد قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا مُعْتَمر ابن سليمان قال: سمعت أبى يحدث عن حَنَش، عن عكرمة، عن ابن عباس[(٦)] [رضى الله عنه][(٧)]، عن النبى ﷺ قال: «من أعان باطلا ليدحض بباطله حقاً، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله»[(٨)].

وقوله: ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أى: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى: فكيف بلغك عذابى لهم، ونكالى بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً.

قال قتادة: كان والله شديداً.

---

(١) فى ت: «الرسوله». (٢) فى س، أ: «كذبتهم». (٣) فى ت، س: «القليل».
(٤) فى ت، س، أ: «رسولهم». (٥) فى ت، أ: «ما جاؤوا به من الشبهة».
(٦) فى ت: «وقد روى الطبرانى بإسناده». (٧) زيادة من أ.
(٨) المعجم الكبير (١١/ ٢١٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٠٠) من طريق على بن عبد العزيز به موقوفا وقال: «صحيح الإسناد»، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه حنش الرحبى وهو ضعيف».

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: كما حقت كلمةُ العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى؛ لأن من كذّبك [1] فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾.

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حَمَلَة العرش الأربعة، ومن حوله من الكروبيين، بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أى: يقرنون بين التسبيح الدال على نفى النقائص، والتحميد المقتضى لإثبات صفات المدح، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أى: خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يُؤَمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت فى صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله»[2].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو ابن أبى شيبة ـ حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة عن ابن عباس[3] [رضى الله عنه][4]؛ أن رسول الله ﷺ صدّق أمية فى شىء من شعره، فقال:

رَجُلٌ وثَور تَحْتَ رِجْل يَمينه ... وَالنَّسْرُ للأُخْرَى، ولَيْثٌ مُرْصَدُ

فقال رسول الله ﷺ: «صدق». فقال:

وَالشمس تَطلعُ كل آخر لَيْـلةٍ ... حَمْراءُ يُصْبحُ لَونُها يَتَوَرَّدُ

تَأبَى فَما تَطلُع لَنَا فى رِسْلها ... إلا معَذَّبَة وَإلا تُجْلَـــدُ

فقال النبى ﷺ: «صدق»[5].

وهذا إسناد جيد: وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية،

---

(١) فى س: «كذب بك».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٢) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «وقد روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) المسند (١/ ٢٥٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٢٧): «رجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس».

كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية، ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذى رواه أبو داود:

حدثنا محمد بن الصباح البزار؛ حدثنا الوليد بن أبى ثور، عن سماك، عن عبد الله بن عَمِيرة[١]، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت بالبطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب. قال: «والمزن؟» قالوا: والمزن. قال: «والعَنَان؟» قالوا: والعنان ـ قال أبو داود: ولم أتقن العنان جيداً ـ قال: «هل تدرون بُعْدَ ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندرى. قال: «بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث[٢] وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عَدّ سبع سموات «ثم فوق السماء السابعة بحر[٣]، بين[٤] أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوْعَال، بين أظلافهن ورُكبهن مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله، عز وجل، فوق ذلك» ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث سماك بن حرب، به[٥]. وقال الترمذى: حسن غريب.

وهذا يقتضى أن حملة العرش ثمانية، كما قال شَهْر بن حَوْشَب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك». وأربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك».

ولهذا يقولون إذا استغفروا[٦] للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أى: إن رحمتك تَسَع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم [وأقوالهم][٧] وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أى: فاصفح عن المسيئين[٨] إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم[٩]. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع فى منازل متجاورة، كما قال [تعالى][١٠]: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِم[١١] بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أى: ساوينا بين الكل فى المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدانى، بل رفعنا الناقص فى العمل[١٢]، فساويناه بكثير العمل، تفضلا منا ومنة.

(١) فى ت: «عمرة». (٢) فى ت، س: «أو اثنين أو ثلاثة».
(٣) فى ت: «ثم فوق السماء بحرا»، وفى س: «ثم فوق السابعة بحر». (٤) فى أ: «بحر ما بين».
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٣ ـ ٤٧٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٣).
(٦) فى ت: «استغفروا للمؤمنين». (٧) زيادة من أ. (٨) فى أ: «المسلمين».
(٩) فى ت: «المؤلم». (١٠) زيادة من ت، س، أ. (١١) فى س: «واتبعتهم ذريتهم».
(١٢) فى ت، أ: «رفعنا ناقص العمل».

قال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك[١] فى العمل. فيقول: إني إنما عملت لي ولهم. فَيُلحقُونَ به في الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: أنصحُ عبادِ الله للمؤمنين الملائكةُ، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم﴾ ، وأغشُّ عباد الله للمؤمنين الشياطينُ.

وقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: الذى لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم فى أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرك[٢].

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: فعلها أو وَبالها ممن وقعت منه، ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى: لطفت به ونجيته من العقوبة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن الكفار: أنهم يُنَادَون يوم القيامة وهم فى غَمَرات النيران يتلظون، وذلك عندما[٣] باشروا من عذاب الله ما لا قِبَل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا[٤] من الأعمال السيئة، التى كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا، نادوهم [به][٥] نداء بأن مقت الله لهم فى الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة.

قال قتادة فى قوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول: لمقتُ الله أهل الضلالة حين عُرِض عليهم الإيمان فى الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة[٦].

وهكذا قال الحسن البصرى، ومجاهد، والسدى، وذَرُّ بن عبد الله[٧] الهَمْدانى، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبرى، رحمهم الله.

---

(١) فى ت: «رقبتك».
(٢) فى أ: «وقدرتك».
(٣) فى أ: «بعدما».
(٤) فى ت، س: «أسلفوه».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى أ: «عذاب الله فى يوم القيامة».
(٧) فى س: «عبيد الله».

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال الثورى، عن أبى[١] إسحاق، عن أبى الأحوص، عن ابن مسعود [رضى الله عنه][٢] :هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وأبو مالك .وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية.

وقال السّدّى: أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخوطبوا، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة.

وقال ابن زيد: أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم، ثم خلقهم فى الأرحام ثم أماتهم [ثم أحياهم][٣] يوم القيامة.

وهذان القولان ـ من السدى، وابن زيد ـ ضعيفان؛ لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما. والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله، عز وجل، فى عرصات القيامة، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنّكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مَسّها وحَسيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾، [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال، وقدموا بين يدى كلامهم مُقدّمة، وهى قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أى: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذى كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون. فأُجيبُوا ألا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تَجْحَده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾، أى: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أى: هو الحاكم فى خلقه، العادل الذى لا يجور، فيهدى من

---

(١) فى أ: «ابن». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من ت، س، أ.

من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقه[(١)] بما يشاهدونه في خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أى: يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أى: من هو بصير منيب إلى الله، عز وجل.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أى: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم.

قال[(٢)] الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام ـ يعنى بن عروة بن الزبير ـ عن أبى الزبير محمد بن مسلم بن مدرس المكى قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم[(٣)]: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال: وكان رسول الله ﷺ يُهَلِّل بهن[(٤)] دبر كل صلاة[(٥)].

ورواه مسلم وأبو داود والنسائى، من طرق، عن هشام بن عروة، وحجاج بن أبى عثمان، وموسى بن عقبة، ثلاثتهم عن أبى الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول فى دبر الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له[(٦)]» وذكر تمامه[(٧)].

وقد ثبت فى الصحيح عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»[(٨)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الربيع، حدثنا الخَصِيب بن ناصح، حدثنا صالح ـ يعنى المِرِّى ـ عن هشام بن حسان، عن ابن سِيرين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ادعوا الله

(١) فى أ: «بخلقه». (٢) فى ت: «روى». (٣) فى أ: «عقب الصلوات المكتوبات».
(٤) فى ت: «بهن فى دبر».
(٥) المسند (٤/ ٤).
(٦) فى ت: «لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير».
(٧) صحيح مسلم برقم (٥٩٤).
(٨) صحيح مسلم برقم (٥٩٤) وسنن أبى داود برقم (١٥٠٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٢٦٢)

وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه»[١].

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)﴾.

يقول تعالى [مخبرا][٢] عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. [فَاصْبِرْ][٣]﴾ [المعارج: ٣، ٤]، وسيأتى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، فى قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله [تعالى][٤]. وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقد تقدم فى حديث «الأوعال» ما يدل على ارتفاعه عن[٥] السموات السبع بشىء عظيم.

وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا [فَاتَّقُونِ][٦]﴾ [النحل: ٢]، وكقوله: ﴿وَإِنَّهُ[٧] لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ][٨]﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده.

وقال ابن جُرَيْج: قال ابن عباس: يلتقى فيه آدم وآخر ولده.

وقال ابن زيد: يلتقى فيه العباد.

وقال قتادة، والسدى، وبلال بن سعد، وسفيان بن عيينة[٩]: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض.

وقال قتادة أيضا: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق.

وقال مَيْمون بن مِهْران: يلتقى [فيه][١٠] الظالم والمظلوم.

---

(١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٤٧٩) عن معاوية بن صالح، ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٣) عن عفان بن مسلم وموسى ابن إسماعيل، ورواه الطبرانى فى كتاب الدعاء برقم (٦٢) عن مخلد بن خداش، كلهم من طريق صالح المرى به. قال الطبرانى فى المعجم الأوسط: «لم يرو هذا الحديث عن هشام بن حسان إلا صالح المرى»، ومداره على صالح المرى وهو متروك.

(٢) زيادة من ت، س، أ.
(٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت.
(٥) فى ت، س: «من».
(٦) فى س: «فاعبدوه» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٧) فى ت: «إنه» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٨) زيادة من ت.
(٩) فى ت: «قتادة وغيره».
(١٠) زيادة من أ.

وقد يقال: إن يوم القيامة[١] هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر . كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾: أي: الجميع في علمه على السواء.

وقوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر: أنه تعالى[٢] يطوى السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟[٣].

وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: الذى هو وحده قد قَهَر كل شيء وغلبه[٤].

وقد قال[٥] ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نَضْرة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][٦] قال: ينادى مناد بين يدى الساعة: يأيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله [عز وجل][٧] إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم[٨]، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ ـ فيما يحكى عن ربه عز وجل ـ أنه قال: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ـ إلى أن قال ـ: يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم[٩] ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[١٠].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال [تعالى][١١]: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)﴾.

(١) في ت، س: «التلاق». (٢) في ت: «أن الله».
(٣) سورة الزمر، الآية ٦٧.
(٤) انظر حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.
(٥) في ت: «وروى ابن أبي حاتم». (٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من ت، أ.
(٨) في ت: «البخاري»وهو خطأ . (٩) في ت، س: «لكم».
(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).
(١١) زيادة من س .

يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١] وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ [الملك: ٢٧].

وقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [أى ساكتين](١) ،قال قتادة: وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة، والسدى، وغير واحد.

ومعنى ﴿كَاظِمِينَ﴾ أى: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨].

وقال ابن جُرَيْج(٢): ﴿كَاظِمِينَ﴾ أى: باكين.

وقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أى: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حَقّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس فى قوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غَضّ، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض [بصره عنها](٣) وقد اطلع الله من قلبه أنه وَدّ لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الضحاك: ﴿خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾: هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى.

وقال ابن عباس: يعلم [الله](٤) تعالى من العين فى نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا؟

وقال السدى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أى: من الوسوسة.

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت: «جرير».
(٣) زيادة من س، أ. (٤) زيادة من س.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل.

وقال الأعمش: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][1] في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذا الذى فسر به ابن عباس فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ[2] الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أي: لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشىء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك.

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)﴾.

يقول تعالى: أو لم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، ﴿وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أي: أثروا فى الأرض من البنايات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] أي: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهى كفرهم برسلهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق.

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التى ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿فَكَفَرُوا﴾ أي: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: عقابه أليم شديد وجيع. أعاذنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾.

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى س: «لتجزى».

يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ[١] فى تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران[٢]، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل[٣] الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ والسلطان هو: الحُجة والبرهان ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾، هو: ملك القبط بالديار المصرية، ﴿ وَهَامَانَ ﴾، وهو: وزيره فى مملكته، ﴿ وَقَارُونَ ﴾، وكان أكثر الناس فى زمانه مالا وتجارة ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أى: كذبوه وجعلوه ساحراً مُمَخْرِقاً مموهاً كذاباً فى أن الله أرسله. وهذه كقوله [تعالى][٤]: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أى: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم، ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثانى: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكى يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى: وما مكرهم وقصدهم الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك فى ضلال.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾: وهذا عَزْمٌ من فرعون ـ لعنه الله ـ على قتل موسى، عليه السلام، أى: قال لقومه: دعونى حتى أقتل لكم هذا، ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أى: لا أبالى منه. وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد.

وقوله ـ قبحه الله ـ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾، يعنى: موسى، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال فى المثل: «صار فرعون مُذَكِّراً»، يعنى: واعظا، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام.

وقرأ الأكثرون: «أن يبدل دينكم وأن يُظهِر فى الأرض الفساد» وقرأ آخرون: ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ وقرأ بعضهم: «يَظْهَر فى الأرض الفسادُ»، بالضم.

وقال موسى: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى: لما بلغه قول فرعون: ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ قال موسى: استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾، أيها المخاطبون، ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى: عن الحق، مجرم، ﴿ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

---

(١) فى س: «لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه».
(٢) فى أ: «لموسى عليه السلام».
(٣) فى ت: «والدلالات».
(٤) زيادة من ت، س.

﴿الْحِسَابِ﴾؛ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال: «اللهم، إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك فى نحورهم»(١).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾.

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبْطياً من آل فرعون.

قال السدى: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذى نجا مع موسى. واختاره ابن جرير(٢)، ورَدَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى، عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل(٣) بالعقوبة؛ لأنه منهم(٤).

وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذى قال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] رواه ابن أبى حاتم.

وقد كان هذا الرجلُ يكتم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهى قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [أى: لأجل أن يقول ربى الله](٥)، اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه حيث قال:

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنى يحيى بن أبى كثير، حدثنى محمد بن إبراهيم التيمى، حدثنى(٦) عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشد شىء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة، إذ أقبل عُقْبة بن أبى مُعَيط، فأخذ بمَنْكب رسول الله ﷺ ولَوَى ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقاً شديدا، فأقبل أبو بكر، رضى الله عنه، فأخذ بمنكبة(٧) ودفَع عن النبى ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٤١٤).

(١) تفسير الطبرى (٢٤/ ٣٨).

(٣) فى ت: «يقابل».

(٤) فى ت، س: «متهم».

(٥) زيادة من ت، س، أ.

(٦) فى ت: «فى صحيحه بإسناده عن».

(٧) فى ت، س: «بمنكبيه».

انفرد به البخاري من حديث الأوزاعي قال: وتابعه محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عروة، عن أبيه، به[(١)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا عَبْدة، عن هشام ـ يعني ابن عروة ـ عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سُئل: ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مر بهم ذات يوم فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك» فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيتُ أبا بكر محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه ليسيلان، وهو يقول: يا قوم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟ حتى فرغ من الآية كلها.

وهكذا رواه النسائي من حديث عبدة، فجعله من مسند عمرو بن العاص، رضي الله عنه[(٢)].

وقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: كيف تقتلون رجلا لكونه يقول: «ربي الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تَنَزّل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعني: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذبا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا، فينبغي على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وهكذا أخبر الله [تعالى][(٣)] عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ. وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله [تعالى][(٤)] عباد الله، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته، قال الله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] أي: إلا ألا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة، فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيناً.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، كانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨١٥).
(٢) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٦٢).
(٣) زيادة من ت، س، أ. (٤) زيادة من أ.

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم[1] وحلول نقمة الله بهم: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أى: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ أى: لا تغنى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أرادنا بسوء.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه، راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ أى: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به[2] من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضا فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وفى الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يَرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»[3].

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾.

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ أى: الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد.

(١) فى س، أ: «عليهم».   (٢) فى س: «جاءه».
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٥٠، ٧١٥١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٢) بنحوه من حديث معقل بن يسار رضى الله عنه.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يعنى: يوم القيامة وسمى بذلك، قال بعضهم: لما جاء فى حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا.

وقال آخرون، منهم الضحاك: بل ذلك إذا جيء بجهنم، ذهب الناس هرَابا[1]، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقد روى عن ابن عباس، والحسن، والضحاك: أنهم قرؤوا: «يوم التنادّ»، بتشديد الدال، من ند البعير: إذا شرد وذهب.

وقيل: لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد[2] فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقى فلان بن فلان.

وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم: ينادى أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار.

وقيل: سمى بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور فى سورة الأعراف.

واختار البغوى وغيره: أنه سمى بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم[3].

وقوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أى: ذاهبين هاربين، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١، ١٢]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى: من أضله [الله][4] فلا هادى له غيره.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعنى: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته[5] القبط، فما أطاعوه تلك الساعة[6] إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أى: يئستم فقلتم طامعين: ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أى: كحالكم هذا

---

(١) فى س، أ: «هرابا منه». (٢) فى ت: «أعمال العبد».
(٣) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٤٧، ١٤٨).
(٤) زيادة من ت، س. (٥) فى أ: «أمة». (٦) فى ت، س، أ: «تلك الطاعة».
(٧) فى س: «تكون».

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: والمؤمنون أيضا يُبغضُون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا، ولا ينكر منكرا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾.

وروى ابن أبى حاتم، عن عكرمة ـ وحكى عن الشعبى ـ أنهما قالا: لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين.

وقال أبو عمران الجونى، وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه فى تكذيبه موسى، عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا، وهو: القصر العالى المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجرّ المضروب من الطين المشوى، كما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعى: كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه فى قبورهم. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ قال سعيد بن جبير، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى فى أن الله، عز وجل، أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى: بصنيعه هذا الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس [رضى الله عنهما](١)، ومجاهد: يعنى إلا فى خسار.

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾.

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسى الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ

(١) زيادة من س.

اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ، لا كما كذب فرعون فى قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

ثم زهدهم فى الدنيا التى [قد][1] آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى [ﷺ][2]، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أى: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب [وتزول] [3]وتضمحل، ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أى: الدار التى لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ أى: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله، ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاد.

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾.

يقول لهم المؤمن: ما بالى أدعوكم إلى النجاة، وهى عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذى بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾؟ أى: جهل[4] بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾أى: هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقا.

قال السدى، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لا جَرَمَ﴾ :حقا.

وقال الضحاك: ﴿لا جَرَمَ﴾: لا كذب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذى تدعوننى إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾.

قال مجاهد: الوثن ليس بشىء.

وقال قتادة: يعنى الوثن، لا ينفع ولا يضر.

وقال السدى: لا يجيب داعيه، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

---

(١) زيادة من ت، س، أ.
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى ت، أ: «على جهل».

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، فيجازى كلا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم، فيهدى من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله [تعالى][(١)]: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده ألما وأعظمه نكالا. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا هاشم ـ هو ابن القاسم أبو النضر ـ حدثنا إسحاق بن سعيد[(٢)] ـ هو ابن عمرو بن سعيد ابن العاص ـ حدثنا سعيد ـ يعني أباه ـ عن عائشة؛ أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا نصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود[(٣)]. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق»[(٤)].

وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم، ولم يخرجاه.

وروى أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة ـ قال: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم».

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «سعد». (٣) فى أ: «يهودية».
(٤) المسند (٦/ ٨١).

وهذا أيضا على شرطهما[١].

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدوا وعشيا فى البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية الآتى ذكرها.

وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنب، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا يونس، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهى تقول: أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليالى، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر.

وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن سعيد وحرملة، كلاهما عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلى، عن الزهرى، به[٢].

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد فى قبورها، فلما أوحى إليه فى ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد روى البخارى من حديث شعبة، عن أشعث بن أبى الشعثاء، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة[٣]، رضى الله عنها، أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر[٤]. فسألت عائشة[٥] رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[٦].

فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية فى هذا الخبر، وقرر عليه. وفى الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحى، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا.

وقال قتادة فى قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحا ومساء، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخا ونقمة وصَغَارا لهم.

وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة .

---

(١) المسند (٦/ ٢٣٨).

(٢) المسند (٦/ ٢٤٨) وصحيح مسلم برقم (٥٨٤).

(٣) فى ت: «وقد روى البخارى بإسناده من عائشة».

(٤) فى ت: «القبور» وفى أ: «وقاك الله من عذاب القبر».

(٥) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٦) صحيح البخارى برقم (١٣٧٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربى، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثروان، عن هزيل، عن عبد الله بن مسعود[١]، رضى الله عنه، قال: إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تسرح بهم فى الجنة حيث شاؤوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين فى أجواف عصافير تسرح فى الجنة حيث شاءت، فتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش، وإن أرواح آل فرعون فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها.

وقد رواه الثورى، عن أبى قيس، عن الهُزَيل بن شرحبيل، من كلامه فى أرواح آل فرعون. وكذلك قال السدى.

وفى حديث الإسراء من رواية أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بى إلى خلق كثير من خلق الله، رجالٌ كلٌّ رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وآل فرعون كالإبل المسومة[٢] يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»[٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا زيد بن أخْرَم، حدثنا عامر بن مُدْرِك الحارثى، حدثنا عتبة ـ يعنى ابن يقظان ـ عن قيس بن مسلم، عن طارق، عن[٤] شهاب، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابة الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحما أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة، أثابه الله المال والولد والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته فى الآخرة؟ قال: «عذابا دون العذاب»، وقرأ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

ورواه البزار فى مسنده، عن زيد بن أخرم، ثم قال: لا نعلم له إسنادا غير هذا[٥].

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبى عمير، حدثنا حماد بن محمد الفزارى البلخى قال: سمعت[٦] الأوزاعى وسأله رجل فقال: رحمك الله. رأينا طيورا تخرج من البحر، تأخذ ناحية الغرب بيضا، فوجا فوجا، لا يعلم عددها إلا الله، عز وجل، فإذا كان العشى رجع مثلها سودا. قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن تلك[٧] الطير فى حواصلها أرواح آل فرعون، تعرض على النار غدوا وعشيا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رِيَاشُها وصارت سودا، فينبت عليها من الليل ريش أبيض، وتتناثر السود، ثم تغدو على النار غدوا وعشيا، ثم ترجع إلى وكورها. فذلك دأبهم فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، قال: وكانوا

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن ابن مسعود».
(٢) فى س: «المنسومة».
(٣) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
(٤) فى س: «ابن».
(٥) مسند البزار برقم (٩٤٥) «كشف الأستار» ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٢٥٣) من طريق على بن الحسين به، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى. قلت: فيه عتبة بن يقظان وهو واه.
(٦) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده إلى».
(٧) فى ت: «ذلك».

يقولون: إنهم ستمائة ألف مقاتل[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله، عز وجل، إلى يوم القيامة».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث مالك، به[٣].

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار، وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم **﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾** وهم: الأتباع **﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾** وهم: القادة والسادة والكبراء: **﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾** أى: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال، **﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾** أى: قسطا تتحملونه عنا. **﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾** أى: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال. **﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾** أى: يقسم[٤] بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: **﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾؛ لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: **﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾** [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة ـ وهم كالبوابين[٥] لأهل النار ـ أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: **﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾** أى: أو ما قامت عليكم الحجج فى الدنيا على ألسنة الرسل؟ **﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾** أى: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا[٦]: **﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾** أى: إلا من ذهاب، لا يتقبل ولا يستجاب.

---

(١) تفسير الطبرى (٢٤/٤٦).

(٢) فى أ: «ابن عمر رضى الله عنهما».

(٣) المسند (٢/١١٣) وصحيح البخارى برقم (١٣٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٦).

(٤) فى ت: «فقسم». (٥) فى ت، أ: «كالسجانين». (٦) فى ت: «قال».

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

قد أورد أبو جعفر بن جرير، رحمه الله تعالى، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالا فقال: قد عُلِم أن بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا[١] وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم[٢]، وإما إلى السماء كعيسى[٣]، فأين النصرة فى الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين[٤].

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاما، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ فى اللغة.

الثانى: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم، كما فُعِلَ بقتلة يحيى وزكريا[٥] وشعياء، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا، وحكما مقسطا، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا، ويقر أعينهم ممن أذاهم، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب»[٦]. وفى الحديث الآخر: «إنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب»[٧]؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل[٨] مدين، وأشباههم وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحدا، وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحدا[٩].

قال السدى: لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا. قال: فكانت[١٠] الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا، وهم منصورون فيها.

---

(١) فى ت، أ: «كيحيى بن زكريا». (٢) فى أ: «كإبراهيم عليه السلام». (٣) فى أ: «كعيسى عليه السلام».
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/٤٨).
(٥) فى ت: «يحيى بن زكريا».
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٥٠٢).
(٧) لم أجده بهذا اللفظ. وقد رواه أبو نعيم فى الحلية (١/١١) موقوفا على ابن عباس: «وأنا الثائر لأوليائى يوم القيامة».
(٨) فى أ: «وأصحاب». (٩) فى س: «واحدا». (١٠) فى ت، س: «وكانت».

وهكذا نصر الله [سبحانه][١] نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هى العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين فى الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح [عليه][٢] مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة[٣] العرب بكمالها، ودخل الناس فى دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام[٤] الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ أى: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل.

قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة.

وقوله: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾.

وقرأ آخرون: «يَوْمُ» بالرفع، كأنه فسره به ﴿يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمُ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ﴾، وهم المشركون ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أى: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أى: الإبعاد والطرد من الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهى النار. قاله السدى، بئس المنزل والمقيل.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أى: سوء العاقبة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾، وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور؛ ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أى: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم[٥] بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى، عليه السلام، وفى الكتاب الذى أورثوه ـ وهو التوراة ـ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾وهى: العقول الصحيحة السليمة.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أى: يا محمد، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: وعدناك أنا سنعلى كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذى أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾، هذا تهييج للأمة على الاستغفار، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ أى: فى أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿وَالإِبْكَارِ﴾، وهى أوائل النهار وأواخر الليل.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾

---

(١) زيادة من أ.
(٢) زيادة من ت، وفى أ: «عليهم».
(٣) فى ت: «جزائر».
(٤) فى ت: «يوم».
(٥) فى ت: «وأورثنا بنى إسرائيل».

أى: ما فى صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: من حال مثل هؤلاء، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أو[1]: من شر[2] مثل هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية فى اليهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ قال أبو العالية: وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض. فقال الله لنبيه ﷺ آمرا له أن يستعيذ من فتنة الدجال، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم فى كتابه، والله أعلم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩)﴾.

يقول تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه ـ بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهم أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[3]﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادا وكفرا وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أى: كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، ﴿قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أى: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس.

ثم قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ[4]﴾ أى: لكائنة وواقعة، ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها.

---

(١) فى ت: «أى». (٢) فى أ: «شك».

(٣) فى ت، أ: «أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، حيث إن ناسخا المخطوطتين ت، أ قد خلطا بين الآية الحادية والثمانين من سورة يس وبين الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأحقاف.

(٤) فى ت: «آتية» وهو خطأ.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أشهب، حدثنا مالك، عن[١] شيخ قديم من أهل اليمن ـ قدم من ثم ـ قال: سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس، واشتد حر الشمس.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ .

هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه: أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثورى يقول: يا مَنْ أحبُّ عباده إليه مَنْ سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس كذلك[٢] غيرك يارب.

رواه ابن أبى حاتم.

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

اللهُ يَغْضَبُ إن تركْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَىُّ آدمَ حين يُسألُ يَغْضَبُ

وقال قتادة: قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تُعطهُن[٣] أمة قبلهم إلا نبى: كان إذا أرسل الله نبيا قيل له: «أنت شاهد على أمتك»، وجعلتكم[٤] شهداء على الناس. وكان يقال له: «ليس عليك فى الدين من حرج». وقال لهذه الأمة: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾** [الحج:٧٨] . وكان يقال له: «ادعنى[٥] أستجب لك» وقال لهذه الأمة: **﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾** رواه ابن أبى حاتم.

وقال[٦] الإمام الحافظ أبو يعلى. أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا أبو إبراهيم الترجمانى، حدثنا صالح المرى قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ ـ فيما يروى عن ربه عز وجل ـ قال: «أربع خصال، واحدة منهن لى، وواحدة لك، وواحدة فيما بينى وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادى[٧]: فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا، وأما التى لك علىَّ فما عملت من خير جزيتك به، وأما التي بينى وبينك: فمنك الدعاء وعلى الإجابة، وأما التى بينك وبين عبادى: فارض لهم ما[٨] ترضى لنفسك»[٩].

وقال[١٠] الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن ذر، عن يُسيع الكندى، عن النعمان بن بشير، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: **﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾** .

---

(١) فى ت: «روى ابن أبى حاتم عن». (٢) فى ت، أ: «وليس أحد كذلك». (٣) فى س: «يعطهن».
(٤) فى ت، أ: «وجعلكم». (٥) فى س: «ادعونى». (٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت: «العباد». (٨) فى ت، أ: «بما».
(٩) مسند أبى يعلى (١٤٣/٥) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٩) «كشف الأستار» من طريق الحجاج بن المنهال عن صالح المرى به، وقال: «تفرد به صالح المرى». قال الهيثمى فى المجمع (٥١/١): «فى إسناده صالح المرى وهو ضعيف، وتدليس الحسن أيضا» والمحمل هنا على صالح بن بشير المرى فهو ضعيف جدا وقد تفرد به.
(١٠) فى ت: «وروى».

وهكذا رواه أصحاب السنن: الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن أبى حاتم، وابن جرير، كلهم من حديث الأعمش، به[١]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن جرير أيضا، من حديث شعبة، عن منصور، عن ذر، به[٢].

وأخرجه الترمذى أيضا من حديث الثورى، عن منصور والأعمش، كلاهما عن ذر، به[٣].

ورواه ابن حبان والحاكم فى صحيحيهما، وقال الحاكم: صحيح الإسناد[٤].

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنى أبو مليح المدنى ـ شيخ من أهل المدينة ـ سمعه عن أبى صالح، وقال مرة: سمعت أبا صالح يحدث عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٦] قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله، عز وجل، غضب الله عليه».

تفرد به أحمد[٧]، وهذا إسناد لا بأس به.

وقال[٨] الإمام أحمد أيضا: حدثنا مروان الفزارى، حدثنا صُبيح أبو المليح: سمعت أبا صالح يحدث عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأله يغضب عليه»[٩].

قال ابن معين: أبو المليح هذا اسمه: صُبَيْح. كذا قيده بالضم عبد الغنى بن سعيد. وأما أبوصالح هذا فهو[١٠] الخُوزى[١١]، سكن شعَب الخوز[١٢]. قاله البزار فى مسنده. وكذا وقع فى روايته أبو المليح الفارسى، عن أبى صالح الخُوزى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأل الله يغضب عليه»[١٣].

وقال[١٤] الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهُرْمزى: حدثنا همام، حدثنا إبراهيم، عن الحسن، حدثنا نائل بن نجيح، حدثنى عائذ بن حبيب، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد ابن مسلمة الأنصارى، وجدنا فى ذؤابة[١٥] سيفه كتابا: «بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم فى بقية دهركم نفحات[١٦]، فتعرضوا له، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد[١٧] بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبدا»[١٨].

(١) المسند (٤/ ٢٧١) وسنن الترمذى برقم (٣٣٧٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٢٨) وتفسير الطبرى (٢٤/ ٥١).

(٢) سنن أبى داود برقم (١٤٧٩) وسنن الترمذى برقم (٢٩٦٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٦) وتفسير الطبرى (٢٤/ ٥١).

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٤٧).

(٤) صحيح ابن حبان برقم (٢٣٩٦) «موارد» والمستدرك (١/ ٤٩١).

(٥) فى ت: «وروى». (٦) زيادة من ت.

(٧) المسند (٢/ ٤٧٧) وتفرد به أحمد بهذا اللفظ، وإلا فقد رواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٨٢٧) من طريق وكيع بهذا الإسناد بلفظ: «من لم يسأل الله يغضب عليه».

(٨) فى ت: «وروى».

(٩) المسند (٢/ ٤٤٢).

(١٠) فى ت، س: «وهو». (١١) فى أ: «الجزرى». (١٢) فى أ: «الجزر».

(١٣) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٣٧٣) وقال: «أبو المليح اسمه صبيح، وسمعت محمدا يقوله، وقال: يقال له: فارسى».

(١٤) فى ت: «وروى». (١٥) فى ت: «رواية».

(١٦) فى ت: «فى بقية أيام نفحات»، وفى س، أ: «فى بقية أيام دهركم نفحات». (١٧) فى ت: «يسعد».

(١٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٩/ ٢٣٣) من وجه آخر.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين، كما قال[1] الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرَ المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ، في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا[2] سجنا في جهنم ـ يقال له: بولس ـ تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار»[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خُنَيْس: سمعت أبي يحدث عن وُهَيب[4] بن الورد: حدثني رجل قال: كنت أسير ذات يوم في أرض الروم، فسمعت هاتفا من فوق رأس جبل وهو يقول: يارب، عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحدا غيرك! يارب، عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك ـ قال: ثم ذهبت، ثم جاءت الطامة الكبرى ـ قال: ثم عاد الثانية فقال: يارب، عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك يُرضي[5] غيرك. قال وهيب: وهذه الطامة الكبرى. قال: فناديته: أجني أنت أم إنسي؟ قال: بل إنسي، اشغل نفسك بما يَعْنيك عما لا يعنيك.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)﴾.

يقول تعالى ممتنا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصرا، أي: مضيئا، ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ[6] لا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم[7] الله عليهم.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التي لا تخلق شيئا، بل هي مخلوقة منحوتة.

---

(١) في ت: «روى».
(٢) في ت: «يدخلون».
(٣) المسند (٢/ ١٧٩).
(٤) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده عن وهيب».
(٥) في ت، س: «برضى».
(٦) في ت: «ولكن أكثرهم» وهو خطأ.
(٧) في أ: «ما أنعم».

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى: جعلها مستقرا لكم، بساطا مهادا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون فى مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أى: سقفا للعالم محفوظا، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أى: فخلقكم فى أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المآكل والمشارب فى الدنيا. فذكر أنه خلق الدار، والسكان، والأرزاق ـ فهو الخالق الرازق، كما قال فى سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا[1] رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٠، ٢١] وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أى: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم.

ثم قال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: هو الحى أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملا بهذه الآية.

ثم روى عن محمد بن على بن الحسن بن شقيق، عن أبيه، عن الحسين بن واقد، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس[2] قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك[3] قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال أبو أسامة وغيره، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن سعيد بن جبير قال: إذا قرأت: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر: ١٤]، فقل: «لا إله إلاّ الله» وقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعْبَد أحد سواه من الأصنام والأنداد

(١) فى س: «اتقوا» وهو خطأ. (٢) فى ت: «ثم روى بإسناده عن ابن عباس». (٣) فى ت، س: «وذلك».

والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، فى قوله: ﴿هوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أى: هو الذى يقلبكم فى هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطا، ومنهم من يتوفى صغيرا، وشابا، وكهلا قبل الشيخوخة، كقوله ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقال هاهنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ، قال ابن جريج، تتذكرون البعث.

ثم قال: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان [لا محالة][1].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) ﴾ .

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون فى الحق والباطل، كيف تُصرّف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أى: من الهدى والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب، جل جلاله، لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥].

وقوله: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ﴾ أى: متصلة بالأغلال، بأيدى الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿ يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، كما قال: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨] وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾[الواقعة: ٤١ـ ٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ. خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾[الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]،

(١) زيادة من س، أ.

أى: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا منصور بن عمار، حدثنا بشير[(١)] بن طلحة الخزامى، عن خالد بن دُرَيْك، عن يعلى بن مُنْيَة ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ قال: «ينشئ الله سحابة لأهل النار سوداء مظلمة، ويقال: يا أهل النار، أى شيء تطلبون؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون: نسأل بَرْد الشراب، فتمطرهم أغلالا تزيد فى أغلالهم، وسلاسل تزيد فى سلاسلهم، وجمرا يُلْهِبُ النار عليهم». هذا حديث غريب[(٢)].

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ. مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: قيل لهم: أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أى: ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أى: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أى: تقول لهم الملائكة: هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: فبئس المَنْزلُ والمَقِيلُ الذى فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحُجَجه.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾.

يقول تعالى آمرا رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: فى الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا فى يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى أيام حياته ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أى: فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة.

ثم قال مسليا له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال فى «سورة النساء» سواء، أى: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر

---

(١) فى أ: «بشر».

(٢) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٨٤٦) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٣٩٤) من طريق أحمد بن منيع عن منصور به، وقال الطبرانى: «لا يروى عن يعلى إلا بهذا الإسناد، تفرد به منصور». وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٩٠): «فيه من فيه ضعف قليل، وفيه من لم أعرفه».

بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك فى سورة النساء[١]، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتى قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله [٢]له فى ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾: وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾، فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحرث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة، كما فَصَّل وبَيَّنَ فى أماكن تقدم ذكرها فى «سورة الأنعام»[٣]، و«سورة النحل»[٤]، وغير ذلك؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم، ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؟ أى: لا تقدرون على إنكار شىء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾.

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل فى قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع

---

(١) راجع تفسير الآية: ١٦٤ من سورة النساء.

(٢) فى أ: «إلا بإذن الله».

(٣) راجع تفسير الآيات: ١٤١ ـ ١٤٤ من سورة الأنعام.

(٤) راجع تفسير الآيات: ٥ ـ ٨ من سورة النحل.

شدة قواهم، وما أثروه فى الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل[(١)] بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم فى زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب.

وقال السدى: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله ما لا قِبَل لهم به.

﴿ وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ أى: يكذبون ويستبعدون وقوعه.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أى: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أى: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله [تبارك و][(٢)] تعالى: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾؟ [يونس: ٩١] أى: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. و[هكذا][(٣)] هاهنا قال: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أى: هذا حكم الله فى جميع[(٤)] مَنْ تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء فى الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[(٥)] أى: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاين الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر تفسير «سورة غافر[(٦)]»، ولله الحمد والمنة

---

(١) فى أ: «رسلهم».   (٢) زيادة من س، أ.   (٣) زيادة من س، أ.
(٤) فى أ: «فى جميع عباده».
(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٣٧) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢٥٣) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٦) فى س: «المؤمن».

سورة المؤمن

مكّيّة،[1] وهي خمس وثمانون، أو ثنتان وثمانون[2] آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾

﴿حمٓ﴾ بتفخيم الألِف[3] وتَسكين الميم. وقُرئ بإمالة الألِف،[4] وبإخراجِها بينَ بينَ،[5] وبفتح الميم[6] لالتقاء الساكنين، أو نصبِها بإضمارِ "اقرأ" ونحوِه. ومنع الصرف للتعريف والتأنيث، أو للتعريف وكونها على زِنة قابيل وهابيل. وبقيّة الكلام فيه وفي قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كالذي سلَف في ﴿الٓمٓ﴾ السجدة. وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ كما في مطلعِ سورة الزمر في الوجوه كلّها. ووَجه التعرّض لنعتي العزّة والعِلم ما ذُكِر هناك.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ إمّا صفاتٌ أُخَرُ لتحقيق ما فيها مِن الترغيب والترهيب، والحثِّ على ما هو المقصود. والإضافة فيها حقيقيّة على أنّه لم يُرَد بها زمان مخصوص، وأريدَ بـ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ مُشدِّدِه،[7] أو الشديدِ عِقابُه بحذف اللام للازدواجِ[8] وأمْنِ الالتباس. أو أبدالٌ،[9] وجعلُه وحده بدلًا

---

[1] س + قال الحسَن: إلّا قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [غافر، ٤٠/٥٥]؛ لأنّ الصلوات نزلت بالمدينة.

[2] س ي – أو ثنتان وثمانون.

[3] المراد بتفخيم الألف هنا فتحها الذي هو ضدّ الإمالة.

[4] قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف وابن ذكوان وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

[5] قرأ بها ورش عن نافع، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو، والوجه الثاني له الفتح. النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

[7] كذا ضبطه المصنّف تبعًا بـ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾.

[8] أي: إنّما حذف الألف واللام مِن شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظًا. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١٤٩.

[9] السياق: إمّا صفاتٌ أُخَرُ... أو أبدالٌ...

-كما فعله الزجّاج-[١] مشوّش للنظم.

وتوسيط الواو بين الأوّلَين لإفادة الجمعِ بين "مَحو الذنوب" و"قبول التوبة"، أو تغايرِ الوصفين؛ إذ ربّما يُتوهّم الاتّحاد، أو تغايرِ موقعِ الفعلين؛ لأنّ "الغَفْر" هو السَّتر مع بقاء الذنب، وذلك لمَن لم يتب، «فإنّ التائب مِن الذنب كمَن لا ذنبَ له».[٢]

و﴿ٱلتَّوْبِ﴾ مصدر كالتوبة، وقيل: هو جمعها.[٣] و﴿ٱلطَّوْلِ﴾ الفضل بترك العقاب المُستَحَقّ، وفي توحيد صفة العذاب مغمورةً بصفات الرحمة دليل سَبقها ورُجحانها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبال الكلّي على طاعته في أوامره ونواهيه. ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فحَسب، لا إلى غيره، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، فيجازي كلًّا مِن المطيع والعاصي.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالطعن فيها، واستعمالِ المقدّمات الباطلة [٢٠ظ] / لإدحاض الحقّ، كقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر، ٤٠/٥].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بها، وأمّا الذين آمنوا فلا يَخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلًا عن الطعن فيها. وأمّا الجدالُ فيها لحَلّ مشكلاتها وكشف مُعضلاتها واستنباطِ حقائقها الكلّيّة وتوضيحِ مناهجِ الحقّ في مضايق الأفهام ومزالق الأقدام وإبطالِ شُبَه أهل الزيغ والضلال فمِن أعظم الطاعات، ولذلك قال عليه السلام: «إنّ جدالًا في القرآن كُفر»[٤] بالتنكير للفرق بين جدالٍ وجدالٍ.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ لترتيب النهي أو وجوبِ الانتهاء على ما قبلها مِن التسجيل عليهم بالكفر الذي لا شيء أمقَتُ منه عند الله تعالى، ولا أجلَبُ لخُسران الدنيا والآخرة، فإنّ مَن تحقّق ذلك

---

[١] انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٣٦٦/٤.

[٢] حديث عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في سنن ابن ماجه، ١٤١٩/٢ (٤٢٥٠)؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٢٥٩/١٠ (٢٠٥٦١).

[٣] أي: جمع التوبة، والمراد إنّه اسم جمعي، كتَمر وتَمرة. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٥٦/٧.

[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٤. وهو في مسند أحمد، ٤٨٦/١٢ (٧٥٠٨)، بلفظ: «جدالٌ في القرآن كُفر».

لا يكاد يغترّ بما لهم مِن حظوظ الدنيا وزخارفها، فإنّهم مأخوذون عمّا قليل أخذَ مَن قبلهم مِن الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين تحزّبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوحٍ، مثل عاد وثمود وأضرابهم. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ مِن تلك الأمم العاتية ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرئ: "بِرَسُولِهَا"[1] ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكّنوا منه فيصيبوا به ما أرادوا مِن تعذيب أو قتل، مِن الأخذ بمعنى الأسْر.

﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي لا أصلَ ولا حقيقةَ له أصلًا ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ الذي لا مَحيد عنه كما فعل هؤلاء، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بسبب ذلك أخذَ عزيز مُقتدِر. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الذي عاقبتهم به، فإنّ آثار دمارهم عُرضة للناظرين، ولآخُذَنَّ هؤلاء أيضًا لاتّحادهم في الطريقة واشتراكهم في الجَريرة، كما يُنبئُ عنه قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: كما وجَب وثبَت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذِّبة المُتحزِّبة على رسلهم المجادِلةِ بالباطل لإدحاض الحقّ به، وجَب أيضًا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: كفروا بك وتحزّبوا عليك وهمّوا بما لم ينالوا، كما يُنبئ عنه إضافة اسم الربّ إلى ضميره عليه السلام، / فإنّ ذلك للإشعار بأنّ وجوب كلمة العذاب عليهم مِن أحكام تربيته [٢١و]
التي مِن جملتها نُصرته عليه السلام وتعذيب أعدائه، وذلك إنّما يتحقّق بكون الموصول عبارة عن كفّار قومه، لا عن الأمم المهلَكَة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في حيّز النصب بحذف لام التعليل، أي: لأنّهم مستحِقّو[2] أشدِّ العقوبات وأفظعِها التي هي عذاب النار، وملازموها أبدًا

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

[2] في الأصول الخطّيّة: "مستحقّوا" بألف بعد الواو.

لكونهم كفّارًا معاندين متحزّبين على الرسول عليه السلام، كدأب مَن قبلهم مِن الأمم المُهلَكة، فهم لِسائر فنون العقوبات أشدُّ استحقاقًا وأحقُّ استيجابًا. وقيل: هو في محلّ الرفع على أنّه بدل مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، والمعنى: مثل ذلك الوجوب وجَب على الكفرة المُهلَكة كونَهم مِن أصحاب النار، أي: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بعذاب الاستئصال، كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار في الآخرة. ومحلّ الكاف على التقديرين النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ وهم أعلى طبقات الملائكة عليهم السلام، وأوّلهم وجودًا. وحَملُهم إيّاه وحَفيفُهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له، وكنايةٌ عن زُلفاهم[١] مِن ذي العرش جلّ جلاله ومكانتِهم عنده. ومحلّ الموصول الرفع على الابتداء، خبره: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾، والجملة استئناف مَسوق لتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّ أشراف الملائكة عليهم السلام مثابرون على ولاية مَن معه مِن المؤمنين ونصرتِهم واستدعاءِ مَا يُسْعِدُهم في الدارَين، أي: ينزِّهونه تعالى عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نَعمائه التي لا تتناهى.

﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ إيمانًا حقيقًا بحالهم. والتصريح به مع الغِنَى عن ذكره رأسًا لإظهار فضيلةِ الإيمان، وإبرازِ شرف أهلِه، والإشعارِ بعلّة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فإنّ المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأتمّها وأدْعَى الدواعي إلى النصحِ والشفقة. / وفي نظم استغفارهم [٢١ظ]
لهم في سِلك وظائفهم المفروضة عليهم مِن تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم إيذانٌ بكمال اعتنائهم به، وإشعارٌ بوقوعه عند الله تعالى في موقع القبول.

---

١ أي: قُربِهم. والزلفة والزلفى: القربة والمَنزلة. **الصِّحاح** للجوهري، «زلف».

رُوي أنّ حملة العرش أرجلُهم في الأرض السفلى، ورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خُشوع لا يرفعون طرفهم.[١]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تتفكّروا في عِظَم ربّكم، ولكن تفكّروا فيما خلق الله مِن الملائكة، فإنّ خلقًا مِن الملائكة يقال له: إسرافيل، زاويةٌ مِن زوايا العرش على كاهِله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرَق رأسه[٢] مِن سبع سماوات، وإنّه لَيتضاءل مِن عظَمة الله حتّى يصير كأنّه الوَصَعُ».[٣]

وفي الحديث: «إنّ الله أمرَ جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلًا لهم على سائرهم».[٤]

وقيل: خلق الله تعالى العرش مِن جوهرة خضراء، وبين القائمتين مِن قوائمه خفَقان الطيرِ المُسرِعِ ثمانين ألفَ عامٍ.[٥]

وقيل: حول العرش سبعون ألفَ صفٍّ مِن الملائكة يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين، ومِن ورائهم سبعون ألفَ صفٍّ قيامٌ قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومِن ورائهم مائةُ ألفِ صفٍّ، قد وضعوا أيمانهم على الشمائل، ما منهم أحد إلّا وهو يُسبّح بما لا يُسبّح به الآخر.[٦]

﴿رَبَّنَا﴾ على إرادة القول، أي: يقولون: ربّنا، على أنّه إمّا بيان لاستغفارهم أو حال. ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعَتْ رحمتُك وعلمك، فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه تعالى بالرحمة والعِلم، والمبالغةِ في عمومهما. وتقديم الرحمة لأنّها المقصودة بالذات ههنا.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٦/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥١/٤.

٢ أي: خرَقها وخرج مِن الجانب الآخر. انظر: الصِّحاح للجوهري، «مرق».

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٦/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٢/٤. قال الزيلعي: "غريب". تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢١٨/٣. | والوَصَع: طائر أصغر مِن العصفور. الصِّحاح للجوهري، «وصع».

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٢/٤.

٥ الكشّاف للزمخشري، ١٥٢/٤؛ تفسير القرطبي، ٢٩٤/١٥.

٦ الكشّاف للزمخشري، ١٥٢/٤؛ تفسير القرطبي، ٢٩٤/١٥. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٨.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي: للذين علمتَ منهم التوبةَ واتّباعَ سبيل الحقّ؛ لترتيب الدعاء على ما قبلها مِن سَعة الرحمة والعِلم. ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ واحفظهم عنه، وهو تصريح بعد إشعارٍ للتأكيد.

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨﴾

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿قِهِمۡ﴾.[١] وتوسيط النداء بينهما للمبالغة في الجُؤار.[٢] ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ أي: وعدتَهم إيّاها. وقُرئ: "جَنَّةَ عَدْنٍ".[٣]

[٢٢و] ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ/ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ أي: صلاحًا مصحِّحًا لدخول الجنّة في الجملة، وإن كان دون صلاحِ أصولهم. وهو عطفٌ على الضمير الأوّل، أي: وَأَدخِلها[٤] معهم هؤلاء؛ ليتِمّ سرورهم، ويتضاعف ابتهاجهم. أو على الثاني، لكن لا بناءً على الوعد العامّ للكلّ كما قيل؛[٥] إذ لا يبقى حينئذ للعطف وجه؛ بل بناءً على الوعد الخاصّ بهم بقوله تعالى: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور، ٢١/٥٢]، بأن يكونوا أعلى درجة مِن ذرّيّتهم.

قال سعيد بن جُبير: «يدخل المؤمن الجنّة فيقول: "أين أبي؟ أين ولدي؟ أين زوجي؟" فيقال: "إنّهم لم يعملوا مثل عملك"، فيقول: "إنّي كنت أعمل لي ولهم"، فيقال: "أَدْخِلوهم الجنّة"».[٦]

وسبْقُ الوعد بالإدخال والإلحاق لا يستدعي حصول الموعود بلا توسّط شفاعةٍ واستغفارٍ، وعليه مبنى قولِ مَن قال: فائدة الاستغفار زيادة الكرامة والثواب. والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ الدعاء بالإدخال فيه صريح، وفي الثاني ضِمني.

---

١ في الآية السابقة.

٢ الجُؤار: رفع الصوت مع تضرّع واستغاثة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «جأر».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٤ وفي هامش م: أي: جنّات عدن «منه».

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٢/٥.

٦ جامع البيان للطبري، ٢٨٦/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٨/٨.

وقُرئ: "صَلُحَ" بالضمّ،[١] و"ذُرِيَّتِهِمْ" بالإفراد.[٢]

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة الباهرة مِن الأمور التي مِن جملتها إنجاز الوعد. فالجملة تعليل لِما قبلها.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: العقوباتِ؛ لأنّ جزاء السيّئة سيّئة، أو جزاءَ السيّئات على حذف المضاف، وهو تعميم بعد تخصيص، أو مخصوصٌ بالأَتباع، أو المعاصِيَ في الدنيا، فمعنى قوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾: ومَن تَقِهِ المعاصيَ في الدنيا فقد رحمته في الآخرة، كأنّهم طلبوا لَهم السببَ بعدما سألوا المسبَّبَ.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الرحمة المفهومة مِن ﴿رَحِمْتَهُۥ﴾، أو إليها وإلى الوقاية. وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ مرارًا مِن الإشعار ببُعد درجة المشار إليه. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا مَطمَع وراءه لطامع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شروع في بيان أحوال الكفَرة بعد دخولهم النار بعد ما بُيِّن فيما سبق ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.[٣] ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي: مِن مكان بعيد، وهم في النار، وقَد مقَتُوا أنفسهم الأمّارة بالسوء التي وقعوا فيما وقعوا باتّباعِ هواها، أو مقَتَ بعضُهم بعضًا مِن الأحباب، كقوله تعالى: / ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [٢٢ظ] [العنكبوت، ٢٥/٢٩]، أي: أبغضوها أشدّ البغض، وأنكروها أبلغ الإنكار، وأظهروا ذلك على رءوس الأشهاد، فيقال لهم عند ذلك: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لمَقت الله أنفسَكم الأمّارةَ بالسوء، أو مَقتُه إيّاكم في الدُّنيا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٣ غافر، ٦/٤٠.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ مِن جهة الأنبياءِ ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ فتأبَونَ قَبوله ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ اتّباعًا لأنفسكم الأمّارة، ومسارعةً إلى هواها، أوِ اقتداءً بأخِلّائكم المضلِّين، واستحبابًا لآرائهم أكبرَ مِن مَقتكم أنفسَكم الأمّارة، أو مِن مَقت بعضكم بعضًا اليوم. فـ﴿إِذْ﴾ ظرف للمَقت الأوّل وإن توسّط بينهما الخبر، لِما في الظروف مِن الاتّساعِ. وقيل: لمصدر آخَر مقدّر، أي: مقتُه إيّاكم إذ تُدعَون. وقيل: مفعول لـ"اذكروا". والأوّل هو الوجه.

وقيل: كلا المَقْتَين في الآخرة، و﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ تعليل لِما بين الظرف والسبب مِن علاقة اللزوم. والمعنى: لَمَقتُ الله إيّاكم الآن أكبر مِن مَقتكم أنفسَكم لِما كنتم تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون. وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بـ"أنفسهم" أضرابَهم ممّا لا داعي إليه.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١﴾

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ صفتان لمصدرَي الفعلين المذكورين، أي: إماتتَين وإحياءتَين، أو موتتَين وحياتَين، على أنّهما مصدران لهما أيضًا بحذف الزوائد، أو لفعلين يدلّ عليهما المذكوران، فإنّ الإماتة والإحياء يُنبئانِ عن الموت والحياة[١] حتمًا، كأنّه قيل: أمتَّنا فمُتنا موتتَين اثنتَين، وأَحيَيْتَنا فَحَيِينَا حياتَين[٢] اثنتين، على طريقة قول مَن قال:

وعضّةُ دهرٍ يا ابنَ مروانَ لم يدَع مِن المال إلّا مُسْحَتٌ أو مُجلَّفُ[٣]

أي: لَم يدَع فلم يبقَ إلّا مُسحَت... إلخ.

---

١ م س: والحيوة.

٢ م س: حيوتين.

٣ للفرزدق في ديوانه، ص ١١٧، بلفظ:
وعضّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم تدَع
مِن المال إلّا مُسْحَتًا أو مُجرَّفُ
والمُسحَت: الذي لم يبق منه بقيّة. والمجلَّف: الذي ذهَب معظمه، وبقي منه شيء يسير. قال الزمخشري: «هذا البيت ما تزال الرُّكَب تصطكّ في تسوية إعرابه». الكشّاف للزمخشري، ٧٢/٣. وقال ابن قتيبة: «رفع الفرزدق آخر البيت ضرورةً، وأتعبَ أهل الإعراب في طلب العلّة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا منه بشيء يُرتضى». الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٨٩/١.

قيل: أرادوا بالإماتة الأولى خَلْقَهم أمواتًا، وبالثانية إماتتَهم عند انقضاء آجالهم، على أنّ الإماتة جعل الشيء عادِم الحياة، أعمّ مِن أن يكون بإنشائه كذلك، كما في قولهم: "سبحان مَن صغّر البعوض وكبّر الفيل"، أو بجعله كذلك بعد الحياة وبالإحياءين الإحياءَ الأوّلَ وإحياءَ البعث.

وقيل: أرادُوا بالإماتة الأولى ما بعد حياة الدنيا، وبالثانية ما بعد حياة القبر، وبالإحياءين: ما في القبر وما عند البعث، / وهو الأنسب بحالهم. وأمّا [٢٣و] حديث لزوم الزيادة على النصّ[١] ضرورة تحقّق حياة الدنيا فمدفوع، لكن لا بما قيل مِن عدم اعتدادهم بها لزوالها وانقضائها وانقطاعِ آثارها وأحكامها؛ بل بأنّ مقصودهم إحداث الاعتراف بما كانوا يُنكرونه في الدنيا كما ينطق به قولهم: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ والتزام العمل بموجَب ذلك الاعتراف؛ ليتوسّلوا بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم الفارغة مِن الرَجْعِ إلى الدنيا، كما قد صرّحوا به حيث قالوا: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، وهو الذي أرادوه بقولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ مع نوعِ استبعادٍ له واستشعار يأسٍ منه، لا أنّهم قالوهُ بطريق القنوط البحت كما قيل.[٢]

ولا ريب في أنّ الذي كانوا ينكرونه ويفرّعون عليه فنون الكفر والمعاصي ليس إلّا الإحياءَ بعد الموت، وأمّا الإحياء الأوّل فلم يكونوا ينكرونه لينظموه في سلك ما اعترفوا به وزعموا أنّ الاعتراف به يُجديهم نفعًا، وإنّما ذكروا الموتة الأولى مع كونهم معترفين بها في الدنيا لتوقّف حياة القبر عليها، وكذا حال الموتة في القبر، فإنّ مقصدهم الأصلي هو الاعتراف بالإحياءين، وإنّما ذكروا الإماتتين لترتيبهما عليهما ذِكرًا حسب ترتّبهما عليهما وجودًا.

وتنكيرُ ﴿سَبِيلٍ﴾ للإبهام، أي: مِن سبيلٍ مّا كيفما كان.

---

١ وفي هامش م: بناء على أنّ لفظ ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ نصّ في مدلوله. «منه». | قال الزمخشري: «ومَن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزِمَه إثبات ثلاث إحياءات، وهو خلاف ما في القرآن، إلّا أن يتَمحّل فيجعل إحداها غيرَ معتدّ بها، أو يزعم أنّ الله تعالى يُحييهم في القبور، وتستمرّ بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها». الكشّاف للزمخشري، ١٥٥/٤.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٥٥/٤.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ۝١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾... إلخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها مِن أعمالهم السيّئة، أي: ذلكم الذي أنتم فيه مِن العذاب مطلقًا -لا مقيّدًا بالخلود كما قيل-[1] ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ أي: بسبب أنّ الشأن ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا، أي: عُبِد ﴿وَحۡدَهُۥ﴾ أي: منفردًا ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ أي: بتوحيده، ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ
[٢٣ظ] تُؤۡمِنُواْ﴾ / أي: بالإشراك به وتُسَارعوا فيه.

وفي إيراد ﴿إِذَا﴾ وصيغةِ الماضي في الشرطيّة الأُولى و﴿إِن﴾ وصيغةِ المضارعِ في الثانية ما لا يخفى مِن الدلالة على كمال سوء حالهم.

وحيث كان حالكم كذلك ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾ الذي لا يحكم إلّا بالحقّ، ولا يقضي إلّا بما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ الذي ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا مُعقِب لحُكمه، وقد حكَم بأنّه لا مغفرة للمشرك، ولا نهاية لعقوبته، كما لا نهاية لشَناعته، فلا سبيل لكم إلى الخروج أبدًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالّة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرُّده بالألوهيّة لتستدلّوا بها على ذلك، وتعملوا بموجَبها فتوحّدوه تعالى، وتَخُصُّوه بالعبادة. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد. وقُرئ بالتخفيف[2] مِن الإنزال. ﴿لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾ أي: سببَ رزق، وهو المطر، وإفرادُه بالذكر مع كونه مِن جملة الآيات الدالّة على كمال قدرته تعالى لتفرُّده بعنوان كونه مِن آثار رحمته وجلائل نعمته المُوجبة للشكر. وصيغة المضارعِ في الفعلين للدلالة على تجدّد الإراءة والتنزيل واستمرارهما. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول لِما مرّ غير مرّة.

---

[1] انظر: اللباب لابن عادل، ٢١/١٧.

[2] أي: "وَيُنْزِلُ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات الباهرة ولا يَعمل بمقتضاها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى، ويتفكّر فيما أودعه في تضاعيف مصنوعاته مِن شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، ومَن ليس كذلك فهو بمَعزِل مِن التذكّر والاتّعاظ.

﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١٤﴾

﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذكر مِن اختصاص التذكّر بمَن ينيب فاعبدوه أيّها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجَب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم به، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ذلك وغاظَهم إخلاصُكم.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ نحو: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [البقرة، ١١٧/٢] على أنّه صفة مشبَّهة أضيفت إلى فاعلها بعد النقل إلى فَعُل بالضمّ كما هو المشهور -وتفسيره بـ"الرافع" ليكون مِن إضافة اسم الفاعل إلى المفعول[١] بعيدٌ في الاستعمال- أي: رفيع درجات ملائكتِه، / أي: معارجِهم ومصاعدِهم إلى العرش. ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مالكه. [٢٤و]

وهما خبران آخران لقوله تعالى: ﴿هُوَ﴾،[٢] أُخبِر عنه بهما إيذانًا بعلوّ شأنه تعالى وعِظَم سلطانه الموجِبَين لتخصيص العبادة به وإخلاص الدين له، إمّا بطريق الاستشهاد بهما عليهما، فإنّ ارتفاع معارج ملائكته إلى العرشِ وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي تحت ملكوته وقبضةِ قدرته ممّا يَقْضِي بكونِ علوّ شأنه وعِظَم سلطانه في غايةٍ لا غايةَ وراءها. وإمّا بجعلهما عبارةً عنهما بطريق المجاز المتفرّعِ على الكناية، كالاستواء على العرش. وتمهيدًا[٣] لِمَا يعقُبهما مِن قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، فإنّه خبر آخر لِما ذكر،

---

[١] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٤٣/٩؛ وتفسير القرطبي، ٢٩٩/١٥.

[٢] في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الآيةَ [غافر، ١٣/٤٠].

[٣] وفي هامش م: عطفٌ على "إيذانًا". «منه».

مُنْبِئ عن إنزال الرزق الروحاني الذي هو الوحي بعد بيان إنزال[١] الرزق الجسماني الذي هو المطر، أي: ينزل الوحي الجاري مِن القلوب منزلةَ الروح مِن الأجساد.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بيان لـ﴿ٱلرُّوحَ﴾ الذي أريد به الوحي، فإنّه أمر بالخير، أو حال منه، أي: حال كونه ناشئًا ومبتدِئًا مِن أمره، أو صفة له على رأي مَن يُجوّز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: الروح الكائن مِن أمره، أو متعلّق بـ﴿يُلْقِى﴾، و﴿مِنْ﴾ للسببيّةِ كالباء، مثلَ ما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ [نوح، ٢٥/٧١]، أي: يُلقي الوحي بسبب أمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهو الذي اصطفاه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم.

﴿لِيُنذِرَ﴾ أي: اللهُ تعالى، أو الملقَى عليه، أو الروح. وقُرئ: "لِتُنْذِرَ"[٢] على أنّ الفاعل هو الرسول عليه السلام، أو الروحُ؛ لأنّها قد تؤنّث. ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إمّا ظرف للمفعول الثاني، أي: لِيُنذر الناس العذابَ يومَ التلاقي، وهو يوم القيامة؛ لأنّه يتلاقى فيه الأرواح والأجساد وأهل السماوات والأرض. أو هو المفعول الثاني اتّساعًا أو أصالةً، فإنّه مِن شدّة هَوله وفظاعته حقيق بالإنذار أصالةً. وقُرئ: "لِيُنْذَرَ" على البناء للمفعول ورفعِ "اليوم".[٣]

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾،[٤] أي: خارجون مِن قبورهم، / أو [٢٤ظ]
ظاهرون لا يسترهم شيء مِن جبل أو أَكَمةٍ أو بناءٍ، لكون الأرض يومئذ قاعًا صفصفًا، ولا عليهم ثياب، إنّما هم عُراة مكشوفون، كما جاء في الحديث: «يحشرون عُراةً حُفاةً غُرْلًا».[٥] وقيل: ظاهرةٌ نفوسهم لا يحجبهم غواشي الأبدان، أو أعمالُهم وسرائِرهم.

---

١ م س - إنزال ["صحّ" في هامش م س].

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن واليماني. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٣٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن ويعقوب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٧.

٤ في الآية السابقة.

٥ **صحيح البخاري**، ١٦٨/٤ (٣٤٤٧)؛ **صحيح مسلم**، ٢١٩٤/٤ (٢٨٦٠). | "غُرْلًا" -بضمّ الغين المعجمة وإسكان الراء- معناه: غير مختونين. **شرح صحيح مسلم** للنووي، ١٩٣/١٧.

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ استئناف لبيان بُروزهم، وتقريرٌ له، وإزاحةٌ لِما كان يتوهّمه المتوهِّمون في الدنيا مِن الاستتار توهّمًا باطلًا، أو خبر ثانٍ. وقيل: حال مِن ضمير ﴿بَٰرِزُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه تعالى شيءٌ مّا مِن أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم الجليّة والخفيّة السابقةِ واللّاحِقة.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكاية لِما يقع حينئذ مِن السؤال والجواب بتقدير قولٍ معطوف على ما قبله مِن الجملة المَنفيّة المستأنَفة، أو مستأنَفٍ يقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكاية بروزهم وظهور أحوالهم، كأنّه قيل: فماذا يكون حينئذ؟ فقيل: يُقال... إلخ، أي: ينادي منادٍ: لمَن المُلك اليوم؟ فيُجيبه أهل المَحشر: لله الواحد القهّار.

وقيل: المجيب هو السائل بعينه، لما رُوي أنّه يَجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد في أرض بيضاء، كأنّها سبيكة فضّة، لم يُعصَ اللهُ فيها قطُّ،[١] فأوّلُ ما يُتكلّم به أن ينادِيَ منادٍ: لمَن الملك اليومَ؟ لله الواحد القهّار.[٢]

وقيل: هي حكايةٌ لِما يَنطق به لسان الحال مِن تقطُّع أسباب التصرّفات المجازيّة، واختصاص جميع الأفاعيل بقَبضة القدرة الإلهيّة.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾... إلخ إمّا مِن تتمّة الجواب لبيان حكم اختصاص المُلك به تعالى ونتيجتِه التي هي الحُكم السَّويّ والقضاء بالحقّ، أو حكايةٌ لِما سيقوله تعالى يومئذ عَقيب السؤال والجواب، أي: تُجزَى كلُّ نفس مِن النفوس البَرّة والفاجرة بما كسبت مِن خير أو شرّ.

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عذاب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: سريعٌ حسابُه تمامًا؛ إذ لا يشغله تعالى[٣] شأن عن شأن، فيحاسِب الخلائق قاطبةً في أقرب زمان، كما نُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: / أنّه تعالى إذا أخذ [٢٥و]

---

١ س - قطّ.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٥٧/٤. وهو في الزهد والرقائق لابن المبارك، ١١٥/٢.

٣ س - تعالى.

في حسابهم لم يَقِلْ[١] أهلُ الجنّة إلّا فيها ولا أهلُ النار إلّا فيها.[٢] فيكون تعليلًا لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ﴾... إلخ، فإنّ كون ذلك اليوم بعينه يومَ التلاقي ويومَ البُروز ربّما يوهِم استبعادَ وقوعِ الكلّ فيه. أو سريعٌ[٣] مَجيئًا، فيكون تعليلًا للإنذار.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ١٨﴾

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي: القيامة. سمّيت بها لأُزُوفِها؛ وهو القُرْب، غيرَ أنّ فيه إشعارًا بضيق الوقت. وقيل: الخُطّةِ الآزفةِ؛ وهي مشارفة أهل النار دخولَها. وقيل: وقتَ حضور الموت، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة، ٨٣/٥٦]، وقولِه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ [القيامة، ٢٦/٧٥].

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾، فإنّها ترتفع مِن أماكنها، فتلتصق بحُلوقهم، فلا تعود فيَترَوَّحوا، ولا تَخرجُ فيَستريحوا بالموت. ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ على الغمّ، حال مِن أصحاب ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ على المعنى؛ إذ الأصل: قلوبُهم، أو مِن ضميرها في الظرف. وجمع السلامة باعتبار أنّ الكَظْم مِن أحوال العقلاء، كقوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء، ٤/٢٦]، أو مِن مفعول ﴿أَنذِرْهُمْ﴾ على أنّها حال مقدَّرة، أي: أنذرهم مُقَدَّرًا كَظْمُهم، أو مُشارفين الكَظْم.

﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: قريب مُشفِق، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: لا شفيعٍ مُشفَّع،[٤] على معنى نفي الشفاعة والطاعة معًا، على طريقة قوله:

على لَاحِبٍ لا يُهتَدَى بمَنارِهِ[٥]

---

١ مِن القيلولة؛ وهي النوم في الظهيرة. انظر: **الصِّحاح** للجوهري، «قيل».

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٧/٤. وفي **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٣٨/٣، عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم: «لا ينتصف النهار مِن يوم القيامة حتّى يَقيل أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار». وهو في **جامع البيان** للطبري، ٥٥٦/١٩ (الصافات، ٦٨/٣٧)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٣ السياق: أي: سريعٌ حسابُه... أو سريعٌ مَجيئًا...

٤ وفي هامش م: والجملة حال أخرى. «منه».

٥ تمامه:

إذا سافَهُ العَودُ النباطيُّ جَرْجرا

وهو لامرئ القيس في ديوانه، ص ٦٦. وقوله: "على لاحِب" أي: على طريق واضح. وسافه: شمّه. والعَود: البعير الهرم. والجرجرة: صوت يردّده البعير في حنجرته، وإنّما يُجرجر في الطريق إذا شمّه، لِما يعرف مِن شدّته وصعوبة مَسلكه. انظر: **أمالي ابن الشجري**، ٢٩٩/١.

والضمائر إن عادت إلى الكفّار -وهو الظاهر- فوضعُ ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ مَوضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم، وتعليلِ الحكم به.

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ النظرةَ الخائنةَ، كالنظرة الثانية إلى غير المَحرم، واستراقِ النظر إليه، أو خيانةَ الأعين على أنّها مصدر كالعافية، ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ مِن الضمائر والأسرار. والجملة خبر آخر -مثل: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾-[١] للدلالة على أنّه ما مِن خفيّ إلّا وهو متعلَّقُ العِلم والجزاء.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنّه المالك الحاكم / على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلّا وهو حقّ وعدل. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ يعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ تهكُّم بهم؛ لأنّ الجماد لا يقال في حقّه: يَقضي أوْ لا يَقضي. وقُرئ: "تَدْعُونَ" على الخطاب[٢] التِفاتًا، أو على إضمار "قل". [٢٥ظ]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعيُن، وقضائِه بالحقّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحال ما يدعون مِن دونه تعالى.[٣]

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١﴾

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: مآل حال مَن قبلَهم مِن الأُمم المكذِّبة لرسلهم، كعاد وثمودَ وأضرابِهم.

﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ قدرةً وتمكّنًا مِن التصرّفات. وإنّما جيء بضمير الفصل -مع أنّ حقّه التوسّط بين معرفتين- لمضاهاة "أفعلَ مِنْ" للمعرفة في امتناعِ

---

١ غافر، ١٥/٤٠.

٢ قرأ بها نافع وابن عامر بخُلف عن ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.

٣ س - تعالى.

دخول اللام عليه. وقُرِئ: "أَشَدَّ مِنكُمْ" بالكاف.[١] ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مثل: القِلاع الحصينة، والمدائن المتينة. وقيل: المعنى: وأكثرَ آثارًا، كقوله:

متقلِّدًا سيفًا ورُمحًا[٢]

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أخذًا وَبيلًا[٣] ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: مِن واقٍ يقيهم عذابَ الله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات، أو بالأحكام الظاهرة، ﴿فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ متمكِّن ممّا يريد غايةَ التمكّن، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُؤبَهُ عند عقابه بعقاب.[٤]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي معجزاته ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وحجّة قاهرة، وهي إمّا عين الآياتِ والعطفُ لتغاير العنوانين، وإمّا بعض مشاهيرها كالعصا، أُفردَت بالذِّكر مع اندراجها تحت الآيات لإنافتها إفرادَ جبريل وميكال به مع دخولِهما في الملائكة عليهم السلام.[٥]

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: فيما أظهره مِن المعجزات، وفيما ادّعاه مِن رسالة ربّ العالمين.

---

١ قرأ بها ابن عامر، وكذا هو في المصحف الشامي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٢ صدره:

يا ليت زوجَك قد غدا

وهو بغير نسبة في الصِّحاح للجوهري، «قلد»؛ ولسان العرب لابن منظور، «قلد».

٣ مِن قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل، ٧٣/١٦]. وسيأتي في تفسير سورة المزّمّل: الوَبيل: الثقيل الغليظ، مِن قولِهم: "كلأٌ وَبيلٌ" أي: وَخيم.

٤ وفي هامش م: يقال: لا يُؤبَهُ بِهِ، ولا يُؤبَهُ له، أي: لا يُبالَى به. «منه».

٥ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٢/٩٨].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝٢٥﴾

/ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو ما ظهر على يده مِن المعجزات [٢٦و] القاهرة ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ كما قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف، ١٢٧/٧]، أي: أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه أوّلًا. وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان، فلمّا بُعِث عليه السلامُ وأحسّ بأنّه قد وقع ما وقع أعاده عليهم غيظًا وحنقًا وزغمًا منه أنّه يصدّهم بذلك عن مظاهرته ظنًّا منهم أنّه المولود الذي حكم المُنجِّمون والكهَنةُ بذهاب مُلكهم على يده.

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في ضَياعٍ وبطلان لا يغني عنهم شيئًا، ويَنفُذ عليهم لا محالة القَدَرُ المقدورُ والقضاءُ المحتومُ. واللام إمّا للعهد، والإظهارُ في موقعِ الإضمار لِذمّهم بالكفر والإشعارِ بعلّة الحكم، أو للجنس وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا. والجملة اعتراض جيء به في تضاعيف ما حُكي عنهم مِن الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه مِن الإبراق والإرعاد واضمحلالِه بالمَرّة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كان مَلَؤُه إذا همّ بقتله عليه السلام كفُّوه بقولهم: ليس هذا بالذي تخافه، فإنّه أقلّ مِن ذلك وأضعف، وما هو إلّا بعض السحَرة، وبقولهم: إذا قتلتَه أدخلتَ على الناس شبهةً، واعتقدوا أنّك عجزت عن معارضته بالحُجّة، وعدَلت إلى المقارعة بالسيف.

والظاهر مِن دهاء اللعين ونكارَته أنّه كان قد استيقن أنّه نبيّ، وأنّ ما جاء به آياتٌ باهرة، وما هو بسحرٍ، ولكن كان يخاف إن همّ بقتله أن يُعاجَل بالهلاك، وكان قوله هذا تمويهًا على قومه وإيهامًا أنّهم هم الكافّون له عن قتله، ولولاهم لَقتله،

وما كان الذي يكفّه إلّا ما في نفسه مِن الفزع الهائل، وقولُه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ تجلُّد منه، وإظهار لعدم المبالاة بدعائه، ولكنّه أَخْوفُ ما يخافه.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: يُغيّر ما أنتم عليه مِن الدين الذي هو عبارة عن عبادته وعبادةِ الأصنام لتُقرّبهم إليه، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ / ٱلْفَسَادَ﴾ ما يفسد دنياكم مِن التحارُب والتهارُجِ إن لم يقدِر على تبديل دينكم بالكلّيّة. وقُرئ بالواو الجامعة.[١] وقُرئ بفتحِ الياء والهاء ورفع ﴿ٱلْفَسَادَ﴾.[٢] وقُرئ: "يَظَّهَّرَ" بتشديد الظاء والهاء،[٣] مِن "تَظَهَّر" بمعنى "تظاهَر"، أي: تتابَع وتعاوَن. [٢٦ظ]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: لقومه حين سمع بمَا تَقوَّله اللعين مِن حديث قتله عليه السلام: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّر عليه السلام كلامه بـ"إنّ" تأكيدًا لَه وإظهارًا لِمزيد الاعتناء بمضمونه وفرطِ الرغبة فيه. وخصّ اسم الربّ المُنبئ عن الحفظ والتربية لأنّهما الذي يستدعيه، وأَضافَهُ إليه وإليهم حثًّا لهم على موافقته في العياذ به تعالى والتوكّل عليه، فإنّ في تظاهر النفوس تأثيرًا قويًّا في استجلاب الإجابة، ولم يسمِّ فرعون؛ بل ذكَرَه بوصفٍ يعمّه وغيره مِن الجبابرة لتعميم الاستعاذة والإشعار بعِلّة القساوة والجُرأة على الله تعالى. وقُرئ: "عُذتُّ"[٤] بالإدغام.[٥]

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

---

١ أي: "وَأَن يُظهِرَ" بدَل ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾. قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٢ أي: "يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادُ". قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلَف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٤ في الأصول الخطّيّة: "عدت" بالدال، لعلّ ذلك إشارةً إلى قَلبها عند الإدغام، إلّا أنّها عند الإدغام تُقلب تاءً، وليس دالًا.

٥ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلَف وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/١٦.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قيل: كان قِبطيًّا ابنَ عمّ لفرعون آمَن بموسى سرًّا، وقيل: كان إسرائيليًّا، أو غريبًا، موحِّدًا ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ أي: مِن فرعون ومَلَئه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتقصدون قتلَه؟ ﴿أَن يَقُولَ﴾ لِأَن يقولَ، أو كراهةَ أن يقول: ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ أي: وحدَه مِن غير رَويّة وتأمّلٍ في أمره، ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ والحال أنّه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها وعهدتموها ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَه إليهم بعد ذكر البيّنات احتجاجًا عليهم واستنزالًا لهم عن رتبة المكابرة.

ثمّ أخذهم بالاحتجاج مِن باب الاحتياط، فقال: ﴿وَإِن[١] يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطّاه وبالُ كذِبه فيُحتاجَ في دفعه إلى قتله. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: إن لم يصبكم كلُّه فلا أقلّ مِن إصابة بعضه، لا سيّما إن تعرّضتم له بسُوءٍ، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف / وعدم التعصّب، [٢٧و] ولذلك قدَّم مِن شِقَّي الترديد كونَه كاذبًا. أو يُصِبْكم ما يعدكم مِن عذاب الدنيا، وهو بعض ما يعدهم، كأنّه خوّفهم بما هو أظهر احتمالًا عندهم. وتفسير "البعض" بالكلّ مستدِلًّا[٢] بقول لَبيد:

تَـــرّاك أمـكـنـَـةٍ إذا لــم أرضَـهـا ... أو يرتَبِطْ بعضَ النفوسِ حمامُها[٣]

مردود[٤] لِما أنّ مراده بـ"البعض" نفسُه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج آخر ذو وَجهين:

أحدهما: أنّه لو كان مُسرفًا كذّابًا لَما هداه الله إلى البيّنات، ولَما أيّده بتلك المعجزات.

وثانيهما: إن كان كذلك خذَله الله وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله.

---

١ م س ي: "فإن".

٢ قال ذلك أبو عبيدة مَعمر بن المثنّى في مجاز القرآن، ٢/٢٠٥. وانظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١٦٣.

٣ ديوان لبيد بن ربيعة، ص ١١٣. قال الزوزني: «يقول: إنّي تَرّاك أماكن إذا لم أرضها إلّا أن يرتبط نفسي حمامها فلا يمكنها البَراح، وأراد بـ"بعض النفوس" هنا نفسَه، هذا أوجه الأقوال وأحسنها، ومَن جعل "بعض النفوس" بمعنى: كلّ النفوس؛ فقد أخطأ؛ لأنّ بعضًا لا يفيد العموم والاستيعاب، وتحرير المعنى: إنّي لا أترك الأماكن التي أجتويها وأقلوها إلّا أن أموت». شرح المعلّقات السبع للزوزني، ص ١٩٣.

٤ السياق: وتفسير "البعض" بالكلّ... مردود.

ولعلّه أراهم المعنى الثاني وهو عاكف على المعنى الأوّل لِتَلين شكيمتُهم. وقد عرّض به لفرعون بأنّه مُسرف كذّاب، لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عالين على بني إسرائيل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مِصر، لا يُقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ مِن أخذه وعذابه ﴿إِن جَآءَنَا﴾ أي: فلا تفسدوا أمركم، ولا تتعرّضوا لِبأس الله بقتله، فإنّه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد. وإنّما نسبَ ما يَسرُّهم مِن المُلك والظهور في الأرض إليهم خاصّة ونظَم نفسه في سِلكهم فيما يَسُوءُهم مِن مَجيء بأس الله تعالى تطييبًا لقلوبهم، وإيذانًا بأنّه مناصح لهم ساعٍ في تحصيل ما يُجديهم ودفع ما يُرْديهم سعْيَه في حقّ نفسه ليتأثّروا بنُصحه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعدما سمع نصحه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ﴾ أي: ما أُشير عليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وأَستصوِبه مِن قتله، ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: الصواب. أو لا أُعلِمكم إلّا ما أَعلم، ولا أُسِرّ عنكم خلافَ ما أُظهِره. ولقد كذَب حيث كان مستشعِرًا للخَوف الشديد، ولكنّه كان يَتجلّد، ولولاه لَما استشار أحدًا أبدًا.

وقُرِئ بتشديد الشين[١] للمبالغة مِن "رَشِد" كـ"عَلّام"، أو مِن "رَشَد" كـ"عبّاد"، لا مِن "أرشَد" كـ"جَبّار" مِن "أجبَر"؛ لأنّه مقصور على السماع، أو للنسبة إلى الرُّشد كـ"عَوّاج" و"بَتّاتٍ" غيرَ منظور فيه إلى فعلٍ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ مخاطبًا لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في تكذيبه والتعرّض له بالسوء[٢] ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مثلَ أيّام الأمم الماضية، يعني: وقائعهم. وجَمعُ ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ مع التفسير أغنى عن جمع "اليوم".

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٢ س: بسوء.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ٣١﴾

/ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: مثلَ جزاء ما كانوا عليه مِن الكفر وإيذاء الرسل. ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، ولا يخلّي الظالم منهم بغير انتقام. وهو أبلغ مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت، ٤١/٤٦]، لِما أنّ المنفيّ فيه إرادةُ ظلمٍ مَا، فينتفي الظلم بطريق الأولويّة. [٢٧ظ]

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ٣٣﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ[1] إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوّفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي. و﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة؛ لأنّه ينادي فيه بعضهم للاستغاثة، أو يتصايحون بالويل والثبور، أو يتنادى أصحاب الجنّة وأصحاب النار حسبما حُكي في سورة الأعراف.[2] وقُرئ بتشديد الدال،[3] وهو أن يَنِدَّ[4] بعضهم مِن بعض، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس، ٨٠/٣٤]. وعنِ الضحّاك: «إذا سمعوا زفير النار نَدُّوا هربًا، فلا يأتون قُطرًا مِن الأقطار إلّا وجدوا ملائكةً صفوفًا، فبينا هم يموج بعضهم في بعضٍ إذ سمعوا مناديًا: أقبِلوا إلى الحساب».[5]

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾،[6] أي: منصرفين عن الموقف إلى النار، أو فارّين منها حسبما نُقل آنفًا.[7] ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم مِن عذابه. والجملة حال أخرى مِن ضمير ﴿تُوَلُّونَ﴾.

---

١ م س ي: يا قَوم.

٢ وهو قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾... الآيات [الأعراف، ٧/٥٠].

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والكلبي والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٤ مِن نَدَّ البعير يَنِدُّ نَدًّا ونِدادًا ونُدودًا: نفَرَ وذهب على وجهه شاردًا. انظر: الصّحاح للجوهري، «ندد».

٥ الكشّاف للزمخشري، ٤/١٦٥. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٧٥؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤/١١.

٦ في الآية السابقة.

٧ على قراءة التشديد في الدال.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على أنّ فرعونه فرعون موسى، أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد. وقيل: سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصدّيق. ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحة. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ مِن الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ ضمًّا إلى تكذيب رسالته تكذيبَ رسالةِ مَن بعده، أو جزمًا بأن لا يُبعث بعدَه رسول مع الشكّ في رسالته. وقُرئ: "أَلَن يَبْعَثَ اللهُ"[1] على أنّ بعضهم يقرّر بعضًا بنفي البعث.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في عصيانه ﴿مُّرْتَابٌ﴾ في دينه، شاكٌّ فيما يشهد به / البينات لِغلبة الوهم والانهماك في التقليد. [٢٨و]

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدل مِن الموصول الأوّل، أو بيان له، أو صفة باعتبار معناه، كأنّه قيل: كلُّ مُسرِفٍ مرتابٍ، أو المسرفين المرتابين. ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ متعلِّق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾، أي: بغير حجّة صالحة للتمسّك بها في الجملة ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ صفةُ ﴿سُلْطَٰنٍ﴾.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ضرب مِن التعجّب والاستعظام. وفي ﴿كَبُرَ﴾ ضمير يعود إلى ﴿مَنْ﴾،[2] وتذكيره باعتبار اللفظ. وقيل: إلى الجدال المستفاد مِن ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ وابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: تفسير السمعاني، ١٩/٥.

[2] في الآية السابقة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذُكر مِن الإسراف والارتياب والمجادلة بالباطل. وقُرئ بتنوينِ "قَلْبٍ".[١] ووصفُه بالتكبّر والتجبّر لأنّه منبعهما.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ أي: بناءً مكشوفًا عاليًا، مِن "صرّح الشيءُ" إذا ظَهر. ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي: الطرق.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيان لها. وفي إبهامها ثمّ إيضاحِها تفخيم لشأنها، وتشويق للسامع إلى معرفتها، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بالنصب على جواب الترجّي. وقُرئ بالرفع[٢] عطفًا على ﴿أَبْلُغُ﴾.

ولعلّه أراد أن يبني له رصَدًا في موضع عالٍ ليَرصُد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماويّة تدلّ على الحوادث الأرضيّة، فيرى هل فيها ما يدلّ على إرسال الله تعالى إيّاه؟ أو أن يُرِيَ فساد قوله عليه السلام بأنّ إخباره مِن إله السماء يتوقّف على اطّلاعه عليه ووصوله إليه، وذلك لا يتأتّى إلّا بالصعود إلى السماء، وهو ممّا لا يقوى عليه الإنسان، وما ذاك إلّا لجهله بالله سبحانه، وكيفيّةِ استنبائِه.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ فيما يدّعيه مِن الرسالة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك التزيين البليغ المُفرط ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فانهمك فيه انهماكًا لا يَرعوي عنه / بحالٍ، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: [٢٨ظ]
سبيل الرشاد. والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى، ويُؤيّده قراءة "زَيَّنَ" بالفتح،[٣]

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٢ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

وبالتوسّط الشيطانُ. وقُرئ: "وَصَدَّ"،[١] على أنّ فرعون صَدّ الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشُّبُهَات، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خسار وهلاك، أو على أنّه مِن "صَدَّ صدودًا"، أي: أعرَض. وقُرئ بكسر الصاد[٢] على نقل حركة الدال إليه. وقُرئ: "وَصَدٌّ"[٣] على أنّه عطفٌ على ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. وقُرئ: "وَصُدُّوا"،[٤] أي: هو وقومه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ أي: مؤمن آل فرعونَ. وقيل: موسى عليه السلام. ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ فيما دلَلتُكم عليه ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: سبيلًا يصِل سالكه إلى المقصود. وفيه تعريض بأنّ ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغيّ والضلال.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: تمتُّع يسير لسرعة زوالها. أجملَ لَهم أوّلًا ثمّ فسّر، فافتتح بذمّ الدنيا وتصغير شأنها؛ لأنّ الإخلاد إليها رأس كلّ شرّ، ومنه يتشعّب فنون ما يؤدّي إلى سَخط الله تعالى، ثمّ ثنّى بتعظيم الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لخلودها ودوام ما فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

﴿مَنْ عَمِلَ﴾ في الدنيا ﴿سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلًا مِن الله سبحانه. وفيه دليل على أنّ الجنايات تُغرَم بأمثالها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين عملوا ذلك ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

٢ أي: "وَصِدَّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن أبي بَكرة وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

أي: بغير تقدير وموازنة بالعمل؛ بل أضعافًا مضاعفة فضلًا مِن الله عزّ وجلّ ورحمةً. وجعلُ العملِ عمدةً والإيمانِ حالًا للإيذان بأنّه لا عبرة بالعمل بدونِه، وأنّ ثوابه أعلَى مِن ذلك.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ٤٢﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ كرّر نداءهم إيقاظًا لهم عن سِنة الغفلة، واعتناءً بالمنادى له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نُصحه. ومدار التعجّب الذي يُلوّحُ به الاستفهامُ دعوتُهم إيّاه إلى النار، لا دعوتُه إيّاهم إلى النجاة، كأنّه قيل: أخبروني كيف هذه الحال؟ / أدعوكم إلى الخير، وتدعونني إلى الشرّ. وقد جعلَه بعضهم مِن قَبيل "ما لي أراك حزينًا؟"، أي: ما لك تكون حزينًا. [٢٩و]

وقوله تعالى: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدل أو بيان فيه تعليل. والدعاء كالهداية في التعدية بـ"إلى" واللام. ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ﴾ بشركته له تعالى في المعبوديّة، وقيل: بربوبيّته ﴿عِلْمٌ﴾ والمراد نفي المعلوم والإشعار بأنّ الألوهيّة لا بدّ لها مِن برهان موجِب للعلم بها.

﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ الجامع لجميع صفات الألوهيّة مِن كمال القدرة والغلبة، وما يتوقّف عليه مِن العِلم والإرادة، والتمكّنِ مِن المُجازاة، والقدرة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ ﴿لَا﴾ رَدٌّ لِما دعَوه إليه، و﴿جَرَمَ﴾ فعل ماضٍ بمعنى "حَقَّ"، وفاعلُه قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: حقَّ ووَجَب عدمُ دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلًا، أو عدمُ دعوة مستجابة، أو عدمُ استجابة دعوة لها. وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى "كسَب"، وفاعله مستكِنّ فيه، أي: كسَب ذلك الدعاءُ إليه بطلانَ دعوته، بمعنى: ما حصل مِن ذلك إلّا ظهورُ بطلان دعوته.

وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ فَعَلَ مِن الجَرْم وهو القطع، كما أنَّ "بُدًّا" مِن "لا بُدَّ" فُعْلٌ مِنَ التبديد، أي: التفريق، والمعنى: لا قطعَ لبطلان ألوهيّة الأصنام، أي: لا ينقطع في وقتٍ مّا فينقلِبَ حقًّا، ويؤيّده قولهم: "لا جُرْم أنّه يفعل" بضمّ الجيم وسكون الراء. وفُعْلٌ وفَعَلٌ أخوان، كرُشْد ورَشَدٍ.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: بالموت، عطف على ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي﴾، داخل في حكمه، وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: في الضلال والطغيان كالإشراك وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقُرئ: "فَسَتُذَكِّرُونَ"،[١] أي: فسيُذكِّر بعضكم بعضًا عند
[٢٩ظ] معاينة العذاب ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مِن النصائح، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ / قالَه لِما أنّهم كانوا توعّدوه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرُس مَن يَلوذ به مِن المكاره.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائدَ مَكرهم وما همّوا به مِن إلحاق أنواع العذاب بمَن خالفهم. قيل: نَجا مع موسى عليه السلام. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بفرعون وقومه، وعدمُ التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذِكره ضرورةَ أنّه أَولى منهم بذلك. وقيل: بِطَلَبَةِ المؤمن مِن قومه، لِما أنّه فرّ إلى جبل فاتّبعه طائفة ليأخذوه، فوجدوه يصلّي والوحوشُ صفوفٌ حولَه، فرجعوا رُعبًا، فقتلَهم فرعون. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرق والقتل والنار.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان كيفيّة سوء العذاب. أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأنّ قائلًا قال: ما سوء العذاب؟ فقيل:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمران الجوني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

هو النار، و﴿يُعْرَضُونَ﴾ استئناف للبيان. أو بدل[١] مِن ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، و﴿يُعْرَضُونَ﴾ حال منها، أو مِن "الآل". ولا يُشترط في الحَيْق أن يكونَ الحائق ذلك السوءَ بعينه حتّى يَرِدَ أنّ آلَ فرعونَ لم يهمّوا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلاؤهم بها مِن قَبيل رجوعِ ما همّوا به عليهم؛ بل يكفي في ذلك أن يكون[٢] ممّا يُطلَق عليه اسم السوء.

وقُرئت منصوبة[٣] على الاختصاص، أو بإضمار فِعل يفسّره ﴿يُعْرَضُونَ﴾، مثل: يَصْلَوْنَ، فإنّ عَرْضهم على النار بإحراقهم بها، مِن قولهم: عُرِض الأسارى على السيف إذا قُتِلوا به. وذلك لأرواحهم، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه: «أنّ أرواحهم في أجواف طيرٍ سُودٍ تُعرض على النار بُكرةً وعَشِيًّا إلى يوم القيامة».[٤] وذِكر الوقتين إمّا للتخصيص، وإمّا فيما بينهما، فالله تعالى أعلم بحالهم، وإمّا للتأبيد، هذا ما دامت الدنيا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال للملائكة: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذابَ جهنّم، فإنّه أشدّ ممّا كانوا فيه، أو أشدَّ عذاب جهنّم، فإنّ عذابها ألوان، بعضها أشدّ مِن بعض. وقرئ: "ادْخُلُوا"[٥] مِن الدخول، أي: يقال لهم: ادخُلُوا يا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: واذكر لقومك وقتَ تخاصمهم فيها، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم رؤساؤهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أتباعًا، كـ"خَدَم" في جمعِ خادم، أو ذَوِي تَبَعٍ، أي: اتّباعٍ، على إضمار المضاف، أو تَبَعًا

---

١ السياق: أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر... أو بدل...
٢ وفي هامش م: أي: الحائق. «منه».
٣ أي: "النّارَ". قراءة شاذّة، جوّزها الكرماني ولم يذكر قارئًا لها. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.
٤ التفسير الوسيط للواحدي، ١٦/٤؛ اللباب لابن عادل، ٦٣/١٧. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٣٣٨/٢٠، عن السدّي.
٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦٥/٢.

[٣٠و] على الوصف / بالمصدر مبالغةً، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بالدفع أو بالحمل، و﴿نَصِيبًا﴾ منصوب بمضمر يدلّ عليه ﴿مُّغْنُونَ﴾، أي: دافعون عنّا نصيبًا... إلخ، أو بـ﴿مُّغْنُونَ﴾ على تضمينه معنى الحمل، أي: مغنون عنّا حاملين نصيبًا... إلخ، أو نصب على المصدريّة كـ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران، ١٠/٣]، فإنّه في موقع "غِنًى"، فكذلك ﴿نَصِيبًا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ۝٤٨﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: نحن وأنتم، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا. وقُرئ: "كُلًّا"[١] على التأكيد لاسم "إنّ"، بمعنى "كُلَّنَا". وتنوينُه عوض عن المضاف إليه، ولا مساغَ لجَعله حالًا مِن المستكِنّ في الظرف، فإنّه لا يعمل في الحال المتقدّمة كما يعمل في الظرف المتقدّم، فإنّك تقول: كلَّ يوم لك ثوب، ولا تقول: جديدًا لك ثوب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ وقضى قضاءً مُتقنًا لا مردّ له، ولا معقِّبَ لحكمه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ مِن الضعفاء والمستكبرين جميعًا لمّا ضاقت حِيَلُهم وعيَتْ بهم عِلَلُهم ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي: للقُوّام بتعذيب أهل النار. ووضع ﴿جَهَنَّمَ﴾ موضع الضمير للتهويل والتفظيع، أو لبيان محلِّهم فيها بأن تكون جهنّم أبعدَ دركات النار، وفيها أعتى الكفَرة وأطغاهم، أو لكون الملائكة الموكَّلينَ بعذاب أهلها أقدَرَ على الشفاعة لمزيد قربهم مِن الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: مقدار يوم، أو في يوم مّا مِن الأيّام، على أنّه ظرف لا معيارٌ، شيئًا ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ واقتصارُهم في الاستدعاء على ما ذُكر مِن تخفيف قَدر يسير مِن العذاب في مقدار قصير مِن الزمان دون رفعه رأسًا، أو تخفيفِ قَدر كثير منه في زمان مديد؛ لأنّ ذلك عندهم ممّا ليس في حيّز الإمكان، ولا يكاد يدخل تحت أمانيّهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

﴿قَالُوٓاْ أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الخزنة ﴿أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: ألم تُنَبَّهُوا على هذا؟ وَلم تكُ تأتيكم رسلكم في الدنيا على الاستمرار بالحججِ الواضحة الدالّة على سُوء مَغَبَّةِ ما كنتم عليه مِن الكفر والمعاصي؟ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الزمر، ٧١/٣٩]، أرادوا بذلكَ إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب الإجابة.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: أَتَونَا بها فكذَّبناهم، / كما نطق به قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا [٣٠ظ]
نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك، ٩/٦٧]. والفاء في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾ فصيحة، كما في قول مَن قال:

فـــقـــد جِـــئـــنـــا خُـــراســـانـــا[١]

أي: إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإنّ الدعاء لمَن يفعل ذلك ممّا يستحيل صدوره عنّا، وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الإذن فيه -مع عَرائه عن بيان أنّ سببه مِن قِبَلِهم كما يُفصح عنه الفاء- ربّما يوهم أنّ الإذن في حيّز الإمكان، وأنّهم لو أُذِن لهم فيه لفعلوا. ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء إطماعَهم في الإجابة؛ بل إقناطَهم منها وإظهارَ خَيبتهم حسبما صرّحوا به في قولهم: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: ضياعٍ وبطلانٍ.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلخ كلام مستأنَف مَسوق مِن جهته تعالى لبيان أنّ ما أصاب الكفَرة مِن العذاب المحكي مِن فروعِ حُكم كلّي

---

[١] تمامه:
قالوا خراسانُ أقصى ما يُراد بنا
ثـمّ الـقـفـولُ فقد جئنا خُراسانا
وهو للعبّاس بن الأحنف حين خرج مع الرشيد إلى خراسان، وهو في ديوانه، ص ٢٧٩. | قال ابن الأثير: «وحقيقتها [أي: "الفاء" في "فقد"] أنّها في جواب شرط محذوف يدلّ عليه الكلام، كأنّه قال: إن صحّ ما قلتم: إنّ خراسان أقصى ما يُراد بنا، فقد جئنا خراسان، وآن لنا أن نخلص». المثل السائر لابن الأثير، ٢٤٩/٢.

يقتضيه الحكمة، وهو أنّ شأننا المستمرّ أنّا ننصر رسلنا وأتباعهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالحجّة والظفر والانتقام لهم مِن الكفرة بالاستئصال والقتل والسبْي وغير ذلك مِن العقوبات، ولا يقدح في ذلك ما قد يتّفق لهم مِن صورة الغلبة امتحانًا؛ إذِ العبرة إنّما هي[١] بِالعواقبِ وغالب الأمر.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي: يوم القيامة. عُبّر عنه بذلك للإشعار بكيفيّة النصرة، وأنّها تكون عند جمع الأوّلين والآخِرين بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل مِن الأوّل، وعدمُ نفعِ المعذرة لأنّها باطلة. وقُرئ: "لَا تَنْفَعُ" بالتاء.[٢] ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: جهنّم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يُهتدَى به مِن المعجزات والصحف والشرائع، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وتركنا عليهم مِن بعده التوراة.

[٣١و] ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ هداية وتذكرة، أو هاديًا ومذكِّرًا / ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لذوي العقول السليمة العاملين بما في تضاعيفه.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾

﴿فَٱصْبِرْ﴾ على ما نالك مِن أذيّة المشركين، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدَه الذي ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات، ٣٧/١٧١-١٧٣]. أو وعدَه الخاصّ بكَ،

---

[١] س - إنّما هي.

[٢] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

أو جميعَ مواعيده التي مِن جملتها ذلك ﴿حَقٌّ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلًا، واستشهد بحال موسى وفرعون.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ تداركًا لِما فرَط منك مِن ترك الأَولى في بعض الأحايين، فإنّه تعالى كافيك في نصرة دينك وإظهارِه على الدّين كلِّه. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي: ودُم على التسبيح ملتبِسًا بحمده تعالى. وقيل: صلِّ لهذين الوقتين؛ إذ كان الواجب بمكّة ركعتين بُكرة وركعتين عَشِيًّا. وقيل: صلِّ شُكرًا لِربّكَ بالعَشِيّ والإبكار. وقيل: هما صلاة العصر وصلاة الفجر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويجحدون بها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ في ذلك مِن جهته تعالى. وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيانه للإيذان بأنّ التكلّم في أمر الدين لا بدّ مِن استناده إلى سلطان مبين البتّةَ، وهذا عامّ لكلّ مجادِل مبطلٍ، وإن نزل في مشركي مكّة.

وقوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ خبر لـ﴿إِنَّ﴾، أي: ما في قلوبهم إلّا تكبّر عن الحقّ وتعظّم عن التفكّر والتعلّم، أو إلّا إرادةُ الرياسة والتقدّم على الإطلاق، أو إلّا إرادةُ أن يكون النبوّة لهم دونك حسدًا وبغيًا حسبما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٤٣/٣١]، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ٤٦/١١]، ولذلك يجادلون فيها، لا أنّ فيها موقعَ جدالٍ مّا، أو أنّ لهم شيئًا يُتوهّم أن يصلح مدارًا لِمُجادلتهم في الجملة.

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ صفة لـ﴿كِبْرٌ﴾. قال مجاهد: «ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكِبر، وهو ما أرادوه مِن الرياسة / أو النبوّة». وقيل: المجادلون [٣١ظ] هم اليهود، وكانوا يقولون: «لست صاحبَنا المذكور في التوراة؛ بل هو المسيح بن داود -يريدون الدجّال- يخرج في آخر الزمان، ويبلغ سلطانه البرّ والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية مِن آيات الله تعالى، فيرجع إلينا المُلك». فسمّى الله تعالى تمنّيهم ذلك كِبرًا، ونفى أن يبلغوا مُتمنّاهم.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فالتجئ إليه مِن كيد مَن يحسدك ويبغي عليك، وفيه رمز إلى أنّه مِن همزات الشياطين. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾

وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ تحقيق للحقّ، وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه مِن أمر البعث، على منهاج قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس، ٨١/٣٦]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقصورهم في النظر والتأمّل لفرط غفلتهم واتّباعهم لأهوائهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الغافل والمستبصر، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ أي: والمحسِن والمسيء، فلا بدّ أن يكون لهم حال أُخرى يظهر فيها ما بين الفريقين مِن التفاوت، وهي فيما بعد البعث وزيادةِ، لا في المسيء، لتأكيد النفي لطول الكلام بالصلة، ولأنّ المقصود نفي مساواته للمُحسن فيما له مِن الفضل والكرامة، والعاطفُ الثاني عَطف الموصول بما عُطف عليه على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ لتغاير الوصفين في المقصود أو الدلالة بالصراحة والتمثيل.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ على الخطاب بطريق الالتفات، أي: تذكّرًا قليلًا تَتذكّرون. وقُرئ على الغيبة،[1] والضمير للناس أو الكفّار.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في مجيئها لوضوحِ شواهدها وإجماعِ الرسل على الوعد بوقوعها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بها لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسّون به.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٦٥/٢.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾ أي: اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: أُثِبْكم، لقوله تعالى: / ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين أذِلّاء، وإن فسّر الدعاء بالسؤال كان الأمر الصارِف عنه منزّلًا منزلةَ الاستكبار عن العبادة للمبالغة، أو المرادُ بالعبادة الدعاء، فإنّه مِن أفضل أبوابها. وقُرئ: "سَيُدْخَلُونَ"[1] على صيغة المبنيّ للمفعول مِن الإدخال. [٣٢و]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ بأن خلَقه باردًا مُظلِمًا ليُؤدّيَ إلى ضَعف المحرِّكات وهُدُوءِ الحواسّ لتستريحوا فيه. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول قد مرّ سرّه مرارًا. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُبصَرًا فيه أو بِه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيمٍ لا يوازيه ولا يدانيه فضل. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجهلهم بالمُنعِم، وإغفالِهم مواضع النعم، وتكريرُ الناس لتخصيص الكُفران بهم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣﴾

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المتفرّد بالأفعال المقتضية للألوهيّة والربوبيّة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة تخصّص اللّاحقةُ منها السابقةَ وتُقرّرها. وقُرئ: "خَالِقَ" بالنصب[2] على الاختصاص، فيكون ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافًا بما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة.

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر ورُويس عن يعقوب وشعبة عن عاصم بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف ومِن أيّ وجه تُصرَفون عن عبادته خاصّةً إلى عبادة غيره؟

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: مثل ذلك الإفك العجيب الذي لا وجه له ولا مصحِّح أصلًا يُؤفَك كلُّ مَن جحد بآياته تعالى أيَّ آية كانت، لا إفكًا آخر له وجهٌ ومصحِّح في الجملة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ بيان لفَضله تعالى المتعلِّق بالمكان بعد بيان فضله المتعلِّق بالزمان. وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بيان لفضله المتعلِّق بأنفسهم، والفاء في ﴿فَأَحْسَنَ﴾ تفسيريّة، فإنّ الإحسان عين التصوير، أي: صوّركم أحسنَ تصوير حيث خلَقكم منتصبَ القامة، باديَ البشرة،[1] متناسبَ الأعضاء والتخطيطات، متهيّئًا لمُزاولة الصنائعِ واكتساب الكمالات.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: اللذائذ. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي نُعت بما ذُكر مِن [٣٢ظ] / النعوت الجليلة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خبران لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: تعالى بذاته ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مالكهم ومربّيهم، والكلّ تحت ملكوته مفتقر إليه في ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعًا بحيث لو انقطع فيضه عنه آنًا لَانعدم بالكلّيّة.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المتفرِّد بالحياة الذاتيّة الحقيقيّة. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجود يُدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدوه خاصّةً، لاختصاص ما يوجبه[2] به تعالى، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعةَ مِن الشرك الجليّ والخفيّ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: قائلين ذلك، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «مَن قال: لا إله إلّا الله، فليقل على إثْرها: الحمد لله ربّ العالمين».[3]

---

[1] س: البشريّة.
[2] س: يوجب.
[3] جامع البيان للطبري، ٣٥٧/٢٠؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٠/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٧٦/٤.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٦﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ مِن الحُجج والآيات، أو مِن الآيات لكونها مؤيِّدة لأدلّة العقل منبِّهة عليها، فإنّ الآيات التنزيليّة مفسِّرات للآيات التكوينيّة الآفاقيّة والأنفسيّة.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: بأن أنقادَ له وأُخلِص له ديني.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٦٧﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: في ضِمن خلق آدَم عليه السلام منه حسبما مرّ تحقيقه مرارًا. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمّ خلقكم خلقًا تفصيليًا مِن نطفة، أي: مَنيّ. ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالًا. والإفراد لإرادة الجنس، أو لإرادة كلّ واحد مِن أفراده. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ علّة لـ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ معطوفة على علّة أخرى له مناسِبةٍ لها، كأنّه قيل: ثمّ يخرجكم طِفلًا لِتكبُروا شيئًا فشيئًا، ثمّ لتبلغوا كمالكم في القوّة والعقل، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾، ويجوز عطفه على ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ﴾. وقُرئ: "شَيْخًا"[١] كقوله تعالى: ﴿طِفْلًا﴾.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشدّ أو قبله أيضًا. ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ﴾ متعلّق بفعل مقدّر بعده، أي: ولتبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو وقت الموت أو يوم القيامة يفعل ذلك.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ / ولكي تعقلوا ما في ذلك مِن فنون الحِكَم والعِبَر. [٣٣و]

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ﴾ الأمواتَ ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياءَ، أو الذي يفعل الإحياء والإماتة، ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: أراد أمرًا مِن الأمور ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٣/٥.

مِن غير توقّف على شيء مِن الأشياء أصلًا، وهذا تمثيل لتأثير قُدرته تعالى في المقدورات عند تعلّق إرادته بها، وتصوير لسرعة ترتّب المكوَّنات على تكوينه مِن غير أن يكون هناك أمر ومأمور.[١] والفاء الأولى للدلالة على أنّ ما بعدها مِن نتائج ما قبلها مِن اختصاص الإحياء والإماتة به سبحانه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ تعجيب مِن أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة، وتمهيد لِما يعقُبه مِن بيان تكذيبهم بكلّ القرآن وبسائر الكتب والشرائع، وترتيبِ الوعيد على ذلك، كما أنّ ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾...[٢] إلخ [غافر، ٥٦/٤٠] بيان لابتناء جدالهم على مبنًى فاسدٍ لا يكاد يدخل تحت الوجود، هو الأمنيّة الفارغة،[٣] فلا تكرير فيه، أي: انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجِبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يُصرَفون عنها مع تعاضدِ الدواعي إلى الإقبال عليها وانتفاءِ الصوارف عنها بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بكلّ القرآن، أو بجنس الكتب السماويّة، فإنّ تكذيبه تكذيبٌ لها. في محلّ الجرّ على أنّه بدل مِن الموصول الأوّل، أو في حيّز النصب أو الرفع على الذمّ، وإنّما وُصِل الموصول الثاني بالتكذيب دون المجادَلة لأنّ المعتاد وقوع المجادَلة في بعض الموادّ لا في الكلّ. وصيغة الماضي للدلالة / على التحقّق كما أنّ صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على تجدّد المجادَلة وتكرّرها. [٣٣ظ]

﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ مِن سائر الكتب أو مطلَق الوحي والشرائع، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ كُنْهَ ما فعلوا مِن الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته.

---

١ س: ولا مأمور.
٢ س – ٱللَّهِ.
٣ س: الفارعة.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ٧١﴾

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ ظرف لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾،[١] إذ المعنى على الاستقبال، ولفظُ الماضي لتيقّنه. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾. والجارّ في نيّة التأخير، وقيل: مبتدأ حُذف خبره لدلالة خبر الأوّل عليه. وقيل: قوله تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بحذف العائد، أي: يسحبون بها، وهو على الأوّلَين حال مِن المستكِنّ في الظرف. وقيل: استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية حالهم، كأنّه قيل: فماذا يكون حالهم بعد ذلك؟ فقيل: يُسحبون.

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ٧٢﴾

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ وقُرئ: "والسَّلَاسِلَ يَسْحَبُونَ" بالنصب وفتح الياء[٢] على تقديم المفعول وعطفِ الفعليّة على الاسميّة، و"السَّلَاسِلِ" بالجرّ[٣] حملًا على المعنى؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ في معنى: أعناقُهم في الأغلال، أو إضمارًا للباء، ويدلُّ عليه القراءة به.[٤]

﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يُحرَقون، مِن "سَجَر التنّورَ" إذا ملأه بالوَقود، ومنه "السَّجِير" للصَّديق، كأنّه سُجِر بالحبّ، أي: مُلئ، والمراد بيانُ أنّهم يعذَّبون بألوان العذاب ويُنقَلون مِن باب إلى باب.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: يقال لهم ويقولون. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق، ومعنى ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾: غابوا عنّا، وذلك قبل أن يُقرَن بهم آلهتُهم، أو ضاعوا عنّا فلم نجد ما كنّا نتوقّع منهم.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧١/٩.

٤ أي: "وَبِالسَّلَاسِلِ". وهي قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٧٨/٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٢/٩.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: بل تبيَّن لنا أنَّا لم نكن نعبد شيئًا بعبادتهم لِما ظهَر لنا اليوم أنّهم لم يكونوا شيئًا يُعتدّ به، كقولك: حسبته شيئًا فلم يكن.

[٣٤و] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ / حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم في الآخرة، أو كما ضلّ عنهم آلهتُهم يُضلّهم عن آلهتهم، حتّى لو تَطالَبوا لم يتّصادفوا.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تَبطَرون وتتكبّرون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشرك والطغيان، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تتوسّعون في البِطَر والأَشَرِ. والالتفات للمبالغة في التوبيخ.

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: أبوابَها السبعة المقسومة لكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدَّرًا خلودكم فيها. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: عن الحقِّ جهنّمُ. والتعبير عن مَدخلهم بـ"المَثوى" لكون دخولهم بطريق الخلود.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ﴾ إلى أن يلاقوا ما أُعِدّ لهم مِن العذاب، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بتعذيبهم ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالةَ، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي: فإن نُرِك، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد الشرطيّة، ولذلك لحِقت النونُ الفعل، ولا تلحقه مع "إِنْ" وحدَها. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ وهو القتل والأسر، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فنجازيهم بأعمالهم، وهو جواب ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف، مثل: فذاك، ويجوز أن يكون جوابًا لهما، بمعنى: إن نُعَذِّبْهم في حياتك أو لم نُعَذِّبْهم فإنّا نعذِّبُهم في الآخرة أشدَّ العذاب وأفظعَه، كما يُنبئ عنه

الاقتصار على ذكر الرجوع في هذا المِعرَض.[١]

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨﴾

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾ إذ قيل: عدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألفٍ[٢] وأربعةٌ وعشرون ألفًا، والمذكور قَصصهم أفرادٌ معدودة. وقيل: أربعة آلاف مِن بني إسرائيل، وأربعة آلاف مِن سائر الناس.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ أي: وما صحّ وما استقام لرسول منهم ﴿أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فإنّ المعجزات على تشعّب فنونها عطايا مِن الله تعالى قسمَها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنيّة على الحِكَم / البالغة كسائر القِسَم، ليس لهم [٣٤ظ] اختيار في إيثار بعضها والاستبدادِ بإتيان المقترَح بها.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بإنجاء المُحِقّ وإثابته، وإهلاك المُبطل وتعذيبه، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت مجيء أمر الله، اسم مكان استعير للزمان. ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: المتمسّكون بالباطل على الإطلاق، فيدخل فيهم المعاندون المقترِحون دخولًا أوّليًا.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ قيل: هي الإبل خاصّة، أي: خلقها لأجلِكم ومصلحتكم. وقوله تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ تفصيل لِما دلّ عليه اللام إجمالًا، و﴿مِنۡ﴾ لابتداء الغاية، ومعناها ابتداءُ الركوب والأكل منها، أي: تعلّقُهما بها. وقيل: للتبعيض، أي: لتركبوا بعضَها وتأكلوا بعضَها، لا على أنّ كلًّا

---

١ كذا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٤/٥. وقال الشهاب الخفاجي: «المِعرض بكسر الميم، ووقع في شرح الشافية ضبطه بالفتح، والصحيح الأوّل، ومعناه: هذا القبيل». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٨٣/٧.

٢ س – ألف.

مِن الركوب والأكل مختصّ ببعض معيّن منها بحيث لا يجوز تعلّقه بما تعلّق به الآخر؛ بل على أنّ كلّ بعض منها صالح لكلّ منهما. وتغيير النظم الكريم في الجملة الثانية لمراعاة الفواصل مع الإشعار بأصالة الركوب.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أُخَر غير الركوب والأكل، كألبانها وأوبارها وجلودها، ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بحمل أثقالكم مِن بلد إلى بلد. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ لعلّ المرادَ به حمل النساء والولدان عليها بالهَودج، وهو السرّ في فصله عن الركوب. والجمع بينها وبين الفُلك في الحمل لِما بينهما مِن المناسبة التامّة حتّى سمّيت سفائنَ البَرّ.

وقيل: هي الأزواج الثمانية، فمعنى الركوب والأكل منها تعلّقُهما بالكلّ، لكن لا على أنّ كلًّا منهما يجوز تعلّقه بكلّ منها، ولا على أنّ كلًّا منهما مختصّ ببعض معيّن منها بحيث لا يجوز تعلّقه بما تعلّق به الآخر؛ بل على أنّ بعضها يتعلّق به الأكل فقط كالغنم، وبعضَها يتعلّق به كلاهما كالإبل والبقر، والمَنافع تعمّ الكلّ، وبلوغ الحاجة عليها يعمّ البقر.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ دلائله الدالّةَ على كمال قدرته وَوُفور رحمته، ﴿فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ / أي: فأيّ آية مِن تلك الآيات الباهرة ﴿تُنكِرُونَ﴾؟ فإنّ كلًّا منها مِن [٣٥و]
الظهورِ بحيثُ لا يكاد يَجترئ على إنكارها مَن له عقل في الجملة. وهو ناصب لـ﴿أَيَّ﴾، وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المَهابة وتهويل إنكارها. وتذكير ﴿أَيَّ﴾ هو الشائع المستفيض، والتأنيث قليل؛ لأنّ التفرقة بين المذكّر والمؤنّث في الأسماء غيرِ الصفات -نحو: حِمار وحمارة- غريبٌ، وهي في ﴿أَيَّ﴾ أغرب لإبهامه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ أي: أقَعدوا فلم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المهلَكة؟ وقوله تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾... إلخ استئناف مَسوق لبيان مبادي أحوالهم وعواقبها. ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ باقيةً بعدهم مِن الأبنية والقصور والمصانع. وقيل: هي آثار أقدامهم في الأرض لعِظَم أجرامهم.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ﴿مَا﴾ الأولى نافية أو استفهاميّة منصوبة بـ﴿أَغْنَىٰ﴾، والثانية موصولة أو مصدريّة مرفوعة، أي: لم يُغنِ عنهم -أو أيَّ شيء أغنى عنهم- مكسوبُهم، أو كسبُهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات، أو بالآيات الواضحة ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: أظهروا الفرح بذلك، وهو ما لهم مِن العقائد الزائغة والشُّبَهِ الداحضة. وتسميتها عِلمًا للتهكّم بهم، أو عِلمُ الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك، أو هو علمُ الأنبياء الذي أظهره رسلُهم على أنّ معنى فرحهم به ضحكُهم منه واستهزاؤهم به، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وقيل: الفرح أيضًا للرسل، فإنّهم لمّا شاهدوا تماديَ جهلِهم وسوءَ عاقبتهم فرحوا بما أُوتوا مِن العِلم المؤدّي إلى حسن العاقبة، وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائِهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ شدّةَ عذابنا، / ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف، ١٦٥/٧]. ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ يعنون الأصنام. [٣٥ظ]

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: عندَ رؤية عذابنا لامتناعِ قبوله حينئذ، ولذلك قيل: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ بمعنى: لم يصحّ ولم يستقِم.

والفاء الأولى[١] بيان عاقبة كثرتهم وشدّة قوّتهم وما كانوا يكسبون بذلك زعمًا منهم أنّ ذلك يغني عنهم، فلم يترتّب عليه إلّا عدمُ الإغناء، فبهذا الاعتبار جرى مَجرى النتيجة، وإن كان عكسَ الغرض ونقيضَ المطلوب، كما في قولك: وعظتُه فلم يتّعظ. والثانية[٢] تفسير وتفصيل لِما أُبهِم وأُجمِل مِن عدم الإغناء، وقد كثر في الكلام مِثل هذه الفاء، ومبناها على أنّ التفسير بعد الإبهامِ والتفصيلَ بعد الإجمال. والثالثة[٣] لِمجرّد التعقيب وجعلِ ما بعدها تابعًا لِما قبلها واقعًا عقيبه؛ لأنّ مضمون قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾... إلخ[٤] هو أنّهم كفروا فصار مجموع الكلام بمنزلة أن يقال: فكفروا ثمّ لمّا رأَوا بأسنا آمنوا. والرابعة[٥] للعطف على "آمَنوا"، كأنّه قيل: فآمنوا فلم ينفعهم؛ لأنّ النافع هو الإيمان الاختياري.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي: سنّ الله[٦] ذلك سنّةً ماضية في العباد، وهو مِن المصادر المؤكِّدة. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أي: وقت رؤيتهم البأسَ، على أنّه اسم مكان قد استُعير للزمان كما سلف آنِفًا.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المؤمن لم يبقَ روح نبيّ ولا صِدّيق ولا شهيد ولا مؤمن إلّا صلّى عليه واستغفر له».[٧]

---

١ في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ [غافر، ٨٢/٤٠].
٢ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ [غافر، ٨٣/٤٠].
٣ في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ في الآية السابقة.
٤ غافر، ٨٣/٤٠.
٥ في قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ في هذه الآية.
٦ س + تعالى.
٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٤٠

سُورَةُ غَافِرٍ

مكية إلاّ «الذين يجادلون» الآيتين، خمسٌ وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿حم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿تَنزِيلُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ مبتدأٌ ﴿مِنَ اللهِ﴾: خبرُه، ﴿العَزِيزِ﴾ في مُلكه ﴿العَلِيمِ﴾ بخلقه، ٣ ـ ﴿غافِرِ الذَّنبِ﴾ للمؤمنين ﴿وقابِلِ التَّوبِ﴾ لهم: مصدرٌ،..........................

سُورَةُ غَافِرٍ

قولُهُ: (اللهُ أَعلَمُ) قيل: الحيُّ الملكُ، وقيل: الحافظُ المقتدرُ هو اللهُ.

وقال سهلٌ: ﴿حم﴾ قضَى في اللَّوحِ المحفوظِ وكتبَ فيه ما هو كائنٌ[1].

ولعلَّهُ إشارةٌ إلى ما في اللُّغةِ: حُمَّ بالأمرِ ـ بالضَّمِّ ـ: قُضي، وله ذلكَ: قُدِّرَ[2].

وقيل: معَ ﴿الر﴾ و﴿ن﴾ يصيرُ الرَّحمن.

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ) أو خبرُ مبتدأٍ مقدَّرٌ هو: هذا، والمصدرُ؛ بمعنى: المفعولِ.

قولُهُ: (خَبَرُهُ) أو خبرٌ آخرُ.

قولُهُ: (لِلمُؤمِنِينَ) ولو لم يَتوبوا.

قولُهُ: (لَهُم) ولغيرِهِم.

قولُهُ: (مَصدَرٌ) كالتَّوبةِ.

---

(١) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٣٧).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٩٧).

﴿شَدِيدِ العِقابِ﴾ للكافرين أي: مُشدِّدِه، ﴿ذِي الطَّولِ﴾ أي: الإنعام الواسع ـ وهو موصوف على الدوام بكُلّ من هذه الصفات. فإضافة المُشتقّ منها للتعريف كالأخيرة ـ ﴿لا إلـٰهَ إلاّ هُوَ إلَيهِ المَصِيرُ﴾: المَرجِع.

٤ ـ ﴿ما يُجادِلُ في آياتِ اللهِ﴾: القُرآن ﴿إلاّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة. ﴿فلا يَغرُرْكَ تَقَلُّبُهُم في البِلادِ﴾ للمعاش سالمين، فإنّ عاقبتهم النار. ٥ ـ ﴿كَذَّبَت قَبلَهُم قَومُ نُوحٍ والأحزابُ﴾ كعادٍ وثمودَ وغيرِهما ﴿مِن بَعدِهِم، وهَمَّتْ كُلُّ أُمّةٍ بِرَسُولِهِم، لِيأخُذُوهُ﴾: يقتلوه، ﴿وجادَلُوا بِالباطِلِ لِيُدحِضُوا﴾: يُزيلوا ﴿بِهِ الحَقَّ فأخَذتُهُم﴾ بالعِقاب. ﴿فكَيفَ كانَ عِقابِ﴾ لهم؟ أي: هو واقع موقعَه. ٦ ـ ﴿وكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمةُ رَبِّكَ﴾، أي: «لَأَملأَنَّ جَهَنَّمَ» الآيَةَ، ﴿علَى الَّذِينَ كَفَرُوا، أنَّهُم أصحابُ النّارِ﴾: بدل من «كلمة».

٧ ـ ﴿الَّذِينَ يَحمِلُونَ العَرشَ﴾: مبتدأٌ ﴿ومَن حَولَهُ﴾: عطفٌ عليه ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: خبرُه ﴿بِحَمدِ رَبِّهِم﴾: مُلابسين للحمد، أي يقولون: سُبحانَ اللهِ وبحمده، ﴿ويُؤمِنُونَ بِهِ﴾ ـ تعالى ـ ببصائرهم أي: يُصدّقون بوحدانيّته، ....

قولُهُ: (للكَافِرِينَ) المصرِّينَ.

قولُهُ: (أي: مُشدِّدُهُ) فسَّرَهُ به لأنَّ (شديداً) صفةٌ مشبَّهةٌ، فإضافتُه غيرُ محضةٍ بكلِّ حالٍ، بخلافِ اسمِ الفاعلِ إذا لم يُرَدْ به الحالُ والاستقبالُ كـ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوبِ﴾، فإنَّ إضافتَهُ محضةٌ فتفيدُ التَّعريفَ.

قولُهُ: (المَرجِعُ) فيُجازي المطيعَ والعاصِيَ، فيجبُ الإقبالُ الكلِّيُّ على عبادتِهِ.

قولُهُ: (القُرآنِ) بالطَّعنِ وإدحاضِ الحقِّ، فإنَّ الجدالَ فيه لحلِّ عُقَدِهِ واستنباطِ حقائقِهِ من أعظمِ الطَّاعاتِ، ولذا قالَ ﷺ: «إنَّ جدالاً في القُرآنِ كُفرٌ» بالتَّنكيرِ مع أنّه ليسَ جدالًا فيه على الحقيقةِ، والحديثُ رواهُ البيهقيُّ وغيرُه[1].

قولُهُ: (أي: هُوَ وَاقِعٌ) يعني: أنّه تقريرٌ فيه تعجيبٌ.

قولُهُ: (أي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾) أو: وعيدُه، أو: قضاؤُهُ بالعذابِ، ونافعٌ وشاميٌّ بالجمعِ[2].

قولُهُ: (يُصَدِّقُونَ) ويوحِّدونَ بألسنتِهم، أخبرَ عنهُم بالإيمانِ إظهارًا لفضلِهِ وتعظيماً لأهلِهِ، وإشعاراً بأنَّ حملةَ العرشِ وسكَّانَ الفرشِ في معرفتِهِ سواءٌ، ردًّا على المجسِّمةِ[3].

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٤٠٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٦١)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. ورواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٧٣)، وأبو داود (٤٦٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظ أبي داود: «المراء في القرآن كفر». وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣/ ٢١٦).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٧).

(٣) انظر: «الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية» للطوفي (١/ ٤٣٥).

﴿ويَستَغفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقولون: ﴿رَبَّنا، وَسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمةً وعِلمًا﴾ أي: وسعَ رحمتُك كُلَّ شيءٍ وعِلمُك كُلَّ شيء. ﴿فاغفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا﴾ من الشِّرك، ﴿واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾: دِينَ الإسلام، ﴿وقِهِم عَذابَ الجَحِيمِ﴾: النارِ ـ ٨ ـ ﴿رَبَّنا ـ وأدخِلْهُم جَنّاتِ عَدنٍ﴾: إقامةٍ ﴿الَّتِي وَعدتَهُم، ومَن صَلَحَ﴾: عطفٌ على «هم» في «وأدخلهم» أو في «وعدتهم»، ﴿مِن آبائِهِم وأزواجِهِم وذُرِّيّاتِهِم ـ إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ في صُنعه ـ ٩ ـ ﴿وقِهِمِ السَّيِّئاتِ﴾ أي: عذابَها. ﴿ومَن تَقِ السَّيِّئاتِ يَومَئِذٍ﴾: يومَ القيامة ﴿فقَد رَحِمتَهُ، وذلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾.

١٠ ـ ١١ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَونَ﴾ مِن قِبَلِ الملائكة، وهم يمقتون أنفسَهم عِند دُخولهم النارَ: ﴿لَمَقتُ اللهِ﴾ إيّاكم ﴿أكبَرُ مِن مَقتِكُم أنفُسَكُم، إذ تُدعَونَ﴾ في الدنيا ﴿إلَى الإيمانِ فتَكفُرُونَ. قالُوا: رَبَّنا، أمَتَّنا اثنَتَينِ﴾: إماتتَين، ﴿وأحيَيتَنا اثنَتَينِ﴾: إحياءتَين لأنهم، وكانوا نطفًا، أمواتٌ فأُحيُوا ثمّ أُمِيتوا ثمّ أُحيُوا للبعث، ﴿فاعتَرَفْنا بِذُنُوبِنا﴾: بكُفرنا بالبعث. ﴿فهَل إلَى خُرُوجٍ﴾ من النار والرجوع إلى الدنيا لنُطيع ربَّنا ﴿مِن سَبِيلٍ﴾: طريقٍ؟ وجوابُهم: لا.

قولُهُ: (يَقُولُونَ) وهو بيانٌ لـ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾، أو حالٌ.

قولُهُ: (وعِلمُكَ) إشارةٌ إلى أنَّهما تمييزانِ محوَّلانِ عن الفاعلِ.

قولُهُ: (مِنَ الشِّركِ) استغفارُهُم: شفاعتُهُم، وحملُهُم على التَّوبةِ، وإلهامُهُم ما يوجِبُ المغفرَةَ.

قولُهُ: (عَطفٌ على «هم») الثَّاني لبيانِ عمومِ الوعدِ، أو الأوَّلِ؛ أي: أدخِلْهُم معهُم ليتمَّ سرورُهُم، وهذا أظهرُ لإفادةِ دخولِهِم.

قولُهُ: (أي: عَذَابَهَا) أي: جزاءَ السَّيِّئاتِ على حَذفِ مضافٍ، أو العقوباتِ أو المعاصي في الدُّنيا لقولِهِ: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: في الدُّنيا ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ في الآخرةِ، كأنَّهم طَلَبُوا السَّببَ بعد ما طَلبوا المسبَّبَ.

قولُهُ: (لأنَّهم نُطَفٌ) كذا في النُّسخ[1]، والصَّوابُ: لأنَّهم كانوا ـ أو: خُلِقوا ـ نُطَفاً، فإنَّ الإماتَةَ: جَعْلُ الشَّيءِ عادمَ الحياةِ ابتداءً أو بتصييرٍ، والمعنى: خلقْتَنا أمواتاً [أولاً][2]، ثمَّ صيَّرتَنا أمواتاً عندَ انقضاءِ آجالِنا.

قولُهُ: (بكُفرِنَا) والجمعُ للجمعِ.

قولُهُ: (لنُطِيعَ) أي: فنسلكَهُ لنُطيعَ.

---

(١) أي: نسخه هو.

(٢) من البيضاوي.

١٢ ـ ﴿ذلِكُم﴾، أي: العذابُ الذي أنتم فيه، ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بسبب أنه في الدنيا ﴿إذا دُعِيَ اللهُ وَحدَهُ كَفَرتُم﴾ بتوحيده، ﴿وإن يُشرَكْ بِهِ﴾: يُجعل له شريك ﴿تُؤمِنُوا﴾: تُصدّقوا بالإشراك. ﴿فالحُكمُ﴾، في تعذيبكم، ﴿لِلهِ العَلِيِّ﴾ على خلقه ﴿الكَبِيرِ﴾: العظيم.

١٣ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آياتِهِ﴾: دلائلَ توحيده، ﴿ويُنَزِلُ لَكُم مِنَ السَّماءِ رِزقًا﴾ بالمطر، ﴿وما يَتَذَكَّرُ﴾: يتّعظ ﴿إلاّ مَن يُنِيبُ﴾: يرجِع عن الشِّرك ـ ١٤ ـ ﴿فادعُوا اللهَ﴾: اعبدُوه ﴿مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشِّرك، ﴿ولَو كَرِهَ الكافِرُونَ﴾ إخلاصَكم فيه ـ ١٥ ـ ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ﴾ أي: اللهُ عظيمُ الصفات أو رافعُ درجات المؤمنين في الجنّة ﴿ذُو العَرشِ﴾: خالقُه، ﴿يُلقِي الرُّوحَ﴾: الوحيَ ﴿مِن أمرِهِ﴾ أي: قوله ﴿علَى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ لِيُنذِرَ﴾: يُخوِّفَ المُلقى عليه الناسَ ﴿يَومَ التَّلاقِ﴾، بحذف الياء وإثباتها: يومَ القيامة لتلاقي أهل السماء والأرض والعابد والمعبود والظالم والمظلوم فيه، ١٦ ـ ﴿يَومَ هُم بارِزُونَ﴾: خارجون من قُبورهم، ﴿لا يَخفَى علَى اللهِ مِنهُم شَيءٌ: لِمَنِ المُلكُ اليَومَ﴾؟ يقوله تعالى، ويُجيب نفسَه:

قولُهُ: (بالمَطَرِ) أي: أسبابَ رزقٍ كالمطرِ[١] مُرَاعَاةً لِمَعَاشِكُم كما أنَّ الأوَّلَ مراعاةٌ لمعادِكُم.

قولُهُ: (مِنْهُ) أي: (مِنَ الشِّركِ).

قولُهُ: (أي: اللهُ) أو هو مبتدأٌ مقدَّرٌ.

قولُهُ: (في الجَنَّةِ) وقيلَ: الدَّرجاتُ مراتِبُ المخلوقاتِ.

قولُهُ: (أي: قَولِهِ) و﴿مِنْ﴾ بيانيَّةٌ.

قولُهُ: (يُخَوِّفَ) غايَةُ الإلقاءِ.

قولُهُ: (المُلْقَى عَلَيهِ) يعني: المستكنُّ فيه لـ﴿مَن﴾، وقيل: للهِ، أو للرُّوحِ؛ أي: المُلْقِي أو المُلْقَى.

قولُهُ: (النَّاسَ) مفعولُ: ﴿يُنْذِرَ﴾.

قولُهُ: (وإثبَاتِهَا) للمكِّيِّ مطلقاً، وللمدنيِّ وصلاً، بخلافٍ عن قالونَ إذ جاءَ الحذفُ عنه أيضاً[٢].

قولُهُ: (والمَظلُومِ) والجسدِ والرُّوحِ والأعمالِ والعمَّالِ.

قولُهُ: (خَارِجُونَ) أو: ظاهِرونَ لا يسترُهم شيءٌ.

قولُهُ: (ويُجِيبُ) يعني: أنّه حكايةٌ لِمَا دلَّ عليه ظاهرُ الحالِ في ذلك اليومِ من زوالِ الأسبابِ وارتفاعِ الوسائطِ، وأمَّا حقيقةُ الحالِ فناطقةٌ بذلك دائماً.

---

(١) بعدها في النسخ: «قوله»، ولعلها سهو أو خطأ من الناسخ.

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٢)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧٢).

﴿لِلهِ الواحِدِ القَهّارِ﴾ أي: لخلقه. ١٧ ـ ﴿اليَومَ تُجزَى كُلُّ نَفسٍ بِما كَسَبَتْ، لا ظُلْمَ اليَومَ. إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾: يُحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك.

١٨ ـ ﴿وأنذِرْهُم يَومَ الآزِفةِ﴾: يومَ القيامة ـ أزِفَ الرحيلُ: قَرُبَ ـ ﴿إذِ القُلُوبُ﴾ ترتفعُ خوفًا ﴿لَدَى﴾: عِندَ ﴿الحَناجِرِ كاظِمِينَ﴾: مُمتلئين غمًّا، حالٌ من «القلوب» عُوملت بالجمع بالياء والنون مُعاملة أصحابها، ﴿ما لِلظّالِمِينَ مِن حَمِيمٍ﴾: مُحبّ ﴿ولا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾. لا مفهومَ للوصف إذ لا شفيع لهم أصلاً: «فما لَنا مِن شافِعِينَ»، أوْ له مفهومٌ بناء على زعمهم أنّ لهم شُفعاءَ، أي: لو شفَعوا فرْضًا لم يُقبلوا.

١٩ ـ ﴿يَعلَمُ﴾ أي: اللهُ ﴿خائنةَ الأعيُنِ﴾ بمُسارقتها النظرَ إلى مُحرَّمٍ، ﴿وما تُخفِي الصُّدُورُ﴾: القُلوب، ٢٠ ـ ﴿واللهُ يَقضِي بِالحَقِّ، والَّذِينَ يَدعُونَ﴾: يعبدون أي: كُفّارُ مكّة ـ بالياء والتاء ـ ﴿مِن دُونِهِ﴾ ـ وهم الأصنام ـ ﴿لا يَقضُونَ بِشَيءٍ﴾. فكيف يكونون شُركاءَ لله؟ ﴿إنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿البَصِيرُ﴾ بأفعالهم.

٢١ ـ ﴿أوَلَم يَسِيرُوا في الأرضِ، فيَنظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الَّذِينَ كانُوا مِن قَبلِهِم؟ كانُوا هُم أشَدَّ مِنهُم﴾ ـ وفي قراءة: «مِنكُم» ـ ﴿قُوّةً وآثارًا في الأرضِ﴾ من مصانعَ وقُصورٍ، ﴿فأخَذَهُمُ اللهُ﴾: أهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِم، وما كانَ لَهُم مِنَ اللهِ مِن واقٍ﴾ عذابَه........................

قولُهُ: (يَومَ القِيامَةِ) أو الموتِ.

قولُهُ: (قَرُبَ) سُمِّيَت بها لقُربِها.

قولُهُ: (مُحِبٍّ) أو قريبٍ مشفقٍ.

قولُهُ: (بمُسَارَقَتِهَا) أي: النَّظرةِ الخائنةِ، أو خيانةِ الأعينِ.

قولُهُ: (والتَّاءِ) الخطابُ: نافعٌ وهشامٌ(١).

قولُهُ: (فَكَيفَ) تهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ الجمادَ لا يُقالُ فيه: إنَّه يَقضي أو لا يَقضِي.

قولُهُ: (وفي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ(٢).

قولُهُ: (مِنْ مَصَانِعَ) للمارِّ تحتَ الأرضِ.

قولُهُ: (وقُصُورٍ) وقلاعٍ ومدائنَ حصينةٍ.

قولُهُ: (عَذَابَهُ) أي: مَن يمنَعُ عذابَ اللهِ عنهُم.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧١).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

٢٢ ـ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم كانَتْ تأتِيهِم رُسُلُهُم بِالبيِّناتِ﴾: بالمُعجزات الظاهرات، ﴿فكَفَرُوا فأخَذَهُمُ اللهُ. إنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقابِ﴾.

٢٣ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا مُوسَى بِآياتِنا وسُلطانٍ مُبِينٍ﴾: بُرهانٍ بيِّنٍ ظاهر ٢٤ ـ ٢٥ ـ ﴿إلَى فِرعَونَ وهامانَ وقارُونَ، فقالُوا﴾: هو ﴿ساحِرٌ كَذّابٌ. فلَمّا جاءَهُم بِالحَقِّ﴾: بالصِّدق ﴿مِن عِندِنا قالُوا: اقتُلُوا أبناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، واستَحيُوا﴾: استبْقُوا ﴿نِساءَهُم. وما كَيدُ الكافِرِينَ إلاّ في ضَلالٍ﴾: هلاك ـ ٢٦ ـ ﴿وقالَ فِرعَونُ: ذَرُونِيَ، أقتُلْ مُوسَى﴾ لأنهم كانوا يكفّونه عن قتله، ﴿ولْيَدعُ رَبَّهُ﴾ ليمنَعه منّي. ﴿إنِّيَ أخافُ أن يُبَدِّلَ دِينَكُم﴾ من عِبادتكم إياي فتتّبعونه ﴿وأن يُظهِرَ في الأرضِ الفَسادَ﴾ من قتل وغيره. وفي قراءة: «أوْ»، وفي أُخرى بفتح الياء والهاء وضمِّ الدال. ٢٧ ـ ﴿وقالَ مُوسَى﴾ لقومه وقد سمع ذلك: ﴿إنِّي عُذتُ بِرَبِّي ورَبِّكُم مِن كُلِّ مُتَكبِّرٍ، لا يُؤمِنُ بِيَومِ الحِسابِ﴾.

قولُهُ: (بالمُعْجِزَاتِ) أو الأحكامِ الواضِحاتِ.

قولُهُ: (بُرهَانٍ) ظاهرٍ، والعطفُ لتغايرِ الوصفينِ، أو لإفرادِ بعضِ المعجزاتِ كالعصا؛ تفخيماً لشأنِها.

قولُهُ: (هُو) مبتدأٌ مع خبرِه جملةُ مقولِ القولِ.

قولُهُ: (استَبْقُوا) أي: أَعِيدوا عليهم القتلَ والاستبقاءَ كي يمتَنِعوا عن مظاهَرةِ موسى.

قولُهُ: (هَلاكٍ) وضياعٍ.

قولُهُ: (يَكُفُّونَهُ) ويقولونَ: إنَّه ليسَ الَّذي تخافُهُ بل هو ساحرٌ.

قولُهُ: (فتَتَّبِعُونَهُ) الظَّاهرُ: فتتَّبعُوهُ.

قولُهُ: (مِنْ قَتْلٍ) أي: ما يُفسدُ دُنياكُم من التَّحارُبِ[١] والتَّهارجِ إن لم يَقدِرْ أن يُبطلَ دينكُم بالكلِّيَّةِ، وهذا على قراءةِ الكوفيِّ، وأمَّا على قراءةِ الحِرْميَّينِ والبصريِّ والشَّاميِّ بالواوِ على معنى الجمعِ[٢]، وهو أصلُ الشَّيخِ.

قولُهُ: (وَفِي أُخرَى) لغيرِ نافعٍ وبصريٍّ وحفصٍ[٣].

قولُهُ: (ذلِكَ) أي: كلامَ فرعونَ.

---

(١) في (م): «التمادي».

(٢) أي: ﴿وأن يظهر﴾ ـ وهو الذي في المتن ـ والمراد بالجمع: الجمع بين مضموني الجملتين: ما قبل الواو وما بعدها. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٩).

(٣) انظر المصدر السابق.

٢٨ ـ ﴿وقالَ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن آلِ فِرعَونَ﴾ قيل: هو ابن عمّه، ﴿يَكتُمُ إيمانَهُ: أتَقتُلُونَ رَجُلاً أنْ﴾ أي: لِأن ﴿يَقُولَ: رَبِّيَ اللهُ. وقَد جاءَكُم بِالبَيِّناتِ﴾: بالمُعجزات الظاهرات ﴿مِن رَبِّكُم، وإن يَكُ كاذِبًا فعلَيهِ كَذِبُهُ﴾ أي: ضررُ كذبه، ﴿وإن يَكُ صادِقًا يُصِبْكُم بَعضُ الَّذِي يَعِدُكُم﴾ به من العذاب عاجلاً؟ ﴿إنَّ اللهَ لا يَهدِي مَن هُوَ مُسرِفٌ﴾: مُشرك ﴿كَذّابٌ﴾: مُفترٍ. ٢٩ ـ ﴿يا قَومِ، لَكُمُ المُلكُ اليَومَ ظاهِرِينَ﴾: غالبين حالٌ ﴿في الأرضِ﴾ أرض مِصرَ. ﴿فمَن يَنصُرُنا مِن بأسِ اللهِ﴾: عذابه، إن قتلتم أولياءه، ﴿إن جاءَنا﴾؟ أي: لا ناصرَ لنا. ﴿قالَ فِرعَونُ: ما أُرِيكُم إلاّ ما أرَى﴾ أي: ما أُشيرُ عليكم إلاّ بما أُشير به على نفسي ـ وهو قتل مُوسى ـ ﴿وما أَهدِيكُم إلاّ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾: طريقَ الصواب.

٣٠ ـ ﴿وقالَ الَّذِي آمَنَ: يا قَومِ، إنِّيَ أخافُ عَلَيكُم مِثلَ يَومِ الأحزابِ﴾ أي: يومِ حزب بعد حزب، ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿مِثلَ دأْبِ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمُودَ، والَّذِينَ مِن بَعدِهِم﴾ ـ مِثلَ: بدل من «مِثلَ» قبله ـ أي: مِثلَ جزاءِ عادةِ مَن كفر قبلكم من تعذيبهم في الدنيا، ﴿وما اللهُ يُرِيدُ ظُلمًا لِلعِبادِ، ويا قَومِ إنِّيَ أخافُ عَلَيكُم يَومَ التَّنادِ﴾، بحذف الياء وإثباتها، أي: يومَ القيامة يكثُر فيه نداءُ أصحابِ الجنّة أصحابَ النار وبالعكس، والنداءُ بالسعادة لأهلها وبالشقاوة لأهلها،........................

قولُهُ: (قِيلَ: ابنُ عَمِّهِ) وقيل: ﴿مِنْ﴾ متعلِّقٌ بقولِه: ﴿يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ﴾، والرَّجلُ إسرائيليٌّ، أو غريبٌ موحِّدٌ.

قولُهُ: (أي: لأَنْ) أو: وقتَ أن يقولَ من غيرِ تفكُّرٍ في أمرِه وتأمُّلٍ في عاقبتِهِ.

قولُهُ: (بالمُعجِزَاتِ) والاستدلالاتِ.

قولُهُ: (عَاجِلاً) أو: فلا أقلَّ من أن يصيبَكُم بعضُهُ، وفيه مُبالغةٌ في التَّحذيرِ وإظهارٌ للإنصافِ وعدمِ التَّعصُّبِ.

قولُهُ: (مُفتَرٍ) وفيه تعريضٌ لفرعونَ.

قولُهُ: (حَالٌ) من المجرورِ.

قولُهُ: (أي: يَومِ حِزْبٍ) إشارَةٌ إلى أنَّ جمعَ ﴿الأحزابِ﴾ مع تفسيرِهِ ـ وهو ﴿مثلُ دأبِ... ﴾ إلخ ـ أغنى عن جمعِ اليومِ.

قولُهُ: (وإِثبَاتِهَا) مكّيٌّ مطلقاً، ونافعٌ وصلاً بخلفٍ عن قالونَ[1].

قولُهُ: (والنِّدَاءُ) عطفٌ على: (نداءُ) يعني: من الملائكةِ.

---

(١) تقدم مثله في الآية رقم: (١٥) عند قوله: ﴿التلاق﴾.

وغيرُ ذلك، ٣٣ ـ ﴿يَومَ تُوَلُّونَ مُدبِرِينَ﴾ عن موقف الحِساب إلى النار، ﴿ما لَكُم مِنَ اللهِ﴾ أي: من عذابه ﴿مِن عاصِمٍ﴾: مانع. ﴿ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لَهُ مِن هادٍ﴾.

٣٤ ـ ﴿ولَقَد جاءَكُم يُوسُفُ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ مُوسى ـ وهو يُوسفُ بنُ يعقوبَ في قولِ عُمِّر إلى زمن مُوسى، أو يُوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يُوسفَ بنِ يعقوبَ في قولٍ ـ ﴿بِالبَيِّناتِ﴾: بالمُعجزات الظاهرات، ﴿فما زِلتُم في شَكٍّ مِمّا جاءَكُم بِهِ. حَتَّى إذا هَلَكَ قُلتُم﴾ من غير برهان: ﴿لَن يَبعَثَ اللهُ مِن بَعدِهِ رَسُولاً﴾، أي: فلن تزالوا كافرين بيُوسفَ وغيرِه. ﴿كَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ إضلالكم ﴿يُضِلُّ اللهُ مَن هُوَ مُسرِفٌ﴾: مُشرك ﴿مُرتابٌ﴾: شاكٌّ فيما شهدتْ به البيّنات. ٣٥ ـ ﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ﴾: مُعجزاته مُبتدأٌ ﴿بِغَيرِ سُلطانٍ﴾: بُرهانٍ ﴿أتاهُم كَبُرَ﴾ جِدالُهم، خبرُ المُبتدأ ﴿مَقتًا عِندَ اللهِ، وعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا! كَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ إضلالهم ﴿يَطبَعُ﴾: يختِم ﴿اللهُ﴾ بالضلال ﴿عَلى كُلِّ قَلبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ﴾..........

قولُهُ: (وغَيرُ ذلِكَ) ينادي فيه بعضُهم بعضاً للاستغاثةِ، أو يتصايَحونَ بالويلِ والثُّبورِ.

قولُهُ: (يُوسُفُ بنُ يَعقُوبَ) بعثَهُ اللهُ من قَبلِ موسى رسولاً يَدعو القِبْطَ إلى الطَّاعةِ للهِ وحدَهُ، فما أطاعوهُ تلك الطَّاعةِ، نعم أطاعوهُ لمجرَّدِ الوزارةِ والجاهِ الدُّنيويِّ، هذا هو الصَّحيحُ.

قولُهُ: (عُمِّرَ) ظاهرُ كلامِهِ أنَّه يعني يوسفَ، والصَّحيحُ أنَّ المعمَّرَ هو فرعونُ موسى؛ عُمِّرَ أربعَ مائةِ سنةٍ وأربعينَ سنةً[1].

قولُهُ: (في قَولٍ) آخرَ، وهو خلافُ الظَّاهرِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) يعني: ضمُّوا إلى تكذيبِ رسالتِهِ تكذيبَ رسالةِ مَن بعدَهُ، أو جَزمُوا بأن لا يُبعَثَ بعدَهُ رسولٌ مع الشَّكِّ في رسالتِهِ.

قولُهُ: (أي: مِثلَ إضلالِكُم) الأظهرُ: مثلَ ذلكَ الإضلالِ.

قولُهُ: (بُرهَانٍ) حجَّةٍ ظاهرةٍ.

قولُهُ: (جِدَالُهُم) على حذفِ مضافٍ: إمَّا في الخبرِ وهو ظاهرُ كلامِهِ، وإمَّا في المبتدأِ وهو قولُ البيضاويِّ[2].

قولُهُ: (خَبَرُ مُبْتَدَأٍ) الظاهرُ: خبر المبتدأِ.

---

(١) قال ابن جزي في «تفسيره» (١/ ٣٨٧): هذا بعيد.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٥٧).

بتنوينِ «قلبِ» ودُونِه. ومتى تكبَّر القلب تكبَّر صاحبه وبالعكس. «وكُلّ» على القراءتين لعُموم الضلال جميعَ القلب لا لعُموم القلوب.

٣٦ ـ ٣٧ ـ ﴿وقالَ فِرعَونُ: يا هامانُ، ابنِ لِي صَرحًا﴾ بناءً عاليًا، ﴿لَعَلِّيَ أبلُغُ الأسبابَ، أسبابَ السَّماواتِ﴾: طُرُقَها المُوصلةَ إليها، ﴿فأطَّلِعُ﴾ ـ بالرفع عطفًا على «أبلغُ»، وبالنصب جوابًا لـ «ابنِ» ـ ﴿إلَى إلـٰهِ مُوسَى. وإنِّي لأظُنُّهُ﴾ أي: مُوسى ﴿كاذِبًا﴾ في أنّ له إلـٰهًا غيري. قال فرعون ذلك تمويهًا. ﴿وكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرعَونَ سُوءُ عَمَلِهِ، وصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾: طريق الهُدى ـ بفتح الصاد وضمِّها ـ ﴿وما كَيدُ فِرعَونَ إلاّ في تَبابٍ﴾: خسار.

٣٨ ـ ﴿وقالَ الَّذِي آمَنَ: يا قَومِ، اتَّبِعُونِيَ﴾، بإثباتِ الياء وحذفِها، ....

قولُهُ: (بتَنوِينِ ﴿قلبِ﴾) بصريٌّ وابنُ ذكوانَ[1].

قولُهُ: (وبالعَكسِ) أي: أنَّهما متلازمانِ، وفيه: أنَّ قراءةَ التَّنوينِ على المجازِ والأخرى على الحقيقةِ، ولذا قيل: وصفَ القلبَ بالتَّكبُّرِ لأنَّهُ منبعُهُ، كقولِهِ: رأت عيني وسمعَتْ أُذُني، أو على حذفِ مضافٍ؛ أي: على كلِّ ذي قلبٍ متكبِّرٍ.

قولُهُ: (و﴿كلِّ﴾ إلخ) والأظهرُ: ما قالَ أبو البقاءِ[2]: وإضافةُ ﴿كلِّ﴾ إلى القلبِ يرادُ بها عمومُ القلبِ لا استيعابُ كلِّ قلبٍ بالطَّبعِ، وهو في المعنى كقراءَةِ مَن قرأَ: (على قلبِ كلِّ متكبِّرٍ)[3].

قولُهُ: (طُرُقَهَا) وفي إبهامِها ثمَّ إيضاحِها تفخيمٌ لشأنِها، وتشويقٌ للسَّامعِ إلى مَعرفتِها.

قولُهُ: (وبِالنَّصبِ) حفصٌ[4].

قولُهُ: (جَوَاباً لـ﴿ابنِ﴾) أو جواباً للتَّرجِّي.

قولُهُ: (في أَنَّ لَهُ إلهاً) أو في النُّبوَّةِ.

قولُهُ: (بِفَتحِ الصَّادِ) غيرُ الكوفيِّ[5]، والفاعلُ ضميرُ فرعونَ.

قولُهُ: (بِإثبَاتِ اليَاءِ) مكِّيٌّ مُطلقاً، وقالونُ وبصريٌّ وصلاً[6].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧١).

(٢) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١١٢٠).

(٣) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن مسعود، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٣٣).

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧١).

(٥) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٣٣)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٣٦).

(٦) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٢)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧٢).

﴿أهدِكُم سَبِيلَ الرَّشادِ﴾. تقدّمَ. ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿يا قَومِ، إنَّما هذِهِ الحَياةُ الدُّنيا مَتاعٌ﴾: تَمتُّعٌ يزول، ﴿وإنَّ الآخِرةَ هِيَ دارُ القَرارِ، مَن عَمِلَ سَيِّئةً فلا يُجزَى إلاَّ مِثلَها، ومَن عَمِلَ صالِحًا مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى، وهُوَ مُؤمِنٌ، فأُولئِكَ يُدخَلُونَ الجَنَّةَ﴾ ـ بضمّ الياء وفتح الخاء وبالعكس ـ ﴿يُرزَقُونَ فِيها بِغَيرِ حِسابٍ﴾ رِزقًا واسعًا بلا تَبِعة، ٤١ ـ ٤٢ ـ ﴿ويا قَومِ، مالِيَ أدعُوكُم إلَى النَّجاةِ، وتَدعُونَنِيَ إلَى النَّارِ؟ تَدعُونَنِي لِأكفُرَ بِاللهِ، وأُشرِكَ بِهِ ما لَيسَ لِي بِهِ عِلمٌ، وأنا أدعُوكُم إلَى العَزِيزِ﴾: الغالب على أمره ﴿الغَفّارِ﴾ لمن تاب. ٤٣ ـ ٤٤ ـ ﴿لا جَرَمَ﴾: حقًّا ﴿أنَّ ما تَدعُونَنِيَ إلَيهِ﴾ لأعبدَه ﴿لَيسَ لَهُ دَعوةٌ في الدُّنيا﴾ أي: استجابةُ دعْوةٍ ﴿ولا في الآخِرةِ، وأنَّ مَرَدَّنا﴾: مَرجِعَنا ﴿إلَى اللهِ، وأنَّ المُسرِفِينَ﴾: الكافرين ﴿هُم أصحابُ النّارِ. فسَتَذكُرُونَ﴾ إذا عاينتم العذاب ﴿ما أقُولُ لَكُم، وأُفَوِّضُ أمرِيَ إلَى اللهِ. إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبادِ﴾. قال ذلك، لمّا توعّدوه بمُخالفته دِينَهم.

٤٥ ـ ﴿فوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا﴾ به من القتل، ﴿وحاقَ﴾: نزل ﴿بِآلِ فِرعَونَ﴾: قومِه معه ﴿سُوءُ العَذابِ﴾: الغرَقُ، ٤٦ ـ ثُمَّ ﴿النّارُ يُعرَضُونَ علَيها﴾........................

قولُهُ: (تَمَتُّعٌ) يسيرٌ.

قولُهُ: (يَزُولُ) سَريعاً.

قولُهُ: (بِضَمِّ الياءِ) مكّيٌّ وبصريٌّ وشعبةُ[1].

قولُهُ: (بِلا تَبِعَةٍ) أو: بغيرِ تقديرٍ وموازنةٍ بالعَملِ، بل أضعافاً مضاعفةً فضلاً منه.

قولُهُ: (لِمَن تَابَ) من الكفّارِ وغيرِهِم، ولمن لم يَتُبْ ممَّن شاءَ من المؤمنينَ.

قولُهُ: (حَقًّا) أي: قطعاً.

قولُهُ: (أي: استِجَابَةُ دَعوَةٍ) أو: دعوَةٌ مستجابةٌ.

قولُهُ: (مَرجِعَنَا) بالموتِ والبعثِ، أو بكلِّ حالٍ.

قولُهُ: (بِهِ) أي: بالمؤمنِ، وقيلَ: بموسى.

قولُهُ: (مِن القَتلِ) وغيرِهِ من شَدائدِ مكرِهِم.

قولُهُ: (مَعَهُ) واستغنى بذكرِهِم عن ذكرِه للعِلمِ بأنَّهُ أولى بذلكَ.

قولُهُ: (ثُمَّ) أي: الغرَقُ في الدُّنيا، ثمَّ النَّقلةُ منه إلى النَّارِ في البرزخِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٩٧)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣١٥).

يُخوَّفون بها ﴿غُدُوًّا وعَشِيًّا﴾ صباحًا ومساءً، ﴿ويَومَ تَقُومُ السّاعةُ﴾ يقال: ﴿ادخُلُوا﴾ ـ يا ﴿آلَ فِرعَونَ﴾، وفي قراءة بفتح الهمزة وكسر الخاء: أمرٌ للملائكة ـ ﴿أشَدَّ العَذابِ﴾ عذابَ جهنّم.

٤٧ ـ ٤٨ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ يَتَحاجُّونَ﴾: يتخاصم الكُفّار ﴿في النّارِ، فيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ استكبَرُوا: إنّا كُنّا لَكُم تَبَعًا﴾: جمعُ تابع. ﴿فهَل أنتُم مُغنُونَ﴾: دافعون ﴿عَنّا نَصِيبًا﴾: جُزءًا ﴿مِنَ النّارِ؟ قالَ الَّذِينَ استكبَرُوا: إنّا كُلٌّ فِيها. إنَّ اللهَ قَد حَكَمَ بَينَ العِبادِ﴾ فأدخَلَ المؤمنين الجنّة والكافرين النار.

٤٩ ـ ٥٠ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ في النّارِ لِخَزَنةِ جَهَنَّمَ: ادعُوا رَبَّكُم، يُخَفِّفْ عَنّا يَومًا﴾ أي: قدْرَ يوم ﴿مِنَ العَذابِ. قالُوا﴾ أي: الخزنةُ تهكّمًا: ﴿أوَلَم تَكُ تأتِيكُم رُسُلُكُم بالبَيِّناتِ﴾: بالمعجزات الظاهرات؟ ﴿قالُوا: بَلَى﴾، أي: فكفروا بهم. ﴿قالُوا: فادعُوا﴾ أنتم. فإنّا لا نشفع لكافر........

قولُهُ: (يُخَوَّفُونَ بِهَا) من قولِهِم: «عُرِضَ الأُسارى على السَّيفِ» إذا قُتِلوا به، وذلك لأرواحِهِم، كما روى ابنُ مسعودٍ: أنَّ أرواحَهُم في أجوافِ طيرٍ سودٍ تُعرَضُ على النّارِ بكرةً وعشيًّا إلى يومِ القيامةِ[1]، وفيهِ دليلٌ على عذابِ القبرِ.

قولُهُ: (صَبَاحاً ومَسَاءً) وفيمَا بين ذلك اللهُ أعلمُ بحالِهِم، فإمَّا أن يُعذَّبوا بنَوعٍ آخرَ من العذابِ، أو يُنَفَّسَ عنهم، ويمكنُ أن يرادَ بالغُدوِّ والعشيِّ الدَّوامُ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وحفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ[2].

قولُهُ: (أَمْرٌ لِلمَلائِكَةِ) و﴿آلَ فِرْعَونَ﴾ مفعولٌ أوَّلُ.

قولُهُ: (عَذَاب جَهَنَّمَ) فإنَّهُ أشدُّ ممَّا كانوا فيهِ، أو: أشدَّ عذابِ جهنَّمَ.

قولُهُ: (جَمْعُ: تَابِعٍ) كخَدَمٍ: جمعُ خادمٍ.

قولُهُ: (دَافِعُونَ) والأظهرُ: ﴿مغنُونَ عنَّا﴾ بالدَّفعِ أو الحملِ.

قولُهُ: (جُزْءًا) مفعولٌ.

قولُهُ: (أي: قَدْرَ يَومٍ) أو: وقتاً ما، والمفعولُ به: شيئاً من العذابِ، أو: عذابَ يومٍ من أنواعِ العذابِ.

قولُهُ: (تَهَكُّماً) الظَّاهرُ: توبيخاً.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢٦٨٠) بنحوه.

وروى ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٩٥) عن السدي قال بلغني ثم ساق نحوه.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٧٢).

قال تعالى: ﴿وما دُعاءُ الكافِرِينَ إلاّ في ضَلالٍ﴾: انعدام. ٥١ ـ ﴿إنّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا والَّذِينَ آمَنُوا في الحَياةِ الدُّنيا ويَومَ يَقُومُ الأشهادُ﴾: جمع شاهد، وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكُفّار بالتكذيب، ٥٢ ـ ﴿يَومَ لا يَنفَعُ﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿الظّالِمِينَ مَعذِرتُهم﴾: عُذرُهم لو اعتذروا، ﴿ولَهُمُ اللَّعْنةُ﴾ أي: البُعد من الرحمة ﴿ولَهم سُوءُ الدّارِ﴾ الآخرةِ، أي: شدّةُ عذابها.

٥٣ ـ ﴿ولَقَد آتينا مُوسَى الهُدَى﴾: التوراةَ والمُعجزاتِ، ﴿وأورَثْنا بَنِي إسرائيلَ﴾ من بعد مُوسَى ﴿الكِتابَ﴾ التوراةَ ٥٤ ـ ﴿هُدًى﴾: هاديًا ﴿وذِكرَى لِأُولِي الألبابِ﴾: تذكرةً لأصحاب العُقول. ٥٥ ـ ﴿فاصبِرْ﴾ ـ يا مُحمّد. ﴿إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بنصر أوليائه ﴿حَقٌّ﴾ وأنت ومَن تَبعك منهم ـ ﴿واستَغفِرْ لِذَنبِكَ﴾ لِيُستَنَّ بك، ﴿وسَبِّحْ﴾: صلِّ مُلتبسًا ﴿بِحَمدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ﴾ وهو من بعد الزوال ﴿والإبكارِ﴾ الصلواتِ الخمسَ.

قولُهُ: (انعِدَام) لا يجابُ؛ أي: في الآخرةِ، واختلفَ في وقوعِ إجابتِهِم في الدُّنيا، والظَّاهرُ وقوعُها لقولِهِ تعالى: ﴿فإنَّكَ مِن المنظرينَ﴾ [الحجر: ٣٧].

قولُهُ: (وَهُمُ المَلائِكَةُ) أو النَّبيُّونَ والمؤمنونَ والأجسادُ.

قولُهُ: (بالتَّاءِ) التَّأنيثُ مكِّيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[1].

قولُهُ: (لوِ اعتَذَرُوا) أو لأنَّها باطِلةٌ، أو لأنَّه لا يُؤذَنُ لهم فيعتذرونَ.

قولُهُ: (التَّورَاةَ) أي: ما يُهتدَى به في الدِّينِ.

قولُهُ: (التَّورَاةَ) أي: وترَكْنَا عليهم بعدَهُ من ذلك الهُدى التَّوراةَ.

قولُهُ: (تَذكِرَةً) كأنَّ[2] حسْنَ المقابلةِ أن يقولَ: هادياً ومذكِّراً، أو: هدايةً وتذكرةً، والثَّاني تجوُّزٌ أو علَّةٌ.

قولُهُ: (العُقُولِ) السَّليمةِ.

قولُهُ: (لِيُستَنَّ) أو: تدارَكْ فرطاتِكَ، أو: من خطورِ السِّوى في حضورِ المولى، أو: من رؤيةِ الطَّاعةِ، أو: من التَّقصيرِ في العبادةِ بتركِ الأَولى والاهتمامِ بأمرِ العِدى بالاستغفارِ[3].

قولُهُ: (الصَّلواتِ الخَمْسِ) وقيل: صَلِّ بهذَينِ الوقتَينِ، إذ كانَ الواجبُ بمكَّةَ ركعتانِ بكرةً وركعتانِ عشيًّا، وقيل: دُمْ على التَّسبيحِ والتَّحميدِ لربِّكَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٧٢).

(٢) في (د): «كان».

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦١)، وفيه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ وأقبل على أمر دينك وتدارك فرطاتك بترك الأولى والاهتمام بأمر العدا بالاستغفار.

٥٦ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ﴾: القُرآن ﴿بِغَيرِ سُلطانٍ﴾: بُرهان ﴿أَتاهُم إِنْ﴾: ما ﴿في صُدُورِهِم إلاّ كِبْرٌ﴾: تكبّر وطمع أن يعلوا عليك، ﴿ما هُم بِبالِغِيه. فاستَعِذْ﴾ من شرِّهم ﴿بِاللهِ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿البَصِيرُ﴾ بأحوالهم.

ونزل في مُنكري البعث: ٥٧ ـ ﴿لَخَلقُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ ابتداءً ﴿أكبَرُ مِن خَلقِ النّاسِ﴾ مرّة ثانية ـ وهي الإعادة ـ ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: الكُفّارَ ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك. فهم كالأعمى ومن يعلمُه كالبصير، ٥٨ ـ ﴿وما يَستَوِي الأعمَى والبَصِيرُ، و﴾ لا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ﴾ ـ وهو المُحسن ـ ﴿ولا المُسِيءُ﴾. فيه زيادة «لا». ﴿قَلِيلاً ما يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون، بالياء والتاء، أي: تذكُّرهم قليلٌ جِدًّا. ٥٩ ـ ﴿إِنَّ السّاعةَ لآتِيَةٌ لا رَيبَ﴾: شكّ ﴿فِيها، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يُؤمِنُونَ﴾ بها.

٦٠ ـ ﴿وقالَ رَبُّكُمُ: ادعُونِيَ، أستَجِبْ لَكُم﴾ أي: اعبدوني أُثِبْكم، بقرينةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبادَتِي سَيَدخُلُونَ﴾ ـ بفتح الياء وضمّ الخاء وبالعكس ـ ﴿جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾: صاغرين.

قولُهُ: (القُرآنِ) عامٌّ في كلِّ مجادلٍ مبطِلٍ يردُّ الحججَ بالشُّبَهِ، وإن نزلَتْ في مُشركي مكّةَ أو اليهودِ.

قولُهُ: (تَكَبُّرٌ) عن اتِّباعِ الحقِّ، وتعظُّمٌ عن التَّفكُّرِ والتَّعلُّمِ، أو: إرادةُ الرِّياسةِ(١).

قولُهُ: (أي: الكُفَّارَ) منصوبٌ.

قولُهُ: (والتَّاءِ) الخطابُ كوفيٌّ(٢).

قولُهُ: (جدًّا) أي: تذكُّراً ما قليلاً [يتذكرون](٣).

قولُهُ: (أي: اعْبُدُونِي) المشهورُ عندَ العلماءِ أنَّ ﴿ادْعونِي﴾ من الدُّعاءِ؛ وبمعنى السُّؤالِ، فلا بدَّ من تأويلِ عبادتي ـ واللهُ أعلمُ ـ بأن يُقالَ: ومن ملةِ العبادةِ الدُّعاءُ؛ لقولِهِ ﷺ: «الدُّعاءُ مخُّ العبادةِ»(٤)، أو يُقالَ: العبادةُ هي الدُّعاءَ ادّعاءً للمبالغةِ، ولذا قالَ ﷺ: «الدُّعاءُ هو العبادةُ»، وقرأَ الآيَةَ(٥) كما في «الحصنِ»(٦).

قولُهُ: (وبالعَكسِ) مكّيٌّ وشعبةُ(٧).

---

(١) قوله: (أو إرادة الرياسة) تفسير للكبر معطوف على قوله: (تكبر). انظر: «حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي» (٧/ ٣٧٧)

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٧٢).

(٣) من «أنوار التنزيل» (٥/ ٦١).

(٤) رواه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس رضي الله عنه، هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

(٥) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد في «مسنده» (١٨٣٥٢)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٦) انظر: «الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين» لابن الجزري (ص: ٤١).

(٧) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٢).

٦١ ـ ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسكُنُوا فِيهِ والنَّهارَ مُبصِرًا﴾ إسنادُ الإبصار إليه مجازيّ لأنه يُبصَر فيه. ﴿إنَّ اللهَ لَذُو فَضلٍ علَى النّاسِ، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يَشكُرُونَ﴾ اللهَ فلا يُؤمنون. ٦٢ ـ ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم، خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ. فأنَّى تُؤفَكُونَ﴾: فكيف تُصرفون عن الإيمان مع قيام البُرهان؟ ٦٣ ـ ﴿كَذلِكَ يُؤفَكُ﴾ أي: مِثلَ أفْكِ هؤلاء أُفِكَ ﴿الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ﴾: مُعجزاته ﴿يَجحَدُونَ﴾.

٦٤ ـ ٦٥ ـ ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ قَرارًا والسَّماءَ﴾ سقفًا ﴿بِناءً، وصَوَّرَكُم فأحسَنَ صُوَرَكُم، ورَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّباتِ. ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم ـ فتَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ ـ! هُوَ الحَيُّ لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ. فادعُوهُ﴾: اعبدوه ﴿مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشِّرك: ﴿الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾.

٦٦ ـ ٦٧ ـ ﴿قُلْ: إنِّي نُهِيتُ أن أعبُدَ الَّذِينَ تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ، لَمّا جاءَنِيَ البَيِّناتُ﴾: دلائل التوحيد ﴿مِن رَبِّي، وأُمِرتُ أن أُسلِمَ لِرَبِّ العالَمِينَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن تُرابٍ﴾ بخلق أبيكم آدمَ منه ﴿ثُمَّ مِن نُطفَةٍ﴾: مَنِيٍّ ﴿ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ﴾: دم غليظ، ﴿ثُمَّ يُخرِجُكُم طِفلاً﴾ بمعنَى: أطفالاً، ﴿ثُمَّ﴾ يُبقيكم ﴿لِتَبلُغُوا أشُدَّكُم﴾: تكامُلَ قوّتكم من الثلاثين سنة إلى الأربعين، ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ ـ بضمّ الشين وكسرها..........................

قولُهُ: (مَجَازِيٌّ) فيهِ مبالغةٌ، ولذا عدلَ به عن التَّعليلِ إلى الحالِ.

قولُهُ: (يُبصَرُ فِيهِ) أو به.

قولُهُ: (فلا يُؤمِنُونَ) وتكريرُ ﴿النَّاسِ﴾ لتنصيصِ تخصيصِ الكفرانِ بهم.

قولُهُ: (فَكَيفَ) ومن أيِّ وجهٍ.

قولُهُ: (فاعْبُدُوهُ) أو: وحِّدوهُ بالدُّعاءِ.

قولُهُ: (مِنَ الشِّركِ) والرِّياءِ، وقائلينَ: الحمدُ للهِ، أو: الحمدُ للهِ حيث حصلَتِ النِّعمةُ وثبتَتِ الحجَّةُ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: أَطفَالاً) والإفرادُ لإرادةِ الجنسِ، أو على تأويلِ: كلَّ واحدٍ منكم.

قولُهُ: (تَكَامُلَ) واللَّامُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُهُ: ثمَّ يبقيكُم لتبلُغوا.

قولُهُ: (بِضَمِّ الشِّينِ) نافعٌ وبصريٌّ وهشامٌ وحفصٌ[١].

قولُهُ: (وكَسرِهَا) الباقونَ[٢]، وفي البيضاويِّ: وقُرِئَ بالكسرِ[٣]، وهو سهوٌ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٢).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦٣).

﴿ومنكُم مَن يُتَوَفَّى مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ الأشُدّ والشيخوخة ـ فعلَ ذلك بكم لتعيشوا، ﴿ولِتبلُغوا أجَلاً مُسمًّى﴾: وقتًا محدودًا ﴿ولعَلَّكُم تَعقِلُونَ﴾ دلائل التوحيد فتؤمنون. ٦٨ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُحيِي ويُمِيتُ. فإذا قَضَى أمرًا﴾: أراد إيجادَ شيء ﴿فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ. فيَكُونُ﴾ ـ بضمّ النون، وفتحها بتقدير «أن» ـ أي: يُوجَد عقبَ الإرادة التي هي معنى القول المذكور.

٦٩ ـ ﴿ألَم تَرَ إلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ﴾: القُرآن ﴿أنَّى﴾: كيف ﴿يُصرَفُونَ﴾ عن الإيمان، ٧٠ ـ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بالكِتابِ﴾ القرآن ﴿وبِما أرسَلْنا بِهِ رُسُلَنا﴾ من التوحيد والبعث. وهم كُفّار مكّة؟ ﴿فسَوفَ يَعلَمُونَ﴾ عُقوبة تكذيبهم، ٧١ ـ ﴿إذِ الأغلالُ في أعناقِهِم﴾ ـ إذ: بمعنى إذا ـ..........

قولُهُ: (والشَّيخُوخَةِ) الصَّوابُ: أو.

قولُهُ: (فَعَلَ ذَلِكَ) الأولى: يفعَلُ.

قولُهُ: (لِتَعِيشُوا) فيه أنَّ العيشَ مستفادٌ من: ﴿لِتَبْلُغُوا﴾، فالظَّاهرُ: لتعتَبِروا، مع أنَّ الاحتياجَ إنَّما هو إلى الفعلِ المعلَّلِ، فحقُّهُ أن يقدِّمَ الواوَ على (فَعَلَ).

قولُهُ: (وَقْتاً مَحدُوداً) هو وقتُ الموتِ، أو يومُ القيامةِ.

قولُهُ: (وفَتحِهَا) شاميٌّ[١].

قولُهُ: (المَذْكُورِ) فيه أنَّه يصيرُ المعنى: إذا أرادَ إيجادَ شيءٍ فإن يريد[٢] فيكونُ، ولا يخفى ما فيهِ، فالظَّاهرُ: أنَّ القولَ على حقيقتِهِ؛ يعني: فلا يَحتاجُ في تكوينِهِ إلى عُدَّةٍ وتجشمِ كلفةٍ أو تمثيلٍ كما تقدَّمَ[٣].

قولُهُ: (عَنِ الإِيمَانِ) وتكريرُ ذمِّ المجادلةِ لتعدُّدِ المجادِلِ أو المجادَلِ فيه، أو للتَّوكيدِ.

قولُهُ: (القُرآنِ) أو لجنسِ الكتبِ السَّماويَّةِ.

قولُهُ: (والبَعثِ) وغيرِهما.

قولُهُ: (عُقُوبَةَ تَكذِيبِهِم) أي: جزاءَهُ.

قولُهُ: (﴿إذِ﴾ بِمَعْنَى: إذَا) والتَّحقيقُ ما قالَهُ القاضِي: أنَّهُ ظرفٌ لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾، إذ المعنى على الاستقبالِ، والتعبيرُ بلفظِ المضيِّ لتيقُّنِهِ[٤].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٧٦).

(٢) «فإن يريد» كذا في النسخ، ولعل الصواب: «فإنما يريده».

(٣) انظر الآية رقم: (٨٢) من سورة يس عند قوله: «على ﴿يقول﴾».

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦٣).

﴿والسَّلاسِلُ﴾: عطف على «الأغلالُ» فتكون في الأعناق، أو مبتدأٌ خبرُه محذوف، أي: في أرجُلهم، أو خبرُه ﴿يُسحَبُونَ﴾ أي: يُجرّون بها ٧٢ ـ ﴿في الحَمِيمِ﴾ أي: جهنّمَ، ﴿ثُمَّ في النّارِ يُسجَرُونَ﴾: يُوقَدونَ.

٧٣ ـ ٧٤ ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُم﴾ تبكيتًا: ﴿أينَ ما كُنتُم تُشرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ معه، وهي الأصنام؟ ﴿قالُوا: ضَلُّوا﴾: غابوا ﴿عَنّا﴾ فلا نراهم. ﴿بَل لَم نَكُنْ نَدعُو مِن قَبلُ شَيئًا﴾. أنكروا عِبادتهم إيّاها. ثمّ أُحضِرتْ، قال تعالى: «إنّكُم وما تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» أي: وَقودُها ـ ﴿كَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ إضلال هؤلاء المُكذّبين ﴿يُضِلُّ اللهُ الكافِرِينَ﴾ ـ ويقال لهم أيضًا: ٧٥ ـ ﴿ذلِكُم﴾ العذاب ﴿بِما كُنتُم تَفرَحُونَ في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ﴾ من الإشراك وإنكار البعث، ﴿وبِما كُنتُم تَمرَحُونَ﴾: تتوسّعون في الفرح.

قولُهُ: (فَتَكُونُ في الأَعنَاقِ) هذا غيرُ لازمٍ لكنَّهُ ظاهرٌ.

قولُهُ: (أي: فِي أَرجُلِهِم) والأظهرُ: في أعناقِهِم، وحُذِفَ لدلالةِ الأوَّلِ عليه؛ إذِ المفهومُ من «القاموسِ» أنَّ الغُلَّ إنَّما يكونُ في اليدِ أو العنقِ(١)، وهذا التقديرُ ما ينافي عطفَهُ على: ﴿الأغلال﴾.

قولُهُ: (بِهَا) إشارةٌ إلى أنَّ العائدَ محذوفٌ، وهو على الأوَّلِ حالٌ من الضَّميرِ في الجارِّ، والأظهرُ: أنَّهُ مستأنَفٌ.

قولُهُ: (أي: جَهَنَّمَ) صوابُهُ: أي: الماءِ الحارِّ.

قولُهُ: (يُوقَدُونَ) ويحرقونَ، والمرادُ: أنَّهُم يعذَّبونَ بأنواعٍ من العذابِ وينتَقلونَ من بعضِها إلى بعضٍ، كذا قالَهُ القاضي(٢)، والأظهرُ: أنَّهُ يُزادُ بعضُها فوقَ بعضٍ لقولِه تعالى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، فـ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الرُّتبةِ.

قولُهُ: (غَابُوا) وذلكَ قبلَ أن يُقرنَ بهم آلهتُهُم، أو: ضاعوا عنَّا فلم نجِدْ ما كنَّا نتوقَّعُ منهم.

قولُهُ: (أَنكَرُوا عِبَادَتَهُم) والأظهرُ أنَّ معناهُ: بل تبيَّنَ لنا أنَّا لم نكُنْ نعبدُ شيئاً بعبادتِهِم، فإنَّهُم ليسوا شيئاً يعتدُّ به، كقولِكَ: حسبتُهُ شيئاً فلم يكُنْ.

قولُهُ: (مِثْلَ إِضلالِ) الصَّوابُ: مثلَ ذلك الضَّلالِ؛ إذ لم يتقدَّمْ إلَّا ﴿ضلُّوا﴾، والمكذِّبونَ همُ الكافرونَ.

قولُهُ: (العَذَابُ) أو الإضلالُ.

قولُهُ: (تَتَوَسَّعُونَ) بالطُّغيانِ والعدوانِ والعصيانِ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٣٩).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦٣).

٧٦ ـ ﴿ادخُلُوا أبوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها. فبِئسَ مَثوَى﴾: مأوى ﴿المُتَكَبِّرِينَ﴾!

٧٧ ـ ﴿فاصبِرْ. إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بعذابهم ﴿حَقٌّ. فإمّا نُرِيَنَّكَ﴾ ـ فيه «إن» الشرطيّة مدغمة، وما: زائدة تؤكّد معنى الشرط أوّلَ الفعل، والنونُ تؤكّد آخرَه ـ ﴿بَعضَ الَّذِي نَعِدُهُم﴾ به من العذاب في حياتك، وجوابُ الشرط محذوف أي: فذاكَ، ﴿أو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم ﴿فإلَينا يُرجَعُونَ﴾، فنُعذّبهم أشدّ العذاب. فالجواب المذكور للمعطوف فقط.

٧٨ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا رُسُلاً مِن قَبلِكَ، مِنهُم مَن قَصَصْنا علَيكَ، ومِنهُم مَن لَم نَقصُصْ علَيكَ﴾ ـ رُوي أنه تعالى بعث ثمانيةَ آلافِ نبيّ: أربعةَ آلافِ نبيّ من بني إسرائيلَ، وأربعةَ آلافٍ من سائر الناس ـ ﴿وما كانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أن يأتِيَ بِآيَةٍ إلاّ بإذنِ اللهِ﴾ لأنهم عبيد مَربوبون، ﴿فإذا جاءَ أمرُ اللهِ﴾ بنُزول العذاب على الكُفّار ﴿قُضِيَ﴾ بين الرسل ومُكذّبيها ﴿بِالحَقِّ، وخَسِرَ هُنالِكَ المُبطِلُونَ﴾ أي: ظهر القضاء والخُسران للناس، وهم خاسرون في كُلّ وقت قبل ذلك.

قولُهُ: (و«ما» زَائِدَةٌ) الأظهرُ في «ما» زائدةٌ.

قولُهُ: (آخِرَهُ) كانَ حقَّهُ أن يقولَ: ولذلكَ لحقَتِ النُّونُ الفعلَ؛ إذ لا تلحقُ مع «إنْ» وَحدَها.

قولُهُ: (مِنَ العَذَابِ) وهو القتلُ والأسرُ؛ أي: فذاكَ هو المطلوبُ.

قولُهُ: (قَبلَ تَعذِيبِهِم) والأظهرُ: قبلَ أن تراهُ.

قولُهُ: (فَنُعَذِّبُهُم) أو: فنُجازيهِم بأعمالِهِم يومَ القيامةِ.

قولُهُ: (فالجَوَابُ المَذكُورُ) يعني: إذا قُدِّرَ الجوابُ للأوَّلِ فالجوابُ.. إلخ، وهذا ظاهرٌ لكنْ فيه إيماءٌ إلى قولِ القاضي: ويجوزُ أن يكونَ جواباً لهما، والمعنى: إن نعذِّبَهُم في حياتِكَ أو لم نعذِّبْهُم فإنَّا نعذِّبُهُم في الآخرةِ أشدَّ العذابِ[1].

قولُهُ: (رُوِيَ) ورويَ: أنَّ عددَ الأنبياءِ مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً، والرُّسلِ ثلاثُ مئةٍ وخمسةَ عشرَ[2]، والمذكورُ قصَّتُهم أشخاصٌ معدودةٌ، قيل: أربعةٌ وعشرونَ.

قولُهُ: (بنُزُولِ العَذَابِ) في الدُّنيا والعُقبى.

قولُهُ: (بَينَ الرُّسلِ) أو بإنجاءِ المحقِّ وتعذيبِ المبطِلِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦٤).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٨٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢١٧) (٧٨٧١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٥٩): مداره على علي بن يزيد، وهو ضعيف.

٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأنعامَ﴾، قيل: الإبلُ خاصّةً هنا. والظاهر: والبقرُ والغنمُ، ﴿لِتَركَبُوا مِنها ـ ومِنها تأكُلُونَ، ولكُم فِيها مَنافِعُ﴾ من الدَّرّ والنسل والوبر والصوف ـ ﴿ولِتَبلُغُوا علَيها حاجةً في صُدُورِكُم﴾ هي حمل الأثقال إلى البلاد ـ ﴿وعلَيها﴾ في البرّ ﴿وعلَى الفُلكِ﴾: السفن في البحر ﴿تُحمَلُونَ ـ ويُرِيكُم آياتِهِ. فأيَّ آياتِ اللهِ﴾ الدالّةِ على وحدانيّته ﴿تُنكِرُونَ﴾؟ استفهام توبيخ. وتذكير «أيّ» أشهرُ من تأنيثه.

٨٢ ـ ٨٣ ـ ﴿أفلَم يَسِيرُوا في الأرضِ، فيَنظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم؟ كانُوا أكثَرَ مِنهُم وأشَدَّ قُوّةً، وآثارًا في الأرضِ﴾ من مصانعَ وقصور، ﴿فما أغنَى عَنهُم ما كانُوا يَكسِبُونَ. فلَمّا جاءَتْهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾: المُعجزات الظاهرات ﴿فَرِحُوا﴾ أي: الكُفّارُ ﴿بِما عِندَهُم﴾ أي: الرسلِ ﴿مِنَ العِلمِ﴾ فَرَحَ استهزاء وضحك منكرين له، ﴿وحاقَ﴾: نزل ﴿بِهِم ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ أي: العذابُ، ٨٤ ـ ٨٥ ـ ﴿فلَمّا رأَوا بأسَنا﴾ أي: شِدّة عذابنا ﴿قالُوا: آمَنّا بِاللهِ وَحدَهُ وكَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشرِكِينَ. فلَم يَكُ يَنفَعُهُم إيمانُهُم لَمّا رأَوا بأسَنا، سُنّةَ اللهِ﴾ ـ نصبُه على المصدر بفعل مقدَّر من لفظه ـ ﴿الَّتِي قَد خَلَتْ في عِبادِهِ﴾ في الأُمم، ألاّ ينفعَهم الإيمان وقت نزول العذاب، ﴿وخَسِرَ هُنالِكَ الكافِرُونَ﴾: تَبيَّنَ خُسرانُهم لكُلّ أحد، وهم خاسرون في كُلّ وقت قبل ذلك.

قولُهُ: (هُنَا) لأنّها هي: الجامعةُ للأوصافِ المذكورةِ من الرُّكوبِ والأكلِ والمنافعِ والبلوغِ والحملِ، وهذا هو الظَّاهرُ، وعلى تقديرِ إرادةِ جنسِ الأنعامِ الشَّاملِ للإبلِ والبقرِ والغنمِ لا بدَّ من تأويلٍ بأن يُقالَ: فإنَّ من جِنسِها ما يُؤكَلُ كالغنمِ والبقرِ، ومنها ما يُركَبُ ويبلُغُ ويَحملُ كالإبلِ، فتأمَّل ليظهرَ لك ظهوراً كاملاً.

قولُهُ: (والصُّوفِ) والشَّعرِ والجلدِ.

قولُهُ: (السُّفُنِ) إنَّما لم يقُل: في الفُلكِ؛ للمُزاوجةِ.

قولُهُ: (وقُصُورٍ) ونحوِها.

قولُهُ: (المُعجِزَاتِ) أو الآياتِ الواضِحاتِ.

قولُهُ: (أي: العَذَابُ) وهو جزاءُ جهلِهم واستهزائِهم.

قولُهُ: (مِنْ لَفْظِهِ) أي: سنَّ اللهُ ذلك سنّةً ماضيةً في العبادِ، وهي من المصادرِ المؤكِّدةِ.

قولُهُ: (قَبلَ ذَلِكَ) الوقتِ، وهو وقتُ رؤيتِهمُ البأسَ، اسمُ مكانٍ استُعيرَ للزَّمانِ، واللهُ أعلمُ.

***

سورة المؤمن

وتُسمَّى سورةَ غافر وسورةَ الطَّول، وهي كما روي عن ابن عباس وابن الزبير ومسروق وسمرة بن جندب مكيةٌ، وحَكَى أبو حيان الإجماعَ على ذلك[1].

وعن الحسن أنها مكيةٌ إلا قولَه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الآية: ٥٥]؛ لأنَّ الصلوات نزلت بالمدينة، وكانت الصلاة بمكةَ ركعتين من غير توقيتٍ[2]. وأنت تعلم أنَّ الحقَّ قولُ الأكثرين: إنَّ الخمسَ نزلت بمكة، على أنَّه لا يتعيَّن إرادةُ الصلاة بالتسبيح في الآية.

وقيل: هي مكيةٌ إلا قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ [الآية: ٥٦] فإنها مدنيةٌ؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية وغيرِه أنَّها نزلت في اليهود لَمَّا ذكروا الدجَّال[3].

وهذا ليس بنصٍّ على أنها نزلت بالمدينة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقولهم: نزلت الآية في كذا، يراد به تارةً سببُ النزول، ويراد به تارةً أنَّ ذلك داخلٌ في الآية وإن لم يكن السببَ، كما تقول: عُنِيَ بهذه الآية كذا[4].

وقال الزركشيُّ في «البرهان»: قد عُرف مِن عادةِ الصحابة والتابعين أنَّ أحدَهم إذا قال: نزلت الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنَّها تتضمَّنُ هذا الحكمَ، لا أنَّ هذا كان السببَ في نزولها، فهو مِن جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٤٦، وأخرج قول ابن عباس ابنُ الضريس في فضائل القرآن ص٣٤، والنحاسُ في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦١١.

(٢) الكشاف ٣/ ٤١٢، ومجمع البيان ٥/ ١٧٨.

(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٣٤٤.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٣٩.

لِمَا وقع(١). نعم سيأتي إن شاء الله تعالى عن أبي العالية ما هو كالنصِّ على ذلك.

وآيُها خمسٌ وثمانون في الكوفيِّ والشاميِّ، وأربع في الحجازيِّ، واثنتان في البصريِّ. وقيل: ستٌّ وثمانون، وقيل: ثمان وثمانون.

ووجهُ مناسبةِ أولها لآخرِ «الزمر» أنَّه تعالى لَمَّا ذَكَر سبحانه هناك ما يَؤُول إليه حالُ الكافر وحالُ المؤمن ذَكَر جلَّ وعلا أنَّه تعالى غافرُ الذنب وقابلُ التوب؛ ليكون ذلك استدعاءً للكافر إلى الإيمان والإقلاع عما هو فيه.

وبين السورتين أنفسِهما أَوْجُهٌ من المناسبة، ويكفي فيها أنه ذُكر في كلٍّ من أحوالِ يوم القيامة وأحوالِ الكَفَرة فيه وهم في المحشر وفي النار ما ذكر، وقد فُصِّل في هذه من ذلك ما لم يفصَّلْ منه في تلك.

وفي «تناسق الدرر»(٢): وجهُ إيلاء الحواميم السبع لسورة الزمر تواخي المَطالع في الافتتاح بـ «تنزيل الكتاب»، وفي مصحف أُبَيِّ بنِ كعب(٣) أولُ الزمر «حم»، وتلك مناسبةٌ جليَّةٌ. ثم إنَّ الحواميم ترتَّبتْ لاشتراكها في الافتتاح بـ «حم»، وبذكر الكتاب، وأنها مكية، بل ورد عن ابن عباس وجابر بن زيد أنها نزلت عقبَ الزمر متتالياتٍ كترتيبها في المصحف.

وورد في فضلها أخبارٌ كثيرة؛ أخرج أبو عبيد في «فضائله» عن ابن عباس قال: إنَّ لكلِّ شيء لُباباً وإنَّ لُبابَ القرآن الحواميمُ(٤).

وأخرج هو وابن الضُّرَيس وابن المنذر والحاكم والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود قال: الحواميمُ ديباج القرآن(٥).

---

(١) البرهان ١/ ٣١-٣٢.

(٢) ص٧٧.

(٣) في الأصل و(م): وفي مصحف ابن مسعود. والمثبت من تناسق الدرر، ومثله في الإتقان ١/ ٢٠١ نقلاً عن ابن أبي أشتة.

(٤) فضائل القرآن ص١٣٧.

(٥) فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٣٧، ولابن الضريس (٣٢٨)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٤٣٧، وشعب الإيمان (٢٤٧١). وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٤.

وأخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم والديلميُّ عن أنس ﷺ مرفوعاً[١].

وأخرج الديلميُّ وابن مردويه عن سمرةَ بن جندب مرفوعاً: «الحواميمُ روضةٌ من رياض الجنة»[٢].

وأخرج محمد بن نصر والدارميُّ عن سعد بن إبراهيم قال: كُنَّ الحواميمُ يُسَمَّيْنَ العرائسَ[٣].

وأخرج ابن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى أعطاني السبعَ الطوال مكانَ التوراة، وأعطاني الراءات إلى الطواسين مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضَّلني بالحواميم والمفصَّل ما قرأهنَّ نبيٌّ قبلي»[٤].

وأخرج البيهقيُّ في «الشعب» عن الخليل بن مرَّة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الحواميم سبعٌ وأبوابُ جهنم سبعٌ، تجيء كلُّ «حم» منها فتَقِفُ على بابٍ من هذه الأبواب تقول: اللهم لا تُدخِلْ من هذا الباب مَن كان يؤْمِنُ بي ويقرؤني»[٥].

وجاء في خُصوص بعض آياتِ هذه السورة ما يدلُّ على فضله؛ أخرج الترمذيُّ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٣٤٤، وأخرجه أيضاً الثعلبي في تفسيره ٨/ ٢٦١، وفي إسناده عبد القدوس بن حبيب، قال الفلّاس: أجمعوا على ترك حديثه. وقال ابن عدي: أحاديثه منكرة الإسناد والمتن. الميزان ٢/ ٦٤٣.

(٢) مسند الفردوس (٢٨١٦). وذكره ملا علي القاري في الفوائد المجموعة ص٤٩٠ وقال: فيه طلحة بن زيد ويزيد بن محمد الرهاوي منكران.

(٣) مسند الدارمي (٣٤٦٥)، وعزاه لمحمد بن نصر السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٤، وسعد بن إبراهيم تابعي رأى ابن عمر، ثقة كثير الحديث، روى له الجماعة، توفي (١٢٧هـ). تهذيب الكمال ١٠/ ٢٤٠.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ وإسناده ضعيف، كما في فيض القدير ٢/ ٢١٣.

(٥) شعب الإيمان (٢٤٧٩)، والإسناد منقطع كما صرح به البيهقي، والخليل بن مرة الضُّبَعي البصري اختلف فيه، وقال ابن عدي: يكتب حديثه، وقال ابن شاهين: هو عندي إلى الثقة أقرب. توفي سنة (١٦٠هـ). تهذيب التهذيب ١/ ٥٥٥، وتهذيب الكمال ٨/ ٣٤٢-٣٤٥.

والبزَّار ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقيُّ في «الشعب» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حمٓ) إلى: (إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ) وآيةَ الكرسيِّ حينَ يُصبح حُفِظ بهما حتى يُمْسِيَ، ومَن قرأهما حين يُمْسِي حُفِظ بهما حتى يُصبحَ»[١].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١﴾ بتَفْخيم الألف وتسكين الميم، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوانَ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر بالإمالة الصريحة، ونافعٌ برواية ورش وأبو عمرو بالإمالة بين بين[٢].

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بفتح الميم على التحريك لالتقاء الساكنين بالفتحة للخفَّة كما في «أين» و«كيف»[٣]. وجوِّز أن يكونَ ذلك نصباً بإضمارِ «اقرأ» ومُنع مِن الصرف للعَلَمية والتأنيث لأنَّه بمعنى السورة، أو للعَلَمية وشَبَهِ العُجمة لأنَّ «فاعيل» ليس من أوزان أبنية العرب، وإنَّما وُجد ذلك في لغة العجم كقابيل وهابيل، ونقل هذا عن سيبويه[٤].

وفي «الكشف» أنَّ الأَولى أن يعلَّل بالتعريف والتركيب.

وقرأ أبو السَّمَّال: بكسر الميم، على أصلِ التقاء الساكنين كما في «جَيْرِ»[٥]، والزهريُّ برفعها، والظاهرُ أنه إعرابٌ فهو إما مبتدأ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ. والكلام في المراد به كالكلام في نظائره.

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٧٩)، وشعب الإيمان (٢٤٧٤)، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مليكة (أحد رجال الإسناد) من قِبَل حفظه.

(٢) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٥، والبحر ٧/ ٤٤٦.

(٤) الكتاب ٣/ ٢٥٧.

(٥) البحر ٧/ ٤٤٦، قوله: جَيْرِ، قال في اللسان (جير): بمعنى أجل، وبمعنى يمين، وقال سيبويه: حرَّكوه لالتقاء الساكنين، وإلّا فحكمه السكونُ لأنه كالصوت.

ويُجمَعُ على حواميم وحاميمات، أما الثاني فقد أنشد فيه ابن عساكر في «تاريخه»:

هـذا رسـولُ الله فـي الـخـيـرات جـاء بـيـاسـيـنَ وحَـامِـيـمـاتِ[1]

وأما الأول فقد تقدَّم عدَّةُ أخبارٍ فيه، ولا أظنُّ أنَّ أحداً يُنكِرُ صحَّةَ جميعها، أو يزعم أنَّ لفظَ «حواميم» فيها من تحريف الرواة الأعاجم؛ وأيضاً أنشد أبو عبيدة:

حـلـفـتُ بـالـسـبـع الأُلَـى تـطـوَّلَـتْ
وبـمـئـيـنٍ بـعـدَهـا قـد أُمـئـيـت
وبـثـمـانٍ ثُـنِّـيَـتْ وكُـرِّرَت
وبـالـطـواسـيـن الـلـواتـي ثُـلـيـت
وبـالـحـوامـيـم الـلـواتـي سُـبِّـعـت
وبـالـمـفـصَّـل الـتـي قـد فـصِّـلـت[2]

وذهب الجواليقيُّ والحريريُّ وابن الجوزي إلى أنه لا يقال: حواميم[3].

وفي «الصحاح» عن الفراء: إنَّ قولَ العامة: الحواميم، ليس من كلام العرب[4].

وحكى صاحبُ «زاد المسير» عن شيخه أبي منصور اللغويِّ أنَّ مِن الخطأ أن تقول: قرأتُ الحواميم، والصوابُ أن تقول: قرأت آل حم[5].

وفي حديث ابن مسعود: إذا وقعتُ في آل حم فقد وقعتُ في روضاتٍ دَمِثاتٍ أتأنَّقُ فيهنَّ[6]. وعلى هذا قولُ الكُميت بن زيد في «الهاشميات»:

---

(١) تاريخ دمشق ١٦/ ٣٥٠.
(٢) مجاز القرآن ١/ ٧. مع اختلاف في اللفظ.
(٣) درة الغواص للحريري ص٢٠، ونقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٦.
(٤) الصحاح (حمم).
(٥) زاد المسير ٧/ ٢٠٥.
(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٣٧.

وجـدْنـا لـكـم فـي آلِ حـم آيـةً تـأوَّلـهـا مـنَّـا تـقـيٌّ ومُـعْـرِبُ(١)

والطواسين والطواسيم بالميم بدلَ النون كذلك عندهم، وما سمعتَ يكفي في ردِّهم. نعم ما قالوه مسموعٌ مقبولٌ كالذي قلناه، لكن ينبغي أن يُعلم أنَّ «آل» في قولهم: آل حم ـ كما قال الخفاجي ـ ليس بمعنى الآل المشهور وهو الأهل، بل هو لفظٌ يُذكر قبلَ ما لا يصحُّ تثنيتُه وجمعُه من الأسماء المركَّبة ونحوها كـ «تأبَّط شرًّا»، فإذا أرادوا تثنيتَه أو جمعَه ـ وهو جملةٌ لا يتأتَّى فيها ذلك إذ لم يُعهدْ مثلُه في كلام العرب ـ زادوا قبلَه لفظةَ «آل» أو «ذوا» فيقال: جاءني آلُ تأبَّط شرًّا، أو: ذوا تأبط شراً، أي: الرجلان أو الرجال المسمَّون بهذا الاسم، فآل حم بمعنى الحواميم، و«آل» بمعنى «ذو»، والمُرادُ به ما يطلَق عليه ويستعمَلُ فيه هذا اللفظ، وهو مجازٌ عن الصُّحبة المعنوية، وفي كلام الرضيِّ وغيرِه إشارةٌ إلى هذا، إلَّا أنَّهم لم يصرِّحوا بتفسيره فعليك بحفظه.

وحكى في «الكشف» أنَّ الأولى أن يُجمع بذوات حم، أي: دون حواميم أو حاميمات، ومعناه: السوَرُ المصحوباتُ بهذا اللفظ، أعني: حم.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ الكلامُ فيه إعراباً كالكلام في مطلع سورة الزمر، بيدَ أنَّه يجوزُ هنا أن يكونَ «تنزيل» خبراً عن «حم». ولعلَّ تخصيصَ الوصفين لِما في القرآنِ الجليل من الإعجاز وأنواعِ العلوم التي يَضيق عن الإحاطة بها نِطاقُ الأفهام، أو هو على نحوِ تخصيص الوصفين فيما سبق، فإنَّ شأنَ البليغ علمُه بالأشياء أن يكونَ حكيماً إلا أنه قيل: «العليم» دون: الحكيم؛ تفنُّناً.

وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ صفاتٌ للاسم الجليل كالعزيز العليم، وذِكْرُ «غافر الذنب» و«قابل التوب» و«ذي الطَّول» للترغيب، وذكرُ «شديد العقاب» للترهيب، والمجموعُ للحثِّ على المقصود من «تنزيل الكتاب» وهو المذكورُ بعدُ من التوحيد والإيمان بالبعث المستلزم للإيمان بما سواهما والإقبال على الله تعالى، والأوَّلان منها وإن كانا اسمَي فاعلٍ إلَّا أنَّهما لم يُرَدْ بهما التجدُّدُ ولا التقييدُ بزمانٍ، بل أريدَ بهما الثبوتُ والاستمرارُ، فإضافتُهما

(١) ديوان الكميت ص٥٢١، والهاشميات: قصائده التي أنشدها في مدح بني هاشم.

للمعرِفة بعدَهما مَحْضَةٌ أكسبتْهما تعريفاً، فصحَّ أن يوصَفَ بهما أعرفُ المعارف.

والأمر في «ذي الطول» ظاهرٌ جدًّا. نعم الأمرُ في «شديد العقاب» مشكلٌ؛ فإنَّ شديداً صفةٌ مشبَّهةٌ، وقد نصَّ سيبويه على أنَّ كلَّ ما إضافتُه غيرُ محضةٍ إذا أضيف إلى معرفةٍ جاز أن يُنْوَى بإضافته التمحُّضُ فيتعرَّف ويُنْعَت به المعرفةُ إلا ما كان من باب الصفة المشبَّهة فإنَّه لا يتعرَّفُ[١].

ومِن هنا ذهب الزجَّاجُ إلى أنَّ «شديد العقاب» بدلٌ[٢]. ويَرِدُ عليه أنَّ في توسيط البدل بين الصفات تنافراً بيِّناً؛ لأنَّ الوصف يؤذِنُ بأنَّ الموصوفَ مقصودٌ، والبدلُ بخلافه، فيكون بمنزلةِ استئنافِ القصد بعدَ ما جُعل غيرَ مقصود.

والجوابُ أنَّه إنما يشكِلُ ظاهراً على مذهب سيبويه وسائر البصريين القائلين بأنَّ الصفةَ المشبَّهةَ لا تتعرَّفُ أصلاً بالإضافة إلى المعرِفة، وأمَّا على مذهب الكوفيين القائلين بأنَّها كغيرها من الصفات قد تتعرَّفُ بالإضافة، ويجوز وصفُ المعرِفة بها نحوُ: مررتُ بزيد حسنِ الوجه = فلا.

ويقال فيما ذُكر على المذهب الأول: إنَّ «شديداً» مؤوَّلٌ بـ: مُشِدّ[٣]، اسمِ فاعلٍ مِن أَشَدَّه: جعلَه شديداً، كـ: أَذِين بمعنى مُؤْذِن، فيُعطَى حكمَه.

أو يقال: إنَّه معرَّفٌ بـ«أل»، والأصلُ: الشديدِ عقابُه، لكن حُذفت لأَمْنِ اللبس بغير الصفة لوقوعه بين الصفات ـ واحتمالُ كونه بدلاً وحدَه لا يُلتفَتُ على ما سمعتَ إليه ـ ورعايةً لمشاكلةِ ما معه من الأوصاف المجرَّدة منها، والمقدَّرُ في حكم الموجود. وقد غيَّروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل المشاكلةِ حتى قالوا: ما يَعْرِف سُحادِلَيه من عُنادِلَيه[٤]، أرادوا: ما يَعرِفُ ذَكَرَه من أُنْثَيَيْه، فثنَّوا ما هو وِترٌ لأجلِ ما هو شَفْع.

---

(١) الكتاب ١/ ١٩٩-٢٠٠، ونقله المصنف من البحر ٧/ ٤٤٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٦٦.

(٣) في الأصل و(م): مشدد، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٧.

(٤) قال في القاموس (سحدل): السُّحادِل، كعُلابِط: الذَّكَر، وهو لا يَعرِف سُحادِلَيه من عُنادِلَيه، ثُني لمكان عُنادِليه، وهما الخصيتان.

وجوّز كونُ جميع التوابع المذكورات أبدالاً، وتعمُّدُ تنكيرِ «شديد العقاب» وإبهامِه للدلالة على فرط الشدَّة وعلى ما لا شيءَ أدهى منه وأمرُّ لزيادة الإنذار.

وفي «الكشف»: جَعْلُ كلِّها أبدالاً فيه تنافُرٌ عظيمٌ لاسيما في إبدالِ «العزيز» من «الله» الاسم الجامعِ لسائر الصفات العَلَم النصّ، وأين هذا من بَراعة الاستهلال؟

وذهب مكي[١] إلى جوازِ كونِ «غافر الذنب وقابل التوب» دونَ ما قبلهما بدلين، وأنَّهما حينئذٍ نكِرتان. وقد علمتَ ما فيه مما تقدَّم.

وقال أبو حيان: إنَّ بدلَ البداءِ عندَ من أثبَتَه قد يتكرَّر، وأمَّا بدلُ كلٍّ من كلٍّ، وبدلُ بعضٍ من كلٍّ، وبدلُ اشتمالٍ، فلا نصَّ عن أحدٍ من النحويين أعرفه في جواز التكرار فيها أو منْعِه، إلا أنَّ في كلامِ بعض أصحابنا ما يدلُّ على أنَّ البدلَ من البدل جائزٌ، دون تعدُّد البدل واتحاد المبدَل منه[٢].

وظاهرُ كلام الخفاجيِّ أنَّ النحاةَ صرَّحوا بجواز تعدُّده حيثُ قال: لا يرِدُ على القول بالإبدال قلَّةُ البدل في المشتقَّات، ولا أنَّ النكرةَ لا تُبدَل من المعرفة ما لم توصف، ولا أنَّ تعدُّدَ البدل لم يذكره النحاة كما قيل؛ لأنَّ النحاةَ صرَّحوا بخلافه في الجميع، وللدمامينيِّ فيه كلامٌ طويلُ الذيلِ في أول «شرح الخزرجية» لا يسعُه هذا المقامُ فإنْ أردتَه فانظُرْ فيه[٣]. انتهى.

وعندي أنَّ الإبدالَ هنا ليس بشيء كلًّا أو بعضاً.

و«التوب» يحتمِلُ أن يكون مصدراً كالأوب بمعنى الرجوع، ويحتمل أن يكونَ اسمَ جمعٍ لتوبةٍ كتَمْرٍ وتمرةٍ.

و«الطَّول» الفضلُ بالثواب والإنعام، أو بذلك وبترك العقاب المستحَقِّ كما قيل، وهو أولى من تخصيصه بتركِ العقاب وإنْ وقع بعد «شديد العقاب». وكونُ الثواب

---

(١) كما في البحر ٧/ ٤٤٨.

(٢) البحر ٧/ ٤٤٨.

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٧/ ٣٥٧.

موعوداً فصار كالواجب فلا يكون فضلاً = ليس بشيء؛ فإنَّ الوعدَ به ليس بواجب. وفسَّره ابن عباس بالسَّعةِ والغنى، وقتادةُ بالنِّعَم، وابنُ زيد بالقدرة[١].

وتوسيط الواو بين «غافر الذنب وقابل التوب» لإفادة الجمع للمذنِب التائب بين رحمتين: بين أن يقبلَ سبحانه تَوبتَه فيكتبها له طاعةً من الطاعات، وأن يجعلَها مَحَّاءةً للذنب كأنه لم يُذنب، كأنه قيل: جامع المغفرة والقبول. قاله الزمخشريُّ[٢]، ووجْهُه كما في «الكشف» أنَّها صفاتٌ متعاقبةٌ بدون الواو دالَّةٌ على معنى الجمع المطلَق من مجرَّد الإجراء، فإذا خُصَّت بالواو إحدى القرائن دلَّ على أنَّ المرادَ المعتبرُ فيها وفيما تقدَّمها خاصَّةً صوناً لكلامِ البليغ عن الإلغاء، ففي الواو هنا الدلالةُ على أنه سبحانه جامعٌ بين الغفران وقَبول التوب للتائب خاصَّةً، ولا ينافي ذلك أنه عزَّ وجلَّ قد يغفِر لمن لم يَتُبْ.

وما قيل: إن التوسيطَ يدلُّ على أنَّ المعنى كما أخرج أبو الشيخ في «العظمة» عن الحسن: غافرُ الذنب لمن لم يتب، وقابلُ التوب لمن تاب[٣] = فغيرُ مسلَّم.

والتغايُرُ الذي يذكرونه بين موقِع الفعلين وهما غفرانُ الذنب وقبولُ التوبة عنه المقتضِي لكون الغفران بالنسبة إلى قومٍ والقبول بالنسبة إلى آخرين؛ إذ جعلوا موقعَ الأول الذنبَ الباقي في الصحائف من غير مؤاخذةٍ، وموقعَ الثاني الذنبَ الزائل الممحُوَّ عنها = حاصلٌ مع الإجراء، فلا مدخل للواو.

ثم ما ذُكر من الوجه السابق جارٍ على أصلَي أهل السنة والمعتزلة فلا وجهَ لردِّه بما ليس بقادحٍ وإيثارِ ما هو مرجوحٌ. وتقديمُ الغافر على القابل من باب تقديم التخلية على التحلية. فافهم.

وفي القطع بقبول توبة العاصي قولان لأهل السنة؛ وفي «البحر»: الظاهرُ من

---

(١) الأقوال الثلاثة في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٨-٢٧٩.
(٢) في الكشاف ٣/ ٤١٣.
(٣) العظمة ص٩٨.

الآية أنَّ توبةَ العاصي بغير الكفر كتوبة العاصي به مقطوعٌ بقبولها[١].

وفي توحيدِ صفةِ العذاب مغمورةً بصفاته تعالى الدالَّةِ على الرحمة دليلٌ على زيادة الرحمة وسبقها فسبحانه مِن إلهٍ ما أرحمه وأكرمَه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبالُ الكليُّ على طاعته في أوامره ونواهيه ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ فحسبُ، لا إلى غيره تعالى لا استقلالاً ولا اشتراكاً، فيجازي كلًّا مِن المطيع والعاصي. وجملةُ: «لا إله إلا هو» مستأنفةٌ أو حاليةٌ، وقيل: صفةٌ لله تعالى، أو لـ «شديد العقاب».

وفي الآيات مما يقتضي الاتعاظَ ما فيها؛ أخرج عبد بن حميد عن يزيد بن الأصمِّ أنَّ رجلاً كان ذا بأسٍ، وكان من أهل الشام، وأنَّ عمرَ رضي الله عنه فقده فسأل عنه فقيل له: تتايع[٢] في الشراب، فدعا عمرُ كاتبَه فقال له: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلامٌ عليكم، فإنِّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم (حمٓ) إلى قوله تعالى: (إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ) وختم الكتاب، وقال لرسوله: لا تدفعْه إليه حتى تجدَه صاحياً، ثم أمر مَن عندَه بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفةُ جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني ربي أن يغفِرَ لي وحذَّرني عقابَه، فلم يبرحْ يردِّدها على نفسه حتى بكى، ثم نَزَع فأحسن النزوعَ، فلما بلغ عمرَ توبتُه قال: هكذا فافعلوا إذا رأيتم أخاكم قد زلَّ زلَّة فسدِّدوه ووفِّقوه وادعوا الله تعالى أن يتوبَ عليه ولا تكونوا أعواناً للشياطينِ عليه[٣].

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ نزلت على ما قال أبو العالية: في الحارث بن قيس السلميِّ أحدِ المستهزئين[٤]. والمرادُ بالجدالِ الجدالُ بالباطل من الطعن في الآيات والقصدِ إلى إدحاض الحقِّ وإطفاءِ نور الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٤٩.
(٢) في (م): تتابع، بالباء الموحدة، والتتايع بالمثناة: الوقوع في الشر من غير فكرةٍ ولا رَوِيَّة، والمتابعة عليه. النهاية (تيع).
(٣) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٥.
(٤) البحر ٧/ ٤٤٩.

بعدُ: (وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ) فإنَّه مذكورٌ تشبيهاً لحال كفَّارِ مكةَ بكفَّار الأحزاب من قبلُ، وإلَّا فالجِدالُ فيها لإيضاح ملتبِسِها وحلِّ مشكِلها ومقادحةِ أهل العلم في استنباط معانيها وردِّ أهل الزيغ عنها = أعظمُ جهادٍ في سبيل الله تعالى. وفي قوله ﷺ ـ وقد أخرجه عبد بن حميد عن أبي هريرة مرفوعاً ـ: «إنَّ جدالاً في القرآن كفرٌ»(١) إيماءٌ إلى ذلك، حيثُ ذَكَر فيه «جدالاً» منكَّراً للتنويع، فأشْعَر أنَّ نوعاً منه كفرٌ وضلالٌ ونوعاً آخرَ ليس كذلك.

والتحقيقُ كما في «الكشف» أنَّ المجادلةَ في الشيء تقتضِي أن يكونَ ذلك الشيءُ إمَّا مشكوكاً عند المجادِلَينِ أو أحدِهما، أو منكَراً كذلك، وأيًّا ما كان فهو مذمومٌ، اللهمَّ إلَّا إذا كان مِن موحِّدٍ لخارجٍ عن الملَّة، أو مِن محقِّقٍ لزائغٍ إلى البدعة، فهو محمودٌ بالنسبة إلى أحدِ الطرفين.

وأما ما قيل: إنَّ البحثَ فيها لإيضاح المُلْتَبِس ونحوِه جدالٌ عنها، لا فيها، فإنَّ الجدالَ يتعدَّى بـ «عن» إذا كان للمنع والذبِّ عن الشيء، وبـ «في» لخلافه كما ذكره الإمام(٢)، وبالباء أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] = ففيه بحثٌ.

وفي قوله تعالى: (فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ) دونَ: فيه، بالضمير العائد إلى الكتاب دلالةٌ على أنَّ كلَّ آيةٍ منه يكفي كفراً لمجادِله فكيف بِمَن يُنكِره كلَّه ويقول فيه ما يقول؟ وفيه أنَّ كلَّ آيةٍ منه آيةٌ أنَّه مِن الله تعالى الموصوفِ بتلك الصفات فيدلُّ على شدَّة شكيمة المجادِل في الكفر، وأنَّه جادَل في الواضح الذي لا خَفاءَ به.

ومما ذُكر يظهر اتصالُ هذه الآية بما قبلَها، وارتباطُ قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾ بها، أي: إذا علمتَ أنَّ هؤلاء شديدو الشكائم في الكفر قد خسِروا الدنيا والآخرةَ حيثُ جادلوا في آيات الله العزيز العليم وأصرُّوا على ذلك، فلا تلتفِتْ لاستدراجهم بتوْسعةِ الرزق عليهم وإمهالِهم، فإنَّ عاقبتَهم الهلاكُ

(١) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٤٦.
(٢) في التفسير الكبير ٢٧/ ٢٩.

كما فُعِل بِمَن قبلَهم مِن أمثالهم مما أُشيرَ إليه بقوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلخ.

والتقلُّبُ الخروجُ من أرضٍ إلى أخرى. والمرادُ بـ «البلاد» بلادُ الشام واليمن، فإنَّ الآيةَ في كفَّارِ قريشٍ، وهم كانوا يتقلَّبون بالتجارة في هاتيك البلاد، ولهم رحلةُ الشتاء لليمن، ورحلةُ الصيف للشام. ولا بأسَ في إرادةِ ما يعمُّ ذلك وغيرَه.

وقرأ زيد بن عليٍّ وعبيد بن عمير: «فلا يغُرَّك» بالإدغام مفتوحَ الراء[١]، وهي لغةُ تميم، والفكُّ لغةُ الحجازيين.

وبدأ بقوم نوح؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ـ على ما في «البحر» ـ أولُ رسولٍ في الأرض[٢]، أو لأنَّهم أولُ قومٍ كذَّبوا رسولَهم وعتَوا عُتُوًّا شديداً.

﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: والذين تحزَّبوا واجتمعوا على معاداة الرسل عليهم السلام من بعد قوم نوح كعادٍ وثمودَ وقومِ فرعون.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾. وقرأ عبد الله: «برسولها» رعايةً للفظ الأمة[٣].

﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكَّنوا من إيقاع ما يريدون به من حبسٍ وتعذيبٍ وقتلٍ وغيرِه، فالأخذُ كنايةٌ عن التمكُّن المذكور، وبعضُهم فسَّره بالأسْر، وهو قريبٌ مما ذكر.

وقال قتادة: أي: ليقتلوه[٤].

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما لا حقيقةَ له، قيل: هو قولهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

والأَولى أن يقال: هو كلُّ ما يَذكرونه لنفْي الرسالة وتحسينِ ما هم عليه. وتفسيرُه بالشيطان ليس بشيء.

---

(١) البحر ٧/ ٤٤٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير الطبري ٢/ ٢٨١، والبحر المحيط ٧/ ٤٤٩.
(٤) تفسير الصنعاني ٢/ ١٧٨.

﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ ليُزيلوا ﴿بِهِ﴾ أي: بالباطل، وقيل: أي: بجدالهم بالباطل ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ الأمرَ الثابتَ الذي لا محيدَ عنه ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ بالإهلاك المستأصِلِ لهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ فإنَّكم تمرُّون على ديارِهم وترون أثرَه. وهذا تقريرٌ فيه تعجيبٌ للسامعين مما وقعَ بهم، وجوِّز أن يكونَ مِن عدمِ اعتبار هؤلاء. واكتُفي بالكسرة عن ياء الإضافة في «عقاب» لأنه فاصِلةٌ.

واختُلِف في المسبَّب عنه الأخذُ المذكورُ؛ فقيل: مجموع التكذيب، والهمّ بالأخذِ، والجِدال بالباطل.

واختارَ الزمخشريُّ كونَه الهمَّ بالأخذ[1]، قال في «الكشف»: وذلك لأنَّ قولَه تعالى: (وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ) هو التكذيبُ بعينه، والأخذُ يشاكِلُ الأخذَ، وإنَّما التكذيبُ موجِبُ استحقاقِ العذاب الأخرَويِّ المشارِ إليه بعدُ، ولا يُنْكَر أنَّ كلَيهما يقتضِي كلَيهما، لكنْ لَمَّا كان ملاءمةُ الأخذِ للأخذ أتمَّ، والتكذيبُ للعذاب الأخروِيِّ = أظهرَ أنه متعلِّقٌ بالأخذِ تنبيهاً على كمال الملاءمة، ثم المجادلةُ العنادِيةُ ليس الغرضُ منها إلا الإيذاءَ، فهي تؤكِّد الهمَّ من هذا الوجهِ، بل التكذيبُ أيضاً يؤكِّدُه، والغرضُ من تمهيد قوله تعالى: (مَا يُجَٰدِلُ) وذكرِ الأحزاب الإلمامُ بهذا المعنى، ثم التصريحُ بقوله سبحانه: (وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ) يدلُّ على ما اختاره دلالةً بيِّنةً، فلا حاجةَ إلى أن يُعتَذَرَ بأنَّه إنما اعتبرَ هذا ـ لا ما سيق له الكلامُ من المجادلةِ الباطلةِ ـ مزيداً[2] للتسلِّي. انتهى.

والإنصاف أنَّ فيما صنعه جارُ الله رعايةَ جانبِ المعنى ومناسبةً لفظيةً، إلَّا أنَّ الظاهرَ هو التفريعُ على المجموع كما لا يخفى.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: كما وجب حكمه تعالى بالإهلاك على هؤلاء المتحزِّبين على الأنبياء وجب حكمُه سبحانه بالإهلاك على هؤلاء المتحزِّبين عليك أيضاً وهم كفَّارُ قريش.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤١٥.

(٢) كلمة «مزيداً» ليست في (م).

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ أي: لأنَّهم أصحابُ النار، أي: لأنَّ العلَّةَ متَّحدةٌ، وهي أنَّهم كفَّارٌ معاندون مهتمُّون[1] بقتل النبيِّ مِثْلَهم، فوُضِع «أصحاب النار» موضعَ ما ذُكر لأنَّه آخِرُ أوصافهم وشرُّها والدالُّ على الباقي.

و«أنهم» إلخ في حيِّزِ النصب بحذفِ لام التعليل كما أشرْنا إليه، وجوِّز أن يكون في محلِّ رفعٍ على أنه بدلٌ من «كلمة ربك» بدلَ كلٍّ من كلٍّ إنْ أريد بالكلمة قولُه تعالى أو حكمُه سبحانه بأنَّهم من أصحاب النار، وبدلَ اشتمالٍ إن أريد بها الأعمُّ. ويراد بـ «الذين كفروا» أولئك المتحزِّبون، والمعنى: كما وجب إهلاكُهم بالعذاب المستأصِل في الدنيا وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة أيضاً لكُفْرهم.

والوجهُ الأوَّل أظهرُ بالمساق والتعبيرِ بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ، وفسِّرت «كلمة ربك» عليه بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] ونحوه.

وفي مصحف عبد الله: «وكذلك سبقت» وهو على ما قيل: تفسيرُ معنًى لا قراءة[2].

وقرأ ابن هرمز وشيبة وابن القعقاع ونافع وابن عامر: «كلمات» على الجمع[3].

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ وهو جسمٌ عظيمٌ له قوائمُ، الكرسيُّ وما تحته بالنسبة إليه كحلقةٍ في فلاةٍ.

وفي بعض الآثار: خلق الله تعالى العرشَ من جوهرةٍ خضراءَ، وبين القائمتين من قوائمه خَفَقانُ الطير المسرِع ثمانينَ ألف عام[4].

---

(١) في الأصل: مهمون

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٧، والبحر ٧/ ٤٥٠.

(٣) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٦٢ عن نافع وابن عامر وأبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ٤٥٠.

(٤) عرائس المجالس ص١٦، والكشاف ٣/ ٤١٥.

وذكر بعضُهم في سعته أنَّه لو مُسح مقعَّره بجميع مياه الدنيا مسحاً خفيفاً لقصرت عن استيعابه.

ويزعم أهل الهيئة ومَن وافقهم أنه كُريٌّ، وأنه المحدَّد وفلكُ الأفلاك، وأنه كسائر الأفلاك لا يوصَف بثقلٍ ولا خفَّةٍ[(١)]. وليس لهم في ذلك خبرٌ يعوَّلُ عليه، بل الأخبار ظاهرةٌ في خلافه.

والظاهر أنَّ الحمل على حقيقته وحَمَلَتُه ملائكةٌ عظامٌ؛ أخرج أبو يعلى وابن مردويه بسندٍ صحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذن لي أن أُحَدِّثَ عن ملكٍ قد مَرَقَتْ رجلاه الأرضَ السابعة السفلى، والعرشُ على منكبيه، وهو يقول: سبحانك أين كنتَ وأين تكون»[(٢)].

وأخرج أبو داود وجماعةٌ بسندٍ صحيح عن جابر بلفظ: «أُذِن لي أن أحدِّثَ عن ملَكٍ من ملائكة الله تعالى من حَمَلةِ العرش ما بينَ شحْمةِ أُذنه إلى عاتقه مسيرةُ سبع مئة عامٍ»[(٣)].

وهم على ما في بعض الآثار ثمانية؛ أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن هارون بن رياب[(٤)] قال: حَمَلَةُ العرش ثمانيةٌ يتجاوَبون بصوتٍ رخيم، يقول أربعةٌ منهم: سبحانك وبحمدك على حِلْمك بعدَ علمك[(٥)]،

---

(١) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

(٢) مسند أبي يعلى (٦٦١٩)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٦. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٠: رجاله رجال الصحيح. وقوله: مَرَقت، قال في الصحاح (مرق): مرق السهم من الرميَّة: خرج من الجانب الآخر.

(٣) سنن أبي داود (٤٧٢٧)، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٢١٢، وأبو الشيخ في العظمة ص٢١٨، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٤٦). قال ابن كثير: هذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات.

(٤) هارون بن رياب تابعي بصري، أخرج له مسلم وأبو داود والنسائي، وقد تصحف في الأصل و(م) ومطبوع الدر المنثور ٥/ ٣٤٦ إلى رباب، بالباء الموحدة. والخبر في كتاب العظمة ص٢٢٠، وشعب الإيمان ١/ ٣٢٧، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٦.

(٥) في الأصل و(م): عفوك. والمثبت من المصادر.

وأربعةٌ منهم: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك.

وأخرج أبو الشيخ وابن أبي حاتم من طريق أبي قبيل أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: حَمَلَةُ العرش ثمانيةٌ، ما بين موقِ أحدهم إلى مؤخَّر عينيه مسيرةُ خمس مئة عام(١).

وفي بعض الآثار أنهم اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية؛ أخرج أبو الشيخ عن وهب قال: حَمَلةُ العرش أربعةٌ، فإذا كان يومُ القيامة أُيِّدوا بأربعةٍ آخَرين، ملكٌ منهم في صورة إنسانٍ يشفَعُ لبني آدم في أرزاقهم، وملكٌ منهم في صورة نسرٍ يشفع للطير في أرزاقهم، وملكٌ منهم في صورة ثورٍ يشفَعُ للبهائم في أرزاقهم، وملكٌ منهم في صورة أسدٍ يشفَع للسباع في أرزاقهم، فلمَّا حَمَلوا العرشَ وقَعوا على رُكَبِهم من عظمة الله تعالى، فلُقِّنوا: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، فاستوَوا قياماً على أرجُلهم(٢).

وجاء روايةٌ عن وهب أيضاً أنهم يحملون العرش على أكتافهم(٣)، وهو الذي يُشعِر به ظاهرُ خبر أبي هريرة السابق.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن حسان بن عطية قال: حملة العرش ثمانية، أقدامُهم مثبَّتةٌ في الأرض السابعةِ، ورؤوسُهم قد جاوزت السماءَ السابعةَ، وقرونُهم مثلُ طولهم، عليها العرشُ(٤).

وفي بعض الآثار أنهم خُشُوع لا يرفعون طرفهم، وفي بعضها لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارَهم من شُعاع النور(٥).

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٢١٢، والعظمة ص٢١٩، ونقله المصنف من الدر المنثور ٥/ ٣٤٦. وأبو قَبيل: هو حُيَي بن هانئ المصري، من رجال التهذيب.

(٢) العظمة ص٢٢١-٢٢٢، فيه عبد المنعم بن إدريس، قصاص لا يعتمد عليه. لسان الميزان ٥/ ٢٨٠.

(٣) العظمة ص١١٥.

(٤) العظمة ص٢١٩.

(٥) الأثران أخرجهما عبد بن حميد عن ميسرة كما في الدر المنثور ٥/ ٣٤٧.

وهم على ما أخرج ابن أبي شيبة عن أبي أمامة: يتكلَّمون بالفارسية[١]. أي: إذا تكلَّموا بغير التسبيح، وإلَّا فالظاهرُ أنهم يسبِّحون بالعربية، على أنَّ الخبرَ الله تعالى أعلمُ بصحَّته.

وفي بعض الآثار عن وهب أنَّهم ليس لهم كلامٌ إلَّا أن يقولوا: قُدُّوس الله القويُّ، ملأت عظمتُه السماواتِ والأرضَ[٢]. وما سيأتي إن شاء الله تعالى بُعيدَ هذا في الآية يأبى ظاهرَ الحصر.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ أي: والذين مِن حولِ العرش، وهم ملائكةٌ في غاية الكثرة لا يعلم عدَّتَهم إلا اللهُ تعالى.

وقيل: حولَ العرش سبعون ألفَ صفٍّ من الملائكة، يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين، ومن ورائهم سبعون ألفَ صفٍّ قيامٌ، قد وضعوا أيديَهم على عواتقهم، رافعين أصواتَهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مئةُ ألفِ صفٍّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحدٌ إلَّا وهو يسبِّح بما لا يسبِّح به الآخَر[٣].

وذُكِر في كثرتهم أنَّ مخلوقاتِ البرِّ عُشْرُ مخلوقاتِ البحر، والمجموعُ عُشْرُ مخلوقاتِ الجوِّ، والمجموعُ عُشْر ملائكة السماء الدنيا، والمجموعُ عُشْرُ ملائكة السماء الثانية، وهكذا إلى السماء السابعة، والمجموعُ عُشْر ملائكة الكرسيِّ، والمجموعُ عُشْرُ الملائكة الحافِّين بالعرش، ولا نسبةَ بين مجموع المذكور وما يعلمه الله تعالى من جنوده سبحانه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١][٤].

ويقال لحملة العرش والحافِّين به: الكَرُوْبِيُّون، جمعُ: كروبيٍّ، بفتح الكاف وضمِّ الراء المهملة المخفَّفة، وتشديدُها خطأٌ، ثم واو، بعدَها باء موحَّدة، ثم ياءٌ مشدَّدة، من كَرَب بمعنى قَرُب، وقد توقَّف بعضُهم في سماعه من العرب، وأثبته أبو عليٍّ الفارسيُّ واستشهد له بقوله:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «جزء العرش»، كما في الدر ٥/ ٣٤٧.
(٢) العظمة ص١١٥.
(٣) أخرجه أبو الشيخ في كتاب العظمة عن وهب عن كعب ص١٠٢.
(٤) لم نقف عليه.

كَــرُوبــيــة مــنــهــم رُكــوعٌ وسُــجَّــد[١]

وفيه دلالةٌ على المبالغة في القرب؛ لصيغة فَعُول، والياءِ التي تزاد للمبالغة.

وقيل: من الكَرْبِ بمعنى الشدَّة والحُزْن، وكأنَّ وصفَهم بذلك لأنهم أشدُّ الملائكة خوفاً.

وزعم بعضهم أنَّ الكروبيِّين حملةُ العرش، وأنهم أوَّلُ الملائكة وجوداً. ومثلُه لا يُعرف إلَّا بسماع.

وعن البيهقيِّ أنَّهم ملائكةُ العذاب[٢]. وكأنَّ ذلك إطلاقٌ آخرُ من الكرْب بمعنى الشدَّة والحزن.

وقال ابن سينا في «رسالة الملائكة»: الكَروبِيُّون هم العامرون لعَرَصاتِ التِّيْه الأعلى، الواقفون في الموقف الأكرم زمراً، الناظرون إلى المنظر الأبهى نظراً، وهم الملائكة المقرَّبون والأرواحُ المبرَّؤون، وأما الملائكةُ العاملون فهم حَمَلَةُ العرش والكرسيِّ وعُمّارُ السماوات[٣]. انتهى.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ حمْلَ العرشِ مجازٌ عن تدبيره وحفظه مِن أن يَعرِضَ له ما يُخلُّ به أو بشيءٍ من أحواله التي لا يعلمها إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، وجعلوا القرينةَ عقليةً؛ لأنَّ العرشَ كُريٌّ في حيِّزه الطبيعي فلا يحتاج إلى حملٍ. ونُسب ذلك إلى الحكماء وأكثرِ المتكلِّمين، وكذا ذهبوا إلى أنَّ الحفيفَ والطوافَ بالعرش كنايةٌ أو مجازٌ عن القرب من ذي العرش سبحانه ومكانتِهم عنده تعالى وتوسُّطِهم في نفاذِ أمره عزَّ وجلَّ. والحقُّ الحقيقةُ في الموضعين؛ وما ذُكر من القرينة العقلية في حيِّز المنع.

---

(١) عجز بيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوانه ص٤٠، وصدره: ملائكةٌ لا يفْتُرُون عبادَةً.

(٢) شعب الإيمان ١/ ١٧١.

(٣) نقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٩.

وقرأ ابن عباس وفرقةٌ: «العُرْش» بضمِّ العين[(١)]؛ فقيل: هو جمعُ: عَرْش، كسَقْف وسُقف، أو لغةٌ في العرش.

والموصول الأول مبتدأٌ والثاني عطفٌ عليه، والخبرُ قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لتسليةِ رسول الله ﷺ ببيانِ أنَّ الملائكة الذين هم في المحلِّ الأعلى مُثابِرون على ولاية مَن معه من المؤمنين ونُصرتهم واستدعاءِ ما يُسعِدُهم في الدارَين. أي: ينزِّهونه تعالى عن كلِّ ما لا يليق بشأنه الجليل كالجسميَّة وكونِ العرش حاملاً له عزَّ وجلَّ، ملتبِسين بحمده جلَّ شأنه على نعمائه التي لا تتناهى.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إيماناً حقيقيًّا كاملاً، والتصريحُ بذلك مع الغنى عن ذكره رأساً؛ لإظهارِ فضيلة الإيمان، وإبرازِ شرَفِ أهله، والإشعار بعلَّة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطِق به قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فإنَّ المشاركةَ في الإيمان أقوى المناسبات وأتمُّها وأدْعى الدواعي إلى النُّصح والشفقة وإن تخالفَت الأجناسُ وتباعدت الأماكنُ، وفيه على ما قيل: إشعارٌ بأنَّ حَمَلةَ العرش وسكَّانَ الفرش سواءٌ في الإيمان بالغيب إذ لو كان هناك مشاهدةٌ لِلُزومها من الحمل بناءً على العادة الغالبة، أو على أنَّ العرشَ جسمٌ شفَّافٌ لا يمنع الأبصارَ ألبتةَ = لم يقل: «يؤمنون»؛ لأنَّ الإيمان هو التصديقُ القلبيُّ - أعني العلمَ أو ما يقوم مقامه - مع اعترافٍ، وإنَّما يكونُ في الخبر ومضمونِه، من معتقَدٍ علميٍّ أو ظنيٍّ ناشئٍ من البرهان أو قولِ الصادق، كأنه اعترفَ بصدق المخبِر أو البرهان، وأمَّا العيانُ فيُغْني عن البيان، ففي ذلك رمزٌ إلى الردِّ على المجسِّمة، ونظيرُه في ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا تفضِّلوني على ابن متى»[(٢)]، كذا قيل.

وينبغي أن يُعلَم أنَّ كونَ حَمَلةِ العرش لا يَرَوْنه عزَّ وجلَّ بالحاسَّة لا يلزم منه عدمُ رؤية المؤمنين إياه تعالى في الدار الآخرة.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحرر الوجيز ٤/٥٤٨، والبحر ٧/٤٥١، والكلام منه.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ على إرادةِ القول، أي: يقولون: ربَّنا.. إلخ، والجملة لا محلَّ لها من الإعراب على أنها تفسيرٌ لـ «يستغفرون». أو في محلِّ رفعٍ على أنها عطفُ بيانٍ على تلك الجملة بناءً على جوازه في الجمل. أو في محلِّ نصبٍ على الحالية من الضمير في «يستغفرون». وفسِّر استغفارُهم على هذا الوجه بشفاعتهم للمؤمنين وحملِهم على التوبة بما يُفيضون على سرائرهم. وجوِّز أن يكون الاستغفارَ في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] المفسَّرَ بترك معاجلةِ العقاب وإدرارِ الرزق والارتفاق بما خلق من المنافع الجمَّة ونحوِ ذلك، وهو وإن لم يَخُصَّ المؤمنين لكنهم أصلٌ فيه، فتخصيصُهم هنا بالذكر للإشارة إلى ذلك. والأظهرُ كونُ الجملة تفسيراً.

ونصْب «رحمةً وعلماً» على التميز، وهو محوَّلٌ عن الفاعل، والأصلُ: وسعتْ رحمتُك وعلمك كلَّ شيءٍ، وحوِّل إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في وصفه عزَّ وجلَّ بالرحمةِ والعلمِ حيثُ جُعلت ذاتُه سبحانه كأنها عينُ الرحمة والعلم مع التلويح إلى عمومها؛ لأنَّ نسبةَ جميع الأشياءِ إليه تعالى مستويةٌ فتقتضي استواءَها في شمولهما. ووصفه تعالى بكمال الرحمة والعلم كالتمهيد لقوله سبحانه: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ إلخ، وتسبُّبُ المغفرة عن الرحمة ظاهرٌ، وأما تسبُّبها عن العلم فلأنَّ المعنى: فاغفر للذين علمتَ منهم التوبةَ ـ أي: من الذنوب مطلقاً، بناءً على أنه المتبادرُ من الإطلاق ـ واتباعَ سبيلك، وهو سبيلُ الحقِّ التي نهجَها الله تعالى لعباده ودعا إليها الإسلامُ[1]، أي: علمُك الشاملُ المحيط بما خفي وما عَلَنَ يقتَضِي ذلك، وفيه تنبيهٌ على طهارتهم من كُدورات الرياء والهوى، فإنَّ ذلك لا يعلمه إلا اللهُ تعالى وحدَه.

ويتضمَّنُ التمهيدُ المذكورُ الإشارةَ إلى أنَّ الرحمةَ الواسعةَ والعلمَ الشاملَ يقتضيان أن ينالَ هؤلاء الفوزَ العظيم والقسطَ الأعلى من الرضوان، وفيه إيماءٌ إلى معنى:

---

(١) قوله: الإسلام، ليس في الأصل.

إن تغفرِ اللهمَّ تغفرْ جمَّا   وأيُّ عبدٍ لك لا ألمَّا[١]

فإنَّ العبدَ وإن بالغ حقَّ المبالغة في أداء حقوقه تعالى فهو مقصِّر، وإليه الإشارةُ بقوله ﷺ: «ولا أنا، إلَّا أن يتغمَّدَني الله تعالى برحمته»[٢].

وتقديمُ الرحمة لأنها المقصودةُ بالذات هاهنا. وفي تصدير الدعاء بـ «ربنا» من الاستعطاف ما لا يخفى، ولذا كثُر تصديرُ الدعاء به.

وقوله تعالى: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ أي: واحفظهم عنه، تصريحٌ بعد تلويحٍ للتأكيد، فإنَّ الدعاءَ بالمغفرة يستلزم ذلك، وفيه دلالةٌ على شدَّة العذاب.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ أي: وَعَدْتَهم إياها، فالمفعولُ الآخَرُ مقدَّرٌ، والمراد: وعدتَهم دخولَها. وتكريرُ النداء لزيادة الاستعطاف.

وقرأ زيد بن عليٍّ والأعمش: «جنَّةَ عدن» بالإفراد، وكذا في مصحف عبد الله[٣].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ عطفٌ على الضمير المنصوبِ في «أدخلهم»، أي: وأَدْخِلْ معهم هؤلاء ليتمَّ سرورهم ويتضاعفَ ابتهاجُهم.

وجوَّز الفراء والزجَّاج العطفَ على الضمير في «وعدتهم»، أي: وعدتَهم ووعدتَ مَن صلح.. إلخ[٤]. فقيل: المرادُ بذلك الوعدُ العامُّ. وتعقِّب بأنَّه لا يبقى على هذا للعطف وجهٌ، فالمرادُ الوعدُ الخاصُّ بهم بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

والظاهرُ العطفُ على الأول، والدعاءُ بالإدخال فيه صريحٌ، وفي الثاني ضمنيٌّ.

---

(١) الشطر الأول لم يرد في الأصل، والبيت لأمية بن أبي الصلت، أنشده عند موته. وهو في ديوانه ص١١٤. ونسب لأبي خراش الهذلي كما في شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٣٤٦، وقال في خزانة الأدب ٢/ ٢٩٥: هذا خطأ.

(٢) سلف ١/ ٢١١.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥، والقراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٥٢.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥، وللزجاج ٤/ ٣٦٨.

والظاهرُ أنَّ المرادَ بالصلاحِ الصلاحُ المصحِّحُ لدخول الجنة وإن كان دونَ صلاحِ المتبوعين.

وقرأ ابن أبي عبلة: «صلُح» بضمِّ اللام، يقال: صلُح فهو صَليح، وصلَح فهو صالح[1].

وقرأ عيسى: «ذريتَهم» بالإفراد[2].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الغالبُ الذي لا يمتنع عليه مقدورٌ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٨﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمةُ الباهرةُ من الأمور التي من جملتها إدخالُ من طُلب إدخالُهم الجناتِ، فالجملةُ تعليلٌ لِمَا قبلها.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: العقوباتِ على ما روي عن قتادة، وإطلاقُ السيئة على العقوبة لأنَّها سيئة في نفسها. وجوِّز أن يرادَ بها المعنى المشهورُ وهو المعاصي، والكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: وقِهم جزاءَ السيئات. أو تُجُوِّز بالسبب عن المسبَّب. وأيًّاما كان فلا يتكرَّرُ هذا مع: «وقهم عذاب الجحيم»، بل هو تعميمٌ بعد تخصيصٍ لشموله العقوبةَ الدنيويةَ والأخرويةَ مطلقاً، أو الدعاءُ الأول للمتبوعين وهذا للتابعين.

وجوِّز أن يرادَ بـ «السيئات» المعنى المشهورُ بدون تقديرِ مضافٍ ولا تجوُّزٍ، أي: المعاصي، أي: وقهم المعاصيَ في الدنيا، ووقايتُهم منها حفظُهم عن ارتكابِها، وهو دعاءٌ بالحفظ عن سبب العذاب بعد الدعاء بالحفظ عن المسبَّب وهو العذاب. وتعقِّب بأنَّ الأنسبَ على هذا تقديمُ هذا الدعاء على ذاك.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يومَ المؤاخذة ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾، ويقال على الوجه الأخير: ومَن تقِ السيئات يومَ العمل، أي: في الدنيا فقد رحمتَه في الآخرة، وأيِّد هذا الوجهُ بأنَّ المتبادرَ مِن «يومئذ» الدنيا، لأنَّ «إذ» تدلُّ على المُضِيِّ، وفيه منعٌ ظاهرٌ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤١٧، والبحر ٧/ ٤٥٢.
(٢) البحر ٧/ ٤٥٢.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الرحمة المفهومة مِن «رَحِمْتَه»، أو إلى الوقاية المفهومة من فِعْلِها، أو إلى مجموعهما، وأمرُ التذكير على الاحتمالين الأولين وكذا أمر الإفراد على الاحتمال الأخير، ظاهرٌ.

﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ أي: الظفر ﴿ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ الذي لا مطمعَ وراءه لطامع.

هذا، وإلى كونِ المراد بـ «الذين تابوا» الذين تابوا من الذنوب مطلقاً ذهب الزمخشريُّ، وقال في «السيئات» على تقدير حذفِ المضاف: هي الصغائرُ أو الكبائرُ المتوبُ عنها، وذَكر أنَّ الوقايةَ منها التكفيرُ أو قبولُ التوبة، وأنَّ هؤلاء المستغفَرَ لهم تائبون صالحون مثل الملائكة في الطهارة، وأنَّ الاستغفارَ لهم بمنزلة الشفاعة، وفائدتُه زيادةُ الكرامة والثواب فلا يضُرُّ كونهم موعودين المغفرةَ، والله تعالى لا يخلف الميعاد(١).

وتعقِّب بأنه لا فائدةَ في ذكر الرحمة والمبالغةِ فيها إذا كان المغفورُ له مثلَ الملائكة عليهم السلام في الطهارة، وأيُّ حاجةٍ إلى الاستغفار فضلاً عن المبالغة؟ وأنَّ ما قاله في «السيئات» لا يجوز؛ فإنَّ إسقاطَ عقوبة الكبيرة بعدَ التوبة واجبٌ في مذهبه، وما كان فعله واجباً كان طلبُه بالدعاء عبثاً قبيحاً عند المعتزلة، وكذا إسقاطُ عقوبة الصغيرة فلا يحسُن طلبُه بالدعاء، ولا يجوز أن يكونَ ذلك لزيادة منفعةٍ؛ لأنَّ ذلك لا يسمَّى مغفرةً. حكى هذا الطيبيُّ عن الإمام(٢)، ثم قال: فحينئذٍ يجب القولُ بأنَّ المرادَ بالتوبة التوبةُ عن الشرك كما قال الواحديُّ: (فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا) عن الشرك (وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ) أي: دينَك الإسلامَ(٣).

فإن قلت: لو لم يكن التوبةُ من المعاصي مراداً لكان يكفي أن يقولوا: فاغفر للذين آمنوا، ليطابقَ السابقَ؟

قلتُ، والله تعالى أعلم: هو قريبٌ من وضع المظهر موضعَ المضمَر من غيرِ اللفظ السابق، وبيانُه أنَّ قولَه تعالى: (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ

---

(١) الكشاف ٣/ ٤١٧.

(٢) التفسير الكبير ٢٧/ ٣٤.

(٣) الوسيط ٤/ ٥.

﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ الآيةَ جاء مفصولاً عن قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فالآيةُ بيانٌ لكيفية الاستغفار، لا لحالِ المستغفَرِ لهم، ووصفُهم المميَّزُ يعرَفُ بالذوق.

وأما فائدةُ العدول عن المضمَر وأنَّه لم يقل: فاغفر لهم، بل قيل: «للذين تابوا» فهي أنَّ الملائكةَ كما علَّلوا الغفرانَ في حقِّ مُفيضِ الخيرات جلَّ شأنه بالعلمِ الشاملِ والرحمةِ الواسعة علَّلوا قابلَ الفَيض أيضاً بالتوبة عن الشرك واتِّباع سبيل الإسلام.

فإن قلتَ: هذه التوبةُ إنما تصحُّ في حقِّ مَن سَبق شركُه على إسلامه، دونَ مَن وُلد مسلماً ودام عليه.

قلتُ: الآيةُ نازلةٌ في زمن الصحابة وجلُّهم انتقلوا مِن الشرك إلى الإسلام، ولو قيل: فاغفر، لمن لم يُشرك لخَرجوا، فغُلِّب الصحابةُ ﷺ على سَنن جميع الأحكام. انتهى. ولعمري إنَّ للبحث فيه مجالاً أيَّ مجالٍ.

وفي «الكشف»: إنَّما اختارَ الزمخشريُّ ما اختاره على ما قال الواحديُّ من أنَّ التوبةَ عن الشرك؛ لأنَّ التوبةَ عند الإطلاق تنصرِف إلى التوبة من الذنوب مطلقاً، على أنَّ فيه تكراراً إذ ذاك؛ لأنَّ التائبَ عن الشرك هو المسلِمُ، وقد فسَّر متَّبِعُ السبيل في هذا القول به، وإذا شَرط حَمَلةُ العرش ومَن حوله عليهم السلام صلاحَ التابع، وهو الذريةُ، مع ما ورد مِن قوله تعالى: ﴿بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فما بالُ المتبوع؟ وأنت تعلم أنَّ الصلاحَ مِن أخصِّ أوصاف المؤمن، وكفاك دعاءُ إبراهيمَ ويوسفَ عليهما السلام في الإلحاق بالصالحين شاهداً، وأمَّا أنَّهم غيرُ محتاجين إلى الدعاء فجوابُه أنَّه لا يجب أن يكونَ للحاجة، ألا ترى إلى قولنا: اللَّهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمد، وما ورد فيه من الفضائل، والمعلومُ حصولُه منه تعالى، يَحْسُن طلبُه، فإنَّ الدعاءَ في نفسه عبادةٌ ويُوجب للداعي والمدعوِّ له من الشرَف ما لا يتقاعَدُ عن حصولِ أصلِ الثواب.

ثمَّ إنَّ الوقايةَ عن السيئات إن كانَت بمعنى التكفير وقع الكلامُ في أنَّ السيئاتِ المكفَّرةَ ما هي؟ ولا خفاءَ أنَّ النصوصَ دالَّةٌ على تكفير التوبة للسيئات كلِّها، وأنَّ الصغائر مكفَّرات ما اجتُنِبَت الكبائرُ، فلا بدَّ من تخصيصها به كما ذُكر.

وإن كان معناها أن يُعفى عنها ولا يُؤَاخذ بها كما هو قولُ الواحدي ومختارُ الإمام[١] ومَن ائتمَّ به، فينبغي أن يُنظر أنَّ الوقاية في أيِّ المعنيَيْنِ أظهرُ، وأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ وما يفيده من المبالغة على نحو: من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك[٢]، وتعقيبُه بقوله سبحانه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ في شأن المقصِّرين أظهرُ أو شأن المكفَّرين.

ومن هذا التقرير قد لاح أنَّ هذا الوجهَ ظاهرُ هذا السياق، وأنَّه يوافِق أصلَ الفريقينِ، وليس فيه أنَّه سبحانه يعفو عن الكبائر بلا توبةٍ أو لا يعفو، فلا ينافي جوازَه من أدلةٍ أُخرى، إلى آخر ما قال، وهو كلامٌ حَسَنٌ وإن كان في بعضه ـ كحديثِ التكرار، وكونِ الصلاح في الآية ما هو مِن أخصِّ أوصافِ المؤمن ـ نوعُ مناقشةٍ، وقد يرجِّح كونُ المراد بالتوبة التوبةَ من الذنوب مطلقاً دونَ التوبة عن الشرك فقط بأنَّ المتبادِرَ من «وقِهِم عذابَ الجحيم»: وَقِ كلَّ واحدٍ منهم ذلك، ومن المعلوم أنه لا بدَّ من نفوذ الوعيد في طائفة من المؤمنين العاصين وتعذيبِهم في النار، فيكونُ الدعاءُ بحفظِ كلٍّ من المؤمنين من العذاب محرَّماً.

وقد نصُّوا على حرمةِ أن يقال: اللَّهمَّ اغفر لجميع المؤمنين جميعَ ذنوبهم، لذلك، ولا يلزمُ ذلك على كون الدعاء للتائبين الصالحين.

وحملُ الإضافة على العهد بأن يرادَ بـ «عذاب الجحيم» ما كان على سبيل الخلود لا يخفى حالُه.

والاعتراضُ بلزوم الدعاء بمعلوم الحصول على كون المراد بالتوبة ذلك بخلاف ما إذا أُريد بها التوبةُ عن الشرك فإنَّه لا يلزم ذلك، إذ المعنى عليه: فاغفر للذين تابوا عن الشرك ذنوبَهم التي لم يتوبوا عنها، وغفرانُ تلك الذنوب غيرُ معلوم الحصول = قد عُلم جوابُه مما في «الكشف»، على أنَّ في كون الغفران للتائب معلومَ الحصول خلافاً أشرنا إليه أولَ السورة.

نعم، هذا اللزومُ ظاهرٌ في قولهم: «وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم»،

---

(١) الوسيط ٤/ ٥، والتفسير الكبير ٢٧/ ٣٤.

(٢) ينظر ما سلف ١٠/ ١٠٦.

ونظيرُ ذلك ما ورد في الدعاء إثْرَ الأذان: «وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته»(١). وقد أجيب عن ذلك بغيرِ ما أشير إليه أيضاً وهو أنَّ سبقَ الوعد لا يستدعي حصولَ الموعود بلا توسُّطِ دعاءٍ.

وبالجملة لا بأسَ بحملِ التوبة على التوبة من الذنوب مطلقاً، ولا يلزم من القولِ به القولُ بشيء من أصول المعتزلة، فتأمَّل وأنصف.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شروعٌ في بيانِ أحوال الكفَّار بعدَ دخول النار ﴿يُنَادَوْنَ﴾ وهم في النار، وقد مقَتوا أنفسَهم الأمَّارة بالسوء، التي وقعوا فيما وقعوا باتِّباع هواها، حتى أكلوا أناملَهم من المقت كما أخرج ذلك عبد بن حميد عن الحسن(٢).

وفي بعض الآثار أنَّهم يمقُتون أنفسَهم حين يقول لهم الشيطان: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾(٣) [إبراهيم: ٢٢].

وقيل: يمقُتونها حين يعلمون أنهم من أصحابِ النار(٤).

والمنادي الخزنةُ أو المؤمنون، يقولون لهم إعظاماً لحسرتهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وهذا معمولٌ للنداء لتضمُّنِه معنى القول، كأنه قيل: ينادَون مقولاً لهم: لمَقْتُ.. إلخ، أو معمولٌ لقولٍ مقدَّرٍ بفاء التفسير، أي: ينادَون فيقال لهم: لمَقْتُ.. إلخ. وجَعْلُه معمولاً للنداء على حذف الجارِّ وإيصال الفعل بالجملة ليس بشيء.

و«مَقْت» مصدرٌ مضافٌ إلى الاسم الجليل إضافةَ المصدر لفاعله، وكذا إضافةُ المَقْت الثاني إلى ضمير الخطاب.

وفي الكلام تنازُعٌ، أو حذفُ معمولِ الأول من غير تنازُعٍ، أي: لمقتُ الله إيَّاكم أو أنفسَكم أكبرُ من مقتكم أنفسَكم. واللام للابتداء أو للقَسَم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١٧)، والبخاري (٦١٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٧.
(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣١-٦٣٢ عن محمد بن كعب القرظي، ونقله المصنف من البحر ٧/ ٤٥٣.
(٤) النكت والعيون ٥/ ١٤٥.

والمقتُ: أشدُّ البغض؛ والخلَفُ يؤوِّلونه مسنَداً إليه تعالى بأشدِّ الإنكار.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي: إذ يدعوكم الأنبياء ونوَّابُهم ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ فتأبَون قبولَه ﴿فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾ وهذا تعليلٌ للحكم أو للمحكوم به، ف «إذ» متعلقةٌ ب «أكبر»، وكأنَّ التعبير بالمضارع للإشارة إلى الاستمرار التجدُّديِّ، كأنه قيل: لمقتُ الله تعالى أنفسَكم أكبرُ من مقتكم إياها، لأنّكم دُعيتم مرَّةً بعدَ مرَّةٍ إلى الإيمان فتكرَّرَ منكم الكفر. وزمان المقتَينِ واحدٌ على ما هو المتبادِرُ، وهو زمانُ مقتِهم أنفسَهم الذي حكيناه آنفاً.

ويجوزُ أن يكون تعليلاً لمقتهم أنفسهم، و«إذ» متعلقة ب «مقت» الثاني، فهم مقَتوا أنفسَهم لأنَّهم دُعُوا مِراراً إلى الإيمان فكَفروا، والتعبيرُ بالمضارع كما في الوجْهِ السابق، وزمانُ المقتَين كذلك، والعلة في الحقيقة إصرارُهم على الكفر مع تكرُّرِ دعائهم إلى الإيمان.

وجوِّز أن يكونَ تعليلاً «لمقت الله»، و«إذ» متعلِّقةٌ به، ويُعلم مما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما عليه وما له.

وظاهر صنيع جماعةٍ من الأجلَّة اختيارُ كونِ «إذ» ظرفيةً لا تعليليةً، فقيل: هي ظرفٌ ل «مقت» الأول، والمعنى: لمقتُ الله تعالى أنفسَكم في الدنيا إذ تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون أشدُّ من مقتكم إياها اليومَ وأنتم في النار، أو: وأنتم متحقِّقُون أنكم من أصحابها، فزمانُ المقْتَينِ مختلِفٌ، وكونُ زمانِ الأول الدنيا وزمانِ الثاني الآخرةَ مرويٌّ عن الحسن؛ وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد[١]. واعترَض عليه غيرُ واحدٍ بلزوم الفصل بين المصدر وما في صلته بأجنبيٍّ هو الخبرُ، وفي «أمالي ابن الحاجب»: لا بأسَ بذلك؛ لأنَّ الظروفَ متَّسَعٌ فيها[٢].

وقيل: هي ظرفٌ لمصدرٍ آخرَ يدلُّ عليه الأول، أو لفعلٍ يدلُّ عليه ذلك، كما في «البحر»[٣].

---

(١) عزاه لهما السيوطي في الدر ٥/ ٣٤٧.

(٢) أمالي ابن الحاجب ١/ ١٤١.

(٣) ٧/ ٤٥٣.

وفي «الكشف»: فيه أنَّ المقدَّرَ لا بدَّ له من خبرٍ آتٍ[1] إن استقلَّ ويتَّسِع الخرق، وإن جُعل بدلاً فحذفُه وإعمالُ المصدرِ المحذوف لا يتقاعَدُ عن الفصل بالخبر وليس أجنبيًّا من كلِّ وجهٍ.

وتقديرُ الفعل، أي: مقَتَكم الله إذ تدعون، أبعدُ وأبعدُ.

وقيل: هي ظرفٌ لـ «مقت» الثاني.

واعتُرض بأنهم لم يمقتوا أنفسَهم وقتَ الدعوة، بل في القيامة.

وأجيب بأنَّ الكلامَ على هذا الوجه من قبيلِ قول الأمير كرَّم الله تعالى وجهه: إنما أُكِلْتُ يومَ أُكِلَ الثورُ الأحمر[2]. وقولِ عَمرو بن عُدَس التميميِّ لمطلَّقته دَخْتَنوس بنتِ لقيط وقد سألته لبناً وكانت مُقفِرةً من الزاد: الصيفَ ضيَّعْتِ اللبنَ[3]. وذلك بأن يكون مجازاً بتنزيل وقوع السبب وهو كفرُهم وقتَ الدعوة منزلةَ وقوع المسبَّب وهو مقتُهم لأنفسهم حينَ معاينتِهم ما حلَّ بهم بسببه.

وقيل: إنَّ المرادَ عليه: إذ تبيَّن أنكم دُعيتم إلى الإيمان المنجِي والحقِّ الحقيقِ بالقبول فأبَيْتم. أو أنَّ المرادَ بأنفسهم جنسُهم من المؤمنين فإنهم كانوا يمقُتون المؤمنين في الدنيا إذ يدعون إلى الإيمان، وهو أبعدُ التأويلات.

وقال مكي: «إذ» معمولةٌ لـ «اذكروا» مضمَراً[4]، والمرادُ التحسير[5] والتنديمُ. واستحسنه بعضُهم، وأراه خلافَ المتبادِر.

---

(١) في (م): جزاآت.

(٢) أراد علي ﷺ أن أمره وَهِنَ يومَ قتل عثمان ﷺ. وفي المثل قصة، ينظر مجمع الأمثال ١/ ٢٥، والمستقصى ١/ ٤١٧.

(٣) يضرب هذا المثل للرجل يضيع الأمر، ثم يطلبه بعد فواته. وأصله أن عمرو بن عمرو بن عدس كانت تحته دختنوس بنت لقيط بن زرارة، وكان مسنًّا ولكنه متموِّل، فسألته الطلاق فطلقها، فتزوجت عمرو بن معبد بن زرارة وكان شابًّا فقيراً، فلما أجدبوا أرسلت إلى عمرو تستقيه لبناً، فقال: الصيفَ ضيعْتِ اللبن. يعني أن سؤالكِ الطلاق كان في الصيف فيومئذٍ ضيَّعْتِ اللبن. المستقصى ١/ ٣٢٩، وجمهرة الأمثال ١/ ٥٧٥، وحاشية الشهاب ٧/ ٣٦١.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٣٤.

(٥) وقع في (م): التحير، وهو تحريف.

وادَّعى صاحبُ «الكشف» أنَّ فيه تنافراً بَيِّناً، وعلَّله بما لم يظهر لي وجهُه. فتأمَّل.

وتفسيرُ: «مَقْتكم أنفسَكم» بمقتِ كلِّ واحدٍ نفسَه هو الظاهر، وجُوِّز أن يرادَ به مقتُ بعضِهم بعضاً، فقيل: إنَّ الأتباعَ يمقُتون الرؤساءَ لِمَا ورَّطوهم فيه من الكفر، والرؤساءُ يمقُتون الأتْباعَ لِمَا أنهم اتَّبعوهم فحملوا أوزاراً مثلَ أوزارِهم. فلا تغفل.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ صفتانِ لمصدرَي الفعلين، والتقديرُ: أمتَّنا إماتَتَيْنِ اثنتين وأحييتَنا إحياءَتَيْنِ اثنتين.

وجوِّز كونُ المصدرَيْنِ موتتَيْنِ وحياتَيْنِ، وهما إمَّا مصدران للفعلين المذكورين أيضاً بحذف الزوائد، أو مصدران لفعلَيْن آخرَيْن يدلُّ عليهما المذكوران، فإنَّ الإماتة والإحياءَ ينبئان عن الموت والحياة حتماً، فكأنَّه: أمتَّنا فمُتْنا موتَتَيْنِ اثنتين وأحييتَنا فحَيِينا حياتَيْنِ اثنتين، على طرز قوله:

وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مروان لم يَدَعْ   من المال إلَّا مُسْحَتٌ أو مجلَّفُ(١)

أي: لم يَدَعْ فلم يبق إلَّا مُسْحَتٌ.. إلخ.

واختُلِف في المراد بذلك فقيل: أرادوا بالإماتة الأولى خلْقَهم أمواتاً، وبالثانية إماتتَهم عند انقضاءِ آجالهم، وبالإحياءَةِ الأولى إحياءتَهم بنفخ الروح فيهم وهم في الأرحام، وبالثانية إحياءتَهم بإعادةِ أرواحهم إلى أبدانهم للبعث؛ وأخرج هذا ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس(٢). وجماعة منهم الحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود(٣). وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة(٤).

ورُوي أيضاً عن الضحَّاك وأبي مالك، وجعلوا ذلك نظيرَ آية «البقرة»: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

---

(١) البيت للفرزدق، وقد سلف ٣/ ٣٧٠ و١٣/ ٩٢.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٩١، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٤٧.
(٣) مستدرك الحاكم ٢/ ٤٣٧ والأثر عند الطبري في تفسيره ٢٠/ ٢٩١، والطبراني في المعجم الكبير (٩٠٤٤).
(٤) عزاه لهما السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٨.

والإماتة إن كانت حقيقةً في جَعْلِ الشيء عادمَ الحياة سُبِقَ بحياةٍ أم لا، فالأمرُ ظاهرٌ، وإن كانت حقيقةً في تصيير الحياة معدومةً بعدَ أن كانت موجودةً كما هو ظاهرُ كلامهم حيثُ قالوا: إنَّ صيغةَ الإفعال وصيغةَ التفعيل موضوعتَان للتصيير، أي: النقلِ من حالٍ إلى حالٍ، ففي إطلاقها على ما عُدَّ إماتةً أُولى خفاءٌ؛ لاقتضاء ذلك سبقَ الحياةِ، ولا سبق فيما ذُكر.

ووُجِّه بأنَّ ذلك من باب المجاز، كما قرَّروه في: ضَيِّقْ فمَ الرَّكِيَّةِ ووَسِّعْ أسفلَها، قالوا: إنَّ الصانعَ إذا اختارَ أحدَ الجائزَيْنِ وهو متمكِّنٌ منهما على السواء، فقد صَرَف المصنوعَ الجائزَ عن الآخر، فجُعِل صرفُه عنه كنَقْلِه منه، يعني أنه تجوّز بالإفعال أو التفعيل الدالِّ على التصيير ـ وهو النقلُ من حالٍ إلى حالٍ أخرى ـ عن لازمه، وهو الصرفُ عمَّا في حيِّز الإمكان، ويتْبَعُه جعلُ الممكن الذي تَجُوز إرادتُه بمنزلة الواقع، وكذا جعلُ الأمر في: ضيِّقْ فمَ الرَّكِيَّةِ مثلاً، بإنشائه على الحالِ الثانية بمنزلةِ أمره بنقله[1] عن غيرها، ولذا جعله بعضُ الأجلَّة بمنزلةِ الاستعارة بالكناية، فيكون مجازاً مرسلاً مستتبِعاً للاستعارة بالكناية، فالمرادُ بالإماتة هناك الصرفُ لا النقل.

وذكر بعضُهم أنَّه لا بدَّ من القول بعموم المجاز لئلا يلزم الجمعُ بين الحقيقة والمجاز في الآية، أو استعمالُ المشتَرَك في معنيَيْه بناءً على زعمِ أنَّ الصيغةَ مشتَركةٌ بين الصرف والنقل، ومَن أجاز ما ذُكر لم يحتَجْ للقول بذلك.

وفي «الكشف»: آثَرَ جارُ الله أنَّ إحدى الإماتتَيْن ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وإطلاقُها عليه من باب المجاز، وهو مجازٌ مستعمَلٌ في القرآن، وقد ذَكر وجْهَ التجوُّز، وتحقيقُ ذلك يبتَني على حرفٍ واحدٍ، وهو أنَّ الإحياءَ معناه جعلُ الشيء حيًّا، فالمادَّةُ الترابيةُ أو النُّطْفيَّةُ إذا أُفيضت عليها الحياةُ صَدَق أنها صارتْ ذاتَ حياةٍ على الحقيقة؛ إذ لا يحتاجُ إلى

---

(١) وقع في الأصل: ينقله، بصيغة المضارع، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٣٦٢، والكلام منه.

سبْق موتٍ على الحقيقة، بل إلى سبق عدمِ الحياة، فهناك إحياءٌ حقيقةً، وأما الإماتةُ فإن جُعل بين الموت والحياة التقابلُ المشهوريُّ استدعَى المسبوقيةَ بالحياة، فلا تصحُّ الإماتةُ قبلَها حقيقةً، وإن جُعل التقابلُ الحقيقيُّ صحَّت، لكنَّ الظاهرَ في الاستعمال بحسب عرفَي العربِ والعجم أنه مشهوريٌّ. انتهى.

وأراد بالمشهوريِّ والحقيقيِّ ما ذَكَروه في التقابل بالعدم والمَلَكَة، فإنَّهم قالوا: المتقابلان بالعدم والمَلَكَة وهما أمران يكون أحدُهما وجوديًّا والآخرُ عدمَ ذلك الوجوديِّ في موضوعٍ قابلٍ له إن اعتُبِر قبولُه بحسب شخْصِه في وقتِ اتصافه بالأمر العدميِّ فهو العدمُ والمَلَكَةُ المشهوران، كالكَوسجيَّة فإنَّها عدمُ اللحية عمَّا مِن شأنِه في ذلك الوقت أن يكون ملتحياً، فإنَّ الصبيَّ لا يقال له: كَوسج، وإن اعتُبر قبولُه أعمَّ من ذلك بأن لا يقيّد بذلك الوقت كعدم اللحية عن الطفل، أو يُعتبرَ قبولُه بحسب نوعِه كالعَمَى للأكمهِ، أو جنسِه القريب كالعَمَى للعقرب، أو البعيدِ كعدم الحركة الإرادية عن الجبل، فإنَّ جنسَه البعيد - أعني الجسمَ الذي هو فوقَ الجماد - قابلٌ للحركة الإرادية فهو العدمُ والمَلَكَة الحقيقيَّان، لكن في بناءِ اقتضاء المسبوقية بالحياة وعدمه على ذلك خفاءٌ وإن ضُمَّ إليه التعبيرُ بصيغة الماضي كما لا يخفى على المتدبِّر.

ثم وجهُ تسبُّبِ الإماتة مرَّتين والإحياء كذلك لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أنَّهم قد أنكروا البعثَ فكفروا، وتَبِع ذلك من الذنوب ما لا يُحْصى؛ لأنَّ مَن لم يخشَ العاقبةَ تخرَّقَ في المعاصي، فلمَّا رأوا الإماتةَ والإحياءَ قد تكرَّر عليهم علموا بأن الله تعالى قادرٌ على الإعادة قدرتَه على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تَبِعه من معاصيهم.

وقال السديُّ: أرادوا بالإماتة الأولى إماتتَهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحياءةِ الأولى إحياءتَهم في القبر للسؤال، وبالإماتةِ الثانية إماتتَهم بعدَ هذه الإحياءة إلى قيام الساعة، وبالإحياءة الثانية إحياءتَهم للبعث[١].

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٩٢.

واعتُرض عليه بأنه يلزم هذا القائلَ ثلاثُ إحياءاتٍ، فكان ينبغي أن يكون المُنزلُ: أحييتَنا ثلاثاً، فإن ادُّعِيَ عدمُ الاعتداد بالإحياءةِ المعروفة وهي التي كانت في الدنيا؛ لسرعة انصرامِها وانقطاعِ آثارها وأحكامِها، لزِمَه أن لا يعتَدَّ بالإماتة بعدَها.

وقال بعضُ المحققِّين في الانتصار له: إن مرادَ الكفَّار مِن هذا القول اعترافُهم بما كانوا يُنكرُونه في الدنيا ويكذبون الأنبياءَ حين كانوا يدعُونهم إلى الإيمان بالله تعالى واليومِ الآخر؛ لأنَّ قولَهم هذا كالجواب عن النداء في قوله تعالى: (يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ)، كأنَّهم أجابوا: إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعَوْنا، وكنَّا نعتقِد أن لا حياةَ بعد الموت، فالآنَ نعترفُ بالموتين والحياتين لِما قاسَيْنا من شدائدِهما وأحوالهما. فالذنبُ المعتَرَفُ به تكذيبُ البعث، ولهذا جُعل مرتَّباً على القول، وإنما ذَكروا الإماتَتَيْن ليذكروا الإحياءَيْن، إذ كلتا الحياتين كانتا منكَرَتين عندهم دون الحياة المعروفة، ومقامُ هذه الآية غيرُ مقام قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فإنَّ هذه كما سمعتَ لبيان الإقرار والاعترافِ منهم في الآخرة بما أنكروه في الدنيا، وتلك لبيانِ الامتنان الذي يستدعي شكرَ المنعم، أو لبيانِ الدلائل لتصرُّفهم عن الكفر. ويرجِّح هذا القولَ أنَّ أمرَ إطلاقِ الإماتة على كلتا الإماتتين ظاهرٌ.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه لا قرينةَ في اللفظ تدلُّ على خروج الإحياء الأوَّلِ، مع أنَّ الإطلاقَ عليه أظهرُ، والمقابلةُ تُنادِي على دخوله. ويكفي في الاعترافِ إثباتُ إحياءٍ واحدٍ منهما غير الأول.

وقيل: إنما قالوا: «أحييتنا اثنتين» لأنَّهما نوعان: إحياءُ البعث وإحياءٌ قبلَه، ثم إحياء البعث قسمان: إحياءٌ في القبر وإحياءٌ عند القيام، ولم يُذكر تقسيمُه لأنَّهم كانوا منكِرين لقسمَيه.

وتعقِّب بأنَّ ذكرَ الإماتةِ الثانية التي في القبر دليلٌ على أنَّ التقسيمَ ملحوظٌ، والمرادُ التعدُّدُ الشخصيُّ لا النوعيُّ، نعم هذا يصلُح تأييداً لِمَا اختارَه جارُ الله، وروي عن جمعٍ من السلف، مِن أنَّ الإحياءات وإن كانت ثلاثاً إنما سكت عن

الثانية؛ لأنَّها داخلةٌ في إحياءةِ البعث. قاله صاحبُ «الكشف»، ثم قال: وعلى هذا فالإماتةُ على مختارِ جار الله إماتةٌ قبلَ الحياة وإماتةٌ بعدَها، وطُوِيت إماتةُ القبر كما طُوِيت إحياءتُه، ولكَ أن تقول: إنَّ الإماتةَ نوعٌ واحدٌ بخلافِ الإحياء، فرُوعيَ التعدُّد فيها شخصاً بخلافه، وذكر الإماتة الثانية لأنَّها منكَرة عندهم كالحياتين ويجب الاعترافُ بها، لا للدلالة على أنَّ التعدُّدَ في الإحياء شخصيٌّ، والحقُّ أنَّ ذلك وجهٌ، لكنَّ قولَه تعالى: «اثنتين» ظاهرٌ في المرَّة، فلذا آثر مَن آثر الوجهَ الأول ـ وإن كانت الإماتةُ فيه غيرَ ظاهرةٍ ـ ذهاباً إلى أنَّ ذلك مجازٌ مستعمَل في القرآن، فتأمَّل.

وقال الإمام: إنَّ أكثرَ العلماء احتجُّوا بهذه الآية في إثبات عذاب القبر، وذلك أنَّهم أثبتوا لأنفسِهم موتتَيْن، فإحدى الموتتَيْن مشاهَدٌ في الدنيا، فلا بدَّ من إثبات حياةٍ أُخرى في القبر حتى يصيرَ الموتُ الذي عقيبَها موتاً ثانياً، وذلك يدلُّ على حصول حياةٍ في القبر(١). وأطال الكلامَ في تحقيق ذلك والانتصارِ له، والمنصِف يرى أنَّ عذاب القبر ثابتٌ بالأحاديث الصحيحة دونَ هذه الآية لقيام الوجه المرويِّ عمَّن سمعتَ أولاً فيها، وقد قيل: إنه الوجه، لكنِّي أظنُّ أنَّ اختيارَ الزمخشريِّ له لدسيسةٍ اعتزالية.

وقال ابنُ زيد في الآية: أريد إحياؤُهم نَسَماً عند أخذ العهدِ عليهم من صُلْب آدم، ثم إماتتُهم بعدُ، ثم إحياؤُهم في الدنيا، ثم إماتتُهم، ثم إحياؤُهم(٢).

وهذا صريحٌ في أنَّ الإحياءاتِ ثلاثٌ، وقد أطلَقَ فيه الإحياءَ الثالثَ، والأغلبُ على الظنِّ أنه عنَى به إحياءَ البعث.

وقيل: التثنيةُ في كلامهم مثلُها في قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] مرادٌ بها التكريرُ والتكثير، فكأنهم قالوا: أمتَّنا مرةً بعد مرة، وأحييتَنا مرةً بعد مرة، فعلِمْنا عظيمَ قُدرتك، وأنَّه لا يتعاصاها الإعادةُ كما لا يتعاصاها غيرُها، فاعترفْنا

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٣٩.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٤٦.

بذنوبنا التي اقترفناها من إنكار ذلك، وحينئذٍ فلا عليك أن تعتبرَ الموتَ في صلب آدم، ثم الإحياءَ لأخذِ العهد، ثم الإماتةَ، ثم الإحياءَ بنفخ الروح في الأرحام، ثم الإماتةَ عند انقضاء الأجل في الدنيا، ثم الإحياءَ في القبر للسؤال أو لغيره، ثم الإماتةَ فيه، ثم الإحياءَ للبعث.

ولا يخفى أنَّه على ما فيه إنَّما يتمُّ لو كان المقول: أمتَّنا إماتتين أو كرَّتين، وأحييتَنا إحياءتَين أو كرَّتين، مثلاً، دونَ ما في المنزَّل، فإنَّ «اثنتين» فيه وصفٌ لإماتتين ولإحياءتين، وهو دافعٌ لاحتمال إرادةِ التكثير كما قيل في ﴿إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النحل: ٥١]، وبناءُ الأمر على أنَّ العددَ لا مفهومَ له لا يخلو عن بحث.

ومن غرائب ما قيل في ذلك ما روي عن محمد بن كعب: إنَّ الكافرَ في الدنيا حيُّ الجسد ميِّتُ القلب فاعتُبرت الحالتان، فهناك إماتةٌ وإحياءٌ للقلب والجسدِ في الدنيا، ثم إماتتُهم عند انقضاء الآجال، ثم إحياؤُهم للبعث. ومثلُ هذا يُحكى ليُطَّلعَ على حاله.

﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ﴾ أي: إلى نوعِ خروجٍ من النار، أي: فهل إلى خروجٍ سريعٍ أو بطيءٍ، أو من مكانٍ منها إلى آخر، أو إلى الدنيا، أو غيرها، ﴿مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ طريقٍ من الطرُق فنسلكَه. ومثلُ هذا التركيب يستعمَل عند اليأس، وليس المقصودُ به الاستفهامَ، وإنَّما قالوه من فرط قنوطهم تعلُّلاً أو تحيُّراً، ولذلك أُجيبوا بذكرِ ما أوقَعَهم في الهلاك وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾ إلخ، من غير جوابٍ عن الخروج نفياً أو إثباتاً. ولو[1] كان الاستفهامُ على ظاهره، والمراد طلبُ الخروج نظيرَ: ﴿أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧] ونحوِه = لقيل: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أو نحو ذلك. كذا قيل.

وجوَّز أن يكونوا طلبوا الرجعةَ ليعمَلوا بموجَب ذلك الاعتراف لكن مع استبعادٍ لها واستشعارِ يأسٍ منها، والجوابُ إقناطٌ لهم ببيانِ أنَّهم كانُوا مستمرِّينَ على

---

(١) في الأصل و(م): وإن، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٣٦٣، وهو الجادة؛ لكون جوابه جاء مقترناً باللام.

الشركِ فجُوْزوا باستمرار العقاب والخلود في النار كما يقتضيه حكمُه تعالى، وذلك جوابٌ بنفي السبيل إلى الخروج على أبلغ وجهٍ.

ولا أرى في هذا الوجه بأساً، ويوشك أن يكون المتبادرَ، والمعنى: ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ أي: بسببِ أنَّ الشأنَ ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: عُبِد سبحانه في الدنيا ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أي: متَّحِداً منفرداً، فهو نصبٌ على الحالِ مؤوَّل بمشتقٍّ منكَّر، أو: يوحَّدُ وحدَه؛ على أنه مفعولٌ مطلَقٌ لفعل مقدَّرٍ على حدِّ: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] والجملة بتمامها حالٌ أيضاً، حُذفت وأقيم المصدرُ مقامَها، وفيه كلامٌ آخر(١) مفصَّلٌ في الوفدة وقد تقدَّم بعضُه. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده تعالى، أي: جحدتم وأنكرتم ذلك.

﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ بالإشراك، أي: تذعِنُوا وَتقرُّوا به، وفي إيراد «إذا» وصيغةِ الماضي في الشرطية الأولى؛ و«إن» وصيغةِ المضارع في الثانية، ما لا يخفى من الدلالة على سوء حالهم، وحيث كان كذلك ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ الذي لا يحكمُ إلَّا بالحقِّ، ولا يقضي إلَّا بما تقتضيه الحكمةُ. ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ المتصفِ بغاية العلوِّ ونهاية الكبرياء، فليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذا اشتدَّت سطوتُه بمن أشرك به، واقتضت حكمتُه خلودَه في النار، فلا سبيلَ لخروجكم منها أبداً إذ كنتم مشركين.

واستدلالُ الحَرورية بهذه الآية على زعمهم الفاسدِ في غاية السقوط، ويكفي في الردِّ عليهم قولُه تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] الآية، وقولُه تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّةَ على شؤونه العظيمةِ، الموجبةَ لتفرُّده بالألوهية، لتستدلُّوا بها على ذلك وتعملوا بموجَبها، فإذا دُعي سبحانه وحدَه تؤمنوا، وإن يُشرَكْ به تكفُروا، وهذه الآياتُ ما يشاهَد من آثار قدرته عزَّ وجلَّ:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنَّه واحدُ(٢)

---

(١) كلمة «آخر» ليست في الأصل.
(٢) سلف ١/ ٢٧١.

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف من الإنزال[1]. ﴿لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾ أي: سببَ رزقٍ وهو المطرُ. وإفرادُه بالذكر مع كونه من جملةِ تلك الآيات؛ لتفرُّدِه بعنوانِ كونِه من آثار رحمته وجلائلِ نعمته الموجِبةِ للشكر.

وصيغةُ المضارع في الفعلين للدلالة على تجدُّد الإراءة والتنزيل واستمرارهما، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول لِما مرَّ غيرَ مرة.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات التي هي كالمركوزة في العقول لظهورها، المغفولِ عنها للانهماك في التقليد واتباع الهوى.

﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ يَرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكُّر فيها، فإنَّ الجازمَ بشيء لا ينظُر فيما ينافيه، فمن لا يُنيب بمعزلٍ عن التذكُّر.

﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ﴾ اعبدوه عزَّ وجلَّ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١٤﴾ إخلاصَكم وشقَّ عليهم.

وظاهرُ كلام «الكشاف» أنَّ «ادعوا» إلخ مسبَّب عن الإنابة، وأنَّ فيه التفاتاً حيث قال: ثم قال للمنيبين[2]. والأصل: فليدْعُ ذلك المنيبُ، على معنى: إن صحَّت الإنابة، على نحو: فقد جِئنا خراسانا[3]، وقد وافَقَ على كونه خطاباً لمن ذُكر غيرُ واحد.

وفي «الكشف»: التحقيقُ أنَّ قولَه تعالى: «وما يتذكر» إلخ اعتراضٌ، وقولُه سبحانه: «فادعوا الله» مسبَّبٌ عن قوله تعالى: «هو الذي يريكم» على أنَّه خطابٌ يعمُّ المؤمنَ والكافرَ لسبق ذكرهما، لا للكفَّارِ وحدَهم على نحو: «من مقتكم أنفسكم» إذ ليس مما نُودوا به يومَ القيامة، والمعنى: فادعوه، فوُضِع الظاهرُ موضعَ المضمَرِ ليتمكَّنَ فضلَ تمكُّنٍ، وليُشْعِرَ بأنَّ كونَه تعالى هو المعبودُ بحقٍّ، هو الذي يقتضي أن يُعبدَ وحدَه. وفائدةُ الاعتراض أنَّ هذه الآياتِ ودلالتَها على اختصاصه

---

(١) التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨، عن ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب.

(٢) الكشاف ٣/ ٤١٩.

(٣) قطعة من بيت للعباس بن أحنف، وسلف ٢/ ٢٧٠.

سبحانه وحدَه بالعبادة بالنسبة إلى مَنْ يُنيب لا المعاندِ. وقولُه في «الكشاف»: ثم قال للمنيبين، إشارةٌ إلى أنَّ فائدةَ تقديم الاعتراض أنَّ الانتفاعَ بالآيات على هذا التقدير، فكأنَّه مسبَّبٌ عن الإنابة معنًى لَمَّا كان تسبُّبُ السابق للَّاحقِ الإنابة، فهذا هو الوجهُ، ولا يأباه تفسيرُ «ولو كره الكافرون» بقوله[١]: وإن غاظ ذلك أعداءَكم، فإنَّه للتنبيهِ على أنَّ امتثالَ ذلك الأمرِ إنَّما يكونُ بعدَ إنابتهم، وكأنْ قد حصل ذلك وحصل التضادُّ بينهم وبين الكافرين. وهو تحقيقٌ حقيقٌ بالقبول، لكن في توجيه كلام «الكشاف» تكلُّفٌ ظاهرٌ.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ صفةٌ مشبَّهة أُضيفت إلى فاعلها من: رفُع الشيءُ، بالضمِّ: إذا علا. وجوِّز أن يكون صيغةَ مبالغةٍ من باب أسماء الفاعلين وأُضيف إلى المفعول، وفيه بعدٌ.

و«الدرجات»: مصاعدُ الملائكة عليهم السلام إلى أن يبلغوا العرشَ، أي: رفيعُ درجاتِ ملائكته ومعارجِهم إلى عرشه.

وفسَّرها ابن جبير بالسماوات، ولا بأسَ بذلك، فإنَّ الملائكة يعرُجون من سماءٍ إلى سماء حتى يبلغوا العرشَ، إلا أنه جَعَلَ «رفيعاً» اسمَ فاعلٍ مضافاً إلى المفعول، فقال: أي: رفع سماءً فوقَ سماءٍ والعرش فوقَهنَّ[٢]، وقد سمعتَ آنفاً أنَّ فيه بُعداً. ووصفُه عزَّ وجلَّ بذلك للدلالة ـ على سبيل الإدماج ـ على عزَّته سبحانه وملكوته جلَّ شأنه.

ويجوز أن يكونَ كنايةً عن رِفعةِ شأنِه وسلطانِه ـ عزَّ شأنُه وسلطانُه ـ كما أنَّ قولَه تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ كنايةٌ عن ملكِه جلَّ جلاله، ولا نظرَ في ذلك إلى أنَّ له سبحانه عرشاً أو لا، فالكنايةُ وإن لم تُنافِ إرادةَ الحقيقة لكن لا تَقتضي وجوبَ إرادتها، فقد وقد. وعن ابن زيد أنه قال: أي: عظيم الصفات[٣]. وكأنه بيانٌ لحاصل المعنى الكنائيِّ.

---

(١) أي: قول الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤١٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٤١٩، والبحر المحيط ٧/ ٤٥٥.
(٣) البحر ٧/ ٤٥٥، ونسبه في النكت والعيون ٥/ ١٤٧ لابن زياد.

وقيل: هي درجاتُ ثوابه التي ينزِّلها أولياءَه تعالى يوم القيامة. وروي ذلك عن ابن عباس وابن سلَّام[١]، وهذا أنسبُ بقوله تعالى: (فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ)، والمعنى الأول أنسبُ بقوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ لتضمُّنه ذكرَ الملائكة عليهم السلام وهم المنزَّلون بالروح كما قال سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢].

وأيًّاما كان فـ «رفيع الدرجات» و«ذو العرش» وجملةُ «يُلْقي» أخبارٌ ثلاثة قيل: لـ «هو» السابقِ في قوله تعالى: (هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ) إلخ، واستبعَده أبو حيان[٢] بطول الفصل. وقيل: لـ «هو» محذوفاً.

والجملةُ كالتعليل لتخصيصِ العبادة وإخلاص الدين له تعالى، وهي متضمِّنةٌ بيان إنزال الرزق الروحانيِّ بعد بيانِ إنزال الرزق الجسمانيِّ في «ينزل لكم من السماء رزقاً» فإن المرادَ بالروح على ما روي عن قتادة الوحيُ، وعلى ما روي عن ابن عباس القرآنُ، وذلك جارٍ من القلوب مجرى الروح من الأجساد، وفسَّره الضحَّاك بجبريل عليه السلام، وهو عليه السلام حياةُ القلوب باعتبارِ ما يَنزِل به من العلم[٣].

وجوَّز ابنُ عطية أن يرادَ به كلُّ ما يُنعم الله تعالى به على عباده المهتدين في تفهيم الإيمان والمعقولات الشريفة[٤]، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: «من أمره» قيل: بيانٌ للروح، وفسِّر بما يتناول الأمر والنهْيَ، وأُوثِر على لفظ الوحي للإشارة إلى أنَّ اختصاصَ حياة القلوب بالوحي من جهتَي التخلِّي والتحلِّي الحاصلَين بالامتثال والانتهاء.

وعن ابن عباسٍ تفسيرُ الأمر بالقضاء[٥]، فجُعلت «من» ابتدائيةً متعلِّقةً بمحذوفٍ

---

(١) هو يحيى بن سلَّام كما في تفسير القرطبي ١٨/ ٣٣٨، والنكت والعيون ٥/ ١٤٧.
(٢) في البحر ٧/ ٤٥٤.
(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤٧-١٤٨، وزاد المسير ٧/ ٢١٠، والبحر ٧/ ٤٥٥.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٠.
(٥) الوسيط ٤/ ٧.

وقع حالاً من «الروح»، أي: ناشئاً من أمره، أو صفةً له على رأي مَن يجوِّزُ حذف الموصول مع بعض صلته، أي: الكائنِ من أمره.

وفسَّره بعضُهم بالمَلَكَ، وجَعل «من» ابتدائيةً متعلِّقةً بمحذوفٍ وقع حالاً، أو صفةً على ما ذُكر آنفاً، وكونُ الملك مبدأً للوحي لتلقِّيه عنه، ومن فسَّر الروحَ بجبريل عليه الصلاة والسلام قال: «من» سببيَّةٌ متعلِّقةٌ بـ «يُلقي»، والمعنى: ينزِّل الروحَ من أجلِ تبليغِ أمره.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهو الذي اصطفاه سبحانه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم، والاستمرارُ التجدُّديُّ المفهومُ من «يُلقي» ظاهرٌ، فإنَّ الإلقاءَ لم يَزل من لدُنْ آدم عليه السلام إلى انتهاء زمانِ نبيِّنا ﷺ، وهو في حكم المتَّصل إلى قيام الساعة بإقامة مَن يقوم بالدعوة على ما رَوى أبو داود عن أبي هريرة عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مئةِ سنةٍ مَن يجدِّدُ لها دينَها»[١]، أي: بإحياءِ ما اندَرس من العمل بالكتاب والسنة والأمرِ بمقتضاهما، وأمرُ ذلك التجدُّدِ على ما جوَّزه ابن عطية[٢] لا يحتاج إلى ما ذكر.

وقرئ: «رفيعَ» بالنصب على المدح[٣].

﴿لِيُنذِرَ﴾ علَّةٌ للإلقاء، وضميرُه المستتر لله تعالى، أو لـ «مَن» وهو الملقَى إليه، أو لـ «الروح»، أو للأمر، وعودُه على الملقَى إليه وهو الرسولُ أقربُ لفظاً ومعنًى؛ لقُربِ المرجع وقوَّة الإسناد، فإنَّه الذي يُنذِر الناسَ حقيقةً بلا واسِطةٍ، واستظهر أبو حيان رجوعَه إليه تعالى لأنَّه سبحانه المحدَّثُ عنه[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ مفعولٌ لـ «ينذر»، أو ظرفٌ والمنذَر به محذوفٌ، أي: لينذِرَ العذابَ ـ أو نحوه ـ يومَ التلاق.

---

(١) سنن أبي داود (٤٢٩١)، وهو في مستدرك الحاكم ٤/ ٥٢٢.

(٢) يريد به تفسير ابن عطية للروح، وقد مرّ قريباً.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٥٤.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٥٥.

وقولُه سبحانه: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ بدلٌ من «يوم التلاق»، و«هم» مبتدأٌ و«بارزون» خبرٌ، والجملةُ في محلِّ جرٍّ بإضافةِ «يوم» إليها، قيل: وهذا تخريجٌ على مذهب أبي الحسن من جوازِ إضافةِ الظرف المستقبل كـ «إذا» إلى الجملة الاسمية نحو: أجيئك إذا زيدٌ ذاهب. وسيبويه لا يجوِّز ذلك ويوجِبُ تقديرَ فعلٍ بعدَ الظرف يكون الاسمُ مرتفعاً به.

وجوِّز أن يكون «يوم» ظرفاً لقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ﴾ والظاهرُ البدليةُ، وهذه الجملةُ استئنافٌ لبيانِ بروزهم، وتقريرٌ له وإزاحةٌ لِمَا كان يتوهَّمه بعضُ المتوهِّمين في الدنيا من الاستتار توهُّماً باطلاً.

وجوِّز أن تكونَ خبراً ثانياً لـ «هم». وقيل: هي حالٌ من ضمير «بارزون».

و«يوم التلاق» يومُ القيامة، سمِّي بذلك؛ قال ابن عباس: لالتقاءِ الخلائق فيه. وقال مقاتل: لالتقاء الخالق والمخلوق فيه. وحكاه الطبرسيُّ عن ابن عباس(١). وقال السديُّ: لالتقاء أهل السماء وأهل الأرض. وقال ميمون بن مهران: لالتقاء الظالم والمظلوم. وحكى الثعلبيُّ أنَّ ذلك لالتقاءِ كلِّ امرئٍ وعملِه(٢).

واختار بعضُ الأجلَّةِ ما قال مقاتل وقال: هو أَولى الوجوه؛ لِما فيه مِن حمل المطلَق على ما ورد في كثيرٍ من المواضع نحو: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [يونس: ٧]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال صاحب «الكشف»: القولُ الأول ـ وهو ما نُقِل عن ابن عبَّاس أوَّلاً ـ أشبهُ؛ لجَرَيان الكلامِ فيه على الحقيقة، ونفيِ ما يُتوهَّم من المساواة بين الخالق والمخلوق، واستقلالِ كلٍّ من البدلَين بفائدةٍ في التهويل لِما في الأول مِن تصويرِ

---

(١) مجمع البيان ٥/ ١٨٧.

(٢) تفسير الثعلبي ٨/ ٢٧٠، وتنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٩٦-٢٩٧، وتفسير البغوي ٤/ ٩٤، وزاد المسير ٧/ ٢١١، والبحر ٧/ ٤٥٥.

تلاقي الخلائق على اختلاف أنواعها، وفي الثاني من البروز لمالكِ أمرِها بروزاً لا يبقى لأحدٍ فيه شبهةٌ، وأمَّا نحوُ قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] فمسوقٌ بمعنًى آخر.

و«بارزون» مِن بَرَزَ، وأصلُه: حصل في بَراز، أي: فضاء، والمراد: ظاهرون لا يستُرهم شيءٌ من جبلٍ أو أَكَمَةٍ أو بناءٍ، لأنَّ الأرضَ يومئذٍ قاعٌ صفْصَفٌ، وليس عليهم ثيابٌ، إنما هم عراةٌ مكشوفون كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنكم ملاقو اللهِ حُفاةً عراةً غُرلاً»[1].

وقيل: المرادُ: خارجون من قبورهم، أو ظاهرةٌ أعمالُهم وسرائرُهم.

وقيل: ظاهرةٌ نفوسُهم لا تُحجَب بغواشِي الأبدان مع تعلُّقِها بها. ولا يقبلُ هذا بدون ثبتٍ من المعصوم.

والمراد بقوله تعالى: «منهم» على ما قيل: من أحوالهم وأعمالهم. وقيل: من أعيانهم. واختِيرَ التعميمُ، أي: لا يخفى عليه عزَّ شأنُه شيءٌ مّا من أعيانِهم وأعمالِهم وأحوالِهم الجليةِ والخفيةِ، السابقةِ واللاحقةِ.

وقرأ أُبيٌّ: «لِيُنْذِرَ يومُ» ببناءِ «يُنْذِرَ» للفاعل ورفع «يوم» على الفاعلية مجازاً[2].

وقرأ اليماني فيما ذكر صاحبُ «اللوامح»: «لِيُنْذَرَ» مبنياً للمفعول «يومُ» بالرفع على النيابة عن الفاعل[3].

وقرأ الحسن واليماني فيما ذكر ابن خالويه: «لتُنذِرَ» بالتاء الفوقية[4]، فقيل: الفاعلُ فيه ضميرُ الخطاب للرسول ﷺ. وقيل: ضميرُ الرُوح لأنها تؤنَّث.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ حكايةٌ لِما يُسألُ عنه في ذلك اليوم ولِما يُجاب به بتقدير قولٍ معطوفٍ على ما قبله من الجملة المنفية

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٢٤)، وصحيح مسلم (٢٨٦٠)، وهو في مسند أحمد (١٩١٣).
(٢) البحر ٧/ ٤٥٥.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥١، ونقله المصنف من البحر ٧/ ٤٥٥.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٢، وهي قراءة روح وزيد عن يعقوب كما في مجمع البيان ٥/ ١٨٥.

المستأنَفة، أو مستأنَفٍ يقع جواباً عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ بروزهم وظهورِ أحوالهم، كأنه قيل: فما يكون حينئذٍ؟ فقيل: يقال: «لمن الملك» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: مِن النفوس البَرَّةِ والفاجرة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: من خيرٍ أو شرٍّ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقص الثواب وزيادةِ العقاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ أي: سريعٌ حسابُه؛ إذ لا يشغله سبحانه شأنٌ عن شأنٍ، فيصل إلى المحاسَب من النفوس ما يستحقُّه سريعاً؛ روي عن ابن عباس أنه تعالى إذا أخذ في حسابهم لم يقل: أهلُ الجنة، إلا فيها، ولا: أهلُ النار، إلَّا فيها = من تتمَّةِ[1] الجواب جيء به لبيانِ إجمالٍ فيه، والتذييلُ لتعليلِ ما قبلَه[2].

والمنادِي بذلك سؤالاً وجواباً واحدٌ؛ أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال: يجمعُ الله تعالى الخلقَ يوم القيامة بصعيدٍ واحدٍ بأرضٍ بيضاء كأنها سبيكة فضَّةٍ لم يُعص اللهُ تعالى فيها قطُّ ولم يُخْطأ فيها، فأوَّلُ ما يتكلَّمُ أن ينادِي منادٍ: (لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ * ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ)، فأولُ ما يبدؤون به من الخصومات الدماءُ... الحديث[3].

وهو عند الحسن: اللهُ نفسُه عزَّ وجلَّ، وقيل: مَلَكٌ.

وقيل: السائلُ هو الله تعالى أو ملكٌ، والمجيبُ الناس.

وذكر الطيبيُّ تقريراً لعبارة «الكشاف»[4] أنَّ قوله تعالى: «اليوم تجزى» إلخ تعليلٌ، فيجب أن يكونَ السائلُ والمجيبُ هو الله عزَّ وجلَّ، فإنَّه سبحانه لَمَّا سأل «لمن الملك اليوم» وأجاب هو سبحانه بنفسه «لله الواحد القهار» كان المقامُ موقعَ السؤال وطلبِ التعليل فأُوقع «اليوم تجزى» جواباً عنه، يعني إنَّما اختصَّ المُلْكَ به

(١) قوله: من تتمة...، هو خبرٌ لقوله: وقوله تعالى... إلخ.

(٢) يعني جملة «إن الله سريع الحساب» تعليل لجملة «اليوم تجزى» إلخ؛ فإن كون ذلك اليوم بعينه يوم التلاقي ويوم البروز ربما يوهم استبعاد وقوع الكل فيه. تفسير أبي السعود ٧/ ٢٧١.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٣٤٨، وهو في الزهد لابن المبارك (٣٨٨ - زوائد نعيم بن حماد).

(٤) ينظر الكشاف ٣/ ٤٢٠.

تعالى لأنه وحدَه يقدِر على مجازاة كلِّ نفسٍ بما كسبت، وله العدلُ التامُّ فلا يظلم أحداً، وله التصرُّفُ فلا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ فيُسرِع الحسابَ. ولو أُوقع «لله الواحد القهار» جواباً عن أهل المحشر لم يحسُنْ هذا الاستئنافُ. انتهى، وفيه ما فيه.

والحقُّ أنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ إلخ إن كان من كلامِ المجيبِ كما هو ظاهرُ حديث ابن مسعود بَعُدَ أن يكونَ من الناس.

وجوِّز فيه أن لا يكونَ من تتمَّة الجواب بل هو حكايةٌ لِما سيقوله تعالى في ذلك اليوم عقيبَ السؤال والجواب.

وأيّاما كان فتخصيصُ المُلكِ به تعالى في ذلك اليوم إنما هو بالنظر إلى ظاهرِ الحال من زوالِ الأسباب وارتفاعِ الوسائط وظهورِ ذلك للكَفَرَة والجَهَلة، وأمَّا حقيقةُ الحال فناطقةٌ بذلك دائماً.

وذهب محمدُ بن كعب القرظيُّ إلى أنَّ السؤالَ والجواب منه تعالى، ويكونان بين النفختَيْن حينَ يُفْني عزَّ وجلَّ الخلائقَ[١].

وروي نحوه عن ابن عباس؛ أخرج عبد الله بن أحمد[٢] في زوائد «الزهد»، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وأبو نعيم في «الحلية» عنه ﷺ قال: ينادي منادٍ بين يدَي الساعة: يا أيها الناسُ، أتتكم الساعةُ، فيسمَعُها الأحياءُ والأمواتُ، وينزِل الله سبحانه إلى السماء الدنيا فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٣].

والسياق ظاهرٌ في أنَّ ذلك يوم القيامة، فلعلَّه على تقدير صحَّةِ الحديث يكون مرَّتَين.

ومعنى جزاءِ النفوس بما كسبت أنَّها تُجزى خيراً إن كسبت خيراً، وشرًّا إن كسبَتْ شرًّا.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٤٨.

(٢) تصحف في الأصل و(م) ومطبوع الدر المنثور ٥/ ٣٤٨ (والكلام منه) إلى: عبد بن حميد.

(٣) السنة لعبد الله بن أحمد ص٤٢، وتفسير ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٧/ ١٣٦، والمستدرك ٢/ ٤٣٧، والحلية ١/ ٣٢٤.

وقيل: إنَّ النفوسَ تكتسب بالعقائد والأعمالِ هيئاتٍ تُوجب لذَّتَها وألمها لكنَّها لا تَشعُر بها في الدنيا، فإذا قامت قيامتُها وزالت العوائقُ أدركت ألَمَها ولذَّتَها. والظاهرُ أنَّ هذا قولٌ باللذَّة والألم الروحانيَّيْنِ، ونحن لا نُنْكِر حصولَهما يومئذٍ لكن نقول: إنَّ الجزاءَ لا ينحصر بهما، بل يكونُ أيضاً بلذَّةٍ وألمٍ جسمانيَّيْنِ. فالاقتصارُ في تفسير الآية على ذلك قصورٌ.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ يومَ القيامة، كما قال مجاهد وقتادة وابن زيد[1]. ومعنى «الآزفة»: القريبةُ، يقال: أزِف الشخوصُ: إذا قرُب وضاق وقتُه، فهي في الأصل اسمُ فاعل، ثم نُقلت منه وجُعلت اسماً للقيامة؛ لقُربها بالإضافة لِمَا مضى من مدَّة الدنيا، أو لِمَا بقي، فإنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ.

ويجوز أن تكونَ باقيةً على الأصل، فتكونُ صفةً لمحذوفٍ، أي: الساعة الآزفة، وقدَّر بعضُهم الموصوفةَ: الخُطَّة، بضمِّ الخاء المعجمةِ وتشديد الطاء المهملة، وهي القصَّة والأمرُ العظيمُ الذي يستحقُّ أن يُخَطَّ ويُكتب لغرابته، ويراد بذلك ما يقع يومَ القيامة من الأمور الصعبة، وقربُها لأنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ.

والمراد باليوم الوقتُ مطلقاً، أو هو يومُ القيامة، وقال أبو مسلم: «يوم الآزفة» يومُ المَنِيَّة وحضورِ الأجل[2]. ورجِّح بأنَّه أبعدُ عن التكرار وأنسبُ بما بعده، ووصفُ القرب فيه أظهر.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بدلٌ مِن «يوم الآزفة»، و«الحناجر» جمعُ: حَنْجَرةٍ أو حَنجُورٍ كحُلقوم لفظاً ومعنًى؛ وهي كما قال الراغب: رأس الغَلْصَمَة من خارجٍ[3]، وهي لحمةٌ بين الرأس والعنق، والكلامُ كنايةٌ عن شدّةِ الخوف أو فرْطِ التألُّم.

وجوِّز أن يكونَ على حقيقته، وتبلغ قلوبُ الكفَّار حناجرَهم يوم القيامة، ولا يموتون كما لو كان ذلك في الدنيا.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٠٠-٣٠١.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٥٦.
(٣) المفردات (حنجر).

﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ حالٌ من أصحاب القلوب على المعنى، فإنَّ ذكرَ القلوب يدلُّ على ذكرِ أصحابها، فهو من بابِ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣] فكأنه قيل: إذ قلوبُهم لدى الحناجر كاظمين عليها، وهو من كَظْم القِرْبَةَ: إذا ملأها وسدَّ فاها، فالمعنى: مُمْسِكين أنفسَهم على قلوبهم لئلا تخرجَ مع النَّفَس، فإنَّ كاظمَ القِربةِ كاظمٌ على الماءِ مُمْسِكُها عليه لئلا يخرجَ امتلاءً، وفيه مبالغةٌ عظيمةٌ.

وجوّز كونُه حالاً من ضميرِ «القلوب» المستترِ في الخبر، أعني: «لدى الحناجر»، وعلى رأي من يجوِّز مجيءَ الحال من المبتدأ كونُه حالاً من «القلوب» نفسِها. وجُمِع جمْعَ العقلاء؛ لتنزيلِها منزلتَهم لوصفِها بصفتِهم كما في قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] والمعنى: حالَ كون القلوب كاظمةً على الغمِّ والكرب، ومنه يُعلم أنه لا يجوز أن يكونَ «لدى الحناجر» ظرفَ «كاظمين» لفساد المعنى، والحاجةِ إلى تقديرِ محذوفٍ مع الغنَى عنه، وكذلك على قراءة «كاظمون»[1] للأول فقط، فيتعيَّنُ كونُ «لدى الحناجر» خبراً، و«كاظمون» خبراً آخرَ، وبذلك يترجَّحُ كونُ الحال من القلوب. وقدَّر الكواشي: هم كاظمون، ليوافقَ وجهَ الحالية من الأصحاب.

وجوِّز كونُه حالاً من مفعول: «أنذرهم»، أي: أنذرهم مقدَّراً كظمُهم، أو مشارفين الكظمَ.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: قريبٍ مشفقٍ، مِن احتمَّ فلانٌ لفلانٍ: احتدَّ، فكأنَّه الذي يحتدُّ حمايةً لذويه، ويقال لخاصَّةِ الرجل: حامَّتُه، ومن هنا فسِّر الحميمُ بالصديق.

﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ أي: ولا شفيع يُشفَّع، فالجملةُ في محلِّ جرٍّ أو رفعِ صفة «شفيع»، والمرادُ نفْيُ الصفة والموصوفِ، لا الصفةِ فقط، ليدلَّ على أنَّ ثَمَّ شفيعاً لكن لا يُطاع، فالكلامُ من بابِ:

ولا ترى الضبَّ بها ينجحر[2]

---

(١) البحر ٧/ ٤٥٦.
(٢) وصدره: لا تُفْزِعُ الأرنبَ أهوالها، وسلف ٣/ ٢٣٧.

ولم يقتصرْ على نفع الشفيع بل ضمَّ إليه ما ضمَّ ليُقامَ انتفاءُ الموصوف مقامَ الشاهد على انتفاء الصفة فيكون ذلك الضمُّ إزالةً لتوهُّم وجودِ الموصوف حيثُ جُعل انتفاؤُه أمراً مسلَّماً مشهوراً لا نزاعَ فيه لأنَّ الدليلَ ينبغي أن يكونَ أوضحَ من المدلول، وهذا كما تقول لمن عاتبك على القعود عن الغزو: ما لي فرسٌ أركَبه، وما معي سلاحٌ أحارب به، فليُفْهَم.

والضمائرُ المذكورةُ من قوله تعالى: «وأنذرهم» إلى هنا إن كانت للكفَّار كما هو الظاهرُ فوَضعُ «الظالمين» موضعَ ضميرهم للتسجيلِ عليهم بالظلم وتعليلِ الحكم، وإن كانت عامةً لهم ولغيرهم فليس هذا من باب وضع الظاهر موضعَ الضمير، وإنما هو بيانُ حكمٍ للظالمين بخصوصِهم، والمرادُ بهم الكاملون في الظلم، وهم الكافرون لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي: النظرةَ الخائنةَ، كالنظرة إلى غير المحرَم واستراقِ النظر إليه وغير ذلك، فـ «خائنة» صفةٌ لموصوفٍ مقدَّرٍ، وجَعل النظرةِ خائنةً إسنادٌ مجازيٌّ، أو استعارةٌ مصرِّحةٌ أو مكنيةٌ وتخييليةٌ بِجَعل النظر بمنزلة شيء يسرق من المنظور إليه، ولذا عبَّر فيه بالاستراق.

ويجوز أن يكونَ «خائنة» مصدراً كالكاذبة والعاقبة والعافية، أي: يَعلم سبحانه خيانةَ الأعين.

وقيل: هو وصفٌ مضافٌ إلى موصوفه كما في قوله:

وإن سَقيتِ كرامَ الناسِ فاسْقِينا[1]

أي: يَعلم سبحانه الأعينَ الخائنةَ. ولا يحسُن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِى

---

(١) الشطر وقع في بيتين أحدهما للمرقش الأكبر كما في شرح اختيارات المفضل ٢/ ١٠٧٠، والخزانة ٨/ ٣٠١ وتمامه:

يا ذات أجوارنا قولي فحيينا وإن سقيتِ كرامَ الناس فاسقينا

وثانيهما لبعض بني قيس بن ثعلبة، وقيل: لبشامة بن حزْن النهشلي كما في شرح ديوان الحماسة ١/ ٥٠، والتذكرة السعدية ص٣٤، والخزانة ٨/ ٣٠٢، وتمامه:

إنا محيُّوك يا سلمى فحيينا وإن سقيتِ كرامَ الناس فاسقينا

﴿ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ أي: والذي تُخفيه الصدورُ من الضمائر، أو إخفاءَ الصدور لِما تُخفيه من ذلك؛ لأنَّ الملاءمةَ واجبةُ الرعاية في علم البيان، وملائِمُ الأعيُنِ الخائنةِ الصدورُ المُخْفيةُ. وما قيل في عدمِ حُسنِ ذلك من أنَّ مقامَ المبالغة يقتضي أن يُرادَ استراقُ العين ضُمَّ إليه هذه القرينة أوْ لا = فغيرُ قادحٍ في التعليل المذكور؛ إذ لا مانعَ من أن يكونَ على مطلوبٍ دلائلُ، ثم لولا القرينةُ لجاز أن تُجعلَ الأعينُ تمهيداً للوصف، فالقرينةُ هي المانِعة.

وهذه الجملةُ على ما في «الكشاف»[1] متصلةٌ بأول الكلام، خبرٌ من أخبارِ «هو» في قوله تعالى: «هو الذي يريكم» على معنى: هو الذي يريكم.. إلخ، وهو يعلم خائنةَ الأعين. ولم يجعله تعليلاً لنفي الشفاعة على معنى: ما لَهم من شفيعٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يعلم منهم الخيانةَ سرًّا وعلانيةً = قيل: لأنَّه لا يصلُح تعليلاً لنفيِها، بل لنفْي قبولها؛ فإنَّ الله تعالى هو العالِم لا الشفيع، والمقصودُ نفْيُ الشفاعة.

ووجهُ تقريرِ هذا الخبر في هذا الموضع ما فيه من التخلُّص إلى ذمِّ آلهتهم، مع أنَّ تقديمَه على «الذي يريكم» لا وجهَ له؛ لتعلُّقه بما قبله أشدَّ التعلُّق كما أُشيرَ إليه، وكذلك على «رفيع الدرجات» لاتصاله بالسابق، وأمر المنيبين بالإخلاص، ولِما فيه من النُّبْو من توسيط المنكَّر الفعليِّ بين المبتدأ وخبره المعرَّفِ الاسميِّ. وأما توسيطُه بين القرائنِ الثلاث فبَين العصا ولحائها، فلا موضعَ له أحقُّ من هذا، ولا يَضُرُّ البُعدُ اللفظيُّ في مثل ذلك كما لا يخفى.

وظنَّ بعضُهم ضررَه، فمنهم من قال: الجملةُ متصلةٌ بمجموعِ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ إلى آخره، وذلك أنه سبحانه لَمَّا أمر بإنذارِ ذلك اليومِ وما يُعرض فيه من شدَّةِ الكرب والغمِّ، وذَكَر تعالى أنَّ الظالمَ لا يجد مَن يحميه مِن ذلك ولا مَن يَشفَعُ له = ذَكَر جلَّ وعلا اطِّلاعَه على جميع ما يصدُر من العبد وأنَّه مُجازًى بما عمِل ليكون على حذَرٍ من ذلك اليوم إذا علِم أنَّ الله تعالى مطَّلعٌ على أعماله. وإلى هذا ذهب أبو حيان[2].

---

(١) ٣/ ٤٢١.

(٢) في البحر ٧/ ٤٥٧.

وقال ابن عطية: هي متصلةٌ بقوله تعالى: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ لأنَّ سرعةَ حسابِه تعالى للخَلْق إنما هي لعلمِه تعالى الذي لا يحتاج معه إلى رويَّةٍ وفكرٍ، ولا لشيء مما يحتاجه المحاسِبون، وحَكى رحمه الله تعالى عن فرقةٍ أنها متصلةٌ بقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ ثم قال: وهذا قولٌ حَسَنٌ يقوِّيه تناسُبُ المعنيَيْنِ ويضعِّفُه البعدُ وكثرةُ الحائل(١).

وجعلها بعضٌ متصلةً بنفْي قبولِ الشفاعة الذي تضمَّنَه قولُه تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ـ فإنَّ «يطاع» المنفيَّ بمعنى: تُقبل شفاعتُه ـ على أنها تعليلٌ لذلك، أي: لا تقبل شفاعةُ شفيعٍ لهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى يعلم منه الخيانةَ سرًّا وعلانيةً، وليست تعليلاً لنفْي الشفاعة ليرِدَ ما قيل. ولا يخفى ما فيه، ولعمري إنَّ جارَ الله في مثل هذا المقام لا يُجارى.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي: والذي هذه صفاتُه يقضي قضاءً ملتبساً بالحقِّ لا بالباطل؛ لاستغنائه سبحانه عن الظلم. وتقديمُ المسنَد إليه للتقوِّي، وجوِّز أن يكونَ للحصر. وفائدةُ العدول عن المضمَر إلى المظهَر والإتيانِ بالاسم الجامع عقيبَ ذكر الأوصاف = ما أشير إليه من إرادة الموصوف بتلك الصفات.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ تهكُّمٌ بآلهتِهم؛ لأنَّ الجمادَ لا يقال فيه: يقضِي أو لا يقضِي، وجَعَلَه بعضُهم من باب المشاكلة، وأصلُه: لا يقدرون على شيء. واختِيْرَ الأولُ، قيل: لأنَّ التهكُّمَ أبلغُ؛ لأنَّه ليس المقصودُ الاستدلالَ على عدم صلاحيتهم للإلهية.

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلافٍ عنه وهشام: «تَدعون» بتاء الخطاب على الالتفات(٢)، وجوِّز أن يكونَ على إضمار «قل»، فلا يكون التفاتاً وإن عبِّر عنه بالغَيبة قبله؛ لأنَّه ليس على خلافِ مقتضَى الظاهرِ إذ هو ابتداءُ كلامٍ مبنيٍّ على خطابهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ تقريرٌ لعلمه تعالى بخائنةِ الأعيُن وما تخفي

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٢-٥٥٣.
(٢) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٤ عن نافع وهشام، والكلام من البحر ٧/ ٤٥٧.

الصدورُ، وقضائِه سبحانه بالحقِّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحالِ ما يَدْعون من دونه عزَّ وجلَّ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القاضيَ ينبغي أن يكونَ سميعاً بصيراً.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مآلُ حالِ الذين كذبوا الرسلَ عليهم السلام قبلهم كعادٍ وثمودَ. و«ينظروا» مجزومٌ على أنه معطوفٌ على «يسيروا»، وجوَّز أبو حيان[1] كونَه منصوباً في جواب النفْي، كما في قوله:

ألم تسألْ فتُخبِرَكَ الرسومُ[2]

وتعقِّب بأنه لا يصحُّ تقديرُه بـ : إنْ لم يسيروا ينظروا. وأجيب بأنَّ الاستفهامَ إنكاريٌّ، وهو في معنى النفْي، فيكونُ جوابَ نفْي النفْي.

﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً وتمكُّناً من التصرُّفات، والضميرُ المنفصل تأكيدٌ للضميرِ المتصلِ قبلَه. وجوِّز كونُه ضميرَ فصلٍ، ولا يتعيَّن وقوعُه بين معرفتين، فقد أجاز الجرجانيُّ وقوعَ المضارع بعدَه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]، نعم الأصل الأكثر فيه ذلك، على أنَّ أفعل التفضيل الواقعَ بعدَه «مِن» الداخلةُ على المفضَّل عليه مضارعٌ[3] للمعرفة لفظاً في عدم دخول «أل» عليه ومعنًى لأنَّ المرادَ به الأفضلُ باعتبارِ أفضليةٍ معيَّنةٍ.

وجملة «كانوا» إلخ مستأنَفةٌ في جوابِ: كيف صارت أمورُهم؟.

---

(١) في البحر ٧/ ٤٥٧.

(٢) عجزه:

على فِرْتاجَ والطَّلَلُ القديمُ

وهو في الكتاب ٣/ ٣٤، والبحر ٧/ ٤٥٧، واللسان (فرتج)، وتاج العروس (فرتج) دون نسبة، وعزاه في منتهى الطلب ٨/ ٧٦ لعمرو بن شأس، وعزاه السيرافي في شرح أبيات سيبويه ٢/ ١٥٢ للبُرج بن مُسهر، ورواية منتهى الطلب والسيرافي: ألم تربع، بدل: ألم تسأل، ورواية اللسان: ألم تَسَلي، وفِرتاج: موضع في بلاد طيِّئ كما في اللسان.

(٣) أي: مشابه، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٣٦٧.

وقرأ ابن عامر: «منكم»[1] بضمير الخطاب على الالتفات.

﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على «قوة»، أي: وأشدَّ آثاراً في الأرض مثلَ القِلاعِ المحكمَةِ والمدائنِ الحصينة. وقد حَكَى الله تعالى عن قومٍ منهم أنَّهم كانوا ينحِتون من الجبال بيوتاً.

وجوِّز كونُه عطفاً على «أشدَّ» بتقدير محذوفٍ، أي: وأكثرَ آثاراً، فتشمل الآثارَ القويةَ وغيرَها، وهو ارتكابُ خلافِ المتبادر من غير حاجةٍ يُعتَدُّ بها.

وقيل: المرادُ بهذه الآثار آثارُ أقدامهم في الأرض لعظَم أجرامهم. وليس بشيء أصلاً.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: وليس لهم واقٍ من الله تعالى يقيهم ويمنعُ عنهم عذابَه تعالى أبداً، فـ «كان» للاستمرار، والمرادُ استمرارُ النفْي، لا نفْيُ الاستمرار، و«من» الثانيةُ زائدةٌ، و«من» الأولى متعلِّقةٌ بـ «واقٍ»، وقدِّم الجارُّ والمجرورُ للاهتمام والفاصلةِ؛ لأنَّ اسمَ الله تعالى قيل: لم يقع مقطعاً للفواصل.

وجوِّز أن تكونَ «مِنْ» الأولى للبدلية، أي: ما كان لهم بدلاً مِن المتَّصفِ بصفات الكمال واقٍ، وأُريدَ بذلك شركاؤُهم، وأن تكونَ ابتدائيةً؛ تنبيهاً على أنَّ الأخذَ في غاية العُنف؛ لأنه إذا لم يبتدئ من جهته سبحانه واقيةٌ لم يكن لهم باقيةٌ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذُ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسببِ أنَّهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ والأحكامِ الواضحة ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ رَيْثَما أتَتْهم رسلُهم بذلك ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾ متمكِّنٌ مما يريده عزَّ وجلَّ غايةَ التمكُّن ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ لا يُعتَدُّ بعقابٍ عند عقابِه سبحانه، وهذا بيانٌ للإجمال في قوله تعالى: (فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ) إن كانت الباءُ هناك سببيةً، وبيانٌ لسببِ الأخذ إن كانت للملابَسة، أي: أَخذَهم ملابِسين لذنوبهم غيرَ تائبين عنها، فتأمل.

---

(١) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٥.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي معجزاتُه عليه السلام ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣﴾ حجَّةٍ قاهرةٍ ظاهرةٍ، والمرادُ بذلك قيل: ما أُريدَ بالآيات، ونزِّل تغايرُ الوصفين منزلةَ تغايُرِ الذاتَيْنِ، فعُطف الثاني على الأول.

وقيل: المرادُ به بعضٌ مِن آياته له شأنٌ كالعصا، وعُطِف عليها تفخيماً لشأنه كما عُطف جبريلُ وميكال عليهما السلام على الملائكة[1].

وتعقِّب بأنَّ مثلَه إنَّما يكونُ إذا غُيِّر الثاني بعلمٍ أو نحوه، أما مع إبهامه ففيه نظرٌ.

وحكى الطبرسيُّ أنَّ المرادَ بالآيات حُجَجُ التوحيد، وبالسلطان المعجزاتُ الدالَّةُ على نبوَّتِه عليه السلام[2].

وقيل: الآياتُ: المعجزاتُ، والسلطانُ: ما أوتيه عليه السلام من القوَّة القدسية، وظهورُها باعتبارِ ظهورِ آثارها من الإقدامِ على الدعوة من غيرِ اكتراثٍ.

وقرأ عيسى: «سُلُطان» بضمِّ اللام[3].

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيرُ فرعون، وزَعْمُ اليهود أنَّه لم يكن لفرعونَ وزيرٌ يُدْعى: هامان، وإنما هامان ظالمٌ جاء بعد فرعون بزمان مديدٍ ودهرٍ داهرٍ = نَفْيٌ جاءهم من اختلال أمرِ كتبِهم وتواريخِ فرعون؛ لطولِ العهد وكثرة المِحَن التي ابْتُلُوا بها، فاضمحلَّت منها أنفسُهم وكتبُهم.

﴿وَقَٰرُونَ﴾ قيل: هو الذي كان من قوم موسى عليه السلام، وقيل: هو غيرُه، وكان مقدَّم جنودِ فرعون، وذِكْرُهما من بين أتباع فرعون؛ لمكانَتِهما في الكفر وكونِهما أشهرَ الأتباع.

وفي ذكرِ قصة الإرسال إلى فرعون ومَن معه وتفصيلِ ما جرى تسليةٌ لرسول الله ﷺ وبيانٌ لعاقبةِ مَن هو أشدُّ الذين كانوا من قبلُ وأقربُهم زماناً، ولذا خُصَّ ذلك بالذكر، ولا بُعدَ في كونِ فرعونَ وجنودِه أشدَّ من عادٍ.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ الآية [البقرة: ٩٨].

(٢) مجمع البيان ٥/ ١٩٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٤، والبحر المحيط ٧/ ٤٥٩.

﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ﴾ أي: هو - يَعْنُون موسى عليه السلام - ساحرٌ فيما أظهرَ مِن المعجزاتِ ﴿كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ في دعواه أنه رسولٌ مِن ربِّ العالمين.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وبلَّغهم أمرَ الله تعالى غيرَ مكترثٍ بقولهم: ساحرٌ كذابٌ ﴿قَالُوا﴾ غيظاً وحَنَقاً وعَجْزاً عن المعارضة: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي: أَعِيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم أولاً كَي تصدُّوهم عن مظاهَرةِ موسى عليه السلام، فالأمرُ بالقتل والاستحياءِ وقع مرَّتين: المرَّةُ الأولى حين أخبَرَت الكَهَنةُ والمنجِّمون في قولِ فرعونَ بمولودٍ من بني إسرائيل يسلبُه ملكَه، والمرَّةُ الثانية هذه، وضميرُ «قالوا» لفرعونَ ومَن معه.

وقيل: إنَّ قارونَ لم يصدُرْ منه مثلُ هذه المقالةِ لكنَّهم غلَّبوا عليه.

﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ في ضَياعٍ، مِن ضَلَّت الدابةُ: إذا ضَاعت، والمرادُ أنه لا يفيدُهم شيئاً، فالعاقبةُ للمتقين.

واللامُ إمَّا للعهد والإظهارُ في موضع الإضمار لذمِّهم بالكفر والإشعارِ بعلَّة الحكم، أو للجنس والمذكورون داخلون فيه دخولاً أوليًّا.

والجملةُ اعتراضٌ جيء به في تضاعيفِ ما حُكي عنهم من الأباطيلِ للمسارَعةِ إلى بيانِ بُطلانِ ما أظهروه من الإبراق والإرعاد، واضمحلالِه بالمرَّة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كان إذا همَّ بقتله كفُّوه بقولهم: ليس بالذي تخافه، وهو أقلُّ من ذلك وأضعفُ، وما هو إلا ساحرٌ يقاومه ساحرٌ مثلُه، وإنَّك إذا قتلتَه أدخلتَ الشبهةَ على الناس، واعتقدوا أنك عجزتَ عن مظاهَرته بالحجَّة.

والظاهرُ أنه لعنه الله تعالى استيقن أنه عليه السلام نبيٌّ، ولكن كان فيه خبٌّ وجَرْبَزَة[1]، وكان قتَّالاً سفَّاكاً للدماء في أهون شيءٍ، فكيف لا يقتُل مَن أحسَّ منه بأنَّه الذي يُثلُّ عرشَه ويهدِمُ ملكَه؟ ولكنَّه يخاف إن همَّ بقتله أن يعاجَل بالهلاك، فقولُه: «ذروني» إلخ كان تمويهاً على قومه وإيهاماً أنَّهم هم الذين يكفُّونه، وما كان يكُفُّه إلا ما في نفسه من هول الفزَع، ويُرشد إلى ذلك قولُه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ لأنَّ

---

(١) الجَرْبَزَة: الخبث. القاموس (جربز).

ظاهرَه الاستهانةُ بموسى عليه السلام بدعائه ربَّه سبحانه كما يقال: ادْعُ ناصرَك فإني منتقِمٌ منك، وباطنُه أنَّه كان تُرعَدُ فرائصُه من دعاء ربِّه، فلهذا تكلَّم به أوَّلَ ما تكلَّم وأظهرَ أنه لا يبالي بدعاءِ ربِّه، وما هو إلَّا كمن قال: ذروني أفعلْ كذا وما كان فليكن، وإلَّا فما لمن يدَّعي أنه ربُّهم الأعلى أن يجعلَ لِما يدَّعيه موسى عليه السلام وزناً، فيتفوَّهَ به تهكُّماً أو حقيقةً.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتلْه ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغيِّر حالَكم الذي أنتم عليه من عبادتي وعبادةِ الأصنام، وكان عليه اللعنة قد أمَرَهم بنحتِها، وأن تُجعلَ شفعاءَ لهم عندَه كما كان كفَّارُ مكة يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ولهذا المعنى أضافوا الآلهةَ إليه في قولهم: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧] فهي إضافةُ تشريفٍ واختصاصٍ، وهذا ما ذهب إليه بعضُ المفسرين.

وقال ابن عطية[١]: الدين: السلطانُ، ومنه قولُ زهير:

لئن حَلَلْتَ بحيٍّ من بني أسدٍ ... في دِين عمرٍو وحالت بينَنا فَدَكُ[٢]

أي: إني أخاف أن يغيِّرَ سلطانَكم ويستذلَّكم ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾ إن لم يقدرْ على تغييرِ دينكم بالكلية ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦﴾ وذلك بالتهارُجِ الذي يذهب معه الأمن وتتعطَّلُ المزارعُ والمكاسبُ ويهلك الناسُ قتلاً وضَياعاً، فالفسادُ الذي عناه فسادُ دنياهم، فيكون حاصلُ المعنى على ما قرِّر أولاً: إني أخاف أن يفسدَ عليكم أمرَ دينِكم بالتبديل، أو يفسدَ عليكم أمرَ دنياكم بالتعطيل، وهما أمران كلٌّ منهما مُرٌّ، ونحو هذا يقال على المعنى الثاني للدين.

وعن قتادة أنَّ اللعين عنى بالفساد طاعةَ الله تعالى[٣].

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٥.

(٢) ديوان زهير ص١٨٣، ورواية الديوان، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥٥، والبحر ٧/ ٤٥٩، واللسان (فدك)، والتاج (فدك): حللت بجوٍّ، وأورده في اللسان (خوو)، والتاج (خوو) بلفظ: حللت بخوٍّ، بالخاء الفوقية. قوله: فَدَك، قرية بخيبر، فيها عين ونخل، أفاءها الله على نبيه ﷺ.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٨٠، وتفسير الطبري ٢٠/ ٣١٠.

وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو: «وأن» بالواو الواصلة[1].

وقرأ الأعرج والأعمش وابن وثاب وعيسى وابن كثير وابن عامر والكوفيون غير حفص: «يَظْهَر» بفتح الياء والهاء، «الفسادُ» بالرفع[2].

وقرأ مجاهد: «يَظَّهَّر» بتشديد الظاء والهاء، «الفسادُ» بالرفع.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «يُظْهَر» بضم الياء وفتح الهاء مبنيًّا للمفعول، «الفسادُ» بالرفع[3].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لَمَّا سمع بما أجراه اللعينُ من حديثِ قتله: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ قاله عليه السلام مخاطِباً به قومَه على ما ذهب إليه غيرُ واحد، وذلك أنَّه لَمَّا كان القولُ السابقُ من فرعون خطاباً لقومه على سبيلِ الاستشارة وإجالة الرأي، لا بمحضَرٍ منه عليه السلام، كان الظاهرُ أنَّ موسى عليه السلام أيضاً خاطبَ قومَه لا فرعونَ وحاضريه بذلك، ويؤيِّده قولُه تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ﴾ [الآية: ١٢٨] في هذه القصة بعينها، وقولُه تعالى هنا: «وربِّكم»، فإنَّ فرعون ومَن معه لا يعتقدون ربوبيتَه تعالى، وإرادةُ أنَّه تعالى كذلك في نفس الأمر لا يضُرُّ في كونه مؤيّداً؛ لأنَّ التأييدَ مدارُه الظاهرُ.

وصدِّر الكلام بـ «إنَّ» تأكيداً وتنبيهاً على أنَّ السببَ المؤكَّد في دفع الشرِّ هو العياذُ بالله تعالى، وخُصَّ اسمُ الربِّ لأنَّ المطلوبَ هو الحفظُ والتربيةُ، وأضافه إليه وإليهم حثًّا لهم على موافَقتِه في العياذِ به سبحانه والتوجُّهِ التامِّ بالروح إليه جلَّ شأنُه، لِما في تظاهُرِ الأرواح مِن استجلابِ الإجابة، وهذا هو الحكمةُ في مشروعية الجماعة في العبادات.

و«من كلٍّ» على معنى: من شرِّ كلّ، وأراد بالتكبُّرِ الاستكبارَ عن الإذعان

---

(١) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٥، والبحر ٧/ ٤٦٠، وزادوا: ابن عامر وابن كثير.
(٢) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٥ عن ابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٦٠.

للحقِّ، وهو أقبحُ استكبارٍ وأدلُّه على دناءةِ ومهانةِ نفسِه وعلى فرطِ ظلمه وعَسْفِهِ، وضَمَّ إليه عدمَ الإيمان بيوم الجزاء ليكونَ أدلَّ وأدلَّ، فمن اجتمع فيه التكبُّرُ والتكذيبُ بالجزاء وقلَّةُ المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسبابَ القسْوةِ والجراءةِ على الله تعالى وعبادِه، ولم يتركْ عظيمةً إلا ارتكبها.

واختير المنزَّل دون: منه، سلوكاً لطريقِ التعريض؛ لأنَّه كلامٌ واردٌ في عرضهم فلا يلبسون جلدَ النمر[1] إذا عُرض عليهم، مع ما في ذلك من الدلالة على علَّة الاستعاذة، ورعايةِ حقِّ تربية اللعين له عليه السلام في الجملة.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائيُّ: «عُتُّ» بإدغام الذال المعجمة في التاء بعدَ قلبِها تاءً[2].

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قيل: كان قبطيًّا ابنَ عمِّ فرعون، وكان يجري مَجرى وليِّ العهد ومَجرى صاحب الشرطة.

وقيل: كان إسرائيليًّا. وقيل: كان غريباً ليس من الفئتَين. ووصفُه على هذين القولين بكونه من آلِ فرعون باعتبارِ دخوله في زمرتهم وإظهارِ أنَّه على دينهم وملَّتهم تقيةً وخوفاً، ويقال نحو هذا في الإضافة في «مؤمن آل فرعون» الواقع في عدَّة أخبار[3].

وقيل: «من آل فرعون» على القولين متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ والتقديمُ للتخصيص، أي: رجلٌ مؤمن يكتُم إيمانَه من آل فرعون دونَ موسى عليه السلام ومَن اتبعَه؛ ولا بأس على هذا في الوقف على «مؤمن».

واعتُرِض بأنَّ «كتم» يتعدَّى بنفسه دونَ «من»، فيقال: كتمت فلاناً كذا، دون: كتمت مِن فلانٍ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وقال الشاعر:

---

(١) مثل يضرب في إظهار العداوة وكشفها، يقال: لبست له جلد النمر، إذا أظهرت له العداوة الشديدة. جمهرة الأمثال ٢/ ١٩٩، ومجمع الأمثال ٢/ ١٨٠.
(٢) النشر ٢/ ١٦.
(٣) منها ما في مسند البزار (٧٦١)، ومسند الفردوس (٣٨٦٦).

كتَمْتُك ليلاً بالجَمُومَيْن ساهِرا ... وهمَّين همَّا مُستكِنًّا وظاهِرا
أحاديثَ نفْسٍ تشْتكِي ما يَريبُها ... وَوِردَ هُمومٍ لن يَجِدْن مَصادِرا[(١)]

وأراد على ما في «البحر»: كتمتُكَ أحاديثَ نفسٍ وهمَّيْن[(٢)].

وفيه أنه صرَّح بعضُ اللغويين بتعدِّيه بـ «من» أيضاً، قال في «المصباح»: كَتَم من بابِ قَتَل يتعدَّى إلى مفعولين، ويجوز زيادةُ «مِن» في المفعول الأول فيقال: كتمتُ من زيدٍ الحديثَ كما يقال: بعتُه الدار وبعتُها منه[(٣)].

نعم تعلُّقه بذلك خلاف الظاهر، بل الظاهرُ تعلُّقه بمحذوفٍ وقع صفةً ثانيةً لـ «رجل»، والظاهرُ على هذا كونُه مِن آلِ فرعونَ حقيقةً، وفي كلامه المحكيِّ عنه بعدُ ما هو ظاهرٌ في ذلك.

واسمه: قيل: شمعان، بشينٍ معجمة. وقيل: خِرْبِيل، بخاء معجمة مكسورة وراء مهملة ساكنة. وقيل: حِزْبيل، بحاء مهملة وزاي معجمة. وقيل: حبيب.

وقرأ عيسى وعبد الوارث وعبيد بن عقيل وحمزة بن القاسم عن أبي عمرو: «رجْلٌ» بسكون الجيم، وهي لغةُ تميمٍ ونجد[(٤)].

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أي: أتقصدون قتلَه، فهو مجازٌ ذُكر فيه المسبَّبُ وأريد السببُ، وكونُ الإنكار لا يقتضي الوقوعَ لا يصحِّحه من غير تجوُّزٍ.

﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي: لأن يقولَ ذلك ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الشاهدةِ على صدقه، من المعجزات والاستدلالاتِ الكثيرةِ، وجمعُ المؤنَّث السالم ـ وإن شاع أنَّه للقلَّة ـ لكنَّه إذا دخلت عليه «أل» يفيد الكثرةَ بِمَعُونة المقام.

---

(١) البيتان للنابغة الذبياني، وهما في ديوانه ص٦٣، والجَمُومَيْن: قال في اللسان (جمم): الجَموم: البئر الكثيرة الماء، وقوله: كتمتك ليلاً بالجمومين، يجوز أن يعني رَكِيَّتَيْن قد غلبت هذه الصفة عليهما، ويجوز أن يكونا موضعين.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٦٠.

(٣) المصباح المنير (كتم).

(٤) البحر ٧/ ٤٦٠.

والجملة حاليةٌ من الفاعل أو المفعول، وهذا إنكارٌ من ذلك الرجُل عظيمٌ، وتبكيتٌ لهم شديدٌ، كأنه قال: أترتكبون الفعلةَ الشنعاءَ التي هي قتلُ نفسٍ محرَّمةٍ، وما لكم عليه في ارتكابها إلَّا كلمةُ الحقِّ التي نطق بها وهي قوله: «ربي الله»، مع أنه قد جاءكم بالبيناتِ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: من عند مَن نسب إليه الربوبية، وهو ربُّكم لا ربُّه وحده، وهذا استدراجٌ إلى الاعتراف.

وفي «أن يقولَ ربي الله» إلى «من ربكم» نكتةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ مَن يقول: ربي اللهُ أو فلانٌ، لا يقتضي أن يقابَلَ بالقتل، كما لا تقابَلون بالقتل إذا قُلتم: ربُّنا فرعون، كيف وقد جعل ربَّه مَن هو ربُّكم، فكان عليكم بأن تعزِّرُوه وتوقِّروه، لا أن تخذُلوه وتقتُلوه.

وجوَّز الزمخشريُّ[1] كونَ «أن يقول» على تقديرِ مضافٍ، أي: وقتَ أن يقول، فحُذِف الظرفُ فانتصب المضافُ إليه على الظرفية لقيامِه مقامَه، والمعنى: أتقتلونه ساعةَ سمِعتم منه هذا القولَ من غير رويَّةٍ ولا فكرٍ في أمره.

وردَّه أبو حيان[2] بأنَّ القائمَ مقامَ الظرف لا يكون إلا المصدرَ الصريحَ، كـ: جئت صياحَ الديك، أو ما كان بـ «ما» الدوامية، دون الغير الصريح، كـ: جئت أن صاح ـ أو أن يصيحَ ـ الديك.

وفيه أنَّ ابنَ جنيٍّ كالزمخشريِّ صرَّح بالجواز[3]، وكلٌّ إمامٌ.

ثم إنَّ الرجلَ احتاط لنفسه خشيةَ أن يعرفَ اللعينُ حقيقةَ أمره فيبطش به، فتلطَّف في الاحتجاج فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطَّاه وبالُ كذبه فيحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فلا أقلَّ من أن يصيبَكم بعضُ الذي يعدكم أو يَعِدُكموه، وفيه مبالغةٌ في التحذير، فإنَّه إذا حذَّرهم من إصابة البعض أفاد أنَّه مُهلكٌ مَخوفٌ، فما بالُ الكلِّ؟ وإظهارٌ للإنصاف وعدم التعصُّبِ، ولذا قدَّم احتمالَ كونه كاذباً.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٢٤.

(٢) في البحر ٧/ ٤٦٠.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٣٦٨.

وقيل: المراد: يصبكم ما يعدُكم من عذاب الدنيا وهو بعضُ مواعيدِه، كأنه خوَّفهم بما هو أظهرُ احتمالاً عندَهم.

وقيل: «بعض» بمعنى «كلٍّ»، وأنشدوا لذلك قولَ عمرو القطاميِّ:

قد يُدْرِكُ المتأنِّي بعضَ حاجته وقد يكونُ معَ المستَعْجِل الزَّلَلُ[1]

وذهب الزجَّاجُ[2] إلى أنَّ «بعض» فيه على ظاهره، والمراد إلزام الحجَّة وإبانةُ فضلِ المتأنِّي على المستعجل بما لا يقدر الخصمُ أن يدفعَه، فالبيت كالآية على الوجه الأول، وأنشدوا لمجيء «بعض» بمعنى «كل» قولَ الشاعر:

إنَّ الأمورَ إذا الأحداثُ دبَّرها دونَ الشيوخِ ترى في بعضِها خَلَلا[3]

ولا يتعيَّن فيه ذلك كما لا يخفى.

وعن أبي عبيدة أنَّه فسَّر البعضَ بالكلِّ أيضاً، وأنشدَ قول لبيد:

تـرَّاكُ أمْكِنَةٍ إذا لم أرْضَها أو يَرْتَبِطْ بعضَ النُّفُوسِ حمامُها[4]

حَمَل البيتَ على معنى: لا أزال أنْتَقِل في البلاد إلى أن لا يبقى أحدٌ أقصدُه من العباد. والمحقِّقون على أنَّ البعضَ فيه على ظاهرِه والمرادُ به نفسُه، والمعنى: لا أزال أترُكُ ما لم أرضَه من الأمكنةِ إلا أن أموتَ.

وقال الزمخشريُّ: إن صحَّت الروايةُ عن أبي عبيدة في ذلك فقد حقَّ فيه قولُ المازني في مسألة العَلْقى: كان أجفى من أن يفقهَ ما أقولُ له[5]. وفيه مبالغةٌ في الردِّ.

---

(١) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٢٥.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٢.

(٣) البيت في بهجة المجالس ٣/ ٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٤٦١ دون نسبة، ونسبه في طبقات الشعراء ص٤٤٣ لإسحاق بن خلف وهو الخريمي.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٩٤، والبيت فيه وفي شرح ديوان لبيد ص٣١٣ برواية: أو يعتلق بعض النفوس. . .، وقد سلف البيت ٧/ ٢٣٩.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٥. وأشار الزمخشري بذلك إلى خبر أبي عبيدة مع المازني، حيث قال أبو عثمان المازني: قال لي أبو عبيدة: ما أكذبَ النحويين! فقلتُ له: لم قلتَ ذلك؟ قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ احتجاجٌ آخَرُ ذو وجهين: أحدهما أنَّه لو كان مُسرِفاً كذَّاباً لَمَا هداه الله تعالى إلى البيِّنات، ولَمَا عَضَده بتلك المعجزات، وثانيهما إن كان كذلك خَذَلَه الله تعالى وأهْلَكَه فلا حاجةَ لكم إلى قتله. ولعلَّه أراد به المعنى الأولَ، وأوهَمَهم أنه أراد الثانيَ لِتَلِيْنَ شكيمتُهم؛ وعرَّض لفرعون بأنه مُسْرِفٌ، أي: في القتل والفسادِ، كذَّابٌ في ادِّعاء الربوبيةِّ، لا يهديه الله تعالى سبيلَ الصواب ومنهاجَ النجاة، فالجملةُ مستأنَفةٌ متعلِّقةٌ معنًى بالشرطية الأولى، أو بالثانية، أو بهما.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عالِين على بني إسرائيل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أرض مصرَ، لا يقاومكم أحدٌ في هذا الوقت ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ مِن أخْذِه وعذابه سبحانه ﴿إِن جَآءَنَا﴾ أي: فلا تُفسِدوا أمرَكم ولا تتعرَّضُوا لبأسِ الله تعالى بقتلِه، فإنَّه إن جاءنا لم يمنعَنا منه أحدٌ، فالفاء في «فمن» إلخ فصيحةٌ، والاستفهامُ إنكاريٌّ، وإنما نَسَب ما يَسُرُّهم من المُلك والظهورِ في الأرض إليهم خاصَّةً، ونَظَم نفسَه في سلكهم فيما يسوءُهم من مجيء بأسِ الله تعالى؛ تطييباً لقلوبهم وإيذاناً بأنه مُناصِحٌ لهم ساعٍ في تحصيلِ ما يُجدِيهم ودَفْعِ ما يُردِيهم سعيَه في حقِّ نفسه ليتأثَّروا بنُصْحِه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعدَما سمِع ذلك ﴿مَآ أُرِيكُمْ﴾ أي: ما أُشيرُ عليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ إلا الذي أَراه وأستَصْوِبه مِن قتلِه، يعني: لا أستَصْوِبُ إلا قتلَه، وهذا الذي تقولونه غيرُ صواب.

= يقولون: إنَّ هاء التأنيث لا تدخل على ألف التأنيث، وإن الألف التي في «عَلْقى» ملحقة ليست للتأنيث. قال: فقلتُ: وما أنكرتَ من ذاك؟ قال سمعتُ رؤبة يُنْشد:

فحطَّ في عَلْقَى وفي مُكُورِ

فقلت له: ما واحد العلقى؟ فقال: عَلقاة. قال أبو عثمان: فَلَمْ أفسِّر له؛ لأنه كان أغلظ من أن يفهمَ مثلَ ذلك. إنباه الرواة على أنباه النحاة ١/٢٥٣-٢٥٤، والبرهان ٢/٢٦٨. والعلقى: شجر تدوم خضرته في القيظ، ولها أفنان طوال دقاق، وورقٌ لطاف. اللسان (علق).

﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩﴾ طريقَ الصواب والصلاح، أو ما أُعلمُكم إلا ما أعلَمُ من الصواب، ولا أَدَّخِرُ منه شيئاً، ولا أُسِرُّ عنكم خلافَ ما أُظهِر، يعني أنَّ لسانَه وقلبَه متواطِئان على ما يقول، وقد كذب عدوُّ الله، فقد كان مستشعِراً للخوفِ الشديد من جهةِ موسى عليه السلام، لكنَّه كان يتجلَّدُ، ولولا استشعارُه لم يستَشِرْ أحداً.

وعن معاذ بن جبل والحسن أنهما قرأا: «الرَّشَّاد» بشدِّ الشين[1]، على أنه فعَّالٌ للمبالغة مِن رَشِد بالكسر كعلَّام من عَلِم، أو من رشَد بالفتح كعبَّاد مِن عَبَد.

وقيل: هو مِن أَرْشَدَ المَزيدِ كجبَّار من أَجْبَرَ. وتعقِّب بأن فعَّالاً لم يجئ من المزيد إلا في عدَّةِ أحرُفٍ نحو: جبَّار ودرَّاك وقصَّار وسآَّر، ولا يحسُن القياسُ على القليل، مع أنَّه ثبت في بعضه كجبَّار سماعُ الثلاثي فلا يتعيَّنُ كونُه من المزيد، فقد جاء: جَبَره على كذا، ك : أَجْبَره، وقصَّار كجبَّار عندَ بعضٍ لا يتعيَّن كونُه من: أَقْصَرَ، لمجيءِ: قَصَر عن الشيء، ك : أَقْصَرَ عنه، وحُكي عن الجوهريِّ أنَّ الإقصارَ كفٌّ مع قدرةٍ، والقَصْر كفٌّ مع عَجْزٍ[2]، فلا يتمُّ هذا عليه.

وأمَّا: درَّاك وسآَّر، فقد خُرِّجا على حذف الزيادة تقديراً لا استعمالاً، كما قالوا: أبقل المكان فهو باقل، وأوْرَسَ الرِّمْثُ فهو وَارِس[3]، قال ابن جنِّي: وعلى هذا خُرِّج «الرشَّاد»، فيكون من رَشَد بمعنى أَرْشَد تقديراً لا استعمالاً؛ فإنَّ المعنى على ذلك، ثم قال: فإن قيل: إذا كان المعنى على أرشد، فكيف أجزتَ أن يكون من رَشِد المكسورِ، أو من رَشَد المفتوح؟ قيل: المعنى راجعٌ إلى أنه مُرشِدٌ، لأنَّه إذا رَشِد أرشد؛ لأنَّ الإرشاد من الرشَد، فهو من باب الاكتفاء بذكر السبب عن المسبَّب[4]. انتهى.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٤١، والبحر ٧/ ٤٦٢.
(٢) الصحاح (قصر).
(٣) أي: اصفرَّ ورقه. والرِّمْث: شجر يشبه الغضى. القاموس (ورس) و(رمث).
(٤) المحتسب ٢/ ٢٤١-٢٤٢.

وقيل: أُجِيزَ ذلك لأنَّ المبالغةَ في الرَّشَد تكون بالإرشاد كما قرَّرُوا في قيُّومٍ وطَهُورٍ.

وقال بعض المحقِّقين: إنَّ رَشَد بمعنى اهتدى، فالمعنى: ما أَهديكم إلَّا سبيلَ مَن اهتدى وعظُم رُشْدُه، فلا حاجةَ إلى ما سمعتَ، وإنما يُحتاج إليه لو وَجَب كونُ المعنى: ما أهديكم إلا سبيلَ مَن كثُر إرشادُه، ومن أين وجب ذلك؟!

وجوِّز كونُ فعَّال في هذه القراءة للنسبة كما قالوا: عوَّاج، لبيَّاع العاج، وبتَّات، لبيَّاع البتِّ، وهو كساءٌ غليظ، وقيل: طيلسانٌ من خزٍّ أو صُوفٍ.

وأنكر بعضُهم كونَ القراءة على صيغة فعَّال في كلام فرعون، وإنَّما هي في قول الذي آمن: (يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ)، فإنَّ معاذَ بن جبل كان ـ كما قال أبو الفضل الرازي وأبو حاتم[1] ـ يفسِّرُ «سبيل الرشاد» على قراءته بسبيل الله تعالى، وهو لا يتسنَّى في كلام فرعون كما لا يخفى، وستعلم إن شاء الله تعالى أنَّ معاذاً قرأ كذلك في قول المؤمن، فلعلَّ التفسيرَ بسبيل الله عزَّ وجلَّ كان فيه، دونَ كلام فرعون، والله تعالى أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ الجمهورُ على أنه الرجلُ المؤمنُ الكاتمُ إيمانَه القائلُ: «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله»، قوَّى اللهُ تعالى نفسَه وثبَّت قلبَه فلم يَهَبْ فرعونَ ولم يعْبَأ به، فأتى بنوعٍ آخَرَ من التهديدِ والتخويفِ فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠﴾ إلى آخره.

وقالت فرقةٌ: كلامُ ذلك المؤمن قد تمَّ، والمرادُ بـ «الذي آمن» هنا هو موسى عليه السلام، واحتجَّتْ بقوَّةِ كلامه. وعلى الأول المعوَّلُ، أي: قال ناصحاً لقومه: يا قوم إني أخاف عليكم في تكذيب موسى عليه السلام والتعرُّضِ له بالسوء أن يَحُلَّ بكم مثلُ ما حلَّ بالذين تحزَّبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية.

واليوم: واحدُ الأيام بمعنى الوقائع، وقد كثُر استعمالُها بذلك حتى صار حقيقةً

(١) كما في البحر ٧/ ٤٦٢.

عُرفيَّةً، أو بمعناها المعروف لغةً، والكلام عليه على حذفِ مضافٍ، أي: مثلُ حادثِ يومِ الأحزاب.

وأيًّا ما كان فالظاهرُ جمعُ اليوم، لكن جَمْعُ «الأحزاب» المضافِ هو إليه مع التفسير بما بعدُ أغنى عن جمعه، والمعنى عليه، ورجِّح الإفراد بالخفَّة والاختصار.

وقال الزجَّاج[١]: المرادُ: يومُ حزبٍ حزبٍ، بمعنى أنَّ جمعَ حزبٍ مرادٌ به شمولُ أفرادِه على طريق البدل. وهو تأويلٌ في الثاني، وما تقدَّم أظهرُ.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: مثلَ جزاءِ دأبِهم، أي: عادتِهم الدائمةِ من الكفر وإيذاءِ الرسل، وقُدِّر المضافُ؛ لأنَّ المَخُوفَ في الحقيقة جزاءُ العملِ لا هو، وجاء هذا من نصب «مثل» الثاني على أنه عطفُ بيانٍ لـ «مثل» الأول؛ لأنَّ آخِرَ ما تناولتْه الإضافةُ قومُ نوح، ولو قلتَ: أهلك اللهُ الأحزابَ: قومَ نوح وعاد وثمودَ، لم يكن إلَّا عطفَ بيانٍ لإضافةِ قومٍ إلى أعلامٍ، فسَرَى ذلك الحكمُ إلى أوَّلِ ما تناولتْه الإضافةُ.

وقال ابنُ عطية: هو بدلٌ من «مثل» الأول[٢]، والاحتياجُ إلى تقديرِ المضاف على حاله.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ أي: فما فعل سبحانه بهؤلاء الأحزاب لم يكن ظلماً، بل كان عدلاً وقسطاً؛ لأنه عزَّ وجلَّ أرسل إليهم رسلَهم بالبينات فكذَّبوهم وتحزَّبوا عليهم، فاقتضى ذلك إهلاكَهم، وهذا أبلغ من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] من حيثُ جعل المنفيّ فيه إرادةَ الظلم؛ لأنَّ مَن كان عن إرادةِ الظلم بعيداً كان عن الظلم نفسِه أبعدَ، وحيثُ نكَّر الظلمُ كأنه نَفى أن يُريدَ ظلماً مَّا لعباده.

وجوَّز الزمخشريُّ أن يكونَ معناه كمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] أي: لا يريد سبحانه لهم أن يَظْلِمُوا، يعني أنَّه عزَّ وجلَّ دمَّرهم؛ لأنهم

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨.

كانوا ظالمين(١). ولا يخفى أنَّ هذا المعنى مرجوحٌ لفظاً ومعنًى.

ثم لا حجَّة للمعتزلة لثبوتِ الفرقِ بين: أراده منه، وأراده له، فلو سلِّم أنَّه سبحانه لا يريد لهم أن يَظْلِموا لم يَلْزَم أن لا يريدَه منهم، والممتَنِعُ عند أهلِ السنة هو هذا، فلا احتياجَ إلى صرْفِ الآية عن الظاهرِ عندَهم أيضاً.

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾ خوَّفهم بالعذاب الأخرويِّ بعد تَخْوِيفهم بالعذاب الدنيوِيِّ. و«التناد» مصدَرُ تَنَادَى القومُ، أي: نادَى بعضُهم بعضاً، و«يومُ التناد» يومُ القيامة، سمِّي بذلك؛ لأنَّه يُنادِي فيه بعضُهم بعضاً للاستغاثة، أو يتَصَايَحُون فيه بالويل والثُّبور، أو لتنادِي أهلِ الجنة وأهلِ النار كما حُكي في سورة الأعراف، أو لأنَّ الخلقَ يُنادَون إلى المحشر، أو لنداء المؤمن: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩] والكافرِ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وعن ابن عباس أنَّ هذا التنادي هو التنادي الذي يكونُ بين الناس عندَ النفْخِ في الصورِ ونفخة الفَزَعِ في الدنيا، وأنَّهم يَفِرُّون على وجوهِهم للفَزَع الذي نالَهم، ويُنادِي بعضُهم بعضاً(٢)، وروي هذا عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ(٣).

وقال ابن عطية: يحتمل أن يرادَ التذكيرُ بكلِّ نداءٍ في القيامة فيه مشقَّةٌ على الكفَّارِ والعُصاة(٤).

وقرأت فرقة: «التنادْ» بسكون الدال في الوصل إجراءً له مُجرى الوقف(٥).

وقرأ ابن عباس والضحَّاكُ وأبو صالح والكلبيُّ والزعفرانيُّ وابن مقسم: «التنادّ»

---

(١) الكشاف ٣/٤٢٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٥٥٨.

(٣) يريد به ما جاء في حديث الصور: يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع...، إلى أن قال: ويولّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۞ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾. وقد تقدم تخريجه ٢٣/٥٠١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٥٥٨.

(٥) تفسير القرطبي ١٨/٣٥٥، والبحر ٧/٤٦٤.

بتشديد الدال[١]. من ندَّ البعيرُ: إذا هَرب، أي: يوم الهرَبِ والفِرارِ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآيةَ [عبس: ٣٤]، وفي الحديث: «إنَّ للناسِ جَولةً يومَ القيامة يندُّون يظنُّون أنَّهم يجدُون مهرباً»[٢].

وقيل: المرادُ به يومُ الاجتماعِ، مِن نَدا: إذا اجتمع، ومنه النادي.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ بدلٌ من «يوم التناد» أي: يومَ تُولُّون عن الموقِفِ منصرِفين عنه إلى النار. وقيل: فارِّين من النار، فقد رُوي أنهم إذا سمِعوا زَفيرَ النارِ هَرَبوا فلا يأتون قطراً من الأقطار إلَّا وجدوا ملائكةً صفوفاً فلا ينفعهم الهرَبُ[٣]، ورُجِّح هذا القول بأنَّه أتمُّ فائدةً وأظهرُ ارتباطاً بقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: يعصِمُكم في فِرارِكم حتى لا تعذَّبُوا في النار، قاله السديُّ. وقال قتادة: أي: ما لكم في الانطلاق إلى النار من مانعٍ يمنعكم منها أو ناصرٍ[٤]، وهذا ما يقال على المعنى الأول لـ «يوم تولُّون مُدْبِرين» وأيًّا ما كان فالجملةُ حالٌ أخرى من ضميرِ «تولون».

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ يَهديه إلى طريقِ النجاة أصلاً، وكأنَّ الرجلَ يئِسَ من قبولهم نُصْحَه فقال ذلك، ثم وبَّخهم على تكذيبِ الرُّسُلِ السالفين فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوبَ عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الأمورِ الظاهرةِ الدالَّةِ على صِدْقه ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ من الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ بالموتِ ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ غايةٌ لقوله: «فما زلتم»، وأرادوا بقولهم: «لن يبعث الله من بعده رسولا» تكذيبَ رسالتِه ورسالةِ غيرِه، أي: لا رسولَ فَيُبْعَثَ، فهم بعدَ الشكِّ بتُّوا بهذا التكذيب، ويكون ذلك ترقِّياً.

ويجوز أن يكونَ الشكُّ في رسالتِه على حاله وبَتُّهم إنَّما هو بتكذيبِ رسالةِ غيرِه مِن بعدِه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٤٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨، والبحر ٧/ ٤٦٤.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٥٥ دون نسبة.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٣١٩ عن الضحاك بن مزاحم.
(٤) البحر ٧/ ٤٦٤.

وقيل: يحتمل أن يكونوا أظهروا الشكَّ في حياتِه حسداً وعِناداً، فلمَّا مات عليه السلام أقرُّوا بها وأنكروا أن يَبْعَثَ اللهُ تعالى مِن بعده رسولاً. وهو خلافُ الظاهر.

ومجيء يوسفَ بنِ يعقوبَ عليهما السلام المخاطبين بالبيناتِ قيل: من بابِ نسبةِ أحوالِ الآباء إلى الأولادِ، وكذلك نسبةُ الأفعالِ الباقيةِ إليهم.

وجوِّز كونُ بعضِ الذين جاءهم يوسفُ عليه السلام حقيقةً حيًّا؛ ففي بعضِ التواريخ أنَّ وفاةَ يوسفَ عليه السلام قبلَ مولدِ موسى عليه السلام بأربعٍ وستين سنةً، فيكونُ مِن نسبة حالِ البعض إلى الكلِّ.

واستظهر في «البحر» أنَّ فرعونَ يوسفَ عليه السلام هو فرعونُ موسى عليه السلام، وذَكر عن أشهب عن مالك أنه بلغه أنه عُمِّر أربعَ مئةٍ وأربعين سنةً[1]. والذي ذكره أغلبُ المؤرِّخين أنَّ فرعونَ موسى اسمُه: الريَّان، وفرعونَ يوسف اسمُه: الوليد.

وذكر القرطبيُّ أنَّ فرعونَ الأول من العمالقة، وهذا قبطيٌّ، وفرعون يوسف عليه السلام مات في زمنه[2]. وأختار القولَ بتغايُرِهما، وأمْرُ المجيءِ وما معه من الأفعال على ما سمعتَ.

وقيل: المراد بيوسف المذكور هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصدِّيق، أرسله الله تعالى نبيًّا فأقام فيهم عشرين سنةً، وكان من أمرهم ما قصَّ الله عزَّ وجلَّ.

ومن الغريب جدًّا ما حكاه النقَّاش والماورديُّ أنَّ يوسفَ المذكور في هذه السورة من الجنِّ بعثه الله تعالى رسولاً إليهم، نقله الجلال السيوطيُّ في «الإتقان»[3]، ولا يقبله مَن له أدنى إتقان، نعم القولُ بأنَّ للجنِّ نبياً منهم اسمه يوسف أيضاً مما عسى أن يُقْبل كما لا يخفى.

---

(١) البحر ٧/ ٤٦٤.

(٢) نقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٧١.

(٣) ٢/ ١٠٦٥، وكلام الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٥.

وقرئ: «ألن يبعث» بإدخالِ همزةِ الاستفهام على حرفِ النفْي[1]، كأنَّ بعضَهم يقرِّرُ بعضاً على نفْي البعثة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في العصيان ﴿مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ في دينهِ شاكٌّ فيما تشهَدُ به البيناتُ لغلبةِ الوهم والانهماكِ في التقليد.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من الموصول الأول أعني «مَن»، أو بيانٌ، أو صفةٌ له باعتبارِ معناه، كأنه قيل: كلَّ مُسرِفٍ مرتابٍ، أو المسرفين المرتابين. وجُوِّز نصبُه بـ «أعني» مقدَّراً.

وقولُه تعالى شأنه: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ على الأوْجُهِ المذكورةِ متعلِّق بـ «يجادلون»، وقولُه سبحانه: ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ صفةُ «سلطان»، والمرادُ بإتيانِه إتيانُه مِن جهتِه سبحانَه وتعالى؛ إمَّا على أيدي الرسُل عليهم السلام فيكونُ ذاك إشارةً إلى الدليل النقليِّ، وإمَّا بطريقِ الإفاضةِ على عُقولهم فيكونُ ذاك إشارةً إلى الدليل العقليِّ، وقد يُعمَّم فيكون المعنى: يُجادِلون بغير حجَّةٍ صالحةٍ للتمسُّك بها أصلاً، لا عقليةٍ ولا نقليةٍ.

وقولُه سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تقريرٌ لِما أَشْعَر به الكلامُ مِن ذمِّهم، وفيه ضربٌ من التعجُّب والاستعظامِ، وفاعلُ «كَبُر» ضميرٌ راجعٌ إلى الجدال الدالِّ عليه «يجادلون» على نحوِ: مَن كَذَب كان شرًّا له، أي: كبُر الجِدالُ في آياتِ الله بغيرِ حجَّةٍ مقتاً عند الله.. إلخ، أو إلى الموصول الأولِ وأُفْرِد رعايةً للفظهِ، واعتُرِض عليه بأنَّه حملٌ على اللفظ من بَعدِ الحمل على المعنى، وأهلُ العربية يَجْتَنِبونه.

وقال صاحب «الكشف»: هذا شيءٌ نقله ابنُ الحاجب ولم يساعدْه غيرُه وهو غير مسلَّم، أي: كبُر المسرفُ المرتابُ المجادِلُ في آيات الله بغير حجَّةٍ مقتاً، أي: كبُر مقتُه وعظُم عند الله تعالى وعند المؤمنين.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٢٧، والبحر ٧/ ٤٦٤.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطبع الفظيع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ فيصدُر عنه أمثالُ ما ذُكر من الإسراف والارتيابِ والمجادَلةِ بغير حقٍّ.

وجوَّز أن يكونَ «الذين» مبتدأً، وجملةُ «كَبُر» خبره، لكن على حذفِ مضافٍ هو المخبَرُ عنه حقيقةً، أي: جدالُ الذين يجادِلون كبُر مقتاً، وأن يكونَ «الذين» مبتدأً على حذفِ المضاف، و«بغير سلطان» خبرُ المضافِ المقدَّرِ، أي: جدالُ الذين يجادِلون في آيات الله تعالى كائنٌ بغيرِ سلطانٍ.

وظاهرُ كلام البعض أنَّ «الذين» مبتدأٌ مِن غيرِ حذفِ مضافٍ، و«بغير سلطان» خبرُه ـ وفيه الإخبار عن الذات والجُثَّةِ بالظرف ـ وفاعلُ «كَبُر»: «كذلك» على مذهبِ مَن يرى اسميَّةَ الكاف كالأخفش[١]، أي: كبُر مقتاً مثلُ ذلك الجدالِ، فيكون قولُه تعالى: (يَطْبَعُ) إلخ استئنافاً للدلالة على الموجِب لجدالهم، ولا يخفى ما في ذلك من العدول عن الظاهر.

وفي «البحر»[٢]: الأولى في إعرابِ هذا الكلامِ أن يكونَ «الذين» مبتدأً، وخبرُه «كَبُر»، والفاعلُ ضميرُ المصدر المفهومِ من «يجادلون»، أي: الذين يجادلون كبُر جدالُهم مقتاً، فتأمَّل.

وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والأعرج بخلافٍ عنه «قلبٍ» بالتنوين[٣]، فما بعدَه صفتُه، ووصْفُه بالكبر والتجبُّر؛ لأنه منبعُهما، كقولهم: رأتْ عيني وسمعتْ أذني. وجوَّز أن يكونَ ذاك على حذفِ مضافٍ، أي: كلٌّ ذي قلبٍ متكبِّرٍ جبَّارٍ، وجَعْلِ الصفتَيْن لصاحبِ القلب لتَتَوافَقَ القراءتان هذه وقراءة باقي السبعة بلا تنوين.

وعن مقاتل: المتكبِّرُ: المعاندُ في تعظيم أمر الله تعالى، والجبَّارُ: المتسلِّطُ على خلق الله تعالى[٤]. والظاهرُ أنَّ عمومَ كلٍّ منسحِبٌ على المتكبِّرِ والجبَّارِ أيضاً، فكأنَّه اعتُبِرَ أولاً إضافةُ «قلب» إلى ما بعده، ثم اعتُبرت إضافتُه إلى المجموع.

---

(١) ينظر ما سلف ٢/ ٣٩٤-٣٩٥.
(٢) ٧/ ٤٦٥.
(٣) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٥ عن أبي عمرو وابن ذكوان، والكلام من البحر ٧/ ٤٦٥.
(٤) البحر ٧/ ٤٦٥.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ بناءً مكشوفاً عالياً، مِن: صرَح الشيء: إذا ظهر. ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: الطرُق، كما روي عن السديِّ، وقال قتادة: الأبواب[1]. وهي جمعُ سببٍ، ويُطْلَق على كلِّ ما يُتَوَصَّلُ به إلى شيءٍ.

﴿أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ بيانٌ لها، وفي إبهامها ثمَّ إيضاحِها تفخيمٌ لشأنها وتشويقٌ للسامعِ إلى معرفتها.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ بالنصب على جوابِ الترجِّي عند الكوفيين، فإنَّهم يجوِّزون النصبَ بعد الفاء في جواب الترجِّي كالتمنِّي؛ ومنع ذلك البصريون، وخرَّجوا النصب هنا على أنه في جواب الأمر وهو «ابنِ» كما في قوله:

يا ناقُ سِيْرِي عَنَقاً فَسيحا إلى سليمانَ فنَسْتَرِيْحا[2]

وجوِّز أن يكونَ بالعطف على خبرِ «لعل» بتوهُّمِ «أن» فيه، لأنَّه كثيراً ما جاءنا مقروناً بها، أو على «الأسباب» على حدِّ:

ولُبْسُ عَباءةٍ وتَقَرَّ عيني[3]

وقال بعض: إنَّ هذا الترجِّي تمنٍّ في الحقيقة، لكن أخرجه اللعينُ هذا المخرجَ تمويهاً على سامعيه، فكان النصبُ في جواب التمنِّي، والظاهرُ أنَّ البصريين لا يفرِّقون بين ترجٍّ وترجٍّ.

وقرأ الجمهورُ بالرفع عطفاً على «أبلغ»[4].

قيل: ولعلَّه أراد أن يَبنيَ له رَصَداً في موضعٍ عالٍ يرصُد منه أحوالَ الكواكب التي هي أسبابٌ سماوية تدلُّ على الحوادثِ الأرضية، فيرى هل فيها ما يدلُّ على

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٢٥.

(٢) البيت في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٧، وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٧٠، وشرح المفصل ٧/ ٢٦، وشرح قطر الندى ص١٣٤، وشرح شذور الذهب ص٣٩٤ دون نسبة، ونسبه في الكتاب ٣/ ٣٤، واللسان (عنق) لأبي النجم العجلي. والعَنَق: نوع من السير، وسليمان: هو سليمان بن عبد الملك.

(٣) البيت لميسون بنت بحدل الكلبية، وسلف ٤/ ٣١٢.

(٤) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٥، ولم يقرأ بالنصب سوى حفص عن عاصم.

إرسال الله تعالى إياه، وهذا يدلُّ على أنه مُقِرٌّ بالله عزَّ وجلَّ، وإنَّما طلب ما يُزِيل شكَّه في الرسالة، وكان للَّعين وأهلِ عصرِه اعتناءٌ بالنجوم وأحكامِها على ما قيل. وهذا الاحتمالُ في غايةِ البُعد عندي.

وقيل: أرادَ أن يُعْلِم الناسَ بفسادِ قولِ موسى عليه السلام: إني رسولٌ مِن ربِّ السماوات[1]، بأنَّه إن كان رسولاً منه فهو ممن يصل إليه، وذلك بالصعودِ للسماء، وهو محالٌ، فما بُني عليه مثلُه.

ومنشأ ذلك جهلُه بالله تعالى، وظنُّه أنَّه سبحانه مستقِرٌّ في السماء، وأنَّ رسلَه كرُسُلِ الملوك يُلاقونه ويَصِلون إلى مقرِّه، وهو عزَّ وجلَّ منزَّهٌ عن صفاتِ المحدَثات والأجسام، ولا تحتاج إلى ما تحتاج إليه رُسُل الملوك رسُلُه الكرامُ عليهم الصلاة والسلام، وهذا نفيٌ لرسالتِه مِن الله تعالى ولا تعرُّضَ فيه لنفي الصانع المرسل له.

وقال الإمام[2]: الذي عندي في تفسير الآية أنَّ فرعونَ كان من الدهريَّة، وغرضُه من هذا الكلام إيرادُ شبهةٍ في نفْي الصانع، وتقريرُه أنه قال: إنَّا لا نرى شيئاً نحكم عليه بأنَّه إله العالَم، فلم يَجُزْ إثباتُ هذا الإله، أمَّا أنَّه لا نراه، فلأنَّه لو كان موجوداً لكان في السماء، ونحن لا سبيلَ لنا إلى صعودِ السماوات فكيف يُمكنُنا أن نراه؟ وللمبالغة في بيان عدمِ الإمكان قال: «يا هامان ابْنِ لي صرحاً» فما هو إلا لإظهارِ عدمِ إمكانِ ما ذكر لكلِّ أحدٍ. و«العلي» لا تأبى ذلك لأنَّها للتهكُّم على هذا.

وهي شبهةٌ في غاية الفساد، إذ لا يلزم من انتفاء أحدِ طُرُقِ العلم بالشيء انتفاءُ ذلك الشيء. ورأيتُ لبعض السلفيِّين أنَّ اللعين ما قال ذلك إلَّا لأنه سمع من موسى عليه السلام أو من أحدٍ من المؤمنين وصفَ الله تعالى بالعلوِّ، أو بأنَّه سبحانه في السماء، فحمله على معنًى مستحيلٍ في حقِّه تعالى لم يُرِده موسى عليه السلام ولا أحدٌ من المؤمنين، فقال ما قال تهكُّماً وتمويهاً على قومه.

وللإمام في هذا المقام كلامٌ ردَّ به على القائلين بأنَّ الله تعالى في السماء، وردَّ

---

(١) ينظر الآيات (١٦-٢٤) من سورة الشعراء.

(٢) في التفسير الكبير ٢٧/ ٦٥.

احتجاجَهم بما أشعرتْ به الآيةُ على ذلك، وسمَّاهم: المشبِّهة[١]. والبحثُ في ذلك طويلُ المجال، والحقُّ مع السلف عليهم رحمةُ المِلك المتعال، وحاشاهم ثم حاشاهم من التشبيه.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ يحتمل أن يكونَ عنى به: كاذباً في دعوى الرسالة، وأن يكونَ عنى به: كاذباً في دعوى أنَّ له إلهاً غيري؛ لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك التزيين البليغ المُفْرِط ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فانهَمَك فيه انهماكاً لا يَرْعوِي عنه بحالٍ ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ أي: عن سبيلِ الرشاد، فالتعريف للعهد، والفعلان مبنيَّان للمفعول، والفاعلُ في الحقيقة هو الله تعالى، ولم يفعل سبحانه كُلًّا من التزيين والصدِّ إلَّا لأنَّ فرعونَ طلبَه بلسانِ استعداده، واقتضى ذلك سوءُ اختيارِه، ويدلُّ على هذا أنه قرئ: «زَيَّن» مبنيًّا للفاعل[٢]، ولم يسبق سوى ذكرِه تعالى دونَ الشيطان.

وجوِّز أن يكون الفاعلُ الشيطان، ونسبةُ الفعل إليه بواسطةِ الوسوسة.

وقرأ الحجازيان والشاميُّ وأبو عمرو: «وصَدَّ» بالبناء للفاعل[٣] ـ وهو ضميرُ «فرعون» ـ على أنَّ المعنى: وصَدَّ فرعونُ الناسَ عن سبيل الرشاد بأمثالِ هذه التمويهات والشبهات، ويؤيِّدُه: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: في خَسارٍ لأنه يُشعر بتقدُّمِ ذكرٍ للكيد، وهو في هذه القراءة أظهر.

وقرأ ابن وثاب: «وصِدَّ» بكسر الصاد[٤]، أصلُه: صُدِد، نُقِلت الحركةُ إلى الصاد بعد توهُّم حذفها.

وابنُ أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بكرة: «وصَدٌّ» بفتح الصاد وضمِّ الدال منونةً عطفاً على «سوءُ عمله»[٥].

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٦٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٢٨، والبحر ٧/ ٤٦٦.

(٣) التيسير ص١٣٣، والنشر ٢/ ٢٩٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠، والبحر ٧/ ٤٦٦ والكلام منه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣-٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠، والبحر ٧/ ٤٦٦، ونُسِبت =

وقرئ: «وصُدُّوا» بواو الجمع، أي: هو وقومُه[1].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ هو مؤمنُ آلِ فرعون، وقيل فيه نظيرُ ما قيل في سابقه أنَّه موسى عليه السلام، وهو ضعيفٌ كما لا يخفى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ فيما دلَلْتُكم عليه ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ سبيلاً يصل به سالكُه إلى المقصود، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما عليه فرعونُ وقومُه سبيلُ الغيِّ.

وقرأ معاذ بن جبل كما في «البحر»: «الرشَّاد» بشدِّ الشين[2]، وتقدَّم الكلامُ في ذلك، فلا تغفل.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: تمتُّعٌ، أو متمتَّعٌ به يسيرٌ لسُرعةِ زواله ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ لخلودِها ودوامِ ما فيها.

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ في الدنيا ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ عدلاً من الله عزَّ وجلَّ، واستُدِلَّ به على أنَّ الجناياتِ تُغرَّم بمثلها، أي: بوِزَانِها من غيرِ مضاعفةٍ ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين عمِلوا ذلك ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾﴾ بغيرِ تقديرٍ وموازَنةٍ بالعمل، بل أضعافاً مضاعفةً، فضلاً منه تعالى ورحمةً.

وقَسْمُ العُمَّالِ إلى ذكرٍ وأنثى؛ للاهتمام والاحتياط في الشمول لاحتمالِ نقص الإناث، وجَعْلُ الجزاءِ في جزاءِ أعمالهم جملةً اسميةً مصدَّرةً باسم الإشارة مع تفضيلِ الثواب وتفصيلِهِ؛ تغليباً للرحمة وترغيباً فيما عندَ الله عزَّ وجلَّ، وجَعْلُ العمل عُمدةً وركناً من القضية الشرطية والإيمانِ حالاً للدلالة على أنَّ الإيمانَ شرطٌ في اعتبار العمل والاعتدادِ به والثوابِ عليه؛ لأنَّ الأحوالَ قيودٌ وشروطٌ للحُكم التي وقعت فيه، ويتضمَّنُ ذلك الإشارةَ إلى عظيمِ شرَفِه ومزيد ثوابه.

= هذه القراءة في القراءات الشاذَّة ص١٣٢ لعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه.

(١) الكشاف ٣/ ٤٢٨.

(٢) البحر ٧/ ٤٦٦، وهي في القراءات الشاذة ص١٣٢.

وقرأ الأعرج والحسن وأبو جعفر وعيسى وغيرُ واحد من السبعة: «يُدْخَلون» مبنيًّا للمفعول[1].

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ كرَّر نداءَهم؛ إيقاظاً لهم عن سِنة الغفلة، واهتماماً بالمنادَى له، ومبالغةً في توبيخهم على ما يقابِلون به دعوتَه.

وتُرِك العطفُ في النداء الثاني وهو «يا قوم إنما الحياة الدنيا» إلخ؛ لأنه تفسيرٌ لِما أُجمِل في النداء قبلَه من الهداية إلى سبيل الرشاد، فإنَّها التحذيرُ من الإخلاد إلى الدنيا والترغيبُ في إيثار الآخرة على الأولى، وقد أدَّى ذلك فيه على أتمِّ وجهٍ وأحسنِه، ولم يُترَكْ في هذا النداء، لأنه ليس بتلك المثابة، وذلك لأنَّه للموازنة بين الدعوتين: دعوتِه إلى دين الله الذي ثمرتُه النجاةُ، ودعوتِهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبتُه النار، وليس ذلك من تفسيرِ الهداية في شيء، بل ذلك لتحقيقِ أنه هادٍ وأنَّهم مُضِلُّون، وأنَّ ما عليه هو الهدى، وما هم عليه هو الضلال، فهو عطفٌ على النداء الأولِ أو المجموع.

وقيل: هو عطفٌ على النداء الثاني داخلٌ معه في التفسير لِما أُجمِل في النداء الأول تصريحاً وتعريضاً. ولكلٍّ وجهٌ، وفي الترجيح كلامٌ.

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدلٌ من «تدعونني إلى النار»، أو عطفُ بيانٍ له بناءً على أنَّه يَجْري في الجُمَلِ كالمفردات، أو جملةٌ مستأنَفةٌ مفسِّرة لذلك، والدعاءُ كالهداية في التعدية بـ «إلى» واللام.

﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ﴾ أي: بكونه شريكاً له تعالى في المعبوديَّة أو بربوبيَّته وألوهيَّته ﴿عِلْمٌ﴾ ونفْيُ العلم هنا كنايةٌ عن نفْي المعلوم، وفي إنكارِه للدعوة إلى ما لا يعلمه إشعارٌ بأنَّ الألوهيَّةَ لا بدَّ لها مِن برهانٍ موجبٍ للعلم بها.

---

(١) التيسير ص٩٧، والنشر ٢/ ٣٥٢، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر عن عاصم من السبعة، والكلام من البحر ٧/ ٤٦٦.

﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢﴾ المستجمِعِ لصفاتِ الألوهيَّة من كمال القدرة والغلبة وما يتوقَّفُ عليه من العلم والإرادة والتمكُّن من المجازاة والقدرةِ على التعذيب والغفرانِ، وخُصَّ هذان الوصفان بالذكر وإن كانا كنايةً عن جميع الصفات لاستلزامِهما ذلك ـ كما أُشير إليه ـ لِما فيهما من الدلالة على الخوفِ والرجاء المناسِب لحاله وحالهم.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ سياقُه على مذهب البصريين أنَّ «لا» ردٌّ لكلامٍ سابقٍ، وهو ما يدعونه إليه هاهنا من الكفر بالله سبحانه، وشركِ الآلهة الباطلةِ به عزَّ وجلَّ[1].

و«جَرَمَ» فعلٌ ماضٍ بمعنى: ثَبَتَ وحقَّ، كما في قوله:

ولقد طعنتُ أبا عُبيدةَ طعنةً جَرَمَتْ فَزارةُ بعدَها أن يغْضَبُوا[2]

و«أنَّ» مع ما في حيِّزها فاعلُه، أي: ثَبَتَ وحقَّ عدمُ دعوةٍ للذي تدعونني إليه من الأصنام إلى نفسه أصلاً، يعني: إنَّ مِن حقِّ المعبود بالحقِّ أن يَدْعُوَ العبادَ المكرَمين كالأنبياء والملائكةِ إلى نفسِه ويأمُرهم بعبادته، ثم يدعو العبادُ بعضُهم بعضاً إليه تعالى وإلى طاعته سبحانه إظهاراً لدعوةِ ربِّهم عزَّ وجلَّ، وما تدعون إليه وإلى عبادته من الأصنام لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدَّعي الربوبيَّةَ أصلاً، لا في الدنيا؛ لأنه جمادٌ فيها لا يستطيع شيئاً من دعاءٍ وغيره، ولا في الآخرة؛ لأنه إذا أنشأه الله تعالى فيها حيواناً تبرَّأ من الدُّعاةِ إليه ومِن عَبَدته، وحاصله: حقَّ أنْ ليس لآلهتكم دعوةٌ أصلاً فليست بآلهةٍ حقَّةٍ.

أو بمعنى: كَسَب، وفاعلُه ضميرُ الدعاء السابقِ الذي دعاه قومُه، و«أن» مع ما في حيِّزها مفعولُه، أي: كَسَب دعاؤُكم إياي إلى آلهتِكم أنْ لا دعوةَ لها، أي: ما حصلَ مِن ذلك إلَّا ظهورُ بطلانِ دعوتها وذهابُها ضَياعاً.

وقيل: «جَرَمَ» اسمُ «لا» وهو مصدَرٌ مبنيٌّ على الفتح بمعنى القطع، والخبرُ

(١) وقع في (م) كلمة «به» بعد قوله: عز وجلّ. وهو خطأ.
(٢) سلف ٧/ ٢٤.

«أنَّ» مع ما في حيِّزها، على معنى: لا قَطْعَ لبطلانِ دعوة ألوهيَّة الأصنام، أي: لا ينقطع ذلك البطلانُ في وقتٍ من الأوقات فينقلب حقًّا، وهذا البطلان هو معنى النفْي الذي يُفْهم من قوله تعالى: (لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ) إلخ، و«لا جَرَمَ» على هذا مثلُ «لا بُدَّ»، فإنَّه من التبديدِ وهو التفريقُ وانقطاعُ بعضِ الشيء من بعضٍ، ومن ثَمَّ قيل: المعنى: لا بدَّ مِن بطلان دعوةِ الأصنام، أي: بطلانُها أمرٌ ظاهرٌ مقرَّرٌ، ونقل هذا القولُ عن الفراء، وعنه أنَّ ذلك هو أصلُ «لا جرم»، لكنه كثر استعماله حتى صار بمعنى حقاً، فلهذا يجاب بما يجاب به القسم في مثل: لا جَرَمَ لآتينَّك[1].

وفي «الكشاف»: ورُوي عن العرب: لا جُرْمَ أنه يفعل، بضمِّ الجيم وسكون الراء، أي: لا بدَّ، وفُعْل وفَعَل أخوان، كرُشْد ورَشَد، وعُدْم وعَدَم[2]. وهذه اللغةُ تؤيِّد القولَ بالاسميَّة في اللغة الأخرى ولا تُعيِّنها كما لا يخفى، وقد تقدَّم شيءٌ من الكلام في «لا جَرَم» أيضاً، فليتذكَّر[3].

ولامُ «له» في جميع هذه الأوجه لنسبة الدعوة إلى الفاعل على ما سمعتَ من المعنى، وجوِّز أن يكونَ لنسبتها إلى المفعول، فإنَّ الكفَّارَ كانوا يَدْعُون آلهتَهم، فنَفَى في الآية دعاءَهم إياها على معنى نَفْي الاستجابةِ منها لدُعائهم إياها، فالمعنى: إنَّ ما تدعونَني إليه من الأصنامِ ليس له استجابةُ دعوةٍ لمن يَدعوه أصلاً، أو: ليس له دعوةٌ مستجابةٌ، أي: لا يُدْعَى دعاء يستجيبه لداعيه، فالكلامُ إمَّا على حذفِ المضافِ، أو على حذفِ الموصوف.

وجوِّز التجوُّزُ فيه بالدعوة عن استجابتها التي تترتَّبُ عليها، وهذا كما سُمِّي الفعلُ المجازَى عليه باسم الجزاء في قولهم: كما تدين تدان، وهو من باب المشاكلة عندَ بعضٍ.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَرْجعَنا إليه تعالى بالموت، وهذا عطفٌ على

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٨.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٢٩.
(٣) ينظر ١٢/ ٣٣.

«أنما تدعونني» داخلٌ في حكمه، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾، وفسَّر ابنُ مسعود ومجاهد «المسرفين» هنا بالسفَّاكين للدماء بغير حِلِّها[1]، فيكونُ المؤمنُ قد خَتَم تعريضاً بما افتتح به تصريحاً في قوله: «أتقتلون رجلاً».

وعن قتادةَ أنهم المشركون، فإنَّ الإشراكَ إسرافٌ في الضلالة، وعن عكرمة أنهم الجبَّارون المتكبِّرون[2]. وقيل: كلُّ مَن غلب شرُّه خيرَه فهو مُسرف.

والمراد بـ «أصحاب النار» ملازموها، فإن أريد بـ «المسرفين» ما يدخُل فيه المؤمن العاصي أريد بالملازمةِ العرفيةُ الشاملةُ للمُكث الطويل، وإن أريد بهم ما يَخُصُّ الكَفَرَة فهي بمعنى الخلود.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقرئ: «فستَذَكَّرون» بالتشديد[3]، أي: فسَيُذَكِّر بعضُكم بعضاً عند معايَنةِ العذاب ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصائح ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليعصِمَني مِن كلِّ سوءٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ فيَحرُس مَن يلوذُ به سبحانه منهم مِن المكارِه، وهذا يحتمل أن يكونَ جوابَ توعُّدِهم المفهوم من قوله تعالى: (وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ)، أو من قوله سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾، ويحتمل أن يكونَ متارَكةً، والتفريعُ في «فستذكرون» على قوله الأخير: «يا قوم ما لي أدعوكم» إلخ، وجَعَله من جعَل ذلك معطوفاً على «يا قوم» الثاني تفريعاً على جملة الكلام.

و«ما» في «ما مكروا» مصدريةٌ، و«السيئات»: الشدائدُ، أي: فوقاه الله تعالى شدائدَ مكرِهم.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٦٢، والبحر ٧/ ٤٦٨.

(٢) قول قتادة في تفسير الطبري ٢٠/ ٣٣٤، والنكت والعيون ٥/ ١٥٨، وقول عكرمة في البحر ٧/ ٤٦٨.

(٣) أي: بتشديد الكاف وفتحها مع فتح الذال وتخفيفها، ونُسبت لابن مسعود وأبي عمران الجوني وأبي العالية وابي رجاء، وروي عن أُبي وأيوب السختياني: «فستذَّكَّرون» بفتح الذال والكاف وتشديدهما جميعاً. زاد المسير ٧/ ٢٢٥-٢٢٦.

﴿وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بفرعونَ وقومه، فاستغنى بذكرهم عن ذكره ضرورةَ أنه أولى منهم بذلك، ويجوز أن يكونَ آلُ فرعونَ شاملاً له عليه اللعنة بأن يرادَ بهم مطلقُ كَفرةِ القبط كما قيل في قوله تعالى: ﴿اَعْمَلُوٓا ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]: إنَّه شاملٌ لداودَ عليه السلام، وكانوا على ما حكى الأوزاعيُّ ـ ولا أعتقد صحته ـ ألْفَي ألفٍ وستّ مئة ألفٍ.

وعن ابن عباس: إنَّ هذا المؤمنَ لَمَّا أظهرَ إيمانَه قصد فرعون قتلَه، فهرب إلى جبلٍ، فبعث في طلبه ألفَ رجلٍ، فمنهم مَن أدركه يُصلِّي والسباعُ حولَه، فلمَّا همُّوا ليأخذوه ذبَّت عنه فأكلَتْهم، ومنهم من مات في الجبل عطَشاً، ومنهم من رَجع إلى فرعون خائباً فاتَّهمه وقتله وصلبه، فالمراد بـ «آل فرعون» هؤلاء الألف الذين بعثهم إلى قتله(١).

أي: فنزل بهم وأصابهم ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ الغَرَقُ على الأول، وأكلُ السباع، والموتُ عطشاً، والقتلُ والصلبُ، على ما روي عن ابن عباس، والنارُ عليهما، ولعلَّه الأولى، وإضافة «سوء» إلى «العذاب» لاميةٌ، أو مِن إضافةِ الصفة للموصوف.

وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأ، وجملةُ قولِه تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ خبرُه، والجملةُ تفسيرٌ لقوله تعالى: «وحاق» إلخ.

وجوِّز أن تكونَ «النار» بدلاً مِن «سوء العذاب»، و«يعرضون» في موضع الحال منها، أو من الآل، وأن تكونَ «النارُ» خبرَ مبتدأ محذوفٍ هو ضميرُ «سوء العذاب»، كأنه قيل: ما سوءُ العذاب؟ فقيل: هو النار، وجملةُ «يعرضون» تفسيرٌ على ما مرَّ، وفي الوجه الأول مِن تعظيم أمرِ النار وتهويلِ عذابها ما ليس في هذا الوجه كما ذكره صاحبُ «الكشاف»(٢)، ومنشأُ التعظيم على ما في «الكشف» الإجمالُ والتفسيرُ في كيفية تعذيبهم، وإفادةُ كلٍّ مِن الجملتَيْن نوعاً من التهويل: الأولى الإحاطةُ بعذابٍ يستحقُّ أن يسمَّى سوءَ العذاب، والثانيةُ النارُ المعروضُ هم عليها غدوًّا وعشيًّا.

(١) البحر ٧/ ٤٦٨.
(٢) ٣/ ٤٣٠.

والسرُّ في إفادةِ تعظيم النارِ في هذا الوجه دونَ ما تضمَّنَ تفسير «سوء العذاب» وبيان كيفيةِ التعذيب = أنَّك إذا فسَّرتَ «سوء العذاب» بالنار فقد بالغت في تعظيم سوء العذاب، ثم استأنفتَ بـ «يعرضون عليها» تتميماً لقوله تعالى: «وحاق بآل فرعون» من غيرِ مدخلٍ للنار فيما سيق له الكلام، وإذا جئتَ بالجملتَين من غيرِ نظرٍ إلى المفردَين وأنَّ أحدَهما تفسيرٌ للآخر فقد قصدتَ بالنار قصدَ الاستقلال حيثُ جعلتَها معتمَدَ الكلام وجئتَ بالجملة بياناً وإيضاحاً للأولى، كأنك قد آذنتَ بأنَّها أوضحُ لاشتمالِها على ما لا أسوأ منه، أعني النارَ؛ على أنَّ مِن موجباتِ تقديم المسنَد إليه إنباؤُه عن التعظيم مع اقتضاءِ المقام له، وهاهنا كذلك على ما لا يخفى، والتركيبُ أيضاً يفيد التقوِّي على نحو: زيدٌ ضربته.

ومن هنا قال صاحبُ «الكشف»: هذا هو الوجهُ، وأُيِّد بقراءةِ مَن نَصَبَ «النارَ»[1] بناءً على أنها ليست منصوبة بـ : أخصُّ أو أعني، بل بإضمارِ فعلٍ يفسِّره «يُعرَضون» مثل: يُصْلَوْنَ، فإنَّ عرضَهم على النار إحراقُهم بها مِن قولهم: عُرِض الأسارى على السيف؛ قُتِلوا به، وهو من بابِ الاستعارةِ التمثيلية بتشبيهِ حالِهم بحالِ متاعٍ يُبْرَز لمن يريد أخذَه، وفي ذلك جعلُ النار كالطالبِ الراغبِ فيهم لشدَّةِ استحقاقِهم الهلاكَ.

وهذا العرضُ لأرواحهم؛ أخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد عن هذيل بن شرحبيل أنَّ أرواحَ آلِ فرعون في أجوافِ طيرٍ سودٍ تغدو وتَروحُ على النار، فذلك عَرْضُها[2].

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن مسعود نحو ذلك[3].

وهذه الطيرُ صُوَرٌ تُخلَق لهم من صُوَرِ أعمالهم، وقيل: ذاك من بابِ التمثيل. وليس بذاك.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٣٠، والبحر ٧/ ٤٦٨.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٦٥-١٦٦، والزهد لهناد بن السري (٣٦٦)، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٥١. ووقع في (م): «هزيل» بالزاي، وهو تصحيف.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٨٢، وعزاه لابن أبي حاتم ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

وذكرُ الوقتين ظاهرٌ في التخصيص، بمعنى أنَّهم يُعْرَضُون على النارِ صباحاً مرَّةً ومساءً مرَّةً، أي: فيما هو صباحٌ ومساءٌ بالنسبة إلينا، ويشهَدُ له ما أخرجه ابن المنذر والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» وغيرُهما عن أبي هريرةَ أنه كان له صرختان في كلِّ يوم غدوةً وعشيَّةً، كان يقولُ أوَّلَ النهار: ذهبَ الليل وجاء النهار وعُرِض آلُ فرعون على النار، ويقول أولَ الليل: ذهب النهارُ وجاء الليلُ وعُرِض آلُ فرعون على النار. فلا يسمعُ أحدٌ صوتَه إلا استعاذَ بالله تعالى من النار[١].

والفصلُ بين الوقتين إمَّا بتركِ العذاب أو بتعذيبِهم بنوعٍ آخرَ غيرِ النار. وجوِّز أن يكونَ المرادُ التأبيدَ؛ اكتفاءً بالطرفَيْن المحيطَيْن عن الجميع.

وأيًّا ما كان ففي الآية دليلٌ ظاهرٌ على بقاء النفس وعذابِ البرزخِ؛ لأنه تعالى بعدَ أن ذَكَر ذلك العرضَ قال جلَّ شأنه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ وهو ظاهرٌ في المغايرة فيتعيَّنُ كونُ ذلك في البرزخ، ولا قائلَ بالفرق بينَهم وبين غيرهم، فيتمُّ الاستدلالُ على العموم، وفي الصحيحين وغيرِهما عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعَشِيِّ، إن كان مِن أهْلِ الجنة فَمِنْ أهلِ الجنة، وإنْ كانَ مِن أهلِ النارِ فمِن أهلِ النار، فيقال: هذا مقعدُك حتى يبعثك الله تعالى»[٢].

و«يوم» على ما استظهره أبو حيان[٣] معمولٌ لقولٍ مضمَرٍ، والجملةُ عطفٌ على ما قبلَها، أي: ويومَ تقومُ الساعةُ يُقال للملائكة: أَدْخِلوا آلَ فرعون أشدَّ العذاب، أي: عذابَ جهنَّمَ، فإنَّه أشدُّ مما كانوا فيه، أو أشدَّ عذابِ جهنَّمَ، فإنَّ عذابَها ألوانٌ بعضُها أشدُّ من بعضٍ.

وعن بعضٍ: أشدُّ العذابِ هو عذابُ الهاوية.

وقيل: هو معمولُ: «أدخلوا». وقيل: هو عطفٌ على «عشيًّا»، فالعاملُ فيه «يُعرَضون»، و«أدخلوا» على إضمارِ القول. وهو كما ترى.

---

(١) شعب الإيمان (٤٠٠)، وعزاه لابن المنذر وعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٢.
(٢) صحيح البخاري (٦٥١٥)، وصحيح مسلم (٢٨٦٦)، وهو عند أحمد (٤٦٥٨).
(٣) في البحر المحيط ٧/ ٤٦٨.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله وجهه والحسن وقتادة وابن كثير والعربيان وأبو بكر: «ادْخُلوا» على أنَّه أمرٌ لآلِ فرعون بالدخول[1]، أي: ادْخُلوا يا آلَ فرعون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ معمولٌ لـ: اذكر، محذوفاً، أي: واذكُرْ وقتَ تخاصُمِهم في النار، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها عطفَ القصَّةِ على القصَّةِ، لا على مقدَّرٍ تقديرُه: اذكُرْ ما تُلِيَ عليك من قصَّةِ موسى عليه السلام وفرعونَ ومؤمنِ آل فرعون، ولا على قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [غافر: ٤]، أو على قوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ [غافر: ١٨] لعدم الحاجةِ إلى التقدير في الأول، وبُعد المعطوفِ عليه في الأخيرَيْن.

وزعم الطبريُّ أنَّ «إذ» معطوفةٌ على ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨][2]، وهو مع بُعدِه فيه ما فيه.

وجوَّز أن تكونَ معطوفةً على «غدوًّا»، وجملةُ «يوم تقوم» اعتراضٌ بينَهما، وهو مع كونه خلافَ الظاهر قليلُ الفائدة.

وضميرُ «يتحاجُّون» على ما اختاره ابن عطية[3] وغيرُه لجميعِ كفَّارِ الأمَم. ويتراءى من كلام بعضِهم أنه لكفَّارِ قُريش. وقيل: هو لآل فرعون.

وقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ تفصيلٌ للمُحاجَّة والتخاصُمِ في النار، أي: يقول المرؤوسون لرؤسائهم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ تِباعاً، فهو كخَدَم في جمعِ خادم.

وذهب جمعٌ ـ لقلَّةِ هذا الجمع ـ إلى أنَّ «تَبعاً» مصدرٌ، إمَّا بتقديرِ مضافٍ، أي: إنا كنَّا لكم ذَوي تَبَعٍ، أي: أتباعاً، أو على التجوُّزِ في الطرفِ أو الإسناد للمبالغة بجعلهم لشدَّةِ تبعيَّتِهم كأنهم عينُ التبعية.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ بدفعِ بعضِ عذابها أو بتحمُّلِه

---

(١) التيسير ص١٩٢، والنشر ٢/ ٣٦٥ عن ابن كثير وأبي بكر والعربيين، وهما أبو عمرو وابن عامر.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٤١.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٣.

عنا، و«مغنون» مِن الغَناءِ بالفتح بمعنى الفائدة، و«نصيباً» بمعنى حِصَّةٍ مفعولٌ لِما دلَّ عليه من الدفع أو الحمل، أو له بتضمينِ أحدِهما، أي: دافعين أو حاملين عنَّا نصيباً، ويجوز أن يكونَ «نصيباً» قائماً مقامَ المصدرِ كـ «شيئاً» في قوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المجادلة: ١٧]، و«من النار» على هذا متعلِّقٌ بـ «مُغْنونَ»، وعلى ما قبلَه ظرفٌ مستقِرٌّ بيانٌ لـ «نصيباً».

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ للضعفاءِ: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ نحن وأنتم، فكيف نُغْني عنكم؟! ولو قدَرْنا لدفَعْنا عن أنفسنا شيئاً من العذاب، ورفع «كلٌّ» على الابتداء، وهو مضافٌ تقديراً لأنَّ المراد: كلُّنا، و«فيها» خبرُه، والجملةُ خبرُ «إنَّ».

وقرأ ابنُ السميفع وعيسى بن عمر: «كلًّا» بالنصب، وخرَّجه ابنُ عطية والزمخشريُّ على أنه توكيدٌ لاسم «إنَّ»[(١)]، وكونُ «كل» المقطوعِ عن الإضافة يقعُ تأكيداً اكتفاءً بأنَّ المعنى عليها مذهبُ الفراء، ونقله أبو حيان عن الكوفيين[(٢)]. وردَّه ابن مالك في شرحه لـ «التسهيل».

وقيل: هو حالٌ من المستكَنِّ في الظرف.

وتعقِّب بأنه في معنى المضاف ولذا جاز الابتداءُ به، فكيف يكون حالاً؟ وإذا سلِّم كفايةُ هذا المقدار من التنكير في الحالية فالظرفُ لا يعمل في الحال المتقدِّمةِ كما يعمل في الظرف المتقدِّم نحو: كلَّ يوم لك ثوبٌ.

وأجيب عن أمرِ العمل بأنَّ الأخفش أجازَ عملَ الظرف في الحال إذا توسَّطت بينَه وبين المبتدأ، نحو: زيدٌ قائماً في الدار عندك، وما في الآية الكريمة كذلك، على أنَّ بعضَهم أجاز ذلك ولو تقدَّمت الحالُ على المبتدأ أو الظرف؛ نعم منَعَه بعضُهم مطلقاً لكن المخرِّجَ لم يقلِّده.

وابنُ الحاجب جوَّزه في بعض كتبه ومنعه في بعض، قيل: وقد يوفَّق بينهما بأنَّ المنعَ على تقديرِ عمل الظرف لنيابته عن متعلَّقه، والجوازُ على جعل العاملِ متعلَّقه

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٦٣، والبحر ٧/ ٤٦٩.

(٢) البحر ٧/ ٤٦٩. والكلام وما بعده منه.

المقدَّر فيكونُ لفظيًّا لا معنويًّا، وإلى هذا التخريج ذهب ابن مالك، وأنْشد له قول بعض الطائيين:

دَعــا فَــأَجَــبْــنَــا وَهْــوَ بــادِيَ ذِلَّــةٍ   لَـدَيـكـم فـكـانَ الـنـصـرُ غـيـرَ قـريـبِ(١)

وحُمل قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] في قراءة النصب على ذلك.

وقال أبو حيان: الذي أختاره في تخريج هذه القراءة أنَّ «كلًّا» بدلٌ من اسم «إنَّ»؛ لأنَّ «كلًّا» يُتصرَّف فيها بالابتداءِ ونواسخِه وغيرِ ذلك، فكأنه قيل: إنَّ كلًّا فيها. وإذا كانوا قد تأوَّلوا: حولاً أكتعاً، ويوماً أجمعاً، على البدل مع أنَّهما لا يليان العواملَ، فَأَن يُدَّعَى في «كلّ» البدلُ أولى، وأيضاً فتنكير «كلّ» ونصبُه حالاً في غاية الشذوذ نحو: مررتُ بهم كلًّا، أي: جميعاً.

ثم قال: فإن قلتَ: كيف تجعله بدلاً وهو بدلُ كلٍّ من كلٍّ من ضمير المتكلِّم، وهو لا يجوز على مذهب جمهور البصريين(٢)؟ قلتُ: مذهب الأخفش والكوفيين جوازُه، وهو الصحيح، على أنَّ هذا ليس مما وقع فيه الخلافُ، بل إذا كان البدلُ يفيد الإحاطةَ جاز أن يُبدَل من ضميرِ المتكلِّم وضميرِ المخاطَب لا نعلم خلافاً في ذلك كقوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤] وكقولك: مررتُ بكم صغيرِكم وكبيرِكم، معناه: مررتُ بكم كلِّكم، و: تكونُ لنا عيداً كلِّنا، فإذا جاز ذلك فيما هو بمعنى الإحاطة فجوازُه فيما دلَّ على الإحاطة وهو «كلّ» أولى، ولا التفات لمنع المبرِّد البدلَ فيه لأنَّه بدلٌ من ضمير المتكلِّم؛ لأنه لم يحقِّق(٣) مناط الخلاف. انتهى.

ولعلَّ القولَ بالتوكيد أحسنُ من هذا وأقربُ، وردُّ ابن مالك له لا يعوَّل عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ فأدخَلَ أهلَ الجنةِ الجنةَ وأهلَ النارِ النارَ، وقدَّر لكلٍّ منا ومنكم عذاباً لا يُدفع عنه ولا يتحمَّلُه عنه غيرُه.

---

(١) البحر ٧/ ٤٦٩.

(٢) وقع في الأصل: جمهور المتكلمين، وفي (م): جمهور النحويين. وفي مطبوع البحر: البصريين، وكلمة جمهور ساقطة منه، والمثبت من النهر الماد لأبي حيان على هامش البحر ٧/ ٤٦٩.

(٣) في النهر والبحر: يتحقق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً لَمَّا ضاقت بهم الحِيَلُ وَعيَّت بهم العِلَلُ ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي: للقُوَّام بتعذيبِ أهل النار، وكان الظاهرُ «لخزنتها» بضميرِ النار، لكن وُضع الظاهرُ موضعَه للتهويل، فإنَّ جهنَّمَ أخصُّ من النار بحسب الظاهرِ؛ لإطلاقِها على ما في الدنيا، أو لأنَّها محلٌّ لأشدِّ العذابِ الشاملِ للنار وغيرِها.

وجوِّز أن يكونَ ذلك لبيانِ محلِّ الكَفَرةِ في النار بأنْ تكونَ جهنَّمُ أبعدَ دَرَكاتِها، من قولهم: بئرٌ جِهِنَّامٌ: بعيدةُ القعر، وفيها أعتى الكَفَرةِ وأطغاهم، فلعلَّ الملائكةَ الموكَّلين بعذابِ أولئك أجْوَبُ دعوةً لزيادة قربهم من الله عزَّ وجلَّ فلهذا تعمَّدهم أهلُ النار بطلب الدعوة منهم، وقالوا لهم: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: مقدارَ يوم من أيام الدنيا ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ أي: شيئاً من العذاب، فمفعولُ «يخفِّف» محذوفٌ، و«مِن» تحتمل البيانَ والتبعيضَ، ويجوز أن يكونَ المفعولُ «يوماً» بحذف المضافِ نحو: ألَمَ يومٍ، و«من العذاب» بيانه، والمرادُ: يَدْفَع عنا يوماً من أيام العذاب.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: ألَم تُنبَّهُوا على هذا ولم تَكُ تأتيكم رسلُكم في الدنيا على الاستمرار بالحجَج الواضحة الدالَّة على سُوءِ مغبَّةِ ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ [الزمر: ٧١]، وأرادوا بذلك إلزامَهم وتوبيخَهم على إضاعة أوقاتِ الدعاء وتعطيلِ أسبابِ الإجابة.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: أتَوْنا بها فكذَّبناهم، كما نطق به قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩].

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ فصيحةٌ، أي: إذا كان الأمرُ كذلك فادعوا أنتم، فإنَّ الدعاءَ لمن يَفْعَل فعلَكم ذلك مستحيل صدوره عنا.

وقيل في تعليلِ امتناع الخَزَنة عن الدعاء: لأنَّا لم نُؤذَن في الدعاء لأمثالكم.

وتعقِّب بأنَّه مع عَرائِه عن بيانِ أنَّ سببَه من قِبَل الكَفَرة كما يُفْصح عنه الفاءُ ربَّما يُوهِم أنَّ الإذنَ في حيِّزِ الإمكان، وأنَّهم لو أُذِن لهم لفَعَلوا، فالتعليلُ الأوَّلُ أولى.

ولم يُرِيدوا بأمرِهم بالدعاءِ إطماعَهم في الإجابة، بل إقناطَهم منها وإظهارَ خَيْبَتِهم حَسْبَما[1] صرَّحوا به في قولهم: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ۝٥٠﴾ أي: في ضَياعٍ وبطلانٍ، أي: لا يُجاب، فهذه الجملةُ مِن كلام الخَزَنة، وقيل: هي من كلامه تعالى إخباراً منه سبحانه لرسوله محمد ﷺ.

واستدلَّ بها مطلقاً مَن قال: إنَّ دعاءَ الكافر لا يُستجاب، وأنَّه لا يمكَّن مِن الخروج في الاستسقاء. والحقُّ أنَّ الآيَةَ في دُعاءِ الكُفَّار يومَ القيامة، وأنَّ الكافرَ قد يقع في الدنيا ما يدعو به ويطلبه من الله تعالى إثرَ دعائه، كما يشهَدُ بذلك آياتٌ كثيرةٌ، وأمَّا أنَّه هل يقال لذلك إجابةٌ أم لا؟ فبحثٌ لا جدوى له.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ، كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ مِن جهتِه تعالى لبيانِ أنَّ ما أصاب الكَفَرةَ من العذابِ المحكيِّ مِن فروعِ حُكْمٍ كليٍّ تقتضيه الحكمةُ، هو: إنَّ شأنَنا المستمِرَّ أنَّنا نَنْصُر رُسُلَنا وأتباعَهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالحُجّة والظفر والانتقامِ لهم من الكَفَرةِ بالاستئصالِ والقتلِ والسَّبْي وغيرِ ذلك من العقوبات. ولا يقدَحُ في ذلك ما قد يتَّفِق للكَفَرة من صُورةِ الغلبة امتحاناً، إذ العبرةُ إنَّما هي بالعواقب وغالبِ الأمر، وقد تقدَّم تمامُ الكلام في ذلك، فتذكَّر.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١﴾ أي: ويومَ القيامة، عبَّر عنه بذلك للإشعار بكيفيةِ النُّصْرة، وأنَّها تكونُ عندَ جَمْع الأوَّلين والآخِرين، وشهادةِ الأشهادِ للرسل بالتبليغ وعلى الكَفَرةِ بالتكذيب، فالأشهادُ جمعُ شهيدٍ بمعنى شاهدٍ كـ: أشراف جمع شَريف، وقيل: جَمْع شاهدٍ، بناءً على أنَّ فاعلاً قد يُجْمَع على أفعال، وبعضُ مَن لم يجوِّزْ يقول: هو جمعُ شَهْدٍ بالسكون اسم جمعٍ لشاهدٍ، كما قالوا في صَحْبٍ بالسكون: اسم جمعٍ لصاحب. وفسَّر بعضُهم «الأشهاد» بالجوارحِ، وليس بذاك. وهو عليهما من الشهادة، وقيل: هو من المشاهَدة بمعنى الحُضُور.

وفي «الحواشي الخفاجية» أنَّ النصرةَ في الآخرة لا تتخلَّفُ أصلاً، بخلافها في الدنيا فإنَّ الحربَ فيها سِجَالٌ وإن كانت العاقبةُ للمتَّقين، ولذا دخلت «في» على

---

(١) في الأصل و(م): حيثما، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ٢٨٠، والكلام منه.

«الحياة الدنيا» دونَ قرينِه، لأنَّ الظرفَ المجرورَ بـ «في» لا يُستَوْعَب كالمنصوب على الظرفية كما ذكره الأصوليون[١]. انتهى، وفيه بحث.

وقرأ ابن هرمز، وإسماعيل، وهي رواية عن أبي عمرو: «تقوم» بتاء التأنيث[٢]، على معنى جماعةِ الأشهاد.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدلٌ من «يوم يقوم»، و«لا» قيل: تحتمل أن تكونَ لنفْي النفع فقط على معنى أنَّهم يعتذِرُون ولا ينفعهم معذرتُهم لبطلانها، وتحتمل أن تكونَ لنفْي النفع والمعذرةِ على معنى: لا تقع معذرةٌ لتنفع، وفي «الكشاف»: يحتمل أنَّهم يعتَذِرون بمعذرةٍ ولكنَّها لا تنفَعُ لأنها باطلةٌ، وأنَّهم لو جاؤوا بمعذرةٍ لم تكن مقبولةً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦][٣].

وأراد ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّ عدمَ النفعِ إمَّا لأمرٍ راجعٍ إلى المعذرة الكائنة وهو بطلانها، وإما لأمرٍ راجع إلى مَن يقبل العُذْرَ، ولا نظرَ فيه إلى وقوع العذر.

والحاصل أنَّ المقصودَ بالنفْي الصفة، ولا نظرَ فيه إلى الموصوفِ نفياً أو إثباتاً، وليس في كلامه إشارةٌ إلى إرادةِ نفْيهما جميعاً، فتدبَّر.

وقرأ غيرُ الكوفيين ونافع: «لا تنفع» بالتاء الفوقية[٤]، ووجهُها ظاهرٌ. وأما قراءةُ الياء فلأنَّ المعذرةَ مصدرٌ وتأنيثه غيرُ حقيقيٍّ مع أنَّه فُصِل عن الفعل بالمفعول.

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد من الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ هي جهنم، وسوءُها ما يسوءُ فيها من العذاب، فإضافتُه لاميةٌ، أو هي من إضافةِ الصفةِ للموصوف، أي: الدار السُّوْأى.

ولا يخفى ما في الجملتين من إهانتِهم والتهكُّم بهم.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٧٧.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤، والبحر ٧/ ٤٧٠.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٣٢.
(٤) التيسير ص١٩٢، والنشر ٢/ ٣٦٥.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يهتدى به من المعجزات والصُّحُفِ والشرائع، فهو مصدرٌ تُجوِّزَ به عمَّا ذُكِر، أو جُعل عينَ الهدى مبالغةً فيه.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾ تركْنا عليهم بعدَ وفاتِه عليه السلام من ذلك التوراة، فالإيراثُ مجازٌ مرسلٌ عن الترك، أو هو استعارةٌ تبعيَّةٌ له. ويجوز أن يكونَ المعنى: جعلنا بني إسرائيلَ آخذين الكتابَ عنه عليه السلام بلا كسبٍ، فيشملُ مَن في حياته عليه السلام كما يقال: «العلماءُ ورثة الأنبياء»[1]، وهو وجهٌ، إلا أنَّ اعتبارَ: بعد الموت، أوْفَقُ في الإيراث، والعلاقةُ عليه أتمُّ.

وإرادةُ التوراةِ من «الكتاب» هو الظاهرُ، وجوِّز أن يكونَ المرادُ به جنس ما أُنزِل على أنبيائهم فيشمل التوراةَ والزبورَ والإنجيلَ.

﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ هدايةً وتذكرةً، أي: لأجلِهما، أو هادياً ومذكِّراً، فهما مصدران في موضع الحال ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ لذَوِي العقول السليمة الخالصة من شوائبِ الوهم، وخُصُّوا لأنَّهم المنتفعون به.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ أي: إذا عرفتَ ما قصَصْناه عليك للتأسِّي فاصْبِر على ما نالك من أذيَّةِ المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ إياكَ والمؤمنين بالنصرِ المشارِ إليه بقوله سبحانه: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا» أو جميعَ مواعيده تعالى ـ ويدخل فيه وعدُه سبحانه بالنصر دخولاً أوليًا ـ ﴿حَقٌّ﴾ لا يُخلِفه سبحانه أصلاً، فلا بدَّ من وقوع نصرِه جلَّ شأنُه لك وللمؤمنين، واستشهد بحالِ موسى ومَن معه وفرعونَ ومَن تبعه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أقبِلْ على أمرِ الدين، وتَلافَ ما ربَّما يَفْرُطُ مِمَّا يُعَدُّ بالنسبة إليك ذنباً وإن لم يكُنْه، ولعلَّ ذلك هو الاهتمامُ بأمرِ العِدَا بالاستغفار، فإنَّ الله تعالى كافيك في النصر وإظهارِ الأمر.

وقيل: «لذنبك»: لذنبِ أُمَّتِك في حقِّك، قيل: فإضافةُ المصدر للمفعول.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: ودُم على التسبيح والتحميدِ لربِّك، على أنَّه عُبِّر بالطرفين وأُريد جميعُ الأوقات. وجوِّز أن يرادَ خصوصُ الوقتين.

---

(١) سلف ١٩/ ٣٧٧.

والمراد بالتسبيح معناه الحقيقيُّ كما في الوجه الأول، أو الصلاةُ؛ قال قتادة: أريد صلاةُ الغداة وصلاةُ العصر. وعن الحسن: أريد ركعتان بكرةً وركعتان عشيًّا. قيل: لأنَّ الواجبَ بمكة كان ذلك، وقد قدَّمْنا أنَّ الحسنَ لا يقول بفرضية الصلوات الخمس بمكة، فقيل: كان يقول بفرضية ركعتين بكرةً وركعتين عشيًّا(١).

وقيل: إنه يقول: كان الواجبُ ركعتين في أيِّ وقتٍ اتفق. والكلُّ مخالفٌ للصريح المشهور.

وجوِّز على إرادةِ الدوام أن يرادَ بالتسبيح الصلاةُ، ويراد بذلك الصلواتُ الخمسُ، وحَكَى ذلك في «البحر» عن ابن عباس رضي الله عنهما(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ دلائلِه سبحانه التي نَصَبها على توحيده وكُتُبِه المنزَّلة، وما أظهر على أيدي رُسُله من المعجزات ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي: بغير حجَّةٍ في ذلك أتَتْهم من جهتِه تعالى، والجارُّ متعلِّق بـ «يجادلون»، وتقييدُ المجادَلةِ بذلك مع استحالةِ إتيانِ الحُجَّة؛ للإيذان بأنَّ المتكلِّمَ في أمرِ الدين لا بدَّ من استنادِه إلى حُجَّةٍ واضحة وبُرهانٍ مُبِينٍ، وهذا عامٌّ في كلِّ مجادِلٍ مُبطلٍ وإن نزل في قومٍ مخصوصين، وهم على الأصحِّ مشركو مكة.

وقولُه تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ خبرٌ لـ «إنَّ»، و«إنْ» نافيةٌ، والمرادُ بالصدور القلوبُ، أطلِقَت عليها للمجاوَرةِ والملابَسةِ، والكِبْرُ: التكبُّرُ والتعاظمُ، أي: ما في قلوبِهم إلَّا تكبُّرٌ عن الحقِّ وتعاظُمٌ عن التفكُّر والتعلُّم، أو هو مجازٌ عن إرادةِ الرياسةِ والتقدُّمِ على الإطلاق، أو إرادةِ أن تكونَ النبوَّةُ لهم، أي: ما في قلوبِهم إلا إرادةُ الرياسة، أو أن تكونَ النبوَّةُ لهم دونَك حسداً وبغياً حسبَما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. ولذلك يُجادِلون في آياته تعالى، لا أنَّ فيها موقعَ جدال ما، أو أنَّ لهم شيئاً يُتَوَهَّمُ صلاحيتُه لأن يكونَ مداراً لمجادَلتِهم في الجملة.

(١) ينظر ٢٠/ ٤٢٧-٤٢٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٧١.

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ صفةٌ لـ «كِبْر»، أي: ما هم ببالغي موجِبِ الكِبْر ومقتضِيه، وهو متعلَّقُ إرادتِهم من دفع الآياتِ، أو مِن الرياسة، أو النبوَّة.

وقال الزجَّاج: المعنى: ما يحملهم على تكذيبك إلَّا ما في صدورهم من الكِبْر عليك، وما هم ببالِغي مقتضى ذلك الكبر؛ لأنَّ الله تعالى أذلَّهم[١].

وقيل: الجملةُ مستأنَفةٌ، وضميرُ «بالغيه» لدفع الآياتِ المفهومِ من المجادَلة. وما تقدَّم أظهرُ.

وقال مقاتل: المجادِلون الذين نزلت فيهم الآية اليهودُ؛ عظَّموا أمر الدجَّال فنزلت[٢]. وإلى هذا ذهب أبو العالية؛ أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم بسندٍ صحيح عنه قال: إنَّ اليهودَ أَتَوا النبيَّ ﷺ فقالوا: إنَّ الدجالَ يكون منَّا في آخر الزمانِ، ويكونُ من أمره ما يكون. فعظَّموا أمرَه وقالوا: يصنَعُ كذا وكذا، فأنزل الله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ) إلخ[٣]، وهذا كالنصِّ في أنَّ أمرَ اليهود كان السببَ في نزولِها، وعليه تكونُ الآيةُ مدنيةً، وقد مرَّ الكلام في ذلك، فتذكَّر.

وفي روايةٍ أنَّ اليهودَ كانوا يقولون: يخرج صاحبُنا المسيحُ بن داود ـ يريدون الدجَّالَ ـ ويبلغ سلطانُه البرَّ والبحرَ، وتسير معه الأنهارُ، وهو آيةٌ من آيات الله، فيرجع إلينا المُلْكُ. حكاها في «الكشاف»، ثم قال: فسمَّى الله تعالى تمنِّيهم ذلك كِبْراً، ونفَى سبحانه أن يبلغوا متمنَّاهم[٤].

ويخطر لي على هذا القولِ أنَّ اليهودَ لم يُريدوا من تعظيم أمرِ الدجَّالِ سوى نفْيِ أن يكونَ نبيُّنا ﷺ النبيَّ المبعوثَ في آخر الزمان، الذي بشَّر به أنبياؤُهم، وزعْمِ أنَّ المبشَّر به هو ذلك اللعينُ، ففي بعضِ الروايات أنَّهم قالوا للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: لستَ صاحبَنا ـ يعنونَ النبيَّ المبشَّر به أنبياؤُهم، فالإضافة لأدنى ملابسةٍ ـ بل هو المسيحُ بن داود، يبلغ سلطانُه البَرَّ والبحرَ، ويسير معه

(١) معاني القرآن ٤/ ٣٧٧، ونقله المصنف من البحر ٧/ ٤٧١.
(٢) زاد المسير ٧/ ٢٣٤، والبحر ٧/ ٤٧٢.
(٣) عزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٣٢.

الأنهارُ[1]. وفي ذلك بزعمهم دفعُ الآيات الدالَّةِ على نبوَّةِ النبيِّ ﷺ، والداعي لهم إلى ذلك الكِبْرُ والحسدُ وحبُّ أن لا تخرُجَ النبوَّةُ من بني إسرائيل، فمعنى الآية عليه نحوُ معناها على القول بكون المجادِلين مشركي مكة.

ثم إنَّ اليهودَ عليهم اللعنةُ كذَبوا أولاً بقولهم للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: لستَ صاحبَنا. وثانياً بقولهم: بل هو المسيح بن داود. يعنون الدجَّالَ، أما الكَذِب الأولُ فظاهرٌ، وأما الثاني فلأنَّه لم يُبْعَث نبيٌّ إلَّا وقد حذَّر أمتَه الدجَّالَ وأنذرهم إياه، كما نطقت بذلك الأخبارُ[2]، وهم قالوا: هو صاحبُنا. يعنون المبشَّرَ ببعثتِه آخرَ الزمان، وكلُّ ذلك من الجدال في آيات الله تعالى بغيرِ سلطان.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فالْتَجِئْ إليه تعالى مِن كيدِ من يحسُدك ويبغي عليك، وفيه رمزٌ إلى أنَّه من هَمَزات الشياطين، وقال أبو العالية: هذا أمرٌ للنبيِّ ﷺ أن يتعوَّذَ من فتنةِ الدجَّال بالله عزَّ وجلَّ[3].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لأقوالِكم وأفعالِكم، والجملةُ لتعليلِ الأمرِ قبلَها.

وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ تحقيقٌ للحقِّ، وتبيينٌ لأشهَرِ ما يجادِلون فيه من أمر البعث الذي هو كالتوحيد في وجوبِ الإيمان به، على منهاجِ قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]، وإضافةُ «خلق» إلى ما بعده من إضافة المصدر إلى مفعوله[4]، أي: لخَلْقُ الله تعالى السماواتِ والأرضَ أعظمُ مِن خَلْقِه سبحانه الناسَ لأنَّ الناسَ بالنسبة إلى تلك الأجرام العظيمةِ كلا شيء، والمراد أنَّ مَن قدر على خلقِ ذلك فهو سبحانه على خلقِ ما لا يُعَدُّ شيئاً بالنسبة إليه بدءاً وإعادةً أقدرُ وأقدرُ.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٠١، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٧٨.

(٢) منها ما أخرجه البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣)، وأحمد (١٢٠٠٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) البحر ٧/ ٤٧٢.

(٤) ورد في هامش الأصل ما نصه: وحكى في «البحر» عن النقَّاش أن الإضافة في «خلق الناس» من إضافة المصدر إلى فاعله، فتأمَّل فيه. اهـ.

وقال أبو العالية: الناسُ: الدجَّال[1]، وهو بناءً على ما روي عنه في المجادلين.

ولعمري إن تطبيقَ هذا ونحوِه على ذلك في غاية البُعد، وأنا لا أقول به.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ وهم الكَفَرة، ولَمَّا كان ما قبلُ لإثباتِ البعث الذي يشهَدُ له العقلُ وتقتضيه الحكمةُ اقتضاءً ظاهراً ناسَبَ نفْيَ العلم عمَّن كَفَر به؛ لأنَّهم لو كانوا من العقلاء الذين من شأنهم التدبُّرُ والتفكُّر فيما يدلُّ عليه لم يصدُرْ عنهم إنكارُه، ولم يَذْكر للعلم مفعولاً؛ لأنَّ المناسبَ للمقام تنزيلُه منزلةَ اللازم.

وقيل: المراد: لا يعلمون أنَّ خلقَ السماوات والأرض أكبرُ من خلق الناس، أي: لا يَجْرُون على موجبِ العلم بذلك من الإقرار بالبعث، ومَن لا يجرِي على موجب علمه، هو والجاهلُ سواءٌ.

وفي «البحر»[2] أنه تعالى نبَّه على أنَّه لا ينبغي أن يجادِلَ في آيات الله ولا يتكبَّرَ الإنسانُ بقوله سبحانه: «لَخَلْقُ» إلخ، أي: إنَّ مخلوقاتِه تعالى أكبرُ وأجلُّ مِن خلق البشر، فما لأحدِهم يجادِلُ ويتكبَّرُ على خالقه سبحانه وتعالى، «ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون»: لا يتأمَّلون لغلبةِ الغفلةِ عليهم، ولذلك جادلوا وتكبَّروا. ولا يخفى أنه تفسيرٌ قليلُ الجدْوَى.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الغافلُ عن معرفة الحقِّ في مبدئه ومعادِه، ومَن كانت له بصيرةٌ في معرفتهما. وتفسيرُ «البصير» بالله تعالى، و«الأعمى» بالصنم، غيرُ مناسب هنا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: المُحسِن، ولذا قُوبل بقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾، وعُدل عن التقابُلِ الظاهر كما في «الأعمى والبصير» إلى ما في النظم الجليل إشارةً إلى أنَّ المؤمنين عَلَمٌ في الإحسان، وقدَّم «الأعمى» لمناسبةِ العَمَى ما قبله من نفْي العِلم، وقدَّم «الذين آمنوا» بعدُ لمجاوَرة «البصير» ولشَرَفهم، وفي مثله طرُقٌ: أن يجاوِرَ كلٌّ ما يناسبه كما هنا، وأن يقدِّم ما يقابِلُ الأولَ ويؤخِّرَ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٦٢.
(٢) ٧/ ٤٧٢.

ما يقابِل الآخَرَ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۞ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۞ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢١]، وأن يؤخِّر المتقابلان كـ: الأعمى والأصمّ والسميع والبصير، وكلُّ ذلك من بابِ التفنُّنِ في البلاغة وأساليبِ الكلام.

والمقصودُ من نفْي استواءِ مَن ذُكر بيانُ أنَّ هذا التفاوُتَ مما يُرشِد إلى البعث، كأنه قيل: ما يستوي الغافلُ والمستبصِرُ، والمحسنُ والمسيء، فلا بدَّ أن يكونَ لهم حالٌ أخرى يظهَرُ فيها ما بين الفريقَيْن من التفاوُت وهي فيما بعدَ البعث.

وأعيدت «لا» في «المسيء» تذكيراً للنفْي السابق، لِما بينَهما من الفصل بطول الصلة، ولأنَّ المقصودَ بالنفْي أنَّ الكافرَ المسيءَ لا يساوِي المؤمنَ المُحسِن، وذِكرُ عدمِ مساواة الأعمى للبصير توطئةٌ له، ولو لم يُعَدِ النفْيُ فيه فربَّما ذُهل عنه وظُنَّ أنه ابتداءُ كلامٍ، ولو قيل: ولا الذين آمنوا والمسيءُ، لم يكن نصًّا فيه أيضاً؛ لاحتمال أنه مبتدأٌ، و«قليلاً ما تتذكرون» خبرُه، وجُمِع على المعنى. قاله الخفاجي[1]، وهو إن تمَّ فعلى القراءةِ بياء الغيبة[2].

وقيل: لم يقل: ولا الذين آمنوا والمسيء؛ لأنَّ المقصودَ نفْيُ مساواة المسيء للمحسن، لا نفْيُ مساواة المحسن له، إذ المرادُ بيانُ خسارتِه. ولا يصفو عن كَدَرٍ، فتدبَّر.

والموصول مع ما عُطف عليه معطوفٌ على «الأعمى» مع ما عُطِف عليه عَطْفَ المجموع على المجموع، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] ولم يُترك العطفُ بينهما ـ بناءً على أنَّ الأول مشبَّهٌ به، والثاني مشبَّه، وهما متَّحدان مآلاً ـ لأنَّ كلًّا من الوصفَيْن الأوَّلَيْنِ مغايِرٌ لكلٍّ من الوصفين الأخِيرَين، وتغايُرُ الصفاتِ كتغايُرِ الذوات في صحة التعاطُف.

ووجهُ التغاير أنَّ الغافلَ والمستبصرَ والمحسنَ والمسيءَ صفاتٌ متغايِرةُ المفهوم بقطع النظر عن اتحادِ ما صدقهما وعَدَمِه.

وقيل: التغايُرُ بين الوصفين الأوَّلين والوصفين الأخِيرَين من جهةِ أنَّ القصدَ في

(١) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٧/ ٣٧٩.
(٢) سترد قريباً.

الأوَّلَين إلى العِلْم، وفي الأخيرين إلى العمل. وهو وجهٌ لا بأسَ به.

وقيل: هما وإن اتحدا ذاتاً متغايِران اعتباراً من حيث إنَّ الثاني صريحٌ والأولَ مذكورٌ على طريق التمثيل. ونُظِر فيه بأنَّه لو اكتُفِي بمجرَّدِ هذه المغايرة لزم جوازُ عطفِ المشبَّه على المشبَّه به وعكسُه.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: تذكُّراً قليلاً تتذكرون.

وقرأ الجمهور والأعرج والحسن وأبو جعفر وشيبة بياء الغيبة[١]. والضميرُ للناس أو الكُفَّار.

قال الزمخشريُّ: والتاء أعمُّ[٢]. وعلَّله صاحب «التقريب» بأنَّ فيه تغليبَ الخطاب على الغيبة.

وقال القاضي: إنَّ التاء للتغليب أو الالتفات، أو أَمْرِ الرسول ﷺ بالمخاطبة[٣]. أي: بتقدير «قُل» قبلَه.

وآثر العلامةُ الطيبيُّ الالتفاتَ؛ لأنَّ العدولَ من الغيبة إلى الخطاب في مقام التوبيخ يدلُّ على العُنفِ الشديدِ والإنكارِ البليغ، فهذه الآية متصلة بـ «خلق السماوات» وهو كلامٌ مع المجادِلين.

وتعقَّبه صاحبُ «الكشف» بأنَّه يجوز أن يُجْعَل ما ذُكِر نكتةَ التغليب فيكونُ أولى لفائدةِ التعميم أيضاً، فليُفْهَم.

والظاهرُ أنَّ التغليبَ جارٍ على احتمال كونِ الضمير للناس واحتمالِ كونِه للكفَّار؛ لأنَّ بعضَ الناس أو الكفارَ مخاطَبٌ هنا؛ والتقليلُ أيضاً يصِحُّ إجراؤُه على ظاهره لأنَّ منهم مَن يتذكَّر ويهتدي.

وقال الجلبي: الضميرُ إذا كان للناس فالتقليلُ على معناه الحقيقيِّ، والمستثنى هم المؤمنون، وإذا كان للكفَّار فهو بمعنى النفْي.

---

(١) التيسير ص١٩٢، والنشر ٢/ ٣٦٥ عن نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٧٢-٤٧٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٣.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٧٩.

ثم الظاهرُ أنَّ المخاطَبَ مَن خاطبه ﷺ من قريشٍ، فمَن قال: المخاطَبُ هو النبيُّ عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: «فاصبر» ولا يناسِبُ إدخاله فيمن لم يتذكَّر = فقد سها ولم يتذكَّرْ.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في مجيئها، أي: لا بدَّ مِن مجيئها ولا محالةَ؛ لوضوح الدلالة على جوازِها وإجماع الأنبياء على الوعد الصادق بوقوعها. ويجوز أن يكونَ المعنى أنها آتية وأنها ليست محلًّا للريب، أي: لوضوحِ الدلالة.. إلى آخرِ ما مرَّ، والفرقُ أنَّ متعلَّق الريب على الأول المجيءُ، وعلى هذا الساعةُ، والحمل عليه أولى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ لا يصدِّقون بها لقصورِ نظرهم على ما يُدرِكونه بالحواسِّ الظاهرة واستيلاءِ الأوهام على عقولهم.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: اعبدوني أُثِبْكم، على ما رُوي عن ابن عباس والضحَّاك ومجاهد وجماعة.

وعن الثوريِّ أنه قيل له: ادْعُ الله تعالى، فقال: إنَّ تركَ الذنوب هو الدعاء[1]. يعني أنَّ الدعاءَ باللسان ترجمةٌ عن طلب الباطن، وأنَّه إنَّما يصحُّ لصحَّةِ التوجُّهِ وتَرْكِ المخالفة، فمن تَرَكَ الذنوبَ فقد سأل الحقَّ بلسانِ الاستعداد وهو الدعاءُ الذي يلزمه الإجابةُ، ومَن لا يتركها فليس بسائلٍ وإنْ دعاه سبحانه ألفَ مرَّةٍ، وما ذَكَر مؤيِّدٌ لتفسيرِ الدعاء بالعبادة ومحقِّقٌ له[2]، فإنَّ تركَ الذنوب من أجلِّ العبادات، وينطبِق على ذلك كمالَ الانطباق قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: صاغرين أذِلَّاء.

وجوَّز أن يكونَ المعنى: اسألوني أُعْطِكم، وهو المرويُّ عن السديِّ[3]، فمعنى

---

(١) قول ابن عباس في زاد المسير ٧/ ٢٣٤، وقول الضحاك في البحر ٧/ ٤٧٣ بلفظ: آتكم، وقول مجاهد في الكشاف ٣/ ٤٣٣، وقول الثوري في تفسير الطبري ٢٠/ ٣٥٤.

(٢) ورد في هامش الأصل ما نصه: وإطلاق الدعاء على العبادة مجازٌ، وجَعْلُ الإثابة لتَرَتُّبِها عليها استجابةً، مجاز أو مشاكلة. اهـ. وينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣٧٩، وما سيأتي ص٩٧-٩٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٦٢.

قوله تعالى: (يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) يستكبِرُون عن دُعائي؛ لأنَّ الدعاءَ نوعٌ من العبادة ومِن أفضلِ أنواعِها، بل روى ابن المنذر والحاكم وصحَّحه عن ابن عباس أنه قال: أفضلُ العبادة الدعاءُ، وقرأ الآيةَ[1].

والتوعُّد على الاستكبار عنه؛ لأنَّ ذلك عادةُ المترفين المسرِفين، وإنما المؤمنُ يتضرَّعُ إلى الله تعالى في كلِّ تقلُّباتِه. وفي إيقاع العبادةِ صلةَ الاستكبار ما يُؤذِن بأنَّ الدعاءَ بابٌ من أبوابِ الخضوع؛ لأنَّ العبادةَ خُضوعٌ، ولأنَّ المرادَ بالعبادة الدعاءُ، والاستكبارُ إنما يكون عن شيء إذا أتى به لم يكن مستكْبِراً.

قال في «الكشف»: وهذا الوجهُ أظهرُ بحسب اللفظ وأنسبُ إلى السياق؛ لأنه لَمَّا جعل المجادلةَ في آيات الله تعالى من الكِبْر جَعَل الدعاءَ وتسليمَ آياتِه من الخضوع، لأنَّ الداعيَ له تعالى الملتجِئَ إليه عزَّ وجلَّ لا يجادِل في آياته بغيرِ سلطانٍ منه ألبتَّةَ.

والعطفُ في قوله تعالى: «وقال» مِن عطفِ مجموع قصَّةٍ على مجموعِ أخرى لاستوائهما في الغرض، ولهذا لَمَّا تَمَّم هذه القصَّةَ أعني قولَه سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر:٦٨] صرَّح بالغرض في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٦٩]، كما بنى القصَّةَ أولاً على ذلك في قولِه تبارك وتعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ) ولو تُؤُمِّلَ في هذه السورة الكريمة حقَّ التأمُّل وُجِد جلُّ الكلام فيها مبنيًّا على ردِّ المجادلين في آيات الله المشتملةِ على التوحيدِ والبعثِ وتبيينِ وجهِ الردِّ في ذلك بفنونٍ مختلفةٍ، ثم انظُرْ إلى ما ختم به السورة كيف يُطابقِ ما بُدِئَت مِن قوله سبحانه: (فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ)، وكيف صرّح آخِراً بما رمز إليه أولاً لتقْضِي منه العجبَ، فهذا وجهُ العطف. انتهى.

وما ذَكَره مِن أظهريَّة هذا الوجهِ بحسب اللفظ ظاهرٌ جدًّا، لِمَا في الأُولى من ارتكابِ خلافِ الظاهر قبلَ الحاجةِ إليه في موضعَيْن: في الدعاء حيث

(١) المستدرك ١/ ٤٩١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٦.

تُجُوِّز به عن العبادة لتضمُّنِها له، أو لأنه عبادةٌ خاصَّةٌ أُرِيد به المطلقُ، وفي الاستجابة حيث جُعلت الإثابةُ على العبادة لترتُّبِها عليها استجابةً مجازاً أو مشاكلةً، بخلافِ الثاني فإنَّ فيه ارتكاب خلاف الظاهر ـ وهو التجوُّزُ ـ في موضعٍ واحدٍ وهو «عن عبادتي»، ومع هذا هو بَعد الحاجةِ، فلم يكن كنزع الخفِّ قبلَ الوصول إلى الماء، بل قيل: لا حاجةَ إلى التجوُّز فيه؛ لأنَّ الإضافةَ مرادٌ بها العهدُ هنا فتفيد ما تقدَّم، لكنَّ كونَه أنسبَ بالسياق أيضاً مما لا يتمُّ في نظري.

وأيًّا ما كان فـ «أَسْتَجب» جزمٌ في جواب الأمر، أي: إنْ تدعوني أستجِبْ لكم، والاستجابةُ على الوجهين مشروطةٌ بالمشيئة حسبَما تقتضيه أصولُنا، وقد صرَّح بذلك في استجابة الدعاء؛ قال سبحانه: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

والاستكبارُ عن عبادةِ الله تعالى ـ دعاءً كانت أو غيرَه ـ كفرٌ يترتَّبُ عليه ما ذُكر في الآية الكريمة. وأما تركُ ذلك لا عن استكبارٍ فتفصيلُ الكلام فيه لا يخفى.

والمقاماتُ في ترك الدعاء فقيل: متفاوتةٌ، فقد لا يحسُن، كما يدلُّ عليه قولُه ﷺ: «مَن لم يَدْعُ اللهَ تعالى يغْضَبْ عليه»، أخرجه أحمد وابن أبي شيبة والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً(١). وقد يحسُن كما يدلُّ عليه ما رُوي مِن تَرْكِ الخليل عليه السلام الدعاءَ يومَ أُلْقي في النار، وقوله: عِلمُه بحالي يغْني عن سؤالي(٢). وربَّما يقال: تركُ الدعاء اكتفاءً بعلم الله عزَّ وجلَّ دعاءٌ. والله تعالى أعلم.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وزيد بن عليٍّ وأبو جعفر: «سيُدْخَلُون» مبنيًّا للمفعول من الإدخال، واختلفتِ الروايةُ عن عاصم وأبي عمرو(٣).

---

(١) مسند أحمد (٩٧١٩)، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٠٠، والمستدرك ١/ ٤٩١. وإسناده ضعيف من أجل أبي صالح الخوزي، ينظر: ميزان الاعتدال ٤/ ٥٤٨.

(٢) سلف ١١/ ٢٥٢.

(٣) التيسير ص٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٦٦، والبحر ٧/ ٤٧٣، والنشر ٢/ ٢٥٢.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه، بأنْ أغابَ سبحانه فيه الشمسَ فجعله جلَّ شأنُه بارِداً مُظلِماً، وجَعَل عزَّ وجلَّ بردَه سبباً لضَعْفِ القُوَى المحرِّكة وظلمتَه سبباً لهُدُوء الحواسِّ الظاهرة، إلى أشياءَ أُخْرى جَعَلها أسباباً للسكونِ والراحة.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبْصَر فيه، أو به، فالنهارُ إمَّا ظرفُ زمانٍ للإبصار أو سببٌ له. وأيًّا ما كان فإسنادُ الإبصار له بجعلِه مُبْصِراً إسنادٌ مجازِيٌّ لِما بينَهما من الملابسة، وفيه مبالغةٌ، وأنَّه بلغ الإبصارُ إلى حدٍّ سَرَى في نهارِ المُبصِر، ولذا لم يقل: لتُبصِروا فيه، على طِرْز ما وقع في قرينه(١).

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقلْ: جعل لكم الليلَ ساكناً، ليكونَ فيه المبالغةُ المذكورةُ، وتَخرُج القرينتان مَخْرجاً واحداً في المبالغة؟

قلت: أُجِيبَ عن ذلك بأنَّ نعمةَ النهار أتمُّ وأعظمُ من نعمةِ الليل فسُلِكَ مسلكَ المبالغة فيها، وتُركت الأخرى على الظاهر تنبيهاً على ذلك.

وقيل: إنَّ النعمتين فَرَسَا رِهانٍ، فدلَّ على فضلِ الأولى بالتقديم وعلى فضل الأُخْرى بالمبالغة. وهو كما ترى.

وقيل: لم يقلْ ذلك؛ لأنَّ الليلَ يُوصَفُ على الحقيقةِ بالسكون، فيقال: ليلٌ ساكنٌ، أي: لا ريحَ فيه، ولا يبْعُد أن يكونَ السكونُ بهذا المعنى حقيقةً عُرفيَّةً، فلو قيل: ساكناً، لم يتميَّز المرادُ نظراً إلى الإطلاق، وإن تميَّزَ نظراً إلى قرينةِ التقابُل.

وكأنَّ رجحانَ هذا الأسلوبِ؛ لأنَّ الكلامَ المحكَمَ الواضحَ بنفسه من أوَّلِ الأمرِ هو الأصل، لاسيَّما في خطابٍ وَرَدَ في معرضِ الامتنان للخاصَّة والعامَّةِ، وهم متفاوِتون في الفهم والدراية الناقصة والتامَّة.

وفي «الكشف»: لمَّا لم يكن الإبصارُ علَّةً غائيَّةً في نفسه، بل العلَّةُ ابتغاء الفضل كما وَرَد مصرَّحاً به في سورة القصص(٢)، بخلافِ السكون والدَّعَةِ في

(١) في الأصل: قرينته.
(٢) الآية: (٧٣).

الليل = صُرِّح بذلك في الأول ورُمِز في الثاني مع إفادةِ نكتةٍ سَرِيَّةٍ في الإسناد المجازيِّ.

وقال الجلبي: إذا حُمِلت الآيةُ على الاحتباكِ[١]، وقيل: المراد: جَعَل لكم الليلَ مظلِماً لتسكُنوا فيه، والنهارَ مُبصِراً لتنتَشِرُوا فيه ولتَبْتَغوا من فضل الله تعالى، فحُذِف من الأوَّلِ بقرينةِ الثاني، ومن الثاني بقرينة الأوَّلِ = لم يحْتَجْ إلى ما ذُكِر في تعليل تركِ المبالَغةِ في القرينةِ الأولى، وهذا هو المشهورُ في الآية والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ لا يُوازِيه فضلٌ، ولقَصْدِ الإشعارِ به لم يقل: لَمُفْضِل[٢].

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بَرِّهم وفاجِرِهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١﴾ لجهلِهم بالمُنْعِم وإغفالِهم مواقعَ النِّعَم، وتكريرُ الناس لتخصيصِ الكُفْرانِ بهم، وذلك من إيقاعه على صريحِ اسمِهم الظاهرِ الموضوعِ موضعَ الضمير الدالِّ على أنَّه من شأنِهم وخاصَّتِهم في الغالب.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المتصِفُ بالصفاتِ المذكورةِ المقتضيةِ للألوهيَّة والربوبيَّةِ ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبارٌ مترادِفةٌ تخصِّصُ اللاحقةُ السابقةَ وتقلِّل اشتراكَها في المفهوم نظراً إلى أصل الوضع وتُقَرِّرُها، وجوِّز في بعضها الوصفيَّةُ والبدليَّةُ، وأُخِّر: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في آية سورة الأنعام [الآية: ١٠٢] وقدِّم هنا؛ لِما أنَّ المقصودَ هاهنا ـ على ما قيل ـ الردُّ على منكري البعثِ فناسَبَ تقديمَ ما يدلُّ عليه، وهو أنَّه منه سبحانه وتعالى مبدأُ كلِّ شيء، فكذا إعادتُه.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «خالقَ» بالنصب على الاختصاص[٣]، أي: أعني، أو:

---

(١) الاحتباك: من أنواع البديع، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول. الإتقان ٢/ ٨٣١.

(٢) في الأصل و(م): المفضل، والمثبت هو الصواب. ينظر الكشاف ٣/ ٤٣٤، وتفسير البيضاوي ٧/ ٣٨٠.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٧٣.

أخصُّ خالقَ كلِّ شيء، فيكون «لا إله إلا هو» استئنافاً مما هو كالنتيجةِ للأوصافِ المذكورة، فكأنه قيل: الله تعالى متَّصِفٌ بما ذُكر من الصفاتِ ولا إله إلَّا مَن اتصَفَ بها، فلا إله إلا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فكيف ومِن أيِّ جهةٍ تُصْرَفون من عبادته سبحانه إلى عبادةِ غيره عزَّ وجلَّ.

وقرأ طلحة في رواية: «يؤفكون» بياءِ الغَيبة(١).

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: مِثْلَ ذلك الإفْكِ العجيب الذي لا وجهَ له ولا مصحِّحَ أصلاً، يُؤفكُ كلُّ مَن جَحَد بآياتِه تعالى أيَّ آيةٍ كانت، لا إفْكاً آخَرَ له وجهٌ ومصحِّحٌ في الجملة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مستقَرًّا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: قُبَّةً، ومنه أبنيةُ العرب لِقبابِهم التي تُضْرَب، وإطلاقُ ذلك على السماء على سبيلِ التشبيه، وهو تشبيهٌ بليغٌ، وفيه إشارةٌ لكُرِيَّتِها، وهذا بيانٌ لفضْلِه تعالى المتعلِّق بالمكان بعدَ بيانِ فضلِه المتعلِّق بالزمان.

وقوله سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بيانٌ لفضله تعالى المتعلِّق بأنفسهم، والفاءُ في «فأحسَنَ» تفسيريَّةٌ، فالمرادُ: صوَّركم أحسنَ تصويرٍ حيثُ خَلَق كلًّا منكم منتَصِبَ القامةِ، بادي البَشَرَةِ، متناسِبَ الأعضاء والتخطيطات، متهيِّئاً لمزاوَلةِ الصنائِع واكتسابِ الكمالات.

وقرأ الأعمش وأبو رزين: «صِوَرَكم» بكسر الصاد(٢) فراراً من الضمَّةِ قبلَ الواو، وجَمْعُ فُعْلَةٍ بضمِّ الفاء على فِعَل بكسرها شاذٌّ، ومنه: قُوَّةٌ وقِوًى بكسر القاف في الجمع.

وقرأت فرقة: «صُوْرَكم» بضمِّ الصاد وإسكان الواو، على نحو: بُسْرَةٍ وبُسْرٍ(٣).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٦٧، والبحر ٧/ ٤٧٣، والكلام وما بعده منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٧، والبحر ٧/ ٤٧٣.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ أي: المستلَذَّاتِ طعماً ولباساً وغيرَهما، وقيل: الحلالِ.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي نُعِت بما ذُكِر من النُّعوت الجليلة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ﴾ خبران لـ «ذلكم» ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تعالى بذاته ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: مالكُهم ومربِّيهم، والكلُّ تحتَ ملكوته مفتقرٌ إليه تعالى في ذاتِه ووجودِه وسائرِ أحوالِه جميعِها، بحيثُ لو انقطع فيضُه جلَّ شأنُه عنه آناً لعُدِم بالكلية.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المنفردُ بالحياة الذاتية الحقيقيَّة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجودَ يُدانيه في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه عزَّ وجلَّ ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبُدُوه خاصَّةً لاختصاصِ ما يُوجِب ذلك به تعالى.

وتفسيرُ الدعاء بالعبادة هو الذي يقتضيه قولُه تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ أي: الطاعةَ من الشرك الخَفِيِّ والجَلِيِّ، وأنَّه الأليقُ بالترتُّبِ على ما ذُكر من أوصافِ الربوبيَّة والألوهيَّة، وإنما ذُكِرت بعنوانِ الدعاء؛ لأنَّ اللائقَ هو العبادةُ على وجهِ التضرُّعِ والانكسارِ والخضوع.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: قائلين ذلك؛ أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصحَّحه والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس قال: مَن قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: الحمد لله ربِّ العالمين، وذلك قولُه تعالى: (فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ) إلخ[1].

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير نحو ذلك[2]. وعلى هذا فـ «الحمد لله» إلخ من كلام المأمورين بالعبادة قبلَه.

وجوِّز كونُه من كلام الله تعالى على أنه إنشاءٌ لِحَمْدِ[3] ذاته سبحانه بذاتِه جلَّ شأنُه.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٥٨، والمستدرك ٢/ ٤٣٨، والأسماء والصفات (١٩٤)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٧.

(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٧.

(٣) في الأصل و(م): حمد، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٣٨١.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ من الحُجَجِ والآياتِ، أو من الآياتِ لكونِها مؤيِّدةً لأدلَّةِ العقل منبِّهةً عليها، فإنَّ الآياتِ التنزيليةَ مفسِّراتٌ للآياتِ التكوينيَّةِ الآفاقيَّةِ والأنفُسيَّةِ.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: بأن أنقادَ له تعالى، وأُخلِصَ له عزَّ وجلَّ ديني.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ في ضمنِ خَلْقِ آدم عليه السلام منه حسبَما مرَّ تحقيقُه ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خَلَقكم خلقاً تفصِيليًّا من نطفةٍ، أي: من منيٍّ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعةِ دمٍ جامدٍ ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً، وهو اسمُ جنسٍ صادقٌ على القليلِ والكثيرِ.

وفي «المصباح»: قال ابن الأنباري: يكونُ الطفلُ بلفظٍ واحدٍ للمذكَّرِ والمؤنَّثِ والجمع، ويجوز فيه المطابقةُ أيضاً[١].

وقيل: إنه أُفرِد بتأويلِ: خَلقَ كلَّ فردٍ من هذا النوع، ثمَّ يُخرِج كلّ فردٍ منه طفلاً.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ اللام فيه متعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: ثم يُبْقِيكم لتبلغوا، وذلك المحذوفُ عطفٌ على «يخرجكم»، وجوِّز أن يكونَ «لتبلغوا» عطفاً على علَّةٍ مقدَّرةٍ لـ «يُخْرِجكم» كأنه قيل: ثم يخرجكم لتكبُرُوا شيئاً فشيئاً ثمَّ لتبلغوا أَشُدَّكم وكمالَكم في القوَّةِ والعقل، وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾، ويجوزُ عطفُه على «لتبلغوا».

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائيُّ: «شِيوخا» بكسر الشين[٢].

وقرئ: «شيخاً» كقوله تعالى: «طفلاً»[٣].

---

(١) المصباح المنير (طفل).
(٢) التيسير ص١٩٢، والنشر ٢/٢٢٦.
(٣) الكشاف ٣/٤٣٦.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ الشيخوخة بعدَ بلوغ الأشُدِّ، أو قبله أيضاً.

﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ﴾ متعلِّقٌ بفعلٍ مقدَّرٍ بعده، أي: ولتبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القيامة يَفْعَلُ ذلك الخَلْقَ من ترابٍ وما بعده من الأطوار، وهو عطفٌ على «خلقكم»، والمرادُ من يوم القيامة ما فيه من الجزاءِ، فإنَّ الخَلْقَ ما خُلِقُوا إلا ليَعْبُدُوا ثم يَبْلُغوا الجزاءَ.

وتفسيرُ الأجل المسمَّى بذلك مرويٌّ عن الحسن[1]. وقال بعضٌ: هو يومُ الموت. وتُعقِّب بأنَّ وقتَ الموت فُهِم مِن ذِكْر التوَفِّي قبلَه، فالأولى تفسيرُه بما تقدَّم، وظاهرُ صنيع الزمخشريِّ ترجيح هذا[2] على ما بُيِّن في «الكشف».

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ ولكي تَعقِلوا ما في ذلك التنقُّلِ في الأطوار من فنونِ الحِكَم والعِبَر. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: أي: ولعلَّكم تعقِلُون عن ربِّكم أنه يُحْيِيكم كما أماتكم[3].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ﴾ الأموات ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياءَ، أو: الذي يفعل الإحياءَ والإماتةَ ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أرادَ بُروزَ أمرٍ من الأمورِ إلى الوجود الخارجيِّ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾ من غير توقُّفٍ على شيءٍ من الأشياء أصلاً.

وهذا عند الخلَف تمثيلٌ لتأثيرِ قُدرتِه تعالى في المقدورات عند تعلُّقِ إرادتِه سبحانه بها، وتصويرٌ لسرعةِ ترتُّبِ المكوَّناتِ على تكوينِه من غير أن يكونَ هناك آمِرٌ ومأمورٌ. وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك.

والفاءُ الأولى للدَّلالةِ على أنَّ ما بعدَها من نتائجِ ما قبلَها من حيث إنَّه يقتضي قدرةً ذاتيةً غيرَ متوقِّفةٍ على العُدَدِ والموادِّ. وجوِّز فيها كونُها تفصيليَّةً وتعليليَّةً أيضاً، فتدبَّر.

---

(١) مجمع البيان ٢٤/ ٢١٣.

(٢) أي: ترجيح القول الثاني وهو وقت الموت، فإنه قال في الكشاف ٣/ ٤٣٦: وأما «ولتبلغوا أجلاً مسمًّى» فمعناه: ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى، وهو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة. اهـ.

(٣) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٧.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ تعجيبٌ من أحوالِهم الشنيعةِ وآرائِهم الركيكةِ، وتمهيدٌ لِما يعقبه من بيان تكذيبهم بكلِّ القرآن وبسائر الكُتُبِ والشرائعِ وترتيبِ الوعيد على ذلك، كما أنَّ ما سبق من قولِه تعالى: «إن الذين يجادلون» إلخ، بيانٌ لابتناءِ جِدالِهم على مبنًى فاسدٍ لا يكاد يدخُلُ تحت الوجود، فلا تكريرَ فيه. كذا في «إرشاد العقل السليم»[١].

وقال القاضي: تكريرُ ذكرِ المجادَلةِ لتعدُّدِ المجادِل بأن يكونَ هناكَ قوماً وهنا قوماً آخَرين، أو المجادَل فيه بأن يُحمَل في كلٍّ على معنًى مناسبٍ، ففيما مرَّ في البعث، وهنا في التوحيد، أو هو للتأكيدِ اهتماماً بشأنِ ذلك[٢].

وأختارُ ما في «الإرشاد»، أي: انظُر إلى هؤلاء المكابرين المجادِلين في آياتِه تعالى الواضحةِ الموجِبةِ للإيمان بها الزاجرةِ عن الجدالِ فيها، كيف يُصْرَفُون عنها مع تعاضُدِ الدواعي إلى الإقبال عليها وانتفاءِ الصَّوارِف عنها بالكلية.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ ـ أي: بكلِّ القرآن، أو بجنس الكُتُب السماوية، فإنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لها ـ في محلِّ الجرِّ على أنه بدلٌ من الموصولِ الأوَّلِ، أو بيانٌ، أو صفةٌ له، أو في محلِّ النصب على الذمِّ، أو في محلِّ الرفع على أنَّه خبرُ محذوفٍ، أو مبتدأٌ خبرُه «فسوف يعلمون»، وإنما وُصِل الموصولُ الثاني بالتكذيبِ دونَ المجادَلةِ؛ لأنَّ المعتادَ وقوعُ المجادَلةِ في بعض الموادِّ، لا في الكلِّ. وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقيقِ، كما أنَّ صيغةَ المضارِع في الصلة الأولى للدلالة على تجدُّدِ المجادَلةِ وتكرُّرِها.

﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من سائرِ الكُتُب على الوجه الأول في تفسير «الكتاب»، أو مطلَقِ الوحْي والشرائعِ على الوجه الثاني فيه.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ كُنْهَ ما فعلوا من الجِدال والتكذيبِ عندَ مشاهَدتِهم لعقوباتِه.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ ظرفٌ لـ «يعلمون» والمعنى على الاستقبال، والتعبيرُ

---

(١) ٧/ ٢٨٤.
(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٢.

بلفظ المُضِيِّ للدلالة على تحقُّقِه حتى كأنَّه ماضٍ حقيقةً، فلا تنافُرَ بينَ «سوف» و«إذ».

﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطفٌ على «الأغلال».

والجارُّ والمجرورُ في نية التأخير، كأنه قيل: إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم.

وقوله تعالى: ﴿يُسۡحَبُونَ ٧١﴾ أي: يُجَرُّون ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾ حالٌ من ضميرِ «يعلمون»، أو ضميرِ «في أعناقهم»، أو جملةٌ مستأنَفةٌ لبيانِ حالِهم بعدَ ذلك.

وجوِّز كونُ «السلاسل» مبتدأً، وجملة «يسحبون» خبره، والعائدُ محذوفٌ، أي: يُسْحَبُون بها.

وجوِّز كونُ «الأغلال» مبتدأً «والسلاسلُ» عطفٌ عليه، والجملةُ خبرُ المبتدأ، و«في أعناقهم» في موضِع الحالِ، ولا يخفى حالُه.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وزيد بن عليٍّ وابن وثاب: «والسلاسلَ يَسْحَبُون»، بنصب «السلاسلَ» وبناءِ «يَسْحَبُون» للفاعل[1]، فيكون «السلاسل» مفعولاً مقدَّماً لـ «يَسْحَبُون»، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها، ولا بأسَ بالتفاوُتِ اسميةً وفعليةً.

وقرأت فرقةٌ منهم ابن عباسٍ في رواية: «والسلاسلِ» بالجرِّ[2]، وخَرَّج ذلك الزجَّاجُ[3] على الجرِّ بخافضٍ محذوفٍ، كما في قوله:

أشـارَتْ كُـلَـيْـبٍ بـالأكُـفِّ الأَصَـابِـعِ[4]

أي: وبالسلاسلِ كما قرئ به، أو: وفي السلاسل كما في مصحف أُبَيٍّ[5].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٣، والمحتسب ٢/ ٢٤٤، والبحر ٧/ ٤٧٤-٤٧٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٦، والبحر ٧/ ٤٧٥.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨.

(٤) شطر بيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٢٠، وقد سلف ٧/ ٤٦١، وتمامه:

إذا قِـيـلَ: أيُّ الـنـاسِ شـرٌّ قـبـيـلـةً   أشـارَتْ كُـلَـيْـبٍ بـالأكُـفِّ الأصـابِـعُ

(٥) قراءة: «وبالسلاسل» في الكشاف ٣/ ٤٣٦، والبحر ٧/ ٤٧٥. والأخرى في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٩.

والفراءُ على العطفِ بحسَبَ المعنى؛ إذ «الأغلالُ في أعناقهم»، بمعنى: أعناقُهم في الأغلال، ونظيرُه قولُه:

مشائيمُ ليسوا مُصْلِحين عشيرةً ولا ناعبٍ إلا بِبَيْنٍ غُرابُها[١]

ويُسمَّى في غير القرآن عطف التوهُّم، وذهب إلى هذا التخريجِ الزمخشريُّ وابن عطية[٢].

وابن الأنباري بعد أن ضعَّفَ تخريجَ الزجَّاج وخرَّجَ القراءةَ على ما قال الفراءُ قال: وهذا كما تقول: خاصَمَ عبدُ الله زيداً العاقِلَيْنِ، بنصب العاقِلَيْنِ ورَفعِه، لأنَّ أحدَهما إذا خاصم صاحبَه فقد خاصَمَه الآخرُ[٣]. وهذه المسألةُ لا تجوز عند البصريين، ونُقِل جوازُها عن محمد بن سعدان الكوفيِّ قال: لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما فاعلٌ مفعولٌ[٤].

﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يُحرَقُون ظاهراً وباطناً، من سَجَر التنُّورَ: إذا ملأه إيقاداً، ويكونُ بمعنى: ملأه بالحَطَب ليحمِيَه، ومنه: السَّجِيْرُ، للصديق الخليل، كأنه سُجِر بالحبِّ، أي: مُلِئَ، ويُفْهَمُ من «القاموس» أنَّ السجْرَ من الأضداد[٥]، وكِلَا الاشتقاقَيْنِ مناسِبٌ في السَّجِيْر، أي: مُلِئَ من حُبِّك، أو فَرَغ من غيرِك إليك، والأولُ أظهرُ.

والمرادُ بهذا وما قبله أنَّهم معذَّبون بأنواع العذاب، سَحْبِهم على وجوههم في النار الموقَدةِ، ثم تسليطِ النارِ على باطِنهم، وأنهم يعذَّبون ظاهراً وباطناً، فلا استدراكَ في ذكر هذا بعدَ ما تقدَّم.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: يقال لهم ويقولون، وصيغةُ الماضي للدلالةِ على تحقُّقِ الوقوع، والسؤالُ للتوبيخِ،

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١١، والبيت قد سلف ١٢/ ١٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٦٩.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٧٤.

(٤) البحر ٧/ ٤٧٥.

(٥) قال في القاموس (سجر): المسجور: الموقَد، والساكن، ضِدٌّ.

وضلالُهم عنهم بمعنى غَيْبَتِهم، مِنْ: ضلَّت دابتُه: إذا لم يُعْرف مكانُها، وهذا لا ينافِي ما يُشْعِرُ بأنَّ آلهتَهم مقرُونُونَ بهم في النار، لأنَّ للنار طبقاتٍ ولهم فيها مواقفُ، فيجوز غَيبتُهم عنهم في بعضِها واقترانُهم بهم في بعضٍ آخَر.

ويجوز أن يكونَ ضلالُهم استعارةً لعدم النفعِ، فحضورُهم كالعَدَم، فذُكِر على حقيقته في موضعٍ وعلى مجازِه في آخَر.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: بل تبيَّنَ لنا اليومَ أنَّا لم نَكُن نعبُدُ في الدنيا شيئاً يُعتَدُّ به، وهو إضرابٌ عن كونِ الآلهةِ الباطلةِ ليست بموجودةٍ عندهم أو ليست بنافعةٍ إلى أنَّها ليست شيئاً يُعتَدُّ به. وفي ذلك اعترافٌ بخطئِهم وندمٌ على قبيحِ فعلِهم حيثُ لا ينفع ذلك.

وجعل الجلبي هذه الآيةَ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] يَفْزَعُون إلى الكَذِب لحيرَتِهم واضطرابِهم، ومعنى قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أنه تعالى يُحَيِّرُهم في أمرِهم حتى يَفْزَعُون إلى الكذِب مع علمهم بأنَّه لا ينفعهم. ولعلَّ ما تقدَّم هو المناسِبُ للسياق.

ومعنى هذا: مِثْلَ ذلك الإضلالِ يُضِلُّ الله تعالى في الدنيا الكافرين حتى إنَّهم يدَّعُون فيها ما يتبيَّنُ لهم أنَّه ليس بشيء، أو: مِثْلَ ضلالِ آلهتِهم عنهم في الآخرة نُضِلُّهم عن آلهتهم فيها حتى لو طَلَبُوا الآلهةَ وطَلَبَتْهم لم يلْقَ بعضُهم بعضاً، أو: مِثْلَ ذلك الضلالِ وعدمِ النفع يُضِلُّ اللهُ تعالى الكافرين حتى لا يهتدوا في الدنيا إلى ما ينفَعُهم في الآخرة.

وفي «المجمع»: كما أَضَلَّ اللهُ تعالى أعمالَ هؤلاءِ وأبطَلَ ما كانوا يُؤَمِّلونه، كذلك يفعَلُ بأعمالِ جميعِ مَن يتديَّنُ بالكُفر فلا ينتفعون بشيء منها. فإضلالُ الكافرين على معنى إضلالِ أعمالِهم، أي: إبطالِها، ونقل ذلك عن الحسن(١).

وقيل في معناه غيرُ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾ إشارةٌ إلى المذكورِ من سَحْبِهم في السلاسل والأغلال

---

(١) مجمع البيان ٢٤/ ٢١٥.

وتسجيرِهم في النار وتوبيخِهم بالسؤال. وجوِّز على بعضِ الأوْجُهِ أن يكونَ إشارةً إلى إضلال الله تعالى الكافرينَ، وإلى الأوَّلِ ذهب ابنُ عطية(١)، أي: ذلكم العذابُ الذي أنتم فيه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تبطَرُون وتأشَرُون كما قال مجاهد(٢) ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشركُ والمعاصي، أو بغيرِ استحقاقٍ لذلك، وفي ذكرِ «الأرض» زيادةُ تفظيعٍ للبَطَر. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ تتوسَّعُون في الفرَح.

وقيل: المعنى: «بما كنتم تفرحون» بما يصيبُ أنبياءَ الله تعالى وأولياءَه من المكارِهِ، وبما تتوسَّعُون في الفرَح بما أُوتِيتُم حتى نَسِيتم لذلك الآخرةَ، واشتَغَلْتم بالنعمة عن المُنْعِم. وفي الحديث: «الله تعالى يُبغِضُ البَذِخِين الفَرِحِين، ويُحِبُّ كلَّ قَلْبٍ حَزِين»(٣).

وبين الفَرَح والمَرَح تجنيسٌ حَسَنٌ، والعُدول إلى الخطابِ للمبالَغةِ في التوبيخ؛ لأنَّ ذمَّ المرء في وجهه تشهيرٌ له، ولذا قيل: النصحُ بين الملأ تقريعٌ.

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: الأبوابَ المقسومةَ لكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدَّرين الخلودَ ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ عن الحقِّ جهنمُ، وكان مقتضى النظم الجليل حيثُ صُدِّر بـ «ادخلوا» أن يقال: فبئسَ مدخلُ المتكبرين، ليتجاوَبَ الصدرُ والعَجُزُ، لكنْ لَمَّا كان الدخولُ المقيَّدُ بالخلود سببَ الثواء عُبِّر بالمثوى وصحَّ التجاوُبُ معنًى.

وهذا الأمرُ على ما استظهره في «البحر» مَقُول لهم بعد المحاوَرةِ السابقةِ وهم في النار، ومطمحُ النظر فيه الخلودُ، فهو أمرٌ بقيدِ الخلود لا بمطلَقِ الدخول،

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٦٦.

(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ ﷺ كما في فيض القدير للمناوي ٢/ ٢٨٤. وفيه ـ كما ذكر المناوي ـ إسماعيل بن أبي زياد الشامي، قال عنه الدارقطني: متروك يضع الحديث. وجزءه الثاني أخرجه البزار (٣٦٢٤ - كشف)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣١٥، والبيهقي في الشعب (٨٩٢) و(٨٩٣) من طريق ضمرة بن حبيب عن أبي الدرداء مرفوعاً. وهذا إسناد منقطع لأن ضمرة لم يَلْقَ أبا الدرداء.

ويجوز أن يقال: هم بعدَ الدخول فيها أُمِروا أن يدخُلوا الأبوابَ المقسومةَ لهم، فكان أمراً بالدخول بقيدِ التجزئة لكلِّ بابٍ[١].

وقال ابن عطية: يقال لهم قبلَ هذه المحاورة في أول الأمرِ: «ادخلوا»[٢].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بتعذيبِ أعدائِك الكَفَرة ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ لا محالة.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصلُه: فإنْ نُرِكَ، فزِيدَت «ما» لتوكيدِ «إن» الشرطيةِ، ولذلك جازَ أن يلحَقَ الفعلَ نونُ التوكيد على ما قيل. وإلى التلازمِ بين «ما» ونونِ التوكيد بعدَ «إن» الشرطية ذهب المبرِّد والزجَّاجُ[٣]، فلا يجوز عندَهما زيادةُ «ما» بدون إلحاقِ نون، ولا إلحاقُ نون بدون زيادةِ «ما»، ورُدَّ بقوله:

فـإمَّـا تَـرَيْـنِـي ولـي لِـمَّـةٌ فـإنَّ الـحـوادثَ أَوْدَى بـهـا[٤]

ونَسَب أبو حيان ـ على كلام فيه ـ جوازَ الأمرَيْن إلى سيبويه[٥]، والغالبُ أنَّ «إن» إذا أكِّدت بـ «ما» يلحَقُ الفعلَ بعدها نونُ التوكيد على ما نصَّ عليه غيرُ واحد.

﴿بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ وهـو الـقـتـلُ والأسْرُ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبـلَ ذلـك ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾ يومَ القيامة فنجازِيهم بأعمالِهم، وهو جوابُ «نَتوفَّينَّك»، وجوابُ «نرينك» محذوفٌ مثل: فذاك.

وجوِّز أن يكونَ جواباً لهما على معنى: إن نعذِّبْهم في حياتِك أو لم نعذِبْهم، فإنَّا نُعذِّبُهم في الآخرةِ أشدَّ العذاب، ويدلُّ على شدَّته الاقتصارُ على ذكر الرجوع في هذا المعرض.

والزمخشريُّ آثَرَ في الآية هنا ما ذُكر أولاً[٦]، وذَكَر في «الرعد» في نظيرِها

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٧٦، والنهر الماد بهامش البحر ٧/ ٤٧٤، وتصحف في البحر «بقيد» إلى «يفيد».
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٧٠.
(٣) سلف عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.
(٤) البيت للأعشى ميمون، وقد سلف عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٤٧٧، والكتاب ٣/ ٥١٥.
(٦) الكشاف ٣/ ٤٣٧.

أعني قولَه تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الآية: ٤٠] ما يدلُّ على أنَّ الجملةَ المقرونةَ بالفاء جوابٌ على التقديرَيْن[1]. قال في «الكشف»: والفرقُ أنَّ قولَه تعالى: «فاصبر إن وعد الله حق» عِدَةٌ للإنجاز والنصرِ، وهو الذي همّه عليه الصلاة والسلام، وهَمُّ المؤمنين معقودٌ به لمقتضى هذا السياق، فينبغي أن يقدَّر: فذاك، هناك، ثم جيء بالتقدير الثاني ردًّا لشماتتِهم وأنَّه منصورٌ على كلِّ حالٍ وإتماماً للتسلِّي، وأما مساقُ التي في «الرعد» فلإيْجابِ التبليغ وأنَّه ليس عليه غيرُ ذلك كيفما دارت القضيةُ، فَمَن ذهب إلى إلحاقِ ما هنا بما في «الرعدِ» ذَهَب عنه مغزَى الزمخشريِّ. انتهى، فتأمَّل ولا تغفلْ.

وقرأ أبو عبد الرحمن ويعقوب: «يَرجِعون» بفتح الياء[2]، وطلحةُ بن مصرِّف ويعقوبُ في روايةِ الوليد بن حسان بفتح تاء الخطاب[3].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ ذَوِي خَطَرٍ وكَثْرةٍ ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ من قبلِ إرسالِك ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا﴾ أوْرَدْنا أخبارَهم وآثارَهم ﴿عَلَيْكَ﴾ كنوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهم أكثرُ الرسُل عليهم الصلاة والسلام؛ أخرج الإمام أحمد عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، كم عِدَّةُ الأنبياء؟ قال: «مئة ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفاً، الرُّسُلُ مِن ذلك ثلاث مئة وخمسةَ عشرَ، جمًّا غفيراً»[4]. والظاهرُ أنَّ المراد بالرسول في الآية ما هو أخصُّ من النبيِّ، وربما يُوهِم صنيعُ القاضي أنَّ المراد به ما هو مساوٍ للنبيِّ[5].

وأيًّا ما كان لا دلالةَ في الآية على عدم علمِه ﷺ بعددِ الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاةُ والسلامُ كما توهَّم بعضُ الناس، وردَّ لذلك خبرَ الإمام أحمد، وجَرَى بيننا وبينَه من النزاع ما جرى، وذلك لأنَّ المنفيَّ القصُّ، وقد علمتَ معناه،

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٣.
(٢) النشر ٢/ ٢٠٨ عن يعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٧٧.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٧٠، والبحر ٧/ ٤٧٧.
(٤) مسند أحمد (٢٢٢٨٨)، وإسناده ضعيف جدًّا، وسلف ١٧/ ٣٥٩.
(٥) ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٤.

فلا يلزمُ مِن نفْي ذلك نفْيُ ذكرِ أسمائهم، ولو سُلِّم فلا يلزم من نفْي ذكر الأسماء نفْيُ ذكرِ أنَّ عدَّتَهم كذا من غير تعرُّضٍ لذكرِ أسمائهم، على أنَّ النفْيَ بـ «لم»، وهي على الصحيح تقلِبُ المضارِعَ ماضياً، فالمنْفيُّ القصُّ في الماضي ولا يلزم من ذلك استمرارُ النفْي، فيجوزُ أن يكونَ قد قُصُّوا عليه عليه الصلاة والسلام جميعاً بعدَ ذلك ولم يَنْزِل ذلك قرآناً، وأظهرُ مِن ذلك في الدلالة على عدم استمرارِ النفْي قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] لتبادُرِ الذهن فيه إلى أنَّ المرادَ: لم نَقْصُصْهم عليك من قبلُ، لمكانِ: (قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ).

وبالجملة الاستدلالُ بالآية على أنَّه ﷺ لم يَعْلَم عدَّةَ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ولا عَلِمَها بعدُ = جهلٌ عظيمٌ بل خِذْلانٌ جسيمٌ، نعوذ بالله تعالى مِن ذلك.

وأخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» وابنُ مردويه عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه في قوله تعالى: (وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)، قال: بعث الله تعالى عبداً حبشيًّا نبيًّا فهو ممن لم يَقصُصْ على محمدٍ ﷺ[1].

وعن ابن عباس بلفظِ: إنَّ الله تعالى بعث نبيًّا أسود في الحبش، فهو ممن لم يقصصْ عليه عليه الصلاة والسلام[2].

والمرادُ بذلك على نحو ما مرَّ أنَّه لم تُذْكر له ﷺ قِصَصُه وآثارُه ولا أُورِدَت عليه أحوالُه وأخبارُه كما كان في شأن موسى وعيسى وغيرهما من المرسلين عليهم الصلاة والسلام، ولا يمكن أن يقال: المراد أنه لم يُذْكَر له ﷺ بعثةُ شخصٍ موصوفٍ بذلك، إذ لا يساعِدُ عليه اللفظ، وأيضاً لو أُرِيد ما ذُكر فمن أين عَلِم عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه أو ابنُ عباس ذلك؟ وهل يعوِّل[3] بابُ مدينة العِلم

(١) المعجم الأوسط (٩٣١٥)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٧، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٣٦٨. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٠٢: فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف.

(٢) نقله المصنف من البحر ٧/ ٤٧٧-٤٧٨، وهو في المحرر الوجيز ٤/ ٥٧٠ بلفظ مختلف، ولم نقف عليه في مصدر آخر.

(٣) في (م): يقول. وهو تصحيف.

عَلى عِلْمٍ لم يُفَضْ عليه من تلك المدينة؟ حاشاه ثم حاشاه، وكذا ابنُ عمِّه العباسِ عبدُ الله.

واستشكل هذا الخبرُ بأنَّ فيه رسالةَ العبد، وقد قالوا: العبد لا يكون رسولاً. وأجيب بأنَّ العبدَ فيه ليس بمعنى المملوك، وهو الذي لا يكون رسولاً لنقصانِ تصرُّفِه ونفرةِ النفوس عن اتِّباعه، بل هو أحدُ العبيد بمعنى السودان عُرْفاً.

ولو قيل: إنَّ العبدَ بهذا المعنى لا يكونُ رسولاً أيضاً لنفْرةِ النفوس عن اتباعِه كنفرتها عن اتباعِ المملوك.

قلنا: على تقديرِ تسليم النفرة إنما هي فيما إذا كان الإرسالُ لغير السودان، وأما إذا كان الإرسال للسودان فليست هناك نفرةٌ أصلاً.

وظاهرُ لفظ ابن عباس أنَّ ذلك الأسود إنما بُعث في الحبش، والتزامُ أنه لا يكونُ رسولٌ من السودان أولادِ حام مما لا يُساعِد عليه الدليلُ؛ لأنَّه إن كانت النفرةُ مانعةً من الإرسال فهي لا تتحقَّقُ فيما إذا كان الإرسالُ إلى بني صِنْفه، وإن كان المانعُ أنه لا يوجَدُ متأهِّلٌ للإرسال في بني حام لنقصانِ عقولهم وقلَّةِ كَمالِهم، فدعوَى ذلك جهلٌ، والله تعالى أعلم حيثُ يجعل رسالته، وكم رأينا في أبناءِ حام مَن هو أعقلُ وأكملُ مِن كثيرٍ من أبناءِ سام ويافث، وإن كان قد ورَدَ قاطعٌ من نبيِّنا ﷺ أنه لا يكونُ من أولئك رسولٌ، فليُذْكَر، وأنَّى به، ثمَّ إنَّ أمرَ النبوَّةِ فيمن ذُكر أهونُ من أمر الرسالة كما لا يخفى، وكأنه لمجموعِ ما ذَكَرْنا قال الخفاجيُّ عليه الرحمة: في صحَّة الخبرِ نظرٌ[1].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ أي: وما صحَّ وما استقامَ لرسولٍ من أولئك الرسُل ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ بمعجزةٍ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فالمعجزاتُ على تشعُّبِ فنونِها عطايا من الله تعالى قَسَمها بينهم حسبَما اقتضَتْه مشيئتُه المبنيةُ على الحِكَم البالغةِ، كسائر القِسَم ليس لهم اختيارٌ في إيثارِ بعضِها والاستبدادِ بإتيانِ المقتَرَح بها.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٤.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ بالعذابِ في الدنيا والآخرةِ ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بإنجاءِ المحقِّ وإثابتِه وإهلاكِ المُبطِل وتعذيبِه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقتَ مجيء أمرِ الله تعالى، اسمُ مكانٍ استُعِيرَ للزمان.

﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ المتمسِّكُون بالباطل على الإطلاق فيدخُلُ فيهم المعانِدُون المقترِحُون دخولاً أوَّليًا.

ومن المفسِّرين من فسَّر المبطلين بهم، وفسَّر أمرَ الله بالقيامة، ومنهم من فسَّره بالقتل يومَ بدر، وما ذكرنا أَولى.

وأبعَدُ ما رأينا في الآية أنَّ المعنى: فإذا أرادَ اللهُ تعالى إرسالَ رسولٍ وبعثةَ نبيٍّ قَضَى ذلك وأنفذَه بالحقِّ وخَسِرَ كلُّ مُبطِل وحَصَل على فَسادِ آخرتِه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ المرادُ بها الإبلُ خاصَّةً كما حُكي عن الزجَّاج، واختاره صاحبُ «الكشاف»(١)، واللامُ للتعليل لا للاختصاص، فإنَّ ذلك هو المعروفُ في نظير الآية، أي: خَلَقها لأجْلِكم ولمصلَحتِكم.

وقوله تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا﴾ إلخ، تفصيلٌ لِما دلَّ عليه الكلامُ إجمالاً، ومن هنا جَعَل ذلك بعضُهم بدَلاً مما قبلَه بدلَ مفصَّلٍ من مجمَلٍ بإعادةِ حرفِ الجرِّ، و«من» لابتداءِ الغاية، أي: ابتداء تعلّق الركوب بها، أو تبعيضيةٌ، وكذا «من» في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾. وليس المرادُ على إرادة التبعيض أنَّ كلًّا من الركوب والأكلِ مختصٌّ ببعضٍ معيَّنٍ منها بحيثُ لا يجوز تعلُّقُه بما تعلَّقَ به الآخَرُ، بل على أنَّ كلَّ بعضٍ منهما صالحٌ لكلٍّ منهما. نعم كثيراً ما يعدُّون النَجائِبَ من الإبِلِ للركوب.

والجملة على ما ذهب إليه الجلبي عطفٌ على المعنى، فإنَّ قولَه تعالى: «لتركبوا منها» في معنى: منها تركبون، أو أنَّ «منها تأكلون» في معنى: لتأكلوا منها، لكن لم يُؤْتَ به كذلك لنكتةٍ.

وقال العلَّامة التفتازاني: إنَّ هذه الجملةَ حاليةٌ، لكن يَرِدُ على ظاهرِه أنَّ فيه

(١) معاني القرآن ٤/ ٣٧٨، والكشاف ٣/ ٤٣٨.

عطف الحال على المفعولِ له، ولا مَحِيصَ عنه سوى تقديرِ معطوفٍ، أي: خلق لكم الأنعامَ منها تأكلون، ليكونَ من عطفِ جملةٍ على جملةٍ.

وتعقَّبه الخفاجي[1] بقوله: لم يلُحْ لي وجهُ جعْلِ هذه الواو عاطفةً محتاجةً إلى التقديرِ المذكورِ، مع أنَّ الظاهرَ أنها واوٌ حاليةٌ سواءٌ قلنا: إنها حالٌ من الفاعل، أو المفعول.

والمنساقُ إلى ذهني العطفُ بحسب المعنى، ولعلَّ اعتبارَه في جانب المعطوف أيسرُ، فيُعْتَبر أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي: غيرُ الركوب والأكلِ كالألبانِ والأوبارِ والجُلودِ، ويقال: إنه في معنى: ولتَنْتَفِعوا بمنافعَ فيها، أو نحو ذلك.

﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: أمراً ذا بالٍ تهتمُّون به، وذلك كحَمْلِ الأثقالِ من بلدٍ إلى بلدٍ، وهذا عطفٌ على «لتركبوا منها» جارٍ[2] على نمطه.

وكان الظاهرُ المزاوَجةَ بين الفوائدِ المحصَّلةِ من الأنعام، بأن يُؤْتى باللام في الجميعِ أو تُتْرَك فيه، لكن عُدِلَ إلى ما في النظم الجليل لنكتةٍ؛ قال صاحبُ «الكشف»: إنَّ الأنعام هاهنا لَمَّا أُرِيدَ بها الإبِلُ خاصَّةً جُعل الركوبُ وبلوغُ الحاجة من أتمِّ الغرض منها، لأنَّ جُلَّ منافعِها الركوبُ والحملُ عليها، وأما الأكلُ منها والانتفاعُ بأوبارِها وألبانِها بالنسبة إلى ذينكِ الأمرينِ فنَزرٌ قليلٌ، فأُدخِل اللامُ عليهما وجُعِلا مكتَنِفَينِ لِما بينهما تنبيهاً على أنَّه أيضاً مما يصلُح للتعليل ولكن قاصراً عنهما، وأما الاختصاصُ المستفادُ من قوله تعالى: «ومنها تأكلون» فلأنَّها من بين ما يُقصَد للركوبِ ويُعَدُّ للأكل، فلا ينتَقِضُ بالخيل على مذهبِ مَن أباحَ لَحمَها، ولا بالبقرِ.

وقال صاحبُ «الفرائد»: إنما قيل: «ومنها تأكلون ولكم فيها منافع» ولم يُقَل: لتأكلوا منها ولتصلوا إلى المنافع؛ لأنَّهم في الحال آكِلُون وآخذُون المنافعَ، وأما الركوبُ وبلوغُ الحاجةِ فأمران منتَظَران، فجيء فيهما بما يدلُّ على الاستقبالِ.

---

(١) في الحاشية ٧/ ٣٨٤، وما قبله منه.

(٢) في (م): جاء.

وتعقِّب بأنَّ الكلَّ مستقبَلٌ بالنسبة إلى زَمَنِ الخَلْق.

وقال القاضي: تَغْيِيرُ النظم في الأكل؛ لأنَّه في حيِّز الضرورة[١].

وقيل في توجيهه: يعني أنَّ مدخولَ الغرض لا يلزم أن يترتَّبَ على الفعلِ، فالتغييرُ إلى صورةِ الجملة الحاليةِ مع الإتيانِ بصيغةِ الاستمرار للتنبيهِ على امتيازِه عن الركوبِ في كونِه من ضرورياتِ الإنسان، ويطَّرِدُ هذا الوجهُ في قوله تعالى: «ولكم فيها منافع» لأنَّ المرادَ منفعةُ الشرب واللبس، وهذا مما يلْحَقُ بالضروريات وهو لا يضُرُّ. نعم فيه دغدغةٌ لا تخفى.

وقال الزمخشريُّ: إنَّ الركوبَ وبلوغَ الحاجةِ يصحُّ أن يكونا غرضَ الحكيم جلَّ شأنُه لِما فيهما من المنافع الدينية كإقامةِ دينٍ وطلبِ علمٍ واجبٍ أو مندوبٍ؛ فلذا جيء فيهما باللام، بخلافِ الأكلِ وإصابةِ المنافع فإنَّهما من جنس المباحات التي لا تكون غرضَ الحكيم[٢].

وهو مبنيٌّ على مذهبِه من الربط بين الأمرِ والإرادةِ، ولا يصحُّ أيضاً لأنَّ المباحاتِ التي هي نعمةٌ تصِحُّ أن تكونَ غرضَ الحكيم جلَّ جلالُه عندهم، ويا ليت شعري ماذا يقول في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]؟!

نعم لو ذَكَر أنَّه لاشتماله على الغرضِ الدينيِّ كان أنسبَ بدخولِ اللام، لكان وجهاً إن تمَّ.

وقيل: تغييرُ النظمِ الجليلِ في الأكل لمُراعاةِ الفواصلِ كما أنَّ تقديمَ الجارِّ والمجرورِ لذلك، وأما قولُه تعالى: «ولكم فيها منافع» فكالتابع للأكل فأُجرِيَ مُجراه. وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ توطِئةٌ لقولِه سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ليجمَعَ بين سفائنِ البَرِّ وسفائن البحر، فكأنه قيل: وعليها في البرِّ وعلى الفُلك في البحرِ تحملون، فلا تكرارَ.

---

(١) تفسير البيضاوي ٧/ ٣٨٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٨-٤٣٩.

وفي «إرشاد العقل السليم»: لعلَّ المرادَ بهذا الحمل حملُ النساء والولدانِ عليها بالهودَج، وهو السرُّ في فصله عن الركوب[1].

وتقديم الجارِّ ـ قيل ـ لمراعاةِ الفواصل كتقديمه قبلُ. وقيل: التقديمُ هنا وفيما تقدَّم للاهتمام.

وقيل: «وعلى الفلك» دون: في الفلك كما في قوله تعالى: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] لأنَّ معنى الظرفيةِ والاستعلاءِ موجودٌ فيها فيصحُّ كلٌّ من العبارتين، والمرجِّحُ لـ «على» هنا المشاكلةُ.

وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ المرادَ بالأنعام الأزواجُ الثمانية، فمعنى الركوبِ والأكل منها تعلُّقُهما بالكلِّ، لكنْ لا على أنَّ كلًّا منهما مختصٌّ ببعضٍ معيَّنٍ منها بحيثُ لا يجوز تعلُّقُه بما تعلَّق به الآخرُ، بل على أنَّ بعضَها يتعلَّقُ به الأكلُ فقط كالغنم، وبعضَها يتعلَّقُ به كِلاهما كالإبل.

ومنهم من عدَّ البقرَ أيضاً، وركوبُه معتادٌ عند بعضِ أهل الأخبية.

وأدرَجَ بعضُهم الخيلَ والبغالَ وسائرَ ما يُنتفَعُ به من البهائم في الأنعام، وهو ضعيفٌ.

ورجِّح القولُ بأنَّ المرادَ الأزواجُ الثمانية على القولِ المحكيِّ عن الزجَّاج من أنَّ المرادَ الإبِلُ خاصَّةً[2] = بأنَّ المقامَ مقام امتنانٍ، وهو مقتضٍ للتعميم.

والظاهرُ ذاك[3]، وكون المقام مقامَ امتنانٍ غيرُ مسلَّم، بل هو مقامُ استدلالٍ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] كما يُشعِر به السياقُ، ولا يأباه ذكرُ المنافع فإنه استطراديٌّ.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: دلائلَه الدالَّةَ على كمالِ شؤونه جلَّ جلالُه ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: فأيَّ آيةٍ من من تلك الآياتِ الباهرةِ ﴿تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ فإنَّ كلًّا منها من

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٢٨٦.
(٢) معاني القرآن ٤/ ٣٧٨.
(٣) أي: ما ذهب إليه الزجاج. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣٧٤.

الظهور بحيث لا يكاد يَجتَرِئُ على إنكارِها مَن له عقلٌ في الجملة. فـ «أي» للاستفهامِ التوبيخيِّ وهي منصوبةٌ بـ «تنكرون»، وإضافةُ الآيات إلى الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابة وتهويلِ إنكارِها، وتَذْكيرُ «أيّ» في مثلِ ما ذُكِر هو الشائعُ المستفيضُ، والتأنيث قليلٌ ومنه قوله:

بـأيِّ كـتـابٍ أم بـأيَّـةِ سُـنَّـةٍ   ترى حبَّهم عاراً عليَّ وتَحْسِبُ[1]

قال الزمخشريُّ: لأنَّ التفرقةَ بين المذكَّر والمؤنَّثِ في الأسماء غيرِ الصفات نحو: حمارٍ وحمارةٍ، غريبٌ، وهي في «أيّ» أغربُ لإبهامه[2]؛ لأنَّه اسمُ استفهامٍ عمَّا هو مبهمٌ مجهولٌ عندَ السائلِ، والتفرقةُ مخالِفةٌ لِما ذُكر؛ لأنَّها تقتضي التمييْزَ بينَ ما هو مؤنَّثٌ ومذكَّرٌ، فيكونُ معلوماً له.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أي: أقَعَدُوا فلم يسيروا؟ على أحدِ الرأيين ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المهلَكِة، وقولُه تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ إلخ استئنافٌ نظيرَ ما مرَّ في نظيره أوَّلَ السورة، بل أكثرُ الكلامِ هناك جارٍ هاهنا.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ «ما» الأولى نافيةٌ، أو استفهاميةٌ في معنى النفي في محلِّ نصبٍ بـ «أغنى»، والثانيةُ موصولةٌ في موضعِ رفعٍ به، أو مصدريةٌ والمصدرُ الحاصلُ بالتأويلِ مرفوعٌ به أيضاً. أي: لم يُغنِ عنهم، أو: أيَّ شيءٍ أغنَى عنهم، الذي كَسَبوه أو كَسْبُهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزاتِ، أو بالآيات الواضحاتِ الشاملةِ لذلك ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ ذُكر فيه ستةُ أوجُهٍ:

الأول: أنَّ المرادَ بـ «العلم» عقائدهم الزائغة وشُبَهِهم الداحضة فيما يتعلَّقُ بالمبدأ والمعادِ وغيرهما، أو عقائدهم المتعلِّقة بأحوالِ الآخرة كما هو ظاهرُ كلام «الكشاف»[3]، والتعبيرُ عن ذلك بـ «العلم» على زعمِهم؛ للتهكُّم كما في قوله تعالى:

---

(١) البيت للكميت بن زيد الأسدي، وهو في ديوانه ص٥١٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٩، وما بعده من كلام الشهاب في الحاشية ٧/ ٣٨٥.

(٣) ٣/ ٤٣٩.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النمل:٦٦] والمعنى أنَّهم كانوا يفرَحون بذلك ويستَحْقِرون له علمَ الرُّسُل عليهم السلام ويدفعون به البيِّناتِ.

الثاني: أنَّ المرادَ به علمُ الفلاسفة والدهريِّين من بني يونان[1] على اختلافِ أنواعِه، فكانوا إذا سمعوا بوحْي الله تعالى دفعوه وصغَّروا علمَ الأنبياء عليهم السلام إلى ما عندهم من ذلك. وعن سقراط أنَّه سمع بموسى عليه الصلاةِ والسلام، وقيل له: لو هاجرتَ إليه، فقال: نحن قومٌ مهذَّبون فلا حاجةَ لنا إلى مَن يهذِّبنا.

والزمانُ متشابهٌ فقَدْ رأينا مَن تَرَكَ متابَعةَ خاتم المرسَلين ﷺ واستنكَفَ عن الانتساب إلى شريعة أحدٍ منهم فَرَحاً بما لَحِسَ مِن فَضَلات الفلاسفة، وقال: إنَّ العلمَ هو ذاك دونَ ما جاءَ به الرسُلُ صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليهم أجمعين.

الثالث: أنَّ أصلَ المعنى: فلمَّا جاءتهم رسلُهم بالبيناتِ لَمْ يفرَحُوا بما جاءهم من العلم، فوُضِع[2] موضعَه: فرحوا بما عندهم من الجهل، ثم سمِّي ذلك الجهلُ علماً لاغتباطهم به، ووَضْعِهم إياه مكانَ ما ينبغي لهم من الاغتباط بما جاءهم من العلم. وفيه التهكُّم بفرطِ جهلهم والمبالغةُ في خلوِّهم من العلم.

وضميرُ «فرحوا» و«عندهم» على هذه الأوجُهِ للكفَرة المحدَّثِ عنهم.

الرابع: أنْ يُجْعَل ضميرُ «فرحوا» للكَفَرة وضميرُ «عندهم» للرسُلِ عليهم السلام، والمرادُ بـ «العلم» الحقُّ الذي جاء المرسَلون به، أي: فرِحوا بما عندَ الرسل من العلم فَرَحَ ضَحِكٍ منه واستهزاءٍ به، وخلاصتُه أنَّهم استهزؤوا بالبيناتِ وبما جاء به الرسُلُ من عِلم الوحْي، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

الخامس: أن يجعل الضميرانِ للرسُل عليهم السلام، والمعنى أنَّ الرسلَ لَمَّا رأوا جهْلَ الكَفَرةِ المتمادي واستهزاءَهم بالحقِّ، وعَلِموا سوْءَ عاقبتِهم وما يلحَقُهم من العقوبة على جهلِهم واستهزائِهم، فَرِحُوا بما أُوْتُوا من العلم وشَكَروا اللهَ تعالى، وحاق بالكافرين جزاءُ جهلِهم واستهزائِهم، وحُكي هذا عن الجُبائي[3].

---

(١) ورد في هامش الأصل: «يَونان» بفتح الياء.
(٢) وقع في الأصل و(م): فوضعوا، والمثبت هو الصواب، ينظر الكشاف ٣/ ٤٣٩.
(٣) مجمع البيان ٢٤/ ٢١٩.

السادس: أن يُجعلَ الضميران للكُفَّار، والمرادُ بـ «ما عندهم من العلم»: علمُهم بأمورِ الدنيا ومعرفتُهم بتدبيرِها كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] فلمَّا جاءهم الرسُلُ بعلم الديانات وهي أبعدُ شيءٍ من علمِهم ـ لبَعْثِها على رفضِ الدنيا والظلف عن الملاذِّ والشهواتِ ـ لم يلتفِتوا إليها وصغَّروها واستهزؤوا بها، واعتقدوا أنَّه لا علمَ أنفعُ وأجلبُ للفوائد من علمهم ففَرِحوا به.

قال صاحبُ «الكشف»: والأرجحُ من بينِ هذهِ الأوجُه الستة الثالثُ، ففيه التهكُّم والمبالغةُ في خلوِّهم من العلم، ومشتَمِلٌ على ما يشتَمِلُ عليه الأولُ وزيادةٍ، سالمٌ عن عدم الطِّباقِ للواقع كما في الثاني، وعن قُصُورِ العبارة عن الأداء كالرابع، وعن فكِّ الضمائر كما في الخامسِ، والسادسُ قريبٌ لكنَّه قاصِرٌ عن فوائدِ الثالث. انتهى، فتأمَّله جدًّا.

وأبو حيان استحسَنَ الوجهَ السادسَ، وتعقَّبَ الوجهَ الثالثَ بأنَّه لا يعبَّر بالجملة الظاهرِ كونُها مُثبَتةً عن الجملة المنفيةِ إلَّا في قليلٍ من الكلام، نحو: شرٌّ أهرَّ ذا نابٍ، على خلاف فيه، ولَمَّا آل أمرُه إلى الإثباتِ المحصورِ جاز، وأما الآية فينبغي أن لا تُحمَلَ على القليل لأنَّ في ذلك تخليطاً لمعاني الجُمَلِ المتبايِنةِ فلا يوثق بشيء منها(١).

وأنتَ تَعلم أنه لا تباينَ معنًى بينَ «لم يفرحوا بما جاءهم من العلم» و(فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ) على ما قرِّر.

نعم هذا الوجه عندي مع ما فيه من حُسن لا يخلو عن بُعد، وكلامُ صاحب «الكشف» لا يخلو عن دغْدَغَةٍ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ شدَّة عذابِنا، ومنه قولُه تعالى: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥] ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ يعنونَ الأصنامَ، أو سائرَ آلهتِهم الباطلةَ.

---

(١) البحر المحيط ٧/٤٧٩، وتحرف «الإثبات» في البحر إلى: «الإيثاء»، والمثبت من الدر اللقيط بهامش البحر.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عندَ رؤية عذابِنا؛ لأنَّ الحكمةَ الإلهيةَ قَضَتْ أن لا يُقْبلَ مثلُ ذلك الإيمان، و«إيمانهم» رُفِع بـ «يك» اسماً لها، أو فاعلُ «ينفعهم» وفي «يك» ضميرُ الشأن، على الخلافِ الذي في: كان يقومُ زيدٌ. ودخل حرفُ النفْي على الكون لا على النفع لإفادةِ معنَى نفْي الصحة، فكأنَّه لم يصحَّ ولم يستقم حكمةُ نفْعِ إيمانِهم إياهم عندَ رؤيةِ العذاب.

وهاهنا أربعة فاءات: فاءُ: «فما أغنى»، وفاءُ: «فلما جاءتهم»، وفاء: «فلمَّا رأوا»، وفاء: «فلم يك»، فالفاءُ الأولى مثلُها في نحو قولك: رُزق المالَ فمَنَع المعروفَ، فما بعدَها نتيجةٌ مآليةٌ لِما كانوا فيه من التكاثُر بالأموالِ والأولادِ والتمتُّعِ بالحُصون ونحوِها.

والثانية تفسيريةٌ مثلُها في قولك: فَلم يُحسِن إلى الفقراء، بعدَ: فمَنَعَ المعروف، في المثال، فما بعدها إلى قوله تعالى: (وَحَاقَ بِهِم) إيضاحٌ لذلك المجمَلِ، وأنه كيف انتهى بهم الأمرُ إلى عكس ما أمَّلوه، وأنَّهم كيف جَمَعوا واحتَشَدوا وأوسَعُوا في إطفاء نورِ الله، وكيف حاقَ المكرُ السيئُ بأهله، إذ كان في قوله سبحانه: (فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم) إيماءٌ بأنَّهم زَاوَلوا أن يجعلوها مُغْنيةً.

والثالثةُ للتعقيب، وجَعْلِ ما بعدَها تابعاً لِما قبلَها واقعاً عقيبَه، فـ «لما رأوا بأسنا» مترتِّبٌ على قوله تعالى: «فلما جاءتهم» إلخ تابعٌ له؛ لأنَّه بمنزلةِ: فكَفَروا، إلا أنَّ «فلما جاءتهم» الآيةَ بيانُ كفرٍ مفصَّلٌ مشتملٌ على سوءِ معاملتِهم وكفرانِهم بنعمةِ الله تعالى العظمَى من الكتاب والرسول، فكأنه قيل: فكَفَروا، فلما رَأَوا بأسَنا آمنوا.

ومثلها الفاءُ الرابعةُ، فما بعدها عطفٌ على «آمنوا»؛ دلالةً على أنَّ عدمَ نفعِ إيمانِهم وردَّه عليهم تابعٌ للإيمان عند رؤيةِ العذاب، كأنه قيل: فلمَّا رأوا بأسَنا آمنوا، فلم ينفعْهم إيمانُهم، إذ النافعُ إيمانُ الاختيار.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ أي: سنَّ الله تعالى ذلك ـ أعني عدمَ نفع الإيمان عندَ رؤية البأسِ ـ سنةً ماضيةً في العباد، وهي من المصادرِ المؤكِّدة كـ :

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٦]، و: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وجوِّز انتصابُها على التحذير، أي: احذروا يا أهلَ مكة سنةَ الله تعالى في أعداءِ الرُّسُل.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: وقتَ رؤيتهم البأسَ، على أنَّه اسمُ مكانٍ قد استُعِيرَ للزمان كما سلف آنفاً، وهذا الحكم خاصٌّ بإيمان البأس، وأمَّا توبةُ البأس فهي مقبولةٌ نافعةٌ بفضل الله تعالى وكرمِه، والفرقُ ظاهرٌ.

وعن بعض الأكابر أنَّ إيمانَ البأس مقبولٌ أيضاً، ومعنى «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» أنَّ نفسَ إيمانِهم لم ينفعْهم، وإنما نَفَعهم اللهُ تعالى حقيقةً به، ولا يخفى عليك حالُ هذا التأويل، وما كان من ذلك القبيل، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في بعض الآيات على ما أشار إليه بعضُ السادات: ﴿حمٓ﴾ إشارةٌ إلى ما أفيضَ على قلبِ محمد ﷺ من الرحمن، فإنَّ الحاءَ والميمَ من وَسَط الاسمَيْنِ الكريمَيْنِ، وفي ذلك أيضاً سرٌّ لا يجوز كشفُه، ولما صُدِّرت السورةُ بما أشارَ إلى الرحمة وأنها وصفُ المدعوِّ إليه والداعي، ذُكِر بعدُ مِن صفاتِ المدعوِّ إليه ـ وهو الله عزَّ وجلَّ ـ ما يدلُّ على عِظَم الرحمة وسَبْقِها، وفي ذلك من بِشارةِ المدعوِّ ما فيه.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى شرفِ الإيمان وجلالةِ قَدْرِ المؤمنين، وإلى أنَّه ينبغي للمؤمنين[1] من بني آدم أن يستغْفِرَ بعضُهم لبعضٍ، وفي ذلك أيضاً من تأكيدِ الدلالة على عِظَم رحمة الله عزَّ وجلَّ ما لا يخفى.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بأنْ يكونَ غيرَ مشوبٍ بشيءٍ من مقاصدِ الدنيا والآخرة.

---

(١) كلمة «للمؤمنين» سقطت من الأصل.

﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قيل: في إطلاقِ «الروح» إشارةٌ إلى روح النبوة، وهو يُلقَى على الأنبياء، وروحِ الولاية ويُلقَى على العارفين، ورُوحِ الدِّراية ويُلقَى على المؤمنين الناسِكين.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ قيل: التلاقِي مع الله تعالى ولا وجودَ لغيره تعالى، وهو مقامُ الفناء المشارُ إليه بقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ من قبورِ وجودِهم ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ إذ ليس في الدار غيرَه ديَّارٌ.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ من التجلِّي ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ في بذل الوجود للمعبودِ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ فتنالُ كلُّ نفسٍ من التجلِّي بقَدْرِ بذلِها من الوجود لا أقلَّ من ذلك.

و﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ هذه قيامةُ العوامِّ المؤجَّلةُ، ويُشير إلى قيامةِ الخواصِّ المعجَّلةِ لهم، فقد قيل: إنَّ لهم في كل نفَسٍ قيامةٌ من العتابِ والعقابِ والثوابِ والبِعادِ والاقترابِ، وما لم يكن لهم في حسابٍ، وخَفقانُ القلب يَنْطقُ، والنحولُ يُخبِر، واللونُ يُفْصِح، والمَشوقُ يستر، ولكنَّ البلاءَ يظهَر، وإذا أزِفَ فناءُ الصفات بلغت القلوبُ الحناجرَ، وشهدَت العيونُ بما تُخفي الضمائرُ.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ خائنةُ أعينِ المحبِّين استحسانُهم[(١)] تعمُّدَ النظرِ إلى غيرِ المحبوب باستحسانٍ واستلذاذٍ، وما تخفيه الصدور من متمنِّياتِ النفوس ومستحسَنات القلوب ومرغوباتِ الأرواح.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قيل: أي: اطلبوني مني أُجِبْكم فتجدوني، ومَن وَجَدني وجدَ كلَّ شيء، فالدعاءُ الذي لا يُرَدُّ هو هذا الدعاء، ففي بعض الأخبار: من طلبني وجدني[(٢)].

---

(١) ليست في الأصل.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٩٣ من كلام سهل بن عبد الله، وذكره الغزالي في الإحياء ٤/ ٣٢٤ مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ دعائي وطلبي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ الحرمانِ والبعدِ منّي ﴿دَاخِرِينَ﴾ ذليلين مهينين.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فيه إشارةٌ إلى ليلِ البشرية ونهارِ الروحانية، وذُكر أنَّ سكونَ الناسِ في الليل المعروفِ على أقسام: فأهلُ الغفلة يسكُنُون إلى استراحة النفوس والأبدان، وأهلُ الشهوةِ يسكُنون إلى أمثالهم وأشكالِهم من الرجال والنسوان، وأهلُ الطاعة يسكُنون إلى حلاوةِ أعمالِهم وقوَّة آمالهم، وأهلُ المحبة يسكُنون إلى أنينِ النفوس وحَنين القلوب وضَرَاعة الأسرار واشتعالِ الأرواح بالأشواق التي هي أحرُّ من النار.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ يُشير إلى أنَّه تعالى جعل أرضَ البشرية مقرًّا للروح ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سماءَ الروحانية مبنيةً عليها ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأن جَعَلكم مرايا جمالِه وجلالِه، وفي الخبر: «خلق الله تعالى آدم على صورته»(١) وفي ذلك إشارةٌ إلى ردِّ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] ولله تعالى مَن قال:

ما حطَّك الواشون عن رتبةٍ ... عندي ولا ضرَّك مغتابُ
كأنَّهم أثنَوا ولم يعلَموا ... عليك عندي بالذي عابوا(٢)

والكافرُ لسوء اختياره الْتَحَقَ بالشياطين وصار مظهراً لصفاتِ القهر من ربِّ العالمين، وما ظلمهم اللهُ ولكن كانوا هم الظالمين.

تم الكلامُ على سورة المؤمن، والحمدُ لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

---

(١) سلف ٢/ ٩٠.
(٢) سلف ١٠/ ٤٢٥.

(٤١) سورة فصلت مكية وآياتها أربع وخمسون

سورةُ « فَصِّلت » من السور المكية الكريمة التي تتناول جوانب العقيدة الصافية من الإيمان بالوحدانية ، وبالرسالة ، وبالبعث والجزاء ، وهي الأهداف الأساسية للسور المكية . سُميت السورةُ الكريمة « سورةَ فُصِّلتْ » لأنَّ الله تعالى فصَّل فيها الآيات ووضّح فيها الدلائل على وحدانيته وقدرتهِ ، وأقام البراهينَ الدالة على وجوده وعظمته ، وخَلْقِهِ لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظمته ، ويشهد بوحدانيته في كل ما أبدعته يد الخالقِ المدبرِ الحكيم .

تبتدىء السورة الكريمة : بتمجيد شأن القرآن ، المنزَّل من عند الرحمن ، بالحجج الواضحة والبراهين الساطعة الدالة على صدق محمد فيما جاء به عن الله عز وجل ، ومع وضوح القرآن وسطوع آياته وأحكامه كابر فيه المكابرون ، وكذَّب به المشركون ﴿ حمٓ . تنزيلٌ من الرحمن الرحيم . كتابٌ فصّلت آياتُه قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنةٍ ممَّا تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقرٌ ، ومن بيننا وبينك حجابٌ فاعملْ إننا عاملون ﴾ وتتحدث الآيات الكريمة عن أمر الوحي والرسالة فتقرر حقيقة الرسول وأنه بشرٌ أوحى الله إليه ، واصطفاه من بين البشر ليكون هادياً وداعياً إلى دينه الحق ، وصراطه المستقيم ﴿ قلْ إنما أنا بشرٌ مثلُكُم يُوحَى إليَّ أنَّما إلهكم إلهٌ واحد فاستقيموا إليه واستغفروه ، وويلٌ للمشركين .

الذين لا يُؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ .
وتنتقل السورة الكريمة للحديث عن مشهد الخَلْق الأول للأرض والسماء ، وتفصيلِ ذلك الخَلقْ البديع تفصيلاً دقيقاً محكماً ، يلفت أنظار المعرضين عن آياتِ الله المنبثة في هذا الكون الفسيح ، بطريقة تبلغ أعماق القلوب وتهزُّها هزاً ، فالكونُ كله شاهد بعظمة الله وهم يكفرون بالله الواحد الأحد ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرضَ في يومين وتجعلون له أنداداً ، ذلك ربُّ العالمين . وجعلَ فيها رواسيَ من فوقها ، وبارك فيها ، وقدَّر فيها أقواتها في أربَعةِ أيامٍ سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعاً أُو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين﴾ وتعرِض بعد ذلك إلى التذكير بمصارع المكذبين ، وتضرب على ذلك الأمثلة بعادٍ وثمود ، وما حلَّ بهم من الهلاك والدمار حين كذبوا رسل الله ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثل صاعقةِ عادٍ وثمود ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألاّ تعبدوا الله ، قالوا : لوشاء ربُنا لأنزلَ ملائكة ، فإنّا بما أُرسلتم به كافرون . فأمّا عاد فاستكبروا في الأرض بغيرِ الحقِ وقالوا : من أشدُّ منا قوة ؟ أَوَ لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نَحِسَاتٍ لنذيقهم عذاب الخِزْي في الحياة الدنيا ، ولعذابُ الآخرة أخزى وهم لا يُنصرون . وأما ثمودُ فهد يناهم فاستحبوا العَمَى على الهُدى فأخذتْهم صاعقةُ العذاب الهُوْنِ بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ . ويَعْقُب هذا الإنذارَ منظرٌ مفزعٌ رهيب ، منظرُ الكفرةِ الفجرة في الآخرة وهم يُساقون كالقطيع إلى نار جهنم يعلوهم الذل والهوان ، وتشهد عليهم جوارحهم بما اقترفوا من جرائم وآثام ، وإنها لمفاجأة مذهلة في موقف عصيب حين تنطق أيديهم وأرجلهم ، وأسماعُهم وأبصارهم

وتفضحهم على رءوس الأشهاد فلا يستطيعون التكذيب والإنكار ﴿ويوم يُحشرُ أعداءُ الله إلى النار فهم يُوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا اللهُ الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة وإليه تُرجعون﴾ وبعد الحديث عن المجرمين يأتي الحديث عن المؤمنين المتقين ، الذين استقاموا في الدنيا على طاعة الرحمن ، فهم اليوم في أمنٍ وأمان في جوار ربّ كريم مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ﴿إن الذين قالوا ربنا اللهُ ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تَدَّعون . نُزُلاً من غفور رحيم﴾ .

وتتحدث السورة عن الآيات الكونية التي هي معروضة للانظار ، يراها العالم والجاهل والمؤمن والكافر ، في كل صباح ومساء ، إنها آياتُ الله الناطقةُ بعظمته : الليلُ والنهار ، والشمسُ والقمر ، والأرضُ الخاشعةُ التي تنتظر نزول المطر لتعود لها الحياة ، ثم هي بعد ذلك تهتز وتتحركُ وتنبتُ من كل زوج بهيج لتشارك العابدين في تمجيد الله ، والملائكةُ الذين يسبحون الليلَ والنهار لا يفترون ، والكون كلُّه في جوّ عبادةٍ وخشوع وخضوع ﴿ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا للهِ الذي خلقهنَّ إن كنتم إيّاه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعةً ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّتْ ورَبَتْ ، إن الذي أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير﴾ .

وأمام مشهد هذه الآيات الكونية ذاتِ الأثر العميق الذي يهزُّ الشعور

والوجدان يأتي التهديد والوعيد لمن يُلحدون في هذه الآيات الظاهرة الباهرة ، أو يتعامون عنها فيكفرون بها أو يغالطون ﴿ إنَّ الذين يُلحدون في آياتنا لا يَخْفون علينا ، أفمَنْ يُلْقَى في النارِ خيرٌ أم مَنْ يأتي آمناً يوم القيامة ؟ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ ويستطرد السياق إلى المكذبين بالآيات القرآنية بعد الحديث عن الكافرين بالآيات الكونية ، ولا عجَب فمن عميَ عن آيات الله في هذا الكون المنظور ، فلن يكون من السهل عليه أن يفسح عينيه ليبصر ضياء القرآن ، أو أن يفتح قلبه لهدايته وإشراقه ، وسيظل يكابر في صحته وإعجازه حتى ولو كان بلسانٍ عربي ونزل على رسولٍ عربي ، لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، وأعجز ببيانه الفصحاء والبلغاء ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد . ما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . إن ربك لذو مغفرةٍ وذو عقابٍ أليم﴾ ثم يُعقّب على ذلك بأنه لو أنزله بلسانٍ عجمي لاعترضوا عليه أيضاً وقالوا : لولا جاء عربياً فصيحاً ، وما هو إلا المِراء والجدال والإلحاد ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصّلت آياته ، أأعجمي وعربي ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى ، أولئك يُنادَون من مكانٍ بعيد﴾ وتختم السورة الكريمة بوعد الله للبشرية أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون وعن خفايا أنفسهم ، وأن يريهم الآيات الباهرة التي تدل على قدرة الله العلي الكبير ليتأكدوا من صدق القرآن ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ ألا إنهم في مريةٍ من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾

سورة السجدة

[٨٠١] أخرج الشيخان والترمذي وأحمد وغيرهم عن ابن مسعود قال: اختصم عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾(١) الآية.

[٨٠٢] وأخرج ابن المنذر عن بشير بن فتح قال: نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمّار بن ياسر: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(٢).

[٨٠٣] وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قالت قريش لولا أنزل هذا القرآن أعجمياً وعربياً فأنزل الله: ﴿لَقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾(٣) الآية وأنزل الله بعد هذه الآية فيه بكل لسان قال ابن جرير: والقراءة على هذا أعجمي بلا استفهام.

* * *

---

[٨٠١] (١) سورة فصلت: الآية (٢٢) ـ ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢١٢) من طريق مجاهد عن أبي معمر به مثله.

[٨٠٢] (٢) سورة فصلت: الآية (٤٠).

[٨٠٣] (٣) سورة فصلت: الآية (٤٤).

سورة فصلت

خمسون واربع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ
مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ
إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ
وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾

اعلم أن في أول هذه السورة احتمالات: أحدها وهو الأقوى: أن يقال: (حم) اسم للسورة وهو في موضع المبتدأ وتنزيل خبره. وثانيها: قال الأخفش: تنزيل رُفع بالابتداء وكتاب خبره. وثالثها: قال الزجاج: تنزيل رُفع بالابتداء وخبره كتاب فُصلت آياته. ووجهه أن قوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾ تخصص بالصفة وهو قوله ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فجاز وقوعه مبتدأ.

واعلم أنه تعالى حكم على السورة المسماة بحم بأشياء: أولها: كونه تنزيلاً والمراد المنزّل، والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور، يقال: هذا بناء الأمير، أي مبنيه، وهذا الدرهم ضَرْب السلطان، أي مضروبه، والمراد من كونها منزلاً أن الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ وأمَر جبريل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد ﷺ ويبلغها إليه، فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل عليه السلام سمي لذلك تنزيلاً. وثانيها: كون التنزيل من الرحمن الرحيم، وذلك يدل على كون التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لأن الفعل المقرون بالصفة لا بد وأن يكون مناسبًا لتلك الصفة، فكونه تعالى رحمانًا رحيمًا صفتان دالتان على كمال الرحمة، فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين لا بد وأن يكون دالاً على أعظم وجوه النعمة، والأمر في نفسه كذلك؛ لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى والزمنى والمحتاجين، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية، فكان أعظم النعم عند الله تعالى على أهل هذا العالم إنزال القرآن عليهم. وثالثها: كونه كتابًا، وقد بينا أن هذا الاسم مشتق من الجمع، وإنما سمي كتابًا لأنه جمع فيه علوم الأولين

والآخرين. ورابعها: قوله: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ والمراد أنه فُرقت آياته وجُعلت تفاصيل في معانٍ مختلفة، فبعضها في وصف ذات الله تعالى وشرح صفات التنزيه والتقديس، وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، وعجائب أحوال خلقه السموات والأرض والكواكب وتعاقب الليل والنهار، وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان، وبعضها في أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ونحو الجوارح، وبعضها في الوعد والوعيد والثواب والعقاب ودرجات أهل الجنة ودرجات أهل النار، وبعضها في المواعظ والنصائح، وبعضها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفس، وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين، وبالجملة فمن أنصف عَلِم أنه ليس في يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن. وخامسها: قوله ﴿قُرْءَانًا﴾ والوجه في تسميته قرآنًا قد سبق، وقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا﴾ نُصب على الاختصاص والمدح، أي أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنًا من صفته كيت وكيت، وقيل: هو نصب على الحال. وسادسها: قوله ﴿عَرَبِيًّا﴾ والمعنى أن هذا القرآن إنما نزل بلغة العرب، وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وسابعها: قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ والمعنى إنا جعلناه عربيًّا لأجل أنا أنزلناه على قوم عرب، فجعلناه بلغة العرب ليفهموا منه المراد، فإن قيل: قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ متعلق بماذا؟ قلنا: يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾ أو بقوله: ﴿فُصِّلَتْ﴾ أي تنزيل من الله لأجلهم أو فُصلت آياته لأجلهم، والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده، أي قرآنًا عربيًّا كائنًا لقوم عرب. لئلا يفرق بين الصلات والصفات. وثامنها وتاسعها: قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يعني بشيرًا للمطيعين بالثواب ونذيرًا للمجرمين بالعقاب، والحق أن القرآن بشارة ونذارة، إلا أنه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملاً في هذه الصفة، كما يقال: شعرٌ شاعر وكلامٌ قائل. الصفة العاشرة: كونهم مُعْرضين عنه لا يسمعون ولا يلتفتون إليه. فهذه هي الصفات العشرة التي وصف الله القرآن بها.

ويتفرع عليها مسائل:

المسألة الأولى: القائلون بخلق القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه: الأول: أنه وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً، والمنزل والتنزيل مُشعر بالتصيير من حال، فوجب أن يكون مخلوقًا. الثاني: أن التنزيل مصدر، والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين. الثالث: المراد بالكتاب إما الكتاب وهو المصدر الذي هو المفعول المطلق أو المكتوب الذي هو المفعول. الرابع: أن قوله: ﴿فُصِّلَتْ﴾ يدل على أن متصرفًا يتصرف فيه بالتفصيل والتمييز، وذلك لا يليق بالقديم. الخامس: أنه إنما سمي قرآنًا لأنه قرن بعض أجزائه بالبعض، وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل. السادس: وصفه بكونه عربيًّا، وإنما صحت هذه النسبة لأجل أن هذه الألفاظ إنما دخلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم، وما جُعل بجعل جاعل وفعل فاعل فلا بدّ وأن يكون محدثًا ومخلوقًا. الجواب: أن كل هذه الوجوه

التي ذكرتموها عائدة إلى اللغات وإلى الحروف والكلمات، وهي عندنا محدثة مخلوقة، إنما الذي ندعي قدمه شيء آخر سوى هذه الألفاظ، والله أعلم.

المسألة الثانية: ذهب أكثر المتكلمين إلى أنه يجب على المكلف تنزيل ألفاظ القرآن على المعاني التي هي موضوعة لها بحسب اللغة العربية، فأما حَمْلها على معانٍ أُخر لا بهذا الطريق فهذا باطل قطعًا، وذلك مثل الوجوه التي يذكرها أهل الباطن، مثل أنهم تارة يحملون الحروف على حساب الجمل وتارة يحملون كل حرف على شيء آخر، وللصوفية طرق كثيرة في الباب ويسمونها علم المكاشفة، والذي يدلل على فساد تلك الوجوه بأسرها قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وإنما سماه عربيًا لكونه دالاً على هذه المعاني المخصوصة بوضع العرب وباصطلاحاتهم، وذلك يدل على أن دلالة هذه الألفاظ لم تحصل إلا على تلك المعاني المخصوصة، وأن ما سواه فهو باطل.

المسألة الثالثة: ذهب قوم إلى أنه حصل في القرآن من سائر اللغات، كقوله: ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١] و﴿سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] فإنهما فارسيان، وقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥] فإنها من لغة الحبشة، وقوله ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ [الإسراء: ٣٥] فإنه من لغة الروم. والذي يدل على فساد هذا المذهب قوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤].

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: لفظ الإيمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج ألفاظ شرعية لا لغوية، والمعنى أن الشرع نقل هذه الألفاظ عن مسمياتها اللغوية الأصلية إلى مسميات أخرى. وعندنا أن هذا باطل، وليس للشرع تصَرُّف في هذه الألفاظ عن مسمياتها إلا من وجه واحد، وهو أنه خصص هذه الأسماء بنوع واحد من أنواع مسمياتها، مثلاً: الإيمان عبارة عن التصديق، فخصصه الشرع بنوع معين من التصديق، والصلاة عبارة عن الدعاء فخصصه الشرع بنوع معين من الدعاء، كذا القول في البواقي، ودليلنا على صحة مذهبنا قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾.

المسألة الخامسة: إنما وصف الله القرآن بكونه: ﴿عَرَبِيًّا﴾ في معرض المدح والتعظيم، وهذا المطلوب لا يتم إلا إذا ثبت أن لغة العرب أفضل اللغات.

واعلم أن هذا المقصود إنما يتم إذا ضبطنا أقسام فضائل اللغات بضابط معلوم، ثم بينا أن تلك الأقسام حاصلة فيه لا في غيره، فنقول: لا شك أن الكلام مركب من الكلمات المفردة، وهي مركبة من الحروف، فالكلمة لها مادة وهي الحروف، ولها صورة وهي تلك الهيئة المعينة الحاصلة عند التركيب. فهذه الفضيلة إنما تحصل إما بحسب مادتها أو بحسب صورتها:

أما التي بحسب مادتها فهي آحاد الحروف، واعلم أن الحروف على قسمين: بعضها بينة المخارج ظاهرة المقاطع، وبعضها خفية المخارج مشتبهة المقاطع، وحروف العرب بأسرها ظاهرة المخارج بينة المقاطع، ولا يشتبه شيء منها بالآخر. وأما الحروف المستعملة في سائر

اللغات فليست كذلك بل قد يحصل فيها حرف يشتبه بعضها بالبعض، وذلك يخل بكمال الفصاحة، وأيضًا الحركات المستعملة في سائر لغة العرب حركات ظاهرة جلية وهي النصب والرفع والجر، وكل واحد من هذه الثلاثة فإنه يمتاز عن غيره امتيازًا ظاهرًا جليًّا، وأما الإشمام والرَّوْم فيقل حصولهما في لغات العرب، وذلك أيضًا من جنس ما يوجب الفصاحة.

وأما الكلمات الحاصلة بحسب التركيب فهي أنواع:

أحدها: أن الحروف على قسمين متقاربة المخرج ومتباعدة المخرج، وأيضًا الحروف على قسمين، منها صُلبة ومنها رخوة، فيحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة: الصُّلبة المتقاربة، والرخوة المتقاربة، والصُّلبة المتباعدة، والرخوة المتباعدة، فإذا توالى في الكلمة حرفان صُلبان متقاربان صعب اللفظ بها؛ لأن بسبب تقارب المخرج يصير التلفظ بها جاريًا مجرى ما إذا كان الإنسان مقيدًا ثم يمشي، وبسبب صلابة تلك الحروف تتوارد الأعمال الشاقة القوية على الموضع الواحد من المخرج، وتوالي الأعمال الشاقة يوجب الضعف والإعياء، ومثل هذا التركيب في اللغة العربية قليل.

وثانيها: أن جنس بعض الحروف ألذ وأطيب في السمع، وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب. وثالثها: الوزن فنقول: الكلمة إما أن تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية، وأعدلها هو الثلاثي لأن الصوت إنما يتولد بسبب الحركة، والحركة لا بد لها من مبدأ ووسط ومنتهى، فهذه ثلاث مراتب، فالكلمة لا بد وأن يحصل فيها هذه المراتب الثلاثة حتى تكون تامة، أما الثنائية فهي ناقصة، وأما الرباعية فهي زائدة، والغالب في كلام العرب الثلاثيات، فثبت بما ذكرنا ضبط فضائل اللغات، والاستقراء يدل على أن لغة العرب موصوفة بها، وأما سائر اللغات فليست كذلك، والله أعلم.

المسألة السادسة: قوله: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يعني إنما جعلناه عربيًّا لأجل أن يعلموا المراد منه، والقائلون بأن أفعال الله معللة بالمصالح والحِكم - تمسكوا بهذه الآية وقالوا: إنها تدل على أنه إنما جعله عربيًّا لهذه الحكمة، فهذا يدل على أن تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه جائز.

المسألة السابعة: قال قوم: القرآن كله غير معلوم، بل فيه ما يُعلم وفيه ما لا يُعلم. وقال المتكلمون: لا يجوز أن يحصل فيه شيء غير معلوم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يعني إنما جعلناه عربيًّا ليصير معلومًا، والقول بأنه غير معلوم يقدح فيه.

المسألة الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ يدل على أن الهادي من هداه الله وأن الضال من أضله الله، وتقريره أن الصفات التسعة المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته وبالوقوف على معانيه؛ لأنا بينا أن كونه نازلاً من عند الإله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل المنافع وأجَلّ المطالب، وكونه قرآنًا عربيًّا مفصلاً يدل على أنه في غاية الكشف والبيان، وكونه بشيرًا ونذيرًا يدل على أن الاحتياج إلى فهم ما فيه من أهم المهمات؛

لأن سعي الإنسان في معرفة ما يوصله إلى الثواب أو إلى العقاب من أهم المهمات؛ وقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة في تأكيد الرغبة في فهم القرآن وفي شدة الميل إلى الإحاطة به، ثم مع ذلك فقد أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ونبذوه وراء ظهورهم، وذلك يدل على أنه لا مهدي إلا من هداه الله، ولا ضال إلا من أضله الله.

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولا يسمعونه، بيّن أنهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة، وذكروا ثلاثة أشياء: أحدها: أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ وأكنة جمع كنان، كأغطية جمع غطاء، والكنان هو الذي يُجعل فيه السهام. وثانيها: قولهم: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ أي صمم وثقل من استماع قولك. وثالثها: قولهم: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ والحجاب هو الذي يمنع من الرؤية والفائدة في كلمة (من) في قوله ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا﴾ أنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى أن حجابًا حصل وسط الجهتين، وأما بزيادة لفظ (مِن) كأن المعنى أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب، وما بقي جزء منها فارغًا عن هذا الحجاب، فكانت هذه اللفظة دالة على قوة هذا الحجاب، هكذا ذكره صاحب (الكشاف) وهو في غاية الحسن.

واعلم أنه إنما وقع الاقتصار على هذه الأعضاء الثلاثة، وذلك لأن القلب محل المعرفة وسلطان البدن، والسمع والبصر هما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف، فلما بيّن أن هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن في هذا الباب.

واعلم أنه إذا تأكدت النفرة عن الشيء صارت تلك النفرة في القلب، فإذا سمع منه كلامًا لم يفهم معناه كما ينبغي، وإذا رآه لم تصر تلك الرؤية سببًا للوقوف على دقائق أحوال ذلك المرئي، وذلك المدرك والشاعر هو النفس، وشدة نفرة النفس عن الشيء تمنعها من التدبر والوقوف على دقائق ذلك الشيء، فإذا كان الأمر كذلك كان قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ استعارات كاملة في إفادة المعنى المراد، فإن قيل: إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار في معرض الذم، وذكر أيضًا ما يقرب منه في معرض الذم فقال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [البقرة: ٨٨]. ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها في معرض التقرير والإثبات في سورة الأنعام فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ [الأنعام: ٢٥] فكيف الجمع بينهما؟ قلنا: إنه لم يقل هاهنا إنهم كذبوا في ذلك إنما الذي ذمهم عليه أنهم قالوا: إنا إذا كنا كذلك لم يجز تكليفنا وتوجيه الأمر والنهي علينا. وهذا الثاني باطل، أما الأول فلأنه ليس في الآية ما يدل على أنهم كذبوا فيه.

واعلم أنهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاثة قالوا: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ والمراد فاعمل على دينك إننا عاملون على ديننا، ويجوز أن يكون المراد فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك، والحاصل عندنا أن القوم ما كذبوا في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا

تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ بل إنما أتوا بالكفر والكلام الباطل في قولهم ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾.

ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة أمَر محمدًا ﷺ أن يجيب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ وبيان هذا الجواب كأنه يقول: إني لا أقدر أن أحملكم على الإيمان جبرًا وقهرًا؛ فإني بشر مثلكم ولا امتياز بيني وبينكم إلا بمجرد أن الله عزّ وجلّ أوحى إليّ وما أوحى إليكم، فأنا أُبلغ هذا الوحي إليكم، ثم بعد ذلك إن شَرَّفكم الله بالتوحيد والتوفيق قبلتموه، وإن خذلكم بالحرمان رددتموه، وذلك لا يتعلق بنبوتي ورسالتي، ثم بيّن أن خلاصة ذلك الوحي ترجع إلى أمرين: العلم والعمل، أما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد؛ ذلك لأن الحق هو أن الله واحد وهو المراد من قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإذا كان الحق في نفس الأمر ذلك وجب علينا أن نعترف به، وهو المراد من قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ ونظيره قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وفي قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ وجهان: الأول: فاستقيموا متوجهين إليه. الثاني: أن يكون قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ معناه فاستقيموا له. لأن حروف الجر يقام بعضها مقام البعض.

واعلم أن التكليف له ركنان: أحدهما: الاعتقاد، والرأس والرئيس فيه اعتقاد التوحيد، فلما أمر بذلك انتقل إلى وظيفة العمل، والرأس والرئيس فيه الاستغفار، فلهذا السبب قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ فإن قيل: المقصود من الاستغفار والتوبة إزالة ما لا ينبغي، وذلك مقدم على فعل ما ينبغي، فلمَ عكس هذا الترتيب هاهنا وقدم ما ينبغي على إزالة ما لا ينبغي؟ قلنا: ليس المراد من هذا الاستغفار الاستغفار عن الكفر، بل المراد منه أن يعمل ثم يستغفر بعده لأجل الخوف من وقوع التقصير في العمل الذي أتى به، كما قال ﷺ: «**وَإِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(١).

ولما رغَّب الله تعالى في الخير والطاعة، أمَر بالتحذير عما لا ينبغي فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: وجه النظم في هذه الآية من وجوه: الأول: أن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وذلك لأن الموجودات إما الخالق وإما الخلق، فأما الخالق فكمال السعادة في المعاملة معه أن يقر بكونه موصوفًا بصفات الجلال والعظمة، ثم يأتي بأفعال دالة على كونه في نهاية العظمة في اعتقادنا،

---

(١) تقدم تخريجه.

وهذا هو المراد من التعظيم لأمر الله، وأما الخلق فكمال السعادة في المعاملة معهم أن يسعى في دفع الشر عنهم وفي إيصال الخير إليهم، وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله، فثبت أن أعظم الطاعات التعظيم لأمر الله، وأفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بكونه واحدًا، وإذا كان التوحيد أعلى المراتب وأشرفها، كان ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها، ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو إظهار الشفقة عليهم، كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال؛ لأنه ضد الشفقة على خلق الله. إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفًا بصفات ثلاثة: أولها: أن يكون مشركًا وهو ضد التوحيد، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ وثانيها: كونه ممتنعًا من الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وثالثها: كونه منكرًا للقيامة مستغرقًا في طلب الدنيا ولذاتها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾. وتمام الكلام في أنه لا زيادة على هذه المراتب الثلاثة أن الإنسان له ثلاثة أيام: الأمس واليوم والغد: أما معرفة أنه كيف كانت أحوال الأمس في الأزل فهو بمعرفة الله تعالى الأزلي الخالق لهذا العالم. وأما معرفة أنه كيف ينبغي وقوع الأحوال في اليوم الحاضر فهو بالإحسان إلى أهل العالم بقدر الطاقة، وأما معرفة الأحوال في اليوم المستقبل فهو الإقرار بالبعث والقيامة، وإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال؛ فلهذا حَكَم الله عليه بالويل فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا ترتيب في غاية الحسن، والله أعلم. الوجه الثاني في تقرير كيفية النظم أن يقال: المراد بقوله: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي لا يزكون أنفسهم من لوث الشرك بقولهم: (لا إله إلا الله)، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]. الثالث: قال الفرّاء: إن قريشًا كانت تطعم الحاج، فحَرَّموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا في إثبات أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام بهذه الآية، فقالوا: إنه تعالى ألحق الوعيد الشديد بناء على أمرين: أحدهما: كونه مشركًا. والثاني: أنه لا يؤتي الزكاة، فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الأمرين تأثير في حصول ذلك الوعيد، وذلك يدل على أن لعدم إيتاء الزكاة من المشرك تأثيرًا عظيمًا في زيادة الوعيد، وذلك هو المطلوب.

المسألة الثالثة: احتج بعضهم على أن الامتناع من إيتاء الزكاة يوجب الكفر، فقال: إنه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر، وهو قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ وذكر أيضًا بعدها ما يوجب الكفر، وهو قوله: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فلو لم يكن عدم إيتاء الزكاة كفرًا لكان ذكره فيما بين الصفتين الموجبتين للكفر قبيحًا؛ لأن الكلام إنما يكون فصيحًا إذا كانت المناسبة مرعية بين أجزائه. ثم أكدوا ذلك بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حَكَم بكفر مانعي الزكاة.

والجواب: لما ثبت بالدليل أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان، وهما حاصلان عند عدم إيتاء الزكاة، فلم يلزم حصول الكفر بسبب عدم إيتاء الزكاة، والله أعلم.

ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي غير مقطوع، من قولك: مننت الحبل، أي قطعته، ومنه قولهم: قد مَنَّه السفر، أي قطعه، وقيل: لا يُمن عليهم، لأنه تعالى لما سماه أجرًا، فإذًا الأجر لا يوجب المنّة، وقيل: نزلت في المرضى والزمنى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأحسن ما كانوا يعملون.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر محمدًا ﷺ في الآية الأولى أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦] أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية، وذلك بأن بيّن كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض في مدة قليلة، فمَن هذا صفته كيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية؟! فهذا تقرير النظم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير: (أينكم لتكفرون) بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد، وأما نافع في رواية قالون وأبو عمرو فعلى هذه الصورة، إلا أنهما يمدان، والباقون بهمزتين بلا مد.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، وقد ذكر عنهم شيئين منكرين: أحدهما: الكفر بالله، وهو قوله: ﴿لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ وثانيهما: إثبات الشركاء والأنداد له، ويجب أن يكون الكفر المذكور أولاً مغايرًا لإثبات الأنداد له، ضرورة أن عطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير، والأظهر أن المراد من كفرهم وجوه: الأول: قولهم: إن الله تعالى لا يقدر على حشر الموتى. فلما نازعوا في ثبوت هذه القدرة فقد كفروا بالله. الثاني: أنهم كانوا ينازعون في صحة التكليف وفي بعثة الأنبياء، وكل ذلك قدح في الصفات المعتبرة في الإلهية، وهو كفر بالله. الثالث: أنهم كانوا يضيفون إليه الأولاد، وذلك أيضًا قدح في الإلهية وهو يوجب الكفر بالله، فالحاصل أنهم كفروا بالله لأجل قولهم بهذه الأشياء، وأثبتوا الأنداد أيضًا لله لأجل قولهم بإلهية تلك الأصنام. واحتج تعالى على فساد قولهم بالتأثير فقال: كيف يجوز الكفر بالله، وكيف يجوز جعل هذه الأصنام الخسيسة أندادًا لله

تعالى، مع أنه تعالى هو الذي خلق الأرض في يومين، وتمم بقية مصالحها في يومين آخرين، وخَلَق السموات بأسرها في يومين آخرين؟ فمن قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة، كيف يُعقل الكفر به وإنكار قدرته على الحشر والنشر، وكيف يُعقل إنكار قدرته على التكليف وعلى بعثة الأنبياء، وكيف يُعقل جعل هذه الأصنام الخسيسة أندادًا له في المعبودية والإلهية؟! فإن قيل: من استدل بشيء على إثبات شيء، فذلك الشيء المستدل به يجب أن يكون مُسلَّمًا عند الخصم حتى يصح الاستدلال به، وكونه تعالى خالقًا للأرض في يومين أمر لا يمكن إثباته بالعقل المحض، وإنما يمكن إثباته بالسمع ووحي الأنبياء، والكفار كانوا منازعين في الوحي والنبوّة، فلا يُعقل تقرير هذه المقدمة عليهم، وإذا امتنع تقرير هذه المقدمة عليهم امتنع الاستدلال بها على فساد مذاهبهم. قلنا: إثبات كون السموات والأرض مخلوقة بطريق العمل ممكن، فإذا ثبت ذلك أمكن الاستدلال به على وجود الإله القادر القاهر العظيم، وحينئذٍ يقال للكافرين فكيف يعقل التسوية بين الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة وبين الصنم الذي هو جماد لا يضر ولا ينفع في المعبودية والإلهية؟ بقي أن يقال: فحينئذٍ لا يبقى في الاستدلال بكونه تعالى خالقًا للأرض في يومين أثر، فنقول: هذا أيضًا له أثر في هذا الباب، وذلك لأن أول التوراة مشتمل على هذا المعنى، فكان ذلك في غاية الشهرة بين أهل الكتاب، فكفار مكة كانوا يعتقدون في أهل الكتاب أنهم أصحاب العلوم والحقائق، والظاهر أنهم كانوا قد سمعوا من أهل الكتاب هذه المعاني واعتقدوا في كونها حقة، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذٍ يحسن أن يقال لهم: إن الإله الموصوف بالقدرة على خلق الأشياء العظيمة في هذه المدة الصغيرة، كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور والحجر المنحوت شريكًا له في المعبودية والإلهية؟ فظهر بما قررنا أن هذا الاستدلال قوي حسن.

وأما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ذلك الموجود الذي علمت من صفته وقدرته أنه خلق الأرض في يومين هو رب العالمين وخالقهم ومبدعهم، فكيف أثبتم له أندادًا من الخشب والحجر؟ ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقًا للأرض في يومين أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك: فالأول: قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ والمراد منها الجبال، وقد تقدم تفسير كونها ﴿رَوَٰسِيَ﴾ في سورة النحل، فإن قيل: ما الفائدة في قوله: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ ولـمَ لـم يقتصر على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧] ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ [الرعد: ٣] قلنا: لأنه تعالى لو جعل فيها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول، ولكنه تعالى قال: خلقت هذه الجبال الثقال فوق الأرض؛ ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ، وما ذاك الحافظ المدبر إلا الله سبحانه وتعالى. والنوع الثاني مما أخبر الله تعالى في هذه الآية: قوله: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ والبركة كثرة

الخير، والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان، وقد ذكرناها بالاستقصاء في سورة البقرة قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد شق الأنهار، وخلق الجبال، وخلق الأشجار والثمار، وخلق أصناف الحيوانات، وكل ما يُحتاج إليه من الخيرات. والنوع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وفيه أقوال: الأول: أن المعنى: وقَدَّر فيها أقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم، قال محمد بن كعب: قَدَّر أقوات الأبدان قبل أن يخلق الأبدان. والقول الثاني: قال مجاهد: وقَدَّر فيها أقواتها من المطر. وعلى هذا القول فالأقوات للأرض لا للسكان، والمعنى أن الله تعالى قَدَّر لكل أرض حظها من المطر. والقول الثالث: أن المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض، وحادثة فيها لأن النحويين قالوا: يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة وإلى محله أخرى، فقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدنًا لنوع آخر من الأشياء المطلوبة، حتى أن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس، فصار هذا المعنى سببًا لرغبة الناس في التجارات من اكتساب الأموال، ورأيت من كان يقول: صنعة الزراعة والحراثة أكثر الحرف والصنائع بركة، لأن الله تعالى وضع الأرزاق والأقوات في الأرض، قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وإذا كانت الأقوات موضوعة في الأرض كان طلبها من الأرض متعينًا.

ولما ذكر الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التدبير قال بعده: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: أنه تعالى ذكر أنه خلق الأرض في يومين، وذكر أنه أصلح هذه الأنواع الثلاثة في أربعة أيام أُخر، وذكر أنه خلق السموات في يومين، فيكون المجموع ثمانية أيام، لكنه ذكر في سائر الآيات أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، فلزم التناقض. واعلم أن العلماء أجابوا عنه بأن قالوا: المراد من قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ مع اليومين الأولين. وهذا كقول القائل: سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وسرت إلى الكوفة في خمسة عشر يومًا. يريد كلا المسافتين، ويقول الرجل للرجل: أعطيتك ألفًا في شهر وألوفًا في شهرين. فيدخل الألف في الألوف والشهر في الشهرين.

السؤال الثاني: أنه لما ذكر أنه خلق الأرض في يومين، فلو ذكر أنه خلق هذه الأنواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وأبعد عن الغلط، فلمَ ترك هذا التصريح، وذكر ذلك الكلام المجمل؟ والجواب: أن قوله: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ فيه فائدة على ما إذا قال (خلقت هذه الثلاثة في يومين)، وذلك لأنه لو قال: خلقت هذه الأشياء في يومين. لم يفد هذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الأعمال لأنه قد يقال: عملت هذا العمل في يومين. مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل، أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء، ثم

قال بعده: ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ دل ذلك على أن هذه الأيام الأربعة صارت مستغرقة في تلك الأعمال من غير زيادة ولا نقصان.

السؤال الثالث: كيف القراءات في قوله ﴿سَوَآءٗ﴾؟ والجواب: قال صاحب (الكشاف): قرئ (سواء) بالحركات الثلاثة: الجر على الوصف، والنصب على المصدر، استوت سواء أي استواء، والرفع على هي سواء.

السؤال الرابع: ما المراد من كون تلك الأيام الأربعة سواء؟ فنقول: إن الأيام قد تكون متساوية المقادير كالأيام الموجودة في أماكن خط الاستواء وقد تكون مختلفة كالأيام الموجودة في سائر الأماكن، فبيّن تعالى أن تلك الأيام الأربعة كانت متساوية غير مختلفة.

السؤال الخامس: بم يتعلق قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾؟ الجواب فيه وجهان: الأول: أن الزجاج قال: قوله: ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أي في تتمة أربعة أيام. إذا عرفت هذا فالتقدير: وقدَّر فيها أقواتها في تتمة أربعة أيام لأجل السائلين، أي الطالبين للأقوات المحتاجين إليها. والثاني: أنه متعلق بمحذوف والتقدير كأنه قيل: هذا الحصر والبيان لأجل من سأل كم خلقت الأرض وما فيها. ولما شرح الله تعالى كيفية تخليق الأرض وما فيها أتبعه بكيفية تخليق السموات فقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ **وفيه مباحث:**

البحث الأول: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ من قولهم استوى إلى مكان كذا، إذا توجه إليه توجهًا لا يلتفت معه إلى عمل آخر، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج، ونظيره قولهم: استقام إليه وامتد إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٦] والمعنى ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها، من غير صرف يصرفه عن ذلك.

البحث الثاني: ذكر صاحب (الأثر) أنه كان عرش الله على الماء قبل خلق السموات والأرض، فأحدث الله في ذلك الماء سخونة فارتفع زبد ودخان، أما الزبد فيبقى على وجه الماء، فخلَق الله منه اليبوسة وأحدث منه الأرض، وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله منه السموات.

واعلم أن هذه القصة غير موجودة في القرآن، فإن دل عليه دليل صحيح قُبل وإلا فلا، وهذه القصة مذكورة في أول الكتاب الذي يزعم اليهود أنه التوراة، وفيه أنه تعالى خلق السماء من أجزاء مظلمة، وهذا هو المعقول لأنا قد دللنا في المعقولات على أن الظلمة ليست كيفية وجودية، بدليل أنه لو جلس إنسان في ضوء السراج وإنسان آخر في الظلمة، فإن الذي جلس في الضوء لا يرى مكان الجالس في الظلمة ويرى ذلك الهواء مظلمًا، وأما الذي جلس في الظلمة فإنه يرى ذلك الذي كان جالسًا في الضوء ويرى ذلك الهواء مضيئًا، ولو كانت الظلمة صفة قائمة بالهواء لما اختلفت الأحوال بحسب اختلاف أحوال الناظرين، فثبت أن الظلمة عبارة عن عدم النور، فالله سبحانه وتعالى لما خلق الأجزاء التي لا تتجزأ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور، ثم لما ركَّبها وجعلها سموات وكواكب وشمسًا وقمرًا، وأحدث صفة الضوء فيها،

فحينئذٍ صارت مستنيرة، فثبت أن تلك الأجزاء حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر - كانت مظلمة، فصح تسميتها بالدخان؛ لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور، فهذا ما خطر بالبال في تفسير الدخان، والله أعلم بحقيقة الحال.

البحث الثالث: قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ مُشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الأرض، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] مُشعر بأن تخليق الأرض حصل بعد تخليق السماء وذلك يوجب التناقض. واختلف العلماء في هذه المسألة، والجواب المشهور أن يقال: إنه تعالى خلق الأرض في يومين أولاً، ثم خلق بعدها السماء، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض، وبهذا الطريق يزول التناقض. واعلم أن هذا الجواب مشكل عندي من وجوه الأول: أنه تعالى بيّن أنه خلق الأرض في يومين، ثم إنه في اليوم الثالث ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة؛ لأن خلق الجبال فيها لا يمكن إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة منبسطة، وقوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ مفسر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها، وذلك لا يمكن إلا بعد صيرورتها منبسطة، ثم إنه تعالى قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فهذا يقتضي أنه تعالى خلق السماء بعد خلق الأرض وبعد أن جعلها مدحوة، وحينئذٍ يعود السؤال المذكور. الثاني: أنه قد دلّت الدلائل الهندسية على أن الأرض كرة، فهي في أول حدوثها إن قلنا إنها كانت كرة والآن بقيت كرة أيضًا، فهي منذ خُلقت كانت مدحوة، وإن قلنا: إنها غير كرة ثم جُعلت كرة فيلزم أن يقال: إنها كانت مدحوة قبل ذلك ثم أزيل عنها هذه الصفة، وذلك باطل. الثالث: أن الأرض جسم في غاية العظم، والجسم الذي يكون كذلك فإنه من أول دخوله في الوجود يكون مدحوًا، فيكون القول بأنها ما كانت مدحوة ثم صارت مدحوة قول باطل، والذي جاء في كتب التواريخ أن الأرض خُلقت في موضع الصخرة ببيت المقدس، فهو كلام مشكل لأنه إن كان المراد أنها على عظمها خُلقت في ذلك الموضع، فهذا قول بتداخل الأجسام الكثيفة وهو محال، وإن كان المراد منه أنه خلق أولاً أجزاء صغيرة في ذلك الموضع ثم خلق بقية أجزائها، وأضيفت إلى تلك الأجزاء التي خلقت أولاً، فهذا يكون اعترافًا بأن تخليق الأرض وقع متأخرًا عن تخليق السماء. الرابع: أنه لما حصل تخليق ذات الأرض في يومين وتخليق سائر الأشياء الموجودة في الأرض في يومين آخرين وتخليق السموات في يومين آخرين، كان مجموع ذلك ستة أيام، فإذا حصل دحو الأرض من بعد ذلك فقد حصل هذا الدحو في زمان آخر بعد الأيام الستة، فحينئذٍ يقع تخليق السموات والأرض في أكثر من ستة أيام وذلك باطل. الخامس: أنه لا نزاع أن قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ كناية عن إيجاد السماء والأرض، فلو تقدم إيجاد السماء على إيجاد الأرض لكان قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ يقتضي إيجاد الموجود وأنه محال باطل.

فهذا تمام البحث عن هذا الجواب المشهور، ونقل الواحدي في (البسيط) عن مقاتل أنه قال: خَلَق الله السموات قبل الأرض وتأويل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم كان قد استوى إلى السماء وهي دخان، وقال لها قبل أن يخلق الأرض. فأضمر فيه (كان) كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] معناه إن يكن سرق، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] والمعنى فكان قد جاءها. هذا ما نقله الواحدي وهو عندي ضعيف؛ لأن تقدير الكلام (ثم كان قد استوى إلى السماء)، وهذا جمع بين الضدين لأن كلمة ثم تقتضي التأخير، وكلمة (كان) تقتضي التقديم والجمع بينهما يفيد التناقض، وذلك دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره، وقد بينا أن قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إنما حصل قبل وجودهما، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله: ﴿ٱئْتِيَا﴾ على الأمر والتكليف، فوجب حمله على ما ذكرناه. بقي على لفظ الآية سؤالات:

السؤال الأول: ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؟ الجواب: المقصود منه إظهار كمال القدرة، والتقدير: ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما، كما يقول الجبار لمن تحت يده لتفعلن هذا شئت أو لم تشأ، ولتفعلنه طوعًا أو كرهًا. وانتصابهما على الحال بمعنى طائعَين أو مكرهَين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ على الطوع لا على الكره، وقيل: إنه تعالى ذكر السماء والأرض ثم ذكر الطوع والكره، فوجب أن يتصرف الطوع إلى السماء والكره إلى الأرض بتخصيص السماء بالطوع لوجوه: أحدها: أن السماء في دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف، تشبه حيوانًا مطيعًا لله تعالى، بخلاف الأرض فإنها مختلفة الأحوال، تارة تكون في السكون وأخرى في الحركات المضطربة. وثانيها: أن الموجود في السماء ليس لها إلا الطاعة، قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] وأما أهل الأرض فليس الأمر في حقهم كذلك. وثالثها: السماء موصوفة بكمال الحال في جميع الأمور، قالوا: إنها أفضل الألوان وهي المستنيرة، وأشكالها أفضل الأشكال وهي المستديرة، ومكانها أفضل الأمكنة وهو الجو العالي، وأجرامها أفضل الأجرام وهي الكواكب المتلألئة، بخلاف الأرض فإنها مكان الظلمة والكثافة واختلاف الأحوال وتغير الذوات والصفات، فلا جرم وقع التعبير عن تكون السماء بالطوع وعن تكون الأرض بالكره، وإذا كان مدار خلق الأرض على الكره كان أهلها موصوفين أبدًا بما يوجب الكره والكرب والقهر والقسر.

السؤال الثاني: ما المراد من قوله: ﴿أَتَيْنَا﴾ ومن قوله ﴿أَتَيْنَا﴾؟ الجواب: المراد ائتيا إلى الوجود والحصول. وهو كقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] وقيل: المعنى ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، أي بأرض مدحوة قرارًا ومهادًا، وأي بسماء مقببة سقفًا لهم، ومعنى الإتيان الحصول والوقوع على وفق المراد، كما تقول: أتى عمله مَرضيًا وجاء مقبولاً، ويجوز أيضًا أن يكون المعنى: لِتأتي كل واحدة منكم صاحبتها الإتيان الذي تقتضيه الحكمة والتدبير،

من كون الأرض قرارًا للسماء وكون السماء سقفًا للأرض.

السؤال الثالث: هلا قيل: طائعَين على اللفظ أو طائعات على المعنى؛ لأنهما سموات وأرضون؟ الجواب: لما جُعلن مخاطبات ومجيبات ووُصفن بالطوع والكره، قيل طائعِين في موضع طائعات، نحو قوله ﴿سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] ومنهم من استدل به على كون السموات أحياء، وقال: الأرض في جوف السموات أقل من الذرة الصغيرة في جوف الجبل الكبير، فلهذا السبب صارت اللفظة الدالة على العقل والحياة غالبة، إلا أن هذا القول باطل؛ لإجماع المتكلمين على فساده.

ثم قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وقضاء الشيء إنما هو إتمامه والفراغ منه، والضمير في قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ يجوز أن يرجع إلى السماء على المعنى، كما قال: ﴿طَآئِعِينَ﴾ ونحوه ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا مفسرًا بسبع سموات، والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال والثاني على التمييز.

ذكر أهل الأثر أنه تعالى خلق الأرض في يوم الأحد والإثنين، وخلق سائر ما في الأرض في يوم الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة، فإن قيل: اليوم عبارة عن النهار والليل، وذلك إنما يحصل بسبب طلوع الشمس وغروبها، وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يُعقل حصول اليوم؟ قلنا: معناه إنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدرًا بيوم.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ قال مقاتل: أمَر في كل سماء بما أراد. وقال قتادة: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها. وقال السدي: خلق في كل سماء خَلقَها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البَرَد. قال: ولله في كل سماء بيت يحج إليه ويطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل الكعبة، ولو وقعت منه حصاة ما وقعت إلا على الكعبة. والأقرب أن يقال: قد ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، ولله تعالى على أهل كل سماء تكليف خاص، فمن الملائكة من هو في القيام من أول خلق العالم إلى قيام القيامة، ومنهم ركوع لا ينتصبون، ومنهم سجود لا يرفعون، وإذا كان ذلك الأمر مختصًّا بأهل ذلك السماء، كان ذلك الأمر مختصًّا بتلك السماء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي وكان قد خص كل سماء بالأمر المضاف إليها، كقوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعرف: ٤] والمعنى فكان قد جاءها، هذا ما نقله الواحدي، وهو عندي ضعيف؛ لأن تقدير الكلام: (ثم كان قد استوى إلى السماء وكان قد أوحى)، وهذا جمع بين الضدين لأن كلمة (ثم) تقتضي التأخير وكلمة (كان) تقتضي التقديم فالجمع بينهما يفيد التناقض، ونظيره قول القائل: (ضربت اليوم زيدًا ثم ضربت عمرًا بالأمس)، فكما أن هذا باطل فكذا ما ذكرتموه، وإنما يجوز تأويل كلام الله بما لا يؤدي إلى وقوع التناقض

والركاكة فيه، والمختار عندي أن يقال: خَلْق السموات مقدم على خلق الأرض. بقي أن يقال: كيف تأويل هذه الآية؟ فنقول: الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد، والدليل عليه قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فلو كان الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين، لكان تقدير الآية: أوجده من تراب ثم قال له كن فيكون. وهذا محال؛ لأنه يلزم أنه تعالى قد قال للشيء الذي وُجد (كن) ثم إنه يكون. وهذا محال، فثبت أن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد، بل هو عبارة عن التقدير، والتقدير خلق الله تعالى هو حكمه بأنه سيوجده وقضاؤه بذلك، وإذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ معناه أنه قضى بحدوثه في يومين، وقضاء الله بأنه سيحدث كذا في مدة كذا - لا يقتضي حدوث ذلك الشيء في الحال، فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض في يومين قد تقدم على إحداث السماء، ولا يلزم منه تقدم إحداث الأرض على إحدث السماء، وحينئذٍ يزول السؤال، فهذا ما وصلت إليه في هذه الموضع المشكل.

ثم قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

واعلم أن ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى أمر السماء والأرض بالإتيان، فأطاعا وامتثلا، وعند هذا حصل في الآية قولان:

القول الأول: أن تجري هذه الآية على ظاهرها فنقول: إن الله تعالى أمَرهما بالإتيان فأطاعاه. قال القائلون بهذا القول: وهذا غير مستبعد، ألا ترى أنه تعالى أمَر الجبال أن تنطق مع داود عليه السلام فقال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبا: ١٠] والله تعالى تجلى للجبل قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] والله تعالى أنطق الأيدي والأرجل فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] وإذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله في ذات السماء والأرض حياة وعقلاً وفهمًا، ثم يوجه الأمر والتكليف عليهما؟! ويتأكد هذا الاحتمال بوجوه: الأول: أن الأصل حَمْل اللفظ على ظاهره إلا إذا منع منه مانع، وههنا لا مانع، فوجب إجراؤه على ظاهره. الثاني: أنه تعالى أخبر عنهما فقال: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ وهذا الجمع جمع ما يعقل ويعلم الثالث: قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهذا يدل على كونها عارفة بالله، مخصوصة بتوجيه تكاليف الله عليها، والإشكال عليه أن يقال: المراد من قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ الإتيان إلى الوجود والحدوث والحصول، وعلى هذا التقدير فحال توجُّه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة، إذ لو كانت موجودة لصار حاصل هذا الأمر أن يقال: (يا موجود كن موجودًا)، وذلك لا يجوز فثبت أنها حال توجه هذا الأمر عليها كانت معدومة، وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب، فلم يجز توجيه الأمر عليها، فإن قال قائل: روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: قال سبحانه للسموات: أطلعي شمسك وقمرك ونجومك. وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي ثمارك. وكان الله

تعالى أودع فيهما هذه الأشياء ثم أمَرهما بإبرازها وإظهارها. فنقول: فعلى هذا التقدير لا يكون المراد من قوله: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ حدوثهما في ذاتهما، بل يصير المراد من هذا الأمر أن يُظهرا ما كان مودعًا فيهما، إلا أن هذا الكلام باطل؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ والفاء للتعقيب، وذلك يدل على أن حدوث السموات إنما حصل بعد قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فهذا جملة ما يمكن ذكره في هذا البحث.

القول الثاني: أن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ليس المراد منه توجيه الأمر والتكليف على السموات والأرض، بل المراد منه أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووُجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمير المطاع، ونظيره قول القائل: قال الجدار للوتد: لمَ تشقني؟ قال الوتد: اسأل من يدقني، فإن الحجر الذي ورائي ما خلاني ورائي.

واعلم أن هذا عدول عن الظاهر، وإنما جاز العدول عن الظاهر إذا قام دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره، وقد بينا أن قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إنما حصل قبل وجودهما، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ على الأمر والتكليف، فوجب حمله على ما ذكرنا.

واعلم أن إثبات الأمر والتكليف فيهما مشروط بحصول المأمور فيهما، وهذا يدل على أنه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة، أو أنه تعالى أمَرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء، وليس في الآية ما يدل على أنه إنما خلق الملائكة مع السموات، أو أنه تعالى خلقهم قبل السموات، ثم إنه تعالى أسكنهم فيها، وأيضًا ليس في الآية بيان الشرائع التي أمر الملائكة بها، وهذه الأسرار لا تليق بعقول البشر، بل هي أعلى من مصاعد أفهامهم ومرامي أوهامهم.

ثم قال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النيرات التي خلقها في السموات، وخص كل واحد بضوء معين، وسر معين، وطبيعة معينة، لايعرفها إلا الله.

ثم قال: ﴿وَحِفْظًا﴾ يعني وحفظناها حفظًا، يعني من الشياطين الذين يسترقون السمع، فأعد لكل شيطان نجمًا يرميه به ولا يخطئه، فمنها ما يحرق، ومنها ما يقتل، ومنها ما يجعله مخبلاً، وعن ابن عباس أن اليهود سألوا الرسول ﷺ عن خلق السموات والأرض فقال: «خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ وَالِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالشَّجَرَ فِي يَوْمَيْنِ، وَخَلَقَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْمَلَائِكَةَ، ثُمَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ» ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» قالوا: ثم استراح. فغضب رسول الله ﷺ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق: ٣٨][(١)].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٤٩/ ٢٧٨٩)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٢٧)، حديث رقم (٨٣٢٣)، وأبو يعلى في (مسنده) (١٠/ ٥١٣)، حديث رقم (٦١٣٢)، جميعًا من طريق أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى لأم سلمة عن أبي هريرة. . . به.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ والعزيز إشارة إلى كمال القدرة، والعليم إشارة إلى كمال العلم، وما أحسن هذه الخاتمة!! لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أن الكلام إنما ابتدئ من قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت: ٦] واحتج عليه بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] وحاصله أن الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به؟! وكيف يجوز جعل هذه الأجسام الخسيسة شركاء له في الإلهية؟! ولما تمم تلك الحجة قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وبيان ذلك أن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه، فإن بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذٍ علاج في حقهم إلا إنزال العذاب عليهم فلهذا السبب قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ بمعنى إن أعرضوا عن قبول هذه الحجة القاهرة التي ذكرناها وأصروا على الجهل والتقليد ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ والإنذار هو التخويف، قال المبرد: والصاعقة: الثائرة المهلكة لأي شيء كان، وقرئ: (صَعْقة مثل صَعْقة عاد ثمود) قال صاحب(الكشاف) وهي المرة من الصعق.

ثم قال: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وفيه وجهان: الأول: المعنى أن الرسل المبعوثين إليهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأتوا بجميع وجوه الحيل، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض، كما حكى الله تعالى عن الشيطان قوله: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] يعني لآتينهم من كل جهة، ولأعملن فيهم كل حيلة. ويقول الرجل: استدرت بفلان من كل جانب فلم تؤثر حيلتي فيه.

الوجه الثاني: المعنى: أن الرسل جاءتهم من قبلهم ومن بعدهم، فإن قيل: الرسل الذين جاؤوا من قبلهم ومن بعدهم، كيف يمكن وصفهم بأنهم جاؤوهم؟ قلنا: قد جاءهم هود وصالح

داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل، وبهذا التقدير فكأن جميع الرسل قد جاؤوهم.

ثم قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يعني أن الرسل الذين جاؤوهم من بين أيديهم ومن خلفهم أمروهم بالتوحيد ونفي الشرك، قال صاحب (الكشاف): أنْ في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بمعنى (أي) أو مخففة من الثقيلة أصله بأنه لا تعبدوا، أي بأن الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا إلا الله.

ثم حكى الله تعالى عن أولئك الكفار أنهم قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ يعني أنهم كذبوا أولئك الرسل، وقالوا: الدليل على كونكم كاذبين أنه تعالى لو شاء إرسال الرسالة إلى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة؛ لأن إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة والرسالة، ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ معناه: فإذًا أنتم بشر ولستم بملائكة، فأنتم لستم برسل، وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم. وهو المراد من قوله: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. واعلم أنا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهات في سورة الأنعام.

وقوله: ﴿أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ ليس بإقرار منهم بكون أولئك الأنبياء رسلاً، وإنما ذكروه حكاية لكلام الرسل أو على سبيل الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. روي أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلاً عالمًا بالشعر والسحر والكهانة فكلمه، ثم أتانا ببيان عن أمره. فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علمًا وما يخفى علي!! فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ لمَ تشتم آلهتنا وتضللنا؟! فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تكن بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن، أي بنات من شئت من قريش، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢] إلى قوله: ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا، لا نرى عتبة إلا قد صبأ! فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت! فغضب وأقسم لا يكلم محمدًا أبدًا، ثم قال: والله لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو شعر ولا سحر ولا كهانة، ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، أمسكت بفيه وناشدته بالرحم، ولقد علمت أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

واعلم أنه تعالى لما بيّن كفر قوم عاد وثمود على الإجمال، بيّن خاصية كل واحدة من هاتين الطائفتين فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذاالاستكبار فيه وجهان: الأول: إظهارالنخوة والكِبر، وعدم الالتفات إلى الغير. والثاني: الاستعلاء على الغير واستخدامهم، ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وكانوا مخصوصين بكِبَر الأجسام وشدة القوة، ثم إنه تعالى ذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم،

فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني أنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم، فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل، فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى، خاضعين لأوامره ونواهيه.

واحتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات القوة لله، فقالوا: القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله: ﴿اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يدل على إثبات القوة لله تعالى، ويتأكد هذا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] فإن قيل: صيغة أفعل التفضيل إنما تجري بين شيئين لأحدهما مع الآخر نسبة، لكن قدرة العبد متناهية وقدرة الله لا نهاية لها، والمتناهي لا نسبة له إلى غير المتناهي، فما معنى قوله: إن الله أشد منهم قوة؟ قلنا: هذا ورد على قانون قولنا: الله أكبر.

ثم قال: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ والمعنى أنهم كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوا كما يجحد المودع الوديعة.

واعلم أن نظم الكلام أن يقال: أما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وكانوا بآياتنا يجحدون، وقوله: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ اعتراض وقع في البين لتقرير السبب الداعي لهم إلى الاستكبار.

واعلم أنا ذكرنا أن مجامع الخصال الحميدة الإحسان إلى الخلق والتعظيم للخالق، فقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مضاد للإحسان إلى الخلق، وقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ مضاد للتعظيم للخالق، وإذا كان الأمر كذلك فهم قد بلغوا في الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والإبطال إلى الغاية القصوى؛ فلهذا المعنى سلّط الله العذاب عليهم فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وفي الصرصر قولان: أحدهما: أنها العاصفة التي تصرصر، أي تصوت في هبوبها، وفي علة هذه التسمية وجوه: قيل: إن الرياح عند اشتداد هبوبها يُسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر فسميت هذه الرياح بهذا الاسم. وقيل: هو من صرير الباب، وقيل: من الصرة والصيحة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] والقول الثاني: أنها الباردة التي تحرق ببردها كما تحرق النار بحرها، وأصلها من الصر وهو البرد، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: ١١٧] وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرِّيَاحُ ثَمَانٍ: أَرْبَعٌ مِنْهَا عَذَابٌ: الْعَاصِفُ وَالصَّرْصَرُ وَالْعَقِيمُ وَالسَّمُومُ، وَأَرْبَعٌ مِنْهَا رَحْمَةٌ: النَّاشِرَاتُ وَالْمُبَشِّرَاتُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَالذَّارِيَاتُ»[1] وعن ابن عباس أن الله تعالى ما أرسل على عباده من الريح إلا قدر خاتمي. والمقصود أنه مع قِلته أهلك الكل وذلك يدل على كمال قدرته.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في (العظمة) (٤/ ١٣٠٥/ ٢) من طريق هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمرو. . . فذكره موقوفًا، ورواه ابن أبي الدنيا في (المطر والرعد) (١/ ١٧٦)، حديث رقم (١٧١) من طريق وهب بن منبه عن ابن عباس. . . به موقوفًا.

وأما قوله: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: (نَحْسات) بسكون الحاء والباقون بكسر الحاء، قال صاحب (الكشاف): يقال: نحِس نَحْسًا نقيض سعد سعدًا فهو نحس، وأما نَحْس فهو إما مخفف نحس أو صفة على فَعْل أو وصف بمصدر.

المسألة الثانية: استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون نحسًا وبعضها قد يكون سعدًا، وقالوا: هذه الآية صريحة في هذا المعنى. أجاب المتكلمون بأن قالوا: ﴿أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ أي ذوات غبار وتراب ثائر لا يكاد يُبصر فيه ويُتصرف. وأيضًا قالوا: معنى كون هذه الأيام نحسات أن الله أهلكهم فيها. أجاب المستدل الأول بأن النحسات في وضع اللغة هي المشئومات لأن النحس يقابله السعد، والكدر يقابله الصافي، وأجاب عن السؤال الثاني أن الله تعالى أخبر عن إيقاع ذلك العذاب في تلك الأيام النحسات، فوجب أن يكون كون تلك الأيام نحسة مغايرًا لذلك العذاب الذي وقع فيها.

ثم قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي عذاب الهوان والذل، والسبب فيه أنهم استكبروا، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الخزي والهوان والذل إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ أي أشد إهانة وخزيًا ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي أنهم يقعون في الخزي الشديد، ومع ذلك فلا يكون لهم ناصر يدفع ذلك الخزي عنهم.

ولما ذكر الله قصة عاد أتبعه بقصة ثمود فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ قال صاحب (الكشاف): قرئ (ثمود) بالرفع والنصب منونًا وغير منون، والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء، وقرئ بضم الثاء، وقوله: ﴿فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي دللناهم على طريق الخير والشر ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد.

واعلم أن صاحب (الكشاف) ذكر في تفسير الهدى في قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أن الهدى عبارة عن الدلالة الموصلة إلى البغية، وهذه الآية تبطل قوله؛ لأنها تدل على أن الهدى قد حصل مع أن الإفضاء إلى البغية لم يحصل، فثبت أن قيد كونه مفضيًا إلى البغية غير معتبر في اسم الهدى.

وقد ثبت في هذه الآية سؤال يُشعر بذلك إلا أنه لم يذكر جوابًا شافيًا فتركناه، قالت المعتزلة: هذه الآية دالة على أن الله تعالى قد ينصب الدلائل ويزيح الأعذار والعلل، إلا أن الإيمان إنما يحصل من العبد لأن قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ يدل على أنه تعالى قد نصب لهم الدلائل، وقوله: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ يدل على أنهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى، فهذا يدل على أن الكفر والإيمان يحصلان من العبد. وأقول: بل هذه الآية من أدل الدلائل على أنهما إنما يحصلان من الله لا من العبد، وبيانه من وجهين: الأول: أنهم إنما صدر عنهم ذلك العمى؛ لأنهم أحبوا تحصيله، فلما وقع في قلبهم هذه المحبة دون محبة ضده، فإن حصل ذلك الترجيح

لا لمرجح فهو باطل، وإن كان المرجح هو العبد عاد الطلب، وإن كان المرجح هو الله فقد حصل المطلوب. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ومن المعلوم بالضرورة أن أحدًا لا يحب العمى والجهل مع العلم بكونه عمى وجهلاً، بل ما لم يظن في ذلك العمى والجهل كونه تبصرة وعلمًا لا يرغب فيه، فإقدامه على اختيار ذلك الجهل لا بد وأن يكون مسبوقًا بجهل آخر، فإن كان ذلك الجهل الثاني باختياره أيضًا لزم التسلسل وهو محال، فلا بد من انتهاء تلك الجهالات إلى جهل يحصل فيه لا باختياره وهو المطلوب.

ولما وصف الله كفرهم قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ و﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي داهية العذاب و﴿ٱلْهُونِ﴾ الهوان، وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يريد من شركهم وتكذيبهم صالحًا وعقرهم الناقة، وشرع صاحب (الكشاف) ههنا في سفاهة عظيمة. والأولى أن لا يُلتفت إليه أنه وإن كان قد سعى سعيًا حسنًا فيما يتعلق بالألفاظ، إلا أن المسكين كان بعيدًا من المعاني.

ولما ذكر الله الوعيد أردفه بالوعد فقال: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يعني وكانوا يتقون الأعمال التي كان يأتي بها قوم عاد وثمود. فإن قيل: كيف يجوز للرسول ﷺ أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود، مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمة محمد ﷺ، وقد صرّح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] وجاء في الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من الآفات؟! قلنا: إنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث ما يكون من جنس ذلك، وإن كان أقل درجة منهم وهذا القدر يكفي في التخويف.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما بيّن كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا، أردفه بكيفية عقوبتهم في الآخرة ليحصل منه تمام الاعتبار في الزجر والتحذير، وقرأ نافع (نحشر) بالنون (أعداء) بالنصب، أضاف الحشر إلى نفسه، والتقدير يحشر الله عزّ وجلّ أعداءه الكفار من الأولين والآخرين. وحجته أنه

معطوف على قوله ﴿وَنَجَّيْنَا﴾ [فصلت: ١٨] فيحسن أن يكون على وفقه في اللفظ، ويقويه قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥] ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧] وأما الباقون فقرؤوا على فعل ما لم يسم فاعله لأن قصة ثمود قد تمت وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ ابتداء كلام آخر، وأيضًا الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله ﴿ٱحْشُرُوا﴾ [الصافات: ٢٢] وهم الملائكة، وأيضًا أن هذه القراءة موافقة لقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩] وأيضًا فتقدير القراءة الأولى أن الله تعالى قال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فكان الأَوْلى على هذا التقدير أن يقال: ويوم نحشر أعداءنا إلى النار.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أعداء الله يحشرون إلى النار قال: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُحبس أولهم على آخرهم، أي يوقف سوابقهم حتى يصل إليهم تواليهم، والمقصود بيان أنهم إذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التقدير حتى إذا جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم. وعلى هذا التقدير فكلمة ﴿مَا﴾ صلة، وقيل: فيها فائدة زائدة وهي تأكيد أن عند مجيئهم لا بد وأن تحصل هذه الشهادة، كقوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [يونس: ٥١] أي لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به.

المسألة الثانية: روي أن العبد يقول يوم القيامة: يا رب العزة ألست قد وعدتني أن لا تظلمني؟! فيقول الله تعالى: فإن لك ذلك. فيقول العبد إني لا أقبل على نفسي شاهدًا إلا من نفسي. فيختم الله على فيه وينطق أعضاءه بالأعمال التي صدرت منه (١)، فذلك قوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ واختلف الناس في كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها، فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه. والثاني: أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني كما خلق الكلام في الشجرة. والثالث: أن يظهر تلك الأعضاء أحوال تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان، وتلك الأمارات تسمى شهادات، كما يقال: يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه. واعلم أن هذه المسألة صعبة على المعتزلة، أما القول الأول: فهو صعب على مذهبهم لأن البنية عندهم شرط لحصول العقل والقدرة، فاللسان مع كونه لسانًا يمتنع أن يكون محلاً للعلم والعقل، فإن غَيَّر الله تعالى تلك البنية والصورة خرج عن كونه لسانًا وجلدًا، وظاهر الآية يدل على إضافة تلك الشهادة إلى السمع والبصر والجلود، فإن قلنا: إن الله تعالى ما غَيَّر بنية هذه الأعضاء، فحينئذٍ يمتنع عليها كونها ناطقة فاهمة، وأما القول الثاني: وهو أن يقال: إن الله

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٨٠/ ٢٩٦٩) من طريق الشعبي عن أنس بن مالك... به.

تعالى خلق هذه الأصوات والحروف في هذه الأعضاء، وهذا أيضًا باطل على أصول المعتزلة؛ لأن مذهبهم أن المتكلم هو الذي فعل الكلام، لا ما كان موصوفًا بالكلام، فإنهم يقولون: إن الله تعالى خلق الكلام في الشجرة، وكان المتكلم بذلك الكلام هو الله تعالى لا الشجرة، فهاهنا لو قلنا: إن الله خلق الأصوات والحروف في تلك الأعضاء لزم أن يكون الشاهد هو الله تعالى لا تلك، ولزم أن يكون المتكلم بذلك الكلام هو الله لا تلك الأعضاء، وظاهر القرآن يدل على أن تلك الشهادة شهادة صدرت من تلك الأعضاء لا من الله تعالى؛ لأنه تعالى قال: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ وأيضًا أنهم قالوا لتلك الأعضاء: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فقالت الأعضاء: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وكل هذه الآيات دالة على أن المتكلم بتلك الكلمات هي تلك الأعضاء، وأن تلك الكلمات ليست كلام الله تعالى. فهذا توجيه الإشكال على هذين القولين، وأما القول الثالث: وهو تفسير هذه الشهادة بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء دالة على صدور تلك الأعمال منهم، فهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز، والأصل عدمه، فهذا منتهى الكلام في هذا البحث، أما على مذهب أصحابنا فهذا الإشكال غير لازم، لأن عندنا البنية ليست شرطًا للحياة ولا للعلم ولا للقدرة، فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء، وعلى هذا التقدير فالإشكال زائل، وهذه الآية يحسن التمسك بها في بيان أن البنية ليست شرطًا للحياة ولا لشيء من الصفات المشروطة بالحياة، والله أعلم.

المسألة الثالثة: ما رأيت للمفسرين في تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر سببًا وفائدة، وأقول: لا شك أن الحواس خمسة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ولا شك أن آلة اللمس هي الجلد، فالله تعالى ذكر هاهنا من الحواس [ثلاثة أنواع] وهي السمع والبصر واللمس، وأهمل ذكر نوعين وهما الذوق والشم؛ لأن الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه؛ لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان والحنك مماسة لجرم الطعام، فكان هذا داخلًا فيه، فبقي حس الشم وهو حس ضعيف في الإنسان، وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهي. إذا عرفت هذا فنقول: نُقل عن ابن عباس أنه قال: المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج. قال: وهذا من باب الكنايات كما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥] وأراد النكاح، وقال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء: ٤٣] والمراد قضاء الحاجة، وعن النبي ﷺ أنه قال: «**أَوَّلُ مَا يَتَكَلَّمُ مِنَ الْآدَمِيِّ فَخِذُهُ وَكَفُّهُ**»(١) وعلى هذا التقدير فتكون هذه الآية وعيدًا شديدًا في الإتيان بالزنا؛ لأن مقدمة الزنا

(١) **إسناده حسن**: أخرج أحمد في (مسنده) (٥/ ٣) من طريق الجريري أبي مسعود عن حكيم بن معاوية عن أبيه... به، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٤٥١)، حديث رقم (١١٤٦٩) من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ... به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٧٧)، حديث رقم (٣٦٤٥) من طريق يزيد بن هارون، أنبأنا سعيد بن إياس الجريري عن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه... به. وقال: هذا حديث مشهور ببهز بن حكيم عن أبيه وقد تابعه الجريري فرواه عن حكيم بن معاوية وصح به الحديث ولم يخرجاه، وقد رواه أبو قزعة الباهلي أيضًا=

إنما تحصل بالكف، ونهاية الأمر فيها إنما تحصل بالفخذ.

ثم حكى الله تعالى أنهم يقولون لتلك الأعضاء: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ومعناه أن القادر على خلقكم وإنطاقكم في المرة الأولى حالما كنتم في الدنيا، ثم على خلقكم وإنطاقكم في المرة الثانية وهي حال القيامة والبعث - كيف يُستبعد منه إنطاق الجوارح والأعضاء؟!

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ والمعنى إثبات أنهم كانوا يستترون عند الإقدام على الأعمال القبيحة، إلا أن استتارهم ما كان لأجل خوفهم من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة، ولكن ذلك الاستتار لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله لا يعلم الأعمال التي يقدمون عليها على سبيل الخفية والاستتار. عن ابن مسعود قال: كنت مستترًا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر عليٌّ ثقفيان وقرشي فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما تقولون؟ فقال الرجلان: إذا سمعنا أصواتنا سمع وإلا لم يسمع. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾[(١)].

ثم قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهذا نص صريح في أن من ظن بالله تعالى أنه يخرج شيء من المعلومات عن علمه، فإنه يكون من الهالكين الخاسرين، قال أهل التحقيق: الظن قسمان: ظن حسن بالله تعالى وظن فاسد: أما الظن الحسن فهو أن يظن به الرحمة والفضل، قال ﷺ حكاية عن الله عزّ وجلّ: **«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»**[(٢)] وقال ﷺ: **«لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»**[(٣)] والظن القبيح فاسد وهو أن يظن بالله أنه يعزب عن علمه بعض هذه الأحوال. وقال قتادة: الظن نوعان: ظن مُنجٍ وظن مُردٍ، فالمنجي قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] وقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، وأما الظن المردي فهو قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ قال صاحب

=عن حكيم بن معاوية. اهـ. ورواه عبد الرزاق في (مصنفه) (٣/ ٢)، حديث رقم (١٤٧٦) من طريق يزيد بن هارون عن الجريري، عن حكيم بن معاوية عن أبيه... به.

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (التفسير)، باب: (قوله: وما كنتم تستترون) (٤/ ١٨١٨)، حديث رقم (٤٥٣٨)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٤١/ ٢٧٧٥)، كلاهما من طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود... به.

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (التوحيد)، باب: (السؤال بأسماء الله تعالى) (٦/ ٢٦٩٤)، حديث رقم (٦٩٧٠)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٦١/ ٢٦٧٥)، كلاهما من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة... به.

(٣) **صحيح:** أخرجه مسلم في كتاب (الجنة وصفة نعيمها)، باب: (الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت) (٤/ ٢٢٠٥)، حديث رقم (٨١)، وأبو داود في كتاب (الجنائز)، باب: (ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت) (٣/ ١٣٦٠)، حديث رقم (٣١١٣)، وابن ماجه في (الزهد)، باب: (التوكل واليقين) (٢/ ١٣٩٥)، حديث رقم (٤١٦٧)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٤٣٢٥)، جميعًا من طريق الأعمش... به.

(الكشاف): (وذلكم) رفع بالابتداء (وظنكم) و(أرداكم) خبران، ويجوز أن يكون ظنكم بدلاً من ذلكم وأرداكم الخبر.

ثم قال: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ يعني إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه، لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم، أي مقامًا لهم ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقرئ (وإن يُستعتَبوا فما هم من المُعتبِين) أي إن يسئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون، أي لا سبيل لهم إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك الكفار، أردفه بذكر السبب الذي لأجله وقعوا في ذلك الكفر فقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الصحاح): يقال: قايضت الرجل مقايضة، أي عاوضته بمتاع، وهما قَيِّضان كما يقال بَيِّعان، وقَيَّض الله فلانًا، أي جاءه به وأتى به له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر، فقالوا: إنه تعالى ذكر أنه قَيَّض لهم أولئك القرناء، وكان عالمًا بأنه متى قيض لهم أولئك القرناء فإن يزينوا الباطل لهم، وكل مَن فعل فعلاً وعلم أن ذلك الفعل يفضي إلى أثر لا محالة، فإن فاعل ذلك الفعل لا بد وأن يكون مريدًا لذلك الأثر، فثبت أنه تعالى لما قيض لهم قرناء فقد أراد منهم ذلك الكفر. أجاب الجبائي عنه بأن قال: لو أراد المعاصي لكانوا بفعلها مطيعين إذ الفاعل لما أراده منه غيره يجب أن يكون مطيعًا له، وبأن قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] يدل على أنه لم يرد منهم إلا العبادة، فثبت بهذا أنه تعالى لم يُرد منهم المعاصي. وأما هذه الآية فنقول: إنه تعالى لم يقل: وقيضنا لهم قرناء ليزينوا لهم. وإنما قال: ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾ فهو تعالى قيض القرناء لهم بمعنى أنه تعالى أخرج كل أحد إلى آخر من جنسه، فقيض أحد الزوجين

للآخر، والغني للفقير، والفقير للغني، ثم بيّن تعالى أن بعضهم يزين المعاصي للبعض.

واعلم أن وجه استدلال أصحابنا ما ذكرناه، وهو أن مَن فعل فعلاً وعَلِم قطعًا أن ذلك الفعل يفضي إلى أثر، فإن فاعل ذلك الفعل يكون مريدًا لذلك الأثر، فههنا الله تعالى قيض أولئك القرناء لهم وعَلِم أنه متى قيض أولئك القرناء لهم فإنهم يقعون في ذلك الكفر والضلال، وما ذكره الجبائي لا يدفع ذلك، قوله ولو أراد الله منهم المعاصي لكانوا بفعلها مطيعين لله. قلنا: لو كان من فعل ما أراده غيره مطيعًا له لوجب أن يكون الله مطيعًا لعباده إذا فعل ما أرادوه، ومعلوم أنه باطل، وأيضًا فهذا إلزام لفظي لأنه يقال: إن أردت بالطاعة أنه فعل ما أراد، فهذا إلزام للشيء على نفسه، وإن أردت غيره فلا بد من بيانه حتى ينظر فيه أنه هل يصح أم لا.

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد بقوله: ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وذكر الزجاج فيه وجهين: الأول: زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا جنّة ولا نار وما خلفهم من أمر الدنيا، فزينوا أن الدنيا قديمة، وأنه لا فاعل ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك. الثاني: زينوا لهم أعمالهم التي يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم وما يزعمون أنهم يعملونه. وعبّر ابن زيد عنه فقال: زينوا لهم ما مضى من أعمالهم الخبيثة، وما بقي من أعمالهم الخسيسة.

ثم قال تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ فقوله: (في أمم) في محل النصب على الحال من الضمير في (عليهم)، والتقدير حق عليهم القول حال كونهم كائنين في جملة (أمم) من المتقدمين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ واحتج أصحابنا أيضًا بأنه تعالى أخبر بأن هؤلاء (حق عليهم القول) فلو لم يكونوا كفارًا لانقلب هذا القول الحق باطلاً وهذا العلم جهلاً، وهذا الخبر الصدق كذبًا، وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال، فثبت أن صدور الإيمان عنهم وعدم صدور الكفر عنهم محال.

واعلم أن الكلام في أول السورة ابتدئ من قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة، واتصل الكلام بعضه بالبعض إلى هذا الموضع، ثم إنه حكى عنهم شبهة أخرى فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، قال صاحب (الكشاف): قرئ: (والغوا فيه) بفتح الغين وضمها، يقال لغى يلغَى ولغا يلغو، واللغو: الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته.

واعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل في المعنى وفي اللفظ، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط عقله بمعانيه، وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول، فدبروا تدبيرًا في منع الناس عن استماعه، فقال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ إذا قرئ وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته، كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضًا، والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن ما يكون لغوًا وباطلاً؛ لتُخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير

مفهومة للناس، فبهذا الطريق تغلبون محمدًا ﷺ. وهذا جهل منهم لأنهم في الحال أقروا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل، والله تعالى ينصر محمدًا بفضله. ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لأن لفظ الذوق إنما يُذكر في القدر القليل الذي يؤتى به لأجل التجربة، ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب الشديد، فإذا كان القليل منه عذابًا شديدًا فكيف يكون حال الكثير منه؟!

ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ واختلفوا فيه: فقال الأكثرون: المراد جزاء سوء أعمالهم. وقال الحسن: بل المراد أنه لا يجازيهم على محاسن أعمالهم؛ لأنهم أحبطوها بالكفر فضاعت تلك الأعمال الحسنة عنهم، ولم يبق معهم إلا الأعمال القبيحة الباطلة، فلا جرم لم يتحصلوا إلا على جزاء السيئات.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ والمعنى أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بيّن أن ذلك الأسوأ الذي جُعل جزاء أعداء الله هو النار.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي لهم في جملة النار دار السيئات معينة وهي دار العذاب المخلد لهم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي جزاء بما كانوا يلغون في القراءة، وإنما سماه جحودًا لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا به فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزًا إلا أنهم جحدوا للحسد.

واعلم أنه تعالى لما بيّن أن الذي حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء، بَيّن أن الكفار عند الوقوع في العذاب الشديد يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ والسبب في ذكر هذين القسمين أن الشيطان على ضربين جني وإنسي، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الانعام: ١١٢] وقال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥ - ٦] وقيل: هما إبليس وقابيل لأن الكفر سُنة إبليس، والقتل بغير حق سُنة قابيل. وقرئ (أرْنا) بسكون الراء لثقل الكسرة، كما قالوا في فخِذ فخْذ، وقيل: معناه أعطنا اللذين أضلانا. وحكوا عن الخليل أنك إذا قلت (أرني ثوبك) بالكسر، فالمعنى بصرنيه وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء، معناه أعطني ثوبك.

ثم قال تعالى: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ قال مقاتل: يكونان أسفل منا في النار ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ قال الزجاج: ليكونا في الدرك الأسفل من النار. وكان بعض تلامذتي ممن يميل إلى الحكمة يقول: المراد باللذين يضلان الشهوة والغضب، وإليهما الإشارة في قصة الملائكة بقوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] ثم قال: والمراد بقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ يعني يا ربنا أعنا حتى نجعل الشهوة والغضب تحت أقدام جوهر النفس القدسية، والمراد بكونهما تحت أقدامه كونهما مسخرين للنفس القدسية مطيعين لها، وأن لا يكونا مسؤولَين عليها قاهرَين لها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد، أردفه بهذا الوعد الشريف، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه، وقد ذكرنا مرارًا أن الكمالات على ثلاثة أقسام: النفسانية والبدنية والخارجية، وأشرف المراتب النفسانيةُ، وأوسطها البدنية، وأدونها الخارجية، وذكرنا أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين: العلم اليقيني والعمل الصالح، فإن أهل التحقيق قالوا: كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيمًا في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال أيضًا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وإليه الإشارة في هذه الآية بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ وسمعت أن القارئ قرأ في مجلس العبادي هذه الآية، فقال العبادي: والقيامة في القيامة - بقدر الاستقامة.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ ليس المراد منه القول باللسان فقط لأن ذلك لا يفيد الاستقامة، فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة عَلِمنا أن ذلك القول كان مقرونًا باليقين التام والمعرفة الحقيقية، إذا عرفت هذا فنقول: في الاستقامة قولان: أحدهما: أن المراد منه الاستقامة في الدين والتوحيد والمعرفة. الثاني: أن المراد منه الاستقامة في الأعمال الصالحة. أما على القول الأول ففيه عبارات: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (ثم استقاموا) أي لم يتلفتوا إلى إله غيره. قال ابن عباس في بعض الروايات: هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أن أبا بكر رضي الله عنه وقع في أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير ألبتة عن دينه، فكان هو الذي قال: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وبقي مستقيمًا عليه لم يتغير بسبب من الأسباب. وأقول: يمكن فيه وجوه أخرى، وذلك أن من أقر بأن لهذا العالم إلهًا بقيت له مقامات أخرى، فأولها: أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، وأيضًا يجب أن يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين الجبر والقدر، وكذا في الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المستقيم، فهذا هو المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ وأما على القول الثاني - وهو أن نحمل الاستقامة على الإتيان

بالأعمال الصالحة - فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، قالوا: وهذا أَوْلى حتى يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ متناولاً للقول والاعتقاد، ويكون قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ متناولاً للأعمال الصالحة.

ثم قال: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ قيل: عند الموت وقيل: في مواقف ثلاثة: عند الموت وفي القبر وعند البعث إلى القيامة ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ أن بمعنى (أي) أو مخففة من الثقيلة وأصله بأنه لا تخافوا، والهاء ضمير الشأن، واعلم أن الغاية القصوى في رعاية المصالح دفع المضار وجلب المنافع، ومعلوم أن دفع المضرة أَوْلى بالرعاية من جلب المصلحة، والمضرة إما أن تكون حاصلة في المستقبل أو في الحال أو في الماضي، وههنا دقيقة عقلية وهي أن المستقبل مقدم على الحاضر، والحاضر مقدم على الماضي، فإن الشيء الذي لم يوجد ويتوقع حدوثه يكون مستقبلاً، فإذا وُجد يصير حاضرًا، فإذا عدم وفني بعد ذلك يصير ماضيًا، وأيضًا المستقبل في كل ساعة يصير أقرب حصولاً، والماضي في كل حالة أبعد حصولاً؛ ولهذا قال الشاعر:

فَلاَ زَالَ مَا تَهْوَاهُ أَقْرَبَ مِنْ غَدٍ ... وَلاَ زَالَ مَا تَخْشَاهُ أَبْعَدَ مِنْ أَمْسِ[1]

وإذا ثبت هذا فالمضار التي يتوقع حصولها في المستقبل أَوْلى بالدفع من المضار الماضية، وأيضًا الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة في المستقبل، والغم عبارة عن تألم القلب بسبب قوة نفع كان موجودًا في الماضي، وإذا كان كذلك فدفع الخوف أَوْلى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم. إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم في أول الأمر يخبرون بأنه لا خوف عليكم بسبب ما تستقبلونه من أحوال القيامة، ثم يخبرون بأنه لا حزن عليكم بسبب ما فاتكم من أحوال الدنيا، وعند حصول هذين الأمرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية، ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول المنافع وهو قوله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإن قيل: البشارة عبارة عن الخبر الأول بحصول المنافع، فأما إذا أخبر الرجل بحصول منفعة ثم أخبر ثانيًا بحصولها، كان الإخبار الثاني إخبارًا ولا يكون بشارة، والمؤمن قد يسمع بشارات الخير، فإذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخبارًا ولا يكون بشارة، فما السبب في تسمية هذا الخبر بالبشارة؟ قلنا: المؤمن يسمع أن من كان مؤمنًا تقيًا كان له الجنة، أما من لم يسمع ألبتة أنه من أهل الجنة فإذا سمع هذا الكلام من

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر ابن دراج القسطلي، والبيت هكذا:

ولا زالَ مَا تَرْجُوهُ أَقْرَبَ من غَدٍ ... ولا انْفَكَّ مَا تخشاهُ أَبْعَدَ من أَمْسِ

وابن دراج القسطلي هو: أحمد بن محمد بن العاصي بن دراج القسطلي الأندلسي أبو عمر. ٣٤٧-٤٢١ هـ/ ٩٥٨ - ١٠٣٠م. شاعر كاتب من أهل (قسطلّة درّاج) قرية غرب الأندلس، منسوبة إلى جده. كان شاعر المنصور أبي عامر، وكاتب الإنشاء في أيامه. قال الثعالبي: كان بالأندلس كالمتنبي بالشام. وأورد ابن بسام في الذخيرة نماذج من رسائله وفيضًا من شعره.

الملائكة كان هذا إخبارًا بنفع عظيم مع أنه هو الخبر الأول بذلك، فكان ذلك بشارة.

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث لا يكون فازعًا من الأهوال ومن الفزع الشديد، بل يكون آمن القلب ساكن الصدر لأن قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ يفيد نفي الخوف والحزن على الإطلاق.

ثم إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم قالوا للمؤمنين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وهذا في مقابلة ما ذكره في وعيد الكفار حيث قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ [فصلت: ٢٥] ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية بالإلهامات والمكاشفات اليقينية والمقامات الحقيقية، كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوساوس فيها وتخييل الأباطيل إليها، وبالجملة فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات، فهم يقولون: كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا فهي تكون باقية في الآخرة، فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال، بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس، والقطرة بالنسبة إلى البحر، والتعلقات الجسمانية هي التي تَحُول بينها وبين الملائكة، كما قال ﷺ: «لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ»(١) فإذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية، فقد زال الغطاء والوطاء، فيتصل الأثر بالمؤثر، والقطرة بالبحر، والشعلة بالشمس، فهذا هو المراد من قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تتمنون، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] فإن قيل: فعلى هذا التفسير لا يبقى فرق بين قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ وبين قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ قلنا: الأقرب عندي أن قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ إشارة إلى الجنة الجسمانية، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة في قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

ثم قال: ﴿نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ والنُّزُل: رزق النزيل وهو الضيف، وانتصابه على الحال، قال العارفون: دلّت هذه الآية على أن كل هذه الأشياء المذكورة جارية مجرى النزل، والكريم إذا

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ٣٥٣)، حديث رقم (٨٦٢٥)، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (٧/ ٣٣٥)، حديث رقم (٣٦٥٧٤)، كلاهما من طريق علي بن زيد عن أبي الصلت عن أبي هريرة... بنحوه، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ٦٦). وقال: فيه أبو الصلت لا يعرف ولم يرو عنه علي بن زيد، وفي إسناده علي بن يزيد عن جدعان ضعيف وشيخه أبو الصلت. قال ابن حجر: مجهول.

أعطى النُّزُل فلا بد وأن يبعث الخلع النفيسة بعدها، وتلك الخلع النفيسة ليست إلا السعادات الحاصلة عند الرؤية والتجلي والكشف التام، نسأل الله تعالى أن يجعلنا لها أهلاً بفضله وكرمه، إنه قريب مجيب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنا ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدىء حيث قالوا للرسول: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك، ثم ذكروا طريقة أخرى في السفاهة فقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية، والبيانات الكافية في دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات، ثم إنه سبحانه وتعالى بيّن أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة، إلا أنه يجب عليك أن تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة، فإن الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات، وعبّر عن هذا المعنى فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فهذا وجه شريف حسن في نظم آيات هذه السورة. وفيه وجه آخر: وهو أن مراتب السعادات اثنان: التام، وفوق التام، أما التام فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً في ذاته، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو فوق التام.

إذا عرفت هذا فنقول: إن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]إشارة إلى المرتبة الأولى، وهي اكتساب الأحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها، فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الاشتغال بتكميل الناقصين، وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق، وهو المراد من قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهذا أيضًا وجه حسن في نظم هذه الآيات. واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصابًا وافيًا من العلوم الإلهية الكشفية، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن.

المسألة الثانية: من الناس من قال: المراد من قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هو الرسول ﷺ، ومنهم من قال: هم المؤذنون. ولكن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه.

والدعوة إلى الله مراتب:

فالمرتبة الأولى: دعوة الأنبياء عليهم السلام وهي راجحة على دعوة غيرهم من وجوه: أحدها: أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولاً، ثم الدعوة بالسيف ثانيًا، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين. وثانيها: أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء، والشارع في إحداث الأمر الشريف على طريق الابتداء أفضل. وثالثها: أن نفوسهم أقوى قوة، وأرواحهم أصفى جوهرًا، فكانت تأثيراتها في إحياء القلوب الميتة وإشراق الأرواح الكدرة أكمل، فكانت دعوتهم أفضل. ورابعها: أن النفوس على ثلاثة أقسام: ناقصة وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين، فالقسم الأول العوام، والقسم الثاني هم الأولياء، والقسم الثالث هم الأنبياء، ولهذا السبب قال ﷺ: «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ» [١] وإذا عرفت هذا فنقول: إن نفس الأنبياء حصلت لها مزيتان: الكمال في الذات، والتكميل للغير، فكانت قوتهم على الدعوة أقوى، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل، إذا عرفت هذا فنقول: الأنبياء عليهم السلام لهم صفتان: العلم والقدرة، أما العلماء، فهم نواب الأنبياء في العلم، وأما الملوك، فهم نواب الأنبياء في القدرة، والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد، فالعلماء خلفاء الأنبياء في عالم الأرواح، والملوك خلفاء الأنبياء في عالم الأجساد. وإذا عرفت هذا ظهر أن أكمل الدرجات في الدعوة إلى الله بعد الأنبياء درجة العلماء، ثم العلماء على ثلاثة أقسام: العلماء بالله، والعلماء بصفات الله، والعلماء بأحكام الله: أما العلماء بالله، فهم الحكماء الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩] وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الأصول، وأما العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء، ولكل واحد من هذه المقامات ثلاث درجات لا نهاية لها، فلهذا السبب كان للدعوة إلى الله درجات لا نهاية لها، وأما الملوك فهم أيضًا يدعون إلى دين الله بالسيف، وذلك بوجهين: إما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار، وإما بإبقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا: المرتد يُقتل. وأما المؤذنون فهم يدخلون في هذا الباب دخولاً ضعيفًا، أما دخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الأذان دعوة إلى الصلاة، فكان ذلك داخلاً تحت الدعاء إلى الله، وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن أنه لا يحيط بمعاني تلك الكلمات، وبتقدير أن يكون محيطًا بها إلا أنه لا يريد بذكرها تلك المعاني الشريفة، فهذا هو الكلام، في مراتب الدعوة إلى الله.

---

(١) **لا أصل له:** أورده الهروي في (المطبوع) (١/ ١٢٣)، حديث رقم (١٩٦). وقال: لا أصل له كما قال الدميري والزركشي والعسقلاني، وكذلك قاله العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٨٣)، حديث رقم (١٧٤٤).

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ما سواها، إذا عرفت هذا فنقول: كل ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجبًا؛ لأن كل ما لا يكون واجبًا فالواجب أحسن منه، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب، إذا عرفت هذا فنقول: الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمتقضى هذه الآية، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة، ثم نقول: الأذان دعوة إلى الله والدعوة إليه واجبة فينتج أن الأذان واجب، واعلم أن الأكثرين من الفقهاء زعموا أن الأذان غير واجب، وزعموا أن الأذان غير داخل في هذه الآية، والدليل القاطع عليه أن الدعوة المرادة بهذه الآية يجب أن تكون أحسن الأقوال،،وثبت أن الأذان ليس أحسن الأقوال؛ لأن الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى بالدلائل اليقينية أحسن من الأذان، ينتج من الشكل الثاني أن الداخل تحت هذه الآية ليس هو الأذان.

المسألة الرابعة: اختلف الناس في أن الأَوْلى أن يقول الرجل: (أنا مسلم) أو الأولى أن يقول: (أنا مسلم إن شاء الله)، فالقائلون بالقول الأول احتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فإن التقدير: ومَن أحسن قولاً ممن قال: إني من المسلمين، فحَكَم بأن هذا القول أحسن الأقوال، ولو كان قولنا (إن شاء الله) معتبرًا في كونه أحسن الأقوال لبطل ما دل عليه ظاهر هذه الآية.

المسألة الخامسة: الآية تدل على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة: أولها: الدعوة إلى الله. وثانيها: العمل الصالح. وثالثها: أن يكون من المسلمين: أما الدعوة إلى الله فقد شرحناها وهي عبارة عن الدعوة إلى الله بإقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية.

وأما قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فاعلم أن العمل الصالح إما أن يكون عمل القلوب وهو المعرفة، أو عمل الجوارح وهو سائر الطاعات.

وأما قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإقرار باللسان، فيكون هذا الرجل موصوفًا بخصال أربعة: أحدها: الإقرار باللسان، والثاني: الأعمال الصالحة بالجوارح. والثالث: الاعتقاد الحق بالقلب. والرابع: الاشتغال بإقامة الحجة على دين الله، ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربعة أشرف الناس وأفضلهم، وكمال الدرجة في هذه المراتب الأربعة ليس إلا لمحمد ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ وعلم أنا بينا أن الكلام من أول السورة ابتدئ من أن الله حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] فأظهروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أديانهم القديمة وعدم التأثر بدلائل محمد ﷺ، ثم إنه تعالى أطنب في الجواب عنه، وذكر الوجوه الكثيرة، وأردفها بالوعد والوعيد، ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهي قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] وأجاب عنها أيضًا بالوجوه الكثيرة، ثم إنه تعالى بعد الإطناب في الجواب عن تلك الشبهات رغَّب محمدًا ﷺ في أن لا يترك الدعوة

إلى الله، فابتدأ أولاً بأن قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] فلهم الثواب العظيم، ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات، فصار الكلام من أول السورة إلى هذا الموضع واقعًا على أحسن وجوه الترتيب، ثم كأن سائلاً سأل فقال: إن الدعوة إلى الله وإن كانت طاعة عظيمة، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به. فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعًا لهذا الإشكال فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ والمراد بالحسنة دعوة الرسول ﷺ إلى الدين الحق، والصبر على جهالة الكفار، وترك الانتقام، وترك الالتفات إليهم، والمراد بالسيئة ما أظهروه من الجلافة في قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] وما ذكروه في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] فكأنه قال: يا محمد فعلك حسنة وفعلهم سيئة، ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، بمعنى أنك إذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجبًا للتعظيم في الدنيا والثواب في الآخرة، وهم بالضد من ذلك، فلا ينبغي أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعًا لك من الاشتغال بهذه الحسنة.

ثم قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يعني ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذي هو أحسن الطرق، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاش، استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة.

ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ يعني إذا قابلت إساءتهم بالإحسان، وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة، تركوا أفعالهم القبيحة وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضة إلى المودة، ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع في الدين والدنيا والآخرة عظَّمه فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ قال الزجاج: أي وما يلقى هذه الفعلة إلا الذين صبروا على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ، وترك الانتقام.

ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الفضائل النفسانية والدرجة العالية في القوة الروحانية، فإن الاشتغال بالانتقام والدفع لا يحصل إلا بعد تأثر النفس، وتأثر النفس من الواردات الخارجية لا يحصل إلا عند ضعف النفس، فأما إذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية، وإذا لم تتأثر منها لم تضعف ولم تتأذَّ ولم تشتغل بالانتقام، فثبت أن هذه السيرة التي شرحناها لا يُلقاها إلا ذو حظ عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات، ويحتمل أن يكون المراد: وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم من ثواب الآخرة، فعلى هذا الوجه قوله ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ مدح بفعل الصبر، وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وعد بأعظم الحظ من الثواب.

ولما ذكر هذا الطريق الكامل في دفع الغضب والانتقام وفي ترك الخصومة، ذكر عقيبه طريقًا آخر عظيم النفع أيضًا في هذا الباب، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسرة في آخر سورة الأعراف على

الاستقصاء، قال صاحب (الكشاف): النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس، والشيطان ينزغ الإنسان، كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي، وجعل النزغ نازغًا، كما قيل: جَدَّ جَدُّه أو أُريد ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ نازغ وصفًا للشيطان بالمصدر، وبالجملة فالمقصود من الآية وإن صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع بالتي هي أحسن، فاستعذ بالله من شره، وامض على شأنك ولا تطعه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى، أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته، تنبيهًا على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن، وقد عرفت أن الدلائل الدالة على هذه المطالب العالية هي العالم بجميع ما فيه من الأجزاء والأبعاض، فبدأ ههنا بذكر الفلكيات وهي الليل والنهار، وإنما قدم ذكر الليل على ذكر النهار تنبيهًا على أن الظلمة عدم والنور وجود، والعدم سابق على الوجود، فهذا كالتنبيه على حدوث هذه الأشياء، وأما دلالة الشمس والقمر والأفلاك وسائر الكواكب على وجود الصانع، فقد شرحناها في هذا الكتاب مرارًا، لا سيما في تفسير قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وفي تفسير قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

ولما بيّن أن الشمس والقمر محدثان، وهما دليلان على وجود الإله القادر قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ يعني أنهما عبدان دليلان على وجود الإله، والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم فهي لا تليق إلا بمن كان أشرف الموجودات، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنهما عبدان مخلوقان ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ الخالق القادر الحكيم، والضمير في قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر؛ لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث، يقال للأقلام: بريتها وبريتهن. ولما قال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ كن في معنى الإناث فقال: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ وإنما قال: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأن ناسًا كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنُهوا عن هذه الواسطة وأُمروا أن لا

يسجدوا إلا لله الذي خلق الأشياء، فإن قيل: إذا كان لا بد في الصلاة من قبلة معينة، فلو جعلنا الشمس قبلة معينة عند السجود كان ذلك أَوْلى. قلنا: الشمس جوهر مشرق عظيم الرفعة عالي الدرجة، فلو أذن الشرع في جعلها قبلة في الصلوات، فعند اعتياد السجود إلى جانب الشمس ربما غلب على الأوهام أن ذلك السجود للشمس لا لله؛ فلأجل الخوف من هذا المحذور نهى الشارع الحكيم عن جعل الشمس قبلة للسجود، بخلاف الحجر المعين، فإنه ليس فيه ما يوهم الإلهية، فكان المقصود من القبلة حاصلاً والمحذور المذكور زائلاً فكان هذا أَوْلى. واعلم أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن موضع السجود هو قوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ لأجل أن قوله: ﴿وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ متصل به، وعند أبي حنيفة هو قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ﴾ لأن الكلام إنما يتم عنده.

ثم إنه تعالى لما أمر بالسجود قال بعده: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ﴾ **وفيه سؤالات:**

السؤال الأول: إن الذين يسجدون للشمس والقمر يقولون: نحن أقل وأذل من أن يحصل لنا أهلية عبودية الله تعالى، ولكنا عبيد للشمس وهما عبدان لله. وإذا كان قول هؤلاء هكذا، فكيف يليق أن يقال: إنهم استكبروا عن السجود لله؟

والجواب: ليس المراد من لفظ الاستكبار ما ذكرتم، بل المراد: فإن استكبروا عن قبول قولك يا محمد في النهي عن السجود للشمس والقمر.

السؤال الثاني: أن المشبهة تمسكوا بقوله: ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ في إثبات المكان والجهة لله تعالى.

والجواب: أنه يقال: عند الملك من الجند كذا وكذا، ولا يراد به قرب المكان، فكذا ههنا. ويدل عليه قوله: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» [١] «وَأَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ لِأَجْلِي» [٢] ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ويقال عند الشافعي رضي الله عنه: إن المسلم لا يُقتل بالذمي.

السؤال الثالث: هل تدل هذه الآية على أن المَلَك أفضل من البشر؟

الجواب: نعم؛ لأنه إنما يستدل بحال الأعلى على حال الأدون، فيقال: هؤلاء الأقوام إن استكبروا عن طاعة فلان، فالأكابر يخدمونه ويعترفون بتقدمه، فثبت أن هذا النوع من الاستدلال إنما يحسن بحال الأعلى على حال الأدون.

السؤال الرابع: قال ههنا في صفة الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ فهذا يدل على أنهم مواظبون على التسبيح، لا ينفكون عنه لحظة واحدة، واشتغالهم بهذا العمل على سبيل الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال، ككونهم ينزلون إلى الأرض كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾

---

(١)، (٢) تقدما.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١] وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]. الجواب: إن الذين ذكرهم الله تعالى ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معينون من الملائكة وهم الأشراف الأكابر منهم؛ لأنه تعالى وصفهم بكونهم عنده، والمراد من هذه العندية كمال الشرف والمنقبة، وهذا لا ينافي كون طائفة أخرى من الملائكة مشتغلين بسائر الأعمال، فإن قالوا: هب أن الأمر كذلك إلا أنهم لا بد وأن يتنفسوا، فاشتغالهم بذلك التنفس يصدهم عن تلك الحالة من التسبيح. قلنا: كما أن التنفس سبب لصلاح حال الحياة بالنسبة إلى البشر، فذِكر الله تعالى سبب لصلاح حالهم في حياتهم، ولا يجب على العاقل المنصف أن يقيس أحوال الملائكة في صفاء جوهرها وإشراق ذواتها واستغراقها في معارج معارف الله - بأحوال البشر، فإن بين الحالتين بعد المشرقين.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾.

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآيات الأربع الفلكية وهي الليل والنهار والشمس والقمر، أتبعها بذكر آية أرضية فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ والخشوع: التذلل والتصاغر، واستعير هذا اللفظ لحال الأرض حال خلوها عن المطر والنبات ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي تحركت بالنبات، وربت: انتفخت لأن النبت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت، ثم تصدعت عن النبات، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ يعني أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها، وقد ذكرنا تقرير هذا الدليل مرارًا لا حصر لها. ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا هو الدليل الأصلي وتقريره: إن عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضًا أمر ممكن لذاته، والله تعالى قادر على الممكنات، فوجب أن يكون قادرًا على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء، وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه ألبتة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب، ثم بيّن أن الدعوة إلى دين الله تعالى إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة، عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات، ويحاول إلقاء الشبهات فيها، فقال: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يقال: ألحد الحافر ولحد، إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق، فالملحد هو المنحرف، ثم بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق إلى الباطل، وقوله: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ تهديد، كما إذا قال الملك المهيب: (إن الذين ينازعونني في ملكي أعرفهم)، فإنه يكون ذلك تهديدًا.

ثم قال: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ وهذا استفهام بمعنى التقرير، والغرض التنبيه على أن الذين يلحدون في آياتنا يُلقون في النار، والذين يؤمنون بآياتنا يأتون آمنين يوم القيامة.

ثم قال: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهذا أيضًا تهديد ثالث، ونظيره ما يقوله الملك المهيب عند الغضب الشديد إذا أخذ يعاتب بعض عبيده ثم يقول لهم: (اعملوا ما شئتم) فإن هذا مما يدل على الوعيد الشديد.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ وهذا أيضًا تهديد، وفي جوابه وجهان: أحدهما: أنه محذوف كسائر الأجوبة المحذوفة في القرآن، على تقدير: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم، يجازون بكفرهم أو ما أشبه. والثاني: أن جوابه قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ والأول أصوب. ولما بالغ في تهديد الذين يلحدون في آيات القرآن، أتبعه ببيان تعظيم القرآن فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ والعزيز له معنيان: أحدهما: الغالب القاهر والثاني: الذي لا يوجد نظيره، أما كون القرآن عزيزًا بمعنى كونه غالبًا، فالأمر كذلك لأنه بقوة حجته غلب على كل ما سواه، وأما كونه عزيزًا بمعنى عديم النظير، فالأمر كذلك لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته. ثم قال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ وفيه وجوه: الأول: لا تكذبه الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور، ولا يجيء كتاب من بعده يكذبه. الثاني: ما حكم القرآن بكونه حقًّا لا يصير باطلاً، وما حكم بكونه باطلاً لا يصير حقًّا. الثالث: معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه. والدليل عليه قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فعل هذا الباطل هو الزيادة والنقصان. الرابع: يحتمل أن يكون المراد أنه لا يوجد في المستقبل كتاب يمكن جعله معارضًا وله، ولم يوجد فيما تقدم كتاب يصلح جعله معارضًا له. الخامس: قال صاحب (الكشاف): هذا تمثيل، والمقصود أن الباطل لا يتطرق إليه، ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يتصل إليه.

واعلم أن لأبي مسلم الأصفهاني أن يحتج بهذه الآية على أنه لم يوجد النسخ فيه؛ لأن النسخ إبطال، فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلفه، وإنه على خلاف هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ أي حكيم في جميع أحواله وأفعاله، حميد إلى جميع خلقه بسبب كثرة نعمه، ولهذا السبب جعل ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فاتحة كلامه، وأخبر أن خاتمة كلام أهل الجنة هو قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

واعلم أنه تعالى لما هدد الملحدين في آيات الله، ثم بيّن شرف آيات الله وعلو درجة كتاب الله، رجع إلى أمر رسول الله ﷺ بأن يصبر على أذى قومه، وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة من أنهم ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] فقال: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ وفيه وجهان: الأول وهو الأقرب: أن المراد: ما تقول لك كفار قومك إلا مثل ما قد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزّلة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ للمحقين ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للمبطلين، ففوّض هذا الأمر إلى الله واشتغل بما أُمرت به وهو التبليغ والدعوة إلى الله تعالى. الثاني: أن يكون المراد ما قال الله لك إلا مثل ما قال لسائر الرسل، وهو أنه تعالى أمرك وأمر كل الأنبياء بالصبر على سفاهة الأقوام، فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته. وقد ظهر من كلامنا في تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة - هو ذكر الأجوبة عن قولهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة، وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولم يُعْرِض عنه، وامتد الكلام إلى هذا الموضع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل. ثم إنه تعالى ذكر جوابًا آخر عن قولهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] فقال: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: (أأعجمي) بهمزتين على الاستفهام، والباقون بهمزة واحدة ومدة، على أصلهم في أمثاله، كقوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦] ونحوها على الاستفهام، وروي عن ابن عباس بهمزة واحدة، وأما القراءة بهمزتين: فالهمزة الأولى همزة إنكار، والمراد أنكروا وقالوا: قرآن أعجمي ورسول عربي، أو مرسل إليه عربي،

وأما القراءة بغير همزة الاستفهام، فالمراد الإخبار بأن القرآن أعجمي والمرسل إليه عربي.

المسألة الثانية: نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت قالوا: لو نزل القرآن بلغة العجم! فنزلت هذه الآية، وعندي أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن؛ لأنه يقتضي ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض، وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتابًا منتظمًا، فضلاً عن ادعاء كونه معجزًا؟ بل الحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد، على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] وهذا الكلام أيضًا متعلق به وجواب له، والتقدير: أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب، ويصح لهم أن يقولوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي من هذا الكلام ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ منه لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه، أما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب، وبألفاظهم وأنتم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم في أكنة منها، وفي آذانكم وقر منها؟! فظهر أنا إذا جعلنا هذا الكلام جوابًا عن ذلك الكلام، بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم، وأما على الوجه الذي يذكره الناس فهو عجيب جدًّا.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾.

واعلم أن هذا متعلق بقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] إلى آخر الآية، كأنه تعالى يقول: إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم، فلا يمكنكم أن تقولوا: إن قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة. فبقي أن يقال: إن كل من آتاه الله طبعًا مائلاً إلى الحق، وقلبًا مائلاً إلى الصدق، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين، فإن هذا القرآن يكون في حقه هدًى شفاء. أما كونه هدًى فلأنه دليل على الخيرات ويرشد إلى كل السعادات، وأما كونه شفاء فإنه إذا أمكنه الاهتداء فقد حصل الهدى، فذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل، وأما من كان غارقًا في بحر الخذلان، وتائهًا في مفاوز الحرمان، ومشغوفًا بمتابعة الشيطان، كان هذا القرآن في آذانه وقرًا، كما قال: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] وكان القرآن عليهم عمى كما قال: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ بسبب ذلك الحجاب الذي حال بين الانتفاع ببيان القرآن، وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه، صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلامًا واحدًا منتظمًا مسوقًا نحو غرض واحد، فيكون هذا التفسير أَوْلى مما ذكروه، وقرأ الجمهور: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ على المصدر، وقرأ ابن عباس (عَم) على النعت، قال أبو عبيد: والأول هو الوجه، كقوله: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ وكذلك ﴿عَمًى﴾ وهو مصدر مثلها، ولو كان المذكور أنه هادٍ وشافٍ لكان الكسر في ﴿عَمًى﴾ أجود فيكون نعتًا مثلهما. وقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ قال ابن عباس: يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء، وقيل: من دعي من مكان بعيد لم يسمع، وإن سمع لم يفهم، فكذا حال هؤلاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ وأقول أيضًا: إن هذا متعلق بما قبله، كأنه قيل: إنا لما آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه، فقبِله بعضهم وردّه الآخرون، فكذلك آتيناك هذا الكتاب فقبِله بعضهم وهم أصحابك، وردَّه الآخرون، وهم الذين يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني في تأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، كما قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ [القمر: ٤٦] ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ يعني المصدق والمكذب بالعذاب الواقع بمن كذب، وإنهم لفي شك من صدقك وكتابك مريب، فلا ينبغي أن تستعظم استيحاشك من قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥]..

ثم قال: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ يعني خَفِّف على نفسك إعراضهم، فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم، وإن كفروا فضرر كفرهم يعود إليهم، والله سبحانه يوصل إلى كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما هدد الكفار في الآية المتقدمة بقوله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦] ومعناه أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة، وكأن سائلاً قال: ومتى

يكون ذلك اليوم؟ فقال تعالى: إنه لا سبيل للخلق إلى معرفة ذلك اليوم ولا يعلمه إلا الله، فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وهذه الكلمة تفيد الحصر، أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا الله، وكما أن هذا العلم ليس إلا عند الله، فكذلك العلم بحدوث الحوادث المستقبلة في أوقاتها المعينة ليس إلا عند الله سبحانه وتعالى، ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين: أحدهما: قوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ والثاني: قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ قال أبو عبيدة: أكمامها: أوعيتها وهي ما كانت فيه الثمرة، واحدها كم وكمة. قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم (من ثمرات) بالألف على الجمع، والباقون (من ثمرة) بغير ألف على الواحد.

واعلم أن نظير هذه الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤] إلى آخر الآية، فإن قيل: أليس أن المنجمين قد يتعرفون من طالع سَنة العالم أحوالاً كثيرة من أحوال العالم، وكذلك قد يتعرفون من طوالع الناس أشياء من أحوالهم، وههنا شيء آخر يسمى علم الرمل وهو كثير الإصابة، وأيضًا علم التعبير بالاتفاق قد يدل على أحوال المغيبات، فكيف الجمع بين هذه العلوم المشاهدة وبين هذه الآية؟ قلنا: إن أصحاب هذه العلوم لا يمكنهم القطع والجزم في شيء من المطالب ألبتة، وإنما الغاية القصوى ادعاء ظن ضعيف، والمذكور في هذه الآية أن علمها ليس إلا عند الله، والعلم هو الجزم واليقين وبهذا الطريق زالت المنافاة والمعاندة، والله أعلم.

ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشيء من أحوال يوم القيامة، وهذا الذي ذكره ههنا شديد التعلق أيضًا بما وقع الابتداء به في أول السورة، وذلك لأن أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمدًا ﷺ كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة عن الأصنام والأوثان، بدليل أنه قال في أول السورة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت: ٦] فذكر في خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي بحسب زعمكم واعتقادكم ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾ قال ابن عباس: أسمعناك. كقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢] بمعنى سمعت، وقال الكلبي: أعلمناك. وهذا بعيد؛ لأن أهل القيامة يعلمون الله ويعلمون أنه يعلم الأشياء علمًا واجبًا، فالإعلام في حقه محال.

ثم قال: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ وفيه وجوه: الأول: ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكًا، فالمقصود أنهم في ذلك اليوم يتبرءون من إثبات الشريك لله تعالى. الثاني: ما منا من أحد يشاهدهم. لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها في ساعة التوبيخ. الثالث: أن قوله: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ كلام الأصنام فإن الله يحييها، ثم إنها تقول: ما منا من أحد يشهد بصحة ما أضافوا إلينا من الشركة. وعلى هذا التقدير فمعنى أنها لا تنفعهم، فكأنهم ضلوا عنهم.

ثم قال: ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ وهذا ابتداء كلام من الله تعالى يقول: إن الكفار ظنوا أولاً ثم أيقنوا أنه لا محيص لهم عن النار والعذاب. ومنهم من قال: إنهم ظنوا أولاً أنه لا محيص لهم

عن النار ثم أيقنوا ذلك بعده. وهذا بعيد لأن أهل النار يعلمون أن عقابهم دائم.

ولما بيّن الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله في الدنيا، تبرءوا عن تلك الشركاء في الآخرة، بين أن الإنسان في جميع الأوقات متبدل الأحوال متغير المنهج، فإن أحس بخير وقدرة انتفخ وتعظَّم، وإن أحسّ ببلاء ومحنة ذبل، كما قيل في المثل: (إن هذا كالقرلى، إن رأى خيرًا تدلى، وإن رأى شرًّا تولى)، فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ يعني أنه في حال الإقبال ومجيء المرادات لا ينتهي قط إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها، وفي حال الإدبار والحرمان يصير آيسًا قانطًا، فالانتقال من ذلك الرجاء الذي لا آخر له إلى هذا اليأس الكلي يدل على كونه مبتدل الصفة متغير الحال. وفي قوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ مبالغة من وجهين: أحدهما: من طريق بناء فَعول. والثاني: من طريق التكرير، واليأس من صفة القلب، والقنوط أن يظهر آثار اليأس في الوجه والأحوال الظاهرة.

ثم بيّن تعالى أن هذا الذي صار آيسًا قانطًا لو عاودته النعمة والدولة، وهو المراد من قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ فإن هذا الرجل يأتي بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر والبعد عن الله تعالى: فأولها: أنه لا بد وأن يقول: (هذا لي) وفيه وجهان: الأول: معناه أن هذا حقي وصل إليَّ لأني استوجبته بما حصل عندي من أنواع الفضائل وأعمال البر والقربة من الله. ولا يعلم المسكين أن أحدًا لا يستحق على الله شيئًا، وذلك لأنه إن كان ذلك الشخص عاريًا عن الفضائل، فهذا الكلام ظاهر الفساد، وإن كان موصوفًا بشيء من الفضائل والصفات الحميدة، فهي بأسرها إنما حصلت له بفضل الله وإحسانه، وإذ تفضل الله بشيء على بعض عبيده، امتنع أن يصير تفضله عليه بتلك العطية سببًا لأن يستحق على الله شيئًا آخر، فثبت بهذا فساد قوله: (إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاقي) والوجه الثاني: أن هذا لي، أي لا يزول عني ويبقى عليَّ وعلى أولادي وذريتي.

والنوع الثاني من كلماتهم الفاسدة: أن يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ يعني أنه يكون شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة، فإذا آل الأمر إلى أحوال الدنيا يقول: إنها لي. وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

والنوع الثالث من كلماتهم الفاسدة: أن يقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يعني أن الغالب على الظن أن القول بالبعث والقيامة باطل، وبتقدير أن يكون حقًّا فإن لي عنده للحسنى، وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم إلى الثواب من وجوه: الأول: أن كلمة (إنَّ) تفيد التأكيد. الثاني: أن تقديم كلمة (لي) تدل على هذا التأكيد. الثالث: قوله: ﴿عِندَهُۥ﴾ يدل على أن تلك الخيرات حاضرة مهيئة عنده. كما تقول (لي عند فلان كذا من الدنانير)، فإن هذا يفيد كونها حاضرة عنده، فلو قلت (إن لي عند فلان كذا من الدنانير) لا يفيد ذلك. والرابع: اللام في

قوله: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ تفيد التأكيد. الخامس: للحسنى يفيد الكمال في الحسنى.

ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة قال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي نُظهر لهم أن الأمر على ضد ما اعتقدوه وعلى عكس ما تصوروه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ في مقابلة قولهم ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

ولما حكى الله تعالى أقوال الذي أنعم عليه بعد وقوعه في الآفات، حكى أفعاله أيضًا فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي ذهب بنفسه وتكبَّر وتعظَّم، ثم إن مسه الضر والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع، وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفات الأجرام، ويستعار له الطول أيضًا، كما استعير الغلظ لشدة العذاب.

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبَيَّن أن المشركين يرجعون عن القول بالشرك في يوم القيامة، ويُظهرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم، وبَيَّن أن الإنسان جُبل على التبدل، فإن وجد لنفسه قوة بالغ في التكبر والتعظم، وإن أحسّ بالفتور والضعف بالغ في إظهار الذلة والمسكنة، ذكر عقيبه كلامًا آخر يوجب على هؤلاء الكفار أن لا يبالغوا في إظهار النفرة من قبول التوحيد، وأن لا يفرطوا في إظهار العداوة مع الرسول ﷺ فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ وتقرير هذا الكلام أنكم كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه، وما تأملتم فيه، وبالغتم في النفرة عنه حتى قلتم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] ثم من المعلوم بالضرورة أنه ليس العلم بكون القرآن باطلاً علمًا بديهيًّا، وليس العلم بفساد القول بالتوحيد والنبوة علمًا بديهيًّا، فقبل الدليل يحتمل أن يكون صحيحًا وأن يكون فاسدًا فبتقدير أن يكون صحيحًا كان إصراركم على دفعه من أعظم موجبات العقاب، فهذا الطريق يوجب عليكم أن تتركوا هذه الثغرة، وأن ترجعوا إلى النظرة والاستدلال، فإن دل الدليل على صحته قبلتموه، وإن دل على فساده تركتموه، فأما قبل الدليل فالإصرار على الدفع والإعراض بعيد عن العقل، وقوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ موضوع موضع (منكم) بيانًا لحالهم وصفاتهم. ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة في تقرير التوحيد والنبوة، وأجاب عن شبهات المشركين وتمويهات الضالين، قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ قال الواحدي: واحد الآفاق أفق وهو الناحية من نواحي الأرض، وكذلك آفاق السماء: ونواحيها وأطرافها.

وفي تفسير قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قولان: الأول: أن المراد بآيات الآفاق: الآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار وآيات الأضواء والإضلال والظلمات، وآيات عالم العناصر الأربعة وآيات المواليد الثلاثة، وقد أكثر الله منها في القرآن، وقوله: ﴿وَفِىٓ

أَنفُسِهِمْ ﴾ المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكَوُّن الأجنة في ظلمات الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة، كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١] يعني نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم، ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزّه عن المثل والضد، فإن قيل: هذا الوجه ضعيف لأن قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يقتضي أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك، والآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك، فثبت أنه تعَذَّر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه. قلنا: إن القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء إلا أن العجائب التي أودعها الله تعالى في هذه الأشياء مما لا نهاية لها، فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زمانًا فزمانًا، ومثاله كل أحد رأى بعينه بنية الإنسان وشاهدها، إلا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يعرفونها، والذي وقف على شيء منها فكلما ازداد وقوفًا على تلك العجائب والغرائب فصَحَّ بهذا الطريق قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

والقول الثاني: أن المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة، وبآيات أنفسهم فتح مكة. والقائلون بهذا القول رجّحوه على القول الأول لأجل أن قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يليق بهذا الوجه ولا يليق بالأول. إلا أنا أجبنا عنه بأن قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ لائق بالوجه الأول كما قررناه، فإن قيل: حمل الآية على هذا الوجه بعيد لأن أقصى ما في الباب أن محمدًا ﷺ استولى على بعض البلاد المحيطة بمكة، ثم استولى على مكة، إلا أن الاستيلاء على بعض البلاد لا يدل على كون المستولي محقًّا، فإنا نرى أن الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الإسلام وعلى ملوكهم، وذلك لا يدل على كونهم محقين؛ ولهذا السبب قلنا: إن حمل الآية على الوجه الأول أَوْلى، ثم نقول: إن أردنا تصحيح هذا الوجه، قلنا: إنا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد ﷺ على تلك البلاد على كونه محقًّا في ادعاء النبوة، بل نستدل به من حيث إنه ﷺ أخبر عن مكة أنه يستولي عليها ويقهر أهلها ويصير أصحابه قاهرين للأعداء، فهذا إخبار عن الغيب وقد وقع مخبره مطابقًا لخبره، فيكون هذا إخبارًا صدقًا عن الغيب، والإخبار عن الغيب معجزة، فبهذا الطريق يُستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقًّا.

ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل ﴿يَكْفِ﴾ و﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، وتقديره: أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد، ومعنى كونه تعالى شهيدًا على الأشياء أنه خلق الدلائل عليها، وقد اسقضينا ذلك في تفسير قوله: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾[الأنعام: ١٩] والمعنى: ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة وفي كل سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة؟!

ثم ختم السورة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي إن القوم في شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة، وقرئ (في مُرية) بالضم.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم، ويجازي كل أحد على فعله بحسب ما يليق به إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. فإن قيل: قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ يقتضي أن تكون علومه متناهية. قلنا: قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ يقتضي أن يكون علمه محيطًا بكل شيء من الأشياء، فهذا يقتضي كون كل واحد منها متناهيًا، لا كون مجموعها متناهيًا، والله أعلم بالصواب.

تم تفسير هذه السورة وقت ظهر الرابع من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة، والحمدلله رب العالمين، وصلاته على خاتم النبيين محمد وآله وصحبه وسلم.

سورة فصلت مكية في قول الجميع(١)

وهي أربعٌ وخمسون(٢)، وقيل: ثلاثٌ وخمسون آية(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الزجاج(٤): «تَنْزِيلٌ» رفع بالابتداء وخبره ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وهذا قولُ البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون رَفْعُه على إضمار هذا. ويجوز أن يقال: «كِتَابٌ» بدل من قوله: «تَنْزِيلٌ»(٥). وقيل: نَعْتٌ لقوله: «تَنْزِيلٌ». وقيل: «حم» أي: هذه «حم» كما تقول: باب كذا، أي: هو باب كذا فـ«حم» خبر ابتداء مُضمر، أي: هو «حم»، وقوله: «تَنْزِيلٌ» مبتدأ آخر، وقوله: «كِتَابٌ» خبره.

«فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» أي: بُيِّنَت وفُسِّرت. قال قتادة: ببيان حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته. الحسن: بالوعد والوعيد. سفيان: بالثواب والعقاب(٦).

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣، وزاد المسير ٧/ ٢٤٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٠٧.

(٣) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٥.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٤٧، وقول الفراء الذي بعده منه.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٤١.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٧.

وقُرئ: «فَصَلَتْ» أي: فرَّقت بين الحقّ والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك: فصل، أي: تباعدَ من البلد[١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾. في نصبه وجوه؛ قال الأخفش[٢]: هو نَصْبٌ على المدح. وقيل: على إضمار فعل؛ أي: اذكر «قُرْآنًا عَرَبِيًّا». وقيل: على إعادة الفعل؛ أي: فصَّلنا «قُرْآناً عَرَبِيًّا». وقيل: على الحال، أي: «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» في حال كونه «قُرْآناً عَرَبِيًّا». وقيل: لما شُغل التفصيل[٣] بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل، انتصب «قُرآناً» لوقوع البيان عليه. وقيل: على القطع[٤].

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال الضحاك: أي: إن القرآن مُنزَل من عند الله. وقال مجاهد: أي: يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وقيل: يعلمون العربية فيعجِزون عن مثله[٥]، ولو كان غيرَ عربيّ لما علموه.

قلت: هذا أصحّ، والسورةُ نزلت تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان من الآيات، والعامل فيه «فُصِّلَتْ»[٦]. وقيل: هما نعتان للقرآن[٧] «بَشِيرًا» لأولياء الله «نذيرًا» لأعدائه. وقرئ: «بَشِيرٌ ونذيرٌ»[٨] صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف[٩]. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً ينتفعون به.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤١ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٨٠ .

(٣) في (م): فصلت.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٧ بنحوه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٣٩ .

(٧) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٥٠٦ .

(٨) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٨٣ لزيد بن علي.

(٩) الكشاف ٣/ ٤٤١ .

ورُوي أن الزَّيَّال[١] بن حرملة قال: [قال جابر بن عبد الله][٢]: قال الملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمرُ محمد، فلو التمستُم رجلاً عالماً بالشِّعر والكهانة والسِّحر فكلَّمه ثم أتانا ببيانٍ من أمره؛ فقال عتبةُ بن ربيعة: والله، لقد سمعتُ الكهانةَ والشِّعر والسِّحر، وعلمتُ من ذلك علماً لا يخفى عليَّ إن كان كذلك. فقالوا: إيته فحدِّثه. فأتى النبيَّ ﷺ فقال له: يا محمد، أنت خيرٌ أَمْ قصيّ بن كلاب؟ أنت خيرٌ أَمْ هاشم؟ أنت خيرٌ أَمْ عبد المطلب؟ أنت خيرٌ أم عبد الله؟ فبم تَشْتِمُ آلهتنا، وتُضَلِّل آباءنا، وتُسفِّه أحلامَنا، وتذمُّ ديننا؟ فإنْ كنتَ إنما تُريد الرِّياسة عَقَدْنا إليك ألويتنا، فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنتَ تُريد الباءة زوَّجناك عشرَ نساء من أيِّ بنات قريش شئت، وإنْ كنتَ تُريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وَعقِبك من بعدك، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا من الجن قد غلب عليك بَذَلْنا لك أموالَنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك، والنبيُّ ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: «قد فَرَغْتَ يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: اسمع[٣]: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فوثَبَ عتبةُ ووضع يدَه على فم النبيِّ ﷺ، وناشدَه اللهَ والرَّحِمَ لَيَسْكُتَنَّ، ورَجَعَ إلى أهله ولم يَخرجْ إلى قريش فجاءه أبو جهل؛ فقال: أصبوتَ إلى محمد؟ أَمْ أعجبكَ طعامُه؟ فغضب عُتبة وأقسم ألا يُكلِّم محمداً أبداً، ثم قال: والله، لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالاً، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء ـ والله ـ ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وأمسكتُ بفيه وناشدتُه بالرَّحِم أن يَكُفَّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فوالله، لقد خفت أن ينزلَ بكم العذاب؛ يعني الصاعقة[٤].

---

(١) في النسخ: الريان، وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٢) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج.

(٣) عبارة (م): «قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. فقال: «يا ابن أخي اسمع» قال: أسمعُ، قال...

(٤) أخرجه بنحوه عبد بن حميد في مسنده (١١٢٣)، والبغوي في تفسيره ٤/ ١١٠. وفي إسناده الأجلح =

وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب «الردّ» له عن محمد بن كعب القرظي، وأن النبي ﷺ قرأ «حم. فُصِّلَتْ» حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعُتبة مُصْغٍ يستمع، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره. فلما قطع رسولُ الله ﷺ القراءة قال له: «يا أبا الوليد، قد سمعتَ الذي قرأتُ عليك، فأنت وذاك» فانصرف عتبةُ إلى قريش في ناديها فقالوا: والله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضى به من عندكم. ثم[(١)] قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله، لقد سمعتُ كلاماً من محمد ما سمعتُ مثلَه قط، والله، ما هو بالشِّعر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة. فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي؛ خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونن لِمَا سَمعتُ من كلامه نبأٌ، فإنْ أصابته العربُ كُفِيتُموه بأيدي غيركم، وإن كان مَلِكاً أو نبيًّا كنتم أسعدَ الناس به؛ لأن مُلْكَه مُلْكُكُم وَشَرَفَهُ شرفُكم. فقالوا: هيهات، سحرك محمدٌ يا أبا الوليد. وقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما شئتم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ الأَكِنَّة جمع كنان، وهو الغطاء. وقد مضَى في «البقرة»[(٣)]. قال مجاهد: الكنان للقلب كالجَعْبة[(٤)] للنبل. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَم؛ فكلامُك لا يدخل أسماعَنا، وقلوبنا مستورةٌ عن فهمه. ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: خلاف في الدين، لأنهم يعبدون الأصنامَ وهو يعبدُ اللهَ عزّ وجلّ. قال معناه الفراء[(٥)] وغيره. وقيل: سِتْرٌ مانعٌ عن الإجابة. وقيل: إنَّ أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال: يا محمد، بيننا وبينك حجاب؛ استهزاء منه. حكاه النقاش[(٦)]، وذكره القشيري. فالحجابُ هنا الثوب.

= ابن عبد الله الكندي. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٦٢ : وقد ضُعِّف بعض الشيء.

(١) قوله: ثم، من (م).

(٢) وأخرجه عن محمد بن كعب القرظي ابنُ إسحاق كما في السيرة النبوية ١/ ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٣) ٢/ ٢٤٦ .

(٤) في النسخ: كالجنة، والمثبت من تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٩ ، وتفسير الطبري ٢٠/ ٣٧٧ ، والنكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: اعمل في هلاكِنا فإنا عاملون في هلاكك؛ قاله الكلبي. وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها. وقيل: اعمل بما يقتضيه دينُك، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا. ويحتمل خامسًا(١): فاعمل لآخرتك، فإنا نعمل لدنيانا؛ ذكره الماوردي(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي: لست بمَلَك، بل أنا من بني آدم. قال الحسن: علَّمه الله تعالى التواضع(٣). ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: من السماء على أيدي الملائكة ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ﴿فـ﴾ آمِنوا به و﴿اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: وجِّهوا وجوهكم بالدُّعاء له والمسألة إليه، كما يقول الرجل: استقم إلى منزلك؛ أي: لا تعرج على شيء غير القَصْد إلى منزلك. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ أي: من شِرْككم.

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ . ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وهي زكاةُ الأنفس. وقال قتادة: لا يُقِرُّون بالزكاة أنها واجبة(٤). وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدَّقون ولا يُنفقون في الطاعة(٥). قرَّعهم بالشُّح الذي يَأنَفُ منه الفُضَلاء. وفيه دلالةٌ على أن الكافر يُعذَّب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه(٦).

وقال الفراء(٧) وغيره: كان المشركون يُنفقون النَّفقات، ويَسقون الحجيج ويُطعمونهم، فحرَّموا ذلك على مَنْ آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية.

---

(١) كذا في النسخ: خامسًا، لكن المصنف رحمه الله لم يذكر إلا أربعةَ أقوال.
(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤ .
(٤) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٧٩ .
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥ .
(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .
(٧) في معاني القرآن ٣/ ١٢ .

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ فلهذا لا يُنفقون في الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون. الزمخشري[١]: فإنْ قلتَ: لم خصَّ من بين أوصاف المشركين منعَ الزكاة مقروناً بالكُفر بالآخرة؟ قلت: لأنَّ أحبَّ شيءٍ إلى الإنسان مالُه، وهو شقيقُ روحه، فإذا بَذَله في سبيل الله فذلك أقوى دليلٍ على ثَباته، ألا ترى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: يُثبِّتون أنفسهم، ويدلون على ثَباتها بإنفاق الأموال، وما خُدع المؤلفة قلوبهم إلا بِلُمظة[٢] من الدنيا، فقويت عُصْبتُهم ولانت شَكيمتهم؛ وأهل الرِّدة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فَنُصِبتْ لهم الحروب وجُوهدوا. وفيه بعثٌ للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويفٌ شديدٌ من مَنْعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقُرِن بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ قال ابن عباس: غير مقطوع؛ مأخوذٌ من: مننتُ الحبل إذا قطعتَه؛ ومنه قول ذي الإصبع:

إنِّي لَعَمْرُكَ ما بابي بِذِي غَلَقٍ ... على الصَّدِيق ولا خَيْرِي بممنونِ[٣]

وقال آخر:

فَتَرى خَلْفَها مِنَ الرَّجْعِ والوَقْـ ... ـعِ مَنِيناً كأنَّهُ أَهْبَاءُ[٤]

يعني بالمَنِين الغبار المنقطع الضعيف. وعن ابن عباس أيضًا ومقاتل: غير منقوص[٥]. ومنه المَنُون؛ لأنها تنقص مُنَّة الإنسانِ، أي: قوَّته؛ وقاله قطرب[٦]؛

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤٣.

(٢) اللُّمظة: النُّكتة من البياض. اللسان (لمظ) والمراد هنا: الشيء اليسير.

(٣) البيت في المفضليات ص ١٦٠. والكلام من النكت والعيون ٥/ ١٦٩، وفيه: ابن عيسى، بدل: ابن عباس.

(٤) قائله الحارث بن حِلِّزة اليشكري، والبيت من معلَّقته. ينظر شرح القصائد المشهورات للنحاس ص٥٧.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٨١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦٩.

وأنشد قول زهير:

فَضْلَ الجِيادِ على الخيل البِطاءِ فلا يُعْطي بذلك مَمْنُونًا ولا نَزِقا[١]

قال الجوهري[٢]: والمَنُّ القطع، ويقال: النَّقْص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وقال لَبيد:

غُبْسٌ كَوَاسِبُ لا يُمَنُّ طَعامُها[٣]

وقال مجاهد: «غيرُ مَمْنُونٍ» غير محسوب. وقيل: «غيرُ مَمْنُون» عليهم به. قال السدي: نزلت في الزَّمْنى والمَرْضى والهَرْمى إذا ضَعُفُوا عن الطاعة كُتب لهم من الأجر كأصحِّ ما كانوا يعملون فيه[٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ «أئِنَّكُمْ» بهمزتين؛ الثانية بَيْن بَيْن، و«أائِنَّكُمْ» بألف بين همزتين[٥]، وهو استفهام معناه التوبيخ. أمره

(١) شرح ديوان زهير ص٤٩ .

(٢) في الصحاح (منن).

(٣) شرح ديوان لبيد ص ٣٠٨. وصدره: لمعفَّرٍ قَهْد تنازع شِلْوَهُ. قال شارحه: الغُبس: الذئاب أو الكلاب ذات اللون الأغبر. كواسب: تتعيَّش من الصيد. لا يُمَنّ طعامها: لا أحد يُطعمها فَيَمنَّ عليها.

(٤) تفسير البغوي ٤/١٠٨ .

(٥) قرأ نافع ـ في رواية قالون ـ وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع إدخال ألف بينهما. وقرأ نافع ـ في رواية ورش ـ وابن كثير بالتسهيل من غير إدخال ألف. والباقون بتحقيق الهمزتين من غير إدخال ألف. السبعة ص ١٣٧ ، والتيسير ص ٣٢ .

بتوبيخهم والتعجب من فِعْلهم، أي: لِمَ تكفُرون بالله وهو خالق السماوات والأرض؟! «فِي يَوْمَيْنِ» الأحد والاثنين[١].

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ أي: أضداداً وشُركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ يعني الجبال. وقال وهب: لما خلقَ اللهُ الأرضَ مادَتْ على وجه الماء؛ فقال لجبريل: ثبِّتها يا جبريل. فنزل فأَمْسكها فغلبته الرياح، قال: يا رب، أنت أعلمُ، لقد غُلِبتُ فيها، فَثَبَّتها بالجبال وأرساها.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع. قال السدي: أنبت فيها شجرها. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابَّها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك: معنى «قَدَّرَ فيها أقْواتَها» أي: أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأُخرى لِيعيش بعضُهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد[٢]. قال عكرمة: حتى إنه في بعض البلاد لَيتبايعون الذهبَ بالمِلح مِثلاً بمثل. وقال مجاهد والضحاك: السابريّ من سابور، والطيالسة من الرّي، والحِبَرُ اليمانية من اليمن[٣].

﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني في تتمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجتُ من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسةَ عشرَ يوماً؛ أي: في تتمة خمسةَ عشر يوماً[٤]. قال معناه ابن الأنباري وغيره.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قال الحسن: المعنى: في أربعة أيام مستوية تامَّة. الفراء[٥]: في

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٧٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧١ .

(٥) معاني القرآن ٣/ ١٢ - ١٣ .

الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: وقدَّر فيها أقواتَها سواء للمحتاجين. واختاره الطبري[١].

وقرأ الحسن البصري ويعقوبُ الحَضْرمي: «سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ» بالجر. وعن ابن القَعْقاع: «سَواءٌ» بالرفع[٢]؛ فالنصب على المصدر، و«سَوَاءً» بمعنى استواء، أي: استوت استواء. وقيل: على الحال والقطع؛ والجرّ على النَّعت لأيام أو لأربعة، أي: «في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» مستوية تامَّة. والرفع على الابتداء والخبر «لِلسَّائِلِينَ» أو على تقدير هذه «سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ»[٣].

وقال أهل المعاني: معنى «سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ»: ولغير السائلين؛ أي: خلق الأرضَ وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويُعطي مَنْ سأل ومَنْ لا يسأل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: عَمَدَ إلى خَلْقها وقَصَدَ لِتسويتها[٤]. والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٩] وقد مضى القولُ هناك[٥]. وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: صَعِدَ أمرُه إلى السماء[٦]؛ وقاله الحسن[٧]. ومَن قال: إنه صفةٌ ذاتية زائدةٌ قال: استوى في

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٩٠.

(٢) قراءة يعقوب ويزيد بن القعقاع (من العشرة) في النشر ٢/ ٣٦٦. وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٦ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٠٩.

(٥) ١/ ٣٨٠ وما بعدها.

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٧٢) من طريق محمد بن مروان ـ وهو السدي الصغير ـ عن الكلبي عن أبي صالح به. وهؤلاء كلهم متروكون عند أهل العلم بالحديث، لا يحتجون بشيء من رواياتهم لكثرة المناكير فيها. ذكره البيهقي. وينظر تقريب التهذيب.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٢.

الأزل بصفاته. و«ثُمَّ» ترجع إلى نقل السماء من صفة الدُّخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدُّخان من تنفُّس الماء حين تنفس؛ على ما مضَى في «البقرة» عن ابن مسعود وغيره[١].

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: جيئا بما خلقتُ فيكما من المنافع والمصالح، وأخْرِجاها لِخَلْقي. قال ابن عباس: قال اللهُ تعالى للسماء: أَطلِعِي شَمْسَك وقمرك وكواكبك، وأجري رياحَك وسحابَك، وقال للأرض: شُقِّي أنهارَك وأخرجي شجرَك وثمارَكِ طائعتين أوكارهتين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٢]. وفي الكلام حذف، أي: أتينا أمرَكَ «طَائِعِينَ». وقيل: معنى هذا الأمر التسخير؛ أي: كُونا فكانتا كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فعلى هذا قال ذلك قبلَ خَلْقهما. وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما. وهو قول الجمهور.

وفي قوله تعالى لهما وجهان: أحدهما: أنه قولٌ تكلَّم به. الثاني: أنها قُدرةٌ منه ظهرتْ لهما، فقام مَقامَ الكلام في بلوغ المُراد؛ ذكره الماوردي[٣].

«قالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» فيه أيضاً وجهان: أحدُهما أنه ظُهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا، فقام مقامَ قولِهما، ومنه قول الراجز:

امتلأ الحَوْضُ وقال قَطْني   مَهْلًا رُوَيدًا قد مَلَأت بَطْني[٤]

يعني ظهرَ ذلك فيه. وقال أكثرُ أهل العلم: بل خلقَ اللهُ فيهما الكلام فتكلَّمتا كما أراد تعالى؛ قال أبو نَصْر السَّكْسكي: فنطقَ من الأرض موضعُ الكعبة، ونطقَ من السماء ما بحيَالها؛ فوضع الله تعالى فيه حَرَمه[٥].

---

(١) ١/ ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٩١.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ١٧٢. وما بعده منه.

(٤) سلف ٢/ ٢٥٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٧٣.

وقال: «طَائِعِينَ» ولم يقل: طائعتين على اللفظ، ولا طائعات على المعنى؛ لأنهما سماواتٌ وأَرَضُون؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما. وقيل: لما وَصَفَهُنَّ بالقول والإجابة وذلك مِن صفات مَن يعقل أجراهما في الكناية مُجرى مَن يعقِل[1]، ومثله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقد تقدَّم. وفي حديث: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا ربّ، لو أن السماواتِ والأرضَ حين قلت لهما: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ عَصَيَاكَ، ما كنتَ صانعاً بهما؟ قال: كنتُ آمرُ دابَّةً من دوابِّي فتبتلعهما. قال: يا ربّ، وأين تلك الدابَّة؟ قال: في مَرْج من مُرُوجي. قال: يا رب، وأين ذلك المَرْج؟ قال: عِلْم من علمي. ذكره الثعلبي[2].

وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة: «آتِيا» بالمَدّ والفتح. وكذلك قوله تعالى: «آتَيْنَا طَائِعِينَ»[3] على معنى: أَعْطِيَا[4] الطاعةَ من أنفسكما، «قالتا»: أَعْطَيْنَا «طَائِعِينَ» فحذف المفعولين جميعاً. ويجوز ـ وهو أحسنُ ـ أن يكون «آتَيْنَا» فاعَلْنا، فَحُذِفَ مفعولٌ واحد. ومَن قرأ: «أَتَيْنَا» فالمعنى: جئنا بما فينا؛ على ما تقدَّم بيانُه في غير ما موضع، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: أكملهنَّ وفرغَ منهنَّ. وقيل: أَحكمهنَّ كما قال:

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهما داودُ أو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ[5]

﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ سوى الأربعة الأيام التي خلقَ فيها الأرض، فوقع خلقُ السماوات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] على ما تقدَّم في «الأعراف» بيانُه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥١، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٩ بنحوه.

(٢) هذا الخبر من الإسرائيليات.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٤٥، وينظر الدر المصون ٩/ ٥١١.

(٤) في النسخ الخطية: أعطينا، والمثبت من (م).

(٥) قائله أبو ذؤيب الهذلي، وسلف ٢/ ٣٣٦. وقوله: مسرودتان، أي: درعان. والصَّنَع: الحاذق بالعمل. شرح ديوان الهذليين ص ١٩.

قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدُّون[١]. وعن عبد الله بن سَلَام قال: خلق اللهُ الأرضَ في يومين، وقدَّر فيها أقواتَها في يومين، وخلق السماوات في يومين؛ خلق الأرضَ في يوم الأحد والاثنين، وقدَّر فيها أقواتَها يومَ الثلاثاء ويومَ الأربعاء، وخلقَ السماواتِ في يوم الخميس ويوم الجمعة، وآخرُ ساعة في يوم الجمعة خلقَ اللهُ آدمَ في عَجَل، وهي التي تقوم فيها الساعة، وما خلق الله من دابَّة إلا وهي تفزعُ من يوم الجمعة إلا الإنس والجن[٢]. على هذا أهل التفسير؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال: أخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق اللهُ التربةَ يومَ السبت» الحديث، وقد تكلَّمنا على إسناده في أول سورة «الأنعام»[٣].

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ قال قتادة والسدي: خلق فيها شَمْسَها وقمرها ونجومَها وأفلاكَها، وخلق في كل سماء خَلْقها من الملائكة والخَلْق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد والثلوج[٤]. وهو قول ابن عباس[٥]؛ قال: ولله في كل سماء بيت تحجُّ إليه وتطوفُ به الملائكة بحذاء الكعبة، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور[٦]. وقيل: أوحى الله في كل سماء؛ أي: أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها[٧]. والإيحاء قد يكون أمراً؛ لقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١] أي: أمرتهم، وهو أمرُ تكوين.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٤٦٤ دون قوله: وما خلق الله من دابة إلا وهي تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن. وهذا قطعة من حديث أبي هريرة ؓ. أخرجه أحمد (٧٦٨٧).

(٣) ٨/ ٣١٤ وما بعدها، وينظر تخريج الحديث ثمة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٣ ، وتفسير الرازي ٢٧/ ١٠٧ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٠٩ .

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٠٧ عن السدي.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٠٩ بنحوه.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بكواكب تُضيء. وقيل: إنَّ في كل سماء كواكبَ تُضيء. وقيل: بل الكواكبُ مختصةٌ بالسماء الدنيا. ﴿وَحِفۡظٗا﴾ أي: وحَفِظْناها حِفْظًا؛ أي: من الشياطين الذين يسترقون السمع. وهذا الحِفْظ بالكواكب التي تُرجم بها الشياطين على ما تقدَّم في «الحجر» بيانه[1].

وظاهر هذه الآية يدلُّ على أن الأرضَ خُلقت قبل السماء. وقال في آية أخرى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] ثم قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وهذا يدلُّ على خلق السماء أوّلاً. وقال قوم: خُلقت الأرضُ قبل السماء؛ فأما قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فالدَّحْوُ غيرُ الخَلْق، فالله خَلَقَ الأرضَ، ثم خلق السماوات، ثم دحا الأرضَ، أي: مدَّها وبَسَطها؛ قاله ابن عباس. وقد مضَى هذا المعنى مجوَّداً في «البقرة»[2]، والحمد لله. ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ يعني ـ كفار قريش ـ عمَّا تَدْعوهم إليه يا محمد من الإيمان. ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ أي: خوَّفتُكم هلاكاً مثلَ هلاك عاد وثمود. ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني: مَنْ أُرسل إليهم وإلى مَن قَبْلهم ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ موضع «أنْ» نصب بإسقاط الخافض، أي: بـ «ألَّا

---

(١) ١٢/ ١٨٧ وما بعدها.

(٢) ١/ ٣٨٣ . وما بعدها.

تَعْبُدُوا». ﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بدلَ الرُّسل[١]، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ من الإنذار والتبشير. قيل: هذا استهزاءٌ منهم. وقيل: إقرارٌ منهم بإرسالهم، ثم بعدَه جُحود وعناد.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على عبادِ الله هود ومَن آمن معه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهدَّدهم بالعذاب، وقالوا: نحن نقدر على دَفْعِ العذاب عن أنفسنا بفضل قوَّتنا. وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخَلْق عظيم[٢]. وقد مضى في «الأعراف»[٣] عن ابن عباس: أن أطولَهم كان مئةَ ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعاً. فقال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقُدرة، وإنما يقدرُ العبدُ بإقدار الله؛ فالله أقدرُ إذًا. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بمعجزاتنا يكفرون.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذا تفسيرُ الصاعقة التي أرسلها عليهم، أي: ريحاً باردةً شديدةَ البرد وشديدةَ الصوت والهُبوب. ويقال: أصلُها صَرَّرَ من الصَّر فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل؛ كقولهم: كُبكِبُوا، أصله: كُبِّبوا، وتَجَفْجَفَ الثوبُ أصله تجفَّف[٤]. أبو عُبيدة[٥]: معنى صَرْصَر: شديدة عاصفة. عكرمة وسعيد بن جُبير: شديدة البرد. وأنشد قُطْرُب قول الحطيئة:

المُطْعِمون إذا هَبَّتْ بصَرْصَرةٍ والحامِلون إذا اسْتُودُوا على النَّاسِ

استودوا: إذا سُئلوا الدِّيَة. مجاهد: الشديدة السموم[٦]. وروى معمر عن قتادة

---

(١) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٩.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١١.

(٣) ٩/ ٢٦٤.

(٤) الصحاح (صرر).

(٥) مجاز القرآن ٢/ ١٩٦.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٧٤، والكلام السالف منه، ولم نقف على البيت في ديوان الحطيئة المطبوع.

قال: باردة[١]. وقاله عطاء؛ لأن «صَرْصَراً» مأخوذ من صرّ، والصِّرُّ في كلام العرب البرد، كما قال:

لها عُذَرٌ كقُرون النِّسا ءِ رُكِّبْنَ في يومِ ريح وصِرّ[٢]

وقال السدي: الشديدة الصَّوت[٣]. ومنه صَرّ القلمُ، والبابُ يَصِرّ صريراً، أي: صَوَّت. ويقال: درهم صَرِّيٌّ وصِرِّيٌّ للذي له صوت إذا نُقِد[٤]. قال ابن السِّكّيت[٥]: صَرْصَر يجوز أن يكون من الصِّر، وهو البرد، ويجوز أن يكون من صرير الباب، ومن الصَّرة، وهي الصيحة. ومنه ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]. وصَرْصَر اسم نهر العراق[٦].

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: مشؤومات؛ قاله مجاهد وقتادة. كُنَّ آخرَ شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء، وذلك ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] قال ابن عباس: ما عُذِّب قومٌ إلا في يوم الأربعاء. وقيل: «نَحِسَاتٍ» باردات؛ حكاه النقاش. وقيل: متتابعات؛ عن ابن عباس وعطية. الضحاك: شِداد. وقيل: ذات غُبار؛ حكاه ابن عيسى. ومنه قول الراجز:

قدِ اغْتَدى قبلَ طُلوعِ الشَّمس للصَّيْدِ في يومٍ قَليلِ النَّحْسِ[٧]

قال الضحاك وغيره: أمسك اللهُ عنهم المطر ثلاثَ سنين، ودرَّت الرياحُ عليهم من غير مطر[٨]، وخرج منهم قومٌ إلى مكة يستسقون بها للعباد، وكان الناسُ في ذلك

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٣٩٨.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٥٥، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٥. والعُذَر: شعرات من القفا إلى وسط العنق. اللسان (عذر).

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٧٤.

(٤) الصحاح (صرر).

(٥) ذكره عنه الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/١٠٧.

(٦) ذكره ابن منظور في اللسان (صرر).

(٧) الرجز والأقوال التي قبله كلها من النكت والعيون ٥/ ١٧٤ - ١٧٥ ما عدا قول الضحاك، فقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١١١.

الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جَهْدٌ طلبوا إلى الله تعالى الفَرَجَ منه، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة؛ مُسلمهم وكافرهم، فيجتمع بمكة ناسٌ كثير شتى، مختلفةٌ أديانهم، وكلُّهم مُعَظِّم لمكة، عارفٌ حُرمتها ومكانها من الله تعالى.

وقال جابر بن عبد الله والتَّيمي: إذا أراد اللهُ بقوم خيراً أرسلَ عليهم المطرَ وحبس عنهم كَثْرة الرياح، وإذا أراد اللهُ بقوم شرًّا حبس عنهم المطر وسلَّط عليهم كَثْرة الرياح[١]. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «نَحْسَاتٍ» بإسكان الحاء على أنه جمع نَحْس الذي هو مصدر وصف به. الباقون: «نَحِسَاتٍ» بكسر الحاء[٢]، أي: ذوات نحس. ومما يدلُّ على أن النَّحْس مصدر قوله: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر: ١٩] ولو كان صفةً لم يُضف اليوم إليه؛ وبهذا كان يحتجُّ أبو عمرو على قراءته[٣]؛ واختاره أبو حاتم. واختار أبو عُبيد القراءةَ الثانيةَ وقال: لا تصحُّ حُجَّةُ أبي عمرو؛ لأنه أضاف اليومَ إلى النحس فأسكن، وإنما كان يكون حُجَّةً لو نوّن اليوم ونعت وأسكن؛ فقال: في يَوْمٍ نَحْسٍ، وهذا لم يقرأْ به أحدٌ نعلمه. وقال المهدوي: ولم يُسمَعْ في «نَحْسٍ» إلا الإسكان.

قال الجوهري[٤]: وقُرئ في قوله: «في يَوْمِ نَحْسٍ» على الصفة، والإضافة أكثرُ وأجودُ. وقد نَحِسَ الشيء ـ بالكسر ـ فهو نَحِسٌ أيضًا؛ قال الشاعر:

أَبْلِغْ جُذاماً ولَخْماً أنّ إخوتهم ... طَيًّا وبَهْرَاءَ قومٌ نصرُهم نَحِسُ[٥]

ومنه قيل: أيام نَحِسَات. ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ﴾ أي: لكي نُذيقهم ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ بالريح العقيم. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ أي: أعظمُ وأشدُّ ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٩ .

(٢) السبعة ص ٥٧٦ ، والتيسير ص ١٩٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٩ بنحوه.

(٤) في الصحاح (نحس).

(٥) لم نقف عليه في غير الصحاح.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٧ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بيَّنا لهم الهُدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره[١]. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وغيرهما: «وَأَمَّا ثَمُودَ» بالنصب[٢]، وقد مضى الكلامُ فيه في «الأعراف»[٣]. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان. وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان. السدي: اختاروا المعصية على الطاعة[٤].

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ «الهُونِ» بالضم الهوان. وهون بن خُزَيْمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر أخو كنانة وأسد. وأهانه: استخفَّ به. والاسمُ الهَوان والمهانة[٥]. وأُضيف الصاعقة إلى العذاب، لأن الصاعقةَ اسمٌ للمبيد المُهلك، فكأنه قال: مُهلك العذاب؛ أي: العذاب المُهلك. والهُون وإن كان مصدراً فمعناه الإهانة، والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفاً للآخر؛ فكأنه قال: صاعقة الهون. وهو كقولك: عندي علمُ اليقين، وعندي العلم اليقين. ويجوز أن يكون الهُون اسماً مثل الدُّون؛ يقال: عذابٌ هون، أي: مُهين؛ كما قال: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]. وقيل: أي: صاعقةُ العذاب ذي الهُون. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقةَ، على ما تقدّم[٦].

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني صالحاً ومَن آمن به؛ أي: ميَّزناهم عن الكفار، فلم يحلَّ بهم ما حلَّ بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكُفَّارهم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١١ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٣ .

(٣) ٩/ ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٥ .

(٥) الصحاح (هون).

(٦) ١١/ ١٥٢ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قرأ نافع: «نَحْشُرُ» بالنون، «أَعْدَاءَ» بالنصب. الباقون: «يُحْشَرُ» بياء مضمومة «أَعْدَاءُ» بالرفع[(١)]، ومعناهما بَيِّن. وأعداء الله: الذين كذَّبوا رُسُلَه وخالفوا أَمْرَه. «فَهُمْ يُوزَعُونَ» يُساقون ويُدفعون إلى جهنم. قال قتادة والسدي: يُحبس أوَّلُهم على آخرهم حتى يجتمعوا[(٢)]؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدةُ بُدئ بالأكابر فالأكابر جُرماً[(٣)]. وقد مضى في «النمل» الكلامُ في «يُوزَعُونَ» مستوفًى[(٤)].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ «مَا» زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الجلود يعني بها الجلود بأعيانها في قول أكثر المفسرين. وقال السدي وعُبيد الله بن أبي جعفر[(٥)] والفراء: أراد بالجلود الفروج[(٦)]؛ وأنشد بعض الأدباء لعامر بن جُؤَيّة:

المرءُ يسعى لِلسلا ... مةِ والسلامةُ حسبه
أَوَ سالمٌ من قد تَثَـ ... ـنَّى جلدُه وابيضَّ رأسه[(٧)]

وقال: جلده كناية عن فرجه. ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني الكفار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وإنما كنا نُجادل عنكم ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لما خَاطَبتْ وخُوطِبَتْ

---

(١) السبعة ص ٥٧٦ ، والتيسير ص ١٩٣ .
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٢ . وقول قتادة والسدي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٤٠٥ .
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٥٧ .
(٤) ١٦/ ١١٧ وما بعدها .
(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٠٦ .
(٦) معاني القرآن ٣/ ١٦ .
(٧) لم نقف عليهما.

أُجريتْ مُجرى من يعقل. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ركَّب الحياة فيكم بعد أن كنتم نُطفاً، فمن قدر عليه قدر على أن يُنطق الجُلودَ وغيرَها من الأعضاء. وقيل: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ابتداءُ كلامٍ من الله.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي «صحيح» مسلم: عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فَضَحِكَ فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك؟» قلنا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «مِن مُخاطبةِ العبدِ ربَّه، يقول: يا رب، ألم تُجرني من الظُّلم، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: يقول: كفى بِنفسِكَ اليوم عليك شهيداً، وبالكرامِ الكاتبين شُهوداً، قال: فَيُخْتَم على فيه فيقال لأركانه: انطِقي، فَتَنْطِقُ بأعماله قال: ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ»(١).

وفي حديث أبي هريرة: ثم يقال: «الآن نبعثُ شاهِدَنا عليك، ويتفكَّر في نَفْسه؛ مَنْ ذا الذي يشهدُ فَيُخْتَم على فيه، ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه]: انطِقي، فَتنطِقُ فَخْذُه ولحمه وعظامُه بعمله، وذلك لِيُعْذِر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي سَخِط الله عليه» خرجه أيضاً مسلم(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۝٢٤ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ يجوز أن يكون هذا من

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٩).
(٢) الحديث (٢٩٦٨)، وما بين حاصرتين منه.

قول الجوارح لهم، ويجوز أن يكونَ من قول الله عز وجل أو الملائكة[(١)].

وفي «صحيح» مسلم: عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثةُ نفر؛ قُرَشيان وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفِيَّان وقرشيٌّ؛ قليلٌ فِقْهُ قلوبهم، كثيرٌ شحمُ بطونهم، فقال أحدهم: أترون اللهَ يسمعُ ما نقول؟ فقال الآخر: يسمعُ إنْ جَهَرْنا، ولا يسمعُ إنْ أَخْفينا؛ وقال الآخر: إنْ كان يسمع إذا جَهَرْنا فهو يسمع إذا أَخْفَيْنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ الآية[(٢)].

خرجه الترمذي فقال: اختصم عند البيت ثلاثةُ نفرٍ. ثم ذكره بلفظه حرفاً حرفاً وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح؛ حدّثنا هَنّاد قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عُمَير، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: كنتُ مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفرٍ كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فِقهُ قلوبهم، قرشيّ وخَتَناه ثَقَفيان، أو ثَقفيّ وخَتَناه قرشيان، فتكلَّموا بكلام لم أفْهَمه؛ فقال أحدُهم: أترون أن الله يسمع كلامَنا هذا، فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتَنا سَمِعَه، وإذا لم نرفع أصواتَنا لم يَسْمعه، فقال الآخر: إنْ سمع منه شيئاً سمعه كلَّه، فقال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح[(٣)].

قال الثعلبي: والثقفيّ عبدُ ياليل، وخَتَناه ربيعة وصفوان بن أمية[(٤)].

ومعنى «تَسْتَتِرُونَ»: تَستخفون، في قول أكثر العلماء؛ أي: ما كنتم تَستخفون من أنفسكم حَذَراً من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسانَ لا يُمكنه أن يُخفي من نَفْسِهِ عَمَلَه، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية. وقيل: الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٧٧٥)، وأخرجه أحمد (٣٦١٤).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٤٨) و(٣٢٤٩).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١١ .

ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحُكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة. وقال معناه مجاهد. وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي: تظنون ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾[1] بأن يقول: سمعت الحقَّ وما وعيت، وسمعت ما لا يجوز من المعاصي، ﴿وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾ فتقول: رأيت آياتِ الله وما اعتبرت، ونظرت فيما لا يجوز «ولا جُلُودُكُمْ» تقدَّم.

﴿وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم، فجادَلتُم على ذلك حتى شَهِدتْ عليكم جوارحُكم بأعمالكم.

روى بَهْز بن حَكيم، عن أبيه، عن جدِّه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدْعَون يومَ القيامة مُفَدَّمة أفواهُكم بِفدام، فأول ما يُبين عن الإنسان فَخِذُه وكفُّه»[2] قال عبد الله بن عبد الأعلى الشامي[3] فأحسن:

العمرُ يَنْقُصُ والذُّنوب تَزيدُ ... وتُقالُ عَثراتُ الفتى فيعودُ
هل يستطِيعُ جُحُود ذَنبٍ واحِدٍ ... رجلٌ جوارِحُه عليهِ شُهودُ
والمرءُ يسأل عن سِنيهِ فيشتهي ... تقليلَها وعنِ المماتِ يحِيدُ

وعن مَعْقِل بن يسار عن النبيِّ ﷺ قال: «ليس مِن يومٍ يأتي على ابن آدمَ إلا يُنادى فيه: يا ابنَ آدمَ، أنا خلقٌ جديد، وأنا فيما تعملُ غداً عليك شهيد، فاعملْ فيَّ خيرًا أشهدْ لك به غدًا، فإني لو قد مضيتُ لم ترنِي أبداً، ويقول الليلُ مثلَ ذلك» ذكره أبو

(١) هذه الأقوال بنحوها في تفسير الطبري ٢٠/٤٠٩ - ٤١٠، والنكت والعيون ٥/١٧٦.

(٢) أخرجه بنحوه ومطولاً أحمد (٢٠٠٤٣). والفِدام: ما يُشدّ على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي: إنهم يُمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم. النهاية (فدم).

(٣) كذا في النسخ، وفي أدب الدنيا والدين ص ٨٩ - والأبيات التالية منه - وفي شرحه ص ١٦٦: عبد الأعلى بن عبد الله. وفي سير أعلام النبلاء ١٠/٢٢٨: عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى، الإمام، توفي سنة (٢١٨هـ).

نُعيم الحافظ[١]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٢] في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال. وقال محمد بن بشير[٣] فأحسن:

مَضَى أمسُك الأدنى شَهيداً معدَّلًا ... ويـومُـك هـذا بِـالـفِـعـال شـهـيـدُ
فـإنْ تـكُ بِـالأمـسِ اقـتـرفـت إسـاءةً ... فـثَـنِّ بِـإحـسـانٍ وأنـتَ حـمـيـدُ
ولا تُرْجِ فِعلَ الخير مِنك إلى غدٍ ... لـعـلَّ غـدًا يـأتِـي وأنـت فَـقِـيـدُ

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: أهلككم فأوردكم النار. قال قتادة: الظنّ هنا بمعنى العِلْم. وقال النبي ﷺ: «لا يَمُوتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ بالله، فإن قوماً أساءوا الظنَّ بربِّهم فأهلكهم، فذلك قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾»[٤].

وقال الحسن البصري: إنَّ قوماً ألْهتهم الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا وما لهم من حسنة، ويقول أحدُهم: إني أُحسِنُ الظنَّ بربِّي، وكذب، ولو أحسنَ الظنَّ لأحسنَ العمل، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) في حلية الأولياء ٢/ ٣٠٣ . وفي إسناده زيد بن الحواري العَمِّي، وهو ضعيف كما في تقريب التهذيب. قال أبو نعيم: حديث معاوية [يعني ابن قرة] تفرد به عنه زيد، ولا أعلمه رُوي مرفوعاً عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد.

(٢) ص ٢٨٨ .

(٣) لعله محمد بن بشير بن عبد الله بن عقيل أبو سليمان، من بني خارجة، ومن شعراء الدولة الأموية. الأغاني ١٦/ ١٠٢ . ووقع في (ق): يسير، ولعله محمد بن يَسير الرِّياسي، من شعراء أهل البصرة وأدبائهم. الأغاني ١٤/ ١٧ .

(٤) قوله منه: «لا يموتن أحدُكم إلا وهو يُحسن الظن بالله» صحيح، أخرجه أحمد (١٤٤٨١)، ومسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه بتمامه أحمد (١٥١٩٧)، وفي إسناده النضر بن إسماعيل ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهما ضعيفان كما في التقريب.

وقال قتادة: من استطاع منكم أن يموتَ وهو حسنُ الظنِّ بربِّه فليفعل، فإن الظنَّ اثنان: ظنٌّ يُنْجِي وظنٌّ يُردي[١].

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: هؤلاء قومٌ كانوا يُدمِنون المعاصي ولا يتوبون منها، ويتكلَّمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليسَ، ثم قرأ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: فإنْ يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوًى لهم. نظيره: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] على ما تقدَّم.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ في الدنيا وهم مُقيمون على كُفرهم ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

وقيل: المعنى: «فَإِنْ يَصْبِرُوا» في النار أو يَجْزَعوا «فَالنَّارُ مُثْوًى لهم» أي: لا مَحيصَ لهم عنها، ودلَّ على الجَزَعِ قولُه: «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا»؛ لأن الْمُسْتَعْتِبَ جَزِعٌ، والمُعتب المقبول عتابُه؛ قال النابغة:

فإنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَه وإنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلكَ يُعْتِبُ[٢]

أي: مثلك من قَبِل الصُّلح والمراجعة إذا سُئِل. قال الخليل: العِتاب مُخاطبة الإدلال ومُذاكرة المَوْجِدة. تقول: عاتبته مُعاتبة، وبينهم أُعْتوبة يتعاتبون بها. يقال: إذا تعاتبوا أصلحَ ما بينهم العِتاب. وأعتبني فلان: إذا عاد إلى مَسَرَّتي راجعاً عن الإساءة، والاسم منه العُتْبى، وهو رجوعُ المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب. واستعتبَ وأَعتب بمعنى، واستعتبَ أيضاً طلب أن يُعْتَب؛ تقول: استعتبته فأعتبني، أي: استرضيتُه فأرضاني[٣].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ٤١٤ .

(٢) ديوان النابغة ص ١٨ .

(٣) الصحاح (عتب).

فمعنى «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا» أي: طلبوا الرِّضا لم ينفعهم ذلك، بل لا بدَّ لهم من النار. وفي التفاسير: وإن يستقيلوا ربَّهم فما هم من المُقالين[١].

وقرأ عُبيد بن عُمير وأبو العالية: «وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا» بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول «فما هم مِنَ المُعْتَبِينَ» بكسر التاء[٢]، أي: إن أقالهم الله وردَّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لِما سبق لهم في علم الله تعالى من الشقاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] ذكره الهروي[٣]. وقال ثعلب: يقال: أَعتب إذا غَضِبَ، وأَعتب إذا رَضِي[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ قال النقَّاش: أي: هيَّأنا لهم شياطين[٥]. وقيل: سلَّطنا عليهم قُرناء يُزيِّنون عندهم المعاصي، وهؤلاء القُرناء من الجنّ والشياطين ومن الإنس أيضاً؛ أي: سبَّبْنا لهم قُرناء؛ يقال: قَيَّض الله فلاناً لفلان، أي: جاءه به وأَتاحه له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾. القشيري: ويقال: قيّض الله لي رزقاً، أي: أتاحه كما كنتُ أطلبُه، والتقييض الإبدال، ومنه المُقايضة، قايضتُ الرجل مُقايضةً، أي: عاوضتُه بمتاع، وهما قيِّضان، كما تقول: بيِّعان.

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا، فحسَّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ حسَّنوا لهم ما بعد مَماتهم وَدَعَوْهم إلى التكذيب بأمور الآخرة؛ عن مجاهد. وقيل: المعنى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ في النار ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾ أعمالَهم في الدنيا؛ والمعنى: قدَّرنا عليهم أن ذلك سيكون، وحَكَمنا به عليهم. وقيل: المعنى:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٧٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والمحتسب ٢/ ٢٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢ ، والدر المصون ٩/ ٥٢٢ وعند جميعهم: عمرو بن عبيد، بدل: عبيد بن عمير.

(٣) تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٧ .

(٥) المصدر السابق.

أحوجناهم إلى الأقران؛ أي: أحوجنا الفقيرَ إلى الغني لِينالَ منه، والغنيَّ إلى الفقير، لِيستعينَ به، فزيَّن بعضُهم لبعض المعاصي[١]. وليس قوله: «وما خَلْفَهُمْ» عطفاً على «ما بين أَيْدِيهِم» بل المعنى: وأنْسَوهم ما خلفَهم، ففيه هذا الإضمار.

قال ابن عباس: «ما بين أيديهم» تكذيبُهم بأمور الآخرة «وما خَلْفَهُمْ» التسويف والترغيب في الدنيا[٢]. الزجاج[٣]: «ما بين أيديهم» ما عملوه «وما خلفهم» ما عَزَموا على أن يعملوه. وقد تقدَّم قولُ مجاهد.

وقيل: المعنى: لهم مثلُ ما تقدَّم من المعاصي «وما خلفهم» ما يعمل بعدَهم. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأُمم الذين من قبلهم الذين كفروا كَكُفرهم. وقيل: «في» بمعنى مع؛ فالمعنى هم داخلون مع الأُمم الكافرةِ قبلَهم فيما دخلوا فيه[٤]. وقيل: «في أُمَمٍ» في جُملة أُمَمٍ، ومثلُه قولُ الشاعر:

إنْ تَكُ عن أحسنِ الصَّنيعةِ مَأْ فُوكاً ففي آخَرينَ قد أُفِكوا[٥]

يُريد: فأنت في جُملة آخرين لست في ذلك بأوحد. ومحل «في أُمَم» النصب على الحال من الضمير في «عليهم» أي: حقَّ عليهم القولُ كائنين في جملة أُمم[٦]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أعمالَهم في الدنيا وأنفسَهم وأهليهم يومَ القيامة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) معاني القرآن ٤/ ٣٨٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/٥٨ بنحوه.

(٥) قائله عروة بن أذينة، وهو في إصلاح المنطق ص ٢٧ ، وفيه: المروَّة، بدل: الصنيعة. قال ابن السِّكيت: الأَفْك: مصدر أَفَكَهُ عن الشيء يَأْفِكُه، إذا صرفه عنه وقلبه.

(٦) تفسير الرازي ٢٧/ ١١٩ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ لمَّا أخبر تعالى عن كُفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مُشركي قريش وأنهم كذَّبوا القرآن فقالوا: «لا تَسْمَعُوا». وقيل: معنى «لا تَسْمَعُوا» لا تُطيعوا[1]؛ يقال: سمعتُ لك أي: أطعتُك. «والغَوْا فيهِ» قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمدٌ فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول. وقيل: إنهم فعلوا ذلك لمَّا أعجزهم القرآن[2]. وقال مجاهد: المعنى: «والغَوْا فيهِ» بالمُكَاء والتَّصفيق والتخليط في المَنْطِق حتى يصير لَغْوًا[3]. وقال الضحاك أكثِروا الكلامَ لِيختلطَ عليه ما يقول[4]. وقال أبو العالية وابن عباس أيضاً: قِعُوا فيه وعَيِّبوه[5]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمداً على قراءته فلا تظهر ولا تستميل[6] القلوب.

وقرأ عيسى بن عمر والجَحْدري وابن أبي إسحاق وأبو حَيْوةَ وبكر بن حبيب السَّهمي: «والغُوا» بضم الغين[7]، وهي لغةٌ مِن لغا يلغو. وقراءة الجماعة من لَغِيَ يَلْغَى.

---

(١) النكت والعيون ٥/١٧٨ .
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/٥٩ .
(٣) أخرجه الطبري ٢٠/٤١٨ .
(٤) تفسير البغوي ٤/١١٣ .
(٥) النكت والعيون ٥/١٧٨ .
(٦) في (د) و(ز) و(م): فلا يظهر ولا يستميل. والمثبت من (ظ).
(٧) القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والمحتسب ٢/٢٤٦ .

قال الهروي: وقوله: «والْغَوْا فيهِ» قيل: عارِضوه بكلام لا يفهم. يقال: لَغَوْت أَلْغو وأَلْغَى، ولَغِيَ يَلْغَى، ثلاث لُغات. وقد مضَى معنى اللَّغو في «البقرة»[١] وهو ما لا يُعلَم له حقيقةٌ ولا تحصيل.

قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قد تقدَّم أن الذَّوق يكون محسوساً، ومعنى العذاب الشديد: ما يتوالى فلا ينقطع. وقيل: هو العذابُ في جميع أجزائهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: وَلنجزينَّهم في الآخرة جزاءَ قُبْحِ أعمالهم التي عَمِلُوها في الدنيا. وأسوأُ الأعمال الشِّرك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ أي: ذلك العذابُ الشديد، ثم بيَّنه بقوله: «النَّارُ». وقرأ ابن عباس: «ذلكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ»[٢] فترجم بالدار عن النار وهو مَجاز الآية. و«ذلك» ابتداء و«جَزَاءُ» الخبر، و«النَّارُ» بدل من «جَزَاءُ»، أو خبر مبتدأ مضمر، والجملة في موضع بيانٍ للجملة الأُولى[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: في النار، فذكره بلفظ الماضي، والمراد المستقبل ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه؛ عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما[٤]؛ ويشهد لهذا القول الحديثُ المرفوع: «ما مِن مسلم يُقتَلُ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفْل من ذَنْبه؛ لأنه أوّلُ من سنَّ القَتْل» ويروى: «أسنَّ القتل»[٥]. خرَّجه الترمذي[٦].

---

(١) ٤/١٧.

(٢) ذكرها الطبري ٢٠/٤١٩ عن ابن مسعود ﷺ.

(٣) المحرر الوجيز ٥/١٣.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/٢٦٥ وأخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٠ - ٤٢١ عن علي ﷺ وقتادة. قال الآلوسي في تفسيره ٢٤/ ١٢٠ : وتُعقِّب بأنه لا يصحّ عن علي كرم الله وجهه، فإن قابيل مؤمن عاصٍ، والظاهر أن الكفار إنما طلبوا إراءة المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود، وكونهم رئيس الكفرة ورئيس أهل الكبائر خلاف الظاهر. اهـ.

(٥) قوله: ويروى: «أسنَّ القتل» من (ظ) و(ق).

(٦) في سننه (٢٦٧٣). وأخرجه أحمد (٣٦٣٠)، والبخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود ﷺ وعندهم: نفس، بدل: مسلم. ودمها، بدل: ذنبه.

وقيل: هو بمعنى الجنس[١]، وبُني على التثنية لاختلاف الجنسين.

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في النار وهو الدَّرك الأسفل. سألوا أن يُضعِّف اللهُ عذابَ مَنْ كان سببَ ضلالتهم من الجن والإنس.

وقرأ ابن مُحيصن والسوسي عن أبي عمرو وابن عامر وأبو بكر والمُفضَّل: «أَرْنَا» بإسكان الراء[٢]، وعن أبي عمرو[٣] أيضاً باختلاسها. وأشبع الباقون كسرتها، وقد تقدّم في «الأعراف»[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ قال عطاء عن ابن عباس: نزلَتْ هذه الآيةُ في أبي بكر الصدّيق ﷺ؛ وذلك أن المشركين قالوا: ربُّنا اللهُ والملائكةُ بناتُه، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ فلم يستقيموا. وقال أبو بكر: ربُّنا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ومحمدٌ ﷺ عبدُه ورسوله؛ فاستقام[٥].

وفي الترمذي: عن أنس بن مالك أن رسولَ الله ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ قال: «قد قال الناسُ، ثم كَفَرَ أكثرُهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام» قال: حديثٌ غريب، ويُروى في هذه الآية عن النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٤ .

(٢) وقرأ بها ابن كثير من السبعة. السبعة ص ٥٧٦ ، والتيسير ص ١٩٣ .

(٣) في رواية الدوري.

(٤) كذا في النسخ: الأعراف، وصوابه في البقرة ٢/ ٣٩٨ .

(٥) أسباب النزول للواحدي ص ٣٩٤ .

وعثمان وعليّ معنى ﴿ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾(١).

ففي «صحيح» مسلم: عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَك ـ وفي رواية ـ غيرَك. قال: «قل: آمنتُ بالله ثم استَقِمْ»(٢) زاد الترمذي: قلت: يا رسولَ الله، ما أخوفُ ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نَفْسِه وقال: «هذا»(٣).

وروي عن أبي بكر الصدّيق ﷺ أنه قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ لم يُشركوا بالله شيئاً. وروى عنه الأسودُ بن هلال أنه قال لأصحابه: ما تقولون في هاتين الآيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] فقالوا: استقاموا فلم يُذنبوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بخطيئة؛ فقال أبو بكر: لقد حملتموها على غير المَحْمل ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ فلم يلتفتوا إلى إلهٍ غيره ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم﴾ بشرك ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾(٤) [الأنعام: ٨٢].

ورُوي عن عمر ﷺ أنه قال على المنبر وهو يخطب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ فقال: استقاموا ـ والله ـ على الطريقة لِطاعته ثم لم يَروغُوا رَوَغان الثعالب(٥).

وقال عثمان ﷺ: ثم أخلصوا العملَ لله. وقال عليّ ﷺ: ثم أدُّوا الفرائض. وأقوال التابعين بمعناها. قال ابن زيد وقتادة: استقاموا على الطاعة لله. الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا. وقال سفيان الثوري: عَمِلُوا على

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٥٠) وليس في مطبوعه ذِكْر عثمان وعلي رضي الله عنهما، وسيذكر المصنف أقوالهم قريباً.

(٢) صحيح مسلم (٣٨)، وأخرجه أحمد (١٥٤١٦).

(٣) سنن الترمذي (٢٤١٠)، وأخرجه أحمد (١٥٤١٩).

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٣ بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٥ .

وِفاق ما قالوا. وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفُضيل بن عِياض: زَهِدوا في الفانية ورَغِبوا في الباقية. وقيل: استقاموا إسراراً كما استقاموا إقراراً. وقيل: استقاموا فِعْلاً كما استقاموا قولاً[١].

وقال أنس: لما نزلتْ هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «هم أمتي وربِّ الكعبة»[٢]. وقال الإمام ابن فُورَك: السين سين الطلب، مثل: استسقى، أي: سألوا من الله أن يُثبِّتهم على الدين. وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآيةَ قال: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامة[٣].

قلت: وهذه الأقوالُ وإن تداخلَتْ فتلخيصُها: اعتدَلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال ابن زيد ومجاهد: عند الموت. وقال مقاتل وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال ابن عباس: هي بُشرى تكون لهم من الملائكة في الآخرة. وقال وكيع وابن زيد: البُشرى في ثلاثةِ مواطنَ عند الموت وفي القبر وعند البعث[٤].

﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ أي: بألَّا تَخافُوا، فحذف الجار. وقال مجاهد: لا تخافوا الموت ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على أولادكم[٥]، فإنَّ اللهَ خليفتُكم عليهم. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ردَّ ثوابكم فإنه مقبولٌ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغْفِرُها لكم. وقال عكرمة: لا تخافوا أمامَكم، ولا تحزنوا على ذُنوبكم ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٦].

---

(١) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٤ - ٤٢٥ ، والنكت والعيون ٥/ ١٧٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٤ - ١٥ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤ .

(٤) الأقوال السالفة في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٥ - ٤٢٧ ، والنكت والعيون ٥/ ١٨٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٠ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١١٤ بنحوه .

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: تقول لهم الملائكةُ الذين تتنزلُ عليهم بالبِشارة: «نحن أَوْلِيَاؤُكُمْ» قال مجاهد: أي: نحن قُرناؤكم الذين كنَّا معكم في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قالوا: لا نُفارقكم حتى نُدخِلَكم الجنة. وقال السدي: أي: نحن الحَفَظَةُ لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة[١]. ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى، والله وليُّ المؤمنين ومولاهم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: من المَلاذِّ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تسألون وتتمنَّون. ﴿نُزُلًا﴾ أي: رِزْقاً وضيافةً. وقد تقدَّم في «آل عمران»[٢] وهو منصوبٌ على المصدر، أي: أنزلناه نُزُلاً. وقيل: على الحال[٣]. وقيل: هو جمع نازل، أي: لكم ما تدَّعون نازلين، فيكون حالاً من الضمير المرفوع في «تَدَّعُونَ» أو من المجرور في «لكم».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هذا توبيخٌ للذين تواصَوْا باللَّغو في القرآن. والمعنى: أيُّ كلام أحسنُ من القرآن، ومن أحسنُ قولاً من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. قال ابن سيرين والسُّدي وابن زيد والحسن: هو رسولُ الله ﷺ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٨، وأورده البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤.

(٢) ٥/ ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٠ عن السدي وابن زيد، وذكره عن ابن سيرين البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤.

وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسولُ الله، هذا حبيبُ الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوةُ الله، هذا خِيرة الله، هذا ـ والله ـ أحبُّ أهل الأرض إلى الله؛ أجاب اللهَ في دعوته، ودعا الناسَ إلى ما أجاب إليه[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد: نزلت في المُؤَذّنين[٢]. قال فُضيل بن رُفيدة: كنتُ مُؤَذِّناً لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لي عاصم بن هُبيرة: إذا أذَّنتَ فقلت: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، فقل: وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية[٣].

قال ابن العربي[٤]: الأول أصحُّ؛ لأن الآيةَ مكيَّةٌ والأذان مدني؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى؛ لا أنه كان المقصودَ وقتَ القول، ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال في النبيّ ﷺ وقد خَنَقَهُ الملعون[٥]: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨] وتتضمَّن كلَّ كلام حَسَنٍ فيه ذِكْرُ التوحيد والإيمان.

قلت: وقولٌ ثالثٌ، وهو أحسنُها؛ قال الحسن: هذه الآيةُ عامةٌ في كل مَنْ دعا إلى الله. وكذا قال قيس بن أبي حازم قال: نزلت في كل مؤمن. قال: ومعنى «وَعَمِلَ صَالِحًا» الصلاة بين الأذان والإقامة. وقاله أبو أمامة؛ قال: صلَّى ركعتين بين الأذان والإقامة. وقال عكرمة: «وعَمِلَ صَالِحًا» صلَّى وصام. وقال الكلبي: أدَّى الفرائض[٦].

قلت: وهذا أحسنُها مع اجتناب المحارم وكَثْرةِ المندوب. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٩.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٠ عن قيس بن أبي حازم، وذكره عن عائشة رضي الله عنها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦١، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠.

(٥) يعني عقبة بن أبي مُعَيط، وسلفت قصته ١٥/ ٣٠٨.

(٦) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥ - ١٦ وتفسير البغوي ٤/ ١١٤.

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال ابن العربي[١]: وما تقدَّم يدلُّ على الإسلام، لكن لمَّا كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة، وكان العملُ يكون للرِّياء والإخلاص، دلَّ على أنه لا بدَّ من التصريح بالاعتقاد لله في ذلك كلِّه، وأن العملَ لوجهه.

مسألة: لما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل له: اشترط إنْ شاء الله، كان في ذلك ردٌّ على من يقول: أنا مسلم إنْ شاء الله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ قال الفراء: «لا» صلة، أي: ولا تَسْتَوِي الحسنةُ والسيئةُ[٣]، وأنشد:

ما كان يَرْضَى رسولُ الله فِعْلَهُمُ والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ[٤]

أراد: أبو بكر وعمر؛ أي: لا يستوي ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشِّرك. قال ابن عباس: الحسنةُ لا إله إلا الله، والسيئة الشِّرك. وقيل: الحسنةُ الطاعة، والسيئة الشِّرك. وهو الأولُ بعينه. وقيل: الحسنة المُداراة، والسيئة الغِلْظة. وقيل: الحسنة العفو، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك: الحسنة العلم[٥]، والسيئة الفحش. وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: الحسنةُ حبُّ آل الرسول، والسيئة بُغْضُهم.

قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ نُسِخَتْ بآية السيف[٦]، وبقي المُسْتَحبُّ من ذلك: حسنُ العشرة والاحتمال والإغضاء. قال ابن عباس: أي: ادفع بحلمك جَهْلَ

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١١٥.

(٤) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ١٥٩، وفيه: دينهم، بدل: فعلهم.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ١٨٢ (والكلام منه): الحلم، وكذا في زاد المسير ٧/ ٢٥٨.

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٥٨.

من يجهلُ عليك[١]. وعنه أيضاً: هو الرجل يَسُبُّ الرجلَ فيقول الآخر: إن كنتَ صادقاً فغفر الله لي، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك. وكذلك يُروى في الأثر: إن أبا بكر الصديق ﷺ قال ذلك لرجل نالَ منه[٢].

وقال مجاهد: «بالتي هي أَحْسَنُ» يعني السلام إذا لَقِيَ من يُعاديه؛ وقاله عطاء[٣]. وقولٌ ثالثٌ ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في «الأحكام»[٤] وهو المُصافحة. وفي الأثر: «تصافحوا يَذهبِ الغِلُّ»[٥]. ولم يَرَ مالكٌ المصافحة، وقد اجتمع مع سفيان فتكلَّما فيها فقال سفيان: قد صافح رسولُ الله ﷺ جعفراً حين قَدِمَ من أرض الحبشة[٦]؛ فقال له مالك: ذلك خاصٌّ. فقال له سفيان: ما خَصَّ رسول الله ﷺ يخصُّنا، وما عَمَّه يعمُّنا، والمصافحةُ ثابتةٌ فلا وجهَ لإنكارها.

وقد روى قتادة قال: قلت لأنس: هل كانت المصافحةُ في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وهو حديثٌ صحيح. وفي الأثر: «مِنْ تمامِ المحبةِ الأخذُ باليد»[٧]. ومن حديث محمد بن إسحاق ـ وهو إمامٌ مقدَّم ـ عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قَدِمَ زيدُ بن حارثةَ المدينةَ ورسولُ الله ﷺ في بيتي، فقرع البابَ فقام إليه رسولُ الله ﷺ عُرياناً يَجُرُّ ثوبَه ـ والله ما رأيتُه عُرياناً قبلَه ولا بعدَه ـ فاعتنقه وقبَّله[٨].

قلت: قد رُوي عن مالك جوازُ المصافحة وعليها جماعةٌ من العلماء. وقد مضى ذلك في «يوسف»[٩]، وذكرنا هناك حديثَ البراء بن عازب قال: قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥١ .
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٦ .
(٤) ٤/ ١٦٥١ .
(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٨ عن عطاء مرسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٢ : وهذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها. وسلف ١١/ ٤٥٨ .
(٦) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ ، وسلف ١١/ ٤٥٨ .
(٧) أخرجه الترمذي (٢٧٣٠) من حديث ابن مسعود ﷺ، وفيه: التحية، بدل: المحبة. قال الترمذي هذا حديث غريب.. سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فلم يَعُدَّه محفوظاً.
(٨) أخرجه الترمذي (٢٧٣٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث الزهري إلا بهذا الوجه.
(٩) ١١/ ٤٥٨ - ٤٥٩ .

«ما مِنْ مُسلمين يلتقيان فيأخذَ أحدُهما بيدِ صاحبه مَوَدَّةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما»(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: قريب صديق. قال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان مُؤذياً للنبيِّ ﷺ، فصار له وليًّا بعد أن كان عدوّاًبالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليًّا في الإسلام حميماً بالقرابة(٢).

وقيل: هذه الآيةُ نزلت في أبي جهل بن هشام، كان يُؤذي النبي ﷺ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصَّفْح عنه؛ ذكره الماوردي(٣). والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. وقيل: كان هذا قبلَ الأمر بالقتال. قال ابن عباس: أمره اللهُ تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحِلْم عند الجَهْل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عَصَمهم اللهُ من الشيطان، وخضع لهم عدوُّهم. ورُوي أن رجلاً شتم قَنْبراً مولى علي بن أبي طالب فناداه عليٌّ: يا قَنْبَرُ، دَعْ شاتمكَ، والْهَ عنه تُرضِ الرحمن وتُسخط الشيطان، وتُعاقب شاتمك، فما عُوقب الأحمقُ بمثل السكوت عنه. وأنشدوا:

وَلَلْكَفُّ عن شَتْم اللَّئيم تَكَرُّمًا   أَضَرُّ له مِنْ شَتْمِهِ حين يُشْتَمُ(٤)

وقال آخر:

وما شيءٌ أَحَبُّ إلى سَفيهٍ   إذا سبَّ الكريمَ مِن الجوابِ
مُتاركَةُ السَّفيهِ بلا جوابٍ   أَشَدُّ على السَّفيهِ من السِّبابِ(٥)

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٣٥)، وابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٥ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .

(٤) قائله المُؤَمَّل بن أُمَيل، وهو في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/ ٨٦ .

(٥) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٠٨ ، وعنده البيت الثاني قبل الأول، وعجز البيت الأول عنده: إذا وقع الكريم من السباب. وعجز البيت الثاني: أشد على السفيه من العذاب.

وقال محمود الورّاق:

سَأُلزِم نفسي الصَّفْحَ عن كلّ مذنِبٍ ... وإن كَثُرَتْ منه لديَّ الجَرائمُ
فما الناس إلا واحِدٌ مِن ثلاثةٍ ... شريفٌ ومَشْروفٌ ومِثْلٌ مقاوِمُ
فأما الذي فَوْقي فأعرِفُ قَدْرَه ... وَأَتْبَعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازِمُ
وأما الذي دوني فإنْ قال صُنْتُ عن ... إجابَتِهِ عِرضي وإنْ لامَ لائِمُ
وأما الذي مِثْلِي فإنْ زَلَّ أوْهَفا ... تَفَضَّلْتُ إنّ الفَضْلَ بالحِلْم حاكِمُ[1]

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعني هذه الفعلة الكريمة والخَصْلة الشريفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيب وافر من الخير؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد: الحظُّ العظيم الجنة. قال الحسن: والله ما عظم حظٌّ قطّ دون الجنة[2]. وقيل: الكناية في «يُلَقَّاهَا» عن الجنة؛ أي: ما يلقَّاها إلا الصابرون؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ تقدَّم في آخر «الأعراف» مستوفًى[3]. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من كيده وشرّه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالك وأقوالك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ علاماته الدالَّة على وحدانيته وقُدرته ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

(١) ذكر هذه الأبيات ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٠٦ باختلاف يسير في بعض الألفاظ.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .
(٣) ٩/ ٤٢٢ وما بعدها.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وقد مضى في غير موضع. ثم نهى عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا خَلْقين فليس ذلك لفضيلةٍ لهما في أنفسهما فيستحقَّان بها العبادةَ مع الله؛ لأنَّ خالقَهما هو الله، ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورَهما.

﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ وصوَّرهنَّ وسخَّرهنَّ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار. وقيل: للشمس والقمر خاصَّة؛ لأن الاثنين جمع[1]. وقيل: الضميرُ عائدٌ على معنى الآيات[2]، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[3]. وإنما أنَّث على جمع التكسير[4]، ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي: لا يملُّون عبادتَه. قال زهير:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثمانِينَ حولًا - لا أبالكَ - يَسْأَمِ[5]

مسألة: هذه الآيةُ آيةُ سجدة بلا خلاف؛ واختلفوا في موضع السجود منها. فقال مالك: موضعه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنه متصلٌ بالأمر. وكان عليّ وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله: «تَعْبُدُونَ». وقال ابن وهب والشافعي: موضعُه ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لأنه تمامُ الكلام وغايةُ العبادة والامتثال. وبه قال أبو حنيفة. وكان ابن عباس يسجد عند قوله: «يَسْأَمُونَ». وقال ابن عمر: السجدة[6] بالآخرة منهما. وكذلك يُروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السُّلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثَّاب وطلحة وزُبيد اليامِيِّين والحسن وابن سيرين. وكان أبو وائل وقتادة

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٧ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٢ .

(٣) وقع في النسخ قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ في هذا الموضع، وحقُّه أن يُذكر بعد قوله: فيما لا يعقل الآتي.

(٤) في (د) و(م): التكثير، وينظر الكلام في التفسير البغوي ٤/ ١١٥ ، والدر المصون ٩/ ٥٢٨ .

(٥) ديوان زهير ص ٢٩ ، وسلف ٤/ ٤٥٦ .

(٦) في (م): اسجدوا.

وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله: «يَسْأَمُونَ». قال ابن العربي[١]: والأمر قريب.

مسألة: ذكر ابن خُوَيْز مَنْدَاد: أن هذه الآيةَ تضمَّنت صلاةَ كسوف القمر والشمس؛ وذلك أن العربَ كانت تقول: إن الشمسَ والقمرَ لا يَكْسِفان إلا لموت عظيم، فصلَّى النبيّ ﷺ صلاةَ الكسوف.

قلت: صلاةُ الكسوف ثابتةٌ في الصحاح البخاري ومسلم وغيرهما[٢]. واختلفوا في كيفيتها اختلافاً كثيراً، لاختلاف الآثار، وحسبُك ما في «صحيح» مسلم من ذلك، وهو العُمدة في الباب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ الخطاب لكل عاقل، أي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالَّة على أنه يُحيي الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: يابسة جدبة، هذا وصفُ الأرض بالخشوع؛ قال النابغة:

رمادٌ كَكُحْلِ العينِ لأياً أُبِينُهُ ... وَنُؤْيٌ كَجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خاشِعُ[٣]

والأرض الخاشعة: الغبراء التي تنبت. وبلدة خاشعة: أي: مغبرة لا منزلَ بها. ومكانٌ خاشع[٤]. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: بالنبات؛ قاله مجاهد[٥]. يقال: اهتزَّ الإنسان، أي: تحرَّك؛ ومنه:

تَرَاه كَنَصْلِ السيف يَهْتَزُّ لِلنَّدى ... إذا لم تَجِدْ عِند امرِئ السَّوْءِ مَطْمَعا[٦]

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٢ ، وما قبله منه دون ذكر أبي حنيفة وزبيد اليامي. وقول أبي حنيفة ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥٤ .

(٢) صحيح البخاري (١٠٤٤)، وصحيح مسلم (٩٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢٥٣١٣)، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تُنظر في مسند أحمد.

(٣) ديوان النابغة ٧٩ ، وسلف ٢/ ٧٠ ، والنُّؤيُ: حَفيرة تُحفر حول الخباء، ويُجعل ترابها حاجزاً لئلا يدخله المطر. والجِذْم: الأصل. خزانة الأدب ٢/ ٤٥٣ .

(٤) الصحاح (خشع).

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٨ .

(٦) قائله متمم بن نُويرة، وهو في الكامل للمبرد ٣/ ١٤٤١ . ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، وما قبله منه.

﴿وَرَبَتْ﴾ أي: انتفخَتْ وَعَلَتْ قبلَ أن تَنبُتَ؛ قاله مجاهد[١]. أي: تصعدت عن النبات بعد موتها. وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير وتقديره: رَبَتْ واهتزت[٢]. والاهتزاز والرُّبُوُّ قد يكونان قبلَ الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فَرُبُوُّها ارتفاعُها. ويقال للموضع المرتفع: ربوة ورابية؛ فالنبات يتحركُ للبروز، ثم يزداد في جسمه بالكِبَر طولاً وعرضاً.

وقرأ أبو جعفر وخالد: «وَرَبَأَتْ» ومعناه: عَظُمَتْ؛ من الربيئة[٣]. وقيل: «اهْتَزَّتْ» أي: استبشرت بالمطر «وَرَبَتْ» أي: انتفخت بالنبات. والأرض إذا انشقَّت بالنبات: وُصِفَتْ بالضَّحِك، فيجوز وَصْفُها بالاستبشار أيضاً. ويجوز أن يقال: الرُّبُوُّ والاهتزاز واحد؛ وهي حالة خروج النبات. وقد مضى هذا المعنى في «الحج»[٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يميلون عن الحق في أدِلَّتنا[٥]. والإلحاد: المَيْل والعُدول. ومنه اللَّحد في القبر؛ لأنه أُميلُ إلى ناحية منه. يقال: ألحدَ في دين الله، أي: حاد عنه وعَدَلَ. ولَحَدَ لغةٌ فيه. وهذا يرجع إلى الذين قالوا:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٤٣٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٣ ، وقراءة أبي جعفر من العشرة في النشر ٢/ ٣٢٥ .

(٤) ١٤/٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/١١٦ .

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحقّ فقالوا: ليس القرآن من عند الله، أو هو شِعر أو سحر؛ فالآياتُ آيات القرآن.

قال مجاهد: «يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا» يُكذِّبون في آياتنا. أي: عند تلاوة القرآن بالمُكاءِ والتَّصْدِيةِ واللَّغوِ والغِناء. وقال ابن عباس: هو تبديلُ الكلام ووضعه في غير موضعه. وقال قتادة: «يُلْحِدُونَ في آياتِنَا»: يُكذِّبون في آياتنا. وقال السدي: يُعاندون ويشاقُّون. وقال ابن زيد: يُشركون ويكذبون. والمعنى متقارب. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل[(١)].

وقيل: الآياتُ المعجزات، وهو يرجع إلى الأوّل، فإن القرآن مُعجِزٌ.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ على وجهه، وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قيل: النبي ﷺ؛ قاله مقاتل. وقيل: عثمان. وقيل: عمار بن ياسر. وقيل: حمزة. وقيل: عمر بن الخطاب. وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. وقيل: المؤمنون. وقيل: إنها على العموم؛ فالذي يلقى في النار الكافر، والذي يأتي آمناً يومَ القيامة المؤمن؛ قاله ابن بحر[(٢)].

﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ أمر تهديد؛ أي: بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بدَّ لكم من الجزاء. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيدٌ بتهديد وتوعُّد[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ الذِّكر ها هنا القرآن في قول الجميع؛ لأن فيه ذِكْرَ ما يُحتاج إليه من الأحكام. والخبر محذوف [تقديره][(٤)]: هالكون أو معذَّبون. وقيل: الخبر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الآية: ٤٤] واعترضَ قولُه: «ما يُقال لك» ثم رَجَعَ إلى الذِّكر فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ والأوّلُ الاختيار؛ قال النحاس[(٥)]: عند النحويين جميعاً

---

(١) الأقوال السابقة في النكت والعيون ٥/ ١٨٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٦ .

(٢) الأقوال السابقة في المصدرين السابقين ما عدا قوله: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨٥ .

(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٥) في معاني القرآن ٦/ ٢٧٥ ، وما قبله فيه بنحوه.

فيما علمت.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: عزيز على الله؛ قاله ابن عباس؛ وعنه: عزيز من عند الله. وقيل: كريم على الله. وقيل: «عَزِيزٌ» أي: أعزَّه الله فلا يتطرّق إليه باطل. وقيل: ينبغي أن يُعَزَّ ويُجَلّ وألا يُلغى فيه. وقيل: «عَزِيزٌ» من الشيطان أن يُبدِّله؛ قاله السدي. مقاتل: مُنع من الشيطان والباطل. السدي: غير مخلوق فلا مثلَ له. وقال ابن عباس أيضاً: «عَزِيزٌ» أي: ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله[(١)].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لا يُكذبه شيء مما أنزلَ الله من قبلُ، ولا ينزلُ من بعده كتابٌ يُبطله وينسخُه؛ قاله الكلبي. وقال السدي وقتادة: «لا يَأْتِيهِ الباطلُ» يعني الشيطان ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يستطيع أن يُغيِّر ولا يزيد ولا ينقص[(٢)].

وقال سعيد بن جُبير: لا يأتيه التكذيب ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. ابن جُريج: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون[(٣)]. وعن ابن عباس: «مِنْ بين يَدَيْهِ» من الله تعالى «وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» يريد من جبريل ﷺ، ولا من محمد ﷺ.

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ابن عباس: «حَكِيم» في خلقه «حَمِيد» إليهم. قتادة: «حَكِيم» في أمره «حَمِيد» إلى خلقه[(٤)].

قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: من الأذى والتكذيب ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ يُعزِّي نبيه ويُسلِّيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لك ولأصحابك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يريد: لأعدائك وجيعاً. وقيل: أي: ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أوحي إلى مَن قبلك، ولا خِلاف بين الشرائع فيما يتعلَّق بالتوحيد، وهو كقوله:

---

(١) الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٥/ ١٩، والنكت والعيون ٥/ ١٨٥، وتفسير البغوي ٤/ ١١٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٦ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨٥، وزاد المسير ٧/ ٢٦٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٦.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] أي: لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميعَ الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك. وقيل: هو استفهامٌ، أي: أيّ شيء يقال لك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾؟

وقيل: «إِنَّ رَبَّكَ» كلامٌ مبتدأ، وما قبله كلامٌ تامٌّ إذا كان الخبر مضمراً. وقيل: هو متصل بـ «ما يقال لكَ»[١]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إنما أُمِرْتَ بالإنذار والتبشير.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بلغة غير العرب ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ﴾ أي: بُيِّنت بلغتنا، فإننا عربٌ لا نفهم الأعجميَّة. فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرَّر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلمُ الناس بأنواع الكلام نَظْماً ونثراً. وإذا عَجَزوا عن مُعارضته كان من أدلِّ الدليل على أنه من عند الله، ولو كان بلسان العجم لقالوا: لا عِلْمَ لنا بهذا اللسان.

الثانية: وإذا ثبت هذا ففيه دليلٌ على أن القرآن عربي، وأنه نزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجميًّا، وأنه إذا نُقِلَ عنها إلى غيرها لم يكن قرآناً[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «أَأَعْجمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» بهمزتين مُحقَّقتين[٣]، والعجميّ الذي ليس من العرب كان فصيحاً أو غيرَ

---

(١) بعدها في (ظ): أي: إنما يقال لك.

(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٣.

(٣) في النسخ: مخففتين، وهو خطأ، والمثبت من كتب القراءات، ينظر السبعة ص ٥٧٧، والتيسير ص١٩٣.

فصيح، والأعجميُّ الذي لا يُفصح كان من العرب أو من العجم[١]. فالأعجم ضدُّ الفصيح، وهو الذي لا يُبين كلامه. ويقال للحيوان غير الناطق: أعجم، ومنه «صلاةُ النهار عَجْماء»[٢] أي: لا يُجهر فيها بالقراءة، فكانت النسبة إلى الأعجم آكَدَ، لأن الرجل العجمي الذي ليس من العرب قد يكون فصيحًا بالعربية، والعربيّ قد يكون غيرَ فصيح؛ فالنسبة إلى الأعجميّ آكدُ في البيان.

والمعنى: أقرآنٌ أعجميٌّ، ونبيٌّ عربي؟ وهو استفهامُ إنكار[٣].

وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ابن عامر: «أَعْجَمِيٌّ» بهمزة واحدة على الخبر[٤]. والمعنى: «لولا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» فكان منهم عربيّ يفهمه العرب، وأعجميٌّ يفهمه العَجَم. وروى سعيد بن جُبير قال: قالت قريش: لولا أُنزل القرآنُ أعجميًّا وعربيًّا، فيكون بعضُ آياته عجميًّا وبعضُ آياته عربيًّا، فنزلت الآيةُ. وأُنزل في القرآن من كل لغة فمنه «السِّجِّيل» وهي فارسيةٌ، وأصلُها سنكَيل؛ أي: طين وحجر[٥]، ومنه «الفِرْدَوس» رومية، وكذلك «القِسْطَاس».

وقرأ أهلُ الحجاز وأبو عمرو وابن ذكوان وحفص على الاستفهام، إلا أنهم ليَّنُوا الهمزة على أصولهم[٦]. والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام. والله أعلم.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠ .

(٢) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (٦٢٨): قال النووي: إنه باطل، لا أصل له، وكذا قال الدارقطني: لم يُروَ عن النبي ﷺ، وإنما هو من قول بعض الفقهاء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٤) قراءة هشام عن ابن عامر في التيسير ص ١٩٣ . وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٤٨ بنحوه. وفي المعجم الفارسي: سنكين، بالنون.

(٦) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وحفص ورُويس بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية من غير إدخال ألف، وسلفت قراءة هشام، وقرأ الباقون: بتحقيق الأولى والثانية من غير إدخال. السبعة ص ٥٧٦ - ٥٧٧ ، والتيسير ص١٩٣ ، والنشر ١/ ٣٦٦ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أعلمَ اللهُ أن القرآن هُدًى وشفاءٌ لكل من آمن به من الشكِّ والرَّيب والأوجاع. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: صَمَمٌ عن سماع القرآن. ولهذا تواصَوْا باللَّغو فيه. ونظير هذه الآية: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقد مضَى مستوفى.

وقراءة العامة ﴿عَمًى﴾ على المصدر. وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو ابن العاص ومعاوية وسليمان بن قَتَّةَ: «وهو عليهم عَمٍ» بكسر الميم[(١)]، أي: لا يتبيَّن لهم. واختار أبو عُبيد القراءةَ الأُولى؛ لإجماع الناس فيها؛ ولقوله أوّلاً: «هُدًى وَشِفَاءٌ» ولو كان: هادٍ وشافٍ، لكان الكسر في «عَمًى» أجودَ؛ ليكون نعتاً مثلَهما[(٢)]؛ تقديره: «والذين لا يؤمِنونَ» في ترك قبوله بمنزلة مَنْ في آذانهم «وقرٌ وهو» يعني القرآن «عليهم» ذو عمى، لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف. وقيل: المعنى: والوَقْر عليهم عمى[(٣)].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل. وحكى أهلُ اللغة أنه يقال للذي يفهم: أنت تسمع من قريب. ويقال للذي لا يفهم: أنت تُنادَى من بعيد. أي: كأنه يُنادى من موضع بعيد منه، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه. وقال الضحاك: «يُنادَوْنَ» يوم القيامة بأقبح أسمائهم «مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» فيكون ذلك أشدَّ لتوبيخهم وفضيحتهم[(٤)].

وقيل: أي: من لم يتدبَّر القرآن صار كالأعمى الأصمّ، فهو يُنادى من مكان بعيد فينقطع صوتُ المنادي عنه وهو لم يسمع. وقال علي ﷺ ومجاهد: أي: بعيد من قلوبهم. وفي التفسير: كأنما يُنادَوْن من السماء فلا يسمعون. وحكى معناه النقاش[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ١٣٤.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٠ - ٢٨١، وقول الضحاك أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٥١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٧.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: آمن به قومٌ وكذَّب به قوم. والكناية ترجع إلى الكتاب، وهو تسليةٌ للنبي ﷺ؛ أي: لا يحزنك اختلافُ قومك في كتابك، فقد اختلَف مَن قبلهم في كتابهم[1]. وقيل: الكناية ترجع إلى موسى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: في إمهالهم. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بتعجيل العذاب. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: شديد الريبة. وقد تقدَّم[2].

وقال الكلبي في هذه الآية: لولا أن الله أَخَّر عذابَ هذه الأُمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذابُ كما فعل بغيرهم من الأُمم. وقيل: تأخيرُ العذاب لِمَا يخرج من أصلابهم من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ شرطٌ وجوابه، وكذا ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾. والله جلّ وعزّ مُستغنٍ عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له، ومن أساء فالعقاب عليه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نَفَى الظُّلمَ عن نفسه جلّ وعزّ قليلَه وكثيرَه، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها، دليلُه قوله الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]. وروى العُدول الثِّقات، والأئمة الأثبات، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جل جلاله: «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّماً، فلا تَظَالموا» الحديث[3]. وأيضًا فهو الحكيم المالك، وما يفعله

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٤ بنحوه.

(٢) ١١/ ١٥٣ .

(٣) قطعة من حديث أبي ذر ﷺ، أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، وسلف ٥/ ٤٣٠ .

المالك في مُلْكه لا اعتراضَ عليه؛ إذ له التصرف في مُلْكه بما يُريد.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أي: حين وقتها. وذلك أنهم قالوا: يا محمد، إن كنت نبيًّا فخبِّرنا متى قيامُ الساعة فنزلت[١]. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ «مِنْ» زائدة، أي: وما تخرج ثمرة. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: من أوعيتها، فالأكمام أوعيةُ الثمرة، واحدُها كُمّة، وهي كل ظرف لمال أو غيره؛ ولذلك سمّى قِشْر الطَّلْع ـ أعني كُفُرّاه ـ الذي ينشقُّ عن الثمرة كُمَّةً؛ قال ابن عباس: الكُمّة الكُفُرَّى قبل أن تنشقّ، فإذا انشقَّتْ فليست بكمَّة[٢]. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الرحمن»[٣].

وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «مِنْ ثَمَرَاتٍ» على الجمع. الباقون: «ثَمَرَة» على التوحيد[٤]، والمراد الجمع، لقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ والمراد الجمع، يقول: «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْم الساعةِ» كما يُرَدُّ إليه علمُ الثمار والنتاج. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي اللهُ المشركين: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين زعمتم في الدنيا أنها آلهةٌ تشفع. ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني الأصنام. وقيل: المشركون. ويَحتمِلُ أن يريدَهم جميعًا؛ العابد والمعبود: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أسمعناكَ وأعلمناكَ[٥]. يقال:

آذنَ يُؤْذِنُ: إذا أعلم، قال:

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أسْماءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ منه الثَّوَاءُ[٦]

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٤.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٧.

(٣) في تفسير الآية (١١).

(٤) السبعة ص ٥٧٧، والتيسير ص ١٩٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ بنحوه.

(٦) قائله الحارث بن حِلِّزة اليشكري، والبيت مطلع معلقته. شرح القصائد المشهورات للنحاس ص ٥١.

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: نُعلِمُكَ ما منا أحدٌ يشهد بأن لك شريكاً؛ لمَّا عاينوا القيامةَ تبرَّؤوا من الأصنام(١)، وتبرأتِ الأصنامُ منهم كما تقدّم في غير موضع(٢).

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: بَطَلَ عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أي: أيقنوا وعَلِموا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: فرار عن النار. و«مَا» هنا حرف وليس باسم؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى(٣)؛ تقديره: وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب. يقال: حاص يَحيص حَيْصاً ومَحيصاً، إذا هرب. وقيل: إن الظنَّ هنا الذي هو أغلبُ الرأي، لا يشكون في أنهم أصحاب النار، ولكن يطمعون أن يخرجوا منها. وليس يبعد أن يكون لهم ظنٌّ ورجاءٌ إلى أن يُؤَيَّسوا.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لا يَمَلُّ من دعائه بالخير. والخير هنا المال والصحة والسُّلطان والعِزّ. قال السدي: والإنسان هاهنا يُراد به الكافر(٤). وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف. وفي قراءة عبد الله: «لا يسأمُ الإنسانُ مِنْ دُعاءِ المال»(٥).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٢) ١٦/ ٣٠٣ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٨ .

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢ ، وفيه أن قراءة ابن مسعود ﷺ: «من دعاءِ بالخير» وهي كذلك في القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والكشاف ٣/ ٤٥٧ .

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر والمرض ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من رَوْح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته[1]. وقيل: «يَؤوسٌ» من إجابة الدعاء «قَنُوطٌ» بسوء الظن بربه[2]. وقيل: «يَؤوسٌ» أي: يئس من زوال ما به من المكروه «قَنُوطٌ» أي: يظنُّ أنه يدوم؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ عاقبةً ورخاء وغِنًى ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ ضُرّ وسُقْم وشِدَّة وفَقْر. ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي؛ فيرى النعمة حتماً واجباً على الله تعالى، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة؛ ليتبيَّن شكره وصبره. وقال ابن عباس: «هذا لِي» أي: هذا من عندي.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة، واللام للتأكيد؛ يتمنَّى الأماني بلا عمل. قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب: للكافر أمنيتان؛ أما في الدنيا فيقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأما في الآخرة فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] و﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[3] [النبأ: ٤٠].

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: لَنَجْزِيَنَّهم. قسمٌ أقسمَ اللهُ عليه. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يريد الكافر ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾. وقال ابن عباس: يريد عُتبةَ بن ربيعةَ وشيبة بن ربيعة وأميةَ بن خلف، أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه.

ومعنى «نَأى بِجَانِبِهِ» أي: ترفَّع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله. وقيل: «نَأى» تباعد. يقال: نأيتُه ونأيتُ عنه نأيًا بمعنى: تباعدت عنه، وأنأيته فانتأى: أبعدته فبعُد، وتناءَوا تباعدوا، والمُنتأى الموضع البعيد؛ قال النابغة:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٨.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢ مختصراً.

فإنَّك كالليل الذي هو مُدْرِكي وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأى عنكَ واسِعُ[١]

وقرأ يزيد بن القعقاع: «ونَاءَ بِجَانِبِهِ» بالألف قبل الهمزة[٢]. فيجوز أن يكون من «ناء» إذا نهض. ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأوّل[٣].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: أصابه المكروه ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة. يقال: أطال فلان في الكلام، وأعرض في الدعاء إذا أكثر[٤]. وقال ابن عباس: «فَذُوا دُعَاءٍ عَرِيض» فذو تضرع واستغاثة. والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرَّخاء[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: «أرأيْتُمْ» يا مَعْشَرَ المشركين ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ﴾ أي: فأيُّ الناسِ أضلُّ، أي: لا أحدَ أضلُّ منكم لفرطِ شقاقكم وعداوتكم[٦]. وقيل: قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يرجع إلى الكتاب المذكور في قوله: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ والأوّل أظهرُ، وهو قولُ ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقُدرتنا «في

---

(١) ديوان النابغة ص ٨١، والبيت وما قبله من الصحاح (نأي).

(٢) وقرأ بها ابن عامر في رواية ابن ذكوان. السبعة ص ٥٧٧، والتيسير ص ١٤١، والنشر ٢/ ٣٠٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١١٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٩.

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٦٧ بنحوه.

الآفَاقِ» يعني: خرابَ منازل الأُمم الخالية ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالبلايا والأمراض[١]. وقال ابن زيد: «فِي الآفَاقِ» آيات السماء «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» حوادث الأرض[٢]. وقال مجاهد: «فِي الْآفَاقِ» فتح القرى[٣]؛ فيسَّرَ الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسَّر أمثالُها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجةً عن المعهود خارقةً للعادات[٤]. «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» فتح مكة. وهذا اختيار الطبري[٥]. وقاله المِنهال بن عمرو والسدي[٦].

وقال قتادة والضحاك: «فِي الْآفَاقِ» وقائع الله في الأُمم «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» يوم بدر. وقال عطاء وابن زيد أيضاً: «فِي الْآفَاقِ» يعني أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها[٧]. وفي «الصحاح»[٨]: الآفاق النواحي، واحدها أُفْقٌ وَأُفُقٌ مثل: عُسْر وعُسُر، ورجل أَفَقيّ؛ بفتح الهمزة والفاء: إذا كان من آفاق الأرض. حكاه أبو نصر. وبعضهم يقول: أُفُقيّ، بضمهما، وهو القياس. وأنشد غير الجوهري:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ ... لنا قَمَراها والنُّجومُ الطَّوالِعُ[٩]

---

(١) تفسير البغوي ٤/١١٨ .
(٢) النكت والعيون ٥/١٨٩ دون نسبة.
(٣) تفسير أبي الليث ٣/١٨٨ ، وتفسير البغوي ٤/١١٨ .
(٤) الكشاف ٣/٤٥٨ .
(٥) في تفسيره ٢٠/٤٦٢ .
(٦) أخرجه الطبري ٢٠/٤٦١ .
(٧) تفسير البغوي ٤/١١٨ - ١١٩ .
(٨) الصحاح (أفق).
(٩) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/٤١٩ .

«وَفِي أَنْفُسِهِمْ» من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين[١]، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمس مئة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة. وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه.

وقيل: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من كونهم نُطَفًا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم[٢]، كما تقدّم في «المؤمنون» بيانه[٣]. وقيل: المعنى: سيَرْوْن ما أخبرهم به النبي ﷺ من الفتن وأخبار الغيوب ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: أنه القرآن. والثاني: الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه[٤]. والثالث: أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق. والرابع: أن محمداً ﷺ هو الرسول الحق.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في: موضع رفع بأنه فاعل بـ «يَكْفِ» و﴿أَنَّهُۥ﴾ بدل من «رَبِّكَ» فهو رفع إن قدّرته بدلاً على الموضع، وجَرّ إن قدرته بدلاً على اللفظ. ويجوز أن يكون نصباً بتقدير حذف اللام، والمعنى: أولم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده؛ لأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وإذا شهده جازى عليه. وقيل: المعنى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» في معاقبته الكفار. وقيل: المعنى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار[٥].

وقيل: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» شاهداً على أن القرآن من عند الله. وقيل: «أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» مما يفعله العبد «شَهِيدٌ»، والشهيد بمعنى العالم[٦]؛ أو

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٨ عن ابن زيد.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٣) ١٥/ ١٧ وما بعدها .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٨ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٨ بنحوه.

هو من الشهادة التي هي الحضور.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة. وقال السدي: أي: من البعث. ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء. قاله السدي. وقال الكلبي: أحاطت قدرته بكل شيء[1].

وقال الخطابي: هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذي أحاطَ بكل شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عدداً. وهذا الاسم أكثرُ ما يجيء في مَعْرِض الوعيد، وحقيقتُه الإحاطةُ بكل شيء، واستئصال المُحاط به، وأصله مُحْيِط، نقلتْ حركةُ الياء إلى الحاء فسكنت. يقال منه: أحاط يُحيط إحاطةً وحِيْطةً؛ ومن ذلك حائطُ الدار، يحوطها أهلُها. وأحاطت الخيلُ بفلان: إذا أخِذ مأخذاً حاصراً من كل جهة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] والله أعلم بصواب ذلك.

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩٠ .

سورة السَّجدة

مَكِّيَّةٌ، وآيُها ثلاثٌ أو أربعٌ وخمسونَ(1)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(1 ـ 2) ـ ﴿حمٓ﴾ إنْ جعلتَهُ مُبتدَأً فخبرُه: ﴿تَنزِيلُ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وإنْ جعلتَهُ تَعديدَ الحروفِ فـ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرُ مَحذوفٍ، أو مُبتدأٌ لتَخصُّصِه بالصِّفَةِ وخَبرُه:

(3) ـ ﴿كِتَٰبٌ﴾، وهو على الأوَّلَيْنِ بدلٌ منه، أو خبرٌ آخرُ، أو خبرُ مَحذوفٍ.

ولعلَّ افتتاحَ هذه السُّوَرِ السَّبعِ بـ﴿حمٓ﴾ وتسمِيَتَها به لكونها مُصدَّرَةً ببيانِ الكتابِ مُتشاكلةً في النَّظمِ والمعنى، وإضافةُ التَّنزيلِ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ للدَّلالةِ على أنَّه مَناطُ المصالحِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ.

﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ مُيِّزَتْ باعتبارِ اللَّفظِ والمعنى، وقُرِئَ: (فَصَلَتْ)(2)؛ أي: فَصَلَ بعضُها مِن بعضٍ باختلافِ الفواصلِ والمعاني، أو فَصَلَتْ بين الحقِّ والباطلِ.

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصبٌ على المدحِ أو الحالِ مِن ﴿فُصِّلَتۡ﴾.

وفيه امتِنانٌ بسُهولةِ قراءَتِه وفَهمِهِ.

---

(1) قال الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: 220): هي خمسون وآيتان؛ بصري وشامي، وثلاث؛ مدنيان ومكي، وأربع؛ كوفي، اختلافها آيتان: ﴿حمٓ﴾ عدَّها الكوفي ولم يعدها الباقون، و﴿عَادٍ وَثَمُودَ﴾ لم يعدها البصري والشامي وعدها الباقون.

(2) انظر: «الكشاف» (8/ 8)، و«البحر» (18/ 464).

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لقومٍ يعلمونَ العربيَّةَ، أو لأهلِ العلمِ والنَّظَرِ، وهو صِفَةٌ أخرى لـ﴿قُرْءَانًا﴾، أو صِلَةٌ لـ﴿تَنزِيلٌ﴾، أو لـ﴿فُصِّلَتْ﴾، والأوَّلُ أَوْلى لوُقوعِه بين الصِّفاتِ.

(٤) ـ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ للعاملينَ به والمُخالِفينَ له، وقُرِئا بالرَّفعِ[1] على الصِّفَةِ لـ﴿كِتَٰبٌ﴾[2]، أو الخبرِ لِمَحذوفٍ.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تَدبُّرِه وقَبولِه ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تَأمُّلٍ وطاعةٍ.

(٥) ـ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ أغطيةٍ، جمعُ كِنَانٍ.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صَمَمٌ، وأصلُه الثِّقْلُ، وقُرِئَ بالكسرِ[3].

﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يمنعُنا عن التَّواصُلِ، و(مِن) للدَّلالةِ على أنَّ الحِجابَ مُبتدأٌ منهم ومنهُ؛ بحيثُ استوعبَ المسافةَ المُتوسِّطَةَ ولم يبقَ فراغٌ، وهذه تمثيلاتٌ لنُبوِّ قُلوبِهم عَن إدراكِ ما يدعوهُم إليه واعتقادِه، ومَجِّ أسماعِهِم له، وامتناعِ مُواصَلَتِهم، ومُوافقَتِهم للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ.

﴿فَٱعْمَلْ﴾ على دينِكَ، أو في إبطالِ أمرِنا ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على دينِنا، أو في إبطالِ أَمرِكَ.

(٦) ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لستُ مَلَكًا ولا جِنِّيًا لا يمكنُكُم التَّلقِّي منه، ولا أَدعوكم إلى ما تَنبو عنه العقولُ والأسماعُ

---

(١) في نسخة الخيالي: «وقرأ نافع». وعزا الطيبيُّ القولَ بأنها قراءةُ نافعٍ إلى المصنف البيضاوي، انظر: «فتوح الغيب» (١٣/ ٥٦٠)، وهو وهمٌ، إنما هي قراءة زيد بن علي كما في «البحر» (١٨/ ٤٦٥).

(٢) في نسخة الفاروقي والخيالي: «للكتاب».

(٣) هي قراءة طلحة بن مصرف كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤)، و«البحر» (١٨/ ٤٦٥)، ووقع في مطبوع «الشواذ»: (وِقراً) بالنصب.

وإنَّما أَدعوكُم إلى التَّوحيدِ والاستقامةِ في العملِ، وقد دلَّ[1] عليهما دلائلُ العقلِ وشواهِدُ النَّقلِ.

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فاستقيموا في أَفعالِكُم مُتوجِّهينَ إليه، أو فاستَوُوا إليه بالتَّوحيدِ والإخلاصِ في العملِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ ممَّا أَنْتُم عليه مِن سُوءِ العَقيدةِ والعملِ. ثمَّ هَدَّدَهم على ذلك فقال: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ مِن فَرطِ جَهالَتِهم واستخفافِهم باللهِ.

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لبُخْلِهم وعدمِ إشفاقِهم على الخلقِ، وذلك مِن أعظَمِ الرَّذائلِ.

وفيه دليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ مخاطَبون بالفُروعِ.

وقيل: معناهُ: لا يفعلونَ ما يُزَكِّي أنفُسَهُم، وهو الإيمانُ والطَّاعةُ.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ حالٌ مُشعِرَةٌ بأنَّ امتِناعَهُم عَن الزَّكاةِ لاستغراقِهِم في طلبِ الدُّنيا وإنكارِهِم للآخرةِ.

(٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ لا يُمَنُّ به عليهم، مِن المَنِّ، وأصلُهُ: الثِّقْلُ[2]، أو لا يُقطعُ[3]، مِن مَنَنْتُ الحبلَ: إذا قطَعْتَه.

---

(١) في جميع النسخ عدا نسخة الفاروقي: «يدل». وعليها شرح الشهاب في «حاشيته» وبين المراد فقال: وقوله: (قد يدل عليهما...) المضارع للاستمرار، و(قد) للتحقيق، كما في قوله: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [النور: ٦٤] يعني دعوته منحصرة فيما ذكر، وهو أمر محقق عقلاً ونقلاً فليس يسوغ مخالفته.

(٢) أطلق على ذلك لثقله على الممنون عليه. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «أو القطع».

وقيل: نزلَتْ في المَرْضَى والهَرْمَى إذا عَجَزوا عن الطَّاعةِ كُتِبَ لهم الأجرُ كأصَحِّ ما كانوا يعملونَ.

(٩) ـ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ في مِقدارِ يومَيْنِ أو بنَوْبَتَينِ، وخلقَ في كلِّ نَوبَةٍ ما خلقَ في أسرعِ ما يكونُ.

ولعلَّ[١] المرادَ مِن الأرضِ: ما في جِهَةِ السُّفلِ مِن الأَجرامِ البَسيطَةِ، ومِن خَلقِهَا في يومينِ: أنَّه خَلقَ لها أصلًا مُشترَكًا، ثمَّ خلقَ لها صُوَرًا بها صارَتْ أنواعًا، وكُفرُهُم به إلحادُهُم في ذاتِه وصِفَاتِه.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ ولا يَصِحُّ أن يكونَ له نِدٌّ.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي خلقَ الأرضَ في يومينِ ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خالقُ جميعِ ما وُجِدَ مِن المُمكِنَاتِ ومُرَبِّيهَا[٢].

(١٠) ـ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ استئنافٌ غيرُ مَعطوفٍ على ﴿خَلَقَ﴾ للفَصلِ بما هو خارجٌ عَن الصِّلَةِ ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ مرتفعةً[٣] عليها؛ ليظهرَ للنُّظَّارِ ما فيها مِن وُجوهِ الاستبصارِ، وتكونَ منافِعُها مُعرَّضةً للطُّلَّابِ.

﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ وأكثرَ خيرَهَا بأَنْ خلقَ فيها أنواعَ النَّباتِ والحيوانِ.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أقواتَ أهلِها بأنْ عيَّنَ لكلِّ نوعٍ ما يُصلِحُه ويعيشُ به، أو أقواتًا تنشأُ منها بأنْ خصَّ حُدوثَ كلِّ قوتٍ بقُطرٍ مِنْ أقطارِها.

وقُرِئَ: (وقَسَمَ فيها أقواتَها)[٤].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وقيل».

(٢) في نسخة التفتازاني: «ومرتّبها».

(٣) في نسخة الفاروقي: «مُرَفَّعة».

(٤) هي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٦).

﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تتمَّةِ أربعةِ أيَّامٍ[١]، كقولك: سرْتُ مِن البصرةِ إلى بغداد[٢] في عشرٍ، وإلى الكوفةِ في خمسَ عشرةَ، ولعلَّهُ قال ذلك ولم يَقُل: في يومينِ؛ للإشعارِ باتِّصالِهما باليَوْمَيْنِ الأوَّلَيْنِ، والتَّصريحِ على الفَذلكَةِ[٣].

﴿سَوَآءً﴾ أي: استوَتْ سواءً بمعنى استواءً، والجملةُ صِفَةٌ لـ ﴿أَيَّامٍ﴾، ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ بالجرِّ[٤]، وقيل: حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾ أو في ﴿فِيهَا﴾.

وقُرِئَ بالرَّفعِ على: هي ﴿سواءٌ﴾[٥].

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: هذا الحصرُ للسَّائلينَ عَن مدَّةِ خلقِ الأرضِ وما فيها، أو بـ(قدَّر) أي: قدَّرَ فيها الأقواتَ للطَّالبينَ لها.

(١١) ـ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قصدَ نحوَها، مِن قولِهم: استَوى إلى مكانِ كذا: إذا توجَّهَ إليه توجُّهًا لا يَلْوي على غيرِه.

والظَّاهرُ أنَّ (ثُمَّ) لتَفاوُتِ ما بينَ الخَلْقينِ، لا للتَّراخِي في المدَّةِ؛ لقولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، ودَحْوُها مُتقدِّمٌ على خلقِ الجبالِ مِن فَوقِها.

﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أمرٌ ظُلمانيٌّ، ولعلَّه أرادَ به مادَّتَها، أو الأجزاءَ المُتصغِّرَةَ التي رُكِّبَت[٦] منها.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٨١).

(٢) في نسخة الفاروقي: «بغداذ». وهي لغة فيها.

(٣) الفذلكة في الحساب: إجماله بعد التفصيل، وذلك بأن تذكر أولًا تفاصيله، ثم تجمل تلك التفاصيل، وتكتب في مؤخَّر الحساب: فذلك كذا وكذا، انظر: «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج٢/ و٣٣٥ب).

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٦).

(٥) وهي قراءة أبي جعفر، وقرأ الباقون عدا يعقوب بالنصب، انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٦).

(٦) في نسخة الفاروقي: «تركبت».

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ بما خلقتُ فيكما مِن التَّأثيرِ والتَّأثُّرِ، وأَبرِزَا ما أَودَعْتُكما مِن الأوضاعِ المختلفةِ والكائناتِ المُتنوِّعَةِ.

أو: ائتِيَا في الوُجودِ على أنَّ الخلقَ السَّابقَ بمعنى التَّقديرِ، أو التَّرتيبِ للرُّتبَةِ، أو الإخبارِ.

أو: إتيانُ السَّماءِ: حُدوثُها، وإتيانُ الأرضِ: أَنْ تصيرَ مَدحُوَّةً، وقد عرفْتَ ما فيه.

أو: لتأتِ كلٌّ مِنْكُما الأُخرى في حدوثِ ما أريدَ تَوليدُهُ مِنْكُما، ويؤيِّدُه قراءةُ (وآتِيَا)[1] مِن المؤاتاةِ، أي: لتَوافِقْ كلُّ واحدةٍ أختَها فيما أردتُ مِنْكُما.

﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ شئتُما ذلك أو أَبَيْتُما، والمرادُ إظهارُ كمالِ قُدرَتِه، ووجوبُ وقوعِ مُرادِه، لا إثباتُ الطَّوْعِ والكَرهِ لهما، وهما مَصدرانِ وَقَعا موقِعَ الحالِ.

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ مُنقادينَ بالذَّاتِ، والأظهرُ أنَّ المرادَ تَصويرُ تأثيرِ قُدرَتِه فيهما وتأثُّرِهما بالذَّاتِ عنها، وتمثيلُهما بأمرِ المُطاعِ وإجابةِ المُطيعِ الطَّائعَ كقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

وما قيل: إنَّه تَعالى خاطبَهُما وأَقْدَرَهُما على الجوابِ إنَّما يُتصوَّرُ على الوجهِ الأوَّلِ والأخيرِ، وإنَّما قال: طائعينَ على المعنى؛ باعتبارِ كونِها مُخاطَباتٍ[2] كقوله: ﴿سَٰجِدِينَ﴾[3].

---

(١) هي قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد، انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٤٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٧)، و«البحر» (١٨/ ٤٧٣).

(٢) في جميع النسخ عدا نسخة الفاروقي: «باعتبار كونهما مخاطبتين».

(٣) يريد قوله تعالى في (سورة يوسف) الآية رقم (٤): ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

(١٢) ـ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ فخَلَقهنَّ خلقًا إبداعيًّا وأتقنَ أمرَهُنَّ، والضَّميرُ للسَّماءِ على المعنى، أو مُبهَمٌ، و﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ حالٌ على الأوَّلِ، وتمييزٌ على الثَّاني.

﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ قيل: خَلَقَ السَّمواتِ يومَ الخميسِ، والشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ يومَ الجمعةِ.

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ شأنَها وما يَتأتَّى منها بأَنْ حملَها عليه اختيارًا أو طبعًا.

وقيل: أوحى إلى أهلِها بأوامرِه.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ فإنَّ الكواكبَ كلَّها تُرى كأنَّها تتلألأُ عليها.

﴿وَحِفْظًا﴾ أي: وحَفِظْناها مِن الآفاتِ أو مِن المُسْترِقةِ[1] حِفظًا.

وقيل: مفعولٌ له على المَعنى؛ كأنَّه قال: وخَصَّصْنا السَّماءَ الدُّنيا بمصابيحَ زينةً وحِفظًا.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ البالغِ في القُدرةِ والعلمِ.

(١٣) ـ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عن الإيمانِ بعدَ هذا البيانِ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ فحذِّرْهُم أن يصيبَهُم عذابٌ شَديدُ الوقعِ كأنَّه صاعقةٌ ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، وقُرِئَ: (صَعْقةً مثلَ صَعْقةِ عادٍ)[2] وهي المرَّةُ مِن الصَّعْقِ أو الصَّعَقِ يقال: صَعَقَتْهُ الصَّاعقةُ صَعْقًا، فصَعِقَ صَعَقًا.

(١٤) ـ ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ حالٌ مِنْ ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾، ولا يجوزُ جَعلهُ صِفةً لـ﴿صَٰعِقَةِ﴾ أو ظرفًا لـ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ لفسادِ المعنى.

---

(١) يعني: الشياطين المسترقة للسمع.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٨)، و«البحر» (١٨/ ٤٧٨)، عن ابن الزبير والسلمي وابن محيصن وإبراهيم النخعي.

﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ مِن جَميعِ جَوانبِهِم، واجتهدُوا بهم مِن كلِّ جِهةٍ.

أو من جِهَةِ الزَّمنِ الماضي بالإنذارِ عمَّا جرى فيه على الكُفَّارِ، ومن جهةِ المستقبلِ بالتَّحذيرِ عمَّا أُعِدَّ لهم في الآخرةِ، وكلٌّ مِن اللَّفظينِ يَحتَمِلُهما[١].

أو مِن قَبلِهِم ومِن بَعدِهِم، إذ قد بلَغَهُم خبرُ المُتقدِّمينَ، وأخبرَهُم هودٌ وصالحٌ عَن المتأخِّرينَ داعيَيْنِ إلى الإيمانِ بهم أجمعينَ[٢].

ويحتملُ أن يكونَ عبارةً عَن الكثرةِ، كقولِه تَعالى: ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ [النحل: ١١٢].

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بأَنْ لا تعبدُوا، أو: أي لا تعبدُوا.

﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسالَ الرُّسلِ ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ برسالتِه ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ على زعمِكُم ﴿كَٰفِرُونَ﴾ إذ أنتُمْ بَشرٌ مِثلُنا لا فضلَ لَكُم علينا.

(١٥) - ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ فتعظَّمُوا فيها على أهلِها بغيرِ استِحْقاقٍ ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغترارًا بقوَّتِهم وشَوْكَتِهم، قيل: كان مِن قُوَّتِهم أنَّ الرَّجُلَ مِنهم يَنزِعُ الصَّخرةَ فيقتلِعُها[٣] بيدِه.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ قدرةً؛ فإنَّه قادرٌ بالذَّاتِ، مُقتدِرٌ على ما لا يَتناهى، قويٌّ على ما لا يقدرُ عليه غيرُه.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ يعرفونَ أنَّها حَقٌّ وينكرونَها، وهو عطفٌ على ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾.

---

(١) أي: كلٌّ من لفظي ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يحتمل التفسيرين السابقين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٧٥).

(٢) في نسخة الفاروقي: «جميعًا».

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «فيقلعها».

(١٦) ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردةً تُهلِكُ بشدَّةِ[(١)] بردِها؛ مِن الصِّرِّ وهو البردُ الذي يَصُرُّ، أي: يَجمعُ، أو شديدةَ الصَّوتِ في هبوبها؛ مِن الصَّريرِ.

﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ جمعُ نَحِسَةٍ، مِن نَحِسَ نَحْسًا نقيضُ: سَعِدَ سَعْدًا.

وقرأ الحِجازِيَّانِ والبَصريَّانِ[(٢)] بالسُّكونِ على التَّخفيفِ، أو النَّعتِ على (فَعْلٍ)، أو الوصفِ بالمصدرِ.

قيل: كُنَّ آخرَ شوَّالٍ مِن الأربعاءِ إلى الأربعاءِ، وما عُذِّبَ قومٌ إلَّا في يومِ الأَربعاءِ[(٣)].

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أضافَ العذابَ إلى الخزيِ وهو الذلُّ، على قَصدِ وصفِهِ به؛ لقولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو في الأصلِ صِفَةُ المُعذَّبِ، وإنَّما وُصِفَ به العذابُ على الإسنادِ المَجازيِّ للمُبالغَةِ.

﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفعِ العَذابِ عَنْهُم.

(١٧) ـ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فدَلَلْناهُم على الحقِّ بنَصْبِ الحُجَجِ وإرسالِ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لشدة».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٣)، و«النشر» (٢/ ٣٦٦).

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٧٤)، والكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ١٠٤١)، وعده من العجيب.

والتشاؤم بيوم الأربعاء وأنه يوم نحس لا أصل له، ولا يلتفت إليه، لأن نحس ذلك اليوم مستمر على عاد فقط الذين أهلكهم الله فيه، فاتصل لهم عذاب البرزخ والآخرة بعذاب الدنيا. انظر: «أضواء البيان» (٧/ ١٣٢).

الرُّسُلِ، وقُرِئَ: (ثَمودَ) بالنَّصبِ بفعلٍ مُضمَرٍ يفسِّرُه ما بعدَهُ، ومُنوَّنًا في الحالينِ[1]، وبضمِّ الثَّاءِ[2].

﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فاختارُوا الضَّلالةَ على الهُدى.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ صاعقةٌ مِن السَّماءِ فأهلكَتْهُم، وإضافتُها[3] إلى العَذابِ ووصفُه بالهونِ للمُبالغَةِ.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن اختيارِ الضَّلالةِ.

(١٨) ـ ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ مِن تلكَ الصَّاعقةِ.

(١٩) ـ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وقُرِئَ: (يَحشُرُ)[4] على البناءِ للفاعلِ، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، وقرأَ نافعٌ: ﴿نَحْشُر﴾ بالنُّونِ مَفتوحةً وضمِّ الشِّينِ ونصبِ ﴿أعداءَ اللهِ﴾[5].

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبسُ أوَّلُهم على آخرِهم لئلَّا يَتفرَّقُوا، وهي عبارةٌ عَن كثرةِ أهلِ النَّارِ.

---

(١) أي: حال الرفع والنصب، وهي بالنصب غير منون قراءة الحسن والمفضل وابن أبي إسحاق وعيسى الثقفي، وبالرفع منوناً يحيى والجهضمي والأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٤)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٣٢).
وروي عن ابن أبي إسحاق والأعمش: (ثمودًا) منونة منصوبة، قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٠)، ونقله عنه أبو حيان في «البحر» (١٨/ ٤٨٤) وزاد نسبته لابن عباس.

(٢) ذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٨/ ٢٤) من غير نسبة.

(٣) في نسخة الخيالي: «وأضافها».

(٤) ذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٨/ ٢٦) من غير نسبة.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٣)، وقرأ: (نَحْشِر) بالنون وكسر الشين الأعرج، انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٠)، و«البحر» (١٨/ ٤٨٧).

(٢٠) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ إذا حَضَروهـا، و(مـا) مَزيدةٌ لتَأكيدِ اتِّصالِ الشَّـهادةِ بالحُضورِ.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بأَنْ يُنطِقَها اللهُ أو يُظـهِرَ عليها آثارًا تدلُّ على ما اقتُرِفَ بها فتنطقَ بلسانِ الحالِ.

(٢١) ـ ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ سـؤالُ تـوبيخٍ أو تعجُّبٍ، ولعلَّ المرادَ بهِ نفسُ التَّعجُّبِ.

﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: ما نطَقْنَا باختيارِنا، بل أَنْطقَنَا اللهُ الذي أنطقَ كلَّ شَيءٍ.

أو: ليسَ نُطْقُنا بعَجَبٍ مِن قُدرَةِ اللهِ الذي أنطقَ كُلَّ حيٍّ.

ولو أُوِّلَ الجوابُ والنُّطقُ بدلالةِ الحالِ بَقِيَ الشَّيءُ عامًّا في الموجوداتِ المُمكنَةِ.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يحتملُ أن يكونَ تمامَ كلامِ الجُلودِ، وأن يكونَ استئنافًا.

(٢٢) ـ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: كنتُمْ تَستَتِرُونَ من[١] النَّاسِ عندَ ارتِكابِ الفَواحشِ مخافةَ الفَضَاحةِ، وما ظننتُمْ أنَّ أعضاءَكُم تشهَدُ عليكُمْ، فما استَتَرْتُم عنها.

وفيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمنَ يَنبَغِي أَنْ يَتحقَّقَ أنَّه لا يمرُّ عليه حالٌ إلَّا وعليهِ رَقيبٌ.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلكَ[٢] اجترَأْتُم على ما فَعَلْتُم.

---

(١) في نسخة الفاروقي والخيالي: «تستترون الناسَ».

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي: «ولذلك».

(٢٣) ـ ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ظَنِّهم هـذا، وهـو مبتدأٌ، وقولُه: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبرانِ له، ويجوزُ أن يكونَ ﴿ظَنُّكُمْ﴾ بدلًا و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبرًا.

﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إذ صارَ ما مُنِحُوا للاستِسْعادِ به في الدَّارينِ سَبَبًا لشَقاءِ المَنْزِلَيْنِ.

(٢٤) ـ ﴿يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ لا خلاصَ لَهُم عنها ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ يَسأَلُوا العُتْبَى وهي[1] الرُّجوعُ إلى ما يحبُّونَ ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المُجابينَ إليها.

ونظيرُهُ قولُه تَعالى حكايةً: ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقُرِئَ: (وإِنْ يُسْتَعْتَبُوا فما هُمْ مِن المُعتَبِين)[2] أي: إن سُئِلوا أن يُرْضُوا رَبَّهُم فما هم فاعلونَ لفَواتِ المُكْنَةِ.

(٢٥) ـ ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ وقـدَّرْنـا ﴿لَهُمْ﴾ للكـفـرةِ ﴿قُرَنَآءَ﴾ أَخْدانًا مِن الشَّياطينِ يَستولونَ عليهِم استيلاءَ القَيْضِ على البَيْضِ، وهو القِشْرُ. وقيل: أصلُ القَيْضِ: البَدَلُ، ومنه المُقايضَةُ للمُعاوضَةِ.

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن أَمرِ الدُّنيا واتِّباعِ الشَّهواتِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمرِ الآخرةِ وإنكارِهِ.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي كلمةُ العَذابِ ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ في جملةِ أُمَمٍ، كقولِه:

إِنْ تَـكُ عَـنْ أَحْسَـنِ الصَّنِيـعَةِ مَـأْ ... فُـوكًا فَفِـي آخَرِيـنَ قَـدْ أُفِكُـوا[3]

---

(١) في نسخة التفتازاني: «أي»، وفي نسخة الطبلاوي: «وهو».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٤)، و«المحتسب» (٢/ ٢٤٥)، عن عمرو بن عبيد والحسن وموسى الأسواري.

(٣) البيت لعروة بن أذينة. انظر: «إصلاح المنطق» (ص: ٢٤)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٢٨١)، و«غريب القرآن» له (ص: ٣٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٦١ و٢٦٧)، و«الصحاح» (مادة: أفك). قال =

وهو حالٌ مِن الضَّميرِ المَجرورِ.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وقد عَمِلُوا مثلَ أعمالِهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقِهم العذابَ والضَّميرُ لَهُم وللأُمَمِ.

(٢٦) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ وعارِضُوهُ بالخُرافاتِ، أو ارفَعُوا أصواتَكُم بها لتُشوِّشُوهُ[١] على القارئِ.

وقُرِئَ (والْغُوا) بضمِّ الغينِ[٢]، والمعنى واحدٌ يقال: لَغِيَ يَلْغَى، ولَغَا يَلْغُو: إذا هـذَى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: تغلبونَهُ على قراءتِه.

(٢٧) ـ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ المرادُ بهم هؤلاءِ القائلونَ[٣]، أو عامَّـةُ الكُفَّارِ.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ سيِّئاتِ أَعمالِهم، وقد سبقَ مِثلُه.

(٢٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الأسوأِ ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ خبرُه ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطفُ بيانٍ للجَزاءِ، أو خبرُ مَحذوفٍ.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في النَّارِ ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ فإنَّها دارُ إقامَتِهم، وهو كقولك: في هذه الدَّارِ دارُ سُرورٍ، وتعني بالدَّارِ عينَها، على أنَّ المقصودَ هو الصِّفَةُ.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ينكرونَ الحَقَّ أو يلغونَ.

= الطيبي: «مأفوكًا»؛ أي: مصروفًا، والإفك: الصرف، وأفكته: صرفته بالكذب والباطل، والأفاك: الذي يصد الناس عن الحق بالكذب.

(١) في نسخة التفتازاني: «لتشوشوا».

(٢) هي قراءة بكر بن حبيب السهمي. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٤٦).

(٣) في نسخة التفتازاني: «الكافرون».

وذَكَرَ الجحودَ الذي هو سببُ[(١)] اللَّغوِ[(٢)].

(٢٩) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ يَعني شَيْطاني النَّوعَيْنِ الحاملَينِ على الضَّلالةِ[(٣)] والعِصيانِ.

وقيل: هما إبليسُ وقابيلُ، فإنَّهُما سَنَّا الكُفْرَ والقتلَ[(٤)].

وقرأ وابنُ كثيرٍ وبنُ عامرٍ ويعقوبُ وأبو بكرٍ والسُّوسيُّ: ﴿أَرْنا﴾ بالتَّخفيفِ؛ كفَخْذٍ في فَخِذ، وقرأ الدُّورِيُّ باختلاسِ كسرةِ الرَّاءِ[(٥)].

﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾ نَدُسْهُما انتقامًا مِنْهُما، وقيل: نَجعلْهُما في الدَّركِ الأسفلِ ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ مَكانًا أو ذُلًّا.

---

(١) «سبب» ليست في نسخة الطبلاوي.

(٢) قال الشهاب في «حاشيته»: (وذكر الجحود...) جعله مجازاً عن اللغو المسبَّب عنه، وهو الذي اختاره الزمخشري؛ لأنه سواء جعل مصدراً أو حالاً أو مفعولاً له مرتَّب على قوله: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «الضلال».

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٠٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٧٧٥٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٤٧)، عن علي رضي الله عنه، وضعف ابن عطية هذا القول في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٤) وتوقف في صحته عن علي رضي الله عنه، فقال: وتأمل هل يصح هذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لأن ولد آدم مؤمن عاص، وهؤلاء إنما طلبوا المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود، وإنما القوي أنهم طلبوا النوعين.

وقد أصلح بعضهم هذا القول بأن قال: يطلب ولد آدم كل عاص دخل النار من أهل الكبائر، ويطلب إبليس كل كافر.

ولفظ الآية يزحم هذا التأويل، لأنه يقتضي أن الكفرة إنما طلبوا اللذين أضلا.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٣)، و«النشر» (٢/ ٢٢٢).

(٣٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اعترافًا برُبوبيَّتِه وإقرارًا بوحدانيَّتِه ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ في العملِ، و(ثُمَّ) لتَراخيهِ عَنِ الإقرارِ في الرُّتبةِ مِن حيثُ إنَّه مَبدأُ الاستقامةِ، أو لأنَّها عَسِرةٌ قلَّما تتبعُ الإقرارَ.

وما رُوِيَ عن[1] الخلفاءِ الرَّاشدينَ رَضِيَ اللهُ عَنهم في معنى الاستقامةِ مِن الثَّباتِ على الإيمانِ وإخلاصِ العَمَلِ وأداءِ الفَرائضِ؛ فجُزْئيَّاتُها[2].

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيما يَعِنُّ لهم بما يشرحُ صُدورَهُم ويدفعُ عَنْهُم الخوفَ والحزنَ، أو عند الموتِ، أو الخروجِ عَن القَبرِ ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ ما تَقْدمونَ عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما خَلَّفْتم.

و(أَنْ) مَصدَرِيَّةٌ، أو مُخفَّفَةٌ مُقدَّرةٌ بالباءِ، أو مُفسِّرَةٌ.

﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدُّنيا على لسانِ الرُّسُلِ.

(٣١) ـ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نُلهِمُكُم الحقَّ ونَحمِلُكُم على الخيرِ بدلَ ما كانتِ الشَّياطينُ تفعلُ بالكفرَةِ ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالشَّفاعةِ والكرامةِ حينما يَتعادَى الكفرَةُ وقُرناؤُهُم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الآخرةِ ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ مِنَ اللَّذائذِ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تَتمنَّوْنَ، مِن الدُّعاءِ بمعنى الطَّلَبِ، وهو أعمُّ مِن الأوَّلِ.

(٣٢) ـ ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ حالٌ مِن ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ للإشعارِ بأنَّ ما يتمنَّوْنَ بالنِّسبةِ إلى ما يُعطَوْنَ ممَّا لا يخطرُ ببالِهم كالنُّزُلِ للضَّيفِ.

(٣٣) ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى عبادَتِه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينَهُ وبينَ رَبِّه.

---

(١) في نسخة الفاروقي والخيالي: «من».

(٢) ذكر الزمخشري الآثار عن الخلفاء الأربعة في «الكشاف» (٨/ ٣٤ ـ ٣٥)، وتخريجها ثمَّة.

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخُرًا به، أو اتِّخاذًا[١] للإسلامِ دينًا ومَذهبًا، مِن قَولِهم: هذا قولُ فلانٍ لِمَذهبِه، والآيةُ عامَّةٌ لِمَن استَجْمَعَ تلكَ الصِّفاتِ.

وقيل: نزلَتْ في النَّبيِّ ﷺ[٢]. وقيل: في المُؤذِّنينَ[٣].

(٣٤) ـ ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ في الجَزاءِ وحُسنِ العَاقبَةِ، و(لا) الثَّانيَةُ مَزيدَةٌ لتَأكيدِ النَّفيِ.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ادفَعِ السَّيِّئَةَ حيثُ اعتَرضَتْكَ بالتي هي أحسَنُ منها، وهي الحسنَةُ، على أنَّ المُرادَ بالأحسنِ الزَّائِدُ مُطلَقًا، أو بأحسنِ ما يُمكِنُ دَفعُهَا بِهِ مِن الحسناتِ، وإنَّما أخرجَهُ مخرجَ الاستئنافِ على أنَّه جوابُ مَن قال: كيفَ أصنَعُ؟ للمُبالغَةِ، ولذلك وُضِعَ ﴿أَحْسَنُ﴾ موضِعَ الحسنةِ.

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: إذا فعلتَ ذلك صارَ عَدوُّكَ المُشاقُّ مثلَ الوليِّ الشَّفيقِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي والطبلاوي: «واتخاذًا».

(٢) ذكره السمعاني في «تفسيره» (٥/ ٥١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٥٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٣٠) عن السدي وابن زيد. ورواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٦٩) عن الزهري.

وذكر النحاس في «إعراب القرآن» (٤/ ٤٢) عن الضحاك قال: هو النبيّ ﷺ وأصحابه ومن اتَّبعهم إلى يوم القيامة. وهو من أجمع ما قيل فيها كما قال النحاس.

(٣) رواه ابن وهب في «التفسير من جامعه» (١١٨)، والفضل بن دكين في «الصلاة» (١٩١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٣٤٧)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٤/ ٤٢) والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٩٨). ونسبها في «الدر المنثور» (٧/ ٣٢٥) لابن المنذر وابن مردويه. عن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا أَحسبُ هذه الآيةَ إلا في المؤذِّنين».

(٣٥) ـ ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ وما يُلَقَّى هذه السَّجِيَّةَ، وهي مُقابلَةُ الإساءةِ بالإحسانِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ فإنَّها تحبسُ النَّفسَ عن الانتقامِ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ مِن الخيرِ وكَمالِ النَّفسِ، وقيل: الحظُّ العظيمُ: الجنَّةُ.

(٣٦) ـ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ نَخْسٌ، شبَّه به وَسْوستَهُ لأنَّها بَعثٌ على ما لا يَنبَغِي، كالدَّفعِ بما هو أسوَأُ، وجَعَلَ النَّزغَ نازغًا على طريقةِ: جَدَّ جِدُّهُ، أو: أريدَ به نازِغٌ وصفًا للشَّيطانِ بالمَصدَرِ.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ مِن شَرِّهِ ولا تُطِعْه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لاستعاذَتِك ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنيَّتِكَ أو بصَلاحِكَ.

(٣٧) ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ لأنَّهُما مَخلوقانِ مَأمورانِ مِثلُكُم ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ الضَّميرُ للأربعَةِ المذكورةِ، والمقصودُ تَعليقُ الفعلِ بِهِمَا إشعارًا بأنَّهُما مِن عِدادِ ما لا يَعلَمُ ولا يَختارُ.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإنَّ السُّجودَ أخصُّ العباداتِ، وهو مَوضِعُ السُّجودِ عِندَنا؛ لاقترانِ الأمرِ به، وعندَ أبي حنيفةَ: آخرُ الآيةِ الأخرى؛ لأنَّه تمامُ المعنى[١].

(٣٨) ـ ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ عن الامتثالِ ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكةِ ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي: دائمًا؛ لقولِه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ أي: لا يَمَلُّونَ.

(٣٩) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ يابسَةً مُتطامِنَةً، مُستعارٌ مِن الخشوعِ بمَعنى التَّذلُّلِ.

---

(١) انظر: «البيان في مذهب الإمام الشافعي» للعمراني (٢/ ٢٩٣)، و«الهداية» للمرغيناني (١/ ٧٨).

﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ تزَخْرَفَت وانتفخَتْ بالنَّباتِ، وقُرِئَ: ﴿وَرَبَأَتْ﴾ أي زادَتْ[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا﴾ بعدَ موتِها ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِن الإحياءِ والإماتةِ ﴿قَدِيرٌ﴾.

(٤٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ يميلونَ عن الاستقامةِ ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالطَّعنِ والتَّحريفِ والتَّأويلِ الباطلِ والإلغاءِ فيها ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ فنُجازِيهِمْ على إلحادِهِم.

﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قابَلَ الإلقاءَ في النَّارِ بالإتيانِ آمنًا مبالغةً في إحمادِ حالِ المؤمنينَ.

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ تهديدٌ شَديدٌ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيدٌ بالمُجازاةِ.

(٤١) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ بدلٌ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، أو مستأنفٌ، وخبرُ (إنَّ) مَحذوفٌ مثل: مُعانِدُونَ، أو هالِكُونَ، أو أولئك يُنادَوْنَ، والذِّكْرُ: القُرآنُ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ كثيرُ النَّفعِ عَديمُ النَّظيرِ، أو منيعٌ لا يَتأَتَّى إبطالُه وتحريفُه.

(٤٢) ـ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ لا يَتطرَّقُ إليه الباطلُ مِن جهَةٍ مِن الجهاتِ، أو ممَّا فيه مِن الأخبارِ الماضيَةِ والأمورِ الآتيةِ.

﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ﴾ أيِّ حكيمٍ ﴿حَمِيدٖ﴾ يَحْمَدُهُ كلُّ مخلوقٍ[2] بما ظهرَ عليه مِن نِعَمِه.

(٤٣) ـ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقولُ لكَ كُفَّارُ قومِكَ ﴿إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ إلَّا مثلَ ما قالَ لهم كُفَّارُ قومِهِم، أو ما يقولُ اللهُ لكَ إلَّا مثلَ ما قالَ لَهُم.

---

(١) هي قراءة أبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٥).

(٢) في نسخة الخيالي: «خلق».

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائِه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائِهم.

وهو على الثَّاني يَحتَمِلُ أن يكونَ المقولَ بمعنى: أنَّ حاصِلَ ما أُوحِيَ إليكَ وإِلَيْهِم وعدُ المُؤمنينَ بالمغفِرَةِ والكافرينَ بالعُقوبَةِ.

(٤٤) ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ جوابٌ لقولِهم: هَلَّا نُزِّلَ القُرآنُ بلُغَةِ العجَمِ، والضَّميرُ للذِّكْرِ.

﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ بُيِّنَتْ بلسانٍ نَفْقَهُه.

﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أكلامٌ أَعْجَمِيٌّ ومُخاطَبٌ عربيٌّ؟ إنكارٌ مُقرِّرٌ للتَّخصيصِ، والأَعجَمِيُّ يقالُ للذي لا يُفهَمُ كلامُه، ولكَلامِه[1]، وهـذا قراءةُ أبي بكرٍ وحمزةَ والكِسائيِّ، وقرأَ قالونُ وأبو عمرٍو بالمدِّ والتَّسهيلِ، وورشٌ بالمدِّ وإبدالِ الثَّانيةِ أَلِفًا، وابنُ كثيرٍ وابن ذَكوانُ وحَفصٌ بغيرِ المدِّ بتَسهيلِ الثَّانيةِ[2].

وقُرِئَ (أَعَجَمِيٌّ)[3] وهو منسوبٌ إلى العجمِ.

---

(١) «ولكلامه» ليس في نسخة التفتازاني والخيالي، قال الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «والأعجمي إلخ» أصله: أعجم، ومعناه من لا يفهم كلامه للكنةٍ أو لغرابة لغته، وزيدت الياء للمبالغة كما في أحمري ودواري، وأطلق على كلامه مجازًا لكنه اشتهر حتى ألحق بالحقيقة فلذا ذكره المصنف وتركه الزمخشري، فإن قوله: «ولكلامه» وقع في بعض النسخ دون بعض، والعجمي: المنسوب إلى العجم وهو من عدا العربَ، وقد يخص بأهل فارس، ولغتهم العجمية أيضًا، فبين الأعجمي والعجمي عمومٌ وخصوصٌ وجهي.

(٢) من قوله: «وهذا قراءة أبي بكر» إلى هنا ليس في نسخة الفاروقي. وانظر: «التيسير»: (ص: ١٩٣)، «النشر»: (١/ ٣٦٦).

(٣) ذكرها الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ١٩) دون نسبة، ونقلها عنه ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٤)، ونسبها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٤٨) لعمرو بن ميمون.

وقرأ هشام: ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ على الإخبارِ[(١)]، وعلى هذا يجوزُ أَنْ يكونَ المُرادُ: هَلَّا فُصِّلَتْ آياتُهُ فجُعِلَ بَعضُها أعجميًّا لإفهامِ العَجَمِ وبعضُهَا عَربيًّا لإفهامِ العَرَبِ، والمقصودُ إبطالُ مُقترَحِهِم باستلزامِه[(٢)] لِمَحذورٍ، أو الدَّلالةُ[(٣)] على أَنَّهُم لا يَنفكُّونَ عَن التَّعنُّتِ في الآياتِ كيفَ جاءَتْ.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى﴾ إلى الحقِّ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لِما في الصدور مِن الشَّكِّ والشُّبَه.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مُبتدأٌ خبرُه: ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ على تقديرِ: هو في آذانِهِم وقرٌ؛ لقولِه: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، وذلك لتَصامِّهِم عن سماعِه وتَعامِيهِمْ عمَّا يُريهِم مِن الآياتِ، ومَن جوَّزَ العطفَ على عامِلَيْنِ عطفَ ذلك على ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وهو[(٤)] تمثيلٌ لهم في عَدَمِ قَبُولِهِم واستِمَاعِهِم له بمَنْ يُصَيَّحُ به مِن مَسافةٍ بَعيدَةٍ.

(٤٥) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بالتَّصديقِ والتَّكذيبِ كما اختُلِفَ في القُرآنِ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بالقيامَةِ وفَصلِ الخُصومَةِ حينئذٍ، أو تقديرُ الآجالِ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالِ المُكذبينَ.

---

(١) «وقرأ هشام» من نسخة التفتازاني. انظر: «التيسير»: (ص: ١٩٣).

(٢) في نسخة التفتازاني: «باستلزامهم»، وفي نسخة الخيالي: «باستلزامه المحذور».

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «والدلالة».

(٤) في نسخة الطبلاوي: «أي صم هو»، وفي نسخة الخيالي: «أي هو»، وفي نسخة التفتازاني: «أي: صمٌّ»، وفي نسخة الفاروقي: «أي هم»، وهو تحريف نبَّه عليه الخفاجي في «حاشيته».

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإنَّ اليهودَ، أو الذينَ لا يؤمنونَ ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ مِن التَّوراةِ، أو القرآنِ ﴿مُرِيبٍ﴾ مُوجِبٍ للاضطِرَابِ.

(٤٦) ـ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفعُهُ ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضَـرُّهُ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيفعلَ بهم ما ليسَ له أن يَفعَلَه.

(٤٧) ـ ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إذا سُئِلَ عنها؛ إذ لا يعلَمُها إلا هـو ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَةٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ مِن أَوْعِيَتِها؛ جمعُ كِمٍّ بالكسرِ.

وقرأ نافِعٌ وابنُ عـامرٍ وحفصٌ: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ بالجمعِ[1] لاختلافِ الأنواعِ، وقُرِئَ بجمعِ الضَّميرِ أيضًا[2]، و(مـا) نافِيَةٌ، و(مِن) الأولى مَزيدَةٌ للاستغراقِ، ويَحتملُ أن تكونَ موصولةً مَعطوفةً عـلى ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، و(مِن) مُبيِّنَةٌ، بخلافِ قولِه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ لمكانِ (لا)[3] ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾: إلا مقرونًا بعلمِهِ، واقعًا حسبَ تَعلُّقِه به.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ بزَعمِكُم ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناكَ ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ مِن أحدٍ يشهَدُ لهم بالشَّرِكَةِ، إذ تبرَّأْنَا عنهم لَمَّا عاينَّا الحالَ، فيكونُ السُّؤالُ عَنْهُم للتَّوبيخِ، أو مِن أَحدٍ يُشاهِدُهُم لأنَّهُم ضَلُّوا عنَّا، وقيل: هو قولُ الشُّركاءِ؛ أي: ما مِنَّا مَن يشهَدُ لهم بأَنَّهُم كانوا مُحِقِّينَ.

---

(١) والباقون بالإفراد. انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٧)، و«التيسير» (ص: ١٩٤)، و«النشر» (٢/ ٣٦٧).

(٢) أي: (من ثمرات من أكمامهن)، ذكرها أبو علي الفارسي في «الحجة» (٦/ ١١٩) لكن دون التصريح بكونها قراءة، فقال عنها وعن قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٣٧]: ولو كان (من أكمامهنّ)، و(مختلفاً ألوانهنّ) كان حسناً.

(٣) أي: (ما) نافية لا غير، لأنه عطف عليه النفي، فلا يصح كونها موصولة. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤٨) ـ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ يعبدونَ ﴿مِن قَبْلُ﴾ لا ينفَعُهُم، أو لا يرونَهُ، ﴿وَظَنُّواْ﴾ وأيقَنوا[1] ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مَهربٍ، والظَّنُّ مُعلَّقٌ عنه[2] بحرفِ النَّفي.

(٤٩) ـ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ لا يَمَلُّ ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ مِن طَلَبِ السَّعَةِ في النِّعمَةِ، وقُرِئَ: (مِن دُعاءٍ بالخَيْرِ)[3].

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضِّيْقَةُ ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ مِن فَضلِ اللهِ ورَحمَتِه، وهذا صِفَةُ الكافرِ؛ لقولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد بُولِغَ في يأسِهِ مِن جهَةِ البِنيةِ والتَّكريرِ وما في القنوطِ مِن ظُهورِ أثرِ اليَأسِ.

(٥٠) ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ بتَفريجِها عنه ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ حقِّي أَستَحِقُّه بمَا لي مِن الفَضْلِ والعَمَلِ، أو لي دائمًا لا يزولُ.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ تقومُ.

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ولئِنْ قامَتْ على التَّوهُّمِ كانَ لي عندَ اللهِ الحالةُ الحُسْنَى مِن الكرامةِ، وذلك لاعتقادِهِ أنَّ ما أصابَهُ مِن نِعَمِ الدُّنيَا فلاستحقاقٍ لا يَنفَكُّ عنه.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فلنُخبِرَنَّهُم ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ بحقيقَةِ أَعمالِهم، ولنُبصِّرَنَّهم عكسَ ما اعتَقَدُوا فيها.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكنُهُم التَّفَصِّي عنه[4].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «وعلموا».

(٢) علق عليه على هامش نسخة الفاروقي: «أي: ملغى عن العمل فيما بعده بسبب... النفي الذي يقتضي الصدارة».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٤).

(٤) أي: لا يمكنهم التخلص منه والنجاة منه، انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥١) ـ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ عَنِ الشُّكرِ ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وانحرفَ عَنه، أو ذهبَ بنفسِهِ وتباعدَ عنهُ بكُلِّيَّتِه تكبُّرًا، والجانبُ مَجازٌ عن النَّفسِ، كالجَنْبِ في قولِه تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثيرٍ، مُستعارٌ ممَّا له عَرْضٌ مُتَّسِعٌ للإشعارِ بكَثْرَتِه واستمرارِه، وهو أبلَغُ مِن الطَّويلِ إذ الطُّولُ أطوَلُ الامتدادينِ، فإذا كان عَرْضهُ كذلك فما ظَنُّكَ بطُولِه.

(٥٢) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ أي: القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مِن غيرِ نَظَرٍ واتباعِ دَليلٍ.

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: مَن أضلُّ مِنْكُم، فوُضِعَ المَوصولُ مَوضِعَ الصِّلَةِ[١] شرحًا لحالِهم وتَعليلًا لِمَزيدِ ضَلالِهم.

(٥٣) ـ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ يعني ما أخبرَهُم النَّبيُّ عليهِ السَّلامُ بهِ مِن الحوادثِ الآتيةِ، وآثارِ النَّوازلِ الماضيةِ، وما يَسَّرَ اللهُ لهُ ولخُلَفائهِ مِن الفُتوحِ والظُّهورِ على ممالكِ الشَّرقِ والغَربِ على وجهٍ خارقٍ للعادَةِ.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما ظهرَ فيما بينَ أهلِ مكَّةَ وما حلَّ بهم، أو ما في بدنِ الإنسانِ مِن عجائِبِ الصُّنعِ الدَّالَّةِ على كمالِ القُدرَةِ.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الضَّميرُ للقُرآنِ، أو الرَّسولِ، أو التَّوحيدِ، أو للهِ[٢].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي: أولم يَكفِ رَبُّكَ، والباءُ مزيدةٌ[٣] للتَّأكيدِ كأنَّه قيل: أولَمْ تحصُل الكِفايَةُ به، ولا يَكادُ يُزادُ في الفاعلِ إلا مَع (كفى).

---

(١) في نسخة الفاروقي: «الضمير» بدل «الصلة».

(٢) في نسخة التفتازاني: «أو الله».

(٣) في نسخة التفتازاني: «زائدة».

﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ بدلٌ مِنه، والمعنى: أولم يَكفِكَ أَنَّه تَعالى على كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ مُحققٌ له، فيحقِّقُ أمركَ بإظهارِ الآياتِ الموعودةِ كما حقَّقَ سائرَ الأشياءِ الموعودةِ، أو مُطَّلِعٌ فيعلمُ حالَكَ وحالَهم، أو أولم يكفِ الإنسانَ رادعًا عَن المعاصِي أَنَّهُ تَعالى مُطَّلِعٌ على كلِّ شَيءٍ لا يَخْفَى عليه خافيَةٌ.

(٥٤) ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ﴾ شَكٍّ، وقُرِئَ بالضمِّ[١] وهو لُغَةٌ كخُفْيَةٍ وخِفْيَةٍ، ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ بالبَعثِ والجَزاءِ.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ عالمٌ بجُمَلِ الأشياءِ وتَفاصيلِها، مُقتَدِرٌ عليها، لا يَفوتُهُ شَيءٌ مِنها.

عَن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورَةَ السَّجدَةِ أعطاهُ اللهُ بكُلِّ حَرْفٍ عشرَ حسناتٍ»[٢].

* * *

(١) هي قراءة الحسن حيث وقع، انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٥٧٠).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٤٨) وزاد: «ومحي عنه عشر سيئات»، والواحدي في «تفسيره» (٤/ ٢٤)، من حديث أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٧٨).

(٤١) سورة فصلت مكية وآياتها ٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى: ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾، وقوله: ﴿كتاب فصلت آياته﴾ أي بينت معانيه وأحكمت أحكامه، ﴿قرآناً عربياً﴾ أي في حال كونه قرآناً عربياً بيناً واضحاً، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة، كقوله تعالى: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه، وقوله تعالى: ﴿لقوم يعلمون﴾ أي إنما يعرف هذا العلماء الراسخون ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه، ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ أي في غلف مغطاة، ﴿مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾ أي صمم عما جئتنا به ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول، ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ أي اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا نتابعك، روى البغوي في تفسيره عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير (عتبة بن ربيعة)، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى يسمع قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلَةً قط أشأم على قومك منك، فرّقت جماعتنا وشتّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف، حتى نتفانى، أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة، جمعنا لك حتى

تكون أغنى قريش رجلاً واحداً وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «فرغت؟» قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم - حتى بلغ - فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك له إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فقال أبو جهل: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً، وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

وروى محمد بن إسحاق في كتاب السيرة عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً، لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع»، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاستمع مني»، قال: أفعل، قال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ۝ بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم

أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. وهذا السياق أشبه من الذي قبله والله اعلم .

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ لا ما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فاستقيموا إليه﴾ أي أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿واستغفروه﴾ أي لسالف الذنوب، ﴿وويل للمشركين﴾ أي دمار لهم وهلاك عليهم ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾ قال ابن عباس: يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله، كقوله تبارك وتعالى: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ والمراد بالزكاة هنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة، لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، واستعماله في الطاعات. وقال السدي: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾: أي لا يؤدون الزكاة، وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير، ثم قال جلّ جلاله بعد ذلك: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ قال مجاهد وغيره: غير مقطوع ولا مجبوب، كقوله تعالى: ﴿ماكثين فيها أبداً﴾، وكقوله عزّ وجلّ: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ وقال السدي: غير ممنون عليهم، وقد رد عليه بعض الأئمة، فإن المنة لله تعالى على أهل الجنة، قال الله تعالى: ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾، وقال أهل الجنة: ﴿فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾، وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

﴿* قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، المقتدر على كل شيء ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً﴾ أي نظراء وأمثالاً تعبدونها معه، ﴿ذلك رب العالمين﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم، وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خلق السماوات

والأرض في ستة أيام﴾ ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال عزّ وجلّ: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ الآية، فأما قوله تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ إلى قوله: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها ۝ أخرج منها ماءها ومرعاها﴾، ففي هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو مفسر بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخاري عن سعيد بن جبير قال، قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾، ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾، ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾، ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فقد كتموا في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها – إلى قوله – والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين – إلى قوله – طائعين﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء، قال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾، ﴿عزيزاً حكيماً﴾، ﴿سميعاً بصيراً﴾ فكأنه كان ثم مضى، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ في النفخة الأولى، كما قال تعالى ﴿فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾، وفي النفخة الأخرى ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ . وأما قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾، فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتم حديثاً، وعنده ﴿يود الذين كفروا﴾ الآية، وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دحاها﴾، وقوله: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السماوات في يومين، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ سمى نفسه بذلك، وذلك قوله اي لم يزل كذلك، فإن الله تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلا من عند الله عزّ وجلّ.

وقوله تعالى : ﴿خلق الأرض، في يومين﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين، ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها﴾ أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، وقدر فيها أقواتها، وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال: ﴿في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ أي لمن أراد السؤال، عن ذلك ليعلمه . وقال عكرمة ومجاهد في قوله عزّ وجلّ ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ جعل في كل أرض مالا يصلح في غيرها، ومنه العصب باليمن، والسابوري بسابور، والطيالسة بالري . وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى: ﴿سواء للسائلين﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك، وقال ابن زيد: ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ أي على وفق مراده، من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله تعالى قدر له ما هو محتاج إليه، وهذا القول يشبه قوله تعالى: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ والله أعلم . وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض، ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً

أو كرهاً﴾ أي استجيبا لأمري طائعتين أو مكرهتين، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ قال الله تبارك وتعالى للسماوات أطلعي شمسي وقمري ونجومي، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي ثمارك، ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ واختاره ابن جرير. وقيل تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما، وقال الحسن البصري: لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذاباً يجدان ألمه ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾ أي ففرغ في تسويتهن سبع سماوات ﴿في يومين﴾ أي آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة، ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ أي ورتب مقرراً في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو، ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وحفظاً﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى، ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، ﴿العليم﴾ بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم. روي أن اليهود أتت النبي ﷺ، فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال ﷺ: «خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الاربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين • وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ لمن سأله، قال: وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة»، ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش»، قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا: ثم استراح، فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً فنزل: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب • فاصبر على ما يقولون﴾[1].

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق، إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلّت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صاعقة

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، قال ابن كثير: وهذا الحديث فيه غرابة.

مثل صاعقة عاد وثمود﴾ أي ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما، ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾، كقوله تعالى ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ أي ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أي لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده ﴿فإنا بما أرسلتم به﴾ أي أيها البشر ﴿كافرون﴾ أي لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، قال الله تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾؟ أي منوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله، ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ أي أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة، فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وأن بطشه شديد فلهذا قال: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ قال بعضهم: وهي شديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية، وكانت باردة شديدة البرد جداً، وكانت ذات صوت مزعج. وقوله تعالى: ﴿في أيام نحسات﴾ أي متتابعات كقوله: ﴿في يوم نحس مستمر﴾ أي ابتدئوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس ﴿سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما﴾ حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة، ولهذا قال ﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى﴾ أشد خزياً لهم، ﴿وهم لا ينصرون﴾ أي في الأخرى كما لم ينصروا في الدنيا، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ قال ابن عباس: بيّنا لهم[1]، وقال الثوري: دعوناهم ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي بصرناهم وبيّنا لهم ووضّحنا لهم الحق على لسان نبيّهم صالح عليه الصلاة والسلام، فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيّهم، ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة، وذلاً وهواناً، وعذاباً ونكالاً ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي من التكذيب والجحود، ﴿ونجينا الذين آمنوا﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وتقواهم لله عزّ وجلّ.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى: ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون

---

(١) وهو قول سعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن زيد.

إلى النار ﴿ يوزعون ﴾ أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ أي عطاشاً، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ حتى إذا ما جاءُوها ﴾ أي وقفوا عليها ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ أي بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف، ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ﴾، أي فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم، فقال ﷺ: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال ﷺ: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني، قال: بلى، فيقول: فإنني لا أقبل عليّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بي شهيداً والملائكة الكرام الكاتبين - قال - فيردد هذا الكلام مراراً - قال - فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعداً لَكُنَّ وسحقاً، عنكن كنت أجادل»[1]، وقال أبو موسى: «يدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عزّ وجلّ عمله، فيجحد، ويقول: أي رب وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أي رب ما عملته، قال: فإذا فعل ذلك ختم على فيه، قال الأشعري فإني لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى»[2]، وروى الحافظ أبو يعلى، عن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم، فيقول: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك، فيقول: كذبوا فيقول: أهلك وعشيرتك. فيقول: كذبوا، فيقول: احلفوا، فيحلفون، ثم يصمتهم الله تعالى، وتشهد عليهم ألسنتهم ويدخلهم النار»[3].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون، حتى يؤذن لهم، فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله تعالى، فيحلفون له كما يحلفون لكم فيبعث الله تعالى عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم ويختم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه، فتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ فتقر الألسنة بعد الجحود[4].

وقوله تعالى: ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلمُ كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ أي هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون، هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ أي في مواقف

(١) أخرجه الحافظ البزار، ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري.

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي.

(٤) رواه ابن أبي حاتم.

القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم . روى الإمام أحمد، عن عبدالله رضي الله عنه قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقفيان - أو ثقفي وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله، قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم - إلى قوله - من الخاسرين﴾[1] . وروى الإمام أحمد، عن جابر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾»[2] . وقوله تعالى: ﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا، هم في النار لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً فما لهم أعذار، ولا تقال لهم عثرات، قال ابن جرير ومعنى قوله تعالى: ﴿وإن يستعتبوا﴾ اي يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم، قال: وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ .

* وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن، ﴿فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي حسنوا لهم أعمالهم فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾، وقوله: ﴿وحق عليهم القول﴾ أي كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس، ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ أي استووا هم وإياهم في الخسار والدمار، وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا القرآن ولا ينقادوا لأوامره، ﴿والغوا فيه﴾ أي إذا تلي لا تسمعوا له، كما قال مجاهد ﴿والغوا فيه﴾ يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن وكانت قريش تفعله، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿والغوا فيه﴾ عيبوه، وقال قتادة: اجحدوا به وأنكروه وعادوه،

---

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم والترمذي عن عبدالله بن مسعود بنحوه . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

﴿ لعلكم تغلبون﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن، وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك، فقال تعالى: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾، ثم قال عزّ وجلّ ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً﴾ أي في مقابلة ما اعتقدوه في القرآن وعند سماعه، ﴿ ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ أي بشر أعمالهم وسيء أفعالهم، ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ، وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ . عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ اللذين أضلانا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه، فإبليس الداعي إلى كل شرّ من شرك فما دونه، وابن آدم الأول كما ثبت في الحديث: « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل »[1] ، وقولهم: ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا﴾ أي أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذاباً منا، ولهذا قالوا ﴿ ليكونا من الأسفلين﴾ أي في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في الأعراف في سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، ﴿ قال لكلٍ ضعف ولكن لا تعلمون﴾ أي أنه تعالى قد أعطى كلاً منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ .

۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أي أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها »[2]. وعن سعيد بن عمران قال: «قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً »[3]. وقال عكرمة: سئل ابن عباس رضي الله عنهما: أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص ؟ قال، قوله تعالى: ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله . وقال الزهري: تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية على المنبر ، ثم قال: استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب . وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ ثم استقاموا﴾ على أداء فرائضه، وكان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة، وقال أبو العالية: ﴿ ثم استقاموا﴾ أخلصوا له الدين والعمل، وعن سفيان ابن عبدالله الثقفي قال، قلت : يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به ، قال ﷺ : « قل ربي الله ثم استقم » ، قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: « هذا »[4] . وفي

(١) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي .
(٢) أخرجه النسائي والبزار وابن جرير .
(٣) أخرجه ابن جرير عن سعيد بن عمران .
(٤) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

رواية : قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال مجاهد والسدي: يعني عند الموت قائلين : ﴿ ألا تخافوا ﴾ أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دين ، فإنا نخلفكم فيه، ﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير ، وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال: « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان »، وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم[2] ، وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث ، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا أولياءكم، أي قرناءكم في الحياة الدنيا ، نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ أي ضيافة وعطاء ﴿ من غفور ﴾ لذنوبكم ﴿ رحيم ﴾ بكم حيث غفر وستر ، ورحم ولطف، وفي الحديث: « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »، قلنا: يا رسول الله : كلنا نكره الموت، قال ﷺ: « ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِرَ جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى، فأحب الله لقاءه، قال: وإن الفاجر ، أو الكافر ، إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر ، فكره لقاء الله فكره الله لقاءه »[3] .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

يقول عزّ وجلّ : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿ وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ أي وهو في نفسه مهتد فنفعه لنفسه ولغيره، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، بل يأتمر

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي .

(٢) حكاه ابن جرير عن ابن عباس والسدي .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه .

بالخير ويترك الشر ، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير ، وهو في نفسه مهتد، وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت في صحيح مسلم: « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة »، وقال عمر رضي الله عنه: لو كنت مؤذناً لكمل أمري، وما باليت أن لا أنتصب لقيـام الليل ولا لصيام النهار ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم اغفر للمؤذنين » ثلاثاً، قال: فقلت: يا رسول الله تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف، قال ﷺ: « كلا يا عمر ، إنه سيأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله عزّ وجلّ على النـار لحوم المؤذنين »[١] . وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمـل صالحـاً وقال إنني من المسلمين﴾ قالت: فهو المؤذن إذا قال: حي على الصلاة فقد دعا إلى الله، وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما وعكرمة: إنها نزلت في المؤذنين، والصَّحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هـذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية، لأنها مكية، والأذان إنمـا شرع بالمدينة بعد الهجرة، وقوله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه، ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ وهو الصديق إي إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير ﴿كـأنه ولي حميم﴾ أي قريب إليـك من الشفقة عليك والإحسان إليك، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس في تفسير هـذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عنـد الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضـع لهم عـدوهم كأنه ولي حميم، وقوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ أي أن شيطان الإنس ربمـا ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس، إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه »[٢] .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قـادر: ﴿ومن آياته الليل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم . (٢) رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن .

والنهار والشمس والقمر﴾ أي أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول أوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به، ولهذا قال تعالى: ﴿فإن استكبروا﴾ أي عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فالذين عند ربك﴾ يعني الملائكة ﴿يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾.

وروى الحافظ أبو يعلى، عن جابر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم وعذاباً لقوم» وقوله: ﴿ومن آياته﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿أنك ترى الأرض خاشعة﴾ أي هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار، ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا﴾ قال ابن عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه، وقال قتادة: هو الكفر والعناد، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لا يخفون علينا﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد أي أنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾؟ أي أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان، ثم قال عزّ وجلّ تهديداً للكفرة: ﴿اعملوا ما شئتم﴾، قال مجاهد ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وعيد أي من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم، ولهذا قال: ﴿إنه بما تعملون بصير﴾، ثم قال جل جلاله: ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ قال الضحاك هو القرآن، ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي منيع الجناب لا يرام أن يأتي أحد بمثله، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزل من رب العالمين، ولهذا قال: ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾، قال قتادة والسدي: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك فكما كذبت كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك، وهذا اختيار ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ أي لمن تاب إليه، ﴿وذو عقاب أليم﴾ أي لمن استمر على كفره

وطغيانه، وعناده وشقاقه ومخالفته . قال سعيد بن المسيب: لمّا نزلت هـذه الآية : ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ قال رسول الله ﷺ : « لولا عفو الله وتجـاوزه ما هنأ أحداً العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد »[1]

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته ومع هذا لم يؤمن بـه المشركون ، نبه على أن كفرهم بـه كفر عناد وتعنت ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ، ما كانوا به مؤمنين﴾الآيات ، وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغـة العجم لقـالوا على وجه التعنت والعنـاد ﴿ لولا فصلت آياتـه أأعجمي وعربي ﴾ أي لقالوا هلّا أنزل مفصلاً بلغة العرب ولأنكروا ذلك ، فقالوا ﴿ أأعجمي وعربي ﴾ أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه ؟[2] وقيل: المراد بقولهم ﴿ لولا فصلت آياته أعجمي وعربي ﴾ أي هل أنزل بعضهـا بالأعجمي وبعضها بالعربي ؟ هـذا قول الحسن البصري وكان يقرؤهـا كذلك بلا استفهام في قوله أعجمي ، وهو في التعنت والعناد أبلغ ، ثم قال عزَّ وجلَّ : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ أي قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه ، وشفاء ، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ، ثم قال تعالى: ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ أي لا يفهمون مـا فيه ، ﴿ وهو عليهم عمى ﴾ أي لا يهتدون إلى مـا فيه من البيان كما قـال سبحانه وتعالى ﴿ وننزل من القرآن مـا هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيـد الظـالمين إلا خساراً ﴾ ، ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ قال مجاهد: يعني بعيد من قلوبهم ، قال ابن جرير : معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول ، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ ، وقـال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ أي كذب وأوذي ، ﴿ ولو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى ﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ، ﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا ، بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه ، هكذا وجهه ابن جرير وهو محتمل والله أعلم .

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب مرفوعاً . (٢) روي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي وغيرهم .

يقول تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿ ومن أساء فعليها ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ، ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ أي لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، ثم قال جلّ وعلا: ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال سيد البشر لجبريل عليه السلام حين سأله عن الساعة، فقال: « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ، وكما قال عزّ وجلّ: ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ ، وقال جلّ جلاله: ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أي الجميع بعلمه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، كقوله: ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿ ويوم يناديهم أين شركائي ﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق، أين شركائي الذين عبدتموهم معي ؟ ﴿ قالوا آذناك ﴾ أي أعلمناك ، ﴿ ما منا من شهيد ﴾ أي ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً ، ﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أي وأيقن المشركون يوم القيامة ﴿ ما لهم من محيص ﴾ أي لا محيد لهم من عذاب الله ، كقوله تعالى: ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ .

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

يقول تعالى : لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك، ﴿ وإن مسه الشر ﴾ وهو البلاء أو الفقر ﴿ فيئوس قنوط ﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير ، ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ﴾ أي إذا أصابه خير ورزق بعدما كان في شدة ليقولن هذا لي إني كنت أستحقه عند ربي ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي يكفر بقيام الساعة، أي لأجل أنه خوّل نعمة يبطر ويفخر ويكفر ، كما قال تعالى: ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ۞ أن رآه استغنى ﴾ ، ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ أي ولئن كان ثم معاد فليحسنن إليَّ ربي كما أحسن إليّ في هذه الدار ، يتمنى على الله عزّ وجلّ مع إساءته العمل وعدم اليقين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال، ثم قال تعالى: ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ أي أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عزّ وجلّ، كقوله جلّ جلاله: ﴿ فتولى بركنه ﴾، ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي الشدة ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز عكسه وهو ما قل ودل، وقد قال تعالى: ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ الآية .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى : ﴿ قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿ أرأيتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿ من عند الله ثم كفرتم به﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال عزّ وجلّ : ﴿ من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ ؟ أي في كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى ، ثم قال جلّ جلاله : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله، على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ في الآفاق﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان . قال مجاهد والحسن والسدي: ﴿ وفي أنفسهم﴾ قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك، من الوقائع التي نصر الله فيها محمداً ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن يكون المراد ما الإنسان مركب منه، من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح، الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ ؟ أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم. وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر بـه عنه، كما قال: ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ أي في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه، ثم قال تعالى مقرراً أنه على كل شيء قدير ﴿ ألا إنه بكل شيء محيط﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

[آخر تفسير سورة حم السجدة . ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة فصلت[١]

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ⑤﴾ .

يقول تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يعنى: القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ .عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤] .

وقوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أى: بُينت معانيه وأحكمت أحكامه[٢]، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فى حال كونه لفظا عربيا، بينا واضحا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] أى: هو معجز من حيث لفظه ومعناه، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أى: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أى: فى غلف مغطاة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أى: صمم عما جئتنا به، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شىء مما تقول، ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أى: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

قال الإمام العَلَم عبد بن حُمَيد فى مسنده: حدثنى ابن أبى شيبة، حدثنا على بن مُسْهِر، عن الأجلح، عن الذَّيَّال بن حَرْمَلة الأسدى، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: اجتمعت قريش يوما فقالوا: انظروا أعلَمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة ابن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التى عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع

(١) فى س: «تفسير حم السجدة».
(٢) فى أ: «آياته».

قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلةً قط أشأم على قومك[١] منك؛ فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا فى العرب، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرًا، وأن فى قريش كاهنا! والله ما ننظر[٢] إلا مثل صيحة الحُبْلى أن يقوم بعضنا إلى[٣] بعض بالسيوف، حتى نتفانى! أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا[٤]، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش [شئت][٥] فلنزوجك عشرا. فقال رسول الله ﷺ: «فَرَغْتَ؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا». فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ [قال: نعم، قالوا: فما قال؟][٦] قال: لا، والذى نصبها بَنِيَّةً ما فَهِمْتُ شيئا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية ما تدرى ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة.

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده، عن أبى بكر بن أبى شيبة بإسناده، مثله سواء[٧].

وقد ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فُضَيل، عن الأجلح ـ وهو ابن عبد الله الكندى [الكوفى][٨] ـ وقد ضُعِّفَ بعض الشىء عن الذَّيَّال بن حرملة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبَا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة [قد][٩] أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت لك[١٠] حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب عتبة، وأقسم ألا يكلم محمداً أبدا، وقال: والله، لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا، ولكنى أتيته وقصصت عليه [القصة][١١] فأجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب[١٢].

وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبى يعلى، والله أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة على خلاف هذا النمط، فقال:

(١) فى س: «جماعته». (٢) فى س: «ننتظر». (٣) فى أ: «على».
(٤) فى س، أ: «رجلا واحدا». (٥) زيادة من س، أ. (٦) زيادة من أ.
(٧) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٢١) ومسند أبى يعلى (٣/٣٤٩) وفى إسناده الأجلح الكندى ضعفه النسائى وغيره.
(٨) زيادة من س، أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى س، أ: «بك».
(١١) زيادة من س، أ.
(١٢) معالم التنزيل للبغوى (٧/١٦٧).

حدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظى قال: حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا ـ قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيَّها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه(١). فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريدُ بما جئتَ به من(٢) هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالا(٣). وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه ـ أو كما قال له ـ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال: «فاستمع منى» قال: أفعل. قال: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ. تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** ﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك(٤)»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم ـ يحلف(٥) بالله ـ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها لى، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم(٦).

وهذا السياق أشبه من الذى قبله، والله أعلم.

﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)** ﴾.

---

(١) فى أ: «وكلمه». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى س: «مالا».
(٤) فى أ: «وحالك». (٥) فى س: «نحلف».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، لا كما تعبدونه[١] من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾أى: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أى: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أى: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ : قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا .وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ .وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨]. والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله فى الطاعات.

وقال السدى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ .الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: الذين لا يَدِينون بالزكاة.

وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة.

وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم.

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة، كقوله تعالى:﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بَيَّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله [ﷺ][٢] الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا مجبوب[٣]، كقوله: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله تعالى:﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود : ١٠٨].

وقال السدى: غير ممنون عليهم. وقد رد عليه بعض الأئمة هذا التفسير، فإن المنة لله على أهل الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».

---

(١) فى س: «يعبدونه» . (٢) زيادة من س، أ. (٣) فى أ: «غير مقطوع ولا محسوب».

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ .

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وأمثالا تعبدونها[1] معه، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم.

وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدَأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٩].

فأما قوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣] ففى هذه الآية أن دَحْى الأرض كان بعد خلق السماء[2]، فالدَّحْىُ هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال:

وقال المنهال، عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ، قال: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فقد كتموا فى هذه الآية؟ وقال: ﴿أَمِ السَّمَاءُ[3] بَنَاهَا﴾، إلى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠]، فذكر خلق السماء قبل [خلق][4] الأرض ثم قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ ، فذكر فى هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]، فكأنه كان ثم مضى.

قال ـ يعنى ابن عباس ـ: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فى النفخة الأولى، ثم ينفخ فى الصور، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[الزمر: ٦٨] ، فلا أنساب بينهم عند

(١) فى س: «يعبدونها».
(٢) فى أ: «السموات».
(٣) فى س: «والسماء».
(٤) زيادة من س.

ذلك ولا يتساءلون، ثم فى النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: «لم نكن مشركين»، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف[1] أن الله لا يكتم حديثا، وعنده ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحجر: ٢].

وخلق الأرض فى يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن فى يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض، ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما فى يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فَخُلِقت الأرض وما فيها من شىء فى أربعة أيام، وخلقت السموات فى يومين.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: ٩٦]، سمى نفسه بذلك، وذلك قوله، أى: لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلا من عند الله عز وجل.

قال البخارى: حدثنيه يوسف بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبى أُنَيْسَة[2]، عن المنهال ـ هو ابن عمرو ـ بالحديث[3].

فقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعنى: يوم الأحد ويوم الإثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أى: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، وهو: ما يحتاج[4] أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس، يعنى: يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

وقال مجاهد وعكرمة فى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها، ومنه: العصب باليمن، والسابرى بسابور، والطيالسة بالرّى.

وقال ابن عباس، وقتادة، والسدى فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك.

وقال ابن زيد: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه.

وهذا القول يشبه ما ذكروه فى قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض،

---

(١) فى أ: «عرفوا».

(٢) فى أ: «شيبة».

(٣) صحيح البخارى (٨/ ٥٥٦) «فتح».

(٤) فى س: «ما تحتاج».

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: استجيبا لأمرى، وانفعلا لفعلى، طائعتين أو مكرهتين.

قال الثورى، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله [تعالى][1]: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال الله تعالى للسموات: أطلعى شمسى وقمرى ونجومى. وقال للأرض: شققى أنهارك، وأخرجى ثمارك. فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

واختاره ابن جرير ـ رحمه الله.

﴿قالتا أَتَيْنَا طَائعِينَ﴾ أى: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين[2] لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلا لهن معاملة من يعقل بكلامهما.

وقيل[3]: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم.

وقال الحسن البصرى: لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذابا يجدان ألمه. رواه ابن أبى حاتم.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى: ففرغ من تسويتهن سبع سموات فى يومين، أى: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ أى: ورتب مقررا فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفْظًا﴾ أى: حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى: العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

قال ابن جرير: حدثنا هَنَّاد بن السرى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى سعيد[4] البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ قال هناد: قرأت سائر الحديث ـ أن اليهود أتت النبى ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾: لمن سأل، قال: «وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق فى أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفى الثانية ألقى الآفة على كل شىء مما ينتفع به الناس، وفى الثالثة آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها فى آخر ساعة». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أتممت! قالوا:

---

(١) زيادة من س.
(٢) فى س: «مطيعون».
(٣) فى س، أ: «ويقال».
(٤) فى س: «سعد».

ثم استراح. فغضب النبى ﷺ غضبا شديدا، فنزل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ . فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨][١].

هذا الحديث فيه غرابة. فأما حديث ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»، فقد رواه مسلم، والنسائى فى كتابيهما، عن حديث ابن جريج، به[٢]. وهو من غرائب الصحيح، وقد علَّله البخارى فى التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٣]، عن كعب الأحبار، وهو الأصح.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله، فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أى: ومن شاكلهما[٤] ممن فعل كفعلهما، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أى: فى القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل

(١) تفسير الطبرى (٢٤/ ٦١)، ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٨٧٨) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٤٣) من طريق هناد به، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وتعقبه الذهبى فقال: «أبو سعيد البقال: قال ابن معين: لا يكتب حديثه».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠١٠).
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «شاكلهم».

يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس[(١)] أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أى: لو أرسل الله رسلا[(٢)] لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أى: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أى: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ [بِغَيْرِ الْحَقِّ][(٣)]﴾ أى: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أى: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أى: أفما يتفكرون[(٤)] فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهى الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هى التى لها صوت.

والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أى: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمى النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا[(٥)]»، لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أى: متتابعات، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أى: ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزى الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ [أى][(٦)]: أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ أى: فى الأخرى[(٧)]، كما لم ينصروا فى الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدى، وابن زيد: بينا لهم[(٨)].

وقال الثورى: دعوناهم.

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أى: بصرناهم، وبينا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ﷺ[(٩)]، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أى: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من التكذيب والجحود.

---

(١) فى س: «ألبس الله». (٢) فى ت: «رسولا». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت، س: «أفما يفكرون»، وفى أ: «فيما يتفكرون». (٥) فى ت، س: «صرصر». (٦) زيادة من أ.
(٧) فى ت: «الآخرة». (٨) فى ت: «وسعيد بن جبير وغيرهم».
(٩) فى ت، س: «عليه السلام».

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا [وَكَانُوا يَتَّقُونَ][(١)]﴾ أي: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح [عليه السلام][(٢)] بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار[(٣)]، ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] أي: عطاشا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[(٤)]﴾ أي: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يُكتَم منه حرف.

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ؟ أي: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه ترجعون.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا على بن قادم، حدثنا شريك، عن عبيد المُكتِب، عن الشعبى[(٥)]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم[(٦)]، فقال: «ألا تسألونى عن أى شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أى شيء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أى ربى، أليس وعدتنى ألا تظلمنى؟ قال: بلى، فيقول: فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بى شهيدا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردد هذا الكلام مرارا». قال: «فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعداً لكُنَّ وسُحقا، عنكن كنت أجادل».

ثم رواه [(٧)]هو وابن أبى حاتم، من حديث أبى عامر الأسدى، عن الثورى، عن عُبيد المُكْتِب، عن فُضيل بن عمرو، عن الشعبى [(٨)] ثم قال: «لانعلم رواه عن أنس غير الشعبى». وقد أخرجه مسلم

(١) زيادة من ت، أ. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «جهنم».
(٤) فى ت: «يكسبون» وهو خطأ. (٥) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده». (٦) فى أ: «أو تبسم».
(٧) فى ت: «ورواه».
(٨) ورواه ابن أبى الدنيا فى التوبة برقم (١٨) من طريق مهران بن أبى عمر عن سفيان الثورى بنحوه.

والنسائى جميعا عن أبى بكر بن أبى النضر، عن أبى النضر، عن عُبَيْد الله بن عبد الرحمن الأشجعى، عن الثورى، به [١]. ثم قال النسائى: «لا أعلم أحداً رواه عن الثورى غير الأشجعى». وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّة، عن يونس ابن عُبَيْد، عن حُميد بن هلال قال: قال أبو بُرْدَة: قال أبو موسى: ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه ـ عز وجل ـ عمله، فيجحد ويقول: أى رب، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا، فى يوم كذا، فى مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أى رب ماعملته. [قال] [٢]: فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه ـ قال الأشعرى: فإنى لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَيْر، حدثنا حسن، عن ابن لَهيعة: قال دَرّاج، عن أبى الهيثم [٣]، عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، عُرِّف الكافر بعمله، فجحد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك، يشهدون عليك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك [و] [٤] عشيرتك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم، ويدخلهم النار» [٥].

وقال ابن أبى حاتم: وحدثنا أبى، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث: سمعت أبى: حدثنا على بن زيد، عن مسلم بن صُبْيح أبى الضُحى، عن ابن عباس: أنه قال لابن الأزرق: إن يوم القيامة يأتى على الناس منه حين، لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم، ثم يؤذن لهم فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيبعث الله عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويختم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتقر الألسنة بعد الجحود.

وقال [٦] ابن أبى حاتم: حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبير الحضرمى، عن رافع أبى الحسن ـ وصف رجلا جحد ـ قال: فيشير الله إلى لسانه، فيربو فى فمه [٧] حتى يملأه، فلا يستطيع أن ينطق بكلمة، ثم يقول لآرابه [٨] كلها: تكلمى واشهدى عليه. فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده، وفرجه ويداه ورجلاه: صنعنا، عملنا، فعلنا.

وقد تقدم أحاديث كثيرة، وآثار عند قوله تعالى فى سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣).

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «وقال الحافظ أبو يعلى بإسناده».

(٤) زيادة من أ.

(٥) مسند أبى يعلى (٥٢٦٢)، ودراج عن أبى الهيثم، ضعيف.

(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت، س، أ: «فيه». (٨) فى أ: «لأركانه».

وقال ابن أبى حاتم ـ رحمه الله ـ : حدثنا أبى، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا يحيى بن سُلَيم الطائفى، عن ابن خُثَيْم، عن أبى الزبير[١]، عن جابر بن عبد الله قال: لما رجعت إلى النبى ﷺ[٢] مهاجرةُ البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب[٣] مارأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا[٤] نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم ياغُدَر، إذا وضع الله الكرسى، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدا؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: «صَدَقَتْ،[و][٥] صدقت، كيف يُقدس الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟».

هذا حديث غريب من هذا الوجه. ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأهوال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا يحيى بن سليم، به[٦].

وقوله: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ** ﴾ أى: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ماكنتم تتكتمون[٧] منا الذى كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى، ولا تبالون منه فى زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ** ﴾ أى: هذا الظن الفاسد ـ وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ـ هو الذى أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿ **فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ أى: فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمارة، عن عبد الرحمن ابن يزيد[٨]، عن عبد الله قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشى، وختناه ثقفيان ـ أو: ثقفى وختناه قرشيان ـ كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه[٩]، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾.

وكذا رواه الترمذى عن هناد، عن أبى معاوية، بإسناده نحوه[١٠]. وأخرجه أحمد ومسلم والترمذى أيضا، من حديث سفيان الثورى، عن الأعمش، عن عُمارة بن عمير، عن وهب بن

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده». (٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى ت: «بأعجب».
(٤) فى ت، س، أ: «بينما». (٥) زيادة من أ.
(٦) الأهوال لابن أبى الدنيا برقم (٢٤٣)، ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٠١٠) حدثنا سويد بن سعيد فذكره. قال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه: «هذا إسناد حسن، سويد مختلف فيه».
(٧) فى أ: «تكتمون». (٨) فى ت: «رواه الإمام أحمد بإسناده». (٩) فى ت: «يسمعه».
(١٠) المسند (١/ ٣٨١)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).

ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه[١]. ورواه البخارى ومسلم أيضا، من حديث السفيانين، عن منصور، عن مجاهد، عن أبى مَعْمَر عبد الله بن سَخْبرة، عن ابن مسعود، به[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدعَون مُفَدَّماً على أفواهكم بالفدام، فأول شىء يبين[٣] عن أحدكم فخذه وكفه[٤]»[٥].

قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ ، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أنا مع عبدى عند ظنه بى، وأنا معه إذا دعانى»، ثم افترَّ الحسن ينظر فى هذا، فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظن بالله فأساءا العمل. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل القاص[٦] ـ وهو أبو المغيرة ـ حدثنا ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾»[٨].

وقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أى: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا[٩] فما لهم أعذار، ولا تُقَال لهم عثرات.

قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أى: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم ـ قال: وهذه كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨].

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

---

(١) المسند (١/٤٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥) ،وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨١٧) ،وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥).
(٣) فى أ: «ينطق». (٤) فى أ: «وكتفه».
(٥) تفسير عبد الرزاق (٢/١٥١)، والمصنف (٢٠١١٥)، ورواه النسائى فى السنن (٥/٤) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٥٣٦) من طريق عن بهز بن حكيم بنحوه.
(٦) فى أ: «القاضى». (٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد عن جابر».
(٨) المسند (٣/٣٩٠).
(٩) فى ت، أ: «أعذارهم».

أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم فى أفعاله، بما قَيَّض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن: ﴿**فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ أى: حَسَّنوا لهم أعمالهم فى الماضى، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿**وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**﴾ أى: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس، ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ**﴾ أى: استوَوَا هم وإياهم فى الخسار والدمار.

وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ**﴾ أى: تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره[(١)]، ﴿**وَالْغَوْا فِيهِ**﴾ أى: إذا تلى لا تستمعوا له. كما قال مجاهد: ﴿**وَالْغَوْا فِيهِ**﴾ يعنى: بالمكاء [(٢)] والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿**وَالْغَوْا فِيهِ**﴾ : عيبوه[(٣)].

وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه.

﴿**لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾: هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالى: منتصرا للقرآن، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران: ﴿**فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ أى: فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه، ﴿ **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أى: بشَرِّ أعمالهم، وسيِّئ أفعالهم ﴿**ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ**﴾.

قال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مالك بن الحصين الفزارى، عن أبيه[(٤)]، عن على،

---

(١) فى ت: «لأمره».

(٢) فى ت، أ: «بالمكاء والتصدية».

(٣) فى ت، س: «قعوا فيه، عيبوه».

(٤) فى ت: «عن أبيه روى».

رضى الله عنه، فى قوله: ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه.

وهكذا روى حبة العُرَنى عن على، مثل ذلك.

وقال السدى، عن على: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس ـ لعنه الله ـ هو الداعى إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت فى الحديث: «ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»[(١)].

وقوله[(٢)]: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أى: أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ أى: فى الدرك الأسفل من النار، كما تقدم فى «الأعراف» من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أى: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا الجراح، حدثنا سلم[(٣)] بن قتيبة أبو قتيبة الشَّعيرى، حدثنا سهيل[(٤)] بن أبى حزم، حدثنا ثابت[(٥)]، عن أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم[(٦)]، فمن قالها حتى[(٧)] يموت فقد[(٨)] استقام عليها.

وكذا رواه النسائى فى تفسيره، والبزار وابن جرير، عن عمرو بن على الفلاس، عن سلم[(٩)] بن قتيبة، به[(١٠)]. وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن الفلاس، به. ثم قال ابن جرير:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد[(١١)]،

---

(١) الحديث أخرجه الجماعة سوى أبى داود، وانظر تخريجه عند الآية: ٢٩ من سورة المائدة.
(٢) فى س: «وقولهم». (٣) فى أ: «مسلم». (٤) فى أ: «سهل».
(٥) فى ت: «قال الحافظ أبو يعلى الموصلى بسنده». (٦) فى أ: «ثم كفروا». (٧) فى ت: «حين».
(٨) فى ت، س: «فهو ممن».
(٩) فى أ: «مسلم».
(١٠) مسند أبى يعلى (٦/٢١٣) ، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٠) ، وتفسير الطبرى (٢٤/٧٣).
(١١) فى أ: «سعيد».

عن سعيد[١] بن نمران[٢] قال: قرأت[٣] عند أبى بكر الصديق هذه الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئا.

ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر، رضى الله عنه: ما تقولون فى هذه الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾؟ قال: فقالوا: ﴿**رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾: من ذنب. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل، ﴿**قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره.

وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدى، وغير واحد[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى[٥]، أخبرنا حفص بن عمر العدنى، عن الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس[٦]، رضى الله عنهما: أى آية فى كتاب الله أرخص؟ قال قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الزهرى: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا ـ والله ـ لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ **قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة.

وقال أبو العالية: ﴿ **ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾: أخلصوا له العمل والدين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان الثقفى، عن أبيه[٧]؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». قلت: فما أتقى؟ فأومأ إلى لسانه.

ورواه النسائى من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء، به[٨].

ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيم بن سعد، حدثنى ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامدى، عن سفيان[٩] بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، حدثنى بأمر أعتصم به. قال: «قل: ربى الله، ثم استقم». قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا».

وهكذا[١٠] رواه الترمذى وابن ماجه، من حديث الزهرى، به[١١]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

---

(١) فى ت: «رواه ابن جرير عن سعيد». (٢) فى أ: «مهران». (٣) فى ت: «قُرِئَت».
(٤) فى ت: «مجاهد وغيره». (٥) فى أ: «الطبرانى».
(٦) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن ابن عباس أنه سئل». (٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».
(٨) المسند (٤/ ٣٨٤)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨٩).
(٩) فى ت: «وروى أحمد عن سفيان». (١٠) فى أ: «هكذا وكذا».
(١١) المسند (٣/٤١٣)، وسنن الترمذى برقم (٢٤١٠)، وسنن ابن ماجة برقم (٣٩٧٢).

وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». وذكر تمام الحديث[١].

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدى، وزيد بن أسلم، وابنه: يعنى عند الموت قائلين: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أى مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾ [أي][٢]: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

وهذا كما فى حديث البراء[٣]، رضى الله عنه: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجى إلى روح وريحان، ورب غير غضبان».

وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتا قرأ سورة «حم. السجدة»[٤]، حتى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾. فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، ﴿وَأَبْشِرُوا[٥] بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هى للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له فى الدنيا.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفى قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبى حاتم.

وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا. وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ أى: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أى: قرناءكم فى الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور، وعند النفخة فى الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أى: فى الجنة من جميع ما تختارون[٦] مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أى: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، [أى][٧]: كما اخترتم، ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أى: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٨). (٢) زيادة من ت، س، أ.

(٣) حديث البراء سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٤٠ من سورة الأعراف إلا أن هذا اللفظ هو لفظ حديث أبى هريرة رضى الله عنه وهو مخرج فى نفس الموضع. (٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن ثابت أنه قرأ السجدة».

(٥) فى ت، س، أ: «وأبشر» وهو خطأ. (٦) فى ت: «تختارونه». (٧) زيادة من ت.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث «سوق الجنة» عند قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، فقال:

حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عبد الحميد بن حبيب[١] بن أبى العشرين أبى سعيد، حدثنا الأوزاعى، حدثنى حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب: أنه لقى أبا هريرة [رضى الله عنه][٢]، فقال أبو هريرة: نسأل[٣] الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة. فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم، أخبرنى رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها، نزلوا بفضل أعمالهم، فيؤذن لهم فى مقدار يوم الجمعة فى أيام الدنيا فيزورون الله، عز وجل، ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة، وتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس [فيه][٤] أدناهم وما فيهم دنىء على كثبان المسك والكافور، ما يرون بأن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلسا.

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا [يوم القيامة][٥]؟ قال: «نعم، هل تتمارون[٦] فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا. قال ﷺ: «فكذلك لا تتمارون فى رؤية ربكم تعالى، ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتى إنه ليقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم عملت كذا وكذا؟ ـ يَذكِّره ببعض غدراته فى الدنيا ـ فيقول: أى رب، أفلم تغفر لى؟ فيقول: بلى، فبسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك، غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط». قال: «ثم يقول ربنا ـ عزوجل ـ: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة، وخذوا ما اشتهيتم». قال: «فنأتى سوقا قد حَفَّت به الملائكة، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على القلوب. قال: فيحمل لنا ما اشتهينا، ليس يباع فيه شىء ولا يشترى، وفى ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضا». قال: «فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة، فيلقى من هو دونه ـ وما فيهم دنىء فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضى آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه؛ وذلك لأنه لا ينبغى لأحد أن يحزن فيها.

ثم ننصرف إلى منازلنا، فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبا وأهلا بِحِبِّنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ـ عز وجل ـ وبحقنا أن ننقلب بمثل[٧] ما انقلبنا به».

وقد رواه الترمذى فى «صفة الجنة» من جامعه، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، به نحوه[٨]. ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

---

(١) فى أ: «الوليد». (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «أسأل».
(٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت، س، أ: «تمارون».
(٧) فى أ: «على».
(٨) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٩) ، وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبى عَدى، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا[١]: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شىء أحب إليه من أن يكون قد لقى الله فأحب الله لقاءه» قال: «وإن الفاجر ـ أو الكافر ـ إذا حُضِر[٢] جاءه بما هو صائر إليه من الشر ـ أو: ما يلقى من الشر ـ فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه».

وهذا حديث صحيح[٣]، وقد ورد فى الصحيح من غير هذا الوجه[٤].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أى: دعا عباد الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: وهو فى نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة فى كل من دعا إلى خير، وهو فى نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت فى صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة»[٥]. وفى السنن مرفوعا: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين»[٦].

وقال[٧] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن عَرُوبَة الهروى، حدثنا غسان قاضى هراة وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مطر، عن الحسن، عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: «سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط فى سبيل الله فى دمه».

قال: وقال ابن مسعود: «لو كنت مؤذنا ما باليت ألا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد».

(١) فى أ: «قال».
(٢) فى أ: «احتضر».
(٣) المسند (٣/١٠٧).
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٥٠٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٨٣) من طريق قتادة عن أنس عن عبادة بن الصامت بنحو الحديث المتقدم .
(٥) صحيح مسلم برقم (٣٨٧) من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه.
(٦) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٢)، وأبو داود فى السنن برقم (٥/٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٠٧).
(٧) فى ت: «وروى».

قال: وقال عمر بن الخطاب: لو كنت مؤذنا لكمل أمرى، وما باليت ألا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثا، قال: فقلت: يا رسول الله، تركتنا، ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف. قال: «كلا يا عمر، إنه يأتى(١) على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار، لحوم المؤذنين»(٢).

قال: وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قالت: فهو المؤذن إذا قال: «حى على الصلاة» فقد دعا إلى الله.

وهكذا قال ابن عمر، وعكرمة: إنها نزلت فى المؤذنين.

وقد ذكر البغوى عن أبى أمامة الباهلى، رضى الله عنه، أنه قال فى قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، قال: يعنى صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة.

ثم أورد البغوى حديث «عبد الله بن المغفل» قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة». ثم قال فى الثالثة: «لمن شاء»(٣) وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم، من حديث عبد الله بن بريدة، عنه(٤) وحديث الثورى، عن زيد العمى، عن أبى إياس معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال الثورى: لا أراه إلا وقد رفعه إلى النبى ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى فى «اليوم والليلة»، كلهم من حديث الثورى، به(٥). وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

ورواه النسائى أيضا من حديث سليمان التيمى، عن قتادة، عن أنس، به(٦).

والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم،فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية؛لأنها مكية،والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة،حين أريه عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى فى منامه، فقصه على رسول الله ﷺ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتا، كما هو مقرر فى موضعه، فالصحيح إذًا أنها عامة، كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن البصرى: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فقال: هذا حبيب الله، هذا ولى الله، هذا صفوة الله، هذا خيَرَة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا فى إجابته، وقال:

---

(١) فى ت، س: «سيأتى».

(٢) ورواه الإسماعيلى فى مسنده كما فى مسند عمر لابن كثير (١/ ١٤٤) من طريق إبراهيم بن طهمان عن مطر عن الحسن البصرى عن عمر به والحسن لم يسمع من عمر.

(٣) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٧٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٢٧)، وصحيح مسلم برقم (٨٣٨)، وسنن أبى داود برقم (٢٢٨٣)، وسنن الترمذى برقم (١٨٥)، وسنن النسائى (٢/ ٢٨)، وسنن ابن ماجه برقم (١١٦٢).

(٥) سنن أبى داود برقم (٥٢١) وسنن الترمذى برقم (٢١٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٦).

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٩).

إننى من المسلمين، هذا خليفة الله.

وقوله: ﴿وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ أى: فرق عظيم بين هذه وهذه، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أى: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر [رضى الله عنه](١): ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أى: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولى لك حميم، أى: قريب إليك من(٢) الشفقة عليك والإحسان إليك.

ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: وما يقبل(٣) هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾أى: ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم.

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده. وقد كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»(٤).

وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى «سورة الأعراف» عند قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وفى سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨].

[لكن الذى ذكر فى الأعراف أخف على النفس مما ذكر فى سورة السجدة؛ لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسىء فتتلذذ النفس من ذلك ولا انتقاد له إلا بمعالجة ويساعدها الشيطان فى هذه الحال، فتنفعل له وتستعصى على صاحبها، فتحتاج إلى مجاهدة وقوة إيمان؛ فلهذا أكد ذلك هاهنا بضمير الفصل والتعريف باللام فقال: ﴿وَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾](٥).

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى ت، أ: «فى». (٣) فى أ: «يتقبل».
(٤) انظر تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٩٧ من سورة «المؤمنون».
(٥) زيادة من ت، س.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذى لا نظير له، وأنه على ما يشاء، قادر، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى: إنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله فى فلكه، واختلاف سيره فى سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجُمَع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات.

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أى: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾، كقوله: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان ـ يعنى ابن وكيع ـ حدثنا أبى، عن ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر[(١)] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذابا لقوم»[(٢)].

وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أى: هامدة لا نبات فيها، بل هى ميتة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾أى: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا

(١) فى ت: «روى الحافظ أبو يعلى عن جابر».

(٢) مسند أبى يعلى (٤/ ١٣٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧١) : «إسناده ضعيف».

يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه.

وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد.

وقوله: ﴿ لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ أى: فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أى: إنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أى: أيستوى هذا وهذا؟ لا يستويان.

ثم قال ـ عز وجل ـ تهديداً[(١)] للكفرة: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراسانى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ : وعيد، أى: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك، والسدى، وقتادة: وهو القرآن، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أى: منيع الجناب، لا يرام أن يأتى أحد بمثله، ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أى: حكيم فى أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أى: فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

ثم قال: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة، والسدى، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو، ولا ابن أبى حاتم غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ [لِّلنَّاسِ][(٢)]﴾ أى: لمن تاب إليه، ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه، ومخالفته.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن على بن زيد[(٣)]، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا غَفْر[(٤)] الله وتجاوزه ما هنَأ أحدا العيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»[(٥)].

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

(١) فى ت، س، أ: «مهددا». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب».
(٤) فى ت، س، أ: «عفو».
(٥) إسناده مرسل، وعلى بن زيد متفق على ضعفه.

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾ .

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه فى لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿ لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أى: لقالوا: هلا أنزل مفصلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمى وعربى؟ أى: كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه.

هكذا رُوى هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدى، وغيرهم.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿ لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أى: هلا أنزل بعضها بالأعجمى، وبعضها بالعربى.

هذا قول الحسن البصرى، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام فى قوله ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبير. وهو فى [التعنت و](١) العناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أى: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما فى الصدور من الشكوك(٢) والريب، ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أى: لا يفهمون ما فيه، ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أى: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال مجاهد: يعنى بعيد من قلوبهم.

قال ابن جرير: معناه: كأن من يخاطبهم يناديهم (٣) من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول(٤).

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

وقال السدى: كان عمر بن الخطاب [رضى الله عنه](٥) جالسا عند رجل من المسلمين يقضى، إذ قال: يالبَّيكاه. فقال عمر: لِمَ تلبى؟ هل رأيت أحدا، أو دعاك أحد؟ قال: دعانى داع من وراء(٦) البحر. فقال عمر: أولئك ينادون من مكان بعيد. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أى: كُذّب وأوذى، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى أ: «الشرك». (٣) فى أ: «يدعوهم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/ ٨١).
(٥) زيادة من ت. (٦) فى ت، س، أ: «خلف».

الحساب إلى يوم المعاد، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا[1]، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحدا إلا بذنب، ولا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة ـ حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وكما[2] قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه[3] مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلت عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أي: أعلمناك، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

---

(١) في ت، س: «قالوه». (٢) في ت: «ولهذا».
(٣) في ت: «عمله».

﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) ﴾ .

يقول تعالى: لا يَمَلّ الإنسان من دعائه ربّه بالخير ـ وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك ـ وإن مسه الشر ـ وهو: البلاء أو الفقر ـ ﴿فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أى: يقع فى ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾أى: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان فى شدة ليقولن: هذا لى، إنى كنت أستحقه عند ربى، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أى: يكفر بقيام الساعة، أى: لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أى: ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسنَنّ إلى ربى، كما أحسن إلى فى هذه الدار، يتمنى على الله، عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أى: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، عز وجل، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ [الذاريات: ٣٩].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى: الشدة، ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أى: يطيل المسألة فى الشىء الواحد فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا[1] فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾؟ أى: كيف تَرَون حالكم عند الذى أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَضَلُّ

---

(١) فى ت، س: «أو قائما أو قاعدا» وهو خطأ.

﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟ أى: فى كفر وعناد ومشاقة للحق، ومَسْلَك بعيد من الهدى.

ثم قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أى: سنظهر لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله ،عز وجل ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿فِي الآفَاقِ﴾، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان.

قال [١]مجاهد، والحسن، والسدى: ودلائل فى أنفسهم، قالوا: وقعة بَدْر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التى حلّت بهم، نصر الله فيها محمدا وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله، وقوته، وحيَله، وحذره أن يجوزها، ولا يتعداها، كما أنشده ابن أبى الدنيا فى كتابه «التفكر والاعتبار»، عن شيخه أبى جعفر القرشى:

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرا ... فَانظُرْ إِلَيْكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ
أنتَ الذى يُمْسِى وَيُصْبحُ فى الـ ... ـدنيا وكُلّ أمُوره عبَرُ
أنْتَ المصرّفُ كانَ فى صِغَرٍ ... ثُمّ استَقَلَّ بِشَخْصِكَ الكِبَرُ
أنت الذى تَنعَاه خلْقَتُه ... يَنْعاه منه الشَّعْرُ وَالبَشَرُ
أنت الذى تُعْطَى وَتُسْلَب لا ... يُنْجيه من أنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ
أنْتَ الذى لا شْىءَ منه لَهُ ... وَأحَقُّ منْه بِمَاله القَدَرُ

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أى: كفى بالله[٢] شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقوله: ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أى: فى شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبؤون به وهو واقع لاريب فيه وكائن لا محالة.

قال ابن أبى الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثناخَلَف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصارى: أن عمر بن عبد العزيز صَعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإنى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق، والمكذب به هالك ثم نزل.

---

(١) فى ت، أ: «قاله».
(٢) فى ت: «به».

ومعنى قوله، رضى الله عنه: «أن المصدق به أحمق» أى: لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به، موقن بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى فى لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه، فهو أحمق بهذا الاعتبار، والأحمق فى اللغة: ضعيف العقل.

وقوله: «والمكذب به هالك»: هذا واضح، والله أعلم.

ثم قال تعالى ـ مقررا على أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى ـ : ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أى: المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته، وتحت طى علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

[آخر تفسير سورة حم السجدة](١)

---

(١) زيادة من ت، س، أ.

/ سورة السجدة[1] [٣٦و]

مكيّة، وآيها[2] ثلاث أو[3] أربع وخمسون.[4]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾

﴿حمٓ﴾ إن جُعل اسمًا للسورة فهو إمّا خبر لمبتدأ محذوف -وهو الأظهر لِما مرّ سرّه مِرارًا- أو مبتدأ خبرُه: ﴿تَنزِيلٞ﴾، وهو على الأوّل خبر بعد خبر، وخبرٌ لمبتدأ محذوف إن جعل مسرودًا على نمط التعديد. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ متعلِّق به مؤكِّد لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أو خبر آخر، أو ﴿تَنزِيلٞ﴾ مبتدأٌ لِتخصّصه بالصفة، خبره: ﴿كِتَٰبٞ﴾. وهو على الوجوه الأُوَل بدل منه، أو خبر آخر، أو خبر لِمحذوف.

ونسبة "التنزيل" إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ للإيذان بأنّه مدار للمصالح الدينيّة والدنيويّة، واقع بمقتضى الرحمة الربّانيّة حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١].

﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ مُيزتْ بحسَب النظم والمعنى، وجُعلت تفاصيلَ في أساليبَ مختلفة ومعانٍ متغايرة مِن أحكام وقَصص ومواعظ وأمثال ووعدٍ ووعيد. وقُرئ: "فَصَلَتْ"،[5] أي: فرَقت بين الحقّ والباطل، أو فَصَل بعضها مِن بعض باختلاف الأساليب والمعاني، مِن قولك: فَصَل مِن البلد فُصُولًا.

---

١ وهي سورة فُصّلت، ومِن أسمائها كذلك: سورة المصابيح. انظر: الإتقان للسيوطي، ١٩٤/١.

٢ س ي: وهي.

٣ س ي - ثلاث أو.

٤ س ي + آية.

٥ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. وهي في سورة هود مرويّة عن عكرمة والضحّاك والجحدري وابن كثير. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨٤/٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٨٤/٩؛ والمحتسب لابن جنّي، ٣١٨/١.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على المدح، أو الحاليّة مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾ لِتخصُّصه بالصفة، أو مِن ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: معانيَه لكونه على لسانهم. وقيل: لأهل العِلم والنظر؛ لأنّهم المنتفعون به. واللام متعلِّقة بمحذوف هو صفة أخرى لـ﴿قُرْءَانًا﴾، أي: كائنًا لقوم... إلخ، أو بـ﴿تَنزِيلٌ﴾ على أنّ ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليست بصفةٍ له، أو بـ﴿فُصِّلَتْ﴾.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفتان أُخريان لـ﴿قُرْءَانًا﴾،[١] أي: بشيرًا لِأهل الطاعة، ونذيرًا لأهل المعصية، أو حالان مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾،[٢] أو مِن ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾.[٣] وقُرِئا بالرفع[٤] على الوصفيّة لـ﴿كِتَٰبٌ﴾،[٥] أو الخبريّة لِمحذوف.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبّره مع كونه على لغتهم، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تفكّر وتأمّل حتّى يفهموا جلالةَ قدره فيؤمنوا به.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند دعوته إيّاهم إلى الإيمان والعمل بما في القرآن: / ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي: أغطيةٍ متكاثفةٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَم، وأصلُه الثِّقل. وقُرئ بالكسر.[٦] وقُرئ بفتحِ القاف.[٧] ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل. و﴿مِنۢ﴾ للدلالة [٣٦ظ]

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ في الآية السابقة.

٤ أي: "بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ والشيرازي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٠.

٥ في الآية السابقة.

٦ أي: "وِقْرٌ". قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٠.

٧ أي: "وَقَرٌ". قراءة شاذّة، ولم أجد مَن ذكرها قبل أبي السعود. وذكرها الشوكاني في فتح القدير، ٥٧٩/٤.

على أنّ الحجاب مبتدئ مِن الجانبين بحيث استوعب ما بينهما مِن المسافة المتوسّطة ولم يبقَ ثمّة فراغ أصلًا، وهذه تمثيلات لنُبوّ قلوبهم عن إدراك الحقّ وقبوله، ومَجِّ أسماعهم له كأنّ بها صَمَمًا، وامتناعِ مواصلتهم وموافقتهم للرسول صلّى الله عليه وسلّم.[1]

﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ أي: على دينك. وقيل: في إبطال أمرنا. ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: على ديننا. وقيل: في إبطال أمرك. والأوّل هو الأظهر؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ تلقِين للجواب عنه، أي: لستُ مِن جنسٍ مُغاير لكم حتّى يكونَ بيني وبينكم حجاب وتباين مُصحِّح لتباين الأعمال والأديان كما يُنبئ عنه قولكم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾؛ بل إنّما أنا[2] بشر مثلكم، مأمور بما أُمرتُم به، حيث أُخبِرْنَا جَميعًا بالتوحيد بخطابٍ جامعٍ بيني وبينكم، فإنّ الخطاب في ﴿إِلَٰهُكُمۡ﴾ مَحكيّ مُنتظِم للكلّ، لا أنّه خطابٌ منه عليه السلام للكفَرة كما في ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾.

وقيل: المعنى: لستُ ملَكًا ولا جِنّيًا لا يمكنكم التلقّي منه، ولا أدعوكم إلى ما يَنبُو عنه العقول والأسماع، وإنّما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل، وقد يدلّ عليهما دلائل العقل وشواهد النقل.

وقيل: المعنى: إنّي لستُ بمَلَك، وإنّما أنا بشر مثلكم، وقد أُوحي إليّ دونكم، فصَحَّت بالوحي إليّ وأنا بشَرٌ نُبوّتِي، وإذا صَحَّت نُبوَّتي وجب عليكم اتّباعي، فتأمّل.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن إيحاء الوحدانيّة، فإنّ ذلك موجِب لاستقامتهم إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص في الأعمال. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ ممّا كنتم عليه مِن سوء العقيدة والعمل.

/ وقوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك إثْرَ ترغيبهم في التوحيد. [٣٧و]

---

[1] س ي: عليه السلام.

[2] س – أنا.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾

ووصفُهم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة، حيث جُعل مِن أوصاف المشركين، وقُرِن بالكفر بالآخرة حيث قيل: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، وهو عطف على ﴿لَا يُؤۡتُونَ﴾، داخل في حيّز الصلة. واختلافهما بالفعليّة والاسميّة لِما أنّ عدم إيتائها متجدّد، والكفر أمر مستمرّ.

ونُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه فسّر ﴿لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بقوله: «لا يقولون: لا إلٰه إلّا الله، فإنّها زكاة الأنفُس».[1] والمعنى: لا يُطهِّرون أنفسهم مِن الشرك بالتوحيد، وهو مأخوذ مِن قوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس، ٩١/٧].

وقال الضحّاك ومُقاتل: «لا ينفقون في الطاعة، ولا يتصدَّقون».[2] وقال مجاهد: «لا يزكّون أعمالهم».[3]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي: لا يُمَنُّ به عليهم، مِن المَنّ، وأصله: الثِّقل. أو لا يُقطع، مِن "مَنَنتُ الحَبْل" قطعتُه. وقيل: نزلَت في المرضى والهَرمى إذا عجزوا عن الطاعة كُتب لهم الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون.[4]

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩﴾

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾ إنكار وتشنيع لكفرهم. و"إنّ" و"اللام" إمّا لِتأكيد الإنكار، وتقديمُ الهمزة لاقتضائها الصدارةَ، لا لإنكار التأكيد، وإمّا للإشعار بأنّ كفرهم مِن البُعد بحيث يُنكِر العقلاءُ وقوعَه، فيحتاج إلى التأكيد، وإنّما عُلّق كفرهم بالموصول حيث قيل: ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ لتفخيم شأنه تعالى، واستعظامِ كفرهم به، أي: بالعظيم الشأن الذي قدّر وجودَها -أي:

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٨؛ اللباب لابن عادل، ١٠٢/١٧.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٨؛ اللباب لابن عادل، ١٠٢/١٧.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٨؛ اللباب لابن عادل، ١٠٢/١٧.

[4] الكشّاف للزمخشري، ١٨٧/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٧/٥.

حكم بأنّها سَتُوجدُ- في مقدار يومين، أو في نَوبتَين، على أنّ ما يُوجد في كلّ نَوبة يوجد بأسرعِ ما يكون، وإلّا فاليوم الحقيقي إنّما يتحقّق بعد وجودِها وتسويةِ السماوات وإبداعِ نيّراتها وترتيبِ حركاتها.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ عطف على ﴿تَكْفُرُونَ﴾، داخل في حكم الإنكار والتوبيخ. وجمعُ "الأنداد" / باعتبار ما هو الواقع، لا بأن يكون مدارُ الإنكار هو التعدّدَ، أي: وتجعلون له أندادًا والحال أنّه لا يمكن أن يكون له نِدٌّ واحد. [٣٧ظ]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في العظمة. وإفراد الكاف لِما مرّ مرارًا مِن أنّ المراد ليس تعيين المخاطبين. وهو مبتدأ خبره ما بعدَه، أي: ذلك العظيم الشأنِ الذي فعل ما ذُكر ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالق جميع الموجودات ومربّيها دون الأرض خاصّةً، فكيف يُتَصوَّرُ أن يكون أخسُّ مخلوقاته نِدًّا له؟

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ عطفٌ على ﴿خَلَقَ﴾،[١] داخل في حُكم الصلة. والجَعل إبداعي. وحديثُ لزوم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيّز الصلة[٢] مدفوعٌ بأنّ الأُولى متّحدة بقوله تعالى: ﴿تَكْفُرُونَ﴾، فهو بمنزلة الإعادة له، والثانية اعتراضيّة مقرِّرة لمَضمون الكلام بمنزلة التأكيد، فالفصلُ بهما كلَا فصلٍ، على أنّ فيه فائدةَ التنبيه على أنّ مجرّد المعطوف عليه كافٍ في تحقّق ربوبيّته للعالمين، واستحالةِ أن يُجعل له نِدّ، فكيف إذا انضمّ إليه المعطوفات؟

وقيل: هو عطفٌ على مقدَّر، أي: خلقَها وجعلَ... إلخ. وقيل: هو كلام مستأنَف. وأيًّا ما كان فالمراد تقدير الجَعلِ، لا الجَعلُ بالفعل.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قال البيضاوي: «استئناف غير معطوف على ﴿خَلَقَ﴾ للفصل بما هو خارج عن الصِّلة». أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٦٧.

وقوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ متعلِّق بـ﴿جَعَلَ﴾، أو بمضمَر هو صفة لـ﴿رَوَاسِيَ﴾، أي: كائنةً مِن فوقها مرتفعةً عليها؛ ليكون منافعها مُعْرَضَةً[١] لأهلها، ويظهرَ للنُّظّارِ ما فيها مِن مراصد الاعتبار، ومطارح الأفكار.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: قدّر أن يُكثِر خيرَها، بأن يخلق أنواع الحيوان التي مِن جملتها الإنسان وأصناف النبات التي منها معايشهم.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي: حكم بالفعل بأن يُوجِد فيما سيأتي لأهلها مِن الأنواع المختلفة أقواتَها المناسبةَ لها على مقدار معيَّن يقتضيه الحكمة. وقُرئ: "وَقَسَّمَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا".[٢] ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ متعلِّق بحصول الأمور المذكورة، / لا [٣٨و]
بتقديرها، أي: قدّر حصولَها في يومين. وإنّما قيل: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ -أي: تتمّة أربعة أيّام- تصريحًا بالفَذْلَكة.[٣]

﴿سَوَآءً﴾ مصدر مؤكِّد لمضمَر، هو صفة لـ﴿أَيَّامٍ﴾، أي: استوَتْ سواءً، أي: استواءً، كما يُنبئ عنه القراءة بالجرّ.[٤] وقيل: هو حال مِن الضمير في ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾، أو في ﴿فِيهَا﴾. وقُرئ بالرفع،[٥] أي: هو سواءٌ. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّق بمحذوف، تقديره: هذا الحَصر للسائلين عن مدّة خلق الأرض وما فيها. أو بـ﴿قَدَّرَ﴾، أي: قدّر فيها أقواتَها لأجل السائلين، أي: الطالبين لها، المحتاجين إليها مِن المُقتاتين.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾

---

١ م: "مُعْرِضَة" [بكسر الراء]. | وقال الشهاب الخفاجي: «مُعْرَضَة: بوزن اسم المفعول، مِن الإفعال مِن: أعرَضَه لك إذا أظهره، ومكّنك مِن أخذه، أو مِن التفعيل، وهو قريب منه معنًى». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٨٩/٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٣٩٠/٢٠.

٣ قال الشهاب الخفاجي: «الفَذْلَكة بمعنى: جملة الحساب، وهو لفظ منحوت مِن قولهم بعد العدَد لشيء: "فذلك يكون كذا"، فاشتقّوا منه فَعْلَلَة مصدر، لكنّه قيل عليه: إنّ الفَذلكة يُذكر فيها تفاصيل أعداد ثمّ يُؤتى لها بجملة، فيقال مثلًا هنا: يومان ويومان فهي أربعة، وما هنا ليس كذلك، فكيف يكون فذلكة، وهو لم يذكر فيه أحدَ المقدارين؟ فإمّا أن يقال: إنّه للعِلم به نُزِّل مَنزلة المذكور، أو يقال: المراد إنّه جارٍ مَجرى الفَذلكة». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٨٩/٧.

٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ شروع في بيان كيفيّة التكوين إثْرَ بيان كيفيّة التقدير. ولعلّ تخصيصَ البيان بما يتعلّق بالأرض وأهلها لِما أنّ بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيبِ مبادي معايشهم قبلَ خلقهم ممّا يحملهم على الإيمان، ويزجرهم عن الكفر والطغيان، أي: ثمّ قصدَ نحوها قصدًا سويًّا لا يلوي على غيره.

﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: أمر ظلماني، عبّر به عن مادّتها، أو عن الأجزاء المتصغّرة التي رُكّبت هي منها، أو دخانٌ مرتفع مِن الماء كما سيأتي. وإنّما خُصَّ الاستواء بالسماء -مع أنّ الخطاب المترتّب عليه متوجِّه إليهما معًا حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾- اكتفاءً بذِكر تقديرها وتقديرِ ما فيها، كأنّه قيل: فقال لها وللأرض التي قَدّر وجودَها ووجودَ ما فيها: ﴿ٱئْتِيَا﴾، أي: كُونا واحدُثا على وجه معيّن وفي وقت مقدّر لكلّ منكما. وهو عبارة عن تعلّق إرادته تعالى بوجودهما تعلّقًا فعليًا بطريق التمثيل بعد تقدير أمرهما مِن غير أن يكون هناك أمر ومأمور، كما في قوله تعالى: ﴿كُن﴾ [البقرة، ٢/١١٧].

وقوله تعالى: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تمثيل لتحتُّم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالةِ امتناعهما مِن ذلك، لا إثباتِ الطَّوع والكَره لهما. وهما مصدران وقعا موقع الحال، أي: طائعتين أو كارهتين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: منقادِين. تمثيل لكمال تأثّرهما بالذات عن القدرة الربّانيّة، وحصولِهما كما أُمِرتا به، وتصويرٌ لكون وجودهما كما هما عليه جاريًا على مقتضى الحكمة البالغة، فإنّ الطَّوع مُنبئ عن ذلك، والكَره مُوهِمٌ لخلافهِ. وإنّما قيل: ﴿طَآئِعِينَ﴾ / باعتبار كونهما في مَعرض الخطاب والجواب، كقوله تعالى: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف، ٧/١٢٠]. [٣٨ظ]

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ تفسير وتفصيل لتكوين السماء المُجمَلِ المعبَّر عنه بالأمر وجوابِه، لا أنّه فعل مترتّب على تكوينها، أي: خلقَهنّ خلقًا إبداعيًا

وأتقنَ أمرهنّ حسبما يقتضيه الحكمة. والضمير إمّا لـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على المعنى، أو مبهَم. و﴿سَبۡعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ حال على الأوّل، تمييز على الثاني.

﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ في وقت مقدّر بيومين. وقد بُيّن مقدارُ زمان خلق الأرض وخلقِ ما فيها عند بيان تقديرهما، فكان خلقُ الكلّ في ستّة أيّام حسبما نُصَّ عليه في مواقعَ مِن التنزيل.[١]

﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ عطفٌ على ﴿قَضَىٰهُنَّ﴾، أي: خلَق في كلّ منها ما فيها مِن الملائكة والنيّرات وغير ذلك ممّا لا يعلمه إلّا الله تعالى، كما قاله قتادة والسدّي.[٢] فالوحي عبارةٌ عن التكوين كالأمر، مقيّدٌ بما قُيّد[٣] به المعطوف عليه مِن الوقت. أو أوحى إلى أهل كلٍّ منها أوامره، وكلّفهم ما يليق بهم مِن التكاليف، فهو بمعناه، ومطلَق عن القيد المذكور. وأيًّا مّا كان فعلى ما قُرّر مِن التفصيل لا دلالةَ في الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء، وإنّما الترتيب بين التقدير والإيجاد.

وأمّا على تقدير كون الخلق وما عُطف عليه مِن الأفعال الثلاثة[٤] على معانيها الظاهرة فهي وما في سورة البقرة مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [البقرة، ٢٩/٢] تدلّان على تقدّم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها، وعليه إطباق أكثر أهل التفسير.

وقد رُوِي أنّ العرش العظيم كان قبل خلق السماوات والأرض على الماء، ثمّ إنّه تعالى أحدث في الماء اضطرابًا فأَزْبَدَ فارتفع منه دخان، فأمّا الزبَد فبقي على وجه الماء، فخلق فيه اليُبوسة فجعله أرضًا واحدةً، ثمّ فتَقَها فجعلها أرضين، وأمّا الدخان فارتفع / وعلا فخلق منه السماوات.[٥] [٣٩و]

---

١ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآيةَ [الأعراف، ٥٤/٧].

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٩٣/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٨/٨.

٣ س – بما قُيّد.

٤ وفي هامش س: وهي: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾، ﴿وَبَٰرَكَ﴾، ﴿وَقَدَّرَ﴾.(١) «منه». | (١) فصلت، ١٠/٤١.

٥ الكشّاف للزمخشري، ١٨٩/٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٤٦٢/١.

ورُوِي أنّه تعالى خلق جِرم الأرض يومَ الأحد ويومَ الاثنين، ودحاها وخلق ما فيها يومَ الثلاثاء ويومَ الأربعاء، وخلق السماوات وما فيهنّ يومَ الخميس ويومَ الجمعة، وخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة منه، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة.[١]

وقيل: إنّ خلْق جِرم الأرض مقدَّم على خلق السماوات، لكنّ دَحْوَها وخلْق ما فيها مؤخَّر عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا﴾ [النازعات، ٣٠/٧٩]، ولِما رُوي عن الحسَن رحمه الله مِن أنّه تعالى خلَق الأرض في موضعِ بيت المَقدس كهيئة الفِهْر[٢] عليه دخان ملتزِق بها، ثمّ أصعَد الدخانَ، وخلَق منه السماوات، وأمسك الفِهر في موضعها، وبسط منها الأرض،[٣] وذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ الآية [الأنبياء، ٣٠/٢١].

وليس المراد بنظمها مع السماء في سِلك الأمر بالإتيان إنشاءَها وإحداثها؛ بل إنشاءُ دَحْوِها، وجعلُها على وجه خاصّ يليق بها مِن شكل معيّن ووصف مخصوص، كأنّه قيل: ائتِيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه، ائتي يا أرض مدحوّةً قرارًا ومِهادًا لِأهلِكِ، وائتي يا سماء مُقبَّبةً سقفًا لهم.

ومعنى الإتيان الحصولُ على ذلك الوجه، كما يُنبئ عنه قراءةُ "آتِيَا" و"آتَيْنَا"[٤] مِنَ المواتاة، وهي الموافقة. وأنت خبير بأنّ المذكور قبل الأمر بالإتيان ليس مجرّدَ خلق جِرم الأرض حتّى يتأتّى ما ذُكر؛ بل خَلْقُ ما فيها أيضًا مِن الأمور المتأخّرة عن دَحوها قطعًا.

فالأظهر أن يُسلك مسلكَ الأوّلَين ويُحملَ الأمر بالإتيان على تكوينِهما متوافقتين على الوجه المذكور، وليس مِن ضرورته أن يكون دحوها مترتّبًا على ذلك التكوين، وإنّما اللازم ترتّب حصول التوافق عليه، ولا ريب في أنّ تكوين السماء على الوجه اللائق بها كافٍ في حصولِهِ. ولا يقدح في ذلك

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٦٤/١ (البقرة، ٢٩/٢)؛ ٣٨٢/٢٠؛ والدرّ المنثور للسيوطي، ٣١٥/٧.

٢ الفِهر: الحجَر ملء الكفِّ. الصِّحاح للجوهري، «فهر».

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٢٤/١ (البقرة، ٢٩/٢).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير ومجاهد. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٧/٥.

[٣٩ظ] / تكوينُ الأرض على الوجه المذكور قبل ذلك. وأنْ يُجعلَ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات، ٧٩/٣٠] منصوبًا بمضمَر قد حُذف على شريطة التفسير، ويُجعلَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى ذِكر ما ذُكر مِن بناء السماء ورفعِ سمكها وتسويتها وغيرِها لا إلى أنفسِها، ويُحملَ البعديّة إمّا على أنّه قاصر عن الأوّل في الدلالة على القُدرة القاهرة كما قيل. وإمّا على أنّه أدخل في الإلزام، لِما أنّ المنافع المَنوطة بما في الأرض أكثر، وتعلُّقَ مصالحِ الناس بذلك أظهر، وإحاطتَهم بتفاصيلها أكمل.

وليس ما رُوي عنِ الحسَن رضي الله عنه نصًّا في تأخّرِ دَحْو الأرض عن خلْق السماء، فإنّ بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلقِ السماء بالواو، فلا دلالة في ذلك على الترتيب قطعًا.

وقد نَقل الإمام الواحدي عن مُقاتل رحمهما الله: أنّ خلق السماء مقدَّم على إيجاد الأرض فضلًا عن دَحْوها.[١] فلا بدّ مِن حمل الأمر بإتيانهما حينئذ أيضًا على ما ذُكر مِن التوافقِ والمُواتاة. ولا يقدح في ذلك تقدّم خلق السماء على خلق الأرض كما لم يقدح فيه تقدّم خلق الأرض على خلق السماء.

هذا كلُّه على تقدير كون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزمانيّ، وأمّا على تقدير كونها للتراخي الرُّتْبيّ -كما جنَح إليه الأكثرون-[٢] فلا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب كما في الوجه الأوّل، وعلى ذلك بُني الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/٢٩]. وإنّما لم يُحمَل الخلق هناك على معنى التقدير كما حُمِل عليه ههنا لتوفية مقام الامتنان حقّه.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ مِن الكواكب، فإنّها كلُّها تُرى مُتلألئةً عليها

[٤٠و] كأنّها فيها. والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالأمر. / وقوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ مصدر مؤكِّد لفعل معطوف على ﴿زَيَّنَّا﴾، أي: وحفِظناها مِن الآفات،

---

١ التفسير البسيط للواحدي، ١٩/٤٣٠. وانظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٤/٥٧٨.

٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٦٧.

أو مِن المُسترِقة حفظًا. وقيل: مفعول له على المعنى، كأنّه قيل: وخلقنا المصابيح زينةً وحِفظًا. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر بتفاصيله ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ المبالغ في القدرة والعِلم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾... إلخ،[1] أي: فإن أعرضوا عن التدبّر فيما ذُكر مِن عظائم الأمور الداعية إلى الإيمان، أو عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: أُنذِركم، وصيغةُ الماضِي للدلالة على تحقّق الإنذارِ المُنبئ عن تحقّق المنذَرِ. ﴿صَٰعِقَةً﴾ أي: عذابًا هائلًا شديدَ الوَقع كأنّه صاعقة ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. وقُرئ: "صَعْقَةً مِثْلَ صَعْقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ"،[2] وهي المرّة مِن الصَّعْق أو الصَّعَقِ، يقال: صَعَقَتْهُ الصاعقةُ صَعْقًا فَصَعِقَ صَعَقًا، وهو مِن باب فَعَلْتُه فَفَعِلَ.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ حال مِن ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾،[3] ولا سدادَ لجعله ظرفًا لـ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾[4] أو صفة لـ﴿صَٰعِقَةً﴾[5] لفساد المعنى. وأمّا جعلُه صفةً لـ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ﴾[6] -أي: الكائنة إذ جاءتهم- ففيه حذف الموصول مع بعض صلته.

﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ متعلّق بـ﴿جَآءَتْهُمُ﴾، أي: مِن جميع جوانبهم، واجتهَدوا بهم مِن كلّ جهة، أو مِن جهة الزمان الماضي بالإنذار عمّا جرى فيه على الكفّار، ومِن جهة المستقبل بالتحذير عمّا سيَحيق بهم مِن عذاب الدنيا ومِن عذاب الآخرة.

---

١ فصلت، ٤١/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر والزبير بن العوام وعبد الله بن الزبير وابن مُحيصن والنخعي. شواذّ القراءات، ص ٤٢١.

٣ في الآية السابقة.

٤ في الآية السابقة.

٥ في الآية السابقة.

٦ في الآية السابقة.

وقيل: المعنى: جاءتهم الرسل المتقدِّمون والمتأخِّرون، على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحقّ منزلةَ مجيء أنفسهم، فإنّ هُودًا وصالحًا كانا داعيَينِ لهم إلى الإيمان بهما وبجميعِ الرسل ممّن جاء مِن بين أيديهم، أي: مِن قبلهم، وممّن يجيء مِن خلفهم، أي: مِن بعدهم، فكأنّ الرسل قد جاءوهم وخاطبوهم بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: بأن لا تعبدوا، على أنّ "أنْ" مصدريّة، أو أي: لا تعبدوا، على أنّها مفسِّرة.

[٤٠ظ] / ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾[1] أي: إرسالَ الرسل، لا إنزالَ الملائكة كما قيل؛[2] فإنّه عارٍ عن إفادة ما أرادوه مِن نفي رسالة البشر، وقد مرّ فيما سلف. ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لأرسلهم، لكن لمّا كان إرسالهم بطريق الإنزال قيل: ﴿لَأَنزَلَ﴾. ﴿فَإِنَّا[3] بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: على زعمكم. وفيه ضرب تهكّمٍ بهم. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ لِما أنّكم بشر مثلنا مِن غير فضل لكم علينا.

رُوي أنّ أبا جهل قال في ملأ مِن قريش: «قد التبس علينا أمر محمّد، فلو التمستم لنا رجلًا عالِمًا بالشِّعر والكهانة والسحر فكلّمه ثمّ أتانا ببيانٍ مِن أمره»، فقال عتبة بن ربيعة: «واللهِ لقد سمعت الشِّعر والكهانة والسحر، وعلمت مِن ذلك علمًا، وما يخفى عليّ»، فأتاه فقال: «أنت يا محمّد خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطّلب، أنت خير أم عبد الله، فبِم تشتم آلهتنا وتضلِّلنا، فإن كنتَ تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنتَ رئيسَنا، وإن تكُ بكَ الباءة زوّجناك عشر نسوة تختارهنّ، أيّ بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني»، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم ساكت، فلمّا فرَغ عتبة قال عليه السلام: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حم﴾...[4] إلى قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾،[5] فأمسك عتبة على فيه عليه السلام وناشدَه بالرَّحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، فلمّا احتبس عنهم قالوا: «ما نرى عتبةَ إلّا قد صبأَ»، فانطلقوا إليه، وقالوا: «يا عتبة ما حبَسك عنّا إلّا أنّك قد صبأت»،

---

[1] م س: الله.
[2] قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٩/٢٩٥؛ وابن عادل في اللباب، ١٧/١١٨.
[3] م س ي: إنّا.
[4] فصّلت، ٤١/١.
[5] فصّلت، ٤١/١٣.

فغضِب ثمّ قال: «واللهِ لقد كلّمته فأجابني بشيء، واللهِ ما هو بشِعر ولا كَهانة ولا سِحر، ولمّا بلغ ﴿صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسكتُ بفيه، وناشَدْتُه بالرحم أن يكفّ، وقد علمتم أنّ محمّدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخِفت أن ينزل بكم العذاب».[١]

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شروع في حكاية ما يخصّ بكلّ واحدة مِن الطائفتين مِن الجناية والعذاب إثْر حكاية ما يعمّ الكلّ مِن الكفر المطلق، أي: فتَعظّموا فيها على أهلها، أو استعلَوا فيها واستولَوا على أهلها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بغير استحقاق للتعظّم والوِلاية، ﴿وَقَالُواْ﴾ مدلّين بشدّتهم وقوّتهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ حيث كانوا ذوي أجسام طوال وخَلْق عظيم، وقد بلغ مِن قوّتهم أنّ الرجل كان ينزع الصخرةَ / مِن الجبل فيقتلعها بيده. [٤١و]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: أغَفِلوا، أوَ ألَمْ ينظروا ولم يعلموا عِلمًا جليًّا شبيهًا بالمشاهدة والعِيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: قدرةً، فإنّه تعالى قادر بالذات، مقتدِر على ما لا يتناهى، قويّ على ما لا يقدر عليه غيره، مُفِيض للقُوَى والقُدَر على كلّ قويّ وقادر. وإنّما أُورِد في حيّز الصلة خلقُهم دون خلْق السماوات والأرض لادّعائهم الشدّة في القوّة. وفيه ضرب مِن التهكّم بهم.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المُنزلة على الرسل ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي: يُنكرونها، وهم يعرفون حقّيّتَها، وهو عطفٌ على ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾. وما بينهما اعتراض للردّ على كلمتهم الشّنعاء.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: باردة تُهلِك وتحرق بشدّة بردها، مِن الصِّرّ؛ وهو البرد الذي يُصِرّ، أي: يجمع ويقبض. أو عاصفةً تصوِّت في هُبوبها،

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤/١٩٢. وأخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك، ٢/٢٧٨ (٣٠٠٢).

مِن الصَّرير. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ جمعُ "نحِسَة"، مِن نحِسَ نَحْسًا، نقيض سَعِد سعدًا. وقُرئ بالسكون على التخفيف،[١] أو على أنّه نعت على فَعْلٍ، أو وصف بمصدرٍ مبالغةً. قيل: كُنَّ آخرَ شوّال مِن الأربعاء إلى الأربعاء. وما عُذِّب قوم إلّا في يوم الأربعاء.[٢]

﴿لِّنُذِيقَهُمْ[٣] عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقُرئ: "لِتُذِيقَهُمْ"،[٤] على إسناد الإذاقة إلى الريح، أو إلى الأيّام. وأُضيف العذاب إلى الخزي الذي هُو الذلّ والاستكانة على أنّه وصف له -كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾- وهو في الحقيقة وصف للمعذَّب، قد وُصف به العذاب للمبالغة. ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فدلَلناهم على الحقّ بنصب الآيات التكوينيّة، وإرسال الرسل، وإنزال الآيات التشريعيّة، وأزَحنا عِلَلهم بالكلّيّة، وقد مرّ تحقيق معنى الهدى في تفسير قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢]. وقُرئ: "ثَمُودَ" بالنصب[٥] بفعل يفسّره ما بعده، ومنوّنًا في الحالين،[٦] وبضمّ الثاء.[٧]

﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الضلالة على الهداية ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ/ ٱلْهُونِ﴾ داهيةُ العذاب، وقارعة العذاب. و﴿ٱلْهُونِ﴾ الهَوان، وُصف به ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ مبالغة، أو أُبدِل منه. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن اختيار الضلالة. [٤١ظ]

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٩/٥. وهو عن ابن عبّاس في غرائب التفسير للكرماني، ١٠٤١/٢.

٣ م س ي: ليذيقهم. | وهي بالياء قراءة شاذّة، مرويّة عن زياد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الرحمن السُّلمي. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٤٠/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

٦ أي: في الرفع والنصب. وهما قراءتان شاذّتان، أمّا التنوين مع الرفع فعَن ابن يحيى والأعمش، وأمّا التنوين مع النصب فعن ابن أبي إسحاق. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

٧ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٩٤/٤.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝١٨ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩﴾

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ مِن تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ شروع في بيان عقوباتهم الآجلة إثرَ بيان عقوباتهم العاجلة. والتعبير عنهم بـ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ لذمّهم والإيذانِ بعِلّة ما يَحيق بهم مِن ألوان العذاب. وقيل: المراد بهم الكفّار مِن الأوّلين والآخرين.[١] ويَرُدّه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.[٢] وقُرئ: "يَحْشُرُ" على بناء الفاعل ونصب "أَعْدَاءَ اللهِ"،[٣] وبنون العظمة وضمّ الشينِ[٤] وكسرها.[٥]

﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى موقف الحساب؛ إذ هناك يتحقّق الشهادة الآتية، لا بعد تمام السؤال والجواب، وسَوقِهم إلى النار. والتعبير عنه بـ﴿ٱلنَّارِ﴾ إمّا للإيذان بأنّها عاقبة حَشرِهم وأنّهم على شرف دخولها، وإمّا لأنّ حسابهم يكون على شفيرها.

و﴿يَوْمَ﴾ إمّا منصوب بـ"اذكر"، أو ظرف لمضمَر مؤخّر قد حُذف إيهامًا لقصور العبارة عن تفصيله، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥]. وقيل: ظرف لِما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو عبارة عن كثرتهم. وقيل: يُساقون ويُدفَعون إلى النار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: جميعًا، غاية لـ﴿يُحْشَرُ﴾،[٦] أو لـ﴿يُوزَعُونَ﴾،[٧] أي: حتّى إذا حضروها. و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد اتّصال الشهادة بالحضور.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن فنون الكفر والمعاصي، بأن يُنطِقها الله تعالى، أو يُظهِرَ عليها آثارَ ما اقترفوا بها.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٩٥/٤.
٢ فصّلت، ٢٥/٤١.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.
٤ أي: "نَحْشُرُ أَعداءَ الله". قرأ بها نافع ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/٢.
٥ أي: "نَحْشِرُ أَعداءَ الله". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.
٦ في الآية السابقة.
٧ في الآية السابقة.

وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما: أنّ المراد بـ"شهادةِ الجُلود" شهادةُ الفروج.[٢] وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ فإنّ ما تشهد به مِن الزنا أعظم جنايةً وقُبحًا وأجلَب للخِزي والعقوبة ممّا يشهد به السمع والأبصار مِن الجنايات المكتسبة بتوسّطهما. وقيل: المراد بـ"الجلود" الجوارح، أي: سألوها سؤالَ توبيخ لِما رُوي أنّهم قالوا لَها: «فعنكُنّ كنّا نُناضِل».[٣] وفي روايةٍ: / «بُعدًا لكُنّ وسُحقًا، عنكُنّ كنتُ أجادل».[٤] وصيغة جمع العقلاء في خطاب "الجلود" وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ لِوقوعها في موقعِ السؤال والجواب المختصّين بالعقلاء، أي: أنطقَنا الله الذي أنطق كلَّ ناطق، وأقدَرَنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا مِن القبائح وما كَتمناها. [٤٢و]

وقيل: ما نطقْنا باختيارنا؛ بل أنطقَنا الله الذي أنطق كلّ شيء.[٥] وليس بذاك لِما فيه مِن إيهام الاضطرار في الإخبار.

وقيل: سألوها سؤالَ تعجّبٍ، فالمعنى حينئذ: ليس نُطقُنا بعجَب مِن قدرة الله[٦] الذي أنطق كلَّ حيّ.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فإنّ مَن قدَر على خلقكم وإنشائكم أوّلًا وعلى إعادتكم ورَجْعكم إلى جزائه ثانيًا لا يُتَعَجّبُ مِن إنطاقه لجَوارحكم. ولعلّ صيغةَ المضارع مع أنّ هذه المحاورة بعد البعث والرَّجْع لِما أنّ المراد بالرَّجعِ

---

١ س - تعالى.

٢ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٨/٩؛ اللباب لابن عادل، ١٢٧/١٧. وهو في جامع البيان للطبري، ٤٠٦/٢٠، عن عبيد الله بن أبي جعفر.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٤/٤، بلفظ: "فعنكنّ كنت أناضل". وكذا أخرجه مسلم في صحيحه، ٢٢٨٠/٤ (٢٩٦٩).

٤ جامع البيان للطبري، ٤٠٧/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩١/٨.

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٦٩/٥.

٦ س - الله.

ليس مجرَّد الرَّدِّ إلى الحياة بالبعث؛ بل ما يعمّه وما يترتّب عليه مِن العذاب الخالد المترقَّبِ عند التخاطب، على تغليب المتوقَّع على الواقع، على أنّ فيه مراعاةَ الفواصل.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ حكاية لِما سَيُقالُ لهم يومئذ مِن جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريرًا لِجَواب الجلود، أي: ما كنتم تستَترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافةَ أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون النّاسَ مخافةَ الافتضاحِ عندهم؛ بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأسًا.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِن القبائحِ المخفيّة فلا يُظهرها في الآخرة، ولذلك اجترأتم على ما فعلتم.[1] وفيه إيذان بأنّ شهادة الجوارح بإعلامه تعالى حينئذ، لا بأنّها كانت عالِمةً بما شهدت به عند صدوره عنهم.

عن ابن مسعود رضي الله تعالى[2] عنه: / كنت مستتِرًا بأستار الكعبة، فدخل ثلاثةُ نفَرٍ، ثَقَفِيّان وقرشي، أو قرشيّان وثقفي،[3] فقال أحدهم: «أترَون أنّ الله يسمع ما نقول؟» قال الآخر: «يسمع إن جَهرنا، ولا يسمع إن أخفينا». فذكرت ذلك للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾... الآيةَ. [٤٢ظ]
فالحُكم المَحكيّ حينئذ يكون خاصًّا بمَن كان على ذلك الاعتقاد مِن الكفَرة. ولعلّ الأنسبَ أن يُراد بالظنّ معنًى مجازي يعمّ معناه الحقيقي وما يجري مَجراه مِن الأعمال المُنبئة عنه، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة، ٣/١٠٤]؛ ليعمّ ما حُكي مِن الحال جميعَ أصناف الكفَرة، فتدبّر.

---

[1] وفي هامش م: ولولاه لاتّقيتم أن يُظهرها الله تعالى بوجهٍ مِن الوجوه التي مِن جملتها إشهاد الجوارح. «منه».

[2] س - تعالى.

[3] وفي هامش م: قيل: الثقفيّان: عبد ياليل وختَنه، والقُرشيّان: ربيعة وصفوان بن أميّة. «منه». | وعبارة الثعلبي: "والثقفي عبد ياليل، وختناه القريشيان: ربيعة، وصفوان بن أمية". الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩١/٨.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن ظنّهم. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بغاية بُعد منزلته في الشرّ والسوء. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبران له. ويجوز أن يكون ﴿ظَنُّكُمْ﴾ بدلًا، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبرًا. ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ بسبب ذلك الظنّ السّوء الذي أهلككم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إذ صار ما مُنِحوا لنيل سعادة الدارين سببًا لشقاء النشأتين.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۝٢٤﴾

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: محلّ ثواءٍ وإقامةٍ أبديّةٍ لهم بحيث لا بَراحَ لهم منها. والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاءِ حالهم أن يُعرَض عنهم ويُحكَى سوءُ حالهم لغيرهم، أو للإشعارِ بإبعادهم عن حيّز الخطاب وإلقائهم في غيابة دركات النار.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ أي: يسألوا العُتبى، وهو الرجوع إلى ما يُحبّونه جَزعًا ممّا هم فيه. ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المجابين إليها. ونظيره قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم، ٢١/١٤]، وقُرِئ: "إِن يُسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتِبِينَ"،[١] أي: إن يُسألوا أن يُرضُوا ربّهم فما هم فاعلون لِفوات المُكنة.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢٥﴾

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي: قدّرنا وقرَنّا للكفَرة في الدنيا ﴿قُرَنَآءَ﴾ جمع قَرين، أي: أَخدانًا مِن الشياطين يستولون عليهم استيلاءَ القَيْض على البَيض، وهو القِشر. وقيل: أصل القَيض البدَل، ومنه المقايضة للمعاوضة.

﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن أمور الدنيا واتّباعِ الشهوات ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمور الآخرة حيث أَرَوْهم أن لا بعثَ ولا حسابَ ولا مكروهَ قطّ. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ/ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: ثبت وتقرّر عليهم كلمة العذاب وتَحقّق مُوجَبُها ومصداقُها، [٤٣و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢١.

وهي قوله تعالى لإبليس: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٤/٣٨-٨٥]. وقوله تعالى:[١] ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف، ١٨/٧] كما مرّ مرارًا.

﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ حال مِن الضمير المجرور، أي: كائنين في جملة أممٍ. وقيل: ﴿فِى﴾ بمعنى مع، وهذا كما ترى صريح في أنّ المراد بـ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾[٢] فيما سبَق المعهودون مِن عاد وثمود، لا الكفّار مِن الأوّلين والآخرين كما قيل.[٣]

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ صفة لـ﴿أُمَمٍ﴾، أي: مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير للأوّلين والآخرين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن رؤساء المشركين لأعقابهم، أو قال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: لا تُنصِتوا له، ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ وعارِضوه بالخرافات مِن الرَّجَز والشِّعر والتَّصدية والمُكاء،[٤] أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوّشوه على القارئ. وقُرئ بضمّ الغين،[٥] والمعنى واحد، يقال: لَغِيَ يَلغَى -كلَقِيَ يَلقَى- ولَغا يَلغُو، إذا هَذَى.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي: تغلبونه على قراءته.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: فوالله لَنُذيقنّ هؤلاء القائلين واللاغين، أو جميعَ الكفّار وهم داخلون فيهم دخولًا أوّليًا ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لا يُقادَر قدرُه،

---

١ م س ي + ﴿ٱذْهَبْ﴾. | وهذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء، ٦٣/١٧].

٢ س + تعالى. | فصلت، ١٩/٤١.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٩٥/٤.

٤ سبق في سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال، ٣٥/٨]: ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ أي: صفيرًا، ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي: تصفيقًا.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن بكر بن حبيب السهمي وعيسى وابن عمير وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: جزاءَ سيّئات أعمالهم، التي هي في أنفُسها أسوَأ. وقيل: إنّه لا يجازيهم بمَحاسن أعمالهم، كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقِرَى الأضياف؛ لأنّها مُحْبَطَة بالكفر. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ يوم بَدرٍ، و﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الآخرة».[1]

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ خبره، أي: ما ذُكر مِن الجزاء جزاءٌ مُعَدّ لأعدائه تعالى. وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطفُ بيانٍ للجزاء. أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك، على أنّه عبارة عن مضمون الجملة، لا عن الجزاء، وما بعده جملة مستقلّة مُبيِّنةٌ / لِما قبلها. [٤٣ظ]

وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ جملة مستقلّة مقرِّرة لِما قبلها. أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأ هي خبره، أي: هي بعينها دار إقامتهم، على أنّ ﴿فِي﴾ للتجريد؛ وهو أن يُنتزع مِن أمرٍ ذي صفة أمرٌ آخر مثلُه مبالغةً لكماله فيها، كما يقال: في البَيضة عشرون مَنًّا حديد.[2] وقيل: هي على معناها، والمراد أنّ لهم في النار المشتملة على الدركات دارًا مخصوصة هم فيها خالدون.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ منصوب بفعلٍ مقدّر، أي: يُجزَوْن جزاءً، أو بالمصدر السابق، فإنّ المصدر يَنتصب بمثله، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ [الإسراء، ٦٣/١٧]، والباء الأولى متعلِّقة بـ﴿جَزَآءَۢ﴾، والثانية بـ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ قُدِّمت عليه لمراعاة الفواصل، أي: بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقّة، أو يُلغون فيها. وذِكر الجحود لكونه سببًا للّغو.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١٩٨/٤. وذكره ابن عطية في تفسيره، ١٣/٥، دون أن يعزوه إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما.

[2] أي: هي في نفسها هذا المبلغ مِن الحديد. الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٣.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم متقلِّبون فيما ذكر مِن العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعنون فريقَيْ شياطين النوعين المُقَيَّضِين لهم، الحاملين لهم على الكفر والمعاصي بالتسويل والتزيين. وقيل: هما إبليس وقابيل، فإنّهما سَنَّا الكفر والقتل بغير حقّ. وقُرئ: "أَرْنَا" تخفيفًا،[١] كفَخْذ في فَخِذٍ. وقيل: معناه: أعطِناهما. وقُرئ باختلاس كسرة الراء.[٢]

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: نَدُسْهما انتقامًا منهما. وقيل: نجعلهما في الدرك الأسفل. ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي: ذُلًّا ومهانةً، أو مكانًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ شروع في بيان حسن أحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفَرة فيهما، أي: قالوه اعترافًا بربوبيّته تعالى وإقرارًا بوحدانيّته، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: ثبَتوا على الإقرار ومقتضياته، على أنّ ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان أو في الرتبة، فإنّ الاستقامة لها الشأنُ كلّه. وما روي عن الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى[٣] عنهم في معناها -مِن الثبات / على [٤٤و] الإيمان، وإخلاص العمل، وأداء الفرائض-[٤] بيانٌ لجزئيّاتها.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مِن جهته تعالى يُمدّونهم فيما يَعِنّ لهم مِن الأمور الدينيّة والدنيويّة بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحُزنَ بطريق الإلهام، كما أنّ الكفَرة يُغويهم ما قُيِّض لهم مِن قرناء السّوء بتزيين القبائح. وقيل: تَتنزَّل عند الموت بالبشرى. وقيل: إذا قاموا مِن قبورهم. وقيل: البشرى في مواطنَ ثلاثة: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث. والأظهر هو العموم والإطلاق كما ستعرفه.

---

١ قرأ بها ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٢.

٢ هو الوجه الثاني عن أبي عمرو. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٢.

٣ س – تعالى.

٤ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٩٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/١٩٩.

﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ ما تقدَمون عليه، فإنّ الخوف غمٌّ يَلحق لتوقّعِ المكروه. ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما خلّفتم، فإنّه غمّ يَلحق لوقوعه، مِن فوات نافع أو حصول ضارّ. وقيل: المراد نَهْيُهم عن الغموم على الإطلاق، والمعنى: أنّ الله تعالى كتب لكم الأمن مِن كلّ غمّ، فلن تذوقوه أبدًا.

و"أنْ" إمّا مفسِّرة، أو مخفَّفة مِن الثقيلة، والأصل: بأنّه لا تخافوا. والهاء ضمير الشأن. وقُرئ: "لَا تَخَافُوا"،[١] أي: يقولون: لا تخافوا، على أنّه حال مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو استئناف.

﴿وَأَبْشِرُواْ﴾ أي: سُرُّوا ﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسِنة الرسل. هذا مِن بِشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾... إلخ مِن بِشاراتهم في الدنيا، أي: أعوانكم في أموركم، نُلهمكم الحَقَّ، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحُكم. ولعلّ ذلك عبارة عمّا يخطر ببال المؤمنين المستمِرّين على الطاعات مِن أنّ ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام.

﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ نُمِدّكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع مِن التعادي والخصام.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ مِن فنون الطيّبات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تتمنَّون. افتعال مِن الدعاء، بمعنى الطلب، أي: تدّعون لأنفسكم وهو أعمّ مِن الأوّل. و﴿لَكُمْ﴾ في الموضعين خبر، و﴿مَا﴾ مبتدأ، و﴿فِيهَا﴾ حال مِن ضميره في الخبر. وعدم الاكتفاء بعطف ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ على ﴿مَا تَشْتَهِي﴾ للإشباع في البِشارة والإيذان باستقلال كلّ منهما.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ/ رَّحِيمٍ﴾ حال مِن ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾، مفيدة لكون ما يتمنّونه [٤٤ظ]
بالنسبة إلى ما يُعطَون مِن عظائم الأجور كالنُّزُل للضيف.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٣﴾

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى توحيده تعالى وطاعته. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا إلى الإسلام».[1] وعنه: «أنّهم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[2] وقيل: نزلت في المؤذِّنين.[3] والحقّ أنّ حكمها عامّ لكلّ مَن جمع ما فيها مِن الخصال الحميدة، وإن نزَلت فيمَن ذُكر.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربّه، ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ابتهاجًا بأنّه منهم، أو اتّخاذًا للإسلام دينًا ونِحلةً، مِن قولهم: هذا قولُ فلانٍ، أي: مذهَبُه، لا أنّه تكلّم بذلك. وقُرئ: "إنِّي" بنون واحدة.[4]

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ٣٤﴾

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثْرَ بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الربّ عزّ وجلّ ترغيبًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الصبر على أذيّة المشركين، ومقابلةِ إساءتِهم بالإحسان، أي: لا يستوي الخصلة الحسنة والسيّئة في الآثار والأحكام. و﴿لَا﴾ الثانيةُ مزيدة لتأكيد النفي.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾... إلخ استئناف مبيّن لحُسن عاقبة الحسنة، أي: ادفع السيّئة حيث اعترضَتْك مِن بعض أعاديك بالتي هي أحسن

---

[1] التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤.

[2] الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٠٥/٩.

[3] التفسير الوسيط للواحدي، ٣٥/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٩/٤، عن عائشة رضي الله عنها.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن شنبوذ عن قتيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

ما يمكن دفعها به مِن الحسنات، كالإحسان إلى مَن أساء، فإنّه أحسنُ مِن العفو. وإخراجه مُخرج الجواب عن سؤال مَن قال: "كيف أصنع؟" للمبالغة، ولذلك وُضِع ﴿أَحْسَنُ﴾ موضع الحسنة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ بيان لنتيجة الدفع المأمور به، أي: فإذا فعلت ذلك صار عدوّك المُشاقّ مثلَ الوليّ الشفيق.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَا﴾ أي: ما يُلقّى هذه الخصلةَ والسجيّةَ التي هي مقابَلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: شأنهم الصبر، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ مِن الخير وكمال النفس. وقيل: الحظّ العظيم: الجنّة، وقيل: هو الثواب. قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب،[١] / وكان مُؤذيًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، [٤٥و]
فصار وليًا مصافيًا.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النَّزغ والنَّسغ بمعنًى، وهو شِبهُ النَّخس، شُبّه به وسوسةُ الشيطان لأنّها بعث على الشرّ، وجُعل نازعًا على طريقة "جَدَّ جِدُّه"، أو أريدَ: "وإمّا ينزغنّك نازغ" وصفًا للشيطان بالمصدر، أي: وإن صرَفك الشيطان عمّا وُصّيتَ به مِن الدفعِ بالتي هي أحسن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ مِن شرّه، ولا تطعه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ باستعاذتك، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيّتك أو بصلاحك. وفي جَعل تَركِ الدفع بالأحسن مِن آثار نزَغات الشيطان مزيد تحذيرٍ وتنفير عنه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالّة على شئونه العظيمة ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ كلّ منها مخلوق مِن مخلوقاته مُسخَّر لأمره.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٩٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٣٦.

﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنهما مِن جملة مخلوقاته المسخَّرة لأوامره مثلكم. ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير للأربعة؛ لأنّ حكم جماعةِ ما لا يعقل حكمُ الأنثى أو الإناث، أو لأنّها عبارة عن الآيات. وتعليق الفعل بالكلّ مع كفاية بيان مخلوقيّة الشمس والقمر للإيذان بكمال سقوطهما عن رتبة المَسجوديّة بنَظمهما في المخلوقيّة في سِلك الأعراض التي لا قيام لها بذاتها، وهو السرّ في نظم الكلّ في سِلك آياته تعالى.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإنّ السجود أقصى مراتب العبادة، فلا بدّ مِن تخصيصه به سبحانه. وهو موضع السجود عند الشافعي.[1] وعندنا آخرَ الآية الأخرى؛ لأنّه تمام المعنى.[2]

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الامتثال ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مِن الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: دائمًا ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لا يفتُرون ولَا يَملُّون. وقُرئ: "لَا يِسأَمُونَ" بكسر الياء.[3]

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يابسةً مُتطامنةً. مستعار مِن الخشوع بمعنى التذلّل. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ / أي: المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: تحرّكت [٤٥ظ]
بالنبات وانتفخت؛ لأنّ النبت إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثمّ تصدّعت عن النبات. وقيل: تزخرفت بالنبات. وقُرئ: "رَبَأَتْ"، أي: ارتَفعت.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بما ذُكر بعد موتها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ بالبعث. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإحياءُ ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة.

---

[1] أصحّ الوجهين مِن مذهب الشافعي أنّ السجدة عند قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾. انظر: المجموع للنووي، ٤/٦٠؛ ومغني المحتاج للخطيب الشربيني، ١/٤٤٢.

[2] انظر: رد المحتار على الدرّ المختار لابن عابدين، ٢/١٠٤.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة. وقُرِئ: "يَلْحَدُونَ".[1] ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالطعن فيها وتحريفها بحَملها على المَحامل الباطلة ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ فنجازيهم بإلحادهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تنبيه على كيفيّة الجزاء. ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ مِن الأعمال المؤدّية إلى ما ذُكر مِن الإلقاء في النار والإتيان آمِنًا. وفيه تهديد شديد. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ بدل مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾...[2] إلخ. وخبر ﴿إِنَّ﴾ هو الخبر السابق. وقيل: مستأنَف، وخبرُها محذوف. وقال الكسائي: سدّ مسدّه الخبر السابق.[3] والذِّكر: القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ أي: كثير المنافع عديم النظير، أو مَنيع لا يتأتّى معارضته. جملة حاليّة مفيدة لغاية شناعة الكفر به.

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ أي: لا يتطرّق إليه الباطل مِن جهة مِن الجهات. صفة أُخرى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾.[4]

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ خبر لمبتدأٍ محذوف، أو صفة أُخرى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾، مفيدةٌ لفخامته الإضافيّة كما أنّ الصفتين السابقتين مفيدتان

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٧٣/٢.
٢ في الآية السابقة.
٣ وهو قوله: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣١٠/٩؛ اللباب لابن عادل، ١٤٥/١٧.
٤ في الآية السابقة.

لفخامته الذاتيّة. وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ﴾... إلخ اعتراض عند مَن لا يجوّز تقديم غير الصريح مِن الصفات على الصريح. كلّ ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾... إلخ تسلية / لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم [٤٦و] عمّا يصيبه مِن أذيّة الكفار، أي: ما يقال في شأنك وشأن ما أنزل إليك مِن القرآن مِن جهة كفّار قومك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: إلّا مثل ما قد قيل في حقّهم ممّا لا خير فيه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم، وقد نَصر مَن قبلك مِن الرسل، وانتقم مِن أعدائهم، وسيفعل مِثل ذلك بك وبأعدائك أيضًا.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ جواب لقولهم: هلّا أُنزل القرآن بلغة العجم. والضمير لـ﴿ٱلذِّكْرِ﴾. ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: بُيّنت بلسان نفقهه.

وقوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ إنكار مقرّر للتحضيض. و"الأعجميّ" يقال لكلامٍ لا يُفهَم، وللمتكلِّم به. و"الياء" للمبالغة في الوصف كأحمري، والمعنى: أكلام أعجمي ورسول أو مرسل إليه عربي، على أنّ الإفراد -مع كون المرسَلِ إليهم أمّةً جمّةً- لِما أنّ المراد بيان التنافي والتنافر بين الكلام وبين المخاطَب به، لا بيانُ كون المخاطَب واحدًا أو جمعًا.

وقُرئ: "أَعَجَمِيٌّ"،[١] أي: أَكَلام منسوب إلى أمّة العَجم. وقُرئ: "أَعْجَمِيٌّ"[٢] على الإخبار بأنّ القرآن أعجمي والمتكلِّم أو المخاطَب عربي. ويجوز أن يراد:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن ميمون. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٢.

[٢] قرأ بها قنبل وهشام ورُويس باختلاف عنهم. النشر لابن الجزري، ٣٦٦/١.

هلّا فُصِّلت آياته، فجُعلَ بعضها أعجميًا لإفهام العجَم، وبعضها عربيًا لإفهام العرب. وأيًا ما كان فالمقصود بيانُ أنّ آيات الله تعالى على أيّ وجهٍ جاءتهم وجدوا فيها مُتَعنَّتًا يتعلّلون به.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى﴾ يهديهم إلى الحقّ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لِما في الصدور مِن شكٍّ وشبهةٍ. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ على أنّ التقدير: هو -أي: القرآن- في آذانهم وَقْر، على أنّ ﴿وَقْرٌ﴾ خبر للضمير المقدّر، و﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿وَقْرٌ﴾. وهُو أوفَق لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾. وقيلَ: خبر الموصول ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾، و﴿وَقْرٌ﴾ فاعل الظرف. وقيل: ﴿وَقْرٌ﴾ مبتدأ، والظرف خبره، والجملة خبر للموصول. وقيل: التقدير: والذين لا
[٤٦ظ] يؤمنون / في آذانهم منه وَقرٌ. ومَن جوّزَ العطف على عاملين عطَف الموصولَ على الموصول الأوّل، أي: هو للأوّلين هدًى وشفاء، وللآخِرين وَقْر في آذانهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول الثاني باعتبار اتّصافه بما في حيّز صلته، وملاحظةِ ما أُثبت له. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في الشرّ مع ما فيه مِن كمال المناسبة للنداء مِن بعيد، أي: أولئك البُعَداء الموصوفون بما ذُكر مِن التَّصامّ عن الحقّ الذي يسمعونه والتعامي عن الآيات الظاهرة التي يشاهدونها ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تمثيل لهم في عدم قَبولهم واستماعهم له بمَن ينادَى مِن مسافة نائية، لا يكاد يُسمَع مِن مِثلها الأصوات.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أنّ الاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للأمم غيرُ مختصّ بقومك، على منهاجِ قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت، ٤١/٤٣]، أي: وباللهِ لقد آتيناه التوراة فاختُلف فيها، فمِن مصدِّقٍ لها ومكذِّبٍ، وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك مِن القرآن، فمِن مؤمن به وكافر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في حقّ أمّتك المكذِّبة، وهي العِدَة بتأخير عذابهم وفَصلِ ما بينهم وبين المؤمنين مِن الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر، ٥٤/٤٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل، ١٦/٦١].

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذّبين كما فُعِل بمكذّبِي الأمم السالفة. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفّارَ قومك ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[١] أي: مِن القرآن. وجعلُ[٢] الضمير الأوّل لليهود والثاني للتوراة[٣] ممّا لا وجه له.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجَبها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فلنفسه يعمله، أو فنَفعُه لنفسه لا لغيره. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضررُه، لا على غيره.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ اعتراض تذييلي، مقرّر لمضمون ما قبله، مبنيّ على تنزيل تركِ إثابة المحسن بعمله أو إثابةِ الغير بعمله وتنزيلِ التعذيب بغير إساءةٍ أو بإساءة غيره منزلةَ الظلم الذي يستحيل صدوره عنه سبحانه،[٤] وقد مرّ ما في المقام مِن التحقيق والتفصيل في سورة آل عمران وسورة الأنفال.[٥]

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إذا سُئل عنها يقال: الله يعلم، أو لا يعلمها إلّا الله. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: مِن أوعيتها، / جمعُ "كِمّ" بالكسر؛ [٤٧و]
وهو وِعاء الثمرة كجِفّ الطَّلعة. وقُرئ: "مِن ثَمَرَةٍ"[٦] على إرادة الجنس،

---

[١] س - ﴿مُرِيبٍ﴾.
[٢] س: وتعميم.
[٣] ذكره مع الوجه الأوّل البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٧٣.
[٤] س + وتعالى.
[٥] في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران، ٣/١٨٢؛ الأنفال، ٨/٥١].
[٦] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٧. وتُرسم بالتاء المبسوطة على القراءتين، ويُوقف عليها بالتاء. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/١٣٠.

والجمعُ لاختلاف الأنواع. وقد قُرئ بجمعِ الضمير أيضًا،[١] و﴿مَا﴾ نافية، و﴿مِن﴾ الأولى مَزيدة للاستغراق، واحتمالُ أن تكون موصولةً معطوفةً على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ و﴿مِن﴾ مبيِّنة[٢] بعيد.

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ أي: حَملَها. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: وما يحدث شيء مِن خروجِ ثمرةٍ ولا حملِ حاملٍ ولا وضعِ واضعٍ ملابسًا بشيء مِن الأشياء إلّا ملابسًا بعلمه المحيط.

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ أي: بزعمكم، كما نَصّ عليه في قوله تعالى: ﴿نَادُواْ[٣] شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ [الكهف، ٥٢/١٨]. وفيه تهكّم بهم، وتقريع لهم. و﴿يَوۡمَ﴾ منصوب بـ"اذكر"، أو ظرف لمضمَر مؤخَّر قد تُرك إيذانًا بقُصور البيان عنه، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥].

﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: أخبرناكَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ مِن أحد يشهد لهم بالشركة؛ إذ تبرَّأنا منهم لِما عايَنَّا الحال، وما منّا أحدٌ إلّا هو موحِّد لك، أو ما منّا مِن أحدٍ يشاهدهم؛ لأنّهم ضلّوا عنهم حينئذ. وقيل: هو قول الشركاء، أي: ما منّا مِن شهيد يشهد لهم بأنّهم كانوا محقّين. وقولهم: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ إمّا لأنّ هذا التوبيخ مَسبوق بتوبيخ آخر مُجابٌ بهذا الجواب، أو لأنّ معناه: إنّك علمتَ مِن قلوبنا وعقائدنا الآن أنّا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنّه إذا علمه مِن نفوسهم فكأنّهم أعلموه، أو لأنّ معناه الإنشاء لا الإخبار بإيذان قد كان قبل ذلك.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ۝٤٨﴾

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ﴾ أي: يعبدون ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: غابوا عنهم، أو ظهر عدم نفعهم، فكان حضورهم كغَيبتهم. ﴿وَظَنُّواْ﴾ أي: أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ مَهرب. والظنّ معلّق عنه بحرف النفي.

---

١ أي: "مِنۡ أَكۡمَامِهِنَّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

٢ ذكَر هذا الاحتمال البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٤/٥.

٣ م س ي: أين. | وهي في سورة القصص: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [القصص، ٦٢/٢٨].

﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾

﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: لا يَمَلُّ ولا يَفْتُر ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ مِن طلب السَّعة في النعمة وأسباب المعيشة. وقُرئ: "مِن دُعَاءٍ بِالخَيرِ".[١]

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: العُسر والضيقة، ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ فيه مبالغة مِن جهة البناء، ومِن جهة التكرير، ومِن جهة أنّ القُنوط عبارة عن يأس مُفرِط يَظهر أثره في الشخص فيتضاءل وينكسر، أي: مبالِغ في قطع الرجاء مِن فضل الله تعالى ورحمته. وهذا وصف للجنس بوصفِ غالبِ أفراده، لِما أنّ اليأس مِن رحمته تعالى لا يتأتّى إلّا مِن الكافر، وسيُصَرَّحُ به.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ بتفريجها عنه ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: حقّي أستحقّه لِما لِي مِن الفضل والعمل، أو لي لا لغيري، فلا يزول عنّي أبدًا، / ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: تقوم فيما سيأتي، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ على تقدير [٤٧ظ] قيامها ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لَلحالةَ الحسنى مِن الكرامة؛ وذلك لاعتقاده أنّ ما أصابه مِن نِعم الدنيا لاستحقاقه له، وأنّ نِعم الآخرةِ كذلك.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: لَنُعلِمنّهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقيّة، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف، ٨/٧]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس، ٢٣/١٠] مِن سورة يونس. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يقادَر قدرُه ولا يُبلَغ كُنهُه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤؛ ومعاني القرآن للفرّاء، ٢٠/٣.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ أي: عن الشكر ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: ذهبَ بنفسه وتباعد بكلِّيته تكبّرًا وتعظّمًا. والجانب مجاز عن النفس، كما في قوله تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٦]. ويجوز أن يُراد به عِطْفُه، ويكون عبارةً عن الانحراف والازْوِرار كما قالوا: "ثَنَى عِطْفَه وتولَّى برُكْنِه".

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير. مستعار ممّا له عَرض متّسِع للإشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ مِن الطويل؛ إذ الطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك فما ظنّك بطوله؟ ولعلّ هذا شأنُ بعضٍ غيرِ البعض الذي حكى عنه اليأس والقنوط، أو شأن الكلّ في بعض الأوقات.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ أي: القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: مَن أضلُّ منكم؟ فوضع الموصول موضع الضمير شرحًا لحالهم وتعليلًا لمزيد ضلالهم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدّالّةَ على حقّيّته وكونه مِن عند الله ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ هو ما أخبرهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية، وما يسّر الله تعالى له ولخُلفائه مِن الفتوح والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاءِ على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارقٍ للعادة. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هو ما ظهر فيما بين أهل مكّة وما حلّ بهِمْ.

وَقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ أي: منازل الأمم الخالية وآثارهم، ﴿وَفِىٓ / أَنفُسِهِمْ﴾ يومَ بدر».[١] وقال مجاهد والحسَن والسدّي: «﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ [٤٨و]

---

١ كأنّ في الكلام سقطًا، ففي الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٠٠؛ واللباب لابن عادل، ١٧/١٥٨: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «معنى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ أي: منازل الأمم الخالية، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالبلاء والأمراض». وقال قتادة: «يعني: وقائع الله تعالى في الأمم الخالية، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يوم بدر».

ما يفتح الله مِن القرى عليه عليه السلام والمسلمين، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فتح مكّة».[١]

وقيل:[٢] ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ أي: في أقطار السماوات والأرض مِن الشمس والقمر والنجوم، وما يترتّب عليها مِن الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات، ومِن النبات والأشجار والأنهار، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ مِن لطيف الصنعة وبديعِ الحكمة في تكوين الأجِنّة في ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة، والتركيبات الغريبة، كقوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات، ٢١/٥١]. وَاعْتُذِرَ بأنّ معنى السين -مع أنّ إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك- أنّه تعالى سيُطلِعُهم على تلك الآيات زمانًا فزمانًا، ويزيدهم وقوفًا على حقائقها يومًا فيومًا ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾ بذلك ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: القرآن، أو الإسلام والتوحيد.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾ استئناف وارد لتوبيخهم على تردّدهم في شأن القرآن، وعنادِهم المُحوجِ إلى إراءة الآيات وعدمِ اكتفائهم بإخباره تعالى. و"الهمزة" للإنكار. و"الواو" للعطف عَلى مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألَم يُغْنِ ولَمْ يكفِ ربّك؟ و"الباء" مزيدة للتأكيد، ولا يكاد يزاد إلّا مع "كفى". وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، أي: ألم يُغْنِهم عن إراءة الآيات الموعودة المبيّنة لحقّيّة القرآن ولم يكفِهم في ذلك أنه تعالَى شهيد على جميع الأشياء، وقد أخبر بأنّه مِن عنده؟

وقيل: معناه: أنّ هذا الموعود مِن إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبيّنون عند ذلك أنّ القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كلّ شيء شهيدٌ، أي: مطَّلع يستوي عنده غَيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلًا على أنّه حقّ، وأنّه مِن عنده، ولو لم يكن كذلك لَما قوي هذه القوّة، ولَما نُصِر حامِلوه هذه النُّصرةَ، فتأمّل.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: "أوَلم يكفِكَ أنّه تعالى على كلّ شيء شهيدٌ محقِّق له، فيحقِّقُ / أمرَكَ بإظهار الآيات الموعودة كما حقّق سائر الأشياء الموعودة؟"[٣] [٤٨ظ]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٠/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٠/٤؛ اللباب لابن عادل، ١٥٨/١٧.

[٢] وفي هامش م س: قاله عطاء وابن زيد.[١] «منه».
| [١] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٠/٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧٩/٧.

[٣] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٥/٥.

-فمَع إشعاره بما لا يليق بجلالة مَنصبه عليه السلام مِن التردّد فيما ذُكر مِن تحقيق الموعود- يردّه قوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ٥٤﴾

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شكّ عظيم مِن ذلك بالبعث والجزاء، فإنّه صريح في أنّ عدم الكفاية معتَبر بالنسبة إليهم. وقُرئ: "مُرْيَةٍ" بالضمّ،[1] وهي لغة فيها.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ عالم بجميع الأشياء جُمَلِها وتفاصيلها، وظواهرها وبواطنها، فلا يخفَى عليه خافية منهم، وهو مُجازيهم على كفرهم ومِريتِهم لا محالةَ.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة السجدة[2] أعطاه الله تعالى بكلّ حرف عشرَ حسنات».[3]

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري ولم يذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٧/٤.

٢ يعني: سورة فصّلت. انظر أوّل السورة.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٠٧/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/٥. قال الخطيب الشربيني: «حديث موضوع». السراج المنير للشربيني، ٥٢٦/٣.

سورة فصلت

وتسمَّى سورة السجدة، وسورة (حمٓ) السجدة، وسورة المصابيح، وسورة الأقوات.

وهي مكية بلا خلافٍ، ولم أقف فيها على استثناء.

وعدد آياتها ـ كما قال الداني ـ خمسون وآيتان بصريٌّ وشاميٌّ، وثلاثٌ مكيٌّ ومدنيٌّ، وأربعٌ كوفيٌّ(١).

ومناسبتُها لِما قبلها أنه سبحانه ذكر قبلُ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ [غافر: ٨٢] وكان ذلك متضمِّناً تهديداً وتقريعاً لقريش، وذكر جلَّ شأنه هنا نوعاً آخر من التهديد والتقريع لهم، وخصَّهم بالخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] ثم بيَّن سبحانه كيفية إهلاكهم، وفيه نوعُ بيانٍ لِما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ الآية [غافر: ٨٢]، وبينهما أوجهٌ من المناسبة غير ما ذُكر.

وأخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن الخليل بن مرَّة أنَّ رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ «تبارك» و«حم السجدة»(٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ①﴾ إن جعل اسماً للسورة أو القرآن فهو إمَّا خبرٌ لمحذوفٍ، أو مبتدأ

---

(١) البيان في عدِّ آي القرآن ص٢٢٠.

(٢) شعب الإيمان (٢٤٧٩)، وإسناده منقطع كما قال البيهقي. والخليل بن مُرَّة توفي سنة (١٦٠هـ). وينظر ما سلف ص٧ من هذا الجزء.

خبرُه: ﴿تَنزِيلٌ﴾ على المبالغة أو التأويلِ المشهور، وهو على الأول خبرٌ بعد خبرٍ، وخبرُ مبتدأ محذوفٍ ـ إن جُعل «حم» مسروداً على نمط التعديد ـ عند الفرَّاء[(١)]، وقولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ من تتمَّته مؤكِّدٌ لِما أفاده التنوين من الفخامة الذاتيَّة بالفخامة الإضافيَّة، أو خبرٌ آخرُ للمبتدأ المحذوف.

أو «تنزيل» مبتدأٌ لتخصُّصه بما بعده، خبرُه: ﴿كِتَٰبٌ﴾، وحُكي ذلك عن الزجَّاج والحوفي[(٢)]، وهو على الأوجهِ الأُوَل بدلٌ منه، أو خبرٌ آخرُ، أو خبرٌ لمحذوف.

وجملةُ[(٣)] ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ على جميع الأوجُه في موضع الصفة لـ «كتاب».

وإضافةُ التنزيل إلى «الرحمن الرحيم» من بين أسمائه تعالى للإيذان بأنَّه مدارٌ للمصالح الدينية والدنيوية واقعٌ بمقتضى الرحمة الربانية حسبما يُنبئ عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وتفصيل آياته: تمييزُها لفظاً بفواصلها ومقاطعها ومبادي السور وخواتمها، ومعنًى بكونها وعداً ووعيداً وقصصاً وأحكاماً إلى غيرِ ذلك، بل مَن أنصف عَلِم أنَّه ليس في بدء الخلق كتابٌ اجتمع فيه من العلوم والمباحث المتباينة عبارةً وإشارةً مثل ما في القرآن.

وعن السديِّ: «فصِّلت آياته» أي: بُيِّنت؛ ففُصل بين حرامه وحلاله، وزجره وأمره، ووعده ووعيده. وقال الحسن: فصِّلت بالوعد والوعيد. وقال سفيان: بالثواب والعقاب.

وما ذكرنا أولاً أعمُّ، ولعلَّ ما ذكروه من باب التمثيل لا الحصر.

وقيل: المراد: فصِّلت آياتُه في التنزيل، أي: لم تُنزَّل جملةً واحدةً. وليس بذاك.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٤. وينظر الكشاف ٣/ ٤٤١.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٧٩، والكلام من البحر ٧/ ٤٨٣. وورد هنا في هامش الأصل ما نصُّه: وجوَّز أبو البقاء أن يكون «كتابٌ» مرفوعاً بـ «تنزيل»، أي: نُزِّل كتابٌ. اهـ منه. وكلام أبي البقاء في الإملاء ٤/ ٢٧٨.

(٣) قوله: وجملة، ليس في الأصل.

وقرئ: «فَصَلت» بفتح الفاء والصاد مخفَّفةً، أي: فَرَقت بين الحقِّ والباطل(١). وقال ابن زيد: بين النبيِّ ﷺ ومَن خالفه(٢)، على أنَّ «فَصَل» متعدٍّ. أو: فَصَل بعضُها من بعضٍ باختلاف الفواصل والمعاني، على أنَّ فَصَل لازمٌ بمعنى انفصل كما في قوله تعالى: ﴿فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤].

وقرئ: «فُصِلت» بضمِّ الفاء وكسر الصاد مخفَّفةً(٣)، على أنه مبنيٌّ للمفعول، والمعنى على ما مرَّ.

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ نصبٌ على المدح، بتقدير: أعني، أو: أمدح، أو نحوه، أو على الحال، فقيل: من «كتاب» لتخصصه بالصفة. وقيل: من «آياته». وجوَّز في هذه الحال أن تكون مؤكِّدة لنفسها، وأن تكون موطِّئةً للحال بعدها.

وقيل: نصبٌ على المصدر، أي: يقرؤه قرآناً.

وقال الأخفش(٤): هو مفعولٌ ثانٍ لـ «فُصِّلت»، وهو كما ترى إن لم تكن أخفش.

وأيًّاما كان ففي «قرآناً عربيًّا» امتنانٌ بسهولة قراءته وفهمه لنزوله بلسانِ مَن نزل بين أظهرهم.

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ أي: معانيَه لكونه على لسانهم، على أنَّ المفعول محذوفٌ، أو: لأهل العلم والنظر، على أنَّ الفعل منزَّلٌ منزلةَ اللازم.

ولام «القومِ» تعليليةٌ، أو اختصاصيةٌ، وخصَّهم بذلك لأنَّهم هم المنتفعون به، والجارُّ والمجرورُ إما في موضع صفةٍ أخرى لـ «قرآناً»، أو صلةٌ لـ «تنزيل» أو لـ «فُصِّلت»، قال الزمخشريُّ: والأجود(٥) أن يكونَ صفةً مثل ما قبله وما بعده، أي: قرآناً عربيًّا كائناً لقومٍ عربٍ، لئلا يفرق بين الصلات والصفات.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤١، والبحر ٧/ ٤٨٣.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٦٨.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٧.
(٤) كما في البحر ٧/ ٤٨٣.
(٥) تحرفت في الأصل و(م) إلى: لا يجوز. والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٤١، وينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٧.

ولعله أراد: لئلا يلزم التفريق بين الصفة وهي قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وموصوفِها وهو «قرآناً» ـ بناءً على أنَّه صفةٌ ـ بالصلة وهي «القوم» على تقدير تعلُّقه بـ «تنزيل» أو بـ «فصِّلت»، وبين الصلة وموصولها بالصفة، أي: «تنزيل» أو «فصِّلت» و«القوم». والجمع[1] للمبالغة على حدِّ قولك لمن يفرق بين أخوين: لا تفعل، فإنَّ التفريقَ بين الإِخْوان مذمومٌ.

أو أراد: لئلا يفرق بين الصلتين في الحكم مع عدم المُوجِب للتفريق، وهو أن يتصل «من الرحمن» بموصوله، ولا يتصل «القوم»، وكذلك بين الصفتين، وهو «عربيًّا» بموصوفه، ولا يتصل «بشيراً»، والجمعُ لذلك أيضاً.

واختار أبو حيان كونَ الجارِّ والمجرور صلةَ «فصِّلت»، وقال: يبعُد تعلُّقه بـ «تنزيل» لكونه وصف قبل أَخْذِ متعلّقه إن كان «من الرحمن» في موضع الصفة، أو أبدل منه «كتابٌ» أو كان خبراً لـ «تنزيل»، فيكون في ذلك البدلُ من الموصول أو الإخبارُ عنه قبل أَخْذِه متعلّقَه، وهو لا يجوز[2]. ولعلَّ ذلك غيرُ مجمَعٍ عليه.

وكون «بشيراً» صفةَ «قرآناً» هو المشهور، وجوِّز أن يكونَ مع ما عُطف عليه حالاً من «كتاب» أو من «آياته».

وقرأ زيد بن عليٍّ: «بشيرٌ ونذيرٌ» برفعهما[3]، وهي رواية شاذَّةٌ عن نافع[4]، على الوصفيَّة لـ «كتاب»، أو الخبريَّة لمحذوفٍ، أي: هو بشيرٌ لأهل الطاعة ونذيرٌ لأهل المعصية.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبُّره وقبوله، والضميرُ للقوم على المعنى الأول لـ «يعلمون»، وللكفار المذكورين حكماً على المعنى الثاني، ويجوز أن يكونَ للقوم عليه أيضاً بأن يرادَ به ما من شأنهم العلمُ والنظرُ.

---

(١) أي: في قول الزمخشري: بين الصلات والصفات.

(٢) البحر ٧/ ٤٨٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٧.

﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾ أي: لا يقبلون ولا يُطيعون، من قولك: تشفَّعتُ إلى فلان فلم يسمع قولي، ولقد سمعه، ولكنه لمَّا لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه، هو مجازٌ مشهور.

وفي «الكشف» أنَّ قولَه تعالى: «فأعرض» مقابلَ قوله تعالى: «لقوم يعلمون»، وقولُه سبحانه: «فهم لا يسمعون» مقابلَ قوله جلَّ شأنه: «بشيراً ونذيراً»، أي: أنكروا إعجازَه والإذعانَ له مع العلم، ولم يقبلوا بشائرَه ونُذُرَه لعدم التدبُّر.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي: أغطيةٍ متكاثفةٍ ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله تعالى وحدَه وتركِ ما ألفينا عليه آباءَنا، و«من» على ما في «البحر» لابتداء الغاية.

﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَمٌ، وأصلُه: الثِّقَلُ. وقرأ طلحةُ بكسر الواو[1]، وقرئ بفتح القاف[2].

﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ غليظٌ يمنعنا عن التواصل، و«من» للدلالة على أنَّ الحجابَ مبتدأٌ من الجانبين بحيث استوعَبَ ما بينهما من المسافة المتوسطة، ولم يبقَ ثمة فراغٌ أصلاً.

وتوضيحُه أنَّ البَيْنَ بمعنى الوسْط بالسكون، وإذا قيل: بينَنا وبينَك حجابٌ، صدق على حجابٍ كائنٍ بينهما، استوعَبَ أو لا، وأما إذا قيل: مِن بيننا، فيدلُّ على أنَّ مبتدأَ الحجاب من الوسْط، أعني طرفَه الذي يلي المتكلِّم، فسواءٌ أعيد «من» أو لم يُعَدْ يكون الطرفُ الآخَرُ منتهًى باعتبارٍ ومبتدأً باعتبارٍ، فيكون الظاهرُ الاستيعابَ؛ لأنَّ جميعَ الجهة ـ أعني البينَ ـ جُعِل مبتدأَ الحجاب فالمنتهَى غيرُه ألبتة، وهذا كافٍ في الفرق بين الصورتين، كيف وقد أعيد البينُ لاستئنافِ الابتداء من تلك الجهة أيضاً، إذ لو قيل: ومن بيننا حجاب[3] بتغليب المتكلِّم لكفى. ثم ضرورة العطف على نحو: بيني وبينك ـ إن سُلِّمت ـ لا تُنافي إرادةَ الإعادة له، فتدبَّر.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٣، والبحر ٧/ ٤٨٣.
(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ٣.
(٣) كلمة: حجاب، سقطت من (م).

وما ذكروه من الجمل الثلاث تمثيلاتٌ لنَبْوِ قلوبهم عن إدراك الحقِّ وقبوله، ومجِّ أسماعهم له، وامتناع مُواصلَتِهم وموافقَتِهم للرسول ﷺ، وأرادوا بذلك إقناطَه عليه الصلاة والسلام عن اتِّباعهم إياه عليه الصلاة والسلام حتى لا يَدْعوهم إلى الصراط المستقيم.

وذكر أبو حيان[١] أنَّه لَمَّا كان القلبُ محلَّ المعرفة والسمعُ والبصرُ مُعِينان على تحصيل المعارف ذَكَرُوا أنَّ هذه الثلاثةَ محجوبةٌ عن أن يصلَ إليها مما يُلقيه الرسول ﷺ شيءٌ.

ولم يقولوا: على قلوبنا أكنةٌ، كما قالوا: «وفي آذاننا وقر»؛ ليكون الكلامُ على نَمَطٍ واحدٍ في جعل القلوب والآذان مستقَرَّ الأكنَّةِ والوقرِ، وإن كان أحدُهما استقرارَ استعلاءٍ، والثاني استقرارَ احتواءٍ، إذ لا فرقَ في المعنى بينَ: قلوبُنا في أكنَّةٍ، و: على قلوبنا أكنَّةٌ، والدليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧] ولو قيل: إنا جعلنا قلوبهم في أكنة، لم يختلف المعنى، فالمطابقةُ حاصلةٌ من حيث المعنى، والمطابيعُ من العربِ لا يُراعُون الطباقَ والملاحظةَ إلا في المعاني. واختصاصُ كلٍّ مِن العبارتين بموضعه للتفنُّنِ، على أنَّه لَمَّا كان منسوباً إلى الله تعالى في سورة بني إسرائيل[٢] والكهف كان معنى الاستعلاءِ والقهرِ أنسبَ، وهاهنا لَمَّا كان حكايةً عن مقالهم كان معنى الاحتواء أقرب. كذا حقَّقه بعض الأجلَّة ودغدغ فيه.

وتفسير الأكنَّة بالأغطية هو الذي عليه جمهورُ المفسِّرين، فهي جمعُ كنانٍ كغطاء لفظاً ومعنًى.

وقيل: هي ما يُجعَل فيها السهام؛ أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ قالوا: كالجَعْبة للنَّبْل[٣].

﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك، وقيل: في إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ على ديننا،

(١) في البحر ٧/ ٤٨٤.
(٢) الآية (٤٦).
(٣) عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٠.

وقيل: في إبطال أمرك. والكلامُ على الأول متاركةٌ وتقنيطٌ عن اتِّباعه عليه الصلاة والسلام، ومقصودُهم: «إنَّنا عاملون»، والأول توطئةٌ له، وحاصلُ المعنى: إنَّا لا نترك دينَنا بل نثبُت عليه كما تَثبُت على دينك. وعلى الثاني هو مبارزةٌ بالخلاف والجدال.

وقائلُ ما ذُكر أبو جهل ومعه جماعةٌ من قريش، ففي خبرٍ أخرجه أبو سهل السريُّ من طريق عبد القدوس عن نافع بن الأزرق عن ابن عمر عن عمر ﵄ أنه قال في الآية: أقبلت قريشٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم: «ما يمنَعُكم من الإسلام فتَسُودوا العرب؟» فقالوا: يا محمد، ما نفقَهُ ما تقول ولا نسمعه، وإنَّ على قلوبنا لغُلُفاً. وأخذ أبو جهل ثوباً فمدَّه فيما بينه وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمد، قلوبُنا في أكنَّةٍ مما تَدْعونا إليه، وفي آذاننا وقرٌ، ومن بيننا وبينك حجابٌ.

وفيه: فلمَّا كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلاً إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: يا محمد، إِعْرِضْ علينا الإسلام، فلمَّا عرض عليهم الإسلامَ أسلموا عن آخرهم، فتبسَّم النبيُّ عليه الصلاة والسلام وقال: «الحمد لله، بالأمس تزعُمون أنَّ على قلوبكم غُلفاً، وقلوبُكم في أكنَّةٍ مما أدعوكم إليه، وفي آذانِكم وقراً، وأصبحتم اليومَ مسلمين». فقالوا: يا رسول الله، كذبنا والله بالأمس، لو كان كذلك ما اهتدينا أبداً، ولكن الله تعالى الصادقُ، والعبادُ الكاذبون عليه، وهو الغنيُّ ونحن الفقراء إليه[1].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لستُ ملَكاً ولا جِنيًّا لا يمكنكم التلقِّي منه، وهو ردٌّ لقولهم: «بيننا وبينك حجاب».

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول، وإنما أدعوكم إلى التوحيد الذي دلَّت عليه دلائلُ العقل، وشهدت له شواهد السمع، وهذا جوابٌ عن قولهم: «قلوبُنا في أكنَّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْر».

---

(١) عزاه لأبي سهل السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٠.

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فاستوُوا إليه تعالى بالتوحيد وإخلاص العبادة، ولا تتمسَّكوا بعُرى الشرك، وتقولوا لمن يدعوكم إلى التوحيد: قلوبنا في أكنة.. إلخ.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ مما سلف منكم من القول والعمل.

وهذا وجهٌ لا يخلو عن حسنٍ في ربط الأمر بما قبله، وفي «إرشاد العقل السليم»: أي: لستُ من جنسٍ مغايرٍ لكم حتى يكونَ بيني وبينكم حجابٌ وتباينٌ مصحِّحٌ لتبايُنِ الأعمال والأديان كما يُنبئ عنه قولُكم: «فاعمَلْ إنَّنا عامِلون»، بل إنما أنا بشرٌ مثلكم مأمورٌ بما آمُرُكم به، حيث أُخبِرْنا جميعاً بالتوحيد بخطابٍ جامع بيني وبينكم، فإنَّ الخطابَ في «إلهكم» محكيٌّ منتظِم للكلِّ، لا أنَّه خطابٌ منه عليه الصلاة والسلام للكَفَرة كما في «مثلكم»[1]. وهو مبنيٌّ على اختيار الوجه الأول في «فاعْمَل إنَّنا عاملون»، ولا بأسَ به من هذه الجهة، نعم فيه قصورٌ من جهة أخرى.

وقال صاحب «الفرائد»: ليس هذا جواباً لقولهم، إذ لا يقتضي أن يكونَ له جوابٌ، وحاصلُه: لا تترُكْهم وما يدينون لقولِهم ذلك المقصودِ منه أن تتركهم، سلَّمْنا أنه جوابٌ لكنَّ المرادَ منه: إني بشرٌ فلا أقدِر أن أُخرِجَ قلوبَكم من الأكنَّةِ، وأرفعَ الحجابَ من البين، والوقرَ من الآذان، ولكنِّي أُوحِيَ إليَّ وأُمرْتُ بتبليغِ: «أنَّما إلٰهُكم إلهٌ واحِد».

وللإمام كلامٌ قريبٌ مما ذكر في حيِّز التسليم[2]، وكلا الكلامين غيرُ وافٍ بجزالة النظم الكريم، وجعله الزمخشريُّ[3] جواباً من أنَّ المشركين طالما يتمسَّكون في ردِّ النبوة بأنَّ مُدَّعيها بشرٌ، ويجب أن يكون ملَكاً، ولا يجوز أن يكونَ بشراً، ولذا لا يُصغُون إلى قول الرسول ولا يتفكَّرون فيه، فقوله عليه الصلاة والسلام: إنِّي لستُ بملَكٍ وإنَّما أنا بشرٌ، من باب القلب عليهم، لا القول بالموجب ولا من الأسلوب الحكيم في شيء كما قيل، كأنه ﷺ قال: ما تمسَّكتم به في ردِّ نبوَّتي من

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٣.
(٢) ينظر التفسير الكبير ٢٧/ ٩٨.
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٤٣.

أنِّي بشرٌ هو الذي يصحِّح نبوَّتي، إذ لا يحسُن في الحكمة أن يُرسَل إليكم الملكُ، فهذا يُوجِب قبولَكم، لا الردَّ والغلوَّ في الإعراض.

وقوله: «يوحى إلي أنما إلهكم» تمهيدٌ للمقصود من البعثة بعد إثبات النبوَّة أولاً مفصَّلاً بقوله تعالى: (حمٓ) الآيات، ومجمَلاً ثانياً بقوله: «يوحى إلي»، ثم قيل: «أنَّما إلهكم» بياناً للمقصود، فقوله: «يوحى إليَّ» مسوقٌ للتمهيد، وفيه رمزٌ إلى إثبات النبوَّة، وهذا المعنى على القول بأنَّ المرادَ من «فاعمل» إلخ: فاعمل في إبطال أمرنا إنَّنا عاملون في إبطال أمرك = ظاهرٌ، وأما على القول الأول فوجهُه أنَّ الدينَ هو جملةُ ما يلتزمه المبعوثُ إليه من طاعة الباعث تعالى بوساطة تبليغ المبعوث، فهو مسبَّب عن نبوَّته المسبَّبة عن دليلها، فأظهروا بذلك أنَّهم منقادون لِما قَرَّر لديهم آباؤُهم من منافاة النبوَّة للبشرية، وأنَّه دينُهم، فقيل لهم ما قيل، وهو على هذا الوجه أكثرُ طباقاً وأبلغُ.

وهذا حَسَنٌ دقيقٌ، وما ذُكر أولاً أسرعُ تبادراً.

وفي «الكشف» أنَّ «قل إنَّما أنا بشرٌ مثلُكم يُوحى إليَّ» في مقابلة إنكارِهم الإعجازَ والنبوَّةَ، وقولُه: «فاستقيموا» يقابل عدمَ القبول، وفيه رمزٌ إلى شيء مما سمعتَ، فتأمَّل.

وقرأ ابن وثاب والأعمش: «قال إنَّما» فعلاً ماضياً[1].

وقرأ النخعي والأعمش «يُوحِي» بكسر الحاء[2]، على أنه مبنيٌّ للفاعل، أي: يُوحِي الله إليَّ أنَّما إلهكم إلهٌ واحِد.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ⁦(٦)⁩﴾ من شركهم بربِّهم عزَّ وجلَّ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق، وذلك من أعظم الرذائل ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ⁦(٧)⁩﴾ مبتدأ وخبرٌ، فـ «هم» الثاني ضميرُ فصل، و«بالآخرة» متعلقٌ

(١) البحر ٧/ ٤٨٤.
(٢) المصدر السابق.

بـ «كافرون»، والتقديمُ للاهتمام ورعايةِ الفاصلة، والجملةُ حالٌ مُشعِرةٌ بأنَّ امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في الدنيا وإنكارهم للآخرة.

وحملُ الزكاة على معناها الشرعيِّ مما قاله ابن السائب، ورُوي عن قتادة والحسن والضحاك ومقاتل.

وقيل: الزكاة بالمعنى اللغويِّ، أي: لا يفعلون ما يُزكِّي أنفسَهم، وهو الإيمان والطاعة. وعن مجاهد والربيع: لا يُزكُّون أعمالَهم[1]. وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس أنَّه قال في ذلك: أي: لا يقولون: لا إله إلَّا الله[2]. وكذا الحكيم الترمذيُّ وغيرُه عن عكرمة[3]، فالمعنى حينئذٍ: لا يطهِّرون أنفسَهم من الشرك.

واختار ذلك الطيبيُّ، قال: والمعنى عليه: فاستقيموا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة له تعالى، وتوبوا إليه سبحانه مما سبق لكم من الشرك، وويل لكم إن لم تفعلوا ذلك كلَّه. فوُضِع موضعَه منعُ إيتاء الزكاة ليُؤذن بأنَّ الاستقامةَ على التوحيد وإخلاصَ العمل لله تعالى والتبرِّي عن الشرك هو تزكيةُ النفس، وهو أوفقُ لتأليف النظم، وما ذهب إليه حبرُ الأمة إلا لمراعاة النظم. وجَعَل قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ أي: غير مقطوع، مذكوراً على جهة الاستطراد تعريضاً بالمشركين وأنَّ نصيبَهم مقطوعٌ حيث لم يُزكُّوا أنفسَهم كما زَكَّوا، واستدَلَّ على الاستطراد بالآية بعدُ.

وفي «الكشف»: القولُ الأول أظهرُ، والمشركون باقٍ على عمومه، لا من باب إقامة الظاهر مقام المضمَر كهذا القول، وأنَّ الجملةَ معترضةٌ كالتعليل لِمَا أمرهم به، وكذلك «إنَّ الذين آمنوا» الآية؛ لأنَّه بمنزلة: وويلٌ للمشركين وطُوبى للمؤمنين، وفيهما من التحذير والترغيبِ ما يؤكِّد أنَّ الأمر[4] بالإيمان والاستقامةِ تأكيداً لا يخفى

(١) زاد المسير ٧/ ٢٤٢.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٧٩، والأسماء والصفات للبيهقي (٢٠٥).
(٣) نوادر الأصول ص٣٤٢ دون نسبة، وعزاه له ولعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٠.
(٤) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: أن في الأمرِ.

حاله على ذي لبٍّ، وكذلك الزكاةُ فيه على الظاهر، وخُصَّ من بين أوصاف الكَفَرة منعُها لِما أنَّها معيارٌ على الإيمان المستكنِّ في القلب، كيف وقد قيل: المالُ شقيقُ الروح، بل قال بعضُ الأدباء:

وقالوا شقيقُ الروح مالُك، فاحتَفِظْ   به فأجَبْتُ المالُ خَيرٌ مِنَ الرُّوْح
أرى حِفْظَه يَقْضِي بتحسينِ حَالَتي   وتَضْيِيعُه يُفْضِي لتَسْآل مَقْبُوحِ[١]

والصرفُ عن الحقيقة الشرعية الشائعةِ من غيرِ مُوجبٍ لا يجوز، كيف ومعنى الإيتاء لا يَقِرُّ قراره، نعم لو كان بدله: يأتون، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤] لحَسُن.

لا يقال: إنَّ الزكاةَ فُرضت بالمدينة والسورةُ مكية. لأنا نقول: إطلاقُ الاسم على طائفةٍ مخرَجةٍ من المال على وجهٍ من القربة مخصوصٍ كان شائعاً قبل فرضيتها بدليل شعر أمية بن أبي الصلت:

... الفاعلون للزكوات[٢]

على أنَّ هذا الحقَّ على هذا الوجه المعروف فُرِض بالمدينة، وقد كان في مكة فرضُ شيءٍ من المال يُخرَج إلى المستحقِّ لا على هذا الوجه، وكان يسمَّى زكاةً أيضاً، ثم نسخ. انتهى.

ومنه يُعلَم سقوطُ ما قاله الطيبي. بقي مخالفةُ الحبر وهي لا تتحقَّق إلا إذا تحقَّقت الروايةُ عنه، وبعده الأمرُ أيضاً سهلٌ، ولعلَّه ﷺ كان يقرأ: «لا يَأتُونَ» من الإتيان، إذ القراءةُ المشهورةُ تأبى ذلك إلا بتأويلٍ بعيدٍ، والعَجَبُ نسبةُ ما ذُكر عن الحبر في «البحر»[٣] إلى الجمهور أيضاً، وحملُ الآية على ذلك مخلَصٌ بعضٍ ممن لا يقول بتكليف الكفار بالفروع، لكن لا يخفى حالُ الحمل، وهي على المعنى

---

(١) لم نقف على قائل البيتين، وهما في البحر ٧/ ٤٨٥.

(٢) ديوان أمية ص٣٠، وسلف ١٨/ ١٤. وتمامه:

المطعمون الطعام في السنة الأز   مة والفاعلون للزكوات

(٣) ٧/ ٤٨٤.

المتبادر دليلٌ عليه، وممن لا يقول به قال: هم مكلَّفون باعتقاد حقِّيَّتها دون إيقاعها، والتكليفُ به بعد الإيمان، فمعنى الآية: لا يؤتون الزكاةَ بعدَ الإيمان. وقيل: المعنى: لا يُقرُّون بفرضيتها. والقولُ بتكليف المجنون أقربُ من هذا التأويل.

وقيل: كلمةُ «وَيْل» تدلُّ على الذمِّ لا التكليفِ، وهو مذمومٌ عقلاً. وفيه بحثٌ لا يخفى.

هذا وقيل في «ممنون»: لا يمُنُّ به عليهم، من المنِّ بمعنى تعداد النعم، وأصلُ معناه الثِّقَلُ، فأُطلِق على ذلك لِثقَله على الممنون عليه، وعن ابن عباس تفسيرُه بالمنقوص(١)، وأنشدوا لذي الإصبع العدواني:

إنِّي لعمرُك ما بابي بذي غَلَقٍ عن الصَّدِيق ولا زادِي بمَمْنُون(٢)

والآية على ما رُوي عن السدِّي نزلت في المَرْضَى والهَرْمَى؛ إذا عجزوا عن كمال الطاعات كُتِب لهم من الأجر في المرض والهرم مثلُ الذي كان يُكتَب لهم وهم أصِحَّاء وشُبَّان، ولا تَنقُص أجورُهم(٣)، وذلك من عظيم كرم الله تعالى ورحمته عزَّ وجلَّ.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى آخر الآيات، والكلامُ فيها كثيرٌ، ومنه ما ليس بالمشهور، ولنبدأ بما هو المشهورُ، وبعد التمام نذكر الآخرَ، فنقول:

هذا إنكارٌ وتشنيعٌ لكفرهم، و«إنَّ» واللام إمَّا لتأكيد الإنكار وتقديمُ الهمزة لاقتضائها الصدارةَ، لا لإنكار التأكيد، وإمَّا للإشعار بأنَّ كفرَهم من البعد بحيث يُنكِر العقلاءُ وقوعَه فيحتاج إلى التأكيد. وعلَّق سبحانه كفرَهم بالموصول لتفخيم شأنه تعالى واستعظامِ كفرهم به عزَّ وجلَّ.

والظاهرُ أنَّ المرادَ بالأرض الجسمُ المعروف. وقيل: لعلَّ المرادَ منها ما في

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٦٩.

(٢) البيت في الأغاني ٣/ ١٠٥، والمفضليات ص١٦٠، وتفسير القرطبي ١٨/ ٣٩٣ والبحر ٧/ ٤٨٥. ورواية الجميع: ولا خير. دون: ولا زادي.

(٣) البحر ٧/ ٤٨٥.

جهة السفل من الأجرام الكثيفة واللطيفة من التراب والماء والهواء، تجوُّزاً باستعمالها في لازمِ المعنى - على ما قيل - بقرينة المقابَلة، وحُملت على ذلك لئلا يخلو الكلامُ عن التعرُّض لمدَّة خلقِ ما عدا التراب. ومن خَلْقِها[1] في يومين أنه سبحانه خَلَق لها أصلاً مشتركاً ثم خَلَق لها صُوَراً بها تنوَّعت إلى أنواع.

واليوم في المشهور عبارةٌ عن زمانِ كون الشمس فوقَ الأفق، وأريد منه هاهنا الوقت مطلَقاً؛ لأنه لا يتصوَّر ذلك قبلَ خلق السماء والكواكب والأرض نفسها. ثم إنَّ ذلك الوقت يحتمل أن يكونَ بمقدار اليوم المعروف، ويحتمل أن يكونَ أقلَّ منه أو أكثر، والأقلُّ أنسبُ بالمقام، وأيًّا ما كان فالظاهرُ أنَّ اليومين ظرفان لخَلْق الأرض مطلَقاً من غير توزيع.

وقال بعضُ الأجلة: إنه تعالى خَلَق أصلَها ومادَّتها في يومٍ، وصُوَرَها وطبقاتِها في آخر.

وقال في «إرشاد العقل السليم»: المراد بخلق الأرض تقديرُ وجودها، أي: حكم بأنها ستُوجَد في يومين[2]، مثله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والمراد بكفرهم به تعالى إلحادُهم في ذاته سبحانه وصفاته عزَّ وجلَّ، وخروجُهم عن الحقِّ اللازم له جلَّ شأنه على عباده من توحيده واعتقادِ ما يليق بذاته وصفاته جلَّ جلاله، فلا ينزِّهونه تعالى عن صفات الأجسام ولا يُثبِتون له القدرةَ التامَّةَ والنعوتَ اللائقة به سبحانه وتعالى، ولا يعترفون بإرساله تعالى الرسلَ وبَعْثِه سبحانه الأمواتَ، حتى كأنهم يزعمون أنه سبحانه خَلَقَ العبادَ عَبَثاً وتركهم سُدًى.

وقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ عطفٌ على «تكْفُرون» داخلٌ معه في حكم الإنكار والتوبيخ، وجَعْلُه حالاً من الضمير في «خَلَقَ» لا يخفى حالُه، وجمعُ الأنداد باعتبارِ ما هو الواقعُ، لا بأن يكونَ مدارُ الإنكار هو التعدُّد، أي: وتجعلون

(١) قوله: ومن خلقها، عطف على «منها» في قوله: لعل المراد منها ما في جهة السّفل. . .
(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ٤.

له تعالى أنداداً وأكفاء من الملائكة والجنِّ وغيرهم، والحالُ أنه لا يمكن أن يكونَ له سبحانه ندٌّ واحدٌ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيِّز الصلة، وما فيه من معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته في العظمة، وإفرادُ الكاف لِما أنَّ المرادَ ليس تعيينَ المخاطبين، وهو مبتدأٌ خبرُه ما بعده، أي: ذلك العظيم الشأن الذي فعل ما ذُكر في مدةٍ يسيرةٍ ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾ أي: خالقُ جميع الموجودات ومربِّيها دون الأرض خاصَّةً، فكيف يُتصوَّر أن يكونَ شيءٌ من مخلوقاته ندًّا له عزَّ وجلَّ!

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ على ما اختاره غيرُ واحد عطفٌ على «خَلَقَ الأرضَ»، داخلٌ في حكم الصلة، ولا ضيرَ في الفصل بينهما بالجملتين المذكورتين؛ لأنَّ الأولى متَّحدةٌ بقوله تعالى: «تكفرون» بمنزلة إعادتها، والثانيةُ معترضةٌ مؤكِّدةٌ لمضمون الكلام، فالفصلُ بهما كَلَا فَصْلٍ، وفيه بلاغةٌ من حيث المعنى لدلالته على أنَّ المعطوفَ عليه ـ أي: «خَلَقَ الأرض» ـ كافٍ في كونه تعالى ربَّ العالمين، وأن لا يُجعَل له ندٌّ، فكيف إذا انضمَّت إليه هذه المعطوفات.

وتعقِّب بأنَّ الاتحادَ لا يخرِجه عن كونه فاصلاً مشوِّشاً للذهن مُورِثاً للتعقيد، فالحقُّ والأقربُ أن تُجعَل الواو اعتراضيةً وكلٌّ من الجملتين معترضٌ ليندفع بالاعتراض الاعتراضُ. أو يُجعَل ابتداءَ كلامٍ بناءً على أنه يُصدَّر بالواو. أو يقال: هو معطوفٌ على مقدَّر كـ «خلق».

واختار هذا الأخيرَ صاحبُ «الكشف» فقال: أَوْجَهُ ما ذُكر فيه أنه عطفٌ على مقدَّر بعدَ «رَبُّ العالمين»، أي: خَلَقَها وجَعَل فيها رواسي. فكأنه ساقَ قولَه تعالى: (خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ) أوّلاً ردًّا عليهم في كفرهم، ثم ذكره ثانياً تتميماً للقصة وتأكيداً للإنكار، وليس سبيلُ قوله سبحانه: (ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) سبيلَ الاعتراض حتى تُجعلَ الجملة عطفاً على الصلة، ويُعتذَر عن تخلُّلِ «تَجْعَلُون» عَطْفاً على «تكفرون» باتحادِه بما قبلَه على أسلوبِ ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:٢١٧] وذلك لأنه مقصودٌ لذاته في هذا المساق وهو ركنٌ للإنكار، مثل قوله تعالى: (الذي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ) وآكَدُ، على ما لا يخفى على ذي بصيرة.

والرواسي: الجبالُ، من «رسا»: إذا ثبت، والمرادُ بجعلها إبداعُها بالفعل، وفي «الإرشاد»: المرادُ تقديرُ الجعلِ لا الجعلُ بالفعل[١].

وقولُه تعالى: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ متعلِّقٌ بـ «جَعَل»، أو بمحذوفٍ صفةٍ لـ «رواسي»، أي: كائنةً من فوقها، والضميرُ للأرض، وفي ذلك استخدام على ما قيل في المراد منها؛ لأنَّ الجبالَ فوقَ الأرض المعروفة، لا فوقَ جميع الأجسام السفلية والبسائطِ العنصرية.

وفائدةُ «من فوقها» الإشارةُ إلى أنها جُعلت مرتفعةً عليها لا تحتَها كالأساطين، ولا مغروزةً فيها كالمسامير؛ لتكونَ منافعُها مُعْرَضَةً[٢] لأهلها، ويظهَرَ للنظَّار ما فيها من مراصد الاعتبار ومطارح الأفكار. ولعمري إنَّ في ارتفاعها من الحِكَم التكوينية ما تدهَش منه العقولُ، والآية لا تأبى أن يكونَ في المغمور من الأرض في الماء جبالاً كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: كثَّر خيرَها، وفي «الإرشاد» قدَّر سبحانه أن يُكثِر خيرها بأن يكثر فيها أنواعَ النباتات وأنواعَ الحيوانات التي من جملتها الإنسان[٣].

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي: بيَّن كمِّيتها وأقدارها، وقال في «الإرشاد»: أي: حَكَمَ بالفعل بأن يوجَد - فيما سيأتي - لأهلها من الأنواع المختلفة أقواتُها المناسبةُ لها على مقدارٍ معيَّنٍ تقتضيه الحكمةُ[٤]. والكلامُ على تقدير مضاف.

وقيل: لا يحتاج إلى ذلك والإضافة لأدنى ملابسةٍ، وإليه يشير كلامُ السدِّي حيث قال: أضاف الأقواتَ إليها من حيث هي فيها وعنها برزت.

وفسَّر مجاهد الأقواتَ بالمطر والمياه[٥].

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٤.

(٢) قوله: معرضة، بوزن اسم المفعول من الإفعال، من أَعْرَضَه لك: إذا أظهره ومكَّنك من أخذه، أو من التفعيل وهو قريب منه معنًى. حاشية الشهاب ٧/ ٣٩٠.

(٣) إرشاد العقل السليم ٨/ ٤.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٨٦، والنكت والعيون ٥/ ١٧١.

وفي رواية أخرى عنه - وإليه ذهب عكرمة والضحاك - أنَّها ما خُصَّ به كلُّ إقليم من الملابس والمطاعم والنباتات؛ ليكونَ الناسُ محتاجين بعضهم لبعض، وهو مقتضٍ لعمارة الأرض وانتظام أمور العالم[١]. ويؤيِّد هذا قراءةُ بعضهم: «وقسَّم فيها أقواتها»[٢].

﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ متعلِّق بحصول الأمور المذكورة لا بتقديرها على ما في «إرشاد العقل السليم»[٣]، والكلام على تقدير مضاف، أي: قدَّر حصولَها في تتمَّة أربعة أيام. وكان الزَّجاج[٤] يعلِّقه بـ «قدَّر» كما هو رأي الإمام أبي حنيفة في القيد إذا وقع بعد متعاطفاتٍ، نحو: أكرمتُ زيداً وضربتُ عَمْراً ورأيت خالداً في الدار[٥]. والشافعي يقول: المتعقِّب للجمل يعود إليها جميعاً[٦]؛ لأنَّ الأصل اشتراكُ المعطوف والمعطوف عليه في المتعلقات، فيكون القيدُ هنا عائداً إلى جعل الرواسي وما بعده، وهو الذي يتبادر إلى فهمي.

ولا بدَّ من تقدير المضاف الذي سمعتَ، وقد صرَّح الزجَّاجُ بتقديره، ولم يقدِّره الزمخشريُّ وجَعَل الجارَّ متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أي: كلُّ ذلك من خلق الأرض وما بعده كائنٌ في أربعة أيام، على أنه فذْلَكة[٧]، أي: كلامٌ منقطع أُتي به لمجمَلِ ما ذُكر مفصّلاً، مأخوذةٌ من فذلكةِ الحساب وقولِهم: فذلِكَ كذا، بعد استقرار الجمعِ. فما نحن فيه أُلحِق فيه أيضاً جملةٌ من العدد بجملةٍ أخرى، وجَعْلُه كذلك لا يمنع عطفَ «جَعَلَ فيها رَواسِيَ» على مقدَّرٍ؛ لأنَّ الربط المعنويَّ كافٍ.

والقول بأنَّ الفذلكَة تقتضي التصريحَ بذكر الجملتين مثل أن يقال: سِرْتُ من البصرة إلى واسط في يومين، ومن واسط إلى الكوفة في يومين، فذلك أربعة أيام.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٨٧-٣٨٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٦.

(٢) وهي قراءة ابن مسعود كما في الكشاف ٣/ ٤٤٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٦.

(٣) ٨/ ٥.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٨٠-٣٨١.

(٥) سلفت المسألة ٢٢/ ٢٢٣-٢٢٤.

(٦) ونقله عنه صاحب الإبهاج ٢/ ١٥٣.

(٧) الكشاف ٣/ ٤٤٤.

وهاهنا لم ينصَّ إلا على أحد المبلغين = غيرُ سديد؛ لأنَّ العلم بالمبلغين في تحقيق الفذلكة كافٍ، على أنَّ المراد أنه جارٍ مجراها.

وإنما لم يَجُز الحملُ على أنَّ جَعْل الرواسي وما ذُكِر عقيبَه أو تقديرَ الأقوات في أربعة أيام؛ لأنَّه يلزَم أن يكونَ خلقُ الأرض وما فيها في ستة أيام، وقد ذَكر بعده أنَّ خلق السماوات في يومين فيكون المجموع ثمانيةَ أيام، وقد تكرَّر في كتاب الله تعالى أنَّ خَلْقَهما ـ أعني السماوات والأرضَ ـ في ستة أيام.

وقُيِّدت الأيامُ الأربعة بقوله تعالى: ﴿سَوَآءً﴾ فإنَّه مصدَر مؤكِّد لمضمَرٍ هو صفةٌ لـ «أيامٍ»، أي: استوَت سواءً، أي: استواءً، كما يدلُّ عليه قراءةُ زيد بن عليٍّ والحسن وابن أبي إسحاق وعمرو بن عبيد وعيسى ويعقوب: «سَواءٍ» بالجرِّ[1]، فإنَّه صريحٌ في الوصفية، وبذلك يضعُف القولُ بكونه حالاً من الضمير في «أَقْواتَها»، مع قلَّة الحال من المضاف إليه في غير الصور الثلاث، ولزوم تخالُفِ القراءتين في المعنى. ويُعلم من ذلك أنه على قراءة أبي جعفر بالرفع[2] يُجعَل خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أي: هي سواءٌ، وتُجعَل الجملةُ صفةً لـ «أيام» أيضاً لا حالاً من الضمير = لدفع التجوُّز[3] فإنَّه شائعٌ في مثل ذلك مطَّردٌ في عُرفَي العرب والعجم، فتراهم يقولون: فعلتُه في يومين. ويريدون في يوم ونصف مثلاً، و: سرتُ أربعةَ أيام. ويريدون ثلاثةً ونصفاً مثلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] فإنَّ المراد بالأشهر فيه شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة وليلةُ النحر. وذلك لأنَّ الزائد جُعل فرداً مجازاً، ثم أُطلِق على المجموع اسمُ العدد الكامل، فالمعنى هاهنا: في أربعة أيام لا نقصانَ فيها ولا زيادة، وكأنه لذلك أُوثِر ما في التنزيل على أن يقال: وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في يومين، كما قيل أولاً: «خلق الأرض في يومين». وحاصلُه أنه لو قيل ذلك لكان يجوز أن يرادَ باليومين الأوَّلين والأخيرين أكثرُهما.

---

(١) النشر ٢/ ٣٦٦ عن يعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٨٦.
(٢) النشر ٢/ ٣٦٦.
(٣) قوله: لدفع التجوز...، متعلق بقوله: وقيدت الأيام...

وإنما لم يقل: خَلَق الأرضَ في يومين كاملين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في يومين كاملين. أو: خَلَق الأرضَ في يومين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في يومين، تلك أربعةٌ سواء. لأنَّ ما أورده سبحانه أخصرُ وأفصحُ وأحسنُ طباقاً لِمَا عليه التنزيلُ من مغاصات القرائح ومصاكِّ الرُّكَب ليتميَّز الفاضلُ من الناقص والمتقدِّمُ من الناكص، وترتفع الدرجاتُ وتتضاعف المثوبات.

وقال بعض الأجلة: إنَّ في النظم الجليل دلالةً ـ أي: مع الاختصار ـ على أنَّ اليومين الأخيرين متصلان باليومين الأوَّلين لتبادُره من جَعْلِهما جملةً واحدةً واتصالهما في الذكر.

وقوله تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ⑩﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أي: هذا الحصرُ في أربعةٍ كائنٌ للسائلين عن مدَّة خَلْق الأرض وما فيها. ولا ضيرَ في توالي حذفِ مبتدأين، بناءً على ما آثره الزمخشريُّ في الجارِّ والمجرور قبل[1].

وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «قَدَّرَ» السابق، أي: وقدَّر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين. وقيل: متعلِّقٌ بمقدَّرٍ هو حالٌ من الأقوات. والكلُّ لا يستقيم إلا على ما آثره الزجَّاج دون ما آثره الزمخشري، لأنَّ الفذلكةَ كما يُعلَم مما سبق لا تكون إلا بعد تمام الجملتين، فلا يجوز أن تتوسَّط بين الجملة الثانية وبعضِ متعلَّقاتها.

وقيل: متعلِّقٌ بـ «سواءً» على أنه حالٌ من الضمير، والمعنى: مستويةً مهيَّأةً للمحتاجين.

أو به على قراءة الرفع وجَعْلِه خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ـ أي: أمرُ هذه المخلوقات ونفعُها ـ مستوٍ مهيأٌ للمحتاجين إليه من البشر. وهو كما ترى.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد إليها وتوجَّه دون إرادة تأثيرٍ في غيرها، من قولهم: استوى إلى مكانِ كذا، إذا توجَّه إليه لا يَلْوي على غيره.

(١) سلف ص١٤٠.

وذكر الراغب[1] أنَّ الاستواءَ متى عُدِّي بـ «على» فبمعنى الاستيلاء كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وإذا عدِّي بـ «إلى» فبمعنى الانتهاء إلى الشيء، إما بالذات أو بالتدبير، وعلى الثاني قوله تعالى: (ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ) الآية.

وكلام السلف في الاستواء مشهورٌ، وقد ذكرنا فيما سلف طرفاً منه. ويُشعِر ظاهرُ كلام البعض أنَّ في الكلام مضافاً محذوفاً، أي: ثم استوى إلى خلق السماء.

﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أمرٌ ظُلمانيٌّ، ولعلَّه أريد به مادَّتُها التي منها تركَّبت، وأنا لا أقول بالجواهر الفردة لقوَّة الأدلة على نفيها، ولا يلزم من ذلك محذورٌ أصلاً كما لا يخفى على الذكيِّ المُنصِف.

وقيل: إنَّ عرشَه تعالى كان قبل خَلْق السماوات والأرض على الماء، فأحدث الله تعالى في الماء سخونةً فارتفع زَبَدٌ ودخانٌ، فأمَّا الزَّبَد فبقي على وجه الماء، فخلق الله تعالى فيه اليبوسةَ وأحدث سبحانه منه الأرضَ، وأما الدخانُ فارتفع وعلا فخلق الله تعالى منه السماوات.

وقيل: كان هناك ياقوتةٌ حمراء فنظر سبحانه إليها بعين الجلال فذابت وصارت ماءً، فأَزْبَد وارتفع منه دخانٌ فكان ما كان.

وأيًّا ما كان فليس الدخانُ كائناً من النار التي هي إحدى العناصر؛ لأنها من توابعِ الأرض ولم تكن موجودة إذ ذاك على قولٍ، كما ستعرف إن شاء الله تعالى، وعلى القول بالوجود لم يذهب أحدٌ إلى تكوُّنِ ذلك من تلك النار، والحقُّ الذي ينبغي أن لا يُلتَفت إلى ما سواه أنَّ كرة النار التي يزعمها الفلاسفة المتقدِّمون ووافقهم كثيرٌ من الناس عليها ليست بموجودة، ولا توقُّفَ لحدوث الشُّهُب على وجودها، كما يظهر لذي ذهنٍ ثاقبٍ.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا﴾ بما خلقتُ فيكما من المنافع، فليس المعنى على إتيانِ ذاتهما وإيجادهما، بل إتيانِ ما فيهما مما ذُكر بمعنى إظهارِه والأمر للتسخير، قيل:

---

(١) في المفردات (سوا).

ولا بدَّ على هذا أن يكون المترتِّبُ بعدُ[1] جَعْلَ السماوات سبعاً أو مضمون مجموع الجمل المذكورة بعد الفاء، وإلا فالأمرُ بالإتيان بهذا المعنى مترتِّبٌ على خلق الأرض والسماء.

وقال بعض: الكلامُ على التقديم والتأخير، والأصل: ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقضاهنَّ سبعَ سماوات.. إلخ، فقال لها وللأرض: ائتيا.. إلخ. وهو أبعدُ عن القيل والقال، إلا أنه خلافُ الظاهر.

أو: كُونا واحْدُثا على وجهٍ معيَّن وفي وقتٍ مقدَّرٍ لكلٍّ منكما. فالمراد إتيانُ ذاتهما وإيجادُهما، فالأمر للتكوين على أنَّ «خَلَقَ» و«جَعَلَ» و«بارَكَ» و«قَدَّر» بالمعنى الذي حكيناه عن «إرشاد العقل السليم»، ويكون هذا شروعاً في بيان كيفية التكوين إثرَ بيان كيفية التقدير.

ولعلَّ تخصيصَ البيان بما يتعلَّق بالأرض وما فيها لِما أنَّ بيانَ اعتنائه تعالى بأمر المخاطَبين وترتيبِ مبادي معايشهم قبلَ خلقهم مما يحمِلهم على الإيمان ويزجُرهم عن الكفر والطغيان.

وخُصَّ الاستواءُ بالسماء مع أنَّ الخطاب المترتِّبَ عليه متوجِّهٌ إليهما معاً اكتفاءً بذكر تقدير الأرض وتقديرِ ما فيها، كأنه قيل: فقيل لها وللأرض التي قُدِّر وجودُها ووجودُ ما فيها: كُونا واحْدُثا.

وهذا الوجه[2] هو الذي قدَّمه صاحبُ «الإرشاد» ـ وذَكَره غيرُه احتمالاً ـ وجَعَلَ الأمرَ عبارةً عن تعلُّق إرادته تعالى بوجودهما تعلُّقاً فعليًّا بطريق التمثيل، من غير أن يكونَ هناك آمرٌ ومأمورٌ كما قيل في قوله تعالى: ﴿كُن﴾ [البقرة: ١١٧]. وقولَه تعالى: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تمثيلاً لتحتُّم تأثيرِ قدرته تعالى فيهما واستحالةِ امتناعهما من ذلك، لا إثباتِ الطوع والكُره لهما، وهما مصدران وَقَعا موقع الحال، أي: طائعتين أو كارهتين.

(١) يعني في قوله: «فقضاهن» إلخ. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣٩١.
(٢) يعني كون «ائتيا» بمعنى: كونا واحدثا...

وقولَه تعالى[(١)]: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ أي: منقادين، تمثيلاً لكمال تأثُّرهما عن القدرة الربانية وحصولهما كما أُمِرا به، وتصويراً لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة، فإنَّ الطوعَ مُنبئٌ عن ذلك والكره مُوهِمٌ لخلافه. وقيل: «طائعين» ـ بجمع المذكَّر السالم مع اختصاصه بالعقلاء ـ باعتبار كونهما في معرض الخطاب والجواب، ولا وجهَ للتأنيث عند إخبارهم عن أنفسهم؛ لكون التأنيث بحسب اللفظ فقط.

وقولَه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ تفسيراً وتفصيلاً لتكوين السماء المجمَل المعبَّر عنه بالأمر وجوابه، لا أنه فعلٌ مترتِّبٌ على تكوينهما، أي: خلقهنَّ خَلْقاً إبداعيًّا وأتقن أمرَهنَّ حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ في وقتين[(٢)].

وضميرُ «هُنَّ» إما للسماء على المعنى؛ لأنه بمعنى السماوات، ولذا قيل: هو اسم جمع، فـ «سَبْع» حالٌ من الضمير. وإما مبهمٌ يفسِّره ما بعده على أنه تمييزٌ، فهو له وإن تأخَّر لفظاً ورتبةً؛ لجوازه في التمييز نحو: رُبَّه رَجُلاً. وهو وجهٌ عربي.

وقال أبو حيان: انتصب «سَبْع» على الحال[(٣)]. وهو حالٌ مقدَّرة. وقال بعضهم: بدلٌ من الضمير. وقيل: مفعولٌ به، والتقدير: قَضَى منهنَّ سبعَ سماوات.

وقال الحوفي: على أنَّه مفعولٌ ثانٍ، على تضمين القضاء معنى التصيير[(٤)].

ولم يذكر مقدار زمن خَلْقِ الأرض وخَلْقِ ما فيها اكتفاءً بذكره في بيان تقديرهما.

وقولَه تعالى[(٥)]: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ عطفاً على «قَضاهُنَّ» أي: خَلَق في كلٍّ منها ما استعدَّت له واقتضت الحكمةُ أن يكونَ فيها من الملائكة والنيِّرات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى كما يقتضيه كلامُ السديِّ وقتادة، فالوحْيُ عبارةٌ عن التكوين كالأمر مقيَّدٌ بما قُيِّد به المعطوفُ عليه من الوقت، أو: أوحى إلى أهلِ كلِّ

---

(١) أي: وجَعَل صاحبُ الإرشاد قولَه تعالى. . . إلخ، وكذا فيما سيأتي من كلام.
(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٥.
(٣) البحر ٧/ ٤٨٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) عطف على ما قبله من كلام صاحب الإرشاد.

منها أوامِرَه وكلَّفهم ما يليق بهم من التكاليف كما قيل، فالوحي بمعناه المشهور من بين معانيه، ومطلَقٌ عن القيد المذكور[(١)]، أو مقيَّدٌ به فيما أرى.

واحتمالُ التقييد والإطلاق جارٍ في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: من الكواكب، وهي فيها وإن تفاوتت في الارتفاع والانخفاض على ما يقتضيه الظاهرُ. أو بعضُها فيها وبعضها فيما فوقها، لكنَّها لكونها كلِّها تُرى متلألئةً عليها صحَّ كونُ تزيينها بها، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية.

وأما قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ فهو مفعولٌ مطلقٌ لفعل مقدَّرٍ معطوفٍ على قوله تعالى: (وَزَيَّنَّا) أي: وحفظناها حفظاً، والضميرُ للسماء، وحفظُها إما من الآفات، أو من الشياطين المستَرِقة للسمع، وتقدَّم الكلامُ في ذلك. وقيل: الضمير للمصابيح. وهو خلافُ الظاهر.

وجوَّز كونُه مفعولاً لأجله على المعنى، أي: معطوفاً على مفعولٍ له يتضمَّنه الكلامُ السابق، أي: زينةً وحفظاً. ولا يخفى أنه تكلُّفٌ بعيدٌ لا ينبغي القولُ به مع ظهور الأول وسهولته كما أشار إليه في «البحر»[(٢)].

وجَعَل[(٣)] قولَه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى جميع الذي ذُكر بتفاصيله، أي: ذلك المذكور ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ أي: البالغِ في القدرة والبالغ في العلم.

ثم قال صاحب «الإرشاد» بعد ما سمعتَ مما حُكي عنه: فعلى هذا لا دلالةَ في الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء، وإنما الترتيبُ بين التقدير، أي: تقدير إيجاد الأرض وما فيها وإيجاد السماء، وأما على تقدير كون الخلق وما عُطِف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فهي تدلُّ على تقدُّم خَلْق الأرض وما فيها، وعليه إطباق أكثر أهل التفسير[(٤)].

ولا يخفى عليك أنَّ حملَ تلك الأفعال على ما حَمَلَها عليه خلافُ الظاهر

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٥-٦.
(٢) ٧/ ٤٨٨.
(٣) أي: أبو السعود في الإرشاد ٨/ ٧.
(٤) إرشاد العقل السليم ٨/ ٦.

كما هو مقرٌّ به، وعدم التعرُّض لخلق الأرض وما فيها بالفعل كما تُعرِّض لخلق السماوات كذلك لا يلائم دعوى الاعتناء التي أشار إليها في بيان وجه تخصيص البيان بما يتعلَّق بالأرض وما فيها، على أنَّ خلْقَ ما فيها بالفعل غيرُ ظاهر من قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، لاسيما وقد ذُكرت الأرضُ قَبْلُ مستقلَّة وذُكر ما فيها مستقِلًّا، فلا يتبادر من الأرض هنا إلا تلك الأرض المستقلَّة، لا هي مع ما فيها. وأمرُ تقدُّم خَلْق الأرض وتأخُّرِه سيأتي إن شاء الله تعالى الكلام فيه.

وقيل: إنَّ إتيانَ السماء حدوثُها، وإتيانَ الأرض أن تصيرَ مدحوَّةً. وفيه جمعٌ بين معنيَيْنِ مَجازِيَّيْنِ، حيث شبَّه البُرُوزَ من العدم وبَسْطَ الأرض وتمهيدَها بالإتيان من مكان آخر، وفي صحة الجمع بينهما كلامٌ، على أنَّ في كون الدحْوِ مؤخَّراً عن جعل الرواسي كلاماً أيضاً ستعْرِفه إن شاء الله تعالى.

وقيل: المراد: لِتأتِ كلٌّ منكما الأخرى في حدوث ما أُرِيدَ توليدُه منكما. وأيِّد بقراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد: «آتِيا»، و«قالتا آتَيْنا»[١] على أنَّ ذلك من المواتاة بمعنى الموافقة، قال الجوهريُّ: تقول: آتيتُه على ذلك الأمر مواتاةً: إذا وافقتَه وطاوعتَه[٢]؛ لأنَّ المتوافقَيْنِ يأتي كلٌّ منهما صاحبَه، وجُعِلَ ذلك من المجاز المُرْسَل وعلاقتُه اللزوم.

وقال ابن جني[٣]: هي المسارعة، وهو حَسَنٌ أيضاً.

ولم يجعله أكثر الأجلة من الإيتاء لأنه غيرُ لائح، وجعله ابن عطية منه وقدَّر المفعولَ، أي: أعطيا من أنفسكما من الطاعة ما أردتُه منكما[٤]. وما تقدَّم أحسن، وما أسلفناه في أول الأَوْجُه من الكلام يأتي نحوه هنا كما لا يخفى.

واختلف الناسُ في أمر التقدُّم والتأخُّر في خلق كلٍّ من السماوات وما فيها

(١) المحتسب ٢/ ٢٤٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٧، والبحر ٧/ ٤٨٧.
(٢) الصحاح (أتي).
(٣) في المحتسب ٢/ ٢٤٥.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٧.

والأرض وما فيها، وذلك للآيات والأحاديث التي ظاهرُها التعارضُ، فذهب بعضٌ إلى تقدُّم خلق الأرض؛ لظاهر هذه الآية حيث ذكَر فيها أوَّلاً خلْقَ الأرض وجعْلَ الرواسي فيها وتقديرَ الأقوات، ثم قال سبحانه: «ثم استوى إلى السماء» إلخ، وأَبَى أن يكونَ الأمرُ بالإتيان للأرض أمرَ تكوينٍ، ولظاهر قوله تعالى في آية البقرة: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٩].

وأَوَّلَ آية «النازعات»، أعني قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] لِما أنَّ ظاهرَه يدلُّ على تأخُّرِ خلق الأرض وما فيها من الماء والمرعى والجبال؛ لأنَّ ذلك إشارةٌ إلى السابق وهو رفعُ السَّمْك والتسوية، و«الأرضَ» منصوبٌ بمضمر على شريطة التفسير، أي: ودَحا الأرضَ بعدَ رفع السماء وتسويتها دَحاها.. إلخ = بأن الأرضَ منصوبٌ بمضمر نحو: تذكَّرْ وتدبَّرْ، أو: اذْكُر الأرضَ بعد ذلك. لا بمضمر على شريطة التفسير، أو به[1] و«بعد ذلك» إشارةٌ إلى المذكور سابقاً من ذكرِ خلْقِ السماء لا خَلْقِ السماء نفسه؛ ليدلَّ على أنَّه متأخِّر في الذكر عن خلق السماء تنبيهاً على أنَّه قاصرٌ في الأول، لكنه تتميمٌ، كما تقول جُمَلاً ثم تقول: بعد ذلك كيت وكيت، وهذا كثيرٌ في استعمال العرب والعجم، وكأنَّ «بعد ذلك» بهذا المعنى عكسه إذا استُعْمِل لتراخي الرتبة والتعظيم، وقد تستعمل «ثم» أيضاً بهذا المعنى وكذا الفاء.

وبعضهم يذهب في الجواب إلى ما قاله ابن عباس؛ فقد روى الحاكم والبيهقيُّ بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: رأيتُ أشياءَ تختلف عليَّ في القرآن. قال: هاتِ ما اختلف عليك من ذلك. فقال: أسمَعُ الله تعالى يقول: (أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ) حتى بلغ: (طَآئِعِينَ) فبدأ بخلق الأرض في هذه الآية قبل خلق السماء، ثم قال سبحانه في الآية الأخرى: (أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا) ثم قال: (وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ) فبدأ جلَّ شأنه بخلق السماء قبل خلق الأرض؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أما خلقُ الأرض في يومين فإنَّ الأرض خُلِقت قبلَ

---

(١) أي: أو بمضمر على شريطة التفسير. ينظر ما سيرد عند تفسير الآية (٣٠) من سورة النازعات.

السماء، وكانت السماءُ دخاناً فسواهنَّ سبع سماوات في يومين بعد خلق الأرض، وأما قولُه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ يقول: جعل فيها جَبَلاً، وجعل فيها نهراً، وجعل فيها شجراً، وجعل فيها بحوراً[1]. انتهى.

قال الخفاجي: يعني أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بدلٌ أو عطفُ بيانٍ لـ «دحاها» بمعنى بسطها، مبيِّنٌ للمراد منه، فيكون تأخُّرُها في هذه الآية ليس بمعنى تأخُّرِ ذاتها، بل بمعنى تأخُّرِ خَلْقِ ما فيها وتكميلِه وترتيبِه، بل خَلْق التمتُّعِ والانتفاعِ به، فإنَّ البعديَّةَ كما تكون باعتبار نفس الشيء تكون باعتبار جزئه الأخير وقَيْدِه المذكور، كما لو قلتَ: بعثتُ إليك رسولاً؛ ثم كنتُ بعثتُ فلاناً لينظر ما يُبلِّغه. فبَعْثُ الثاني وإن تقدَّم لكن ما بُعِث لأجله متأخِّرٌ عنه، فجُعِلَ نفسُه متأخِّراً.

فإن قلت: كيف هذا مع ما رواه ابن جرير وغيره وصحَّحوه عن ابن عباس أيضاً أنَّ اليهودَ أتت النبيَّ ﷺ فسألته عن خَلْقِ السماوات والأرض، فقال عليه الصلاة والسلام: «خلق الله تعالى الأرضَ يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبالَ وما فيهنَّ من المنافع يومَ الثلاثاء، وخلق يومَ الأربعاء الشجرَ والماءَ والمدائنَ والعُمرانَ والخرابَ، فهذه أربعة، فقال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾، وخَلَق يومَ الخميس السماءَ، وخلق يومَ الجمعة النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكة»[2]. فإنَّه يخالِف الأوَّلَ لاقتضائه خَلْقَ ما في الأرض من الأشجار والأنهار ونحوِها قبلَ خلق السماء.

قلت: الظاهر حملُه على أنَّه خلق فيما ذُكر مادةَ ذلك وأصولَه؛ إذ لا يُتصوَّر

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٩٤-٣٩٥، والأسماء والصفات (٨٠٩)، وأخرجه أيضاً البخاري بعد الحديث رقم (٤٨١٥). وهو حديث طويل، ولم يرد موضع الشاهد في المستدرك.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٨٢-٣٨٣، وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢١، وأبو الشيخ في العظمة (٨٨١)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٤٣، وصححه. وفيه أبو سعد البقال، قال الذهبي في التلخيص: قال ابن معين: لا يكتب حديثه. اهـ. وفي تهذيب الكمال ١١/ ٥٥: وقال البخاري: منكر الحديث. وتحرف «أبو سعد» في المستدرك والتلخيص إلى: أبي سعيد. ينظر تهذيب الكمال ١١/ ٥٢.

العمرانُ والخرابُ قبل خلق السماء، فعطفه عليه قرينة لذلك، فلا تعارُضَ بين الحديثين، كما أنه ليس بين الآيات اختلافٌ(١). انتهى كلام الخفاجي.

ولا يخفى أنَّ قولَ ابن عباس السابقَ نصٌّ في أنَّ جعلَ الجبال في الأرض بعد خلق السماء، وهو ظاهرُ آية «النازعات»، إذا كان ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ [النازعات: ٣٠] معتبراً في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وآيةُ «حم السجدة» ظاهرةٌ في أنَّ جعْلَ الجبال قبل خلْقِ السماوات، ثم إنَّ روايةَ ابن جرير المذكورة عنه مخالفةٌ لخبر مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله تعالى التربةَ يومَ السبت، وخلق فيها الجبالَ يوم الأحد، وخَلَق الشجرَ يومَ الاثنين، وخَلَقَ المكروهَ يومَ الثلاثاء، وخَلَق النورَ يومَ الأربعاء، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميس، وخلق آدمَ بعدَ العصر من يومِ الجمعة في آخر الخلق في آخرِ ساعةٍ من النهار فيما بين العَصْر إلى الليل»(٢).

واستدلَّ في «شرح المهذَّب»(٣) بهذا الخبر على أنَّ السبتَ أولُ أيام الأسبوع دون الأحد، ونقله عن أصحابه الشافعية. وصحَّحه الإسنوي(٤) وابن عساكر، وقال العلَّامة ابن حجر: هو الذي عليه الأكثرون، وهو مذهبنا. يعني الشافعيةَ، كما في «الروضة»، وأصلِها، بل قال السهيليُّ في «روضه»(٥): لم يقل بأنَّ أوَّله الأحدُ إلا ابن جرير.

وجرى النوويُّ في موضع على ما يقتضي أنَّ أوَّله الأحد، فقال: في يوم الاثنين: سُمِّي به؛ لأنه ثاني الأيام(٦).

وأجيب بأنَّه جرى في توجيه التسمية المُكْتَفَى فيه بأدنى مناسبةٍ على القول الضعيف.

---

(١) حاشية الشهاب ٢/ ١١٥-١١٦.
(٢) صحيح مسلم (٢٧٨٩).
(٣) المجموع ٨/ ٤٠١-٤٠٢.
(٤) في الكوكب الدري ١/ ٢٥٩.
(٥) الروض الأنف ٢/ ١٩٨.
(٦) المجموع ٦/ ٤٤١.

وانتصر القفَّال من الشافعية لكون أوله الأحدَ بأنَّ الخبر المذكور تفرَّد به مسلم، وقد تكلَّم عليه الحفاظ: علي بن المديني والبخاري[١] وغيرهما، وجعلوه من كلام كعب، وأنَّ أبا هريرة إنَّما سمعه منه، ولكن اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً[٢].

وأجيب بأنَّ مَن حَفِظ الرفعَ حجَّةٌ على مَن لم يحفظه، والثقةُ لا يردُّ حديثُه بمجرَّد الظن، ولأجل ذلك أعرض مسلم عمَّا قاله أولئك واعتمد الرفعَ وخرَّج طريقَه في صحيحه، فوجب قبولها.

وذكر أحمد بن أحمد المقَّري المالكي[٣] أنَّ الإمام أحمد رواه أيضاً في «مسنده» عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: شبَّك بيدي أبو القاسم ﷺ وقال: «خَلَقَ اللهُ تعالى الأرضَ يومَ السَّبْت» الحديث[٤].

وفي «الدر المنثور» عدَّةُ أخبارٍ عن ابن عباس ناطقةٌ بأنَّ مبدأ خلْقِ الأرض كان يوم الأحد[٥]. وفيه أيضاً: أخرج ابن جرير عن أبي بكر رضي الله عنه قال: جاء اليهود إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبِرْنا ما خلق الله تعالى من الخلق في هذه الأيام الستة؟ فقال: «خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبالَ يومَ الثلاثاء، وخلق المدائنَ والأقواتَ والأنهارَ وعمرانَها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السماوات والملائكةَ يوم الخميس إلى ثلاث ساعات - يعني من يوم الجمعة - وخلق في أول ساعةٍ الآجالَ وفي الثانية الآفةَ، وفي الثالثة آدمَ». قالوا: صدقتَ إن

---

(١) في التاريخ الكبير ١/ ٤١٣-٤١٤. وقال: عن أبي هريرة عن كعب أصح. وينظر كلام علي بن المديني على هذا الحديث في الأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٢٥٥.

(٢) ينظر كلام ابن كثير عند تفسير الآية (٢٩) من سورة البقرة.

(٣) لعله أحمد بن محمد بن أحمد المقَّري المالكي أبو العباس، حافظ المغرب، مفسِّر محدِّث، أديب متكلم، له: إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، والدر الثمين في أسماء الهادي الأمين ﷺ، توفي سنة (١٠٤١هـ). خلاصة الأثر ١/ ٣٠٢، وإيضاح المكنون ١/ ٦٧ وفيه أنه توفي سنة (١٠٤٣هـ). والمَقَّري. بفتح الميم وتشديد القاف. نسبة إلى قرية من قرى تلمسان. خلاصة الأثر ١/ ٣١١.

(٤) مسند أحمد (٨٣٤١)، وفيه: أخذ. بدل: شبك. و: التربة. بدل: الأرض. وأخرجه بلفظ المصنف الحاكم في معرفة علوم الحديث ص٣٣-٣٤.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٣٦١.

تَمَّمتَ. فعرف النبيُّ ﷺ ما يريدون فغَضِب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق:٣٨-٣٩](١). واليهود قاطبةً على أنَّ أولَ الأسبوع يوم الأحد، احتجاجاً بما يسمُّونه التوراةَ، وظاهرُة الاشتقاق تقتضي ذلك.

ومَن ذهب إلى أنَّ الأول السبتُ قال: لا حجَّةَ في ذلك؛ لأنَّ التسميةَ لم تثبُت بأمر من الله تعالى ولا من رسوله ﷺ، فلعلَّ اليهودَ وضعوا أسماءَ الأسبوع على ما يعتقدون فأخذتها العربُ عنهم، ولم يرد في القرآن إلا الجمعةُ والسبتُ، وليسا من أسماء العدد، على أنَّ هذه التسميةَ لو ثبتت عن العرب لم يكن فيها دليلٌ؛ لأنَّ العرب تُسمِّي خامسَ الورد ربعاً، وتاسعه عشراً، وهذا هو الذي أخذ منه ابنُ عباس قولَه الذي كان ينفرد به أنَّ يومَ عاشوراء هو يومُ تاسِع المحرَّم، وتاسوعاء هو يومُ ثامنِه(٢).

ولا يخفى أنَّ الجواب الأول خارجٌ عن الإنصاف، فلأيام الأسبوع عند العرب أسماءٌ أُخَر، فيها ما يدلُّ على ذلك أيضاً، وهي: أَوَّل، وأَهْوَن، وجُبار، ودُبار، ومُؤْنِس، وعَرُوبة، وشِيار(٣)، ولا يَسُوغ لمُنصِفٍ أن يظنَّ أنَّ العربَ تبعوا في ذلك اليهودَ، وجاء الإسلامُ وأقرَّهم على ذلك، وليت شعري إذا كانت تلك الأسماء وقعت متابعةً لليهود فما الأسماء الصحيحةُ التي وضعها واضعُ لغةِ العرب غيرَ تابعٍ فيها لليهود؟! والجوابُ الثاني خلافُ الظاهر جدًّا.

ونقل الواحدي في «البسيط» عن مقاتل أنَّ خلْقَ السماء مقدَّمٌ على إيجاد الأرض، فضلاً عن دحوها. واختاره الإمام(٤)، ونسبه بعضُهم إلى بعض المحقِّقين من المفسِّرين، وأوَّلوا الآيةَ بأنَّ الخلْقَ ليس عبارةً عن التكوين والإيجاد، بل هو

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٥٠.

(٢) أخرجه مسلم (١١٣٣): (١٣٢) و(١١٣٤): (١٣٣) و(١٣٤). وينظر شرح النووي ٨/ ١٢. وقال الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ٤١٠: كأنه تأول فيه عِشْرَ الورد أنها تسعة أيام.... وليس ببعيد من الصواب.

(٣) جمهرة اللغة ٣/ ٤٨٩، والزاهر ٢/ ٣٥٦. وقد تدخل «أل» على: عروبة.

(٤) في التفسير الكبير ٢٧/ ١٠٧، وقول الواحدي فيه ٢٧/ ١٠٥.

عبارةٌ عن التقدير، والمرادُ به في حقِّه تعالى: حكْمُه تعالى أن سيُوجد، وقضاؤُه عزَّ وجلَّ بذلك، مثلُه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. ولا بدَّ على هذا من تأويل «جَعَل» و«بارَك» بنحو ما سمعتَ عن «الإرشاد»(١).

وجوَّز أن يبقى «خَلَق» وكذا ما بعده على ما يتبادَرُ منه، ويكون الكلامُ على إرادة الإرادة كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]. أي: بالذي أراد خَلْقَ الأرض في يومين، وأراد أن يجعل فيها رواسي. وقالوا: إنَّ «ثم» للتفاوُت في الرتبة المنزَّلة منزلةَ التراخي الزماني، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] فإنَّ اسم «كان» ضميرٌ يرجع إلى فاعلِ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ [البلد: ١١]، وهو الإنسان الكافر، وقوله سبحانه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣-١٦] تفسير للعقبة، والترتيبُ الظاهريُّ يُوجِب تقديمَ الإيمان عليه، لكن «ثم» هنا للتراخي في الرتبة مجازاً.

وفي «الكشف»: إنَّ ما نقله الواحدي لا إشكالَ فيه، ويتعيَّن «ثم» في هذه السورة و«السجدة»(٢) على تراخي الرتبة، وهو أوفقُ لمشهور قواعدِ الحكماء، لكن لا يوافِقُ ما جاء مِن أنَّ الابتداء من يوم الأحد كان، وخَلْق السماوات وما فيها من يوم الخميس والجمعة، وفي آخر يوم الجمعة تمَّ خلْقُ آدمَ عليه السلام.

وفي «البحر»: الذي نقوله: إنَّ الكفارَ وُبِّخوا وقُرِّعوا بكفرهم بمن صدرت عنه هذه الأشياء جميعُها من غير ترتيبٍ زمانيٍّ، وإنَّ «ثم» لترتيب الإخبار لا لترتيب الزمان والمهلة، كأنَّه قال سبحانه: بالذي(٣) أخبرهم أنه خَلَق الأرضَ وجَعَل فيها رواسي وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتَها، ثم أخْبَركم أنه استوى إلى السماء. فلا تعرُّضَ في الآية لترتيب الوقوع الترتيبَ الزمانيَّ، ولَمَّا كان خلْقُ السماء أبدَع في القدرة من خلق الأرض استُؤنِفَ الإخبارُ فيه بـ «ثم»، فهي لترتيب الإخبار كما في قوله تعالى:

---

(١) ينظر ما سلف ص١٣٩.
(٢) يعني سورة البقرة الآية (٢٩) وسورة فصلت. ينظر ما سيرد عن تفسير الآية (٣٠) من النازعات.
(٣) في مطبوع البحر ٧/٤٨٨: فالذي. والكلام في الأصل الخطِّي غير واضح.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] بعد قوله سبحانه: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١]. وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] بعد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾ [الأنعام:١٥١]. ويكون قوله جلَّ شأنه: (فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ) بعد إخباره تعالى بما أخبر به تصويراً لخلقهما على وفق إرادته تعالى، كقولك: أرأيتَ الذي أثنيتُ عليه، فقلتُ له: إنك عالمٌ صالح. فهذا تصويرٌ لما أثنيتَ به وتفسيرٌ له. فكذلك أخبر سبحانه بأنه خَلَق كيتَ وكيتَ فأوجد ذلك إيجاداً لم يتخلَّف عن إرادته(١). انتهى.

وظاهرُ ما ذكره في قوله تعالى: «فقال لها» إلخ أنَّ القولَ بعد الإيجاد.

وقال بعض الأجلة: يجوز أن يكونَ ذلك للتمثيل أو التخييل للدلالة على أنَّ السماء والأرض محلًّا قدرتِه تعالى يتصرَّفُ فيهما كيف يشاء إيجاداً وإكمالاً، ذاتاً وصفةً، ويكون تمهيداً لقوله سبحانه: (فَقَضَىٰهُنَّ) أي: لَمَّا كان الخلْقُ بهذه السهولة قضى السماوات وأحكم خلقَها في يومينِ، فيصحُّ هذا القولُ قبلَ كونهما وبعده وفي أثنائه، إذ ليس الغرضُ دلالةً على وقوع.

وذُكِر في نكتة تقديم خَلْق الأرض وما فيها في الذكر هاهنا وفي سورة البقرة على خَلْق السماوات، والعكسِ في سورة النازعات، أنها يجوزُ أن يكونَ أنَّ المقامَ في الأولَيَيْن مقامُ الامتنان وتعدادِ النِّعَم، فمقتضاه تقديمُ ما هو أقربُ النِّعَم إلى المخاطبين، والمقام في الثالثة مقامُ بيانِ كمال القدرة، فمقتضاه تقديمُ ما هو أدلُّ على كمالها.

ورُوي عن الحسن أنه تعالى خَلَق الأرضَ في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهْر، عليها دخانٌ ملتَزِقٌ بها، ثم أصعَدَ الدخانَ وخَلَق منه السماوات، وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرضَ، وذلك قولُه تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾الآية [الأنبياء: ٣٠](٢).

وجعله بعضُهم دليلاً على تأخُرِ دَحْوِ الأرض عن خلق السماء، وفي «الإرشاد»

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٨٨.
(٢) الكشاف ١/ ٢٧١، وتفسير أبي السعود ٨/ ٦.

أنه ليس نصّاً في ذلك، فإنَّ بَسْطَ الأرض معطوفٌ على إصعاد الدخان وخَلْقِ السماء بالواو، فلا دلالةَ في ذلك على الترتيب قطعاً[1].

وفي «الكشف» أنه يدلُّ على أنَّ كونَ السماء دخاناً سابقٌ على دَحْو الأرض وتسويتها، بل ظاهرُ قوله تعالى: (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ) يدلُّ على ذلك، وإيجادُ الجوهرة النورية والنظرُ إليها بعين الجلال المبطن بالرحمة والجمال، وذوبها وامتيازُ لطيفِها عن كثيفها، وصعودُ المادَّةِ الدخانية اللطيفة وبقاءُ الكثيف، هذا كلُّه سابقٌ على الأيام الستة، وثبت في الخبر الصحيح، ولا ينافي الآيات.

واختار بعضُهم أنَّ خلْقَ المادة البعيدة للسماء والأرض كان في زمانٍ واحد، وهي الجوهرة النورية أو غيرُها، وكذا فصلُ مادةِ كلٍّ عن الأخرى وتمييزُها عنها، أعني: الفتقَ وإخراجَ الأجزاءِ اللطيفة وهي المادة القريبةُ للسماوات، وإبقاءُ الكثيفة وهي المادة القريبة للأرض، فإنَّ فصلَ اللطيف عن الكثيف يستلزم فصلَ الكثيف عنه، وبالعكس.

وأما خَلْق كلٍّ على الهيئة التي يشاهَد بها فليس في زمانٍ واحدٍ، بل خلْقُ السماوات سابقٌ في الزمان على خلق الأرض، ولا ينبغي لأحد أن يرتابَ في تأخُّرِ خلق الأرض بجميعِ ما فيها عن خلق السماوات كذلك، ومتى ساغ حملُ «ثم» للترتيب في الإخبار هان أمرُ ما يُظَنُّ من التعارض في الآيات والأخبار. هذا، والله تعالى أعلم.

ولبعض المتأخِّرين في الآية كلامٌ غريبٌ دَفَع به ما يظنُّ من المنافاة بين الآيات الدالَّة على أنَّ خلْقَ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤] وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] وهذه الآية التي يُخيَّل منها أنَّ خَلْق ذلك في ثمانية أيام، وهو أنَّ للشيء حكماً من حيث ذاته ونفسه، وحكماً من حيث صفاته وإضافاته ونِسَبه وروابطه واقتضاءاته ومتمِّماته وسائر ما يضاف إليه، ولكلٍّ من ذلك أجلٌ معدودٌ

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٦-٧.

وحدٌّ محدودٌ يُظهِره سبحانه في ذلك بالأزمان الخاصَّة به والأوقات المؤجَّلة له، وهي متفاوتةٌ مختلفة، والله تعالى خلق السماوات والأرضَ وما بينهما في حدِّ ذاتها في ستة أيام، وذلك عند نشئها في ذاتها مِن خلْقِه سبحانه إياها من البحر الحاصل من ذوبان الياقوتة الحمراء لَمَّا نَظَر إليها جلَّ شأنه بنظر الهيبة فَتَموَّج إلى أن حصل منه الزَّبَدُ وثار الدخانُ، فخلق السماءَ من الدخان، والأرضَ من الزبد، والنجومَ من الشعلات المستجنَّةِ في زبد البحر، والنارَ والهواءَ والماءَ من جسمٍ أكثفَ من الدخان وألطفَ من الزبد.

والسماءُ حقيقةٌ وحدانيةٌ في ذاتها ولها صلاحيةُ التعدُّد والكثرة على حسب بُدُوِّ شأنها في علم الغيب، فتعيُّنُها بالسبعة على الجهة الخاصَّة ووقوع كلِّ سماءٍ في محلِّها الخاصِّ مترتِّباً عليها حكمٌ خاصٌّ يحتاجُ إلى جَعْلٍ غيرِ جعلها في نفسها، وهو المسمَّى بالقَدَر وتعيينِ الحدود التي هي الهندسة الإيجادية، وهذا الجعلُ متفرِّعٌ على الخلق ونحوُه غير نحوِه قطعاً كما يُشعِر به قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقد يسمَّى بالتسوية وبالقضاء أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]. وقوله تعالى هنا: (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ) إلى قوله سبحانه: (فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ).

وأما تقديرُ أقواتِ الأرض وجعل الرواسي وإعطاء البركة وتوليدُ المتولِّدات فلها أيامٌ معدوداتٌ وحدودٌ محدوداتٌ لا تدخل في أيام خلْق السماوات والأرض؛ لأنَّها لإيجادِ أنفسها. فالأيام الأربعة المذكورة في الآية إنما هي لجعل الرواسي وتقدير الأقوات وإحداثِ البركة، وليست من تلك الستة، وكذلك اليومان اللذان لتسوية السماء وقضائها سبعَ سماواتٍ خارجان عنها، فليس في الآية التي الكلامُ فيها سوى أنَّ خلْقَ الأرضِ كان في يومين، وأما خلْقُ السماوات وما بينهما وبين الأرض فلم يُذكَر في الآية مدَّةٌ له، وإنما ذُكِر مدَّةُ قضاء السماوات وهو غيرُ خلْقِها، ومدةُ جَعْل الرواسي وتقديرِ الأقوات وإحداث البركة، وذلك غيرُ خلْقِ الأرض وما بينها وبين السماء، فلا تنافي بينها وبين الآيات الدالة على أنَّ خلْقَ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام.

ولا يعكِّر على ذلك ما روي عن الصادق «أنَّ الله سبحانه خَلَق في يوم الأحد والاثنين الأرَضين، وخلق أقواتَها في يوم الثلاثاء، وخَلَق السماوات في يوم الأربعاء ويوم الخميس، وخَلَق أقواتَها يومَ الجمعة، وذلك قولُ الله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: ٤]»[١]. لأنَّه بعدَ تسليم صحته، المذكورُ فيه أنَّ الأقوات قد خُلِقت في يومين لا أنَّها قدِّرت، وبينَ الخلق والتقدير بونٌ بعيد؛ فخلْقُ الأقوات عبارةٌ عن إيجاد ذاتياتها وموادِّها وعللها وأسبابها، فإذا وُجدت قدِّرت وفُصِّلت على الأطوار المعلومة، فلا إشكال.

والعَجَب ممن استشكل هذا المقام، كيف لم ينظُر في مدلولات الألفاظ الإلهية بحسب القواعد القرآنية واللغوية فاحتاج في حلِّه إلى تكلُّفات أمورٍ خفية وارتكاب توجيهات غير مرضيَّة.

ثم إنَّ هذا البعضَ ذكر لليوم ما يزيد على ستين إطلاقاً منها المرتبةُ، ونَقَل هذا عن شيخه، ورأيتُه في بعض الكتب لغيره، وجَوَّز إرادتَه في الآية، وكذا جوَّز إرادةَ غيره من الإطلاقات، وذكر سرَّ كونِ خلْق السماوات والأرض في ستة أيام وأطال الكلام في هذا المقام، وكان ذلك ضمْنَ رسالةٍ ألَّفها حينَ طلبتُ منه جواباً عما يظنُّ من المنافاة غيرَ ما ذكروه من الجواب عن ذلك؛ ومن وَقَف على تلك الرسالة سمع منها قَعْقَعَةً بلا سلاح، وأحسَّ بطيران في جَوٍّ ما يزعمه تحقيقاً بلا جناح، فكم فيها من قولٍ لا سندَ له، ومدَّعًى لم يُورَد دليلُه، فعليك بالتأمُّل التامِّ فيما ذكره المفسِّرون وما ذكره هذا الرجلُ من الكلام، ولا تك للإنصاف مُجانباً وللتعصُّب مصاحِباً، والله تعالى الموفِّق.

وما تقدَّم من حَمْل قوله تعالى: (قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) على التمثيل، هو ما ذهب إليه جماعةٌ من المفسِّرين، وقالت طائفة: إنَّهما نَطَقَتا نُطْقاً حقيقيًّا وجعل الله تعالى لهما حياةً وإدراكاً، قال ابن عطية: وهذا أحسن؛ لأنه لا شيء يدفعه، وأنَّ العبرةَ فيه أتمُّ والقدرة فيه أظهر[٢].

---

(١) لم نقف عليه هكذا، وأخرجه الطبري في التفسير ١/ ٤٦٤-٤٦٥ عن عبد الله بن سلام بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٧.

ولا يخفى أنَّ المعنى الأول أبلغ، ومن ذهب إلى أنَّ للجمادات إدراكاً لائقاً بها قال بظاهر الآية ولعلَّها إحدى أدلَّته على ذلك.

وذكر بعضُهم في قوله سبحانه: (وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا) أنه سبحانه خصَّ كلَّ سماءٍ بما ميَّزها عن السماء الأخرى من الذاتيَّات وجعل ذلك وجهاً في جمع السماوات وإفراد الأرض.

وقرأ الأعمش: «أو كُرْهاً» بضمِّ الكاف. قال أبو حيان: والأصحُّ أنها لغةٌ في الإكراه على الشيء، والأكثرُ على أنَّ الكُرْهَ بالضمِّ معناه المشقَّة[1].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ متصلٌ بقوله تعالى: «قل أئنكم» إلخ، أي: فإن أعرضوا عن التدبُّر فيما ذُكر من عظائم الأمور الداعية إلى الإيمان، أو: عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: أُنذِركم، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقُّق الإنذار المنبئ عن تحقُّق المنذَر ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ أي: عذاباً مثلَ عذابهم، قاله قتادة، وهو ظاهرٌ على القول بأنَّ الصاعقةَ تأتي في اللغة بمعنى العذاب، ومنع ذلك بعضُهم وجَعَل ما ذُكِر مجازاً، والمراد: عذاباً شديدَ الوقع كأنه صاعقةٌ مثل صاعقتهم. وأيًّا ما كان فالمراد: أعلمتُكم حلولَ صاعقةٍ.

وقرأ ابن الزبير والسلمي وابن محيصن: «صَعْقَةً مثلَ صَعْقَة» بغير ألفٍ فيهما وسكونِ العين[2]، وهي المرَّة من الصعْق أو الصعَق، ويقال: صَعَقَتْه الصاعقةُ صَعْقاً فصَعِق صَعَقاً بالفتح، أي: هَلَكَ بالصاعقة المصيبة له.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: جاءت عاداً وثمودَ، ففيه إطلاقُ الجمع على الاثنين وهو شائعٌ، وكذا «الرُّسُل». وقيل: يحتمل أن يراد به ما يعمُّ رسولَ الرسول. وجوِّز في الأول أن يكون باعتبار أفراد القبيلتَيْن.

وذكروا في «إذْ» أَوْجُهاً من الإعراب:

الأول: أنه ظرفٌ لـ «أنْذَرْتُكم».

---

(١) البحر ٧/ ٤٨٧، وقراءة الأعمش فيه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٨، والبحر ٧/ ٤٨٩.

الثاني: أنه صفةٌ لـ «صاعقة» الأولى.

وأُورِد عليهما لزومُ كون إنذاره عليه الصلاة والسلام والصاعقةِ التي أنذَرَ بها واقِعَيْنِ في وقتِ مجيء الرُّسُل عاداً وثمود، وليس كذلك.

الثالث: أنه صفةٌ لـ «صاعقة» الثانية. وتعقِّب بأنه يلزَمُ عليه حذفُ الموصول مع بعض صلته، وهو غيرُ جائز عند البصريين، أو وصفُ المعرفة بالنكرة.

الرابع واختاره أبو حيان(١): أنه معمولٌ لـ «صاعقة عاد وثمود» بناءً على أنَّ المرادَ بها العذابُ، وإلا فهي بالمعنى المعروف جثةٌ لا يتعلَّق بها الظرفُ. وفيه شيء لا يخفى.

الخامس واختاره غير واحد: أنه حالٌ منها؛ لأنها معرفةٌ بالإضافة.

وبعضُهم يجوِّز كونه حالاً من الأولى أيضاً لتخصُّصِها بالوصف بالمتخصص بالإضافة، فتكون الأوجُه ستةً.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ متعلِّقٌ بـ «جاءتهم»، والضمير المضافُ إليه لـ «عاد وثمود»، والجهتان كنايةٌ عن جميع الجهات على ما عُرف في مثله، أي: أتتهم الرسل من جميع جهاتهم، والمراد بإتيانهم من جميع الجهات بذلُ الوسع في دعوتهم على طريق الكناية. ويجوز أن يراد بما بين أيديهم الزمن الماضي، وبما خلفهم المستقبل، وبالعكس، واستعير فيه ظرفُ المكان للزمان، والمراد: جاؤوهم بالإنذار عمَّا جرى على أمثالهم الكَفَرة في الماضي، وبالتحذير عمَّا سيحيق بهم في الآخرة. ورُوي هذا عن الحسن.

وجُوِّز كون الضمير المضاف إليه للرسل، والمراد: جاءتهم الرسلُ المتقدِّمون والمتأخِّرون، على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحقِّ منزلةَ مجيء أنفسهم، فإنَّ هوداً وصالحاً كانا داعيَيْنِ لهم إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء مِن بين أيديهم وممن يجيء من خلفهم، فكأنَّ الرسلَ قد جاؤوهم وخاطبوهم بقوله

---

(١) في البحر ٧/ ٤٨٩.

تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. ورُوي هذا الوجه عن ابن عباس والضحاك[1]، وإليه ذهب الفراء[2].

ونصَّ بعض الأجلَّة على أنَّ «من بين أيديهم» عليه حالٌ من «الرسل» لا متعلِّق بـ «جاءتهم»، وجمعُ الرسل عليه ظاهرٌ.

وقيل: يحتمل أن يكونَ كونُ الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم كنايةً عن الكثرة، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢].

وقال الطبري[3]: الضمير في قوله تعالى: «من بين أيديهم» لعاد وثمود وفي قوله تعالى: «ومن خلفهم» للرسل.

وتعقَّبه في «البحر»[4] بأنَّ فيه خروجاً عن الظاهر في تفريق الضمائر وتعمية المعنى، إذ يصير التقديرُ: جاءتهم الرسل من بين أيديهم وجاءتهم من خلف الرسل، أي: من خلف أنفسهم، وهذا معنًى لا يتعقَّل إلا إن كان الضميرُ عائداً في «من خلفهم» على الرسل لفظاً، وهو عائدٌ على رُسُلٍ آخَرين معنًى، فكأنه قيل: جاءتهم الرسلُ من بين أيديهم ومن خلف رسل آخرين، فيكون كقولهم: عندي درهم ونصفه، أي: ونصفُ درهم آخر. وبُعدُه لا يخفى.

وخُصَّ بالذكر من الأمم المهلكة عادٌ وثمود لعلم قريش بحالهما ولوقوفهم على بلادهم في اليمن والحِجْر.

و«أن» يصحُّ أن تكونَ مفسِّرة لمجيء الرسل؛ لأنَّه بالوحْي وبالشرائع فيتضمَّن معنى القول، و«لا» ناهيةٌ، وأن تكونَ مصدريةً و«لا» ناهيةٌ أيضاً. والمصدرية قد توصل بالنهي كما توصل بالأمر على كلام فيه.

وجعل الحوفي «لا» نافيةً و«أن» ناصبة للفعل[5].

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٩٦، والبحر ٧/ ٤٩٩.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٣.
(٣) في تفسيره ٢٠/ ٣٩٥-٣٩٦.
(٤) ٧/ ٤٨٩.
(٥) البحر ٧/ ٤٨٩.

وقيل: إنَّها المخفَّفةُ من الثقيلة ومعها ضميرُ شأن محذوف.

وأُورِد عليه أنها إنَّما تقع بعد أفعال اليقين، وأنَّ خبرَ بابِ «أن» لا يكون طلباً إلا بتأويل. وقد يُدفَع بأنه بتقدير القول، وأنَّ مجيءَ الرسل كالوحي معنًى، فيكون مثلَه في وقوع «أن» بعده لتضمُّنه ما يفيد اليقين، كما أشار إليه الرضي وغيرُه. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف المستغنَى عنه.

وعلى احتمال كونها مصدريةً وكونها مخفَّفةً يكون الكلامُ بتقديرِ حرفِ الجرِّ، أي: بأن لا تعبدوا إلا الله.

﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ مفعولُ المشيئة محذوفٌ، وقدَّره الزمخشريُّ: إرسالَ الرسل[1]، أي: «لو شاء ربُّنا» إرسالَ الرسل ﴿لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ أي: لأرسلهم، لكن لَمَّا كان إرسالهم بطريق الإنذار، قيل: «لأنزل».

قيل: ولم يقدِّر إنزالَ الملائكة بناءً على أنَّ الشائعَ تقديرُ مفعول المشيئة بعد «لو» الشرطية من مضمون الشرط؛ لأنَّه عارٍ عن إفادةِ ما أرادوه من نفْي إرساله تعالى البشرَ، والشائعُ غيرُ مطَّردٍ.

وقال أبو حيان: إنما التقدير: لو شاء ربُّنا إنزالَ ملائكةٍ بالرسالة منه إلى الإنس لأنزلهم بها إليهم، وهذا أبلغ في الامتناع من إرسال البشر إذ علَّقوا ذلك بإنزال الملائكة، وهو سبحانه لم يشأ ذلك فكيف يشاؤه في البشر[2]! وهو وجهٌ حَسَن.

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالذي أُرسِلتم به على زعمكم، وفيه ضربُ تهكُّمٍ بهم ﴿كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ لِما أنَّكم بشرٌ مثلُنا لا فضلَ لكم علينا، والفاء فاءُ النتيجة السببية، فيكون في الكلام إيماءٌ إلى قياسٍ استثنائيٍّ، أي: لكنه لم ينزل. ويجوز أن تكونَ تعليليةً لشرطيتهم، أي: إنَّما قلنا ذلك لأنا مُنكِرون لِما أُرسِلتم به كما نُنكِر رسالتَكم.

و«ما» كما أشرنا إليه موصولةٌ، وكونُها مصدريةً وضميرُ «به» لقولهم: «أن لا تعبدوا إلا الله» خلافُ الظاهر.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤٨.

(٢) البحر ٧/ ٤٩٠.

أخرج البيهقي في «الدلائل» وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: قال أبو جهل والملأُ من قريش: قد التبس علينا أمرُ محمد، فلو التمستُم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فكلَّمه ثم أتانا ببيانٍ من أمره. فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعتُ الشعرَ والكهانةَ والسحرَ وعلمتُ من ذلك علماً، وما يخفى عليَّ إن كان كذلك. فأتاه فقال له: يا محمد، أنتَ خيرٌ أم هاشم؟ أنتَ خيرٌ أم عبد المطلب؟ فلم يجبه، قال: فبِمَ تَشتِمُ آلهتَنا وتُضَلِّلُ آباءَنا؟! فإن كنتَ إنما بك الرياسةُ عَقَدْنا أَلْوِيَتَنا لك، وإن كان بك المالُ جَمَعْنا لك من أموالنا ما تسْتَغْنِي به أنتَ وعَقِبُك مِن بعدك، وإن كان بك الباءَةُ زوَّجناك عَشرَ نسوةٍ تختار مِن أيِّ بناتِ[1] قريشٍ. ورسولُ الله ﷺ ساكتٌ لا يتكلَّم، فلمَّا فرغ قال عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾» فقرأ حتى بلغ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣﴾، فأمسك عتبةُ على فيه عليه الصلاة والسلام فأنشده الرَّحِم أن يكفَّ عنه، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلمَّا احتَبَسَ عنهم قال أبو جهل: يا معشرَ قريش، ما أرى عتبةَ إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامُه، وما ذاك إلا من حاجةٍ أصابته، انتقلوا بنا إليه. فأتوه، فقال أبو جهل: والله يا عتبة، ما حَسِبْنا إلا أنَّك صبوتَ إلى محمدٍ وأعجبك أمرُه، فإن كنتَ بك حاجةٌ جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد. فغَضِب وأقسم بالله تعالى لا يكلِّم محمداً عليه الصلاة والسلام أبداً، وقال: لقد علمتم أني أكثرُ قريش مالاً، ولكني أتيتُه ـ فقصَّ عليهم القصةَ ـ فأجابني بشيء، والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة، قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حتى: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ فأمسكتُ بفيه وناشدتُه الرحمَ، فكفَّ[2]، وقد علمتم أنَّ محمداً ـ ﷺ ـ إذا قال شيئاً لم يكذب فخفتُ أن ينزلَ بكم العذاب[3].

---

(١) في الدلائل ٢/ ٢٠٣، وتاريخ دمشق ٣٨/ ٢٤٢: أبيات.

(٢) في الأصل: فيكف. وفي مصدري التخريج: أن يَكُفَّ.

(٣) دلائل النبوة ٢/ ٢٠٢-٢٠٤، وتاريخ مدينة دمشق ٣٨/ ٢٤٢. وأخرجه بنحوه عبد بن حميد في منتخب مسنده (١١٢٣).

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شروعٌ في تفصيلِ ما لكلٍّ واحدةٍ من الطائفتَيْنِ من الجناية والعذاب، ولتفرُّعِ التفصيل على الإجمال قُرِن بفاء السببية، وبُدِئ بقصة عادٍ لأنَّها أقدمُ زماناً، أي: فأما عادٌ فتعظَّموا في الأرض التي لا ينبغي التعظُّم فيها على أهلها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بغير استحقاقٍ للتعظُّم.

وقيل: تعظَّموا عن امتثال أمر الله عزَّ وجلَّ وقبولِ ما جاءتهم به الرسل ﴿وَقَالُوا۟﴾ اغتراراً بقوَّتهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: لا أشدَّ منا قوَّةً، فالاستفهام إنكاريٌّ، وهذا بيانٌ لاستحقاقِهم العظمةَ وجوابٌ للرسل عمَّا خوَّفوهم به من العذاب، وكانوا ذَوي أجسامٍ طوالٍ وخَلْقٍ عظيم، وقد بلغ من قوتهم أنَّ الرجلَ كان ينزع الصخرةَ من الجبل ويرفعها بيده.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي: أغفلُوا ولم ينظروا. أو: ولم يعلموا علماً جليًّا شبيهاً بالمشاهدة والعيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً، فإنَّه تعالى قادرٌ بالذات مقتدرٌ على ما لا يتناهى، قويٌّ على ما لا يقدر عليه غيرُه عزَّ وجلَّ، مفيضٌ للقوَّة والقُدَرِ على كلِّ قويٍّ وقادرٍ. وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ ما خوَّفهم به الرسلُ ليس من عند أنفسهم بناءً على قوَّةٍ منهم، وإنما هو من الله تعالى خالقِ القُوَى والقُدَر، وهم يعلمون أنه عزَّ وجلَّ أشدُّ قوَّةً منهم. وتفسيرُ القوَّة بالقدرة؛ لأنَّه أحدُ معانيها كما يشير إليه كلام الراغب(١).

وزعم بعضهم أنَّ القوَّةَ عَرَضٌ يُنزَّه الله تعالى عنه، لكنها مستلزمةٌ للقدرة، فلذا عُبِّر عنها بها مشاكلةً.

وأُورِد في حيز الصلة «خَلَقَهم» دونَ: خلق السماوات والأرض؛ لادعائهم الشدَّةَ في القوة، وفيه ضربٌ من التهكُّم بهم.

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ١٥﴾ أي: ينكرونها وهم يعرفون حقِّيَّتها. وهو عطفٌ على «فاستكبروا» أو «قالوا»، فجملةُ «أولم يروا» إلخ مع ما عُطف هو عليه اعتراضٌ. وجوِّز أن يكونَ هو وحدَه اعتراضاً، والواو اعتراضيَّةٌ لا عاطفة.

---

(١) في المفردات (قوي).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال مجاهد: شديدةَ السموم. فهو من الصَّرِّ بفتح الصاد بمعنى الحرِّ. وقال ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي: باردةً تُهلِك بشدَّة بردها، من الصِّرِّ بكسر الصاد، وهو البردُ الذي يصرُّ، أي: يجمع ظاهرَ جلد الإنسان ويقبضه. والأول أنسب لديار العرب.

وقال السدي أيضاً وأبو عبيدة وابن قتيبة والطبريُّ وجماعة: مصوِّتةً، من: صرَّ يصرُّ: إذا صوَّت[1]. وقال ابن السكيت[2]: «صَرْصَرْ» يجوز أن يكون من الصَّرَّة وهي الصيحة، ومنه ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩].

وفي الحديث أنه تعالى أمر خَزَنَة الريح، ففتحوا عليهم قَدْرَ حلقةِ الخاتم، ولو فتحوا قدر مِنْخَر الثور لهلكت الدنيا[3].

ورُوي أنها كانت تحمل العيرَ بأوقارها، فترميهم في البحر[4].

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ جمع: نَحِسَة، بكسر الحاء، صفةٌ مشبهةٌ من: نَحِسَ نحساً، كـ: علم علماً[5]، نقيضُ: سَعِد سعْداً.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو والنخعيُّ وعيسى والأعرج: «نَحْسات» بسكون الحاء[6]، فاحتمل أن يكونَ مصدراً وُصِف به مبالغةً، واحتمل أن يكون صفةً مخفَّفاً من فَعِلٍ كصَعْب.

وفي «البحر»: تتبَّعْتُ ما ذكره التصريفيون مما جاء صفةً من فَعِل اللازم فلم

---

(١) مجاز القرآن ٢/١٩٦، وتفسير الطبري ٢٠/٣٩٨، والبحر ٧/٤٩٠.
(٢) في إصلاح المنطق ص٣٥٣.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٥٩٤ من حديث عبد الله بن عمرو ﵄ مرفوعاً بمعناه، وقال الذهبي: منكر. وأخرج الترمذي (٣٢٧٣) أوله من حديث رجل من ربيعة عن النبي ﷺ.
(٤) المحرر الوجيز ٥/٩، والبحر ٧/٤٩٠.
(٥) كذا قال المصنف، والصواب أن نَحِس كعَلِم في وزن الفعل فقط، وليس في المصدر. ينظر مختار الصحاح والقاموس والتاج (نحس)، وحاشية الشهاب ٧/٣٩٥.
(٦) التيسير ص١٩٣، والنشر ٢/٣٦٦ عن الحرميين وأبي عمرو ويعقوب، والكلام من البحر ٧/٤٩٠.

يذكروا فيه فَعْلاً بسكون العين، وإنما ذكروا فَعِلاً بالكسر كفَرِحٍ، وأَفْعَل كأحْوَرَ، وفَعْلَان كشبعان، وفاعلاً كسالم[١].

وهو صفةُ «أيام»، وجُمع بالألف والتاء لأنه صفةٌ لِما لا يَعقل، والمراد بها: مشائيم عليهم، لما أنَّهم عُذِّبوا فيها، فاليومُ الواحد يُوصَف بالنحس والسعْد بالنسبة إلى شخصين، فيقال له: سعْدٌ، بالنسبة إلى من يَنعَم فيه؛ ويقال له: نَحس، بالنسبة إلى مَن يعذَّب، وليس هذا مما يزعمه الناس من خصوصيات الأوقات، لكن ذكر الكرماني في مناسكه عن ابن عباس أنه قال: الأيام كلُّها لله تعالى لكنه سبحانه خَلَق بعضَها نُحُوساً وبعضها سُعُوداً[٢].

وتفسيرُ «نَحِسَات» بمشائيم، مرويٌّ عن مجاهد وقتادة والسدي[٣].

وقال الضحاك: أي: شديدة البرد[٤]، حتى كأن البردَ عذابٌ لهم. وأنشد الأصمعي في النَّحس بمعنى البرد:

كأنَّ سُلافَةَ مُزِجَت بِنَحْسٍ[٥]

وقيل: «نَحِسات»: ذوات غُبارٍ، وإليه ذهب الجبائي[٦]، ومنه قولُ الراجز:

قَد أغْتَدي قبلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ... للصَّيْدِ في يَومٍ قَليلِ النَّحْسِ[٧]

يُريد: قليل الغبار، وكانت هذه الأيام من آخر شُباط، وتُسمَّى أيامَ العجوز، وكانت فيما رُوي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة آخرَ شوال من الأربعاء إلى

---

(١) البحر ٧/ ٤٩٠.
(٢) ونقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٩٥.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٠٠.
(٤) المصدر السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٩.
(٥) وعجزه: يُجِيلُ شَفِيْقُها الماءَ الزُّلَالَا. كما في المحرر الوجيز ٥/ ٩، ومفتاح دار السعادة ٢/ ١٩٤، وفي البحر ٧/ ٤٩١: يخيل شقيقها. وفي صدره عند الجميع: عُرِضَت. بدل: مُزِجَت.
(٦) مجمع البيان ٢٤/ ١٣.
(٧) الرجز للشمردل بن شريك، كما في التذكرة الحمدونية ٥/ ٢٨٧، وهو دون نسبة في النكت والعيون ٥/ ١٧٥، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤٠٢، والبحر ٧/ ٤٩١.

الأربعاء. وروي: ما عُذِّب قومٌ إلا في يوم الأربعاء[1].

وقال السدي: أولُها غداةَ يوم الأحد. وقال الربيع بن أنس: يوم الجمعة.

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أضيف العذابُ إلى الخِزْي وهو الذلُّ على قصدِ وصفِه به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، وهو في الأصل صفةُ المعذَّب وإنما وُصِف به العذابُ على الإسناد المجازيِّ للمبالغة، فإنَّه يدلُّ على أنَّ ذُلَّ الكافر زاد حتى اتصف به عذابُه، كما قُرِّر في قولهم: شعرٌ شاعرٌ. وهذا في مقابلة استكبارهم وتعظُّمهم.

وقرئ: «لِتُذِيْقَهُم» بالتاء[2]، على أنَّ الفاعلَ ضميرُ الريح، أو الأيام النحسات.

﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ بدفع العذاب عنهم بوجهٍ من الوجوه.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي: أي: بَيَّنَّا لهم، وأرادوا بذلك ـ على ما قيل ـ بيانَ طريقَي الضلالة والرشد، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: فاختاروا الضلالةَ على الهدَى، فإنَّه ظاهرٌ في أنه بُيِّن لهم الطريقان فاختاروا أحدَهما، وصرَّح ابنُ زيد بذلك، فقد حُكي عنه أنه قال: أي: أعْلَمناهم الهدَى من الضلال. وفسَّر غيرُ واحدٍ الهدايةَ هنا بالدلالة، أي: فدلَلْناهم على الحقِّ بنصب الحُجَج وإرسالِ الرسل، فاختاروا الضلالَ. ولم يفسِّروها بالدلالة الموصِلة؛ لإباءِ ظاهرِ «فَاسْتَحَبُّوا» إلخ عنه.

واستدلَّ المعتزلةُ بهذه الآية على أنَّ الإيمان باختيار العبد على الاستقلال، بناءً على أنَّ قولَه تعالى: «هديناهم» دلَّ على نصب الأدلة وإزاحة العلَّة، وقولَه تعالى: «استحبوا العمى» إلخ دلَّ على أنَّهم بأنفسهم آثروا العمى.

والجوابُ كما في «الكشف» أنَّ في لفظ الاستحباب ما يُشعِر بأنَّ قدرةَ الله تعالى هي المؤثِّرة، وأنَّ لقدرةِ العبد مَدخلاً ما، فإنَّ المحبَّةَ ليست اختياريةً

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٤ عن ابن عباس.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٤٩، والبحر ٧/ ٤٩١.

بالاتفاق، وإيثارُ العمى حبًّا وهو الاستحبابُ من الاختياريَّة. فانظر إلى هذه الدقيقة تَرَ العَجَبَ العُجاب، وإلى نحوه أشار الإمام الداعي إلى الله تعالى قدِّس سرّه[١].

ومعنى كون المحبة ليست اختياريةً أنَّها بعد حصول ما تتوقَّفُ عليه من أمورٍ اختيارية تكون بجذْبِ الطبيعة من غير اختيارٍ للشخص في ميلِ قلبه وارتباطِ هواه بمن يحبُّه، فهي نفسُها غيرُ اختيارية، لكنها باعتبار مقدِّماتها اختيارية، ولذلك كُلِّفنا بمحبةِ الله تعالى ومحبةِ رسوله ﷺ.

وفي «طوق الحمامة»[٢] لابن سعيد أنَّ المحبة ميلٌ روحانيٌّ طبيعي، وإليه يشير قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي: يميل، فجَعَل علَّةَ ميلها كونَها منها، وهو المرادُ بقوله عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنودٌ مجنَّدة»[٣] وتكون المحبةُ لأمورٍ أُخَرَ كالحُسْن والإحسان والكمال، ولها آثارٌ يُطلَق عليها محبةٌ كالطاعة والتعظيم. وهذه هي التي يكلَّف بها؛ لأنها اختياريةٌ فاعرفه.

وقرأ ابن وثاب والأعمش وبكر بن حبيب: «وأما ثمودٌ» بالرفع مصروفاً[٤].

وقد قرأ الأعمش وابن وثاب بصرفه في جميع القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الإسراء: ٥٩] لأنه في المصحف بغير ألفٍ[٥].

وقرأ ابن أبي إسحاق وابن هرمز بخلاف عنه والمفضل، قال ابن عطية: والأعمش وعاصم وروي عن ابن عباس: «ثموداً» بالنصب والتنوين[٦].

---

(١) في التفسير الكبير ٢٧/ ١١٣-١١٤.

(٢) طوق الحمامة في الإلْفَة والألّاف لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، والكلام فيه ص٦٢-٦٥ بتقديم وتأخير، ونقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٩٥.

(٣) سلف ١٠/ ١٧٨.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٩، والبحر ٧/ ٤٩١.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٩، والبحر ٧/ ٤٩١.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠، والبحر ٧/ ٤٩١. ولم نقف على قراءة ابن هرمز وابن عباس.

وروى المفضل عن عاصم الوجهين(١).

والمنعُ عن الصرف للعلميَّة، والتأنيثُ على إرادة القبيلة، ومَن صرفه جعله اسمَ رجل، والنصبُ على جعله من باب الإضمار على شريطة التفسير. ويقدَّر الفعل الناصبُ بعده لأنَّ «أمَّا» لا يليها في الغالب إلا اسمٌ.

وقرئ بضمِّ الثاء(٢)، على أنه جمع «ثَمَد» وهو قلَّة الماء، فكأنهم سُمُّوا بذلك لأنهم كانوا يسكنون في الرمال بين حضرموت وصنعاء، وكانوا قليلي الماء.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي: الذُّلِّ، وهو صفةٌ للعذاب أو بدلٌ منه، ووصفُه به مصدراً للمبالغة، وكذا إضافةُ «صاعقة» إلى «العذاب»، فيفيد ذلك أنَّ عذابَهم عينُ الهُونِ، وأنَّ له صاعقة.

والمراد بالصاعقة النارُ الخارجةُ من السحاب كما هو المعروف، وسببُ حدوثها العادي مشهورٌ في كتب الفلسفة القديمة، وقد تكلَّم في ذلك أهل الفلسفة الجديدة المتداولة اليوم في بلاد الروم وما قرب منها، فقالوا في كيفيَّة انفجار الصاعقة:

من المعلوم أنَّ انطلاق الكهربائية التي في السحاب ـ وهي قوَّةٌ مخصوصةٌ في الأجسام نحوَ قوَّة الكهرباء التي بها تُجذبُ التِّبْنَةُ ونحوُها إليها ـ إنَّما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها، فإذا قرُب السحابُ من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائيةُ السحابيةُ أن تتَّحدَ بالكهربائية الأرضيَّة، فتنبجس(٣) بينهما شرارةٌ كهربائيةٌ، فتصعق الأجسام الأرضية، وتتفاوت قوَّةُ الصاعقة باختلاف الاستحالة البخارية، فليست في جميع البلاد والفصول واحدة. وأوضحوا ذلك بكلامٍ طويلٍ مَن أراده فليرجع إليه في كتبهم.

وقيل: المراد بالصاعقة هنا الصيحةُ كما ورد في آياتٍ أُخَر. ولا مانعَ من الجمع بينهما.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٠، والبحر ٧/ ٤٩١.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٤٩.
(٣) في (م): فتتبجس.

وقرأ ابن مقسم: «الهَوَان» بفتح الهاء وألف بعد الواو(١).

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ من اختيار الضلالة على الهدى، وهذا تصريحٌ بما تُشعِر به الفاء.

﴿وَنَجَّيْنَا﴾ من تلك الصاعقة ﴿ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ بسبب إيمانهم واستمرارِهم على التقوى، والمرادُ بها تقوى الله عزَّ وجلَّ.

وقيل: تقوى الصاعقة، والمتَّقي عذابَ الله تعالى متَّقٍ لله سبحانه. وليس بذاك.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ شروعٌ في بيانِ عقوباتهم الآجلة بعد ذكر عقوباتهم العاجلة، والتعبيرُ عنهم بأعداء الله تعالى لذمِّهم والإيذان بعلَّة ما يحيق بهم من ألوان العذاب.

وقيل: المراد بهم الكفارُ من الأوَّلينَ والآخِرينَ. وتعقِّب بأنَّ قولَه تعالى الآتي: ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [فصلت: ٢٥] كالصريح في إرادة الكَفَرة المعهودين.

والمراد من قوله تعالى: «إلى النار» قيل: إلى موقف الحساب، والتعبيرُ عنه بالنار للإيذان بأنَّ النارَ عاقبةُ حَشْرهم وأنَّهم على شَرَفِ دخولها، ولا مانعَ من إبقائه على ظاهره والقولِ بتعدُّد الشهادة، فتشهد عليهم جوارحُهم في الموقف مرةً وعلى شفيرِ جهنم أخرى.

و«يوم» إما منصوبٌ بـ «اذْكُرْ» مقدَّرٍ معطوفٍ على قوله تعالى: «قل أنذرتكم صاعقة»، أو ظرفٌ لمضمَرٍ مؤخَّرٍ قد حُذِف إيهاماً لقصورِ العبارة عن تفصيله.

وقيل: ظرفٌ لِما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: يُحبَس أوَّلُهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو كنايةٌ عن كثرتهم. وقيل: يَنْساقون ويُدفَعون إلى النار. والفاء تفصيلية.

---

(١) البحر ٧/ ٤٩١.

وقرأ زيد بن عليٍّ ونافع والأعرج وأهل المدينة: «نَحْشُرُ» بالنون «أعْداءَ» بالنصب[1]. وكَسَرَ الأعرجُ الشينَ[2].

وقرئ: «يَحْشُر» على البناء للفاعل وهو الله تعالى، ونصبِ «أعداءَ الله»[3].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي: النارَ جميعاً، غايةٌ لـ «يُحْشَر»، أو: لـ «يُوْزَعُون» أي: حتى إذا حَضَروها، و«ما» مزيدةٌ لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور؛ لأنها تؤكِّد ما زيدت بعده، فهي تؤكِّد معنى «إذا»، و«إذا» دالَّةٌ على اتصال الجواب بالشرط لوقوعهما في زمان واحد، وهذا مما لا تعلُّقَ له بالنحو حتى يضرَّ فيه أنَّ النحاةَ لم يذكروه كما شنَّع به أبو حيان[4].

وأكّد؛ لأنهم ينكرونه. وفي الكلام حذفٌ، والتقديرُ: حتى إذا ما جاؤوها وسُئِلُوا عما أجرَموا فأنكَروا ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ واكتُفِيَ عن المحذوف بذكر الشهادة لاستلزامها إياه، ولا يأبى التقديرُ تأكيدَ الاتصال، إذ يكفي للاتصال وقوعُ ذلك في مجلسٍ واحد.

والظاهر أنَّ الجلودَ هي المعروفة، وقيل: هي الجوارح، كُني بها عنها. وقيل: كُنِّي بها عن الفروج، قيل: وعليه أكثر المفسِّرين منهم ابن عباس رضي الله عنهما[5]. وفي «الإرشاد» أنه الأنسب بتخصيص السؤال في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فإنَّ ما تشهد به من الزنى أعظم جنايةً وقبحاً وأجلَب للخزي والعقوبة مما يشهد به السمعُ والأبصارُ من الجنايات المكتسبة بتوسطهما[6].

وفيه نظر، ولعلَّ إرادةَ الظاهر أولى، ولعلَّ تخصيصَ السؤال بالجلود؛ لأنها بمرأى منهم بخلاف السمع والبصر، أو لأنها هي مُدرِكة العذاب بالقوَّة المودَعة

---

(١) التيسير ص١٩٣، والنشر ٢/ ٣٦٦ عن نافع ويعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٩٢.
(٢) البحر ٧/ ٤٩٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٥٠.
(٤) في البحر ٧/ ٤٩٢.
(٥) المصدر السابق.
(٦) تفسير أبي السعود ٨/ ١٠.

فيها كما يشعر به قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] قاله الجلبي، ثم نقل عن العلامة الثاني في ذلك أنَّ الشهادةَ من الجلود أعجبُ وأبعدُ؛ إذ ليس شأنُها الإدراكَ، بخلاف السمع والبصر.

وتعقَّبه بقوله: فيه نظرٌ، فإنَّ الجلدَ محلُّ القوَّة اللامسة التي هي أهمُّ الحواسِّ للحيوان كما أنَّ السمعَ والبصرَ محلُّ السامعة والباصرة، والذي ينطق الأعيانُ دونَ الأعراض، ثم إنَّ اللامسةَ تشتمل على الذائقة التي هي الأهمُّ بعد اللامسة.

ثم قال: ويَلُوح مما قرَّرناه وجهٌ آخر للتخصيص، فإنَّ الأهمية للإنسان والاشتمالَ على أهمّ من غيرها يصلُح أن يكون مخصِّصاً، فانقلابُ ما يرجون منه أكملَ النفع أعجبُ، ومثلُه أحقُّ بالتوبيخ من غيره.

واعتُرِض عليه بأنَّ ردَّه على العلَّامة لم يصادف محزَّه؛ إذ ليس المراد مما ذكره من أنَّها ليس من شأنها الإدراك إلا إدراكَ أنواع المعاصي التي يشْهَد عليها كالكفر والكذب والقتل والزنى مثلاً، وإدراكُ مثلها منحصرٌ في السمع والبصر.

وأنت تعلم بعد طيِّ كَشْح البحث في هذا الجواب أنَّ ما ذكره العلَّامة لا يناسب ظاهرَ السؤال، أعني: «لم شهدتم علينا»، وأولى ما قيل من أوجه التخصيص: إنَّ المدافعةَ عن الجلود أَزْيَدُ من المدافعة عن السمع والبصر، فإنَّ جلد الإنسان الواحد لو جُزِّئ لزاد على ألفِ سمعٍ وبصر، وهو يُدافِع عن كلِّ جزءٍ ويَحذَر أن يصيبه ما يَشِينُه، فكانت الشهادةُ من الجلود عليهم أعجب وأبعد عن الوقوع.

وفي الحديث: «إنَّ أولَ ما ينطق من الإنسان فَخِذُه اليسرى، ثم تنطق الجوارحُ، فيقول: تبًّا لكِ، فعنكِ كنتُ أدافع»(١).

ووجه إفراد السمع قد مرَّ أولَ التفسير، ووجه الاقتصار على السمعِ والبصرِ والجلدِ أشار إليه أبو حيان قال: لَمَّا كانت الحواسُّ خمسةً: السمعُ والبصرُ والشمُّ والذوقُ واللمسُ، وكان الذوقُ مندرجاً في اللمس إذ بمماسَّةِ جلد اللسان الرطب

---

(١) الحديث بمعناه عند أحمد في مسنده (١٧٣٧٤)، والطبري في تفسيره ٢٠/٤٠٩ عن عقبة بن عامر، وعند مسلم في صحيحه (٢٩٦٩) عن أنس ﷺ.

للمَذُوق يحصل إدراك طعم المذوق، وكان حسُّ الشمِّ ليس فيه تكليفٌ لا أمرٌ ولا نهْيٌ، وهو ضعيف، اقتصر من الحواسِّ على السمع والبصر واللمس(١).

وللبحث فيه مجال، وكأني بك تختارُ أنَّ المرادَ بالجلود ما سوى السمع والأبصار، وأنَّ ذِكر السمع لِما أنه وسيلةُ إدراكِ أكثر الآيات التنزيلية، وذكر الأبصار لِما أنها وسيلةُ إدراك أكثر الآيات التكوينية.

وقد أشير إلى كلٍّ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ على وجه، وأنَّ شهادتَهما فيما يتعلَّق بالكفر، فيشهد السمعُ عليهم أنَّهم كذَّبوا بالآيات التنزيلية التي جاء بها الرسلُ وسمعوها منهم، والأبصارُ أنهم لم يعبؤوا بالآيات التكوينية التي أبصروها وكفروا بما تدلُّ عليه، ولعلَّ شهادةَ الجلود فيما يتعلَّقُ بما سوى الكُفْر من المعاصي التي نهى عنها الرسلُ عليهم السلام كالزنى مثلاً، وجوِّز أن تكون شهادةُ السمع بإدراك الآيات التنزيلية، والأبصارِ بإدراك الآيات التكوينية، والجلودِ بالكفر بما يقتضيه كلٌّ وبالمعاصي الأُخَر. ولا بُعْدَ في شمولِ «ما كانوا يعملون» لإدراك الآيات والإحساس بها بقسمَيْها، فتدبَّر.

ولعلَّ قولَه تعالى: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ﴾ سؤالٌ عن العلَّة الموجبة، وصيغةُ جمع العقلاء في «شهدتم» وما بعدُ ـ مع أنَّ المرادَ منه ليس من ذوي العقول ـ لوقوع ذلك في موقع السؤال والجواب المختصَّيْن بالعقلاء.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «لم شهدتنَّ» بضمير المؤنَّثات(٢).

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أنطقنا الله تعالى وأقْدَرَنا على بيانِ الواقع، فشَهِدْنا عليكم بما عملتم من القبائح وما كتمْنا. وحيث كان معنى السؤال: لأيِّ علَّةٍ موجبةٍ شهدتم؟ صلح ما ذكر جواباً له.

وقيل: لا قصدَ هنا للسؤال أصلاً، وإنما القصدُ إلى التعجُّب ابتداءً؛ لأنَّ التعجُّبَ يكون فيما لا يُعلَم سببُه وعلَّتُه، فالسؤالُ عن العلة المستلزمُ لعدم معرفتها

---

(١) البحر ٧/ ٤٩٢.

(٢) البحر ٧/ ٤٩٣.

جُعِل مجازاً أو كنايةً عن التعجُّب، فقد قيل: إذا ظهر السببُ بطل العَجَب. فكأنه قيل: ليس نُطْقُنا بعَجَبٍ من قدرة الله تعالى الذي أنطق كلَّ شيء. وأيًّا ما كان فالنطقُ على معناه الحقيقيِّ كما هو الظاهر، وكذا الشهادة.

ولا يقال: الشاهدُ أنفسُهم، والسمعُ والأبصار والجلودُ آلاتٌ كاللسان، فما معنى «شهدتم علينا»؟ لأنه يقال: ليس المرادُ هذا النوعَ من النطق الذي يُسنَد حقيقةً إلى جملة الشخص ويكون غيرُه آلةً بلا قدرةٍ وإرادةٍ له في نفسه حتى لو أُسنِد إليه كان مجازاً كإسناد الكتابة إلى القلم، بل هو نطقٌ يُسنَد إلى العضو حقيقةً فيكون نفسُه ناطقاً بقدرةٍ وإرادةٍ خَلَقَهما الله تعالى فيه، كما ينطق الشخصُ بالآلة، وكيف لا وأنفسُهم كارهة لذلك مُنكِرة له.

وقيل: الناطقُ هم بتلك الأعضاء، إلا أنَّهم لا يقدرون على دفع كونها آلاتٍ، ولذا نُسِبت الشهادة عليهم إليها. وليس بشيء.

وجوَّز بعضُهم أن يكون النطقُ مجازاً عن الدلالة، فالمراد بالشهادة ظهورُ علاماتٍ على الأعضاء دالَّةٍ على ما كانت ملتبسةً به في الدنيا بتغيير أشكالها ونحوه، مما يُلهِم الله تعالى مَن رآه أنها تلبَّست به في الدنيا؛ لارتفاع الغطاء في الآخرة. وهو خلافُ ظاهرِ الآيات والأحاديث، ولا داعي إليه.

وعلى الظاهر لا بدَّ من تخصيصِ «كلَّ شيء» بكلِّ حيٍّ نَطَق؛ إذ ليس كلُّ شيء ولا كلُّ حيٍّ ينطِق بالنُّطق الحقيقيِّ، ومثلُ هذا التخصيص شائعٌ، ومنه ما قيل في: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] و: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وجوَّز أن يكون النطقُ في «أنْطَقَنا» بمعناه الحقيقيِّ، ويحمل النطقُ في «أنطَقَ كلَّ شيء» على الدلالة، فيبقى العامُّ على عمومه ولا يحتاج إلى التخصيص المذكور، ويكون التعبيرُ بالنطق للمشاكلَة. وهو خلافُ الظاهر، والموصول المشعِر بالعلية يأباه إباءً ظاهراً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ يحتمل أن يكونَ من تمام كلام الجلود ومقولِ القول، ويحتمل أن يكون مستأنَفاً من كلامه عزَّ وجلَّ،

والأول أظهر. والمراد على كلِّ حالٍ تقريرُ ما قبله بأنَّ القادرَ على الخلق أولَ مرةٍ قادرٌ على الإنطاق.

وصيغةُ المضارع إذا كان الخطابُ يومَ القيامة مع أنَّ الرجع فيه متحقِّقٌ لا مستقبَلٌ؛ لِما أنَّ المرادَ بالرجع ليس مجرَّدَ الردِّ إلى الحياة بالبعث، بل ما يعمُّه وما يترتَّب عليه من العذاب الخالد المترقَّب عند التخاطُب على تغليب المتوقَّع على الواقع.

وجوِّز أن تكونَ لاستحضار الصورة مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ حكايةٌ لِما سيقال لهم يومئذٍ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريراً لجواب الجلود، واستظهر أبو حيان(١) أنه من كلام الجوارح.

و«أن يَشْهَدَ» مفعولٌ له بتقدير مضافٍ، أي: ما كنتم تستترون في الدنيا عندَ مباشرتكم الفواحشَ مخافةَ أو كراهةَ أن تشْهَدَ عليكم جوارحُكم بذلك، أي: ليس استتارُكم للخوف مما ذُكر أو لكراهته ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: ولكن لأجلِ ظنِّكم أنَّ الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون - وهو ما عملتم خُفيةً - فلا يُظهره سبحانه يوم القيامة ويُنطِق الجوارح به، فلذا سَعَيتُم في الاستتار عن الخلق دون الخالق عزَّ وجلَّ.

أو هو بتقدير حرف جرٍّ متعلِّق بـ «تَسْتَتِرُونَ»، فقيل: هو الباء، والمستتَر عنه الجوارحُ، والمعنى: ما اسْتَتَرْتُم عنها بملابسةِ أن تشهَد عليكم - أي: تتحمَّل الشهادةَ - إذ ما ظننتم أنَّها تشهَدُ عليكم، بل ظننتم أنَّ الله سبحانه لا يعلَم، فلذا لم يكن استتارُكم بهذا السبب. وقيل: هو «عن»، والمعنى: لم يُمكِنْكم الاستتارُ عن الجوارح لئلا تتحمَّل الشهادَة عليكم حين ترتكبون ما ترتكبون، لكنْ ظننتم ما ظننتم.

وقيل: «أن تَشْهَد» مفعولٌ له، والمستتر عنه الجوارح، أي: ما تستترون عن جوارحكم مخافةَ أن تشهَدَ عليكم، لكنْ ظننتم.. إلخ.

---

(١) في البحر ٧/ ٤٩٣.

وقيل: إنَّ «تستَتِرُون» ضُمِّنَ معنى الظنِّ فعُدِّي تعديتَه، أي: ما كنتم تستترون ظانِّين شهادةَ الجوارح عليكم، ويؤيِّده قولُ قتادة: أي: ما كنتم تظنون أن تشهَدَ عليكم.. إلخ[1]. والحق أن هذا بيانٌ لحاصل المعنى؛ أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن مسعود قال: كنتُ مستتراً بأستارِ الكعبة، فجاء ثلاثةُ نفرٍ: قُرشيٌّ وثَقَفِيَّان، أو ثَقَفيٌّ وقُرَشِيَّان، كثيرٌ لحمُ بطونهم، قليلٌ عفةُ قلوبهم، فتكَلَّمُوا بكلامٍ لم أسْمَعْه، فقال أحدُهم: أَتَرونَ الله يَسْمَع كلامَنا هذا؟ فقال الآخر: إنَّا إذا رَفَعْنا أصْوَاتَنا يَسمَعُه، وإذا لم نَرْفَعْ لم يَسْمَعْ. فقال الآخر: إن سَمِعَ منه شيئاً سمعه كلَّه. قال: فذكرتُ ذلك للنبيِّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ) إلى قوله سبحانه: (مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ)[2].

فالحكم المحكيُّ حينئذ يكون خاصًّا بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفر، لكنَّه قليلٌ في الكَفَرَة.

وفي «الإرشاد»: لعل الأنسبَ أن يراد بالظنِّ معنًى مجازيٌّ يعمُّ معناه الحقيقيَّ وما يجري مجراه من الأعمال المنبئة عنه، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٣] ليعمَّ ما حُكي من الحال جميعَ أصناف الكَفَرة، فتدبَّر[3].

وفي الآية تنبيه على أنَّ المؤمنَ ينبغي أن لا يمرَّ عليه حالٌ إلا بملاحظةِ أنَّ عليه رقيباً، كما قال أبو نواس:

إذا ما خَلَوتَ الدهرَ يوماً فلا تقُل ... خَلَوتُ ولكنْ قُل عليَّ رَقِيبُ

ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ... ولا أنَّ ما يخْفَى عليه يَغِيبُ[4]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٧٦.

(٢) مسند أحمد (٣٦١٤)، وصحيح البخاري (٤٨١٦)، وصحيح مسلم (٢٧٧٥)، وسنن الترمذي (٣٢٤٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٤٠٤)، وعزاه السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٢ لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي.

(٣) تفسير أبي السعود ٨/ ١١.

(٤) ديوان أبي نواس ص١٠٣، وفيه: عليك. بدل: عليه. وهو الأنسب.

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ظنِّهم المذكورِ في ضمنِ قوله سبحانه: «ظننتم»، وما فيه من معنى البعد للإيذان بغايةِ بعدِ منزلته في الشرِّ والسوء، وهو مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ بدلٌ منه، وقولُه سبحانه: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ - أي: أهلككم - خبره.

وجوِّز أن يكون «ظَنُّكُم» خبراً، و«أرداكُم» خبراً بعدَ خبر. وردَّه أبو حيان بأنَّ «ذلِكُم» إشارةٌ إلى ظَنِّهم السابق، فيصير التقدير: وظنُّكم بربِّكم أنَّه لا يعلم ظنَّكم بربِّكم. فما استُفِيد من الخبر هو ما استُفِيد من المبتدأ، وهو لا يجوز، كقولهم: سيِّدُ الجارية مالكُها[1]. وقد منعه النحاة.

وأجيب بأنَّه لا يلزم ما ذَكَر؛ لجوازِ جَعْل الإشارة إلى الأمر العظيم في القباحة، فيختلف المفهومُ باختلاف العنوان ويصحُّ الحملُ، كما في: هذا زيد. ولو سُلِّم فالاتحادُ مثله في قوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري[2]

مما يدلُّ على الكمال في الحسن كما في هذا المثال، أو في القبح كما في الجملة المذكورة.

وقيل: المرادُ منه التعجُّب والتهكُّم، وقد يُراد من الخبر غيرُ فائدة الخبر ولازمِها. واختار بعضهم في الجواب ما أشار إليه ابن هشام في شرح: بانت سُعاد، وبسط الكلامَ فيه من أنَّ الفائدة كما تحصل من الخبر تحصل من صفته وقَيْدِه كالحال.

وجوِّز في جملةِ «أَرْدَاكُم» أن تكونَ حالاً بتقدير «قد» أو بدونه.

والموصولُ في جميع الأوجه صفةُ «ظنكم». وقيل: الثلاثة أخبارٌ. فلا تغفل.

﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ بسبب ذلك الظنِّ السوءِ الذي أهلككم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ إذ صار ما أُعْطُوا من الجوارح لنيل السعادة في الدنيا والآخرة لأنَّ بها تعيُّشَهم في

---

(١) البحر ٧/ ٤٩٣.

(٢) سلف ٧/ ٣١٠.

الدنيا وإدراكهم ما يهتدون به إلى اليقين ومعرفةِ ربِّ العالمين الموصِل للسعادة الأخروية = سبباً للشقاء في الدارَيْن، حيث أدَّاهم إلى كُفرانِ نِعَم الرازق، والكفرِ بالخالق، والانهماكِ في الغفلات، وارتكاب المعاصي، واتباع الشهوات.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: محلُّ ثواءٍ وإقامةٍ أبدية لهم بحيث لا براحَ لهم منها، وترتيبُ الجزاء على الشرط؛ لأنَّ التقديرَ: إن يصبروا ـ والظنُّ أنَّ الصبرَ ينفعهم لأنه مفتاحُ الفرج ـ لا ينفعهم صبرُهم إذ لم يصادِفْ محلَّه، فإنَّ النار محلُّهم لا محالة.

وقيل: في الكلام حذفٌ، والتقدير: أو لا يصبروا، كقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦].

وقيل: المراد: فإن يصبروا على تركِ دينك واتباعِ هواهم فالنارُ مثوى لهم. وليس بذاك.

والالتفاتُ للإيذان باقتضاءِ حالهم أن يُعرَض عنهم ويُحكى سوءُ حالهم للغير، أو للإشعار بإبعادهم عن حيِّز الخطاب وإلقائهم في غيابة دَرَكات النار.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ أي: يَسْألوا العُتبى، وهي الرجوعُ إلى ما يحبونه جزعاً مما هم فيه ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: المجابِين إليها.

وقال الضحاك: المراد: إن يعتذروا فما هم من المعذورين.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري: «وإن يُسْتَعْتَبُوا» مبنيًّا للمفعول «فما هم من المُعْتِبِيْن» اسم فاعل[1]، أي: إن طُلِب منهم أن يُرضُوا ربَّهم فما هم فاعلون، ولا يكون ذلك؛ لأنَّهم قد فارقوا الدنيا دارَ الأعمال كما قال ﷺ: «ليس بعد الموت مُسْتَعْتَبٌ»[2].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٣، والمحتسب ٢/ ٢٤٥. والكلام من البحر ٧/ ٤٩٤.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٨٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٨١)، والديلمي في مسند الفردوس (٨١٧٨)، كما في زهر الفردوس على هامشه ٥/ ٢٧٨ عن الحسن عن رجل من الصحابة.

ويحتمل أن تكون هذه القراءةُ بمعنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي: قدَّرنا، وفي «البحر»: أي: سَبَّبْنا لهم من حيث لم يحتسبوا[١]. وقيل: سلَّطنا ووكَّلْنا عليهم.

﴿قُرَنَآءَ﴾ جمعُ: قرينٍ، أي: أَخْدَاناً وأصحاباً من غُواة الجنِّ. وقيل: منهم ومن الإنس، يستَوْلُون عليهم استيلاءَ القَيْضِ وهو القِشْر على البَيْضِ.

وقيل: أصلُ القَيْضِ البدلُ، ومنه المقايَضَةُ للمعاوَضَة، فتَقْيِيْضُ القرين للشخص إمَّا لاستيلائه عليه أو لأخذه بدلاً عن غيره من قرنائه.

﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾ حسَّنوا وقرَّروا في أنفسهم ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عباس: من أمر الآخرة، حيث ألقَوا إليهم أنَّه لا جنةَ ولا نارَ ولا بعثَ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا من الضلالة والكفر واتباع الشهوات.

وقال الحسن: «ما بين أيديهم» من أمر الدنيا، و«ما خلفهم» من أمر الآخرة.

وقال الكلبي: «ما بين أيديهم» أعمالُهم التي يُشاهِدونها، و«ما خلفهم» ما هم عامِلُوه في المستقبل[٢]. ولكلٍّ وجهةٌ، ولعلَّ الأحسن ما حُكي عن الحسن.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: ثبت وتقرَّر عليهم كلمةُ العذاب وتحقَّق موجبُها ومصداقُها، وهي قوله تعالى لإبليس: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ حالٌ من الضمير المجرور، أي: كائنين في جملة أُمَم، وقيل: «في» بمعنى «مع»، ويحتمِل المعنيَيْنِ قولُه:

إن تَكُ عـن أَحْسَـنِ الـصَّـنِيْـعَـة مـأْ ... فُـوكـاً فـفـي آخَـرِيـن قَـدْ أُفِـكُـوا[٣]

(١) البحر ٧/ ٤٩٤.

(٢) قول ابن عباس والحسن والكلبي في البحر ٧/ ٤٩٤.

(٣) سلف ١١/ ١٢٧.

وفي «البحر»(١): لا حاجةَ للتضمين مع صحة معنى «في».

وتنكيرُ «أُمَم» للتكثير، أي: في أُمَمٍ كثيرةٍ.

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ على الكفر والعصيان كدأبِ هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ تعليلٌ لاستحقاقهم العذابَ، والضميرُ لهم وللأُمَم، وجوِّز كونُه لهم بقرينة السياق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم، أو: قال بعضُهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: لا تُنصِتوا له؛ أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان النبيُّ ﷺ وهو بمكة إذا قَرَأَ القرآنَ يرْفَعُ صوتَه، فكان المشركون يَطْرُدُون الناسَ عنه ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ وأْتُوا باللَّغْوِ عند قراءته ليتشوَّشَ على القارئ(٢).

والمرادُ باللغو ما لا أصلَ له، وما لا معنى له. وكان المشركون عند قراءته عليه الصلاة والسلام يأتُون بالمُكاءِ والصفير والصِّياح وإنشاد الشعر والأراجيز.

وقال أبو العالية: أي: قَعُوا فيه وعِيبُوه(٣).

وفي كتاب ابن خالويه: قرأ عبد الله بن بكر السهمي(٤) وقتادة وأبو حيوة وأبو السمال والزعفراني وابن أبي إسحاق وعيسى بخلاف عنهما: «وَالْغُوا» بضمِّ الغين(٥)، مضارعُ: «لَغا» بفتحها، وهما لغتان، يقال: لَغِيَ يَلْغَى، كـ: رضِيَ

---

(١) ٧/ ٤٩٤.
(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٢، وهو عند الطبري ٢٠/ ٤١٧ مختصراً.
(٣) البحر ٧/ ٤٩٤، وهو في النكت والعيون ٥/ ١٧٨ عن ابن عباس.
(٤) في مطبوع القراءات الشاذة ص١٣٣: عبد الله بن بكير السلمي، والمثبت من الأصل و(م) والبحر ٧/ ٤٩٤، والكلام منه. وعبد الله بن بكر السهمي هو أبو وهب البصري، سمع أباه بكر بن حبيب السهمي وغيره، وعنه أحمد وابن المديني وغيرهما. توفي (٢٠٨هـ). تاريخ الإسلام ٥/ ٩٨. وينظر التعليق الذي بعده.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٩، والبحر ٧/ ٤٩٤. وفي المحتسب ٢/ ٢٤٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣، وتفسير القرطبي ١٨/ ٤١٣: بكر بن حبيب السهمي. بدل: عبد الله بن بكر السهمي. وقد ذكر الخلاف في البحر ٧/ ٤٩٤.

يَرْضَى، ولَغَا يَلْغُو ك : عدا يَعْدُو: إذا هَذَى، وقال صاحبُ «اللوامح»(١): يجوز أن يكونَ الفتحُ من لَغِي بالشيء يَلْغَى به: إذا رَمَى به، فيكون «فيه» بمعنى «به»، أي: ارْمُوا به وانبذوه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: تغلبونه على قراءته، أو تطمِسون أمرَه وتُميتون ذكره.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فوالله لنُذِيقَنَّ هؤلاء القائلين، والإظهارُ في مقام الإضمار للإشعار بالعِلِّية، أو: جميعَ الكفار، وهم يدخلون فيه دخولاً أوليًّا.

﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لا يُقادَر قدره ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: جزاءَ سيئات أعمالهم التي هي في أنفسها أسوأ، فـ «أفعل» للزيادة المطلقة، وقيل: إنه سبحانه لا يُجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوفين وصِلةِ الأرحام وقِرَى الأضياف؛ لأنها مُحبَطَة بالكفر، والعذابُ إما في الدارين أو في إحداهما، وعن ابن عباس: «عذاباً شديداً» يومَ بدر، و«أسوأ الذي كانوا يَعْمَلُون» في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من الجزاء، وهو مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ خبرُه، أي: ما ذكر من الجزاء جزاءٌ معَدٌّ لأعدائه تعالى، وقوله سبحانه: ﴿النَّارُ﴾ عطفُ بيانٍ لـ «جزاء»، أو بدلٌ، أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ.

وجوِّز أن يكون ذلك خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك، و«جَزاء» مبتدأ و«النارُ» خبره، والإشارةُ حينئذٍ إلى مضمون الجملة السابقة.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ جملةٌ مستقلَّةٌ مقرِّرةٌ لِما قبلها، وجوِّز أن يكون «النار» مبتدأ وهذه الجملة خبره، أي: هي بعينها دارُ إقامتهم؛ على أنَّ «في» للتجريد كما قيل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقول الشاعر:

وفي الله إن لم يُنصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ(٢)

---

(١) كما في البحر ٧/ ٤٩٤-٤٩٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣، والبحر ٧/ ٤٩٥، وصدره: أباحت بنو مروان ظُلْماً دماءَنا. كما في معاهد التنصيص ٣/ ١٦، وعزاه في الحماسة البصرية ١/ ٨١ لأبي الخطار بشر بن صفوان =

وهو أن يُنتَزعَ من أمر ذي صفةٍ آخَرَ مثلُه مبالغةً فيها. وجُوِّز أن يقال: المقصود ذكرُ الصفةِ، والدارُ إنما ذُكرت توطئةً، فكأنه قيل: لهم فيها الخلود.

وقيل: الكلامُ على ظاهره والظرفيةُ حقيقيةٌ، والمرادُ: إنَّ لهم في النار المشتملة على الدرَكات دارٌ مخصوصةٌ هم فيها خالدون. والأول أبلغ.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٢٨﴾ منصوبٌ بفعل مقدَّرٍ، أي: يجْزَوْنَ جزاءً. أو بالمصدر السابق، فإنَّ المصدر ينتصب بمثله، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ [الإسراء: ٦٣] والباء الأولى متعلِّقةٌ بـ «جزاء»، والثانية بـ «يجحدون» قدِّمت عليه لقصد الحصر الإضافيِّ مع ما فيه من مراعاة الفواصل، أي: بسببِ ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقَّةِ دونَ الأمور التي ينبغي جحودُها. وجعل بعضهم الجحودَ مجازاً عن اللَّغْوِ المسبَّب عنه، أي: جزاءً بما كانوا بآياتنا يَلْغُون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم متقلِّبون فيما ذكر من العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ يعنون فريقَيْ شياطين النوعَيْنِ المقيَّضَيْنِ لهم الحامِلَيْنِ لهم على الكفر والمعاصي بالتسويل والتزيين.

وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه وقتادة أنَّهما إبليسُ وقابيل، فإنهما سببا الكفرِ والقتلِ بغير حقٍّ[(١)].

وتعقِّب بأنه لا يصحُّ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، فإنَّ قابيل مؤمنٌ عاصٍ. والظاهر أنَّ الكفارَ إنَّما طلبوا إراءةَ المضلِّين بالكفر المؤدِّي إلى الخلود. وكونُهم رئيسَ الكَفَرَة ورئيسَ أهل الكبائر خلافُ الظاهر.

وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو بكر: «أَرْنا» بالتخفيف[(٢)]، كفَخْذ بالسكون في فَخِذ. وفي «الكشاف»: «أرِنا» بالكسر للاستبصار، وبالسكون

= الكلابي، برواية: أقادَتْ بنو مروان قيساً دماءنا. وقد سلف الشطر الثاني ١٢/ ٤٤٠ بتغير في اللفظ.

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٨٦، وتفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٠، والمستدرك ٢/ ٤٤٠.

(٢) التيسير ص١٩٣، والنشر ٢/ ٢٢٢.

للاستعطاء، ونقله عن الخليل(١)، فمعنى القراءة عليه: أَعْطِنا اللَّذَيْنِ أضلَّانا.

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسُهما بها انتقاماً منهما. وقيل: نجعلهما في الدَّرْك الأسفل من النار ليشتدَّ عذابهما، فالمراد: نجعلْهما في الجهة التي تحت أقدامنا.

وقرئ في السبعة: «اللَّذَيْنِّ» بتشديد النون(٢)، وهي حجَّةٌ على البصريين الذين لا يجوِّزون التشديدَ فيها في حالِ كونها بالياء، وكذا في اللتين وهذين وهاتين.

﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ ذلًا ومهانةً، أو مكاناً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ شروعٌ في بيان حُسْن أحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة بعد بيانِ سوءِ حالِ الكَفَرة فيهما، أي: قالوه اعترافاً بربوبيته تعالى وإقراراً بوحدانيته، كما يُشعِر به الحصرُ الذي يُفيده تعريفُ الطرفَيْنِ كما في: صديقي زيد.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ ثم ثَبَتُوا على الإقرار ولم يَرجِعوا إلى الشرك، فقد رُوي عن الصِّدِّيق رضي الله عنه أنه تلا الآية ـ وهي قد نزلت [فيه] على ما رُوي عن ابن عباس(٣) ـ ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يُذنِبوا. قال: قد حملتُم الأمرَ على أَشَدِّه. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان(٤).

وعن عمر رضي الله عنه: استقاموا لله تعالى بطاعته، لم يَرُوغُوا رَوَغان الثعالب(٥).

وعن عثمان رضي الله عنه: أخلَصُوا العملَ.

وعن الأمير عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: أدَّوا الفرائض(٦).

وقال الثوري: عَمِلُوا على وِفاق ما قالوا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٥٢-٤٥٣.

(٢) هي قراءة ابن كثير كما في التيسير ص٩٥، والنشر ٢/ ٢٤٨.

(٣) قول ابن عباس أن الآية نزلت في أبي بكر ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٥٤، والرازي ٢٧/ ١٢١، وما استدركناه بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٢٣، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٤٠.

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٢٥)، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٢٥.

(٦) قول عثمان وعلي في الكشاف ٣/ ٤٥٣، والبحر ٧/ ٤٩٦.

وقال الفضيل: زَهِدوا في الفانية ورَغِبوا في الباقية.

وقال الربيع: أعرَضُوا عمَّا سوى الله تعالى[١].

وفي «الكشاف»: أي: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته[٢]، وأراد أنَّ من قال: ربِّي الله تعالى، فقد اعترف أنه عزَّ وجلَّ مالكه ومدبِّر أمره ومربِّيه، وأنه عبدٌ مربوبٌ بين يدي مولاه، فالثباتُ على مقتضاه أن لا تزلَّ قدمُه عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا يتخطَّاه، وفيه يندرج كلُّ العبادات والاعتقادت، ولهذا قال ﷺ لمن طلب أمراً يعتَصِم به: «قل: ربي الله تعالى، ثم استقم»[٣]. وذُكر أنَّ ما ورد عن الخلفاء الراشدين ﷺ جزئياتٌ لهذا المعنى، ذكر كلٌّ منها على سبيل التمثيل[٤].

ولا يخفى أنَّ كلامَ الصِّدِّيق ﷺ يُبعِد كونَ ما ذَكَره على سبيل التمثيل.

ولعلَّ «ثم» على هذا للتراخي الرُّتبي، فإنَّ الاستقامةَ عليه أعظمُ وأصعبُ من الإقرار، وكذا يقال على أغلب التفاسير السابقة. وجوِّز أن تكونَ للتراخي الزماني لأنها تحصُل بعد مدةٍ من وقت الإقرار.

وجُعِلت على تفسير الاستقامة بأداء الفرائض أو بالعمل للتراخي الرتبي أيضاً، بناءً على أنَّ الإقرارَ مبدأُ الاستقامة على ذلك ومنشؤها، وهذا على عكس التراخي الرتبي الذي سمعتَه أولاً؛ لأنَّ المعطوفَ عليه فيه أعلى مرتبة من المعطوف إذ هو العمدةُ والأساس، وعلى ما تقدَّم المعطوفُ أعلى مرتبةً من المعطوف عليه كما لا يخفى.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ من الله ربِّهم عزَّ وجلَّ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قال مجاهد والسدي: عند الموت[٥]. وقال مقاتل: عند البعث، وعن زيد بن أسلم: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث[٦].

---

(١) الأقوال الثلاثة في تفسير القرطبي ١٨/ ٤١٦-٤١٧، والبحر ٧/ ٤٩٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٥٣.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٢٤١٠) عن سفيان بن عبد الله الثقفي، وقال: حسن صحيح. وهو عند مسلم (٣٨) بلفظ: «قل: آمنت بالله، فاستقم».

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ٣٩٩.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٦.

(٦) قول مقاتل في النكت والعيون ٥/ ١٨٠، وقول ابن زيد في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٠.

وقيل: «تتنزَّلُ عليهم»: يُمِدُّونهم فيما يعِنُّ ويطرَأُ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرَحُ صدورَهم ويدفع عنهم الخوفَ والحزنَ بطريق الإلهام، كما أنَّ الكفرةَ يُغوِيهم ما قُيِّضَ لهم من قُرَناء السوء بتزيين القبائح. قيل: وهذا هو الأظهر لِما فيه من الإطلاق والعموم الشامل لتنزُّلهم في المواطن الثلاثة السابقة وغيرها، وقد قدمنا لك أنَّ جمعاً من الناس يقولون بتنزُّل الملائكة على المتقين في كثير من الأحايين، وأنَّهم يأخذون منهم ما يأخذون، فتذكَّر.

﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ ما تقدمون عليه، فإنَّ الخوفَ غمٌّ يلحَقُ لتوقُّع المكروه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلَّفتم، فإنَّه غمٌّ يلحَق لوقوعه من فوات نافعٍ أو حصول ضارٍّ. ورُوي هذا عن مجاهد(١).

وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ردَّ حسناتكم فإنها مقبولةٌ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنها مغفورةٌ.

وقيل: المراد نهيُهم عن الغموم على الإطلاق، والمعنى أنَّ الله تعالى كتب لكم الأمنَ من كلِّ غمٍّ فلن تذوقوه أبداً.

و«أن» إما مصدريةٌ و«لا» ناهية، أو نافية وسقوط النون للنصب، والخبرُ في موضع الإنشاء مبالغةً. وإما مخفَّفةٌ من الثقيلة، و«تَتَنَزَّلُ» مضمَّن معنى العلم، و«لا» ناهيةٌ، و«أن» في الوجهين مقدَّرةٌ بالباء، أي: بأنْ لا تخافوا، أو بأنه لا تخافوا، والهاء ضميرُ الشأن. وإما مفسِّرةٌ و«تَتَنَزَّل» مضمَّن معنى القول، و«لا» ناهيةٌ أيضاً.

وفي قراءة عبد الله: «لا تَخافُوا» بدون «أنْ»(٢)، أي: يقولون: لا تخافوا. على أنه حالٌ من «الملائكة» أو استئنافٌ.

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝﴾ أي: التي كنتم تُوعَدونها في الدنيا على ألسنة الرُّسُل عليهم السلام، هذا من بِشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة، وقولُه تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى آخِره من بشاراتهم في الدنيا، أي: أعوانُكم في أمورِكم نُلهِمُكم الحقَّ ونُرشِدكم إلى ما فيه خيرُكم وصلاحُكم.

---

(١) في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٧ بمعناه.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٦، والقراءات الشاذة ص١٣٣، والبحر ٧/ ٤٩٦.

ولعلَّ ذلك عبارةٌ عما يخطرُ ببال المؤمنين المستمرِّين على الطاعات من أنَّ ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييدِه لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام، ويجوز على قول بعض الناس أن تقولَ الملائكةُ لبعض المتقين شفاهاً في غير تلك المواطن: «نَحْنُ أَوْلياؤُكم في الحياةِ الدنيا».

﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ نُمِدُّكم بالشفاعة ونتلقَّاكم بالكرامة حين يقع بين الكَفَرَة وقرنائِهم ما يقع من الدعاوى والخِصام. وذهب بعض المفسِّرين على أنَّ هذا من بشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة أيضاً، على معنى: كنا نحنُ أولياؤكم في الدنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة. وقيل: هذا من كلام الله تعالى دون الملائكة، أي: نحن أولياؤُكم بالهداية والكفاية في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من فُنُون الملاذِّ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ ما تتمنَّون، وهو افتعالٌ من الدعاء بمعنى الطلب، أي: تَدَّعُون لأنفسكم.

وهو عند بعضٍ أعمُّ من الأول؛ لأنَّه قد يَقَعُ الطلبُ في أمورٍ معنويةٍ وفضائلَ عقليةٍ روحانيةٍ. وقيل: بينهما عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ، إذ قد يشتهي المرءُ ما لا يطلبه كالمريض يشتهي ما يضرُّه ولا يريده، وكون التمنِّي أعمَّ من الإرادة غير مسلَّم، نعم قيل: إذا أريد بالمتمنَّى ما يصحُّ تمنِّيه لا ما يُتمنَّى بالفعل فذاك.

وقال ابن عيسى[1]: المراد: ما تَدَّعُون أنَّه لكم فهو لكم بحُكْمِ ربِّكم.

«ولكم» في الموضعين خبرٌ، و«ما» مبتدأٌ، و«فيها» حالٌ من ضميره في الخبر، وعدمُ الاكتفاء بعطفِ «ما تَدّعون» على «ما تَشْتَهِي» للإيذان باستقلالِ كلٍّ منهما.

﴿نُزُلًا﴾ قال الحسن: مَنًّا[2]. وقال بعضهم: ثواباً. وتنوينُه للتعظيم، وكذا وصفُه بقوله تعالى: ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾، والمشهورُ أنَّ النُّزُلَ ما يُهَيَّأُ للنزيل - أي: الضيف - ليأكله حين نزوله، وتحسُن إرادتُه هنا على التشبيه؛ لِما في ذلك من الإشارة إلى عِظَم ما بعدُ من الكرامة.

---

(١) هو علي بن عيسى، وقوله في النكت والعيون ٥/ ١٨٠.
(٢) المصدر السابق.

وانتصابه على الحال من الضمير في الظرف الراجع إلى «ما تَدَّعُوْنَ» لا من الضمير المحذوف الراجع إلى «ما» لفسادِ المعنى؛ لأنَّ التمنِّي والادِّعاء ليس في حال كونه نُزُلاً، بل ثَبَتَ لهم ذلك المدَّعى واستقرَّ حالَ كونه نُزُلاً، وجعْلُه حالاً من المبتدأ نفسه لا يخفى حالُه على ذي تمييز.

وقال ابن عطية[1]: «نُزُلاً» نصبٌ على المصدر. والمحفوظ أنَّ مصدرَ «نَزَل» نُزُولٌ، لا نُزُلٌ، وجعله بعضُهم مصدراً لـ «أنْزَلَ». وقيل: هو جمع نازلٍ، كشارِفٍ وشُرُف، فينتَصِبُ على الحال أيضاً، أي: نازِلين، وذو الحال على ما قال أبو حيان: الضميرُ المرفوعُ في «تَدَّعُونَ»[2]. ولا يحسُن تعلُّقُ «مِنْ غَفُورٍ» به على هذا القول، فقيل: هو في موضع الحال من الضمير في الظرف. فلا تغفل.

وقرأ أبو حيوة: «نُزْلاً» بإسكان الزاي[3].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى توحيده تعالى وطاعته، والظاهرُ العمومُ في كلِّ داعٍ إليه تعالى، وإلى ذلك ذهب الحسن ومقاتل وجماعة[4].

وقيل بالخصوص، فقال ابن عباس: هو رسول الله ﷺ، وعنه أيضاً: هم أصحاب محمد ﷺ[5]. وقالت عائشة وقيس بن أبي حازم وعكرمة ومجاهد: نزلت في المؤذِّنين[6]، وينبغي أن يُتأوَّل قولُهم على أنَّهم داخلون في الآية، وإلا فالسورةُ بكمالها مكيةٌ بلا خلاف، ولم يكن الأذانُ بمكة إنما شُرِعَ بالمدينة. والتزامُ القول بتأخُّرِ حكمها عن نزولها كما ترى.

والظاهر أنَّ المرادَ الدعاءُ باللسان، وقيل: به وباليد، كأن يدعُوَ إلى الإسلام ويُجاهِد.

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ١٥.
(٢) البحر ٧/ ٤٩٧.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٥، والبحر ٧/ ٤٩٧.
(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨١، وزاد المسير ٧/ ٢٥٧، والبحر ٧/ ٤٩٧.
(٥) الكشاف ٣/ ٤٥٣، وزاد المسير ٧/ ٢٥٧.
(٦) أخرجه عن عائشة وعكرمة النحاسُ في إعراب القرآن ٤/ ٦٠-٦١، وأخرجه عن قيسٍ الطبريُّ في تفسيره ٢٠/ ٤٣٠-٤٣١، وقول مجاهد في زاد المسير ٧/ ٢٥٦، والبحر ٧/ ٤٩٧.

وقال زيد بن عليٍّ: دعا إلى الله بالسيف[١]، ولعلَّ هذا - والله تعالى أعلم - هو الذي حَمَلَه على الخروج بالسيف على بعض الظَّلَمَة من ملوك بني أمية.

وكان زيدٌ هذا ﷺ عالماً بكتاب الله تعالى وله تفسيرٌ ألقاه على بعض النَّقَلَة عنه وهو في حبسِ هشامِ بن عبد الملك، وفيه من العلم والاستشهاد بكلام العرب حظٌّ وافرٌ. ويقال: إنه كان إذا تَناظَر هو وأخوه محمد الباقر اجتمع الناسُ بالمحابر، يكتبون ما يصدُر عنهما من العلم، رحمهما الله تعالى ورضي عنهما.

والاستفهامُ في معنى النفي، أي: لا أحدَ أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله.

﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً، أيَّ عملٍ صالحٍ كان. وقال أبو أمامة: صلَّى بين الأذان والإقامة[٢]. ولا يخفى ما فيه، وقال عكرمة: صلَّى وصام. وقال الكلبي: أدَّى الفرائضَ[٣]. والحقُّ العمومُ.

﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ أي: تلَفَّظَ بذلك ابتهاجاً بأنه منهم وتفاخراً به مع قصد الثواب؛ إذ هو لا ينافيه. أو: جَعَلَ واتخذ الإسلامَ ديناً له، من قولهم: هذا قول فلان، أي: مذهبُه ومعتَقَدُه، وبعضهم يُرجِع الوجهين إلى وجهٍ واحدٍ، والمعنى على القول بكون الآية خاصَّةً بالنبيِّ ﷺ: اختار النسبةَ إلى الإسلام دون عزِّ الدنيا وشَرَفها. وهو ردٌّ على قولهم: «لا تَسْمَعُوا لهذا القُرْآن» وتعجيبٌ منه.

وقرأ ابن أبي عبلة وإبراهيم بن نوح عن قتيبة الميال: «وقال إنِّي» بنون مشدَّدةٍ، دونَ نون الوقاية[٤].

واستدلَّ أبو بكر ابن العربي[٥] بالآية على عدم اشتراط الاستثناء في قول القائل: أنا مسلم، أو: أنا مؤمن.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٦.

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٤١٩، وهو قول عائشة ﵂ كما في النكت والعيون ٥/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥.

(٣) البحر ٧/ ٤٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦، والبحر ٧/ ٤٩٧.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠.

وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون عامِلاً عَمَلاً صالحاً؛ ليكون الناسُ إلى قبول دعائه أقرب وإليه أسكن.

﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ سِيقَت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثْرَ بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد والربِّ عزَّ وجلَّ؛ ترغيباً لرسول الله ﷺ في الصبر على أذيَّة المشركين ومُقابلةِ إساءتهم بالإحسان، والحكم عامٌّ، أي: لا تستوي الخصلةُ الحسنةُ والسيئةُ في الآثار والأحكام.

و«لا» الثانية مزيدةٌ لتأكيد النفْي، مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ [فاطر: ٢١] لأن «اسْتَوَى» لا يكتفي بمفردٍ.

وقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لحُسْن عاقبة الحسنة، أي: ادفع السيئةَ حيث اعترضَتْك من بعض أعاديك «بالتي هي أحسنُ» منها، وهي الحسنةُ، على أنَّ المرادَ بالأحسن الزائدُ مطلقاً، أو بأحسنِ ما يُمكِن دفعُها به من الحسنات كالإحسان إلى مَن أساء، فإنه أحسنُ من مجرَّد العَفْو، فـ «أحسن» على ظاهره، والمفضَّل عليه عامٌّ ولذا حُذِف، كما في: الله تعالى أكبر.

وإخراجه مخرج الجواب عن سؤالِ مَن قال: كيف أصنع؟ للمبالغة والإشارةِ إلى أنه مُهِمٌّ ينبغي الاعتناءُ به والسؤالُ عنه، وللمبالغة أيضاً وُضِع «أحْسَن» موضعَ الحسنة، لأنَّ مَن دَفَع بالأحسن هان عليه الدفعُ بما دونه.

ومما ذكرنا يُعلَم أن ليس المرادُ بالحسنة والسيئة أمرين معيَّنين، وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهَه: الحسنة: حُبُّ الرسول وآله عليهم الصلاة والسلام، والسيئةُ: بغضُهم. وعن ابن عباس: الحسنة: لا إله إلا الله، والسيئة: الشرك. وقال الكلبيُّ: الدعوتان إليهما. وقال الضحاك: الحلم والفحش. وقيل: الصبر وضدُّه. وقيل: المداراة والغلظة(١). وقيل غير ذلك، ولا يخفى أنَّ بعضَ المرويِّ يكاد لا تصحُّ إرادتُه هنا، فلعلَّه لم يثبت عمَّن رُوي عنه.

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٨٢، وزاد المسير ٧/ ٢٥٧-٢٥٨، والبحر ٧/ ٤٩٨، والكلام منه.

وجوّز أن يكون المرادُ بيانَ تفاوُتِ الحسنات والسيئات في أنفسهما، بمعنى أنَّ الحسنات تتفاوَتُ إلى حسن وأحسن، والسيئات كذلك، فتعريفُ «الحسنة» و«السيئة» للجنس، و«لا» الثانيةُ ليست مزيدةً، وأفعل على ظاهره، والكلام في «ادْفَع» إلخ على معنى الفاء، أي: إذا كان كلٌّ من الجنسين متفاوِت الأفراد في نفسه، فادْفَعْ بأحسن الحسنتين السيِّئ والأسْوَأ. وتركُ الفاء للاستئناف الذي ذكرنا، وهو أقوى الوصلين. ولعلَّ الأولَ أقربُ.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ بيانٌ لنتيجة الدفع المأمور به، أي: فإذا فعلتَ ذلك صار عدوُّك المشاقُّ مثل الوليِّ الشفيق. قال ابن عطية: دخلَتْ «كَأنَّ» المفيدةُ للتشبيه؛ لأن العدوَّ لا يعود وليًّا حميماً بالدفع بالتي هي أحسن، وإنما يحسُن ظاهرُه فيُشبِه بذلك الوليَّ الحميم[1]. ولعلَّ ذلك من باب الاكتفاء بأقلِّ اللازم، وهذا بالنظر إلى الغالب، وإلا فقد تزول العداوةُ بالكلية بذلك، كما قيل:

إنَّ العداوةَ تَستَحِيلُ مودَّةً ... بتداركِ الهَفَواتِ بالحَسَناتِ[2]

و«الذي بَيْنَك وبَيْنَه عَداوَةٌ» أبلغُ من: عدوُّك. ولذا اختير عليه مع اختصاره.

والآية قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان عدوًّا مُبيناً لرسول الله ﷺ، فصار عند أهل السنَّة وليًّا مُصافِياً[3]. وكأنَّ ما عندَه انتقل إلى ولدِ ولده يزيد عليه من الله عزَّ وجلَّ ما يستحقُّ.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: ما يُلَقَّى ويُؤتى هذه الفعلة والخصلة الشريفة التي هي الدفع بالتي هي أحسن. فالضميرُ راجعٌ لِما يُفهَم من السياق، وجوّز رجوعُه لـ «التي هي أحْسَن»، وحكى مكي أنَّ الضميرَ لشهادةِ أن لا إله إلا الله[4]. فكأنه أرجَعَ لـ «التي هي أحسن» وفُسِّرت بالشهادة المذكورة، ومع هذا هو كما ترى.

وقيل: الضمير للجنةِ، وليس بشيء.

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٦.
(٢) البيت في همع الهوامع ١/ ٤١٤ دون نسبة.
(٣) تفسير البغوي على هامش تفسير الخازن ٤/ ١١٢.
(٤) البحر ٧/ ٤٩٨.

وقرأ طلحة وابن كثير في روايةٍ: «وما يُلاقاها» من الملاقاة[١].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: الذين فيهم طبيعةُ الصبر وشأنُهم ذلك.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ ذو نصيبٍ عظيمٍ من خصال الخير وكمالِ النفس، كما رُوي عن ابن عباس، وقال قتادة: ذو حظٍّ عظيمٍ من الثواب[٢]. وقيل: الحظُّ العظيمُ: الجنة، وعليهما فهو وعدٌ، وعلى الأول هو مَدْحٌ.

وكُرِّر «وَما يُلَقَّاها» تأكيداً لمدح تلك الفعلة الجميلة الجليلة.

ولأوحدِ أهلِ عصره الذي بَخِل الزمانُ أن يأتي بمثله صالح أفندي كاتب «ديوان الإنشاء في الحدباء» في هذه الآية عبارةٌ مختصرةٌ التزم الدقَّةَ فيها رحمة الله تعالى عليه، وهي قوله تعالى: (وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ) الآيةَ: يمكنُ أن يؤخَذ من الأول ما هو من أوَّلِ الأُول لا الثاني للاتفاق، فيتحقَّق الأشرفُ بعد إعطاء المقام حقَّه، فيتحقَّق الحابسُ أنه مَجْدُود، فيَقِفُ عند الحدِّ المحدود. انتهت.

وأراد ـ والله تعالى أعلم ـ أنه يمكن أن يُؤخَذ من الأول، أي: قوله تعالى: (وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ) ومن الثاني وهو قولُه سبحانه: (وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) ما ـ أي: شكلٌ ـ هو مِن أولِ ضُروبِ الشكل الأول الأربعة، وهو قياسٌ منه مركَّبٌ من مُوجِبتَيْنِ كُلِّيَّتَيْنِ يُنتِج موجبةً كلِّيَّةً، بأن يقال: كلُّ صابرٍ هو الذي يُلقَّاها، وكلُّ من يُلقَّاها فهو ذو حظٍّ عظيم، يُنتج: كلُّ صابرٍ هو ذو حظٍّ عظيم.

ولا يمكن أن يُؤخَذ قياسٌ من الشكل الثاني للاتفاق في الكَيْفِ، وشرطُ الشكل الثاني اختلافُ المقدِّمَتَين فيه كما هو مقرَّرٌ في محلِّه، فيتحقَّقُ بعد الأخذِ وتركيبِ المقدِّمتَيْنِ الأمرُ الأشرفُ، أي: النتيجةُ التي هي مُوجِبةٌ كُلِّيةٌ، وهي أشرفُ المحصوراتِ الأربع؛ لاشتمالها على الإيجاب الأشرف من السلب والكليةِ الأشرف من الجزئية، بعد إعطاء المقام حقَّه من جعل الموصول للاستغراقِ كما أشير إليه ليفيدَ الكليةَ، فعند ذلك يتحقَّقُ ويعلم الحابسُ ـ أي: الصابرُ ـ أنه

(١) القراءات الشاذة ص١٣٣، والبحر ٧/ ٤٩٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٢، والبحر ٧/ ٤٩٨.

مَجْدُود، أي: ذو جَدٍّ وحظٍّ، فيقف عند الحدِّ المحدود ولا يتجاوَزُ من الصبر إلى غيره، فافهم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النَّزْغ: النَّخْسُ، وهو المسُّ بطَرَفِ قضيبٍ أو أصبعٍ بعنفٍ مُؤلِم، استُعِيرَ هنا للوسوسة الباعثة على الشرِّ، وجُعل نازغاً للمبالغة على طريقةِ: جَدَّ جدُّه، فـ «من» على هذا ابتدائيةٌ.

ويجوز أن يُراد به: نازغٌ، على أنَّ المصدرَ بمعنى اسم الفاعل، وصفاً للشيطان، فـ «من» بيانيةٌ، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال. أو هي ابتدائيةٌ أيضاً لكن على سبيل التجريد.

وجوِّز أن يكون المرادُ بالنازغ وسوسة الشيطان.

و«إن» شرطيةٌ، و«ما» مزيدةٌ، أي: وإن يَنْزَغَنَّكَ ويَصرِفَنَّك الشيطانُ عمَّا وُصِّيتَ به من الدفع بالتي هي أحسنُ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرِّه ولا تُطِعْه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ فيسمع سبحانه استعاذَتك، ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ فيعلم جلَّ شأنُه نيَّتَك وصلاحَك.

وقيل: «السميعُ» لقولِ مَن آذاك، «العليمُ» بفعله فينتقم منه مُغنياً عن انتقامك. وقيل: «العليمُ» بنزغ الشيطان. وفي جعل ترك الدفع من آثار نَزَغاتِ الشيطان مزيدُ تحذيرٍ وتنفيرٍ عنه، ولعلَّ الخطابَ من باب: إياك أَعْنِي واسْمَعِي يا جَارَه.

وجوِّز أن يرادَ بالشيطان ما يعمُّ شيطانَ الإنس، فإنَّ منهم مَن يَصرِف عن الدفع بالتي هي أحسن ويقول: إنَّه عدوُّك الذي فَعَلَ بك كيتَ وكيتَ، فانتَهِز الفرصةَ فيه وخُذْ ثأرَك منه؛ لتعظُم في عينه وأعيُنِ الناس، ولا يظنَّ فيك العجْزَ وقلَّةَ الهمَّة وعدمَ المبالاة. إلى غير ذلك من الكلمات التي ربَّما لا تخطُر أبداً ببالِ شيطانِ الجنِّ، نعوذ بالله تعالى السميع العليم من كلِّ شيطان.

وفسَّر عبدُ الرحمن بن زيد النزغَ بالغضب(١)، واستدلَّ بالآية على استحبابِ الاستعاذة عنده؛ وقد روى الحاكم عن سليمان بن صُرَد قال: استبَّ رُجُلان عند

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٣٥-٤٣٦، والنكت والعيون ٥/ ١٨٣.

النبيِّ ﷺ، فاشتدَّ غضبُ أحدهما، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «إنِّي لأعْلَمُ كلمةً لو قالها لذهَبَ عنه الغضبُ: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم» فقال الرجل: أمجنوناً تراني؟ فتلا رسول الله ﷺ: (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ)[١]. ولعلَّ الغضب من آثار الوسوسة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالَّة على شؤونه الجليلة جلَّ شأنه ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ في حدوثهما وتعاقُبِهما وإيلاجِ كلٍّ منهما في الآخر ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في استنارتهما واختلافهما في قوَّة النور والعِظَم والآثار والحركات مثلاً، وقدَّم ذكرَ الليل - قيل - تنبيهاً على تقدُّمِه مع كون الظلمة عدماً، وناسَبَ ذكرُ الشمس بعد النهار؛ لأنها آيتُه وسببُ تنويره، ولأنها أصلٌ لنور القمر بناءً على ما قالوا من أنه مستفادٌ من ضياء الشمس، وأما ضياؤُها فالمشهورُ أنه غيرُ طارئٍ عليها من جرمٍ آخَر. وقيل: هو من العرش، والفلاسفةُ اليومَ يظنون أنه من جرمٍ آخَرَ وادَّعوا أنهم يَرَونَ في طرفٍ من جرمِ الشمس ظلمةٌ قليلةٌ.

﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنها من جملة مخلوقاته سبحانه وتعالى المسخَّرة على وفق إرادته تعالى مثلكم ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير - قيل - للأربعة المذكورة، والمقصودُ تعليقُ الفعل بالشمس والقمر لكن نظم معهما الليل والنهار إشعاراً بأنهما من عدادِ ما لا يَعلَم، ولا يختار ضرورةَ أنَّ الليلَ والنهارَ كذلك، ولو ثنَّى الضميرَ لم يكن فيه إشعارٌ بذلك.

وحُكْمُ جماعةِ ما لا يَعقِل - على ما قال الزمخشريُّ[٢] - حُكمُ الأنثى، فيقال: الأقلامُ بَرَيْتُها وبَرَيْتُهنَّ. فلا يُتوَهَّم أنَّ الضميرَ لَمَّا كان للَّيل والنهارِ والشمسِ والقمرِ كان المناسبُ تغليبَ الذكور، والجوابُ بأنَّه لَمَّا كُنَّ من الآيات عُدَّت كالإناث تكلُّفٌ عنه غِنًى بالقاعدة المذكورة.

نعم قال أبو حيان: ينبغي أن يفرَّق بين جمع القلَّة من ذلك وجمع الكثرة، فإنَّ

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٤١، وأصل الحديث عند البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠).
(٢) في الكشاف ٣/ ٤٥٤.

الأفصحَ في الأول أن يكونَ بضميرِ الواحدة، تقول: الأجذاعُ انكَسَرت. على الأفصح. والأفصح في الثاني أن يكون بضمير الإناث، تقول: الجُذُوع انكَسَرْنَ. وما في الآية ليس بجمعِ قلةٍ بلفظٍ واحدٍ، لكنه منزَّلٌ منزلةَ المعبَّر عنه به[(١)].

وقيل: الضميرُ للشمس والقمر، والاثنان جمعٌ، وجمعُ ما لا يعقل يؤنَّث، ومن حيث يقال: شُمُوسٌ وأقمارٌ، لاختلافهما بالأيام والليالي ساغ أن يعود الضميرُ إليهما جمعاً.

وقيل: الضميرُ للآيات المتقدِّم ذكرُها في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ فإنَّ السجودَ أقصى مراتبِ العبادة، فلا بدَّ من تخصيصه به عزَّ وجلَّ.

وكان عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه وابن مسعود يسجُدان عند «تَعْبُدُون»، ونُسب القولُ بأنه موضِعُ السجدة للشافعيِّ[(٢)].

وسجَدَ عند «لا يسأمون» ابنُ عباس وابن عمر وأبو وائل وبكر بن عبد الله، وكذلك رُوي عن ابن وهب ومسروق والسلمي والنخعي وأبي صالح وابن وثاب والحسن وابن سيرين وأبي حنيفة رضي الله عنهم[(٣)].

ونقله في «التحرير» عن الشافعيِّ رضي الله عنه[(٤)]. وفي «الكشف»: أصحُّ الوجهين عند أصحابنا ـ يعني الشافعيَّة ـ أنَّ موضع السجدة ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة، ووجهه أنها تمامُ المعنى على أسلوب «اسْجُد»، فإنَّ الاستكبارَ عنه مذمومٌ.

وعلَّله بعضُهم بالاحتياط؛ لأنها إن كانت عند «تَعْبُدُون» جاز التأخيرُ لقصر الفصل، وإن كانت عند «يسأمون» لم يَجُز تعجيلُها.

---

(١) البحر ٧/ ٤٩٨.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٢٤، والبحر ٧/ ٤٩٩، وتفسير الخازن ٤/ ١١٢.
(٣) المصادر السابقة، وينظر: زاد المسير ٧/ ٢٥٩، وتفسير الرازي ٢٦/ ١٢٨.
(٤) البحر ٧/ ٤٩٩.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ تعاظموا عن اجتنابِ ما نُهُوا عنه من السجود لتلك المخلوقات وامتثالِ ما أُمِروا به من السجود لخالقهنَّ، فلا يعبأُ بهم، أو: فلا يُخِلُّ ذلك بعظمة ربِّك ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في حضرة قدسِه عزَّ وجلَّ من الملائكة عليهم السلام الذين هم خيرٌ منهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: دائماً وإن لم يكن عندهم ليلٌ ونهار ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ لا يملُّون ذلك.

وجوابُ الشرط في الحقيقة ما أشرنا إليه أو نحوُه، وما ذُكر قائمٌ مقامَه، ويجوز أن يكون الكلام على معنى الإخبار كما قيل في نحوِ: إن أكرمتني اليومَ فقد أكرمتُك أمسِ: إنَّه على معنى: فأُخبِرك أني قد أكرمتُك أمسِ.

وقرئ: «لا يِسأَمُون» بكسر الياء[١].

والظاهر أنَّ الآيةَ في أناسٍ من الكَفَرَة كانوا يسجُدون للشَّمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكبَ، ويزعمون أنهم يقصُدُون بالسجود لهما السجودَ لله تعالى، فنُهُوا عن هذه الواسطة وأمروا أن يقصُدوا بسجودهم وجهَ الله تعالى خالصاً.

واستدلَّ الشيخ أبو إسحاق في «المهذب» بالآية على صلاتي الكسوف والخسوف، قال: لأنه لا صلاةَ تتعلَّق بالشمس والقمر غيرُهما[٢]. وأخذ من ذلك تفضيلَهما على صلاة الاستسقاء؛ لكونهما في القرآن بخلافها.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى﴾ يا مَن تصحُّ منه الرؤية ﴿ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يابسةً متطامِنةً، مستعارٌ من الخشوع بمعنى التذلُّل ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي: المطرَ ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: تحرَّكت بالنبات وانتفخت؛ لأنَّ النبتَ إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرضُ وانتفخت ثم تصدَّعت عن النبات.

ويجوز أن يكونَ في الكلام استعارةٌ تمثيليَّةٌ، شُبِّهَ حالُ جُدوبة الأرض وخلوِّها عن النبات ثم إحياءِ الله تعالى إياها بالمطر وانقلابِها من الجدوبة إلى الخصب وإنباتِ كلِّ زوج بهيج = بحالِ شخصٍ كئيبٍ كاسفِ البال رثِّ الهيئة لا يُؤْبَهُ به، ثم

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٥٤.

(٢) المهذب ١/ ٩٠.

إذا أصابه شيءٌ من متاع الدنيا وزينتها تكلَّف بأنواع الزينة والزخارف، فيختال في مَشْيه زهواً فيهتزَّ بالأعطاف خيلاءَ وكِبْراً. فحُذِف المشبَّهُ واستُعمِل الخشوعُ والاهتزازُ دلالةً على مكانه، ورُجِّح اعتبارُ التمثيل.

وقرئ: «رَبَأَتْ»[(١)]، أي: زادت. وقال الزجاج: معنى «رَبَتْ»: عَظُمَت، و«رَبَأَتْ» بالهمز: ارتفَعَتْ[(٢)]، ومنه الربيئة، وهي طليعةٌ على الموضع المرتفع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا﴾ بما ذُكر بعد موتها ﴿لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ بالبعث ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإحياء ﴿قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ مبالغ[(٣)] في القدرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحَّة والاستقامة، فيحملونها على المحامِل الباطلة، وهو مراد ابن عباس بقوله: يَضَعُون الكلامَ في غير موضعه[(٤)].

وأصلُه من ألْحَدَ: إذا مال عن الاستقامة فحفر في شقٍّ، ويقال: لَحَدَ.

وقرئ: (يُلْحِدُونَ) و«يَلْحَدُون» باللُّغتين[(٥)].

وقال قتادة هنا: الإلحاد التكذيب، وقال مجاهد: المكاء والصفير واللَّغْو[(٦)].

فالمعنى: يميلون عمَّا ينبغي ويليق في شأنِ آياتنا، فيكذِّبون القرآن، أو فيَلْغُون ويَصفرون عند قراءته.

وجوِّز أن يرادَ بالآيات ما يشمَل جميعَ الكتب المنزَّلة، وبالإلحاد ما يشمَل تغييرَ اللفظ وتبديلَه، لكن ذلك بالنسبة إلى غير القرآن؛ لأنَّه لم يقَعْ فيه كما وقع في غيره من الكتب على ما هو الشائع.

وعن أبي مالك تفسيرُ الآيات بالأدلَّة، فالإلحادُ في شأنها الطعنُ في دلالتها

---

(١) هي قراءة أبي جعفر كما في النشر ٢/ ٣٢٥.
(٢) معاني القرآن ٤/ ٣٨٨.
(٣) في (م): مبالغة، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٨/ ١٥.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٤١.
(٥) قرأ بالأولى الجمهور، وبالثانية حمزة، كما في التيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢٧٣.
(٦) الأثران في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٤١، والنكت والعيون ٥/ ١٨٤.

والإعراضُ عنها، وهذا أوفقُ بقوله تعالى: (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ)، (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً) إلخ. وما تقدَّم أوفق بقوله سبحانه: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ) وبما بعد، والآية على تفسير مجاهد أوفقُ وأوفقُ.

والمراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ مُجازاتهم على الإلحاد، فالآيةُ وعيدٌ لهم وتهديدٌ، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تنبيهٌ على كيفية الجزاء، وكان الظاهر أن يقابَل الإلقاءُ في النار بدخول الجنة لكنه عُدِل عنه إلى ما في النظم الجليل اعتناءً بشأن المؤمنين؛ لأنَّ الأمنَ من العذاب أعمُّ وأهمُّ، ولذا عُبِّر في الأول بالإلقاء الدالِّ على القسر والقهر، وفيه بالإتيان الدالِّ على أنَّه بالاختيار والرضا مع الأمن، ودخولُ الجنة لا ينفي أن يبدِّل حالَهم من بعد خوفهم أمناً.

وجُوِّز أن تكونَ الآية من الاحتباك بتقدير: مَن يأتي خائفاً ويُلقَى في النار ومَن يأتي آمناً ويدخل الجنةَ. فحُذِف من الأول مقابلُ الثاني، ومن الثاني مقابلُ الأول. وفيه بعدٌ.

والآية كما قال ابن بحر عامَّةٌ في كلِّ كافرٍ ومؤمنٍ[(١)].

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس (أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ) أبو جهل، (أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا) أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه[(٢)].

وأخرج عبد الرزاق وغيره عن بشير بن تميم: (أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ) أبو جهل، و(مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا) عمار، والآية نزلت فيهما[(٣)].

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل وعثمان بن عفان. وقيل: فيه وفي عمر.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٨٥، والبحر ٧/ ٥٠٠.
(٢) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٦.
(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٨٨، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٦.

وقيل: فيه وفي حمزة. وقال الكلبي: فيه وفي الرسول ﷺ[1].

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ تهديدٌ شديدٌ للكَفَرَة الملحِدين الذين يُلقَون في النار، وليس المقصودُ حقيقةَ الأمر. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ من غيرِ أن يمضِيَ عليهم زمانٌ يتأمَّلون فيه ويتفكَّرون ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ لا يوجَدُ نظيرُه، أو: منيعٌ لا تتأتَّى معارضتُه. وأصلُ العزِّ حالةٌ مانعةٌ للإنسان عن أن يُغلَب، وإطلاقُه على عدم النظير مجازٌ مشهورٌ، وكذا كونه منيعاً.

وقيل: غالبٌ للكُتُب؛ لنَسْخِه إياها.

وعن ابن عباس: أي: كريمٌ على الله تعالى[2].

والجملة حاليَّةٌ مفيدةٌ لغايةِ شناعةِ الكفر به.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ صفةٌ أخرى لـ «كتاب»، وما بين يديه وما خلفه كنايةٌ عن جميع الجهات، كالصباح والمساء كنايةٌ عن الزمان كلِّه، أي: لا يتطرَّقُ إليه الباطلُ من جميع جهاته، وفيه تمثيلٌ لتشبيهه بشخصٍ حُمِي من جميع جهاته، فلا يمكِّن أعداءه الوصول إليه لأنه في حِصْنٍ حصينٍ من حماية الحقِّ المبين.

وجوِّز أن يكون المعنى: لا يأتيه الباطلُ من جهةِ ما أَخْبَر به من الأخبار الماضية والأمورِ الآتية.

وقيل: الباطل بمعنى المُبطِل، كـ: وارِس بمعنى: مُورِس، أو هو مصدرٌ كالعافية[3]، بمعنى مُبطِلٍ أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ - أي: محمودٍ على ما أَسْدَى من

---

(١) الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٨٥، وزاد المسير ٧/ ٢٦١، والبحر ٧/ ٥٠٠.
(٢) البحر ٧/ ٥٠١.
(٣) في الأصل: كالعاقبة.

النعم التي منها تنزيلُ الكتاب، وحمدُه سبحانه بلسان الحال متحقِّقٌ من كلِّ مُنعَمٍ عليه، وبلسان القال متحقِّقٌ ممن وُفِّق لذلك ـ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو صفةٌ أخرى لـ «كتاب» مفيدةٌ لفخامته الإضافية، كما أنَّ الصفتَيْنِ السابقتَيْنِ مفيدتان لفخامته الذاتية.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ﴾ إلخ، اعتراضٌ عند مَن لا يجوِّز تقديمَ غير الصريح من الصفات على الصريح، كلٌّ ذلك لتأكيدِ بطلان الكفر بالقرآن.

واختلفوا في خبر «إنَّ» أمذكورٌ هو أو محذوفٌ؟ فقيل: مذكورٌ، وهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وهو قول أبي عمرو ابن العلاء في حكايةٍ جرت بينه وبين بلال بن أبي بُردة، سئل بلالٌ في مجلسه عن هذا فقال: لم أجد لها نفاذاً. فقال له أبو عمرو: إنه منك لقريب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الآية: ٤٤][(١)]. وذهب إليه الحوفي. وهو في مكان بعيد.

وذهب أبو حيان إلى أنه قولُه تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بحذفِ العائد، أي: الكافرون [به] وحاله أنَّه كتابٌ عزيزٌ، لا يأتيه الباطلُ منهم، أي: متى راموا إبطالاً له لم يصلوا إليه. أو بجعل «أل» في «الباطل» عوضاً من الضمير قول[(٢)] الكوفيين، أي: لا يأتيه باطلهم. أو قولُه سبحانه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ إلخ، والعائدُ أيضاً محذوفٌ، أي: ما يقال لك في شأنهم ـ أو فيهم ـ إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، أي: أوحي إليك في شأنِ هؤلاء المكذِّبين لك ولِما جئت به مثلُ ما أُوحِي إلى مَن قبلَك من الرسل، وهو أنهم عاقبتُهم سيئةٌ في الدنيا بالهلاك، وفي الآخرة بالعذاب الدائم. ثم قال: وغاية ما في هذين التوجيهين حذفُ الضمير العائد، وهو موجودٌ نحو: السمنُ مَنَوان بدِرْهَم، والبرُّ كُرٌّ بدرهم، أي: منه.

ونَقَل عن بعض نُحاة الكوفة أنَّ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾، وتَعقَّبه بأنه لا يُتعقَّل[(٣)].

---

(١) نقله في المحرر الوجيز ٥/ ١٩ عن النقاش، وهو في البحر ٧/ ٥٠٠.

(٢) قبلها في (م): به، وهو خطأ.

(٣) البحر ٧/ ٥٠٠-٥٠١، وما سلف بين حاصرتين منه.

وقيل: هو محذوفٌ، وخبرُ «إنَّ» يُحذَف لفهم المعنى.

وسأل عيسى بنُ عُمر عَمْرو بنَ عبيد عن ذلك، فقال عمرو: معناه في التفسير: إنَّ الذين كفروا بالذكر لَمَّا جاءهم كَفَرُوا به وإنه لكتاب عزيز. فقال عيسى: أَجَدْتَ يا أبا عثمان[١].

وقال قوم: تقديره: معاندون، أو: هالكون.

وقال الكسائي: قد سدَّ مسدَّه ما تقدَّم من الكلام قبلُ، وهو قوله تعالى: «أفمن يلقى»[٢]، وكأنه يُريد أنَّه محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه، فيمكن أن يقدَّر: يُخلَّدون في النار.

ويقدَّر الخبر على ما استحسنه ابن عطية[٣] بعد «حميد».

وفي «الكشاف» أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ بدلٌ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾[٤]. قال في «البحر»: ولم يتعرَّض بصريح الكلام إلى خبر «إنَّ» أمذكورٌ هو أو محذوفٌ، لكنه قد يُدَّعى أنه أشار إلى ذلك، فإنَّ المحكومَ به على المبدَل منه هو المحكومُ به على البدل، فيكون التقديرُ: إنَّ الذين يُلحِدون في آياتنا، إن الذين كفروا بالذكر لَمَّا جاءهم لا يَخْفون علينا[٥].

وفي «الكشف»: فائدةُ هذا الإبدال التنبيهُ على أنَّه ما يَحمِلهم على الإلحاد إلا مجرَّدُ الكفر، وفيه إمدادُ التحذير من وجوه: ما ذُكر من التنبيه، ووضْعُ «الذكر» موضعَ الضمير الراجع إلى الآيات زيادةَ تحسيرٍ لهم، وما في «لَمَّا» من معنى مفاجأتهم بالكفر أول ما جاء، وما فيه من التعظيم لشأن الآيات والتمهيدِ للحديث عن كمال الكتاب الدالِّ على سوء مغبَّةِ المُلحِد فيه.

ثم الأشبهُ أن يحمَلَ كلامُ «الكشاف» على أنَّ الخبرَ محذوفٌ لدلالة السابق

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٩، والبحر ٧/ ٥٠٠.
(٢) البحر ٧/ ٥٠٠.
(٣) في المحرر الوجيز ٥/ ١٩.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٥٥.
(٥) البحر ٧/ ٥٠٠.

عليه، ولزيادة التهويل لذهاب الوهم كلَّ مذهبٍ، وتكون الجملةُ بدلاً عن الجملة؛ لأنَّ البدلَ بتكرير العامل إنَّما جُوِّز في المجرور لشدَّة الاتصال. انتهى، فتأمَّل، والله تعالى الموفِّق.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ إلى آخره، تسليةٌ له ﷺ عمَّا يُصيبه من أذيَّة الكفار من طعنهم في كتابه وغير ذلك، فالقائلُ الكفارُ، أي: ما يقول كفَّارُ قومِك في شأنك وشأنِ ما أُنزِل إليك من القرآن ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ﴾ أي: مثل ما قد قال الكَفَرة السابقون ﴿لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكلام المؤذي المتضمِّن للطعن فيما أنزل إليهم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ قيل: تعليلٌ لِما يُستفاد من السياق من الأمر بالصبر، كأنه قيل: ما يقال لك إلا نحوُ ما قيل لأمثالك من الرسل، فاصبِرْ كما صبروا، إنَّ ربَّك لذو مغفرةٍ عظيمةٍ لأوليائه، وذو عقابٍ أليم لأعدائهم، فينصُرُ أولياءَه وينتقم من أعدائهم.

أو جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنه قيل: ثم ماذا؟ فقيل: إنَّ ربَّك لذو مغفرة لأوليائه، وذو عقابٍ أليم لأعدائهم، وقد نصر لذلك مَن قبلك مِن الرسل عليهم السلام وانتقم من أعدائهم، وسيفعل ذلك بك وبأعدائك أيضاً.

وجُوِّز أن يكونَ القائلُ هو الله تعالى والمعنى على ما سمعتَ عن أبي حيان، وقد جَعَل هذه الجملةَ خبرَ «إنَّ»، أي: ما يُوحِي الله تعالى إليك في شأن الكفَّار المؤذِين لك إلَّا مثلَ ما أَوْحَى للرسل من قبلك في شأن الكفار المؤذِين لهم، من أنَّ عاقبتَهم سيئةٌ في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالعذاب الأليم، فاصبِرْ إنَّ ربك.. إلخ[1].

وقد يُجعَل «إنَّ ربك» إلخ، باعتبار مضمونه تفسيراً للمقول، فحاصل المعنى: ما أُوحِي إليك وإلى الرسل إلا وعدُ المؤمنين بالمغفرة والكافرين بالعقوبة، دونَ العكس الذي يزعمه الكَفَرة بلسان حالهم، فاصبر فسيُنجز الله تعالى وعدَه.

---

(١) البحر ٧/ ٥٠٠-٥٠١.

وقيل: المقول هو الشرائع، أي: ما يُوحَى إليك إلا مثلُ ما أُوحِي إلى الرسل من الشرائع دونَ أمور الدنيا، وقد جرت عادةُ الكفار بتكذيب ذلك، فما عليك إذا كَذَّب كفارُ قومك، واصبر على ذلك. وجُعِل «إنَّ ربك» إلخ تعليلاً لِما يُستفاد من السياق أيضاً. وجَعَله بعضُهم تفسيراً لذلك المقول، أعني: الشرائعَ؛ لأنها الأوامرُ والنواهي الإلهية، وهي مجمَلة فيه، وفيه من البعد ما فيه.

وإلى نحو ما ذكرناه أولاً ذهب قتادة؛ أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: (مَّا يُقَالُ لَكَ) من التكذيب (إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)، فكما كُذِّبوا كُذِّبْتَ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبِرْ على أذى قومك لك[1].

واختيار «أَلِيم» على: شَديد ـ مع أنه أنسبُ بالفواصل ـ للإيماء إلى أنَّ نظمَ القرآن ليس كالأسجاع والخُطَب، وأنَّ حسنَه ذاتيٌّ والنظرُ فيه إلى المعاني دون الألفاظ، ويُحسِّن وصفَ العقاب به هنا كونُ العقاب جزاءَ التكذيب المؤلم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ جوابٌ لقولهم: هلّا أُنزِل القرآنُ بلغة العجم، والضميرُ لـ «الذكر».

﴿لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: بُيِّنَت لنا وأُوضِحت بلسانٍ نَفْقَهُه.

وقولُه تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ ـ بهمزتين: الأولى للاستفهام، والثانية همزةُ «أعجَمِيّ»، والجمهورُ يقرؤون بهمزة استفهام بعدها مدَّةٌ هي همزةُ «أعجمي»[2] ـ إنكارٌ مقرِّرٌ للتحضيض، أي: أكلامٌ أعجميٌّ ورسولٌ أو مرسلٌ [إليه][3] عربيٌّ؟! وحاصلُه: لو أنه نَزَل كما يريدون لأنكروا أيضاً وقالوا: ما لَكَ وللعُجْمَة. أو: ما لَنا وللعُجْمة.

والأعجميُّ أصله: أعجم، بلا ياء، ومعناه مَن لا يُفهَم كلامُه للُكْنَتِه أو لغَرَابةِ لغتِه، وزيدت الياءُ للمبالغة كما في أحمريٍّ ودَوَّارِيٍّ، وأطلِق على كلامه مجازاً لكنه

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٣٦٧، وهو في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٤٦.
(٢) ينظر ما ورد فيها من وجوه في التيسير ص١٩٣، والنشر ١/ ٣٦٦، والبحر ٧/ ٥٠٢.
(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ١٦، ولا يتم المعنى بدونها، وينظر ما سيرد قريباً من كلام المصنف على كلمة «عربي».

اشتهر حتى التحَقَ بالحقيقة، وزعم صاحبُ «اللوامح» أنَّ الياء فيه بمنزلة ياءِ «كُرسي» وهو وهمٌ.

وقيل: «عَرَبيٌّ» - على احتمالِ أن يكونَ المرادُ: ومرسلٌ إليه عربيٌّ - مع أنَّ المرسلَ إليهم جمعٌ، فحقُّه أن يقال: عربيةٌ أو عربِيُّون؛ لأنَّ المرادَ بيانُ التنافي والتنافُر بين الكلام وبين المخاطَب به، لا بيانُ كونِ المخاطَب به واحداً أو جمعاً، ومن حقِّ البليغ أن يجرِّد الكلامَ للدلالة على ما ساقه له، ولا يأتي بزائدٍ عليه إلا ما يشدُّ من عَضُده، فإذا رأى لباساً طويلاً على امرأةٍ قصيرةٍ قال: اللباسُ طويلٌ واللابسُ قصيرٌ. دونَ: واللابسةُ قصيرةٌ؛ لأنَّ الكلامَ لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته، فلو قال لخُيِّلَ أنَّ لذلك مدخلاً فيما سيق له الكلام، وهذا أصلٌ من الأصول يجب أن يكونَ على ذكْرٍ، ويبنى عليه الحذفُ والإثباتُ والتقييدُ والإطلاقُ إلى غير ذلك في كلام الله تعالى وكلِّ كلامٍ بليغٍ.

وقرأ عمرو بن ميمون: «أعَجَمِيٌّ» بهمزة استفهام وبفتح العين[1]، أي: أكلامٌ منسوبٌ إلى العَجَم. وهم مَن عدا العرب، وقد يخصُّ بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضاً، فبين الأعجميِّ والعَجَمِيِّ عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ.

والظاهرُ أنَّ المراد بالعربيِّ مقابلُ الأعجميِّ في القراءة المشهورة، ومقابلُه العَجَميُّ في القراءة الأخرى.

وقرأ الحسن وأبو الأسود والجحدريُّ وسلام والضحَّاك وابن عباس وابن عامر بخلاف عنهما «أَعْجَمِيٌّ» بلا استفهام وبسكون العين[2]، على أنَّ الكلامَ إخبارٌ بأنَّ القرآن أعجميٌّ، والمتكلِّم به أو المخاطَب عربيٌّ.

وجوِّز أن يكونَ المرادُ: هلا فُصِّلَتْ آياتُه فجُعل بعضُها أعجميًّا لإفهام العَجَم، وبعضُها عربيًّا لإفهام العرب. ورُوي هذا عن ابن جبير[3]، فالكلامُ بتقدير مبتدأ

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠، والبحر ٧/ ٥٠٢.
(٢) البحر ٧/ ٥٠٢، وهي رواية هشام عن ابن عامر كما في التيسير ص١٩٣، والنشر ١/ ٣٦٦. .
(٣) البحر ٧/ ٥٠٢.

هو: بعضٌ، أي: بعضُها أعجميٌّ وبعضُها عربيٌّ، والمقصودُ من الجملة الشرطية إبطالُ مقترَحِهم ـ وهو كونه بلغة العجم ـ باستلزامه المحذورَ، وهو فواتُ الغَرَض منه، إذ لا معنى لإنزاله أعجميًّا على مَن لا يفهمه، أو الدلالةُ على أنَّهم لا ينفكُّون عن التعنُّت، فإذا وُجِدت الأعجميةُ طلبوا أمراً آخَرَ، وهكذا.

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى﴾ يَهدي إلى الحقِّ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لِما في الصدور من شكٍّ وشبهةٍ.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأٌ، خبرُه: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾، على أنَّ «في آذانهم» خبرٌ مقدَّمٌ، و«وَقْرٌ» مبتدأٌ، أي: مستقِرٌّ في آذانهم وَقْرٌ، أي: صَمَمٌ منه فلا يسمعونه. وقيل: خبرُ الموصول «في آذانِهم»، و«وَقْرٌ» فاعلُ الظرف.

وقيل: «وَقْر» خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه هو، أي: القرآنُ، و«في آذانِهم» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من «وَقْر». ورجّح بأنه أوفَقُ بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾.

ومَن جوَّز العطفَ على معمولَي عاملين عَطَفَ الموصولُ على الموصول الأول، و«وَقْر» على «هُدى»، على معنى: هو للذين آمنوا هُدًى وللذين لا يؤمنون وَقْرٌ، وقولُه تعالى: «في آذانهم» ذُكِرَ بياناً لمحلِّ الوقر، أو حالٌ من الضمير في الظرف الراجع إلى «وَقْر». والأول أبلغ، ويَرِد عليه بعد الإغماض عمَّا في جواز العطف المذكور من الخلاف أنَّ فيه تنافراً بجعل القرآن نفسَ الوقر لاسيَّما وقد ذُكر محلُّه وليس كجعله نفسَ العمى؛ لأنه يُقابِل جعلَه نفسَ الهدى، فرُوعِي الطِّباقُ ولذا لم يبيَّن محلُّه، وأما الوَقْر إذا جُعِل نفسَ الكتاب فهو كالدخيل ولم يطابق ما وَرَد في سائر المواضع من التنزيل، وهذا يَرِد على الوجه الذي قبله أيضاً.

وجوَّز ابن الحاجب في «الأمالي» أن يكونَ «وَهُوَ عَلَيْهِم عَمًى» مرتبطاً بقوله سبحانه: (هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ) والتقديرُ: هو للذين آمنوا هدًى وعلى الذين لا يؤمنون عمًى، وقولُه تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ) جملةٌ معترضةٌ على الدعاء.

وتعقِّب بأنَّ هذا وإن جاز من جهة الإعراب لكنه من جهة المعاني مردودٌ لفكِّ النظم.

وزعم بعضُهم أنَّ ضميرَ «هُو» عائدٌ على الوقر، وهو من العمى كما ترى.

وأولى الأوجُه ما تقدَّم، وجيء بـ «على» في «عليهم عمًى» للدلالة على استيلاء العمى عليهم، ولم يُذكَر حالُ القلب لِمَا عُلِم من التعريض في قوله سبحانه: «للذين آمنوا هدى وشفاء» بأنه لغيرهم مرضٌ فظيعٌ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول الثاني باعتبار اتصافِه بما في حيِّز صلتِه، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببُعدِ منزلته في الشرِّ مع ما فيه من كمال المناسَبة للنداء من مكانٍ بعيدٍ، أي: أولئك البعداءُ الموصوفون بما ذُكر من التَّصَامِّ عن الحقِّ الذي يسمعونه والتعامي عن الآيات التي يُشاهِدونها.

﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٤٤﴾ تمثيلٌ لهم في عدم فهمهم وانتفاعهم بما دُعُوا له بمن يُنادَى من مسافةٍ نائيةٍ فهو يَسمَع الصوتَ ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه، أو لا يسمَعُ ولا يفهم، فقد حَكَى أهلُ اللغة أنه يقال للذي لا يَفهَم: أنتَ تُنادَى مِن بعيدٍ، وإرادةُ هذا المعنى مرويةٌ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه ومجاهد[1].

وعن الضحاك أنَّ الكلامَ على حقيقته، وأنهم يومَ القيامةُ ينادَون بكُفرهم وقبيح أعمالهم بأقبح أسمائهم من بُعدٍ حتى يسمَع ذلك أهلُ الموقف، فتعظُمُ السمعةُ عليهم وتحلُّ المصائبُ بهم.

وحاصلُ الردِّ أنه هادٍ للمؤمنين شافٍ لِما في صدورهم كافٍ في دفع الشُّبَه، فلذا وَرَدَ بلسانهم مُعجِزاً بَيِّناً في نفسه مُبيِّناً لغيره، والذين لا يؤمنون بمعزلٍ عن الانتفاع به على أيِّ حالٍ جاءهم.

وقرأ ابن عمر وابن عباس وابن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وابن هرمز: «عَمٍ» بكسر الميم وتنوينه[2].

---

(١) البحر ٧/ ٥٠٣. والكلام وما بعده منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٢١، والبحر ٧/ ٥٠٣.

وقال يعقوب القارئ وأبو حاتم: لا ندري نوَّنوا أم فَتَحوا الياء على أنه فعلٌ ماضٍ. وبغير تنوين رواها عمرو بن دينار وسليمان بن قتيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما[1].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لبيانِ أنَّ الاختلافَ في شأنِ الكتب عادةٌ قديمةٌ للأمم غيرُ مختصٍّ بقومك، على منهاجِ قوله تعالى: (مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ) على ما سمعتَ أولاً، أي: وبالله لقد آتينا موسى التوراةَ فاختُلِف فيها، فمِن مصدِّقٍ لها ومُكذِّب، وهكذا حالُ قومك في شأنِ ما آتيناك من القرآن، فمن مؤمنٍ به وكافر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في حقِّ أمتك المكذِّبة، وهي العِدَةُ بتأخير عذابهم وفَصْلِ ما بينهم وبينَ المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١].

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالِ المكذِّبين كما فُعِل بمكذِّبي الأمم السالفة.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفارُ قومك ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن ﴿مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ مُوجِبٍ للقلَقِ والاضطراب، وقيل: الضميرُ الثاني للتوراة والأولُ لليهود بقرينة السياق، لأنهم الذين اختلفوا في كتاب موسى عليه السلام. وليس بشيء.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بأنْ آمَنَ بالكتب وعَمِل بمُوجَبها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فلنفسه يَعمَله، أو: فلنفسه نفعُه لا لغيره، و«مَن» يصحُّ فيها الشرطيةُ والموصوليةُ، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرُّه، لا على الغير.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، مبنيٌّ على تنزيلِ ترك إثابة المُحسِن بعمله أو إثابة الغير بعمله، وتنزيلِ التعذيب بغير إساءة أو بإساءةِ غيره = منزلةَ الظلم الذي يستحيل صدورُه عنه تعالى، ولم يَحْتَجْ بعضُهم إلى التنزيل، وقد مرَّ الكلام في ذلك وفي توجيه النفي والمبالغة، فتذكَّر.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إذا سُئل عنها قيل: الله تعالى يعلم، أو: لا يعلمها

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١، والبحر ٧/ ٥٠٣.

إلا الله عز وجل. فالمقصود من هذا الكلام إرشادُ المؤمنين في التفصِّي[1] عن هذا السؤال، وكلا الجوابين يلزمه اختصاصُ علمِها به تعالى، أما الثاني فظاهرٌ، وأما الأول فلأنك إذا سُئلتَ عن مسألةٍ وقلت: فلانٌ يعلمه. كان فيه نفْي عنك كنايةً، وتنبيهٌ على أنَّ فلاناً أهلٌ أن يُسأَل عنه دونك.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: من أوعيتها، جمعُ «كِمٍّ» بالكسر، وهو وعاءُ الثمرة كجفِّ الطلعة، مِن كَمَّه: إذا ستره. وقد يُضَمُّ، وكُمُّ القميص بالضم.

وقرأ الحسن في روايةٍ والأعمشُ وطلحة وغيرُ واحد من السبعة: «من ثَمَرَةٍ»[2]، على إرادة الجنسِ والجمعِ لاختلاف الأنواع.

وقرئ: «من ثَمَرَاتٍ من أكْمامِهِنَّ» بجَمْع الضمير أيضاً[3].

و«ما» نافية، و«مِنْ» الأولى مزيدة لتأكيد الاستغراق والنصِّ عليه، و«من» الثانية ابتدائيةٌ، وكذا «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ أي: حَمْلَها، وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ في موضع الحال، والباءُ للملابسة أو المصاحبة، والاستثناءُ من أعمِّ الأحوال، أي: ما يحدُثُ شيءٌ من خروج ثمرةٍ ولا حَمْلِ حامل ولا وَضْعِ واضعٍ مُلابَساً أو مُصاحَباً بشيء من الأشياء إلا مصاحَباً أو ملابَساً بعلمه المحيط سبحانه واقعاً حسبَ تعلُّقِه به.

وجُوِّز في «ما»[4] الأولى أن تكون موصولةً معطوفةً على «الساعة» أي: إليه يُرَدُّ علم الساعة وعلمُ ما تَخرُج، و«من» الأولى بيانيةٌ، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، و«من» الثانية على حالها، وتأنيثُ «تخرج» باعتبار المعنى لأنَّ «ما» بمعنى ثمرة. قيل: ولا يجوز في «ما» الثانية ذلك لمكان الاستثناء المفرَّغ، وأجازه

---

(١) أي: التخلص. القاموس (فصى).

(٢) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم، وقرأ بها يعقوب وخلف من العشرة. التيسير ص١٩٤، والبحر ٧/ ٥٠٤، والنشر ٢/ ٣٦٧.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٥٦.

(٤) قوله: ما، ليس في (م).

بعضُهم، ويكفي لصحة التفريغ النفيُ في قوله تعالى: (وَلَا تَضَعُ)، وجملةُ «لا تَضَع» إما حالٌ أو معطوفةٌ على جملة «إليه يُرَد» إلخ.

ولا يخفى عليك أنَّ المتبادِرَ في الموضعين النفيُ، ثم إنَّ الاستثناءَ متعلِّقٌ بالكلِّ، وتبيينُ القدر المشترك بين الأفعال الثلاثة وجَعْلُه الأصلَ في تعلُّقِ المفرَّغ كما سمعتَ لإظهار المعنى والإيماءِ إلى أنه لا يُحتاج في مثله إلى حذفٍ من الأولَين، أعني: «ما تَخْرُج» و«ما تحمِل»، وهو قريبٌ من أسلوب:

وقـد حِـيْـلَ بـيـنَ الـعَـيْـرِ والـنـزَوَان[1]

لأنَّ: خَرَجَ زيدٌ، معناه: حَدَثَ خروجُه، كما أنَّ معنى ذلك فعلُ الحيلولة، وليس ذاك من باب الاستثناء المتعقِّب لجملٍ والخلافِ في متعلَّقه في شيء؛ لأنَّ ذلك في غير المفرَّغ، فقد ذكر النحويون في باب التنازُع وإن كان منفيّاً بـ «إلا» فالحذف ليس إلا، ولو كان منه لم يكن من المختلَف فيه؛ لاتحاد الجمل في المقصود وظهورِ قرينة الرجوع إلى الكلِّ.

والكلامُ على ما في «شرح التأويلات»[2] متصلٌ بأمر الساعة والبعث، فإنَّه لا يَعلَم هذا كلَّه إلا اللهُ تعالى، فذكر هذه الأمور لمناسبتها لعلم الساعة، وأنَّ الكلَّ إيجادٌ بعد العدم بقدرته عز وجل فيكون كالبرهان على الحشر.

وجوِّز أن يكون متصلاً بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ إلخ الآية: ٣٧]، وبقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾ إلخ [الآية: ٣٩]، فالمعنى: من آيات ألوهيته تعالى وقدرته أن تخرُجَ الثمراتُ وتَحمِل الحواملُ وتَضَع حسبَ علمه جلَّ وعلا، والأولُ أقرب.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي: بزعمكم كما نصَّ عليه بقوله سبحانه: ﴿أَيْنَ

(١) سلف ١/ ٢٣٣.
(٢) لمحمد بن عبد الحميد السمرقندي، علاء الدين أبي بكر، الفقيه الحنفي، المتوفى سنة (٥٥٢هـ)، شرح فيه كتاب التأويلات لأبي منصور الماتريدي في أربع مجلدات. هدية العارفين ٢/ ٩٢.

شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢] وفيه تهكُّمٌ بهم وتقريعٌ لهم. و«يوم» منصوبٌ بـ «اذكر»، أو ظرفٌ لمضمَرٍ مؤخَّر قد تُرِك إيذاناً بقصور البيان عنه، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة:١٠٩] وضمير «يُنادِيهم» عامٌّ في كلِّ مَن عَبَدَ غيرَ الله تعالى فيندرج فيه عَبَدَةُ الأوثان.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: أولئك المنادَون ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: أعلَمْناك، والمرادُ بالإعلام هنا الإخبارُ؛ لأنَّه تعالى عالِمٌ فلا يصحُّ إعلامُه بما هو سبحانه عالمٌ به، بخلاف الإخبار فإنه يكون للعالم، فكأنه قيل: أخبرناك.

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: بأنه ليس منا أحدٌ يشهَدُ لهم بالشركة، فالجملة في محلِّ نصبِ مفعولِ «آذَنَّاك» وقد عُلِّق عنها، وفي تعليق بابِ أَعْلَمَ وأنبأ خلافٌ، والصحيحُ أنَّه مسموعٌ في الفصيح.

و«شهيد» فعيلٌ من الشهادة، ونفْيُ الشهادة كنايةٌ عن التبرُّؤ منهم لأنَّ الكَفَرَة يوم القيامة أنكروا عبادةَ غيره تعالى مرَّةً وأقرُّوا بها وتبرَّؤُوا عنها مرَّةً أخرى.

وفسره السمرقنديُّ(١) بالإنكار لعبادتهم غيرَ الله تعالى وشركهم كذباً منهم وافتراءً، كقوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣].

وظاهرُ «آذنَّاك» يقتضي سبقَ الإيذان في جوابِ «أين شُرَكائي»، وإنما سُئلوا ثانياً حتى أجابوا بأنه قد سبق الجوابُ؛ لأنه توبيخٌ، وفي إعادة التوبيخ من تأكيد أمرِ الجناية وتقبيح حالِ مَن يرتكبها ما لا يخفى.

واستظهر أبو حيان(٢) أنَّ المراد إحداثُ إيذانٍ لا إخبارٌ عن إيذانٍ سابقٍ، على نحو: طلَّقتُ، وأمثالِه.

وجُوِّز أن يقال: إنه إخبارٌ بإعلامٍ سابقٍ، وذلك الإعلامُ السابقُ ما عَلِمه تعالى من بواطنهم يومَ القيامة أنهم لم يَبقوا على الشرك وعلى تلك الشهادة، وكأنه إعلامٌ

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٤٠٤، وهو علاء الدين السمرقندي صاحب شرح التأويلات.
(٢) في البحر ٧/ ٥٠٤.

منهم بلسان الحال، وهذا لا يقتضي سبقَ سؤالٍ ولا جوابٍ، وفيه حسنُ أدبٍ، كأنهم يقولون: أنت أعلم به. ثم يأخذون في الجواب.

قال في «الكشف»: وهذا الوجهُ هو المختارُ لاشتماله على النكتة المذكورة، وما في الآخَرَيْنِ من سوء الأدب.

ويحتمل أن يكون المعنى: آذنَّاك بأنه ليس منا أحدٌ يشاهِدُهم، فـ «شهيد» من الشهود بمعنى الحضور والمشاهدة، ونفْي مشاهدتِهم: الظاهرُ أنه على الحقيقة وذلك في موقفٍ، وجَعْلُ بعضِ العَبَدة مقرِّين بمعبوداتهم في آخر، فلا تنافيَ بينهما، وقيل: هو كنايةٌ عن نفي أن يكونَ له تعالى شريكٌ، نحو قولك: لانرى لك مِثْلاً. تريد: لا مِثْلَ لك لنراه، والكلام في «آذنَّاك» على ما آذنَّاك.

وقيل: ضميرُ «قالوا» للشركاء، أي: قال الشركاء: ليس منا أحدٌ يشهَدُ لهم بأنهم كانوا مُحقِّين، فـ «شهيد» من الشهادة لا غير، والمراد التبرُّؤُ منهم. وفيه تفكيكُ الضمائر.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ ـ على ما قيل ـ أنَّ شركاءهم الذين كانوا يدعُونهم من قبلُ ويرجُون نفعَهم غابوا عنهم، على أنَّ الضلال على معناه الحقيقيِّ، وهو الذي يقابل الوجدانَ. أو أنَّ شركاءَهم لم ينفعوهم بشيء، على أنَّ الضلال مجازٌ عن عدم النفع.

و«ما» اسم موصول عبارةٌ عن الشركاء، ويحسن جمعُ مَن يعقِلُ ومَن لا يعقل في التعبير بـ «ما» في مثل هذا المقام.

وجُوِّز أن تكونَ «ما» عبارةً عن القول الذي كانوا يقولونه في شأن الشركاء من أنهم آلهةٌ وشركاءُ لله سبحانه وتعالى، والمعنى: نَسُوا ما كانوا يقولونه في شأن شركائهم من نسبة الألوهية إليهم. ولك أن تجعلَها مصدريةً.

والجملةُ يحتمل أن تكون حالاً وأن تكون اعتراضاً، وذكر بعض الأجلة أنه يتعيَّن الأخيرُ على القول بأنَّ ضميرَ «قالوا» للشركاء، وكونِ الضلال مجازاً عن عدم النفع. فتدبَّر.

﴿وَظَنُّواْ﴾ أي: أيقَنُوا، كما قال السديُّ وغيره؛ لأنه لا احتمالَ لغيره هنا. والظنُّ يكون بمعنى العلم كثيراً.

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي: مهرَبٍ، والظاهرُ أنَّ الجملة في محلِّ نصبٍ سادَّةٌ مسدَّ مفعولي «ظَنَّ»، وهي معلَّقةٌ عنها بحرف النفي.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله تعالى: (وَظَنُّواْ)، والظنُّ على ظاهره، أي: وترجَّح عندهم أنَّ قولَهم: (مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ) منجاةٌ لهم أو أمرٌ يُمَوِّهُون به، والجملة بعدُ مستأنَفةٌ، أي: لا يكون لهم منجًى أو موضعُ روغان.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ لا يملُّ ولا يفتُرُ ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ من طلبِ السعة في النعمة وأسباب المعيشة، و«دُعَاء» مصدرٌ مضافٌ للمفعول، وفاعلُه محذوفٌ، أي: من دعاء الخير هو.

وقرأ عبد الله: «مِن دعاءٍ بالخير» بباءٍ داخلة على «الخير»[(١)].

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضيقة والعُسر ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ أي: فهو يَؤُوسٌ قَنُوطٌ من فضل الله تعالى ورحمته، وهذا صفةُ الكافر، والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في عتبة بن ربيعة[(٢)].

وقد بُولِغ في يأسه من جهة الصيغة لأنَّ فعولاً من صيغ المبالغة، ومن جهة التكرار المعنويِّ فإنَّ القنوطَ أن يظهر عليه أثرُ اليأس فيتضاءل وينكسر، ولمَّا كان أثره الدالُّ عليه لا يفارقه كان في ذكره ذكرُه ثانياً بطريقٍ أبلغ، وقدَّم اليأسَ لأنه صفةُ القلب، وهو أن يقطع رجاءَه من الخير، وهي المؤثِّرة فيما يظهر على الصورة من التضاؤُل والانكسار.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: لئن فرَّجْنا عنه بصحةٍ بعد مرضٍ، أو سعةٍ بعد ضيق، أو غير ذلك ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أي: حقِّي أستحِقُّه لِمَا لي

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٣، والكشاف ٣/ ٤٥٧، والبحر ٧/ ٥٠٤.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٢، والبحر ٧/ ٥٠٤.

من الفضل والعمل، لا تفضُّلٌ من الله عز وجل، فاللام للاستحقاق. أو: هو لي دائماً لا يزول، فاللامُ للملك وهو يُشعِر بالدوام، ولعلَّ الأول أقربُ.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: تقوم فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ على تقدير قيامها ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لَلْحالةَ الحسنى من الكرامة، والتأكيدُ بالقسم هنا ليس لقيام الساعة بل لكونه مَجزيّاً بالحسنى، لجزمه باستحقاقه للكرامة، لاعتقاده أنَّ ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له، وأنَّ نعمَ الآخرة كذلك، فلا تنافي بين «إنْ» التي الأصلُ فيها أن تُستعمَل لغير المتيقَّن، وبين التأكيد بالقسم و«إنَّ» واللام وتقديمِ الظرفين وصيغةِ التفضيل.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لنُعلِمنَّهم بحقيقةِ أعمالهم، ولنبصِّرنَّهم بعكس ما اعتقدوا فيها، فيظهر لهم أنهم مستحِقُّون للإهانة لا الكرامة كما توهَّموا ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ لا يمكنهم التفصِّي عنه لشدَّته، فهو كوثاقٍ غليظٍ لا يمكن قطعه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تكَبَّر واختال، على أنَّ الجانبَ بمعنى الناحية والمكان، ثم نُزِّل مكانُ الشيء وجهتُه كنايةً منزلةَ الشيء نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن:٤٦] وقول الشاعر:

ذَعَرتُ به القطا ونفيتُ عنه مقامَ الذئب كالرجُل اللَّعِينِ(١)

وقولُ الكتَّابِ: حضرةُ فلان، ومجلسُه العالي، وكتبتُ إلى جهته وإلى جانبه العزيز. يريدون نفسَه وذاتَه، فكأنه قيل: نأى بنفسه، ثم كَنَى بذَهَبَ بنفسه عن التكبُّر والخيلاء.

وجُوِّز أن يرادَ بـ «جانبه» عِطْفُه، ويكون عبارةً عن الانحراف والازورار، كما قالوا: ثَنَى عِطْفَه وتولَّى برُكنه. والأول مشتمل على كنايتين: وَضْع الجانب موضعَ النفس، والتعبيرِ عن التكبرُّ البالغ بنحوِ: ذهب بنفسه، وهذا على واحدةٍ على ما في «الكشف».

---

(١) البيت للشماخ بن ضرار الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٢١.

وجعل بعضُهم الجانبَ والجنبَ حقيقةً ـ كالعِطْفِ ـ في الجارحة وأحدِ شقَّي البدن، مجازاً في الجهة، فلا تغفل.

وعن أبي عبيدة: نأى بجانبه: أي: نَهَضَ به[1]. وهو عبارةٌ عن التكبر كـ : شَمَخ بأنفه، والباءُ للتعدية.

ثم إنَّ التعبيرَ عن ذات الشخص بنحو المقام والمجلسِ كثيراً ما يكون لقصد التعظيم والاحتشام عن التصريح بالاسم، وهم[2] يتركون التصريحَ به عند إرادة تعظيمه، قال زهير[3]:

فَعَرِّضْ إذا ما جئتَ بالبانِ والحِمَى وإيـاكَ أن تَـنْـسَـى فـتَـذْكُـرَ زَيْـنَـبَـا

سيكفيك مِن ذاك المسمَّى إشارةٌ فـدَعْـه مَـصـونـاً بـالـجـلالِ مُـحَـجَّـبَـا

ومن هنا قال الطيبي: إنَّ ما هنا واردٌ على التهكم.

وقُرئ: «ونِئى» بإمالة الألف وكسر النون للإتباع[4]، وَ«نَاءَ» على القلب[5] كما قالوا: رَاءَ، في: رَأَى.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ أي: كثيرٍ مستمرٍّ، مستعارٌ مما له عرضٌ متَّسعٌ، وأصلُه مما يوصَف به الأجسام وهو أقصرُ الامتدادَيْن، وأطولُهما هو الطول، ويُفهَم في العرف من العريض الاتساعُ، وصيغةُ المبالغة وتنوين التكثير يُقوِّيان ذلك، ووصف الدعاء بما ذُكر يستلزم عظمَ الطول أيضاً لأنه لا بدَّ أن يكون أزيدَ من العرض، وإلا لم يكن طولاً، والاستعارةُ في كلٍّ من الدعاء والعريضِ جائزةٌ، ولا يخفى كيفية إجرائها.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٤٠٥، وجاء في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٩٨: «أعرض ونأى بجانبه» أي: تباعد عنِّي.

(٢) في (م): وهو.

(٣) هو زهير بن محمد المهلبي المعروف ببهاء الدين، والشعر في ديوانه ص٢٩. وفيه: جُزتَ، بدل: جئتَ.

(٤) هي قراءة الكسائي وخلف. ورواية عن حمزة، كما في التيسير ص١٤١، والنشر ٢/ ٤٤.

(٥) وهي قراءة ابن ذكوان وأبي جعفر كما في التيسير ص١٤١، والنشر ٢/ ٤٤.

وذكر بعضُ الأجلَّة أنَّ الآيات قد تضمَّنت ضربين من طغيان جنس الإنسان:

فالأول: في بيان شدَّة حرصه على الجمع وشدَّة جزعه على الفقد، والتعريض بتظليم ربِّه سبحانه في قوله: «هذا لي» مُدمِجاً فيه سوءَ اعتقاده في المعاد المستجلِب لتلك المساوي كلها.

والثاني: في بيان طيشه المتولِّد عنه إعجابُه واستكبارُه عند وجود النعمة، واستكانتُه عند فقدها.

وقد ضمِّن في ذلك ذمُّه بشغله بالنعمة عن المنعم في الحالتين، أما في الأول فظاهر، وأما في الثاني فلأنَّ التضرُّعَ جزعاً على الفقد ليس رجوعاً إلى المنعم، بل تأسُّفٌ على الفقد المُشغِل عن المنعم كلَّ الإشغال، وذَكَر أنَّ في ذكر الوصفين ما يدلُّ على أنه عديمُ النُّهية، أي: العقل، ضعيفُ المنة، أي: القوة، فإنَّ اليأسَ والقنوطَ ينافيان الدعاءَ العريضَ، وأنه عندَ ذلك كالغريق المتمسِّك بكلِّ شيء. انتهى.

ومنه يُعلَم جوابُ ما قيل: كونه يدعو دعاءً عريضاً متكرِّراً ينافي وصفَه بأنه يؤوسٌ قنوطٌ؛ لأنَّ الدعاء فرعُ الطمع والرجاء، وقد اعتُبِر في القنوط ظهورُ أثر اليأس، فظهورُ مَا يدلُّ على الرجاء يأباه.

وأجاب آخرون بأنه يجوز أن يقال: الحال الثاني شأنُ بعضٍ غيرِ البعض الذي حُكي عنه اليأسُ والقنوط. أو شأنُ الكلِّ في بعض الأوقات.

واستدلَّ بعضُهم بقوله تعالى: (فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) على أنَّ الإيجازَ غيرُ الاختصار، وفسَّره لهذه الآية بحذف تكرير الكلام مع اتحاد المعنى، والإيجازَ بحذفِ طوله وهو الإطنابُ. وهو استدلالٌ بما لا يدلُّ؛ إذ ليس فيها حذفُ ذلك العرض فضلاً عن تسميته.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ إلخ رجوعٌ لإلزام الطاعنين والملحِدين، وختمٌ للسورة بما يلتفت لفتَ بدئها، وهو من الكلام المنصف، وفيه حثٌّ على التأمُّل واستدراجٌ للإقرار مع ما فيه من سحر البيان، وحديثُ الساعة وَقَعَ في البين تتميماً للوعيد وتنبيهاً على

ما هم فيه من الضلال البعيد. كذا قيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى بسطُ الكلام في ذلك.

ومعنى «أرأيتم»: أخبِرُوني ﴿إِن كَانَ﴾ أي: القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مع تعاضُدِ مُوجِبات الإيمان به، و«ثم» ـ كما قال النيسابوري[1] ـ للتراخي الرتبي.

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾ أي: خلافٍ ﴿بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ غايةَ البُعد عن الحقِّ، والمراد ممن هو في شقاقٍ المخاطَبون، ووُضِع الظاهرُ موضعَ ضميرهم شرحاً لحالهم بالصلة وتعليلاً لمزيد ضلالهم.

وجملةُ «مَن أضلُّ» على ما قال ابن الشيخ سادَّةٌ مسدَّ مفعولَي «رَأَيتُم». وفي «البحر»[2]: المفعولُ الأولُ محذوفٌ تقديرُه: أَرَأَيتُم أنفسَكُم، والثاني هو جملةُ الاستفهام.

وأيًّاما كان فجوابُ الشرط محذوفٌ، قال النيسابوري: تقديرُه مثلاً: فمَنْ أَضَلُّ منكُم[3]. وقيل: إن كان من عند الله ثم كفرتم به فأخبروني مَن أضلُّ منكم. ولعلَّه الأظهر.

وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ﴾ إلخ مرتبطٌ على ما اختاره صاحب «الكشاف»[4] بقوله تعالى: (قُلْ أَرَءَيْتُمْ) إلخ على وجه التتميم والإرشاد إلى ما ضُمِّن من الحثِّ على النظر؛ ليؤدِّي إلى المقصود، فيُهْدَوا إلى إعجازه ويؤمنوا بما جاء به، ويعملوا بمقتضاه ويفوزوا كلَّ الفوز، وفسَّر الآياتِ بما أجرى الله تعالى على يدَي نبيه ﷺ وعلى أيدي خلفائه وأصحابه[5] ﷺ من الفتوحات الدالَّة على قوة الإسلام وأهله، ووهنِ الباطل وحِزبه، والآفاقُ: النواحي، الواحد أُفُقٌ

(١) في غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٥/ ١٤.
(٢) ٧/ ٥٠٥.
(٣) غرائب القرآن ٢٥/ ١٤.
(٤) ٣/ ٤٥٨.
(٥) في (م): وأصحابهم.

بضمتين، وأَفَقٌ بفتحتين، أي: سنريهم آياتنا في النواحي عموماً من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، وفيه أنَّ هذه الإراءةَ كائنةٌ لا محالةَ حقٌّ لا يحوم حولَها ريبة.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في بلاد العرب خصوصاً، وهو من عطفِ «جبريل» على «ملائكته»(١)، وفي العدول عنها إلى المنزَّل ما لا يخفى من تمكينِ ذلك النصر، وتحقيقِ دلالته على حقِّيَّةِ المطلوب إثباتُه، وإظهارِ أنَّ كونَه آيةً بالنسبة إلى الأنفس وإن كان كونُه فتحاً بالنسبة إلى الأرض والبلدة.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ يظهر ﴿لَهُمْ أَنَّهُ﴾ أي: القرآنُ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يدَيه ولا من خلفه، فهو الحقُّ كلُّه من عند الله تعالى المطَّلِعِ على كلِّ غيبٍ وشهادةٍ، فلهذا نُصِر حاملوه وكانوا مُحقِّين، وفي التعريف من الفخامة ما لا يخفى جلالةً وقدراً.

وفيما ذُكر إشارةٌ إلى أنه تعالى لا يزال يُنشِئ فتحاً بعد فتحٍ وآيةً غِبَّ آيةٍ إلى أن يُظهِرَه على الدين كلِّه ولو كره المشركون، فانظر إلى هذه الآية الجامعة كيف دلَّت على حقِّية القرآن على وجهٍ تضمَّنَ حقِّيَّةَ أهلِه ونصرتَهم على المخالفين، وأعظِم بذلك تسلِّياً عما أشعرتْ به الآية السابقة من انهماكهم في الباطل إلى حدٍّ يقرب من اليأس.

وقيل: الضمير للرسول ﷺ، أو الدين، أو التوحيدِ. ولعلَّ الأولَ أولى.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ استئنافٌ واردٌ لتوبيخهم على إنكارهم تحقُّقَ الإراءة. والهمزة للإنكار، والواوُ على أحد الرأيَيْن للعطف على مقدَّرٍ دخلت عليه الهمزةُ يقتضيه المقام، والباءُ مزيدةٌ للتأكيد، و«ربك» فاعلُ «كفى»، وزيادةُ الباء في فاعلها هو القولُ المشهورُ المرضيُّ للنحاة، وتُزاد في فاعلِ فعلِ التعجُّب أيضاً، نحو: أَحْسِن بزيد، فإنَّ «أَحْسِن» فعلٌ ماضٍ جيء به على صيغة الأمر، والباءُ زائدةٌ و«زيد» فاعلٌ عند جماعةٍ من النحويين، ولاتكاد تزاد في غيرهما، وقوله:

---

(١) يعني في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾الآية [البقرة: ٩٨].

ألـم يـأتـيـك والأنـبـاءُ تـنـمـي بـمـا لاقَـتْ لَـبُـونُ بـنـي زِيَـادِ[١]

شاذٌّ قبيحٌ على ما قال الشهاب[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ بدلٌ من الفاعل بدلَ اشتمالٍ، وقيل: هو بتقدير حرف الجرِّ، أي: أو لم يكفهم ربُّك بأنه.. إلخ، وما للنحويين في مثل هذا التركيب من الكلام شهيرٌ، أي: أنكروا إراءةَ ذلك الدالَّةَ على حقِّية القرآن، ولم يكفهم دليلاً أنه عزَّ وجل مُطَّلعٌ على كلِّ شيء عالمٌ به، ومن ذلك حالُهم وحالُك الموجِبان حكمةَ نَصْرِك عليهم وخذلانهم، وكأنَّ ذلك لظهوره نُزِّل منزلةَ المعلوم لهم.

وفي «الكشف» أي: أو لم يكفهم أنَّ ربَّك سبحانه مطَّلعٌ على كلِّ شيء يستوي عنده غيبُ الأشياء وشهادتها، على معنى: أو لم يكفهم هذه الإراءةُ دليلاً قاطعاً. ولمَّا كان ما وعده غيباً عنهم ـ كيف وقد نَزَل وهو في حالِ ضَعفٍ وقلةٍ يُقاسُون ما يُقاسُون من مشركي مكة ـ قيل: أو لم يكفهم اطِّلَاعُ مَن هذا الكتابُ الحقُّ من عنده على كلِّ غيبٍ وشهادةٍ دليلاً على كينونة الإراءة وإحضارِ ذلك الغيب عندَهم، إذ لا غيبَ بالنسبة إليه تعالى.

وفي العدول إلى هذه العبارة فائدتان:

إحداهما: تحقيقُ إنجازِ ذلك الموعود كأنه مشاهَدٌ بذكرِ الدليل القاطع على الوقوع.

والثانية: الدلالةُ على أنَّ هذه الإراءةَ الآنَ وهو في ضعفٍ وقلَّة قد تمَّت بالنسبة إلى إثبات حقِّية القرآن، لأنَّ مَن عَلِمَ أنه تعالى على كلِّ شيء شهيدٌ، وعَلِم أنَّ القرآنَ مُعجِزٌ من عنده، عَلِم أنَّ جميعَ ما فيه حقٌّ وصدقٌ، فعَلِم أنَّ تلك النصرةَ كائنةٌ.

والحاصل أنه كما يُستدلُّ من تلك الآيات على حقِّية أهله تارةً يُستدلُّ من إعجازِ

---

(١) سلف ١٢/ ٢٢٩.

(٢) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٧/ ٤٠٧.

القرآن على حقِّية تلك الآيات وقوعاً، وحقِّيةِ أهلِ الإسلام أخرى، فأُدِّي المعنيان في عبارةٍ جامعةٍ تُؤدِّي الغرضين على وجهٍ لا يمكن أتمُّ منه. انتهى.

ولا يخفى أنَّ في الآية عليه نوعاً من الإلغاز.

وقيل: أي: ألم يُغنِهم عن إراءة الآيات الموعودة المبيِّنةِ لحقِّية القرآن، ولم يكفهم في ذلك أنَّه تعالى شهيدٌ على جميع الأشياء وقد أخبر بأنَّه من عنده عز وجل. وهو كما ترى.

وقيل: المعنى: أو لم يكْفِك أنَّه تعالى على كلِّ شيءٍ شهيد محقِّقٌ له، فيحقِّقُ أمرَك بإظهار الآيات الموعودة كما حقَّق سائرَ الأشياء الموعودة.

وتُعقِّب بأنه ـ مع إيهامه ما لا يليق بجلالة منصبه ﷺ من التردُّد فيما ذُكر من تحقُّق الموعود ـ لا يلائم قولَه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شكٍّ عظيمٍ من ذلك بالبعث لاستبعادهم إعادةَ الموتى بعد تبدُّدِ أجزائهم وتفرُّقِ أعضائهم، فلا يلتفتون إلى أدلَّةٍ ما ينفعهم عند لقائه تعالى كحقِّية القرآن = لأنَّه[1] صريحٌ في أنَّ عدمَ الكفاية معتبرٌ بالنسبة إليهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ لبيانِ ما يترتَّبُ على تلك المرية بناءً على أنَّ المعنى: إنَّه تعالى عالِمٌ بجميعِ الأشياء على أكمل وجهٍ، فلا يخفى عليه جلَّ وعلا خافيةٌ منهم، فيجازيهم جلَّ جلالُه على كفرهم ومريتهم لا محالةَ.

وقيل: دفعٌ لمريتهم وشكِّهم في البعث وإعادةِ ما تفرَّقَ واختلط مما يتوهَّمون عدمَ إمكانِ تمييزِهِ، أي: إنه تعالى عالم بجُمَلِ الأشياء وتفاصيلها، مقتدرٌ عليها لا يفوته شيءٌ منها، فهو سبحانه يعلم الأجزاءَ ويَقدِر على البعث.

هذا وما ذكر في تفسيرِ «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» في معنى ما رُوي عن الحسن ومجاهد والسدي وأبي المنهال وجماعةٍ قالوا: إنَّ قولَه سبحانه: (سَنُرِيهِمْ) إلخ وعيدٌ للكفار بما يفتحه الله تعالى على رسوله ﷺ من الأقطار حولَ

---

(١) قوله: لأنه. . .، متعلق بقوله: لا يلائم. . . .

مكة، وفي غير ذلك من الأرض كخيبر، وأراد بقوله تعالى: (وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ) فتح مكة[١].

وقال الضحاك وقتادة: «في الآفاق» ما أصابَ الأممَ المكذِّبةَ في أقطار الأرض قديماً، و«في أنفسهم» ما كان يومَ بدر[٢]، فإنَّ في ذلك دلالةً على نصرةِ مَن جاء بالحقِّ وكُذِّب من الأنبياء عليهم السلام، فيدلُّ على حقِّية النبيِّ ﷺ وما جاء به من القرآن.

وأُورِد عليه أنَّ «سَنُرِيهم» يأبى كونَ ما في الآفاق ما أصابَ الأُممَ المكذِّبةَ؛ لكونه مرئيّاً لهم قبلُ.

وقال عطاء وابن زيد: إنَّ معنى «سنريهم آياتنا في الآفاق»: أي: أقطارِ السماء والأرض من الشمس والقمر وسائر الكواكب والرياح والجبال الشامخة وغير ذلك، و«في أنفسهم» من لطيفِ الصنعة وبديع الحكمة[٣].

وضعَّف ذلك الإمامُ بنحو ما سمعتَ آنفاً[٤]. وأجيب بأنَّ القومَ وإن كانوا قد رأوا تلك الآيات إلا أنَّ العجائبَ التي أودعها الله تعالى فيها مما لا نهايةَ لها، فهو سبحانه يُطلعهم عليها زماناً قريباً حالاً فحالاً، فإنَّ كلَّ أحدٍ يُشاهِد بِنيةَ الإنسان، إلا أنَّ العجائب المودَعة في تركيبها لا تُحصَى، وأكثر الناس غافلون عنها، فمن حمل على التفكُّر فيها بالقوارع التنزيلية والتنبيهات الإلهية كلَّما ازداد تفكُّراً ازداد وقوفاً، فصحَّ معنى الاستقبال.

واختار ذلك صاحب «الكشف» تبعاً لغيره، وبيَّن وجهَ مناسبة الآيات لِمَا قبلها

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٦١، وزاد المسير ٧/ ٢٦٧، والبحر ٧/ ٥٠٥.

(٢) زاد المسير ٧/ ٢٦٧، والبحر ٧/ ٥٠٥.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٦٢، والبحر ٧/ ٥٠٥.

(٤) يعني أنَّ قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يقتضي أنه تعالى لم يطلعهم على الآيات إلى الآن بل سيطلعهم عليها بعد ذلك، مع أن الآيات موجودة في العالم قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك، فتعَذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه. التفسير الكبير ٢٧/ ١٣٩، وقد ذكر الإمام الرازي هذا التضعيف، ثم أجاب عنه بما سيأتي.

عليه، وجعل ضميرَ «أنه الحقُّ» لله عز وجل، فقال: إنَّ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إشعاراً بأنَّ كونَه من عنده سبحانه ينافي الكفرَ به، وأنَّهم مسلِّمون ذلك لكن يطعنون في كونه من عنده عز وجل، ولذا جعل نحو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤] في جواب قولهم ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ [النحل: ٢٤] أنه إعراضٌ عن كونه منزَّلاً، وجوابٌ بأنه أساطيرُ لا منزَّلٌ، فأريد أن يبيِّن إثباتُ كونه حقّاً من عنده تعالى على سبيل الكناية؛ ليكونَ أوصل إلى الغرض ويناسبَ ما بُني عليه الكلامُ من سلوك طريق الإنصاف، فقيل: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ أي: سيُري الله تعالى، والالتفاتُ للدلالة على زيادة الاختصاص وتحقيقِ ثبوت الإراءة، ثم قيل: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: أنَّ الله جلَّ جلالُه هو الحقُّ من كلِّ وجهٍ ذاتاً وصفةً وقولاً وفعلاً، وما سواه باطلٌ من كلِّ وجهٍ، لا حقَّ إلا هو سبحانه، وإذا تبيَّن لهم حقِّيتُه عزَّ شأنه من كلِّ وجهٍ يلزم ثبوتُ القرآن وكونُه من عنده تعالى بالضرورة، ثم قيل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي: أو لم يكفك شهودُه تعالى على كلِّ شيء، فمنه سبحانه تشهَدُ كلَّ شيء، لا من آياتِ الآفاق والأنفس تشهده تعالى، فالأول استدلالٌ بالأثر على المؤثِّر، والثاني من المؤثِّر على الأثر، وهذا هو اللِّمِّيُّ اليقيني.

وفي قوله تعالى: ﴿بِرَبِّكَ﴾ مضافاً إلى ضميره ﷺ وإيثارِه على: أو لم يكف به، إشعارٌ بأنه ﷺ وأتباعَه من كلِّ العارفين هم الذين يكفيهم شهودُه على كلِّ شيء دليلاً، وأنَّ ذلك لهم نفسُ عنايتِه تعالى وتربيتِه من دون مدخل لتعلُّمهم فيه بخلاف الأول.

ثم قيل: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ فلهذا لا يكفيهم أنه تعالى على كلِّ شيء شهيدٌ لأنه لا شهودَ لهم ليشُدُّوا شهودَه تعالى، فهو شاملٌ لفريقَي الأبرار والكفَّار، أما الكفَّار فلأنهم في شكٍّ في الأصل، وأما الأبرار فلأنَّهم في شكٍّ من الشهود، أي: لا علمَ لهم به إلّا إيماناً متمحِّضاً عن التقليد. وإطلاقُ المرية للتغليب، ولا يخفى حسنُ موقعه.

ثم قيل: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ تتميماً لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ لأنَّ من أحاط بكلِّ شيء علماً وقدرةً لم يتخلَّف شيءٌ عن شهوده، فمن شَهِدَه شَهِدَ

كلَّ شيء، فهذا هو الوجه في تعميم الآيات من غير تخصيصٍ لها بالفتوح، وهو أنسبُ من قول الحسن ومجاهد، وأجْرَى على قواعد الصوفية وعلماءِ الأصول رحمة الله تعالى عليهم أجمعين. انتهى.

وقد أَبْعَدَ عليه الرحمة المغزى وتكلَّف ما تكلَّف.

ونقل العارف الجامي قدِّس سره في «نفحاته»[١] عن القاشاني[٢] أنَّ قوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ) إلخ يدلُّ على وحدة الوجود. وقد رأيتُ في بعض كتب القوم الاستدلالَ به على ذلك، وجَعْلَ ضميرِ «أنه الحقُّ» إلى المرئيِّ، وتفسيرَ«الحقّ» بالله عز وجل، ومن هذا ونحوه قال الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه: سبحانَ من أظهر الأشياءَ وهو عينُها[٣]. وهذه الوحدةُ هي التي حارت فيها الأفهامُ وخرجت لعدم تحقيقِ أمرها رِقابٌ من رِبْقة الإسلام، وللشيخ إبراهيم الكوراني قدِّس سرُّه النوراني عدةُ رسائل في تحقيق الحقِّ فيها وتشييد مبانيها، نسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا بصحيح الشهود، ويحفظنا بجوده عما عَلِقَ بأذهان الملاحدة من وحدة الوجود.

وقرئ: «إنَّه على كلِّ شيءٍ شهيد» بكسر همزة «إنَّ»[٤]، على إضمار القول.

وقرأ السلمي والحسن: «في مُريْة» بضم الميم[٥]، وهي لغةٌ فيها كالكسر، ونحوُها: خُفْية، بضم الخاء وكسرها، والكسر أشهر لمناسبة الياء.

* * *

---

(١) نفحات الأنس من حضرات القدس لنور الدين عبد الرحمن بن أحمد الجامي، المتوفى سنة (٨٩٨هـ). كتبه بالفارسية، وعربه الشيخ تاج الدين زكريا العثماني النقشبندي المتوفى بمكة سنة (١٠٠٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١٩٦٧-١٩٦٨.

(٢) هو الشيخ كمال الدين أبو الغنائم عبد الرزاق بن جمال الدين الكاشي السمرقندي، المتوفى سنة (٨٨٧هـ)، له تأويلات القرآن المعروف بتأويلات الكاشاني، وهو تفسير بالتأويل على اصطلاح التصوف. كشف الظنون ١/ ٣٣٦.

(٣) الفتوحات المكية ٢/ ٤٥٩.

(٤) البحر ٧/ ٥٠٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٥٨، والبحر ٧/ ٥٠٦.

ومن كلمات القوم في الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ أجرَ المؤمن الغير العامل ممنونٌ، أي: منقوصٌ بالنسبة إلى أجر المؤمن العامل، وأجرُ هذا العامل على الأعمال البدنية كالصلاة والحج الجنةُ، وعلى الأعمال القلبية كالرضا والتوكُّلِ الشوقُ والمحبةُ وصدقُ الطلب، وعلى الأعمال الروحانية كالتوجُّه إلى الله تعالى كشفُ الأسرار وشهودُ المعاني والاستئناسُ بالله تعالى والاستيحاشُ من الخلق والكرامات، وعلى أعمال الأسرار كالإعراض عن السِّوَى بالكلية دوامُ التجلِّي.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض البشرية ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾يومَي الهوى والطبيعة ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ من الهوى والطبيعة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ العقولَ الإنسانية ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بالحواسِّ الخمس ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ من القوى البشرية.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ سماءِ القلب ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ هيولى إلهيةٌ.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ هي الأطوار السبعة للقلب: فالأول: محلُّ الوسوسة. والثاني: مَظهرُ الهواجس. والثالث: معدنُ الرؤية، ويسمَّى الفؤاد. والرابع: منبعُ الحكمة، ويسمَّى القلب. والخامسُ: مرآة الغيب، ويسمى السويداء. والسادس: مثوى المحبة، ويسمَّى الشَّغاف. والسابع: موردُ التجلِّي ومركز الأسرار ومهبط الأنوار، ويسمَّى الحَبَّة.

﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ يومَي الروح الإنساني والإلهام.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي أنوار الأذكار والطاعات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يومَ خوطبوا بـ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على إقرارهم لمَّا خرجوا إلى عالم الصُّوَر، ولم ينحرفوا عن ذلك كالمنافقين والكافرين، وذُكر أنَّ الاستقامةَ متفاوتةٌ، فاستقامةُ العوامِّ في الظاهر بالأوامر والنواهي، وفي الباطن بالإيمان. واستقامةُ الخواصِّ في الظاهر بالرغبة عن الدنيا، وفي الباطن بالرغبة عن الجنان شوقاً إلى الرحمن. واستقامةُ خواصِّ

الخواصّ في الظاهر برعاية حقوق المبايعة على وفْق المتابعة[١] بتسليم النفس والمال، وفي الباطن بالفناء والبقاء.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ تنزُّلاً متفاوِتاً حسب تفاوُتِ مراتبهم. وعن بعض أئمة أهل البيت: إنَّ الملائكةَ لتُزاحِمنا بالرُّكَب، أو ما هذا معناه.

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ هي أيضاً متفاوتةٌ، فمنهم من يبشَّر بالجنة المعروفة، ومنهم من يبشَّر بجنة الوصال ورؤيةِ المَلِك المتعال.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ بتركِ ما سواه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لئلا يخالِفَ حالُه قالَه ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحُكمِه تعالى الراضين بقضائه وقَدَره، وفيه إشارةٌ إلى صفات الشيخ المرشِد وما ينبغي أن يكونَ عليه، ويحقُّ أن يقال في كثير من المتصدِّين للإرشاد في هذا الزمان المتلاطمة أمواجُه بالفساد:

خَلَتِ الرِّقاعُ من الرِّخاخ ... وتَفَرْزَنَت فيها البيادِقْ
وتصاهَلَت عُرجُ الحميرِ ... وذاك من عُدم السوابِقْ[٢]

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ وهي التوجُّه إلى الله تعالى بصدق الطلب وخلوصِ المحبة ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ وهي طلبُ السِّوَى، والرضا بالدون.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهي طلبُ الله تعالى طلبَ ما سواه سبحانه ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ وهو النفس الأمارة بالسوء ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ لِتَزَكِّي النفس عن صفاتها الذميمة، وانفطامِها عن المخالَفات القبيحة.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ لتميلَ إلى ما يهوى ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ وارجعْ إليه سبحانه، لئلا يؤثِّرَ فيك نَزْغُه، وفيه إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي الأمنُ من المكر والغفلةُ عن الله عز وجل.

---

(١) قوله: على وفق المتابعة. سقط من (م).
(٢) البيتان في النجوم الزاهرة ١٥/ ٣٥٤ دون نسبة، وفيه: فقلت، بدل: وذاك. والرخاخ: جمع الرخ، وهو من أدوات الشطرنج، والفِرزان: الوزير من قطع الشطرنج. القاموس المحيط (رخخ) و(فرزن).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ فيه إشارةٌ إلى سُوء المنكِرين على الأولياء، فإنَّهم من آيات الله تعالى، والإنكارُ من الإلحاد، نسأل الله تعالى العفوَ والعافية.

﴿قُلۡ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ على حسب مراتبهم، فمنهم مَن يَهدِيه إلى شهود المَلِك العلَّام، فعن الصادق على آبائه وعليه السلام: لقد تجلَّى اللهُ تعالى في كتابِه لعباده، ولكن لا يُبصرون.

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الخلقَ لا يرون الآياتِ إلاَّ بإراءته عز وجل، وهي كشف الحُجُب ليظهر أنَّ الأعيانَ ما شَمَّت رائحةَ الوجود ولا تشمُّه أبداً، وأنه عزَّ وجل هو الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطن، كان الله ولا شيء معه، وهو سبحانه الآن على ما عليه كان، وإليه الإشارة عندهم بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ ومن هنا قال الشيخ الأكبر قدِّس سره:

ما آدمُ في الكون ما إبليسُ ... ما مُلكُ سليمانَ وما بلقيسُ
الكلُّ إشارةٌ وأنتَ المعنى ... يا مَن هو للقلوب مَغْنَاطيسُ(١)

وأكثرُ كلامه قدِّس سرُّه من هذا القبيل، بل هو أمُّ وحدةِ الوجود وأبُوها وابنُها وأخوها، وإياكَ أن تقولَ كما قال ذلك الأجلُّ، حتى تصل بتوفيق الله تعالى إلى ما إليه وصل، والله عز وجل الهادي إلى سواء السبيل.

تمَّ الكلامُ على السورة، والحمد لله على جزيل نعمائه، والصلاة والسلام على رسوله محمد مظهرِ أسمائه، وعلى آله وأصحابه وسائر أتباعه وأحبائه، صلاةً وسلاماً باقيَيْنِ إلى يوم لقائه.

---

(١) سلفا ١٣/ ٤٩١.

(٤٢) سُورة الشّورى مكيّة
وآياتها ثلاث وخمسون

سورة الشوري من السور المكية التي تهتم ببناء العقيدة الإسلامية ، وتعالج أصول الإيمان التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون وهي الاعتقاد بوحدانية الله جل وعلا ، والإيمان بالملائكة والرسل ، والبعثِ والجزاء ، وغير ذلك من فروع الإيمان ، التي هي من أهداف السور المكية لبناء الشخصية المسلمة على أساسٍ متين من العقيدة الصافية ، والإيمان الصادق الراسخ ، والمحورُ الذي تدور عليه السورة هو موضوع « الوحي والرسالة » حتى ليكاد يقال إنه المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة الكريمة .

سميت السورة الكريمة « سورةً الشوري » تنويهاً بمكانة الشوري في الإسلام ، وأهميتها في حياة الجماعة المسلمة ، وتنبيهاً للمؤمنين على أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الفاضل الأمثل « منهج الشوري » الذي هو أساسٌ في تكوين الدولة الإسلامية كما قال تعالى في صفة المؤمنين « وأمرهم شوري بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

تبتدىء السورة الكريمة بتقرير مصدر الوحي ومصدر الرسالة وهو ربُّ العالمين الذي بعث الأنبياء والمرسلين لهداية البشرية وإخراجها من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور المعرفة والإيمان ، وتوجه الأنظار إلى قضية الإيمان بالمالك الواحد الديان ﴿حٓمٓ . عٓسٓقٓ . كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك اللهُ العزيز الحكيم . له ما في السموات وما

في الأرضْ وهو العليُّ وهو العظيم﴾ وتستطرد السورة إلى ذكر حال بعض المشركين في الجحود بالله ورسله حتى إن السموات ليكدن يتفطَّرن من هول تلك الفعلة الشنيعة التي جاء بها بعض المنحرفين من الإشراك بالله وتكذيب رسله بعد وضوح الآيات والدلائل ﴿ تكادُ السمواتُ يتفطَّرن من فوقهن ، والملائكةُ يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم والذين اتخذوا من دونه أولياء ، اللهُ حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل﴾ .

وتعود السورة الكريمة إلى الحديث عن الحقيقة الأولى « حقيقةِ الوحي والرسالة » فتقرر أن القرآن هدايةُ الله للبشرية ، أنزله بالحق على خاتم المرسلين لينذر الخلائق أجمعين – أهلَ مكة ومن حولهم من أمم الأرض – ذلك اليوم الرهيب الذي يجتمع فيه الخلق للحساب وينقسمون إلى قسمين : سعداء ، وأشقياء ، وأن الظالمين ليس لهم ناصر ولا شافع ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ، لتُنذر أُمَّ القرى ومن حولها ، وتُنذر يومَ الجمع لا ريب فيه ، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير . ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكنْ يُدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾ ثم تقرر السورةُ « وحدةَ الرسالة » بعدما قررت في البدء « وحدة المصدر » وتُبيّن أن الدين واحد ، أرسل الله به جميع المرسلين ، وأن البشرية بحاجة إلى قيادة جديدة بعدما آل أمرها الى الفوضى والارتياب في أمر الدين ولذلك بعث الله خاتم الرسل بهذه الرسالة الجديدة رسالة الإسلام ﴿ شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أَنْ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه مَن يشاء ويهدي إليه من يُنيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمةٌ سبقت من ربك إلى أجلٍ

مسمًّى لقُضيَ بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شكٍ منه مريب﴾ ثم يأتي التعقيب المباشر لتحميل الرسول ﷺ أعباء الرسالة الجديدة لقيادة ركب الإنسانية إلى طريق السعادة وشاطىء الإيمان ﴿فلذلك فادع واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتاب ، وأُمرتُ لأعدل بينكم . اللهُ ربنا ور بكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ .

ثم تبدأ جولة جديدة مع المكذبين بالقرآن والمنكرين للقيامة ، فلقد أوغلوا في الضلالة وأبعدوا حتى استعجلوا في قيام الساعة ، بينما المؤمنون خائفون لأنها موعد القضاء العدل ، والقول الفصل ﴿اللهُ الذي أنزل الكتاب بالحقِ والميزان ، وما يدريك لعلَّ الساعة قريب ؟ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألآ إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ .

وتنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، وعن آثار القدرة الإلهية في خلق هذا الكون العجيب ، فما المطر إلا آثار رحمته ، وما هذه المخلوقات إلا آثار قدرته ، وما هذه السفن الضخمة التي تمخر عُباب البحار ، كأنها جبال شاهقة تحمل فوق ظهرها الأرزاق والمتاع والبشر ، إلا آثارُ صنعِه الباهر وحكمته الجليلة ﴿وهو الذي يُنزِّل الغيثَ من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الوليُّ الحميد . ومن آياته خلق السمواتِ والأرض وما بثَّ فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . وما أصابكم من مصيبة فبما كسبتْ أيديكم ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . ومن آياته الجوارِ في البحر كالأعلام . إن يشأْ يسكنِ الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآياتٍ لكل صبَّار شكور .

أو يوبقهُنَّ بما كسبوا ويَعْفُ عن كثير . ويعلمَ الذين يجادلون في آياتِنا ما لهم من محيص﴾ . وتذكِّرا لآيات الكريمة الناس بالاستجابة لدعوة الله وطاعة رسله قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العظيم الذي لا ملجأ يقيهم من عذاب الله ، ولا شافع لهم ولا نصير ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله ، ما لكم من ملجأٍ يومئذٍ وما لكم من نكير . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ .

وفي ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى « حقيقة الوحي والرسالة » لتكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده ﴿وما كان لبشرٍ أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم﴾ ثم تختم السورة الكريمة بذكر حقيقة الرسالة المحمدية وأنها رحمة وهداية من الله ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراطِ اللهِ الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ وهكذا يتناسق السياق في البدء والختام .

سورة الشورى

[٨٠٤] أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾[١] قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين قد دخل الناس في دين الله أفواجاً فاخرجوا من بين أظهرنا فعلام تقيمون بين أظهرنا فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾[٢] الآية.

[٨٠٥] ك.. وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾[٣] الآية قال هم اليهود والنصارى قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم.

[٨٠٦] وأخرج الطبراني بسند فيه ضعف عن ابن عباس قال: قالت الأنصار لو جمعنا لرسول الله ﷺ مالاً فأنزل الله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[٤] فقال بعضهم إنما قال هذا ليقاتل عن أهل بيته وينصرهم فأنزل الله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾[٥] فعرض لهم التوبة إلى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾[٦].

[٨٠٧] وأخرج الحاكم وصححه عن علي قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾[٧] وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا فتمنوا الدنيا وأخرج الطبراني عن عمرو بن حريث[٨] مثله.

* * *

---

[٨٠٤] (١) سورة النصر: الآية (١).
(٢) سورة الشورى: الآية (١٦).
[٨٠٥] (٣) سورة الشورى: الآية (١٦).
[٨٠٦] (٤) سورة الشورى: الآية (٢٣).
(٥) سورة الشورى: الآية (٢٤).
(٦) سورة الشورى: الآية (٢٥).
[٨٠٧] (٧) سورة الشورى: الآية (٢٧).
(٨) ما أشار إليه رواه أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص (٢٩٤) من طريق حيوة قال أخبرني أبو هانيء الخولاني أنه سمع عمرو بن حريث يقول: إنما نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة وذلك أنهم قالوا لو أن لنا الدنيا فتمنوا الدنيا.

سورة الشورى

خمسون وثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾

اعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح معلوم، إلا أن في هذا الموضع سؤالين زائدين: الأول: أن يقال: إن هذه السور السبعة مصدرة بقوله: ﴿حمٓ﴾ فما السبب في اختصاص هذه السورة بمزيد ﴿عٓسٓقٓ﴾ ؟ الثاني: أنهم أجمعوا على أنه لا يفصل بين ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم: ١] وهاهنا يُفصل بين ﴿حمٓ﴾ وبين ﴿عٓسٓقٓ﴾ فما السبب فيه؟

واعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح يضيق، وفَتْح باب المجازفات مما لا سبيل إليه، فالأَوْلى أن يفوض علمها إلى الله. وقرأ ابن عباس وابن مسعود: (حم، عسق).

أما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ فالكاف معناه المثل وذا للإشارة إلى شيء سبق ذكره، فيكون المعنى: (مثل حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك) وعند هذا حصل قولان:

الأول: نُقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (لاَ نَبِيَّ صَاحِبَ كِتَابٍ إِلاَّ وَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ حم عسق) وهذا عندي بعيد.

الثاني: أن يكون المعنى: مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله إليك وإلى الذين من قبلك. وهذه المماثلة المراد منها المماثلة في الدعوة إلى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب في التوجه إلى الآخرة، والذي يؤكد هذا أنا بينا في سورة ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ أن أولها في تقرير التوحيد، وأوسطها في تقرير النبوة، وآخرها في تقرير المعاد، ولما تمم الكلام في تقرير هذه المطالب الثلاثة قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] يعني أن المقصود من إنزال جميع الكتب الإلهية ليس إلا هذه المطالب الثلاثة،

فكذلك هاهنا يعني مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله إليك وإلى كل من قبلك من الأنبياء. والمراد بهذه المماثلة الدعوة إلى هذه المطالب العالية والمباحث المقدسة الإلهية، قال صاحب (الكشاف): ولم يقل أوحي إليك، ولكن قال: ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادته. وقرأ ابن كثير: (كذلك يُوحَى) بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله، وهي إحدى الروايتين عن أبي عمرو، وعن بعضهم (نوحي) بالنون، وقرأ الباقون ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ بكسر الحاء، فإن قيل: فعلى القراءة الأولى ما رافع اسم الله تعالى؟ قلنا: ما دل عليه بوحى، كأن قائلاً قال: من الموحي؟ فقيل: الله. ونظيره قراءة السلمي: (وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم)[الأنعام: ١٣٧] على البناء للمفعول ورفع شركاؤهم، فإن قيل: فما رافعه فيمن قرأ (نوحي) بالنون؟ قلنا: يرفع بالابتداء، والعزيز وما بعده أخبار، أو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفتان والظرف خبره. ولما ذكر أن هذا الكتاب حصل بالوحي بَيَّن أن الموحي من هو فقال: إنه هو العزيز الحكيم، وقد بينا في أول سورة حم المؤمن أن كونه عزيزًا يدل على كونه قادرًا على ما لا نهاية له، وكونه حكيمًا يدل على كونه عالمًا بجميع المعلومات، غنيًّا عن جميع الحاجات، فيحصل لنا من كونه عزيزًا حكيمًا كونه قادرًا على جميع المقدورات عالمًا بجميع المعلومات غنيًّا عن جميع الحاجات، ومن كان كذلك كانت أفعاله وأقواله حكمة وصوابًا، وكانت مبرأة عن العيب والعبث، قال مصنف الكتاب: قلت في قصيدة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْآلَاءِ وَالنِّعَمِ ... وَالْفَضْلِ وَالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ

مُنَزَّهِ الْفِعْلِ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ عَبَثٍ ... مُقَدَّسِ الْمُلْكِ عَنْ عَزْلٍ وَعَنْ عَدَمِ

والصفة الثالثة: قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وهذا يدل على مطلوبين في غاية الجلال: أحدهما: كونه موصوفًا بقدرة كاملة نافذة في جميع أجزاء السموات والأرض على عظمتها وسعتها، بالإيجاد والإعدام والتكوين والإبطال. والثاني: أنه لما بيّن بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أن كل ما في السموات وما في الأرض فهو مُلكه ومِلكه، وجب أن يكون منزّهًا عن كونه حاصلاً في السموات وفي الأرض، وإلا لزم كونه مِلكًا لنفسه، وإذا ثبت أنه ليس في شيء من السموات امتنع كونه أيضًا في العرش؛ لأن كل ما سماك فهو سماء، فإذا كان العرش موجودًا فوق السموات كان في الحقيقة سماء، فوجب أن يكون كل ما كان حاصلاً في العرش ملكًا لله ومِلكًا له، فوجب أن يكون منزّهًا عن كونه حاصلاً في العرش، وإن قالوا: إنه تعالى قال: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وكلمة (ما) لا تتناول من يعقل. قلنا: هذا مدفوع من وجهين: الأول: أن لفظة (ما) واردة في حق الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾[الشمس: ٥، ٦] وقال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾[الكافرون: ٢، ٣] والثاني: أن صيغة (من) وردت في مثل هذه السورة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[مريم: ٩٣] وكلمة (من) لا شك أنها واردة في حق الله تعالى، فدلّت هذه الآية على أن كل

من في السموات والأرض فهو عبد الله، فلو كان الله موجودًا في السموات والأرض وفي العرش، لكان هو من جملة من في السموات، فوجب أن يكون عبد الله، ولما ثبت بهذه الآية أن كل من كان موجودًا في السموات والعرش فهو عبد لله، وجب فيمن تقدست كبرياؤه عن تهمة العبودية أن يكون منزّهًا عن الكون في المكان والجهة والعرش والكرسي.

والصفة الرابعة والخامسة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ولا يجوز أن يكون المراد بكونه عليًّا العلو في الجهة والمكان لما ثبتت الدلالة على فساده، ولا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثة وكبر الجسم؛ لأن ذلك يقتضي كونه مؤلفًا من الأجزاء والأبعاض، وذلك ضد قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فوجب أن يكون المراد من العلي: المتعالي عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات، ومن العظيم: العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء وكمال الإلهية.

ثم قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: (تَكادُ) بالتاء (ينفطرن) بالياء والنون، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة (تكادُ) بالتاء (يَتَفَطَّرْنَ) بالياء والتاء، وقرأ نافع والكسائي: (يَكَادُ) بالياء (تتفطرن) أيضًا بالتاء، قال صاحب (الكشاف): وروى يونس عن أبي عمرو قراءة غريبة (تَتَفَطَّرْنَ) بالتاءين مع النون، ونظيرها حرف نادر روي في نوادر ابن الإعرابي: الإبل تتشمسن.

المسألة الثانية: في فائدة قوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ وجوه: الأول: روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ قال: والمعنى أنها تكاد تتفطر من ثقل الله عليها.

واعلم أن هذا القول سخيف، ويجب القطع ببراءة ابن عباس عنه، ويدل على فساده وجوه: الأول: أن قوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ لا يُفهم منه ممن فوقهن. وثانيها: هب أنه يُحمل على ذلك، لكن لمَ قلتم: إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الله عليها، ولمَ لا يجوز أن يقال: إن هذه الحالة إنما حصلت من ثقل الملائكة عليها، كما جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلاَّ وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ**» (١) وثالثها: لمَ لا يجوز أن يكون المراد تكاد السموات تنشق وتنفطر من هيبة من هو فوقها فوقية بالإلهية والقهر والقدرة؟ فثبت

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الشيباني في (الآحاد والمثاني) (١/ ٤٢٢)، حديث رقم (٥٩٧).

قال: حدثنا محمد بن يحيى بن ميمون العتكي، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد... به. والبزار في (مسنده) (٨/ ١٧٧)، حديث رقم (٣٢٠٨) من طريق صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام... به، والطبراني في (الكبير) (٣/ ٢٠١)، حديث رقم (٣١٢٢) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، والأصبهاني في (العظمة) (٣/ ٩٨٦)، حديث رقم (٥٠٩) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، والمروزي في (تعظيم قدر الصلاة) (١/ ٢٥٨)، حديث رقم (٢٥٠) من طريق عبد الوهاب بن عطاء... به، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٢/ ٢١٧) من طريق محمد بن يزيد قال: حدثنا عبد الوهاب بن عطاء... به، وأورده الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٣/ ١٣٤)، حديث رقم (١٠٦٠).

بهذه الوجوه أن القول الذي ذكروه في غاية الفساد والركاكة. والوجه الثاني في تأويل الآية: ما ذكره صاحب (الكشاف): وهو أن كلمة الكفر إنما جاءت من الذين تحت السموات، وكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة، ولكنه بولغ في ذلك فقُلب فجُعلت مؤثرة في جهة الفوق، كأنه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن، ودع الجهة التي تحتهن، ونظيره في المبالغة قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾[الحج: ١٩، ٢٠] فجعل مؤثرًا في أجزائه الباطنة. الوجه الثالث في تأويل الآية: أن يقال: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من فوق الأرضين؛ لأنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من فوق الأرضين. والوجه الرابع في التأويل: أن يقال: معنى ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من الجهة التي حصلت هذه السموات فيها، وتلك الجهة هي فوق، فقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من الجهة الفوقانية التي هن فيها.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن هذه الهيئة لمَ حصلت؟ وفيه قولان: الأول: أنه تعالى لما بيّن أن الموحي لهذا الكتاب هو الله العزيز الحكيم، بيّن وصف جلاله وكبريائه، فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من هيبته وجلالته. والقول الثاني: أن السبب فيه إثباتهم الولد لله لقوله ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾[مريم: ٩٠]، وهاهنا السبب فيه إثباتهم الشركاء لله؛ لقوله بعد هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والصحيح هو الأول. ثم قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان: عالم الجسمانيات وأعظمها السموات، وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة، والله تعالى يقرر كمال عظمته لأجل نفاذ قدرته وهيبته في الجسمانيات، ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات، والدليل عليه أنه تعالى قال في سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ لما أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ بذكر الجسمانيات، فقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[النبأ: ٣٧] ثم انتقل إلى ذكر عالم الروحانيات، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[النبأ: ٣٨] فكذلك القول في هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات، فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ ثم انتقل إلى ذكر الروحانيات، فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ فهذا ترتيب شريف وبيان باهر.

واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يقبل الأثر، وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الأقسام، ومتأثر لا يؤثر، وهو القابل وهو الجسم وهو أخس الأقسام، وموجود يقبل الأثر من القسم الأول، ويؤثر في القسم الثاني وهو الجواهر الروحانيات المقدسة، وهو المرتبة المتوسطة، إذا عرفت هذا فنقول: الجواهر الروحانية لها تعلقان: تعلق بعالم الجلال والكبرياء، وهو تعلق القبول، فإن الجلايا القدسية والأضواء الصمدية، إذا أشرقت على الجواهر الروحانية

استضاءت جواهرها وأشرقت ماهياتها، ثم إن الجواهر الروحانية إذا استفادت تلك القوى الروحانية، قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات، وإذا كان كذلك فلها وجهان: وجه إلى جانب الكبرياء وحضرة الجلال، ووجه إلى عالم الأجسام، والوجه الأول أشرف من الثاني.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى الوجه الذي لهم إلى عالم الجلال والكبرياء، وقوله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ إشارة إلى الوجه الذي لهم إلى عالم الأجسام، فما أحسن هذه اللطائف وما أشرفها، وما أشد تأثيرها في جذب الأرواح من حضيض الخلق إلى أوج معرفة الحق، إذا عرفت هذا فنقول: أما الجهة الأولى: وهي الجهة العلوية المقدسة، فقد اشتملت على أمرين: أحدهما: التسبيح، وثانيهما: التحميد؛ لأن قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يفيد هذين الأمرين، والتسبيح مقدم على التحميد؛ لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي، والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضًا لكل الخيرات، وكونه منزّهًا في ذاته عما لا ينبغي مقدم بالرتبة على كونه فياضًا للخيرات والسعادات؛ لأن وجود الشيء مقدم على إيجاد غيره، وحصوله في نفسه مقدم على تأثيره في حصول غيره؛ فلهذا السبب كان التسبيح مقدمًا على التحميد، ولهذا قال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

وأما الجهة الثانية: وهي الجهة التي لتلك الأرواح إلى عالم الجسمانيات، فالإشارة إليها بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ والمراد منه تأثيراتها في نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الأصوب الأصلح فيها. فهذه ملامح من المباحث العالية الإلهية مدرجة في هذه الآيات المقدسة، ولنرجع إلى ما يليق بعلم التفسير، فإن قيل: كيف يصح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار؟ وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١] فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم؟، قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ لا يفيد العموم؛ لأنه يصح أن يقال: إنهم استغفروا لكل من في الأرض وأن يقال: إنهم استغفروا لبعض من في الأرض دون البعض، ولو كان قوله: ﴿لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ صريحًا في العموم لما صح ذلك التقسيم.

الثاني: هب أن هذا النص يفيد العموم إلا أنه تعالى حكى عن الملائكة في سورة حام المؤمن فقال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٖ رَّحْمَةٗ وَعِلْمٗا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

الثالث: يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]. الرابع: يجوز أن يقال: إنهم يستغفرون لكل من في الأرض، أما في حق الكفار فبواسطة طلب الإيمان لهم، وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم، فإنا نقول: اللّهم اهد الكافرين وزيّن قلوبهم بنور

الإيمان، وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر. وهذا في الحقيقة استغفار.

واعلم أن قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على أنهم لا يستغفرون لأنفسهم، ولو كانوا مصرين على المعصية لكان استغفارهم لأنفسهم قبل استغفارهم لمن في الأرض، وحيث لم يذكر الله عنهم استغفارهم لأنفسهم، عَلِمنا أنهم مبرءون عن كل الذنوب، والأنبياء عليهم السلام لهم ذنوب والذي لا ذنب له ألبتة أفضل ممن له ذنب، وأيضًا فقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على أنهم يستغفرون للأنبياء لأن الأنبياء في جملة من في الأرض، وإذا كانوا مستغفرين للأنبياء عليهم السلام كان الظاهر أنهم أفضل منهم.

ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد والاستغفار قال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للبشر، إلا أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى، وبيانه من وجوه: الأول: أن إقدام الملائكة على طلب المغفرة للبشر من الله تعالى إنما كان لأن الله تعالى خَلَق في قلوبهم داعية لطلب تلك المغفرة، ولولا أن الله تعالى خلق في قلوبهم تلك الدواعي، وإلا لما أقدموا على ذلك الطلب، وإذا كان كذلك كان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى. الثاني: أن الملائكة قالوا في أول الأمر: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] ثم في آخر الأمر صاروا يستغفرون لمن في الأرض، وأما رحمة الحق وإحسانه فقد كان موجودًا في الأول والآخر، فثبت أن الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله تعالى. الثالث: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستغفرون لمن في الأرض، ولم يَحْكِ عنهم أنهم يطلبون الرحمة لمن في الأرض فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يعني أنه يعطي المغفرة التي طلبوها، ويضم إليها الرحمة الكاملة التامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي جعلوا له شركاء وأندادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها لا رقيب عليهم إلا هو وحده، وما أنت يا محمد بمفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان، إنما أنت منذر فحسب.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۞ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۞ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ
أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

واعلم أن كلمة (ذلك) للإشارة إلى شيء سبق ذكره، فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء هاهنا قد سبق ذكره، وليس هاهنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦] يعني كما أوحينا إليك أنك لست حفيظًا عليهم ولست وكيلاً عليهم، فكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا لتكون نذيرًا لهم.

وقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي لتنذر أهل أم القرى؛ لأن البلد لا تَعقل، وهو كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وأم القرى أصل القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان، ومَن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر، والإنذار: التخويف، فإن قيل: فظاهر اللفظ يقتضي أن الله تعالى إنما أوحى إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة، وهذا يقتضي أن يكون رسولاً إليهم فقط وأن لا يكون رسولاً إلى كل العالمين. الجواب: أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه، فهذه الآية تدل على كونه رسولاً إلى هؤلاء خاصة، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] يدل على كونه رسولاً إلى كل العالمين، أيضًا لما ثبت كونه رسولاً إلى أهل مكة وجب كونه صادقًا، ثم إنه نُقل إلينا بالتواتر أنه كان يدعي أنه رسول إلى كل العالمين، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه، فثبت أنه رسول إلى كل العالمين.

ثم قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ الأصل أن يقال: أنذرت فلانًا بكذا، فكان الواجب أن يقال: لتنذر أم القرى بيوم الجمع. وأيضًا فيه إضمار والتقدير: لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع. وفي تسميته بيوم الجمع وجوه: الأول: أن الخلائق يُجمعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] فيجتمع فيه أهل السموات مع أهل الأرض. الثاني: أنه يُجمع بين الأرواح والأجساد. الثالث: يُجمع بين كل عامل وعمله. الرابع: يُجمع بين الظالم والمظلوم. وقوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ صفة ليوم الجمع الذي لا ريب فيه. وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ تقديره: ليوم الجمع الذي من صفته يكون القوم فيه فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، فإن قيل: قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يقتضي كون القوم مجتمعين، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ يقتضي كونهم متفرقين، والجمع بين الصفتين محال، قلنا: إنهم يجتمعون أولاً ثم يصيرون فريقين.

ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ والمراد تقرير قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ

﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦] أي لا يكن في قدرتك أن تحملهم على الإيمان، فلو شاء الله ذلك لفعله لأنه أقدر منك، ولكنه جعل البعض مؤمنًا والبعض كافرًا، فقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ يدل على أنه تعالى هو الذي أدخلهم في الإيمان والطاعة، وقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني أنه تعالى ما أدخلهم في رحمته، وهذا يدل على أن الأولين إنما دخلوا في رحمته؛ لأنه كان لهم ولي ونصير أدخلهم في تلك الرحمة، وهؤلاء ما كان لهم ولي ولا نصير يدخلهم في رحمته.

ثم قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والمعنى أنه تعالى حكى عنهم أولاً أنهم اتخذوا من دونه أولياء، ثم قال بعده لمحمد ﷺ: لست عليهم رقيبًا ولا حافظًا، ولا يجب عليك أن تحملهم على الإيمان شاءوا أم أبوا، فإن هذا المعنى لو كان واجبًا لفعله الله؛ لأنه أقدر منك، ثم إنه تعالى أعاد بعده ذلك الكلام على سبيل الاستنكار، فإن قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ استفهام على سبيل الإنكار.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ والفاء في قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ جواب شرط مقدر، كأنه قال: إن أرادوا أولياء بحق، فالله هو الولي بالحق لا ولي سواه؛ لأنه يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير، فهو الحقيق بأن يُتخذ وليًا دون من لا يقدر على شيء.

ثم قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: وجه النظم أنه تعالى كما مَنَع الرسول ﷺ أن يحمل الكفار على الإيمان قهرًا، فكذلك مَنَع المؤمنين أن يشرعوا معهم في الخصومات والمنازعات فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو إثابة المحقين فيه ومعاقبة المبطلين، وقيل: وما اختلفتم فيه من شيء وتنازعتم، فتحاكموا فيه إلى الرسول ﷺ، ولا تؤثر حكومة غيره على حكومته، وقيل: وما وقع بينكم فيه خلاف من الأمور التي لا تصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى عمله كحقيقة الروح، فقولوا: الله أعلم به، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

المسألة الثانية: تقدير الآية كأنه قال: قل يا محمد ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

المسألة الثالثة: احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إما أن يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه، أو المراد فحكمه مستفاد من القياس على ما نص الله عليه، والثاني باطل لأنه يقتضي كون كل الأحكام مثبتة بالقياس بأنه باطل فيعتبر الأول، فوجب كون كل الأحكام مثبتة بالنص، وذلك ينفي العمل بالقياس، ولقائل أن يقول: لمَ لا يجوز أن يكون المراد فحكمه يُعرف من بيان الله تعالى، سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس؟ أجيب عنه: بأن المقصود من التحاكم إلى الله قطع الاختلاف، والرجوع إلى القياس يقوي حكم الاختلاف ولا يوضحه، فوجب أن يكون الواجب هو الرجوع إلى نصوص الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي ذلكم الحاكم بينكم هو ربي ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في دفع كيد الأعداء وفي طلب كل خير ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي وإليه أرجع في كل المهمات، وقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ يفيد الحصر، أي لا أتوكل إلا عليه، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله وليًا.

ثم قال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قرئ بالرفع والجر، فالرفع على أنه خبر ذلكم، أو خبر مبتدأ محذوف، والجر على تقدير أن يكون الكلام هكذا: وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله فاطر السموات والأرض، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ اعتراض وقع بين الصفة والموصوف، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ من جنسكم من الناس ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ﴾ أي خلق من الأنعام أزواجًا، ومعناه وخلق أيضًا للأنعام من أنفسها أزواجًا ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ أي يكثركم، يقال: ذرأ الله الخلق، أي كثرهم، وقوله: ﴿فِيهِۚ﴾ أي في هذا التدبير، وهو التزويج وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجًا حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل، والضمير في ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ يرجع إلى المخاطبين، إلا أنه غَلَّب فيه جانب الناس من وجهين: الأول: أنه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء. الثاني: أنه غلَّب فيه جانب المخاطبين على الغائبين، فإن قيل: ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير، ولمَ لم يقل يذرؤكم به؟ قلنا: جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن لهذا التكثير، ألا ترى أنه يقال للحيوان في خلق الأزواج تكثير، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ثم قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ وهذه الآية فيها مسائل:

المسألة الأولى: احتج علماء التوحيد قديمًا وحديثًا بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسمًا مركبًا من الأعضاء والأجزاء وحاصلاً في المكان والجهة، وقالوا: لو كان جسمًا لكان مثلاً لسائر الأجسام، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له، وذلك باطل بصريح قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ ويمكن إيراد هذه الحجة على وجه آخر، فيقال: إما أن يكون المراد ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ في ماهيات الذات، أو أن يكون المراد ليس كمثله في الصفات شيء، والثاني باطل، لأن العباد يوصفون بكونهم عالِمين قادرين، كما أن الله تعالى يوصف بذلك، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين، مع أن الله تعالى يوصف بذلك، فثبت أن المراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات، فيكون المعنى أن شيئًا من الذوات لا يساوي الله تعالى في الذاتية، فلو كان الله تعالى جسمًا، لكان كونه جسمًا ذاتًا لا صفة، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له في الجسمية، أعني في كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة، فحينئذٍ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات الله تعالى في كونه ذاتًا، والنص ينفي ذلك فوجب أن لا يكون جسمًا.

واعلم أن محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه بـ(التوحيد)، وهو في الحقيقة كتاب الشرك، واعترض عليها، وأنا أذكر حاصل كلامه بعد

حذف التطويلات؛ لأنه كان رجلاً مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل، فقال: «نَحْنُ نُثْبِتُ لِلَّهِ وَجْهًا وَنَقُولُ: إِنَّ لِوَجْهِ رَبِّنَا مِنَ النُّورِ وَالضِّيَاءِ وَالْبَهَاءِ، مَا لَوْ كُشِفَ حِجَابُهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ، وَوَجْهُ رَبِّنَا مَنْفِيٌّ عَنْهُ الْهَلَاكُ وَالْفَنَاءُ، وَنَقُولُ: إِنَّ لِبَنِي آدَمَ وُجُوهًا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْهَلَاكَ وَالْفَنَاءَ، وَنَفَى عَنْهَا الْجَلَالَ وَالْإِكْرَامَ، غَيْرَ مَوْصُوفَةٍ بِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ وَالْبَهَاءِ، وَلَوْ كَانَ مُجَرَّدُ إِثْبَاتِ الْوَجْهِ لِلَّهِ يَقْتَضِي التَّشْبِيهَ لَكَانَ مَنْ قَالَ: إِنَّ لِبَنِي آدَمَ وُجُوهًا وَلِلْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ وَالْكِلَابِ وُجُوهًا، لَكَانَ قَدْ شَبَّهَ وُجُوهَ بَنِي آدَمَ بِوُجُوهِ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ وَالْكِلَابِ. ثُمَّ قَالَ: وَلَا شَكَّ أَنَّهُ اعْتِقَادُ الْجَهْمِيَّةِ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ لَهُ: وَجْهُكَ يُشْبِهُ وَجْهَ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ لَغَضِبَ وَلَشَافَهَهُ بِالسُّوءِ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ لِلَّهِ إِثْبَاتُ التَّشْبِيهِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ».

وذكر في فصل آخر من هذا الكتاب: «أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى وُقُوعِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي صِفَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْهَا أَنْ يكون القائل مشبهًا فكذا هاهنا». ونحن نعد الصور التي ذكرها على الاستقصاء: فالأول: أنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقال في حق الإنسان ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، الثاني: قال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقال في حق المخلوقين ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: ٧٩] الثالث: قال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] وقال في حق المخلوقين: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] الرابع: قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقال في حق المخلوقين: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] الخامس: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقال في الذين يركبون الدواب: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣] وقال في سفينة نوح: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: ٤٤]، السادس: سمى نفسه عزيزًا فقال: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ثم ذكر هذا الاسم في حق المخلوقين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [يوسف: ٧٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨]، السابع: سمى نفسه بالملك وسمى بعض عبيده أيضًا بالملك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠] وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] وسمى نفسه بالجبار المتكبر، وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ثم طوَّل في ضرب الأمثلة من هذا الجنس، وقال: ومن وقف على الأمثلة التي ذكرناها أمكنه الإكثار منها. فهذا ما أورده هذا الرجل في هذا الكتاب.

وأقول: هذا المسكين الجاهل إنما وقع في أمثال هذه الخرافات لأنه لم يعرف حقيقة المثلين، وعلماء التوحيد حققوا الكلام في المثلين ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية، فنقول: المثلان

هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته، وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقدمة أخرى فنقول: المعتبر في كل شيء، إما تمام ماهيته، وإما جزء من أجزاء ماهيته، وإما أمر خارج عن ماهيته، ولكنه من لوازم تلك الماهية، وإما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية، وهذا التقسيم مبني على الفرق بين ذات الشيء وبين الصفات القائمة به، وذلك معلوم بالبديهة، فإنا نرى الحبة من الحصرم كانت في غاية الخضرة والحموضة، ثم صارت في غاية السواد والحلاوة، فالذات باقية والصفات مختلفة، والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة، وأيضًا نرى الشعر قد كان في غاية السواد ثم صار في غاية البياض، فالذات باقية والصفات متبدلة والباقي غير المتبدل، فظهر بما ذكرنا أن الذوات مغايرة للصفات. إذا عرفت هذا فنقول: اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البتة؛ لأنا نرى الجسم الواحد كان ساكنًا ثم يصير متحركًا، ثم يسكن بعد ذلك، فالذوات باقية في الأحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد، والصفات متعاقبة متزايلة، فثبت بهذا أن اختلاف الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات، إذا عرفت هذا فنقول: الأجسام التي منها تألف وجه الكلب والقرد مساوية للأجسام التي تألف منها وجه الإنسان والفرس، وإنما حصل الاختلاف بسبب الأعراض القائمة وهي الألوان والأشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصولها، فالاختلاف إنما وقع بسبب الاختلاف في الصفات والأعراض، فأما ذوات الأجسام فهي متماثلة إلا أن العوام لا يعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات، فلا جرم يقولون: إن وجه الإنسان مخالف لوجه الحمار، ولقد صدقوا فإنه حصلت تلك بسبب الشكل واللون وسائر الصفات، فأما الأجسام من حيث إنها أجسام فهي متماثلة متساوية، فثبت أن الكلام الذي أورده إنما ذكره لأجل أنه كان من العوام، وما كان يعرف أن المعتبر في التماثل والاختلاف حقائق الأشياء وماهياتها لا الأعراض والصفات القائمة بها.

بقي هاهنا أن يقال فما الدليل على أن الأجسام كلها متماثلة؟

فنقول لنا هاهنا مقامان:

المقام الأول: أن نقول: هذه المقدمة إما أن تكون مُسلَّمة أو لا تكون مُسلَّمة، فإن كانت مُسلَّمة فقد حصل المقصود، وإن كانت ممنوعة، فنقول: فلمَ لا يجوز أن يقال: إله العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسي، ويكون ذلك الجسم مخالفًا لماهية سائر الأجسام فكان هو قديمًا أزليًا واجب الوجود، وسائر الأجسام محدثة مخلوقة، ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الإلزام عن المجسمة لا يقدرون عليه؟ فإن قالوا: هذا باطل لأن القرآن دلّ على أن الشمس والقمر والأفلاك كلها محدثة مخلوقة. فيقال: هذا من باب الحماقة المفرطة لأن صحة القرآن وصحة نبوّة الأنبياء مفرعة على معرفة الإله، فإثبات معرفة الإله بالقرآن وقول النبي لا يقوله عاقل يفهم ما يتكلم به.

والمقام الثاني: أن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات الحقيقة، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسمًا لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام، إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل: أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام، فيلزم كونه محدثًا مخلوقًا قابلاً للعدم والفناء قابلاً للتفرق والتمزق. وأما النقل فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر أنا لا نقول بأنه متى حصل الاستواء في الصفة لزم حصول الاستواء في تمام الحقيقة، إلا أنا نقول: لما ثبت أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية، فلو كانت ذاته جسمًا لكان ذلك الجسم مساويًا لسائر الأجسام في تمام الماهية، وحينئذٍ يلزم أن يكون كل جسم مثلاً له، لما بينا أن المعتبر في حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هي هي، لا اعتبار الصفات القائمة بها. فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن حجة أهل التوحيد في غاية القوة، وأن هذه الكلمات التي أوردها هذا الإنسان إنما أوردها لأنه كان بعيدًا عن معرفة الحقائق، فجرى على منهج كلمات العوام فاغتر بتلك الكلمات التي ذكرها، ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

المسألة الثانية: في ظاهر هذه الآية إشكال، فإنه يقال: المقصود منها نفي المثل عن الله تعالى وظاهرها يوجب إثبات المثل لله، فإنه يقتضي نفي المثل عن مثله لا عنه، وذلك يوجب إثبات المثل لله تعالى، وأجاب العلماء عنه بأن قالوا: إن العرب تقول: (مثلك لا يبخل) أي أنت لا تبخل. فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عنه، ويقول الرجل: (هذا الكلام لا يقال لمثلي) أي لا يقال لي. قال الشاعر:

وَمِثْلِي كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيلِ[(١)]

والمراد منه المبالغة فإنه إذا كان ذلك الحكم منتفيًا عمن كان مشابهًا بسبب كونه مشابهًا له، فلأن يكون منتفيًا عنه كان ذلك أَوْلى، ونظيره قولهم: سلام على المجلس العالي، والمقصود أن سلام الله إذا كان واقعًا على مجلسه وموضعه، فلأن يكون واقعًا عليه كان ذلك أَوْلى، فكذا ههنا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ والمعنى ليس كهو شيء على سبيل المبالغة من الوجه الذي ذكرناه، وعلى هذا التقدير فلم يكن هذا اللفظ ساقطًا عديم الأثر، بل كان مفيدًا للمبالغة من الوجه الذي ذكرناه، وزعم جهم بن صفوان أن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشيء. قال: لأن كل شيء فإنه يكون مثلاً لمثل نفسه فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ معناه ليس مثل مثله شيء، وذلك يقتضي أن لا يكون هو مسمى باسم الشيء. وعندي فيه طريقة أخرى، وهي أن المقصود من ذكر الجمع بين حرفي التشبيه الدليل الدال على كونه منزّهًا عن المثل، وتقريره أن يقال: لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه، وهذا محال، فإثبات المثل له محال، أما بيان أنه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالأمر فيه ظاهر، وأما بيان أن هذا محال

(١) هذا شطر البيت الأول ضمن قصيدة من البحر المتقارب لأوس بن حجر، وتقدم ترجمته.

فلأنه لو كان مثل مثل نفسه لكان مساويًا لمثله في تلك الماهية ومباينًا له في نفسه، وما به المشاركة غير ما به المباينة، فتكون ذات كل واحد منهما مركبًا، وكل مركب ممكن، فثبت أنه لو حصل لواجب الوجود مِثل لَمَا كان هو في نفسه واجب الوجود، إذا عرفت هذا: فقوله (ليس مثله مثله شيء) إشارة إلى أنه لو صدق عليه أنه مثل مثل نفسه لما كان هو شيئًا بناءً على ما بينا أنه لو حصل لواجب الوجود مِثل لَمَا كان واجب الوجود، فهذا ما يحتمله اللفظ.

المسألة الثالثة: هذه الآية دالة على نفي المثل، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] يقتضي إثبات المثل فلا بد من الفرق بينهما، فنقول: المثل هو الذي يكون مساويًا للشيء في تمام الماهية، والمثل هو الذي يكون مساويًا له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية وإن كان مخالفًا في تمام الماهية.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يدل على كونه تعالى سامعًا للمسموعات مبصرًا للمرئيات، فإن قيل: يمتنع إجراء هذا اللفظ على ظاهره؛ وذلك لأنه إذا حصل قرع أو قلع انقلب الهواء من بين ذينك الجسمين انقلابًا يعنف فيتموج الهواء بسبب ذلك ويتأدى ذلك التموج إلى سطح الصماخ فهذا هو السماع، وأما الإبصار فهو عبارة عن تأثر الحدقة بصورة المرئي، فثبت أن السمع والبصر عبارة عن تأثر الحاسة، وذلك على الله محال، فثبت أن إطلاق السمع والبصر على علمه تعالى بالمسموعات والمبصرات غير جائز. والجواب: الدليل على أن السماع مغاير لتأثر الحاسة أنا إذا سمعنا الصوت علمنا أنه من أي الجوانب جاء، فعلمنا أنا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت في نفسه، وهذا يدل على أن إدراك الصوت حالة مغايرة لتأثير الصماخ عن تموج ذلك الهواء. وأما الرؤية فالدليل على أنها حالة مغايرة لتأثر الحدقة، فذلك لأن نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه، فنقول: الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية في نفس العالم عظيمة، وهذا يدل على أن الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع، وإذا ثبت هذا فنقول: لا يلزم من امتناع التأثر في حق الله امتناع السمع والبصر في حقه، فإن قالوا: هب أن السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة إلا أن حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر، فلما كان حصول ذلك التأثر في حق الله تعالى ممتنعًا كان حصول السمع والبصر في حق الله ممتنعًا. فنقول: ظاهر قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يدل على كونه سميعًا بصيرًا، فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر إلا إذا قام الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر، والتأثر في حق الله تعالى ممتنع، فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعًا، وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله، وإنما نحن متمسكون بظاهر اللفظ إلى أن تذكروا ما يوجب العدول عنه، فإن قال قائل: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يفيد الحصر، فما معنى هذا الحصر، مع أن العباد أيضًا موصوفون بكونهم سميعين بصيرين؟ فنقول: السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على

سبيل الكمال، والكمال في كل الصفات ليس إلا لله، فهذا هو المراد من هذا الحصر.

أما قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فاعلم أن المراد من الآية أنه تعالى فاطر السموات والأرض، والأصنام ليست كذلك، وأيضًا فهو خالق أنفسنا وأزواجنا وخالق أولادنا منا ومن أزواجنا، والأصنام ليست كذلك، وأيضًا فله مقاليد السموات والأرض، والأصنام ليست كذلك، والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم، فكيف يجوز جعل الأصنام التي هي جمادات مساوية له في المعبودية؟ فقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد مفاتيح الرزق من السموات والأرض، فمقاليد السموات الأمطار، ومقاليد الأرض النبات، وذكرنا تفسير المقاليد في سورة الزمر عند قوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: ٥٢] لأن مفاتيح الأرزاق بيده ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من البسط والتقدير ﴿عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾
وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾
فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾
وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾
يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عظَّم وحيه إلى محمد ﷺ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣] ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ والمعنى: شَرَع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحًا ومحمدًا وإبراهيم وموسى وعيسى، هذا هو المقصود من لفظ الآية، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر

لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة، إلا أنه بقي في لفظ الآية إشكالات: أحدها: أنه قال في أول الآية: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ وفي آخرها: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وفي الوسط: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فما الفائدة في هذا التفاوت؟ وثانيها: أنه ذكر نوحًا عليه السلام على سبيل الغيبة فقال: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وثالثها: أنه يصير تقدير الآية: شرع الله لكم من الدين الذي أوحينا إليك. فقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ خطاب الغيبة، وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ خطاب الحضور، فهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد، وهو مشكل، فهذه المضايق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها، وبالجملة فالمقصود من الآية أنه يقال: شرع لكم من الدين دينًا تطابقت الأنبياء على صحته، وأقول: يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئًا مغايرًا للتكاليف والأحكام، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعي في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال، ويجوز عندي أن يكون المراد من قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ أي لا تتفرقوا بالآلهة الكثيرة، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] واحتج بعضهم بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ على أن النبي ﷺ في أول الأمر كان مبعوثًا بشريعة نوح عليه السلام، والجواب ما ذكرناه أنه عطف عليه سائر الأنبياء، وذلك يدل على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل، ومحل ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ إما نصب بدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف، كأنه قيل: ما ذاك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عظُم عليهم وشق عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله تعالى على سبيل الاتفاق والإجماع، بدليل أن الكفار قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: احتج نفاة القياس بهذه الآية، قالوا: إنه تعالى أخبر أن أكابر الأنبياء أطبقوا على أنه يجب إقامة الدين بحيث لا يفضي إلى الاختلاف والتنازع، والله تعالى ذكر في معرض المنّة على عباده أنه أرشدهم إلى الدين الخالي عن التفرق والمخالفة، ومعلوم أن فتح باب القياس يفضي إلى أعظم أنواع التفرق والمنازعة، فإن الحس شاهد بأن هؤلاء الذين بنوا دينهم على الأخذ بالقياس تفرقوا تفرقًا لا رجاء في حصول الاتفاق بينهم إلى آخر القيامة، فوجب أن يكون ذلك محرمًا ممنوعًا عنه.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع على قسمين، منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان، كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان. ودلت هذه الآية على أن سعي الشرع في تقرير النوع الأول أقوى من سعيه في تقرير النوع الثاني؛ لأن المواظبة على القسم الأول مهمة في اكتساب الأحوال المفيدة لحصول السعادة في الدار الآخرة.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ مُشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعته من وجوه: الأول: أن للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد، قويَ التأثير. الثاني: أنها إذا توافقت صار كل واحد منها مُعِينًا للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود، أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت، فلا يحصل المقصود. الثالث: أن حصول التنازع ضد مصلحة العالم؛ لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج والقتل والنهب؛ فلهذا السبب أمَر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٦].

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه تعالى لما أرشد أمة محمد ﷺ إلى التمسك بالدين المتفق عليه، بيّن أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير؛ لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة. الثاني: أنه إنما كبُرَ عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبرًا وأنفة، فبيّن تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم، ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى، بل الكل سواء في أنه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى، واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع، فمنه جبى الخراج واجتباه وجبى الماء في الحوض، فقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي يضمه إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة، وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ثم قال: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وهو كما روي في الخبر **«مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»**[1] أي من أقبل إليّ بطاعته أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي، بأن أشرح له صدره وأُسهل أمره.

واعلم أنه تعالى لما بيّن أنه أمَر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه، كان لقائل أن

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الذكر والدعاء)، باب: (فضل الذكر والدعاء والقرب إلى الله تعالى) (٤/ ٢٠٦٨/ ٢٦٨٧). قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر... به. وابن ماجه في كتاب (الأدب)، باب: (فضل العمل) (٢/ ١٢٥٥)، حديث رقم (٣٨٢١)، من طريق وكيع عن الأعمش.. به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٦٩)، حديث رقم (٢١٥٢٦)، قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش... به، والبزار في (مسنده) (٩/ ٤٠٣)، حديث رقم (٣٩٩٩) من طريق المعرور عن أبي ذر... به.

يقول: فلماذا نجدهم متفرقين؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة، فحملتهم الحمية النفسانية والأنفة الطبعية، على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه وقبّح ما سواه طلبًا للذكر والرياسة، فصار ذلك سببًا لوقوع الاختلاف، ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل، إلا أنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب؛ لأن لكل عذاب عنده أجلاً مسمى، أي وقتًا معلومًا، إما لمحض المشيئة كما هو قولنا، أو لأنه علم أن الصلاح تحقيقه به كما عند المعتزلة، وهو معنى قوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ والأجل المسمى قد يكون في الدنيا وقد يكون في القيامة. واختلفوا في الذين أريدوا بهذه الصفة من هم؟ فقال الأكثرون: هم اليهود والنصارى، والدليل قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال في سورة لم يكن: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] ولأن قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ لائق بأهل الكتاب. وقال آخرون: إنهم هم العرب. وهذا باطل للوجوه المذكورة، لأن قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ لا يليق بالعرب؛ لأن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ: ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ من كتابهم ﴿مُرِيبٖ﴾ لا يؤمنون به حق الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ يعني فلأجل ذلك التفرق ولأجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين، فادع إلى الاتفاق على الملة الحنيفية، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها، كما أمرك الله، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ أي بأي كتاب صح أن الله أنزله، يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، ونظيره قوله: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] ثم قال: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ أي في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليَّ، قال القفال: معناه أن ربي أمرني أن لا أفرق بين نفسي وأنفسكم بأن آمركم بما لا أعمله، أو أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه، لكني أسوي بينكم وبين نفسي، وكذلك أسوي بين أكابركم وأصاغركم فيما يتعلق بحكم الله.

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والمعنى أن إله الكل واحد، وكل واحد مخصوص بعمل نفسه، فوجب أن يشتغل كل واحد في الدنيا بنفسه، فإن الله يجمع بين الكل في يوم القيامة ويجازيه على عمله، والمقصود منه المتاركة واشتغال كل أحد بمهم نفسه، فإن قيل: كيف يليق بهذه المتاركة ما فعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلنا: هذه المتاركة كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين المتفق على صحته بين كل الأنبياء، ودَخَل فيه التوحيد، وترك عبادة الأصنام،

والإقرار بنبوة الأنبياء، وبصحة البعث والقيامة، فلما لم يقبلوا هذا الدين، فحينئذٍ فات الشرط، فلا جرم فات المشروط.

واعلم أنه ليس المراد من قوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ تحريم ما يجري مجرى محاجتهم، ويدل عليه وجوه: الأول: أن هذا الكلام مذكور في معرض المحاجة، فلو كان المقصود من هذه الآية تحريم المحاجة، لزم كونها محرمة لنفسها وهو متناقض. والثاني: أنه لولا الأدلة لما توجه التكليف. الثالث: أن الدليل يفيد العلم، وذلك لا يمكن تحريمه، بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد ﷺ، وإنما تركوا تصديقه بغيًا وعنادًا، فبيّن تعالى أنه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم لأنهم عرفوا بالحجة صدقه فلا حاجة معهم إلى المحاجة ألبتة، ومما يقوي قولنا أنه لا يجوز تحريم المحاجة - قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]وقوله: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]وقوله ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي من بعد ما استجاب الناس لذلك الدين ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي باطلة. وتلك المخاصمة هي أن اليهود قالوا: ألستم تقولون: إن الأخذ بالمتفق أَوْلى من الأخذ بالمختلف؟ فنبوّة موسى وحقية التوراة معلومة بالاتفاق، ونبوة محمد ليست متفقًا عليها، فإذا بنيتم كلامكم في هذه الآية على أن الأخذ بالمتفق أَوْلى، وجب أن يكون الأخذ باليهودية أَوْلى، فبيّن تعالى أن هذه الحجة داحضة، أي باطلة فاسدة؛ وذلك لأن اليهود أطبقوا على أنه إنما وجب الإيمان بموسى عليه السلام لأجل ظهور المعجزات على وفق قوله، وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام، واليهود شاهدوا تلك المعجزات، فإن كان ظهور المعجزة يدل على الصدق، فههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد ﷺ، وإن كان لا يدل على الصدق وجب في حق موسى أن لا يقروا بنبوته، وأما الإقرار بنبوة موسى والإصرار على إنكار نبوة محمد مع استوائهما في ظهور المعجزة - يكون متناقضًا. ولما قرر الله هذه الدلائل خَوَّف المنكرين بعذاب القيامة، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ والمعنى أنه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والبينات، وأنزل الميزان وهو الفصل الذي هو القسطاس المستقيم، وأنهم لا يعلمون أن القيامة متى تفاجئهم، ومتى كان الأمر كذلك، وجب على العاقل أن يجد ويجتهد في النظر والاستدلال، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد، ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيامة وأكثر في ذلك، وأنهم ما رأوا منه أثرًا، قالوا على سبيل السخرية: فمتى تقوم القيامة، وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق ما نحن عليه أو الذي عليه محمد وأصحابه. فلدفع هذه الشبهة قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ والمعنى

ظاهر، وإنما يشفقون ويخافون لعلمهم أن عندها تمتنع التوبة، وأما منكر البعث فلأنه لا يحصل له هذا الخوف.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ والمماراة الملاجة، قال الزجاج: الذين تدخلهم المرية والشك في وقوع الساعة، فيمارون فيها ويجحدون ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ لأن استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب في العدل، فلو لم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله تعالى، وهذا من أمحل المحالات، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالاً بعيدًا.

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي كثير الإحسان بهم، وإنما حسن ذكر هذا الكلام ههنا لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة، فكان ذلك من لطف الله بعباده، وأيضًا المتفرقون استوجبوا العذاب الشديد، ثم إنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضًا من لطف الله تعالى، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم ودفع أعظم المضار عنهم، لا جرم حسن ذكره ههنا، ثم قال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني أن أصل الإحسان والبر عام في حق كل العباد، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم، فأما مراتب العطية والبهجة فمتفاوتة مختلفة.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغالَب ولا يُدافَع.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن كونه لطيفًا بعباده كثير الإحسان إليهم، بيّن أنه لا بد لهم من أن يسعوا

في طلب الخيرات وفي الاحتراز عن القبائح فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ قال صاحب (الكشاف): إنه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة - حرثًا على سبيل المجاز.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى أظهر الفرق في هذه الآية بين من أراد الآخرة وبين من أراد الدنيا من وجوه: الأول: أنه قَدَّم مريد حرث الآخرة في الذكر على مريد حرث الدنيا، وذلك يدل على التفضيل؛ لأنه وصفه بكونه آخرة ثم قدمه في الذكر تنبيهًا على قوله «**نَحنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ**» الثاني: أنه قال في مريد حرث الآخرة: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وقال في مريد حرث الدنيا: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ وكلمة (مِن) للتبعيض، فالمعنى أنه يعطيه بعض ما يطلبه ولا يؤتيه كله، وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] وأقول: البرهان العقلي مساعد على البابين، وذلك لأن كل من عمل للآخرة وواظب على ذلك العمل، فكثرة الأعمال سبب لحصول الملكات، فكل من كانت مواظبته على تلك الأعمال أكثر، كان ميل قلبه إلى طلب الآخرة أكثر، وكلما كان الأمر كذلك كان الابتهاج أعظم والسعادات أكثر، وذلك هو المراد بقوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ وأما طالب الدنيا فكلما كانت مواظبته على أعمال ذلك الطلب أكثر، كانت رغبته في الفوز بالدنيا أكثر وميله إليها أشد، وإذا كان الميل أبدًا في التزايد، وكان حصول المطلوب باقيًا على حالة واحدة، كان الحرمان لازمًا لا محالة. الثالث: أنه تعالى قال في طالب حرث الآخرة: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا، بل بقي الكلام ساكتًا عنه نفيًا وإثباتًا، وأما طالب حرث الدنيا فإنه تعالى بيّن أنه لا يعطيه شيئًا من نصيب الآخرة على التنصيص، وهذا يدل على التفاوت العظيم، كأنه يقول: الآخرة أصل والدنيا تبع، فواجد الأصل يكون واجدًا للتبع بقدر الحاجة، إلا أنه لم يذكر ذلك تنبيهًا على أن الدنيا أخس من أن يُقرن ذكرها بذكر الآخرة. والرابع: أنه تعالى بيّن أن طالب الآخرة يزاد في مطلوبه، وبيّن أن طالب الدنيا يعطى بعض مطلوبه من الدنيا، وأما في الآخرة فإنه لا يحصل له نصيب ألبتة، فبيّن بالكلام الأول أن طالب الآخرة يكون حاله أبدًا في الترقي والتزايد، وبيّن بالكلام الثاني أن طالب الدنيا يكون حاله في المقام الأول في النقصان وفي المقام الثاني في البطلان التام. الخامس: أن الآخرة نسيئة والدنيا نقد، والنسيئة مرجوحة بالنسبة إلى النقد؛ لأن الناس يقولون: النقد خير من النسيئة. فبيّن تعالى أن هذه القضية انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا، فالآخرة وإن كانت نقدًا إلا أنها متوجهة للزيادة والدوام فكانت أفضل وأكمل، والدنيا وإن كانت نقدًا إلا أنها متوجهة إلى النقصان ثم إلى البطلان فكانت أخس وأرذل، فهذا يدل على أن حال الآخرة لا يناسب حال الدنيا ألبتة، وأنه ليس في الدنيا من أحوال الآخرة إلا مجرد الاسم كما هو مروي عن ابن عباس. السادس: الآية دالة على أن منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة، بل لا بد في البابين من

الحرث، والحرث لا يتأتى إلا بتحمل المشاق في البذر ثم التسقية والتنمية والحصد ثم التنقية، فلما سمى الله كلا القسمين حرثًا علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق، ثم بيّن تعالى أن مصير الآخرة إلى الزيادة والكمال وأن مصير الدنيا إلى النقصان ثم الفناء، فكأنه قيل: إذا كان لا بد في القسمين جميعًا من تحمل متاعب الحراثة والتسقية والتنمية والحصد والتنقية، فلأن تُصرف هذه المتاعب إلى ما يكون في التزايد والبقاء أَوْلى من صرفها إلى ما يكون في النقصان والانقضاء والفناء.

المسألة الثانية: في تفسير قوله: ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ قولان: الأول: المعنى أنا نزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبل الخيرات والطاعات عليه. وقال مقاتل: ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ بتضعيف الثواب، قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٣٠] وعن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ هَمَّهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ جَمَعَ اللَّهُ هَمَّهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ عَنْ أَنْفِهَا»(١) أو لفظ يقرب من أن يكون هذا معناه.

المسألة الثالثة: ظاهر اللفظ يدل على أن من صلّى لأجل طلب الثواب أو لأجل دفع العقاب فإنه تصح صلاته، وأجمعوا على أنها لا تصح. والجواب: أنه تعالى قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ والحرث لا يتأتى إلا بإلقاء البذر الصحيح في الأرض، والبذر الصحيح لجميع الخيرات والسعادات ليس إلا عبودية الله تعالى.

المسألة الرابعة: قال أصحابنا: إذا توضأ بغير نية لم يصح. قالوا: لأن هذا الإنسان ما أراد حرث الآخرة؛ لأن الكلام فيما إذا كان غافلاً عن ذكر الله وعن الآخرة، فوجب أن لا يحصل له نصيب فيما يتعلق بالآخرة والخروج عن عهدة الصلاة من باب منافع الآخرة، فوجب أن لا يحصل في الوضوء العاري عن النية.

واعلم أن الله تعالى لما بيّن القانون الأعظم والقسطاس الأقوم في أعمال الآخرة والدنيا، أردفه بالتنبيه على ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة فقال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ ومعنى الهمزة في (أم) التقرير والتقريع و﴿شُرَكَٰٓؤُهُمۡ﴾ شياطينهم الذين زينوا الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها، وقيل: ﴿شُرَكَٰٓؤُهُمۡ﴾ أوثانهم، وإنما أضيفت إليهم لأنهم هم الذين اتخذوها شركاء لله، ولما كان سببًا لضلالتهم جُعلت شارعة لدين الضلالة كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ

---

(١) ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٣٧٥)، حديث رقم (٤١٠٥)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٨٣)، حديث رقم (٢١٦٣٠)، والطبراني في (الكبير) (٥/ ١٤٣)، حديث رقم (٤٨٩١)، جميعًا من طريق عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان عن أبيه عن زيد بن ثابت . . . به، ورواه الترمذي في (سننه) (٤/ ٦٤٢)، حديث رقم (٢٤٦٥) من طريق الربيع بن صبيح، عن يزيد بن أبان وهو الرقاشي، عن أنس بن مالك . . . به.

﴿ٱلنَّاسِۗ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقوله: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ يعني أن تلك الشرائع بأسرها على ضدين لله، ثم قال: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء، أو يقال: ولولا الوعد بأن الفصل أن يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ أي بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وقرأ بعضهم: (وأن) بفتح الهمزة في (أن) عطفًا له على كلمة الفصل، يعني ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ وأن تقريره تعذيب الظالمين في الآخرة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ في الدنيا. ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب، أما الأول: فهو قوله ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾ خائفين خوفًا شديدًا ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ يريد أن وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا، أما الثاني: فهو أحوال أهل الثواب وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ لأن روضة الجنة أطيب بقعة فيها، وفي الآية تنبيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم في الجنة، إلا أنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات، وهي البقاع الشريفة من الجنة، فالبقاع التي دون تلك الروضات لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ وهذا يدل على أن كل الأشياء حاضرة عنده مهيأة، ثم قال تعالى في تعظيم هذه الدرجة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وأصحابنا استدلوا بهذه الآية على أن الثواب غير واجب على الله، وإنما يحصل بطريق الفضل من الله تعالى لأنه تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ فهذا يدل على أن روضات الجنات ووجدان كل ما يريدونه - إنما كان جزاءً على الإيمان والأعمال الصالحات. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وهذا تصريح بأن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ قال صاحب (الكشاف): قرئ (يبشّر) من بشَّره (ويُبْشِر) من أبشره (ويَبْشُر) من بشره.

واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه: الأول: أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات، والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاء، دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ يدخل في باب غير المتناهي لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها. الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ والذي يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق كان في غاية الكبر. الرابع: أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال: ﴿ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وذلك يدل أيضًا على غاية العظمة، نسأل الله الفوز بها والوصول إليها.

واعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد ﷺ هذا الكتاب الشريف العالي وأودع فيه الثلاثة أقسام

الدلائل وأصناف التكاليف، ورتب على الطاعة الثواب، وعلى المعصية العقاب، بَيَّن أني لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعًا عاجلاً ومطلوبًا حاضرًا؛ لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد ﷺ من هذا التبليغ المال والجاه فقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الناس في هذه الآية ثلاثة أقوال:

الأول: قال الشعبي: أكثرَ الناسُ علينا في هذه الآية، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان واسط النسب من قريش، ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده فقال الله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿أَجْرًا إِلَّا﴾ أن تودوني لقرابتي منكم، والمعنى أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني، فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذوني ولا تهيجوا عليَّ.

والقول الثاني: روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس في يده سعة، فقال الأنصار: إن هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم، فاجمعوا له طائفة من أموالكم. ففعلوا ثم أتوه به فرده عليهم، فنزل قوله تعلى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي على الإيمان إلا أن تودوا أقاربي. فحثهم على مودة أقاربه.

القول الثالث: ما ذكره الحسن فقال: إلا أن تودوا إلى الله فيما يقربكم إليه من التودد إليه بالعمل الصالح. فالقربى على القول الأول القرابة التي هي بمعنى الرحم، وعلى الثاني القرابة التي هي بمعنى الأقارب، وعلى الثالث هي فُعْلى من القرب والتقريب. فإن قيل: الآية مشكلة، ذلك لأن طلب الأجر على تبليغ الوحي لايجوز، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام أنهم صرّحوا بنفي طلب الأجرة، فذكر في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] وكذا في قصة هود وصالح، وفي قصة لوط وشعيب عليهم السلام، ورسولنا أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فكان بأن لا يطلب الأجر على النوبة والرسالة أولى. الثاني: أنه ﷺ صرح بنفي طلب الأجر في سائر الآيات فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧] وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]. الثالث: العقل يدل عليه وذلك لأن ذلك التبليغ كان واجبًا عليه، قال تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس، فضلاً عن أعلم العلماء. الرابع: أن النبوة أفضل من الحكمة وقد قال تعالى في صفة الحكمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقال في صفة الدنيا: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] فكيف يحسن في العقل مقابلة أشرف الأشياء بأخس الأشياء؟! الخامس: أن طلب الأجر كان يوجب التهمة، وذلك ينافي القطع بصحة النبوة،

فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبي ﷺ أن يطلب أجرًا ألبتة على التبليغ والرسالة، وظاهر هذه الآية يقتضي أنه طلب أجرًا على التبليغ والرسالة، وهو المودة في القربى. هذا تقرير السؤال. والجواب عنه: أنه لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على التبليغ والرسالة، بقي قوله ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ نقول: الجواب عنه من وجهين: الأول: أن هذا من باب قوله:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أن سيوفهم بها من قراع الدارعين فُلُولُ[(١)]

المعنى أنا لا أطلب منكم إلا هذا، وهذا في الحقيقة ليس أجرًا لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُونَ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[(٢)] والآيات والأخبار في هذا الباب كثيرة، وإذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجبًا فحصولها في حق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تقديره: والمودة في القربى ليست أجرًا، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر ألبتة. الوجه الثاني في الجواب: أن هذا استثناء منقطع، وتم الكلام عند قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي لكن أُذكركم قرابتي منكم. وكأنه في اللفظ أجر وليس بأجر.

المسألة الثالثة: نقل صاحب (الكشاف): عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيدًا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مَغْفُورًا لَهُ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ تَائِبًا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُؤْمِنًا مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَّرَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِالْجَنَّةِ ثُمَّ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزَفُّ إِلَى الْجَنَّةِ

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر العشاري، وهو حسين بن علي بن حسن بن محمد بن فارس العشاري البغدادي الشافعي نجم الدين أبو عبد الله. ١١٥٠ - ١١٩٥هـ/ ١٧٣٧ - ١٧٨٠م، يعود أصله إلى العشارة وهي بلدة تقع على ضفة نهر الخابور، وكانت تابعة في العهد العثماني إلى لواء دير الزور، وُلد وتعلم ببغداد، وفي تاريخ ولادته خلاف إذ وجد رسالة كتبها باسم والي بغداد إلى الشريف مسعود بن سعيد بن زيد المتوفى سنة ١١٦٥هـ وهي بالتالي تناقض التاريخ الذي ذكره المرادي أنه ولد سنة ١١٥٠ هـ.

وكان من أساتذته الشيخ جمال الدين عبد الله بن حسين السويدي البغدادي المتوفى سنة ١١٧٤ هـ وولده الشيخ عبد الرحمن السويدي المتوفى سنة ١٢٠٠هـ وكان خطه جيلاً نسخ به كثيرًا من الكتب.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (المساجد)، باب: (تشبيك الأصابع في المسجد وغيره) (١/ ١٨٢)، حديث رقم (٤٦٦). قال: حدثنا خلاد بن يحيى قال: حدثنا سفيان عن أبي بردة بن عبد الله... به، وفي كتاب (المظالم)، باب: (نصر المظلوم) (٢/ ٨٦٣)، حديث رقم (٢٣١٤). قال: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة عن بريد... به، وفي كتاب (الأدب)، باب: (تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا) (٥/ ٢٢٤٢)، حديث رقم (٥٦٨٠). قال: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان عن أبي بردة... به، ومسلم في كتاب (البر والصلة)، باب: (تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم) (٤/ ١٩٩٩/ ٢٥٨٥). قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو عامر الأشعري قالا: حدثنا عبد الله بن إدريس وأبو أسامة، (ح) وحدثنا محمد بن العلاء أبو كريب، حدثنا ابن المبارك وابن إدريس وأبو أسامة، كلهم عن بريد عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ... الحديث بلفظ (المؤمن للمؤمن).

كَمَا تُزَفُّ الْعَرُوسُ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فُتِحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ بَابَانِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ مَزَارَ مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ كَافِرًا، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشُمَّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ» (١). هذا هو الذي رواه صاحب (الكشاف)، وأنا أقول: آل محمد ﷺ هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل، ولا شك أن فاطمة وعليًا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضًا اختلف الناس في الآل: فقيل: هم الأقارب. وقيل: هم أمته. فإن حملناه على القرابة فهم الآل، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضًا آل، فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه. وروى صاحب (الكشاف) أنه لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ فقال: «علي وفاطمة وابناهما» (٢)، فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي ﷺ وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، ويدل عليه وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ووجه الاستدلال به ما سبق. الثاني: لا شك أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة عليها السلام، قال ﷺ: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُؤْذِينِي مَا يُؤْذِيهَا» (٣) وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب عليًا والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] ولقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ولقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] الثالث: أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله: اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمدًا وآل

---

(١) **باطل موضوع**: رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ٥٦) من طريق يعقوب بن يوسف بن إسحاق، حدثنا محمد بن أسلم الطوسي، حدثنا يعلى بن عبيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره. وأورده ابن حجر الهيثمي في (الصواعق المحرقة) (٢/ ٦٦٤). وقال: قال الحافظ السخاوي: وآثار الوضع كما قال شيخنا أبي الحافظ ابن حجر لائحة عليه. وأورده الألباني في (الضعيفة) (٤٩٢٠). وقال: باطل موضوع.

(٢) أورده الزمخشري في (تغير الكشاف) (٦/ ١٩١)، ورواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ٥٢) من طريق برهان بن علي الصوفي، حدثنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي، حدثنا حرب بن الحسن الطحان، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس... فذكره.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (النكاح)، باب: (ذب الرجل عن ابنته في الغيرة) (٥/ ٢٠٠٤)، حديث رقم (٤٩٣٢)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٠٢/ ٢٤٤٩)، كلاهما من طريق ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة... به.

محمد. وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، وقال الشافعي رضي الله عنه:

يَا رَاكِبًا قِفْ بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى ... وَاهْتِفْ بِسَاكِنِ خَيْفِهَا وَالنَّاهِضِ
سَحَرًا إِذَا فَاضَ الْحَجِيجُ إِلَى مِنًى ... فَيْضًا كَمَا نَظْمِ الْفُرَاتِ الْفَائِضِ
إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلانِ أَنِّي رَافِضِي

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فيه منصب عظيم للصحابة لأنه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] فكل من أطاع الله كان مقربًا عند الله تعالى فدخل تحت قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله ﷺ وحب أصحابه، وهذا المنصب لا يسلم إلا على قول أصحابنا أهل السنّة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة، وسمعت بعض المذكورين قال: إنه ﷺ قال: «مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَ فِيهَا نَجَا»[(١)] وقال ﷺ: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ»[(٢)]. ونحن الآن في بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات، وراكب البحر يحتاج إلى أمرين: أحدهما: السفينة الخالية عن العيوب والثقب. والثاني: الكواكب

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا**: أخرجه الطبراني في (الكبير) (٣/ ٤٥)، حديث رقم (٢٦٣٦)، قال: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أبي جعفر... به، والبزار في مسنده (٩/ ٣٤٣)، حديث رقم (٣٩٠٠) من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله... فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ١٦٨)، ورواه البزار والطبراني في الثلاثة، وفي إسناد البزار الحسن بن أبي جعفر الجفري وفي إسناد الطبراني عبد الله بن زاهر، وهما متروكان.

(٢) **ضعيف**: أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٤/ ١٩٠). وقال: عبد بن حميد في مسنده من طريق حمزة النصيبي عن نافع عن ابن عمر، وحمزة ضعيف جدًا ورواه الدارقطني في غرائب مالك من طريق جميل بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر، وجميل لا يُعرف، ولا أصل له في حديث مالك ولا من فوقه، وذكره البزار من رواية عبد الرحيم بن زيد العَمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر، وعبد الرحيم كذاب، ومن حديث أنس أيضًا، وإسناده واهٍ ورواه القضاعي في مسند الشهاب له من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، وفي إسناده جعفر بن عبد الواحد الهاشمي وهو كذاب، ورواه أبو ذر الهروي في كتاب السنة من حديث مندل عن جويبر عن الضحاك بن مزاحم منقطعًا، وهو في غاية الضعف، قال أبو بكر البزار: هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ وقال ابن حزم: هذا خبر مكذوب موضوع باطل. وقال البيهقي في الاعتقاد عقب حديث أبي موسى الأشعري الذي أخرجه مسلم بلفظ «النجوم أمنة أهل السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» قال البيهقي: روي في حديث موصول قوي. يعني حديث عبد الرحيم العمى، وفي حديث منقطع. يعني حديث الضحاك ابن مزاحم «مثل أصحابي كمثل النجوم في السماء، من أخذ بنجم منها اهتدى» قال: والذي رويناه ههنا من الحديث الصحيح يؤدي بعض معناه. قلت: صدق البيهقي هو يؤدي صحة التشبيه للصحابة بالنجوم خاصة، أما في الاقتداء فلا يظهر في حديث أبي موسى، نعم يمكن أن يتلمح ذلك من معنى الاهتداء بالنجوم، وظاهر الحديث إنما هو إشارة إلى الفتن الحادثة بعد انقراض عصر الصحابة من طمس السنن، وظهور البدع، وفشو الفجور في أقطار الأرض، والله المستعان.

الظاهرة الطالعة النيرة، فإذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالبًا، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة، فرجُوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة.

ولنرجع إلى التفسير: أورد صاحب (الكشاف) على نفسه سؤالاً فقال: هلا قيل: إلا مودة القربى، أو إلا مودة للقربى، وما معنى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟ وأجاب عنه بأن قال: جعلوا مكانًا للمودة ومَقرًّا لها، كقوله (لي في آل فلان مودة) و(لي فيهم هوى وحب شديد)، تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ قيل: نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي الله عنه، والظاهر العموم في أي حسنة كانت، إلا أنها لما ذُكرت عقيب ذكر المودة في القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد في تلك المودة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ والشكور في حق الله تعالى مجاز، والمعنى أنه تعالى يُحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب إليهم، وفي أن يزيد عليه أنواعًا كثيرة من التفضيل.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ واعلم أن الكلام في أول السورة إنما ابتدئ في تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بوحي الله، وهو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣] واتصل الكلام في تقرير هذا المعنى وتعلق البعض بالبعض حتى وصل إلى ههنا، ثم حكى ههنا شبهة القوم وهي قولهم: إن هذا ليس وحيًا من الله تعالى. فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قال صاحب (الكشاف): (أم) منقطعة، ومعنى الهمزة نفس التوبيخ كأنه قيل: أيقع في قلوبهم ويجري في ألسنتهم أن ينسبوا مثله إلى الافتراء على الله الذي هو أقبح أنواع الفرية وأفحشها؟ ثم أجاب عنه بأن قال: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وفيه وجوه: الأول: قال مجاهد: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم: إنه مفتر كذاب. والثاني: يعني بهذا الكلام أنه إن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى يفتري عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل هذه الحالة. والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة في تقرير الاستبعاد، ومثاله أن ينسب رجل بعض الأمناء إلى الخيانة فيقول الأمين، لعلّ الله خذلني، لعلّ الله أعمى قلبي. وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه، وإنما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق، فلو كان محمد مبطلاً كذابًا لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما أيده بالقوة والنصرة، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس من الكاذبين المفترين على الله. ويجوز أن يكون هذا وعدًا من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والفرية والتكذيب، ويُثبت الحق الذي كان محمد ﷺ عليه.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي إن الله عليم بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك، وعن قتادة: يختم على قلبك: ينسيك القرآن ويقطع عنك الوحي، بمعنى لو افترى على الله الكذب لفعل الله به ذلك.

واعلم أنه تعالى لما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ثم برأ رسوله مما أضافوه إليه من هذا، وكان من المعلوم أنهم قد استحقوا بهذه الفرية عقابًا عظيمًا، لا جرم ندبهم الله إلى التوبة وعرَّفهم أنه يقبلها من كل مسيء وإن عظمت إساءته، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): يقال: قبلت منه الشيء وقبلته عنه، فمعنى (قبلته منه) أخذته منه وجعلته مبدأ قبول ومنشأه، ومعنى (قبلته عنه) أخذته وأثبته عنه وقد سبق البحث المستقصى عن حقيقة التوبة في سورة البقرة، وأقل ما لا بد منه الندم على الماضي، والترك في الحال، والعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل، وروى جابر أن أعرابيًا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: (اللّهم إني أستغفرك وأتوب إليك) وكبَّر، فلما فرغ من صلاته قال له علي عليه السلام: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، فتوبتك تحتاج إلى توبة. فقال: يا أمير المؤمنين وما التوبة؟ فقال: اسم يقع على ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: يجب على الله تعالى عقلاً قبول التوبة. وقال أصحابنا: لا يجب على الله شيء، وكل ما يفعله فإنما يفعله بالكرم والفضل. واحتجوا على صحة مذهبهم بهذه الآية فقالوا: إنه تعالى تَمَدَّح بقبول التوبة، ولو كان ذلك القبول واجبًا لما حصل التمدح العظيم، ألا ترى أن من مدح نفسه بأن لا يضرب الناس ظلمًا ولا يقتلهم غضبًا، كان ذلك مدحًا قليلاً، أما إذا قال: إني أحسن إليهم مع أن ذلك لا يجب عليَّ. كان ذلك مدحًا وثناءً.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إما أن يكون المراد منه أن يعفو عن الكبائر بعد الإتيان بالتوبة، أو المراد منه أنه يعفو عن الصغائر، أو المراد منه أنه يعفو عن الكبائر قبل التوبة، والأول باطل، وإلا لصار قوله: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عين قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ والتكرار خلاف الأصل، والثاني أيضًا باطل لأن ذلك واجب وأداء الواجب لا يُتمدح به، فبقي القسم الثالث فيكون المعنى أنه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة، وتارة يعفو ابتداء من غير توبة.

ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة، والباقون بالياء على المغايبة، والمعنى أنه تعالى يعلمه فيثيبه على حسناته ويعاقبه على سيئاته.

ثم قال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وفيه قولان: أحدهما: الذين

آمنوا وعملوا الصالحات رفع على أنه فاعل، تقديره: ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم إليه. والثاني: محله نصب والفاعل مضمر وهو الله، وتقديره: ويستجيب الله للمؤمنين. إلا أنه حذف اللام كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] وهذا الثاني أَوْلى لأن الخبر فيما قبل وبعد عن الله لأن ما قبل الآية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وما بعدها قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فيزيد عطف على (ويستجيب)، وعلى الأول: (ويجيب العبد ويزيد الله من فضله).

أما من قال: إن الفعل للذين آمنوا ففيه وجهان: أحدهما: ويجيب المؤمنون ربهم فيما دعاهم إليه. والثاني: يطيعونه فيما أمَرهم به، والاستجابة: الطاعة.

وأما من قال: إن الفعل لله. فقد اختلفوا: فقيل: يجيب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ما طلبوه من فضله، فإن قالوا: تخصيص المؤمنين بإجابة الدعاء هل يدل على أنه تعالى لا يجيب دعاء اكفار؟ قلنا: قال بعضهم: لا يجوز لأن إجابة الدعاء تعظيم، وذلك لا يليق بالكفار، وقيل: يجوز على بعض الوجوه، وفائدة التخصيص أن إجابة دعاء المؤمنين تكون على سبيل التشريف، وإجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج. ثم قال: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي يزيدهم على ما طلبوه بالدعاء ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ والمقصود التهديد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: إنه يجيب دعاء المؤمنين. وَرَدَ عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبلية وفقر، ثم يدعو فلا يشاهد أثر الإجابة، فكيف الحال فيه مع ما تقدم من قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟ فأجاب تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ولأقدموا على المعاصي، ولما كان ذلك محذورًا وجب أن لا يعطيهم ما طلبوه. قال الجبائي: هذه الآية تدل على بطلان قول المجبرة من وجهين: الأول: أن حاصل الكلام أنه تعالى لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، والبغي في الأرض غير مراد فإرادة بسط الرزق غير حاصلة، فهذا الكلام إنما يتم إذا قلنا: إنه تعالى يريد البغي في الأرض،

وذلك يوجب فساد قول المجبرة. الثاني: أنه تعالى بيّن أنه إنما لم يُرد بسط الرزق لأنه يفضي إلى المفسدة، فلما بيّن تعالى أنه لا يريد ما يفضي إلى المفسدة فبأن لا يكون مريدًا للمفسدة كان أَوْلى، أجاب أصحابنا بأن الميل الشديد إلى البغي والقسوة والقهر صفة حدثت بعد أن لم تكن، فلا بد لها من فاعل، وفاعل هذه الأحوال إما العبد أو الله، والأول باطل لأنه إنما يفعل هذه الأشياء لو مال طبعه إليها، فيعود السؤال في أنه مَن المُحدِث لذلك الميل الثاني؟ ويلزم التسلسل، وأيضًا فالميل الشديد إلى الظلم والقسوة عيوب ونقصانات، والعاقل لا يرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه، ولما بطل هذا ثبت أن محدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى، ثم أورد الجبائي في (تفسيره) على نفسه سؤالاً قال: فإن قيل: أليس قد بسط الله الرزق لبعض عباده مع أنه بغى؟ وأجاب عنه بأن الذي عنده الرزق وبغى كان المعلوم من حاله أنه يبغي على كل حال، سواء أعطي ذلك الرزق أو لم يعط. وأقول: هذا الجواب فاسد، ويدل عليه القرآن والعقل: أما القرآن فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] حكم مطلقًا بأن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان. وأما العقل فهو أن النفس إذا كانت مائلة إلى الشر لكنها كانت فاقدة للآلات والأدوات كان الشر أقل، وإذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر، فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان.

المسألة الثانية: في بيان الوجه الذي لأجله كان التوسع موجبًا للطغيان، ذكروا فيه وجوهًا: الأول: أن الله تعالى لو سَوَّى في الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادمًا للبعض، ولو صار الأمر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح. الثاني: أن هذه الآية مختصة بالعرب، فإنه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من المطر ما يرويهم ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم، أقدموا على النهب والغارة. الثالث: أن الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر، وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر، فعاد إلى الطاعة والتواضع.

المسألة الثالثة: قال خباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها. وقيل: نزلت في أهل الصُّفَّة تمنوا سعة الرزق والغنى.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (يُنْزِل) خفيفة والباقون بالتشديد، ثم نقول: (بقدر) بتقدير، يقال قدره قَدْرًا وقَدَرًا ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعني أنه عالم بأحوال الناس وبطباعهم وبعواقب أمورهم، فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم. ولما بيّن تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنه علم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم، بَيَّن أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنه لا يمنعهم منه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿يُنَزِّلُ﴾ مشددة والباقون مخففة، قال صاحب (الكشاف): قرئ: (قنطوا) بفتح النون وكسرها، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر؛ لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم، فكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه وما

يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتد القَحطُ وقنط الناس!! فقال: «إِذَنْ مُطِرُوا» أراد هذه الآية، ويجوز أن يريد رحمته الواسعة في كل شيء، كأنه قيل: ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر سائر أنواع الرحمة ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ﴿ٱلْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه و﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة.

ثم ذكر آية أخرى تدل على إلهيته فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾ فنقول: أما دلالة خلق السموات والأرض على وجود الإله الحكيم، فقد ذكرناها، وكذلك دلالة وجود الحيوانات على وجود الإله الحكيم، فإن قيل: كيف يجوز إطلاق لفظ الدابة على الملائكة؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: أنه قد يضاف الفعل إلى جماعة وإن كان فاعله واحدًا منهم، يقال: بنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله واحد منهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] الثاني: أن الدبيب هو الحركة، والملائكة لهم حركة. الثالث: لا يبعد أن يقال: إنه تعالى خلق في السموات أنواعًا من الحيوانات يمشون مشي الأناسي على الأرض.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ قال صاحب (الكشاف): (إذا) تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] ومنه ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ والمقصود أنه تعالى خلقها متفرقة، لا لعجز ولكن لمصلحة؛ فلهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ يعني الجمع للحشر والمحاسبة، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ ولم يقل على جمعها؛ لأجل أن المقصود من هذا الجمع المحاسبة، فكأنه تعالى قال: وهو على جمع العقلاء إذا يشاء قدير. واحتج الجبائي بقوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ على أن مشيئته تعالى محدثة بأن قال: إن كلمة (إذا) تفيد ظرف الزمان، وكلمة ﴿يَشَآءُ﴾ صيغة المستقبل، فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخصيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل فائدة، ولما دل قوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ على هذا التخصيص، علمنا أن مشيئته تعالى محدثة. والجواب: أن هاتين الكلمتين كما دخلتا على المشيئة، أي مشيئة الله، فقد دخلتا أيضًا على لفظ القدير فلزم على هذا أن يكون كونه قادرًا صفة محدثة، ولما كان هذا باطلاً، فكذا القول فيما ذكره، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء، وكذلك هي في مصاحف الشام والمدينة، والباقون بالفاء وكذلك هي في مصاحفهم، وتقدير الأول أن (ما) مبتدأ بمعنى الذي، وبـ(ما) كسبت خبره، والمعنى: والذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم، وتقدير الثاني تضمين كلمة (ما) معنى الشرطية.

المسألة الثانية: المراد بهذه المصائب الأحوال المكروهة نحو الآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق وأشباهها. واختلفوا في نحو الآلام أنها هل هي عقوبات على ذنوب سلفت أم لا؟

منهم من أنكر ذلك لوجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ﴾ [غافر: ١٧]

بيّن تعالى أن الجزاء إنما يحصل في يوم القيامة، وقال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي يوم الجزاء، وأطبقوا على أن المراد منه يوم القيامة. والثاني: أن مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصِّديق، وما يكون كذلك امتنع جعله من باب العقوبة على الذنوب، بل الاستقراء يدل على أن حصول هذه المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين، ولهذا قال ﷺ: «خُصَّ الْبَلاَءُ بِالأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الأَوْلِيَاءِ، ثُمَّ الأَمْثَلِ فَالأَمْثَلِ»(١) الثالث: أن الدنيا دار التكليف، فلو جعل الجزاء فيها لكانت الدنيا دار التكليف ودار الجزاء معًا، وهو محال.

وأما القائلون بأن هذه المصائب قد تكون أجزية على الذنوب المتقدمة، فقد تمسكوا أيضًا بما روي عن النبي ﷺ أن قال: «لاَ يُصِيبُ ابْنُ آدَمَ خَدْشُ عُودٍ وَلاَ غَيْرُهُ إِلاَّ بِذَنْبٍ»(٢) أو لفظ هذا معناه، وتمسكوا أيضًا بهذه الآية، وتمسكوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ﴾ [النساء: ١٦٠] وتمسكوا أيضًا بقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى: ٣٤] وذلك تصريح بأن ذلك الإهلاك كان بسبب كسبهم. وأجاب الأولون عن التمسك بهذه الآية فقالوا إن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة كما في حق الأنبياء والأولياء، ويُحمل قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ على أن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم. وكذا الجواب عن بقية الدلائل، والله أعلم.

المسألة الثالثة: احتج أهل التناسخ بهذه الآية، وكذلك الذين يقولون: إن الأطفال والبهائم لا تتألم، فقالوا: دلّت الآية على أن حصول المصائب لا يكون إلا لسابقة الجرم. ثم إن أهل التناسخ قالوا: لكن هذه المصائب حاصلة للأطفال والبهائم، فوجب أن يكون قد حصل لها ذنوب في الزمان السابق، وأما القائلون بأن الأطفال والبهائم ليس لها ألم قالوا: قد ثبت أن هذه الأطفال والبهائم ما كانت موجودة في بدن آخر لفساد القول بالتناسخ، فوجب القطع بأنها لا تتألم إذ الألم مصيبة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي في كتاب (الزهد)، باب: (في الصبر على البلاء) (٤/ ٥٢٠)، حديث رقم (٢٣٩٨) من طريق حماد بن زيد... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (الفتن)، باب (الصبر على البلاء) (٢/ ١٣٣٤)، حديث رقم (٤٠٢٣) من طريق حماد بن زيد... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ١٧٢)، حديث رقم (١٤٨١) من طريق سفيان... به، والدارمي في كتاب (الرقاق) باب: (في أشد الناس بلاء) (٢/ ٢٠٦)، حديث رقم (٢٧٨٣) من طريق سفيان عن عاصم... به، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٤٠)، والبيهقي في (السنن) (٣/ ٣٧٢)، جميعًا من طريق عاصم عن مصعب بن سعد عن سعد قال: ثم سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه...» الحديث.

(٢) **ضعيف**: رواه عبد الرزاق في (تفسيره) (٦/ ١٩٩)، حديث رقم (٢٦٥٣) من طريق الثوري عن إسماعيل عن الحسن... به، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ٦٥)، من طريق أبي معاوية الضرير عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن... به، ووكيع في (الزهد) (١/ ١٠٦/ ٩٠) من طريق رجل عن الحسن... به، وأورده الألباني في (الضعيفة) (١٧٩٦). وقال: ضعيف.

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ خطاب مع من يفهم ويعقل، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال، ولم يقل تعالى: إن جميع ما يصيب الحيوان من المكاره فإنه بسبب ذنب سابق، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ يقتضي إضافة الكسب إلى اليد، قال: والكسب لا يكون باليد، بل بالقدرة القائمة باليد، وإذا كان المراد من لفظ اليد هاهنا القدرة، وكان هذا المجاز مشهورًا مستعملًا، كان لفظ اليد الوارد في حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيهًا لله تعالى عن الأعضاء والأجزاء، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ ومعناه أنه تعالى قد يترك الكثير من هذه التشديدات بفضله ورحمته.

وعن الحسن قال: دخلنا على عمران بن حصين في الوجع الشديد، فقيل له: إنا لنغتم لك من بعض ما نرى! فقال: لا تفعلوا فوالله إن أحبه إلى الله أحبه إليَّ!! وقرأ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فهذا بما كسبت يداي، وسيأتيني عفو ربي!! وقد روى أبو سخلة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «**مَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ أَعَزُّ وَأَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا عَاقَبَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعِيدَ الْعَذَابَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ**»[(١)] رواه الواحدي في (البسيط)، وقال: إذا كان كذلك فهذه أرجى آية في كتاب الله لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفَّره عنهم بالمصائب في الدنيا، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفوه، وهذه سنّة الله مع المؤمنين، وأما الكافر فلأنه لا يعجل عليه عقوبة ذنبه حتى يوافي ربه يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يقول: ما أنتم معشر المشركين بمعجزين في الأرض، أي لا تعجزونني حيثما كنتم، فلا تسبقونني بسبب هربكم في الأرض ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ والمراد بهم من يعبد الأصنام، بين أنه لا فائدة فيها ألبتة، والنصير هو الله تعالى، فلا جرم هو الذي تحسن عبادته.

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

(١) لم أجده.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وأبو عمرو (الجواري) بياء في الوصل والوقف، فإثبات الياء في الأصل وحذفها للتخفيف.

المسألة الثانية: الجواري، يعني السفن الجواري، فحذف الموصوف لعدم الالتباس.

المسألة الثالثة: اعلم أنه تعالى ذكر من آياته أيضًا هذه السفن العظيمة التي تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح، واعلم أن المقصود من ذكره أمران: أحدهما: أن يستدل به على وجود القادر الحكيم. والثاني: أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد. أما الوجه الأول: فقد اتفقوا على أن المراد بالأعلام الجبال، قالت الخنساء في مرثية أخيها[1]:

وَإِنَّ صخرًا لتأتم الهداة بهِ ... كأنَّهُ علمٌ في رأسِهِ نارُ

ونُقل أن النبي ﷺ استنشد قصيدتها هذه، فلما وصل الراوي إلى هذا البيت، قال: «قَاتَلَهَا اللَّهُ مَا رَضِيَتْ بِتَشْبِيهِهَا لَهُ بِالْجَبَلِ حَتَّى جَعَلَتْ عَلَى رَأْسِهِ نَارًا!». إذا عرفت هذا فنقول: هذه السفن العظيمة التي تكون كالجبال - تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه، وعند سكون هذه الرياح تقف، وقد بينا بالدليل في سورة النحل أن محرك الرياح ومُسكنها هو الله تعالى، إذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها، وذلك يدل على وجود الإله القادر، وأيضًا أن السفينة تكون في غاية الثقل، ثم إنها مع ثقلها بقيت على وجه الماء، وهو أيضًا دلالة أخرى. وأما الوجه الثاني: - وهو معرفة ما فيها من المنافع - فهو أنه تعالى خص كل جانب من جوانب الأرض بنوع آخر من الأمتعة، وإذا نقل متاع هذا الجانب إلى ذلك الجانب في السفن وبالعكس، حصلت المنافع العظيمة في التجارة؛ فلهذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ قرأ أبو عمرو والجمهور بهمزة: ﴿إِن يَشَأۡ﴾ لأن سكون الهمزة علامة للجزم، وعن ورش عن نافع بلا همزة، وقرأ نافع وحده: (يسكن الرياح) على الجمع، والباقون ﴿ٱلرِّيحَ﴾ على الواحد، قال صاحب (الكشاف): قرئ (يظللن) بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل، وقوله تعالى: ﴿رَوَاكِدَ﴾ أي رواتب، أي لا تجري على ظهره، أي على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على بلاء الله ﴿شَكُورٍ﴾

---

(١) تقدمت ترجمة الخنساء.

لنعمائه، والمقصود التنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلاً عن دلائل معرفة الله ألبتة؛ لأنه لا بد وأن يكون إما في البلاء وإما في الآلاء، فإن كان في البلاء كان من الصابرين، وإن كان من النعماء كان من الشاكرين، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون ألبتة من الغافلين.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني أو يهلكهن، يقال أوبقه، أي أهلكه، ويقال للمجرم: أوبقته ذنوبه، أي أهلكته، والمعنى أنه تعالى إن شاء ابتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فتركد الجواري على متن البحر وتقف، وإما أن يرسل الرياح عاصفة فيها فيهلكن بسبب الإغراق، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ معطوف على قوله ﴿يُسْكِنِ﴾ لأن التقدير إن يشأ يسكن الريح فيركدن، أو يعصفها فيغرقن بعصفها، وقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ معناه إن يشأ يهلك ناسًا ويُنج ناسًا عن طريق العفو عنهم، فإن قيل: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جعل مجزومًا مثله، قلنا معناه إن يشأ يهلك ناسًا وينج ناسًا على طريق العفو عنهم، وأما من قرأ: (ويعفو) فقد استأنف الكلام.

ثم قال: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ قرأ نافع وابن عامر: (يعلم) بالرفع على الاستئناف، وقرأ الباقون بالنصب، فالقراءة بالرفع على الاستئناف، وأما بالنصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون في آياتنا. والعطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢] قال صاحب (الكشاف): ومن قرأ على جزم (ويعلم) فكأنه قال: أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم، ونجاة قوم، وتحذير آخرين. إذا عرفت هذا فنقول: معنى الآية ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ أي ينازعون على وجه التكذيب، أن لا مخلص لهم إذا وقفت السفن، وإذا عصفت الرياح، فيصير ذلك سببًا لاعترافهم بأن الإله النافع الضار ليس إلا الله.

واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتنفير عن الدنيا وتحقير شأنها؛ لأن الذي يمنع من قبول الدليل إنما هو الرغبة في الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه، فإذا صغرت الدنيا في عين الرجل لم يلتفت إليها، فحينئذٍ ينتفع بذكر الدلائل فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وسماه متاعًا تنبيهًا على قلته وحقارته، ولأن الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فإنه يكون سريع الانقراض والانقضاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ والمعنى أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة، ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع، ونبّه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا، وأما الآخرة فإنها خير وأبقى، وصريح العقل يقتضي ترجيح الخير الباقي على الخسيس الفاني. ثم بيّن أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفًا بصفات:

الصفة الأولى: أن يكون من المؤمنين، بدليل قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الصفة الثانية: أن يكون من المتوكلين على فضل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب، فهو متكل على عمل نفسه لا على الله، فلا يدخل تحت الآية.

الصفة الثالثة: أن يكونوا مجتنبين لكبائر الإثم والفواحش، عن ابن عباس: كبير الإثم هو الشرك. نقله صاحب (الكشاف) وهو عندي بعيد؛ لأن شرط الإيمان مذكور أولاً وهو يغني عن عدم الشرك، وقيل: المراد بكبائر الإثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات، وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية، وبقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ما يتعلق بالقوة الغضبية، وإنما خص الغضب بلفظ الغفران؛ لأن الغضب على طبع النار، واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة؛ فلهذا السبب خصّه بهذا اللفظ، والله أعلم.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ والمراد منه تمام الانقياد، فإن قالوا: أليس أنه لما جعل الإيمان شرطًا فيه فقد دخل في الإيمان إجابة الله؟ قلنا: الأقرب عندي أن يُحمل هذا على الرضاء بقضاء الله من صميم القلب، وأن لا يكون في قلبه منازعة في أمر من الأمور.

ولما ذكر هذا الشرط قال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ والمراد منه إقامة الصلوات الواجبة، لأن هذا هو الشرط في حصول الثواب.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فقيل: كان إذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم، أي لا ينفردون برأي، بل ما لم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه، وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم. والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور، ومعنى قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي ذو شورى.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ والمعنى أن يقتصروا في الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه، وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يُذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم السفهاء. فإن قيل: هذه الآية مشكلة لوجهين: الأول: أنه لما ذكر قبله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فكيف يليق أن يذكر معه ما يجري مجرى الضد له وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾؟ الثاني: وهو أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية. والجواب: أن العفو على قسمين: أحدهما: أن يكون العفو سببًا لتسكين الفتنة وجناية الجاني ورجوعه عن جنايته. والثاني: أن يصير العفو سببًا لمزيد جراءة الجاني ولقوة غيظه وغضبه، والآيات في العفو محمولة على القسم الأول، وهذه الآية محمولة على القسم الثاني، وحينئذٍ يزول التناقض، والله أعلم، ألا ترى أن العفو عن المُصر يكون كالإغراء له

ولغيره؟ فلو أن رجلًا وجد عبده فجر بجاريته وهو مُصر، فلو عفا عنه كان مذمومًا، وروي أن زينب أقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبي ﷺ عنها فلم تنته، فقال النبي ﷺ: «دُونَكِ فَانْتَصِرِي»[(١)] وأيضًا إنه تعالى لم يرغب في الانتصار بل بيّن أنه مشروع فقط، ثم بيّن بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة، ثم بيّن أن العفو أولى بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزال السؤال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيدًا بالمثل، فإن النقصان حيف والزيادة ظلم، والتساوي هو العدل وبه قامت السموات والأرض؛ فلهذا السبب قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: جزاء السيئة مشروع مأذون فيه، فكيف سمي بالسيئة؟ أجاب صاحب (الكشاف) عنه كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨] يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا. وأجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما في مقابلة الآخر على سبيل المجاز، أطلق اسم أحدهما على الآخر، والحق ما ذكره صاحب (الكشاف).

(١) إسناده صحيح: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (١/ ٦٢٧)، حديث رقم (١٩٨١)، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٩٣)، حديث رقم (٢٤٦٦٤)، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ١٩٦)، حديث رقم (٥٥٨)، وابن راهويه في (مسنده) (٣/ ١٠٣٠)، حديث رقم (١٧٨١)، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٤٥٣)، حديث رقم (١١٤٧٦)، جميعًا من طريق خالد بن سلمة عن البهي عن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة... فذكره.

المسألة الثانية: هذه الآية أصل كبير في علم الفقه، فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها؛ وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان؛ لأن في طبع كل أحد الظلم والبغي والعدوان، فإذا لم يُزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم، والشرع منزّه عنه، فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل، ثم تأكد هذا النص بنصوص أُخر، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] وقوله عزّ وجلّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] فهذه النصوص بأسرها تقتضي مقابلة الشيء بمثله. ثم هاهنا دقيقة: وهي أنه إذا لم يمكن استيفاء الحق إلا باستيفاء الزيادة، فههنا وقع التعارض بين إلحاق زيادة الضرر بالجاني وبين منع المجني عليه من استيفاء حقه، فأيهما أولى؟ فههنا محل اجتهاد المجتهدين، ويختلف ذلك باختلاف الصور، وتُفرع على هذا الأصل بعض المسائل تنبيهًا على الباقي:

المثال الأول: احتج الشافعي رضي الله عنه على أن المسلم لا يُقتل بالذمي وأن الحر لا يُقتل بالعبد، بأن قال: المماثلة شرط لجريان اللقصاص وهي مفقودة في هاتين المسألتين، فوجب أن لا يجري القصاص بينهما، أما بيان أن المماثلة شرط لجريان القصاص فهي النصوص المذكورة، وكيفية الاستدلال بها أن نقول: إما أن نحمل المماثلة المذكورة في هذه النصوص على المماثلة في كل الأمور إلا ما خصّه الدليل، أو نحملها على المماثلة في أمر معين، والثاني مرجوح لأن ذلك الأمر المعين غير مذكور في الآية، فلو حملنا الآية عليها لزم الإجمال، ولو حملنا النص على القسم الأول لزم تحمل التخصيص، ومعلوم أن دفع الإجمال أَوْلى من دفع التخصيص، فثبت أن الآية تقتضي رعاية المماثلة في كل الأمور إلا ما خصّه دليل العقل ودليل نقلي منفصل، وإذا ثبت هذا فنقول: رعاية المماثلة في قتل المسلم بالذمي وفي قتل الحر بالعبد - لا تمكن؛ لأن الإسلام اعتبره الشرع في إيجاب القتل لتحصيله عند عدمه كما في حق الكافر الأصلي، ولإبقائه عند وجوده كما في حق المرتد، وأيضًا الحرية صفة اعتبرها الشرع في حق القضاء والإمامة والشهادة، فثبت أن المماثلة شرط لجريان القصاص، وهي مفقودة ههنا فوجب المنع من القصاص.

المثال الثاني: احتج الشافعي رضي الله عنه في أن الأيدي تُقطع باليد الواحدة، فقال: لا شك أنه إذا صدر كل القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم، فوجب أن يشرع في حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص، وكل من قال يشرع القطع إما كله أو بعضه في حق كلهم أو بعضهم، قال بإيجابه على الكل، بقي أن يقال: فيلزم منه استيفاء الزيادة من الجاني وهو ممنوع منه إلا أنا نقول: لما وقع التعارض بين جانب الجاني وبين جانب المجني عليه، كان جانب المجني عليه بالرعاية أَوْلى.

المثال الثالث: شريك الأب شرع في حقه القصاص، والدليل عليه أنه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة: ٤٥] وإذا ثبت هذا ثبت تمام القصاص لأنه لا قائل بالفرق.

المثال الرابع: قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: من حَرَّق حرقناه، ومَن غَرَّق غرقناه، والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شيء بمماثله.

المثال الخامس: شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا: (تعمدنا الكذب) يلزمهم القصاص لأنهم بتلك الشهادة أهدروا دمه، فوجب أن يصير دمهم مهدرًا لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾.

المثال السادس: قال الشافعي رضي الله عنه: المكره يجب عليه القود؛ لأنه صدر عنه القتل ظلمًا فوجب أن يجب عليه مثله، أما أنه صدر عنه القتل فالحس يدل عليه، وأما أنه قتل ظلمًا فلأن المسلمين أجمعوا على أنه مكلف من قِبل الله تعالى بأن لا يقتل، وأجمعوا على أنه يستحق به الإثم العظيم والعقاب الشديد، وإذا ثبت هذا فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾.

المثال السابع: قال الشافعي رضي الله عنه: القتل بالمثقل يوجب القود، والدليل عليه أن الجاني أبطل حياته، فوجب أن يتمكن ولي المقتول من إبطال حياة القاتل لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾.

المثال الثامن: الحر لا يُقتل بالعبد قصاصًا، ونحن وإن ذكرنا هذه المسألة في المثال الأول إلا أنا نذكر هاهنا وجهًا آخر من البيان، فنقول: إن القاتل أتلف على مالك العبد شيئًا يساوي عشرة دنانير مثلاً، فوجب عليه أداء عشرة دنانير لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ وإذا وجب الضمان وجب أن لا يجب القصاص لأنه لا قائل بالفرق.

المثال التاسع: منافع الغصب مضمونة عند الشافعي رضي الله عنه، والدليل عليه أن الغاصب فَوَّت على المالك منافع تقابل في العرف بدينار، فوجب أن يفوت على الغاصب مثله من المال لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ وكل من أوجب تفويت هذا القدر على الغاصب قال بأنه يجب أداؤه إلى المغصوب منه.

المثال العاشر: الحر لا يقتل بالعبد قصاصًا لأنه لو قُتل بالعبد لكان هو مساويًا للعبد في المعاني الموجبة للقصاص لقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ [غافر: ٤٠] ولسائر النصوص التي تلوناها، ثم إن عبده يُقتل قصاصًا بعبد نفسه فيجب أن يكون عبد غيره مساويًا لعبد نفسه في المعاني الموجبة للقصاص لعين هذه النصوص التي ذكرناها، فعلى هذا التقدير يكون عبد نفسه مساويًا لعبد غيره في المعاني الموجبة للقصاص، فكان عبد نفسه مثلاً لمثل نفسه، ومثل المثل مثل، فوجب كون عبد نفسه مثلاً لنفسه في المعاني الموجبة للقصاص، ولو قُتل الحر بعبد غيره لقُتل بعبد نفسه بالبيان الذي ذكرناه ولا يُقتل بعبد نفسه، فوجب أن لا يُقتل بعبد غيره، فقد ذكرنا

هذه الأمثلة العشرة في التفريع على هذه الآية، ومن أخذت الفطانة بيده سهل عليه تفريع كثير من مسائل الشريعة على هذا الأصل، والله أعلم. ثم هاهنا بحث: وهو أن أبا حنيفة رضي الله عنه قال في قطع الأيدي: لا شك أنه صدر كل القطع أو بعضه عن كلهم أو عن بعضهم، إلا أنه لا يمكن استيفاء ذلك الحق إلا باستيفاء الزيادة لأن تفويت عشرة من الأيدي أزيد من تفويت يد واحدة، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة. فقال الشافعي رضي الله عنه: لو كان تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة يد واحدة حرامًا، لكان تفويت عشرة من النفوس في مقابلة نفس واحدة حرامًا؛ لأن تفويت النفس يشتمل على تفويت اليد، فتفويت عشرة من النفوس في مقابلة النفس الواحدة يوجب تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة، فلو كان تفويت عشرة من الأيدي في مقابلة اليد الواحدة حرامًا، لكان تفويت عشرة من النفوس لأجل النفس الواحدة مشتملاً على الحرام، وكل ما اشتمل على الحرام فهو حرام، فكان يجب أن يحرم قتل النفوس العشرة في مقابلة النفس الواحدة، وحيث أجمعنا على أنه لا يحرم عَلِمنا أن ما ذكرتم من استيفاء الزيادة غير ممنوع منه شرعًا، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قد بينا أن قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ يقتضي وجوب رعاية المماثلة مطلقًا في كل الأحوال إلا فيما خصه الدليل، والفقهاء أدخلوا التخصيص فيه في صور كثيرة، فتارة بناء على نص آخر أخص منه، وأخرى بناء على القياس، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعليه البيان، والمكلف يكفيه أن يتمسك بهذا النص في جميع المطالب، قال مُجاهد والسدي: إذا قال له: أخزاه الله، فليقل له: أخزاه الله، أما إذا قذفه قذفًا يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذي أمَر الله به.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهو وعد مبهم لا يقاس أمره في التعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفيه قولان: الأول: أن المقصود منه التنبيه على أن المجني عليه لا يجوز له استيفاء الزيادة من الظالم؛ لأن الظالم فيما وراء ظلمه معصوم والانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز التسوية والتعدي، خصوصًا في حال الحرب والتهاب الحمية، فربما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالمًا، وعن النبي ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ**»، قَالَ: «**فَيَقُومُ خُلُقٌ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا أَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ الَّذِينَ عَفَوْنَا عَمَّنْ ظَلَمَنَا. فَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى**»[(١)] الثاني: أنه

---

(١) رواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٦/ ٣١٥)، حديث رقم (٨٣١٣)، وابن أبي عاصم في (الديات) (١/ ٢٦٧)، حديث رقم (١٨٥)، كلاهما من طريق أبي سلمة، وهو يحيى بن خلف، أخبرنا الفضل بن سنان عن غالب القطان عن الحسن عن أنس . . . بنحوه، وإسناده صحيح.

تعالى لما حثّ على العفو عن الظالم أخبر أنه مع ذلك لا يحبه تنبيهًا على أنه إذ كان لا يحبه ومع ذلك فإنه يندب إلى عفوه، فالمؤمن الذي هو حبيب الله بسبب إيمانه أَوْلى أن يعفو عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي ظالم الظالم إياه، وهذا من باب إضافة المصدر إلى المفعول ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني المنتصرين ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ كعقوبة ومؤاخذة لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار، واحتج الشافعي رضي الله تعالى عنه بهذه الآية في بيان أن سراية القود مهدرة، فقال: الشرع إما أن يقال: إنه أذن له في القطع مطلقًا أو بشرط عدم السريان، وهذا الثاني باطل لأن الأصل في القطع الحرمة، فإذا كان تجويزه معلقًا بشرط أن لا يحصل منه السريان، وكان هذا الشرط مجهولاً، وجب أن يبقى ذلك القطع على أصل الحرمة؛ لأن الأصل فيها هو الحرمة، والحل إنما يحصل معلقًا على شرط مجهول، فوجب أن يبقى ذلك أصل الحرمة، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الشرع أذن له في القطع كيف كان، سواء سرى أو لم يسرِ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون ذلك السريان مضمونًا لأنه قد انتصر من بعد ظلمه، فوجب أن لا يحصل لأحد عليه سبيل.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي يبدأون بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ والمعنى ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ بأن لا يقتص ﴿وَغَفَرَ﴾ وتجاوز ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتجاوز ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يعني أن عزمه على ترك الانتصار لمن عزم الأمور الجيدة. وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حُذف من قولهم: (السمن منوان بدرهم) ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن، فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام وتلا هذه الآية، فقال الحسن: عَقَلها والله وفَهِمها لمَّا ضيعها الجاهلون.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه، أي من بعد إضلال الله إياه، وهذا صريح في جواز الإضلال من الله تعالى، وفي أن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى، قال القاضي: المراد من يضلل الله عن الجنة فما له من ولي من بعده ينصره. والجواب: أن تقييد الإضلال بهذه الصورة المعينة خلاف الدليل، وأيضًا فالله تعالى ما أضله عن الجنّة على قولكم، بل هو أضل نفسه عن الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ والمراد أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب، ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذل، ثم قال: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة، كما ترى الذي يتيقن أن يُقتل فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه، كما يفعل في نظره إلى المحبوبات، فإن قيل: أليس أنه تعالى

قال في صفة الكفار: إنهم يُحشرون عميًا، فكيف قال هاهنا: إنهم ينظرون من طرف خفي؟ قلنا: لعلّهم يكونون في الابتداء هكذا، ثم يُجعلون عميًا أو لعلّ هذا في قوم، وذلك في قوم آخرين. ولما وصف الله تعالى حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إما أن يتعلق بخسروا أو يكون قول المؤمنين واقعًا في الدنيا، وإما أن يتعلق بقال، أي يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي دائم، قال القاضي: وهذا يدل على أن الكافر والفاسق يدوم عذابهما. والجواب: أن لفظ الظالم المطلق في القرآن مخصوص بالكفر، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] والذي يؤكد هذا أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى أن الأصنام التي كانوا يعبدونها لأجل أن تشفع لهم عند الله تعالى ما أتوا بتلك الشفاعة، ومعلوم أن هذا لا يليق إلا بالكفار. ثم قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ وذلك يدل على أن المضل والهادي هو الله تعالى، على ما هو قولنا ومذهبنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعد والوعيد، ذكر بعده ما هو المقصود فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يكون صلة لقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ يعني لا يرده الله بعد ما حكم به، ويجوز أن يكون صلة لقوله: ﴿يَأْتِىَ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده، واختلفوا في المراد بذلك اليوم: فقيل: يوم ورود الموت. وقيل: يوم القيامة لأنه وصف ذلك اليوم بأنه لا مرد له، وهذا الوصف موجود في كلا اليومين، ويحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أنه لا يقبل التقديم والتأخير، أو أن يكون معناه أن لا مرد فيه إلى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافي.

ثم قال تعالى في وصف ذلك اليوم: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ ينفع في التخلص من العذاب ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر، ويجوز أن يكون المراد

من النكير الإنكار، أي لا تقدرون أن تنكروا شيئًا مما اقترفتموه من الأعمال ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي هؤلاء الذين أمرتهم بالاستجابة، أي لم يقبلوا هذا الأمر ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ بأن تحفظ أعمالهم وتحصيها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وذلك تسلية من الله تعالى، ثم إنه تعالى بيّن السبب في إصرارهم على مذاهبهم الباطلة، وذلك أنهم وجدوا في الدنيا سعادة وكرامة الفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والفجور والتكبر وعدم الانقياد للحق فقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ ونِعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر؛ فلذلك سماها ذوقًا، فبيّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير الذي حصل في الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى ووصل إلى أقاصي السعادات، وهذه طريقة مَن يَضعف اعتقاده في سعادات الآخرة، وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذي لا يعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة، ثم بيّن أنه متى أصابتهم سيئة، أي شيء يسوءهم في الحال كالمرض والفقر وغيرهما، فإنه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ والكفور الذي يكون مبالغًا في الكفران ولم يقل: (فإنه كفور)، ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة إلا إذا أدبها الرجل بالآداب التي أرشد الله إليها. ولما ذكر الله إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها أتبع ذلك بقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمقصود منه أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، بل إذا علم أن الكل مِلك الله ومُلكه، وأنه إنما حصل ذلك القدر تحت يده لأن الله أنعم عليه به، فحينئذٍ يصير ذلك حاملاً له على مزيد الطاعة والخدمة، وأما إذا اعتقد أن تلك النعم إنما تحصل بسبب عقله وجده واجتهاده، بقي مغرورًا بنفسه معرضًا عن طاعة الله تعالى. ثم ذكر من أقسام تصرف الله في العالم أنه يخص البعض بالأولاد والإناث، والبعض بالذكور، والبعض بهما، والبعض بأن يجعله محرومًا من الكل، وهو المراد من قوله: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾.

واعلم أن أهل الطبائع يقولون: السبب في حدوث الولد صلاح حال النطفة والرحم، وسبب الذكورة استيلاء الحرارة، وسبب الأنوثة استيلاء البرودة، وقد ذكرنا هذا الفصل بالاستقصاء التام في سورة النحل، وأبطلناه بالدلائل اليقينية، وظهر أن ذلك من الله تعالى لا أنه من الطبائع والأنجم والأفلاك.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أنه قَدَّم الإناث في الذِّكر على الذكور فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ ثم في الآية الثانية قَدَّم الذكور على الإناث فقال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ فما السبب في هذا التقديم والتأخير؟

السؤال الثاني: أنه ذكر الإناث على سبيل التنكير فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ وذكر الذكور بلفظ التعريف فقال: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فما السبب في هذا الفرق؟

السؤال الثالث: لـمَ قال في إعطاء الإناث وحدهن، وفي إعطاء الذكور وحدهم بلفظ الهبة فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ وقال في إعطاء الصنفين معًا: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾.

والسؤال الرابع: لما كان حصول الولد هبة من الله، فيكفي في عدم حصوله أن لا يهب، فأي حاجة في عدم حصوله إلى أن يقول: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾؟

السؤال الخامس: هل المراد من هذا الحكم جَمْع معينون، أو المراد الحكم على الإنسان المطلق؟

والجواب عن السؤال الأول من وجوه: الأول: أن الكريم يسعى في أن يقع الختم على الخير والراحة والسرور والبهجة، فإذا وهب الولد الأنثى أولاً ثم أعطاه الذكر بعده، فكأنه نقله من الغم إلى الفرح، وهذا غاية الكرم، أما إذا أعطى الولد أولاً ثم أعطى الأنثى ثانيًا، فكأنه نقله من الفرح إلى الغم، فذكر تعالى هبة الولد الأنثى أولاً وثانيًا هبة الولد الذكر حتى يكون قد نقله من الغم إلى الفرح، فيكون ذلك أليق بالكرم. **الوجه الثاني:** أنه إذا أعطى الولد الأنثى أولاً، علم أنه لا اعتراض له على الله تعالى فيرضى بذلك، فإذا أعطاه الولد الذكر بعد ذلك علم أن هذه الزيادة فضل من الله تعالى وإحسان إليه، فيزداد شكره وطاعته، ويعلم أن ذلك إنما حصل بمحض الفضل والكرم. **والوجه الثالث:** قال بعض المذكرين الأنثى ضعيفة ناقصة عاجزة، فقدم ذكرها تنبيهًا على أنه كلما كان العجز والحاجة أتم كانت عناية الله به أكثر. **الوجه الرابع:** كأنه يقال: أيتها المرأة الضعيفة العاجزة إن أباك وأمك يكرهان وجودك، فإن كانا قد كرها وجودك فأنا قدمتك في الذكر لتعلمي أن المحسن المكرم هو الله تعالى. فإذا علمت المرأة ذلك زادت في الطاعة والخدمة والبعد عن موجبات الطعن والذم، فهذه المعاني هي التي لأجلها وقع ذكر الإناث مقدمًا على ذكر الذكور. وإنما قدم ذكر الذكور بعد ذلك على ذكر الإناث لأن الذكَر أكمل وأفضل من الأنثى، والأفضل الأكمل مقدم على الأخس الأرذل، والحاصل أن النظر إلى كونه ذكرًا أو أنثى يقتضي تقديم ذِكر الذكَر على ذِكر الأنثى، أما العوارض الخارجية التي ذكرناها فقد أوجبت تقديم ذكر الأنثى على ذكر الذكر، فلما حصل المقتضي للتقديم والتأخير في البابين لا جرم قدم هذا مرة وقدم ذلك مرة أخرى، والله أعلم.

وأما السؤال الثاني: - وهو قوله: لـمَ عَبَّر عن الإناث بلفظ التنكير، وعن الذكور بلفظ التعريف؟ فجوابه: أن المقصود منه التنبيه على كون الذكَر أفضل من الأنثى.

وأما السؤال الثالث: - وهو قوله: لـمَ قال تعالى في إعطاء الصنفين: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾؟ فجوابه: أن كل شيئين يُقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان، وكل واحد منهما يقال له زوج، والكناية في ﴿يُزَوِّجُهُمۡ﴾ عائدة على الإناث والذكور التي في الآية الأولى، والمعنى يقرن الإناث والذكور فيجعلهم أزواجًا.

وأما السؤال الرابع، فجوابه: أن العقيم هو الذي لا يولد له، يقال: رجل عقيم لا يلد، وامرأة عقيم لا تلد، وأصل العقم القطع، ومنه قيل: (المُلك عقيم) لأنه يُقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق.

وأما السؤال الخامس، فجوابه: قال ابن عباس: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ يريد لوطًا وشعيبًا عليهما السلام لم يكن لهما إلا البنات ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يريد إبراهيم عليه السلام لم يكن له إلا الذكور ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ يريد محمدًا ﷺ كان له من البنين أربعة: القاسم والطاهر وعبد الله وإبراهيم، ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ يريد عيسى ويحيى. وقال الأكثرون من المفسرين: هذا الحكم عام في حق كل الناس؛ لأن المقصود بيان قدرة الله في تكوين الأشياء كيف شاء وأراد، فلم يكن للتخصيص معنى، والله أعلم. ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ قال ابن عباس: عليم بما خلق، قدير على ما يشاء أن يخلقه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن كمال قدرته وعلمه وحكمته، أتبعه ببيان أنه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ إلا على أحد ثلاثة أوجه: إما على الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام كما أوحى الله إلى أم موسى وإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده، وعن مجاهد: أوحى الله تعالى الزبور إلى داود عليه السلام في صدره. وإما على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ، وهذا أيضًا وحي بدليل أنه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحيًا، قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيبلغ ذلك المَلَك ذلك الوحي إلى الرسول البشري. فطريق الحصر أن يقال: وصول الوحي من الله إلى البشر إما أن يكون من غير واسطة مبلغ أو يكون بواسطة مبلغ، وإذا كان الأول هو أن يصل إليه وحي الله لا بواسطة شخص آخر فههنا إما أن يقال: إنه لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه، أما الأول - وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة

شخص آخر وما سمع عين كلام الله - فهو المراد بقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ وأما الثاني - وهو أنه وصل إليه الوحي لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله - فهو المراد من قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ وأما الثالث - وهو أنه وصل إليه الوحي بواسطة شخص آخر - فهو المراد بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحي، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحي؛ لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعة، فكان تخصيص لفظ الوحي به أَوْلى، فهذا هو الكلام في تمييز هذه الأقسام بعضها عن بعض.

المسألة الثانية: القائلون بأن الله في مكان - احتجوا بقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ وذلك لأن التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون الله من وراء حجاب، وإنما يصح ذلك لو كان مختصًا بمكان معين وجهة معينة. والجواب: أن ظاهر اللفظ وإن أوهم ما ذكرتم، إلا أنه دلّت الدلائل العقلية والنقلية على أنه تعالى يمتنع حصوله في المكان والجهة، فوجب حمل هذا اللفظ على التأويل، والمعنى أن الرجل سمع كلامًا مع أنه لا يرى ذلك المتكلم، كان ذلك شبيهًا بما إذا تكلم من وراء حجاب، والمشابهة سبب لجواز المجاز.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يُرى، وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة، ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال ما يراه العبد، فحينئذٍ يكون ذلك قسمًا رابعًا زائدًا على هذه الأقسام الثلاثة، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ إلا على هذه الأوجه الثلاثة. والجواب: نزيد في اللفظ قيدًا فيكون التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه الله (في الدنيا) إلا على أحد هذه الأقسام الثلاثة، وحينئذٍ لا يلزم ما ذكرتموه، وزيادة هذا القيد وإن كانت على خلاف الظاهر، لكنه يجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية في يوم القيامة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: أجمعت الأمة على أن الله تعالى متكلم، ومَن سوى الأشعري وأتباعه أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة، وأما الأشعري وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والأصوات، أما الفريق الأول: - وهم الذين قالوا: كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات - فهم فريقان: أحدهما: الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف، وهؤلاء أخس من أن يُذكروا في زمرة العقلاء، واتفق أني قلت يومًا لبعضهم: لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالي، والأول باطل لأن التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالي، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى، والثاني باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالي والتعاقب كانت محدثة، ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال: الواجب علينا أن نُقر ونُمر. يعني نقر بأن

القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه! فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل، وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات كائنة بعد أن لم تكن حاصلة بعد أن كانت معدومة، ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة، أو لا يقال ذلك، بل يقال: إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى، واختلفوا أيضًا في أن هذه الحروف هل هي قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها في جسم آخر، فالأول هو قول الكرامية، والثاني قول المعتزلة، وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات، فقد اتفقوا على أن قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ هو أن المَلَك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزّه عن الحرف والصوت من وراء حجاب. قالوا: وكما لا يبعد أن ترى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا في حيز، فأي بعد في أن يسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفًا ولا صوتًا؟ وزعم أبو منصور الماتريدي السمرقندي أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة، وإنما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى في الشجرة. وهذا القول قريب من قول المعتزلة، والله أعلم.

المسألة الخامسة: قال القاضي: هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه: الأول: أن قوله تعالى: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ يدل عليه لأن كلمة (أن) مع المضارع تفيد الاستقبال. الثاني: أنه وصف الكلام بأنه وحي لأن لفظ الوحي يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه. الثالث: أن قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ يقتضي أن يكون الكلام الذي يبلغه المَلَك إلى الرسول البشر مثل الكلام الذي سمعه من الله، والذي يبلغه إلى الرسول البشري حادث، فلما كان الكلام الذي سمعه من الله مماثلاً لهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري، وهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري حادث ومثل الحادث حادث، وجب أن يقال: إن الكلام الذي سمعه من الله حادث. الرابع: أن قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ﴾ يقتضي كون الوحي حاصلاً بعد الإرسال، وما كان حصوله متأخرًا عن حصول غيره كان حادثًا. والجواب: أنا نصرف جملة هذه الوجوه التي ذكرتموها إلى الحروف والأصوات، ونعترف بأنها حادثة كائنة بعد أن لم تكن، وبديهة العقل شاهدة بأن الأمر كذلك، فأي حاجة إلى إثبات هذا المطلوب الذي علمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن؟ والله أعلم.

المسألة السادسة: ثبت أن الوحي من الله تعالى إما أن لا يكون بواسطة شخص آخر، ويمتنع أن يكون كل وحي حاصلاً بواسطة شخص آخر، وإلا لزم إما التسلسل وإما الدور، وهما محالان، فلا بد من الاعتراف بحصول وحي يحصل لا بواسطة شخص آخر. **ثم هاهنا أبحاث:**

البحث الأول: أن الشخص الأول الذي سمع وحي الله لا بواسطة شخص آخر، كيف يعرف أن الكلام الذي سمعه كلام الله؟ فإن قلنا: إنه سمع تلك الصفة القديمة المنزّهة عن كونها حرفًا وصوتًا، لم يبعد أنه إذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى، ولم يبعد أن يقال: إنه يحتاج بعد ذلك إلى دليل زائد، أما إن قلنا: إن المسموع هو الحرف والصوت، امتنع أن يقطع

بكونه كلامًا لله تعالى، إلا إذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله تعالى.

البحث الثاني: أن الرسول إذا سمعه من المَلَك، كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان مضل؟ والحق أنه لا يمكنه القطع بذلك إلا بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ مَلَك معصوم لا شيطان خبيث. وعلى هذا التقدير، فالوحي من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات:

المرتبة الأولى: أن المَلَك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى، فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى.

المرتبة الثانية: أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول، لا بد له أيضًا من معجزة.

المرتبة الثالثة: أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة، فلا بد له أيضًا من معجزة. فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات.

البحث الثالث: أنه لا شك أن مَلَكًا من الملائكة قد سمع الوحي من الله تعالى ابتداء، فذلك المَلَك هو جبريل، ويقال: لعل جبريل سمعه من ملك آخر، فالكل محتمل ولو بألف واسطة، ولم يوجد ما يدل على القطع بواحد من هذه الوجوه.

البحث الرابع: هل في البشر من سمع وحي الله تعالى من غير واسطة؟ المشهور أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]وقيل: إن محمدًا ﷺسمعه أيضًا لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

البحث الخامس: أن الملائكة يقدرون على أن يُظهروا أنفسهم على أشكال مختلفة، فبتقدير أن يراه الرسول ﷺفي كل مرة وجب أن يحتاج إلى المعجزة؛ ليعرف أن هذا الذي رآه في هذه المرة عين ما رآه في المرة الأولى، وإن كان لا يرى شخصه كانت الحاجة إلى المعجزة أقوى؛ لاحتمال أنه حصل الاشتباه في الصوت، إلا أن الإشكال في أن الحاجة إلى إظهار المعجزة في كل مرة لم يقل به أحد.

المسألة السابعة: دلّت المناظرات المذكورة في القرآن بين الله تعالى وبين إبليس - على أنه تعالى كان يتكلم مع إبليس من غير واسطة، فذلك هل يسمى وحيًا من الله تعالى إلى إبليس أم لا؟ الأظهر منعه، ولا بد في هذا الموضع من بحث غامض كامل.

المسألة الثامنة: قرأ نافع (أو يرسلُ رسولاً) برفع اللام، (فيوحي) بسكون الياء، ومحله رفع على تقدير: (وهو يرسل فيوحي)، والباقون بالنصب على تأويل المصدر، كأنه قيل: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا إو إسماعًا لكلامه من وراء حجاب أو يرسل. لكن فيه إشكال لأن قوله وحيًا أو إسماعًا اسم وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ فِعل، وعطف الفعل على الاسم قبيح، فأجيب عنه بأن التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه إلا أن يوحي إليه وحيًا أو يسمع إسماعًا من وراء حجاب أو يرسل رسولاً.

المسألة التاسعة: الصحيح عند أهل الحق أن عندما يُبلغ المَلَك الوحي إلى الرسول، لا يقدر الشيطان على إلقاء الباطل في أثناء ذلك الوحي، وقال بعضهم: يجوز ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] وقالوا: الشيطان ألقى في أثناء سورة النجم: تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى. وكان صديقنا الملك سام بن محمد رحمه الله، وكان أفضل من لقيته من أرباب السلطنة يقول: هذا الكلام بعد الدلائل القوية القاهرة، باطل من وجهين آخرين: الأول: أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ بِصُورَتِي**» (١) فإذا لم يقدر الشيطان على أن يتمثل في المنام بصورة الرسول، فكيف قدر على التشبه بجبريل حال اشتغال تبليغ وحي الله تعالى؟! والثاني: أن النبي ﷺ قال: «**مَا سَلَكَ عُمَرُ فَجًا إِلاَّ وَسَلَكَ الشَّيطَانُ فَجًا آخَرَ**» (٢) فإذا لم يقدر الشيطان أن يحضر مع عمر في فج واحد، فكيف يقدر على أن يحضر مع جبريل في موقف تبليغ وحي الله تعالى؟!

المسألة العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ يعني فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله، وهذا يقتضي أن الحَسَن لا يحسن لوجه عائد عليه، وأن القبيح لا يقبح لوجه عائد إليه، بل لله أن يأمر بما يشاء من غير تخصيص، وأن ينهى عما يشاء من غير تخصيص، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما صح قوله: ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ والله أعلم.

ثم قال تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ يعني أنه عليّ عن صفات المخلوقين، حكيم يُجري أفعاله على موجب الحكمة، فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الإلهام، وأخرى بإسماع الكلام، وثالثًا بتوسيط الملائكة الكرام. ولما بيّن الله تعالى كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ والمراد به القرآن، وسماه روحًا لأنه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ واختلف العلماء في هذه الآية مع الإجماع

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي في كتاب (الرؤيا)، باب: (في قول النبي ﷺ: من رآني في المنام فقد رآني) (٤/ ٤٦٣)، حديث رقم (٢٢٧٦)، وفي (الشمائل) (٢٤٢)، حديث رقم (٣٨٩) من طريق سفيان... به. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (تعبير الرؤيا)، باب: (رؤية النبي ﷺ) (٢/ ١٢٨٤)، حديث رقم (٣٩٠٠) من طريق سفيان... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٧٥)، حديث رقم (٣٥٥٩) من طريق سفيان... به، وكذلك في (١/ ٤٥٠)، حديث رقم (٤٣٠٤) من طريق زكريا... به. والدارمي في كتاب (الرؤيا)، باب: (في رؤية النبي ﷺ في المنام) (١/ ٦٠٣)، حديث رقم (٢١٣٩) من طريق سفيان... به. كلاهما (سفيان، زكريا) عن أبي إسحاق... به.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة)، باب: (مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه) (٣/ ١٣٤٧)، حديث رقم (٣٤٨٠)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٦٣/ ٢٣٩٦)، جميعًا من طريق إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن أبي شهاب، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد، عن محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه... به.

على أنه لا يجوز أن يقال: الرسل كانوا قبل الوحي على الكفر. وذكروا في الجواب وجوهًا: الأول: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي القرآن ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم. الثاني: أن يُحمل هذا على حذف المضاف، أي ما كنت تدري ما الكتاب ومن أهل الإيمان، يعني من الذي يؤمن، ومن الذي لا يؤمن. الثالث: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان حين كنت طفلاً في المهد. الرابع: الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به، وإنه قبل النبوّة ما كان عارفًا بجميع تكاليف الله تعالى، بل إنه كان عارفًا بالله تعالى، وذلك لا ينافي ما ذكرناه. الخامس: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوّة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ واختلفوا في الضمير في قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ منهم من قال: إنه راجع إلى القرآن دون الإيمان؛ لأنه هو الذي يُعرف به الأحكام، فلا جرم شُبه بالنور الذي يُهتدى به، ومنهم من قال: إنه راجع إليهما معًا، وحسن ذلك لأن معناهما واحد كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١].

ثم قال: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهذا يدل على أنه تعالى بعد أن جعل القرآن نفسه في نفسه هدًى كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فإنه قد يهدي به البعض دون البعض، وهذه الهداية ليست إلا عبارة عن الدعوة وإيضاح الأدلة؛ لأنه تعالى قال في صفة محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو يفيد العموم بالنسبة إلى الكل، وقوله: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يفيد الخصوص، فثبت أن الهداية بمعنى الدعوة عامة والهداية في قوله: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ خاصة، والهداية الخاصة غير الهداية العامة، فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أمرًا مغايرًا لإظهار الدلائل ولإزالة الأعذار، ولا يجوز أيضًا أن يكون عبارة عن الهداية إلى طريق الجنّة لأنه تعالى قال: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي جعلنا القرآن نورًا نهدي به من نشاء، وهذا لا يليق إلا بالهداية التي تحصل في الدنيا، وأيضًا فالهداية إلى الجنّة عندكم في حق البعض واجب، وفي حق الآخرين محظور، وعلى التقديرين فلا يبقى لقوله: ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ فائدة، فثبت أن المراد أنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ولا اعتراض عليه فيه.

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فبيّن تعالى أنه كما أن القرآن يهدي، فكذلك الرسول يهدي، وبيّن أنه يهدي إلى صراط مستقيم، وبيّن أن ذلك الصراط هو ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نبّه بذلك على أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله.

ثم قال: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وذلك كالوعيد والزجر، فبيّن أن أمر من لا يقبل هذه

التكاليف يرجع إلى الله تعالى، أي إلى حيث لا حاكم سواه، فيجازي كلاًّ منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

قال رضي الله عنه: تمّ تفسير هذه السورة آخر يوم الجمعة، الثامن من شهر ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، يا مدبر الأمور، ويا مدهر الدهور، ويا معطي كل خير وسرور، ويا دافع البلايا والشرور، أوصِلنا إلى منازل النور، في ظلمات القبور، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشُّورَى

مكِّيَّةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربعَ آيات منها أنزلت بالمدينة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الآية: ٢٣] إلى آخرها. وهي ثلاثٌ وخمسون آية[١].

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ قال عبد المؤمن: سألت الحسين بن الفضل: لِمَ قطعَ «حم» من «عسق» ولم تقطع «كهيعص» و«المر» و«المص»؟ فقال: لأن «حم. عسق» بين سُوَرٍ أوّلها «حم» فجرت مَجرى نظائرها قبلَها وبعدَها؛ فكأنَّ «حم» مبتدأ و«عسق» خبره. ولأنها عُدَّت آيتين، وعُدَّت أخواتُها اللواتي كُتبت جملةً آيةً واحدة[٢].

وقيل: إن الحروف المعجمة كلَّها في المعنى واحد، من حيث إنها أُسُّ البيان وقاعدةُ الكلام؛ ذكره الجُرْجَاني.

وكتبت «حم. عسق» منفصلاً و«كهيعص» متصلاً لأنه قيل: حم؛ أي: حُمَّ ما هو كائن، ففصلوا بين ما يُقدَّر فيه فعل وبين ما لا يُقدَّر. ثم لو فُصل هذا ووُصِل ذا لجاز؛ حكاه القُشيري.

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس: «حم. سق»[٣]. قال ابن عباس: وكان

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٩ دون ذكر عبد المؤمن، ولم نعرفه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥ .

عليٌّ ﷺ يعرف الفِتَنَ بها[١].

وقال أرطاةُ بن المنذر: قال رجلٌ لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان: أَخْبِرني عن تفسير قوله تعالى: «حم. عسق»؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثاً، فأعرضَ عنه. فقال حُذيفة بن اليمان: أنا أنبئك بها، قد عرفتُ لِم تركها؛ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له: عبد الإله، أو عبد الله؛ ينزل على نهر من أنهار المشرق، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقًّا، فإذا أراد اللهُ زوالَ مُلكهم وانقطاعَ دولتهم، بعث على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداءَ مُظْلِمةً، فتحترق كلُّها كأنها لم تكن مكانَها؛ فتصبح صاحبتُها متعجبةً كيف قُلبت، فما هو إلا بياضُ يومها حتى يجتمع فيها كلُّ جبار عَنيد، ثم يخسفُ الله بها وبهم جميعاً؛ فذلك قوله: «حم. عسق» أي: عَزْمةٌ من عَزَمات الله تعالى، وفتنةٌ وقضاء؛ «حم»: حُمَّ. «ع»: عدلاً منه، «س»: سيكون، «ق»: واقع في هاتين المدينتين[٢].

ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البَجَليُّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُبنى مدينةٌ بين دِجْلة ودُجيل وقُطْرَبُّل والصَّراة، يجتمع فيها جبابرةُ الأرض تُجبى إليها الخزائنُ يخسفُ بها ـ وفي رواية: بأهلها ـ فَلَهِيَ أسرعُ ذهاباً في الأرض من الوَتِد الجيِّد في الأرض الرِّخوة»[٣].

وقرأ ابن عباس: «حم. سق» بغير عين. وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود؛ حكاه الطبري[٤].

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٦٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦٤، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٨٩، وقال: أثر غريب عجيب منكر.

(٣) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٥٠)، وهو حديث منكر جداً فيما ذكره الذهبي في الميزان ٣/ ١٦٥، وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ٣٦٥ ـ ٣٧٢، من طرق عديدة وأعلَّها كلَّها، ثم نقل عن الإمام أحمد قوله: ليس لهذا الحديث أصل. ودُجيل: اسم نهر مخرجه من أعلى بغداد، وقُطْرَبُّل: كلمة أعجمية، اسم قرية بين بغداد وعُكبَرا. والصَّراة. نهران ببغداد؛ الصراة الكبرى والصراة الصغرى. معجم البلدان ٢/ ٤٤٣ و٣/ ٣٩٩ و٤/ ٣٧١.

(٤) في تفسيره ٢٠/ ٤٦٥، وسلف قريباً.

وروى نافع عن ابن عباس: «الحاء» حِلْمه[١]، و«الميم» مَجْده، و«العين» عِلْمه، و«السين» سَنَاه، و«القاف» قُدرته؛ أقسم الله بها[٢].

وعن محمد بن كعب: أقسم الله بحِلمه[٣] ومَجْده وعُلُوِّه وسَنَاه وقُدرته ألا يُعذِّب من عاذ بلا إله إلا الله مُخلصاً من قلبه[٤]. وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جُبير: «الحاء» من الرحمن، و«الميم» من المجيد، و«العين» من العليم، و«السين» من القُدُّوس، و«القاف» من القاهر.

وقال مجاهد: فواتح السور. وقال عبد الله بن بُريدة: إنه اسمُ الجبل المحيط بالدنيا.

وذكر القشيريّ، واللفظ للثعلبيّ: أن النبيَّ ﷺ لما نزلَتْ هذه الآيةُ عُرفت الكآبةُ في وجهه؛ فقيل له: يا رسولَ الله، ما أحزنك؟ قال: «أُخبِرتُ ببلايا تنزلُ بأُمتي مِن خَسْفٍ وقَذْف ونارٍ تحشرهم، وريحٍ تَقْذِفهم في البحر وآياتٍ متتابعات مُتَّصلات بنزول عيسى وخروج الدَّجال»[٥]. والله أعلم.

وقيل: هذا في شأن النبيِّ ﷺ؛ فـ«الحاء» حوضه المورود، و«الميم» مُلكه الممدود، و«العين» عِزُّه الموجود، و«السين» سناه المشهود، و«القاف» قيامه في المقام المحمود، وقُربه في الكرامة من المَلِك المعبود.

وقال ابن عباس: ليس من نبيّ صاحب كتاب إلا وقد أُوحي إليه: «حم. عسق»؛ فلذلك قال: «يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ»[٦].

المهدويّ: وقد جاء في الخبر أن «حم. عسق» معناه: أَوْحيتُ إلى الأنبياء المتقدِّمين.

---

(١) في (د) و(ظ): حكمه.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١١٩ عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (د) و(ظ): بحكمه.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥.

وقرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ومجاهد: «يُوحَى» بفتح الحاء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[1]؛ ورُوي عن ابن عمر. فيكون الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل، ويجوز أن يكون اسم ما لم يُسَمَّ فاعلُه مضمراً؛ أي: يُوحَى إليك القرآن الذي تضمَّنته هذه السورة، ويكون اسمُ الله مرفوعاً بإضمار فعل، التقدير: يُوحيه اللهُ إليك[2]؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر: ﴿يُسَبَّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصَالِ رِجالٌ﴾[3] [النور: ٣٦] أي: يُسبِّحه رجال. وأنشد سيبويه:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومة[4] وأشعثُ ممن طوَّحته الطوائح

فقال: لِيُبْكَ يزيدُ، ثم بيَّن من ينبغي أن يَبْكيَه، فالمعنى: يَبكيه ضارعٌ[5].

ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف؛ كأنه قال: اللهُ يُوحيه. أو على تقدير إضمار مبتدأ، أي: المُوحي الله. أو يكون مبتدأ والخبر «العزيزُ الحكيمُ». وقرأ الباقون: «يُوحِي إِلَيْكَ» بكسر الحاء، ورفع الاسم على أنه الفاعل[6].

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ تقدّم في غير موضع[7].

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قراءة العامة بالتاء. وقرأ نافع وابن وَثَّاب والكسائيّ

---

(١) قراءة ابن كثير في السبعة ص ٥٨٠، والتيسير ص ١٩٤. وقراءة مجاهد في المحرر الوجيز ٥/ ٢٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١ بنحوه.

(٣) السبعة ص ٤٥٦، والتيسير ص ١٦٢، وسلفت ١٥/ ٢٨٦.

(٤) في (د) و(م): بخصومه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لكتاب سيبويه ١/ ٢٨٨، وقد نسبه للحارث ابن نهيك. قال البغدادي في الخزانة ١/ ٣١٣: الصواب أنه لنهشل بن حَرِّيّ.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٩٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧١ بنحوه. وينظر السبعة ص٥٨٠، والتيسير ص١٩٤.

(٧) ٢/ ٣١١ و٤/ ٢٧١.

بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ قرأ نافع وغيره بالياء والتاء والتشديد في الطاء، وهي قراءة العامة. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر والمفضّل وأبو عُبيد: «يَنْفَطِرْنَ» من الانفطار[١]؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١] وقد مضى في سورة «مريم» بيانُ هذا[٢].

وقال ابن عباس: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ» أي: تكاد كلُّ واحدة منها تنفطر فوقَ التي تليها؛ من قول المشركين: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[٣] [البقرة:١١٦]. وقال الضحاك والسدي: «يَتَفَطَّرْنَ» أي: يتشقَّقْنَ من عَظَمةِ الله وجلاله فوقَهنَّ[٤]. وقيل: «فوقهنَّ»: فوق الأَرَضين من خشية الله لو كُنَّ مما يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يُنزِّهونه عما لا يجوز في وَصْفه، وما لا يَليق بجلاله. وقيل: يتعجَّبون من جُرأة المشركين؛ فيذكر التسبيح في موضع التعجّب.

وعن عليّ ﷺ: أن تسبيحَهم تعجُّب مما يرون من تعرُّضهم لِسخط الله. وقال ابن عباس: تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله تعالى. ومعنى «بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»: بأمر ربهم؛ قاله السُّدِّي. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الضحاك: لمن في الأرض من المؤمنين؛ وقاله السدي. بيانه في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الآية:٧]. وعلى هذا تكون الملائكةُ هنا حَمَلَةَ العرش. وقيل: جميع ملائكة السماء؛ وهو الظاهر من قول الكلبيّ[٥].

وقال وهب بن مُنَبِّه: هو منسوخ بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٦]. وقال المهدويّ: والصحيح أنه ليس بمنسوخ؛ لأنه خبر، وهو خاصٌّ للمؤمنين.

---

(١) السبعة ص ٤١٣ و٥٨٠، والتيسير ص ١٥٠ و١٩٤.

(٢) ١٣/ ٥٢١.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٠ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٢.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩١.

وقال أبو الحسن الماوَرْدِيّ[1] عن الكلبيّ: إن الملائكة لما رأت المَلَكين اللَّذين اخْتُبروا وبُعِثا إلى الأرض لِيحكما بينهم، فافتتنا بالزُّهَرَة وهربا إلى إدريس - وهو جَدّ أبي نوح عليهما السلام - وسألاه أن يدعُوَ لهما؛ سبَّحت الملائكةُ بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم[2].

قال أبو الحسن بن الحصَّار: وقد ظنَّ بعضُ مَن جهل أن هذه الآيةَ نزلت بسبب هاروت وماروت، وأنها منسوخةٌ بالآية التي في المؤمن، وما علموا أن حَمَلَةَ العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة، ولله ملائكة أُخر يستغفرون لمن في الأرض.

الماورديّ[3]: وفي استغفارهم لهم قولان: أحدهما: من الذنوب والخطايا؛ وهو ظاهرُ قول مقاتل. الثاني: أنه طلب الرزق لهم والسَّعة عليهم؛ قاله الكلبيّ.

قلت: وهو أظهرُ، لأن الأرضَ تعمُّ الكافرَ وغيره، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر. وقد رُوي في هذا الباب خبرٌ رواه عاصمٌ الأحولُ عن أبي عثمان عن سَلْمان قال: إنَّ العبدَ إذا كان يذكر اللهَ في السَّرَّاء فنزلت به الضَّرَّاء قالت الملائكة: صوتٌ معروفٌ من آدميٍّ ضعيف، كان يذكر الله تعالى في السَّرَّاء فنزلت به الضَّرَّاء؛ فيستغفرون له. فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضرَّاء قالت الملائكة: صوتٌ منكرٌ من آدميٍّ لا يذكر الله في السَّراء، فنزلت به الضَّرَّاء، فلا يستغفرون اللهَ له[4].

وهذا يدلُّ على أن الآية في الذاكر لِله تعالى في السرَّاء والضرَّاء، فهي خاصَّة ببعض مَن في الأرض من المؤمنين. والله أعلم.

ويَحتمِل أن يقصِدوا بالاستغفار طلبَ الحِلْم والغُفران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٩٣ .

(٢) هذه قصة باطلة، وسلفت ٢/ ٢٨٤ ، وينظر الكلام عليها ثمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٩٣ .

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٤٠).

يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ [الرعد: ٦]. والمراد الحِلْم عنهم وألا يُعاجلهم بالانتقام؛ فيكون عامًّا؛ قاله الزمخشريّ[١].

وقال مُطَرِّف: وجدنا أنصحَ عبادِ الله لعباد الله الملائكةَ، ووجدنا أغشَّ عباد الله لعباد الله الشياطين. وقد تقدَّم[٢].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال بعضُ العلماء: هَيَّب وعَظَّم جلَّ وعزَّ في الابتداء، وألطفَ وبشَّرَ في الانتهاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصناماً يعبدونها. ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحفظ أعمالَهم لِيُجازيَهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وهذه منسوخةٌ بآية السيف[٣]. وفي الخبر: «أَطّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ»[٤] أي: صوَّتَتْ من ثِقَل سُكّانها لِكَثْرتهم، فهم مع كَثْرتهم لا يفتُرُون عن عبادة الله؛ وهؤلاء الكفار يُشركون به.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أوحينا إليك وإلى مَن قبلك هذه المعاني فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيًّا بيَّناه بلغة العرب. وقيل: أي: أنزلنا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٠ .

(٢) ١٨/ ٣٣٢ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٧٣ ، وقال: لا يصح.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، وسلف ٥/ ٤٢٨ .

عليك قرآناً عربيًّا بلسان قومك؛ كما أرسلنا كلَّ رسول بلسان قومه. والمعنى واحد.
﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني مكة. وقيل لمكة: أُمُّ القُرَى؛ لأن الأرضَ دُحيت من تحتها[١]. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائر الخلق. ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: بيوم الجمع، وهو يومُ القيامة. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ فيه.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ ابتداء وخبر. وأجاز الكسائي النصب[٢] على تقدير: لِتنذر فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال الضحاك: أهلَ دين واحد؛ أهل ضلالة أو أهل هُدًى. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ قال أنس بن مالك: في الإسلام[٤]. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ رفع على الابتداء، والخبر ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ عطف على اللفظ. ويجوز: ولا نَصِيرٌ، بالرفع على الموضع[٥] و«مِنْ» زائدة.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ⑨﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ أي: بل اتَّخذوا. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصناماً. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ أي: وَليُّك يا محمد ووليُّ من اتَّبعك[٦]، ولا وَليَّ سواه. ﴿وَهُوَ يُحْىِ

---

(١) سلف هذا الكلام ١/ ١٧٣ .

(٢) قرأ بها زيد بن علي كما في البحر المحيط ٧/ ٥٠٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٩٤ .

(٥) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٦) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٢١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يُريد عند البعث. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكايةُ قول رسول الله ﷺ للمؤمنين؛ أي: وما خالفكم فيه الكفارُ من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين، فقولوا لهم: حُكمه إلى الله لا إليكم[١]. وقد حكم أن الدِّين هو الإسلام لا غيره. وأمور الشرائع إنما تُتَلَقَّى من بيان الله.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي: الموصوف بهذه الصِّفات هو ربي وحدَه؛ وفيه إضمار: أي: قل لهم يا محمد: ذلكم اللهُ يُحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربّي. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدتُ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرْجِعُ.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالرفع على النعت لاسم الله، أو على تقدير هو فاطر. ويجوز النصب على النداء، والجرّ على البدل من الهاء في «عليه»[٢]. والفاطر: المُبدع والخالق. وقد تقدَّم.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ قيل: معناه: إناثًا. وإنما قال: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» لأنه خَلَقَ حوَّاء من ضِلَع آدم[٣]. وقال مجاهد: نَسْلًا بعد نَسْل[٤]. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ يعني الثمانية التي ذكرها في «الأنعام»[٥] ذكور الإبل والبقر والضأن والمَعْز وإناثها.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦١-٤٦٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٣ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢١ .

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٥٧٣ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٤٧٥ لكن في تفسير قوله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ التالي.

(٥) ٩/ ١٧٦ .

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ أي: يخلقكم ويُنشئكم «فِيهِ» أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقال الفرّاء[(١)] وابن كيسان: «فيه» بمعنى به. وكذلك قال الزجاج[(٢)]: معنى «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» يُكثركم به؛ أي: يُكثركم بجعلكم[(٣)] أزواجًا، أي: حلائلَ؛ لأنهن سبب النسل. وقيل: إن الهاء في «فِيهِ» للجعل، ودلّ عليه «جَعَلَ»؛ فكأنه قال: يخلقكم ويكثركم في الجعل. ابن قُتيبة[(٤)]: «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ» أي: في الزوج؛ أي: يخلقكم في بطون الإناث. وقال: ويكون «فِيهِ» في الرحم، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الرحم مؤنثة ولم يتقدَّم لها ذِكْر.

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ قيل: إن الكاف زائدةٌ للتوكيد؛ أي: ليس مثله شيء[(٥)]. قال:

وصَالِياتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْن[(٦)]

فأدخل على الكاف كافاً تأكيداً للتشبيه. وقيل: المثل زائدة للتوكيد؛ وهو قول ثعلب[(٧)]: ليس كهو شيء؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾[(٨)] [البقرة:١٣٧]. وفي حرف ابن مسعود «فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنْتُمْ به فقد اهتَدَوْا»[(٩)] قال أَوْسُ بن حَجَر:

وقَتْلَى كمثل جذوع النخيـ ... ـل يَغْشاهم مَطَرٌ مُنهمِرْ[(١٠)]

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٢ .

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٥ .

(٣) في (م): يجعلكم. وعبارة الزجاج: أي: يُكثركم بجعله منكم ومن الأنعام أزواجاً.

(٤) غريب القرآن ص ٣٩١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٤ .

(٦) نسبه سيبويه في كتابه ١/ ٣٢ ، والبغدادي في خزانته ٢/ ٣١٣ لخطام المجاشعي. والصَّاليات: الأثافيّ، وهي الأحجار التي يُنصب عليها القدر. قاله البغدادي.

(٧) النكت والعيون ٥/ ١٩٥ .

(٨) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٥٤٥ : وهذا ليس بجيد؛ لأن زيادة الأسماء ليست بجائزة، وأيضاً يصير التقدير: ليس كهو شيء، ودخول الكاف على الضمائر لا يجوز إلا في شعر.

(٩) المحتسب ١/ ١١٣ .

(١٠) ديوان أوس بن حجر ص ٣٠ ، وفيه: تغشَّاهم، بدل: يغشاهم. ومُسبل، بدل: مطر، وكلاهما بمعنى واحد.

أي: كجذوع. والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله جلّ اسمه في عَظَمته وكبريائه ومَلَكوته وحُسنى أسمائه وعَلِيّ صفاته لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يُشبَّه به، وإنما جاء مما أطلقه الشرعُ على الخالق والمخلوق، فلا تشابُهَ بينهما في المعنى الحقيقي؛ إذ صفاتُ القديم جلّ وعزّ بخلاف صفاتِ المخلوق؛ إذ صفاتهم لا تنفكُّ عن الأغراض والأعراض، وهو تعالى منزَّهٌ عن ذلك؛ بل لم يزلْ بأسمائه وبصفاته على ما بيَّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى»، وكفى في هذا قولُه الحقّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وقد قال بعضُ العلماء المحقِّقين: التوحيد إثباتُ ذاتٍ غيرِ مُشبهة للذوات ولا معطَّلة من الصِّفات. وزاد الواسطيّ رحمه الله تعالى بياناً فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللَّفظ؛ وجلَّت الذات القديمة أن يكون لها صفةٌ حديثة؛ كما استحال أن يكون للذات المُحدثة صفةٌ قديمة. وهذا كلُّه مذهبُ أهل الحقّ والسنة والجماعة ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم في «الزُّمَر» بيانه(١). النحاس(٢): والذي يملك المفاتيحَ يملك الخزائن؛ يقال للمفتاح: إقليد، وجمعه على غير قياس؛ كمحاسن والواحد حُسن.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تقدَّم أيضًا في غير موضع(٣).

---

(١) ١٨/ ٣٠٤.

(٢) معاني القرآن ٦/ ٢٩٨.

(٣) ١٢/ ٦٤ و١٦/ ٣٨٦.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي: الذي له مقاليدُ السماوات والأرض شرعَ لكم من الدين ما شرعَ لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ثم بيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ وهو توحيدُ الله وطاعته، والإيمان برسله وكُتبه وبيوم الجزاء، وبسائرِ ما يكون الرجل بإقامته مسلماً. ولم يُرِد الشرائعَ التي هي مصالح الأُمم على حَسَب[1] أحوالها، فإنها مختلفةٌ متفاوتةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] وقد تقدم القولُ فيه.

ومعنى «شَرَعَ» أي: نهج وأوضح وبيَّن المسالك. وقد شَرَعَ لهم يَشْرَع شَرْعًا، أي: سنَّ. والشارع: الطريق الأعظم. وقد شَرَع المنزِلُ إذا كان على طريق نافذ. وَشَرَعْتُ الإبلَ إذا أمكنتها من الشريعة. وشرعتُ الأديمَ إذا سلختَه. وقال يعقوب[2]: إذا شَقَقْتَ ما بين الرِّجلين، قال: وسمعته من أم الحُمَارِس البَكْرِيّة. وشرعتُ في هذا الأمر شُروعاً، أي: خضت.

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ «أنْ» في محل رفع، على تقدير: والذي وصَّى به نوحًا أن أقيموا الدِّين، ويُوقف على هذا الوجه على «عيسى». وقيل: هو نصب، أي: شرعَ لكم إقامةَ الدين. وقيل: هو جرّ بدلاً من الهاء في «به»؛ كأنه قال: به أقيموا الدين. ولا يوقف

---

(١) في (م): حسن.

(٢) في إصلاح المنطق ص ٤٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (شرع)، وما قبله منه.

على «عيسى» على هذين الوجهين. ويجوز أن تكون «أن» مفسَّرة؛ مثل: أن امشوا، فلا يكون لها محلٌّ من الإعراب[١].

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[٢]: ثبت في الحديث الصحيح أن النبيَّ ﷺ قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور: «ولكن ائتوا نوحًا فإنه أوّلُ رسول بعثه اللهُ إلى أهل الأرض، فيأتون نوحًا فيقولون له: أنت أوّلُ رسول بعثه اللهُ إلى أهل الأرض»[٣] وهذا صحيحٌ لا إشكالَ فيه، كما أن آدمَ أوّلُ نبيٍّ[٤] بغير إشكال؛ إلا أن[٥] آدم لم يكن معه إلا بَنوه[٦]، ولم تُفرَض له الفرائض ولا شُرعت له المحارم، وإنما كان تنبيهاً على بعض الأمور واقتصاراً على ضرورات المعاش، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء؛ واستقرَّ المَدَى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأُمَّهات والبنات والأخوات، ووظَّف عليه الواجبات وأوضحَ له الآدابَ في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكّد بالرُّسل ويتناصر بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم واحداً بعد واحد وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير المِلل مِلَّتِنا، على لسان أكرم الرُّسل نبينا محمد ﷺ؛ فكان المعنى: أوصيناك يا محمد ونوحًا ديناً واحداً؛ يعني في الأصول التي لا تختلف فيه الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرّب إلى الله بصالح الأعمال، والزَّلَف إليه بما يردُّ القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصِلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنى والأذيَّة[٧] للخلق

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩ بنحوه، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٤.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٤ ـ ١٦٥٥.

(٣) أخرجه أحمد (٩٦٢٣)، والبخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم تنظر في مسند أحمد. وقد سلف قطعة من الحديث ٣/ ٤٠٦.

(٤) في (د) و(ز) و(ي): أول رسول نبي، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٥) في (م) وأحكام القرآن: لأن، والمثبت من النسخ الخطية.

(٦) في (م): نبوّة.

(٧) في النسخ الخطية: الاذاية، والمثبت من (م).

كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفا دار، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات؛ فهذا كلُّه مشروعٌ دِينًا واحدًا ومِلَّةً متَّحدة، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادُهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: اجعلوه قائمًا؛ يريد دائماً مستمراً محفوظًا مستقرًّا من غير خلاف فيه ولا اضطراب؛ فمن الخَلْق مَن وفّى بذلك ومنهم من نكث؛ ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]. واختلفت الشرائعُ وراءَ هذا في معانٍ حَسبَما أراده اللهُ مما اقتضت المصلحةُ وأوجبت الحِكمةَ وَضْعَه في الأزمنة على الأُمم. والله أعلم.

قال مجاهد: لم يبعث اللهُ نبيًّا قطُّ إلا وصَّاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دِينُه الذي شَرع لهم(١)؛ وقاله الوالِبيّ عن ابن عباس، وهو قول الكلبيّ.

وقال قتادة: يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام. وقال الحكم: تحريم الأمهات والأخوات والبنات(٢). وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوالَ ويزيد عليها. وخصَّ نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى بالذِّكر لأنهم أربابُ الشرائع.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عَظُم عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض الأوثان. قال قتادة: كَبُرَ على المشركين فاشتدَّ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله، وضاق بها إبليسُ وجنوده، فأَبى الله عزّ وجلّ إلا أن ينصرها ويُعليها ويُظهرها على من ناوأها(٣). ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يختار. والاجتباء الاختيار؛ أي: يختار للتوحيد من يشاء. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يستخلص لدينه مَن رَجع إليه.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ قال ابن عباس: يعني قريشًا ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩ بنحوه.

محمدٌ ﷺ(١)؛ وكانوا يتمنَّون أن يُبعَثَ إليهم نبيّ؛ دليله قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [الآية: ٤٢] يريد نبيًّا. وقال في سورة البقرة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [الآية: ٨٩] على ما تقدَّم بيانُه هناك.

وقيل: أُمَم الأنبياء المُتقدِّمين؛ فإنهم فيما بينهم اختلفوا لما طال بهم المَدى، فآمن قومٌ وكفر قومٌ. وقال ابن عباس أيضًا: يعني أهلَ الكتاب؛ دليلُه في سورة المُنفكِّين: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾(٢) [الآية: ٤]. فالمشركون قالوا: لِمَ خُصّ بالنبوّة؟! واليهود حسدوه لمَّا بُعث؛ وكذا النصارى.

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بغيًا من بعضهم على بعض طلبًا للرِّياسة، فليس تفرُّقهم لِقصور في البيان والحُجج، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العقاب عن هؤلاء. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]. وقيل: إلى الأجل الذي قضى فيه بعذابهم. ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين مَن آمن وبين مَن كَفرَ بنزول العذاب.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ يريد اليهود والنصارى. ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المختلفين في الحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ من الذي أوصى به الأنبياء. والكتابُ هنا التوراة والإنجيل. وقيل: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ قريش.

«مِنْ بَعْدِهِمْ» من بعد اليهود النصارى. «لَفِي شَكٍّ» من القرآن أو من محمد. وقال مجاهد: معنى «مِنْ بَعْدِهِمْ» من قَبْلهم؛ يعني: من قَبْلِ مُشركي مكة، وهم اليهود والنصارى(٣).

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩٣ دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٢.

(٣) المصدر السابق، ونسب قول مجاهد لقتادة.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ﴾ لما جاز أن يكون الشكُّ لليهود والنصارى، أو لقريش قيل له: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي: فتبينت شكَّهم فادعُ إلى الله؛ أي: إلى ذلك الدين الذي شرعه اللهُ للأنبياء ووصَّاهم به. فاللام بمعنى إلى؛ كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها. و«ذلك» بمعنى هذا. وقد تقدَّم أولَ «البقرة»[(١)]. والمعنى: فإلى هذا[(٢)] القرآن فادعُ. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: كبر على المشركين ما تدعوهم إليه فلذلك فادع[(٣)]. وقيل: إن اللام على بابها؛ والمعنى: فمن أجل ذلك الذي تقدم ذكره فادع واستقم[(٤)]. قال ابن عباس: أي: إلى القرآن فادعُ الخَلْقَ.

﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ خطابٌ له عليه الصلاة والسلام. قال قتادة: أي: استَقِمْ على أمر الله. وقال سفيان: أي: استَقِمْ على القرآن. وقال الضحاك: استَقِمْ على تبليغ الرسالة[(٥)].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: لا تنظر إلى خلاف مَن خالفك. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: أنْ أعدِلَ؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]. وقيل: هي لام كي، أي: أعدِلَ[(٦)]؛ قال ابن عباس وأبو العالية: لأُسوِّيَ بينكم في الدِّين، فأُؤمن بكلِّ كتاب وبكلِّ رسول. وقال غيرُهما:

(١) ١/ ٢٤٢.

(٢) في النسخ: فلهذا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٥ ـ ٧٦ والكلام فيه بنحوه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٢.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٦/ ٧٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩٩.

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٧٩.

لِأعدِلَ في جميع الأحوال. وقيل: هذا العدل هو العدل في الأحكام. وقيل: في التبليغ[١].

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: الخِطاب لليهود؛ أي: لنا ديننا ولكم دينُكم. قال: ثم نُسخت بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٩] قال مجاهد: ومعنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا خصومةَ بيننا وبينكم. وقيل: ليس بمنسوخ، لأن البراهينَ قد ظهرت، والحُجَجَ قد قامت، فلم يبقَ إلا العِناد، وبعد العناد لا حُجَّةَ ولا جدال.

قال النحاس[٢]: ويجوز أن يكون معنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ على ذلك القول: لم يؤمر أن يحتجَّ عليكم ويُقاتلكم[٣]؛ ثم نسخ هذا. كما أن قائلاً لو قال من قبل أن تُحوَّلَ القبلة: لا تُصَلِّ إلى الكعبة، ثم حوّل الناس بعد؛ لجاز أن يقال: نسخ ذلك.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يريد يومَ القيامة. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: فهو يحكم بيننا إذا صِرْنا إليه، ويُجازي كُلًّا بما كان عليه.

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ نَزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة، وقد سألا رسولَ الله ﷺ أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش، على أن يُعطيَه الوليدُ نصفَ ماله ويُزوِّجه شيبةُ بابنته[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ رَجع إلى المشركين ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ

(١) النكت والعيون ٥/١٩٩ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/٦١٤ ، وما قبله منه.

(٣) عبارة (ظ): لن نؤمن أن نحتجَّ عليكم ونقاتلكم.

(٤) النكت والعيون ٥/١٩٩ .

لَهُۥ﴾ قال مجاهد: من بعد ما أسلم الناس. قال: وهؤلاء قد توهَّموا أن الجاهلية تعود[١]. وقال قتادة: الذين يُحاجُّون في الله اليهودُ والنصارى، ومُحَاجَّتهم قولُهم: نبيُّنا قبل نبيِّكم، وكتابُنا قبل كتابكم؛ وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلةَ بأنهم أهلُ كتاب وأنهم أولادُ الأنبياء[٢]. وكان المشركون يقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣] فقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا ثَباتَ لها، كالشيء الذي يَزِلُّ عن موضعه.

والهاء في «لَهُ» يجوز أن يكون لِله عز وجل؛ أي: من بعد ما وحَّدوا الله وشَهدُوا له بالوحدانية. ويجوز أن يكون للنبيِّ ﷺ؛ أي: من بعد ما استُجيب لمحمد[٣] ﷺ في دعوته على[٤] أهل بدر ونَصْر الله المؤمنين.

يقال: دَحَضت حُجَّته دُحوضًا بطلت. وأَدْحضها اللهُ. والإدحاض: الإزلاق. ومكان دَحْضٌ وَدَحَضٌ أيضًا ـ بالتحريك ـ أي: زَلِق. ودَحَضت رجلُه تَدْحَض دَحْضًا زَلِقت. ودَحَضت الشمس عن كبد السماء زالت[٥].

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ يريد في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يريد في الآخرة عذاب دائم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني القرآنَ وسائرَ الكتب المُنزلة.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٧٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

(٣) في (م): محمد.

(٤) في النسخ: من، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٦ - ٧٧، والكلام فيه بنحوه.

(٥) الصحاح (دحض).

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العَدْل؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين. والعدل يُسمَّى ميزانًا؛ لأن الميزانَ آلةُ الإنصاف والعدل[١]. وقيل: الميزان ما بُيِّن في الكُتب مما يجب على الإنسان أن يعملَ به.

وقال قتادة: الميزان العَدْل فيما أمر به ونهى عنه. وهذه الأقوالُ متقاربةُ المعنى. وقيل: هو الجزاءُ على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب. وقيل: إنه الميزانُ نفسُه الذي يُوزَن به؛ أنزله من السماء وعلَّم العبادَ الوزنَ به؛ لئلا يكون بينهم تَظالمٌ وتباخُس[٢]؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال مجاهد: هو الذي يُوزَن به. ومعنى إنزال[٣] الميزان هو إلهامُه للخلق أن يعملوه ويعملوا [به][٤]. وقيل: الميزان محمد ﷺ، يقضي بينكم بكتاب الله[٥].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فلم يُخبره بها. يحضُّه على العمل بالكتاب والعَدْل والسَّويَّة، والعمل بالشرائع قبل أن يُفاجئ اليوم الذي يكون فيه المُحاسبة ووزن الأعمال، فيُوفَّى لمن أوفى ويُطفَّف لمن طفَّف.

فـ «لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» أي: منك وأنت لا تدري. وقال: «قَرِيبٌ» ولم يقل: قريبة؛ لأن تأنيثَها غيرُ حقيقي؛ لأنها كالوقت؛ قاله الزجاج[٦]. والمعنى: لعلَّ البعثَ، أو لعلَّ مجيء الساعة قريب. وقال الكسائي: «قَرِيبٌ» نعت يُنعت به المُذكَّر والمُؤنَّث والجمع بمعنًى ولفظٍ واحد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣، وزاد المسير ٧/ ٢٨٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٠.

(٣) في (د) و(م): أنزل، والمثبت من (ظ).

(٤) زاد المسير ٧/ ٢٨٠، وما بين حاصرتين منه.

(٥) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٥/ ٤٦ عن علقمة.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٧، وينظر الكلام في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٧٧.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] قال الشاعر:

وكنا قريباً والديار بعيدةٌ فلما وصلنا نُصْب أعينهم غِبنا[١]

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ يعني على طريق الاستهزاء، ظنًّا منهم أنها غيرُ آتية، أو إيهاماً للضَّعَفة أنها لا تكون. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وَجِلون لاستقصارهم أنفسَهم مع الجهد في الطاعة؛ كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي: التي لا شكَّ فيها. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يشكُّون ويُخاصمون في قيام الساعة. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: عن الحق وطريق الاعتبار؛ إذ لو تذكَّروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة إلى أن بلغوا ما بلغوا قادرٌ على أن يبعثهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس: حَفِيٌّ بهم. وقال عكرمة: بارٌّ بهم. وقال السُّديّ: رفيقٌ بهم. وقال مقاتل: لطيفٌ بالبرِّ والفاجر؛ حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم[٢]. وقال القُرَظِيّ: لطيفٌ بهم في العرض والمُحاسبة. قال:

غدًا عند مَوْلَى الخَلْق للخلق موقفٌ يُسائلهم فيه الجليل ويَلْطُفُ[٣]

وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين: يَلطُفُ بهم في الرزق من وجهين: أحدهما: أنه جعل رزقَك من الطَّيِّبات. والثاني: أنه لم يَدْفَعْه إليك مرةً واحدة

---

(١) ذكره القزويني في تاريخ قزوين ٣/ ٢٦٧ ونسبه لأبي طاهر عبد العزيز الاستراباذي.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣ .

(٣) لم نقف عليه.

فتبذِّرَه(١).

وقال الحسين بن الفضل: لطيفٌ بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره.

وقال الجنيد: لطيف بأوليائه حتى عَرَفوه، ولو لَطَفَ بأعدائه لما جَحَدوه(٢). وقال محمد بن عليّ الكتّانيّ(٣): اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق وتوكَّل عليه، ورَجَع إليه، فحينئذ يقبلُه ويُقبِلُ عليه. وجاء في حديث النبيّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى يطَّلعُ على القبور الدوارس فيقول جلّ وعز: اِمَّحتْ آثارُهم، واضمحلَّتْ صُوَرُهم، وبقي عليهم العذابُ، وأنا اللطيفُ وأنا أرحمُ الراحمين، خفِّفوا عنهم العذابَ، فيُخفَّف عنهم العذاب»(٤). قال أبو عليّ الثقفيّ ﷺ:

أَمـرُّ بـأفـنـاءِ الـقـبـور كـأنـنـي أخـو فِـطْـنـة والـثـوبُ فـيـه نـحـيـفُ
ومَـنْ شَـقَّ فـاه الـلـهُ قـدَّر رِزْقَـه وربِّـي بـمـن يـلـجـأ إلـيـه لـطـيـفُ(٥)

وقيل: اللطيفُ الذي ينشر من عباده المناقبَ ويستر عليهم المثالب؛ وعلى هذا قال النبيُّ ﷺ: «يا مَنْ أظهرَ الجميلَ وسَتَرَ القبيح»(٦). وقيل: هو الذي يقبل القليلَ ويبذل الجَزيل. وقيل: هو الذي يجبر الكَسير ويُيسِّر العسير. وقيل: هو الذي لا يُخاف إلا عَدْلُه ولا يُرجَى إلا فَضْلُه(٧). وقيل: هو الذي يبذُل لعبده النعمة فوق الهِمَّة، ويُكلِّفه الطاعة فوق الطاقة؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٢.
(٣) لعله أبو بكر محمد بن علي بن جعفر البغدادي، شيخ الصوفية. توفي سنة (٣٢٢هـ). السير ١٤/ ٥٣٣.
(٤) لم نقف عليه.
(٥) لم نقف عليهما، وأبو علي الثقفي: هو محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن، النيسابوري، الشافعي، من ولد الحجاج، المحدث، شيخ خراسان. توفي سنة (٣٢٨هـ). السير ١٥/ ٢٨٠.
(٦) قطعة من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٥.
(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٢.

﴿فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]. وقيل: هو الذي يُعين على الخدمة ويُكثر المِدْحة. وقيل: هو الذي لا يُعاجل مَن عصاه، ولا يُخَيِّب مَن رجاه. وقيل: هو الذي لا يردُّ سائِلَه ولا يُؤيِّس آمِلَه. وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو. وقيل: هو الذي يرحم مَن لا يرحم نَفْسَه. وقيل: هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المُشاهدة سِراجًا، وجعل الصراط المستقيمَ لهم مِنْهاجًا، وأجزل لهم من سحائب بِرِّه ماء ثَجَّاجًا. وقد مضى في «الأنعام» قولُ أبي العالية والجُنَيد أيضًا[1]. وقد ذكرنا جميع هذا في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» عند اسمه اللطيف[2]، والحمد لله.

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ويَحْرِم من يشاء. وفي تفضيل قوم بالمال حِكمةٌ؛ لِيحتاج البعض إلى البعض؛ كما قال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فكان هذا لُطفًا بالعباد. وأيضًا ليمتحن الغنيّ بالفقير والفقير بالغنيّ؛ كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] على ما تقدَّم بيانه. ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ الحَرْثُ العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمرو[3]: واحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غدًا[4]. ومنه سُمِّي الرجل حارثًا[5]. والمعنى: أي: مَن طلبَ بما رزقناه حَرْثًا لآخرته، فأدَّى حقوقَ الله، وأنفق في إعزاز الدِّين؛ فإنما نُعطيه ثوابَ

(١) ٨/ ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٢) وهو ليس في المطبوع منه.

(٣) في (د) و(ز) و(م): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٤) سلف ٣/ ٣٨٦ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٥ - ٣٠٦ .

ذلك للواحد عشراً إلى سبع مئة فأكثر.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: طَلَبَ بالمال الذي آتاه اللهُ رِياسةَ الدنيا والتوصُّلَ إلى المحظورات، فإنا لا نَحرِمه الرِّزق أصلاً، ولكن لا حظَّ له في الآخرة من ماله؛ قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

وقيل: «نَزِدْ له في حَرْثِه» نوفِّقه للعبادة ونُسهِّلها عليه. وقيل: حرث الآخرة الطاعة؛ أي: مَن أطاع فله الثواب. وقيل: «نَزِد لَهُ في حَرْثِهِ» أي: نُعطه الدنيا مع الآخرة. وقيل: الآية في الغَزْو؛ أي: من أراد بِغَزْوِه الآخرةَ أُوتي الثواب، ومن أراد بغزوه الغنيمةَ أُوتي منها[(١)].

قال القُشيريّ: والظاهر أن الآيةَ في الكافر؛ يُوسَّع له في الدنيا؛ أي: لا ينبغي له أن يَغْترَّ بذلك؛ لأن الدنيا لا تبقى.

وقال قتادة: إن الله يُعطي على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا، ولا يعطي على نية الدنيا إلا الدنيا[(٢)]. وقال أيضاً: يقول الله تعالى: مَن عَمِلَ لآخرته زِدْناه في عمله، وأعطيناه من الدنيا ما كَتبنا له، ومن آثرَ دنياه على آخرته لم نَجْعَلْ له نصيبًا في الآخرة إلا النارَ، ولم يُصِبْ من الدنيا إلا رزقًا قد قسمناه له لا بُدَّ أن كان يُؤتاه مع إيثار أو غير إيثار. قلت: قول قتادة حسن[(٣)].

وروى جُوَيبِرُ عن الضحاك عن ابن عباس قال: وقوله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾: مَن كان من الأبرار يُريد بعمله الصالح ثوابَ الآخرة «نَزِدْ له في حَرْثِهِ» أي: في حسناته .﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من كان من الفُجّار يُريد

---

(١) مجمع البيان ٢٥/ ٤٧ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠١ .

(٣) قوله: قلت: قول قتادة حسن، من (ظ).

بعمله الحَسَن الدنيا «نُؤْتِه منها»، ثم نُسخ ذلك في «سبحان»: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[1] [الآية:١٨]. والصواب أن هذا ليس بنسخ؛ لأن هذا خبر، والأشياء كلُّها بإرادة الله عز وجل. ألا ترى أنه قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يَقُلْ أحدُكم: اللهم اغفِرْ لي، إن شئتَ، اللهم ارحمني إنْ شئتَ»[2]. وقد قال قتادة ما تقدَّم ذِكْره، وهو يُبيِّن لك أن لا نسخ. وقد ذكرنا في «هود» أن هذا من باب المطلق والمقيَّد، وأن النسخَ لا يدخل في الأخبار[3]. والله المستعان.

مسألة: هذه الآيةُ تُبطِلُ مذهبَ أبي حنيفة في قوله: إنه من توضَّأ تَبرُّدًا أنه يَجزيه عن فريضة الوضوء الموظَّف عليه؛ فإن فريضةَ الوضوء من حرث الآخرة والتبرُّد من حرث الدنيا، فلا يدخل أحدُهما على الآخر، ولا تَجزي نِيَّته عنه بظاهر هذه الآية؛ قاله ابن العربي[4].

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ أي: ألهم؟ والميم صِلة، والهمزة للتقريع. وهذا مُتَّصلٌ بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ كانوا لا يؤمنون به، فهل لهم آلهة شَرَعوا لهم الشِّرك الذي لم يأذن به الله؟ وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشِّرك، فمن أين يدينون به؟!

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة حيث قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر:٤٦]. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، فعاجلَ الظالم بالعقوبة وأثابَ الطائع. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا: القتلُ والأَسْر والقهر، وفي

---

(١) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٨١)، وما بعده منه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٣/ ١٨٤.

(٣) ١١/ ٨٥ - ٨٦.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٥.

الآخرة عذابُ الدنيا.

وقرأ ابن هُرْمُز: «وأنّ» بفتح الهمزة[١]، على العطف على «ولولا كلمةٌ»، والفَصْلُ بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب «لولا» جائزٌ. ويجوز أن يكون موضع «أنّ» رفعاً على تقدير: وجب أنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم؛ فيكون منقطعاً مما قبلَه كقراءة الكسر؛ فاعْلَمه.

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: من جزاء ما كسبوا. والظالمون هاهنا الكافرون؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: نازلٌ بهم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ الروضة: الموضع النَّزِه الكثير الخُضرة. وقد مضى في «الروم»[٢]. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: من النعيم والثواب الجَزيل. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: لا يُوصَفُ ولا تهتدي العقولُ إلى كُنْهِ صِفته؛ لأن الحقَّ إذا قال: كبير، فمن ذا الذي يقدر قَدْره؟.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قُرئ: «يُبَشِّر» مِن بَشَّره[٣]،

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٣٤، والمحتسب ٢/ ٢٥٠.

(٢) ١٤/ ١١ - ١٢.

(٣) قرأ بها نافع وعاصم وابن عامر. السبعة ص ٢٠٥ - ٢٠٦، والتيسير ص ١٩٥.

وَ«يُبْشِر» من أبشره[١]، وَ«يَبْشُر» مِن بَشَره[٢]، وفيه حذف؛ أي: يُبَشِّر اللهُ به عبادَه المؤمنين لِيتعجَّلوا السرور ويزدادوا منه وَجْدًا في الطاعة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قُلْ يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة جُعْلاً. ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال الزجاج[٣]: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ» استثناء ليس من الأول؛ أي: إلا أن تَوَدُّوني لقرابتي فتحفظوني. والخِطاب لقريش خاصَّةً؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبيّ وغيرهم[٤]. قال الشعبيّ: أَكْثَر الناسُ علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها؛ فكتب أن رسولَ الله ﷺ كان أوسطَ الناس في قريش، فليس بَطْنٌ من بطونهم إلا وقد وَلَده؛ فقال الله له: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم؛ أي: تُراعوا ما بيني وبينكم فتصدِّقوني[٥]. فـ«الْقُرْبَى» هاهنا قرابة الرَّحِم؛ كأنه قال: اتَّبعوني للقرابة إن لم تتَّبعوني للنبوَّة.

قال عكرمة: وكانت قريش تَصِلُ أرحامَها، فلما بُعث النبيّ ﷺ قَطَعَتْهُ؛ فقال: صِلُوني كما كنتم تفعلون. فالمعنى على هذا: قُلْ: لا أسألكم عليه أجراً، لكن أُذكِّركم قرابتي؛ على أنه[٦] استثناءٌ ليس من الأوّل؛ ذكره النحاس[٧].

وفي البخاريّ[٨]: عن طاوس عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ

---

(١) قرأ بها مجاهد وحُميد بن قيس. المحتسب ٢/ ٢٥١.

(٢) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. السبعة ص ٢٠٥ - ٢٠٦، والتيسير ص ١٩٥.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٨.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٠٨، وأخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٥) أخرجه سعيد بن منصور كما في فتح الباري ٨/ ٥٦٥، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ٤٩٥.

(٦) قوله: أنه، ليس في (م).

(٧) في معاني القرآن ٦/ ٣٠٨.

(٨) الحديث (٤٨١٨).

﴿فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جُبير: قُربى آل محمد؛ فقال ابن عباس: عَجِلت، إن النبيَّ ﷺ لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تَصِلوا ما بيني وبينكم[1] من القرابة. فهذا قول.

وقيل: القُربى قرابةُ الرسول ﷺ، أي: لا أَسألُكم أجرًا إلا أن تودُّوا قرابتي وأهل بيتي، كما أمر بإعظامهم ذوي القُربى. وهذا قولُ علي بن حسين وعمرو بن شُعيب والسُّدّي[2]. وفي رواية سعيد بن جُبير عن ابن عباس: لما أنزل اللهُ عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قالوا: يا رسولَ الله، من هؤلاء الذين نَوَدُّهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وأبناؤهما»[3]. ويدلُّ عليه أيضًا ما رُوي عن عليٍّ ﷺ قال: شكوتُ إلى النبيِّ ﷺ حَسَدَ الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكونَ رابعَ أربعة أوّل من يدخلُ الجنةَ: أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجُنا عن أيماننا وشمائلنا وذُرِّيتنا خلفَ أزواجنا»[4]. وعن النبي ﷺ: «حُرِّمتِ الجنةُ على من ظلمَ أهلَ بيتي وآذاني في عِتْرتي، ومن اصطنع صنيعةً إلى أحدٍ من ولد عبد المطلب ولم يُجازه عليها، فأنا أُجازيه عليها غدًا إذا لَقِيني يومَ القيامة»[5].

وقال الحسن وقتادة: المعنى: إلا أن يتودَّدوا إلى الله عز وجل ويتقرَّبوا إليه بطاعته[6]. فـ «الْقُرْبَى» على هذا بمعنى القربة. يقال: قُرْبَة وقُرْبى بمعنًى؛ كالزُّلفة والزُّلْفى.

---

(١) في (د) و(ز) و(ف) و(م): إلا أن تصلوا ما بينكم، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لصحيح البخاري.

(٢) أخرجه عنهم الطبري ٢٠/ ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٣) أخرجه الطبراني (١٢٢٥٩)، وفي إسناده حسين الأشقر، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ : ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه.. وذكر حديث طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي أخرجه البخاري، وقد ذكره المصنف قريباً.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٧ ، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥: سنده واهٍ.

(٥) نسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ إلى الثعلبي من حديث علي ﷺ، ثم قال: فيه عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي، عن أبيه، وهو كذاب.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

وروى قَزَعةُ بن سُويد عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ «قل: لا أسألُكم على ما آتيتكم به أجرًا إلا أن تَوادُّوا وتقرَّبوا إليه بالطاعة»(١). وروى منصور وعوف عن الحسن ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال: يتودَّدون إلى الله عز وجل ويتقرَّبون منه بطاعته(٢).

وقال قوم: الآيةُ منسوخةٌ وإنما نزلت بمكة؛ وكان المشركون يُؤذون رسولَ الله ﷺ فنزلت هذه الآية، وأمرهم الله بمودَّة نبيِّه ﷺ وصِلة رَحِمِه، فلما هاجر آوته الأنصارُ ونصروه، وأراد الله أن يُلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٠٩]، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ:٤٧] فنسخت بهذه الآية وبقوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون:٧٢]، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور:٤٠]؛ قاله الضحاك والحسين بن الفضل(٣). ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس. قال الثَّعْلبيّ: وليس بالقويّ، وكفى قُبْحًا بقول من يقول: إن التقرّبَ إلى الله بطاعته ومودَّة نبيه ﷺ وأهلِ بيته منسوخٌ؛ وقد قال النبيّ ﷺ: «مَن ماتَ على حُبِّ آل محمد ماتَ شهيداً. ومَن مات على حُبِّ آل محمد جعل الله زُوَّار قبره ملائكةَ الرحمة(٤)، ومن مات على حُبِّ آل محمد مات على السُّنة والجماعة(٥). ومَن مات على بُغْض آل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤١٥)، والطبري ٢٠/ ٥٠٠ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٨٨)، وقَزَعَةُ بن سُويد ضعيف، كما في تهذيب التهذيب ٣/ ٤٣٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٥ . وقال: وهذا قول غير مرضي؛ لأن مودة النبي ﷺ وكفَّ الأذى عنه ومودّة أقاربه، والتقرب إلى الله بالطاعة والعمل الصالح من فرائض الدين.

(٤) في (د) و(ز) و(ف) و(م): الملائكة والرحمة، وفي (ظ): الملائكة، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٦٧ - والكلام منه كما سيذكر المصنف - وسيأتي الحديث مطولاً عند المصنف بهذا اللفظ.

(٥) قوله: ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، زيادة من (ظ)، وهي قطعة من الحديث. وسيذكره المصنف بتمامه.

محمد جاء يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: آيسٌ اليومَ من رحمة الله. ومَن ماتَ على بُغض آل محمد لم يَرَحْ رائحة الجنة. ومَن مات على بُغض آل بيتي فلا نصيبَ له في شفاعتي»[١].

قلت: وذكر هذا الخبر الزمخشريُّ في «تفسيره» بأطولَ مِن هذا فقال: وقال رسولُ الله ﷺ: «مَن ماتَ على حُبِّ آلِ محمد ماتَ شهيداً، ألاَ ومن مات على حُبِّ آل محمد مات مؤمناً مُستكمِلَ الإيمان، ألَا ومن ماتَ على حُبِّ آل محمد بَشَّره ملكُ الموت بالجنة ثم مُنْكر ونكير، ألا ومَن مَات على حُبِّ آل محمد يُزَفُّ إلى الجنة كما تُزَفُّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومَن مات على حُبِّ آلِ محمد فُتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومَن ماتَ على حُبِّ آل محمد جَعَلَ اللهُ قبرَه مزارَ ملائكةِ الرحمة، ألا ومَن ماتَ على حُبِّ آل محمد مات على السُّنة والجماعة، ألا ومَن ماتَ على بُغض آل محمد جاء يومَ القيامة مكتوباً بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله، ألَا ومَن ماتَ على بُغض آلِ محمد مات كافراً، ألَا ومَن مَات على بُغض آل محمد لم يَشَمَّ رائحةَ الجنة»[٢].

قال النحاس: ومذهبُ عِكرمة ليست بمنسوخة؛ قال: كانوا يَصِلون أرحامَهم، فلما بُعِثَ النبيُّ ﷺ قطعوه فقال: قل: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّوني وتحفظوني لِقرابتي، ولا تُكذِّبوني[٣].

قلت: وهذا هو معنى قول ابن عباس في البخارِيُّ والشعبيّ عنه بعينه؛ وعليه لا نسخ.

قال النحاس[٤]: وقول الحسن حسن، ويدلُّ على صحته الحديثُ المُسنَدُ عن

(١) ينظر التعليق التالي.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٧ ، ونسبه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٥ إلى الثعلبي وقال: آثار الوضع عليه واضحة.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦١٩ ، وسلف قول عكرمة أول هذه المسألة.

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٠ .

رسول الله ﷺ كما حدَّثنا أحمدُ بن محمد الأزدي قال: أخبرنا الربيعُ بن سليمان المُرادي قال: أخبرنا أسدُ بن موسى قال: حدثنا قَزَعةُ ـ وهو ابن سُويد[1] البصري ـ قال: حدثنا عبد الله بن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا أسألُكم على ما أُنبئكم به من البيِّنات والهُدَى أجرًا إلا أن توادُّوا الله عزّ وجلّ وأن تتقرَّبوا إليه بطاعته». فهذا المُبيِّن عن الله عز وجل قد قال هذا، وكذا قالت الأنبياء صلى الله عليهم قبلَه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢].

الثانية: واختلفوا في سبب نزولها؛ فقال ابن عباس: لما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ كانت تنوبه نوائبُ وحقوق لا يسعها ما في يديه؛ فقالت الأنصار: إنَّ هذا الرجل هداكم اللهُ به، وهو ابن أُختكم[2]، وتنوبه نوائبُ وحقوقٌ لا يسعها ما في يديه، فنجمع له؛ ففعلوا، ثم أَتَوْه به فنزلت[3].

وقال الحسن: نزلت حين تفاخرت الأنصارُ والمهاجرون، فقالت الأنصار: نحن فعلنا، وفَخَرت المهاجرون بقرابتهم من رسول الله ﷺ. روى مِقْسَم عن ابن عباس قال: سمع رسولُ الله ﷺ شيئًا، فخطب فقال للأنصار: «ألم تكونوا أَذِلَّاءَ فَأعزَّكم الله بي. ألم تكونوا ضُلَّالاً فهداكم الله بي. ألم تكونوا خائفين فأمَّنكم الله بي، ألا تردُّون عليَّ»؟ فقالوا: بِمَ نُجيبكَ؟ قال: «تقولون: ألم يَطْرُدْكَ قومُك فآويناك. ألم يُكَذِّبك قومُك فصدَّقناك» فعدَّد عليهم. قال: فَجَثَوْا على رُكَبهم فقالوا: أَنْفُسنا وأموالنا لك؛ فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[4].

---

(١) في النسخ: يزيد، وهو خطأ، والمثبت من المصادر، وسلف الحديث قريباً، وذكرنا أنه ضعيف.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): أخيكم، والمثبت من (ظ).

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٣٩٣ .

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٣٨٧٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢ : رواه الطبراني عن شيخه علي بن سعيد، وفيه لين. قلنا: وفيه يزيد بن أبي زياد، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٠١ : هو ضعيف. والحديث أخرجه - دون ذكر نزول الآية - أحمد (١٢٠٢١) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد ﷺ بنحوه. قال =

وقال قتادة: قال المشركون: لعلّ محمدًا فيما يتعاطاه يطلب أجرًا؛ فنزلت هذه الآية، لِيحُثَّهم على مودَّته ومودَّة أقربائه[١]. قال الثعلبي: وهذا أشبهُ بالآية، لأن السورةَ مكيةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسب. وأصلُ القَرْف الكسب، يقال: فلان يَقْرِف لِعياله، أي: يَكسِبُ. والاقتراف الاكتساب[٢]، وهو مأخوذٌ من قولهم: رجلٌ قُرَفَة، إذا كان مُحتالاً[٣]. وقد مضى في «الأنعام» القول فيه[٤].

وقال ابن عباس: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال: المودّة لِآل محمد ﷺ[٥]. ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نُضاعف له الحسنة بعشرٍ فصاعدًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قال قتادة: «غفورٌ» للذنوب، «شكورٌ» للحسنات. وقال السّدي: «غَفُورٌ» لذنوب آل محمد عليه الصلاة والسلام، «شَكُورٌ» لحسناتهم[٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الميم صلة، والتقدير: أيقولون: افترى. واتَّصل الكلام بما قبلُ؛ لأن الله تعالى لما قال: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ١٧] قال إتماماً للبيان: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني: كفار قريش قالوا: إنّ محمدًا

= الحافظ ابن كثير: وذِكْرُ نزولها في المدينة فيه نَظَرٌ، لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٥ بنحوه.

(٢) الصحاح (قرف).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣١٠ .

(٤) ٨/ ٥٠٥ .

(٥) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٥/ ٥١ عن السدي.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٠٢ .

اختلق الكذب على الله.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ﴾ شرطٌ وجوابُه. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال قتادة: يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأَخبرهم اللهُ أنه لو افترى عليه لَفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد ومقاتل: «إنْ يشأ اللهُ» يربِطْ على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبَك مشقَّةٌ من قولهم. وقيل: المعنى: إنْ يشأ يُزِلْ تمييزك. وقيل: المعنى: لو حدَّثت نَفْسَك أن تفتريَ على الله كذبًا لَطبع على قلبك؛ قاله ابن عيسى[١].

وقيل: فإن يشأ الله يَخْتِمْ على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم، ويعاجلهم[٢] بالعقاب. فالخِطاب له والمرادُ الكفار؛ ذكره القشيري.

ثم ابتدأ فقال: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ قال ابن الأنباري[٣]: «يَخْتِمْ على قَلْبِكَ» تامٌّ.

وقال الكسائي: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ مجازه: واللهُ يمحو الباطل؛ فحذف منه الواو في المصحف، وهو في موضع رفع. كما حُذِفت من قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾[٤] [الإسراء: ١١] ولأنه عطفٌ[٥] على قوله: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

وقال الزجاج: قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تمام؛ وقوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ احتجاجٌ على مَن أنكر ما أتى به النبيّ ﷺ؛ أي: لو كان ما أتى به باطلًا لَمحاه كما جرت به عادته في المُفترين[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٢٠٢ - ٢٠٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٦.

(٢) في النسخ: وعاجلهم، والمثبت من فتح القدير ٤/ ٥٣٥، وروح المعاني ٢٥/ ٣٥، والقول فيهما.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٢٦.

(٥) كذا في النسخ، والمفسرون على أنه مرفوع ـ كما ذكر المصنف آنفاً ـ وليس معطوفاً على «يختم». ينظر الكشاف ٣/ ٤٦٨، ومجمع البيان ٢٥/ ٤٨، وروح المعاني ٢٥/ ٣٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨١.

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: الإسلام فيبيّنه[1] ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بما أنزله من القرآن. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عامٌّ، أي: بما في قلوب العباد. وقيل: خاصٌّ. والمعنى: إنك لو حدَّثت نفسَك أن تفتريَ على الله كذباً لَعلمه وطَبَعَ على قلبك.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] قال قومٌ في نفوسهم: ما يريد إلا أن يَحُثَّنا على أقاربه من بعده؛ فأخبر جبريلُ النبيَّ ﷺ، وأنهم قد اتَّهموه، فأنزل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية؛ فقال القوم: يا رسولَ الله، فإنا نشهدُ أنك صادقٌ ونتوب. فنزلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. قال ابن عباس: أي: عن أوليائه وأهل طاعته[2].

والآية عامة. وقد مضى الكلامُ في معنى التّوبة وأحكامِها[3]؛ ومضى هذا اللفظ في «براءة»[4].

﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عن الشِّرك قبلَ الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: من الخير والشرّ.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص وخلف بالتاء على الخطاب[5]، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه[6]. الباقون بالياء على الخبر، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه بين

(١) في (م): فيثبته.

(٢) ذكر قولي ابن عباس رضي الله عنهما البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٦ .

(٣) ٦/ ١٤٩ وما بعدها.

(٤) ١٠/ ٣٦٦ .

(٥) السبعة ص ٥٨١ ، والتيسير ص ١٩٥ ، والنشر ٢/ ٣٦٧ .

(٦) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٥ .

خبرين: الأوّل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ والثاني: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ۝٢٦﴾

«الَّذِينَ» في موضع نصب؛ أي: ويستجيبُ اللهُ الذين آمنوا[١]، أي: يقبل عبادةَ من أخلص له بقلبه وأطاع ببدنه. وقيل: يُعطيهم مسألتَهم إذا دَعَوْه. وقيل: ويُجيب دعاء المؤمنين بعضهم لبعض؛ يقال: أجاب واستجاب بمعنًى، وقد مضى في «البقرة»[٢].

وقال ابن عباس: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُشَفِّعهم في إخوانهم. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ قال: يُشفِّعهم في إخوان إخوانهم[٣].

وقال المُبرِّد: معنى ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: وَلِيستدع[٤] الذين آمنوا الإجابة؛ هكذا حقيقةُ معنى استفعل. فـ«الَّذِينَ» في موضع رفع[٥]. ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ۝٢٧﴾

فيه مسألتان:

الأولى: في نزولها؛ قيل: إنها نزلت في قوم من أهل الصُّفَّة تمنَّوْا سَعةَ الرزق. وقال خَبَّاب بن الأرَتّ: فينا نزلت؛ نظرنا إلى أموال بني النَّضير وقُريظة وبني قَيْنُقَاع فتمنَّيناها فنزلت[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨٢ .

(٢) ٣/ ١٧٧ وما بعدها.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧ .

(٤) في (ظ): ويستدع.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣١٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦ .

﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ معناه: وَسَّع. وبسط الشيء نشره. وبالصاد أيضًا .﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ طغَوْا وعصَوْا. وقال ابن عباس: بَغْيهم طَلَبهم منزلةً بعد منزلة، ودابَّةً بعد دابَّة، ومركباً بعد مركب، ومَلْبساً بعد مَلْبس[1].

وقيل: أراد: لو أعطاهم الكثيرَ لَطلبوا ما هو أكثرُ منه، لقوله: «لو كان لابن آدمَ واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا»[2] وهذا هو البَغْيُ، وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: لو جعلناهم سواءً في المال لما انقاد بعضُهم لبعض، ولتعطَّلت الصنائع. وقيل: أراد بالرزق المطر الذي هو سببُ الرزق؛ أي: لو أدام المطرَ لَتشاغلوا به عن الدعاء، فيقبِض تارةً لِيتضرَّعوا وَيَبْسُط أُخرى لِيشكروا. وقيل: كانوا إذا أخصبوا أغار بعضُهم على بعض؛ فلا يبعد حملُ البغي على هذا.

الزّمخشريّ[3]: «لَبَغَوْا» من البغي وهو الظُّلم؛ أي: لَبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغِنَى مَبْطَرة مَأْشرة، وكفى بقارون عبرة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَخْوَفُ ما أخاف على أمتي زَهْرةُ الدنيا وكَثْرتُها»[4]. ولبعض العرب:

وقد جعل الوسْمِيُّ يُنبت بيننا ... وبين بني رُومان نَبْعًا وشَوْحَطا[5]

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧ .

(٢) أخرجه أحمد (٢١١١١) من حديث أُبَيّ ﷺ بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٦٤٣٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (١٠٤٨) من حديث أنس ﷺ وفيهما: «من مال» بدل: «من ذهب»، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تنظر في مسند أحمد.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٦٩ .

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بنحوه، وسلف ١٣/ ٢٠٨ .

(٥) أورده أبو العلاء في رسالة الصاهل والشاحج ص ٥٤٠ ، وابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٨٩٥ ، وابن منظور في اللسان (شحط). وفيه وفي (م): دودان، بدل: رومان.

وبنو رومان: رَهْط من طيِّئ، كما في الاشتقاق ص ٣٨٠ ، والوسميّ: مطر الربيع الأول. القاموس (وسم)، والنَّبع والشَّوْحط ضربان من الشجر، وهي هاهنا القِسيّ. قاله ابن قتيبة.

يعني: أنهم أُحْيُوا فحدَّثوا أنفسهم بالبغي والتفاتن[١]. أو من البَغْي، وهو البَذَخُ والكِبْر؛ أي: لَتَكَبَّروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكِبْرَ من العُلوِّ فيها والفساد.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي: يُنزِّل أرزاقَهم بقدر ما يشاء لِكفايتهم. وقال مقاتل: «يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يشاءُ» يجعل من يشاء غَنيًّا ومن يشاء فقيرًا.

الثانية: قال علماؤنا: أفعالُ الربِّ سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يَجِبْ على الله الاستصلاح؛ فقد يعلم من حال عبدٍ أنه لو بَسَطَ عليه قادَه ذلك إلى الفساد فَيَزْوِي عنه الدنيا؛ مصلحةً له. فليس ضيقُ الرزق هوانًا ولا سعةُ الرزق فضيلةً؛ وقد أعطى أقواماً مع علمه بأنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلافَ ما فعل لكانوا أقربَ إلى الصلاح. والأمرُ على الجُملة مفوَّضٌ إلى مشيئته، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى. وروى أنسٌ عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى قال: «مَنْ أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمُحاربة، وإني لأسرعُ شيء إلى نُصْرة أوليائي، وإني لأغضبُ لهم كما يغضب الليث الحَرِد، وما تردَّدت في شيء أنا فاعلُه تردُّدي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموتَ وأنا أكره إساءتَه ولا بدَّ له منه. وما تقرَّب إليَّ عبدي المؤمنُ بمثل أداءِ ما افترضتُ عليه. وما يزال عبدي المؤمن يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومُؤَيِّدًا، فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبتُه. وإنَّ من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليمٌ أنْ لو أعطيتُه إيَّاه لَدخله العُجْب فأفسده. وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلا الغِنى، ولو أفقرتُه لأفسده الفَقْر. وإنَّ من عبادي المؤمنين من لا يُصلحه إلا الفقر، ولو أغنيتُه لأفسده الغِنى. وإني لَأُدَبِّر عبادي لِعلمي بقلوبهم، فإني عليمٌ خبير». ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يُصلحهم إلا الغِنى، فلا تُفقرني برحمتك[٢].

---

(١) في (د) و(م) و(ي): التغابن، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للكشاف.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٧ . دون قول أنس ﷺ وضعَّفه الحافظ ابن حجر في الفتح =

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن وحُميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَثّاب والأعمش وغيرهما والكسائي: «يُنزِل» مُخفَّفًا. الباقون بالتشديد[١]. وقرأ ابن وَثّاب أيضًا والأعمش وغيرهما: «قنِطوا» بكسر النون[٢]؛ وقد تقدَّم جميعُ هذا[٣]. والغيث المطر؛ وسُمِّي الغيثُ غيثاً لأنه يَغيثُ الخلق. وقد غاث الغيثُ الأرضَ، أي: أصابها. وغاث اللهُ البلاد يَغيثها غَيْثًا. وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثًا، فهي أرضٌ مَغيثة ومَغْيُوثة. وعن الأصمعيّ قال: مررتُ ببعض قبائل العرب وقد مُطِروا، فسألتُ عجوزاً منهم: أتاكم المطر؟ فقالت: غِثنا ما شئنا غَيْثًا؛ أي: مُطِرنا. وقال ذو الرُّمة: قاتل اللهُ أَمَةَ بني فلان ما أفصحَها! قلتُ لها: كيف كان المطرُ عندكم؟ فقالت: غِثْنا ما شئنا. ذكر الأوّل الثعلبي والثاني الجوهري[٤]. وربما سُمِّي السحاب والنبات غَيْثًا.

والقنوط الإِياس؛ قاله قتادة[٥]. ذُكِر أنّ رجلًا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قَحط المطرُ، وَقَلَّ الغيثُ، وقَنَطَ الناس؟ فقال: مُطِرتُم إنْ شاء الله؛ ثم قرأ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾[٦]. والغيث ما كان نافعاً في وقته، والمطر قد يكون نافعاً وضارًّا في وقته وغير وقته؛ قاله الماورديّ.

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ قيل: المطر؛ وهو قول السُّدي. وقيل: ظهور الشمس بعد

= ١١/ ٣٤٣، وأخرج بعض ألفاظه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﵁، وسلف ٧/ ٤١١، وقول أنس ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦.

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ويعقوب - وقرأ بها حمزة - في السبعة ص ١٦٥، والتيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦.

(٣) ٢/ ٢٥١ و١٢/ ٢٢٣.

(٤) في الصحاح (غيث).

(٥) بعدها في (م) و(ي): وغيره، قال قتادة. والمثبت موافق للنكت والعيون (والكلام منه) ٥/ ٢٠٣.

(٦) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٩.

المطر؛ ذكره المَهدَوِي. وقال مقاتل: نزلت في حبس المطر عن أهل مكةَ سبعَ سنين حتى قَنَطوا، ثم أنزل الله المطر[(١)]. وقيل: نزلت في الأعرابي الذي سأل رسولَ الله ﷺ عن المطر يومَ الجمعة في خبر الاستسقاء[(٢)]؛ ذكره القشيري، والله أعلم. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ «الوَلِيُّ» الذي ينصر أولياءه. «الحَمِيدُ» المحمود بكل لسان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: علاماته الدَّالة على قُدرته. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾ قال مجاهد: يدخل في هذا الملائكةُ والناس[(٣)]، وقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]. وقال الفرَّاء: أراد: ما بثَّ في الأرض دون السماء؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من الملح دون العَذْب[(٤)]. وقال أبو عليّ: تقديره: وما بثَّ في أحدهما؛ فحذف المضاف. وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من أحدهما. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وابن عامر:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٨ .

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٩٣)، والبخاري (١٠٣٣)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس ﷺ وأوله: بينا رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا...

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥١٢ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨٢ .

«بِمَا كَسَبَتْ» بغير فاء. الباقون «فَبِمَا» بالفاء[١]، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف والأجر.

قال المهدَوِيّ: إنْ قدَّرت أن «ما» الموصولة جاز حذفُ الفاء وإثباتُها، والإثباتُ أحسنُ. وإن قدَّرتها التي للشرط لم يَجُزِ الحذفُ عند سيبويه، وأجازه الأخفش واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢] [الأنعام: ١٢١].

والمصيبة هنا الحدود على المعاصي؛ قاله الحسن[٣]. وقال الضحاك: ما تعلَّم رجلٌ القرآنَ ثم نَسِيه إلا بذنب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ثم قال: وأيّ مُصيبة أعظمُ من نسيان القرآن؛ ذكره ابن المبارك[٤] عن عبد العزيز بن أبي روَّاد. قال أبو عبيد[٥]: إنما هذا على الترك، فأما الذي هو دائبٌ في تلاوته، حريصٌ على حِفْظه إلا أن النِّسيان يغلِبه فليس من ذلك في شيء. ومما يُحقِّق ذلك أن النبيّ ﷺ كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره؛ من ذلك حديث عائشة أنَّ[٦] النبي ﷺ سمع قراءةَ رجل في المسجد فقال: «ماله ـ رَحِمه الله ـ لقد أذْكرني آياتٍ كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا»[٧].

وقيل: «ما» بمعنى الذي، والمعنى: الذي أصابكم فيما مضى بما كسبت أيديكم[٨]. وقال عليّ ﷺ: هذه الآيةُ أرجى آية في كتاب الله عز وجل. وإذا كان يُكفِّر عني بالمصائب، ويعفو عن كثير فيما يبقى بعدَ كفارته وعفوِه؟! وقد رُوي هذا المعنى

(١) السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥١٤.

(٤) في الزهد (٨٥).

(٥) في غريب الحديث ٣/ ١٤٩ - ١٥٠.

(٦) في (د) و(م): عن.

(٧) أخرجه أحمد (٢٤٣٣٥)، والبخاري (٥٠٣٨) ومسلم (٧٨٨). والرجل الذي سمع النبي ﷺ صوته هو عبَّاد بن بشر ﷺ. كما في صحيح البخاري (٢٦٥٥) وفتح الباري ٥/ ٢٦٥.

(٨) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٨٣ واستبعده.

مرفوعًا عنه ﷺ، قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: ألَا أُخبركم بأفضلِ آية في كتاب الله حدّثنا بها النبيُّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ الآية: «يا عليّ، ما أصابَكم من مرضٍ أو عقوبةٍ أو بلاءٍ في الدنيا فبما كسبت أيديكم. واللهُ أكرمُ من أن يُثنِّيَ عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلمُ من أن يُعاقب به بعد عَفْوه»(١). وقال الحسن: لما نزلت هذه الآيةُ قال النبيّ ﷺ: «ما مِن اختلاج عِرْق ولا خَدْشِ عُود ولا نَكْبةِ حَجَر إلّا بذنب، ولما يعفو اللهُ عنه أكثر»(٢).

وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حُصين فقال رجل: لا بدَّ أن أسألك عما أرى بك من الوَجَع؛ فقال عمران: يا أخي لا تفعل، فوالله، إني لأُحِبُّ الوَجَع، ومَنْ أحبَّه كان أحبَّ الناس إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ فهذا مما كسبت يدي، وعَفْوُ ربي عما بقي أكثرُ. وقال مُرَّة الهَمْداني: رأيتُ على ظهر كفِّ شُريح قرحةً فقلت: يا أبا أُميَّة، ما هذا؟ قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير(٣).

وقال ابن عَون: إن محمد بن سِيرين لما رَكِبه الدَّين اغتمَّ لذلك فقال: إني لأعرفُ هذا الغمَّ، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة(٤). وقال أحمد بن أبي الحَوَارِي: قيل لأبي سليمان الدّاراني: ما بال العقلاء أزالوا اللَّوْمَ عمن أساء إليهم؟ فقال: لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾(٥). وقال عِكرمة: ما من نكبةٍ أصابت عبدًا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله لِيغفره له إلا بها أو لِينال درجةً لم يكن

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٦٤٩)، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٢٨ . وفي إسناده الأزهر بن راشد الكاهلي، وهو ضعيف، والخضر بن القواس وأبو سُخيلةَ، وهما مجهولان، فيما قاله الحافظ ابن حجر في التقريب. وقد أخرجه بنحوه ودون ذكر الآية أحمد (٧٧٥). والترمذي (٢٦٢٦) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٩ ، وهو هكذا مرسل.

(٣) ذكر هذا الخبر والذي قبله ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٧١ .

(٥) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٨٨ .

يُوصله إليها إلا بها[١].

ورُوي أن رجلاً قال لموسى: يا موسى، سَلِ اللهَ لي في حاجة يقضيها لي هو أعلمُ بها؛ ففعل موسى؛ فلما نزل إذا هو بالرجل قد مزَّق السَّبع لحمه وقَتَله؛ فقال موسى: ما بال هذا يا رب؟ فقال اللهُ تبارك وتعالى له: يا موسى، إنه سألني درجةً عَلِمتُ أنه لم يبلُغْها بعمله فأصبتُه بما ترى لأجعلها وسيلةً له في نَيْل تلك الدرجة. فكان أبو سليمان الدَّارَاني إذا ذكر هذا الحديث يقول: سبحان من كان قادراً على أن يُنيلَه تلك الدرجة بلا بلوى! ولكنه يفعل ما يشاء[٢].

قلت: ونظيرُ هذه الآية في المعنى قولُه تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] وقد مضَى القولُ فيه.

قال علماؤنا: وهذا في حقِّ المؤمنين، فأما الكافر فعقوبته مؤخَّرةٌ إلى الآخرة. وقيل: هذا خطابٌ للكفار، وكان إذا أصابهم شرٌّ قالوا: هذا بشؤم محمد؛ فردَّ عليهم وقال: بل ذلك بشؤم كُفركم. والأوّل أكثرُ وأظهرُ وأشهر.

وقال ثابت البُنانِيّ: إنه كان يقال: ساعات الأذى يُذهبن ساعاتِ الخطايا. ثم فيها قولان: أحدهما: أنها خاصة في البالغين أن تكون عقوبةً لهم، وفي الأطفال أن تكون مَثُوبة لهم. الثاني: أنها عقوبةٌ عامة للبالغين في أنفسهم والأطفال في غيرهم من والد ووالدة.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: عن كثير من المعاصي ألا يكون عليها حدود؛ وهو مقتضى قول الحسن. وقيل: أي: يعفو عن كثير من العُصاة ألّا يعجل عليهم بالعقوبة[٣]. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بفائتين الله؛ أي: لن تُعجزوه ولن تفوتوه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ تقدَّم في غير موضع[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٢٨ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٨٥٣) بنحوه دون قول أبي سليمان.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٠٤ .

(٤) ٢/ ٣١١ .

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: ومن علاماته الدالَّة على قُدرته السفنُ الجارية في البحر كأنها من عِظَمها أعلامٌ. والأعلام: الجبال، وواحد الجواري جارية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. سُمِّيت جارية لأنها تجري في الماء. والجارية: هي المرأة الشابَّة؛ سُمِّيت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب. وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم؛ ذكره الثعلبي[١]. وذكر الماوَرْدي[٢] عنه أنها الجبال. وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم[٣]. قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

وإنّ صخراً لتأتمُّ الهُداة به كأنه علَمٌ في رأسهِ نار[٤]

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ كذا قراءة العامة، وقراءة أهل المدينة: «الرِّيَاح» بالجمع[٥]. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: فتبقى السفنُ سواكنَ على ظهر البحر لا تجري. رَكَد الماء ركودًا سكن. وكذلك الريح والسفينة، والشمس إذا قام قائم الظَّهيرة. وكلّ ثابتٍ في مكان فهو راكد. وركد الميزان استوى. ورَكد القوم هَدَؤوا. والمراكد: المواضع التي يَرْكُد فيها الإنسان وغيره[٦].

وقرأ قتادة: «فَيَظْلِلْنَ» بكسر اللام الأولى[٧] على أن يكون لغة، مثلُ ضَلِلت أَضِل[٨]. وفتح اللام هي اللغة المشهورة.

---

(١) وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٨ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٢٨ .

(٤) ديوان الخنساء ص ٤٩ .

(٥) السبعة ص٥٨١ ، والتيسير ص١٩٥ ، والنشر ٢/ ٣٦٧ .

(٦) الصحاح (ركد).

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨ .

(٨) في النسخ: ظللت أظل، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٧١ ، وينظر ما قاله أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠ .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: دلالات وعلامات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبّار على البَلْوَى شكور على النعماء. قال قُطْرُب: نِعْمَ العبد الصبّار الشَّكور، الذي إذا أُعطِي شكر وإذا ابتُلي صبر. قال عَوْن بن عبد الله: فكم من مُنْعَم عليه غير شاكر، وكم من مبتلًى غير صابر[1].

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: وإن يشأ يجعل الرياحَ عواصفَ فيُوبق السفن؛ أي: يُغرقهن بذنوب أهلها. وقيل: يُوبق أهل السفن[2]. ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من أهلها فلا يُغرقهم معها؛ حكاه الماوردي[3]. وقيل: «وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» أي: ويتجاوز عن كثير من الذنوب فيُنجيهم اللهُ من الهلاك.

قال القُشَيرِيّ: والقراءة الفاشية: «وَيَعْفُ» بالجزم، وفيها إشكال؛ لأن المعنى: إن يشأ يُسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكدَ ويُهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف «يَعْفُ» على هذا لأنه يصير المعنى: إنْ يشأ يعفُ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة، فهو إذًا عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى. وقد قرأ قوم: «ويعفو» بالرفع، وهي جيدة في المعنى[4].

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ يعني الكفار؛ أي: إذا توسَّطوا البحر وغَشِيتهم الرياح من كل مكان، أو بقيت السفن رواكدَ علموا أنه لا مَلْجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إنْ أراد اللهُ إهلاكهم، فيُخلصون له العبادة. وقد مضى هذا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٢) زاد المسير ٧/ ٢٨٩ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٤) ذكر قول القشيري أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠ - ٥٢١ ، ثم قال: ما قاله ليس بجيد، إذ لم يَفْهم مدلول التركيب، والمعنى: أنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم.

المعنى في غير موضع[(١)]، ومضى القولُ في ركوب البحر في «البقرة» وغيرها بما يُغني عن إعادته.[(٢)]

وقرأ نافع وابن عامر: «وَيَعْلَمُ» بالرفع، الباقون بالنصب[(٣)]. فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء؛ كقوله في سورة التوبة: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٤-١٥] رفعًا. ونظيره في الكلام: إن تأتني آتِكَ وينطلقُ عبد الله. أو على أنه خبرُ ابتداء محذوف. والنصب على الصرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً كراهيةً لتوالي الجزم[(٤)]؛ كقول النابغة:

فإن يَهْلِكْ أبو قابوسَ يَهْلِكْ ربيعُ الناس والشهرُ الحرامُ
ونُمْسِكْ[(٥)] بعده بذِنابِ عَيْشٍ أَجَبِّ الظَّهْرِ ليس له سَنامُ[(٦)]

وهذا معنى قول الفرّاء[(٧)]، قال: ولو جزم «ويعلم» جاز. وقال الزّجاج[(٨)]: نصب على إضمار «أن» لأن قبلها جزمًا؛ تقول: ما تصنعْ أصنعْ مثلَه وأُكرمَك. وإنْ شئتَ قلت: وأُكرمْك، بالجزم.

وفي بعض المصاحف: «ولِيعلمَ». وهذا يدلُّ على أن النصب بمعنى: وليعلم، أو لأنْ يعلم.

---

(١) ١٠/٤٧٥ و١٦/١٩٣ .

(٢) ٢/٤٩٥ .

(٣) السبعة ص ٥٨١ ، والتيسير ص ١٩٥ .

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ١٣٠ بنحوه.

(٥) في النسخ: ويمسك، والمثبت من المصادر.

(٦) ديوان النابغة ص ١١٠ . وأبو قابوس: هو النعمان بن المنذر، وسلف البيتان ١٠/١٢٩ . وينظر ضبط قوله: أجبّ الظهر في خزانة الأدب الشاهد (٧٥٦).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٤ - ٢٥ .

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٩ .

وقال أبو عليّ والمبرّد: النصب بإضمار «أن» على أن يجعل الأوّل في تقدير المصدر؛ أي: ويكون منه عَفْوٌ وأن يعلم فلما حَمَله على الاسم أضمرَ أن، كما تقول: إنْ تَأْتِني وتُعطِيَني أكرمك، فتنصب تُعطيني، أي: إن يكن منك إتيانٌ وأنْ تُعطيني[1].

ومعنى ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من فِرار ومَهْرب؛ قاله قُطْرُب. السدي: مِن مَلْجأ. وهو مأخوذٌ من قولهم: حاص به البعير حيصةً إذا رمى به. ومنه قولهم: فلان يحيص عن الحق، أي: يميلُ عنه[2].

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ يريد من الغِنى والسَّعة في الدنيا. ﴿فَمَتَٰعُ﴾ أي: فإنما هو متاعٌ في أيام قليلة تنقضي وتذهب؛ فلا ينبغي أن يتفاخرَ به. والخِطاب للمشركين. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ يريد من الثواب على الطاعة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صدَّقوا ووحَّدوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ نزلت في أبي بكر الصدِّيق حين أنفق جميعَ ماله في طاعة الله فلامَه الناسُ[3]. وجاء في الحديث أنه: أنفق ثمانين ألفاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ الذين في موضع جرّ معطوفٌ على قوله: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[4] أي: وهو للذين يجتنبون ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ وقد مضى القولُ

---

(١) الحجة للفارسي ٦/ ١٣٠ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٧٢ ، وحديث إنفاق أبي بكر ﷺ ماله كلّه وإنفاق عمر ﷺ نصف ماله أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر ﷺ.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٨٦ .

في الكبائر في «النساء»[١].

وقرأ حمزة والكسائي: «كَبيرَ الإِثْمِ»[٢] والواحد قد يُراد به الجمع عند الإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وكما جاء في الحديث: «مَنَعتِ العراقُ دِرْهمها وَقَفِيزَها»[٣]. الباقون بالجمع هنا وفي «النجم» [الآية: ٣٢].

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ قال السُّدِّي: يعني الزنى[٤]. وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشِّرك[٥].

وقال قوم: كبائرُ الإثم ما تقع على الصغائر مغفورة عند اجتنابها. والفواحش داخلة في الكبائر، ولكنها تكون أفحشَ وأشنعَ، كالقتل بالنسبة إلى الجرح، والزنى بالنسبة إلى المراودة. وقيل: الفواحشُ والكبائرُ بمعنًى واحد، فكرَّر لِتعدُّد اللَّفظ؛ أي: يجتنبون المعاصي لأنها كبائرُ وفواحشُ.

وقال مقاتل: الفواحشُ مُوجِباتُ الحدود[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يتجاوزون ويَحلُمون عمن ظَلَمهم. قيل: نزلت في عمر حين شُتِم بمكة. وقيل: في أبي بكر حين لامَه الناس على إنفاق ماله كله وحين شُتم فَحلُم. وعن علي ﷺ قال: اجتمع لأبي بكر مال مرة، فتصدّق به كلّه في سبيل الخير؛ فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزلت: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إلى قوله

(١) ٦/ ٢٦١ وما بعدها.

(٢) السبعة ص ٥٨١، والتيسير ص ١٩٥.

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٦٥)، ومسلم (٢٨٩٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. والقفيز: اثنا عشر صاعاً. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٢٢.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٢.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٩.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[(١)]. وقال ابن عباس: شَتَم رجل من المشركين أبا بكر فلم يردَّ عليه شيئًا؛ فنزلت الآية[(٢)]. وهذا من محاسن الأخلاق، يُشفقون على ظالمهم ويَصْفَحون لمن جَهِل عليهم؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه؛ لقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وهو أن يتناولك الرجلُ فتكظِم غيظَك عنه. وأنشد بعضهم:

إني عفوتُ لظالمي ظلمي ووهبتُ ذاك له على عِلْمي
ما زال يَظْلِمُني وأرحمُه حتى بَكيتُ له من الظُّلم[(٣)]

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هم الأنصار بالمدينة؛ استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة. ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدَّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها[(٤)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتشاورون في الأمور. والشُّورَى مصدر شاورته، مثل البُشرى والذِّكرى ونحوه.

فكانت الأنصارُ قبل قدوم النبيّ ﷺ إليهم إذا أرادوا أمرًا تشاوروا فيه، ثم عملوا عليه؛ فَمدَحَهُم الله تعالى به؛ قاله النقَّاش. وقال الحسن: أي: إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متَّفقون لا يختلفون؛ فَمُدِحوا باتِّفاق كلمتهم. قال الحسن: ما تشاور قوم قطُّ إلا هُدُوا لأَرشدِ أمورهم. وقال الضحاك: هو تشاورُهم حين سمعوا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٢، وسلف الخبر في تفسير الآية السابقة.

(٢) أخرجه أحمد (٩٦٢٤)، وأبو داود (٤٨٩٦) مطولاً دون ذكر الآية.

(٣) ذكرهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٣٦٦ ونسبهما لمحمود الوراق.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠٦.

بظهور رسول الله ﷺ، وورد النُّقباء إليهم حتى اجتمع رأيُهم في دار أبي أيوب على الإيمان به والنُّصرة له. وقيل: تشاورُهم فيما يعرِض لهم؛ فلا يستأثر بعضُهم بخبر[١] دون بعض.

وقال ابن العربي[٢]: الشُّورَى أُلفةٌ للجماعة ومِسْبارٌ للعقول وسببٌ إلى الصواب، وما تشاور قومٌ قطُّ إلا هُدُوا. وقد قال الحكيم:

إذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعِنْ ... برأي لبيبٍ أو مشورةِ حازم

ولا تجعل الشُّورى عليك غَضَاضة ... فإنَّ الخَوَافي نافعٌ للقوادم[٣]

فمدح اللهُ المشاورةَ في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يتمثَّلون ذلك. وقد كان النبيُّ ﷺ يُشاور أصحابَه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب؛ وذلك في الآثار[٤] كثيرٌ. ولم يكن يُشاورهم في الأحكام؛ لأنها مُنزلةٌ من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يَتشَاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة. وأوّل ما تشاور فيه الصحابة الخلافةُ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يَنُصَّ عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه[٥].

وقال عمر ﷺ: نرضى لِدُنيانا مَنْ رَضِيَهُ رسولُ الله ﷺ لديننا[٦]. وتشاوروا في أهل الرِّدَّة فاستقرَّ رأيُ أبي بكر على القتال. وتشاوروا في الجَدّ وميراثه، وفي حدّ الخمر

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢٠٦ (والأقوال السالفة كلها منه): بخير.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٦ . والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) البيتان لبشار بن برد، وهما في ديوانه ٢/ ٥٠٣ ، وعجز البيت الأول فيه: برأي نصيح أو نصيحة حازم.
وعجز البيت الثاني: مكان الخوافي قوة للقوادم. والخوافي: ريشاتٌ إذا ضمَّ الطائرُ جناحيه خَفِيَتْ، والقوادم: أربع أو عشر ريشات في مُقدَّم الجناح. القاموس المحيط (خفي) و(قدم).

(٤) في النسخ: الآراء، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٥) ١/ ٣٩٥ وما بعدها.

(٦) سلف ١/ ٤٠٦ - ٤٠٧ و٩/ ١٦٧ من قول علي ﷺ.

وعدده. وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب؛ حتى شاور عمرُ الهُرْمُزان حين وَفَدَ عليه مسلماً في المغازي، فقال له الهُرْمُزان: مَثَلُها وَمَثَلُ من فيها من الناس من عدوّ المسلمين مَثَلُ طائرٍ له رأس[١] وله جناحان ورجلان، فإن كُسِرَ أحدُ الجناحين نَهَضَتِ الرِّجلان بجناح والرأس، وإنْ كُسِرَ الجناحُ الآخر نَهَضتِ الرِّجلان والرأس وإن شُدِخ الرأسُ ذهب الرِّجلان والجناحان. والرأسُ كسْرى والجناح الواحد قيصر والآخر فارس؛ فَمُرِ المسلمين فَلْينفِروا إلى كِسْرى. وذكر الحديث[٢].

وقال بعض العقلاء: ما أخطأت قطُّ! إذا حَزَبَني أمرٌ شاورتُ قومي ففعلت الذي يَرَوْن؛ فإن أصبتُ فهم المُصيبون، وإن أخطأتُ فهم المُخطئون[٣].

الثالثة: قد مضى في «آل عمران» ما تضمَّنته الشُّورى من الأحكام عند قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [الآية: ١٥٩]. والمَشُورة بركة. والمَشْوَرة: الشُّورَى، وكذلك المَشُورة بضم الشين؛ تقول منه: شاوَرْته في الأمر واستشرته بمعنًى[٤].

وروى الترمذي[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خيارَكم وأغنياؤكم سُمَحاءَكم وأَمْرُكم شُورَى بينكم فظَهْرُ الأرض خيرٌ لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شِرارَكم وأغنياؤكم بُخَلاءَكم وأمورُكم إلى نسائكم فبطنُ الأرض خيرٌ لكم من ظَهْرها». قال حديث غريب[٦]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومما أعطيناهم يتصدَّقون. وقد تقدّم في «البقرة»[٧].

---

(١) في النسخ: ريش، وهو تصحيف، والمثبت من المصادر.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٩).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٥٦ - ١٦٥٧.

(٤) الصحاح (شور).

(٥) في سننه (٢٢٦٦).

(٦) وقال أيضاً: لا نعرفه إلا من حديث صالح المُرّي، وصالح المُرِّيُّ في حديثه غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، وهو رجل صالح.

(٧) ١/٢٧٣ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي: أصابهم بَغيُ المشركين. قال ابن عباس: وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وآذَوْهم وأخرجوهم من مكة، فأَذِنَ اللهُ لهم بالخروج، ومَكَّنَ لهم في الأرض، ونَصَرهم على من بَغَى عليهم[1]؛ وذلك قوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا﴾ الآيات [٣٩-٤١] كلها. وقيل: هو عامٌّ في بَغْي كل باغ من كافر وغيره[2]، أي: إذا نالهم ظُلم لم يستسلموا لِظُلمه. وهذه إشارةٌ إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود.

قال ابن العربي[3]: ذَكَر اللهُ الانتصار في البغي في مَعْرِض المَدْح، وذكر العفو عن الجُرم في موضع آخرَ في مَعْرِض المدح؛ فاحتمل أن يكون أحدُهما رافعاً للآخر، واحتمل أن يكون ذلك راجعًا إلى حالتين:

إحداهما: أن يكون الباغي مُعلناً بالفجور، وَقِحًا في الجمهور، مُؤذِيًا للصغير والكبير؛ فيكون الانتقام منه أفضلَ. وفي مثله قال إبراهيم النَّخَعِيّ: كانوا يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفُسّاق.

الثانية: أن تكون الفَلْتة، أو يقع ذلك ممن يعترف بالزَّلَّة ويسأل المغفرة؛ فالعفو

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٩١ بنحوه عن عطاء.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٩٢.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٧.

هاهنا أفضلُ، وفي مثله نزلت: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]. وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٨]. وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢].

قلت: هذا حسن، وهكذا ذكر الكِيا الطبري في «أحكامه»[١] قال: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ يدل ظاهرُه على أن الانتصار في هذا الموضع أفضل؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة لله سبحانه وتعالى وإقام الصلاة؛ وهو محمولٌ على ما ذكر إبراهيم النَّخَعِيّ أنهم كانوا يكرهون للمؤمنين أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفُسَّاق؛ فهذا فيمن تعدّى وأصرَّ على ذلك. والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الجاني نادماً مُقْلِعاً. وقد قال عَقِيب هذه الآية: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾. ويقتضي ذلك إباحةَ الانتصار لا الأمر به؛ وقد عقَّبه بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. وهو محمولٌ على الغفران عن غير المُصِرّ، فأما المُصِرّ على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلالة الآية التي قبلَها.

وقيل: أي: إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يُزيلوه عنهم ويدفعوه؛ قاله ابن بحر[٢]. وهو راجعٌ إلى العموم على ما ذكرنا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ قال العلماء: جعل الله المؤمنين صِنفين: صنف يعفُون عن الظالم فبدأ بذكرهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. وصنف ينتصرون من ظالمهم[٣]. ثم بين حدّ الانتصار بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فينتصر ممن ظَلَمه من غير أن يعتدي. قال مقاتل وهشام بن حُجَير: هذا في المجروح ينتقم من الجارح بالقصاص دون غيره من سبٍّ أو شَتْم. وقاله الشافعي وأبو حنيفة وسفيان[٤]. قال سفيان: وكان ابن شُبْرُمَة يقول: ليس بمكة مثل هشام[٥].

---

(١) ٤/ ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٠٦.

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٩١ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧.

(٥) ذكره الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/ ٢٦٧.

وتأوّل الشافعي في هذه الآية أنَّ للإنسان أن يأخُذَ من مال مَن خانَه مثلَ ما خانه من غير عِلْمه؛ واستشهد في ذلك بقول النبي ﷺ لهند زوجِ أبي سفيان: «خُذي من مالِهِ ما يَكفيكِ وولدَكِ»[١] فأجاز لها أخذَ ذلك بغير إذْنه. وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في «البقرة»[٢].

وقال ابن أبي نَجيح: إنه محمولٌ على المُقابلة في الجراح. وإذا قال: أخزاه اللهُ، أو لعنه الله أن يقول مثلَه. ولا يُقابل القذفَ بقذف، ولا الكذب بكذب[٣].

وقال السُّدِّي: إنما مدح اللهُ من انتصر ممن بغى عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به؛ يعني كما كانت العرب تفعله[٤].

وسُمِّي الجزاء سيئةً لأنه في مُقابلتها؛ فالأوّل ساء هذا في مال أو بدن، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضاً؛ وقد مضى هذا كلُّه في «البقرة» مستوفى[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ قال ابن عباس: من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إن اللهَ يأجُره على ذلك. قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة. وقد مضى في «آل عمران» في هذا ما فيه كفاية[٦]، والحمد لله.

وذكر أبو نعيم الحافظ[٧] عن علي بن الحسين ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة نادى مُنادٍ: أيكم أهل الفضل، فيقوم ناسٌ من الناس، فيقال: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقَّاهم

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ٣/ ٢٤٩ ، وسلف ثمة حديث هند زوجة أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٧ .

(٥) ٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٦) ٥/ ٣١٩ وما بعدها.

(٧) في حلية الأولياء ٣/ ١٣٩ .

الملائكةُ، فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا: قبل الحساب؟! قالوا: نعم، قالوا: من أنتم؟ قالوا: أهلُ الفَضْل؛ قالوا: وما كان فَضْلكم؟ قالوا: كنا إذا جُهل علينا حَلُمنا وإذا ظُلِمنا صَبَرْنَا وإذا سِيء إلينا عَفَوْنا؛ قالوا: ادخلوا الجنة، فنعم أجرُ العاملين. وذكر الحديث.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مَن بدأ بالظلم؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: لا يحب مَن يتعدَّى في الاقتصاص ويُجاوز الحد؛ قاله ابن عيسى[(١)].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيلَ إلى لَوْمه، بل يُحمَدُ على ذلك مع الكافر. ولا لومَ إن انتصر الظالم من المسلم؛ فالانتصار من الكافر حتم، ومن المسلم مباح، والعفو مندوب.

الخامسة: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ دليلٌ على أن له أن يستوفيَ ذلك بنفسه. وهذا ينقسم ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يكون قصاصاً في بدن يستحقُّه آدميٌّ، فلا حرجَ عليه إن استوفاه من غير عُدوان وثبت حقُّه عند الحُكَّام، لكن يزجره الإمام في تفرُّده[(٢)] بالقصاص لما فيه من الجُرأة على سفك الدم. وإن كان حقُّه غيرَ ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج، وهو في الظاهر مُطالَبٌ وبفعله مُؤاخَذٌ ومُعاقَب.

القسم الثاني: أن يكون حدًّا لله تعالى لا حقَّ لآدمي فيه، كحدّ الزنى وقطع السرقة؛ فإن لم يَثْبُتْ ذلك عند حاكم أُخِذَ به وعُوقب عليه، وإن ثبت عند حاكم نُظر، فإن كان قطعاً في سرقة سقط به الحدّ لزوال العضو المستحق قطعه، ولم يجب عليه في ذلك حقٌّ إلا التعزير أدباً[(٣)]، وإن كان جَلْداً لم يسقط به الحَدُّ لِتعدّيه مع بقاء محلِّه، فكان مأخوذاً بحكمه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) في (د): تقويه، وفي (ف) و(م): تفوته، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للنكت والعيون ٥/ ٢٠٨ والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) في النسخ: لأن التعزير أدب، والمثبت من النكت والعيون.

القسم الثالث: أن يكون حقًّا في مال؛ فيجوز لصاحبه أن يُغالب على حقِّه حتى يصل إليه إن كان هو ممن هو عالمٌ به[١]، وإن كان غيرَ عالم نُظر، فإنْ أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له الاستسرارُ بأخذه. وإن كان لا يصل إليه بالمُطالبة لِجُحود من هو عليه من عدم بيّنةٍ تشهد له ففي جواز استسراره بأخذه مذهبان: أحدهما: جوازه؛ وهو قول مالك والشافعي. الثاني: المنع؛ وهو قول أبي حنيفة.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: بعدوانهم عليهم؛ في قول أكثر العلماء. وقال ابن جُريج: أي: يظلمونهم بالشِّرك المُخالف لدينهم. ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: في النفوس والأموال؛ في قول الأكثرين. وقال مقاتل: بَغْيُهم عَمَلُهم بالمعاصي. وقال أبو مالك: هو ما يرجوه كفارُ قريش أن يكون بمكة غير الإسلام ديناً[٢]. وعلى هذا الحدّ قال ابن زيد: إنَّ هذا كلَّه منسوخٌ بالجهاد، وإنَّ هذا للمشركين خاصة. وقول قتادة: إنه عامٌّ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام[٣]. وقد بيَّنّاه والحمد لله.

السابعة: قال ابن العربي[٤]: هذه الآيةُ في مقابلة الآية المتقدّمة في «براءة» وهي قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [الآية: ٩٢]؛ فكما نفى اللهُ السبيل عمن أحسن فكذلك أثبتها[٥] على من ظلم؛ واستوفى بيان القسمين.

الثامنة: واختلف علماؤنا في السلطان يضع على أهل بلد مالًا معلوماً يأخذهم به ويؤدّونه على قدر أموالهم؛ هل لمن قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد بتمام ما جعل عليهم. فقيل: لا؛ وهو قول سُحنون من علمائنا. وقيل: نعم، له ذلك إنْ قدر على الخلاص؛ وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن

---

(١) في النكت والعيون: إن كان من هو عليه عالماً به، وكلاهما بمعنى.

(٢) النكت والعيون ٥/٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٦٢٣ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٨ .

(٥) في النسخ: نفاها، والمثبت من أحكام القرآن.

نصر الداودي ثم المالكي. قال: ويدلُّ عليه قول مالك في الساعي يأخذ من غنم أحد الخُلطاء شاةً وليس في جميعها نصاب: إنها مظلمة على من أُخذت له لا يرجِع على أصحابه بشيء. قال: ولست آخذ بما روِي عن سحنون؛ لأن الظُّلم لا أُسوةَ فيه، ولا يلزم أحدٌ أن يُولج نفسَه في ظُلم مخافةَ أن يُضاعَفَ الظُّلمُ على غيره، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

التاسعة: واختلف العلماء في التحليل؛ فكان ابن المُسَيَّب لا يُحلل أحدًا من عِرض ولا مال. وكان سليمان بن يَسار ومحمد بن سِيرين يُحلِّلان من العِرض والمال. ورأى مالك التحليل من المال دون العرض. روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب: لا أُحلِّل أحدًا، فقال: ذلك يختلف؛ فقلت له: يا أبا عبد الله، الرجلُ يُسلف الرجلَ فَيَهْلِكُ ولا وفاء له؟ قال: أرى أن يُحلله وهو أفضل عندي؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]. فقيل له: الرجل يظلم الرجل؟ فقال: لا أرى ذلك، هو عندي مُخالفٌ للأوّل؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ويقول تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة: ٩٢] فلا أرى أن يجعله من ظُلمه في حِلّ.

قال ابن العربي(١): فصار في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها: لا يُحلِّله بحالٍ؛ قاله سعيد ابن المسيّب. الثاني: يُحلّله؛ قاله محمد بن سيرين. الثالث: إن كان مالاً حلَّله وإن كان ظُلماً لم يُحلِّله؛ وهو قول مالك.

وجه الأوّل ألّا يُحلِّل ما حرّم الله؛ فيكون كالتبديل لحكم الله. ووجه الثاني أنه حقُّه فله أن يُسقطَه كما يُسقط دمَه وعِرْضه. ووجه الثالث الذي اختاره مالك هو أن الرجل إذا غلب على أداء حقك فمن الرفق به أن تُحلِّله(٢)، وإن كان ظالماً فمن الحق ألا تتركَه لئلا تغترَّ الظَّلَمةُ ويسترسلوا(٣) في أفعالهم القبيحة.

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٦٥٨، وما قبله منه.

(٢) في (د): يحلله، وفي (م): يتحلله، والمثبت من (ظ).

(٣) في النسخ الخطية: يستشرون، والمثبت من أحكام القرآن.

وفي «صحيح» مسلم حديثُ أبي اليَسَر الطويل وفيه أنه قال لِغريمه: أُخرج إليّ، فقد علمتُ أين أنت؛ فخرج؛ فقال: ما حملك على أن اختبأتَ مني؟ قال: أنا والله أُحَدِّثُكَ ثم لا أكذِبُك، خَشيتُ ـ والله ـ أن أُحدِّثَك فأكذِبَك، وأن أَعِدَك فأُخْلِفك، وكنتَ صاحبَ رسول الله ﷺ، وكنتُ والله مُعْسِرًا. قال: قلت: آللهِ؟ قال اللهِ[1]؛ قال: فأتى بصحيفة فمحاها فقال: إن وجدتَ قضاءً فاقضِ، وإلا فأنت في حِلّ. وذكر الحديث[2].

قال ابن العربي[3]: وهذا في الحي الذي يُرجى له الأداء لسلامة الذِّمَّة ورجاء التَّحلُّل[4]، فكيف بالميت الذي لا مُحاللة له ولا ذِمّة معه.

العاشرة: قال بعض العلماء: إن مَن ظُلم وأُخِذ له مالٌ فإنما له ثوابٌ ما احتُبِس عنه إلى موته، ثم يرجع الثواب إلى ورثته، ثم كذلك إلى آخرهم؛ لأن المال يصير بعده للوارث. قال أبو جعفر الداودي المالكي: هذا صحيحٌ في النظر؛ وعلى هذا القول إن مات الظالمُ قبل مَن ظَلَمه ولم يترك شيئاً، أو ترك ما لم يعلم وارثُه فيه بظلم لم تنتقل تِباعةُ المظلوم إلى ورثة الظالم؛ لأنه لم يبقَ للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صبر على الأذى و«غفر» أي: ترك الانتصار لوجه الله تعالى؛ وهذا فيمن ظَلَمه مسلم. ويُحكى أن رجلاً سبَّ رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظِم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية؛ فقال الحسن: عَقَلها والله، وفهمها إذ ضيَّعها الجاهلون[5].

---

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم ١٨/ ١٣٥ : الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام، والثاني بلا مدّ، والهاء فيهما مكسورة، هذا هو المشهور. قال القاضي: رويناه بكسرها وفتحها معاً، قال: وأكثر أهل العربية لا يُجيزون غير كسرها.

(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٦).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٩ .

(٤) في النسخ: التمحل، وجاء في هامش (ي): يقال: تمحل، أي: احتال، فهو مُتَمحِّل. قاله الجوهري [الصحاح (محل)]. والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٧٣ ، وما بعده منه.

وبالجملة العفو مندوب إليه، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع تركُ العفو مندوباً إليه كما تقدّم؛ وذلك إذا احتيج إلى كفّ زيادة البغي وقطع مادّة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه، وهو أن زينب أسمعت عائشةَ رضي الله عنهما بحضرته فكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: «دونَكِ فانتصري» خرجه مسلم في «صحيحه» بمعناه(١).

وقيل: «صَبَر» عن المعاصي وستر على المساوئ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من عزائم الله التي أمر بها. وقيل من عزائم الصواب التي وفق لها. وذكر الكلبي والفراء(٢) أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ مع ثلاث آيات قبلها، وقد شَتَمه بعضُ الأنصار فردّ عليه ثم أمسك. وهي المَدَنِيَّات من هذه السورة.

وقيل: هذه الآيات في المشركين، وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آيةُ القتال؛ وهو قول ابن زيد، وقد تقدم(٣).

وفي تفسير ابن عباس: «وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ» يريد حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة(٤) وعليًّا وجميع المهاجرين رضوان الله عليهم. ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يريد حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة وعليًّا رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر. ﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريد بالظلم والكفر. ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يريد وجيع. ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ يريد أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٤٢)، وأخرجه أحمد (٢٤٥٧٥)، والبخاري (٢٥٨١) بنحوه أيضاً، وأخرجه بلفظ المصنف أحمد (٢٤٦٢٠).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٠٩ وما قبله وما بعده منه.

(٣) تقدم آخر المسألة السادسة.

(٤) هو عُبيدة بن الحارث بن المطلب، القرشي، أسلم قديماً، وشهد بدراً، وبارز فيها مع حمزة وعلي رضوان الله عليهم عُتبةَ وشيبة ابني ربيعة والوليدَ بن عتبة، وأصل قصتهم في صحيح البخاري (٣٩٦٥)، وينظر الإصابة ٦/ ٣٦٩ .

الجراح ومُصعب بن عُمير وجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ حيث قَبِلوا الفِداء وصبروا على الأذى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يَخْذُله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ هذا فيمن أعرض عن النبيِّ ﷺ فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والمودّة في القُربى، ولم يُصدِّقه في البعث وأن متاعَ الدنيا قليل. أي: من أضلَّه اللهُ عن هذه الأشياء فلَا يهديه هادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين. ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني جهنم. وقيل: رَأَوُا العذابَ عند الموت. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ يطلبون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا لِيعملوا بطاعة الله، فلا يُجابون إلى ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار لأنها عذابهم؛ فكنى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث؛ لأن ذلك العذابَ هو النار، وإن شئت جهنم، ولو راعى اللفظ لقال: عليه.

ثم قيل: هم المشركون جميعاً يُعرَضون على جهنم عند انطلاقهم إليها؛ قاله الأكثرون. وقيل: آل فرعون خصوصًا، تُحبس أرواحُهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح؛ فهو عَرْضُهم عليها؛ قاله ابن مسعود. وقيل: إنهم عامة المشركين، تعرض عليه ذنوبهم في قبورهم، ويُعرضون على العذاب في قبورهم؛

(١) تفسير الطبري ٢٠/٥٢٩ بنحوه.

وهذا معنى قول أبي الحجاج[١].

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ذهب بعض القُرَّاء إلى الوقف على «خَاشِعينَ». وقوله: «مِنَ الذُّلِّ» ومُتعلِّقٌ بـ «يَنْظُرُونَ». وقيل: متعلق بـ «خَاشِعِينَ»[٢]. والخشوع الانكسار والتواضع.

ومعنى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تامًّا؛ لأنهم ناكسو الرؤوس. والعرب تصف الذليل بغَضِّ الطرف، كما يستعملون في ضدّه حديد النظر إذا لم يُتَّهم برِيبة فيكون عليه منها غَضاضة. وقال مجاهد: «مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ» أي: ذليل، قال: وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُحشرون عُمياً[٣]، وعين القلب طرفٌ خفِيّ[٤]. وقال قتادة والسدّي والقُرَظِيّ وسعيد بن جبير: يسارقون النظر من شدّة الخوف[٥]. وقيل: المعنى ينظرون من عين ضعيفة النظر. وقال يونس: «مِن» بمعنى الباء؛ أي: ينظرون بطرف خفي، أي: ضعيف من الذُّل والخوف، ونحوه عن الأخفش[٦]. وقال ابن عباس: بطرف ذابل ذليل[٧]. وقيل: أي: يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لِمَا يرون من أصناف العذاب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخُسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب المُخلّد، وخسروا أهليهم لأن

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠٩.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤١، والكشاف ٣/ ٤٧٤.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٣.

(٤) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤١: في هذا التأويل تكلُّف، وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٤: فيه تعسُّف.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٣ عن قتادة والسدي.

(٦) ذكر الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٨٧ قول يونس.

(٧) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٢.

الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم. وقيل: خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهلٌ في الجنة من الحور العِين(١).

وفي «سنن» ابن ماجه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا له مَنْزلان: منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإذا ماتَ فدخلَ النارَ وَرِثَ أهلُ الجنة منزلَه فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾». وقد تقدم(٢).

وفي «مسند» الدّارِميّ: عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ يُدخله الله الجنةَ إلا زوَّجه اثنين وسبعين زوجةً من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار، وما منهنَّ واحدةٌ إلا ولها قُبُلٌ شهِيّ وله ذَكَر لا يَنْثني». قال هشام بن خالد: «مِن ميراثه من أهل النار» يعني رجالاً أُدخلوا النار فورث أهلُ الجنة نساءهم كما ورثت امرأة فرعون(٣).

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم لا ينقطع. ثم يجوز أن يكون هذا من قول المؤمنين، ويجوز أن يكون ابتداء من الله تعالى(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أعواناً ونُصراء ﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: طريق يَصِلُ به إلى الحقّ

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤١ بنحوه.

(٢) سنن ابن ماجه (٤٣٤١)، وصحَّح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٢ ، وسلف ١٥/ ١٦ .

(٣) لم نقف عليه في مسند الدارمي، وأخرجه ابن ماجه (٤٣٣٧)، وفي إسناده خالد بن يزيد بن أبي مالك. وهَّاه ابن معين، وقال أحمد: ليس بشيء. ميزان الاعتدال ١/ ٦٤٥ . وهشام بن خالد هو شيخ ابن ماجه الذي روى عنه هذا الحديث.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٢ .

في الدنيا والجنة في الآخرة؛ لأنه قد سدَّت عليه طريق النجاة.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي: أجيبوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة. استجاب وأجاب بمعنًى؛ وقد تقدّم. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يريد يومَ القيامة؛ أي: لا يردُّه أحدٌ بعد ما حكم اللهُ به وجعله أجلاً ووقتاً. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ أي: من ملجأ يُنجيكم من العذاب.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصركم؛ قاله مجاهد. وقيل: النكير بمعنى المُنكر؛ كالأليم بمعنى المُؤلِم؛ أي: لا تجدون يومئذ مُنكِراً لما ينزل بكم من العذاب؛ حكاه ابن أبي حاتم؛ وقاله الكلبي[(١)]. الزجاج[(٢)]: معناه: أنهم لا يقدرون أن يُنكروا الذنوبَ التي يُوقَفون عليها. وقيل: «مِنْ نَكِيرٍ» أي: إنكار ما ينزل بكم من العذاب، والنكير والإنكار تغييرُ المنكر.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي: عن الإيمان ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظاً لأعمالهم حتى تُحاسبَهم عليها. وقيل: مُوكَّلاً بهم لا تُفارقهم دون أن يؤمنوا؛ أي: ليس لك إكراهُهم على الإيمان. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقيل: نسخ هذا بآية القتال[(٣)]. ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الكافر ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ رخاءً وصحة. ﴿فَرِحَ بِهَا﴾

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٠.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٤٠٢.

(٣) زاد المسير ٧/ ٢٩٥.

بَطِرَ بها. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ بلاءٌ وشدَّةٌ. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: لما تقدَّم من النعمة، فيعدِّد المصائب وينسى النعم.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ ابتداء وخبر. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ من الخلق. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ قال عَبيدة[(١)] وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك: يهب لمن يشاء إناثاً لا ذكور معهنّ، ويهب لمن يشاء ذكورًا لا إناثَ معهم؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف، فميَّزهم بسمة التعريف[(٢)]. وقال واثلة بن الأسقع: إنَّ مِن يُمْن المرأة تبكيرَها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فبدأ بالإناث[(٣)].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾ قال مجاهد: هو أن تَلِدَ المرأة غلاماً ثم تلد جاريةً، ثم تلد غلاماً ثم تلد جارية[(٤)]. وقال محمد بن الحنفية: هو أن تَلِدَ تَوْءَمًا، غلاماً وجارية، أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً[(٥)]. قال القُتبيّ[(٦)]: التزويج هاهنا هو الجمع بين

(١) في النسخ: أبو عبيدة: والمثبت من المصادر، وهو عَبيدة السلماني.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١١ ، وينظر معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٢٧ ، وأخرج أقوال عَبيدة السلماني والحسن والضحاك الطبري ٢٠/ ٥٣٧ - ٥٣٩ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٣٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١١ .

(٦) في غريب القرآن ص ٣٩٤ .

البنين والبنات؛ تقول العرب: زوَّجتُ إبلي، إذا جمعت بين الكبار والصغار.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ أي: لا يُولَد له؛ يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم. وعَقِمَت المرأة تَعْقَم عَقْمًا؛ مثل حَمِد يَحْمَدُ. وعَقُمت تَعْقُم، مثل عَظُم يَعْظُم. وأصله القطع، ومنه المُلْك العقيم، أي: تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفاً على الملك. وريح عقيم؛ أي: لا تلقح سحاباً ولا شجراً. ويوم القيامة يوم عقيم؛ لأنه لا يوم بعده. ويقال: نساء عُقُم وعُقْم؛ قال الشاعر:

عُقِم النساء فما يَلِدْنَ شبيهه إنَّ النساءَ بمثله عُقْمُ[١]

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصًا وإن عمَّ حُكمها؛ وَهَبَ لِلُوطٍ الإناث ليس معهنّ ذكَر، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإناث، وجعل عيسى ويحيى عقيمين[٢]؛ ونحوه عن ابن عباس وإسحاق بن بشر. قال إسحاق: نزلت في الأنبياء، ثم عمَّت. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ يعني لوطاً عليه السلام، لم يُولد له ذَكَر، وإنما ولد له ابنتان. ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام لم يُولَد له أنثى، بل وُلِدَ له ثمانية ذكور. ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ﴾ يعني رسول الله ﷺ، ولد له أربعة بنين وأربع بنات. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام[٣]؛ لم يذكر عيسى.

ابن العربي[٤]: قال علماؤنا: «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا» يعني لوطاً، كان له بنات ولم يكن له ابن. ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يعني إبراهيم، كان له بنون ولم يكن له بنت. وقوله: «أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا» يعني آدم، كانت حوّاء تلد له في كل بطن توأمين؛ ذكراً وأنثى، ويزوّج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر، حتى أحكم الله

---

(١) البيت لأبي دَهْبل الجُمحي كما في شرح الحماسة البصرية للمرزوقي ٤/ ١٦٠٥ . والكلام السالف من الصحاح (عقم).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١١ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ .

التحريم في شرع نوح ﷺ. وكذلك محمد ﷺ كان له ذكور وإناث من الأولاد: القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة؛ وكلهم من خديجة رضي الله عنها، وإبراهيم وهو من مارية القِبطية. وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا، إلى أن تقوم الساعة، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيئته النافذة؛ ليبقى النسل، ويتمادى الخَلْق، وينفذ الوعد، ويحق الأمر، وتعمر الدنيا، وتأخذ الجنة وجهنم كل واحد ما يملؤها ويبقى. ففي الحديث: «إنَّ النارَ لن تمتلئ حتى يَضَعَ الجَبَّارُ فيها قَدَمَه، فتقول: قَطْ قَطْ. وأما الجنة فيبقى منها، فينشئ اللهُ لها خَلْقاً آخر»(١).

الثانية: قال ابن العربي(٢): إنَّ الله تعالى لِعموم قُدرته وشديد قوّته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئًا من شيء لا عن حاجة؛ فإنه قُدُّوس عن الحاجات سلام عن الآفات، كما قال: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣] فخلق آدم من الأرض وخلق حوّاء من آدم، وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبًا على الوطء، كائناً على الحمل، موجوداً في الجنين بالوضع؛ كما قال النبي ﷺ: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذْكَرا، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا»(٣). وكذلك في الصحيح أيضاً «إذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أشبهَ الولدُ أعمامَه، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أشبهَ الولدُ أخواله»(٤).

قلت: هذا معنى حديث عائشة لا لفظه، خرّجه مسلم من حديث عروة بن الزبير عنها أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: هل تغتسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء؟

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٨)، والبخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ. وفي الباب عن أنس ﷺ أخرجه أحمد (١٢٤٤٠)، والبخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ .

(٣) هذا حديث ثوبان ﷺ بنحوه، وسيذكره المصنف قريباً.

(٤) هو حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه كما سيذكر المصنف بعده.

فقال: «نعم» فقالت لها عائشة: تَرِبَتْ يداك وأُلَّت؛ فقال رسول الله ﷺ: «دَعِيها، وهل يكون الشَّبه إلا مِن قِبَل ذلك. إذا علا ماؤها ماءَ الرجل أشبهَ الولد أخوالَه، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبهَ أعمامَه»[١].

قال علماؤنا[٢]: فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه؛ وقد جاء في حديث ثَوْبان ـ خرجه مسلم أيضاً ـ أن النبي ﷺ قال لليهودي: «ماءُ الرجل أبيضُ، وماءُ المرأة أصفرُ، فإذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة أذْكَرا بإذن الله، وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيَّ الرجل آنثا بإذن الله» الحديث[٣]. فجعل في هذا الحديث أيضاً العلوَّ يقتضي الذكورة والأنوثة؛ فعلى مقتضى الحديثين يلزم اقتران الشَّبه للأعمام والذكورة إن علا مَنِيّ الرجل، وكذلك يلزم إن علا مَنِيّ المرأة اقتران الشبه للأخوال والأنوثة؛ لأنهما معلولَا عِلّةٍ واحدة، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك؛ لأنا نجد الشَّبه للأخوال والذكورةَ والشّبه للأعمام والأنوثة، فتعيَّن تأويل أحد الحديثين.

والذي يتعين تأويله [العلو] الذي في حديث ثَوْبان فيقال: إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم، ووجهه أنَّ العلوَّ لما كان معناه الغَلَبَةَ من قولهم: سابقني فلان فسبقته، أي: غلبته؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠] أي: بمغلوبين، قيل عليه: علا. ويُؤيِّد هذا التأويل قولُه في الحديث: «إذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذكرا، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل آنثا».

وقد بنى القاضي أبو بكر بن العربي[٤] على هذه الأحاديث بناءً فقال: إن للماءين

---

(١) صحيح مسلم (٣١٤)، وأخرجه أحمد (٢٤٦١٠)، وهو عند البخاري (١٣٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها بنحوه ودون قوله: «إذا علا ماؤها ماء الرجل...» وقوله: وأُلَّت: أي: أُصيبت بالألّة، وهي الحربة. المفهم ١/ ٥٧٢ .

(٢) هو قول أبي العباس القرطبي في المفهم١/ ٥٧١ - ٥٧٢ . وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٣) صحيح مسلم (٣١٥).

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٠ - ١٦٦١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة أبو العباس القرطبي في المفهم ١/ ٥٧٢ والكلام منه إلى آخر المسألة.

أربعةَ أحوال: الأوّل: أن يخرج ماءُ الرجل أولاً، الثاني: أن يخرج ماء المرأة أوّلاً، الثالث: أن يخرج ماء الرجل أوّلاً ويكون أكثر، الرابع: أن يخرج ماءُ المرأة أوّلاً ويكون أكثر. ويتم التقسيم بأن يخرج ماءُ الرجل أوّلاً، ثم يخرج ماءُ المرأة بعده ويكون أكثر، أو بالعكس؛ فإذا خرج ماء الرجل أوّلاً وكان أكثرَ جاء الولد ذكراً بحكم السَّبق، وأشبه الولدُ أعمامَه بحكم الكَثْرة.

وإن خرج ماء المرأة أوّلاً وكان أكثر جاء الولد أُنثى بحكم السَّبق، وأشبه أخواله بحكم الغَلَبة. وإن خرج ماء الرجل أوّلاً لكن لمَّا خرج ماء المرأة بعدهاكان أكثر، كان الولد ذكراً بحكم السَّبق، وأشبه أخوالَه بحكم غَلَبة ماء المرأة، وإن سبق ماء المرأة لكن لما خرج ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أنثى بحكم سبق ماء المرأة وأشبه أعمامَه بحكم غَلَبة ماء الرجل. قال: وبانتظام هذه الأقسامِ يستتبُّ الكلام ويرتفع التعارضُ عن الأحاديث، فسبحان الخالق العليم.

الثالثة: قال علماؤنا[١]: كانت الخِلْقة مستمرةً ذكراً وأُنثى إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخُنثى، فأُتِي به فرِيضَ العرب ومُعمَّرها عامرَ بن الظَّرِب فلم يدرِ ما يقول فيه، وأرجأهم عنه؛ فلما جنّ عليه الليل تنكّر موضعه، وأَقَضَّ عليه مضجعه، وجعل يتقلّى ويتقلّب، وتجيء به الأفكارُ وتذهب، إلى أن أنكرت خادمُه حالَه، فقالت: ما بك؟ قال لها: سهِرت لأمر قُصدت به، فلم أدرِ ما أقول فيه؟ فقالت: ماهو؟ قال لها: رجلٌ له ذَكَر وفَرْج، كيف يكون حاله في الميراث؟ قالت له الأمَة: ورِّثه من حيث يبول؛ فعَقَلها وأصبح، فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين.

وجاء الإسلام على ذلك فلم تنزل إلا في عهد عليّ ﷺ فقضي فيها[٢].

وقد روى الفَرَضيُّونَ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنه سُئل عن مولود له قُبُل وذَكَرٌ من أين يُورَّث؟ قال: «من حيث يبول». وروي أنه أُتي

(١) هو قول ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦١ - ١٦٦٢ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١ .

بخنثى من الأنصار فقال: «ورِّثوه من أول ما يبول»(١). وكذا روى محمد ابن الحنفية عن عليّ، ونحوه عن ابن عباس، وبه قال ابن المسيّب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد، وحكاه المُزني عن الشافعي. وقال قوم: لا دلالة في البول؛ فإن خرج البولُ منهما جميعاً؛ قال أبو يوسف: يحكم بالأكثر. وأنكره أبو حنيفة وقال: أتكيله! ولم يجعل أصحاب الشافعي للكثرة حكماً. وحُكي عن عليّ والحسن أنهما قالا: تُعَدُّ أضلاعه، فإن المرأة تزيد على الرجل بِضِلَعٍ واحد(٢). وقد مضى ما للعلماء في هذا الحديث في آية المواريث في «النساء» مجوّداً(٣)، والحمد لله.

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي(٤): وقد أنكر قوم من رؤوس العوامّ وجودَ الخُنثى، لأن الله تعالى قسم الخَلْق إلى ذكر وأنثى. قلنا: هذا جهل باللغة، وغباوة عن مقطع الفصاحة، وقصور عن معرفة سَعة القُدرة. أما قدرة الله سبحانه فإنه واسعٌ عليم، وأما ظاهر القرآن فلا ينفي وجودَ الخُنثى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. فهذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه؛ لأن القُدرة تقتضيه. وأما قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فهذا إخبارٌ عن الغالب في الموجودات، وسكت عن ذكر النادر؛ لدخوله تحت عموم الكلام الأوّل، والوجود يشهد له والعِيان يُكذِّب مُنكرَه، وقد كان يقرأ معنا برِباط أبي سعيد علي الإمام الشهيد من بلاد المغرب خُنثى ليس له لحية وله ثديان، وعنده جارية؛ فربُّك أعلم به، ومع طول الصُّحبة عقلني الحياء عن سؤاله، وبودّي اليوم لو كاشفته عن حاله.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٢٦١ باللفظ الأول، ومحمد بن السائب الكلبي متهم بالكذب كما في تقريب التهذيب.

(٢) قال أبو عبد الله الشقاق شيخ ابن العربي فيما نقله عنه في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٢ : ولو صح هذا لما أشكل حاله.

(٣) ٦/ ١٠٩ وما بعدها.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٣ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: ألّا تُكلِّم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبيًّا كما كلّمه موسى ونظر إليه؛ فإنا لن نُؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبي ﷺ: «إنَّ موسى لن ينظر إليه» فنزل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾؛ ذكره النقاش والواحدي[(١)] والثعلبي.

﴿وَحْيًا﴾ قال مجاهد: نَفْثٌ يُنْفَث في قلبه فيكون إلهاما[(٢)]؛ ومنه قوله ﷺ: «إن روح القُدُس نَفَث في رُوعِي أنّ نَفْساً لن تموت حتى تستكملَ رزقَها وأجلها، فاتقوا اللهَ وأَجْمِلوا في الطلب. خُذوا ما حلّ ودَعُوا ما حَرُم»[(٣)].

﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كإرساله جبريل عليه السلام. وقيل: «إِلَّا وَحْيًا» رؤيا يراها في منامه؛ قاله زهير بن محمد[(٤)]. «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى. «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» قال زهير: هو جبريل عليه السلام. ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ وهذا الوحي من الرسل خطابٌ منهم للأنبياء يسمعونه نُطقاً ويَرَونه عِياناً. وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على النبي ﷺ. قال ابن عباس: نزل جبريل عليه السلام على كل نبيّ فلم يَرَهُ منهم إلا محمدٌ وعيسى وموسى وزكريا عليهم السلام. فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً في المنام[(٥)].

---

(١) في أسباب النزول ص ٣٩٦ ، وذكره عن النقاش الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ .

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٥١)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١) و(٤١١٢) و(٤١١٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٤) في النسخ: محمد بن زهير، وهو خطأ، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٢١٢ ، والمصادر، وسلفت ترجمته ٢/ ٣٩٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ .

وقيل: «إِلَّا وَحْيًا» بإرسال جبريل «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» كما كلم موسى «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» إلى الناس كافة.

وقرأ الزهري وشيبة ونافع: «أوْ يرسلُ رسولاً فَيُوحِي» برفع الفعلين[١]. الباقون بنصبهما. فالرفع على الاستئناف؛ أي: وهو يُرسل. وقيل: «يُرسلُ» بالرفع في موضع الحال؛ والتقدير: إلا مُوحياً أو مُرسلاً. ومن نصب عطفوه على محل الوحي؛ لأن معناه: وما كان لِبشر أن يُكلِّمه اللهُ إلا أن يُوحي أو يُرسلَ. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الجار من أن المضمرة. ويكون في موضع الحال؛ التقدير: أو بأن يُرسلَ رسولاً. ولا يجوز أن يعطف «أَوْ يُرْسِلَ» بالنصب على «أَنْ يُكَلِّمَهُ» لفساد المعنى؛ لأنه يصير: ما كان لِبشر أن يُرسِلَه أو أن يُرسِلَ إليه رسولاً، وهو قد أرسل الرُّسلَ من البشر وأرسلَ إليهم[٢].

الثانية: احتجَّ بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يُكلّم رجلاً فأرسل إليه رسولاً أنه حانث؛ لأن المُرسِلَ قد سُميّ فيها مُكلِّماً للمرسَل إليه، إلا أن ينوي الحالف المواجهة بالخطاب.

قال ابن المنذر[٣]: واختلفوا في الرجل يحلف ألا يُكلِّم فلاناً فكتب إليه كتاباً، أو أرسل إليه رسولاً؛ فقال الثَّوْري: الرسول ليس بكلام. وقال الشافعي: لا يبين أن يحنثَ. وقال النَّخَعي: والحكم في الكتاب يحنث. وقال مالك: يَحنَثُ في الكتاب والرسول. وقال مَرَّة: الرسول أسهلُ من الكتاب.وقال أبو عُبيد: الكلام سوى الخط والإشارة. وقال أبو ثور: لا يحنث من الكتاب. قال ابن المنذر: لا يَحْنَثُ في الكتاب والرسول.

قلت: وهو قول مالك[٤]. قال أبو عمر[٥]: ومن حلف ألّا يكلّم رجلاً فسلّم عليه

(١) قراءة نافع في السبعة ص ٥٨٢ ، والتيسير ص ١٩٥ .
(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤ بنحوه.
(٣) في الإشراف ١/ ٤٧٤ .
(٤) كذا قال المصنف، وسلف أن مالكاً قال: يحنث في الكتاب والرسول. وينظر المدونة ٢/ ١٣١ .
(٥) في الكافي ١/ ٤٥٠ .

عامداً أو ساهياً، أو سلّم على جماعة هو فيهم فقد حنث في ذلك كلّه عند مالك. وإن أرسل إليه رسولاً، أو سلَّم عليه في الصلاة لم يحنث.

قلت: يحنث في الرسول إلا أن ينويَ المُشافهة؛ للآية، وهو قول مالك وابن الماجشُون. وقد مضى في أول «سورة مريم» هذا المعنى عن علمائنا مستوفًى[١]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: وكالذي أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿رُوحًا﴾ أي: نبوة؛ قاله ابن عباس. الحسن وقتادة: رحمة من عندنا. السُّدّي: وحْيًا. الكلبي: كتاباً. الربيع: هو جبريل. الضحاك: هو القرآن. وهو قول مالك بن دينار[٢]. وسمَّاه روحًا لأن فيه حياةً من موت الجهل. وجعله من أمره بمعنى: أنزله كما شاء على من يشاء من النَّظم المُعجز والتأليف المُعجب.

ويمكن أن يُحمَلَ قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] على القرآن أيضًا ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: يسألونك من أين لك هذا القرآن؟ قل: إنه من أمر الله أنزله عليّ مُعجزاً؛ ذكره القُشَيْري. وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآنُ في قلوبكم؟ فإن القرآنَ ربيعُ القلوب كما أن الغيثَ ربيعُ الأرض[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: لم تكن تعرف

---

(١) ١١/ ٨٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٣٢، ما عدا قول الضحاك فهو في النكت والعيون ٥/ ٢١٢.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٥٨.

الطريق إلى الإيمان. وظاهرُ هذا يدلُّ على أنه ما كان قبل الإيحاء مُتَّصفًا بالإيمان. قال القُشَيري: وهو من مجوّزات العقول، والذي صار إليه المُعظم أن الله ما بعث نبياً إلا كان مؤمناً به قبل البِعثة. وفيه تحكّم، إلا أن يثبت ذلك بتوقيف مقطوع به.

قال القاضي أبو الفضل عياض(١): وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوّة فللناس فيه خلاف؛ والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك. وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلدوا؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالَعَ سِيَرَهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقَّق ذلك؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] قال المفسرون: أعطى يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه. قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث؛ فقال له الصبيان: لم لا تلعب! فقال: أَلِلَّعب خُلقت(٢)؟! وقيل في قوله ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]: صدَّق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه. وقيل: صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أمّ يحيى تقول لمريم: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له(٣).

وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ على قراءة من قرأ: «مَنْ تَحْتَهَا»(٤) وعلى قول من قال: إن المُنادي عيسى، ونصّ على كلامه في مهده فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]. وقال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] وقد ذكر من حُكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبيّ(٥) ما اقتدى به أبوه داود. وحكى الطبري

---

(١) في الشفا ٢/ ٢٥٧ .

(٢) سلف ١١/ ٨٧ .

(٣) سلف ٥/ ١١٦ و١١/ ٩٣ .

(٤) قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو شعبة. السبعة ص٤٠٨ ، والتيسير ص١٤٨ . وسلفت ١١/ ٩٣ .

(٥) سلفت ١٤/ ٢٤١ - ٢٤٢ .

أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عاماً. وكذلك قصة موسى عليه السلام مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل. وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]: أي: هديناه صغيراً؛ قاله مجاهد وغيره[١]. وقال ابن عطاء: اصطَفيناه قبل إبداء خلقه. وقال بعضهم: لما وُلِدَ إبراهيم بعث الله إليه مَلَكًا يأمره عن الله تعالى أن يعرِفه بقلبه ويذكره بلسانه فقال: قد فعلتُ؛ ولم يقل: أفعل؛ فذلك رُشده. وقيل: إن إلقاء إبراهيم في النار ومِحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة[٢]. وإن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين[٣]. وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة[٤]. وقيل: أُوحِي إلى يوسف وهو صبي عندما همّ إخوته بإلقائه في الجُبّ بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ الآية؛ إلى غير ذلك من أخبارهم.

وقد حكى أهل السِّيَر أن آمنة بنت وهب أخبرتْ أن نبينا محمداً ﷺ وُلِدَ حين وُلِدَ باسطاً يديه إلى الأرض رافعاً رأسه إلى السماء[٥]، وقال في حديثه ﷺ: «لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان وبُغِّض إلي الشعر ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد»[٦]. ثم يتمكّن الأمر لهم، وتترادف نفحاتُ الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوّة في تحصيل الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسة ولا رياضة. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩٠ .

(٢) ١٤/ ٢٢٨ .

(٣) سلفت قصة الذبيح في الصافات [١٠٣ - ١١٣] وذكرنا ثمة أن الصحيح المقطوع به أنه إسماعيل عليه السلام.

(٤) في النسخ: خمسة عشر شهراً، وسلف هذا القول ٨/ ٤٣٨ .

(٥) طبقات ابن سعد: ١/ ١٠٢ ، والبداية والنهاية ٣/ ٣٨٥ .

(٦) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٢١٣ .

قال القاضي[(١)]: ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نُبِّئ واصْطُفِي ممن عُرِف بكفر وإشراك قبل ذلك. ومستند هذا الباب النقل. وقد استدلَّ بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله. قال القاضي: وأنا أقول: إن قريشاً قد رمت نبينا عليه الصلاة والسلام بكل ما افترته، وعيّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهته[(٢)] وتقريعه بذَمِّه بترك ما كان قد جامعهم عليه. ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلوُّنه في معبوده مُحتجِّين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أفظعَ وأقطعَ في الحُجَّة من توبيخه بنهيهم عن تركهم[(٣)] آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليلٌ على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذ لو كان لنُقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ كما حكاه الله عنهم.

الثالثة[(٤)]: وتكلم العلماءُ في نبينا ﷺ؛ هل كان مُتَعَبِّدًا بدين قبل الوَحْي أم لا؟ فمنهم من منع ذلك مطلقاً وأحاله عقلاً. قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عُرف تابعاً، وبَنَوْا هذا على التحسين والتقبيح. وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه الصلاة والسلام، وتركِ قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، إذ لم يُحِل الوجهين منهما العقل، ولا استبان عندها في أحدهما طريق النقل، وهذا مذهب أبي المعالي. وقالت فرقة ثالثة: إنه كان متعبداً بشرع من قبله وعاملاً به؛ ثم اختلف هؤلاء في التعيين، فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى، فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها؛ فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم؛

---

(١) هو القاضي عياض في الشفا ٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) في (د) و(م): ألهتهم، والمثبت من (ظ) و(ي)، وهو الموافق للشفا.

(٣) في (د) و(ي) و(م): تركه، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للشفا.

(٤) هذه المسألة في الشفا ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨ و٣٣٥ - ٣٣٧ ، وينظر الإبهاج للسبكي ٢/ ٢٧٥ وما بعدها.

لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء. وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى؛ لأنه أقدم الأديان. وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دينٍ، ولكن عين الدين غير معلومة عندنا. وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتُنا؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة، وإن كان العقل يجوّز ذلك كلّه. والذي يُقطع به أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن منسوبًا إلى واحد من الأنبياء نسبةً تقتضي إلى أن يكون واحدًا من أمته ومخاطَبًا بكل شريعته؛ بل شريعتُه مستقِلّة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جلَّ وعز، وأنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر[١]، ولا حضر حلف المطر[٢]، ولا حلْفَ المُطَيِّبين[٣]؛ بل نزهه الله وصانه عن ذلك.

فإن قيل: فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثاً بسنده عن جابر أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع مَلَكين خلفه أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه، فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم يشهدهم بعد[٤]؟ فالجواب أن هذا حديثٌ أنكره الإمام أحمد بن حنبل جدّا وقال: هذا موضوع أو شبيهٌ بالموضوع[٥]. وقال الدَّارَقُطْني: إن عثمان وَهِمَ في إسناده، والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده فلا يُلتفَت إليه، والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: «بُغِّضت إليّ الأصنام»[٦] وقوله في قصة بحِيرا حين

(١) السامر: مجلس السُّمَّار. القاموس (سمر).

(٢) كذا في النسخ، ولم نعرفه. والأحلاف المشهورة قبل البعثة هي حلف الأحلاف وحلف المُطيِّبين وحلف الفضول. ينظر السيرة النبوية ١/ ١٣٠ - ١٣٣ .

(٣) لم يشهد النبي ﷺ حلف المطيبين لأنه كان قبل مولده ﷺ. كما في صحيح ابن حبان بعد الحديث (٤٣٧٤)، وسنن البيهقي ٦/ ٣٦٧ .

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٨٧٧).

(٥) نقله المصنف عنه بواسطة القاضي في الشفا ٢/ ٢٦٧ وما بعده منه.

(٦) سلف في المسألة السابقة.

استحلف النبيّ ﷺ باللّات والعزّى إذ لَقِيَه بالشام في سَفْرَتِه مع عمه أبي طالب وهو صبي، ورأى فيه علاماتِ النبوّة فاختبره بذلك؛ فقال له النبي ﷺ: «لا تسألني بهما، فواللهِ ما أبغضت شيئاً قطُّ بُغْضَهُمَا» فقال له بَحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال: «سل عما بدا لك». وكذلك المعروف من سيرته عليه الصلاة والسلام وتوفيقِ الله إياه له أنه كان قبل نبوّته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلِفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة، لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقال: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النمل: ١٢٣] وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]. وهذا يقتضي أن يكون مُتعبِّدًا بشرع. فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدّين؛ على ما تقدَّم بيانُه في غير موضع وفي هذه السورة عند قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ والحمد لله.

الرابعة: إذا تقرّر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾. فقال جماعة: معنى الإيمان في هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه؛ ذكره الثعلبي. وقيل: تفاصيل هذا الشرع؛ أي: كنتَ غافلاً عن هذه التفاصيل. ويجوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع؛ ذكره القشيري.

وقيل: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان؛ ونحوه عن أبي العالية. وقال بكر القاضي[1]: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام. قال: وكان قبل مؤمناً بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيماناً. وهذه الأقوال الأربعة متقاربة. وقال ابن خزيمة: عنى بالإيمان الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣][2] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص.

---

(١) لعله بكر بن العلاء القشيري. وفي الشفا ٢/ ٢٦٦ (والكلام منه): أبو بكر القاضي.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٣٢ .

وقال الحسين بن الفضل: أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا أهل الإيمان. وهو من باب حذف المضاف؛ أي: مَن الذي يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما. وقيل: ما كنت تدري شيئاً إذ كنتَ في المهد وقبل البلوغ. وحكى الماوردي نحوه عن عليّ بن عيسى قال: ما كنت تدري ما الكتاب لولا الرسالة، ولا الإيمان لولا البلوغ. وقيل: ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامُنا عليك، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك، وهو مُحتَمِل. وفي هذا الإيمان وجهان: أحدهما: أنه الإيمان بالله، وهذا يعرِفه بعد بلوغه وقبل نبوته. والثاني: أنه دين الإسلام، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوّة[١].

قلت: الصحيح أنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه؛ على ما تقدّم. وقيل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ أي: كنتَ من قوم أُمِّيين لا يعرفون الكتابَ ولا الإيمان، حتى تكونَ قد أخذتَ ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ﴾ قال ابن عباس والضحاك: يعني الإيمان. السدي: القرآن[٢]. وقيل: الوحي؛ أي: جعلنا هذا الوحي ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ أي: من نختاره للنبوّة؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥]. ووحَّد الكناية لأن الفعل في كَثْرة أسمائه بمنزله الفعل في الاسم الواحد؛ ألا ترى أنك تقول: إقبالك وإدبارك يعجبني؛ فتوحّد، وهما اثنان[٣].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ أي: تدعو وتُرشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه. وقال عليّ: إلى كتاب مستقيم[٤].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٢ - ٢١٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٤٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢١٣ .

وقرأ عاصم الجحدري وحَوْشب: «وَإِنَّكَ لَتُهْدى» غير مسمَّى الفاعل[١]؛ أي: لتُدْعَى. الباقون: «لَتَهدي» مسمى الفاعل. وفي قراءة أُبَيّ: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُو»[٢].

قال النحاس[٣]: وهذا لا يُقرأ به؛ لأنه مخالف للسواد، وإنما يُحمل ما كان مثله على أنه من قائله على جهة التفسير؛ كما قال سفيان في قوله عز وجل[٤]: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي» أي: لتدعو. وروى مَعْمَر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الأوّل بدل المعرفة من النكرة. قال عليّ: هو القرآن. وقيل الإسلام. ورواه النوّاس بن سمعان عن النبيّ ﷺ[٥].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكًا وعبداً وخَلْقًا. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وعيدٌ بالبعث والجزاء. قال سهل بن أبي الجَعْد: احترق مصحفٌ فلم يبقَ إلا قوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٦] وغَرِقَ مصحفٌ فامَّحَى كلُّه إلا قولَه: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾. والحمد لله وحدَه.

[تم الجزء الثامن عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء التاسع عشر، ويبدأ بتفسير سورة الزخرف]

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٣٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٤ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٤ لابن مسعود ﷺ.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ٣٢٩ .

(٤) قوله: سفيان في قوله عز وجل، ليس في (م)، و(ظ) و(ي)، وأثبتناه من (د) ومعاني القرآن.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٣ ، وحديث النواس بن سمعان ﷺ أخرجه أحمد (١٧٦٣٤) مطولاً، وسلف ١٠/ ٤٨١ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤ .

سورةُ حم عسق

مكيَّةٌ، وتُسمَّى سورةَ الشُّورى، وهي ثلاثٌ وخمسونَ آيةً[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ لعلَّه اسمانِ للسُّورةِ، ولذلك فُصِلَ بينَهُما وعُدَّا آيتينِ، وإنْ كانَ اسمًا واحدًا فالفَصلُ لتُطابِقَ سائرَ الحَواميمِ، وقُرِئَ: (حم سق)[2].

(٣ ـ ٤) ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: مثلَ ما في هذهِ السُّورةِ مِن المَعاني، أو إيحاءً مثلَ إيحائِها أوحى اللهُ إليك وإلى الرُّسُلِ قبلَكَ، وإنَّما ذُكِرَ بلفظِ المضارعِ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ للدَّلالَةِ على استمرارِ الوَحيِ، وأنَّ إيحاءَ مثلِهِ عادَتُه.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ: ﴿يُوحَى﴾ بالفَتحِ[3] على أنَّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُبتدأٌ و﴿يوحَى﴾ خبرُهُ المسنَدُ إلى ضَميرِه، أو مَصدرٌ، و﴿يوحَى﴾ مُسنَدٌ إلى ﴿إِلَيۡكَ﴾، و﴿ٱللَّهُ﴾ مُرتَفِعٌ بما دلَّ عليه ﴿يوحَى﴾.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «وآيها ثلاث وخمسون».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٤)، و«المحتسب» (٢/ ٢٤٩)، عن ابن مسعود، ونسبها الزمخشري في «الكشاف»: (٨/ ٥٥) إليه وإلى ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٩٤).

و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صِفَتانِ له مُقرِّرتانِ لعُلُوِّ شَأنِ الموحى بِهِ كما مرَّ في السُّورةِ السَّابقةِ، أو بالابتداءِ كما في قراءةِ (نُوحي) بالنُّونِ[1]، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وما بعدَهُ أخبارٌ، أو ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صِفَتانِ، وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ خبرانِ له، وعلى الوُجوهِ الأُخَرِ استئنافٌ مُقرِّرٌ لعِزَّتِه وحكمتِه.

(٥) ـ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقرأَ نافِعٌ والكِسائيُّ بالياءِ[2] ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشقَّقْنَ مِن عَظمةِ اللهِ، وقيل: مِن دُعاءِ الولدِ له، وقرأَ البَصريَّانِ وأبو بكرٍ: ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾[3]، والأوَّلُ أبلَغُ لأنَّه مُطاوِعُ فَطَّرَ وهذا مُطاوِعُ فَطَرَ، وقُرِئَ: (تَتَفَطَّرْنَ)[4] بالتَّاءِ لتَأكيدِ التَّأنيثِ، وهو نادرٌ.

﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئُ الانفطارُ مِن جِهَتهنَّ الفوقانيَّةِ وتخصيصُها على الأوَّلِ لأنَّ أعظمَ الآياتِ وأدلَّها على علوِّ شأنِه من تلكَ الجِهَةِ، وعلى الثَّاني ليدلَّ على الانفطارِ مِن تَحتهنَّ بالطَّريقِ الأولى.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٩٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٤٩)، و«الكشاف» (٨/ ٥٦) دون نسبة، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٥) عن أبي حيوة والأعشى عن أبي بكر عن عاصم.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ١٥٠)، و«التيسير» (ص: ١٩٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ١٥٠)، و«التيسير» (ص: ١٩٤)، و«النشر» (٢/ ٣١٩).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥)، و«الكشاف» (٨/ ٥٦ ـ ٥٧)، وقال أبو حيان في «البحر» (١٩/ ٧) متعقباً: والظاهرُ أنَّ هذا وهمٌ منه ـ يعني الزمخشري ـ؛ لأنَّ ابن خالويه قال في «شاذِّ القراءاتِ» ما نَصُّه: (تَنْفَطِرْنَ) بالتاء والنون، يونس عن أبي عمرٍو، وهذا حرفٌ نادرٌ لأنَّ العربَ لا تجمعُ بين علامَتَي التأنيثِ. لا يقال: النساءُ تَقُمْنَ، ولكن: يَقُمْنَ، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ولا يقال: تُرْضَعْنَ. وقد كان أبو عُمَرَ الزاهدُ رَوَى في «نوادرِ ابن الأعرابي»: «الإبلُ تَشْمَمْنَ» فأنكَرْنَاه، فقد قَوَّاه الآن هذا. قال أبو حيان: فإنْ كانَتْ نُسَخُ الزمخشريِّ متفقةً على قوله: «بتاءَيْن مع النون» فهو وهمٌ، وإنْ كان في بعضها «بتاءٍ مع النونِ» كان موافقاً لقولِ ابن خالويه، وكان «بتاءَيْن» تحريفاً من النَّساخ.

وقيل: الضَّميرُ للأرضِ؛ فإنَّ المرادَ بها الجنسُ.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسَّعيِ فيما يستدعِي مَغفِرَتَهُم مِن الشَّفاعةِ والإلهامِ وإعدادِ الأسبابِ المُقرِّبَةِ إلى الطَّاعةِ، وذلك في الجُملَةِ يَعُمُّ المُؤمِنَ والكافِرَ، بل لو فُسِّرَ الاستغفارُ بالسَّعيِ فيما يدفَعُ الخللَ المُتوقَّعَ عمَّ الحيوانَ بل الجمادَ، وحيثُ خصَّ بالمؤمنينَ فالمرادُ به الشَّفاعةُ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ما مِن مَخلوقٍ إلَّا وهو ذُو حَظٍّ مِن رحمَتِه، والآيةُ على الأوَّلِ زيادةُ تَقريرٍ لعَظَمتِه، وعلى الثَّاني دلالةٌ على تَقدُّسِه عمَّا نُسِبَ إليه، وإنَّ عدمَ مُعاجلَتِهم بالعقابِ على تلك الكلمةِ الشَّنعاءِ = باستغفارِ الملائكةِ وفرطِ غُفرانِه ورحمتِه.

(٦) - ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شُركاءَ وأندادًا.

﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيبٌ على أحوالِهم وأعمالهم فمُجازيهم[1] بها ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمَّدُ ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بمُوَكَّلٍ بهم، أو بموكولٍ إليك[2] أمرُهُم.

(٧) - ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ الإشارةُ إلى مَصدَرِ يوحي، أو إلى مَعنى الآيةِ المُتقدِّمَةِ؛ فإنَّه مُكرَّرٌ في القرآنِ في مَواضِعَ جَمَّةٍ، فيكونُ الكافُ مَفعولًا به و﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالًا منه.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أهلَ أُمِّ القُرى وهي مكَّةُ، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن العربِ، ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يومَ القيامةِ، يُجمَعُ فيه الخلائقُ، أو الأرواحُ والأشباحُ، أو العُمَّالُ والأعمالُ، وحُذِفَ ثاني مَفْعُولَي الأوَّلِ، وأَوَّلُ مَفعولَي الثَّاني للتَّهويلِ وإيهامِ التَّعميمِ.

---

(١) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «فيجازيهم».

(٢) في نسخة الفاروقي: «إليه».

وقُرِئَ: (لِيُنْذِرَ) بالياءِ[1] والفِعلُ للقرآنِ.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراضٌ لا محلَّ له[2].

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي: بعدَ جَمعِهِم في الموقفِ، يُجمَعونَ أوَّلًا ثمَّ يُفرَّقونَ، والتَّقديرُ: مِنهُم فريقٌ، والضَّميرُ للمَجموعَيْنِ لدَلالةِ الجمعِ عليه، وقُرِئَا مَنْصُوبَيْنِ على الحالِ مِنْهُم؛ أي: وتُنذِرَ يومَ جَمعِهِم مُتفرِّقينَ، بمعنى: مُشارفينَ للتَّفرُّقِ، أو مُتفرِّقينَ[3] في دارَيِ الثَّوابِ والعِقابِ.

(٨) ـ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مُهتَدِينَ أو ضالِّينَ، ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهدايةِ والحملِ على الطَّاعةِ.

﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ويَدَعُهم[4] بغيرِ وَليٍّ ولا نَصيرٍ في عذابِهِ، ولعلَّ العدولَ به عن[5] المقابلةِ للمُبالغةِ في الوَعيدِ، إذ الكلامُ في الإنذارِ.

(٩) ـ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بل اتَّخذُوا ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ كالأصنامِ ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جوابُ شرطٍ مَحذوفٍ مثل: إن أرادُوا أولياءَ[6] بحقٍّ فاللهُ هو الوليُّ بالحقِّ ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتَّقريرِ لِكونِهِ حَقِيقًا بالولايةِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٦٠)، و«البحر» (١٩/ ١٠) دون نسبة.

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط» (١٩/ ١٠): لا يظهر أنه اعتراض؛ لأنه لم يقع بين طالب ومطلوب.

(٣) في نسخة الفاروقي: «مفترقين».

(٤) في نسخة الفاروقي: «وندعهم».

(٥) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «ولعل تغيير» بدل: «العدول به عن».

(٦) في نسخة الفاروقي: «وليًّا».

(١٠) ـ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتُمْ والكُفَّارُ ﴿فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ مِن أمرٍ مِن أُمورِ الدِّينِ أو الدُّنيا ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مُفوَّضٌ إليه يميزُ المُحِقَّ مِن المبطلِ بالنَّصرِ، أو بالإثابةِ والمُعاقبةِ، وقيل: وما اختَلَفْتُم فيه مِن تَأويلِ مُتشابِهٍ فارجِعُوا فيه إلى المحكمِ مِن كتابِ اللهِ.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مَجامعِ الأمورِ ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أَرجِعُ في المُعضِلاتِ.

(١١) ـ ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبرٌ آخرُ لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أو مُبتدأٌ خبرُهُ: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾، وقُرِئَ بالجرِّ[1] على البدلِ مِن الضَّميرِ أو الوصفِ لـ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مِن جنسِكُم، ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساءً، ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وخلقَ للأنعامِ مِن جنسِها أزواجًا، أو خلقَ لَكُم مِن الأنعامِ أصنافًا أو ذكورًا وإناثًا.

﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يُكثِّرُكُمْ، مِن الذَّرْءِ وهو البثُّ، وفي مَعناه الذَّرُّ والذَّرْوُ، والضَّميرُ على الأوَّلِ للنَّاسِ والأنعامِ على تغليبِ المخاطبينَ العُقَلاءِ[2].

﴿فِيهِ﴾ في هذا التَّدبيرِ، وهو جعلُ النَّاسِ والأنعامِ أزواجًا يكونُ بينَهُم توالدٌ؛ فإنَّه كالمنبعِ للبَثِّ والتَّكثيرِ[3].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ أي: ليسَ مثلَهُ شيءٌ يُزاوِجُهُ ويُناسِبُهُ.

والمرادُ مِن (مِثْلِهِ): ذاتُه، كمَا في قولِهم: مثلُكَ لا يفعلُ كذا، على قصدِ المُبالغَةِ في نفيِهِ عنه؛ فإنَّهُ إذا نَفَى عمَّنْ يُناسِبُه ويَسُدُّ مَسدَّهُ كانَ نَفيُه عنه أَوْلَى.

---

(١) هي قراءة زيد بن علي كما في «البحر» (١٩/ ١٢).

(٢) «والضمير على الأول للناس والأنعام على تغليب المخاطبين العقلاء» من نسخة الفاروقي والطبلاوي.

(٣) في نسخة التفتازاني: «والنشر».

ونظيرُهُ قولُ رُقَيْقَةَ بنتِ [أبي] صَيْفيٍّ في سُقْيَا عبدِ المُطَّلبِ: «أَلَا وفيهِم الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِدَاتُه»(١).

ومن قال: الكافُ فيه زائدَةٌ، لعلَّهُ عَنَى أنَّه يُعطي مَعنى: ليسَ مِثلَهُ، غيرَ أنَّه آكَدُ لِمَا ذَكَرْناه.

وقيل: (مثلُهُ): صِفَتُه، أي: ليسَ كصِفَتِه صِفَةٌ.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لكلِّ ما يُسمَعُ ويُبصَرُ.

(١٢) ـ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَزائِنُها، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسعُ ويضيقُ على وَفْقِ مَشيئَتِه ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعلُهُ على ما يَنبَغِي.

(١٣) ـ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي: شرَعَ لكُم مِن الدِّينِ دينَ نوحٍ ومحمَّدٍ ومَن بينَهُما مِن أربابِ الشَّرائعِ، وهو الأصلُ المشترَكُ فيما بينَهُم المُفسَّرُ بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾، وهو الإيمانُ بما يَجِبُ تَصديقُهُ، والطَّاعةُ في أحكامِ الله، ومَحلُّهُ: النَّصبُ على البدلِ

---

(١) قطعة من خبر طويل مروي عن رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف، وكانت لِدَةَ عبد المطلب جدِّ النبي ﷺ، في قصة إجابة الله سبحانه دعاء عبد المطلب وقد طلبت منه قريش أن يستسقي لها لـمَّا أصابها القحط، وكان معه النبي ﷺ وهو غلام قد أَيْفَعَ. رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٩٠)، وابن أبي الدنيا في «مجابو الدعوة» (١٩)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٥٢٧)، والخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٤٣٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٦٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٥ ـ ١٩)، وابن الجوزي في «المنتظم» (٢/ ٢٧٥). ووقع في نسخة الطبلاوي: «رقية بنت صفي»، وفي باقي النسخ «رقيقة بنت صيفي» والصواب: «رقيقة بنت أبي صيفي»، وقد نبه عليه الخفاجي في «حاشيته»، وأن الصواب: بنت أبي صيفي، وأن المصنف سها عنه تبعًا للزمخشري.

قال صاحب «النهاية» (مادة: لدا): «الطَّاهِرُ لِدَاتُه»؛ أي: أترابُه، وقيل: وِلاداتُه، وذِكْر الأتراب أسلوبٌ من أساليبهم في تَثْبيت الصِّفة وتمكينها، لأنه إذا كان مِن أقرانٍ ذوي طهارةٍ كان أثبتَ لطهارته وطِيبه.

مِن مفعولِ ﴿شَرَعَ﴾، أو الرَّفعُ على الاستئنافِ كأنَّه جوابُ: وما ذلك المشروعُ؟ أو الجرُّ على البدلِ مِن هاءِ ﴿بِهِۦ﴾.

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ ولا تختلِفُوا في هذا الأصلِ، أمَّا فروعُ الشَّرائعِ فمُختَلِفَةٌ[1]، كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عَظُمَ عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِن التَّوحيدِ.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ يجتلبُ إليه، والضَّميرُ لِمَا تَدعُوهم أو للدِّينِ ﴿ويهدي إليه﴾ بالإرشاد والتَّوفيق ﴿مَن يُنِيبُ﴾ يقبلُ إليه.

(١٤) ـ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ يَعْنِي الأُمَمَ السَّالفةَ، وقيل: أهلَ الكتابِ؛ لقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البينة: ٤].

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ العِلمُ بأنَّ التَّفرُّقَ ضَلالٌ مُتوعَّدٌ عليه، أو العلمُ بمَبعَثِ الرَّسُولِ، أو أسبابُ العلمِ مِن الرُّسُلِ والكُتبِ وغيرِهما = فلَمْ يَلتَفِتُوا إليها ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً أو طَلبًا للدُّنيا.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإمهالِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القِيامَةِ، أو آخرُ أعمارِهم المقدرةِ ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالِ المبطلينَ حينَ افترَقُوا لعِظَمِ ما اقترَفُوا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: أهلَ الكتابِ الذين كانوا في عَهدِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ، أو المشركينَ الذين أُورثوا القرآنَ مِن بعدِ أهلِ الكتابِ، وقُرِئَ: (وُرِّثُوا) و(وَرِثُوا)[2].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «فتختلف» وفي نسخة الفاروقي: «فمختلف».

(٢) القراءتان في «الكشاف» (٨/ ٦٩) بلا نسبة، والأولى قراءة زيد بن علي كما في «البحر» (١٩/ ١٨).

﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ مِن كِتابِهِم لا يعلَمُونَهُ كما هوَ، أو لا يؤمنونَ به حقَّ الإيمانِ، أو مِن القرآنِ، ﴿مُرِيبٍ﴾ مُقلِقٍ أو مُدْخِلٍ في الرِّيبَةِ.

(١٥) ـ ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فلأجلِ ذلك التَّفرُّقِ، أو الكتابِ، أو العلمِ الذي أوتيتَهُ ﴿فَادْعُ﴾ إلى الاتِّفاقِ على المِلَّةِ الحنيفيَّةِ، أو الاتباعِ لِمَا أوتيتَ، وعلى هذا يجوزُ أَنْ تكونَ اللامُ في مَوضعِ (إلى) لإفادَةِ الصِّلَةِ والتَّعليلِ ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ واستَقِم على الدَّعوةِ كما أمركَ اللهُ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلَةَ.

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ يعني: جميعَ الكُتُبِ المنزلَةِ، لا كالكُفَّارِ[1] الذين آمَنُوا ببعضٍ وكَفَرُوا ببَعْضٍ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغِ الشَّرائعِ والحُكوماتِ، والأَوَّلُ إشارةٌ إلى كمالِ القُوَّةِ النَّظريَّةِ، وهذا إشارةٌ إلى كمالِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ.

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالقُ الكلِّ[2] ومُتولِّي أَمرِهِ.

﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فكلٌّ[3] مُجازَى بعَمَلِه.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا حِجاجَ بمَعنى: لا خُصومةَ إذ الحقُّ قد ظهرَ ولم يبقَ للمَحاجَّةِ مجالٌ ولا للخِلافِ مَبدأٌ سِوَى العِنادِ.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يومَ القِيامَةِ ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ مَرجِعُ الكُلِّ لفَصلِ القضاءِ، وليسَ في الآيةِ ما يَدُلُّ على مُتاركَةِ الكُفَّارِ رأسًا حتى تكونَ مَنسوخَةً بآيةِ القتالِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «خلاف» بدل «لا كالكفار».

(٢) في نسخة الخيالي: «كل شيء».

(٣) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «وكل».

(١٦) ـ ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ في دينِه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ من بعدِ ما استجابَ له النَّاسُ ودَخَلُوا فيه، أو مِن بعد ما استجابَ اللهُ لرَسُولِه فأظهرَ دينَهُ بنَصرِهِ يومَ بدرٍ، أو مِن بعدِ ما استجابَ لَهُ أهلُ الكِتابِ بأَنْ أَقرُّوا بنُبوَّتِه واستَفتَحُوا به ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ زائلةٌ باطِلَةٌ ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لِمُعاندَتِهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كُفرِهِم.

(١٧) ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ جنسَ الكِتابِ ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُلتبسًا به بعيدًا مِن الباطلِ، أو بما يحقُّ إنزالُهُ مِن العقائدِ والأحكامِ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والشَّرعَ الذي يُوازَنُ به الحقوقُ ويُسوَّى بين النَّاسِ، أو العدلَ بأَنْ أنزلَ الأمرَ بـه، أو آلَةَ الوزنِ أَوْحَى بإعدادِها.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إتيانُها، فاتَّبع الكِتابَ واعمَلْ بالشَّرعِ وواظِبْ على العدلِ قبلَ أنْ يُفاجِئَكَ اليَومُ الذي يُوزَنُ فيه أعمالُكَ ويُوفَّى جزاؤكَ.

وقيل: تذكيرُ القَريبِ لأنَّه بمعنى: ذاتُ قربٍ، أو لأنَّ السَّاعةَ بمعنى البعثِ.

(١٨) ـ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاءً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفونَ مِنْها مع اعتناءٍ بها لتَوقُّعِ الثَّوابِ ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الكائنُ لا مَحالةَ.

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ يجادلونَ فيها، مِن المِريَةِ، أو مِن مَرَيْتُ النَّاقَةَ: إذا مسحتَ ضَرْعَها بشِدَّةٍ للحَلْبِ؛ لأنَّ كُلًّا مِن المتجادِلَيْنِ يستخرِجُ ما عِندَ صاحِبِهِ بكلامٍ فيه شِدَّةٌ ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عَن الحقِّ؛ فإنَّ البعثَ أشبَهُ الغائباتِ إلى المَحسوساتِ[1]؛ فمَنْ لَمْ يَهتَدِ لتَجويزِهَا فهو أبعَدُ عَن الاهتداءِ إلى ما وراءَهُ.

---

(١) وقوله: «أشبه الغائبات إلى المحسوسات»، أي: أقرب من كل شيء، وعدَّاه بـ(إلى) لتضمينه معنى =

(١٩) ـ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ بَرٌّ بِهِمْ بصُنوفٍ مِن البِرِّ لا تبلُغُها الأفهامُ[١].

﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يَرْزُقُه كما يشاءُ فيخصُّ كُلًّا مِن عبادِهِ بنوعٍ مِن البِرِّ على ما اقتضَتْهُ حِكمَتُه ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ الباهرُ القُدرةِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنيعُ الذي لا يُغلَبُ.

(٢٠) ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ثوابَها، شبَّهَه بالزَّرعِ مِن حيثُ إنَّه فائدةٌ تَحصلُ بعملِ الدُّنيا، ولذلك قيل: الدُّنيا مَزرَعَةُ الآخرةِ، والحرثُ في الأصلِ: إلقاءُ البذرِ في الأرضِ، ويقالُ للزَّرعِ الحاصلِ منه.

﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾ فنُعطِه بالوَاحدِ عَشْرًا إلى سبعِ مئةٍ فما فوقَها.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ شيئًا منها على ما قَسَمْنَا له[٢] ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذ الأعمالُ بالنيَّاتِ ولكُلِّ امرئٍ ما نوى.

(٢١) ـ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ بَلْ أَلَهُم شُرَكاءُ، والهمزةُ للتَّقريرِ والتَّقريعِ، وشُرَكاؤُهُم شَياطينُهُم ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ بالتَّزيينِ ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشِّركِ وإنكارِ البَعثِ والعملِ للدُّنيا.

وقيل: شركاؤُهُم أوثانُهُم، وإضافتُها إليهم لأنَّهُم مُتَّخِذُوها شُركاءَ، وإسنادُ الشَّرعِ إليها لأنَّها سَببُ ضَلالَتِهِم وافتِتانِهِم بما تديَّنُوا بهِ، أو صُوَرُ مَنْ سَنَّهُ[٣] لهم.

= القرب، فلا يقابل الظاهر بالمحسوسات، وقربه إليها لأنه يعلم من بدء الخلقة لمشاهد إعادتها ومما يتكون من الفصول من النباتات ثم عودها مورقة مزهرة مثمرة بعدما تعرت من ذلك، على ما مرَّ مرارًا، انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) في نسخة الخيالي: «الأوهام»، وأشار إليها الخفاجي في «حاشيته».

(٢) في نسخة التفتازاني: «قسمناه».

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «شبه».

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي: القضاءُ السَّابقُ بتأجيلِ الجَزاءِ، أو العِدَةُ بأنَّ الفصلَ يَكونُ يومَ القيامَةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بينَ الكافرينَ والمؤمنينَ، أو المشركينَ وشُرَكائِهِم.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقُرِئَ: (أنَّ) بالفتحِ[١] عَطْفًا على ﴿كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾، أي: ولولا كلمَةُ الفَصلِ وتقديرُ عذابِ الظَّالِمينَ في الآخرةِ لقُضِيَ بينَهُم في الدُّنيَا؛ فإنَّ العَذابَ الأليمَ غالِبٌ في عذابِ الآخرةِ.

(٢٢)ـ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ ﴾ في القيامَةِ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفينَ ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ مِن السَّيِّئاتِ ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: وَبالُهُ لاحِقٌ بهم أَشْفقُوا أو لم يُشفِقُوا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ في أطيَبِ بِقاعِها وأنزَهِها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ما يَشتَهُونَه ثابتٌ لهم عندَ ربِّهِم.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما للمُؤمنينَ ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الذي يصغُرُ دونَهُ ما لغيرِهِم في الدُّنيا.

(٢٣) ـ ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ذلك الثَّوابُ الذي يُبَشِّرُهُم اللهُ به، فحُذِفَ الجارُّ ثمَّ العائِدُ[٢]، أو ذلك التَّبشيرَ الذي يُبَشِّرُه اللهُ عِبادَه.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يَبْشُرُ﴾ مِنْ بَشَرَه[٣]، وقُرِئَ: (يُبْشِرُ) من أَبْشَرَهُ[٤].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥)، و«المحتسب» (٢/ ٢٥٠)، و«الكشاف» (٨/ ٧٤)، و«البحر» (١٩/ ٢٤).

(٢) على هامش نسخة الفاروقي: «إنما حذف الجار لإيهام أنه مبشَّر به، وليس كذلك لأنه مبشَّرٌ لا مبشَّرٌ به، ثم حذف الهاء لكونه فضلة ومغايراً للمفعول الثاني في الوجود».

(٣) انظر: «السبعة»: (ص: ٢٠٥)، و«التيسير»: (ص: ١٩٥).

(٤) قوله: «يبشر من بشره وقُرِئَ» ليس في نسخة التفتازاني، والقراءة الثانية ليست في نسخة الفاروقي، =

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على ما أتعاطَاهُ مِن التَّبليغِ والبِشارَةِ ﴿أَجۡرًا﴾ نفعًا مِنكم ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أَنْ تَوَدُّونِي لِقَرابَتِي منكم، أو تَوَدُّوا قرابَتِي.

وقيل: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ، والمعنى: لا أسأَلُكُم أجرًا قطُّ، ولكن أسأَلُكُم المودَّةَ[١]، و﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ حالٌ منها، أي: إلَّا المودَّةَ ثابتةً في ذَوِي القُربى مُتمكِّنَةً في أهلِها، أو في حقِّ القرابةِ ومن أجلِها، كمَا جاءَ في الحديثِ: «الحبُّ في اللهِ والبُغْضُ في اللهِ»[٢].

رُوِيَ أنَّها لَمَّا نزلَتْ قيل: يا رسولَ اللهِ! مَن قرابَتُك هؤلاءِ؟ قال: «عَلِيٌّ وفاطِمَةُ وابناهُما»[٣].

= والمثبت من نسخة الخيالي، وهي قراءة مجاهد وحميد كما في «المحتسب» (٢/ ٢٥٠)، و«البحر» (١٩/ ٢٥).

(١) بعدها في نسخة الخيالي: «في القربى».

(٢) رواه أبو داود (٤٥٩٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه بلفظ: «أفضل الأعمال: الحب في الله، والبغض في الله»، وفي سنده مقال، وللحديث شواهد منها حديث البراء بن عازب رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٨٥٢٤) بلفظ: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»، وحديث عبد الله بن مسعود رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٣٧٦)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٣٢١)، وحديث عبد الله بن عباس رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٥٣٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١١٤١)، والطبراني في «الكبير» (٢٦٤١) و(١٢٢٥٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٤٨)، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٤٨)، وضعف السيوطي إسناده، وقال عنه ابن تيمية في «منهاج السنة» (٤/ ٥٦٣): هذا كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث، وممَّا يُبَيِّنُ ذلك أنَّ هذه الآيةَ نزلت بمكةَ باتِّفاق أهل العلم؛ فإن سورةَ الشُّورى جميعَها مكيةٌ، بل جميعُ آلِ حم كلُّهنَّ مكِّيَّاتٌ، وعليٌّ لم يَتزوج فاطمةَ إلَّا بالمدينة كما تقدَّم، ولمْ يُولَدْ له الحسنُ والحسينُ إلَّا في السَّنة الثالثة والرابعة من الهجرة، فكيف يُمْكِنُ أنها لمَّا نزلت بمكةَ قالوا: يا رسولَ اللهِ مَن هؤلاء؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وابناهما».

قال الحافظُ عبدُ الغنيِّ المقدسيُّ: وُلد الحسنُ سنةَ ثلاثٍ من الهجرة في النصف من شهر رمضانَ. هذا =

وقيل: القُرْبَى التَّقرُّبُ إلى الله، أي: إلَّا أَنْ تَوَدُّوا اللهَ ورَسُولَه في تَقرُّبِكُم إليه بالطَّاعةِ والعملِ الصَّالحِ، وقُرِئَ: (إلَّا مَودَّةً في القُرْبى)[1].

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ ومَن يَكتَسِب طاعةً سِيَّما حبَّ آلِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ.

وقيل: نزلَتْ في أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ ومودَّتِه لهم[2].

﴿نَزِدْ لَهُۥ فِيهَا﴾ في الحسنَةِ[3] ﴿حُسْنًا﴾ بمُضاعفَةِ الثَّوابِ.

وقُرِئَ (يَزِدْ)[4] أي: يَزِدِ اللهُ، و: (حُسْنَى)؛ مصدرٌ كالبُشْرَى[5].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَن أذنبَ ﴿شَكُورٌ﴾ لِمَن أطاعَ بتوفيةِ الثَّوابِ والتَّفضُّلِ عليهِ بالزِّيادَةِ.

= أصحُّ ما قيل فيه. ووُلد الحسين لخَمْسٍ خَلَوْن من شعبانَ سنةَ أربعٍ من الهجرة. قال: وقيل سنة ثلاثٍ.
وفي إسناده حسين الأشقر، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٥): وحسين ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه، ففي البخاري (٤٨١٨) من رواية طاوس عن ابن عباس: أنه سئل عن هذه الآية، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة...، الحديث.
قلت (القائل ابن حجر): وأخرج سعيد بن منصور من طريق الشعبي قال: أكثروا علينا في هذه الآية، فكتبنا إلى ابن عباس فكتب... فذكر نحوه.

(١) هي قراءة زيد بن علي كما في «البحر» (١٩/ ٢٨).

(٢) لم أقف عليه مسنداً، ونقله المصنف عن «الكشاف» (٨/ ٨٠).

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «في الجنة».

(٤) هي قراءة ابن السميفع وابن يعمر والجحدري كما في «زاد المسير» (٤/ ٦٥)، وبها قرأ زيد بن علي، وعبد الوارث عن أبي عمرو، وأحمد بن جبير عن الكسائي كما في «البحر» (١٩/ ٢٩).

(٥) «مصدر كالبشرى» من نسخة الخيالي، وهي قراءة عبد الوارث عن أبي عمرو كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥).

(٢٤) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بـل أيقولونَ ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ افـترَى محمَّدٌ بدَعْوى النبوَّةِ أو القُرآنِ ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ استبعادٌ للافتراءِ عَن مثلِهِ بالإشعارِ على أنَّه إنَّما يَجترِئُ عليه مَن كانَ مختومًا على قلبِهِ جاهلًا بربِّهِ، فأمَّا مَن كانَ ذا بصيرةٍ ومَعرِفَةٍ فلا، وكأنَّه قال: إنْ يَشأِ اللهُ خِذْلانَكَ يختِمْ على قلبِكَ لتَجْتَرِئَ بالافتراءِ عليه.

وقيل: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: يُمْسِكِ القرآنَ والوَحْيَ عنهُ، أو يَربِطْ عليه بالصَّبرِ فلا يَشُقَّ عليكَ أذاهُم.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ استئنافٌ لنَفْيِ الافتراءِ عمَّا يقولُه بأنَّه لو كانَ مُفترًى لَمَحَقَهُ؛ إذ مِن عادَتِه تعالى مَحوُ الباطلِ وإثباتُ الحقِّ بوَحْيِه أو بقَضائِه أو بوعدِهِ[1] بمحقِ[2] باطلِهِم وإثباتِ حَقِّهِ بالقرآنِ أو بقضائِهِ الذي لا مَردَّ له.

وسقوطُ الواوِ مِن ﴿يمح﴾ في بعضِ المَصاحفِ لاتِّباعِ اللفظِ كما في قولِه: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الإسراء: ١١].

(٢٥) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالتَّجاوزِ عمَّا تابوا عنه، والقَبُولُ يُعدَّى[3] إلى مفعولٍ ثانٍ بـ(من) و(عن)؛ لتَضمُّنِه مَعنى الأخذِ والإبانةِ.

وقد عرفْتَ حقيقةَ التَّوبةِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «لوعده». وقوله: «أو بوعده» معطوف على قوله: «بوحيه»، وقيل إنه معطوفٌ على قوله: «لنفي الافتراء»، أو على قوله: «بأنه لو كان مفترى... إلخ» فالصيغة على هذا للاستقبال، واللام للعهد، والمعنى على الثاني: باطلهم، فيظهر عدم الافتراء، ويجوز كونها للجنس، فيكون إثباتًا لعدم افترائه بالبرهان والوعد ضمني وفيه نظر، انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني: «بمحو».

(٣) في نسخة الخيالي: «يتعدى».

وعَـنْ عليٍّ رضـيَ اللهُ عنهُ: هـي اسمٌ يقَعُ على سِتَّةِ معانٍ: على الماضي مِن الذُّنوبِ النَّدامةُ، ولتَضييعِ الفرائضِ الإعادةُ، ورَدُّ المظالمِ، وإذابةُ النَّفسِ في الطَّاعةِ كما ربَّيتَها في المعصيَةِ، وإذاقَتُها مرارةَ الطَّاعةِ كما أذَقْتَها حلاوةَ المعصيَةِ، والبكاءُ بدلَ كلِّ ضَحِكٍ ضَحِكْتَه[١].

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صـغيرِها وكَبيرِهـا لِمَـن يَشـاءُ[٢] ﴿ويَعْلَمُ مـا يَفْعلونَ﴾ فيُجـازِي ويتجاوزُ عَـن إتقـانٍ[٣] وحِكمَةٍ، وقـرأَ الكوفِيُّـونَ: ﴿مَا تَفۡعَـلُونَ﴾ بالتَّاءِ غيرَ أبي بكـرٍ[٤].

(٢٦) ـ ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: يستجيبُ اللهُ لَهُم، فحُذِفَ اللَّامُ كما حُذِفَ في: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ﴾ [المطففين: ٣]، والمرادُ: إجابَةُ الدُّعاءِ[٥] أو الإثابَةُ على الطَّاعةِ؛ فإنَّها كدُعاءٍ وطَلَبٍ لِمَا يترتَّبُ عليه، ومنه قولُه عليهِ السَّلامُ: «أفضَلُ الدُّعاءِ الحمدُ لله»[٦].

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤). وفيه شيخ الثعلبي الحسن بن مُحَمَّد بن حبيب أبو القاسم المُفَسِّر صاحب الأصم، وهَّاه الحاكم في رقعة بخَطِّه. انظر: «المغني في الضعفاء» (١/ ١٦٦).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «شاء».

(٣) في نسخة التفتازاني: «إيقان». قال الخفاجي في «حاشيته»: وقوله: «عن إيقان» بالياء التحتية: (إفعال) من اليقين كما صحح في النسخ، أي: علمٌ جازمٌ، وفي بعضها بالتاءِ الفوقية، والأول أنسبُ بالعلمِ، لكن الثاني هو الأصحُّ هنا فالمرادُ بإتقانه كونه على مقتضى الحكمة، والله لا يوصف عمله بالإيقانِ؛ فتأمَّلْ.

(٤) في نسخة التفتازاني والخيالي: «وقرأ حمزة وحفص والكسائي». ولم تذكر القراءة في نسخة الفاروقي، وقراءةُ الباقينَ بالياءِ، انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٩٥)، و«النشر» (٢/ ٣٦٧).

(٥) في نسخة الخيالي: «دعائهم».

(٦) رواه الترمذي (٣٣٨٣) وقال: هـذا حديث حسن غريب، والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٩٩)، =

أو يَستجيبونَ(١) للهِ بالطَّاعةِ إذا دعاهُم إليها.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على ما سألُوا أو استَحَقُّوا أو استَوْجَبُوا(٢) له بالاستجابةِ.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدلَ ما للمؤمنينَ مِن الثَّوابِ والتَّفضُّلِ.

(٢٧) ـ ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتكبَّروا وأفسَدُوا فيها بَطَرًا، أو لبَغَى بَعضُهُم على بعضٍ استيلاءً واستِعلاءً، وهذا على الغالبِ.

وأصلُ البَغْيِ: طلبُ تَجاوُزِ الاقتصادِ فيما يُتحرَّى كميَّةً أو كيفيَّةً(٣).

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ بتقديرٍ ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ ما اقتضَتْهُ مَشيئَتُه ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعلَمُ خَفايا أمرِهِم وجلايا حَالِهِم، فيقدرُ لهم ما يناسِبُ شأنَهُم.

رُوِيَ أنَّ أهلَ الصُّفَّةِ تَمنَّوا الغِنَى، فنزلَت(٤).

وقيل: في العربِ كانوا إذا أَخصَبُوا تحارَبُوا، وإذا أجدَبُوا انتجَعُوا(٥).

= وابن ماجه (٣٨٠٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٤٦)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «يستجيبوا».

(٢) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «واستحقوا واستوجبوا»، وقوله: «على ما سألوا» هو وما عطف عليه بـ(أو) الفاصلة ناظرٌ للوجوه السابقة على الترتيب، وفي بعض النسخ: «واستوجبوا» بالواو، وفي بعضها: «واستحقوا واستوجبوا»، انظر: «حاشية الخفاجي»، وقد فصَّل في بيان توجيه هذه الفروق.

(٣) في نسخة الخيالي: «كمية وكيفية».

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٥٥٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٤٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٠)، وابن المنذر وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٥٢)، عن عمرو بن حريث بسند صحيح كما قال السيوطي.

(٥) انتجعوا بمعنى ارتحلوا للنجعة، وهي طلب الكلأ في غير بلادهم لعدم ما تتعيش به دوابهم فإذا تفرقوا اشتغلوا عن القتال. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢٨) ـ ﴿وهوَ الذي يُنْزِلُ الغيثَ﴾ المطرَ الذي يُغيثُهُم مِن الجدبِ، ولذلك خُصَّ بالنَّافعِ.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصِمٌ: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتَّشديدِ[١].

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أَيِسُوا منه، وقُرِئَ بكسرِ النُّونِ[٢].

﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ في كلِّ شيءٍ مِن السَّهلِ والجبلِ والنَّباتِ والحيوانِ.

﴿وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ الذي يَتولَّى عبادَهُ بإحسانِهِ ونشرِ رحمَتِه ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستحقُّ للحمدِ على ذلكَ.

(٢٩) ـ ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنَّها بذاتِها وصِفاتِها تدلُّ على وُجودِ صانعٍ قادرٍ حكيمٍ ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطفٌ على السَّماواتِ أو الخلقِ ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ مِن حيٍّ، على إطلاقِ اسمِ السَّبَبِ للمسبَّبِ أو ممَّا يَدُبُّ على الأرضِ، وما يكونُ في أحدِ الشَّيئينِ يصدُقُ أنَّهُ فيهمَا في الجُملَةِ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ﴾ في أيِّ وقتٍ يَشاءُ ﴿قَدِيرٞ﴾ مُتمكِّنٌ منه، و(إذا) كما تدخلُ الماضيَ تدخلُ المضارعَ[٣].

---

(١) وقرأ الباقون بالتخفيف، انظر: «التيسير»: (ص: ١٧٧)، «النشر»: (٢/ ٢١٨).

(٢) بالفتح قراءة الجمهور، وبالكسر قرأ الأعمش وابن وثاب كما في «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٦)، و«البحر» (١٩/ ٣٤). وجاء نسخة الخيالي: «بفتح النون»؛ قال الخفاجي: قوله: «وقرئ بكسر النون»: كذا في النسخ، ووقعَ في بعضها: «بفتح النون» فيكونُ إشارة إلى قراءة السبعة لا إلى القراءة الشاذة وإن كان مخالفًا لما هو المعتاد من التعبير بمثله في الشواذ، فلا حاجة إلى القول بأنه سهو، انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «على المضارع».

(٣٠) ـ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فبسبَبِ مَعاصيكُم، والفاءُ لأنَّ (ما) شرطيَّةٌ، أو مُتضمِّنَةٌ مَعناه، ولم يَذكُرْها نافعٌ وابنُ عامرٍ[١] استغناءً بما في الباءِ مِن مَعنى السَّببيَّةِ.

﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ مِن الذُّنوبِ فلا يعاقبُ عليها، والآيةُ مَخصوصَةٌ بالمُجرمينَ؛ فإنَّ ما أصابَ غيرَهُم فلأسبابٍ أُخَر؛ منها تعريضُهُ[٢] للأجرِ العَظيمِ بالصَّبرِ عليهِ.

(٣١) ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فائتينَ ما قضى عليكُمْ مِن المصائبِ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يحرسُكُم عنها ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ يدفَعُها عَنْكُم.

(٣٢) ـ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ﴾ السُّفُنُ الجاريةُ ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ كالجبالِ، قالت الخَنساءُ:

وَإِنَّ صَخْـرًا لَتَأْتَـمُّ الـهُدَاةُ بِـهِ ... كَـأَنَّهُ عَلَـمٌ فِـي رَأْسِـهِ نَـارُ[٣]

(٣٣) ـ ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ وقُرِئَ: ﴿الرِّيـاحَ﴾[٤] ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ فيبقينَ ثَوابِتَ على ظَهرِ البَحرِ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ لكـلِّ مَـن وكَّلَ هِمَّتَه وحبَسَ نفسَهُ على النَّظرِ في آياتِ اللهِ والتَّفكُّرِ في آلائِهِ، أو لكُلِّ مُؤمِنٍ كامِلِ الإيمانِ؛ فإنَّ الإيمانَ نِصفانِ: نِصفٌ صَبرٌ ونِصْفٌ شُكرٌ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨١)، و«التيسير» (ص: ١٩٥).

(٢) في نسخة الفاروقي: «فلأسباب أخر منها المكلف وتعريضه».

(٣) انظر: «ديوان الخنساء» (ص: ٤٦)، و«البخلاء» للجاحظ (ص: ٣٠٨)، و«طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي (١/ ٢١)، و«بلاغات النساء» لابن طيفور (ص: ١٦٨)، و«التعازي» للمبرد (ص: ٦١).

(٤) هي قراءة نافع، انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ٧٨). وفي نسخة التفتازاني: «وقرأ نافع وحده» بدل «وقرئ».

(٣٤) ـ ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أو يُهْلِكْهُـنَّ بإرسـالِ الرِّيحِ العاصِفَـةِ المغرِقَةِ، والمرادُ: إهـلاكُ[١] أهلِهـا؛ لقولِـه: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ وأصلُـه: أوْ يُرسِـلْها فيُوبِقْهـنَّ؛ لأنَّـه قَسِـيمُ ﴿يُسْكِنِ﴾، فاقتصـرَ فيهِ علـى المقصودِ، كمَا في قولِـه: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ إِذْ المعنى: أو يُرسِـلْها عاصفةً فيوبِقْ ناسًـا بذُنوبِهِم ويُنَجِّي ناسًـا علـى العَفوِ مِنْهُم.

وقُرِئَ: (ويَعفُو)[٢] على الاستئنافِ.

(٣٥) ـ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ عطـفٌ علـى عِلَّـةٍ مُقـدَّرةٍ مثـل: لينتقـمَ مِنْهُـم ويعلـمَ، أو علـى الجـزاءِ، ونُصِـبَ نصـبَ الواقـعِ جوابًا للأشـياءِ السِّـتَّةِ لأنَّه أيضًـا غيـرُ واجبٍ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ بالرَّفعِ[٣] على الاستئنافِ، وقُرِئَ بالجزمِ[٤] عطفًا عـلـى ﴿يَعْفُ﴾، فيكونُ المعنى: أو يجمَعُ بينَ إهلاكِ قَومٍ وإنجاءِ قومٍ وتحذيرِ آخرينَ.

﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ محيدٍ مِن العَذابِ، والجملَةُ مُعلَّقٌ عنها الفِعلُ.

(٣٦) ـ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تُمتَّعونَ به مُدَّةَ حَياتِكُم ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن ثَوابِ الآخرةِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لخلوصِ نَفعِهِ ودوامِه، و(ما) الأُولى مَوصولَةٌ[٥] تضمَّنَتْ مَعنى الشَّرطِ مِن حيثُ إنَّ إيتاءَ ما أُوتوا سَببٌ للتَّمتُّعِ بها في الحياةِ الدُّنيا، فجاءَتِ الفاءُ في جوابِها بخلافِ الثَّانِيَةِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «إغراق».

(٢) وهي قراءة الأعمش كما في «البحر» (١٩/ ٣٨).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨١)، و«التيسير» (ص: ١٩٥).

(٤) انظر: «الكشاف» (٨/ ٩١)، ونقلها عنه أبو حيان في «البحر» (١٩/ ٤١).

(٥) «موصولة»: ليس في نسخة الفاروقي والخيالي.

وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ: تَصدَّقَ أبو بكرٍ رضي الله عنه بمالِهِ كُلِّهِ، فلامَهُ جَمعٌ، فنَزَلَتْ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [1].

(٣٧) - ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ بما بعدَهُ عطفٌ على ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أو مدحٌ مَنصوبٌ، أو مَرفوعٌ، وبناءُ ﴿يَغْفِرُونَ﴾ على ضميرِ ﴿هُمْ﴾ خبرًا للدَّلالةِ على أنَّهمُ الأَخِصَّاءُ بالمغفرةِ حالَ الغَضبِ، وقرأَ حَمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿كبيرَ الإثمِ﴾ [2].

(٣٨) - ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ نزلَتْ في الأنصارِ [3]، دَعاهُم رَسولُ اللهِ ﷺ إلى الإيمانِ فاستجابُوا لـه.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي [4]: ذو شورى، لا يَنفَرِدُونَ برَأيٍ حتَّى يَتشاوَرُوا ويجتَمِعُوا عليه، وذلك مِن فَرطِ تَدبُّرِهم وتَيقُّظِهم في الأمورِ، وهي مَصدَرٌ - كالفُتْيَا - بمَعْنى التَّشاوُرِ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سُبُلِ [5] الخيرِ.

(٣٩) - ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ على ما جعلَهُ اللهُ لهم كراهةَ التَّذلُّلِ، وهو وصفُهُم بالشَّجاعَةِ بعدَ وَصفِهِم بسائرِ أُمَّهاتِ الفضائلِ، وهو لا يُخالِفُ وَصفَهُم بالغُفرانِ؛ فإنَّه يُنبِئُ عَنْ عَجزِ المغفورِ والانتصارِ عَن مقاوِمَةِ الخصمِ، والحِلْمُ عَن

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٨٧).

(٢) والباقون بالجمع، انظر: «السبعة» (ص: ٥٨١)، و«التيسير» (ص: ١٩٥). وقوله: «قرأ حمزة...» ليس في نسخة الفاروقي.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٧٢)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٢٣) عن ابن زيد.

(٤) «أي» من نسخة الخيالي.

(٥) في نسخة الخيالي: «سبيل».

العاجزِ مَحمودٌ، وعَن المُتغلِّبِ مَذمومٌ؛ لأنَّه إجراءٌ وإغراءٌ على البَغْيِ. ثـمَّ عقَّبَ[١] وصفَهُم بالانتصارِ للمَنعِ عَن التَّعدِّي، فقال[٢]:

(٤٠) ـ ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ وسمَّى الثَّانيةَ سَيِّئةً للازدواجِ، أو لأنَّها تسوءُ مَن تَنْزِلُ به ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينَهُ وبينَ عَدوِّه ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَةٌ مبهمةٌ تدلُّ على عِظَمِ المَوعودِ.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المبتدئينَ بالسَّيئةِ والمتجاوزينَ في الانتقامِ.

(٤١) ـ ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ بعدَما ظلمَ، وقد قُرِئَ به[٣]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمُعاتبةِ والمُعاقبةِ.

(٤٢) ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ يبتَدِئونَهُـم بالإضـرارِ، أو يطلبـونَ[٤] ما لا يَسـتَحِقُّونَه تجبُّرًا عليهِـم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ علـى ظُلْمِهـم وبَغيِهِم.

(٤٣) ـ ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ علـى الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولـم يَنْتَصِـر، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: إنَّ ذلـك منـه، فحُـذِفَ (منه)[٥] كمـا حُذِفَ فـي قولهم: السَّـمْنُ مَنَوَانِ بدِرْهَـمٍ؛ للعلـمِ بهِ.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «عقيب»، وفي نسخة الفاروقي: «عقب» بدل «ثم عقب».

(٢) «فقال» من نسخة التفتازاني.

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٩٦)، و«البحر» (١٩/ ٤٧) من غير نسبة.

(٤) في نسخة الفاروقي والخيالي: «ويطلبون».

(٥) «منه» من نسخة الخيالي. وقوله: «أي: إن ذلك منه.. إلخ» لأن الجملة خبرٌ؛ فلا بد من تقدير العائدِ، وذلك إشارة إلى الصبر والمغفرة، وكونه مغنيًا عن العائد لأن المراد صبره، أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ رابطٌ والإشارة ﴿لَمِنۡ﴾ بتقدير: من ذوي عزم الأمور= تكلف. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤٤) ـ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مِـن ناصـرٍ يتـولَّاهُ مِـن بعـدِ خِـذلانِ اللهِ إيَّـاه.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ حيـنَ يَرَوْنَـه، فذكـرَ بلَفـظِ المُضِـيِّ[1] تحقيقًا ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: إلى رَجْعَةٍ إلى الدُّنيا.

(٤٥) ـ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النَّارِ، ويدلُّ عليها ﴿ٱلْعَذَابَ﴾.

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ مُتذلِّلينَ مُتقاصِرينَ مما يلحَقُهُم مِن الذُّلِّ ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يبتدِئُ نظرُهُم إلى النَّارِ مِن تحريكٍ لأَجْفانِهم ضعيفٍ، كالمَصْبورِ يَنظُرُ إلى السَّيفِ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتَّـعريضِ للعذابِ المخلَّدِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرفٌ لـ﴿خَسِرُوٓا۟﴾ والقولُ في الدُّنيا[2]، أو لـ(قال)، أي: يقولونَ إذا رَأَوْهُم على تلكَ الحالِ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ تمامُ كَلامِهم، أو تصديقٌ مِن اللهِ لَهُم.

(٤٦) ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الهُدَى أو النَّجاةِ.

(٤٧) ـ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي[3]: لا يردُّهُ اللهُ بعدَما حكمَ بهِ، و(مِن) صِلَةٌ لـ﴿مَرَدَّ﴾، وقيل: صِلَةُ ﴿يَأْتِىَ﴾، أي: مِن قبلِ أَنْ يَأتِيَ يومٌ مِن اللهِ لا يُمكِنُ رَدُّه.

---

(١) في نسخة الخيالي: «الماضي».

(٢) أي: ويكون القول المأخوذ من (قال) واقعاً في الدنيا. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ١٠٥).

(٣) «أي» من نسخة التفتازاني.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ مفرٌّ ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ إنكـارٍ لِمَا اقتـرفْتُموهُ؛ لأنَّه مدوَّنٌ في صَحائفِ أعمالِكُم يشهَدُ عليه ألسنتُكُم وجوارِحُكُم.

(٤٨) ـ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيبًا أو محاسبًا ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلَّغْتَ.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أرادَ بالإنسانِ الجنسَ؛ لقولِه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ بليغُ الكُفرانِ يَنْسَى النِّعمَةِ[1] رأسًا، ويذكرُ البَلِيَّةَ ويُعَظِّمُها، ولَا[2] يتأمَّلُ سببَها، وهذا وإن اختصَّ بالمجرمينَ؛ جازَ إِسنادُهُ إلى الجنسِ لغَلَبتِهِم واندراجِهِم فيه.

وتَصديرُ الشَّرطيَّةِ الأولى بـ(إذا) والثَّانيَةِ بـ(إن)؛ لأنَّ إذاقةَ النِّعمَةِ مُحقَّقَةٌ مِن حيثُ إنَّها عادَةٌ مقضِيَّةٌ بالذَّاتِ، بخلافِ إصابةِ البَلِيَّةِ، وإقامةُ عِلَّةِ الجزاءِ مقامَه ووضعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ في الثَّانيَةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الجنسَ مَوسومٌ بكفرانِ النِّعمةِ.

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلهُ أن يقسمَ النِّعمةَ والبليَّةَ كيفَ شاءُ.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ مِن غيرِ لُزومٍ ومجالِ اعتراضٍ.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ بدلٌ مِن ﴿يَخْلُقُ﴾ بدلَ البَعضِ، والمعنى: يجعَلُ أحوالَ العبادِ في الأولادِ مُختَلِفَةً على مُقتضَى المَشيئَةِ؛ فيهبُ لِبَعضٍ إمَّا صِنفًا واحِدًا مِن ذَكَرٍ أو أنثى، أو الصِّنفينِ جَمِيعًا، ويُعقِمُ آخرين.

ولعلَّ تقديمَ الإناثِ لأنَّها أكثَرُ؛ لتكثيرِ النَّسلِ، أو لأنَّ مساقَ الآيةِ للدَّلالةِ على

---

(١) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «الرحمة».

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي: «ولم».

أنَّ الواقعَ ما يتعلَّقُ به مشيئةُ اللهِ لا مَشيئَةُ الإنسانِ، والإناثُ كذلكَ، أو لأنَّ الكلامَ في البلاءِ ـ والعَرَبُ تَعدُّهُنَّ بلاءً ـ، أو لتطييبِ قُلوبِ آبائِهنَّ، أو للمُحافظةِ على الفواصلِ، ولذلك عرَّفَ الذُّكورَ، أو لجبرِ التَّأخيرِ، وتغييرُ العاطفِ في الثَّالث[1] لأنَّه قسيمُ المشتركِ بين القسمينِ، ولم يَحتجْ إليه الرَّابعُ لإفصاحِهِ بأنَّه قسيمُ المشتركِ بين الأقسامِ المتقدمةِ.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فيفعلُ ما يفعلُ بحكمةٍ واختيارٍ.

(٥١) ـ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحَّ له ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ كلامًا خَفِيًّا يُدرَكُ بسرعةٍ؛ لأنَّه تمثيلٌ ليس في ذاتِه مُركَّبًا مِـن حُروفٍ مُقطَّعةٍ تتوقَّفُ على تموُّجاتٍ مُتعاقبَةٍ، وهو مـا يعمُّ المُشافَهَ بِهِ؛ كما رُوِيَ في حَديثِ المعراجِ، ومـا وُعِدَ به في حديثِ الرُّؤيةِ، والمُهْتَفُ بِهِ كما اتَّفقَ لِمُوسى عليه السَّلامُ في طُوَى والطُّورِ، ولكنَّ عَطْفَ قولِه: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ عليه يخصُّهُ بالأوَّلِ، والآيةُ دليلٌ على جَوازِ الرُّؤيةِ لا على امتناعِها.

وقيـل: المـرادُ بـه الإلهـامُ والإلقـاءُ فـي الـرُّوعِ، أو الوحـيُ المُنزَّلُ بـه الملكُ إلـى الرُّسـلِ، فيكـونُ المـرادُ بقولـه: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾: أو يرسـلَ إليـهِ نَبِيًّـا فيُبلِّـغُ وحيَـهُ كمـا أمـرَهُ، وعلـى الأوَّلِ المـرادُ بالرَّسـولِ: الملـكُ المُوحِـي إلى الرَّسـولِ، و﴿وَحْيًا﴾ بمـا عُطِفَ عليـه مُنتَصِبٌ بالمصـدرِ؛ لأنَّ ﴿مِن

(١) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «الثاني». قال الخفاجي: وقوله: «وتغيير العاطف.. إلخ» إذ عطف بـ(أو) دون غيره، والمشترك بين القسمين الأولين هو الانفراد بأحد الصنفين سواءٌ تعدد أو لا، وهذا مقابله لأنه الجمع بينهما، فلو عطف بالواو توهم أنه قسمٌ لكل من القسمين دون المشترك بينهما، وفي بعض النسخ: «الثاني» بدل «الثالث» والمراد: العطف الثاني أو القسم الثاني، والأولى أَوْلى. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ صِفَـةُ كلامٍ مَحـذوفٍ، والإرسـالُ نـوعٌ مِن الـكلامِ، ويجـوزُ أَنْ يكونَ ﴿وَحْيًا﴾ و﴿يُرْسِلَ﴾ مصدرَيـنِ، و﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ ظرفًـا وقعَـتْ أحـوالًا، وقـرأَ نافِـعٌ: ﴿أو يرسـلُ﴾ برفعِ الـلامِ[١].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن صفاتِ المخلوقينَ ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعلُ ما تقتضيهِ حِكمَتُه، فيُكلِّمُ تارةً بوَسَطٍ وتارةً بغيرِ وَسَطٍ[٢]، إمَّا عِيانًا وإمَّا مِن وَراءِ حِجابٍ.

(٥٢) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني ما أُوحِيَ إليه، وسمَّاهُ روحًا لأنَّ القلوبَ تحيا بهِ، وقيل: جبريلُ، والمعنى: أرسلناهُ إليكَ بالوَحيِ[٣].

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: قبـلَ الوَحـيِ، وهـو دليلٌ علـى أنَّه لم يَكُـن متعبَّـدًا قبـلَ النبـوَّةِ بشـرعٍ. وقيـل: المـرادُ هو الإيمـانُ بمـا لا طريـقَ إليه إلَّا السَّمعُ.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الرُّوحَ، أو الكـتابَ، أو الإيمانَ ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتَّوفيقِ للقَبُولِ والنَّظَرِ فيه.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلامُ، وقُرِئَ: (لتُهْدَى)[٤] أي: ليهديك اللهُ.

(٥٣) ـ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بـدلٌ مِـن الأوَّلِ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقًـا ومُلْكًا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٥)، و«النشر» (٢/ ٣٦٨)، وذكر في «السبعة» خلافاً عن ابن عامر. وقوله: «وقرأ نافع...» ليس في نسخة الفاروقي.

(٢) في نسخة الخيالي: «واسطة» في الموضعين.

(٣) انظر: «لباب التفاسير» (٨/ ٢١٤).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥) عن الجحدري وحوشب.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ بارتفاعِ الوَسائطِ والتَّعلُّقاتِ، وفيه وَعدٌ ووَعيدٌ للمُطيعينَ والمُجرمينَ.

عَن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ كان ممَّنْ يُصَلِّي عليه الملائكةُ ويَستغفرونَ له ويستَرحِمونَ له»[1].

***

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٢٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢)، من حديث أبي رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٧٩).

(٤٢) سورة الشورى مكية
وآياتها ثلاث وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل على الأنبياء قبلك، وقوله تعالى: ﴿ الله العزيز ﴾ أي في انتقامه، ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن (الحارث بن هشام) سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملَك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول ». قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً »[1]

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: « أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليَّ إلا ظننت أن نفسي تقبض »[2].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾، ﴿ وهو العلي الكبير ﴾، والآيات في هذا كثيرة. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ﴾ قال ابن عباس والسدي: أي فَرَقاً من العظمة، ﴿ والملائكة يسبِّحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

---

(١) أخرجاه في الصحيحين واللفظ للبخاري. ومعنى يتفصد: أي يتصبب عرقاً. (٢) أخرجه الإمام أحمد.

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾ إعلام بذلك وتنويه به، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يعني المشركين ﴿الله حفيظ عليهم﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾ أي واضحاً جلياً بيّناً ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة، ﴿ومن حولها﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً؛ وسميت مكة (أم القرى) لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة منها قول رسول الله ﷺ: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[1]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، وقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة، ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾، كقوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾ أي يغبن أهل الجنة أهل النار، وكقوله عزّ وجل: ﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد﴾. روى الإمام أحمد، عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال ﷺ للذي في يمينه: «هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، ثم قال ﷺ للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم»، ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: «سدّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل»، ثم قال ﷺ بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عزّ وجل من العباد، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة، ونبذ باليسرى وقال: فريق في السعير»[2]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ أي إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾ وقال ابن جرير: إن موسى عليه الصلاة

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

والسلام قال: يا رب خلقك الذين خلقتهم، جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟ فقال: يا موسى ارفع درعك، فرفع، قال: قد رفعت، قال: ارفع، فرفع، فلم يترك شيئاً، قال: يا رب قد رفعت، قال: ارفع، قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه، قال: كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه[1].

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو القادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير، ثم قال عزّ وجل: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿فحكمه إلى الله﴾ أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيّه ﷺ، كقوله جلّ وعلا: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾، ﴿ذلكم الله ربي﴾ أي الحاكم في كل شيء، ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ أي أرجع في جميع الأمور. وقوله جل جلاله: ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي خالقهما وما بينهما ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي من جنسكم وشكلكم، منّة عليكم وتفضلاً، جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج، وقوله تبارك وتعالى ﴿يذرؤكم فيه﴾ أي يخلقكم فيه على هذه الصفة، لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، وقال البغوي ﴿يذرؤكم﴾ أي في الرحم، وقيل: في هذا الوجه من الخلقة، قال مجاهد: نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام، وقيل: «في» بمعنى الباء، أي يذرؤكم به، ﴿ليس كمثله شيء﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء، لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿وهو السميع البصير﴾، وقوله تعالى: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيّق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام. ﴿إنه بكل شيء عليم﴾.

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

(١) أخرجه ابن جرير من حديث عمرو بن أبي سويد.

﴿مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى لهذه الأمة : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى بـه نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾ ، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو (نوح) عليه السلام ، وآخرهم وهو (محمد) ﷺ ، ثم ذكر من بـين ذلك من أولي العزم ، وهو : إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وهـذه الآية انتظمت ذكر الخمسة ، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ﴾ الآية ، والدين الذي جاءت بـه الرسل كلهم ، هو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، وفي الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علّات ، ديننا واحد » أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحـده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، كقوله جلّ جلاله : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ، ولهـذا قال تعالى ههنا : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي أوصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ كبر على المشركين مـا تدعوهم إليه ﴾ أي شق عليهم ، وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد ، ثم قـال جلّ جلاله : ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي هو الذي يقدر الهـداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرهـا على طريق الرشد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي إنمـا كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم ، وقيـام الحجة عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد ، ثم قال عزّ وجلّ : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى ﴾ أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد ، لعجّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً ، وقوله جلت عظمته : ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا برهان ، وهم في حيرة من أمرهم ، وشك مريب وشقاق بعيد .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التي قبلها ، حكم برأسها ، قالوا : ولا نظير لهـا سوى آية الكرسي ، فإنهـا أيضاً عشرة فصول كهذه ، وقوله ﴿ فلذلك فادع ﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا بـه جميع المرسلين قبلك ، أصحاب الشرائع المتبعة ، فادع الناس إليه . وقولـه عزّ وجلّ : ﴿ واستقم كما أمرت ﴾ أي واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى ، كما أمركم الله عزّ وجل . وقوله تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ يعني المشركين فيما اختلقوه فيه وكذبوه وافتروا من عبـادة الأوثان . وقولـه

جلّ وعلا : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم . وقوله: ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله . وقوله جلّت عظمته ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أي هو المعبود لا إلّه غيره فنحن نقر بذلك اختياراً ، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً . وقوله تبارك وتعالى: ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي نحن برآء منكم . قال سبحانه وتعالى: ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة . قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف، وهذا متجه، لأن هذه الآية مكية وآية السيف بعد الهجرة ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ أي يوم القيامة كقوله: ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾. وقوله جلّ وعلا: ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب .

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ والذين يحاجون في الله من بعدما استجيب له ﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ أي باطلة عند الله ﴿ وعليهم غضب ﴾ أي منه ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ أي يوم القيامة ، قال ابن عباس ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية، وقال قتادة : هم اليهود والنصارى قالوا لهم: ديننا خير من دينكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم وأولى بالله منكم، وقد كذبوا في ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق ﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه، ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل والإنصاف، وهذه كقوله تعالى: ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾، وقوله: ﴿ ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ فيه ترهيب منها. وتزهيد في الدنيا، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ أي يقولون متى هذا الوعد ؟ وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وكفراً وعناداً، ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أي كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها، وقد روي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه، فقال يا محمد ، فقال له رسول الله ﷺ، نحواً من صوته: « هاؤم » ، فقال له: متى الساعة ؟ فقال رسول الله ﷺ: « ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟ » فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: « أنت مع من أحببت »[1] ، فقوله في الحديث: « المرء مع

(١) أخرجه أصحاب السنن والمسانيد وله طرق تبلغ درجة التواتر كما قال ابن كثير .

من أحب » هذا متواتر ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها ، وقوله تعالى : ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يجادلون في وجودها ، ويدفعون وقوعها ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ أي في جهل بيّن ، لأن الذي خلق السماوات والأرض ، قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم سواء منهم البر والفاجر ، كقوله عزّ وجلّ : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ الآية ، وقوله جل وعلا : ﴿ يرزق من يشاء ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ وهو القوي العزيز ﴾ أي لا يعجزه شيء ، ثم قال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ أي عمل الآخرة ﴿ نزد له في حرثه ﴾ أي نقويه ونعينه على ما هو بصدده ، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ، ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ أي ومن كان سعيه ليحصل له شيء من الدنيا ، وليس له إلى الآخرة هم بالكلية ، حرمه الله الآخرة وفاز بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾ ، وفي الحديث : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر ، والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب »[1] وقوله جل وعلا : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار ، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه[2] في النار » ، لأنه أول من سيّب السوائب ، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ، ﴿ وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير ، ثم قال تعالى : ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وهو واقع بهم ﴾

(١) رواه الثوري عن أبي العالية عن أبي بن كعب مرفوعاً .

(٢) قصبه : أي أمعاءه .

أي الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ فأين هذا من هذا ؟ أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان، فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذ، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة، الشاملة العامة.

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لا محاله، ببشارة الله تعالى لهم به، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش، لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالاً، وإنما أطلب أن تذروني أبلغ رسالات ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة، روى البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد، فقال ابن عباس: عَجِلْتَ إن النبي ﷺ : لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة »(١). وروى الحافظ الطبراني، عن ابن عباس قال، قال لهم رسول الله ﷺ: « لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم »(٢). وروى الإمام أحمد، عن مجاهد، عن ابن عباس: « لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى، وأن تقربوا إليه بطاعته »، وهذا كأنه تفسير بقول ثان، كأنه يقول: إلا المودة في القربى، أي إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى، وقول ثالث وهو ما حكاه البخاري عن سعيد بن جبير أنه قال: معنى ذلك أن تودوني في قرابتي، أي تحسنوا إليهم وتبروهم، قال السدي: لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله عنه أسيراً، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم، واستأصلكم، وقطع قرن الفتنة، فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه: أقرأت القرآن ؟ قال: نعم، قال: أقرأت آل حم ؟ قال: قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم، قال: ما قرأت: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ ؟ قال: وإنكم لأنتم هم ؟ قال: نعم »(٣). والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن، عبدالله بن عباس رضي

---

(١) أخرجه البخاري، وبقول ابن عباس قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي.

(٢) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس.

(٣) ذكره ابن جرير وعلى هذا القول المراد بالقربى قرابة النبي ﷺ.

الله عنهما، كما رواه عنه البخاري، ولا ننكر الوصية بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»، وفي الصحيح أن الصديق رضي الله عنه قال لعلي رضي الله عنه: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي، وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطّاب. وروى الإمام أحمد، عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا والحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه، فلما جلسنا إليه قال حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً: رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصلّيت معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي لقد كبر سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ. فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تكلفونيه، ثم قال رضي الله عنه: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وذكّر ووعظ، ثم قال ﷺ: «أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين، أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه. وقال ﷺ: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه لسن من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس رضي الله عنهم، قال: كل هؤلاء حرم الله عليه الصدقة؟ قال: نعم»[1]. وروى الترمذي، عن زيد ابن أبي أرقم رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي. أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، والآخر عترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[2]. وروى الترمذي أيضاً. عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[3]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾ أي ومن يعمل حسنة ﴿نزد له فيها حسناً﴾ أي أجراً وثواباً، كقوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله غفور شكور﴾، أي يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر، وقوله جل وعلا: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ يختم على قلبك﴾ أي لو افتريت

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم والنسائي.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

(٣) أخرجه الترمذي أيضاً وقال: حسن غريب.

عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يختم على قلبك ﴾ ويسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله جلّ جلاله: ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ۞ ثم لقطعنا عنه الوتين ۞ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾، أي لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه. وقوله جلّت عظمته: ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ مرفوع على الابتداء وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام كما حذفت في قوله: ﴿ سندع الزبانية ﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿ ويحق الحق بكلماته ﴾ أي يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه ﴿ بكلماته ﴾ أي بحججه وبراهينه، ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر.

۞ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إذا تابوا ورجعوا إليه، أنه من كرمه وحلمه يعفو ويصفح، ويستر ويغفر، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾، وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «لله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ويعفو عن السيئات في الماضي، ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه، وقوله تعالى: ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال السدي: يعني يستجيب لهم، أي الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم، ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبدالله الكِنْدي، حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبدالله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ «في قوله تعالى: ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قيل: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا» وقال إبراهيم النخعي في قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال: يشفعون في إخوانهم، ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم، وقوله عزّ وجل: ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله تعالى: ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان، من بعضهم على بعض أشراً وبطراً، وقال قتادة: وكان يقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك، وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا»،

وقوله عزّ وجل: ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره، مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، كما جاء في الحديث المروي[١]: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه». وقوله تعالى: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾، أي من بعد يأس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿وينشر رحمته﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين قحط المطر، وقنط الناس، فقال عمر رضي الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾ أي هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خلق السماوات والأرض وما بث فيهما﴾، أي ذرأ فيهما، أي في السماوات والأرض ﴿من دابة﴾، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السماوات والأرض، ﴿وهو﴾ مع هذا كله ﴿على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب، فإنما هي عن سيئات تقدمت لكم ﴿ويعفو عن كثير﴾ أي من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾. وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها». وعن أبي جحيفة قال: دخلت على (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال، فسألناه، فتلا هذه الآية: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ قال: ما عاقب الله تعالى به في الدنيا، فالله أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا، فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة»[٢]. وروى الإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «إذا

(١) المراد بالحديث المروي أي المحكي عن الله عزّ وجلّ وهو المشهور بالحديث القدسي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه مرفوعاً من وجه آخر.

كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها »[١] . وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ قال: لما نزلت قال: رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر »[٢] . وعن الضحاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ ، ثم قال الضحاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن ؟

۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه، تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره ﴿ كالأعلام﴾ أي كالجبال، أي هذه في البحر كالجبال في البر ، ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ أي التي تسير في البحر بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة ﴿ على ظهره ﴾ أي على وجه الماء، ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار ﴾ أي في الشدائد ﴿ شكور ﴾ أي في الرخاء . وقوله عزّ وجلّ ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرقها ، بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها ، ﴿ ويعف عن كثير ﴾ أي من ذنوبهم، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر ، وقال بعض علماء التفسير ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أي لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية ، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد ؛ وهذا القول يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقوّاه فشردت وأبقت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية ، ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنيان ، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار . حتى إنه يرسل إلى مثل (بلاد مصر) سيحاً من أرض أخرى غيرها . لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم ، وقوله تعالى: ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا ، فإنهم مقهورون بقدرتنا

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها ، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى: ﴿ فما أوتيتم من

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري مرسلاً .

شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا بـه، فإنمـا هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محـالة، ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدي، فلا تقدموا الفاني على الباقي، ولهـذا قال تعالى ﴿للذين آمنوا﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات. ثم قال تعالى: ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ وقد قدمنا الكلام على الاثم والفواحش في سورة الأعراف، ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ أي سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، وقد ثبت في الصحيح: «أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله». وفي حديث آخر كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما له تربت يمينه»، وقوله عزّ وجلّ: ﴿والذين استجابوا لربهم﴾ أي اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره، ﴿وأقاموا الصلاة﴾ وهي أعظم العبادات لله عزّ وجلّ، ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ الآية، ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب، وقوله عزّ وجلّ: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عـام الحديبية، وكذلك عفوه ﷺ عن (غورث بن الحارث) الذي أراد الفتك بـه حين اخترط سيفه وهو نائم، وكذلك عفا ﷺ عن (لبيد بن الأعصم) الذي سحره عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه؛ والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً والله سبحانه وتعالى أعلم.

۞ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ كقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾، وكقوله ﴿وإن عـاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية فشرع العدل وهو (القصاص) ونـدب إلى الفضل وهو ﴿العفو﴾ كقوله جلّ وعلا: ﴿والجروح قصاص فمن تصدق بـه فهو كفارة له﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث: «وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً» وقوله تعالى: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ أي المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة، ثم قال جلّ وعلا: ﴿ولمن انتصر بعـد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم، روى النسائي، عن عروة قال، قالت عائشة رضي الله عنها: ما علمت حتى دخلت عليَّ زينب بغير إذن وهي غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر درعها، ثم أقبلت عليَّ، فأعرضت عنها حتى قال النبي ﷺ: «دونك فانتصري»، فأقبلت عليها حتى رأيت ريقها قـد يبس في فمها ما ترد علي شيئاً فرأيت النبي ﷺ يتهلل

وجهه »(١) وروى البزار عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: « من دعا على من ظلمه فقد انتصر »(٢). وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إنما السبيل ﴾ أي إنما الحرج والعنت ﴿ على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي يبدأون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح: « المستبّان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم » ﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع، ثم إن الله تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص قال نادباً إلى العفو والصفح: ﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ أي صبر على الأذى وستر السيئة ﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ أي لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة، التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل. وقال الفضيل بن عياض: « إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً فقل: يا أخي اعف عنه، فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن انتصر كما أمرني الله عزّ وجلّ، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر، وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه ﴿ من عفا وأصلح فأجره على الله ﴾، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور »(٣). وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ، وقام فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت، وقمت، قال: « إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان » ! ثم قال: « يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عزّ وجلّ بها قلة »(٤)، وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى وهو مناسب للصديق رضي الله عنه.

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة، أنه من هداه فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾، ثم قال عزّ وجلّ مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا، ﴿ يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾، كما قال جلّ

(١) أخرجه النسائي وابن ماجة واللفظ للنسائي.

(٢) أخرجه البزار والترمذي.

(٣) رواه ابن أبي حاتم من كلام الفضيل رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود.

وعلا: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي على النار، ﴿خاشعين من الذل﴾ أي الذي قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ قال مجاهد: يعني ذليل، أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، ﴿وقال الذين آمنوا﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿إن الخاسرين﴾ أي الخسار الأكبر، ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم في دار الأبد، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم فخسروهم، ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ أي دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله تعالى: ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ أي ليس له خلاص.

ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي إذا أمر بكونه، فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع، وقوله عزّ وجلّ: ﴿مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر﴾، وقوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا﴾ يعني المشركين ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي لست عليهم بمصيطر، وقال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾. وقال جلّ وعلا ههنا: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم، ثم قال تعالى: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ يعني الناس ﴿سيئة﴾ أي جدب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فإن الإنسان كفور﴾ أي يجحد ما تقدم من النعم، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، فالمؤمن كما قال ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى أنه خالق السماوات والأرض، ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ أي يرزقه البنات فقط ﴿ويهب

لمن يشاء الذكور ﴾ أي يرزقه البنين فقط ، ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ أي ويعطي لمن يشاء الزوجين (الذكر والأنثى) أي من هذا وهذا، ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ أي لا يولد له، فجعل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد له، ﴿ إنه عليم ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿ قدير ﴾ أي على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك، فسبحان العليم القدير .

* وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الرب جل وعلا، فتارة يقذف في روع النبي ﷺ وحياً لا يتمارى فيه أنه من الله عزّوجلّ ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»، وقوله تعالى: ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ أي كما كلّم موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبدالله رضي الله عنهما : «ما كلّم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلّم أباك كفاحاً» كذا جاء في الحديث . وكان قد قتل يوم أُحُد ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ﴿ إنه علي حكيم ﴾ فهو علي عليم، خبير حكيم . وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ يعني القرآن، ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ، ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي القرآن ﴿ نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ الآية ، وقوله تعالى: ﴿ وإنك ﴾ أي يا محمد ﴿ لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ وهو الخلق القويم، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ صراط الله ﴾ أي شرعه الذي أمر بـه الله ، ﴿ الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه، ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

[آخر تفسير سورة الشورى ، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة الشورى

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة. وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا منكرا، فقال:

حدثنا أحمد بن زُهَير، حدثنا عبد الوهاب بن نَجْدَةَ الحَوْطى، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، عن أرطاة بن المنذر [(١)] قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له ـ وعنده حُذيفة بن اليمان ـ: أخبرنى عن تفسير قول الله: ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾، قال: فأطرق ثم أعرض عنه، ثم كرر مقالته فأعرض عنه، فلم يجبه بشىء وكره مقالته، ثم كررها الثالثة فلم يُحرْ إليه شيئا. فقال حذيفة[(٢)]: أنا أنبئك بها، قد عرفت لم كرهها؟ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له«عبد الإله» ـ أو: عبد الله ـ ينزل على نهر من أنهار المشرق تُبْنى عليه مدينتان[(٣)]، يشق النهر بينهما شقا، فإذا أذن الله فى زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم، بعث الله على إحداهما ناراً ليلاً، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت، كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبتها متعجبة: كيف أفلتت؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا، فذلك قوله: ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾، يعنى: عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء حُمّ: ﴿ حمٓ ﴾، عين: يعنى عدلا منه، سين: يعنى سيكون، ق: يعنى واقع بهاتين المدينتين[(٤)].

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى الجزء الثانى من مسند ابن عباس، وعن أبى ذر، عن النبى ﷺ فى ذلك، ولكن إسناده ضعيف جدا ومنقطع، فإنه قال:

حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الخُشَنى الدمشقى، عن أبى معاوية قال: صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال: أيها الناس، هل سمع منكم أحد رسول الله ﷺ يفسر ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾؟ فوثب ابن عباس فقال، أنا: قال:«﴿ حمٓ ﴾ اسم من أسماء الله تعالى»، قال: فعين؟ قال: «عاين المولون عذاب يوم بدر»، قال: فسين؟ قال: «سيعلم الذين ظلموا أى منقلب

(١) فى ت:«وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا بسنده». (٢) فى أ: «فقال له حذيفة».

(٣) فى ت، م، أ: «مدينتين».

(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥)، ورواه نعيم بن حماد فى الفتن برقم (٥٦٨) من طريق أبى المغيرة عن أرطاة بن المنذر عمن حدثه عن ابن عباس فذكره.

ينقلبون» قال: فقاف؟ فسكت، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس، رضى الله عنهما، وقال: قاف: قارعة من السماء تغشى الناس[١].

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: كما أنزل إليك هذا القرآن، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ أى: فى انتقامه، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله.

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتينى مثل صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أشده علَىّ فيفصم عنّى قد وَعَيت ما قال. وأحيانا يأتينى الملك رجُلا فيكلمنى، فأعى ما يقول». قالت عائشة[٢]: فلقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد، فَيفصِم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقا.

أخرجاه فى الصحيحين، ولفظه للبخارى[٣].

وقد [٤] رواه الطبرانى عن عبد الله ابن الإمام أحمد، عن أبيه، عن عامر بن صالح، عن هشام ابن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، عن الحارث بن هشام؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحى؟ فقال: « مثل[٥] صلصلة الجرس، فيفصمُ عنى وقد وعَيتُ ما قاله» قال: «وهو أشده على » قال: «وأحياناً يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى، فأعى ما يقول»[٦].

وقال الإمام [٧] أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو[٨]، رضى الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تُقبَض». تفرد به أحمد[٩].

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحى إلى رسول الله ﷺ فى أول شرح البخارى، بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩]، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣]، والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدى، وكعب الأحبار: أى فَرَقاً، من العظمة ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ كقوله: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ

---

(١) ورواه ابن عساكر فى تاريخه كما فى الدر المنثور (٧/٣٣٦).

(٢) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٣) الموطأ (١/٢٠٢)، وصحيح البخارى برقم (٢)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٣٣).

(٤) فى أ: «ولقد».

(٥) فى أ: «فقال: فى مثل».

(٦) المعجم الكبير (٣/٢٥٩).

(٧) فى ت: «وروى».

(٨) فى ت: «عمر».

(٩) المسند (٢/٢٢٢).

﴿شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ : إعلام بذلك وتنويه به.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى: المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أى: إنما أنت نذير، والله على كل شىء وكيل.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨) ﴾ .

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: واضحا جليا بينا، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهى مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى: من سائر البلاد شرقا وغربا، وسميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال[(١)] الإمام أحمد:

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزُّهْرِى، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عَدِى بن الحمراء الزهرى أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول[(٢)] ـ وهو واقف بالحَزْوَرَة فى سوق مكة ـ: «والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أُخْرِجَتْ منك ما خرجت»[(٣)].

وهكذا رواية الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث الزهرى، به[(٤)]. وقال الترمذى: حسن صحيح .

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد.

وقوله: ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك فى وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

وقوله: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩] أى: يَغْبَن أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ[(٥)] يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٣ـ ١٠٥].

قال[(٦)] الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا لَيْث، حدثنى أبو قبيل المعَافرى، عن شُفَى[(٧)]

---

(١) فى ت: «ما رواه». (٢) فى ت: «قال».

(٣) المسند (٤/٣٠٥).

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٩٢٥) ، والنسائي في السنن الكبرى برقم (٤٢٥٢) ، وسنن ابن ماجه برقم (٣١٠٨).

(٥) قبلها فى ت، م، أ: «﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾». (٦) فى ت: «روى». (٧) فى أ: «شقيق».

الأصبحى، عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذى فى يده اليُمنى: « هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذى فى يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم ـ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأى شىء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فُرغ منه؟ فقال [(١)] رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة[(٢)]، وإن عَمِلَ أى عَمل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل النار[(٣)]، وإن عمل أى عمل» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق فى الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق فى السعير».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر، كلاهما عن أبى قَبِيل، عن شُفَىّ بن ماتع [(٤)] الأصبحى، عن عبد الله بن عمرو، به[(٥)].

وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

وساقه البغوى فى تفسيره من طريق بشر بن بكر[(٦)]، عن سعيد بن عثمان، عن أبى الزاهرية، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ، فذكره بنحوه. وعنده زيادات منها: ثم قال: «فريق فى الجنة وفريق فى السعير، عدل من الله عز وجل»[(٧)].

ورواه [(٨)]ابن أبى حاتم عن أبيه، عن عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، به.

ورواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبى قَبِيل، عن شُفَى، عن رجل من الصحابة، فذكره[(٩)].

ثم روى عن يونس، عن ابن وَهْب، عن عمرو بن الحارث وحَيْوَة بن [(١٠)] شُرَيْح، عن يحيى بن أبى أسيد؛ أن أبا فراس [(١١)]حدثه: أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: إن الله لما خلق آدم نفضه نفض المِزْوَد[(١٢)]، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النَّغَف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقى وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما. فقال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير[(١٣)].

وهذا الموقوف أشبه بالصواب، والله أعلم.

---

(١) فى ت، م: «قال».
(٢) فى م: «بعمل أهل الجنة».
(٣) فى م، ت، أ: «بعمل أهل النار».
(٤) فى أ: «رافع».
(٥) المسند (٢/ ١٦٧)، وسنن الترمذى برقم (٢١٤١)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٣).
(٦) فى م: «بكير».
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٨٥).
(٨) فى ت: «روى».
(٩) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧).
(١٠) فى أ: «عن».
(١١) فى ت: «عن أبى فراس».
(١٢) فى م: «المرود».
(١٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧).

وقال الإمام أحمد، رحمه الله :حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد ـ يعنى ابن سلمة ـ أخبرنا الجُرَيرى، عن أبى نضرة، أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقال له: أبو عبد الله ـ دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكى، فقالوا له: مايبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ:«خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقانى» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول:«إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالى» فلا أدرى فى أى القبضتين أنا[1].

وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا، منها حديث على، وابن مسعود، وعائشة، وجماعة جمة.

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء [2] إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرنى عَمرو بن الحارث، عن أبى سويد، حدثه عن ابن حجيرة: أنه بلغه [3] أن موسى، عليه السلام، قال: يارب خَلَقُك الذين [4] خلقتهم، جعلت منهم فريقا فى الجنة وفريقا فى النار، لو ما أدخلتهم كلهم الجنة؟! فقال: يا موسى، ارفع ذَرْعك. فرفع، قال: قد رفعت. قال: ارفع. فرفع، فلم يترك شيئا، قال: يارب، قد رفعت، قال: ارفع. قال: قد رفعت، إلا ما لا خير فيه. قال: كذلك أدخل خلقى كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه الولى الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده،فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير.

ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام فى جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله:﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى: الحاكم فى كل شيء،﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع فى جميع الأمور.

---

(١) المسند (٤/١٧٦).

(٢) فى أ: «شاء».

(٣) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٤) فى ت: «الذى».

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى: من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرا وأنثى، ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أى: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أى: يخلقكم فيه، أى: فى ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم[(١)] فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام.

وقال البغوى، رحمه الله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أى: فى الرحم. وقيل: فى البطن. وقيل: فى هذا الوجه من الخلقة.

قال مجاهد: ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام.

وقيل: «فى» بمعنى «الباء»، أى: يذرؤكم به.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أى: ليس كخالق الأزواج كلها شىء؛ لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره فى «سورة الزّمر»، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾.

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية «الأحزاب» عليهم فى قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب:٧]. والدين الذى جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وفى

---

(١) فى أ: «نوعكم».

الحديث: «نحن معشر [١] الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» أى: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى: وصى الله [سبحانه و] [٢] تعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد.

ثم قال: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أى: هو الذى يُقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾، أى: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغىُ والعنادُ والمشاقة.

ثم قال [الله] [٣] تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعاً.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يعنى: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذّب للحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أى: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا بُرهان، وهم فى حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التى قبلها، [لها] [٤] حكم برأسه ـ قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسى، فإنها أيضا عشرة [٥] فصول كهذه.

قوله [٦]: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾ أى: فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أى: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ يعنى: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أى: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على

---

(١) فى ت، م: «معاشر». (٢) زيادة من ت، م، أ. (٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «عشر». (٦) فى ت: «فقوله».

الأنبياء، لا نفرق [1] بين أحد منهم.

وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُم﴾ أي: في الحكم كما أمرني الله.

وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا، فله يسجد من في العالمين طوعا واختياراً.

وقوله: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا مُتَّجَه؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦].

وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) ﴾.

يقول تعالى ـ متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ـ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله، ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة.

قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية.

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا في ذلك.

ثم قال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني: الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ وَالْمِيزَانَ﴾، وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، وقتادة.

وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩].

---

(١) في ت: «لا يفرق».

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا.

وقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أي: يقولون: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ:٢٩]، وإنما يقولون [(١)] ذلك تكذيبا واستبعادا، وكفراً وعناداً، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وَجِلُون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها.

وقد رُوِى من طرق تبلغ درجة التواتر، في الصحاح والحسان، والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ بصوت جَهْوَرِيّ، وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يامحمد. فقال له النبي ﷺ نحوا من صوته «هاؤم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حُب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت»[(٢)].

فقوله في الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله: ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أي: يحاجّون في وجودها ويدفعون وقوعها، ﴿لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في جهل بين؛ لأن الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧].

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحدا منهم، سواء في رزقه البرّ والفاجر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦]. ولها [(٣)] نظائر كثيرة

وقوله: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾أي: يوسع على من يشاء، ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي: لا يعجزه شيء.

---

(١) في ت: «يقول».

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٦١٦٧)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٣٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) في ت: «ولهذا».

ثم قال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ أى: عمل الآخرة، ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أى: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أى: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة همّة[١] البتة بالكلية، حَرَمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل[٢] له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة.

والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التى فى «سبحان» وهى قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

وقال الثورى، عن مُغيرة، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب [رضى الله عنه][٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسَّنَاء والرفعة، والنصر والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له فى الآخرة من نصيب»[٤].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة[٥] الباطلة، التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عَمرو بن لُحيّ بن قَمَعَة يَجُر قُصْبَه فى النار»[٦]. لأنه أول من سيب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذى حَمَل قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ، أى: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى: شديد موجع[٧] فى جهنم وبئس المصير.

ثم قال تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى: فى عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أى: الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم فى هذا الخوف والوجل، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ، فأين هذا من هذا:

---

(١) فى ت: «وهم». (٢) فى أ: «يجعل». (٣) زيادة من ت.
(٤) رواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٣٥) من طريق الثورى به.
(٥) فى أ: «الجهالات».
(٦) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٠٣ من سورة المائدة.
(٧) فى ت، أ: «وجيع».

أين من هو فى العَرَصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو فى روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشاربَ وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال الحسن بن عرفة: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، حدثنا محمد بن سعد الأنصارى[(١)]، عن أبى طَيْبَة، قال: إن الشَّرْب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطِركُم. قال: فما يدعو داع من[(٢)] القوم بشيء إلا أمطرتهم، حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابا.

رواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، به.

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة.

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) ﴾.

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى، وتذرونى أبلغ رسالات[(٣)] ربى، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوسا[(٤)] عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. انفرد به البخارى[(٥)].

ورواه الإمام أحمد، عن يحيى القطان، عن شعبة به. وهكذا روى عامر الشعبى، والضحاك، وعلى بن أبى طلحة، والعَوْفى، ويوسف بن مِهْران، وغير واحد، عن ابن عباس، مثله. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى[(٦)]: حدثنا هاشم بن يزيد الطبرانى وجعفر القلانسى قالا: حدثنا

---

(١) فى ت: «روى الحسن بن عرفة بسنده». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى ت، م، أ: «رسالة».
(٤) فى ت: «روى البخارى بسنده».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨١٨)، والمسند (١/ ٢٢٩).
(٦) فى ت: «وروى الطبرانى».

آدم بن أبى إياس، حدثنا شريك، عن خُصَيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تَوَدّونى فى نفسى لقرابتى منكم، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم»[١].

وروى الإمام أحمد، عن حسن بن موسى: حدثنا قَزَعة، يعنى ابن سُوَيد ـ وابن أبى حاتم ـ عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن قَزَعة بن سويد ـ عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ أن النبى ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرا، إلا أن تُوَادوا الله، وأن تقربوا إليه بطاعته»[٢].

وهكذا روى قتادة عن الحسن البصرى، مثله.

وهذا كأنه تفسير بقول ثان، كأنه يقول: ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ أى: إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى.

وقول ثالث: وهو ما حكاه البخارى وغيره، رواية عن سعيد بن جبير، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودونى فى قرابتى، أى: تحسنوا إليهم وتبروهم.

وقال السدى، عن أبى الديلم قال: لما جىء بعلى بن الحسين أسيرا، فأقيم على درج دمشق، قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم، وقطع قرنى الفتنة. فقال له على بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: قرأت القرآن، ولم أقرأ آل حم. قال: ما قرأت: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ؟ قال: وإنكم أنتم[٣] هم؟ قال: نعم.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقال: قربى النبى ﷺ. رواهما ابن جرير[٤].

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام، حدثنى يزيد ابن أبى زياد، عن مقسم، عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم فخروا. فقال ابن عباس ـ أو: العباس، شك عبد السلام ـ: لنا الفضل عليكم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم فى مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بى؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بى؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبونى؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك»؟ قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب، وقالوا: أموالنا وما فى أيدينا لله ولرسوله. قال: فنزلت: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾[٥].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم، عن على بن الحسين، عن عبد المؤمن بن على، عن عبد السلام، عن

(١) المعجم الكبير (١١/ ٤٣٥).
(٢) المسند (١/ ٢٦٨).
(٣) فى ت، أ: «لأنتم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٧).
(٥) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٦).

يزيد بن أبى زياد ـ وهو ضعيف ـ بإسناده مثله، أو قريبا منه.

وفى الصحيحين ـ فى قسم غنائم حنين ـ قريب من هذا السياق، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية. وذِكْرُ نزولها فى المدينة فيه نظر؛ لأن السورة مكية، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا رجل سماه، حدثنا حسين الأشقر، عن قيس، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير[١]، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم؟ قال: «فاطمة وولدها، عليهم السلام»[٢].

وهذا إسناد[٣] ضعيف، فيه مبهم لا يعرف، عن شيخ شيعى مُتَخَرّق[٤]، وهو حسين الأشقر، ولا يقبل خبره فى هذا المحل. وذِكْرُ نزول هذه الآية فى المدينة بعيد؛ فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلى إلا بعد بدر من[٥] السنة الثانية من الهجرة.

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حَبْرُ الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخارى [رحمه الله][٦]: ولا تنكر الوصاة[٧] بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين.

و [قد ثبت][٨] فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته بِغَدِير خُمّ: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث[١٠]، عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشا إذا لقى بعضهم بعضا لقوهم ببشر حَسَن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبى ﷺ غضباً شديدا، وقال: «والذى نفسى بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله»[١١].

ثم قال أحمد[١٢]: حدثنا جرير، عن يزيد بن أبى زياد، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد المطلب ابن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشا تُحدِّث، فإذا رأونا

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٤٤٤) من طريق حرب الطحان عن حسين الأشقر به.
(٣) فى أ: «الإسناد». (٤) فى أ: «مخترق». (٥) فى أ: «فى».
(٦) زيادة من ت، م، أ. (٧) فى ت: «ولا ينكر الوصاية». (٨) زيادة من ت، أ.
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) بنحوه من حديث زيد بن الأرقم.
(١٠) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».
(١١) المسند (١/ ٢٠٧).
(١٢) فى ت: «ثم روى الإمام أحمد».

سكتوا. فغضب رسول الله ﷺ ودَرّ عِرْقُ بين عينه[(١)]، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ [(٢)] إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتى»[(٣)].

وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا خالد، حدثنا شعبة، عن واقد قال: سمعتُ أبى يحدّث[(٤)] عن ابن عمر، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، قال: ارقبوا محمدا ﷺ فى أهل بيته[(٥)].

وفى الصحيح: أن الصديق قال لعلى، رضى الله عنهما: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىَّ أن أصل من قرابتى[(٦)] [(٧)].

وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضى الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب.

فحال الشيخين، رضى الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضى الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أبى حَيّان التيمى، حدثنى يزيد ابن حَيّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن مَيْسَرة، وعمر[(٨)] بن مسلم إلى زيد[(٩)] بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيد[(١٠)] خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: يا ابن أخى، والله كَبُرت[(١١)] سنى، وقدم عهدى، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تُكَلّفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا، بماء يدعى خُمّا ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، وقال: «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى». فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.

وهكذا رواه مسلم [فى الفضائل][(١٢)]، والنسائى من طرق عن يزيد بن حَيّان به[(١٣)].

---

(١) فى ت، أ: «عينيه».

(٢) فى ت، أ: «امرئ مسلم».

(٣) المسند (١/٢٠٧).

(٤) فى ت: «وروى البخارى بإسناده».

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧١٣).

(٦) فى أ: «أحب إلىَّ من أن أصل قرابتى».

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٧١٢).

(٨) فى ت، أ: «وعمرو».

(٩) فى أ: «يزيد».

(١٠) فى أ: «يزيد».

(١١) فى ت، أ: «والله لقد كبرت».

(١٢) زيادة من ت، م، أ.

(١٣) المسند (٤/٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨١٧٥).

وقال أبو عيسى الترمذى(١): حدثنا على بن المنذر الكوفى، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا الأعمش، عن عطية، عن أبى سعيد ـ والأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن زيد بن أرقم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من(٢) السماء إلى الأرض، والآخر عترتى: أهل بيتى، ولن يتفرّقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما».

تفرد بروايته الترمذى(٣)، ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

وقال الترمذى أيضا(٤): حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى، حدثنا زيد بن الحسن، عن جعفر ابن محمد، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله (٥) قال: رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «يا أيها الناس، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتى: أهل بيتى».

تفرد به الترمذى أيضا(٦)، وقال: حسن غريب، وفى الباب عن أبى ذر، وأبى سعيد، وزيد بن أرقم، وحذيفة بن أسيد.

ثم قال الترمذى: حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث، حدثنا يحيى بن مَعين، حدثنا هشام بن يوسف، عن عبد الله بن سليمان النوفلى، عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عباس(٧) قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم (٨) من نعمه، وأحبونى(٩) بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى».

ثم قال(١٠): حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه(١١).

وقد أوردنا أحاديث أُخَر عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣](١٢)، بما أغنى عن إعادتها هاهنا، ولله الحمد والمنة.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سويد بن سَعيد، حدثنا مُفَضّل بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن حَنَش قال: سمعت أبا ذر وهو آخذ بحلقة الباب يقول: يأيها الناس، من عرفنى فقد عرفنى، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثل أهل بيتى فيكم مَثَل سفينة نوح، من

---

(١) فى ت: «وروى الترمذى».
(٢) فى ت: «بين».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٨).
(٤) فى ت: «وروى الترمذى».
(٥) فى ت: «عبد الله رضى الله عنه».
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٦).
(٧) فى ت: «وروى الترمذى أيضا عن ابن عباس».
(٨) فى ت: «يغدوكم به».
(٩) فى ت: «فأحبونى».
(١٠) فى ت: «وقال».
(١١) سنن الترمذى برقم (٣٧٨٩).
(١٢) انظر: تفسير الآية: ٣٣ من سورة الأحزاب.

دخلها نجا، ومن تخلف عنها هلك»[١].

هذا بهذا الإسناد ضعيف.

وقوله: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى: ومن يعمل حسنة ﴿ نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أى: أجرا وثوابا، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ﴾ [النساء: ٤٠].

وقال بعض السلف: [إن][٢] من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أى: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أى: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أى: لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ـ ٤٧] أى: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله: ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ليس معطوفا على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوما، بل هو مرفوع على الابتداء، قاله ابن جرير، قال: وحذفت من كتابته «الواو» فى رسم المصحف الإمام، كما حذفت فى[٣] قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقوله: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١].

وقوله: ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ معطوف على ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أى: يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته، أى بحججه وبراهينه، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما تكنه الضمائر، وتنطوى عليه السرائر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقد ثبت فى صحيح مسلم، رحمه الله، حيث قال:

---

(١) ورواه الحاكم فى المستدرك وصححه (٣/ ١٥٠) من طريق مفضل بن صالح عن أبى إسحاق به، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه مفضل ابن صالح واه»، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/٣٧) من طريق عبد الله بن داهر عن عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن أبى إسحاق به، وفى إسناده عبد الله بن داهر الرازى متروك.

(٢) زيادة من ت، م ، أ.

(٣) فى ت، أ: «من».

حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال[١]: حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبى طلحة، حدثنى أنس بن مالك ـ وهو عمه [٢] ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدى وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح»[٣].

وقد ثبت أيضا فى الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه[٤] [٥].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهرى فى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ : إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته[٦] فى المكان الذى يخاف أن يقتله العطش فيه»[٧].

وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث شريك القاضى، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم النخعى، عن همام، فذكره[٨].

وقوله: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: يقبل التوبة فى المستقبل، ويعفو عن السيئات فى الماضى، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدى: يعنى يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب الدعاء لهم[٩] [لأنفسهم][١٠] ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ثم روى هو وابن أبى حاتم، من حديث الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن سلمة بن سبرة قال: خطبنا معاذ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إنى أرجو أن يدخل الله من تَسْبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له ـ يعنى أحدُهم عملا ـ قال: أحسنت رحمك[١١] الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم

(١) فى أ: «قالا». (٢) فى ت: «عمه رضى الله عنه».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٧).
(٤) فى ت: «مثله».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٤).
(٦) فى ت: «راحلته».
(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٥٦) وقد روى متصلا، فرواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٧٥) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام ابن منبه عن أبى هريرة به.
(٨) تفسير الطبرى (٢٥/ ١٨).
(٩) فى ت، م: «لهم الدعاء». (١٠) زيادة من ت، م.
(١١) فى ت، م، أ: «يرحمك».

مِّن فَضْلِهِ﴾.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل[١] [مثل][٢] قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله[٣] تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا بقية، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندى، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله[٤] قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، قال: «الشفاعة لمن وجبت له النار، ممن صنع إليهم معروفا[٥] فى الدنيا»[٦].

وقال قتادة عن إبراهيم النخعى اللخمى في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون فى إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون فى إخوان إخوانهم.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض، أشرا وبطرا.

وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا»، وسؤال السائل: أيأتى الخير بالشر؟ الحديث.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغنى من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر. كما جاء فى الحديث المروى: «إن من عبادى لمن[٧] لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أى: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩].

وقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أى: يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطْر وتلك الناحية.

---

(١) فى ت، م: «جعله».

(٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «كقوله». (٤) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله».

(٥) فى أ: «المعروف».

(٦) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٨٤٦) من طريق محمد بن مصفى عن بقية به، وفى إسناده إسماعيل الكندى. قال الذهبى فى الميزان (١/ ٢٣٥): «عن الأعمش، وعنه بقية، بخبر عجيب منكر».

(٧) فى ت: «من».

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحطَ المطر وقنط الناس؟ فقال عمر، رضى الله عنه: مطرتم، ثم قرأ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[١].

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أى: ذرأ فيهما، أى: فى السموات والأرض، ﴿مِن دَابَّةٍ ﴾، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿ وَهُوَ ﴾ مع هذا كله ﴿ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أى: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، ويَنْفُذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو[٢] عن سيئات تقدمت لكم، ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أى: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفى الحديث الصحيح: «والذى نفسى بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هم ولا حُزَن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة[٣] يشاكها»[٤].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب قال: قرأت فى كتاب أبى قِلاَبَة قال: نزلت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ .وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، إنى لراء ما عملت من خير وشر؟ فقال: «أرأيت ما رأيت مما تكره، فهو من مثاقيل ذَرّ الشر، وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة» قال: قال أبو إدريس: فإنى أرى مصداقها فى كتاب الله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[٥].

ثم رواه من وجه آخر، عن أبى قِلاَبَة، عن أنس[٦]، قال: والأول أصح.

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ١٩).

(٢) فى ت، أ: «هى». (٣) فى ت، أ: «بالشوكة».

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٣) «من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما».

(٥) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢٠).

(٦) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَارِي، حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي، عن الخَضْر بن القَوَّاس البجلي، عن أبي سخيلة[١]، عن علي، رضي الله عنه، قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. وسأفسرها لك يا علي: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا، فبما كسبت أيديكم [٢]، والله تعالى أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله[٣] تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه».

وكذا رواه الإمام أحمد، عن مروان بن معاوية وعَبْدة، عن أبي سُخَيلة قال: قال علي. . . فذكر نحوه مرفوعا[٤].

ثم روى ابن أبي حاتم [نحوه][٥] من وجه آخر موقوفا فقال: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح، عن أبي الحسن، عن أبي جُحَيفَة قال: دخلت على علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يَعيَه[٦]؟ قال: فسألناه، فتلا[٧] هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. قال: ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة.

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا طلحة ـ يعني ابن يحيى ـ عن أبي بُرْدَة، عن معاوية ـ هو ابن أبي سفيان، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كَفَّرَ الله عنه به من سيئاته»[٩].

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسين، عن زائدة، عن ليث، عن مجاهد[١٠]، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها، ابتلاه الله بالحَزَنِ ليكفرها»[١١].

وقال[١٢] ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا أبو أسامة، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن ـ هو البصري ـ قال في قوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ قال: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من خَدْش عود، ولا اختلاج عِرْق، ولا عَثْرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»[١٣].

وقال[١٤] أيضا: حدثنا أبي، حدثنا عمر بن علي، حدثنا هُشَيْم، عن منصور، عن الحسن، عن

(١) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده». (٢) في أ: «أيديكم ويعفو عن كثير». (٣) في ت: «والله».
(٤) المسند (١/ ٨٥).
(٥) زيادة من أ. (٦) في أ: «يصيبه».
(٧) في ت: «قبل». (٨) في ت: «وروى».
(٩) المسند (٤/ ٩٨) قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠١): «رجال أحمد رجال الصحيح».
(١٠) في ت، م: «عن مجاهد، وروى أيضا».
(١١) المسند (٦/ ١٥٧).
(١٢) في ت: «وروى».
(١٣) ورواه هناد بن السري في الزهد برقم (٤٣١) من طريق إسماعيل بن مسلم به مرسلا.
(١٤) في ت: «وروى».

عمران بن حصين، رضى الله عنه، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلى فى جسده، فقال له بعضهم إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نرى فيك. قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾.

[قال:][(١)] وحدثنا أبى: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمَّانى، حدثنا جرير، عن أبى البلاد[(٢)] قال: قلت للعلاء بن بدر: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾، وقد ذهب بصرى وأنا غلام؟ قال: فبذنوب والديك.

وحدثنا أبى: حدثنا على بن محمد الطَّنَافسى، حدثنا وكيع، عن عبد العزيز بن أبى رواد، عن الضحاك[(٣)] قال: ما نعلم أحدا حفظ القرآن ثم نسيه[(٤)] إلا بذنب، ثم قرأ الضحاك: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾. ثم يقول الضحاك: وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾.

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام، أى: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدى، والضحاك، أى: هى[(٥)] فى البحر كالجبال فى البر، ﴿**إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ**﴾ أى: التى تسير بالسفن[(٦)]، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك[(٧)] السفن، بل تظل راكدة لا تجىء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أى: على وجه الماء ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ**﴾ أى: فى الشدائد ﴿**شَكُورٍ**﴾ أى: إن فى تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿**لِّكُلِّ صَبَّارٍ**﴾ أى: فى الشدائد، ﴿**شَكُورٍ**﴾ فى الرخاء.

وقوله: ﴿**أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا**﴾ أى: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها[(٨)]، ﴿**وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ**﴾ أى: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر[(٩)].

وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿**أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا**﴾ أى: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها[(١٠)] عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى أ: «أبى العلا». (٣) فى ت: «وروى أيضا عن الضحاك».
(٤) فى أ: «سببه». (٥) فى أ: «هذه». (٦) فى ت: «تسير بها السفن».
(٧) فى ت: «يتحرك». (٨) فى ت، م، أ: «فيها». (٩) فى م: «كل من يركب فى البحر»، وفى أ: «كل من يركب البحر».
(١٠) فى ت، أ: «فأجالتها»، وفى م: «فاجتالتها».

وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول[١]، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلكت. ولكن من لطفه[٢] ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع[٣] والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها[٤]؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ .

يقول تعالى محقرا بشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى، بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أى: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدى، فلا تقدموا الفانى على الباقى؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى «سورة الأعراف» ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أى: سجيتهم [وخلقهم وطبعهم][٥] تقتضى الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس.

وقد ثبت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله[٦]. وفى حديث آخر: «كان يقول لأحدنا[٧] عند المعتبة: ماله؟ تربت جبينه»[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن زائدة، عن منصور[٩]، عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا.

---

(١) فى ت، أ: «للقول الأول». (٢) فى أ: «لطف الله». (٣) فى ت، م: «الزروع».
(٤) فى أ: «عليها». (٥) زيادة من أ.
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦١٢٦) من حديث عائشة بلفظ: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله».
(٧) فى أ: «للرجل».
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠٣١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .
(٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾، وهى أعظم العبادات لله عز وجل، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا [(١)] فيه، ليتساعدوا بآرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه [الصلاة][(٢)] السلام، يشاورهم فى الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٣)] الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر، وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنهم أجمعين، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضى الله عنهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أى: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ [وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ][(٤)]﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم [(٥)] مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث، الذى أراد الفتك به [عليه السلام] [(٦)] حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو فى يده صَلْتًا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم[(٧)]، الذى سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية ـ وهى زينب أخت[(٨)] مرحب اليهودى الخيبرى الذى قتله محمود بن مسلمة ـ التى سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ماحملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا، والحمد لله[(٩)].

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا

(١) فى أ: «يشاورون». (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت، م،أ: «عنهم». (٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «أعصم». (٨) فى ت، م: «بنت». (٩) فى أ: «ولله الحمد والمنة».

اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وكقوله[١] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله [تعالى][٢]: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾أى: لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا». وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

[وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ذكر الأقسام الثلاثة فى هذه الآية فذكر المقتصد وهو الذى يفيض بقدر حقه لقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم][٣].

ثم قال: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم.

قال ابن جرير[٤]: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيع[٥]، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا[٦] ابن عَوْن قال: كنت أسأل عن الانتصار: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، فحدثنى على ابن زيد[٧] بن جدعان، عن أم محمد ـ امرأة أبيه ـ قال ابن عون: زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة[٨] ـ قالت: قالت أم المؤمنين: دخل علينا رسول الله ﷺ، وعندنا زينب بنت جحش، فجعل يصنع بيده شيئا فلم يَفْطِنْ لها، فقلت بيده حتى[٩] فَطَّنته لها، فأمسك. وأقبلت زينب تقحم لعائشة، فنهاها، فأبت أن تنتهى. فقال لعائشة: «سُبِّيها» فسبتها فغلبتها، وانطلقت زينب فأتت عليا فقالت: إن عائشة تقع بكم، وتفعل بكم. فجاءت فاطمة فقال[١٠] لها: «إنها حبة أبيك ورب الكعبة» فانصرفت، وقالت لعلى: إنى قلت له كذا وكذا، فقال لى كذا وكذا. قال: وجاء على إلى النبى ﷺ فكلمه فى ذلك[١١].

هكذا ورد هذا السياق، وعلى بن زيد بن جدعان يأتى فى رواياته بالمنكرات غالبا، وهذا فيه نكارة، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق، كما رواه النسائى وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفاء، عن عبد الله البَهِىِّ، عن عروة قال: قالت عائشة، رضى الله عنها: ما علمتُ حتى دخلت علىَّ زينب بغير إذن وهى غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذُرَيِّعَتَيْهَا ثم أقبلت على فأعرضت عنها، حتى قال النبى ﷺ: «دونك فانتصرى» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها فى فمها، ما[١٢] ترد على شيئا. فرأيت النبى ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ

---

(١) فى ت: «وقوله».
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «وروى ابن جرير».
(٥) فى أ: «سويع».
(٦) فى ت: «عن».
(٧) فى ت: «يزيد».
(٨) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».
(٩) فى أ: «فقلت له حتى».
(١٠) فى ت: «فقالت».
(١١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٢٤).
(١٢) فى م: «لم».

النسائى[١].

وقال البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو الأحوص، عن أبى حمزة، عن إبراهيم، عن الأسود[٢]، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر».

ورواه الترمذى من حديث أبى الأحوص، عن أبى حمزة ـ واسمه ميمون ـ ثم قال: « لانعرفه إلا من حديثه، وقد تكلم فيه من قبل حفظه»[٣].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أى: إنما الحرج والعنت﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء فى الحديث الصحيح: «المُسْتَبَّان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يَعْتَد المظلوم».

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى: شديد موجع.

قال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ حدثنا عثمان الشحام، حدثنا [٤] محمد بن واسع قال: قدمت مكة فإذا على الخندق مَنْظَرَة، فأخذت فانطلق بى إلى مروان بن المهلب، وهو أمير على البصرة، فقال: حاجتك يا أبا عبد الله. قلت: حاجتى إن استطعت أن تكون كما قال أخو بنى عدى. قال: ومن أخو بنى عدى؟ قال: العلاء بن زياد، استعمل صديقا له مرة على عمل، فكتب إليه: أما بعد فإن استطعت ألا تبيت إلا وظهرك خفيف، وبطنك خميص، وكفك نقية من دماء المسلمين وأموالهم، فإنك إذا فعلت [٥] ذلك لم يكن عليك سبيل، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾فقال[٦]: صدق والله ونصح ثم قال: ما حاجتك يا أبا عبد الله؟ قلت: حاجتى أن تلحقنى بأهلى. قال: نعم. رواه ابن أبى حاتم[٧].

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادباً إلى العفو والصفح: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أى: صبر على الأذى وستر السيئة، ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾.

قال سعيد بن جبير: [يعنى] [٨] لمن حق الأمور التى أمر الله بها، أى: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة [٩] التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسى، حدثنا عبد الصمد بن يزيد ـ خادم الفُضَيل بن عياض ـ قال: سمعت [١٠] الفضيل بن عياض يقول[١١]: إذا أتاك رجل

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٨١) قال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ١١٥): «هذا إسناد صحيح على شرط مسلم».

(٢) فى ت: «وروى البزار بسنده».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٢) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/ ٣٤٧) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤١٢) من طريق أبى الأحوص به، وقال ابن عدى: «لا أعلم من يرويه عن أبى حمزة غير أبى الأحوص».

(٤) فى ت: «عن». (٥) فى أ: «قبلت». (٦) فى ت، أ: «فقال مروان».

(٧) المصنف لابن أبى شيبة (١٤/ ٦٣)

(٨) زيادة من أ.

(٩) فى ت: «المحمودة». (١٠) فى ت« وعن».

(١١) فى ت: «قال».

يشكو إليك رجلا فقل: «يا أخى، اعف عنه». فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبى العفو، ولكن أنتصر كما أمرنى الله [1] عز وجل. فقل له[2]: إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ـ يعنى ابن سعيد القطان ـ عن ابن عَجْلان، حدثنا سعيد بن أبى سعيد[4]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رجلا شتم أبا بكر والنبى ﷺ جالس، فجعل النبى ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبى ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمنى وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر[5] الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضى عنها لله، إلا أعز الله بها نَصْرَه، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله بها قلة».

وكذا رواه أبو داود، عن عبد الأعلى بن حماد، عن سفيان بن عيينة ـ قال: ورواه صفوان بن عيسى، كلاهما عن محمد بن عَجْلان [6] .ورواه من طريق الليث، عن سعيد المَقْبُرِى، عن بشير بن المحرر، عن سعيد بن المسيب مرسلا[7].

وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى، وهو سببُ سبه للصديق[8].

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء [9] كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له[10]، وأنه من هداه فلا مُضِل له، ومن يضلل [11] فلا هادى له، كما قال: **﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾** [الكهف:١٧].

ثم قال مخبرا عن الظالمين، وهم المشركون بالله **﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾** أى: يوم القيامة يتمنون

---

(١) فى ت: «ربى». (٢) فى ت، أ: «قال له الفضيل». (٣) بعدها: «رواه ابن أبى حاتم».

(٤) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده». (٥) فى ت، م، أ: «وقع».

(٦) المسند (٢/٤٣٦) وسنن أبى داود برقم (٤٨٩٦، ٤٨٩٧).

(٧) سنن أبى داود برقم (٤٨٩٧).

(٨) فى ت، أ: «وهذا الحديث فى غاية الحسن وهو مناسب للصديق»، وفى م: «وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى وهو مناسب للصديق».

(٩) فى ت: «ما شاء الله». (١٠) فى أ: «فلا مؤاخذة له». (١١) فى ت، م: «يضلل الله».

الرجعة إلى الدنيا، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، كما قال[تعالى][(١)]: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾، أي: الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعنى ذليل، أي ينظرون إليها مُسَارقة خوفا منها، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما فى نفوسهم، أجارنا الله من ذلك.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يقولون يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الخسار [(٢)] الأكبر ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ذهب بهم إلى [(٣)] النار، فعدموا لذتهم فى دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم[(٤)]، فخسروهم، ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم سرمدى أبدى، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له خلاص.

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨)﴾.

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حَذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[القيامة: ١٠ ـ ١٢].

وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعنى: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لست عليهم بمصيطر. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ أي: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى أ: «الخاسر».
(٣) فى ت: «فى».
(٤) فى ت: «وأقربائهم».

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أى: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعنى الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أى: جدب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أى: يجحد ما تقدم من النعمة[١] ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ[للنساء][٢] :«يا معشر النساء، تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولِمَ يارسول الله؟ قال:«لأنكن تُكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط»[٣] .وهذا حال أكثر الناس [٤] إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال رسول الله ﷺ:«إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[٥].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ أى: يرزقه البنات فقط ـ قال البغوى: ومنهم لوط، عليه السلام ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أى: يرزقه البنين فقط. قال البغوى: كإبراهيم الخليل، عليه السلام ـ لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أى: ويعطى من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أى: من هذا وهذا[٦] .قال البغوى: كمحمد، عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أى: لا يولد له. قال البغوى: كيحيى وعيسى، عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أى: على من يشاء، من تفاوت الناس فى ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾[مريم:٢١] أى: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، [مخلوقة] [٧] من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى [عليه السلام] [٨] من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقام فى الآباء، والمقام الأول فى الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

---

(١) فى ت، م: «النعم». (٢) زيادة من ت، م،أ.
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٧٩)من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه، وبرقم (٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٤) فى ت، م،أ:«النساء».
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه.
(٦) فى ت: «هذا من هذا».
(٧) زيادة من م. (٨) زيادة من ت،م، وفى أ:«عيسى ابن مريم عليهما السلام».

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾.

هذه مقامات [(١)] الوحى بالنسبة إلى جناب الله، عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف فى روع النبى ﷺ شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء فى صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن رُوح القُدُس نفث فى رُوعى: أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»[(٢)].

وقوله: ﴿**أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾، كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحا» الحديث[(٣)]، وكان [أبوه][(٤)] قد قتل يوم أحد، ولكن هذا فى عالم البرزخ، والآية إنما هى فى الدار [(٥)] الدنيا.

وقوله: ﴿**أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ**﴾، كما ينزل جبريل [عليه السلام] [(٦)] وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام، ﴿**إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾، فهو على عليم خبير حكيم.

وقوله[(٧)]: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا**﴾ يعنى: القرآن، ﴿**مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ**﴾ أى: على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن، ﴿**وَلَكِن جَعَلْنَاهُ**﴾ أى: القرآن ﴿ **نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾، كقوله: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿**وَإِنَّكَ** ﴾ [أى] [(٨)]يامحمد ﴿**لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾، وهو الخلق [(٩)] القويم، ثم فسره بقوله: ﴿**صِرَاطِ اللَّهِ** [**الَّذِي**][(١٠)] ﴾ أى: شرعه الذى أمر به الله، ﴿**الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ أى: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ﴿**أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ**﴾، أى ترجع الأمور، فيفصلها ويحكم فيها .

آخر تفسير سورة «[حم][(١١)] الشورى» والحمد لله رب العالمين

---

(١) فى ت: «مقدمات».

(٢) ورواه البغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٠٤) من طريق إسماعيل بن أبى خالد عن زبيد اليامى عمن أخبره عن ابن مسعود به.

(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٠١٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه». (٤) زيادة من ت، أ.

(٥) فى ت: «دار». (٦) زيادة من م. (٧) فى ت: «فقوله». (٨) زيادة من م.

(٩) فى ت، م، أ: «الحق». (١٠) زيادة من أ. (١١) زيادة من أ.

سورة حمٓ[1] عٓسٓقٓ[2]

مكّيّة،[3] وهي ثلاث وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ④﴾

﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ﴾ اسمان للسورة، ولذلك فُصِل بينهما، وعُدّا آيتين. وقيل: اسم واحد، والفصل ليناسب سائرَ الحواميم. وقُرئ: "حم سق".[4] فعلى الأوّل هما خبران لمبتدأ محذوف، وقيل: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ ﴿عٓسٓقٓ﴾ خبره. وعلى الثاني الكلّ خبر واحد.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كلام مستأنَف وارد لتحقيق أنّ مضمون السورة موافق لِما في تضاعيف سائر الكتب المنزَّلة على الرسل المتقدِّمة في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحقّ، أو أنّ إيحاءها مثلُ إيحائها بعد تنويهها بذكر اسمها، والتنبيهِ على فخامة شأنها. والكاف في حيّز النصب على أنّه مفعول لـ﴿يُوحِيٓ﴾ عَلى الأوّل، وعلى أنّه نعت لمصدر مؤكِّد له على الثاني.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ على الأوّل إشارة إلى ما فيها، وعلى الثاني إلى إيحائها. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الفضل، أي: مثلَ ما في هذه السورة مِن المعاني / أوحي إليك في سائر السور وإلى مَن قبلك مِن [٤٩و]
الرسل في كتبهم، على أنّ مَناط المماثلة ما أشيرَ إليه مِن الدعوة إلى التوحيد

---

[1] س ي – حم.

[2] س + وتسمّى سورة الشورى.

[3] س – مكّيّة.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٦٤/٢٠؛ والمحتسب لابن جنّي، ٢٤٩/٢.

والإرشاد[١] إلى الحقّ وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد. أو مثلَ إيحائها أوحي إليك عند إيحاء سائر السور، وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم، لا إيحاءً مغايرًا له كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ الآية [النساء، ٤/١٦٣]، على أنّ مدار المِثليّة كونه بواسطة المَلَك.

وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للإيذان باستمرار الوحي، وأنّ إيحاء مثله عادتُه. وفي جعل مضمون السورة أو إيحائِها مشبَّهًا به مِن تفخيمها ما لا يخفى، وكذا في وصفه تعالى بوصفَي العزّة والحكمة. وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل مع ما فيه مِن التشويق.

وقُرئ: "يُوحَى"،[٢] على البناء للمفعول، على أنّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و"يُوحَى" خبره المسنَد إلى ضميره. أو مصدر، و"يُوحَى" مسنَد إلى ﴿إِلَيۡكَ﴾، و﴿ٱللَّهُ﴾ مرتفِع بما دلّ عليه "يُوحَى"، كأنّه قيل: مَن يُوحِي؟ فقيل: الله. و﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفتان له، أو مبتدأ -كما في قراءة "نُوحِي"-[٣] و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ وما بعده خبَران له، أو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفتان له، وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ خبران له. وعلى الوجوه السابقة استئناف مقرِّر لعزّتِه وحِكمته.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقُرئ بالياء.[٤] ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ يتشقّقن مِن عظمة الله تعالى.[٥] وقيل: مِن دعاء الولد له، كما في سورة مريم.[٦] وقُرئ: "يَنْفَطِرْنَ".[٧] والأوّل أبلغ؛

١ س: والإشهاد؛ ي: والإشارة.
٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٧.
٣ قراءة شاذّة، قرأ بها أبو حَيوة وبِشر عن أبي عمرو. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٥.
٤ قرأ بها نافع والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.
٥ م - تعالى.
٦ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ الآيات [مريم، ١٩/٨٨-٩٠].
٧ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

لأنّه مطاوِع "فطّر"، وهذا مطاوِع "فَطَر". وقُرِئ: "تَتَفَطّرْنَ" بالتاء[١] لتأكيد التأنيث، وهو نادر.[٢]

﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئ التفطّر مِن جهتهنّ الفوقانيّة. وتخصيصُها على الأوّل[٣] لِما أنّ أعظم الآيات[٤] وأدلّها على العظمة والجلال مِن تلك الجهة، وعلى الثاني[٥] للدلالة على التفطّر مِن تحتهنّ بالطريق الأَولى؛ لأنّ تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حين أثّرت في جهة الفوق فَلَأن تؤثّر في جهة التحت أَولى. وقيل: الضمير لـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾،[٦] / فإنّها في معنى الأَرَضِين. [٤٩ظ]

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزّهونه تعالى عمّا لا يليق به ملتبسين بحمده، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم مِن الشفاعة والإلهام، وترتيبِ الأسباب المقرِّبة إلى الطاعة، واستدعاءِ تأخير العقوبة طمَعًا في إيمان الكافر وتوبة الفاسق. وهذا يعمّ المؤمن والكافر؛ بل لو فُسِّر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلَل المتوقَّع عَمَّ الحيوانَ؛ بل الجمادَ، وحيث خُصَّ بالمؤمنين -كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر، ٧/٤٠]- فالمراد به الشفاعة.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ما مِن مخلوق إلّا وله حظّ عظيم مِن رحمته تعالى. والآية على الأوّل زيادةُ تقرير لعظمته تعالى، وعلى الثاني بيان لكمال تقدّسِه عمّا نُسب إليه، وأنّ ترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاءِ بسبب استغفار الملائكة وفَرط غفرانه ورحمته، فَفيها رمز إلى أنّه تعالى يقبل استغفارهم ويزيدُهم على ما طلبوه مِن المغفرة رحمةً.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يونس عن أبي عمرو. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤.

٢ قال ابن خالويه: «وهذا حرف نادر؛ لأنّ العرب لا تجمع بين علامتَي التأنيث، لا يقال: النساء تقُمنَ، ولكن: يقُمنَ، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة، ٢٣٣/٢]، ولا يقال: تُرضِعن. وقد كان أبو عمر الزاهد روى في نوادر ابن الأعرابي: الإبل تَتَشمُمْنَ، فأنكرناه، فقد قوّاه الآن هذا». مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٤.

٣ أي: على القول الأوّل في معنى ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهو قوله: يتشقّقنَ مِن عظمة الله تعالى.

٤ وفي هامش م: عرش وكرسي. «منه».

٥ أي: على القول الثاني في معنى ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وهو قوله: يتشقّقنَ مِن دعاء الولد له.

٦ في الآية السابقة.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شركاء وأندادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكَّل بهم، أو بموكول إليه أمرهم، وإنّما وظيفتك الإنذار.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿أَوْحَيْنَا﴾. ومحلّ الكاف النصب على المصدريّة. و﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ مفعول لـ﴿أَوْحَيْنَا﴾، أي: ومثلَ ذلك الإيحاء البديع البيّن المُفهِم أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا، لا لَبس فيه عليك ولا على قومك.

وقيل: إشارة إلى معنى الآية المتقدِّمة مِن أنّه تعالى هو الحفيظ عليهم، وإنّما أنت نذير فحسبُ. فالكاف مفعول به لـ﴿أَوْحَيْنَا﴾، و﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مِن المفعول به، أي: أوحيناه إليك، وهو قرآن عربي بيّن.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلَها، وهي مكّة. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن العرب، ﴿وَتُنذِرَ
[٥٠و] يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ / أي: يوم القيامة؛ لأنّه يُجمع فيه الخلائق، قال[1] تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن، ٩/٦٤]. وقيل: يُجمع فيه الأرواح والأشباح. وقيل: الأعمال والعمّال. والإنذار يتعدّى إلى مفعولَين، وقد يستعمل ثانيهما بالباء، وقد حُذف ههنا ثاني مفعولَي الأوّل وأوّلُ مفعولَي الثاني للتهويل وإيهام التعميم. وقُرئ: "لِيُنْذِرَ" بالياء[2] على أنّ فاعله ضمير القرآن.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض مقرّر لِما قبله.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: بعد جمعهم في الموقِف، فإنّهم يُجمعون فيه أوّلًا ثمّ يُفرَّقون بعد الحساب. والتقدير: منهم فريق. والضمير للمجموعِين

---

١ س ي + الله.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٧/٥.

لدلالة ﴿ٱلْجَمْعِ﴾ عليه. وقُرِئا منصوبَين[١] على الحاليّة منهم، أي: وتُنذِر يوم جمعهم متفرّقين، أي: مشارفين للتفرّق، أو متفرّقين[٢] في دارَي الثواب والعقاب.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قيل: مهتدين أو ضالّين. وهو تفصيل لِما أجمَله ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله: «على دينٍ واحد».[٣] فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أنّه تعالى يُدخل في رحمته مَن يشاء أن يُدخِله فيها، ويُدخل في عذابه مَن يشاء أن يُدخله فيه، ولا ريب في أنّ مشيئته تعالى لكلٍّ مِن الإدخالَين تابعة لاستحقاق كلٍّ مِن الفريقين لدخول مدخله. ومِن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلافُ حال الداخلين فيهما قطعًا، فلم يشأ جَعْلَ الكلّ أمّة واحدة؛ بل جعلهم فريقين.

وإنّما قيل: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ للإيذان بأنّ الإدخال في العذاب مِن جهة الداخلين بموجَب سوء اختيارهم، لا مِن جهته تعالى، كما في الإدخال في الرحمة، لا لِما قيل مِن المبالغة في الوعيد.[٤]

وقيل: مؤمنين كلّهم، وهو ما قاله مقاتل: «على دين الإسلام»،[٥] كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام، ٣٥/٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة، ١٣/٣٢]. والمعنى: ولو شاء الله مشيئةَ قدرةٍ لقَسَرهم على الإيمان، ولكنّه شاء مشيئةَ حكمةٍ، / وكلّفهم وبنى أمرهم على ما [٥٠ظ] يختارون ليُدخل المؤمنين في رحمته، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وترَك الظالمين بغير وليّ ولا نصير.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٤/٩.

٢ م س – متفرّقين ["صح" في الهامش].

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤/٤؛ اللباب لابن عادل، ١٧٠/١٧.

٤ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٧٧/٥.

٥ تفسير مقاتل بن سليمان، ٧٦٤/٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤/٤.

وأنت خبير بأنّ فرضَ جعْل الكلّ مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بإدخال بعضهم في رحمته؛ إذ الكلّ حينئذ داخلون فيها، فكان المناسب حينئذ تصديرَه بإخراج بعضِهم مِن بينهم وإدخالِهم في عذابه، فالذي يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقُه أن يُراد الاتّحاد في الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢١٣/٢] على أحد الوجهين، بأن يُراد بهم الذين هم في فترة إدريسَ أو في فترة نوح عليهما السلام.

فالمعنى: ولو شاء الله لجعلهم أمّة واحدة متّفقة على الكفر، بأن لا يرسل إليهم رسولًا ليُنذرهم ما ذُكر مِن يوم الجَمع وما فيه مِن ألوان الأهوال، فيَبقَوا على ما هم عليه مِن الكفر، ولكن يُدخل مَن يشاء في رحمته، أي: شأنُه ذلك، فيُرسل إلى الكلّ مَن يُنذرهم ما ذُكر، فيتأثّر بعضهم بالإنذار، فيَصرِفون اختيارهم إلى الحقّ، فيوفِّقهم الله تعالى للإيمان والطاعة، ويدخلهم في رحمته، ولا يتأثّر به الآخَرون ويتمادَون في غَيّهم، وهم الظالمون، فيبقَون في الدنيا على ما هم عليه مِن الكفر، ويصيرون في الآخرة إلى السعير مِن غير وليّ يَلي أمرَهم، ولا نصيرٍ يخلِّصهم مِن العذاب.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ جملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها مِن انتفاء أن يكون للظالمين وليّ أو نصير. و﴿أَم﴾ منقطعة، وما فيها مِن "بل" للانتقال مِن بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، والهمزة لإنكار الوقوع ونفيِه على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، لا لإنكار الواقع واستقباحه كما قيل،[١] إذ المراد بيان أنّ ما فعلوا ليس مِن اتّخاذ الأولياء في شيء؛ لأنّ ذلك فرع كون الأصنام أولياءَ، وهو أظهر الممتنِعات. أي:
[٥١و] بل أَتّخذُوا[٢] / متجاوزين الله تعالى[٣] أولياء مِن الأصنام وغيرها؟ هيهات!

---

[١] هو مفهوم كلام الزمخشري في الكشّاف، ٢١١/٤.

[٢] م: أَاِتّخذوا. [بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة]؛ س: اتّخذوا. | الصواب فيها ما أثبتُه بهمزة واحدة مقطوعة مفتوحة، كما في قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [مريم، ٧٨/١٩]، وهو ما تحتمله نسخة س.

[٣] م – تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جواب شرطٍ محذوف، كأنّه قيل بعد إبطال وَلاية ما اتّخذوه أولياء: إن أرادوا وليًا في الحقيقة فالله هو الوليّ، لا وليّ سِواه.

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: ومِن شأنه ذلك، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يُتّخذ وليًا، فليَخُصّوه بالاتّخاذ دون مَن لا يقدر على شيء.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكاية لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للمؤمنين، أي: ما خالفكم الكفّار فيه مِن أمور الدين فاختلفتم أنتم وهم، ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ راجع ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهو إثابة المُحِقّين وعقاب المُبطلين.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم العظيمُ الشأنِ ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ مالكي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع أمورِي خاصّةً، لا على غيره. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كلّ ما يَعِنُّ لي مِن مُعضلات الأمور، لا إلى أحد سِواه. وحيث كان التوكّل أمرًا واحدًا مستمرًّا والإنابةُ متعدّدةً متجدّدةً حسب تجدّد موادّها أُوثِر في الأوّل صيغة الماضي، وفي الثانية صيغة المضارع.

وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم مِن شيء مِن الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا تُؤثِروا على حكومته حكومةَ غيره.

وقيل: وما اختلفتم فيه مِن تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المُحكَم مِن كتاب الله[١] والظّاهرِ مِن سنّة رسول الله.[٢]

وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه مِن العلوم التي لا تتعلّق بتكليفكم ولا طريقَ لكم إلى علمه فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح. ولا مساغَ لحَمل هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بحضرة الرسول عليه السلام.[٣]

---

١ س + تعالى.
٢ س + صلّى الله عليه وسلّم.
٣ س: عليه الصلاة والسلام. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٢/٤.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبر آخَر لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾،[1] أو خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبرُه: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾. وقُرئ بالجرّ[2] على أنّه بدل مِن الضمير، أو وصفٌ للاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾،[3] وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مِن جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساءً. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح قد مرّ سرّه غيرَ مرّة. / ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: وجعل للأنعام مِن جنسها ﴿أَزْوَٰجًا﴾، أو خلق لكم مِن الأنعام أصنافًا، أو ذكورًا وإناثًا. ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثّركم مِن الذَّرْء؛ وهو البثّ، وفي معناه: الذَّرْوُ والذَّرّ. ﴿فِيهِ﴾ أي: فيما ذُكر مِن التدبير، فإنّ جعْل الناس والأنعام أزواجًا يكون بينهم توالد كالمنبَع للبثّ والتكثير. [٥١ظ]

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: ليس مثلَه شيء في شأن مِن الشئون التي مِن جملتها هذا التدبير البديع. والمراد مِن ﴿مِثْلِهِ﴾ ذاتُه، كما في قولهم: مِثلك لا يفعل كذا، على قصد المبالغة في نفيه عنه، فإنّه إذا نُفي عمَّن يناسبه كان نفيه عنه أَولى. ثمّ سُلِكت هذه الطريقة في شأن مَن لا مِثلَ له. وقيل: ﴿مِثْلِهِ﴾ صفته، أي: ليس كصفته صفَة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ المبالِغُ في العِلم بكلّ ما يُسمَع ويُبصَر.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خزائنهما ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسّع ويضيّق حسبما يقتضيه مشيئته المؤسَّسة على الحِكَم البالغة.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٢٥.

[3] في الآية السابقة.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالِغ في الإحاطة به، فيفعل كلَّ ما يَفعل على ما ينبغي أن يُفعل عليه. والجملة تعليل لِما قبلها، وتمهيد لِما بعدها مِن قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، وإيذان بأنّ ما شرع لهم صادر عن كمال العلم والحكمة، كما أنّ بيان نسبته إلى المذكورين عليهم السلام تنبيه على كونه دينًا قديمًا أجمعَ عليه الرسل.

والخطاب لأمّته صلّى الله عليه وسلّم،[١] أي: شرع لكم مِن الدين ما وصّى به نوحًا ومَن بَعْده مِن أرباب الشرائع وأُولي العزائم مِن مشاهير الأنبياء عليهم السلام، وأمَرهم به أمرًا[٢] مؤكّدًا. على أنّ تخصيصهم بالذِّكر لِما ذُكر مِن علوّ شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليه؛ لاتّفاقِ الكلّ على نبوّة بعضهم، وتفرّدِ اليهود في شأن موسى عليه السلام، وتفرّدِ النصارى في حقّ عيسى عليه السلام، وإلّا فما مِن نبيّ إلّا وهو مأمور بما أمِروا به، وهو عبارة عن التوحيد ودين الإسلام وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدّل الأعصار مِن أصول الشرائع والأحكام، كما يُنبئ عنه التوصية، فإنّها مُعرِبة عن تأكيد الأمر والاعتناءِ بشأن المأمور به.

والمراد بإيحائه إليه عليه السلام إمّا ما ذُكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا﴾ الآيةَ،[٣] أو ما يعمّهما وغيرَهما ممّا وقع في سائر المواقع التي مِن جملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل، ١٦/١٢٣]، / وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف، ١٨/١١٠]، وغيرُ ذلك. والتعبير عن ذلك عند نسبته إليه عليه السلام بـ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ لزيادة تفخيم شأنه مِن تلك الحيثيّة. [٥٢و]

وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده مِن التوصية لِمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولِما في الإيحاء مِن التصريح برسالته عليه السلام القامع لإنكار الكفرة.

---

١ س: عليه السلام.
٢ س – أمرًا.
٣ الشورى، ٤٢/٧.

والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناءِ بإيحائه، وهو السرّ في تقديمه على ما بعده مع تقدّمه عليه زمانًا.

وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم دينًا قديمًا. وتوجيه الخطاب إليه عليه السلام بطريق التلوين[١] للتشريف والتنبيه على أنّه تعالى شَرَعَه لَهم على لسانه عليه السلام.

﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائرِ ما يكون الرجل به مؤمنًا. والمراد بإقامته تعديلُ أركانه وحفظُه مِن أن يقع فيه زَيغ، أو المواظبةُ عليه، أو التشمُّرُ له.

ومحلّ ﴿أَنْ أَقِيمُواْ﴾ إمّا النصب على أنّه بدل مِن مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفِين عليه، أو الرفعُ على أنّه جواب عن سؤال نشأ مِن إبهام المشروع، كأنّه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو إقامة الدين. وقيل: بدل مِن ضمير ﴿بِهِ﴾،[٢] وليس بذاك، لِما أنّه مع إفضائه إلى خروجه عن حيّز الإيحاء إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٣] مستلزمٌ لكون الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ للأنبياء المذكورين عليهم السلام. وتوجيه النهي إلى أممهم تمحُّل[٤] ظاهر، مع أنّ الأظهر أنّه متوجّه إلى أمّته عليه السلام وأنّهم المتفرِّقون كما ستحيط به خُبرًا. أي: لا تتفرّقوا في الدين الذي هو عبارة عمّا ذُكر مِن الأصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الأمم باختلاف الأعصار كما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، ٤٨/٥].

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ شروع في بيان أحوال بعض مَن شُرِع لهم ما شُرِع مِن الدين القديم، أي: عَظُم وشقّ عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِن التوحيد ورفض عبادة الأصنام واستبعَدوه حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص، ٥/٣٨].

---

١ التلوين: تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر، وهو أعمّ مِن الالتفات. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٠/٥.

٢ س: ضميريه. | قاله البيضاوي، في أنوار التنزيل، ٧٨/٥.

٣ س: عليه السلام.

٤ التَّمحّل: الطلب بحِيلة وتكلُّف. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦٦/٥.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ / استئناف وارد لتحقيق الحقّ. وفيه إشعار بأنّ منهم مَن يُجيب إلى الدعوة، أي: الله يجتلب إلى ما تدعوهم إليه مَن يشاء أن يجتبيَه إليه، وهو مَن صرف اختيارَه إلى ما دُعِي إليه، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يُقبِل إليه حيث يُمِدّه بالتوفيق والإلطاف.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ شروع في بيان أحوال أهل الكتاب عقيب الإشارة الإجماليّة إلى أحوال أهل الشرك. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما: «هم اليهود والنصارى»،[٢] لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة، ٩٨/٤]، أي: وما تفرّقوا في الدين الذي دُعُوا إليه ولم يؤمنوا كما آمَن بعضُهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقّيّته بما شاهدوا في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والقرآنِ مِن دلائل الحقّيّة حسبما وجدوه في كتابهم، أو العلمُ بمبعثه عليه السلام.

وهو استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أو مِن أعمّ الأوقات، أي: وما تفرقوا في حال مِن الأحوال أو في وقت مِن الأوقات إلّا حالَ مجيء العلم أو إلّا وقتَ مجيء العلم ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ وحميّةً وطلبًا للرياسة، لا لأنّ لهم في ذلك شبهةً.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَة بتأخير العقوبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لأُوقع القضاءُ بينهم باستئصالهم لاستيجاب جناياتهم لذلك قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾...[٣] إلخ بيان لكيفيّة كفر المشركين بالقرآن إثرَ بيان كيفيّة كفر أهل الكتاب. وقُرئ: "وُرِّثُوا"،[٤] وَ"وَرِثُوا".[٥]

---

[١] س - تعالى.

[٢] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٦/٨؛ واللباب لابن عادل، ١٧٨/١٧.

[٣] م س ي - ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٩/٩. وذكرها الزمخشري بغير نسبة في الكشّاف، ٢١٦/٤.

[٥] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٦/٤.

أي: وإنّ المشركين الذين أُورِثوا القرآنَ مِن بعد ما أُورِث أهلُ الكتاب كتابَهم ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ مِن القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقِعٍ في القلق أو في الرِّيبة، ولذلك لا يؤمنون به، لا لِمَحض البغي والمكابرة بعد ما علموا بحقّيّته كدأب أهل الكتابَين.

[٥٣و] هذا، وأمّا ما قيل[١] مِن أنّ ضمير ﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾ لأمم الأنبياء / عليهم السلام وأنّ المراد تفرّقُ كلّ أمّة بعد نبيّها مع علمهم بأنّ الفرقة ضلال وفساد وأمرٌ متوعَّد عليه على ألسنة الأنبياء عليهم السلام فيردّه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

وكذا ما قيل[٢] مِن أنّ الناس كانوا أمّة واحدة مؤمنين بعد ما أهلك الله تعالى أهل الأرض بالطوفان، فلمّا مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم، وذلك حين بعث الله تعالى النبيّين مبشّرين ومنذرين وجاءهم العلم، وإنّما اختلفوا للبغي بينهم، فإنّ مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال مِن غير إنظارٍ وإمهالٍ. على أنّ مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمّة، وإنّما ذُكِر مَن ذُكِر مِن الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أنّ ما شُرِع لهؤلاءِ دينٌ قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم السلام تأكيدًا لِوجوب إقامته، وتشديدًا للزجر عن التفرُّق والاختلاف فيه، فالتعرّض لبيان تفرّق أممهم عنه ربّما يوهم الإخلال بذلك المرام.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: فلأجل ما ذُكر مِن التفرّق والشكّ المريب، أو فلأجل أنّه شُرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ﴿فَٱدْعُ﴾ أي: الناسَ كافّةً إلى إقامة ذلك الدين والعمل بموجَبه، فإنّ كلًّا مِن تفرّقهم وكونهم في شكٍّ مُريب، ومِن شَرْع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سببٌ للدعوة إليه والأمرِ بها. وليس المشار إليه ما ذُكر مِن التوصية والأمرِ بالإقامة والنهي عن التفرّق حتّى يتوهّم شائبة التكرار.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٧٨.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/٢١٦.

وقيل: المشار إليه نفس الدين المشروع، و"اللام" بمعنى "إلى"، كما في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة، ٥/٩٩]، أي: فإلى ذلك الدين فادع ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وأُوحِي إليك، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلةَ، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أيّ كتابٍ كان مِن الكتب المنزَّلة، لا كالذين / آمنوا ببعضٍ منها وكفروا ببعضٍ. وفيه تحقيق للحقّ، وبيان لاتّفاق الكتب في الأصول، وتأليف لقلوب أهل الكتابَين، وتعريض بهم. وقد مرّ بيان كيفيّة الإيمان بها في خاتمة سورة البقرة. [٥٣ظ]

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والأحكام، وفصلِ القضايا عند المحاكمة والخِصام. وقيل: معناه: لأُسَوّي بيني وبينكم، ولا آمرَكم بما لا أعمله، ولا أُخالفَكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أُفرّقَ بين أكابركم وأصاغركم. و"اللام" إمّا على حقيقتها والمأمورُ به محذوف، أي: أُمرتُ بذلك لأعدل، أو زائدةٌ، أي: أُمرتُ أن أعدِل، والباء محذوفة.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: خالقُنا جميعًا ومتولّي أمورنا، ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ لا يتخطّانا جزاؤها ثوابًا كان أو عقابًا، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا يُجاوِزكم آثارُها لنستفيد بحسناتكم ونتضرّرَ بسيّئاتكم، ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا مُحاجّة ولا خصومة؛ لأنّ الحقّ قد ظهر ولم يبق للمُحاجّة حاجة، ولا للمخالفة مَحمل سوى المكابرة.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم. وهذا كما ترى مُحاجَزة في مواقف المُجاوبة، لا مُتارَكةٌ في مواطن المُحارَبة حتّى يُصارَ إلى النسخ بآية القتال.[١]

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

---

١ قال بالنسخ الثعلبي في الكشف والبيان، ٣٠٨/٨. وآية القتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج، ٣٩/٢٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في دينه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ مِن بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه. والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه، أو مِن بعد ما استجاب الله لرسوله عليه السلام وأيّده بنصره، أو مِن بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقرّوا بنُعوته عليهِ السلام، واستفتحوا به قبل مبعثه عليه السلام. وذلك أنّ اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبيّنا قبل نبيّكم، ونحن خير منكم وأولى بالحقّ.

﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ زالّة زائلة باطلة؛ بل لا حجّة لهم أصلًا. وإنّما عبّر عن أباطيلهم بالحجّة مُجاراةً معهم على زعمهم الباطل. ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ عظيم لمكابرتِهم الحقّ بعد ظهوره، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُقادَر قدرُه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ۝١٧﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: جنس الكتاب ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ ملتبسًا به في أحكامه / وأخباره، أو بما يحقّ إنزاله مِن العقائد والأحكام. ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ والشرعَ الذي يُوازَن [٥٤و] به الحقوق ويستوي بين الناس، أو نفسَ العدل بأن أنزل الأمْرَ به، أو آلةَ الوزن.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أي: أيّ شيء يجعلك عالمًا؟ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ التي يُخبِر بمجيئها الكتاب الناطق بالحقّ ﴿قَرِيبٞ﴾ أي: شيء قريب، أو قريب مجيئُها. وقيل: "القريب" بمعنى: ذات قربٍ، أو ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ بمعنى البعث. والمعنى: أنّها على جناح الإتيان، فاتّبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئَك اليومُ الذي يوزن فيه الأعمال ويُوَفَّى جزاؤها.

﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ ۝١٨﴾

﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ استعجالَ إنكارٍ واستهزاء. كانوا يقولون: متى هي؟ ليتها قامت حتّى يظهر لنا الحقّ، أهو الذي نحن عليه أم الذي عليه محمّد وأصحابه؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ خائفون منها مع اعتناءٍ بها لتوقّع الثواب، ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الكائنُ لا محالةَ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها، مِن المِزية، أو مِن "مَرَيتُ الناقة" إذا مَسَحْتَ ضَرعَها بشدّةٍ للحَلب؛ لأنّ كلًّا مِن المتجادلَين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدّة. ﴿لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ، فإنّ البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات، فمَن لم يهتدِ إلى تجويزه فهو عن الاهتداء إلى ما وراءه أبعدُ وأبعدُ.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ١٩﴾

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: بَرّ بليغ البِرّ بهم، يُفيض عليهم مِن فنون ألطافه ما لا يكاد يناله أيدي الأفكار والظنون، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرزقه كيفما يشاء، فيختصّ كلًّا مِن عباده بنوعٍ مِن البِرّ على ما يقتضيه / مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة. [٥٤ظ]

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهرُ القدرةِ الغالبُ على كلّ شيء، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغلَب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل: إلقاء البَذْر في الأرض، يُطلَق على الزرع الحاصل منه، ويُستَعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنيّة على تَشبيهها بالغِلال الحاصلة مِن البذور المتضمِّن لتشبيه الأعمال بالبذور، أي: مَن كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ نضاعف له ثوابه بالواحد عشرةً إلى سبعِمائة فما فوقها.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو متاعها وطيّباتها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: شيئًا منها حسبما قسمنا له، لا ما يريدُه ويَبتغيه، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذ كانت هِمّته مقصورةً على الدنيا، وقد مرّ تفصيله في سورة الإسراء.[١]

[١] عند قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآيات [الإسراء، ١٧/١٨-٢٠].

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١﴾

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي: بل أَلَهم شركاءُ مِن الشياطين؟ والهمزة للتقرير والتقريع. ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ بالتسويل ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا. وقيل: شركاؤهم أوثانهم، وإضافتُها إليهم لأنّهم الذين جعلوها شركاءَ لله تعالى. وإسناد الشرع إليها لأنّها سببُ ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا﴾ [إبراهيم، ٣٦/١٤]، أو تماثيلُ مَن سَنّ الضلالةَ لهم.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أي: القضاءِ السابق بتأخير الجزاء، أو العِدَة بأنّ الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وشركائهم. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وقُرئ بالفتح[١] عطفًا على ﴿كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾، أي: ولولا كلمة الفصل وتقديرُ عذاب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا، فإنّ العذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾

[٥٥و] ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة. / والخطاب لكلّ أحد ممَّن يصلح له، للقصد إلى أنّ سوء حالهم غير مختصّ برؤية راءٍ دون راءٍ.[٢] ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ مِن السيّئات، ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ أي: وَوَبالُه لاحق بهم لا محالةَ، أشفقوا أو لم يُشفقوا. والجملة حال مِن ضمير ﴿مُشۡفِقِينَ﴾، أو اعتراض.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِ﴾ مستقِرّون في أطيبِ بِقاعها وأنزهِها، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ما يشتهونه مِن فنون المستلَذّات حاصلٌ لهم عند ربّهم، على أنّ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ظرف للاستقرار العامل في ﴿لَهُم﴾. وقيل: ظرف لـ﴿يَشَآءُونَ﴾.

---

[١] أي: بفتح همزة "وأنّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج بن مسلم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٥.

[٢] وفي هامش م: وهذا ليس مِن قَبيل قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢] ونظائره، فتدبّر. «منه».

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن حال المؤمنين. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلة المُشار إليه. ﴿هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي لا يُقادَر قدرُه، ولا يُبلَغ غايته.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضل الكبير هو ﴿ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ أي: يبشّرهم به. فحُذف الجارّ ثمّ العائد إلى الموصول، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان، ٤١/٢٥]، أو ذلك التبشير الذي يبشّره الله[1] عباده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وقُرئ: "يُبْشِرُ"،[2] مِن "أَبشَر".

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ رُوي أنّه اجتمع المشركون في مَجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترون أنّ محمّدًا يسأل على ما يتعاطاه أجرًا، فنزلت.[3] أي: لا أطلب منكم على ما أنا عليه مِن التبليغ والبِشارة ﴿أَجۡرًا﴾ نفعًا ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: إلّا أن تَوَدّوني لقرابتي منكم، أو تَودّوا أهل قرابتي.

وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لا أسألكم أجرًا قطّ، ولكن أسألكم المودّة. و﴿فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ حال منها، أي: إلّا المودّةَ ثابتة في القربى متمكّنة في أهلها أو في حقّ القرابة. و﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ مصدر كالزلفى بمعنى القَرابة.

رُوي أنّها لمّا نزلت قيل: يا رسول الله مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «عليّ وفاطمة وابناهما».[4]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «حَرمتِ الجنّة / على مَن ظلم أهل بيتي، [٥٥ظ] وآذاني في عِترتي، ومَن اصطنع صنيعةً إلى أحد مِن ولد عبد المطّلب ولم يُجازِه فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لَقِيَني يوم القيامة».[5]

---

١ س + تعالى.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن قيس. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٦١/٣. وأمّا "يَبْشُرُ" بفتح الياء وضمّ الشين وتخفيفها فقراءة صحيحة قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢١٩/٤.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٠/٤. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٤٧/٣ (٢٦٤١).

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٢/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٠/٤.

وقيل: ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ التقرّب إلى الله تعالى،[١] أي: إلّا أن تَودّوا الله ورسولَه في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح. وقُرئ: "إِلّا مَوَدَّةً فِي القُرْبَى".[٢]

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسِبْ أيَّ حسنة كانت، فتتناول مودّةَ ذي القربى تناولًا أوّليًا، وعن السدّي: أنّها المرادة.[٣] وقيل: نزلت في الصِّدّيق رضي الله عنه ومودّته فيهم.[٤] ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: في الحسنة ﴿حُسْنًا﴾ بمضاعفة الثواب. وقُرئ: "يَزِدْ"،[٥] أي: يَزِدِ الله، وقُرئ: "حُسْنَى".[٦]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَن أذنب. ﴿شَكُورٌ﴾ لِمَن أطاع بتوفية الثواب، والتفضّل عليه بالزيادة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ محمّد ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوّة وتلاوة القرآن؟ على أنّ الهمزة للإنكار التوبيخي، كأنّه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله عليه السلام -وهو هو- إلى الافتراء لا سيّما الافتراء على الله الذي هو أعظم الفِرَى وأفحشُها؟

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا ببيان أنّه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه مِن ذلك قطعًا. وتحقيقه أنّ دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنّه تعالى لا يشاء صدوره

---

١ م - تعالى.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/٣٣٥. وذكرها الزمخشري بغير نسبة في **الكشّاف**، ٤/٢٢١.

٣ أي: المودّة لآل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٨/٣١٤؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٤/٢٢١. وفي **جامع البيان** للطبري، ٢٠/٥٠٣، عن السدّي، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قال: «يعمل حسنة».

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٢٢١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥/٨٠. والعبارة في **أنوار التنزيل**: "ومودّته لهم" [أي: لآل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم].

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي وعبد الوارث عن أبي عمرو وأحمد بن جبير عن الكسائي. انظر: **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٣٥؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/٣٣٥.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. انظر: **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٣٥.

عن النبيّ عليه السلام؛ بل يشاء عدمَ صدورِه عنه، ومِن ضرورته منعُه عنه قطعًا، فكأنّه قيل: لو كان افتراءً عليه تعالى لَشاءَ عدم صدوره عنك، وإن يَشَأْ ذلك يَخْتِم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنًى مِن معانيه ولم تنطق بحرفٍ مِن حروفه، وحيث لم يكن الأمر كذلك -بل تواتر الوحي حينًا فحينًا- تبيّن أنّه مِن عند الله عزّ وجلّ.[١]

هذا، وقيل: المعنى: إن يَشأْ يجعلك مِن المختوم على قلوبهم، فإنّه لا يجترئ على الافتراء عليه تعالى إلّا مَن كان كذلك، ومؤدّاه استبعاد الافتراء مِن مثله عليه السلام، وأنّه في البعد مثلُ الشرك بالله والدخولِ في جملة المختوم على قلوبهم. وعن قتادة: «﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يُنسِكَ القرآنَ، ويَقطَعْ عنك الوحي».[٢] يعني: لو افترى على الله الكذب لَفعل به ذلك. وهذا معنى ما قيل: لو كذَب على الله لأنساه القرآن. وقيل: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: يربط عليه بالصبر حتّى لا يشقّ عليك أذاهم.[٣]

/ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ استئناف مقرِّر لنفي الافتراء، [٥٦و]
غيرُ معطوف على ﴿يَخْتِمْ﴾ كما يُنبئ عنه إظهار الاسم الجليل. وسقوط الواو[٤] -كما في بعض المصاحف-[٥] لاتّباع اللفظ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء، ١١/١٧]. أي: ومِن عادته تعالى أنّه يمحو الباطل ويثبت الحقّ بوحيه أو بقضائه، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ[٦] بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء، ١٨/٢١]، فلو كان افتراءً كما زعموا لَمحَقَه ودمَغه.

---

١ س: تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٥٠٤/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٤/٨.

٣ عن مجاهد في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٤/٨.

٤ أي: الواو مِن: ﴿وَيَمْحُ﴾.

٥ بل اتّفقت جميع المصاحف العثمانيّة على ذلك. نقل أبو عمرو الداني عن ابن الأنباري قوله: «وحُذفت الواو مِن أربعة أفعال مرفوعة، أوّلها في سبحان: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء، ١١/١٧]، وفي عسق: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى، ٢٤/٤٢]، وفي القمر: ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر، ٦/٥٤]، وفي العلق: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق، ١٨/٩٦]». قال أبو عمرو: «ولم تختلف المصاحف في أنّ الواو مِن هذه المواضع ساقطة». المُقنع لأبي عمرو الداني، ص ٤٢.

٦ م س ي: يقذف.

أو عِدَةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّه تعالى يمحو الباطل الذي هم عليه مِن البَهْتِ والتكذيب، ويثبت الحقّ الذي هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذي لا مردّ له بنُصرته عليهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيُجرِي عليها أحكامها اللائقة بها مِن المَحو والإثبات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ التوبة: هو الرجوع عنِ المعاصي بالندم عليها، والعزمُ على أن لا يعاودها أبدًا. وروى جابر رضي الله عنه أنّ أعرابيًّا دخل مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال: «اللّهمّ إنّي أستغفرك وأتوب إليك»، وكبّر، فلمّا فرغ مِن صلاته قال له عليّ رضي الله عنه: «يا هذا، إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين، وتوبتُك هذه تحتاج إلى التوبة»، فقال: «يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟» قال: «اسمٌ يقع على ستّة معانٍ: على الماضي مِن الذنوب الندامةُ، ولتضييع الفرائض الإعادةُ، وردُّ المظالم، وإذابةُ النفس في الطاعة كما رَبَّيْتَها في المعصية، وإذاقَتُها مرارةَ الطاعة كما أذَقْتَها حلاوة المعصية، والبكاءُ بدل كلِّ ضحك ضحكتَه».[١]

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغيرِها وكبيرها لمَن يشاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢] كائنًا ما كان مِن خير وشرّ، فيُجازي ويتجاوز حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح. وقُرِئ: ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء.[٣]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٢/٤.

٢ م س ي: يَفْعَلُونَ. | و"يَفْعَلُونَ" بالياء قراءة نافع وأبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب بخلف عن رُويس وشعبة عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢. وقد جعل المصنِّف هنا القراءة بالياء أصلًا ثمّ أشار إلى القراءة بالتاء الموافقة لرواية حفص بقوله: "وقُرِئ"، وذلك على خلاف منهجه في الكتاب.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف، وهي رواية حفص عن عاصم، وهي الوجه الثاني لرُويس. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ٢٦﴾

﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ / أي: يستجيب الله لهم، فحذف اللام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ﴾ [المطففين، ٣/٨٣]، أي: كالوا لَهم، والمراد إجابة دعوتهم والإثابة على طاعتهم، فإنّها كدعاء وطلبٍ لِما يترتّب عليها، ومنه قوله عليه السلام: «أفضل الدعاء الحمد لله».[1] أو يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها. وعن إبراهيم بن أدهم[2] أنّه قيل له: ما بالُنا ندعو فلا نُجابَ؟ قال: «لأنّه دعاكم ولم تجيبوه»، ثمّ قرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس، ٢٥/١٠].[3] [٥٦ظ]

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ على ما سألوا واستحقّوا بموجَب الوعد. ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ بدلَ ما للمؤمنين مِن الثواب والفضل المزيد.

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لَتكبّروا وأفسدوا فيها بطَرًا، ولَعَلا بعضُهم على بعض بالاستيلاء والاستعلاء، كما عليه الجِبلّة البشريّة. وأصل البغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى مِن حيث الكمّيّة أو الكيفيّة.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ﴾ أي: بتقدير ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ أن ينزّله ممّا يقتضيه مشيئته.

---

١ سنن الترمذي، ٤٦٢/٥ (٣٣٨٣)؛ سنن ابن ماجه، ٧١٢/٤ (٣٨٠٠).

٢ هو إبراهيم بن أدهَم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي، البلخي، نزيل الشام، أبو إسحاق (ت. ١٦١هـ/٧٧٨م)، الإمام، العارف، سيّد الزهاد. كان أبوه مِن أهل الغنى في بلخ، فتفقّه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام والحجاز. وأخذ عن كثير مِن علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش مِن العمل بالحصاد والحَمل والطحن، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. جاءه إلى المصيصة عبد لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم، ويخبره أنّ أباه قد مات، وخلّف له مالًا عظيمًا، فأعتق العبد ووَهبه الدراهم، ولم يَعبأ بمال أبيه. رُوي أنّه كان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعِظ أوجَز سفيانُ في كلامه مخافة أن يزِلّ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٨٧/٧؛ والأعلام للزركلي، ٣١/١.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٣٧/٩.

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ محيط بخفايا أمورهم وجلاياها فيقدّر لكلّ واحد منهم في كلّ وقت مِن أوقاتهم ما يليق بشأنهم، فيُفْقِر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبِض ويبسط، حسبما يقتضيه الحكمة الربّانيّة. ولو أغناهم جميعًا لبغَوا، ولو أفقرهم لهلَكوا. ورُوي أنّ أهل الصفّة تمنّوا الغِنَى، فنزلت.[١] وقيل: نزلت في العرب كانوا إذا أخصَبوا تحارَبوا، وإذا أَجْدَبوا انتجَعوا.[٢]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ أي: المطر الذي يُغيثهم مِن الجَدْب، ولذلك خُصّ بالنافع منه. وقُرئ: "يُنْزِلُ"،[٣] مِن الإنزال. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ يئِسوا منه. وتقييد تنزيله بذلك مع تحقّقه بدونه أيضًا لتذكير كمال النعمة. وقُرئ بكسر النون.[٤]

﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ أي: بركاتِ الغيث ومنافعَه في كلّ شيء مِن السهل والجبل والنبات والحيوان، أو رحمتَه الواسعةَ المنتظِمةَ لِما ذُكر انتظامًا أوّليًا. ﴿وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ الذي يتولّى عبادَه بالإحسان ونشر الرحمة، ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستحِقّ للحمد على ذلك لا غيرُه.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ٢٩﴾

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على ما هما عليه مِن تعاجيب[٥] الصنائع، فإنّها بذاتها / وصفاتها تدلّ على شئونه العظيمة، ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ [٥٧و]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٤.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨١/٥. و"انتجعوا" بمعنى: ارتحلوا للنجعة؛ وهي طلب الكلأ في غير بلادهم؛ لعدم ما تعيّش به دوابّهم، فإذا تفرّقوا اشتغلوا عن القتال. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤٢٠/٧.

٣ م: يُنزّل [بتشديد الزاي، وهو سهو] | قرأ: "يُنْزِلُ الْغَيْثَ" بإسكان النون وتخفيف الزاي ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. وقرأ كذلك: "يُنْزِلُ بِقَدَرٍ" في الآية السابقة ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. انظر: النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

٤ أي: "قَنِطُوا". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. انظر: جامع البيان للطبري، ٨٥/١٤.

٥ التعاجيب: العجائب، لا واحد لها مِن لفظها. الصّحاح للجوهري، «عجب».

عطفٌ على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أو "الخلق" ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ مِن حيّ، على إطلاق اسم المسبَّب على السبب،[١] أو ممّا يدبّ على الأرض، فإنّ ما يختصّ بأحد الشيئين المتجاورين يصحّ نسبته إليهما، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن، ٢٢/٥٥]، وإنّما يخرج مِن المِلح. وقد جُوّز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشيٌ مع الطيران فيوصفوا بالدبيب، وأن يخلق الله في السماء حيوانًا يمشون فيها مشيَ الأناسيّ على الأرض، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل، ٨/١٦]، وقد رُوي أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «فوقَ السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثمّ فوق ذلك ثمانية أَوْعال[٢] بين رُكَبِهِنّ وأظلافهنّ[٣] كما بين السماء والأرض، ثمّ فوق ذلك العرشُ العظيم».[٤]

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: حَشْرهم بعد البعث للمحاسبة. وقوله تعالى: ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ متعلّق بما قبله، لا بقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾، فإنّ المقيّد بالمشيئة جمعُه تعالى، لا قدرتُه، و﴿إِذَا﴾ عند كونها بمعنى الوقت كما تدخل الماضيَ تدخل المضارعَ.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ أيّ مصيبة كانت ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: فهي بسبب معاصيكم التي اكتسبتُموها. و"الفاء" لأنّ ﴿مَا﴾ شرطيّة، أو متضمّنة لمعنى الشرط. وقُرئ بدونها[٥] اكتفاءً بما في الباء مِن معنى السببيّة.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ مِن الذنوب فلا يعاقب عليها. والآية مخصوصة بالمجرمين، فإنّ ما أصاب غيرَهم لأسباب أُخَر، منها تعريضه للثواب بالصبر عليه.

---

١ وفي هامش م: فإنّ الحياة سبب للدّبيب. «منه».
٢ أَوْعال: جمع وَعْل بالفتح، وككَتِف؛ وهو تَيس الجبَل. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «وعل».
٣ أظلاف: جمع ظِلْف بالكسر؛ وهو للبقرة والشاة والظبي، وشبهها بمنزلة القدم لنا. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «ظلف».
٤ مسند الإمام أحمد، ٢٩٢/٣ (١٧٧٠)؛ سنن أبي داود، ١٠٥/٧ (٤٧٢٣).
٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٣١﴾

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فائتين ما قضي عليكم مِن المصائب وإِن هربتم مِن أقطارها كلَّ مَهرب. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يحميكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ٣٢﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وقُرئ: "الجَوَارِي".[١] ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: كالجبال على الإطلاق لا التي عليها النار للاهتداء خاصّةً.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٣﴾

[٥٧ظ] ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تُجريها. وقُرئ: "الرِّيَاحَ".[٢] / ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيبقَين ثوابتَ على ظهر البحر، أي: غيرَ جاريات، لا غيرَ متحرّكات أصلًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن السفن اللاتي يجرين تارةً ويَركُدْنَ أخرى على حسب مشيئته تعالى ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في العدد، دالّةً على ما ذُكر مِن شئونه تعالى. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكلّ مَن حبس نفسه عن التوجّه إلى ما لا ينبغي، ووكَل همّتَه بالنظر في آيات الله تعالى[٣] والتفكّر في آلائه، أو لكلّ مؤمِن كامل، فإنّ الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ٣٤﴾

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿يُسْكِنِ﴾، والمعنى: إن يشَأْ يسكنِ الريح فيركُدنَ، أَوْ يُرسِلْها فَيَغرَقنَ بِعَصْفِها. وإيقاعُ الإيباق عليهنّ مع أنّه حالُ أهلهنّ للمبالغة والتهويل. وإجراء حُكمه على العفو في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾

---

١ قرأ بإثبات الياء وصلًا نافع وأبو جعفر أبو عمرو، وقرأ بإثباتها وصلًا ووقفًا ابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٨.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٣ م - تعالى.

لِما أنّ المعنى: أو يُرسلْها فيُوبِقْ ناسًا ويُنجِ آخرين بطريق العفو عنهم. وقُرئ: "وَيَعْفُو"[١] على الاستئناف.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٣٥﴾

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ عطفٌ على علّة مقدّرة، مثل: لِينتقم منهم وليعلمَ... إلخ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم، ٢١/١٩]، وقولِه تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف، ٢١/١٢]، ونظائرِهما. وقُرئ بالرفع[٢] على الاستئناف، وبالجزم[٣] عطفًا على ﴿يَعْفُ﴾،[٤] فيكون المعنى: أو إن يشأ يجمَعْ بين إهلاكِ قوم وإنجاءِ قوم وتحذير قوم. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾[٥] مِن مَهرب مِن العذاب. والجملة معلّق عنها الفعل.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦﴾

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ ممّا ترغبون وتتنافسون فيه. ﴿فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فهو متاعها تتمتّعون به مدّةَ حياتكم.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتًا لِخلوص نفعه ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زمانًا حيث لا يزول ولا يفنى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره أصلًا. والموصول الأوّل لِما كان متضمّنًا لمعنى الشرط مِن حيث إنّ إيتاء ما أُوتوا سبب للتمتّع بها في الحياة الدنيا. دخلت جوابَها الفاءُ بخلاف الثاني. وعن عليّ رضي الله عنه / أنّه تصدّق أبو بكر رضي الله عنه[٦] بماله كلّه، فَلَامَه جمعٌ مِن المسلمين، فنزلت.[٧] [٥٨و]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش، وعن أهل المدينة بنصب الواو. انظر: البحر المحيط لأبي حيان، ٣٤٠/٩؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٧/٢.

[٣] أي: "وَيَعْلَمِ الَّذِينَ" بكسر الميم. قراءة شاذّة، مرويّة عن أهل المدينة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] س ي + أي.

[٦] س − رضي الله عنه.

[٧] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٣/٥.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: الكبائر من هذا الجنس ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ مع ما بعده عطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾،[1] أو مدح بالنصب أو الرفع. وبناءُ ﴿يَغْفِرُونَ﴾ على الضمير خبرًا له للدلالة على أنّهم الأخصّاء بالمغفرة حال الغضب لعِزّة منالِها. وقُرئ: "كَبِيرَ الإِثْمِ".[2] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: كَبِيرَ الإِثْمِ: الشرك.[3]

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نزل في الأنصار، دعاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الإيمان فاستجابوا له، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ذو شورى، لا ينفردون برأيٍ حتّى يتشاوروا ويجتمعوا عليه، وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حزَبهم أمر اجتمعوا وتشاوروا، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: في سبيل الخير، ولعلّ فصلَه عن قرينه بذكر المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: ينتقمون ممّن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم كراهةَ التذلّل، وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمّات الفضائل، وهذا لا ينافي وصفَهم[4] بالغفران، فإنّ كلًّا منهما فضيلة محمودة في موقعِ نفسِه، ورذيلة مذمومة في موقع صاحبه، فإنّ الحِلم عن العاجز وعَوْرَاءِ الكرام محمود، وعن المتغلِّب ولَغواءِ اللِّئام مذموم، فإنّه إغراءٌ على البَغي، وعليه قول مَن قال:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملَكْتَهُ وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرّدَا
فوضعُ الندى في موضع السيفِ بالعُلَى مضِرٌّ كوضع السيف في موضع النَدَى[5]

---

[1] في الآية السابقة.
[2] أي: بكسر الميم. قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.
[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٧/٤.
[4] س - بسائر مهمّات الفضل وهذا لا ينافي وصفهم؛ ي: وصفها.
[5] للمتنبي في ديوانه، ص ١٦٣.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[1] بيان لوجه كون الانتصار مِن الخصال الحميدة، مع كونه في نفسه إساءةً إلى الغير، بالإشارة إلى أنّ البادئ هو الذي فعَله لنفسه، فإنّ الأفعال مستتبِعةٌ لِأجزيتها حتمًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. وفيه تنبيه على حُرمة التعدّي. وإطلاق السيّئة على الثانية لأنّها تسوء مَن نزلت به.

﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ عنِ المسيء إليه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين مَن يعاديه / بالعفو والإغضاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت، ٤١/٣٤]، ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَة مبهمة مُنبئة عن عِظَم شأن الموعود وخروجه عن الحدّ المعهود. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البادئين بالسيّئة،[2] والمتعدّين في الانتقام. [٥٨ظ]

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي: بعد ما ظُلِم، وقد قُرئ به.[3] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾ باعتبار المعنى، كما أنّ الضميرَين لَها باعتبار اللفظ. ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاتبة أو المعاقبة.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢﴾

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالإضرار،[4] أو يعتدون في الانتقام. ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: يتكبّرون فيها تجبّرًا وفسادًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الظلم والبغي بغير الحقّ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم.

---

١ س - ﴿مِّثۡلُهَا﴾.

٢ س: بالسنة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٣.

٤ س: بالإصرار.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ لِمَن ظَلَمه ولم ينتصر، وفوّض أمره إلى الله تعالى، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إنّ ذلك منه، فحُذف ثقةً بغاية ظهوره، كما في قولهم: السَّمن مَنَوان بدرهم.[1] وهذا في الموادّ التي لا يؤدّي العفو إلى الشرّ كما أشيرَ إليه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ مِن ناصر يتولّاه مِن بعد خذلانه تعالى إيّاه. ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين يرونه. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ أي: رجعةٍ إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ حتّى نؤمِن ونعملَ صالحًا.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار المدلول عليها بالعذاب. والخطاب في الموضعين لكلّ مَن يتأتّى منه الرؤية. ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متذلّلين متضائلين ممّا دهاهم. ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: يبتدئ نظرهم إلى النار مِن تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ، كالمَصبور[2] ينظر إلى السيف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: المتّصفين بحقيقة الخُسران ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتعريض للعذاب الخالد. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إمّا ظرف لـ﴿خَسِرُوٓا۟﴾ والقول في الدنيا، أو لـ﴿قَالَ﴾، أي: يقولون حين يرونهم على تلك الحال. وصيغة الماضي للدلالة على تحقّقه.

---

[1] تقديره: مَنوان منه بِدرهم. و"مَنَوان" مثنّى "منا"، وهو ما يوزن به. انظر: الصِّحاح للجوهري، «منا».

[2] المصبور: هو المحبوس على القتل. انظر: لسان العرب لابن منظور، «صبر».

/ وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ إمّا مِن تمام كلامهم، أو تصديق مِن الله تعالى لهم. [٥٩و]

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ يؤدّي سلوكه إلى النجاة.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ إذ دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيّه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يردّه الله بعد ما حكم به، على أنّ ﴿مِن﴾ صلةُ ﴿مَرَدَّ﴾، أو مِن قبل أن يأتي مِن الله يومٌ لا يمكن ردّه.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: مفرّ تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: إنكار لِما اقترفتموه؛ لأنّه مدوَّن في صحائف أعمالكم، وتشهد عليكم جوارحكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تلوين للكلام،[١] وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرِهم بالاستجابة، وتوجيه له إلى الرسول عليه السلام، أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عمّا تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيبًا ومحاسبًا عليهم. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد فعلتَ.

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: نعمةً مِن الصحّة والغنى والأمن ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أريدَ بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي:

---

[١] التلوين: تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر، وهو أعمّ مِن الالتفات. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٠/٥.

بلاء مِن مرضٍ وفقرٍ وخوفٍ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفر، ينسى النعمة رأسًا، ويذكر البليّة ويستعظمها ولا يتأمّل سببها؛ بل يزعم أنّها أصابتْها بغير استحقاق لها. وإسنادُ هذه الخصلة إلى الجنس مع كونها مِن خواصّ المجرمين لغلبتهم فيما بين الأفراد.

وتصدير الشرطيّة الأُولى بـ﴿إِذَا﴾ مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة للتنبيه على أنّ إيصال النعمة محقَّق الوجود كثير الوقوع، وأنّه مقتضى الذات. كما أنّ تصدير الثانية بـ﴿إِن﴾ وإسنادَ الإصابة إلى السيّئة وتعليلَها بأعمالهم للإيذان بنُدرة وقوعها، وأنّها بمَعزِل مِن الانتظام في سلك الإرادة بالذات. ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أنّ هذا الجنس موسوم بكفران النِّعم.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فمِن قضيّته أن يملك التصرّف فيهما وفي كلّ ما فيهما / كيفما يشاء، ومِن جملته أن يقسم النعمة والبليّة حسبما يريده. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ممّا تعلمه وممّا لا تعلمه، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ مِن الأولاد ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ منهم مِن غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد. [٥٩ظ]

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يقرن بين الصنفين فيَهَبُهما جميعًا ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ قالوا:[1] معنى ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: أن تلِد غلامًا ثمّ جاريةً ثمّ غلامًا، أو تلد ذكرًا وأُنثى تَوأمين. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ والمعنى: يجعل أحوال العباد في حقّ الأولاد مختلفة على ما يقتضيه المشيئة فيهنّ، فيهب لبعضٍ إمّا صِنفًا واحدًا مِن ذكر أو أنثى، وإمّا صِنفين، ويُعْقِم آخرين.

---

١ وفي هامش م: كواشي. «منه». | تفسير الكواشي، ٤٨٢ظ. | وهذا القول مرويّ عن مجاهد. انظر: تفسير مجاهد، ص ٥٩١؛ وجامع البيان للطبري، ٥٣٨/٢٠.

ولعلّ تقديمَ الإناث لأنّها أكثر لتكثير النسل، أو لأنّ مساق الآية للدلالة على أنّ الواقع ما يتعلّق به مشيئته تعالى، لا ما يتعلّق به مشيئة الإنسان، والإناث ٢
كذلك، أو لأنّ الكلام في البلاء، والعربُ تعدُّهنّ أعظمَ البلايا، أو لتطييب قلوب آبائهنّ، أو للمحافظة على الفواصل، ولذلك عُرّف، أو لجَبر التأخير.

وتغيير العاطف في الثاني لأنّه قسيم المشترَك بين القسمين، ولا حاجة إليه في الرابع لإفصاحه بأنّه قسيم المشترَك بين الأقسام المتقدّمة.

وقيل: المراد بيان أحوال الأنبياء عليهم السلام حيث وهب لشعيب ولوط إناثًا، ولإبراهيم ذكورًا، وللنبيّ صلوات الله عليهم[١] ذكورًا وإناثًا، وجعل يحيى وعيسى عقيمين.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: وما صحّ لفردٍ مِن أفراد البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ بوجه مِن الوجوه ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إلّا بأن يُوحِيَ إليه، ويلهمه، ويقذِف في قلبه، كما أوحى إلى أمّ موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده. وقد رُوي عن مجاهد: «أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره».[٢]

أو بأن يُسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام مِن غير أن يُبصر السامعُ مَن يكلّمه، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، فإنّه تمثيل له بحال
الملِكِ المحتجِب / الذي يكلّم بعض خواصّه مِن وراء الحجاب، يُسمع صوته [٦٠و]
ولا يُرى شخصه، وذلك كما كلّم موسى، وكما يكلّم الملائكةَ عليهم السلام.

أو بأن يكلّمه بواسطة الملَك، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: ملَكًا ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرسول إلى المرسَل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾

---

[١] س: صلّى الله عليه وسلّم.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤٩/٩.

أي: بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يوحيَه إليه، وهذا هو الذي يجري بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام في عامّة الأوقات مِن الكلام.

وقيل: قوله تعالى: ﴿وَحْيًا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ مصدران واقعان موقع الحال. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ ظرف واقع موقعها، والتقدير: وما صحّ أن يكلّم إلّا مُوحِيًا أو مُسمِعًا مِن وراء حجاب أو مرسِلًا. وقُرئ: "أَوْ يُرْسِلُ" بالرفع[١] على إضمار مبتدأ.

ورُوي أنّ اليهود قالت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم:[٢] «أَلَا تُكَلِّم الله وتنظر إليه إن كنتَ نبيًّا كما كلّمه موسى ونظر إليه، فإنّا لَن نؤمِن حتّى تفعلَ ذلك»، فقال عليه السلام: «لم ينظر موسى إلى الله تعالى»، فنزلت.[٣]

وعن عائشة رضي الله عنها: «مَن زعم أنّ محمّدًا رأى ربّه فقد أعظم على الله الفِريةَ»، ثمّ قالت: «أَوَلم تسمعوا ربّكم يقول...» فَتَلَتْ هذه الآية.[٤]

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ متعالٍ عن صفات المخلوقين لا يتأتّى جَريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلّا بأحد الوجوه المذكورة، ﴿حَكِيمٌ﴾ يُجري أفعاله على سَنن الحكمة، فيكلّم تارةً بواسطة، وأخرى بدونها، إمّا إلهامًا، وإمّا خطابًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومِثل ذلك الإيحاء البديع ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ هو القرآن، الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يحييها حياةً أبديّةً. وقيل: هو جبريل عليه السلام، ومعنى إيحائه إليه عليهما السلام إرساله إليه بالوحي.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: أيّ شيء هو؟ ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: الإيمانُ بتفاصيل ما في تضاعيف / الكتاب مِن الأمور التي لا يهتدي إليها العقول، [٦٠ظ]

---

١ قرأ بها نافع وابن ذكوان بخلف عنه، وقرآ كذلك: "فيوحي" بإسكان الياء. النشر لابن الجزري، ٣٦٨/٢.

٢ س: عليه السلام.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٣٤/٤.

٤ صحيح البخاري، ١٤٠/٦ (٤٨٥٥)؛ صحيح مسلم، ١٥٩/١ (١٧٧).

لا الإيمانُ بما يستقلّ به العقل والنظر، فإنّ درايته عليه السلام له ممّا لا ريب فيه قطعًا.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الروح الذي أوحيناه إليك ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾، وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ تقرير لهدايته تعالى وبيان لكيفيّتها. ومفعول ﴿لَتَهْدِىٓ﴾ محذوف ثقةً بغاية الظهور، أي: وإنّك لتَهدي بذلك النور مَن نشاء هدايته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلام وسائر الشرائع والأحكام. وقُرِئَ: "لَتُهْدَى"،[1] أي: لَيَهدِيك الله، وقُرِئَ: "لَتَدْعُو".[2]

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل مِن الأوّل. وإضافته إلى الاسم الجليل ثمّ وصفُه تعالى بقوله تعالى:[3] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه، فإنّ كون جميع ما فيهما مِن الموجودات له تعالى خلقًا ومِلكًا وتصرّفًا ممّا يوجب ذلك أتمَّ إيجابٍ. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: أمور ما فيهما قاطبة، لا إلى غيره، ففيه مِن الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم والوعيد للضالّين عنه ما لا يَخفى.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿حمٓ عسق﴾ كان ممَّن يصلّي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له».[4]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن حَوشب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٣ م – تعالى.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠١/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الشورى

وتُسمَّى سورة «حم عسق» و«عسق»، نزلَتْ على ما رُوي عن ابن عباس وابن الزبير بمكة[1]، وأطلق غيرُ واحد القولَ بمكِّيتها من غير استثناء.

وفي «البحر»: هي مكية إلا أربعَ آيات: من قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الآية: ٢٣] إلى آخر أربع آيات[2].

وقال مقاتل: فيها مدنيٌّ قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ إلى ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ [الآيتان ٢٣-٢٤].

واستثنى بعضُهم قولَه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ﴾ إلخ [الآية: ٢٤]؛ قال الجلال السيوطي[3]: ويدلُّ له ما أخرجه الطبراني والحاكم في سبب نزولها؛ فإنها نزلت في الأنصار[4]، وقولَه سبحانه: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ﴾ [الآية: ٢٧] إلخ فإنها نزلت في أصحاب الصُّفة رضي الله عنهم[5].

واستثني أيضاً ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ [الآيات: ٣٩-٤١] حكاه ابن الفرس.

وسيأتي إنْ شاء الله تعالى ما يدلُّ على استثناء غيرِ ذلك على بعض الروايات، وجوِّز أن يكون الإطلاق باعتبار الأغلب.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٥٠٧ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في الإتقان ١/ ٤٩.

(٤) المعجم الكبير للطبراني (١٢٣٨٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عند الحاكم. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٠٣: فيه عثمان بن عمير أبو اليقظان، وهو ضعيف.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٤٥ عن عليٍّ رضي الله عنه.

وعددُ آياتها ثلاثٌ وخمسون في الكوفي وخمسون فيما عداه، والخلافُ في «حم عسق» وقوله تعالى: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الآية: ٣٢] كما فصَّله الداني(١) وغيره.

ومناسبةُ أوّلها لآخر السورة قبلَها اشتمالُ كلٍّ على ذِكْر القرآن، وذبِّ طعن الكَفَرة فيه، وتسليةِ النبي ﷺ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ لعلَّهما اسمان للسورة، وأُيِّدَ بِعَدِّهما آيتين، والفَصْلِ بينهما في الخطِّ، وبورودِ تسميتها «عسق» من غير ذِكْر «حم»، وقيل: هما اسمٌ واحدٌ وآيةٌ واحدة، وحقُّه أن يُرسَم متصلاً كما في «كهيعص» [مريم: ١] لكنه فُصل ليكون مفتتحُ السورة على طِرز مفتتح أخواتها، حيث رُسم في كلٍّ مستقِلًّا، وعلى الأول هما خبران لمبتدأ محذوف، وقيل: «حم» مبتدأ و«عسق» خبره. وعلى الثاني الكلُّ خبرٌ واحد.

وقيل: إن «حم عسق» إشارةٌ إلى هلاك مدينتين تُبنيان على نهر من أنهار المشرق يشقُّ النهر بينهما يجتمع فيهما كلُّ جبار عنيد، يبعثُ اللهُ تعالى على إحداهما ناراً ليلاً فتصبح سوداءَ مظلمةً قد احترقتْ كأنها لم تكن مكانَها، ويخسفُ بالأخرى في الليلة الأُخرى، ورُوي ذلك عن حذيفة(٢).

وقيل: إن «حم» اسمٌ من أسماء الله تعالى و«عين» إشارةٌ إلى عذاب يوم بدر و«سين» إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] و«قاف» إلى قارعةٍ من السماء تُصيب الناس. ورُوي ذلك بسندٍ ضعيف عن أبي ذرّ(٣).

---

(١) في البيان في عدِّ أي القرآن ص٩١.
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦٤، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية، وقال: أثر عجيب منكر.
(٣) أخرجه أبو يعلى وابن عساكر كما في الدر المنثور ٦/ ٢.

والذي يغلب على الظنّ عدمُ ثُبوت شيء من الروايتين.

وفي «البحر»: ذكر المفسرون في «حم عسق» أقوالاً مضطربةً لا يَصِحُّ منها شيء، ضربنا عن ذِكْرِها صفحاً[(١)]. وما ذكرناه أولاً قد اختاره غيرُ واحد، ومنهم من اختار أنها مُقَطَّعات جِيء بها للإيقاظ.

وقرأ ابنُ عباس وابن مسعود: «حم سق» بلا عين[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ كلامٌ مستأنفٌ واردٌ لِتحقيق أنَّ مضمونَ السورة موافقٌ لما في تضاعيفِ الكُتب المُنزلة على سائر الرُّسل المتقدِّمين في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحقِّ، أو أنَّ إيحاءها [مثلُ إيحاءها][(٣)]، بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيهِ على فَخامةِ شأنها، والكافُ مفعول «يوحي» على الأول، أي: يُوحي مثلَ ما في هذه السورة من المعاني، أو نعتٌ لمصدر مؤكِّد على الثاني، أي: يوحي إيحاءً مثلَ إيحائها إليك وإلى الرُّسل، أي: بواسطة المَلك، وهي في الوجهين اسمٌ كما هو مذهبُ الأخفش، وإن شئتَ فاعتبرها حرفاً، واعتبر الجار والمجرور مفعولاً، أو متعلِّقاً بمحذوف وقع نعتاً.

وقولُ العلامة الثاني في «التلويح»: إنَّ جار الله لا يُجوِّز الابتداءَ بالفعل، ويُقدِّر المبتدأ في جميع ما يقع فيه الفعلُ ابتداءً، كلامٌ غير مُسلَّم، وقد تردَّدوا فيه حتى قيل: إنه لم يظهر له وجه.

وجَوَّز أبو البقاء[(٤)] كون «كذلك» مبتدأ «ويُوحي» الخبر، والعائد محذوفٌ، أي: مثلُ ذلك يُوحيه إليك.. إلخ، وحذفُ مثله شائعٌ في الفصيح، نعم هذا الوجه خلافُ الظاهر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٠٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٥.

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ٢١، والكلام منه.

(٤) في إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٢٨٨.

والإشارةُ - كما أشرنا إليه - إلى ما في السورة أو إلى إيحائها، والدلالةُ على البُعد لِبُعد منزلةِ المُشار إليه في الفضل. وصيغةُ المضارع على حكاية الحال الماضيةِ للدلالةِ على استمراره في الأزمنة الماضية، وأن إيحاءَ مثلهِ عادتُه عز وجل. وقيل: إنها على التغليب، فإن الوحي إلى مَنْ مضَى مضَى، وإليه عليه الصلاة والسلام بعضُه ماضٍ وبعضُه مُستقبَل، وجوّز أن تكون على ظاهرها، ويُضمر عامل يتعلَّق به «إلى الذين» أي: وأوحى إلى الذين، وهو كما ترى. وفي جَعْل مضمون السورة أو إيحائها مُشَبّهاً به من تفخيمها ما لا يخفى.

وقرأ مجاهد وابن كثير وعيَّاش ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو: «يُوحَى» مَبنيّاً للمفعول[1]، على أن «كذلك» مبتدأ و«يُوحَى» خبره المُسند إلى ضميره، أومصدر و«يوحَى» مسند إلى «إليك»، و«الله» مرتفعٌ عند السكّاكي[2] على الفاعلية ليوحي الواقع في جواب: مَن يُوحي؟ نحو ما قرَّروه في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ له فيها بالغُدوِّ والأصال رجالٌ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] على قراءة «يُسبَّح» بالبناء للمفعول[3]، وقوله:

لِيُبكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تُطيح الطوائح[4]

وقال الزمخشري: رافِعُه ما دلَّ عليه «يوحَى»، كأنَّ قائلاً قال: من المُوحي؟ فقيل: الله[5]. وإنما قدّر كذلك - على ما قاله صاحب الكشف - ليدلَّ على أنَّ الإيحاءَ مُسلَّمٌ معلوم، وإنما الغرضُ من الإخبار إثباتُ اتِّصافه بأنه تعالى من شأنه الوحي، لا إثباتُ أنه مُوحٍ. ولم يَرْتَضِ[6] القول بعدم الفرقِ بين هذا وقولهِ تعالى:

---

(١) قراءة ابن كثير في التيسير ص١٩٤، والنشر ٢/ ٣٦٧، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو، والمشهور عنه كقراءة الجمهور: «يُوحي». والكلام من البحر المحيط ٧/ ٥٠٨.

(٢) في مفتاح العلوم ص٨٧.

(٣) هي قراءة ابن عامر وشعبة، وسلفت عند تفسير الآية المذكورة من سورة النور.

(٤) البيت في الكتاب ١/ ٢٨٨ ونسبه للحارث بن نهيك، والخزانة ١/ ٣٠٣ و٣١٣، وقال البغدادي: الصواب أنه لنهشل بن حَرّيّ.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٥٩.

(٦) أي: صاحب الكشف. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٠٩.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ بل أوجب الفرق؛ لأنَّ الفعلَ المضارع هنالك على ظاهره لم يؤتَ به للدلالة على الاستمرار. ولهم فيه مقال.

و«العزيز الحكيم» صفتان له تعالى عند الشيخين(١)، وجوَّز أبو حيان(٢) كونَ الاسم الجليل مبتدأ وما بعدَه خبرٌ له. وقيل: «الله العزيز الحكيم» إلى آخر السورة قائمٌ مقام فاعل «يُوحي» أي: هذه الكلمات.

وقرأ أبو حيوة والأعشى عن أبي بكر وأبان: «نوحي» بنون العظمة(٣)، فـ «اللهُ» مبتدأ وما بعدَه خبر، أو«العزيز الحكيم» صفتان، وقولُه تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤﴾ خبرٌ له، وعلى الأوجه السابقة استئنافٌ مُقرِّر لِعزَّته تعالى وحِكمته عز وجل.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ وقُرئ: «يكاد» بالياء(٤) ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشقَّقْنَ من عظمة الله تعالى وجلالهِ جلَّ شأنه، ورُوي ذلك عن قتادة.

وأخرج جماعةٌ منهم الحاكم - وصحَّحه - عن ابن عباس أنه قال: تكادُ السماوات يتفطَّرن من الثِّقل(٥).

وقيل: مِن دعاء الشَّريك والولد له سبحانه؛ كما في سورة مريم، وأُيِّد هذا بقوله تعالى بعدُ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الآية: ٦] فإيرادُ «الغفورُ الرحيم» بعدُ لأنهم استوجبوا بهذه المَقالةِ صبَّ العذاب عليهم، لكنه صُرف عنهم لِسَبقِ رحمته عزَّ وجل، والآية عليه واردةٌ للتنزيه بعد إثبات المالكية والعَظَمة، والأولُ أَولى في هذا المقام؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ لبيان عظمتهِ تعالى وعُلُوِّه جلَّ جلاله، ويُؤيِّده تركُ العاطف، ويليهِ ما رُوي عن الحِبْر؛ فإنَّ الآية وإنْ تضمَّنتْ عليه الغرضَ المسوق له الكلام لكن دلالتها عليه بناءً على القول الأول أظهر.

(١) تفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٧/ ٤٠٩، وتفسير أبي السعود ٨/ ٢١.
(٢) في البحر المحيط ٧/ ٥٠٨.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٤، والبحر المحيط ٧/ ٥٠٧.
(٤) قرأ بها نافع والكسائي. التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩.
(٥) المستدرك ٢/ ٤٤٢.

وقرأ البصريان وأبو بكر: «يَنْفَطِرْنَ» بالنون[١]، والأول أبلغ؛ لأن المطاوِعَ والمطاوَعَ من التفعيل والتفَعُّل الموضوع للمبالغة بخلاف الثاني، فإنه انفعالٌ مطاوع للثلاثي.

وروى يونس عن أبي عمرو أنه قرأ: «تتفطَّرن» بتاءين ونون في آخره على ما في «الكشاف»[٢]، و«تَنْفطرن» بتاء واحدة ونون على ما في «البحر»[٣] عن ابن خالويه[٤]، وهو على الروايتين شاذٌّ عن القياس والاستعمال؛ لأنَّ العربَ لا تجمعُ بين علامتي التأنيث، فلا تقول: النساءُ تَقُمنَ، ولا الوالداتُ تُرضِعْنَ، والوجهُ فيه تأكيدُ التأنيث كتأكيدِ الخطابِ في أرأيتَك؛ ومثله ما رواه أبو عمر الزاهد في «نوادر ابن الأعرابي»: الإبل تَتشمَّمنَ.

﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئ التفطُّر من جهتهنَّ الفوقانية، وتخصيصُها ـ على الأول[٥] في سبب التفطُّر ـ لِمَا أنَّ أعظَمَ الآيات وأدلَّها على العظمة والجلال ـ كالعرش والكرسي والملائكة ـ من تلك الجهةِ، ولذا كانت قِبلةَ الدعاء، وعلى الثالثِ: للدلالة على التفطُّر من تحتهنَّ بالطريق الأولى؛ لأنَّ تلك الكلمةَ الشَّنعاء الواقعةَ في الأرض حين أثَّرت من جهة الفَوق فلأَنْ تُؤثِّر من جهة التحت أولى، وكذا على الثاني؛ لأنَّ العادةَ تفطُّر سطح البيت ـ مثلاً ـ من جهته التحتانية بحصول ثِقل عليه.

وقيل: الضمير للأرض، أي: لجنسها، فيشمل السبعَ ولذا جمع الضمير. وهو خلافُ الظاهر.

وقال علي بن سليمان الأخفش[٦]: الضمير للكُفَّار، والمراد: من فوق الفِرق

---

(١) التيسير ص١٩٤، والنشر ٢/ ٣١٩.

(٢) ٣/ ٤٥٩، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.

(٣) ٧/ ٥٠٨.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٤.

(٥) يعني على الوجه الأول. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٠٩.

(٦) ذكره عنه أبو حيان في البحر ٧/ ٥٠٨، وعنه نقل المصنف.

والجماعات المُلحدة، وبهذا الاعتبار أنّث الضمير، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن التفطُّر من أجل أقوال هاتيكَ الجماعات. وفيه ما فيه.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يُنزِّهونه سبحانه عما لا يَليق به جلَّ جلالُه مُلتبسين بحمده عز وجل، وقيل: يُصلُّون. والظاهر العموم في الملائكة، وقال مقاتل: المرادُ بهم حملةُ العرش.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مَغْفرتَهم؛ من الشفاعة والإلهام وترتيبِ الأمور المُقرِّبة إلى الطاعة؛ كالمعاونة في بعض أمور المعاش، ودَفْع العوائق، واستدعاء تأخيرِ العقوبة طمعاً في إيمان الكافر وتوبةِ الفاسق، وهذا يَعُمُّ المؤمنَ والكافر. بل لو فُسِّر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخَلل المتوقَّع عمَّ الحيوانَ، بل الجماد. وهو فيما ذكر مجازٌ مرسل، أواستعارة.

وقال السدي وقتادة: المرادُ بمن في الأرض المؤمنون، لقوله تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] والمرادُ بالاستغفار - عليه - حقيقتُه، وقيل: الشفاعة.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ إذْ ما من مخلوق إلا وله حظٌّ عظيم من رحمته تعالى، وإنه سبحانه لذو مغفرةٍ للناس على ظُلمهم، وفيه إشارة إلى قبول استغفارِ الملائكة عليهم السلام، وأنه سبحانه يَزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمةً.

والآيةُ على كون قوله تعالى: (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ) لبيانِ عظمته جلَّ شأنه مُقرِّرةٌ لما دلَّ عليه ذلك ومُؤَكِّدةٌ له؛ لأن تسبيحَ الملائكة وتنزيههم له تعالى لمزيدِ عظمته تبارك وتعالى وعظيمِ جلاله جلَّ وعلا، والاستغفار لغيرهم للخوفِ عليهم من سَطْوة جَبروته عزَّ وجل، والتذييلُ بقوله تعالى: (أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ) إلخ على هذا ظاهر.

وعلى كون تَفطُّر السماواتِ لِنسبةِ الولدِ والشَّريك بيانٌ لِكمالِ قُدسهِ تعالى عما نُسب إليه عزَّ وجل، فيكون تسبيحُهم عما يقوله الكَفَرة، واستغفارهم للمؤمنين الذين تبرَّؤوا عمَّا صدرَ من هؤلاء، والتذييلُ للإشارة إلى سببِ ترك مُعاجلة العذابِ

مع استحقاقهم له. وعَمَّم بعضُ المُستغفَر لهم، وأدخل استغفارَ الملائكة في سبب ترك المعاجلة.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ شُركاءَ وأنداداً ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم، فيجازيهم بها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝﴾ أي: بموكَّل بهم، أو: بموكول إليك أمرُهم، وإنما وظيفتُك البلاغُ والإنذار، فـ «وكيل» فَعيل بمعنى مفعول من المزيد أوالثلاثي.

وما في هذه الآية من المُوادعة على ما في «البحر» منسوخٌ بآية السيف[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ «ذلك» إشارة إلى مصدر «أوحينا»، ومحلُّ الكاف ـ على ما ذهب إليه الأخفش[2] من ورودها اسماً ـ النصبُ على المصدرية، و«قرآناً» مفعولٌ لـ «أوحينا»، أي: ومثلَ ذلك الإيحاء البديع البيِّن المُفهِم أوحينا إليك قرآناً عربياً لا لَبْس فيه عليك ولا على قومك.

وقيل: إشارة إلى ما تقدم من «الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل» فالكاف مفعولٌ لـ «أوحينا»، و«قرآناً عربياً» حالٌ من المفعول به، أي: أوحيناه إليك وهو قرآنٌ عربي. وجوَّز نصبُه على المَدْح أوالبدلية من «كذلك».

وقيل: أَولى من هذا أن يكون إشارةً إلى معنى الآيةِ المتقدِّمة من أنه تعالى هو الحفيظُ عليهم، وأنه عليه الصلاة والسلام نذيرٌ فحسب، لأنه أتمُّ فائدةً وأشملُ عائدةً، ولابدَّ عليه من التجوُّز في «قرآناً عربيّاً» إذْ لا يصِحُّ أن يقال: أوحينا ذلك المعنى وهو قرآنٌ عربيّ؛ لأنَّ القرآنية والعربية صفةُ اللفظ لا المعنى، لكن أمره سهل لِقُربه من الحقيقة، لِمَا بين اللَّفظ والمعنى من المُلابسة القوية حتى يُوصف أحدُهما بما يُوصَفُ به الآخر، مع ما في المجاز من البلاغة.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ أي: أهل أُمِّ القُرى، على التجوُّز في النسبة، أو بتقدير المضاف، والمراد بأُمِّ القُرى مكة، وسُمِّيتْ بذلك ـ على ما قال الراغب[3] ـ لما رُوي

(١) البحر ٧/ ٥٠٨.
(٢) كما في البحر ٧/ ٥٠٩.
(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (أمّ).

أنه دُحيت الدنيا من تحتها، فهي كالأصلِ لها، والأمُّ تُقال لكل ما كان أصلاً لشيء.

وقد يقال: هي أمٌّ لما حولها من القُرى لأنها حدثَتْ قبلَها، لا كلٍّ قرى الدنيا، وقد يقال لبلد: هي أُمُّ البلاد، باعتبار احتياج أهالي البلاد إليها.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن العرب، على ما ذهب إليه كثيرٌ، وخُصَّ المذكورون بالذِّكر لأنَّ السورةَ مكيةٌ، وهم أقربُ إليه عليه الصلاة والسلام، وأولُ مَن أُنذر، أو لِدَفْع ما يُتوَهَّم من أنَّ أهلَ مكة ومَن حَوْلَها لهم طمعٌ في شفاعته ﷺ وإن لم يُؤمنوا؛ لحقِّ القَرابة والمُساكنة والجِوار، فخصَّهم بالإنذار لإزالة ذلك الطمع الفارغ.

وقيل: «مَن حولها» جميعُ أهل الأرض، واختاره البغوي[(١)]، وكذا القُشيري[(٢)]، وقال: لأنَّ الكعبةَ سُرَّةُ الأرض، والدنيا مُحدِقة بما هي فيه، أعني مكة. وهذا عندي لا يكاد يصِحُّ مع قولهم: إنَّ عَرْضَها: كام، وطولَها: عز[(٣)]، وأن المعمورَ في جانب الشمال أكثر منه في جانب الجنوب.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي: يوم القيامة؛ لأنه يُجمع فيه الخلائق، قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] وقيل: تُجمع فيه الأرواح والأشباح، وقيل: الأعمال والعُمَّال.

والإنذار يتعدَّى إلى مفعولين، وقد يستعمل ثانيهما بالباء، وقد حُذف هاهنا ثاني مفعولي الأول، وهو يوم الجمع، والمراد به عذابه، وأوَّلُ مفعولي الثاني، وهو أمّ القُرى ومَنْ حولها، فقد حُذف من الأول ما أُثبت في الثاني ومن الثاني ما أُثبت في الأول، وذلك من الاحتباك.

وقال جار الله[(٤)]: الأول عامٌّ في الإنذار بأمور الدنيا والآخرة، ثم خصَّ بقوله

(١) في تفسيره ٤/ ١٢٠.
(٢) في لطائف الإشارات ٣/ ٣٤٣.
(٣) لعله يعني أنَّ عرضها في حساب الجُمَّل: واحد وستون، وطولها: واحد وسبعون.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٦١.

تعالى: «وتُنذر يومَ الجمع» يومُ القيامة زيادةً في الإنذار وبياناً لِعظمة أَهوالِهِ؛ لأن الإفراد بالذِّكر يدلُّ عليه، وكذلك إيقاعُ الإنذار عليه ثانياً.

والظاهرُ عليه أن حذفَ المفعول الثاني من الأول لإفادةِ العموم وإنْ كان حذفُ الأول من الثاني لذلك أيضاً [أي:][1] وتُنذر كلَّ أحد يومَ الجمع.

وقيل: «يوم الجمع» ظرفٌ، فيكون المفعولان محذوفين.

وقرئ: «لِيُنذِرَ» بياء الغيبة[2]، على أنَّ الفاعلَ ضميرُ القرآن لعدم حسن الالتفات هاهنا.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ اعتراضٌ في آخر الكلام مُقرِّرٌ لما قبلَه، ويحتمل الحالية من «يوم الجمع»، أوالاستئناف.

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧﴾ أي: بعد جَمْعهم في الموقف، فإنهم يُجمعون فيه أولاً، ثم يُفَرَّقون بعد الحساب، و«فريق» مبتدأ و«في الجنة» صفته، والخبرُ محذوفٌ، وكذا «فريقٌ في السعير» أي: منهم فريقٌ كائن في الجنة، ومنهم فريقٌ كائنٌ في النار، وضميرُ منهم للمجموعين، لدلالة الجمع عليه، وجملةُ المبتدأ والخبر استئنافٌ في جواب سؤالٍ تقديره: ثم كيف يكون حالُهم؟ أوحالٌ، ولا ركاكةَ فيه، واشتراطُ الواو فيه غيرُ مُسلَّم.

وجُوِّز كون «فريق» فاعلاً للظرف المُقدَّر، وفيه ضعفٌ. وكونُه مبتدأً، والظرفُ المُقدَّر في موضع الصِّفة له و«في الجنة»خبره، أي: فريق كائنٌ منهم مستقرٌّ في الجنة. وكونُه مبتدأً خبرُه ما بعده من غير أن يكونَ هناك ظرفٌ مُقدَّر واقعٌ صفةً، وساغ الابتداءُ بالنكرة لأنها في سياق التفصيل والتقسيم، كما في قوله:

فثوب لَبِسْتُ وثوب أجر[3]

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦١.

(٣) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٥٩، وفي الكتاب ١/ ٨٦، والخزانة ١/ ٣٧٣، وصدره فيهما: فأقبلت زحفاً على الركبتين، ورواية الديوان:

=

وكونُه خبرَ مبتدأ محذوف، أي: المجموعون فريقٌ... إلخ.

وقرأ زيدُ بن علي رضي الله عنهما: «فريقاً» «وفريقاً» بنصبهما[1]، فقيل: هو على الحال من مقدَّر، أي: افترقوا ـ أي: المجموعون ـ فريقاً وفريقاً، أو من ضمير جمعهم المُقدَّر؛ لأنَّ «أل» قامت مَقامه، أي: وتُنذر يومَ جمعهم متفرِّقين وهو من مجاز المشارفة، أي: مُشارفين للتفرُّق. أوالحال مُقدَّرة فلا يلزم كون افتراقِهم في حال اجتماعهم، أويقال: إنَّ اجتماعهم في زمان واحد لا يُنافي افتراقَ أمكنتهم، كما تقول: صلّوا في وقتٍ واحد في مساجدَ مُتفرِّقة، فالمراد: مُتفرِّقين في دارَي الثواب والعقاب، وإذا أُريد بالجمع جمع الأرواح بالأشباح، أو الأعمال بالعُمَّال لا يُحتاج إلى توفيق أصلاً.

وجوّز كون النصب بِتُنذر المُقدَّر أو المذكور، والمعنى: تُنذر فريقاً من أهل الجنة وفريقاً من أهل السعير؛ لأنَّ الإنذارَ ليس في الجنة والسعير. ولا يخفى تكلُّفه.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جَعْلَهم أُمَّةً واحدةً ﴿لَجَعَلَهُمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُهتدين، أوضالِّين، وهو تفصيلٌ لما أجمله ابنُ عباس في قوله: على دين واحد[2]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أنه تعالى يُدخل في رحمته من يشاء أن يُدخِلَه فيها، ويُدخل مَن يشاء في عذابه أنْ يُدخله فيه، ولا ريبَ في أنَّ مشيئته تعالى لكلٍّ من الإدخالين تابعةٌ لاستحقاق كلٍّ من الفريقين لِدخول ما أَدخله، ومن ضرورة اختلافِ الرحمة والعذاب اختلافُ حال الداخِلين فيهما قطعاً، فلم يشأ جَعْلَ الكُلِّ أُمَّةً واحدةً، بل جعلهم فريقين، وإنما قيل: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ وكان الظاهرُ أن يقال: ويُدخل مَن يشاء في عذابه ونِقمته، للإيذان بأنَّ الإدخالَ في العذابِ من جهة الداخِلين بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته عزَّ وجل كما في الإدخال في الرحمة.

= فلـمّـا دنـوت تـسـدَّيـتُـهـا ... فـثـوبـاً نـسـيـت وثـوبـاً أجـرّ

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٠٩.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٢١.

واختار الزمخشري(١) كون المراد: أمةً واحدةً مؤمنين، وهو ما قاله مقاتل: على دين الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] والمعنى: ولو شاء اللهُ تعالى مشيئةَ قُدرةٍ لَقسرهم على الإيمان، ولكنه سبحانه شاء مشيئةَ حِكمة، وكلَّفهم وبنى أمرهم على ما يختارون لِيُدخلَ المؤمنين في رحمته، وهم المرادون بقوله تعالى: «من يشاء» وترك الظالمين بغير وليّ ولا نصير، والكلامُ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الآية: ٦] كالتعليل للنهي عن شِدَّة حِرْصه ﷺ على إيمانهم، فـ «الظالمون» مُظهَرٌ أُقيم مُقام ضمير المُتَّخِذين لِيُفيدَ أنَّ ظُلمهم علَّةٌ لما بعده، أوهو للجنس ويتناولهم تناولاً أوليّاً، وعدلَ عن الظاهر إلى ما في النظم الجليل - إذ الكلامُ في الإنذار، وهو أبلغُ في تخويفهم - لإشعاره بأنَّ كونهم في العذاب أمرٌ مفروغٌ منه، وإنما الكلامُ في أنه بعد تَحتُّمه هل لهم من يُخلِّصهم بالدَّفْع أوالرفع، فإذا نفى ذلك عُلم أنهم في عذابٍ لا خَلاص منه.

وتُعقِّب بأنَّ فرضَ جَعْلِ الكُلِّ مؤمنين يأباه تصديرُ الاستدراك بإدخال بعضهم في رحمته تعالى، إذ الكُلُّ حينئذ داخلون فيها، فكان المناسبُ حينئذ تصديرَه بإخراج بعضهم من بينهم وإدخالهم في عذابه.

وربما يقال: حيث إن الآيةَ متعلِّقةٌ بما سمعتَ كان المرادُ: ولو شاء اللهُ تعالى لجعلَ الجميعَ مؤمنين كما تُريد وتَحرِصُ عليه، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، بل جعل بعضَهم مؤمناً كما أردتَ، وجعل بعضَهم الآخر - وهم أولئك المُتخِذون من دونه أولياءَ - كُفَّاراً لا خَلاصَ لهم من العذاب حسبما تقتضيهِ الحِكمةُ، وكان التصديرُ بما صدّر به مناسباً كما لا يخفى على من له ذوقٌ بأساليبِ الكلام، إلا أن الظاهرَ على هذا: أدخل مَنْ شاء، دون: يُدخِلُ مَنْ يشاء، لكن عدل عنه إليه حكايةً للحال الماضية.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٦١.

وقال شيخُ الإسلام(١): الذي يقتضيه سباقُ النظم الكريم وسياقُه أنْ يُرادَ الاتحادُ في الكُفر كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية [البقرة: ٢١٣] على أحد الوجهين، فالمعنى: ولو شاء اللهُ تعالى لَجعلهم أمةً واحدةً مُتَّفقةً على الكُفر بأنْ لا يُرسلَ إليهم رسولاً لِيُنذرهم ما ذُكِرَ من يومِ الجَمْع وما فيه من ألوان الأهوال، فيبقوا على ما هم عليه من الكُفر، ولكن يُدخل مَنْ يشاء في رحمته سبحانه، أي: شأنُه عزَّ شأنه ذلك فَيُرسل إلى الكُلِّ مَنْ يُنذرهم ما ذُكِرَ، فيتأثَّر بعضُهم بالإنذار، فيصرفون اختيارَهم إلى الحقِّ فَيُوَفِّقهم اللهُ تعالى للإيمان والطاعات، ويُدخِلهم في رحمته عزَّ وجل، ولا يتأثَّر به الآخرون ويتمادَوْن في غيِّهم، وهم الظالمون، فيبقَوْن في الدنيا على ما هم عليه من الكُفر، ويصيرون في الآخرة إلى السعير من غير وليٍّ يلي أَمْرَهم ولا نصيرٍ يُخلِّصهم من العذاب. انتهى.

ولا يخفى أنَّ بين قوله تعالى: (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً) الآية، وقوله سبحانه: (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً) بالمعنى الذي اختاره هنا فيهما نوعَ تَنافٍ، فتدبَّر جميعَ ذلك، والله تعالى المُوفِّق.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ جملة مستأنفة مُقرِّرة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين وليٌّ أو نصير.

وكلامُ «الكشاف»(٢) يُومِئ إلى أنه متصلٌ بقوله تعالى: «والذين اتخذوا» إلخ، على معنى: دَع الاهتمامَ بشأنهم واقطَع الطمعَ في إيمانهم، وكيتَ وكيتَ، أليسوا الذين اتَّخذوا من دون الله تعالى أولياءَ؟! وهو سبحانه الوليُّ الحقيقيُّ القادرُ على كلِّ شيء، وعدلوا عنه عز وجل إلى ما لا نسبةَ بينه تعالى وبينه أصلاً، وأن قولَه سبحانه: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ) الآية اعتراضٌ مُؤكِّد لمضمون الآيتين.

و«أم» على القولين منقطعة، وهي تُقدَّر في الأغلب بِبَلْ والهمزة، وقدَّرها جماعةٌ هنا بهما إلا أنَّ بل على القول الثاني للإضراب، وعلى القول الأول للانتقال

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٨/ ٢٣.
(٢) ٣/ ٤٦١.

من بيان ما قبلَها إلى بيان ما بعدَها، والهمزة قيل: لإنكار الواقع واستقباحه، وقيل: لا بل لإنكار الوقوع ونَفْيه على أبلغِ وجه وآكدِه، إذ المرادُ بيانُ أن ما فعلَوا ليس من اتخاذ الأولياء في شيء؛ لأنَّ ذلك فرعُ كون الأصنام أولياءَ، وهو أظهرُ المُمتنِعات، أي: بل اتَّخذوا مُتجاوزين الله تعالى أولياءَ من الأصنام وغيرها.

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ قيل: هو جوابُ شرط مُقدَّر، أي: إنْ أرادوا وليّاً بحقٍّ فالله تعالى هو الوليُّ بحقٍّ، لا وليَّ بحقٍّ سواه عز وجل، وكونه جوابَ الشرط على معنى الإخبار ونحوه. وقال في «البحر»[1]: لا حاجةَ إلى اعتبار شرطٍ محذوف والكلامُ يَتِمُّ بدونه. ولعله يُريد ما قيل: إنه عطفٌ على ما قبلَه، أو إنه تعليلٌ للإنكار المأخوذ من الاستفهام، كقولك: أتضربُ زيداً فهو أخوك، أي: لا ينبغي لك ضربُه فإنه أخوك. وتُعقِّب بأنَّ المعروف في مثله استعمالُه بالواو، وإنما يحسن التعليل في صريح الإنكار، ولا يُناسب معنى المضي أيضاً.

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: شأنه ذلك نحو: فلانٌ يَقْري الضيفَ، ويَحمي الحريمَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ فهو سبحانه الحقيقُ بأنْ يُتَّخذ وليّاً، فَلْيخصُّوه بالاتِّخاذ دون مَن لا يقدِرُ على شيء ما أصلاً.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ إلى آخره حكايةٌ لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين، أي: ما خالفكم الكُفَّار فيه من أمور الدين، كاتِّخاذ اللهِ تعالى وحدَه وليّاً، فاختلفتم أنتم وهم ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ راجعٌ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو إثابةُ المُحِقِّين وعقابُ المُبْطِلين.

ويجوز أن يكون كلاماً من جهته تعالى متضمِّناً التسليةَ، ويكون قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلخ بتقدير: قُلْ، والإمام[2] اعتبره من أول الكلام.

وأيًّا ما كان فالإشارةُ إليه تعالى من حيث اتّصافُه بما تقدَّم من الصفات - على ما قاله الطيبي - من كونه تعالى هو يُحيي الموتى، وكونه سبحانه على كلِّ شيء قدير، وكونه عزَّ وجلّ ما اختلفوا فيه فَحُكمه إليه.

---

(١) ٧/ ٥٠٩.

(٢) هو الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٤٩.

وقال في «الإرشاد»: أي: ذلكم الحاكم العظيم الشأن ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾ مالكي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع أموري خاصةً لا على غيره ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ أرجعُ في كلِّ ما يَعِنُّ لي من مُعضِلات الأمور لا إلى أحد سواه، وحيث كان التوكّل أمراً واحداً مستمرّاً، والإنابةُ متعدِّدةٌ متجدِّدةٌ حسب تجدُّد موادِّها، أُوثر في الأول صيغةُ الماضي وفي الثاني صيغةُ المضارع.

وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتُم من شيء من الخُصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ، ولا تُؤثروا على حكومته حكومةَ غيره، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقيل: وما اختلفتم فيه من شيء من تأويل آيةٍ واشتبه عليكم، فارجعوا في بيانه إلى المُحكَم من كتاب الله تعالى، والظاهرِ من سُنة رسولِ الله ﷺ.

وقيل: وما وقع بينكم الخلافُ فيه من العلوم التي لا تتعلَّق بتكليفكم ولا طريقَ لكم إلى عِلْمه فقولوا: اللهُ تعالى أعلم؛ كمعرفة الروح[1].

وأُورد على الكلِّ أنه مُخالف للسِّياق؛ لأن الكلام مسوقٌ للمشركين، وهو على ذلك مخصوصٌ بالمؤمنين.

وظاهرُ كلام الإمام[2] اختيارُ الاختصاص، فإنه قال في وجه النَّظم الكريم: إنه تعالى كما منع رسولَه ﷺ أن يحمل الكُفَّار على الإيمان، كذلك منع المؤمنين أن يَشْرعوا معه في الخُصومات والمنازعات، وذكر أنه احتجَّ نُفاةُ القِياس به فقالوا: إما أن يكونَ المرادُ منه: وما اختلفتم فيه من شيء فحُكمه مستفادٌ من نصِّ الله تعالى، أو من القياس على ما نصَّ سبحانه عليه، والثاني باطل؛ لأنه يقتضي أن تكون كلُّ الأحكام مبنيةً على القياس، فتعيَّن الأول، ولِقائل أن يقولَ: لم لا يجوز أنْ يكون المرادُ: فحكمه معروفٌ من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيانُ بالنصّ أو بالقياس؟ وأُجيب عنه بأنَّ المقصودَ من التحاكم إلى الله تعالى قَطْعُ الاختلاف؛

---

(١) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٤.

(٢) هو الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٤٩.

لقوله تعالى: ﴿وَمَا اَخْتَلَفْتُمْ﴾، والرجوعُ إلى القياس مما يُقوِّي الاختلاف، فوجب الرجوعُ إلى النصوص. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ النصوصَ غيرُ كافيةٍ في جميع الأحكام، وأن الآيةَ على ما سمعتَ أولاً مما لا يكادُ يصِحُّ الاستدلالُ بها على هذا المطلبِ من أول الأمر.

وفي «الكشاف»: لا يجوز حملُ الاختلاف فيها على اختلافِ المجتهدين في أحكام الشريعة؛ لأن الاجتهادَ لا يجوز بحضرة الرسول ﷺ[1].

ولا يخفى عليك أن هذه المسألة مُختلَفٌ فيها، فقال الأكثرون بجواز الاجتهاد المذكور عقلاً، ومنهم من أحاله. ثم المُجوِّزون منهم مَن مَنَعَ وقوعَ التعبُّد به، وهو مذهب أبي علي وابنه أبي هاشم[2]، وإليه ذهب صاحب «الكشاف»، وذِكْر ما يخالفه نقلٌ لمذهب الغير، وإنْ لم يُعقِّبه بردّ كما هو عادتُه في الأكثر، ومنهم من ادَّعى الوقوعَ ظنّاً، ومنهم مَن جَزَمَ بالوقوع، وقيل: إنه الأصح عند الأصوليين، ومنهم من توقَّف، والبحثُ فيها مستوفًى في أصول الفقه.

والذي نقوله هنا: إن الاستدلالَ بالآية على مَنْعه لا يكاد يَتِمُّ، وأقلُّ ما يقال فيه: إنه استدلالٌ بما فيه احتمال.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خبرٌ آخر لـ «ذلكم»، أوخبر لمبتدأ محذوف، أي: هو فاطرُ، أوصفةٌ لـ «ربِّي»، أوبدلٌ منه، أومبتدأ خبره ﴿جَعَلَ لَكُم﴾.

وقرأ زيدُ بن علي رضي الله عنهما بالجر على أنه بدل من ضمير «إليه» أو«عليه»[3]، أو وصفٌ للاسم الجليل في قوله تعالى: «إلى الله» وما بينهما جملةٌ معترضة بين الصِّفة والموصوف.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٢.

(٢) أبو علي: هو محمد بن عبد الوهاب البصري، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، منها كتاب الأصول، وكتاب الاجتهاد، وكتاب التفسير الكبير. مات سنة (٣٠٣هـ). وابنه أبو هاشم ـ واسمه عبد السلام ـ من كبار الأذكياء، أخذ عن والده، له كتاب الجامع الكبير. مات سنة (٣٢١هـ). السير ١٤/ ١٨٣ و١٥/ ٦٣.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٥٠٩.

وقد تقدَّم معنى «فاطر». و«جعل» أي: خلق ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ من جنسكم ﴿أَزۡوَٰجًا﴾ نساءً. وتقديمُ الجار والمجرور على المفعول الصريح لِمَا مرَّ غير مرَّة.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجًاۖ﴾ أي: وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً كما خلقَ لكم من أنفسكم أزواجاً، ففيه جملةٌ مُقدَّرة لدلالة القرينة، أو: وخلقَ لكم من الأنعام أصنافاً، أو ذكوراً وإناثاً.

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ يُكثِّركم؛ يقال: ذرأ اللهُ تعالى الخَلْقَ: بَثَّهم وكَثَّرهم، والذرء والذَّرُّ أخوان ﴿فِيهِۚ﴾ أي: فيما ذُكر من التدبير، وهو أنْ جعلَ سبحانه للناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالدٌ، وجعل التكثُّر في هذا الجَعْل لوقوعه في خلاله وأثنائه، فهو كالمنبع له. ويجوز أن تكون «في» للسببية.

وغُلِّب في «يذرؤكم» المُخاطَبون العُقَلاء على الغُيَّبِ مما لا يعقل، فهناك تغليبٌ واحدٌ اشتمل على جهتي تغليب، وذلك لأنَّ الأنعامَ غائبٌ غيرُ عاقل، فإذا أُدخلت في خطاب العُقَلاء كان فيه تغليبُ العقل والخطاب معاً، وهذا التغليب ـ أعني التغليبَ لأجل الخطابِ والعقل ـ من الأحكام ذاتِ العلَّتين، وهما هنا الخطابُ والعقل، وهذا هو الذي عناه جارُ الله[1]، وهو مما لا بأسَ فيه؛ لأن العلَّةَ ليست حقيقةً.

وزَعْمُ ابن المُنَيِّر[2] أن الصحيحَ أنهما حُكمان مُتباينان غير مُتداخِلين، أحدهما: مجيئه على نعت ضمير العُقلاء أعمّ من كونه مُخاطباً أوغائباً، والثاني: مجيئه بعد ذلك على نَعْت الخطاب، فالأول لِتغليبِ العقل، والثاني لِتغليب الخِطاب = ليس بشيء، ولا يُحتاج إليه.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٢، وقول الزمخشري هو: والضمير في يذرؤكم يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلَّباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيَّب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلتين.

(٢) في الانتصاف ٣/ ٤٦٢.

وكلامُ صاحب «المفتاح» يحتمل اعتبار تغليبين: أحدهما: تغليب المُخاطبين على الغُيَّب، وثانيهما: تغليبُ العُقَلاء على ما لا يَعقل[١].

وقال الطيبي: إن المقامَ يأبى ذلك؛ لأنه يُؤدِّي إلى أنَّ الأصل: يذرؤكم ويذرؤها ويذرؤكنّ ويذرؤها، لكن الأصل: يذرؤكم ويذرؤها لا غير؛ لأنَّ «كُم» في «يذرؤكم» هو «كُم» في «جعلَ لكم مِنْ أنفسكم أَزواجاً» بعينه، لكن غُلِّب هاهنا على الغُيَّب، فليس في يذرؤكم إلا تغليبٌ واحد. انتهى.

ثم إنه لا ينبغي أن يقال: إنَّ التذرئة حكمٌ عُلِّل في الآية بعلَّتين، إحداهما: جَعْلُ الناس أزواجاً، والثانية: جعل الأنعام أزواجاً، ويجوز أن يكون هو الذي عناه جارُ الله؛ لأن الحُكمَ هو البثُّ المطلق، وعلَّته المجموع، وإن جُعِلَ كلُّ جزء منه علةً فكلُّ بَثٍّ حكمٌ أيضاً، فأين الحكمُ الواحد المُتعدِّد عِلَّته؟ فافهم.

وعن ابن عباس أن معنى «يذرؤكم فيه»: يجعل لكم فيه معيشةً تعيشون بها[٢]. وقريبٌ منه قولُ ابن زيد: يرزقُكم فيه. والظاهر عليه أن الضميرَ لجَعْل الأزواج من الأنعام.

وقال مجاهد: أي: يخلقُكم نسلاً بعد نَسْل، وقَرْناً بعد قَرْن، ويتبادرُ منه أن الضميرَ للجَعْل المفهوم من «جعلَ لكم من أنفسكم أزواجاً» ويجوز أن يكون كما في الوجه الأول، ويُفهم منه أنَّ الذَّرْءَ أخصُّ من الخَلْق، وبه صرَّح ابنُ عطية[٣]، قال: ولفظةُ ذرأ تزيدُ على لفظة خَلَق معنًى آخرَ ليس في خَلَق، وهو توالي الطَّبقات على مرِّ الزمان.

وقال القتبي[٤]: ضمير «فيه» للبطن، لأنه في حُكم المذكور، والمرادُ: يخلقكم في بطون الإناث. وفي روايةٍ عن ابن زيد أنه لِمَا خلق من السماوات والأرض، وهو كما ترى، ومثلُه ما قبلَه، والله تعالى أعلم.

---

(١) مفتاح العلوم ص٢٤٢-٢٤٣.
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٤٧٦.
(٣) في المحرر الوجيز ٥/٢٨.
(٤) في تفسير غريب القرآن ص٣٩١، وينظر تفسير القرطبي ١٨/٤٤٩.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ نفي للمشابهة من كلِّ وجه، ويدخل في ذلك نفيُ أن يكونَ مثلَه سبحانه شيءٌ يُزاوجه عز وجل، وهو وجهُ ارتباط هذه الآيةِ بما قبلها، أوالمرادُ: ليس مِثْلَه تعالى شيءٌ في الشؤون التي من جُملتها التدبيرُ البديع السابق، فترتبطُ بما قبلها أيضاً.

والمرادُ من «مثله»: ذاتُه تعالى، فلا فرقَ بين: ليس كذاتِهِ شيء، و: ليس كمثله شيء، في المعنى، إلا أن الثاني كنايةٌ مشتملة على مُبالغة، وهي أن المُماثلة مَنْفيةٌ عمن يكون مثلَه وعلى صفته، فكيف عن نَفْسه؟ وهذا لا يستلزم وجودَ المِثْل، إذ الفرضُ كافٍ في المبالغة، ومثل هذا شائعٌ في كلام العرب نحو قول أَوْس بن حَجَر:

لـيـس كـمـثـلِ الـفـتـى زهـيـرٍ خـلـقٌ يُـوازيـه فـي الـفـضـائـل[(١)]

وقول الآخر:

وقَـتْـلـى كـمـثـلِ جـذوع الـنـخـيـلِ تَـغَـشَّـاهـم مُـسْـبِـلٌ مُـنْـهـمـر[(٢)]

وقول الآخر:

سعد بن زيد إذا أبصرتَ فَضْلَهُمُ ما إن كمِثْلهمُ في الناس من أحد[(٣)]

وقد ذكر ابنُ قتيبة[(٤)] وغيره أنَّ العرب تُقيم المِثْل مقامَ النَّفس، فتقول: مِثْلُك لا يَبْخَل، وهي تُريد: أنت لا تَبْخَل، أي: على سبيل الكناية، وقد سمعتَ فائدتها. وفي «الكشف» أنها الدلالة على فَضْل إثباتٍ لذلك الحُكم المطلوب وتمكينه، وذلك لوجهين؛ أحدهما: أنه فرضٌ جامعٌ يقتضي ذلك، فإذا قلتَ: مثلُك لا يبخل، دلَّ على أنَّ مُوجب عدم البخل موجودٌ، بخلافه إذا قلت: أنت لا تبخل. والثاني: أنه إذا جُعل من جماعةٍ لا يبخلون يكون أدلَّ على عدم البخل لأنه جعل معدوداً من

(١) ليس في ديوانه، وأورده أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٥١٠.
(٢) قائله أوس بن حجر، وهو في ديوانه ص٣٠، والبحر ٧/ ٥١٠.
(٣) لم نهتد إلى قائله، وهو في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٧٧، والبحر المحيط ٧/ ٥١٠.
(٤) في تفسير غريب القرآن ص٣٩١.

جُملتهم، ومن ذلك قولهم: قد أَيفعت لِداته، أي: أترابُه وأمثالُه في السِّن، وقولُ رُقَيْقة بنت أبي صَيْفي بن هاشم في سُقيا عبد المطلب: ألا وفيهم الطَّيِّبُ الطاهر لِداته، تعني رسولَ الله ﷺ، إلى غير ذلك.

وقيل: إنَّ مِثْلاً بمعنى الصِّفة وشيئاً عبارة عنها أيضاً، حكاه الراغب[(١)]، ثم قال: والمعنى: ليس كصفته تعالى صفةٌ؛ تنبيهاً على أنه تعالى وإن وُصف بكثير مما يوصف به البشر، فليست تلك الصِّفاتُ له عز وجل حسبَ ما يُستعمل في البشر.

وذهب الطبري وغيره إلى أنَّ مِثْلاً زائدةٌ للتأكيدِ[(٢)]، كالكاف في قوله:

بالأمس كانوا في رخاء مأمولْ   فأصبحت مثلَ كَعصفٍ مأكولْ[(٣)]

وقول آخر:

أَهَلْ عرفتَ الدار بالغَرِيَّينْ   وصالياتٍ كَكما يُؤَثْفَيْنْ[(٤)]

وتعقَّبه أبو حيان[(٥)] بأنه ليس بجيد؛ لأنَّ مِثْلاً اسمٌ، والأسماء لا تُزاد، بخلاف الكاف، فإنها حرفٌ فتصلح للزيادة.

ونُسب إلى الزجاج[(٦)] وابن جني والأكثرين القولُ بأنَّ الكافَ زائدةٌ للتأكيد،

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن ص٧٥٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/٤٧٦-٤٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٥١٠.

(٣) لم نقف على البيت الأول، والبيت الثاني لرؤبة، وهو في ملحق ديوانه ص١٨١ بلفظ: فصُيِّروا مثل... ، وسلف ١/ ٤٦٠.

(٤) الرجز لخطام المجاشعي، وهو في اللسان (غرا) كما يلي:

أَهَلْ عرفتَ الدار بالغَرِيَّينْ   لم يبق من آيٍ بها يُحلَّيْنْ

غير خطامٍ ورمادٍ كِنْفَيْنْ   وصالياتٍ ككما يُؤَثْفَيْنْ

والثاني في الكتاب ١/ ٣٢، والخزانة ٢/ ٣١٣. والغَريَّان قال ابن بري كما في اللسان (غرا): هما بناءان طويلان سُمِّيا بالغريين لأن النعمان بن المنذر كان يُغرِّيهما بدم من يقتله في يوم بؤسه.

(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥١٠.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٥.

وردَّه ابنُ المُنَيِّر[1] بأنَّ الكاف تُفيد تأكيدَ التشبيه لا تأكيدَ النفي، ونفيُ المُماثلة المهملة أبلغُ من نَفْي المُماثلة المؤكَّدة، فليست الآيةُ نظيرَ شَطْري البيتين. ويقال نحوُه فيما نُقل عن الطبري ومن معه.

وأُجيب: بأنه يُفيد تأكيدَ التشبيه إنْ سلباً فسلب وإنْ إثباتاً فإثبات، فيندفع ما أُورد. نعم الأول هو الوجه، والمِثْل قال الراغب: أعمُّ الألفاظِ الموضوعة للمشابهة وذاك أنَّ النِّدَّ يقال لما يُشارِك في الجوهر فقط، والشّبه لما يُشارِك في الكَيْفية فقط، والمُساوي لما يُشارِك في الكمية فقط، والشَّكل لما يُشارِك في القَدْر والمساحة فقط، والمِثْل عامٌّ في جميع ذلك، ولهذا لمَّا أراد اللهُ تعالى نفيَ الشّبه من كلِّ وجه خصَّه سبحانه بالذِّكر[2].

وذكر الإمام الرازي[3] أن المِثْلين عند المُتكلِّمين هما اللذان يقوم كلٌّ منهما مقامَ الآخر في حقيقته وماهيته، وحَمَل المِثْل في الآية على ذلك، أي: لا يُساوي اللهَ تعالى في حقيقة الذاتِ شيءٌ، وقال: لا يصحُّ أن يكون المعنى: ليس كمثله تعالى في الصفات شيء؛ لأن العباد يُوصفون بكونهم عالِمين قادِرين، كما أنَّ اللهَ تعالى يُوصف بذلك، وكذا يوصفون بكونهم معلومِين مذكورين مع أنَّ اللهَ تعالى يوصف بذلك، وأطال الكلامَ في هذا المقام، وفي القلبِ منه شيء.

وفي «شرح جوهرة التوحيد»: اعلَمْ أن قُدَماء المعتزلة كالجُبَّائي وابنه أبي هاشم ذهبوا إلى أن المُماثلة هي المُشاركة في أخصِّ صفاتِ النفس، فمماثلةُ زيدٍ لعمرو مَثَلاً عندهم مشاركتُه إيَّاه في الناطقية فقط، وذهب المُحقِّقون من الماتُريدية إلى أن المُماثلة هي الاشتراكُ في الصفات النفسية كالحيوانية والناطقية لزيد وعمرو. ومِن لازِمِ الاشتراكِ في الصفة النفسية أمران؛ أحدُهما: الاشتراكُ فيما يجب ويجوز ويمتنع. وثانيهما: أنْ يسدَّ كلٌّ منهما مَسَدَّ الآخر. والمُتماثلان وإن اشتركا في الصفات النفسية لكن لابدَّ من اختلافهما بجهة أُخرى ليتحقَّق

(١) في الانتصاف ٣/ ٤٦٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ص٧٥٩.

(٣) في تفسيره ٢٧/ ١٥٠.

التعدُّد والتمايز فيصح التماثُل. ونُسب إلى الأشعري أنه يشترط في التماثل التساوي من كلِّ وجه.

واعتُرض بأنه لا تعدُّد حينئذ فلا تماثل، وبأنَّ أهلَ اللغة مُطبقون على صحة قولنا: زيدٌ مِثْلُ عمرو في الفقه، إذا كان يُساويه فيه ويسدُّ مَسَدَّه وإن اختلف في كثير من الأوصاف، وفي الحديث: «الحِنطةُ بالحِنطة مِثْلاً بمثل»[1] وأُريد به الاستواء في الكيل دون الوزنِ وعَدَدِ الحبَّات وأوصافها. ويُمكن أن يُجابَ بأنَّ مُرادَه التساوي في الوجه الذي به التماثُل حتى إن زيداً وعمراً لو اشتركا في الفقه وكان بينهما مساواةٌ فيه بحيث ينوبُ أحدُهما مَنابَ الآخر صحَّ القولُ بأنهما مِثْلان فيه وإلا فلا، فلا يُخالِفُ مذهبَ الماتُريدية. وفيه أيضاً أنه عز وجل ليس له سبحانه مُماثِلٌ في ذاته وصفاته فلا يسدُّ مَسَدَّ ذاته تعالى ذاتٌ، ولا مَسَدَّ صفته ـ جَلَّتْ صِفَتُه ـ صفةٌ، والمرادُ بالصفة الصفةُ الحقيقية الوجودية، ومن هنا تَعلم ما في قولِ الإمام: لا يصحُّ أن يكون المعنى: ليس كمثله تعالى في الصفات شيء؛ لأنَّ العباد يُوصفون بكونهم عالمين قادِرين، كما أن الله سبحانه يُوصف بذلك. فإنَّ معنى ذلك أنه تعالى ليس مِثْل صفتِهِ سبحانه صفة، ومن المعلوم البيِّن أنَّ علمَ العِباد وقُدرتهم ليسا مِثْلَ علم الله عز وجل وقُدرته جل وعلا، أي: ليسا سادَّين مَسَدَّهما، وأما كونه تعالى مذكوراً ونحوه فهو ليس من الصِّفات المُعتبرة القائمة بذاته تعالى كما لا يخفى.

وزعم جهمُ بن صفوان أن المقصودَ من هذه الآية بيانُ أنه تعالى ليس مسمًّى باسم الشيء؛ لأن كلَّ شيء فإنه يكون مِثْلاً لمثْلِ نَفْسه، فقوله تعالى: «ليس كمثله شيء» معناه ليس مِثْل مِثْلِهِ شيء، وذلك يقتضي أن لا يكون هو سبحانه مسمًّى باسم الشيء[2]. فلم يجعل المِثْل كنايةً عن الذات على ما سمعتَ، ولا حَكَم بزيادته، ولا بزيادة الكاف، ومع هذا وإغماضِ العين عما في كلامه لا يَتِمُّ له مقصودُه، إذْ لنا أن نجعلَ ليس مِثْل مِثْله شيء نفياً للمِثْل على سبيل الكناية أيضاً لكن بوجه آخرَ،

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٧١)، ومسلم (١٥٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه البخاري (٢١٧٤)، ومسلم (١٥٨٤) من حديث عمر ﷺ بلفظ: «... البُرُّ بالبُرّ...».

(٢) ذكر قول جهم الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٥٣.

وهو أنه نفيٌ للشيء بنفي لازمِهِ؛ لأن نفيَ اللازم يستلزمُ نفيَ الملزوم، كما يقال: ليس لأخي زيدٍ أخٌ؛ فأخو زيد ملزومٌ، والأخُ لازمُه؛ لأنه لابدَّ لأخي زيد من أخٍ هو زيدٌ، فنفيت هذا اللازمَ والمرادُ نفيُ ملزومه، أي: ليس لزيد أخٌ، إذْ لو كان له أخٌ لكان لذلك الأخ أخٌ هو زيدٌ، فكذا نفيتَ أن يكونَ لمِثْل اللهِ تعالى مِثْلٌ والمرادُ نفي مِثْله سبحانه وتعالى؛ إذْ لو كان له مِثْلٌ لكان هو مِثْلَ مِثْلِهِ، إذ التقدير أنه موجودٌ، ومغايرتُه لما تقدَّم أنَّ مَبناهُ إثباتُ اللزوم بين وجود المِثْل ووجودِ مِثْل المِثْل ليكون نفيُ اللازم كنايةً عن نفي الملزوم من غير ملاحظةٍ والتفاتٍ إلى أنَّ حُكم الأمثالِ واحدٌ، وأنه يجري في النفي دون الإثبات، فإن نفي اللازم يستلزمُ نفيَ الملزوم دون العكس، بخلاف ما تقدَّم، فإنَّ مَبناه أنَّ حُكمَ المُتماثلين واحد وإلا لم يكونا مُتماثلين، ولا يُحتاج إلى إثبات اللزوم بين وجود المِثْل ومِثْل المِثْل، وأنه يجري في النفي والإثبات كما سمعتَ من الأمثلة، وليس ذاك من المذهب الكلامي في شيء؛ أما أولاً: فلأنه إيرادُ الحُجَّة، وليس في الآية إشعارٌ بها فضلاً عن الإيراد. وأما ثانياً: فلأنه حينئذ تكون الحُجَّةُ قياساً استثنائيّاً استثني فيه نقيضُ التالي هكذا: لو كان له سبحانه مِثْل لكان هو جل شأنه مِثْلَ مِثْلِهِ، لكنه ليس مِثْلاً لمثلِهِ، فلا بدَّ من بيان بطلانِ التالي حتى تَتِمَّ الحُجَّة، إذ ليس بيِّناً بنفسه، بل وجودُ المِثْل ووجودُ مِثْل المِثْل في مرتبةٍ واحدة في العلم والجهل، لا يجوزُ جَعْلُ أحدِهما دليلاً على الآخر، لكن قيل: إنَّ المفهومَ من: ليس مِثْلَ مِثْلِه شيء، على ذلك التقدير، نفيُ أن يكون مِثْلٌ لمثله سواه تعالى بقرينة الإضافة، كما أنَّ المفهومَ من قول المُتكلِّم: إنْ دخل داري أحدٌ فكذا، غيرُ المُتكلِّم، وأيضاً لا نُسلِّم أنه لو وُجِدَ له سبحانه مِثْلٌ لكان هو جلَّ وعلا مِثْلَ مِثْله؛ لأن وجودَ مِثْله سبحانه مُحال، والمُحال جاز أنْ يستلزم المُحال.

وأُجيب عن الأول: أن اسمَ «ليس»: «شيءٌ»، وهو نكرةٌ في سِياق النفي، فتعمُّ الآيةُ نفيَ شيء يكون مِثْلاً لمثله، ولا شكَّ أنه على تقدير وجودِ المِثْل يَصْدُقُ عليه أنه شيءٌ مِثْلٌ لمثله، والإضافةُ لا تقتضي خروجَه عن عموم شيء بخلاف المِثال المذكور، فإنَّ القرينَة العقلية دلَّت على تخصيص أحدٍ بغير المتكلِّم؛ لأن مقصودَه المنعُ عن دخول الغير.

وعن الثاني: أن وجودَ المِثْل لشيء مطلقاً يستلزمُ المِثْلَ مع قَطْع النظر عن خصوصية ذلك الشيء، وذلك بيِّنٌ، فالمنع بتجويز أن يكون لذاته تعالى مِثْلٌ ولا يكون هو سبحانه مِثْلاً لمثله مُكابرةٌ.

ثم إنَّ هذا الوجه لِكَثْرة ما فيه من القِيل والقال بالنسبة إلى غيره من الأوجه السابقة لم نذكره عند ذِكْرها، وهو على عِلَّاته أحسنُ من القول بالزيادة كما لا يخفى على مَن وفَّقه الله عز وجل.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المُدرِك إدراكاً تامّاً لا على طريق التخيُّل والتوهُّم لجميع المَسموعات، ولا على طريق تأثُّر حاسَّة، ولا وصولِ هواء ﴿ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾ المُدرِك إدراكاً تامّاً لجميع المُبْصَرات أوالموجودات لا على سبيل التخيُّل والتوهُّم، ولا على طريق تأثُّر حاسَّة ولا وصولِ شُعاع، فالسمعُ والبصر صِفتان غيرُ العلم على ما هو الظاهر، وأَرجَعَهما بعضُهم إلى صفة العلم، وتمامُ الكلامِ على ذلك في الكلام.

وقدَّم سبحانه نفيَ المِثْل على إثبات السَّمع والبصر؛ لأنه أهمُّ في نفسه وبالنظر إلى المُقام.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم تفسيره في سورة «الزمر»[(١)]، وكذا قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ وقرئ: «يُقدِّر» بالتشديد[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ⑫﴾ مبالغ في الإحاطة به، فيفعل كلَّ ما يفعل جل شأنه على ما ينبغي أن يُفعل عليه، والجملة تعليلٌ لما قبلها وتمهيدٌ لما بعدَها من قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ وإيذانٌ بأنَّ ما شرع سبحانه لهم صادرٌ عن كَمال العلم والحِكمة، كما أن بيانَ نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيهٌ على كونه ديناً قديماً أَجمع عليه الرُّسل.

---

(١) عند تفسير الآية (٦٣).
(٢) الكشاف ٣/ ٤٦٣.

والخِطاب لأمته عليه الصلاة والسلام، أي: شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً ومَن بعده من أرباب الشرائع وأُولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأَمَرهم به أمراً مُؤكَّدا. وتخصيصُ المذكورين بالذِّكر لما أُشير إليه من عُلوِّ شأنهم، وعِظَم شُهرتهم، ولاستمالةِ قلوب الكَفَرة إلى الاتّباع، لاتِّفاق كلٍّ على نبوة بعضهم، واختصاصِ اليهود بموسى عليه السلام، والنصارى بعيسى عليه السلام، وإلا فما من نبيٍّ إلا وهو مأمورٌ بما أُمروا به من إقامة دين الإسلام، وهو التوحيد، وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدُّل الأعصار من أصول الشرائع والأحكام كما يُنبئ عنه التوصية، فإنها مُعرِبة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به.

والمرادُ بإيحائه إليه ﷺ إما ما ذُكر في صدر السورة الكريمة وفي قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ) الآية، وإما ما يَعمُّهما وغيرهما مما وقع في سائر المواقع التي من جُملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] وغير ذلك.

وإيثار الإيحاء على ما قبلَه وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولِمَا في الإيحاء من التصريحِ برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكَفَرة.

والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمالِ الاعتناء بإيحائه، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ شريعتَه ﷺ هي الشريعةُ المُعتنَى بها غايةَ الاعتناء، ولذا عبَّر فيها بـ «الذي» التي هي أصلُ الموصولات، وذلك هو السرُّ في تقديم الذي أُوحي إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعدَه مع تقدُّمه عليه زماناً.

وتقديم توصيةِ نوح عليه السلام لِلمُسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، وقد قيل: إنه عليه الصلاة والسلام أولُ الرُّسل. وتوجيهُ الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شَرعه لهم على لسانه ﷺ.

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام الذي هو توحيدُ الله تعالى وطاعته والإيمان بكتُبه ورُسُله، وبيومِ الجزاء وسائرِ ما يكون العبدُ به مؤمناً. والمرادُ بإقامته تعديلُ أركانه وحِفْظُه من أن يقعَ فيه زيغٌ، والمواظبةُ عليه.

و«أنْ» مصدرية، وتقدَّم الكلامُ في وَصْلها بالأمر والنهي، أومُخفَّفة من الثقيلة لِمَا في «شرع» من معنى العلم، والمصدر إما منصوبٌ على أنه بدلٌ من مفعول «شرع» والمعطوفين عليه، أومرفوع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أومبتدأ خبره محذوف، والجملةُ جوابٌ عن سؤال نشأ من إبهام المشروع، كأنه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو أنْ أقيموا الدين.

وقيل: هو مجرور على أنه بدل من ضمير «به»، ولا يلزمه بقاءُ الموصول بلا عائد؛ لأنَّ المُبدَلَ منه ليس في نية الطَّرح حقيقة، نعم قال شيخ الإسلام[1]: إنه ليس بذاك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيِّز الإيحاء إلى النبي ﷺ مستلزمٌ لكون الخطاب في النهي الآتي عن التفرُّق للأنبياء المذكورين عليهم السلام، وتوجيهُ النهي إلى أُممهم تمحُّلٌ ظاهرٌ مع أنَّ الأظهرَ أنه متوجِّه إلى أُمَّته ﷺ، وأنهم المُتفرِّقون. ثم بيَّن ما استظهره، وسَنُشير إليه إن شاء الله تعالى.

وجوّز كونه بدلاً من «الدين».

ويجوز كون «أنْ» مُفسِّرة، فقد تقدَّمها ما يتضمَّن معنى القول دون حُروفه.

والخطابُ في «أقيموا» وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ على ما اختاره غيرُ واحد من الأجِلَّة شاملٌ للنبي ﷺ وأتباعه وللأنبياء والأُمم قَبْلَهم، وضميرُ «فيه» للدِّين، أي: ولا تتفرَّقوا في الدين الذي هو عبارةٌ عما تقدَّم من الأُصول بأنْ يأتي به بعضٌ ولا يأتي بعضٌ، ويأتي بعضٌ ببعض منه دون بعض، وهو مُرادُ مقاتل، أي: لا تختلفوا فيه، ولا يشملُ هذا النهيَ عن الاختلاف في الفروع، فإنها ليست من الأصول المُرادة هنا، ولم يَتَّحِدْ بها النبيون كما يُؤذن بذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٨/ ٢٦.

﴿جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وبعضُهم أدخلَ بعضَ الفروع في أصول الدين المرادة هنا من الدين.

قال مجاهد: لم يُبعث نبيٌّ إلا أُمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار بالله تعالى وطاعته سبحانه، وذلك إقامةُ الدين.

وقال الحافظ أبو بكر بن العربي: لم يكن مع آدمَ عليه السلام إلا بنوه، ولم يُفرضْ له الفرائض، ولا شُرعت له المحارم، وإنما كان مُنبّهاً على بعض الأمور، مُقتصراً على بعض ضروريات المَعاش، واستمرَّ الأمر إلى نوح عليه السلام، فبعثه الله تعالى بتحريم الأُمهات والبنات، ووظَّف عليه الواجبات، وأوضحَ له الأدبَ في الديانات، ولم يَزَلْ ذلك يتأكّد بالرُّسل، ويتناصر بالأنبياء واحداً بعدَ واحد، وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمه سبحانه بخير المِلل على لسان أكرمِ الرُّسل، فمعنى الآية: شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء ديناً واحداً في الأصول، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرُّب بصالح الأعمال، والصِّدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكِبْر والزِّنا، والإيذاءِ للخَلْق، والاعتداءِ على الحيوان، واقتحام الدَّناءات، وما يعود بخرم المروءات، فهذا كلُّه مشروعٌ ديناً واحداً، وملَّة متَّحدة، لم يختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفَتْ أعدادُهم. ومعنى «أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»: اجعلوه قائماً، أي: دائماً مستمرّاً من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب(١). انتهى.

ولعله أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحجِّ مُطلَقَها لا ما نعرفه في شرعنا منها، فإن الصلواتِ الخمسَ والزكاةَ المخصوصةَ وصيامَ شهر رمضان من خواصِّ هذه الأُمّة على الصحيح، والظاهرُ أن حَجَّ البيت لم يُشرَعْ لأُمة موسى وأُمةِ عيسى عليهما السلام، ولا لأكثر الأُمم قبلَهما، على أنَّ الآيةَ مكيةٌ، ولم تُشرع الزكاةُ المعروفة وصيامُ رمضان إلا في المدينة، وبالجملة لا شكَّ في اختلاف الأديان في الفروع، نعم لا يبعدُ اتفاقُها فيما هو من مكارم الأخلاق واجتنابِ الرَّذائل.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥٤.

﴿كَبُرَ﴾ أي: عَظُم وشقَّ ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ على سبيل الاستمرار التجدُّدي من التوحيد ورفضِ عبادة الأصنام، ويشعرُ بإرادته التعبير بالمشركين، وهو أصلُ الأصول وأعظمُ ما شقَّ عليهم كما تُنبئ بذلك الآيات، أو: ما تدعوهم إليه من إقامةِ الدين وعدمِ التفرُّق فيه.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ تسليةٌ له ﷺ بأنَّ منهم مَن يُجيب، و«يجتبي» من الاجتباء بمعنى الاصطفاء، والضميرُ في «إليه» لله تعالى كما ذكر مُحيي السنة[1] وغيرُه، وكذا الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ أي: يصطفي إليه سبحانه من يشاء اصطفاءه، ويُخصِّصه سبحانه بفيضٍ إلهيٍّ يتحصَّل له منه أنواعُ النِّعم، ويهدي إليه عز وجل بالإرشاد والتوفيق من يُقبل إليه تعالى شأنه، وعُدِّي الاجتباءُ بإلى لِمَا فيه من الجمع على ما يُفهم من كلامِ الراغب[2]، وجَعَله جمعٌ من الجِباية بمعنى الجمع يقال: جبيتُ الماءَ في الحوض: جمعته فيه، فمنهم مَن اختار جَعْلَ ضمير «إليه» في الموضعين لـ «ما»؛ لِمَا فيه من اتّساق الضمائر، أي: يجتلب ويجمع مَن يشاء اجتلابَه وجَمْعَه إلى ما تدعوهم إليه، ومنهم مَن اختار جَعْله للدِّين لمناسبةٍ معنوية هي اتِّحادُ المُتفرِّق فيه والمُجتمع عليه.

والزمخشري[3] اختار كونَه من الجباية بمعنى الجَمْع، وعودَ الضمير على الدِّين، وما ذكره مُحيي السنة وغيره؛ قال في «الكشف»: أظهرُ وأملأُ بالفائدة، أما الثاني: فللدلالةِ على أنَّ أهلَ الاجتباء غير أهل الاهتداء، وكلتا الطائفتين هم أهلُ الدِّين والتوحيد الذين لم يتفرَّقوا فيه، وعلى مُختاره طائفة واحدة. وأما الأول: فلأنَّ الاجتباءَ بمعنى الاصطفاء أكثرُ استعمالاً، ولأنه يدلُّ على أنَّ أهلَ الدِّين هم صفوةُ الله تعالى اجتباهم إليه واصطفاهم لنفسه سبحانه، وأما الذي آثره الزمخشري فكلامٌ ظاهري بناه على أنَّ الكلامَ في عدمِ التفرُّق في الدين، فناسبَ الجمعَ، والانتهاءَ إليه.

---

(١) هو البغوي في تفسيره ٤/ ١٢٢.
(٢) في مفردات ألفاظ القرآن (جبي).
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٦٤.

وقيل: «ما تدعوهم إليه» على معنى: ما تدعوهم إلى الإيمان به، والمرادُ به الرسالة، أي: ثَقُلَتْ عليهم رسالتك، وعَظُم لديهم تخصيصنا إياك بالرسالة والوحي دونهم، وقولُه تعالى: «اللهُ يجتبي إليه من يشاء» ردٌّ عليهم على نحو ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وما قدَّمنا أظهرُ.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ - أي: أُمم الأنبياء بعد وفاةِ أنبيائهم كما في «الكشف» منذ بَعْثِ نوح عليه السلام - في الدِّين الذي دُعوا إليه، واختلفوا فيه في وقتٍ من الأوقات ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ من أنبيائهم بأنَّ الفرقةَ ضلالٌ وفسادٌ وأمرٌ متوعَّدٌ عليه؛ وهذا يُؤيِّد ما دلَّ عليه سابقاً من أن الأُمم القديمة والحديثة أُمروا باتّفاق الكلمةِ وإقامة الدِّين، والمرادُ بالعلم سببه مجازاً مُرسلاً، ويجوز أن يكون التجوُّز في الإسناد، وأن يكونَ الكلامُ بتقدير مضافٍ، أي: جاءهم سببُ العلم، وقد يقال: «جاء» مجازٌ عن حصل. والاستثناءُ على ما أشرنا إليه مُفرَّغ من أعمِّ الأوقات، وجوِّز أن يكونَ من أعمِّ الأحوال، أي: ما تفرَّقوا في حال من الأحوال إلا حالَ مجيء العلم.

﴿بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: عداوةً، على أنَّ البغيَ الظُّلمُ والتجاوز، والعداوةُ سببٌ له، وهي الداعي للتفرُّق، أوطلباً للدنيا والرِّياسة على أنَّ البغي مصدر بغى بمعنى طَلَب.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ هي عِدَتُه تعالى بترك مُعاجلتهم بالعذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلومٍ له سبحانه، وهو يومُ القيامة، أو آخر أعمارهم المُقدَّرة لهم ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المبطلين حين افترقوا لِعِظَم ما اقترفوا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هم أهلُ الكتاب الذين كانوا في عهده ﷺ، وقرأ زيدُ بن علي: «وُرِّثوا» مبنيّاً للمفعول مُشدَّدَ الواو[(١)].

﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من كتابهم، فلم يُؤمنوا به حقَّ الإيمان ﴿مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ مُقْلِق، أومُدخِل في الرِّيبة.

والجملةُ اعتراضٌ يُؤكِّد أن تفرُّقهم ذلك باقٍ في أعقابهم، منضمّاً إليه الشكُّ في

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٥١٣.

كتابهم مع انتسابهم إليه، فهم تفرَّقوا بعد العلم الحاصل لهم من النبي المبعوث إليهم، المُصدِّق لكتابهم، وتفرَّقوا قبلَه شكّاً في كتابهم، فلم يُؤمنوا به، ولم يُصدِّقوا حقَّه.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي: إذا كان الأمرُ كما ذكر، فلأجْل ذلك التفرُّق، ولِمَا حَدَثَ بسببه من تَشعُّب الكُفْر في الأُمم السالفة شُعباً ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الائتلاف والاتِّفاق على المِلَّة الحنيفية القديمة ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: اثبتْ على الدُّعاء كما أُوحي إليك.

وقيل: الإشارةُ إلى قوله تعالى: «شرع لكم» وما يتَّصل به، ونُقِل عن الواحدي[1]، أي: ولأجْل ذلك من التوصيةِ التي شُورِكْتَ فيها مع نوح ومَن بعدَه، ولأجْل ذلك الأمر بالإقامة، والنهي عن التفرُّق، فادعُ.

وما ذُكر أولاً أولى؛ لأن قولَه تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ شَمِلَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام وأتباعَه كما سمعت، ويدلُّ عليه «كَبُرَ على المُشركين ما تَدْعوهم إليه»، فقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ إلخ لا يتسبَّب عنه؛ لِمَا يظهر من التكرار، وهو تفرُّع الأمرِ عن الأمر، وأما تسبُّبه عن تفرُّقهم فظاهرٌ على معنى: فلِما أحدَثوا من التفرُّق وأبدعوا فاثْبُتْ أنت على الدعاء الذي أُمرت به، واستقِمْ، وهذا ظاهرٌ للمتأمِّل.

ومن الناس مَن جعل المُشارَ إليه الشرع السابق، ولم يُدخل فيه الأمرَ بالإقامة لئلا يلزمَ التكرار، أي: فلأجْل أنه شرعَ لهم الدِّين القويم القديم الحقيقَ بأنْ يتنافسَ فيه المتنافسون فادْعُ، وقيل: هو الكتاب. وقيل: هو العلم المذكور في قوله تعالى: «جاءهم العلم». وقيل: هو الشكُّ، ورُجِّح بالقُرب، وليس بذاك.

واللامُ على جميع الأقوال المذكورة للتعليل، وقيل ـ على بعضها ـ: هي بمعنى «إلى» صلةُ الدُّعاء، فما بعدَها هو المَدْعوُّ إليه. وأنت تعلم أنه لا حاجةَ في إرادة ذلك إلى جَعْلها بمعنى إلى، فإنَ الدعاءَ يتعدَّى بها أيضاً كما في قوله:

(١) ينظر الوسيط ٤/ ٤٧.

دَعَـوتُ لِـمَـا نَـابَـنَـي مِـسْـوراً[١]

ونُقل ذلك عن الفراء[٢] والزجاج[٣]، وأيّاً ما كان فالفاءُ الأُولى واقعةٌ في جواب شرط مقدَّر كما أشرنا إليه، والفاء الثانية مُؤكِّدةٌ للأُولى.

وقيل: كان الناسُ بعد الطُّوفان أمةً واحدة مُوَحِّدين، فاختلف أبناؤهم بعد موتهم حين بعثَ اللهُ تعالى النبيِّين مُبشِّرين ومُنذرين، وجعل ضمير «تفرَّقوا» لأخلاف أولئك المُوحِّدين و«الذين أورثوا الكتاب» باقٍ على ما تقدَّم. والأولُ أظهر.

وقيل: ضمير «تفرَّقوا» لأهل الكتاب، تفرَّقوا من بعد ما جاءهم العلم بمبعثِ النبيِّ ﷺ، فهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] وإنما تفرَّقوا حسداً له عليه الصلاة والسلام، لا لِشُبهة، والمرادُ بـ «الذين أُورثوا الكتابَ من بعدهم» مُشركو مكةَ وأحزابهم؛ لأنهم أُورثوا القرآنَ، فالكتابُ القرآنُ، وضميرُ «منه» له، وقيل: للرسول، وهو خِلافُ الظاهر.

واختار كونَ المُتفرِّقين أهلَ الكتاب اليهود والنصارى، والمُورَّثين الشاكِّين مُشركي مكة وأحزابهم شيخُ الإسلام، واستظهر أنَّ الخطابَ في «أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» لأمته ﷺ، وتعقَّب القولَ بكون المتفرِّق كلَّ أمة بعد نبيِّها، والقولَ بكونه أخلافَ المُوحِّدين الذين كانوا بعد الطُّوفان، فقال: يردُّ ذلك قولُه تعالى: (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ) فإنَّ مشاهيرَ الأُمم المذكورة قد أصابهم عذابُ الاستئصال من غير إنظار وإمهال، على أنَّ مَساقَ النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة، وإنما ذُكِر مَن ذُكِرَ من الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أنَّ ما شُرع لهؤلاء دينٌ قديم أَجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيداً

(١) كتاب سيبويه ١/ ٣٥٢، والخزانة ٢/ ٩٢، وعجزه: فلبَّي فلبَّيْ يَدَي مسورِ. قال السيوطي في شرح شواهد المغني ٢/ ٩١٠: قائله أعرابي من بني أسد، وقال البغدادي: وهذا البيت من الأبيات الخمسين التي لا يعرف لها قائل.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٢.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٦.

لوجوب إقامته، وتشديداً للزجر عن التفرُّق والاختلاف فيه، فالتعرُّض لبيان تفرُّق أُممهم عنه ربما يُوهم الإخلال بذلك المرام[1]. انتهى.

وأجيب عن الأول: بأنَّ ضميرَ «بينهم» لأولئك الذين تفرَّقوا، وقد علمتَ أنَّ المرادَ بهم المُتفرِّقون بعد وفاة أنبيائهم، وهم لم يُصبهم عذابُ الاستئصال، وإنما أَصاب الذين لم يؤمنوا في عهد أنبيائهم، وإطلاقُ المُتفرِّقين ليس بذاك الظهور، وقيل: المرادُ: لَقُضي بينهم ريثما افترقوا، ولم يُمهلوا أعواماً. وقيل: المرادُ: لَقُضي بينهم بإهلاك المُبطلين وإثابةِ المُحقِّين إثابتهم في العُقبى. وهو كما ترى.

وعن الثاني: بأنا لا نُسلِّم إيهام التعرُّض لبيان تفرُّق الأُمم الإخلالَ بالمرام بعد بيان أنه لم يكن إلا بعدَ أنْ جاءهم العلم بأنه ضلالٌ وفسادٌ وأمرٌ متوعَّدٌ عليه، وأنه كان بغياً بينهم، ولم يكن لِشُبهةٍ في صحة الدِّين.

وقيل: ضمير «تفرقوا» للمشركين في قوله تعالى: «كبر على المشركين»؛ حكى في «البحر»[2] عن ابن عباس أنه قال: «وما تفرَّقوا» يعني: قريشاً، و«العِلْم» محمدٌ ﷺ، وكانوا يتمنَّون أن يُبعث إليهم نبيٌّ كما قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ الآية [فاطر: ٤٢]، وقد يقال عليه: المرادُ بالذين أُورثوا الكتاب أهلُ الكتاب الذين عاصروا النبي ﷺ، ومعنى «من بعدهم» ـ على ما قال أبو حيان[3] ـ: من بعدِ أسلافهم. ونقل الطبرسي[4] عن السُّدي ما يدلُّ على أنَّ المرادَ: من بعد أحبارهم، وفُسِّر الموصولُ بعوامِّ أهل الكتاب، وقيل: ضمير «بعدِهم» للمشركين أيضاً والبَعْدية رتبية كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

ولا يخفى عليك أنه لا بأس بعود ضمير «تفرَّقوا» للمشركين لو وُجد للذين أُورثوا الكتاب توجيهٌ يقع في حيِّز القَبول، والله تعالى الموفِّق.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٢٧.
(٢) ٧/ ٥١٢.
(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥١٣.
(٤) في مجمع البيان ٢٥/ ٤٣.

وجعلُ متعلَّق «استقم» الدعاءَ لا تخفى مناسبتُه. وجُوِّز جعلُه عامًّا، فيكون «استقم» أمراً بالاستقامة في جميع أُمورِه عليه الصلاة والسلام. والاستقامةُ أن يكونَ على خطٍّ مستقيم. وفسَّرها الراغب بلزوم المَنْهج المستقيم(١). فلا حاجةَ إلى التأويل بالدوام على الاستقامة، أي: دُمْ على الاستقامة.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: شيئاً من أهوائهم الباطلة، على أنَّ الإضافةَ للجنس ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ﴾ أي: بجميع الكُتب المُنزَلة؛ لأنَّ «ما» من أدوات العموم، وتنكير «كتاب» المُبيِّن مُؤيِّدٌ لذلك.

وفي هذا القولِ تحقيقٌ للحقِّ، وبيانٌ لاتِّفاق الكتب في الأصول، وتأليفٌ لقلوب أهل الكتابين، وتعريضٌ بهم حيث لم يُؤمنوا بجميعها.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: أمرني اللهُ تعالى بما أمرني به لأَعْدِلَ بينكم في تبليغ الشرائع والأحكامِ، فلا أَخُصَّ بشيء منها شخصاً دون شخص. وقيل: لِأَعْدِلَ بينكم في الحُكم إذا تخاصمتم. وقيل: بتبليغ الشرائع وفَصْل الخصومة. واختاره غيرُ واحد. وقيل: لِأُسوِّي بيني وبينكم، ولا آمُركُم بما لا أَعلمه، ولا أُخالفكم إلى ما أَنْهاكُم عنه، ولا أُفرِّقُ بين أصاغِركم وأكابركم في إجراء حُكم الله عز وجل. فاللامُ للتعليل والمأمورُ به محذوف.

وقيل: اللام مَزيدة، أي: أُمرتُ أنْ أَعْدِلَ، ويُحتاج لتقدير الباء، أي: بأنْ أَعْدِلَ، ولا يخلو عن بُعد.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: خالقُ الكُلّ ومُتولِّي أمرِه، فليس المرادُ خصوصَ المُتكلِّم والمُخاطَب.

﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا﴾ لا يتخطَّانا جزاؤها ثواباً كان أو عقاباً ﴿وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ لا يُجاوزكم آثارُها لِننتفع بحسناتكم ونتضرَّر بسيئاتكم.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا احتجاجَ ولا خُصومة؛ لأنَّ الحقَّ قد ظهر، فلم يبقَ للاحتجاج حاجةٌ ولا للمُخالفة محملٌ سوى المُكابرة والعِناد، وجاءت الحُجَّة

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (قوم).

هنا على أصلها، فإنها في الأصل مصدرٌ بمعنى الاحتجاج كما ذكره الراغب[1]، وشاعَتْ بمعنى الدليل، وليس بمراد.

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ يومَ القيامة ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ فيفصِلُ سبحانه بيننا وبينكم.

وليس في الآية ما يدلُّ على مُتاركة الكُفَّار رأساً حتى تكونَ منسوخةً بآية السيف، وادَّعى أبو حيان[2] أنَّ ما يظهرُ منها المُوادعة المنسوخة بتلك الآية.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: يُخاصمون في دينه، قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في طائفةٍ من بني إسرائيل هَمَّتْ بردِّ الناس عن الإسلام وإضلالهم، فقالوا: كتابُنا قبلَ كتابِكم، ونَبِيُّنا قبلَ نبيِّكم، فدينُنا أفضلُ من دينكم، وفي روايةٍ بدل: فدينُنا.. إلخ: فنحن أولى باللهِ تعالى منكم[3].

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخلَ الناسُ في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أظهرنا أو اتْرُكوا الإسلام[4]. والمُحَاجَّة فيه غيرُ ظاهرة، ولعلَّهم مع هذا يذكُرون ما فيه ذلك.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: من بعد ما استجاب الناسُ لله عز وجل، أو لدينه ودخلوا فيه وأذعنوا له؛ لِظُهور الحُجَّة ووُضوح المَحجَّة، والتعبيرُ عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه.

﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ زائلةٌ باطلةٌ لا تُقبل عنده عز وجل، بل لا حُجَّةَ لهم أصلاً؛ وإنما عبَّر عن أباطيلهم بالحُجَّة - وهي الدليل هاهنا - مجاراةً معهم على زَعْمهم الباطل.

وجُوِّز كون ضمير «له» للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لكونه في حُكم المذكور، والمُستجيبُ أهلُ الكتب، واستجابتُهم له ﷺ إقرارُهم بِنُعوته،

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (حجج).
(٢) في البحر المحيط ٧/ ٥١٣.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٨٨-٤٨٩، وتفسير البغوي ٤/ ١٢٣ بنحوه.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٤.

واستفتاحُهم به قبلَ مَبْعثِهِ عليه الصلاة والسلام، فإذا كانوا هم المُحَاجِّين كان الكلامُ في قوة: والذين يُحاجُّون في دين الله من بعدِ ما استجابوا لرسوله وأَقرُّوا بِنُعوته حُجَّتُهم في تكذيبه باطلةٌ، لما فيها من نَفْي ما أَقرُّوا به قبلُ وصَدَّقه العِيان.

وقيل: المُستجيب هو اللهُ عز وجل، وضمير «له» لرسوله عليه الصلاة والسلام، واستجابتُه تعالى له ﷺ بإظهار المُعجزات الدالَّة على صِدْقه. وإلى نحوه ذهب الجُبَّائي حيث قال: أي: من بعدِ ما استجابَ اللهُ تعالى دعاءه في كُفَّار بدر حتى قَتلَهم بأيدي المؤمنين، ودعاءَه على أهل مكة حتى قحطوا، ودعاءَه للمستضعفين حتى خَلَّصهم اللهُ تعالى من أيدي قريش، وغير ذلك مما يطولُ تَعْدادُه، وبُطلان حُجَّتهم لِظُهور خلافِ ما تقتضيه بِزَعْمهم بذلك.

وهذا ظاهرٌ في أنَّ هذه الآيةَ مدنيةٌ؛ لأن وقعةَ بدر بعدَ الهجرة، وحملُ «استُجيب» على الوَعْد خلافُ الظاهر جدّاً، وكذا ما رُوي عن عكرمة[١]. وقيل: إنَّ حملَ الاستجابةِ على استجابة أهل الكتاب يقتضي ذلك أيضاً إذْ لم يكن بمكة أحدٌ منهم. وقيل: لا يقتضيه؛ لأنَّ خبرَ استجابتهم وإقرارهم بنعوته ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام بمكة بلغَ أهلَ مكة، والمُجادلون محمولٌ عليهم، فلا مانعَ من كونها مكيةً.

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم لِمُكابرتهم الحقَّ بعد ظُهوره ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ لا يُقادَر قَدْره.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب، أوالكتاب المعهود، أوجميع الكتب ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُلتبساً بالحقّ، بعيداً من الباطل في أحكامه وأخباره، أومُلتبساً بما يحقّ ويجب من العقائد والأحكام.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي: العدلَ؛ كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم[٢]، أوالشَّرع الذي يُوزن به الحقوق، ويُسوِّي بين الناس، وعلى الوجهين فيه استعارةٌ.

---

(١) أي أن ما روي عن عكرمة ظاهر أيضاً في أن الآية مدنية.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٣.

ونسبةُ الإنزال إليه مجازٌ؛ لأنه من صفات الأجسام، والمُنزَل حقيقة مَنْ بَلَّغه. واعتبر بعضُهم الأمر، أي: أنزل الأمر بالميزان، وتُعقِّب بأنه أيضاً مُحتاجٌ إلى التأويل، وقد يقال: نسبة الإنزال وكذا النزول إلى الأمر مشهورةٌ جدّاً فالتحقَتْ بالحقيقة، ويجوز أن يُتجوَّز في الإنزال، ويقال نحو ذلك في «أنزل الكتابَ».

وعن مجاهد أنَّ الميزانَ الآلةُ المعروفة، فعلى هذا إنزالُه على حقيقته، وجوّز أن يكون على سبيل الأمر به، واستظهر الأول، لما نقل الزمخشري(١) في «الحديد» أنه نُزِّلَ إلى نوح وأُمِرَ أن يُوزن به، وكونُ المرادِ به ميزانَ الأعمال بعيدٌ هنا.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: أيُّ شيء يجعلك دارياً، أي: عالماً ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: إتيان الساعة الذي أخبر به الكتابُ الناطق بالحقِّ، فالكلام بتقدير مضافٍ مذكَّر، وقوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ خبرٌ عنه في الحقيقة؛ لأن المحذوفَ بقرينةٍ كالملفوظ، وهو وجهٌ في تذكيره. وجُوِّز أن يكون لتأويل الساعة بالبعث، وأن يكون «قريب» من باب: تامر ولابن، أي: ذات قُرب، إلى أَوْجُهٍ أُخَرَ تقدَّمت في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وأيًّاما كان، فالمعنى: إنَّ الساعةَ على جناح الإتيان، فاتَّبِع الكتابَ، وواظِبْ على العَدْل، واعمَلْ بالشرع قبل أن يُفاجئك اليومُ الذي تُوزن فيه الأعمال، ويُوفَّى جزاؤها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجالَ إنكارٍ واستهزاءٍ، كانوا يقولون: متى هي، ليتها قامَتْ حتى يظهرَ لنا أهو الذي نحن عليه أم كالذي عليه محمدٌ (عليه الصلاة والسلام) وأصحابُه؟!.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون منها مع اعتناءٍ بها، فإنَّ الإشفاقَ عنايةٌ مختلطةٌ بخوف، فإذا عُدِّي بـ «من» ـ كما هنا ـ فمعنى الخوف فيه أظهرُ، وإذا عُدِّي بـ «على» فمعنى العناية أظهر، وعنايتُهم بها لِتوقُّع الثواب.

---

(١) في الكشاف ٤/٦٦.

وزعم الجلبي أن الآيةَ من الاحتباك، والأصل: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، فلا يُشفِقُون منها، والذين آمنوا مُشفِقون منها فلا يستعجلون بها.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الأمر المُتحقِّق الكائن لا مَحالةَ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يُجادلون فيها، وأصلُه من: مَرَيْتُ الناقةَ، إذا مَسَحتَ ضرعَها للحَلْب، وإطلاق المُماراة على المُجادلة لأنَّ كلًّا من المُتجادِلَيْنِ يستخرج ما عند صاحبه. ويجوز أن يكون من المِرْية: التردُّد في الأمر، وهو أخصُّ من الشكّ، ومعنى المُفاعلة غيرُ مقصود، فالمعنى: إن الذين يتردَّدون في أمر الساعة ويشكُّون فيه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ عن الحقِّ، فإن البعثَ أقربُ الغائبات بالمحسوسات؛ لأنه يُعلم تجويزه[1] من إحياء الأرض بعد موتها وغير ذلك، فمَن لم يهتدِ إليه فهو عن الاهتداء إلى ما وراءه أبعدُ وأبعد.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ برٌّ بليغُ البِرِّ بهم يُفيضُ جلَّ شأنُه على جميعهم من صنوفه ما لا يبلغه الأفهام، ويُؤذن بذلك مادةُ اللُّطف وصيغةُ المبالغة فيها وتنكيرُها الدالُّ على المبالغة بحسب الكمية والكيفية. قال حُجَّةُ الإسلام[2] عليه الرحمة: إنما يستحقُّ هذا الاسمَ مَنْ يعلم دقائقَ المصالح وغوامِضَها وما دقَّ منها ولَطُفَ، ثم يسلكُ في إيصالها إلى المستصلح سبيلَ الرِّفق دون العُنف، فإذا اجتمع الرِّفق في الفعل واللُّطف في الإدراك تمَّ معنى اللطيف، ولا يُتصوَّر كمالُ ذلك إلا في الله تعالى شأنه.

فصنوفُ البِرِّ من المبالغة في الكَمّ، وكونها لا تبلغها الأفهام من المادة والمبالغة في الكيفية؛ لأنه إذا دقَّ جدّاً كان أخفى وأخفى، وإرادة الجميع من إضافة العبادِ - وهو جمعٌ - إلى ضميره تعالى فيُفيد الشُّمول والاستغراق، وبالعموم قال مقاتل إلا أنه قال: لطيفٌ بالبَرّ والفاجر حيث لم يَقْتلهم جوعاً.

---

(١) في (م): من تجويزه.

(٢) هو الإمام الغزالي رحمه الله، وكلامه في المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٠١.

وقال أبو حيان[(١)]: «لطيفٌ بعباده» أي: بَرٌّ بعباده المؤمنين ومَن سبق له الخلود في الجنة، وما يُرى من النعم على الكافر فليس بِلُطْفٍ، إنما هو إملاءٌ، إلا ما آل إلى رحمة ووفاة على الإسلام.

وحكى الطيبي هذا التخصيص عن الواحدي[(٢)]، ومالَ إلى ترجيحه، وذلك أنه ادَّعى أن الإضافة في «عباده» إضافةُ تشريفٍ، إذْ أكثرُ استعمال التنزيل الجليل في مثل ذلك، فيختصُّ العبادُ بأوليائه تعالى المؤمنين. وحَمَلَ اللُّطف على مَنْح الهداية وتوفيق الطاعة وعلى الكمالات الأُخروية والكرامات السنية، وحملَ الرزق في قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ عليه أيضاً، وقال: إنَّ استعمالَه فيما ذكر كاستعماله في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨] وجَعَلَ قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝١٩﴾ مُؤذِناً بالتعليل، كأنه قيل: إنما تلطَّف جلَّ شأنُه في حقِّ عباده المؤمنين دون مَنْ غَضِبَ عليهم بمحضِ مشيئته سبحانه، لأنه تعالى قويٌّ قادرٌ على أن يختصَّ برحمته وكرامته من يشاء من عباده، عزيزٌ غالب لا يمنعه سبحانه عما يُريده أحد.

وادَّعى أنه يكون وِزانُ الآية على هذا مع قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ الآية وزانَ قوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] وينتظم الكلام أتمَّ انتظام وتلتئمُ أطرافه أشدَّ التئام، ولا يقال حينئذ: إنَّ قولَه تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ حكمٌ مترتِّب على السابق، فكان ينبغي أن يعمَّ عمومَه، والعمومُ أظهر.

وحديثُ التخصيص في «يرزق من يشاء» فقد أجاب عنه صاحبُ «التقريب» فقال: إنما خصَّص الرزقَ بمن يشاء مع أنهم كلَّهم بَرٌّ سبحانه بهم؛ لأنه تعالى قد يخصُّ أحداً بنعمة وغيرَه بأخرى، فالعموم لجنس البِرِّ، والخصوصُ لنوعه.

وأشار جار الله[(٣)] إلى أنه لا تخصيصَ بالحقيقة؛ فإن المعنى: اللهُ تعالى بليغُ

(١) في البحر المحيط ٧/ ٥١٤.
(٢) الوسيط ٤/ ٤٨.
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٦٥.

البِرِّ بجميع عباده يرزقُ مَن يشاء ما يشاء سبحانه منه، فـ «يرزق من يشاء» بيانٌ لتوزيعه على جميعهم، فليس الرِّزق إلا النصيبَ الخاصَّ لكلِّ واحد، ولمَّا شَمِلَ الدارين لاءَمَ قولَه تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ) إلخ كلَّ المُلاءمة. ولا يتوقَّف هذا على ما قاله الطيبي.

ولعل أمرَ التذييل بالاسمين الجليلين على القول بالعموم أظهرُ، والتعليل أنسبُ، فكأنه قيل: لطيفٌ بعباده عامُّ الإحسان بهم؛ لأنه تعالى القويُّ الباهر القُدرة الذي غلب وغلبتْ قُدرته سبحانه جميعَ القُدَر، يرزق مَن يشاء، لأنه العزيزُ الذي لا يُغلَبُ على ما يُريد، فكلٌّ من الاسمين الجليلين ناظرٌ إلى حُكمٍ، فافهم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]:

فكم للهِ من لُطفٍ خَفِيٍّ يَدِقُّ خَفاه عن فَهم الذَّكي[١]

والحَرْثُ في الأصل إلقاءُ البَذْر في الأرض، يُطلق على الزرع الحاصل منه، ويُستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المَبنية على تشبيهها بالغِلال الحاصلة من البذور، المتضمِّنِ لتشبيه الأعمال بالبذور، أي: مَن كان يُريد بأعماله ثوابَ الآخرة نُضاعِفْ له ثوابَه بالواحد عشرةً إلى سبع مئةٍ فما فوقها ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو متاعُها وطَيِّباتها ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: شيئاً منها حَسْبَما قدَّرناه له بطلبه وإرادته ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ إذْ كانت هِمَّتُه مقصورةً على الدنيا.

وقرأ ابن مقسم، والزعفراني، ومحبوب والمنقري كلاهما عن أبي عمرو: «يَزِدْ» و«يؤته» بالياء فيهما، وقرأ سلام: «نُؤْتِهُ» بضم الهاء[٢]، وهي لغةُ أهل الحجاز.

وقد جاء في الآية فعل الشرط ماضياً والجوابُ مضارعاً مجزوماً؛ قال أبو حيان[٣]: ولا نعلم خلافاً في جواز الجزم في مثل ذلك، وأنه فصيحٌ مختارٌ

---

(١) ذكره الشهاب في حاشيته ٧/ ٤١٧ ولم ينسبه.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٥١٤، وما ذكره عن أبي عمرو غير المشهور عنه، وقراءة سلّام ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٤٩.

(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥١٤.

مطلقاً إلا ما ذكره صاحبُ كتاب «الإعراب» أبو الحكم بن عذرة[(١)] عن بعض النحويين أنه لا يَجيء في الفصيح إلا إذا كان فعلُ الشرط كان، وإنما يجيء معها لأنها أصلُ الأفعال، ونصُّ كلامِ سيبويه والجماعة أنه لا يختصُّ بكان، بل سائر الأفعال مثلُها في ذلك، وأنشد سيبويه للفرزدق:

دَسَّتْ رسولاً بأنَّ القومَ إن قَدروا ... عليك يَشفُوا صدوراً ذاتَ توغير[(٢)]

وقال أيضاً:

تَعشَّ فإنْ عاهدتني لا تخونني ... نَكُن مِثْلَ مَنْ يا ذئب يصطحبان[(٣)]

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ في الكُفْر، وهم الشياطين ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء الكَفَرة المعاصرين لك بالتسويل والتزيين ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشِّرك، وإنكارِ البَعْث، والعمل للدنيا، و«أم» منقطعة، فيها معنى بل الإضرابية، والهمزةِ التي للتقرير والتقريع، والإضرابُ عما سبق من قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الآية: ١٣] إلخ، فالعطف عليه، وما اعترض به بين الآيتين من تتمةِ الأولى، وتأخير الإضراب ليدلَّ على أنهم في شرعٍ يُخالف ما شرعه الله تعالى من كلِّ وجه، فالشرك في مقابلة إقامة الدين. والاستقامةِ عليه، وإنكارُ البعث في مقابلة قوله تعالى (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ) والعمل للدنيا لقوله سبحانه: (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ).

وهذا أظهرُ مِن جَعْلِ الإضرابِ عما تقدَّم من قوله تعالى: (كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ) كما لا يخفى.

وقيل: شركاؤهم أصنامهم، وإضافتها إليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله

---

(١) الحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم الأنصاري، الأوسي، الخضراوي، النحوي، أخذ عن ابن عصفور وغيره، له تصانيف منها: المفيد في أوزان الرجز والقصيد، والإعراب عن أسرار الحركات في لسان الأعراب. توفي سنة (٦٤٤هـ). بغية الوعاة ١/ ٥١٠، وكشف الظنون ١/ ١٢٥.

(٢) الكتاب ٣/ ٦٩، وهو في ديوان الفرزدق ١/ ٢١٣.

(٣) ديوان الفرزدق ٢/ ٣٢٩، وفيه: واثقتني، بدل: عاهدتني.

سبحانه، وإسنادُ الشرع إليها لأنها سببُ ضلالتهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ [إبراهيم: ٣٦] وجوِّز أن يكونَ الاستفهامُ المقدَّر على هذا للإنكار، أي: ليس لهم شرعٌ ولا شارع، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] وأيّاً ما كان فضميرُ «شرعوا» للشُّركاء وضميرُ «لهم» للكُفَّار.

وجوِّز على تفسير الشركاء بالأصنام أن يكون الأولُ للكُفَّار، والثاني للشُّركاء، أي: شرع الكُفَّار لأصنامهم ورسموا من المعتقدات والأحكام ما لم يأذَنْ به الله تعالى، كاعتقادِ أنهم آلهةٌ، وأن عبادتَهم تُقرِّبهم إلى الله سبحانه، وكجعل البَحيرة والسائبة والوَصِيلة وغير ذلك، وهو كما ترى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي: القضاء والحُكم السابق منه تعالى بتأخيرِ العذاب إلى يوم القيامة، أو إلى آخرِ أعمارهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين في الدنيا. أو حين افترقوا بالعِقاب والثواب. وجوِّز أن يكون المعنى: لولا ما وعدَهم الله تعالى به من الفصل في الآخرة لقضي بينهم، فالفصل بمعنى البيان كما في قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]. وقيل: ضمير بينهم للكُفَّار وشركائهم بأيِّ معنى كان.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وهم المُحدَّث عنهم، أو الأعمُّ منهم، ويدخلون دخولاً أوليًا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ في الآخرة. وفي «البحر»[1]: أي: في الدنيا بالقَتْل والأَسْر والنَّهْب، وفي الآخرة بالنار.

وقرأ الأعرج ومسلم بن جندب: «وأنَّ» بفتح الهمزة[2] عطفاً على «كلمةُ الفَصْل»، أي: لولا القضاءُ السابق بتأخير العذاب وتقديرِ أنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم في الآخرة، أو لولا العِدَة بأنَّ الفصلَ يكون يومَ القيامة وتقدير أنَّ الظالمين لهم.. إلخ، لَقُضي بينهم، والعطفُ على التقديرين تتميمٌ للإيضاح لا تفسيريٌّ محض.

(١) ٧/ ٥١٥.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤.

﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ جملةٌ مستأنفة لبيان ما قبلُ. والخطاب لكلِّ أحدٍ يصلحُ له لِلقَصْد إلى المبالغة في سوء حالهم، أي: ترى يا من يصحُّ منه الرؤيا الظالمين يومَ القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين الخوفَ الشديد ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ في الدنيا من السيئات.

والكلامُ ـ قيل ـ على تقدير مُضاف، و«من» صلة الإشفاق، أي: مشفقين مِن وبال ما كسبوا ﴿وَهُوَ﴾ أي: الوبال ﴿وَاقِعُۢ بِهِمْۗ﴾ أي: حاصلٌ لهم لاحقٌ بهم.

واختار بعضُهم أنْ لا تقدير، و«من» تعليلية؛ لأنه أَدْخَلُ في الوعيد.

والجملة اعتراضٌ للإشارة إلى أن إشفاقَهم لا ينفعهم، وإيثار «واقع» على يقع مع أن المعنى على الاستقبال ـ لأنَّ الخوفَ إنما يكون من المتوقَّع، بخلاف الحزن ـ للدلالة على تحقُّقه، وأنه لا بدَّ منه. وجوِّز أن تكون حالاً من ضمير «مُشفِقين»، وظاهرُ ما سمعتَ أنه حالٌ مقدَّرة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾ أي: مُستقِرُّون في أطيبِ بقاعها وأنزهها. وقال الراغب[1]: هي محاسِنُها وملاذُّها، وأصلُ الروضة مستنقعُ الماء والخُضرة، واللغةُ الكثيرةُ في واوها جمعاً التسكين كما في المُنْزَل، ولغة هذيل بن مدركة فتحها، فيقولون: رَوَضات إجراءً للمُعتَلّ مُجرى الصحيح نحو جَفَنات، ولم يقرأ أحدٌ فيما عَلِمنا بلغتهم.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ أي: ما يشتهونه من فنون المستلذَّات حاصلٌ لهم عند ربهم، فالظرف متعلِّقٌ بمتعلَّق الجار والمجرور الواقع خبراً لـ «ما»، أو به، واختاره جارُ الله[2]، ونفى أن يكون متعلِّقاً بـ «يشاؤون» مع أنه الظاهرُ نحواً.

وبيَّن صاحب «الكشف» ذلك بأنه كلامٌ في مَعْرِض المبالغة في وصف ما يكون أهلُ الجنة فيه من النعيم الدائم، فأُفيد أنهم في أنزه موضع من الجنة وأطيبِ مَقْعد منها بقوله تعالى: (فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ) لأن روضةَ الجنة أنزه موضع منها، لاسيما والإضافة في هذا المقام تُنبىء عن تميُّزها بالشَّرف والطيب، والتعقيبُ بقوله تعالى:

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (روض).

(٢) في الكشاف ٣/٤٦٦.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ أيضاً. ثم أُفيد أنَّ لهم ما يشتهون من ربِّهم، ولا خفاءَ أنك إذا قلت: لي عند فلان ما شئتُ، كان أبلغَ في حصول كلِّ مطالبك منه مما إذا قلت: لي ما شئتُ عند فلان، بالنسبة إلى الطالب والمطلوب منه؛ أما الأول: فلأنه يُفيد أن جميع ما تشاؤه موجودٌ مبذولٌ لك منه، والثاني يفيد أن ما شئتَ عنده مبذولٌ لا جميع ما تشاؤه. وأما الثاني: فلأنك وصفتَه بأنه يبذلُ جميعَ المُرادات، وفي الثاني وصفتَه بأن ما شئتَ عنده مبذولٌ لك، إمّا منه وإمّا من غيره. ثم في الأول مبالغةٌ في تحقيق ذلك وثُبوته كما تقول: لي عندك وقبلك كذا، فالله تعالى شأنه أخبر بأن ذلك حقٌّ لهم ثابتٌ مقضيٌّ في ذمة فَضْله سبحانه، ولا كذلك في الثاني.

ثم قال: ولعلّ الأوجه أنْ يجعل «عند ربهم» خبراً آخر، أي: الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربِّهم في رَوْضات الجنات، لهم فيها ما يشاؤون، وإنما أُخِّر توخِّياً لسلوك طريق المبالغة في الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى، ومراعاةً لترتيب الوجود أيضاً، فإن الوافدَ والضيفَ ينزلُ في أنزهِ موضع، ثم يحضرُ بين يديه الذي يَشتهيه، وملاكُ ذلك كلِّه أن يختصَّه ربُّ المنزل بالقُرب والكرامة.

وإنْ جعله حالاً من فاعل يشاؤون، أو من المجرور في «لهم» أفاد هذا المعنى أيضاً، لكنه يقصرُ عما آثرناه؛ لأنه قد أتى به إتيان الفَضْلة، وهو مقصودٌ بذاته عُمدة. ولَعمري إن ما آثره حسنٌ معنى، إلا أنه أبعدُ لفظاً مما آثره جار الله، ولا يخفى عليك ما هو الأنسب بالتنزيل.

وفي الخبر عن أبي ظَبية قال: إنَّ السِّربَ من أهل الجنة لَتظلُّهم السحابةُ فتقول: ما أُمْطِرُكم؟ فما يدعو داعٍ من القوم إلا أَمْطرتْه، حتى إن القائلَ منهم ليقول: أَمطرينا كواعبَ أتراباً(١).

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من حال المؤمنين، وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببعد منزلة المُشارِ إليه. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ الذي لا يُقْدَرُ قَدْرُه ولا تُبلَغ غايتُه، ويَصغُر دونه ما لغيرهم في الدنيا.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٦٤٦.

﴿ذَلِكَ﴾ الفضلُ الكبير أوالثوابُ المفهوم من السِّياق هو ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾ أي: يُبشِّر به، فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما هو عادتُهم في التدريج في الحذف، ولا مانعَ كما قال الشهاب(١) من حَذْفهما دفعةً. وجوِّز كون «ذلك» إشارةً إلى التبشير المفهوم من «يُبشِّر» بعدُ، والإشارة قد تكون لما يُفهم بعدُ كما قرَّروه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ونحوه، والعائدُ إلى الموصول ضميرٌ منصوب بـ «يُبَشِّر» على أنه مفعولٌ مطلق له؛ لأنه ضميرُ المصدر، أي: ذلك التبشير يُبَشِّره اللهُ عبادَه.

وزعم أبو حيان أنه لا يظهر جعلُ الإشارة إلى التبشير، لعدم تقدُّم لفظِ البُشرى، ولا ما يدلُّ عليها(٢). وهو ناشئٌ عن الغَفْلة عما سمعتَ، فلا حاجة في الجواب عنه أن كونَ ما تقدَّم تبشيراً للمؤمنين كافٍ في صحة ذلك.

ثم قال: ومن النَّحْويين من جعل «الذي» مصدرية، حكاه ابنُ مالك عن يونس وتأوَّل عليه هذه الآية، أي: ذلك تبشيرُ الله تعالى عبادَه، وليس بشيء، لأنه إثباتٌ للاشتراك بين مختلفي الحدّ بغير دليل، وقد ثبتت اسمية الذي، فلا يعدلُ عن ذلك بشيء لا يقوم به دليلٌ ولا شبهة(٣).

وقرأ عبد الله بن يعمر وابن أبي إسحاق والجَحْدري والأعمش وطلحة - في رواية - والكسائي وحمزة: «يَبْشُر» ثلاثيًّا(٤). ومجاهد وحُميد بن قيس بضمّ الياء وتخفيف الشين من أَبشر(٥)، وهو معدًّى بالهمزة من بَشِرَ اللازم المكسور الشين، وأما بَشَر بفتحها، فمتعدٍّ، وبَشَّر بالتشديد للتكثير لا للتعدية؛ لأنَّ المعدَّى إلى واحد وهو مُخفَّف لا يُعدَّى بالتضعيف إليه، فالتضعيفُ فيه للتكثير لا للتعدية.

---

(١) في الحاشية ٧/ ٤١٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٥١٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٥١٥، وقراءة الكسائي وحمزة - وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو - في التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٢٣٩.
(٥) المحتسب ٢/ ٢٥١، والبحر المحيط ٧/ ٥١٥.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما أتعاطاه لكم من التبليغ والبِشارة وغيرهما ﴿أَجْرًا﴾ أي: نفعاً ما، ويختصُّ في العُرف بالمال ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ أي: إلا مودَّتكم إيايَ ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: لقرابتي منكم، فـ «في» للسببية مثلها في «إنَّ امرأةً دخلتِ النارَ في هِرَّة»[1] فهي بمعنى اللام لِتقارب السبب والعِلَّة، وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد وقتادة وجماعة.

والخطاب إما لقريش على ما قيل: إنهم جمعوا له مالاً وأرادوا أن يَرْشُوه على أنْ يُمسِكَ عن سبِّ آلهتهم، فلم يفعل ونزلَتْ. وله عليه الصلاة والسلام في جميعهم قرابة[2]. أخرج أحمد والشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: (إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) فقال سعيدُ بن جُبير: قُربى آل محمد ﷺ، فقال ابنُ عباس: عَجِلْتَ، إنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام لم يكن بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة[3].

أوللأنصار، بناءً على ما قيل: إنهم أَتَوْه بمال لِيستعين به على ما ينوبُه فنزلت، فردَّه[4]. وله عليه الصلاة والسلام قَرابةٌ منهم، لأنهم أخوالُه؛ فإنَّ أُمَّ عبد المطلب - وهي سلمى بنت زيد النجّارية - منهم، وكذا أخوالُ آمنةَ أُمِّه عليه الصلاة والسلام كانوا على ما في بعض التواريخ من الأنصار أيضاً.

أو لجميع العرب؛ لِقَرابته عليه الصلاة والسلام منهم جميعاً في الجُملة، كيف لا وهم إما عدنانيون وقريش منهم، وإما قحطانيون والأنصار منهم، وقرابتُه عليه الصلاة والسلام من كلٍّ قد علمت، وذلك يستلزم قرابتَه من جميع العرب، وقُضاعةُ من قَحْطان لا قِسمٌ برأسه على ما عليه مُعظم النسَّابين.

والمعنى: إنْ لم تعرفوا حقِّي لِنبوَّتي وكوني رحمةً عامَّة ونعمةً تامَّةً، فلا أقلَّ من مودَّتي لأجل حقِّ القرابةِ وصلةِ الرحم التي تعتنون بحفظها ورعايتها.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٥٤٧)، والبخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٧/٥١٦.
(٣) مسند أحمد (٢٠٢٤)، وصحيح البخاري (٤٨١٨)، وسنن الترمذي (٣٢٥١)، ولم نقف عليه عند مسلم.
(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٥ مطولاً.

وحاصلُه: لا أطلبُ منكم إلا مودَّتي ورعايةَ حقوقي لِقرابتي منكم وذلك أمرٌ لازمٌ عليكم، ورُوي نحو هذا في «الصحيحين» عن ابن عباس[١]، بل جاء ذلك عنه رضي الله عنه في روايات كثيرة، وظاهرُها أنَّ الخِطابَ لقريش؛ منها ما أخرجه سعيدُ بن منصور وابنُ سعد وعبدُ بن حُميد والحاكم ـ وصحَّحه ـ وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن الشعبي قال: أكثرَ الناسُ علينا في هذه الآية «قل لا أسألكم» إلخ، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله، فكتبَ رضي الله عنه: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان وسطَ النسب في قريش، ليس بطنٌ من بُطونهم إلا وقد وَلدوه، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ على ما أَدْعوكم عليه ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ تَودُّوني لِقرابتي منكم، وتحفظوني بها[٢].

ومنها ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني عنه قال: كان لرسول الله ﷺ قرابةٌ من جميع قريش، فلما كذَّبوه وأَبَوْا أن يُتابعوه قال: «يا قوم إذا أبيتم أن تُتابعوني، فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكون غيرُكم من العرب أولى بحفظي ونُصرتي منكم»[٣].

والظاهرُ من هذه الأخبار أنَّ الآيةَ مكيةٌ، والقولُ بأنها في الأنصار يقتضي كونَها مدنية.

والاستثناءُ متصلٌ بناءً على ما سمعتَ من تعميم الأجر. وقيل: لا حاجةَ إلى التعميم، وكونُ المودَّة المذكورة من أفرادِ الأجر ادعاءٌ كافٍ لاتصال الاستثناء.

وقيل: هو منقطع إما بناءً على أنَّ المودةَ له عليه الصلاة والسلام ليست أجراً أصلاً بالنسبة إليه ﷺ، أو لأنها لازمةٌ لهم لِيُمدحوا بصلة الرحم، فنفعُها عائدٌ عليهم، والانقطاعُ أقطعُ لتوهُّم المنافاة بين هذه الآيةِ والآيات المتضمنةِ لِنفي سؤال الأَجْر مطلقاً.

---

(١) سلف قريباً.

(٢) المستدرك ٢/ ٤٤٤، ودلائل النبوة ١/ ١٨٥، والكلام من الدر المنثور ٦/ ٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٩٥، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٧٥، ومعجم الطبراني الكبير (١٣٠٢٦).

وذهب جماعةٌ إلى أن المعنى: لا أطلبُ منكم أجراً إلا محبَّتَكم أهلَ بيتي وقرابتي، وفي «البحر»[١]: إنه قولُ ابن جُبير والسدي وعمرو بن شُعيب. و«في» عليه للظرفية المَجَازيَّة، و«القربى» بمعنى الأقرباء، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: إلا المودة ثابتة في أقربائي مُتمكِّنة فيهم، ولمكانة هذا المعنى لم يَقُلْ: إلا مودَّةَ القُربى، وذكر أنه على الأول كذلك، وأمر اتِّصال الاستثناء وانقطاعه على ما سبق.

والمراد بقرابته عليه الصلاة والسلام في هذا القول قيل: ولدُ عبد المطلب، وقيل: عليٌّ وفاطمة وولدُها رضي الله عنهم، ورُوي ذلك مرفوعاً؛ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق ابن جُبير عن ابن عباس قال: لما نزلَتْ هذه الآيةُ «قُلْ لا أسألكم» إلخ قالوا: يا رسولَ الله، مَنْ قرابتُك الذين وَجَبتْ مودَّتُهم؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وولدُها»[٢] صلى الله عليه وسلم وعليهم. وسندُ هذا الخبر على ما قال السيوطي في «الدر المنثور»[٣] ضعيفٌ، ونصَّ على ضَعْفه في «تخريج أحاديث الكشاف»[٤] ابنُ حجر. وأيضاً لو صحَّ لم يَقُلْ ابنُ عباس ما حُكي عنه في «الصحيحين» وغيرهما، وقد تقدَّم[٥]، إلا أنه رُوي عن جماعة من أهل البيت ما يُؤيِّد ذلك؛ أخرج ابنُ جرير عن أبي الدَّيْلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله عنهما أسيراً فأُقيم على درج دمشق، قام رجلٌ من أهل الشام فقال: الحمدُ لله الذي قَتلكم واستأْصَلكم. فقال له علي رضي الله عنه: أقرأتَ القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأتَ آل حم؟ قال: نعم. قال: ما قرأتَ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾؟ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم[٦].

وروى زاذان عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: فينا في آل حم آيةٌ لا يحفظ

---

(١) ٧/ ٥١٦.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٧٧، ومعجم الطبراني الكبير (١٢٢٥٩).
(٣) ٦/ ٧.
(٤) ص١٤٥.
(٥) تقدم قريباً.
(٦) تفسير الطبري ٢٠/ ٤٩٩، وأبو الدَّيلم اسمه: حَذْلم بن بشير (أو: ابن بشر). الإكمال ٢/ ٤٠٥.

مودَّتَنا إلا مؤمن، ثم قرأ هذه الآية(١)، وإلى هذا أشارَ الكُميت في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آيةً ... تأوَّلها منَّا تقيٌّ ومُعرِبُ(٢)

ولله تعالى دَرُّ السيد عمر الهيتي أحدُ الأقارب المُعاصرين حيث يقول:

بأيَّةِ آيةٍ يأتي يزيد ... غداةَ صحائفُ الأعمال تُتلى

وقام رسولُ ربِّ العرش يتلو ... وقد صمَّت جميع الخَلْق قل لا

والخطابُ على هذا القول لجميع الأُمَّة لا للأنصار فقط وإن ورد ما يُوهم ذلك، فإنهم كلُّهم مُكَلَّفون بمودة أهل البيت؛ فقد أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم، أن رسولَ الله ﷺ قال: «أُذكِّركم اللهَ تعالى في أهل بيتي»(٣).

وأخرج الترمذي ـ وحسَّنه ـ والطبراني والحاكم والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس قال: قال عليه الصلاة والسلام: «أَحِبُّوا اللهَ تعالى لما يَغْذُوكم به من نعمه، وأَحِبُّوني لحبِّ الله تعالى، وأَحِبُّوا أهلَ بيتي لحبي»(٤).

وأخرج ابنُ حبان والحاكم عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيدِه، لا يُبغِضُنا أهلَ البيت رجلٌ إلا أدخلَه اللهُ تعالى النار»(٥).

إلى غير ذلك مما لا يُحصى كَثْرةً من الأخبار، وفي بعضها ما يدلُّ على عموم القُربى وشُمولها لبني عبد المطلب؛ أخرج أحمد والترمذي ـ وصحَّحه ـ والنسائي

---

(١) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٣، وفي إسناده عبد الغفور أبو الصباح الواسطي، قال البخاري: تركوه، وقال ابن عدي: ضعيف منكر الحديث. ميزان الاعتدال ٢/ ٦٤١.

(٢) ديوان الكميت ص١٨. وقوله: مُعرِب، قال الجوهري في الصحاح (عرب): أعرب بحجته إذا أفصح بها ولم يَتَّقِ أحداً.

(٣) صحيح مسلم (٢٤٠٨)، وسنن النسائي الكبرى (٨١١٩)، وهو عند الترمذي (٣٧٨٨) بمعناه، وأخرجه أحمد (١٩٢٦٥).

(٤) سنن الترمذي (٣٧٨٩)، والمعجم الكبير للطبراني (١٠٦٦٤)، والمستدرك ٣/ ١٥٠، وشعب الإيمان (١٣٧٨).

(٥) صحيح ابن حبان (٦٩٧٨)، والمستدرك ٣/ ١٥٠.

عن المطَّلب بن ربيعة قال: دخل العباسُ على رسول الله ﷺ فقال: إنَّا لَنخرجُ فنرى قريشاً تُحدِّث، فإذا رأَوْنا سكتوا، فغضب رسولُ الله ﷺ ودرَّ عِرْقٌ بين عينيه ثم قال: «واللهِ، لا يدخلُ قلبَ امرئ مسلمٍ إيمانٌ حتى يُحبَّكم لله تعالى ولِقرابتي»(١) وهذا ظاهرٌ إنْ خصَّ القُربى بالمؤمنين منهم، وإلا فقيل: إن الحُكم منسوخٌ. وفيه نَظر، والحقُّ وجوبُ محبة قَرابته عليه الصلاة والسلام من حيث إنهم قَرابته ﷺ كيف كانوا، وما أحسن ما قيل:

داريتُ أهلكَ في هواكَ وهم عِدا ... ولأَجْلِ عينٍ ألفُ عينٍ تُكْرَمُ

وكلما كانت جهةُ القرابة أقوى كان طلبُ المودَّة أشدَّ، فمودَّةُ العلويِّين الفاطميين ألزمُ من محبة العباسيين على القول بعموم «القُربى»، وهي على القول بالخصوص قد تتفاوتُ أيضاً باعتبار تفاوت الجِهات والاعتبارات، وآثارُ تلك المودَّة التعظيم والاحترام، والقيامُ بأداء الحُقوق أتمَّ قيام، وقد تهاونَ كثيرٌ من الناس بذلك حتى عدُّوا من الرفض السلوكَ في هاتيك المسالك، وأنا أقول قولَ الشافعيِّ الشافي العَيِّ:

يا راكباً قِفْ بالمُحصَّب من مِنى ... واهتفْ بساكن خيفها والناهض

سَحراً إذا فاضَ الحجيجُ إلى منى ... فيضاً كملتطمِ الفراتِ الفائض

إنْ كان رَفْضاً حبُّ آل محمد ... فَلْيشهدِ الثَّقلانِ أني رافضي(٢)

ومع هذا لا أعدُّ الخروج عما يعتقده أكابرُ أهل السنة في الصحابة رضي الله عنهم ديناً، وأرى حُبَّهم فرضاً عليَّ مُبيناً، فقد أوجبه أيضاً الشارعُ، وقامت على ذلك البراهين السواطع.

ومن الظرائف ما حكاه الإمام عن بعض المُذَكِّرين قال: إنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَثَلُ أهل بيتي كسفينةِ نوح، مَنْ رَكِبَ فيها نجا ومن تخلَّف عنها

---

(١) مسند أحمد (١٧٥١٥)، وسنن الترمذي (٣٧٥٨)، وسنن النسائي الكبرى (٨١٢٠)، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد الهاشمي، وهو ضعيف كما في التقريب.

(٢) ديوان الشافعي ص٥٥، وذكرها الرازي في تفسيره ٧/ ١٦٦.

هَلك»[١] وقال: ﷺ: «أصحابي كالنُّجوم بأيهم اقْتديتُم اهتديتُم»[٢] ونحن الآن في بحر التكليف وتَضْربنا أمواجُ الشُّبهات والشهوات، وراكبُ البحر يحتاج إلى أمرين: أحدهما: السفينة الخالية عن العيوب. والثاني: الكواكبُ الطالعة النَّيِّرة، فإذا رَكِبَ تلك السفينةَ ووضع بَصَره على تلك الكواكب كان رجاءُ السلامة غالباً، فلذلك رَكِبَ أصحابُنا ـ أهلَ السنة ـ سفينةَ حُبِّ آل محمد ﷺ، ووضعوا أبصارَهم على نجوم الصحابة يرجُون أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة[٣]. انتهى.

والكثيرُ من الناس في حقِّ كلٍّ من الآل والأصحاب في طرفي التفريط والإفراط، وما بينهما هو الصراطُ المستقيم، ثَبَّتنا اللهُ تعالى على ذلك الصراط.

وقال عبد الله بن القاسم: المعنى: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أنْ يودَّ بعضُكم بعضاً، وتَصِلوا قَراباتِكم، وأمرُ «في» والاستثناءِ لا يخفى.

وأخرج عبد بن حُميد عن الحسن أن المعنى: لا أسألُكم عليه أجراً إلا التقرُّب إلى الله تعالى بالعمل الصالح[٤]. فالقُربى بمعنى القَرابة، وليس المرادُ قرابةَ النسب. قيل: ويجري في الاستثناء الاتصالُ والانقطاع، واستظهر الخفاجي[٥] أنه منقطع، وأنه على نهج قوله:

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٣٩٠) من حديث أبي ذر ﷺ، وفي إسناده عمرو بن عبد الغفار الفقيمي، قال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال ابن عدي: اتهم بوضع الحديث. ميزان الاعتدال ٣/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (٧٨٣) من حديث ابن عمر ﷺ، وفي إسناده حمزة النَّصِيبي؛ قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: عامّة ما يرويه موضوع. ميزان الاعتدال ١/ ٦٠٦. وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذا الحديث في التلخيص الحبير ٤/ ١٩٠ وعدَّد طرقه، وكلها تالفة، ونقل عن البزار قوله: هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ، وعن ابن حزم قولَه: هذا خبر مكذوب موضوع باطل.

(٣) تفسير الرازي ٢٧/ ١٦٧.

(٤) وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٠٠.

(٥) في حاشيته على البيضاوي ٧/ ٤١٩.

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفَهم.. البيت[١]

وأراه على القول قبلَه كذلك.

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: «إلا مَوَدَّةً في القربى»[٢].

هذا، ومن الشيعة من أورد الآيةَ في مقام الاستدلال على إمامة عليٍّ كرم الله تعالى وجهه؛ قال: عليٌّ كرم الله تعالى وجهه واجبُ المحبة، وكلُّ واجبِ المحبة واجبُ الطاعة، وكلُّ واجبِ الطاعة صاحبُ الإمامة، ينتج: عليٌّ رضي الله عنه صاحبُ الإمامة. وجعلوا الآيةَ دليلَ الصُّغرى.

ولا يخفى ما في كلامهم هذا من البحث:

أما أولاً: فلأنَّ الاستدلالَ بالآية على الصُّغرى لا يتمُّ إلا على القول بأنَّ معناها: لا أسألُكم عليه أجراً إلا أن تودُّوا قرابتي، وتُحِبُّوا أهلَ بيتي، وقد ذهب الجمهور إلى المعنى الأول، وقيل في هذا المعنى: إنه لا يناسب شأنَ النبوة لِمَا فيه من التُّهمَة، فإنَّ أكثرَ طلبةِ الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه ما يكون فيه نَفْعٌ لأولادهم وقراباتهم، وأيضاً فيه منافاةٌ مّا لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وأما ثانياً: فلأنَّا لا نُسلِّم أنَّ كلَّ واجبِ المحبة واجبُ الطاعة، فقد ذكر ابن بابويه[٣] في كتاب «الاعتقادات» أنَّ الإمامية أجمعوا على وجوب محبة العلوية مع أنه لا يجب طاعةُ كلٍّ منهم.

وأما ثالثاً: فلأنَّا لا نُسلِّم أن كلَّ واجبِ الطاعة صاحبُ الإمامة، أي: الزعامة الكُبرى، وإلا لكان كلُّ نبي في زمنه صاحبَ ذلك، ونصُّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] يأبى ذلك.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١، وعجزه: بهنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائب.

(٢) أوردها أبو حيان في البحر ٧/ ٥١٦.

(٣) محمد بن علي بن الحسين القُمِّي، رأس الإمامية، وصاحب التصانيف السائرة بينهم، يضرب بحفظه المثل. السير ١٦/ ٣٠٣.

وأما رابعاً: فلأن الآيةَ تقتضي أن تكون الصُّغرى: أهلُ البيت واجبو الطاعة، ومتى كانت هذه صُغرى قياسهم لا ينتج النتيجة التي ذكروها ولو سُلِّمت جميع مُقدِّماته، بل ينتج: أهلُ البيت صاحبو الإمامة، وهم لا يقولون بعمومه. إلى غير ذلك من الأبحاث، فتأمَّلْ ولا تَغْفُلْ.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي: يكتسب أيَّ حسنةٍ كانت، والكلام تذييلٌ، وقيل: المرادُ بالحسنة المَودَّة في قُربى الرسول ﷺ، ورُوي ذلك عن ابن عباس والسُّدي، وأنَّ الآيةَ نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لِشدَّة محبته لأهل البيت(١)، وقصةُ فَدَك والعوالي لا تأبى ذلك عند من له قلبٌ سليم(٢). والكلام عليه تتميمٌ، ولعلَّ الأولَ أَوْلى، وحبُّ آل الرسول عليه الصلاة والسلام من أعظم الحسنات، وتدخلُ في الحسنة هنا دخولاً أولياً.

﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ أي: في الحسنة ﴿حُسْنًا﴾ بمضاعفة الثوابِ عليها، فإنها يُزاد بها حُسن الحسنة، فـ «في» للظرفية و«حُسناً» مفعولٌ به أو تمييز.

وقرأ زيد بن عليّ، وعبد الوارث عن أبي عمرو، وأحمد بن جُبير عن الكسائي: «يزد» بالياء، أي: يزد اللهُ تعالى، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «حُسنى» بغير تنوين(٣)، وهو مصدرٌ كَبُشرى، أو صفةٌ لموصوفٍ مقدَّرٍ، أي: صفة أوخَصْلة حُسنى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ساترٌ ذنوبَ عباده ﴿شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ مُجازٍ مَن أطاع منهم بتوفيةِ الثواب والتفضُّل عليه بالزيادة، وقال السُّدي: غفورٌ لذنوب آل محمد ﷺ شكورٌ لحسناتهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بدعوى النبوة أوالقرآن، والهمزة للإنكار التوبيخي، و«بل» للإضراب من غير

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٦٧، والبيضاوي في تفسيره (بهامش حاشية الشهاب) ٧/ ٤١٩.
(٢) ينظر في هذه القصة ما سلف ٥/ ٣٤٥.
(٣) القراءتان في البحر المحيط ٧/ ٥١٦. وهما غير المشهور عن أبي عمرو والكسائي.

إبطال، وهو إضرابٌ أطمُّ من الأول فأطم، فإنَّ إثباتَ ما هم عليه من الشرع وإنْ كان شرّاً وشركاً أقربُ من جَعْل الحقِّ الأبلج المُعتضِد بالبرهان النيِّر مِن أوسطهم فضلاً ودَعَةً وعقلاً افتراءً ثم افتراء على الله عز وجل، فكأنه قيل: أَيَتمالَكون التفوُّه بنسبةِ مثلِهِ عليه الصلاة والسلام إلى الافتراء(١) على الله عز وجل الذي هو أعظمُ الفِرى وأَفحشُها ولا تحترقُ ألسنتهم؟!

وفي ذلك أتمُّ دلالة على بُعده ﷺ من الافتراء، كيف وقد أَردف بقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ فإنَّ هذا الأسلوبَ مُؤَدَّاه استبعادُ الافتراء من مثله عليه الصلاة والسلام، وأنه في البُعد مثلُ الشِّرك بالله سبحانه والدخول في جملة المختومِ على قلوبهم؛ فكأنه قيل: فإن يشأ اللهُ سبحانه يَجْعَلْكَ من المختومِ على قُلوبهم حتى تفتريَ عليه الكَذب، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذبِ على الله تعالى إلا مَنْ كان في مِثْل حالهم، وهو في معنى: فإنْ يشأ يَجْعَلْكَ منهم، لأنهم هم المُفترون الذين شَرَعوا من الدين ما لم يأذَنْ به اللهُ تعالى، وما أحسنَ هذا التعريض بأنهم المُفترون، وأنهم في نفس هذه المَقالة عن افترائهم مُفترون، ونظيرُ الآية فيما ذُكر قولُ أمينٍ نُسِبَ إلى الخيانة: لعلَّ اللهَ تعالى خذلني، لعلَّ اللهَ تعالى أعمى قلبي، وهو لا يُريد إثباتَ الخِذْلان وعمى القلب، وإنما يريدُ استبعادَ أن يُخوَّنَ مِثْله، والتنبيهَ على أنه رُكب من تخوينه أمرٌ عظيم، فالكلامُ تعليلٌ لإنكار قولهم.

وأتى بـ «إنْ» مع أنَّ عدمَ مشيئته تعالى مقطوعٌ به قيل: إرخاء للعنان، وقيل: إشعاراً بعظمته تعالى، وأنه سبحانه غنيٌّ عن العالمين.

ثم ذيَّل بقوله تعالى: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ تأكيداً للمفهومِ من السابق مِنْ أنه ليس من الافتراء في شيء، أي: كيف يكون افتراء ومِن عادته تعالى محوُ الباطل ومَحْقُه، وإثباتُ الحقِّ بوحيه أوبقضائه، وما أتى به عليه الصلاة والسلام يزدادُ كلَّ يوم قوةً ودَخْراً(٢)، فلو كان مُفترِياً كما يَزْعُمون لَكشفَ اللهُ تعالى افتراءه ومَحَقَهُ وقذفَ بالحقِّ على باطلِهِ فَدَمَغَهُ.

---

(١) بعدها في (م): ثم إلى الافتراء.

(٢) في (م): ودحواً!

والفعلُ المضارع للاستمرار، والكلامُ ابتدائي، فـ «يمحُ» مرفوعٌ لا مجزوم بالعطف على «يختم»، وأُسقطَت الواو في الرَّسم في أغلبِ المصاحف تبعاً لإسقاطها في اللفظ لالتقاءِ الساكنين كما في ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] و﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١] وكان القياسُ إثباتَها رسماً، لكن رَسْم المُصحف لا يلزم جَرْيُه على القياس، ويُؤيِّد الاستئنافَ دون العطف على «يختم» إعادةُ الاسم الجليل ورفع «يُحِقّ». وهذا ما ذكره جار الله(١) في الجملتين وبيانِ ارتباطهما بما قبلهما.

وقد دقَّق النظر في ذلك وأتى بما استحسنه النُّظار، حتى قال العلامة الطيبي: لو لم يكن في كتابه إلا هذا لَكفاه مَزِيَّةً وفَضْلاً، وجوّز هو أيضاً في قوله تعالى: «ويَمْحُ» إلخ أن يكون عِدَةً لرسول الله ﷺ بالنصر، أي: يمحو اللهُ تعالى باطِلَهم وما بهتوكَ به، ويُثْبت الحقَّ الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مردَّ له، وحينئذ يكون اعتراضاً يُؤكِّد ما سيق(٢) له الكلامُ من كونهم مُبطلين في هذه النسبة إلى مَن هو أصدقُ الناس لهجةً بأصدق حديث من أصدق مُتكلِّم.

وقال في «إرشاد العقل السليم» في الجملة الأُولى: إنها استشهادٌ على بطلان ما قالوه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام لو افترى على الله تعالى كَذِباً لمنعه من ذلك قطعاً، وتحقيقُه أنَّ دعوى كون القرآن افتراءً عليه تعالى قولٌ منهم أنه سبحانه لا يشاء صُدوره عن النبي ﷺ، بل يشاء عدمَ صدوره عنه، ومن ضرورياته منعُه عنه قطعاً، فكأنه قيل: لو كان افتراءً عليه تعالى لشاء عدمَ صدوره عنك، وإنْ يشأ ذلك يختِمْ على قلبك بحيث لم يخطرْ ببالك معنًى من معانيه، ولم تنطِقْ بحرف من حروفه، وحيث لم يكن الأمرُ كذلك، بل تواترَ الوحيُ حيناً فحيناً، تبيَّن أنه من عند الله عز وجل. وذكر في الجملة الثانية ما ذكره جار الله من الوجهين(٣).

ولا يخفى عليك ما يَرِدُ على كلامه من المنع، مع أنَّ فيه جَعْلَ مفعول المشيئة غيرَ ما يدلُّ عليه الجواب، وهو ذلك المشارُ به إلى عدم الصدور، والمتبادرُ كون

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٦٨.
(٢) في الأصل: سبق.
(٣) تفسير أبي السعود ٨/ ٣١.

المفعول الختمَ على ما هو المعروف في نظائر هذا التركيب، أي: فإنْ يشأ اللهُ تعالى الخَتْم على قلبك يَخْتِم. وإيهامَ كون القرآن ناشئاً منه ﷺ لا مُنزلاً عليه عليه الصلاة والسلام.

وقال السمرقندي: المعنى: إنْ يشأ يختِمْ على قلبك كما فعل بهم، فهو تسليةٌ له عليه الصلاة والسلام وتذكيرٌ لإحسانه إليه وإكرامه له ﷺ لِيشكر ربَّه سبحانه ويترحَّم على مَن خُتِمَ على قلبه فاستحقَّ غضب ربِّه، ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر، فالتفريعُ بالنظر إلى المعنى المَكْني عنه، وحاصلُه أنهم اجترؤوا على هذا لأنهم مطبوعون على الضلال. انتهى. وفيه شمةٌ مما ذكره الزمخشري.

وعن قتادة وجماعة: «يختِمْ على قلبك»: يُنْسِكَ القرآن، والمرادُ على ما قال ابن عطية: الردُّ على مقالةِ الكُفَّار وبيانُ بطلانها، كأنه قيل: وكيف يصحُّ أن تكونَ مفترياً وأنت من الله تعالى بمرأى ومَسْمعٍ، وهو سبحانه قادرٌ، ولو شاء لختم على قلبكَ فلا تَعْقِل ولا تَنْطِق، ولا يستمرّ افتراؤك[1]. وفيه أنَّ اللفظ ضيقٌ عن أداء هذا المعنى.

وذكر القشيري[2] أن المعنى: فإنْ يشأ اللهُ تعالى يختِمْ على قلوب الكُفَّار وعلى ألسنتهم ويُعاجلهم بالعذاب، وعَدَلَ عن الغيبة إلى الخطاب ومن الجَمْع إلى الإفراد. وحاصلُه: يَختِم على قلبك أيها القائل: إنه عليه الصلاة والسلام افترى على الله تعالى كَذِباً. وفيه من البُعد ما فيه، مع أن الكُفَّار مختومٌ على قلوبهم.

وقال مجاهد ومقاتل: المعنى: فإن يشأ يربطْ على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشقَّ عليك قولُهم: إنك مُفْتَرٍ. ولا مانعَ عليه من عطف «يَمْحُ» على جواب الشرط، بل هو الظاهر، فيكون سقوطُ الواو للجازم، و«يُحِقُّ» حينئذ مستأنفٌ، أي: وإنْ يشأ يمحُ باطِلَهم عاجلاً، لكنه سبحانه لم يَفعلْ لحكمةٍ، أومطلقاً، وقد فعل جلَّ وعلا بالآخرة وأظهر دينَه.

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤-٣٥.
(٢) كما في تفسير القرطبي ١٨/ ٤٧١.

وقيل: لا مانعَ من العطفِ على بعض الأقوالِ السابقة أيضاً، أي: إنْ يشأ يمحُ افتراءك لو افتريتَ. وهو كما ترى.

وكذا جُوِّز كونُ الجملة حاليةً وإنْ أحوجَ ذلك إلى تقدير المبتدأ، وفيه تكلفٌ مستغنًى عنه.

وربما يقال: إنَّ جملة «فإنْ يشأ اللهُ يَخْتِمْ» من تتمةِ قولهم مفرَّعاً على «افترى»، كأنه قيل: افترى على الله كذباً، فإنْ يشأ اللهُ يختِمْ على قلبه بسببِ افترائه فلا يعقِلُ شيئاً، أوكأنه قيل: افتريتَ على الله فإنْ يشأ يختِمْ على قلبك جزاءَ ذلك، إلا أنَّ نكتةَ اختيار الغَيبةِ في إحدى الجملتين والخطابِ في الأخرى غيرُ ظاهرة، وكونُها الإشارة إلى أنَّ مَن افترى يحقُّ أن يُواجَه بالجَزاء ليس مما يهشُّ له السامع فيما أرى.

ولعلَّ الأولى أن يكون «فإن يشأ» إلخ مفرَّعاً على كلامهم، خارجاً مخرجَ التهكُّم بهم، ولا بأس حينئذ بعطف «يمحُ» على جوابِ الشرط، ويُرادُ بالباطل ما هو باطلٌ بِزَعْمهم، كأنه قيل: أَمْ يقولون افترى على الله، فإذاً إن يشأ اللهُ يختِمْ على قلبك ويمحُ ما يَزْعُمون أنه باطل، وهذا كما تقول لمن أخبركَ أن زيداً افترى عليك وأنت تعلمُ أنه لم يَفْتَرِ، وإنما أدَّى عنك ما أمرتَه به: فإذاً نُؤدِّبه وننتقم منه ونمحو افتراءَه؛ تقصِدُ بذلك التهكُّمَ بالقائل. فتأمل.

فهذه الآية ـ كما قال الخفاجي[1] ـ من أصعبِ ما مرَّ في كلامه تعالى العظيم، وفَّقنا اللهُ تعالى وإيَّاكم لِفَهْم مَعانيه والوقوفِ على سرِّه وخافيه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ فيعلم سبحانه ما في صدرك وصدورهم فيُجري جلّ وعلا الأمرَ على حسب ذلك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه، والقَبولُ يُعدَّى بعن لِتضمُّنه معنى الإبانة، وبمن لتضمُّنه معنى الأخذ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤] أي: تُؤخذ.

---

(١) في حاشيته على البيضاوي ٧/ ٤١٩.

وقيل: القَبول مُضَمَّنٌ هنا معنى التجاوز، والكلامُ على تقدير مضاف، أي: يقبل التوبةَ مُتجاوِزاً عن ذنوب عباده. وهو تكلُّف.

والتوبة: أن يرجعَ عن القَبيح والإخلال بالواجب في الحال، ويندمَ على ما مضى ويَعزِمَ على تركه في المستقبل، وزادوا التَّفَصِّي(١) منه بأي وجه أمكن إنْ كان الذنبُ لعبدٍ فيه حقٌّ، وذلك بالردِّ إليه أو إلى وكيلِهِ، أو الاستحلال منه إن كان حيّاً، وبالردِّ إلى ورثتِهِ إنْ كان ميتاً وَوُجِدوا، ثم القاضي لو كان أميناً ـ وهو كالإكسير، ومَن رأى الإكسير؟! ـ فإنْ لم يَقدِرْ على شيء من ذلك يتصدَّق عنه، وإلا يَدْعُ له ويستغفر.

وفي «الكشف»: التفصِّي داخلٌ في الرجوع؛ إذْ لا يصحُّ الرجوعُ عنه وهو ملتبسٌ به بعدُ، واختير أن حقيقتها الرجوعُ، وإنما الندمُ والعزمُ ليكونَ الرجوعُ إقلاعاً، ويتحقَّقَ أنه التوبة التي ندبنا إليها، وهو موافقٌ لِمَا في «الإحياء» من أنها اسمٌ لتلك الحالة بالحقيقة، والباقي شروطُ التحقُّق.

ويُشترط أيضاً أن يكون الباعثُ على الرجوع مع الندم والعزم دينيًّا، فلو رَجَعَ لمانعٍ آخرَ من ضَعْفِ بدن أو غرم لذلك لم يكن من التوبة في شيء، وأشار الزمخشري(٢) إلى ذلك بكون الرُّجوعِ لأنَّ المرجوعَ عنه قبيحٌ وإخلالٌ بالواجب، وخرج عنه ما لو رَجَع طلباً للثناء أورِياء أوسُمعةٍ؛ لأنَّ قبحَ القبيح معناه كونُه مقتضياً للعقاب آجلاً وللذمِّ عاجلاً، فلو رَجَعَ لِمَا سبق لم يكن رجوعاً لذلك.

وروى جابر أنَّ أعرابيّاً دخل مسجدَ رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوبُ إليك، وكبَّر، فلما فرغَ من صلاته قال له عليّ كرم الله وجهه: إن سُرعةَ اللسان بالاستغفار توبةُ الكذَّابين، وتوبتُك تحتاج إلى التوبة. فقال: يا أمير المؤمنين، ما التوبة؟ قال: اسمٌ يقعُ على ستةِ معانٍ: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتَضْيِيعِ الفرائض الإعادة، وردّ المظالم، وإذابةُ النفس في الطاعة كما ربَّيتها في المعصية، وإذاقةُ النفس مرارةَ الطاعة كما أذقتها حلاوةَ المعصية،

---

(١) التفصِّي: التخلُّص من خير أو شر. القاموس المحيط (فصي).
(٢) في الكشاف ٣/ ٤٦٨.

والبكاءُ بدل كلِّ ضَحِكٍ ضَحِكْتَه[1].

وهذا يَحْتَمِلُ أن تكون التوبةُ مجموعَ هذه الأمور، فالمرادُ أكملُ أفرادها، ويحتمل أنها اسمٌ لكلِّ واحد منها، والأولُ أظهرُ.

واختلف في التوبة عن بعض المعاصي مع الإصرار على البعض؛ هل هي صحيحة أمْ لا؟ والذي عليه الأصحاب أنها صحيحةٌ؛ لِظواهر الآياتِ والأحاديث، وصِدْقِ التعريف عليها.

وأكثرُ المعتزلةِ على أنها غيرُ صحيحة، قال أبو هاشم منهم: لو تاب عن القَبيح لكونه قبيحاً وجب أن يتوبَ عن كلِّ القبائح، وإنْ تاب عنه لا لمجرَّد قُبحه بل لِغرض آخرَ لم تَصِحَّ توبتُه.

وتُعقِّب بأنه يجوز أن يكونَ الباعثُ شدةَ القُبح أو أمراً دينياً آخرَ، وأيضاً يجري نظيرُ هذا في فعل الحَسَنِ، بل يقال: لو فعل الحسنَ لكونه حسناً وجب عليه أن يفعلَ كلَّ حسن، وإنْ فعله لِغرضٍ آخرَ لم يُقبل. وفيه بحث.

واستدلَّ المعتزلة بالآية على أنه يجب عليه تعالى قَبول التوبة. واستدلَّ أهلُ السنة بها على عدم الوجوب، لمكان التمدُّح، ولا تمدُّحَ بالواجب، وفيه أيضاً بحثٌ، وإلا نفع في هذا المقام أدلةُ نفي الوجوب مطلقاً عليه عز وجل.

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغائرها وكبائرها لمن يشاء من غير اشتراطِ شيء، كالتوبة للكبائر واجتنابها للصغائر. وقال الطيبي: المعنى: من شأنه ـ تعالى شأنُه ـ قَبولُ التوبة عن عباده إذا تابوا، والعفوُ عن سيئاتهم بمحض رحمته أو بشفاعةِ شافع.

وقال المعتزلة: أي: يعفو عن الكبائر إذا تِيبَ عنها، وعن الصغائر إذا اجتُنبت الكبائر، فالعفو عن السيئات عليه أعمُّ من قَبول التوبة لِشُموله الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، وهو تعميمٌ بعد تخصيص.

والظاهرُ مع أهل السنة؛ إذْ لا دلالة في النظم الجليل على تخصيص السيئات، نعم المرادُ بها غير الشِّرك بالإجماع.

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٨/ ٣١٥.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بتاء الخطاب عند حفص والأخوين وعلقمة وعبد الله، وبياء الغيبة عند الجمهور[١]، وعلى الأول ففيه التفاتٌ، و«ما» موصولة، والعائدُ محذوف، أي: يعلم الذي تفعلونه كائناً ما كان من خير وشرّ، فيجازي بالثواب والعِقاب، أويتجاوزُ سبحانه بالعفو حسبما تقتضيه مشيئتُه جلَّ وعلا المَبْنيَّةُ على الحِكَم والمَصَالح.

وقيل: يعلم ذلك فيجازي التائبَ، ويتجاوزُ عن غيره إذا شاء سبحانه، والأولُ أظهر. وفي «الكشاف»[٢]: يعلم سبحانه ذلك فَيُثيب على الحسنات ويُعاقِبُ على السيئات. وفي «الكشف» بعد نقله: هو - أي: قوله تعالى: «ويعلم» إلخ - تذييلٌ للكلام السابق يؤكِّد ما ذكره من القَبول والعفو؛ لأنه تعالى إذا علم العَمَلين والعاملين جازى كلًّا بما فعل، فأولى أنْ يُجازي هؤلاء المحسنين بأفعالهم، ثم فيه لطفٌ وحثٌّ على لزوم الحَذَر منه تعالى، والإخلاصِ له سبحانه في إمحاض التوبة، ونحن أيضاً لا نُنكر أنه تذييلٌ فيه تأكيدٌ كما لا يخفى.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عطفٌ على «يقبل التوبة» فالفاعل ضميرُه تعالى. و«الذين» مفعول بدون تقدير شيء بناءً على أنَّ «يستجيب» يتعدَّى بنفسه كما يتعدَّى باللام، نحو: شكرتُه وشكرتُ له، أوبتقدير اللام على أنه من باب الحذف والإيصال، والأصل: يستجيبُ للذين آمنوا، بناءً على أنه يتعدَّى للداعي باللام، وللدعاء بنفسه، ونحوُ هذا قوله:

وداعٍ دعا يا من يُجيبُ إلى النَّدى فلم يَستجبه عند ذاك مُجيبُ[٣]

وأَجابَ واستجابَ بمعنًى، أي: ويُجيب اللهُ تعالى الذين آمنوا إذا دَعَوْا، وحاصِلُه: يُجيب دعاءَهم. وجوَّز بعضُهم أن يكونَ الكلامُ بتقدير هذا المضاف، قيل: وهو أَولى من القول بإيصال الفعل بحذف الصِّلة؛ لأنَّ حذف المضاف إذا لم يلبس مُنقاس، وذاك مسموع.

---

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧. والأخوان: هما حمزة والكسائي.

(٢) ٣/ ٤٦٩.

(٣) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في الأصمعيات ص٩٦.

ويجوز أن يكون المرادُ: يُثيبهم على طاعتهم، فإنَّ الطاعةَ لكونها طَلَبَ ما يترتَّب عليها من الثواب شابهَتِ الدعاءَ وشابهت الإثابةُ عليها الإجابةَ، ومن هذا يُسمَّى الثناءُ دعاءً؛ لأنه يترتَّب عليه ما يترتَّب عليه. وسُئل سفيان عن قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: «أكثرُ دعائي ودُعاءُ الأنبياء قبلي: لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير»(١) فقال: هذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ شغله ذِكْري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين»(٢) ألا ترى قولَ أُمية بن الصَّلت لابن جدعان حين أتاه يبغي نائله:

أأذكُر حاجتي أَمْ قد كَفاني ... ثناؤك إنَّ شيمتَكَ الحياء
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كفاه عن تعرُّضك الثناء(٣)

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ: «أفضلُ الدُّعاء الحمدُ لله»(٤) على معنى أنَّ الحمدَ يدلُّ على الدعاء والسؤال بطريق الكناية والتعريض.

وقيل: هو على إطلاق الدُّعاء على الحمد لشبهه به في طلب ما يترتَّب عليه.

وجُوِّز أنْ يُرادَ بالإجابة معناها الحقيقيُّ والإثابة بناءً على القول بصحة الجمع بين الحقيقة والمجاز، أي: يُجيب دعاءَهم ويُثيبهم على الطاعة ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ على ما سألوا واستحقُّوا ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ الواسع جلَّ شأنُه.

وقيل: إنَّ فاعل «ويستجيبُ»: «الذين آمنوا»، واستظهره أبو حيان(٥)، والجملةُ عطفٌ على مجموع قوله تعالى: (هو ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ) إلخ، أي: ينقادون لله تعالى ويُجيبونه سبحانه إذا دعاهم، وهو المرويُّ عن ابن جُبير.

وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما لنا ندعو فلا نُجاب؟ فقال: لأنه سبحانه

(١) سلف ١١/ ٤٢-٤٣.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٢٠) من سورة الإسراء.
(٣) ديوان أمية ص١٧، وشرح الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٧٨١، وفيهما: حياؤك، بدل: ثناؤك. و: من تعرُّضه، بدل: عن تعرُّضك.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠) من حديث جابر ﷺ.
(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥١٧.

دعاكم فلم تُجيبوه، ثم قرأ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] و(وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)[١]. وهذا يُؤكِّد هذا الوجهَ؛ لأنه ـ قُدِّس سرُّه ـ ذكر أن الله تعالى دعاكم بقوله عز وجل: (وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ) وذكر أن المؤمن من استجابَ دعوةَ ربِّه تعالى بقوله: (وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) فمن لا يُجيب دعاءه تعالى لا يُجيب تعالى أيضاً دعاءه.

وكون الفاعل ضميرَه تعالى قد رُوي ما يقتضيه عن ابن عباس ومعاذ بن جبل[٢]. «ويَزيدهم» عليه عطفٌ على ما قبلَه، وعلى الوجه الآخر عطفٌ على مُقدَّر، أي: فَيُوفِّيهم أجورهم ويَزيدهم عليها، على أسلوب ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ [النمل: ١٥] وقوله سبحانه: (مِّن فَضْلِهِۦٓ) متعلِّقٌ بـ «يزيدهم» مطلقاً، وجُوِّز تعليقُه بالفعلين على التنازع، فإنَّ الإجابةَ والثوابَ فضلٌ منه تعالى كالزيادة. وأيَّاما كان فالظاهرُ عمومُ «الذين آمنوا».

ورُوي عن سعيد بن جُبير [عن ابن عباس] أن رسول الله ﷺ حين قَدِمَ المدينةَ واستحكم الإسلامُ قالت الأنصار فيما بينها: نأتي رسولَ الله عليه الصلاة والسلام ونقول له: إنْ تَعرُكَ أمورٌ فهذه أموالُنا تحكم فيها. فنزلت: (قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ) فقرأها عليهم، وقال: «تودُّون قرابتي من بعدي» فخرجوا مُسلِّمين، فقال المنافقون: إنَّ هذا لشيءٌ افتراه في مَجْلسه أراد بذلك عزَّ قرابته من بعده. فنزلت: (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا) فأَرسل إليهم، فتلاها عليهم، فبكَوْا ونَدِموا، فأنزل الله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ) فأرسلَ ﷺ إليهم فبَشَّرهم، وقال: (وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) وهم الذين سَلَّموا لقوله. ذَكر ذلك الطبرسي[٣]، وذَكر قريباً منه في «الدر المنثور» لكن قال: أخرجه الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه عن ابن جُبير بسند ضعيف[٤]، والذي يغلب على الظنّ الوضع.

---

(١) الكشاف ٣/٤٦٩.
(٢) قول معاذ ﷺ أخرجه الطبري ٢٠/٥٠٧، وذكره عنهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٣٥.
(٣) في مجمع البيان ٢٥/٥٠، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٤) الدر المنثور٦/٧، وهو في المعجم الأوسط (٥٧٥٨)، وفي الكبير (١٢٣٨٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٠٣: فيه عثمان بن عمير أبو اليقظان، وهو ضعيف.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ بَدَلَ ما للمؤمنين من الإجابة والتفضُّل.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لَتكبَّروا فيها بطراً، وتجاوزوا الحدَّ الذي يليقُ بالعبيد، أولَظلمَ بعضُهم بعضاً، فإنَّ الغِنى مَبْطرةٌ مَأْشرةٌ، وكفى بحال قارونَ عبرةً، وفي الحديث: «أَخْوَفُ ما أخاف على أُمتي زهرةُ الدنيا وكَثْرتُها»[1] ولبعض العرب:

وقد جعل الوَسْميُّ يُنبت بيننا وبين بني رومان نَبْعاً وشَوْحَطا[2]

وأصلُ البغي طلبُ أكثر مما يجب بأنْ يتجاوز في القَدْر والكمية، أو في الوصف والكيفية.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف من الإنزال[3].

﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقديرٍ ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ وهو ما اقتضَتْه حِكمتُه جلَّ شأنه.

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ محيطٌ بخفيَّات أُمورهم وجَلاياها، فيقدِّر لكلِّ واحد منهم في كل وقت من أوقاتهم ما يَليق بشأنه، فَيُفقِر ويُغني، ويمنع ويُعطي، ويقبِضُ ويَبسطُ، حسبما تقتضيه الحِكمةُ الربَّانية، ولو أغناهم جميعاً لَبَغَوْا، ولو أَفقرهم لهلكوا.

واستشكلَت الآيةُ بأنَّ الغِنى كما يكون سببَ البغي فكذلك الفقر قد يكون، فلا يظهر الشرطية.

وأجاب جارُ الله[4] بأنه لا شُبهة أن البغي مع الفقر أقلُّ، ومع البَسْطِ أكثرُ

---

(١) أخرجه أحمد (١١١٥٧)، والبخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢) بنحوه، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أورده أبو العلاء في رسالة الصاهل والشاحج ص٥٤٠، وابن قتيبة في المعاني الكبير ٢/ ٨٩٥، وبنو رومان: رَهْط من طيِّئ، كما في الاشتقاق ص٣٨٠. والوَسْمي: مطر الربيع الأول، كما في القاموس (وسم)، والنبع والشوحط: ضربان من الشجر، وهي هاهنا القِسيّ. قاله ابن قتيبة.

(٣) التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٤) في الكشاف ٣/ ٤٦٩.

وأغلبُ، وكلاهما سببٌ ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عمَّ البسط لغلبَ البغيُ حتى ينقلبَ الأمرُ إلى عكس ما عليه الآن.

وأراد ـ واللهُ تعالى أعلمُ ـ أن نظامَ العالم على ما هو عليه يستمرّ وإن كان قد يصدرُ من الغني في بعض الأحيان بغيٌ، ومن الفقير كذلك، لكن في أحدِهما ما يدفعُ الآخرَ، أما لو أفقرهم كلَّهم لكان الضَّعفُ والهُلْكُ لازماً، ولو بسطَ عليهم كلِّهم مع أن الحاجةَ طبيعيةٌ لكان من البغي ما لا يُقادَر قَدْرُه؛ لأن نظامَ العالم بالفقر أكثرُ منه بالغنى، وهذا أمرٌ ظاهرٌ مكشوفٌ. ثم إن الفقرَ الكُلِّي لا يُتصوَّر معه البغي، للضَّعف العامِّ، ولأنه لا يَجِدُ حاجته عند غيره لِيَظْلمه، وأما الغِنى الكُلِّي فعنده البغي التامّ. وأما الذي عليه سنَّةُ الله عز وجل فهو الذي جمع الأمرين مُشتملاً على خوفٍ للغني من الفقراء يَزَعُه عن الظُّلم، وخوفٍ للفقير من الأغنياء أكثرَ منه يدعوه إلى التعاون لِيفوزَ بمبتغاه، ويَزَعُه عن البغي، ثم قد يَتَّفق بغيٌ من هذا أو ذاك.

كذا قرَّره صاحبُ «الكشف» ثم قال: وهذا جوابٌ حسنٌ لا تَكَلُّفَ فيه، وهو إشارةٌ إلى ردِّ العلَّامة الطيبي، فإنه زعم أنه جوابٌ مُتَكَلَّف، وأن السؤال قويّ، وذهب هو إلى أنَّ المرادَ بـ «عبادِه» مَنْ خصَّهم الله تعالى بالكَرامة وجعلهم من أوليائه، ثم قال: وينصره التذييلُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ ووضع المُظهر موضعَ المُضمَر، أي: إنه تعالى خبيرٌ بأحوال عبادِهِ المُكرمين بصيرٌ بما يُصلحهم وما يُرْدِيهم، وإليه ينظرُ ما ورد عنه ﷺ: «إذا أحبَّ اللهُ تعالى عبداً حماهُ الدنيا كما يظلُّ أحدُكم يحمي سَقِيمَه الماء»[1] ويشدُّ من عَضُدِه قولُ خَبَّاب بن الأرَتّ: نظرنا إلى أموالِ بني قريظةَ والنضير وبني قَيْنُقاع فتمنَّيناها، فنزلت ﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾ الآية، وقولُ عمرو بن حريث[2]: طلبَ قومٌ من أهل الصُّفَّة من الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٦) من حديث قتادة بن النعمان رضي الله عنه.

(٢) المخزومي، كان من بقايا أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا نزلوا الكوفة، مولده قُبيل الهجرة، توفي سنة (٨٥هـ). السير ٣/ ٤١٧.

أن يُغنيهم اللهُ تعالى ويبسطَ لهم الأموالَ والأرزاق، فنزلت[١]، وعليه تفسيرُ محيي السنة[٢]. انتهى.

ولا يخفى أن الأنسبَ بحال المُكرَمين المُصْطَفين من عباده تعالى أن لا يُبْطِرهم الغِنى لِصفاء بَواطنهم وقُوَّة توجُّههم إلى حظائر القُدس، ومَزيد تعلُّق قلوبهم بمحبوبهم ووقوفهم على حقائق الأشياء، وكمالِ عِلْمهم بمنتهى زخارف الحياة الدنيا، وأبناءُ الدنيا لو فكَّروا في ذلك حقَّ التفكُّر لهان أمرُهم وقَلَّ شَغَفُهم كما قيل:

لو فكَّر العاشقُ في مُنتهى ... حُسن الذي يَسْبيهِ لم يَسْبِهِ[٣]

فلعلَّ الأولى ما تقدَّم، أويقال: إنَّ هذا في بعض العباد المؤمنين، فتأمَّل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المطر الذي يُغيثهم من الجَدْب، ولذلك خُصَّ بالنافع منه، فلا يقال غيثٌ لكلِّ مطر. وقرأ الجمهور: «يُنْزِلُ» مُخفَّفاً[٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ يَئِسوا منه، وتقييدُ تنزيله بذلك مع تحقُّقه بدونه أيضاً لتذكير كمال النعمة. وقرأ الأعمش وابن وثاب: «قَنِطوا» بكسر النون[٥].

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: منافعَ الغيث وآثارَه في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان، أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذُكر انتظاماً أوليًّا.

وقيل: الرحمةُ هنا ظهورُ الشمس؛ لأنه إذا دام المطرُ سُئِم، فتجيء الشمس بعدَه عظيمةَ الموقع. ذكره المهدوي، وليس بشيء.

ومن البعيد جدًّا ما قاله السدي من أن الرحمةَ هنا الغيثُ نفسُه؛ عدَّد النعمة نفسها بلفظين.

وأيًّا ما كان فضميرُ «رحمته» لله عز وجل، وجُوِّز على الأول كونُه للغيث.

---

(١) ذكر الخبرين الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٢٧.

(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٧.

(٤) قرأ بالتخفيف ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف، وقرأ باقي العشرة بالتشديد. التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨.

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٦، وأبو حيان في البحر ٧/ ٥١٨.

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ الذي يتولَّى عباده بالإحسان ونشر الرحمة ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ المستحقُّ للحمد على ذلك، لا غيره سبحانه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصنائع، فإنها بذاتها وصفاتها تدلُّ على شؤونه تعالى العظيمة، ومَن له أدنى إنصافٍ وشعورٍ يجزمُ باستحالة صُدورِها من الطبيعة العديمةِ الشعور.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطفٌ على «السماوات»، أي: ومن آياته خلقُ ما بثَّ، أو عطفٌ على «خَلْقُ»، أي: ومن آياته ما بَثَّ.

و«ما» تحتمل الموصولية والمصدرية، والموصولية أظهرُ، ولا حاجةَ عليه إلى تقدير مضاف، أي: خلق الذي بثَّ، خلافاً لأبي حيان[1].

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: حيوان له دبيبٌ وحركة، وظاهرُ الآية وجودُ ذلك في السماوات وفي الأرض، وبه قال مجاهد، وفسَّر الدابة بالناس والملائكة، ويجوز أن يكون للملائكة مشيٌ مع الطيران. واعترَض ذلك ابنُ المُنيِّر[2] بأن إطلاق الدابَّةِ على الأناسيِّ بعيدٌ في عُرف اللُّغة، فكيف بالملائكة؟! وادَّعى أنَّ الأصحَّ كونُ الدوابِّ في الأرض لا غير، وما في أحدِ الشيئين يَصْدُقُ أنه فيهما في الجملة، فالآية على أسلوب ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وذلك لقوله تعالى في البقرة: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [الآية: ١٦٤] فإنه يدلُّ على اختصاص الدوابِّ بالأرض؛ لأن مَقامَ الإطناب يقتضي ذِكْره لو كان، لا للعمل بمفهوم اللَّقب الذي لا يقول به الجمهور.

والجوابُ أن التي في البقرة لمَّا كانت كلاماً مع الغبيِّ والفَهِم والمُسترشِد والمُعانِد جيء فيه بما هو معروفٌ عند الكلّ؛ وهو بثُّ الدوابِّ في الأرض، وأما هاهنا فجيء به مُدمجاً مختصراً لِمَا تكرَّر في القرآن ـ ولاسيما في هذه السورة ـ مِن كمالِ قُدرته على كلِّ ممكن فقيل: «ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث

(١) البحر المحيط ٧/ ٥١٨.

(٢) في الانتصاف (مع الكشاف) ٣/ ٤٧٠.

فيهما» مُؤثَراً على لفظ الخَلْق لِيدلَّ على التكثير الدالِّ على كَمال القُدرة، وبيّن بقوله تعالى: «مِنْ دابَّة» تعميماً وتغليباً لغير ذوي العلم في السماوي والأرضي تحقيقاً للمخلوقية، فقد ثبتَ في صحاح الأحاديث ما يدلُّ على وجودِ الدوابِّ في السماء من مراكبِ أهل الجنة وغيرها[١]، وكذلك ما يدلُّ على وجود ملائكةٍ كالأوعال[٢]، بل لا يبعدُ أن يكونَ في كل سماء حيواناتٌ ومخلوقاتٌ على صُوَرٍ شتى وأحوالٍ مختلفة لا نعلمُها، ولم يُذكَر في الأخبار شيء منها، فقد قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] وأهلُ الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظَّاراتهم مخلوقاتٌ في جِرْم القمر لكنهم لم يُحقِّقوا أمرَها لِنَقْص ما في الآلات على ما يدَّعون، ويَحتمِلُ أن يكون فيما عدا القمر، ونفيُ ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة لِيضرَّ القولُ به.

وقيل: المرادُ بالسماوات جهاتُ العُلوّ المُسامتةُ للأقاليم مثلاً. وفي جوِّ كلِّ إقليم، بل كل بلدة، بل كل قطعة من الأرض، حيواناتٌ لا يحصي كَثْرتَها إلا الله تعالى، بعضُها يُحَسُّ بها بلا واسطةِ آلةٍ، وبعضُها بواسطتها.

وقيل: المراد بها السُّحب، وفيها من الحيوانات ما فيها.

وكلُّ ذلك على ما فيه لا يُحتاج إليه، وكذا لا يُحتاج إلى ما ذهب إليه كثيرٌ من أن المرادَ بالدابَّة الحيّ مجازاً؛ إما من استعمال المُقيَّد في المُطلق، أو

---

(١) منها ما أخرجه أحمد (٢٢٩٨٢) عن بريدة الأسلمي ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أحب الخيل، ففي الجنة خيل؟ قال: «إن يدخلك الله الجنة، فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوته حمراء تطير بك في أيِّ الجنة شئتَ، إلا ركبت» وجاء آخر فقال: يا رسول الله، أفي الجنة إبل؟ قال: «يا عبد الله، إن يدخلك الله الجنة، كان لك فيها ما اشتهت نفسك، ولذت عينك» وهو حديث ضعيف في إسناده عبد الرحمن المسعودي، اختلط بأخرة، وكل من روى عنه هذا الحديث ممن روى عنه بعد الاختلاط، وانظر ما ذكره القرطبي في هذا الباب في التذكرة ص٤٨٥.

(٢) أخرج أحمد (١٧٧٠) في حديث طويل عن العباس ﷺ، وفيه «... وفوق السماء السابعة بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض...» وفي إسناده يحيى بن العلاء البجلي، قال الدارقطني: متروك الحديث، وقال أحمد: كذاب يضع الحديث. كما في التقريب.

إطلاقِ الشيء على لازمه، أوالمُسبَّبِ على سببه؛ لأن الحياةَ سببٌ للدبيب وإن لم تكن الدابَّةُ سبباً للحي، فيكون مجازاً مُرسلاً تبعيّاً؛ لأن الاحتياجَ إلى ذلك عدولٌ عن الظاهر، ولا يُعدَلُ عنه إلا إذا دلَّ دليلٌ على خِلافه، وأين ذلك الدليل؟! بل هو قائمٌ على وجودِ الدوابِّ في السماء كما هي موجودةٌ في الأرض.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: حَشْرهم بعد البَعْث للمحاسبة ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ ذلك ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ تامُّ القُدرة كامِلُها، و«إذا» متعلِّقة بما قبلها لا بـ «قدير»؛ لأن المُقيَّدَ بالمشيئة جَمْعُهُ تعالى لا قُدْرتُه سبحانه، وهي كما تدخلُ على الماضي تدخل على المضارع، ومنه قوله:

وإذا ما أشاءُ أبعثُ منها آخرَ الليل ناشطاً مذعورا[1]

وقولُ صاحب «الكشف»: لقائلٍ أن يُفرِّق بين «إذا» و«إذا ما» = الظاهرُ أنه ليس في مَحلِّه، وقد نصَّ الخفاجي على عدمِ الفرقِ، وجعل القولَ به تَوَهُّماً[2]، وكذا نصَّ على أنها تدخلُ على الفِعلين ظرفيةً كانت أوشرطية. وقيَّد ذلك الطيبيُّ بما إذا كانت بمعنى الوقت كما هنا.

وضمير «جمعهم» قيل: للسماوات والأرض وما فيهما على التغليب. وهو كما ترى. وقيل: للدوابِّ المفهوم مما تقدَّم، وضمير العقلاء للتغليب المناسب، لكون الجمع للمحاسبة. وقيل: للناس المعلوم من ذلك، ولعله الأولى.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ أيُّ مصيبة كانت من مصائبِ الدنيا، كالمرض وسائر النَّكَبات ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: فبسببِ معاصيكم التي اكتسبتموها، و«ما» اسمٌ موصول مبتدأ، والمبتدأ إذا كان موصولاً صِلتُه جملةٌ فعلية تدخلُ على خبره الفاءُ كثيراً لما فيه من معنى الشرط لإشعاره بابتناء الخبر عليه، فلذا جيء بالفاء هنا.

(١) البيت لكعب بن زهير، وهو في ديوانه ص٣٣، وفيه: مطلع، بدل: آخر.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٢.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر في رواية وشيبة: «بما» بغير فاء(١)؛ لأنها ليست بلازمة، وإيقاعُ المبتدأ موصولاً يكفي في الإشعار المذكور، وحُكي عن ابن مالك أنه قال: اختلافُ القراءتين دلَّ على أن «ما» موصولة، فجيء تارةً بالفاء في خبرها وأُخرى لم يُؤْتَ بها حظّاً للمشبَّه عن المشبَّه به.

وجوِّز كون «ما» شرطية، واستظهره أبو حيان(٢) في القراءة بالفاء، وجعلها موصولةً في القراءة الأُخرى بناءً على أنَّ حذفَ الفاء من جواب الشرط مخصوصٌ بالشعر عند سيبويه نحو:

مَن يَفْعَلِ الحَسَناتِ اللهُ يشكرُها(٣)

والأخفش وبعضُ نُحاة بغداد أجازوا ذلك مطلقاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال أبو البقاء: حذفُ الفاء من الجواب حسنٌ إذا كان الشرطُ بلفظ الماضي(٤). ويُعلم منه مزيدُ حسن حَذْفها هنا على جعل «ما» موصولة.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ أي: من الذنوب، فلا يُعاقِبُ عليها بمصيبة عاجلاً، قيل: وآجلاً.

وجُوِّز كونُ المراد بالكثير الكثيرَ من الناس. والظاهرُ الأول، وهو الذي تشهدُ له الأخبار؛ روى الترمذي عن أبي موسى أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يُصيبُ عبداً نكبةٌ فما فوقَها، أو دونها، إلا بذنبٍ، وما يعفو اللهُ تعالى عنه أكثرُ، وقرأ (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ)»(٥).

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧، والبحر ٧/ ٥١٨، وعنه نقل المصنف.
(٢) في البحر المحيط ٧/ ٥١٨.
(٣) كتاب سيبويه ٣/ ٦٥، وعجزه: والشرُّ بالشرِّ عند الله مثلان. واختلف في قائله؛ قال البغدادي في الخزانة ٩/ ٥١: نسبه سيبويه وخَدَمَتُه لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ﷺ، ورواه جماعة لكعب بن مالك الأنصاري. وقد سلف ٦/ ١٥٢.
(٤) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٢/ ٦٣١.
(٥) سنن الترمذي (٣٢٥٢) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وأخرج ابنُ المنذر وجماعةٌ عن الحسن قال: لمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ إلخ، قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده، ما مِنْ خَدْشِ عودٍ، ولا اختلاجِ عِرْقٍ، ولا نكبةِ حَجَرٍ، ولا عَثْرةِ قَدَم، إلا بذنب، وما يعفو اللهُ عز وجل عنه أكثرُ»[(١)].

وأخرج ابن سعد عن أبي مُليكة أنَّ أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما كانت تُصَدَّع فتضعُ يَدَها على رأسها وتقول: بذنبي، وما يَغفِرُه اللهُ تعالى أكثرُ[(٢)].

ورؤي على كفِّ شُريح قرحةٌ، فقيل: بم هذا؟ فقال: بما كسبت يدي[(٣)].

وسُئل عمران بن حُصين عن مرضه فقال: إنَّ أحبَّه إليَّ أحبُّه إلى الله تعالى، وهذا بما كسَبتْ يدي[(٤)].

والآيةُ مخصوصةٌ بأصحاب الذنوب من المسلمين وغيرهم، فإنَّ مَنْ لا ذَنْبَ له كالأنبياء عليهم السلام قد تُصيبهم مصائب؛ ففي الحديث: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثل»[(٥)] ويكون ذلك لرفع درجاتِهم أو لحِكَم أُخرى خَفِيتْ علينا، وأما الأطفال والمجانين فقيل: غيرُ داخلين في الخِطاب؛ لأنه لِلمُكلَّفين، وبفرض دخولهم أخرجهم التخصيصُ بأصحابِ الذنوب، فما يُصيبهم من المصائب فهو لحِكَم خَفِيَّة.

وقيل: في مصائب الطفل رفعُ درجته ودرجةِ أبويه، أومن يُشفق عليه بحسن الصبر.

ثم إنَّ المصائبَ قد تكون عقوبةً على الذنب وجزاءً عليه بحيث لا يُعاقَبُ عليه يومَ القيامة، ويدلُّ على ذلك ما رواه أحمد في «مسنده» والحكيم الترمذي وجماعةٌ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: ألا أُخبركم بأفضلِ آيةٍ في كتاب الله تعالى

---

(١) وأخرجه هناد في الزهد (٤٣١)، وهو مرسل.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٥١.

(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٥١٨.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره ١٨/ ٤٧٩.

(٥) أخرجه أحمد (١٤٩٤) من حديث سعد بن مالك رضي الله عنه، وسلف ٥/ ٨٩.

حدَّثنا بها رسولُ الله ﷺ: «﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ وسأُفَسِّرها لك يا علي: ما أصابك من مرض، أوعقوبةٍ أوبلاءٍ في الدنيا فبما كسبَتْ أيديكم، واللهُ تعالى أكرمُ من أنْ يُثَنِّيَ عليكم العقوبةَ في الآخرة، وما عفا اللهُ تعالى عنه في الدنيا فالله سبحانه أكرمُ من أنْ يعودَ بعد عَفْوه»(١).

وزعم بعضُهم أنها لا تكون جزاءً؛ لأنَّ الدنيا دارُ تكليف، فلو حصل الجزاءُ فيها لكانت دارَ جزاء وتكليف معاً، وهو مُحالٌ، فما هي إلا امتحانات.

وخبرُ عليٍّ كرم الله وجهه يَرُدُّه، وكذا ما صحَّ من أنَّ الحدودَ ـ أي: غير حدّ قاطع الطريق ـ مُكَفِّرات(٢)، وأيُّ مُحالية في كون الدنيا دارَ تكليف ويقع فيها لبعض الأشخاص ما يكون جزاءً له على ذَنْبه، أي: مُكَفِّراً له.

وعن الحسن تفسير المصيبة بالحدّ قال: المعنى: ما أصابكم من حدٍّ من حدود الله تعالى فإنما هو بكسب أيديكم وارتكابِكم ما يُوجبه، ويعفو اللهُ تعالى عن كثيرٍ، فيستره على العبدِ حتى لا يُحَدَّ عليه. وهو مما تأباه الأخبار، ومع هذا ليس بشيء، ولعله لم يَصِحَّ عن الحسن.

وفي «الانتصاف»: إن هذه الآية تُبْلِسُ عندها القدرية(٣)، ولا يُمكنهم ترويجُ

---

(١) مسند أحمد (٦٤٩) بهذا اللفظ، وفي إسناده الأزهر بن راشد الكاهلي، وهو ضعيف، والخضر بن القواس وأبو سخيلة، وهما مجهولان كما قال الحافظ ابن حجر في التقريب. وأخرجه بنحوه بإسناد آخر ودون ذكر الآية أحمد (٧٧٥)، والترمذي (٢٦٢٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرج البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا... فمن وَفَى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه» وفي رواية لمسلم (١٧٠٩) (٤٣): «... ومن أتى منكم حدّاً فأُقيم عليه فهو كفارته..» وينظر ما قاله الحافظ ابن رجب في هذا الباب في جامع العلوم والحكم شرح الحديث الثامن عشر.

(٣) أي: تنقطع فلا يكون لها حجةٌ، ويقال للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب: قد أَبْلَس. اللسان (بلس). وجاء بدلاً منها في الانتصاف: تنكسر.

حيلة في صرفها عن مقتضى نَصِّها، فإنهم[١] حملوا قولَه تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] على التائب، وهو غيرُ مُمكن لهم هاهنا، فإنه قد أثبت التبعيضَ في العفو، ومُحالٌ عندهم أن يكون العفوُ هنا مقيَّداً بالتوبة، فإنه يلزم تبعيضها أيضاً، وهي عندهم لا تتبعَّض، كما نقل الإمامُ عن أبي هاشم، وهو رأسُ الاعتزال، والذي تولَّى كِبره منهم، فلا محلَّ لها إلا الحقُّ الذي لا مِرْيةَ فيه، وهو ردُّ العفو إلى مشيئة الله تعالى غيرَ موقوفٍ على التوبة[٢].

وأُجيب عنهم بأنَّ لهم أن يقولوا: المرادُ: ويعفو عن كثير فلا يُعاقِبُ عليه في الدنيا، بل يُؤخِّر عقوبته في الآخرة لمن لم يَتُبْ. وأنت تعلمُ ما دلَّ عليه[٣] خبرُ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بجاعلين اللهَ سبحانه وتعالى عاجزاً عن أنْ يُصيبكم بالمصائب بما كَسبتْ أيديكم وإنْ هربتُم في أقطار الأرض كلَّ مَهْرب، وقيل: المرادُ: إنكم لا تُعجزون مَن في الأرض من جنوده تعالى، فكيف مَن في السماء. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ من مُتولٍّ بالرحمة يرحمكم إذا أصابتكم المصائب. وقيل: يَحميكم عنها ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ يدفعها عنكم.

والجملة كالتقرير لقوله تعالى: «ويعفو عن كثير» أي: إن اللهَ تعالى يعفو عن كثيرٍ من المصائب إذْ لا قُدرة لكم أن تُعجزوه سبحانه فتفوِّتوا ما قضى عليكم منها، ولا لكم أيضاً من متولٍّ بالرحمة غيره عز وجل لِيرحمكم إذا أصابتكم، ولا ناصرَ سواه لِينصُرَكم منها، ولهذا جاء عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّ هذه أرجى آية في القرآن للمؤمنين[٤]. ويقوِّي أمرَ الرجاء - على ما قيل - أن معنى «ما أنتم».. إلخ: ما أنتم بمعجزين اللهَ تعالى في دَفْعِ مصائبكم، أي: إنه سبحانه قادرٌ على ذلك.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ أي: السُّفن الجواري، أي: الجارية، فهي صفةٌ لموصوف

---

(١) في (م): فإنها.

(٢) الانتصاف (مع الكشاف) ٣/ ٤٧٠.

(٣) قوله: عليه، ساقط من (م).

(٤) أورده القرطبي في تفسيره ١٨/ ٤٧٨.

محذوف، لِقرينة قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ وبذلك حَسُنَ الحذفُ، وإلا فهي صفةٌ غير مختصة، والقياس فيها أن لا يُحذف الموصوف، وتقوم مقامَه. وجوَّز أبو حيان[١] أن يقال: إنها صفةٌ غالبة، كالأبطح، وهي يجوز فيها أنْ تليَ العواملَ بغير ذكر الموصوف.

و«في البحر» مُتعلِّق بالجواري، وقولُه تعالى: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ في موضع الحال. وجُوِّز أن يكون الأولُ أيضاً كذلك. و«الأعلام» جمع: عَلَم، وهو الجبل، وأصلُه الأثرُ الذي يُعلم به الشيء، كعلَم الطريق، وعَلَم الجيش، وسُمِّي الجبلُ عَلَماً لذلك، ولا اختصاصَ له بالجبل الذي عليه النارُ للاهتداء، بل إذا أريد ذلك قُيِّد كما في قول الخنساء:

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهُداةُ به ... كأنه عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ[٢]

وفيه مبالغةٌ لطيفة، وحُكي أنَّ النبيَّ ﷺ قال لمَّا سَمِعه: «قاتَلها اللهُ تعالى، ما رَضِيَتْ بتشبيهه بالجبل حتى جَعلَتْ على رأسِهِ ناراً»[٣].

وقرأ نافع وأبو عمرو: «الجواري» بياء في الوصل دون الوقف، وقرأ ابنُ كثير بها فيهما، والباقون بالحذف فيهما[٤]. والإثباتُ على الأصل، والحذفُ للتخفيف، وعلى كلٍّ فالإعراب تقديري، وسُمع من بعض العرب الإعرابُ على الراء.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجري بها ويعدمُ سببَ تموُّجها، وهو تكاثفُ الهواء الذي كان في المحلّ الذي جرت إليه، وتراكم بعضه على بعض، وسببُ ذلك التكاثف إما انخفاضُ درجة حرارة الهواء فيقلّ تمدُّده ويتكاثفُ ويَترك أكثرَ المحلّ الذي كان مشغولاً به خليّاً، وإما تجمُّع فُجائيٌّ يحصل في الأبخرة المُنتشِرة في الهواء فيخلو مَحلّها، وهذا ـ على ما قيل ـ أقوى الأسباب، فإذا وجدَ الهواءُ أمامَه

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٢٠.
(٢) ديوان الخنساء ص٤٩.
(٣) أورده الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٧٥، ولم نقف عليه مسنداً.
(٤) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٨. وقرأ أبو جعفر كقراءة نافع وأبي عمرو، وقرأ يعقوب كقراءة ابن كثير.

فراغاً بسبب ذلك جرى بقوة لِيشْغَله فتحدث الريحُ وتستمرُّ حتى تملأ المحلَّ.

وما ذُكر في سبب التموُّج هو الذي ذكره فلاسفةُ العصر. وأما المُتقدِّمون فذكروا أشياءَ أُخر، ولعلَّ هناك أسباباً غيرَ ذلك كلِّه لا يعلمها إلا الله عز وجل، والقولُ بالأسباب تحريكاً وإسكاناً لا يُنافي إسنادَ الحوادث إلى الفاعل المُختار جلَّ جلاله وعَمَّ نَوالُه.

وقرأ نافع: «الرياح» جمعاً[1].

﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيصِرْنَ ثوابتَ عل ظهر البحر، أي: غيرَ جاريات لا غيرَ مُتحرِّكات أصلاً. وفسَّر بعضُهم «يَظْللن» بـ: يَبْقَيْنَ، فيكون «رواكد» حالاً، والأولُ أَوْلى.

وقرأ قتادة: «فَيَظْلِلْنَ» بكسر اللام[2]، والقياسُ الفتح؛ لأن الماضي مكسورُ العين، فالكسر في المضارع شاذٌّ، وقال الزمخشري[3]: هو من ظلَّ يَظَلُّ ويَظِلُّ بالفتح والكسر، نحو: ضلَّ ـ بالضاد ـ يَضِلُّ ويَضَلُّ، وتعقَّبه أبو حيان[4] بأنه ليس كما ذكر؛ لأن يَضَلُّ بالفتح مِنْ ضَلِلْتُ بالكسر، ويَضِلُّ بالكسر مِنْ ضَلَلْتُ بالفتح، وكلاهما مَقِيسٌ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من السُّفن المُسَخَّرة في البحر تحت أَمره سبحانه وحَسَب مشيئته تعالى ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً كثيرةً على عَظَمةِ شؤونه عزَّ وجل ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ لكلِّ مَن حبس نَفْسَه عن التوجه إلى ما لا ينبغي ووكل هِمَّته بالنظرِ في آيات الله تعالى والتفكُّرِ في آلائه سبحانه، فالصبرُ هنا حَبْسٌ مخصوصٌ، والتفكُّر في نِعَمِهِ تعالى شُكر.

ويجوز أن يكونَ قد كَنَى بهذين الوَصْفين عن المؤمن الكامل؛ لأنَّ الإيمانَ

(١) وهي أيضاً قراءة أبي جعفر. التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٥٢.
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٧١.
(٤) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٠.

نِصْفُه صبرٌ ونِصْفُه شُكْر[١]. وذكر الإمام[٢] أنَّ المؤمنَ لا يخلو من أن يكون في السراء والضرَّاء، فإن كان في الضراء كان من الصابرين، وإنْ كان في السرَّاء كان من الشاكرين.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عطفٌ على «يُسكن»، أي: أو: يُهْلِكهنَّ بإرسال الريحِ العاصفة المُغرقة، والمرادُ ـ على ما قال غيرُ واحد ـ إهلاكُ أهلِها؛ إما بتقدير مضاف، أوبالتجوُّز بإطلاق المحلّ على حالِّه، أوبطريق الكناية؛ لأنه يلزمُ من إهلاكها إهلاكُ مَنْ فيها، والقرينةُ على إرادة ذلك قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ وأصلُه: أويُرسلها ـ أي: الريح ـ فَيُوبقهنَّ؛ لأنه قَسيم «يُسكن» فاقتصر فيه على المقصود من إرسالها عاصفةً، وهو إما إهلاكُهم أوإنجاؤهم المرادُ من قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ۝٣٤﴾ إذ المعنى: أويُرسِلها فَيُوبق ناساً بذنوبهم ويُنْجِ ناساً على طريق العفو عنهم، وبهذا ظهر وجهُ جزم «يَعْفُ» لأنه بمعنى يُنْجِ معطوف على يُوبق، ويُعلم وجه عَطْفه بالواو لأنه مُندرجٌ في القَسيم، وهو إرسالها عاصفة. وعلى هذا التفسير تكون الآيةُ متضمنةً لإسكانها ولإرسالها عاصفةً مع الإهلاك والإنجاء، وإرسالُها باعتدالٍ معلومٌ من قوله سبحانه: «الجواري» فإنها المطلوبُ الأصلي منها.

وقال بعض الأجِلَّة: التحقيقُ أنَّ «يعفُ» عطفٌ على قوله تعالى: «يُسْكِن الريح» إلى قوله سبحانه: «بما كسبوا» ولذا عُطِفَ بالواو لا بـ «أو»، والمعنى: إنْ يَشَأْ يُعاقبهم بالإسكان، أوالإعصاف، وإن يشأ يَعْفُ عن كثير[٣].

وجوَّز بعضُهم[٤] حَمْلَ «يُوبقهنَّ» على ظاهره؛ لأنَّ السفنَ من جُملة أموالهم

---

(١) يشير إلى حديث أنس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أنس، الإيمان نصفان؛ نصف شكر ونصف صبر» أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٥٩)، وفي إسناده عتبة بن السَّكن ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما متروكان. كما في ميزان الاعتدال ٣/ ٢٨ و٤/ ٤١٨. وسلف ١١/ ٣٧٢.

(٢) في تفسيره مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٧٥.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٣.

(٤) المصدر السابق.

التي هلاكُها والخسارةُ فيها بذنوبهم أيضاً، وجعلَ الآيةَ مِثْلَ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ إلخ.

وقرأ الأعمش: «يَعْفوْ» بالواو الساكنةِ آخره[1]، على عَطْفه على مجموع الشرط والجواب، دون الجواب وحدَه، كما في قراءة الجزم، وعن أهل المدينة أنهم قرؤوا: «يعفوَ» بالواو المفتوحة[2] على أنه منصوبٌ بـ «أنْ» مُضمرة وجوباً بعد الواو، والعطفُ على هذه القراءة على مصدر مُتصيَّد من الكلام السابق، كأنه قيل: يقع[3]، وهو من العطف على المعنى، وهذا مذهب البصريين في مِثْل ذلك، وتُسمَّى هذه الواو واوَ الصَّرف، لِصَرْفها عن عَطْف الفعل على[4] المجزوم قبلَها إلى عطف مصدر على مصدر. ومذهبُ الكوفيين أنَّ الواو بمعنى «أنْ» المصدرية ناصبة للمضارع بنفسها.

واختار الرضي أن الواو إما واو الحال، والمصدرُ بعدَها مبتدأٌ خبره مُقدَّر، والجملةُ حاليةٌ، أو واو المعية، ويُنصب بعدَها الفعل لِقَصْد الدلالة على معية الأفعال، كما أن الواو في المفعول معه دالةٌ على مصاحبة الأسماء فعدلَ به عن الظاهر ليكونَ نصّاً في معنى الجمعية.

والمشهورُ اليوم على ألسنةِ المُعرِبين مذهبُ البصريين، وعليه خرَّج أبو حيان[5] النصبَ في هذه القراءة، وكذا خرَّج غيرُ واحد ومنهم الزجَّاج[6] النصبَ في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ - أي: من مَهْرَب ومَخْلَص من العذاب - على ذلك، وجعلوا الجزاءَ بمنزلة الإنشاء كالاستفهام، فكأنه تقدَّم أحدُ الأمور الستة[7]، ولم يرتضِ ذلك الزمخشري، وقال: فيه نظرٌ، لما أورده

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠.

(٢) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٠، وهي قراءة شاذة.

(٣) كذا وقع في الأصل و(م)، والتقدير كما في البحر ٧/ ٥٢٠، والدر المصون ٩/ ٥٥٨: أو يقع إيباقٌ وعفوٌ عن كثير.

(٤) قوله: على، ليس في (م).

(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٠.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٩.

(٧) وهي: الأمر والنهي والنفي والاستفهام والتمني والعرض. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٤.

سيبويه في «الكتاب» قال: واعْلم أنَّ النصبَ بالفاء والواو في قوله: إنْ تأتني آتِك وأُعطِيَكَ، ضعيف، وهو نحوٌ من قوله:

والحقُّ بالحجازِ فأستريحا[1]

فهذا تجوُّز، وليس[2] بِحدِّ الكلام ولا وجهِهِ، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أنْ يكونَ من الأول فعل، فلما ضارعَ الذي لا يُوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضَعْف[3].

ولا يجوز أن تُحمل القراءةُ المُستفيضة على وجهٍ ضعيف ليس بحدِّ الكلام ولا وجهه، ولو كانت من هذا البابِ لما أخلى سيبويه مِنها كتابَه، وقد ذكر نظائرها من الآيات المُشكلة[4]. انتهى.

وخرَّج هو النصب في «يعلم» على العطف على عِلَّة مُقدَّرة، قال: أي: لينتقم منهم ويَعْلَمَ الذين.. إلخ. وكم من نظيرٍ له في القرآن العظيم، إلا أن ذلك مع وجودِ حرف التعليل كقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقولِه سبحانه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقال أبو حيان[5]: يُبْعِدُ هذا التقرير أنه ترتَّب على الشرط إهلاكُ قوم ونجاةُ قوم، فلا يحسن: لِينتقمَ منهم.

وأُجيب بأنَّ الآيةَ مخصوصةٌ بالمجرمين، فالمقصودُ الهلاكُ، ويجوز أن يُقدَّر: ليظهرَ عظيم قُدرته تعالى ويعلمَ الذين يُجادلون، فلا يَرد عليه ما ذُكر. ويَحسنُ ذلك التقدير في توجيه النصب في «يعفوَ» على ما رُوي عن أهل المدينة إذا خُدش التوجيهُ السابق بما نُقل عن سيبويه، فيقال: إنه عطفٌ على تعليل مُقدَّر، أي: لِينتقمَ منهم ويعفوَ عن كثير.

---

(١) البيت للمغيرة بن حبناء الحنظلي، وصدره كما في الخزانة ٨/ ٥٢٢: سأترك منزلي لبني تميم.
(٢) في الأصل و(م): ولا، والمثبت من الكتاب والكشاف، وفيهما: يجوز، بدل: تجوّز.
(٣) الكتاب ٣/ ٩٢.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٧٢.
(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥٢١.

وقراءة النصب في «يعلمَ» هي التي قرأ بها أكثرُ السبعة. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر والأعرج وشيبة وزيد بن عليٍّ بالرفع[١]. وقَرَّر في «الكشف» وجهَه بأنه على عطفِ «يعلم» على مجموع الجملة الشرطية، على معنى: ومِن آياته الدالَّة على كَمال القُدرة السفنُ في البحر، ثم ذكر وجهَ الدلالة، وأنها مُسخَّرة تحت أمره سبحانه تارةً بتضمُّن نفع مَن فيها، وتارة بالعكس، ثم قال جلَّ وعلا: ويعلمُ الذين يُعاندون ولا يعترفون بآيات الله تعالى الباهرةِ، بدل قوله سبحانه فيها بالضمير الراجع إلى الآية المبحوث عنها شهادةً بأنها من آيات الله تعالى، وزيادةً للتحذير وذمِّ الجِدال فيها، وليكون على أُسلوب الكناية على نحو: العرب لا تَخفِرُ الذِّمم، فكأنه لمَّا قيل: إن يشأ يُسكن الريحَ، وذكر سبب الدلالة، صار في معنى: يعلمها ويعترفُ بها المُتدبِّرون في آياتنا المسترشدون، ويعلمُ المجادِلون فيها المُنكِرون ما لهم مِنْ مَحيص. وجاز أن يُجعلَ عطفاً على قوله تعالى: «ومن آياته الجوار» وتُجعل هذه وحدَها آيات لِتضمُّنها وجوهاً من الدلالة أُقيمت مُقامَ المُضمر، والمعنى: ومِن آياتهِ الجوارِ ويَعلمُ المجادلون فيها، واعتُرِض بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه ببيان وجه الدلالة، لِيدلَّ على موجبِ وعيدِ المُجادِل، وعلى كونها آيةً، بل آيات.

ونُقِلَ عن ابن الحاجب أنه يجوز أن يكون الرفعُ بالعطف على موضعِ الجزاء المُتقدِّم باعتبار كونه جملةً لا باعتبار عطفِ مُجرد الفعل ليجب الجزمُ، فتكون الجملتان مشتركتين في المُسبَّبية، وفيه بحثٌ يُعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقرئ: «ويَعْلَمْ» بالجزم[٢]، وخُرِّج على العطف على «يعفُ»، وتسبُّبُه عن الشرط باعتبارِ تضمُّنِ الإخبار عن علم المُجادِلين بما يحلُّ بهم في المستقبلِ الوعيدَ والتحذيرَ، كما قيل:

سوف تَرى إذا انجلى الغُبار ... أَفَرَسٌ تحتَكَ أَمْ حمارُ[٣]

---

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧، وقراءة الأعرج وشيبة وزيد بن علي في البحر المحيط ٧/ ٥٢١.

(٢) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٢، وأبو حيان في البحر ٧/ ٥٢١.

(٣) ذكره الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٣٤٥، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ٣٤٤.

ومرجعُ المعنى على ذلك: أنه تعالى إنْ يشأ يعصِف الريحَ فيُغرق بعضاً ويُنْجِ آخرين عفواً، ويُحذِّر جماعة أخرى.

واعتُرض بأنَّ التخصيصَ بالمُجادِلين في هذا التحذير غيرُ لائح، وأيضاً عِلْمهم بأن لا مَحيص من عذاب الله تعالى على تقديرِ عصف الريح بأهل السُّفن على سبيل العِبرة، ولا اختصاصَ لها بهم ولا بهذا المَقدور خاصة.

وأُجيب عن الأول بأنَّ التخصيصَ بالمُجادلين لأنهم أَولى بالتحذير، وعن الأخير بأنه أُريد أنَّ البرَّ والبحر لا يُنجيان من بأسه عز وجل، فهو تعميم.

واختار في «الكشف» كونَ التخريج على أنَّ الآيةَ في الكافرين بمعنى: إنْ يشأ يعصِفِ الريحَ فيُغرقْ بعضَهم ويُنجِ آخرين منهم عفواً، ويعلموا ما لهم من مَحيص فلا يغترُّوا بالنجاة والعفو في هذه المرة، فالمُجادِلون هم الكثير الناجون، أوبعضهم، وهو على مِنوال قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ الآية [الإسراء: ٦٩].

ومن مجموع ما سمعتَ يلوح لك ضَعْفُ هذه القراءة، ولهذا لم يُقرأ بها في السبعة.

والظاهرُ على القراءات الثلاث أن فاعلَ «يعلم»: «الذين»، وجُملة «ما لهم مِنْ مَحيص» سادَّةٌ مَسَدَّ المفعولين، وفي «الدر المصون»[1] أنَّ الجملة في قراءة الرفع تحتمل الفعلية وتحتمل الاسمية، أي: وهو يعلم الذين، ولا يخفى أنَّ الظاهر على الاحتمال الثاني كون «الذين» مفعولاً أولاً، والجملةِ مفعولاً ثانياً، والفاعل ضميره تعالى المُستتر. وأوجب بعضُهم هذا على قراءة الجزم وعطفِ «يعلم» على «يَعْفُ»؛ لئلا يخرجَ الكلامُ عن الانتظام، ويظهرَ قصدُ التحذير؛ لشيوع أنَّ علمَ الله تعالى يكون كنايةً عن المجازاة، وهو كما ترى.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أيُّ شيء كان من أسباب الدنيا، والظاهرُ أنَّ الخطابَ للناس مطلقاً، وقيل: للمشركين، و«ما» موصولة مبتدأ والعائدُ محذوفٌ، أي: أُوتِيتُموه، والخبرُ ما بعدُ، ودخلت الفاء لِتضمُّنها معنى الشرط.

---

(١) ٩/ ٥٥٨.

وقال أبو حيان[1]: هي شرطية مفعولٌ ثانٍ لـ «أوتيتم»، و«من شيء» بيانٌ لها، وقوله تعالى: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فهو متاعُها تتمتَّعون به مدَّة حياتِكم فيها، جوابُ الشرط.

والأول أوفقُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتاً لِخُلوصِ نَفْعهِ ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زماناً حيث لا يزولُ ولا يفنى؛ لأنَّ الظاهرَ أن «ما» فيه موصولةٌ، وإنما لم يُؤتَ بالفاء في خبرها مع أنَّ الموصولَ المبتدأ إذا وُصل بالظرف يتضمَّن معنى الشرط أيضاً؛ لأنَّ مُسبَّبية كون الشيء عند الله تعالى لخيريَّته أمرٌ معلوم مُقرَّرٌ غنيٌّ عن الدلالةِ عليه بحرف موضوعٍ له، بخلاف ما عندَ غيره سبحانه. والتعبيرُ عنه بأنه عند الله تعالى دون: ما ادّخَرَ، لذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إما مُتعلِّق بـ «أبقى»، أواللام لبيان مَن له هذه النعمة، فهو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: ذلك للذين آمنوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لا على غيره تعالى أصلاً.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مالٌ فتصدَّقَ به كلِّه في سبيل الله تعالى، فَلامَهُ المسلمون وخطَّأَهُ الكافرون، فنزلت[2].

والموصولُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ مع ما بعدُ إما عطفٌ على الموصول الأول، أو هو مدحٌ مرفوعٌ على الخبرية لمبتدأ محذوف، أومنصوب بمقدَّر، كأعني، أو أمدح، والواو اعتراضيةٌ كما ذكره الرضي، وَغَفل أبو البقاء عن الواو فلم يذكُر العطفَ، وذكَر بدله البدل[3].

و«كبائر الإثم» ما رُتِّب عليه الوعيد، أو ما يُوجب الحدَّ، أو كلُّ ما نَهى اللهُ تعالى عنه. والفواحشُ: ما فَحُشَ وعَظُمَ قُبحه منها.

وقيل: المرادُ بالكبائر ما يتعلَّق بالبدع واستخراجِ الشُّبُهات. وبالفواحش

---

(١) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٢.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٢، وخبر إنفاق أبي بكر رضي الله عنه ماله كلّه وإنفاق عمر رضي الله عنه نصف ماله أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥) من حديث عمر رضي الله عنه دون ذكر الآية.

(٣) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٧/ ٥٢٢، والذي في الإملاء ٤/ ٢٩٤ خلافُ ذلك، ففيه: «الذين يجتنبون» معطوف على قوله تعالى: «للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون». .

ما يتعلَّق بالقوة الشهوانية. وبقوله تعالى: (وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ) ما يتعلَّق بالقوة الغَضَبية. وهو كما ترى.

والمراد بالإثم الجنس، وإلا لقيل: الآثام، و«إذا» ظرف لـ «يغفرون»، و«هم» مبتدأ لا تأكيد لضمير «غضبوا» وجوَّزه في «البحر»[(١)]، وجملة «يغفرون» خبره، وتقديمه لإفادة الاختصاص؛ لأنه فاعلٌ معنوي، واختصاصُهم باعتبار أنهم أحقَّاء بذلك دون غيرهم، فإنَّ المغفرة حالَ الغضب عزيزةُ المَنال[(٢)]. وفي الآية إيماءٌ إلى أنهم يَغْفِرون قبل الاستغفار.

وقيل: «هم» مرفوعٌ بفعل يُفسِّره «يغفرون»، ولمَّا حُذف انفصل الضمير. وليس بشيء.

وجَعَل أبو البقاء[(٣)] «إذا» شرطيةً، وجملةَ «هم يغفرون» جواباً لها.

وتعقَّبه أبو حيان[(٤)] بأنه يلزم الفاء حينئذ، ولا يجوز حذفُها إلا في الشعر. وتقدَّم لك آنفاً ما ينفعك تذكُّره فتذكَّر.

وقرأ حمزة والكسائي: «كبير الإثم» بالإفراد[(٥)] لإرادة الجنس أوالفرد الكامل منه، وهو الشرك، ورُوي تفسيره به عن ابن عباس ﵄، ولا يلزم التكرار؛ لأنَّ المراد الاستمرارُ والدوام.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ قيل: نزلَتْ في الأنصار دعاهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ للإيمان به وطاعته سبحانه فاستجابوا له، فأثنى عليهم جلَّ وعلا بما أثنى، وعليه فهو من ذِكْر الخاصِّ بعد العامِّ لبيان شَرَفِهِ؛ لإيمانهم دون تردُّد وتَلَعْثُم، والآية إنْ كانت مدنيةً فالأمر ظاهرٌ، وإذا كانت مكية فالمرادُ بالأنصار من آمن بالمدينة قبل الهِجرة[(٦)]، أوالمراد بهم أصحابُ العقبة.

---

(١) ٧/ ٥٢٢.

(٢) في (م): المثال.

(٣) في الإملاء ٤/ ٢٩٥ (بهامش الفتوحات الإلهية).

(٤) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٢.

(٥) وقرأ بها خلف. التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٧.

(٦) ينظر تفسير القرطبي ١٨/ ٤٨٦.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ذو شورى ومراجعةٍ في الآراء بينهم، بناءً على أنَّ الشورى مصدرٌ كالبُشرى، فلا يَصِحُّ الإخبار؛ لأنَّ الأمر مُتشاوَرٌ فيه لا مشاورةٌ إلا إذا قصد المبالغة. وأُورِد أنه يقال من غير تأويل: شأني الكرم، والأمر هنا بمعنى الشأن، نعم إذا حُمل على القضايا المُتشاوَر فيها احتاج إلى التأويل أو قَصْدِ المبالغة.

وقيل: إن إضافةَ المصدر للعموم فلا يصحُّ الإخبار إلا بالتأويل. ورُدَّ بأن المرادَ: أمرهم فيما يُتشاوَرُ فيه لا جميعِ أُمورهم. وفيه نظر.

وقال الراغب: المشورة: استخراجُ الرأي بمراجعة البعض إلى البعض، من قولهم: شُرْتُ العسلَ وأَشرته: استخرجته، والشورى: الأمر الذي يُتشاوَرُ فيه[1]. انتهى. والمشهور كونه مصدراً.

وجيء بالجملة اسميةً مع أنَّ المعطوفَ عليه جملةٌ فعلية للدلالة على أنَّ التشاورَ كان حالَهم المستمر قبل الإسلام وبعدَه. وفي الآية مدحٌ للتشاور لاسيما على القول بأن فيها الإخبار بالمصدر؛ وقد أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أراد أمراً فشاور فيه وقضى، هُدِيَ لأَرشد الأمور»[2].

وأخرج عبد بن حُميد والبخاري في «الأدب»[3] وابن المنذر عن الحسن قال: ما تشاورَ قومٌ قطُّ إلا هُدُوا لأرشدِ[4] أمرهم، ثم تلا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

وقد كانت الشورى بين النبيِّ ﷺ وأصحابه فيما يتعلَّق بمصالح الحروب، وكذا بين الصحابة رضي الله عنهم بعده عليه الصلاة والسلام، وكانت بينهم أيضاً في الأحكام، كقتال أهل الرِّدة وميراث الجدّ وعَدَدِ حدِّ الخمر وغير ذلك.

والمرادُ بالأحكام ما لم يكن لهم فيه نصٌّ شرعيٌّ، وإلا فالشورى لا معنى لها، وكيف يليقُ بالمسلم العُدولُ عن حكم الله عز وجل إلى آراء الرجال والله سبحانه هو

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (شور).

(٢) شعب الإيمان (٧١٣٢).

(٣) الأدب المفرد (٢٥٨)، والدر المنثور ٦/ ١٠.

(٤) في الأصل و(م) والدر المنثور ٦/ ١٠: وأرشد، وفي الأدب المفرد (٢٥٨): لأفضل حالهم. وأخرجه الطبري ٦/ ١٩٠، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٩٠ والمثبت منهما.

الحكيم الخبير، ويُؤيِّد ما قلنا ما أخرجه الخطيب عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، الأمر ينزلُ بنا بعدَك لم ينزِلْ فيه قرآنٌ ولم يُسمع منك فيه شيء؟ قال: «اجمعوا له العابدَ من أُمَّتي، واجعلوه بينكم شورى ولا تَقْضوه برأي واحد»(١).

وينبغي أن يكون المستشارُ عاقلاً كما ينبغي أن يكون عابداً، فقد أخرج الخطيبُ أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً: «استرشدوا العاقلَ تُرشَدوا ولا تَعْصوه فتندموا»(٢).

والشورى على الوجهِ الذي ذكرناه من جملة أسبابِ صلاح الأرض؛ ففي الحديث: «إذا كان أُمراؤكم خيارَكم، وأغنياؤكم أسخياءَكم، وأَمرُكم شورى بينكم، فظَهْرُ الأرض خيرٌ لكم مِن بَطْنها، وإذا كان أمراؤكم شِرارَكم، وأغنياؤكم بُخلاءَكم، وأمرُكم إلى نسائكم، فبَطْنُ الأرض خيرٌ لكم من ظهرها»(٣).

وإذا لم تكن على ذلك الوجه كان إفسادُها للدين والدنيا أكثرَ من إصلاحها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: في سبيل الخير؛ لأنه مَسوقٌ للمدح ولا مدحَ بمجرد الإنفاق، ولعلَّ فصله عن قرينه بذِكْر المُشاورة؛ لأن الاستجابةَ لله تعالى وإقامَ الصلاة كانا من آثارها، وقيل: لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: ينتقمون ممن بغَى عليهم على ما جعلَه الله تعالى لهم، ولا يعتدُون، ومعنى الاختصاص أنهم الأخِصَّاء بالانتصار وغيرُهم يعدو ويَتجاوز، ولا يُراد أنهم ينتصرون ولا يغفِرون، لِيتناقضَ هو والسابق، فكأنه وَصَفَهم سبحانه بأنهم الأخصاء بالغُفران لا يغولُ الغضبُ أحلامَهم كما يغول في غيرهم، وأنهم الأَخِصَّاء بالانتصار على ما جُوِّز لهم إن كافؤوا، ولا يعتدون كغيرهم، فهم محمودون في الحالتين بين حَسَنٍ وأحسن، مخصوصون بذلك من بين الناس.

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٠، وهو عند الخطيب في جامع بيان العلم (١٦١٢).

(٢) ذكره عن الخطيب الذهبيُّ في الميزان ٢/ ٢١٨ وفي إسناده سليمان بن عيسى السِّجْزي، كذَّبه أبو حاتم، وقال ابن عدي: يضع الحديث. كما في الميزان.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث صالح المُرِّي، وصالح المري في حديثه غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، وهو رجل صالح.

وقال غير واحد: إن كُلّاً من الوصفين في محلّ، وهو فيه محمود، فالعفو عن العاجزِ المعترفِ بِجُرمه محمودٌ، ولفظ المغفرة مُشْعِرٌ به، والانتصار من المخاصِم المُصرِّ محمودٌ، ولفظُ الانتصار مُشْعِرٌ به، ولو أُوقعا على عكس ذلك كانا مذمومين، وعلى هذا جاء قوله:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ مَلَكْتَه وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تَمرَّدا
فوضعُ النَّدى في موضع السيف بالعلا مُضِرٌّ كوضع السيفِ في موضعِ النَّدى[١]

وقد يُحمد كلٌّ ويذمُّ باعتبارات أُخَر، فلا تناقضَ أيضاً سواء اتَّحد الموصوفان في الجملتين أَوْ لا.

وقال بعض المُحقِّقين[٢]: الأوجهُ أن لا يُحمل الكلامُ على التخصيص، بل على التقوِّي، أي: يفعلون المَغفرة تارةً والانتصارَ أُخرى لا دائماً، للتناقض. وليس بذاك.

وعن النخعي أنه كان إذا قرأ هذه الآيةَ قال: كانوا يَكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فيجترئَ عليهم الفُسَّاق. وفيه إيماءٌ إلى أن الانتصار من المُخاصِم المُصِرّ، وإلا فلا إذلالَ للنفس بالعفو عن العاجز المُعترف.

ثم إنَّ جملةَ «هم ينتصرون» من المبتدأ والخبر صلة الموصول، و«إذا» ظرفُ «ينتصرون»، وجُوِّز كونها شرطيةً، والجملة جوابُ الشرط، وجملةُ الجوابِ والشرط هي الصِّلة. وتعقَّبه أبو حيان[٣] بما مَرَّ آنفاً.

وجُوِّز أيضاً كون «هم» فاعلاً لمحذوف، وهو كما سمعت في «وإذا ما غضبوا» إلخ.

وقال الحوفي[٤]: يجوز جعل «هم» توكيداً لضمير «أصابهم». وفيه الفصلُ بين

---

(١) البيتان للمتنبي، وهما في ديوانه ٢/ ١١.
(٢) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٥.
(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٢.
(٤) كما في البحر ٧/ ٥٢٢.

المُؤكِّد والمُؤكَّد بالفاعل، ولعلَّه لا يمتنع، ومع هذا فالوجهُ في الإعراب ما أشرنا إليه أولاً.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ بيانٌ لما جُعل للمنتصِر، وتسميةُ الفعلة الثانية - وهي الجزاءُ - سيئةً، قيل: للمُشاكلة. وقال جار الله[1]: تسميةُ كِلتا الفعلتين سيئةً؛ لأنها تسوءُ مَنْ تنزِلُ به. وفيه رِعايةٌ لحقيقة اللفظ، وإشارةٌ إلى أنَّ الانتصارَ مع كونه محموداً إنما يُحمَدُ بشرط رِعاية المُماثلة، وهي عَسِرة، ففي مَساقِها حثٌّ على العفو من طريق الاحتياط.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ أي: عن المُسيء إليه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ ما بينه وبين مَنْ يُعاديه بالعفو والإغضاء عما صَدَر منه ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فيجزيه جلَّ وعلا أعظمَ الجزاء، تصريحٌ بما لَوَّح إليه ذلك من الحَثِّ، وتنبيهٌ على أنه وإن كان سلوكاً لِطريق الاحتياط يتضمَّنُ مع ذلك إصلاحَ ذات البين المحمود حالاً ومآلاً، ليكون زيادةَ تحريضٍ عليه. وإبهامُ الأجر وجَعْلُه حقّاً على العظيم الكريم جلَّ شأنه الدالّ على عِظَمه زيادةٌ في الترغيب. وجيء بالفاء لِيفرِّعه عن السابق، أي: إذا كان سلوكُ الانتصار غيرَ مأمون العِثار، فمن عفا وأَصلحَ فهو سالكٌ الطريقَ المأمون العِثار المحمودَ في الدَّارين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ المُتجاوِزين الحدَّ في الانتقام، تتميمٌ لذلك المعنى، وتصريحٌ بما ضُمِّن من عُسر رِعاية طريق المُماثلة، وأنه قَلَّما تخلو عن الاعتداء والتجاوز لاسيما في حال الحَرَد[2] والتهاب الحَمِيَّة، فيكون دُخولاً في زُمرة مَن لا يُحبه اللهُ تعالى. ولا حاجةَ على هذا المعنى إلى جعل «فمن عفا» إلخ اعتراضاً، ثم لو كان كذلك بأن يكون هذا متعلِّقاً بـ «جزاء سيئة سيئة مِثْلُها» على أنه تعليلٌ لما يُفهم منه، فالفاءُ غيرُ مانعةٍ عنه كما تُوُهِّم، وأَدخل غيرُ واحدِ المُبتدئين بالسيئة في الظالمين.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٧٣.
(٢) الحَرَد: الغضب. مختار الصحاح (حرد).

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ بعد ما ظُلم، بالبناء للمجهول، وقرئ به[1]، فالمصدر مُضافٌ لمفعوله، أوهو مصدرُ المبني للمفعول. واللام للقسم، وجُوِّز أن تكون لامَ الابتداء جيء بها للتوكيد، و«مَنْ» شرطيةٌ أو موصولة، وحُمِلَ «انتصر» على لفظها وحُمِلَ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ ـ أي: للمُعاقب ولا للعاتب والعائب ـ على معناها.

والجملة عطفٌ على «من عفا»، وجِيء بها للتصريح بأنَّ ما حضَّ عليه إنما حضَّ عليه إرشاداً إلى الأصلح في الأغلب، لا أنَّ المنتصِرَ عليه سبيلٌ بوَجْهٍ حالاً أومآلاً، ولإيهام الحضِّ خلافَ ما تضمَّنته من نفي السبيل على العموم صُدِّرت باللام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ تعيينٌ لمن عليه السبيل بعد نفي ذلك عن المنتصرين، والمرادُ بالذين يظلمون الناس من يبتدؤونهم بالظُّلم، أو يزيدون في الانتقام ويتجاوزون ما حدَّ لهم. وفَسَّر ذلك بعضهم بالذين يفعلون بهم ما لا يستحقُّونه، وهو أعمّ.

﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يتكبَّرون فيها تجبُّراً وفساداً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالظُّلم والبغي بغير الحق ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ بسبب ظُلمهم وبَغْيهم، والمرادُ بهؤلاء الظالمين الباغين الكَفَرة. وقيل: من يَعُمُّهم وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ تحذير عن الظلم والبغي وما يؤدِّي إلى العذاب الأليم بوجه، وفيه حضٌّ على ما حضَّ عليه أولاً، اهتماماً به وزيادةَ ترغيب فيه. فالصبرُ هنا هو الإصلاح المُؤَخَّر فيما تقدَّم، قُدِّم هاهنا وعبِّر عنه بالصبر لأنه من شأن أُولي العَزْم، وإشارةً إلى أنَّ الإصلاح بالعفو والإغضاء إنما يُحمد إذا كان عن قُدرة لا عن عَجْز.

و«ذلك» إشارةٌ إلى المذكور من الصبر والمغفرة، و«عزم الأمور» الأمور المعزومة المقطوعة، أوالعازمة الصادقة. وجُوِّز في «مَن» أن تكون موصولةً وأن تكون شرطية. وفي اللام أن تكون ابتدائية وأن تكون قَسمية، واكتفي بجواب القسم عن جواب الشرط، وإذا جُعِلَتِ اللام للابتداء و«مَنْ» شرطيةً، فجملة «إنَّ ذلك» جوابُ الشرط،

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٣.

وحُذفت الفاء منها، ومَن يخصُّ الحذفَ بالشعر لا يُجوِّز هذا الوجه.

وذكر جماعةٌ أن في الكلام حذفاً، أي: إن ذلك منه لمن عَزْم الأمور، وعلّل ذلك بأن الجملة خبرٌ، فلا بدَّ فيها من رابط، و«ذلك» لا يصلح له؛ لأنه إشارةٌ إلى الصبر والمغفرة، وكونه مغنياً عنه لأن المرادَ صبره، أو«ذلك» رابطٌ، والإشارة لـ «مَن» بتقدير: من ذوي عزم الأمور، تكلُّف.

هذا، واختار العلامة الطيبي أن تسمية الفعلة الثانية التي هي الجزاء سيئةً من باب التهجين دون المُشاكلة، وزعم أن المُجازي مُسيء، وبنى على ذلك رَبْطَ جملة «إنه لا يحب الظالمين» بما قبلُ، فقال: يمكن أن يقال: لمَّا نُسب المُجازي إلى المساءة في قوله سبحانه: «وجزاء سيئة سيئة مثلها» والمسيء في هذا المقام مفسد لِمَا في البين بدليل «فمن عفا وأصلح» علل مفهوم ذلك بقوله سبحانه: «إنه لا يحب الظالمين» كأنه قيل: مَنْ أخرجَ نفسَه بالعفو والإصلاح من الانتساب إلى السيئة والإفساد كان مُقْسِطاً، إنَّ اللهَ يحب المُقسِطين، فوضع موضعَه «فأجره على الله» ومَن اشتغل بالمُجازاة وانتسب إلى السيئة، وأفسد ما في البين، وحرم نفسَه ذلك الأجرَ الجزيل كان ظالماً نفسَه «إنه لا يحب الظالمين» فالآية واردةٌ إرشاداً للمظلوم إلى مكارم الأخلاق وإيثار طريق المرسلين.

وقال: إن قوله تعالى: «ولمن انتصر بعد ظُلمه» إلخ خطابٌ للوُلاة والحُكَّام، وتعليمٌ فِعْلَ ما ينبغي فِعْلُه بدليل قوله سبحانه: «إنما السبيلُ على الذين يَظْلِمون الناس» حيث أعاد السبيلَ المُنكَّر بالتعريف وعلَّق به «يظلمون الناس» وفسَّره بقوله تعالى: «عذابٌ أليم»، وكذا قوله سبحانه: «ولمن صبر وغفر» إلخ تعليمٌ لهم أيضاً طريقَ الحكم، يعني أن صاحبَ الحقِّ إذا عدلَ من الأَوْلى وانتصر من الظالم فلا سبيلَ لكم عليه لما قد رُخِّص له ذلك، وإذا اختار الأفضل فلا سبيلَ لكم على الظالم؛ لأن عفوَ المظلوم من عزم الأمور، فتعاونوا على البِرِّ والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. انتهى. ولا يخفى ما فيه.

وفي «الكشف»: إنَّ جَعْلَ ما ذكر خطاباً للولاة والحُكَّام يوجب التعقيدَ في الكلام، فالمعوَّل عليه ما قدمناه، وقد جاءت أخبارٌ كثيرة في فضل العافين عمَّن ظَلمهم، أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«قال موسى بن عِمران عليه الصلاة والسلام: يا رب مَنْ أعزُّ عبادك عندك؟ قال: مَنْ إذا قدر غَفَر»(١).

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا وقف العبادُ للحساب نادى مُنادٍ: لِيقُم مَنْ أجرُه على الله تعالى فَلْيدخُلِ الجنة، ثم نادى الثانيةَ: لِيَقُمْ مَنْ أجره على الله تعالى، قالوا: ومَنْ ذا الذي أجرُه على الله تعالى؟ قال: العافون عن الناس، فقام كذا وكذا ألفاً فدخلوا الجنة بغير حساب»(٢).

وأخرج أحمد وأبو داود عن أبي هريرة أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبيُّ ﷺ جالسٌ، فجعل عليه الصلاة والسلام يعجبُ ويتبسَّم، فلما أكثَرَ ردَّ عليه بعضَ قوله، فغضب النبيُّ ﷺ، وقام فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسولَ الله، كان يَشْتِمني وأنت جالسٌ، فلما رددتُ عليه بعضَ قوله غَضِبْتَ وقُمتَ! قال: «إنه كان معك مَلَكٌ يردُّ عنك، فلما رَدَدْتَ عليه بعضَ قوله وقع الشيطانُ، فلم أكن لأَقْعدَ مع الشيطان»، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثٌ مِن الحقِّ: ما من عبدٍ ظُلم بمظْلِمةٍ فَيُغضي عنها لله تعالى إلا أعزَّ الله عز وجل بها نَصْره، وما فتح رجلٌ باب عطية يُريد بها صلةً إلا زاده الله تعالى بها كَثْرةً، وما فتح رجلٌ باب مسألة يُريد بها كثرةً إلا زاده الله تعالى بها قِلّةً»(٣). واستشكل هذا الخبر بأنه يُشعر بعتب أبي بكر رضي الله عنه، وهو نوعٌ من السبيل المنفي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾. وأُجيب بأنَّا لا نُسلم ذلك، وليس فيه أكثرُ من تنبيهه رضي الله عنه على ترك الأَوْلى، وهو شيء والعتبُ شيء آخر، وكذا لا يُعَدُّ لوماً كما لا يخفى.

ومن الناس من خصَّ السبيلَ في الآية بالإثم والعِقاب، فلا إشكال عليه أصلاً.

وقيل: هو باقٍ على العموم إلا أن الآية في عوامِّ المؤمنين ومَن لم يبلغ مبلغَ أبي بكر رضي الله عنه، فإنَّ مثلَه يُلام بالشتم ـ وإن كان بحقٍّ ـ بحضرة رسولِ الله ﷺ قبلَ أن

---

(١) شعب الإيمان (٨٣٢٧).

(٢) الدر المنثور ٦/ ١١، وشعب الإيمان (٨٣١٣)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (١٩٩٨).

(٣) الدر المنثور ٦/ ١١، ومسند أحمد (٩٦٢٤)، وسنن أبي داود (٤٨٩٧).

يأذنَ له به قالاً أوحالاً، بل لاح عليه ﷺ ما يُشعر باستحسان السُّكوت عنه، وحسناتُ الأبرار سيئاتُ المُقرَّبين.

وقد أمرَ ﷺ بعضَ الأشخاص بردِّ الشَّتم على الشاتم؛ أخرج النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشةَ ﵂ قالت: دخلَتْ عليَّ زينبُ ﵂ وعندي رسولُ الله ﷺ فأقبلَتْ عليَّ تَسُبُّني، فوزعَها النبيُّ عليه الصلاة والسلام فلم تَنْتهِ، فقال لي: «سُبِّيها» فَسَبَبْتُها حتى جفَّ ريقُها في فمها ووجهُ رسول الله ﷺ يتهلَّل سروراً[1]. ولعله كان هذا منه عليه الصلاة والسلام تعزيراً لزينب ﵂ بلسان عائشةَ ﵂ لِمَا أنَّ لها حقّاً في الردّ ورأى المصلحة في ذلك.

وقد ذكر فقهاؤنا أن للقاضي أن يُعزِّرَ من استحقَّ التعزيرَ بشتم غير القذف، وكذا للزوج أن يُعزِّرَ زوجته على شَتْمها غير محرم، إلى أمور أُخر. فتأمَّل.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ يقتضي رعايةَ المُماثلة مطلقاً، وفي «تفسير الإمام»[2] أن الآيةَ تقتضي وجوبَ رعايةِ المُماثلة في كلِّ الأمور إلا فيما خصَّه الدليلُ، لأنه لو حُملت المُماثلة فيها على المماثلة في أمرٍ معيَّن فهو غير مذكور فيها، فيلزم الإجمال، وعلى ما قلنا يلزم تحمل التخصيص، ومعلومٌ أن دفع الإجمال أولى من دفع التخصيص.

والفقهاءُ أدخلوا التخصيصَ فيها في صور كثيرة تارةً بناءً على نصٍّ آخرَ أخصَّ، وأخرى بناءً على القياس، ولا شكَّ أنَّ مَن ادَّعى التخصيصَ فعليه البيانُ، والمُكلَّف يكفيه أن يتمسَّك بها في جميع المطالب. وعن مجاهد والسدي: إذا قال له: أخزاه الله تعالى. فليقل: أخزاه اللهُ تعالى، وإذا قَذَفه قَذْفاً يُوجب الحدَّ فليس له ذلك، بل الحدّ الذي أمر الله تعالى به، ونقل أبو حيان[3] عن الجمهور أنهم قالوا: إذا بغى مؤمنٌ على مؤمن فلا يجوز له أن ينتصرَ منه بنفسه بل يرفعُ ذلك إلى الإمام أو نائبه.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠، وسنن النسائي الكبرى (٨٨٦٥)، وسنن ابن ماجه (١٩٨١)، وفيه بدل: «سُبِّيها»: «دونك فانتصري» وهو في المسند (٢٤٦٢٠)، وقد أخرج البخاري (٢٥٨١) حديثاً طويلاً، وفيه قصة زينب ﵂ بنحوها.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ١٨١.

(٣) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٣.

وفي «مجمع الفتاوى»[١]: جاز المُجازاة بمثله في غير مُوجب حدٍّ، للإذن به «ولمن انتصر بعد ظُلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» والعفوُ أفضلُ «فمن عفا وأَصلحَ فأجره على الله».

وقال ابن الهُمام[٢]: الأولى أنَّ الإنسانَ إذا قيل له ما يُوجب التعزير أن لا يُجيبه، قالوا: لو قال له: يا خبيثُ، الأحسن أن يكفَّ عنه ويرفعَه إلى القاضي لِيؤدِّبه بحضوره، ولو أجاب مع هذا فقال: بل أنت، لا بأس.

وفي «التنوير» وشرحه: ضرب غيره بغير حقٍّ وضربه المضروبُ أيضاً، يُعزَّران، كما لو تشاتما بين يدي القاضي ولم يتكافأا[٣].

وأنت تعلم ما يقتضيه ظاهر الآية ولا يُعدَلُ عنه إلا لنصّ، وظاهرُ كلام العلامة الطيبي أن المظلوم إذا عفا لا يلزم الظالمَ التعزير بضربٍ أوحبس أونحوه. وذكر فقهاؤنا أن التعزيرَ يغلَّب فيه حقُّ العبد، فيجوز فيه الإبراء والعفو واليمين والشهادة على الشهادة وشهادة رجل وامرأتين، ويكون أيضاً حقّاً لله تعالى فلا عفوَ فيه إلا إذا عَلِمَ الإمامُ انزجار الفاعل.. إلى آخر ما قالوا.

ويترجَّح عندي أن الإمام متى رأى بعد التأمل والتجرُّد عن حظوظ النفس تركَ التعزير للعفو سبباً للفساد والتجاسر على التعدِّي وتجاوز الحدود عَزَّر بما تقتضيه المصلحة العامة، ولْيَبْذُلْ وسعه فيما فيه إصلاحُ الدين وانتظامُ أمور المسلمين، وإياه أن يتَّبع الهوى فيضلَّ عن الصراط المستقيم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: ما له من ناصر يتولَّاه من بعد خِذلان الله تعالى إيَّاه، فضمير «بعده» لله تعالى بتقدير مضاف فيه، وقيل: للخِذْلان المفهوم من «يضلل». والجملة عطفٌ على قوله تعالى: «أولئك لهم عذاب أليم»،

---

(١) وهو لأحمد بن محمد بن أبي بكر الحنفي، حيث جمع فيه الفتاوى الكبرى والصغرى للصدر وفتاوى أبي بكر محمد بن الفضل البخاري والسمرقندي وغيرها، ثم اختصره وسماه: خزانة الفتاوى. كشف الظنون ٢/ ١٦٠٣.

(٢) فتح القدير ٤/ ٢١٨.

(٣) الدر المختار شرح تنوير الأبصار ١/ ٤٤٠.

وكنَى بـ «مَن» عن الظالم الباغي تسجيلاً بأنه ضالٌّ مخذولٌ، أوأتى به مُبهماً لِيشمله شُمولاً أوليّاً، فقولُه سبحانه: «ولمن صبر» إلخ اعتراضٌ، لِمَا أشرنا إليه.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: حين يرونه، وصيغة الماضي للدلالة على التحقُّق ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ﴾ أي: رَجْعة إلى الدنيا ﴿مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ حتى نُؤمِنَ ونعمل صالحاً. وجوِّز أن يكون المعنى: هل إلى ردٍّ للعذاب، ومَنَع منه «من سبيل». وتنكير «مَرَدّ» وكذا «سبيل» للمبالغة، والجملة حال، وقيل: مفعول ثانٍ لـ «ترى».

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار المَدلول عليها بالعذاب، والجملة كالسابقة ﴿خَٰشِعِينَ﴾ متضائلين متقاصرين ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: بسبب الذلّ لِعظم ما لَحِقَهم، فـ «من» سببية متعلِّقة بـ «خاشعين»، وهو وكذا ما بعدَه حال.

وجوِّز أن يُعلَّق الجارُّ بقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ ويُوقف على «خاشعين» ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ والأول أظهر، والطَّرْف مصدر طَرَفَ: إذا حرَّك عينه، ومنه طَرْفةُ العين، والمراد بالخَفِيّ الضعيف، و«مِنْ» ابتدائية، أي: يبتدئ نظرُهم من تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ بِمُسارقةٍ كما ترى المصبورَ[1] ينظر إلى السيف، وهكذا نظرُ الناظر إلى المكارهِ لا يقدرُ أن يفتحَ أجفانه عليها ويملأ عينيه منها كما يفعل في نَظَره إلى المَحَابّ. ويجوز أن تكون «مِنْ» بمعنى الباء.

وعن ابن عباس: «خَفِيّ»: ذليل، فالطرفُ عليه جَفْنُ العين.

وقيل: يُحشرون عُمياً، فلا ينظرون إلا بقلوبهم، وذاك نظرٌ من طَرْف خَفِيّ. وهو تأويلٌ مُتكلَّف.

والجملتان السابقتان، أعني «ترى الظالمين» و«تراهم يُعرضون» معطوفان على «ومن يُضلل»، وأصلُ الكلام: والظالمون لمَّا رأوا العذابَ يقولون وهم يُعرضون عليها خاشعين، ثم قيل: «وترى» و«تراهم» خطاباً لكلّ مَنْ يتأتّى منه الرؤية ويَعتبر بحالهم، زيادةً للتهويل، كأنه يعجبهم مما هم فيه لِيعتبروا ويبتهجوا، ومنه يظهر أنه خطابٌ للنبيِّ ﷺ وأتباعه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: إنهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾

(١) هو مَن يُقتل في غير حرب، فيقدَّم للقتل موثقاً. حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٦.

بالتعريض للعذابِ الخالد، أو على ما مرَّ في «الزمر»[١]. وعدلَ عن: إنهم، إلى المُنزَلِ؛ تسجيلاً عليهم بأكمل الخُسران، إذ المرادُ: إنَّ الكاملين في صِفة الخُسران المتَّصِفين بحقيقته.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ مُتعلِّق بـ «خسروا» والقولُ في الدنيا، وجُوِّز أن يكونَ مُتعلِّقاً بـ «قال» والماضي لِتحقُّق الوقوع، أي: ويقولون إذا رَأَوهم على تلك الصفة.

وفي «الكشف»: الظاهرُ أنه قولٌ يومَ القيامة كالخُسران، من باب التنازع بين الفعلين. وآثرَ صاحبُ «الكشاف» على ما يُؤذن به صنيعُه أن يتعلَّق بالخسران وحدَه[٢]، لأن الأصلَ في «قال الذين آمنوا إن الخاسرين» إلخ: وهم الخاسرون، كما أنَّ الأصلَ في «وترى الظالمين»: والظالمون لما رَأوا، ثم قيل: «وقال الذين آمنوا» على نحو ما قيل: «وترى» إلخ، وكما أنَّ الرؤيةَ رؤيةُ الدنيا استحضاراً لِعذابهم الكائن في الآخرة تهويلاً، كذلك القولُ، كأنهم جعلهم حضوراً يُعاين عذابَهم ويسمع ما يقول المؤمنون فيهم. وروعي[٣] الخطاب في الرؤية والغيبةُ في القول لأن مُعاينةَ العذاب لمَّا كانت أَدْخَلَ في التهويل جُعل العذاب قريباً مشاهداً، وخُصُّوا بالخطاب على سبيل استحضارِ الحال لمزيد الابتهاج، ولم يكن في الخُسران ذلك المعنى، لأنه أمرٌ معقولٌ، والمحسوساتُ أقوى، لاسيما إذا كُنَّ مُوجبات الخُسران، فجيء به على الأصل من الغيبة، وعَدَله من المضارع إلى الماضي؛ لأنه قولٌ صادرٌ عن مُقتضى الحال قد حقَّ ووقع، تفوَّهوا به أو لا. وأُسند إلى المؤمنين دلالةً على الابتهاج المذكور واغتباطهم بنجاتهم عمَّا هم فيه، وإلا فالقولُ والرؤية لكلٍّ من يتأتَّى منه القولُ والرؤية. وجَعْلُه حالاً - كما فعل الطيبي - على معنى: وتراهم وقد صدق فيهم قولُ المؤمنين في الدنيا: «إن الخاسرين» إلخ، من أسلوب قوله:

إذا ما انتَسَبْنا لم تَلِدْني لئيمةٌ[٤]

---

(١) عند الآية (١٥).

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٤، ويعني بصنيعه تقديمَه لهذا القول على القول الآخر، وهو أن يتعلق بـ «قال».

(٣) قوله: وروعي، تصحف في (م) إلى: ورد على.

(٤) ذكره الفراء في معاني القرآن ١/ ٦١، والطبري في تفسيره ٢/ ٥٧، وعجزه: ولم تَجِدِي من أن تُقِرِّي به بُدّا.

وفيه أنه إنما يرتكب عند تعذُّر الحقيقة، وقد أمكن الحمل على التنازع فلا تعذُّر. ثم إنه على التقدير لا يظهر أنه قولٌ فيها إلا بدليلٍ خارج، وهذا بخلاف ما ذكره جارُ الله في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾[1] [ق:٢٨] من تقدير: وقد صحَّ عندكم أنِّي قدمت؛ لأن في اللفظ إشعاراً به بيِّناً. انتهى.

ولعمري، لقد أبعد قُدِّس سِرُّه المَغْزى في هذه الآيات العِظام، وأتى بما تستحسنه النُّظَّار من ذوي الأفهام. فليفهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ إما من تمام كلامِ المؤمنين، ويجري فيه ما سمعتَ من الأصل ونُكتة العُدول، أو استئنافُ إخبار منه تعالى؛ تصديقاً لذلك.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حَسْبَما يزعُمون ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ إلى الهدى أو النجاة.

وقيل: المراد: ما له من حُجَّة.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ إذا دعاكم لما به النجاةُ على لسان رسوله ﷺ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الجارُّ والمجرور إما متعلق بـ «مردّ» ويُعامل اسمُ «لا» الشبيهُ بالمضاف معاملتَه، فيترك تنوينُه كما نصَّ عليه ابنُ مالك في «التسهيل»[2]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا مانعَ لما أعطيتَ»[3]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢] أي: لا يردُّه الله تعالى بعد ما حكم به.

ومن لم يرضَ بذلك قال: هو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: ذلك من الله تعالى، والجملة استئنافٌ في جواب سؤال مقدَّر تقديره: ممن ذلك؟ أو حالٌ من الضمير المستتر في الظرف الواقع خبر «لا»، أو متعلِّق بالنفي أو بما دلَّ عليه كما قيل في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢]. وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «يأتي».

---

(١) الكشاف ٤/٨.

(٢) ص٦٨.

(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد (١٨١٣٩)، والبخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وتُعقِّب بأنه خلافُ المتبادر من اللفظ والمعنى، وقيل: هو مع ذلك قليلُ الفائدة. وجوِّز كونه صفة لـ «يوم»، وتُعقِّبَ بأنه ركيكٌ معنًى.

والظاهرُ أن المرادَ بذلك اليوم يوم القيامة لا يوم وُرود الموت كما قيل.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: ملاذٍ تلتجئون إليه، فتخلصون من العذاب، على أن «ملجأ» اسمُ مكان، ويجوزُ أن يكونَ مصدراً ميمياً.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ إنكار، على أنه مصدرُ أنكر على غير القياس، ونفيُ ذلك مع قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] تنزيلاً لما يقع من إنكارهم منزلةَ العَدم لِعدم نَفْعِهِ، وقيام الحُجَّة، وشهادة الجوارح عليهم، أو يقال: إن الأمرين باعتبار تعدُّد الأحوال والمواقف.

وجُوِّز أن يكون «نكير» اسمَ فاعل للمبالغة، أي: ما لكم مُنكِرٌ لأحوالكم غير مُميِّز لها لِيرحمكم، وهو كما ترى.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تلوينٌ للكلام وصرفٌ له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة، وتوجيهٌ له إلى الرسول ﷺ، أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عمَّا تدعوهم إليه فلا تهتمَّ بهم، فما أرسلناك رقيباً ومُحاسباً عليهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ﴾ أي: ما عليك ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ لا الحفظُ، وقد فَعَلْتَ.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: نعمة من الصِّحة والغِنى والأمن ونحوها ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أُريد بالإنسان الجنس الشامل للجميع، وهو حينئذ بمعنى الأناسي أو الناس، ولذا جمع ضميره في قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ وليست للاستغراق، والجمعية لا تتوقَّف عليه، فكأنه قيل: وإنْ تُصب الناسَ أو الأناسي ﴿سَيِّئَةٌ﴾ بلاءٌ من مرض وفقرٍ وخوفٍ وغيرها ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما صدرَ منهم من السيئات ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ بليغُ الكُفر ينسى النعمة رأساً، ويذكر البليةَ ويستعظمها، ولا يتأمَّل سببها، بل يزعُم أنها أصابَتْه من غير استحقاق لها.

و«أل» فيه أيضاً للجنس، وقيل: هي فيهما للعهد على أن المرادَ المُجرمون، وقيل: هي في الأول للجنس وفي الثاني للعهد.

وقال الزمخشري: أراد بالإنسان الجمع لا الواحد لمكانِ ضمير الجمع، ولم يُرِدْ إلا المجرمين، لأن إصابةَ السيئة بما قَدَّمت أيديهم إنما يستقيم فيهم. ثم قال: ولم يَقُل: فإنه لَكَفور لِيُسجِّل على أنَّ هذا الجنس موسومٌ بِكُفْران النِّعم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦][(١)]. فَفَهِمَ منه العلامة الطيبي أنها في الأول للعهد، وأنَّ المرادَ الكُفَّارُ المُخاطبون في قوله تعالى: «استجيبوا لربكم» لِترتُّب «فإن أعرضوا» عليه، ووضع المُظهَر موضع المُضْمَر للإشعار بتصميمهم على الكُفران، والإيذانِ بأنهم لا يَرْعَوون مما هم فيه، وأنها في الثاني للجنس ليكونَ المعنى: ليس بِبِدْعٍ من هذا الإنسان المعهودِ الإصرارُ؛ لأن هذا الجنسَ موسومٌ بِكُفران النعم، فيكونُ ذمُّ المطلق دليلاً على ذَمِّ المُقيَّد.

وفي «الكشف»: إنه أراد أنَّ الإنسان ـ أي: الأول ـ للجنس الصالح للكلّ وللبعض، وإذا قام دليلٌ على إرادة البعض تعيَّن، وقد قام، لما سلف أنَّ الإصابةَ في غير المجرمين للعِوض المرقِّي[(٢)]، ولم يذهب إلى أن اللام للعهد، وجعل قوله تعالى: «فإن الإنسان كفور» للجنس ليكون تعليلاً للمقيّد بطريق الأولى ومطابقاً لما جاء في مواضعَ عديدة من الكتاب العزيز؛ ولا بأس بأن يجعل إشارةً إلى السالف، فإنه للجنس أيضاً، ويكون في وضع المُظهر موضعَ المُضمَر الفائدةُ المذكورة مراراً، بل هو أدلُّ على القانون الممهد في الأصول، وبكون كليهما للجنس أقول.

وإسناد الكُفران مع أنه صفةُ الكَفرة إلى الجنس لِغلبتهم، فهو مجازٌ عقليّ حيث أُسند إلى الجنس حالُ أغلب أفراده لملابسته الأغلبية، ويجوز أن يُعتبر أغلبُ الأفراد عينَ الجنسِ لِغلبتهم على غيرهم، فيكون المجاز لُغوياً. وكذا يقال في إسناد الفرح إذا كان بمعنى البَطَر فإنه أيضاً من صفات الكَفرة، بل إن كان أيضاً بمعناه المعروف، وهو انشراحُ الصدر بلذَّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٤.

(٢) في الأصل و(م): الموفي، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٤٢٧.

الدنيوية، فإنه وإن لم يكن من خواصِّ الكُفَّار، بل يكون في المؤمنين أيضاً اضطراراً أو شُكراً، إلا أنه لا يعمُّ جميع أفراد الجنس. وإنْ قلتَ بعمومه لم تَحتجْ إلى ذلك، كما إذا فسَّرته بالبطر على إرادة العهد في الإنسان. وإصابة السيئة بالذنوب غير عامة للأفراد أيضاً، فحال إسنادها يعلم مما ذكرنا.

وتصديرُ الشرطية الأُولى بـ «إذا» مع إسناد الإذاقة بلفظ الماضي إلى نون العظمة للتنبيه على أنَّ إيصالَ النعمة مُحقَّقُ الوجود كثيرُ الوقوع، وأنه مرادٌ بالذات من الجواد المُطلق سبحانه وتعالى. كما أن تصدير الثانية بـ «إن» وإسناد الإصابة بلفظ المضارع إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم للإيذان بِندرة وقوعها، وأنها بمعْزِل عن الانتظام في سِلك الإرادة بالذات والقصد الأوَّليِّ. وإقامةُ عِلَّة الجزاء مُقامَ الجزاء مبالغةٌ في ذمِّهم.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا لغيره سبحانه اشتراكاً أو استقلالاً ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من غير وجوب عليه سبحانه.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ استئناف بياني، أو بيانٌ لـ «يخلق»، أو بدلٌ منه بَدَلَ البعض على ما اختاره القاضي(١).

ولمَّا ذكر سبحانه إذاقةَ الإنسان الرحمةَ وإصابته بضدِّها أتبعَ جلَّ وعلا ذلك أن له سبحانه المُلك، وأنه تعالى يَقْسِم النعمةَ والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغةِ، لا كما شاء الإنسان بهواه. وفيه إشارة إلى أن إذاقةَ الرحمةِ ليست للفرح والبَطر، بل للشُّكر لِمُوليها، وإصابة المحنة ليست للكُفْران والجزع بل للرجوع إلى مُبليها، وتأكيدٌ لإنكار كُفرانهم من وجهين: الأول: أن المُلك مُلكه سبحانه من غير مُنازع ومُشارك، يتصرَّف فيه كيف يشاء، فليس على مَن هو أحقرُ جُزء من مُلكه تعالى أن يعترضَ ويريد أن يجريَ التدبير حسب هواه الفاسد.

الثاني: أن هذا المُلك الواسعَ لذلك العزيز الحكيم جل جلاله الذي من شأنه أن يخلقَ ما يشاء، فأنّى يجوز أن يكون تصرُّفه إلا على وجهٍ لا يُتصوَّر أكملَ منه

---

(١) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٧/ ٤٢٨.

ولا أوفقَ لمقتضى الحِكمة والصواب. وعند ذلك لا يبقى إلا التسليم والشُّغل بتعظيم المُنعم المُبلي عن الكُفران والإعجاب.

وناسبَ هذا المَساق أن يدلَّ في البيان من أول الأمر على أنه تعالى فعل لمحض مشيئته سبحانه، لا مَدخل لمشيئة العبد فيه، فلذا قُدِّمت الإناثُ وأُخِّرت الذُّكور، كأنه قيل: يخلق ما يشاء، يهبُ لمن يشاء من الأناسي ما لا يهواه، ويهب لمن يشاء منهم ما يهواه، فقد كانت العرب تعدُّ الإناثَ بلاءً: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨]، ولو قدّم المُؤخَّر لاختلَّ النظم. وليس التقديمُ لمجرَّد رِعاية مناسبة القُرب من البلاء لِيعارَض بأنَّ الآيةَ السابقة ذُكِرت الرحمةُ فيها مقدَّمة عليه، فناسب ذلك تقديمَ الذكور على الإناث. وفي تعريف الذكور ـ مع ما فيه من الاستدراك لِقضية التأخير ـ التنبيهُ على أنه المعروفُ الحاضرُ في قلوبهم أولَ كلِّ خاطر، وأنه الذي عقدوا عليه مُناهم.

ولما قضى الوطر من هذا الأسلوب قيل: «أو يزوجهم» أي: الأولاد «ذكراناً وإناثاً» أي: يخلق ما يهبهم زوجاً؛ لأن التزويجَ جعلُ الشيء زوجاً، فـ «ذكرانا وإناثا» حال من الضمير، والواو قيل: للمعية؛ لأن حقَّه التأخير عن القِسمين سياقاً ووجوداً، فلا تتأتَّى المقارنة إلا بذلك، وقيل ذلك لأنَّ المرادَ: يهبُ لمن يشاء ما لا يهواه، ويَهَبُ لمن يشاء ما يهواه، أو يَهَبُ الأمرين معاً، لا أنه سبحانه يجعل من كلٍّ من الجنسين الذكورَ والإناث على حياله زوجاً، ولولا ذلك لَتوهّم ما ذُكر، فتأمَّله. ولِتركُّبه منهما لم يُكرَّر فيه حديث المشيئة، وقدّم المقدَّم على ما هو عليه في الأصل، ولم يُعرَّفْ إذْ لا وجهَ له.

ثم قيل: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ أي: لا يُولد له، فقيِّد بالمشيئة لأنه قِسْم آخر، وكأنه جيء بـ «أو» في«أو يُزوِّجهم» دون الواو كما في سابقه من حيث إنه قسيمُ الانفراد المشترك بين الأولين، ولم يُؤت في الأخير لاتِّضاحه بأنه قسيمُ الهبة المشتركة بين الأقسام المتقدِّمة. فتأمَّل.

وقيل: قدَّم الإناث توصيةً برعايتهن لِضَعْفهنَّ، لاسيما وكانوا قريبي العهد بالوأد، وفي الحديث: «مَن ابتُلي بشيء من هذه البنات فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له ستراً

من النار»[١]. وقيل: قُدِّمت لأنها أكثرُ، لِتكثير النسل، فهي من هذا الوجه أنسبُ بالخَلْق المراد بيانُه. وقيل: لِتطييب قلوب آبائهنَّ لما في تقديمهنَّ من التشريف، لأنهنَّ سببٌ لِتكثير مخلوقاته تعالى.

وقال الثعالبي: إنه إشارةٌ إلى ما في تقدُّم ولادتهن من اليُمن، حتى إن أولَ مولود ذَكَر يكون مشؤوماً فيقولون له: بِكْرُ بِكْرين[٢]. وعن قتادة: من يُمن المرأة تَبكيرُها بأُنثى.

وقيل: قُدِّمتْ وأُخِّر الذكور مُعَرَّفاً للمحافظة على الفواصل.

والمناسب للسياق ما علمت سابقاً.

وقال مجاهد في «أو يزوجهم»: التزويجُ أن تلد المرأةُ غلاماً ثم تلد جارية.

وقال محمد بن الحنفية ﷺ: هو أن تَلِدَ توأماً غلاماً وجاريةً.

وزعم بعضُهم أن الآية نزلت في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حيث وهب سبحانه لشعيب ولوط عليهم السلام إناثاً، ولإبراهيم عليه السلام ذكوراً، ولرسوله محمد ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجعل عيسى ويحيى عليهما السلام عقيمين.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ مبالغ جل شأنه في العلم والقُدرة، فيفعل ما يفعل بحكمة واختيار.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: ما صحَّ لفردٍ من أفراد البشر. ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ ظاهرُه حصرُ التكليم في ثلاثة أقسام: الأول: الوحي، وهو المرادُ بقوله تعالى: «إلا وحيا» وفسَّره بعضُهم بالإلقاء في القلب سواء كان في اليقظة أو في المنام، والإلقاءُ أعمُّ من الإلهام، فإن إيحاء أُمِّ موسى إلهامٌ، وإيحاء إبراهيم عليه السلام إلقاءٌ في المنام وليس إلهاماً، وإيحاء الزبور إلقاءٌ في اليقظة كما روي عن مجاهد، وليس بإلهام؛ والفرقُ أن الإلهام لا يستدعي صورةَ كلام نفساني، فقد وقد، وأما اللفظي فلا، وأما نحو إيحاء الزبور

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٥٧٢)، والبخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) من حديث عائشة ﵂.

(٢) ثمار القلوب ص٦٦٦، وقوله: بكر بِكْرَين، يعني أن المولود بكر، وكل من أبويه كذلك.

فيستدعيه، وقد جاء إطلاقُ الوحي على الإلقاء في القلب في قولِ عَبيدِ بن الأبرص:

وأوحى إليَّ الله أنْ قد تآمروا   بإبْلِ أبي أوفى فَقُمتُ على رجلي[١]

فإنه أراد: قَذَفَ في قلبي.

والثاني: إسماع الكلام من غير أنْ يُبصرَ السامعُ مَنْ يُكلِّمه كما كان لموسى، وكذا الملائكة الذين كلَّمهم الله تعالى في قضية خَلْق آدم عليه السلام ونحوهم، وهو المرادُ بقوله سبحانه: «أو من وراء حجاب» فإنه تمثيلٌ له سبحانه بحال المَلِك المُتحجِّب الذي يُكلِّم بعضَ خواصِّه من وراء حجاب يسمع صوتَه ولا يرى شَخْصَه.

والثالث: إرسال المَلَك، كالغالب من حال نبيِّنا ﷺ، وهو حالُ كثير من الأنبياء عليهم السلام، وزَعْم أنه من خصوصيات أُولي العَزْم من المرسلين غيرُ صحيح، وهو المرادُ بقوله عز وجل: «أو يرسل رسولاً» أي: مَلَكاً «فيوحي» ذلك الرسولُ إلى المُرسَل إليه الذي هو الرسول البَشَريُّ «بإذنه» أي: بأمره تعالى وتيسيره سبحانه «ما يشاء» أن يُوحِيَه، وهذا يدلُّ على أن المرادَ من الأول الوحي من الله تعالى بلا واسطة؛ لأنَّ إرسالَ الرسول جعل فيه إيحاء ذلك الرسول، وبنى المعتزلي على هذا الحصر أن الرؤيةَ غيرُ جائزة؛ لأنها لو صحَّت لصحَّ التكليم مُشافهةً، فلم يصحَّ الحصر.

وقال بعض: المراد حصرُ التكليم في الوحي بالمعنى المشهور، والتكليم من وراء حجاب، وتكليم الرُّسل البشريِّين مع أممهم. واستُبعِدَ بأنَّ العُرف لم يطَّرِدْ في تسمية ذلك إيحاءً.

وقال القاضي: إنَّ قولَه تعالى: «إلا وحياً» معناه: إلا كلاماً خَفِيّاً يُدرَكُ بسرعة، وليس في ذاته مُركَّباً من حروف مُقَطَّعة، وهو ما يعمُّ المشافهة كما رُوي في حديث المِعراج[٢]، وما وُعد به في حديث الرؤية. والمُهْتَفُ به كما اتَّفق لموسى عليه

---

(١) لم نقف عليه في ديوان عبيد بن الأبرص، وأورده الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﷺ، وهو في مسند أحمد (٢١٢٨٨) من حديث أبي بن كعب ﷺ.

السلام في الطور، لكن عَطْف قوله تعالى: «أو من وراء حجاب» عليه يَخصُّه بالأول(١). فالآية دليلٌ على جواز الرؤية لا على امتناعها.

وإلى الأول ذهب الزمخشري(٢)، وانتصر له صاحب «الكشف» عفا الله تعالى عنه فقال: وأما نحن فنقول والله تعالى أعلم: إنَّ قولهَ تعالى: «وما كان لبشر» على التعميم يقتضي الحصرَ بوجه لا يخصُّ التكلُّم بالأنبياء عليهم السلام ويدخلُ فيه خطابُ مريم، وما كان لأُمِّ موسى وما يقع للمُحَدَّثين من هذه الأمة وغيرهم، فحملُ الوحي على ما ذهب إليه الزمخشري أولى. ثم إنه يلزم القاضي أن لا يكونَ ما وقع من وراء حِجاب وحياً، لا أنه يُخصِّصه، لأنه نظيرُ قولك: ما كان لك أنْ تُنعم إلا على المساكين وزيد، نعم يحتمل أن يكونَ زيدٌ داخلاً فيهم على نحو: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ﴾(٣) [البقرة:٩٨] وهذا يضرُّ القاضي لاقتضائه أن يكون هذا القسم ـ أعني ما وقع من وراء حجاب ـ أعلى المراتب، فلا يكون الثاني هو المشافهة، وتقدير: إلا وحياً من غير حجاب أو من وراء حجاب، خلافُ الظاهر، وفيه فكٌّ للنَّظم؛ لقوله سبحانه: «أو يُرسل» وهو عطفٌ على قوله تعالى: «إلا وحياً»، مع كونه خلافَ الظاهر. وعلى هذا يفسدُ ما بنَى عليه من حديث التنزُّل من القسم الأعلى إلى ما دونه، ومع ذلك لا يدلُّ على عدم وقوع الرؤية فضلاً عن جوازه، بل دلَّ على أنها لو وقعتْ لم يكن معها المكالمة، وذلك هو الصحيحُ؛ لأن الرؤية تستدعي الفناء والبقاء به عز وجل، وهو يقتضي رَفْعَ حجاب المُخاطب المستدعي كوناً وجوديّاً، ثم الكاملُ لتوفيته حقَّ المقامات الكُبرى يكون المحتظي منه بالشهود في مقام البقاء المذكور، ومع ذلك لا يمنعه عن حظّه من سماع الخطاب، لأنه حظ القلب المحجوب عن مقام الشهود، والمقصودُ أن الذي يصحُّ ذوقاً ونقلاً وعقلاً كونُ الخطاب من وراء حجاب ألبتة، وهو صحيحٌ، لكن لا ينفع مُنكرَ الرؤية ولا مُثبتها، وأما سؤال الترقِّي في الأقسام فالجواب عنه أن الترقِّي حاصلٌ بين الأول

(١) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٧/ ٤٢٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٣) قوله: ورسله، ليس في الأصل و(م).

والثاني الذي له سُمِّي الكَليمُ كليماً، وأما الثالث، فلما كان تكليماً مجازيّاً أُخِّر عن القسمين، ولم ينظر إلى أنه أشرفُ من القسم الأول، فإن ذلك الأمر غيرُ راجعٍ إلى التكليم، بل لأنه مخصوصٌ بالأنبياء عليهم السلام. انتهى.

وتُعقِّب ما اعتَرض به على القاضي بأنه لا يَرِدُ، لأن الوحيَ بذلك المعنى بالتخصيص المذكور والتقييد المأخوذ من التقابل صار مُغايراً لما بعدَه، وليس من شيء من القبيلين حتى يذهب إلى الترقِّي أو التدلِّي، لأنه لا يُعطف بـ «أو» بل بالواو كما لا يخفى. ولزوم أن لا يكون الواقعُ من وراء حجاب وحياً غيرُ مُسلَّم؛ لأنه إنْ أراد أن لا يكون وحياً مطلقاً فغيرُ صحيح؛ لأنَّ قوله تعالى بعدَه: «فَيُوحي بإذنه» قرينةٌ على أن المرادَ بالوحي السابق وحيٌ مخصوص كالذي بعدَه، وإنْ أراد أنه لا يكون من الوحي المخصوص السابق فلا يضرُّه، لأنه عينُ ما عناه، نعم الحصرُ على ما ذهب إليه القاضي غيرُ ظاهر إلا بعدَ ملاحظةِ أنه مخصوصٌ بما كان بالكلام، فتدبَّر.

والظاهرُ أن عائشةَ ﵂ حملت الآيةَ على نحو ما حملها المعتزلة، أخرج البخاري ومسلم والترمذي عنها أنها قالت: مَنْ زعم أنَّ محمداً رأى ربَّه فقد كَذَب، ثم قرأت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾(١).

وأنت تعلم أنَّ أكثرَ العلماء على أن النبيَّ ﷺ رأى ربَّه سبحانه ليلةَ الإسراء لِكَثْرة الروايات المصرِّحة بالرؤية، نعم ليس فيها التصريح بأنها بالعين، لكن الظاهرُ من الرؤية كونها بها. والمروي عن الأشعري وجمعٍ من المُتكلِّمين أنه جلَّ شأنه كلَّمه عليه الصلاة والسلام تلك الليلة بغير واسطة، ويُعزى ذلك إلى جعفر بن محمد الباقر وابن عباس وابن مسعود ﵃، وهو الظاهرُ؛ للأحاديث الصِّحاح في مُرادَّة الصلاة واستقرارِ الخمسين على الخَمْس(٢)، وغير ذلك. وعائشةُ ﵂ لم تَنْفِ الرؤية إلا اعتماداً على الاستنباط من الآيات، ولو كان معها خبرٌ لَذَكَرتْه،

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٥)، وصحيح مسلم (١٧٧)، وسنن الترمذي (٣٢٧٨)، وهو في مسند أحمد (٢٤٢٢٧)، وسلف عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة الأنعام.

(٢) ينظر حديث المعراج الذي سلف تخريجه قريباً.

واحتجاجُها بما ذُكر من الآيات غيرُ تامٍّ، أما عدمُ تمامية احتجاجها بآية «لا تدركه الأبصار» فمشهور، وأما عدمُ تمامية الاحتجاجِ بالآية الثانية فَلِما سمعتَ عن صاحب «الكشف» قُدِّس سِرُّه.

وقال الخفاجي ـ بعد تقرير الاحتجاج بأنه تعالى حصرَ تكليمه سبحانه للبشر في الثلاثة ـ: فإذا لم يَرَهُ جل وعلا من يُكلِّمه سبحانه في وقت الكلام لم يَرَه عز وجل في غيره بالطريق الأولى، وإذا لم يَرَهُ تعالى هو أصلاً لم يَرَه سبحانه غيره، إذْ لا قائل بالفصل. وقد أُجيب عنه في الأصول بأنه يحتمل أن يكون المرادُ حَصْرَ التكليم في الدنيا في هذه الثلاثة، أو نقول: يجوز أن تقع الرؤيةُ حالَ التكليم وحياً إذ الوحي كلامٌ بسرعة، وهولا يُنافي الرؤية[1]. انتهى.

ولا يخفى عليك أن الجواب الأول لا ينفع فيما نحن بصدده إلا بالتزام أَنَّ ما وقع لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام تلك الليلة لا يُعَدُّ تكليماً في الدنيا على ما ذكره الشرنبلالي في «إكرام أولي الألباب» لأنه كان في الملكوت الأعلى، وأنه يُستفاد من كلام صاحب «الكشف» منعٌ ظاهر للشرطية في وجه الاستدلال الذي قرَّره، وبعضُهم أجاب بأنَّ العامَّ مُخصَّصٌ بغير ما دليل.

وفي «البحر»: قيل: قالت قريش: ألا تُكلِّم الله تعالى وتنظر إليه إنْ كنتَ نبيّاً صادقاً كما كلَّم جلَّ وعلا موسى ونظر إليه تعالى. فقال لهم الرسول ﷺ: «لم ينظُرْ موسى عليه السلام إلى الله عز وجل» فنزلَتْ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية[2]. وهذا ظاهرٌ في أن الآيةَ لم تتضمَّن التكليمَ الشِّفاهي مع الرؤية، وكذا ما فيه[3] أيضاً: كان من الكفار خوضٌ في تكليم الله تعالى موسى عليه السلام، فذهبت قريش واليهود في ذلك إلى التجسيم، فنزلت، فإنَّ عدمَ تَضمُّنها ذلك أدفعُ لتوهُّم التجسيم.

وبالجملة الذي يترجَّح عندي ما قاله صاحبُ «الكشف» قُدِّس سِرُّه أن الآيةَ لا تنفع مُنكر الرؤية ولا مُثبتها، وما ذُكر من سبب النزول ليس بمتيقَّن الثُّبوت.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٥٢٦، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٩٦.

(٣) يعني: في البحر المحيط ٧/ ٥٢٦.

ويُفهم من كلام بعضهم أن الوحيَ كما يكون بالإلقاء في الرُّوع يكون بالخطّ؛ فقد قال النخعي: كان في الأنبياء عليهم السلام مَن يُخَطُّ له في الأرض. ومعناه اللغوي يشمل ذلك؛ فقد قال الإمام أبو عبد الله التيمي الأصبهاني(١): الوحي أصلهُ التفهيم، وكلُّ ما فُهِمَ به شيء من الإلهام والإشارة والكَتْب فهو وحي. وقال الراغب(٢): أصل الوحي الإشارة السريعة، ولِتضمُّن السُّرعة قيل: أمرٌ وحيٌّ، وذلك يكون بالكلام على الرمز والتعريض، وقد يكون بصوتٍ مجرَّدٍ عن التركيب، وبإشارةِ بعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حُمل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً﴾ [مريم:١١] فقد قيل: رَمَز، وقيل: اعتبار(٣)، وقيل: كَتَبَ، وجَعَل التسخير من الوحي أيضاً، وحَمل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨].

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما للصوفية قُدِّسَتْ أسرارهم من الكلام في هذه الآية.

و«وحياً» ـ على ما قال الزمخشري(٤) ـ مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحال، وكذا «أن يُرسلَ»؛ لأنه بتأويل إرسالاً. و«من وراء حجاب» ظرفٌ واقعٌ موقعَ الحال أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩١] والتقدير: وما صحَّ أن يُكلِّم أحداً في حال من الأحوال إلا مُوحياً أو مُسمعاً من وراء حجاب أو مُرسلاً. وتعقَّبه أبو حيان(٥) فقال: وقوع المصدر حالاً لا ينقاس، فلا يجوز: جاء زيدٌ بُكاءً، تريد: باكياً. وقاس منه المبرِّد(٦) ما كان نوعاً للفعل نحو: جاء زيدٌ مشياً، أو سرعةً، ومنع سيبويه(٧) من وقوع «أنْ» مع الفعل مَوْقعَ الحال، فلا يجوز: جاء زيدٌ أنْ يضحكَ، في معنى ضَحِكاً الواقع موقعَ ضاحكاً.

---

(١) محمد بن عيسى بن إبراهيم بن رزين، إمام في القراءات والنحو، صنَّف كتاب الجامع في القراءات، وكتاباً في العدد. توفي سنة (٢٥٣هـ). طبقات القراء ٢/ ٢٢٤.

(٢) في مفردات ألفاظ القرآن (وحي).

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعلها محرفة من: أشار، كما في مفردات الراغب.

(٤) في الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٥) في البحر المحيط ٧/ ٥٢٧.

(٦) في المقتضب ٣/ ٢٣٤.

(٧) في الكتاب ١/ ٣٧٠.

وأُجيبَ عن الأول بأنَّ القرآنَ يُقاس عليه ولا يلزم أن يُقاس على غيره، مع أنه قد يقال: يكتفى بقياس المبرّد. وعن الثاني بأنه علّل المنع بكون المصدر[(١)] الحاصل بالسَّبك معرفةً، وهي لا تقع حالاً، وفي ذلك نظرٌ؛ لأنه غيرُ مُطَّرد، ففي «شرح التسهيل»: إنه قد يكون نكرةً أيضاً، ألا تراهم فسَّروا ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ [يونس: ٣٧] بـ: مفترى، وقد عرض ابنُ جنِّي ذلك على أبي عليٍّ فاستحسنه[(٢)]، وعلى تسليم الاطّراد فالمعرفة قد تكون حالاً لكونها في معنى النكرة كـ: وحده، والاقتصار على المنع أولى لمكان التعسُّف في هذا.

واختار غيرُ واحدٍ أن «وحياً» بما عُطف عليه منتصبٌ بالمصدر، لأنه نوعٌ من الكلام، أو بتقدير: إلا كلامَ وحي، و«من وراء حجاب» صفةُ كلام أو سماع محذوف، وصفة المصدر تسدُّ مَسَدَّه، والإرسال نوعٌ من الكلام أيضاً بحسب المآل، والاستثناءُ عليه مُفرَّغ من أعمِّ المصادر.

وقال الزجاج: قال سيبويه: سألت الخليلَ عن قوله تعالى: «أو يرسل رسولاً» بالنصب، فقال: هو محمولٌ على أنْ سِوى هذه التي في قوله تعالى: «أن يكلمه الله» لما يلزم منه أن يقال: ما كان لِبَشرٍ أنْ يُرسِلَ الله رسولاً، وذلك غير جائز، والمعنى: ما كان لِبَشرٍ أنْ يُكلِّمه الله إلا بأنْ يُوحي أو أن يُرسل[(٣)]. وعليه أن يقدِّر في قوله تعالى: «أو من وراء حجاب» نحو: أو أن يُسمِعَ من وراء حجاب، وأيّ داعٍ إلى ذلك مع ما سمعت؟!

واختلف في الاستثناء: هل هو متصلٌ أو منقطع؟ وأبو البقاء على الانقطاع[(٤)]، وتعقَّبه بعضُهم بأنَّ المُفرَّغ لا يتَّصف بذلك، والبحث شهير.

وقرأ ابن أبي عبلة: «أو من وراء حُجُب» بالجمع[(٥)]، وقرأ نافع وأهل المدينة:

---

(١) قوله: المصدر، ليس في (م).
(٢) قاله ابن جني في الخاطريات كما في حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٠.
(٣) معاني القرآن ٤/ ٤٠٣، والكتاب ٣/ ٤٩.
(٤) الإملاء (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٢٩٦.
(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٧.

«أو يرسلُ رسولاً فيوحي» برفع الفعلين[1]، ووجَّهوا ذلك بأنه على إضمار مبتدأ، أي: هو يُرسل، أو هو معطوفٌ على «وحياً» أو على ما يتعلَّق به «من وراء» بناءً على أن تقديره: أو يسمع من وراء حجاب.

وقال العلامة الثاني[2]: إنَّ التوجيه الثاني وما بعده ظاهرٌ، وهو عطف الجملة الفعلية الحالية على الحال المفردة، وأما إضمار المبتدأ فإنْ حُمل على هذا فتقديرُ المبتدأ لغو، وإن أُريد أنها مستأنفة فلا يظهر ما يعطف عليه سوى «ما كان لبشر» إلخ، وليس يحسن الانتظام. وتُعقِّب بأنه يجوز أن يكونَ تقديرُ المبتدأ مع اعتبار الحالية، بناءً على أنَّ الجملة الاسمية التي الخبرُ فيها جملةٌ فعلية تُفيد ما لا تُفيده الفعلية الصِّرفة مما يُناسب حالَ إرسال الرسول، أو يقال: لا نُسلِّم أن العطف على «ما كان لبشر» ليس يحسن الانتظام، وفيه دغدغة لا تخفى.

وفي الآية ـ على ما قال ابنُ عطية[3] ـ دليلٌ على أنَّ من حلفَ أنْ لا يُكلِّم فلاناً فراسَلَه حَنِثَ، لاستثنائه تعالى الإرسال من الكلام، ونقله الجلالُ السيوطي في «أحكام القرآن»[4] عن مالك، وفيه بحثٌ، والله تعالى الهادي.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ مُتَعالٍ عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ يُجري سبحانه أفعالَه على سَنَن الحِكمة، فَيُكلِّم تارةً بواسطة وأخرى بدونها؛ إما إلهاماً وإما خِطاباً، أو إما عياناً وإما خطاباً من وراء حجاب على ما يقتضيه الاختلاف السابق في تفسير الآية.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ هذا الإيحاء البديع، على أنَّ الإشارة لِمَا بعدَ ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ وهو ما أوحي إليه عليه الصلاة والسلام، أو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان حيث يُحييها حياةً أبدية، وقيل: أي: ومثلَ الإيحاء المشهور لغيرك أوحينا إليك. وقيل: أي: ومثلَ ذلك الإيحاء المُفصَّل أوحينا إليك، إذ كان عليه الصلاة والسلام اجتمعَتْ له الطرقُ الثلاثُ سواء فُسِّر الوحي

---

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٨.

(٢) هو السَّعد التفتازاني، وكلامه في حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٠.

(٣) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧.

(٤) وهو كتاب الإكليل في استنباط التنزيل ص٢٣١.

بالإلقاء أم بالكلام الشِّفاهي. وقد ذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد أُلقي إليه في المنام كما أُلقي إلى إبراهيم عليه السلام، وألقي إليه عليه الصلاة والسلام في اليقظة على نحو إلقاء الزبور إلى داود عليه السلام. ففي «الكبريت الأحمر» للشعراني نقلاً عن الباب الثاني من الفتوحات المكِّية أنه ﷺ أعطي القرآن مُجملاً قبلَ جبريل عليه السلام من غير تفصيل الآيات والسور.

وعن ابن عباس تفسير الروح بالنبوة.

وقال الربيع: هو جبريلُ عليه السلام، وعليه ف «أوحينا» مُضمَّن معنى أرسلنا، والمعنى: أرسلناه بالوحي إليك لأنه لا يقال: أوحى المَلَكَ، بل: أرسله.

ونقل الطبرسي عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله عنهما أن المرادَ بهذا الروح مَلَكٌ أعظمُ من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ ولم يصعدْ إلى السماء[1]. وهذا القولُ في غاية الغرابة ولعلَّه لا يَصِحُّ عن هذين الإمامين.

وتنوين «روحاً» للتعظيم، أي: روحاً عظيماً.

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ الظاهر أنَّ «ما» الأولى نافية، والثانية استفهامية في محلِّ رفع على الابتداء، و«الكتاب» خبر، والجملة في موضع نصب ب «تدري» وجملة «ما كنت» إلخ حالية من ضمير «أوحينا» أو هي مستأنفةٌ، والمضيُّ بالنسبة إلى زمان الوحي.

واستُشكلت الآيةُ بأن ظاهرَها يستدعي عدمَ الاتِّصاف بالإيمان قبلَ الوحي، ولا يصحُّ ذلك؛ لأن الأنبياء عليهم السلام جميعاً قبل البعثة مؤمنون، لعصمتهم عن الكُفر بإجماع مَنْ يُعتدُّ به. وأُجيب بعدَّة أجوبة:

الأول: أن الإيمان هنا ليس المرادُ به التصديق المجرد، بل مجموع التصديق والإقرار والأعمال، فإنه كما يُطلق على ذلك يطلق على هذا شرعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٤٣] والأعمال لا سبيلَ إلى درايتها من غير سَمْع فهو مُركَّب، والمركَّب ينتفي بانتفاء بعضِ أجزائه، فلا يلزم من انتفاء

---

(١) مجمع البيان ٢٥/٦٦.

الإيمان المركَّب بانتفاء الأعمال انتفاءُ الإيمان بالمعنى الآخر؛ أعني التصديق وهو الذي أجمع العلماءُ على اتِّصاف الأنبياء عليهم السلام به قَبل البِعثة، ولذا عبّر بـ «تدري» دون أن يقال: لم تكن مؤمناً، وهو جوابٌ حسن، ولا يلزمه نفي الإيمان عمَّن لا يعمل الطَّاعاتِ، ليكون القولُ به اعتزالاً كما لا يخفى.

الثاني: أن الإيمان إنما يُعنى به التصديقُ بالله تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام دون التصديق بالله عز وجل ودون ما يدخل فيه الأعمال، والنبي ﷺ مخاطب بالإيمان برسالة نَفْسِهِ كما أن أُمَّته ﷺ مُخاطَبون بذلك، ولا شكَّ أنه قبل الوحي لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أنه رسولُ الله، وما علم ذلك إلا بالوحي فإذا كان الإيمان هو التصديقَ بالله تعالى ورسوله ﷺ ولم يكن هذا المجموعُ ثابتاً قبل الوحي، بل كان الثابت هو التصديقَ بالله تعالى خاصَّةً المُجْمَعَ على اتِّصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البِعثة، استقام نفي الإيمان قبل الوحي، إلى هذا ذهب ابنُ المُنيِّر[1].

الثالث: أن المرادَ شرائعُ الإيمان ومَعالمه مما لا طريقَ إليه إلا السمع، وإليه ذهب محيي السنة البغوي[2]، وقال: إنَّ النبيَّ ﷺ كان قبلَ الوحي على دين إبراهيم عليه السلام، ولم تتبيَّن له عليه الصلاة والسلام شرائعُ دينه، ولا يخفى أنه إذا لم يُعتبر كونُ الكلام على حذف مضاف يلزمه إطلاقُ الإيمان على الأعمال وحدَها، وهو خلافُ المعروف.

الرابع: أن الكلامَ على تقدير مضاف، فقيل: التقدير: دعوة الإيمان، أي: ما كنتَ تدري كيف تدعو الخَلْقَ إلى الإيمان، وإليه يُشير كلامُ أبي العالية.

وقال الحسين بن الفضل: أي: أهل الإيمان، أي: لا تدري من الذي يُؤمن، وأنت تدري أنه لا يرتضي هذا إلا مَنْ لا يدري.

الخامس: أن المرادَ نفي دراية المجموع، أي: ما كنت تدري قبلَ الوحي

---

(١) في الانتصاف بهامش الكشاف ٣/ ٤٧٧.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٣٢.

مجموعَ الكتاب والإيمان، فلا يُنافي كونه ﷺ كان يدري الإيمان وحدَه. ويأباه إعادةُ «لا».

السادس: أن المرادَ: ما كنت تدري ذلك إذْ كنتَ في المهد، وإليه ذهب علي بن عيسى. وهو خلافُ الظاهر.

والظاهرُ أن المرادَ استمرارُ النفي إلى زمن الوحي، وظاهرُ كلام «الكشف» يميلُ إلى اعتبار نحو ذلك القيد، قال: لعل الأشبهَ أنَّ «الإيمانَ» على ظاهره، والآية واردةٌ في معرِض الامتنان، والإيحاءُ يشمل الإلقاءَ في الرُّوع وإرسالَ الرسول، فالإيمان عَرفَه بالأول، والكتاب بالثاني، على أن الآيةَ تدلُّ على أنه ﷺ عَرَفَهما بعد أن لم يكن عارفاً، وهو كذلك، أمَّا أنه عليه الصلاة والسلام عَرَفهما بعد الوحي فلا، فجاز أن يَعْرِفهما به، وجاز أن يعرفَ واحداً منهما معيَّناً به. وقد دلَّ الدليلُ على أن المعرف به هو الكتاب والإيمان بعد العقل وقبل الوحي، والتمسُّك به على أنه ﷺ لم يكن مُتعبّداً بشرع مَن قبله ضعيفٌ؛ لأن عدمَ الدِّراية لا يلزمه عدمُ التعبُّد، بل يلزمه سقوطُ الإثم إن لم يكن تقصيراً. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ المتبادرَ أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحي، وأما قولُه قُدِّس سِرُّه في تضعيف التمسُّك بذلك على أنه ﷺ لم يكن متعبداً بشرع من قبله أن عدمَ الدِّراية لا يلزمه عدمُ التعبد، فقد قيل عليه: إنه ساقطٌ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام إذا لم يدرِ شرعاً فكيف يتعبَّد به.

وقد يُجاب بأنَّ مرادَ المدقّق أنَّ الدرايةَ المنفيَّة الدرايةُ بمعنى العلم الجازم الثابت المطابق للواقع، وعدمُها لا يلزمه عدمُ التعبد، إذ يكفي في التعبد بشرع من قَبله عليه الصلاة والسلام الظنُّ الراجح ثبوتُه، فلعله كان حاصلاً له ﷺ.

ومثلُ هذا الظنّ يكفي المتعبِّدين اليوم بشرع نبينا عليه الصلاة والسلام، فإنَّ أكثرَ الفروع ظنيَّة، ومن يتتبَّع الأخبار يعلم أن العربَ لم يزالوا على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام من الحجِّ والخِتان وإيقاع الطلاق والغُسل من الجنابة وتحريم ذواتِ المحارم بالقَرابة والصِّهر وغير ذلك، وأن النبي ﷺ كان أحرص الناس على

اتِّباع دين إبراهيم عليه السلام. وفي الصحيح أنه ﷺ كان ـ أي: قبل البِعثة ـ يتحنَّث بغار حراء[١]، وفسّر التحنُّث بالتحنُّف، أي: اتّباع الحنيفيَّة، وهي دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والفاء تُبدل ثاء في كثير من كلامهم، وفي رواية ابن هشام في «السير»: يتحنَّف بالفاء بدل الثاء[٢]. نعم فُسِّر أيضاً بالتعبّد كما في «صحيح البخاري»[٣] وباتقاء الحِنْث، أي: الإثم، كالتحرُّج والتأثُّم، وكل ذلك مما ذكره الحافظ القسطلّاني في «شرح الصحيح»[٤].

ثم إنَّ الظاهرَ أن من قال: إنه ﷺ كان متعبداً بشرع من قبله ليس مرادُه أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبداً بجميع شرع مَن قبلَه، بل بما ترجَّح عنده ﷺ ثُبوتُه. والذي ينبغي أن يرجح كونُ ذلك من شرع إبراهيم عليه السلام لأنه من ذُرِّيته عليهما الصلاة والسلام، وقد كُلِّفت العرب بدينه.

وقال بعضهم: إنَّ عبادته ﷺ التفكُّر والاعتبار، ولعله أيضاً مما ترجَّح عنده عليه الصلاة والسلام كونُه من شريعته عليه السلام، وربما يقال: بما عَلِمه ﷺ لا على ذلك الوجه من شرع مَن قبله أنه ﷺ لم يَزلْ مُوحًى إليه، وأنه عليه الصلاة والسلام متعبَّدٌ بما يُوحى إليه إلا أن الوحيَ السابقَ على البِعثة كان إلقاءً وَنفْثاً في الرُّوع، وما عمل بما كان من شرائع أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام إلا بواسطة ذلك الإلقاء، وإذا كان بعضُ إخوانه من الأنبياء عليهم السلام قد أُوتي الحُكم صبيّاً ابن سنتين أو ثلاث فهو عليه الصلاة والسلام أولى بأنْ يُوحى إليه ذلك النوع من الإيحاء صبيّاً أيضاً، وَمن عَلِمَ مقامه ﷺ وصدَّق بأنه الحبيبُ الذي كان نبيّاً وآدم بين الماء والطين لم يستبعدْ ذلك، فتأمَّل.

﴿وَلَكِن جَعَلْنَهُ﴾ أي: الروح الذي أوحيناه إليك، وقال ابن عطية[٥]: الضّمير

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) السيرة النبوية ١/ ٢٣٥.
(٣) الحديث (٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) إرشاد الساري ١/ ٦٢.
(٥) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٤.

للكتاب. وقِيلَ: للإيمان، ورُجِّح بالقُرْب. وقِيلَ: للكتاب والإيمان، ووُحِّدَ لأنَّ مقصدَهما واحدٌ، فهو نظير ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿نُورًا﴾ عظيماً ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايَته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهو الذي يصرف اختياره نحوَ الاهتداء به. والجملة إمّا مستأنفة أو صفة «نوراً»، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ تقريرٌ لهدايته، وبيانٌ لكيفيتها، ومفعول «التهدي» محذوف ثقةً بغايةِ الظُّهورِ، أي: وإنك لتهدي بذلك النور مَنْ تشاءُ هدايتَه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ هو الإسلام وسائر الشرائعِ والأحكام.

وقرأ ابنُ السميفع: «لتُهدِي» بضمِّ التاء وكسر الدال مِنْ أَهدى[1]، وقرأ حوشب: «لَتُهدَى» مبنيّاً للمفعول، أي: ليهديك الله. وقُرِئ: «لتدعو»[2].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من الأول وإضافتُهُ إلى الاسم الجليل ثُمَّ وصفُهُ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيدِ وجوب سلوكه فإنَّ كونَ جميع ما فيهما مِنَ الموجوداتِ له تعالى خَلْقاً ومُلْكاً وتَصرُّفاً مما يوجبُ ذلك أتمَّ إيجاب.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ أي: أمور مَن فيهما قاطبةً لا إلى غيرهِ تعالى، وذلك بارتفاع الوسائط يومَ القيامة، ففيه مِنَ الوعدِ للمهتدين إلى الصِّراطِ المستقيم والوعيدِ للضَّالين عنه ما لا يخفى. وصيغة المضارع على ما قرَّرنا على ظاهرها من الاستقبال، وقال في: «البحر»[3]: المرادُ بها الاستمرار، كما في: زيدٌ يعطي، أي: مِنْ شأنِهِ ذلك. والأولُ أظهرُ، والله تعالى أعلمُ.

❋ ❋ ❋

ومما قاله أربابُ الإشارات في بعض الآيات: قال سبحانه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قيل: يشير ذلك إلى إنذار نفسه الشريفة، لأنها أُمُّ قُرى نفوسِ آدمَ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٢٨.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤، ونسب قراءة: «لتدعو» لابن مسعود ﷺ.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٥٢٨.

وأولاده، لأنه ﷺ أول العالمين خَلْقاً ومنه عليه الصلاة والسلام نشأت الأرواح والنفوس، ومن هذا كان آدمُ ومَنْ دونه تحت لوائه ﷺ، وقد أشار إلى ذلك سلطانُ العاشقين عمر بن الفارض بقوله على لسان الحقيقة المحمدية:

وإنــي وإنْ كـنــتُ ابـنَ آدمَ صــورةً فـلـي مـنـه مـعـنًى شـاهـدٌ بـأبـوَّتـي[1]

وقوله سبحانه: «ومَن حولها» يُشير إلى نفوس أهل العالم، وقد أنذر ﷺ كلاً حسب استعداده.

وقيل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: إنه يُشير إلى التنزيه والتشبيه، وقرَّر ذلك الشيخُ الأكبر قدِّس سرّه بما يطول.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي: مفاتيح سماوات القلوب وفيها خزائنُ لطفه تعالى ورحمته عز وجل، وأرض النفوس، وفيها خزائن قهره سبحانه وعزته جل جلاله، فكلُّ قلب مخزنٌ لنوع من ألطافه كالمعرفة والمحبة والشوق والتوحيد والهيبة والأنس والرِّضا إلى غير ذلك، وقد يجتمع في القلب خزائنُ، وكلُّ نفس مخزن لنوع من آثارِ قهره، كالنكرة والجُحود والإنكار والشرك والنفاق والحرص والكبر والبخل والشَّرَه وغير ذلك، وقد يجتمع في النفس خزائن، وفائدةُ الإخبار بأنَّ له سبحانه مقاليدَ ذلك قطعُ أفكار العباد عمن سواه سبحانه في جلب ما يُريدونه ودفع ما يكرهونه.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يُشير إلى مقامي المجذوب والسالك، فالمجذوب من الخواصِّ اجتباه ربُّه سبحانه في الأزل، وسلَكه في مسلك من يُحبّهم، واصطنعه سبحانه لنفسه جل شأنه، وجذبه تعالى عن الدارين بجذبة تُوازي عمل الثقلين، فهو في مقعد صدقٍ عند مَليكٍ مقتدر، والسالك من العوامِّ سلكه في سلك من يُحبونه بالتوفيق للهداية والقيام على قدمي الجهد والإنابة إلى سبيل الرشاد من طريق العناد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ يُشير إلى الذين يُجادلون في

---

(١) ديوان ابن الفارض ص١٠٥.

معرفة الله تعالى بشُبَه العقل الذي استجابَ له تعالى حين دعاه فوصل إلى الحضرة، فهو في كشف وعِيان، وأولئك من وراء ما يزعُمون أنه برهان.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يُشير إلى كفار النفوس، فإنهم شرعوا عند استيلائهم للأرواح والقلوب ما لم يرضَ به الله تعالى من مخالفات الشريعة وموافقات الطبيعة.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ يُشير إلى عموم لطفه تعالى، وهو أنواعٌ لا تُحصَى ومراتبُ لا تستقصَى.

وروى السُّلَمي عن سيِّد الطائفة قدِّس سرُّه[(١)]: اللطيف من نوَّر قلبك بالهدى، وربَّى جسمَك بالغذا ويخرجك من الدنيا بالإيمان ويحرسُك من نار لظى، ويُمكِّنك حتى تنظر وترى. هذا لطف اللطيف بالعبد الضعيف.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استعملوا تكاليفَ الشرع لقمع الطبع وكسر الهوى وتزكية النفس وتصفية القلب وجِلاء الروح في روضات الجنات في الدنيا جنات الوصلة والمعارف وطيب الأنس في الخلوة، وفي الآخرة في روضات الجنة ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حسب مراتبهم في القربات والوصلات والمكاشفات ونيل الدرجات، وعلى قَدْرِ هِممهم.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم أقاربه ﷺ الذين خُلقوا من عنصره الشريف وتحلَّوا بحلاه المُنيف كأئمة أهل البيت، ومودَّتهم يعود نفعها إلى من يودُّهم لأنها سببٌ للفيض، وهم ﷺ أبوابه، وفي قوله ﷺ: «أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابها[(٢)]» رمزٌ إلى ذلك، فافهم الإشارة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ لمزيد كرمه جلَّ شأنه، فمتى وفَّق عبداً للتوبة قبلها جوداً وكرماً، وعن بعضهم أنه قال لبعض المشايخ: إنْ تبتُ فهل يَقْبَلُني الله

(١) هو الجنيد، وكلامه في تفسير السلمي ٢/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٢٦، وصحَّح إسناده، وتعقَّبه الذهبي بقوله: بل موضوع، وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤٥٦ بعد أن ذكر طرقه: والحديث لا أصل له.

تعالى؟ فقال: إنْ يَقْبَلْكَ الله تعالى تَتُبْ إليه سبحانه. فقبولُ الله تعالى سابق على التوبة.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى الرؤية، فإن الجِنان ونعيمها مخلوقةٌ تقع في مقابلة مخلوق، وهو عمل العمال، والرؤية مما تتعلق بالقديم فلا تقع إلا فضلاً ربَّانياً، وفي بعض الأخبار أن هذه الزيادة أن يُشفِّعهم في إخوان إخوانهم.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ الاستجابة للعوامِّ بالوفاء بعهده تعالى، والقيام بحقه سبحانه، والرجوع عن مخالفته جل شأنه إلى موافقته عز وجل، وللخواصّ بالاستسلام للأحكام الأزلية والإعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها، ولأخصِّ الخواصِّ من أهل المحبة بصدق الطلب بالإعراض عن الدارين والتوجُّهِ لحضرة الجلال ببذل الوجود في نيل الوصول والوصال.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ قيل: فيه إشارة إلى أحوال المشايخ من حيث المريدون؛ فمنهم مَنْ يهب الله تعالى له، ومنهم مَنْ لا تَصرُّفَ له في غيره بالتخريج والتسليك، وهو أشبه شيء بالأنثى من حيث عدمُ التصرُّف، ومنهم مَنْ يَهَبُ سبحانه له مَنْ له قدرةُ التصرف بالتخريج والتسليك، وهو أشبهُ شيء بالذكر، ومنهم مَنْ يَهَبُ له تعالى هذا وهذا، ومنهم من يجعله جل وعلا عقيماً لا مُريد له أصلاً.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ قال سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني في تفسيره الآية المذكورة: اعلم أنَّ المانع من سماع كلام الحقِّ إنما هو البشرية، فإذا ارتفع العبدُ عنها كلَّمه الله تعالى من حيث كلَّم سبحانه الأرواح المجرَّدة عن الموادِّ، والبشر ما سُمِّي بشراً إلا لمباشرته الأمور التي تعوقُه عن اللحوق بدرجة الروح، فلما لم يلحق كلَّمه الله تعالى في الأشياء وتجلَّى سبحانه له فيها بخلاف مَنْ لحق كالأنبياء عليهم السلام فلا يتجلَّى الحقُّ سبحانه لغيرهم إلا في حجاب الصور، ولولا هدايته تعالى للعبد ما عرف أنه سبحانه ربُّه.

واعلم أنَّ الحقيقةَ تأبى أن يُكلِّمَ الله تعالى غيرَ نفسه، أو يسمع غيرَ نفسه، فلا بدَّ إذا خاطب عبداً على قصد إسماعه أن يكونَ جميعَ قواه؛ لأنه محالٌ أن يُطيقَ الحادثُ سماعَ كلام القديم ولم يكن الحقُّ سبحانه قوَّاه عند النجوى، ولذلك خَرَّ موسى عليه السلام صَعِقاً إذْ لم يكن له استعدادٌ يقبل به التجلّي اللائق بمقامه، وثبتَ نبينا ﷺ، ولمَّا لم يكن للجبل درجةُ المحبة التي يكون بها الحقُّ سَمْعَ عبده وبَصَرَه وجميعَ قواه لم يقدرْ على سماع الخطاب، فَدُكَّ.

واعلم أنَّ حديثَ الحقِّ سبحانه للخلق لا يزال أبداً، غيرَ أن من الناس من يفهم أنه حديثٌ كعمر بن الخطاب ﷺ ومَنْ ورثه من الأولياء، ومنهم من لا يعرف ذلك ويقول: ظهر لي كذا وكذا، ولا يعرف أن ذلك من حديث الحقِّ سبحانه معه، وكان شيخنا يقول: كان عمرُ من أهل السماع المُطلق الذي يُحدِّثهم الله تعالى في كلِّ شيء، ولكن له ألقاب، وهو أنه إن أجابوه به تعالى فهو حديثٌ، وإن أجابوه بهم فهي محادثة، وإن سمعوا حديثه سبحانه فليس بحديث في حقِّهم، وإنما هو خطاب أو كلام، وقد ورد في المتهجِّدين أنهم أهل المسامرة، فقد علمت أنَّ الوحي ما يُلقيه الله تعالى في قلوب خواصِّ عباده على جهة الحديث، فيحصل لهم من ذلك علمٌ بأمرٍ ما، فإن لم يكن كذلك فليس بوحي أو خطاب، فإن بعضَ الناس يجدون في قلوبهم علماً بأمرٍ ما مثل العلوم الضرورية عند الناس، فهو علم صحيحٌ، لكن ليس صادراً عن خطاب، وكلامنا إنما هو في الخطاب الإلهي المُسمَّى وحياً، فإنَّ الله تعالى جعل هذا الصنف من الوحي كلاماً يستفيد به العلم مَن جاء له.

واعلم أنه لا ينزل على قلوب الأولياء من وحي الإلهام إلا دقائقُ ممتدَّة من الأرواح الملكية لا نفس الملائكة، لأنَّ الملك لا ينزل بوحي على غير نبيٍّ أصلاً، ولا يأمر بأمر إلهي قطعاً؛ لأن الشريعة قد استقرَّت فلم يبقَ إلا وحي المُبشِّرات، وهو الوحي الأعمُّ، ويكون من الحق إلى العبد من غير واسطة، ويكون أيضاً بواسطة، والنبوَّة من شأنها الواسطة، فلا بُّد من واسطة المَلك فيها، لكن الملك لا يكون حال إلقائه ظاهراً بخلاف الأنبياء عليهم السلام، فإنهم يرون المَلَكَ حال

الكلام، والوليُّ لا يشهد المَلكَ إلا في غير حال الإلقاء، فإنْ سمع كلامه لم يَرَهُ، وإن رآه لا يكلِّمه، فالعارفون لا ينالون ما فاتهم من النبوَّة مع بقاء المُبشِّرات عليهم إلا أن الناس يتفاضلون، فمنهم من لا يبرح في بشارة الواسطة، ومنهم من يرتفع عنها كالأفراد، فإنَّ لهم المبشرات بارتفاع الوسائط وما لهم النبوات، ولهذا يُنكر عليهم الأحكام لأنهم ضاهوا الأنبياء من حيث كونهم يعملون بما يرونه من تعريفات الحقِّ لهم كأنه شريعةٌ مستقلة في الظاهر، وليس ذلك بشريعة إنما هو بيانٌ لها، فالمنقطع إنما هو وحي التشريع لا غير، أما التعريف لأمور مجملة في السنَّة فهو باقٍ لهذه الأمة ليكونوا على بصيرة فيما يدعون الناس إليه، لأنه خبرٌ إلهي، وإخبار من الله تعالى للعبد على يد ملك مغيَّب على هذا المُلهم، ولا يكون الإلهام إلا في الخير.

و«ألهمها فجورها» على معنى إلهامها إيَّاه لِتجتنبه كما أنَّ إلهامها تقواها لتعمل بها. وأكملُ الإلهام أن يلهم اتباع الشرع والنظر في الكتب الإلهية، ويقف عند حدودها وأوامرها حتى يزولَ صدأ طبيعته وتنتقش فيها صورُ العالم.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ فهو خطابٌ إلهيٌ يُلقيه على السمع لا على القلب، فيدركه من أُلقيَ إليه، فيفهم منه ما قَصَدَه مَنْ يُسمعه ذلك. وقد يحصلَ له ذلك في صورة التجلِّي، فتخاطبه تلك الصورة، وهي عين الحجاب، فيفهم من ذلك الخطاب علم ما يدلُّ عليه، ويعلم أن ذلك حجابٌ، وأن المتكلِّم منْ وراء ذلك الحجاب، وكل من أدرك صورة التجلِّي الإلهي يعلم أن ذلك هو اللهُ تعالى، فما يزيدُ صاحبُ هذا الحال على غيره إلا بمعرفته أنَّ المخاطِبَ له منْ وراء الحجاب.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ فهو ما ينزل به الملك أو ما يجيء به الرسول البشريُّ إلينا إذا نقلا كلام الله تعالى خاصة كالتالين، فإنْ نقلا علماً وجداه في أنفسهما وأفصحا عنه، فذلك ليس بكلام إلهي، ومن الأولياء من يعطي الترجمة عن الله سبحانه في حال الإلقاء والوحي الخاصّ بكل إنسان، فيكون المترجم مُوجداً لصور الحروف اللفظية أو المرقومة، ويكون روحُ تلك الصور كلامَ الله

عز وجل لا غير، وقد يقول الولي: حدثني قلبي عن ربِّي، يعني به من الوجه الخاصّ.

فاعلم ذلك، وتأمَّل ما قرَّرته لك فإنه نفيس، والله تعالى يتولَّى هداك. وله قدس سرُّه كلامٌ كثير في هذا المقام تركناه خوف الإطالة، ولعل فيما ذكرناه كفاية لذوي الأفهام.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ وهو ما به الحياة الطيبة الأبدية ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ قبل الإيحاء. قيل: أشير بهذا الإيحاء إلى الإيحاء في هذه النشأة، وكان له ﷺ في كلِّ حال من أحواله فيها نوعٌ من الوحي والدراية المنفية، إذ كان عليه الصلاة والسلام في كينونته قبل إخراجه منها بتجلي كينونته عز وجل، وإلا فهو ﷺ نبيٌّ ولا آدم ولا ماء ولا طين، ولا يعقل نبيٌّ بدون إيحاء.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو التوحيد السليم من زوايا الأغيار ويُشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

تمت السورة بتوفيق الله عز وجل، والصلاة والسلام على أوَّل نورٍ أشرق من شمس الأزل وبهَا، والحمد لله تعالى.

(٤٣) سُورةُ الزُّخْرُفِ مَكيَّةٌ
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَثَمَانُونَ

سورة الزخرف من السور المكية ، التي تهتم ببناء العقيدة الصافية ، وتكوين الشخصية الإسلامية ، وتعتني بأصول الإيمان « الإيمان بالله تعالى ، وبالرسل ، وبالبعث والجزاء » سميت السورة الكريمة « سورةَ الزخرف » لما فيها من المثل الرائع تشبيه الحياة الدنيا – ذاتِ المتاع الزائل ، والبريقِ الخادع – بالزخرف اللامع الذي ينخدع به كثير من الناس ، ويغترون بالمظاهر الخلابة من زينة الدنيا وبهرجها ، وهي لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، ولهذا يعطي الله الدنيا للابرار والفجار ، وينالها الصالحون والطالحون ، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين .

تبتدىء السورة الكريمة بإثبات صدق الرسالة ، وصدقِ هذا القرآن ، الذي كابر فيه المعاندون من أهل مكة ، فلم يؤمنوا به مع سطوع حجته ، ووضوح آياته ، ومع عجزهم عن محاكاته ومجاراته بعد ذلك التحدي السافر الذي جابههم به خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿ حمۤ . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم . أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ؟﴾ .

وتعرض السورة إلى دلائل قدرة الله جل وعلا ووحدانيته ، منبثةً في هذا الكون الفسيح ، في سمائه وأرضه ، وفي جباله ووهاده وفي ،

بحاره وانهاره وفي الماء الهاطل من السماء والفلك التي تسير على سطح الماء ، والانعام التي سخرها الله للبشر ، وكلٌّ هذه من الآيات الباهرة التي تدل على وحدانية الله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ خلقهن العزيزُ العليم . الذي جعل لكم الأرضَ مهداً ، وجعل لكم فيها سُبلاً لعلكم تهتدون . والذي نزّل من السماء ماءً بقدر فأنشرنا به بلدةً ميتاً كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفُلْك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا المنقلبون﴾ وتعرض السورة جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب ومتاعب ، ومن جدال واعتراضات ، في مجتمع فشت فيه الخرافات والوثنيات ، والقيم الجاهلية الزائفة ، فقد كان الاعتقاد السائد عند أهل الجاهلية أن الملائكة بناتُ الله ، ولهذا عبدوهم من دون الله ، ومع أنهم يكرهون البنات إلا أنهم كانوا يختارون لله البناتِ سفهاً وجهلاً ، ولهذا جاءت السورة الكريمة لتصحيح الانحرافات الاعتقادية، وردّ النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفورٌ مبين . أم اتخذ اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنين ؟ وإذا بُشّر أحدهم بما ضربَ للرحمن مثلاً ظلَّ وجهُه مسوداً وهو كظيم . أَوَ من يُنَشَّأُ في الحليةِ وهو في الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً ، أَشَهدوا خلقهم ؟ ستكتبُ شهادتهم ويُسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علمٍ إن هم إلا يخرصون﴾ .

وعرضت السورة لقصة إبراهيم الخليل ، الذي زعم المشركون أنهم على ملته ، وأنهم في عبادتهم للملائكة والأصنام ، لم يخرجوا عن التوحيد ، ولم يخالفوا دين إبراهيم لأنهم ما عبدوهم إلا ليكونوا شفعاء

لهم عند الله ، فبينت الآيات الكريمة أن إبراهيم كان على دين التوحيد الصافي ، الذي لا يشوبه شرك ولا ضلال ، وأن محمداً عليه السلام جاء بملة ابراهيم الذي كان أول من سفّه الشرك وتبرأ من عبادة الأوثان ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني بَرَاءٌ مما تعبدون . إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمةً باقية في عَقِبه لعلهم يرجعون . بل متعتُ هؤلاء وآباءهم حتَّى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحقُّ قالوا هذا سحرٌ وإنّا به كافرون﴾ . ولقد استبعد المشركون أن تنزل الرسالة على محمد ، وهو يتيم فقير لا يملك من حُطام الدنيا ما يؤهله للرسالة على زعمهم ، ورغبوا أن تنزل على رجلٍ يكون زعيم قبيلةٍ ورئيس عشيرة في مكة أو الطائف ، وأن يكون صاحب جاه وثراءٍ ، فجاء القرآن ليحمل لهم الحق والنور ، وليردَّ عليهم هذه القيم الأرضية الزائفة التي اعتادوا أن يقيسوا بها الرجال ﴿وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ليتخذ بعضُهم بعضاً سُخْرياً ، ورحمةُ ربك خيرٌ مما يجمعون﴾ وكأَنَّ الآياتِ تقول : إذا كان أمر المعاش في الدنيا – وهو أمر تافهٌ حقير بالنسبة للآخرة – لم يتركه الله لخلقه بل تولَّى قسمته بنفسه ، فكيف يترك أمر النبوة والرسالة إلى أهواء الناس ومشتهياتهم ؟ ثم يقرر القرآن الحقيقة الخالدة ، وهي أن الدنيا ليست ميزاناً لمحبة الله للعبد ، وأنها من الزهادة والرخص بحيث لو شاء لأغدقها إغداقاً على الكافرين ، ومنعها وحَرَمها المؤمنين ، ولكنَّ الله تعالى يعلم افتتان الناس بذلك لضعفهم وتأثير عرضِ الدنيا على قلوبهم ، ولولا هذه الفتنة لجعل للكافرين بيوتاً وقصوراً من الذهب والفضة ، وسُرراً يتكئون عليها وفيها الزخرف والمتاع ، وكلُّ ذلك متاع زائل والعاقبة للمتقين ﴿ولولا أن يكون الناسُ

أمةً واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقفاً من فضةٍ ومعارجَ عليها يظهرون. ولبيوتهم أبواباً وسُرُراً عليها يتكئون. وزخرفاً وإن كلُّ ذلك لَمَّا متاعُ الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين﴾.

وتذكر السورة الكريمة قصة موسى مع فرعون، وقد وردت في سياق تسلية الرسول ﷺ عمَّا يعترض به المعترضون من كبراء قومه على اختياره للرسالة، واعتزازهم بالقيم الباطلة لعرض الحياة الدنيا، فها هو فرعون يعتز بملكه وسلطانه كما يعتز الجاهلون من رؤساء قريش، ويستهين بموسى كما فعل الكافرون من أهل مكة، ثم تكون نتيجتُه الغرق والدمار ﴿ونادى فرعونُ في قومه قال يا قوم أليس لي مُلْكُ مصرَ وهذه الأنهارُ تجري من تحتي ! ! أفلا تُبصرون؟ أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يكادُ يبين. فلولا أُلقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين. فاستخفَّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين. فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سَلَفاً ومثلاً للآخرين﴾

وتتحدث السورة الكريمة عن الأشقياء المجرمين، وهم في غمرات جهنم يستغيثون ويستصرخون، فلا يجابون لأنهم كانوا في الدنيا يسخرون ويهزءون ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يُفَتَّر عنهم وهم فيه مبلسون. وما ظلمناهم ولكنْ كانوا هم الظالمين. ونادَوْا يا مالكُ ليَقْضِ علينا ربُّك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكنَّ أكثركم للحق كارهون﴾ وتختم السورة الكريمة ببيان عظمة الله وجلاله، وأنه هو الخالق الذي لا سلطان ولا شفاعة لأحدٍ إلا بإذنه ﴿وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه تُرجعون. ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون. ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن اللهُ فأنّي يُؤفكون.

وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . فاصفح عنهم وقل سلامٌ فسوف يعلمون﴾ . وهكذا تختم السورة بالتوحيد والإيمان كما بدأت به ، ويتناسق البدء مع الختام .

سورة الزخرف

[٨٠٨] ك.. أخرج ابن المنذر عن قتادة قال: قال ناس من المنافقين أن الله صاهر الجن فخرجت من بينهم الملائكة فنزل فيهم: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾(١).

[٨٠٩] ك.. وتقدم في سورة يونس سبب قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ﴾(٢) الآيتين.

[٨١٠] ك.. وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال: قال الوليد بن المغيرة لو كان ما يقول محمد حقاً أنزل على هذا القرآن أو على مسعود الثقفي فنزلت.

[٨١١] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشاً قالت قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه فقيضوا لأبي بكر طلحة فأتاه وهو في القوم فقال أبو بكر: إلام تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللاّت والعزى قال أبو بكر: وما اللاّت؟ قال: ربنا قال: وما العزى قال: بنات الله قال أبو بكر: فمن أمهم؟ فسكت طلحة فلم يجبه فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل فسكت القوم فقال طلحة: قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأنزل الله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾(٣) الآية.

[٨١٢] وأخرج أحمد بسند صحيح والطبراني(٤) عن ابن عباس أن رسول الله [ﷺ] قال لقريش: **«أنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»** فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً وقد عبد من دون الله فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾(٥) الآية.

---

[٨٠٨] (١) سورة الزخرف: الآية (١٩).

[٨٠٩] (٢) سورة الزخرف: الآية (٣١).

[٨١١] (٣) سورة الزخرف: الآية (٣٦).

[٨١٢] (٤) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص ٢١٤ من طريق عاصم بن أبي النجود عن ابن رزين عن أبي يحيى مولى ابن عفراء عن ابن عباس به نحوه.

(٥) سورة الزخرف: الآية (٥٧).

[٨١٣] وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا فقال آخر: إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع فأنزلت: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾(١) الآية.

* * *

[٨١٣] (١) سورة الزخرف: الآية (٨٠).

سورة الزخرف

وهي تسع وثمانون آية مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

اعلم أن قوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يحتمل وجهين: الأول: أن يكون التقدير: (هذه حم والكتاب المبين) فيكون القسم واقعًا على أن هذه السورة هي سورة حم، ويكون قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ ابتداء لكلام آخر. الثاني: أن يكون التقدير هذه ﴿حمٓ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ فيكون المقسم عليه هو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾.

وفي المراد بالكتاب قولان: أحدهما: أن المراد به القرآن، وعلى هذا التقدير فقد أقسم بالقرآن أنه جعله عربيًا. الثاني: أن المراد بالكتاب: الكتابة والخط، أقسم بالكتابة لكثرة ما فيها من المنافع، فإن العلوم إنما تكاملت بسبب الخط، فإن المتقدم إذا استنبط علمًا وأثبته في كتاب، وجاء المتأخر ووقف عليه، أمكنه أن يزيد في استنباط الفوائد، فبهذا الطريق تكاثرت الفوائد وانتهت إلى الغايات العظيمة، وفي وصف الكتاب بكونه مبينًا من وجوه: الأول: أنه المبين للذين أُنزل إليهم لأنه بلغتهم ولسانهم. والثاني: المبين هو الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة، وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة ملخصة.

واعلم أن وصفه بكونه مبينًا مجاز؛ لأن المبين هو الله تعالى، وسمي القرآن بذلك توسعًا من حيث إنه حصل البيان عنده.

أما قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه: الأول: أن الآية تدل على أن القرآن مجعول، والمجعول هو المصنوع المخلوق، فإن قالوا: لمَ لا يجوز أن يكون المراد أنه سماه عربيًا؟ قلنا: هذا مدفوع من وجهين: الأول: أنه لو كان المراد بالجعل هذا لوجب أن من سماه عجميًا أن يصير عجميًا وإن كان بلغة العرب ومعلوم أنه باطل. الثاني: أنه لو صُرف الجعل إلى التسمية لزم كون التسمية مجعولة، والتسمية أيضًا كلام الله، وذلك يوجب أنه

فعل بعض كلامه، وإذا صح ذلك في البعض صح في الكل. الثاني: أنه وصفه بكونه قرآنًا، وهو إنما سمي قرآنًا لأنه جعل بعضه مقرونًا بالبعض، وما كان كذلك كان مصنوعًا معمولاً. الثالث: أنه وصفه بكونه عربيًا، وهو إنما كان عربيًا لأن هذه الألفاظ إنما اختصت بمسمياتهم بوضع العرب واصطلاحاتهم، وذلك يدل على كونه معمولاً ومجعولاً. والرابع: أن القَسَم بغير الله لا يجوز على ما هو معلوم، فكان التقدير: (حام ورب الكتاب المبين)، وتأكد هذا أيضًا بما روي أنه عليه السلام كان يقول: يا رب طه ويس ويا رب القرآن العظيم. والجواب: أن هذا الذي ذكرتموه حق، وذلك لأنكم إنما استدللتم بهذه الوجوه على كون هذه الحروف المتوالية والكلمات المتعاقبة محدثة مخلوقة، وذلك معلوم بالضرورة ومن الذي ينازعكم فيه؟ بل كان كلامكم يرجع حاصله إلى إقامة الدليل على ما عرف ثبوته بالضرورة.

المسألة الثانية: كلمة (لعلّ) للتمني والترجي وهو لا يليق بمن كان عالمًا بعواقب الأمور، فكان المراد منها هاهنا: كي، أي أنزلناه قرآنًا عربيًا لكي تعقلوا معناه، وتحيطوا بفحواه. قالت المعتزلة: فصار حاصل الكلام: إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لأجل أن تحيطوا بمعناه، وهذا يفيد أمرين: أحدهما: أن أفعال الله تعالى معللة بالأغراض والدواعي. والثاني: أنه تعالى إنما أنزل القرآن ليهتدي به الناس، وذلك يدل على أنه تعالى أراد من الكل الهداية والمعرفة، خلاف قول من يقول: إنه تعالى أراد من البعض الكفر والإعراض. واعلم أن هذا النوع من استدلالات المعتزلة مشهور، وأجوبتنا عنه مشهورة، فلا فائدة في الإعادة، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يدل على أن القرآن معلوم، وليس فيه شيء مبهم مجهول، خلافًا لمن يقول: بعضه معلوم وبعضه مجهول.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (إم الكتاب) بكسر الألف، والباقون بالضم.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: (وإنه) عائد إلى الكتاب الذي تقدم ذكره في ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ واختلفوا في المراد بأم الكتاب على قولين:

فالقول الأول: إنه اللوح المحفوظ لقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

واعلم أن على هذا التقدير فالصفات المذكورة هاهنا كلها صفات اللوح المحفوظ.

الصفة الأولى: أنه أم الكتاب، والسبب فيه أن أصل كل شيء أمه، والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ، ثم نُقل إلى سماء الدنيا، ثم أُنزل حالاً بحسب المصلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ مَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ» (١) فالكتاب عنده،

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ٣١٧)، حديث رقم (٢٢٧٥٧) من طريق ليث عن معاوية عن أيوب... به، وأخرجه الترمذي في كتاب (القدر)، باب: (من سورة ن) (٥/ ٤٢٤)، حديث رقم (٣٣١٩). =

فإن قيل: وما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ، مع أنه تعالى علّام الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان؟ قلنا: إنه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات، ثم إن الملائكة يشاهدون أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقة ذلك المكتوب، استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه.

الصفة الثانية من صفات اللوح المحفوظ: قوله: ﴿لَدَيۡنَا﴾ هكذا ذكره ابن عباس، وإنما خصه الله تعالى بهذا التشريف لكونه كتابًا جامعًا لأحوال جميع المحدثات، فكأنه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته، فلا جرم حصل له هذا التشريف، قال الواحدي، ويحتمل أن يكون هذا صفة القرآن والتقدير: إنه لدينا في أم الكتاب.

الصفة الثالثة: كونه عليًّا، والمعنى كونه عاليًا عن وجوه الفساد والبطلان، وقيل: المراد كونه عاليًا على جميع الكتب بسبب كونه معجزًا باقيًا على وجه الدهر.

الصفة الرابعة: كونه حكيمًا، أي محكمًا في أبواب البلاغة والفصاحة، وقيل: حكيم أي ذو حكمة بالغة. وقيل: إن هذه الصفات كلها صفات القرآن على ما ذكرناه.

والقول الثاني في تفسير أم الكتاب: أنه الآيات المحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] ومعناه أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وحمزة والكسائي (إن كنتم) بكسر الألف، تقديره: إن كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر صفحًا، وقيل: (إنْ) بمعنى (إذ) كقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] وبالجملة فالجزاء مقدم على الشرط، وقرأ الباقون بفتح الألف على التعليل أي: لأن كنتم مسرفين.

المسألة الثانية: قال الفرّاء والزجاج: يقال ضربت عنه وأضربت عنه، أي تركته وأمسكت عنه، وقوله ﴿صَفۡحًا﴾ أي إعراضًا، والأصل فيه أنك توليت بصفحة عنقك، وعلى هذا فقوله: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ تقديره: أفنضرب عنكم إضرابنا، أو تقديره: أفنصفح عنكم صفحًا. واختلفوا في معنى الذكر: فقيل: معناه أفنرد عنكم ذكر عذاب الله؟ وقيل: أفنرد عنكم

=وقال: حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا عبد الواحد بن سليم قال: قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح فقلت له: يا أبا محمد إن أناسًا عندنا يقولون في القدر. فقال عطاء: لقيت الوليد بن عبادة بن الصامت قال: حدثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ. . . به. وفي الحديث قصة قال: هذا حديث حسن غريب. وأورده الألباني في (ظلال الجنة) (١/ ٤٢)، حديث رقم (١٠٧) من طريق معاوية. . . به، وقال: حسن. وصححه أيضًا في (سنن الترمذي) برقم (٣٣١٩)، وقال: صحيح.

النصائح والمواعظ؟ وقيل: أفنرد عنكم القرآن؟ وهذا استفهام على سبيل الإنكار، يعني إنا لا نترك هذا الإعذار والإنذار بسبب كونكم مسرفين، قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة. إذا عرفت هذا فنقول: هذا الكلام يحتمل وجهين: الأول: الرحمة، يعني أنا لا نترككم مع سوء اختياركم بل نُذكركم ونعظكم إلى أن ترجعوا إلى الطريق الحق. الثاني: المبالغة في التغليظ، يعني أتظنون أن تُتركوا مع ما تريدون؟ كلا بل نُلزمكم العمل وندعوكم إلى الدين، ونؤاخذكم متى أخللتم بالواجب وأقدمتم على القبيح.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): الفاء في قوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ ﴾ للعطف على محذوف تقديره: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر.

ثم قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق - هو التكذيب والاستهزاء، فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء؛ لأن المصيبة إذا عمت خفت.

ثم قال تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ يعني أن أولئك المتقدمين الذين أرسل الله إليهم الرسل كانوا أشد بطشًا من قريش، يعني أكثر عددًا وجَلَدًا. ثم قال: ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ والمعنى أن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم من الخزي مثل ما نزل بهم، فقد ضربنا لهم مثلهم. كما قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ [الفرقان: ٣٩] وكقوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤ ﴾

اعلم أنه قد تقدم ذكر المسرفين وهم المشركون، وتقدم أيضًا ذكر الأنبياء، فقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ يحتمل أن يرجع إلى الأنبياء، ويحتمل أن يرجع إلى الكفار إلا أن الأقرب رجوعه إلى الكفار، فبيّن تعالى أنهم مقرون بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الله العزيز الحكيم، والمقصود أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره وينكرون قدرته على البعث، وقد

تقدم الإخبار عنهم، ثم إنه تعالى ابتدأ دالاً على نفسه بذكر مصنوعاته فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ولو كان هذا من جملة كلام الكفار لوجب أن يقولوا: الذي جعل لنا الأرض مهدًا، ولأن قوله في أثناء الكلام: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لا يتعلق إلا بكلام الله. ونظيره من كلام الناس أن يسمع الرجل رجلاً يقول: (الذي بنى هذا المسجد فلان العالم) فيقول السامع لهذا الكلام: (الزاهد الكريم) كأن ذلك السامع يقول: أنا أعرفه بصفات حميدة فوق ما تعرفه، فأزيد في وصفه. فيكون النعتان جميعًا من رجلين لرجل واحد.

إذا عرفت كيفية النظم في الآية فنقول: إنها تدل على أنواع من صفات الله تعالى:

الصفة الأولى: كونه خالقًا للسموات والأرض، والمتكلمون بينوا أن أول العلم بالله العلم بكونه محدثًا للعالم فاعلاً له؛ فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر كونه خالقًا، وهذا إنما يتم إذا فسرنا الخلق بالإحداث والإبداع.

الصفة الثانية: العزيز، وهو الغالب، وما لأجله يحصل المكنة من الغلبة هو القدرة، وكان العزيز إشارة إلى كمال القدرة.

الصفة الثالثة: العليم وهو إشارة إلى كمال العلم، واعلم أن كمال العلم والقدرة إذا حصل كان الموصوف به قادرًا على خلق جميع الممكنات؛ فلهذا المعنى أثبت تعالى كونه موصوفًا بهاتين الصفتين، ثم فرع عليه سائر التفاصيل.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن كون الأرض مهدًا إنما حصل لأجل كونها واقفة ساكنة، ولأجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها في الزراعة وبناء الأبنية في كونها ساترة لعيوب الأحياء والأموات، ولما كان المهد موضع الراحة للصبي جعل الأرض مهدًا لكثرة ما فيها من الراحات.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ والمقصود أن انتفاع الناس إنما يكمل إذا قدر كل أحد أن يذهب من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم، ولولا أن الله تعالى هيأ تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة، وإلا لما حصل هذا الانتفاع.

ثم قال تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يعني المقصود من وضع السبل أن يحصل لكم المكنة من الاهتداء، والثاني: المعنى لتهتدوا إلى الحق في الدين.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وهاهنا مباحث: أحدها: أن ظاهر هذه الآية يقتضي أن الماء ينزل من السماء، فهل الأمر كذلك أو يقال إنه ينزل من السحاب، وسمي نازلاً من السماء لأن كل ما سماك فهو سماء؟ وهذا البحث قد مرّ ذكره بالاستقصاء. وثانيها: قوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي إنما ينزل من السماء بقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة من غير زيادة ولا نقصان، لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل بقدر حتى يكون معاشًا لكم ولأنعامكم. وثالثها: قوله: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي خالية من النبات

فأحييناها، وهو الإنشار.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ يعني أن هذا الدليل كما يدل على قدرة الله وحكمته، فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة، ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإماتة كهذه الأرض التي أُنشرت بعد ما كانت ميتة، وقال بعضهم: بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من الأرض بماء كالمني، كما تنبت الأرض بماء المطر. وهذا الوجه ضعيف لأنه ليس في ظاهر اللفظ إلا إثبات الإعادة فقط دون هذه الزيادة.

الصفة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ قال ابن عباس: الأزواج: الضروب والأنواع، كالحلو الحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى. وقال بعض المحققين: كل ما سوى الله فهو زوج، كالفوق والتحت، واليمين واليسار، والقدام والخلف، والماضي والمستقبل، والذوات والصفات، والصيف والشتاء، والربيع والخريف، وكونها أزواجًا يدل على كونها ممكنة الوجود في ذواتها محدثة مسبوقة بعدم، فأما الحق سبحانه فهو الفرد المنزّه عن الضد والند والمقابل والمعاضد؛ فلهذا قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي كل ما هو زوج فهو مخلوق، فدل هذا على أن خالقها فرد مطلق منزّه عن الزوجية. وأقول أيضًا: العلماء بعلم الحساب بينوا أن الفرد أفضل من الزوج من وجوه: الأول: أن أقل الأزواج هو الاثنان، وهو لا يوجد إلا عند حصول وحدتين، فالزوج يحتاج إلى الفرد، والفرد وهو الوحدة غنية عن الزوج والغني أفضل من المحتاج. الثاني: أن الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين، والفرد هو الذي لا يقبل القسمة، وقبول القسمة انفعال وتأثر، وعدم قبولها قوة وشدة ومقاومة، فكان الفرد أفضل من الزوج. الثالث: أن العدد الفرد لا بد وأن يكون أحد قسميه زوجًا والثاني فردًا، فالعدد الفرد حصل فيه الزوج والفرد معًا، وأما العدد الزوج فلا بد وأن يكون كل واحد من قسميه زوجًا، والمشتمل على القسمين أفضل من الذي لا يكون كذلك. الرابع: أن الزوجية عبارة عن كون كل واحد من قسميه معادلاً للقسم الآخر في الذات والصفات والمقدار، وإذا كان كل ما حصل له من الكمال فمثله حاصل لغيره لم يكن هو كاملاً على الإطلاق، أما الفرد فالفردية كائنة له خاصة لا لغيره ولا لمثله، فكماله حاصل له لا لغيره فكان أفضل. الخامس: أن الزوج لا بد وأن يكون كل واحد من قسميه مشاركًا للقسم الآخر في بعض الأمور ومغايرًا له في أمور أخرى، وما به المشاركة غير ما به المخالفة فكل زوجين فهما ممكنا الوجود لذاتيهما، وكل ممكن فهو محتاج، فثبت أن الزوجية منشأ الفقر والحاجة، وأما الفردانية فهي منشأ الاستغناء والاستقلال؛ لأن العدد محتاج إلى كل واحد من تلك الوحدات، وأما كل واحد من تلك الوحدات فإنه غني عن ذلك العدد، فثبت أن الأزواج ممكنات ومحدثات ومخلوقات، وأن الفرد هو القائم بذاته المستقل بنفسه الغني عن كل ما سواه، فلهذا قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾.

الصفة الثامنة: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ وذلك لأن السفر إما سفر البحر أو البر، أما سفر البحر فالحامل هو السفينة، وأما سفر البر فالحامل هو الأنعام.

وهاهنا سؤالان:

السؤال الأول: لمَ لم يقل على ظهورها؟ أجابوا عنه من وجوه: الأول: قال أبو عبيدة: التذكير لقوله (ما) والتقدير: ما تركبون. الثاني: قال الفرّاء: أضاف الظهور إلى واحد فيه معنى الجمع بمنزل الجيش والجند، ولذلك ذكر وجمع الظهور. الثالث: أن هذا التأنيث ليس تأنيثًا حقيقيًّا، فجاز أن يختلف اللفظ فيه كما يقال: عندي من النساء من يوافقك.

السؤال الثاني: يقال: ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك، وقد ذكر الجنسين فكيف قال تركبون؟ والجواب: غلب المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ومعنى ذكر نعمة الله أن يذكروها في قلوبهم، وذلك الذكر هو أن يعرف أن الله تعالى خَلَق وجه البحر، وخلق الرياح، وخلق جِرم السفينة على وجه يتمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي جانب شاء وأراد، فإذا تذكروا أن خلق البحر، وخلق الرياح، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكاته - ليس من تدبير ذلك الإنسان، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى، فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التي لا نهاية لها.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

واعلم أنه تعالى عَيَّن ذكرًا معينًا لركوب السفينة، وهو قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] وذكرًا آخر لركوب الأنعام، وهو قوله: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ وذكر عند دخول المنازل ذكرًا آخر، وهو قوله: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] وتحقيق القول فيه أن الدابة التي يركبها الإنسان لا بد وأن تكون أكثر قوة من الإنسان بكثير، وليس لها عقل يهديها إلى طاعة الإنسان، ولكنه سبحانه خلق تلك البهيمة على وجوه مخصوصة في خلقها الظاهر، وفي خلقها الباطن يحصل منها هذا الانتفاع: أما خلقها الظاهر فلأنها تمشي على أربع قوائم، فكان ظاهرها كالموضع الذي يحسن استقرار الإنسان عليه، وأما خلقها الباطن فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحث تصير منقادة للإنسان ومسخّرة له، فإذا تأمل الإنسان في هذه العجائب وغاص بعقله في بحار هذه الأسرار، عظُم تعجبه من تلك القدرة القاهرة والحكمة غير المتناهية، فلا بد وأن يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ قال أبو عبيدة: (فلان مقرن لفلان)، أي ضابط له. قال الواحدي: وكان اشتقاقه من قولك ضرب له قرنًا، ومعنى أنا قِرن لفلان، أي مثاله في الشدة، فكان المعنى أنه ليس عندنا من القوة والطاقة أن نقرن هذه الدابة والفلك وأن نضبطها، فسبحان من سخرها لنا بعلمه وحكمته وكمال قدرته!!

روى صاحب (الكشاف): عن النبي ﷺ أنه كان إذا وضع رجليه في الركاب قال: «باسْمِ اللَّهِ»، فإذا استوى على الدابة قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾ »[١] وروى القاضي في (تفسيره): عن أبي مخلد أن الحسن بن علي عليهما السلام رأى رجلاً ركب دابة، فقال: سبحان الذي سخر لنا هذا. فقال له: ما بهذا أُمرت، أُمرت أن تقول: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، الحمد لله الذي مَنَّ علينا بمحمد ﷺ، والحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أُخرجت للناس، ثم تقول: سبحان الذي سخر لنا هذا. وروي أيضًا عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا سافر وركب راحلته، كبر ثلاثًا، ثم يقول: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِي سَفَرِي هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَ الْأَرْضِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ عَلَى الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا، وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا»[٢] وكان إذا رجع إلى أهله يقول: «آئبون تَائِبُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»[٣]. قال صاحب (الكشاف): دلّت هذه الآية على خلاف قول المجبرة من وجوه: الأول: أنه تعالى قال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ فذكره بلام كي، وهذا يدل على أنه تعالى أراد منا هذا الفعل، وهذا يدل على بطلان قولهم أنه تعالى أراد الكفر منه، وأراد الإصرار على الإنكار. الثاني: أن قوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا﴾ يدل على أن فعله معلل بالأغراض. الثالث: أنه تعالى بيّن أن خلق هذه الحيوانات على هذه الطبائع إنما كان لغرض أن يصدر الشكر على العبد، فلو كان فعل العبد فعلاً لله تعالى، لكان معنى الآية إني خلقت هذه الحيوانات لأجل أن أخلق سبحان الله في لسان العبد. وهذا باطل؛ لأنه تعالى قادر على أن يخلق هذا اللفظ في لسانه بدون هذه الوسائط. واعلم أن الكلام على هذه الوجوه معلوم، فلا فائدة في الإعادة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ واعلم أن وجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن ركوب الفلك

---

(١) ذكره الزمخشري في (الكشاف) (٦/ ٢٢٠)، ورواه المحاملي في (الأمالي) (١/ ٢١٤)، حديث رقم (٢٠٧) من طريق ابن أبي ليلى عن الحكم عن علي بن ربيعة عن علي بن أبي طالب. . . به، وفي إسناده ابن أبي ليلى وهو ضعيف، ورواه محمد بن فضل في (الدعاء) (١/ ٥٧)، حديث رقم (٥٦)، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) (٢/ ٤٥٥)، حديث رقم (٤٩٨)، كلاهما من طريق أبي إسحاق عن الحارث عن علي بن أبي طالب. . . به، وفي إسناده الحارث الأعور، وهو ضعيف.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحج)، باب: (ما يقول إذا ركب للسفر) (٢/ ٤٢٥/ ٩٧٨)، وأبو داود في كتاب (الجهاد)، باب: (ما يقول إذا سافر) (٣/ ١١٢٥)، حديث رقم (٢٥٩٩)، والترمذي في كتاب (الدعوات)، باب: (ما يقول إذا ركب الناقة) (٥/ ٤٦٨)، حديث رقم (٣٤٤٧). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. والنسائي في (عمل اليوم والليلة) (٣٧٠)، حديث رقم (٥٤٨)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٤٤)، حديث رقم (٦٣١١)، وكذلك في (٢/ ١٥٠)، حديث رقم (٦٣٧٤)، والدارمي في كتاب (الاستئذان)، باب: (في الدعاء إذا سافر وإذا قدم) (٢/ ١٦٦)، حديث رقم (٢٦٧٣)، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ١٤١)، حديث رقم (٢٥٤٢)، جميعًا عن أبي الزبير. . . به.

(٣) انظر سابقه.

في خطر الهلاك، فإنه كثيرًا ما تنكسر السفينة ويهلك الإنسان، وراكب الدابة أيضًا كذلك لأن الدابة قد يتفق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب، وإذا كان كذلك فركوب الفلك والدابة يوجب تعريض النفس للهلاك، فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت، وأن يقطع أنه هالك لا محالة، وأنه منقلب إلى الله تعالى وغير منقلب من قضائه وقدره، حتى لو اتفق له ذلك المحذور كان قد وطَّن نفسه على الموت.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩] بيَّن أنهم مع إقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزءًا، والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم وسخافة عقولهم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم في رواية أبي بكر: (جُزُء) بضم الزاي والهمزة في كل القرآن وهما لغتان، وأما حمزة فإذا وقف عليه قال (جَزَا) بفتح الزين بلا همزة.

المسألة الثانية: في المراد من قوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ قولان: الأول: - وهو المشهور - أن المراد أنهم أثبتوا له ولدًا، وتقرير الكلام أن ولد الرجل جزء منه، قال عليه السلام: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي» [(١)] ولأن المعقول من الوالد أن ينفصل عنه جزء من أجزائه، ثم يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الأصل، وإذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه وبعض منه، فقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ معنى (جعلوا) حكموا وأثبتوا وقالوا به، والمعنى أنهم أثبتوا له جزءًا، وذلك الجزء هو عبد من عباده.

واعلم أنه لو قال: (وجعلوا لعباده منه جزءًا)، أفاد ذلك أنهم أثبتوا أنه حصل جزء من أجزائه في بعض عباده، وذلك هو الولد، فكذا قوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ معناه: وأثبتوا له جزءًا، وذلك الجزء هو عبد من عباده، والحاصل أنهم أثبتوا لله ولدًا. وذكروا في تقرير هذا القول وجوهًا أُخر: فقالوا: الجزء هو الأنثى في لغة العرب. واحتجوا في إثبات هذه اللغة

---

(١) تقدم.

ببيتين: فالأول قوله:

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبَ قَدْ تُجْزِئُ الحُرَّةُ المُذْكَاةُ أَحْيَانَا

وقوله:

زَوَّجْتُهَا مِنْ نَبَاتِ الأَوْسِ مُجْزِئَةً لِلْعَوْسَجِ اللَّدْنِ فِي أَبْيَاتِهَا غَزَلُ

وزعم الزجاج والأزهري وصاحب (الكشاف) أن هذه اللغة فاسدة، وأن هذه الأبيات مصنوعة. والقول الثاني في تفسير الآية: أن المراد من قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ إثبات الشركاء لله، وذلك لأنهم لما أثبتوا الشركاء لله تعالى فقد زعموا أن كل العباد ليس لله، بل بعضها لله وبعضها لغير الله، فهم ما جعلوا لله من عباده كلهم، بل جعلوا له منهم بعضًا وجزءًا منهم، قالوا: والذي يدل على أن هذا القول أَوْلى من الأول: أنا إذا حملنا هذه الآية على إنكار الشريك لله، وحملنا الآية التي بعدها على إنكار الولد لله، كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين.

ثم قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾.

واعلم أنه تعالى رتَّب هذه المناظرة على أحسن الوجوه، وذلك لأنه تعالى بيّن أن إثبات الولد لله محال، وبتقدير أن يثبت الولد فجعله بنتًا أيضًا محال:

أما بيان أن إثبات الولد لله محال: فلأن الولد لا بد وأن يكون جزءًا من الوالد، وما كان له جزء كان مركبًا، وكل مركب ممكن، وأيضًا ما كان كذلك فإنه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق، وما كان كذلك فهو عبد محدث، فلا يكون إلهًا قديمًا أزليًّا.

وأما المقام الثاني: - وهو أن بتقدير ثبوت الولد فإنه يمتنع كونه بنتًا - وذلك لأن الابن أفضل من البنت، فلو قلنا: إنه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده، لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله، وذلك مدفوع في بديهة العقل، يقال: أصفيت فلانًا بكذا، أي آثرته به إيثارًا حصل له على سبيل الصفاء من غير أن يكون له فيه مشارك، وهو كقوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠]. ثم بيّن نقصان البنات من وجوه: الأول: قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ والمعنى أن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى؟! وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة، فقالت:

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا يَظَلُّ فِي البَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَانَ أَنْ لاَ نَلِدَ البَنِينَا لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا شِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا

وقوله ﴿ظَلَّ﴾ أي صار، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة، قال صاحب (الكشاف): قرئ مسود ومسواد، والتقدير وهو مسود، فتقع هذه الجملة موقع الخبر. والثاني: قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (يُنَشَّؤ) بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين على ما لم يسم فاعله، أي يُرَبَّى، والباقون (يَنْشَأ)، بضم الياء وسكون النون وفتح الشين، قال صاحب (الكشاف): وقرئ (يناشأ)، قال: ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء، المغالاة بمعنى الإغلاء.

المسألة الثانية: المراد من قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ التنبيه على نقصانها، وهو أن الذي يربى في الحلية يكون ناقص الذات؛ لأنه لولا نقصان في ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية، ثم بيّن نقصان حالها بطريق آخر، وهو قوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني أنها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين؛ وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها وبلادة طبعها، ويقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بما كان حجة عليها. فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها، فكيف يجوز إضافتهن بالولدية إليه؟!

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن التحلي مباح للنساء، وأنه حرام للرجال؛ لأنه تعالى جعل ذلك من المعايب وموجبات النقصان، وإقدام الرجل عليه يكون إلقاء لنفسه في الذل وذلك حرام؛ لقوله عليه السلام: «لَيسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» وإنما زينة الرجل الصبر على طاعة الله، والتزين بزينة التقوى، قال الشافعي:

تَدَرَّعْتُ يَوْمًا لِلْقُنُوعِ حَصِينَةً ... أَصُونُ بِهَا عِرْضِي وَأَجْعَلُهَا ذُخْرَا
وَلَمْ أَحْذَرِ الدَّهْرَ الْخَئُونَ وَإِنَّمَا ... قُصَارَاهُ أَنْ يَرْمِي بِيَ الْمَوْتَ وَالْفَقْرَا
أَعْدَدْتُ لِلْمَوْتِ الْإِلَهَ وَعَفْوَهُ ... وَأَعْدَدْتُ لِلْفَقْرِ التَّجَلُّدَ وَالصَّبْرَا

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد بقوله: ﴿وَجَعَلُوا﴾، أي حكموا به، ثم قال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ وهذا استفهام على سبيل الإنكار، يعني أنهم لم يشهدوا خلقهم، وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بالدلائل العقلية، وأما الدلائل النقلية فكلها مفرعة على إثبات النبوّة، وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة، فلا سبيل لهم إلى إثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية، فثبت أنهم ذكروا هذه الدعوى من غير أن عرفوه لا بضرورة ولا بدليل، ثم إنه تعالى هددهم فقال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر، وأن التقليد يوجب الذم العظيم والعقاب الشديد. قال أهل التحقيق: هؤلاء الكفار كفروا في هذا القول من ثلاثة أوجه: أولها: إثبات الولد لله تعالى. وثانيها: أن ذلك الولد بنت. وثالثها: الحكم على الملائكة بالأنوثة.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر: (عند الرحمن) بالنون، وهو اختيار أبي حاتم

واحتج عليه بوجوه: الأول: أنه يوافق قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾[الأعراف: ٢٠٦] وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾[الأنبياء: ١٩] والثاني: أن كل الخلق عباده فلا مدح لهم فيه. والثالث: أن التقدير أن الملائكة يكونون عند الرحمن لا عند هؤلاء الكفار، فكيف عرفوا كونهم إناثًا؟ وأما الباقون فقرأوا (عباد) جمع عبد وقيل جمع عابد، كقائم وقيام، وصائم وصيام، ونائم ونيام، وهي قراءة ابن عباس، واختيار أبي عبيد، قال: لأنه تعالى رد عليهم قولهم: إنهم بنات الله، وأخبر أنهم عبيد، ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[الأنبياء: ٢٦].

المسألة الثالثة: قرأ نافع وحده: (أآشهدوا) بهمزة ومدة بعدها خفيفة لينة وضمة، أي (أ) أحضروا خلقهم، وعن نافع غير ممدود على ما لم يسم فاعله، والباقون: (أشهدوا)، بفتح الألف، من (أ) شهدوا، أي أحضروا.

المسألة الرابعة: احتج من قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية، فقال: أما قراءة (عند) بالنون، فهذه العندية لا شك أنها عندية الفضل والقرب من الله تعالى بسبب الطاعة، ولفظة ﴿هُمْ﴾ توجب الحصر، والمعنى أنهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم، فوجب كونهم أفضل من غيرهم رعاية للفظ الدال على الحصر، وأما من قرأ (عباد) جمع العبد، فقد ذكرنا أن لفظ العباد مخصوص في القرآن بالمؤمنين فقوله: ﴿هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يفيد حصر العبودية فيهم، فإذا كان اللفظ الدال على العبودية دالاً على الفضل والشرف، كان اللفظ الدال على حصر العبودية دالاً على حصر الفضل والمنقبة والشرف فيهم، وذلك يوجب كونهم أفضل من غيرهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى حكى نوعًا آخر من كفرهم وشبهاتهم، وهو أنهم قالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة في أن كفر الكافر يقع

بإرادة الله من وجهين: الأول: أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ وهذا صريح قول المجبرة، ثم إنه تعالى أبطله بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فثبت أنه حكى مذهب المجبرة، ثم أردفه بالإبطال والإفساد، فثبت أن هذا المذهب باطل، ونظيره قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] والوجه الثاني: أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنواع كفرهم، فأولها: قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، وثانيها: قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ فلما حكى هذه الأقاويل الثلاثة بعضها على إثر بعض، وثبت أن القولين الأولين كفر محض، فكذلك هذا القول الثالث يجب أن يكون كفرًا. واعلم أن الواحدي أجاب في (البسيط) عنه من وجهين: الأول: ما ذكره الزجاج: وهو أن قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ عائد إلى قولهم الملائكة إناث وإلى قولهم الملائكة بنات الله. والثاني: أنهم أرادوا بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أنه أمرنا بذلك، وأنه رضي بذلك، وأقرنا عليه، فأنكر ذلك عليهم. فهذا ما ذكره الواحدي في الجواب. وعندي: هذان الوجهان ضعيفان: أما الأول: فلأنه تعالى حكى عن القوم قولين باطلين، وبيَّن وجه بطلانهما، ثم حكى بعده مذهبًا ثالثًا في مسألة أجنبية عن المسألتين الأوليين، ثم حكم بالبطلان والوعيد، فصَرْف هذا الإبطال عن هذا الذي ذكره عقيبه إلى كلام متقدم أجنبي عنه - في غاية البعد. وأما الوجه الثاني: فهو أيضًا ضعيف؛ لأن قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ ليس فيه بيان متعلق بتلك المشيئة، والإجمال خلاف الدليل، فوجب أن يكون التقدير: لو شاء الله ألا نعبدهم ما عبدناهم. وكلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فهذا يدل على أنه لم توجد مشيئة الله لعدم عبادتهم، وهذا عين مذهب المجبرة، فالإبطال والإفساد يرجع إلى هذا المعنى، ومن الناس من أجاب عن هذا الاستدلال بأن قال: إنهم إنما ذكروا ذلك الكلام على سبيل الاستهزاء والسخرية، فلهذا السبب استوجبوا الطعن والذم، وأجاب صاحب (الكشاف) عنه من وجهين: الأول: أنه ليس في اللفظ ما يدل على أنهم قالوا مستهزئين، وادعاء ما لا دليل عليه باطل. الثاني: أنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء وهي: أنهم جعلوا له من عباده جزءًا، وأنهم جعلوا الملائكة إناثًا، وأنهم قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ فلو قلنا بأنه إنما جاء الذم على القول الثالث لأنهم ذكروه على طريق الجد، وجب أن يكون الحال في حكاية القولين الأولين كذلك، فلزم أنهم لو نطقوا بتلك الأشياء على سبيل الجد أن يكونوا محقين، ومعلوم أنه كفر، وأما القول بأن الطعن في القولين الأولين إنما توجه على نفس ذلك القول، وفي القول الثالث لا على نفسه بل على سبيل الاستهزاء، فهذا يوجب تشويش النظم، وأنه لا يجوز في كلام الله.

واعلم أن الجواب الحق عندي عن هذا الكلام ما ذكرناه في سورة الأنعام، وهو أن القوم إنما

ذكروا هذا الكلام لأنهم استدلوا بمشيئة الله تعالى للكفر على أنه لا يجوز ورود الأمر بالإيمان، فاعتقدوا أن الأمر والإرادة يجب كونهما متطابقين، وعندنا أن هذا باطل فالقوم لم يستحقوا الذم بمجرد قولهم إن الله يريد الكفر من الكافر. بل لأجل أنهم قالوا: لما أراد الكفر من الكافر وجب أن يقبح منه أمر الكافر بالإيمان، وإذا صرفنا الذم والطعن إلى هذا المقام سقط استدلال المعتزلة بهذه الآية، وتمام التقرير مذكور في سورة الأنعام، والله أعلم.

المسألة الثانية: أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل قال: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وتقريره كأنه قيل: إن القوم يقولون: لما أراد الله الكفر من الكافر وخلق فيه ما أوجب ذلك الكفر، وجب أن يقبح منه أن يأمره بالإيمان؛ لأن مثل هذا التكليف قبيح في الشاهد فيكون قبيحًا في الغائب، فقال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ أي ما لهم بصحة هذا القياس من علم، وذلك لأن أفعال الواحد منا وأحكامه مبنية على رعاية المصالح والمفاسد، لأجل أن كل ما سوى الله فإنه ينتفع بحصول المصالح ويستضر بحصول المفاسد، فلا جرم أن صريح طبعه وعقله يحمله على بناء أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح، أما الله سبحانه وتعالى فإنه لا ينفعه شيء ولا يضره شيء، فكيف يمكن القطع بأنه تعالى يبني أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح مع ظهور هذا الفارق العظيم؟! فقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ أي ما لهم بصحة قياس الغائب على الشاهد في هذا الباب علم.

ثم قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي كما لم يثبت لهم صحة ذلك القياس، فقد ثبت بالبرهان القاطع كونهم كذابين خراصين في ذلك القياس؛ لأن قياس المنزّه عن النفع والضر من كل الوجوه على المحتاج المنتفع المتضرر - قياس باطل في بديهة العقل.

ثم قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ يعني أن القول الباطل الذي حكاه الله تعالى عنهم عرفوا صحته بالعقل أو بالنقل، أما إثباته بالعقل فهو باطل لقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وأما إثباته بالنقل فهو أيضًا باطل لقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ والضمير في قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ للقرآن أو للرسول، والمعنى أنهم (هل) وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزّل قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه، وأن يتمسكوا به؟ والمقصود منه ذكره في معرض الإنكار، ولما ثبت أنه لم يدل عليه لا دليل عقلي ولا دليل نقلي، وجب أن يكون القول به باطلاً.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ والمقصود أنه تعالى لما بيّن أن تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلاً من قديم الدهر فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قرئ: (عَلَى إِمَّةٍ) بالكسر، وكلتاهما من الأَمّ وهو

القصد، فالأمة الطريقة التي تؤم، أي تُقصد، كالرحلة للمرحول إليه، والإمة: الحالة التي يكون عليها الآم وهو القاصد.

المسألة الثانية: لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد؛ وذلك لأنه تعالى بيّن أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ولا بدليل نقلي، ثم بيّن أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل، ومما يدل عليه أيضًا من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق، وذلك لأنه كم حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة، فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة، فلو كان التقليد طريقًا إلى الحق لوجب كون الشيء ونقيضه حقًّا، ومعلوم أن ذلك باطل.

المسألة الثالثة: أنه تعالى بيّن أن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه - إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال، لقوله: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة، أي أبطرتهم، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية، ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة، فلهذا قال عليه السلام: «**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ**».

ثم قال تعالى لرسوله: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي بدين أهدى من دين آبائكم؟ فعند هذا حكى الله عنهم أنهم قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وإن كان أهدى مما كنا عليه. فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ والمراد منه تهديد الكفار، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داعٍ يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف، ثم بيّن أنه طريق باطل ومنهج فاسد، وأن الرجوع إلى الدليل أَوْلى من الاعتماد على التقليد؛ أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد، وتقريره من وجهين:

الأول: أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل، فنقول:

إما أن يكون تقليد الآباء في الأديان محرمًا أو جائزًا، فإن كان محرمًا فقد بطل القول بالتقليد، وإن كان جائزًا فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم عليه السلام، وذلك لأنهم ليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم من أولاده، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذي هو أشرف الآباء أَوْلى من تقليد سائر الآباء، وإذا ثبت أن تقليده أَوْلى من تقليد غيره فنقول: إنه تَرَكَ دين الآباء وحَكَم بأن اتباع الدليل أَوْلى من متابعة الآباء، وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد، وإذا ثبت هذا فنقول: فقد ظهر أن القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلاً، فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلاً، فهذا طريق رقيق في إبطال التقليد وهو المراد بهذه الآية.

الوجه الثاني في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا وفي الدين: أنه تعالى بيّن أن إبراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه إلى متابعة الدليل، لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقيًا في عقبه إلى يوم القيامة، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت، فثبت أن الرجوع إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة، وأن التقليد والإصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه في الدنيا خبر ولا أثر. فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل وترك التقليد أَوْلى فهذا بيان المقصود الأصلي من هذه الآية.

ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية:

أما قوله: ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فقال الكسائي والفرّاء والمبرد والزجاج: (براء) مصدر لا يُثنى ولا يُجمع، مثل عدل ورضا، وتقول العرب: أنا البراء منك، والخلاء منك، ونحن البراء منك والخلاء. ولا يقولون البراءان ولا البراؤن لأن المعنى ذوا البراء وذوو البراء فإن قلت: بريء وخلي، ثنيت وجمعت.

ثم استثنى خالقه من البراءة فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ والمعنى أنا أتبرأ مما تعبدون إلا من الله عزّ وجلّ، ويجوز أن يكون (إلا) بمعنى (لكن) فيكون المعنى لكن الذي فطرني فإنه سيهدين، أي سيرشدني لدينه ويوفقني لطاعته.

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام في آية أخرى أنه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وحكى عنه هاهنا أنه قال: ﴿ سَيَهْدِينِ﴾ فأجمع بينهما وقدر كأنه قال: فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال. ﴿ وَجَعَلَهَا﴾ أي وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ جاريًا مجرى (لا إله) وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ جاريًا مجرى قوله: (إلا الله) فكان مجموع قوله: ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ جاريًا مجرى قوله (لا إله إلا الله) ثم بيّن تعالى أن إبراهيم جعل هذه الكلمة باقية في عقبه، أي في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم، وقيل: وجعلها الله، وقرئ (كَلْمة) على التخفيف و(في عقيبه).

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة وهم عقب إبراهيم، بالمد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان - عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ بَيَّن الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والبينات فكذبوا به، وسموه ساحرًا وما جاء به سحرًا، وكفروا به، ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا في الحجة، اغتروا بطول الإمهال وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا، فأعرضوا عن الحق، قال صاحب (الكشاف): إن قيل: ما وجه قراءة من قرأ (متعتَ) بفتح التاء؟ قلنا: كأن الله سبحانه اعترض على ذاته في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد. وأراد بذلك المبالغة في تعييرهم لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببًا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أندادًا، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يُقبل على نفسه فيقول: أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك إليه. وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعل نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من كفرياتهم التي حكاها الله تعالى عنهم في هذه السورة، وهؤلاء المساكين قالوا: منصب رسالة الله منصب شريف، فلا يليق إلا برجل شريف. وقد صَدَقوا في ذلك إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة، وهي أن الرجل الشريف هو الذي يكون كثير المال والجاه ومحمد ليس كذلك، فلا تليق رسالة الله به، وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال في إحدى القريتين وهي مكة والطائف، قال المفسرون: والذي بمكة هو الوليد بن المغيرة والذي بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفي. ثم أبطل الله تعالى هذه الشبهة من وجهين: الأول: قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وتقرير هذا الجواب من وجوه:

أحدها: أنا أوقعنا التفاوت في مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره، فالتفاوت الذي أوقعناه في مناصب الدين والنبوّة بأن لا يقدروا على التصريف فيه كان أَوْلى. **وثانيها:** أن يكون المراد أن اختصاص ذلك الغني بذلك المال الكثير إنما كان لأجل حكمنا وفضلنا وإحساننا إليه، فكيف يليق بالعقل أن نجعل إحساننا إليه بكثرة المال حجة علينا في أن نحسن إليه أيضًا بالنبوّة؟ **وثالثها:** إنا لما أوقعنا التفاوت في الإحسان بمناصب الدنيا لا لسبب سابق، فلمَ لا يجوز أيضًا أن نوقع التفاوت في الإحسان بمناصب الدين والنبوّة لا لسبب سابق؟ فهذا تقرير الجواب.

ولنرجع إلى تفسير الألفاظ فنقول: الهمزة في قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ للإنكار الدال

على التجهيل والتعجب من إعراضهم وتحكمهم أن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة، ثم ضرب لهذا مثالاً فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنا أوقعنا هذا التفاوت بين العباد في القوة والضعف، والعلم والجهل، والحذاقة والبلاهة، والشهرة والخمول، وإنما فعلنا ذلك لأنا لو سوينا بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحدًا، ولم يصر أحد منهم مسخرًا لغيره، وحينئذٍ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا، ثم إن أحدًا من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا، فإن عجزوا عن الإعراض عن حكمنا في أحوال الدنيا مع قلتها ودناءتها، فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا في تخصيص العباد بمنصب النبوة والرسالة؟!

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقتضي أن تكون كل أقسام معايشهم إنما تحصل بحكم الله وتقديره، وهذا يقتضي أن يكون الرزق الحرام والحلال كله من الله تعالى. والوجه الثاني في الجواب: ما هو المراد من قوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؟

وتقريره أن الله تعالى إذا خص بعض عبيده بنوع فضله ورحمته في الدين، فهذه الرحمة خير من الأموال التي يجمعها؛ لأن الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض، وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى أجاب عن الشبهة التي ذكروها بناء على تفضيل الغني على الفقير بوجه ثالث، وهو أنه تعالى بيّن أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله، وبيَّن حقارتها بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ والمعنى: لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا

رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق، لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للتنعم: أحدها: أن يكون سقفهم من فضة. وثانيها: معارج أيضًا من فضة عليها يظهرون. وثالثها: أن نجعل لبيوتهم أبوابًا من فضة وسررًا أيضًا من فضة عليها يتكئون.

ثم قال: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ وله تفسيران: أحدها: أنه الذهب. والثاني: أنه الزينة، بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] فعلى التقدير الأول يكون المعنى: ونجعل لهم مع ذلك ذهبًا كثيرًا. وعلى الثاني أنا نعطيهم زينة عظيمة في كل باب.

ثم بيّن تعالى أن كل ذلك متاع الحياة الدنيا، وإنما سماه متاعًا لأن الإنسان يستمتع به قليلاً ثم ينقضي في الحال، وأما الآخرة فهي باقية دائمة، وهي عند الله تعالى وفي حكمه للمتقين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى، وحاصل الجواب أن أولئك الجهال ظنوا أن الرجل الغني أَوْلى بمنصب الرسالة من محمد بسبب فقره، فبيّن تعالى أن المال والجاه حقيران عند الله، وأنهما على شرف الزوال فحصولهما لا يفيد حصول الشرف. والله أعلم.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (سَقْفًا) بفتح السين وسكون القاف على لفظ الواحد لإرادة الجنس، كما في قوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] والباقون ﴿سُقُفًا﴾ على الجمع، واختلفوا: فقيل: هو جمع سقف، كرَهْن ورُهُن، قال أبو عبيد: ولا ثالث لهما. وقيل السُّقُف جمع سقوف، كرُهُن ورهون وزُبُر وزُبُور، فهو جمع الجمع.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ فقوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال من قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ قال صاحب (الكشاف): قرئ معارج ومعاريج، والمعارج جمع معرج، أو اسم جمع لمعراج، وهي المصاعد إلى المساكن العالية كالدرج والسلالم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي على تلك المعارج يظهرون، وفي نصب قوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ قولان: قيل: لجعلنا لبيوتهم سقفًا من فضة، ولجعلنا لهم زخرفًا. وقيل: من فضة وزخرف، فلما حذف الخافض انتصب.

وأما قوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ عاصم وحمزة (لمَّا) بتشديد الميم، والباقون بالتخفيف، وأما قراءة حمزة بالتشديد فإنه جعل (لمَّا) في معنى (إلا)، وحكى سيبويه: نشدتك بالله لمَّا فعلت، بمعنى إلا فعلت. ويقوي هذه القراءة أن في حرف أبي (وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا)، وهذا يدل على أن (لمَّا) بمعنى (إلا)، وأما القراءة بالتخفيف، فقال الواحدي: لفظة (ما) لغو، والتقدير لمتاع الحياة الدنيا. قال أبو الحسن: الوجه التخفيف؛ لأن (لمَّا) بمعنى (إلا) لا تُعرف، وحكي عن الكسائي أنه قال: لا أعرف وجه التثقيل.

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: دلت الآية على أنه تعالى إنما لم يعط الناس نعم الدنيا؛ لأجل أنه لو فعل بهم ذلك لدعاهم ذلك إلى الكفر، فهو تعالى لم يفعل بهم ذلك لأجل أن لا يدعوهم إلى الكفر، وهذا يدل على أحكام: أحدها: أنه إذا لم يفعل بهم ما يدعوهم إلى الكفر فلأن لا يخلق فيهم الكفر أَوْلى. وثانيها: أنه ثبت أن فعل اللطف قائم مقام إزاحة العذر والعلة، فلما بيّن

تعالى أنه لم يفعل ذلك إزاحة للعذر والعلة عنهم، دل ذلك على أنه يجب أن يفعل بهم كل ما كان لطفًا داعيًا لهم إلى الإيمان، فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أنه يجب على الله تعالى فعل اللطف. وثالثها: أنه ثبت بهذه الآية أن الله تعالى إنما يفعل ما يفعله ويترك ما يتركه لأجل حكمة ومصلحة، وذلك يدل على تعليل أحكام الله تعالى وأفعاله بالمصالح والعلل، فإن قيل: لما بيّن تعالى أنه لو فتح على الكافر أبواب النعم، لصار ذلك سببًا لاجتماع الناس على الكفر، فلمَ لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سببًا لاجتماع الناس على الإسلام؟ قلنا: لأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام لطلب الدنيا، وهذا الإيمان إيمان المنافقين، فكان الأصوب أن يضيق الأمر على المسلمين، حتى أن كل من دخل الإسلام، فإنما يدخل فيه لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى، فحينئذٍ يعظم ثوابه لهذا السبب.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا، وذلك أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله، ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين الضالين المضلين، فهذا وجه تعلق هذا الكلام بما قبله، قال صاحب (الكشاف): قرئ (ومن يعشُ) بضم الشين وفتحها، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل عشي، وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به قيل: عشى، ونظيره عَرِج لمن به الآفة، وعَرَج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج، قال الحطيئة:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ[1]

أي تنظر إليه نظر العشي لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء، وقرئ (يعشو) على أن (مَن) موصولة غير مضمنة معنى الشرط، وحق هذا القارئ أن يرفع (نقيض). ومعنى القراءة بالفتح: ومن يَعْمَ عن ذكر الرحمن وهو القرآن. لقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[البقرة: ١٨] وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتعامى، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[النمل: ١٤]، و﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قال مقاتل: نضم إليه شيطانًا ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني وإن الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى والحق. وذكر الكناية عن الإنسان والشياطين بلفظ الجمع؛ لأن قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ يفيد الجمع، وإن كان اللفظ على الواحد ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يعني الشياطين

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للحطيئة، وهو هكذا:

فَنِعمَ الفَتى تَعشو إلى ضَوءِ نارِهِ إذا الريحُ هَبَّت وَالمَكانُ جَديبُ

وهو: جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة. ؟- ٤٥هـ/ ؟ - ٦٦٥م.

شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجّاءً عنيفًا، لم يكد يَسْلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه. وأكثرَ من هجاء الزبرقان بن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس.

يصدون الكفار عن السبيل، والكفار يحسبون أنهم مهتدون، ثم عاد إلى لفظ الواحد فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يعني الكافر، وقرئ (جَاءَانَا)، يعني الكافر وشيطانه، روي أن الكافر إذا بُعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده، فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار، فذلك حيث يقول: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ والمراد: يا ليت حصل بيني وبينك بُعْد على أعظم الوجوه!

واختلفوا في تفسير قوله: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ وذكروا فيه وجوهًا: الأول: قال الأكثرون: المراد بُعْد المشرق والمغرب، ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما، قال الفرزدق:

لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ (١)

يريد الشمس والقمر، ويقولون للكوفة والبصرة: البصرتان، وللغداة والعصر: العصران، ولأبي بكر وعمر: العمران، وللماء والتمر: الأسودان. الثاني: أن أهل النجوم يقولون: الحركة التي تكون من المشرق إلى المغرب هي حركة الفلك الأعظم، والحركة التي من المغرب إلى المشرق، هي حركة الكواكب الثابتة، وحركة الأفلاك الممثلة التي للسيارات سوى القمر، وإذا كان كذلك فالمشرق والمغرب كل واحد منهما مشرق بالنسبة إلى شيء آخر، فثبت أن إطلاق لفظ المشرق على كل واحد من الجهتين حقيقة. الثالث: قالوا: يُحمل ذلك على مشرق الصيف ومشرق الشتاء وبينهما بُعْد عظيم. وهذا بعيد عندي؛ لأن المقصود من قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ المبالغة في حصول البعد، وهذه المبالغة إنما تحصل عن ذكر بُعْد لا يمكن وجود بُعْد آخر أزيد منه، والبعد بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ليس كذلك، فيبعد حمل اللفظ عليه. الرابع: وهو أن الحس يدل على أن الحركة اليومية إنما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب، وأما القمر فإنه يظهر في أول الشهر في جانب المغرب، ثم لا يزال يتقدم إلى جانب المشرق، وذلك يدل على أن مشرق حركة القمر هو المغرب، وإذا ثبت هذا فالجانب المسمى بالمشرق هو مشرق الشمس ولكنه مغرب القمر، وأما الجانب المسمى بالمغرب، فإنه مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس، وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين، ولعل هذا الوجه أقرب إلى مطابقة اللفظ ورعاية المقصود من سائر الوجوه، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي الكافر يقول لذلك الشيطان: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين أنت. فهذا ما يتعلق بتفسير الألفاظ. والمقصود من هذا الكلام تحقير الدنيا وبيان ما في المال والجاه من المضار العظيمة، وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأعشى عن مطالعة ذكر الله تعالى، ومن صار كذلك صار جليسًا للشيطان، ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق وبقي جليس الشيطان في الدنيا وفي القيامة، ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد في القيامة بحيث يقول الكافر: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين أنت. فثبت بما ذكرنا أن كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان في الدين والدنيا،

(١) البيت للفرزدق، وقد تقدمت ترجمته.

وإذا ظهر هذا فقد ظهر أن الذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قالوا كلامًا فاسدًا وشبهة باطلة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ فقوله: ﴿أَنَّكُمْ﴾ في محل الرفع على الفاعلية، يعني ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين في العذاب. والسبب فيه أن الناس يقولون: المصيبة إذا عمت طابت، وقالت الخنساء في هذا المعنى[1]:

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَلاَ يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

فبيّن تعالى أن حصول الشركة في ذلك العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده في الدنيا، والسبب فيه وجوه: الأول: أن ذلك العذاب شديد، فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر، فلا جرم الشركة لا تفيد الخفة. الثاني: أن قومًا إذا اشتركوا في العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه فيحصل بسببه بعض التخفيف، وهذا المعنى متعذر في القيامة. الثالث: أن جلوس الإنسان مع قرينه يفيده أنواعًا كثيرة من السلوة. فبيّن تعالى أن الشيطان وإن كان قرينًا إلا أن مجالسته في القيامة لا توجب السلوة وخفة العقوبة، وفي كتاب ابن مجاهد عن ابن عامر قرأ: (إذ ظلمتم إنكم) بكسر الألف، وقرأ الباقون (أنكم) بفتح الألف، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشى، وصفهم في هذه الآية بالصمم والعمى، وما أحسن هذا الترتيب! وذلك لأن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل؛ لما ثبت في علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة، فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى، فإذا واظب على تلك الحالة أيامًا أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية، روي أنه ﷺ كان يجتهد في دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا تصميمًا على الكفر وتماديًا في الغي، فقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ يعني أنهم بلغوا في النفرة عنك وعن

(١) تقدمت ترجمة الخنساء.

دينك إلى حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالأعمى، ثم بيّن تعالى أن صممهم وعماهم إنما كان بسبب كونهم في ضلال مبين.

ولما بيّن تعالى أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد حصول الموت قبل نزول النقمة بهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعدك، أو نرينك في حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فإنا مقتدرون على ذلك. واعلم أن هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه السلام لأنه تعالى بيّن أنهم لا تؤثر فيهم دعوته، واليأس إحدى الراحتين، ثم بيّن أنه لا بد وأن ينتقم لأجله متهم إما حال حياته أو بعد وفاته، وذلك أيضًا يوجب التسلية، فبعد هذا أمَره أن يستمسك بما أمره تعالى فقال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ بأن تعتقد أنه حق وبأن تعمل بموجبه؛ فإنه الصراط المستقيم الذي لا يميل عنه إلا ضال في الدين.

ولما بيّن تأثير التمسك بهذا الدين في منافع الدين، بيّن أيضًا تأثيره في منافع الدنيا فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي إنه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك، حيث يقال: إن هذا الكتاب العظيم أنزله الله على رجل من قوم هؤلاء.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لا بد وأن يكون عظيم الرغبة في الثناء الحسن والذكر الجميل، ولو لم يكن الذكر الجميل أمرًا مرغوبًا فيه لما منَّ الله به على محمد ﷺ حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ ولمَا طلبه إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] ولأن الذكر الجميل قائم مقام الحياة الشريفة، بل الذكر أفضل من الحياة؛ لأن أثر الحياة لا يحصل إلا في مسكن ذلك الحي، أما أثر الذكر الجميل فإنه يحصل في كل مكان وفي كل زمان.

ثم قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ وفيه وجوه: الأول: قال الكلبي: تُسألون هل أديتم شكر إنعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل الثاني: قال مقاتل: المراد أن مَن كَذَّب به يُسأل: لمَ كذبه؟! فيُسأل سؤال توبيخ. الثالث: تُسألون هل عملتم بما دل عليه من التكاليف؟

واعلم أن السبب الأقوى في إنكار الكفار لرسالة محمد ﷺ ولبغضهم له - أنه كان ينكر عبادة الأصنام، فبيّن تعالى أن إنكار عبادة الأصنام ليس من خواص دين محمد ﷺ، بل كل الأنبياء والرسل كانوا مطبقين على إنكاره فقال: ﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وفيه أقوال:

الأول: معناه: واسأل مؤمني أهل الكتاب أي أهل التوراة والإنجيل، فإنهم سيخبرونك أنه لم يرد في دين أحد من الأنبياء عبادة الأصنام، وإذا كان هذا الأمر متفقًا عليه بين كل الأنبياء والرسل وجب أن لا يجعلوه سببًا لبغض محمد ﷺ. **والقول الثاني:** قال عطاء عن ابن عباس: لَمَّا أُسْرِيَ به صلى اللهُ عليهِ وسلم إلى المسجد الأقصى، بعث الله له آدم وجميع المرسلين مِن وَلَدِهِ، فأَذَّنَ جبريلُ ثم أقام فقال: يا محمد تقدم فصَلِّ بهم. فلمَّا فرغ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من

الصلاة قال له جبريل عليه السلام: ﴿وَسْئَلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلم: «لا أسأَلُ لأنِّي لَسْتُ شَاكًّا فِيهِ»(١).

والقول الثالث: أن ذكر السؤال في موضع لا يمكن السؤال فيه - يكون المراد منه النظر والاستدلال، كقول من قال: سل الأرض من شق أنهارك، وغَرَس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك جوابًا أجابتك اعتبارًا. فهاهنا سؤال النبي ﷺ عن الأنبياء الذين كانوا قبله ممتنع، فكان المراد منه انظر في هذه المسألة بعقلك وتدبر فيها بفهمك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المقصود من إعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون في هذا المقام - تقرير الكلام الذي تقدم، وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ بسبب كونه فقيرًا عديم المال والجاه، فبيّن الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرة التي لا يشك في صحتها عاقل، أورد فرعون عليه هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش فقال: إني غني كثير المال والجاه، ألا ترون أنه حصل لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، وأما موسى فإنه فقير مهين وليس له بيان ولسان، والرجل الفقير كيف يكون رسولاً من عند الله إلى الملك الكبير الغني؟! فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة وهي قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قد أوردها بعينها فرعون على موسى، ثم إنا انتقمنا منهم فأغرقناهم، والمقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين: أحدهما: أن الكفار

---

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير وهو من غير إسناد.

والجهال أبدًا يحتجون على الأنبياء بهذه الشبهة الركيكة فلا يبالى بها ولا يلتفت إليها. والثاني: أن فرعون على غاية كمال حاله في الدنيا صار مقهورًا باطلاً، فيكون الأمر في حق أعدائك هكذا، فثبت أنه ليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة، بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة، وعلى هذا فلا يكون هذا تقريرًا للقصة ألبتة، وهذا من نفائس الأبحاث، والله أعلم.

المسألة الثانية: في تفسير الألفاظ، ذكر تعالى أنه أرسل موسى بآياته وهي المعجزات التي كانت مع موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، أي قومه، فقال موسى: إني رسول ربّ العالمين، فلما جاءهم بتلك الآيات إذا هم منها يضحكون، قيل: إنه لما ألقى عصاه فصار ثعبانًا، ثم أخذه فعاد عصًا كما كان؛ ضحكوا، ولما عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت؛ ضحكوا، فإن قيل: كيف جاز أن يجاب عن (لما) بإذا الذي يفيد المفاجأة؟ قلنا: لأن فعل المفاجأة معها مقدر كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجأوا وقت ضحكهم.

ثم قال: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ فإن قيل: ظاهر اللفظ يقتضي كون كل واحد منها أفضل من التالي وذلك محال. قلنا: إذا أُريد المبالغة في كون كل واحد من تلك الأشياء بالغًا إلى أقصى الدرجات في الفضيلة، فقد يُذكر هذا الكلام، بمعنى أنه لا يبعد في أناس ينظرون إليها أن يقول: هذا إن هذا أفضل من الثاني. وأن يقول الثاني: لا بل الثاني أفضل. وأن يقول الثالث: بل الثالث أفضل. وحينئذٍ يصير كلّ واحد من تلك الأشياء مقولاً فيه إنه أفضل من غيره.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن الكفر إلى الإيمان، قالت المعتزلة: هذا يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل، وأنه إنما أظهر تلك المعجزات القاهرة لإرادة أن يرجعوا من الكفر إلى الإيمان. قال المفسرون: ومعنى قوله: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي بالأشياء التي سلطها عليها، كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ فإن قيل: كيف سموه بالساحر مع قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: أنهم كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر؛ لأنهم كانوا يستعظمون السحر، وكما يقال في زماننا في العامل العجيب الكامل إنه أتى بالسحر. الثاني: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ في زعم الناس ومتعارف قوم فرعون، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر: ٦] أي نُزل عليه الذكر في اعتقاده وزعمه. الثالث: أن قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ وقد كانوا عازمين على خلافه، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فتسميتهم إياه بالسحر لا ينافي قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ ثم بيّن تعالى أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد.

ولما حكى الله تعالى معاملة فرعون مع موسى، حكى أيضًا معاملة فرعون معه فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ والمعنى أنه أظهر هذا القول فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ يعني الأنهار التي فصلوها من النيل ومعظمها أربعة: نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس، قيل: كانت تجري تحت قصره، وحاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه.

ثم قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ وعنى بكونه مهينًا كونه فقيرًا ضعيف الحال، وبقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حبسة كانت في لسانه، واختلفوا في معنى (أم) هاهنا فقال أبو عبيدة مجازها (بل أنا خير)، وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ بمعنى بل أنا خير. وقال الباقون (أم) هذه متصلة لأن المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ موضع (تبصرون)، لأنهم إذا قالوا له: أنت خير فهم عنده بصراء. وقال آخرون: إن تمام الكلام عند قوله: ﴿أَمْ﴾ وقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ ابتداء الكلام والتقدير أفلا تبصرون. أم تبصرون لكنه اكتفى فيه بذكر (أم) كما تقول لغيرك: (أتأكل أم) أي أتأكل أم لا تأكل، تقتصر على ذكر كلمة (أم) إيثارًا للاختصار فكذا هاهنا، فإن قيل: أليس أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى أن يزيل الرتة عن لسانه بقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨] فأعطاه الله تعالى ذلك بقوله ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] فكيف عابه فرعون بتلك الرتة؟ والجواب عنه من وجهين: الأول: أن فرعون أراد بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حجته التي تدل على صدقه فيما يدعي. ولم يُرد أنه لا قدرة له على الكلام. والثاني: أنه عابه بما كان عليه أولاً، وذلك أن موسى كان عند فرعون زمانًا طويلاً وفي لسانه حبسة، فنسبه فرعون إلى ما عهده عليه من الرتة؛ لأنه لم يعلم أن الله تعالى أزال ذلك العيب عنه.

ثم قال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ والمراد أن عادة القوم جرت بأنهم إذا جعلوا واحدًا منهم رئيسًا لهم، سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب، فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة.

واختلف القراء في (أسورة) فبعضهم قرأ (أسوِرَة) وآخرون (أساورة) فأسورة جمع سوار لأدنى العدد، كقولك حمار وأحمرة وغراب وأغربة، ومن قرأ (أساورة) فذاك لأن أساوير جمع أسوار وهو السوار فأساورة تكون الهاء عوضًا عن الياء، نحو بطريق وبطارقة وزنديق وزنادقة وفرزين وفرازنة، فتكون أساورة جمع أسوار.

وحاصل الكلام يرجع إلى حرف واحد وهو أن فرعون كان يقول: أنا أكثر مالاً وجاهًا، فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع كونه رسولاً من الله؛ لأن منصب النبوة يقتضي المخدومية، والأخس لا يكون مخدومًا للأشرف، ثم المقدمة الفاسدة هي قوله: (من كان أكثر مالاً وجاهًا فهو أفضل) وهي عين المقدمة التي تمسك بها كفار قريش في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ثم قال: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يجوز أن يكون المراد مقرنين به، من قولك: قرنته به فاقترن. وأن يكون من قولهم: اقترنوا بمعنى تقارنوا، قال الزجاج: معناه يمشون معه فيدلون على صحة نبوته.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي طلب منهم الخفة في الإتيان بما كان يأمرهم به فأطاعوه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ حيث أطاعوا ذلك الجاهل الفاسق. ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا، حكي أن ابن جريج غضب في شيء فقيل له: أتغضب يا أبا خالد؟ فقال: قد غضب الذي خلق الأحلام، إن الله يقول: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا.

ثم قال تعالى: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ واعلم أن ذكر لفظ الأسف في حق الله تعالى محال وذكر لفظ الانتقام، وكل واحد منهما من المتشابهات التي يجب أن يصار فيها إلى التأويل، ومعنى الغضب في حق الله إرادة العقاب، ومعنى الانتقام إرادة العقاب لجرم سابق.

ثم قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا﴾ السلف: كل شيء قدمته من عمل صالح أو قرض فهو سلف، والسلف أيضًا مَن تَقَدم من آبائك وأقاربك واحدهم سالف، ومنه قول طفيل يرثي قومه:

مَضَوْا سَلَفًا قَصْدَ السَّبِيلِ عَلَيْهِمُ وَصَرْفُ الْمَنَايَا بِالرِّجَالِ تُقَلَّبُ(١)

فعلى هذا قال الفراء والزجاج: يقول: جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخِرون، أي جعلناهم سلفًا لكفار أمة محمد عليه السلام. وأكثر القراء قرأوا بالفتح وهو جمع سالف كما ذكرناه، وقرأ حمزة والكسائي (سَلُفًا) بالضم وهو جمع سلف، قال الليث: يقال سلُف بضم اللام يسلف سلوفًا فهو سلف أي متقدم. وقوله: ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ يريد عظة لمن بقي بعدهم وآية وعبرة، قال أبو علي الفارسي: المثل واحد يراد به الجمع، ومن ثَم عطف على سلف، والدليل على وقوعه على أكثر من واحد قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ [النحل: ٧٥] فأدخل تحت المثل شيئين، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر أنواعًا كثيرة من كفرياتهم في هذه السورة، وأجاب عنها

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل، وهو للطفيل الغنوي وهو: طُفَيل بن عوف بن كعب، من بني غني، من قيس عيلان. ؟- ١٣ ق. هـ/ ؟- ٦٠٩م.
شاعر جاهلي، فحل، من الشجعان، وهو أوصف العرب للخيل، وربما سمي (طفيل الخيل) لكثرة وصفه لها. ويسمى أيضًا (المحبِّر) لتحسينه شعرة، عاصر النابغة الجعدي وزهير بن أبي سلمى، ومات بعد مقتل هرم بن سنان. كان معاوية يقول: خلوا لي طفيلاً، وقولوا ما شئتم في غيره من الشعراء.

بالوجوه الكثيرة: فأولها: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]وثالثها: قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]ورابعها: قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]وخامسها: هذه الآية التي نحن الآن في تفسيرها، ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلاً أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم، فأما أن ذلك المثل كيف كان، وفي أي شيء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا كلها محتملة: فالأول: أن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون عيسى قالوا: إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى. وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة. الثاني: روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]قال عبد الله بن الزبعرى: هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ «بَلْ لِجَمِيعِ الأُمَمِ» فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيرًا وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيرًا والملائكة يُعبدون، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم [(١)] فسكت النبي ﷺوفرح القوم وضحكوا وضجوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]ونزلت هذه الآية أيضًا والمعنى: ولما ضرب عبدالله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً وجادل رسولَ الله بعبادة النصارى إياه، إذا قومك قريش منه - أي من هذا المثل - يصدون أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحًا وجدلاً وضحكًا بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله، فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج، وقالوا: أآلهتنا خير أم هو؟ يعنون أن آلهتنا عندك ليس خيرًا من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون. الوجه الثالث في التأويل وهو أن النبي ﷺلما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلهًا لأنفسهم، قال كفار مكة: إن محمدًا يريد أن يجعل لنا إلهًا كما جعل النصارى المسيح إلهًا لأنفسهم، ثم عند هذا قالوا: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني آلهتنا خير أم محمد؟ وذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا: إن محمدًا يدعونا إلى عبادة نفسه، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام، وإذا كان لا بد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أَوْلى؛ لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أَوْلى. ثم إنه تعالى بيّن أنا لم نقل: إن الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل، فإن عيسى ليس إلا عبدًا أنعمنا عليه، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قولهم: إن محمدًا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه. فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية.

---

(١) **ضعيف**: الفاكهي في (أخبار مكة) (٢/ ١٩٢)، حديث رقم (١٣٦٢) من طريق ابن ثور عن ابن جريج... به، وأورده الزمخشري في (الكشاف) (٤/ ٢٦٢)، وقال الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٢/ ٢٥٤): غريب.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم (يصُدون) بضم الصاد وهو قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام، والباقون بكسر الصاد وهي قراءة ابن عباس، واختلفوا، فقال الكسائي: هما بمعنى نحو يعرِشون ويعرُشون، ويعكِفون ويعكُفون، ومنهم من فرّق، أما القراءة بالضم فمن الصدود، أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويُعْرضون عنه، وأما بالكسر فمعناه يضجون.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم وحمزة والكسائي (أآلهتنا) استفهامًا بهمزتين الثانية مطولة، والباقون استفهامًا بهمزة ومدة.

ثم قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الفرق بين الحق والباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ مبالغون في الخصومة، وذلك لأن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لا يتناول الملائكة وعيسى، وبيانه من وجوه: الأول: أن كلمة (ما) لا تتناول العقلاء ألبتة. والثاني: أن كلمة (ما) ليست صريحة في الاستغراق بدليل أنه يصح إدخال لفظتي الكل والبعض عليه، فيقال: إنكم وكل ما تعبدون من دون الله، أو إنكم وبعض ما تبعدون من دون الله. الثالث: أن قوله: إنكم وكل ما تعبدون من دون الله أو وبعض ما تعبدون خطاب مشافهة، فلعله ما كان فيهم أحد يعبد المسيح والملائكة. الرابع: أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] هب أنه عام إلا أن النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه، والخاص مقدم على العام.

المسألة الرابعة: القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية إلا أنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤] أن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء، وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق، وأن تُصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه، حيث جعلناه آية، بأن خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة، وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ لولّدنا منكم يا رجال ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ كما يخلفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميُّزنا بالقدرة الباهرة ولتعرفوا أن دخول التوليد والتولد في الملائكة أمر ممكن وذات الله متعالية عن ذلك ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي عيسى ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ شرط من أشراطها تُعلم به، فسمي الشرط الدال على الشيء علمًا لحصول العلم به، وقرأ ابن عباس: (لَعَلَمٌ) وهو العلامة وقرئ للعلم وقرأ أُبي: (لَذِكْرٌ)، وفي الحديث: «**أَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ عَلَى ثَنِيَّةٍ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ يُقَالُ لَهَا أَفِيقُ، وَبِيَدِهِ حَرْبَةٌ وَبِهَا يَقْتُلُ الدَّجَّالَ فَيَأْتِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَالْإِمَامُ يَؤُمُّ بِهِمْ، فَيَتَأَخَّرُ الْإِمَامُ فَيُقَدِّمُهُ عِيسَى وَيُصَلِّي خَلْفَهُ عَلَى شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَقْتُلُ الْخَنَازِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيُخَرِّبُ الْبِيَعَ**

وَالْكَنَائِسَ وَيَقْتُلُ النَّصَارَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ بِهِ»(١) ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ من المرية وهو الشك ﴿وَاتَّبِعُونِۚ﴾ واتبعوا هداي وشرعي ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه صراط مستقيم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قد بانت عداواته لكم لأجل أنه هو الذي أخرج أباكم من الجنّة ونزع عنه لباس النور.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى ذكر أنه لما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وهي معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ يعني أن قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا على أشياء، فجاء عيسى ليبين لهم الحق في تلك المسائل الخلافية، وبالجملة فالحكمة معناها أصول الدين و ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ معناه فروع الدين، فإن قيل: لمَ لم يبين لهم كل الذي يختلفون فيه؟ قلنا: لأن الناس قد يختلفون في أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها، فلا يجب على الرسول بيانها، ولما بيّن الأصول والفروع قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الكفر به والإعراض عن دينه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغه إليكم من التكاليف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ والمعنى ظاهر ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي الفرق المتحزبة بعد عيسى وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية، وقيل: اليهود والنصارى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وهو وعيد بيوم الأحزاب، فإن قيل: قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْۖ﴾ الضمير فيه إلى من يرجع؟ قلنا: إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وهم قومه.

ثم قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فقوله أن تأتيهم بدل من الساعة والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة. فإن قالوا قوله ﴿بَغْتَةً﴾ يفيد عين ما يفيده قوله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فما الفائدة فيه؟ قلنا يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب أنهم يشاهدونه.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾

(١) قال الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٣/ ٢٥٤): هذا الحديث غريب بهذا اللفظ، وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند، وهو مفرق في غضون الأحاديث.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٧٣﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾[الزخرف: ٦٦] ذكر عقيبه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة: فأولها: قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ والمعنى ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ في الدنيا ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ يعني في الآخرة ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني أن الخلة إذا كانت على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ يعني الموحدين الذين يخالل بعضهم بعضًا على الإيمان والتقوى، فإن خلتهم لا تصير عداوة، وللحكماء في تفسير هذه الآية طريق حسن، قالوا: إن المحبة أمر لا يحصل إلا عند اعتقاد حصول خير أو دفع ضرر، فمتى حصل هذا الاعتقاد حصلت المحبة لا محالة، ومتى حصل اعتقاد أنه يوجب ضررًا حصل البغض والنفرة. إذا عرفت هذا فنقول: تلك الخيرات التي كان اعتقاد حصولها يوجب حصول المحبة إما أن تكون قابلة للتغير والتبدل، أو لا تكون كذلك: فإن كان الواقع هو القسم الأول، وجب أن تُبدل تلك المحبة بالنفرة؛ لأن تلك المحبة إنما حصلت لاعتقاد حصول الخير والراحة، فإذا زال ذلك الاعتقاد، وحصل عقيبه اعتقاد أن الحاصل هو الضرر والألم، وجب أن تتبدل تلك المحبة بالبغضة؛ لأن تبدل العلة يوجب تبدل المعلول. أما إذا كانت الخيرات الموجبة للمحبة خيرات باقية أبدية، غير قابلة للتبدل والتغير، كانت تلك المحبة أيضًا محبة باقية آمنة من التغير. إذا عرفت هذا الأصل فنقول: الذين حصلت بينهم محبة ومودة في الدنيا، إن كانت تلك المحبة لأجل طلب الدنيا وطيباتها ولذاتها، فهذه المطالب لا تبقى في القيامة، بل يصير طلب الدنيا سببًا لحصول الآلام والآفات في يوم القيامة، فلا جرم تنقلب هذه المحبة الدنيوية بغضة ونفرة في القيامة، أما إن كان الموجب لحصول المحبة في الدنيا الاشتراك في محبة الله وفي خدمته وطاعته، فهذا السبب غير قابل للنسخ والتغير، فلا جرم كانت هذه المحبة باقية في القيامة، بل كأنها تصير أقوى وأصفى وأكمل وأفضل مما كانت في الدنيا، فهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

الحكم الثاني من أحكام يوم القيامة: قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ وقد ذكرنا مرارًا أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين، فقوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ كلام الله تعالى، فكأن الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح: أولها: أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة. وثانيها: أنه تعالى وصفهم بالعبودية، وهذا تشريف عظيم، بدليل أنه لما أراد أن يشرف محمدًا ﷺ ليلة المعراج، قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[الإسراء: ١]

وثالثها: قوله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ فأزال عنهم الخوف في يوم القيامة بالكلية، وهذا من أعظم النعم. ورابعها: قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ قيل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ، وخبره مضمر، والتقدير: يقال لهم: ادخلوا الجنة، ويحتمل أن يكون المعنى: (أعني الذين آمنوا)، قال مقاتل: إذا وقع الخوف يوم القيامة، نادى منادٍ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم، فيقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ فتنكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم. الحكم الثالث من وقائع القيامة: أنه تعالى إذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن، وجب أن يمر حسابهم على أسهل الوجوه وعلى أحسنها، ثم يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ والحبرة: المبالغة في الإكرام فيما وُصف بالجميل، يعني يكرمون إكرامًا على سبيل المبالغة، وهذا مما سبق تفسيره في سورة الروم.

ثم قال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ قال الفراء: الكوب المستدير الرأس الذي لا أذن له، فقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ إشارة إلى المطعوم، وقوله: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ إشارة إلى المشروب، ثم إنه تعالى ترك التفصيل وذكر بيانًا كليًّا، فقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقد ذكرنا في وراثة الجنة وجهين في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١] ولما ذكر الطعام والشراب فيما تقدم، ذكر هاهنا حال الفاكهة فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

واعلم أنه تعالى بعث محمدًا ﷺ إلى العرب أولاً، ثم إلى العالمين ثانيًا، والعرب كانوا في ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة، فلهذا السبب تفضَّل الله تعالى عليهم بهذه المعاني مرة بعد أخرى، تكميلاً لرغبتهم وتقوية لدواعيهم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعد، أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر في القرآن.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج القاضي على القطع بوعيد الفساق بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ولفظ المجرم يتناول الكافر والفاسق، فوجب كون الكل

في عذاب جهنم، وقوله: ﴿ خَـٰلِدُونَ﴾ يدل على الخلود، وقوله أيضًا: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ يدل على الخلود والدوام أيضًا. والجواب: أن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على أن المراد من لفظ المجرمين ههنا الكفار، أما ما قبل هذه الآية فلأنه قال: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٨، ٦٩]فهذا يدل على أن كل من آمن بآيات الله وكانوا مسلمين، فإنهم يدخلون تحت قوله: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ والفاسق من أهل الصلاة آمن بالله تعالى وبآياته وأسلم، فوجب أن يكون داخلاً تحت ذلك الوعد، ووجب أن يكون خارجًا عن هذا الوعيد، وأما ما بعد هذه الآية فهو قوله: ﴿ جِئۡنَـٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ والمراد بالحق ههنا إما الإسلام وإما القرآن، والرجل المسلم لا يكره الإسلام ولا القرآن، فثبت أن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على أن المراد من المجرمين الكفار، والله أعلم.

المسألة الثانية:أنه تعالى وصف عذاب جهنم في حق المجرمين بصفات ثلاثة: أحدها: الخلود، وقد ذكرنا في مواضع كثيرة أنه عبارة عن طول المكث ولا يفيد الدوام. وثانيها: قوله: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ أي لا يخفف ولا ينقص، من قولهم: فترت عنه الحمى، إذا سكنت ونقص حرها. وثالثها: قوله: ﴿ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ والمبلس: اليائس الساكت سكوت يائس من فرج، عن الضحاك: يُجعل المجرم في تابوت من نار، ثم يقفل عليه فيبقى فيه خالدًا لا يرى، قال صاحب (الكشاف): وقرئ (وهم فيها) أي وهم في النار.

المسألة الثالثة:احتج القاضي بقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَـٰهُمۡ وَلَـٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فقال: إن كان خَلَق فيهم الكفر ليدخلهم النار فما الذي نفاه بقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَـٰهُمۡ﴾ وما الذي نسبه إليهم مما نفاه عن نفسه؟ أو ليس لو أثبتناه ظلمًا لهم كان لا يزيد على ما يقوله القوم، فإن قالوا: ذلك الفعل لم يقع بقدرة الله عزّ وجل فقط، بل إنما وقع بقدرة الله مع قدرة العبد معًا، فلم يكن ذلك ظلمًا من الله. قلنا: عندكم أن القدرة على الظلم موجبة للظلم، وخالق تلك القدرة هو الله تعالى، فكأنه تعالى لما فعل مع خلق الكفر قدرة على الكفر خرج عن أن يكون ظالمًا لهم، وذلك محال لأن من يكون ظالمًا في فعل، فإذا فعل معه ما يوجب ذلك الفعل يكون بذلك أحق، فيقال للقاضي: قدرة العبد هل هي صالحة للطرفين أو هي متعينة لأحد الطرفين؟ فإن كانت صالحة لكلا الطرفين فالترجيح إن وقع لا لمرجح لزم نفي الصانع، وإن افتقر إلى مرجح عاد التقسيم الأول فيه، ولا بد وأن ينتهي إلى داعية مرجحة يخلقها الله في العبد، وإن كانت متعينة لأحد الطرفين فحينئذٍ يلزمك ما أوردته علينا.

واعلم أنه ليس الرجل من يرى وجه الاستدلال فيذكره، إنما الرجل الذي ينظر فيما قبل الكلام وفيما بعده، فإن رآه واردًا على مذهبه بعينه لم يذكره، والله أعلم.

المسألة الرابعة:قرأ ابن مسعود: (يا مال) بحذف الكاف للترخيم، فقيل لابن عباس: إن ابن

مسعود قرأ (وَنَادَوْا يَا مَالِ) فقال: ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم! وأجيب عنه بأنه إنما حسن هذا الترخيم لأنه يدل على أنهم بلغوا في الضعف والنحافة إلى حيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها.

المسألة الخامسة: اختلفوا في أن قولهم: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ على أي وجه طلبوا فقال بعضهم: على التمني، وقال آخرون: على وجه الاستغاثة، وإلا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب، وقيل: لا يبعد أن يقال: إنهم لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا تلك المسألة فذكروه على وجه الطلب. ثم إنه تعالى بيّن أن مالكًا يقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ وليس في القرآن متى أجابهم، هل أجابهم في الحال أو بمدة طويلة؟ وإن كان بعد ذلك فهل حصل ذلك الجواب بعد ذلك السؤال بمدة قليلة أو بمدة طويلة، فلا يمتنع أن تؤخر الإجابة استخفافًا بهم وزيادة في غمهم، فعن عبد الله بن عمر: بعد أربعين سنة، وعن غيره: بعد مائة سنة، وعن ابن عباس: بعد ألف سنة. والله أعلم بذلك المقدار.

ثم بيّن تعالى أن مالكًا لما أجابهم بقوله: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ ذكر بعده ما هو كالعلة لذلك الجواب فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن وشدة بغضهم لقبول الدين الحق، فإن قيل: كيف قال: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قلنا: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتًا لغلبة اليأس عليهم، ويستغيثون أوقاتًا لشدة ما بهم، روي أنه يُلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون: ادعوا مالكًا. فيدعون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة، ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم في الدنيا فقال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ والمعنى أم أبرموا، أي مشركو مكة، أمرًا من كيدهم ومكرهم برسول الله، فإنا مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم. كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢] قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم في المكر به في دار الندوة، وهو ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠] وقد ذكرنا القصة.

ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ السر: ما حَدَّث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خالٍ، والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعها ونطلع عليها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ يريد الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ﴾ عليهم تلك الأحوال، وعن يحيى بن معاذ: مَن ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السموات، فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝٨١ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٨٣ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٤

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (وُلْد) بضم الواو وإسكان اللام، والباقون بفتحهما ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قرأ نافع (فأَنَا) بفتحة طويلة على النون، والباقون بلا تطويل.

المسألة الثانية: اعلم أن الناس ظنوا أن قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ لو أجريناه على ظاهره فإنه يقتضي وقوع الشك في إثبات ولد لله تعالى، وذلك محال، فلا جرم افتقروا إلى تأويل الآية، وعندي أنه ليس الأمر كذلك وليس في ظاهر اللفظ ما يوجب العدول عن الظاهر، وتقريره أن قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قضية شرطية، والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبريتين أدخل على إحداهما حرف الشرط وعلى الأخرى حرف الجزاء، فحصل بمجموعها قضية واحدة، ومثاله هذه الآية، فإن قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قضية مركبة من قضيتين: إحداهما: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، والثانية: قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ ثم أدخل حرف الشرط وهو لفظة (إن) على القضية الأولى وحرف الجزاء وهو الفاء على القضية الثانية، فحصل من مجموعهما قضية واحدة، وهو القضية الشرطية، إذا عرفت هذا فنقول: القضية الشرطية لا تفيد إلا كون الشرط مستلزمًا للجزاء، وليس فيه إشعار بكون الشرط حقًّا أو باطلاً أو بكون الجزاء حقًّا أو باطلاً، بل نقول: القضية الشرطية الحقة قد تكون مركبة من قضيتين حقيقيتين أو من قضيتين باطلتين أو من شرط باطل وجزاء حق أو من شرط حق وجزاء باطل، فأما القسم الرابع وهو أن تكون القضية الشرطية الحقة مركبة من شرط حق وجزاء باطل، فهذا محال.

ولنبين أمثال هذه الأقسام الأربعة، فإذا قلنا: إن كان الإنسان حيوانًا فالإنسان جسم، فهذه شرطية حقة، وهي مركبة من قضيتين حقيقيتين، إحداهما قولنا (الإنسان حيوان)، والثانية قولنا (الإنسان جسم)، وإذا قلنا: إن كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة بمتساويين، فهذه شرطية حقة لكنها مركبة من قولنا (الخمسة زوج)، ومن قولنا (الخمسة منقسمة بمتساويين) وهما باطلان، وكونهما باطلين لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقًّا، وقد ذكرنا أن القضية الشرطية لا تفيد إلا مجرد الاستلزام، وإذا قلنا: إن كان الإنسان حجرًا فهو جسم، فهذا جسم، فهذا أيضًا حق لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا (الإنسان حجر)، ومن جزء حق وهو قولنا (الإنسان

جسم)، وإنما جاز هذا لأن الباطل قد يكون بحيث يلزم من فرض وقوعه وقوع حق، فإنا فرضنا كون الإنسان حجرًا وجب كونه جسمًا، فهذا شرط باطل يستلزم جزءًا حقًّا.

وأما القسم الرابع:وهو تركيب قضية شرطية حقة من شرط حق وجزاء باطل، فهذا محال؛ لأن هذا التركيب يلزم منه كون الحق مستلزمًا للباطل وذلك محال، بخلاف القسم الثالث فإنه يلزم منه كون الباطل مستلزمًا للحق، وذلك ليس بمحال. إذا عرفت هذا الأصل فلنرجع إلى الآية فنقول: قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل؛ لأن قولنا (كان للرحمن ولد) باطل، وقولنا (أنا أول العابدين لذلك الولد) باطل أيضًا إلا أنا بينا أن كون كل واحد منهما باطلاً لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقًّا، كما ضربنا من المثال في قولنا: إن كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة بمتساويين. فثبت أن هذا الكلام لا امتناع في إجرائه على ظاهره، ويكون المراد منه أنه إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد، فإن السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه، فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده، وقد بينا أن هذا التركيب لا يدل على الاعتراف بإثبات ولد أم لا.

ومما يقرب من هذا الباب قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]فهذا الكلام قضية شرطية، والشرط هو قولنا: ﴿فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ والجزاء هو قولنا: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ فالشرط في نفسه باطل والجزاء أيضًا باطل لأن الحق أنه ليس فيهما آلهة، وكلمة (لو) تفيد الشيء بانتفاء غيره لأنهما ما فسدتا، ثم مع كون الشرط باطلاً وكون الجزاء باطلاً، كان استلزام ذلك الشرط لهذا الجزاء حقًّا، فكذا هاهنا، فإن قالوا: الفرق أن ههنا ذكر الله تعالى هذه الشرطية بصيغة (لو) فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ وكلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، وأما في الآية التي نحن في تفسيرها إنما ذكر الله تعالى كلمة (إنْ) وهذه الكلمة لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، بل هذه الكلمة تفيد الشك في أنه هل حصل الشرط أم لا، وحصول هذا الشك للرسول غير ممكن، قلنا: الفرق الذي ذكرتم صحيح إلا أن مقصودنا بيان أنه لا يلزم من كون الشرطية صادقة كون جزءيها صادقتين أو كاذبتين، على ما قررناه، أما قوله: إن لفظة (إنْ) تفيد حصول الشرط هل حصل أم لا، قلنا: هذا ممنوع فإن حرف (إنْ) حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيد إلا كون الشرط مستلزمًا للجزاء، وأما بيان أن ذلك الشرط معلوم الوقوع أو مشكوك الوقوع، فاللفظ لا دلالة فيه عليه ألبتة. فظهر من المباحث التي لخصناها أن الكلام هاهنا ممكن الإجراء على ظاهره من جميع الوجوه، وأنه لا حاجة فيه ألبتة إلى التأويل، والمعنى أنه تعالى قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، وأنا أول الخادمين له، والمقصود من هذا الكلام بيان أني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة، فإن بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقرًّا به معترفًا بوجوب خدمته، إلا أنه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته ألبتة، فكيف أقول به؟ بل الدليل القاطع قائم على عدمه، فكيف أقول به وكيف أعترف بوجوده؟

وهذا الكلام ظاهر كامل لا حاجة به ألبتة إلى التأويل والعدول عن الظاهر، فهذا ما عندي في هذا الموضع، ونُقل عن السدي من المفسرين أنه كان يقول: حمل هذه الآية على ظاهرها ممكن ولا حاجة إلى التأويل، والتقرير الذي ذكرناه يدل على أن الذي قاله هو الحق. أما القائلون بأنه لا بد من التأويل فقد ذكروا وجوهًا: الأول: قال الواحدي: كثرت الوجوه في تفسير هذه الآية، والأقوى أن يقال: المعنى ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي الموحدين لله المكذبين لقولكم بإضافة الولد إليه، ولقائل أن يقول: إما أن يكون تقدير الكلام: إن يثبت للرحمن ولد في نفس الأمر فأنا أول المنكرين له، أو يكون التقدير: إن يثبت لكم ادعاء أن للرحمن ولدًا فأنا أول المنكرين له. والأول باطل لأن ثبوت الشيء في نفسه لا يقتضي كون الرسول منكرًا له؛ لأن قوله: (إن كان الشيء ثابتًا في نفسه فأنا أول المنكرين) يقتضي إصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول، والثاني أيضًا باطل لأنهم سواء أثبتوا لله ولدًا أو لم يثبتوه له، فالرسول منكر لذلك الولد، فلم يكن لزعمهم تأثير في كون الرسول منكرًا لذلك الولد، فلم يصلح جعل زعمهم إثبات الولد مؤثرًا في كون الرسول منكرًا للولد.

الوجه الثاني: قالوا: معناه: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين الآنفين من أن يكون له ولد. من عبد يعبد، إذا اشتدت أنفته فهو عبد وعابد، وقرأ بعضهم (عبدين).

واعلم أن السؤال المذكور قائم ههنا لأنه إن كان المراد: إن كان للرحمن ولد في نفس الأمر فأنا أول الآنفين من الإقرار به. فهذا يقتضي الإصرار على الجهل والكذب، وإن كان المراد: إن كان للرحمن ولد في زعمكم واعتقادكم فأنا أول الآنفين. فهذا التعليق فاسد لأن هذه الأنفة حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزًا.

والوجه الثالث: قال بعضهم: إن كلمة (إنْ) هاهنا هي النافية، والتقدير: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له.

واعلم أن التزام هذه الوجوه البعيدة إنما يكون للضرورة، وقد بينا أنه لا ضرورة ألبتة فلم يجز المصير إليها، والله أعلم.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ والمعنى أن إله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته، وكل ما كان كذلك فهو فرد مطلق لا يقبل التجزؤ بوجه من الوجوه، والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء من أجزائه، فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله، وهذا إنما يُعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزئ والتبعيض، وإذا كان ذلك محالاً في حق إله العالم، امتنع إثبات الولد له، ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ والمقصود منه التهديد، يعني قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا، وهم لم يلتفتوا إليها لأجل كونهم مستغرقين في طلب المال والجاه والرياسة، فاتركهم في ذلك

الباطل واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الذي وُعدوا فيه بما وُعدوا، والمقصود منه التهديد.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ **وفيه أبحاث:**

البحث الأول: قال أبو علي: نظرت فيما يرتفع به (إله) فوجدت ارتفاعه يصح بأن يكون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير وهو الذي في السماء هو إله.

والبحث الثاني: هذه الآية من أدل الدلائل على أنه تعالى غير مستقر في السماء؛ لأنه تعالى بيّن بهذه الآية أن نسبته إلى السماء بالإلهية كنسبته إلى الأرض، فلما كان إلهًا للأرض مع أنه غير مستقر فيها فكذلك يجب أن يكون إلهًا للسماء مع أنه لا يكون مستقرًا فيها، فإن قيل: وأي تعلق لهذا الكلام بنفي الولد عن الله تعالى؟ قلنا: تعلقه به أنه تعالى خلق عيسى بمحض (كن فيكون) من غير واسطة النطفة والأب، فكأنه قيل: إن هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولدًا لله سبحانه؛ لأن هذا المعنى حاصل في تخليق السموات والأرض وما بينهما من انتفاء حصول الولدية هناك.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وقد ذكرنا في سورة الأنعام أن كونه تعالى حكيمًا عليمًا ينافي حصول الولد له.

ثم قال: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ واعلم أن قوله (تبارك) إما أن يكون مشتقًا من الثبات والبقاء، وإما أن يكون مشتقًا من كثرة الخير، وعلى التقديرين فكل واحد من هذين الوجهين ينافي كون عيسى عليه السلام ولدًا لله تعالى؛ لأنه إن كان المراد منه الثبات والبقاء، فعيسى عليه السلام لم يكن واجب البقاء والدوام؛ لأنه حدث بعد أن لم يكن، ثم عند النصارى أنه قُتل ومات، ومن كان كذلك لم يكن بينه وبين الباقي الدائم الأزلي مجانسة ومشابهة، فامتنع كونه ولدًا له، وإن كان المراد بالبركة كثرة الخيرات مثل كونه خالقًا للسموات والأرض وما بينهما، فعيسى لم يكن كذلك بل كان محتاجًا إلى الطعام، وعند النصارى أنه كان خائفًا من اليهود وبالآخرة أخذوه وقتلوه، فالذي هذا صفته كيف يكون ولدًا لمن كان خالقًا للسموات والأرض وما بينهما؟!

وأما قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فالمقصود منه أنه لما شرح كمال قدرته، فكذلك شرح كمال علمه، والمقصود التنبيه على أن من كان كاملاً في الذات والعلم والقدرة على الحد الذي شرحناه، امتنع أن يكون ولده في العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم - بالحد الذي وصفه النصارى.

ولما أطنب الله تعالى في نفي الولد، أردفه ببيان نفي الشركاء فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ذكر المفسرون في هذه الآية قولين: أحدهما: أن الذين يدعون من دونه الملائكة وعيسى وعزير، والمعنى أن الملائكة وعيسى وعزيرًا لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق، روي أن النصر بن الحارث ونفرًا معه قالوا: إن كان ما يقول محمد حقًا فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد!! فأنزل الله هذه الآية،

يقول: لا يقدر هؤلاء أن يشفعوا لأحد. ثم استثنى فقال: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ والمعنى على هذا القول: هؤلاء لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق، فأضمر اللام أو يقال: التقدير: إلا شفاعة من شهد بالحق فحذف المضاف، وهذ على لغة من يعدي الشفاعة بغير لام، فيقول: شفعت فلانًا. بمعنى شفعت له، كما تقول: كلمته وكلمت له ونصحته ونصحت له. والقول الثاني: أن الذين يدعون من دونه: كل معبود من دون الله، وقوله: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ الملائكة وعيسى وعزير، والمعنى أن الأشياء التي عبدها الكفار لا يملكون الشفاعة إلا من شهد بالحق، وهم الملائكة وعيسى وعزير فإن لهم شفاعة عند الله ومنزلة، ومعنى من شهد بالحق: من شهد أنه لا إله إلا الله.

ثم قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا القيد يدل على أن الشهادة باللسان فقط لا تفيد ألبتة، واحتج القائلون بأن إيمان المقلد لا ينفع ألبتة، فقالوا: بيّن الله تعالى أن الشهادة لا تنفع إلا إذا حصل معها العلم، والعلم عبارة عن اليقين الذي لو شُكك صاحبه فيه لم يتشكك، وهذا لم يحصل إلا عند الدليل، فثبت أن إيمان المقلد لا ينفع ألبتة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ظن قوم أن هذه الآية وأمثالها في القرآن تدل على أن القوم مضطرون إلى الاعتراف بوجود الإله للعالم، قال الجبائي: وهذا لا يصح لأن قوم فرعون قالوا لا إله لهم غيره، وقوم إبراهيم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ [إبراهيم: ٩]فيقال لهم: لا نسلِّم أن قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله، والدليل على قولنا قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤]وقال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]فالقراءة بفتح التاء في علمتَ تدل على أن فرعون كان عارفًا بالله، وأما قوم إبراهيم حيث قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ [إبراهيم: ٩]فهو مصروف إلى إثبات القيامة، وإثبات التكاليف، وإثبات النبوة.

المسألة الثالثة: اعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وفي آخرها، والمقصود التنبيه على أنهم لما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى، فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام خبيثة لا تضر ولا تنفع، بل هي جمادات محضة؟!

وأما قوله: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ معناه لمَ تكذبون على الله فتقولون: إن الله أمرنا بعبادة الأصنام؟! وقد احتج بعض أصحابنا به على أن إفكهم ليس منهم بل من غيرهم بقوله: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وأجاب القاضي بأن من يضل في فهم الكلام أو في الطريق يقال له: أين يُذهب بك، والمراد أين تَذهب؟ وأجاب الأصحاب بأن قول القائل (أين يُذهب بك) ظاهره يدل على أن ذاهبًا آخر ذهب به، فصَرْف الكلام عن حقيقته خلاف الأصل الظاهر، وأيضًا فإن الذي ذهب به هو الذي خلق تلك الداعية في قلبه، وقد ثبت بالبرهان الباهر أن خالق تلك الداعية هو الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ **وفيه مباحث:**

الأول: قرأ الأكثرون: (وقيلَه) بفتح اللام، وقرأ عاصم وحمزة بكسر اللام، قال الواحدي: وقرأ أناس من غير السبعة بالرفع: أما الذين قرءوا بالنصب فذكر الأخفش والفراء فيه قولين: أحدهما: أنه نصب على المصدر بتقدير: وقال قيله وشكا شكواه إلى ربه، يعني النبي ﷺ فانتصب قيله بإضمار قال. والثاني: أنه عطف على ما تقدم من قوله: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ [الزخرف: ٨٠]. (وقيلَه) وذكر الزجاج فيه وجهًا ثالثًا: فقال: إنه نصب على موضع الساعة لأن قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ معناه أنه علم الساعة والتقدير علم الساعة، وقيله، ونظيره قولك: عجبت من ضرب زيد وعمرًا. وأما القراءة بالجر فقال الأخفش والفراء والزجاج: إنه معطوف على الساعة، أي عنده علم الساعة، وعلم قيله يا رب. قال المبرد: العطف على المنصوب حسن وإن تباعد المعطوف من المعطوف عليه؛ لأنه يجوز أن يُفصل بين المنصوب وعامله، والمجرور يجوز ذلك فيه على قبح. وأما القراءة بالرفع ففيها وجهان: الأول: أن يكون (وقيلُه) مبتدأ وخبره ما بعده. والثاني: أن يكون معطوفًا على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه: وعنده علم الساعة وعلم قيله.

قال صاحب (الكشاف): هذه الوجوه ليست قوية في المعنى لا سيما وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضًا. ثم ذكر وجهًا آخر وزعم أنه أقوى مما سبق، وهو أن يكون النصب والجر على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم أيمن الله وأمانة الله ويمين الله، ويكون قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ جواب القسم كأنه قيل: وأُقسم بقيله يا رب أو وقيله يا رب قسمي. وأقول: هذا الذي ذكره صاحب (الكشاف) متكلف أيضًا، وهاهنا إضمار امتلأ القرآن منه وهو إضمار اذكر، والتقدير (واذكر قيله يا رب)، وأما القراءة بالجر، فالتقدير (واذكر وقت قيله يا رب)، وإذا وجب التزام الإضمار فلأن يضمر شيئًا جرت العادة في القرآن بالتزام إضماره أَوْلى من غيره، وعن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ المراد وقيل يا رب، والهاء زيادة.

البحث الثاني: القيل: مصدر كالقول، ومنه قول النبي ﷺ: «**نَهَى عَنِ قِيلَ وَقَالَ**»(١) قال الليث: تقول العرب: كثر فيه القيل والقال. وروى شمر عن أبي زيد: يقال: ما أحسن قيلك وقولك وقالك وقالتك ومقالتك خمسة أوجه.

البحث الثالث: الضمير في قيله لرسول الله ﷺ.

البحث الرابع: أن النبي ﷺ لما ضجر منهم وعرف إصرارهم، أخبر عنهم أنهم قوم لا يؤمنون،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب)، باب: (عقوق الوالدين من الكبائر) (١٠/ ٤١٩)، حديث رقم (٥٩٧٥) من طريق المسيب... به، ومسلم في كتاب (الأقضية)، باب: (النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة) (٣/ ١٢/ ١٣٤١) من طريق الشعبي... به، جميعًا عن وراد... به.

وهو قريب مما حكى الله عن نوح أنه قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

ثم إنه تعالى قال له: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأمَره بأن يصفح عنهم، وفي ضمنه مَنْعه من أن يدعو عليهم بالعذاب، والصفح هو الإعراض.

ثم قال: ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ قال سيبويه: إنما معناه المتاركة، ونظيره قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧]وكقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]

قوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ المقصود منه التهديد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر (تعلمون) بالتاء على الخطاب، والباقون بالياء، كناية عن قوم لا يؤمنون.

المسألة الثانية: احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر، وأقول: إن صح هذا الاستدلال فهذا يوجب الاقتصار على مجرد قوله: (سلام) وأن يقال للمؤمن: (سلام عليكم). والمقصود التنبيه على التحية التي تُذكر للمسلم والكافر.

المسألة الثالثة: قال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ منسوخ بآية السيف. وعندي أن التزام النسخ في أمثال هذه المواضع مشكل؛ لأن الأمر لا يفيد الفعل إلا مرة واحدة، فإذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ، فأي حاجة فيه إلى التزام النسخ؟! وأيضًا فمثله يمين الفور مشهورة عند الفقهاء، وهي دالة على أن اللفظ قد يتقيد بحسب قرينة العرف، وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة فيه إلى التزام النسخ، والله أعلم بالصواب.

قال مولانا المؤلف عليه سحائب الرحمة والرضوان تمّ تفسير هذه السورة يوم الأحد، الحادي عشر من ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، والحمد لله أولاً وآخرًا وباطنًا وظاهرًا، والصلاة على ملائكته المقربين والأنبياء والمرسلين خصوصًا على محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين، أبد الآبدين ودهر الداهرين.

سورة الزخرف

مكيةٌ بإجماع. وقال مقاتل: إلا قولَه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وهي تسعٌ وثمانون آيةً(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

قولُه تعالى: ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه(٢). وقيل: «حم» قسمٌ، «والْكِتَابِ الْمُبِينِ» قسمٌ ثانٍ، ولله أن يُقسمَ بما شاء، والجوابُ: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ»(٣). وقال ابنُ الأنباري(٤): مَن جعل جوابَ «وَالْكِتَابِ» «حم» كما تقولُ: نزلَ والله، وَجَب والله؛ وقفَ على «الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، ومَن جعلَ جوابَ القسم «إِنَّا جَعَلْنَاهُ»؛ لم يقف على «الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

ومعنى: «جَعَلْنَاهُ» أي: سَمَّيناه ووَصفناه(٥)، ولذلك تعدَّى إلى مفعولين(٦)، كقولِهِ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]. وقال السُّدِّيّ: أي: أنزلناه قرآناً. مجاهد: قلناه. الزجَّاجُ وسفيان الثَّوْري: بَيَّنَّاه. ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلناه بلسانِ العرب؛

---

(١) الوسيط ٤/ ٦٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥، والكشاف ٣/ ٤٧٧، وزاد المسير ٧/ ٣٠١، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٣.

(٢) عند تفسير الآية الأولى من سورة غافر.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٧، والكشاف ٣/ ٤٧٧، وتفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٢، والنكت والعيون ٥/ ٢١٤.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٣.

(٥) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٢، والبغوي ٤/ ١٣٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٧.

لأنَّ كل نبيٍّ أُنزِل كتابُه بلسان قومه؛ قاله سفيانُ الثوري وغيره. وقال مقاتل: لأنَّ لسان أهلِ السماء عربيٌّ[١]. وقيل: المرادُ بالكتاب جميعُ الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن الكتابَ اسمُ جنس، فكأنَّه أقسم بجميع ما أُنزِل من الكتبِ أنَّه جعلَ القرآنَ عربيًّا. والكنايةُ في قوله: «جَعَلْنَاهُ» ترجعُ إلى القرآن[٢] وإن لم يجرِ له ذكرٌ في هذه السورة، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: تفهمون أحكامَه ومعانيَه. فعلى هذا القولِ يكون خاصًّا للعرب دونَ العجم؛ قاله ابنُ عيسى. وقال ابنُ زيد: المعنى: لعلكم تتفكرون، فعلى هذا يكون خطاباً عامًّا للعرب والعجم[٣]. ونُعِت الكتابُ بالمبين؛ لأن الله بيَّن فيه أحكامَه وفرائضَه[٤]، على ما تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن في اللوحِ المحفوظ ﴿لَدَيْنَا﴾ عندنا[٥] ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: رفيعٌ محكم لا يوجد فيه اختلافٌ ولا تناقض؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨] وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. وقال ابنُ جُريج: المرادُ بقوله تعالى: «وَإِنَّهُ»، أي: أعمالُ الخلقِ من إيمانٍ وكفر، وطاعةٍ ومعصية. «لَعَلِيٌّ»، أي: رفيعٌ عن أن يُنَال فَيبدَّلَ، «حَكِيمٌ»، أي: محفوظ من نقصٍ أو تغيير[٦]. وقال ابن عباس: أَوَّلُ ما خلقَ الله القلمُ، فأَمرَه أن يكتبَ ما يريد أن يَخلُق، فالكتابُ عنده، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٥ .

(٢) الطبري ٢٠/ ٥٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢١٥ .

(٤) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٤٧٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٣٣ ، والسمرقندي ٣/ ٢٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢١٥-٢١٦ .

ﭐلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[١]. وكسرَ الهمزةَ من «أمِّ الكتاب» حمزةُ والكسائيُّ، وضمَّ الباقون، وقد تقدم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾

قولُه تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ يعني: القرآن؛ عن الضَّحاكِ وغيره. وقيل: المرادُ بالذكرِ العذاب، أي: أفنضربُ عنكم العذابَ ولا نعاقبكم على إسرافِكم وكفركم؟ قاله مجاهدٌ وأبو صالح والسُّدّيّ[٣]، ورواه العَوْفي عن ابن عباس. وقال ابنُ عباس: المعنى: أفحسِبتم أن نصفحَ عنكم العذابَ ولمّا تفعلوا ما أُمِرتم به[٤]؟ وعنه أيضاً أنَّ المعنى: أتكذبون بالقرآن ولا تُعاقبون؟ وقال السّدّيّ أيضاً: المعنى: أَفنترُكُكم سُدًى فلا نأمُركم ولا نَنهاكم؟ وقال قتادة: المعنى: أَفنُهلكُكم ولا نأمُركم ولا ننهاكم؟ وعنه أيضاً: أَفنُمسك عن إنزالِ القرآن من قبلِ أنكم لا تُؤمنون به فلا نُنزله عليكم[٥]؟ وقاله ابن زيد[٦]. قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رُفِع حين ردَّته[٧] أوائلُ هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله كرَّره[٨] عليهم برحمته. وقال الكسائي: أَفنطوي عنكم الذكر طَيًّا فلا تُوعَظُون ولا تؤمرون[٩]؟ وقيل: الذِّكرُ: التذكرُ، فكأنه

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٥٤٦ ، وذكره البغوي ٤/ ١٣٣ .

(٢) التيسير ص٩٤ ، والسبعة ص٢٨٨ ، وسلف ٦/ ١١٩ . وكسرُ الهمزة لحمزة والكسائي في قوله: «في أُمّ» هو عند الوصل، أما عند الابتداء بـ «أُمّ» فبضمّ الهمزة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/٥٨ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦ ، وتفسير مجاهد ٢/ ٥٧٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/٥٤٩ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/٥٤٩-٥٥٠ بنحوه، والكلام في زاد المسير ٧/ ٣٠٣ .

(٧) في النسخ: ردَّدته، والمثبت من الطبري ٢٠/ ٥٤٩ ، والبغوي ٤/ ١٣٤ .

(٨) في (م): ردَّده وكرَّره.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤ .

قال: أنترك تذكيرَكم لأنْ كُنتم قوماً مسرفين[١]، في قِراءةِ مَن فَتَح. ومَن كسرَ[٢] جعلَها للشرط وما قبلَها جواباً لها؛ لأنَّها لم تعملْ في اللفظ[٣]. ونظيرُه: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] وقيل: الجوابُ محذوفٌ دلَّ عليه ما تقدَّم، كما تقول: أنت ظالمٌ إن فعلت[٤]. ومعنى الكسرِ عندَ الزجاج الحالُ[٥]؛ لأنَّ في الكلامِ معنى التقريرِ والتوبيخ. ومعنى ﴿صَفْحًا﴾ إعراضاً؛ يقال: صَفحتُ عن فلانٍ: إذا أَعرضتَ عن ذنبِه، وقد ضربتُ عنه صفحاً: إذا أَعرضتَ عنه وتَركته[٦]. والأصلُ فيه صفحةُ العُنق؛ يقال: أعرضتُ عنه، أي: وَلَّيتُه صفحةَ عنقي. قال الشاعر:

صَفوحاً فما تلقاكَ إلا بخيلَةً فمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّتِ[٧]

وانتصب «صَفْحاً» على المصدر؛ لأنَّ معنى: «أَفَنَضْرِبُ»: أفنصفح[٨]. وقيل: التقديرُ: أَفنضربُ عنكم الذكرَ صافحين، كما يقال: جاءَ فلان مشياً[٩]. ومعنى: ﴿مُّسْرِفِينَ﴾ مشركين[١٠]. واختار أبو عبيدة الفتحَ في «أن» ـ وهي قراءةُ ابنِ كثير وأبي عمرو، وعاصم وابن عامر[١١] ـ قال: لأنَّ الله تعالى عاتَبهم على ما كان منهم، وعَلِمَه قبل ذلك من فعلِهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وينظر أمالي ابن الشجري ٣/ ١٦٢.

(٢) وهم: نافع وحمزة والكسائي. السبعة ص٥٨٤، والتيسير ص١٩٥.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٤٩.

(٤) الوسيط ٤/ ٦٤.

(٥) معاني القرآن للزجاج، ولفظه فيه: ومن كسرَها فعلى معنى الاستقبال. ٤/ ٤٠٥، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٠٣.

(٦) الصحاح (صفح).

(٧) البيت لكثيّر عزة في ديوانه ص٧٧، وفيه: صفوحٌ بالرفع. وهو برواية المصنف في زاد المسير ٧/ ٣٠٢.

(٨) البيان ٢/ ٣٥٢.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٨.

(١٠) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦، وزاد المسير ٧/ ٣٠٣.

(١١) السبعة ص٥٨٤. قال الطبري ٢٠/ ٥٥١: الكسر والفتح في الألف في هذا الموضع قراءتان مشهورتان في قرأة الأمصار، صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ «كَمْ» هنا خبريةٌ، والمرادُ بها التكثير، والمعنى: ما أكثرَ ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥] أي: ما أكثر ما تركوا. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: لم يكن يأتيهم نبيٌّ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كاستهزاءِ قومِك بك، يُعزي نبيَّه محمداً ﷺ ويسلِّيه، ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: قوماً أشدَّ منهم قوةً. والكنايةُ في «مِنْهُمْ» ترجعُ إلى المشركين المخاطَبين بقوله: «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً»[1]، فكنَى عنهم بعد أن خاطبهم. و«أشدّ» نُصِب على الحال. وقيل: هو مفعولٌ، أي: فقد أَهلكنا أقوى من هؤلاءِ المشركين في أبدانِهم وأتباعهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عقوبتُهم؛ عن قتادة[2]. وقيل: صفة[3] الأولين؛ فَخبَّرهم بأنهم أُهلِكوا على كفرهم؛ حكاه النَّقاشُ والمهدوِيُّ[4]. والْمَثَلُ: الوصفُ والخبر.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني: المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فأقرُّوا له بالخلقِ والإيجاد، ثم عَبدوا معه غيرَه جهلاً منهم[5]. وقد مضى في غيرِ موضع[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وتفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٣، والكشاف ٣/ ٤٧٨.

(٢) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٩٤، والطبري ٢٠/ ٥٥٣.

(٣) في (م): صفحة، والكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٩، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٤.

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٦٤ عن النقاش.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٤.

(٦) ٨/ ٣١٣ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وَصَف نفسَه سبحانه بكمال القدرة، وهذا ابتداءُ إخبارٍ منه عن نفسِه، ولو كان هذا إخباراً عن قولِ الكفارِ لقالَ: الذي جعلَ لنا الأرض ﴿مِهَٰدًا﴾: فراشاً وبساطاً. وقد تقدَّم[١]. وقرأ الكوفيون: «مَهْداً»[٢]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: معايش. وقيل: طرقاً[٣]، لتَسلُكوا منها إلى حيثُ أردتم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فتَستدلون بمقدوراتِه على قدرتِه. وقيل: «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» في أسفارِكم؛ قاله ابنُ عيسى. وقيل: لعلَّكم تعرفون نعمةَ الله عليكم؛ قاله سعيد بنُ جبير. وقيل: تَهتدون إلى معايشكم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ قال ابنُ عباس: أي: لا كما أُنزل على قومِ نوحٍ بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدرٍ لا طوفانٌ مغرِقٌ، ولا قاصرٌ عن الحاجة[٥]، حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم، ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أي: أحيينا[٦] ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: مُقفِرةً من النبات، ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: من قبورِكم؛ لأنَّ مَن قدر على هذا قدر على ذلك. وقد مضى في «الأعراف» مجوَّداً[٧].

---

(١) ١٤/ ٧٨.

(٢) السبعة ص٤١٨، والتيسير ص١٥١.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٥٤، والنكت والعيون ٥/ ٢١٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢١٧.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ٦٥.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤، وزاد المسير ٧/ ٣٠٤.

(٧) ٩/ ٢٥٥.

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب والأعمشُ، وحمزةُ والكسائي، وابنُ ذَكْوان عن ابن عامر: «تَخْرُجُونَ» بفتح التاءِ وضم الراء. الباقون على الفعلِ المجهول[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ أي: واللهُ الذي خلقَ الأزواج. قال سعيدُ بنُ جبير: أي: الأصنافَ كلَّها. وقال الحسن: الشتاء والصيف، واللَّيل والنهار، والسماوات والأرض، والشمس والقمر، والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوانِ من ذكرٍ وأنثى؛ قاله ابن عيسى. وقيل: أرادَ أزواجَ النبات، كما قال تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧]، و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧]. وقيل: ما يتقلَّبُ فيه الإنسانُ من خيرٍ وشرّ، وإيمانٍ وكفر، ونفعٍ وضر، وفقرٍ وغنى، وصحةٍ وسقم[(٢)].

قلت: وهذا القولُ يعمُّ الأقوال كلَّها ويجمعها بعمومه.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾: السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾: الإبل ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البر والبحر، ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ ذكَّر الكنايةَ؛ لأنه ردَّه إلى ما في قوله: «ما تَرْكَبُونَ»؛ قاله أبو عبيد[(٣)]. وقال الفرَّاء[(٤)]: أضافَ الظهورَ إلى واحدٍ؛ لأنَّ المرادَ به الجنسُ، فصار الواحدُ في معنى الجمعِ بمنزلةِ الجيش[(٥)] والجند، فلذلك ذَكَّر وجمع الظهور،

---

(١) السبعة ص٥٨٤، والتيسير ص١٠٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧، وزاد المسير ٧/ ٣٠٤، ووقع في (م) و(د): يخرجون بفتح الياء، وهو خطأ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٧. دون: قول: أراد أزواج النبات، وهو في تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٣.

(٣) في زاد المسير ٧/ ٣٠٤: أبو عبيدة.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٨.

(٥) في (د) و(ظ): الجنس، والكلام أيضاً بنحوه في تفسير الطبري ٢٠/ ٥٥٦-٥٥٧.

أي: على ظهورِ هذا الجنس.

الثانية: قال سعيدُ بن جبير: الأنعامُ هنا الإبلُ والبقر. وقال أبو معاذ: الإبلُ وحدَها، وهو الصحيحُ؛ لقولهِ عليه الصلاة والسلام: «بينما رجلٌ راكبٌ بقرةً إذ قالت له: لَمْ أُخلَق لهذا، إنما خُلِقتُ للحرث». فقال النبيُّ ﷺ: «آمنتُ بذلك أنا وأبو بكر وعمرُ». وما هما في القوم. وقد مضى هذا في أوّل سورةِ النحل مستوفى. والحمدُ لله[1].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يعني به الإبل خاصَّةً بدليلِ ما ذكرنا، ولأنَّ الفُلكَ إنما تُركب بطونُها، ولكنه ذكَرهما جميعاً في أوّل الآية وعطف آخرها على أحدِهما. ويحتمل أن يجعلَ ظاهرها باطنها[2]؛ لأن الماءَ غَمَره وسَتره، وباطنها ظاهراً[3]؛ لأنَّه انكشفَ للظاهرين وظهرَ للمبصرين.

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: ركبتم عليه، وذِكرُ النِعمةِ هو الحمدُ لله على تسخيرِ ذلك لنا في البرِّ والبحر. ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾ أي: ذلَّل لنا هذا المركبَ[4]. في قراءةِ عليّ بن أبي طالب: «سُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَ لَنَا هَذَا»[5]. ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين؛ في قولِ ابن عباس والكلبي[6]. وقال الأخفشُ وأبو عبيدة: «مُقْرِنِينَ» ضابطين[7]. وقيل: مماثلين في

---

(١) ١٢/ ٢٧٧، والحديث أخرجه أحمد (٨٩٦٣)، والبخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨)، عن أبي هريرة ﷺ.
قوله: وما هما بالقوم، أي: ليسا حاضرَيْن، والعبارة عند البخاري ومسلم: وما هما ثَمَّ.

(٢) في النسخ الخطية: باطنهما، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤. والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن: ظاهر.

(٤) الوسيط ٤/ ٦٥، والنكت والعيون ٥/ ٢١٨.

(٥) لم نقف عليها عند غير المصنف.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢١٨، وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٥٩ قول ابن عباس.

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠٢، وقول الأخفش في النكت والعيون ٥/ ٢١٨.

الأَيْد والقوَّة؛ من قولهم: هو قِرنُ فلانٍ، إذا كان مثلَه في القوَّة. ويقال: فلان مُقْرِن لفلان، أي: ضابط له. وأَقرنتُ كذا، أي: أَطقتُه. وأَقرنَ له، أي: أطاقه وقوِيَ عليه، كأنه صارَ له قِرْناً. قال الله تعالى: «وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» أي: مطيقين. وأنشدَ قُطْرب قولَ عمرو بنِ مَعْد يكَرِب:

لقد علمَ القبائلُ ما عُقيلٌ لنا في النائباتِ بمُقرنينا[1]

وقال آخرُ:

رَكبتُم صَعْبَتي أشَراً وَحَيْفاً ولستم للصِّعاب بمقرنينا[2]

والمُقْرِنُ أيضاً: الذي غلبته ضَيعتُه، يكونُ له إبلٌ أو غنمٌ ولا معينَ له عليها، أو يكون يسقي إبلَه ولا ذائدَ له يَذودُها[3]. قال ابنُ السِّكِّيت: وفي أصلِه قولان: أحدهما: أنه مأخوذٌ من الإقرانِ، يقال: أقرنَ يُقرنُ إقراناً إذا أطاق. وأَقرنتَ كذا: إذا أَطقتَه وحكمتَه، كأنه جعله في قَرَن ـ وهو الحبلُ ـ فأَوثقه به وشدَّه. والثاني: أنَّه مأخوذٌ من المقارنةِ وهو أن يقرنَ بعضَها ببعض في السير. يقال: قَرَنتُ كذا بكذا: إذا ربطتَه به وجعلتَه قرينَه[4].

الخامسة: علَّمنا اللهُ سبحانه ما نقولُ إذا رَكبنا الدَّوابَّ، وعرَّفَنا في آيةٍ أخرى على لسانِ نوح عليه السلام ما نقولُ إذا رَكبنا السفن، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١][5] فكم من راكبِ دابَّةٍ عَثَرت به أو شَمَسَت، أو تَقَحَّمت أو طَاحَ من ظهرِها فهلك[6]، وكم مِن راكبين في سفينةٍ

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

(٢) البيت للكميت بن زيد الأسدي وهو في ديوانه ص٤٦٢ ، ووقع في (ظ): وحيناً، بدل: وحيفاً، وهي رواية أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٢ ، وقال شارح ديوان الكميت: أي: ركبتم أمري، وأشراً: بطراً.

(٣) الصحاح (قرن).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤ .

(٦) في (د) و(ظ): فهلكت.

انكسرتْ بهم فغرِقوا، فلمَّا كان الركوبُ مباشرةَ أمرٍ مخطر واتصالاً بسبب[١] من أسبابِ التلفِ؛ أُمِر ألَّا ينسى عندَ اتصالِه به يومَه، وأنه هالكٌ لا محالةَ فمنقلبٌ إلى الله عزَّ وجل غير منفلتٍ من قضائِه، ولا يَدع ذكرَ ذلك بقلبِه ولسانِه حتى يكون مستعدًّا للقاءِ الله بإصلاحِه من نفسِه، والحذر من أن يكونَ ركوبُه ذلك من أسبابِ موتِه في علمِ الله وهو غافلٌ عنه.

حكى سليمانُ بنُ يسار أنَّ قوماً كانوا في سفرٍ، فكانوا إذا ركبوا قالوا: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» وكان فيهم رجلٌ على ناقةٍ له رَازِمٍ ـ وهي التي لا تتحرَّكُ هُزالاً[٢] ـ فقال: أمَّا أنا فإني لِهذه لَمُقرِنٌ. قال: فقَمَصت به، فدَقَّت عنقَه. ورُوي أنَّ أعرابيًّا ركب قَعوداً له، وقال: إني لَمقرِنٌ له، فركضت به القعودُ حتى صَرَعته، فاندقَّت عنقُه. ذكر الأوَّلَ الماورديُّ، والثانيَ ابنُ العربي[٣]. قال[٤]: وما ينبغي لعبدٍ أن يدعَ قولَ هذا، وليس بواجبٍ ذكره باللسان؛ فيقول متى ركبَ وخاصَّةً في السفرِ إذا تذكَّر: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ومَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ»، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفةُ في الأهل والمال[٥]، اللهمَّ إني أعوذُ بك من وَعْثاء السفر، وكآبةِ المنقلَب، والحَوْر بعدَ الكَوْر، وسوءِ المنظر في الأهلِ والمال. يعني بـ «الحَور بعد الكور» تَشتُّتَ أمرِ الرجلِ بعد اجتماعِه.

وقال عمرُو بنُ دِينار: ركبتُ مع أبي جعفر إلى أرضٍ له نحوَ حائطٍ يقالُ لها:

---

(١) في النسخ: أمر محظور واتصالاً بأسباب، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٨٠ والكلام منه.

(٢) وقع بعدها في (ف) و(م) ما نصُّه: الرازم من الإبل: الثابت على الأرض لا يقوم من الهُزال، وقد رَزَمت الناقة ترزُم وترزِم رُزوماً ورُزاماً: قامت من الإعياء والهُزال، فلم تتحرك، فهي رازم. قاله الجوهري في الصحاح. اهـ. وهذا الكلام قد أُقحم في نص هاتين النسختين، فقد وقع حاشيةً في هامش كلٍّ من (ز) و(ك)، ولم يرد في (د) و(ظ).

(٣) الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢١٨، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٥.

(٤) أي: ابن العربي.

(٥) هو بنحوه عند مسلم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مدركة، فركبَ على جملٍ صَعْبٍ فقلتُ له: أبا جعفر! أَما تخاف أن يصرعَك. فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «على سنامِ كلِّ بعيرٍ شيطانٌ إذا ركبتموها، فاذكروا اسمَ اللهِ كما أَمركم ثم امتهنوها لأنفسِكم، فإنَّما يحملُ الله»[١] .

وقال عليّ بن ربيعة: شهدتُ عليَّ بن أبي طالب ركبَ دابةً يوماً فلمَّا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: باسم الله، فلما استوى على الدابةِ قال: الحمدُ لله، ثم قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» ثم قال: الحمدُ لله والله أكبر ـ ثلاثاً ـ اللهمَّ لا إله إلا أنتَ، ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت؛ ثم ضحكَ، فقلت له: ما أَضحكَك؟ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ صنعَ كما صنعتُ، وقال كما قلتُ، ثم ضحكَ، فقلت له: ما يُضحِكُك يا رسولَ الله؟ قال: «العبدُ، أو قال: عجباً لعبدٍ أن يقولَ: اللهمَّ لا إلهَ إلا أنت. ظلمتُ نفسي فاغفر لي، فإنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت. يعلم أنه لا يغفرُ الذنوب غيره». خَرَّجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»[٢]، وأبو عبدِ الله محمدُ بنُ خُوَيْزِمَنْدَاد في «أحكامه» .

وذكر الثعلبيُّ نحوَه مختصراً عن عليٍّ ﷺ، ولفظُه عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: «باسمِ الله، فإذا استوى قال: الحمدُ للهِ على كلِّ حال، سبحانَ الذي سخَّر لنا هذا وما كنَّا له مُقْرِنينَ وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلبون. وإذا نَزلتم من الفلكِ والأنعام فقولُوا: اللهمَّ أَنزلنا منزلاً مباركاً وأنتَ خير المنزلين» .

وروى ابنُ أبي نجيح، عن مجاهد قال: مَن ركبَ ولم يقل: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» قال له الشيطانُ: تَغَنَّه؛ فإن لم يحسن قال له: تمنَّه. ذكره النَّحاسُ[٣] .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٩) من طريق عمرو بن دينار، عن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين، عن النبي ﷺ، مرسلاً. وأخرجه مرفوعاً أحمد (١٧٩٣٨) (١٧٩٣٩)، من حديث أبي لاس الخزاعي ﷺ، و(١٦٠٣٩)، من حديث حمزة الأسلمي ﷺ.

(٢) برقم (١٣٢)، وهو عند أحمد (١٠٥٦)، والكلام السالف في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٥ .

(٣) في معاني القرآن ٦/ ٣٤٠ ، وينظر تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٤ .

ويستعيذُ بالله من مقامِ مَن يقول لقرنائه: تعالَوْا نَتنزَّه على الخيلِ أو في بعضِ الزوارق، فيركبونَ حاملينَ مع أنفسِهم أواني الخمرِ والمعازف، فلا يزالون يسقون[١] حتى تُمَلّ طلاهم وهم على ظهورِ الدوابّ، أو في بطونِ السفن وهي تجري بهم، لا يذكرونَ إلا الشيطان، ولا يمتثلون إلا أوامرَه. الزَّمخشريُّ[٢]: ولقد بلغني أنَّ بعضَ السلاطين ركبَ وهو يشرب الخمرَ من بلد إلى بلد بينهما مسيرةُ شهر، فلم يَصْحُ إلا بعدَ ما اطمأنَّت به الدار، فلم يشعرْ بمسيرهِ ولا أحسَّ به؛ فكم بينَ فعلِ أولئك الراكبين، وبينَ ما أمر الله به في هذه الآية؟!

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي: عِدْلاً؛ عن قتادة[٣]. يعني: ما عُبِد من دون الله عزَّ وجلَّ. الزجاجُ[٤] والمبرِّدُ: الجزءُ هاهنا البناتُ، عجَّب المؤمنينَ من جهلِهم؛ إذ أقرُّوا بأنَّ خالق السماوات والأرض هو اللهُ، ثم جعلوا له شريكاً أو ولداً، ولم يعلموا أنَّ من قدرَ على خلق السماوات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضدُ به أو يستأنسُ به؛ لأنَّ هذا من صفات النقص. قال الماورديّ: والجزءُ عندَ أهلِ العربية البناتُ، يقال: قد أجزأتِ المرأةُ: إذا وَلدتِ البناتِ، قال الشاعرُ:

إنْ أَجزأتْ حُرَّةٌ يوماً فلا عجبٌ ... قد تُجزئ الحُرَّةُ المِذكارُ أحيانا[٥]

الزمخشري[٦]: ومِن بِدعِ التفاسير تفسيرُ الجزءِ بالإناث، وادِّعاء أنَّ الجزء في لغةِ

---

(١) في (م): يستقون.

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٨٠، وما قبله.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٩٥، والطبري ٢٠/ ٥٦١.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٠٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٩. والبيت أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ٤٨، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠١ وزاد المسير ٧/ ٣٠٥، واللسان (جزأ).

(٦) الكشاف ٣/ ٤٨١.

العرب اسمٌ للإناث، وما هو إلا كذبٌ على العرب، ووضعٌ مستحدَثٌ منحول، ولم يُقنعهم ذلك حتى اشتقُّوا منه: أجزأتِ المرأة، ثم صنعوا بيتاً، وبيتاً:

إنْ أجزأَت حرةٌ[1] يوماً فلا عجبٌ

زُوِّجْتُها من بناتِ الأوسِ مُجزِئة[2]

وإنَّما قولُه: «وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً» متصلٌ بقوله: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» أي: ولئن سألتَهم عن خالقِ السماوات والأرض لَيعترفُنَّ به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعترافِ من عبادهِ جزءاً، فَوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى «مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً» أنْ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً، كما يكون الولدُ بَضْعَةً من والدِه وجزءاً له، وقُرئ «جُزُؤا» بضمتين[3]. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ يعني: الكافر[4] ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ قال الحسنُ: يَعُدُّ المصائبَ وينسى النعمَ[5]. «مُبِينٌ»: مظهرٌ الكفرَ.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ الميمُ صِلةٌ، تقديره: أتخذَ ممَّا يخلقُ بناتٍ كما زعمتم أنَّ الملائكةَ بنات الله؟ فلفظُه لفظُ الاستفهام ومعناهُ التوبيخ. ﴿وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: اختصَّكم وأَخلصكم بالبنين[6]، يقال: أَصفيتُه بكذا، أي: آثرتُه به. وأَصفيتُه الوُدَّ: أَخلصتُه له. وصافيتُه وتصافينا: تَخالصنا[7]. عَجِبَ من إضافتِهم إلى الله اختيارَ البنات مع اختيارِهم لأنفسهم البنين، وهو مقدَّس عن أن

---

(١) في النسخ الخطية: حمدة، والمثبت من المصادر، وهذا الشطر هو نفسه صدر البيت السالف قبله.

(٢) هو صدر بيت، وعجزه: للعوسج اللَّدْنِ في أبياتها زَجَلُ، وهو في مجالس ثعلب ص١٤٥، واللسان (جزأ)، وصدر البيت هذا والذي قبله في الكشاف ٣/ ٤٨١، والكلام بعده منه.

(٣) لم نقف عليها عند غير الزمخشري.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٣٥، وزاد المسير ٧/ ٣٠٥، والوسيط للواحدي ٤/ ٦٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٩ .

(٦) الوسيط ٤/ ٦٦، وزاد المسير ٧/ ٣٠٥ .

(٧) الصحاح (صفا).

يكون له ولدٌ إن توهَّم جاهل أنه اتخذَ لنفسه ولداً، فهلَّا أضافَ إليه أرفعَ الجنسين! ولِمَ جعل هؤلاء لأنفسِهم أشرفَ الجنسين وله الأخسَّ؟ وهذا كما قال الله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي: بأنَّه وُلِدت له بنتٌ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي: صارَ وجهُه ﴿مُسْوَدًّا﴾ قيل: ببطلانِ مَثَلِه الذي ضربه. وقيل: بما بُشِّر به من الأنثى[1]، دليلُه في سورة النحل ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨].

ومِن حالِهم أنَّ أحدَهم إذا قيل له: قد وُلِدت له أنثى اغتمَّ واربدَّ وجهُه غيظاً وتأسُّفاً وهو مملوءٌ من الكرب. وعن بعضِ العربِ أنَّ امرأتَه وَضعت أنثى، فهجرَ البيتَ الذي فيه المرأةُ، فقالت:

مـا لِأبـي حـمـزةَ لا يـأتـيـنـا ... يَـظَـلُّ فـي الـبـيـتِ الـذي يـلـيـنـا

غـضـبـانَ ألَّا نـلـدَ الـبـنـيـنـا ... وإنَّـمـا نـأخـذُ مـا أُعـطـيـنـا[2]

وقُرِئ: مُسودٌّ، ومسوادٌّ[3].

وعلى قراءةِ الجماعةِ يكون وجهُه اسمَ «ظلَّ»، و«مُسْوَدًّا» خبرَ «ظَلَّ». ويجوزُ أن يكونَ في «ظَلَّ» ضميرٌ عائد على «أحد» وهو اسمُها، و«وَجْهُهُ» بدل من الضميرِ، و«مُسْوَدًّا» خبر «ظَلَّ». ويجوز أن يكون رُفِعَ «وَجْهُهُ» بالابتداء، ويرفع «مُسْوَدًّا» على أنه

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٩.

(٢) الرَّجز في الكشاف ٣/ ٤٨٢ وفيه قبل البيت الأخير: ليس لنا من أمرنا ما شينا. وفي البيان والتبيين ١/ ١٨٦ و ٤/ ٤٧. وفيه زيادة على ما أورده المصنف.

(٣) لم نقف عليها عند غير الزمخشري ٣/ ٤٨٢؛ قال: على أن في «ظلَّ» ضمير المبشَّر، و«وجهه مسودٌّ» جملة واقعة موقع الخبر. وسيذكر المصنف جواز هذا الوجه لغةً، وذكر ذلك الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠٢، ولم يذكرا أنها قراءة.

خبرُه، وفي «ظَلَّ» اسمُها، والجملةُ خبرُها. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: حزين؛ قاله قتادةُ. وقيل: مكروبٌ؛ قاله عكرمة. وقيل: ساكت؛ قاله ابنُ أبي حاتم؛ وذلك لفسادِ مَثَله وبطلانِ حجتِه[١]. ومَن أجازَ أن تكون الملائكةُ بناتِ الله فقد جعلَ الملائكةَ شِبهاً لِله؛ لأنَّ الولدَ من جنس الوالد وشبهه[٢]. ومَنِ اسودَّ وجهُه بما يُضاف إليه ممَّا لا يرضى، أولى من أن يسودَّ وجهُه بإضافةِ مثل ذلك إلى مَن هو أجلُّ منه، فكيف إلى اللهِ عزَّ وجل! وقد مضى في «النحلِ» في معنى هذه الآية ما فيهِ كفايةٌ[٣].

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا﴾ أي: يُرَبَّى و يَشِبُّ. والنُّشوءُ: التربيةُ[٤]، يقال: نَشأتُ في بني فلان نَشْئاً ونشوءاً: إذا شَبَبْتَ فيهم، ونُشِّئ وأُنشئ بمعنًى[٥]. وقرأ ابنُ عباس، والضحَّاكُ وابنُ وَثَّاب، وحفصٌ وحمزة، والكسائيُّ وخلف: «يُنَشَّأ» بضم الياءِ وفتح النونِ وتشديد الشين، أي: يُربَّى ويَكْبَر في الحِلْية. واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ الإسنادَ فيها أعلى. وقرأ الباقون: «يَنْشأ» بفتحِ الياء وإسكان النون[٦]، واختاره أبو حاتم، أي: يرسخُ وينبت[٧]، وأصلُه من نشأَ، أي: ارتفعَ، قاله الهروي. فـ «يُنَشَّأ» متعدٍّ، و«يَنشَأ» لازمٌ.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٩ ، وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٦٣ قول قتادة.

(٢) بنحوه في زاد المسير ٧/ ٣٠٥ .

(٣) ١٢/ ٣٤٠ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٣٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٩ .

(٥) الصحاح (نشأ).

(٦) السبعة ص٥٨٤ ، والتيسير ص١٩٦ ، والنشر ٢/ ٣٦٨ .

(٧) في (ظ): يثبت.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: في الزينة. قال ابنُ عباس وغيرُه: هنَّ الجواري زِيُّهن غيرُ زِيِّ الرجالِ. قال مجاهد: رُخِّص للنساءِ في الذهبِ والحرير؛ وقرأَ هذه الآية[١]. قال الكيا[٢]: فيه دلالةٌ على إباحةِ الحُليّ للنساء، والإجماعُ منعقدٌ عليه، والأخبارُ فيه لا تُحصى.

قلت: رُوي عن أبي هريرةَ أنه كان يقول لابنتِه: يا بُنَيَّة، إياكِ والتَّحلِّيَ بالذهب، فإني أخاف عليكِ اللهب[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: في المجادلة والإدلاءِ بالحُجَّة. قال قتادة: ما تكلمت امرأةٌ ولها حُجةٌ إلَّا جعلَتْها على نفسِها[٤]. وفي مصحف عبدِ الله: «وهو في الكلامِ غيرُ مبين»[٥]. ومعنى الآية: أَيُضاف إلى اللهِ مَن هذا وصفُه؟! أي: لا يجوزُ ذلك.

وقيل: المُنشَّأُ في الحلية أصنامُهم التي صاغُوها من ذهبٍ وفضةٍ وحلَّوها؛ قاله ابنُ زيد والضَّحاكُ[٦]. ويكون معنى: «وَهُوَ فِي الخصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» على هذا القولِ: أي: ساكتٌ عن الجوابِ. و«مَن» في محلِّ نصبٍ، أي: اتخذوا للهِ مَن يُنشَّأ في الحِليةِ[٧]. ويجوزُ أن يكون رفعاً على الابتداءِ والخبرُ مضمرٌ؛ قاله الفراء[٨]. وتقديرُه:

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٦٣-٥٦٤.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ٣٦٩.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٩٩٣٨)، وأحمد في الزهد ص١٩٢، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٨٠، والبيهقي في الشعب (٦١٩١) و(١٠٦٩١) بلفظ: ... لا تلبسي... قال الذهبي في السير ٢/ ٦٢٩: هذا صحيح عن أبي هريرة، وكأنه كان يذهب إلى تحريم الذهب على النساء أيضاً، أو أن المرأة إذا كانت تختال في لبس الذهب وتفخر، فإنه يحرم، كما فيمن جر ثوبه خيلاء.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٦٤.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٦٥ عن ابن زيد.

(٧) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ١٤٠.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٩، وقاله مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٠.

أَوَ مَن كان على هذه الحالةِ يَستحقُّ العبادة؟ وإن شئتَ قلتَ: خُفِض ردًّا إلى أوَّل الكلام، وهو قولُه: «بِما ضَرَبَ»، أو على «ما» في قوله: «مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ»[١]. وكون[٢] البدل في هذين الموضعين ضعيف؛ لكونِ ألفِ الاستفهام حائلةً بين البدلِ والمبدَلِ منه.

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ قرأ الكوفيون: «عِبَادُ» بالجمع[٣] واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ الإسنادَ فيها أعلى، ولأنَّ الله تعالى إنَّما كذَّبهم في قولهم: إنَّهم بناتُ اللهِ، فأخبرهم أنَّهم عبيدٌ، وأنَّهم ليسوا ببناتِه. وعن ابن عباس أنَّه قرأ: «عِبادُ الرَّحْمَنِ»، فقال سعيد بنُ جبير: إنَّ في مصحفي: «عند[٤] الرحمن» فقال: امحهُا واكتبها «عِبَادُ الرَّحْمَنِ». وتصديقُ هذه القراءةِ قولُه تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[٥] [الأنبياء: ٢٦]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الكهف: ١٠٢]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقرأ الباقون: «عند الرحمن» بنون ساكنةٍ. واختارَه أبو حاتم[٦]. وتصديقُ هذه القراءةِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾[٧] [الأنبياء: ١٩]. والمقصودُ إيضاحُ كذبِهم وبيانُ جهلِهم في نسبةِ الأولادِ إلى الله سبحانَه، ثمَّ في تحكُّمِهم بأنَّ الملائكةَ إناثٌ، وهم بناتُ اللهِ. وذِكرُ العبادِ مدحٌ لهم، أي: كيفَ عَبَدوا مَن هو في نهاية العبادة، ثم كيف حَكموا بأنَّهم إناثٌ من غير دليل. والجعلُ هنا بمعنى القولِ والحُكم، تقول: جعلتُ زيداً أعلمَ

(١) تفسير البغوي ٤/١٣٦ .

(٢) في (ظ): وكونه.

(٣) وكذا قرأ أبو عمرو. السبعة ص٥٨٥ ، والتيسير ص١٩٦ .

(٤) في (د) و(م): عبد. وهو خطأ، والكلام بنحوه في إعراب للنحاس ٤/١٠٣ .

(٥) ينظر تفسير الرازي ٢٧/٢٠٣ .

(٦) قرأ بها من السبعة نافع وابن كثير وابن عامر.

الناس، أي: حكمتُ له بذلك[١].

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ أي: أَحضَروا حالةَ خلقِهم حتى حكموا بأنَّهم إناث[٢]. وقيل: إنَّ النبيَّ ﷺ سألَهم وقال: «فما يُدريكم أنَّهم إناثٌ؟» فقالوا: سَمِعنا بذلك من آبائنا؛ ونحن نشهدُ أنَّهم لم يَكْذبوا في أنَّهم إناث، فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي: يُسألونَ عنها في الآخرة[٣].وقرأ نافعٌ: «أَأُشْهِدُوا»[٤] بهمزةِ استفهامٍ داخلةٍ على همزةٍ مضمومةٍ مسهَّلة[٥]، ولا يَمدُّ؛ سوى ما رَوَى المسيَّبي عنه أنه يمدّ[٦]. ورَوى المفضل عن عاصمٍ مثلَ ذلك وتحقُّقَ الهمزتين[٧]. والباقون: «أَشَهِدُوا» بهمزة واحدةٍ للاستفهام[٨]. ورُويَ عن الزُّهري: «أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ» على الخبر[٩].

﴿سَتُكْتَبُ﴾ قراءةُ العامةِ بضمِّ التاء على الفعل المجهول، «شَهَادَتُهُمْ» رفعاً. وقرأ السُّلمِيُّ وابنُ السَّمَيْفَع وهُبيرة عن حفص: «سَنَكْتُبُ» بنون، «شَهَادَتَهُمْ» نصباً بتسميةِ الفاعل[١٠]. وعن أبي رجاء: «سَتُكْتَبُ شَهَادَاتُهُمْ» بالجمع[١١].

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/٢٠٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/٤٠٧ ، والوسيط للواحدي ٤/ ٦٧ ، وزاد المسير ٧/٣٠٧ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/٢٠٥ .

(٤) الوسيط للواحدي ٤/٦٨ ، وتفسير البغوي ٤/١٣٦ .

(٥) اختلف رسمها في النسخ، فوقع في (د) و(ز) و(م): أَوُشْهدوا، وفي (ظ) و(ف): أو اشهدوا، والمثبت من (ق).

(٦) هي من رواية ورش عنه، وسهلها قالون مع إدخال ألف بخلف عنه. التيسير ص١٩٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/٥٠ . وذكر في السبعة ص٥٨٥ رواية المفضل عن عاصم مثل نافع.

(٨) السبعة ص٥٨٥ ، والتيسير ص١٩٦ .

(٩) المحرر الوجيز ٥/٥٠ .

(١٠) رواية هبيرة عن حفص في جامع البيان ٢/ ٤٠٠ .

(١١) نسبها في المحرر الوجيز ٥/٥٠ ، والقراءات الشاذة ص١٣٥ للحسن.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يعني: قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاءَ الرحمنُ على زعمِكم ما عَبدنا هذه الملائكة. وهذا منهم كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ. وكلُّ شيءٍ بإرادة الله، وإرادتُه تجب، وكذا علمُه، فلا يُمكِن الاحتجاجُ بهما[(١)]؛ وخلافُ المعلومِ والمرادِ مقدورٌ وإن لم يقع. ولو عَبَدوا الله بدلَ الأصنام، لَعلمنا أنَّ الله أراد منهم ما حصل منهم. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» عند قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الآية: ١٤٨]، وفي «يس»: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[(٢)] [الآية: ٤٧].

وقولُه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ مردودٌ إلى قوله: «وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً» أي: ما لهم بقولهم: الملائكةُ بناتُ الله من علم؛ قاله قتادةُ ومقاتلٌ والكلبي[(٣)]. وقال مجاهدٌ وابن جريج: يعني الأوثان[(٤)]، أي: ما لهم بعبادةِ الأوثانِ من علم. «مِن» صِلة.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يَحْدِسون ويَكذبون، فلا عذرَ لهم في عبادة غيرِ الله عزَّ وجلَّ. وكان في ضمن كلامِهم أنَّ الله أَمَرنا بهذا، أو رضي ذلك منَّا، ولهذا لم يَنْهَنا ولم يُعاجِلنا بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

هذا معادِلٌ لقوله: «أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ». والمعنى: أَحضَروا خلقَهم، أم آتيناهم كتاباً من قَبْله؟ أي: من قبلِ القرآنِ بما ادَّعَوه، فهم به متمسكون يعملون بما فيه!

---

(١) في (م): بها.

(٢) ٩/١٠٢، و١٧/٤٥٦ - ٤٥٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٣٦.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/٥٦٨ عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على طريقة ومذهب؛ قاله عمر بنُ عبد العزيز(١). وكان يقرأ هو ومجاهدٌ وقتادة: «على إِمَّةٍ» بكسر الألف(٢). والإِمَّةُ: الطريقة(٣). وقال الجوهري(٤): والإِمَّة، بالكسرِ: النعمة. والإِمّةُ أيضاً لغةٌ في الأُمَّة ـ وهي الطريقةُ والدين ـ عن أبي عبيد(٥).

قال عَديُّ بنُ زيد في النعمة:

ثم بعدَ الفَلَاح والمُلْكِ والإمَّـ ـةِ وارتْهُمُ هناكَ القبورُ

عن غير الجوهري(٦).

وقال قتادةُ وعطية: «على أُمَّةٍ»: على دِين(٧)، ومنه قولُ قيس بنِ الخطيم:

كنَّا على أُمَّةِ آبائنا ويقتدي الآخِرُ بالأوَّلِ(٨)

قال الجوهري: والأُمَّةُ: الطريقةُ والدِّين، يقال: فلانٌ لا أُمَّة له، أي: لا دينَ له ولا نِحْلة. قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ .

(٢) نسبها لعمر بن عبد العزيز ومجاهد الفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٠ ، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠٤ ، والطبري ٢٠/ ٥٧٠ ، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥ وزاد نسبتها للجحدري.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٢١ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٤ .

(٤) في الصحاح (أمم).

(٥) في (م)، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٥ : أبو عبيدة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠ ، وتفسير الطبري ٢٠/ ٥٧١ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٧٠ ، عن ابن عباس وقتادة والسدي.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ .

وهـل يـسـتـوي ذو أُمَّـةٍ وكَـفُـورُ[1]

وقال مجاهد وقطرب: على دينٍ، على مِلَّة. وفي بعضِ المصاحف: «قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِلَّة». وهذه الأقوالُ متقاربة. وحُكِي عن الفرَّاء: على ملة: على قِبْلة. الأخفشُ: على استقامة، وأنشدَ قولَ النابغة:

حَـلَـفْـتُ فـلـم أتـرك لـنـفـسـك ريـبـةً وهـل يـأثَـمَـنْ ذو أُمَّـة[2] وهـو طـائعُ[3]

الـثـانـيـة: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: نـهـتـدي بـهـم. وفـي الآيـة الأخـرى: «مُقْتَدُونَ»، أي: نقتدي بهم، والمعنى واحد. قال قتادة: مقتدون: متَّبِعون[4]. وفي هذا دليلٌ على إبطال التقليد؛ لِذَمِّه إياهم على تقليدِ آبائهم، وتركِهم النظرَ فيما دَعاهم إليه الرسولُ ﷺ[5]. وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة» مستوفًى[6].

وحكى مقاتلٌ أنَّ هذه الآيةَ نزلت في الوليد بنِ المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبةَ وشيبة ابني ربيعة من قريش[7]، أي: وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلَهم أيضاً. يُعَزِّي نبيَّه ﷺ؛ ونظيرُه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]. والمترفُ: المُنْعِمُ، والمرادُ هنا الملوكُ والجبابرة.

قـولـه تـعـالـى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ﴾ أي: قُلْ يا محمدُ لقومك: أوَليسَ قد جئتُكم من عند الله بأهدى، يريد: بأرشدَ ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم

(١) الصحاح (أمم).

(٢) قال في اللسان (أمم): ويروى ذو إمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢١، والبيت في ديوان النابغة ص٨١، وسلف ٥/ ٢٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٧٢، وهو في النكت والعيون.

(٥) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٩.

(٦) ٣/ ١٦ فما بعد.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٢١.

بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ يعني: بكلِّ ما أُرسِل به الرسل. فالخطابُ للنبيِّ ﷺ، ولفظُه لفظُ الجمع؛ لأنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لمن سواه.

وقُرِئَ: «قُلْ» وَ«قَالَ»، وَ«جِئْتُكُمْ» وَ«جِئْنَاكُمْ» يعني: أَتتَّبعون آباءَكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟ قالوا: إنا ثابتون على دينِ آبائنا لا ننفكُّ عنه وإن جئتنا بما هو أهدى[(١)]. وقد مضى في «البقرة» القولُ في التقليد وذَمِّه[(٢)]، فلا معنى لإعادته.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالقحط والقتل والسَّبي ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: آخِرُ أمرِ مَن كذَّب الرسل.

وقراءة العامة: «قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ». وقرأ ابن عامر وحفص: «قَالَ أَوَلَوْ»[(٣)]، على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة. وقرأ أبو جعفر: «قُلْ أَوَلَوْ جِئْنَاكُمْ» بنون وألف[(٤)]، على أنَّ المخاطبة من رسول الله ﷺ عن جميع الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي: ذكِّرهم إذ قال ﴿إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البَراء يُستعمل للواحد فما فوقه؛ فلا يُثنَّى ولا يجمع ولا يؤنَّث؛ لأنه مصدرٌ وُضع موضعَ النعت[(٥)]؛ لا يقال: البراءان والبراؤون؛ لأن المعنى: ذو[(٦)] البراء،

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٤، وسيرد ذكر القراءات.

(٢) ٣/ ١٦ فما بعد.

(٣) السبعة ص٥٨٥، والتيسير ص١٩٦.

(٤) النشر ٢/ ٣٦٩.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٧٥، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٧، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠، والكشاف ٣/ ٤٨٤.

(٦) في (ف): ذوا، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٩، وزاد المسير ٧/ ٣٠٩، وينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٨.

وذوو البراء.

قال الجوهري[١]: وتبرَّأتُ من كذا، وأنا منه بَرآء، وخَلاءٌ منه، لا يثنَّى ولا يجمع؛ لأنه مصدر في الأصل؛ مثل: سَمِع سَماعاً. فإذا قلت: أنا بريءٌ منه وخَليّ، ثَنَّيتَ وجمعت وأنَّثت، وقلتَ في الجمع: نحن منه بُرَآء، مثل: فقيهٌ وفقهاء، وبِراء أيضاً، مثل: كريم وكِرام، وأَبْراء، مثل: شريف وأشراف، وأبرياء، مثل: نصيب وأَنصِبَاء، وبريئون. وامرأةٌ بريئة، وهما بريئتان، وهن بريئاتٌ وبَرايا، ورجلٌ بريء وبُراء، مثل: عجيب وعُجاب. والبَراء، بالفتح: أوَّلُ ليلةٍ من الشهر، سُمِّيت بذلك لتبرُّؤ القمرِ من الشمس.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناءٌ متصل؛ لأنهم عبدوا اللهَ مع آلهتهم. قال قتادة: كانوا يقولون: اللهُ ربُّنا[٢]؛ مع عبادة الأوثان. ويجوز أن يكونَ منقطعاً[٣]؛ أي: لكن الذي فطرني فهو يهدين. قال ذلك ثقةً بالله، وتنبيهاً لقومه أنَّ الهداية مِن ربه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾ الضمير في «جَعَلَهَا» عائدٌ على قوله: «إلَّا الَّذِي فَطَرَنِي». وضمير الفاعل في «جَعَلَهَا» لله عزَّ وجلَّ؛ أي: وجعل اللهُ هذه الكلمةَ والمقالةَ باقيةً في عَقِبه، وهم ولده وولدُ ولده؛ أي: إنهم توارثوا البراءةَ عن عبادة غيرِ الله، وأوصى بعضُهم بعضاً في ذلك. والعَقِبُ مَن يأتي بعده[٤]. وقال السُّدِّيُّ: هم آل محمدٍ ﷺ. وقال ابن عباس: قوله: «فِي عَقِبِهِ» أي: في خَلَفه[٥]. وفي

(١) في الصحاح (برأ).

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٥٧٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٥ ، وينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٨ .

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٦ ، والكشاف ٣/ ٤٨٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٢ ، وأخرج القولين الطبري ٢٠/ ٥٧٨ .

الكلام تقديمٌ وتأخير؛ المعنى: فإنه سيهدينِ لعلهم يرجعون وجعلها كلمةً باقية في عقبه، أي: قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله[١].

قال مجاهدٌ وقتادة: الكلمة: لا إله إلا الله؛ قال قتادة: لا يزال من عقبه مَن يعبد اللهَ إلى يوم القيامة[٢]. وقال الضحَّاك: الكلمة: أنْ لا تعبدوا إلا الله. عكرمة: الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٣] [الحج:٧٨]. القُرَظي: وجَعل وصيةَ إبراهيم التي وصَّى بها بنيه ـ وهو قولُه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ الآيةُ المذكورة في البقرة [الآية:١٣٢] ـ كلمَةً باقية في ذُرِّيته وبنيه. وقال ابن زيد: الكلمة قوله: «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ»، وقرأ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٤].

وقيل: الكلمة: النبوَّة. قال ابن العربي[٥]: ولم تزل النبوَّةُ باقيةً في ذُرِّيَّة إبراهيم، والتوحيد هم أصلُه، وغيرُهم فيه تَبَعٌ لهم.

الثانية: قال ابن العربي[٦]: إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولةً بالأحقاب؛ بدعوتَيه المجابتَين، إحداهما في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] فقد قال: نعم إلَّا من ظلم منهم فلا عهد. ثانيهما قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]. وقيل: بل[٧] الأولى قولُه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤]، فكلُّ أُمة تعظِّمه، بنوه وغيرهم؛ ممن يجتمع معه في سامٍ أو نوح.

الثالثة: قال ابن العربي[٨]: جرى ذِكْرُ العَقِب هاهنا موصولاً في المعنى

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٦٩ .

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٥٧٦-٥٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٢ .

(٤) ذكر القولين البغوي ٤/ ١٣٧ . وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٧٧ قول ابن زيد.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٦ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) في أحكام القرآن: وقيل بدل.

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٦-١٦٧٠ ، وما بين حاصرتين منه.

[بالحِقب]، وذلك مما يدخل في الأحكام وتُرتَّبُ عليه عقودُ العُمْرَى والتحبيس[١].

قال النبيُّ ﷺ: «أيُّما رَجلٍ أُعمِر عُمْرَى له ولعقِبه، فإنها لِلذي أُعطِيَها، لا ترجع إلى الذي أعطاها؛ لأنه أعطى عطاءً وقعت فيه المواريث»[٢].

وهي تَرِد على أحدَ عشَرَ لفظاً:

اللفظ الأول: الولد. وهو عند الإطلاق عبارةٌ عمن وُجد من الرجل وامرأتِه في الإناث والذُّكور. وعن ولد الذكور دون الإناث لغةً وشرعاً؛ ولذلك وقع الميراثُ على الولد المعيَّن وأولاد الذكور من المعيَّن دون ولد الإناث؛ لأنه من قومٍ آخرين، ولذلك لم يدخلوا في الحُبس بهذا اللفظ؛ قاله مالكٌ في المجموعة وغيرِها.

قلت: هذا مذهبُ مالكٍ وجميعِ أصحابه المتقدِّمين، ومِن حجَّتهم على ذلك الإجماعُ على أنَّ ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١]. وقد ذهب جماعةٌ من العلماء إلى أنَّ ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس بقول[٣] المُحْبِس: حبستُ على ولدي، أو على عَقِبي. وهذا اختيارُ أبي عمر بنِ عبد البَرّ وغيرِه[٤]؛ واحتجُّوا بقول اللهِ جلَّ وعزّ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣]. قالوا: فلما حَرَّم اللهُ البنات فَحَرُمت بذلك بنتُ البنت بإجماع، عُلم أنها بنتٌ، ووجب أن تدخل في حُبُس أبيها إذا حَبَسَ على ولده أو عقبه. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» مستوفًى[٥].

---

(١) العمرى: من قولهم: أعمرته الدار عُمرى: أي جعلتها له يسكنها مدة عمره، فإذا مات عادت إلي. والتحبيس: الوقف. النهاية (عمر) (حبس).

(٢) صحيح مسلم (١٦٢٥) من حديث جابر، وسلف ١١/ ١٥١.

(٣) في (م): يقول.

(٤) الذي قاله ابن عبد البرّ في الكافي ٢/ ١٠١٨: إذا حبس الرجل على ولده وولد ولده، أو على عقبه وعقب عقبه؛ فلا حقَّ لولد البنات في حُبسه ذلك؛ إلا أن يُسميَهم ويدخلَهم فيه، وإنما ذلك لولده وولد ولده الذكور ما تناسلوا.

(٥) ٨/ ٤٤٧ - ٤٤٨.

اللفظ الثاني: البنون. فإن قال: هذا حُبْسٌ على ابني؛ فلا يتعدَّى الولدَ المعيَّنَ ولا يتعدَّد. ولو قال: ولدي، لَتعدَّى وتعدَّد في كلِّ مَن ولد. وإن قال: على بَنِيّ، دخل فيه الذكورُ والإناث. قال مالك: مَن تصدَّق على بنيه وبني بنيه، فإنَّ بناتِه وبناتِ بناته يدخلن في ذلك. وروى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته؛ فإنَّ بناتِ بنته يدخلن في ذلك مع بنات صُلْبه. والذي عليه جماعةُ أصحابه أنَّ ولد البنات لا يدخلون في البنين. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ في الحسن ابنِ ابنته: «إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصلِحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[(١)]. قلنا: هذا مجاز، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه؛ أَلَا ترى أنه يجوز نفيُه عنه، فيقول الرجل في ولد بنته: ليس بابني؛ ولو كان حقيقةً ما جاز نفيُه عنه؛ لأن الحقائق لا تُنفى عن مُنتسباتها[(٢)]. ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيه دون أمه؛ ولذلك قيل في عبد الله بنِ عباس: إنه هاشميٌّ وليس بهلالي، وإن كانت أُمُّه هلالية.

قلت: هذا الاستدلال غيرُ صحيح، بل هو ولدٌ على الحقيقة في اللغة؛ لوجود معنى الولادةِ فيه، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت مِن قول اللهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٥]، فجعل عيسى من ذُرِّيَّته، وهو ابنُ بنته على ما تقدَّم بيانُه هناك[(٣)]. فإن قيل: فقد قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتُنا بنوهنَّ أبناءُ الرجالِ الأباعدِ[(٤)]

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٠٤)، وسلف ٥/ ١١٦ .

(٢) في (ف): مشبهاتها، وفي أحكام القرآن: مسمياتها.

(٣) ٨/ ٤٤٦-٤٤٧ .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ١/ ٣٤٦ ، والإنصاف لابن الأنباري ١/ ٦٦ ، ومغني اللبيب ص٥٨٩ ، والخزانة ١/ ٤٤٤ دون نسبة. قال البغدادي: هذا البيت لا يعرف قائله مع شهرته في كتب النحاة وغيرهم. ورأيت في شرح الكرماني في شواهد شرح الكافية للخبيصي أنه قال: هذا البيت قائله أبو فراس همام الفرزدق بن غالب. والله أعلم بحقيقة الحال.

قيل لهم: هذا لا دليلَ فيه؛ لأن معنى قولِه إنما هو أَنَّ[1] ولد بنيه الذُّكرانِ هم الذين لهم حكمُ بنيه في الموارثة والنسب، وأَنَّ ولد بناته ليس لهم حكمُ بناته في ذلك؛ إذ ينتسبون إلى غيره، فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية، ولم يَنْفِ عن ولد البناتِ اسمَ الولد؛ لأنه ابن؛ وقد يقول الرجل في ولده: ليس هو بابني؛ إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقًّا، ولا يريد بذلك نفيَ اسمِ الولدِ عنه، وإنما يريد أن ينفيَ عنه حكمَه. ومَن استدلَّ بهذا البيتِ على أنَّ ولد البنت لا يُسمَّى ولداً، فقد أفسد معناه وأبطل فائدته، وتأوَّل على قائله ما لا يصح؛ إذ لا يمكن أن يُسمَّى ولدُ الابن في اللسان العربيِّ ابناً، ولا يُسمَّى ولدُ الابنة ابناً؛ من أجل أنَّ معنى الولادة التي اشتُقَّ منها اسمُ الولد فيه أَبْيَنُ وأقوى؛ لأن ولد الابنةِ هو ولدُها بحقيقة الولادة، وولد الابن إنما هو ولدُه بماله مما[2] كان سبباً للولادة. ولم يُخرِجْ مالكٌ رحمه الله أولادَ البنات مِن حُبْس مَن حَبَس[3] على ولده من أجل أنَّ اسم الولد غيرُ واقعٍ عليه عنده في اللسان، وإنما أخرجهم منه قياساً على الموارثة. وقد مضى هذا في «الأنعام»، والحمدُ لله[4].

اللفظ الثالث: الذُّرِّيَّة. وهي مأخوذةٌ مِن: ذرأ اللهُ الخلقَ؛ فيدخل فيه[5] ولدُ البنات، لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٥]. وإنما كان من ذريته مِن قِبَل أُمه. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ الذرية[6] وفي «الأنعام» الكلامُ على «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ» الآية [٨٤][7]؛ فلا معنى للإعادة.

---

(١) لفظة: أن ليست في (د) و(م).

(٢) في (د) و(ف): فما.

(٣) قوله: من حبس، من (ظ).

(٤) ٨/ ٤٤٧-٤٤٨ .

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٧ زيادة: عند علمائنا.

(٦) ٢/ ٣٦٨ .

(٧) ٨/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

اللفظ الرابع: العَقِب. وهو في اللغة عبارةٌ عن شيء بعد شيءٍ كان مِن جنسه أو من غير جنسه؛ يقال: أعقب اللهُ بخير؛ أي: جاء بعد الشِّدَّة بالرَّخاء. وأعقب الشيبُ السَّواد.

وعَقَب يَعْقُب عُقُوباً وعَقْباً: إذا جاء شيئاً بعد شيء؛ ولهذا قيل لولد الرجل: عَقِبه[١].

والمِعْقاب من النساء: التي تلد ذَكَراً بعد أنثى، هكذا أبداً. وعقب الرجل: ولده وولدُ ولدِه الباقون بعده. والعاقبة: الولد؛ قال يعقوب: في القرآن: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ». وقيل: بل الورثة كلُّهم عَقِب. والعاقبة: الولد؛ وكذلك[٢] فسَّره مجاهدٌ هنا. وقال ابن زيد: هاهنا هم الذُّرِّيَّة. وقال ابن شهاب: هم الولد وولدُ الولد. وقيل غيره على ما تقدَّم عن السُّدِّيّ[٣].

وفي الصحاح: والعَقِب، بكسر القاف: مُؤخَّر القدم، وهي مؤنثة. وعقب الرجل أيضاً: ولدُه وولدُ ولدِه. وفيه لغتان: عَقِب وعَقْب، بالتسكين، وهي أيضاً مؤنثة، عن الأخفش. وعَقَبَ فلانٌ مكانَ أبيه عاقبةً، أي: خلفه؛ وهو اسمٌ جاء بمعنى المصدر، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[٤] [الواقعة: ٢].

ولا فرق عند أحدٍ من العلماء بين لفظ العَقِب والولد في المعنى. واختُلف في الذُّرِّيَّة والنسل، فقيل: إنهما بمنزلة الولد والعَقِب؛ لا يدخل ولدُ البنات فيهما على مذهب مالك. وقيل: إنهم يدخلون فيهما. وقد مضى الكلامُ في الذرية هنا وفي «الأنعام».

اللفظ الخامس: نَسْلي. وهو عند علمائنا كقوله: ولدي وولدُ ولدي[٥]؛ فإنه

---

(١) تهذيب اللغة ١/ ٢٧١ .

(٢) في (د) و(م): ولذلك، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٣) في المسألة الأولى. وقول ابن زيد وابن شهاب أخرجهما الطبري ٢٠/ ٥٧٨ .

(٤) الصحاح (عقب).

(٥) في أحكام القرآن: ولد ولدي، بدل: ولدي وولد ولدي.

يدخل فيه ولدُ البنات. ويجب أن يدخلوا؛ لأنَّ نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجهٍ، ولم يقترن به ما يَخُصُّه كما اقترن بقوله: عَقِبي ما تناسلوا.

وقال بعض علمائنا: إنَّ النسل بمنزلة الولد والعقبِ، لا يدخل فيه ولدُ البنات؛ إلَّا أنْ يقول المُحبِس: نسلي ونسلُ نسلي، كما إذا قال: عقبي وعَقِبُ عقبي، وأما إذا قال: ولدي أو عقبي مُفْرَداً، فلا يدخل فيه البنات.

اللفظ السادس: الآل. وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع. قال ابن القاسم: هما سواء، وهم العَصَبةُ والإخوة والأَخَوات[١] والبنات والعمات؛ ولا يدخل فيه الخالات. وأصل الأهل: الاجتماعُ، يقال: مكانٌ آهِل: إذا كان فيه جماعة، وذلك بالعصبة ومَن دخل في العقد[٢]، والعَصَبة مشتقَّةٌ منه، وهي أخصُّ به. وفي حديث الإفك: يا رسول الله، أَهْلُكَ! ولا نعلم إلَّا خيراً؛ يعني عائشة[٣]. ولكن لا تدخل فيه الزوجةُ بإجماع وإن كانت أصلَ التأهُّل؛ لأنَّ ثبوتها ليس بيقين، إذ قد يتبدَّل ربطُها وينحلُّ بالطلاق. وقد قال مالك: آلُ محمدٍ كلُّ تقي[٤]؛ وليس من هذا الباب. وإنما أراد أنَّ الإيمان أخصُّ من القرابة، فاشتملت عليه الدَّعوةُ وقُصد بالرحمة.

وقد قال أبو إسحاق التونسي: يدخل في الأهل كلُّ مَن كان من جهة الأبوين. فوفَّى الاشتقاقَ حقَّه، وغَفَلَ عن العُرف ومطلقِ الاستعمال. وهذه المعاني إنما تُبنى

---

(١) قوله: والأخوات ليس في (د) و(ظ) و(م).

(٢) كذا في النسخ الخطية وأحكام القرآن ٤/ ١٦٦٨، والكلام منه، وبعدها في (م): من النساء. وقد ذكر أبو الوليد الباجي في المنتقى ٦/ ١٢٤ كلام ابن القاسم ثم قال: ومعنى ذلك عندي العصبة، أو من كان في قُعْددهنَّ من النساء. والقُعْدُد: الأقرب إلى الأب الأكبر. المصباح المنير (قعد).

(٣) القائل أسامة بن زيد ﷺ كما في البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠). وقد سلف ١/ ٣٩٩.

(٤) ذكره عنه ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٨. وقد أخرجه مرفوعاً العقيلي في الضعفاء ٤/ ٢٨٧، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٥١٣، والبيهقي ٢/ ١٥٢ من طريق نافع السلمي، عن أنس ﷺ. قال البيهقي: وهذا لا يحل الاحتجاج بمثله. وأخرجه الطبراني في الصغير (٣١٨)، والأوسط (٣٣٥٦) من طريق نوح ابن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس. قال الحافظ في الفتح ١١/ ١٦١: سنده واهٍ جداً.

على الحقيقة، أو على العرف المستعملِ عند الإطلاق، فهذان لفظان.

اللفظ الثامن: قرابة. فيه أربعة أقوال:

الأوّل: قال مالكٌ في كتاب محمدٍ وابنِ[١] عَبْدوس: إنهم الأقربُ فالأقربُ بالاجتهاد؛ ولا يدخل فيه ولدُ البنات ولا ولدُ الخالات.

الثاني: يدخل فيه أقاربُه من قِبَل أبيه وأُمّه؛ قاله علي بنُ زياد.

الثالث: قال أشهب: يدخل فيه كلُّ رَحِمٍ من الرجال والنساء.

الرابع: قال ابن كِنَانة: يدخل فيه الأعمامُ والعمَّات والأخوال والخالات[٢] وبنات الأخت.

وقد قال ابن عباس في تفسير قولهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾ [الشورى:٢٣] قال: إلّا أنْ تَصِلوا قرابةَ ما بيني وبينكم؛ وقال: لم يكن بطنٌ من قريشٍ إلا كان بينه وبين النبيِّ ﷺ قرابة[٣]. فهذا يَضبِطه، والله أعلم.

اللفظ التاسع: العشيرة. ويضبِطه الحديثُ الصحيح: إن الله تعالى لما أنزل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] دعا النبيُّ ﷺ بطونَ قريشٍ وسمَّاهم، كما تقدَّم ذِكْرُه[٤]، وهم العشيرة الأقربون، وسِوَاهم عشيرةٌ في الإطلاق. واللفظ يُحمل على الأخصِّ الأقربِ بالاجتهاد، كما تقدَّم مِن قول علمائنا.

اللفظ العاشر: القوم. يُحمل[٥] ذلك على الرجال خاصَّةً من العَصَبة دون النساء. والقوم يشمل الرجالَ والنساء؛ وإن كان الشاعر قد قال:

---

(١) لفظة: و، ليست في (م).

(٢) في بعض النسخ الخطية من أحكام القرآن (كما في حواشيه) زيادة: وبنات الأخ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٢٤)، والبخاري (٣٤٩٧).

(٤) ١٦/ ٨٣.

(٥) قبلها في المطبوع من أحكام القرآن: قال القرويون.

ومـــا أدري وســـوف إخـــال أدري أقـــومٌ آل حِـــصْـــنٍ أم نـــســـاءُ[١]

ولكنه أراد أنَّ الرجل إذا دعا قومه للنُّصرة، عنى الرجال، وإذا دعاهم للحُرْمة، دخل فيهم الرجالُ والنساء؛ فتَعُمُّه الصفة وتخصِّصه القرينة.

اللفظ الحادي عشر: المَوَالي. قال مالك: يدخل فيه موالي أبيه وابنِه مع مواليه. وقال ابن وهب: يدخل فيه أولادُ مواليه.

قال ابن العربي[٢]: والذي يتحصَّل منه أنه يدخل فيه مَن يرثه بالوَلاء؛ قال: وهذه فصولُ الكلام وأصولُه المرتبطةُ بظاهر القرآن والسنة المبيِّنة له؛ والتفريعُ والتتميم في كتب[٣] المسائل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ وقُرِئ: «بَلْ مَتَّعْنا»[٤]. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: في الدنيا بالإمهال. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: محمدٌ ﷺ بالتوحيد والإسلامِ الذي هو أصلُ دين إبراهيم؛ وهو الكلمة التي بقَّاها اللهُ في عقبه. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يبيِّن لهم ما بهم إليه حاجة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القرآن. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون[٥].

---

(١) سلف ٢/ ١٠٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٠ ، وما قبله منه.

(٣) المثبت من (ف) وأحكام القرآن، وفي باقي النسخ: كتاب.

(٤) هي قراءة الأعمش كما في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢ ، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٦ .

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ﴾ أي: هلّا نزل ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وقرئ: «على رَجْل» بسكون الجيم. ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: من إحدى القريتَين؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: من أحدهما[١]. أو على أحدِ رجلين من القريتين. القريتان: مكة والطائف. والرجلان: الوليدُ بنُ المغيرة بنِ عبد الله بن عمر ابن مخزوم عمُّ أبي جهل. والذي من الطائف أبو مسعود عروة بنُ مسعود الثقفي؛ قاله قتادة. وقيل: عمير بنُ عبد ياليل الثقفي من الطائف، وعتبة بنُ ربيعة من مكة؛ وهو قول مجاهد. وعن ابن عباس: أنَّ عظيم الطائف حبيب بنُ عمرٍو الثقفي. وقال السُّدِّيّ: كنانة بنُ عبد بنِ عمرو. وروي أنَّ الوليد بنَ المغيرة ـ وكان يُسمى ريحانةَ قريش ـ كان يقول: لو كان ما يقول محمدٌ حقًّا، لنزل عليَّ أو على أبي مسعود؛ فقال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[٢] يعني النبوَّةَ فيضعونها حيث شاؤوا![٣]

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أَفْقَرنا قوماً وأغنينا قوماً؛ فإذا لم يكن أمرُ الدنيا إليهم؛ فكيف نفوِّض أمرَ النبوَّة إليهم؟ قال قتادة: تَلْقاه ضعيفَ القوَّة قليلَ الحيلة عَييَّ اللسان وهو مبسوطٌ له، وتلقاه شديدَ الحيلة بسيطَ اللسان وهو مُقتَّرٌ عليه[٤].

وقرأ ابن عباس ومجاهدٌ وابن مُحَيْصِن في رواية عنه: «مَعَايِشَهُمْ»[٥]. وقيل: أي: نحن أعطينا عظيمَ القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما عليَّ، وأنا قادرٌ على نزع النِّعمةِ عنهما، فأيُّ فضلٍ وقَدْرٍ لهما؟!

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: فاضَلْنا بينهم، فمن فاضلٍ ومفضول

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٥. وقراءة «رَجْل» بسكون الجيم شاذة.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٥٨٠-٥٨٤، وينظر الوسيط للواحدي ٤/ ٧٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٨٤-٥٨٥.

(٥) ذكر القراءة عن ابن عباس ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥.

ورئيس ومرؤوس؛ قاله مقاتل. وقيل: بالحرية والرِّق؛ فبعضهم مالِكٌ وبعضهم مملوك. وقيل: بالغِنى والفقر؛ فبعضُهم غنيٌّ وبعضهم فقير. وقيل: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قال السُّدِّيُّ وابن زيد: خَوَلاً وخُدَّاماً، يسخِّر الأغنياءُ الفقراءَ، فيكون بعضُهم سبباً لمعاشِ بعض. وقال قتادة والضحاك: يعني ليملكَ بعضُهم بعضاً[٢]. وقيل: هو من السُّخرِيَّة التي بمعنى الاستهزاء؛ أي: لِيستهزئَ الغنيُّ بالفقير[٣]. قال الأخفش: سَخِرت به وسَخِرت منه، وضَحِكت منه وضَحِكت به، وهزِئت منه وبه؛ كلٌّ يقال، والاسم: السُّخرِيَّة، بالضم؛ والسُّخْرِيُّ والسِّخْرِيّ، بالضمِّ والكسر[٤]. وكلُّ الناس ضمُّوا «سُخْرِيًّا» إلا ابنَ مُحَيْصِن ومجاهداً، فإنهما قرأا: «سِخْرِيًّا»[٥].

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: أفضل ممَّا يجمعون من الدنيا. ثم قيل: الرحمة: النبوَّة، وقيل: الجنة. وقيل: تمامُ الفرائض خيرٌ من كثرة النوافل. وقيل: ما يَتفضَّل به عليهم خيرٌ مما يجازيهم عليه من أعمالهم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قال العلماء: ذَكَرَ حقارةَ الدنيا وقلَّةَ خطرها، وأنها عنده من الهوان

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ .

(٢) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٥٨٥-٥٨٦ بنحوها.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٧ .

(٤) الصحاح (سخر)، وكلام الأخفش فيه.

(٥) ذكر قراءة ابن محيصن ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٢٤ .

بحيث كان يَجعل بيوتَ الكَفَرةِ ودَرَجَها ذهباً وفِضَّةً لولا غلبةُ حبِّ الدنيا على القلوب؛ فيَحمِلُ ذلك على الكفر[١].

قال الحسن: المعنى: لولا أنْ يكفُرَ الناسُ جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركِهم الآخرةَ، لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه؛ لِهوان الدنيا عند الله عزَّ وجلَّ. وعلى هذا أكثرُ المفسِّرين، ابنُ عباس والسُّدِّيُّ وغيرهم.

وقال ابن زيد: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» في طلب الدنيا واختيارِها على الآخرة «لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سقُفُاً مِنْ فِضَّةٍ»[٢].

وقال الكسائي: المعنى: لولا أن يكونَ في الكفار غنيٌّ وفقير وفي المسلمين مِثلُ ذلك، لأعطينا الكفارَ من الدنيا هذا لهوانها.

الثانية: قرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو: «سَقْفًا» بفتح السين وإسكان القاف على الواحد، ومعناه الجمع، اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦]. وقرأ الباقون بضمِّ السينِ والقافِ على الجمع[٣]؛ مثل: رَهْن ورُهُن. قال أبو عبيد[٤]: ولا ثالث لهما. وقيل: هو جمع سقيف؛ مثل: كَثِيب وكُثُب، ورَغيف ورُغُف؛ قاله الفراء. وقيل: هو جمع سُقُوف، فيصير جَمْعَ الجمع[٥]؛ سَقْف وسُقُوف، نحو: فَلْس وفُلُوس. ثم جعلوا فُعولاً كأنه اسمُ واحد، فجمعوه على فُعُل.

وروي عن مجاهد: «سَقْفاً» بإسكان القاف[٦].

وقيل: اللام في «لِبيُوتِهِمْ» بمعنى على، أي: على بيوتهم. وقيل: بدل؛ كما

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٧٠ .

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٥٨٧ - ٥٨٨ .

(٣) السبعة ص٥٨٥ ، والتيسير ص١٩٦ . وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٥٨٩ .

(٤) في تفسير البغوي ٤/ ١٣٨ والكلام منه: أبو عبيدة.

(٥) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

تقول: فعلت هذا لزيدٍ لكرامته؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] كذلك قال هنا: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ يعني الدَّرَج؛ قاله ابن عباس، وهو قولُ الجمهور. واحدها مِعراج[٢]، والمِعراج: السُّلَّم؛ ومنه ليلة المعراج. والجمع: معارج ومعاريج؛ مثل: مفاتح ومفاتيح[٣]؛ لغتان.

«وَمَعَارِيجَ» قرأ أبو رجاء العُطَارِدِيُّ وطلحة بنُ مُصَرِّف[٤]؛ وهي المراقي والسلاليم. قال الأخفش: إن شئتَ جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج؛ مثل: مِرقاة ومَرقاة[٥].

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: على المعارج يرتقون ويصعدون؛ يقال: ظهرت على البيت، أي: علوتُ سطحَه. وهذا لأنَّ مَن علا شيئاً وارتفع عليه ظهر للناظرين. ويقال: ظهرت على الشيء، أي: عَلِمْته. وظهرت على العدوّ، أي: غلبته.

وأنشد نابغةُ بني جَعْدَةَ رسولَ الله ﷺ قولَه:

عَلَوْنا السماءَ عِزَّةً ومهابةً وإنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرا[٦]

أي: مصعداً؛ فغضب رسولُ الله ﷺ وقال: «إلى أين؟» قال: إلى الجنة؟، قال: «أجل إن شاء الله»[٧].

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣١، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٢٤، وأخرج قول ابن عباس وغيره الطبري ٢٠/ ٥٩٠-٥٩١.

(٣) الصحاح (عرج).

(٤) قراءة طلحة في القراءات الشاذة ص٨٥. والمحرر الوجيز ٥/ ٥٤.

(٥) الصحاح (عرج).

(٦) ورد البيت في الديوان ص٥١ و ٦٨ في قصيدتين، في الأولى براوية: بلغنا السماء مجدنا وجدودنا، وفي الثانية: بلغنا السما مجداً وجوداً وسودداً.

(٧) أخرجه البزار (٢١٠٤ كشف الأستار). قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٢٦: فيه يعلى بن الأشدق، وهو ضعيف. اهـ. ورواية البيت فيه: علونا العباد عفة وتكرماً.

قال الحسن: واللهِ لقد مالت الدنيا بأكثرِ أهلِها وما فَعَلَ ذلك! فكيف لو فعل؟![١]

الرابعة: استدلَّ بعض العلماء بهذه الآيةِ على أنَّ السقف لا حَقَّ فيه لربِّ العُلْو؛ لأن الله تعالى جعل السقوفَ للبيوت كما جعل الأبوابَ لها. وهذا مذهبُ مالكٍ رحمه الله.

قال ابن العربي[٢]: وذلك لأنَّ البيت عبارةٌ عن قاعة وجدار وسقف وباب، فمَن له البيتُ، فله أركانه. ولا خلاف أنَّ العُلْوَ له إلى السماء. واختلفوا في السُّفل؛ فمنهم مَن قال: هو له، ومنهم مَن قال: ليس له في باطن الأرض شيء. وفي مذهبنا القولان. وقد بيَّن حديثُ الإسرائيليِّ الصحيحِ ـ فيما تقدَّم ـ أنَّ رجلاً باع من رجل داراً، فبناها فوجد فيها جَرَّةً مِن ذهب، فجاء بها إلى البائع فقال: إنما اشتريتُ الدارَ دون الجرَّة، وقال البائع: إنما بِعتُ الدار بما فيها، وكلاهما[٣] تدافعها. فقُضي بينهم[٤] أنْ يزوِّجَ أحدُهما ولدَه مِن بنت الآخرَ ويكون المال لهما[٥]. والصحيح أنَّ العُلْو والسُّفل له، إلَّا أنْ يَخرُجَ عنهما بالبيع، فإذا باع أحدُهما أحدَ الموضعين فله منه ما ينتفع به، وباقيه للمبتاع منه.

الخامسة: مِن أحكام العُلْو والسُّفل: إذا كان العُلْوُ والسُّفلُ بين رجلين، فيعتلُّ السُّفلُ أو يريد صاحبُه هَدْمَه؛ فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال: إذا أراد صاحبُ السُّفل أن يَهدِم، أو أراد صاحبُ العلو أن يبني عُلْوَه، فليس لصاحب السفل أن يهدم إلَّا مِن ضرورة، ويكون هدمُه له أرفقَ لصاحب العلو؛ لئلا ينهدم بانهدامه العلو،

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٨٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٠ . وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

(٣) في النسخ: وكلهم، والمثبت من أحكام القرآن.

(٤) في النسخ زيادة: النبي ﷺ.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٨١٩١)، والبخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وليس لربِّ العلو أن يبنيَ على عُلْوه شيئاً لم يكن قبل ذلك، إلا الشيءَ الخفيفَ الذي لا يَضُرُّ بصاحب السفل. ولو انكسرت خشبةٌ من سقف العلو، لَأَدخلَ مكانَها خشبةً ما لم تكن أثقلَ منها ويُخافُ ضررُها على صاحب السفل. قال أشهب: وباب الدار على صاحب السفل. قال: ولو انهدم السُّفلُ أُجبر صاحبُه على بنائه، وليس على صاحب العُلْوِ أن يبنيَ السُّفل؛ فإن أبى صاحبُ السُّفل من البناء، قيل له: بِعْ ممن يبني.

وروى ابن القاسم عن مالكٍ في السُّفل لرجل والعلوِ لآخر، فاعتلَّ السُّفل، فإنَّ صلاحه على ربِّ السُّفل، وعليه تعليقُ العُلْوِ حتى يُصلِحَ سُفلَه؛ لأن عليه: إمَّا أن يَحمِلَه على بنيان، أو على تعليق، وكذلك لو كان على العُلو عُلْوٌ، فتعليق العُلوِ الثاني على صاحب الأوسط. وقد قيل: إنَّ تعليق العُلو الثاني على ربِّ العُلو حتى يبنيَ الأسفل[(١)].

وحديث النعمان بنِ بشير عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ القائمِ على حدود الله والواقعِ فيها كمثل قومٍ اسْتَهَمُوا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوا من الماء، مرُّوا على مَن فوقهم فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خَرْقاً ولم نؤذِ مَن فوقنا. فإنْ يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً. وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعاً»[(٢)] أصلٌ في هذا الباب. وهو حُجَّةٌ لمالكٍ وأشهب. وفيه دليلٌ على أنَّ صاحب السفل ليس له أن يُحدِثَ على صاحب العُلْوِ ما يَضرُّ به، وأنه إن أحدث عليه ضرراً؛ لَزِمه إصلاحُه دون صاحبِ العُلو، وأنَّ لصاحب العُلو منعَه من الضرر؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً» ولا يجوز الأخذُ إلَّا على يد الظالم أو مَن هو ممنوعٌ من إحداث ما لا يجوز له في السُّنة.

وفيه دليلٌ على استحقاق العقوبةِ بترك الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وقد

---

(١) ينظر النوادر والزيادات ١١/ ٢٢٧، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٦٤٣.

(٢) سلف ٩/ ٤٨٧.

مضى في «الأنفال»[١].

وفيه دليلٌ على جواز القُرعةِ واستعمالِها، وقد مضى في «آل عمران»[٢]. فتأمَّل كُلًّا في موضعه تجدْه مبيَّناً، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: ولَجعلنا لبيوتهم. وقيل: «لِبُيُوتِهِمْ» بدلُ اشتمالٍ مِن قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٣]. «أبواباً» أي: مِن فضة. ﴿وَسُرُرًا﴾ كذلك؛ وهو جمع السَّرير[٤]. وقيل: جمع الأَسِرَّة، والأَسِرَّة جمعُ السرير، فيكون جمعَ الجمع[٥].

﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ الاتِّكاء والتَّوكُّؤ: التحامل على الشيء[٦]؛ ومنه: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٨]. ورجل تُكَأَة، مثال هُمَزَة: كثير الاتِّكاء. والتُّكَأَة أيضاً: ما يُتَّكأ عليه. واتَّكأ على الشيء فهو متَّكِئ؛ والموضع متَّكَأ. وطعنه حتى أتكأه، على أَفْعَلَه، أي: ألقاه على هيئة المُتَّكِئ. وتوكَّأت على العصا. وأصل التاء في جميع ذلك واو[٧]، ففُعل به ما فُعل بـ: اتَّزن واتَّعد.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ الزُّخرف هنا الذهب؛ عن ابن عباس وغيرِه[٨]. نظيرُه: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ

---

(١) ٩/ ٤٨٧.

(٢) ٥/ ١٣٢.

(٣) مضى في المسألة الثانية من الآية السابقة.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٧١.

(٥) ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٧.

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٧١.

(٧) الصحاح (وكأ).

(٨) أخرجه عنه وعن غيره الطبري ٢٠/ ٥٩٢-٥٩٣.

بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣][١] وقد تقدَّم[٢]. وقال ابن زيد: هو ما يتخذه الناسُ في منازلهم من الأمتعة والأثاث[٣]. وقال الحسن: النقوش[٤]؛ وأصله الزينة. يقال: زخرفت الدار، أي: زيَّنتها. وتزخرف فلان، أي: تزيَّن[٥]. وانتصب «زُخْرُفاً» على معنى: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً. وقيل: بنزع الخافض؛ والمعنى: لَجعلنا[٦] لهم سُقُفاً وأبواباً وسُرُراً من فضة ومِن ذهب؛ فلما حَذف «مِن»، قال: «وزخرفاً» فنصب.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ عاصمٌ وحمزة وهشام عن ابن عامر: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالتشديد. الباقون بالتخفيف[٧]؛ وقد ذُكر هذا. وروي عن أبي رجاءٍ كسرُ اللام من «لما»؛ فـ «ما» عنده بمنزلة الذي، والعائدُ عليها محذوف، والتقدير: وإنْ كلُّ ذلك لِلذي هو متاعُ الحياةِ الدنيا[٨]، وحذفُ الضمير هاهنا كحذفه في قراءة مَن قرأ: ﴿مَثَلًا مَّا بعوضةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾[٩] [البقرة: ٢٦] و﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

أبو الفتح: ينبغي أنْ يكونَ «كُلُّ» على هذه القراءةِ منصوبةً؛ لأنَّ «إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، وهي إذا خُفِّفت وبطَلَ عملُها، لَزِمتها اللامُ في آخر الكلام؛ للفرق بينها وبين «إن» النافيةِ التي بمعنى «ما»؛ نحو: إنْ زيدٌ لقائم، ولا لامَ هنا سوى الجارَّة[١٠].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٣٨ .

(٢) ١٣/ ١٧٦ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٢٥ .

(٥) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٦٧٢ .

(٦) في (د) و(م): فجعلنا. وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٩ .

(٧) وهو الوجه الثاني لهشام. السبعة ص٥٨٦ ، والتيسير ص١٩٦ .

(٨) المحتسب ٢/ ٢٥٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

(٩) أي: ما هو بعوضة. المحتسب ٢/ ٢٥٥ ، وهي قراءة شاذة، وينظر ١/ ٣٦٥ .

(١٠) المحتسب ٢/ ٢٥٥ . وقال ابن جني بعد ذلك: ولو جاءت معها لوجب أن تقول: وإنْ كلُّ ذلك لَلِما =

﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يريد: الجنةُ لمن اتَّقى وخاف.

وقال كعب: إني لأجد في بعض كتبِ الله المنزلة: لولا أنْ يَحْزَن عبدي المؤمن، لكلَّلتُ رأسَ عبدي الكافرِ بالإكليل، ولا يتصدَّعُ ولا يَنبِض منه عِرْقٌ بوجع[1].

وفي صحيح الترمذيِّ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الدنيا سجنُ المؤمن وجَنة الكافر»[2]. وعن سهل بنِ سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَعْدِل عند الله جَناحَ بعوضة، ما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماء». وفي الباب عن أبي هريرة، وقال: حديثٌ صحيح[3] غريب[4].

وأنشدوا:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسنٍ ... إذاً لم يكن فيها معاشٌ لظالمِ

لقد جاع فيها الأنبياءُ كرامةً ... وقد شَبِعت فيها بطونُ البهائمِ

وقال آخر[5]:

تَسَمَّعْ[6] من الأيام إن كنت حازماً ... فإنَّك فيها بين ناهٍ وآمِرِ

إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه ... فما فاته منها فليس بضائرِ

فلا تَزِنُ الدنيا جناحَ بعوضةٍ ... ولا وزنَ زِفٍّ[7] من جَناحٍ لطائرِ

= متاعُ الحياة الدنيا. وقال السمين الحلبي في الدرّ المصون ٩/ ٥٨٦ : كان الوجه أن تدخل اللام الفارقة لعدم إعمالها، إلا أنها لما دلَّ الدليل على الإثبات جاز حذفها.

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٩٧ عن معمر، عن أبان.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٢٤)، وهو عند أحمد (٨٢٨٩)، ومسلم (٢٩٥٦).

(٣) في (د) و(م): حسن.

(٤) سنن الترمذي (٢٣٢٠). وسلف ٨/ ٣٦٢ .

(٥) هو أبو العتاهية، وقد سلفت الأبيات ٨/ ٣٦٣ باختلاف يسير.

(٦) في (م): تمتع.

(٧) في (د) و(ز) و(م): رق، وفي (ظ): زق، والمثبت من الموضع السالف للأبيات. والزف: صغار ريش النعام، أو كل طائر. القاموس (زفف).

فلم يرضَ بالدنيا ثواباً لمحسنٍ ولا رَضِيَ الدنيا عقاباً لكافرِ

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ وقرأ ابن عباسٍ وعكرمة: «ومَن يَعْشَ» بفتح الشين[١]، ومعناه: يعمَى؛ يقال منه: عَشِيَ يَعْشَى عَشاً: إذا عَمِيَ. ورجلٌ أعشى وامرأةٌ عشواء: إذا كان لا يُبصر؛ ومنه قولُ الأعشى:

رأتْ رجلاً غائبَ الوافِدَيْـ ـنِ مختلِفَ الخَلْقِ أعْشَى ضريرا[٢]

وقولُه:

أأنْ رأتْ رجلاً أعشى أضرَّ به رَيْبُ المَنُونِ ودَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ[٣]

الباقون بالضم؛ مِن: عشا يعشُو: إذا لَحِقَه ما يلحق الأعشى[٤].

وقال الخليل: العَشْو هو النظر ببصرٍ ضعيف؛ وأنشد:

متى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ[٥]

وقال آخر:

لَنِعمَ الفتى تعشو إلى ضوء ناره إذا الريحُ هبَّت والمكانُ جديبُ[٦]

---

(١) قراءة ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ .

(٢) ديوان الأعشى ص١٤٥ . والوافد: المرتفِع من الخد عند المضغ. ومن شاب غاب وافداه. القاموس (وفد).

(٣) سلف ٥/ ١٧٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٠ .

(٥) البيت للحطيئة، وسلف ٤/ ٤٩١ . وكلام الخليل في تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ ، وينظر كتاب العين ٢/ ١٨٧ .

(٦) قائله الحطيئة، وهو في ديوانه ص٢٤٨ . قال شارحه: الشطر الثاني يعني في الشتاء والجدب.

الجوهريّ: والعَشَا ـ مقصور ـ مصدرُ الأعشى، وهو الذي لا يُبصر بالليل ويبصر بالنهار. والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان. وأعشاه اللهُ فعَشِيَ ـ بالكسر ـ يَعْشَى عَشًا، وهما يَعْشَيان، ولم يقولوا: يَعْشَوان؛ لأن الواو لمَّا صارت في الواحد ياءً لكسرة ما قبلها، تُركت في التثنية على حالها. وتعاشَى: إذا أرى مِن نفسه أنه أعشى. والنسبة إلى أَعْشَى أعْشَوِيّ. وإلى العَشِيَّة عَشَوِيّ. والعشواء: الناقة التي لا تُبصر أمامها؛ فهي تَخْبِط بيديها كلَّ شيء. ورَكِبَ فلانٌ العشواء: إذا خَبَط أمرَه على غير بصيرة. وفلانٌ خابطٌ خَبْطَ عشواء[1].

وهذه الآية تتصل بقوله أوّلَ السورة: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الآية: ٥] أي: نواصل لكم الذِّكر؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكرِ بالإعراض عنه إلى أقاويل المضِلِّين وأباطيلِهم «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً» أي: نسبِّبْ له شيطاناً جزاءً له على كفره «فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» قيل: في الدنيا، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية؛ وهو معنى قولِ ابنِ عباس[2].

وقيل: في الآخرة إذا قام مِن قبره؛ قاله سعيد الجُرَيْرِي.

وفي الخبر: أنَّ الكافر إذا خرج من قبره، يُشْفَعُ بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأنَّ المؤمن يُشْفع بملَكَ حتى يقضيَ اللهُ بين خلقه؛ ذكره المهدويّ[3].

وقال القُشيري: والصحيح: فهو له قرينٌ في الدنيا والآخرة.

وقال أبو الهيثم والأزهري: عَشَوْتُ إلى كذا، أي: قصدته. وعشوت عن كذا، أي: أَعرضت عنه، فتفرّق بين «إلى» و«عن»؛ مثل: ملْتُ إليه، ومِلْتُ عنه[4]. وكذا

(١) الصحاح (عشو).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٢٦ .

(٣) وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٩ عن سعيد الجُريري بنحوه، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٢٦ لسعيد بن جبير.

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٥٥-٥٦ .

قال قتادة: يَعْشُ: يُعْرِض؛ وهو قول الفراء[١].

النحاس[٢]: وهو غيرُ معروفٍ في اللغة. وقال القُرَظي: يولِّي ظهره؛ والمعنى واحد. وقال أبو عبيدة والأخفش: تُظْلِم عينُه [عنه][٣].

وأنكر القُتَبيُّ[٤] عشوت بمعنى أعرضت؛ قال: وإنما الصواب: تعاشيت. والقول قول أبي الهيثم والأزهري. وكذلك قال جميع أهل المعرفة.

وقرأ السُّلَمِيُّ، وابن أبي إسحاق، ويعقوبُ، وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش: «يقيِّض» بالياء؛ لِذِكر «الرَّحْمَن» أوّلاً؛ أي: يقيِّض له الرحمنُ شيطاناً[٥]. الباقون بالنون.

وعن ابن عباس: «يُقَيَّضْ له شيطانٌ فهو له قرين»[٦] أي: ملازمٌ ومصاحب. قيل: «فَهُوَ» كنايةٌ عن الشيطان؛ على ما تقدَّم. وقيل: عن الإعراض[٧] عن القرآن؛ أي: هو قرينٌ للشيطان.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وإنَّ الشياطين لَيصدُّونهم عن سبيل الهدى؛ وذُكر بلفظ الجمع؛ لأن «مَن» في قوله: «وَمَنْ يَعْشُ» في معنى الجمع[٨].

---

(١) معاني القرآن له ٣/ ٣٢ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٦ . قال الفراء: ومن قرأها: يَعْشَ عن: يريد: يَعْمَ عنه.

(٢) في معاني القرآن ٦/ ٣٥٧ .

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة، وما بين حاصرتين منه، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣١٥ ، وذكره البغوي ٤/ ١٣٩ عن أبي عبيدة والأخفش بلفظ: يظلم بصرف بصره عنه.

(٤) في تفسير غريب القرآن ص٣٩٨ . ووقع في (د) و(ز) و(م): العتبي.

(٥) قراءة السلمي والأعمش في القراءات الشاذة ص١٣٥ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٦٩ ، ورواية عصمة ـ وهي عن أبي بكر عن عاصم ـ في جامع البيان ٢/ ٤٠١ ، والنشر ٢/ ٣٦٩ ، والقراءات الشاذة ص١٣٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٥ .

(٧) في النسخ الخطية: التعرض.

(٨) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٠ .

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: ويحسب الكفار ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وقيل: ويَحسبُ الكفار أنَّ الشياطين مهتدون فيطيعونهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرٍو وحمزة والكسائيُّ وحفص؛ يعني: الكافر يوم القيامة. الباقون: «جاءانا» على التثنية[١]، يعني: الكافر وقرينه وقد جُعلا في سلسلة واحدة[٢]؛ فيقول الكافر: «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ» أي: مشرق الشتاء ومشرقُ الصيف[٣]، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] ونحوُه قولُ مقاتل[٤].

وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرُها الإفراد، فالمعنى لهما جميعاً؛ لأنه قد عرَّف ذلك بما بعده؛ كما قال:

وعَيْنٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ ... شُقَّت مآقيهما من أُخَرْ[٥]

قال مقاتل: يتمنَّى الكافرُ أنَّ بينهما بُعْدَ مشرِق أطولِ يومٍ في السنة إلى مَشْرِق أقصرِ يومٍ في السنة، ولذلك قال: «بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ»[٦].

وقال الفراء[٧]: أراد المشرقَ والمغرب، فغَلَّب اسمَ أحدهما، كما يقال: القمران: للشمس والقمر، والعُمَران: لأبي بكر وعمر، والبصرتان: للكوفة والبصرة، والعصران: للغَدَاة والعصر. وقال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماءِ عليكُمُ ... لنا قمراها والنجوم الطوالعُ[٨]

---

(١) السبعة ص٥٨٦، والتيسير ص١٩٦.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/٧٣، وتفسير البغوي ٤/١٣٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/٣٣، وتفسير الطبري ٢٠/٥٩٨.

(٤) سيأتي قوله.

(٥) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٦، وسلف ١٦/٢٦.

(٦) ذكر قوله بنحوه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/٣١٦.

(٧) في معاني القرآن ٣/٣٣.

(٨) سلف عند تفسير الآية (٥٢) من سورة فصلت.

وأنشد أبو عبيدة لجرير:

ما كان يرضى رسولُ الله فعلَهُمُ والعُمَران[١] أبو بكر ولا عُمرُ

وأنشد سيبويه:

قَدْنِيَ مِن نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِي

يريد عبدَ الله ومصعباً ابنيَ الزبير، وإنما أبو خبيب عبدُ الله[٢].

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي: فبئس الصاحبُ أنت؛ لأنه يورده إلى النار. قال أبو سعيد الخُدرِيّ: إذا بُعث الكافرُ، زُوِّج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقُه حتى يصيِّرَه إلى النار[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ «إذْ» بَدَلٌ من اليوم؛ أي: يقول الله للكافرين[٤]: لن ينفعَكم اليوم إذ أشركتم في الدنيا هذا الكلامُ؛ وهو قولُ الكافر: «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ» أي: لا تنفع الندامة اليوم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ بالكسر ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وهي قراءة ابنِ عامر باختلاف عنه. الباقون بالفتح[٥]. وهي في موضعِ رفع، تقديره: ولن ينفعكم اليوم اشتراكُكم في العذاب[٦]؛ لأنَّ لكل واحدٍ نصيبَه الأوفرَ منه. أَعْلَمَ اللهُ تعالى أنه مَنعَ أهلَ النار التأسِّيَ كما يتأسَّى أهلُ المصائب في الدنيا، وذلك أنَّ التأسِّيَ يستروِحه أهلُ الدنيا، فيقول أحدهم: لي

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): والطيبان، وسلف بهذا اللفظ عند تفسير الآية (٣٤) من سورة فصلت.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٦١ . وسلف الرجز عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الصافات.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ .

(٤) في النسخ عدا (ظ): للكافر.

(٥) السبعة ص٥٨٦ . وقراءة ابن عامر المذكورة هي من رواية التغلبي عنه، كما ذكر أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٠١ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١١ .

في البلاء والمصيبة أُسوة؛ فيُسكن ذلك مِن حزنه؛ كما قالت الخنساء:

فلولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثلَ أخي ولكن ... أُعزِّي النفسَ عنه بالتأسِّي[١]

فإذا كان في الآخرة، لم ينفعهم التأسِّي شيئاً؛ لِشغلهم بالعذاب.

وقال مقاتل: لن ينفعَكم الاعتذارُ والندم اليوم؛ لأن قُرَناءكم وأنتم في العذابِ مشترِكون كما اشتركتم في الكفر[٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ يا محمد ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ليس لك ذلك؛ فلا يضيقُ صدرُك إن كفروا؛ ففيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ. وفيه ردٌّ على القَدَرية وغيرِهم، وأنَّ الهدى والرُّشدَ والخِذلان في القلب خَلْقُ الله تعالى، يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد: نخرجنَّك من مكةَ من أذى قريش[٣]. ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ. أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ وهو الانتقامُ منهم في حياتك. ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس: قد أراه اللهُ ذلك يومَ بدر[٤]؛ وهو قولُ أكثرِ المفسرين[٥].

---

(١) ديوانها ص٨٤-٨٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٤٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.

(٤) زاد المسير ٧/ ٣١٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٤٠.

وقال الحسن وقتادة: هي في أهل الإسلام؛ يريد ما كان بعد النبيِّ ﷺ مِن الفتن. و«نَذْهَبَنَّ بِكَ» على هذا: نتوفَّينَّك. وقد كان بعد النبيِّ ﷺ نِقمةٌ شديدةٌ، فأكرم الله نبيَّه ﷺ وذهب به، فلم يُرِه في أُمته إلَّا الذي[١] تَقَرُّ به عينُه، وأبقى النِّقمةَ بعده، وليس مِن نبيٍّ إلَّا وقد أُرِي النقمةَ في أمته[٢]. ورُوِيَ أن النبيَّ ﷺ أُرِي ما لَقِيَت أُمَّتُه مِن بعده، فما زال منقبضاً، ما انبسط ضاحكاً حتى لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ[٣]. وعن ابن مسعود: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا أراد اللهُ بأُمَّة خيراً، قَبض نبيَّها قبلها، فجعله لها فَرَطاً وسَلَفاً. وإذا أراد بأمة عذاباً، عذَّبها ونبيُّها حيٌّ؛ لتَقَرَّ عينُه لمَّا كذَّبوه وعصَوا أمرَه»[٤].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يريد: القرآن، وإنْ كذَّب به مَن كذَّب؛ فَـ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يوصلك إلى الله ورضاه وثوابه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني: القرآنُ شرفٌ لك ولقومك من قريش[٥]؛ إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم، نظيرُه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: شَرَفُكم. فالقرآن نزل بلسان قريشٍ وإياهم خاطَب؛ فاحتاج أهلُ اللغات كلِّها إلى لسانهم، كلُّ مَن آمن بذلك، فصاروا عِيالاً عليهم؛ لأن أهل كلِّ لغةٍ احتاجوا إلى أنْ يأخذوه من لغتهم، حتى يقفوا على المعنى الذي عني به، من الأمر والنهيِ وجميعِ ما

(١) في النسخ عدا (ظ): التي.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٠ عن الحسن وقتادة بنحوه.

(٣) هو بعض أثر قتادة السالف.

(٤) لم نقف عليه من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه ابن حبان (٦٦٤٧) من حديث أبي موسى ﷺ. وأورده مسلم (٢٢٨٨) وقال فيه: حُدِّثت عن أبي أسامة.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٠٣ ، والطبراني في الكبير (١٣٠٣٠).

فيه من الأنباء، فشَرُفُوا بذلك على سائر أهل اللغات؛ ولذلك سُمِّي عربيًّا.

وقيل: بيانٌ لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة.

وقيل: تذكرةٌ تذكُرون به أمرَ الدِّينِ وتعملون به[١].

وقيل: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» يعني الخلافة؛ فإنها في قريش لا تكون في غيرهم؛ قال النبيُّ ﷺ: «الناس تَبَعٌ لقريش في هذا الشأن، مُسْلمُهم تَبَعٌ لمسلمهم، وكافرُهم تبع لكافرهم»[٢].

وقال مالك: هو قول الرجل: حدَّثني أبي عن أبيه، حكاه ابن أبي سلمة عن أبيه، عن مالك بن أنس، فيما ذكر الماورديُّ[٣] والثعلبيُّ وغيرهما.

قال ابن العربي[٤]: ولم أجد في الإسلام هذه الرتبة[٥] لأحد إلا ببَغْداد، فإنَّ بني التميميِّ بها يقولون: حدَّثني أبي قال: حدَّثني أبي، إلى رسول الله ﷺ؛ وبذلك شَرُفت أَقدارُهم، وعظَّم الناسُ شأنهم، وتهمَّمت الخلافة بهم. ورأيتُ بمدينة السلامِ ابنَي أبي محمدٍ رِزقِ الله بنِ عبد الوهَّاب أبي الفرج بنِ عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد بن أُكَيْنة بنِ عبد الله التميميِّ، وكانا يقولان: سمعنا أبانا رزقَ الله يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول[٦]: سمعت عليَّ بن أبي طالب ﷺ يقول ـ وقد سئل عن الحنَّان المَنَّان ـ فقال: الحنَّان الذي يُقبل على مَن أعرض عنه،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ عن ابن عيسى.

(٢) أخرجه أحمد (٧٣٠٦)، والبخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧١ .

(٥) في أحكام القرآن: المرتبة.

(٦) عبارة: سمعت أبي؛ وردت في (ز) و(ق) سبع مرات، وفي (ظ) ثماني مرات، وفي أحكام القرآن ثلاث مرات. وقد أخرجه الخطيب في تاريخه ١١/ ٣٢ عن عبد الوهاب بن عبد العزيز، بهذا الإسناد.

والمنَّان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال[١]. والقائل سمعتُ عليًّا: أُكَيْنة بنُ عبد الله جَدُّهم الأعلى. والأقوى أن يكون المرادُ بقوله: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» يعني القرآن؛ فعليه انبنى الكلام، وإليه يرجع المصير، والله أعلم.

قال الماورديّ: «وَلِقَوْمِكَ» فيه[٢] قولان: أحدهما: مَن اتَّبعك مِن أمتك؛ قاله قتادة، وذكره الثعلبيُّ[٣] عن الحسن. الثاني: لقومك من قريش؛ فيقال: ممن هذا؟ فيقال: من العرب، فيقال: من أيِّ العرب؟ فيقال: من قريش؛ قاله مجاهد[٤].

قلت: والصحيح أنه شرفٌ لمن عَمِلَ به، كان من قريش أو من غيرهم. رويَ عن ابن عباس قال: أَقبَل نبيُّ الله ﷺ من سَرِيَّة أو غَزَاة، فدعا فاطمةَ فقال: «يا فاطمة، اشتري نفسَك من الله، فإني لا أُغْني عنكِ من الله شيئاً». وقال مثلَ ذلك لِنِسْوَته، وقال مثلَ ذلك لِعترته، ثم قال نبيُّ الله ﷺ: «ما بنو هاشمٍ بأَولى الناس بأمتي، إنَّ أولى الناس بأمتي المتقون، ولا قريشٌ بأولى الناس بأمتي، إنَّ أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الأنصارُ بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الموالي بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون. إنما أنتم من رجل وامرأة، وأنتم كجِمَام[٥] الصاع، ليس لأحد على أحد فضلٌ إلَّا بالتقوى»[٦].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَينتهينَّ أقوامٌ يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونوا[٧] شرًّا عند الله من الجِعلان التي تدفع النَّتْن بأنفها، كلُّكم بنو آدم

---

(١) أورده الذهبي في الميزان ٢/ ٦٢٥ - ٦٢٦ في ترجمة عبد العزيز بن الحارث وقال: آذى نفسه ووضع حديثاً أو حديثين في مسند الإمام أحمد. وقال: وأكثر أجداده لا ذكر لهم لا في تاريخ ولا في أسماء رجال.

(٢) في النسخ: فيهم، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ للماوردي.

(٣) وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧ .

(٤) أخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٠٣ .

(٥) الجمام: الكيل إلى رأس المكيال. القاموس (جمم).

(٦) لم نقف عليه. وقد سلف بمعناه ١٦/ ٨٣ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) في (م): يكونون، وفي مصادر التخريج: ليكونن.

وآدم من تراب، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ[١] الجاهلية وفخرها بالآباء. مؤمن تقيٌّ وفاجر شقي»[٢]. خرَّجهما الطبري[٣]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «الحجرات» إن شاء اللهُ تعالى[٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عن الشكر عليه؛ قاله مقاتلٌ والفرَّاء[٥]. وقال ابن جُريج: أي: تُسألون أنت ومَن معك على ما آتاك[٦]. وقيل: تسألون عما عملتم فيه[٧]؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قال ابن عباس وابنُ زيد: لمَّا أُسريَ برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ـ وهو مسجدُ بيتِ المقدس ـ بعث الله له آدمَ ومَن وُلد من المرسلين، وجبريلُ مع النبيِّ ﷺ؛ فأذَّن جبريل ﷺ ثم أقام الصلاة، ثم قال: يا محمد، تقدَّم فصلِّ بهم؛ فلما فرغ رسولُ الله ﷺ، قال له جبريل ﷺ: «سَلْ يا محمدُ مَن أرسلنا مِن قبلك مِن رسلنا: أَجعلنا مِن دون الرحمنِ آلهةً يُعبدون». فقال رسول الله ﷺ: «لا أسأل؛ قد اكتفيت»[٨]. قال ابن عباس: وكانوا سبعين نبيًّا، منهم إبراهيمُ وموسى وعيسى عليهم السلام؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلمَ بالله منهم[٩].

---

(١) العبيَّة: الكِبْر. النهاية (عبب).

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥) وقال: حديث حسن غريب.

(٣) لم نقف عليهما عنده.

(٤) عند تفسير الآية (١٣) منها.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤، وقول مقاتل في النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.

(٧) تفسير الرازي ٢٧/ ٢١٥.

(٨) ذكره عنهما الواحدي في الوسيط ٤/ ٧٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤١، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٥ عن ابن زيد.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٢٢٨.

في غير رواية ابنِ عباس: فصلَّوا خلف رسول الله ﷺ سبعةَ صفوف، المرسلون ثلاثةُ صفوف، والنبيون أربعة؛ وكان يلي ظهرَ رسول الله ﷺ إبراهيمُ خليل الله، وعلى يمينه إسماعيل، وعلى يساره إسحاق، ثم موسى، ثم سائر المرسلين، فأَمَّهم ركعتين؛ فلمَّا انفتل قام فقال: «إنَّ ربي أوحى إليَّ أنْ أسألَكم: هل أُرسل أحدٌ منكم يدعو إلى عبادةِ غير الله تعالى؟» فقالوا: يا محمد، إنا نشهد أنَّا أُرسلنا أجمعين بدعوة واحدة: أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ ما يعبدون من دونه باطل، وأنك خاتمُ النبيين وسيد المرسلين، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيَّانا، وأنْ لا نبيَّ بعدك إلى يوم القيامة، إلا عيسى ابنَ مريم فإنه مأمورٌ أن يتَّبعَ أثرك».

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا» قال: لقيَ الرُّسلَ ليلةَ أُسري به[(١)].

وقال الوليد بن مسلم في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ قال: سألتُ عن ذلك خُلَيد بنَ دَعْلَج[(٢)]، فحدَّثني عن قتادة قال: سألهم ليلةَ أُسري به، لقي الأنبياءَ، ولقي آدم ومالك خازنَ النار.

قلت: هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية. و«مِنْ» التي قبل «رُسُلِنَا» على هذا القولِ غيرُ زائدة.

وقال المبرِّد وجماعةٌ من العلماء: إنَّ المعنى: واسأل أممَ مَن قد أرسلنا من قبلك مِن رسلنا. وروي أنَّ في قراءة ابنِ مسعود: «وَاسْأَلْ الذين[(٣)] أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلنا»[(٤)]. وهذه قراءةٌ مفسِّرة؛ فـ «مِن» على هذا زائدة، وهو قول مجاهدٍ والسُّدِّيِّ

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٩، ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) أبو حَلْبَس، ويقال: أبو عبيد، وأبو عمرو، وأبو عمر، السَّدوسي. محدث بصري ضعيف، نزل الموصل ثم سكن بيت المقدس. مات بحران سنة ١٦٦هـ. السير ٧/ ١٩٥.

(٣) في النسخ عدا (ف): الذي، وهو خطأ.

(٤) أخرج القراءة الطبري ٢٠/ ٦٠٤، وذكرها البغوي في تفسيره ٤/ ١٤١، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧.

والضحاك وقتادة وعطاء والحسن، وابنِ عباس أيضاً. أي: واسأل مؤمني أهلِ الكتابين: التوراة والإنجيل[١].

وقيل: المعنى: سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك[٢]؛ فحذفت «عن»، والوقف على «رُسُلِنَا» على هذا تامّ، ثم ابتدأ بالاستفهام على طريق الإنكار. وقيل: المعنى: واسأل تُبَّاعَ مَن أرسلنا مِن قبلك مِن رسلنا، فحذف المضاف. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ أمَّتُه[٣].

﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أخبر عن الآلهة كما أخبر عمن يعقل فقال: «يُعْبَدُونَ» ولم يقل: تُعبد، ولا يُعبدن، لأنَّ الآلهة جرت عندهم مَجرى مَن يعقل، فأجرى الخبرَ عنهم مُجرى الخبرِ عمن يعقل[٤].

وسبب هذا الأمرِ بالسؤال أنَّ اليهود والمشركين قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ ما جئت به مخالفٌ لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياءَ على جهة التوقيف والتقرير؛ لا لأنه كان في شكٍّ منه[٥].

واختلف أهل التأويل في سؤال النبيِّ ﷺ لهم على قولين: أحدهما: أنه سألهم، فقالت الرسل: بُعثنا بالتوحيد؛ قاله الواقدي. الثاني: أنه لم يسألهم؛ ليقينه بالله عزَّ وجلَّ؛ حتى حكى ابنُ زيد أنَّ ميكائيل قال لجبريل: «هل سألك محمدٌ عن ذلك؟ فقال جبريل: هو أشدُّ إيماناً وأعظم يقيناً من أن يسألَ عن ذلك»[٦]. وقد تقدَّم هذا المعنى في الروايتين حسبما ذكرناه.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٤ - ٦٠٥ عن مجاهد والسدي والضحاك وقتادة. وينظر النكت والعيون ٥/٢٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٧.

(٢) ذكر هذا المعنى ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٤.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٤، وتفسير الطبري ٢٠/ ٦٠٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٨.

(٦) المصدر السابق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ لمَّا أعلم النبيَّ ﷺ أنه منتقمٌ له مِن عدوِّه، وأقامَ الحجَّةَ باستشهاد الأنبياء واتفاقِ الكلِّ على التوحيد، أكَّد ذلك بقصة موسى وفرعون، وما كان مِن فرعون من التكذيب، وما نزل به وبقومه من الإغراق والتكذيب، أي: أرسلنا موسى بالمعجزات، وهي التسع الآيات، فَكُذِّب؛ فجُعلت العاقبةُ الجميلة له، فكذلك أنت. ومعنى: ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء وسخرية؛ يوهمون أتباعهم أنَّ تلك الآياتِ سحرٌ وتخييل، وأنهم قادرون عليها.

وقوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: كانت آيات موسى من كبار الآيات، وكانت كلُّ واحدةٍ أعظمَ مما قبلها. وقيل: «إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» لأن الأُولى تقتضي علماً، والثانيةَ تقتضي علماً، فتُضَمُّ الثانيةُ إلى الأولى فيزداد الوضوح، ومعنى الأُخوَّة: المشاكلة والمناسبة؛ كما يقال: هذه صاحبة هذه، أي: هما قريبتان في المعنى.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: على تكذيبهم بتلك الآيات، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع. وكانت هذه الآيات الأخيرة عذاباً لهم وآياتٍ لموسى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من كفرهم.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ لمَّا عاينوا العذاب قالوا: يا أيها الساحر؛ نَادَوه بما كانوا

ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم[١]. وقيل: كانوا يسمُّون العلماءَ سَحَرة، فنادَوه بذلك على سبيل التعظيم. قال ابن عباس: «يا أيُّها السَّاحِر»: يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً[٢] يُوقِّرونه؛ ولم يكن السحر صفةَ ذمّ.وقيل: يا أيها الذي غَلَبنا بسحره[٣]؛ يقال: ساحرتُه فسحرته، أي: غلبته بالسحر؛ كقول العرب: خاصمته فخصمته، أي: غلبته بالخصومة، وفاضلته ففضلته، ونحوِها. ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحرَ على الحقيقة على معنى الاستفهام، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاءَ أن يؤمنوا.

وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بنُ وَثّاب: «أيُّهُ الساحر» بغير ألفٍ، والهاءُ مضمومة[٤]، وعِلّتها أنَّ الهاء خُلطت بما قبلها، وأُلزمت ضمَّ الياء الذي أوجبه النداءُ المفرَد. وأنشد الفرَّاء:

يـا أيُّـهُ الـقـلـبُ الـلَّـجُـوجُ الـنَّـفْـسِ أَفِقْ عن البِيض الحِسَانِ اللُّعْسِ[٥]

فضمَّ الهاءَ حملاً على ضم الياء؛ وقد مضى في «النور» معنى هذا[٦].

ووقف أبو عمرو وابنُ أبي إسحاق ويحيى والكسائي: «أيها» بالألف على الأصل. الباقون بغير ألف[٧]؛ لأنها كذلك وقعت في المصحف.

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما أخبرنا عن عهده إليك إنْ آمنا كشف عنا؛ فسله يكشفْ عنا[٨] ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: فيما يستقبل.﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٨.

(٢) ذكر قوله ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٢٠، وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦٠٩، والنكت والعيون ٥/ ٢٢٩، والوسيط للواحدي ٤/ ٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٤١.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٤١.

(٤) قراءة ابن عامر في السبعة ص٥٨٦، والتيسير ص١٦١ - ١٦٢.

(٥) سلف ١٥/ ٢٢٨.

(٦) ١٥/ ٢٢٨. وسلف الشعر والكلام عليه ثمة.

(٧) السبعة ص٥٨٧، والتيسير ص٦١ و ١٦٢.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٤١.

﴿ٱلْعَذَابَ﴾أي: فدعا فكشفنا. ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: يَنقضُون العهدَ الذي جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا. وقيل: قولهم: «إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ» إخبارٌ منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذابَ ارتدُّوا.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ قيل: لمَّا رأى تلك الآيات، خاف مَيلَ القوم إليه، فجمع قومه فقال. فنادى بمعنى: قال؛ قاله أبو مالك[١]. فيجوز أن يكون عنده عظماءُ القِبط، فرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم يُنشر عنه في جموع القبط؛ وكأنه نودي به بينهم. وقيل: إنه أَمر مَن ينادي في قومه؛ قاله ابن جريج[٢]. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ أي: لا ينازعني فيه أحد. قيل: إنه مَلَكَ منها أربعين فرسخاً في مثلها؛ حكاه النقَّاش. وقيل: أراد بالمُلك هنا الإسكندرية[٣].

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ يعني: أنهار النيل، ومعظمُها أربعة: نهر المِلك، ونهر طولون، ونهر دِمياط، ونهر تِنِّيس[٤]. قال قتادة: كانت جِنَاناً وأنهاراً تجري من تحت قصوره. وقيل: من تحت سريره[٥]. وقيل: «مِنْ تَحْتِي» أي: تصرُّفي نافذٌ فيها من غير صانع[٦]. وقيل: كان إذا أمسك عِنَانه، أمسك النيلُ عن الجَرْي. قال القشيريّ: ويجوز ظهورُ خوارقِ العادة على مدَّعي الرُّبُوبية؛ إذ لا حاجة في تمييز الإله من غير الإله إلى فعلِ خارق للعادة. وقيل: معنى «وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» أي: القوَّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائي؛ قاله الضحاك. وقيل: أراد بالأنهار الأموال، وعبَّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها. وقوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِي»

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٩ .

(٢) المصدر السابق، وينظر الكشاف ٣/ ٤٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٩ ، والقول الثاني حكاه عن مجاهد.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٩٢ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦١٠ .

(٦) ذكره بمعناه الواحدي في الوسيط ٤/ ٧٦ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤٢ ونسباه للحسن.

أي: أُفرِّقها على مَن يتبعني؛ لأن الترغيب والقدرة في الأموال دون الأنهار[١].

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وقوَّتي وضَعْفَ موسى. وقيل: قدرتي على نفقتكم[٢] وعجزَ موسى. والواو في «وَهَذِهِ» يجوز أن تكونَ عاطفةً للأنهار على «مُلْكُ مِصْرَ» و«تَجْرِي» نصب على الحال منها. ويجوز أن تكون واوَ الحال، واسمُ الإشارة مبتدأ، و«الْأَنْهَارُ» صفة لاسم الإشارة، و«تَجْرِي» خبر للمبتدأ[٣].

وفَتَحَ الياءَ مِن «تَحْتِيَ» أهلُ المدينة والبَزِّيُّ وأبو عمرو، وأسكن الباقون[٤].

وعن الرشيد أنه لمَّا قرأها قال: لأُوَلِّيَنَّها أخسَّ[٥] عبيدي، فولَّاها الخصيب، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بنِ طاهر أنه وَلِيَها فخرج إليها، فلمَّا شارفها ووقع عليها بصره، قال: أهذه القريةُ التي افتخر بها فرعونُ حتى قال: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ»؟! واللهِ لَهي عندي أقلُّ مِن أنْ أَدخلَها! فثنى عِنانه[٦].

ثم صرَّح بحاله فقال: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» قال أبو عبيدة والسُّدِّي: «أَمْ» بمعنى «بل»[٧]. وليست بحرف عطف؛ على قول أكثرِ المفسرين[٨]. والمعنى: قال فرعون لقومه: بل أنا خيرٌ «مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ» أي: لا عِزَّ له؛ فهو يمتهن نفسَه في حاجاته لحقارته وضعفه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني ما كان في لسانه من العُقدة؛ على ما تقدَّم في «طه»[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ ، وكلام الضحاك منه.

(٢) في النكت والعيون: نفعكم.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٩٢ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٣ .

(٤) السبعة ص٥٩٠ ، والتيسير ص١٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٧٠ .

(٥) في (م): أحسن، وهو خطأ.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٩٢ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠٤ ، وأخرج الطبري ٢٠/ ٦٦١-٦٦٢ قول السدي.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٤٢ .

(٩) ١٤/ ٥١ . ونقلنا ثمة عن ابن كثير قوله: إن اتهام فرعون لموسى بأنه لا يكاد يبين، إنما هو افتراء من =

وقال الفراء[١]: في «أَمْ» وجهان: إن شئتَ جعلتَها من الاستفهام الذي جُعل بـ «أَم» لاتصاله بكلامٍ قبله، وإن شئتَ جعلتَها نَسَقاً على قوله: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ».

وقيل: هي زائدة. وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون «أَمْ» زائدة؛ والمعنى: أنا خير من هذا الذي هو مهين[٢]. وقال الأخفش: في الكلام حذف، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؛ كما قال:

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بين جُلاجِلٍ وبين النَّقا آأنتِ أمْ أمُّ سالِمِ[٣]

أي: أنتِ أحسن أَم أُمُّ سالم؟

ثم ابتدأ فقال: «أَنَا خَيْرٌ».

وقال الخليل وسيبويه: المعنى: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ»، أم أنتم بُصَراء؟ فعطف بـ «أم» على «أَفَلَا تُبْصِرُونَ»؛ لأن معنى «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» أي: أم تُبصرون؛ وذلك أنهم إذا قالوا له: أنت خيرٌ منه، كانوا عنده بُصراء[٤].

وروي عن عيسى الثَّقفِيِّ ويعقوبَ الحضرميِّ أنهما وقفا على «أم» على أن يكون التقدير: أفلا تبصرون أم تبصرون؛ فحذف «تبصرون» الثاني. وقيل: مَن وقف على «أم» جعلها زائدة، وكأنه وقف على «تُبْصِرُونَ» مِن قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ». ولا يَتمُّ الكلام على «تُبْصِرُونَ» عند الخليل وسيبويه؛ لأنَّ «أم» تقتضي الاتصالَ بما قبلها. وقال قوم: الوقف على قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» ثم ابتدأ «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» بمعنى: بل أنا؛

= فرعون، حمله على هذا الكفرُ والعِناد، وليس عدم الإفصاح من موسى بسبب لثغته بالجمرة؛ لأن موسى عليه السلام سأل الله عزَّ وجلَّ أن يَحُلَّ عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له في ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٥.

(٢) قال ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥٤: وزعم أبو زيد أن «أم» زائدة، وليس بشيء. اهـ. ونحوه في أمالي ابن الشجري ٣/ ١٠٩ - ١١٠.

(٣) البيت لذي الرُّمة، وسلف ١/ ٢٨٢.

(٤) كلام سيبويه في الكتاب ٣/ ١٧٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٥، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١١٠.

وأنشد الفرَّاء(١):

بدت مِثْلَ قَرْن الشمسِ في رَوْنَقِ الضُّحى وصورتِها أم أنتِ في العين أمْلَحُ

فمعناه: بل أنتِ أملح.

وذكر الفرَّاء(٢) أنَّ بعض القراء قرأ: «أَمَا أَنَا خَيْرٌ»؛ ومعنى هذا: ألستُ خيراً.

وروي عن مجاهدٍ أنه وقف على «أم»، ثم يبتدئ «أنا خَيْرٌ»(٣). وقد ذُكر.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ إنما قال ذلك؛ لأنه كان عادةَ الوقت وزِيَّ أهلِ الشرف(٤).

وقرأ حفص: «أَسْوِرَةٌ»(٥) جمع سِوار، كخِمار وأخمرة.

وقرأ أُبَيّ: «أساوِر» جمع إسوار. وابن مسعود: «أساوير»(٦). الباقون: «أَسَاوِرَة» جمع الأَسْوِرة؛ فهو جمع الجمع. ويجوز أن يكون «أَسَاوِرة» جمعَ «إِسْوَار»، وأُلحقت الهاءُ في الجمع عوضاً من الياء؛ فهو مِثل: زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشِبهِه. وقال أبو عمرو بنُ العَلَاء: واحد الأَساورةِ والأَساور والأَساوير إسوار(٧)، وهي لغةٌ في سِوَار.

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٧٢. وسلف البيت ٢/ ٢٠٥.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٥٩.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠.

(٥) السبعة ص٥٨٧، والتيسير ص١٩٧.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٩. وقراءة «أساور» نسبها في القراءات الشاذة ص١٣٥ للأعمش. وقراءة «أساوير» نسبها لأُبي أو عبد الله. وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦١٥، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٤.

(٧) ذكره عنه بنحوه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٦١٥، والجوهري في الصحاح (سور).

قال مجاهد: كانوا إذا سوَّدوا[١] رجلاً، سوَّروه بسوارَين، وطوَّقوه بطوقِ ذهب؛ علامةً لسيادته، فقال فرعون: هلَّا أَلقى ربُّ موسى عليه أساورةً من ذهب إن كان صادقاً! ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعني: متتابعين؛ في قول قتادة. مجاهد: يمشون معًا[٢]. ابن عباس: يعاونونه على مَن خالفه؛ والمعنى: هلَّا ضمَّ إليه الملائكة التي يزعُم أنها عند ربه حتى يتكثَّرَ بهم ويَصرِفَهم على أمره ونهيه؛ فيكونَ أَهْيَبَ في القلوب. فأَوهمَ قومَه أنَّ رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشاهد، ولم يَعلم أنَّ رسلَ الله إنما أُيِّدوا بالجنود السماوية؛ وكلُّ عاقلٍ يعلم أنَّ حِفظ الله موسى، مع تفرُّده ووَحدته، من فرعون، مع كثرة أتباعه، وإمدادَ موسى بالعصا واليدِ البيضاء كان أبلغَ مِن أن يكون له أسورةٌ، أو ملائكة يكونون معه أعواناً؛ في قول مقاتلٍ، أو دليلاً على صدقه؛ في قول الكلبي. وليس يَلزم هذا؛ لأن الإعجاز كافٍ، وقد كان في الجائز أن يُكَذَّبَ مع مجيء الملائكة كما كُذِّب مع ظهور الآيات. وذَكَر فرعونُ الملائكة حكايةً عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة مَن لا يَعرف خالقهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ قال ابن الأعرابي: المعنى: فاستجهلَ قومَه[٤] ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لِخِفَّة أحلامهم وقِلَّة عقولهم؛ يقال: استخفَّه الفرح، أي: أزعجه، واستخفَّه، أي: حمله على الجهل، ومنه: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]. وقيل: استفزَّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب[٥]. وقيل: استخفَّ قومَه،

---

(١) في النسخ عدا (ف): سوروا. والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في تفسير البغوي ٤/ ١٤٢، والكلام منه.

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦١٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣١، وفيه قول مقاتل والكلبي.

(٤) ياقوتة الصراط ص٤٦٠.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٣١ عن ابن زياد.

أي: وجدهم خِفَافَ العقول. وهذا لا يدُلُّ على أنه يجب أن يطيعوه، فلا بدَّ من إضمارٍ بعيد، تقديره: وجدهم خفافَ العقول فدعاهم إلى الغَوَاية فأطاعوه. وقيل: استخفَّ قومه وقهرهم حتى اتَّبعوه؛ يقال[١]: استخفَّه خلافُ استثقله، واستخفَّ به: أهانه. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ روى الضحَّاك عن ابن عباس: أي: غاظونا وأغضبونا. وروى عنه عليُّ بن أبي طلحة: أي: أسخطونا. قال الماورديّ[٢]: ومعناهما مختلف، والفرق بينهما أنَّ السَّخط إظهارُ الكراهة، والغضبَ إرادة الانتقام. القشيريّ: والأسف ها هنا بمعنى الغضب؛ والغضب من الله إمَّا إرادةُ العقوبة، فيكونُ من صفات الذات، وإما عينُ العقوبة، فيكون من صفات الفعل؛ وهو معنى قولِ الماوردي[٣].

وقال عمر بنُ ذَرّ: يا أهل معاصي الله، لا تغترُّوا بطول حِلْمِ اللهِ عنكم، واحذَروا أسفه؛ فإنه قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. وقيل: «آسَفُونَا» أي: أغضبوا رسُلَنا وأولياءنا المؤمنين[٤]؛ نحوُ السَّحَرةِ وبني إسرائيل. وهو كقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] و ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٣٣] أي: أولياءه ورسلَه.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا﴾ أي: جعلنا قومَ فرعونَ سَلَفًا. قال أبو مِجْلَز: «سَلَفاً» لمن عَمِلَ عملَهم، «وَمَثَلًا» لمن [لم] يعملْ عملَهم[٥]. وقال مجاهد: «سَلَفًا»

---

(١) قاله الجوهري في الصحاح (خفف).

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٣١ ، وما قبله منه. وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢٠/ ٦١٧ .

(٣) الصواب إثبات صفة الغضب لله عز وجل بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل، على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(٤) الوسيط ٤/ ٧٧-٧٨، والنكت والعيون ٥/ ٢٣٢ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٧٣ ، وما بين حاصرتين منه.

إخباراً لأمة محمدٍ ﷺ، «وَمَثَلًا» أي: عِبرةً لهم. وعنه أيضاً: «سَلَفًا» لكفار قومك يتقدَّمونهم إلى النار. قتادة: «سَلَفًا» إلى النار، «وَمَثَلًا»: عِظةً لمن يأتي بعدهم[١]. والسَّلَف: المتقدِّم؛ يقال سَلَفَ يَسْلُف سَلَفًا؛ مثل: طلب يطلُب[٢] طلباً، أي: تقدَّم ومضى. وسلف له عملٌ صالح، أي: تقدَّم. والقوم السُّلَّاف: المتقدِّمون. وسَلَفُ الرَّجُل: آباؤه المتقدِّمون؛ والجمع: أسلافٌ وسُلَّاف.

وقراءة العامة: «سَلَفًا» بفتح السين واللام: جمع سالف؛ كخادم وخَدَم، وراصد ورَصَد، وحارس وحَرَس. وقرأ حمزة والكِسائي: «سُلُفًا» بضم السين واللام[٣]. قال الفراء[٤]: هو جمع سَلِيف، نحو: سرير وسُرُر. وقال أبو حاتم: هو جمع سَلَف؛ نحو خَشَب وخُشُب، وثَمَر وثُمُر؛ ومعناهما واحد.

وقرأ عليٌّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائلٍ والنَّخَعيُّ وحُميد بنُ قيس: «سُلَفاً» بضم السين وفتح اللام، جمع سُلْفة[٥]، أي: فِرقةٌ متقدِّمة. قال المؤرِّج والنَّضْر بنُ شُمَيل: «سُلَفًا» جمع سُلْفة، نحو غُرْفَة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾

لـمَّا قـال تـعـالـى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ﴾ تعلَّق المشركون بأمر عيسى، وقالوا: ما يريد محمدٌ إلَّا أنْ نتخذَه إلهًا كما اتخذت النصارى عيسى ابنَ مريم إلهًا، قاله قتادة. ونحوُه عن مجاهد؛ قالت: إنَّ قريشًا قالت: إنَّ محمدًا يريد أن نعبُدَه كما عبد قومُ عيسى عيسى؛ فأنزل الله هذه الآية[٦].

---

(١) أخرج هذه الآثار الطبري ٢٠/ ٦٢٠-٦٢١ .

(٢) قوله: يطلب من (ظ)، وهو موافق لما في الصحاح (سلف)، والكلام منه.

(٣) السبعة ص٥٨٧ ، والتيسير ص١٩٧ .

(٤) كلامه في تفسير البغوي ٤/ ١٤٢ ، وينظر معاني القرآن له ٣/ ٣٦ .

(٥) قراءة علي ﷺ في المحرر الوجيز ٥/ ٦٠ ، وقراءة حميد في القراءات الشاذة ص١٣٥ .

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦٢٢ .

وقال ابن عباس: أراد به مناظرةَ عبدِ الله بنِ الزِّبَعْرَى مع النبيِّ ﷺ في شأن عيسى، وأنَّ الضارب لهذا المثل هو عبد الله بنُ الزِّبَعْرَى السَّهْمِيُّ حالةَ كفره؛ لمَّا قالت له قريش: إنَّ محمداً يتلو: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] الآية، فقال: لو حضرتُه لَرددت عليه؛ قالوا: وما كنتَ تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيحُ تعبده النصارى، واليهودُ تعبد عُزَيْراً، أَفَهما من حَصَب جهنم؟ فعَجِبت قريشٌ من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم؛ وذلك معنى قوله: «يَصِدُّونَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١].

ولو تأمل ابنُ الزبعرى الآيةَ ما اعترض عليها؛ لأنه قال: «وَمَا تَعْبُدُونَ» ولم يقل: ومن تعبدون، وإنما أراد الأصنام ونحوَها مما لا يَعقِل، ولم يُرد المسيح ولا الملائكةَ وإنْ كانوا معبودين. وقد مضى هذا في آخر سورة الأنبياء(١).

وروى ابنُ عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، لا خير في أحدٍ يُعبد من دون الله». قالوا: أليس تزعُمُ أنَّ عيسى كان عبداً نبيًّا وعبداً صالحًا، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله!. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾(٢). أي: يَضِجُّون كضجيج الإبلِ عند حمل الأثقال.

وقرأ نافعٌ وابن عامر والكِسائي: «يَصُدُّون». بضم الصاد، ومعناه: يُعرِضون؛ قاله النَّخعيُّ، وكَسَرَ الباقون(٣). قال الكسائي(٤): هما لغتان؛ مثل: يَعْرِشون ويَعْرُشون ويَنِمُّون ويَنُمُّون، ومعناه: يَضِجُّون.

---

(١) ١٤/ ٢٩٠، ومضى فيه أثر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩١٨)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٩٧.

(٣) السبعة ص٥٨٧، والتيسير ص١٩٧، وقول النخعي في النكت والعيون ٥/ ٢٣٤.

(٤) ذكر قوله النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١١٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٠.

قال الجوهري(١): وصَدَّ يَصُدُّ صديداً، أي: ضَجّ. وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج؛ قاله قُطْرُب(٢). قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحقِّ لكانت: إذا قومُك عنه يصدون(٣). الفرَّاء(٤): هما سواء؛ منه وعنه. ابنُ المسيّب: يصدون: يَصيحون(٥). الضحاك: يَعجُّون. ابن عباس: يضحكون(٦). أبو عبيدة(٧): مَن ضَمَّ فمعناه: يعدلون؛ فيكون المعنى: من أجل الميل يعدلون. ولا يُعَدَّى «يَصِدُّون» بمن، وَمن كَسَرَ فمعناه: يضِجُّون؛ فـ «من» متصلةٌ بـ «يَصِدُّون» والمعنى: يَضجون منه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ﴾ أي: آلهتنا خيرٌ أم عيسى؟ قاله السُّدّيّ. وقال: خاصموه وقالوا: إنَّ كلَّ مَن عُبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكونَ آلهتُنا مع عيسى والملائكةِ وعُزير، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١](٨). وقال قتادة: «أَمْ

(١) في الصحاح (صدد).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٤ .

(٣) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١١٥ - ١١٦ ، ثم قال: وفي هذا ردٌّ على الجماعة الذين قراءتهم حجة، وقد خالف بقوله هذا الكسائي والفراء، والذي ذكره من الحجة ليس بواجب؛ لأنه يقال: صددتُ من قوله، أي: لأجل قوله.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٧ .

(٥) في (ف) و(م): يضجون. وذكر هذا الأثر والذي بعده البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٣ .

(٦) المشهور عن ابن عباس: يضجون؛ كما أخرجه الفراء ٣/ ٣٦ وغيره. وهو في مسند أحمد (٢٩١٨) وقد سلف قريباً تخريجه. وقوله: يضحكون، نسبه في النكت والعيون ٥/ ٢٣٣ لقتادة، وفي تهذيب اللغة ١٢/ ١٠٤ لليث. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٦٠ .

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥ .

(٨) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٢٧ .

هُوَ» يعنون محمداً ﷺ[١].

وفي قراءة ابنِ مسعود: «آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا»[٢]. وهو يقوِّي قولَ قتادة، فهو استفهامُ تقريرٍ في أنَّ آلهتهم خير.

وقرأ الكوفيُّون ويعقوب: «أَأَلهتُنا» بتحقيق الهمزتين، وليَّن الباقون[٣]. وقد تقدَّم.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ حال، أي: جدلين. يعني: ما ضربوا لك هذا المَثَلَ إلَّا إرادةَ الجدل؛ لأنهم علموا أنَّ المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من المَوَات[٤].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾: مجادِلون بالباطل.

وفي صحيح الترمذِيّ عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلَّا أُوتوا الجدل» ثم تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: ما عيسى إلَّا عبدٌ أنعم اللهُ عليه بالنبوَّة، وجَعَلَه مَثَلًا لبني إسرائيل، أي: آيةً وعبرةً يُستدلُّ بها على قدرة الله تعالى، فإنَّ عيسى كان من غير أب، ثم جعل إليه من إحياء الموتى وإبراءِ الأكْمَه والأبرص والأسقامِ كلِّها ما لم يجعل لغيره في زمانه، مع أنَّ بني إسرائيل كانوا يومئذ خيرَ الخلق وأحبَّه إلى الله عزَّ وجلَّ، والناسُ دونهم، ليس أحدٌ عند الله عزَّ وجلَّ مثلَهم. وقيل: المراد بالعبد المنعَمِ عليه محمدٌ ﷺ، والأوَّلُ أظهر.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٤، وتفسير البغوي ٤/ ١٤٣، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٤.

(٣) السبعة ص٥٨٧، والتيسير ص١٩٧، وقراءة يعقوب هي من رواية روح كما في النشر ١/ ٣٦٤-٣٦٥.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٩.

(٥) سنن الترمذي (٣٢٥٣) وقال: حديث حسن صحيح. وهو في مسند أحمد (٢٢١٦٤).

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أي: بَدَلًا منكم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ يكونون خَلَفًا عنكم؛ قاله السُّدِّيّ. ونحوُه عن مجاهد قال: ملائكةً يَعمُرون الأرضَ بدلاً منكم[(١)].

وقال الأزهريّ: إنَّ «مِن» قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية[(٢)].

قلت: قد تقدَّم هذا المعنى في «براءة»[(٣)] وغيرِها.

وقيل: لو نشاء لجَعلنا من الإنس ملائكةً وإنْ لم تَجرِ العادةُ بذلك[(٤)]، والجواهرُ جِنسٌ واحدٌ والاختلافُ بالأوصاف؛ والمعنى: لو نشاء لأسكنا الأرضَ الملائكة، وليس في إسكاننا إيَّاهم السماءَ شرفٌ حتى يُعبدوا، أو يقال لهم: بناتُ الله.

ومعنى «يَخْلُفُونَ»: يخلفُ بعضُهم بعضاً؛ قاله ابن عباس[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بنُ جبير: يريد القرآن[(٦)]؛ لأنه يدلُّ على قُرب مجيء الساعة، أو به تُعلم الساعةُ وأهوالها وأحوالها. وقال ابن عباس ومجاهدٌ والضحاك والسديُّ وقتادة أيضاً: إنه خروجُ عيسى عليه السلام[(٧)]، وذلك من أعلام الساعة، لأن الله يُنزِله من السماء قُبيلَ قيامِ الساعة، كما أنَّ خروج الدجَّال من أعلام الساعة.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦٣٠.

(٢) ذكر قوله الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٥.

(٣) ١٠/ ٢٠٧.

(٤) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٣٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٠.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٤ عن الحسن وقتادة، وذكره عنهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦١، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ عن الحسن وسعيد بن جبير.

(٧) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٦٣١ - ٦٣٣. وقول ابن عباس قطعة من حديث عند أحمد (٢٩١٨)، وسلف بعضه عند الآية (٥٧).

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بنُ دينار والضحاك: «وإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ» بفتح العين واللام[١]، أي: أمارة. وقد روي عن عِكرمة: «وإنه لَلْعَلَم» بلامين[٢]، وذلك خلافٌ للمصاحف.

وعن عبد الله بنِ مسعود قال: لما كان ليلةَ أُسْريَ برسول الله ﷺ، لقي إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فتذاكروا الساعة، فبدؤوا بإبراهيم فسألوه عنها، فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى، فلم يكن عنده منها علم؛ فرُدَّ الحديثُ إلى عيسى ابنِ مريم، فقال: قد عُهد إليَّ فيما دون وَجْبَتِها، فأما وجبتُها فلا يعلمُها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فذَكَرَ خروجَ الدجال، قال: فأَنزِلُ فأقتُلُه. وذكر الحديث، خرَّجه ابنُ ماجه في سننه[٣].

وفي صحيح مسلم[٤]: «فبينما هو ـ يعني المسيحَ الدجال ـ إذ بعث اللهُ المسيح ابنَ مريم، فيَنزل عند المنارة البيضاءِ شرقيّ دِمَشْق بين مَهْرُودَتَين واضعاً كفَّيه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسَه قَطَر، وإذا رفعه تحدَّر منه جُمَانٌ كاللؤلؤ، فلا يَحِلُّ لكافر يجد ريحَ نَفَسِه إلَّا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه، فيطلبُه حتى يدرِكَه بباب لُدٍّ، فيقتله...» الحديث.

وذكر الثعلبيُّ والزَّمَخْشريُّ وغيرهما من حديث أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يَنزل عيسى ابنُ مريم عليه السلام[٥] على ثَنِيَّةٍ من الأرض المقدَّسة، يقال لها: أَفِيقُ، بين مُمَصَّرَتَيْن، وشعرُ رأسه دَهين، وبيده حَرْبَةٌ يقتل بها الدَّجَّال، فيأتي بيت المقدس

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٥ - ١٣٦ والمحرر الوجيز ٥/ ٦١ . وقراءة ابن عباس أخرجها الطبري ٢٠/ ٦٣٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٦١ ، والقراءات الشاذة ص١٣٦ .

(٣) برقم (٤٠٨١). قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٣١٢ : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. قوله: وجبتها، أي: قيامها. شرح السندي ٢/ ٥١٧ .

(٤) برقم (٢٩٣٧)، وسلف ٥/ ١٣٧ .

(٥) بعدها في (م): من السماء.

والناسُ في صلاة العصر والإمامُ يَؤمُّ بهم، فيتأخر الإمام، فيقدِّمه عيسى ويصلِّي خلفه على شريعة محمدٍ ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويَكسِر الصليب، ويخرب البِيَعَ والكنائس، ويقتل النصارى إلَّا مَن آمن به»(١).

وروى خالدٌ عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء إخوةٌ لِعَلَّات، أُمهاتُهم شَتَّى ودينُهُم واحد، وأنا أَوْلَى الناس بعيسى ابنِ مريم، إنه ليس بيني وبينه نبيّ، وإنه أوَّلُ نازلٍ، فيَكسِرُ الصليب، ويقتل الخِنزير، ويقاتلُ الناسَ على الإسلام»(٢).

قال الماورديّ: وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا: إذا نزل عيسى رُفع التكليف؛ لئلَّا يكونَ رسولاً إلى ذلك الزمانِ يأمرُهم عن الله تعالى وينهاهم.

وهذا قول مردودٌ لثلاثة أمور؛ منها: الحديث، ولأنَّ بقاء الدنيا يقتضي [بقاء] التكليفِ فيها، ولأنه يَنزل آمرًا بمعروفٍ وناهياً عن منكر. وليس يُستنكر أنْ يكونَ أَمْرُ الله تعالى له مقصوراً على تأييد الإسلام والأمرِ به والدعاءِ إليه(٣).

قلت: ثبت في صحيح مسلمٍ وابنِ ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَنْزِلَنَّ عيسى ابنُ مريم حَكَمًا عادلاً، فلَيَكْسِرَنَّ الصليب، ولَيَقْتُلَنَّ الخِنزير، ولَيَضَعنَّ الجِزية، ولَتُتْرَكَنَّ القِلَاصُ فلا يُسعَى عليها، ولَتَذهَبَنَّ الشحناءُ والتَّباغضُ والتحاسد، ولَيَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يقبلُه أحد»(٤). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٤٤ . وقوله: ممصرتين: هما الثوبان فيهما صفرة خفيفة. النهاية (مصر). وفي الكشاف: وعليه ممصَّرتان.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ . وأخرجه أحمد (٩٢٧٠) من حديث أبي هريرة ﷺ بنحوه مطولاً. وهو عند البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) مختصر. قوله: إخوة لِعَلَّات؛ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٨٩ : العَلَّات؛ بفتح المهملة: الضرائر. . . وأولاد العَلَّات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتَّى. . . ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد ـ وهو التوحيد ـ وإن اختلفت فروع الشرائع. وقيل: أزمنتهم مختلفة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) صحيح مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وهو في سنن ابن ماجه (٤٠٧٨) مختصر. وسلف ٥/ ١٥٥ .

نزل ابنُ مريم فيكم وإمامُكم منكم» وفي رواية: «فأَمَّكم منكم». قال ابن أبي ذئب: تدري: ما «أمّكم منكم؟» قلت: تُخْبِرني، قال: فأمَّكم بكتاب ربّكم وسُنَّةِ نبيّكم ﷺ[١].

قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: فهذا نصٌّ على أنه يَنزِل مجدِّدًا لِدين النبيِّ ﷺ للذي دَرَس منه، لا بشرعٍ مبتَدأ، والتكليفُ باقٍ؛ على ما بيَّنَّاه هنا وفي كتاب «التذكرة»[٢].

وقيل: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» أي: وإنَّ إحياءَ عيسى الموتى دليلٌ على الساعة وبعثِ الموتى؛ قاله ابنُ إسحاق[٣].

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى: «وَإِنَّهُ»: وإنَّ محمدًا ﷺ لَعِلْم للساعة؛ بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وضَمَّ السَّبَّابةَ والوسطى؛ خرَّجه البخاريُّ ومسلم[٤]. وقال الحسن: أوَّلُ أشراطها محمدٌ ﷺ[٥].

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: فلا تشكُّون فيها؛ يعني: في الساعة؛ قاله يحيى بنُ سلَّام. وقال السُّدِّي: فلا تكذِّبون بها[٦]، ولا تجادلون فيها فإنها كائنةٌ لا محالة. ﴿وَاتَّبِعُونِۚ﴾ أي: في التوحيد وفيما أُبلِّغكم عن الله. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريقٌ قويم إلى الله، أي: إلى جنته.

وأثبت الياءَ يعقوبُ في قوله: «وَاتَّبِعُونِ» في الحالين، وكذلك «وَأَطِيعُونِ». وأبو عمرٍو وإسماعيلُ عن نافع في الوصل دون الوقف[٧]، وحَذَفَ الباقون في الحالين.

(١) صحيح مسلم (١٥٥): (٢٤٤)، (٢٤٦). وسلف ٥/ ١٥٥ . وابن أبي ذئب أحد رجال السند.

(٢) ص٦٧٧ - ٦٧٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ .

(٤) صحيح البخاري (٦٥٠٤)، وصحيح مسلم (٢٩٥١) من حديث أنس ﷺ. وسلف ١٢/ ٢٦٨ .

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٥٠ بلفظ: محمد ﷺ من أشراطها. ونسبه لابن أبي حاتم.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٣٦ . وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٤ بلفظ: فلا تشكون فيها.

(٧) يعني في قوله: ﴿وَاتَّبِعُونِۚ﴾. وقراءة نافع المشهورة عنه كقراءة الباقين. السبعة ص٥٩٠ ، والتيسير ص١٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٧٠ .

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لا تغترُّوا بوساوسه وشُبَهِ الكفار المجادِلين؛ فإنَّ شرائع الأنبياء لم تَختلف في التوحيد، ولا فيما أخبروا به مِن عِلم الساعة وغيرِها بما تضمنته من جنةٍ ونار. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تقدَّم في «البقرة»[(١)] وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قال ابن عباس: يريد إحياءَ الموتى وإبراءَ الأسقام، وخَلْقَ الطير، والمائدةَ وغيرَها، والإخبارَ بكثيرٍ من الغيوب. وقال قتادة: البيِّنات هنا الإنجيل[(٢)]. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: النبوَّة؛ قاله السُّدِّيّ. ابن عباس: عِلمُ ما يؤدِّي إلى الجميل ويَكفُّ عن القبيح. وقيل: الإنجيل؛ ذكره القشيريُّ والماوردي[(٣)].

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال مجاهد: مِن تبديل التوراة[(٤)]. الزَّجاج[(٥)]: المعنى: لأبين لكم في الإنجيل بعضَ الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد: وبيَّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: بيَّن لهم بعضَ الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراةِ على قَدْر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا في أشياءَ غيرِ ذلك لم يَسألوه عنها. وقيل: إنَّ بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياءَ مِن أمر دينهم وأشياءَ مِن أمر دنياهم، فبيَّن لهم أمرَ دينهم.

---

(١) ٣/ ١٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٦. وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٥.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٣٦، وقول ابن عباس نسبه لابن عيسى. وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٦٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٦.

(٥) معاني القرآن له ٤/ ٤١٨، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٨.

ومذهب أبي عبيدة[١] أنَّ البعض بمعنى الكلّ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]. وأنشد الأخفش قولَ لبيد:

تَرَّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرضها ... أو يعتلقْ بعضَ النفوس حِمامُها

والموت لا يعتلق بعضَ النفوس دون بعض[٢]. ويقال للمنيَّة: عَلُوق وعَلَّاقة. قال المفضَّل النُّكْري[٣]:

وسائلةٍ بثعلبةَ بنِ سَيْرٍ ... وقد عَلِقت بثعلبةَ العَلُوقُ[٤]

وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. يعني: ما أُحلَّ في الإنجيل مما كان محرَّماً في التوراة؛ كلحم الإبل والشحمِ مِن كل حَيَوان، وصيدِ السمك يومَ السبت.

﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الشِّركَ ولا تعبُدوا إلَّا اللهَ وحده؛ وإذا كان هذا قولَ عيسى، فكيف يجوز أن يكونَ إلهًا أو ابنَ إله؟! ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: عبادةُ الله صراطٌ مستقيم، وما سواه معوجٌ لا يؤدِّي سالكَه إلى الحقّ.

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ قال قتادة: يعني ما بينهم، وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى، خالف بعضُهم بعضًا؛

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٧. والبيت في شرح ديوان لبيد ص٣١٣، وسلف ٥/ ١٤٧.

(٣) في (ف) و (م): البكري، وفي (د): الكبرى. وكلاهما خطأ. وهو المفضل بن معشر بن أسحم بن عدي ابن شيبان بن سُود بن عُذرة بن منبِّه بن نُكرة. فضّلته قصيدته التي يقال لها: المُنصِفة. طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٧٤ - ٢٧٥. والبيت من هذه القصيدة.

(٤) إصلاح المنطق ص٣٦٨، والصحاح (علق)، ورسالة الصاهل والشاحج ص٤٨٠، واللسان (علق).

قاله مجاهدٌ والسُّدِّيّ. الثاني: فِرَقُ النصارى من النُّسْطُورِية والمَلْكية واليعاقِبة، اختلفوا في عيسى؛ فقالت النُّسطورية: هو ابن الله. وقالت اليعاقبة: هو الله. وقالت المَلْكية: ثالثُ ثلاثةٍ أحدهم الله تعالى؛ قاله الكلبي ومقاتل[(١)]، وقد مضى هذا في سورة مريم[(٢)].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كفروا وأشركوا؛ كما في سورة مريم. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أليمٍ عذابُه؛ ومثلُه: ليلٌ نائم؛ أي: يُنام فيه.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ يريد: الأحزابُ لا ينتظرون[(٣)] ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يريد القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فَجْأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: يَفطُنون. وقد مضى في غير موضع[(٤)]. وقيل: المعنى: لا ينتظر مشركو العربِ إلَّا الساعة. ويكون «الأَحْزَابُ» على هذا الذين تحزَّبوا على النبيِّ ﷺ وكذَّبوه من المشركين. ويتَّصل هذا بقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الآية: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ يريد: يومَ القيامة. ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء، يعادي بعضُهم بعضًا، ويلعن بعضُهم بعضًا. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم أخِلَّاءُ في الدنيا والآخرة؛ قال معناه ابنُ عباس ومجاهدٌ وغيرهما.

وحكى النقَّاش أنَّ هذه الآيةَ نزلت في أميَّة بنِ خَلَف الجُمَحيّ وعُقْبةَ بن أبي مُعَيْط، كانا خليلين؛ وكان عقبةُ يجالس النبيَّ ﷺ، فقالت قريش: قد صبأ عقبة بنُ أبي مُعَيط؛ فقال له أميَّة: وجهي مِن وجهك حرام إنْ لَقِيتَ محمدًا ولم تَتْفُل في وجهه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٧ . وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٨ .

(٢) ١٣/ ٤٥١ - ٤٥٤ .

(٣) في النسخ الخطية عدا (ق): ينظرون.

(٤) ١/ ٢٩٩ .

ففعل عقبةُ ذلك؛ فنذر النبيُّ ﷺ قتلَه، فقتله يوم بدرٍ صَبْرًا، وقُتل أميةُ في المعركة؛ وفيهم نزلت هذه الآية[١].

وذكر الثعلبيُّ عن عليٍّ[٢] ﷺ في هذه الآية. قال: كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحدُ المؤمنَين فقال: يا ربّ، إنّ فلانًا كان يأمرني بطاعتك وطاعةِ رسولك، وكان يأمرني بالخير وينهاني عن الشرّ، ويُخْبرني أني ملاقيك، يا ربِّ فلا تُضِلَّه بعدي، واهدِه كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني. فإذا مات خليلُه المؤمن جمع الله بينهما، فيقول الله تعالى: لِيُثْنِ كلٌّ واحدٍ منكما على صاحبه، فيقول: يا ربّ، إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشرّ، ويخبرني أني ملاقيك، فيقول الله تعالى: نِعْمَ الخليلُ ونعم الأخُ ونعم الصاحبُ كان. قال: ويموت أحد الكافرَين فيقول: يا رب، إنَّ فلانًا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشرّ وينهاني عن الخير، ويُخبرني أني غيرُ ملاقيك، فأسألك يا ربِّ ألَّا تَهْدِهِ بعدي، وأنْ تُضِلَّه كما أضللتني، وأن تُهينَه كما أهنتني. فإذا مات خليلُه الكافر قال الله تعالى لهما: لِيُثْنِ كلٌّ واحد منكما على صاحبه، فيقول: ياربِّ، إنه كان يأمرني بمعصيتك ومعصيةِ رسولك، ويأمرني بالشرّ وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فأسألك أنْ تضاعِفَ عليه العذاب؛ فيقول الله تعالى: بِئسَ الصاحبُ والأخ والخليل كنتَ. فيلعنُ كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه[٣].

قلت: والآية عامةٌ في كل مؤمن ومُتَّقٍ وكافرٍ ومُضِلّ.

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قال مقاتل ـ ورواه المعتمر بنُ سليمان عن أبيه ـ: ينادي منادٍ في العَرَصات: «يا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨ . وقوله: «ففعل عقبة ذلك» منكر، ونقلنا ١٥/ ٤٠٢ عن عبد الرزاق والطبري أن الله لم يمكّن عقبة مما أراد فعله.

(٢) قوله: عن علي، ليس في (م).

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٥ من طريق الثعلبي. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٤٠ .

عبادي، لا خوفٌ عليكم اليوم»، فيرفع أهلُ العَرَصات[1] رؤوسهم، فيقول المنادي: «الَّذين آمنوا بِآياتِنا وكانوا مُسْلِمِين» فينكِّس أهلُ الأديان رؤوسَهم غيرَ المسلمين[2].

وذكر المحاسبيُّ في «الرِّعاية»: وقد روي في هذا الحديثِ أنَّ المنادي ينادي يوم القيامة: «يا عِبادي لا خَوْفٌ عليكمُ اليومَ ولا أنتم تَحزنون» فيرفع الخلائقُ رؤوسهم، فيقولون: نحن عباد الله. ثم ينادي الثانية: «الَّذين آمنوا بِآياتِنا وكانوا مسْلِمِين» فينكِّس الكفار رؤوسهم، ويبقى الموحِّدون رافعي رؤوسِهم. ثم ينادي الثالثة: «الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكِّس أهل الكبائر رؤوسهم ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسِهم، قد أزال عنهم الخوفَ والحزن كما وعدهم؛ لأنه أكرم الأكرمين، لا يَخذُل ولِيَّه ولا يُسْلِمه عند الهَلَكة. وقرئ: «يَا عِبَادِ»[3]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠﴾

قال الزجَّاج[4]: «الَّذِينَ» نصب على النعت لـ «عبادي»؛ لأن «عِبَادِي» منادَى مضاف. وقيل: «الَّذِينَ آمَنُوا» [خبر لمبتدإ محذوف، أو][5] ابتداءٌ وخبره محذوف؛ تقديره: هم الذين آمنوا، أو: الذين آمنوا يقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ».

وقرأ أبو بكر وزِرُّ بن حُبيش: «يَا عِبَادِيَ» بفتح الياء وإثباتها في الحالين؛ وكذلك أثبتها نافعٌ وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس[6] ساكنةً في الحالين. وحذفها الباقون في الحالين[7]؛ لأنها وقعت مثبَتةً في مصاحف أهلِ الشام والمدينة لا غير[8].

---

(١) في النسخ عدا (ظ): العرصة.

(٢) قول مقاتل في الوسيط للواحدي ٤/ ٨٠ - ٨١، ورواية المعتمر أخرجها الطبري ٢٠/ ٦٤١ بنحوها.

(٣) سترد قريباً.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤١٩.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة لضرورة السياق.

(٦) بخلاف عنه كما في النشر ٢/ ٣٧٠.

(٧) السبعة ص٥٨٨، والتيسير ص١٩٧.

(٨) المقنع لأبي عمرو الداني ص٣٤، والنشر ٢/ ٣٧٠.

﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: يقال لهم: أُدخلُوا الجنة، أو: يا عبادي الذين آمنوا ادخلُوا الجنة. ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ المسلمات في الدنيا. وقيل: قرناؤكم من المؤمنين. وقيل: زوجاتُكم[١] من الحور العين. ﴿تُحْبَرُونَ﴾: تكرمون؛ قاله ابن عباس؛ والكرامة في المنزلة. الحسن: تفرحون، والفرح في القلب. قتادة: تُنعمون؛ النعيم في البدن. مجاهد: تُسرُّون؛ السرور في العين. ابن أبي نَجِيح: تعجبون؛ والعجب هاهنا دَرْكُ ما يُستطرَف. يحيى بن أبي كثير: هو التلذذ بالسَّماع[٢]. وقد مضى هذا في «الروم»[٣].

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: لهم في الجنة أطعمةٌ وأشربة يطاف بها عليهم في صِحافٍ مِن ذهب وأكواب. ولم يَذكر الأطعمةَ والأشربة؛ لأنه يُعلم أنه لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكوابِ عليهم مِن غيرِ أنْ يكونَ فيها شيء[٤]. وذَكَرَ الذهبَ في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفي الصحيحين[٥] عن حُذيفة أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «لا تَلبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صِحَافها؛ فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». وقد مضى في سورة الحجِّ[٦] أنَّ مَن أكل فيهما في الدنيا أو

(١) في النسخ الخطية: زوجاتهم، والمثبت من (م).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨. وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٤٢، وعبد الرزاق ٢/ ٢٠٢، وقول يحيى أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٠١.

(٣) ١٦/ ٤٠٥.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٠/ ٦٤٥.

(٥) صحيح البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧). وهو عند أحمد (٢٣٣١٤).

(٦) ١٤/ ٣٤٧ - ٣٤٨.

لبس الحرير في الدنيا، ولم يتب، حُرم ذلك في الآخرة تحريماً مؤبَّداً. والله أعلم.

وقال المفسرون: يطوف على أدناهم في الجنة منزلةً سبعون ألفَ غلامٍ بسبعين ألفَ صَحْفةٍ من ذهب، يُغْدَى عليه بها في كل واحدةٍ منها لونٌ ليس في صاحبتها، يأكل مِن آخرها كما يأكل من أوَّلها، ويجد طعمَ آخِرها كما يجد طعم أوَّلها، لا يُشبه بعضُه بعضاً، ويُراح عليه بمثلها. ويطوف على أرفعهم درجةً كلَّ يومٍ سبعُ مئةِ ألفِ غلامٍ، مع كل غلامٍ صحفةٌ من ذهب، فيها لونٌ من الطعام ليس في صاحبتها، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعمَ آخرها كما يجد طعم أولها، لا يُشبه بعضُه بعضاً[١].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: ويطاف عليهم بأكواب؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الإنسان: ١٥].

وذَكَرَ ابنُ المبارك[٢] قال: أخبرنا مَعْمَر، عن رجل، عن أبي قِلَابة قال: يؤتَون بالطعام والشراب، فإذا كان في آخر ذلك، أُتوا بالشراب الطهور، فَتَضْمُرُ لذلك بطونُهم، ويَفيض عرقاً من جلودهم أَطيبَ من ريح المسك؛ ثم قرأ ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

وفي صحيح مسلمٍ عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يَتْفُلون ولا يبولون ولا يتغوّطون [ولا يمتخِطون]. قالوا: فما بالُ الطعام؟ قال: جُشَاءٌ ورَشْح كرشح المِسك، يُلْهَمون التَّسبيحَ والتحميد ـ والتكبيرَ في رواية ـ كما يلهمون النَّفَس»[٣].

الثانية: روى الأئمة من حديث أمِّ سلمة عن النبيِّ ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يُجَرجِرُ في بطنه نارَ جهنم»[٤]. وقال: «لا تشربوا في آنية الذهب

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠١، والطبري ٢٠/ ٦٤٣-٦٤٤، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٦ بنحوه.

(٢) في الزهد (٢٧٤ زوائد نعيم).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٣٥)، وهو عند أحمد (١٤٤٠١). وما بين حاصرتين منهما.

(٤) مسند أحمد (٢٦٥٦٨)، وصحيح البخاري (٥٦٣٤)، وصحيح مسلم (٢٠٦٥).

والفضة، ولا تأكلوا في صِحَافها»[١] وهذا يقتضي التحريم، ولا خلاف في ذلك.

واختلف الناس في استعمالها في غير ذلك. قال ابن العربي[٢]: والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها في شيء؛ لقول النبيِّ ﷺ في الذهب والحرير: «هذان حرامٌ لذكور أُمتي حِلٌّ لإناثها»[٣]. والنهيُ عن الأكل والشرب فيها يدلُّ على تحريم استعمالها؛ لأنه نوعٌ من المتاع، فلم يَجز؛ أصله الأكل والشرب، ولأن العِلَّة في ذلك استعجالُ أمرِ[٤] الآخرة، وذلك يستوي فيه الأكلُ والشرب وسائرُ أجزاءِ الانتفاع؛ ولأنه ﷺ قال: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»[٥]، فلم يجعل لنا فيها حظًّا في الدنيا.

الثالثة: إذا كان الإناءُ مُضَبَّباً بهما أو فيه حَلْقةٌ منهما، فقال مالك: لا يُعجبني أنْ يُشربَ فيه، وكذلك المرآةُ تكون فيها الحلقةُ من الفضة، لا يعجبني أن ينظرَ فيها وجهَه. وقد كان عند أنسٍ إناءٌ مضبَّبٌ بفضة، وقال: لقد سَقيتُ فيه النبيَّ ﷺ. قال ابن سيرين: كانت فيه حلقةُ حديد، فأراد أنسٌ أنْ يجعلَ فيه حلقةَ فِضة؛ فقال أبو طلحة: لا أُغيِّر شيئاً مما صنعه رسولُ الله ﷺ؛ فتركه[٦].

الرابعة: إذا لم يَجز استعمالُها لم يجز اقتناؤها؛ لأنَّ ما لا يجوز استعمالُه لا

(١) سلف في المسألة السابقة، وهو من حديث حذيفة ﷺ.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٦ .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٥٩٥) من حديث علي ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٥٠)، وأبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي ٨/ ١٦٠-١٦١ دون قوله: حل لإناثها.

وله شواهد. منها حديث أبي موسى ﷺ عند أحمد (١٩٥١٥)، والترمذي (١٧٢٠)، والنسائي ٨/ ١٩٠ .

(٤) في أحكام القرآن: أجر.

(٥) سلف في المسألة الأولى.

(٦) هو عند البخاري (٥٦٣٨) عن عاصم الأحول قال: رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع، فسلسله بفضة... الخ وفيه قول أبي طلحة لأنس: لا تغيرنَّ شيئاً... الخ. وأبو طلحة: هو الأنصاري زوج أم سليم والدة أنس. وقد ساق المصنف لفظ الحديث من أحكام القرآن لابن العربي.

يجوز اقتناؤه، كالصنم والطُّنْبور[١]. وفي كتب علمائنا: أنه يلزم الغُرْمُ في قيمتها لمن كسرها، وهو معنًى فاسد، فإنَّ كَسْرَها واجب، فلا ثمن لقيمتها. ولا يجوز تقويمُها في الزكاة بحال. وغيرُ هذا لا يُلتفت إليه[٢].

قوله تعالى: ﴿بِصِحَافٍ﴾ قال الجوهري: الصَّحْفة كالقَصْعة، والجمع: صِحاف. قال الكِسائي: أعظم القصاع الجَفْنة، ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة، ثم الصحفة تُشبع الخمسة، ثم المِئْكَلة تُشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصُّحَيفة تشبع الرجل. والصحيفة: الكتاب، والجمع: صُحُف وصحائف[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ قال الجوهري[٤]: الكوب: كوزٌ لا عُروةَ له، والجمع: أكواب. قال الأعشى يصف الخمر:

صَرِيفِيَّةٌ[٥] طَيِّبٌ طَعْمُها لها زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ

وقال آخر[٦]:

مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أبوابُه يسعى عليه العَبْدُ بالكوبِ

وقال قتادة: الكُوب: المدوَّرُ القصير العنقِ القصيرُ العروة، والإبريق: المستطيل العنق الطويلُ العروة. وقال الأخفش: الأكواب: الأباريق التي لا خراطيم لها. وقال قُطْرُب: هي الأباريق التي ليست لها عُرًى. وقال مجاهد: إنها الآنيةُ المدوَّرةُ الأفواه. السُّدِّي: هي التي لا آذان لها[٧]. ابن عُزيز: «أكواب»: أباريقُ لا عُرَى لها ولا

---

(١) آلة من آلات اللعب واللهو والطرب. المعجم الوسيط (طنب).

(٢) نهاية كلام ابن العربي.

(٣) الصحاح (صحف).

(٤) في الصحاح (كوب).

(٥) في الديوان ص٦٧: صليفية، وهي المعتَّقة كما قال شارحه. والصريفية: نسبة إلى صَريفون: بلدة بواسط منها الخمر الصريفية. أو قيل لها: صريفية؛ لأنها أخذت من الدن ساعتئذ، كاللبن الصريف. القاموس (صرف).

(٦) هو عدي بن زيد، والبيت في تهذيب اللغة ١٠/ ٤٠٠، والصحاح، واللسان (كوب).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨-٢٣٩، وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٤٤-٦٤٥.

خراطيم؛ واحدها كُوب[١].

قلت: وهو معنى قولِ مجاهدٍ والسُّدِّيّ، وهو مذهب أهلِ اللغة أنها التي لا آذان لها ولا عُرًى.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ روى التِّرمذيُّ عن سليمانَ بنِ بُريدة، عن أبيه: أنَّ رجلاً سأل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة مِن خيل؟ قال: «إنِ اللهُ أدخلك الجنة، فلا تشاءُ أن تحمِلَ فيها على فرس مِن ياقوتة حمراءَ يطير بك [في الجنة] حيث شئتَ[٢]». قال: وسأله رجلٌ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة مِن إبل؟ قال: فلم يقل له مِثلَ ما قال لصاحبه، قال: «إنْ يُدخلكَ اللهُ الجنة، يكن لك فيها ما اشتهت نفسُك ولَذَّت عينُك»[٣].

وقرأ أهل المدينة وابنُ عامر وأهلُ الشام[٤]: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ»، الباقون: «تَشْتَهِي الأَنْفُسُ» أي: تشتهيه الأنفس[٥]؛ تقول: الذي ضربت زيد[٦]، أي: الذي ضربته زيد.

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ تقول: لذَّ الشيءُ يَلَذُّ لَذاذاً، ولَذاذة. ولَذِذت بالشيء أَلَذّ - بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل - لَذاذاً ولَذَاذة، أي: وجدته لذيذاً.

---

(١) نزهة القلوب ص٩٨ .

(٢) في رواية أحمد زيادة: إلا ركبت.

(٣) سنن الترمذي (٢٥٤٣)، وما بين حاصرتين منه. وهو عند أحمد (٢٢٩٨٢) كلاهما من طريق المسعودي، عن علقمة بن مَرْثَد، عن ابن بريدة... وخالف المسعوديَّ سفيانُ الثوري - كما أخرجه الترمذي عقب الحديث - فرواه عن علقمة بن مرثد، عن عبد الرحمن بن سابط مرسلاً. قال الترمذي: وهذا أصح من حديث المسعودي .
وللحديث شواهد.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ق): في أهل الشام .

(٥) السبعة ص٥٨٩ ، والتيسير ص١٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٧٠ . وقرأ حفص أيضاً عن عاصم مثل قراءة أهل المدينة وابن عامر.

(٦) في النسخ الخطية: زيداً. والمثبت من (م).

والْتذذت به وتلذَّذت به بمعنًى[١]. أي: في الجنة ما تستلَذُّه العينُ، فكان حَسَنَ المَنْظَر. وقال سعيد بن جبير: «وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ»: النظر إلى الله عزَّ وجلَّ؛ كما في الخبر: «أسألك لَذَّةَ النظرِ إلى وجهك»[٢]. ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: باقون دائمون؛ لأنها لو انقطعت لتبغَّضت.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: يقال لهم: هذه تلك الجنةُ التي كانت توصف لكم في الدنيا. وقال ابن خالويه: أشار تعالى إلى الجنة بـ «تلك» وإلى جهنم بـ «هذه»؛ ليخوّفَ بجهنم ويؤكّدَ التحذيرَ منها. وجعلها بالإشارة القريبةِ كالحاضرة التي يُنظر إليها.

﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال ابن عباس: خلق الله لكل نَفْسٍ جنةً وناراً؛ فالكافر يرث نارَ المسلم، والمسلمُ يرث جنةَ الكافر[٣]؛ وقد تقدَّم هذا مرفوعاً في ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] من حديث أبي هريرة[٤]، وفي «الأعراف» أيضاً[٥].

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

الفاكهة معروفة، وأجناسُها الفواكه، والفاكِهانيُّ: الذي يبيعها. وقال ابن عباس: هي الثمارُ كلُّها، رَطْبُها ويابِسُها، أي: لهم في الجنة سوى الطعامِ والشراب فاكهةٌ كثيرة يأكلون منها.

---

(١) الصحاح (لذذ).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي ٣/ ٥٤-٥٥ من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما مطولاً.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ٨١.

(٤) ١٥/ ١٥-١٦.

(٥) ٩/ ٢٢٣.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ لمَّا ذكر أحوالَ أهل الجنة؛ ذَكَرَ أحوال أهلِ النار أيضاً؛ ليبيِّنَ فضلَ المطيع على العاصي. ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُخفَّف عنهم ذلك العذاب. ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من الرحمة. وقيل: ساكتون سكوتَ يأس. وقد مضى في «الأنعام»[(١)]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسَهم بالشِّرك. ويجوز: «وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبرُ كان[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازنُ جهنم، خَلَقَه لِغضبه؛ إذا زجر النارَ زجرةً أكل بعضُها بعضاً.

وقرأ عليٌّ وابن مسعود رضي الله عنهما: «وَنَادَوْا يَا مَالِ». وذلك خلافُ المصحف[(٣)]. وقال أبو الدرداء وابن مسعود: قرأ النبيُّ ﷺ: «وَنَادَوْا يَا مَالِ» باللام خاصة[(٤)]؛ يعني رَخَّم الاسمَ وحذف الكاف. والترخيمُ الحذف، ومنه ترخيم الاسم في النداء، وهو أن يُحذفَ مِن آخره حرفٌ أو أكثر، فتقول في مالك: يا مالِ، وفي حارث: يا حارِ، وفي فاطمة: يا فاطمَ، وفي عائشة: يا عائشَ، وفي مروان: يا مروَ، وهكذا. قال[(٥)]:

---

(١) ٨/ ٣٨١.

(٢) الكلام بنحوه في القراءات الشاذة ص١٣٦. وهي قراءة ابن مسعود كما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢١، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٤. قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٤٢٠: لا تقرأنَّ بها لأنها تخالف المصحف.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٦، والمحتسب ٢/ ٢٥٧.

(٤) أخرجها الدوري في قراءات النبي ﷺ ص١٤٦-١٤٧ عن أبي الدرداء ؓ.

(٥) هو زهير، والبيت في ديوانه ص١٨٠.

يا حارِ لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية لم يَلْقَها سُوقةٌ قَبلي ولا مَلِكُ

وقال امرؤ القيس(١):

أحارِ ترى بَرْقاً أُريك وميضَه كلمع اليدين في حَبِيٍّ مُكلَّلِ

وقال أيضاً(٢):

أفاطِمَ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجْمِلِ

وقال آخر(٣):

يا مَروَ إنَّ مطيَّتي محبوسةٌ ترجو الحِباءَ ورَبُّها لم ييأسِ

وفي صحيح الحديث: «أي فُلُ، هلُمَّ»(٤).

ولكَ في آخر الاسم المرخَّمِ وجهان: أحدهما: أن تُبْقيَه على ما كان عليه قبل الحذف. والآخر: أن تَبنيَه على الضم؛ مثل: يا زيدُ؛ كأنك أنزلته منزلتَه ولم تراعِ المحذوف(٥).

وذكر أبو بكر الأنباريُّ قال: حدَّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزيُّ قال: حدَّثنا محمد ـ وهو ابن سعدان ـ قال: حدَّثنا حجاجٌ، عن شعبة، عن الحكم بن عتيبة(٦)، عن مجاهد قال: كنا لا ندري ما الزُّخرف حتى وجدناه في قراءة عبدِ الله: «بيتٌ من ذهب»، وكنا لا ندري: «وَنَادَوْا يَا مَالِكُ» أو: يا ملك ـ بفتح اللام وكسرها ـ حتى وجدناه في قراءة عبدِ الله: «وَنَادَوْا يَا مَالِ» على الترخيم(٧). قال أبو بكر: لا يُعمل

---

(١) ديوانه ص٢٤ . وسلف ٣/ ٤٢٥ .

(٢) ديوانه ص١٢ .

(٣) هو الفرزدق، والبيت في ديوانه ١/ ٣٨٤ .

(٤) صحيح البخاري (٢٨٤١)، وصحيح مسلم (١٠٢٧): (٨٦) من حديث أبي هريرة مطولاً. وسلف ٨/ ٣٤١ بنحوه. وقوله: فلُ، أي: فلان.

(٥) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢١ .

(٦) تحرفت في النسخ إلى: عيينة.

(٧) ذكر قول مجاهد ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٦ . وذكر القطعة الثانية منه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٢١ .

على هذا الحديث؛ لأنه مقطوعٌ لا يُقبل مِثلُه في الرواية عن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ وكتابُ الله أحقُّ بأن يُحتاطَ له ويُنفَى عنه الباطل.

قلت: وفي صحيح البخاريِّ عن صَفْوان بن يَعْلَى، عن أبيه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[1] بإثبات الكاف.

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: بلغني ـ أو ذُكر لي ـ أنَّ أهل النار استغاثوا بالخَزَنَة، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فسألوا يومًا واحداً يُخفَّف عنهم فيه العذاب؛ فرَدَّت عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠] قال: فلما يَئسوا مما عند الخزنة نَادَوْا مالكًا؛ وهو مُشرِفٌ[2] عليهم وله مجلسٌ في وسطها، وجسورٌ تمرُّ عليها ملائكةُ العذاب؛ فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها، فقالوا: «يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ». قال[3]: سألوا الموت، قال: فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانينَ سَنة، قال: والسَّنة سِتُّونَ وثلاثُ مِئةِ يوم، والشهر ثلاثون يوماً، واليومُ كألف سَنةٍ مما تَعدُّون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال: «إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ» وذكر الحديث؛ ذكره ابن المبارك.

وفي حديث أبي الدرداء عن النبيِّ ﷺ قال: «فيقولون: ادعوا مالكاً، فيقولون: يا مالك لِيقضِ علينا ربُّك، قال: إنكم[4] ماكثون». قال الأعمش: نُبِّئتُ أنَّ بين دعائهم وبين إجابةِ مالكٍ إياهم ألفَ عام. خرَّجه الترمذي[5].

وقال ابن عباس: يقولون ذلك فلا يجيبهم ألفَ سنة، ثم يقول: إنكم ماكثون.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٠). وهو عند أحمد (١٧٩٦١)، ومسلم (٨٧١).

(٢) قوله: مشرف، من (ظ).

(٣) لفظة: قال ليست في (م).

(٤) قبلها في سنن الترمذي: فيجيبهم.

(٥) في سننه (٢٥٨٦)، ورجح وقفه. والأعمش أحد رجال السند.

وقال مجاهد ونَوْفٌ البِكَاليّ: بين ندائهم وإجابته إياهم مئةُ سنة[١]. وقال عبد الله بن عمرو: أربعون سنة؛ ذكره ابن المبارك[٢].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يحتمل أنْ يكونَ هذا من قول مالكٍ لهم، أي: إنكم ماكثون في النار؛ لأننا جئناكم في الدنيا بالحقِّ فلم تقبلوا. ويحتمل أن يكونَ من كلام الله لهم اليوم، أي: بيَّنَّا لكم الأدلةَ وأرسلنا إليكم الرسل[٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ» أي: ولكنَّ كلَّكم[٤]. وقيل: أراد بالكثرة الرؤساءَ والقادةَ منهم، وأما الأَتباعُ فما كان لهم أثر. ﴿لِلْحَقِّ﴾ أي: للإسلام ودينِ الله ﴿كَٰرِهُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم بالمكر بالنبيِّ ﷺ في دار الندوة، حتى استقرَّ أمرُهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أنْ يبرُزَ من كل قبيلةٍ رجلٌ ليشتركوا في قتله، فتَضعُفَ المطالبةُ بدمه؛ فنزلت هذه الآية، وقتل اللهُ جميعَهم ببدر[٥].

«أَبْرَمُوا»: أحكموا. والإبرام: الإحكام. أبرمت الشيءَ: أحكمته. وأبرم الفِتَال: إذا أحكم الفتل، وهو الفتل الثاني، والأول سَحِيل؛ كما قال:

.... مِـــن سَــحِـيـــلٍ ومُـــبْـــرَمِ[٦]

---

(١) قولا ابن عباس ونوف البكالي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٦٤٩ ، ٦٥٠ .

(٢) في الزهد (٣١٩ زوائد نعيم) مطولاً. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٤٩ - ٦٥٠ .

(٣) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٦٥ . وينظر الكشاف ٣/ ٤٩٦ .

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٨٢ .

(٥) ذكره مختصراً الرازي في تفسيره ٢٧/ ٢٢٨ ، وذكره بطوله الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٤٠ غير أنه لم ينسبه لأحد.

(٦) قائله زهير، وهو في ديوانه ص١٤ ، والبيت بتمامه:

يـمـيـنـاً لَـنِـعـم الـسـيـدان وجـدتـمـا ... عـلـى كـل حـال مـن سـحـيـل ومـبـرم

فالمعنى: أم أحكموا كيدًا؛ فإنَّا مُحكِمون لهم كَيْدًا؛ قاله ابن زيد ومجاهد. قتادة: أم أجمعوا على التكذيب؛ فإنا مُجمعون على الجزاء بالبعث. الكلبي: أم قَضَوْا أمرًا؛ فإنَّا قاضون عليهم بالعذاب[١]. وأم بمعنى: بل. وقيل: «أَمْ أَبْرَمُوا» عطفٌ على قوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الآية: ٤٥]. وقيل: أي: ولقد جئناكم بالحقّ فلم تسمعوا، أم سمعوا فأعرضوا؛ لأنهم في أنفسهم أبرموا أمرًا أمِنُوا به العقاب.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ﴾ أي: ما يُسِرُّونه في أنفسهم ويتناجَون به بينهم. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ونعلم. ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: الحفظةُ عندهم يكتبون عليهم. ورُويَ أنَّ هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها؛ فقال أحدهم: أترون أنَّ الله يسمع كلامنا؟ وقال الثاني: إذا جهرتم سَمِع، وإذا أسررتم لم يسمع. وقال الثالث: إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم؛ قاله محمد بنُ كعب القُرَظي[٢]. وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود في سورة فصلت[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ اختُلف في معناه؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدِّي: المعنى: ما كان للرحمن ولد، فـ«إن» بمعنى «ما»، ويكون الكلام على هذا تامًّا، ثم تبتدئ: «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ» أي: الموحِّدين من أهل مكة

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٤٠ . وأخرج هذه الآثار ـ عدا قول الكلبي ـ الطبري ٢٠/ ٦٥٢ .

(٢) أخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٥٣ .

(٣) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة فصلت.

على أنه لا ولدَ له. والوقف على «العابِدِين» تام[١].

وقيل: قل يا محمد: إنْ ثبت لله ولد، فأنا أوَّلُ مَن يَعبد ولدَه، ولكن يستحيل أن يكونَ له ولد؛ وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلتَ بالدليل، فأنا أوَّلُ مَن يعتقده؛ وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد، أي: لا سبيل إلى اعتقاده. وهذا ترقيقٌ في الكلام؛ كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. والمعنى على هذا: فأنا أوَّل العابدين لذلك الولد، لأنَّ تعظيم الولد تعظيمٌ للوالد.

وقال مجاهد: المعنى: إن كان للرحمن ولد، فأنا أوَّل مَن عبده وحده. على أنه لا ولد له.

وقال السُّدِّيُّ أيضاً: المعنى: لو كان له ولد، كنت أوَّلَ مَن عبده على أنَّ له ولداً؛ ولكن لا ينبغي ذلك.

قال المَهدويّ: فـ «إن» على هذه الأقوالِ للشرط، وهو الأجود، وهو اختيارُ الطبري[٢]؛ لأن كونها بمعنى «ما» يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى.

وقيل: إنَّ معنى «الْعَابِدِينَ»: الآنِفين. وقال بعض العلماء: لو كان كذلك لكان: العَبِدِين. وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني[٣]: «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِدِينَ» بغير ألف، يقال: عَبِدَ يَعْبَدَ عَبَدًا ـ بالتحريك ـ إذا أنِف وغضِب، فهو عَبِد، والاسم العَبَدة، مثلُ الأَنفة، عن أبي زيد[٤]. قال الفرزدق:

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٦٥٤ - ٦٥٥ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٢ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٤١ . وينظر الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٨٨٦ .

(٢) في تفسيره ٢٠/ ٦٥٧ -٦٥٨ ، وفيه أثر مجاهد والسدي ص٦٥٤ ، ٦٥٦ .

(٣) في النسخ الخطية: أبو عبد الرحمن اليماني، والمثبت من (م)، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٥٧ ، ومجمع البيان ٥٢/ ٩٩ . ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٦ لأبي عبد الرحمن. ووقع في القراءات الشاذة ص١٣٧ : أبو عبد الله واليماني، وينظر البحر المحيط ٨/ ٢٨ .

(٤) الصحاح (عبد).

أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم وأَعْبَدُ أن أهجُو كُلَيْبًا بدارمِ[١]

ويُنشد أيضاً:

أولئك ناس إن هَجَوني هجوتُهم وأَعْبَدُ أن يُهجى كُلَيْبٌ بدارم[٢]

قال الجوهري[٣]: وقال أبو عمرو: وقوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ من الأَنَف والغضب، وقاله الكِسائيُّ والقُتَبي، حكاه الماورديُّ عنهما[٤]. وقال الهَرَوِي: وقوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قيل: هو من عَبِد يَعْبَد، أي: من الآنفين. وقال ابن عرفة: إنما يقال: عَبِد يَعبَدُ فهو عَبِد؛ وقلَّما يقال: عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذِّ، ولكنَّ المعنى: فأنا أوَّلُ مَن يعبدُ الله عزَّ وجلَّ على أنه واحدٌ لا ولد له.

ورُوي أنَّ امرأة دخلت على زوجها فوَلدت منه لستة أشهر، فذُكر ذلك لعثمانَ ﷺ فأمر برجمها؛ فقال له عليٌّ ﷺ: قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. وقال في آية أخرى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] فواللهِ ما عَبِدَ عثمانُ أنْ بعث إليها تُرَدّ. قال عبد الله بن وهب: يعني: ما استنكف ولا أَنِف[٥].

وقال ابن الأعرابي: «فَأَنَا أَوَّلُ العابِدِينَ» أي: الغِضابِ الآنفين. وقيل: «فَأَنا أَوَّلُ العابِدِينَ» أي: أنا أوَّلُ مَن يعبده على الوحدانية مخالفاً لكم[٦]. أبو عبيدة[٧]: معناه الجاحدين؛ وحُكي: عَبَدَني حَقِّي، أي: جحدني[٨].

---

(١) إصلاح المنطق ص٥٩، والصحاح (عبد)، وفصل المقال لأبي عبيد البكري ص٣٨١. قوله: الأحلاس جمع حِلْس: وهو الكبير من الناس. القاموس (حلس).

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٦، وجمهرة الأمثال ١/ ٥١٢، واللسان (عبد) باختلاف يسير.

(٣) في الصحاح (عبد).

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٤١. وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن له ص٤٠١.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٥٧.

(٦) ياقوتة الصراط ص٤٦١ - ٤٦٢.

(٧) في مجاز القرآن ٦/ ٢٠٧.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٦٦.

وقرأ أهل الكوفة إلَّا عاصمًا: «وُلْدٌ» بضم الواو وإسكان اللام. الباقون وعاصم: «وَلَدٌ». وقد تقدَّم[١].

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: تنزيهاً له وتقديساً، نَزَّه نفسه عن كلِّ ما يقتضي الحدوث. وأمرَ النبيَّ ﷺ بالتنزيه. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقولون من الكذب.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ يعني كفارَ مكةَ حين كذَّبوا بعذاب الآخرة. أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ إمَّا العذاب في الدنيا أو في الآخرة. وقيل: إنَّ هذا منسوخٌ بآية السيف. وقيل: هو مُحْكَم، وإنما أُخرج مُخرجَ التهديد[٢].

وقرأ ابن مُحيصِن ومجاهدٌ وحُميدٌ وابن القَعقاع وابن السَّمَيْفَع: «حَتَّى يَلْقَوا» بفتح الياء وإسكانِ اللام مِن غير ألف وفتحِ القاف، هنا وفي «الطور» و«المعارج». الباقون: «يُلَاقُوا»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾

هذا تكذيبٌ لهم في أنَّ لله شريكًا وولدًا، أي: هو المستحِقُّ للعبادة في السماء والأرض. وقال عمر ﷺ وغيرُه: المعنى: وهو الذي في السماء إلهٌ في[٤] الأرض[٥]؛ وكذلك قرأ[٦]. والمعنى[٧]: أنه يُعبد فيهما. وروي أنه قرأ هو وابنُ مسعود وغيرُهما:

---

(١) السبعة ص٤١٢، والتيسير ص١٤٩ - ١٥٠، وتقدم ١٣/ ٥١٩.

(٢) الكلام بنحوه في المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ص٤٨.

(٣) قراءة ابن القعقاع في هذه المواضع في النشر ٢/ ٣٧٠، وهي من العشرة، وقراءة ابن محيصن في القراءات الشاذة ص١٣٧.

(٤) في (د) و(ظ): وفي ...

(٥) بعدها في (ظ): إله.

(٦) في (د) و(ظ): قرئ، ولم نقف عليها.

(٧) قبلها في (ظ): ويقرى بغير واو وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله يعني إله السماء والأرض واحد.. (وقع بعدها سواد).

«وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللهُ وَفِي الْأَرْضِ اللهُ»[١] وهذا خلاف المصحف. و«إلهٌ» رفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: وهو الذي في السماء هو إله؛ قاله أبو علي[٢]. وحَسُن حذفُه لطول الكلام[٣]. وقيل: «في» بمعنى «على»؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل؛ أي: هو القادر على السماء والأرض. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تقدّم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿تَبَارَكَ﴾: تفاعل، من البركة. وقد تقدَّم[٥]. ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وقتُ قيامها. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكِسائي: «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» بالياء. الباقون بالتاء[٦]. وكان ابن مُحَيْصِن وحُميدٌ ويعقوب وابن أبي إسحاق يفتحون أوّله على أصولهم. وضَمَّ الباقون[٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ «مَنْ» في موضعِ الخفض. وأراد بـ «الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونه» عيسى وعُزَيراً والملائكة. والمعنى: ولا يملك هؤلاء الشفاعةَ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٣٢.

(٣) أمالي ابن الشجري ١/ ١١٣ و ٣٣١ بنحوه.

(٤) ١/ ٤٢٩.

(٥) ٩/ ٢٤٤.

(٦) السبعة ص٥٨٩، والتيسير ص١٩٧.

(٧) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٠، وهي بالتاء من رواية روح، وبالياء من رواية رويس.

إلَّا لمن شهد بالحقِّ وآمن على علمٍ وبصيرة؛ قاله سعيد بن جبير وغيره[١]. قال: وشهادةُ الحقِّ: لا إله إلا الله.

وقيل: «مَنْ» في محلِّ رفع؛ أي: ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة - يعني الآلهة؛ في قول قتادة[٢]، أي: لا يشفعون لعابديها - إلَّا مَن شهد بالحق، يعني عُزيراً وعيسى والملائكة؛ فإنهم يشهدون بالحقِّ والوَحدانيةِ لله[٣]. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما شهدوا به.

وقيل: إنها نزلت بسبب أنَّ النَّضر بنَ الحارث ونَفَراً من قريش قالوا: إنْ كان ما يقول محمدٌ حقًّا فنحن نتولَّى الملائكة، وهم أحقُّ بالشفاعة لنا منه؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾[٤] أي: اعتقدوا أنَّ الملائكة أو الأصنام أو الجِنَّ أو الشياطين تشفع لهم، ولا شفاعةَ لأحد يومَ القيامة.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني المؤمنين إذا أُذِن لهم. قال ابن عباس: «إلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ» أي: شَهِد أنْ لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ الله[٥].

وقيل: أي: لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يَشفعَ لهم أحدٌ إلَّا مَن شَهِد بالحق؛ فإنَّ مَن شهد بالحق يَشفع له ولا يَشفع لمشرك. و«إلَّا» بمعنى: لكن، أي: لا ينال المشركون[٦] الشفاعةَ، لكن ينال الشفاعةَ مَن شهد بالحق؛ فهو استثناءٌ منقطع.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٤٧ . وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٦١ عن مجاهد، والاستثناء على هذا التأويل منفصل، كما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٧ .

(٢) أخرج قوله الطبري ٢٠/ ٦٦٢ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٤٧ ، والاستثناء على هذا التأويل متصل، وهو ما رجحه البغوي وابن عطية، وتكون «مَنْ» في محل رفع على البدلية من «الذين»، ويجوز أيضاً النصب على الاستثناء. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٢ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٣ .

(٥) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٣) دون قوله: وأن محمداً رسول الله.

(٦) في النسخ الخطية: المشركين.

ويجوز أن يكون متصلاً؛ لأن في جملةِ «الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» الملائكةَ[١]. ويقال: شَفَعْته وشَفَعْت له؛ مثل: كِلْته وكِلْت له. وقد مضى في «البقرة» معنى الشفاعة واشتقاقها[٢]، فلا معنى لإعادتها.

وقيل: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ»: إلَّا مَن تشهد له الملائكةُ بأنه كان على الحق في الدنيا، مع علمهم بذلك منه بأنْ يكونَ اللهُ أخبرهم به، أو بأنْ شاهدوه على الإيمان.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدلُّ على معنيين: أحدهما: أنَّ الشهادة[٣] بالحقِّ غيرُ نافعةٍ إلّا مع العلم، وأنَّ[٤] التقليد لا يُغني مع عدم العلمِ بصحة المقالة. والثاني: أنَّ شرط سائرِ الشهادات في الحقوق وغيرِها أن يكونَ الشاهدُ عالماً بها. ونحوُه ما رُوي عن النبيِّ ﷺ «إذا رأيتَ مِثلَ الشمس فاشهد، وإلَّا فَدَعْ». وقد مضى في «البقرة»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: لَأقرُّوا بأنَّ الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيرَه رجاءَ شفاعتِهم له. يقال: أَفَكَه يَأْفِكُه أَفْكًا؛ أي: قَلَبه وصَرَفه عن الشيء. ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾[٦] [الأحقاف:٢٢]. وقيل: أي: ولئن سألتَ الملائكةَ وعيسى «مَنْ خَلَقَهُمْ» لَقالوا: الله. «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» أي: فأنَّى يُؤفك هؤلاء في ادِّعائهم إياهم آلهةً!

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٨ .

(٢) ٢/ ٧٦ .

(٣) في (م): الشفاعة.

(٤) في أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٩ ـ والكلام منه ـ: فإن.

(٥) ٤/ ٤٤١ .

(٦) الصحاح (أفك).

قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

في «قِيلِهِ» ثلاثُ قراءات: النصب، والجرّ، والرفع. فأمَّا الجرُّ، فهي قراءةُ عاصم وحمزة. وبقية السبعة بالنصب[١]. وأما الرفع؛ فهي قراءة الأعرجِ وقتادةَ وابنِ هُرْمُزٍ[٢] ومسلم بن جُنْدب[٣].

فمن جَرَّ حمله على معنى: وعنده عِلْمُ الساعة وعلمُ قِيلِه.

ومَن نصب فعلى معنى: وعنده عِلم الساعة ويعلم قِيلَه؛ وهذا اختيار الزَّجاج[٤]. وقال الفرَّاء والأخفش[٥]: يجوز أن يكون ﴿قِيلَهُۥ﴾ عطفًا على قوله: ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الآية: ٨٠].

قال ابن الأنباري[٦]: سألتُ أبا العباس محمد بنَ يزيدَ المبرِّد: بأيِّ شيءٍ تَنْصِبُ القيل؟ فقال: أنصبه على «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيعْلَم قِيلَه». فمن هذا الوجهِ لا يَحسُن الوقفُ على «تُرْجَعُونَ»، ولا على «يَعْلَمُونَ». ويحسُن الوقفُ على «يَكْتُبُونَ». وأجاز الفراءُ والأخفش[٧] أن يُنصبَ القيلُ على معنى: [أَنَّا] لا نسمع سِرَّهم ونجواهم وقِيلَه؛ كما ذكرنا عنهما. فمن هذا الوجهِ لا يحسُن الوقف على «يَكْتُبُونَ»[٨].

وأجاز الفراء والأخفش أيضًا[٩] أن يُنصب على المصدر؛ كأنه قال: وقال قِيلَه، وشكا شكواه إلى الله عزَّ وجلَّ، كما قال كعب بن زهير:

---

(١) السبعة ص٥٨٩، والتيسير ص١٩٧.

(٢) هو نفسه الأعرج المذكور، واسمه عبد الرحمن، روى له الجماعة.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٥٨، والقراءات الشاذة ص١٣٦، والبحر ٨/ ٣٠.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٢١.

(٥) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢١.

(٦) في الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٦.

(٧) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٣.

(٨) الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧.

(٩) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٣.

يـمـشـي الـوُشـاةُ جَـنـابَـيـهـا وقِـيـلَـهُـمُ إنَّـك يـا ابـنَ أبـي سُـلْـمَـى لَـمـقـتـولُ

أراد: ويقولون قيلَهم[(١)].

ومَن رفع «قيله»، فالتقدير: وعنده قِيلُه، أو: قِيلُه مسموع[(٢)]، أو: قِيلُه هذا القولُ.

الزمخشريّ: والذي قالوه ليس بقويٍّ في المعنى، مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسُن اعتراضًا، ومع تنافر النَّظْم. وأقوى من ذلك وأوجهُ أن يكونَ الجرُّ والنصب على إضمار حرفِ القَسَم وحذفِه. والرفع على قولهم: أيمُنُ الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولَعَمرُك، ويكون قولُه: «إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ» جوابَ القسم؛ كأنه قال: وأقسم بقيله: ياربِّ، أو: قيلِهِ: يا ربِّ قَسَمي، إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنون[(٣)].

وقال ابن الأنباري[(٤)]: ويجوز في العربية: «وقيلُه» بالرفع، على أنْ تَرفعَه بـ «إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنون». المهدوي: أو يكون على تقدير: وقِيلُه قِيلُه يا ربِّ؛ فحذف قيله الثاني[(٥)] الذي هو خبر. وموضع «يا ربِّ» نصبٌ بالخبر المضمَر، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذفُ بعضِ الموصول وبقي بعضه؛ لأن حذف القول قد كَثُر حتى صار بمنزلة المذكور.

والهاء في «قِيله» لعيسى[(٦)]، وقيل: لمحمد ﷺ، وقد جرى ذِكْرُه إذ قال: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ»[(٧)].

---

(١) الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧ . وبيت كعب في ديوانه ص٨٩ ، وروايته: يسعى الوشاة بجنبيها وقولهم.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٩٨ .

(٤) في الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧ .

(٥) في النسخ الخطية: الأول.

(٦) ضعَّف هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٧ .

(٧) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٤ . وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦٦٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢ .

وقرأ أبو قِلابة: «يَاربَّ» بفتح الباء[1]. والقيل مصدر كالقول؛ ومنه الخبر: «نهى عن قِيْلٍ وقال»[2]. ويقال: قلت قَوْلًا وقِيلًا وقالًا. وفي النساء: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [الآية: ١٢٢].

قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾

قال قتادة: أمرَه بالصَّفح عنهم، ثم أمره بقتالهم، فصار الصفحُ منسوخاً بالسيف. ونحوُه عن ابن عباس قال: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ»: أَعرِض عنهم. ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أي: معروفًا؛ أي: قل لمشركي أهل مكة «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ثم نُسخ هذا في سورة براءةٌ بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [الآية: ٥][3]. وقيل: هي مُحْكَمة لم تُنسخ.

وقراءة العامة: «فَسَوْفَ يعلمون» بالياء؛ على أنه خبرٌ من الله تعالى لنبيِّه بالتهديد. وقرأ نافعٌ وابن عامر: «تَعْلَمُونَ» بالتاء[4]؛ على أنه من خطاب النبيِّ ﷺ للمشركين بالتهديد. و«سلَامٌ» رفع بإضمار: عليكم؛ قاله الفرَّاء[5]. ومعناه: الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحيَّةً لهم؛ حكاه النقَّاش. وروى شعيب بن الحَبْحاب أنه عرَّفه بذلك كيف السلامُ عليهم[6]؛ والله أعلم.

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٧ ، وهي قراءة شاذة.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة، وسلف ٥/ ٢٥١ .

(٣) أخرج قولهما النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٤ ، وقول قتادة أخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٦٥ .

(٤) السبعة ص٥٨٩ ، والتيسير ص١٩٧ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٨ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٣ .

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مَكِّيَّةٌ، وقيل: إلَّا قولَه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾، وآيها تسعٌ وثمانونَ آية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أقسمَ بالقُرآنِ على أنَّه جَعَلَهُ قُرآنًا عربيًّا، وهو مِن البدائعِ؛ لتَناسُبِ القسمِ والمقسَمِ عليهِ، كقولِ أبي تمامٍ:

وَثَنَايَـاكِ إِنَّـهَـا إِغْـرِيـضُ[2]

ولعلَّ إقسامَ اللهِ بالأشياءِ استشهادٌ بما فيها مِن الدَّلالةِ على المقسَمِ عليه.

والقرآنُ مِن حيثُ إنَّه مُعجِزٌ مبيِّنٌ طرقَ[3] الهُدَى وما يحتاجُ إليه في الدِّيانةِ، أو بيِّنٌ للعربِ ما يدلُّ على أنَّه تَعالى صيَّره كذلكَ.

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٢٣)، وفيه: ثمانون وثمان في الشَّامي، وتسع في عدد الباقينَ، اختلافها آيتان: ﴿حمٓ﴾ عدَّها الكوفي ولم يعدَّها الباقون، ﴿هُوَ مَهِينٌ﴾ لم يعدها الكوفي والشامي وعدها الباقون.

(٢) جاء في نسخة التفتازاني تتمة البيت: «ولآلٍ تُومٌ وبَرقٌ وَميضُ».

وانظر: «ديوان أبي تمام» بشرح التبريزي (٢/ ٢٨٧)، و«الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري» للآمدي (٢/ ٦٤ و١٠٥). قال الآمدي: وهذا وصف حسن، وزاد حسنَه وبهجتَه أنه جعله يميناً حلف بها.

(٣) في نسخة التفتازاني: «طريق».

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهَمُوا مَعانيَه.

(٤) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عطفٌ على (إنَّا)[١].

﴿فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في اللَّوحِ المحفوظِ فإنَّه أصلُ الكتبِ السَّماويَّةِ، وقرأ حمزة والكسائي[٢]: ﴿إِم الكتابِ﴾ بالكسرِ[٣].

﴿لَدَيْنَا﴾ محفوظًا عندَنا عَن التَّغييرِ.

﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيعُ الشَّأنِ في الكتبِ لكونِه مُعجِزًا[٤] مِن بَينِها.

﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمةٍ بالغةٍ، أو محكَمٌ لا ينسَخُهُ غيرُه، وهما خَبَرانِ لـ(إنَّ)، و﴿فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿عَلِيٌّ﴾ واللَّامُ لا تمنَعُه، أو حالٌ منه، و﴿لَدَيْنَا﴾ بدلٌ منه، أو حالٌ مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾.

(٥) ـ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أفنذودُهُ ونبعدُهُ عنكُم مجازٌ مِن قولِهم: ضربَ الغَرَائبَ عَن الحوضِ[٥]، قال طرَفَةُ:

اضْـرِبَ عَنْـكَ الهُمُـومَ طَـارِقَـهَا ... ضَرْبَكَ بالسَّـيْفِ قَوْنَـسَ الفَـرَسِ[٦]

---

(١) في نسخة الفاروقي والطبلاوي زيادة: «وقرأ حمزة والكسائي بالكسر على الاستئناف»، ولم تقع هذه الزيادة في نسخة التفتازاني والخيالي، وهو الصَّواب؛ إذ القرَّاء متَّفقون على القراءة بالكسر.

(٢) في نسخة الفاروقي: «وقرئ».

(٣) هي قراءة حمزة والكسائي في حال الوصل، والباقون بضم الهمزة في الحالين، انظر: «السبعة» (ص: ٢٢٨)، و«التيسير» (ص: ٩٤).

(٤) في نسخة الخيالي: «لأنه معجز».

(٥) هذا مَثَلٌ. يُقال: ضربه ضرب غريبة الإبل. وذلك: أن الأبل إذا وردت الماء فدخلت فيها غريبة من غيرها ذيدت عن الماء وضربت حتى تخرج عنها. انظر: «غريب الحديث» (٣/ ٧٠١).

(٦) نسب لطرفة في «التقفية في اللغة» للبندنيجي (ص: ٤٦٢)، و«الصحاح» (مادة: قنس)، وجاء =

والفاءُ للعَطفِ على محذوفٍ؛ أي[١]: أَنُهْمِلُكُم فنَضرِبُ عَنكم الذِّكرَ.

و﴿صَفْحًا﴾ مَصدَرٌ مِن غيرِ لفظِهِ فإنَّ تَنحِيَةَ الذِّكرِ عنهم إعراضٌ، أو مفعولٌ له، أو حالٌ بمَعنى: صافِحينَ، وأصلُه: أنْ تُولِيَ الشَّيءَ صَفْحَةَ عُنقِكَ.

وقيل: إنَّه بمعنى الجانبِ فيكونُ ظرفًا، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (صُفْحًا)[٢]، وحينئذٍ يحتملُ أن يكونَ تخفيفَ صُفُحٍ جمعُ صَفوحٍ بمعنى صَافحينَ، والمرادُ إنكارُ أَنْ يكونَ الأمرُ على خلافِ ما ذكرَ مِن إنزالِ الكتابِ على لُغَتِهم ليفهموهُ.

﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي: لأَنْ كُنتُم، وهو في الحقيقَةِ عِلَّةٌ مُقتضِيَةٌ لتركِ الإعراضِ.

وقرأَ نافِعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ ﴿إِنْ﴾[٣] بالكسرِ على أنَّ الجُملةَ شرطيَّةٌ مُخرِجَةٌ[٤] للمحقَّقِ مخرجَ المشكوكِ؛ استجهالًا لهم وما قبلَها دليلُ الجزاءِ.

= في «النوادر» لأبي زيد (ص: ١٦٥) عن أبي حاتم: أنشدني الأخفش بيتًا مصنوعًا لطرفة، فذكره. قلت: وليس في «ديوان طرفة»، وذكره ابن جني في «سر صناعة الإعراب» (١/ ٩٧) وقال: مدفوع مصنوع عند عامة أصحابنا، ولا رواية تثبت به. قوله: «اضرب»؛ أي: اضربَنْ، فحذفت النون الخفيفة وحركت الباء بالفتح، و«طارقها»: ما يطرق بالليل، وهو بدل اشتمال من «الهموم»، والقونس: منبت شعر الناصية، وهو عظم ناتئ بين أذني الفرس، والبيت يحتمل المشاكلة أيضًا. قاله الطيبي.

(١) في نسخة التفتازاني: «يعني».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥)، و«البحر» (١٩/ ٦٥)، عن حسان بن عبد الرحمن الضبعي والشبيل بن عزرة والسميط بن عمير.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٥).

(٤) في نسخة الفاروقي: «فخرجه».

(٦ ـ ٧) ـ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ ﷺ عن[1] استهزاءِ قَومِه.

(٨) ـ ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: مِن القومِ المسرفينَ؛ لأنَّه صَرَفَ الخطابَ عنهم إلى الرَّسولِ مخبرًا عنهُم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وسلفَ في القُرآنِ قِصَّتُهُم العجيبةُ، وفيهِ وعدٌ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ ووعيدٌ لَهُم بمثلِ ما جَرى على الأولينَ.

(٩) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لعلَّهُ لازِمُ مَقولِهم، أو ما دلَّ عليه إجمالًا أقيمَ مقامَهُ تَقريرًا؛ لإلزامِ الحُجَّةِ عليهِمْ، فكأنَّهُم[2] قالوا: (الله) كما حُكِيَ عنهم في مواضِعَ أُخَرَ، وهو الذي مِن صِفَتِه ما سردَ مِن الصِّفاتِ. ويجوزُ أَنْ يكونَ مَقُولَهُم، وما بعدَهُ استئنافٌ.

(١٠) ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فتَسْتقرُّونَ فيها، وقرأ الحِرْميَّانِ وأبو عَمرٍو وابنُ عامرٍ ﴿مِهادًا﴾ بالألفِ[3].

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تَسلكونَها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تَهتَدُوا إلى مَقاصِدِكُم، أو إلى حكمةِ الصَّانعِ بالنَّظرِ في ذلك.

(١١) ـ ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بمقدارٍ ينفَعُ ولا يَضرُّ، ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ زالَ عنه النَّماءُ، وتذكيرُهُ؛ لأنَّ البلدةَ بمعنى البلدِ والمكانِ، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلكَ الإنشارِ ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تُنشرونَ مِن قُبورِكُم.

---

(١) في نسخة الخيالي: «من».

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي: «وكأنهم».

(٣) «وقرأ الحرميان وأبو عمرو وابن عامر» من نسخة التفتازاني. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٨)، و«التيسير» (ص: ١٥١)، و«النشر» (٢/ ٣٢٠).

وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ بفتح التَّاءِ وضمِّ الرَّاء[١].

(١٢) ـ ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أصنافَ المَخلوقاتِ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ما تركبونَهُ على تغليبِ المُتعدِّي بنفسِه على المتعدِّي بغيرِه؛ إذ يقال: ركبتُ الدَّابَّةَ ورَكِبْتُ في السَّفينَةِ، أو المخلوقِ للرُّكوبِ على المصنوعِ له، أو الغالبِ على النَّادرِ ولذلكَ قالَ:

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أي: ظهورِ ما تركبونَ، وجمعُهُ للمعنى.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ تذكروهَا بقُلوبِكُم مُعترفينَ بها حامِدينَ عليها.

﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مُطيقينَ، مِن أقرنَ الشَّيءَ: إذا أطاقَهُ، وأصلُهُ: وَجَدَهُ قرينته[٢]، إذ الصَّعبُ لا يكونُ قَرينَةَ الضَّعيفِ.

وقُرِئَ بالتَّشديدِ، والمعنى واحِدٌ[٣].

وعنه عليه السلام: أنَّه كانَ إذا وضعَ رجلَهُ في الرِّكابِ قال: «بسمِ اللهِ» فإذا استوَى على الدابَّةِ قال: «الحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾... إلى قوله: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾»[٤]؛ أي: راجعونَ، واتِّصالُه بذلك؛ لأنَّ

---

(١) قوله: «وقرأ ابن عامر...» من نسخة التفتازاني، وانظر: «السبعة» (ص: ٥٨٤)، و«التيسير» (ص: ١٠٩).

(٢) في نسخة الخيالي: «قرينه».

(٣) أي: (مقرِّنين)، انظر: «الكشاف» (٨/ ١١٤)، وذكر في «البحر» (١٩/ ٧١): (المقرنين) ولم ينسبها.

(٤) رواه بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٤١٣ ـ ٤١٤) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، ورواه من حديثه بنحوه مع زيادات عليه أبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي (٣٤٤٦)، والنسائي في «الكبرى» =

الرُّكـوبَ للتَّنقُّـلِ، والنُّقلـةُ العُظمـى: هو الانقـلابُ[1] إلـى اللهِ تَعالى، أو لأنَّـه مُخْطِرٌ فينبغـي للرَّاكـبِ أن لا يغفُـلَ عنـه ويسـتعِدَّ للقـاءِ اللهِ تَعالى.

(١٥) ـ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ متصـلٌ بقولِه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ أي: وقد جعَلُـوا لـه بعـدَ ذلك الاعتـرافِ مِن عبـادِهِ ولـدًا فقالـوا: الملائكـةُ بَنـاتُ اللهِ، ولعلَّهُ سَـمَّاه جـزءًا كمـا سُـمِّيَ بعضًـا؛ لأنَّـه بضعـةٌ مِـن الوالـدِ دلالةً علـى استحالتِهِ على الواحـدِ الحقِّ فـي ذاتِه.

وقَرأَ أبو بكر[2]: ﴿جُزُؤًا﴾ بضَمَّتينِ[3].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهرُ الكُفرانِ، ومِـن ذلك نِسبةُ الوَلَدِ إلى اللهِ؛ لأنَّها مِن فَرطِ الجَهلِ به والتَّحقيرِ لشأنِه.

(١٦) ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ مَعنى الهمزةِ في ﴿ أَمِ ﴾ الإنكارُ والتَّعجيبُ[4] مِن شَأنِهم حيثُ لم يقنعُوا بأن جعَلُوا له جزءًا حتَّى جعلُوا له

= (٨٧٤٨). قال الترمذي: حسن صحيح.

ولمسلم (١٣٤٢) بعضه من حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً ثم قال: «﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾، اللهُمَّ إنَّا نسألُكَ في سفرِنا هذا البرَّ والتَّقوى، ومن العمل ما تَرْضَى...» الحديث.

(١) في نسخة الخيالي: «الانتقال».

(٢) في كل النسخ ما عدا نسخة التفتازاني: «وقرئ».

(٣) قرأ بها أبو بكر حيث وقع، والباقون بإسكانها، انظر: «التيسير» (ص: ٨٢).

(٤) يعني أن أم هنا منقطعة مقدرة بـ(بل) والهمزة المقدرة معها للاستفهام الإنكاري على طريق التعجيب، والمراد إنكار مقولهم أو قولهم على معنى كيف قالوا هذا، والجملة الشرطية معترضة لتأكيد ما أنكر عليهم أو حالية كما ارتضاه التفتازاني في «شرحه» ويجوز عطفه على ما قبله، قاله =

مِن مَخلوقاتِه أجزاءَ أخسَّ ممَّا اختيرَ لَهُم وأبغضَ الأشياءِ إليهم[١] بحيثُ إذا بُشِّرَ أَحدهُمْ به اشتَدَّ غمُّهُ به[٢] كما قال:

(١٧) ـ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ بالجنسِ الذي جعلَهُ له مثلًا إذ الولدُ لا بُدَّ وأن يماثلَ الوالدَ.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ صارَ وَجهُهُ أسودَ في الغايةِ لِمَا يَعتريهِ مِن الكآبةِ.

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوءٌ قَلبُهُ مِن الكَرْبِ، وفي ذلك دلالاتٌ على فسادِ ما قالوهُ، وتعريفُ البنينِ لِمَا مرَّ في الذُّكورِ[٣].

وقُرِئَ: (مُسْوَدٌّ) و(مُسْوادٌّ)[٤] على أنَّ في ﴿ظَلَّ﴾ ضميرَ المبشَّرِ، و(وجهُهُ مُسوَدٌّ) جملةٌ وقعَتْ خبرًا.

= الخفاجي في «حاشيته».

(١) في نسخة الفاروقي، وهامش نسخة التفتازاني: «الأجزاء إليهم»، وفي نسخة الخيالي: «الأشياء لهم».

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «غمهم به» وفي نسخة التفتازاني: «غمهم».

(٣) إشارة إلى ما مر في سورة «الشورى» في وجه تقديم الإناث وتنكيره، وتعريف البنين وتأخيره، والمراد أن التقديم لأنه الأنسب بالمقصود إذ هو أشد في إنكار ما نسبوه له تعالى، ولما قدم منكراً جر تأخير البنين بالتعريف للإشارة إلى أنهم نصب أعينهم فالتعريف للتنويه بالذكور وتحقير الإناث فيفيد زيادة في الإنكار والتعجيب، ولا يجري فيه ما ذكر ثمَّة بتمامه بعينه للفرق بين السياقين، وليس التعريف هنا للفاصلة لأن التنكير لا ينافيها، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٤) انظر: «الكشاف» (٨/ ١١٧)، والأولى أجازها الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٨) ولم يصرح بكونها قراءة.

(١٨) ـ ﴿أومَنْ يَنْشَأُ في الحِلْيَةِ﴾ أي: أو جَعَلُوا له[١]، أو اتخذَ مَن يتربَّى في الزِّينةِ؛ يعني البناتِ[٢].

﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ﴾ في المُجادَلَةِ ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ مقرِّرٍ لِمَا يدَّعيهِ مِن نُقصانِ العَقلِ وضعفِ الرَّأيِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ (مَن) مُبتدأً محذوفَ الخبرِ؛ أي: أومَنْ هذا حالُه ولدُه، و﴿فِي ٱلْخِصَامِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿مُبِينٍ﴾ وإضافةُ ﴿غَيْرُ﴾ إليهِ لا يمنعُه كما عرفت.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ: ﴿ يُنَشَّؤُاْ ﴾[٣] أي: يربَّى، وقُرِئَ: (يُنْشَأُ) و(يُنَاشَأُ)[٤] بمعناه، ونظيرُ ذلك: أعلاهُ وعَلَّاه وعَالاهُ بمعنًى.

(١٩) ـ ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ كفرٌ آخَرُ تضمَّنَه مَقالُهُم شنَّعَ به عليهِم، وهو جعلُهُم أكملَ العبادِ وأكرمَهُم على اللهِ أنقصَهُم رأيًا وأخسَّهُم صِنْفًا.

---

(١) يعني أنَّ من معمولة لفعل مقدَّر فيقدَّر بقرينة وجعلوا له من عباده... إلخ أو جعلوا له من ينشأ في الحلية، ولذا أو اتخذ بقرينة أم اتخذ، أي أو اتخذ من ينشأ إلخ ولداً ففيه تقدير فعل ومفعول، والهمزة إما مقدمة من تأخير أو داخلة على معطوف عليه مقدر أي اجترؤوا على ما ذكر وجعلوا... إلخ على المذهبين المشهورين، وليس إشارة إلى عطفه على مفعول جعل، أو اتخذ كما توهم لأن الهمزة لصدارتها تمنع منه كما لا يخفى، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٢) في نسخة الفاروقي: «الثياب»، وأشار في هامشها إلى: «البنات» وكتب عندها نسخة الخيالي.

(٣) وقرأ باقي السبعة بفتح الياء وسكون النون وتخفيف الشين، انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٦).

(٤) الأولى قراءة الجحدري، والثانية قراءة الحسن، وكلاهما من الشواذ، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥).

وقُـرِئَ: (عَبِيـد)[١]، وقـرأَ الحِجازِيَّانِ وابن عامـر ويعقوب[٢] ﴿عِنْـدَ﴾[٣] على تمثيـلِ زُلفاهُـم، وقُـرِئَ: (أُنُثًا)[٤] وهو جمـعُ الجَمْعِ.

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ أحَضَرُوا خلقَ اللهِ إيَّاهُـم فشاهَدوهُم إناثًا فإنَّ ذلك مما يُعلَمُ بالمشاهدةِ، وهو تجهيلٌ وتَهكُّمٌ بهم.

وقرأ نافِعٌ: ﴿أَأُشْهِدُوا﴾ بهمزةِ الاستفهامِ وهمزةٍ مضمومةٍ بينَ بينَ، و﴿آأُشْهِدُوا﴾ بمدَّةٍ بينَهُما برواية قالون[٥].

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ الَّتي شَهِدوا بها على الملائكةِ ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عَنْهَا يومَ القيامةِ، وهو وعيدٌ.

وقُرِئَ: (سَيُكْتَبُ)، و: (سنكْتُبُ) بالياءِ والنُّونِ[٦]، و(شَهادَاتُهُم)[٧] وهي أنَّ للهِ جُزءًا وأنَّه بناتٌ وهنَّ الملائكةُ، و: (يُسَاءلونَ) مِن المُساءلةِ[٨].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ١١٩).

(٢) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «البصريان» بدل: «ابن عامر ويعقوب»، والصواب المثبت كما في نسخة التفتازاني والخيالي.

(٣) وقراءة الباقين ﴿عِبَٰدُ﴾ انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٦)، و«النشر» (٢/ ٣٦٨).

(٤) في نسخة الفاروقي: «زلفاهم وأنثًا»، وهي قراءة زيد بن علي كما في «البحر» (١٩/ ٧٧).

(٥) وهي بخلاف عن قالون، وقراءة الباقين ﴿أَشَهِدُواْ﴾ بهمزة واحدة مفتوحة وفتح الشين، انظر: «التيسير» (ص: ١٦٩)، و«النشر» (٢/ ٣٦٩).

(٦) الأولى قراءة الزهري، والثانية قراءة الأعرج وقرأ معها: (شهادتهم) بالنصب، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥).

(٧) وهي قراءة الحسن، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٥).

(٨) انظر: «الكشاف» (٨/ ١٢٠).

(٢٠) ـ ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ أي: لو شاءَ عدمَ عِبادَةِ الملائكةِ ما عبدنَاهُم، فاستدلُّوا بنَفْيِ مَشيئَةِ عدمِ العبادةِ على امتناعِ النَّهيِ عنها أو على حُسْنِها، وذلك باطِلٌ؛ لأنَّ المشيئةَ تَرجيحُ بعضِ المُمْكِنَاتِ على بعضٍ مأمورًا كانَ أو مَنْهِيًّا، حَسَنًا كان أو غيرَهُ[١]، ولذلك جهَّلَهُم فقال: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يَتمحَّلُونَ تَمحُّلًا باطلًا.

ويجوزُ أن تكونَ الإشارةُ إلى أصلِ الدَّعوَى، كأنَّه لَمَّا أَبْدَى وُجوهَ فَسادِهَا وحَكى شُبهَتَهُم المزيَّفَةَ نفى أن يكونَ لَهُم بها عِلمٌ مِن طَريقِ العَقلِ.

ثمَّ أضربَ عنه[٢] إلى إنكارِ أَنْ يكونَ لَهُم سندٌ مِن جهَةِ النَّقلِ فقال:

(٢١) ـ ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ مِن قبلِ القُرآنِ، أو ادِّعائِهم ينطقُ على صِحَّةِ ما قالوه، ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ بذلكَ الكتابِ مُتمسِّكُونَ.

(٢٢) ـ ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي: لا حُجَّةَ لَهُم على ذلك عَقليَّةً ولا نقليَّةً، وإنَّما جنَحُوا[٣] فيه إلى تقليدِ آبائِهِم الجَهلَةِ.

والأُمَّةُ: الطَّريقةُ التي تُؤَمُّ كالرُّحْلَةِ للمَرحولِ إليه.

وقُرِئَتْ بالكسرِ[٤] وهي الحالةُ التي يكونُ عليها الآمُّ؛ أي: القاصِدُ، ومنها الدِّينُ.

---

(١) وكفرهم إنما حصل بالاستهزاء بذلك؛ إذ قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ ـ كلمة حق ـ لكن أرادوا بها ـ باطلاً ـ بزعمهم أنها حجة لهم على الله في أن لا يعاقبهم، كما توهمت القدرية، قاله الأنصاري في «حاشيته» (٥/ ١١٦).

(٢) هو جار على الوجهين وفيه إشارة إلى أن أم منقطعة لا متصلة معادلة لقوله: ﴿ أَشَهِدُواْ ﴾ كما قيل لبعده، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٣) في نسخة التفتازاني: «احتجوا».

(٤) أي: (إِمَّةٍ) وهي قراءة عمر بن عبد العزيز ومجاهد والجحدري، وقرأ ابن عباس بفتح الهمزة، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٦).

(٢٣) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ تسليةٌ لرَسُولِ اللهِ ﷺ، ودلالةٌ على أنَّ التَّقليدَ في نحوِ ذلك ضَلالٌ قَديمٌ، وأنَّ مُقَدَّميهِمْ أيضًا لم يَكُن لَهُم سَنَدٌ مَنظورٌ إليه، وتخصيصُ المترفينَ إِشعارٌ بأنَّ التَّنعُّمَ وحبَّ البَطالةِ صَرَفَهُم عَن النَّظرِ إلى التَّقليدِ.

(٢٤) ـ ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: أتتبعونَ آباءَكُم ولو جئتُكُم بدينٍ أهدى مِن دينِ آبائِكُم؟!

وهو حكايةُ أَمرٍ مَاضٍ أُوحِيَ إلى النَّذيرِ، أو خطابٌ لرسولِ اللهِ ﷺ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ أنَّه قرأَ ابنُ عامرٍ وحفصٌ: ﴿قَٰلَ﴾[1].

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وإن كانَ أهدى؛ إقناطًا للنَّذيرِ مِن أَنْ ينظرُوا أو يتفكَّرُوا[2] فيه.

(٢٥) ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالاستئصالِ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ولا تكترِثْ بتكذيبِهِم.

(٢٦) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكُرْ وقتَ قولِه هذا؛ ليَرَوْا كيفَ تبرَّأَ عن التَّقليدِ وتمسَّكَ بالدَّليلِ، أو ليقلِّدُوهُ إن لم يكَنْ لهم بُدٌّ مِن التَّقليدِ فإنَّه أشرفُ آبائِهِم.

﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بَرِيءٌ مِن عِبادَتِكُم أو مَعبودِكُم، مَصدَرٌ نُعِتَ به ولذلك استوَى فيه الواحِدُ والمُتعدِّدُ والمُذكَّرُ والمؤنَّثُ.

وقُرِئَ: (بَرِيء)[3]، و: (بُراء) ككَرِيمٍ وكُرَامٍ[4].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٦).

(٢) في نسخة الخيالي: «ويتفكروا».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٦)، عن الأعمش ومصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) انظر: «الكشاف» (٨/ ١٢٣ ـ ١٢٤).

(٢٧) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناءٌ مُنقَطِعٌ أو مُتَّصِلٌ على أنَّ (ما) يعمُّ أولي العِلمِ وغيرَهم، وأنَّهم[١] كانوا يعبدونَ اللهَ والأوثانَ، أو صفةٌ على أنَّ (ما) مَوصوفَةٌ؛ أي: إنَّني براءٌ مِن آلهةٍ تَعبدونَها غيرِ الذي فطَرَني.

﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ سيُثَبِّتُني على الهدايةِ، أو سيهديني إلى ما وراءِ ما هَداني إليهِ[٢].

(٢٨) ـ ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: وجعلَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ، أو اللهُ كلمَةَ التَّوحيدِ.

﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذُرِّيَّتِهِ، فيكونُ فيهِمْ أبدًا مَن يُوحِّدُ اللهَ ويَدعو إلى توحيده. وقُرِئَ: (كِلْمةً)[٣]، و: (في عَقْبِه) على التَّخفيفِ، و(في عاقِبِه)[٤]؛ أي: فيمَنْ عَقَبَه.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ يرجعُ مَن أشركَ مِنْهُم بدُعاءِ مَن وَحَّدَ.

(٢٩) ـ ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هؤلاءِ المُعاصرينَ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ مِن قُرَيشٍ، ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ بالمدِّ في العمرِ والنِّعمَةِ؛ فاغتَرُّوا بذلك وانهمَكُوا في الشَّهواتِ.

وقُرِئَ: (مَتَّعْتَ) بالفتحِ[٥] على أنَّهُ تَعالى اعترَضَ به على ذاتِهِ في قولِه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً﴾ مُبالغةً في تَعييرِهِم.

---

(١) في نسخة الخيالي: «فإنهم».

(٢) قوله: (سيثبتني على الهداية) إشارة إلى أن السين هنا للتأكيد لا للتسويف والاستقبال؛ لأنه قال في الشعراء ﴿يَهۡدِينِ﴾ بدونها، والقصة واحدة والمضارع في الموضعين للاستمرار، وقوله: (أو سيهديني) فالسين على ظاهرها والمراد هداية زائدة على ما كان له أولاً فيتغاير ما في الآيتين من الحكاية أو المحكي بناء على تكرر القصة، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٣) انظر: «المختصر شواذ القراءات» (ص: ١٣٦)، و«البحر» (١٩/ ٨٢)، عن حميد بن قيس، و«الكشاف» (٨/ ١٢٦) بدون نسبة، وضبطت في بعض نسخه بفتح الكاف.

(٤) القراءاتان في «البحر» (١٩/ ٨٢) دون نسبة.

(٥) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٣٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢)، و«البحر» (١٩/ ٨٢)، عن قتادة والأعمش.

﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ دعوَةُ التوحيدِ[1]، أو القرآنِ، ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ الرِّسالَةِ بما لهُ مِن المعجزاتِ، أو مبيِّنٌ للتَّوحيدِ بالحُجَجِ والآياتِ.

(٣٠) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ ليُنبِّهَهُم عَن غفلَتِهِم ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ زادوا شرارةً فضمُّوا إلى شِرْكِهم مُعاندةَ الحقِّ والاستخفافَ بهِ، وسَمَّوا القرآنَ سِحْرًا وكفَرُوا به واستَحْقَرُوا الرَّسُولَ.

(٣١) ـ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ مِن إحْدَى القَرْيتينِ مَكَّةَ والطَّائفِ ﴿عَظِيمٍ﴾ بالجاهِ والمالِ، كالوَليدِ بن المغيرةِ وعُروَةَ بنِ مَسعودٍ الثَّقفِيِّ، فإنَّ الرِّسالةَ مَنصِبٌ عَظيمٌ لا يليقُ إلا بعَظيمٍ، ولم يعلَمُوا أنَّها رُتبةٌ روحانيَّةٌ تَستَدعي عظمَ النَّفسِ بالتَّحَلِّي بالفَضائلِ والكَمالاتِ القُدسيَّةِ لا التَّزخرفَ بالزَّخارفِ الدُّنيويَّةِ.

(٣٢) ـ ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكارٌ فيهِ تَجهيلٌ وتعجيبٌ مِن تَحكُّمِهم، والمرادُ بالرَّحمةِ النُّبوَّةُ.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم عاجزونَ عَن تَدبيرِهَا وهي خويصةُ أمرِهِم في دُنياهم فمِنْ أينَ لَهُم أن يَتدبَّرُوا أمرَ النبوَّةِ التي هي أَعْلى المراتبِ الإنسيَّةِ، وإطلاقُ المَعيشَةِ يقتضي أَنْ يكونَ حلالُها وحَرامُهَا مِن اللهِ تَعالى.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ وأوقَعْنا بينَهُم التَّفاوُتَ في الرِّزقِ وغَيرِه.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليَستَعمِلَ بَعضُهُم بعضًا في حَوائجِهِم، فيحصلَ بينَهُم تآلفٌ وتَضامٌّ ويَنتَظِمَ بذلك نِظامُ العالَمِ، لا لِكَمالٍ في المُوسِعِ ولا لنَقْصٍ في المُقتِرِ، ثمَّ إنَّه لا اعتراضَ لَهُم علينا في ذلكَ ولا تَصرُّفَ، فكيفَ يَكونُ فيما هو أَعْلَى مِنه؟!

---

(١) في نسخة التفتازاني: «دعوة الحق».

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ هذه، يعني النبوَّةَ وما يَتبَعُها ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِن حُطامِ الدُّنيا، والعظيمُ مَن رُزِقَ مِنها لا مِنْه.

(٣٣) ـ ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لولا أَنْ يرغَبُوا في الكُفرِ إذا رَأَوا الكُفَّارَ في سَعَةٍ وتَنعُّمٍ لحُبِّهم الدُّنيَا فيَجتَمِعُوا عليه ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ ومَصاعِدَ، جمعُ مِعْرَجٍ.

وقُرِئَ: (مَعاريجَ)[١] جمعُ مِعراجٍ.

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعلونَ السُّطوحَ لحَقارةِ الدُّنيا.

و﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدلٌ مِن ﴿لِمَن﴾ بدلَ الاشتمالِ، أو عِلَّةٌ له كقولِك: وهبتُ[٢] له ثوبًا لِقَميصِه.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿سَقْفًا﴾[٣] على التَّوحيد[٤] اكتفاءً بجمعِ البيوتِ.

وقُرِئَ: (سُقْفًا) بالتَّخفيفِ[٥]، و(سُقُوفًا)[٦]، و(سَقَفًا)[٧] وهو لغةٌ في سَقْفٍ.

(٣٤) ـ ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أي: أبوابًا وسُرُرًا مِن فضَّةٍ.

(٣٥) ـ ﴿وَزُخْرُفًا﴾: وزينةً، عطفٌ على ﴿سُقُفًا﴾.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٦)، و«البحر» (١٩/ ٨٨) عن طلحة بن مصرف.

(٢) في نسخة الفاروقي: «هيَّأت».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٦).

(٤) «على التوحيد» من نسخة الخيالي.

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٣٢)، و«المحتسب» (٢/ ٩)، عن مجاهد.

(٦) انظر: «الكشاف» (٨/ ١٣١)، و«البحر» (١٩/ ٨٧)، وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٣٢) ولم يصرح بكونها قراءة.

(٧) انظر: «الكشاف» (٨/ ١٣١)، و«البحر» (١٩/ ٨٧).

أو: وذهبًا، عطفٌ على محلِّ ﴿مِّن فِضَّـةٍ﴾.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (إنْ) هي المخفَّفَةُ، والَّلامُ هي الفارِقَةُ.

وقرأَ عاصِمٌ وحمزةُ وهِشامٌ بخلافٍ عنه: ﴿لَمَّا﴾ بالتَّشديدِ[1] بمَعنى (إلَّا) و(إنْ) نافيةٌ، وقُرِئَ به مَع (إن) و(ما)[2].

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفرِ والمَعاصي.

وفيه دلالةٌ على أنَّ العَظِيمَ هو العَظِيمُ في الآخرةِ لا في الدُّنيا، وإشعارٌ بما لأجلِهِ لم يجعَلْ[3] ذلك للمُؤمنينَ حتَّى يَجتَمِعَ النَّاسُ على الإيمانِ، وهو أنَّه تَمتُّعٌ قَليلٌ بالإضافةِ إلى ما لهم في الآخرةِ، مُخَلٌّ به في الأغلبِ لِمَا فيه من الآفاتِ، قلَّ مَن يَتخلَّصُ عَنْها كما أشارَ إليهِ بقوله:

(٣٦) - ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾: يَتعامَ ويُعْرِضْ عنه لفَرْطِ[4] اشتغالِهِ بالمَحسوساتِ وانهِمَاكِه في الشَّهَواتِ.

وقُرِئَ: (يَعْشَ) بالفتحِ[5]؛ أي: يعمَ، يقال: عَشِيَ: إذا كانَ في بصرِهِ آفةٌ،

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٦)، و«النشر» (٢/ ٢٩١)، وبكسر اللام مع تخفيف الميم قراءة أبي رجاء كما في «المحتسب» (٢/ ٢٥٥)، وأبي حيوة كما في «البحر» (١٩/ ٨٩).

(٢) أي: قرأ بـ(إلا) مع واحدٍ منهما، فقرئ: (وما كل ذلك إلا) ذكره في «الكشاف» (٨/ ١٣٢)، وعزاه في «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٤) إلى مصحف أبي رضي الله عنه دون كلمة (كل)؛ أي: (وما ذلك إلّا)، ولم أقف على القراءة الأولى.

(٣) في نسخة الفاروقي: «يحصل».

(٤) في نسخة الفاروقي: «بفرط».

(٥) ذكرها الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٤٣٩) من رواية أبي نوفل بن أبي عقرب عن ابن عباس رضي الله عنهما، ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٣٢).

وعَشَا: إذا تَعشَّى بلا آفةٍ؛ كعَرِجَ وعَرَجَ. وقُرِئَ (يَعْشُو)[١] على أنَّ (مَن) موصولةٌ.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ يُوسوسُهُ ويُغويهِ دائمًا.

وقرأ[٢] يعقوبُ بالياءِ[٣] على إسنادِهِ إلى ضميرِ الرَّحمنِ، ومَن رفعَ (يعشو) ينبَغِي أنْ يرفعَ (نُقيِّض).

(٣٧) ـ ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عَن الطَّريقِ الذي مِن حَقِّه أن يُسْبَلَ، وجمعُ الضَّمِيرينِ للمَعْنى إِذ المرادُ جِنسُ العاشي والشَّيطانِ المُقيِّضِ له.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الضَّمائِرُ الثَّلاثَةُ الأُوَلُ له، والباقيانِ للشَّيطانِ.

(٣٨) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي: العاشي.

وقرأ الحِجازِيَّانِ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ: ﴿جاءانا﴾[٤] أي: العاشي والشَّيطانُ.

﴿قَالَ﴾ أي: العاشي للشَّيطانِ: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ بُعْدَ المَشرقِ مِن المَغربِ، فغُلِّبَ المشرقُ، وثُنِّيَ، وأُضيفَ البعدُ إليهِمَا.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنتَ.

(٣٩) ـ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: ما أنتُمْ عليه مِن التَّمنِّي ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ إذ صَحَّ أنَّكُم ظَلَمْتُم أنفُسَكُم في الدُّنيا، بدلٌ مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾.

﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لأنَّ حَقَّكُم أَنْ تَشتَرِكُوا أنتُمْ وشَياطينُكُم في العذابِ كما كُنتُم مُشتركينَ في سببِهِ.

---

(١) نسبت لزيد بن علي، انظر: «البحر» (١٩/ ٨٨).

(٢) في نسخة الخيالي: «وقراءة».

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٦٩).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٦)، و«النشر» (٢/ ٣٦٩).

ويجوزُ أَنْ يُسندَ الفِعلُ إليه بمَعنى: ولَنْ ينفعَكُم اشتراكُكُم في العذابِ كما ينفَعُ الواقعينَ في أمرٍ صعبٍ مُعاونَتُهُم[١] في تحمُّلِ أَعبائِه وتَقسُّمِهِم بمُكابدَة عنائِه إِذْ لكُلٍّ[٢] مِنْكُم ما لا يَسَعُه طاقَتُه.

وقُرِئَ: (إِنَّكُم) بالكسرِ[٣]، وهو يقوِّي الأوَّلَ.

(٤٠) ـ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ إنكارُ تعجُّبٍ[٤] مِن أَنْ يكونَ هو الذي يقدرُ على هدايَتِهِم بعدَ تَمرُّنِهم على الكُفرِ واستغراقِهِم في الضَّلالِ بحيثُ صارَ عشاهُم عمًى مَقرونًا بالصَّمَمِ.

كان رَسولُ اللهِ ﷺ يُتعِبُ نفسَهُ في دُعاءِ قَومِهِ وهم لا يَزيدونَ إِلَّا غَيًّا، فنزلَتْ[٥].

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْعُمْىَ﴾ باعتبارِ تَغايُرِ الوَصْفَينِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ المُوجِبَ لذلك تمكُّنُهم في ضَلالٍ لا يخفى.

(٤١) ـ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: فإِنْ قبضناكَ قبلَ أَنْ نُبصِّرَكَ عَذابَهُم، و(ما) مَزِيدَةٌ مُؤكدةٌ بمنزلةِ لامِ القَسَمِ في استجلابِ النُّونِ المؤكِّدةِ.

﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعدكَ[٦] في الدُّنيا أو الآخرة.

(٤٢) ـ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أو إن أَرَدْنا أنْ نُرِيَكَ ما وَعَدْناهم مِن العَذابِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بتعاونهم».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «إذ بكل»، وفي نسخة الطبلاوي: «أو بكل».

(٣) وهي قراءة ابن عامر كما في «السبعة» (ص: ٥٨٦)، ولم يذكرها الداني في «التيسير»، وابن الجزري في «النشر».

(٤) في نسخة الفاروقي: «تعجيب».

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٦٠٠ ـ ٦٠١).

(٦) في نسخة الخيالي: «بعذاب».

وقرأ يعقوب بروايةِ رُويسٍ: ﴿أو نُرِيَنْكَ﴾ بإسكان النون وكذا ﴿نَذْهَبَنْ﴾[١].

﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ لا يَفوتونَنا.

(٤٣) - ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ من الآياتِ والشَّرائعِ.

وقُرِئَ: (أَوْحَى)[٢] على البناءِ للفاعلِ، وهو اللهُ تَعالى.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا عِوَجَ له.

(٤٤) - ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ لشرفٌ لكَ ﴿وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عنه يومَ القيامةِ وعَن قِيامِكُم بحقِّه.

(٤٥) - ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي: وسَلْ[٣] أُمَمَهُم وعلماءَ دِينِهم[٤].

﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ هل حكَمْنا بعبادةِ الأوثانِ؟ وهل جاءَتْ في مِلَّةٍ مِنْ مِلَلِهم؟

والمرادُ به الاستشهادُ بإجماعِ الأنبياءِ على التَّوحيدِ، والدَّلالةُ على أنَّه ليسَ بِبِدْعٍ ابتدعَهُ فيُكَذَّبَ ويُعادَى له، فإنَّه كانَ أقوى ما حملَهُم على التَّكذيبِ والمُخالفَةِ.

(٤٦) - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريدُ باقتصاصِه تسليةَ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ، ومُناقضةَ قَولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ والاستشهادَ بدَعوةِ[٥] موسى عليه السَّلامُ إلى التَّوحيدِ؛ ليتأمَّلوا فيها[٦].

---

(١) قوله: «وقرأ يعقوب...» ليست في نسخة الفاروقي. انظر: «النشر» (٢/ ٢٤٦).

(٢) نسبت للضحاك، انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٧)، و«البحر» (١٩/ ٩٧).

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «اسأل».

(٤) في نسخة الخيالي زيادة: «وقرأ ابن كثير والكسائي بتخفيف الهمزة».

(٥) في نسخة التفتازاني: «والاستشهاد به بحق».

(٦) «ليتأملوا فيها» ليس في نسخة الطبلاوي.

(٤٧) ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ فاجَؤوا وقتَ ضحكِهِم مِنْها؛ أي: استهزَؤُوا بها أوَّلَ ما رأَوْها ولم يتأمَّلُوا فيها.

(٤٨) ـ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ إلا وهيَ بالِغَةٌ أقصى دَرجاتِ الإعجازِ بحيثُ يَحسِبُ النَّاظرُ فيها أنَّها أكبَرُ ممَّا يُقاسُ إليها مِن الآياتِ.

والمرادُ وَصفُ الكُلِّ بالكِبَرِ كقولِكَ: رأيتُ رِجالًا بعضُهُم أفضَلُ مِن بَعضٍ، وكقولِه:

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ التِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي[١]

أو: إلَّا وهي مُختصَّةٌ بنوعٍ من الإعجازِ مُفضلَةٌ على غيرِها بذلك الاعتِبَارِ.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالسِّنين والطُّوفانِ والجرادِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على وجهٍ يُرجى رُجوعُهُم.

(٤٩) ـ ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادَوهُ بذلك في تلكَ الحالِ[٢]؛ لشِدَّةِ شَكيمَتِهم وفرطِ حَماقَتِهم، أو لأنَّهُم كانوا يسمونَ العالِمَ الباهِرَ[٣] ساحِرًا.

---

(١) انظر: «الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ١١١٧)، ونسبت فيه القصيدة التي منها البيت للعرندس أحد بني أبي بكر بن كلاب، ومثله في «أمالي القالي» (١/ ٢٣٩)، و«الحماسة المغربية» (١/ ٣٠٠)، وزاد القالي: يمدح بني عمرو الغنويين، قال: وكان الأصمعيّ يقول: هذا المحال، كلابيّ يمدح غنوياً!

ونسب في «الكامل» للمبرد (١/ ٦٧)، و«الحماسة البصرية» (١/ ١٥١)، لعبيد بن العرندس الكلابي. ودون نسبة في «الحيوان» (٢/ ٣٠٠)، و«عيون الأخبار» (١/ ٣٢٩)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٣٨٧).

(٢) في نسخة الخيالي: «الحالة».

(٣) في نسخة التفتازاني: «الماهر».

وقرأ ابنُ عامرٍ بضمِّ الهاءِ[١].

﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي: تَدْعُو لنا فيكشف عنَّا العذابَ[٢].

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعَهْدِه عندكَ من النبوَّةِ، أو أَنْ يستجيبَ دعوتَكَ، أو أن يكشفَ العذابَ عمَّن اهتدَى، أو بما عَهِدَ عندَكَ فوَفيتَ به وهو الإيمانُ والطَّاعةُ، ﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾[٣].

(٥٠) ـ ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ فاجؤُوا نكْثَ عهدِهِم بالاهتداءِ.

(٥١) ـ ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾ بنَفسِه أو بمُناديهِ ﴿فِي قَوۡمِهِۦ﴾ في مَجْمَعِهِم، أو فيما بينَهُم بعدَ كَشْفِ العذابِ عَنْهم مخافةَ أنْ يؤمِنَ بعضُهُم.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أنهارُ النِّيلِ، ومُعظَمُها أربعةٌ: نهرُ الملكِ، ونهرُ طولونَ، ونهرُ دمياط، ونهرُ تَنِّيس.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾ تحتَ قَصْرِي، أو أَمْرِي، أو بينَ يَدَيَّ في جِناني.

والواوُ إمَّا عاطِفَةٌ لهذه الأنهارِ على ﴿مُلۡكُ﴾، و﴿تَجۡرِي﴾ حالٌ منها، أو واوُ حالٍ و(هذه) مُبتدأٌ و﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ صِفَتُها و﴿تَجۡرِي﴾ خبرُها.

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ ذلك.

---

(١) «وقرأ ابن عامر بضم الهاء» ليست في نسخة الفاروقي. وانظر: «السبعة» (ص: ٥٨٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٢).

(٢) قوله: «أي تدعو لنا فيكشف عنا العذاب» ليس في نسخة الفاروقي والتفتازاني. وقد أشار الخفاجي في «حاشيته» إلى سقوطها من بعض النسخ هنا، وذكرت عند قوله: ﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾.

(٣) في نسخة الفاروقي هنا: «أي: إن تدع لنا فينكشف عنا العذاب»، وانظر التعليق السابق.

(٥٢) ـ ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مَـع هـذه المَـملَكَةِ والبَسْطَةِ ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيفٌ حَقِيرٌ لا يَستَعِدُّ الرِّئاسةَ؛ مِن المهانةِ وهي القِلَّةُ.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلامَ لِمَا بهِ مِن الرُّتَّةِ[١] فكيفَ يصلحُ للرِّسالةِ[٢].

و﴿أَمْ﴾ إمَّا مُنقَطِعةٌ والهمزةُ فيها للتَّقريرِ، إذْ قَدَّمَ مِنْ أسبابِ فَضلِه، أو مُتَّصِلَةٌ على إقامةِ المُسبَّبِ مقامَ السَّبَبِ، والمعنى: أفَلا تُبصِرُونَ أم تُبصِرُونَ فتعلَمُونَ أنِّي خيرٌ منه.

(٥٣) ـ ﴿فلولا أُلْقِيَ عليه أساوِرَةٌ مِن ذَهَبٍ﴾ أي: فهَلَّا أُلْقِيَ إليه مَقاليدُ المُلْكِ إنْ كانَ صادِقًا، إذ كانوا إذا سَوَّدُوا رَجُلًا سَوَّرُوهُ وطَوَّقوهُ بسوارٍ وطوقٍ مِن ذهبٍ.

وأساورةٌ جمعُ إِسْوَارٍ بمعنى السِّوارِ على تَعويضِ التَّاءِ مِن ياءِ أَساوِيرَ، وقَدْ قُرِئَ بِهِ[٣].

وقرأَ يَعقوبُ وحَفصٌ: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ وهي جمعُ سِوَارٍ[٤]. وقُرِئَ: (أساوِرُ)[٥] جمع أَسْوِرَة، و(أَلْقَى عليه أَسْوِرَةً)[٦]، و(أساورَ)[٧][٨] على البناءِ للفَاعلِ، وهو اللهُ تَعالى.

---

(١) الرُّتَّة: اللثغة واللكنة، والعقلة في اللسان. «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «للرياسة».

(٣) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٧٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٦) عن أُبيٍّ وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٩٧)، و«النشر» (٢/ ٣٦٩).

(٥) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٧٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٦) عن الأعمش.

(٦) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٩)، و«البحر» (١٩/ ٦٠٩)، عن الضحاك.

(٧) في نسخة الخيالي: «أساورة» وفي نسخة التفتازاني: «أساوير».

(٨) انظر: «الكشاف» (٨/ ١٤٦).

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مَقرونينَ يُعينُونَهُ أو يُصدِّقُونَه؛ مِن قَرَنْتُه بهِ فاقترنَ، أو مُتقارِنينَ؛ مِن اقترنَ بمَعْنى تَقارَنَ.

(٥٤) ـ ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فطلبَ مِنهُم الخِفَّةَ في مُطاوعَتِه، أو فاستخفَّ أَحلامَهُم ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرَهُم بهِ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعُوا ذلك الفاسقَ.

(٥٥) ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونَا بالإفراطِ في العنادِ والعِصيانِ؛ منقولٌ مِن أَسِفَ: إذا اشتدَّ غَضبُه.

﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليَمِّ.

(٥٦) ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قُدوةً لِمَن بعدَهُم مِن الكُفَّارِ يَقتدونَ بهم في استحقاقِ مثلِ عِقابِهم، مَصدرٌ نُعِتَ بهِ أو جمعُ سالفٍ كخَدَمٍ.

وقرأ حَمزَةُ والكِسائيُّ بضَمِّ السِّينِ واللَّامِ[1] جمعُ سَلِيفٍ كرُغُفٍ، أو سالفٍ كصُبُرٍ، أو سَلَفٍ كخَشَبٍ.

وقُرِئَ (سُلَفًا) بإبدالِ ضَمَّةِ اللَّامِ فتحةً[2]، أو على أنَّهُ جمعُ سُلْفَةٍ؛ أي: ثُلَّةٍ سَلَفَتْ.

﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ وعِظَةً لَهُم، أو قِصَّةً عَجيبةً تسيرُ سَيْرَ[3] الأمثالِ لهم فيقالُ: مَثَلكُم مثلُ قومِ فِرعونَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٦) عن مجاهد وحميد، و«تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٤٦٣) عن علي وابن مسعود.

(٣) في نسخة الخيالي: «مسير».

(٥٧) ـ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي: ضـربَهُ ابـنُ الزِّبَعْـرَى لَمَّـا جـادلَ رسـولَ اللهِ ﷺ فـي قـولِه تَعالـى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨][١].

أو غيرُه[٢] بأَنْ قالَ: النَّصارَى أهلُ كتابٍ وهُم يَعبدونَ عِيسى ويَزعمونَ أنَّه ابنُ اللهِ، والملائكةُ أَوْلَى بذلك على قوله[٣]: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥]، أو إنَّ مُحمَّدًا[٤] يريدُ أَنْ نَعبُدَهُ كما عُبِدَ المَسيحُ.

﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قُرَيشٌ ﴿مِنْهُ﴾ مِـن هذا المثلِ ﴿يَصِدُّونَ﴾ يَضِجُّونَ فرحًا لظَنِّهِم أنَّ الرَّسولَ صارَ مُلزَمًا بهِ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ والكِسائيُّ بالضَّمِّ مِن الصُّدودِ[٥]؛ أي: يصُدُّونَ عَن الحقِّ ويُعرِضونَ عنه.

وقيل: هُما لُغَتانِ نحو: يَعْكِفُ ويَعْكُفُ.

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٧٩٨)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٦١) من رواية أبي صالح عن ابن عباس، ولعله من روايات الكلبي عن أبي صالح فقد ذكره ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٤/ ١٨٩) عن الكلبي.

وروى نحوه من طريقٍ آخر حسنٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما الإمام أحمد في «مسنده» (٢٩١٨)، والطبراني في «الكبير» (١٢٧٤٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٧٦).

(٢) «أو غيره» معطوف على «ابن الزبعرى».

(٣) «على قوله» عطف على «يزعمون» بتقدير: وهم يعبدون عيسى بناء على زعمهم أن عيسى ابن الله، وعلى ظاهر قوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ١٢٥)

(٤) قوله: «أو إن محمداً» عطف على «النصارى»، و(إنَّ) فيه مكسورة، كما قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٥) أي: ﴿يصُدُّون﴾ انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

(٥٨) ـ ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ ﴾ أي: آلهتُنا[١] خيرٌ عِندَكَ أَمْ عيسى؛ فإنْ كانَ في النَّارِ فلتكُن آلِهتُنا معَهُ.

أو: آلهتُنا الملائكةُ خيرٌ أم عيسى؛ فإذا جازَ أَنْ يُعبَدَ ويكونَ ابنَ اللهِ كانَتْ آلِهتُنا أَوْلى بذلك.

أو: آلهتُنا خيرٌ أَمْ مُحمَّدٌ فنعبدَهُ وندعَ آلِهتَنَا.

وقرأ الكوفيُّونَ: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ وألفٍ بعدَهُما، ويعقوبُ بروايةِ روحٍ[٢].

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ ما ضَربُوا هذا المثلَ إلَّا لأجلِ الجدلِ والخُصومةِ لا لتَمييزِ الحقِّ مِن الباطلِ، ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ شِدَادُ الخُصومَةِ حِراصٌ على اللَّجاجِ.

(٥٩) ـ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ بالنُّبوَّةِ ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أمرًا عجيبًا كالمثلِ السَّائرِ لبَنِي إسرائيلَ، وهو كالجوابِ المُزِيحِ لتلكَ الشُّبهةِ.

(٦٠) ـ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم﴾ لولَّدْنَا مِنْكُم يا رجالُ كما وَلَّدْنا عيسى مِن غيرِ أَبٍ[٣]، أو لَجَعَلْنا بدلَكُم ﴿مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ ملائكةً يخلفونكُم في الأرضِ.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «أي أآلهتنا».

(٢) والقراءة دون استفهام ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٥٨٨) روايةً عن ورش في غير المشهور عنه، واتفق السبعة في المشهور عنهم على الاستفهام، مع تحقيق الكوفيين إياها وتسهيل بعضهم الهمزة بين بين، وانظر: «التيسير» (ص: ٥٠٩)، و«النشر» (١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥).

(٣) قوله: «لولدنا» يعني إنه تعالى بقدرته الباهرة يجوز أن يولد الملائكة من البشر كما ولد عيسى عليه السلام من غير أب فمن على هذا تبعيضية أو ابتدائية، أو المعنى: لحولنا بعضكم ملائكة فملائكة مفعول ثان أو حال، والمراد أن الملائكة مخلوقون مثلكم لا يصلحون للعبادة والذي خيل لكم اعتقادكم كونهم من غير توليد ولو شاء أوجدهم بالتوليد كما أوجدهم بالإبداع. =

والمعنى: أنَّ حالَ عيسى وإن كانَتْ عجيبةً فاللهُ[1] تعالى قادِرٌ على ما هو أعجَبُ من ذلك، وأنَّ الملائكةَ مثلُكُم مِن حيثُ إنَّها ذواتٌ ممكِنَةٌ يحتمِلُ خلقُها توليدًا كما جازَ خلقُها إبداعًا، فمِنْ أينَ لَهُم استحقاقُ الألوهيَّةِ والانتسابُ إلى اللهِ سبحانَه؟!

(٦١) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ عِيسَى ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ لأنَّ حدوثَهُ، أو نُزولَهُ مِن أَشراطِ السَّاعةِ يُعلَمُ بِهِ دُنوُّهَا، أو لأنَّ إحياءَهُ الموتى يَدُلُّ على قُدرَةِ اللهِ عليه.

وقُرِئَ: (لعَلَمٌ)[2]؛ أي: علامَةٌ، و(لَذِكرٌ)[3] على تسميَةِ ما يُذكرُ به ذِكرًا.

وفي الحديثِ: «ينزلُ عيسى على ثَنِيَّةٍ بالأرضِ المُقدَّسةِ يقالُ لها أَفِيْق، وبيدِهِ حَرْبةٌ بها يقتُلُ الدَّجَّالَ، فيأتي بيتَ المَقدِسِ والنَّاسُ في صَلاةِ الصُّبحِ، فيَتأَخَّرُ الإمامُ، فيُقدِّمُه عِيسى ويُصَلِّي خلفَهُ على شريعَةِ مُحمَّدٍ عليهِ السَّلامُ، ثمَّ يَقتُلُ الخنازيرَ ويكسِرُ الصَّليبَ ويخرِّبُ البِيَعَ والكَنائِسَ ويقتلُ النَّصارَى إلا مَنْ آمنَ به»[4].

= وقوله: «يا رجال» تفسير للضمير المخاطب في منكم وإشارة إلى أنه للذكور من غير تغليب، وأن المعنى أن في عظيم قدرته أن يخلق توليداً من الذكور بدون الإناث كما خلق من أنثى بلا ذكر عيسى عليه السلام ومن غير ذكر وأنثى آدم عليه الصلاة والسلام، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(١) في نسخة التفتازاني: «فإنه».

(٢) نسبت لابن عباس وأبي هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك، كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٦)، و«تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٤٧٢)، وعزاها الهذلي في «الكامل» (ص: ٦٣٤) إلى ابن مقسم وابن محيصن وحميد.

(٣) نسبت لأبي بن كعب. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٣٧)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٦٣٤).

(٤) ذكره بتمامه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٤٧٣) دون راو ولا سند. وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٥٤): غريب بهذا اللفظ، وهو في «تفسير الثعلبي» هكذا من غير سند، وهو مفرق في غضون الأحاديث.

وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٨): أخرجه الثعلبي بغير سند، وهو موجود في =

وقيل: الضَّميرُ للقُرآنِ؛ فإنَّ فيه الإعلامَ بالسَّاعةِ والدَّلالةَ عَليها.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تَشُكُّنَّ فيها ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتَّبِعوا هُدايَ، أو شَرْعي، أو رَسُولي.

وقيل: هو قولُ الرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ أُمِرَ أَنْ يقولَه.

﴿هَٰذَا﴾ الذي أَدْعوكُم إليهِ ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يَضِلُّ سالِكُه.

(٦٢) ـ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عَن المتابعةِ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بانَتْ[١] عَداوَتُه بأَنْ أَخرجَكُم مِن الجنَّةِ وعرَّضَكُم للبَلِيَّةِ.

(٦٣) ـ ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمُعجزاتِ، أو بآياتِ الإنجيلِ، أو بالشَّرائعِ الواضحاتِ.

﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾؛ أي: بالإنجيلِ، أو الشَّريعةِ.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يكونُ مِن أمرِ الدِّينِ لا ما يَتعلَّقُ بأمرِ الدُّنيا؛ فإنَّ الأنبياءَ لَمْ تُبعَثْ لِبَيانِه، ولذلك قالَ عليهِ السَّلامُ: «أنتُمْ أعلَمُ بأمرِ دُنياكُمْ»[٢].

= أحاديث متفرقة، فقوله: «ثنية أفيق» عند الحاكم من حديث عثمان بن أبي العاص، وقوله «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب» في الصحيح من حديث أبي هريرة.

قلت: حديث عثمان بن أبي العاص رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٧٣)، ورواه (٨٥٠٧) من حديث حذيفة. ونزوله والناس في صلاة الصبح رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وحديث: «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب» رواه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥)، من حديث أبي هريرة.

(١) كذا في نسخة الفاروقي، وفي بقية النسخ: «ثابت» بالمثلثة وهو اسم من الثبوت، ومعنى «بانت عداوته»: ظهرت ورجحت، وكلتاهما جاءت في النسخ الخطية، كما أشار إليه الخفاجي في «حاشيته».

(٢) رواه مسلم (٢٣٦٣) من حديث عائشة وأنس رضي الله عنهم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغُهُ عنه.

(٦٤) ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بيانٌ لِمَا أمرَهُم بالطَّاعةِ فيه، وهو اعتقادُ التَّوحيدِ والتَّعبُّدِ بالشَّرائعِ.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الإشارةُ[1] إلى مجموعِ الأمرينِ وهو تتمَّةُ كلامِ عِيسى عليه السَّلامُ، أو استئنافٌ مِن اللهِ يدلُّ على ما هو المقتضي للطَّاعةِ في ذلك.

(٦٥) ـ ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفِرَقُ المُتحزِّبَةُ ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ مِن بينِ النَّصارَى، أو اليَهودُ والنَّصارَى مِن بين قومِه المبعوثِ إليهِمْ.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مِن المُتحزِّبينَ ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يومُ القِيامةِ.

(٦٦) ـ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الضَّميرُ لقُرَيشٍ، أو للذينَ ظَلَمُوا ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدلٌ مِن السَّاعةِ والمعنى: هل ينظرونَ إلَّا إتيانَ السَّاعةِ ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ غافلونَ عنها؛ لاشتِغالِهِم بأمورِ الدُّنيا وإنكارِهِم لها؟!

(٦٧) ـ ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ الأَحِبَّاءُ ﴿يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: يَتعادَوْنَ يومَئذٍ؛ لانقطاعِ العُلَقِ لظُهورِ ما كانوا يَتخالُّونَ له سببًا للعَذابِ ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإنَّ خُلَّتَهُم لَمَّا كانَتْ في اللهِ تبقى نافعةً أبدَ الآبادِ.

(٦٨) ـ ﴿يا عِبادي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حكايةٌ لِمَا يُنادى به المتَّقونَ المتحابُّونَ في اللهِ يومَئذٍ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «إشارة».

وقرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بغير الياء[١].

(٦٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صِفَةٌ للمُنادى.

﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حالٌ مِن الواوِ؛ أي: الذينَ آمَنوا مخلصينَ، غيرَ أنَّ هذه العبارةِ آكَدُ وأبلَغُ.

(٧٠) ـ ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ نساؤُكُم المؤمناتُ ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تُسَرُّونَ سُرورًا يظهرُ حَبارُه؛ أي: أثَرُه على وُجوهِكُم، أو تُزَيَّنُونَ مِن الحِبْرِ[٢] وهو حُسنُ الوجهِ والهيئةِ[٣]، أو تُكرَمُونَ إكرامًا يُبالَغُ فيه، والحَبْرَةُ المُبالغَةُ فيما وُصِفَ بجَميلٍ[٤].

(٧١) ـ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ الصِّحافُ جمعُ: صَحْفَةٍ، والأكوابُ جمعُ كوبٍ، وهو كوزٌ لا عُرْوَةَ له.

﴿وَفِيهَا﴾ وفي[٥] الجنَّةِ، ﴿مَا﴾ به ﴿تَشْتَهِي الأنفُسُ﴾ وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ وحفصٌ: ﴿تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾[٦] على الأَصلِ.

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ بمُشاهَدَتِه، وذلك تَعميمٌ بعد تخصيصٍ ما يُعَدُّ مِنَ الزَّوائِدِ في التَّنعُّمِ والتَّلذُّذِ.

---

(١) «وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص بغير الياء» من نسخة التفتازاني والخيالي؛ أي: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٨)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

(٢) الحبر: بكسر الحاء وفتحها.

(٣) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «حسن الهيئة».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤١٩).

(٥) في نسخة التفتازاني: «أي في».

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٨)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ فإنَّ كـلَّ نعيمٍ زائِلٌ مَشوبٌ بكُلْفةِ[١] الحفظِ وخوفِ الزَّوالِ، ومُستَعقَبٌ للتَّحسُّرِ في ثاني الحالِ[٢].

(٧٢)ـ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقُرِئَ: (وُرِّثْتمُوها)[٣] شَبَّهَ جزاءَ العملِ بالميراثِ؛ لأنَّه يخلُفُهُ عليه[٤] العاملُ، و﴿تلكَ﴾ إشارةٌ[٥] إلى الجنَّةِ المَذكورةِ وقَعَتْ مُبتدأً و﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ خبرُها و﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ صِفَتُها، أو ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ صِفَة ﴿تلكَ﴾، و﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ خَبرُها، أو صِفَةُ الجنَّةِ والخبرُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وعليه يتعلَّقُ الباءُ بمَحذوفٍ لا بـ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾.

(٧٣)ـ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ بعضَهـا تـأكـلونَ لِكَثرَتِهـا ودَوامِ نَوعِهَـا، ولعـلَّ تفصيـلَ[٦] التَّنعُّـمِ بالمَطاعـمِ والملابـسِ وتكريـرَهُ فـي القـرآنِ،

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «موجب لكلفة»، وفي نسخة التفتازاني: «موجب لكلفته».

(٢) قوله: (فإن كل نعيم زائل) أي غير نعيم أهل الجنة وليس المراد ما يشمله وزواله بمعنى ذهاب بعض أفراده بتجدد الأمثال كما يوجه به وقوله:

وكل نعيـم لا محالـة زائـل

إن لم يخصص وهذا بيان لخطابهم بقوله: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ فإنه تأكيد لقوله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ وثاني الحال ما يعقبه ولله در القائل:

وإذا نظـرت فـإن بؤسـاً زائـلاً للمـرء خيـر مـن نعيـم زائـل

قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ١٥٧).

(٤) فـي نسـخة الفاروقـي: «علـى»، ووجهـه: يخلفه مضـارع خلفـه: إذا صار خليفـة له والعامـل فاعله وضميـر يخلفـه للعمـل وضميـر عليـه للجـزاء؛ أي: يخلفـه ثابتـاً ومسـتولياً على مـا ناله مـن جزائه بفضل الله تعالى وتوفيقه، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٥) في نسخة التفتازاني: «الإشارة».

(٦) في نسخة التفتازاني: «تفصيله».

وهـو حقيـرٌ بالإضافـةِ إلـى سـائرِ نَعائـمِ الجنَّـةِ؛ لِمَـا كانَ بهـم مِـن الشِّـدَّةِ والفاقةِ.

(٧٤) ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكامليـنَ فـي الإجـرامِ وهـم الكُفَّارُ؛ لأنَّه جُعِلَ قسـيمَ المؤمنيـنَ بالآيـاتِ، وحكـى عنهـم مـا يخـصُّ[1] بالكُفَّـارِ ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ خبـرُ ﴿إِنَّ﴾ أو ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبـرٌ، والظَّـرفُ مُتعلِّـقٌ به.

(٧٥) ـ ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ لا يُخفَّفُ عنهم، مِن فَتَرَتْ عنهُ الحُمَّى: إذا سَكَنَتْ قليلًا، والتَّركيبُ للضَّعفِ[2].

﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ في العَذابِ ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيِسُونَ مِن النَّجاةِ.

(٧٦) ـ ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مرَّ مِثلُهُ غيرَ مَرَّةٍ، و﴿وَهُمْ﴾ فصلٌ.

(٧٧) ـ ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ وقُـرِئَ: (يا مـال) عَـلى التَّرخيـمِ مَكـسورًا ومَضمُومًـا[3]، ولعلَّـهُ إِشـعارٌ بأَنَّهُـم لضَعْفِهـم لا يَسـتَطِيعونَ تَأدِيَـةَ اللفـظِ بالتَّمامِ، ولذلـك اختصَـرُوا فقالـوا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ والمعنى: سَـلْ رَبَّنـا أَنْ يَقْضِيَ علينا، مِـن قَضـى عليـه: إذا أماتَهُ، وهـو لا يُنافي إبلاسَـهُم فإنَّـهُ جُـؤارٌ وتَمَنٍّ للمَـوتِ مِن فرطِ الشِّـدَّةِ.

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ لا خلاصَ لَكُم بمـوتٍ ولا غـيرِه.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بما يخص».

(٢) قوله: «والتركيب»؛ أي: مادته بأي صيغة كانت تدل على الضعف مطلقاً، ففترة الحمى ضعف في ألمها، وكذا العذاب وفتور القوى وغيره. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٦ ـ ١٣٧)، و«المحتسب» (٢/ ٢٥٧)، وقراءة الكسر نسبت لعلي وابن مسعود رضي الله عنهما، وقراءة الضم نسبت لأبي السرار الغنوي.

(٧٨) ـ ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالإرسالِ والإنزالِ، وهو تتمَّةُ الجَوابِ إن كان في ﴿قَالَ﴾ ضَميرُ اللهِ، وإلَّا فجوابٌ مِنْه، فكأنَّه[١] تعالى: تَوَلَّى جوابَهُم بعدَ جوابِ مالِكٍ[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لِمَا في اتِّباعِه مِن إتعابِ النَّفسِ وإدْآبِ الجَوارحِ.

(٧٩) ـ ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ في تَكذيبِ الحَقِّ وردِّهِ ولم يَقتَصِرُوا على كراهَتِه[٣].

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أمرًا في مُجازاتِهِم. والعُدولُ مِن الخطابِ للإشعارِ بأنَّ ذلك أسوَأُ مِن كراهِيَّتِهِم.

أو: أم أَحْكَمَ المشركونَ أَمْرًا مِن كيدِهِم بالرَّسولِ؟! ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدَنا بِهِم، ويُؤيِّدُه قولُه:

(٨٠) ـ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديثُ نَفسِهِم[٤] بذلك، ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ وتَناجِيهِمْ ﴿بَلَىٰ﴾ نسمَعُهما، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ والحفظَةُ مع ذلك ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازِمونَ لهم[٥] ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

(٨١) ـ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ مِنكُم؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يكونُ أعلمَ باللهِ وبما يَصِحُّ له وما لا يَصِحُّ، وأَوْلى بتَعظيمِ ما يُوجِبُ تعظيمُه[٦] تعظيمَهُ،

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «وكأنه»، وفي نسخة الطبلاوي: «ولعله».

(٢) في النسخ كلها عدا نسخة الطبلاوي: «المالك».

(٣) في نسخة الفاروقي والخيالي: «كراهيته».

(٤) في نسخة الخيالي: «أنفسهم»، وفي نسخة الطبلاوي: «نفوسهم».

(٥) في نسخة التفتازاني: «تلازم لهم»، وفي نسخة الطبلاوي: «ملازموهم».

(٦) «تعظيمُه»: من نسخة الفاروقي.

ومِن تَعظيمِ الوالدِ تَعظيمُ ولدِه، ولا يلزمُ مِن ذلك صِحَّةُ كينونَةِ الولدِ وعِبادتِه له، إذ المحالُ قد يَستلزِمُ المحالَ، بل المرادُ نَفْيُهُما على أبلَغِ الوُجوهِ كقولِه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] غيرَ أنَّ (لو) ثَمَّ مُشعِرَةٌ بانتفاءِ الطَّرفينِ، و(إنْ) هاهنا لا تُشعِرُ به ولا بنَقيضِهِ[١]، فإنَّها لِمُجرَّدِ[٢] الشَّرطيَّةِ، بل الانتفاءُ مَعلولٌ[٣] لانتفاءِ اللازمِ الدَّالِّ على انتفاءِ مَلزومِهِ، والدَّلالةُ على أنَّ إنكارَهُ للولدِ ليسَ لِعنادٍ ومراءٍ بل لو كانَ لكانَ أَوْلَى النَّاسِ بالاعترافِ بهِ.

وقيل: معناهُ: إن كانَ لهُ وَلَدٌ في زَعمِكُم فأنا أوَّلُ العابدينَ للهِ الموحِّدِينَ له، أو الآنِفينَ مِنْهُ، أو مِن أَنْ يكونَ لَهُ وَلَدٌ؛ مِن عَبِدَ يَعْبَدُ: إذا اشتدَّ أَنَفُهُ، أو ما كانَ له ولدٌ فأَنَا أوَّلُ المُوحِّدينَ مِن أهلِ مَكَّةَ.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿وُلْدٌ﴾ بالضَّمِّ وسكون الَّلام[٤].

---

(١) في نسخة التفتازاني زيادة هنا ليست في بقية النسخ وهي: «وصح ببرهان فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له، كما يعظم الرجل ولد الملك بتعظيم أبيه، وهو كلام وارد على نيل الغرض».

(٢) في نسخة التفتازاني: «بمجرد».

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والطبلاوي: «معلوم» بدل «معلول»، وكلتاهما في النسخ كما أشار إليه الخفاجي في «حاشيته»، حيث قال: قوله: «بل الانتفاء معلول لانتفاء اللازم» إشارة إلى طريقه البرهاني، والمراد باللازم: عبادته للولد، وهو مقتضٍ لنفي نفسه كفرد من الأربعة، وهذا الانتفاء الذي يقتضيه ذات اللازم المنفي كما يشير إليه قوله: «معلول لانتفاء اللازم الدال على انتفاء ملزومه» وهو كينونة الولد هكذا ينبغي أن يقرر كلامه على ما وقع في أكثر النسخ، ووقع في بعضها: «بل الانتفاء معلوم لانتفاء اللازم؛ أي: انتفاء كينونة الولد معلوم من انتفاء اللازم؛ أي عبادته ﷺ في نفسه، وإن لم تشعر به (إن)، وهو كاف في الاستدلال.

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩).

(٨٢) ـ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عَن كونِه ذا وَلَدٍ فإنَّ هذه الأجسامَ لكونِها أُصولًا ذاتَ[1] استمرارٍ تبرَّأَتْ عمَّا يَتَّصِفُ به سائرُ الأَجسامِ مِن تَوليدِ المثلِ، فمَا ظنُّكَ بمُبدِعِها وخالِقِها؟!

(٨٣) ـ ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ﴾ في باطلِهم[2] ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ في دُنياهُم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: القيامةَ، وهو دلالةٌ على أنَّ قولَهُم هـذا جهلٌ واتِّباعُ هَوى، وأنَّهُم[3] مَطبوعٌ على قلوبِهِم مُعَذَّبونَ في الآخرةِ.

(٨٤) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ مُستحِقٌّ لِأنْ يُعبَدَ فيهما.

والظَّرفُ مُتعلِّقٌ به لأنَّه بمَعنى المَعبودِ، أو مُتَضمِّنٌ معناهُ؛ كقولِك: هو حاتِمٌ في البَلَدِ، وكذا فيمَنْ قرأَ (الله)[4]، والرَّاجِعُ مُبتدَأٌ محذوفٌ لطُولِ الصِّلَةِ بمُتعلِّقِ الخبرِ والعطفِ عليهِ، ولا يجوزُ جَعْلُه خَبرًا له لأنَّه لا يبقى عائدٌ، لكن لو جُعِلَ صِلَةً وقُدِّرَ لـ(إلهُ) مُبتدَأٌ مَحذوفٌ يكونُ به جملةً مبينةً للصِّلَةِ دالَّةً على أنَّ كونَهُ في السَّماءِ بمَعنى الأُلوهيَّةِ دونَ الاستقرارِ.

وفيه نفيُ الآلهةِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ واختصاصُهُ باستحقاقِ الأُلوهيَّةِ.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كالدَّليلِ عليه.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «ذوات».

(٢) في نسخة الخيالي: «في أباطيلهم».

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «فإنهم».

(٤) أي: (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله)، ونسبت لعمر وعلي وابن مسعود وأبي رضي الله عنهم، ويحيى بن يعمر واليماني وابن محيصن وحميد وابن مقسم، انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٨١)، و«معاني القرآن» له (٦/ ٣٨٩)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٧)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٣٤).

(٨٥) ـ ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواءِ.

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ العِلمُ بالسَّاعةِ التي تقومُ القيامَةُ فيها.

﴿وإليهِ يُرجَعُونَ﴾ للجزاءِ.

وقرأ نافِعٌ وابنُ عامرٍ وأبو عمرٍو وعاصمٌ ورَوْحٌ بالتَّاءِ[1] على الالتفاتِ للتَّهديدِ.

(٨٦) ـ ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زَعَمُوا أنَّهم شُفَعاؤهُم عندَ اللهِ.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بالتَّوحيدِ، والاستثناءُ مُتَّصِلٌ إنْ أُريدَ بالمَوصولِ كلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ لاندِرَاجِ المَلائكةِ والمسيحِ فيه، ومُنفَصِلٌ إن خُصَّ بالأَصنامِ.

(٨٧) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ سألْتَ العابِدينَ أو المعبودينَ.

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لتعذُّرِ المُكابرَةِ فيه مِن فَرْطِ ظُهورِهِ.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرَفُونَ مِن عِبادَتِه إلى عِبادَةِ غَيرِه.

(٨٨) ـ ﴿وقيلَهُ﴾ وقولَ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ، ونصبُه للعَطفِ على ﴿سِرَّهُمْ﴾، أو على محلِّ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، أو لإضمارِ فعلِهِ؛ أي: وقالَ قيلَهُ.

وجرَّهُ عاصِمٌ وحمزةُ[2] عطفًا على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾.

---

(١) قراءة روح بفتح التاء، والباقين بضمها، وقراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بضم الياء، انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٩)، و«التيسير» (ص: ١٩٧)، و«النشر» (٢/ ٣٧٠).

(٢) وقراءة الباقين بالنصب، انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٩)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

وقُرِئَ بالرَّفعِ[1] على أنَّه مُبتدأٌ خبرُه: ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، أو مَعطوفٌ على ﴿عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ بتَقديرِ مُضافٍ.

وقيل: هو قَسَمٌ مَنصوبٌ بحَذفِ الجارِّ، أو مَجرورٌ بإضمارِه، أو مَرفوعٌ بتَقديرِ: وقيلُهُ يا رَبِّ قَسَمِي و﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ جوابُه.

(٨٩) ـ ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ فأعرِضْ عَن دَعْوَتِهم آيِسًا عَن إيمانِهم.

﴿وَقُلۡ سَلَـٰمٞ﴾ تَسَلُّمٌ مِنْكُم[2] ومُتارَكَةٌ.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ تسليةٌ للرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ وتَهديدٌ لهم.

وقرأ نافِعٌ وابنُ عامرٍ بالتَّاءِ على أنَّه مِن المأمورِ بقولِه[3].

عَن النَّبيِّ ﷺ «مَن قرأَ سورةَ الزُّخْرُفِ كانَ ممَّنْ يُقالُ لهُ يومَ القيامةِ: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾[4]»[5].

***

---

(١) وهي قراءة أبي قلابة والحسن وقتادة كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٢١).

(٢) في نسخة التفتازاني: «منهم».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٨٩)، و«التيسير» (ص: ١٩٧).

(٤) في نسخة الخيالي زيادة: «ادخلوا الجنة بغير حساب».

(٥) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٤٠٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٦٣)، وهو قطعة من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه الموضوع في فضائل السور سورة سورة، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٨٥).

(٤٣) سُورَةُ الزُّخْرُفِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى: ﴿ حم والكتاب المبين ﴾ أي البيِّن الواضح الجلي، المنزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات، ولهذا قال تعالى ﴿ إنا جعلناه ﴾ أي أنزلناه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي بلغة العرب، فصيحاً واضحاً، ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه، كما قال عزّ وجل: ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ بيّن شرفه في الملأ الأعلى، ليشرّفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ في أم الكتاب ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ لدينا ﴾ أي عندنا ﴿ لعلي ﴾ أي ذو مكانة عظيمة، وشرف وفضل ﴿ حكيم ﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ، وهـذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون ﴾، وقال تعالى: ﴿ في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة ﴾، وهـذا استنبط العلماء من هاتين الآيتين، أن المحدث لا يمس المصحف، لأن الملائكة يعظمون المصاحف، المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله تعالى: ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾؟ اختلف المفسرون في معناها فقيل معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم، ولم تفعلوا ما أمرتم به[1]، قاله ابن عباس واختاره ابن جرير، وقال قتادة: والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله تعالى عـاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك، وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه يقول

(١) وهو قول مجاهد والسدي.

في معناه : انه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير ، وإلى الذكر الحكيم وهو (القرآن) وإن كانوا مسرفين معرضين عنه ، بل أمر به ليهتدي بـه من قدّر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته ، ثم قال جلّ وعلا مسلياً لنبيّه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ أي في شيع الأولين ﴿ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا بـه يستهزئون ﴾ أي يكذبونه ويسخرون به ، ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ أي فأهلكنا المكذبين بالرسل ، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد ، كقوله عزّ وجلّ : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة ﴾ ، والآيات في ذلك كثيرة جداً . وقوله جلّ جلاله ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ قـال مجاهد : سنتهم ، وقال قتادة : عقوبتهم ، وقال غيرهما : عبرتهم : أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم مـا أصابهم ، كقوله تعالى : ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ ، وكقوله جلّت عظمته : ﴿ سنة الله التي قد خلت في عباده ﴾ ، وقوله : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ولئن سألت يا محمد ، هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره ، من الأصنام والأنداد . ثم قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي فراشاً قراراً ثابتة ، تسيرون عليها وتقومون وتنامون ، مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد ، ﴿ وجعل لكم فيها سبلا ﴾ أي طرقاً بـين الجبال والأودية ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي في سيركم من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، ﴿ والذي نزّل من السماء مـاء بقدر ﴾ أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم ، وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم ، ﴿ فأنشرنا بـه بلدة ميتـا ﴾ أي أرضاً ميتة ، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ثم نبّه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها فقال : ﴿ كذلك تخرجون ﴾ . ثم قال عزّ وجلّ : ﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف ، من نبات وزروع وثمار وغير ذلك ، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها ، وأصنافها ، ﴿ وجعل لكم من الفلك ﴾ أي السفن ﴿ والأنعام ما تركبون ﴾ أي ذللها لكم وسخّرها ويسّرها ، لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ، ولهذا قـال جلّ وعلا ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ أي لتستووا متمكنين مرتفقين ﴿ على ظهوره ﴾ أي على ظهور هذا الجنس ، ﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿ إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ أي مقاومين ، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه .

قال ابن عباس: ﴿مقرنين﴾ أي مطيقين، ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أي لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ وباللباس الدنيوي على الأخروى في قوله تعالى: ﴿وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾.

(ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة)

(حديث علي بن أبي طالب): عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً رضي الله عنه أتي بدابة، فلما وضع رجله في الركاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾، ثم حمد الله تعالى ثلاثاً وكبّر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسي، فاغفر لي، ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت، ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال: رب اغفر لي، ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري»[1].

(حديث عبدالله بن عمر): روى الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون»، ثم يقول: «اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوّن علينا السفر، واطو لنا البعد، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم أصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا». وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون لربنا حامدون»[2].

وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه، في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم، وبعضها لله تعالى، وكذلك جعلوا له من الأولاد أخسهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى﴾، وقال جلّ وعلا ههنا: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾، ثم قال جلّ وعلا: ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾؟ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار، ثم ذكر تمام الإنكار

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي والإمام أحمد.

فقال جلّت عظمته: ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات، يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بُشّر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تبارك وتعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله عزّ وجلّ؟ ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي، منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فهي عاجزة عَيِيّة، أَوَ من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم؟ فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، فيكمل نقص مظاهرها وصورتها بلبس الحلي، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وما الحلي إلا زينة من نقيصة يتمّم من حسن إذا الحسن قَصَّرا
وأما إذا كان الجمال مُوَفَّراً كحسنك لم يحتج إلى أن يُزَوّرا

وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: «ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة». وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال: ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾؟ أي شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً؟ ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ أي بذلك ﴿ ويسألون ﴾ عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه. فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: (أحدها): جعلهم لله تعالى ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً، (**الثاني**): دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، (**الثالث**): عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء، والخبط في الجاهلية الجهلاء، (**الرابع**): احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلا كبيراً، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾؟ وقال جلّ وعلا في هذه الآية: ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ أي بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ أي يكذبون ويتقولون، وقال مجاهد: يعني ما يعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك.

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله، بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿ أم آتيناهم كتاباً من

قبله﴾ أي من قبل شركهم، ﴿فهم بـه مستمسكون﴾ أي ليس الأمر كذلك، كقوله عزّ وجلّ ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بمـا كانوا بـه يشركون﴾ أي لم يكن ذلك، ثم قال تعالى: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ أي ليس لهم مستند فيا هم فيه من الشرك، سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على ﴿أمة﴾ والمراد بها الدين ههنا، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿إن هذه أُمتكم أُمّة واحدة﴾، وقولهم ﴿وإنا على آثارهم﴾ أي وراءهم ﴿مهتدون﴾ دعوى منهم بلا دليل. ثم بين جلّ وعلا أن مقـالة هؤلاء قـد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفـة المكذبة للرسل تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قريـة من نـذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾. ثم قال عزّ وجلّ ﴿قل﴾ أي يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿أو لو جئتكم بأهدى ممـا وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي من الأمم المكذبـة بأنواع من العذاب كما فصله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي كيف بـادوا وهلكوا، وكيف نجّى الله المؤمنين.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إنني برآء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ أي هذه الكلمة وهي ﴿لا إله إلا الله﴾ أي جعلها دائمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى، من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي إليها، قال عكرمة ومجاهـد ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ يعني لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها، وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة، ثم قال جلّ وعلا: ﴿بل متعت هؤلاء﴾ يعني المشركين ﴿وآباءهم﴾ فتطاول عليهم العمر في ضلالهم ﴿حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾ أي بَيِّنُ الرسالة والنذارة. ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا

سحر وإنا به كافرون﴾ أي كابروه وعاندوه كفراً وحسداً وبغياً، ﴿وقالوا﴾ أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس، ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي هلّا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم ؟﴿من القريتين﴾ يعنون مكّة والطائف[1]، وقد ذكر غير واحد من السلف أنهم أرادوا بذلك (الوليد ابن المغيرة) و (عروة بن مسعود الثقفي)، وعن مجاهد: يعنون (عتبة بن ربيعة) بمكّة و (ابن عبد ياليل) بالطائف، وقال السدي: عنوا بذلك (الوليد بن المغيرة) و (كنانة بن عمرو الثقفي)، والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان، قال تعالى رداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾؟ أي ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله عزّ وجلّ والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. ثم قال عزّ وجلّ مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه، فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة فقال: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ الآية.

وقوله جلّت عظمته: ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ أي ليسخّر بعضهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ أي رحمة الله بخلقه، خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا، ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ولولا أن يكون الناس أُمّة واحدة﴾ أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة، أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ أي سلالم ودرجاً من فضة ﴿عليها يظهرون﴾ أي يصعدون ﴿ولبيوتهم أبواباً﴾ أي أغلاقاً على أبوابهم ﴿وسرراً عليها يتكئون﴾ أي جميع ذلك يكون فضة ﴿وزخرفاً﴾ أي وذهباً، قاله ابن عباس والسدي، ﴿وإنْ كلُّ ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما ذلك من الدنيا الفانية، الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أي يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها. ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ أي هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولهذا لما قال عمر بن الخطّاب لرسول الله ﷺ حين رآه على رمال حصير، قد أثر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله! هذا كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال ﷺ: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»، وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة» وإنما خوّلهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها، قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً»[2]

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ

(١) قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة والسدي ومحمد القرظي وابن زيد.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجة عن سهل بن سعد، وقال الترمذي: حسن صحيح.

أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ
ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾
فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾
وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى: ﴿ومن يَعْشُ﴾ أي يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿عن ذكر الرحمن﴾، والعشا في العين ضعف بصرها، والمراد ههنا عشا البصيرة، ﴿نقيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين﴾ كقوله تعالى: ﴿فلما أزاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا: ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾، ﴿حتى إذا جاءنا﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى، إذا وافى اللهَ عزّ وجلّ يوم القيامة، يتبرم بالشيطان الذي وُكِّلَ به ﴿قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ والمراد بالمشرقين ههنا هو ما بين المشرق والمغرب، وإنما استعمل ههنا تغليباً كما يقال: القمران والعُمَران والأبوان، قاله ابن جرير وغيره، ثم قال تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم. وقوله جلت عظمته: ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾؟ أي ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ثم قال تعالى ﴿فإمّا نذهبن بك فإنّا منهم منتقمون﴾ أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت، ﴿أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ أي نحن قادرون على هذا ولم يقبض الله تعالى رسول الله ﷺ حتى أقرّ عينه من أعدائه، وحكّمه في نواصيهم، واختاره ابن جرير، وقال قتادة: ذهب النبي ﷺ وبقيت النقمة، ولن يُرِيَ اللهُ تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ في أُمته شيئاً يكرهه، حتى مضى ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أُمته إلا نبيكم ﷺ، قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أري ما يصيب أُمته من بعده، فما رئي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله عزّ وجلّ[1]، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق، المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم.

ثم قال جلّ جلاله: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾، قيل معناه لشرف لك ولقومك، وفي الحديث: «إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبَّه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين»[2]، ومعناه أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به، وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلّص، من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم، وقيل معناه ﴿وإنه

(١) رواه ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري عن معاوية رضي الله عنه.

لذكر لك ولقومك﴾ أي لَتذكيرٌ لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾، وكقوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، ﴿وسوف تسألون﴾، أي عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل بـه والاستجابة له، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾؟ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله ﴿موسى﴾ عليه الصلاة والسلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه، من الأمراء والوزراء والقـادة والأتباع من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنه بعث معـه آيات عظاماً كَيَدِهِ وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وضحكوا ممن جاءهم بها، ﴿وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم، وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه السلام، ويتلطفون له في العبارة بقولهم: ﴿يا أيها الساحر﴾ أي العـالم[1]، وكان علماء زمانهم هم السحرة، ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم، ففي كل مرة يَعِدُونَ موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا بـه ويرسلوا معه بني إسرائيل، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿ولمـا وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾.

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

---

(١) قاله ابن جرير. فليس قولهم ذلك على سبيل الانتقاص، وإنما هو تعظيم في زعمهم كما قال ابن كثير.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه، إنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ ؟ قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء ﴿ أفلا تبصرون ﴾ ؟ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك ؟ يعني وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء، وقوله: ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ قال السدي: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مهين، وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن (أم) ههنا بمعنى (بل) يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، ويعني بقوله ﴿ مهين ﴾ حقير، وقال قتادة: يعني ضعيف، وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال، ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عييّ حصر، قال السدي: أي لا يكاد يُفْهم، وقال قتادة: يعني عييّ اللسان، وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فمه وهو صغير، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، فهو ينظر إلى موسى بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء، في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب، وقوله: ﴿ مهين ﴾ كذب بل هو المهين الحقير، وموسى هو الشريف الصادق البار الراشد، وقوله: ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ افتراء أيضاً، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله عزّ وجلّ أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله: ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحُليِّ ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي يكتنفونه خدمة له، ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

قال الله تعالى: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾، قال ابن عباس: ﴿ آسفونا ﴾ أسخطونا، وعنه: أغضبونا[1]، روى ابن أبي حاتم، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له» ثم تلا ﷺ: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾[2]. وقال طارق بن شهاب: كنت عند عبدالله رضي الله عنه فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر، ثم قرأ رضي الله عنه: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: وجدت النقمة مع الغفلة يعني قوله تبارك وتعالى: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ قال أبو مجلز: ﴿ سلفاً ﴾ لمثل من عمل بعملهم، ﴿ ومثلاً ﴾ أي عبرة لمن بعدهم .

---

(١) وهو قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وغيرهم من المفسرين .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر مرفوعاً .

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾. قال ابن عباس أي (يضحكون) أعجبوا بذلك، وقال قتادة: يجزعون ويضحكون، وقال النخعي: يعرضون، وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ الآيات؛ ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبدالله بن الزبعري حتى جلس فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب، وما قعد، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبدالله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم؛ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبدالله بن الزبعري، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته» فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ أي عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وأنه يعبد من دون الله ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ أي يصدون عن أمرك بذلك من قوله، ثم ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة﴾ أي ما وضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلاً على علم الساعة يقول: ﴿فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم﴾[1]. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» فقالوا له:

(١) ذكره ابن أبي إسحاق في السيرة. ورواه ابن جرير بنحوه.

ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً فقد كان يعبد من دون الله ؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾[1]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾، قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى (عيسى) عليه السلام، وقوله: ﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾؟ قال قتادة: يقولون آلهتنا خير منه، وقال قتادة: قرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هذا﴾؟ يعنون محمداً ﷺ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً﴾ أي مِراءً وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية لأنها لما لا يعقل[2] وهي قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل» ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾[3]. وروى ابن جرير، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال ﷺ: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا صلى الله عليه وسلم: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾، وقوله تعالى: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام ما هو إلا عبد من عباد الله عزّ وجلّ أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ﴿وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ أي دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم﴾ أي بدلكم ﴿ملائكة في الأرض يخلفون﴾، وقال السدي: يخلفونكم فيها، وقال ابن عباس وقتادة: يخلف بعضهم بعضاً كما يخلف بعضكم بعضاً، وهذا القول يستلزم الأول، وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ تقدم تفسير ابن إسحاق أن المراد من ذلك ما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الأسقام وفيه نظر. **والصحيح** أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام، ﴿ثم يوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ ويؤيد هذا المعنى القراءة الأُخْرى ﴿وإنه لعَلَمٌ للساعة﴾ أي أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ أي آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة[4]، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً، وقوله تعالى: ﴿فلا تمترن بها﴾ أي لا تشكوا فيها إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿واتبعونِ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان﴾ أي عن اتباع الحق، ﴿إنه لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما. (٢) مراده أن «ما» في اللغة العربية لما لا يعقل، وقد قال تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون﴾ ولم يقل: ومن تعبدون. (٣) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وعكرمة والحسن وقتادة والضحّاك وغيرهم.

قد جئتكم بالحكمة﴾ أي بالنبوة، ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ قال ابن جرير : يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية، وهذا الذي قاله حسن جيد، وقوله عزّ وجلّ ﴿فاتقوا الله﴾ أي فيما أمركم به ﴿وأطيعونِ﴾ فيما جئتكم به، ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي وأنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جلّ وعلا وحده، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلف الفرق وصاروا شيعاً فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ .

۞ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم، وقوله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ أي كل صداقة وصحابة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عزّ وجلّ، فإنه دائم بدوامه، وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾ قال ابن عباس ومجاهد: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين. وروى الحافظ ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا في الله أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة، يقول هذا الذي أحببته فيَّ» وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ أي آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم، قال المعتمر ابن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد ﴿يا عبادِي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال، فيتبعها: ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين ﴿ادخلوا الجنة﴾ أي يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿أنتم وأزواجكم﴾ أي نظراؤكم ﴿تحبرون﴾ أي تتنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم. ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب﴾ أي زبادي آنية الطعام ﴿وأكواب﴾ وهي آنية الشراب أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿وفيها ما تشتهيه

الأنفس﴾، وقرأ بعضهم تشتهي الأنفس: ﴿وتلذ الأعين﴾ أي طيب الطعم والريح وحسن المنظر، روى عبدالرزاق عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد، يفسح له في بصره مسيرة مائة عام، في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور، يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس في الأخرى مثله، شهوته في آخرها كشهوته في أولها، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أُعْطي، لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً»[1].

وقوله تعالى: ﴿وأنتم فيها﴾ أي في الجنة ﴿خالدون﴾ أي لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولاً، ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عملُه الجنة ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات. روى ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة فيكون له حسرة، فيقول: ﴿لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ فيكون له شكراً»، قال: وما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، الكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة وذلك قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لكم فيها فاكهة كثيرة﴾ أي من جميع الأنواع ﴿منها تأكلون﴾ أي مهما اخترتم وأردتم، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة، والله تعالى أعلم.

* إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنّى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم﴾ أي ساعة واحدة ﴿وهم فيه مبلسون﴾ أي آيسون من كل خير، ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد، ﴿ونادوا يا مالك﴾ وهو خازن النار، ﴿ليقض علينا ربك﴾ أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾، وقال عزّ وجل: ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيا﴾، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿قال إنكم ماكثون﴾ قال ابن عباس: مكث ألف

---

(١) أخرجه عبد الرزاق عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً.

سنة، ثم قال ﴿إنكم ماكثون﴾ أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها، ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿ولكنَّ أكثركم للحق كارهون﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون﴾، قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم، ولهذا قال: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾، أي سرهم وعلانيتهم ﴿بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها.

* ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين﴾ أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك، لأني من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال عزّ وجلّ: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي الآنفين، وقال ابن عباس ﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين، وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وقال أبو صخر ﴿فأنا أول العابدين﴾ أي فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده، وقال مجاهد: أي أول من عبده وحده وكذّبكم، وقال البخاري ﴿فأنا أول العابدين﴾ الآنفين وهما لغتان: رجل عابد وعبد، والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع[1]؛ وقال السدي: معناه ولو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً، ولكن لا ولد له، وهو اختيار ابن جرير، ولهذا قال تعالى: ﴿سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون﴾

(١) قال البيضاوي: لا يلزم منه صحة وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس لعناد ومراء. بل لو كان أولى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح. انتهى وهو قول جيد.

أي تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء ، عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد صمد ، لا نظير له ، ولا كفء له ، فلا ولد له ، وقوله تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ أي في جهلهم وضلالهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة ، أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ أي هو إله من في السماء، وإله من في الأرض يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه، ﴿ وهو الحكيم العليم ﴾ وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ أي هو المدعو الله في السماوات والأرض ﴿ وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما ﴾ أي هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد﴿ وتبارك ﴾ أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص، لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً، ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أي لا يجليها لوقتها إلا هو ، ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي فيجازي كلاً بعمله، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ثم قال تعالى: ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأوثان﴿ الشفاعة ﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ هذا استثناء منقطع ، أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنّى يؤفكون ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ من خلقهم ليقولن الله ﴾ أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء ، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فأنّى يؤفكون ﴾ ؟

وقوله جلّ وعلا: ﴿ وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ أي وقال محمد ﷺ ﴿ قيله ﴾ أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه فقال: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأُخْرى: ﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾، وقال مجاهد في قوله: ﴿ وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ قال: يؤثر الله عزّ وجلّ قول محمد ﷺ ، وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عزّ وجلّ، وقوله تعالى ﴿ فاصفح عنهم ﴾، أي عن المشركين، ﴿ وقل سلام ﴾ أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، ﴿ فسوف يعلمون ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد ، وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب ، والله أعلم .

[آخر تفسير سورة الزخرف ، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة الزُّخرف

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) ﴾.

يقول تعالى: ﴿حمٓ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى: البين [(١)] الواضح الجلى المعانى والألفاظ؛ لأنه نزل[(٢)] بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب [(٣)] بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ أى: أنزلناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى: بلغة العرب فصيحا واضحا، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾: بين شرفه فى الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى: القرآن ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أى: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ أى: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى: محكم برىء من اللبس والزيغ.

وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٧ـ ٨٠] وقال: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المُحدثَ لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح؛ لأن[(٤)] الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن فى الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾: اختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، ومجاهد وأبو صالح، والسدى، واختاره ابن جرير[(٥)].

وقال قتادة فى قوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته

(١) فى أ: «النير». (٢) فى ت، م: «منزل». (٣) فى ت، م: «المتخاطب».
(٤) فى ت، أ: «إن صح ، وقوله: «لا تمس المصحف إلا وأنت طاهر »لأن». (٥) فى ت: «ومجاهد وغيرهما».

أوائل [1] هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك.

وقول قتادة لطيف المعنى جدا، وحاصله أنه يقول فى معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر [2] الحكيم ـ وهو القرآن ـ وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر [3] به ليتهدى من قَدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

ثم قال تعالى ـ مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه، وآمرا له بالصبر عليهم ـ: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ أى: فى شيع الأولين، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: يكذبونه ويسخرون به.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أى: فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشا من هؤلاء المكذبين لك يامحمد. كقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] والآيات فى ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴾: قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أى: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله فى آخر هذه السورة: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾[الزخرف: ٥٦]. وكقوله: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾.

يقول تعالى: ولئن سألت ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أى: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله [تعالى] [4] وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد.

ثم قال: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ أى: فراشاً قراراً ثابتة، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ أى: طرقا بين الجبال والأودية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: فى سيركم من بلد إلى بلد،

---

(١) فى ت: «أول».
(٢) فى ت، م، أ: «إلى الخير وإلى الذكر».
(٣) فى ت، م: «يأمر».
(٤) زيادة من أ.

وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أى: بحسب الكفاية لزروعكم [١] وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم.

وقوله: ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أى: أرضا ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أى: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك [أى] [٢] من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾ أى: السفن﴿وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أى: ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ [٣] ﴾أى: لتستووا [٤] متمكنين مرتفقين ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أى: على ظهور هذا الجنس، ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أى: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أى: مقاومين. ولولا تسخير [٥] الله لنا هذا ما قدرنا عليه.

قال ابن عباس [٦]، وقتادة، والسدى، وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أى: مطيقين [٧] . ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أى: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوى على [الزاد] [٨] الأخروى فى قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وباللباس الدنيوى على الأخروى فى قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ [ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ] [٩]﴾ [الأعراف:٢٦].

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة:

حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شَرِيك بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن على بن ربيعة قال: رأيت عليا، رضى الله عنه، أتى [١٠] بدابة، فلما وضع رجله فى الرّكاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثم حمد الله ثلاثا، وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى فاغفر لى. ثم ضحك، فقلت له: من أى شىء ضحكت [١١] يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ صنع كما صنعت [١٢] ،ثم ضحك . فقلت: مم ضحكت يارسول الله؟ فقال:«يعجب الرب [١٣] من عبده إذا قال: رب، اغفر لى. ويقول: علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى».

---

(١) فى ت،م: «لزرعكم». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت:«ظهره».
(٤) فى أ:«لتستقروا». (٥) فى م:«ولولا ما يسخر». (٦) فى أ:«عياض».
(٧) فى أ:«مطيعين». (٨) زيادة من ت، م،أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى ت: «أنه أتى».
(١١) فى ت، م:«مم ضحكت». (١٢) فى ت، م،أ: «فعل مثل ما فعلت». (١٣) فى ت، م: «الرب عز وجل».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث أبى الأحوص ـ زاد النسائى: ومنصور ـ عن أبى إسحاق السَّبيعى، عن على بن ربيعة الأسدى الوالبى، به [١] [٢]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقد قال عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، عن شعبة: قلت لأبى إسحاق السَّبيعى: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خباب. فلقيت يونس بن خباب فقلت: ممن سمعته؟ فقال: من رجل سمعه من على بن ربيعة. ورواه بعضهم عن يونس بن خباب، عن شقيق بن عقبة الأسدى، عن على ابن ربيعة الوالبى، به[٣].

حديث عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن على بن أبى طلحة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أردفه على دابته، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثا، وحمد[٤] ثلاثا، وهلل الله واحدة. ثم استلقى عليه فضحك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت، إلا أقبل الله، عز وجل، عليه، فضحك إليه كما ضحكت إليك». تفرد به أحمد[٥].

حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى الزبير، عن على بن عبد الله البارقى، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما؛ أن النبى ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. ثم يقول: «اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل. اللهم، اصحبنا فى سفرنا، واخلفنا فى أهلنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون».

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث ابن جريج، والترمذى من حديث حماد بن سلمة، كلاهما عن أبى الزبير، به[٦].

حديث آخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن

---

(١) فى ت: «رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى».

(٢) المسند (١/ ٩٧) وسنن أبى داود برقم (٢٦٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٠٠).

(٣) تحفة الأشراف للمزى (٧/ ٤٣٦).

(٤) فى ت، أ: «وحمد الله ثلاثا».

(٥) المسند (١/ ٣٣٠) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣١): «فيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف».

(٦) المسند (٢/ ١٤٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٢٥٩٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٣٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٤٧).

عمرو بن الحكم بن ثوبان(١)، عن أبى لاس الخزاعى قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج. فقلنا: يا رسول الله، ما نرى(٢) أن تحملنا هذه! فقال: «ما من بعير إلا فى ذروته شيطان، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما آمركم(٣)، ثم امتهنوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله عز وجل»(٤).

أبو لاس اسمه: محمد بن الأسود بن خَلَف.

حديث آخر فى معناه:

قال أحمد: حدثنا عَتَّاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلى بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ يعنى ابن المبارك ـ أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرنى محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتموها فسموا الله، عز وجل، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم»(٥).

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه فى جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم فى سورة «الأنعام»، فى قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] .وكذلك جعلوا له من قسمى(٦) البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾؟، وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به،

---

(١) فى ت: «رواه الإمام أحمد بسنده». (٢) فى م: «ما ترى». (٣) فى ت: «أمرتم».
(٤) المسند (٤/ ٢٢١) ورجاله ثقات.
(٥) المسند (٣/ ٤٩٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣١): «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة».
(٦) فى ت: «من كل قسم».

ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله عز وجل؟

ثم قال: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أى: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هى عاجزة عَيِيَّة، أَوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل[١]؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، فى الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما فى معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحَلْى إلا زينَةٌ من نقيصـــةٍ ... يتمّمُ مـن حُسْن إذا الحسْنُ قَصَّرا

وأمَّا إذَا كان الجـــمـــالُ موفَّرا ... كحُسْنك، لم يَحْتَجْ إلى أن يزوَّرا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: «ما هى بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة».

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ أى: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أى: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أى: بذلك، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أى: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التى هى على صور[٢] الملائكة التى هى بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جَعْلُهم لله ولدا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا.

الثانى: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط فى الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قَدَرًا [والحجة إنما تكون بالشرع][٣]، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلاً كبيرًا، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال [تعالى][٤]: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

---

(١) فى ت: «الله تعالى»، وفى م، أ: «الله العظيم».

(٢) فى أ: «صورة».

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ.

وقال فى هذه الآية ـ بعد أن ذكر حجتهم هذه ـ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾، أى: يكذبون ويتقولون.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أى[1]: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾؟ أى: من قبل شركهم، ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أى: فيما هم فيه، أى: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] أى: لم يكن ذلك.

ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أى: ليس لهم مستند[2] فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ أى: وراءهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾؟ أى: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله.

قال الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أى: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تعالى فى قصصهم، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾؟ أى: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجى الله المؤمنين؟

---

(١) فى ت، م: «يعنى». (٢) فى أ: «سند».

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ .وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ أى: هذه الكلمة، وهى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهى «لا إله إلا الله»، أى: جعلها دائمة فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى: إليها.

وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدى، وغيرهم[(١)] فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعنى: لا إله إلا الله، لا يزال فى ذريته من يقولها. ورُوى نحوه عن ابن عباس.

وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ ﴾ يعنى: المشركين، ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ أى: فتطاول عليهم العمر فى ضلالهم[(٢)]، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين الرسالة والنذارة.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أى: كابروه وعاندوه ودفعوا[(٣)] بالصدور والراح كفرا وحسدا وبغيا، ﴿وَقَالُوا﴾ [أى][(٤)]: كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أى: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة، والسدى، وابن زيد.

---

(١) فى ت: «وغيرهما».

(٢) فى م: «ضلالتهم».

(٣) فى أ: «ودفعوه».

(٤) زيادة من ت، م.

وقد ذكر غير واحد منهم [(١)]: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى.

وقال مالك عن زيد بن أسلم، والضحاك، والسدى: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفى.

وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفى. وعنه أيضا: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفى.

وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف.

وقال السدى: عنوا [بذلك][(٢)] الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفى.

والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان.

قال الله تعالى رادا عليهم فى هذا الاعتراض: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ**﴾ ؟ أى: ليس الأمر مردودا إليهم، بل إلى الله، عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا، وأشرفهم بيتا، وأطهرهم أصلا.

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾.

وقوله: ﴿**لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾، قيل: معناه ليسخر[(٣)] بعضهم بعضا فى الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدى وغيره.

وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضا. وهو[(٤)] راجع إلى الأول.

ثم قال: ﴿**وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ أى: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ أى: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ـ هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم ـ ﴿**لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ [عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ]**[(٥)]﴾ أى: سلالم ودرجا من فضة ـ قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى: وابن زيد، وغيرهم ـ ﴿**عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ**﴾، أى: يصعدون، ﴿**وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا**[(٦)]﴾ أى: أغلاقا على أبوابهم ﴿**وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ**﴾، أى: جميع ذلك يكون فضة، ﴿**وَزُخْرُفًا**﴾، أى: وذهبا. قاله ابن عباس، وقتادة، والسدى، وابن زيد[(٧)].

---

(١) فى م، أ: «منهم وقتادة». (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «لتسخير».
(٤) فى ت، أ: «وهذا». (٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: ﴿أبوابا وسررا﴾.
(٧) فى ت: «ابن عباس وغيرهم».

ثم قال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله [تعالى][(١)] أى: يعجل[(٢)] لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح[(٣)]. [وقد][(٤)] ورد فى حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء»، أسنده البغوى من رواية زكريا بن منظور، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ، فذكره[(٥)]. ورواه الطبرانى من طريق زمعة بن صالح، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ: «لو عدلت الدنيا جناح بعوضة، ما أعطى كافرا منها شيئا»[(٦)].

ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: هى لهم خاصة لا يشاركهم: فيها [أحد][(٧)] غيرهم؛ ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعد إليه فى تلك المشربه لما آلى من نسائه، فرآه [عمر][(٨)] على رمال حصير قد أثر بجنبه[(٩)] فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس وقال: «أوَ فى[(١٠)] شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا». وفى رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[(١١)].

وفى الصحيحين أيضا وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة». وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذى وابن ماجه، من طريق أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا»، قال الترمذى: حسن صحيح[(١٢)].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «يجعل».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٠٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.
(٤) زيادة من م.
(٥) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٢١٣).
(٦) المعجم الكبير (٦/ ١٧٨) وفى إسناده زمعة بن صالح وهو ضعيف.
(٧، ٨) زيادة من أ. (٩) فى ت، م، أ: «بجلده».
(١٠) فى ت: «أفى».
(١١) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٣١ من سورة طه.
(١٢) سنن الترمذى برقم (٢٣٢٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤١١٠).

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ**﴾ أى: يتعامى ويتغافل ويعرض، ﴿**عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ**﴾ والعشا فى العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿**نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ كقوله: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿**وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ**﴾ [فصلت: ٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا**﴾ أى: هذا الذى تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذى وكل به، ﴿**قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾ [أى: فبئس القرين كنت لى فى الدنيا][١]. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءانا» يعنى: القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجُرَيْرى قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سَفَعَ بيده شيطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿**يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾[٢].

والمراد بالمشرقين هنا[٣] هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليبا، كما يقال[٤]: القمران، والعمران، والأبوان، [والعسران][٥]. قاله ابن جرير وغيره.

[ولما كان الاشتراك فى المصيبة فى الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه فى مصيبته، كما قالت الخنساء تبكى أخاها:

وَلَوْلا كثرةُ الباكين حَـوْلى ... عَلَى قَتْلاهم لقتلتُ نَفْسـى

وما يَبْكُون مثلَ أخـى ولكن ... أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأسِّـى

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسى وتسلية ولا تخفيف][٦]

ثم قال[٧] تعالى: ﴿ **وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ أى: لا يغنى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراككم فى العذاب الأليم.

وقوله: ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ أى: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل [٨] فى ذلك.

---

(١) زيادة من ت.
(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦١).
(٣) فى ت، م، أ: «ههنا». (٤) فى ت، م: «قيل». (٥) زيادة من أ.
(٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت: «فقال». (٨) فى ت، م، أ: «الحاكم العادل».

ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أى: لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهبت أنت، ﴿أَوْ[(١)] نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أى: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه فى نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم. هذا معنى قول السدى، واختاره ابن جرير.

وقال ابن جرير[(٢)]: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن[(٣)] ثور، عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فقال: ذهب النبى ﷺ وبقيت النقمة، ولم يُرِ الله [(٤)] نبيه ﷺ فى أمته شيئا يكرهه، حتى مضى[(٥)]، ولم يكن نبى قط إلا ورأى[(٦)] العقوبة فى أمته، إلا نبيكم ﷺ. قال: وذُكر لنا أن رسول الله ﷺ أرِىَ ما يصيب أمته من بعده، فما رُئِى ضاحكا منبسطا حتى قبضه الله عز وجل[(٧)].

وذكر من رواية سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة نحوه. ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضا.

وفى الحديث: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَة لأصحابى، فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون»[(٨)].

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدى إليه هو الحق المفضى إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف[(٩)] لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه.

وأورد البغوى هاهنا حديث الزهرى، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر فى قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكَبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخارى[(١٠)].

و[قيل][(١١)]: معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم.

وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أى: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ

---

(١) فى ت، أ: «وإما»وهو خطأ. (٢) فى ت: «وروى هو قال». (٣) فى ت: «أبو».
(٤) فى أ: «الله تعالى». (٥) فى ت، م: «قبض». (٦) فى ت، م، أ: «إلا وقد رأى».
(٧) تفسير الطبرى (٢٥/ ٤٥).
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٣١) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.
(٩) فى م: «الشرف».
(١٠) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٢١٥) وصحيح البخارى برقم (٣٥٠٠).
(١١) زيادة من ت، م.

عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أى: عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له.

وقوله: **﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾** ؟ أى: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** [النحل: ٣٦]. قال مجاهد: فى قراءة عبد الله بن مسعود: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا» . وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدى، عن ابن مسعود. وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء جُمِعوا له. واختار ابن جرير الأول، [والله أعلم][١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبنى إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاما، كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها. **﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾**، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى، عليه السلام، ويتلطفون له فى العبارة بقولهم: **﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾** أى: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم فى زعمهم، ففى كل مرة يَعِدُون موسى [عليه السلام][٢] إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل. وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله [تعالى][٣]: **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى[٤] ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٥].

---

(١) زيادة من أ. (٢، ٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، م: «يأيها الساحر» وهو خطأ.

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه[1] فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣ ـ ٢٥].

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال السدى: يقول: بل أنا خير من هذا الذى هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن «أم» هاهنا بمعنى «بل». ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: «أما أنا خير من هذا الذى هو مهين». قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحا واضحا، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ؟ على الاستفهام.

قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعنى فرعون ـ عليه اللعنة[2] ـ أنه خير من موسى، عليه السلام، وقد كذب فى قوله هذا كذبا بينا واضحا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ويعنى بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدى: يعنى: ضعيف. وقال ابن جرير: يعنى: لا ملك له ولا سلطان ولا مال.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعنى: لا يكاد يفصح عن كلامه[3]، فهو عيى حصر[4].

قال السدى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أى: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدى، وابن جرير: يعنى عيى اللسان. وقال سفيان: يعنى فى لسانه شىء من الجمرة حين[5] وضعها فى فيه وهو صغير.

وهذا الذى قاله فرعون ـ لعنه الله ـ كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى[6]، عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة يبهر[7] أبصار ذوى [الأبصار و][8] الألباب. وقوله: : ﴿ مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خِلْقَة وخلقا ودينا. وموسى [عليه السلام][9] هو الشريف الرئيس الصادق البار

(١) فى أ: «ومن معه». (٢) فى ت، م، أ: «لعنة الله». (٣) فى ت: «بكلامه».
(٤) فى ت، أ: «حصير». (٥) فى ت: «التى». (٦) فى ت: «لموسى».
(٧) فى ت، م: «تبهر». (٨) زيادة من ت. (٩) زيادة من ت، م.

الراشد[(١)]. وقوله: ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضا، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شىء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله، عز وجل، أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله [(٢)]له فى [ذلك فى][(٣)] قوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[طه: ٢٦]، وبتقدير أن يكون قد بقى شىء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصرى، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية[(٤)] التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدرى هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ[(٥)] مِّن ذَهَبٍ ﴾ أى: وهى ما يجعل فى الأيدى من الحلى، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أى: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر[(٦)] إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوى الذى هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أى: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿آسَفُونَا ﴾ أسخطونا.

وقال الضحاك، عنه: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضا، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة ، والسدى، وغيرهم[(٧)] من المفسرين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله[(٨)] ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا ابن لهيعة، عن عقبة بن مسلم التجيبى[(٩)] عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١٠)].

وحدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحِمَّانى، حدثنا قيس بن الربيع، عن قيس بن مسلم[(١١)]، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن، وحسرة على الكافر. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: وجدت النقمة مع الغفلة، يعنى قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾: قال أبو مجلز: ﴿سَلَفًا﴾ لمثل من عمل بعملهم.

---

(١) فى ت: «الرشيد». (٢) فى ت: «استجاب الله دعاءه له». (٣) زيادة من ت، م.
(٤) فى ت: «الخليقة»، وفى م: «الخلقة». (٥) فى أ: «أسورة». (٦) فى ت، أ: «نظرا».
(٧) فى ت: «وغير واحد». (٨) فى أ: «عبد الله». (٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».
(١٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٩٢٦) «مجمع البحرين»، والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٥٤٠) من طريق عبد الله ابن صالح عن حرملة بن عمران به، ورواه أحمد فى مسنده (٤/ ١٤٥) عن رشدين بن سعد، والدولابى فى الكنى (١/ ١١١) عن حجاج بن سليمان كلاهما عن حرملة بن عمران به، وقد حسنه الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء.
(١١) فى ت: «وروى أيضا».

وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلاً﴾ أي: عبرة لمن بعدهم.

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن تعنت قريش فى كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال غير واحد، عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة والضحاك، والسدى: يضحكون[١]، أى: أعجبوا بذلك.

وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعى: يعرضون.

وكان السبب فى ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ الآيات [الأنبياء: ٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعرى التميمى[٢]، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُه، سلوا[٣] محمدا: أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد المسيح [عيسى][٤] ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أى: عيسى وعزير ومن عبد[٥] معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، عز وجل، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الآيات [الأنبياء: ٢٦]، ونزل

(١) فى ت، أ: «وعكرمة وغيرهم يعنى يعجبون». (٢) فى ت، م، أ: «السهمى». (٣) فى ت، م: «فسلوا».
(٤) زيادة من ت، م، أ. (٥) فى ت، م: «عبدوا».

فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب[(١)] الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أى: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول: ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[(٢)].

وذكر ابن جرير من رواية العَوفى، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يعنى قريشا، لما قيل لهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله». فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربا، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربا، فقال الله تعالى[(٣)]: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وقال[(٤)] الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبان، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن أبى رَزِين، عن أبي يحيى ـ مولى ابن عقيل الأنصارى ـ قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألنى عنها رجل قط، فما أدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غدا. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدرى أعلمها الناس[(٥)] أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرنى عنها وعن اللاتى قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول فى محمد، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فإن كنت صادقا كان[(٦)] آلهتهم كما تقولون؟ قال: فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾. قلت: ما يَصِدون؟ قال: يضحكون، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة[(٧)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقى، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن عاصم ابن أبى النجود، عن أبى أحمد مولى الأنصار[(٨)]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير». فقالوا له: ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ

---

(١) فى أ: «وتعجب».
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٥٨).
(٣) فى ت، م: «عز وجل». (٤) فى ت: «وروى». (٥) فى أ: «أعلمها الناس فلم يسألوا عنها».
(٦) فى م، أ: «فإن».
(٧) المسند (١/ ٣١٨).
(٨) فى أ: «الأنصاريين».

مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾[١].

وقال مجاهد في قوله: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾: قال قتادة: يقولون: آلهتنا خير منه. وقال قتادة: قرأ ابن مسعود: «وقالوا أآلهتنا خير أم هذا»، يعنون محمدا ﷺ.

وقوله: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً﴾ أي: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهي قوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلا منهم، ليسوا يعتقدون صحتها.

وقد قال[٢] الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أورثوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾.

وقد رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حجاج بن دينار، به[٣]. ثم قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال.

وقد روي من وجه آخر عن أبي أمامة بزيادة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا حميد بن عياش الرملي، حدثنا مؤمَّل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي، عن أبي أمامة ـ قال حماد: لا أدري رفعه[٤] أم لا؟ ـ قال: ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾[٥].

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عباد بن عباد، عن جعفر، عن القاسم[٦]، عن أبي أمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضبا شديدا حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا[٧] الجدل»، ثم تلا: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٥٤).
(٢) في ت: «روى».
(٣) المسند (٥/ ٢٥٦) وسنن الترمذي برقم (٣٢٥٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٨) وتفسير الطبري (٢٥/ ٥٣).
(٤) في أ: «أرفعه».
(٥) وفي إسناده القاسم بن عبد الرحمن الشامي، ضعفه ابن حبان، وقال: «كان يروي عن أصحاب رسول الله ﷺ المعضلات».
(٦) في أ: «جعفر بن القاسم». (٧) في ت: «أورثوا».

خَصِمُونَ﴾[(١)].

وقوله: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ**﴾ يعني: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد [من عباد الله][(٢)] أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿**وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ أي: دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء.

وقوله: ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم** ﴾ أي: بدلكم [(٣)] ﴿**مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ**﴾، قال السدى: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضا، كما يخلف بعضكم بعضا. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

وقوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ**﴾: تقدم تفسير ابن إسحاق: أن المراد من ذلك : ما بُعث به عيسى، عليه السلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام. وفى هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قتادة، عن الحسن البصرى وسعيد بن جبير: أى الضمير فى ﴿**وَإِنَّهُ**﴾، عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى [عليه السلام][(٤)]، فإن السياق فى ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾ أى: قبل موت، عيسى، عليه الصلاة والسلام، ثم ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً**﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وإنه لعَلَم للساعة» أى: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ**﴾ أى: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روى عن أبى هريرة [رضى الله عنه][(٥)]، وابن عباس، وأبى العالية، وأبى مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى [ابن مريم][(٦)]، عليه السلام، قبل يوم القيامة إمامًا عادلا ، وحكما مقسطا.

وقوله: ﴿**فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا**﴾ أى: لا تشكوا [(٧)] فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿**وَاتَّبِعُونِ**﴾ أى: فيما أخبركم به ﴿**هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾أى: عن اتباع الحق ﴿**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ**﴾ أى: بالنبوة ﴿**وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ**﴾.

قال ابن جرير: يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية[(٨)] .وهذا الذى قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل»، واستشهد بقول لبيد الشاعر:

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٣) .

(٢) زيادة من ت، م.

(٣) فى ت: «بدلا منكم».

(٤، ٥) زيادة من ت.

(٦) زيادة من ت، م.

(٧) فى ت، م، أ: «تشكون».

(٨) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٥).

تَرَّاك أمْكِنَة إذَا لم أرْضَها [(١)] أو يَعْتَلِق[(٢)] بَعْضَ النفوس حمَامُها[(٣)]

وأولوه على أنه أراد جميع النفوس. قال ابن جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها. وهذا الذى قاله محتمل.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: [فيما] [(٤)] أمركم به، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فيما جئتكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، عز وجل، وحده.

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أى اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله ـ وهو الحق ـ ومنهم من يدعى أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ولهذا قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) ﴾ .

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾؟ أى: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين [لها] [(٥)] فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم.

وقوله: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الحارث[(٦)]، عن على، رضى الله

(١) فى أ: «أرمنها». (٢) فى أ: «يقتلوا».

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٥) وديوان لبيد العامرى (ص٣١٣).

(٤) زيادة من ت، م، أ.

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن على».

عنه: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فتوفى أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلانا خليلى كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، وينبئنى أنى ملاقيك، اللهم فلا تضله بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى، وترضى عنه كما رضيت عنى. فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندى لضحكت كثيرا وبكيت قليلا. قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما، فيقال: ليثن أحدكما [١] على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم، إن خليلى فلانا كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير، ويخبرنى أنى غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى، وتسخط عليه كما [٢] سخطت على. قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بئس الأخ، وبئس الصاحب، وبئس الخليل. رواه ابن أبى حاتم[٣].

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

وروى الحافظ ابن عساكر ـ فى ترجمة هشام بن أحمد ـ عن هشام بن عبد الله بن كثير: حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقة، عن معافى: حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا فى الله، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذى أحببته فى»[٤].

وقوله: ﴿ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أى: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم.

قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادى مناد: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أى: نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أى تنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها فى سورة الروم.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ أى: زبادى آنية الطعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهى: آنية الشراب، أى: من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرَى، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنفُسُ﴾ ـ وقرأ بعضهم: «تشتهيه

(١) فى أ: «أحدهما».
(٢) فى ت: «مثل ما».
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦٤).
(٤) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ٧٩).

الأنفس» ـ ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ أى: طيب الطعم والريح وحسن المنظر.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، أخبرنى إسماعيل بن أبى سعيد[(١)]، عن [(٢)] عكرمة ـ مولى ابن عباس ـ أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد، يفسح له فى بصره مسيرة مائة عام فى قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب، ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس فى الأخرى، مثله شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى، لا ينقص ذلك مما أوتى شيئا»[(٣)].

وقال [(٤)] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا عمرو بن سواد السرحى، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبى هريرة: أن أبا أمامة، رضى الله عنه، حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم ـ وذكر الجنة ـ فقال: «والذى نفس محمد بيده، ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها فى فيه، ثم يخطر على باله طعام آخر، فيتحول الطعام الذى فى فيه على الذى اشتهى » ثم قرأ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيه[(٥)] الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[(٦)].

وقال [(٧)] الإمام أحمد: حدثنا حسن ـ هو ابن موسى ـ حدثنا سُكَيْن بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضرير، عن شهر بن حَوْشَب، عن أبى هريرة [(٨)] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة إن له لسبع درجات، وهو على السادسة وفوقه السابعة، وإن له ثلثمائة خادم، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحفة ـ ولا أعلمه إلا قال: من ذهب ـ فى كل صحفة لون ليس فى الأخرى، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، ومن الأشربة ثلاثمائة إناء، فى كل إناء لون ليس فى الآخر، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، وإنه يقول: يارب، لو أذنت لى لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم، لم ينقص مما عندى شىء، وإن له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة، سوى أزواجه من الدنيا، وإن الواحدة منهن ليأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض»[(٩)].

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أى: فى الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أى: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا. ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته.

---

(١) فى م: «سعد».
(٢) فى أ: «أن».
(٣) تفسير عبد الرزاق(٢/ ١٦٥).
(٤) فى ت:«وروى».
(٥) فى ت: «ما تشتهى» وهو خطأ.
(٦) وفى إسناده الحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة.
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٩) المسند (٢/ ٥٣٧).

وإنما الدرجات تفاوتها [١] بحسب عمل الصالحات.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ، حدثنا يوسف بن يعقوب - يعنى الصفار - حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبى صالح[٢]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[الزمر: ٥٧] وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣]، ليكون [٣] له شكرا». قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» وذلك [٤] قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥].

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى: من جميع الأنواع، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر [الله تعالى] [٦] الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتتم [هذه] [٧] النعمة والغبطة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)﴾.

لما ذكر [تعالى] [٨] حال السعداء، ثنى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أى: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أى: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أى: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو: خازن النار.

قال البخارى: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عطاء[٩]، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

(١) فى أ: «وإنما الدرجات ينال تفاوتها».

(٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده». (٣) فى ت،م: «فيكون».

(٤) فى ت، م: «فيكون».

(٥) ورواه أحمد فى مسنده (٢/ ٥١٢) من طريق أبى بكر بن عياش به مختصراً.

(٦، ٧) زيادة من ت.

(٨) زيادة من أ.

(٩) فى ت: «روى البخارى بإسناده».

رَبُّكَ﴾[1] أى: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: **﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾** [فاطر:٣٦]. وقال: **﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا**[2] **الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾** [الأعلى: ١١ ـ ١٣]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، **﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾**: قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون. رواه ابن أبى حاتم.

أى: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: **﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾** أى: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾** أى: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم[3] الندامة.

ثم قال تعالى: **﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾** قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم.

وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى: **﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾**[النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: **﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾** أى: سرهم وعلانيتهم، **﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾** أى: نحن نعلم ما هم عليه. والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ .

يقول تعالى: **﴿قُلْ﴾** يا محمد: **﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾**أى: لو فرض هذا لعبدته

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨١٩).

(٢) فى م:«وسيجنبها».

(٣) فى ت،م:«لا تنفع».

على ذلك؛ لأنى عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرنى به، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

[و] (١) قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: الآنفين. ومنهم سفيان الثورى، والبخارى حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ : الجاحدين، من عبد يعبد.

وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب: حدثنى ابن أبى ذئب عن أبى قُسَيْط(٢)، عن بَعَجة بن زيد الجهنى؛ أن امرأة منهم دخلت على زوجها ـ وهو رجل منهم أيضا ـ فولدت له فى ستة أشهر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان، رضى الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فقال: إن الله يقول فى كتابه: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾[الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[لقمان: ١٤]، قال: فوالله ما عبد عثمان، رضى الله عنه، أن بعث إليها: ترد ـ قال يونس: قال ابن وهب: عبد: اشتنكف(٣).

[و] (٤) قال الشاعر:

متَىَ مَا يَشَأ ذُو الوُدِّ يصْرِمْ خَليله ... ويَعْبَدُ عَلَيه لا محَالَة ظَالمًا(٥)

وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر، فلْيتأمل. اللهم إلا أن يقال: «إن» ليست شرطا، وإنما هى نافية كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين.

وقال قتادة: هى كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: إن ذلك لم يكن فلا ينبغى.

وقال أبو صخر: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: أول من عبده ووحده وكذبكم.

---

(١) زيادة من ت،م.
(٢) فى ت: «ما رواه بإسناده».
(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٦١).
(٤) زيادة من ت،م.
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٦٠).

وقال البخارى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الآنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد[١].

والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع.

وقال السدى [فى قوله][٢]: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبده، بأن له ولدا، لكن لا ولد له.وهو اختيار ابن جرير، ورد قول من زعم أن «إن» نافية.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفء له، فلا [٣]ولد له.

وقوله: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ﴾ أى: فى جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا ﴾ فى دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وهو يوم القيامة، أى: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم فى ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أى: هو إله من فى السماء، وإله من فى الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣] أى: هو المدعو الله فى السموات والأرض.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أى استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلى العظيم، المالك للأشياء، الذى بيده أزمة الأمور نقضا وإبراما، ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: فيجازى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أى: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناء منقطع، أى: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أى: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى: هم يعترفون [٤] أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له فى ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء، فهم فى

(١)صحيح البخارى (٨/ ٥٦٨) «فتح البارى».
(٢)زيادة من أ.
(٣) فى ت: «ولا».
(٤) فى ت: «يعرفون».

ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَقِيلِه[١] يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وقال محمد: قيله، أى: شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى فى الآية الآخرى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذى قلناه هو [معنى] [٢] قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير[٣].

قال البخارى: وقرأ عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: « وقال الرسول يارب»[٤].

وقال مجاهد فى قوله: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾، قال: فأبر الله قول محمد.

وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل.

ثم حكى ابن جرير فى قوله: ﴿ وَقِيلِه يَا رَبِّ ﴾ قراءتين، إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوف على قوله: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف: ٨٠] والثانى: أن يقدر فعل، وقال: قيلَه. والثانية: الخفض ،وقيلِه، عطفا على قوله: ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، تقديره: وعلم قيله.

وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أى: المشركين، ﴿ وَقُلْ سَلامٌ ﴾ أى: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُون[٥]﴾ ،هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب.

آخر تفسير سورة الزخرف

---

(١) فى ت: «وقيل هو».

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٦٢).

(٤) صحيح البخارى (٨/ ٥٦٨) «فتح البارى».

(٥) فى م: «تعلمون» .

سورة الزخرف

مكيّة، وقال مقاتل: "إلّا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٥]"،[١] فهي[٢] تسع وثمانون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾

﴿حمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في فاتحة سورة ﴿يسٓ﴾، خلا أنّ الظاهر على تقدير اسميّته كونه اسمًا للقرآن، لا للسورة كما قيل،[٣] فإنّ ذلك مُخِلّ بجزالة النظم الكريم.[٤]

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ بالجرّ على أنّه مُقسَم به إمّا ابتداءً أو عطفًا على ﴿حمٓ﴾ على تقدير كونه مجرورًا بإضمار باء القسَم، على أنّ مدار العطف المغايرةُ في العنوان، ومَناطُ تكرير القسَم المبالغة في تأكيد مضمون الجملة القسميّة.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي: البيّن لمَن أنزلَ عليهم؛ لكونه بلُغتهم وعلى أساليبهم، أو المبيّن لطريق / الهدى مِن طرق الضلالة المُوضِح لكلّ ما يُحتاج إليه في أبواب الديانة. [٦١و]

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ جواب للقسم، لكن لا على أنّ مرجع التأكيد جعلُه كذلك كما قيل؛[٥] بل ما هو غايته التي يُعرِب عنها قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾،

---

[١] س ي - وقال مقاتل: «إلّا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٥]». | الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٣٥؛ تفسير القرطبي، ١٦/٦١.

[٢] س ي: وهي.

[٣] انظر: اللباب لابن عادل، ١٧/٢٢٧.

[٤] وفي هامش م: مِن جهة المعنى. «منه».

[٥] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٨٦.

فإنّها المحتاجة إلى التّحقيق والتأكيد لكونها مُنبئةً عن الاعتناء بأمرهم وإتمامِ النعمة عليهم وإزاحةِ أعذارهم، أي: جعلنا ذلك الكتاب قرآنًا عربيًا لكي تفهموه وتحيطوا بما فيه مِن النظم الرّائق والمعنى الفائق، وتَقِفوا على ما يتضمّنه مِن الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حقّ النعمة في ذلك، وتنقطع أعذاركم بالكلّيّة.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، فإنّه أصل الكتب السماويّة. وقرئ: "إِمِّ الكِتَابِ" بالكسر.[١] ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا ﴿لَعَلِىٌّ﴾ رفيع القدر بين الكتب شريف. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حِكمة بالغة، أو محكَم. وهما خبران لـ﴿إِنَّ﴾، وما بينهما بيان لمحلّ الحِكَم، كأنّه قيل بعد بيان اتّصافه بما ذكر مِن الوصفَين الجليلَين: هذا في أمّ الكتاب ولدينا.

والجملة إمّا عطف على الجملة المقسَم عليها، داخلة في حُكمها، ففي الإقسام بالقرآن على علوّ قدره عنده تعالى براعةٌ بديعة، وإيذانٌ بأنّه مِن علوّ الشأن بحيث لا يحتاج في بيانه إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره؛ بل هو بذاته كافٍ في الشهادة على ذلك مِن حيث الإقسامُ به، كَما أنّه كافٍ فيها مِن حيث إعجازُه، ورمزٌ إلى أنّه لا يخطر بالبال عند ذكره شيء آخر أولى منه بالإقسام به. وإمّا مستأنَفة مقرّرة لعلوّ شأنه الّذي أنْبأَ عنه الإقسامُ به على منهاجِ الاعتراض في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة، ٧٦/٥٦].

وبعد ما بُيِّن علوّ شأن القرآن العظيم، وحُقِّق أنّ إنزالَه على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجَبه عُقِّب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه فقيل:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: ننحّيه ونبعّده عنكم. مجاز مِن قولهم:

---

[١] قرأ بكسر الهمزة في حالة الوصل حمزة والكسائي، ويبدآن بها بهمزة مضمومة. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

"ضَرَب الغرائبَ عن الحوض"،[١] وفيه إشعار باقتضاء الحِكمة تَوجُّهَ الذِّكر إليهم وملازمتَه لهم، كأنّه يتهافَت عليهم. و"الفاء" للعطف على محذوف يقتضيه المقام، أي: أنُهمِلكم فننَحِّي الذِّكر عنكم ﴿صَفۡحًا﴾ أي: إعراضًا عنكم، على أنّه مفعول له للمذكور، أو مصدر مؤكِّد لِما دلّ هو عليه، فإنّ / التنحية مُنبئة عن [٦١ظ] الصفح والإعراض قطعًا، كأنّه قيل: أفنصفَح عنكم صفحًا؟ أو بمعنى الجانب، فينتصب على الظرفيّة، أي: أفننَحّيه عنكم جانبًا؟

﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ أي: لِأن كنتم مُنهمِكين في الإسراف مُصرّين عليه، على معنى: إنّ حالكم وإن اقتضى تخليتَكم وشأنكم حتّى تموتوا على الكفر والضلالة وتَبقَوا في العذاب الخالد، لكنّا لِسَعة رحمتنا لا نفعل ذلك؛ بل نهديكم إلى الحقّ بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب المبين. وقُرئ: ﴿إن﴾ بالكسر[٢] على أنّ الجملة شرطيّة مُخرِجة للمُحقَّق مُخرج المشكوك لاستجهالهم، والجزاءُ محذوف ثقةً بدلالة ما قبلَه عليه.

﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ تقرير لِما قبله ببيان أنّ إسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى مِن إرسال الأنبياء إليهم، وتسليةٌ لرسول الله عليه السلام[٣] عن استهزاء قومه به.[٤]

﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ أي: مِن هؤلاء القوم المسرفين. عِدَة له عليه السلام، ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأوّلين، ووَصْفُهم بأشدّيّة البطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولويّة.

---

١ وفي مجمع الأمثال للميداني، ٤١٩/١: «ضَرَبه ضرْبَ غرائب الإبل. وذلك أنّ الغريبة تزدحم على الحياض عند الورد، وصاحب الحَوض يطردها ويضربها بسبب إبله».

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦٨/٢.

٣ م: عليه وسلّم.

٤ س - به.

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سلَف في القرآن غيرَ مرّة ذِكر قصّتهم التي حقُّها أن تسير مسير المَثَل.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: لَيُسنِدُنّ خلقَها إلى مَن هذا شأنه في الحقيقة وفي نفس الأمر، لا أنّهم يعبّرون عنه بهذا العنوان. وسلوك هذه الطريقة للإشعار بأنّ اتّصافه تعالى بما سُرِدَ مِن جلائل الصفات والأفعال وبما يستلزمه ذلك مِن البعث والجزاء أمرٌ بيّن لا ريب فيه، وأنّ الحجّة قائمة عليهم شاءوا أو أبَوا. وقد جُوّز أن يكون ذلك عينَ عبارتهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ استئناف مِن جهته تعالى، أي: بسطها لكم تستقرّون فيها. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها في أسفاركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكّر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي.

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾

[٦٢و] ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بمقدار يقتضيه[١] مشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح. ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ﴾ أي: أحيينا بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ خاليًا عن النَّماء والنبات بالكلّيّة. وقُرئ: "مَيِّتًا" بالتشديد.[٢] وتذكيره لأنّ البلدة في معنى البلد والمكان. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء، والإشعارِ بعظم خطره.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الإحياء الذي هو في الحقيقة إخراج النبات مِن الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾ أي: تُبعَثون مِن قبوركم أحياءً. وفي التعبير عن إخراج النّبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإخراج تفخيمٌ لشأن الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، لتقويم سَنن الاستدلال، وتوضيح منهاج القياس.

---

١ س: تقتضيه.

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٤.

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢﴾

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: أصناف المخلوقات. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾: الضروب والأنواع، كالحُلو والحامِض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى».[١] وقيل: كلّ ما سوى الله تعالى فهو زوج، كالفوق والتحت، واليمين واليسار، إلى غير ذلك.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾ أي: ما تركبونه تغليبًا للأنعام على الفُلك، فإنّ الركوب متعدٍّ بنفسه، واستعمالُه في الفُلك ونحوها بكلمة "في" للرّمز إلى مكانيّتها وكون حركتها غير إراديّة، كما مرّ في سورة هود عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ [هود، ١١/٤١].

﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾

﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لتستعلوا على ظهور ما تركبونه مِن الفُلك والأنعام. والجمع باعتبار المعنى. ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظِمين لها، ثمّ تحمدوا عليها بألسنتكم، ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ متعجّبين مِن ذلك، كما يُروَى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان إذا وضع رجله في الرّكاب قال: «بسم الله»، فإذا استوى على الدابّة / قال: «الحمد لله على كلّ حال، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾... إلى قوله تعالى: ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾»،[٢] وكبّر ثلاثًا، وهلّل ثلاثًا.[٣] [٦٢ظ]

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ أي: مُطيقين، مِن "أقرَن الشيءَ" إذا أطاقه. وأصله وجدَه قرينته؛ لأنّ الصعب لا يكون قرينةً للضعيف. وقُرئ بالتشديد،[٤] والمعنى واحد. وهذا مِن تمام ذِكر نعمته تعالى؛ إذ بدون اعتراف المُنعَم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لا يعرف قدرها ولا حقَّ المُنعِم بها.

---

١ تفسير الرازي، ٢٧/٦٢٠؛ اللباب لابن عادل، ١٧/٢٣٥.

٢ في الآية التالية.

٣ سنن أبي داود، ٤/٢٤٣ (٢٦٠٢)؛ سنن الترمذي، ٥/٥٠٨ (٣٤٤٦).

٤ أي: "مُقَرِّنِينَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون. وفيه إيذان بأنّ حقّ الرّاكب أن يتأمّل فيما يلابسه مِن المسير، ويتذكّرَ منه المسافرةَ العظمى التي هو الانقلاب إلى الله تعالى، فيبنيَ أمورَه في مسيره ذلك على تلك الملاحظة، ولا يُخطِرَ بباله في شيء ممّا يأتي ويذَرُ أمرًا ينافيها، ومِن ضرورته أن يكون ركوبه لأمرٍ مشروع.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ١٥﴾

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾...[١] إلخ، أي: وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم واعتقادهم بعد ذلك الاعتراف مِن عباده ولدًا. وإنّما عُبّر عنه بالجزء لمزيد استحالته في حقّ الواحد الحقّ مِن جميع الجهات. وقرئ: "جُزُءًا" بضمّتين.[٢]

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الكُفران مبالغ فيه؛ ولذلك يقولون ما يقولون، سبحان الله عمّا يصفون.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ١٦﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة. وما فيها مِن معنى "بَل" للانتقال مِن بيان بطلان جَعلهم له تعالى ولَدًا على الإطلاق إلى بيان بطلان جعلهم ذلك الولدَ مِن أخسّ صِنفَيه. والهمزة للإنكار والتوبيخ والتعجيبِ مِن شأنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ إمّا عطفٌ على ﴿ٱتَّخَذَ﴾، داخل في حكم الإنكار والتعجيب، أو حال مِن فاعله بإضمار "قد" أو بدونه على الخلاف المشهور. والالتفات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ، أي: بل اتّخذ مِن خلقه أخسّ الصنفَين، واختار لكم أفضلهما؟[٣] على معنى: هَبُوا أنكم اجترأتم [٦٣و] على إضافة اتّخاذ جنس الولد إليه سبحانه مع ظهور استحالته وامتناعه، / أمَا كان لكم شيء مِن العقل ونَبْذ مِن الحياء حتّى اجترأتم على التّفوّه بالعظيمة الخارقة للعقول مِن ادّعاء أنّه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفَين وأعلاهما

---

١ الزخرف، ٩/٤٣.
٢ قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.
٣ س ي: أفضلها.

وترَك له شرّهما وأدناهما؟ وتنكير ﴿بَنَاتٍ﴾ وتعريف ﴿ٱلْبَنِينَ﴾ لتربية ما اعتُبِر فيهما مِن الحقارة والفخامة.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾... إلخ استئناف مقرّر لِما قبلَه، وقيل: حال، على معنى أنّهم نسبوا إليه ما ذُكر، ومِن حالهم أنّ أحدهم إذَا بُشّر به اغتمّ. والالتفات للإيذان باقتضاء ذِكر قبائحهم أن يُعرَض عنهم وتُحكى لغيرهم تعجيبًا منها، أي: إذا أُخبِر أحدهم بوِلادة ما جعله مَثلًا له سبحانه؛ إذ الولد لا بدّ أن يجانس الوالد ويماثله.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار أسودَ في الغاية مِن سوء ما بُشّر به، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء مِن الكرْب والكآبة. والجملة حال. وقرئ: "مُسْوَدٌّ"[1] و"مُسْوَادٌّ"،[2] على أنّ فِي ﴿ظَلَّ﴾ ضمير المبشَّر، و"وَجْهُهُ مُسْوَدٌّ" جملة وقعت خبرًا له.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ تكرير للإنكار، وتثنية للتوبيخ. و﴿مَن﴾ منصوبة بمضمَر معطوفٍ على ﴿وَجَعَلُواْ﴾،[3] أي: أَوَجعلوا مَن شأنه أن يُرَبَّى في الزِّينة وهو عاجز عن أن يتولّى لأمره بنفسه؟ فالهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، وقد جُوّز انتصابها بمضمَر معطوف على ﴿ٱتَّخَذَ﴾،[4] فالهمزة حينئذ لإنكار الوقوع واستبعاده، وإقحامُها بين المعطوفين لتذكير ما في ﴿أَمِ﴾[5] المنقطعة مِن الإنكار وتأكيده. والعطف للتغاير العنواني، أي: أوَاتّخذ مَن هذه الصفة الذميمة صفتُه؟

﴿وَهُوَ﴾ مع ما ذُكر مِن القُصور ﴿فِى ٱلْخِصَامِ﴾ أي: الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه الإنسان في العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ غير قادر على تقرير دعواه وإقامةِ حجّته

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٣ الزخرف، ١٥/٤٣.

٤ الزخرف، ١٦/٤٣.

٥ الزخرف، ١٦/٤٣.

لنقصانِ عقله وضعفِ رأيه. وإضافة ﴿غَيْرُ﴾ لا يمنع عمل ما بعده في الجارّ المتقدّم؛ لأنّه بمعنى النفي. وقُرِئ: "يُنْشَأُ"،[1] و"يُناشَأُ"[2] / مِن الإفعال والمفاعلة، والكلّ بمعنًى، ونظيره: غلّاه وأغلاه وغالاه. [٦٣ظ]

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ بيان لتضمّن كفرهم المذكور لكفر آخر، وتقريعٌ لهم بذلك، وهو جعلهم أكملَ العباد وأكرمهم على الله عزّ وجلّ أنقصَهم رأيًا وأخسَّهم صنفًا. وقرئ: "عُبَيْدُ الرَّحْمَنِ"،[3] وقُرِئ: "عِنْدَ الرَّحْمَنِ"[4] على تمثيل زُلفاهم. وقرئ: "أُنُثًا"،[5] وهو جمع الجمع.

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ أي: أحضروا خلقَ الله تعالى إيّاهم فشاهدوهم إناثًا حتّى يحكموا بأُنوثتهم، فإنّ ذلك ممّا يُعلم بالمشاهدة؟ وهو تجهيل لهم وتهكّم بهم. وقُرِئ: "أَأُشْهِدُوا" بهمزتين مفتوحة ومضمومة،[6] و"آأُشْهِدُوا"[7] بألف[8] بينهما.[9] ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ هذه في ديوان أعمالهم ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها يوم القيامة. وقُرِئ: "سَيُكْتَبُ"[10] و"سَنَكْتُبُ"[11] بالياء والنون. وقُرِئ: "شَهَادَاتِهِمْ".[12] وهي قولهم: إنّ لله جزءًا، وإنّ له بناتٍ، وأنّها الملائكة. وقُرِئ: "يُسَاءَلُونَ"[13] مِن المُساءلة للمبالغة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة والجحدري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البَرَهْسَم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٥.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٦٨/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٥.

٦ قرأ بذلك لكن بتسهيل الهمزة الثانية ورش عن نافع. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٣٦٨/٢. وأمّا القراءة بهمزتين محقّقتين فقراءة شاذّة مرويّة عن عليّ والمفضّل عن عاصم. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٦٥/٩.

٧ س: آآاشهدوا.

٨ س ي: بالألف.

٩ قرأ بذلك لكن بتسهيل الهمزة الثانية أبو جعفر وقالون عن نافع. انظر: **النشر** لابن الجزري، ٣٦٨/٢.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٥.

١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البرَهْسَم وزيد بن عليّ وأبي حيوة وعميرة عن حفص. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٥.

١٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٥. وهي بكسر التاء على قراءة "سَنَكْتُبُ" بالنون والبناء للفاعل.

١٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٦.

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝٢٠ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ۝٢١ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ۝٢٢﴾

﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ بيان لفنّ آخر مِن كفرهم، أي: لو شاء عدم عبادتنا للملائكة مشيئةَ ارتضاءٍ ما عبدناهم. أرادوا بذلك بيانَ أنّ ما فعلوه حقّ مرضيّ عنده تعالى، وأنهم إنّما يفعلونه بمشيئته تعالى، لا الاعتذارَ مِن ارتكاب ما ارتكبوه بأنّه بمشيئته تعالى إيّاه منهم مع اعترافهم بقُبحه حتّى ينتهض ذمُّهم به دليلًا للمعتزلة.

ومبنى كلامهم الباطل على مقدّمتَين: إحداهما: أنّ عبادتهم لهم بمشيئته تعالى. والثانية: أنّ ذلكَ مستلزم لكونها مرضيّةً عنده تعالى.

ولقد أخطئوا في الثانية حيث جهلوا أنّ المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعضٍ كائنًا ما كان مِن غير اعتبار الرّضا أو السخط في شيء مِن الطرفين. ولذلك جُهّلوا بقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي: بما أرادوا بقولهم ذلك مِن كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء لا بمطلق المشيئة، فإنّ ذلك محقَّق ينطق به ما لا يُحصَى / مِن الآيات الكريمة. ﴿مِنۡ عِلۡمٍ﴾ يستند إلى سندٍ ما. [٦٤و]

﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ يتمحّلون تمحّلًا[1] باطلًا. وقد جُوّز أن يُشارَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى أصل الدعوى، كأنّه لمّا أُظهِر وجوه فسادها وحُكِي شُبَههم المزيّفة نُفِي أن يكون لهم بها علم مِن طريق العقل.

ثمّ أُضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم سند مِن جهة النقل، فقيل: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ مِن قَبل القرآن أو مِن قَبل ادّعائهم، ينطق بصحّة ما يدّعونه، ﴿فَهُم بِهِۦ﴾ بذلك الكتاب ﴿مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ وعليه معوِّلون.

﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: لم يأتوا بحجّة عقليّة أو نقليّة؛ بل اعترفوا بأن لا سندَ لهم سوى تقليد آبائهم الجهَلة مثلهم.

---

[1] التّمحّل: الطلب بحِيلة وتكلُّف. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦٦/٥.

والأَمّة: الدين والطريقة التي تُؤَمّ، أي: تُقصَد، كالرُّحْلة لما يُرحَل إليه. وقُرئ: "إِمَّةٍ" بالكسر،[١] وهي الحالة التي يكون عليها الآمُّ، أي: القاصد. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ خبَرَانِ،[٢] أو الظرفُ صلة لـ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: والأمر كما ذُكر مِن عجزهم عن الحجّة وتشبّثهم بذيل التقليد.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ[٣] مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ استئناف مبيّن لذلك دالّ على أنّ التقليد فيما بينهم ضلال قديم ليس لأسلافهم أيضًا سند غيره. وتخصيص المُترَفين بتلك المقالة للإيذان بأنّ التنعّم وحبّ البطالة هو الذي صرَفهم عن النظر إلى التقليد.

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَٰلَ﴾ حكاية لِما جرى بين المنذِرين وبين أممهم عند تعلّلهم بتقليد آبائهم، أي: قال كلّ نذير مِن أولئك المنذِرين لأممهم: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ أي: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ بدينٍ أهدى ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ مِن الضلالة التي ليست مِن الهداية في شيء، وإنما عبّر عنها بذلك مُجاراةً معهم على مسلك الإنصاف.

[٦٤ظ] وقُرئ: "قُلْ"[٤] على أنّه حكايةُ أمرٍ ماضٍ أُوحِيَ حينئذ / إلى كلّ نذير، لا على أنّه خطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم كما قيل،[٥] لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فإنّه حكاية عن الأمم قطعًا، أي: قال كلّ أمّة لنذيرها:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن عبد العزيز ومجاهد والجحدري. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٦.

٢ س: خبر إنّ.

٣ م س ي - فِي قَرۡيَةٖ.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٩.

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٨٩.

إنّا بما أُرسِلْتَ به... إلخ، وقد أُجمِل عند الحكاية للإيجاز كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣].

وجعلُه حكايةً عن قومه عليه السلام بحملِ صيغة الجمع على تغليبه على سائر المنذِرين عليهم السلام وتوجيهُ كفرهم إلى ما أُرسل به الكلّ مِن التوحيد لإجماعهم عليه كما في نظائر قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء، ١٢٣/٢٦] تمحُّلٌ بعيد يردّه بالكلّيّة قولُه تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: بالاستئصال ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ مِن الأمم المذكورين، فلا تكترِث بتكذيب قومك.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: واذكر لهم وقتَ قوله عليه السلام ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ المُكبّين على التقليد، كيف تبرّأ ممّا هم فيه بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وتمسّك بالبرهان ليسلكوا مَسلكه في الاستدلال، أو ليقلّدوه إن لم يكن لهم بدٌّ مِن التقليد، فإنّه أشرفُ آبائهم. و﴿بَرَآءٌ﴾ مصدر نُعِت به مبالغةً، ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدّد، والمذكّر والمؤنّث. وقُرئ: "بَرِيءٌ"،[1] و"بُرَاءٌ" بضمّ الباء،[2] ككَريم وكُرام. و﴿مَا﴾ إمّا مصدريّة أو موصولة حُذف عائدها، أي: إنّني بريء مِن عبادتكم أو معبودكم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع، أو متّصل على أنّ ﴿مَا﴾[3] تَعمّ أُولي العلم وغيرَهم، وأنّهم كانوا يعبدون الله والأصنامَ، أو صفةٌ على أَنّ ﴿مَا﴾ موصوفة، أي: إنّني براء مِن آلهةٍ تعبدونها غيرِ الذي فطرني، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيُثبّتني على الهداية، أو سيهدينِ إلى ما وراءَ الذي هداني إليه إلى الآن. والأوجَه أنّ "السين" للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أهل المدينة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

[3] في الآية السابقة.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: جعل إبراهيم كلمة التوحيد التي ما تكلّم به عبارة عنها ﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: في ذرّيّته حيث وصّاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ الآيةَ [البقرة، ١٣٢/٢]، فلا يزالُ فيهم مَن يوحِّد الله تعالى / ويدعو إلى توحيده. وقُرئ: "كِلْمَةً"[١] و"في عَقْبِهِ"[٢] على التخفيف. [٦٥و]

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ علّة للجَعل، أي: جعلها باقية في عقبه رجاءَ أن يرجع إليها مَن أشرك منهم بدعاء الموحِّد.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٢٩﴾

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إضراب عن محذوف ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: جعلها كلمة باقية في عقبه بأن وصّى بها بنيه رجاءَ أن يرجع إليها مَن أشرك منهم بدعاء الموحِّد، فلم يحصل ما رجاه؛ بل متّعتُ منهم هؤلاء المعاصرين للرسول عليه السلام مِن أهل مكّة ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالمدّ في العمر والنعمة، فاغترّوا بالمُهلة وانهمكوا في الشهوات وشُغِلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ﴾ أي: هؤلاء ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ﴾ أيّ رسول ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة واضحُها بالمعجزات الباهرة، أو مبينٌ للتوحيد بالآيات البيّنات والحجج.

وقُرئ: "مَتَّعْنَا"[٣] و"مَتَّعْتَ" بالخطاب[٤] على أنّه تعالى اعترض به على ذاتِه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً﴾... إلخ[٥] مبالغةً في تعييرهم، فإنّ التمتيع بزيادة النِّعم يوجب عليهم أن يجعلوه سببًا لزيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان، فجعله سببًا لزيادة الكفران أقصى مراتب الكفر والضلال.

---

١ م: كَلْمَة. | لم أجد مَن قرأها بفتح الكاف، إنّما هي بكسر الكاف وسكون اللام قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس. انظر: **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٤٢٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن إسحاق الأزرق. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٤٢٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٤٢٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة والزهري ويعقوب عن نافع. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٤٢٦.

٥ في الآية السابقة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لينبهّهم عمّا هم فيه مِن الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا كفرًا وعُتوًّا، وضمّوا إلى كفرهم السابق معاندةَ الحقّ والاستهانةَ به حيث ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فسمّوا القرآن سِحرًا، وكفروا به، واستحقروا رسولَ الله عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي: مِن إحدى القريتين؛ مكّة والطائف، على نهج قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن، ٢٢/٥٥]. ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: بالجاه والمال، كالوليد بن المغيرة المخزومي، وعروة بن مسعود الثقفي.[١] وقيل: حبيب بن عمر بن عمير الثقفي.[٢] وعن مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبدِ يَالِيلَ.[٣]

ولم يتفوّهوا بهذه العظيمة حسدًا على نزوله إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم دون مَن ذُكِرَ مِن عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيّته؛ بل استدلالًا على عدمها، بمعنى أنّه لو كان قرآنًا لنزل إلى أحدِ هؤلاء بناءً على ما زعموا مِن أنّ الرسالة

---

١ هو عروة بن مسعود بن معتّب بن مالك الثقفي (ت. ٩هـ/٦٣٠م). كان أحد الأكابر مِن قومه. وثبت ذكر عروة بن مسعود في قصّة الحديبية، وكانت له اليد البيضاء في تقرير الصلح. رَوى ابن إسحاق أنّه اتّبع أثَر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا انصرف مِن الطائف، فأسلَم، واستأذنه أن يرجع إلى قومه، فقال: «إنّي أخاف أن يقتلوك». قال: «لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني، فأذِن له فدعاهم إلى الإسلام، ونصح لهم فعصَوه، وأسمعوه مِن الأذى، فلمّا كان مِن السَّحَر قام على غرفة له فأذّن، فرماه رجل مِن ثقيف بسهم فقتله، فلمّا بلغ ذلك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «مَثَل عُروة مَثَل صاحب ياسين، دعا قومه إلى الله فقتلوه». انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٤٠٦/٤؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٢٧/٤.

٢ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٥٨٠/٢٠؛ و**الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٣٢/٨.

٣ **جامع البيان** للطبري، ٥٨٠/٢٠؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٣٢/٨. | هو كِنانة بن عبد ياليل الثقفي (ت. نحو ١٥هـ/٦٣٦م). كان رئيس ثقيف، واختلف في إسلامه، قال ابن عبد البرّ: «كان مِن أشراف ثقيف الذين قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد حصار الطائف، فأسلموا». وذكر المدائني أنّ وفد ثقيف أسلموا إلّا كِنانة، فإنّه قال: «لا يرثني رجل مِن قريش»، وخرج إلى نجران، ثمّ توجّه إلى الروم فمات بها كافرًا. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٤٩٦/٥؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٣٤/٥.

مَنصب جليل لا يليق به إلّا مَن له جلالة مِن حيث المالُ والجاهُ، ولم يَدْرُوا أنّها رتبة روحانيّة لا يترقّى إليها إلّا هِمم الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكيّة، المؤيَّدين بالقوّة القدسيّة، المُتحلِّين بالفضائل / الأُنسيّة. وأمّا المتزخرفون بالزخارف الدنيويّة المتمتّعون بالحظوظ الدنيّة فهم مِن استحقاق تلك الرتبة بألف منزل. [٦٥ظ]

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل لهم وتعجيب مِن تحكّمهم. والمراد بـ"الرحمة" النبوّة.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أي: أسباب معيشتهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قسمةً يقتضيها مشيئتنا المَبنيّةُ على الحِكَم والمصالح، ولم نفوِّض أمرها إليهم علمًا منّا بعجزهم عن تدبيرها بالكلّيّة.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادي المعاش ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ متفاوتةً بحسب القُرب والبُعد حسبما يقتضيه الحِكمة، فمِن ضعيفٍ وقويّ، وفقير وغنيّ، وخادم ومخدوم، وحاكم ومحكوم.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليصرِّف بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مِهَنِهم، ويتسخّروهم في أشغالهم، حتّى يتعايَشُوا ويترافَدوا ويَصلوا إلى مرافقهم، لا لكمالٍ في الموسِع ولا لنقصٍ في المُقتِر. ولو فوّضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا، فإذا كانوا في تدبير خُوَيْصَّةِ[١] أمرهم وما يُصلِحهم مِن متاع الدنيا الدنيّة، وهو في طرف الثُّمام[٢] على هذه الحالة فما ظنّهم بأنفسهم في تدبير أمر الدِّين، وهو أبعد مِن مناط العيّوق.[٣] ومِن أين لهم البحث عن أمر النبوّة والتّخيُّر لها مَن يصلح لها ويقوم بأمرها؟

---

١ خُوَيْصَّة: تصغير خاصّة. لسان العرب لابن منظور، «خصص».

٢ الثُّمام: نبت معروف في البادية. والعرب تقول للشيء الذي لا يعسر تناوله: هو على طرف الثُّمام، وذلك أن الثُّمام لا يطول فيشقّ تناوله. لسان العرب لابن منظور، «ثمم».

٣ العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن، يتلو الثريّا لا يتقدّمه. الصِّحاح للجوهري، «عوق».

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: النبوّة وما يتبعها مِن سعادة الدارين ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِن حطام الدنيا الدنيّة الفانية.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ استئناف مبيّن لحقارة متاع الدنيا، ودناءة قدره عند الله عزّ وجلّ. والمعنى: أنّ حقارة شأنه بحيث لولا أن يرغب الناس لحبّهم الدنيا في الكفر إذا رأَوا أهلَه في سَعةٍ وتنعّمٍ فيجتمعوا عليه لأعطيناه بحذافيره مَن هو شرُّ الخلائق وأدناهم منزلةً، وذلك قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: متّخذةً منها.

و﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمالٍ مِن ﴿لِمَن﴾. وجمع الضمير باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراد المستكنّ في ﴿يَكْفُرُ﴾ باعتبار لفظها.

و"السّقُف" جمع سَقْف، كـ"رُهُن" جمع "رَهْن"، وعن الفرّاء أنّه جمع "سَقيفة"،[1] كـ"سُفُن" و"سفينة". وقرئ: "سُقْفًا" بسكون القاف[2] تخفيفًا، و"سَقْفًا"[3] اكتفاءً / بجمع "البيوت"، و"سَقَفًا"،[4] كأنّه لغة في سَقْف، و"سُقُوفًا".[5] [٦٦و]

﴿وَمَعَارِجَ﴾ أي: جعلنا لهم معارج مِن فضّة، أي: مصاعد، جمع "مِعْرَج". وقُرئ: "مَعَارِيجَ"[6] جمع "مِعراج". ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يعلُون السطوح والعلاليّ.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤﴾

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم ﴿أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ مِن فضّة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على السُّرُر ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾. ولعلّ تكريرَ ذِكر "بيوتهم" لزيادة التقرير.

---

١ معاني القرآن للفرّاء، ٣/٣٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وأبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٩.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٤٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

﴿وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥﴾

﴿وَزُخۡرُفٗا﴾ أي: زينةً عطفًا على ﴿سُقُفٗا﴾،[١] أو ذهبًا عطفًا على محلّ ﴿مِّن فِضَّةٖ﴾.[٢] ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: وما كلّ ما ذُكر مِن البيوت الموصوفة بالصفات المفصّلة إلّا شيء يُتمتّع به في الحياة الدنيا. وفي معناه ما قُرئ: "وَمَا كُلُّ ذَٰلِكَ إِلَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا".[٣]

وقُرئ بتخفيف "مَا"[٤] على أنّ ﴿إِن﴾ هي المخفّفة، واللام هي الفارقة. وقُرئ بكسر اللام[٥] على أنّها لام العلّة و"مَا" موصولة قد حُذف عائدها، أي: لَلذي هو متاع... إلخ، كما في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ [الأنعام، ٦/١٥٤].

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾ بما فيها مِن فنون النعيم التي يقصُر عنها البيان. ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: عن الكفر والمعاصي، وبهذا تبيّن أنّ العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا.

﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦﴾

﴿وَمَن يَعۡشُ﴾ أي: يَتعامَ ﴿عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وهو القرآن. وإضافته إلى اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ للإيذان بنزوله رحمةً للعالمين. وقُرئ: "يَعْشَ" بالفتح،[٦] أي: يَعْمَ، يقال: عَشِيَ يَعْشَى إذا كان في بصره آفة، وعَشا يَعشُو إذا تَعَشّى بلا آفةٍ، كعَرِجَ وعَرَجَ. وقُرئ: "يَعْشُو"[٧] على أنّ ﴿مَن﴾ موصولة غير مضمّنة معنى الشرط.

والمعنى: ومَن يُعرِض عنه لفَرط اشتغاله بزَهرة الحياة الدنيا وانهماكه في حظوظها الفانية والشهوات ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ لا يفارقه،

١ الزخرف، ٤٣/٣٣.
٢ الزخرف، ٤٣/٣٣.
٣ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٢٤٩.
٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وخلف وابن عامر بخُلف عن هشام وابن وَردان عن أبي جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٦٩.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٧.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٧.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٢٧.

ولا يزال يوسوسه ويُغويه. وقُرئ: "يُقَيِّضْ" بالياء[١] على إسناده إلى ضمير ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾. ومَن رفَع "يَعْشُو" فحقُّه أن يَرفع "يُقَيِّضُ".

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨﴾

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشّياطين الذين / قُيِّضَ كلّ واحد منهم لكلّ واحدٍ ممّن يَعشو ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي: قرناءَهم. فمدار جمع الضميرين اعتبارُ معنى ﴿مَن﴾،[٢] كما أنّ مدار إفراد الضمائر السابقة اعتبارُ لفظها. ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستبين الذي يدعو إليه القرآن ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: العاشون ﴿أَنَّهُم﴾ أي: الشياطين ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ أي: إلى السبيل المستقيم، وإلّا لَما اتّبعوهم. أو يحسَبون أنّ أنفسهم مهتدون؛ لأنّ اعتقاد كونِ الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتّحاد مَسلكهما. والجملة حال مِن مفعول ﴿يَصُدُّونَ﴾ بتقدير المبتدأ، أو مِن فاعله، أو منهما لاشتمالها على ضميريهما، أي: وإنّهم لَيَصدّونهم عن الطريق الحقّ وهم يحسبون أنّهم مهتدون إليه. [٦٦ظ]

وصيغة المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجدّدي لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾، فإنّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وإن كانت ابتدائيةً داخلةً على الجملة الشرطية لكنّها تقتضي حتمًا أن تكون غايةً لأمر ممتدّ كما مرّ مرارًا. وإفراد الضمير في ﴿جَآءَ﴾[٣] وما بعده لِما أنّ المراد حكاية مقالةِ كلِّ واحدٍ[٤] واحدٍ مِن العاشِين لقرينه لتهويل الأمر وتفظيع الحال. والمعنى: يستمرّ العاشون على ما ذُكر مِن مقارنة الشياطين والصدِّ والحسبانِ الباطل، حتّى إذا جاءنا كلّ واحد منهم مع قرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ مخاطِبًا له: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: بُعدَ المشرق والمغرب، أي: تباعد كلّ منهما عن الآخر. فغُلِّب "المَشرقُ" وثُنِّي، وأضيف "البُعد" إليهما. ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي: أنت.

---

١ قرأ بها يعقوب وشعبة بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٩.

٢ في الآية السابقة.

٣ س: جاءه.

٤ س: وحد.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾... إلخ حكاية لِما سيقال لهم حينئذ مِن جهة الله عزّ وجلّ توبيخًا وتقريعًا، أي: لن ينفعكم ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ -أي: يوم القيامة- تمنّيكم لمباعدتهم ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ أي: لأجل ظلمكم أنفُسَكم في الدنيا باتّباعكم إيّاهم في الكفر والمعاصي.

وقيل: ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ بدل مِن ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: إذ تبيّن عندكم وعند الناس جميعًا أنّكم ظلمتم أنفسَكم في الدنيا، وعليه قول مَن قال:

إذا ما انتسبنا لم تلِدني لئيمةٌ[1]

أي: تبيّن أنّي لم تلدني لئيمة؛ بل كريمة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ تعليل لنفي النفع، أي: لأنّ [٦٧و] حقّكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب / كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا. ويجوز أن يُسنَد الفعل إليه، لكن لا بمعنى: لن ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكُهم فيها لتعاونهم في تحمّل أعبائها وتقسُّمِهم لعَنائها، لأنّ لكلٍّ منهم ما لا يبلغه طاقتُه كما قيل؛[2] لأنّ الانتفاع بذلك الوجه ليس ممّا يخطر ببالهم حتّى يُرَدّ عليهم بنَفْيِه؛ بل بمعنى: لن يحصل لكم التّشفِّي بكون قرنائكم معذَّبين مثلكم حيث كنتم تدْعون عليهم بقولكم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ[3] ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب، ٦٨/٣٣]، وقولِكم: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف، ٣٨/٧]، ونظائرِهما؛ لِتَتَشفَّوا بذلك.

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٤٠﴾

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبالغ في المجاهدة في دعاء قومه،

---

١ تمامه:

ولم تَجدي مِن أن تَقرّي بها بدًّا

وهو لزائد بن صعصعة الفقعَسي، يقول: إذا انتسبنا معًا تبيّن لكِ أنّي كريم مِن نسل كريم. أطلق الفعل، وأريدَ به ظهوره والعلم به اللازم له، فإنّ "لم تلدني" جواب إذا، أي: إذا انتسبنا علمتِ يا فلانة وتبيّنتِ أنّي لست بابن لئيمة. والبدّ: الفراق والخلاص، ومِن متعلّقة به، أي: لم تجِدي خلاصًا مِن إقرارك بما قلته. انظر: شرح أبيات المغني للبغدادي، ١٢٦/١.

٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩١/٥.

٣ م س ي: وآتِهم.

وهم لا يزيدون إلّا غيًّا وتعاميًا عمّا يشاهدونه مِن شواهد النبوّة وتَصامًّا عمّا يسمعونه مِن بيّنات القرآن، فنزل: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾. وهو إنكارُ تعجيبٍ مِن أن يكون هو الذي يَقدر على هدايتهم وهم قد تمرّنوا في الكفر واستغرقوا في الضلال، بحيث صار ما بهم مِن العَشَا عَمًى مقرونًا بالصَّمَم.

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْعُمْىَ﴾ باعتبار تغاير الوصفَين. ومدار الإنكار هو التمكّن والاستقرار في الضلال المُفرط بحيث لا ازعِواء له منه، لا توهُّمُ القصور مِن قِبَل الهادي، ففيه رمز إلى أنّه لا يقدر على ذلك إلّا الله تعالى وحدَه بالقَسر والإلجاء.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١﴾

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: فإن قبضناك قبل أن نُبَصِّرَكَ عذابَهم ونشفِيَ بذلك صدرَك وصدورَ المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالةَ في الدنيا والآخرة. فـ﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد بمنزلة لام القَسَم في أنّها لا تفارق النون المؤكِّدة.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝٤٢﴾

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أي: أو أردنا أن نُريك العذاب الذي وعدناهم، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ بحيث لا مناصَ لهم مِن تحت ملَكتنا وقهرنا، ولقد أرَاه عليه السلام ذلك يوم بدر.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ مِن الآيات والشرائع، سواء عجّلنا لك الموعود أو أخّرناه إلى اليوم الآخر. وقُرِئ: "أَوْحَى" على البناء للفاعل،[1] وهو الله عزّ وعلا.[2] ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تعليل للاستمساك، أو للأمرِ به.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨.

[2] س: عزّ وجلّ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ﴾ لَشرفٌ عظيم ﴿لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عنه / وعن قيامكم بحقوقه. [٦٧ظ]

﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾

﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي: وَاسْأَلْ أمَمَهم وعلماءَ دينهم كقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [يونس، ٩٤/١٠]. وفائدة هذا المجاز التنبيهُ على أنّ المسئول عنه عين مَا نطقت به ألسنة الرسل، لا ما يقوله أممُهم وعلماءهم مِن تلقاء أنفسهم. قال الفرّاء: «هم إنّما يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنّه سأل الأنبياء عليهم السلام».[١]

﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ أي: هل حكَمنا بعبادة الأوثان؟ وهل جاءت في ملّة مِن مِلَلِهم؟ والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنّه ليس ببِدعٍ ابتدعه حتّى يُكذَّب ويُعادَى.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٦﴾

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ملتبِسًا بها ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أريدَ باقتصاصه تسليةُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والاستشهادُ بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد، إثرَ ما أشيرَ[٢] إلى إجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ۝٤٧ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٤٨﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ أي: فاجَئُوا وقت ضحكهم منها، أي: استهزءوا بها أوّلَ ما رَأوها، ولم يتأمّلوا فيها.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ﴾ أي: آيةً[٣] مِن الآيات ﴿إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا﴾ أي:

---

[١] معاني القرآن للفرّاء، ٣٤/٣.
[٢] س: يشير.
[٣] س ي - أي: آيةً.

إلّا وهي بالغة أقصى مراتب الإعجاز بحيث يحسَب كلّ مَن ينظر إليها أنّها أكبر مِن كلّ ما يُقاس بها مِن الآيات. والمراد وصف الكلّ بغاية الكبَر مِن غير ملاحظة قُصور في شيء منها، أو إلّا وهي مختصّة بضرب مِن الإعجاز مفضّلة بذلك الاعتبار على غيرها.

﴿وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ﴾ كالسِّنين والطوفان والجراد وغيرها ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عمّا هم عليه مِن الكفر.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ۝٤٩﴾

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادَوه بذلك في مثل تلك الحالة لغاية عتوّهم ونهاية حماقتهم. وقيل: كانوا يقولون للعالِم الماهر: ساحر؛ لاستعظامهم علم السِّحر. وقُرئ: "أَيُّهُ السَّاحِرُ" بضمّ الهاء.[1]

﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنّا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك مِن النبوّة، / أو مِن استجابة دعوتك، أو مِن كشف العذاب عمَّن اهتدى، أو بما عهِد عندك [٦٨و] فوفَّيت به مِن الإيمان والطّاعة. ﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾ أي: لَمؤمنون، على تقدير كشف العذاب عنّا بدعوتك، كقولهم: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف، ١٣٤/٧].

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ بدعوته ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ فاجئوا وقت نكْث عهدهم بالاهتداء، وقد مرّ تفصيله في الأعراف.[2]

﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١﴾

﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾ بنفسه أو بمناديه ﴿فِي قَوۡمِهِۦ﴾ في مَجمعهم وفيما بينهم بعد أن كُشف العذاب عنهم مخافةَ أن يؤمنوا، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ

---

[1] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ١٤٢/٢.

[2] عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف، ١٣٥/٧].

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار النيل، ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تِنِّيس. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: مِن تحت قَصري، أو أمري. وقيل: مِن تحت سريري لارتفاعه. وقيل: بين يديّ في جِناني وبَساتيني. و"الواو" إمّا عاطفة لـ﴿هَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ على ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾ فتجري حال منها، أو للحال فـ﴿هَٰذِهِ﴾ مبتدأ و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفتها و﴿تَجْرِى﴾ خبر للمبتدأ. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك، يريد به استعظام مُلكه.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: ضعيف حقير، مِن المَهانة، وهي القِلّة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: الكلامَ. قاله افتراءً عليه عليه السلام وتنقيصًا له عليه السلام في أعين الناس باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام مِن نوع رُتّة،[1] وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ [طه، ٣٦/٢٠].

و﴿أَمْ﴾ إمّا منقطعة والهمزة للتقرير، كأنّه قال إثرَ ما عدّد أسباب فضله ومباديَ خيريّته: أَثَبتَ عندكم واستقرّ لديكم أنّي أنا خير وهذه حالي مِن هذا... إلخ؟

وإمّا متّصلة، فالمعنى: أفلا تُبصرون أَم تبصرون؟ خلا أنّه وضع قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مَوضع / "تبصرون"؛ لأنّهم إذا قالوا له: أنت خير، فهم عنده بُصراءُ، [٦٨ظ] وهذا مِن باب تنزيل السبب منزلة المسبَّب، ويجوز أن يُجعل مِن تنزيل المسبَّب منزلة السبب، فإنّ إبصارهم لِما ذُكر مِن أسباب فضله سببٌ على زعمه لحُكمهم بخيريّته.

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: فهلّا أُلقي إليه مقاليد المُلك إن كان صادقًا، لِما أنّهم كانوا إذا سَوَّروا رجلًا سَوّروه وطوّقوه بطَوق مِن ذهب.

---

[1] الرُتّةُ، بالضمّ: العُجمة في الكلام والحُكْلَة فيه. رجلٌ أرَتُّ بيِّن الرَتَتِ. وفي لسانه رُتّة. الصّحاح للجوهري، «رتت».

و﴿أَسْوِرَةٌ﴾ جمع "سِوار". وقُرِئ: "أَسَاوِرُ"[1] جمع "أَسْوِرة"، وقُرِئ: "أَسَاوِرَةٌ"[2] جمع "إسْوار" بمعنى السِّوار، على تعويض التاء مِن ياء "أساوِير"، وقد قُرِئ كذلك،[3] وقُرِئ: "وَأَلْقَى عَلَيهِ أَسْوِرَةً"[4] و"أَسَاوِرَ"،[5] على البناء للفاعل وهو الله تعالى.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين يُعينونه أو يصدّقونه، مِن "قَرنتُه به فاقترَن"، أو متقارِنين، مِن "اقترَن" بمعنى تَقارن.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فاستفزّهم وطلب منهم الخِفّة في مطاوَعته، أو فاستخفّ أحلامهم. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغَويّ.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا أشدَّ الغضب. منقول مِن "أَسِفَ" إذا اشتدّ غضبه. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليمّ.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قدوة لمَن بعدَهم مِن الكفّار يسلكون مَسلكهم في استيجاب مثلِ ما حلّ بهم مِن العذاب. وهو إمّا مصدر نُعِت به، أو جمع "سالف"، كخدَم جمع خادم. وقُرِئ بضمّ السين واللام،[6] على أنّه جمع "سَليف"،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨. وأسندها بعض المفسّرين إلى أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٩/٨.

[2] قرأ بها جميع القرّاء العشرة غير يعقوب وحفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨. وأسندها بعض المفسّرين إلى ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٩/٨.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرَهْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨. وأسندها بعض المفسّرين إلى الضحّاك. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥٩/٥.

[5] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بغير نسبة. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٥.

[6] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

أي: فريق قد سلَف، كرُغُف، أو "سالِف" كصُبُر، أو "سَلَف" كأُسُد. وقُرئ: "سُلَفًا"[١] بإبدال ضمّة اللام فتحةً، أو على أنّه جمع "سُلْفة"، أي: ثُلّة قد سلَفت.

﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ أي: عِظةً لهم، أو قصّةً عجيبة تسير مسيرَ الأمثال لهم فيقال: مَثلكم مَثَل قوم فرعون.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾

[٦٩و] ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ/ مَثَلًا﴾ أي: ضرَبه ابن الزِّبَعْرَى حين جادل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء، ٩٨/٢١]، حيث قال: «أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟» فقال عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم». فقال اللعين: «خصَمتُك وربِّ الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عُزيرًا، وبنو مُليح الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم.» ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت أصواتهم.[٢] وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي: مِن ذلك المَثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي: يرتفع لهم جلَبة وضجيج فرَحًا وجدلًا.

وقُرئ: "يَصُدُّونَ"،[٣] أي: مِن أجل ذلك المَثَل يُعرِضون عن الحقّ، أي: يَثبتون على ما كانوا عليه مِن الإعراض أو يزدادون فيه. وقيل: هو أيضًا مِن الصديد، وهما لغتان فيه، نحو: يعكِف ويعكُف، وهو الأنسب بمعنى المفاجأة.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ حكاية لطرفٍ مِن المَثَل المضروب، قالوه تمهيدًا لِما بنَوا عليه مِن الباطل المُمَوَّهِ بما يغترّ به السفهاء، أي: ظاهر أنّ عيسى خير مِن آلهتنا، فحيث كان هو في النار، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٤١٧/١٦ (الأنبياء، ٩٨/٢١)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٦ (الأنبياء، ٩٨/٢١).

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

واعلم أنّ ما نُقِل عنهم مِن الفرح ورفع الأصوات لم يكن لِما قيل: مِن أنّه عليه السّلام سكَت عند ذلك إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. فإنّ ذلك -مع إيهامه لِما يجب تنزيهُ ساحته عليه السلام عنه مِن شائبة الإفحام مِن أوّل الأمر- خلاف الواقع. كيف لا، وقد رُوي أنّ قول ابنِ الزِّبَعْرَى: «خصمتُك وربِّ الكعبة»، صدر عنه مِن أوّل الأمر عند سماع الآية الكريمة، فردّ عليه النبيّ بقوله عليه السلام: «ما أجهَلَكَ بلغة قومك، أما فهمتَ أنّ "مَا" لِمَا لا يعقل»؟[١] وإنّما لم يخصّ عليه السلام هذا الحكم بآلِهتهم حين سأل الفاجرُ عن الخصوص والعموم عملًا بما ذُكر مِن اختصاص كلمة "مَا" بغير / العقلاء؛ لأنّ إخراج بعض المَعبودين عنه عند [٦٩ظ] المُحاجّة موهِم للرخصة في عبادته في الجملة، فعمّمه عليه السلام[٢] للكلّ، لكن لا بطريق عبارة النصّ؛ بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك في المعبوديّة مِن دون الله تعالى، ثمّ بيّن عليه السلام بقوله: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمَرَتْهم بذلك»[٣] أنّ الملائكة والمسيح بمَعزِل مِن أن يكونوا معبوديهم، كما نطق به قوله تعالى:[٤] ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ الآيةَ [سبأ، ٤١/٣٤]. وقد مرّ تحقيق المقام عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. بل[٥] إنّما كان ما أظهروه مِن الأحوال المنكرة لمَحض وَقاحتهم وتَهالكهم على المكابرة والعناد كما ينطق به قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ أي: ما ضربوا لك ذلك المَثل إلّا لأجل الجِدال والخِصام، لا لطلب الحقّ حتّى يُذعِنُوا له عند ظهوره ببَيانك.

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: لُدٌّ شِدادُ الخصومة، مَجبولون على المَحْكِ واللَّجاج.

---

١ قال الحافظ ابن حجر: «وقع في كلام كثير مِن فضلاء العجم ما نصّه: نُقل أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لابن الزِّبَعْرَى: ما أجهلك بلغة قومك، إن "مَا" لِما لا يعقل. انتهى. وهذا لا أصل له مِن طريق ثابتة ولا واهية، وكأنّ المُوقع في ذلك قول ابن الحاجب: وأجيب بأن "ما" لِما لا يعقل، فظنّوا أنّه مِن جواب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم». موافقة الخبر لابن حجر، ١٧٥/٢.

٢ س – عليه السلام.

٣ مِن حديث ابن الزِّبَعرَى السابق.

٤ س – تعالى.

٥ وفي هامش م: عطف على قوله: "لم يكن". «منه».

وقيل: لمّا سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران، ٥٩/٣] قالوا: «نحن أهدى مِن النصارى؛ لأنّهم عبدوا آدميًّا، ونحن نعبد الملائكة»، فنزلَت.[١] فقولهم: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ حينئذ تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السلام؛ لأنّ المراد بهم الملائكة. ومعنى ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾... إلخ: ما قالوا هذا القول إلّا للجَدل.

وقيل: لمّا نزلت: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ الآيةَ [آل عمران، ٥٩/٣]، قالوا: «ما يريد محمّد بهذا إلّا أن نعبده، وأنّه يستأهل أن يُعبَد وإن كان بشَرًا كما عبَدت النصارى المسيح وهو بشَر».[٢]

ومعنى ﴿يَصِدُّونَ﴾: يضجّون ويَضجَرون. والضمير في ﴿أَمْ هُوَ﴾ لمحمّد عليه السلام.

وغرضهم بالموازنة بينه عليه السلام وبين آلهتهم الاستهزاء به. وقد جُوّز أن يكون مرادهم التنصّلَ عمّا أُنكِرَ عليهم مِن قولهم: "الملائكة بنات الله تعالى"، ومِن عبادتهم لهم، كأنّهم قالوا: "ما قلنا بِدعًا مِن القول، ولا فَعلنا مُنكرًا مِن الفعل، فإنّ النصارى جعلوا المسيحَ ابنَ الله وعبدوه، فنحن أشفّ[٣] منهم قولًا وفعلًا حيث نسَبنا إليه الملائكة، / وهم نسبوا إليه الأناسيّ". [٧٠و]

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾

فقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: بالنبوّة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أمرًا عجيبًا حقيقًا بأن يُسيَّرَ ذِكره كالأمثال السائرة؛ على الوجه الأوّل استئناف مَسوق لتنزيهه عليه السلام عن أن يُنسَب إليه ما نُسِب إلى الأصنام بطريق الرمز، كما نطق به صريحًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. وفيه تنبيه على بطلان رأي مَن رفعه عن رتبة العبوديّة، وتعريضٌ بفساد رأي مَن يرى رأيهم في شأن الملائكة.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/٤.
٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/٤.
٣ الشفّ: الربح والزيادة، وفلان أشَفّ مِن فلان، أي: أكبر منه قليلًا، وأشفّ عليه: فضَلَه في الحسن وَفاقه. لسان العرب لابن منظور، «شفف».

وعلى الثاني والرابع لبيان أنّه قياس باطلٍ بباطلٍ، أو بأبطلَ على زعمهم، وما عيسى إلّا عبد كسائر العبيد، قُصارى أمره أنّه ممّن أنعمنا عليهم بالنبوّة، وخصَصناه ببعض الخواصّ البديعة؛ بأن خلقناه بوجه بديع، وقد خلقنا آدمَ بوجه أبدَعَ منه، فأين هو مِن رتبة الربوبيّة؟ ومِن أين يُتوهّم صحّة مذهب عَبَدته حتى يَفتخر عَبَدةُ الملائكة بكونهم أهدى منهم، أو يعتذروا بأنّ حالَهم أَشَفُّ أو أخفُّ مِن حالهم؟

وأمّا على الوجه الثالث فهو لِرَدّهم وتكذيبهم في افترائهم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّ عيسى في الحقيقة وفيما أُوحِي إلى الرسول عليهما السلام ليس إلّا أنّه عبد مُنعَم عليهِ كما ذُكر، فكيف يرضى عليه السلام بمَعبوديّته؟ أو كيف يُتوهَّم الرضى بمعبوديّة نفسه؟

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾... إلخ لتحقيق أنّ مَثَل عيسى عليه السلام ليس ببِدْعٍ مِن قدرة الله تعالى، وأنّه تعالى قادر على أبدَعَ مِن ذلك وأبدَعَ، مع التنبيه على سقوط الملائكة أيضًا مِن درجة المَعبوديّة، أي: قدرتنا بحيث لو نشاء ﴿لَجَعَلْنَا﴾ أي: لَخلقنا بطريق التوالد ﴿مِنكُم﴾ وأنتم رجال ليس مِن شأنكم الولادة ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مستقرّين فيها كما جعلناهم مستقرّين في السماء ﴿يَخْلُفُونَ﴾ أي: يخلفونكم مِثلَ أولادكم فيما تأتون وما تذَرون، ويباشرون الأفاعيل المَنوطةَ بمباشرتكم / مع أنّ شأنهم التسبيح [٧٠ظ]
والتقديس في السماء، فمَن شأنهم بهذه المَثابة بالنسبة إلى القدرة الربّانيّة كيف يتوهَّم استحقاقهم للمعبوديّة، أو انتسابهم إليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ عيسى ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: إنّه بنزوله شَرط مِن أشراطها. وتسميته "عِلْمًا" لحصوله به، أو بحدوثه بغير أبٍ، أو بإحيائه الموتَى دليل على صحّة البعث الذي هو مُعظم ما يُنكره الكفرة مِن الأمور الواقعة في الساعة.

وقُرئ: "لَعَلَمٌ"،[١] أي: علامة. وقُرئ: "لَلْعَلَمُ".[٢] وقُرئ: "لَذِكْرٌ"[٣] على تسمية ما يُذكَر به ذِكرًا، كتسمية ما يُعلم به عِلمًا.

وفي الحديث: «إنّ عيسى عليه السلام ينزل على ثنيّة بالأرض المقدّسة، يقال لها: أَفِيقُ، وعليه مُمَصَّرتان،[٤] وبيده حَرْبة، وبها يقتل الدجّال، فيأتي بيتَ المقدس، والناسُ في صلاة الصبح، فيتأخّر الإمام، فيقدّمه عيسى عليه السلام ويصلّي خلْفَه على شريعة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرّب البِيَع والكنائس، ويقتل النصارى إلّا مَن آمن به».[٥]

وقيل: الضمير للقرآن، لِما أنّ فيه الإعلام بالساعة.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تَشُكُّنّ في وقوعها، ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ أي: واتّبعوا هُدايَ، أو شرعي، أو رسولي. وقيل: هو قولُ الرسول مأمورًا مِن جهته تعالى. ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي أدعوكم إليه، أو القرآنُ على أنّ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ له، ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ مُوصل إلى الحقّ.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن اتّباعي. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيّنُ العداوة، حيث أخرج أباكم مِن الجنّة، وعرّضكم للبَليّة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات، أو بآيات الإنجيل، أو بالشرائع الواضحات ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: الإنجيلِ، أو الشريعةِ، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ عطفٌ على مقدَّر يُنبئ عنه المجيء بالحكمة، كأنّه قيل:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأبي هريرة رضي الله عنهم وعكرمة والضحّاك وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وأبي نصر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

٤ المُمَصَّرة مِن الثياب: التي فيها صُفرة خفيفة. النهاية لابن الأثير، «مصر».

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦١/٤. قال الزيلعي: «غريب بهذا اللفظ، وهو مفرّق في غُضون الأحاديث». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٥٤/٣.

قد جئتكم بالحكمة لأعلِّمكم إيّاها، ولأُبيّن لكم ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ وهو ما يتعلّق بأمور الدين، وأمّا ما يتعلّق بأمور الدنيا فليس بيانه مِن وظائف الأنبياء عليهم السلام، كما قال عليه السلام: «أنتم أعلَمُ بأمور دنياكم».[١] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مُخالفتِي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما / أبلّغه عنه تعالى. [٧١و]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ بيان لِما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبدُ بالشرائع. ﴿هَٰذَا﴾ أي: التوحيد والتعبّد بالشرائع ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ لا يضِلّ سالكه، وهو إمّا مِن تتمّة كلامه عليه السلام، أو استئناف مِن جهته تعالى مقرِّر لمقالة عيسى عليه السلام.

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦﴾

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ الفِرَقُ المتحزِّبة ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ أي: مِن بين مَن بُعِث إليهم مِن اليهود والنصارى. ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مِن المختلِفين ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظر الناس ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم﴾ أي: إلّا إتيانَ الساعة ﴿بَغۡتَةٗ﴾ أي: فُجاءةً، لكن لا عند كونهم مترقّبين لها؛ بل غافلين عنها مشتغلين بأمور الدنيا منكرين لها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨﴾

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ المتحابّون في الدنيا على الإطلاق، أو في الأمور الدنيويّة ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ يومَ إذ تأتيهم الساعة ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ لانقطاع ما بينهم مِن علائق الخُلّة والتحابّ، لظهور كونها أسبابًا للعذاب، ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فإنّ خُلّتهم

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٥. وهو بعض حديث أخرجه مسلم في صحيحه، ١٨٣٦/٤ (٢٣٦٣).

في الدنيا لمّا كانت في الله تبقى على حالها؛ بل تزداد بمشاهدة كلٍّ منهم آثارَ خُلّتهم مِن الثواب ورفعِ الدرجات. والاستثناء على الأوّل متّصل، وعلى الثاني منقطع.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حكاية لِما ينادَى به المتّقون المتحابّون في الله يومئذ تشريفًا لهم، وتطييبًا لِقلوبهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صفة للمنادى، أو نصب على المدح، ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ أي: مخلِصين وجوههم لنا،[١] جاعلين أنفسهم سالمةً لطاعتنا. وهو حال مِن "واو" ﴿ءَامَنُوا۟﴾.

عن مقاتل: «إذا بعث الله الناس فزع كلّ أحد، فينادي منادٍ: "يا عبادي"، [٧١ظ] فيرفع الخلائق رءوسهم / على الرجاء، ثمّ يتبعها: "الذين آمنوا"... الآيةَ، فينكِس أهل الأديان الباطلة رءوسهم».[٢]

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ نساؤكم المؤمنات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تُسَرّون سرورًا يظهر حُبارُه -أي: أثره- على وجوهكم، أو تُزَيَّنون، مِن "الحَبْرة" وهو حُسن الهيئة، أو تُكرَمون إكرامًا بليغًا، و"الحَبْرة" المبالغة فيما وُصِفَ بجميل.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ بعد دخولهم الجنّةَ حسبما أُمِروا به ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ كذلك. و"الصِّحاف" جمع "صَحْفة". قيل: هي كالقَصعة. وقيل: أعظم القِصاع الجَفنة ثمّ القَصعة ثمّ الصَّحفة ثمّ المَكيلة. و"الأكواب" جمع "كُوب"، وهو كُوز لا عُروةَ له.

---

١ س - لنا.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٨١/٤؛ اللباب لابن عادل، ٢٨٩/١٧.

﴿وَفِيهَا﴾ أي: في الجنّة ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ مِن فنون المَلاذ. وقُرئ: "مَا تَشْتَهِي".[١] ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ أي: تستَلِذُّه وتَقَرّ بمشاهدته. وقُرئ: "وَتَلَذُّهُ".[٢]

﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إتمام للنعمة، وإكمال للسرور، فإنّ كلّ نعيم له زوال بالآخرة مقارِن لخَوفه لا محالةَ. والالتفات للتشريف.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٧٣﴾

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ وقُرئ: "وُرِّثْتُمُوهَا"[٣] ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال الصالحة، شُبِّه جزاء العمل بالميراث لأنّه يَخلُفه العامل عليه. وقيل: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾ مبتدأ وصفة، والموصول مع صِلته خبرُه. وقيل: هو صفة ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾ كالوجه الأوّل، والخبر ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فتتعلّق "الباء" بمحذوف، لا بـ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾ كما في الأوّلَين.

﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، لا بحسب الأفراد فقط، ﴿مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي: بعضَها تأكلون في كلّ نَوبة، وأمّا الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرةً خلَتْ عن ثَمرها لحظةً، فهي مزيّنة بالثمار أبدًا، مُوقَرة بها.[٤] وعن النبيّ عليه السلام:[٥] «لا ينزِع رجل في الجنّة مِن ثمرها إلّا نبَتَ مِثلاها مكانها».[٦]

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: الراسخين في الإجرام، وهم الكفّار جسبما يُنبئ عنه

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٧٠/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٨/٩.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/٤.

٤ أوقَرَت النخلةُ؛ أي: كثُر حَملها. الصحاح للجوهري، «وقر».

٥ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٦ مسند البزّار، ١٢٣/١٠ (٤١٨٧)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤٤/٨.

[٧٢و] إيرادُهم في مقابلة المؤمنين / بالآيات. ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، أو ﴿خَٰلِدُونَ﴾ هو الخبَر، و﴿فِي﴾ متعلّقة به.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُخفَّف العذاب عنهم، مِن قولهم: "فَتَرَت عنه الحمّى" إذا سكنَت قليلًا، والتركيب للضَّعف. ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي: في العذاب. وقُرئ: "فِيهَا"،[١] أي: في النار ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيِسون مِن النجاة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بذلك، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لتعريضهم أنفسَهم للعذاب الخالد.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَنَادَوْا۟﴾ خازنَ النار: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ وقُرئ: "يَا مَالِ" على الترخيم بالضمّ[٢] والكسر،[٣] ولعلّه رمز إلى ضَعفهم وعجزهم عن تأدية اللفظ بتمامه. ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: لِيُمِتْنا حتى نستريح، مِن "قَضَى عليه" إذا أماته. والمعنى: سَلْ ربَّك أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذُكر مِن إبلاسهم؛ لأنّه جُؤارٌ وتمنٍ للموت لفَرط الشدّة.

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ أي: في العذاب أبدًا، لا خلاصَ لكم منه بموت ولا بغيره. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه لا يُجيبهم إلّا بعد ألف سنةٍ.[٤] وقيل: بعد مائة. وقيل: بعد أربعين سنةً.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو خطابُ توبيخٍ وتقريعٍ مِن جهة الله تعالى مقرِّرٌ لجواب مالِك، ومبيِّنٌ لسبب مكثهم. وقيل: في ﴿قَالَ﴾ ضمير الله تعالى.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٨/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السرار الغنَوي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٩/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ رضي الله عنهما وابن وثّاب والأعمش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٩/٩.

٤ جامع البيان للطبري، ٦٤٩/٢٠؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٨٦/١٠.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ﴾ أيَّ حقٍّ كان ﴿كَٰرِهُونَ﴾ لا يقبلونه وينفِرون منه، وأمّا الحقّ المعهود الذي هو التوحيد أو القرآن فكلُّهم كارِهون له مشمَئزّون منه.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ٧٩﴾

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا﴾ كلام مبتدأ ناعٍ على المشركين ما فعلوا مِن الكيد برسول الله صلّى الله عليه وسلّم. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للانتقال مِن توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء، و"الهمزةِ" للإنكار، فإن أريدَ بالإبرام الإحكامُ حقيقةً فهي لإنكار الوقوع واستبعاده، وإن أريدَ الإحكامُ صورةً فهي لإنكار الواقع / واستقباحِه، أي: أَأَبْرَم مشركو[1] مكّة أمرًا مِن كيدهم ومَكرهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ [٧٢ظ]

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كَيدَنا حقيقةً، لا هُم، أو فإنّا مبرِمون كيدَنا بهم حقيقةً كما أبرَموا كيدَهم صورةً، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور، ٤٢/٥٢]، وكانوا يتناجَون في أنديتهم، ويتشاورون في أموره عليه الصلاة والسلام.[2]

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ٨٠﴾

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي: بل أيَحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ وهو ما حدّثوا به أنفسَهم أو غيرَهم في مكان خالٍ ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي: ما تكلّموا به فيما بينهم بطريق التناجي.

﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعهما ونطّلع عليهما، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم، ويلازمونهم أينما كانوا ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ أي: يكتبونهما، أو يكتبون كلَّ ما صدَرَ عنهم مِن الأفعال والأقوال التي مِن جملتها ما ذُكر مِن سرّهم ونجواهم. والجملة إمّا عطفٌ على ما يُتَرجِم عنه ﴿بَلَىٰ﴾، أو حال، أي: نسمَعُهما، والحال أنّ رسلنا يكتبونه.

---
[1] م س ي: مشركوا.
[2] س: عليه السلام.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ أي: للكفرة تحقيقًا للحقّ، وتنبيهًا لهم على أنّ مخالفتك لهم بعدم عبادتك لِما يعبدونه مِن الملائكة عليهم السلام ليست لبُغضك وعداوتك لهم، أو لمعبوديهم؛ بل إنّما هو لجَزْمك باستحالة ما نسبوا إليهم وبنَوا عليه عبادتهم مِن كونهم بنات الله سبحانه: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: له، وذلك لأنّه عليه السلام أعلَم الناس بشئونه تعالى، وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومِن مَواجِب تعظيم الوالد تعظيم ولده.

وفيه مِن الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على أبلغ الوجوه وأقواها، وعلى كون رسول الله عليه السلام[١] على قوّة يقين وثباتِ قدَم في باب التوحيد ما لا يخفى، مع ما فيه مِن استنزال الكفرة عن رتبة المكابَرة حسبما يُعرِب عنه إيراد ﴿إن﴾ مكان "لو" المنبئةِ عن امتناع مقدَّم الشرطيّة.

وقيل: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ الموحِّدين لله تعالى. وقيل: فأنا أوّل الآنفين، أي: المستنكِفين منه أو مِن أن يكون له ولد، مِن "عَبِدَ يَعبَد" إذا اشتدّ أنَفُه.

[٧٣و] وقيل: ﴿إن﴾ نافية، أي: ما كان للرحمن ولد، فأنا أوّلُ / مَن قال بذلك. وقُرئ: "وُلْدٌ".[٢]

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يصفونه به مِن أن يكون له ولد. وفي إضافة اسم "الرَّبّ" إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه على أنّها وما فيها مِن المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته، كيف يُتوهّم أن يكون شيء منها جُزءًا منه سبحانه؟ وفي تكرير اسم "الرَّبّ" تفخيم لشأن العرش.

---

[١] س: صلّى الله عليه وسلّم.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ حيث لم يُذعنوا للحقّ بعد ما سمعوا هذا البرهان الجليّ ﴿يَخُوضُواْ﴾ في أباطيلهم ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ في دنياهم، فإنّ ما هم فيه مِن الأفعال والأقوال ليست إلّا مِن باب الجهل واللعِب. والجزم في الفعل لجواب الأمر. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ مِن يوم القيامة، فإنّهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يُفعَلُ بهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ الظرفان متعلّقان بالمعنى الوصفي الذي ينبئ عنه الاسم الجليل مِن معنى المَعبوديّة بالحقّ بناءً على اختصاصه بالمعبود بالحقّ، كما مرّ في تفسير البسملة، كأنّه قيل: وهو الذي مستحِقّ لأن يُعبَد فيهما، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأنعام.[1]

وقُرِئ: "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللهُ وَفِي الْأَرْضِ اللهُ".[2]

والراجع إلى الموصول مبتدأ قد حُذِف لطول الصِّلة بمتعلَّق الخبر والعطفِ عليه، ولا مساغَ لكون الجارّ خبرًا مقدَّمًا، و﴿إِلَٰهٌ﴾ مبتدأً مؤخَّرًا؛ لِلزوم عَراء الجملة حينئذ عن العائد، نعم يجوز أن يكون صِلةً للموصول، و﴿إِلَٰهٌ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، على أنّ الجملة بيان للصِّلة، وأنّ كونه في السماء على سبيل الإلهيّة لا على سبيل الاستقرار. وفيه نفي للآلهة السماويّة والأرضيّة، وتخصيصٌ لاستحقاق الإلهيّة به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كالدليل على ما قبله.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إمّا على الدوام كالهواء، أو في بعض الأوقات كالطير. ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: العلمُ بالساعة التي فيها

---

[1] الأنعام، ٦/٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر وابن مسعود وأبيّ رضي الله عنهم وابن يَعمر ونصر بن عاصم واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

[٧٣ظ] تقوم القيامة، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للجزاء. والالتفات للتهديد. / وقُرئ على الغيبة.[١] وقُرئ: "تُحْشَرُونَ" بـ"التاء".[٢]

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي: يدعونه، وقُرئ بـ"التاء" مخفّفًا[٣] ومشدّدًا[٤] ﴿مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما يزعمون ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الّذي هو التوحيد، ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص. وجمع الضمير باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد أوّلًا باعتبار لفظها. والاستثناء إمّا متّصل والموصولُ عامّ لكلّ ما يُعبَدُ مِن دون الله، أو منفصل على أنّه خاصّ بالأصنام.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٨٧﴾

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ﴾ أي: سألتَ العابدين والمعبودين ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لِتعذُّر الإنكار لغاية بطلانه، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ فكيف يُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بكَون الكلّ مخلوقًا له تعالى؟

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨﴾

﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بالجرّ، إمّا على أنّه عطفٌ على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾،[٥] أي: عنده علمُ الساعة وعلمُ قولِه عليه السلام: ﴿يَٰرَبِّ﴾... إلخ، فإنّ "القَول" و"القِيل" و"القال" كلّها مصادر، أو على أنّ "الواو" للقسَم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ جوابُه. وفي الإقسام به مِن رَفعِ شأنه عليه السلام وتفخيمِ دعائه والتجائه إليه تعالى ما لا يخفى.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وابن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأسود بن يزيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠؛ اللباب لابن عادل، ٣٠١/١٧.

٥ الزخرف، ٨٥/٤٣.

وقُرئ بالنصب[١] بالعطف على ﴿سِرَّهُمْ﴾،[٢] أو على محلّ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾،[٣] أو بإضمار فعله، أو بتقدير فعل القسَم. وقُرئ بالرفع[٤] على الابتداء، والخبرُ ما بعده. وقد جُوّز عطفه على ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.[٥]

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرِض عن دَعوتهم وَاقْنَطْ عن إيمانهم، ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: أمري تَسَلّمٌ منكم ومُتارَكة. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حالَهم البتّةَ وإن تأخّر ذلك. وهو وعيد مِن الله تعالى لهم، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقُرئ: "تَعْلَمُونَ"[٦] على أنّه داخل في حيّز ﴿قُلْ﴾.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الزخرف كان ممّن يقال له يوم القيامة: "يا عبادِ، لا خوف عليكم اليوم[٧] ولا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنّة بغير حساب"».[٨]

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٠.

٢ الزخرف، ٨٠/٤٣.

٣ الزخرف، ٨٥/٤٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وقتادة ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

٥ الزخرف، ٨٥/٤٣.

٦ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٠.

٧ س - اليوم.

٨ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٧/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٣/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٤٣

سورة الزخرف

مكية، وقيل: إلاّ «واسأل من أرسلنا» الآيةَ، تسعٌ وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿حم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿والكِتابِ﴾: القرآنِ ﴿المُبِينِ﴾: المُظهِرِ طريقَ الهدى وما يُحتاج إليه من الشريعة، ٣ ـ ﴿إنّا جَعَلْناهُ﴾: أوجدنا الكتاب ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، ﴿لَعَلَّكُم﴾ ـ يا أهل مكّة ـ ﴿تَعقِلُونَ﴾: تفهمون معانيه، ٤ ـ ﴿وإنَّهُ﴾ مُثبَتٌ ﴿في أُمِّ الكِتابِ﴾: أصلِ الكُتب، أي: اللوح المحفوظ ﴿لَدَينا﴾ بدلٌ: عِندَنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾ على الكُتب قبله ﴿حَكِيمٌ﴾: ذو حِكمة بالغة.

٥ ـ ﴿أفَنَضرِبُ﴾: نُمسِك ﴿عَنكُمُ الذِّكرَ﴾:..

سورة الزخرف

قولُهُ: (القُرآنِ) أقسمَ بالقرآنِ على أنَّهُ جعلَهُ قرآناً عربيًّا، وهو من البديعِ ليتناسَبَ القسمُ والمقسَمُ عليه.

قولُهُ: (أَصلِ الكُتُبِ) السَّماويَّةِ.

قولُهُ: (بَدَلٌ) من الجارِّ والمجرورِ.

قولُهُ: (عِندَنَا) أي: محفوظٌ.

قولُهُ: (على الكُتُبِ) أي: رفيعُ الشَّأنِ غالبٌ عليها لكونِهِ معجزاً من بينِها.

قولُهُ: (ذُو حِكمَةٍ) أو: مُحكَمٌ لا ينسخُهُ غيرُهُ.

قولُهُ: (نُمسِكُ) ونُبعِدُ ونَدفَعُ، والفاءُ للعطفِ على محذوفٍ؛ أي: أنهملُكُم.

القُرآن ﴿صَفۡحًا﴾ إمساكًا فلا تُؤمرون ولا تُنهَون لِأجل ﴿أن كُنتُم قَومًا مُسرِفِينَ﴾: مشركين؟ لا.
٦ ـ ٧ ـ ﴿وكَم أرسَلْنا مِن نَبيٍّ في الأوَّلِينَ، وما يأتِيهِم﴾: أتاهم ﴿مِن نَبيٍّ إلاّ كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك ـ وهذا تسلية له ﷺ ـ ٨ ـ ﴿فأهلَكْنا أشَدَّ مِنهُم﴾: من قومك ﴿بَطشًا﴾: قوّة، ﴿ومَضَى﴾: سبق في آياتِ ﴿مَثَلُ الأوَّلِينَ﴾: صِفتُهم في الإهلاك! فعاقبةُ قومك كذلك.

٩ ـ ﴿ولَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿سألتَهُم: مَن خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ؟ لَيَقُولُنَّ﴾، حُذف منه نونُ الرفع لتوالي النونات وواوُ الضمير لالتقاء الساكنين: ﴿خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾. آخِرُ جوابهم، أي: الله ذو العزة والعلم. زاد تعالى: ١٠ ـ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ مِهادًا﴾: فِراشًا كالمهد للصبيّ، ﴿وجَعَلَ لَكُم فِيها سُبُلاً﴾: طرقًا، ﴿لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم في أسفاركم.

قولُهُ: (إمسَاكاً) مصدرٌ من غيرِ لفظِهِ، فإنَّ تنحيةَ الذِّكرِ عنهم إعراضٌ.

قولُهُ: (لأَجلِ) وهو في الحقيقةِ علّةٌ مقتضيةٌ لتركِ الإعراضِ، وقرأ حمزَةُ والكسائيُّ بالكسرِ[1] على أنَّ الجملةَ شرطيَّةٌ وما قبلَها دليلُ الجزاءِ.

قولُهُ: (لا) يعني: الهمزةُ للإنكارِ.

قولُهُ: (أَتَاهُم) جمعَ بين (كانَ)[2] و(أتاهُم)، وأحدُهُما مستغنًى عنهُ.

قولُهُ: (مِنْ قَومِكَ) فيه: أنَّه لم يتقدَّمْ ذكرُهُم، فالضَّميرُ للقومِ المسرفينَ؛ لأنَّه صُرفَ عنهم إلى الرَّسولِ مخبراً عنهُم.

قولُهُ: (في آيَاتِ) من القُرآنِ.

قولُهُ: (صِفَتُهُم) أو قِصَّتُهُمُ العجيبةُ.

قولُهُ: (فعَاقِبَةُ) ويمكنُ أن يُقالَ: فما أبقَيْناهُم إلَّا لكَ، فإنَّك رحمةٌ للعالمينَ.

قولُهُ: (آخِرُ جَوَابِهِمْ) أو لازمُ مقولِهِم، وهو اللهُ، فلا يكونُ ما بعدَهُ استئنافاً[3].

قولُهُ: (كالمَهْدِ) وقرأَ الكوفيُّ: ﴿مَهْداً﴾[4].

قولُهُ: (إلى مَقَاصِدِكُم) أو إلى حكمةِ الصَّانعِ.

---

(١) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٣٩٧).

(٢) «كان» ليست في المتن.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٨٧).

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٥١).

١١ ـ ﴿والَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ﴾ أي: بقدْر حاجتكم إليه، ولم يُنزّله طُوفانًا، ﴿فأنشَرْنا﴾: أحيينا ﴿بِهِ بَلدةً مَيْتًا ـ كَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ هذا الإحياء ﴿تُخرَجُونَ﴾ من قُبوركم أحياءً ـ ١٢ ـ ﴿والَّذِي خَلَقَ الأزواجَ﴾: الأصناف ﴿كُلَّها، وجَعَلَ لَكُم مِنَ الفُلْكِ﴾ السُّفنِ ﴿والأنعامِ﴾ كالإبل ﴿ما تَركَبُونَ﴾ ـ حَذف العائد اختصارًا، وهو مجرور في الأوّل أي «فيه»، منصوب في الثاني ـ ١٣ ـ ﴿لِتَستَوُوا﴾: لتستقرّوا ﴿على ظُهُورِهِ﴾، ذَكَّر الضميرَ وجَمعَ الظهر نظرًا للفظ «ما» ومعناها، ﴿ثُمَّ تَذكُرُوا نِعْمةَ رَبِّكُم إذا استَوَيْتُم علَيهِ، وتَقُولُوا: سُبحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا، وما كُنّا لَهُ مُقرِنِينَ﴾: مُطِيقِينَ! ١٤ ـ ﴿وإنّا إلَى رَبِّنا لَمُنقَلِبُونَ﴾: لمنصرفون.

١٥ ـ ﴿وجَعَلُوا لَهُ مِن عِبادِهِ جُزْءًا﴾ حيثُ قالوا: «الملائكةُ بناتُ اللهِ» لأنّ الولدَ جُزء من الوالدِ والملائكةَ من عباد الله ـ تعالى ـ ﴿إنَّ الإنسانَ﴾ القائل ذلك ﴿لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾: بيّنٌ ظاهرُ الكُفر........

قولُهُ تعالى: (﴿مَيْتًا﴾) أي: زالَ عنه النَّماءُ، وتذكيرُهُ لأنَّ البلدةَ بمعنى البلدِ أو المكانِ.

قولُهُ: (الإِحيَاءِ) الأَولى: الإنشارِ.

قولُهُ: (مِنْ قُبُورِكُم) تُنشَرونَ.

قولُهُ: (الأَصنَافَ) أصنافَ المخلوقاتِ.

قولُهُ: (كالإِبلِ) الظَّاهرُ: الإبلِ.

قولُهُ: (العَائِدُ) إلى: ﴿مَا﴾.

قولُهُ: (اختِصَاراً) الظَّاهرُ: أنَّهُ مراعاةٌ للفواصلِ.

قولُهُ: (في الأوَّلِ) أي: ﴿الفُلْكِ﴾.

قولُهُ: (أي: فِيهِ) أو: فيهما، وهو «على» كقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، ولقولِهِ: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وهو معَ ظهورِهِ لم أرَ من ذكرَهُ.

قولُهُ: (مَنصُوبٌ) يعني: فغلبَ المتعدِّي بغيرِ واسطةٍ لقوَّتِه على المتعدِّي بواسطةٍ، فقيل: ما تركبونَهُ.

قولُهُ: (ذَكَّرَ الضَّمِيرَ) الظَّاهرُ: أَفردَ.

قولُهُ: (لَمُنْصَرِفُونَ) راجِعونَ.

قولُهُ: (جُزءُ الوَالِدِ) أي: بضعةٌ منه، دلالةٌ على استحالتِهِ على الواحدِ الحقِّ في ذاتِهِ، وقولُ القاضي: وقُرِئَ (جُزُؤاً) بضمَّتَينِ[1]؛..

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٨٨) إلا أن عبارته: وقرأ أبو بكر بضمتين. ولعل مراده «الكشاف» (٤/ ٢٤١) فعبارته كما ساقها المصنف.

١٦ ـ ﴿أم﴾ بمعنى همزة الإنكار، والقولُ مقدر أي: أتقولون: ﴿اتَّخَذَ مِمَّا يَخلُقُ بَناتٍ﴾ لنفسه ﴿وأصفاكُم﴾: أخلصكم ﴿بِالبَنِينَ﴾، اللازمَ من قولكم السابق، فهو من جملة المُنكَر، ١٧ ـ ﴿وإذا بُشِّرَ أحَدُهُم بِما ضَرَبَ لِلرَّحمنِ مَثَلاً﴾: جعلَ له شَبهًا بنِسبة البنات إليه لأنّ الولد يُشبِهُ الوالد، المعنى: إذا أُخبرَ أحدهم بالبنت تُولد له ﴿ظَلَّ﴾: صار ﴿وَجهُهُ مُسوَدًّا﴾: مُتغيرًا تغيّرَ مُغتمّ، ﴿وهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلئ غمًّا؟ فكيف يَنسِبُ البناتِ إليه تعالى؟

١٨ ـ ﴿أوَ﴾ همزة الإنكار وواو العطف بجملةٍ، أي: يجعلون لله ﴿مَن يُنَشَّأُ في الحِليَةِ﴾: الزِّينة، ﴿وهُوَ في الخِصامِ غَيرُ مُبِينٍ﴾: مُظهِرِ الحُجّةَ لضعفه عنها بالأنوثة؟ ١٩ ـ ﴿وجَعَلُوا المَلائكةَ الَّذِينَ هُم عِبادُ الرَّحمنِ إناثًا. أشَهِدُوا﴾: أحَضَرُوا ﴿خَلقَهُم؟ سَتُكتَبُ شَهادتُهُم﴾ بأنهم إناث، ....

غفلةٌ؛ لأنَّه قراءةُ أبي بكرٍ[1].

قولُهُ: (بِمَعنَى: هَمزَةِ الإنكَارِ) يعني: بعدَ بل للانتقالِ.

قولُهُ: (أي: أَتقُولُونَ) بالخطابِ، لكن لا حاجَةَ إلى التَّقديرِ.

قولُهُ: (أَخلَصَكُم) أي: اختارَكُم.

قولُهُ: (فَهُو مِنْ جُملَةِ المُنْكَرِ) الظَّاهرُ أنَّ محطَّ الإنكارِ هو الاتِّخاذُ فقط.

قولُهُ: (جَعَلَ) أي: بالجنسِ الَّذي جعلَ.

قولُهُ: (مُمتَلِئٌ) أي: قلبُهُ.

قولُهُ: (هَمزَةُ الإنكَارِ) حقُّهُ: همزةٌ للإنكارِ والواو للعطفِ، وهو على ما ذكَرناهُ سابقاً من الوَجهينِ.

قولُهُ: (بجُملَةٍ) أي: بجملةٍ مقدَّرةٍ.

قولُهُ: (أي: يَجعَلُونَ) أو: جَعَلوا، أو: اتَّخذَ، فـ﴿مَنْ﴾ في موضعِ نصبٍ، وقيل: في موضعِ رفعِ مبتدأٍ محذوفِ الخبرِ؛ أي: أو مَن هذا حالةُ ولدُه.

قولُهُ: (الزِّينَةِ) وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿يُنشَّأُ﴾[2] أي: يُربَّى.

قولُهُ تعالى: (﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾) قرأ الحرميَّانِ والشَّاميُّ: (عند)[3] على تمثيلِ زُلفاهُم.

قولُهُ: (حَضَرُوا)[4] ....

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٨٢). (٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٦).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٨٥).

(٤) في المتن: «أحضروا»، فلعل الهمزة سقطت عند المصنف.

﴿ويُسألُونَ﴾ عنها في الآخرة، فيترتّب عليها العِقاب. ٢٠ ـ ﴿وقالُوا: لَو شاءَ الرَّحمنُ ما عَبَدْناهُم﴾ أي: الملائكةَ. فعِبادتنا إياهم بمشيئته، فهو راضٍ بها. قال تعالى: ﴿ما لَهُم بِذلِكَ﴾ المقول من الرضا بعِبادتها ﴿مِن عِلمٍ. إنْ﴾: ما ﴿هُم إلاّ يَخرُصُونَ﴾: يكذبون فيه. فيترتّب عليهم العقاب به.

٢١ ـ ﴿أم آتيناهُم كِتابًا مِن قَبلِهِ﴾ أي: القرآنِ بعِبادة غير الله، ﴿فهُم بِهِ مُستَمسِكُونَ﴾؟ أي: لم يقع ذلك، ٢٢ ـ ﴿بَل قالُوا: إنّا وَجَدْنا آباءَنا علَى أُمّةٍ﴾: مِلّة، ﴿وإنّا﴾ ماشُون ﴿علَى آثارِهِم مُهتَدُونَ﴾ بهم، وكانوا يعبدون غيرَ الله. ٢٣ ـ ﴿وكَذلِكَ، ما أرسَلْنا مِن قَبلِكَ في قَرْيةٍ مِن نَذِيرٍ إلاّ قالَ مُترَفُوها﴾ مُتنعّموها مثلَ قول قومك: ﴿إنّا وَجَدْنا آباءَنا علَى أُمّةٍ﴾: مِلّة، ﴿وإنّا علَى آثارِهِم مُقتَدُونَ﴾: متّبِعون.

٢٤ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أ﴾ تتّبعون ذلك، ﴿وَلَو جِئتُكُم بِأهدَى مِمّا وَجَدتُم علَيهِ آباءَكُم؟ قالُوا: إنّا بِما أُرسِلتُم بِهِ﴾ أنتَ ومَن قبلَك ﴿كافِرُونَ﴾. قال تعالى تخويفًا لهم: ٢٥ ـ ﴿فانتَقَمْنا مِنهُم﴾ أي: منَ المُكذّبين للرسل قبلك. ﴿فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبةُ المُكَذِّبِينَ﴾؟

٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ إبراهِيمُ لِأبِيهِ وقَومِهِ: إنَّنِي بَراءٌ﴾: بريء ﴿مِمّا تَعبُدُونَ، إلاّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾: خلقني..

ونافعٌ بهمزتَينِ(١)؛ أي: أحَضَروا خلقَ اللهِ إيَّاهم فشاهَدوهُم إناثاً؟ فإنَّ ذلك ممَّا يُعلَمُ بالمشاهدةِ، وهو تجهيلٌ لهم وتهكُّمٌ بهم.

قولُهُ: (أي: المَلائِكَةَ) أي: لو شاءَ عدمَ عبادةِ الملائكةِ ما عَبَدناهُم، فاستدلُّوا بنَفيِ مشيئةِ عَدمِ العبادَةِ على امتناعِ النَّهيِ عنها، أو على حُسنِها، وذلكَ باطلٌ؛ لأنَّ المشيئةَ ترجِيحُ بعضِ الممكناتِ على بعضٍ، مأموراً كانَ أو منهيًّا، حسناً كانَ أو غيرَهُ.

قولُـهُ: (مَاشُـونَ) الصَّـوابُ: ثابِتونَ؛ لما تقدَّمَ، وفيه إشـارةٌ إلـى أنَّهما خبرانِ، والأظهـرُ: أنَّ الظَّرفَ صلةٌ لـ﴿مُهْتَدُونَ﴾.

قولُهُ: (لَهُم) وابنُ عامرٍ وحفصٌ: ﴿قالَ﴾(٢).

قولُهُ: (ذلِكَ) أي: آثارَهُم، أو: آباءَكُم.

قولُهُ: (أي: بَرِيْءٌ) مصدرٌ نُعِتَ به؛ أي: من عبادتِكُم أو معبودِكُم.

قولُهُ: (خَلَقَنِي) استثناءٌ منقطعٌ أو متَّصلٌ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٦).

(٢) انظر: «الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧٤).

﴿فإنَّهُ سَيَهدِينِ﴾: يُرشدني لِدينه. ٢٨ ـ ﴿وجَعَلَها﴾ أي: كلمةَ التوحيد المفهومةَ من قوله «إنِّي ذاهبٌ إلَى رَبِّي سَيَهدِينِ»، ﴿كَلِمةً باقِيةً في عَقِبِهِ﴾: في ذُرِّيّته، فلا يزال فيهم من يوحِّد الله، ﴿لَعَلَّهُم﴾ أي: أهلَ مكّة ﴿يَرجِعُونَ﴾ عمّا هم عليه إلى دِين إبراهيم أبيهم.

٢٩ ـ ﴿بَل مَتَّعتُ هؤُلاءِ﴾ المُشركين ﴿وآباءَهُم﴾، ولم أعاجلهم بالعُقوبة، ﴿حَتَّى جاءَهُمُ الحَقُّ﴾: القُرآن، ﴿ورَسُولٌ مُبِينٌ﴾: مُظهِرٌ لهم الأحكامَ الشرعيّة ـ وهو محمد ﷺ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ﴿ولَمّا جاءَهُمُ الحَقُّ﴾: القُرآن ﴿قالُوا: هذا سِحرٌ وإنّا بِهِ كافِرُونَ. وقالُوا: لَولا﴾: هلاّ ﴿نُزِّلَ هذا القُرآنُ علَى رَجُلٍ مِنَ القَريَتَينِ﴾ من أيّةٍ منهما ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: الوليد بن المُغيرة بمكّة وعُروة بن مسعود الثقفيّ بالطائف. ٣٢ ـ ﴿أهُم يَقسِمُونَ رَحمةَ رَبِّكَ﴾ النّبوّةَ؟ ﴿نَحنُ قَسَمْنا بَينَهُم مَعِيشتَهُم في الحَياةِ الدُّنيا﴾، فجعلنا بعضهم غنيًّا وبعضهم فقيرًا، ﴿ورَفَعْنا بَعضَهُم﴾ بالغِنى ﴿فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ، لِيَتَّخِذَ بَعضُهُم﴾: الغنيُّ ﴿بَعضًا﴾: الفقيرَ ﴿سُخرِيًّا﴾: مُسخَّرًا في العمل له بالأُجرة. والياء للنسب، وقُرئ بكسر السين. ﴿ورَحمةُ رَبِّكَ﴾ أي: الجنّةُ ﴿خَيرٌ مِمّا يَجمَعُونَ﴾ في الدنيا.

قولُهُ: (يُرشِدُني) أي: سيَهدِيني إلى ما وراءَ ما هَداني إليه، أو: سيثبِّتُني على الهدايةِ.

قولُهُ: (أي: كَلِمَةَ التَّوحِيدِ) أي: جعلَ إبراهيمُ، أو اللهُ، لا يخفى أنَّ ﴿كَلِمَةً﴾ مكتوبةٌ بالحمرةِ، والصَّوابُ كتابتُهُ بالحبرِ؛ لأنَّها من جُملةِ كلماتِ التَّفسيرِ، ثمَّ لا بدَّ من كتابةِ (﴿كَلِمَةً﴾) بالحمرةِ قبلَ ﴿بَاقِيَةً﴾ بعدُ.

قولُهُ: (مَنْ يُوَحِّدُ اللهَ) ويَدعُو إلى توحيدِهِ؛ أي: كاملاً مكمَّلاً.

قولُهُ: (أَهلَ مَكَّةَ) أو: من أشركَ من ذرِّيَّتِهِ.

قولُهُ: (المُشرِكِينَ) المعاصرينَ للنبيِّ ﷺ بالمدِّ في العمرِ والنِّعمةِ، فاغترُّوا بذلك وانهَمَكوا في الشَّهواتِ.

قولُهُ: (مِنْ أَيَّةٍ مِنهُما) أي: من إحداهُما.

قولُهُ: (بالطَّائفِ) فإنَّ الرِّسالةَ منصبٌ عظيمٌ لا يليقُ إلَّا بعظيمٍ في الجاهِ والحالِ، ولم يَعلمُوا أنَّها رتبةٌ روحانيَّةٌ تستَدعِي عظمةَ النَّفسِ بالتَّحلِّي بالفضائلِ القدسيَّةِ لا التَّزخرفِ بالزَّخارفِ الدُّنيويَّةِ.

قولُهُ: (بالغِنَى) وغيرِ ذلك.

قولُهُ: (الغَنِيُّ) وغيرُه؛ أي: ليستعمِلَ بعضُهُم بعضاً في حوائجِهِم، فيحصلَ بينهُم تآلفٌ ونظامٌ، وينتظِمَ بذلك نظامُ العالمِ، لا لكمالٍ في الموسَّعِ، ولا لنقصٍ في المقتَّرِ.

قولُهُ: (بكَسرِ السِّينِ) فيكونُ من السُّخريةِ والاستهزاءِ.

قولُهُ: (أي: الجَنَّةُ) أو النُّبوَّةُ، وما يتبَعُها خيرٌ من حطامِ الدُّنيا، فالعظيمُ من يُرزَقُ منها لا منهُ.

٣٣ ـ ﴿ولَولا أن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدةً﴾ على الكُفر ﴿لَجَعَلْنا لِمَن يَكفُرُ بالرَّحمنِ لِبُيُوتِهِم﴾: بدلٌ من «لِمَن» ﴿سَقْفًا﴾ ـ بفتح السين وسكون القاف، وبضمّهما جمعًا ـ ﴿مِن فِضَّةٍ ومَعارِجَ﴾ كالدَّرج من فِضّة، ﴿علَيها يَظهَرُونَ﴾: يعلون إلى السطح، ٣٤ ـ ٣٥ ـ ﴿ولِبُيُوتِهِم أبوابًا﴾ من فِضّة، ﴿و﴾ جعلنا لهم ﴿سُرُرًا﴾ من فِضّة: جمع سَرير ﴿علَيها يَتَّكِئُونَ وزُخرُفًا﴾: ذهبًا. المعنى: لولا خوفُ الكُفر على المُؤمن من إعطاء الكافر ما ذُكر لأعطيناه ذلك لقِلّة خطر الدنيا عندنا وعدم حظّه في الآخرة في النعيم. ﴿وإنْ﴾: مُخفّفة من الثقيلة ﴿كُلُّ ذلِكَ لَمَا﴾ ـ بالتخفيف فـ «ما» زائدة، وبالتشديد بمعنى «إلاّ» فإنْ: نافية ـ ﴿مَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا﴾ يُتمتّع به فيها ثمّ يزول، ﴿والآخِرةُ﴾: الجنّة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلمُتَّقِينَ﴾.

قولُهُ: (بَدَلٌ) بَدلُ اشتِمالٍ.

قولُهُ: (بِفَتحِ السِّينِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ[١]، اكتفاءً بجمعِ البيوتِ.

قولُهُ: (لَهُم) أو لبيوتِهِم؛ إذ اللَّامُ للاختصاصِ.

قولُهُ: (ذَهَباً) عطفٌ على محلِّ: ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾، أو زينةٌ عطفٌ على: ﴿سُقُفًا﴾.

قولُهُ: (خَوفُ الكُفرِ) الأولى: كراهَةُ.

قولُهُ: (مَا ذُكِرَ) بأن يرغَبَ في الكفرِ إذا رأى الكفَّارَ في غايةٍ من السَّعةِ والتَّنعُّمِ.

قولُهُ: (لِقِلَّةِ خَطَرِ[٢] الدُّنيَا) كما في الحديثِ: «لو كانت الدُّنيا تعدلُ عندَ اللهِ جناحَ بعُوضَةٍ ما سَقَى كافراً منها شَرْبَةَ ماءٍ»[٣].

قولُهُ: (وعَدَمِ حَظِّهِ في الآخِرَةِ) فمُقتَضى ظاهرِ العدلِ: أنْ يكونَ حظُّهُ كاملاً في الدُّنيا، كما أنَّ حظَّ المؤمنِ كامِلٌ في العُقبى.

قولُهُ: (فـ﴿ما﴾ زَائِدَةٌ) واللَّامُ فارقةٌ.

قولُهُ: (وبالتَّشدِيدِ) عاصمٌ وحمزةُ وهشامٌ بخلفٍ عنه[٤].

قولُهُ: (فـ﴿إنْ﴾ نَافِيَةٌ) وقُرِئَ بـ(إلَّا) معَ (إنْ) و(ما)[٥].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٦).

(٢) في (م): «حظ».

(٣) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٦).

(٥) أي: (وإن كل ذلك إلا)(وما كل ذلك إلا) انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٤٩).

٣٦ ـ ﴿ومَن يَعشُ﴾: يُعرِض ﴿عَن ذِكرِ الرَّحمنِ﴾ أي: القُرآنِ ﴿نُقَيِّض﴾: نُسبّبْ ﴿لَهُ شَيطانًا، فهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ لا يُفارقه. ٣٧ ـ ﴿وإنَّهُم﴾ أي: الشياطينَ ﴿لَيَصُدُّونَهُم﴾ أي: العاشِينَ ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: طريق الهُدى، ﴿ويَحسِبُونَ أنَّهُم مُهتَدُونَ﴾. في الجمع رِعاية معنى «مَن».

٣٨ ـ ﴿حَتَّى إذا جاءَنا﴾ العاشي، بقرينه يوم القيامة، ﴿قالَ﴾ له: ﴿يا﴾: للتنبيه ﴿لَيتَ بَينِي وبَينَكَ بُعدَ المَشرِقَينِ﴾ أي: مِثلَ بُعدِ ما بين المشرق والمغرب. ﴿فبِئسَ القَرِينُ﴾ أنتَ لي! قال تعالى: ٣٩ ـ ﴿ولَن يَنفَعَكُمُ﴾ أي: العاشِينَ تمنّيكم وندمُكم ﴿اليَومَ، إذ ظَلَمتُم﴾ أي: تبيّنَ لكم ظُلمكم بالإشراك في الدنيا، ﴿أنَّكُم﴾ مع قُرنائكم ﴿في العَذابِ مُشتَرِكُونَ﴾. عِلّةٌ بتقدير اللام لعدم النفع. وإذ: بدل من «اليومَ».

٤٠ ـ ﴿أفأنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ أو تَهدِي العُميَ ومَن كانَ في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيّن؟ أي: فهم لا يُؤمنون. ٤١ ـ ﴿فإمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطيّة في «ما» المزيدة ـ ﴿نَذهَبَنَّ بِكَ﴾ بأن نُميتَك قبل تعذيبهم ﴿فإنّا مِنهُم مُنتَقِمُونَ﴾ في الآخرة، ٤٢ ـ ﴿أو نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك ﴿الَّذِي وَعَدْناهُم﴾ به من العذاب ﴿فإنّا علَيهِم﴾: على عذابهم ﴿مُقتَدِرُونَ﴾: قادرون.

قولُهُ: (يُعْرِضُ) ويتَعامَ بفرطِ اشتغالِهِ بالمحسُوساتِ وانهماكِهِ في الشَّهواتِ.

قولُهُ: (نُسَبِّبْ) ونقدِّرْ.

قولُهُ: (لا يُفَارِقُهُ) ويوسوسُهُ ويغويهِ دائماً.

قولُهُ: (رِعَايَةُ مَعنَى ﴿من﴾) إذ المرادُ: جنسُ العاشِي، والشَّيطانُ المقيَّضُ له، وفي إفرادِ الضَّميرِ رُوعِي لفظُ ﴿مَنْ﴾.

قولُهُ: (بِقَرِينِهِ) وقرأ الحرميَّانِ والشَّاميُّ وشعبَةُ: (جَاءَانَا) أي: العاشِي والشَّيطانُ.

قولُهُ: (لَهُ) أي: للعاشي.

قولُهُ: (أي: بُعدَ مَا بَينَ) أو: بعدَ المشرقِ من المغربِ، فغلَّبَ المشرقَ [وثَنَّى][1] وأضافَ البعدَ إليهما.

قولُهُ: (عِلَّةٌ) أي: لأنَّ حقَّكُم أن تشترَكوا أنتم وشياطينَكُم في العذابِ، كما كنتُم مشتركينَ في سببِهِ.

قولُهُ: (المَزِيدَةِ) المؤكِّدةِ بمنزلةِ لامِ القسمِ في استجلابِ النُّونِ المؤكِّدةِ.

قولُهُ: (في الآخِرَةِ) أو: بعدَكَ في الدُّنيا والعُقبى.

قولُهُ: (في حَيَاتِكَ) يعني: أو إن أرَدْنا أن نريَكَ.

---

(١) من البيضاوي.

٤٣ ـ ٤٤ ـ ﴿فاستَمسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيكَ﴾ أي: القُرآنِ ـ ﴿إِنَّكَ علَى صِراطٍ﴾: طريق ﴿مُستَقِيمٍ، وإِنَّهُ لَذِكرٌ﴾: لَشرفٌ ﴿لَكَ ولِقَومِكَ﴾ لنُزوله بلغتهم، ﴿وسَوفَ تُسأَلُونَ﴾ عن القِيام بحقّه ـ ٤٥ ـ ﴿واسأَلْ مَن أرسَلْنا مِن قَبلِكَ مِن رُسُلِنا: أجَعَلْنا مِن دُونِ الرَّحمنِ﴾ أي: غيرِه ﴿آلِهةً يُعبَدُونَ﴾؟ قيل: هو على ظاهره بأن جُمع له الرسل ليلة الإسراء. وقيل: المراد أُممٌ من أيِّ أهلُ الكتابين. ولم يَسأل، على واحد من القولين لأنّ المُراد من الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قُريش أنه لم يأت رسول من الله ولا كتاب بعِبادة غير الله.

٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا مُوسَى بِآياتِنا إِلَى فِرعَونَ ومَلَئِهِ﴾ أي: القِبط، ﴿فقالَ: إنِّي رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ. فلَمّا جاءَهُم بِآياتِنا﴾ الدالّة على رِسالته ﴿إذا هُم مِنها يَضحَكُونَ، وما نُرِيهِم مِن آيةٍ﴾ من آيات العذاب كالطُّوفانِ ـ وهو ماء دخل بُيوتهم حتّى وصل إلى حُلوق الجالسين سبعة أيام ـ والجرادِ ﴿إلاّ هِيَ أكبَرُ مِن أُختِها﴾: قرينتِها التي قبلها، ﴿وأخَذْناهُم بِالعَذابِ، لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ﴾ عن الكُفر، ٤٩ ـ ﴿وقالُوا﴾ لموسى لمّا رأَوُا العذاب:.........................

قولُهُ: (أي: القُرآنِ) والشَّرائعِ.

قولُهُ: (أُمَمٌ مِن) أو: علماءُ دينِهم.

قولُهُ: (مِنَ القَولَينِ) بل قالَ: لا أشكُّ ولا أسألُ.

قولُهُ: (لَمْ يَأتِ رَسُولٌ) فيكونُ إجماعُ الأنبياءِ على التَّوحيدِ.

قولُهُ: (الَّتي قَبْلَهَا) دفعٌ لإشكالٍ، وهو: أنَّ أفعلَ التَّفضيلِ إذا نُسِبَ إلى شيءٍ وجبَ أن يكونَ فيه زيادةٌ على المفضَّلِ عليهِ، فيلزمُ أن تكونَ كلُّ واحدةٍ منها أكبرَ من الأخرى، وذلك يؤدِّي إلى أن يكونَ أكبرَ وليسَ بأكبرَ؟

فأجابَ: بأنَّ المرادَ أنَّ ما يأتي أكبرُ ممَّا تقدَّمَ، فيكونُ المرادُ بقولِه: ﴿مِنْ أُخْتِهَا﴾: أختَها المتقدِّمةَ عليها، كذا في «الأمالي»[1]، ويَرِدُ عليه: أنَّ المتقدِّمةَ على الكلِّ إنَّما هي العصَا، ولا آيةَ أكبرُ منها، فالأظهرُ في الجوابِ: أنَّ كلَّ واحدةٍ تظهرُ أنَّها أكبرُ مشقَّةً كقولِهِ:

مَــنْ تلــقَ منهُــم تقُــلْ لاقيــتُ ســيِّدَهُم[2]

أو معناهُ: أشقُّ وأعظمُ وأثقلُ عليهم.

---

(١) انظر: «أمالي ابن الحاجب» (١/ ٢٠٨).

(٢) قائله: عقيل بن العرندس، انظر: «محاضرات الأدباء» (١/ ٢٠٣)، و«الدر الفريد» (٩/ ٣١٨)، وعجزه:

مثل النجوم التي يسري بها الساري

﴿يا أيُّها السّاحِرُ﴾ أي: العالمُ الكامل، لأنّ السحر عِندهم عِلم عظيم، ﴿ادعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِندَكَ﴾ من كشف العذاب عنّا، إن آمنّا. ﴿إنَّنا لَمُهتَدُونَ﴾ أي: مُؤمنون. ٥٠ ـ ﴿فلَمّا كَشَفْنا﴾ بدُعاء مُوسَى ﴿عَنهُمُ العَذابَ إذا هُم يَنكُثُونَ﴾: ينقضون عهدهم ويُصرّون على كُفرهم.

٥١ ـ ﴿ونادَى فِرعَونُ﴾ افتخارًا ﴿في قَومِهِ، قالَ: يا قَومِ، ألَيسَ لِي مُلكُ مِصرَ وهذِهِ الأنهارُ﴾ من النيل ﴿تَجرِي مِن تَحتِيَ﴾، أي: تحتِ قُصوري؟ ﴿أفلا تُبصِرُونَ﴾ عظمتي؟ ٥٢ ـ ﴿أم﴾ بل تُبصرون، وحينئذ ﴿أنا خَيرٌ مِن هذا﴾ أي: مُوسَى ﴿الَّذِي هُو مَهِينٌ﴾: ضعيف حقير، ﴿ولا يَكادُ يُبِينُ﴾: يُظهِر كلامَه للُثغته بالجمرة التي تناولها في صِغره. ٥٣ ـ ﴿فلَولا﴾: هلاّ ﴿أُلقِيَ علَيهِ﴾، إن كان صادقًا، ﴿أساوِرةٌ مِن ذَهَبٍ﴾: جمعُ أسوِرةٍ، كأغرِبة جمع سِوار، كعادتهم فيمن يُسوّدونه، أن يُلبسوه أسورةَ ذهب ويُطوّقونه طوق ذهب، ﴿أو جاءَ مَعَهُ المَلائكةُ مُقتَرِنِينَ﴾: مُتتابعين يشهدون بصدقه.

٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ﴿فاستَخَفَّ﴾: استفزّ فرعونُ ﴿قَومَهُ، فأطاعُوهُ﴾ فيما يريد من تكذيب موسى ـ ﴿إنَّهُم كانُوا قَومًا، فاسِقِينَ ـ فلَمّا آسَفُونا﴾: أغضبونا ﴿انتَقَمْنا مِنهُم، فأغرَقْناهُم أجمَعِينَ، فجَعَلْناهُم سَلَفًا﴾:

قولُهُ: (إنْ آمَنَّا) وتفسيرُ البيضاويِّ ﴿ادعُ﴾ بقولِهِ: تَدعو[1]، لا أعلمُ ما الدّاعي له إليهِ.

قولُهُ: (عَهْدَهُم) بالاهتداءِ.

قولُهُ: (افتِخَاراً) بنفسِهِ أو بمناديهِ.

قولُهُ: (قُصُورِي) أو أمري، والواوُ عاطفةٌ، أو واو الحالِ.

قولُهُ: (تُبْصِرونَ) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿أمْ﴾ متَّصلةٌ.

قولُهُ: (جَمْعُ أَسوِرَةٍ) الصَّحيحُ أنَّه جمعُ إسوارٍ بمَعنى السِّوارِ، على تعويضِ التَّاءِ من ياءِ أساويرَ، وقرأَ حفصٌ: ﴿أسورة﴾[2] وهي جمعُ سوارٍ، وقُرئَ: (أساوير)[3] جمعُ: أسورةٍ.

قولُهُ: (استَفَزَّ) وطلبَ منهُمُ الخفَّةَ في مطاوعتِهِ، أو: فاستخَفَّ أحلامَهُم؛ أي: وجَدَها خفيفةً.

قولُهُ: (أَغضَبُونَا) بالإفراطِ في العنادِ والعصيانِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٩٢) إلا أنه سقط من المطبوع، وقال الشهاب الخفاجي في «حاشيته على تفسير البيضاوي» (٧/ ٤٤٤): قوله: (أي تدعو لنا... إلخ) هو تفسير لحاصل المعنى، وقد سقط من بعض النسخ هنا، وذكر عند قوله: (إنا لمهتدون بشرط أن تدعو... إلخ).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٧).

(٣) وهي قراءة شاذة، ونسبت لأُبي أو عبد الله، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٣٦).

جمع سالِف، كخادم وخَدَم، أي: سابقين عِبرةً ﴿ومَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ بعدهم، يتمثّلون بحالهم، فلا يُقدمون على مِثل فِعالهم.

٥٧ ـ ﴿ولَمّا ضُرِبَ﴾: جُعل ﴿ابنُ مَريَمَ مَثَلاً﴾ حين نزل قوله تعالى «إنّكُم وما تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ»، فقال المشركون: «رضينا أن تكون آلهتنا مع عِيسَى لأنه عُبِد من دُون الله»، ﴿إذا قَومُكَ﴾ أي: المُشركون ﴿مِنهُ﴾: من المَثَل ﴿يَصِدُّونَ﴾: يضِجّون فرحًا بما سمعوا، ٥٨ ـ ﴿وقالُوا: آآلِهتُنا خَيرٌ أم هُوَ﴾ أي: عِيسَى؟ فنرضى أن تكون آلهتنا معه. ﴿ما ضَرَبُوهُ﴾ أي: المَثَلَ ﴿لَكَ إلاّ جَدَلاً﴾: خُصومة بالباطل لِعِلمهم أنّ «ما» لغير العاقل، فلا يتناول عِيسَى عليه السلام. ﴿بَل هُم قَومٌ خَصِمُونَ﴾: شديدو الخصومة.

٥٩ ـ ﴿إنْ هُوَ﴾: ما عِيسَى ﴿إلاّ عَبدٌ أنعَمْنا علَيهِ﴾ بالنبوّة، ﴿وجَعَلْناهُ﴾ بوجوده من غير أب ﴿مَثَلاً لِبَني إسرائيلَ﴾ أي: كالمَثَل لغرابته، يُستدلّ به على قُدرة الله ـ تعالى ـ على ما يشاء. ٦٠ ـ ﴿ولَو نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنكُم﴾: بَدَلَكم ﴿مَلائكةً في الأرضِ يَخلُفُونَ﴾ بأن نُهلِكَكم. ٦١ ـ ٦٢ ـ ﴿وإنَّهُ﴾ أي: عِيسَى ﴿لَعِلمٌ لِلسّاعةِ﴾ تُعلَم بنُزوله.

قولُهُ: (كخَادِمٍ) وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بضمِّهما[1]، جمعُ سالفٍ، كصُبُرٍ.

قولُهُ: (يتَمَثَّلُونَ) أي: قصَّةً عجيبةً تسيرُ سيرَ الأمثالِ لهم، فيُقالُ: مَثَلُكُم مَثَلُ قومِ فرعونَ.

قولُهُ: (المُشرِكُونَ) الضَّاربُ ابنُ الزِّبَعْري[2]، أسلمَ في آخرِ عمرِه.

قولُهُ: (المُشرِكُونَ) من قُرَيش.

قولُهُ: (مِنَ المَثَلِ) أي: هذا المثلِ.

قولُهُ: (يَضحَكُونَ) الظَّاهرُ: يَضِجُّونَ؛ أي: يصيحونَ فرحاً لظنِّهم أنَّ الرَّسولَ ﷺ صارَ ملزَماً به، وقرأَ نافعٌ وشاميٌّ والكسائيُّ بالضَّمِّ[3]؛ أي: يُعرِضونَ عن الحقِّ، أو هو لغةٌ في الأوَّلِ على ما في «القاموسِ»[4].

قولُهُ: (خُصُومَةً) علَّةٌ؛ أي: لا لتمييزِ الحقِّ من الباطلِ.

قولُهُ: (تُعلَمُ) أي: دنوَّها.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٧).

(٢) جاء ذلك فيما رواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٩٨٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠٥)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (١١/ ٣٤٥) (٣٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٧).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٩٢).

﴿فلا تَمترُنَّ بِها﴾، حُذفَ منه نونُ الرفع للجزم، وواوُ الضمير لالتقاء الساكنين: تَشُكُّنَّ فيها. ﴿و﴾ قل لهم: ﴿اتَّبِعُونِي﴾ على التوحيد ـ ﴿هذا﴾ الذي آمركم به ﴿صِراطٌ﴾: طريقٌ ﴿مُستَقِيمٌ ـ ولا يَصُدَّنَّكُمُ﴾: يصرفَنَّكم عن دِين الله ﴿الشَّيطانُ. إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: بيِّنُ العداوة.

٦٣ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ﴿ولَمّا جاءَ عِيسَى بِالبَيِّناتِ﴾: بالمُعجزات والشرائع ﴿قالَ: قَد جِئتُكُم بِالحِكْمَةِ﴾: بالنبوّة وشرائع الإنجيل، ﴿ولِأُبَيِّنَ لَكُم بَعضَ الَّذِي تَختَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أحكام التوراة من أمر الدِّين وغيره. فبيَّنَ لهم أمرَ الدِّين. ﴿فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ. إنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي ورَبُّكُم. فاعبُدُوهُ. هذا صِراطٌ﴾: طريقٌ ﴿مُستَقِيمٌ. فاختَلَفَ الأحزابُ مِن بَينِهِم﴾ في عِيسَى: أهو اللهُ أو ابنُ الله أو ثالثُ ثلاثة؟ ﴿فوَيلٌ﴾: كلمةُ عذاب ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: كفروا بما قالوه في عِيسَى ﴿مِن عَذابِ يَومٍ ألِيمٍ﴾: مُؤلم.

٦٦ ـ ﴿هَل يَنظُرُونَ﴾ أي: كُفّارُ مكّة، أي: ما ينتظرون ﴿إلاّ السّاعَةَ، أن تأتِيَهُم﴾: بدلٌ من «الساعةَ» ﴿بَغتَةً﴾: فجْأة، ﴿وهُم لا يَشعُرُونَ﴾ بوقت مجيئها قبله؟ ٦٧ ـ ﴿الأخِلاّءُ﴾ على المعصية في الدنيا ﴿يَومَئِذٍ﴾: يومَ القِيامة، مُتعلّق بقوله: ﴿بَعضُهُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ، إلاّ المُتَّقِينَ﴾ المُتحابِّين في الله على طاعته. فإنهم أصدقاءُ، ويقال لهم:

٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ﴿يا عِبادِي ـ لا خَوفٌ عَلَيكُمُ اليَومَ ولا أنتُم تَحزَنُونَ ـ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: نعتٌ لـ «عبادي» ﴿بِآياتِنا﴾: القُرآنِ، ﴿وكانُوا مُسلِمِينَ. ادخُلُوا الجَنَّةَ، أنتُم﴾:..........

قولُهُ: (قُلْ لَهُم) كذا قيل، والأظهرُ أنَّ معناهُ: اتَّبعوا هُدايَ، أو شَرعي، أو رَسولي، وأثبتَ الياءَ بصريٌّ وصلاً[1].

قولُهُ: (والشَّرائعِ) الأظهرُ: عطفُهُ بـ«أو»، أو: بآياتِ الإنجيلِ.

قولُهُ: (بالنُّبوَّةِ) أو: بالإنجيلِ والشَّريعةِ.

قولُهُ: (فبَيَّنَ لَهُم أَمرَ الدِّينِ) فإنَّ الأنبياءَ لم تُبعَثْ لبيَانِ أمرِ الدُّنيا، ولذا قالَ ﷺ: «أنتُم أعلَمُ بأمورِ دُنياكُم»[2].

قولُهُ: (بِوَقتِ مَجِيئِهَا) أي: غافِلونَ عنها لإنكارِهِم لها ولاشتغالِهِم بأمورِ الدُّنيا.

قولُهُ: (على المَعصِيَةِ) فالاستثناءُ منقطِعٌ، والأظهَرُ: الإطلاقُ؛ ولأنَّ الاتِّصالَ أصلٌ في الاستثناءِ.

قولُهُ: (نَعتٌ) أو مدحٌ مرفوعٌ أو منصوبٌ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٣٦٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

مُبتدأٌ ﴿وأزواجُكُم﴾: زوجاتُكم ﴿تُحبَرُونَ﴾: تُسرُّون وتُكرمون، خبرُ المبتدأ، ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ﴿يُطافُ علَيهِم بِصِحافٍ﴾: بِقِصاع ﴿مِن ذَهَبٍ وأكْوابٍ﴾: جمعُ كُوب ـ وهو إناء لا عُروة له ليَشرب الشاربُ من حيثُ شاء ـ ﴿وفِيها ما تَشتَهِي الأنفُسُ﴾ تلذذًا ﴿وتَلَذُّ الأعيُنُ﴾ نظرًا، ﴿وأنتُم فِيها خالِدُونَ. وتِلكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثتُمُوها بِما كُنتُم تَعمَلُونَ، لَكُم فِيها فاكِهةٌ كَثِيرةٌ مِنها﴾ أي: بعضَها ﴿تأكُلُونَ﴾، وكُلّ ما يُؤكل يَخلُفُ بدلُه.

٧٤ ـ ٧٥ ـ ﴿إنَّ المُجرِمِينَ في عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ، لا يُفتَّرُ﴾: يُخفّف ﴿عَنهُم، وهُم فِيهِ مُبلِسُونَ﴾:

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ) الظَّاهرُ أنَّه فصلٌ، تأكيدٌ لضميرِ ﴿ادْخُلُوا﴾، ﴿وَأَزْوَاجُكُم﴾ عطفٌ عليهِ، و﴿تُحْبَرُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ.

قولُهُ: (زَوجَاتُكُم) أو رجالُكُم، فإنَّ الخطابَ عامٌّ شاملٌ للرِّجالِ والنِّساءِ تغليباً.

قولُهُ: (وتُكْرَمُونَ) الواو بمعنى: أو، وقيل: معناهُ: تُزَيَّنُونَ، أو: يُغَنَّى لكم.

قولُهُ: (بقِصَاعٍ) جمعُ صحفةٍ كقَصعةٍ.

قولُهُ: (إِنَاءٌ) أي: كوزٌ، و(لا عُروَةَ) أي: لا مُمسَكَ.

قولُهُ: (تَلَذُّذًا) وقرأ نافعٌ وشاميٌّ وحفصٌ: ﴿تشتهِيهِ﴾[1] على الأصلِ.

قولُهُ: (نَظَراً) بمشاهدتِهِ، وذلك تعميمٌ بعد تخصيصِ ما يُعَدُّ من الزَّوائدِ الَّتي تفخرُ الصِّحاف والأكواب[2] في التَّنعُّمِ والتَّلذُّذِ.

قولُهُ: (بَعضَهَا) لكثرَتِها ودوامِ نوعِها، ولعلَّ تفصيلَ التَّنعُّمِ بالمطاعمِ والملابسِ وتكريرَهُ في القرآنِ ـ وهو حقيرٌ بالإضافةِ إلى سائرِ نِعَمِ الجنَّةِ ـ لِمَا كانَ لهم من الشِّدَّةِ والفاقةِ، أو لما كان أكثرُ النَّاسِ عليهِ من تحصيلِ النِّعمِ الحسِّيَّةِ، ولذا قيل[3]: «أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البُلهِ»[4]، حيثُ اقتصرَت همَمُهم عليها.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٧).

(٢) قوله: «الَّتي تفخر الصِّحاف والأكواب» كذا في النسخ، ولم ترد في «تفسير البيضاوي».

(٣) هكذا ساقه هنا، وتقدم عنده أنه حديث نبوي.

(٤) رواه البزار في «مسنده» (٦٣٣٩)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٩٨٢)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٣٢٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٩٨٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه. قال ابن عدي: هذا الحديث بهذا الإسناد منكر.

وقال الطحاوي: ذكرت هذا الحديث لأحمد بن أبي عمران، فقال: معناه معنى صحيح. والبله المرادون فيه هم البله عن محارم الله عز وجل لا من سواهم ممن به نقص العقل بالبَلَه.

ساكتون سكوتَ يأس، ٧٦ ـ ٧٧ ـ ﴿وما ظَلَمْناهُم ولكِن كانُوا هُمُ الظّالِمِينَ، ونادَوا: يا مالِكُ﴾ هو خازنُ النار، ﴿لِيَقضِ علَينا رَبُّكَ﴾: ليُمِتْنا. ﴿قالَ﴾ بعد ألفِ سنة: ﴿إنَّكُم ماكِثُونَ﴾: مُقيمون في العذاب دائمًا.

٧٨ ـ ٧٩ ـ قال تعالى: ﴿لَقَد جِئناكُم﴾ أي: أهلَ مكّة ﴿بِالحَقِّ﴾ على لسان الرسول، ﴿ولكِنَّ أكثَرَكُم لِلحَقِّ كارِهُونَ. أم أبرَمُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة أحكموا ﴿أمرًا﴾ في كيد مُحمّد النبيّ؟ ﴿فإنّا مُبرِمُونَ﴾: مُحكِمون كيدَنا في إهلاكهم. ٨٠ ـ ﴿أم يَحسِبُونَ أنّا لا نَسمَعُ سِرَّهُم ونَجْواهُم﴾: ما يُسِرّون إلى غيرهم وما يجهرون به بينهم؟ ﴿بَلَى﴾ نسمعُ ذلك، ﴿ورُسُلُنا﴾: الحَفَظةُ ﴿لَدَيهِم﴾: عِندَهم ﴿يَكتُبُونَ﴾ ذلك.

٨١ ـ ﴿قُلْ: إن كانَ لِلرَّحمنِ وَلَدٌ﴾ فَرْضًا ﴿فأنا أوَّلُ العابِدِينَ﴾ للولد. لكن ثَبَتَ أنْ لا ولدَ له ـ تعالى ـ فانتفت عِبادته. ٨٢ ـ ﴿سُبحانَ رَبِّ السَّماواتِ والأرضِ رَبِّ العَرشِ﴾: الكُرسيّ ﴿عَمّا يَصِفُونَ﴾: يقولون من الكذب بنِسبة الولد إليه! ٨٣ ـ ﴿فذَرْهُم، يَخُوضُوا﴾ في باطلهم، ﴿ويَلعَبُوا﴾ في دُنياهم، ﴿حَتَّى يُلاقُوا يَومَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فيه العذابَ. وهو يوم القيامة.

قولُهُ: (سَاكِتُونَ) أو: آيِسونَ من النَّجاةِ.

قولُهُ: (لِيُمِتْنَا) من قَضى عليهِ: إذا أماتَهُ؛ أي: سَلْ ربَّكَ، أو ليحكُم علينا بالموتِ، وهو لا يُنافي إبلاسَهُم، فإنَّه استغاثةٌ وتمنٍّ للموتِ من فَرطِ الشِّدَّةِ.

قولُهُ: (أي: أَهلَ مَكَّةَ) الظَّاهرُ أنَّه تتمَّةُ الجوابِ إن كانَ في ﴿قالَ﴾ ضميرُ اللهِ، وإلَّا فجوابٌ منه تعالى، وكأنَّهُ عزَّ وجلَّ تولَّى جوابَهُم بعدَ جوابِ مالكٍ.

قولُهُ: (أي: كُفَّارُ مَكَّةَ) وقيل: التفاتٌ.

قولُهُ: (مَا يُسِرُّونَ) الظَّاهرُ: حديثُ نفسِهِم بذلك وتناجيهِم.

قولُهُ: (الحَفَظَةُ) مع ذلكَ.

قولُهُ: (عِندَهُم) ملازِمونَ.

قولُهُ: (فَرضاً) أو في زعمِكُم.

قولُهُ: (لِلوَلَدِ) أو للهِ تعالى، فإنَّه بذلك أولى، ويؤيِّدُه ما قيل: إنَّ ﴿إنْ﴾ للنَّفي.

قولُهُ: (الكُرسِيّ) الصَّحيحُ أنَّه غيرُه كما تقدَّمَ[1].

قولُهُ: (العَذَابَ) مفعولٌ ثانٍ.

---

(١) في الآية رقم: (١٢٩) من سورة التوبة، حيث قال: الأصح أنه الجسم الأعظم المحيط.

٨٤ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي﴾ هو ﴿في السَّماءِ إلَـٰهٌ﴾ ـ بتحقيق الهمزتين، وإسقاطِ الأولى، وتسهيلِها كالياء ـ أي: معبودٌ، ﴿وفي الأرضِ إلَـٰهٌ﴾، وكُلّ من الظرفين مُتعلّق بما بعده، ﴿وهُوَ الحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه ﴿العَلِيمُ﴾ بمصالحهم، ٨٥ ـ ﴿وتَبارَكَ﴾: تعظّم ﴿الَّذِي لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ وما بَينَهُما، وعِندَهُ عِلمُ السّاعةِ﴾: متى تقومُ؟ ﴿وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾ بالتاء والياء.

٨٦ ـ ﴿ولا يَملِكُ الَّذِينَ يَدعُونَ﴾: يَعبدون، أي: الكُفّارُ ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: اللهِ ﴿الشَّفاعةَ﴾ لأحد، ﴿إلاّ مَن شَهِدَ بِالحَقِّ﴾ أي قال: «لا إلَـٰهَ إلاّ اللهُ»، ﴿وهُم يَعلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم، وهم عِيسَى وعُزيرٌ والملائكة، فإنهم يشفعون للمُؤمنين. ٨٧ ـ ﴿ولَئِن﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿سألتَهُم: مَن خَلَقَهُم؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ﴾. حُذِفَ منه نونُ الرفع وواوُ الضمير. ﴿فأنّى يُؤفَكُونَ﴾: يُصرفون عن عِبادة الله؟

٨٨ ـ ﴿وقِيلِهِ﴾ أي: قولَ مُحمّد النبيّ، ونصبُه على المصدر بفعله المقدر، ....

قولُهُ: (هُو) قدَّرَهُ؛ لأنَّ الصِّلةَ لا تكونُ إلَّا جملةً، وهو الرَّاجعُ، وحُذِفَ لطولِ الصِّلةِ بمتعلَّقِ الخبرِ والعطفِ عليهِ، وفي الآية نفيُ الآلهةِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ، واختصاصُهُ باستحقاقِ الألوهيَّةِ.

قولُهُ: (بتَحقِيقِ الهَمزَتَينِ) شاميٌّ وكوفيٌّ[1].

قولُهُ: (وإِسقَاطِ الأُولَى) مدًّا وقصراً بصريٌّ.

قولُهُ: (وتَسهِيلِهَا) كالياءِ مدًّا وقصراً قالونُ والبزِّيُّ، وحقُّهُ أن يقولَ: وتسهيلُ الثَّانيةِ وإبدالِها، وهما لورشٍ وقُنبلٍ.

قولُهُ: (بِمَا بَعدَهُ) لأنَّهُ بمعنى المعبودِ.

قولُهُ: (والتَّاءِ) الخطابُ على الالتفاتِ للتَّهديدِ لغيرِ مكِّيٍّ وحمزةَ والكسائيِّ.

قولُهُ: (يَعبُدُونَ) أي: يعبدونَهُم، وهم الأصنامُ.

قولُهُ: (لأَحدٍ) كما زَعمُوا أنَّهُم شفعاؤُهُم عندَ اللهِ.

قولُهُ: (أي: قَالَ) أي: بالتَّوحيدِ.

قولُهُ: (وَهُم عِيسَى) والاستثناءُ متَّصلٌ إن أريدَ بالموصولِ كلُّ ما عُبِدَ من دونِ اللهِ؛ لاندراجِ الملائكةِ والمسيحِ فيه، ومنفصلٌ إن خُصَّ بالأصنامِ.

قولُهُ: (ونَصبُهُ) وجرَّهُ عاصمٌ وحمزةُ[2] عطفاً على: ﴿السَّاعة﴾، والعجبُ من الشَّيخِ أنَّه يهملُ بيانَ......

---

(١) لهذا وما بعده انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٣٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٨٩)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص: ٣٢٣).

أي: وقال: ﴿يا رَبِّ، إنَّ هؤُلاءِ قَومٌ، لا يُؤمِنُونَ﴾. ٨٩ ـ قال تعالى: ﴿فاصفَحْ﴾: أعرِض ﴿عَنهُم، وقُلْ: سَلامٌ﴾ منكم. وهذا قبل أن يُؤمر بقتالهم. ﴿فسَوفَ يَعلَمُونَ﴾، بالياء والتاء: تهديدٌ لهم.

اختلافِ القراءاتِ الَّتي يترتَّبُ عليها اختلافُ الإعرابِ والمعنى، ويعتني بوجوهِ الأداءِ للقراءاتِ الَّتي لا تعلُّقَ لها بالإعرابِ ولا بالمعنى، بل يتوقَّفُ على السَّماعِ من أفواهِ المشايخِ.

قولُهُ: (مِنكُم) أي: تسلُّمٌ ومتاركةٌ[١].

قولُهُ: (والتَّاءِ) للخطابِ نافعٌ وشاميٌّ[٢].

قولُهُ: (تَهدِيدٌ لَهُم) وتسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) بعدها في النسخ: «أوامر الإسلام»، وليست في «الكشاف» و«أنوار التنزيل»، ولا يظهر لها وجه.

(٢) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٣٤).

سورة الزخرف

مكية كما رُوي عن ابن عباس، وحكى ابنُ عطية[1] إجماعَ أهل العلم على ذلك ولم يَنقل استثناءً، وقال مقاتل: إلا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الآية: ٤٥] فإنها نزلت ببيت المقدس. كذا في «مجمع البيان»[2]، وفي «الإتقان»[3]: قيل: نزلت بالسماء، وقيل: بالمدينة.

وعدد آيها ثمان وثمانون في الشامي، وتسع وثمانون في غيره. ووجه مناسبة مُفتتحها لمختتم ما قبلها ظاهرٌ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١﴾ الكلامُ فيه على نحو ما مرَّ في مُفتتح (يسٓ).

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن، والمرادُ به جميعُه، وجوّز إرادة جنسه الصادقِ ببعضه وكلِّه، وقيل: يجوز أن يُراد به جنسُ الكتب المُنزلة، أو المكتوبُ في اللوح، أو المعنى المصدريُّ، وهو الكتابة والخَطّ؛ وأَقسم سبحانه بها لِمَا فيها من عظيم المنافع، ولا يخفى ما في ذلك.

والأولى على تقدير اسمية «حم» كونُه اسماً للقرآن، وأن يُراد ذلك أيضاً بالكتاب، وهو مُقسم به، إما ابتداءً أو عطفاً على «حم» على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القَسَم على أن مدارَ العطف المُغايرة في العنوان، لكن يلزم على هذا

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٥.

(٢) ٢٥/ ٦٨.

(٣) ١/ ٥٠ و٢١٥.

حذفُ حرف الجرِّ وإبقاء عمله كما في:

أشارَتْ كليبٍ بالأكُفِّ الأصابعُ(١)

ومَنْعُ أن يُقسَم بشيئين بحرف واحد لا يُلتفت إليه، ومناط تكرير القسم المبالغةُ في تأكيدِ الجملة القسمية.

﴿ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ أي: المبين لمن أنزل عليهم لكونه بِلُغتهم وعلى أساليب كلامهم، على أنه من أبان اللازم، أو المُبين لِطريق الهُدى من طريق الضلالة المُوضح لأصول ما يحتاج إليه في أبواب الدِّيانة على أنه من أبان المُتعدِّي.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ جوابٌ للقَسَم، والجَعْل بمعنى التصيير المُعدَّى لمفعولين، لا بمعنى الخَلْق المُعدَّى لواحد، لا لأنه يُنافي تعظيم القرآن، بل لأنه يأباه ذوقُ المقام المُتكلَّم فيه؛ لأن الكلام لم يُسق(٢) لتأكيد كونه مخلوقاً، وما كان إنكارهم متوجهاً عليه، بل هو مسوقٌ لإثباتِ كونه قرآناً عربياً مُفصَّلاً وارداً على أساليبهم، لا يَعْسُر عليهم فهمُ ما فيه، ودَرْكُ كونه مُعجزاً كما يُؤذن به قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ أي: لكي تفهموه وتُحيطوا بما فيه من النظر الرائق، والمعنى الفائق، وتَقِفوا على ما يتضمَّنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حقَّ النعمة في ذلك، وتنقطع أعذارُكم بالكُلية، والقَسَمُ بالقرآن على ذلك من الأيمان الحسنة البديعة لِمَا فيه من رعاية المناسبة والتنبيه على أنه لا شيء أعلى منه فيُقسَم به، ولا أهمّ من وَصْفه فيُقسَم عليه كما قال أبو تمام:

وثناياكِ إنها إغريضُ ولآلٍ تومٌ(٣) وبرقٌ وميضُ(٤)

بناء على أنَّ جوابَ القَسَم قولُه: إنها إغريض.

واستُدِلَّ بالآيةِ على أن القرآنَ مخلوقٌ، وأطالوا الكلامَ في ذلك، وأُجيب بأنه إن

(١) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٢٠، وصدره: إذا قيل أيّ الناس شرٌّ قبيلة. وسلف ٧/ ٤٦١.
(٢) في (م): يسبق.
(٣) في (م): قوم.
(٤) ديوان أبي تمام (بشرح التبريزي) ٢/ ٢٨٧. قال شارحه: الإغريض: الطَّلع، وقيل: إن البَرَدَ يُسمَّى إغريضاً. ويقال للؤلؤة العظيمة: تؤمة، والجمع تُؤَم.

دلَّ على المخلوقية فلا يدلُّ على أكثر من مخلوقية الكلام اللفظي، ولا نزاع فيها.

وأنت تعلم أنَّ الحنابلةَ يُنازعون في ذلك، ولهم عن الاستدلال أجوبةٌ مذكورة في كُتبهم. وأخرج ابنُ مردويه عن طاوس قال: جاء رجلٌ إلى ابن عباس مِن حضرموت فقال له: يا ابنَ عباس، أخبرني عن القرآن أكلامٌ من كلام الله تعالى أم خلقٌ من خَلْق الله سبحانه؟ قال: بل كلامٌ من كلام الله تعالى، أَوَ ما سمعتَ الله سبحانه يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فقال له الرجل: أفرأيتَ قولَه تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا) قال: كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ بالعربية، أما سمعتَ الله تعالى يقول: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢][1]. فتأمل فيه.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، على ما ذهب إليه جمعٌ، فإنه أمُّ الكتب السماوية، أي: أصلُها، لأنها كلَّها منقولةٌ منه، وقيل: «أم الكتاب»: العلم الأزليُّ. وقيل: الآيات المُحكمات، والضمير لـ «حم» أو للكتاب بمعنى السورة، أي: إنها واقعةٌ في الآيات المُحكمات التي هي الأُمّ. وهو كما ترى.

وقرأ الأَخَوان: «إِمِّ» بكسر الهمزة لإتباع الميم، أو «الكتاب» فلا تكسر في عدم الوصل[2].

﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا ﴿لَعَلِىٌّ﴾ رفيع الشأن بين الكُتب، لإعجازه واشتماله على عظيم الأسرار ﴿حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ ذو حِكمة بالغة، أو مُحْكَم لا ينسخه غيرُه، أو حاكم على غيره من الكتب، وهما خبران لـ «إنَّ». و«في أم الكتاب» قيل: متعلق بـ «عَلِيّ» واللام لمَّا فارقَتْ محلَّها وتغيَّرت عن أصلها بطلَتْ صدارتها فجاز تقديمُ ما في حَيِّزها عليها، أو حالٌ منه لأنه صفةُ نكرةٍ تقدَّمَتْها، أو من ضميره المُستتر و«لدينا» بدل من «أم الكتاب» وهما وإن كانا مُتغايرين بالنظر إلى المعنى متوافقان بالنظر إلى الحاصل، أو حالٌ منه، أو من «الكتاب»، فإن المضافَ في حكم الجزء لصحة سُقوطه. ولعلَّ المختارَ كونُ الظرفين في موضع الخبر لمبتدأ محذوف، والجملة

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣.

(٢) التيسير ص٩٤، والنشر ٢/ ٢٤٨.

مستأنفةٌ لبيان محلِّ الحُكم، كأنه قيل بعد بيان اتِّصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين: هذا في أُمِّ الكتاب ولدينا، ولم يُجوِّزوا كونهما في موضع الخبر لـ «إنَّ»؛ لدخول اللام في غيرهما.

وأيًّاما كان فالجملة المؤكَّدة إما عطفٌ على الجملة المُقْسَم عليها داخلةٌ في حُكمها، وإما مستأنفةٌ مُقرِّرة لِعلوِّ شأن القرآن الذي أنبأ [عنه][1] الإقسامُ به على منهاج الاعتراض في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦].

وبعد ما بيَّن سبحانه عُلوَّ شأن القرآن العظيم وحقَّق جل وعلا أنَّ إنزاله على لغتهم لِيعقلوه ويُؤمنوا به ويعملوا بموجبه، عقَّبَ سبحانه ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه، فقال جل شأنه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: أفنُنحِّيه ونُبعِدُه عنكم، على سبيل الاستعارة التمثيلية، من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض. شبّه حال الذِّكر وتَنْحيتهِ بحال غرائب الإبل وذَوْدِها عن الحوض إذا دخلَتْ مع غيرها عند الورد، ثم استعمل ما كان في تلك القصة هاهنا، وفيه إشعارٌ باقتضاء الحِكمة توجُّهَ الذِّكر إليهم وملازمته لهم كأنه يتهافَتُ عليهم، ولو جعل استعارةً في المفرد بجعل التنحية ضرباً جاز، ومن ذلك قول طَرَفة:

اِضْرِبَ عنك الهمومَ طارقَها ... ضَرْبَك بالسيف قَوْنسَ الفرس[2]

وقول الحجَّاج في خطبته يُهدِّد أهلَ العراق: لأَضْرِبَنَّكم ضربَ غرائب الإبل.

و«الذِّكر» قيل: المراد به القرآن، ورُوي ذلك عن الضحاك وأبي صالح، والكلام على تقدير مضاف، أي: إنزال الذِّكر، وفيه إقامة الظاهر مُقامَ المُضمَر تفخيماً. وقيل: بل هو ذكر العِباد بما فيه صلاحُهم، فهو بمعنى المصدر حقيقة، وعن ابن عباس ومجاهد ما يقتضيه.

والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف يقتضيه على أحد الرأيين في مثل هذا التركيب، أي: أَنُهملكم فَننحِّي الذِّكر عنكم.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ٣٩، والكلام منه.
(٢) ليس في ديوان طرفة، وهو في الخصائص ١/ ١٢٦، والخزانة ١١/ ٤٥٠.

وقال ابنُ الحاجب[1]: الفاء لبيان أن ما قبلَها ـ وهو جعلُ القرآن عربيّاً ـ سببٌ لِمَا بعدها، وهو إنكارُ أن يَضْرِبَ سبحانه الذِّكر عنهم.

﴿صَفْحًا﴾ أي: إعراضاً، وهو مصدر لِنَضْرِب من غير لفظه، فإنَّ تنحيةَ الذِّكر إعراضٌ، فنصبه على أنه مفعول مطلق على نهج: قعدتُ جلوساً، كأنه قيل: أَفنصفح عنكم صفحاً. أو هو منصوبٌ على أنه مفعولٌ له، أو حال مُؤَوَّل بصافحين بمعنى مُعرضين، وأصلُ الصَّفح أن تُولِّي الشيءَ صفحَةَ عنقك. وقيل: إنه بمعنى الجانب، فينتصب على الظرفية، أي: أفننحّيه عنكم جانباً، ويُؤيِّده قراءةُ حسان بن عبد الرحمن الضُّبَعي والسُّميط بن عُمير وشُبيل بن عَزْرة: «صُفْحاً» بضمِّ الصاد[2]، وحينئذ يحتمل أن يكون تخفيفَ صُفُح ـ ك: رُسُل ـ جمع صَفوح بمعنى صافحين، وأبو حيان اختار أن يكون مفرداً بمعنى المفتوح كالسُّد والسَّد، وحكى عن ابن عطية أن انتصابَ «صفحاً» على أنه مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة السابقة، فيكون العامل فيه محذوفاً. ولا يخفى أنه لا يظهر ذلك[3]. وأيًّا ما كان فالمرادُ إنكار أن يكون الأمرُ خلافَ ما ذُكر من إنزال كتاب على لُغتهم لِيفهموه.

﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ أي: لأَنْ كنتم منهمكين في الإسراف مُصرِّين عليه، على معنى أنَّ الحِكمةَ تقتضي ذكركم وإنزال القرآن عليكم، فلا نترك ذلك لأجل أنكم مُسرفون لا تلتفتون إليه، بل نفعل، الْتَفَتُّم أَمْ لا.

وقيل: هو على معنى: إنَّ حالكم وإن اقتضى تَخْليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكُفر والضلالة وتبقوا في العذاب الخالد لكنَّنا لِسَعَة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نَهديكم إلى الحقِّ بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب المبين.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٦. وحسان بن عبد الرحمن الضُّبعي تابعي، قدم أصبهان مع أبي موسى ﷺ، قال البخاري: حديثه مرسل. طبقات المحدثين بأصبهان ١/ ٣٢٠، والإصابة ٣/ ٣٨، والسُّميط بن عُمير، ويقال: ابن سُمير، السدوسي، البصري، أبو عبد الله من الطبقة الثالثة. صدوق. وشُبيل بن عَزْرة الضبعي، أبو عمرو البصري النحوي، صدوق يهم. من الطبقة الخامسة. قاله ابن حجر في تقريب التهذيب.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٦، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦.

وقرأ نافع والأخوان: «إن كنتم» بكسر الهمزة[1] على أن الجملة شرطية، و«إنْ» وإن كانت تُستعمل للمشكوك وإسرافُهم أمرٌ مُحقَّق لكن جيء بها هنا بناءً على جعل المُخاطب كأنه مُتردِّد في ثُبوت الشرط شاكٌّ فيه قصداً إلى نسبته إلى الجهل بارتكابه الإسراف لتصويره بصورة ما يُفرض لوجوب انتفائه وعدم صدوره ممن يعقِلُ.

وقيل: لا حاجةَ إلى هذا؛ لأن الشرط الإسراف في المستقبل، وهو ليس بمتحقِّق.

ورُدَّ بأنَّ «إنْ» الداخلة على «كان» لا تقلبه للاستقبال عند الأكثر، ولذا قيل: «إن» هنا بمعنى «إذْ»، وأيِّد بأنَّ عليَّ بن زيد قرأ به[2]، وأنه يدلُّ على التعليل فتوافقُ قراءةَ الفتح معنى، ولو سُلِّم فالظاهر من حال المُسرف المُصِرِّ على إسرافه بقاؤه على ما هو عليه، فيكون محقَّقاً في المستقبل أيضاً على القول بأنها تقلبُ «كان» كغيرها من الأفعال.

وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة ما قبلُ عليه. وجوّز أن يكون الشرط في موقع الحال، أي: مفروضاً إسرافكم، على أنه من الكلام المُنصف، فلا يحتاج إلى تقدير جواب. وتعقِّب بأنه إنما يتأتّى على القول بأنَّ «إنْ» الوصلية تَرِدُ في كلامهم بدون الواو، والمعروفُ في العربية خلافُه.

وقوله عز وجل: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ تقريرٌ لما قبلَه ببيان أنَّ إسرافَ الأُمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم، وتسليةٌ لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه به عليه الصلاة والسلام، فقد قيل: البَليَّةُ إذا عَمَّت طابَتْ.

و«كم» مفعولُ «أرسلنا»، و«في الأولين» مُتعلِّق به، أو صفة «نبي»، و«ما يأتيهم» إلخ للاستمرار، وضميره لـ «الأولين».

وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ نوعٌ آخرُ من التسلية له ﷺ، وضمير «منهم» يرجِعُ إلى المسرفين المُخاطَبين لا إلى ما يرجِعُ إليه ضمير «ما يأتيهم»؛

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/ ٣٦٨، وقرأ بها من العشرة أبو جعفر وخلف.
(٢) البحر ٨/ ٦.

لقوله تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ أي: سلف في القرآن غيرَ مرَّة ذِكْرُ قصتهم التي حقُّها أنْ تسيرَ مسيرَ المَثَل، ونصب «بطشاً» على التمييز، وجُوِّز كونه على الحال من فاعل «أهلكنا» أي: باطشين، والأول أحسنُ، ووصف أولئك بالأشدِّيَّة لإثبات حُكمهم لهؤلاء بطريق الأولويَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ عطفٌ على الخطاب السابق، والآيتان ـ أعني قوله تعالى: «وكم أرسلنا» ـ اعتراضٌ لإفادة التقرير والتسلية كما سمعت. والمرادُ: ولئن سألتهم مَنْ خلقَ العالمَ لَيُسْنِدُنَّ خَلْقَه إلى من هو مُتَّصفٌ بهذه الصفات في نفس الأمر، لا أنهم يقولون هذه الألفاظَ ويصفونه تعالى بما ذكر من الصفات، ذكره الزمخشري[1] فيما نُسب إليه، وهذا حسن، وله نظيرٌ عرفاً، وهو أنَّ واحداً لو أخبرك أن الشيخ قال كذا، وعنى بالشيخ شمسَ الأئمة، ثم لقيت شمسَ الأئمة فقلت: إنَّ فلاناً أخبرني أنَّ شمسَ الأئمة قال كذا، مع أنَّ فلاناً لم يَجرِ على لسانه إلا الشيخ، ولكنك تذكُر ألقابه وأوصافه، فكذا هاهنا الكفار يقولون: خلقهنَّ الله، لا يُنكرون، ثم إن الله عز وجل ذكر صفاته أي: إن الله تعالى الذي يُحيلون عليه خَلْقَ السماوات والأرض من صفته سبحانه كيتَ وكيتَ.

وقال ابن المُنَيِّر: إن «العزيز العليم» من كلام المسؤولين، وما بعدُ من كلامه سبحانه[2].

وفي «الكشف»: لا فرق بين ذلك الوجه وهذا في الحاصل، فإنه حكايةُ كلامٍ عنهم متصلٍ به كلامه تعالى على أنه من تتمته وإن لم يكن قد تفوَّهوا به، وهذا كما يقول مُخاطبك: أكرمني زيدٌ، فتقول: الذي أكرمك وحيَّاك، أو لجماعة آخرين حاضرين: الذي أكرمكم وحيَّاكم، فإنك تصلُ كلامَك بكلامه على أنه من تتمته، ولكن لا تجعله من مَقُوله، والأظهر من حيث اللفظُ ما ذكره ابنُ المُنَيِّر، وحينئذ يقع الالتفات في «فأنشرنا» بعدُ موقعه، ونظير ذلك قولُه تعالى حكايةً عن موسى عليه

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٩.

(٢) الانتصاف (حاشية الكشاف) ٣/ ٤٧٩.

السلام: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٢-٥٣].

وفي إعادة الفعل في الجواب اعتناءٌ بشأنه ومطابقته للسؤال من حيث المعنى ـ على ما زعم أبو حيان ـ لا من حيث اللفظ، قال: لأن «مَنْ» مبتدأ، فلو طابق في اللفظ لكان بالاسم مبتدأ دون الفعل، بأن يقال: العزيز العليم خلقهنَّ(١).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مِهادًا﴾ مكاناً مُمهَّداً، أي: مُوَطَّأً، ومآله: بَسَطها لكم تستقِرُّون فيها، ولا يُنافي ذلك كُرِيَّتها لمكان العِظَم.

وعن عاصم أنه قرأ: «مَهْداً» بدون ألف(٢).

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طُرقاً تسلُكونها في أسفاركم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكُّر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصدُ الأصلي.

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي: بمقدار تقتضيه المشيئةُ المَبْنيَّة على الحِكَم والمصالح، ولا يعلم مِقدار ما ينزلُ من ذلك في كلِّ سنة على التحقيق إلا الله عز وجل، والآلة التي صنعها الفلاسفةُ في هذه الأعصار المسماة بالأودوميتر يزعُمون أنه يُعرَفُ بها مِقدارُ المطر النازل في كلِّ بلد من البلاد في جميع السنة لا تُفيد تحقيقاً في البقعة الواحدة الصغيرة فضلاً عن غيرها كما لا يخفى على المُنصِف.

وفي «البحر» «بقدر»: أي: بقضاءٍ وحَتْم في الأزل(٣). والأولُ أولى.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ﴾ أي: أحيينا بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ خاليةً عن النَّماء والنبات بالكُلِّية. وقرأ أبو جعفر وعيسى: «ميِّتاً» بالتشديد(٤). وتذكيرُه لأنَّ البلدةَ في معنى البلد والمكان. قال الجلبي: لا يبعد ـ والله تعالى أعلم ـ أن يكونَ تأنيثُ البلد وتذكيرُ «ميتاً»

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٧.
(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف. التيسير ص١٥١، والنشر ٢/ ٣٢٠.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٧.
(٤) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٢٢٤، وقراءة عيسى في البحر المحيط ٨/ ٧.

إشارةً إلى بلوغ ضَعْفِ حاله الغايةَ، وفي الكلام استعارةٌ مَكنية أو تصريحية. والالتفات في «أنشرنا» إلى نون العظمة لإظهار كمالِ العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإنشار الذي هو في الحقيقة إخراجُ النبات من الأرض، وهو صفةُ مصدر محذوف، أي: إنشاراً كذلك ﴿تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: تُبعثون من قبوركم أَحياء. وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياءُ الموتى، وعن إحيائهم بالإخراج، تفخيمٌ لشأن الإنبات وتهوينٌ لأمر البعث، وفي ذلك من الردِّ على مُنكريه ما فيه.

وقرأ ابنُ وثاب وعبد الله بن جُبير وعيسى وابنُ عامر والأخوان: «تَخرُجون» مبنياً للفاعل[1].

﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: أصناف المخلوقات، فالزوج هنا بمعنى الصِّنف لا بمعناه المشهور، وعن ابن عباس: الأزواج: الضروبُ والأنواعُ كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى.

وقيل: كلُّ ما سوى الله سبحانه زوجٌ؛ لأنه لا يخلو من المُقابل كـ: فوق وتحت، ويمين وشمال، وماضٍ ومستقبل، إلى غير ذلك، والفردُ المُنزَّه عن المُقابل هو الله عز وجل. وتُعقِّب بأنَّ دعوى اطِّراده في الموجودات بأسرها لا تخلو عن النظر.

ولعلَّ من قال: كلُّ ما سوى الله سبحانه زوجٌ لم يَبْنِ الأمر على ما ذكر، وإنما بناه على أن الواجبَ جل شأنه واحدٌ من جميع الجِهات لا تركيب فيه سبحانه بوجه من الوجوه لا عقلاً ولا خارجاً، ولا كذلك شيء من المُمكنات ماديةً كانت أو مجردةً.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: ما تركبونه، فـ «ما» موصولة والعائد محذوف، والركوبُ بالنظر إلى الفلك يتعدَّى بواسطة الحرف، وهو «في» كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ [العنكبوت:٦٥] بخلافه لا بالنظر إليه، فإنه يتعدَّى بنفسه كما قال سبحانه: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل:٨] إلا أنهُ غلَّب المتعدِّي بغير

(١) قراءة ابن عامر (في رواية ابن ذكوان) والأخوين (حمزة والكسائي) في التيسير ص١٠٩، والنشر ٢/٢٦٧، وقراءة ابن وثاب وابن جبير وعيسى في البحر ٨/٧.

واسطة لِقُوَّته على المُتعدِّي بواسطة، فالتجوُّز الذي يقتضيه التغليبُ بالنسبة إلى المتعلق. أو غُلِّب المخلوق للركوب على المصنوع له لكونه مصنوعَ الخالق القدير، أو الغالب على النادر، فالتجوُّز في «ما» وضميرِه الذي تعدَّى الركوبُ إليه بنفسه دون النسبة إلى المفعول، ولتغليب ما رُكِبَ من الحيوان على الفُلك.

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ حيث عبّر عن القرار على الجميع بالاستواء على الظُّهور المخصوصِ بالدوابّ، والضمير لـ «ما تركبون» وأُفرد رعايةً للفظ، وجمع ظُهور مع إضافته إليه رعايةً لمعناه. والظاهر أن لام «لتستووا» لام كي. وقال الحوفي[1]: مَنْ أثبتَ لامَ الصيرورة جاز له أن يقول به هنا.

وقال ابن عطية: هي لامُ الأمر[2]. وفيه بُعدٌ من حيث استعماله أمر المخاطب بتاء الخطاب، وقد اختُلف في أمره فقيل: إنه لغةٌ رديئةٌ قليلة لا تكادُ تُحفظ إلا في قراءة شاذَّة نحو: «فبذلك فلتفرحوا»[3] [يونس: ٥٨] أو شعرٍ نحو قوله:

لِتَقُمْ أنتَ يا ابنَ خيرِ قُريشٍ[4]

وما ذكره المُحدِّثون من قوله عليه الصلاة والسلام: «لتَأْخذوا مَصَافَّكم»[5] يحتمل أنه من المَرويّ بالمعنى. وقال الزجاج: إنها لغةٌ جيِّدة[6]. وأبو حيان على الأول، وحكاه عن جمهور النحويين[7].

---

(١) كما في البحر المحيط ٨/ ٧.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧.
(٣) القراءات الشاذة ص٥٧.
(٤) البيت لا يعرف قائله، وهو في الإنصاف ٢/ ٥٢٥، والخزانة ٩/ ١٤، وعجزه: فلْتُقَضِّي حوائج المسلمينا. والياء في «فلتقضي» لإشباع الكسرة كما ذكر البغدادي.
(٥) أورده بهذا اللفظ الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٠، وهو قطعة من حديث معاذ ﷺ أخرجه أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥) لكن بلفظ: «على مَصَافِّكم» وعليه لا شاهد فيه.
(٦) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٨/ ٧، ولم نقف عليه للزجاج، ولعل الصواب: الزجاجي، فقد ذكره السمين في الدر المصون ٩/ ٥٧٦ عن أبي القاسم الزجاجي، وفي كتاب اللامات للزجاجي ص٨٨: وربما أُدخلت اللام في هذا الفعل أيضاً توكيداً فقيل: لتذهب يا زيد. اهـ. وليس فيه أنها لغة جيدة.
(٧) البحر المحيط ٨/ ٧.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: تذكروها بقلوبكم مُعترفين بها مُستعظِمين لها، ثم تَحمَدوا عليها بألسنتكم، وهذا هو معنى ذِكْر نعمة الله تعالى عليهم على ما قال الزمخشري[١]، وحاصلُه أن الذِّكر يتضمَّن شعورَ القلب والمرور على اللسان، فنزل على أكمل أحواله، وهو أن يكونَ ذكراً باللسان مع شعور من القلب، وأما الاعترافُ والاستعظامُ فمِن نعمة ربِّكم لاقتضائه الإحضار في القلب لذلك، وهذا عَيْنُ الحمد الذي هو شُكرٌ في هذا المقام، لا أنه يُوجبه وإنْ كان ذلك التقرير سديداً أيضاً. ومنه يظهر إيثارهُ على: ثم تَحمدوا إذا استويتم، ومَن جوَّز استعمالَ المشترَك في معنييه جوَّز هنا أن يُراد بالذِّكر الذِّكرَ القلبي والذِّكر اللساني، وهو كما ترى.

ولمَّا كانت تلك النعمةُ مُتضمِّنةً لأمرٍ عجيب قال سبحانه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: وتقولوا: سبحان الذي ذلَّله وجعله مُنقاداً لنا، متعجِّبين من ذلك، وليس الإشارة للتحقير بل لتصوير الحال، وفيها مَزيدُ تقريرٍ لمعنى التعجُّب، والكلامُ وإن كان إخباراً على ما سمعت أولاً يُشعر بالطلب.

أخرج عبد بن حُميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي مِجْلز قال: رأى الحسينُ بن علي رضي الله عنهما وكرم وجههما رجلاً رَكِبَ دابَّةً فقال: سبحان الذي سخَّر لنا هذا، فقال: أوَبذلك أُمِرْتَ؟ فقال: فكيف أقول؟ قال: الحمدُ لله الذي هدانا للإسلام، الحمدُ لله الذي مَنَّ علينا بمحمد ﷺ، الحمدُ لله الذي جعلني في خير أُمَّة أُخرِجت للناس، ثم تقول: «سبحان الذي سخَّر لنا هذا» إلى «مُقرِنين»[٢]، وهذا يومئ إلى أنْ ليس المرادُ من النعمة نعمةَ التسخير.

وأخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب أنه فسرها بنعمة الإسلام[٣].

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذيُّ ـ وصحَّحه ـ والنسائيُّ وجماعةٌ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه أُتي بدابَّة، فلما وَضَع رِجْلَه في الرِّكاب قال: بسم الله،

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٩.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٤، وهو عند الطبري ٢٠/ ٥٥٨، وفيه: الحسن بن علي، بدل: الحسين.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٤.

فلما استوى على ظَهْرِها قال: الحمدُ لله ـ ثلاثاً ـ والله أكبر ـ ثلاثاً ـ (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا) إلى (لَمُنقَلِبُونَ)، سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمتُ نفسي فاغفِرْ لي ذنوبي، إنّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت. ثم ضَحِكَ، فقيل له: مِمَّ ضَحِكْتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ فعلَ كما فعلتُ، ثم ضَحِكَ، فقلت: يا رسولَ الله، مم ضَحِكْتَ؟ فقال: «يتعجَّب الربُّ من عبده إذا قال: ربِّ اغفِرْ لي، ويقول: عَلِمَ عبدي أنه لا يغفرُ الذنوبَ غيري»(١).

وفي حديثٍ أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والدارميُّ عن ابن عمر أن رسول ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر حَمِدَ الله تعالى، وسبَّح وكبَّر ثلاثاً، ثم قال: (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا) إلى (لَمُنقَلِبُونَ)(٢).

وفي حديث أخرجه أحمد وغيره عن رسول الله ﷺ قال: «ما من بعيرٍ إلا في ذروته شيطان، فاذكروا اسمَ الله تعالى إذا رَكِبتموه كما أمركم»(٣).

وظاهر النظم الجليل أنَّ تذكُّر النعمة والقولَ المذكورَ لا يخصَّان ركوب الأنعام، بل يَعُمَّانها والفُلكَ. وذكر بعضُهم أنه يقال إذا رُكِبت السفينة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ إلى ﴿رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١] ويقال عند النُّزول منها: اللهم أَنْزِلْنا منْزِلاً مُباركاً، وأنت خيرُ المُنزلين.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: مُطِيقين، وأنشد قُطْرب لعمرو بن مَعْدِي كرب:

لقد عَلِمَ القبائلُ ما عُقَيلٌ لنا في النائباتِ بِمُقْرنينا(٤)

وهو من أَقْرَنَ الشيء: إذا أَطاقه، قال ابن هَرْمَة:

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٤، ومسند أحمد (٧٥٣) و(٩٣٠) و(١٠٥٦)، وسنن أبي داود (٢٦٠٢)، وسنن الترمذي (٣٤٤٦)، وسنن النسائي الكبرى (٨٧٤٨).

(٢) صحيح مسلم (١٣٤٢)، وسنن الترمذي (٣٤٤٧)، وسنن أبي داود (٢٥٩٩)، وسنن الدارمي(٢٧١٥) وفيها أنه ﷺ يُكبِّر ثلاثاً ثم يقول: «سبحان الذي سخَّر لنا...» وليس فيها أنه يحمد الله ويسبِّحه.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٤، ومسند أحمد (١٧٩٣٩)، وهو من حديث أبي لاسٍ الخزاعي ﷺ.

(٤) البيت في تفسير القرطبي ١٩/ ١٣، والبحر المحيط ٨/ ٧.

وأقرنتُ ما حَمَّلتِني ولَقلَّما ... يُطاقُ احتمالُ الصَّدِّ يا دعدُ والهَجْرِ[(١)]

وحقيقةُ أَقرنه: وَجَدَه قَرينَتَهُ وما يُقرن به؛ لأن الصَّعب لا يكون قرينةً للضعيف، ألا ترى إلى قولهم في الضعيف: لا تُقْرَنُ به الصَّعْبةُ[(٢)]. والقَرَن الحَبْل الذي يُقْرَنُ به، قال الشاعر:

وابنُ اللَّبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يستطع صولةَ البُزْل القناعيس[(٣)]

وحاصلُ المعنى: أنه ليس لنا من القوة ما يضبطُ به الدابَّة والفلك، وإنما الله تعالى هو الذي سخَّر ذلك وضبطه لنا.

أخرج عبد بن حُميد وابن المنذر عن سليمان بن يسار أن قوماً كانوا في سفر، فكانوا إذا رَكِبوا قالوا: (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ)، وكان فيهم رجلٌ له ناقةٌ رازم[(٤)]، فقال: أمَّا أنا فَلِهذه مُقْرِن، فقمصَتْ[(٥)] به فصرعَتْه، فاندقَّت عُنقه.

وقرئ: «مُقرِّنين» بتشديد الراء مع فتحها وكَسْرها[(٦)]، وهما بمعنى المُخفَّف.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: راجعون، وفيه إيذانٌ بأنَّ حقَّ الراكب أن يتأمَّل فيما يُلابسه من السير، ويتذكَّر منه المسافرة العظمى التي هي الانقلابُ إلى الله تعالى، فيبني أُمورَه في مسيره ذلك على تلك الملاحظة، ولا يأتي بما يُنافيها. ومن ضرورة ذلك أن يكون ركوبُه لأمرٍ مشروع. وفيه إشارةٌ إلى أن الركوبَ مَخْطرةٌ، فلا ينبغي أن يُغْفَلَ فيه عن تذكُّر الآخرة.

---

(١) البيت في الكشاف ٣/ ٤٨٠، والبحر المحيط ٨/ ٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٨٠. ويقال لمن تُراض به صعاب الأمور وتذل بتدبيره: بفلان تُقرن الصعبة. والصعبة: هي الناقة التي لم تركب ولم يطمثها حبل. ينظر المستقصى ٢/ ٣٢٠، وفصل المقال للبكري ص١٣٢-١٣٣.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ١/ ١٢٨، وسلف ١/ ٢١٤. قال شارح الديوان: ابن اللبون: لثلاث سنين. والقناعيس: الشداد.

(٤) في الأصل و(م): رزام، والمثبت من الدر المنثور ٦/ ١٤، واللسان (رزم) والخبر فيهما، والرازم من الإبل: الثابت على الأرض الذي لا يقوم من الهُزال. كما في اللسان.

(٥) قمص البعير: رفع يديه وطرحهما معاً. القاموس (قمص).

(٦) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٨٠، وأبو السعود في تفسيره ٨/ ٤١.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ مُتَّصلٌ بقوله تعالى: «ولئن سألتهم» إلى آخره، فهو حال من فاعل «ليقولنَّ» بتقدير «قد» أو بدونه. والمرادُ بيانُ أنهم مُناقِضون مُكابِرون حيث اعترفوا بأنه عز وجل خالقُ السماوات والأرض، ثم وصفوه سبحانه بصفات المخلوقين وما يُناقض كونه تعالى خالقاً لهما، فجعلوا له سبحانه جُزءاً، وقالوا: الملائكة بناتُ الله، سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوًّا كبيراً.

وعبّر عن الولد بالجُزء لأنه بضعةٌ ممن هو وَلَدٌ له، كما قيل: أولادنا أكبادنا، وفيه دلالةٌ على مَزيد استحالته على الحقِّ الواحد الذي لا يُضاف إليه انقسامٌ حقيقةً ولا فرضاً، ولا خارجاً ولا ذِهناً، جل شأنه وعلا. ولتأكيدِ أمرِ المُناقضة لم يكتفِ بقوله تعالى: «جزءاً» وقيل: «من عباده» لأنه يلزمهم على مُوجب اعترافهم أن يكونَ ما فيهما مخلوقَه تعالى وعبدَه سبحانه إذ هو حادث بَعدهما مُحتاجٌ إليهما ضرورةً.

وقيل: الجُزء اسمٌ للإناث يقال: أَجْزأَتِ المرأة، إذا ولَدْت أُنثى، وأنشد قول الشاعر:

إنْ أَجزأتْ حُرَّة يوماً فلا عَجَبٌ ... قد تُجزئ الحُرَّةُ المِذْكارُ أحياناً(١)

وقوله:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة ... للعوسج اللَّدْنِ في أنيابها زَجَلُ(٢)

وجعلَ ذلك الزمخشري من بِدع التفاسير، وذكر أنَّ ادِّعاءَ أنَّ الجُزء في لغة العرب اسمٌ للإناث كَذِبٌ عليهم، وَوَضْعٌ مستحدثٌ منحولٌ، وأن البيتين مصنوعان(٣). وقال الزجاج في البيت الأول: لا أدري قديمٌ أم مصنوع(٤). ووجَّه بعضُهم ذلك بأنَّ حواء خُلقت من جُزء آدم عليه السلام فاستُعير لكلِّ الإناث.

---

(١) البيت في معاني القرآن للزجاج ٤/٤٠٧، والمحرر الوجيز ٥/٤٨، وتفسير القرطبي ١٩/١٦.

(٢) البيت في مجالس ثعلب ص١٤٥، قال ثعلب: يقول: نكحتها مخافةَ أن تلد البنات، فولدت بنات كثيرة ملأت منهن بيته، والعوسج اللَّدْن، كانت العرب يعملون منه المغازل يغزل النساء بها، فيكون لمغازلهنَّ زَجَلٌ.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٨١.

(٤) معاني القرآن ٤/٤٠٧.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «جُزُؤاً» بضمَّتين(١).

ثم الكلام وإنْ سِيق للفَرْض المذكور يُفهم منه كُفرهم؛ لتجسيم الخالق تعالى والاستخفاف به جل وعلا، حيث جعلوا له سبحانه أخسَّ النوعين، بل إثباتُ ذلك يستدعي الإمكان المُؤذن بحدوثه تعالى فلا يكون إلهاً ولا بارئاً ولا خالقاً، تعالى عمَّا يقولون، وسبحانه عمَّا يَصِفون.

وليس الكلامُ مُساقاً لِتعديد الكُفران كما قيل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ لا يقتضيه، فإن المُرادَ المبالغةُ في كُفران النعمة، وهي في إنكار الصانع أشدُّ من المبالغة في كُفرهم به كما أُشير إليه. و«مبين» مِن أَبان اللازم، أي: ظاهرُ الكُفران، وجوّز أن يكون من المتعدّي، أي: مُظهرٌ كُفرانه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ «أمْ» منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال، والهمزةُ للإنكار والتعجيب من شأنهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ۝١٦﴾ إما عطفٌ على «اتَّخذ» داخلٌ في حكم الإنكار والتعجيب، أو حال من فاعله بإضمار «قد» أو بدونه. والالتفاتُ إلى خِطابهم لتشديد الإنكار، أي: بل أتَّخذ سبحانه مِن خَلْقِه أخسَّ الصِّنفين، واختار لكم أفضلَهما، على معنى: هَبُوا أنَّ إضافةَ اتِّخاذ الولد إليه سبحانه جائزةٌ فَرْضاً، أما تفطَّنتم لِمَا ارتكبتم من الشَّطَط في القِسمة وقُبح ما ادَّعيتم من أنه سبحانه آثركم على نَفْسِهِ بخير الجُزأين وأعلاهما، وترك له جل شأنه شرَّهما وأدناهما، فما أنتم إلا في غايةِ الجهل والحَماقة. وتنكيرُ بنات وتعريفُ البنين لِقرينة ما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾ قيل: حال، وارتضاه العلَّامةُ الثاني، على معنى أنهم نَسبوا إليه تعالى ما ذكروا من حالهم أنَّ أحدَهم إذا بُشِّر به اغتمَّ. وقيل: استئنافٌ مقرِّر لما قبلَه. وجوِّز عطفُه على ما قبلَه، وليس بذاك. والالتفاتُ للإيذان باقتضاء ذِكْر قبائحهم أن يُعرَضَ عنهم وتُحكى لغيرهم تعجيباً.

والجملة الاسمية في موضع الحال، أي: إذا أُخبر أحدُهم بجنس ما جعله مَثَلاً

---

(١) التيسير ص٨٢، والنشر ٢/٢١٦.

للرحمن جل شأنه ـ وهو جنسُ الإناث، لأنَّ الولدَ لا بد أن يُجانس الوالد[1] ويُماثله ـ صار وجهه أسودَ في الغايةِ لسوء ما بُشِّرَ به عنده، والحال هو مملوءٌ من الكرب والكآبة.

وعن بعض العرب أنَّ امرأتَه وضعتْ أُنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا
يَظَلُّ في البيت الذي يلينا
غضبانَ أنْ لا نَلِدَ البنينا
وليس لنا من أَمْرنا ما شينا
وإنما نأخذُ ما أُعطينا[2]

وقرئ: «مُسْوَدٌّ» بالرفع. و: «مِسْوادٌّ» بصيغة المبالغة ـ من اسوادَّ، كـ: احمارَّ ـ مع الرفع أيضاً[3] على أنَّ في «ظلَّ» ضميرَ المُبَشَّر، و«وجهه مسودٌّ» أو «مسْوادٌّ» جملة واقعةٌ موقعَ الخبر، والمعنى: صار المُبَشَّر مُسَودَّ الوجه. وقيل: الضمير المستتر في «ظل» ضمير الشأن، والجملة خبرها. وقيل: الفعل تامٌّ، والجملة حالية. والوجه ما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ تكريرٌ للإنكار، و«مَنْ» منصوبةُ المَحَلّ بمضمر معطوف على «جعلوا»، وهناك مفعولٌ محذوف أيضاً، أي: أَوَجعلوا له تعالى مَنْ شأنُه أن يَتربَّى في الزِّينة ـ وهنَّ البنات، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ـ ولداً، فالهمزةُ لإنكار الواقع واستقباحه.

وجُوِّز انتصابُ «مَنْ» بمضمر معطوف على «اتَّخذ»، فالهمزة حينئذ لإنكار الوقوع واستبعادِه، وإقحامُها بين المعطوفين لِتذكير ما في «أَمْ» المُنقطعة من الإنكار، والعطفُ للتغاير العنواني، أي: أَواتَّخذ سبحانه مَنْ هذه الصِّفة الذميمة [صفته][4] ولداً.

---

(١) تحرفت في (م) إلى: الولد.
(٢) الرجز في البيان والتبيين ١/١٨٦ و٤/٤٧، والكشاف ٣/٤٨٢، وتفسير القرطبي ١٩/١٨.
(٣) الكشاف ٣/٤٨٢، وتفسير القرطبي ١٩/١٨.
(٤) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/٤٢، وعنه نقل المصنف.

﴿وَهُوَ﴾ مع ما ذُكر من القُصور ﴿فِي ٱلْخِصَامِ﴾ أي: الجِدال الذي لا يكاد يخلو عنه إنسانٌ في العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾ غيرُ قادر على تقرير دعواه وإقامةِ[1] حُجَّته لِنُقصان عَقْله وضَعْفِ رأيه. والجارُّ متعلِّق بـ «مبين». وإضافةُ «غير» لا تمنع عملَ ما بعدَها فيه؛ لأنه بمعنى النفي فلا حاجةَ لجعله متعلِّقاً بمقدَّر.

وجُوِّز كون «مَنْ» مبتدأ محذوف الخبر، أي: أَوَمَنْ حالُه كيتَ وكيتَ ولدُه عز وجل؟! وجعل بعضُهم خبرَه: جعلوه ولداً لله سبحانه وتعالى، أو: اتَّخذه جل وعلا ولداً.

وعن ابن زيد أن المرادَ بـ «مَنْ يُنَشَّأ في الحِلية» الأصنامُ، قال: وكانوا يتَّخذون كثيراً منها من الذهب والفضة، ويجعلون الحلي على كثير منها.

وتُعقِّب بأنه يُبعِدُ هذا القولَ قولُه تعالى: (وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) إلا إنْ أُريد بنفي الإبانة نفي الخِصام، أي: لا يكون منها خِصامٌ فإبانة، كقوله:

على لاحبٍ لا يُهتدَى بمنارِه[2]

وعندي أنَّ هذا القول بعيدٌ في نفسه، وأنَّ الكلامَ أعني قولَه سبحانه: «أم اتَّخذ» إلى هنا واردٌ لمزيد الإنكار في أنهم قومٌ مِن عادتهم المناقضةُ ورميُ القول من غير علم.

وفي المَجيء بـ «أمْ» المنقطعة وما في ضِمنها من الإضراب دليلٌ على أن مُعتمد الكلام إثباتُ جهلهم ومناقضتهم لا إثبات كُفرهم، لكنه يُفهم منه كما سمعتَ وتسمع إن شاء الله تعالى.

وقرأ الجحدري في روايةٍ: «يُنْشَأ» مبنياً للمفعول مُخفَّفاً، وقرأ الحسن في رواية أيضاً: «يُناشَأ» على وزن يُفاعل مبنيّاً للمفعول[3]، والمناشاة بمعنى الإنشاء،

---

(١) في (م): وإقامته.

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، وعجزه: إذا سافه العَوْد النباطي جرجرا. قال شارحه: اللاحب: الطريق البين، لا يُهتدى بمناره: ليس فيه عَلَمٌ ولا منار فيهتدى به، إذا سافه العود: أي: إذا شمَّه المسن من الإبل صوَّت ورغا لبعده وما يلقى من مشقته.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٤.

كالمغالاة بمعنى الإغلاء. وقرأ الجمهور: «يَنْشَأُ» مبنياً للفاعل[١].

والآية ظاهرةٌ في أنَّ النشوءَ في الزِّينة والنُّعومة من المعايب والمَذامِّ، وأنه من صفات ربَّات الحِجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك، ويأنفَ منه، ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا في اللِّباس، واخشوشبوا في الطعام، وتمعدَدوا[٢]. وإنْ أراد أنْ يُزيِّن نفسَه زيَّنها من باطن بلباس التقوى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ - أي: سَمَّوا وقالوا: إنهم إناث. قال الزجاج: الجَعْل في مِثْله بمعنى القول والحُكم على الشيء؛ تقول: جعلتُ زيداً أعلمَ الناس، أي: وَصَفتُه بذلك وحكمتُ به[٣]. واختار أبو حيان أن المعنى: صيَّروهم في اعتقادهم إناثاً[٤] - اعتراضٌ واردٌ لإثبات مُناقضتهم أيضاً وادِّعاء ما لا علمَ لهم به المؤيِّد لجعله معتمدَ الكلام على ما سبق آنفاً، فإنهم أنَّثوهم في هذا المعتقد من غير استنادٍ إلى علم، فأرشد إلى أنَّ ما هم عليه من إثباتِ الولد مثلُ ما هم عليه من تأنيث الملائكة عليهم السلام في أنهما سُخفٌ وجهلٌ كانا كُفرين أوْ لا، نعم هما في نفس الأمر كفران، أما الأول فظاهر، وأما الثاني فللاستخفاف برسُلِهِ سبحانه - أعني الملائكة - وجعلهم أنقصَ العباد رأياً وأخسَّهم صنفاً وهم العِباد المُكرمون المبرَّؤون من الذُّكورة والأُنوثة، فإنهما من عوارض الحيوان المتغذِّي المُحتاج إلى بقاءِ نوعه لعدم جَريان حِكمة الله تعالى ببقاء شخصه. وليس ذلك عطفاً على قوله سبحانه: (وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا) لما عَلِمتَ من أنَّ الجملة في موضع الحال من فاعل «لَيقولن» ولا يحسنُ بحسب الظاهر أن يقال: لَيقولنَّ خلقهنَّ العزيز العليم وقد جعلوا الملائكة إناثاً.

---

(١) التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/٣٦٨. وقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: «يُنَشَّأُ».

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٥/٣٣٩ بلفظ: اخشوشنوا واخشوشبوا واخلولقوا وتمعددوا كأنكم معدٌّ...، وقد ورد الخبر بروايات مختلفة كما في مصنف عبد الرزاق (١٩٩٩٤)، ومسند أحمد (٣٠١)، وصحيح ابن حبان (٥٤٥٤). ومعنى اخشوشنوا: البسوا الخشن. واخشوشبوا: كلو الغليظ من الطعام. ينظر غريب الحديث للحربي ٢/ ٥٤٥-٥٤٦.

(٣) معاني القرآن ٤/ ٤٠٧.

(٤) البحر ٨/ ١٠.

وقُرئ: «عَبيدُ» جمع عبد[١]، وكذا «عِبادُ»، وقيل: عِبادُ جمع عابد، كصائم وصِيام، وقائم وقيام.

وقرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والابنان ونافع: «عندَ الرحمن» ظرفاً[٢]، وهو أدلُّ على رفع المنزلة وقُربِ المكانة. والكلامُ على الاستعارةِ في المشهور، لاستحالة العِنديَّةِ المكانية في حقِّه سبحانه. وقرأ أبو عبد الرحمن بالباء، مُفرد عِباد[٣]، والمعنى على الجمع بإرادة الجنس.

وقرأ الأعمش: «عبادَ» بالجمع والنصب، حكاها ابن خالويه، وقال: هي في مصحف ابن مسعود كذلك[٤]. وخرَّج أبو حيان النصبَ على إضمار فعل، أي: الذين هم خلقوا عبادَ الرحمن[٥].

وقرأ زيدُ بن علي: «أُنُثاً» بضمتين[٦] ـ كَكُتب ـ جمع إناثاً، فهو جمعُ الجمع.

وعلى جميع القراءات الحصرُ إذا سُلِّم إضافيٌّ، فلا يتمُّ الاستدلالُ به على أفضلية المَلَكِ على البَشَر.

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ أي: أَحَضَروا خَلْقَ الله تعالى إيَّاهم فشاهدوهم إناثاً حتى يحكُموا بأنوثتهم، فإنَّ ذلك مما يُعلَم بالمشاهدة. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠] وفيه تجهيلٌ لهم وتهكُّمٌ بهم.

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٨٣.

(٢) التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٨ عن الابنين (ابن كثير وابن عامر)، ونافع وأبي جعفر ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ١٠، وقرأ: «عباد» عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٥.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٠.

(٦) المصدر السابق.

وإنما لم يتعرَّض لنفي الدلائل النقلية لأنها في مثل هذا المَطْلب مُفرَّعة على القول بالنبوَّة، وهم الكَفرة الذين لا يقولون بها، ولنفي الدلائل العقلية لظهور انتفائها، والنفي المذكور أظهرُ في التهكّم. فافهم.

وقرأ نافع: «أأُشهدوا» بهمزة داخلة على أشْهدَ الرباعيّ المبنيّ للمفعول[١]، وفي رواية أنه سهَّل هذه الهمزة فجعلها بين الهمزة والواو[٢]، وهي روايةٌ عن أبي عمرو[٣]، وروي ذلك عن علي كرم الله وجهه وابن عباس ومجاهد. وفي أُخرى أنه سهَّلها، وأدخل بينها وبين الأولى ألفاً كراهةَ اجتماع همزتين، ونُسبت إلى جماعة[٤]، والاكتفاءُ بالتسهيل أوجه.

وقرأ الزهري وناسٌ: «أُشْهِدوا» بغير استفهام مبنيّاً للمفعول رباعيّاً[٥]، فقيل: المعنى على الاستفهام نحو قوله:

قالوا تُحبها قلتُ بهراً[٦]

وهو الظاهر، وقيل: على الإخبار، والجملةُ صفة «إناثاً» وهم وإن لم يشهدوا خَلْقَهم لكن نُزِّلوا لجراءتهم على ذلك منزلةَ مَنْ أُشْهِدَ، أو المراد أنهم أَطْلَقوا عليهم الإناث المعروفات لهم اللاتي أُشهدوا خلقهنَّ لا صنفاً آخرَ من الإناث. ولا يخفى ما في كلا التأويلين من التكلُّف.

﴿سَتُكْتَبُ﴾ في ديوان أعمالهم ﴿شَهَٰدَتُهُمْ﴾ التي شَهِدوا بها على الملائكة

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٢، والبحر ٨/ ١٠ وهي غير المشهورة عنه.

(٢) وهي قراءة نافع في رواية ورش.

(٣) وهي غير المشهورة عنه، والمشهور عنه كقراءة الجمهور: «أَشَهِدوا».

(٤) وهي رواية قالون عن نافع بخلف عنه. وقرأ بها أبو جعفر أيضاً. التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٨-٣٦٩. والكلام السالف في البحر المحيط ٨/ ١٠.

(٥) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٢، والبحر المحيط ٨/ ١٠.

(٦) البيت لعمر بن أبي ربيعة وهو في ديوانه ص٤٣١، والبيت بتمامه:

ثم قالوا تُحِبُّها قلتُ بَهْرا عدد النجم والحصى والتراب

عليهم السلام. وقيل: سألهم الرسول ﷺ: «ما يُدريكم أنهم إناثٌ»؟ فقالوا: سَمِعنا ذلك من آبائنا، ونحن نشهد أنهم لم يَكْذِبوا. فقال الله تعالى: (سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ)(١).

﴿وَيُسْـَٔلُونَ ١٩﴾ عنها يوم القيامة. والكلامُ وعيدٌ لهم بالعقاب والمُجازاة على ذلك والسين للتأكيد، وقيل: يجوز أن تُحمل على ظاهرها من الاستقبال، ويكون ذلك إشارةً إلى تأخير كتابة السيئات لرجاء التوبة والرجوع، كما ورد في الحديث: «إنَّ كاتبَ الحسناتِ أمينٌ على كاتب السيئات، فإذا أرادَ أن يَكْتُبها قال له: توقَّفْ، فيتوقَّف سبعَ ساعات، فإن استغفرَ وتاب لم يَكْتُب»(٢)، فلما كان ذلك من شأن الكتابة قُرنت بالسين، وكونهم كُفَّاراً مُصِرِّين على الكُفر لا يأباه.

وقرأ الزهري: «سيُكتَبُ» بالياء التحتية مبنيّاً للمفعول، وقرأ الحسن كالجمهور إلا أنه قرأ: «شهاداتهم» بالجمع(٣)، وهي قولهم: إنَّ لله سبحانه جُزءاً، وإنَّ له بناتٍ وإنها الملائكة. وقيل: المرادُ ما أُريد بالمفرد، والجمعُ باعتبار التكرار.

وقرأ ابنُ عباس وزيدُ بن علي وأبو جعفر وأبو حيوة وابن أبي عَبْلة والجَحْدري والأعرج: «سَنكتُب» بالنون مبنيّاً للفاعل «شهادتَهم» بالنصب والإفراد(٤).

وقرأتْ فرقةٌ: «سيَكْتُب» بالياء التحتية مبنيّاً للفاعل وبإفراد «شهادتهم» ونصبها(٥)، أي: سيكتب الله تعالى شهادتَهم.

وقرئ: «يُساءلون» من المفاعلة للمبالغة(٦).

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره عند هذه الآية ونسبه للكلبي.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٩٧١) من حديث أبي أُمامة ﵁، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٨: فيه جعفر بن الزبير، وهو كذاب.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٥.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٠، وهي خلاف المشهور عن أبي جعفر، ونسبها للأعرج ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٠.
(٦) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٨٣.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ عطفٌ على قوله سبحانه: «وجعلوا الملائكة» إلخ إشارةً إلى أنه من جنس ادِّعائهم أُنوثةَ الملائكة في أنهم قالوه من غير عِلْم، ومرادُهم بهذا القول ـ على ما قاله بعضُ الأجِلَّة ـ الاستدلالُ بنفي مشيئة الله تعالى تركَ عبادة الملائكة عليهم السلام على امتناع النهي عنها، أو على حُسنها، فكأنهم قالوا: إنَّ الله تعالى لم يَشأْ تركَ عبادتنا الملائكةَ، ولو شاء سبحانه ذلك لتحقَّق، بل شاء جلَّ شأنه العبادةَ لأنها المُتحقِّقةُ، فتكون مأموراً بها أو حسنةً، ويمتنع كونها مَنهيّاً عنها أو قبيحةً، وهو استدلالٌ باطلٌ؛ لأن المشيئة لا تستلزم الأمرَ أو الحُسن؛ لأنها ترجيحُ بعض المُمكنات على بعض حسناً كان أو قبيحاً، فلذلك جُهِّلوا بقوله سبحانه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ القولِ على الوجه الذي قصدوه منه، وحاصلُه يرجع إلى الإشارة إلى زعمهم أن المشيئة تقتضي طباقَ الأمر لها أو حُسنَ ما تعلَّقت به. ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يستند إلى سندٍ ما.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يكذبون، كما فسَّره به غير واحد، ويُطلق الخَرْص على الحَزْر، وهو شائع، بل قيل: إنه الأصل، وعلى كلٍّ هو قولٌ عن ظنٍّ وتخمين.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ إضرابٌ عن نفي أن يكونَ لهم بذلك علمٌ من طريق العقل إلى إبطال أن يكون لهم سندٌ من جهة النَّقل؛ فـ «أم» منقطعة، لا متَّصلةٌ معادِلةٌ لقوله تعالى: «أَشَهدوا» ـ كما قيل ـ لبُعده. وضمير «قَبله» للقرآن لِعلمه من السِّياق، أو الرسول عليه الصلاة والسلام، وسين «مُستمسكون» للتأكيد لا للطلب، أي: بل آتيناهم كتاباً مِن قَبلِ القرآن، أو من قَبلِ الرسول ﷺ يَنْطِقُ بصحة ما يدَّعونه، فهم بذلك الكتاب مُتمسِّكون، وعليه مُعوِّلون.

وقوله جل وعلا: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ إبطالٌ لأن يكون لهم حُجَّةٌ أصلاً، أي: لا حُجَّةَ لهم على ذلك عقليةً ولا نقليةً، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجَهَلة مِثلهم.

والأُمَّة: الدِّين والطريقة التي تُؤَمّ، أي: [تُقْصَد][(١)]، كالرُّحْلة: للرجل العظيم الذي يُقصَد في المُهِمَّات، يقال: فلان لا أُمَّة له، أي: لا دينَ ولا نحْلةَ، قال الشاعر:

وهــل يـسـتـوي ذو أُمَّــة وكــفــور[(٢)]

وقال قيس بن الخطيم:

كُـنَّـا عـلـى أمَّـةِ آبـائـنـا ... ويـقـتـدي بـالأولِ الآخِـرُ[(٣)]

وقال الجُبَّائي: الأُمَّة: الجماعة، والمرادُ: وجدنا آباءنا متوافقين على ذلك. والجمهور على الأول وعليه المُعوَّل.

ويقال فيها: إمَّة ـ بكسر الهمزة أيضاً ـ وبها قرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والجحدري. وقرأ ابنُ عباس[(٤)]: «أَمَّة» بفتح الهمزة، قال في «البحر»[(٥)]: أي: على قَصْد وحال.

و«على آثارهم مهتدون» قيل: خبران لـ «إنَّ»، وقيل: «على آثارهم» صلة «مهتدون»، و«مهتدون» هو الخبر.

هذا، وجعل الزمخشري[(٦)] الآية دليلاً على أنه تعالى لم يشأ الكفر من الكافر، وإنما شاء سبحانه الإيمان، وكفَّر أهلَ السنة القائلين بأنَّ المقدوراتِ كلَّها بمشيئة الله تعالى، ووجّه ذلك بأنَّ الكُفَّار لمَّا ادَّعَوا أنه تعالى شاء منهم الكُفر حيث قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إلخ ـ أي: لو شاء جل جلاله مِنَّا أن نتركَ عبادةَ الأصنام تركناها ـ ردَّ الله تعالى ذلك عليهم، وأبطل اعتقادَهم بقوله سبحانه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ إلخ،

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ٤٣، وحاشية الشهاب ٧/ ٤٣٩.
(٢) لم نقف على تتمته، وهو هكذا في الصحاح واللسان (أمم)، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٥.
(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ١١، والسمين في الدر ٩/ ٥٨١.
(٤) في الأصل و(م): ابن عياش، والمثبت من المصادر، وهذه القراءة والتي قبلها ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٤، وأبو حيان في البحر ٨/ ١١.
(٥) ٨/ ١١.
(٦) في الكشاف ٣/ ٤٨٣-٤٨٤، وينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٨.

فلزم حقيَّةُ[١] خلافِهِ، وهو عينُ ما ذَهَبَ إليه، والجملة عطف على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أو على «جعلوا الملائكة» إلخ، فيكون ما تضمَّنته كفراً آخرَ، ويلزمه كفر القائلين بأنَّ الكُلَّ بمشيئته عز وجل. ومما سمعتَ يُعلَم ردُّه.

وقيل في رَدِّه أيضاً: يجوز أن يكون ذلك إشارةً إلى أصل الدعوى، وهو جعلُ الملائكة عليهم السلام بناتِ الله ـ سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوّاً كبيراً ـ دون ما قصدوه من قولهم: «لو شاء» إلخ، وما ذكر بعد أصل الدعوى من تتمَّتها، فإنه حكايةُ شُبهتهم المُزيَّفة؛ لأن العبادةَ للملائكة وإن كانت بمشيئته تعالى لكنَّ ذلك لا يُنافي كونَها من أقبحِ القبائح المَنهيّ عنها، وهذا خلافُ الظاهر.

وقال بعضُ الأَجِلَّة: إنَّ كُفرهم بذلك لأنهم قالوه على جهة الاستهزاء.

وردَّه الزمخشري بأن السِّياق لا يدلُّ على أنهم قالوه مُستهزئين؛ على أن[٢] الله تعالى قد حكى عنهم على سبيل الذمِّ والشهادة بالكُفر أنهم جعلوا له سبحانه جُزءاً، وأنه جل وعلا اتَّخذ بناتٍ واصطفاهم بالبنين، وأنهم جعلوا الملائكةَ المُكرمين إناثاً، وأنهم عبدوهم وقالوا: «لو شاء الرحمن ما عبدناهم»، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهُزء لكان النُّطق بالمَحْكِيَّات قبلَ هذا المَحْكي الذي هو إيمانٌ عنده لو جدُّوا بالنُّطق به مدحاً لهم من قِبَلِ أنها كلماتُ كُفر نطقوا بها على طريق الهُزء، فبقي أن يكونوا جادِّين، وتشترك كلها في أنها كلماتُ كُفر، فإنْ جعلوا الأخير وحدَه مقولاً على وجه الهُزء دون ما قبله فما بهم إلا تعويجُ كتاب الله تعالى، ولو كانت هذه كلمةَ حقٍّ نطقوا بها هُزءاً لم يكن لقوله سبحانه: ﴿مَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ إلخ معنى؛ لأنَّ الواجبَ فيمن تكلَّم بالحق استهزاءً أن يُنكَر عليه استهزاؤه ولا يُكذَّب[٣].

ولا يخفى أن ردَّه بأنه لا يدلُّ عليه السِّياق صحيحٌ. وأما ما ذكر من حكايةِ الله سبحانه والتعويج فلا؛ لأنه تعالى ما حكى عنهم قولاً أولاً، بل أثبت لهم اعتقاداً يتضمَّن قولاً أو فعلاً، وقد بيَّن أنهم مُستخِفُّون في ذلك العَقْد كما أنهم مُستخِفُّون

---

(١) في (م): حقيقة.
(٢) قوله: أن، ليس في (م).
(٣) الكشاف ٣/ ٤٨٣.

في هذا القول، فقوله: لو نطقوا. . إلخ لا مَدْخلَ له في السابق، وليس فيه تعويجٌ ألبتة من هذا الوجه، وكذلك قوله: لم يكن لقوله تعالى: «ما لهم» إلخ معنًى، مردودٌ؛ لأن الاستهزاءَ بابٌ من الجهل كما يدلُّ عليه قولُ موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وقد تقدم في البقرة [الآية:٦٧]. وأما الكذب فراجعٌ إلى مضمونه والمراد منه كما سمعتَ، فمن قال: لا إله إلا الله استهزاءً، مكذّب فيما يلزم من أنه إخبار عن إثبات التعدُّد؛ لأنه إخبارٌ عن التوحيد. فافهم. كذا في «الكشف».

وفيه أيضاً: إن قولهم: «لو شاء الرحمن» إلخ، فُهم كونُه كفراً من أوجه:

أحدها: أنه اعتذارٌ عن عبادتهم الملائكةَ عليهم السلام التي هي كُفر، وإلزام أنه إذا كان بمشيئته تعالى لم يكن مُنكراً.

والثاني: أن الكُفر والإيمان بتصديق ما هو مُضطر إلى العلم بثبوته بديهةً أو استدلالاً متعلقاً بالمبدأ والمَعاد وتكذيبه لا بإيقاع الفعل على وَفْق المشيئة وعَدَمه.

والثالث: أنهم دفعوا قولَ الرُّسل بدعوتهم إلى عبادته تعالى ونَهْيهم عن عبادة غيره سبحانه بهذه المَقالة، ثم إنهم مُلزمون على مساق هذا القول؛ لأنه إذا استند الكلُّ إلى مشيئته تعالى شأنه فقد شاء إرسالَ الرُّسل، وشاء دعوتهم للعباد، وشاء سبحانه جُحودَهم، وشاء جل وعلا دُخولَهم النار، فالإنكار والدَّفعُ بعد هذا القول دليلٌ على أنهم قالوه لا عن اعتقاد، بل مجازفةً، وإليه الإشارة بقوله تعالى في مثله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩].

وفيه أنهم يُعجِّزون الخالق بإثبات التمانع بين المشيئة وضدِّ المأمور به فيلزم أن لا يُريد إلا ما أمر سبحانه به، ولا ينهى جل شأنه إلا وهو سبحانه لا يُريده، وهذا تعجيزٌ من وجهين؛ إخراج بعض المَقدورات عن أن يصيرَ محلَّها، وتضييق محلّ أَمره ونَهْيه؛ وهذا بعينه مذهب إخوانهم من القَدَريّة؛ ولهذه النكتة جعل قولهم: «وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم» معتمدَ الكلام، ولم يقل: وعبدوا الملائكةَ وقالوا: لو شاء، ونظيرُ قولهم في أنه إنما أتى به لِدَفْع ما عُلم ضرورةً قولُه تعالى

عنهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] فالدَّفع كفرٌ والتعجيزُ كفرٌ في كُفر.

وقوله تعالى: (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ) يحتمل أن يرجع إلى جميع ما سبق من قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ) إلى هذا المقام، ويحتمل أن يرجعَ إلى الأخير، فقد ثبت أنهم قالوه من غير علم، وهو الأظهر، للقُرب وتعقيبِ كلٍّ بإنكارٍ مستقل، وطِباقِهِ لِمَا في «الأنعام»[1].

وقوله سبحانه: (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) على هذا التكذيب المفهوم منه راجعٌ إلى استنتاج المقصود من هذه اللُّزومية، فقد سبق أنها عليهم لا لهم، ولوَّح إلى طرفٍ منه في سورة «الأنعام» أو إلى الحُكم بامتناع الانفكاك مع تجويز الحاكم الانفكاكَ حالَ حُكمه، فإنَّ ذلك يدلُّ على كَذبِه وإن كان ذلك الحُكم في نفسه حقّاً صحيحاً يحقُّ أن يعلم، كما تقول: زيد قائمٌ قطعاً، أو: ألبتة، وعندك احتمالُ نقيضه. وليس هذا رجوعاً إلى مذهب من جعل الصِّدق بطباقه للمعتقَد، فافهم. على أنه لما كان اعتذاراً على ما مرَّ صحَّ أن يرجع التكذيب إلى أنه لا يصلحُ اعتذاراً، أي: إنهم كاذبون في أن المشيئةَ تقتضي طباقَ الأمر لها، وهذا ما آثره الإمام[2] والعلامة والقاضي[3]. والظاهرُ ما قدَّمناه.

وتعقيبُ الخرص على وجه البيان أو الاستئناف عن قوله تعالى: (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ) وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في سورة «الأنعام» [الآية: ١٤٨] دليلٌ على ما أشرنا، فقد لاح لِلمُسترشد أنَّ الآيةَ تصلحُ حُجَّةً لأهل السنة لا للمعتزلة.

وقال في آية سورة «الأنعام»[4]: إنَّ قولَهم هذا إما لدعوى المشروعية ردّاً للرسل، أو لتسليم أنهم على الباطل اعتذاراً بأنهم مجبورون، والأولُ باطلٌ؛ لأنَّ المشيئةَ تتعلَّق بفعلهم المشروع وغيره، فما شاء الله تعالى أن يقعَ منهم مشروعاً وقع

---

(١) الآية (١٤٨).

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٤ وما بعدها.

(٣) ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٨.

(٤) وقد ذكره المصنف عنه (أي: عن صاحب الكشف) ١٤/ ١٠٣ عند تفسير الآية (٣٥) من سورة النحل.

كذلك، وما شاء الله تعالى أن يقعَ لا كذلك وقع لا كذلك، ولا شك أنَّ من توهَّم أن كون الفعل بمشيئته تعالى يُنافي مجيء الرُّسل عليهم السلام بخلاف ما عليه المُباشِر من الكُفر والضلال فقد كذَّب التكذيبَ كلَّه، وهو كاذب في استنتاج المقصود من هذه اللُّزومية، وظاهرُ الآية مَسوقٌ لهذا المعنى. والثاني على ما فيه من حصول المقصود ـ وهو الاعترافُ بالبطلان ـ باطلٌ أيضاً، إذ لا جبرَ؛ لأن المشيئةَ تعلَّقت بأن يُشركوا اختياراً منهم، والعلمُ تعلَّق كذلك فهو يؤكِّد دفعَ العُذْر(١) لا أنه يُحقِّقه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩]. ثم إنهم كاذبون في هذا القول لجزمهم حيث لا ظنّ مطلقاً فضلاً عن العلم، وذلك لأنَّ من المعلوم أن العلمَ بصفات الله سبحانه فرعُ العلم بذاته جل وعلا، والإيمانُ بها كذلك، والمُحتجُّون به كَفَرةٌ مُشركون مُجَسِّمون. ونقل العلامة الطيبي نحواً من الكلام الأخير عن إمام الحرمين عليه الرحمة في «الإرشاد»(٢). اهـ.

وقد أطال العلماءُ الأعلامُ الكلامَ في هذا المقام، وأرى الرجل ـ سقى الله تعالى مَرْقَده صَيِّبَ الرِّضوان ـ قد مَخَضَ كلَّ ذلك، وأتى بزبْده، بل لم يتركْ من التحقيق شيئاً لمن أتى مِن بعدِه. فتأمل. والله عز وجل هو الموفق.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: والأمرُ كما ذُكر من عَجْزهم عن الحُجَّة مطلقاً وتَشَبُّثهم بذيل التقليد، وقوله سبحانه: ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ استئنافٌ مُبيِّن لذلك دالٌّ على أن التقليدَ فيما بينهم ضلالٌ قديمٌ لأسلافهم، وأنَّ متقدميهم أيضاً لم يكن لهم سندٌ منظورٌ إليه، وتخصيصُ المُتْرَفين بتلك المَقالة للإيذان بأنَّ التنعمّ وحبَّ البطالة صَرَفَهم عن النظر إلى التقليد.

﴿قَٰلَ﴾ حكاية لِمَا جرى بين المُنذرِين وبين أُمَمهم عند تعلُّلهم بتقليد آبائهم، أي: قال كلُّ نذير من أولئك المُنذرين لأُمَّته: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ أي: أَتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ بدينٍ أهدى ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء. وإنما عبَّر عنها بذلك مُجاراة معهم على مَسْلك الإنصاف.

---

(١) في الأصل و(م): القدر، والمثبت مما سلف ١٤/١٠٣.

(٢) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص٢٢٠.

وقرأ الأكثرون: «قل»(١) على أنه حكايةُ أمر ماضٍ أُوحي إلى كلِّ نذير، أي: فقيل ـ أو: قلنا ـ للنذير: قل.. إلخ، واستظهر في «البحر»(٢) كونَه خطاباً لنبينا ﷺ. والظاهرُ هو ما تقدَّم لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فإنه ظاهرٌ جدّاً في أنه حكايةٌ عن الأمم السالفة، أي: قال كلُّ أُمة لنذيرها: «إنَّا بما أُرسلتُم به» إلخ. وقد أجمل عند الحكاية للإيجاز كما قرِّر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وجعلُه حكايةً عن قومه عليه الصلاة والسلام بحمل صيغة الجمع على تغليبه ﷺ على سائر المُنذِرين، وتوجيه كُفرهم إلى ما أُرسل به الكُلُّ من التوحيد لإجماعهم عليه عليهم السلام كما في نحو قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣] = تمحُّلٌ بعيد، وأيضاً يأباه ظاهرُ قوله سبحانه ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فإنَّ ظاهرَه كونُ الانتقام بعذاب الاستئصال، وصاحب «البحر» يحمله على الانتقام بالقحط والقتل والسبي والجَلاء(٣).

وقرأ أُبيّ وأبو جعفر وشيبة وابن مِقْسم والزعفراني وغيرهم: «أو لو جئناكم» بنون المُتكلِّمين(٤)، وهي تؤيد ما ذهبنا إليه.

والأمرُ بالنظر فيما انتهى إليه حالُ المكذِّبين تسليةٌ له ﷺ وإرشادٌ إلى عَدَمِ الاكتراثِ بتكذيب قومه إياه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: واذْكُر لهم وقتَ قوله عليه الصلاة والسلام ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ المُكبِّين على التقليد كيف تبرَّأ مما هم فيه بقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وتمسَّك بالبُرهان. والكلامُ تمهيدٌ لِمَا أهلُ مكة فيه من العِناد والحسد والإباء عن تدبّر الآيات، وأنهم لو قلَّدوا آباءهم لكان الأولى أن يُقلِّدوا أباهم

---

(١) التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٩. وقرأ ابن عامر وحفص «قال».

(٢) ٨/ ١١.

(٣) البحر ٨/ ١١.

(٤) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦٩، وقراءة الباقين في البحر المحيط ٨/ ١١.

الأفضلَ الأعلمَ الذي هم يفتخرون بالانتماء إليه، وهو إبراهيمُ عليه السلام، فكأنه بعد تعييرهم على التقليد يُعيِّرهم على أنهم مسيئون في ترك اختياره أيضاً.

و«براءٌ» مصدرٌ، كالطلاق نعت به مبالغةً، ولذلك يستوي فيه الواحدُ والمُتعدِّد، والمذكَّر والمؤنَّث.

وقرأ الزعفراني والقورصي عن أبي جعفر وابن المناذري[1] عن نافع[2] «بُراء» بضمِّ الباء، وهو اسمٌ مفردٌ، كطُوال وكُرام بضمِّ الكاف. وقرأ الأعمش: «بريء» وهو وصفٌ، كطويل وكريم، وقراءةُ العامة لغةُ العالية، وهذه لغة نَجد. وقرأ الأعمش أيضاً: «إنِّي» بنون مُشدَّدة دون نون الوقاية[3].

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناءٌ متصلٌ إنْ قلنا: إنَّ «ما» عامةٌ لِذوي العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله تعالى والأصنامَ، وليس هذا من الجمع بين الله تعالى وغيره سبحانه الذي يجب اجتنابُه لما فيه من إيهام التسوية بينه سبحانه وبين غيره جل وعلا؛ لظُهور ما يدلُّ على خلاف ذلك في الكلام.

أو منقطعٌ بناءً على أن «ما» مختصَّة بغير ذوي العلم، وأنه لا يُناسب التغليبَ أصلاً، وأنهم لم يكونوا يعبدونه تعالى، أو أنهم كانوا يعبدونه عز وجل إلا أن عبادَته سبحانه مع الشِّرك في حُكم العَدَم، وعلى الوجهين محلُّ الموصول النصب.

وأجاز الزمخشري[4] أن يكون في محلِّ جرّ على أنه بدلٌ من «ما» المجرور بـ «من». وفيه بحثٌ؛ لأنه يصيرُ استثناءً من المُوجب، ولم يُجوِّزوا فيه البدل، ووَجْهُه أنه في معنى النفي؛ لأنَّ معنى «إنني بَراءٌ مما تعبدون»: لا أعبدُ ما تعبدون، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢] إلا أنَّ ذلك في

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والبحر المحيط ٨/ ١١ وعنه نقل المصنف، ولم نعرفه، ولعله: ابن المنادي كما في الدر المصون ٩/ ٥٨٢، وابن المنادي: هو أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله، أبو الحسين البغدادي الحنبلي، الإمام المشهور، حافظ متقن ضابط. توفي سنة (٣٣٦هـ). طبقات القراء ١/ ٤٤.

(٢) وهي غير المشهورة عنه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٦.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٨٤.

المُفرّغ، وهذا فيما ذكر فيه المُستثنى منه، وهم لا يخصُّونه بالمُفرَّغ ولا بألفاظٍ مخصوصة أيضاً ك: أبى وقلّما، نعم إنَّ أبا حيان[1] يأبى إلا أنه مُوجب، ولا يعتبر النفي معنى.

وأجاز أيضاً أن تكون «إلا» صفة بمعنى «غير» على أن «ما» في «ما تعبدون» نكرة موصوفة، والتقدير: إنني براءٌ من آلهة تعبدونها غيرَ الذي فطرني، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢][2]. واعتبار «ما» نكرة موصوفة بناءً على أن «إلا» لا تكون صفةً إلا لنكرة، وكذا اعتبارها بمعنى الجمع بناءً على اشتراط كون النكرة الموصوفة بها كذلك، والمسألة خلافية، فمن النحويِّين من قال: إنّ «إلا» يُوصَف بها المعرفة والنكرة مطلقاً، وعليه لا يحتاج إلى اعتبار كون «ما» نكرة بمعنى آلهة.

وفي جعل الصلة «فطرني» تنبيهٌ على أنه لا يستحقُّ العبادةَ إلا الخالقُ للعابد.

﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ يُثَبّتني على الهداية، فالسين للتأكيد لا للاستقبال، لأنه جاء في «الشعراء» [الآية: ٦٢] يهدين بدونها والقصةُ واحدة. والمضارع في الموضعين للاستمرار. وقيل: المراد: «سيهدين» إلى وراء ما هداني إليه أولاً، فالسين على ظاهرها، والتغايرُ في الحكاية والمَحكي بناءً على تكرُّر القصة.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضمير المرفوع المُستتر لـ «إبراهيم» عليه السلام، أو لله عز وجل. والضمير المنصوب لكلمة التوحيد، أعني: لا إله إلا الله؛ كما رُوي عن قتادة ومجاهد والسدي. ويُشعر بها قوله: «إنني براء مما تعبدون» إلخ، وجوِّز أن يعودَ على هذا القول نفسه، وهو أيضاً كلمةٌ لغةً.

﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذُرِّيَّته عليه السلام، فلا يزالُ فيهم مَن يُوحِّد الله تعالى ويدعو إلى توحيده عز وجل.

وقرأ حُميد بن قيس: «كِلْمة» بكسر الكاف وسكون اللام، وهي لغةٌ فيها،

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٨٤.

وقُرئ «في عَقْبه» بسكون القاف تخفيفاً، و«في عاقبه»[١] أي: مَن عَقِبه، أي: خَلَفه، ومنه تسميةُ النبيِّ ﷺ بالعاقب[٢]؛ لأنه آخرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ تعليلٌ للجَعْل، أي: جعلها باقيةً في عَقِبه كي يرجعَ من أشرك منهم بدعاء من وحَّد، أو بسبب بقائها فيهم، والضميران للعَقِب، وهو بمعنى الجمع. والأكثرون على أنَّ الكلامَ بتقدير مضاف، أي: لعلَّ مُشركيهم. أو الإسناد من إسناد ما للبعض إلى الكلِّ.

وأوَّلوا «لعل» بناءً على أن الترجِّي من الله سبحانه، وهو لا يصح في حقِّه تعالى، أو منه عليه السلام لكنه من الأنبياء في حكم المُتحقّق، ويجوز تركُ التأويل كما لا يخفى، بل هو الأظهرُ إذا كان ذاك من إبراهيم عليه السلام.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أهل مكة المعاصرين للرسول ﷺ ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالمَدِّ في العُمر والنعمة ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ دعوةُ التوحيد أو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾ ظاهرُ الرسالة بما لَه من المعجزات الباهرات، أو مُبينٌ للتوحيد بالآيات البيِّنات والحُجَجِ القاطعات. والمراد بالتمتيع ما هو سببٌ له من استمتاعهم بما مُتعوا واشتغالهم بذلك عن شُكر المنعم وطاعته والغاية لذلك، فكأنه قيل: اشتَغلوا حتى جاء الحقُّ، وهي غايةٌ له في نفس الأمر؛ لأن مجيء الرسول مما يُنبِّه عن سِنَةِ الغفلة، ويزجر عن الاشتغال بالملاذِّ، لكنهم عكسوا، فجعلوا ما هو سببٌ للتنصُّل سبباً للتوغُّل، فهو على أسلوب قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١-٤]. و«بل مَتَّعت» إضرابٌ عن قوله جل شأنه (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) كأنه قيل: بل مَتَّعْتُ مشركي مكة وأشغلتهم بالملاهي والمَلاذِّ فاشتغلوا فلم يرجعوا، أو فلم يحصل ما رجاه من رجوعهم عن الشِّرك، وهو في الحقيقة إضرابٌ عن التمهيد الذي سمعت وشروعٌ في المقصود، لكن رُوعي فيه المناسبةُ بما قَرُبَ من جملة الإضراب أعني «لعلهم يرجعون».

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٧٣٤)، والبخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه بلفظ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي... وأنا العاقب».

وفي «الحواشي الشهابية»[١] أنه إضرابٌ عن قوله تعالى: «وجعلها» إلخ، أي: لم يرجعوا فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل أعطيتُهم نِعماً أُخَرَ غيرَ الكلمةِ الباقيةِ لأجل أن يشكروا مُنْعِمَها ويُوحِّدوه فلم يفعلوا، بل زاد طُغيانهم لاغترارهم، أو التقدير: ما اكتفيتُ في هدايتهم بجعل الكلمة باقيةً فيهم بل مَتَّعتهم وأرسلتُ رسولاً.

وقرأ قتادة والأعمش: «بل مَتَّعتَ» بتاء الخطاب، ورواها يعقوبُ عن نافع[٢]، وهو من كلامهِ تعالى على سبيل التجريد لا الالتفاتِ - وإنْ قيل به في مثله أيضاً - كأنه تعالى اعترضَ بذلك على نفسه جل شأنه في قوله سبحانه: «وجعلها» إلخ، لا لتقبيح فعله سبحانه بل لِقَصْد زيادة توبيخ المشركين، كما إذا قال المُحسن على مَن أساء مخاطباً لنفسه: أنتَ الداعي لإساءته بالإحسان إليه ورعايته، فيبرز كلامُه في صورة من يعترضُ على نفسه ويُوبِّخها حتى كأنه مُستحِقٌّ لذلك، وفي ذلك من توبيخ المُسيء ما فيه.

وقال صاحب «اللوامح»: هو من كلام إبراهيم عليه السلام ومناجاته ربَّه عز وجل. وقال في «البحر»: الظاهرُ أنه من مناجاة الرسول ﷺ على معنى: قل: يا ربِّ مَتَّعتَ[٣]. والأولُ أولى، وهو الموافقُ للأصل المشهور.

وقرأ الأعمش: «متَّعنا» بنون العظمة[٤].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لِيُنبِّههم عمَّا هم فيه من الغَفْلة ويُرشِدَهم إلى التوحيد ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾ زادوا شرارةً فَضَمُّوا إلى شِركهم معاندةَ الحقِّ والاستخفاف به، فسمَّوا القرآنَ سِحْراً، وكفروا به، واستحقروا رسول الله ﷺ.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي: من إحدى القريتين: مكة والطائف، أو مِن رجالهما، فـ«من» ابتدائية أو تبعيضية. وقرىء: «رَجْل» بسكون

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٤٤٠.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٢، وعنه نقل المصنف كلام صاحب اللوامح.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٥، والبحر المحيط ٨/ ١٢.

الجيم[1] ﴿عَظِيمٍ ۝﴾ بالجاه والمال؛ قال ابن عباس: الذي من مكة الوليد بن المغيرة المخزومي، والذي من الطائف حبيبُ بن عمرو بن عُمير الثقفي. وقال مجاهد: عُتبةُ بن ربيعة وكِنانةُ بن عبد ياليل. وقال قتادة: الوليدُ بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي. وكان الوليدُ بن المغيرة يُسمَّى ريحانةَ قريش، وكان يقول: لو كان ما يقول محمدٌ ﷺ حقًّا لنزل عليَّ أو على أبي مسعود. يعني عروة بن مسعود، وكان يُكنَى بذلك.

وهذا بابٌ آخرُ من إنكارهم للنبوَّة، وذلك أنهم أنكروا أولاً أنْ يكون النبي بشراً، ثم لمَّا بكِّتوا بتكرير الحُجج ولم يبقَ عندهم تصوُّر رواج لذلك جاؤوا بالإنكار من وجهٍ آخرَ، فتحكَّموا على الله سبحانه أن يكونَ الرسول أحدَ هذين، وقولهم: هذا القرآن ذِكْرٌ له، على وجه الاستهانة، لأنهم لم يقولوا هذه المَقالةَ تسليماً، بل إنكاراً، كأنه قيل: هذا الكذبُ الذي يدَّعيه لو كان حقًّا لكان الحقيقَ به رجلٌ من القريتين عظيم، وهذا منهم لجهلهم بأنَّ رتبة الرسالة إنما تستدعي عظيمَ النفس بالتخلِّي عن الرذائل الدَّنية والتحلِّي بالكمالات والفضائل القُدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية.

وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكارٌ فيه تجهيلٌ وتعجيبٌ من تحكُّمهم بنزول القرآن العظيم على مَن أرادوا. والرحمةُ يجوز أن يكون المرادُ بها ظاهرَها، وهو ظاهر كلام «البحر»[2]، ونزّل تعيينهم لمن ينزِلُ عليه الوحي منزلةَ التقسيم لها، وتدخل النبوَّة فيها. ويجوز أن يكونَ المرادُ بها النبوَّة، وهو الأنسب لما قبلُ، وعليه أكثرُ المفسِّرين.

وفي إضافة الربِّ إلى ضميره ﷺ من تشريفه عليه الصلاة والسلام ما فيه، وفي إضافة الرحمة إلى الربِّ إشارةٌ على أنها من صفاتِ الرُّبوبية.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أسبابَ معيشتهم. وقرأ عبد الله وابن عباس والأعمش وسفيان: «معايشهم» على الجمع[3].

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/٣٦، والبحر المحيط ٨/١٣ دون نسبة.

(٢) ٨/١٣.

(٣) البحر ٨/١٣، وذكرها عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥.

﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ قسمةً تقتضيها مشيئتُنا المَبْنية على الحِكَم والمصالح، ولم نُفوِّض أمرَها إليهم عِلْماً منّا بِعَجْزهم عن تدبيرها بالكُلِّية، وإطلاق المعيشة يقتضي أن يكونَ حلالها وحرامها من الله تعالى.

﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ﴾ في الرزق وسائر مبادي المَعاش ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ متفاوتةً بحسب القُرب والبُعد حَسْبَما تقتضيه الحِكمة، فمن ضعيف وقوي، وغني وفقير، وخادم ومخدوم، وحاكم ومحكوم ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ ليستعمل بعضُهم بعضاً في مصالحهم ويستخدموهم في مهنهم ويُسخِّروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم، لا لِكمالٍ في المُوَسَّع عليه، ولا لِنقصٍ في المُقتَّر عليه، ولو فوَّضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا، فإذا كانوا في تدبير خُوَيِّصة أمرهم وما يُصلحهم من متاع الدنيا الدَّنية ـ وهو على طَرَف الثُّمام[(١)] ـ بهذه الحالة، فما ظنُّهم بأنفسهم في تدبير أمر الدِّين، وهو أبعدُ من مَناط العَيُّوق[(٢)]؟ ومن أين لهم البحثُ عن أمر النبوَّة والتخيُّر لها مَنْ يصلح لها ويقوم بأمرها؟

والسُّخرِيّ على ما سمعت نسبةٌ إلى السُّخرة، وهي التذليل والتكليف، وقال الراغب: السُّخري هو الذي يقهر أن يتسخَّر بإرادته[(٣)]. وزعم بعضُهم أنه هنا من السُّخر بمعنى الهُزء، أي: ليهزأ الغنيُّ بالفقير، واستبعده أبو حيان[(٤)]، وقال السمين: إنه غيرُ مناسبٍ للمقام[(٥)].

وقرأ عمرو بن ميمون وابن مُحيصن وابن أبي ليلى وأبو رجاء والوليد بن مسلم: «سِخريّاً» بكسر السين[(٦)]، والمُراد به ما ذكرنا أيضاً.

---

(١) الثُّمام: نبت ضعيف سهل التناول، قالوا: إنه ينبت على قدر قامة المرء، يضرب به المثل في تسهيل الحاجة وقرب النجاح. مجمع الأمثال ٢/ ٣٩٨.

(٢) العَيُّوق: كوكب يطلع مع الثريا، ضربت العرب به المثل في تأكيد بُعد الشيء وما لا يُنال. مجمع الأمثال ١/ ١١٥.

(٣) المفردات في غريب ألفاظ القرآن (سخر)، وعبارته: هو الذي يُقهر فيتسخَّر بإرادته.

(٤) في البحر المحيط ٨/ ١٣.

(٥) الدر المصون ٩/ ٥٨٤، وعبارته: ويَبْعُدُ قولُ بعضهم: إنه استهزاء الغني بالفقير.

(٦) القراءات الشاذة ص١٣٥، والبحر المحيط ٨/ ١٣.

وفي قوله تعالى: «نحن قسمنا» إلخ ما يُزَهِّد في الانكباب على طلب الدنيا، ويُعين على التوكّل على الله عز وجل والانقطاعِ إليه جل جلاله:

فاعتبِرْ نحن قَسمنا بينهم تَلْقَه حقّاً وبالحقِّ نزلْ[1]

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: النبوّة وما يَتْبعها من سعادة الدارين. وقيل: الهدايةُ والإيمان. وقال قتادة والسدي: الجنة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ من حُطام الدنيا الدَّنيَّة، فالعظيم مَن رُزِقَ تلك الرحمة دون ذلك الحُطام الدنيء الفاني.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ استئنافٌ مُبيِّن لحقارة مَتاعِ الدنيا ودَناءة قَدْره عند الله عز وجل، والمعنى: إنَّ حقارةَ شأنه بحيث لولا كراهةُ أن يجتمع الناسُ على الكُفر ويُطبقوا عليه لأعطيناه على أتمِّ وجه مَن هو شرُّ الخلائق وأدناهم منزلةً، فكراهة الاجتماع على الكُفر هي المانعةُ من تمتيع كلِّ كافر والبَسط عليه، لا أنَّ المانعَ كونُ مَتاع الدنيا له قَدْرٌ عندنا. والكراهةُ المذكورة هي وجه الحِكمة في ترك تنعيم كلِّ كافر وبسط الرزق عليه، فلا محذور في تقديرها، وليس ذلك مَبْنيّاً على وجوب رِعاية المصلحة وإرادة الإيمان من الخَلْق ليكون اعتزالاً كما ظُنَّ.

وكأنَّ وجهَ كون البسط على الكُفار سبباً للاجتماع على الكُفر مَزيدُ حُبِّ الناس للدنيا، فإذا رَأَوْا ذلك كفروا لِينالوها، وهذا على معنى أن الله تعالى شأنه عَلِمَ أنه لو فعل ذلك لدعا الناسَ إذْ ذاك حُبُّهم للدنيا إلى الكُفر، فلا يقال: إنَّ كثيراً من الناس اليومَ يتحقَّق الغنى التامّ لو كفر ولا يكفر ولو أكره عليه بالقتل. وكونُ المرادِ بالأمر الواحد الذي يقتضيه كونُهم أمَّةً واحدة ـ فإنه بمعنى اجتماعهم على أمرٍ واحد ـ الكفرَ بقرينة الجواب.

و«لبيوتهم» بدل اشتمال من قوله تعالى: «لمن يكفر» واللام فيهما للاختصاص، أو هما مُتعلِّقان بالفعل لا على البَدليَّة، ولام «لمن» صلة الفعل لِتعدِّيه باللام، فهو

---

(١) البيت لابن الوردي وهو أحد أبيات لاميته الشهيرة. فتح الرحيم الرحمن شرح لامية ابن الوردي ص٩٦.

بمنزلة المفعول به، ولام «لبيوتهم» للتعليل فهو بمنزلةِ المفعول له، ويجوز أن تكونَ الأُولى للمِلك والثانية للاختصاص، كما في قولك: وهبتُ الحبلَ لزيد لِدابَّته، وإليه ذهب ابنُ عطية[١]، ولا يجوز على تقدير اختلاف اللامين معنى البدلية، إذْ مقتضى إعادة العامل في البدل الاتّحاد في المعنى، وإلى هذا ذهب أبو حيان[٢].

وقال الخفاجي: لا مانع من أن يُبدل المجموع من المجموع بدون اعتبارِ إعادةٍ[٣].

والسُّقُف جمع سَقْف كَرُهُن جمع رَهْن، وعن الفراء[٤]أنه جمع سَقيفة كَسُفن جمع سَفينة، والمعارج جمع مَعْرج، وهو عطفٌ على «سُقفاً» أي: ولَجعلنا لهم مصاعدَ عليها يعلُون السُّطوحَ والعلالي، وكأن المرادَ: معارج من فضة، بناءً على أن العطفَ ظاهرٌ في التشريك في القيد وإن تقدَّم. وقال أبو حيان: لا يتعيَّن ذلك[٥].

وقرأ أبو رجاء: «سُقْفاً» بضم السين وسكون القاف تخفيفاً. وفي «البحر»: هي لغةُ تميم[٦].

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو بفتح السين والسكون[٧]على الإفراد؛ لأنه اسمُ جنس يُطلق على الواحد وما فوقه، وهو المرادُ بقرينةِ البيوت.

وقُرئ بفتح السين والقاف[٨]، وهي لغةٌ في سَقْف، وليس ذلك تحريكَ ساكن، لأنه لا وجهَ له. وقرئ: «سُقوفاً»[٩] وهو جمع سَقْف، كَفُلوس جمع فَلْس.

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ٥٤.
(٢) في البحر المحيط ٨/ ١٥.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٤٤١.
(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٢.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٥.
(٦) المصدر السابق.
(٧) وقرأ بها أيضاً أبو جعفر. التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٩.
(٨) البحر المحيط ٨/ ١٥.
(٩) المصدر السابق.

وقرأ طلحة: «معاريج»(١) جمع مِعْراج.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي: ولجعلنا لِبيوتهم. وتكريرُ ذِكْر بيوتهم لزيادة التقرير، ولأنه ابتداءُ آية ﴿أَبْوَابًا وَسُرُرًا﴾ أي: من فضة على ما سمعت. وقرئ: «سَرَراً» بفتح السين والراء(٢)، وهي لغةٌ لبني تميم وبعض كلب، وذلك في جمع فَعيل المُضَعَّف إذا كان اسماً باتّفاق، وصفةً - نحو: ثوبٌ جديد وثيابٌ جُدد - باختلاف بين النحاة.

﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على السُّرر ﴿يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤﴾ كما هو شأنُ الملوك، لا يهمُّهم شيء.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ قال الحسن: أي: نُقوشاً وتزاويقَ. وقال ابن زيد: الزُّخرف: أثاثُ البيت وتجملاته، وهو عليهما عطفٌ على «سقفا»، وقال ابن عباس وقتادة والشعبي والسدي والحسن أيضاً - في رواية -: الزخرف: الذَّهب. وأكثر اللّغويين ذكروا له مَعْنيين: هذا والزينة، فقيل: الظاهرُ أنه حقيقةٌ فيهما، وقيل: إنه حقيقةٌ في الزِّينة، ولكون كمالها بالذهب استُعمل فيه أيضاً، ويُشير إليه كلامُ الراغب(٣)، قال: الزخرف الزينة المُزوَّقة، ومنه قيل للذهب: زُخرف.

وفي «البحر»: جاء في الحديث: «إيَّاكم والحُمرةَ، فإنها من أحبِّ الزينة إلى الشيطان»(٤). وقال ابن عطية(٥): الحُسْنُ أحمر والشَّهوات تَتْبعه؛ ولبعض شعراء المغرب:

وصَبغتَ دِرْعَكَ من دماء كُماتهم ... لما رأيتَ الحسنَ يلبسُ أحمرا(٦)

وهو على هذا عطفٌ على محلِّ «من فضة» كأنَّ الأصلَ سقفاً من فضة

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٥.

(٢) كذا قال المصنف، والصواب: بضم السين وفتح الراء. ينظر الدر المصون ٩/ ٥٨٥.

(٣) المفردات (زخرف).

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٥، والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٧٨٩) من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن راشد ﷺ. وهو حديث ضعيف، في إسناده الحسن البصري، وهو مدلس وقد عنعنه، وسعيد بن بشير، وهو ضعيف، كما في الإصابة ٤/ ٣٢٧.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥٤.

(٦) البيت لابن عمار من قصيدة طويلة يمدح بها المعتضد عبّاد والد المعتمد. ذكرها صاحب نفح الطيب ١/ ٦٥٥.

وزخرفٍ، يعني: بعضُها من فضة وبعضُها من ذهب، فَنُصب عطفاً على المحلِّ، وجُوِّز عطفُه على «سقفاً» أيضاً.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وما كلُّ ما ذُكر من البيوت الموصوفة بالصِّفات المُفصَّلة إلا شيء يتمتَّع به في الحياة الدنيا، وفي معناه ما قُرِئ: «وما كل ذلك إلا متاعُ الدنيا»[1].

وقرأ الجمهور «لَمَا» بفتح اللام والتخفيف[2] على أنَّ «إنْ» هي المُخفَّفة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين المُخفَّفة وغيرها، و«ما» زائدة أو موصولة، بتقدير: لما هو متاع، كما في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] في قراءة من رفع النون[3].

وقرأ أبو رجاء[4] - وفي «التحرير»: أبو حيوة -: «لِمَا» بكسر اللام والتخفيف على أنَّ «إنْ» هي المُخَفَّفة واللام حرف جرّ و«ما» موصولة في محلِّ جرٍّ بها، والجارُّ والمجرور في موضع الخبر لـ «كلّ»، وصدر الصلة محذوفٌ كما سمعت آنفاً. وحقُّ التركيب في مثله الإتيان باللام الفارقة، فيقال: لَلِما متاعُ، لكنها حُذفت لِظُهور إرادة الإثبات كما في قوله:

أنا ابنُ أُباة الضَّيم من آل مالكٍ وإنْ مالكٌ كانت كرامَ المعادن[5]

بل لا يجوز في البيت إدخالُ اللام كما لا يخفى على النحوي.

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي: بما فيها من فُنون النعيم التي لا يُحيط بها نِطاقُ البيان ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ خاصة لهم، والمرادُ بهم مَن اتَّقى الشِّرك. وقال غير واحد: من اتَّقى ذلك والمعاصي.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٧.

(٢) قرأ عاصم وحمزة وهشام بخلف عنه وابن جمَّاز بتشديد الميم، والباقون بتخفيفها، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٣) قرأ بها يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق. الدر المصون ٥/ ٢٢٨.

(٤) في الأصل و(م): وقرأ رجاء، والمثبت من تفسير القرطبي ١٩/ ٤٣، والبحر المحيط ٨/ ١٥.

(٥) قائله الطرمّاح، وهو في ديوانه ص٥١٢.

وفي الآية من الدلالة على التزهيد في الدنيا وزينتها والتحريض على التقوى ما فيها؛ وقد أخرج الترمذي ـ وصحَّحه ـ وابنُ ماجه عن سَهْل بن سَعْد قال: قال: رسولُ الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَعْدِلُ عند الله تعالى جَناحَ بعوضة ما سَقى منها كافراً شَرْبَةَ ماء»(١).

وعن عليٍّ كرم الله وجهه: الدنيا أحقرُ من ذراع خنزير ميتٍ بال عليه كلبٌ في يدِ مجذوم.

هذا، واستدلَّ بعضُهم بقوله تعالى: «لبيوتهم سقفا» على أن السَّقف لربِّ البيت الأسفل لا لصاحب العلو؛ لأنه منسوبٌ إلى البيت.

﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يتعامَ ويُعرض ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن، وإضافتُه إلى الرحمن للإيذان بنزوله رحمةً للعالمين، وجُوِّز أن يكون مصدراً أُضيف إلى المفعول، أي: مَنْ يعشُ عن أن يَذْكُرَ الرحمنَ. وأن يكون مصدراً أُضيف إلى الفاعل، أي: عن تذكير الرحمن عبادَه سبحانه.

وقرأ يحيى بن سلام البصري: «يعشَ» بفتح الشين كـ: يَرضَ(٢)، أي: يَعْمَ، يقال: عَشِيَ كـ: رَضِيَ، إذا حصلت الآفةُ في بصرهِ، وعشَا كغزا، إذا نظرَ نظرَ العَشِي لعارض، قال الحطيئة:

متى تَأْتِهِ تعشو إلى ضوء نارِه ... تَجِدْ خيرَ نار عندها خيرُ مُوْقِدِ(٣)

أي: تنظر إليها نظر العَشِي لِمَا يُضْعِفُ بَصَرَك من عِظَم الوقود واتِّساع الضوء، ولو لم يكن كذلك لم يكن لكلمة الغاية موقع، وأظهرُ منه في المقصود قولُ حاتم(٤):

أعشو إذا ما جارتي بَرزَتْ ... حتى يُواري جارتي الخِدْرُ

لأنه قيَّد بالوقت وأتى بالغاية، وما هو خَلْقيٌّ لا يزول.

وقال بعضهم: لم أرَ أحداً يُجيز: عَشَوْتُ عنه، إذا أعرضت، وإنما يقال: تَعاشَيْتُ وتَعامَيْتُ عن الشيء؛ إذا تغافلت عنه كأنك لم تَرَه، ويقال: عشوتُ إلى

---

(١) سنن الترمذي (٢٣٢٠)، وسنن ابن ماجه (٤١١٠).
(٢) البحر المحيط ٨/١٦.
(٣) ديوان الحطيئة ص١٦١.
(٤) كما في الكشاف ٣/٤٨٨، وينسب أيضاً لمسكين الدارمي. ينظر الخزانة ٣/٧١-٧٣، وينظر كذلك ما سلف ١/٤٧٣.

النار، إذا استدللت عليها ببصرٍ ضعيف، وهو مما لا يلتفت إليه.

ومثل[١] عَشِي وعشا: عَرِجَ ـ بكسر الراء ـ لمن به الآفةُ، وعَرَجَ بفتحها لمن مشَى مِشْيةَ العرجان من غير عَرَجٍ، على ما في «الكشاف»[٢]، وفيه خلافٌ لأهل اللغة؛ ففي «القاموس»: يقال: عَرَجَ ـ أي: بالفتح ـ إذا أصابه شيء في رِجْله وليس بخِلْقة، فإذا كان خِلْقةً فَعَرِجَ، كَفَرِحَ، أو يُثَلَّث في غير الخِلْقة[٣].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «يعشو» بإثبات الواو، وخرَّج ذلك الزمخشري[٤] على أنَّ «مَنْ» موصولة لا شرطية جازمة، وجُوِّز أن تكون شرطية، والمَدَّة إما للإشباع، أو على لغةِ مَن يَجزمُ المعتلَّ الآخر بحذف الحركة، على ما حكاه الأخفش[٥]، وجوز كون الفعل مجزوماً بحذف النون، والواو ضمير الجمع، وقد رُوعي فيه معنى «مَن»، وتخريجُ الزمخشري مبني على الفصيح المطَّرد المتبادر.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ أي: نُتِحْ له شيطاناً لِيستوليَ عليه استيلاءَ القيض على البيض، وهو القشرُ الأعلى.

﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ دائماً لا يُفارقه ولا يزال يُوسوسه ويغويه، وهذا عقابٌ على الكُفر بالخَتْم وعدم الفلاح، كما يقال: إن الله تعالى يُعاقِبُ على المعصية بمزيد اكتساب السيئات.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسُّلمي والأعمش ويعقوب وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ وحمَّاد عن عاصم وعصمة عن الأعمش وعن عاصم، والعليمي عن أبي بكر: «يُقَيِّض» بالياء[٦]، على إسناده إلى ضمير «الرحمن».

---

(١) في (م): ومثله.
(٢) ٣/ ٤٨٧-٤٨٨.
(٣) القاموس المحيط (عرج).
(٤) في الكشاف ٣/ ٤٨٨، وقراءة زيد بن علي ذكرها أيضاً في البحر ٨/ ١٦.
(٥) كما في البحر المحيط ٨/ ١٦.
(٦) قراءة علي ﷺ في البحر المحيط ٨/ ١٦، وقراءة السلمي والأعمش في القراءات الشاذة ص١٣٥، وقراءة يعقوب والعليمي عن أبي بكر في النشر ٢/ ٣٦٩، والمشهور عن أبي عمرو وعاصم: «نقيض» بالنون.

وقرأ ابن عباس: «يُقَيَّض» بالياء والبناء للمفعول، «شيطانٌ» بالرفع[١].

والفعل في جميع القراءات مجزوم، ولم نسمع أنه قُرئ بالرفع. وفي «الكشاف»[٢]: حقّ من قرأ: «من يعشو» بالواو أن يرفَعه. أي: بناءً على تخريجه ذلك على أن «مَن» موصولة، وجوز على ذلك أيضاً أن يكون «نقيّض» مرفوعاً لكنه سُكِّن تخفيفاً.

وفي «البحر»[٣]: يجوز أن تكون «مَنْ» موصولة وجزم «نُقيِّض» تشبيهاً للموصول باسم الشرط، وإذا كان ذلك مسموعاً في «الذي» وهو لم يكن اسمَ شرط قطُّ فالأولى أن يكون فيما استُعمل موصولاً وشرطاً، قال الشاعر:

ولا تَحفِرَنْ[٤] بئراً تُريد أخاً بها فإنَّك فيها أنت مَن دونه تَقَعْ
كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً تُصِبْه على رَغْمٍ عواقبُ ما صَنَعْ

أنشدهما ابنُ الأعرابي[٥]، وهو مذهبٌ للكوفيين، وله وجهٌ من القياس، وهو أنه كما شبِّه الموصول باسم الشرط فدخلت الفاء في خبره فكذلك يُشبَّه به فينجزم الخبر، إلا أن دخولَ الفاء مُنقاسٌ إذا كان الخبر مسبَّباً عن الصلة بشروطه المذكورة في النحو، وهذا لا يَقيسه البصريون.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين الذين قُيِّض وقُدِّر كلٌّ واحد منهم لكلِّ واحدٍ ممن يعشو ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي: لَيصدُّون قرناءهم، وهم الكُفَّارُ المُعبَّر عنهم بـ «من يعش»، وجمع ضمير الشيطان؛ لأنَّ المرادَ به الجنس، وجمع ضمير «من» رعاية للمعنى، كما أفرد أولاً رعايةً للفظ.

وفي «الانتصاف»[٦]: إن في هذه الآية نُكتتين بديعتين: الأولى: الدلالة على

---

(١) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٥.
(٢) ٣/ ٤٨٨.
(٣) ٨/ ١٦.
(٤) في الأصل و(م): لا تحقرن، والمثبت من البحر، وبه يستقيم وزن البيت ومعناه.
(٥) وهما في أمالي الزجاجي ص ١٨٥ منسوبان لسابق البربري.
(٦) ٣/ ٤٨٨ (بحاشية الكشاف).

أن النكرةَ الواقعة في سياق الشرط تُفيد العموم، وهي مسألة اضطربَ فيها الأصوليون، وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم[١] حتى استدركَ على الأئمة إطلاقَهم القولَ بأن النكرةَ في سياق الإثبات تخصُّ، وقال: إنَّ الشرط يعمُّ والنكرة في سياقه تعمّ. وقد ردَّ عليه الفقيه أبو الحسن علي الأبياري[٢] شارح كتابه ردًّا عنيفاً. وفي هذه الآيةِ للإمام ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطانَ ذُكر فيها مُنَكَّراً في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أُريد عموم الشياطين لا واحد؛ لوجهين: أحدهما: أنه قد ثبت أن لكلِّ أحدٍ شيطاناً، فكيف بالعاشي عن ذِكْر الله تعالى. والآخر: من الآية، وهو أنه أعيد عليه الضمير مجموعاً في قوله تعالى: «وإنهم» فإنه عائدٌ إلى الشيطان قولاً واحداً، ولولا إفادتُه عمومَ الشُّمول لما جاز عودُ ضمير الجمع عليه بلا إشكال. فهذه نكتةٌ تجد عند سماعها لمخالفي هذا الرأي سكتةً.

النكتة الثانية: أن فيها ردًّا على مَنْ زَعم أن العودَ على معنى «من» يمنع من العَوْد على لفظها بعد ذلك، واحتجَّ لذلك بأنه إجمالٌ بعد تفسير، وهو خلافُ المعهود من الفصاحة، وقد نقض ذلك الكندي وغيره بآيات، واستخرج جدِّي[٣] من هذه الآية نقضَ ذلك أيضاً؛ لأنه أُعيد الضمير على اللفظ في «يعش» و«له»، وعلى المعنى في «ليصدّونهم» ثم على اللفظ في «حتى إذا جاءنا»، وقد قدَّمتُ أن الذي مَنَع قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملةٍ واحدة، وأما إذا تعدَّدت الجملُ واستقلَّت كلٌّ بنفسها فقد لا يمنع ذلك. انتهى.

وفي كون ضمير «إنهم» عائداً على الشيطان قولاً واحداً نظر؛ فقد قال أبو حيان[٤]: الظاهرُ أن ضميرَ النصب في «إنهم ليصدونهم» عائدٌ على «من» على

---

(١) البرهان ١/ ٢٣٢.

(٢) علي بن إسماعيل بن علي، من العلماء الأعلام، كان بارعاً في علوم شتى له تصانيف حسنة، منها كتاب شرح البرهان للجويني، وكتاب سفينة النجاة على طريقة الإحياء. توفي سنة (٦١٦هـ). الديباج المذهب ٢/ ١٢١.

(٣) هو أحمد بن إسماعيل بن فارس التميمي السكندري، سلفت ترجمته ١٠/ ٣٩١.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٦.

المعنى، وهو أولى من عَوْدِ ضمير «إنهم» على الشيطان كما ذهب إليه ابن عطية[(١)] لتناسق الضمائر في «إنهم» وما بعده، فلا تَغْفُل.

﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾المُستبين الذي يدعو إليه ذكرُ الرحمن.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: العاشون ﴿أَنَّهُم﴾ أي: الشياطين ﴿مُّهْتَدُونَ ٣٧﴾ أي: إلى ذلك السبيل الحقِّ، وإلا لَمَا اتَّبعوهم، أو: ويحسبُ العاشون أنَّ أنفسهم مهتدون، فإنَّ اعتقادَ كون الشياطين مُهتدين مستلزمٌ لاعتقاد كونهم كذلك، لاتِّحاد مَسْلَكهما. والظاهر أنَّ أبا حيان يختار هذا الوجهَ للتناسق أيضاً.

والجملة حالٌ من مفعول «يصدون» بتقدير المبتدأ، أَوْ من فاعله، أو منهما لاشتمالها على ضميريهما، أي: وإنهم ليَصدُّونهم عن الطريق الحقّ وهم يحسبون أنهم مهتدون إليه.

وصيغةُ المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجدُّدي لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ فإنَّ «حتى» وإن كانت ابتدائيةً داخلةً على الجملة الشرطية لكنها تقتضي حتماً أن تكون غايةً لأمر مُمتدٍّ، وأُفرد الضمير في جاء وما بعده لما أنَّ المرادَ حكايةُ مقالة كلِّ واحدٍ من العاشين لِقرينه لِتهويلِ الأمر وتفظيع الحال، والمعنى: يستمرُّ أمرُ العاشين على ما ذُكر حتى إذا جاءنا كلُّ واحد منهم مع قرينه يومَ القيامة ﴿قَالَ﴾ مُخاطباً له: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: في الدنيا، وقيل: في الآخرة ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: بُعدَ كلٌّ منهما من الآخر. والمرادُ بهما المشرقُ والمغرب، كما اختاره الزجاج والفراء[(٢)] وغيرهما، لكن غُلِّب المشرق على المغرب وثُنِّيا كالمَوْصلين لِلمَوْصل والجزيرة، وأُضيف البُعد إليهما، والأصل: بُعْدَ المشرقِ من المغرب، والمغربِ من المشرق، وإنما اختصر هذا المبسوط لِعدمِ الإلباس؛ إذ لا خَفاء أنه لا يُراد بُعْدُهما من شيء واحد؛ لأنَّ البُعدَ من أحدِهما قُربٌ من الآخر، ولأنهما مُتقابلان، فَبُعد أحدِهما من الآخر مَثَلٌ في غاية البعد لا بعدهما عن شيء آخر. وإشعارُ السِّياق بالمبالغة لا يُنكر، فلا لبس من هذا الوجه أيضاً.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٢، وللفراء ٣/ ٣٣.

وقال ابن السائب: لا تغليب، والمرادُ مشرقُ الشمس في أقصر يوم من السنة، ومشرقُها في أطول يوم منها.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨﴾ أي: أنت، وقيل: أي: هو، على أنه من كلامه تعالى. وهو كما ترى.

وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو بكر والحرميان وقتادة والزهري والجحدري: «جاءانا» على التثنية[1]، أي: العاشي والقرين. وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ إلخ حكايةٌ لما سيُقال لهم حينئذ من جهة الله عز وجل توبيخاً وتقريعاً، وفاعل «ينفعكم» ضميرٌ مستتر يعودُ على ما يُفهم مما قبلُ، أي: لن ينفعَكم هو، أي: تمنِّيكم لِمُباعدتهم أو الندم أو القول المذكور.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ بدل من «اليوم»، أي: إذْ تبيَّن أنَّكم ظَلَمْتم في الدنيا، قاله غير واحد، وفُسِّر ذلك بالتبيُّن، قيل: لئلا يُشكل جعلُه - وهو ماض - بدلاً من «اليوم» وهو مستقبل؛ لأن تَبيُّنَ كونهم ظالمين عند أنفسهم إنما يكون يومَ القيامة، فاليوم وزمان التبيُّن مُتَّحدان، وهذا كقوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة[2]

وأُورد عليه أن السؤالَ عائدٌ؛ لأن «إذ» ظرفٌ لما مضى من الزمان، ولا يخرجُ عن ذلك باعتبار التبيُّن. وتفصَّى بعضهم عن الإشكال بأن «إذ» قد تخرج من المُضِي إلى الاستقبال على ما ذهب إليه جماعةٌ منهم ابنُ مالك مُحتجّاً بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ [غافر: ٧٠-٧١] وإلى الحال كما ذهب إليه بعضُهم محتجّاً بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] فلتكن هنا للاستقبال، وأهلُ العربية يُضَعِّفون دعوى خروجها من المضي.

وقال الجلبي: لعل الأظهرَ حَمْلُها على التعليل فيتعلَّق بالنفي، فقد قال سيبويه: إنها بمعنى التعليل حرفٌ بمنزلة لام العلة، نعم أنكر الجمهورُ هذا القِسْمَ لكنَّ إثبات

---

(١) وقرأ بها ابن عامر أيضاً. التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٩.

(٢) سلف ص٣١٤ من هذا الجزء.

سيبويه إياه يكفي حُجَّة؛ فإنَّ القولَ ما قالت حَذامِ.

وتُعقِّب بأنه لا يكفي في تخريج كلام الله سبحانه إثباتُ سيبويه وحدَه مع إطباق جميع أئمة العربية على خلافه، وأيضاً تعليلُ النفي بعدُ يُبعده.

وقال أبو حيان: لا يجوز البدل على بقاء «إذ» على موضوعها من كونها ظرفاً لما مضى من الزمان، فإنْ جُعلتْ لمطلق الوقت جاز[1]. ولا يخفى أن ذلك مجازٌ، فهل تكفي البدلية قرينةً له، فإن كَفَتْ فذاك.

وقال ابن جني[2]: راجعتُ أبا عليٍّ في هذه المسألة ـ يعني الإبدال المذكور ـ مراراً، وآخر ما تحصَّل منه أنَّ الدنيا والآخرة متَّصلتان، وهما سواءٌ في حُكم الله سبحانه وعِلْمِهِ جل شأنه إذْ لا يجري عليه عز وجل زمانٌ، فكأن «إذ» مستقبل أو «اليوم» ماضٍ فصحَّ ذلك، ورُدَّ بأن المُعتبر حال الحكاية، والكلامُ فيها واردٌ على ما تعارفه العرب، ولولاه لَسُدَّ بابُ النكات، ولَغَت الاعتباراتُ في العبارات، ومثله غَنيٌّ عن البيان.

وقال أبو البقاء[3]: التقديرُ: بعد إذْ ظلمتُم. فَحُذفَ المُضاف للعلم به.

وقال الحوفي: «إذ» متعلّقة بما دلَّ عليه المعنى، كأنه قيل: ولن ينفعكم اليومَ اجتماعُكم إذْ ظلمتُم، مثلاً.

ومن الناس من استشكل الآيةَ من حيث إن فيها إعمالَ «ينفعكم» الدالّ على الاستقبال لاقترانه بـ «لن» في «اليوم»، وهو الزمانُ الحاضر، و«إذ» وهو للزمان الماضي، وأُجيب بأنه يدفع الثاني بما قدَّروه من التبيُّن لأنَّ تبيُّنَ الحال يكون في الاستقبال، والأول بأنَّ «اليوم» تعريفُه للعهد، وهو يومُ القيامة، لا للحضور كتعريف الآن وإن كان نوعاً منه.

وقيل: يُدفع بأنَّ الاستقبالَ بالنسبة إلى وقت الخطاب، وهو بعضُ أوقات اليوم. وهو كما ترى، فتأمَّل ولا تَغْفُل.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧.

(٢) الخصائص ٢/ ١٧٢.

(٣) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٣٠٢.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾ تعليلٌ لنفي النفع، أي: لأنَّ حقَّكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مُشتركين في سببه في الدنيا.

وجوِّز أن يكون الفعلُ مُسنداً إليه، أي: لن ينفعكم كونُكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصَّعب اشتراكُهم فيه لتعاونهم في تحمُّل أعبائه وتقسُّمهم لِشدَّته وعَنائه، وذلك أن كلَّ واحدٍ منكم به من العذاب ما لا تبلُغه طاقته.

أو: لن ينفعَكم ذلك من حيث التأسِّي، فإن المكروبَ يتأسَّى ويتروَّح بوجدان المُشارك، وهو الذي عنته الخنساء بقولها:

يُذَكِّرني طلوعُ الشمس صخراً ... وأذكُره بكلِّ مَغيبِ شمسِ
ولولا كَثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لَقتلتُ نفسي
وما يبكون مثلَ أخي ولكن ... أُعزِّي النفسَ عنه بالتأسِّي[1]

فهؤلاء لا يؤسِّيهم[2] اشتراكُهم ولا يُروِّحهم؛ لِعِظَم ما هم فيه.

أو: لن ينفعكم ذلك من حيث التشفِّي، أي: لن يحصل لكم التشفِّي بكون قرنائكم مُعذَّبين مِثْلكم حيث كنتم تدَّعون عليهم بقولكم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٨] وقولكم: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨] لتَتَشفَّوا بذلك.

واعتُرض على الوجه الأول من هذه الأوجه الثلاثة بأنَّ الانتفاعَ بالتعاون في تحمُّل أعباء العذاب ليس ما يخطُر ببالهم حتى يُرَدَّ عليهم بنفيه.

وأُجيب بأنه غيرُ بعيدٍ أن يخطُر ذلك ببالهم؛ لمكان المُقارنة والصُّحبة، والغريق يَتشبَّثُ بالحشيش، والظمآنُ يحسب السرابَ شراباً.

وقرأ ابنُ عامر: «إنكم» بكسر الهمزة[3]، وهو يقوي ما ذُكر أولاً من إضمار

(١) ديوان الخنساء ص ٨٤-٨٥.
(٢) في (م): يؤسيهم. بدون «لا».
(٣) ذكرها الداني في جامع البيان ٢/ ٤٠١ من رواية التغلبي عن ابن ذكوان، والقراءة المشهورة عن ابن عامر بفتح الهمزة.

الفاعل، وتقدير اللام في «أنكم» معنى ولفظاً، لأنه لا يُمكن أن يكونَ فاعلاً فيتعيَّن الإضمارُ، ولأنَّ الجملةَ عليها تكون استئنافاً تعليليّاً فيناسب تقدير اللام لِتتوافقَ القراءتان.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ إنكارُ تعجيب من أن يكون ﷺ هو الذي يقدر على هدايتهم، وهم قد تمرَّنوا في الكُفر واعتادوه، واستغرقوا في الضلال بحيث صار ما بهم من العَشَا عمًى مقروناً بالصَّمم.

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ عطفٌ على العَمى باعتبار تغاير الوَصْفين ـ أعني العمَى والضلال ـ بحسب المفهوم وإن اتَّحدا مآلاً، ومدارُ الإنكار هو التمكُّن والاستقرار في الضلال المُفرِط الذي لا يخفى، لا تَوهُّمُ القصور منه عليه الصلاة والسلام، ففيه رمزٌ إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحدَه بالقَسْر والإلجاء، وقد كان ﷺ يُبالغ في المُجاهدة في دُعاء قومه وهم لا يَزيدون إلا غيّاً وتعامِياً عما يُشاهدونه من شواهد النبوة، وتصامّاً عما يسمعونه من بَيِّنات القرآن، فنزلت «أفأنت» إلخ.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ فإنْ قبضناك قبل أن نُبصِّرك عذابَهم، ونَشفي بذلك صدرَك وصُدورَ المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ لا محالةَ في الدنيا والآخرة، واقتصر بعضُهم على عذاب الآخرة؛ لقوله تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] والقرآن يُفسِّر بعضُه بعضاً، وما ذكرنا أتمُّ فائدةً وأوفقُ بإطلاق الانتقام، وأما تلك الآيةُ فليس فيها ذِكرُه.

و«ما» مَزيدة للتأكيد، وهي بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكِّدة.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أي: أو أردنا أن نُريك العذابَ الذي وعدناهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ بحيث لا مَناصَ لهم من تحت مُلكنا وقَهْرنا، واعتبارُ الإرادة لأنها أنسبُ بذِكْر الاقتدار بعد، وفي التعبير بالوَعْد وهو سبحانه لا يُخلف المِعياد إشارةٌ إلى أنه هو الواقع، وهكذا كان إذْ لم يُفلتْ أحدٌ من صناديدهم في بدر وغيرها إلا مَنْ تحصَّن بالإيمان.

وقرىء: «نُرِيَنْكَ» بالنون الخفيفة(١).

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٤٣﴾ تسلية له ﷺ وأمرٌ له عليه الصلاة والسلام أو لأُمته بالدوام على التمسُّك بالآياتِ والعمل بها، والفاء في جواب شرط مُقدَّر، أي: إذا كان أحدُ هذين الأمرين واقعاً لا محالةَ فاستمسِكْ بالذي أوحيناه إليك، وقوله تعالى: «إنك» إلخ تعليلٌ للاستمساك أو للأمر به.

وقرأ بعضُ قُرَّاء الشام: «أُوْحِيْ» بإسكان اللام(٢)، وقرأ الضحَّاك: «أَوحى» مَبنيّاً للفاعل(٣).

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ما أُوحي إليك، والمراد به القرآن ﴿لَذِكْرٞ﴾ لَشَرفٌ عظيمٌ ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ﴾ هم قريشٌ على ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد.

وأخرج ابن عدي وابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله عنهما قالا: كان رسول الله ﷺ يعرضُ نَفْسَه على القبائل بمكة ويَعِدُهم الظُّهور، فإذا قالوا: لمن المُلك بعدَك؟ أمسكَ فلم يُجبهم بشيء؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يُؤمر في ذلك بشيء، حتى نزلت: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٞ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ﴾ فكان ﷺ بعدُ إذا سُئل قال: «لقريش» فلا يُجيبونه حتى قَبِلته الأنصارُ على ذلك(٤).

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عَدِي بن حاتم قال: كنتُ قاعداً عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا إنَّ الله تعالى عَلِمَ ما في قلبي من حبِّي لقومي فبشَّرني فيهم فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٞ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ﴾ الآية، فجعل الذِّكر والشَّرف لقومي في كتابه»، الحديث، وفيه: «فالحمد لله الذي جعلَ الصِّدِّيقَ من قومي والشهيدَ من قومي، إنَّ الله تعالى قلبَ العبادَ ظهراً وبَطْناً، فكان خيرَ العرب قريشٌ، وهي الشجرةُ المباركةُ» إلى أنْ قال عَدِي: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ ذُكر عنده قريش بخير قطُّ إلا سرَّه، حتى يتبيَّن ذلك السرور في وجهه للناس كُلِّهم، وكان عليه الصلاة

(١) البحر ٨/١٨، وقرأ بها يعقوب في رواية رويس. النشر ٢/٢٤٦.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٧.
(٣) البحر المحيط ٨/١٨.
(٤) الدر المنثور ٦/١٨.

والسلام كثيراً ما يتلو هذه الآية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ إلخ[١].

وقيل: هم العربُ مطلقاً لما أن القرآن نزل بلغتهم، ثم يختصُّ بذلك الشرف الأخصُّ فالأخصُّ منهم حتى يكونَ الشرفُ لِقريش أكثرَ من غيرهم، ثم لبني هاشم أكثرَ مما يكون لسائر قريش.

وفي روايةٍ عن قتادة: هم من اتَّبعه ﷺ من أمته.

وقال الحسن: هم الأُمة، والمعنى: وإنه لَتذكرةٌ وموعظةٌ لك ولأُمَّتك. والأرجحُ عندي القولُ الأول.

﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ يومَ القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه. وقال الحسن والكلبي والزجاج: تُسألون عن شُكر ما جعله الله تعالى لكم من الشَّرف، قيل: إنَّ هذه الآية تدلُّ على أنَّ الإنسانَ يرغب في الثناء الحسن والذِّكرِ الجميل، إذْ لو لم يكن ذلك مرغوباً فيه ما امتنَّ الله تعالى به على رسوله ﷺ، والذِّكر الجميل قائمٌ مقامَ الحياة، ولذا قيل: ذِكْر الفتى عمره الثاني، وقال ابن دُريد:

وإنـمـا الـمـرءُ حـديـثٌ بـعـدَه ... فـكـن حـديـثاً حـسـنـاً لـمـن وعـى[٢]

وقال آخر:

إنـمـا الـدنـيـا مـحـاسـنـهـا ... طِـيْـبُ مـا يـبـقـى مـن الـخـبـر[٣]

ويُحكى أنَّ الطاغيةَ هلاكو سأل أصحابَه: من المَلِك؟ فقالوا له: أنت الذي دوَّخت البلادَ ومَلَكْتَ الأرضَ وطاعَتْك الملوك ـ وكان المُؤذِّن إذْ ذاك يُؤذِّن ـ فقال: لا، المَلِكُ هذا الذي له أَزْيَدُ من ستِّ مئة سنة قَدْ مات وهو يُذكر على المآذن في كلِّ يوم وليلة خمسَ مرات. يريدُ محمداً رسول الله ﷺ.

﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ أي: هل حكمنا بعبادة غيرِ الله سبحانه، وهل جاءت في مِلَّة من مِلَلِ المُرسَلين

---

(١) الدر المنثور ٦/١٨-١٩، والمعجم الكبير للطبراني ١٧/٨٦-٨٧ مطولاً، وفي إسناده حصين بن مخارق السلولي أبو جنادة. متهم بالكذب، كما في ميزان الاعتدال ٤/٥١١.

(٢) مقصورة ابن دريد بشرح التبريزي ص١٨٥.

(٣) البحر المحيط ١/٤٤٦ و٨/١٨ دون نسبة.

عليهم السلام؟ والمرادُ الاستشهادُ بإجماع المُرسلين على التوحيد، والتنبيهُ على أنه ليس ببِدْعٍ ابتدعه ﷺ حتى يُكذَّب ويُعادى له. والكلام بتقدير مضافٍ، أي: واسأل أممَ مَن أرسلنا، أو على جَعْل سؤال الأمم بمنزلة سؤال المرسلين إليهم؛ قال الفراء[١]: هم إنما يُخبرون عن كُتب الرسل، فإذا سألهم عليه الصلاة والسلام فكأنه سأل المُرسلين عليهم السلام.

وعلى الوجهين المسؤولُ الأُمم، ورُوي ذلك عن الحسن ومجاهد وقتادة والسدي وعطاء، وهو رواية عن ابن عباس أيضاً.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه قال: في بعض القراءات: «واسأل مَنْ أرسلنا إليهم رُسُلَنا قَبْلَك»[٢].

وأخرج هو وسعيد بن منصور عن مجاهد قال: كان عبد الله يقرأ: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا» وعن ابن مسعود أنه قرأ: «واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلُ مؤمني أهل الكتاب»[٣]

وجعل بعضُهم السؤالَ مجازاً عن النظر والفحص عن مِللهم كما[٤] في سؤال الديار والأطلال ونحوها من قولهم: سَلِ الأرضَ مَنْ شَقَّ أنهارَكِ وغَرَسَ أشجارَكِ وجَنَى ثمارَك.

ورُوي عن ابن عباس أيضاً وابن جُبير والزهري وابن زيد أنَّ الكلام على ظاهره، وأنه عليه الصلاة والسلام قيل له ذلك ليلةَ الإسراء حين جُمع له الأنبياءُ في البيت المَقْدس، فأمَّهم، ولم يَسْألهم عليه الصلاة والسلام إذْ لم يكن في شكٍّ[٥].

(١) معاني القرآن ٣/ ٣٤.
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٩، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٤.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٩، وأخرج القراءتين الطبري ٢٠/ ٦٠٤-٦٠٥.
(٤) قوله: كما، ليس في (م).
(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٥ عن ابن زيد، وينظر تفسير البغوي ٤/ ١٤١، وتفسير القرطبي ١٩/ ٥٤.

وفي بعض الآثار أن ميكال قال لجبريل عليهما السلام: هل سأل محمدٌ ﷺ عن ذلك؟ فقال: هو أعظمُ يقيناً وأوثقُ إيماناً من أن يسأل.

وتُعقِّب هذا القولُ بأنَّ المرادَ بهذا السؤال إلزامُ المشركين وهم مُنكرون الإسراء. وللبحث فيه مجال.

والخطابُ على جميع ما سمعتَ لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام.

وفي «البحر»: الذي يظهر أنه خِطابٌ للسامع الذي يريدُ أن يفحصَ عن الدِّيانات، قيل له: اسأل أيُّها الناظرُ أتباعَ الرُّسل أجاءتْ رُسلهم بعبادة غيرِ الله عز وجل، فإنهم يُخبرونك أنَّ ذلك لم يَقَعْ، ولا يُمكن أن يأتُوا به[1]. ولَعمري إنه خِلافُ الظاهر جدّاً.

ومما يقضى منه العَجَب ما قيل: إنَّ المعنى: واسألني ـ أوْ: واسألنا ـ عن مَنْ أرسلنا، وعُلّق «اسأل»، فارتفع «مَنْ» وهو اسمُ استفهام على الابتداء، «وأرسلنا» خبرهُ، والجُملة في موضع نصب بـ «اسأل» بعد إسقاط الخافض، كأن سؤاله: مَنْ أرْسَلتَ يا ربّ قبلي مِنْ رُسُلكَ، أجعلتَ في رسالته آلهةً تُعبد؟ ثم ساق السؤالَ فحكى المعنى، فردَّ الخطاب إلى النبي ﷺ في قوله تعالى: «من قبلك». انتهى.

واسأل مَنْ قرأ أبا جاد: أيَرْضَى بهذا الكلام، ويَسْتَحْسِنُ تفسير كلام الله تعالى المجيد بذلك؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ملتبساً بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أشراف قومِهِ، وخُصُّوا بالذِّكر لأن غيرهم تَبَعٌ ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ إليكم؛ وأُريدَ باقتصاصِ ذلك تسليةُ رسول الله ﷺ وإبطالُ قولهم: (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) لأنَّ موسى عليه السلام مع عدم زخارف الدنيا لديه، كان له مع فرعون وهو مَلِكٌ جبَّارٌ ما كان، وقد أيَّده الله سبحانه بوحيه وما أُنزل عليه، والاستشهادُ بدعوته عليه السلام إلى التوحيد إثر ما أُشير إليه من إجماع جميع الرُّسل عليهم السلام عليه، ويُعلم من ذلك وجهُ مناسبة الآياتِ لما قبلها.

---

(١) البحر المحيط ١٩/٨.

وقال أبو حيان[١]: مناسبتُها من وجهين: الأول: أنه ذُكر فيما قبلُ قولُ المشركين: «لولا نزل» إلخ، وفيه زَعْمُ أن العِظَم بالجاه والمال، وأُشير في هذه الآيات إلى أن مثل ذلك سبق إليه فرعون في قوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] إلخ فهو قُدوتهم في ذلك، وقد انتُقم منه، فكذلك ينتقم منهم. الثاني: أنه سبحانه لما قال: «واسأل» إلخ ذكرَ جل وعلا قصةَ موسى وعيسى عليهما السلام، وهما أكثرُ أتباعاً ممن سَبق من الأنبياء، وكلٌّ جاء بالتوحيد، فلم يكن فيما جاءا به إباحةُ اتِّخاذ آلهة من دون الله تعالى كما اتَّخذتْ قريش، فناسبَ ذِكْرُ قِصَّتهما الآية التي قبلها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: فاجَؤوا الضَّحِك منها، أي: استهزؤوا بها أولَ ما رَأَوْها ولم يتأمَّلوا فيها، وفي «الكشاف»[٢]: جاز أن تُجاب «لمَّا» بـ «إذا» المفاجأة لأنَّ فعلَ المُفاجأة مُقدَّر معها، وهو عاملُ النصب في محلِّها، كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤوا وقت ضَحِكهم. فالجواب عنده ذلك الفعلُ، وهو العاملُ في «لما»، وقُدِّر ماضياً لأنه المعروفُ في جوابها، و«إذا» مفعولٌ به لا ظرف.

وقال أبو حيان[٣]: لا نعلم نحويّاً ذهب إلى ما ذهب إليه هذا الرجلُ من أنَّ «إذا» الفُجائية تكون منصوبةً بفعل مُقدَّر تقديره: فاجأ، بل المذاهبُ فيها ثلاثةٌ:

الأول: أنها حرفٌ، فلا تحتاج إلى عامل.

الثاني: أنها ظرفُ مكان، فإن صُرِّح بعدَ الاسم بعدَها بخبر له كان ذلك الخبرُ عاملاً فيها نحو: خرجتُ فإذا زيدٌ قائمٌ، فقائمٌ هو الناصب لها، والتقدير: خرجتُ ففي المكان الذي خرجتُ فيه زيدٌ قائم.

الثالث: أنها ظرفُ زمان، والعامل فيها الخبرُ أيضاً؛ كأنه قيل: ففي الزمان الذي خرجتُ فيه زيدٌ قائم. وإذا لم يذكر بعد الاسم خبرٌ، أو ذُكر اسمٌ منصوب على الحال كانت «إذا» خبراً للمبتدأ، فإن كان جُثَّة، وقلنا: «إذا» ظرفُ مكان، كان

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٠.

(٢) ٣/ ٤٩٠.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٠.

الأمرُ واضحاً، وإنْ قلنا: ظرفُ زمان كان الكلامُ على حذفِ مضاف، أي: ففي الزمان حضورُ زيد.

ثم إنَّ المفاجأة التي ادَّعاها لا يدلُّ المعنى على أنها تكون من الكلام السابق، بل يدلُّ على أنها تكون من الكلام التي هي فيه؛ تقول: خرجتُ فإذا الأسدُ. فالمعنى: ففاجأني الأسدُ، دون: ففاجأتُ الأسدَ. انتهى.

وقال الخفاجيُّ[1]: ما قيل: إنَّ نصبَها بفعل المفاجأة المُقدَّر هكذا لم يَقُلْه أحدٌ من النُّحاة، لا يُلتفَتُ إليه، وتفصيلُه في شروح «المغني»[2].

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من الآيات ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: من آيةٍ مِثْلها في كونها آيةً دالَّةً على النبوَّة، واستُشكل بأنه يلزم كونُ كلٍّ واحدة من الآيات فاضلةً ومفضولةً معاً، وهو يُؤدِّي إلى التناقض وتفضيلِ الشيء على نَفْسهِ لعموم «آية» في النفي.

وأُجيب بأنَّ الغرضَ من هذا الكلام أنهنَّ موصوفاتٌ بالكِبَر لا يكدنَ يتفاوتْنَ فيه، على معنى أن كلَّ واحدة لكمالها في نفسها إذا نُظِرَ إليها قيل: هي أكبرُ من البواقي لاستقلالها بإفادة المقصودِ على التمام، كما قال الحماسي:

مَنْ تلق منهم تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدهم ... مثلُ النجوم التي يسري بها الساري[3]

وإذا لُوحظ الكل توقّف عن التفضيل بينهنَّ، ولقد فاضلَتْ فاطمةُ بنت خرشب الأنمارية بين أولادها الكَمَلَة: ربيعة الحفاظ، وعُمارة الوهاب، وأنس الفوارس، ثم قالت لمَّا[4] أبصرتْ مَراتبهم متدانيةً قليلةَ التفاوت: ثَكِلْتُهم إنْ كنتُ أعلمُ أيُّهم أفضلُ، هم كالحَلْقة المُفرغَة لا يُدرى أين طرفاها.

وقال بعضُ الأجِلَّة: المرادُ بأفعل الزيادةُ من وجه، أي: ما نُريهم من آيةٍ إلا هي مُختصَّةٌ بنوع من الإعجاز مفضَّلة على غيرها بذلك الاعتبار، ولا ضيرَ في كون

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٤٤٤.

(٢) مغني اللبيب ص١٢٠.

(٣) البيت لعبيد بن العرندس الكلابي، وهو في الحماسة البصرية ١/ ١٥١.

(٤) قوله: لما، ساقط من (م)، والقصة في الكشاف ٣/ ٤٩١.

الشيء الواحد فاضلاً ومفضولاً باعتبارين، وقد أطال الكلامَ في ذلك جلالُ الدين الدواني في حواشيه على الشرح الجديد للتجريد، فَلْيُراجِعْ ذلك من أراده.

وفي «البحر»[(١)]: قيل: كانت آياته عليه السلام من كِبار الآيات، وكانت كلُّ واحدة أكبرَ من التي قبلها، فعلى هذا يكون ثَمَّ صفةٌ محذوفة، أي: مِن أُختها السابقةِ عليها، ولا يبقى في الكلام تعارضٌ، ولا يكون ذلك الحُكم في الآية الأولى؛ لأنه لم يسبقها شيء فتكونَ أكبرَ منه، وذكر بعضُهم في الأكْبَرية أنَّ الأُولى تقتضي عِلْماً، والثانية تقتضي عِلْماً مُنضمّاً إلى عِلْم الأُولى فيزدادُ الرجوعُ. انتهى.

والأَولى ما تقدَّم؛ لشيوع إرادة ذلك المعنى مِن مثل هذا التركيب.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالسِّنين والجَراد والقُمَّل وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ لكي يرجِعوا ويتوبوا عمَّا هم عليه من الكُفر.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ قال الجمهور: وهو خِطابُ تعظيم، فقد كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لاستعظامهم علمَ السِّحر، وحكاه في «مجمع البيان» عن الكلبي والجُبَّائي[(٢)]. وقيل: المعنى: يا غالبَ السَّحرة، مِنْ: ساحَرَه فَسَحَره، كخاصَمَهُ فَخَصَمهُ، فهو خطابُ تعظيم أيضاً.

وقيل: الساحر على المعنى المعروف فيه، وقد تعوَّدوا دُعاءه عليه السلام بذلك قبلُ، ومقتضى مقامِ طلب الدُّعاء منه عليه السلام أن لا يَدْعوه به، إلا أنهم لِفَرْط حَيْرتهم[(٣)] سبق لسانُهم إلى ما تعوَّدوا به.

وقيل: هو خطابُ استهزاء وانتقاصٍ دعاهم إليه شدَّةُ شَكِيمتهم ومزيدُ حَماقتهم. وروي ذلك عن الحسن.

ودفع الزمخشري المُنافاةَ بين هذا الخطاب وقولهم الآتي: «إننا لمهتدون» بأن ذلك القول وعدٌ مَنْويٌّ إخلافهُ، وعهدٌ معزومٌ على نَكْثه، مُعلَّق بشرطِ أنْ يدعوَ لهم

(١) ٨/ ٢١.
(٢) مجمع البيان ٢٥/ ٨٩.
(٣) في (م): حسرتهم.

ويَنكشِفَ عنهم العذابُ[1]. وفيه أنَّ الوعدَ وإن كان مَنْويَّ الإخلاف لكنْ إظهارُ الإخلاف حال التضرُّع إليه عليه السلام يُنافيه؛ لأنهم في استلانةِ قلبه عليه السلام.

وقيل: الأظهرُ أنهم قالوا: يا موسى، كما في «الأعراف» [الآية:١٣٤] لكن حكى الله تعالى كلامَهم هنا على حسب حالهم، ووَفْق ما في قلوبهم؛ تقبيحاً لذلك وتسليةً لحبيبه ﷺ، ويكون ذلك على عكسِ قوله سبحانَه: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٥٧] وجُعِلَ على هذا قولُهم الآتي مُجْمَل ما فصَّل هنالك من الإيمان وإرسالِ بني إسرائيل، فلا يُحتاج إلى التزام كونِ القولين في مجلسين للجَمْع بين ما هنا وما هناك. ولا يخلو عن بُعد، والالتزامُ المذكور لا أرى ضرراً فيه.

وقُرِئ: «يا أيُّهُ» بضمِّ الهاء[2].

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ليكشِفَ عنَّا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بعهده عندك، والمرادُ به النبوَّة، وسُمِّيت عهداً إمَّا لأنَّ الله تعالى عاهدَ نبيَّه عليه السلام أن يُكرمه بها، وعاهدَ النبيُّ ربَّه سبحانه على أن يستقلَّ بأعبائها، أو لِمَا فيها من الكُلفة بالقيام بأعبائها، ومن الاختصاصِ كما بين المتواثِقين، أو لأنَّ لها حقوقاً تُحفظ كما يُحفَظُ العهدُ، أو مِنَ العهدِ الذي يُكتب للوُلاة؛ كأنَّ النبوَّةَ منشورٌ من الله تعالى بتولية مَنْ أكرمه بها.

والباء إما صلة لـ «ادعُ» أو متعلِّق بمحذوف وقع حالاً من الضمير فيه، أي: متوسِّلاً إليه تعالى بما عَهِدَ، أو بمحذوف دلَّ عليه التماسُهم، مثل: أسْعِفْنا إلى ما نَطْلب. وإما أنْ تكونَ للقسم، والجوابُ ما يأتي، وهي على هذا لِلقَسَم حقيقةً، وعلى ما قبلَه لِلقَسَم الاستعطافي. وعلى الوجهِ الأول للسَّببيَّة. وإدخالُ ذلك في الاستعطاف خروجٌ عن الاصطلاح.

وجُوِّز أن يُرَادَ بالعهد عهدُ استجابة الدعوة؛ كأنه قيل: بما عاهدكَ الله تعالى مُكرِماً لك من استجابةِ دعوتك. أو عهدُ كشفِ العذاب عمَّن اهتدى، وأمرُ الباء في الوجهين على ما مرَّ. وأن يُرادَ بالعهد الإيمان والطاعة، أي: بما عَهِدَ عندك فوفَّيت

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩١.

(٢) قرأ بها ابن عامر، التيسير ص١٦٢، والنشر ٢/ ١٤٢.

به، على أنه مِنْ: عَهِدَ إليه أن يفعلَ كذا، أي: أخذَ منه العهدَ على فِعْله، ومنه العهدُ الذي يُكتب للولاة. و«عندك» يُغني عن ذِكْر الصِّلة مع إفادة أنه محفوظٌ مخزون عند المُخاطَب. والأولى على هذا أن تكونَ «ما» موصولةً، وهذا الوجهُ فيه كما في «الكشف» نُبُوٌّ لفظاً ومعنًى وسياقاً على ما لا يخفى على الفَطِن.

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ لمؤمنون ثابتون على الإيمان، وهو إما معلَّق بشرط كَشْفِ العذاب كما في قولهم المَحْكي في سورة الأعراف: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الآية: ١٣٤] أو غير معلَّق، ويجب حينئذ أن يكون هذا منهم في مجلس آخر. وإن قلنا: لم يَصدُرْ منهم طلبُ الدُّعاء إلا مرةً أو أكثرَ منها لكن على طَرْز واحد، قيل هنا: أرادوا من الاهتداء الإيمان وإرسال بني إسرائيل كما سمعتَ آنفاً.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ أي: بدعوته، ففي الكلام حذفٌ، أي: فدعانا بكَشْفِ العذابِ، فَكَشَفْناه، فلما كَشَفناه عنهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فاجأهم نَكْثُ عهدهم بالاهتداء، أو فاجؤوا وقتَ نَكْثِ عَهْدهم.

وقرأ أبو حيوة: «يَنْكِثون» بكسر الكاف[1].

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي: رَفَعَ صوتَه بنفسه فيما بين قومه بذلك القول، ولعلَّه جمعَ عُظَماء القِبْطِ في محلّه الذي هو فيه بعد أنْ كُشِفَ العذابُ، فنادى فيما بينهم بذلك لِتنتشر مَقالته في جميع القِبْط، ويَعْظُمَ في نُفوسهم مخافةَ أن يُؤمنوا بموسى عليه السلام ويتركوه.

ويجوز أن يكونَ إسنادُ النداء إليه مجازاً، والمرادُ: أمرَ بالنداء بذلك في الأسواق والأَزِقَّة ومجامع الناس، وهذا كما يقال: بنى الأميرُ المدينةَ.

«ونادى» قيل: معطوفٌ على فاجأ المُقدَّر، ونُزِّلَ منزلةَ اللازم، وعُدِّي بـ «في» كقوله:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٥.

يَـجـرحْ فـي عـراقـيـبـهـا نَـصْـلـي[1]

للدلالة على تمكين النداء فيهم.

وعَنى بـ «ملك مصر» ضَبْطَها والتصرُّفَ فيها بالحُكم، ولم يُرِدْ مصرَ نفسَها، بل هي وما يتبعها، وذلك من إسكندرية إلى أسوان، كما في «البحر»[2]. والأنهار: الخُلْجان التي تخرجُ من النيل المبارك، كنهر المَلكِ، ونهر دمياط، ونهر تِنِّيس. ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك لكنه اندرسَ فجدَّده أحمدُ بن طولون ملكُ مصر في الإسلام.

وأراد بقوله: «من تحتي»: من تحت أمري.

وقال غيرُ واحد: كانت أنهارٌ تخرجُ من النيل وتجري من تحت قَصْره وهو مُشرِفٌ عليها. وقيل: كان له سريرٌ عظيم مرتفعٌ تجري من تحته أنهارٌ أخرجها من النيل. وقال قتادة: كانت له جِنانٌ وبساتينُ بين يديه تجري فيها الأنهارُ.

وفسَّر الضحاكُ الأنهارَ بالقُوّادِ والرُّؤساء الجبابرة، ومعنى كونهم يَجرون من تحته أنهم يسيرون تحت لِوائه، ويأتمرون بأَمْره. وقد أبعدَ جدّاً، وكذا مَنْ فسَّرها بالأموال، ومَنْ فسَّرها بالخيل وقال: كما يسمَّى الفرس بحراً يُسمَّى نهراً. بل التفاسيرُ الثلاثةُ تقربُ من تفاسير الباطنية، فلا ينبغي أن يُلتفتَ إليها.

والواو في «وهذه» إلخ إما عاطفةٌ لهذه الأنهار على المُلك؛ فجملة «تجري» حالٌ منها، أو للحال فـ «هذه» مبتدأ و«الأنهار» صفة أو عطف بيان، وجملة «تجري» خبرٌ للمبتدأ، وجملةُ «هذه» إلخ حالٌ من ضمير المتكلِّم. وجُوِّز أن تكون للعطف. «وهذه تجري» مبتدأ وخبر، والجملةُ عطفٌ على اسم «ليس» وخبرها.

وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ على تقدير المفعول، أي: أفلا تبصرون ذلك، أي: ما ذُكِرَ، ويجوز أن يُنزَّل منزلةَ اللازم، والمعنى: أليس لكم بصرٌ أو بصيرة.

---

(١) قائله ذو الرمّة، وهو في ديوانه ١/١٥٦، وصدره:

وإن تَـعـتـذرْ بـالـمَـحْـل من ذي ضـروعـهـا

(٢) ٨/ ٢٢.

وقرأ عيسى: «تبصرونِ» بكسر النون[١]، فتكون الياء الواقعةُ مفعولاً محذوفةً.

وقرأ فهد بن الصقر[٢]: «يُبْصِرون» بياء الغيبة ـ ذكره في «الكامل» للهذلي[٣] ـ والساجي عن يعقوب، ذكره ابن خالويه[٤].

ولا يخفى ما بين افتخار اللَّعين بملك مصر ودعواه الرُّبوبية من البُعد البعيد. وعن الرشيد أنه لما قرأ هذه الآيةَ قال: لأُولِّينها ـ يعني مصر ـ أخسَّ عبيدي. فولَّاها الخصيب وكان على وضوئه.

وعن عبد الله بن طاهر أنه وُلِّيها فخرج إليها، فلما شارفَها ووقع عليها بصرُه قال: هي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: «أليس لي ملك مصر» والله لهي أقلُّ عندي من أنْ أدخُلها، فَثَنى عِنانه[٥].

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مع هذه البَسطة والسَّعة في المُلك والمال ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: ضعيفٌ حقير، أو مبتذَلٌ ذليل، فهو من المَهانة، وهي القِلَّة أو الذِّلَّة.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ أي: الكلام، والجمهورُ أنه عليه السلام كان بلسانه بعضُ شيء من أَثَرِ الجَمْرة، لكن اللعين بالغ.

ومَن ذهب إلى أنَّ الله تعالى كان أجابَ سؤالَه حلَّ عُقدةٍ من لسانه فلم يبقَ فيه منها أثرٌ، قال: المعنى: «ولا يكادُ يُبين» حُجَّتَه الدَّالةَ على صِدْقه فيما يدَّعي، لا أنه لا قُدرة له على الإفصاح باللفظ. وهو افتراءٌ عليه عليه السلام، ألا ترى إلى مُناظرته له وردِّه عليه وإفحامه إيَّاه.

وقيل: عابه بما كان به عليه السلام من الحَبْسة أيامَ كان عنده. وأراد اللعين أنه عليه السلام ليس معه من العُدَدِ وآلات المُلك والسياسة ما يعتضدُ به، وهو في نَفْسه

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٥.

(٢) من جلة أصحاب يعقوب، روى عنه القراءة عرضاً. غاية النهاية ٢/ ١٣.

(٣) كتاب الكامل في القراءات الخمسين لأبي القاسم يوسف بن علي بن عبادة الهذلي المغربي، المتوفى سنة (٤٦٥هـ)، وهو مشتمل على خمسين قراءة. كشف الظنون ٢/ ١٣٨١.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٥.

(٥) ذكر القصة الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٢، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٦٠.

مُخِلٌّ بما يُنعتُ به الرجالُ من اللَّسَنِ وإبانةِ الكلام.

و«أم» على ما نُقل عن سيبويه[١] والخليل مُتَّصلة، وقد نُزِّل السببُ بعدها منزلةَ المسبَّب على ما ذهب إليه الزمخشري، والمعنى: أفلا تُبصرون أَمْ تُبصرون، إلا أنه وُضع «أم أنا خيرٌ» موضعَ: أمْ تُبصرون[٢].

وإيضاحُ ذلك أن فرعونَ عليه اللعنة لما قدَّم أسبابَ البسطة والرِّياسة بقوله: «أليس لي» إلخ وعَقَّبه بقوله: «أفلا تُبصرون» استقصاراً لهم وتنبيهاً على أنه من الوضوح بمكانٍ لا يخفى على ذي عينين قال في مقابله: «أَمْ أنا خيرٌ» بمعنى: أمْ تُبصرون أني أنا المُقدَّم المتبوع. وفي العدول تنبيهٌ على أن هذا الشِّقَّ هو المُسَلَّم لا محالةَ عندكم، فكأنه يَحكيه عن لسانهم بعدما أبصروا، وهو أسلوبٌ عجيبٌ وفنٌّ غريب. وجعله الزمخشري من إنزال السَّبب مكان المُسبَّب؛ لأن كونه خيراً في نفسه ـ أي: محصَّلاً له أسباب التقدُّم والمُلك ـ سببٌ لأن يقال فيه: أنت خيرٌ منه. وقولهم: أنت خيرٌ، سببٌ لكونهم بُصراءَ، وسببُ السَّبب قد يقال له سبب، فلا يَرِدُ ما يقال: إن السَّببَ قولهم: أنت خيرٌ، لا قوله: أنا خير.

وقال القاضي البيضاوي: إنه من إنزال المُسبَّب منزلةَ السَّبب[٣]؛ لأن عِلْمهم بأنه خيرٌ مستفادٌ من الإبصار.

وفيه أن المذكورَ «أنا خيرٌ»، لا: أمْ تعلمون أني خير. وله أن يقول: ذلك يغني غناه؛ لأنه جعله مُسلَّماً معلوماً عندهم، فقال: «أم أنا خيرٌ» لا: أَمْ تعلمون، كما سلف.

ولا يخفى أن ما ذكره الزمخشري أَظهرُ؛ كذا في «الكشف».

وقال العلامة الثاني في تقرير ذلك: إنَّ قوله: «أنا خيرٌ»، سببٌ لقولهم من جهة بَعْثِهِ على النظر في أحواله واستعداده لما ادَّعاه، وقولهم: أنت خيرٌ، سببٌ لكونهم

---

(١) الكتاب ٣/ ١٧٣.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٢.
(٣) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٧/ ٤٤٦.

بُصراءَ عنده، فـ «أنا خيرٌ» سببٌ له بالواسطة، لكن لا يخفى أنه سببٌ للعلم بذلك والحُكم به. وأما بحسب الوجود فالأمر بالعكس؛ لأن إبصارَهم سببٌ لقولهم: أنت خيرٌ، فتأمَّل.

وبالجملة إن ما بعد «أم» مُؤَوَّل بجملة فعلية معادلة[١] لفظاً ومعنًى هي ما سمعتَ، ونحو ذلك من حيث التأويل: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف:١٩٣] أي: أَمْ صَمَتُّم. وقولُه:

أمُخْدَجَ اليدين أم أَتَمَّتِ[٢]

أي: أمْ مُتمّاً. وقيل: حُذِفَ المُعادِل لدلالة المعنى عليه، والتقدير: أفلا تُبصرون أمْ تُبصرون أنا خير.. إلخ. وتُعقِّب بأن هذا لا يجوز إلا إذا كان بعدَ «أم»: «لا»، نحو: أيقوم زيدٌ أمْ لا، أي: أَمْ لا يقوم، فأما حذفُه دون «لا» فليس من كلامهم.

وجُوِّز أن يكون في الكلام طيٌّ على نَهْج الاحتباك، والمعنى: أهو خيرٌ مني فلا تبصرون ما ذكَّرتُكم به أَمْ أنا خيرٌ منه لأنكم تُبصرونه. ولا ينبغي الالتفاتُ إليه.

وجَوَّز غيرُ واحد كونَ «أَمْ» منقطعةً مُقدَّرة بـ «بل» والهمزة التي للتقرير؛ كأن اللعين قال إثرَ ما عدَّد أسباب فَضْله ومبادي خَيْرِيَّته: أثبتَ عندكم واستقرَّ لديكم أني خيرٌ، وهذه حالي من هذا.. إلخ. ورجَّحه بعضُهم؛ لما فيه من عدم التكلُّف في أمر المُعادِل اللازم أو الأحسن[٣] في المتصلة. وقال السدي وأبو عُبيدة: «أم» بمعنى «بل»، فيكون قد انتقل من ذلك الكلام إلى إخباره بأنه خيرٌ، كقول الشاعر:

بَدَتْ مثلَ قَرْنِ الشمس في رَوْنق الضُّحى وصورتِها أَمْ أنتِ في العينِ أَمْلحُ[٤]

(١) تحرفت في (م) إلى: معلولة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/٤٤٦.

(٢) قائله جحدر بن ضبيعة، وقبله: إذا الكُماة بالكماة التفَّتِ. وهو في حماسة أبي تمام ٢/٣٤ (بشرح التبريزي)، والبحر المحيط ٨/٢٣، وفي الحماسة: الحرب، بدل: اليدين.

(٣) في (م): أولاً لحسن. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/٤٤٦.

(٤) نسبه ابن جني في المحتسب ١/٩٩، والخصائص ٢/٤٥٨ لذي الرمة، وهو في ملحقات ديوانه ٣/١٨٥٧، وفي هذه المصادر: أو أنت...

وقال أبو البقاء(١): إنها منقطعة لفظاً متصلة معنىً، وأراد ما تقدَّم من التأويل، وليس فيه مخالفةٌ لما أجمع عليه النُّحاة كما تُوُهِّم.

وجملة «لا يكادُ يبين» معطوفةٌ على الصِّلة، أو مستأنفةٌ، أو حالية.

وقُرئ: «أَمَا أنا خيرٌ» بإدخال الهمزة على «ما» النافية(٢).

وقرأ الباقر ﷺ: «يَبين» بفتح الياء من بان؛ إذا ظهر(٣).

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ كنايةٌ عن تمليكه. قال مجاهد: كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه بِسِوارين وطوَّقوه بطَوق من ذهب علامة لِسُودَدِه(٤).

فقال فرعون: هلّا ألقى ربُّ موسى عليه أَساورَ من ذهب إنْ كان صادقاً. وهذا من اللعين لِزَعْمه أن الرِّياسةَ من لوازم الرِّسالة؛ كما قال كُفَّار قريش في عظيم القريتين.

والأسورة جمع سِوار نحو خِمار وأخْمرة. وقرأ الأعمش: «أساور» ورُوِيَتْ عن أبيّ وعن أبي عمرو(٥) جمع أسورة، فهو جمعُ الجمع. وقرأ الجمهور: «أساورة»(٦) جمعُ إسوار بمعنى السِّوار، والهاء عوضٌ من ياء أساوير، فإنها تكون في الجمع المحذوف مَدَّته للعِوض عنها كما في زنادقة جمع زِنْديق.

وقد قرأ: «أساوير» عبد الله وأُبيّ في الرواية المشهورة(٧).

وقرأ الضحاك: «أَلقى» مَبنيًّا للفاعل - أي: الله تعالى - «أساورةً» بالنصب(٨).

---

(١) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٣٠٢.
(٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٥.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٣.
(٤) قال في القاموس المحيط (سود): السُّوْدَد والسُّوْدُد: السيادة.
(٥) قراءة الأعمش في القراءات الشاذة ص١٣٥، وقراءة أُبي في تفسير القرطبي ١٩/ ٦٢، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.
(٦) قرأ حفص ويعقوب: «أسْوِرة»، والباقون: «أساورة». التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٦٩.
(٧) القراءات الشاذة ص١٣٥.
(٨) البحر المحيط ٨/ ٢٣.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ مِن قَرنته به فاقترنَ، وفُسِّر بمقرونين، أي: به؛ لأنه لازمُ معناه بناءً على هذا، وفُسِّر أيضاً بمتقارنين مِن اقترن بمعنى تَقارن، والاقترانُ مجازٌ أو كنايةٌ عن الإعانة.

ولذا قال ابن عباس: يُعينونه على مَن خالفه. وقيل: عن التصديق، ولولا ذلك لم يكن لِذِكْره بعدَ قوله: «معه» فائدةٌ، وهو على الأول حِسِّي، وعلى الثاني مَعنوي. وقيل: متقارنين بمعنى مجتمعين كثيرين. وعن قتادة: مُتتابعين.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فطلب منهم الخِفَّة في مُطاوعته، على أن السين للطلب على حقيقتها، ومعنى الخِفَّة السُّرعة لإجابته ومتابعته، كما يقال: هم خُفوف إذا دُعوا، وهو مجاز مشهور، وقال ابنُ الأعرابي: استخفَّ أحلامَهم، أي: وجدهم خفيفةً أحلامُهم، أي: قليلة عقولُهم، فصيغة الاستفعال للوجدان كالإفعال، كما يقال: أَحمدتُه: وجدته محموداً، وفي نسبته ذلك للقوم تجوُّز.

﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٤﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعةِ ذلك الفاسق الغَوِيّ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أسخطونا، كما قال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه. وفي معناه ما قيل: أي: أَغضبونا أشدَّ الغضب، أي: بأعمالهم.

والغضبُ عند الخَلَف مجازٌ عن إرادة العقوبة، فيكون صفةَ ذات، أو عن العقوبة فيكون صفةَ فعل.

وقال أبو عبد الله الرِّضا ﷺ: إنَّ الله سبحانه لا يأسَفُ كأسفنا، ولكن له جل شأنُه أولياء يأسفون ويَرضَوْن، فجعل سبحانه رِضاهم رضاه وغَضَبهم غضبه تعالى، وعلى ذلك قال عز وجل: «مَنْ أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة»[1]، وقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وعليه قيل: المعنى: فلما آسفوا موسى عليه السلام ومن معه.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٦٠٩) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب».

والسلف لا يُؤَوِّلون ويقولون: الغضبُ فينا انفعالٌ نفساني، وصفاتُه سبحانه ليست كصفاتنا بوجهٍ من الوجوه. ورُوي عن ابن عباس ﵄ تفسيرُ الأَسَف بالحزن، وأنه قال هنا: أي: أحزنوا أولياءَنا المؤمنين، نحوُ السحرة وبني إسرائيل.

وذكر الراغب[1] أنَّ الأسفَ: الحزن والغَضَب معاً، وقد يقال لكلٍّ منهما على الانفراد، وحقيقته ثورانُ دمِ القلب شهوةَ الانتقام، فمتى كان ذلك على مَن دونه انتشر فصار غضباً، ومتى كان على مَن فوقَه انقبضَ فصار حُزناً، ولذلك سُئل ابن عباس عنهما فقال: مَخْرجهما واحدٌ واللفظُ مختلفٌ؛ فمن نازع من يَقوَى عليه أظهره غيظاً وغضباً، ومَن نازعَ مَن لا يَقوَى عليه أظهره حُزناً وجزعاً، وبهذا النظر قال الشاعر:

فحزنُ كلِّ أخي حزنٍ أخو الغَضَب[2]

انتهى. وعلى جميعِ الأقوال «آسَفَ» منقولٌ بالهمزة من أَسِفَ.

﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ في اليمِّ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة: أي: مُتقدِّمين إلى النار. وقال غير واحد: قدوة للكُفَّار الذين بعدهم يقتدون بهم في استيجاب مثلِ عقابهم ونزوله بهم، والكلام على الاستعارة؛ لأنَّ الخَلَف يقتدي بالسلف فلما اقتدَوا بهم في الكُفر جُعلوا كأنهم اقتدوا بهم في معلول الغضب. وهو مصدر نُعت به، ولذا يصح إطلاقُه على القليل والكثير. وقيل: جمعُ سالف، كحارس وحَرَس، وخادِم وخَدَم، وهذا يحتمل أن يُرادَ بالجمع فيه ظاهرُه، ويحتمل أن يُرادَ به اسمُ الجمع، فإن فَعَلاً ليس من أبنية الجُموع لِغلبته في المفردات، والمشهور في جمعه أَسلاف، وجاء سُلَّاف أيضاً.

وقرأ أبو عبد الله وأصحابه وسعيدُ بن عياض والأعمش والأعرج وطلحة وحمزة والكسائي: «سُلُفاً» بضمتين[3] جمع سَليف، كفريق لفظاً ومعنى. سمع القاسمُ بنُ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (أسف).

(٢) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ١/ ٢٢٣، وصدره: جزاك ربك بالأحزان مغفرة..

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٣، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٦٩.

معن[١] العرب تقول: مضى سليفٌ من الناس، يعنون فريقاً منهم. وقيل: جمع سالف[٢] كصُبُر جمع صابر، أو جمع سَلَف كخَشَب[٣].

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ومجاهد والأعرج أيضاً: «سُلَفاً» بضمٍّ ففتح[٤]، إما على أنه أُبدلت فيه ضمة اللام فتحةً تخفيفاً كما يقال في جُدُد - بضمِّ الدال -: جُدَد، بفتحها. أو على أنه جمع سُلْفة بمعنى الأُمة والجماعة من الناس، أي: فجعلناهم أُمةً سلفَتْ. والسُّلَف بالضم فالفتح في غير هذا: وَلَدُ القَبْج[٥]، والجمع سُلفان كصُردان، ويُضَمّ.

﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: عِظةً لهم، والمراد بهم الكُفَّار بعدَهم، والجارُّ مُتعلِّق على التنازع بـ «سلفاً» و«مثلاً»، ويجوز أن يرادَ بالمَثَل القصة العجيبة التي تسيرُ مسيرَ الأمثال؛ ومعنى كونهم مَثَلاً للكُفَّار أن يقال لهم: مَثَلُكم مثلُ قومِ فرعون. ويجوز تعلُّق الجارِّ بالثاني، وتعميم «الآخرين» بحيث يشمل المؤمنين. وكونهم قصةً عجيبة للجميع ظاهرٌ.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ إلخ بيانٌ لِعناد قريش بالباطل والردِّ عليهم؛ فقد رُوي أن عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه قال للنبيِّ ﷺ وقد سمعه يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]: أليست النصارى يعبدون المسيحَ، وأنت تقول: كان نبيًّا وعبداً من عباد الله تعالى صالحاً، فإن كان في النار فقد رضينا أن نكونَ نحن وآلهتُنا معه. فَفَرِحَ قريش وضحِكوا وارتفعَتْ أصواتُهم[٦]، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ فالمعنى: ولما ضَرَبَ ابنُ الزِّبعرى عيسى ابن مريم مَثَلاً وحاجَّك بعبادة النصارى إيَّاه، إذا قومُك من ذلك

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٦.

(٢) في (م): سلف. وهو خطأ.

(٣) في الأصل و(م): كجنب، وهو تحريف. والمثبت من زاد المسير ٧/ ٣٢٣، وتفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٧/ ٤٤٧، وتفسير القرطبي ١٩/ ٦٥.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٠، وتفسير القرطبي ١٩/ ٦٥.

(٥) القبج: الحَجَل. اللسان (قبج).

(٦) سيرد بتمامه قريباً.

ولأجْله يرتفعُ لهم جَلَبةٌ وضجيجٌ فَرَحاً وجَدَلاً. والحُجَّة لما كانت تسير مسيرَ الأمثال شُهرةً قيل لها: مَثَل. أو المَثَل بمعنى المِثَال، أي: جعله مقياساً وشاهداً على إبطال قوله عليه الصلاة والسلام: إنَّ آلهتَهم من حَصَب جهنم، وجعل عليه السلام نَفْسَه مثلاً من باب: «الحجُّ عرفة»(١).

وقرأ أبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثَّاب وابن عامر ونافع والكسائي: «يَصُدُّون» بضمِّ الصاد(٢) من الصدود، ورُوي ذلك عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وأنكر ابنُ عباس ﵄ هذه القراءة، وهو قبلَ بلوغه تواتُرُها، والمعنى عليها: إذا قومك من أجل ذلك يُعرضون عن الحقّ بالجَدَل بحُجَّة داحضة واهية، وقيل: المراد يَثْبُتون على ما كانوا عليه من الإعراض.

وقال الكسائي والفراء(٣): يَصِدُّون - بالكسر - ويَصُدُّون - بالضَّمِّ - لغتان بمعنى واحد، مثل: «يَعْرُشُون» و«يَعْرِشُون»، ومعناهما: يضجُّون، وجوز أن يكون يُعرضون.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ تمهيداً لما بَنَوْا عليه من الباطل المُموَّه بما يغترُّ به السُّفهاء ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أي: ظاهرٌ عندك أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتنا فحيث كان هو في النار فلا بأس بكونها وإيَّانا فيها.

وحقَّق الكوفيون الهمزتين همزة الاستفهام والهمزة الأصلية؛ وسَهَّل باقي السبعة الثانية بَيْنَ بَيْنَ(٤).

وقرأ ورش في رواية أبي الأزهر بهمزة واحدة على مثال الخبر(٥). والظاهر أنه على حذف همزة الاستفهام.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٧٧٤)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي في المجتبى ٥/ ٢٦٤ من حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلي.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٥، وقراءة نافع وابن عامر والكسائي وأبي جعفر - وهي أيضاً قراءة خلف - في التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٦٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٦-٣٧، وقول الكسائي في تفسير القرطبي ١٩/ ٦٦.

(٤) التيسير ص١٩٧، والنشر ١/ ٣٦٤-٣٦٥.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٢٥.

وقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ إبطالٌ لباطلهم إجمالاً؛ اكتفاءً بما فصّل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ﴾ [الأنبياء:١٠١] وتنبيهاً على أنه مما لا يذهب على ذي مُسكة بُطلانه، فكيف على غيره، ولكنَّ العِنادَ يُعْمي ويُصِمّ، أي: ما ضربوا لك ذلك إلا لأجل الجدال والخصام لا لِطَلبِ الحقّ، فإنه في غاية البُطلان، بل هم قومٌ لُدٌّ شِداد الخُصومة مجبولون على المَحْك، ـ أي: سوء الخُلُق ـ واللَّجاج، فـ «جَدَلاً» منتصب على أنه مفعول لأجله، وقيل: هو مصدر في موضع الحال، أي: مُجادلين.

وقرأ ابن مِقْسم: «جِدالاً» بكسر الجيم وألفٍ بعد الدال(١).

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما عيسى ابن مريم ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوَّة وروادفها، فهو مرفوعُ المنزلة عليُّ القدر، لكن ليس له من استحقاق المعبودية من نصيب = كلامٌ حكيم مشتملٌ على ما اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ﴾ [الأنبياء:١٠١] ولكن على سبيل الرمز، وعلى فسادِ رأي النصارى في إيثارهم عبادته عليه السلام تعريضاً بمكان عبادة قريش غيرَه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا﴾ أي: أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسيرَ ذِكْره كالأمثال السائرة ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ حيث خلقناه من غير أب وجعلنا له من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك ما لم نجعلْ لغيره في زمانه = كلامٌ أُجْمِلَ فيه وجه الافتتان به وعليه، ووجه دلالته على قُدرة خالقه تعالى شأنه، وبُعد استحقاقه عليه السلام عمَّا قرف به إفراطاً وتفريطاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا﴾ إلخ، تذييلٌ لوجه دلالته على القُدرة، وأن الافتتان من عدم التأمُّل، وتضمينٌ للإنكار على من اتَّخذ الملائكة آلهة كما اتُّخِذَ عيسى عليهم السلام، أي: ولو نشاء ـ لِقُدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفَطْر ـ لجعلنا بطريق التوليد، ومآلُه: لَوَلَّدْنا ﴿مِنكُم﴾ يا رجال ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ كما ولَّدنا عيسى من غير أب ﴿فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾ أي: يخلفونكم في الأرض كما يَخْلُفكم أولادُكم، أو: يكونون خَلَفاً ونسلاً لكم، ليُعْرَفَ تميُّزنا بالقدرة الباهرة، وليُعْلَم أن

---

(١) البحر ٨/ ٢٥.

الملائكة ذواتٌ ممكِنةٌ تُخلق توليداً كما تُخلق إبداعاً، فمِن أين لهم استحقاقُ الألوهية، والانتساب إليه سبحانه وتعالى بالبنوَّة؟!

وجوِّز أن يكون معنى «لجعلنا» إلخ: لحوَّلنا بعضَكم ملائكةً.

فـ «من» ابتدائية أو تبعيضية، و«ملائكة» مفعولٌ ثانٍ أو حال. وقيل: «مِنْ» للبدل كما في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة:٣٨]، وقوله:

ولـم تـذقْ مـن الـبـقـول الـفُـسـتـقـا(١)

أي: ولو نشاء لجعلنا بدلكم ملائكةً يكونون مكانكم بعد إذهابكم، وإليه يُشير كلامُ قتادة ومجاهد. والمرادُ بيان كمال قُدرته تعالى لا التوعُّدُ بالاستئصال - وإنْ تضمَّنه - فإنه غيرُ ملائم للمقام. وقيل: لا مانعَ من قَصْدهما معاً، نعم كثيرٌ من النحويين لا يُثبتون لـ «من» معنى البدلية ويتأوَّلون ما ورد مما يوهم ذلك، والأظهر ما قُرِّر أولاً.

وذكر العلامة الطيبي عليه الرحمة أن قوله تعالى: «إن هو إلا عبد» إلخ، جوابٌ عن جدل الكَفَرة في قوله سبحانه: «إنكم وما تعبدون» إلخ، وأن تقريره: إن جَدَلَكم هذا باطلٌ لأنه عليه السلام ما دخل في ذلك النص الصريح؛ لأن الكلام معكم أيها المشركون، وأنتم المخاطبون به، وإنما المراد بـ «ما تعبدون» الأصنام التي تَنْحِتونها بأيديكم، وأما عيسى عليه السلام فما هو إلا عبد مكرَّم مُنْعَمٌ عليه بالنبوَّة مرفوعُ المنزلة والذِّكر، مشهورٌ في بني إسرائيل كالمثل السائر، فمن أين يدخل في قولنا: «إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم»، ثم لا اعتراضَ علينا أنْ نجعل قوماً أهلاً للنار وآخرين أهلاً للجنة، إذ لو نشاء لجعلنا منكم ومن أنفسكم أيها الكفرة ملائكةً، أي: عبيداً مكرمون مهتدون، وإلى الجنة صائرون، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة:١٣]. اهـ.

وعلى ما ذكرنا إن الكلام في إبطال قولهم(٢) قد تمَّ عند قوله تعالى: «خَصِمون»

(١) الرجز لأبي نخيلة، واسمه يعمر بن حزن، وقبله: جارية لم تأكل المُرَقَّقا. المغني ص٤٢٢، وشرح شواهد المغني للسيوطي ٢/ ٧٣٥، واللسان (فستق).
(٢) قوله: قولهم، ليس في (م).

وما بعدُ؛ لما سمعت قبلُ، وهو أدقُّ وأولى مما ذكره، بل ما أشار إليه من أن قوله تعالى: «ولو نشاء» إلخ لنفي الاعتراض، ليس بشيء.

وروي أن ابن الزِّبَعْرى قال للنبيِّ ﷺ حين سمع قوله تعالى: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) أهذا لنا ولآلهتنا أَمْ لجميع الأُمَم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» فقال: خصمتك وربِّ الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيراً، وبنو مليح الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضَحِكوا، وسكتَ رسولُ الله ﷺ، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ﴾ الآية [الأنبياء:١٠١]، أو نزلت هذه الآية[1].

وأنكر بعضُهم السكوت، وذكر أن ابن الزِّبَعْرى حين قال للنبي عليه الصلاة والسلام: خصمتكَ. ردَّ عليه ﷺ بقوله: «ما أجهلك بلغة قومك، أما فهمت أن «ما» لما لا يَعقِل»[2]. وروى مُحيي السنة في «المعالم» أن ابن الزِّبَعْرى قال له عليه الصلاة والسلام: أنت قلت: «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم»؟ قال: نعم. قال: أليست اليهودُ تعبد عزيراً، والنصارى تعبدُ المسيحَ، وبنو مُليح يعبدون الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: «بل هم يعبدون الشيطان» فأنزل الله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ)[3] وهذا أثبت من الخبر الذي قبله.

وتُعقِّب ما تقدم في الخبر السابق من سؤال ابن الزبعرى: أهذا لنا.. إلخ، وقوله عليه الصلاة والسلام: «هو لكم» إلخ = بأنه ليس بثبت.

وذكر من أثبته أنه ﷺ إنما لم يُجِبْ حين سئل عن الخصوص والعموم بالخصوص عملاً بما تقتضيه كلمة «ما» لأن إخراجَ المعهودين عن الحكم عند

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح المشكل (٩٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وعنده بدل «أو نزلت»: ونزلت، وهو أشبه. وفي إسناده عاصم بن أبي النجود، وحديثه حسن. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣١٥ دون ذكر آية الزخرف.

(٢) قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١١١-١١٢: لا أصل له. وينظر ما سلف ١٩٦/١٧.

(٣) معالم التنزيل (وهو تفسير البغوي) ٣/ ٢٧٠.

المُحاجَّة مُوهم للرخصة في عبادتهم في الجملة، فعمَّمه عليه الصلاة والسلام للكلِّ لكنْ لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك في المعبودية من دون الله تعالى، ثم بيَّن أنهم بمعزل من أن يكونوا معبوديهم بما جاء في خبر محيي السنة من قوله عليه الصلاة والسلام: «بل هم يعبدون الشيطان» كما نطق به قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ الآية [سبأ: ٤١] وقد تقدَّم ما ينفعك تذكُّره فتذكَّر.

وفي «الدر المنثور»(١): أخرج الإمام أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «إنه ليس أحدٌ يُعبد من دون الله تعالى فيه خير». فقالوا: ألستَ تزعُم أنَّ عيسى كان نبيًّا وعبداً من عباد الله تعالى صالحاً؛ فإنْ كنتَ صادقاً فإنه كآلهتنا، فأنزل الله سبحانه: (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا) إلخ(٢). والكلام في الآيات على هذه الرواية يُعلم مما تقدَّم بأدنى التفات.

وقيل: إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميًّا ونحن نعبد الملائكة، فنزلت. فالمثل ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ الآية، والضارب هو تعالى شأنه، أي: ولمَّا بيَّن الله سبحانه حالَه العجيبة اتَّخذه قومك ذريعةً إلى ترويج ما هم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقاً بشراً قد عُبِدَ، فنحن أهدى حيث عبدنا ملائكةً مُطهَّرين مُكْرَمين عليه، وهو الذي عَنَوْه بقولهم: «ءآلهتنا خيرٌ أم هو» فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مُقايسة باطلٍ بباطل، وأنهم في اتِّخاذهم العبدَ المُنعَم عليه إلهاً مُبْطِلون مثلكم في اتِّخاذ الملائكة وهم عباد مُكرمون. ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ دلالة على أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثله، وأنه سبحانه قادرٌ على أعجب من خلق عيسى عليه السلام، وأنه لا فرقَ في ذلك بين المخلوق توالداً وإبداعاً، فلا يصلح القِسْمان للإلهية. وفي رواية عن ابن عباس وقتادة أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ الآية [آل عمران: ٥٩]

---

(١) ٦/ ١٩-٢٠.

(٢) مسند أحمد (٢٩١٨)، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٤ ومعجم الطبراني الكبير (١٢٧٤٠).

قالت قريش: ما أراد محمدٌ ـ ﷺ ـ من ذكر عيسى عليه السلام إلا أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى[1]. ومعنى «يصدون»: يضجُّون ويضجرون، والضمير في «أم هو» لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وغرضهم بالموازنة بينه ﷺ وبين آلهتهم الاستهزاءُ به عليه الصلاة والسلام. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾[2]، ردٌّ وتكذيب لهم في افترائهم عليه ﷺ ببيانِ أن عيسى عليه السلام في الحقيقة وفيما أُوحي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليس إلا أنه عبدٌ مُنعَم عليه كما ذكر، فكيف يرضى ﷺ بمعبوديته؟ أو كيف يتوهّم الرضا بمعبودية نفسه؟ ثم بيَّن جل شأنه أن مثل عيسى ليس ببدع من قدرة الله تعالى، وأنه قادر على أبدعَ منه وأبدع مع التنبيه على سقوط الملائكة عليهم السلام أيضاً عن درجة المعبودية بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إلخ.

وفيه أن الدلالة على ذلك المعنى غير واضحة، وكذلك رجوع الضمير إلى نبينا عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: «أم هو» مع رجوعه إلى عيسى في قوله سبحانه: «إن هو إلا عبد» وفيه من فكِّ النظم ما يجب أن يُصان الكتاب المُعجز عنه، ولا يكاد يقبل القول برجوع الضمير الثاني إليه ﷺ، ولعل الرواية عن الحِبْر غير ثابتة.

وجوّز أن يكون مرادهم التنصُّل عمَّا أنكر عليهم من قولهم: الملائكة عليهم السلام بناتُ الله سبحانه، ومن عبادتهم إياهم، كأنهم قالوا: ما قلنا بِدْعاً من القول ولا فعلنا منكراً من الفعل، فإن النصارى جعلوا المسيحَ ابنَ الله عز وجل، فنحن أشفّ منهم قولاً وفعلاً حيث نسبنا إليه تعالى الملائكة عليهم السلام، وهم نسبوا إليه الأناسيَّ. وقوله تعالى: «ولو نشاء» إلخ عليه كما في الوجه الثاني.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: إنه بنزوله شَرطٌ من أشراطها، أو بحدوثه بغير أب، أو بإحيائه الموتى، دليلٌ على صحَّة البعث الذي هو معظم ما يُنكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٠.

(٢) وقع في الأصل و(م) بدل قوله: «إن هو إلا عبد...»: «ولو نشاء» إلخ، وهو وهم من المصنف رحمه الله، والمثبت من تفسير أبي السعود ٨/ ٥٢.

وأيًّاما كان فعِلْمُ الساعة مجازٌ عمَّا تُعْلَم به، والتعبير به للمبالغة.

وقرأ أبيٌّ: «لَذِكْرٌ»[١]، وهو مجاز كذلك.

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وأبو مالك الغفاري وزيد بن علي وقتادة ومجاهد والضحاك ومالك بن دينار والأعمش والكلبي، قال ابن عطية: وأبو نضرة: «لَعَلَمٌ» بفتح العين واللام، أي: لعلامة. وقرأ عكرمة، قال ابن خالويه: وأبو نضرة: «لَلْعَلَم» معرَّفاً بفتحتين[٢]، والحصر إضافي. وقيل: باعتبار أنه أعظم العلامات. وقد نطقت الأخبار بنزوله عليه السلام؛ فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَينزِلَنَّ ابنُ مريم حَكماً عدلاً، فليكسرنَّ الصليب، ولَيقتلنَّ الخنزير، ولَيضعنَّ الجزية، ولَتُتركَنَّ القِلاص فلا يُسعى[٣] عليها، ولتَذهبنَّ الشحناء والتباغض والتحاسد، ولَيُدْعَوَنَّ إلى المال فلا يقبله أحدٌ»[٤].

وفي رواية: «وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحُمرة والبياض ينزل بين مُمَصَّرتين، كأنَّ رأسَه يقطر وإن لم يُصبه بلل، فليقاتل الناس على الإسلام» وفيه: «ويُهلك المسيح الدجال»[٥].

وفي أخرى: قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[٦]، وفي رواية: «فأمَّكم منكم» قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمَّكم منكم؟ قال: تخبرني، قال: فأمَّكم بكتاب ربِّكم عز وجل وسنَّة نبيِّكم ﷺ[٧].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٤.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٥-١٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٦١، والبحر المحيط ٨/ ٢٦.

(٣) في الأصل و(م): فلا يسقى، وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٣٤٤٨)، وصحيح مسلم (١٥٥) واللفظ له، وسنن أبي داود (٤٣٢٤)، وسنن الترمذي (٢٢٣٣)، وسنن ابن ماجه (٤٠٧٨)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٠٤٠٤).

(٥) هذه الرواية عند أبي داود (٤٣٢٤). وقوله: ممصرتين: هما الثوبان فيهما صُفرة خفيفة. النهاية (صفر).

(٦) صحيح البخاري (٣٤٤٩).

(٧) صحيح مسلم (١٥٥)-(٢٤٥).

والمشهور نزوله عليه السلام بدمشق والناس في صلاة الصبح، فيتأخَّر الإمام وهو المهدي، فيقدِّمه عيسى عليه السلام ويُصلِّي خلفه ويقول: إنما أقيمت لك.

وقيل: بل يتقدَّم هو ويؤم الناس.

والأكثرون على اقتدائه بالمهدي في تلك الصلاة دفعاً لتوهّم نزوله ناسخاً، وأما في غيرها فيؤم هو الناس، لأنه الأفضل، والشيعة تأبى ذلك.

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام ينزل على ثَنِيَّة يقال لها: أَفيق، بفاء وقاف بوزن أمير، وهي هنا مكان بالقدس الشريف نفسه.

ويمكث في الأرض على ما جاء في رواية عن ابن عباس أربعين سنة[(١)]، وفي رواية: سبع سنين. قيل: والأربعون إنما هي مدة مُكْثه قبل الرفع وبعده، ثم يموت ويُدفَن في الحُجرة الشريفة النبويَّة. وتمام الكلام في «البحور الزاخرة» للسفاريني.

وعن الحسن وقتادة وابن جبير أن ضمير «إنه» للقرآن؛ لِمَا أن فيه الإعلام بالساعة، فجَعْلُه عينَ العلم مبالغةٌ أيضاً. وضُعِّفَ بأنه لم يجرِ للقرآن ذكرٌ هنا، مع عدم مناسبة ذلك للسياق.

وقالت فرقة: يعود على النبي ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين»[(٢)]، وفيه من البعد ما فيه.

وكأن هؤلاء يجعلون ضمير «أم هو» وضمير «إن هو» له ﷺ أيضاً، وهو كما ترى.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكُّنَّ في وقوعها ﴿وَاتَّبِعُونِۚ﴾ أي: واتَّبعوا هداي أو شرعي أو رسولي، وقيل: هو قول الرسول ﷺ مأموراً من جهته عز وجل، فهو بتقدير القول، أي: وقل: اتَّبعوني.

﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي أدعوكم إليه، أو القرآن، على أن الضمير في «إنه» له.
﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ موصل إلى الحق.

---

(١) قوله: «يمكث في الأرض أربعين سنة»، جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أبي داود (٤٣٢٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس رضي الله عنه. وسلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عـن اتـبـاعـي ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ أي: بـيِّـن العداوة أو مُظهرها حيث أخرج أباكم من الجنة وعرَّضكم للبليَّة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالأمور الواضحات، وهي المُعجزات، أو آيات الإنجيل، أو الشرائع، ولا مانع من إرادة الجميع ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: الإنجيل، كما قال القشيري والماوردي[١]، وقال السدي: بالنبوَّة. وفي رواية أُخرى عنه: هي قضايا يحكم بها العقل، وقال أبو حيان[٢]: أي: بما تقتضيه الحِكمة الإلهية من الشرائع. وقال الضحاك: أي: بالموعظة.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ متعلِّق بمقدَّر، أي: وجئتكم لأُبيِّن لكم، ولم يترك العاطف ليتعلَّق بما قبله، ليؤذن بالاهتمام بالعلَّة حيث جعلت كأنها كلامٌ برأسه. وفي «الإرشاد»[٣]: هو عطف على مقدَّر يُنبئ عنه المجيء بالحكمة، كأنه قيل: قد جئتكم بالحِكمة لأُعلِّمكم إياها ولأُبيِّن لكم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو أمر الديانات وما يتعلَّق بالتكليف دون الأمور التي لم يتعبّدوا بمعرفتها، ككيفية نضد الأفلاك وأسباب اختلاف تشكُّلات القمر مثلاً، فإن الأنبياء عليهم السلام لم يُبعثوا لبيان ما يختلف فيه من ذلك، ومثلها ما يتعلَّق بأمر الدنيا ككيفية الزراعة وما يصلح الزرع وما يفسده مثلاً، فإن الأنبياء عليهم السلام لم يُبعثوا لبيانه أيضاً كما يُشير إليه قوله ﷺ في قصة تأبير النخل: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[٤].

وجُوِّز أن يُراد بهذا البعض بعض أمور الدين المكلّف بها، وأُريد بالبيان البيان على سبيل التفصيل، وهي لا يمكن بيان جميعها تفصيلاً، وبعضها مفوّض للاجتهاد. وقال أبو عبيدة: المراد: بعض الذي حرّم عليهم، وقد أحلَّ عليه السلام لهم لحومَ الإبل والشَّحمَ من كلِّ حيوان وصيدَ السمك يوم السبت[٥].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٦، وتفسير القرطبي ١٩/ ٧٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٦.
(٣) تفسير أبي السعود ٨/ ٥٣.
(٤) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) من حديث عائشة ﵂، وفيه: بأمر، بدل: بأمور.
(٥) كذا في الأصل و(م) ولعل في الكلام سقطاً، ففي البحر المحيط ٨/ ٢٦ (والكلام منه): قال أبو عبيدة: «بعض» بمعنى «كل»، وردَّه الناس عليه، وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم
=

وقال مجاهد: بعض الذي يختلفون فيه من تبديل التوراة. وقال قتادة: لأبيِّن لكم اختلاف الذين تحزَّبوا في أمره عليه السلام.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ ۝٦٣﴾ فيما أُبلغه عنه تعالى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ بيانٌ لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبُّد بالشرائع.

﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا التوحيد والتعبُّد بالشرائع ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤﴾ لا يضلُّ سالكه. وهو إما من تتمة كلام عيسى عليه السلام، أو استئنافٌ من الله تعالى مُقرِّر لمقالة عيسى عليه السلام.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزِّبة ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من بين من بُعث إليهم وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى، وهم أمة دعوته عليه السلام، وقيل: المراد النصارى، وهم أمة إجابته عليه السلام، وقد اختلفوا فرقاً ملكانية ونسطورية ويعقوبية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من المختلفين، وهم الذين لم يقولوا: إنه عبد الله ورسوله ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥﴾ هو يوم القيامة، و«أليم» صفة «عذاب»، أو «يوم» على الإسناد المجازي.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٦٦﴾ الضمير لقريش، و«أن تأتيهم» بدل من «الساعة»، والاستثناء مفرَّغ، وجوِّز جعل «إلا» بمعنى «غير».

والاستفهام للإنكار، و«ينظرون» بمعنى ينتظرون، أي: ما ينتظرون شيئاً إلا إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها، وفي ذلك تهكُّم بهم حيث جعل إتيان الساعة كالمنتظَر الذي لا بدَّ من وقوعه.

ولما جاز اجتماع الفجأة والشعور وجب أن يقيّد ذلك بقوله سبحانه: «وهم لا يشعرون» لعدم إغناء الأول عنه فلا استدراك. وقيل: يجوز أن يراد بـ «لا يشعرون» الإثبات، لأن الكلام واردٌ على الإنكار، كأنه قيل: هل يزعمون أنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، أي: لا يكون ذلك، بل تأتيهم وهم فطنون. وفيه ما فيه.

= ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] أي: في الإنجيل، لحم الإبل والشحم من كل حيوان، وصيد السمك يوم السبت. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥.

وقيل: ضمير «ينظرون» للذين ظلموا. وقيل: للناس مطلقاً، وأيِّد بما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة، والرجلان يطويان الثوب» ثم قرأ عليه الصلاة والسلام: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[1].

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ الظرف متعلِّق بـ «عدو»، والفصل لا يضره، والمراد أن المَحبَّات تنقطع يوم إذ تأتيهم الساعة، ولا يبقى إلا محبة المتقين، وهم المتصادقون في الله عز وجل؛ لِمَا أنهم يرون ثوابَ التحابّ في الله تعالى، واعتبارُ الانقطاع لأن الخِلَّ حال كونه خِلًّا محالٌ أن يصير عدوًّا.

وقيل: المعنى: الأخلَّاء تنقطع خُلَّتهم ذلك اليوم إلا المجتنبين أخِلَّاءَ السوء.

والفرق بين الوجهين أن المتّقي في الأول هو المحبُّ لصاحبه في الله تعالى، فاتقى الحبَّ أن يشوبه غرض غير إلهي. وفي الثاني هو من اتقى صحبة الأشرار. والاستثناء فيهما متصل.

وجوِّز أن يكون «يومئذ» متعلقاً بـ «الأخلاء»، والمراد به في الدنيا، ومتعلّق «عدو» مقدَّر، أي: في الآخرة. والآية قيل: نزلت في أُبيّ بن خلف وعقبة بن أبي مُعيط.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ حكاية لما ينادَى به المتَّقون المتحابُّون في الله تعالى يومئذ، فهو بتقدير قول، أي: فيقال لهم: يا عبادي.. إلخ، أو: فأقول لهم، بناء على أن المنادي هو الله عز وجل تشريفاً لهم.

وعن المعتمر بن سليمان: أن الناس حين يُبعثون ليس منهم أحدٌ إلا يفزع فينادي منادٍ: «يا عباد..» إلخ فيرجوها الناس كلُّهم، فيتبعها قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ فييأس منها الكفار. فـ «يا عباد» عامٌّ مخصوص إما بالآية السابقة وإما باللاحقة، والأول أوفق من أوجه عديدة.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢١.

والموصول إما صفة للمنادَى، أو بدل، أو مفعول لمقدَّر، أي: أمدح ونحوه، وجملة «وكانوا مسلمين» حال من ضمير «آمنوا» بتقدير «قد» أو بدونه، وجوِّز عطفها على الصِّلة، ورجحت الحالية بأنَّ الكلام عليها أبلغُ، لأن المراد بالإسلام هنا الانقياد والإخلاص ليفيد ذكره بعد الإيمان، فإذا جعل حالاً أفاد بعد تلبُّسهم به في الماضي اتِّصاله بزمان الإيمان، و«كان» تدلُّ على الاستمرار أيضاً، ومن هنا جاء التأكيد والأبلغيَّة، بخلاف العطف، وكذا الحال المفردة بأن يقال: الذين آمنوا بآياتنا مخلصين.

وقرأ غير واحد من السبعة: «يا عبادي» بالياء على الأصل، والحذف كثير شائع، وبه قرأ حفص وحمزة والكسائي[(١)].

وقرأ ابن محيصن: «لا خوفُ» بالرفع من غير تنوين، والحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى وابن يعمر ويعقوب بفتحها من غير تنوين[(٢)].

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ نساؤكم المؤمنات، فالإضافة للاختصاص التامِّ، فيخرج من لم يؤمن منهنَّ ﴿تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ تُسَرُّون سروراً يظهر حَباره، أي: أثره من النُّضرة والحُسْن على وجوهكم؛ كقوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]. أو: تزيَّنون، من الحبر بفتح الحاء وكسرها، وهو الزينة وحُسْن الهيئة؛ وهذا مُتَّحد بما قبله معنى، والفرق في المشتقِّ منه. وقال الزجاج: أي: تُكرمون إكراماً يُبالغ فيه، والحَبرة ـ بالفتح ـ المبالغة في الفعل الموصوف بأنه جميل، ومنه الإكرام، فهو في الأصل عامٌّ أُريد به بعض أفراده هنا.

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ بعد دخولهم الجنة حيثما[(٣)] أمروا به ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ﴾ كذلك، والصِّحاف جمع صَحْفة، قيل: هي كالقصعة، وقيل: أعظم أواني الأكل الجَفْنة، ثم القصعة، ثم الصَّحْفة، ثم الكِيلة.

---

(١) قرأ شعبة بفتح الياء وصلاً وسكونها وقفاً، ونافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر ورويس بإثباتها ساكنة في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين. النشر ٢/ ٣٧٠، والبدور الزاهرة ص٢٩١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٦، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢١١.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٨/ ٥٤: حسبما.

والأكواب جمع كوب، وهو كوزٌ لا عروةَ له، وهذا معنى قول مجاهد: لا أُذن له. وهو على ما رُوي عن قتادة دون الإبريق، وقال: بلغنا أنه مُدَوَّر الرأس. ولمَّا كانت أواني المأكول أكثرَ بالنسبة لأواني المشروب عادةً جُمع الأول جمع كثرة والثاني جمع قلَّة. وقد تضافرت الأخبار بكثرة الصِّحاف؛ أخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، والطبراني في «الأوسط» بسند رجاله ثقات عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجةً لمن يقوم على رأسه عشرةُ آلاف خادم، بيد كلِّ واحد صحفتان واحدةٌ من ذهب والأُخرى من فضة، في كلِّ واحدة لون ليس في الأُخرى مثلُه، يأكل من آخرها مثلَ ما يأكل من أولها، يجد لآخرها من الطيب واللذَّة مثل الذي يجد لأولها، ثم يكون ذلك كرشح المِسْك الإذفر، لا يبولون ولا يتغوَّطون ولا يمتخطون، إخواناً على سرر متقابلين»[(١)].

وفي حديث رواه عكرمة: «إن أدنى أهل الجنة منزلةً وأسفلَهم درجة لَرَجلٌ لا يدخل بعده أحدٌ، يُفسح له في بصره مسيرةَ عام في قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يُغدَى عليه كلّ يوم ويُراح بسبعين ألف صحفة، في كلِّ صحفة لون ليس في الأُخرى مثلُه، شهوته في آخرها كشهوته في أولها، لو نزل عليه جميعُ أهل الأرض لَوسع عليهم مما أُعطي، لا ينقص ذلك مما أُوتي شيئاً»[(٢)]، وروى ابن أبي شيبة هذا العدد عن كعب أيضاً[(٣)]، وإذا كان ذلك للأدنى فما ظنُّك بالأعلى، رزقنا الله تعالى ما يليق بجوده وكرمه.

وأمال أبو الحارث عن الكسائي ـ كما ذكر ابن خالويه[(٤)] ـ «بصحاف».

﴿وَفِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ من فنون الملاذِّ ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي: تستلذُّ وتقرُّ بمشاهدته، وذِكْرُ ذلك الشامل لكلِّ لذَّة ونعيم بعد ذِكرِ الطواف عليهم بأواني الذهب الذي هو بعضٌ من التنعُّم والترفُّه تعميمٌ بعد

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢، والزهد لابن المبارك (١٥٣٠)، والمعجم الأوسط (٧٦٧٤).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٢، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٢.

(٤) في القراءات الشاذة ص١٣٧.

تخصيص، كما أن ذِكْرَ لذَّة العين التي هي جاسوس النفس بعد اشتهاء النفس تخصيصٌ بعد تعميم.

وقال بعض الأجِلَّة: إنَّ قولَه تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ دلَّ على الأطعمة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ على الأشربة، ولا يبعد أن يحمل قوله سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ على المَنْكَح والمَلْبَس وما يتصل بهما ليتكامل جميع المُشتهيات النفسانية، فبقيت اللذَّة الكبرى، وهي النظرُ إلى وجه الله تعالى الكريم، فكنى عنه بقوله عز وجل ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ فيما رواه النسائي عن أنس: «حُبِّب إليَّ الطِّيْب والنساء، وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة»[1] وقال قيس بن ملوَّح:

ولقد هممتُ بقتلها من حُبِّها ... كيما تكون خصيمتي في المحشر
حتى يطولَ على الصراط وقوفنا ... وتلذَّ عيني من لذيذ المنظر[2]

ويُوافق هذا قولَ الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه: شتان بين ما تشتهي الأنفس وبين ما تلذُّ الأعين، لأن جميعَ ما في الجنة من النعيم والشهوات في جنب ما تلذُّ الأعين كأصبع تُغمس في البحر؛ لأن شهواتِ الجنة لها حدٌّ ونهاية، لأنها مخلوقة، ولا تلذُّ عين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الباقي جلَّ وعزَّ، ولا حدَّ لذلك، ولا صفة ولا نهاية. انتهى. ويُعلم مما ذكر أن المعنى على اعتبار: وفيها ما تلذُّ الأعين.

وعلى ذلك بنى الزمخشري[3] قوله: هذا حصر لأنواع النعم، لأنها إما مشتهاةٌ في القلوب أو مستلذَّة في الأعين. وتعقَّبه في «الكشف» فقال: فيه نظرٌ، لانتقاضه بمستلذَّات سائر المشاعر الخمس. فإن قيل: إنها من القسم الأول. قلنا: مستلذّ العين كذلك، فالوجه أنه ذكر تعظيماً لنعيمها بأنه مما يتوافق فيه القلب والعين، وهو الغاية عندهم في المحبوب؛ لأن العين مقدّمة القلب؛ وهذا قول بأنه ليس في الجملة الثانية اعتبار موصول آخر، بل هي والجملة قبلها صلتان لموصول واحد

(١) سنن النسائي ٧/ ٦٢، وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٢٩٣).
(٢) لم نقف على البيتين في ديوان قيس المطبوع، وأوردهما العبدلكاني في حماسة الظرفاء ص٧٥، وذكر ابن المعتز في طبقات الشعراء ص٤٤٦ البيت الأول وعزاه للصيني.
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٩٥-٤٩٦.

وهو المذكور، وما تقدَّم هو الذي يقتضيه كلام الأكثرين، وحذف الموصول في مثل ذلك شائع، ولا مانع من إدخال النظر إلى وجهه تعالى الكريم فيما تلذّ الأعين على ما ذكرناه أولاً.

و«أل» في الأنفس والأعين للاستغراق على ما قيل، ولا فرق بين جمع القِلَّة والكثرة. ولعل من يقول بأنَّ استغراق المفرد أشملُ من استغراق الجمع، ويفرق بين الجمعين في المبدأ والمنتهى، يقول بأن استغراق جمع القلة أشملُ من استغراق جمع الكثرة.

وقيل: هي للعهد.

وقيل: عوض عن المضاف إليه، أي: ما تشتهيه أنفسهم وتلذُّ أعينهم.

وجمع النفس والعين الباصرة على أَفْعُل في كلامهم أكثر من جمعهما على غيره، بل ليس في القرآن الكريم جمع الباصرة إلا على ذلك، وما أنسب هذا الجمع هنا لمكان «الأخلاء».

وحملُ ما تشتهيه النفس على المنكح والملبس وما يتصل بهما خلافُ الظاهر. وفي الأخبار أيضاً ما هو ظاهر في العموم، أخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه عن بُريدة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هل في الجنة خيلٌ، فإنها تُعجبني؟ قال: «إنْ أحببتَ ذلك أُتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت» فقال له رجل: إنَّ الإبل تُعجبني، فهل في الجنة من إبل؟ فقال: «يا عبد الله، إنْ أُدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت[1] نفسك ولذَّت عينك»[2].

وأخرج أيضاً نحوه عن عبد الرحمن بن سابط، وقال: هو أصحُّ من الأول[3]. وجاء نحوه أيضاً في روايات أُخر فلا يضرُّ ما قيل من ضعف إسناده.

---

(١) في الأصل: ما تشتهي، والمثبت من المصادر.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٣، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٧-١٠٨، وسنن الترمذي (٢٥٤٣)، وهو في مسند أحمد (٢٢٩٨٢)، وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٣) سنن الترمذي بعد الحديث (٢٥٤٣).

ولا يُشكل على العموم أن اللواطة مثلاً لا تكون في الجنة؛ لأن ما لا يَليق أن يكون فيها لا يُشتهى، بل قيل في خصوص اللواطة: إنه لا يشتهيها في الدنيا الأنفس السليمة[١].

واختلف الناس هل يكون في الجنة حمل أم لا، فذهب بعضٌ إلى الأول؛ فقد أخرج الإمام أحمد وهناد والدارمي وعبد بن حميد وابن ماجه وابن حبان والترمذي وحسنه وابن المنذر والبيهقي في «البعث» عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، إن الولد من قُرَّة العين وتمام السرور، فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسِنُّه في ساعة كما يشتهي»[٢].

وذهب طاوس وإبراهيم النخعي ومجاهد وعطاء وإسحاق بن إبراهيم إلى الثاني، فقد روي عن أبي رَزين العقيلي عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة لا يكون لهم ولد»[٣]، وفي حديث لقيط الطويل ـ الذي رواه عبد الله بن الإمام أحمد[٤] وأبو بكر بن عمرو[٥] وأبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم[٦] والطبراني[٧] وابن حبان ومحمد بن إسحاق بن منده وابن مردويه وأبو نُعيم وجماعة من الحُفَّاظ، وتلقَّاه الأئمة بالقَبول. وقال فيه ابن منده: لا يُنكر هذا الحديث إلا جاحدٌ أو جاهل أو مخالف للكتاب والسنة ـ قلت: يا رسول الله أوَ لنا فيها ـ يعني الجنة ـ أزواج،

(١) في هامش الأصل: وقيل: إن أهل الجنة لا أولاد لهم. انتهى منه.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٣، ومسند أحمد (١١٠٦٣)، والزهد لهناد (٩٣) وسنن الدارمي (٢٨٧٦)، ومنتخب عبد بن حميد (٩٣٩)، وسنن ابن ماجه (٤٣٣٨)، وصحيح ابن حبان (٧٤٠٤)، وسنن الترمذي (٢٥٦٣)، والبعث والنشور (٤٤٢).

(٣) سنن الترمذي بعد الحديث (٢٥٦٣).

(٤) السنة (٩٥١)، وهو في المسند (١٦٢٠٦)، وسلف ١٦/ ١٧١-١٧٢

(٥) يعني ابن أبي عاصم في كتاب السنة (٦٣٦).

(٦) الأصبهاني الحافظ، القاضي، المعروف بال[illegible] تفسير القرآن، والسنَّة، وغيرهما، توفي سنة (٣٤٩هـ). السير ١٦/ ٦.

(٧) المعجم الكبير ١٩/ (٤٧٧).

أَوَ منهن مصلحات؟ قال: «المصلحات للمصلحين تلذُّونهنَّ ويَلَذُّونكم[١] مثل لذَّاتكم في الدنيا، غير أنْ لا تَوَالُد».

وقال مجاهد وعطاء قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: مطهَّرة من الولد والحيض والغائط والبول ونحوها. وقال إسحاق بن إبراهيم في حديث أبي سعيد السابق: إنه على معنى: «إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حملُه ووضعُه وسِنُّه في ساعة كما يشتهي» ولكن لا يشتهي. وتُعقِّب بأن «إذا» لمتحقِّق الوقوع، ولو أُريد ما ذكر لقيل: لو اشتهى. وفي «حادي الأرواح»: إسناد حديث أبي سعيد على شرط الصحيح، فرجاله يُحتجُّ بهم فيه، ولكنه غريب جدًّا[٢].

وقال السفاريني في «البحور الزاخرة»[٣]: حديث أبي سعيد أجودُ أسانيده إسنادُ الترمذي، وقد حكم عليه بالغرابة، وأنه لا يعرف إلا من حديث أبي الصديق الناجي، وقد اضطرب لفظه، فتارة يروى عنه: إذا اشتهى الولد، وتارة: إنه يشتهي الولد، وتارة: إن الرجل لَيُولد له. و«إذا» قد تستعمل لمجرد التعليق الأعم من المحقَّق وغيره. ورجَّح القول بعدم الولادة بعشرة وجوه مذكورة فيها.

وأنا أختار القول بالولادة كما نطق بها حديث أبي سعيد، وقد قال فيه الأستاذ أبو سهل فيما نقله الحاكم[٤]: إنه لا يُنكره إلا أهلُ الزيغ، وفيه غير إسناد. وليس تكوُّن الولد على الوجه المعهود في الدنيا، بل يكون كما نطق به الحديث، ومتى كان كذلك فلا يستبعد تكوُّنه من نسيم يخرج وقتَ الجماع، وزعمُ أن الولد إنما يُخلق من المني، فحيث لا مني في الجنة ـ كما جاء في الأخبار ـ لا خَلْق؛ فيه تعجيزٌ للقدرة. ولا ينافي ذلك ما في حديث لَقيط؛ لأن المراد هناك نفي التوالد المعهود في الدنيا كما يُشير إليه وقوع «غير أن لا توالد» بعد قوله عليه الصلاة

---

(١) الأصل: تلذذونهن ويلذذنكم، والمثبت من زاد المعاد ٣/ ٥٩٢ (والكلام منه)، وفي مسند أحمد: تلذونهم ويلذذن بكم، وفي السنة لابن أبي عاصم: يلذونهن ويلذونكم.

(٢) حادي الأرواح ص٣١٢.

(٣) البحور الزاخرة في علوم الآخرة لأبي العون محمد بن أحمد السفاريني النابلسي الحنبلي، المتوفى سنة (١١٨٨هـ). ذيل كشف الظنون ١/ ١٦٧.

(٤) ذكره ابن القيم في حادي الأرواح ص٣٢٠.

والسلام: «مثل لذاتكم في الدنيا» ويقال نحو ذلك في حديث أبي رَزِين جمعاً بين الأخبار. ثم إن التوالد ليس على سبيل الاستمرار، بل هو تابع للاشتهاء ولا يلزم استمراره، فالقولُ بأنه إن استمرَّ لزم وجود أشخاص لا نهاية لها، وإن انقطع لزم انقطاع نوعٍ من لذَّة أهل الجنة، ليس بشيء.

وما قيل: إنه قد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «يبقى في الجنة فضل فينشئ اللهُ تعالى لها خَلْقاً يُسكنهم إيَّاها»(١) ولو كان في الجنة إيلادٌ لكان الفضلُ لأولادهم، الملازمة فيه ممنوعة، لجواز أن يقال: من يشتهي الولد يشتهي أن يكون معه في منزله.

والقولُ بأنَّ التوالدَ في الدنيا لحكمة بقاء النوع، وهو باق في الجنة بدون توالد، فيكون عبثاً؛ يَرِدُ عليه أنه: ما المانع من أن يكون هناك لِلَّذَّة ونحوها، كالأكل والشرب، فإنهما في الدنيا لشيء وفي الجنة لشيء آخر؟

وبالجملة: ما ذكر لترجيح عدم الولادة من الوجوه مما لا يخفى حاله على مَن له ذهنٌ وجيه.

وقرأ غير واحد من السبعة وغيرهم: «ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين»(٢) بحذف الضمير العائد على «ما» من الجملتين المتعاطفتين، وفي مصحف عبد الله: «ما تشتهيه الأنفس وتلذُّه الأعين» بالضمير فيهما(٣)، والقراءة به في الأولى(٤) دون الثانية لأبي جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وحفص(٥).

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة. وقيل: في الملاذِّ المفهومة مما تقدَّم، وهو كما ترى.

﴿خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ دائمون أَبَدَ الآبِدينَ، والجملة داخلةٌ في حيِّز النداء، وهي

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٨٠)، ومسلم (٢٨٤٨) (٣٨) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي، من العشرة يعقوب وخلف. التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٦.
(٤) في (م): الأول.
(٥) التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.

كالتأكيد لقوله تعالى: «لا خوفٌ عليكم». ونُودوا بذلك إتماماً للنعمة وإكمالاً للسرور، فإنَّ كلَّ نعيم زائلٍ موجبٌ لكلفة الحفظ وخوف الزوال، ومستعقبٌ للتحسُّر في ثاني الأحوال، ولله تعالى درُّ القائل:

وإذا نظرت فإن بؤساً زائلاً للمرء خيرٌ من نعيم زائل[1]

وعن النصراباذي أنه إن كان خلودهم لشهوة الأنفس ولذَّة الأعين فالفناء خيرٌ من ذلك، وإن كان لفناء الأوصاف والاتِّصاف بصفات الحق والمقام فيها على سرر الرضا والمشاهدة فأنتم إذاً أنتم. وأنت تعلم أن ما ذكره يدخل في عموم ما تقدم دخولاً أوليًّا. وذكر بعضهم هنا أن الخطاب هنا من باب الالتفات، وأنه للتشريف.

وقال الطيبي: ذُقْ مع طبعك المستقيم معنى الخطاب. والالتفات وتقديم الظرف في «وأنتم فيها خالدون» لتقف على ما لا يكتنهه الوصف.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ صفة «الجنة». وقوله سبحانه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ متعلّق بـ«أورثتموها».

وقيل: «تلك الجنة» مبتدأ وصفة، و«التي أورثتموها» الخبر، والجارُّ بعده متعلِّق به. وقيل: «تلك» مبتدأ و«الجنة» صفتها و«التي أورثتموها» صفة الجنة، و«بما كنتم» متعلق بمحذوف هو الخبر.

والإشارة على الوجه الأول إلى الجنة المذكورة في قوله تعالى: «ادخلوا الجنة»، وعلى الأخيرين إلى الجنة الواقعة صفة على ما قيل، والباء للسببية أو للمقابلة.

وقد شبّه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة من الجنة ونعيمها الباقي لهم بما يخلِّفه المرء لوارثه من الأملاك والأرزاق، ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورِّث ـ اسم فاعل ـ فاستعير الميراث لِمَا استحقوه، ثم اشتقَّ أورثتموها، فيكون هناك استعارةٌ تبعية، وقال بعضٌ: الاستعارة تمثيلية. وجوِّز أن تكون مكنية. وقيل: الإرث مجازٌ مرسل للنيل والأخذ.

---

(١) ذكره الشهاب في حاشيته ٧/ ٤٥٠.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ إلا وله منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فالكافر يرثُ المؤمنَ منزلَه في النار، والمؤمنُ يَرِثُ الكافرَ منزلَه في الجنة، وذلك قوله تعالى: (وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)»[١]. ولا يخلو الكلام عن مجاز عليه أيضاً.

وأيًّاما كان فسببية العمل لإيراث الجنة ونَيْلها ليس إلا بفضل الله تعالى ورحمته عز وجل. والمراد بقوله ﷺ: «لن يُدخل أحدَكم الجنةَ عملُه»[٢] نَفْيُ[٣] إدخال العمل الجنةَ على سبيل الاستقلال والسببية التامة، فلا تعارض.

وأخرج هناد وعبد بن حُميد في «الزهد» عن ابن مسعود قال: تَجُوزون الصراط بعفو الله تعالى، وتدخلون الجنة برحمة الله تعالى، وتقتسمون المنازل بأعمالكم[٤]. فتأمل.

وقرئ: «وُرِّثتموها»[٥].

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأصناف لا بحسب الأفراد فقط.

﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: لا تأكلون إلا بعضَها، وأعقابُها باقية في أشجارها، فهي مُزيَّنة بالثمار أبداً موقرة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا، وفي الحديث: «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نَبَتَ مكانَها مثلاها»[٦].

فـ «من» تبعيضية. وجوِّز كونها ابتدائية، والتقديم للحصر الإضافي، وقيل: لرعاية الفاصلة.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٣، وأخرجه ابن ماجه (٤٣٤١) وآخره عنده: فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]، وسلف ١٨/ ٣٠.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٨٧)، والبخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تحرفت في (م) إلى: ففي.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٣، وهو في الزهد لهناد (٣٢٣).

(٥) الكشاف ٣/ ٤٩٦.

(٦) أخرجه البزار (٣٥٣٠ - كشف)، والطبراني في الكبير (١٤٤٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه، ولفظ الطبراني: «إن الرجل إذا نزع من الجنة عادت مكانها أخرى».

ولعل تكرير ذكر المطاعم في القرآن العظيم مع أنها كَلَا شيءٍ بالنسبة إلى سائر أنواع نعيم الجنة؛ لِمَا كان بأكثرهم في الدنيا من الشِّدة والفاقة، فهو تسليةٌ لهم. وقيل: إن ذلك لكون أكثر المخاطبين عوامًّا، نظرهم مقصور على الأكل والشُّرب. وتُعقِّب بأنه غير تامٍّ، وللصوفية كلام سيأتي في مواضع إن شاء الله عز وجل.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الراسخين في الإجرام، الكاملين فيه، وهم الكفار، فكأنه قيل: إنَّ الكفار ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ وأيِّد إرادة ذلك بجعلهم قسيمَ المؤمنين بالآيات في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فلا تدلُّ الآية على خلود عُصاة المؤمنين كما ذهب إليه المعتزلة والخوارج، ولا يضرُّ عدمُ التعرُّض لبيان حكمهم بناءً على أن المراد بالذين آمنوا المتقون؛ لقوله تعالى: (يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) والقولُ بأن «الذين آمنوا» شاملٌ لهم لأن العلة إيمانهم وإسلامهم، لا يخفى ما فيه.

والظرف متعلق بـ «خالدون»، وخالدون خبر «إن». وجُوِّز أن يكون الظرفُ هو الخبر و«خالدون» فاعلُه لاعتماده.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُخفَّف عنهم، من فَتَرتْ عنه الحُمَّى: إذا سَكَنَتْ قليلاً، والمادة بأيِّ صيغة كانت تدلُّ على الضعف مطلقاً.

﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي: في العذاب. وقرأ عبد الله: «فيها»[(١)]، أي: في جهنم.

﴿مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ حزينون من شدة البأس. قال الراغب: الإبلاس: الحزن المعترض من شدَّة البأس، ومنه اشتقَّ إبليس فيما قيل. ولمَّا كان المُبْلِس كثيراً ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه، قيل: أبلس فلانٌ، إذا سكت وانقطعت حُجَّته[(٢)]. انتهى.

وقد فسِّر الإبلاس هنا بالسكوت وانقطاع الحُجَّة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ لسوء اختيارهم، و«هم» ضمير فصل

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٠، والكشاف ٣/ ٤٩٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (بلس).

فيفيد التخصيص. وقرأ عبد الله وأبو زيد: «الظالمون» بالرفع[1] على أن «هم» مبتدأ وهو خبره، وذكر أبو عمر الجَرْميُّ أن لغة تميم جعلُ ما هو فَصْلٌ عند غيرهم مبتدأ، ويرفعون ما بعده على الخبر، وقال أبو زيد: سمعتهم يقرؤون: «تجدوه عند الله هو خير وأعظم» [المزمل: ٢٠][2] برفع: خير وأعظم، وقال قيس بن ذريح:

تحنُّ إلى ليلى وأنت تركتَها وكنتَ عليها بالمَلا أنت أقدرُ[3]

وقال سيبويه: بَلَغَنا أنَّ رؤبة كان يقول: أظنُّ زيداً هو خيرٌ منك، يعني بالرفع[4].

﴿وَنَادَوْا﴾ أي: من شدة العذاب. وفي بعض الآثار: يُلقى على أهل النار الجوعُ حتى يَعْدِلَ ما هم فيه من العذاب، فيقولون: ادعوا مالكاً. فيدعون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: لِيُمتنا، مِن: قَضَى عليه، إذا أماته، ومرادهم: سَلْ ربَّك أن يقضيَ علينا حتى نستريحَ، وإضافتهم الربَّ إلى ضميره لحثِّه، لا للإنكار، وهذا لا يُنافي الإبلاس على التفسير الأول؛ لأنه صراخٌ وتمنٍّ للموت من فرطِ الشدة، وأما على التفسير الثاني أنه وإن نفاه لكن زمان كلٍّ غيرُ زمان الآخر، فإنَّ أزمنة العذاب متطاولةٌ وأحقابه ممتدَّة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لِغلبة اليأس وعِلْمهم أنه لا خَلاصَ لهم ولو بالموت، ويغوثون أوقاتاً لشدَّة ما بهم.

وتُعقِّب بأنه لا يُناسب دوام الجملة الاسمية، أعني: وهم مُبْلِسون.

وقيل: إنَّ «نادَوا» معطوفٌ بالواو، وهي لا تقتضي ترتيباً، ولا يخفى أن تلك الجملة حالية لا تنفكُّ عن الخلود.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن مسعود وابن وثَّاب والأعمش: «يا مالِ»

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢١، والبحر ٨/ ٢٧.

(٢) البحر ٨/ ٢٧، وهي قراءة شاذة.

(٣) كتاب سيبويه ٢/ ٣٩٣، وشرح المفصل ٣/ ١١٢ وفيهما: تُبَكِّي على لبنى...، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٧.

(٤) الكتاب ٢/ ٣٩٢، والبحر ٨/ ٢٧.

بالترخيم[١] على لغة من ينتظر، وقرأ أبو السوار: «يا مالُ» بالترخيم[٢] أيضاً لكن على لغة من لم ينتظر.

قال ابن جني[٣]: وللترخيم في هذا الموضع سرٌّ، وذلك أنهم لعظم ما هم فيه ضَعُفَتْ قواهم وذلَّت أنفسهم، فكان هذا من موضع الاختصار ضرورةً.

وبهذا يجاب عن قول ابن عباس وقد حكيت له القراءة به على اللغة الأولى: ما أَشْغَلَ أهل النار عن الترخيم[٤]! مشيراً بذلك إلى إنكارها، فإنَّ «ما» للتعجب، وفيها معنى الصدّ، يعني أنهم في حالة تَشغلهم عن الالتفات إلى الترخيم وتركِ النداء على الوجه الأكثر في الاستعمال. وحاصلُ الجواب أنَّ هذا الترخيم لم يصدر عنهم لقَصْدِ التصرف في الكلام والتفنُّنِ فيه، كما في قوله:

يحيي رُفاتَ العظام باليةً والحقُّ يامالِ غيرُ ما تَصِفُ[٥]

بل للعجز وضيق المجال عن الإتمام كما يُشاهد في بعض المَكْروبين.

﴿قَالَ﴾ أي: مالك: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ مُقيمون في العذاب أبداً لا خَلاص لكم منه بموت ولا غيره، وهذا تقنيطٌ ونِكاية لهم فوق ما هم فيه، ولا يضر في ذلك عِلْمه بيأسهم إنْ قلنا به.

وذكر بعض الأَجِلَّة أنَّ فيه استهزاءً؛ لأنه أقام المُكْث مقامَ الخلود، والمُكْث يُشعر بالانقطاع؛ لأنه كما قال الراغب: ثَبات مع انتظار[٦]. ويمكن أن يكون وجه الاستهزاء التعبير بـ «ماكثون» من حيث إنه يشعر بالاختيار.

وإجابتهم بذلك بعد مُدَّة. قال ابن عباس: يُجيبهم بعد مضي ألف سنة. وقال نوف: بعد مئة. وقيل: ثمانين. وقيل: أربعين.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٦، والمحتسب ٢/ ٢٥٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٦.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٥٧.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٩٦.
(٥) البيت لعمرو بن امرئ القيس الخزرجي، ضمن قصيدة ذكرها البغدادي في الخزانة ٤/ ٢٧٥، وصدره فيها: خالفتَ في الرأي كلَّ ذي فَخَر . .
(٦) مفردات ألفاظ القرآن (مكث).

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ خطابُ توبيخ وتقريع من جهته تعالى مُقرِّر لجواب مالك ومُبيِّنٌ لسبب مُكثهم، ولا مانع من خطابه سبحانه الكفرةَ تقريعاً لهم. وقيل: هو من كلام بعض الملائكة عليهم السلام، وهو كما يقول أحدُ خدم الملك للرعية: أعلمناكم وفعلنا بكم.

قيل: لا يجوز أن يكون من قول مالك لا لأن ضمير الجمع يُنافيه، بل لأن مالكاً لا يصح منه أن يقوله؛ لأنه لا خِدْمةَ له غير خَزْنِه للنار. وفيه بحث.

وقيل: في «قال» ضميره تعالى، فالكلُّ مقولُه عز وجل.

وقيل: إن قوله تعالى: «إنكم ماكثون» خاتمة حال الفريقين، وقوله سبحانه: «لقد» إلخ كلامٌ آخرُ مع قريش، والمراد عليه: جئناكم في هذه السورة أو القرآن بالحقِّ، وعلى ما تقدم: لقد جئناكم في الدنيا بالحقِّ، وهو التوحيد وسائر ما يجب الإيمان به، وذلك بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب ولكن أكثركم للحقِّ ـ أيِّ حقٍّ كان ـ كارهون، لا تقبلونه وتنفرون منه. وفسر الحقَّ بذلك دون الحقِّ المعهود سواء كان الخطاب لأهل النار أو لقريش لمكان «أكثركم»؛ فإن الحقَّ المعهود كلُّهم كارهون له مُشمئِزُّون منه. وقد يقال: الظاهر العهد، وعبَّر بالأكثر لأن من الأتباع من يكفر تقليداً.

وقرئ: «لقد جئتكم»[1].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ كلامٌ مبتدأ ناعٍ على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله ﷺ، و«أم» منقطعة وما فيها من[2] معنى «بل» للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء، والهمزة للإنكار، فإن أريد بالإبرام الإحكام حقيقةً فهي لإنكار الوقوع واستبعاده، وإن أُريد الإحكام صورةً فهي لإنكار الواقع واستقباحه، أي: بل أبرم مشركو مكة أمراً من كيدهم ومَكْرهم برسول الله ﷺ. ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ كيدنا حقيقةً لا هم، أو فإنا مبرمون كيدَنا بهم حقيقةً كما أبرموا كيدَهم صورةً، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

---

(١) الكشاف ٣/٤٩٦.
(٢) قوله: من، ساقط من (م).

والآية إشارةٌ إلى ما كان منهم من تدبير قتله عليه الصلاة والسلام في دار الندوة، وإلى ما كان منه عز وجل من تدميرهم.

وقيل: هو من تتمة الكلام السابق، والمعنى: أم أبرموا في تكذيب الحقِّ وردِّه ولم يقتصروا على كراهته، فإنا مُبرِمون أمراً في مجازاتهم. فإن كان ذلك خطاباً لأهل النار، فإبرام الأمر في مجازاتهم هو تخليدُهم في النار معذَّبين؛ وإنْ كان خطاباً لقريش فهو خِذْلانهم ونصر النبيِّ ﷺ عليهم؛ فكأنه قيل: فإنا مُبرمون أمراً في مجازاتهم وإظهار أمرك، وفيه إشارة إلى أن إبرامَهم لا يُفيدهم، ولا يُغني عنهم شيئاً. والعدول عن الخطاب في «أكثركم» إلى الغيبة في «أبرموا» على هذا القيل للإشعار بأنَّ ذلك أسوأ من كراهتهم.

ويؤيِّد ما ذكر أولاً ـ على ما قيل ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ لأنه يدلُّ على أن ما أبرموه كان أمراً قد أخفَوْه، فيناسب الكيدَ دون تكذيب الحقِّ؛ لأن الكَفَرة مجاهرون فيه، والمراد بالسرِّ هنا حديثُ النفس، أي: بل أيحسبون أنَّا لا نسمع حديثَ أنفسهم بذلك الكيد ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ أي: تناجيهم وتحادثهم سرًّا.

وقال غير واحد: السرُّ ما حدَّثوا به أنفسهم أو غيرهم في مكان خالٍ، والنجوى ما تكلَّموا به فيما بينهم بطريق التناجي.

﴿بَلَىٰ﴾ نسمعهما ونطَّلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمون لهم ﴿يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: يكتبونهما، أو يكتبون كلَّ ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال التي من جملتها ما ذكر.

والمضارع للاستمرار التجدُّدي، وهو مع فاعله خبر، و«لديهم» حال قُدِّم للفاصلة، أو خبر أيضاً، وجملة المبتدأ والخبر إما عطف على ما يترجم عنه «بلى» أو حال، أي: نسمع ذلك والحال أنَّ رسلنا يكتبونه.

وإذا كان المراد بالسرِّ حديثَ النفس فالآيةُ ظاهرة في أن السرَّ والكلام المخيل مسموعٌ له تعالى، وكذا هي ظاهرة في أن الحفظة تكتبه كغيره من أقوالهم وأفعالهم الظاهرة، ولا يَبْعُدُ ذلك بأن يُطلعهم الله تعالى عليه بطريق من طرق الاطلاع فيكتبوه.

ومَن خصَّ كتابتهم بالأمور الغير القلبية خصَّ السرَّ بما حدّث به الغير في مكان خالٍ.

والظاهر أن حسبانهم ذلك حقيقة، ولا يُستبعد من الكَفَرة الجَهَلة، فقد أخرج ابنُ جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثةٌ عند الكعبة وأستارِها: قُرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحدٌ منهم: ترون الله تعالى يسمع كلامَنا؟ فقال واحد: إذا جَهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع. فنزلت: «أم يحسبون» الآية[1].

وقيل: إنهم نُزِّلوا في إقدامهم على الباطل وعدم خوفهم من الله عز وجل منزلةَ من يحسب أن الله سبحانه لا يسمع سرَّه ونجواه.

﴿قُلْ﴾ أي: للكفرة، تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك ما يعبدون من الملائكة عليهم السلام ليس لِبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم، بل إنما هو لجزمك باستحالة ما نَسبوا إليهم وبَنَوا عليه عبادتهم من كونهم بناتِ الله سبحانه وتعالى.

﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: لذلك الولد، «وكان» بمعنى: صحَّ، كما يقال: ما كان لك أن تفعل كذا، وهو أحدُ استعمالاتها، و«أول» أفعل تفضيل، والمُفضَّل عليه المقولُ لهم. وجُوِّز اعتبار ذلك مطلقاً؛ والمراد إظهار الرغبة والمسارعة. والمنساقُ إلى الذهن الأول.

ووجه الملازمة أنه عليه الصلاة والسلام أعلمُ الناس بشؤونه تعالى وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأحرصهم على مراعاة حقوقه وما تُوجبه من تعظيم وَلَده سبحانه، فإنَّ حقَّ الوالد على شخص يوجب عليه تعظيم ولده؛ لِمَا أنَّ تعظيمَ الولد تعظيمُ الوالد؛ فالمعنى: إن كان للرحمن ولد وصحَّ ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه، وحُجَّةٍ واضحة تُدلون بها، فأنا أول من يُعظِّم ذلك الولد وأَسْبَقُكم إلى طاعته والانقياد له كما يُعظِّم الرجلُ ولدَ الملك لعظم أبيه، وهذا نفي لكينونة ولدٍ له سبحانه على أبلغ وجه، وهو الطريق البرهاني والمذهب الكلامي، فإنه في الحقيقة قياسٌ استثنائي استُدلَّ فيه بنفي اللازم البيِّن انتفاؤه ـ وهو عبادته ﷺ للولد ـ على نفي الملزوم، وهو كينونة الولد له سبحانه، وذلك نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٣، وتفسير الطبري ٢٠/ ٦٥٣.

ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] لكنه جيء بـ «إنْ» دون «لو» لجَعْلِ ما في حيِّزها بمنزلة ما لا قَطْعَ بعدمه على طريق المساهلة وإرخاءِ العنان للتبكيت والإفحام.

وفي «الكشف»: إن في الآية مبالغةً من حيث إنه جعل الممكن في نفسه ـ أعني عبادته عليه الصلاة والسلام لِمَا يدعونه ولداً ـ مُحالاً، فهو نفيٌ لعبادة الولد على أبلغ وجه حيث جعل مُسبَّباً عن محال، ثم نفي للولد كذلك من طريق آخر، وهو أنه لمَّا لم يعبد ﷺ الولدَ ـ مع كونه أولى بعبادته لو كان ـ دلَّ على نَفْيه، ونحو ما ذكر في الآية مرويٌّ عن قتادة والسدي والطبري[١].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن جرير عن مجاهد أن المعنى: قل: إنْ كان للرحمن ولدٌ في زعمكم فأنا أولُ من عبد الله تعالى وحدَه وكذَّبكم بما تقولون[٢]. فالمرادُ من كونه عليه الصلاة والسلام أولَ العابدين كونُه ﷺ أولَ من يُنكر ذلك عليهم. والملازمة في الشرطية باعتبار أن نسبتهم الولد له تعالى تقتضي أن يُكذِّبهم النبي ﷺ، وأن يكون أولَ من يُنكره؛ لأنه صاحبُ الدعوة إلى التوحيد. وقد خَفِيَ ذلك على الإمام فنفى صحةَ هذا الوجه[٣].

وتكلَّف بعضُهم فقال: إنَّ تسبُّب الجزاء عن الشرط عليه باعتبار الأولية في العبادة والتوحيد من بينهم، فإنهم إذا أطبقوا على ذلك الزعم يكون النبي ﷺ أولهم في عبادة الله تعالى وحده لا محالة.

وقيل: إن السببية باعتبار الإخبار والذِّكر نحو: إن تضربني فأنا لا أضربُك. وهو أولى مما قبله، والإنصاف أن الارتباط خفيٌّ لا يظهر إلا لمجاهد.

وحكى أبو حاتم عن جماعة ولم يُسَمِّ أحداً منهم أن «العابدين» مِنْ عَبِدَ يَعْبَدُ ـ كفرح يفرح ـ إذا أَنِفَ من الشيء، ومنه قوله:

وأَعبَدُ أن أهجو كُليباً بدارمِ[٤]

---

(١) في تفسيره ٢٠/ ٦٥٦.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠٣، وتفسير الطبري ٢٠/ ٦٥٤.

(٣) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٣١.

(٤) قائله الفرزدق، وليس في ديوانه، وهو في إصلاح المنطق ص٥٩، وتفسير القرطبي ١٩/ ٩٠، وصدره فيهما: أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم. وجاء بلفظ آخر عند غيرهما.

وقول الآخر:

متى ما يَشَأْ ذو الوُدِّ يصرِمْ خليلَه ويَعْبَدْ عليه لا محالةَ ظالما[١]

أي: إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول الآنفين من الولد، أو من كونه لله سبحانه ونسبته له عز وجل. وروي نحو هذا عن ابن عباس؛ أخرج الطستي عنه أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ فقال: أنا أول من ينفرُ عن أن يكون لله تعالى وَلَد[٢]. وأُيِّد ذلك بقراءة السُّلمي واليماني: «العَبِدين»[٣] جمع عَبِد، كحَذِر وحَذِرين، وهو المعروف في معنى أَنِف، وقلَّما يقال فيه: عابد. ومن هنا ضعَّف ابن عرفة هذا الوجه؛ لِمَا فيه من استعمال ما قلَّ استعماله في كلامهم.

وذكر الخليل في كتاب «العين» أنه قرئ: «العَبْدين» بسكون الباء[٤]، تخفيف «العَبِدين» بكسرها. وقال أبو حاتم: العَبِد - بكسر الباء - الشديد الغضب. وقال أبو عُبيدة: العرب تقول: عبدني حقِّي، أي: جَحَدني[٥].

وروي عن الحسن وابن زيد وزهير بن محمد - وهو رواية عن ابن عباس - وقتادة والسدي أيضاً: أن «إن» نافية، أي: ما كان للرحمن ولد، فأنا أولُ مَن قال ذلك وعبد ووحَّد، و«كان» عليه للاستمرار، والمقصود استمرارُ النفي لا نفي الاستمرار، والفاء للسببية. وتُعقِّب بأنه خلافُ الظاهر مع خفاء وجه السببية أو حسنها، وزعم مكي أنه لا يجوز لإيهامه نفي الولد فيما مضى، وهو كما ترى.

وقرأ عبد الله وابن وثاب وطلحة والأعمش، وحمزة والكسائي - كما قال القاضي[٦] -: «وُلْد» بضمِّ الواو وسكون اللام، جمع وَلد بفتحهما[٧].

---

(١) البيت للمرقِّش الأصغر، وهو في المفضليات ص٢٤٦، والحماسة البصرية ٢/ ٣٣.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٧، والمحتسب ٢/ ٢٥٧.

(٤) العين ٢/ ٥٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٨.

(٥) ينظر مجاز القرآن ٢/ ٧٠٢.

(٦) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٧/ ٤٥٣.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٢٩، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: عن وصفهم، أو الذي يصفونه به من كونه سبحانه له ولدٌ.

وفي إضافة اسم الربِّ إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيهٌ على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت مَلكوته تعالى وربوبيَّته عزَّ وجلَّ كيف يتوهَّم أن يكون شيء منها جُزءاً منه سبحانه، وهو يُنافي وجوبَ الوجود.

وفي تكرير ذلك الاسم الجليل تفخيمٌ لشأن العرش.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ فدعهم غيرَ ملتفت إليهم حيث لم يُذعنوا للحقِّ بعد ما سمعوا هذا البرهان الجليَّ ﴿يَخُوضُوا﴾ في أباطيلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم، فإنَّ ما هم فيه من الأقوال والأفعال ليس إلا من باب الجهل، والجزم لجواب الأمر.

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ وهو يومُ القيامة عند الأكثرين. وعن عكرمة وجماعة أنه يوم بدر، وقد وُعدوا الهلاك فيه، وقريبٌ منه تفسيره بيوم الموت. وقيل: ينبغي تفسيره به دون يوم القيامة؛ لأنَّ الغايةَ للخوض واللَّعب إنما هو يوم الموت لانقطاعهما بالموت.

وانتُصر للأكثرين بأنَّ يوم القيامة هو اليوم الموعود، وبه سُمِّي في لسان الشرع، وتفسيره بذاك مخالفٌ للمعروف ولِمَا بعدُ من ذكر الساعة، وما ذكر من أمر الانقطاع مدفوعٌ بأن الموت وما بعدَه في حكم القيامة، ولذا ورد: «من مات فقد قامت قيامته»[1]، ومثله قد يُراد به الدلالة على طول المدة مع قطع النظر عن الانتهاء، فيقال: لا يزالُ في ضلالة إلى أن تقومَ القيامة.

وقرأ أبو جعفر وابن محيصن وعبيد بن عقيل عن أبي عمرو: «يَلْقَوا» مضارع لقي[2]. والآية قيل: منسوخة بآية السيف.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ الظرفان متعلِّقان بـ «إله» لأنه صفة بمعنى معبود، مِنْ أَلَهَ بمعنى عَبَدَ، وهو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو إلهٌ، وذلك عائد الموصول، وحُذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه.

(١) أورده الديلمي في مسند الفردوس (١١١٧) عن أنس ﷺ.
(٢) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٧٠، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٩.

وقال غير واحد: الجارُّ متعلِّق بـ «إله» باعتبار ما ينبئ عنه من معنى المعبودية بالحق بناءً على اختصاصه بالمعبود بالحق، وهذا كتعلُّق الجارِّ بالعَلم المُشتَهِر بصفة، نحو قولك: هو حاتمٌ في طيِّئ حاتمٌ في تغلب، وعلى هذا تُخرَّج قراءة عمر وعليٍّ وعبد الله وأُبيّ والحكم بن أبي العالي[1] وبلال بن أبي بُردة وابن يعمر وجابر وابن زيد[2] وعمر بن عبد العزيز وأبو شيخ الهنائي وحُميد وابن مِقْسم وابن السَّمَيْفع: «وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله» فيعلّق الجارُّ بالاسم الجليل باعتبار الوصف المُشتهِر به. واعتبر بعضُهم معنى الاستحقاق للعبادة، وعلَّل ذلك بأنَّ العبادة بالفعل لا تلزم.

وجوِّز كون الجارّ والمجرور صلة الموصول، و«إله» خبر مبتدأ محذوف أيضاً على أن الجملة بيانٌ للصلة، وأنَّ كونه سبحانه في السماء على سبيل الإلهية لا على معنى الاستقرار.

واختير كون «إله» في هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف على كونه خبراً آخرَ للمبتدأ المذكور، أو بدلاً من الموصول، أو من ضميره بناءً على تجويزه؛ لأن إبدالَ النكرة الغير الموصوفة من المعرفة إذا أفادت ما لم يُستفد أولاً كما هنا جائزٌ حسنٌ على ما قال أبو عليٍّ في «الحجة» لأن البيان هاهنا أتمُّ وأهمُّ، فلذا رجح مع ما فيه من التقدير، وحينئذ فلا فاصل أجنبي بين المتعاطفين، ولا يجوز كون الجارِّ والمجرور خبراً مقدَّماً، و«إله» مبتدأ مؤخَّراً؛ للزوم خلوِّ الجملة عن العائد مع فساد المعنى.

وفي الآية نفي الآلهة السماوية والأرضية، واختصاص الإلهية به عزَّ وجلَّ لما فيها من تعريف طرفي الإسناد، والموصول في مثل ذلك كالمُعرَّف بالأداة.

وللاعتناء بكلٍّ من إلهيته تعالى في السماء وإلهيته عز وجل في الأرض، قيل «وهو الذي في السماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ» ولم يقل: وهو الذي في السماء وفي الأرض إلهٌ. أو: وهو الذي في السماء والأرض إلهٌ. وحديث الإعادة قيل: مما لا يجري هاهنا، لأن القاعدة أغلبية كأكثر قواعدِ العربية.

---

(١) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٨/ ٢٩، وعنه نقل المصنف، والصواب: الحكم بن أبي العاصي، كما في المحرر الوجيز ٥/ ٦٦.

(٢) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر، وفي المحرر: وجابر بن زيد. وهي في القراءات الشاذة ص١٣٦ عن علي وابن مسعود.

وقال بعض الأفاضل: يجوز إجراء القاعدة فيه، والمغايرة بين الشيئين أعمُّ من أن تكون بالذات أو بالوصف والاعتبار، والمراد هنا الثاني. ولا شكَّ أن طريق عبادة أهل السماء له تعالى غير طريق عبادة أهل الأرض على ما يشهد به تتبع الآثار، فإذا كان «إله» بمعنى معبود كان معنى الآية أنه تعالى معبودٌ في السماء على وجه، ومعبود في الأرض على وجه آخر، وإن كان بمعنى التحيُّر فيه، فالتحيُّر في أهل السماء غير التحيُّر في أهل الأرض، فلا جرم تكون أطوارهم مخالفة لأطوارِ أهل الأرض، ومن ذلك اختلافُ علومهم، فإن علومَ أهل الأرض إن كانت ضرورية فأكثرها مستندةٌ إلى الحسّ، وإن كانت نظرية كانت مكتسبة من النظر، فإذا انسدَّ طريق النظر والحِسِّ عَجَزوا وتحيَّروا، ولا كذلك أهلُ السماء لتنزُّههم عن الكسب والحسّ، فتحيُّرهم على نحو آخر، أو نقول: التحيُّر في إدراك ذاته تعالى وصفاته إنما ينشأ من مشاهدة آثار عظمته وكمال قُدرته سبحانه، ولا شك أن تلك الآثار في السماء أعظمُ من الآثار في الأرض. وعليه فيجوز أن يكون الإله بمعنى المتحيَّر فيه، ويكون مجازاً عن عظيمِ الشأن من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم، فيكون المعنى أنه تعالى عظيم الشأن في السماء على نحوٍ، وعظيم الشأن في الأرض على نحوٍ آخرَ. اهـ. ولا يخلو عن شيء كما لا يخفى.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ كالدليل على النفي والاختصاص المشار إليهما، فإن من لا يتَّصف بكمال الحكمة والعلم لا يستحقُّ الإلهية.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء ومخلوقات الجوّ المشاهدة وغيرها ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: العلم بالساعة، أي: الزمان الذي تقوم القيامة فيه، فالمصدر مضافٌ لمفعوله، و«الساعة» بمعناها اللغوي، وهو مقدار قليل من الزمان، ويجوز أن يُراد بها معناها الشرعيُّ، وهو يوم القيامة، والمحذورُ مندفعٌ بأدنى تأمُّل، وفي تقديم الخبر إشارةٌ إلى استئثاره تعالى بعلم ذلك.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ للجزاء. والالتفات إلى الخطاب للتهديد. وقرأ الأكثر بياء الغيبة، والفعل في القراءتين مبنيٌّ للمفعول؛ وقرئ بفتح تاء الخطاب والبناء

للفاعل[١]. وقرئ: «تحشرون» بتاء الخطاب أيضاً، والبناء للمفعول[٢].

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: ولا يملك آلهتُهم الذين يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زَعَموا أنهم شفعاؤهم عند الله عز وجل.

وقرئ: «تَدْعون» بتاء الخطاب والتخفيف، والسُّلمي وابن وثَّاب بها وشدِّ الدال[٣].

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ أي: يعلمونه، والجملة في موضع الحال، وقيِّد بها؛ لأن الشهادةَ عن غير علم بالمشهود به لا يُعوَّل عليها، وجمع الضمير باعتبار معنى «مَنْ» كما أن الإفراد أولاً باعتبار لفظه، والمراد به الملائكة وعيسى وعُزير وأضرابهم صلوات الله تعالى وسلامه عليهم.

والاستثناء قيل: متصل إنْ أُريد بالذين يدعون من دونه كل ما يُعبد من دون الله عز وجل، ومنفصل إن أريد بذلك الأصنام فقط. وقيل: هو منفصلٌ مطلقاً، وعُلِّل بأن المرادَ نفي ملك الآلهة الباطلة الشفاعةَ للكفرة، ومَنْ شهد بالحقِّ منها لا يملك الشفاعةَ لهم أيضاً، وإنما يملك الشفاعة للمؤمنين، فكأنه قيل ـ على تقدير التعميم ـ: ولا يملك الذين يدعونهم من دون الله تعالى كائنين ما كانوا الشفاعةَ لهم، لكن مَنْ شهد بالحق يملك الشفاعة لمن شاء الله سبحانه من المؤمنين؛ فالكلام نظيرُ قولك: ما جاء القومُ إليَّ إلا زيداً جاء إلى عمرو. فتأمَّل.

وقال مجاهد وغيره: المراد بمن شهد بالحقّ المشفوعُ فيهم. وجُعِلَ الاستثناء عليه متصلاً، والمستثنى منه محذوفاً، كأنه قيل: ولا يملك هؤلاء الملائكة وأضرابهم الشفاعة في أحد إلا فيمن وحَّد عن إيقان وإخلاص، ومثله في حذف المستثنى منه قولُه:

---

(١) قرأ بياء الغيبة ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ورويس، وقرأ الباقون بتاء الخطاب، ويعقوب على أصله في فتح حرف المضارعة وكسر الجيم. التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.

(٢) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٦، والدر المصون ٩/ ٦١١.

نجا سالم والنفس منه بِشِدْقِهِ ... ولم ينجُ إلا جَفْنَ سيفٍ ومِئْزرا[١]

أي: ولم ينجُ شيء إلا جفن سيف.

واستدل بالآية على أن العلم مما لا بدَّ منه في الشهادة دون المشاهدة.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ أي: سألت العابدين أو المعبودين ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لِتعذُّر المكابرة في ذلك من فرط ظهوره، ووجه قول المعبودين ذلك أظهرُ من أن يخفى.

﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ فكيف يُصْرَفون عن عبادته تعالى إلى عبادة غيره سبحانه ويُشركونه معه عز وجل مع إقرارهم بأنه تعالى خالقُهم، أو مع عِلْمهم بإقرار آلهتهم بذلك، والفاء جزائية، أي: إذا كان الأمر كذلك فأنَّى.. إلخ، والمراد التعجُّب من إشراكهم مع ذلك.

وقيل: المعنى: فكيف يُكذِّبون بعد علمهم بذلك؟! فهو تعجُّب من عبادة غيره تعالى، وإنكارهم للتوحيد مع أنه مركوز في فطرتهم.

وأيًّاما كان فهو متعلِّق بما قبله من التوحيد والإقرار بأنه تعالى هو الخالق.

وأما كون المعنى: فكيف ـ أو أين ـ يصرفون عن التصديق بالبعث مع أنَّ الإعادةَ أهونُ من الإبداء، وجعله متعلقاً بأمر الساعة كما قيل، فيأباه السياق.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «تؤفكون» بتاء الخطاب[٢].

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ بجر «قيله»، وهي قراءة عاصم وحمزة والسُّلمي وابن وثَّاب والأعمش[٣].

وقرأ الأعرج وأبو قلابة ومجاهد والحسن وقتادة ومسلم بن جندب برفعه، وهي قراءة شاذة[٤]. وقرأ الجمهور بنصبه[٥].

---

(١) البيت لحذيفة بن أنس الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ٢٢، ومجالس ثعلب ص٤٥٦.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٦.
(٣) التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠ عن عاصم وحمزة، والكلام من البحر ٨/ ٣٠.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٦.
(٥) التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.

واختلف في التخريج فقيل: الجرّ على عطفه على لفظ «الساعة» في قوله تعالى: «وعنده علم الساعة» أي: عنده علم قيله. والنصب على عطفه على محلّها لأنها في محلٍّ نصب بـ «علم» المضافِ إليها، فإنه كما قدَّمنا مصدر مضاف لمفعوله، فكأنه قيل: يعلم الساعةَ، ويعلم قيلَه. والرفع على عطفه على «علم الساعة» على حذف مضاف، والأصل: وعلم قيله، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه، ونُسب الوجه الأول لأبي عليٍّ، والثالث لابن جني، وجميع الأوجه للزجّاج[1]، وضمير «قيله» عليها للرسول ﷺ المفهوم من قوله تعالى: «ولئن سألتهم».

والقيل والقال والقول مصادر جاءت بمعنى واحد، والمنادى وما في حيِّزه مقولُ القول، والكلامُ خارجٌ مخرجَ التحسُّر والتحزُّن والتشكِّي من عدم إيمان أولئك القوم، وفي الإشارة إليهم بـ «هؤلاء» دون قوله: قومي ونحوه تحقيرٌ لهم وتبرٌّ منهم لسوء حالهم، والمراد من إخباره تعالى بعلمه ذلك وعيدُه سبحانه إياهم.

وقيل: الجرّ على إضمار حرف القَسَم، والنصب على حذفه وإيصال فعله إليه محذوفاً، والرفع على نحو: لَعَمْرُكَ لأفعلنَّ، وإليه ذهب الزمخشري[2]. وجعل المقول «يا رب» وقوله سبحانه: «إن هؤلاء» إلخ جواب القسم على الأوجه الثلاثة، وضمير «قيله» كما سبق. والكلام إخبارٌ منه تعالى أنهم لا يؤمنون، وإقسامه سبحانه عليه بقوله ﷺ: «يا رب» لرفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتعظيمِ دعائه والتجائه إليه تعالى، والواو عنده للعطف؛ أعني عطف الجملة القَسَمية على الجملة الشرطية، لكن لمَّا كان القسم بمنزلة الجملة الاعتراضية صارت الواو كالمضمحلِّ عنها معنى العطف.

وفيه أن الحذف الذي تضمَّنه تخريجه من ألفاظ شاع استعمالها في القسم كـ: عَمْرُكَ، وايْمُنُ الله، واضحُ الوجه على الأوجه الثلاثة، وأما في غيرها كالقيل هنا فلا يخلو عن ضعف.

وقيل: الجرّ على أن الواو واو القسم، والجواب محذوفٌ، أي: لَننصرنَّه، أو

---

(١) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ١٥٩، والمحتسب ٢/ ٢٥٨، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢١.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٨.

لَنفعلَنَّ بهم ما نشاء. حكاه في «البحر»[١]، وهو كما ترى.

وقيل: النصب على العطف على مفعول «يكتبون» المحذوف، أي: يكتبون أقوالَهم وأفعالَهم وقيله: يا رب.. إلخ. وليس بشيء.

وقيل: هو على العطف على مفعول «يعلمون» أعني: الحقّ، أي: يعلمون الحقَّ وقيله.. إلخ. وهو قولٌ لا يكاد يعقل.

وعن الأخفش أنه على العطف على «سرَّهم ونجواهم»، ورُدَّ بأنه ليس بقويٍّ في المعنى مع وقوع الفصل بما لا يحسن اعتراضاً ومع تنافر النَّظم. وتُعُقِّب أن ما ذُكر من الفصل ظاهر، وأما ضعف المعنى وتنافر النظم فغيرُ مُسلَّم؛ لأن تقديره: أم يحسبون أنا لا نسمع سرَّهم ونجواهم وأنا لا نسمع قِيلَه... إلخ. وهو منتظمٌ أتمَّ انتظام. وعنه أيضاً أنه على إضمار فعل من القيل ناصب له على المصدرية، والتقدير: قال قيله، ويُؤَيِّده قراءةُ ابن مسعود: «وقال الرسول»[٢]، والجملة معطوفة على ما قبلها. ورُدَّ بأنه لا يظهر فيه ما يحسن عطفه على الجملة قبله، وليس التأكيد بالمصدر في موقعه ولا ارتباط لقوله تعالى: «فاصفح» به.

وقال العلامة الطيبي في توجيهه: إن قوله تعالى: «ولئن سألتهم» تقديره: وقلنا لك: ولئن سألتهم.. إلخ، وقلت: «يا رب» يأساً من إيمانهم، وإنما جعل غائباً على طريق الالتفات، لأنه كأنه ﷺ فاقدٌ نفسه للتحزُّن عليهم حيث لم ينفع فيهم سعيه واحتشاده.

وقيل: الواو على هذا الوجه للحال، و«قال» بتقدير «قد»، والجملة حالية، أي: فأنى يُؤْفَكون وقد قال الرسول يا رب.. إلخ. وحاصلُه: فأنى يؤفكون وقد شكا الرسول عليه الصلاة والسلام إصرارهم على الكفر. وهو خلاف الظاهر.

وقيل: الرفع على الابتداء، والخبر «يا رب» إلى «لا يؤمنون» أو هو محذوف، أي: مسموع، أو متقبَّل، فجملة النداء وما بعده في موضع نصب بـ «قيله»، والجملة حال أو معطوفة، ولا يخفى ما في ذلك.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٠.

(٢) في القراءات الشاذة ص١٣٧: «فقال يا رب». ولم ينسبها لأحد.

والأَوْجَهُ عندي ما نُسب إلى الزجاج، والاعتراض عليه بالفصل هينٌ، وبضعف المعنى والتنافرِ غيرُ مُسلَّم، ففي «الكشف» بعد ذكر تخريج الزجاج الجرّ: إن الفاصلَ أعني من قوله تعالى: «وإليه ترجعون» إلى «يؤفكون» يصلحُ اعتراضاً، لأن قوله سبحانه: «وعنده علم الساعة» مرتبطٌ بقوله تعالى: «حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون» على ما لا يخفى، والكلام مسوقٌ للوعيد البالغ بقوله تعالى: «وإليه ترجعون» إلى قوله عز وجل: «وهم يعلمون» متصل بقوله تعالى: «وعنده علم الساعة» اتصال العصا بلحاها. وقوله تعالى: «ولئن سألتهم» خطابٌ لمن يتأتى منه السؤال، تتميم لذلك الكلام باستحقاقهم ما أُوعدوه لعنادهم البالغ، ومنه يظهر وقوعُ التعجب في قوله سبحانه: «فأنى يؤفكون»، وعلى هذا ظهر ارتباطُ: وعلم قِيلِه، بقوله تعالى: «وعنده علم الساعة» وأن الفاصل متصلٌ بهما اتصالاً يجلُّ موقعه.

ومن هذا التقرير يلوح أن ما ذهب إليه الزجاج في الأوجه الثلاثة حسن، ولك أن تُرجِّحه على ما ذهب إليه الأخفش بتوافق القراءتين، وأنَّ حَمْلَ «ولئن سألتهم» على الخطاب المتروك إلى غير معيَّن أوفقُ بالمقام من حمله على خطابه عليه الصلاة والسلام، وسلامته من إضمار القول قبل قوله تعالى: «ولئن سألتهم» مع أن السياقَ غيرُ ظاهر الدلالة عليه. اهـ، وهو أحسن ما رأيته للمفسِّرين في هذا المقام.

وقرأ أبو قلابة: «يا ربَّ» بفتح الباء[1]، ووجهه ظاهر[2].

﴿فَٱصۡفَحۡ﴾ فأَعْرِضْ ﴿عَنۡهُمۡ﴾ ولا تطمع في إيمانهم. وأصلُ الصَّفح: ليُّ صفحة العُنق، فكنى به عن الإعراض.

﴿وَقُلۡ﴾ لهم: ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ أي: أمري سلامٌ، أي: تَسلُّمٌ منكم ومتاركة، فليس ذلك أمراً بالسلام عليهم والتحية، وإنما هو أمر بالمتاركة، وحاصله: إذا أَبيتم القَبول، فأمري التسلُّم منكم. واستدلَّ بعضهم بذلك على جواز السلام على الكُفَّار وابتدائهم بالتحية؛ أخرج ابن أبي شيبة عن شعيب بن الحبحاب قال: كنت مع

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٦٧، وتفسير القرطبي ١٩/ ٩٧.

(٢) وهو قَلْبُ الياء ألفاً، ثم حذفُها اجتزاءً عنها بالفتحة. الدر المصون ٩/ ٦١٣.

عليٌّ بن عبد الله البارقي فمرَّ علينا يهوديٌّ أو نصراني، فسلَّم عليه، قال شعيب: فقلت: إنه يهوديٌّ أو نصراني. فقرأ عليٌّ آخرَ سورة الزخرف: «وقيله يا ربِّ» إلى الآخر[١].

وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن عون بن عبد الله أنه قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: كيف تقول أنت في ابتداء أهل الذِّمة بالسلام؟ فقال: ما أرى بأساً أن نبتدئهم. قلت: لِمَ ؟ قال: لقوله تعالى: (فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ)[٢]. ومما ذكرنا يُعلم ضَعْفُه.

وقال السدي: المعنى: قل خيراً بدلاً من شرِّهم. وقال مقاتل: اردُدْ عليهم معروفاً. وحكى الماوردي[٣]: أي: قل ما تَسْلَمُ به من شَرِّهم. والكلُّ كما ترى، والحقُّ ما قَدَّمنا.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ حالَهم السيئة وإنْ تأخَّر ذلك، وهو وعيدٌ من الله سبحانه لهم وتسليةٌ لرسوله ﷺ.

وقرأ أبو جعفر والحسن والأعرج ونافع وهشام: «تعلمون» بتاء الخطاب[٤] على أنه داخلٌ في حيِّز «قل».

وإنْ أُريد من الآية الكَفُّ عن القتال فهي منسوخةٌ، وإنْ أُريد الكَفُّ عن مقابلتهم بالكلام فليست بمنسوخة، والله تعالى أعلم.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤، ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٦٥٦.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٤، ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٦٢٧، ولفظه: عن عبد الله بن عون قال: سأل محمد بن كعب عمر بن عبد العزيز عن ابتداء أهل الذمة بالسلام، فقال: نرد عليهم ولا نبدؤهم، فقلت: وكيف تقول أنت؟ قال: ما أرى بأساً أن نبدأهم، قلت: ولم؟ قال: لقول الله: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٣.

(٤) وقرأ بالتاء أيضاً ابن ذكوان. التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.

(٤٤) سُورَةُ الدُّخَانِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَخَمْسُونَ

سورةُ الدخان من السور المكية التي تتناول أهداف السور المكية « التوحيد ، الرسالة ، البعث » لتركيز العقيدة ، وتثبيت دعائم الإيمان بالله الواحد الديّان . سميت السورة الكريمة « سورة الدخان » لأن الله تعالى ذكر فيها علامة من علامات الساعة ، وآية عظيمةً من آياتها الباهرة ، وهي الدخان الذي يظهر في العالم في آخر الزمان ، يملأ ما بين المشرق والمغرب ، وما بين السماء والأرض ، وهو علامة على قرب الساعة كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم « لا تقومُ السّاعةُ حتى تروْا عشرَ آيات : طلوعُ الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروجَ يأجوجَ ومأجوج ، وخروجَ عيسى بن مريم ، والدجالَ ، وثلاثة خسوفٍ : خسف بالمشرق ، وخسِف بالمغرب ، وحسفٌ بجزيرة العرب ، ونارٌ تخرج من قعرِ عدن ، تسوق النّاسَ ، تبيتُ معهمْ حيث باتوا ، وتقيلُ معهم حيث قالوا » . أخرجه مسلم .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم – معجزة محمد الخالدة – الباقي إلى أن يرثَ اللهُ الأرض ومَنْ عليها وإليه يرجعون ، فهو الكتاب المجيد ، الذي أنزله ربُّ العزة جل وعلا إلى السماء الدنيا في ليلةٍ مباركةٍ ، هي ليلة القدر – والتي هي أفضل الليالي – كان فيها ابتداء نزول القرآن ، ولا عجب أن يكون ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر ، وهي من ليالي شهر رمضان المبارك ، لأنه خاتمة الكتب

السماوية ، وأشرفُ الكتب الإلهية ، وقد نزل على أفضلِ الرسل ، في أفضل الشهور وهو شهر رمضان ، وفي أفضل الليالي وهي ليلة القدر ، فكان له شرف الزمان والمكان ، كماكان له فضل السبق في الفخر والشرف على سائر الكتب السماوية ﴿حمٓ . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلةٍ مباركة إنا كنا منذرين . فيها يُفرقُ كلُّ أمرٍ حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمةً من ربك إنه هو السميع العليم﴾ وتحدثت الآيات عن الخالق المدبر الحكيم ، المشرفِ على هذا الكون بالحفظ والحماية والرعاية ، وعرَّفت الناس هذه الحقيقة وهي أن الإله الواحد الأحد ، الذي يملك الموت والحياة ، هو ربُّ الأولين والآخرين ، وهو رب العالمين لا شريك له في ملكه وحكمه وسلطانه « ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحيي ويميت ، ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين » ومع الوضوح في العقيدة ، والصفاء في دعوة الإيمان يكابر المشركون من أهل مكة في موضوع القدرة والوحدانية ، ويشكُّون في قدرة الله العلي الكبير ، فيتوعدهم القرآن بارتقاب ذلك اليوم المرهوب ، يوم يغشى الناسَ دخانٌ كثيف يأخذ عليهم أنفاسهم ، فيتضرعون بالدعاء إلى الله أن يكشف عنهم ذلك العذاب ، ولكنْ هيهات لأنه قد فات أوان التوبة والإنابة ﴿بل هم في شكٍ يلعبون . فارتقبْ يوم تأتي السماء بدخانٍ مبين . يغشَى الناسَ هذا عذابٌ أليم . ربنا اكشفْ عنَّا العذاب إنا مؤمنون . أنَّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسولٌ مبين . ثم تولَّوا عنه وقالوا معلَّم مجنون﴾ وتنتقل الآيات للحديث عن مصارع المكذبين ، تخويفاً لكفار قريش ، وتحذيراً لهم أن ينالهم ما نال مَنْ سبقهم ممن كفروا بآيات الله وعصوا رسله ، وتضرب لهم المثل بقوم فرعون وما حلَّ بهم من الهلاك والدَّمار ، نتيجة الطغيان والإجرام ﴿ولقد فتنَّا قبلَهم قومَ فرعون وجاءهم رسولٌ كريم .

أَنْ أدُّوا إليَّ عبادَ الله إني لكم رسول أمين . وألاَّ تعلو على الله إني آتيكم بسلطانٍ مبين . وإني عذتُ بربي وربكم أن ترجُمون . وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ ولكنَّ فرعونَ وقومَه كانوا بدرجةٍ من العلو والطغيان ، تأبى عليهم أن يستجيبوا لدعوةِ الرحمن ، ولذلك دعا عليهم نبيهم موسى أن يهلكهم الله قاطبة فاستجاب الله دعاءه ﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قومٌ مجرمون . فأسْرِ بعبادي ليلاً إنكم متَّبعون . واترك البحر رَهْواً إنهم جند مغرقون﴾ .

● وتمضي الآيات تتحدث عن النعيم الذي خلَّفوه بعد هلاكهم ، وعن الآثار التي تركوها من بعدهم ، من قصورٍ ودور ، وحدائقَ وبساتين ، وأنهار وعيون ، وما كانوا عليه من النعيم الدائم ، في ظل المُلْك الواسع ، فلما جاء أمر الله بإهلاكهم ، تركوا كلَّ شيء في الدنيا ميراثاً ورثَّه الله تعالى لبني إسرائيل ، وذهبوا مودَّعين باللعنة والدمار إلى عذاب النار ﴿ كم تركوا من جناتٍ وعيون . وزروعٍ ومقامٍ كريم . ونَعْمةٍ كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرضُ وما كانوا منظرين﴾ . وتذكّر الآيات بني إسرائيل بنعمة الله العظمى عليهم حيث أنقذهم من استعباد فرعون وطغيانه ، واختارهم على سائر الناس في زمانهم ، ليشكروا ربهم على تلك النعم الجليلة ﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعونَ إنه كان عالياً من المسرفين . ولقد اخترناهم على علمٍ على العالَمين . وآتيناهم من الآياتِ ما فيه بلاء مبين﴾ ثم تنتقل الآياتُ الكريمة لتتحدث عن مشركي قريش ، وإنكارهم للبعث والنشور ، واستبعادهم للحياة مرةً أخرى بعد فناء الأجساد ، وتذكر الآياتُ أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرمَ على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية الذين أهلكهم الله ، فسنة الله لا تتخلف في إهلاك الطغاة المجرمين ﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا

موتتُنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . أهم خيرٌ أم قومُ تُبَّعٍ والذين من قبلِهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾ .

● وتتحدث السورة عن ارتباط هذا الكون بالحكمة الأزلية في خلق السموات والأرض ، وأن الله لم يخلقهما عبثاً ولا سدى ، بل لحكمة بليغة ، وتلفت الأنظار إلى المناسبة الدقيقة بين خلقهما وبين البعث والنشور ﴿وما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحقِّ ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون . إنَّ يوم الفصل ميقاتُهم أجمعين . يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم يُنصرون . إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم﴾ وبعدَ بيان مصير الفجار ومصير الأبرار تختم السورة الكريمة بالتذكير بنعمة الرسالة ، والتخويف من عاقبة التكذيب ﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقبْ إنهم مرتقبون﴾ وهكذا يتناسق بدء السورة مع الختام

سورة الدخان

[٨١٤] ك. . أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: إن قريشاً لما استعصوا على النبي [ﷺ] دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾(١) فأتى رسول الله [ﷺ] فقال: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت فاستسقى فسقوا فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾(٢) فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾(٣) يعني يوم بدر.

[٨١٥] ك. . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مالك قال: أن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول: تزقموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد فنزلت: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾(٤).

[٨١٦] وأخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة قال لقي رسول الله [ﷺ] أبا جهل فقال: **«إن الله أمرني أن أقول لك أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى»**(٥) قال: فنزع ثوبه من يده فقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء وأنا العزيز الكريم فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته ونزل فيه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾(٦) وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه.

* * *

---

[٨١٤] (١) سورة الدخان: الآية (١٠).
(٢) سورة الدخان: الآية (١٥).
(٣) سورة الدخان: الآية (١٦).
[٨١٥] (٤) سورة الدخان: الآية (٤٣و٤٤).
[٨١٦] (٥) والخبر رواه الواحدي مختصراً في أسباب النزول ص (٢١٥) من طريق أسباط عن أبي بكر الهذلي عن عكرمة. . الخبر.
(٦) سورة الدخان: الآية (٤٩).

سورة الدخان

(خمسون وتسع آيات مكية إلا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ [الدخان: ١٥])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا
يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
يَلْعَبُونَ ۝٩﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ﴾ وجوه من الاحتمالات: أولها: أن يكون التقدير: هذه حم والكتاب المبين. كقولك: هذا زيد والله. وثانيها: أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿حمٓ﴾ ثم يقال ﴿وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾. وثالثها: أن يكون التقدير: وحم، والكتاب المبين، إنا أنزلناه، فيكون ذلك في التقدير قَسَمين على شيء واحد.

المسألة الثانية: قالوا: هذا يدل على حدوث القرآن لوجوه: الأول: أن قوله: ﴿حمٓ﴾ تقديره: هذه حم، يعني هذا شيء مؤلف من هذه الحروف، والمؤلف من الحروف المتعاقبة محدث. الثاني: أنه ثبت أن الحلف لا يصح بهذه الأشياء بل بإله هذه الأشياء فيكون التقدير: ورب حم ورب الكتاب المبين، وكل من كان مربوبًا فهو محدث. الثالث: أنه وصفه بكونه كتابًا والكتاب مشتق من الجمع، فمعناه أنه مجموع والمجموع محل تصرف الغير، وما كان كذلك فهو محدث الرابع: قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ والمنزل محل تصرف الغير، وما كان كذلك فهو محدث. وقد ذكرنا مرارًا أن جميع هذه الدلائل تدل على أن الشيء المركب من الحروف المتعاقبة والأصوات المتوالية محدث، والعلم بذلك ضروري بديهي، لا ينازع فيه إلا من كان عديم العقل وكان غير عارف بمعنى القديم والمحدث، وإذا كان كذلك فكيف ينازع في صحة هذه الدلائل، إنما الذي ثبت قدمه شيء آخر سوى ما تركب من هذه الحروف والأصوات.

المسألة الثالثة: يجوز أن يكون المراد بالكتاب ههنا الكتب المتقدمة التي أنزلها الله على أنبيائه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]

ويجوز أن يكون المراد اللوح المحفوظ، كما قال: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ [الزخرف: ٤] ويجوز أن يكون المراد به القرآن، وبهذا التقدير فقد أقسم بالقرآن على أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة، وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن، فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم رجل له حاجة إليه: أستشفع بك إليك، وأقسم بحقك عليك.

المسألة الرابعة: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ هو المشتمل على بيان ما بالناس حاجة إليه في دينهم ودنياهم، فوصفه بكونه مبينًا وإن كانت حقيقة الإبانة لله تعالى؛ لأجل أن الإبانة حصلت به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦] وقال في آية أخرى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] وقال: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] فوصفه بالتكلم إذ كان غاية في الإبانة، فكأنه ذو لسان ينطق، والمعنى فيه المبالغة في وصفه بهذا المعنى.

المسألة الخامسة: اختلفوا في هذه الليلة المباركة: فقال الأكثرون: إنها ليلة القدر. وقال عكرمة وطائفة آخرون: إنها ليلة البراءة، وهي ليلة النصف من شعبان. أما الأولون فقد احتجوا على صحة قولهم بوجوه: أولها: أنه تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وهاهنا قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة هي تلك المسماة بليلة القدر؛ لئلا يلزم التناقض. وثانيها: أنه تعالى قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] فبيّن أن إنزال القرآن إنما وقع في شهر رمضان، وقال هاهنا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فوجب بأن تكون هذه الليلة واقعة في شهر رمضان، وكل من قال إن هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان، قال إنها ليلة القدر، فثبت أنها ليلة القدر. وثالثها: أنه تعالى قال في صفة ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ﴾ [القدر: ٤، ٥] وقال أيضًا هاهنا: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهذا مناسب لقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ وهاهنا قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ وقال في تلك الآية ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ وقال هاهنا: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وقال في تلك الآية ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ وإذا تقاربت الأوصاف وجب القول بأن إحدى الليلتين هي الأخرى. ورابعها: نقل محمد بن جرير الطبري في (تفسيره): عن قتادة أنه قال: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، والتوراة لستٍّ ليالٍ منه، والزبور لاثنتي عشرة ليلة مضت منه، والإنجيل لثمان عشرة ليلة مضت منه، والقرآن لأربع وعشرين ليلة مضت من رمضان، والليلة المباركة هي ليلة القدر. وخامسها: أن ليلة القدر إنما سميت بهذا الاسم لأن قدرها وشرفها عند الله عظيم، ومعلوم أنه ليس قدرها وشرفها لسبب ذلك الزمان؛ لأن الزمان شيء واحد في الذات والصفات، فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته، فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة عالية لها قدر عظيم ومرتبة رفيعة، ومعلوم أن منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا،

وأعلى الأشياء وأشرفها منصبًا في الدين هو القرآن؛ لأجل أن به ثبتت نبوّة محمدﷺ ، وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل في سائر كتب الله المنزلة، كما قال في صفته: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾[المائدة: ٤٨] وبه ظهرت درجات أرباب السعادات، ودركات أرباب الشقاوات، فعلى هذا لا شيء إلا والقرآن أعظم قدرًا وأعلى ذكرًا وأعظم منصبًا منه، فلو كان نزوله إنما وقع في ليلة أخرى سوى ليلة القدر، لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الأولى، وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر التي وقعت في رمضان، علمنا أن القرآن إنما أُنزل في تلك الليلة. وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية - هي ليلة النصف من شعبان، فما رأيت لهم فيه دليلاً يعول عليه، وإنما قنعوا فيه بأن نقلوه عن بعض الناس، فإن صح عن رسول اللهﷺ فيه كلام فلا مزيد عليه، وإلا فالحق هو الأول، ثم إن هؤلاء القائلين بهذا القول زعموا أن ليلة النصف من شعبان لها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصك، وليلة الرحمة، وقيل: إنما سميت بليلة البراءة، وليلة الصك، لأن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة، كذلك الله عزّ وجلّ يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة، وقيل: هذه الليلة مختصة بخمس خصال: الأول: تفريق كل أمر حكيم فيها، قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ والثانية: فضيلة العبادة فيها، قال رسول اللهﷺ: «مَنْ صَلَّى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِائَةَ رَكْعَةٍ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِائَةَ مَلَكٍ: ثَلَاثُونَ يُبَشِّرُونَهُ بِالْجَنَّةِ، وَثَلَاثُونَ يُؤَمِّنُونَهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَثَلَاثُونَ يَدْفَعُونَ عَنْهُ آفَاتِ الدُّنْيَا، وَعَشَرَةٌ يَدْفَعُونَ عَنْهُ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ»(١) الخصلة الثالثة: نزول الرحمة، قال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ أُمَّتِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِعَدَدِ شَعْرِ أَغْنَامِ بَنِي كَلْبٍ»(٢) والخصلة الرابعة: حصول المغفرة، قالﷺ: «إِنَّ اللَّهَ

---

(١) موضوع: رواه الخلال في (فضائل سورة الأحد) (١/ ٥٢)، حديث رقم (١٥) من طريق صبيح بن دينار، حدثنا المعافى بن عمران، عن عمرو بن أبي المقدام العجلي وقال أعطاء مروان بن محمد كتابًا فيه عن أبي يحيى أنه حدثه بضعة وثلاثون ممن يوثقون بهم... فذكره. وفيه المعافى بن عمران وهو ضعيف.

ورواه ابن الجوزي في (الموضوعات) (٢/ ١٢٩) من طريق أبي علي بن البنا، أنبأنا أبو عبد الله الحسين بن عمر العلاف حدثنا أبو القاسم الفامي، حدثنا علي بن بندار البردعي، حدثنا أبو يوسف يعقوب بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن عبيد الله قال: سمعت أبي يقول: حدثنا علي بن عاصم، عن عمرو بن مقدام، عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال رسول اللهﷺ: «من قرأ ليلة النصف من شعبان...» فذكره. وقال: هذا حديث لا نشك أنه موضوع، وجمهور رواته في الطرق الثلاثة مجاهيل، وفيهم ضعفاء بمرة، والحديث محال قطعًا. والفاكهي في (أخبار مكة) (٣/ ٨٦)، حديث رقم (١٨٤١) من طريق عمرو بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبي يحيى عن أبيه قال: حدثني بضعة وثلاثون رجلاً من أصحاب النبيﷺ ... فذكره.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في كتاب (الصوم)، باب: (ما جاء في ليلة النصف من شعبان) (٣/ ١٠٧)، حديث رقم (٧٣٩) من طريق يزيد بن هارون... به. وقال: حديث عائشة لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الحجاج، وسمعت محمدًا يضعف هذا الحديث، وقال: يحيى بن أبي كثير لم يسمع من عروة، والحجاج بن أرطأة لم يسمع من يحيى بن أبي كثير. وابن ماجه في (١/ ٤٤٤)، حديث رقم (١٣٨٩) من طريق يزيد... به، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٢٣٨)، حديث رقم (٢٦٠٦٠) من طريق يزيد بن هارون... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ٣٧٩/ ٣٨٠)، حديث رقم (٣٨٢٥)، واللالكائي في (اعتقاد أهل السنة والجماعة) (١/ ٢٨٢)، حديث رقم

تَعَالَى يَغْفِرُ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، إِلاَّ لِكَاهِنٍ، أَوْ مُشَاحِنٍ، أَوْ مُدْمِنِ خَمْرٍ، أَوْ عَاقٍّ لِلْوَالِدَيْنِ، أَوْ مُصِرٍّ عَلَى الزِّنَا» (١) والخصلة الخامسة: أنه تعالى أعطى رسوله في هذه الليلة تمام الشفاعة، وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطي الثلث منها، ثم سأل ليلة الرابع عشر، فأعطي الثلثين، ثم سأل ليلة الخامس عشر، فأعطي الجميع، إلا من شرد على الله شراد البعير، هذا الفصل نقلته من (الكشاف)، فإن قيل: لا شك أن الزمان عبارة عن المدة الممتدة التي تقديرها حركات الأفلاك والكواكب، وأنه في ذاته أمر متشابه الأجزاء فيمتنع كون بعضها أفضل من بعض، والمكان عبارة عن الفضاء الممتد والخلاء الخالي، فيمتنع كون بعض أجزائه أشرف من البعض، وإذا كان كذلك كان تخصيص بعض أجزائه بمزيد الشرف دون الباقي ترجيحًا لأحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وإنه محال، قلنا: القول بإثبات حدوث العالم وإثبات أن فاعله فاعل مختار بناء على هذا الحرف وهو أنه لا يبعد من الفاعل المختار تخصيص وقت معين بإحداث العالم فيه دون ما قبله وما بعده، فإن بطل هذا الأصل فقد بطل حدوث العالم وبطل الفاعل المختار، وحينئذٍ لا يكون الخوض في تفسير القرآن فائدة، وإن

---

(٧٦٤)، والحسيني في (البيان والتعريف) (١/ ١٩٣). وقال: أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها، ولفظ (أن يحيف الله عليك ورسوله) من طريق ابن جريج عن عبد الله بن كثير بن المطلب عن محمد بن قيس عن عائشة . . . به. وابن الجوزي في (العلل المتناهية) (٢/ ٥٥٦)، حديث رقم (٩١٥)، جميعًا من طريق عروة عن عائشة . . . به، وابن الجوزي أيضًا في (العلل المتناهية) (٢/ ٥٥٨)، حديث رقم (٩١٨) من طريق عبد الله بن الجراح قال: حدثنا سعيد بن عبد الكريم الواسطي عن أبي نعمان السعدي عن أبي رجاء العطاردي عن أنس بن مالك . . . به. وقال المؤلف: وهذا الطريق لا يصح، قال أبو الفتح الأزدي الحافظ: سعيد بن عبد الكريم متروك.

(١) حسن: رواه البزار في مسنده (٧/ ١٨٦)، حديث رقم (٢٧٥٤)، عبد الله بن لهيعة عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن عبادة بن نسي عن كثير بن مرة عن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله: يطّلع الله تبارك وتعالى على خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لهم كلهم إلا لمشرك أو مشاحن. أورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٦٥)، وقال: رواه البزار. وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وثقه بن صالح وضَعَّفه جمهور الأئمة، وابن لهيعة لين، وبقية رجاله ثقات.

(قلت): أما الحديث فهو صحيح، فقد جاء عن عدة من أصحاب النبي ﷺ فهو صحيح بمجموع طرقه، وأورده الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٣/ ٢١٨)، حديث رقم (١١٤٤)، وذكر حديث عوف بن مالك وقال: وأما حديث عوف بن مالك فيرويه ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن أنعم عن عبادة بن نسي عن كثير بن مرة عنه. أخرجه أبو محمد الجوهري في (المجلس السابع) والبزار في (مسنده) (ص ٢٤٥) وقال: (إسناده ضعيف).

قلت: وعلته عبد الرحمن هذا، وبه أعله الهيثمي فقال: (وثقه أحمد بن صالح وضَعَّفه جمهور الأئمة، وابن لهيعة لين، وبقية رجاله ثقات).

قلت: وخالفه مكحول فرواه عن كثير بن مرة عن النبي ﷺ مرسلاً. رواه البيهقي وقال: (هذا مرسل جيد). كما قال المنذري. أخرجه اللالكائي (١/ ١٠٢/ ١) عن عطاء بن يسار ومكحول والفضل بن فضالة بأسانيد مختلفة عنهم موقوفًا عليهم، ومثل ذلك في حكم المرفوع لأنه لا يقال بمجرد الرأي. وقد قال الحافظ ابن رجب في (لطائف المعارف) (ص ١٤٣): وفي فضل ليلة نصف شعبان أحاديث متعددة، وقد اختلف فيها، فضعفها الأكثرون، وصحح ابن حبان بعضها وخرجه في (صحيحه).

صح هذا الأصل فقد زال ما ذكرتم من السؤال، فهذا هو الجواب المعتمد، والناس قالوا: لا يبعد أن يخص الله تعالى بعض الأوقات بمزيد تشريف حتى يصير ذلك داعيًا للمكلف إلى الإقدام على الطاعات في ذلك الوقت؛ ولهذا السبب بيّن أنه تعالى أخفاه في الأوقات وما عيَّنه لأنه لم يكن معينًا جوز المكلف في كل وقت معين أن يكون هو ذلك الوقت الشريف، فيصير ذلك حاملاً له على المواظبة على الطاعات في كل الأوقات، وإذا وقعت على هذا الحرف ظهر عندك أن الزمان والمكان إنما فازا بالتشريفات الزائدة تبعًا لشرف الإنسان، فهو الأصل وكل ما سواه فهو تبع له، والله أعلم.

المسألة السادسة: روي أن عطية الحروري سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[القدر: ١] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الشهور؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يا بن الأسود لو هلكت أنا ووقع هذا في نفسك ولم تجد جوابه هلكت، نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور، وهو في السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالاً فحالا. والله أعلم.

المسألة السابعة: في بيان نظم هذه الآيات، اعلم أن المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها: بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته. الثاني: بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذي نزل فيه. الثالث: بيان تعظيمه بحسب شرف منزلته. أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه: أحدها: أنه تعالى أقسم به، وذلك يدل على شرفه. وثانيها: أنه تعالى أقسم به على كونه نازلاً في ليلة مباركة، وقد ذكرنا أن القَسَم بالشيء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف. وثالثها: أنه تعالى وصفه بكونه مُبِينًا وذلك يدل أيضًا على شرفه في ذاته.

وأما النوع الثاني: - وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الذي أنزل فيه - فهو قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهذا تنبيه على أن نزوله في ليلة مباركة يقتضي شرفه وجلالته، ثم نقول: إن قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ يقتضي أمرين: أحدهما: أنه تعالى أنزله. والثاني: كون تلك الليلة مباركة، فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجرى مجرى البيان لكل واحد منهما، أما بيان أنه تعالى لمَ أنزله؟ فهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ يعني الحكمة في إنزال هذه السورة أن إنذار الخلق لا يتم إلا به، وأما بيان أن هذه الليلة ليلة مباركة فهو أمران: أحدهما: أنه تعالى يفرق فيها كل أمر حكيم، والثاني: أن ذلك الأمر الحكيم مخصوص بشرف أنه إنما يظهر من عنده، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾.

وأما النوع الثالث: فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله، وذلك هو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ فبيّن أن ذلك الإنذار والإرسال إنما حصل من الله تعالى، ثم بيّن أن ذلك الإرسال إنما كان لأجل تكميل الرحمة وهو قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وكان الواجب أن يقال: (رحمة منا) إلا أنه وضع الظاهر موضع المضمر إيذانًا بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، ثم بيّن أن تلك الرحمة

وقعت على وفق حاجات المحتاجين؛ لأنه تعالى يسمع تضرعاتهم، ويعلم أنواع حاجاتهم؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهذا ما خطر بالبال في كيفية تعلق بعض هذه الآيات ببعض.

المسألة الثامنة: في تفسير مفردات هذه الألفاظ: أما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فقد قيل فيه: إنه تعالى أنزل كلية القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في هذه الليلة، ثم أنزل في كل وقت ما يحتاج إليه المكلف، وقيل: يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبرائيل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل[١] صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت.

أما قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ أي في تلك الليلة المباركة يُفرق، أي يُفصل ويبين، من قوله: فرقت الشيء أفرقه فرقًا وفرقانًا، قال صاحب (الكشاف): وقرئ (يفرق) بالتشديد و(يفرق) على إسناد الفعل إلى الفاعل ونصب كل والفارق هو الله عز وجل، وقرأ زيد ابن علي (نفرق) بالنون.

أما قوله: ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فالحكيم معناه ذو الحكمة، وذلك لأن تخصيص الله تعالى كل أحد بحالة معينة من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة - يدل على حكمة بالغة لله تعالى، فلما كانت تلك الأفعال والأقضية دالة على حكمة فاعلها وُصفت بكونها حكيمة، وهذا من الإسناد المجازي؛ لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به مجاز، ثم قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ وفي انتصاب قوله ﴿أَمْرًا﴾ وجهان: الأول: أنه نصب على الاختصاص، وذلك لأنه تعالى بيّن شرف تلك الأقضية والأحكام بسبب أن وصفها بكونها حكيمة، ثم زاد في بيان شرفها بأن قال: أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلاً من عندنا كائنًا من لدنا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا. والثاني: أنه نصب على الحال، وفيه ثلاثة أوجه: الأول: أن يكون حال من أحد الضميرين في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، إما من ضمير الفاعل، أي: إنا أنزلناه آمرين أمرًا، أو من ضمير المفعول، أي: إنا أنزلناه في حال كونه أمرًا من عندنا بما يجب أن يفعل. والثالث: ما حكاه أبو علي الفارسي عن أبي الحسن رحمهما الله أنه حمل قوله: ﴿أَمْرًا﴾ على الحال، وذو الحال قوله: ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهو نكرًا.

ثم قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يعني أنا إنما فعلنا ذلك الإنذار لأجل ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يعني الأنبياء.

ثم قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي للرحمة، فهي نصب على أن يكون مفعولاً له.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يعني أن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة لأن المحتاجين إما أن يذكروا بألسنتهم حاجاتهم، وإما أن لا يذكروها: فإن ذكروها فهو تعالى يسمع كلامهم فيعرف حاجاتهم، وإن لم يذكروها فهو تعالى عالم بها، فثبت أن كونه سميعًا عليمًا يقتضي أن ينزل رحمته عليهم.

---

(١) هكذا في الأصل، والمعروف المشهور المتواتر أن اسمه (إسرافيل). (هامش).

ثم قال: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الباء من (رب) عطفًا على قوله: (رحمة من ربك) والباقون بالرفع عطفًا على قوله: (هو السميع العليم).

المسألة الثانية: المقصود من هذه الآية أن المُنزِّل إذا كان موصوفًا بهذه الجلالة والكبرياء، كان المُنزَّل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة.

المسألة الثالثة: الفائدة في قوله: ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ من وجوه: الأول: قال أبو مسلم: معناه إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا، كقولهم: (فلان مُنْجِد مُتْهِم) أي يريد نجدًا وتهامة. والثاني: قال صاحب (الكشاف): كانوا يقرون بأن للسموات والأرض ربًّا وخالقًا فقيل لهم: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب سبحانه وتعالى، ثم قيل: إن هذا هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما، إن كان إقراركم عن علم ويقين، كما تقول: هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه إن بلغك حديثه وسمعت قصته. ثم إنه تعالى رد أن يكونوا موقنين بقوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ وأن إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ولا عن جد وحقيقة، بل قول مخلوط بهزء ولعب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ﴾

اعلم أن المراد بقوله: ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ انتظِر، ويقال ذلك في المكروه، والمعنى: انتظِر يا محمد عذابهم. فحذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذكر بعده عليه وهو قوله: ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ويجوز أيضًا أن يكون ﴿ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ ﴾ مفعول الارتقاب.

وقوله: ﴿ بِدُخَانٍ ﴾ **فيه قولان:**

القول الأول: أن النبي ﷺ دعا على قومه بمكة لما كذبوه فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ سِنِيَّهِمْ كَسِنِيِّ يُوسُفَ» (١) فارتفع المطر وأجدبت الأرض وأصابت قريشًا شدة المجاعة، حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف، فكان الرجل لِما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان. وهذا قول

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير)، باب: (سورة آل عمران)، باب: (ليس لك من الأمر شيء) (٨/ ٧٤)، حديث رقم (٤٥٦٠) من طريق إبراهيم بن سعد... به، ومسلم في كتاب (المساجد)، باب: (استحباب القنوت في جميع الصلاة) (١/ ٢٩٤/ ٤٦٦/ ٤٦٧) من طريق يونس... به، كلاهما (إبراهيم بن سعد، يونس) عن الزهري... به.

ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات ومقاتل ومجاهد، واختيار الفراء والزجاج، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه، وكان ينكر أن يكون الدخان إلا هذا الذي أصابهم من شدة الجوع كالظلمة في أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخانًا، فالحاصل أن هذا الدخان هو الظلمة التي في أبصارهم من شدة الجوع. وذكر ابن قتيبة في تفسير الدخان بهذه الحالة وجهين: الأول: أن في سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع المطر ويرتفع الغبار الكثير، ويظلم الهواء، وذلك يشبه الدخان ولهذا يقال لسنة المجاعة: الغبراء. الثاني: أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان فيقول: كان بيننا أمر ارتفع له دخان، والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه، فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان.

والقول الثاني في الدخان: أنه دخان يظهر في العالم، وهو إحدى علامات القيامة، قالوا: فإذا حصلت هذه الحالة حصل لأهل الإيمان منه حالة تشبه الزكام، وحصل لأهل الكفر حالة يصير لأجلها رأسه كرأس الحنيذ، وهذا القول هو المنقول عن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو قول مشهور لابن عباس، واحتج القائلون بهذا القول بوجوه: الأول: أن قوله: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ﴾ يقتضي وجود دخان تأتي به السماء، وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع - فذاك ليس بدخان أتت به السماء، فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه عدولاً عن الظاهر لا لدليل منفصل، وإنه لا يجوز. الثاني: أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبينًا، والحالة التي ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس في أدمغتهم، ومثل هذا لا يوصف بكونه دخانًا مبينًا. والثالث: أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشي الناس، وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم، والحال التي ذكرتموها لا توصف بأنها تغشى الناس إلا على سبيل المجاز، وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل. الرابع: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَوَّلُ الْآيَاتِ الدُّخَانُ، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ**» قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية وقال: «**دُخَانٌ يَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُصِيبُهُ كَهَيْئَةِ الزَّكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَهُوَ كَالسَّكْرَانِ يَخْرُجُ مِنْ مَنْخَرَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَدُبُرِهِ**»[١] رواه

---

(١) ضعيف: أورده الزمخشري في (الكشاف) (٦/ ٢٥٩)، قال: وعن رسول الله ﷺ . . . فذكره بدون إسناد، ورواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ١١٨) من طريق المعافى بن زكريا قال: أخبرنا محمد بن جرير، حدثنا عصام بن داود الجراح، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن سعيد، حدثنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان . . . فذكره، وأورده الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٣/ ٢٦٧). وقال: وضَعَّفه الطبري فقال: وحدثني محمد بن خلف العسقلاني أنه سأل روادًا عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان؟ فقال: لا. قال: فقلت أقرأته عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له أُقرئ عليه وأنت حاضر؟ فقال: لا. قلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءني به قوم فعرضوه عليَّ وقالوا لي: اسمعه منا. فقرءوه ثم ذهبوا فحدثوا به عني. قال ابن كثير: وقد أجاد الطبري فإنه موضوع بهذا السند. انتهى.

صاحب (الكشاف) وروى القاضي عن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «بَاكِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا . . . وَذَكَرَ مِنْهَا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ وَالدَّابَّةَ» (١). أما القائلون بالقول الأول، فلا شك أن ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز، وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل، فكان المصير إلى ما ذكروه مشكلاً جدًّا، فإن قالوا: الدليل على أن المراد ما ذكرناه، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وهذا إذا حملناه على القحط الذي وقع بمكة استقام، فإنه نُقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله والرحم، وأوعده أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية، أن يؤمنوا به، فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم، أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك؛ لأن عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ولم يصح أيضًا أن يقال لهم: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ والجواب: لمَ لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريًا مجرى ظهور سائر علامات القيامة في أنه لا يوجب انقطاع التكليف فتحدث هذه الحالة، ثم إن الناس يخافون جدًّا فيتضرعون، فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق، وإذ كان هذا محتملاً فقد سقط ما قالوه، والله اعلم.

ولنرجع إلى التفسير فنقول: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر الحال لا يشك أحد في أنه دخان ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي يشملهم، وهو في محل الجر صفة لقوله: ﴿بِدُخَانٍ﴾ وفي قوله: ﴿هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قولان: الأول: أنه منصوب المحل بفعل مضمر وهو (يقولون) و(يقولون) منصوب على الحال أي قائلين ذلك. الثاني: قال الجرجاني صاحب (النظم): هذا إشارة إليه وإخبار عن دنوه واقترابه، كما يقال: (هذا العدو فاستقبله) والغرض منه التنبيه على القرب.

ثم قال: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾ فإن قلنا: التقدير: يقولون: هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب. فالمعنى ظاهر، وإن لم يضمر القول هناك أضمرناه هاهنا، والعذاب على القول الأول هو القحط الشديد، وعلى القول الثاني الدخان المهلك ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي بمحمد وبالقرآن، والمراد منه الوعد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يعني كيف يتذكرون وكيف يتعظون بهذه الحالة وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة، وهو ما ظهر على رسول الله من المعجزات القاهرة والبينات الباهرة ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ ولم يلتفتوا إليه ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ وذلك لأن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام قولان: منهم من كان يقول: إن محمدًا يتعلم هذه الكلمات من بعض الناس لقوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٦٧/ ٢٩٤٧)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٣٧)، حديث رقم (٨٤٢٧)، كلاهما من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة. . . به.

[النحل: ١٠٣] وكقوله تعالى: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] ومنهم من كان يقول: إنه مجنون، والجن يلقون عليه هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشي.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ أي كما يكشف العذاب عنكم تعودون في الحال إلى ما كنتم عليه من الشرك، والمقصود التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم، وأنهم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر والتقليد لمذاهب الأسلاف.

ثم قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): وقرئ (نبطُش) بضم الطاء، وقرأ الحسن (نُبطش) بضم النون، كأنه تعالى يأمر الملائكة بأن يبطشوا بهم، والبطش: الأخذ بشدة، وأكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع، ثم صار بحيث يستعمل في إيصال الآلام المتتابعة، وفي المراد بهذا اليوم قولان:

القول الأول: أنه يوم بدر، وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومقاتل وأبي العالية رضي الله تعالى عنهم، قالوا: إن كفار مكة لما أزال الله تعالى عنهم القحط والجوع عادوا إلى التكذيب، فانتقم الله منهم يوم بدر.

والقول الثاني: أنه يوم القيامة، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة، وهذا القول أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ [غافر: ١٧] ولأن هذه البطشة لما وُصفت بكونها كبرى على الإطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطش، وذلك ليس إلا في القيامة. ولفظ الانتقام في حق الله تعالى من المتشابهات كالغضب والحياء والتعجب، والمعنى معلوم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧ أَنۡ أَدُّوٓاْ
إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ
١٩ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ٢٢ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ
جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ
فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا
كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾

اعلم أنه تعالى لما بَيَّن أن كفار مكة مصرون على كفرهم، بَيَّن أن كثيرًا من المتقدمين أيضًا كانوا كذلك، فبَيَّن حصول هذه الصفة في أكثر قوم فرعون. قال صاحب (الكشاف): قرئ، (ولقد فتّنا) بالتشديد للتأكيد قال ابن عباس: ابتلينا. وقال الزجاج: بلونا، والمعنى عاملناهم

معاملة المختبر ببعث الرسول إليهم ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهو موسى، واختلفوا في معنى الكريم هاهنا: فقال الكلبي: كريم على ربه، يعني أنه استحق على ربه أنواعًا كثيرة من الإكرام. وقال مقاتل: حسن الخلق. وقال الفراء: يقال فلان كريم قومه لأنه قل ما بُعث رسول إلا من أشراف قومه وكرامهم.

ثم قال: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ وفي (أنْ) قولان: الأول: أنها (أن) المفسرة، وذلك لأن مجيء الرسول إلى من بُعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله. الثاني: أنها المخففة من الثقيلة، ومعناه وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا، وعباد الله مفعول به وهم بنو إسرائيل، يقول: أدوهم إلي وأرسلوهم معي. وهو كقوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾[طه: ٤٧] ويجوز أيضًا أن يكون نداء لهم والتقدير: أدوا إليَّ عباد الله ما هو واجب عليكم من الإيمان، وقبول دعوتي، واتباع سبيلي، وعلل ذلك بأنه ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ﴾ (أنْ) هذه مثل الأول في وجهيها، أي لا تتكبروا على الله بإهانة وحيه ورسوله ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ بحجة بينة يعترف بصحتها كل عاقل ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ قيل: المراد أن تقتلون وقيل ﴿أَن تَرۡجُمُونِ﴾ بالقول فتقولوا: ساحر كذاب ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي﴾ أي إن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيتكم به من الحجة. فاللام في (لي) لام الأجل ﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ أي اخلوا سبيلي لا لي ولا عليَّ.

قال مصنف الكتاب رحمه الله تعالى: إن المعتزلة يتصلفون ويقولون: إن لفظ الاعتزال أينما جاء في القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لا عن الحق. فاتفق حضوري في بعض المحافل، وذكر بعضهم هذا الكلام فأوردت عليه هذه الآية، وقلت: المراد الاعتزال في هذه الآية الاعتزال عن دين موسى عليه السلام وطريقته، وذلك لا شك أنه اعتزال عن الحق، فانقطع الرجل.

ثم قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ الفاء في (فدعا) تدل على أنه متصل بمحذوف قبله، التأويل أنهم كفروا ولم يؤمنوا فدعا موسى ربه بأن هؤلاء قوم مجرمون، فإن قالوا: الكفر أعظم حالاً من الجرم، فما السبب في أن جعل صفة الكفار كونهم مجرمين حال ما أراد المبالغة في ذمهم؟ قلت: لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وقد يكون مجرمًا في دينه، وقد يكون فاسقًا في دينه فيكون أخس الناس، قال صاحب (الكشاف): قرئ (إن هؤلاء) بالكسر على إضمار القول، أي فدعا ربه فقال: (إن هؤلاء مجرمون).

ثم قال: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا﴾ قرأ ابن كثير ونافع (فاسر) موصولة بالألف، والباقون مقطوعة الألف. سرى وأسرى لغتان، أي أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون، أي يتبعكم فرعون وقومه فيكون ذلك سببًا لهلاكهم ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ وفي الرهو قولان: أحدهما: أنه الساكن، يقال: عيش راهٍ، إذا كان خافضًا وادعًا، وافعل ذلك سهوًا رهوًا، أي ساكنًا بغير تشدد، أراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق كما كان، فأمره الله تعالى بأن

يتركه ساكنًا على هيئته قارًّا على حاله في انفلاق الماء وبقاء الطريق يبسًا حتى تدخله القبط، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم. والثاني: أن الرهو هو الفرجة الواسعة، والمعنى ذا رهو، أي ذا فرجة، يعني الطريق الذي أظهره الله فيما بين البحر أنهم جند مغرقون، يعني اترك الطريق كما كان يدخلوا فيغرقوا، وإنما أخبره الله تعالى بذلك حتى يبقى فارغ القلب عن شرهم وإيذائهم.

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ دلت هذه الآية على أنه تعالى أغرقهم، ثم قال بعد غرقهم هذا الكلام، وبيّن تعالى أنهم تركوا هذه الأشياء الخمسة، وهي الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم، والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة، وقيل: المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ قال علماء اللغة: (نَعمة العيش)، بفتح النون: حُسنه ونضارته، ونعمة الله إحسانه وعطاؤه، قال صاحب (الكشاف): النعمة بالفتح من التنعم، وبالكسر من الإنعام. وقرئ فاكهين وفكهين (كذلك) الكاف منصوبة على معني: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، وأورثناها أو في موضع الرفع على تقدير أن الأمر ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل كانوا مستعبدين في أيديهم، فأهلكهم الله على أيديهم وأورثهم ملكهم وديارهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وفيه وجوه:

الأول: قال الواحدي في (البسيط): روى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ إِلاَّ وَلَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَانِ: بَابٌ يَخْرُجُ مِنْهُ رِزْقُهُ، وَبَابٌ يَدْخُلُ فِيهِ عَمَلُهُ، فَإِذَا مَاتَ فَقَدَاهُ وَبَكَيَا عَلَيْهِ**»(١) وتلا هذه الآية، قال: وذلك لأنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحًا فتبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء كلام طيب ولا عمل صالح فتبكي عليهم، وهذا قول أكثر المفسرين.

القول الثاني: التقدير: فما بكت عليهم أهل السماء وأهل الأرض، فحذف المضاف، والمعنى: ما بكت عليهم الملائكة ولا المؤمنون، بل كانوا بهلاكهم مسرورين.

والقول الثالث: أن عادة الناس جرت بأن يقولوا في هلاك الرجل العظيم الشأن: إنه أظلمت له الدنيا، وكسفت الشمس والقمر لأجله، وبكت الريح والسماء والأرض. ويريدون المبالغة في تعظيم تلك المصيبة لا نفس هذا الكذب. ونقل صاحب (الكشاف): عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ مَاتَ فِي غُرْبَةٍ غَابَتْ فِيهَا بَوَاكِيهِ، إِلاَّ بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ**»(٢). وقال جرير:

(١) **إسناده ضعيف**: رواه الخطيب في (تاريخ بغداد) (١١/ ٢١١)، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ١٢١)، كلاهما من طريق مكي بن إبراهيم، عن موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك.. به، وفي إسناده موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف.

(٢) مرسل: رواه الطبري في (تفسيره) (٢٢/ ٣٥)، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ١٢٢)، كلاهما من طريق عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد الحضرمي قال: قال رسول الله ﷺ.. فذكره. وهذا حديث إسناده مرسل.

الشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تُبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا[١]

وفيه ما يشبه السخرية بهم، يعني أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم، وكانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض، فما كانوا في هذا الحد، بل كانوا دون ذلك، وهذا إنما يذكر على سبيل التهكم.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي لما جاء وقت هلاكهم لم يُنظَروا إلى وقت آخر لتوبة وتدارُك وتقصير.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن كيفية إهلاك فرعون وقومه، بيّن كيفية إحسانه إلى موسى وقومه.

واعلم أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع، فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ يعني قتل الأبناء، واستخدام النساء، والإتعاب في الأعمال الشاقة.

ثم قال: ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ﴾ وفيه وجهان: الأول: أن يكون التقدير: من العذاب المهين الصادر من فرعون. الثاني: أن يكون فرعون بدلاً من العذاب المهين؛ كأنه في نفسه كان عذابًا مهينًا لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم. قال صاحب (الكشاف) وقرئ: (من عذاب المهين) وعلى هذه القراءة (فالمهين) هو فرعون؛ لأنه كان عظيم السعي في إهانة المحقين. وفي قراءة ابن عباس (مَن فرعون) وهو بمعنى الاستفهام، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ جوابه، كأن التقدير أن يقال: هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته؟ ثم عرَّف حاله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي كان عالي الدرجة في طبقة المسرفين، ويجوز أن يكون المراد ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وكان أيضًا مسرفًا، ومن إسرافه أنه على حقارته وخسته ادعى الإلهية. ولما بيّن الله تعالى أنه كيف دفع الضرر عن بني إسرائيل، وبيّن أنه كيف أوصل إليهم الخيرات فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) الشاعر جرير تقدمت ترجمته.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أن قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضع الحال ثم فيه وجهان: أحدهما: أي عالمين بكونهم مستحقين لأن يُختاروا ويرجحوا على غيرهم. والثاني: أن يكون المعنى: مع علمنا بأنهم قد يزيغون ويصدر عنهم الفرطات في بعض الأحوال.

البحث الثاني: ظاهر قوله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يقتضي كونهم أفضل من كل العالمين، فقيل: المراد على عالمي زمانهم، وقيل: هذا عام دخله التخصيص كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ﴾ مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم ﴿بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ أي نعمة ظاهرة؛ لأنه تعالى لما كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضًا بالنعمة اختبارًا ظاهرًا ليتميز الصِّديق عن الزنديق.

وهاهنا آخر الكلام في قصة موسى عليه السلام ثم رجع إلى ذكر كفار مكة، وذلك لأن الكلام فيهم حيث قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾[الدخان: ٩] أي بل هم في شك من البعث والقيامة، ثم بيّن كيفية إصرارهم على كفرهم، ثم بيّن أن قوم فرعون كانوا في الإصرار على الكفر على هذه القصة، ثم بيّن كيف أهلكهم وكيف أنعم على بني إسرائيل، ثم رجع إلى الحديث الأول، وهو كون كفار مكة منكرين للبعث، فقال: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ فإن قيل: القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان من حقهم أن يقولوا: إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين؟ قلنا: إنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تعقبها حياة، كما أنكم حال كونكم نطفًا كنتم أمواتًا وقد تعقبها حياة، وذلك قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[البقرة: ٢٨] فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقيب الحياة لها إلا الموتة الأولى خاصة، فلا فرق إذًا بين هذا الكلام وبين قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾[الأنعام: ٢٩] هذا ما ذكره صاحب (الكشاف).

ويمكن أن يذكر فيه وجه آخر، فيقال: قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ يعني أنه لا يأتينا شيء من الأحوال إلا الموتة الأولى، وهذا الكلام يدل على أنهم لا تأتيهم الحياة الثانية ألبتة، ثم صرحوا بهذا المرموز فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ فلا حاجة إلى التكلف الذي ذكره صاحب (الكشاف).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ يقال: نشر الله الموتى وأنشرهم، إذا بعثهم، ثم إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشور ممكنًا معقولاً فاجعلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بأن تسألوا ربكم ذلك، حتى يصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في النبوة والبعث في القيامة. قيل: طلبوا من الرسول ﷺ أن يدعو الله حتى ينشر قُصي بن كلاب

ليشاوروه في صحة نبوة محمد ﷺ وفي صحة البعث، ولما حكى الله عنهم ذلك قال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ والمعنى أن كفار مكة لم يذكروا في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يُحتاج إلى الجواب عنها، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار؛ فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد، فقال: إن سائر الكفار كانوا أقوى من هؤلاء، ثم إن الله تعالى أهلكهم، فكذلك يهلك هؤلاء، فقوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، قال أبو عبيدة: ملوك اليمن كان كل واحد منهم يسمى تبعًا لأن أهل الدنيا كانوا يتبعونه، وموضع تبع في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام، وهم الأعاظم من ملوك العرب، قالت عائشة، كان تبع رجلاً صالحًا. وقال كعب: ذم الله قومه ولم يذمه. قال الكلبي: هو أبو كرب أسعد. وعن النبي ﷺ: «**لاَ تَسُبُّوا تُبَّعًا فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ، مَا أَدْرِي أَكَانَ تُبَّعٌ نَبِيًا أَوْ غَيْرَ نَبِيٍّ**». فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ مع أنه لا خير في الفريقين؟ قلنا: معناه أهم خير في القوة والشوكة، كقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]بعد ذكر آل فرعون.

ثم إنه تعالى ذكر الدليل القاطع على القول بالبعث والقيامة، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعبًا وعبثًا. وقد مرّ تقرير هذه الطريقة بالاستقصاء في أول سورة يونس، وفي آخر سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حيث قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]وفي سورة (ص) حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

ثم قال: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمراد أهل مكة، وأما استدلال المعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يخلق الكفر والفسق ولا يريدهما، فهو مع جوابه معلوم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٤٢ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾

اعلم أن المقصود من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]إثبات القول بالبعث والقيامة، فلا جرم ذكر عقيبه قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وفي تسمية يوم القيامة بيوم الفصل وجوه: الأول: قال الحسن: يفصل الله فيه بين أهل الجنة وأهل النار. الثاني: يفصل في الحكم والقضاء بين عباده. الثالث: أنه في حق المؤمنين يوم الفصل، بمعنى

أنه يفصل بينه وبين كل ما يكرهه، وفي حق الكفار بمعنى أنه يفصل بينه وبين كل ما يريده.
الرابع: أنه يظهر حال كل أحد كما هو، فلا يبقى في حاله ريبة ولا شبهة، فتنفصل الخيالات والشبهات، وتبقى الحقائق والبينات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى أن يوم يفصل الرحمن بين عباده ميقاتهم أجمعين البر والفاجر. ثم وصف ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ يريد قريب عن قريب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم ناصر، والمعنى أن الذي يُتوقع منه النصرة إما القريب في الدين أو في النسب أو المعتق، وكل هؤلاء يسمون بالمولى، فلما لم تحصل النصرة منهم فبأن لا تحصل ممن سواهم أَوْلى، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[البقرة: ١٢٣] قال الواحدي: والمراد بقوله: ﴿مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ الكفار ألا ترى أنه ذكر المؤمن فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد المؤمن، فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة.

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على أن القول بالقيامة حق، ثم أردفه بوصف ذلك اليوم، ذكر عقيبه وعيد الكفار، ثم بعده وعد الأبرار:

أما وعيد الكفار فهو قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قرئ (إن شِجرة الزقوم) بكسر الشين، ثم قال: وفيها ثلاث لغات: شجرة بفتح الشين وكسرها، وشيرة بالياء، وشبرة بالباء.

المسألة الثانية: البحث عن اشتقاق لفظ الزقوم قد تقدم في سورة (والصافات)، فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: الآية تدل على حصول هذا الوعيد الشديد للأثيم، والأثيم هو الذي صدر عنه الإثم، فيكون هذا الوعيد حاصلاً للفساق. والجواب: أنا بينا في أصول الفقه أن اللفظ المفرد الذي دخل عليه حرف التعريف - الأصل فيه أن ينصرف إلى المذكور السابق، ولا يفيد العموم، وههنا المذكور السابق هو الكافر، فينصرف إليه.

المسألة الرابعة: مذهب أبي حنيفة أن قراءة القرآن بالمعنى جائز، واحتج عليه بأنه نُقل أن ابن مسعود كان يقرئ رجلاً هذه الآية فكان يقول: طعام اللئيم، فقال: قل طعام الفاجر. وهذا الدليل في غاية الضعف على ما بيناه في أصول الفقه.

ثم قال: (كالمهل) قرىء بضم الميم وفتحها، وسبق تفسيره في سورة الكهف، وقد شَبَّه الله تعالى هذا الطعام بالمهل، وهو دردي الزيت وعكر القطران ومذاب النحاس وسائر الفلزات، وتمّ الكلام هاهنا، ثم أخبر عن غليانه في بطون الكفار فقال: ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ وقرئ بالتاء، فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الشجرة، ومن قرأ بالياء حمله على الطعام في قوله: ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ لأن الطعام هو (ثمر) الشجرة في المعنى، واختار أبو عبيد الياء لأن الاسم المذكور - يعني المهل -

هو الذي يلي الفعل فصار التذكير به أولى، واعلم أنه لا يجوز أن يحمل الغلي على المهل لأن المهل مشبه به، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل كغلي الحميم، والماء إذا اشتد غليانه فهو حميم.

ثم قال: ﴿خُذُوهُ﴾ أي خذوا الأثيم ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ قرئ بكسر التاء، قال الليث: العتل أن تأخذ بمنكب الرجل فتعتله، أي تجره إليك وتذهب به إلى حبس أو محنة، وأخذ فلان بزمام الناقة يعتلها، وذلك إذا قبض على أصل الزمام عند الرأس وقادها قودًا عنيفًا، وقال ابن السكيت: عتلته إلى السجن وأعتلته، إذا دفعته دفعًا عنيفًا. هذا قول جميع أهل اللغة في العتل، وذكروا في اللغتين ضم التاء وكسرها وهما صحيحان، مثل يعكُفون ويعكِفون، ويعرُشون ويعرِشون.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي إلى وسط الجحيم ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ وكان الأصل أن يقال: ثم صبوا من فوق رأسه الحميم أو يصب من فوق رؤوسهم الحميم، إلا أن هذه الاستعارة أكمل في المبالغة، كأنه يقول: صبوا عليه عذاب ذلك الحميم، ونظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [البقرة: ٢٥٠] و﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وذكروا فيه وجوهًا: الأول: أنه يخاطب بذلك على سبيل الاستهزاء، والمراد إنك أنت بالضد منه. والثاني: أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا!! (١) والثالث: أنك كنت تعتز لا بالله، فانظر ما وقعت فيه، وقرئ (أنك) بمعنى لأنك.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي أن هذا العذاب ما كنتم به تمترون، أي تشكُّون، والمراد منه ما ذكره في أول السورة حيث قال: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٥٧ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ٥٩﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في الآيات المتقدمة، ذكر الوعد في هذه الآيات فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ قال أصحابنا: كل من اتقى الشرك فقد صدق عليه اسم المتقي، فوجب أن يدخل الفاسق في هذا الوعد.

واعلم أنه تعالى ذكر من أسباب تنعمهم خمسة أشياء: أولها: مساكنهم فقال: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾.

واعلم أن المسكن إنما يطيب بشرطين: أحدهما: أن يكون آمنًا عن جميع ما يُخاف ويُحذر،

(١) مرسل: الطبري في (تفسيره) (٢٢/ ٤٩) من طريق ابن ثور عن معمر عن قتادة... به.

وهو المراد من قوله: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ قرأ الجمهور في (مَقام) بفتح الميم، وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم، قال صاحب (الكشاف): المقام بفتح الميم هو موضع القيام، والمراد المكان، وهو من الخاص الذي جُعل مستعملاً في المعنى العام، وبالضم هو موضع الإقامة، والأمين من قولك: أمِن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن، فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف كأنه يخون صاحبه. والشرط الثاني لطيب المكان: أن يكون قد حصل فيه أسباب النزهة وهي الجنات والعيون، فلما ذكر تعالى هذين الشرطين في مساكن أهل الجنة، فقد وصفها بما لا يقبل الزيادة.

والقسم الثاني من تنعماتهم: الملبوسات فقال: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ قيل: السندس ما رقّ من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه، وهو تعريب إستبرك، فإن قالوا: كيف جاز ورود الأعجمي في القرآن؟ قلنا: لما عُرب فقد صار عربيًا.

وأما القسم الثالث: فهو جلوسهم على صفة التقابل، والغرض منه استئناس البعض بالبعض، فإن قالوا: الجلوس على هذا الوجه موحش لأنه يكون كل واحد منهم مطلعًا على ما يفعله الآخر، وأيضًا فالذي يقل ثوابه إذا اطلع على حال من يكثر ثوابه، يتنغص عيشه. قلنا: أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا.

والقسم الرابع: أزواجهم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الكاف فيه وجهان: أن تكون مرفوعة والتقدير: الأمر كذلك. أو منصوبة والتقدير: آتيناهم مثل ذلك. قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجًا كما يزوج البعل بالبعل، أي جعلناهم اثنين اثنين، واختلفوا في أن هذا اللفظ هل يدل على حصول عقد التزويج أم لا؟ قال يونس: قوله: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرناهم بهن، فليس من عقد التزويج، والعرب لا تقول (تزوجت بها) وإنما تقول (تزوجتها)، قال الواحدي رحمه الله: والتنزيل يدل على ما قال يونس وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولو كان المراد تزوجت بها (زوجناك بها) وأيضًا فقول القائل (زوَّجته به) معناه أنه كان فردًا فزوجته بآخر، كما يقال: شفَّعته بآخر. وأما الحور فقال الواحدي: أصل الحور: البياض والتحوير: التبييض، وقد ذكرنا ذلك في تفسير الحواريين، وعين حوراء، إذا اشتد بياض بياضها واشتد سواد سوادها، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينيها بياضًا في لون الجسد، والدليل على أن المراد بالحور في هذه الآية البيض - قراءة ابن مسعود (بعِيس عِين) والعِيس: البيض، وأما العِين فجمع عيناء وهي التي تكون عظيمة العينين من النساء، فقال الجبائي: رجل أعين، إذا كان ضخم العين واسعها والأنثى عيناء، والجمع عِين. ثم اختلفوا في هؤلاء الحور العين: فقال الحسن: هن عجائزكم الدرد ينشئهن الله خلقًا آخر. وقال أبو هريرة: إنهن ليسوا من نساء الدنيا.

والنوع الخامس من تنعمات أهل الجنة: المأكول فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾

قالوا: إنهم يأكلون جميع أنواع الفاكهة لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض.

ولما وصف الله تعالى أنواع ما هم فيه من الخيرات والراحات، بَيَّن أن حياتهم دائمة فقال: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ **وفيه سؤالان:**

السؤال الأول: أنهم ما ذاقوا الموتة الأولى في الجنة، فكيف حسن هذا الاستثناء؟ وأجيب عنه من وجوه: الأول: قال صاحب (الكشاف): أريدَ أن يقال: لا يذوقون فيها الموت ألبتة، فوضع قوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال في المستقبل، فهو من باب التعليق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يمكن ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها. الثاني: أن (إلا) بمعنى (لكن) والتقدير: لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى قد ذاقوها. والثالث: أن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى وبطاعته ومحبته، وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان الذي فاز بهذه السعادة فهو في الدنيا في الجنة وفي الآخرة أيضًا في الجنة، وإذا كان الأمر كذلك فقد وقعت الموتة الأولى حين كان الإنسان في الجنة الحقيقية التي هي جنة المعرفة بالله والمحبة، فذكر هذا الاستثناء كالتنبيه على قولنا: إن الجنة الحقيقية هي حصول هذه الحالة لا الدار التي هي دار الأكل والشرب؛ ولهذا السبب قال عليه السلام: «**أَنْبِيَاءُ اللَّهِ لاَ يَمُوتُونَ وَلَكِنْ يُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ**» والرابع: أن من جرب شيئًا ووقف عليه صح أن يقال: إنه ذاقه، وإذا صح أن يسمى العلم بالذوق صح أن يسمى تذكُّره أيضًا بالذوق، فقوله: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني إلا الذوق الحاصل بسبب تذكُّر الموتة الأولى.

السؤال الثاني: أليس أن أهل النار أيضًا لا يموتون؟ فلمَ بشر أهل الجنة بهذا مع أهل النار يشاركونهم فيه؟ والجواب: أن البشارة ما وقعت بدوام الحياة بل وقعت بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات والسعادات، فظهر الفرق.

ثم قال تعالى: ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ قرئ (ووقَّاهم) بالتشديد، فإن قالوا: مقتضى الدليل أن يكون ذكر الوقاية عن عذاب الجحيم متقدمًا على ذكر الفوز بالجنة؛ لأن الذي وُقي عن عذاب الجحيم قد يفوز وقد لا يفوز، فإذا ذكر بعده أنه فاز بالجنة حصلت الفائدة، أما الذي فاز بخيرات الجنة فقد تخلص عن عقاب الله لا محالة، فلم يكن ذكر الفوز عن عذاب جهنم بعد الفوز بثواب الجنة مفيدًا. قلنا: التقدير كأنه تعالى قال: ووقاهم في أول الأمر عن عذاب الجحيم.

ثم قال: ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني كل ما وصل إليه المتقون من الخلاص عن النار والفوز بالجنة – فإنما يحصل بتفضل الله، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الثواب يحصل تفضلاً من الله تعالى لا بطريق الاستحقاق؛ لأنه تعالى لما عَدَّد أقسام ثواب المتقين بَيَّن أنها بأسرها إنما حصلت على سبيل الفضل والإحسان من الله تعالى، قال القاضي: أكثر هذه الأشياء وإن كانوا قد استحقوه بعملهم فهو بفضل الله لأنه تعالى تفضَّل بالتكليف، وغرضه منه أن يصيرهم إلى هذه المنزلة، فهو كمن أعطى غيره مالاً ليصل به إلى مِلك ضيعة، فإنه يقال في تلك الضيعة: إنها

من فضله. قلنا: مذهبك أن هذا الثواب حق لازم على الله، وإنه تعالى لو أخل به لصار سفيهًا ولخرج به عن الإلهية، فكيف يمكن وصف مثل هذا الشيء بأنه فضل من الله تعالى؟!

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن التفضل أعلى درجة من الثواب المستحق، فإنه تعالى وصفه بكونه فضلاً من الله، ثم وصف الفضل من الله بكونه فوزًا عظيمًا، ويدل عليه أيضًا أن المَلِك العظيم إذا أعطى الأجير أجرته ثم خلع على إنسان آخر، فإن تلك الخلعة أعلى حالاً من إعطاء تلك الأجرة. ولما بَيَّن الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى أنه تعالى وصف القرآن في أول هذه السورة بكونه كتابًا مبينًا، أي كثير البيان والفائدة، وذكر في خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال: إن ذلك الكتاب المبين، الكثير الفائدة - إنما يسرناه بلسانك، أي إنما أنزلنا عربيًّا بلغتك، لعلّهم يتذكرون، قال القاضي: وهذا يدل على أنه أراد من الكل الإيمان والمعرفة، وأنه ما أراد من أحد الكفر. وأجاب أصحابنا أن الضمير في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عائد إلى أقوام مخصوصين. فنحن نحمل ذلك على المؤمنين.

ثم قال: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي فانتظِر ما يحل بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك، متربصون بك الدوائر، والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء، في نصف الليل الثاني عشر من ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، يا دائم المعروف، يا قديم الإحسان، شهد لك إشراق العرش، وضوء الكرسي، ومعارج السموات، وأنوار الثوابت والسيارات، على منابرها، المتوغلة في العلو الأعلى، ومعارجها المقدسة عن غبار عالم الكون والفساد - بأن الأول الحق الأزلي لا يناسبه شيء من علائق العقول، وشوائب الخواطر، ومناسبات المحدثات، فالقمر بسبب محوه مقر النقصان، والشمس بشهادة المعارج بتغيراتها معترفة بالحاجة إلى تدبير الرحمن، والطبائع مقهورة تحت القدرة القاهرة، فالله في غيبيات المعارج العالية، والمتغيرات شاهدة بعدم تغيره، والمتعاقبات ناطقة بدوام سرمديته، وكل ما نوجه عليه أنه مضى وسيأتي فهو خالقه وأعلى منه، فبجوده الوجود وإيجاد، وبإعدامه الفناء والفساد، وكل ما سواه فهو تائه في جبروته، نائر عند طلوع نور ملكوته، وليس عند عقول الخلق إلا أنه بخلاف كل الخلق، له العز والجلال، والقدرة والكمال، والجود والإفضال، ربنا ورب مبادينا إياك نروم، ولك نصلي ونصوم، وعليك المعول، وأنت المبدأ الأول، سبحانك سبحانك.

سورة الدُّخَان

مكية باتفاق؛ إلا قولَه تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ [الآية: ١٥]. وهي سبعٌ وخمسون آية. وقيل: تسع[1]. وفي مسند الدَّارميِّ[2] عن أبي رافع قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له، وزُوِّج من الحور العين». رفعه الثعلبيُّ من حديث أبي هريرةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له»[3]. وفي لفظ آخر عن أبي هريرةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألفَ ملَك»[4]. وعن أبي أمامةَ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «مَن قرأ حم الدخان ليلةَ الجمعة أو يوم الجمعة، بَنى الله له بيتاً في الجنة»[5].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾

إن جعلت «حم» جوابَ القسم، تمَّ الكلام عند قوله: «المُبِين»، ثم تبتدِئُ: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ». وإن جعلت «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرين» جواب القسم الذي هو «الكتاب»، وقفت على:

---

(١) الكشاف ٤٩٩/٣ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٦٨/٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٣٦/٧ أن السورة مكية كلها.

(٢) برقم (٣٤٢١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٨٩) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المِقدام يضعف، ولم يسمع الحسنُ من أبي هريرة، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٨٨) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعُمر بن أبي خَثْعَم يضعف، قال محمد [يعني البخاري]: وهو منكر الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠٢٦)، قال الهيثمي في المجمع ١٦٨/٢ : فيه فضَّال بن جبير وهو ضعيف جدًّا.

«مُنْذِرِينَ»، وابتدأت: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ»[١]. وقيل: الجواب: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»[٢]، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقْسَم به، ولا تكون صفة المقسَم به جواباً للقَسَم.

والهاء في «أَنْزَلْنَاهُ» للقرآن[٣]. ومَن قال: أقسم بسائر الكتب فقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» كَنَى به عن غير القرآن، على ما تقدَّم بيانه في أوَّل «الزخرف»[٤].

والليلةُ المباركة ليلةُ القدر. ويقال: ليلةُ النصف من شعبان، ولها أربعةُ أسماء: الليلةُ المباركة، وليلةُ البراءة، وليلة الصَّكّ، وليلة القدر[٥]. ووصفها بالبركة لِمَا يُنزِّل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب. وروى قتادة عن واثلةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لِستٍّ مَضَيْنَ من رمضان، وأُنزِلت الزَّبور لاثنتي عَشْرةَ من رمضان، وأُنزِل الإنجيل لثمان عَشْرة خلت من رمضان، وأُنزِل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان»[٦].

ثم قيل: أُنزِل القرآن كلُّه إلى السماء الدنيا في هذه الليلة. ثم أُنزِل نَجْماً نَجْماً في سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب[٧]. وقيل: كان ينزل في كلِّ ليلةِ القدر ما ينزل

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٨ .

(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٦ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٣٦ .

(٤) ص٦ من هذا الجزء.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٩٩ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٥ ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٥٢)، والبيهقي ٩/ ١٨٨ وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة خلت، وأن الزبور أنزل لثمان عشرة خلت. قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن قتادة إلا عمران القطان، ولا يروى عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد. قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٩٧ : فيه عمران القطان، ضعفه يحيى، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات. وسلف ٣/ ١٦١ دون ذكر الزبور، وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة.

(٧) سلف هذا القول في سورة البقرة ٣/ ١٦٠ - ١٦١ .

في سائر السنة[١]. وقيل: كان ابتداء الإنزال في هذه الليلة[٢]. وقال عكرمة: الليلةُ المباركة ها هنا ليلةُ النصف من شعبان[٣]. والأوّل أصحُّ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن كلَّه في ليلة القدر من أمّ الكتاب إلى بيت العِزَّة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه ﷺ في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة[٤]. وهذا المعنى قد مضى في «البقرة»[٥] عند قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الآية: ١٨٥]، ويأتي آنفاً إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾

قال ابن عباس: يُحْكِم اللهُ أمرَ الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق. وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرُهم[٦]. وقيل: إلا الشقاءَ والسعادةَ فإنهما لا يتغيَّران. قاله ابن عمر[٧]. قال المهدوي: ومعنى هذا القول: أمرَ الله عزَّ وجلَّ الملائكةَ بما يكون في ذلك العام، ولم يَزَل ذلك في علمه عزَّ وجلَّ. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان، يُبْرَم فيها أمر السَّنة، ويُنسَخ الأحياءُ من الأموات، ويُكتَب الحاجُّ، فلا يُزادُ فيهم أحد ولا يُنْقَص منهم أحد[٨].

وروى عثمان بن المغيرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «تُقطَع الآجال من شعبانَ إلى

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢١٥، والوسيط ٤/ ٨٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٦٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٩.

(٤) أخرج قول ابن زيد الطبريُّ ٢١/ ٦، وأورد قول قتادة البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٨.

(٥) ٣/ ١٦٠ - ١٦١.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥ لابن أبي حاتم.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٩.

شعبانَ حتى إنَّ الرجل ليَنْكِح ويُولَد له وقد خرج اسمه في الموتى»[١]. وعن النبيِّ ﷺ قال: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلتها، وصوموا نهارها[٢]، فإن الله يَنزِل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول: ألا مستغفرٌ فأغفرَ له، ألا مبتلًى فأُعافيَه، ألا مسترزقٌ فأرزقه، ألا كذا ألا كذا، حتى يطلعَ الفجر»[٣] ذكره الثعلبي.

وخرج الترمذيُّ بمعناه عن عائشةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا، فيغفرُ لأكثرَ من عدد شعر غَنَم كَلْب»[٤]. وفي الباب عن أبي بكرٍ الصديق قال أبو عيسى: حديثُ عائشةَ لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحجاجِ بن أَرْطاة، عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، عن عائشة، وسمعت محمداً يُضعِّف هذا الحديث، وقال: يحيى بنُ أبي كثير لم يَسمع من عروة، والحجاجُ بن أرطاة لم يَسمع من يحيى بن أبي كثير.

قلت: وقد ذكر حديثَ عائشة مطوَّلاً صاحبُ كتاب «العروس»، واختار أنَّ الليلة التي يُفْرَق فيها كلُّ أمر حكيم ليلةُ النصف من شعبان، وأنها تُسمَّى ليلة البراءة. وقد ذكرنا قوله والردَّ عليه في غير هذا الموضع، وأنَّ الصحيح إنما هي ليلةُ القدر على ما بيَّنَّاه.

روى حمَّاد بن سَلَمةَ قال: أخبرنا ربيعة بنُ كُلْثوم قال: سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال: يا أبا سعيد، أرأيت ليلة القدر، أفي كلِّ رمضان هي؟ قال: إي والله

---

(١) كذا أخرجه الطبري ٢١/ ١٠ مرسلاً، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٣٩) من قول عثمان بن المغيرة. وعثمان هذا هو ابن محمد بن المغيرة الأخنس منسوب إلى جده، قال ابن حجر في التقريب: صدوق له أوهام.

(٢) في (ظ) و(ق): يومها.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٣٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٢٢) وفيه ابن أبي سَبْرَة، واسمه أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة. قال في الزوائد: إسناده ضعيف؛ لضعف ابن أبي سبرة. . . قال فيه أحمد بن حنبل وابن مَعين: يضع الحديث.

(٤) سنن الترمذي (٧٣٩) والكلام بعده منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٦٠١٨)، وابن ماجه (١٣٨٩).

الذي لا إله إلا هو، إنها لفي[١] كلِّ رمضان، إنها الليلةُ التي يُفرَق فيها كلُّ أمر حكيم، فيها يَقضي الله كلَّ خلق وأجلٍ ورزقٍ وعمل إلى مثلها[٢].

وقال ابن عباس: يُكتب من أمِّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجّ، يقال: يحجُّ فلان ويحجُّ فلان[٣]. وقال في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى[٤]. وهذه الإبانة لأحكام السَّنة إنما هي للملائكة الموكَّلين بأسباب الخلق. وقد ذكرنا هذا المعنى آنفاً.

وقال القاضي أبو بكر بنُ العربي[٥]: وجمهورُ العلماء على أنها ليلةُ القدر. ومنهم مَن قال: إنها ليلةُ النصف من شعبان، وهو باطلٌ؛ لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فنصَّ على أن ميقات نزوله رمضان، ثم عيَّن من زمانه الليلَ ها هنا بقوله: ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفِرْية على الله، وليس في ليلة النصف من شعبان حديثٌ يُعوَّل عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها، فلا تلتفتوا إليها[٦].

الزمخشريُّ[٧]: وقيل: يُبدَأ في استنساخ ذلك من اللَّوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتُدفَع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخةُ الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخةُ الأعمال إلى

---

(١) في (د) و(م): في.

(٢) الاستذكار ١٠/ ٣٣٨، وأخرجه الطبري ٢١/ ٧ من طريق يزيد وابن عُليَّة عن ربيعة بن كلثوم.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥ وعزاه لمحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠، والحاكم ٢/ ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٨.

(٦) غير أن فضلها ورد بمجموع أحاديث، وهي - وإن كان في إسناد كلٍّ منها مقال - تتقوى ببعضها. تنظر أحاديث الباب في حاشية المسند (٦٦٤٢).

(٧) في الكشاف ٣/ ٥٠٠، وإلى آخر تفسير الآية منه.

إسماعيلَ صاحبِ سماء الدنيا، وهو مَلَك عظيم، ونسخةُ المصائب إلى مَلَك الموت.
وعن بعضهم: يُعطى كلُّ عامل بركاتِ أعماله، فيُلقى على ألسنة الخلق مدحُه، وعلى قلوبهم هيبتُه.

وقُرِئ: «يُفَرِّق»[١] بالتشديد، و«يَفْرُق»[٢] كلٌّ على بنائه للفاعل ونصبِ «كلّ»، والفارقُ الله عزّ وجلّ. وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «نفرُق» بالنون.

﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: كلُّ شأنٍ ذي حكمة، أي: مفعول على ما تقتضيه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ قال النقَّاش: الأمرُ هو القرآنُ؛ أنزله الله من عنده.
وقال ابن عيسى: هو ما قضاه الله في اللَّيلة المباركة من أحوال عباده[٣].

وهو مصدرٌ في موضح الحال. وكذلك ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وهما عند الأخفش[٤] حالان، تقديرهما: أنزلناه آمرين به وراحمين. المبرِّد: «أمرًا» في موضع المصدر، والتقدير: أنزلناه إنزالاً[٥]. الفرَّاء والزجَّاج: «أمرًا» نصب بـ «يُفْرَق»، مثلُ قولك: يُفْرَق فرقًا، فأمر بمعنى فَرْق فهو مصدر، مثلُ قولك: يضرب ضرباً[٦]. وقيل: «يُفْرَق» يدلُّ على يؤمر، فهو مصدرٌ عمل فيه ما قبله[٧].

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الفراء[٨]: «رَحْمَةً» مفعول بـ «مرسِلين».

---

(١) في (م): نفرق. وقراءة: يُفَرِّق؛ بالتشديد، ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٠ .

(٢) قرأ «يَفرُق» بفتح الياء وضم الراء الحسن والأعرج والأعمش، وقرأها بفتح الياء وكسر الراء أبو المتوكل وأبو نهيك ومعاذ القارئ. ينظر القراءات الشاذة ص١٣٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٦ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٦٩١ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٤ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٩ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٤ .

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٤ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٣٩ .

والرحمةُ النبيُّ ﷺ. وقال الزجَّاج: «رَحْمَةً» مفعولٌ من أجله، أي: أرسلناه للرحمة[١]. وقيل: هي بدل من قوله: «أَمْراً». وقيل: هي مصدر[٢]. الزمخشريُّ: «أَمْراً» نصب على الاختصاص، جعل كلَّ أمر جَزْلاً فَخْماً بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جَزالة وكسبه فخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، كائناً من لَدُنَّا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا.

وفي قراءة زيد بن عليٍّ: «أَمْرٌ مِنْ عِنْدِنَا» على: هو أمرٌ، وهي تَنْصُر انتصابه على الاختصاص. وقرأ الحسن: «رحمةٌ» على تلك هي رحمةٌ، وهي تنصر انتصابها بأن مفعول له[٣].

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرأ الكوفيون: «رَبِّ» بالجرّ. الباقون بالرفع[٤]؛ رَدًّا على قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وإن شئت على الابتداء، والخبرُ: لا إله إلا هو. أو يكون خبر ابتداء محذوف، تقديره: هو ربُّ السماوات والأرض. والجرُّ على البدل من «رَبِّكَ»، وكذلك: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالجرِّ فيهما، رواه الشَّيْزَريّ[٥] عن الكسائي. الباقون بالرفع على الاستئناف.

ثم يحتمل أن يكون هذا الخطاب مع المعترفِ بأن الله خلق السماواتِ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٤ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٤) السبعة ص ٥٩٢ ، والتيسير ص ١٩٨ .

(٥) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي المعروف بالشيزري الحنفي، مقرىء عالم نحوي، كان حجازياً، ثم انتقل إلى شيزر، وأقام بها إلى أن مات، فنسب إليها، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي، وله عنه انفرادات. طبقات القراء ١/ ٦٠٨ ، وقراءته في القراءات الشاذة ص١٣٧ .

والأرض، أي: إن كنتم موقنين به؛ فاعلموا أنَّ له أن يُرسل الرسل، ويُنَزِّلَ الكتب. ويجوز أن يكون الخطاب مع مَن لا يعترف أنه الخالق، أي: ينبغي أن يعرفوا أنه الخالق، وأنه الذي يحيي ويميت. وقيل: الموقنُ ها هنا هو الذي يريد اليقين ويطلبه، كما تقول: فلان يُنْجِد، أي: يريد نَجْداً. ويُتهِم، أي: يريد تِهامة[١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو خالقُ العالم، فلا يجوز أن يُشرَك به غيرُه ممَّن لا يقدر على خلق شيء. و«هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» أي: يحيي الأموات ويميت الأحياء. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مالِكُكم ومالكُ مَن تقدَّم منكم. واتَّقُوا تكذيب محمد لئلا يَنْزِل بكم العذاب.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ليسوا على يقين فيما يُظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم: إن الله خالقُهم، وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم، فهم في شكّ. وإن توهَّموا أنهم مؤمنون، فهم يلعبون في دينهم بما يعُنُّ من غير حجة. وقيل: «يَلْعَبُونَ»: يضيفون إلى النبيِّ ﷺ الافتراءَ استهزاءً. ويقال لمن أعرض عن المواعظ[٢]: لاعب، وهو كالصبيِّ الذي يلعب فيفعل ما لا يدري عاقبته.

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ارتقب معناه: انتظر، أي: انتظر يا محمدُ بهؤلاء[٣] الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين. قاله قتادة[٤]. وقيل: معناه: احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين، ولذلك سُمِّيَ الحافظُ رقيباً[٥].

---

(١) ينظر هذا القول في تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤١ .

(٢) في (ظ): الذكر.

(٣) في (ظ): هؤلاء، وقوله: أي انتظر، من (ظ).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٦ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٣ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ .

وفي الدُّخان أقوال ثلاثة:

الأول: أنه من أشراط الساعة لم يَجِئ بعدُ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض، فأما المؤمنُ فيصيبه مثل الزُّكام، وأما الكافرُ والفاجر فيدخل في أنوفهم فيَثْقُبُ مسامِعَهم، ويُضَيِّقُ أنفاسهم، وهو من آثار جهنَم يوم القيامة. وممَّن قال إن الدخان لم يأتِ بعدُ: عليٌّ، وابن عباس، وابنُ عمر، وأبو هريرة، وزيدُ ابن عليٍّ، والحسنُ، وابنُ أبي مُلَيكَة، وغيرُهم[١]. وروى أبو سعيدٍ الخُدْريُّ مرفوعاً أنه دخانٌ يَهيجُ بالناس يوم القيامة، يأخذ المؤمنَ منه كالزَّكْمة، وينفخُ الكافرَ حتى يخرج من كلِّ مسمع منه. ذكره الماوردي[٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي الطُّفَيل، عن حُذيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ قال: اطَّلع النبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذكرون»؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عَشْرَ آيات - فذكر - الدُّخانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطلوعَ الشمس من مغربها، ونزولَ عيسى ابنِ مريم، وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خُسُوف: خَسْفٌ بالمَشْرِق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمَن تَطْرُد الناس إلى مَحْشَرهم»[٣].

وفي رواية عن حُذيفة: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عَشْرُ آيات: خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ في جزيرة العرب، والدُّخانُ، والدَّجَّالُ، ودابَّةُ الأرض، ويأجوجُ ومأجوجُ، وطلوعُ الشمس من مغربها، ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن تُرَحِّلُ الناس»[٤].

---

(١) قول علي في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠٦ ، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٨ (١٨٥٣٤)، وقول ابن عباس وابن عمر والحسن في تفسير الطبري ٢١/ ١٨ - ١٩ . وقول أبي هريرة في زاد المسير ٧/ ٣٣٩ ، وقول زيد بن علي في المحرر الوجيز ٥/ ٦٩ ، وقول ابن أبي مليكة في المفهم ٧/ ٢٣٩ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٩ ، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٧ (١٨٥٣٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٠١): (٣٩)، وهو عند أحمد (١٦١٤١).

(٤) صحيح مسلم (٢٩٠١): (٤٠).

وخرَّجه الثعلبيُّ أيضاً عن حُذيفةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوَّلُ الآيات خروجاً: الدَّجَّالُ، والدخان[١]، ونزولُ عيسى ابنِ مريم، ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن أبْيَنَ تسوق الناس إلى المحشر، تَبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم إذا قالوا، وتُصبح معهم إذا أصبحوا، وتُمْسي معهم إذا أمسَوا». قلت: يا نبيَّ الله، وما الدُّخان؟ قال: «هذه الآية: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أمَّا المؤمنُ فيصيبه منه شبهُ الزُّكام، وأما الكافرُ فيكون بمنزلة السَّكران يخرج الدخان من فمه ومَنْخَره وعينيه وأُذُنيه ودبره»[٢].فهذا قول.

القول الثاني: أن الدخان هو ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبيِّ ﷺ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً. قاله ابن مسعود[٣]. قال: وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم.

والحديثُ عنه بهذا في صحيح البخاريِّ ومسلم والترمذيِّ. قال البخاريُّ: حدثني يحيى قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مسلم، عن مَسْرُوق قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشاً لمَّا استعصت على النبيِّ ﷺ، دعا عليهم بسنينَ كَسِني يوسف، فأصابهم قَحْطٌ وجَهْد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجَهْد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال: فأُتيَ رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لِمُضَر فإنها قد هلكت. قال: «لِمُضَر! إنك لَجَريء». فاستسقى فسُقُوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الآية: ١٥]. فلمَّا أصابتهم الرفاهية، عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. قال: يعني يومَ بدر[٤].

---

(١) قوله: والدخان، من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١٩ - ٢٠ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٤٠ .

(٤) صحيح البخاري (٤٨٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٨): (٤٠)، وسنن الترمذي (٣٢٥٤)، وهو عند أحمد (٣٦١٣).

قال أبو عبيدة[(١)]: والدُّخَان الجَدْب. القُتَبيُّ[(٢)]: سُمِّيَ دخاناً ليُبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان.

القول الثالث: إنه يوم فتح مكة لمَّا حجبت السماءَ الغبرةُ. قاله عبد الرحمن الأعرج[(٣)].

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في موضع الصفة للدُّخان، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود، فهو خاصٌّ بالمشركين من أهل مكة، وإن كان من أشراط الساعة فهو عامٌّ على ما تقدم. ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقول الله لهم: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». فمن قال: إن الدخان قد مضى، فقولُه: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» حكايةُ حالٍ ماضية، ومَن جعله مستقبلاً، فهو حكايةُ حالٍ آتية. وقيل: «هَذَا» بمعنى ذلك. وقيل: أي: يقول الناس لذلك الدخان: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ»[(٤)]. وقيل: هو إخبارٌ عن دُنُوِّ الأمر، كما تقول: هذا الشتاء فأعِدَّ له.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: يقولون ذلك: اكشف عنا العذاب، فـ«إِنَّا مُؤْمِنُونَ»، أي: نؤمن بك إن كشفته عنا. قيل: إن قريشًا أتَوُا النبيَّ ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذابَ، أسلمنا، ثم نقضوا هذا القول[(٥)]. قال قتادة: «العَذَابَ» هنا الدخان. وقيل: الجوع. حكاه النقَّاش[(٦)].

قلت: ولا تناقض، فإن الدُّخان لم يكن إلا من الجوع الذي أصابهم، على ما

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٨، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧.

(٢) في تفسير غريب القرآن ص ٤٠٢، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٧ (١٨٥٣٢).

(٤) هذا القول في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٥، وزاد المسير ٧/ ٣٤١.

(٥) سلف هذا القول في الآية السابقة في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن مسعود ﵁.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧.

تقدَّم. وقد يقال للجوع والقحط: الدخان؛ ليُبس الأرض في سنة الجَدْب، وارتفاع الغبار بسبب قلَّة الأمطار، ولهذا يقال لسنة الجَدْب: الغَبْراء[١]. وقيل: إن العذاب هنا الثلج. قال الماورديُّ[٢]: وهذا لا وجه له؛ لأن هذا إنما يكون في الآخرة، أو في أهل مكة، ولم تكن مكةُ من بلاد الثلج، غير أنه مقولٌ فحكيناه.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: من أين يكون لهم التذكُّر والاتعاظ عند حلول العذاب. ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: يبيِّن لهم الحقَّ، والذِّكْرى والذِّكْرُ واحد. قاله البخاريُّ[٣]. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا. قال ابن عباس: أي: متى يتَّعظون واللهُ أبعدهم من الاتعاظ والتذكُّر بعد تولِّيهم عن محمد ﷺ وتكذيبِهم إيَّاه؟! وقيل: أي: أنَّى ينفعهم قولُهم: «إِنَّا مُؤْمِنُونَ» بعد ظهور العذاب غدً أو بعد ظهور أعلام الساعة! فقد صارت المعارف ضرورية. وهذا إذا جعلتَ الدخان آية مرتقبة. ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: عَلَّمه بَشَرٌ، أو علَّمه الكَهَنة والشياطين، ثم هو مجنونٌ وليس برسول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ أي: وقتاً قليلاً، وعَدَ أن يكشف عنهم ذلك العذابَ قليلاً، أي: في زمانٍ قليلٍ ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه. قاله ابن مسعود. فلمَّا كُشِف ذلك عنهم باستسقاء النبيِّ ﷺ لهم، عادوا إلى تكذيبه[٤]. ومَن قال: إن الدخان منتظَرٌ قال: أشار بهذا إلى ما يكون من الفُرْجة بين

(١) تفسير غريب القرآن ص ٤٠٢.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ وما قبله منه.

(٣) في صحيحه قبل حديث (٤٨٢٣).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧.

آية وآية من آيات قيام الساعة. ثم مَن قضى عليه بالكفر يستمرُّ على كفره، ومَن قال هذا في القيامة قال: أي لو كشفنا عنكم العذابَ، لعدتم إلى الكفر. وقيل: معنى ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلينا، أي: مبعوثون بعد الموت. وقيل: المعنى: «إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا[١].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ محمولٌ على ما دلَّ عليه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، أي: ننتقم منهم يوم نبطِش. وأبعده بعض النَّحْويين بسب أنَّ ما بعد «إنَّ» لا يفسِّر ما قبلها. وقيل: إن العامل فيه «مُنْتَقِمُونَ». وهو بعيدٌ أيضاً؛ لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبلها. ولا يحسن تعلُّقهُ بقوله: «عَائِدُونَ»، ولا بقوله: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ»؛ إذ ليس المعنى عليه. ويجوز نصبُه بإضمار فعل، كأنه قال: ذكِّرهم، أو: اذكر. ويجوز أن يكون المعنى: إنكم عائدون، فإذا عُدتُم أنتَقِمُ منكم يومَ نبطِش البطشة الكبرى. ولهذا وصل هذا بقصة فرعون، فإنهم وعدوا موسى الإيمانَ إن كشف عنهم العذاب، ثم لم يؤمنوا حتى غرِقوا. وقيل: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ» كلامٌ تامٌّ. ثم ابتدأ: «يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» أي: ننتقم من جميع الكفار. وقيل: المعنى وارتقب الدُّخان وارتقب يَوْمَ نَبْطِش، فحذف واو العطف، كما تقول: اتق النار اتق العذاب.

و﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ في قول ابن مسعود: يوم بدر. وهو قولُ ابنِ عباس وأُبَيِّ بن كعب ومجاهدٍ والضحاك[٢]. وقيل: عذابُ جهنمَ يوم القيامة. قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضاً[٣]، واختاره الزَّجَّاج. وقيل: دخانٌ يقع في الدنيا، أو جوعٌ أو قحطٌ

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ .

(٢) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٢٥ - ٢٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٨ ، وأخرج قولهم الطبري ٢١/ ٢٧ .

يقع قبل يوم القيامة. الماورديُّ[١]: ويحتمل أنها قيام الساعة؛ لأنها خاتمةُ بطشاته في الدنيا. ويقال: انتقم الله منه، أي: عاقبه. والاسم منه النَّقْمة، والجمعُ النَّقِمات[٢]. وقيل بالفرق بين النَّقْمة والعقوبة، فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة. والنَّقْمة قد تكون قبلها. قاله ابن عباس[٣]. وقيل: العقوبةُ ما تقدَّرت، والانتقامُ غير مقدَّر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

أي: ابتليناهم، ومعنى هذه الفتنةِ والابتلاءِ الأمرُ بالطاعة. والمعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم، فكذَّبوا فأُهلِكوا، فهكذا أَفعلُ بأعدائك يا محمدُ إن لم يؤمنوا. وقيل: فتنَّاهم: عذَّبناهم بالغرق. وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، والتقدير: ولقد جاء آلَ فرعون رسولٌ كريمٌ وفتنَّاهم، أي: أغرقناهم؛ لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسل. والواو لا تُرتِّب.

ومعنى ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريمٌ في قومه. وقيل: كريمُ الأخلاق بالتجاوز والصفح[٤]. وقال الفرَّاء[٥]: كريمٌ على ربِّه إذِ اختصه بالنبوَّة وإسماع الكلام.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: المعنى: جاءهم فقال: اتبعوني[٦]. فـ«عِبَادَ اللَّهِ» منادى. وقال مجاهد: المعنى: أَرسِلوا معي عبادَ الله

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٨ .

(٢) الصحاح (نقم) .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٨ والكلام وما سيرد منه: قاله ابن عيسى .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٩ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٠ .

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩ .

وأطلقوهم من العذاب[١]. فـ«عِبَادَ اللَّهِ» على هذا مفعول. وقيل: المعنى: أدُّوا إليَّ عبادَ الله ما وجبَ عليكم من حقوق الله. وقيل: أي[٢]: أدُّوا إليَّ سمعَكم حتى أُبلِّغكم رسالةَ ربي.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أمينٌ على الوحي فاقبلوا نُصحي. وقيل: أمينٌ على ما أستأديه منكم، فلا أخونُ فيه[٣].

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتكبروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته. وقال قتادة: لا تبغُوا على الله. ابن عباس: لا تفتروا على الله[٤]. والفرقُ بين البغي والافتراء: أن البغي بالفعل والافتراء بالقول. وقال ابن جُريح: لا تَعْظُمُوا على الله. يحيى بن سلام: لا تستكبروا على عبادة[٥] الله. والفرقُ بين التعظيم والاستكبار: أن التعظيم تطاولُ المقتدِر، والاستكبارَ تَرفُّعُ المحتقِر. ذكره الماوردي[٦].

﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال قتادة: بعذر بيِّن. وقال يحيى بن سلام: بحجة بيِّنة. والمعنى واحد، أي: برهان بيِّن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠﴾

كأنهم توعَّدوه بالقتل فاستجار بالله. قال قتادة: «تَرْجُمُونِ» بالحجارة[٧]. وقال ابن عباس: تشتمونِ، فتقولوا: ساحرٌ كذَّاب[٨]. وأظهر الذَّال من «عُذْتُ» نافعٌ وابنُ

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٥٨٨ بنحوه.

(٢) من قوله: أدُّوا إليَّ، إلى هذا الموضع من (ظ).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٩.

(٤) أخرج قول قتادة وابن عباس الطبري ٢١/ ٣١.

(٥) في (د) والنكت والعيون ٥/ ٢٤٩: عباد.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٩ وما سيرد منه.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢ بنحوه.

كثير وابن عامر وعاصمٌ ويعقوب، وأدغم الباقون[١]. والإدغامُ طلباً للتخفيف، والإظهار على الأصل. ثم قيل: إني عذت بالله فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]. وقيل: إني أعوذ، كما تقول: نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله، أي: أُقسِم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ أي: إن لم تصدِّقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني. فاللام في «لي» لامُ أَجْل[٢]. وقيل: أي: وإن لم تؤمنوا بي[٣]، كقوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] أي: به. ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: دعُوني كَفافاً لا ليَ ولا عَلَيَّ[٤]. قاله مقاتل. وقيل: أي: كونوا بمعزل مني[٥] وأنا بمعزِل منكم إلى أن يحكم الله بيننا. وقيل: فخلُّوا سبيلي وكُفُّوا عن أذاي[٦]. والمعنى متقارب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ فيه حذفٌ، أي: فكفروا فدعا ربه. ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ بفتح «أنَّ» أي: بأنَّ هؤلاء[٧]. ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون[٨]، قد امتنعوا من إطلاق بني إسرائيلَ ومن الإيمان.

---

(١) التيسير ص٤٢، والنشر ٢/ ١٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٧١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٢، والكشاف ٣/ ٥٠٣. وفي القاموس: دعني كَفافِ، كقطامِ: كُفَّ عني وأكُفُّ عنك. قال الزَّبيدي في شرحه: ويجيء معرباً، ومنه قول عمر ﷺ: وددتُ أني سلمت من الخلافة كفافاً، لا عليَّ ولا لي.

(٥) في (د) و(ظ): عني.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٠.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٦، والوسيط ٤/ ٨٨، والكشاف ٣/ ٥٠٣.

(٨) زاد المسير ٧/ ٣٤٣.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ أي: فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أنْ أسرِ بعبادي، أي: بمن آمن بالله من بني إسرائيل. ﴿لَيْلًا﴾ أي: قبل الصباح. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ وقرأ أهل الحجاز «فاسْرِ» بوصل الألف. وكذلك ابنُ كثير، مِن سَرَى. الباقون: «فَأَسْرِ» بالقطع، مِن أَسْرى[١]. وقد تقدَّم[٢]. وتقدَّم خروجُ فرعونَ وراء موسى في «البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس»[٣] وإغراقُه وإنجاءُ موسى، فلا معنى للإعادة.

الثانية: أُمِر موسى عليه السلام بالخروج ليلاً. وسَيْرُ الليل في الغالب إنما يكون عن خَوْف، والخوفُ يكون بوجهين: إمَّا من العدوِّ فيتخذ الليل سِتراً مُسْدِلاً، فهو من أستار الله تعالى. وإمَّا مِن خوْفِ المشقة على الدَّواب والأبدان بِحَرٍّ أو جَدْب، فيتخذ السُّرَى مصلحةً من ذلك. وكان النبيُّ ﷺ يَسْرِي ويُدْلج[٤] ويترفَّق ويستعجل، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة[٥]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «إذا سافرتم في الخِصْب، فأعطوا الإبل حَظَّها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنَة، فبادروا بها نِقْيَها»[٦]. وقد مضى في أول «النحل»، والحمد لله.

---

(١) التيسير ص ١٢٥ ، والنشر ٢/ ٢٩٠ .

(٢) ١١/ ١٨٢ .

(٣) ٢/ ٩٢ – ٩٣ ، و١١/ ٤٥ ، و١٤/ ١١١ ، ١٦/ ٣١ وما بعدها.

(٤) قوله: ويدلج من الدُّلْجة، وهو السير من أول الليل. القاموس (دلج).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٧٩.

(٦) أخرجه مسلم (١٩٢٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١٢/ ٢٧٧ . والمراد بالسَّنة القحط ، ونقيها – بكسر النون وإسكان القاف – وهو المخّ ، أي : إن سافرتم في القحط فعجّلوا السير لتصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها . شرح صحيح مسلم للنووي ١٣/ ٦٩ .

قوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾

قال ابن عباس: ﴿رَهْوًا﴾ أي: طريقاً. وقاله كعب والحسن. وعن ابن عباس أيضاً: سَمْتاً. الضحَّاك والربيع: سهلاً. عكرمة: يَبَسًا[١]، لقوله: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧] .وقيل: مفترِقاً. مجاهد: منفرِجًا[٢]. وعنه: يابسًا[٣]. وعنه: ساكنًا[٤]. وهو المعروف في اللغة. وقاله قتادة[٥] والهرويُّ. وقال غيرهما: منفرِجًا. وقال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظاهما، لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج. وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام. والرَّهْوُ عند العرب: الساكن، يقال: جاءت الخيل رَهْوًا، أي: ساكنة. قال:

والخيل تَمْزَعُ رَهْوًا في أعنَّتها ... كالطير تنجو من الشُّؤْبُوبِ ذي البرَدِ[٦]

الجوهري[٧]: ويقال: افعل ذلك رَهْوًا، أي: ساكناً على هِينَتِك. وعيشٌ راهٍ، أي: ساكنٌ رافِهٌ. وخِمْسٌ[٨] راهٍ: إذا كان سهلاً. ورها البحر، أي: سَكَن. وقال أبو عبيدة[٩]: رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْوًا، أي: فتح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ

---

(١) أخرج هذه الأقوال دون قول ابن عباس الأول وقول الحسن الطبريُّ ٢١/ ٣٥-٣٧ ، أما قول ابن عباس الأول فقد أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ٨٩ ، وقول الحسن أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص١٥١ .

(٢) أورد هذا القول أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢١٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٠ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٨٩ ، وعلقه عنه البخاري قبل الحديث (٤٨٢٠) .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٣ ، والوسيط ٤/ ٨٨ ، وعلقه البخاري قبل حديث (٤٨٢٠) .

(٥) أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص ١٥١ .

(٦) قائله النابغة الذبياني وهو في ديوانه ص ٣٤ ، وفيه : غَرْباً ، بدل : رهواً . والغَرْب الفرس الكثير الجري . وتمزع، أي: تسرع . والشؤبوب: الدُّفعة من المطر . القاموس (غرب) و(مزع) و(شأب) .

(٧) في الصحاح (رها) .

(٨) الخِمس: من أظمأ الإبل ، وهي أن ترعى ثلاثة أيام ، وترد اليوم الرابع ، وقد أخمس الرجل ، أي : وردت إبله خِمساً . الصحاح (خمس) .

(٩) في (م) : أبو عبيد .

رَهْوًا﴾. والرَّهْوُ: السيرُ السَّهْل، يقال: جاءت الخيل رَهْوًا. قال ابن الأعرابي: رَهَا يَرْهُو في السير، أي: رَفَقَ. قال القَطامي في نعت الرِّكَاب:

يَمْشِينَ رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذِلةٌ ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ[(١)]

والرَّهْوُ والرَّهْوَة: المكان المرتفع، والمنخفض أيضاً يجتمع فيه الماء، وهو من الأضداد. وقال أبو عبيد: الرَّهو: الجَوْبَةُ تكون في[(٢)] مَحَلَّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره[(٣)]. وفي الحديث أنه قضى أن «لا شُفعةَ في فِناء ولا طريقٍ ولا مَنْقَبةٍ ولارُكْحٍ ولا رَهْوٍ»[(٤)]. والجمع رِهَاء. والرَّهْوُ: المرأةُ الواسعة الهَنِ، حكاه النَّضْر بن شُمَيلٍ. والرَّهْو: ضربٌ من الطير، ويقال: هو الكُرْكِيُّ.

قال الهَرَويُّ: ويجوز أن يكون «رَهْوًا» من نعت موسى - وقاله القشيريّ - أي: سِرْ ساكنًا على هِينَتِك، فالرَّهوُ من نعت موسى وقومِه لا من نعت البحر. وعلى الأوّل هو من نعت البحر، أي: اتركه ساكنًا كما هو قد انفرق، فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه[(٥)].

قال قتادة: أراد موسى أن يضرب البحر لمَّا قطعه بعصاه حتى يلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون، فقيل له هذا[(٦)].

وقيل: ليس الرَّهْو من السكون، بل هو الفُرجة بين الشيئين، يقال: رَهَا ما بين الرِّجلين، أي: فرج. فقوله: «رَهْوًا» أي: منفرِجًا. وقال الليث: الرَّهْو مَشْيٌ في

---

(١) ديوان القطامي ص ٢٦ .

(٢) بعدها في (د) و(ظ) : فناء. اهـ. والجَوْبة: الحفرة المستديرة الواسعة. المعجم الوسيط.

(٣) غريب الحديث ٣/ ١٢٢ .

(٤) أورده أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ١٢١ ، وابن الأثير في النهاية ٢/ ٢٨٥ . قال أبو عبيد : المَنْقَبة هي الطريق الضيق يكون بين الدارين لا يمكن أن يسلكه أحد . والرُّكح : ناحية البيت من ورائه ، وربما كان فضاء لا بناء فيه .

(٥) بنحوه في تهذيب اللغة ٦/ ٤٠٤ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٨ ، والطبري ٢١/ ٣٥ .

سكون[١]، يقال: رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ. وعيشٌ راهٍ: وادعٌ خافض. وافعل ذلك سَهْوًا رَهْوًا، أي: ساكنًا بغير شدَّة. وقد ذكرناه آنفاً.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إن فرعون وقومه ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه.

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ للتكثير. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «الشعراء» مستوفًى[٢]. ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ النَّعْمة ـ بالفتح ـ : التنعيم، يقال: نعَّمه الله وناعَمَه فتَنعَّم، وامرأةٌ مُنعَّمةٌ ومُناعَمَةٌ، بمعنًى. والنِّعمة ـ بالكسر ـ : اليد والصنيعة والمِنَّة وما أُنعِم به عليك. وكذلك النُّعْمى. فإن فتحتَ النون مددتَ وقلتَ: النَّعماء. والنعيم مثله. وفلانٌ واسعُ النعمة، أي: واسعُ المال، جميعه عن الجوهريّ[٣]. وقال ابن عمر: المراد بالنَّعمة نيلُ مصر. ابن لهيعة: الفَيُّوم[٤]. ابن زياد: أرضُ مصرَ لكثرة خيرها. وقيل: ما كانوا فيه من السَّعة والدَّعة. وقد يقال: نَعْمَة ونِعْمَة؛ بفتح النون وكسرها، حكاه الماورديّ[٥]. قال: وفي الفرق بينهما وجهان:

أحدهما: أنها بكسر النون في المِلْك، وبفتحها في البَدَن والدِّين. قاله النَّضْر بن شُمَيل.

الثاني: أنها بالكسر من المِنَّة؛ وهو الإفضال والعطيَّة، وبالفتح من التنعيم؛ وهو

---

(١) ذكر قول الليث الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٤٠٣.

(٢) ١٣/ ١٠٢ وما بعدها.

(٣) في الصحاح (نعم).

(٤) الفيوم: موضع بمصر، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام، بينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى. معجم البلدان ٤/ ٢٨٦.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٥١ – ٢٥٢.

سَعةُ العيش والراحة. قاله ابن زياد.

قلت: هذا الفرق هو الذي وقع في الصحاح وقد ذكرناه.

وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة: «فَكِهِينَ» بغير ألف[١]، ومعناه: أشِرين بَطِرين[٢]. قال الجوهري: فَكِهَ الرجل ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحاً. والفَكِه أيضاً الأشِر البَطِر. وقرئ: «وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ»، أي: أشِرين بَطِرين. و«فَاكِهِينَ» أي: ناعمين[٣]. القشيري: «فَاكِهِينَ»: لاهين مازحين، يقال: إنه لفاكه، أي مَزَّاح. وفيه فكاهة، أي: مَزِح. الثعلبيّ: وهما لغتان كالحاذر والحَذِر، والفارِه والفَرِه. وقيل: إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة؛ كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة[٤]. والفاكهة: فضلٌ عن القوت الذي لا بدّ منه.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

قال الزَّجَّاج: أي الأمر كذلك؛ فيوقف على «كَذَلِكَ»[٥]. وقيل: إن الكاف في موضع نصب، على تقدير: نفعل فعلاً كذلك بمن نريد إهلاكه[٦]. وقال الكلبي: «كَذَلِكَ» أفعل بمن عصاني[٧]. وقيل: «كَذَلِكَ» كان أمرهم فأُهلكوا. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني بني إسرائيل، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبَدين، فصاروا لها وارثين؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث[٨]. ونظيره:

(١) قراءة أبي رجاء والحسن في تفسير الطبري ٢١/ ٣٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٣، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٥٤، وهو من العشرة.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٣٩.

(٣) الصحاح للجوهري (فكه).

(٤) أورد هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٢، ونسبه لابن عيسى.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٦.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٦.

(٧) الوسيط ٤/ ٨٩، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٢.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: لكفرهم. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي: مؤخَّرين بالغرق[(١)]. وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي: عمَّت مصيبته الأشياءَ حتى بكته السماءُ والأرضُ والريح والبرق، وبكته الليالي الشاتيات. قال الشاعر:

الريحُ تبكي شَجْوَهُ ... والبرقُ يلمع في غمامه[(٢)]

وقال آخر:

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة ... تبكي عليك نجومَ اللَّيل والقمرا[(٣)]

وقالت الخارجية:

أيا شجرَ الخابور مَالَكَ مُورِقًا ... كأنك لم تجزع على ابن طَرِيفِ[(٤)]

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجَزَع والبكاءِ عليه[(٥)].

والمعنى: أنهم هلكوا فلم تعظُم مصيبتهم، ولم يوجد لهم فَقْد.

وقيل: في الكلام إضمار، أي: ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من

---

(١) ذكر هذا الكلام الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٣ ونسبه للكلبي.

(٢) البيت ليزيد بن المفرِّغ الحميري، وهو في ديوانه ص ١٤٣ براوية: فالريح تبكي شجوها... والبرق يضحك في الغمامة.

(٣) قائله جرير، وهو في ديوانه ٢/ ٧٣٦ وجاء الشطر الأول فيه: فالشمس كاسفة ليست بطالعة. وهو برواية المصنف في الكامل ٢/ ٨٣٣، والعقد الفريد ١/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٤ وغيرهم وقوله: «نجومَ» بالفتح، نصبت بـ «كاسفة» يعني أنها تكسف النجومَ والقمر بإفراط ضيائها. ينظر الكامل للمبرد.

(٤) أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٢٦٩، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٤.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٤.

الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] بل سُرُّوا بهلاكهم. قاله الحسن(١).

وروى يزيد الرَّقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان: بابٌ ينزل منه رزقه، وباب يدخل منه كلامه وعمله. فإذا مات، فقداه فبكيا عليه، ثم تلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾»(٢).

يعني أنهم لم يعملوا على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم لأجله، ولا صعِد لهم إلى السماء عملٌ صالح فتبكي فَقْدَ ذلك.

وقال مجاهد: إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحاً(٣). قال أبو يحيى: فعجبت من قوله، فقال: أتعجب! وما للأرض لا تبكي على عبد [كان] يَعْمُرها بالركوع والسجود! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كدوِيِّ النحل!(٤).

وقال عليٌّ وابن عباس رضي الله عنهما: إنه يبكي عليه مُصَلَّاه من الأرض، ومصعدُ عمله من السماء. وتقدير الآية على هذا: فما بكت عليهم مصاعدُ عملهم من السماء، ولا مواضعُ عبادتهم من الأرض. وهو معنى قول سعيد بن جُبير(٥).

وفي بكاء السماء والأرض ثلاثةُ أوجه: أحدُها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان. ويشبه أن يكون قولَ مجاهد(٦). وقال شُريحٌ الحضرمي: قال النبيُّ ﷺ: «إن الإسلام

---

(١) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ - ٢٥٣، وأخرجه الترمذي (٣٢٥٥) وقال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان يضعفان في الحديث.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٠، والطبري ٢١/ ٤٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (١١٨٩) وأبو يحيى: هو القتَّات، وهو لين الحديث كما في التقريب.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ وأخرج قول علي ابن المبارك في الزهد (٣٣٦)، وقول ابن عباس الطبري ٢١/ ٤٢، والبيهقي في الشعب (٣٢٨٨) بنحوه مطولاً، وقول سعيد بن جبير الطبري ٢١/ ٤٣.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣.

بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء يوم القيامة. قيل: مَن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا». ثم قال: «ألا لا غُرْبَةَ على مؤمن، وما مات مؤمن في غُربة غائبًا عنه بواكيه إلَّا بكت عليه السماء والأرض». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ثم قال: «ألا إنهما لا يبكيان على الكافر»[(١)].

قلت: وذكر أبو نعيم [حدثنا] محمد بن مَعْمر قال: حدثنا أبو شعيب الحرَّاني قال: حدثنا يحيى بن عبد الله قال: حدثنا الأوزاعيُّ قال: حدثني عطاءٌ الخراساني قال: ما من عبد يسجد لله سجدة في بُقعة من بقاع الأرض إلَّا شهدت له يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت[(٢)].

وقيل: بكاؤهما: حمرةُ أطرافهما. قاله عليُّ بن أبي طالب ﷺ وعطاءٌ[(٣)] والسدِّيُّ والترمذيُّ محمد بنُ عليٍّ وحكاه عن الحسن. قال السدِّي: لمَّا قُتِل الحسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما، بكت عليه السماء، وبكاؤها حمرتُها[(٤)]. وحكى جرير عن يزيد بن أبي زياد قال: لمَّا قُتِل الحسينُ بن علي بنِ أبي طالب رضي الله عنهما ، احمرَّ له آفاقُ السماء أربعةَ أشهر. قال يزيد: واحمرارُها بكاؤها[(٥)]. وقال محمد بن سيرين: أخبرونا أن الحمرة التي تكون مع الشَّفَق لم تكن حتى قُتِل الحسينُ بن عليٍّ رضي الله عنهما[(٦)]. وقال سليمان القاضي: مُطِرْنا دماً يوم قُتِل الحسين.

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٣ مختصراً ، وهو مرسل، والصحيح منه قوله: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء»، وسلف ٥/ ٢٦٣ .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/ ١٩٧ وما بين حاصرتين منه ، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٣٤٠) عن الأوزاعي عن عطاء .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣ ، وقول عطاء أخرجه الطبري ٢١/ ٤١ .

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤١ ، والسُّدي ـ وهو محمد بن مروان ـ متَّهم بالكذب كما في التقريب.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣، ويزيد بن أبي زياد ضعفه ابن حجر في التقريب، وقال: كَبِر فتغير وصار يتلقَّن وكان شيعياً.

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٤/ ٢٢٨ .

قلت: روى الدَّارَقُطْنيُّ من حديث مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «الشفق الحمرة»[١].

وعن عُبادةَ بنِ الصامت وشدَّاد بن أوس قالا: الشفق شفقان: الحمرة والبياض، فإذا غابت الحمرة حَلَّت الصلاة. وعن أبي هريرة قال: الشفق الحمرة[٢]. وهذا يردُّ ما حكاه ابن سيرين.

وقد تقدَّم في «سبحان»[٣] عن قرَّةَ بن خالد قال: ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بنِ زكريا والحسينِ بن عليٍّ، وحمرتُها بكاؤها.

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيّ: البكاءُ إدرار الشيء، فإذا أدرَّتِ العين بمائها، قيل: بكت، وإذا أدرَّت السماء بحمرتها، قيل: بكت، وإذا أدرَّت الأرض بغبرتها، قيل: بكت؛ لأن المؤمن نورٌ ومعه نورُ الله، فالأرض مضيئةٌ بنوره وإن غاب عن عينيك، فإن فقدتْ نورَ المؤمن اغبرَّت فدرَّت باغبرارها؛ لأنها كانت غبراءَ بخطايا أهل الشرك، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن؛ فإذا قُبِض المؤمنُ منها دَرَّت بغبرتها.

وقال أنس: لمَّا كان اليوم الذي دخل فيه النبيُّ ﷺ المدينة، أضاء كلُّ شيء، فلمَّا كان اليوم الذي قُبِض فيه، أظلم كلُّ شيء، وإنا لفي دفنه ما نفضنا الأيديَ منه حتى أنكرنا قلوبنا.[٤]

وأمَّا بكاءُ السماء فحمرتُها كما قال الحسن. وقال نصر بن عاصم: إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر، وإنما ذلك لدنوِّ الساعة، فتدُرُّ بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين.

---

(١) سنن الدارقطني (١٠٥٦). قال البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٣٧٣: الصحيح موقوف.

(٢) سنن الدارقطني (١٠٥٤) (١٠٥٥). قال البيهقي في معرفة السنن والآثار ٢/ ٢٠٥: لا يصح فيه شيء وعن النبي ﷺ...

(٣) ١٣/ ٢٧.

(٤) سلف ٥/ ٣٤٦.

وقيل: بكاؤها: أمارةٌ تظهر منها تدلُّ على أسف وحزن[١].

قلت: والقولُ الأوَّل أظهر؛ إذ لا استحالة في ذلك. وإذا كانت السماوات والأرض تُسبِّحُ وتسمع وتتكلم كما بيَّنَّاه في «سبحان ومريم وحم فصلت»[٢]، فكذلك تبكي، مع ما جاء من الخبر في ذلك، والله أعلم بصواب هذه الأقوال.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾

يعني ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون، من قتل الأبناء واستخدام النساء، واستعبادهم إياهم، وتُكلِّفُهم الأعمالَ الشاقَّة. ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ من «الْعَذَابِ الْمُهِينِ»[٣]، فلا تتعلق «مِنْ» بقوله: «مِنَ الْعَذَاب» لأنه قد وصِف، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل. وقيل: أي: أنجيناهم من العذاب ومن فرعون. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: جبَّارًا من المشركين. وليس هذا عُلوَّ مَدْح، بل هو عُلُوٌّ في الإسراف، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وقيل: هذا العلوُّ هو الترفُّعُ عن عبادة الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علم مِنَّا بهم لكثرة الأنبياء منهم. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالَمي زمانهم، بدليل قوله لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهذا قولُ قتادةَ وغيره[٤]. وقيل: على كلِّ العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء. وهذا خاصَّةٌ لهم وليس لغيرهم. حكاه

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣.

(٢) ١٣/ ٨٩ وما بعدها، و١٣/ ٥٢١ - ٥٢٢، وعند تفسير الآية (١١) من سورة فصلت.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٤.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٦ بنحوه.

ابن عيسى[١] والزَّمْخَشريُّ[٢] وغيرهما. ويكون قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد بني إسرائيل. والله أعلم. وقيل: يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق، وإيراثهم الأرضَ بعد فرعون.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: من معجزات موسى[٣] ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ قال قتادة: الآياتُ: إنجاؤهم من فرعون، وفَلْقُ البحر لهم، وتظليلُ الغمام عليهم، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوَى[٤]. ويكون هذا الخطابُ متوجِّهًا إلى بني إسرائيل. وقيل: إنها العصا واليد. ويشبه أن يكون قولَ الفرَّاء[٥]. ويكون الخطابُ متوجِّهًا إلى قوم فرعون. وقول ثالث: إنه الشرُّ الذي كَفَّهم عنه والخيرُ الذي أمرهم به. قاله عبدالرحمن بن زيد. ويكون الخطاب متوجِّهًا إلى الفريقين معًا من قوم فرعونَ وبني إسرائيل[٦].

وفي قوله: «بَلَاءٌ مُبِينٌ» أربعة أوجه:

أحدها: نعمة ظاهرة. قاله الحسن وقتادة. كما قال الله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧]. وقال زهير:

فأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو[٧]

الثاني: عذاب شديد. قاله الفرَّاء[٨].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤.
(٢) في الكشاف ٣/ ٥٠٤.
(٣) في (م): من المعجزات لموسى.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٧.
(٥) قول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٤٢ بنحو قول قتادة السالف ولم يقل: إنها العصا واليد.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤.
(٧) عجز بيت له وصدره: رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم، وهو في ديوانه ص١٠٩. وسلف ١٨/ ٧٢.
(٨) في معاني القرآن ٣/ ٤٢.

الثالث: اختبار يتميَّز به المؤمن من الكافر. قاله عبد الرحمن بنُ زيد[١]. وعنه أيضاً: ابتلاؤهم بالرَّخاء والشدة[٢]، ثم قرأ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ يعني كفارَ قريش[٣] ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ابتداء وخبر، مثل: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين. ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنشرَ الله الموتى فنُشِروا. وقد تقدَّم[٤]. والمنشورون: المبعوثون. قيل: إنَّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنتَ صادقاً في قولك، فابعث لنا رجلين من آبائنا: أحدُهما: قصيُّ بنُ كِلاب، فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسألَه عمَّا يكون بعد الموت. وهذا القولُ من أبي جهل مِن أضعفِ الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف، فكأنه قال: إن كنتَ صادقاً في إعادتهم للجزاء، فأعِدْهم للتكليف. وهو كقول قائل لو قال: إن كان ينشأ بعدنا قومٌ من الأبناء، فلم لا يرجع من مضى من الآباء. حكاه الماوردي[٥].

ثم قيل: «فَأْتُوا بِآبَائِنَا» مخاطبةٌ للنبيِّ ﷺ وحده، كقوله: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] قاله الفرَّاء[٦]. وقيل: مخاطبةٌ له ولأتباعه.

---

(١) أورد هذه الأوجه الثلاثة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٤ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٥ .

(٤) ٤/ ٣٠٦ .

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٥٥ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٢ .

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هذا استفهامُ إنكار، أي: إنهم مستحقُّون في هذا القول العذابَ؛ إذ ليسوا خيراً من قوم تُبَّع والأمم المهلَكة، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء. وقيل: المعنى: أهم أظهرُ نعمةً وأكثرُ أموالاً أم قومُ تُبَّع؟ وقيل: أهم أعزُّ وأشدُّ وأمنع أم قومُ تُبَّع؟[١].

وليس المراد بتُبَّع رجلاً واحداً، بل المرادُ به ملوكُ اليمن، فكانوا يسمُّون ملوكهم التبابعة. فتُبَّع لقبٌ للملك منهم، كالخليفة للمسلمين، وكسرى للفُرْس، وقَيْصر للروم. وقال أبو عبيدة[٢]: سُمِّيَ كلُّ واحد منهم تُبَّعًا لأنه يَتْبَع صاحبه. قال الجوهري[٣]: والتبابعةُ ملوك اليمن، واحدهم تُبَّع، والتُّبَّع أيضاً الظِّلُّ، وقال:

يَـردُ الـمـيـاهَ حـضِـيـرةً ونَـفِـيـضـةً ... وِرْدَ الـقـطَـاةِ إذا اسْـمَـألَّ الـتُّـبَّـعُ[٤]

والتُّبَّعُ أيضاً ضربٌ من الطير.

وقال السهيلي[٥]: تُبَّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر[٦] وحضرموت. وإنْ مَلكَ اليمن وحدها لم يُقَل له تُبَّع. قاله المسعودي. فمن التبابعة: الحارث الرائش،

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٥.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٩.

(٣) في الصحاح (تبع).

(٤) أورده الأصمعي في الأصمعيات ص ١٠٣، وابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٣٩٢، وابن دريد في الاشتقاق ١/ ٢٠٧ ونسبوه لسعدى بنت الشمردل الجهنية، والحضيرة: النفر يُغزى بهم، ومقدمة الجيش. القاموس (حضر). والنفيضة: القوم الذين يَنفُضون، يتقدمون الجيش. واسمأل: ضَمَر. ينظر الاشتقاق.

(٥) في التعريف والإعلام ص ١٥٣ - ١٥٥.

(٦) الشِّحْر: هو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. معجم البلدان ٣/ ٣٢٧.

وهو ابن همال ذي شدد[١]. وأبرهةُ ذو المنار. وعمرو ذو الأذعار. وشمر بن مالك، الذي تنسب إليه سَمَرْقَنْد. وأفريقيس[٢] بن قيس، الذي ساق البربر إلى أفريقيَّة مِن أرض كنعان، وبه سُمِّيت إفريقية.

والظاهر من الآيات: أن الله سبحانه إنما أراد واحداً من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدَّ من معرفة غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ولا أدري أتُبَّعٌ لَعِينٌ أم لا»[٣]. ثم قد رُويَ عنه أنه قال: «لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فإنه كان مؤمناً»[٤]. فهذا يدلُّك على أنه كان واحداً بعينه، وهو ـ والله أعلم ـ أبو كَرِب الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لمَّا أُخبِر أنها مُهَاجَر نبيٍّ اسمه أحمد. وقال شعراً أودعه عند أهلها، فكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر إلى أن هاجر النبيُّ ﷺ، فأدَّوْهُ إليه. ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالدِ ابن زيد. وفيه:

شهدتُ على أحمدِ أنهُ رسولٌ من الله باري النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمْري إلى عُمْرِهِ لكنتُ وزيراً له وابنَ عَمْ[٥]

---

(١) في (م): ذي سدد، وفي الروض الأنف ١/ ٣٤: وهو ابن همال بن ذي شدد.

(٢) في التعريف والإعلام: وإفريقش.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٧٤) من طريق ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ١٥٣ عن الزهري مرسلاً، وقال: وهو أصح.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٨٨٠)، والطبراني في الكبير (٦٠١٣)، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٦٦٠) من طريق ابن لهيعة، عن عمرو بن جابر، عن سهل بن سعد ﷺ. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٨: فيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر وهما ضعيفان.

وأخرجه الطبراني في الكبير (١١٧٩٠)، وفي الأوسط (١٤٤١)، والخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٢٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف، فيه مؤمَّل بن إسماعيل وهو صدوق سيِّئ الحفظ، وفيه سماك بن حرب عن عكرمة، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بأَخَرة، فكان ربما تَلَقَّن. قاله ابن حجر في التقريب.

(٥) أورد هذين البيتين غير السهيلي ابنُ رشيق في العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢/ ٢٢٦.

وذكر الزجَّاج[١] وابن أبي الدنيا والزمخشري[٢] وغيرُهم أنه حُفِر قبر له بصنعاء ـ ويقال: بناحية حمير ـ في الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان، وعند رؤوسهما لوحٌ من فضةٍ مكتوبٌ فيه بالذهب: هذا قبر حُبَّى ولَميس. ويُروى أيضًا: حُبَّى وتماضر. ويُروى أيضًا: هذا قبر رضوى وقبرُ حُبَّى ابنتا تُبَّع، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئًا، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

قلت: وروى ابن إسحاق وغيرُه أنه كان في الكتاب الذي كتبه: «أما بعد، فإني آمنت بك وبكتابك الذي أُنزِل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنتُ بربِّك وربِّ كلِّ شيء، وآمنت بكلِّ ما جاء من ربِّك من شرائع الإسلام، فإن أدركتُك فبِها ونِعمت، وإن لم أُدْرِكْك فاشفع لي ولا تَنسني يوم القيامة، فإني من أمتك الأوّلين وبايعتُك قبل مجيئك، وأنا على ملَّتك وملَّةِ أبيك إبراهيم عليه السلام». ثم ختم الكتاب ونقش عليه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. وكتب على عنوانه: «إلى محمد بن عبد الله نبيِّ الله ورسوله، خاتمِ النبيِّين ورسولِ ربِّ العالمين ﷺ. من تُبَّع الأوّل». وقد ذكرنا بقيَّة خبره وأوَّله في «اللُّمع اللؤلؤية في[٣] شرح العشر بينات النبوية» للفارابي رحمه الله. وكان من اليوم الذي مات فيه تُبَّع إلى اليوم الذي بُعِث فيه النبيُّ ﷺ ألفُ سنة لا يزيد ولا ينقص.

واختلف هل كان نبيًّا أو مَلِكًا؟ فقال ابن عباس: كان تُبَّع نبيًّا[٤]. وقال كعب: كان تُبَّع ملِكًا من الملوك، وكان قومه كُهَّانًا، وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأَمَر الفريقين أن يقرِّب كلُّ فريق منهم قُرْبَاناً ففعلوا، فَتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم[٥].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٤٢٧ .

(٢) في الكشاف ٣/ ٥٠٥ .

(٣) لفظة : في ، ليست في (م) .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٧٥ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٩ .

وقالت عائشة رضي الله عنها: لا تسبُّوا تُبَّعاً فإنه كان رجلاً صالحاً[١]. وحكى قتادة أن تُبَّعًا كان رجلاً من حِمير، سار بالجيوش[٢] حتى عبر الحِيرة وأتى سَمَرْقَنْدَ فهدَمها. حكاه الماوردي[٣]. وحكى الثعلبيُّ عن قتادةَ أنه تُبَّعٌ الحِميري، وكان سار بالجيوش[٤] حتى عبر الحِيرة. وبنى سَمَرْقَنْدَ[٥] وقتل وهدم البلاد.

وقال الكلبي: تُبَّع هو أبو كَرِب أسعدُ بن مَلْكيكرِب[٦]، وإنما سُمِّيَ تُبَّعًا لأنه تَبع مَن قبله. وقال سعيد بن جُبَير: هو الذي كسا البيت الحِبَرات[٧]. وقال كعب: ذمَّ الله قومه ولم يذمَّه، وضرب بهم لقريش مثلاً لقربهم من دارهم وعِظمهم في نفوسهم، فلمَّا أهلكهم الله تعالى ومَن قبلهم ـ لأنهم كانوا مجرمين ـ كان مَن أجرمَ مع ضعف اليد وقلَّةِ العدد أحرى بالهلاك[٨]. وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تُبَّع خيراً من قريش.

وقيل: سُمِّيَ أوّلُهم تُبَّعاً لأنه اتبع قرن الشمس، وسافر في الشرق[٩] مع العساكر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾ «الَّذين» في موضع رفع عطفٌ على «قَوْمُ تُبَّعٍ»[١٠]. «أَهْلَكْنَاهُمْ» صلته. ويكون «مِنْ قَبْلِهِمْ» متعلِّقاً به.

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠ ، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٦٦٣) .

(٢) في (د) و(م) : بالجنود .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٥٥ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٩ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٠ .

(٤) في (د) و(م) : بالجنود .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٢ .

(٦) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤٩ ، ووقع في النسخ الخطية : ملكيكوب ، وجاء في السيرة النبوية ١/ ٣٤ : كُلِي كَرِب . وفي البداية والنهاية ٣/ ١٢٢ : كُلْكيكرِب .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٥٣ ، والحِبَرات جمع حِبَرة، وهي ضرب من برود اليمن . القاموس (حبر) .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٥٦ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٨ ، والطبري ٢١/ ٥٠ منه قوله: ذم الله قومه ولم يذمَّه.

(٩) في (د) و(ظ) : المشرق .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣ .

ويجوز أن يكون «مِنْ قَبْلِهِمْ» صلةَ «الَّذين»، ويكونَ في الظرف عائدٌ إلى الموصول. وإذا كان كذلك؛ كان «أَهْلَكْنَاهُمْ» على أحد أمرين: إمَّا أن يقدَّر معه «قد»، فيكون في موضع الحال. أو يقدَّر حذف موصوف، كأنه قال: قومٌ أهلكناهم. والتقدير: أفلا تعتبرون أنَّا إذا قَدَرْنا على إهلاك هؤلاء المذكورين؛ قَدَرنا على إهلاك المشركين.

ويجوز أن يكون «وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» ابتداء، خبرُه: «أَهْلَكْنَاهُمْ».

ويجوز أن يكون «الَّذين» في موضع جَرٍّ عطفاً على «تُبَّعٍ» كأنه قال: قومُ تُبَّع المهلَكين من قبلهم.

ويجوز أن يكون «الَّذين» في موضع نصب بإضمار فعل دلَّ عليه «أَهْلَكْنَاهُمْ»[١]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: غافلين؛ قاله مقاتل. وقيل: لاهين؛ وهو قول الكلبي[٢]. ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بالأمر الحقّ؛ قاله مقاتل. وقيل: إلا للحقّ؛ قاله الكلبي[٣] والحسن. وقيل: إلا لإقامة الحقّ وإظهارِه من توحيد الله والتزام طاعته[٤]. وقد مضى هذا المعنى في «الأنبياء»[٥]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني أكثرَ الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾

﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ هو يومُ القيامة، وسُمِّيَ بذلك لأن الله تعالى يَفْصِل فيه بين خلقه. دليلُه قولُه تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٦.

(٤) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/ ٢٨٤.

(٥) ١٤/ ١٨٤.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]. فـ «يَوْم الفَصْل» ميقاتُ الكلِّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ [النبأ: ١٧] أي: الوقتُ المجعول لتمييز المُسيء من المحسن والفصلِ بينهما؛ فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا غايةٌ في التحذير والوعيد.

ولا خلاف بين القرَّاء في رفع «مِيقَاتُهُمْ» على أنه خبر «إنَّ»، واسمُها «يَوْمَ الفَصْلِ». وأجاز الكسائي والفرَّاء[١] نصبَ «مِيقَاتهم». بـ «إنَّ»، و«يوم الفصل» ظرفٌ في موضع خبر «إن»، أي: إن ميقاتَهم يومَ الفصل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ «يَوْمَ» بدلٌ من «يوم» الأوّل[٢]. والمَوْلَى: الوَليُّ، وهو ابن العمِّ والناصر، أي: لا يدفع ابن عمٍّ عن ابن عمِّه، ولا قريبٌ عن قريبه، ولا صديقٌ عن صديقه. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر المؤمنُ الكافرَ لقرابته. ونظيرُ هذه الآية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] الآية.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ «مَنْ» رفع على البدل من المضمر في «يُنْصَرُونَ»[٣]، كأنك قلت: لا يقوم أحدٌ إلا فلان. أو على الابتداء، والخبرُ مضمر، كأنه قال: إلا مَن رحم الله فمغفورٌ له[٤]، أو: فيُغني عنه ويُشفَّع ويُنصَر. أو على البدل من «مَوْلًى» الأول، كأنه قال: لا يغني إلا مَن رحم الله[٥]. وهو عند الكسائي والفرَّاء[٦] نصب

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٢، ونقله المصنف بواسطة مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.

(٤) في (ظ): فإنه مغفور له.

(٥) ذكر هذا الوجه مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٢.

على الاستثناء المنقطع[(١)]، أي: لكنْ مَن رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى مَن يغنيهم من المخلوقين. ويجوز أن يكون استثناءً متصلاً، أي: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنه يُؤذَن لهم في شفاعة بعضهم لبعض.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المنتقمُ من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه، كما قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، فقرن الوعد بالوعيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ كلُّ ما في كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء، إلا حرفاً واحداً في سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ. طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾. قاله ابن الأنباري[(٢)].

و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: الفاجر؛ قاله أبو الدرداء[(٣)]. وكذلك قرأ هو وابن مسعود. وقال همَّام بن الحارث: كان أبو الدرداء يُقرِئ رجلاً: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ» والرجلُ يقول: طعام اليتيم، فلمَّا لم يفهم قال له: «طعام الفاجر»[(٤)]. قال أبو بكر الأنباريُّ: حدَّثني أبي قال: حدَّثنا نصر قال: حدَّثنا أبو عبيد قال: حدَّثنا نُعيم بن حماد، عن عبد العزيز بن محمد، عن ابن عجلان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: عَلَّم عبد الله بن مسعود رجلاً: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ» فقال الرجل: طعام اليتيم، فأعاد عليه عبد الله الصواب، وأعاد الرجل الخطأ، فلمَّا رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له: أَمَا تُحسِنُ أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: بلى، قال: فافعل[(٥)]. ولا حجةَ في هذا للجُهَّال من أهل الزَّيْغ أنه يجوز

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٢، والكشاف ٣/ ٥٠٦.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٥٩٨٦)، والطبري ٢١/ ٥٤ بنحوه.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٨٣ بنحوه.

إبدال الحرف من القرآن بغيره، لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريباً للمتعلِّم، وتوطئةً منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمالِ الحقِّ والتكلُّم بالحرف على إنزال الله وحكايةِ رسول الله ﷺ.

وقال الزَّمَخْشريّ[1]: وبهذا يُستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائزٌ إذا كانت مؤدِّيةً معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة، وهي أن يؤدِّيَ القارئ المعانيَ على كمالها من غير أن يَخْرِم منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كَلَا إجازة؛ لأن في كلام العرب ـ خصوصاً في القرآن الذي هو معجزٌ بفصاحته وغرابةِ نظمه وأساليبه ـ من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقلُّ بأدائه لسانٌ من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يُحسِن الفارسية، فلم يكن ذلك منه عن تحقُّق وتبصُّر. وروى عليُّ بن الجعد، عن أبي يوسف، عن أبي حنيفة مثلَ قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية.

وشجرة الزَّقُّوم: الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسمَّاها الشجرةَ الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحارّ. وشُبِّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل، وهو النُّحاس المذاب.

وقراءة العامة: «تَغْلي» بالتاء حملاً على الشجرة. وقرأ ابن كَثير وحفص وابن مُحَيْصِن ورُوَيْس عن يعقوب: «يغلي» بالياء حملاً على الطعام[2]، وهو في معنى الشجرة. ولا يُحمل على المُهْل لأنه ذُكِر للتشبيه[3]. و«الأثيم»: الآثم، مِن أثِم يأثَم إثْمًا؛ قاله القشيريُّ وابن عيسى[4]. وقيل: هو المشرك المكتسبُ للإثم؛ قاله يحيى بن سلام[5]. وفي الصحاح: وقد أثِم الرجل ـ بالكسر ـ إثماً ومأثماً: إذا وقع في الإثم،

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٠٦.

(٢) السبعة ص ٥٩٢، والتيسير ص ١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٣) ينظر الحجة ٦/ ١٦٦، وزاد المسير ٧/ ٣٤٩.

(٤) نقله عن ابن عيسى الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.

فهو آثم وأثيمٌ وأثوم أيضاً[١]. فمعنى «طَعَامُ الْأَثِيمِ» أي: ذي الإثم الفاجر، وهو أبو جهل[٢]. وذلك أنه قال: يَعِدُنا محمدٌ أن في جهنم الزَّقوم، وإنما هو الثريد بالزُّبد والتمر، فبيَّن الله خلاف ما قاله. وحكى النقَّاش عن مجاهد أن شجرة الزَّقُّوم أبو جهل[٣].

قلت: وهذا لا يصحُّ عن مجاهد. وهو مردودٌ بما ذكرناه في هذه الشجرة في سورة «والصافَّات وسبحان»[٤] أيضاً.

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: يقال للزَّبانية: خذوه، يعني الأثيم[٥]. ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: جُرُّوه وسُوقُوه. والعَتْل: أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِلَه، أي: تجرّه إليك لِتَذهب به إلى حبس أو بليَّة[٦]. عَتَلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلًا: إذا جذبتَه[٧] جَذْباً عنيفاً. ورجل مِعْتَل ـ بالكسر ـ. وقال يصف فرساً:

نَفْرَعُه فَرْعًا ولسنا نَعْتِلُه[٨]

وفيه لغتان، عَتَلَهُ وعَتَنَه، باللام والنون جميعاً. قاله ابن السِّكِّيت[٩]. وقرأ

---

(١) الصحاح (أثم).

(٢) الوسيط ٤/ ٩١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧ .

(٤) ١٣/ ١١١ - ١١٢ ، و١٨/ ٤١ .

(٥) الوسيط ٤/ ٩٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٥ .

(٦) تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٠ .

(٧) بعدها في (د) و(ظ) : إليك .

(٨) أورده ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٧٧ ونسبة لأبي النجم ، وأبو علي القالي في أماليه ١/ ٥٧ دون نسبة .

(٩) الصحاح (عتل).

الكوفيون وأبو عمرو: «فَاعْتِلُوه» بالكسر. وضم الباقون[١]. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: وسط الجحيم[٢]. ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾. قال مقاتل: يضرب مالك خازنُ النار ضربة على رأس أبي جهل بِمِقْمَع من حديد، فيتفتَّتُ رأسه عن دماغه، فيجري دماغه على جسده، ثم يصبُّ المَلكُ فيه ماء حميماً قد انتهى حرُّه، فيقعُ في بطنه، فيقول المَلَك: ذُقِ العذاب[٣]. ونظيره: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ قال ابن الأنباريّ[٤]: اجتمعت[٥] العوامُّ على كسر «إنّ». وروي عن الحسن بن[٦] عليٍّ رحمه الله: «ذُق أَنَّكَ» بفتح «أنَّ»، وبها قرأ الكسائيُّ[٧]. فمن كسر «إنَّ» وقف على «ذُقْ». ومَن فتحها لم يقف على «ذُقْ»؛ لأن المعنى: ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم.

قال قتادة: نزلت في أبي جهل وكان قد قال: ما فيها أعزُّ منِّي ولا أكرم، فلذلك قيل له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[٨]. وقال عكرمة: التقى النبيُّ ﷺ وأبو جهل، فقال النبيُّ ﷺ: «إن الله أمرني أن أقول لك: أَوْلَى لك فأولى» فقال: بأيِّ شيء

---

(١) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٥٠، وأورده مختصراً الواحدي في الوسيط ٤/ ٩٢، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٥٥.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٩.

(٥) في (ز) و(ق): أجمعت.

(٦) في النسخ: عن، والمثبت من إيضاح الوقف والابتداء، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٤، والكشاف ٣/ ٥٠٧، والمحرر الوجيز ٨/ ٤٠.

(٧) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.

(٨) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٩، والطبري ٢١/ ٦١ بنحوه.

تهدِّدني! والله ما تستطيع أنت ولا ربُّك أن تفعلا بي شيئًا، إني لَمِن أعزِّ هذا الوادي وأكرمِه على قومه. فقتله الله يوم بدر وأذلَّه، ونزلت هذه الآية[١]. أي يقول له المَلَك: ذُق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، أي قال له: إنك أنت الذليل المهان. وهو كما قال قوم شُعيب لشعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يعنُون السفيهَ الجاهلَ في أحد التأويلات على ما تقدَّم[٢]. وهذا قول سعيد بن جبير[٣].

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي تقول لهم الملائكة: إنَّ هذا ما كنتم تشكُّون فيه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ لمَّا ذكر مستقرَّ الكافرين وعذابَهم، ذكر نُزُل المؤمنين ونعيمَهم. وقرأ نافع وابن عامر: «في مُقَامٍ» بضم الميم، الباقون بالفتح[٤]. قال الكسائي: المُقام المكان، والمُقام الإقامة، كما قال:

عفَتِ الديارُ مَحَلُّها فَمُقامُها[٥]

قال الجوهريُّ: وأمَّا المَقام والمُقام فقد يكون كلُّ واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته مِن قام يقوم؛ فمفتوح، وإن جعلته

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٨ مختصراً. وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣ بنحوه وعزاه للأموي.

(٢) ١١/ ١٩٤.

(٣) أورده بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٥٠.

(٤) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.

(٥) صدر بيت للبيد، وهو في ديوانه ص ٢٩٧، وعجزه: بمنًى تأبَّد غولُها فرجامُها، والكلام في معاني القرآن للنحاس ١/ ٤١٥. وقوله: عفت، أي: دَرَسَت. والمحلُّ والمُقام، قال شارح الديوان: هما مكان الحلول ومكان الإقامة.

من أقام يقيم؛ فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبَّه ببنات الأربعة، نحو: دحرج وهذا مُدَحْرجُنا[١]. وقيل: المَقام؛ بالفتح: المشهد والمجلس، وبالضم يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدراً ويقدَّر فيه المضاف، أي: في موضع إقامة[٢].

﴿أَمِينٍ﴾: يُؤمَن[٣] فيه من الآفات ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من «مَقَامٍ أَمِينٍ». ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا. والسُّنْدُس: ما رَقَّ من الدِّيباج. والإستبرق: ما غَلُظَ منه. وقد مضى في «الكهف»[٤].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ كذلك الذي ذكرناه[٥]. فيوقف على «كَذَلِكَ». وقيل: أي: كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدَّم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوَّجناهم حُوراً عِيناً. وقد مضى الكلام في العِين في «والصَّافَّاتِ»[٦]. والحُوْر: البِيض؛ في قول قتادَة والعامةِ، جمعُ حَوْراء. والحَوْراء: البيضاء التي يُرى ساقها من وراء ثيابها، ويَرى الناظر وجهه في كعبها، كالمِرآة من رِقَّة[٧] الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون. ودليلُ هذا التأويل أنها في حرف ابن مسعود: «بِعِيس عِين»[٨]. وذكر أبو بكر الأنباريُّ: أخبرنا أحمد بن الحسين قال: حدَّثنا حسين قال: حدَّثنا عمار بن

---

(١) الصحاح (قوم).

(٢) ينظر مجمع البيان ٢٥/١١٩.

(٣) في (د) و(ظ): يأمن.

(٤) ١٣/٢٦٦ - ٢٦٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/١٣٧، ومشكل إعراب القرآن ٢/٦٥٨.

(٦) ١٨/٣٤.

(٧) في (م): دقة.

(٨) القراءات الشاذة ص١٣٧، والمحتسب ٢/٢٦١.

محمد قال: صلَّيت خلف منصور بن المعتمر، فقرأ في «حم» الدُّخان: «بِعِيس عِين. لا يذوقون طعم الموتِ إلا الموتة الأولى». والعِيس: البِيض؛ ومنه قيل للإبل البِيض: عيس، واحدُها بعيرٌ أَعْيَس، وناقة عَيْساء. قال امرؤ القيس:

يَرُعْنَ إلى صوتي إذا ما سمعنَه ... كما تَرْعَوي عِيطٌ إلى صوتِ أَعْيَسا[١]

فمعنى الحُوْر هنا: الحسان الثاقبات البياض بحسن.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحُور العِين ليُرى مُخُّ ساقها من وراء اللَّحم والعظم، ومن تحت سبعين حُلَّةً، كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء[٢]. وقال مجاهد: إنما سمِّيت الحُور حوراً لأنهنَّ يَحارُ الطَّرْف في حسنهنَّ وبياضهنَّ وصفاء لونهنَّ[٣].

وقيل: إنما قيل لهنَّ حُوْر لِحَوَر أعينهنَّ. والحَوَر: شدَّةُ بياض العين في شدَّة سوادها. [يقال]: امرأة حَوْراء بيِّنةُ الحَوَر. [و] يقال: احورَّت عينه احوراراً، واحورَّ الشيء: ابيضَّ. قال الأصمعي: ما أدري ما الحَوَر في العَيْن؟ وقال أبو عمرو: الحَوَر أن تسودَّ العين كلُّها مثل أعين الظِّباء والبقر. قال: وليس في بني آدم حَوَر، وإنما قيل للنساء: حُورُ العِين لأنهنَّ يشبَّهن بالظِّباء والبقر. وقال العجَّاج:

بأَعْينٍ مُحَوَّراتٍ بِيض[٤]

يعني الأعينَ النقيات البياض، الشديداتِ سواد الحَدَق[٥]. والعِين جمعُ عَيْناء،

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٠٦، والعِيط: خيار الإبل وأفتاؤها. القاموس (عيط).

(٢) الزهد لابن المبارك (٢٦٠ - زوائد نعيم بن حماد)، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٢٠٨٦٧)، والطبراني في الكبير (٨٨٦٤).

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٥ بنحوه.

(٤) ديوان العجَّاج ص ٢٢٨، وفيه: حور، بدل: بيض، وقبله: إذ ترتمي من خَلَل الخُدُور.

(٥) الصحاح (حور) وما بين حاصرتين منه، وفيه: حور، بدل: بيض.

وهي الواسعةُ العظيمةُ العينين(١). وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مهور الحُور العِين قبضاتُ التمر وفِلَق الخبز»(٢). وعن أبي قِرصافةَ: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «إخراج القُمَامة من المسجد مهورُ الحُور العِين»(٣). وعن أنس أن النبيَّ ﷺ قال: «كنس المساجد مهورُ الحُور العِين»(٤) ذكره الثعلبي رحمه الله. وقد أفردنا لهذا المعنى باباً مفرداً في كتاب «التذكرة»(٥) والحمد لله.

واختلف أيُّما أفضلُ في الجنة؛ نساءُ الآدميات أم الحور؟ فذكر ابن المبارك قال: وأخبرنا رِشْدِين، عن ابن أنْعُم، عن حِبَّان بن أبي جَبَلة قال: إن نساء الآدميات مَن دخل منهنَّ الجنة، فُضِّلن على الحُور العِين بما عملن في الدنيا(٦). ورُوِيَ مرفوعاً: «إن الآدميات أفضلُ من الحُور العِين بسبعين ألفَ ضعف»(٧). وقيل: إن الحُور العِين

---

(١) الطبري ٢١/ ٦٦، والوسيط ٥/ ٩٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٥.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٨٤ وفيه عمر بن صبح بن عمران التميمي، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٢٠٦ - ٢٠٧: ليس بثقة ولا مأمون. قال ابن حبان: كان يضع الحديث. وقال الدارقطني: متروك.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٢١) مطولاً. قال الهيثمي في المجمع ٢/ ٩: في إسناده مجاهيل. اهـ. وأبو قرصافة اسمه جندرة بن خيشنة، له صحبة، سكن فلسطين، وقيل: كان يسكن أرض تهامة. الاستيعاب بهامش الإصابة ١٢/ ٩٣ - ٩٤.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤٢٥ وقال: هذا حديث لا يصح من جميع جهاته. وحديث أنس فيه مجاهيل، وعبد الواحد ليس بثقة، قاله يحيى. وقال البخاري والفلَّاس والنسائي. متروك الحديث. اهـ. وسلف ١٥/ ٢٨٥ بلفظ: ... وإن كنس غبار المسجد نقد الحور العين.

(٥) ص ٤٧٨ - ٤٨٠.

(٦) الزهد (٢٥٥ - زوائد نعيم بن حماد)، ورشدين، وهو ابن سعد المَهْري المصري، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٤٩: كان صالحاً عابداً سيِّئ الحفظ غير معتمد. وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال أبو زرعة: ضعيف. وقال النسائي: متروك. اهـ وابن أنعُم وهو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي ضعيف، الميزان ٢/ ٥٦٢.

(٧) أورده المصنف في كتابه التذكرة ص ٤٧٧، ولم نقف عليه.

أفضلُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه: «وأبدِله زوجاً خيراً من زوجه»[١]. والله أعلم.

وقرأ عكرمة: «بِحُورِ عِينٍ» مضاف[٢]. والإضافة والتنوين في «بحور عين» سواء.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾

قال قتادة: «آمنين» من الموت والوَصَب والشيطان[٣]. وقيل: آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه[٤].

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لا يذوقون فيها الموت البتة لأنهم خالدون فيها[٥]. ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ على الاستثناء المنقطع[٦]، أي: لكنْ الموتةُ الأولى قد ذاقوها في الدنيا. وأنشد سيبويه:

مَن كان أسرع في تَفرُّق فالجٍ ... فَلَبونُه جَرِبت معًا وأغدَّتِ

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال:

إلا كناشِرَةَ الذي ضيَّعتُمُ ... كالغصنِ في غُلَوائه المتنبِّتِ[٧]

---

(١) هو قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٣٩٧٥)، ومسلم (٩٦٣) عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٦١.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٧.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٧.

(٥) المصدر السابق.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٨.

(٧) الكتاب لسيبويه ٢/ ٣٢٨ ونسبه لعنز بن دجاجة المازني، وكذا نسبه لعنز أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٦١، والأعلم الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص ٣٦٤. وسماه السيرافي في شرح أبيات سيبويه ٢/ ١٧١ - ١٧٢ عتر بن دجاجة؛ قال: ويروى لمعاوية بن كاسر، اهـ. ونسب البيت لغيره، ينظر الخزانة ٦/ ٣٦٢، والمقتضب ٤/ ٤١٦، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٠٢. قوله: أغدَّت؛ أي: أصابتها الغدّة.

وقيل: إن «إلَّا» بمعنى بَعْد، كقولك: ما كلَّمت رجلاً اليوم إلا رجلاً عندك، أي: بعد رجل عندك. وقيل: «إلَّا» بمعنى سوى، أي: سوى الموتةِ التي ماتوها في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[1] [النساء: ٢٢]. أي: سوى ما قد سلف[2]. وهو كما تقول: ما ذقت اليوم طعاماً سوى ما أكلت أمس.

وقال القتبيُّ: «إلَّا الْمَوْتَةَ الأُولَى» معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويَلْقى الرَّوْح والرَّيحان، وكان موته في الجنة لاتصافه بأسبابها، فهو استثناء صحيح[3]. والموتُ عَرضٌ لا يذاق، ولكن جُعِل كالطعام الذي يُكره ذوقه، فاستُعير فيه لفظُ الذوق.

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ . فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فعل ذلك بهم تفضُّلًا منه عليهم.[4] فـ «فَضْلًا» مصدر عمل فيه «يَدْعُونَ». وقيل: العامل فيه «وَوَقَاهُمْ»[5]. وقيل: فعل مضمر. وقيل: معنى الكلام الذي قبله، لأنه تفضُّلٌ منه عليهم، إذ وفَّقهم في الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: السعادةُ والربح العظيم والنجاة العظيمة. وقيل: هو من قولك: فاز بكذا، أي: ناله وظَفِر به.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني القرآن، أي: سهَّلناه بلغتك عليك

(١) ذكر هذا القول الزجاج في معاني القرآن ٤/٤٢٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٣٥١ - ٣٥٢.
(٢) قوله: أي ما قد سلف، من (ظ) و(ق).
(٣) ينظر تأويل مشكل القرآن ص ٥٥ - ٥٦.
(٤) تفسير البغوي ٤/١٥٦.
(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٥٨.

وعلى مَن يقرؤه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتَّعظون وينزجرون. ونظيرُه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]. فختم السورة بالحثِّ على اتِّباع القرآن وإن لم يكن مذكوراً، كما قال في مفتتح السورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١] على ما تقدَّم.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: انتظر ما وعدتك من النصر عليهم، إنهم منتظرون لك الموت. حكاه النقاش[١].

وقيل: انتظر الفتح من ربك، إنهم منتظرون بزعمهم قهرَك[٢].

وقيل: انتظر أن يَحكُم الله بينك وبينهم، فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان. والمعنى متقارب.

وقيل ارتقب ما وعدتك من الثواب، فإنهم كالمنتظرين لِمَا وعدتهم من العقاب.

وقيل: ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة، جُعِلوا كالمرتقِبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/٢٥٩.

(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/٢٨٦.

سُورَةُ الدُّخَانِ

مَكِّيَّةٌ، إلَّا قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾ الآيةَ، وهي سبعٌ أو تسعٌ وخمسونَ آيةً[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ القرآنِ[2]، والواوُ للعطفِ إن كانَ ﴿حمٓ﴾ مُقسَمًا بها[3]، وإلَّا فللقسمِ، والجوابُ قولُه:

(٣) ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ في ليلةِ القدرِ[4]، أو البراءةِ[5]، ابتُدِئَ[6] فيها إنزالُهُ.

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٢٥) وفيه: «وهي خمسون وتسع آيات في الكوفي، وسبع في البَصريّ، وست في عدد الباقين، اختلافها أربع آيات...».

(٢) في نسخة الفاروقي: «والقرآن».

(٣) في نسخة الخيالي: «به».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥ ـ ٦) عن قتادة وابن زيد، وهو قول ابن عباس فيما رواه الطبراني في «الكبير» (١٢٠٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٧٨) وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٨٨). قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٨٧): وهو قول الأكثرين.

(٥) ليلة البراءة: من أسماء ليلة النصف من شعبان. انظر: «الكشاف» (٨/ ١٧٠).

(٦) في نسخة الفاروقي والخيالي: «ابتدأ».

أو: أُنزلَ فيها جملةً إلى سماءِ الدُّنيا مِنَ اللَّوحِ، ثمَّ أُنزلَ على الرَّسولِ ﷺ نجومًا، وبركتُها لذلك؛ فإنَّ نُزولَ القرآنِ سببٌ للمَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ.

أو: لِمَا فيها مِن نُزولِ الملائكةِ والرَّحمةِ وإجابةِ الدَّعوةِ وقسمِ النِّعمَةِ وفصلِ الأقضيَةِ.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئنافٌ يُبيِّنُ المقتضي للإنزالِ، وكذلك قولُه:

(٤) ـ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فإنَّ كونَها مفرقَ الأمورِ المحكمةِ أو المُلتبسةِ بالحكمةِ يَستدعي أَنْ يُنزلَ فيها القرآنُ الذي هو مِن عَظائِمِها، ويجوزُ أن يكون صِفَةَ ﴿لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ، وهو يدلُّ على أنَّ الليلةَ ليلةُ القَدرِ لأنَّه صِفَتُها لقولِه[1]: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾.

وقُرِئَ (يُفرَّقُ) بالتَّشديدِ[2]، و(يَفرُقُ كُلَّ) أي: يفرقُه اللهُ[3]، و(نَفْرقُ) بالنُّونِ[4].

(٥ ـ ٦) ـ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: أعني بهذا الأمرِ أمرًا حاصِلًا مِن عندنا على مُقتضى حِكمَتِنا، وهو مزيدُ تَفخيمٍ للأمرِ.

ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِن ﴿كُلُّ﴾ أو ﴿أَمْرٍ﴾ أو ضَميرِهِ المُستكنِّ في ﴿حَكِيمٍ﴾ لأنَّه مَوصوفٌ، وأن يرادَ به مقابلُ النَّهيِ وقعَ مصدرًا لـ﴿يُفْرَقُ﴾، أو لفعلِهِ

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «كقوله».

(٢) نسبت للحسن ولزائدة عن الأعمش، انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٣٥)، و«البحر» (١٩/ ١٣٦).

(٣) نسبت للحسن والأعرج والأعمش، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٨)، و«البحر» (١٩/ ١٣٦).

(٤) نسبت لزيد بن علي، انظر: «الكشاف» (٨/ ١٧٤)، ونقلها عنه أبو حيان في «البحر» (١٩/ ١٣٦)، ثم قال: وفيما ذكر أبو علي الأهوازي عنه أي عن زيد بن علي: بفتح الياء وكسر الراء ونصب (كلَّ) ورفع (حكيمٌ) على أنه الفاعل بـ(يَفْرِقُ).

مُضمَـرًا مِـن حيـثُ إنَّ الفـرقَ بـه، أو حـالًا مِـن أحـدِ ضَمِيـرَيْ ﴿أَنزَلْنَهُ﴾ بمعنى: آمريـنَ أو مَأمُـورًا.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بدلٌ مِن ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: إنَّا أنزلنا القُرآنَ لأنَّ مِن عادَتِنا إرسالَ الرُّسُلِ بالكتبِ إلى العبادِ لأجلِ الرَّحمةِ عليهِمْ.

ووَضْعُ الرَّبِّ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بأنَّ الرُّبوبيَّةَ اقتضَتْ ذلك، فإنَّه أعظَمُ أنواعِ التَّربيَةِ، أو عِلَّةٌ لـ﴿يُفْرَقُ﴾، أو ﴿أَمْرًا﴾ و﴿رَحْمَةً﴾ مفعولٌ بهِ؛ أي: يُفصَّلُ[1] فيها كلُّ أمرٍ، أو تصدرُ الأوامرُ من عندِنَا؛ لأنَّ مِن شأنِنا أنْ نرسِلَ رحمتَنا، فإنَّ فصلَ كلِّ أمرٍ مِنْ قسمةِ الأرزاقِ وغيرِها، وصدورَ الأوامرِ الإلهيَّةِ مِن بابِ الرَّحمةِ.

وقُرِئَ: (رحمةٌ)[2] على: تلكَ رَحمةٌ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسـمعُ أقـوالَ العبـادِ ويعلَـمُ أحوالَهُـم وهو بمـا بعدَهُ تحقيـقٌ لرُبوبيَّتِـه وأنَّهـا لا تَحِـقُّ إلَّا لِمَن هـذه صِفاتُه.

(٧) ـ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ خبرٌ آخرُ، أو استئنافٌ.

وقرأَ الكوفِيُّونَ بالجرِّ بدلًا مِن ﴿رَّبِّكَ﴾[3].

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إنْ كنتُمْ مِن أهلِ الإيقانِ في العلومِ.

أو: إنْ كُنتُـم موقنيـنَ فـي إقرارِكُم إذا سُـئِلْتُم: مَـن خلقَها؟ فقلْتُـم: اللهُ، عَلِمْتُم أنَّ الأمـرَ كمـا قلْنا.

أو: إنْ كُنتُم مُريدينَ اليقينَ فاعلَمُوا ذلكَ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «مفصل».

(٢) نسبت للحسن، انظر: «الكشاف» (٨/ ١٧٦)، و«البحر» (١٩/ ١٣٧) وزاد نسبتها لزيد بن علي.

(٣) وقراءة الباقون بالرفع، انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٨)، و«النشر» (٢/ ٣٩٧).

(٨) ـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذْ لا خالقَ سِواهُ ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ كما تشاهدونَ ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قُرِئَا بالجرِّ بدلًا[١].

(٩) ـ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ردٌّ لكونِهم موقنينَ.

(١٠) ـ ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتَظِرْ لهم ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يومَ شدَّةٍ ومَجاعةٍ؛ فإنَّ الجائعَ يرى بينَهُ وبين السَّماءِ كهيئةِ الدُّخانِ مِن ضعفِ بَصرِهِ.

أو: لأنَّ الهواءَ يُظلِمُ عامَ القَحطِ لقِلَّةِ الأمطارِ وكثرةِ الغُبارِ.

أو: لأنَّ العربَ تُسَمِّي الشَّرَّ الغالبَ دُخانًا، وقد قَحطُوا حتَّى أكلُوا جِيَفَ الكلابِ وعِظامَها.

وإسنادُ الإتيانِ إلى السَّماءِ لأنَّ ذلك يكفُّهُ عَن الأمطارِ.

أو: يومَ ظُهورِ الدُّخانِ المَعدودِ في أشراطِ السَّاعةِ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ لَمَّا قال: «أوَّلُ الآياتِ الدُّخانُ[٢]، ونزولُ عيسى عليهِ السَّلامُ، ونارٌ تخرجُ مِن قعرِ عدن أَبينَ تَسوقُ النَّاسَ إلى المحشرِ» قيل: وما الدُّخانُ؟ فتَلا رسولُ اللهِ ﷺ الآيَةَ وقال: «يملأُ ما بينَ المشرقِ والمَغربِ يمكثُ أربعينَ يَوْمًا وليلةً، أمَّا المؤمنُ فيصيبُهُ كهيئةِ الزُّكامِ، وأمَّا الكافِرُ فهوَ كالسَّكرانِ يخرجُ مِن مَنْخِرِهِ وأُذُنيهِ ودبرِهِ»[٣].

---

(١) نسبت لابن محيصن وابن أبي إسحاق والكسائي في غير المشهور عنه، وقراءة الجمهور بالرفع، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٨).

(٢) في نسخة الفاروقي: «الدجال»، وفي الهامش نسخة: «الدخان». وجاء ذكر (الدخان) متأخراً في «تفسير الطبري»، ولفظه: «أول الآيات الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا، والدخان».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٩ ـ ٢٠) قال: حدثني عصام بن روَّاد بن الجراح، قال: ثني أبي، قال: ثنا سفيان بن سعيد الثوري، قال: ثنا منصور بن المعتمر، عن رِبْعِيِّ بن حرَاش، قال: سمعت =

أو: يومَ القيامةِ، والدُّخانُ يحتملُ المعنيينِ.

(١١) ـ ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يحيطُ بهم، صِفةٌ للدُّخانِ وقولِه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٢) ـ ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ مقدرٌ بقولٍ وقعَ حالًا، و﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وعدٌ بالإيمانِ إن كُشِفَ العذابُ عنهم.

(١٣) ـ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ مِن أينَ لَهُم وكيفَ يَتذكَّرُونَ بهذه الحالِ.

﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ بيَّنَ لهم ما هو أعظَمُ منها في إيجابِ الإذكارِ[1] مِن الآياتِ والمُعجِزَاتِ.

(١٤) ـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: قالَ بَعضُهُم: يُعَلِّمُه غلامٌ أعجميٌّ لبعضِ ثَقيفٍ، وقال آخرونَ: إنَّه مَجنونٌ.

= حُذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أوَّلُ الآيات الدَّجالُ...»، ومن طريق الطبري رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٥١٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٠)، وقد نبه الطبري إلى ضعفه فقال: وإنما لم أشهد له بالصحة لأن محمد بن خلف العسقلانيّ حدثني أنه سأل روَّاداً عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا، فقلت له: فقرأتَه عليه؟ فقال: لا، فقلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر فأقرَّ به؟ فقال: لا، فقلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءني به قوم فعرضوه عليّ وقالوا لي: اسمعه منا، فقرؤوه عليّ، ثم ذهبوا فحدّثوا به عني، أو كما قال؛ فلِمَا ذكرتُ من ذلك لم أشهد له بالصحة.

قلت: ولكن يشهد له حديث حذيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ عند مسلم (٢٩٠١)، قال: اطَّلَعَ النَّبيُّ ـ ﷺ ـ علينا ونحن نتذاكرُ، فقال: «ما تَذَاكَرُون؟» قالوا: نَذْكرُ السَّاعةَ، قال: «إنها لن تقومَ حتى ترون قَبْلَها عشرَ آياتٍ» فذَكَر الدُّخانَ، والدَّجَّالَ، والدابَّةَ، وطلوعَ الشمس من مغربها، ونزولَ عيسى ابنِ مريمَ ـ ﷺ ـ، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثة خسوفٍ: خَسْفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ تخرجُ من اليمن، تطردُ الناسَ إلى مَحشَرهم».

(١) في نسخة الفاروقي: «الادِّكار».

(١٥) ـ ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ بدُعاءِ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ فإنَّه دعا فرُفِعَ القَحْطُ.

﴿قَلِيلًا﴾ كَشفاً قليلًا، أو زمانًا قليلًا، وهو ما بَقيَ مِنْ أعمارِهِم.

﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى الكفرِ غِبَّ[١] الكَشْفِ[٢].

ومَن فسَّرَ الدُّخانَ بما هـو مِن الأشراطِ قال: إذا جـاءَ الدُّخانُ غوَّثَ الكفَّارُ بالدُّعاءِ فيكشفه اللهُ عَنْهُم بعدَ الأربعينَ[٣]، فرَيْثَما يكشفُهُ عنهم يرتدُّونَ، ومَن فسَّرَه بما في القِيَامةِ أوَّلَه بالشَّرطِ والتَّقديرِ.

(١٦) ـ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يومَ القيامةِ، أو يومَ بدرٍ، ظرفٌ لفعلٍ دلَّ عليه ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لا لـ﴿مُنتَقِمُونَ﴾؛ فإنَّ (إنَّ) تحجزُهُ عنه، أو بدلٌ مِن ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾.

وقُـرِئَ: ﴿نَبْطُـشُ﴾[٤] أي[٥]: نجعَـلُ البطشـةَ الكبـرى باطشـةً بهـم، أو نَحمِلُ الملائكـةَ علـى بطشِـهِم، وهـو التَّنـاولُ بصَوْلَةٍ.

(١٧) ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ امتحنَّاهُم بإرسالِ موسى إليهِمْ، أو أَوْقعناهُم في الفتنةِ بالإمهالِ وتوسيعِ الرِّزقِ عليهِم.

وقُرِئَ بالتَّشديدِ للتَّأكيدِ أو لكثرةِ القَومِ[٦].

---

(١) في نسخة الخيالي: «عقيب».

(٢) (غب الكشف) أي: عقبه وبعده.

(٣) في نسخة الخيالي: «بعد أربعين خريفاً» وفي نسخة الفاروقي: «بعد أربعين».

(٤) هي قراءة أبي جعفر من العشرة، انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٤)، وقرأ الحسن كما ضبطت في نسخة الفاروقي: (نُبطِشُ) بضم النون، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٨)، و«المحتسب» (٢/ ٢٦٠)، ووقع في مطبوع «المختصر»: (يُبْطِشُ) بالياء.

(٥) في نسخة الخيالي: «بأن».

(٦) انظر: «الكشاف» (٨/ ١٨١)، و«البحر» (١٩/ ١٤٢) من غير نسبة.

﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ علـى اللهِ، أو على المؤمنينَ، أو في نفسِـهِ لشَـرَفِ نَسَـبِهِ وفضـلِ حَسَبِهِ.

(١٨) ـ ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ بأَنْ أَدُّوهم إليَّ وأرسِلُوهُم مَعي، أو بأَنْ أدُّوا إليَّ حقَّ اللهِ مِن الإيمانِ وقَبولِ الدَّعوةِ يا عبادَ اللهِ، ويجوزُ أَنْ تكونَ (أنْ) مُخفَّفةً ومُفسِّرةً؛ لأنَّ مجيءَ الرَّسولِ يكونُ برسالةٍ ودعوةٍ.

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ غيرُ مُتَّهمٍ لدلالةِ المُعجزاتِ على صدقِهِ، أو لائتمانِ اللهِ إيَّاه على وَحيِهِ وهو عِلَّةُ الأمرِ.

(١٩) ـ ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تتكبَّروا عليه بالاستهانةِ بوَحـيِـهِ ورسولِه، و(أَنْ) كالأولى في وجوهِهَا.

﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ عِلَّةٌ للنَّهيِ[1].

ولِذِكْرِ الأمينِ مع الأَداءِ، والسُّلطانِ مع العلاءِ = شأنٌ لا يَخْفَى.

(٢٠) ـ ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ﴾ التَجأتُ إليهِ وتـوكَّلْتُ عليه ﴿أَن تَرۡجُمُونِ﴾ أَنْ تُؤذوني ضَرْبًا أو شَتْمًا، أو أن تَقتلونِي.

وقرأ أبو عَمرٍو وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿عُتُّ﴾ بالإدغامِ[2].

(٢١) ـ ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ فكونُوا بمَعزلٍ مِنِّي لا عليَّ ولا لي، ولا تتعرَّضُوا لي بسُوءٍ؛ فإنَّه ليسَ جزاءُ مَن دَعاكُم إلى ما فيهِ فَلاحُكُم.

(٢٢) ـ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ بعدَما كذَّبوه ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأنَّ هؤلاءِ ﴿قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ وهو تَعريضٌ بالدُّعاءِ عليهِمْ بذكرِ ما استوجَبُوهُ[3] به، ولذلك سمَّاهُ دعاءً.

---

(١) في كل النسخ عدا نسخة الخيالي: «النهي» بدل: «للنهي».

(٢) وقراءة الباقين دون إدغام، انظر: «التيسير» (ص: ٤٤).

(٣) في نسخة الخيالي: «ما استوجبوا».

وقُرِئَ بالكسرِ[١] على إضمارِ القولِ.

(٢٣) ـ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ أي: فقالَ أَسْرِ، أو قال: إنْ كانَ الأمرُ كذلك فأَسْرِ.

وقرأ الحِرْميَّان بوَصلِ الهمزةِ مِن سَرى[٢].

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكُمْ فِرعونُ وجُنودُهُ إذا عَلِمُوا بخُروجِكُم.

(٢٤) ـ ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ مَفتوحًا ذا فَجوةٍ واسِعَةٍ، أو ساكنًا على هيئَتِه بعدَما جاوزْتَه، ولا تضربْهُ بعصاكَ، ولا تغيِّرْ منه شيئًا ليدخلَهُ القِبطُ.

﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وقُرِئَ بالفَتحِ[٣] بمَعْنى: لأَنَّهُم.

(٢٥ـ٢٧) ـ ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ كثيرًا تركوا ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ محافلَ مُزَيَّنَةٍ ومَنازِلَ حسنةٍ ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ وتنعُّمٍ ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ مُتنعِّمينَ، وقُرِئَ: ﴿فكِهِينَ﴾[٤].

(٢٨) ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلكَ الإخراجِ أخرَجْناهُم منها، أو الأمرُ كذلك.

﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ عطفٌ على الفعلِ المُقدَّرِ، أو على ﴿تَرَكُوا۟﴾.

﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ ليسُوا مِنْهُم في شيءٍ وهُمْ بنو إسرائيلَ.

وقيل: غيرُهُم لأنَّهُم لم يَعُودوا إلى مِصرَ.

(٢٩) ـ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مجازٌ عَن عدمِ الاكتراثِ بهَلاكِهِم

---

(١) أي: (إن هؤلاء)، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٨) عن عيسى والحسن وابن أبي إسحاق.

(٢) قرأ بالوصل الحِرميان وهما نافع وابن كثير كما سماهما في نسخة التفتازاني والطبلاوي، وكذا قرأ أبو جعفر بالوصل، والباقون بالقطع. انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٥)، و«النشر» (٢/ ٢٩٠).

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ١٨٥).

(٤) وهي قراءة أبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٣).

والاعتدادِ بوُجودِهِم كقولِهم: بَكَتْ عليهم[١] السَّماءُ وكسفَتْ لمَهْلِكِهم[٢] الشَّمسُ في نقيضِ ذلك، ومنه ما رُوِيَ[٣] في الأخبارِ: إنَّ المؤمنَ ليَبكي عليه مُصَلَّاه ومحلُّ عِبادَتِه ومَصعَدُ عملِه ومَهبطُ رزقِه.

وقيل: تقديرُهُ: فما بكَتْ عليهم أهلُ السَّماءِ والأرضِ.

﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ مُمهَلِينَ إلى وقتٍ آخرَ.

(٣٠) ـ ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ مِن استعبادِ فِرْعَونَ وقتلِهِ أبناءَهُم، وقُرِئَ بالإضافةِ على أنَّ المرادَ بالمُهينِ: فرعون[٤].

(٣١) ـ ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ مِن العذابِ على حذفِ المضافِ، أو جعلِه عذابًا لإفراطِهِ في التَّعذيبِ، أو حالٌ مِن المُهينِ بمَعْنى: واقعًا مِن جِهَتِه.

وقُرِئَ: (مَن فِرْعَوْنُ)[٥] على الاستفهامِ؛ تَنكيرًا له لنُكرِ ما كانَ عليه مِن الشَّيطنَةِ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ مُتكبرًا ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في العتوِّ والشَّرارةِ، وهو خبرٌ ثانٍ أي: كان مُتكبِّرًا مُسرِفًا، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في عاليًا؛ أي: كان رفيعَ الطَّبقةِ مِن بينِهِم.

(٣٢) ـ ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ اختَرْنا بني إسرائيلَ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالِمينَ بأنَّهم أحقَّاءُ

---

(١) في نسخة الفاروقي: «عليه».

(٢) في نسخة الخيالي: «بمهلكهم» وفي نسخة الفاروقي: «لمهلكه».

(٣) في نسخة الفاروقي: «ما رووا».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٤١)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما، انظر: «الكشاف» (٨/ ١٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٧٤)، و«البحر» (١٩/ ١٤٩).

بذلك، أو مع علمٍ مِنَّا بأَنَّهُم يَزيغونَ في بعضِ الأحوالِ ﴿عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ لكثرةِ الأنبياءِ فيهم، أو على عالَمِي زَمانِهم.

(٣٣) ـ ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ كفَلْقِ البَحرِ وتَظليلِ الغَمامِ وإنزالِ المَنِّ والسَّلْوَى.

﴿مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ نعمةٌ جَلِيَّةٌ، أو اختبارٌ ظاهرٌ.

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كُفَّارَ قريشٍ؛ لأنَّ الكلامَ فيهم، وقصَّةُ فِرعونَ وقَومِه مَسوقَةٌ للدَّلالةِ على أنَّهم مِثلُهُم في الإصرارِ على الضَّلالةِ والإنذارِ عَن مثلِ ما حلَّ بهم.

﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما العاقبَةُ ونهايةُ الأمرِ إلَّا الموتةُ الأولى المزيلةُ للحَياةِ الدُّنيويَّةِ، ولا قصدَ فيه إلى إثباتِ ثانيةٍ كما في قولِك: حجَّ زَيدٌ الحجَّةَ الأولى وماتَ.

وقيل: لَمَّا قيلَ لَهُم: إنَّكُم تموتونَ مَوتةً يعقبُهَا حياةٌ كما تَقدَّمَتْكُم موتةٌ كذلك، قالوا: إنْ هيَ إلَّا مَوتَتُنا الأولى؛ أي: ما الموتَةُ التي مِن شَأنِها كذلك[1] إلا الموتَةُ الأولى.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمَبْعوثينَ.

(٣٦) ـ ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطابٌ لِمَن وعدَهُم بالنُّشورِ مِن الرَّسولِ والمؤمنينَ.

﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في وَعدِكُم؛ لِيدُلَّ عليه.

(٣٧) ـ ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوَّةِ والمَنَعةِ ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ تُبَّعٍ الحِميَرِيِّ الذي سارَ بالجُيوشِ وحيَّرَ الحيرةَ وبنى سَمَرْقندَ، وقيل: هدمَها[2].

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «ذلك».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٩) عن قتادة برواية الهدم، وكذا ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٥٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٥٣٢) عن قتادة أيضاً لكن برواية البناء. وقوله: «حير الحيرة»؛ أي: بناها ونظم أمرها. انظر: «روح المعاني» (٢٤/ ٤٧٧).

وكان مُؤمِنًا وقومُه كافرينَ، ولذلك ذمَّهُم دونَهُ[١].

وعنه عليهِ السَّلامُ «ما أَدرِي أكانَ تُبَّعٌ نَبِيًّا أَو غيرَ نَبِيٍّ»[٢].

وقيل لِمُلوكِ اليَمَنِ: التَّبابِعَةُ؛ لأنَّهم يُتَبَّعونَ كما قيل: الأَقْيَال لأنَّهُم يُتقيَّلُون.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كعادٍ وثَمودَ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ استئنافٌ بمآل قومِ تُبَّعٍ والذين مِن قبلِهم، هدَّدَ به كفَّارَ قُرَيشٍ، أو حالٌ بإضمارِ (قد)، أو خبرٌ مِن الموصولِ إن استُؤنِفَ به.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ بيانٌ للجامعِ المُقتَضِي للإهلاكِ.

(٣٨) ـ ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ وما بين الجنسينِ.

وقُرِئَ: (وما بينَهُنَّ)[٣].

﴿لَٰعِبِينَ﴾ لاهينَ، وهو دليلٌ على صِحَّةِ الحشرِ كما مرَّ في (الأنبياءِ) وغيرِها[٤].

(٣٩) ـ ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ إلَّا بسببِ الحقِّ الذي اقتضاهُ الدَّليلُ مِن الإيمانِ والطَّاعةِ، أو البعثِ والجزاءِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨١٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٩)، عن كعب الأحبار. وروى الحاكم في «المستدرك» (٣٦٨١) ـ وصححه ـ عنها أنها قالت: كان تُبَّعٌ رجلًا صالحا، ألا ترى أن الله عز وجل ذمَّ قومَه ولم يَذُمَّه.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٨٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦) من طريق معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة بهذا.

قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٤٩): والمعروف بهذا الاسناد: «ما أدري أتبعٌ لعينٌ هو أم لا، وما أدري أعزير نبي أم لا» أخرجه أبو داود [(٤٦٧٤)]، وكذا الحاكم [في «المستدرك» (٣٦٨٢)] لكن قال: «ذو القرنين» بدل «عزير»، قال الدارقطني: تفرد به عبد الرزاق وغيره أرسله.

(٣) نسبت لعبيد بن عمير، انظر: «الكشاف» (٨/ ١٩٣)، و«البحر» (١٩/ ١٥٤).

(٤) في نسخة الفاروقي: «كما مر في غيرها».

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقِلَّةِ نَظَرِهِم.

(٤٠) ـ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ فصلِ الحقِّ عَن الباطلِ والمحقِّ عن المُبطِلِ بالجزاءِ[١]، أو فَصلِ الرَّجُلِ عَن أقاربِهِ وأَحِبَّائِهِ.

﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ وقتُ مَوعِدِهِم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

وقُرِئَ: (مِيقَاتَهم) بالنَّصبِ[٢] على أنَّه الاسمُ؛ أي: إنَّ ميعادَ جَزائِهِم في يومِ الفَصلِ.

(٤١) ـ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ بدلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو صِفَةٌ لـ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾، أو ظرفٌ لِمَا دلَّ عليه الفصلُ لا له للفَصلِ[٣].

﴿مَوْلًى﴾ مِن قرابَةٍ أو غيرِها ﴿عَن مَّوْلًى﴾ أيِّ مولًى كانَ ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناءِ[٤].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضَّميرُ لـ﴿مَوْلًى﴾ الأول باعتبارِ المعنى لأنَّه عامٌّ.

(٤٢) ـ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ بالعَفوِ عنه وقَبولِ الشَّفاعةِ فيه، ومحلُّهُ الرَّفعُ على البدلِ مِن الواوِ، أو النَّصبُ على الاستثناءِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بإجزاء».

(٢) نسبت في «الكشاف» (٨/ ١٩٤) لعبيد بن عمير، وانظر: «البحر» (١٩/ ١٥٤). وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٤٢) لكن دون التصريح بكونها قراءة، وكذا الكسائي كما في «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٨٨)، ووافقهما الزجاج على الجواز في «معاني القرآن» (٤/ ٤٢٧) على الجواز لكنه نفى أن يكون قد قرئ بها حيث قال: ويجوز: (ميقاتَهم) بنصب التاء، ولا أعلم أنه قرئ بها، فلا تقرأن بها.

(٣) قوله: «للفصل»؛ أي: للفصل بين الفصل الذي هو المضاف إليه في يوم الفصل وبين يوم القيامة.

(٤) في نسخة الخيالي: «﴿مَوْلًى﴾ من قرابة وغيرها ﴿عَن مَّوْلًى﴾ أي مولى كان ذا قرابة أو أجنبيًّا ﴿شَيْـًٔا﴾ أي شيئاً من العذاب».

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ لا يُنصَرُ منه مَنْ أرادَ تَعذيبَهُ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لِمَن أرادَ أَنْ يرحمَهُ.

(٤٣) ـ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ وقُرِئَ بكسرِ الشِّينِ[١]، ومَعنى الزَّقُّومِ سبقَ في (الصَّافات).

(٤٤) ـ ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ الكثيرِ[٢] الآثامِ، والمرادُ به الكافرُ لدلالةِ ما قبلَهُ وما بعدَهُ عليه.

(٤٥) ـ ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو ما يُمهَلُ في النَّارِ حتى يَذوبَ.

وقيل: دُرْدِيُّ الزَّيتِ[٣].

﴿تَغْلِي فِي البُطونِ﴾، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ ورُوَيسٌ بالياءِ[٤] على أنَّ الضَّميرَ للطَّعامِ أو الزَّقُّومِ لا للمُهْلِ؛ إذ الأظهرُ أنَّ الجُملةَ حالٌ مِن أَحدِهِما.

(٤٦) ـ ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ غليانًا مثلَ غَلْيِهِ.

(٤٧) ـ ﴿خُذُوهُ﴾ على إرادةِ القَوْلِ، والمقولُ له الزَّبانيَةُ.

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ فجرُّوهُ، والعَتْلُ: الأخذُ بمَجامعِ الشَّيءِ وجرُّهُ بقَهرٍ، وقرأَ الحِجازيَّانِ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ بالضَّمِّ، وهما لُغَتانِ[٥].

﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وَسَطِه.

(٤٨) ـ ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كان أصلُه: يُصَبُّ مِن فوقِ رؤوسِهِم الحَميمُ، فقيل: يُصَبُّ مِن فوقِ رُؤوسِهم عذابٌ هو الحَميمُ للمُبالغَةِ، ثمَّ

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ١٩٥)، و«البحر» (١٩/ ١٥٥) بدون نسبة.

(٢) في نسخة الخيالي: «كثير».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٥) عن ابن عباس، ودردي الزيت: عكره وما يستقر منه في قعر الإناء، انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٨)، و«النشر» (٢/ ٣٧١).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٨)، و«النشر» (٢/ ٣٧١).

أضيفَ العذابُ إلى الحميمِ للتَّخفيفِ وزيدَ (مِنْ) للدلالةِ على أنَّ المصبوبَ بعضُ هذا النَّوعِ.

(٤٩) ـ ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ أي: وقولوا له ذلك استهزاءً بهِ وتَقريعًا[1] على ما كانَ يزعمُه.

وقرأَ الكِسائيُّ: ﴿أَنَّكَ﴾ بالفتحِ[2] أي: ذُقْ لأنَّكَ، أو عَذابَ أنَّك.

(٥٠) ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ إنَّ هذا العذابَ ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ تَشكُّونَ وتُمارونَ فيه.

(٥١) ـ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ ﴾ في مَوضعِ إقامةٍ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ بضمِّ الميمِ[3].

﴿أَمِينٍ﴾ يأمنُ صاحِبُه عَنِ الآفةِ والانتقالِ.

(٥٢) ـ ﴿ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَقَامٍ﴾ جيء به للدَّلالةِ على نَزاهَتِه واشتمالِه على ما يُستلذُّ به مِن المآكلِ والمشاربِ.

(٥٣) ـ ﴿ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في الجارِّ والمجرور، أو استئنافٌ.

والسُّندسُ: ما رقَّ مِن الحريرِ، والإستبرقُ: ما غَلُظَ منه، مُعرَّبٌ، أو مُشتقٌّ من البراقةِ.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ في مَجالِسِهم ليستأنسَ بَعضُهُم ببعضٍ.

(٥٤) ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمرُ كذلكَ، أو آتيناهُم مثلَ ذلك.

﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ قَرنَّاهُم بهنَّ، ولذلك عُدِّيَ بالباءِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «أو تقريعاً».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٣) وقراءة الباقين بالفتح. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٨). وقوله: «وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم»: ليس في نسخة الفاروقي، وضبطت فيها كلمة ﴿مقام﴾ بضم الميم، وفي نسخة الطبلاوي: «وهي قراءة نافع وابن عامر بضم الميم، والباقون بفتحها».

والحَوراءُ: البَيْضاءُ، والعَيْناءُ: عظيمةُ العينينِ، واختُلِفَ في أَنَّهنَّ نِساءُ الدُّنيا أو غيرُها.

(٥٥) - ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ يطلبونَ ويأمرونَ بإحضارِ ما يشتهونَ مِنَ الفواكِه لا يتخصَّصُ شيءٌ مِنْهَا بمَكانٍ ولا زمانٍ.

﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن الضَّررِ.

(٥٦) - ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بل يَحيَوْنَ فيها دائمًا، والاستثناءُ مُنقَطِعٌ، أو مُتَّصِلٌ والضَّميرُ للآخرةِ والموتُ أوَّلُ أَحوالِها، أو الجنَّةِ والمؤمنُ يشارِفُها بالموتِ ويُشاهِدُها عندَهُ فكأنَّهُ فيها، أو الاستثناءُ للمُبالغَةِ في تعميمِ النَّفيِ وامتناعِ الموتِ وكأنَّه[1] قال: لا يذوقونَ فيها الموتَ إلا إذا أمكنَ ذوقُ الموتةِ الأُولى في المُستقبَلِ.

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وقُرِئَ (ووقَّاهُم)[2] على المُبالغَةِ.

(٥٧) - ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: أُعطُوا كلَّ ذلك عطاءً وتَفضُّلًا منه، وقُرِئَ بالرَّفعِ[3] أي: ذلك فضل.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنَّه خلاصٌ عن المكارهِ وفَوزٌ بالمطالبِ.

(٥٨) - ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ سَهَّلْناهُ حيثُ أنزلناهُ بلُغَتِكَ، وهو فَذْلَكَةٌ للسُّورَةِ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلَّهُم يَفهَمُونَه فيَتذكَّرُونَ به لِمَا لم يَتذكَّرُوا.

(٥٩) - ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتَظِرْ ما يَحُلُّ بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ مُنتَظِرونَ ما يَحُلُّ بك.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «فكأنه».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٨) عن أبي حيوة.

(٣) أي: (فضلٌ)، انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٢٩)، وفيه: يجوز: (فضلٌ مِن ربِّك)، ولا يُقرأنَّ بها لخلاف المصحف.

عن النبيِّ عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأَ ﴿حمٓ﴾ الدُّخانَ ليلةَ جمعةٍ أصبحَ مَغْفورًا لهُ»(١).

---

(١) رواه المستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١١)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٨٥)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور الذي ورد مقطعاً في هذا الكتاب عند كل سورة، وقد سبق الكلام عليه مراراً، لكن ورد لهذه القطعة من الحديث شواهد مرفوعة ضعيفة وأخرى مرسلة.

فمن المرفوع: ما رواه الترمذي (٢٨٨٩)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٢١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٢٣٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٧٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٥٠٣)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (٨٩٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٤٧) من طريق الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «مَن قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة غُفر له». قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدام يضعف، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة.

ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٤٨) من طريق هشام بن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «مَن قرأ ليلةَ الجمعة حم الدخان ويس أصبح مغفورًا له»، وقال: تفرد به هشام، وهو هكذا ضعيف.

أما المرسل: فمنه ما رواه المستغفري في «فضائل القرآن» (٨٩٥) عن رجل من أهل البصرة يكنى أبا الحارث حدثهم يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أصبح مغفورا له».

ورواه الدارمي في «سننه» (٣٤٦٣) عن عبد الله بن عيسى قال: «أُخبِرتُ أنه مَن قرأ حم الدُّخان ليلةَ الجمعةِ إيمانًا وتصديقًا بها أصبحَ مغفورًا له».

ورواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٢٢) عن الحسن، و(٢٢٣) عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، كلاهما عن النبي ﷺ. وهما مرسلان، وإسحاق بن عبد الله متروك كما في «التقريب».

ورواه الدارمي في «سننه» (٣٤٢١)، والمروزي في «مختصر قيام الليل» (ص: ١٦٩)، عن أبي رافع قال: «مَن قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة أصبحَ مغفورًا له وزوج من الحور العين». أبو رافع هو نفيع الصائغ وهو تابعي ثقة يروي عن عمر وعثمان، من رجال «التهذيب».

وروى الطبراني في «الكبير» (٨٠٢٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٥٠٤)، وقوام السنة في «الترغيب والترهيب» (٩٤٥) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: «من قرأ حم الدّخان في ليلة الجمعة ـ أو يومَ الجمعة ـ بنى الله له بيتاً في الجنّة». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠١٧): فيه فضال بن جبير، وهو ضعيف جدًّا.

(٤٤) سُورَةُ الدُّخَانِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم، أنه أنزله في ليلة مباركة وهي ليلة القدر، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تبارك وتعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنا كنا منذرين﴾ أي معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده، وقوله: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ أي في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها، وقوله جلّ وعلا: ﴿حكيم﴾ أي محكم لا يبدل ولا يغير، ولهذا قال جلّ جلاله ﴿أمراً من عندنا﴾ أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه ﴿إنا كنا مرسلين﴾ أي إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ۝ رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي إن كنتم متحققين، ثم قال تعالى: ﴿لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾ الآية.

بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟

عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون أي قد جاءهم الحق اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به، ثم قال عزّ وجلّ متوعداً لهم ومهدداً: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ قال مسروق: دخلنا المسجد، يعني مسجد الكوفة، فإذا رجل يقص على أصحابه ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعود رضي الله عنه فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففزع فقعد، وقال: إن الله عزّ وجلّ قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، سأحدثكم عن ذلك: إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع، حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء، فلا يرون إلا الدخان، وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، قال الله تعالى: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هـذا عذاب أليم﴾، فَأُتي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ لهم، فسقوا، فنزلت: ﴿ إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾، قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ قال: يعني يوم بدر. قال ابن مسعود رضي الله عنه، فقد مضى خمسة: الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام[1]. وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما تقدم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»[2]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني خبأت لك خبأ»، قال: هو الدُّخ[3]، فقال ﷺ له: «إخسأ فلن تعدو قدرك» قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾. وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر، فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال»[4]

---

(١) الحديث مخرج في الصحيحين، ورواه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري.

(٣) الدُّخ والدَّخ: الدخان.

(٤) أخرجه ابن جرير ورواه الطبراني، وإسناده جيد.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخـذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه»، وقال ابن أبي حاتم، عن علي رضي الله عنه قال: لم تمض آية الدخان بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام وتنفخ الكافر حتى ينفذ، وروى ابن جرير، عن عبدالله ابن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت، قلت: لِمَ؟ قال، قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابـة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين من الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ أي بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالى: ﴿يغشى الناس﴾ أي يتغشاهم ويعمهم، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿يغشى النـاس﴾، وقوله تعالى: ﴿هذا عذاب أليم﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً كقوله عزّ وجلّ: ﴿يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾، أو يقول بعضهم لبعض ذلك. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله جلت عظمته: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، وكذا قوله جل وعلا: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾، وهكذا قال جلّ وعلا ههنا ﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون﴾. يقول: كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بيِّن الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه وقالوا معلم مجنون، وهذا كقوله جلّت عظمته: ﴿يوم يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾؟

وقوله تعالى: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ يحتمل معنيين: (**أحدهما**): أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾. (**والثاني**): أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيـاة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قـد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قـد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قـال الله تعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه حين قـالوا: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قـال أو لو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾، وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم. وقال قتادة: إنكم عـائدون إلى عذاب الله. وقوله عزّ وجلّ: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾: فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر، وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو محتمل، والظاهر أن

ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال ابن مسعود رضي الله عنه ﴿البطشة الكبرى﴾ يوم بدر، وأنا أقول هي يوم القيامة. وهذا إسناد صحيح عن ابن عباس، والله أعلم.

* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن
لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟
لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ
رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟
فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟
مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ
﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر، ﴿وجاءهم رسول كريم﴾ يعني موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ﴿أن أدوا إليّ عباد الله﴾، كقوله عزّ وجلّ: ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾ الآية، وقوله جلّ وعلا: ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي مأمون على ما أبلغكموه، وقوله تعالى: ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ أي لا تستكبروا عن اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله عزّ وجلّ: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، ﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات، ﴿وإني عذت بربي وربكم أن ترجمونِ﴾ قال ابن عباس: هو الرجم باللسان وهو الشتم، وقال قتادة: الرجم بالحجارة أي أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قولٍ أو فعل، ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلونِ﴾ أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا، فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم، وأقام حجج الله تعالى عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم • قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما﴾، وهكذا قال ههنا ﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم، من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون﴾، كما قال تعالى: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون﴾، وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر أراد موسى أن

يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى، قال ابن عباس: ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ كهيئته وامضه، وقال مجاهد ﴿ رهواً ﴾ طريقاً يبساً كهيئته، يقول لا تأمره يرجع اتركه حتى يرجع آخرهم، ثم قال تعالى: ﴿ كم تركوا من جنات ﴾ وهي البساتين ﴿ وعيون وزروع ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار ﴿ ومقام كريم ﴾ وهي المساكن الحسنة، ﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ أي عيشة كانوا يتفكهون فيها، فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا، مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير واستولى على البلاد المصرية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾، وقال عزّ وجلّ ههنا: ﴿ كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ وهم بنو إسرائيل كما تقدم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم، روى الحافظ الموصلي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه»، وتلا هذه الآية: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾[1] وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم، ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم، وروى ابن أبي حاتم، عن عباد بن عبدالله قال: سأل رجل علياً رضي الله عنه هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ علي رضي الله عنه: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾. وقال ابن جرير، عن سعيد ابن جبير قال: أتى ابنَ عباس رضي الله عنهما رجلٌ فقال: يا أبا العباس، أرأيت قول الله تعالى: ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال رضي الله عنه: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقده بكى عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله عزّ وجلّ فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله عزّ وجلّ منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض[2]. وقال سفيان الثوري: تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحاً، وقال مجاهد: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل، وقال قتادة: كانوا أهون على الله عزّ وجلّ من أن تبكي عليهم السماء والأرض.

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً بنحوه.

(٢) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس موقوفاً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة، وقوله تعالى: ﴿ من فرعون إنه كان عالياً﴾ أي مستكبراً جباراً عنيداً كقوله عزّ وجلّ: ﴿ إن فرعون علا في الأرض﴾، وقوله جلّت عظمته: ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً عالين﴾، ﴿ من المسرفين﴾ أي مسرف في أمره سخيف الرأي على نفسه، وقوله جلّ جلاله: ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ قال مجاهد: على من هم بين ظهريه، وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، وكان يقال: إن لكل زمان عالماً، وهذا كقوله عزّ وجلّ لمريم عليها السلام ﴿ واصطفاك على نساء العالمين﴾ أي في زمنها، فإن خديجة رضي الله عنها أفضل منها، أو مساوية لها في الفضل، وكذا آسية امرأة فرعون، وفضل عائشة رضي الله عنها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وقوله جلّ جلاله: ﴿ وآتيناهم من الآيات﴾ الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ ما فيه بلاء مبين﴾ أي اختيار ظاهر جلي لمن اهتدى به.

* إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثَمَّ إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة، لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، ثم قال تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث، كقوم تُبَّع وهم (سبأ) حيث أهلكهم الله عزّ وجلّ وخرب بلادهم، وشردهم في البلاد وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ كقوله جلّ وعلا: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾. وقال تعالى: ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾؟ ثم قال تعالى: ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾ وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين، وقوله عزّ وجلّ ﴿ ميقاتهم أجمعين﴾ أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً﴾ أي لا ينفع قريب قريباً كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾، وكقوله جلّت عظمته: ﴿ ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم﴾. أي لا يسأل أخ أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً. وقوله جلّ وعلا:

﴿ ولا هم ينصرون ﴾، أي لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصر من خارج، ثم قال: ﴿ إلا من رحم الله ﴾ أي لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عزّ وجلّ بخلقه ﴿ إنه هو العزيز الرحيم ﴾ أي عزيز ذو رحمة واسعة.

* إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ و ﴿ الأثيم ﴾ أي في قوله وفعله، وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه (أبو جهل)، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به، قال همام بن الحارث: إن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر، أي ليس له طعام من غيرها[1]، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم[2]، وقوله ﴿ كالمهل ﴾ كعكر الزيت ﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ أي من حرارتها ورداءتها، وقوله تعالى ﴿ خذوه ﴾ أي الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية ﴿ خذوه ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم، وقوله ﴿ فاعتلوه ﴾ أي سوقوه سحباً ودفعاً في ظهره، قال مجاهد ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ أي خذوه فادفعوه، ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي وسطها ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ۝ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾. وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد فتفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه، فيسلت ما في بطنه من أمعائه حتى تمرق من كعبيه، أعاذنا الله تعالى من ذلك، وقوله تعالى: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ، وقال الضحاك عن ابن عباس: أي لست بعزيز ولا كريم، وقد قال الأموي في مغازيه، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، لعنه الله فقال: « إن الله تعالى أمرني أن أقول لك: « أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى »، قال، فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، ولقد علمت أني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله، وعيّره بكلمته، وأنزل: ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ كقوله تعالى: ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ۝ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾؟

* إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ

---

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) تقدم نحو هذا مرفوعاً.

﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء، ولهذا سمي القرآن مثاني، فقال: ﴿إن المتقين﴾ أي لله في الدنيا ﴿في مقام أمين﴾ أي في الآخرة، وهو الجنة وقد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده وسائر الآفات والمصائب ﴿في جنات وعيون﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم، وقوله تعالى: ﴿يلبسون من سندس﴾ وهو رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿وإستبرق﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان، وذلك كالريش وما يلبس على أعالي القماش ﴿متقابلين﴾ أي على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره، وقوله تعالى: ﴿كذلك وزوجناهم بحور عين﴾ أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ روى ابن ابي حاتم، عن أنَس رضي الله عنه رفعه قال: لو أن حوراء بزقت في بحر لجي لعذب ذلك الماء لعذوبة ريقها. وقوله عزّ وجلّ: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه بل يحضر إليهم كلما أرادوا، وقوله: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾، هذا استثناء يؤكد النفي، ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»[١]. وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً»[٢].

وقوله تعالى: ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ أي مع هذا النعيم العظيم المقيم، قد وقاهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم، في دركات الجحيم، ولهذا قال عزّ وجل: ﴿فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي إنما كان هذا بفضله عليهم، وإحسانه إليهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها، ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي يتفهمون ويعملون، ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان، من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطف والهلاك ﴿فارتقب﴾ أي انتظر ﴿إنهم مرتقبون﴾ أي فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر، وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم في سورة مريم.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

من النبيين والمرسلين ، ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ۝ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ .

[آخر تفسير سورة الدخان ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

تفسير سورة الدّخـان

وهي مكية.

قال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن عُمَر بن أبي خَثْعَم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة[١]، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك».

ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، و عمَر[٢] بن أبي خثعم يضعف. قال البخاري: منكر الحديث[٣].

ثم قال: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي، حدثنا زيد بن الحباب، عن هشام أبي المقدام، عن الحسن[٤]، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) في ليلة الجمعة، غفر له».

ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام[٥] أبو المقدام يضعف، والحسن لم يسمع من أبي هريرة. كذا قال أيوب، ويونس بن عبيد، وعلي بن زيد[٦].

وفي مسند البزار من رواية أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن زيد بن حارثة؛ أن رسول الله ﷺ قال لابن صيَّاد: «إني قد خبأت خبأ فما هو؟» وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدُّخ. فقال: «اخسأ ما شاء الله كان». ثم انصرف[٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: إنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ

(١) في ت: «روى الترمذي بإسناده».
(٢) في ت: «الوجه، وفي إسناده عمر».
(٣) سنن الترمذي برقم (٢٨٨٨).
(٤) في ت: «وروى الترمذي بإسناده».
(٥) في ت: «الوجه، وفي إسناده هشام».
(٦) سنن الترمذي برقم (٢٨٨٩).
(٧) مسند البزار برقم (٣٣٩٩) «كشف الأستار» ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٨٨) من طريق زياد بن الفرات عن أبي الطفيل به. قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤): «فيه زياد بن الحسن بن فرات، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان».

رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقد ذكرنا الأحاديث [(١)] الواردة فى ذلك فى «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.

ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان ـ كما روى عن عكرمة ـ فقد أبعد النُّجْعَة، فإن نص القرآن أنها فى رمضان. والحديث الذى رواه عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عقيل، عن الزهرى: أخبرنى عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له، وقد أخرج اسمه فى الموتى»[(٢)] فهو حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص.

وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أى: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده.

وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أى: فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روى عن ابن عمر، وأبى مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أى: محكم، لا يبدل ولايغير؛ ولهذا قال: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴾ أى: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه [(٣)] فبأمره وإذنه وعلمه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أى: إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: الذى أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أى: إن كنتم متحققين.

ثم قال: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ [فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ][(٤)]﴾ الآية[الأعراف:١٥٨].

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ﴾.

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون فى شك يلعبون، أى: قد جاءهم اليقين[(٥)]، وهم يشكون فيه ويمترون، ولا يصدقون به، ثم قال متوعدا لهم ومتهدداً: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

قال سليمان بن مِهْرَان الأعمش، عن أبى الضُّحَى مسلم بن صُبَيْح[(٦)]، عن مسروق قال: دخلنا

---

(١) فى ت: «الآثار».

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ٦٥) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٣٨٣٩) من طريق الليث عن عقيل به.

(٣) فى أ: «يوجبه». (٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «المبين». (٦) فى ت: «روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما».

المسجد ـ يعنى مسجد الكوفة ـ عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعًا ففزع فقعد، وقال[1]: إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص:٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «الله أعلم»، سأحدثكم عن ذلك، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت[2] على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ـ وفى رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ـ [قال] [3] قال الله تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يارسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى لهم فَسُقُوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعنى يوم بدر.

قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللِّزام. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين[4]. ورواه الإمام أحمد فى مسنده، وهو عند الترمذى والنسائى فى تفسيرهما[5]، وعند ابن جرير وابن أبى حاتم من طرق متعددة، عن الأعمش، به[6]. وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد، وأبى العالية، وإبراهيم النخعى، والضحاك، وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا[7] عبد الرحمن الأعرج فى قوله: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: كان يوم فتح مكة.

وهذا القول غريب جداً، بل منكر.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات[8] الساعة، كما تقدم من حديث أبى سَرِيحة[9] حذيفة بن أسيد الغفارى، رضى الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس ـ

---

(١) فى ت، م: «فقال». (٢) فى أ: «واستصعبت». (٣) زيادة من أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨).

(٥) فى م: «تفسيريهما».

(٦) المسند (١/ ٣٨٠، ٤٣١) وسنن الترمذى برقم (٣٢٥٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨١) وتفسير الطبرى (٢٥/ ٦٦).

(٧) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن». (٨) فى ت: «آيات». (٩) فى ت: «أبى سريحة فى ».

أو: تحشر الناس ـ: تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه[١].

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إنى خبأت لك خَبْأ»، قال: هو الدُّخ. فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقَرطمون العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُّخ»، يعنى: الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية، فقاله له: «اخسأ فلن تعدو قدرك».

ثم قال ابن جرير: وحدثنى عصام بن رَوَّاد بن الجراح، حدثنا أبى، حدثنا سفيان بن سعيد الثورى، حدثنا منصور بن المعتمر، عن رِبْعِى بن حِرَاش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول[٣]: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الآيات الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تقيل معهم إذا قالوا، والدخان ـ قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ـ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة[٤]، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره»[٥].

قال ابن جرير: لو صح هذا الحديث لكان فاصلاً، وإنما لم أشهد له بالصحة؛ لأن محمد بن خلف العسقلانى حدثنى أنه سأل روادا عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا. قال: فقلت: أقرأته عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر فأقر به؟ فقال: لا. فقلت له: فمن أين جئت به؟ فقال: جاءنى به قوم فعرضوه على، وقالوا لى: اسمعه منا. فقرؤوه علىَّ ثم ذهبوا به، فحدثوا به عنى، أو كما قال[٦].

وقد أجاد ابن جرير فى هذا الحديث ههنا، فإنه موضوع بهذا السند، وقد أكثر ابن جرير من سياقه فى أماكن من هذا التفسير، وفيه منكرات كثيرة جداً، ولا سيما فى أول سورة «بنى إسرائيل» فى ذكر المسجد الأقصى، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خليل، عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه».

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٠٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩٣٠) من حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما.

(٣) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن حذيفة قال». (٤) فى ت، م: «الزكام».

(٥) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨) ومن طريقه رواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج أحاديث الكشاف للزيلعى (١١٧٤) والبغوى فى معالم التنزيل (٧/ ٢٣٠).

(٦) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨).

ورواه سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى موقوفاً. ورواه عوف، عن الحسن قوله.

وقال ابن جرير أيضًا: حدثنى محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنى أبى، حدثنى ضَمْضَم بن زُرعَة، عن شُريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثا: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال».

ورواه الطبرانى عن هاشم بن يزيد، عن محمد بن إسماعيل بن عياش، به[١]. وهذا إسناد جيد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الحارث، عن على، رضى الله عنه، قال: لم تمض آية الدخان بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وتنفخ الكافر حتى ينفد.

وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن البيلمانى، عن ابن عمر قال: يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ويدخل فى مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ، أى: المشوى على الرَّضف.

ثم قال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن جريج[٢]، عن عبد الله بن أبى مليكة قال: غدوت على ابن عباس، رضى الله عنهما، ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت[٣]. وهكذا رواه ابن أبى حاتم[٤]، عن أبيه، عن ابن أبى عمر، عن سفيان، عن عبد الله بن أبى يزيد، عن عبد الله بن أبى مليكة، عن ابن عباس فذكره. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التى أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بين واضح يراه كل أحد. وعلى ما فسر به ابن مسعود، رضى الله عنه: إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أى: يتغشاهم ويَعُمهم[٥]، ولو كان أمرا خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨) والمعجم الكبير (٣/٢٩٢) وقول الحافظ ابن كثير هنا: «هذا إسناد جيد» متعقب، فإن لهذه النسخة ثلاث علل:

الأولى: محمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو حاتم: «لم يسمع من أبيه شيئاً، حملوه على أن يحدث فحدث».

الثانية: ضَمضَم بن زُرعة، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن معين، ومحمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو داود: «لم يكن بذاك».

الثالثة: شُريح بن عبيد، قد كلم فى سماعه من أبى مالك الأشعرى، قال أبو حاتم: «شريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى، مرسل».

(٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».

(٣) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨).

(٤) فى ت: «ورواه ابن جرير هكذا»، وفى أ: «وهكذا رواه ابن جرير».

(٥) فى أ: «ويغمهم».

قيل فيه: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾.

وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وكذا قوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه وقالوا: معلم مجنون. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ. يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، وقوله(١) تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ . وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١ ـ ٥٤].

وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو(٢) الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾، يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه يقوله(٣) تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه(٤) ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه [ووصوله](٥) عليهم، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخبارًا عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ. قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وشعيب [عليه السلام](٦) لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم.

وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: إلى عذاب الله.

---

(١) في ت، م: «وكقوله». (٢) في ت: «كاشف». (٣) في أ: «يقول».
(٤) في ت، م، أ: «سببه». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) زيادة من ت، م، أ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروى أيضاً عن ابن عباس [وجماعة][١] من رواية العوفى، عنه. وعن أبى بن كعب وجماعة، وهو محتمل.

والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً.

قال[٢] ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هى يوم القيامة[٣].

وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصرى، وعكرمة فى أصح الروايتين[٤]، عنه.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣) ﴾.

يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى كليمه، عليه السلام، ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿ فَأَرْسِلْ[٥] مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧].

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أى: مأمون على ما أبلغكموه.

وقوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى: لا تستكبروا على اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه[٦]، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ [مُّبِينٍ][٧]﴾ أى: بحجة ظاهرة واضحة، وهى ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة[٨].

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت: «وروى».
(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٠).
(٤) فى ت: «القولين».
(٥) فى ت، م، أ: «وأن أرسل» وهو خطأ.
(٦) فى أ: «بالوهيته».
(٧) زيادة من ت، م، أ.
(٨) فى ت، م، أ: «القاطعات».

﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم.

وقال قتادة: [هو][1] الرجم بالحجارة.

أى[2]: أعوذ بالله الذى خلقنى وخلقكم [من][3] أن تصلوا إلىَّ بسوء من قول أو فعل.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُونِ﴾ أى: فلا تتعرضوا[4] إلىَّ، ودعوا الأمر بينى وبينكم مسالمة إلى أن يقضى الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ .قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببنى إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

وقوله هاهنا: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله[5] أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه[6]، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى.

قال ابن عباس: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيئته وامضهْ. وقال مجاهد﴿رَهْوًا﴾: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، والربيع بن أنس، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وكعب الأحبار، وسِمَاك بن حرب، وغير واحد[7].

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ﴾ وهى البساتين ﴿وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهى المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة.

وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر.

وقال ابن لَهيعة، عن وهب[8] بن عبد الله المعافرى، عن عبد الله بن عمرو قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلله له، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له الأرض عيوناً، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره.

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى أ: «إنى». (٣) زيادة من ت، م.
(٤) فى أ: «تعترضوا». (٥) فى م: «تعالى». (٦) فى ت: «أى فى البحر»، وفى أ: «أى فيه».
(٧) فى ت: «وغيرهما» . (٨) فى م: «ولهب».

وقال فى قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا[١] مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾، قال: كانت الجنان بحافتى هذا النيل من أوله إلى آخره فى الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة[٢] خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها.

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أى: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم فى البلاد، فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال فى موضع آخر[٣]: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ أى: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكى على فقدهم، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا أحمد بن إسحاق البصرى، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثنى يزيد الرقاشى، حدثنى أنس بن مالك[٤]، عن النبى ﷺ قال: «ما من عبد إلا وله فى السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه[٥] عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه»، وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ وذُكر أنهم لم يكونوا عملوا[٦] على الأرض عملاً صالحا يبكى عليهم. ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم[٧].

ورواه ابن أبى حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الربذى.

وقال ابن جرير: حدثنى يحيى بن طلحة، حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد الحضرمى قال: قال رسول الله ﷺ[٨]: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض». ثم

---

(١) فى ت، م: «فأخرجناهم» وهو خطأ، ولعل الناسخ أراد الآية: ٥٧ من سورة الشعراء. (٢) فى ت، م: «تسع».
(٣) فى ت، م، أ: «الآية». (٤) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه».
(٥) فى ت، أ: «فيه». (٦) فى ت، م: «يعملون».
(٧) مسند أبى يعلى (٧/ ١٦٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٥٥) من طريق موسى بن عبيدة به مختصراً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشى يضعفان فى الحديث».
(٨) فى ت: «وروى ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال».

قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر»[١].

وقال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد ـ يعنى الزبيرى ـ حدثنا العلاء ابن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سأل رجل علياً، رضى الله عنه: هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك، إنه ليس [من][٣] عبد إلا له مصلى فى الأرض، ومصعد عمله من السماء. وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض، ولا عمل يصعد فى السماء، ثم قرأ على، رضى الله عنه: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غَنَّام، عن زائدة، عن منصور، عن منهال، عن سعيد بن جبير قال: أتى ابنَ عباس رجلٌ فقال: يا أبا عباس، أرأيت قول الله: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾، فهل تبكى السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب فى السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذى كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التى كان يصلى فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم فى الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض[٤].

وروى العوفى، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال سفيان الثورى، عن أبى يحيى القَتَّات، عن مجاهد، عن[٥] ابن عباس [رضى الله عنهما][٦] قال: كان يقال: تبكى الأرض على المؤمن أربعين صباحاً. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد.

وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكى الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكى على عبد، كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوى كدوى النحل؟

وقال قتادة: كانوا أهون على الله من أن تبكى عليهم السماء والأرض.

وقال ابن حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستورد بن سابق، عن عبيد المكتب، عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قلت لعبيد: أليس السماء والأرض تبكى على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال: وتدرى ما بكاء السماء؟ قلت[٧]: لا. قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٥) ورواه ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت كما فى الدر المنثور (٧/ ٤١٢) وهو مرسل.
(٢) فى ت: «وروى». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٤).
(٥) فى ت: «وعن». (٦) زيادة من ت. (٧) فى أ: «قال».

ابن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً. وإن حسين بن على لما قتل احمرت السماء.

وحدثنا على بن الحسن، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ـ زُنَيج ـ حدثنا جرير، عن يزيد بن أبى زياد قال: لما قتل حسين[١] بن على، رضى الله عنهما، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها. وهكذا قال السدى الكبير.

وقال عطاء الخراسانى: بكاؤها: أن تحمر أطرافها.

وذكروا[٢] أيضًا فى مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عَبِيط، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفى كل ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخْف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر ـ ولا شك أنه عظيم ـ ولكن لم يقع هذا الذى اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من [ذلك] [٣] ـ قتل الحسين، رضى الله عنه ـ ولم يقع شىء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه على بن أبى طالب، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع[٤] [شىء من][٥] ذلك، وعثمان بن عفان قتل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شىء من ذلك. وعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قتل فى المحراب فى صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شىء من ذلك. وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر فى الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شىء مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبى ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: [الشمس][٦] خسفت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته[٧].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم فى[٨] الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا [مِّنَ الْمُسْرِفِينَ][٩]﴾ أى: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ [وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا][١٠]﴾ [القصص: ٤].

وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، [وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾] [١١] [العنكبوت: ٣٩]، [فكان فرعون][١٢] سرفاً [١٣] فى أمره، سخيف الرأى على نفسه.

وقوله: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ـ قال مجاهد: ﴿ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن

(١) فى ت، م: «الحسين». (٢) فى ت: «وذكر».
(٣) زيادة من أ. (٤) فى ت، أ: «يكن». (٥) زيادة من ت، أ.
(٦) زيادة من ت، وفى أ: «خسفت الشمس».
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٠٤٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٩١٥).
(٨) فى أ: «من». (٩، ١٠) زيادة من أ.
(١١) زيادة من أ. (١٢) زيادة من ت، أ. (١٣) فى ت، أ: «مسرفا».

لكل زمان عالما. وهذه(١) كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أى: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] أى: فى زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها فى الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ﴾ أى: [من](٢) الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾ أى: اختبار ظاهر جلى لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧)﴾.

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا فى هذه الدار، [بل](٣) بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكون(٤) شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.

ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذى لا يرد، كما حل بأشباههم(٥) ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع ـ وهم سبأ ـ حيث أهلكهم الله وخرَّب بلادهم، وشردهم فى البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك فى سورة سبأ، وهى مُصَدَّرة بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير ـ وهم سبأ ـ كلما ملك فيهم رجل سموه تُبَّعاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشى لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد(٦) ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذى مَصَّر الحيرة فاتفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك فى أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يَقْرُونَه بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجَرُ نبى يكون فى آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه [عن ذلك](٧) أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى

---

(١) فى م: «وهذا». (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «تكونوا»، وفى م: «تكونون». (٥) فى ت: «بأشياعهم». (٦) فى أ: «واستمد».
(٧) زيادة من أ.

ذلك النبى المبعوث فى آخر الزمان، فعظمها وطاف بها[١]، وكساها الملاء والوصائل والحبير. ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى، عليه السلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن. وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه السيرة[٢]. وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر[٣]. وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن أبى ذئب[٤]، عن المقبرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ما أدرى الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدرى تبع لعيناً[٥] كان أم لا؟ ولا أدرى ذو القرنين نبياً كان أم ملكا؟» وقال غيره: «أعزيراً كان نبياً أم لا». وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن محمد بن حماد الظهرانى[٦]، عن عبد الرزاق[٧].

قال الدارقطنى: تفرد به عبد الرزاق[٨]، ثم روى ابن عساكر من طريق محمد بن كُرَيْب، عن أبيه، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، مرفوعا: «عُزيرُ لا أدرى أنبياً كان أم لا؟ ولا أدرى ألعين تُبَّع أم لا؟»[٩].

ثم أورد ما جاء فى النهى عن سبه ولعنته، كما سيأتى. وكأنه ـ والله أعلم ـ كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الكليم[١٠] على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت فى زمن الجُرهُميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر، من طرق متعددة مطولة[١١] مبسوطة، عن أبى بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس وكعب الأحبار. وإليه المرجع فى ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روى قصته وهب بن مُنَبِّه، ومحمد بن إسحاق فى السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ترجمة تُبَّع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تُبَّعاً هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما مات[١٢] عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره فى سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، ولله الحمد والمنة.

وقال سعيد بن جبير: كسا تبع الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه.

---

(١) فى ت: «فعظم الكعبة فطاف بها».

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩).

(٣) تاريخ دمشق (٣/ ٥٠٠ «القسم المخطوط»).

(٤) فى ت، أ: «ذؤيب». (٥) فى ت: «أمينا».

(٦) فى م: «الطبرانى».

(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٣٦) من طريق عبد الرزاق به، ورواه أبو داود فى سننه برقم (٤٦٧٤) من طريق عبد الرزاق به إلا أنه قال: «عزيز» بدل: «ذو القرنين».

(٨) قال الحافظ ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٥٠): «وحديث عبادة بن الصامت: «إن الحدود كفارة لأهلها» أصح وأثبت سندا» ثم ساقه من طريق البخارى بسنده إلى عبادة بن الصامت.

(٩) تاريخ دمشق (٣/ ٥٠١ «القسم المخطوط»).

(١٠) فى ت، م، أ: «الخليل». (١١) فى م: «طويلة». (١٢) فى ت، م، أ: «توفى».

وتُبَّع هذا هو تُبَّع الأوسط، واسمه أسعد أبو[١] كُرَيْب بن مَلْكيكرب[٢] اليمانى، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستاً[٣] وعشرين سنة، ولم يكن فى حمير أطول مدة منه، وتوفى قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهَاجَرُ نبى آخر فى الزمان[٤]، اسمه أحمد، قال فى ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذى نزل رسول الله ﷺ فى داره، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّه ... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِى النَّسَمْ
فَلَو مُدَّ عُمْرى إلى عُمْرِه ... لَكُنْت وَزِيرا له وابن عَمْ
وَجَاهَدْتُ بالسَّيفِ أعْدَاءَهُ ... وفَرَّجتُ عَنْ صَدْرِه كُلَّ غَمْ

وذكر ابن أبى الدنيا أنه حُفِر قبر بصنعاء فى الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: «هذا قبر حبى ولميس ـ وروى: حبى وتماضر ـ ابنتى تُبَّع، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

وقد ذكرنا فى «سورة سبأ» شعر سبأ فى ذلك أيضاً.

قال قتادة: ذكر لنا أن كعبًا كان يقول فى تبع: نُعِت نَعْت الرجل الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإنه قد كان رجلاً صالحاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لَهِيعَة، عن أبى زُرْعَة ـ يعنى عمرو بن جابر الحضرمى ـ قال: سمعت سهل بن سعد الساعدى يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإنه قد كان أسلم».

ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لَهِيعة، به[٥].

وقال الطبرانى: حدثنا أحمد بن على الأبار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بَزَّة، حدثنا مؤمل ابن إسماعيل، حدثنا سفيان، عن سِمَاك بن حرب، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «لا تسبوا تبعا؛ فإنه قد أسلم»[٦].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن أبى ذئب، عن المَقْبُرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدرى، تُبَّع نبياً كان أم غير نبى»[٧].

---

(١) فى ت: «ابن». (٢) فى م: «مليكرب». (٣) فى ت، م، أ: «وستة».
(٤) فى ت، م، أ: «نبى فى آخر الزمان».
(٥) المسند (٥/ ٣٤٠) قال الحافظ ابن حجر فى تخريج الكشاف: «فيه ابن لهيعة، وعمرو بن جابر، وهما ضعيفان».
(٦) المعجم الكبير (١١/ ٢٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٦): « فيه أحمد بن أبى بزة المكى، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».
(٧) ورواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ٢٧٠) من طريق عبد الرزاق بهذا اللفظ.

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبى حاتم كما أورده ابن عساكر: «لا أدرى، تُبَّع كان لعيناً[(١)] أم لا؟». فالله أعلم.

ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى البدى[(٢)]، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمران أبو الهذيل، أخبرنى تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن أبى رباح: لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإن رسول الله ﷺ نهى[(٣)] عن سبه[(٤)].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم قال: ﴿ **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ**﴾ وهو يوم القيامة، يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين.

وقوله: ﴿ **مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ أى: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، ﴿ **يَوْمَ لا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا**﴾ أى: لا ينفع قريب قريباً، كقوله: ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: ﴿**وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ**﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً.

وقوله: ﴿ **وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ أى: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج.

ثم قال: ﴿ **إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ** ﴾ أى: لا ينفع يومئذ إلا من رحمه الله، عز وجل، لخلقه[(٥)] ﴿ **إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ أى: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به [عباده][(٦)] الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿ **إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ .**

---

(١) فى أ: «نبيا». (٢) فى أ: «المدنى». (٣) فى ت، أ: «قد نهى».
(٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٧١).
(٥) فى أ: «إلا رحمة الله بخلقه». (٦) زيادة من ت، أ.

﴿طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ والأثيم: أى فى قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك فى دخوله فى هذه الآية، ولكن ليست خاصة به.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم[١]، عن همام بن الحارث؛ أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: **﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ﴾**، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أى: ليس له طعام غيرها.

قال مجاهد: ولو وقعت منها قطرة فى[٢] الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعاً.

وقوله: **﴿كَالْمُهْلِ﴾** قالوا: كعكر الزيت **﴿تغلى[٣] فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾** أى: من حرارتها ورداءتها. وقوله: **﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾** أى: [خذوا] [٤] الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: **﴿خُذُوهُ﴾** ابتدره سبعون ألفاً منهم.

﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أى: سوقوه سحبا ودفعا فى ظهره.

قال مجاهد: **﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾** أى: خذوه فادفعوه.

وقال الفرزدق:

لَيسَ الكِرَامُ بِنَاحِلِيكَ أَبَاهُمُ ... حَتَّى تُرَدَّ إلى عَطِيَّة تُعْتَلُ[٥] [٦]

﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أى: وسطها، **﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾**، كقوله: **﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾** [الحج: ١٩، ٢٠].

وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد، تفتح[٧] دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل فى بدنه، فيسلت ما فى بطنه من أمعائه، حتى تمرق[٨] من كعبيه ـ أعاذنا الله تعالى من ذلك.

وقوله: **﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾** أى: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أى لست بعزيز ولا كريم.

وقد قال[٩] الأموى فى مغازيه: حدثنا أسباط، حدثنا أبو بكر الهذلى، عن عكرمة قال: لقى رسول الله ﷺ أبا جهل ـ لعنه الله ـ فقال: «إن الله تعالى أمرنى أن أقول لك: **﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾**» [القيامة: ٣٤، ٣٥] قال: فنزع ثوبه من يده[١٠] وقال: ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شيء. ولقد علمت أنى أمنع[١١] أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته، وأنزل: **﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾**[١٢].

وقوله: **﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾**، كقوله: **﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي**

---

(١) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده». (٢) فى ت: «على». (٣) فى ت: «يغلى».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى أ: «مقتل».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٨٠).
(٧) فى أ: «فيفتح». (٨) فى أ: «يمزق». (٩) فى ت: «روى».
(١٠) فى ت، أ: «بدنه». (١١) فى ت: «أنى من أمنع».
(١٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٤١٨) وهو مرسل.

كُنتم بها تُكَذّبُون أَفَسِحرٌ هَذا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال هاهنا: ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ(٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر [حال][١] السعداء ـ ولهذا سُمِّى القرآن مثانى ـ فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: لله فى الدنيا ﴿ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أى: فى الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع[٢] وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾. وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجر [٣] الزقوم، وشرب الحميم.

وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها[٤]، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾، وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالى القماش، ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ أى: على السرر، لايجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتى ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤] ، ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨] ، ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال [٥] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطار، حدثنا عمر بن سعد، عن رجل، عن أنس ـ رفعه نوح ـ قال: لو أن حوراء بَزَقَت فى بحر لُجِّيٍّ، لعَذُبَ ذلك الماء لعذوبة ريقها[٦].

وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أى: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم [٧] كلما أرادوا.

وقوله: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾: هذا الاستثناء يؤكد النفى، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا [٨] موت، ويا أهل النار، خلود فلا [٩] موت» وقد تقدم الحديث فى سورة مريم[١٠].

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى م: «وجوع». (٣) فى ت،م: «شرب».
(٤) فى ت:«وغيرها». (٥) فى ت: «وروى».
(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣٨٦) من وجه آخر، فرواه من طريق محمد بن إسماعيل الحسانى، عن منصور الواسطى، عن أبى النصر الأبار، عن أنس مرفوعاً بنحوه.
(٧) فى ت، م، أ:«لهم». (٨، ٩) فى أ:«بلا».
(١٠) انظر: تخريج الحديث عند الآية:٣٩ من سورة مريم.

وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى مسلم الأغر، عن أبى سعيد وأبى هريرة، رضى الله عنهما، قالا: قال رسول الله :«يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً». رواه مسلم، عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به[(١)].

هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق «أبو مسلم الأغر»، وأهل المدينة يقولون:«أبو عبد الله الأغر»[(٢)].

وقال أبو بكر بن أبى داود السجستانى: حدثنا أحمد بن حفص، عن أبيه، عن إبراهيم بن طَهْمَان، عن الحجاج ـ هو ابن حجاج [(٣)] ـ عن عبادة[(٤)]، عن عبيد الله بن عمرو، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة، ينعم فيها ولا يبأس، ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»[(٥)].

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليمان ابن عبيد الله الرقى، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفى، عن يحيى بن سعيد الأنصاى، عن محمد بن المُنْكَدر، عن جابر، رضى الله عنه، قال: سُئل نبى الله ﷺ : أينام أهل الجنة؟ فقال:«النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»[(٦)].

وهكذا رواه أبو بكر بن مُرْدَوُيه فى تفسيره: حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصرى، حدثنا المقدام بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثورى، عن محمد بن المْنكَدِر، عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»[(٧)].

وقال أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفِريابى، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قيل: يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت». ثم قال: «لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثورى، ولا عن الثورى، إلا الفريابى»[(٨)] هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من [(٩)] العذاب الأليم فى دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب؛

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٧).

(٢) والأول هو الصواب كما بين ذلك الإمام المزى فى تهذيب الكمال.

(٣) فى أ:«الحجاج». (٤) فى م،أ:«قتادة».

(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم(٤٨٩٥) «مجمع البحرين» من طريق أحمد بن حفص به.

(٦) المعجم الأوسط برقم (٤٨٧٥) «مجمع البحرين» وفى إسناده مصعب بن إبراهيم العبسى، منكر الحديث.

(٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٧/ ٩٠) من طريق أحمد بن القاسم عن المقدام بن داود به، وقال: «غريب من حديث الثورى، تفرد به عبد الله».

(٨) مسند البزار برقم (٣٥١٧) «كشف الأستار» قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٥): «رجال البزار رجال الصحيح».

(٩) فى ت: «عن».

ولهذا قال: ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي: إنما كان هذا [١] بفضله عليهم وإحسانه إليهم، كما ثبت فى الصحيح [٢] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يُدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدنى الله برحمة منه وفضل» [٣].

وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذى أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذى هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: يتفهمون ويعملون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله مسليا له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: انتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أي: فسيعلمون [٤] لمن يكون النصر والظفر وعُلُو الكلمة فى الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

آخر تفسير سورة الدخان، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة

---

(١) فى ت: «ذلك».

(٢) فى أ: «الصحيحين».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٤٦٧) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٤) فى م: «فستعلمون».

سورة الدخان

مكّيّة إلّا قولَه: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾[1] الآية [الدخان، ٤٤/١٥]،
وهي[2] سبع وخمسون، أو[3] تسع وخمسون آيةً.[4]

/ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [٧٤و]

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾

﴿حمٓ ۞ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الكلام فيه كالذي سلَف في السورة السابقة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ المبينَ الذي هو القرآن ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي ليلة القَدْر. وقيل: ليلة البَراءة. ابتُدِئ فيها إنزالُه، أو أُنزلَ فيها جملةً إلى السماء الدنيا مِن اللوح، وأملاه جبريل عليه السلام على السَّفَرة، ثمّ كان يُنزله على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نُجومًا في ثلاث وعشرين سنةً، كما مرّ في سورة الفاتحة.

ووصفُها بالبركة لِما أنّ نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينيّة والدنيويّة بأجمَعها، أو لِما فيها مِن تَنزّل الملائكة والرحمة، وإجابةِ الدعوة، وقَسمِ النعمة، وفَصلِ الأقضية، وفَضيلةِ العبادة، وإعطاءِ تمام الشفاعة لرسول الله عليه السلام.[5] وقيل: يزيد في هذه الليلة ماءُ زمزم زيادةً ظاهرة.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئناف مبيّن لِما يقتضي الإنزال، كأنّه قيل: إنّا أنزلناه لأنّ مِن شأننا الإنذار والتحذير مِن العقاب. وقيل: جواب للقسَم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾... إلخ اعتراض. وقيل: جواب ثانٍ بغير عاطِف.

---

١ س ي – قليلًا.
٢ ي – وهي
٣ س: وقيل.
٤ ي: سبع أو تسع وخمسون آيةً.
٥ س: صلّى الله عليه وسلّم.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ استئناف كما قبله، فإنّ كونها مَفرِق الأمور المُحكمة، أو الملتبِسة بالحكمة الموافِقة لها يستدعي أن يَنزل فيها القرآن الذي هو مِن عظائمها. وقيل: صفة أخرى لـ﴿لَيْلَةٍ﴾،[1] وما بينهما اعتراض، وهذا يدلّ على أنّها ليلة القدر.

ومعنى ﴿يُفْرَقُ﴾ أنّه يُكتب ويُفصَل كلّ أمر حكيم مِن أرزاق العباد وآجالِهم وجميع أمورهم مِن هذه الليلة إلى الأخرى مِن السنة القابلة.

وقيل: يُبدأ في استنساخ ذلك مِن اللوح في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القَدْر، فتُدفع نسخةُ الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخةُ الحروب إلى جبريل، وكذا الزلازل والخَسف والصواعق، ونسخةُ الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا، وهو ملَك عظيم، ونسخةُ المصائب إلى ملَك الموت عليهم السلام.[2]

وقُرئ: "يُفَرَّقُ" بالتشديد.[3] وقُرئ: "يَفْرُقُ"[4] على البناء للفاعل، أي: يَفرُق الله تعالى كلَّ أمر حكيم. وقُرئ: / "نَفْرِقُ" بنون العظَمة.[5] [٧٤ظ]

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ نصب على الاختصاص، أي: أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلًا مِن عندنا على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافيّة بعد بيان فخامته الذاتيّة، ويجوز كونه حالًا مِن ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾[6] لتخصّصه بالوصف، أو مِن ضميره في ﴿حَكِيمٍ﴾.[7] وقد جُوّز أن يراد به مقابل النهي، ويُجعلَ مصدرًا مؤكِّدًا لـ﴿يُفْرَقُ﴾[8] لاتّحاد الأمر والفرقان في المعنى، أو لفعله المُضمَر لِما أنّ الفَرق به، أو حالًا مِن أحد ضميرَي ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾،[9] أي: آمرين، أو مأمورًا.

---

١ في الآية السابقة.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٧١/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣١١/١٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

٦ في الآية السابقة.

٧ في الآية السابقة.

٨ في الآية السابقة.

٩ الدخان، ٣/٤٤.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ بدل مِن ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.[١] وقيل: جواب ثالث. وقيل: مستأنَف.

وقوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ غاية للإرسال متأخِّرة عنه، على أنّ المراد بها الرحمةُ الواصلة إلى العباد، وباعث متقدِّم عليه، على أنّ المراد مبدؤها، أي: إنّا أنزلنا القرآن لأنّ مِن عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، أو لاقتضاء رحمتنا السابقة إرسالَهم. ووضعُ "الربّ" موضعَ الضمير للإيذان بأنّ ذلك مِن أحكام الربوبيّة ومقتضياتها، وإضافته إلى ضميره عليه السلام لتشريفه.

أو[٢] تعليلٌ لـ﴿يُفۡرَقُ﴾،[٣] أو لقوله تعالى: ﴿أَمۡرٗا﴾،[٤] على أنّ قوله تعالى:[٥] ﴿رَحۡمَةٗ﴾ مفعول للإرسال، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر، ٣٥/٢]، أي: يُفرَقُ فيها كلّ أمر، أو يُصدَر الأوامر مِن عندنا؛ لأنّ مِن عادتنا إرسالَ رحمتنا.

ولا ريبَ في أنّ كلًّا مِن قسمة الأرزاق وغيرِها والأوامرِ الصادرة عنه تعالى مِن باب الرحمة، فإنّ الغاية لتكليف العباد تعريضُهم للمنافع.

وقُرئ: "رَحۡمَةٌ" بالرفع،[٦] أي: تلك رحمةٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تحقيق لربوبيّته تعالى، وأنّها لا تحِقّ إلّا لمَن هذه نُعوته.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ بدل مِن ﴿رَبِّكَ﴾،[٧] أو بيان، أو نَعت. وقُرئ بالرفع[٨] على أنّه خبر آخَر، أو استئناف على إضمار مبتدأ.

---

[١] الدخان، ٤٤/٣.
[٢] وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "بدل". «منه».
[٣] الدخان، ٤٤/٤.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] م - تعالى.
[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.
[٧] في الآية السابقة.
[٨] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧١.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مِن أهل الإيقان في العلوم، أو إن كنتم موقنين في إقراركم بأنّه تعالى / ربّ السماوات والأرض وما بينهما إذا سُئلتُم: مَن خلَقَها؟ فقلتم: اللهُ، عَلِمتم أنّ الأمر كما قلنا، أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك. [٧٥و]

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٨﴾

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها. وقيل: خبر لقوله تعالى:[١] "رَبُّ السَّمَاوَاتِ"... إلخ،[٢] وما بينهما اعتراض.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مستأنَفة كما قبلها، وكذا قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بإضمار مبتدأ، أو بدل مِن "رَبُّ السَّمَاوَاتِ" على قراءة الرفع، أو بيان، أو نَعت له. وقيل: فاعل لـ﴿يُمِيتُ﴾، وفي ﴿يُحْيِۦ﴾ ضمير راجع إلى ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.[٣] وقُرِئا بالجرّ[٤] بدلًا مِن ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٥] على قراءة الجرّ.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٣﴾

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ ممّا ذُكر مِن شئونه تعالى غيرُ موقنين في إقرارهم، ﴿يَلْعَبُونَ﴾ لا يقولون ما يقولون عن جِدٍّ وإذعان؛ بل مخلوطًا بهُزءٍ ولعِب.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ لترتيب الارتقاب أو الأمرِ به على ما قبلها، فإنّ كونهم في شكّ ممّا يوجب ذلك حتمًا، أي: فانتظر لهم ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: يومَ شدّةٍ ومجاعةٍ، فإنّ الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، إمّا لضَعف بصره، أو لأنّ في عام القحط يُظلِم الهواء لقِلّة الأمطار وكثرة الغُبار، أو لأنّ العرب تُسمِّي الشرّ الغالبَ دخانًا.

---

١ م - تعالى.
٢ في الآية السابقة، على قراءة الرفع.
٣ في الآية السابقة.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن والشيرازي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.
٥ في الآية السابقة.

وذلك أنّ قريشًا لمّا استعصت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا عليهم فقال: «اللّٰهمّ اشدُد وَطْأتكَ على مُضَر، واجعلها عليهم سنين كَسِني يوسف»، فأخذَتْهم سَنة حتّى أكلوا الجِيَفَ والعظامَ والعِلْهِزَ، وكان الرجل يَرى بين السماء والأرض الدخانَ، وكان يحدِّث الرجلَ ويسمع كلامه ولا يراه مِن الدخان. وذلك قوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يحيط بهم. ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: قائلين ذلك. فمَشى إليه عليه السلام أبو سفيان ونفَرٌ معه، وناشدوه اللهَ تعالى والرحِمَ، وواعدوه إن دعا لهم وكُشِف عنهم أن يؤمنوا،[١] وذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

وهذا قول ابن عبّاس وابن مسعود رضي الله تعالى[٢] عنهم، / وبه أخذ مجاهد ومقاتل، وهو اختيار الفرّاء والزجّاج.[٣] [٧٥ظ]

وقيل: هو دخان يأتي مِن السماء قَبل يوم القيامة، فيدخل في أسماع الكفرة حتّى يكون رأسُ الواحد كالرأس الحَنيذ،[٤] ويَعتري المؤمنَ منه كهيئة الزكام، ويكون الأرض كلّها كبيت أُوقِد فيه ليس فيه خَصاص.[٥]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أوّلُ الآيات الدخان، ونزولُ عيسى بن مريم عليه السلام،[٦] ونارٌ تخرج مِن قَعر عَدَنِ أَبْيَنَ[٧] تسوق الناس إلى المَحشر، قال حذيفة:[٨] «يا رسول الله، وما الدخان؟»، فتلا الآية، وقال: «يَملأُ ما بين المَشرق والمَغرب، يمكث أربعين يومًا وليلةً، أمّا المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأمّا الكافر فهو كالسكران يخرج مِن مَنْخِرَيهِ وأُذُنيه ودُبره».[٩]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٣/٤. وانظر: صحيح البخاري، ١٦٠/١ (٨٠٤)؛ ٢٦/٢ (١٠٠٧)؛ وصحيح مسلم، ٤٦٦/١ (٦٧٥)؛ ٢١٥٥/٤ (٢٧٩٨).

٢ س – تعالى.

٣ وفي هامش م: كذا في اللباب. «منه». | اللباب لابن عادل، ٣١٥/١٧.

٤ الحَنِيذ: المَشوي. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حنذ».

٥ الخَصاص: الفُرَج، مفرده: خَصاصة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «خصص».

٦ س – عليه السلام.

٧ عَدَن أَبْيَن: بلد باليمن، نُسب الى "أَبيَن"، وهو رجل مِن حِميَر أقام بها. الجبال والأمكنة والمياه للزمخشري، ٢٣٧/١.

٨ س: خذيفة.

٩ جامع البيان للطبري، ١٩/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥١/٨.

والأوّل هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم قطعًا، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾... إلخ ردّ لكلامهم واستدعائِهم الكشفَ، وتكذيبٌ لهم في الوعد بالإيمان المنبئ عن التذكّر والاتّعاظ بما اعتراهم مِن الداهية، أي: كيف يتذكّرون. أو مِن أين يتذكّرون بذلك، ويَفُون بما وعدوه مِن الإيمان عند كشف العذاب عنهم ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: والحال أنّهم شاهدوا مِن دواعي التذكّر وموجِبات الاتّعاظ ما هو أعظم منه في إيجابهما حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبيّن لهم مناهج الحقّ بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تَخِرّ لها صُمُّ الجبال؟

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ١٥﴾

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ عن ذلك الرسول وهو هو، رَيثَما شاهدوا منه ما شاهدوا مِن العظائم الموجِبةِ للإقبال إليه، ولم يقتنعوا بالتولّي، ﴿وَقَالُواْ﴾ في حقّه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: قالوا تارةً: "يُعلّمه غلام أعجمي لبعض ثقيف"، وأخرى: "مجنون"، أو يقول بعضهم كذا، وآخرون كذا، فهل يُتوقّع مِن قوم هذه صفاتهم أن يتأثّروا بالعِظة والتذكير؟ وما مَثَلُهم إلّا كمَثَل الكلب، إذا جاعَ ضَغا،[١] وإذا شَبع طَغا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ جواب مِن جهته تعالى عن قولهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[٢] بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتهديد، وما بينهما اعتراض، أي: إنّا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، إنّكم تعودون إثرَ ذلك إلى ما كنتم عليه مِن العتوّ والإصرار على الكفر، وتنسون هذه الحالة.

وصيغة الفاعل في الفعلين للدلالة على تحقّقهما لا محالةَ، ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فما لبِثوا أن عادوا إلى ما كانوا فيه مِن العتوّ والعِناد. ومَن فسّر "الدخان" بما هو مِن الأشراط قال: إذا جاء الدخان تضوّر المعذّبون به مِن الكفّار والمنافقين وغوّثوا، وقالوا:

---

١ ضَغَا يَضْغُو ضَغْوًا وضُغاءً: صَوّتَ وصاحَ. انظر: لسان العرب لابن منظور، «ضغا».

٢ الدخان، ١٢/٤٤.

﴿رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾،[١] فيكشفه الله تعالى عنهم بعد أربعين يومًا، فرَيثما يكشفه عنهم يرتدّون ولا يتمهّلون.

﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾

﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ أي: يومَ القيامة. وقيل: يومَ بدر. وهو ظرف لِما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لا لِـ﴿مُنتَقِمُونَ﴾؛ لأنّ "إنّ" مانعة عن ذلك، أي: يومئذ ننتقم، إنّا منتقمون. وقيل: هو بدل مِن ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي﴾... إلخ.[٢]

وقُرئ: "نُبْطِشُ"،[٣] أي: نَحمل الملائكة على أن يَبطِشوا بهم البطشةَ الكبرى؛ وهو التناول بعُنف وصَولة، أو نَجعلُ البطشةَ الكبرى باطشةً بهم. وقُرئ: "نَبطُشُ" بضمّ "الطاء"،[٤] وهي لغة.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧﴾

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: امتحنّاهم بإرسال موسى عليه السلام، أو أَوقَعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم. وقُرئ بالتشديد،[٥] للمبالغة، أو لكثرة القوم.

﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى، أو على المؤمنين، أو في نفسه؛ لأنّ الله تعالى لم يبعث نبيًا إلّا مِن سَراة قومه وكِرامهم.

﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨﴾

﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي بأن أَدُّوا إليّ بني إسرائيل، وأرسِلوهم معي، أو بأن أَدُّوا إليّ يا عبادَ الله حقَّه مِن الإيمان وقَبول الدعوة. وقيل: ﴿أَنۡ﴾ مفسِّرة؛ لأنّ مجيء الرسول لا يكون إلّا برسالة ودعوة. / وقيل: مخفَّفة مِن الثقيلة، أي: [٧٦ظ]
جاءهم بأنّ الشأن أدّوا إليّ... إلخ.

---

١ الدخان، ١٢/٤٤.

٢ الدخان، ١٠/٤٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.

٤ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب المأمور به، أي: رسولٌ غيرُ ظَنِين، قد ائتمنَني الله تعالى على وَحيِه وصدَّقني بالمعجزات القاهرة.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتكبَّروا عليه تعالى بالاستهانة بوَحيه وبرسوله. و﴿أَن﴾ كالتي سلَفت.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي آتِيكُم﴾ أي: مِن جهته تعالى ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ تعليل للنهي، أي: آتيكم بحجَّة واضحة لا سبيلَ إلى إنكارها. و﴿آتِيكُم﴾ على صيغة الفاعل أو المضارع. وفي إيراد الأداء مع الأمين والسلطانِ مع العَلاء مِن الجزالة ما لا يخفى.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: التجأتُ إليه وتوكّلت عليه ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ مِن أَن تَرجُموني، أي: تُؤذوني ضَربًا أو شَتمًا، أو أن تقتلوني. قيل: لمّا قال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾[1] توعَدوه بالقتل. وقُرئ بإدغام "الذال" في "التاء".[2]

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: وإن كابَرتم مقتضى العقل، ولم تؤمنوا لي، فخلّوني كَفافًا، لا عليّ ولا لي، ولا تتعرَّضوا لي بشرّ ولا أذًى، فليس ذلك جزاءَ مَن يدعوكم إلى ما فيه فَلاحكم. وحملُه على معنى: فاقطعوا أسباب الوصلة عنّي، فلا موالاةَ بيني وبين مَن لا يؤمن؛[3] يأباه المقام.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعد ما تَموا على تكذيبه عليه السلام ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: بأنّ هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ وهو تعريض بالدعاء عليهم بذِكر ما استوجبوه به،

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف، وهشام بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/١٦.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/٢٧٤.

ولذلك سُمِّي دعاءً. وقُرئ بالكسر[١] على إضمار القول. قيل: كانَ دعاؤه: "اللّٰهمّ عجّل لهم ما يستحقّونه بإجرامهم".[٢] وقيل: هو قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس، ٨٥/١٠].

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ بإضمار القول، إمّا بعد "الفاء"، أي: فقال ربُّه: أسْرِ بعبادي، وإمّا قبلَها، كأنّه قيل: قال: إن كان الأمر كما تقول فأسْرِ بعبادي، أي: ببني إسرائيل، فقد دبّر الله تعالى أن تتقدّموا. وقُرئ بوَصل "الهمزة"،[٣] مِن "سَرَى". ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: يتّبعكم فرعون وجنوده بعد ما علِموا بخروجكم.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ مفتوحًا، ذا فجوة واسعةٍ، أو ساكنًا على هيئته بعد ما جاوزته، / ولا تضربه بعصاك لينطبق، ولا تغيّره عن حاله ليدخله القِبط. ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وقُرئ: "أَنَّهُمْ" بالفتح،[٤] أي: لأنّهم. [٧٧و]

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧﴾

﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ أي: كثيرًا تركوا بمصر ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ محافلَ مزيّنةٍ، ومنازلَ محسّنة.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ أي: تنعُّم ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ متنعّمين. وقُرئ: "فَكِهِينَ".[٥]

﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ "الكاف" في حيّز النصب، وذلك إشارة إلى مصدر فعل يدلّ عليه ﴿تَرَكُوا۟﴾،[٦] أي: مثلَ ذلك السّلب سلبناهم إيّاها، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير والحسن وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٥/٤.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢٧٦/٤.

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢.

٦ الدخان، ٢٥/٤٤.

وقيل: مثلَ ذلك الإخراج أخرجناهم منها. وقيل: في حيّز الرفع على الخبريّة، أي: الأمرُ كذلك، فحينئذ يكون ﴿أَوْرَثْنَٰهَا﴾ معطوفًا على ﴿تَرَكُواْ﴾،[١] وعلى الأوّلَين على الفعل المقدَّر.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث بهَلاكهم، والاعتدادِ بوجودهم. فيه تَهكّم بهم وبحالهم المنافيةِ لحال مَن يعظم فَقْدُه، فيُقال له: "بكَت عليه السماء والأرض"، ومنه ما رُوي: «إنّ المؤمن لَيَبكي عليه مُصَلّاه، ومحلُّ عبادته، ومصاعِدُ عمله، ومَهابطُ رزقه، وآثارُه في الأرض».[٢] وقيل: تقديره: أهلُ السماء والأرض.

﴿وَمَا كَانُواْ﴾ لمّا جاء وقتُ هلاكهم ﴿مُنظَرِينَ﴾ مُمهَلين إلى وقتٍ آخَر، أو إلى الآخرة؛ بل عُجِّل لهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١﴾

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بما فعلنا بفرعون وقومِه ما فعلنا ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ مِن استعباد فرعون إيّاهم، وقتلِ أبنائهم، واستحياءِ نسائهم على الخَسف والضَّيم.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْعَذَابِ﴾،[٣] إمّا على جعله نفسَ العذاب لإفراطه فيه، وإمّا على حذف المضاف، أي: عذابِ فرعون، أو حالٌ مِن ﴿ٱلْمُهِينِ﴾، أي: كائنًا مِن فرعون. وقُرئ: "مَن فِرْعَونُ"،[٤] على معنى: هل تعرفونه مَن هو في عُتوّه وتَفرعُنه؟

---

١ الدخان، ٤٤/٢٥.

٢ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما موقوف عليه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٧٧. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢١/٤٢؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٤/٥٥٩ (٣٠١٨).

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٠٤.

وفي إبهام أمره أوّلًا وتبيينه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ثانيًا مِن / الإفصاح عن كُنه أمره في الشرّ والفساد ما لا مزيد عليه. [٧٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ إمّا خبر ثانٍ لـ﴿كَانَ﴾، أي: كان متكبّرًا مُسرفًا، أو حال مِن الضمير في ﴿عَالِيًا﴾، أي: كان رفيع الطبقة مِن بين المسرفين، فائقًا لهم بليغًا في الإسراف.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالِمين بأنهم أحِقّاء بالاختيار، أو عالِمين بأنّهم يَزيغون في بعض الأوقات، ويكثُر منهم الفرَطات، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جميعًا لكثرة الأنبياء فيهم، أو على عالَمي زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفَلْق البحر، وتظليلِ الغَمام، وإنزالِ المَنّ والسلوى، وغيرِها مِن عظائم الآيات التي لم يُعهَد مِثلُها في غيرهم ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ نِعمةٌ جليّة، أو اختبارٌ ظاهر؛ لننظر كيف يعملون.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٦﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفّارَ قريش؛ لأنّ الكلام فيهم، وقصّةُ فرعونَ وقومِه مَسوقة للدلالة على تماثلهم في الإصرار على الضلالة، والتحذيرِ عن حُلول مثل ما حلّ بهم. ﴿لَيَقُولُونَ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما العاقبةُ ونهايةُ الأمر إلّا الموتةَ الأولى المزيلةَ للحياة الدنيويّة. ولا قصدَ فيه إلى إثبات موتةٍ أخرى، كما في قولك: "حَجّ زيد الحِجّة الأولى ومات".

وقيل: لمّا قيل لهم: إنكم تموتون موتةً تعقُبها حياة، كما تقدّمَتكم موتة كذلك، قالوا: "ما هي إلّا موتتنا الأولى"، أي: ما الموتة التي تعقُبها حياةٌ إلّا الموتةَ الأولى. وقيل: المعنى: ليست الموتةُ إلّا هذه الموتةَ دون الموتةِ التي تعقُب حياةَ القبر كما تزعمون. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمَبعوثين.

﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَا﴾ خطاب لمَن وعدهم بالنشور مِن الرسول عليه السلام والمؤمنين. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعِدونه مِن قيام الساعة وبعثِ الموتى، ليظهر أنّه حقّ. وقيل: كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله تعالى فيُنْشِرَ لهم قصيَّ بن كلاب ليشاوروه، وكان كبيرَهم ومَفزعَهم / في المهمّات والملمّات.[١] [٧٨و]

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ٣٧﴾

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ ردّ لقولهم، وتهديد لهم، أي: أهُم خير في القوّة والمنَعَة اللّتين يُدفَع بهما أسباب الهلاك، ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تُبّع الحِميَري الذي سار بالجيوش وحَيّر الحِيرة[٢] وبنى سمرقندَ. وقيل: هدَمها.[٣] وكان مؤمنًا، وقومُه كافرين، ولِذلك ذمّهم الله تعالى دونه، وكان يكتب في عنوان كتابه: "بسم الذي ملَك بحرًا وبحرًا"، أي: بحارًا كثيرةً.

وعنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تسبّوا تُبّعًا، فإنّه كان قد أسلم».[٤] وعنه عليه السلام: «ما أدري أكان تُبّعٌ نبيًّا أو غير نبيّ».[٥] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٦] «أنّه كان نبيًّا».[٧]

وقيل لملوك اليمن: التبابعة؛ لأنّهم يُتبَعون، كما يقال لهم: الأقيال؛ لأنّهم يُتَقَيّلون.[٨]

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، والمرادُ بهم: عاد وثمود وأضرابُهم مِن كلّ جبّار عنيد أولي بأسٍ شديد. والاستفهام لتقرير أنّ أولئك أقوى مِن هؤلاء.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٧٩.

٢ "الحِيرة" مدينة بقُرب الكوفة، ومعنى "حَيَّرها": بناها ونظَّمَ أمرَها وصيَّرها مدينةً، كما يقال: مَدَّن المدينةَ، ومَصَّرَ مِصرًا. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٨/١٠.

٣ فسمّيت لذلك "سمرقند"؛ إذ معناها الحَفر والتخريب. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٨/١٠. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢١/٤٩.

٤ مسند أحمد، ٣٧/٥١٩ (٢٢٨٨٠)؛ المعجم الكبير للطبراني، ١١/٢٩٦ (١١٧٩٠).

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٥٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٨٠.

٦ م - رضي الله عنهما.

٧ الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٨٠؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥/١٥٩.

٨ "يُتَقَيّلون" بالبناء للمجهول، مِن قولهم: "تَقَيَّلَ فلان أباه" إذا اقتدى به كما قاله الراغب في مفرداته، ص ٦٨٩. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٨/١٠.

وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ استئناف لبيان عاقبة أمرِهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم، ليُعلَم أنّ أولئك حيث أُهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا في غاية القوّة والشدّة فلأنْ يُهلَكَ هؤلاء وهم شركاء لهم في الإجرام أضعفُ منهم في الشدّة والقوّة أولى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين الجنسين. وقُرئ: "وَمَا بَيْنَهُنَّ".[١] ﴿لَٰعِبِينَ﴾ لاهِينَ مِن غير أن يكون في خلقها غرض صحيح وغاية حميدة.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَا﴾ وما بينهما ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أو أعمِّ الأسباب، أي: ما خلقناهما ملتبِسًا بشيء مِن الأشياء إلّا ملتبِسًا بالحقّ، أو ما خلقناهما بسببٍ مِن الأسباب إلّا بسبب الحقّ الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، فيُنكرون البعثَ والجزاء.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: فصلِ الحقّ عن الباطل، وتمييزِ المُحقّ مِن المُبطِل، وفصلِ الرجل عن أقاربه وأحبّائه ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ وقتُ موعدهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾. / وقُرئ: "مِيقَاتَهُمْ"[٢] بالنصب على أنّه اسم ﴿إِنَّ﴾، و﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ خبرُها، أي: إنّ ميعاد حسابهم وجزائِهم في يوم الفَصل. [٧٨ظ]

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾،[٣] أو صفة لـ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾،[٤] أو ظرف لِما دلّ عليه ﴿ٱلْفَصْلِ﴾، لا لنفسه. ﴿مَوْلًى﴾ مِن قَرابة أو غيرها ﴿عَن مَّوْلًى﴾ أيِّ مولًى كان

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] في الآية السابقة.

﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير لـ﴿مَوْلًى﴾ الأوّل باعتبار المعنى؛ لأنّه عامّ.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ بالعفو عنه وقَبول الشفاعة في حقّه. ومحلّه الرفع على البدل مِن "الواو"، أو النصب على الاستثناء. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُنصَرُ مَن أراد تعذيبه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمَن أراد أن يرحمه.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ وقُرئ بكسر "الشين".[١] وقد مرّ معنى "الزقّوم" في سورة الصافّات.[٢]

﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي: الكثيرِ الآثام، والمراد به الكافر، لدلالة ما قبله وما بعده عليه.

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو ما يُمْهَلُ في النارِ حتّى يذوب. وقيل: هو دُرديّ الزيت.[٣] ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ وقُرئ بـ"التاء"[٤] على إسناد الفعل إلى "الشجرة". ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ غليانًا كغَلْيه.

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿خُذُوهُ﴾ على إرادة القول، والخطابُ للزبانية. ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: جُرُّوه، و"العَتْلُ" الأخذ بمَجامع الشيء وجَرّه بقَهرٍ وعنف. وقُرئ بضمّ "التاء"،[٥] وهي لغة فيه. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وسطه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كان الأصل: "يُصَبّ مِن فوق رءوسهم الحميم"، فقيل: "يُصبّ مِن فوق رءوسهم عذاب هو الحميم" للمبالغة،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

٢ الصافات، ٦٢/٣٧.

٣ دُرديّ الزيت وغيره: ما يبقى في أسفله. الصحاح للجوهري، «درد».

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

٥ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

ثمّ أضيفَ "العذاب" إلى "الحَميم" للتخفيف، وزِيدَ "مِن" للدلالة على أنّ المصبوب بعضُ هذا النوع.

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ۝٥٠﴾

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ أي: وقولوا له ذلك استهزاءً به وتقريعًا له على ما كان يزعُمه، رُوي أنّ أبا جهل قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما بين جبلَيها[1] أعزُّ ولا أكرمُ منّي، فواللهِ ما تستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بي شيئًا».[2] وقُرئ بالفتح،[3] أي: لِأنّك، أو عذابَ أنّك.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: العذابَ ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ تشكّون / وتمارون فيه. [٧٩و] والجمع باعتبار المعنى؛ لأنّ المراد جنس الأثيم.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: عن الكفر والمعاصي ﴿فِي مَقَامٍ﴾ في موضع قيام، والمراد المكان على الإطلاق، فإنّه مِن الخاصّ الذي شاع استعماله في معنى العموم. وقُرئ بضمّ "الميم"،[4] وهو موضع إقامة. ﴿أَمِينٖ﴾ يأمَن صاحبُه الآفات والانتقالَ عنه، وهو مِن "الأَمْن" الذي هو ضدّ الخيانة، وصفَ به المكان بطريق الاستعارة، كأنّ المكان المُخيف يخونُ صاحبَه بما يَلقى فيه مِن المكاره.

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ بدل مِن ﴿مَقَامٍ﴾[5] جيء به دلالةً على نزاهته واشتماله على طيّبات المآكل والمشارب.

﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ خبر ثانٍ، أو حال مِن الضمير في الجارّ، أو استئناف. و"السُّندُس" ما رَقّ مِن الحرير، و"الإستَبرق" ما غلُظ منه، مُعرّب.

---

[1] وفي هامش م: أي: جبلَي مكّة؛ وهما أبو قُبيس وثَور. «منه».

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٩٢/١٠ (القيامة، ٣٤/٧٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٢/٤.

[3] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

[5] في الآية السابقة.

﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ كذلك، أو كذلك أَثَبناهم، ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ على الوصف. وقُرئ بالإضافة،[١] أي: قَرنّاهم بهِنّ. و"الحُور" جمع "الحَوراء"، وهي البيضاء، و"العِين" جمع "العَيناء"، وهي العظيمة العينَين. واختُلِف في أنّهنّ نساء الدنيا أو غيرُها.

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ أي: يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتَهونه مِن الفواكه، لا يتخصّص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن كلّ ما يسُوءهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٦﴾

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ بل يستمرّون على الحياة أبدًا. والاستثناء منقطع، أو متّصل على أنّ المراد بيان استحالة ذَوق الموت فيها على الإطلاق، كأنّه قيل: لا يذوقون فيها الموتَ إلّا إذا أمكَن ذَوق الموتة الأولى حينئذ. ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وقُرئ مشدَّدًا[٢] للمبالغة في الوقاية.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٥٧﴾

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أُعطُوا ذلك كُلّه عطاءً وتفضّلًا منه تعالى. / وقُرئ بالرفع،[٣] أي: ذلك فضل. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءه؛ إذ هو خلاص عن جميع المكاره ونَيلٌ لكلّ المطالب. [٧٩ظ]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ۝٥٩﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فذلَكة للسورة الكريمة، أي: إنّما أنزلنا الكتاب المبين بلُغتك كي يفهمه قومك، ويتذكّروا به،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

ويعملوا بموجَبه، وإذ لم يفعلوا ذلك ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ فانتظر ما يحُلّ بهم، ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ ما يحُلّ بك.

رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿حمٓ﴾ الدخان ليلةَ جمعة أصبح مغفورًا له».[١]

---

١ مسند أبي يعلى، ١١/١٠٥ (٦٢٣٢)؛ عمل اليوم والليلة لابن السنّي، ص ٦٢٩.

٤٤

سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية، وقيل: إلاّ «إنّا كاشفو العذاب قليلاً» الآية، وهي ستٌّ أو سبع أو تسع وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿حم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿والكِتابِ﴾: القرآنِ ﴿المُبِينِ﴾: المُظهِر الحلالَ من الحرام، ٣ ـ ﴿إنّا أنزَلْناهُ في لَيلةٍ مُبارَكةٍ﴾ هي ليلة القدر أو ليلة النصف من شعبان، نزل فيها من أُمّ الكِتاب من السماء السابعة إلى سماء الدنيا ـ ﴿إنّا كُنّا مُنذِرِينَ﴾: مُخوِّفين به ـ ٤ ـ ﴿فِيها﴾ أي: في ليلة القدر أو ليلة نصف شعبان ﴿يُفرَقُ﴾: يُفصل ﴿كُلُّ أمرٍ حَكِيمٍ﴾: ....

سُورَةُ الدُّخَانِ

قولُهُ: (الحَلالَ) والحقَّ من الباطِلِ.

قولُهُ: (نَزَلَ) أو ابتُدِئَ[1] إنزالُهُ فيها.

قولُهُ: (إلى سَمَاءِ الدُّنيَا) ثمَّ أُنزِلَ إلى الرَّسولِ ﷺ نُجوماً، وبركتُها لذلك ـ فإنَّ نزولَ القرآنِ سببٌ للمنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ـ، أو لِمَا فيها مِن نزولِ الملائكةِ والرَّحمةِ وإجابةِ الدَّعوةِ، كذا قيل، ويمكنُ أن يكونَ الثَّاني أيضاً ببركةِ الأوَّلِ.

قولُهُ: (أي: في لَيْلَةِ القَدرِ) وهو الأصحُّ؛ لقولِهِ تعالى في سورةِ القدرِ: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [٤].

قولُهُ: (يُفْصَلُ) وقُرِئَ بالتَّشديدِ[2].

---

(١) في (م): «ابتدأ».

(٢) أي: (يفرَّق) وهي قراءة شاذة، ونسبت للحسن والأعرج والأعمش، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٣٠).

مُحكَم من الأرزاق والآجال وغيرهما التي تكون في السنة إلى مِثل تلك الليلة ٥ ـ ﴿أمرًا﴾: فرقًا ﴿مِن عِندِنا. إنّا كُنّا مُرسِلِينَ﴾ الرسلَ مُحمّدًا ومَن قبلَه ٦ ـ ﴿رَحْمةً﴾: رأفة بالمُرسَل إليهم ﴿مِن رَبِّكَ﴾.

﴿إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿العَلِيمُ﴾ بأفعالهم، ٧ ـ ﴿رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بَينَهُما﴾، برفع «ربّ» خبرٌ ثالث، وبجرّه بدلٌ من «ربّك» ـ ﴿إن كُنتُم﴾، يا أهل مكّة، ﴿مُوقِنِينَ﴾ بأنه تعالى ربّ السماوات والأرض فأيقنوا بأنّ مُحمّدًا رسوله ـ ٨ ـ ﴿لا إلـٰهَ إلاّ هُوَ، يُحيِي ويُمِيتُ، رَبُّكُم ورَبُّ آبائكُمُ الأوَّلِينَ﴾.

٩ ـ ﴿بَل هُم في شَكٍّ﴾ من البعث، ﴿يَلعَبُونَ﴾ استهزاء بك، يا مُحمّد. فقال: «اللّٰهُمَّ أعِنِّي علَيهِم بسَبعٍ كسَبعِ يُوسُفَ». ١٠ ـ قال تعالى: ﴿فارتَقِبْ﴾ لَهُم ﴿يَومَ تأتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ﴾ ـ فأجدبَتِ الأرض واشتدّ بهم الجوع إلى أن رأَوا من شِدّته كهيئة الدُّخان بين السماء والأرض ـ ١١ ـ ١٢ ـ ﴿يَغشَى النّاسَ﴾، فقالوا: ﴿هذا عَذابٌ ألِيمٌ. رَبَّنا، اكشِفْ عَنّا العَذابَ. إنّا مُؤمِنُونَ﴾: مُصدّقون نبيَّك.

قولُهُ: (فَرْقاً) فنصبُهُ على المصدرِ من غيرِ لفظِهِ، وقيل: من فعلِهِ المقدَّرِ؛ أي: أمَرْنا أمراً، وقيل: علَّةٌ أو حالٌ، وقيل: مفعولُ ﴿مُنْذِرِيْنَ﴾.

قولُهُ: (ومَنْ قَبْلَهُ) من الرُّسلِ.

قولُهُ: (رَأْفَةً) أي: لأجلِ الرَّحمةِ.

قولُهُ: (خَبَرٌ ثَالِثٌ) أو استئنافٌ.

قولُهُ: (وبِجَرِّهِ) للكوفيِّ[1].

قولُهُ: (لَهُم) اللَّامُ للتَّعليلِ.

قولُهُ: (كَهَيئَةِ الدُّخَانِ) من ضعفِ بصرِهِ، أو لأنَّ الهواء يظلمُ عامَ القحطِ لقلَّةِ الأمطارِ وكثرةِ الغبارِ، وقد قُحطُوا حتَّى أكلوا جِيَفَ الكلابِ وعِظامَها، فالمعنى: يومَ شدَّةٍ ومجاعةٍ، أو المرادُ: يومَ ظهورِ الدُّخانِ المعدودِ في أشراطِ السَّاعةِ؛ لأنَّه ﷺ تلا الآيةَ، وقالَ: «يملأُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ، يمكثُ أربعينَ يوماً وليلةً، أمَّا المؤمنُ فيصيبُهُ كهيئةِ الزُّكامِ، وأمَّا الكافرُ فهوَ كالسَّكرانِ يخرجُ مِنْ منخرِهِ وأُذُنيهِ ودُبُرِهِ»[2].

قولُهُ: (فَقَالُوا) الأظهرُ: قائلينَ، أو يُقالُ لهم بلسانِ القالِ أو الحالِ، ويقدَّرُ: فقالوا قبلُ: ﴿ربَّنَا﴾.

قولُهُ: (مُصَدِّقُونَ) وعدٌ بالإيمانِ إن كشَفَ العذابَ عنهُم.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه. وضعفه.

١٣ ـ قال تعالى: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكرَى﴾ أي: لا ينفعهم الإيمانُ عِند نُزول العذاب، ﴿وقَد جاءَهُم رَسُولٌ مُبِينٌ﴾: بيّنُ الرسالةِ، ١٤ ـ ١٥ ـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوا عَنهُ وقالُوا: مُعلَّمٌ﴾ أي: يُعلّمه القُرآنَ بشرٌ، ﴿مَجنُونٌ﴾؟ إنّا كاشِفُو العَذابِ﴾ أي: الجوعِ عنكم زمنًا ﴿قَلِيلاً﴾ ـ فكُشِف عنهم ـ ﴿إنَّكُم عائدُونَ﴾ إلى كُفركم. فعادوا إليه.

١٦ ـ اذكرْ ﴿يَومَ نَبطِشُ البَطْشَةَ الكُبرَى﴾ ـ هو يوم بدر ـ ﴿إنّا مُنتَقِمُونَ﴾ منهم. والبطش: الأخذ بقوّة. ١٧ ـ ﴿ولَقَد فَتَنّا﴾: بلَونا ﴿قَبلَهُم قَومَ فِرعَونَ﴾ معه، ﴿وجاءَهُم رَسُولٌ﴾ هو مُوسَى ـ عليه السلام ـ ﴿كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى، ١٨ ـ ﴿أنْ﴾ أي: بأن ﴿أَدُّوا إلَيَّ﴾ ما أدعوكم إليه من الإيمان، أي: أظهِروا إيمانكم بالطاعة لي ـ يا ﴿عِبادَ اللهِ ـ إنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على ما أُرسلتُ به، ١٩ ـ ﴿وأنْ لا تَعلُوا﴾: تتجبّروا ﴿عَلَى اللهِ﴾ بترك طاعته ـ ﴿إنِّيَ آتِيكُم بِسُلطانٍ﴾: برهان ﴿مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ على رسالتي. فتوعَّدوه بالرجم، ٢٠ ـ فقال: ﴿وإنِّي عُذتُ بِرَبِّي ورَبِّكُم أن تَرجُمُونِ﴾ بالحِجارة ـ ٢١ ـ ﴿وإن لَم تُؤمِنُوا لِي﴾: تُصدّقوني ﴿فاعتَزِلُونِ﴾: فاتركوا أذايَ..........................

قولُهُ: (عِندَ نُزُولِ العَذَابِ) الظَّاهرُ أنَّ العذابَ هو القحطُ، وهو لا ينفِي نفعَ الإيمانِ إلَّا على القولِ بأنَّ الدُّخانَ من أشراطِ السَّاعةِ، وهو يكونُ بعدَ طلوعِ الشَّمسِ من مغرِبِها، فالمعنى الصَّحيحُ: من أينَ لهم وكيفَ يتذكَّرونَ حالَةَ كشفِ العذابِ، وقد جاءَهُم رسولٌ يُبيِّنُ لهم ما هو أعظمُ منها في إيجابِ الإذكارِ من الآياتِ والمعجزاتِ؟

قولُهُ: (زَمَنًا) أو كشفاً.

قولُهُ: (فكُشِفَ) أي: رُفعَ القحطُ بدعاءِ النبيِّ ﷺ[1].

قولُهُ: (يَومُ بَدْرٍ) أو: يومُ القيامةِ.

قولُهُ: (بَلَوْنَا) امتحنَّاهُم بإرسالِ موسى إليهِم، أو: أوقَعْناهُم في الفِتنةِ بالإمهالِ[2]، وتوسيعِ الجاهِ والمالِ.

قولُهُ: (عَلَى اللهِ) أو: على المؤمنينَ، أو: في نفسِهِ؛ لشرفِ نسبِهِ، وفضلِ حسَبِهِ.

قولُهُ: (مَا أَدعُوكُم) أي: حقَّ اللهِ، أو: أدُّوا عبادَ الله إليَّ وأرسلوهُم معي.

قولُهُ: (على مَا أُرسِلْتُ بِهِ) غيرُ متَّهمٍ؛ لدلالةِ المعجزاتِ على صدقِهِ.

قولُهُ: (بالحِجَارَةِ) أو الشَّتمِ، أو الأذى.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٨) عن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) في (م): «بالآمال».

فلم يتركوه، ٢٢ ـ ﴿فدَعا رَبَّهُ أنَّ﴾ أي: بأنّ ﴿هؤُلاءِ قَومٌ مُجرِمُونَ﴾: مُشرِكون، ٢٣ ـ فقال تعالى: ﴿فأَسْرِ﴾، بقطعِ الهمزة ووصلِها، ﴿بِعِبادِي﴾ بني إسرائيل ﴿لَيلاً ـ إنَّكُم مُتَّبَعُونَ﴾: يتّبعكم فِرعَون وقومه ـ ٢٤ ـ ﴿واترُكِ البَحرَ﴾ إذا قطعتَه أنت وأصحابك ﴿رَهْوًا﴾: ساكنًا منفرجًا حتّى يدخله القِبط. ﴿إنَّهُم جُندٌ مُغرَقُونَ﴾. فاطمأنّ بذلك فأُغرقوا.

٢٥ ـ ﴿كَم تَرَكُوا مِن جَنّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿وعُيُونٍ﴾ تجري، ٢٦ ـ ﴿وزُرُوعٍ ومَقامٍ كَرِيمٍ﴾: مجلس حسن، ٢٧ ـ ﴿ونَعْمَةٍ﴾: مُتعة، ﴿كانُوا فِيها فاكِهِينَ﴾ ناعِمين! ـ ٢٨ ـ ﴿كَذلِكَ﴾ خبرُ مُبتدأ، أي: الأمرُ ـ ﴿وأورَثْناها﴾ أي: أموالَهم ﴿قَومًا آخَرِينَ﴾ أي: بني إسرائيل، ٢٩ ـ ﴿فما بَكَتْ علَيهِمِ السَّماءُ والأرضُ﴾ بخِلاف المُؤمنين يبكي عليهم بموتهم مُصلاّهم من الأرض ومَصعَدُ عملهم من السماء، ﴿وما كانُوا مُنظَرِينَ﴾: مُؤخَّرينَ للتوبة.

قولُهُ: (مُشرِكُونَ) مُصرُّون، وهو تعريضٌ بالدُّعاءِ عليهم بذكرِ ما استوجَبوهُ به، ولذلك سُمِّي دعاءً.

قولُهُ: (وَوَصلِهَا) حِزْميٌّ[1].

قولُهُ: (فِرعَونُ) إذا عَلِموا بخروجِكُم.

قولُهُ: (إذا قَطَعْتَهُ) ولا تضرِبهُ بعَصاكَ.

قولُهُ: (سَاكِناً) أو مفتوحاً.

قولُهُ: (فاطمَأَنَّ) أي: موسى وقومُهُ معه.

قولُهُ: (بَسَاتِينَ) أي: كثيراً تَركوا.

قولُهُ: (مُتعَةٍ) وتنعُّمٍ.

قولُهُ: (نَاعِمِينَ) متنعِّمينَ.

قولُهُ: (أي: الأَمرُ) أو: مثلَ ذلك الإخراجِ أخرَجناهُم منها، ويلائمُهُ ما بعدَهُ.

قولُهُ: (أي: بَنِي إِسرَائِيلَ) ويدلُّ عليه ﴿أورثْنَاهَا بني إسرائيلَ﴾، وقيلَ: غيرهُم؛ لأنَّهُم لم يَعودوا إلى مصرَ، ويمكنُ أن يُقالَ: المثبتُ جنسُهُم، والمنفيُّ أشخاصُهُم.

قولُهُ: (يَبكِي عَلَيهِم) وهو كنايَةٌ عن الاكتراثِ بموتِهِم، والاعتدادِ بوجودِهِم، بخلافِ الكفَّارِ، وقيلَ: «أهلُ» مقدَّرٌ.

قولُهُ: (للتَّوبَةِ) أو: ممهلينَ إلى وقتٍ آخرَ.

---

(١) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٣٥).

٣٠ ـ ﴿ولَقَد نَجَّينا بَنِي إسرائيلَ مِنَ العَذابِ المُهِينِ﴾: قتلِ الأبناء واستخدام النساء ٣١ـ٣٢ـ ﴿مِن فِرعَونَ﴾. قيل: بدلٌ من «العذاب» بتقدير مضاف، أي: عذابِ، وقيل: حالٌ من «العذاب» ـ ﴿إنَّهُ كانَ عالِيًا﴾ أي: متكبّرًا مسرفًا ﴿مِنَ المُسرِفِينَ ـ ولَقَدِ اختَرناهُم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿علَى عِلمٍ﴾ منّا بحالهم ﴿علَى العالَمِينَ﴾ أي: عالَمِي زمانهم العُقلاء، ٣٣ ـ ﴿وآتَيناهُم مِنَ الآياتِ ما فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ﴾: نعمةٌ ظاهرة من فلق البحر والمنّ والسلوى وغيرها.

٣٤ ـ ٣٥ ـ ﴿إنَّ هؤُلاءِ﴾ أي: كُفّارَ مكّة ﴿لَيَقُولُونَ: إنْ هِيَ﴾: ما الموتة التي بعدها الحياةُ ﴿إلاّ مَوتَتُنا الأُولَى﴾ أي: وهم نُطَف، ﴿وما نَحنُ بِمُنشَرِينَ﴾: بمبعوثين أحياءً بعد الثانية. ٣٦ ـ ﴿فائْتُوا بِآبائنا﴾ أحياءً، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ أنا نُبعث بعد موتنا أي: نحيا.

٣٧ ـ ٣٨ ـ قال تعالى: ﴿أهُم خَيرٌ أم قَومُ تُبَّعٍ﴾، هو نبيّ أو رجل صالح، ﴿والَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾....

قولُهُ: (واستِخدَامِ النِّساءِ) واستعبادِ فرعَونَ.

قولُهُ: (أي: عَذَابِ) وقيلَ: جُعلَ عذاباً لإفراطِهِ في العذابِ.

قولُهُ: (حَالٌ) بمعنى: واقعاً من جهتِهِ.

قولُهُ: (بحَالِهِم) أي: عالمينَ بأنَّهُم أحقَّاءُ بذلك، أو: معَ علمٍ منَّا بأنَّهُم يزيغونَ في بعضِ الأحوالِ.

قولُهُ: (أي: عَالَمِي زَمَانِهِم) أو لكثرةِ الأنبياءِ فيهم.

قولُهُ: (العُقَلاءِ) يُشكِلُ بالملائكةِ، فالأولى أن يُفسَّرَ بالثَّقلينِ.

قولُهُ: (نِعمَةٌ) أو اختبارٌ.

قولُهُ: (أي: كُفَّارَ مَكَّةَ) وقصَّةُ فرعونَ معترضَةٌ.

قولُهُ: (مَا المَوتَةُ) أي: لمَّا قيلَ لهم: «إنَّكُم تموتونَ موتةً تعقُبُها حياةٌ، كما تقدَّمَتكُم موتةٌ كذلك» قالوا ذلكَ الكلامَ.

قولُهُ: (أَحيَاءً) خطابٌ لمن وعدَهُم بالنُّشورِ من الرَّسولِ والمؤمنينَ.

قولُهُ: (هُو نَبِيٌّ) وعنهُ عليه السَّلامُ: «ما أدري أكانَ تُبَّعٌ نبيًّا أو غيرَ نبيٍّ»[1]، يعني به: الحميريَّ الَّذي سارَ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٠٤)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٣/ ٥٣٥) (٢٦٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبي: لا أعلم له علة.

وروى أبو داود (٤٦٧٤)، وابن شاهين في «ناسخ الحديث» (٦٥٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢١٧٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٥٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «ما أدري أتبَّعُ لعين هو أم لا».

من الأُمم؟ ﴿أهلَكْناهُم﴾ لكُفرهم. والمعنى: ليسوا أقوى منهم وأُهلكوا ـ ﴿إنَّهُم كانُوا مُجرِمِينَ ـ وما خَلَقْنا السَّماواتِ والأرضَ وما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾ بخلق ذلك، حالٌ. ٣٩ ـ ﴿ما خَلَقْناهُما﴾ وما بينهما ﴿إلاّ بِالحَقِّ﴾ أي: مُحِقّينَ في ذلك، يُستدلّ به على قُدرتنا ووحدانيّتنا وغير ذلك، ﴿ولكِنَّ أكثَرَهُم﴾ أي: كُفّارِ مكة ﴿لا يَعلَمُونَ﴾.

٤٠ ـ ﴿إنَّ يَومَ الفَصلِ﴾: يومَ القيامة يفصِل الله فيه بين العباد ﴿مِيقاتُهُم أجمَعِينَ﴾ للعذاب الدائم، ٤١ ـ ﴿يَومَ لا يُغنِي مَولًى عَن مَولًى﴾ بقرابة أو صداقة، أي: لا يدفع عنه ﴿شَيئًا﴾ من العذاب! ﴿ولا هُم يُنصَرُونَ﴾: يُمنعون منه ـ ويومَ: بدل من «يومَ الفصل» ـ ٤٢ ـ ﴿إلاّ مَن رَحِمَ اللهُ﴾، وهم المُؤمنون، فإنه يشفع بعضهم لبعض بإذن الله. ﴿إنَّهُ هُوَ العَزِيزُ﴾: الغالب في انتقامه من الكُفّار ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمُؤمنين.

٤٣ ـ ﴿إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ﴾، هي من أخبث الشجر المرّ بتِهامةَ يُنبتها الله ـ تعالى ـ في الجحيم ٤٤ ـ ﴿طَعامُ الأثِيمِ﴾ كأبي جهل وأصحابه ذوي الإثم الكبير، ....

بالجيوشِ وبنى سمرقندَ، وقيلَ: هَدمَها، كانَ مؤمناً وقومُهُ كافرينَ، ولذلك ذمَّهُمُ اللهُ تعالى دونَهُ.

قولُهُ: (مِنَ الأُمَمِ) كعادٍ وثمودَ.

قولُهُ: (كُفَّارِ مَكَّةَ) بل ﴿أكثرهُم﴾ على إطلاقِهِ لقلَّةِ نظرِهِم.

قولُهُ: (بَينَ العِبَادِ) يعني: فصلَ المُحِقِّ عن المبطِلِ بالجزاءِ، أو المرادُ: يومَ فصلِ الحقِّ عن الباطلِ، أو فصلِ الرَّجلَ عن أقاربِهِ وأحبَّائِهِ.

قولُهُ: (للعَذَابِ) أي: وقتَ موعدِهِم.

قولُهُ: (مِنَ العَذَابِ) أو الإغناءِ.

قولُهُ: (يُمنَعُونَ) والضَّميرُ لـ﴿مَوْلًى﴾ الأوَّلِ باعتبارِ المعنى؛ لأنَّه عامٌّ.

قولُهُ: (بَدَلٌ) أو منصوبٌ بـ(اذكرْ) مقدَّرٍ.

قولُهُ: (وهُم المُؤمِنُونَ) ومحلُّهُ الرَّفعُ على البدلِ من الواوِ، أو النَّصبُ على الاستثناءِ؛ أي: إلَّا مَن رحمَهُ اللهِ بالعفوِ عنه وقبولِ الشَّفاعةِ فيه.

قولُهُ: (بالمُؤمِنِينَ) سيَّما بالأبرارِ.

قولُهُ: (وأصحَابِهِ) الأظهرُ: وأمثالِهِ، والمرادُ به: الكافرُ؛ لدلالةِ ما قبلَهُ وما بعدَهُ عليه.

٤٥ ـ ﴿كالمُهلِ﴾ أي: دُرْدِيِّ الزيت الأسود، خبرٌ ثانٍ، ﴿تَغلِي في البُطُونِ﴾ ـ بالفَوقانيّة: خبرٌ ثالث، وبالتحتانيّة: حال من المُهل ـ ٤٦ ـ ﴿كَغَلْيِ الحَمِيمِ﴾ أي: الماء الشديد الحرارة، ٤٧ ـ ﴿خُذُوهُ﴾ يقال للزبانية: خُذوا الأثيم ﴿فاعتِلُوهُ﴾، بكسر التاء وضمّها: جُرّوه بغِلظة وشِدّة ﴿إلَى سَواءِ الجَحِيمِ﴾ وسَط النار، ٤٨ ـ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوقَ رأسِهِ مِن عَذابِ الحَمِيمِ﴾ أي: من الحميم الذي لا يُفارقه العذاب ـ فهو أبلغ ممّا في آيةِ «يُصَبُّ مِن فَوقِ رُؤُوسِهِم الحَمِيمُ» ـ ٤٩ ـ ويقال له: ﴿ذُقْ﴾ أي: العذابَ. ﴿إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾ بزعمِك وقولِك: ما بينَ جَبلَيها أعزُّ وأكرمُ منّي. ٥٠ ـ ويقال لهم: ﴿إنَّ هذا﴾ الذي ترَون من العذاب ﴿ما كُنتُم بِهِ تَمتَرُونَ﴾: فيه تشكّون.

٥١ ـ ﴿إنَّ المُتَّقِينَ في مَقامٍ﴾ مجلسٍ ﴿أمِينٍ﴾: يؤمَنُ فيه الخوفُ، ٥٢ ـ ٥٣ ـ ﴿في جَنّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿وعُيُونٍ، يَلبَسُونَ مِن سُندُسٍ وإستَبرَقٍ﴾ أي: ما رقَّ من الديباج وما غلُظ منه، ﴿مُتَقابِلِينَ﴾ حالٌ، أي: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرّة بهم ـ ٥٤ ـ ﴿كَذلِكَ﴾ يُقدّر قبله: الأمرُ ـ ﴿وزَوَّجْناهُم﴾ من التزويج أو قرنّاهم، ....

قولُهُ: (والتَّحتَانِيَّةِ) مكّيٌّ وحفصٌ[1].

قولُهُ: (وضَمِّهَا) حِرْميٌّ وشاميٌّ.

قولُهُ: (أي: مِنَ الحَمِيمِ) و﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ دلالةً على أنَّ المصبوبَ بعضُ هذا النَّوعِ.

قولُهُ: (ويُقَالُ لَهُ) الأظهرُ: وقولوا له؛ أي: استهزاءً وتهكُّماً وتقريعاً على ما كانَ يزعمُهُ، وقرأ الكسائيُّ: (أَنَّكَ) بالفتحِ[2]؛ أي: لأنَّكَ.

قولُهُ: (مَجلِسٍ) الظَّاهرُ: مَوضعِ قيامٍ، وقرأ نافعٌ والشَّاميُّ بالضَّمِّ[3]؛ أي: موضعِ إقامَةٍ.

قولُهُ: (الخَوفُ) والآفَةُ والانتقالُ.

قولُهُ: (بَسَاتِينَ) بدلٌ من: ﴿مَقَامٍ﴾.

قولُهُ: (لِدَوَرَانِ الأسِرَّةِ) فيكونُ على خرقِ العادَةِ، أو: متقابلينَ في مجالسِهِم ليستأنِسَ بعضُهم ببعضٍ.

قولُهُ: (الأمرُ) أو: آتيناهُم مثلَ ذلك.

قولُهُ: (أو قَرَنَّاهُم) وهو الصَّحيحُ، ولذلك عُدِّي بالباءِ ففي «القاموسِ»: زوَّجتُه امرأةً وتزوَّجتُ امرأةً

(١) هذا وما بعده. انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٣).

(٣) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧١).

﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾: بنساء بيضٍ واسعاتِ الأعين حِسانِها، ٥٥ ـ ﴿يَدعُونَ﴾: يطلبون الخَدمَ ﴿فِيها﴾ أي: الجنّةِ، أن يأتوا ﴿بِكُلِّ فاكِهةٍ﴾ منها ﴿آمِنِينَ﴾ من انقطاعها ومضرّتها ومن كلّ مخوف: حالٌ، ٥٦ ـ ٥٧ ـ ﴿لا يَذُوقُونَ فِيها المَوتَ إلاّ المَوتةَ الأُولَى﴾ أي: التي في الدنيا بعد حياتهم فيها ـ قال بعضهم: «إلاّ» بمعنى بعدَ ـ ﴿ووَقاهُم عَذابَ الجَحِيمِ، فَضلاً﴾: مصدرٌ بمعنى تفضُّلاً منصوب بـ «تفضّلَ» مُقدّرًا، ﴿مِن رَبِّكَ. ذلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾.

٥٨ ـ ﴿فإنَّما يَسَّرْناهُ﴾: سهّلنا القرآنَ ﴿بِلِسانِكَ﴾: بلغتك لتفهمه العرب عنك، ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتّعظون فيُؤمنون. لكنهم لا يُؤمنون. ٥٩ ـ ﴿فارتَقِبْ﴾: انتظر هلاكَهم. ﴿إنَّهُم مُرتَقِبُونَ﴾ هلاكَك. وهذا قبلَ نُزول الأمر بجِهادهم.

وبها، أو هذهِ قليلةٌ، ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾: قرنَّاهُم[1].

قولُهُ: (بِيضٍ) جمعُ: حوراءَ.

قولُهُ: (حِسَانُهَا) جمعُ: عيناءَ، واختُلِفَ في أنّهنَّ نساءُ الدُّنيا أو غيرُها، ولا منعَ من الجمعِ.

قولُهُ: (الخَدَمَ) ويأمُرونَ بإحضارِ ما يشتَهونَ من الفواكِهِ لا يتخصَّصُ شيءٌ منها بزمانٍ ولا مكانٍ.

قولُهُ: (في الدُّنيَا) والاستثناءُ منقطِعٌ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: بَعْدَ) هذا غيرُ معروفٍ.

قولُهُ: (مُقَدَّراً) أو: أُعطوا كلَّ ذلك عطاءً وتفضُّلاً منهُ.

قولُهُ: (بِلُغَتِكَ) أي: حيثُ أنزَلناهُ بلغتِكَ، وهو فذلكَةُ السُّورةِ.

قولُهُ: (لِتَفْهَمَهُ العَرَبُ) ويتلفَّظَ به غيرُهُم، سهلُ التَّلفُّظِ في جميعِ الألسنةِ على معنى: أنّه لا فرقَ بينَ مَن يعرفُ لسانَ العربِ ومَن لم يعرِفْهُ في التَّلفُّظِ، بخلافِ الكتبِ الأُخَرِ، فإنّه يعسرُ التَّلفُّظُ به لا سيَّما عندَ مَن لم يعرفِ اللِّسانَ المخصوصَ المنزَّلَ به، وهذا آيةُ كمالِ فصاحتِهِ وغايةِ بلاغتِهِ.

قولُهُ: (لَكِنَّهُم لا يُؤمِنُونَ) أو: فلمَّا لم يتذَكَّروا.

قولُهُ: (بِجِهَادِهِم) ليسَ في الآيةِ ما يقتَضِي النَّسخَ، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٩٢).

سورة الدخان

مكية كما رُوي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم، واستُثْنيَ بعضُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الآية: ١٥].

وآيها كما قال الدانيُّ: تسعٌ وخمسون في الكوفي وسبعٌ في البصري وستٌّ في عَدَد الباقين(١). واختلافُها على ما في «مجمع البيان»(٢) أربع آيات: ﴿حمٓ﴾ و﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ [الآية: ٣٤] كوفيّ. ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الآية: ٤٣] عراقي شامي والمدني الأول. ﴿فِى ٱلْبُطُونِ﴾ [الآية: ٤٥] عراقي مكّي والمدني الأخير.

ووجهُ مناسبتها لما قبلها أنه عز وجل ختم ما قبلُ بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه بشيء من الإنذار الشديد، وذكر سبحانه هناك قولَ الرسول ﷺ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] وهنا نظيره فيما حكَى عن أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢] وأيضاً ذكر فيما تقدَّم ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌۚ﴾ [الزخرف: ٨٩] وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢٠-٢١] وهو قريبٌ من قريب إلى غير ذلك. وهي إحدى النظائر التي كان يُصلِّي بهنّ رسولُ الله ﷺ كما أخرج الطبراني عن ابن مسعود «الذاريات» و«الطور» و«النجم» و«اقتربت» و«الرحمن» و«الواقعة» و«نون» و«الحاقة» و«المزمل» و«لا أقسم بيوم القيامة» و«هل أتى على الإنسان» و«المرسلات» و«عم يتساءلون» و«النازعات» و«عبس» و«ويل للمطففين» و«إذا الشمس كورت» و«الدخان»(٣).

---

(١) البيان في عدّ آي القرآن للداني ص٢٢٥، وحاشية الشهاب ٨/ ٢.

(٢) ٢٥/ ١٠٥.

(٣) معجم الطبراني الكبير (٩٨٦١)، وأخرجه البخاري (٧٧٥) و(٥٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢)

وورد بِفَضْلها أخبارٌ:

أخرج الترمذي ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قرأ (حمٓ) الدخان في ليلةٍ أصبحَ يستغفرُ له سبعون ألف مَلَك»[١]، وأخرج المذكورون عنه أيضاً يرفعه: «مَنْ قرأ (حمٓ) الدخان في ليلةِ جمعة أصبح مغفوراً له»[٢]. وفي رواية للبيهقي وابن الضُّريس عنه مرفوعاً: «مَنْ قرأ ليلةَ الجمعة (حمٓ) الدخان و(يسٓ) أصبح مغفوراً له»[٣]. وأخرجُ ابن الضُّريس عن الحسن أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ سورةَ الدخان في ليلةٍ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبه»[٤]، وأخرج ابن مردويه عن أبي أُمامة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قرأ (حمٓ) الدخان في ليلةِ جمعةٍ، أو يوم جُمعةٍ، بَنى الله تعالى له بيتاً في الجنة»[٥].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ الكلامُ فيه كالذي سلف في السورة السابقة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب المُبين الذي هو القرآن على القولِ المُعوَّل عليه ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي ليلةُ القدر على ما رُوي عن ابن عباس وقتادة وابن جُبير ومجاهد

= ولفظه: قال عبد الله ﷺ: ... وإني لأحفظ القُرَناء التي كان يقرأ بهن النبيُّ ﷺ؛ ثماني عشرة سورة من المفصَّل وسورتين من آل حاميم. وينظر فتح الباري ٢/ ٢٥٩.

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤، وسنن الترمذي (٢٨٨٨)، وشعب الإيمان للبيهقي (٢٤٧٥). قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم يضعف، قال محمد [يعني البخاري]: وهو منكر الحديث.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٤، وسنن الترمذي (٢٨٨٩)، وشعب الإيمان (٢٤٧٦). قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدام يضعف، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٤، وشعب الإيمان (٢٤٧٧). قال البيهقي: تفرد به هشام بن زياد، وهو هكذا.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٤، وفضائل القرآن (٢٢٢) وإسناده ضعيف لإرساله.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٢٤، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٨٠٢٦)، قال الهيثمي في المجمع ٢/ ١٦٨: فيه فضَّال بن جبير، وهو ضعيف جداً.

وابن زيد والحسن، وعليه أكثرُ المفسِّرين. والظواهرُ معهم.

وقال عكرمة وجماعة: هي ليلة النصف من شعبان. وتُسمَّى ليلةَ الرحمة، والليلةَ المباركة، وليلةَ الصَّكِّ، وليلةَ البراءة. ووجهُ تسميتها بالأخيرين أن البندار[1] إذا استوفى الخَراجَ من أهله كتب لهم البراءةَ والصكَّ، كذلك إن الله عز وجل يكتبُ لعباده المؤمنين البراءةَ والصكَّ في هذه الليلة.

وظاهرُ كلامهم هنا أن البراءة - وهي مصدر بَرِئ براءةً، إذا تخلَّص - تُطلق على صكِّ الأعمال والدُّيون وما ضاهاها، وأنه ورد في الآثار ذلك، وهو مجازٌ مشهورٌ، وصار بذلك كالمُشتَرَك، وفي «المُغْرِب»: بَرِئَ من الدَّين والعيب براءةً، ومنه البراءة لخطِّ الإبراء، والجمع براءات، وبَرَوات عامِّيَّة[2]. اهـ.

وأكثرُ أهل اللغة على أنه لم يُسمع من العرب، وأنه عاميٌّ صِرْف وإن كان من باب المَجاز الواسع.

قال ابن السِّيد في «المقتضب»[3]: البراءة في الأصل مصدر بَرِئ براءة، وأما البراءة المستعملة في صناعة الكتاب فتسميتُها بذلك إما على أنها من بَرِئ من دَيْنه: إذا أدَّاه، وبَرِئتُ من الأمر: إذا تخلَّيت عنه[4]، فكأنَّ المطلوبَ منه أمرٌ تبرَّأ إلى الطالب أو تخلَّى له[5]. وقيل: أصلُه أن الجاني كان إذا جنى وعفا عنه المَلِكُ كَتب له كتابَ أمانٍ مما خافه، فكان يقال: كتب السلطانُ لفلان براءةً، ثم عُمِّم ذلك فيما كُتب من أُولي الأمر وأمثالهم. اهـ.

وذكروا في فضل هذه الليلة أخباراً كثيرة؛ منها ما أخرجه ابن ماجه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عليٍّ كرم الله وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت ليلةُ النصف من شعبان فقوموا ليلَها وصوموا نهارها، فإنَّ الله تعالى ينزل فيها لغروب

(١) البندار: هو الضيزن، وهو الذي يكون مع عامل الخراج. اللسان (ضزن).
(٢) المُغْرِب في ترتيب المُعْرب (برأ).
(٣) هو الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ١/ ١٩٣-١٩٤.
(٤) في الأصل و(م): منه، والمثبت من الاقتضاب، وحاشية الشهاب ٨/ ٣ وعنه نقل المصنف.
(٥) قوله: له، ليس في (م).

الشمس إلى السماء الدنيا فيقول: ألا مُستغفرٌ فأَغْفِرَ له، ألا مسترزق فأَرْزُقَه، ألا مُبتلًى فأُعَافِيَه، ألا كذا ألا كذا حتى يَطْلُعَ الفجر»(١).

وما أخرجه الترمذي وابن أبي شيبة والبيهقي وابن ماجه عن عائشة قالت: فقدتُ رسولَ الله ﷺ ذاتَ ليلة فخرجتُ أَطلُبه، فإذا هو بالبقيع رافعاً رأسَه إلى السماء فقال: «يا عائشة أكنتِ تخافين أن يحيفَ اللهُ تعالى عليكِ ورسولُه؟» قلتُ: ما بي من ذلك، ولكني ظننتُ أنك أتيتَ بعضَ نسائك. فقال: «إنَّ اللهَ عز وجل ينزلُ ليلةَ النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفرُ لأكثر من عَدَدِ شعرِ غَنَم كَلْب»(٢).

وما أخرجه أحمد بن حنبل في «المسند» عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسولَ الله ﷺ قال: «يطَّلعُ اللهُ تعالى إلى خَلْقه ليلةَ النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين مشاحِن وقاتلِ نفس»(٣).

وذكر بعضُهم فيها صلاةً مخصوصة، وأنها تعدلُ عشرين حِجَّة مبرورةً وصيامَ عشرين سنة مقبولاً، وروى في ذلك حديثاً طويلاً عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وقد أخرجه البيهقي(٤)، ثم قال: يُشبه أن يكون هذا الحديث موضوعاً، وهو مُنكر، وفي رواته مجهولون.

وأطال الوعَّاظ الكلامَ في هذه الليلة وذِكْرِ فضائلها وخواصِّها، وذكروا عدَّة أخبارٍ في أنَّ الآجالَ تُنْسَخُ فيها. وفي «الدر المنثور»(٥) طرفٌ غير يسيرٍ من ذلك، وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى. وفي «البحر»(٦): قال الحافظ أبو بكر بن

---

(١) سنن ابن ماجه (١٣٨٨)، وشعب الإيمان (٣٨٢٢)، وفي إسناده: ابن أبي سبرة، ضعَّفه البخاري، وقال أحمد: كان يضع الحديث، وقال النسائي: متروك.

(٢) سنن الترمذي (٧٣٩)، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٣٧-٤٣٨، وشعب الإيمان (٣٨٢٦)، وسنن ابن ماجه (١٣٨٩)، وهو في مسند أحمد (٢٦٠١٨). قال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وسمعت محمداً (يعني البخاري) يضعف هذا الحديث...

(٣) مسند أحمد (٦٦٤٢)، وهو حديث صحيح بشواهده كما ذكر محققو المسند.

(٤) في شعب الإيمان (٣٨٤١).

(٥) ٦/ ٢٦-٢٧.

(٦) ٨/ ٣٣.

العربي: لا يصحُّ فيها شيء، ولا نسخُ الآجال فيها[1]. ولا يخلو من مُجازفة، والله تعالى أعلم.

والمراد بإنزاله في تلك الليلة إنزالُه فيها جملةً إلى السماء الدنيا من اللَّوح، فالإنزال المُنَجَّم في ثلاث وعشرين سنةً أو أقل كان من السماء الدنيا، ورُوي هذا عن ابن جُبير[2] وغيره. وذُكِرَ أن المَحَلّ الذي أُنزل فيه من تلك السماء البيتُ المعمور، وهو مُسامِتٌ للكعبة بحيث لو نزل لَنزل عليها.

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النَّخعي أنه قال: نزل القرآنُ جملةً على جبريل عليه السلام، وكان جبريل عليه السلام يَجيء به بعدُ إلى النبي ﷺ[3].

وقال غير واحد: المرادُ ابتداءُ إنزاله في تلك الليلة على التجوُّز في الطرف أو النسبة. واستُشكل ذلك بأنَّ ابتداءَ السنة المُحرَّم أو شهر ربيع الأول؛ لأنه وُلِدَ فيه ﷺ ومنه اعتُبر التاريخ في حياته عليه الصلاة والسلام إلى خلافةِ عمر رضي الله عنه، وهو الأصح. وقد كان الوحيُ إليه ﷺ على رأسِ الأربعين سنةً من مُدَّة عُمره عليه الصلاة والسلام على المشهور من عِدَّة أقوال، فكيف يكون ابتداءُ الإنزال في ليلة القدر من شهر رمضانَ أو في ليلة البراءةِ من شعبان ؟

وأُجيب بأنَّ ابتداءَ الوحي كان مناماً في شهر ربيع الأول ولم يكن بإنزال شيء من القرآن، والوحيُ يقظةً مع الإنزال كان في يوم الاثنين لسبعَ عشرة خَلَتْ من شهر رمضان. وقيل: لسبعٍ منه. وقيل: لأربعٍ وعشرين ليلةً منه. وأنت تعلم كَثْرَة اختلاف الأقوال في هذا المقام فمن يقول بابتداء إنزاله في شهر رمضان[4] يلتزم منها ما لا يأباه.

واختُلف في أول ما نزل منه، ففي «صحيح مسلم» أنه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[5].

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٧٨.
(٢) تحرف في (م) إلى: ابن جرير.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٥.
(٤) قوله: رمضان، ليس في (م).
(٥) صحيح مسلم (١٦١): (١٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٤٩٢٤).

وتعقَّبه النووي في «شرحه» فقال: إنه ضعيفٌ، بل باطلٌ. والصوابُ أنَّ أول ما نزل على الإطلاق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ كما صُرِّح به في حديث عائشة[1]، وأما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فكان نزولُها بعد فترة الوحي كما صُرِّح به في رواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر[2]. وأما قولُ مَن قال من المفسرين: أول ما نزل الفاتحةُ، فبطلانُه أظهرُ من أن يُذْكر[3]. اهـ.

والكلامُ في ذلك مستوفًى في «الإتقان»[4] فَلْيرجِعْ إليه من أراده.

ووصف الليلة بالبركة لِمَا أنَّ إنزالَ القرآن مستتبعٌ للمنافع الدينية والدنيوية بأَجْمعها، أو لِمَا فيها من تَنَزُّل الملائكة والرحمة وإجابةِ الدعوة وفضيلةِ العبادة، أو لما فيها من ذلك وتقدير الأرزاق، وفصل الأَقْضية، كالآجال وغيرها، وإعطاء تمام الشفاعة له عليه الصلاة والسلام. وهذا بناءً على أنها ليلةُ البراءة؛ فقد رُوي أنه ﷺ سأل ليلةَ الثالثَ عشرَ من شعبان في أُمَّته فأُعطي الثُّلث منها، ثم سأل ليلةَ الرابعَ عشرَ، فأُعطي الثُّلثين، ثم سأل ليلةَ الخامسَ عشرَ فأُعطيَ الجميعَ إلا مَنْ شَرَدَ على الله تعالى شرادَ البعير[5].

وأيًّاما كان فقد قيل: إنَّ التعليل إنما يحتاج إليه بناءً على القول بما اختاره العزُّ بن عبد السلام[6] من أنَّ الأَمْكنةَ والأَزْمنةَ كلَّها متساويةٌ في حدِّ ذاتها لا يفضُل بعضُها بعضاً إلا بما يقع فيها من الأعمال ونحوها. وزاد بعضُهم: أو يحلّ، لتدخل البقعة التي ضَمَّته ﷺ، فإنها أفضلُ البِقاع الأَرْضِيَّة والسماوية حتى قيل ـ وبه أقولُ ـ: إنها أفضلُ من العرش.

والحقُّ أنه لا يَبعُدُ أن يَخُصَّ الله سبحانه بعضَها بمزيدِ تشريفٍ حتى يصيرَ ذلك داعياً إلى إقدام المُكلَّف على الأعمال فيها، أو لِحكمة أُخرى.

---

(١) صحيح مسلم (١٦٠): (٢٥٢).
(٢) صحيح مسلم (١٦١): (٢٥٦).
(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ٢/ ٢٠٧.
(٤) ١/ ٧٦.
(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٠.
(٦) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٣.

وجملة «إنا أنزلناه» جوابُ القَسَم، وفي ذلك مبالغةٌ، نحو ما في قوله:

وثـنـايـاك إنـهـا إغـريـض[1]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ استئنافٌ يُبيِّن المُقتضي للإنْزال. وقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ استئنافٌ أيضاً لبيان التخصيص بالليلة المباركة، فكأنه قيل: أنزلناه لأنَّ من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالُه في تلك الليلةِ المباركة لأنه من الأمور الدالَّة على الحكم البالغة، وهي ليلةٌ يُفرَقُ فيها كلّ أمر حكيم، ففي الكلام لفٌّ ونشرٌ، واشتراطُ أن يكونَ كلٌّ منهما بجملتين مستقلَّتين مما لا داعي إليه. وقيل: إن جملة «فيها يُفرَق» إلخ صفةٌ أُخرى لـ «ليلة»، وما بينهما اعتراضٌ لا يضرُّ الفصلُ به، بل لا يُعدُّ الفصلُ به فصلاً.

وقيل: إن قوله تعالى: «إنا كنَّا منذرين» هو جوابُ القَسَم وما بينهما اعتراضٌ، وإليه ذهب ابنُ عطية[2] زاعماً أنَّه لا يجوز جعلُ «إنا أنزلناه» جواباً له؛ لما فيه من القَسَم بالشيء على نفسه.

واعترض بأنَّ قوله تعالى: «فيها يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم» يكون حينئذ مِن تتمة الاعتراضِ فلا يحسنُ تأخُّره عن المُقسم عليه، ولا يدفعه أن هذه الجملةَ مستأنفةٌ لا صفة أُخرى، لأنه استئنافٌ بياني متعلِّق بما قبلُ كما سمعت آنفاً، فلا يَليقُ الفصلُ أيضاً كما لا يخفى على مَنْ له ذوقٌ سليم. وما ذُكر من حديث القَسَم بالشيء على نَفْسه فقد أشرنا إلى جوابه.

وقيل: إن قوله سبحانه: «إنا كُنَّا منذرين» جوابٌ آخرُ للقَسَم، وفيه تعدُّد المُقْسَم عليه من غير عطف، ولم نَرَ من تعرَّض له.

ومعنى «يُفرَق»: يُفصَّل ويُلخَّص. والحكيمُ بمعنى المُحكم؛ لأنه لا يُبدَّل ولا يُغيَّر بعد إبرازه للملائكة عليهم السلام، بخلافه قبله وهو في اللوح، فإن الله

---

(١) قائله أبو تمام، وسلف ص٣٤٠ من هذا الجزء.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٦٨.

تعالى يمحو منه ما يشاء ويُثبت. وجُوِّز أن يكون بمعنى المَحكوم به. ونسبته إلى الأمر عليهما[١] حقيقةٌ.

ويَجُوز أن يكونَ المعنى: كُلُّ أمرٍ مُلتبسٍ بالحكمة، والأصل: حكيمٍ صاحبُه، فتجوِّز في النسبة. وقيل: إنَّ حكيم للنسبة كـ: تامر ولابن.

وقد أَبهم سبحانه هذا الأمر.

وأخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك: يُكتب من أمِّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رِزق، أو موتٍ، أو حياة، أو مطر، حتى يُكتب الحاجُّ، يحجُّ فلانٌ ويحجُّ فلان[٢].

وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال: كنتُ عند الحسن، فقال له رجلٌ: يا أبا سعيد، ليلةُ القَدْر في كلِّ رمضان هي؟ قال: إي والله، إنها لفي كلِّ رمضان، وإنها لَليلةٌ يُفرق فيها كلُّ أمرٍ حكيم، فيها يَقضي اللهُ تعالى كلَّ أَجَلٍ وعملٍ ورزقٍ إلى مِثْلها[٣]. ورُوي هذا التعميم عن غير واحدٍ من السَّلف.

وأخرج البيهقي عن أبي الجوزاء: «فيها يُفرَقُ كلُّ أمر حكيم» هي ليلةُ القدر، يجاءُ بالدِّيوان الأعظم السنة إلى السنة، فيغفر اللهُ تعالى شأنه لمن يشاء، ألا ترى أنه عز وجل قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[٤]، وفيه بحث.

وإلى مثلِ ذلك التعميم ذهبَ بعضُ من قال: إنَّ الليلةَ المباركة هي ليلةُ البراءة؛ أخرج ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق محمد بن سوقة عن عكرمة أنه قال في الآية: في ليلةِ النصف من شعبان يُبرمُ أَمْرُ السنةِ، ويُنسخ الأحياء من الأموات، ويُكتب الحاجُّ، فلا يُزادُ فيهم ولا ينقصُ منهم أحد[٥].

---

(١) في (م): عليها.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٥.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٧، والدر المنثور ٦/ ٢٥.

(٤) شعب الإيمان (٣٦٦٤).

(٥) الدر المنثور ٦/ ٢٥.

وفي كثير من الأخبار الاقتصارُ على قطع الآجال. أخرج ابن جرير والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الزهري عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس[(١)] قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تُقطع الآجالُ من شعبانَ إلى شعبانَ حتى إنَّ الرجلَ لَينكحُ ويُولد له وقد خرجَ اسمُه في الموتى»[(٢)].

وأخرج الدينوري في «المجالسة» عن راشد بن سعد أن النبيَّ ﷺ قال: «في ليلة النصف من شعبان يُوحي اللهُ تعالى إلى مَلَكِ الموت بقبضِ كلِّ نفس يُريد قبضَها في تلك السنة»[(٣)] ونحوه كثير.

وقيل: يبدأ[(٤)] في استنساخ كلِّ أمرٍ حكيم من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغُ في ليلة القدر، فتُدفع نسخةُ الأرزاق إلى ميكائيل عليه السلام، ونسخةُ الحروب إلى جبرائيل عليه السلام وكذلك الزلازل والصواعق والخَسْف، ونسخةُ الأعمال إلى إسماعيل عليه السلام صاحب سماء الدنيا، وهو مَلَكٌ عظيم، ونسخةُ المصائب إلى مَلَكِ الموت.

ورُوي عن ابن عباس ﵄: تُقضى الأقضيةُ كلُّها ليلةَ النصف من شعبان، وتُسلَّم إلى أربابها ليلةَ السابع والعشرين من شهر رمضان.

واعتُرض بما ذكر على الاستدلال بالظواهر على أنَّ الليلة المذكورة هي ليلةُ القدر لا ليلة النصف من شعبان، ومن تدبَّر عَلِمَ أنه لا يخدش الظواهر. نعم حُكي عن عكرمة أنْ ليلةَ النصف من شعبان هي ليلةُ القدر، ويلزمُه تأويلُ ما يأبى ظاهرُه ذلك، فتدبَّر. وسيأتي إنْ شاء الله عز وجل الكلامُ في هذا المقام مستوفىً على أتمِّ وجه في تفسير سورة القدر، وهو سبحانه الموفِّق.

وقرأ الحسن والأعرج والأعمش: «يَفرُق» بفتح الياء وضمِّ الراء «كلَّ»

---

(١) في الأصل و(م): الأخفش، والمثبت من المصادر.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ١٠، وهو مرسل، وهو في شعب الإيمان (٣٨٣٩) من قول عثمان بن محمد بن المغيرة، وعثمان هذا قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق له أوهام.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٥، والمجالسة وجواهر العلم (٩٤٤)، وهو مرسل.

(٤) في (م): يبدأن، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل والكشاف ٣/ ٥٠٠.

بالنصب[١]، أي: يَفرُق اللهُ تعالى، وقرأ زيدُ بن عليٍّ فيما ذكر الزمخشري[٢] عنه: «نَفرُق» بالنون «كلَّ» بالنصب، وفيما ذَكَر أبو عليٍّ الأهوازيُّ[٣] عنه بفتح الياء وكسر الراء ونصب «كلَّ» ورفع «حكيمٌ» على أنه الفاعل بـ «يفرق». وقرأ الحسن وزائدة عن الأعمش: «يُفرَّق» بالتشديد وصيغة المفعول[٤]، وهو للتكثير. وفيه ردٌّ على قول بعض اللُّغويين ـ كالحريري ـ أن الفَرْقَ مختصٌّ بالمعاني والتفريق بالأجسام.

﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ نصب على الاختصاص، وتنكيرُه للتفخيم، والجارُّ والمجرور في موضع الصِّفة له، وتعلُّقه بـ «يفرق» ليس بشيء. والمرادُ بالعِنْدية أنه على وَفْق الحِكْمة والتدبير، أي: أعني بهذا الأمر أمراً فخيماً حاصلاً على مقتضى حِكْمتنا وتدبيرنا، وهو بيانٌ لزيادة فَخَامته ومَدْحه.

وجوِّز كونه حالاً من ضمير «أمر» السابق المُستتر في «حكيم» الواقع صفةً له أو مِن «أمر» نفسِه، وصحَّ مجيء الحال منه مع أنه نكرةٌ لِتخصُّصه بالوصف على أن عمومَ النَّكرة المُضاف إليها «كل» مسوِّغٌ للحالية من غير احتياج الوصف. وقول السمين[٥]: إنَّ فيه القول بالحال من المضاف إليه في غير المواضع المذكورة في النحو، صادرٌ عن نظر ضعيف؛ لأنه كالجزء في جواز الاستغناء عنه بأن يقال: يُفرق أمرٌ حكيم، على إرادة عموم النَّكرة في الإثبات كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١٤]. وقيل: حال من «كل». وأيَّاما كان فهو مُغاير لذي الحال لوصفه بقوله تعالى: «من عندنا» فيصحّ وقوعُه حالاً من غير لَغْويةٍ فيه.

وكونُها مؤكِّدةً غيرُ مُتَأَتٍّ مع الوَصْفية كما لا يخفى على ذي الذهن السليم.

وهو على هذه الأوجه واحدُ الأمور.

وجُوِّز أنْ يرادَ به الأمر الذي هو ضدُّ النهي على أنه واحدُ الأوامر، فحينئذ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٠.
(٣) كما في البحر المحيط ٨/ ٣٣، وعنه نقل المصنف.
(٤) المصدر السابق.
(٥) الدر المصون ٩/ ٦١٦.

يكون منصوباً على المصدرية لفعل مُضمر من لفظه، أي: أَمَرْنا أمراً من عندنا، والجملةُ بيان لقوله سبحانه: «يفرق» إلخ. وقيل: إما أن يكونَ نصباً على المصدرية لـ «يفرق» لأنَّ كَتْبَ الله تعالى للشيء إيجابُه، وكذلك أَمْرُه عز وجل به؛ كأنه قيل: يُؤمر بكلِّ شأن مطلوبٍ على وجه الحِكْمة أمراً، فالأمر وُضِعَ موضعَ الفرقان المُستعمل بمعنى الأمر. وإما أن يكونَ على الحالية من فاعل «أنزلنا» أو مفعوله، أي: إنا أنزلناه آمرين أمراً، أو حال كون الكتاب أمراً يجب أن يُفعل؛ وفي جعل الكتاب نَفْسَ الأمر لاشتماله عليه أيضاً تجوُّزٌ فيه فخامة.

وتعقَّب ذلك في «الكشف» فقال: فيه ضعفٌ؛ للفصل بالجملتين بين الحال وصاحبها على الثاني، ولعدم اختصاصِ الأوامر الصادرة منه تعالى بتلك الليلة على الأول.

ووجهُه أن تُخَصَّ بالقرآن. ولا يُجعل قولُه تعالى: «فيها يُفرق» علَّة للإنزال في الليلة، بل هو تفصيلٌ لمَا أُجمل في قوله سبحانه: (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ) على معنى: فيها أنزل الكتاب المُبين الذي هو المُشتمِلُ على كلِّ مأمور به حكيم، كأنه جعل الكتاب كلّه أمراً، أو ما أمر به كلّ المأمورات، وفيه مبالغة حسنة. ولا يخفى أن في فَهْمه من الآية تكَلُّفاً.

وقال الخفاجي[1] في أمر الفصل: إنه لا يضرُّ ذلك الفاصل على الاعتراض، وكذا على التعليل؛ لأنه غيرُ أجنبي.

وجَوَّز بعضُهم على تقدير أن يُرادَ بالأمر ضدُّ النهي كونه مفعولاً له، والعامل فيه «يفرق» أو «أنزلنا» أو «منذرين».

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «أمرٌ» بالرفع[2]، وهي تنصر كونَ انتصابه في قراءة الجمهور على الاختصاص؛ لأنَّ الرفع عليه فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ تعليلٌ لـ «يفرق» أو لقوله

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٠١، وتفسير القرطبي ١٩/ ١٠٤.

تعالى: «أمراً من عندنا»، و«رحمةً» مفعول به لـ «مرسلين»، وتنوينها للتفخيم، والجارُّ والمجرور في موضع الصِّفة لها، وإيقاع الإرسال عليها هنا كإيقاعه عليها في قوله سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

والمعنى على ما في «الكشاف»[(١)]: يُفْصَل في هذه الليلة كلُّ أمر، لأنَّ من عادتنا أنْ نُرسل رحمتنا، وفَصْلُ كلِّ أمر من قسمةِ الأرزاق وغيرها من باب الرحمة، أي: إن المقصودَ الأصلي بالذات من ذلك الرحمةُ. أو تصدر الأوامرُ من عندنا، لأنَّ من عادتنا ذلك، والأوامرُ الصادرة من جهته تعالى من باب الرحمة أيضاً، لأن الغايةَ لِتكليف العبادِ تعريضُهم للمنافع. وفيه ـ كما قيل ـ إشارةٌ إلى أنَّ جعلَه تعليلاً لقوله سبحانه: «أمراً من عندنا» إنما هو على تقدير أن يُرادَ بالأمر مقابل النهي، وهو يجري على تقديري المصدرية والحالية.

وفي «الكشف» أن قوله: يُفصَل.. إلخ، أو تصدر الأوامرُ.. إلخ، تبيينٌ لمعنى التعليل على التفسيرين في «يُفرق»؛ لأنه إما بمعنى الفَصْل على الحقيقة من قسمة الأرزاق وغيرها، أو بمعنى: يُؤمر، والشأنُ المطلوب يكون مأموراً به لا محالة، فحاصله يرجعُ إلى قوله: أو تصدر الأوامر من عندنا، لا لوجهي التعليل من تعلُّقه بـ «يفرق» أو بـ «أمراً»، فإن تعلُّقه بـ «أمراً» إنما يصحُّ إذا نُصب على الاختصاص، وإذ ذاك ليس الأمر ما يُقابل النهي؛ لأنَّ الأمرَ إذا كان المقابلَ فهو إما مصدرٌ وإنما يُعلّل فعله، وإما حالٌ مؤكّدة فيكون راجعاً إلى تعليل الإنزال المخصوص، وليس المقصودَ، وإنما لم يذكر المعنى على تقدير تعلُّقه بـ «أمراً» لأن المعنى الأول يصلحُ تفسيراً له أيضاً. انتهى.

والظاهرُ كون ذلك تبييناً لوجهي التعليل، وما ذُكر في نَفْيه لا يخلو عن بحث كما يُعرف بالتأمّل. واعتبار العادة في بيان المعنى جاء من «كُنَّا» فإنه يقال: كان يفعلُ كذا، لِمَا تكرَّر وقوعُه وصار عادةً، كما صرَّحُوا به في الكتب الحديثية وغيرها، ولإفادة ذلك عدل عن: إنا مرسلون، الأَخْصَرِ.

---

(١) ٣/ ٥٠١.

وقوله سبحانه: «من ربك» وُضِعَ فيه الظاهر موضعَ الضمير، والأصلُ: مِنَّا، فجيء بلفظ الربّ مضافاً إلى ضميره ﷺ على وجه تخصيص الخطاب به ﷺ تشريفاً له عليه الصلاة والسلام ودلالةً على أن كونه سبحانه ربَّك وأنت مبعوثٌ رحمةً للعالمين مما يقتضي أَنْ يُرسل الرحمة.

وقال الطيبي: خصَّ الخطاب برسوله عليه الصلاة والسلام، والمراد العموم، والأصل: من ربِّكم، وجيء بلفظ الربِّ لِيُؤْذن بأنَّ الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، وليكون تمهيدُه يبتنى عليه التعليل الآتي المُتضمِّن للتعريض بواسطة الحَصْر بأنَّ آلهتهم لا تسمع ولا تُبصر ولا تُغني شيئاً. وتُعقِّب بأنه لو أُريد العموم لفاتَتْ النُّكتة المذكورة، ولزم أَنْ يدخلَ المؤمنون في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وما بعده، وليس المعنى عليه، وفي القلب منه شيء.

وفَسَّر بعضُهم الرحمةَ المُرسلة بنبينا ﷺ، ولا يخفى أنَّ صحةَ التعليل تأبى ذلك.

وجُوِّز أن يكون قوله تعالى: «إنا كنا مرسلين» بدلاً من قوله سبحانه: «إنا كُنَّا منذِرين» - الواقعِ تعليلاً لإنزال الكتاب - بدلَ كلٍّ أو اشتمالٍ باعتبار الإرسال والإنذار، ويكون «رحمة» حينئذ مفعولاً له، أي: أنزلنا القرآنَ لأنَّ عادتَنا إرسال الرُّسل والكتب إلى العباد لأجل الرحمةِ عليهم، واختيار كون الرحمة مفعولاً له ليتطابق البدلُ والمُبدَل منه، إذْ معنى المُبدل منه: فاعلين الإنذار، ويُطابقه: فاعلين الإرسال، ولم يُجوِّز كونها كذلك على وجه التعليل، بل أوجب كونها مفعولاً به ليصحَّ، إذ لو قيل: فيها تفصيلُ كلِّ شأن حكيم لأنَّا فاعلون الإرسال لأجل الرحمةِ، لم يُفِدْ أنَّ الفَصْلَ رحمةٌ، ولا أنه سبحانه مُرسِلٌ، فلا يستقيم التعليلُ.

قيل: وينصرُ نصبَ «رحمةً» على المفعول له[1] قراءةُ الحسن وزيد بن عليٍّ برفعها، لأنَّ الكلامَ عليه جملةٌ مستأنفةٌ، أي: هي رحمة؛ تعليلاً للإرسال فَيُلائم القولَ بأنها في قراءة النصب مفعولٌ له، وليطابق قراءتهما في كون معنى «إنا كُنَّا مرسلين»: إنا كُنَّا فاعلين الإرسال.

---

(١) قوله: له، ليس في (م).

وقال بعضُ أَجِلَّة المُحقِّقين: إنَّ القولَ بأنه تعليلٌ أظهرُ من القول بأنه بدل، ليكون الكلام على نسق في التعليل غبّ التعليل، ولِمَا ذكر في الحالة المقتضية للإبدال، ولوقوع الفَصْل.

وأشار - على ما قيل - بما ذَكَر في الحالة المقتضية للإبدال بأنَّ المُبدَل منه غيرُ مقصود، وأنه في حُكم السقوط، وهاهنا ليس كذلك. وتُعقِّب هذا بأنه أغلبيّ لا مُطَّرد. وقوله: لوقوع الفصل، أي: بين البدل والمبدل منه، بأنَّ[1] الفاصلَ غير أجنبي فلا يضرُّ الفصلُ به، فتدبَّر.

وجُوِّز كونُ «رحمة» مصدراً لـ: رحمنا، مُقدَّر، وكونُها حالاً من ضمير «مرسلين» وكونها بدلاً من «أمراً» فلا تَغْفُل.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكلِّ مسموعٍ، فيسمع أقوالَ العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ ⁦٦⁩﴾ لكلِّ معلوم، فيعلم أحوالهم. وتوسيطُ الضمير مع تعريف الطرفين لإفادة الحَصْر. والجملةُ تحقيق لربوبيته عز وجل، وأنها لا تحقُّ إلا لمن هذه نُعوتُه. وفي تخصيص «السميع العليم» على ما قال الطيبي إدماجٌ لوعيد الكفار ووعد المؤمنين الذين تلقَّوا الرحمةَ بأنواع الشُّكر.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ بدلٌ من «ربك» أو بيانٌ أو نعتٌ.

وقرأ غيرُ واحد من السبعة والأعرج وابن أبي إسحاق وأبو جعفر وشيبة بالرفع[2] على أنه خبٌر آخرُ لـ «إنَّ»، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو ربٌ، والجملةُ مستأنفةٌ لإثباتِ ما قبلَها وتعليلِه.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⁦٧⁩﴾ أي: إنْ كنتم ممن عنده شيء من الإيقان وطرفٌ من العلوم اليقينية، على أنَّ الوصفَ المتعدِّي مُنَزَّلٌ مَنزلةَ اللازم لِعدم القَصْد إلى ما يتعلَّق به، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ، أي: إن كنتم من أهل الإيقان عَلِمْتُم كونَه سبحانه ربَّ السماوات والأرض لأنه من أظهر اليقينيات دليلاً وحينئذ يلزمكم القولُ

---

(١) أي: تعقب بأن...

(٢) قرأ بالرفع نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

بما يقتضيه مما ذكر أولاً، ويجوز أن يكونَ مفعوله مقدَّراً، أي: إنْ كنتم موقنين في إقراركم إذا سُئلتم عمن خلق السماوات والأرض فقلتم: الله تعالى خَلَقهنَّ، والجواب أيضاً محذوفٌ، أي: إنْ كنتم موقنين في إقراركم بذلك عَلِمتم ما يقتضيه مما تقدَّم لظهور اقتضائه إيَّاه. وجعل غيرُ واحد الجوابَ على الوجهين: تحقَّقَ عندكم ما قلناه. ولم يُجوِّزوا جَعْلَه مضمون «رب السماوات» إلخ، لأنه سبحانه كذلك أيقنوا أَمْ لم يُوقنوا، فلا معنى لجعله دالًّا عليه، وكذا جَعْله مضمونَ ما بعدُ، بل هذا مما لا يحسنُ باعتبار العلم أيضاً.

وفي هذا الشرط تنزيلُ إيقانهم منزلةَ عَدَمِهِ لظهور خِلافِهِ عليهم، وهو مرادُ من قال: إنه من باب تنزيل العالم منزلةَ الجاهل لِعدم جَرْيه على موجب العلم.

قيل: ولا يصحُّ أن يقالَ: إنهم نُزِّلوا منزلةَ الشاكِّين؛ لمكان قوله سبحانه بعد: «بل هم في شك» ولا أرى بأساً في أنْ يقال: إنهم نُزِّلوا أولاً كذلك ثم سُجِّل عليهم بالشكّ لأنهم وإن أقروا بأنه عز وجل ربُّ السماوات والأرض لم ينفكُّوا عن الشك؛ لإلحادهم في صفاته سبحانه وإشراكهم به تعالى شأنُه.

وجُوِّز أن يكون «موقنين» مجازاً عن: مريدين الإيقان، والجواب محذوفٌ أيضاً، أي: إنْ كنتم مريدين الإيقان فاعلموا ذلك، وفيه بُعد.

وأما جَعْلُ «إنْ» نافيةً ـ كما حكاه النيسابوري ـ فليس بشيء كما لا يخفى.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملةٌ مستأنفة مُقرِّرة لما قبلها، وقيل: خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هو سبحانه لا إله إلا هو؛ وجملةُ المبتدأ وخبره مستأنفةٌ مُقرِّرة لذلك. وقيل: خبرٌ آخرُ لـ «إن» على قراءة «ربُّ السماوات» بالرفع وجعله خبراً. وقيل: خبرٌ له على تلك القراءة وما بينهما اعتراضٌ.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مستأنفةٌ كما قبلها، وكذا قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ بإضمار مبتدأ، أو بدل من «ربُّ السماوات» على تلك القراءة، أو بيانٌ أو نعتٌ له. وقيل: فاعل لـ «يميت»، وفي «يُحيي» ضميرٌ راجعٌ إليه، والكلامُ من باب التنازع، أو إلى «رب السماوات». وقيل: «يحيي ويميت» خبرٌ آخرُ لـ «رب السماوات» وكذا «ربكم». وقيل: هما خبران آخران لـ «إن».

وقرأ ابن أبي إسحاق وابن محيصن وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم والحسن وأبو موسى وعيسى بن سليمان وصالح كلاهما عن الكسائي بالجرِّ بدلاً من «ربِّ السماوات» على قراءة الجرِّ، وقرأ أحمد بن جُبير الأنطاكي بالنصب على المدح[١].

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إضرابٌ إبطالي أبطل به إيقانهم لِعدم جَرْيهم على مُوجبه، وتنوين «شكٌّ» للتعظيم، أي: في شكٍّ عظيم.

﴿يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ لا يقولون ما يقولون مما هو مطابق لنفس[٢] الأمر عن جِدٍّ وإذعان، بل يقولونه مخلوطاً بِهُزْء ولعب. وهذه الجملة خبرٌ بعد خبر لـ «هم». وجوِّز أن تكون هي الخبر، والظرفُ متعلِّق بالفعل قُدِّم للفاصلة.

والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم وعدم التفاتهم.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ لترتيب الارتقاب أو الأمر به على ما قبلها، فإن كونهم في شكٍّ يلعبون مما يُوجب ذلك حتماً، أي: فانتظر لهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠﴾ أي: يوم تأتي بجَدْب ومجاعة، فإنَّ الجائع جدًّا يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان وهي ظُلمة تعرضُ للبصر لِضَعْفه فيتوهَّم ذلك، فإطلاق الدخان على ذلك المرئي باعتبار أن الرائي يتوهَّمه دخاناً، ولا يأباه وَصْفُه بـ: «مبين»، وإرادة الجَدْب والمَجاعة منه مجازٌ من باب ذكر المُسبَّب وإرادة السبب، أو لأن الهواء يتكدَّر سنةَ الجَدْب بكثرة الغبار لِقلَّة الأمطار المُسكنة له، فهو كناية عن الجدب، وقد فَسَّر أبو عُبيدة[٣] الدخان به.

وقال القتبي[٤]: يُسمَّى دخاناً لِيُبس الأرض حتى يرتفع منها ما هو كالدخان. وقال: بعض العرب تسمِّي الشرَّ الغالبَ دخاناً. ووجِّه ذلك بأنَ الدخان مما يُتأذَّى به فأُطلق على كلِّ مُؤْذٍ يُشبهه، وأُريد به هنا الجَدْب.

ومعناه الحقيقي معروف. وقياسُ جمعه في القِلَّة: أَدْخِنة، وفي الكَثْرة: دُخْنان،

---

(١) القراءاتان في القراءات الشاذة ص١٣٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٣-٣٤.
(٢) في (م): لنفي.
(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٨.
(٤) في تفسير غريب القرآن ص٤٠٢.

نحو غُراب وأَغْربة وغُرْبان، وشَذُّوا في جمعه على فَواعِل فقالوا: دَواخِن، كأنه جمع داخنة تقديراً، وقرينة التجوُّز فيه هنا حالية كما ستعلمه إنْ شاء الله تعالى من الخبر.

والمرادُ باليوم مطلقُ الزمان، وهو مفعولٌ به لـ «ارتقِبْ»، أو ظرف له والمفعول محذوفٌ، أي: ارتقِبْ وعدَ اللهِ تعالى في ذلك اليوم. وبالسماء جهةُ العُلُوّ، وإسنادُ الإتيان بذلك إليها(١) من قَبيل الإسناد إلى السبب، لأنه يحصل بعدم إمطارها، ولم يُسند إليه عز وجل مع أنه سبحانه الفاعلُ حقيقةً ليكون الكلامُ مع سابقه المُتضمِّنِ إسنادَ ما هو رحمةٌ إليه تعالى شأنه على وِزان قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وتفسير الدخان بما فسَّرناه به مرويٌّ عن قتادة وأبي العالية والنخعي والضحاك ومجاهد ومقاتل، وهو اختيار الفراء والزجاج(٢).

وقد رُوي بطرق كثيرة عن ابن مسعود ﷺ؛ أخرج أحمد والبخاري وجماعة عن مسروق قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: إني تركت رجلاً في المسجد يقول في هذه الآية (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ) إلخ: يغشى الناسَ قبل يوم القيامة دخانٌ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام. فغضب، وكان متكئاً فجلس ثم قال: مَنْ عَلِمَ منكم علماً فليقل به، ومن لم يكن يعلم فليقل: اللهُ تعالى أعلم، فإنَّ من العلم أن يقول لما لا يعلم: اللهُ تعالى أعلم، وسأُحدِّثكم عن الدخان: إنَّ قريشاً لما استعصبت على رسول الله ﷺ، وأبطؤوا عن الإسلام قال: «اللهم أعني عليهم بسبعٍ كسبع يوسف» فأصابهم قحطٌ وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجلُ ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينه كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله تعالى (فَارْتَقِبْ) إلى (أَلِيمٌ) فأُتيَ النبيُّ ﷺ، فقيل: يا رسول الله، استسقِ اللهَ تعالى لمُضَر. فاستسقى لهم عليه الصلاة والسلام، فَسُقُوا، فأنزل الله تعالى: (إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) الخبر(٣).

وفي رواية أخرى صحيحة أنه قال: لمَّا رأى رسول الله ﷺ من الناس إدباراً

---

(١) في (م): إليهما.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٩، وللزجاج ٤/ ٤٢٤.

(٣) مسند أحمد (٣٦١٣)، وصحيح البخاري (٤٧٧٤) و(٤٨٠٩)، وصحيح مسلم (٢٧٩٨).

قال: «اللهم سبعاً كسبع يوسف» فأخذتهم سَنَةٌ حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام، فجاءه أبو سفيان وناسٌ من أهل مكة فقالوا: يا محمد، إنك تزعُم أنك قد بُعثت رحمةً، وإن قومك قد هَلَكوا، فادعُ اللهَ تعالى لهم، فدعا رسولُ الله ﷺ، فَسُقُوا الغيثَ، فأطبقت عليهم سبعاً فشكا الناسُ كثرةَ المطر فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فانحدرت السحابةُ عن رأسه فسقي الناس حولهم[١]. قال: فقد مضت آيةُ الدخان، وهو الجوع الذي أصابهم. الحديث[٢].

وظاهره يدل كما في «تاريخ ابن كثير» على أن القصة كانت بمكة، فالآية مكية، وفي بعض الروايات أن قصة أبي سفيان كانت بعد الهجرة، فلعلها وقعت مرتين[٣]. وقد تقدَّم ما يتعلَّق بذلك في سورة المؤمنين[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن لهيعة عن عبد الرحمن الأعرج أنه قال في هذا الدخان: كان في يوم فتح مكة[٥]. وفي «البحر» عنه أنه قال: «يوم تأتي السماء» هو يوم فتح مكة لمَّا حجبت السماءَ الغبرةُ[٦]. وفي رواية ابن سعد أن الأعرج يروي عن أبي هريرة أنه قال: كان يوم فتح مكة دخان، وهو قول الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[٧]. ويحسن على هذا القول أن يكون كناية عمَّا حلَّ بأهل مكة في ذلك اليوم من الخوف والذُّلِّ ونحوهما.

وقال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابن عمر وابن عباس وأبو سعيد الخدري وزيد بن علي والحسن: إنه دخان يأتي من السماء قبلَ يوم القيامة يدخل في أسماع الكَفَرة حتى يكونَ رأسُ الواحد كالرأس الحنيذ[٨]، ويعتري المؤمن كهيئة الزُّكام،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٢٠).

(٢) أخرجه بهذه الزيادة البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٢٦، وجاء في رواية البخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨) (٣٩): وقد مضت آية الدخان والبطشةُ واللزامُ وآيةُ الروم.

(٣) البداية والنهاية ٤/ ٢٦٦-٢٦٧.

(٤) ١٨/ ١٠٨-١٢٢.

(٥) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: هذا القول غريب جدًا، بل منكر.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٤.

(٧) طبقات ابن سعد ٢/ ١٤٢.

(٨) أي: المشوي؛ حَنَذَ الشاةَ: شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتُنْضجها، فهي حنيذ. القاموس (حنذ).

وتكون الأرض كلُّها كبيتٍ أُوقد فيه ليس فيه خصاص[١].

وأخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً: «أول الآيات: الدجال، ونزول عيسى، ونار تخرج من قعر عدن أبينَ تسوق الناسَ إلى المحشر، تَقيل معهم إذا قالوا، والدخان»، قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، وقال: «يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من مَنْخِريه وأُذنيه ودُبُره»[٢] فالدخان على ظاهره، والمعنى: فارتقب يومَ ظهور الدخان.

وحكى السفاريني في «البحور الزاخرة» عن ابن مسعود أنه كان يقول: هما دخانان، مضى واحدٌ، والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض، ولا يصيبُ المؤمن إلا بالزكمة، وأما الكافر فيشقُّ مسامعه فيبعث الله تعالى عند ذلك الريح الجنوب من اليمن فتقبض روح كلِّ مؤمن، ويبقى شِرارُ الناس. ولا أظنُّ صحة هذه الرواية عنه.

وحملُ ما في الآية على ما يعمُّ الدخانين لا يخفى حاله.

وقيل: المراد بـ «يوم تأتي السماء» إلخ يوم القيامة، فالدخان يحتمل أن يُراد به الشِّدة والشَّرّ مجازاً، وأن يُراد به حقيقته.

وقال الخفاجي: الظاهر عليه أن يكون قوله تعالى: «تأتي السماء» إلى آخره استعارةً تمثيلية، إذْ لا سماء، لأنه يومٌ تشقَّقُ فيه السماء، فمفرداته على حقيقتها[٣].

وأنت تعلم أنه لا مانع من القول بأنَّ السماء كما سمعت أولاً بمعنى جهة العلوِّ، سلَّمنا أنها بمعنى الجِرْم المعروف، لكن لا مانع من كون الدخان قبل تشقُّقها، بأن يكون حين يخرج الناسُ من القبور مثلاً، بل لا مانع من القول بأنَّ المراد من إتيان السماء بدخان استحالتها إليه بعد تشقُّقها وعَوْدِها إلى ما كانت عليه

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/١٠٦، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية.

(٢) تفسير الطبري ٢١/١٩.

(٣) حاشية الشهاب ٨/٦.

أولاً كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] ويكون فناؤها بعد صيرورتها دخاناً.

هذا، والأظهر حمل الدخان على ما روي عن ابن مسعود أولاً؛ لأنه أنسبُ بالسياق، لِمَا أنه في كفار قريش وبيانِ سوء حالهم، مع أن في الآيات بعدُ ما هو أوفقُ به، فوَجْهُ الربط أنه سبحانه لمَّا ذكر من حالهم مقابَلتَهم الرحمةَ بالكفران، وأنهم لم ينتفعوا بالمُنزَل والمُنزَل عليه، عقَّب بقوله تعالى شأنه: «فارتقب يوم» إلخ، للدلالة على أنهم أهلُ العذاب والخذلان لا أهل الإكرام والغفران.

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يُحيط بهم، والمرادُ بهم كفار قريش. ومَنْ جعل الدخان ما هو من أشراط الساعة حمل الناسَ على مَنْ أدركه ذلك الوقت، ومَنْ جعل ذلك يوم القيامة حمل الناسَ على العموم. والجملة صفة أُخرى للدخان.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ في موضع نصب بقول مقدَّر وقع حالاً، أي: قائلين، أو يقولون: هذا.. إلخ. والإشارة للتفخيم.

وقيل: يجوز أن يكون «هذا عذاب أليم» إخباراً منه عز وجل تهويلاً للأمر، كما قال سبحانه وتعالى في قصة الذبيح: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦] فهو استئناف أو اعتراض، والإشارة بـ «هذا» للدلالة على قرب وقوعه وتحقُّقه، وما تقدَّم أولى.

وقوله سبحانه: «ربنا» إلى آخره ـ كما صرَّح به غير واحد من المُفسِّرين ـ وعدٌ منهم بالإيمان إن كَشَفَ جلَّ وعلا عنهم العذاب، فكأنهم قالوا: ربنا إنْ كَشَفْتَ عنا العذاب آمنَّا، لكن عَدَلوا عنه إلى ما في المُنزل إظهاراً لمزيد الرغبة، وحملوه على ذلك لِمَا في بعض الروايات أنه لمَّا اشتدَّ القحطُ بقريش مشى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وناشده الرحمَ وواعده إن دعا لهم وزال ما بهم آمنوا.

والمراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ نفي صِدْقهم في الوعد، وأنَّ غرضهم إنما هو كشفُ العذاب والخلاص، أي: كيف يتذكرون، أو من أين يتذكرون

بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: والحال أنهم شاهَدوا من دواعي التذكُّر وموجبات الاتِّعاظ ما هو أعظمُ من ذلك في إيجابهما، حيث جاءهم رسولٌ عظيم الشأن ظاهرٌ أمرُ رسالته بالآيات والمعجزات التي تَخِرُّ لها صمُّ الجبال، أو مُظْهِرٌ لهم مناهجَ الحقّ بذلك.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي: عن ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو هو، والجملة عطف على قوله تعالى: «وقد جاءهم» إلى آخره. وعطفُها على قوله سبحانه: «ربنا» إلخ لأنه على معنى قالوا: «ربنا» إلخ، ليس بذاك.

و«ثم» للاستبعاد والتراخي الرتبي، وإلا فهُم قد تولَّوا ريثما جاءهم وشاهدوا منه ما شاهدوا مما يوجب الإقبال إليه ﷺ.

﴿وَقَالُوا۟﴾ مع ذلك في حقِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ أي: قالوا تارة: يعلمه عدَّاس - غلامٌ رومي لبعض ثقيف - وأُخرى: مجنون، أو يقول بعضهم كذا، وآخرون كذا، ولم يقل: ومجنون، بالعطف؛ لأن المقصودَ تعديدُ قبائحهم.

وقرأ زرُّ بن حُبيش: «معلِّم» بكسر اللام(١)، فـ «مجنون» صفة له، وكأنهم أرادوا: رسولٌ مجنون. وحاشاه ثم حاشاه ﷺ.

﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ جوابٌ من جهته تعالى عن قولهم، وإخبارٌ بالعود على تقدير الكشف، أي: إن كَشَفنا عنكم العذاب كشفاً قليلاً - أو زماناً قليلاً - عُدْتُم. والمراد على ما قيل: عائدون إلى الكفر؛ وأنت تعلم أن عَوْدهم إليه يقتضي إيمانهم، وقد مرَّ أنهم لم يُؤمنوا، وإنما وَعَدوا الإيمان؛ فإما أن يكون وعدُهم مُنزَّلاً منزلة إيمانهم، أو المراد: عائدون إلى الثبات على الكفر، أو على الإقرار والتصريح به.

وقال قتادة: هذا توعُّد بمعاد الآخرة. وهو خلافُ الظاهر جدًّا.

ومن قال: إن الدخان يومَ القيامة، قال: إن قوله سبحانه: (إِنَّا كَاشِفُوا۟) إلى آخره وعدٌ بالكشف، على نحو قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨].

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤.

ومن قال: المراد به ما هو من أشراط الساعة، قال بإمكان الكشف وعدم انقطاع التكليف عند ظهوره وإن كان من الأشراط، بل جاء في بعض الآثار أنه يمكثُ أربعين يوماً وليلة، فَيُكْشَفُ عنهم فيعودون إلى ما كانوا عليه من الضلال.

وحمله على ما رُوي عن ابن مسعود ظاهرُ الاستقامة لا قيل فيه ولا قال، وقوله سبحانه: «وقد جاءهم» إلخ قويُّ الملاءمة له، وهو بعيدُ الملاءمة للقول المرويِّ عن الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه، فقد احتيج في تحصيلها إلى جعل الإسناد من باب إسناد حال البعض إلى الكلِّ، أو حمل الناس على الكفار الموجودين في ذلك الوقت. والأمر على القول بأنه ما كان في فتح مكة أهون، إلا أنه مع ذلك ليس كقول ابن مسعود. فتأمل.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ هو يوم بدر عند ابن مسعود. وأخرجه عبد بن حُميد وابن جرير عن أُبيّ بن كعب ومجاهد والحسن وأبي العالية وسعيد بن جُبير ومحمد بن سيرين وقتادة وعطية(١). وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس(٢).

وأخرج ابن جرير وعبد بن حُميد بسند صحيح عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة(٣).

ونقل في «البحر» حكاية أنه يوم القيامة عن الحسن وقتادة أيضاً(٤).

والظرف معمولٌ لِمَا دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: إنا ننتقم يومَ إذ إنا منتقمون، وقيل: لـ «منتقمون»، وردَّه الزجَّاج(٥) وغيره بأنَّ ما بعد «إنَّ» لا يجوز أن يعمل فيما قبلها.

وقيل: لـ «عائدون» على معنى: إنكم لعائدون إلى العذاب يومَ نبطش.

وقيل: بـ «كاشفو العذاب». وليس بشيء.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٩، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٥-٢٧.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٩.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٩، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٧.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٥.
(٥) في معاني القرآن ٤/ ٤٢٥.

وقيل: لذكِّرهم، أو: اذكر، مقدَّراً. وقيل: هو بدل من «يوم تأتي» إلخ.

وقرئ: «نَبطُش» بضمِّ الطاء.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وطلحة بخلاف عنه: «نُبطِش» بضمِّ النون[1]، من باب الإفعال على معنى: نحمل الملائكة عليهم السلام على أن يبطشوا بهم، أو نُمكِّنهم من ذلك، فالمفعول به محذوفٌ للعلم وزيادة التهويل، وجَعْلُ البطشة على هذا مفعولاً مطلقاً على طريقة: «أنبتكم نباتاً». وقال ابن جني وأبو حيان[2]: هي منصوبة بفعل مضمر يدل عليه الظاهر، أي: يوم نُبطِش مَن نُبطِشه فيَبْطِشُ البطشةَ الكبرى. وقال ابن جني: ولك أن تنصبها على أنها مفعول به، كأنه قيل: يوم نُقوِّي البطشةَ الكبرى عليهم ونمكِّنها منهم، كقولك: يوم نُسلِّط القتل عليهم ونُوسِّع الأخذ منهم. وفي «القاموس»: بَطَشَ به يَبْطِشُ ويَبْطُشُ: أخذه بالعنف والسطوة، كأبطشه. والبَطْش: الأَخذُ الشديد في كلِّ شيء والبأس[3]. اهـ، فلا تغفل.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: امتحنَّاهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، على أنه مِنْ: فَتَنَ الفضةَ: عرضها على النار، فيكون بمعنى الامتحان، وهو استعارةٌ، والمرادُ: عاملناهم معاملةَ المُمتحِن ليَظْهَر حالُهم لغيرهم، أو: أوقعناهم في الفتنة، على أنه بمعناه المعروف، والمراد بالفتنة حينئذ ما يُفتن به الشخص، أي: يغترّ ويغفلُ عمَّا فيه صلاحه، كما في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨] وفُسِّرت هنا بالإمهال وتوسيع الرزق.

وفسَّر بعضهم الفتنةَ بالعذاب، ثم تجوّز به عن المعاصي التي هي سببٌ، وهو تكلُّفُ ما لا داعي له.

وقرئ: «فَتَّنَّا» بتشديد التاء[4]، إما لتأكيد معناه المصدري أو لتكثير المفعول أو الفعل.

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: مُكرم مُعظَّم عند الله عز وجل، أو عند

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٧، والمحتسب ٢/ ٢٦٠.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٦٠-٢٦١، والبحر المحيط ٨/ ٣٥.

(٣) القاموس المحيط (بطش).

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٥.

المؤمنين، أو عنده تعالى وعندهم، أو كريم في نفسه مُتَّصفٌ بالخِصال الحميدة والصِّفات الجليلة حسباً ونسباً. وقال الراغب: الكرم إذا وُصِفَ به الإنسان فهو اسمٌ للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه. ونَقَل عن بعض العلماء أن الكرمَ كالحرية إلا أن الحريةَ قد تُقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة، والكرمُ لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة(١).

وقال الخفاجيُّ: أصل معنى الكريم: جامع المحامد والمنافع(٢). وادَّعى لذلك أن تفسيره به أحسنُ من تفسيره بالتفسيرين السابقين.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أطلقوهم وسلِّموهم إليَّ، والمراد بهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون مستعبدَهم، والتعبير عنهم بـ «عباد الله» للإشارة إلى أن استعبادَه إيَّاهم ظلمٌ منه، والأداء مجازٌ عما ذكر، وهذا كقوله عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه:٤٧] ورُوي ذلك عن ابن زيد ومجاهد وقتادة.

أو: أدُّوا إليَّ حقَّ الله تعالى من الإيمان وقَبول الدعوة يا عبادَ الله، على أن مفعول «أدُّوا» محذوفٌ، و«عباد» منادى، وهو عامٌّ لبني إسرائيل والقِبط، والأداء بمعنى الفعل للطاعة وقَبول الدعوة، ورُوي هذا عن ابن عباس.

و«أنْ» عليهما قيل: مصدرية قبلها حرفُ جرٍّ مقدَّر متعلِّق بـ «جاءهم»، أي: بأنْ أدُّوا. وتُعقِّب بأنه لا معنى لقولك: جاءهم بالتأدية إليَّ، وحَمْلُه على طلب التأدية إليَّ لا يخلو عن تعسُّف. ورُدَّ بأنه بتقدير القول، وهو شائعٌ مطَّرد، فتقديرُه بأنْ قال: أدُّوا إليَّ. ولا يخلو عن تكلُّف ما، ومع هذا، الأمرُ مبنيٌّ على جواز وصل المصدرية بالأمر والنهي، وهو غير متَّفق عليه، نعم الأصح الجواز.

وقيل: هي مخفَّفة من الثقيلة. وتُعقِّب بأنها حينئذ يُقدَّر معها ضمير الشأن، ومفسِّره لا يكون إلا جملةً خبريَّة، وأيضاً لا بدَّ أن يقع بعدَها النفي أو «قد» أو السين أو «سوف» أو «لو»، وأنْ يتقدَّمها فِعْلٌ قلبيٌّ ونحوه.

وأُجيب بأنَّ مجيء الرسول يتضمَّن معنى فعل التحقيق كالإعلام، والفصلُ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (كرم).
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٧.

المذكور غيرُ متّفق عليه، فقد ذهب المبرِّد تبعاً للبغادِدة إلى عدم اشتراطه، والقول بأنه شاذٌّ يُصان القرآن عن مِثله غيرُ مسلَّم، واشتراطُ كون مُفسِّر ضمير الشأن جملةً خبرية، فيه خلافٌ على ما يُفهم من كلام بعضهم.

ولم يذكر في «المغني» في الباب الرابع في الكلام على ضمير الشأن إلا اشتراطَ كون مُفسِّره جملةً، ولم يشترط فيها الخبرية، ولم يتعرض لخلاف. نعم قال في الباب الخامس: النوع الثامن: اشتراطُهم في بعضِ الجملة الخبرية وفي بعضها الإنشائية، وعَدَّ من الأول خبر «إنَّ» وضمير الشأن، لكنه قال بعد: وينبغي أن يُستثنى من ذلك في خبري «إنَّ» وضمير الشأن خبر «أن» المفتوحة إذا خُفِّفت، فإنه يجوز أن يكون جملةً دعائيَّة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنْ غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهَآ﴾ [النور: ٩] في قراءة مَنْ قرأ: «أَنْ» و«غَضِبَ» بالفعل، والاسم الجليل فاعل[١]. وحقَّق بعض الأجِلَّة أن الإخبار عن ضمير الشأن بجملة إنشائية جائزٌ عند الزمخشري[٢].

أو هي مفسِّرة، وقد تقدَّم ما يدلُّ على القول دون حروفه، لأن مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة، وكأنَّ التفسير لمتعلِّقه المقدَّر، أي: جاءهم بالدعوة، وهي أنْ أدُّوا إليَّ عبادَ الله ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨﴾

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تستكبروا عليه سبحانه بالاستهانة بوحيه جلَّ شأنه ورسولِه عليه الصلاة والسلام، «وأنْ» كالتي قبلها، والمعنى على المصدرية: بكفِّكم عن العلوِّ على الله تعالى.

﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩﴾ تعليلٌ للنهي، أي: آتيكم بحجة واضحة لا سبيلَ إلى إنكارها، أو مُوضحةٍ صِدْقَ دعواي، و«آتيكم» على صيغة الفاعل أو المضارع، ولا يَخْفَى حُسْنُ ذكر الأمين مع الأداء، والسلطانِ مع العلاء.

وذكر «أن» في الأول ترشيحاً للاستعارة المصرحة أو المكنية بجعلهم كأنهم مالٌ للغير في يده أمره بدفعه لمن يُؤتمن عليه، وفي الثاني تورية عن معنى الملك مرشحة بقوله: «لا تعلوا».

---

(١) مغني اللبيب ص٦٣٧ و٧٦١. والقراءة المذكورة هي قراءة نافع. التيسير ص١٦١، والنشر ٢/ ٣٣٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٢، وينظر حاشية الشهاب ٨/ ٨.

وقرأت فرقة: «أَني» بفتح الهمزة[(١)]، فقيل: هو أيضاً على تعليل النهي بتقدير اللام. وقيل: هو متعلّق بما دخله النهي، نظير قولك لمن غضب من قول الحقِّ له: لا تغضب لأنْ قيل لك الحقّ.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: التجأت إليه تعالى وتوكّلت عليه جل شأنه ﴿أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠﴾ من أنْ ترجموني، أي: تُؤذوني ضرباً أو شتماً، أو أن تقتلوني، وروي هذا عن قتادة وجماعة، قيل: لمَّا قال: أن لا تعلوا على الله، توعَّدوه بالقتل فقال ذلك. وفي «البحر»[(٢)]: إن هذا كان قبل أن يخبره عز وجل بعجزهم عن رجمه بقوله سبحانه: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]. والجملة عطف على الجملة المستأنفة.

وقرأ أبو عمرو والأخوان: «عتُّ» بإدغام الذال في التاء[(٣)].

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ۝٢١﴾ فكونوا بمعزلٍ مني لا عليَّ ولا لي، ولا تتعرَّضوا لي بسوء، فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحُكم.

وقيل: المعنى: وإن لم تؤمنوا لي فلا موالاةَ بيني وبين من لا يؤمن، فتنحَّوا واقطعوا أسبابَ الوصلة عني. ففي الكلام حذفُ الجواب وإقامة المسبَّب عنهُ مقامه، والأول أوفقُ بالمقام، والاعتزالُ عليه عبارةٌ عن الترك وإن لم تكن مفارقةٌ بالأبدان.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعد أن أصرُّوا على تكذيبه عليه السلام ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢﴾ أي: بأن هؤلاء.. إلخ، فهو بتقدير الباء صلةُ الدعاء، كما يقال: دعا بهذا الدعاء، وفيه اختصار، كأنه قيل: إن هؤلاء قومٌ مجرمون تناهى أمرهم في الكفر وأنت أعلم بهم، فافعل بهم ما يستحقُّونه. قيل: كان دعاؤه عليه السلام: اللَّهمَّ عجِّل لهم ما يستحقُّون بإجرامهم، وقيل: قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٥-٨٨] وإنما ذكر الله سبحانه السببَ الذي استوجبوا به الهلاك ليعلم منه دعاؤه والإجابة معاً، وأن دعاءه كان على يأسٍ من إيمانهم، وهذا من بليغ اختصارات الكتاب المُعجز.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٥.
(٢) ٨/ ٣٥.
(٣) التيسير ص٤١-٤٢، والنشر ٢/ ١٦. وقرأ بها أبو جعفر وخلف.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والحسن - في رواية - وزيد بن عليٍّ بكسر همزة «أنَّ»[1]، وخُرِّج على إضمار القول، أي: قائلاً: إنَّ هؤلاء.. إلخ.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ وهم بنو إسرائيل ومَن آمن به من القبط ﴿لَيْلًا﴾ بقِطع من الليل، والكلام بإضمار القول؛ إما بعد الفاء، أي: فقال: أَسْرِ.. إلخ، فالفاء للتعقيب والترتيب، والقولُ معطوف على ما قبله. أو قبلها، كأنه قيل: قال، أو فقال: إن كان الأمر كما تقول: فأسر.. إلخ، فالفاء واقعةٌ في جواب شرط مقدَّر، وهو وجوابه مقولُ القول المُقدَّر مع الفاء أو بدونها على أنه استئنافٌ.

والإضمار الأول أولى لقلَّة التقدير، مع أنَّ تقدير «إنْ» لا يناسب، إذ لا شكَّ فيه تحقيقاً ولا تنزيلاً، وجعلها بمعنى «إذا» تكلُّفٌ على تكلُّف. وأبو حيان[2] لا يُجيز حذفَ الشرط وإبقاء جوابه في مثل هذا الموضع، وقد شنَّع على الزمخشري في تجويزه[3].

وقرأ نافع وابن كثير: «فاسر» بوصل الهمزة[4]، مِن سَرى.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يتبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم، فالجملة مستأنفة لتعليل الأمر بالسُّرَى ليلاً، ليتأخَّر العلم به فلا يُدرَكون، والتأكيد لتقدُّم ما يلوح بالخبر.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي: ساكناً كما قال ابن عباس. يقال: رها البحرُ يَرهُو رَهْواً: سكن، ويقال: جاءت الخيلُ رهواً، أي: ساكنة، قال الشاعر:

والخيلَ تمزعُ رهواً في أَعِنَّتها ... كالطير تنجو من الشُّؤْبوب ذي البَرَدِ[5]

ويقال: افعل ذلك رهواً، أي: ساكناً على هينة، وأنشد غيرُ واحد للقطاميِّ في نعت الركاب:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٧.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٥.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٢.
(٤) وهي قراءة أبي جعفر أيضاً. التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.
(٥) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٤، وتفسير القرطبي ١٩/ ١١٥، والبحر ٨/ ٣١. ورواية الديوان: غرباً، بدل: رهواً. والغَرْب: الفرس الكثير الجري. وتمزع، أي: تُسرع. والشُّؤبوب: الدّفعة من المطر. القاموس (غرب) و(مزع) و(شأب).

يَمشينَ رَهْواً فلا الأعجازُ خاذلةٌ ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ[١]

والظاهرُ أنه مصدرٌ في الأصل يُؤَوَّل باسم الفاعل. وجُوِّز أن يكون بمعنى الساكن حقيقةً.

وعن مجاهد: رهواً، أي: منفرجاً مفتوحاً. قال أبو عُبيدة[٢]: رَهَا الرجلُ يَرهُو رَهْواً: فتح بين رجليه. وعن بعض العرب أنه رأى جملاً فالجاً، أي: ذا سنامين، فقال: سبحان الله تعالى رهو بين سنامين! قالوا: أراد: فرجة واسعة. والظاهر أيضاً أنه مصدر مُؤَوَّل، أو فيه مضاف مقدَّر، أي: ذا فرجة.

قال قتادة: أراد موسى عليه السلام بعد أن جاوز البحر هو ومن معه أن يضربه بعصاه حتى يَلتئم كما ضربه أولاً فانفلق، لئلا يتبعه فرعون وجنوده، فأمر بأنْ يتركه رهواً. أي: مفتوحاً منفرجاً، أو ساكناً على هيئته، قارًّا على حاله من انتصاب الماء وكون الطريق يَبَساً، ولا يضربه بعصاه، ولا يُغير منه شيئاً، ليدخُلَه القِبط فإذا حصلوا فيه أطبقه اللهُ تعالى عليهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فهو تعليلٌ للأمر بتركه رهواً.

وقيل: «رهواً»: سهلاً. وقيل: يابساً. وقيل: جدداً. وقيل غيرُ ذلك. والكلُّ بيانٌ لحاصل المعنى، وزعم الراغب[٣] أن الصحيح أنَّ الرهوَ السعةُ من الطريق، ثم قال: ومنه الرهاء: المفازة المستوية، ويقال لكلِّ جَوْبَة مستوية يجتمع فيها الماء: رهو، ومنه قيل: لا شفعة في رهو[٤].

والحقُّ أن ما ذكره من جملة إطلاقاته، وأما أنه الصحيح فلا.

وقرئ: «أنهم» بالفتح[٥]، أي: لأنهم.

---

(١) ديوان القطامي ص٢٦.

(٢) كما في البحر ٨/ ٣١، والدر المصون ٩/ ٦٢٢.

(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (رهو).

(٤) مأخوذ من حديث أورده أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ١٢١ عن النبيِّ ﷺ أنه قضى أن لا شفعة في فناء ولا طريق ولا منقبة ولا ركح ولا رهو.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٣.

﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أي: كثيراً تركوا بمصر ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦﴾ حسن شريف في بابه، وأُريد بذلك كما رُوي عن قتادة المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وابنُ مردويه عن جابر، أنه أريد به المنابر(١). وروي ذلك عن مجاهد وابن جُبير أيضاً. وقيل: السرر في الحجال. والأولُ أولى.

وقرأ ابن هرمز وقتادة وابن السَّمَيْفَع ونافع في روايةٍ خارجةَ: «مُقام» بضمِّ الميم(٢).

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ أي: تنعم. قال الراغب: النَّعمة بالفتح التنعُّم، وبناؤها بناء المَرة من الفعل، كالضَّربة والشَّتمة، والنِّعمة بالكسر الحالة الحسنة، وبناؤها بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان، كالجِلْسة والرِّكبة، وتقال للجنس الصادق بالقليل والكثير(٣). واختير هاهنا تفسير النعمة بالشيء المنعم به لأنه أنسبُ للترك، وهي كثيراً ما تكون بهذا المعنى.

وقرأ أبو رجاء: «ونعمةً» بالنصب(٤)، وخُرِّج بالعطف على «كم». وقيل: هي معطوفة على محلِّ ما قبلها، كأنه قيل: كم تركوا جناتٍ وعيوناً وزرعاً ومقاماً كريماً ونعمة.

﴿كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧﴾ طيبي الأنفس وأصحاب فاكهة، فَفَاكِه، كـ: لابِن، وتامر. وقال القشيري: لاهين.

وقرأ الحسن وأبو رجاء: «فَكِهين» بغير ألف(٥)، والفَكِه يستعمل كثيراً في المُستخفّ المستهزئ؛ فالمعنى: مُستخِفِّين بشكر النعمة التي كانوا فيها. وقال الجوهريُّ: فَكِهَ الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ، إذا كان مزَّاحاً، والفَكِه أيضاً الأَشِرُ(٦).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٠.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦، وهي غير المشهورة عن نافع.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (نعم).
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٦.
(٥) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. النشر ٢/ ٣٥٤.
(٦) الصحاح (فكه).

﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ قال الزجاج[1]: المعنى: الأمر كذلك، والمراد التأكيدُ والتقرير، فيوقف على «كذلك»، فالكاف في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف، أو الجارّ والمجرور كذلك. وقيل: الكاف في موضع نصب، أي: نفعل فعلاً كذلك لمن نريد إهلاكَه. وقول الكلبي: أي: كذلك أفعل بمن عصاني، ظاهر فيما ذكر.

وقال الزمخشري[2]: الكاف منصوبة على معنى: مِثْلَ ذلك الإخراج - أي: المفهوم مما تقدَّم - أخرجناهم منها.

﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ عطف على «تركوا»، والجملة معترضة فيما عدا القول الأخير، وعلى «أخرجناهم فيه». وقيل: الكاف منصوبة على معنى: تركوا تركاً مثل ذلك، فالعطف على «تركوا» بدون اعتراض، وهو كما ترى.

والمراد بالقوم الآخرين بنو إسرائيل، وهم مُغايرون للقبط جنساً وديناً، ويُفسِّر ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية:٥٩] وهو ظاهرٌ في أن بني إسرائيل رَجَعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وملكوها، وبه قال الحسن.

وقيل: المراد بهم غير بني إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك القبط، وإليه ذهب قتادة، قال: لم يُرْوَ في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رَجَعوا إلى مصر، ولا أنهم ملكوها قطّ. وأُوِّلَ ما في سورة الشعراء بأنه من باب: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر:١١]، وقولك: عندي درهمٌ ونصفُه، فليس المرادُ خصوصَ ما تركوه، بل نوعه وما يُشبهه.

والإيراث: الإعطاء. وقيل: المراد من إيراثها إياهم تمكينهم من التصرُّف فيها، ولا يتوقَّف ذلك على رجوعهم إلى مصر كما كانوا فيها أولاً.

وأخذ جمعٌ بقول الحسن وقالوا: لا اعتبار بالتواريخ، وكذا الكتب التي بيد اليهود اليوم؛ لِمَا أن الكذبَ فيها كثير، وحسبنا كتاب الله تعالى، وهو سبحانه أصدقُ القائلين، وكتابه جلَّ وعلا مأمون من تحريف المُحرِّفين.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٤٢٦.
(٢) في الكشاف ٣/ ٥٠٣.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مجاز عن عدمِ الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم. وهو استعارةٌ تمثيلية تخييلية، شُبِّه حالَ موتهم لشدَّته وعظمته بحال من تبكي عليه السماء والأجرام العظام، وأثبت له ذلك، والنفي تابع للإثبات في التجوُّز كما حقّق في موضعه.

وقيل: هي استعارةٌ مكنية تخييلية؛ بأن شبه السماء والأرض بالإنسان وأسند إليهما البكاء، أو تمثيلية بأن شبّه حالهما في عدم تغير حالهما وبقائهما على ما كانا عليه بحال من لم يبكِ. وليس بشيء كما لا يخفى على من راجع كلامهم.

وقد كثر في التعظيم لمهلك الشخص: بكت عليه السماء والأرض، و: بكته الريح، ونحو ذلك، قال يزيد بن مُفرِّغ:

الريحُ تَبكي شَجْوَه ... والبرقُ يلمع في غَمَامَهْ[1]

وقال النابغة:

بكى حارثُ الجولانِ مِن فَقْدِ ربِّه ... وحورانُ منه خاشعٌ متضائلُ[2]

أراد بهما مكانين معروفين، وقال جرير:

لمَّا أتى خبرُ الزبير تواضَعَتْ ... سورُ المدينةِ والجبالُ الخُشَّع[3]

وقال الفرزدق يرثي أميرَ المؤمنين عمر بن عبد العزيز:

الشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفةٍ ... تبكي عليك نجومَ الليل والقمرا[4]

يتعجَّب من طلوع الشمس وكان من حقِّها أن لا تطلع، أو تطلعَ كاسفة، والنجوم تُروى منصوبةً ومرفوعة، فالنصب على المغالبة، أي: تغلب الشمسُ النجومَ في البكاء نحو: باكيته فبكيته.

---

(١) ديوان يزيد بن مفرِّغ ص١٤٣، وروايته: فالريح تبكي شجوها... والبرق يضحك في الغمامة.

(٢) ديوان النابغة ص٩١، وفيه: موحش، بدل: خاشع.

(٣) ديوان جرير ٢/ ٩١٣، وسلف ١٦/ ١٩٣.

(٤) البيت لجرير، وليس للفرزدق، وهو في ديوان جرير ٢/ ٧٣٦، وروايته: فالشمس كاسفة ليست بطالعة...، وهو برواية المصنف في الكامل ٢/ ٨٣٣، والعقد الفريد ١/ ٩٦.

قال جار الله: كان رضي الله عنه يتهجَّد بالليل فتبكيه النجوم، ويعدِلُ بالنهار فتبكيه الشمسُ، والشمس غالبةٌ في البكاء؛ لأن العدلَ أفضلُ من صلاة الليل.

والجوهري[(١)] جعلها منصوبةً بكاسفة، أي: لا تكسف ضوءَ النجوم لِكَثْرة بكائها، وكأنه جعل خَفاءَ النجوم تحت ضوء الشمس كسفاً لها مجازاً. وفيه أن الكسف بالمعنى المذكور غيرُ واضح، وتخلُّل: تبكي، غيرُ مُسْتَفْصَحٍ. وفي «حواشي الصحاح»: الشمس كاسفة ليست بطالعة[(٢)]. وفيها أن نجومَ الليل ظرفٌ، أي: طول الدهر، كأنه من باب: آتيك الشمسَ والقمرَ، أي: وقتهما، كأنه قيل: تبكي ما يطلع النجوم والقمر، وفيه أنَّ مثل هذا الظرف مسموعٌ لا يثبت إلا بثبت، فكيف يعدل إليه مع المعنى الواضح؟!

وقيل: التقدير: تبكي بكاءَ النجوم، فحذف المضاف. وفيه أنه مما لا يكاد يُفهم. والرفع واضح، والقمر منصوبٌ على أنه مفعول معه.

وهذا استطرادٌ دعانا إليه شهرةُ البيت مع كثرة الخبط فيه.

وأخرج الترمذي وجماعة عن أنس قال: قال: رسول الله ﷺ: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان؛ بابٌ يصعدُ منه عَمَلُه، وبابٌ ينزلُ منه رزقُه، فالمؤمن إذا مات فقداه وبكيا عليه» وتلا هذه الآية: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ)[(٣)].

وذُكر أنهم لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملاً صالحاً، فتفقدَهم فتبكي عليهم، ولم يَصْعَدْ لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلامٌ طَيِّب، ولا عملٌ صالح، فتفقدَهم فتبكي عليهم.

وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» والحاكم وصحَّحه وغيرهما عن ابن عباس

(١) الصحاح (كسف).

(٢) وهي رواية الديوان، وقد أشرنا إليها عند تخريج البيت.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٠، وسنن الترمذي (٣٢٥٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي (وهما من رجال الإسناد) يُضَعَّفان في الحديث.

قال: إنَّ الأرضَ لَتبكي على المؤمن أربعين صباحاً. ثم قرأ الآية[1].

وأخرج ابن المنذر وغيره عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: إنَّ المؤمن إذا مات بكى عليه مصلَّاه من الأرض ومصعد عمله من السماء، ثم تلا: (فَمَا بَكَتْ) إلخ[2]. وجعلوا كلّ ذلك من باب التمثيل.

ومَن أَثْبَتَ ـ كالصوفية ـ للأجرام السماوية والأرضية وسائر الجمادات شعوراً لائقاً بحالها لم يَحْتَجْ إلى اعتبار التمثيل، وأثبت بكاءً حقيقيًّا لها حسبما تقتضيه ذاتها ويَليق بها، أو أوَّله بالحزن أو نحوه وأثبته لها حسب ذلك أيضاً.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء: بكاء السماء حمرةُ أطرافها[3]. وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن نحوه، وأخرج عن سفيان الثوري قال: كان يقال: هذه الحمرة التي تكون في السماء بكاءُ السماء على المؤمن[4].

ولعمري ينبغي لمن لم يضحك من ذلك أن يبكي على عقله. وأنا لا أعتقد أن مَن ذُكر من الأجلَّة كانوا يعتقدونه.

وقيل: إنَّ الآيةَ على تقدير مضاف، أي: فما بكت عليهم سكانُ السماء ـ وهم الملائكة ـ وسكان الأرض ـ وهم المؤمنون ـ بل كانوا بهلاكهم مسرورين. وروي هذا عن الحسن، والأحسن ما تقدَّم.

﴿وَمَا كَانُوا﴾ لمَّا جاء وقت هلاكهم ﴿مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ مُمْهَلين إلى وقت آخر أو إلى يوم القيامة، بل عجّل لهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بما فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم واستحيائه نساءهم على الخسف والضيم.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من «العذاب» على حذف المضاف، والتقدير: من عذاب فرعون، أو جعله ـ عليه اللعنة ـ عين العذاب مبالغةً. وجُوِّز أن يتعلَّق بمحذوف يقع

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١، وشعب الإيمان (٣٢٩٠)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٤٤٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣١، وتفسير الطبري ٢١/ ٤١.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١.

حالاً، أي: كائناً من جهة فرعون، وقيل: متعلِّق بمحذوف واقع صفةً، أي: كائناً، أو الكائن من فرعون، ولا بأس بهذا إذا لم يُعدَّ ذلك من حذف الموصول مع بعض صلته.

وقرأ عبد الله: «من عذاب المهين»[١] على إضافة الموصوف إلى صفته، كبقلة الحمقاء.

وقرأ ابن عباس: «مَنْ فرعونُ» على الاستفهام[٢] لتهويل العذاب، أي: هل تعرفون مَنْ فرعون في عُتوِّه وشيطنته، فما ظنكم بعذابه؟!. وقيل: لتحقير فرعون بجعله غيرَ معلوم يُسْتفهم عنه كالنكرة، لِمَا فيه من القبائح التي لم يُعهد مثلها، وما بعدُ يناسب ما قبلُ كما لا يخفى. وأيًّا ما كان فالظاهر أن الجملة استئنافٌ. وقيل: إنها مقولُ قولٍ مقدَّرٍ هو صفةٌ للعذاب، وقدّر «المقول» عنده إن كان تعريف العذاب للعهد، و«مقول» إن كان للجنس فلا تغفل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ في الشَّرِّ والفساد. والجارُّ والمجرور إما خبر ثانٍ لـ «كان»، أي: كان متكبِّراً مُغرِقاً في الإسراف، وإما حال من الضمير المستتر في «عالياً»، أي: كان متكبّراً في حال إغراقه في الإسراف.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي: اصطفينا بني إسرائيل وشرَّفناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالمين باستحقاقهم ذلك، أو: مع عِلْم منَّا بما يفرط منهم في بعض الأحوال. وقيل: عالمين بما يصدر منهم من العدل والإحسان والعلم والإيمان. ويرجع هذا إلى ما قيل أولاً، فإن العدلَ وما معه من أسباب الاستحقاق.

وقيل: لأجل علم فيهم، وتُعقِّب بأنه ركيكٌ؛ لأنَّ تنكيرَ العلم لا يُصادف محزَّه. وأُجيب بأنه للتعظيم ويحسن اعتباره علَّة للاختيار.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: عالَمي زمانهم، كما قال مجاهد وقتادة، فالتعريف للعهد، أو الاستغراق العرفي، فلا يلزم تفضيلهم على أمة محمد ﷺ الذين هم خيرُ أمةٍ أخرجت للناس على الإطلاق. وجُوِّز أن يكون للاستغراق الحقيقي، والتفضيل

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٤.

باعتبار كثرة الأنبياء عليهم السلام فيهم، لا من كلِّ الوجوه حتى يلزم تفضيلهم على هذه الأمة المحمدية.

وقيل: المراد: اخترناهم للإنجاء[١] على الوجه الذي وقع، وخَصصناهم به دون العالمين. وليس بشيء.

ومما ذكرنا يُعلم أنه ليس في الآية تعلُّق حرفَي جرٍّ بمعنًى بمتعلَّقٍ واحد، لأنَّ الأول متعلِّق بمحذوف وقع حالاً، والثاني متعلِّق بالفعل، كقوله:

ويوماً على ظَهْر الكَثيبِ تعذَّرتْ   عليَّ وآلَتْ حَلْفةً لم تحلَّلِ[٢]

وقيل: لأن كلَّ حرف بمعنى.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ كـ: فَلْق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المَنِّ والسلوى، وغيرها من عظائم الآيات التي لم يُعهد مثلها في غيرهم، وبعضُها وإن أُوتيها موسى عليه السلام يَصْدُقُ عليه أنهم أُوتوه، لأنَّ ما للنبيِّ لأُمَّته.

﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي: نعمة ظاهرة أو اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون. وفي «فيه» إشارةٌ إلى أن هناك أموراً أُخرى، ككونه معجزة.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كفار قريش؛ لأنَّ الكلامَ فيهم، وذكرُ قصة فرعون وقومه استطراديٌّ للدلالةِ على أنهم مِثْلُهم في الإصرار على الضلالة، والإنذارِ عن مثل ما حلَّ بهم، وفي اسم الإشارة تحقيرٌ لهم ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما العاقبةُ ونهايةُ الأمر إلا الموتةُ الأولى المُزيلة للحياة الدنيوية.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: بمبعوثين بعدها، وتوصيفُها بالأولى ليس لقصد مقابلة الثانية، كما في قولك: حجَّ زيدٌ الحجَّةَ الأُولى، ومات. قال الإسنوي في «التمهيد»[٣]: الأول في اللغة: ابتداء الشيء، ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون،

---

(١) في (م): للإيحاء.

(٢) البيت لامرئ القيس من معلقته، وهو في ديوانه ص١٢.

(٣) كذا ذكر الشهاب في حاشيته ٨/ ١٠، وعنه نقل المصنف، وكلام الإسنوي في كتابه الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية ص٢٤٩.

كما تقول: هذا أولُ ما اكتسبته، فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب، كذا ذكره جماعة منهم الواحدي في «تفسيره» والزجاج(١).

ومن فروع المسألة ما لو قال: إن كان أول ولد تَلدينه ذكراً فأنت طالق، تطلق إذا ولدته، وإن لم تَلِدْ غيره بالاتفاق. قال أبو عليٍّ: اتفقوا على أنه ليس من شرط كونه أولاً أن يكون بعده آخر، وإنما الشرط أن لا يتقدَّم عليه غيره. اهـ.

ومنه يعلم ما في قول بعضهم: إن الأول يضايف الآخر والثاني، ويقتضي وجودَه بلا شبهة، والمثال إنْ صحَّ فإنما هو فيمن نوى تعدُّد الحجِّ فاخترمَتْه المنية فَلِحَجِّه ثانٍ باعتبار العزم = من قصور الاطلاع، وأنه لا حاجة إلى أن يقال: إنها أُولى بالنسبة إلى ما بعدها من حياة الآخرة، بل هو في حدِّ ذاته غير مقبول لِمَا قال ابن المُنير من أن الأولى إنما يقابلها أُخرى تُشاركها في أخصِّ معانيها، فكما لا يصحُّ ـ أو: لا يحسن ـ أن يقال: جاءني رجلٌ وامرأة أُخرى، لا يقال: الموتة الأولى بالنسبة لحياة الآخرة(٢).

وقيل: إنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقَّبها حياة كما تقدَّمتكم موتة قد تعقَّبتها حياة، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] فقالوا: «إن هي إلا موتتُنا الأولى» يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن تتعقَّبها حياة إلا الموتة الأولى دون الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتةَ من تعقُّب الحياة لها إلا للموتة الأُولى خاصة، وهذا ما ارتضاه جار الله(٣)، وأراد أن النفي والإثبات لمَّا كان لردِّ المُنكِر المُصِرِّ إلى الصواب كان منزلاً على إنكارهم، لا سيما والتعريف في الأُولى تعريف عهد، وقوله تعالى: ﴿الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] تفسير للمبهم، وهي على نحو: هي العرب تقول كذا، فيتطابقان، والمعهود الموتة التي تعقَّبتها الحياة الدنيوية، ولذلك استشهد بقوله تعالى: (وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا) إلخ، فليس اعتبار الوصف عُدولاً عن الظاهر من غير حاجة، كما قال ابن المُنيِّر.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٨/ ١٠.

(٢) ينظر الانتصاف (بحاشية الكشاف) ٣/ ٥٠٥، وحاشية الشهاب ٨/ ١٠، والكلام منه.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٥.

وقوله في الاعتراض أيضاً: إن الموت السابق على الحياة الدنيوية لا يُعبَّر عنه بالمَوْتة؛ لأن فيها ـ لمكان بناء المرَّة ـ إشعاراً بالتجدُّد، والموتُ السابق مستصحبٌ لم تتقدَّمه حياة[1] = مدفوع، كما قال صاحب «الكشف». ثم إنه لا يلزم من تفسير الموتة الأُولى بما بعد الحياة في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] تفسيرها بذلك هنا؛ لأن إيقاع الذوق عليها هناك قرينة أنها التي بعد الحياة الدنيا؛ لأن ما قبل الحياة غير مذوق. ومع هذا كلِّه الإنصافُ أن حمل الموتة الأولى هنا أيضاً على التي بعد الحياة الدنيا أظهرُ من حملها على ما قبلَ الحياة من العدم، بل هي المُتبادرةُ إلى الفَهم عند الإطلاق، المعروفةُ بينهم، وأمرُ الوصف بالأُولى على ما سمعت أولاً.

وقيل: إنهم وُعدوا بعد هذه الموتة موتة القبر وحياة البعث، فقوله تعالى عنهم: «إن هي إلا موتتنا الأولى» ردٌّ للموتة الثانية، وفي قوله سبحانه: «وما نحن بمنشرين» نفي لحياة القبر ضمناً، إذ لو كانت بدون الموتة الثانية لَثبت النشر ضرورة.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطابٌ لمن وعدهم بالنشور من الرسول ﷺ والمؤمنين، أي: فأتوا لنا بمن مات من آبائنا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ في وعدكم، ليدلَّ ذلك على صدقكم، ودلالة الإيقان إما لمجرَّد الإحياء بعد الموت، وإما بأن يسألوا عنه. قيل: طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يدعوَ الله تعالى فيحيي لهم قصي بنَ كلاب لِيشاوروه في صحَّة النبوَّة والبعث؛ إذ كان كبيرَهم ومستشارَهم في النوازل.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوَّة والمَنَعة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تُبَّع الأكبر الحِميري، واسمه: أسعدُ، بهمزة، وفي بعض الكتب: سعد، بدونها، وكنيته: أبو كرب، وكان رجلاً صالحاً. أخرج الحاكم وصحَّحه عن عائشة قالت: كان تُبَّع رجلاً صالحاً، ألا ترى أن الله تعالى ذمَّ قومَه ولم يَذُمَّه[2]. وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس: لا يشتبهنَّ عليكم أمرُ تُبَّع، فإنه كان مسلماً[3].

---

(١) الانتصاف٣/ ٥٠٥.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١، والمستدرك ٢/ ٤٥٠.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣١، وتاريخ مدينة دمشق ١١/ ٦.

وأخرج أحمد والطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا تُبَّعاً؛ فإنه كان قد أسلم»[1].

وأخرج ابن عساكر[2] وابن المنذر عن ابن عباس قال: سألت كعباً عن تُبَّع، فإني أسمع اللهَ تعالى يذكر في القرآن قومَ تُبَّع ولا يذكر تُبَّعاً؟! فقال: إن تُبَّعاً كان رجلاً من أهل اليمن ملكاً منصوراً، فسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند، فَرَجَعَ فأخذ طريقَ الشام، فأَسرَ بها أحباراً فانطَلَق بهم نحو اليمن حتى إذا دنا من مكة[3] طار في الناس أنه هادم الكعبة، فقال له الأحبار: ما هذا الذي تُحدِّث به نفسك، فإن هذا البيت لله تعالى وإنك لن تُسلَّط عليه. فقال: إن هذا لله تعالى، وأنا أحقُّ من حرَّمه، فأسلم من مكانه وأحرم فدخلها محرماً، فقضى نُسكه ثم انصرف نحو اليمن راجعاً حتى قَدِمَ على قومه، فدخل عليه أشرافهم فقالوا: يا تُبَّع أنت سيِّدُنا وابن سيِّدِنا، خرجتَ من عندنا على دينٍ، وجئتَ على غيره، فاختر منَّا أحدَ أمرين؛ إما أن تُخلّينا ومُلكَنا وتعبد ما شئتَ، وإما أن تَذَرَ دينك الذي أحدثتَ. وبينهم يومئذ نارٌ تنزِلُ من السماء، فقال الأحبار عند ذلك: اجعل بينكَ وبينهم النار. فتواعدَ القومُ جميعاً على أن يجعلوها بينهم، فجيء بالأحبار وكتبهم، وجيء بالأصنام وعُمَّارها، وقَدِموا جميعاً إلى النار، وقامت الرجالُ خلفهم بالسيوف، فهدرت النارُ هديرَ الرعد، ورمَتْ شعاعاً لها، فنكص أصحاب الأصنام وأقبلت النار فأحرقت الأصنام وعُمَّارها، وسَلِمَ الآخرون، فأسلم قومٌ واستسلم قومٌ، فلبثوا بعد ذلك عُمرَ تُبَّع، حتى إذا نزل بِتُبَّع الموت استخلف أخاه، وهلك، فقتلوا أخاه وكفروا صفقة واحدة.

وفي رواية عن ابن عباس: أن تُبَّعاً لما أقبل من الشرق بعد أن حيَّر الحِيْرة، أي: بناها ونظم أمرها ـ وهي بكسر الحاء المهملة وياء ساكنة، مدينة بقرب

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١، ومسند أحمد (٢٢٨٨٠)، ومعجم الطبراني الكبير (٦٠١٣). قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٤٨: فيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر، وهما ضعيفان. اهـ. وينظر تفسير ابن كثير عند هذه الآية.

(٢) تاريخ دمشق ١١/ ٨، والكلام من الدر المنثور ٦/ ٣١-٣٢.

(٣) في الأصل و(م) والدر المنثور: ملكه، والمثبت من تاريخ دمشق، وهو أوجه.

الكوفة ـ وبنى سمرقند، وهي مدينة بالعجم معروفة، وقيل: إنه هدمها، وقصد المدينةَ، وكان قد خلَّف بها حين سافر ابناً له فَقُتِلَ غِيلة، فأجمع على خرابها واستئصال أهلها، فجمع له الأنصار وخرجوا لقتاله، وكانوا يُقاتلونه بالنهار ويُقرونه بالليل، فأعجبه ذلك وقال: إن هؤلاء لكرامٌ. فبينما هو على ذلك إذ جاءه كعب وأسد ابنا عَمٍّ من قُريظة حِبْران، وأخبراه أنه يُحال بينك وبين ما تُريد، فإنها مُهاجَرُ نبيٍّ من قريش اسمه: محمد ﷺ، ومولده بمكة، فثناه قولُهما عمَّا يُريد، ثم دَعَواه إلى دينهما فاتَّبعهما وأكرمهما، فانصرفوا عن المدينة ومعهم نفرٌ من اليهود، فقال له في الطريق نفر من هُذيل: نَدُلُّك على بيت فيه كنزٌ من لؤلؤ وزبرجد وذهب وفضَّة بمكة، وأرادت هُذيل هلاكه؛ لأنهم عرفوا أنه ما أراده أحدٌ بسوء إلا هلك، فذكر ذلك للحِبْرين فقالا: ما نعلم لله عز وجل بيتاً في الأرض اتَّخذه لنفسه غيرَ هذا، فاتَّخِذْه مسجداً وانسك عنده واحلق رأسَك، وما أراد القومُ إلا هلاكَك. فأكرمه وكساه، وهو أول من كسى البيت، وقطع أيدي أولئك النَّفر من هُذيل وأرجلهم وسَمَلَ أعينهم وصَلَبهم[1].

وفي رواية أنه قال للحِبْرين حين قالا له ما قالا: وأنتما ما يمنعكما من ذلك؟ فقالا: أما والله إنه لبيتُ أبينا إبراهيم عليه السلام، وإنه لَكَما أخبرناك، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله وبالدماء التي يريقونها عنده، وهم نجسٌ أهلُ شرك، فعرف صِدْقَهما ونُصْحَهما، فطاف بالبيت ونحر وحلق رأسه، وأقام بمكة ستةَ أيام فيما يذكرون ينحر للناس ويُطعم أهلها ويسقيهم العسل.

وقيل: إنه أراد تخريبَ البيت، فرُميَ بداء عظيم فكفَّ عنه وكساه.

وأخرج ابن عساكر عن ابن إسحاق أن تُبَّعاً أُري في منامه أن يكسو البيت، فكساه الخَصَف، ثم أُري أن يكسوه أحسنَ من ذلك، فكساه المَعَافر، ثم أُري أن يكسوه أحسن من ذلك، فكساه الوصائل وصائل اليمن، فكان ـ فيما ذُكر لي ـ أول من كساه، وأوصى بها ولاته من جُرْهُم وأَمَر بتطهيره، وجعل له باباً ومفتاحاً.

---

(١) ذكر هذا الخبر أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٩، وهو مذكور في التيجان في ملوك حمير لابن هشام ص٣٠٥-٣٠٦، وما بعده مذكور فيه أيضاً.

وفي رواية أنه قال أيضاً: ولا تقربوه دماً ولا ميتاً ولا تَقْرَبْه حائض[(١)].

وفي «نهاية» ابن الأثير في الحديث أن تُبَّعاً كسى البيتَ المُسوح، فانتفض البيتُ منه ومَزَّقه عن نفسه، ثم كساه الخَصَف فلم يقبله، ثم كساه الأنطاع[(٢)]. وفي موضع آخر منها أن أول من كسى الكعبة كسوةً كاملةً تُبَّع، كساها الأنطاع، ثم كساها الوصائل[(٣)].

والخَصَف؛ فَعَلٌ بمعنى مفعول من الخَصْف، وهو ضمُّ الشيء إلى الشيء، والمرادُ: شيء منسوجٌ من الخُوص على ما هو الظاهر.

وقيل: أُريد به هاهنا الثياب الغِلاظ جدًّا تشبيهاً بالخصف المذكور.

والمعَافر: بُرُود من اليمن منسوبة إلى معافر قبيلة بها، والميم زائدة.

والوصائل: ثيابٌ حُمْر مُخطَّطة يمانية.

والمسوحُ، جمع مِسْح بكسر الميم وسكون المهملة: أثوابٌ من شعر غليظة.

والأنطاع، جمع نِطْع بالكسر وبالفتح وبالتحريك: بُسُط من أَديم.

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن أُبيّ بن كعب قال: لما قَدِمَ تُبَّع المدينةَ ونزل بفنائها بَعَثَ إلى أحبار يهود فقال: إني مُخرِّب هذا البلد حتى لا تقوم به يهودية ويرجع الأمر إلى دين العرب. فقال له شامول اليهودي وهو يومئذ أعلمهم: أيُّها المَلِكُ إنَّ هذا بلدٌ يكون إليه مهاجَرُ نبيٍّ من بني إسماعيل مولده بمكة، اسمه: أحمد، وهذه دار هجرته. إلى أن قال: قال: وما صفته؟ قال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حُمرة، يركب البعير، ويلبس الشملة، سيفه على عاتقه لا يُبالي من لاقى حتى يظهر أمره. فقال تُبَّع: ما إلى هذا البلد من سبيل، وما كان ليكون خرابها على يدي[(٤)].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٢، وتاريخ دمشق ١١/ ١٦، وهو مذكور أيضاً في التيجان ص٣٠٦-٣٠٧.

(٢) النهاية (خصف).

(٣) النهاية (وصل).

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٢، وفيه: شابور، بدل: شامول، والخبر في طبقات ابن سعد ١/ ١٥٩، وتاريخ دمشق ١/ ١٥٩.

وذكر أبو حاتم الرياشي أنه آمن بالنبيِّ ﷺ قبل أن يبعث بسبع مئة سنة، وقيل: بينه وبين مولده عليه الصلاة والسلام ألف سنة. والقولان يَدُلَّان على أنه قبلَ مبعث عيسى عليه السلام.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لا تقولوا في تُبَّع إلا خيراً، فإنه قد حجَّ البيت وآمن بما جاء به عيسى ابن مريم[1]. وهو يدلُّ على أنه بعد مبعث عيسى عليه السلام، والأول أشهر.

ومن حديث عبَّاد بن زياد المريِّ أنه لما أخبره اليهود أنه سيخرج نبيٌّ بمكة يكون قرارُه بهذا البلد ـ يعني المدينة ـ اسمه: أحمد، وأخبروه أنه لا يُدرِكه، قال للأوس والخزرج: أقيموا بهذا البلد، فإنْ خرج فيكم فوازِروه، وإن لم يخرج فأَوصوا بذلك أولادَكم، وقال في شعره:

حُدِّثت أن رسول المَلِيـ ... ـك يخرج حقًّا بأرض الحرم
ولو مدَّ دهري إلى دهرِه ... لكنتُ وزيراً له وابنَ عم[2]

وفي «البحر»[3] بدل البيت الأول:

شهدتُ على أحمدٍ أنه ... رسولٌ من الله باري النَّسم[4]

وفيه أيضاً رواية عن ابن إسحاق وغيره أنه كتب أيضاً كتاباً وكان فيه: أما بعد: فإني آمنتُ بك وبكتابك الذي أُنزل عليك، وأنا على دينكَ وسُنَّتك، وآمنتُ بربِّك وربِّ كلِّ شيء، وآمنت بكلِّ ما جاء من ربِّك من شرائع الإسلام، فإنْ أدركتُكَ فبها ونِعْمَتْ، وإن لم أُدركك فاشفع لي، ولا تنسني يومَ القيامة، فإني من أُمَّتك الأولين وتابعيك قبلَ مجيئك، وأنا على مِلَّتك ومِلَّة أبيك إبراهيم عليه السلام. ثم ختم الكتابَ ونقشَ عليه: لله الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ. وكتب عنوانه: إلى محمد بن

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٢، وتاريخ دمشق ١١/ ١٨-١٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٨.
(٤) وذكره أيضاً هكذا ابن هشام في التيجان ص٣٠٨، وابن رشيق في العمدة ٢/ ٢٢٦.

عبد الله نبيِّ الله ورسوله، خاتم النبيين ورسول ربِّ العالمين ﷺ، من تُبَّع الأوَّل[١]. ودَفَعه إلى عظيم من الأوس والخزرج وأَمَره أن يدفعه للنبيِّ عليه الصلاة والسلام إن أدركه.

ويقال: إنه بنى له داراً في المدينة يسكنها إذا أدركه ﷺ وقدم إليها، وأن تلك الدار دار أبي أيوب خالد بن زيد، وأن الشعر والكتاب وصلا إليه وأنه من ولد ذلك الرجل الذي دُفعا إليه أولاً، ولما ظهر النبيُّ عليه الصلاة والسلام دفعوا الكتاب إليه، فلما قُرئ عليه، قال: «مرحباً بِتُبَّع الأخ الصالح». ثلاثَ مرات[٢].

وجاء أنه ﷺ صلَّى عليه صلاة الجِنازة، وكذا على البراء بن معرور بعد وفاته بشهر يوم قدومه عليه الصلاة والسلام المدينةَ[٣] كما قال النجم الغَيْطي[٤]: وكانت صلاة الجنازة قد فرضت تلك السنة.

وكون هذا هو تُبَّع الأول، ويقال له: الأكبر، هو المذكور في غير ما كتاب، وذكر عبد الملك بن عبد الله بن بدرون في شرحه لقصيدة ابن عبدون أن أسعد هذا هو تُبَّع الأوسط، وذكر أيضاً أن ملكه ثلاث مئة وعشرين سنة، وملك بعده عمرو أربعاً وستين سنة.

وقال ابن قتيبة[٥]: حسان وهو الذي قتل زرقاء اليمامة وأباد جديساً، وكان مُلكه خمساً وعشرين سنة.

والتواريخ ناطقة بتقدُّم تبابعة عليه، فإن تُبَّعاً يقال لمن مَلَك اليمنَ مطلقاً، كما يقال لملك التُّرك: خاقان، والروم: قيصر، والفرس: كسرى، أَوْ لا يسمى به

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٨، وهو في تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٧-١٢٨.
(٢) أورده العيني في عمدة القاري ٤/ ١٧٦ وعزاه لمحمد بن إسحاق في كتابه المبتدأ وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.
(٣) أخرجه البيهقي ٤/ ٤٩ مرسلاً وموصولاً.
(٤) هو محمد بن أحمد بن علي السكندري الغَيْطي الشافعي، له: قصة المعراج، والإسلام والإيمان، توفي سنة (٩٨١هـ). شذرات الذهب ١٠/ ٥٩٥، والأعلام للزركلي ٦/ ٦.
(٥) المعارف ص٦٣٢.

إلا إذا كانت له حمير وحضرموت كما في «القاموس»[١]، أو إلا إذا كانت له حمير وسبأ وحضرموت، كما ذكره الطيبيُّ.

والمتصف بذلك غير واحد كما لا يخفى على من أحاط خبراً بالتواريخ. وما تقدَّم من حكاية أنه هدم سمرقند، ذَكَر عبدُ الملك خلافَه ونسب هدمها إلى شمر بن إفريقيس ابن أبرهة أحد التبابعة أيضاً، كان قبل تُبَّع المذكور بكثير، قال: إن شمر خرج نحو العراق ثم توجَّه يريد الصين ودخل مدينة الصغد فهدمها، وسميت شمركند، أي: شمر خربها، وعُرِّبت بَعْدُ، فقيل: سمرقند[٢]. اهـ.

وحكاية البناء يمكن نسبتها إلى شمر هذا فإن كند في لغة أهل أذربيجان ونواحيها ـ على ما قيل ـ بمعنى القرية، فسمرقند بمعنى قرية شمر، وهو أوفق بالبناء.

وذكر علَّامة عصره الملا أمين أفندي العمري المَوْصلي تغمَّده الله تعالى برحمته في كتابه «شرح ذات الشفاء» أن تُبَّعاً الذي ذُكر سابقاً هو ابن حسان، وأنه مَلَك الدنيا كلَّها، وأنه يقال له: الرائش؛ لأنه راش الناس بالعطاء. ولعل ما قاله قولٌ لبعضهم، وإلا فقد قال ابن قتيبة[٣]: إنه ابن كليكرب.

وفي شرح قصيدة ابن عبدون أن الرائش لقب الحارث بن بدر أحد التبابعة، وهو قبل أسعد المتقدِّم ذِكْره بزمان طويل جدًّا، وهو أيضاً ممن ذكر نبيَّنا ﷺ في شعره فقال:

ويملك بعدهم رجلٌ عظيم ... نبيٌّ لا يرخِّص في الحرام
يسمى أحمداً يا ليت أني ... أُعمَّر بعد مَخرجه بعام[٤]

ثم إن مُلْكَه الدنيا كلَّها غيرُ مسلَّم. وبالجملة الأخبار مضطربة في أمر التبابعة وأحوالهم وترتيب ملوكهم، بل قال صاحب «تواريخ الأمم»: ليس في التواريخ أسقمُ من تاريخ ملوك حمير؛ لِمَا يذكر من كثرة عدد سنينهم مع قلَّة عدد ملوكهم،

---

(١) مادة (تبع).
(٢) ينظر التيجان ص٢٣٧، والمعارف ص٦٢٩.
(٣) المعارف ص٦٣١.
(٤) المعارف ص٦٢٧.

فإن ملوكهم ستَّة وعشرون ومدَّتهم ألفان وعشرون سنة[١].

وقال بعض: إن مدَّتهم ثلاثة آلاف واثنان وثمانون سنة، ثم ملك من بعدهم اليمنَ الحبشةُ.

والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، والقَدْرُ المُعوَّل عليه هاهنا أن تُبَّعاً المذكور هو أسعد أبو كرب، وأنه كان مؤمناً بنبيِّنا ﷺ، وكان على دين إبراهيم عليه السلام ولم يكن نبيًّا، وحكاية نبوَّته عن ابن عباس رضي الله عنهما لا تصحُّ، وإخباره بمبعثه ﷺ لا يقتضيها، لأنه عَلِمَ ذلك من أحبار اليهود، وهم عرفوه من الكتب السماوية.

وما روي من أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما أدري أكان تُبَّع نبيًّا أو غيرَ نبيٍّ» لم يثبت، نعم روى أبو داود والحاكم أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما أدري أذو القرنين هو أم لا»[٢] وليس فيه ما يدل على التردُّد في نبوَّته وعدمها، فإن ذا القرنين ليس بنبيٍّ على الصحيح، ثم إن الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام درى بعدُ أنه ليس ذا القرنين.

وقال قوم: ليس المراد بتُبَّعٍ هاهنا رجلاً واحداً إنما المراد ملوك اليمن. وهو خلافُ الظاهر، والأخبار تُكذِّبه.

ومعنى تُبَّع: متبوع، فهو فعّل بمعنى مفعول، وقد يجيء هذا اللفظ بمعنى فاعل كما قيل للظل: تُبَّع، لأنه يتبع الشمس، ويقال لملوك اليمن: أقيال، مِن: تَقَيَّل فلان أباه، إذا اقتدى به؛ لأنهم يقتدى بهم، وقيل: سُمِّي ملكهم قَيْلاً لنفوذ أقواله، وهو مُخفَّف قَيِّل كميِّت.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قبل قوم تُبَّع كعادٍ وثمود، أو قبل قريش، فهو تعميمٌ بعد تخصيص ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ استئناف لبيان عاقبة أمرهم هدَّد به كفار قريش، أو حال بإضمار «قد» أو بدونه من الضمير المستتر في الصلة، أو خبر عن الموصول إن جعل مبتدأ ولم يعطف على ما قبله.

---

(١) وذكر ذلك ابن الوردي في تاريخه ١/ ٩٣.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، والذي في سنن أبي داود (٤٦٧٤)، والمستدرك ٢/ ٤٥٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ما أدري أتُبَّع لعينٌ هو أم لا، وما أدري أعُزير نبيٌّ هو أم لا». وفي المستدرك: أذو القرنين، بدل: أعُزير. وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٨٤) من سورة الكهف.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۝٣٧﴾ تعليلٌ لإهلاكهم، أي: أهلكناهم بسبب كونهم مجرمين فَلْيحذر كفار قريش الإهلاك لإجرامهم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين الجنسين، وهو شامل لما بين الطبقات.

وقرأ عُبيد بن عمير: «وما بينهن»[1] فالضمير لمجموع السماوات والأرض.

﴿لَٰعِبِينَ ۝٣٨﴾ أي: عابثين، وهو دليلٌ على وقوع الحشر كما مرَّ في «الأنبياء»[2] وغيرها.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ﴾ أي: وما بينهما ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناءٌ مفرغ من أعمِّ الأحوال، أي: ما خلقناهما مُلتبسين بشيء من الأشياء إلا مُلتبسين بالحق، فالجارُّ والمجرور في موضع الحال من الفاعل، وجُوِّز أن يكون في موضع الحال من المفعول، والباء للملابسة فيهما. وجُوِّز أن تكون للسببية، والاستثناء مُفرَّغ من أعمِّ الأسباب، أي: ما خلقناهما بسببٍ من الأسباب إلا بسبب الحقِّ الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء، والملابسة أظهر.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ تذييل وتجهيل فخيمٌ لمنكري الحشر، وتوكيدٌ لأنَّ إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] ولهذا قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: فصل الحقِّ عن الباطل. والمُحقِّ عن المُبطل بالجزاء، أو فصل الشخص عن أحبابه وذوي قرابته.

﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ وقت وعدهم ﴿أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾ وقرئ: «ميقاتَهم» بالنصب[3] على أنه اسم «إنَّ» والخبر «يوم الفصل»، أي: إن ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل، وليس مثل: إن حراسنا أسداً[4].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩.

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الآية: ١٦].

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٩.

(٤) قطعة من بيت سلف عند تفسير الآية (١٩٤) من سورة الأعراف.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ بدل من «يوم الفصل»، أو عطفُ بيانٍ عند مَن لا يشترط المطابقة تعريفاً وتنكيراً. وجوّز نصبه بأعني مقدَّراً، وأن يكون ظرفاً لِمَا دَلَّ عليه الفصل لا له، للفصل بينه وبينه بأجنبي، وهو مصدر لا يعمل إذا فُصِل لِضَعْفه، أَوْ له على قولِ مَن اغتفر الفصل إذا كان المعمولُ ظرفاً كابن الحاجب والرضي.

وجوَّز أبو البقاء(١) كونه صفةً لـ «ميقاتُهم».

وتُعُقِّب بأنه جامدٌ نكرة لإضافته للجملة، فكيف يكون صفةً للمعرفة، مع أنه لا يصح بناؤه عند البصريين إذا أضيف إلى جملة صدرها مُعْرَبٌ، وهو المضارع؟

أي: يوم لا يجزي ﴿مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ من الإغناء، أي: الإجزاء، فـ «شيئاً» منصوب على المصدرية، ويجوز كونه مفعولاً به، و«يغني» بمعنى يدفع وينفع. وتنكير «شيئاً» للتقليل. والمولى: الصاحب الذي من شأنه أن يتولَّى معونة صاحبه على أموره، فيدخل في ذلك ابن العمِّ والحليف والعتيق والمُعتق وغيرهم، وذكر الخفاجي(٢) أنه من الولاية، وهي التصرُّف، فيشمل كلَّ من يتصرَّف في آخر لأمرٍ ما، كقرابة وصداقة، وهو قريب مما ذكرنا. وأيًّاما كان فليس ذلك من استعمال المشترك في أكثر من معنى واحد، ولو سلم أن هناك مشتركاً استعمل في أكثر من معنى كانت الآية دليلاً لابن الهمام عليه الرحمة في جواز ذلك في النفي، فيقال عنده: ما رأيت عيناً، ويراد العين الباصرة وعين الذهب وغيرها. ويعلم من نفي إغناء المولى نفي إغناء غيره من باب أولى.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ الضمير عند جمع للمولى الأول - والجمع باعتبار المعنى لأنه نكرة في سياق النفي، فهي تعمُّ - دون الثاني، لأنه أفيدُ وأبلغُ؛ لأن حال المولى الثاني نُصرته معلوم من نفي الإغناء السابق، ولأنه إذا لم يَنصر مَن اسْتَنَد إليه فكيف هو؟ وأيضاً وجه جمع الضمير فيه أظهر. وجُوِّز عودُه على الثاني للدلالة على أنه لا ينصره غير مولاه، وهو في سياق النفي أيضاً وإن لم يكن في ذلك بمرتبة الأول. نعم قيل في وجه الجمع عليهما: إن النكرة في سياق النفي تدلُّ على كلِّ فردٍ فردٍ فلا يرجعُ الضميرُ لها جمعاً.

---

(١) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٣١١.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ١١.

وأُجيب بأنه لا يطَّرد؛ لأنها قد تحمل على المجموع بقرينةِ عودِ ضمير الجمع عليها، ولعل الأولى عودُ الضمير على المولى المفهوم من النكرة المنفية.

وقال بعض: لو جعل الضمير للكفار كضمير «ميقاتهم» كثرت الفائدة وقلَّت المؤنة. فتأمَّل.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ في محلٍّ رفع على أنه بدل من ضمير «ينصرون»، أو في محلٍّ نصب على الاستثناء منه، أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله تعالى، وذلك بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه.

وجوِّز كونه بدلاً أو استثناءً من «مولى»، وفيه كما في الأول دليلٌ على ثبوت الشفاعة، لكن الرجحان للأول لفظاً ومعنى. والاستثناء من أيٍّ كان متصلٌ، وقال الكسائي: إنه منقطع، أي: لكنْ مَن رحمه الله تعالى فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه، ولا إلى ناصر ينصره. ولا وجهَ له مع ظهور الاتصال، نعم إنه لا يتأتّى على كون الاستثناء من الضمير وكونه راجعاً للكفار، فلا تغفل.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يُنْصَرُ مَن أراد سبحانه تعذيبَه ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ لمن أراد أن يرحمه عز وجل.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ مرَّ معنى الزقوم في «الصافات»[(١)]، وقرئ «شِجْرة» بكسر الشين[(٢)].

﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: الكثير الآثام، والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه، دون ما يعمّه والعاصيَ المُكثرَ من المعاصي، ثم إن المراد به جنس الكافر لا واحد بعينه.

وقال ابن زيد وسعيد بن جبير: إنه هنا أبو جهل. وليس بشيء، ولا دليلَ على ذلك بما أخرجه سعيد بن منصور عن أبي مالك من أن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول: تزقَّموا، فهذا الزقُّوم الذي يَعِدُكم به محمد. فنزلت (إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ)[(٣)] لِمَا لا يخفى، ومثله ما قيل: إنه الوليد.

---

(١) عند تفسير الآية (٦٢) منها.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٢.

وأخرج أبو عُبيد في «فضائله» وابن الأنباري وابن المنذر عن عون[١] بن عبد الله أن ابن مسعود أقرأ رجلاً: «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم» فقال الرجل: طعام اليثيم[٢]، فردَّدها عليه فلم يستقم بها لسانه، فقال: أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: نعم. قال: فافعل.

وأخرج الحاكم ـ وصحَّحه ـ وجماعة عن أبي الدرداء أنه وقع له مثل ذلك، فلما رأى الرجلَ أنه لا يفهم قال: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر[٣].

واستُدلَّ بذلك على أنَّ إبدالَ كلمةٍ مكانَ كلمةٍ جائزٌ إذا كانت مُؤدِّية معناها. وتعقَّبه القاضي أبو بكر في «الانتصار»[٤] بأنه أراد أن يُنبِّهه على أنه لا يريد اليتيم، بل الفاجر فينبغي أن يقرأ «الأثيم»، وأنت تعلم أن هذا التأويل لا يكاد يتأتّى فيما رُوي عن ابن مسعود، فإنه كالنَّصِّ في تجويز الإبدال لذلك الرجل، وأبعدُ منه عن التأويل ما أخرج ابنُ مردويه عن أُبيّ أنه كان يُقرئ رجلاً فارسيًّا، فكان إذا قرأ عليه: «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم» قال: طعام اليتيم، فمرَّ به النبيُّ ﷺ فقال: «قل له: طعام الظُّلَّام» فقالها، ففصح بها لسانه[٥].

وفي الباب أخبار كثيرةٌ جياد الأسانيد كخبر أحمد من حديث أبي هريرة: «أُنزل القرآن على سبعة أحرف عليماً حكيماً غفوراً رحيماً»[٦].

وكخبره من حديث أبي بَكْرةَ: «كلّه ـ أي: القرآن ـ شافٍ كافٍ ما لم تَخْتِمْ آيةَ عذابٍ

---

(١) في الأصل و(م): عوف، وهو خطأ. والخبر في الدر المنثور ٦/ ٣٢، وفضائل القرآن لأبي عبيد ص١٨٣، وذكره القرطبي في تفسيره ١٩/ ١٣٢ عن ابن الأنباري، وفي إسناد الخبر: نعيم بن حماد، قال عنه ابن حجر في التقريب: صدوق يخطئ كثيراً.

(٢) في مصادر التخريج: اليتيم.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٢-٣٣، والمستدرك ٢/ ٤٥١، وهو أيضاً عند عبد الرزاق في المصنف ٣/ ٣٦٤، والطبري ٢١/ ٥٣-٥٤.

(٤) ذكره عنه ابن المُنيِّر في الانتصاف (بحاشية الكشاف) ٣/ ٥٠٦.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٣، وفيه: طعام الظالم، بدل: طعام الظلام.

(٦) مسند أحمد (٨٣٩٠).

برحمة أو رحمة بعذاب»[١] نحو قولك: تعالَ وأَقبِلْ وأَسرِع وعجّل. . إلى غير ذلك. لكن قال الطحاوي: إنما كان ذلك رخصةً لما كان يتعسَّر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد؛ لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحِفْظ، ثم نُسِخَ بزوال العُذر وتَيَسُّر الكتابة والحفظ. وكذا قال ابن عبد البر والباقلاني وآخرون، ولعله إن تحقق إبدالٌ من أحد من الصحابة ﷺ بعدَه عليه الصلاة والسلام يقال: إنه كان منه قبل الاطِّلاع على النَّسْخ.

ومتى لم يَجُزْ إبدال كلمة مكان كلمة مُؤدِّية معناها مع الاتحاد عربيةً، فعدمُ جواز ذلك مع الاختلاف عربيةً وفارسيةً مثلاً أظهرُ، وما رُوي عن الإمام أبي حنيفة ﷺ من أنه يرى جوازَ قراءة القرآن بالفارسية بشرط أداء المعاني على كمالها، فقد صحَّ عنه خلافه، وقد حقَّق الشرنبلالي عليه الرحمة هذه المسألة في رسالة مفردة بما لا مزيد عليه، وقد تقدَّم في هذا الكتاب شيء من ذلك فتذكَّر[٢].

والطعام: ما يتناول منه من الغذاء، وأصله مصدر، فلذا وقع خبراً عن المؤنَّث ولم يُطابق، وجوّز أن يكون ذلك من باب قوله:

إنـارةُ الـعقـلِ مكسـوفٌ بطَـوْعِ هَـوًى وعقلُ عاصي الهوى يزدادُ تنويرا[٣]

فكأنه قيل: إنَّ الزقوم طعامُ الأثيم.

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ عَكَر الزيت، كما رُوي عن ابن عمر ﷺ، وجاء في حديث رواه الحاكم وغيره عن أبي سعيد مرفوعاً، وفيه «فإذا قُرِّب إلى وجهه - يعني الجهنميَّ - سقطت فروة وجهه»[٤]، وربَّما يُؤيَّد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] مع قوله سبحانه: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

وقال بعض: عَكَر القَطِران. وفي رواية عن ابن عباس ﷺ: الصديد، ومنه ما في حديث أبي بكر ﷺ: ادفنوني في ثوبَيَّ هذين، فإنما هما للمُهل والتراب.

---

(١) مسند أحمد (٢٠٤٢٥).

(٢) ينظر ما سلف ١٢/ ١٨١ وما بعد، و١٩/ ٢٧٧.

(٣) خزانة الأدب ٤/ ٢٢٧، ولم ينسبه.

(٤) المستدرك ٢/ ٥٠١.

وفي رواية أخرى عنه ﷺ أنه ما أُذيب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص، ورُوي ذلك عن ابن مسعود. قيل: وسُمِّي ذلك مُهلاً؛ لأنه يمهل في النار حتى يذوبَ، فهو من المُهل بمعنى السكون، وادَّعى بعضهم الاشتراك وقد جاء استعماله في كلٍّ ما سمعت.

وقرأ الحسن: «كالمَهْل» بفتح الميم[1]، وهو لغة فيه.

والجارُّ والمجرور أو الكاف في محلِّ رفع خبر مبتدأ محذوف، والجملة استئنافٌ لبيان حال الطعام، أي: هو كالمُهل، أو: مثل المُهل، وقوله عز وجل: ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾ خبر ثانٍ لذلك المبتدأ، وقيل: حال من الضمير المُستتر في الجارِّ والمجرور، فيكون وصفاً للطعام أيضاً.

وقال أبو عُبيد: هو حال من «المُهل»، وقيل: صفة له؛ لأن «أل» فيه للجنس، نحو:

أَمُـرُّ عـلـى الـلـئـيـم يَـسُـبُّـنـي[2]

ويعتبر داخلاً في التشبيه. وأنت تعلم أن غليان الطعام في البطن فيه مبالغة، أما التشبيه بمهل يغلي في البطن فلا.

وقيل: «كالمهل» أو الكاف خبر ثان لـ «إنَّ»، وجملة «يغلي في البطون» حال من الزقُّوم، أو الطعام.

وتُعقِّب بأنه مُنع مجيء الحال من المضاف إليه في غير صورٍ مخصوصةٍ ليس هذا منها، ومُنع مجيئه من الخبر ومن المبتدأ.

وأجيب بأن هذا بناء على جواز مجيء الحال من الخبر ومن المبتدأ، والمضاف إليه المبتدأ في حكمه، وأن ما ذكر من الصور التي يجيء الحال فيها من المضاف إليه؛ لأن المضاف كالجزء في جواز إسقاطه، ولا يخفى أنه بناء على ضعيف.

وقيل: «كالمهل» خبر ثانٍ، والجملة حال من ضمير الشجرة المُستتر فيه،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٧.

(٢) سلف ٧/ ٤٦٤ و١٣/ ٦٢، وغيرها.

والتذكير باعتبار كونها طعام الأثيم، أو لاكتسابها إياه مما أُضيفت إليه نظير ما سمعت في البيت آنفاً. وهو تكلُّفٌ مستغنى عنه.

وقيل: الجملة على ذلك خبر مبتدأ محذوف هو ضمير الطعام أو الزقوم. فإن كانت الجملة حينئذ مستأنفةً فالبحثُ هيِّن، وإن كانت حاليةً عاد ما مرَّ آنفاً، ولا أراك تظنه هيِّناً.

وقيل: «كالمهل» حال من «طعام» وحاله معلوم.

وبالجملة: الوجوهُ في إعراب الآية كثيرة، وأنا أختار منها ما ذكرتُه أولاً.

وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رزين والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وطلحة والحسن في رواية وأكثر السبعة: «تغلي» بالتاء الفوقية(١)، فـ «كالمهل» خبر ثان لـ «إنَّ»، وجملة «تغلي» خبر ثالث، واتحاد المبتدأ والخبر متكفِّل باتحاد القراءتين معنًى، فافهم ولا تغفل.

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ صفة مصدر محذوف، أي: غلياً كغلي الحميم، وجوِّز أن يكون حالاً، والحميم ما هو في غاية الحرارة.

﴿خُذُوهُ﴾ على إرادة القول، والمَقولُ له الزبانية، أي: ويقال لهم: خذوه ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ فجرُّوه بقهر. قال الراغب: العَتْلُ: الأخذ بمجامع الشيء وجرُّه بقهر(٢). وبعضهم يُعبِّر بالثوب بدل الشيء، وليس ذاك بلازم، والمدار على الجرِّ مع الإمساك بعنف.

وقال الأعمش ومجاهد: معنى «اعتلوه» اقصفوه كما يقصف الحطب، والظاهر عليه التضمين أو تعلّق الجار بـ «خذوه»، والمعنى الأول هو المشهور.

وقرأ زيد بن علي والحجازيان وابن عامر ويعقوب: «فاعتُلوه» بضمِّ التاء(٣).

---

(١) قرأ ابن كثير وحفص ورويس: «يغلي» بالياء، وقرأ الباقون: «تغلي» بالتاء. التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (عتل).

(٣) التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١، وقراءة زيد بن علي في البحر ٨/ ٤٠.

ورُوي ذلك عن الحسن وقتادة والأعرج على أنه من باب قعد، وعلى قراءة الجمهور من باب نصر، وهما لغتان.

﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧﴾ أي: وسطه، وسُمِّي سواء لاستواء بُعدِ جميع أطرافه بالنسبة إليه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾ كأنَّ أصلَه: صُبُّوا فوق رأسه الحميمَ، ثم قيل: صبوا فوق رأسه عذاباً هو الحميم، للمبالغة بجَعْلِ العذاب عينَ الحميم، وهو مترتِّب عليه، ولجعله مصبوباً كالمحسوس، ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف، وزيد «من» للدلالة على أن المصبوبَ بعض هذا النوع، فهناك إما تمثيلٌ أو استعارة تصريحية أو مَكْنية أو تخييلية.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ أي: ويقال - أو: قولوا - له ذلك؛ استهزاءً وتقريعاً على ما كان يزعمه.

أخرج عبد الرزاق وغيره عن قتادة قال: لما نزلت (خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ) قال أبو جهل: ما بين جبليها رجلٌ أعزّ ولا أكرم منِّي. فقال الله تعالى: «ذق» إلخ[1].

وأخرج الأموي في «مغازيه» عن عكرمة أن أبا جهل قال للنبيِّ ﷺ: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علمتَ أنني أمنعُ أهلِ بطحاء، وأنا العزيز الكريم. فقتله الله تعالى يومَ بدر وأذلَّه وعيَّره بكلمته: «ذق إنك أنت العزيز الكريم»[2].

ورُوي أن اللعين قال يوماً: يا معشر قريش، أخبروني ما اسمي، فذكرت له ثلاثة أسماء: عمرو والجلاس وأبو الحكم، فقال: ما أصبتم اسمي، ألا أخبركم به؟ قالوا: بلى. قال: اسمي العزيز الكريم. فنزلت «إن شجرة الزقوم» الآيات[3].

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٣.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٣، وفيه: عمرو، بدل: عمر. وعزاه أيضاً لابن المنذر.

وهذا ونحوه لا يدلُّ أيضاً على تخصيص حكم الآية به، فكلُّ أثيمٍ يُدعى دعواه كذلك يوم القيامة.

وقيل: المعنى: ذق إنك أنت العزيز في قومك الكريم عليهم، فما أغنى ذلك عنك، ولم يفدك شيئاً. والذوق مستعارٌ للإدراك.

وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما على المنبر والكسائي: «أَنَّك» بفتح الهمزة(١)، على معنى: لأنك.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: العذاب أو الأمر الذي أنتم فيه ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾ تشكُّون وتُمارون فيه، وهذا ابتداء كلام منه عز وجل، أو من مقول القول، والجمع باعتبار المعنى لِمَا سمعت أن المراد جنس الأثيم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ﴾ في موضع قيام. والمراد بالقيام الثَّبات والملازمة كما في قوله تعالى: ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ﴾ [آل عمران: ٧٥] ويُكنى به عن الإقامة، لأن المُقيم ملازمٌ لمكانه، وهو مراد من قال: في مقام، أي: موضع إقامة.

وقرأ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وزيد بن عليٍّ وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وقتادة ونافع وابن عامر: «مُقام» بضمِّ الميم(٢)، ومعناه: موضع إقامة، وعلى ما قرَّرنا ترجع القراءتان إلى معنى واحد.

﴿أَمِينٍ ۝٥١﴾ يأمن صاحبه مما يكره، فهو صفةٌ من الأمن، وهو عدمُ الخوف عما هو من شأنه، ووصف المقام به باعتبار أمنِ مَن آمن به، فهو إسناد مجازي كما في نهرٍ جارٍ، وظاهر كلام الزمخشري(٣) أنَّ ذلك استعارةٌ من الأمانة، كأن المكان مؤتمن وُضِعَ عنده ما يحفظه من المكاره، ففيه استعارةٌ مكنية وتخييلية.

وقال ابن عطية(٤): فَعيل بمعنى مفعول، أي: مأمون فيه. وليس بذاك.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠، وقراءة الكسائي في التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٠، وقراءة أبي جعفر ونافع وابن عامر في التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٣) في الكشاف ٣/ ٥٠٧.

(٤) في المحرر الوجيز ٥/ ٧٧.

وجُوِّز أن يكون للنسبة، أي: ذي أمن.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾ بدل من «مقام» بإعادة الجارِّ، أو الجارُّ والمجرور بدل من الجارِّ والمجرور، وظرفية العيون للمجاورة، والظاهر أنه بدل اشتمال لا كلٌّ أو بعض[١]. وفي ذلك دلالةٌ على نزاهة مكانهم واشتماله على ما يستلذُّ من المآكل والمشارب.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبرٌ ثانٍ، أو حال من الضمير في الجارِّ والمجرور، أو استئناف. والسندس، قال ثعلب: الرقيق من الديباج، والواحدة: سندسة، والإستبرق: غليظُه. وقال الليث: هو ضربٌ من البُزْيُون يُتَّخذُ من المِرْعِزَّى، ولم يختلف أهلُ اللغة في أنهما معرَّبان، كذا ذكره بعضهم[٢].

وفي «الكشاف»[٣]: الإستبرق: ما غَلُظَ من الديباج، وهو تعريب: إستبر. قال الخفاجي[٤]: ومعنى إستبر في لغة الفرس: الغليظ، مطلقاً، ثم خُصَّ بغليظ الدِّيباج وعُرِّب، وقيل: إنه عربي من البراقة، وأُيِّد بقراءته بوصل الهمزة، وهو كما ترى.

وذكر بعضهم أن السندس أصلُه سندي، ومعناه: منسوب إلى السِّند المكان المعروف، لأن السندس كان يُجلب منه، فأُبدلت ياء النسبية سيناً، وقد مرَّ الكلام في ذلك فتذكر.

ثم إن وقوع المعرَّب في القرآن العظيم لا يُنافي كونه عربيًّا مبيناً.

ونقل صاحب «الكشف» عن جارِ الله أنه قال: الكلام المنظوم مركَّب من الحروف المبسوطة في أي لسان كان تركي أو فارسي أو عربي، ثم لا يدلُّ على أن العربي أعجمي فكذا هاهنا. ثم قال صاحب «الكشف»: يريد أن كون إستبر أعجميًّا لا يلزمه أن يكون إستبرق كذلك.

---

(١) في (م): وبعض. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ١٣، وهو الصواب.
(٢) كالأزهري في تهذيب اللغة ١٣/ ١٥٣.
(٣) ٣/ ٥٠٧.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ١٣.

وقرأ ابن محيصن: «واسْتَبْرقَ» فعلاً ماضياً كما في «البحر»[1]، والجملة حينئذ قيل: معترضة، وقيل: حال من «سندس»، والمعنى: يلبسون من سندس وقد بَرَق لصقالتِهِ ومَزيد حُسنه.

﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝٥٣﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضُهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك، فالكاف في محلٍّ رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، والمراد تقرير ما مرَّ وتحقيقه. ونقل عن جارِ الله أنه قال: والمعنى فيه أنه لم يستوف الوصف، وأنه بمثابة ما لا يُحيط به الوصف، فكأنه قيل: الأمر نحو ذلك وما أَشبهه.

وأراد على ما قال المُدقِّق أن الكاف مُقحم للمبالغة، وذلك مُطَّردٌ في عُرفي العرب والعجم.

وجُوِّز أن يكون في محلٍّ نصب على معنى: أثبناهم مثل ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم﴾ على هذا عطف على الفعل المقدَّر، وعلى ما قبلُ على «يلبسون» والمراد على ما قال غير واحد: وَقَرنَّاهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ وفُسِّر بذلك قيل: لأن الجنة ليس فيها تكليفٌ فلا عقد ولا تزويج بالمعنى المشهور. وقيل: لمكان الباء، وزوَّجه المرأة بمعنى أنكحه إيَّاها، مُتعدٍّ بنفسه. وفيه بحث فإن الأخفش[2] جوَّز الباء فيه فيقال: زوَّجته بامرأة فتزوَّج بها، وأَزْدُ شَنُوءة يُعَدُّونه بالباء أيضاً، وفي «القاموس»: زوَّجته امرأة، وتزوَّجت امرأةً وبها، أو هي قليلة[3]. ويعلم مما ذكر أن قول بعض الفقهاء: زوَّجته بها، خطأ لا وجه له.

ويجوز أن يقال: إن ذلك التفسير لأن الحور العين في الجنة ملكُ يمين كالسراري في الدنيا فلا يَحتاج الأمر إلى العقد عليهنَّ، على أنه يمكن أن يكون في الجنة عقدٌ وإن لم يكن فيها تكليف. وقد أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد أنه قال: «زوجناهم»: أنكحناهم[4].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠.
(٢) كما في حاشية الشهاب ٨/ ١٣.
(٣) القاموس المحيط (زوج).
(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٣، وتفسير الطبري ٢١/ ٦٥.

ومن الناس من قال بالتكليف فيها بمعنى الأمر والنهي لكن لا يجدون في الفعل والترك كلفة، نعم المشهور أن لا تكليف فيها، وبعض ما حرم في الدنيا كنكاح امرأة الغير ونكاح المحارم لا يفعلونه لعدم خطوره لهم ببال أصلاً.

والحُور جمع: حوراء، وهي البيضاء كما رُوي عن ابن عباس والضحاك وغيرهما. وقيل: الشديدة سواد العين وبياضها، وقيل: الحوراء ذات الحَوَر، وهو سواد المُقلة كلِّها كما في الظباء، فلا يكون في الإنسان إلا مجازاً.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أن الحوراء التي يَحار فيها الطَّرْف.

والعِين جمع: عيناء، وهي عظيمة العينين.

وأكثرُ الأخبار تدلُّ على أنهنَّ لسن نساء الدنيا؛ أخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الحور العين من زعفران»[1] وأخرج ابن مردويه والخطيب عن أنس بن مالك مرفوعاً نحوه[2].

وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال: إن الله تعالى لم يخلق الحور العين من تراب، إنما خلقهنَّ من مِسْك وكافور وزعفران[3].

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «حور العين خلقهنَّ من تسبيح الملائكة عليهم السلام»[4]، وهذا إن صحَّ لا يُعارض ما قبله إذ لا بدَّ عليه من أن يقال بتجسُّد المعاني، فيجوز تجسُّد التسبيح وجَعْلُه جزءاً مما خلقن منه.

وقيل: المراد بهنَّ هنا نساء الدنيا، وهنَّ في الجنة حورٌ عين بالمعنى الذي سمعت، بل هنَّ أجملُ من الحور العين؛ أعني النساء المخلوقات في الجنة من

---

(١) المعجم الأوسط (٢٩٠)، والكبير (٣٨١٣). قال في المجمع ١٠/٤١٩: وفي إسنادهما ضعفاء.

(٢) قال المناوي في فيض القدير ٣/٤٢٣: فيه الحارث بن خليفة، قال الذهبي في الذيل: مجهول.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٥٣٧).

(٤) مسند الفردوس ٢/١٩٢، وأخرجه أيضاً الثعلبي في تفسيره ٩/٢١١. وينظر السلسلة الضعيفة (٣٥٤٠).

زعفران أو غيره، ويعطى الرجل هناك ما كان له في الدنيا من الزوجات، وقد يُضَمُّ إلى ذلك ما شاء الله تعالى من نساء مِثْنَ ولم يتزوَّجن، ومن تزوَّجت بأكثر من واحد فهي لآخرِ أزواجها، أو لأوَّلهم إن لم يكن طلَّقها في الدنيا، أو تُخيَّر فتختار مَنْ كان أحسنَهم خُلقاً معها. أقوال؛ صحَّح جمعٌ منها الأول، وتُعطى زوجةُ كافرٍ دخلت الجنة لمن شاء الله تعالى، وقد ورد أن آسية امرأة فرعون تكون زوجة نبيِّنا ﷺ.

وقرأ عكرمة: «بحورِ عين» بالإضافة[1]، وهي على معنى «مِن»، أي: بالحور من العين، وفي قراءة عبد الله: «بعيسٍ عينٍ»[2] والعيساء: البيضاء تعلوها حمرة.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ولا يتخصّص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ من الضرر، أيَّ ضرر كان، وهو حال من ضمير «يدعون»، وكونه حالاً من الضمير في قوله سبحانه: «في جنات» بعيد، وأبعدُ منه جعل «يدعون» حينئذ صفةَ الحور، والنون فيه ضمير النسوة، ووزنه: يفعلن، لِمَا فيه من ارتكاب خلافِ الظاهر مع عدم المناسبة للسياق.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ أو حالية، وكأنه أُريد أن يقال: لا يذوقون فيها الموت ألبتةَ، فوضع الموتة الأُولى موضعَ ذلك، لأن الموتة الماضية مُحال ذوقها في المستقبل، فهو من باب التعليق بالمُحال، كأنه قيل: إن كانت الموتةُ الأُولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها، ونظيره قول القائل لمن يستسقيه: لا أَسقيك إلا الجمر، وقد علم أن الجمر لا يُسقى، ومثله قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] فالاستثناء متصل، والدخول فَرْضي للمبالغة، وضمير «فيها» للجنات.

وقيل: هو متصل، والمؤمن عند موته لمعاينة ما يُعطاه في الجنة كأنه فيها، فكأنه ذاقَ الموتة الأُولى في الجنة. وقيل: متصل، وضمير «فيها» للآخرة، والموت أولُ أحوالها. ولا يخفى ما فيه من التفكيك مع ارتكاب التجوُّز.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦١.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٧، والمحتسب ٢/ ٢٦١.

وقيل: الاستثناء منقطع، والضمير للجنات، أي: لكن الموتة الأُولى قد ذاقوها في الدنيا، والأصل اتصالُ الاستثناء.

وقال الطبري: «إلا» بمعنى بعد[١]. والجمهور لم يُثبتوا هذا المعنى لها.

وقال ابن عطية[٢]: ذهب قومٌ إلى أن «إلا» بمعنى سوى، وضعَّفه الطبري[٣].

وقال أبو حيان[٤]: ليس تضعيفه بصحيح، بل يصح المعنى بـ «سوى» ويتَّسق. وفائدة الوصف تذكير حال الدنيا.

والداعي لِمَا سمعتَ من الأوجُهِ دفعُ سؤالٍ يُورَدُ هاهنا من أن الموتة الأُولى مما مضى لهم في الدنيا، وما هو كذلك لا يمكن أن يذوقوه في الجنة، فكيف استُثنيتْ؟ وقيل: إن السؤال مبنيٌّ على أن الاستثناء من النفي إثبات، فيثبت للمستثنى الحكم المنفي عن المستثنى منه، ومحالٌ أن يثبت للموتة الأولى الماضية الذوقُ في الجنة، وأما على قولِ مَن جَعَلَه تكلُّماً بالباقي بعد الثُّنيا، والمعنى: لا يذوقون سوى الموتة الأولى من الموت، فلا إشكال، فتأمَّل.

وقرأ عبيد بنُ عمير: «لا يُذاقون» مبنيّاً للمفعول[٥]. وقرأ عبد الله: «لا يذوقون فيها طعم الموت»[٦] وجاء في الحديث: النوم، لأنه أخو الموت؛ أخرج البزار والطبراني في «الأوسط» وابن مردويه والبيهقي في البعث بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قيل: يا رسول الله، أينام أهلُ الجنة؟ قال: «لا النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا يموتون ولا ينامون»[٧].

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ وقرأ أبو حيوة: «وَوَقَّاهم» مشدَّد القاف[٨] على

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٦٧.
(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٧٨.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٦٧.
(٤) في البحر المحيط ٨/ ٤٠.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٠.
(٦) القراءات الشاذة ص١٣٨.
(٧) الدر المنثور ٦/ ٣٤، ومسند البزار (٣٥١٧ - زوائد)، والمعجم الأوسط (٩٢٣).
(٨) القراءات الشاذة ص١٣٧.

المبالغة في التكثير في الوقاية؛ لأن التفعيل لزيادة المعنى لا للتعدية، لأن الفعل متعدٍّ قبله.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أُعطوا كلَّ ذلك عطاء وتفضُّلاً منه تعالى، فهو نصب على المصدرية، وجوِّز فيه أن يكون حالاً ومفعولاً له، وأيًّا ما كان ففيه إشارة إلى نفي إيجاب أعمالهم الإثابة عليه سبحانه وتعالى.

وقرئ: «فضلٌ» بالرفع[1]، أي: ذلك فضل.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ لأنه فوزٌ بالمطالب وخلاصٌ من المكاره.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: فإنما سهَّلنا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: بلغتك، وقيل: المعنى: أنزلناه على لسانك بلا كتابة لكونك أُمِّيًّا، وهذا فذلكةٌ وإجمالٌ لِمَا في السورة بعد تفصيلٍ؛ تذكيراً لِمَا سلف مشروحاً فيها، فالمعنى: ذكِّرهم بالكتاب المبين، فإنما يسَّرناه بلسانك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: كي يفهموه ويتذكَّروا به ويعملوا بموجبه.

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: وإن لم يتذكَّروا فانتظر ما يحلُّ بهم، وهو تعميمٌ بعد تخصيص بقوله تعالى: «فارتقب يوم تأتي السماء» إلخ ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ منتظرون ما يحلُّ بك كما قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]. وقيل: معناه: مرتقبون ما يحلُّ بهم تهكُّماً. وقيل: هو مُشاكلة، والمعنى: إنهم صائرون للعذاب.

وفي الآية من الوعد له ﷺ ما لا يخفى.

وقيل: فيها الأمر بالمتاركة، وهو منسوخٌ بآية السيف فلا تَغْفُل.

❊ ❊ ❊

ومن باب الإشارة في الآيات ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى آخر القصة من تطبيق ذلك على ما في الأنفس، وهو مما يُعلم مما ذكرناه في باب الإشارة من هذا الكتاب غيرَ مرة فلا نُطيل به.

---

(١) تفسير البيضاوي ٨/ ١٤.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إنه إشارة إلى الوحدة، كقوله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] وأَفْصَحَ بعضُهم فقال: الحقُّ هو عز وجل، والباء للسببية، أي: ما خلقناهما إلا بسبب أن تكون مرايا لظهور الحقِّ جل وعلا. ومَن جَعَلَ منهم الباء للملابسة أنشد:

رقَّ الزجاجُ وراقت الخمر ... فتشاكلا وتَشَابَهَ الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خمرُ(١)

والعبارة ضيِّقة، والأمر طور ما وراء العقل، والسكوت أسلم.

وقالوا في ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾: هي شجرة الحرص وحبِّ الدنيا، تظهر يومَ القيامة على أسوأ حال وأخبث طعم.

وقالوا: ﴿ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما كان في الدنيا بقتل النفس بسيف الصدق في الجهاد الأكبر، وهو المشار إليه بـ: موتوا قبل أن تموتوا، فمن مات ذلك الموت حَيِيَ أبداً الحياةَ الطيبة التي لا يُمازجها شيء من ماء الألم الجسماني والروحاني، وذلك هو الفوز العظيم، والله تعالى يقول الحق وهو سبحانه يهدي السبيل.

❁ ❁ ❁

انتهى بعون الله تعالى الجزء الرابع والعشرون من روح المعاني
ويليه إن شاء الله الجزء الخامس والعشرون ويبدأ
بسورة الجاثية

(١) البيتان في خزانة الأدب ٨/ ٤٠٤، ونسبهما لأبي إسحاق الصابي.

(٤٥) سُورَةُ الجَاثِيَةِ مَكيَّة وآياتها سبع وثلاثون

سورة الجاثية من السور المكية التي تناولت أسس العقيدة الإسلامية « التوحيد ، البعث ، الرسالة » والمحورُ الذي تدور عليه السورة الكريمة هو إثبات دلائل القدرة والوحدانية ، وإثبات البعث والجزاء ، يوم يلقى المحسنُ جزاء إحسانه ، والمسيء جزاء إساءته . سميت السورة الكريمة « سورة الجاثية » لأنَّ الله تعالى ذكر فيها أحوال الناس يوم القيامة ، وما يكونون عليه من الفزع ، فيجثون على الركب من شدة ما يصيبهم من الذهول والدهشة ، شأن الخائف الذليل « وترى كلَّ أمةٍ جاثية ، كلُّ أمةٍ تُدعى إلى كتابها ، اليوم تُجزون ما كنتم تعملون » .

● **تبتدىء السورة الكريمة** ببيان دلائل القدرة والوحدانية ، في خلق السموات والأرض ، وفي إحياء البشر ، ونزول المطر ، وتعاقب الليل والنهار ، عبرةً وعظة لأولي الأبصار ، وكل هذه المخلوقات شاهدة بعظمة ذي الجلال ، ناطقةٌ بوحدانية الكبير المتعال ﴿حمٓ . تنزيلُ الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنَّ في السمواتِ والأرضِ لآياتٍ للمؤمنين . وفي خلقكم وما يَبُثُّ من دابةٍ آياتٌ لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريفِ الرياحِ آياتٌ لقوم يعقلون﴾ .

● **وتتحدث السورة الكريمة** عن المكابرين المعاندين ، المكذبين لآيات الله مع كل تلك الدلائل الباهرة ، والحجج الساطعة ، الدالة على عظمة

الله وجلاله ، ووحدانيتهِ وكما له ﴿ تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديثٍ بعد اللهِ وآياته يؤمنون ؟ ويلٌ لكل أفَّاك أثيم . يسمع آياتِ الله تُتْلَى عليه ثم يُصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها ، فبشّْره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هُزُواً ، أولئك لهم عذابٌ مهين﴾ .

● وتنتقل السورة لتذكير الناس بنعم الله الجليلة التي أغدقها عليهم ، لينتبهوا إلى شكر المنعم ، وتوحيد الخالق الذي هيأ لهم كل أسباب الراحة والسعادة فوق ظهر المعمورة ، وعلى سطح البحار ، ينتقلون بمراكبهم فوقها في الأسفار من أجل التجارة وابتغاء الرزق ﴿ اللهُ الذي سخَّر لكم البحرَ لتجريَ الفُلْك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ .

وتتحدث السورة عن نعمةِ الله على بنيِ إسرائيل ، حيث خصَّهم الله بالفضل العظيم على سائر الأمم ، وأكرمهم بالكتاب المنير ، والهداية الربانية ، فجحدوا النعمة ، وعصوا أو امر الله ، وكذبوا برسالة خاتم المرسلين ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتابَ ، والحُكْم ، والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بيناتٍ من الأمر ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ .

● وتتحدث السورة عن القرآن العظيم ، الهادي إلى الصراط المستقيم ، وعن انقسام الناس أمام هدايته إلى فريقين : مسلمين ومجرمين ، فمن صدَّق به فقد اهتدى ، ومن كذَّب به فقد ضلَّ وغوى ، والجزاء هناك عند الله ﴿ هذا بصائر للناسِ وهدىً ورحمةٌ لقوم يوقنون . أم حسب الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواءً محياهم ومماتهم ؟ ساءَ ما يحكمون . وخلق اللهُ السمواتِ والأرضَ

بالحقِ ، ولتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ . وإذا كان المؤمن يعبد الله وحده ، فإنّ الكافر إنما يعبد في الحقيقة هواه ، وشتّان بين من يعبد الله ومن يعبد هواه ﴿ أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تَذَكَّرون﴾ ؟

● وتتحدث السورة الكريمة عن الدهريين والطبيعيين ، الذين أنكروا وجود الخالق العظيم وأنكروا البعث بعد الموت ، وزعموا أن الدهر هو الذي يُفني العباد ، ولا حشر ولا نشر ، ولا حساب ولا جزاء ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علمٍ إن هم إلا يظنون﴾ ولقد كان من شبهة منكري البعث تلك الحجة الضعيفة السقيمة ، التي تدل على منتهى البلادة والغباء وهي : إذا كان البعث حقاً فلماذا لا يرجع إلينا آباؤنا الأوائل ؟ ولماذا لا يحيون مرةً ثانية في هذه الدنيا فيخبرونا عمَّا حصل لهم ؟ ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيناتٍ ما كان حجَّتَهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قلِ اللهُ يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه ، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ وتعرض السورة الكريمة مشهداً من مشاهد الآخرة ، تلتقي فيه البشرية كلُّها على صعيد واحد ، ليواجهوا الحساب المرهوب ، وقد جَثَوْا على الركب متميزين أمةً أمةً ، يغمرهم في ذلك الموقف الهيبةُ والجلال ، وتحيط بهم الملائكة من كل جانب ، وتخْشع الأصوات ، وتُحبس الأنفاس ، في ارتقاب الجزاء الموعود ، وتنقسم الجموع الحاشدة إلى فريقين : فريق المحسنين ، وفريق المجرمين ، وينال الأبرار جزاءهم بالخلود في جنات النعيم ، وينال الفجار جزاءهم بالتقلب في غمرات الجحيم ، ويُقْضى بين الخلائق بالحق والعدل ﴿ ولله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ويوم تقومُ الساعةُ يومئذٍ يخسر المبطلون . وترى

كلَّ أمةٍ جاثية ، كلُّ أمةٍ تُدعى إلى كتابها ، اليومَ تُجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ، ذلك هو الفوز العظيم . وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تُتْلى عليكم فاستكبرتمً وكنتم قوماً مجرمين﴾ وتختم السورة الكريمة بحمد الله وتمجيده ، وتعظيمه وتقديسه ، فهو الربُ المعبود ، لا شريك له في ملكه ولا معقِّب لحكمه ، ذو العظمة والجلال ، والكبرياء والكمال في الدنيا والآخرة ﴿فلله الحمدُ ربِّ السموات وربِّ الأرضِ ، ربِّ العالمين . وله الكبرياءُ في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم﴾ .

سورة الجاثية

[٨١٧] ك.. أخرج ابن المنذر وابن جرير عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تعبد الحجر حيناً من الدهر فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر فأنزل الله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾(١).

[٨١٨] ك.. وأخرج عن أبي هريرة قال: كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار فأنزل الله: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾(٢).

* * *

---

[٨١٧] (١) سورة الجاثية: الآية (٢٣).

[٨١٨] (٢) سورة الجاثية: الآية (٢٤) ـ قلت وروى الواحدي في أسباب النزول ص (٢١٥) من طريق محمد بن زياد اليشكري عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ سورة البقرة: الآية (٢٤٥). قال يهودي بالمدينة يقال له فنحاص: احتاج رب محمد فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾ سورة الجاثية: الآية (١٤).

سورة الجاثية

ثلاثون وسبع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ
۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥
تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن في قوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وجوهًا: الأول: أن يكون ﴿حمٓ﴾ مبتدأ و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبره، وعلى هذا التقدير فلا بد من حذف مضاف، والتقدير تنزيل حم، تنزيل الكتاب، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صلة للتنزيل. الثاني: أن يكون قوله ﴿حمٓ﴾ في تقدير: هذه حم، ثم نقول ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ واقع من الله العزيز الحكيم. الثالث: أن يكون ﴿حمٓ﴾ قسمًا و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نعتًا له، وجواب القسم ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والتقدير: وحم الذي هو تنزيل الكتاب أن الأمر كذا وكذا.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يجوز جعلهما صفة للكتاب، ويجوز جعلهما صفة لله تعالى، إلا أن هذا الثاني أَوْلى، ويدل عليه وجوه: الأول: أنا إذا جعلناهما صفة لله تعالى كان ذلك حقيقة، وإذا جعلناهما صفة للكتاب كان ذلك مجازًا، والحقيقة أَوْلى من المجاز. الثاني: أن زيادة القرب توجب الرجحان. الثالث: أنا إذا جعلنا العزيز الحكيم صفة لله كان ذلك إشارة إلى الدليل الدال على أن القرآن حق؛ لأن كونه عزيزًا يدل على كونه قادرًا على كل الممكنات وكونه حكيمًا يدل على كونه عالمًا بجميع المعلومات غنيًا عن كل الحاجات، ويحصل لنا من مجموع كونه تعالى عزيزًا حكيمًا كونه قادرًا على جميع الممكنات، عالمًا بجميع المعلومات، غنيًا عن كل الحاجات، وكل ما كان كذلك امتنع منه صدور العبث والباطل، وإذا كان كذلك كان ظهور المعجز دليلاً على الصدق، فثبت أنا إذا جعلنا كونه عزيزًا حكيمًا صفتين لله تعالى يحصل منه هذه الفائدة، وأما إذا جعلناهما صفتين للكتاب لم يحصل منه هذه الفائدة، فكان الأول أَوْلى، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ .

وفيه مباحث:

البحث الأول: أن قوله : ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ﴾ يجوز إجراؤه على ظاهره؛ لأنه حصل في ذوات السموات والأرض أحوال دالة على وجود الله تعالى، مثل مقاديرها وكيفياتها وحركاتها، وأيضًا الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار موجودة في السموات والأرض وهي آيات. ويجوز أن يكون المعنى: إن في خلق السموات والأرض، كما صرّح به في سورة البقرة في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] وهو يدل على وجود القادر المختار في تفسير قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: ١].

البحث الثاني: قد ذكرنا الوجوه الكثيرة في دلالة السموات والأرض على وجود الإله القادر المختار في تفسير قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: ١] ولا بأس بإعادة بعضها فنقول: إنها تدل على وجود الإله من وجوه: الأول: أنها أجسام لا تخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، فهذه الأجسام حادثة، وكل حادث فله مُحْدِث. الثاني: أنها مركبة من الأجزاء وتلك الأجزاء متماثلة؛ لما بينا أن الأجسام متماثلة، وتلك الأجزاء وقع بعضها في العمق دون السطح، وبعضها في السطح دون العمق، فيكون وقوع كل جزء في الموضع الذي وقع فيه من الجائزات، وكل جائز فلا بد له من مرجح ومخصص. الثالث: أن الأفلاك والعناصر مع تماثلها في تمام الماهية الجسمية اختص كل واحد منها بصفة معينة، كالحرارة والبرودة واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية، فيكون ذلك أمرًا جائزًا ولا بد لها من مرجح. الرابع: أن أجرام الكواكب مختلفة في الألوان، مثل كمودة زحل، وبياض المشتري، وحمرة المريخ، والضوء الباهر للشمس، ودرية الزهرة، وصفرة عطارد، ومحو القمر، وأيضًا فبعضها سعيدة، وبعضها نحسة، وبعضها نهاري ذكر، وبعضها ليلي أنثى، وقد بينا أن الأجسام في ذواتها متماثلة، فوجب أن يكون اختلاف الصفات لأجل أن الإله القادر المختار خصص كل واحد منها بصفته المعينة. الخامس: أن كل فلك فإنه مختص بالحركة إلى جهة معينة ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء، وكل ذلك أيضًا من الجائزات، فلا بد من الفاعل المختار. السادس: أن كل فلك مختص بشيء معين، وكل ذلك أيضًا من الجائزات، فلا بد من الفاعل المختار، وتمام الوجوه مذكور في تفسير تلك الآيات.

البحث الثالث: قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يقتضي كون هذه الآيات مختصة بالمؤمنين، وقالت المعتزلة: إنها آيات للمؤمن والكافر، إلا أنه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آيات إلى المؤمنين، ونظيره قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فإنه هدًى لكل الناس كما قال تعالى: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] إلا أنه لما انتفع بها المؤمن خاصة لا جرم قيل: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ فكذا ههنا، وقال الأصحاب: الدليل والآية هو الذي يترتب على معرفته حصول العلم،

وذلك العلم إنما يحصل بخلق الله تعالى لا بإيجاب ذلك الدليل، والله تعالى إنما خلق ذلك العلم للمؤمن لا للكافر، فكان ذلك آية ودليلاً في حق المؤمن لا في حق الكافر، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾ عطف على الخلق المضاف لا على الضمير المضاف إليه؛ لأن المضاف ضمير متصل مجرور، والعطف عليه مستقبح، فلا يقال: مررت بك وزيد، ولهذا طعنوا في قراءة حمزة (تساءلون به والأرحامِ): بالجر في قوله: (والأرحامِ) وكذلك إن الذين استقبحوا هذا العطف، فلا يقولون مررت بك أنت وزيد.

البحث الثاني: قرأ حمزة والكسائي (آيات) بكسر التاء وكذلك الذي بعده ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ﴾ والباقون بالرفع فيهما، أما الرفع فمن وجهين ذكرهما المبرد والزجاج وأبو علي: أحدهما: العطف على موضع (إنَّ) وما عملت فيه؛ لأن موضعهما رفع بالابتداء فيُحملِ الرفع فيه على الموضع، كما تقول: إن زيدًا منطلق وعمر، و﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] لأن معنى قوله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ أن يقول الله بريء من المشركين ورسوله، والوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ مستأنفًا، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة أخرى، كما تقول: إن زيدًا منطلق وعمرو كاتب، جعلت قولك: (وعمرو كاتب) كلامًا آخر، كما تقول زيد في الدار وأخرج غدًا إلى بلد كذا، فإنما حَدَّثت بحديثين ووصلت أحدهما بالآخر بالواو، وهذا الوجه هو اختيار أبي الحسن والفراء. وأما وجه القراءة بالنصب فهو بالعطف على قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على معنى: وإن في خلقكم لآيات. ويقولون: هذه القراءة إنها في قراءة أُبي وعبد الله (وإن في خلقكم لآيات) ودخول اللام يدل على أن الكلام محمول على (إنَّ).

البحث الثالث: قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ معناه خلق الإنسان، وقوله: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ إشارة إلى خلق سائر الحيوانات، ووجه دلالتها على وجود الإله القادر المختار أن الأجسام متساوية، فاختصاص كل واحد من الأعضاء بكونه المعين وصفته المعينة وشكله المعين - لا بد وأن يكون بتخصيص القادر المختار، ويدخل في هذا الباب انتقاله من سن إلى سن آخر ومن حال إلى حال آخر، والاستقصاء في هذا الباب قد تقدم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهذا الاختلاف يقع على وجوه: أحدها: تبدُّل النهار بالليل وبالضد منه. وثانيها: أنه تارة يزداد طول النهار على طول الليل وتارة بالعكس، وبمقدار ما يزداد في النهار الصيفي يزداد في الليل الشتوي. وثالثها: اختلاف مطالع الشمس في أيام السنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهو يدل على القول بالفاعل المختار من وجوه: أحدها: إنشاء السحاب وإنزال المطر منه. وثانيها: تولد النبات من تلك الحبة الواقعة في الأرض. وثالثها: تولد الأنواع المختلفة وهي ساق الشجرة وأغصانها وأوراقها

وثمارها، ثم تلك الثمرة منها ما يكون القشر محيطًا باللب كالجوز واللوز، ومنها ما يكون اللب محيطًا بالقشر كالمشمش والخوخ، ومنها ما يكون خاليًا من القشر كالتين، فتولد أقسام النبات على كثرة أصنافها وتباين أقسامها - يدل على صحة القول بالفاعل المختار الحكيم الرحيم.

ثم قال:﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ وهي تنقسم إلى أقسام كثيرة بحسب تقسيمات مختلفة، فمنها المشرقية والمغربية والشمالية والجنوبية، ومنها الحارة والباردة، ومنها الرياح النافعة والرياح الضارة، ولما ذكر الله تعالى هذه الأنواع الكثيرة من الدلائل قال: إنها آيات لقوم يعقلون.

واعلم أن الله تعالى جمع هذه الدلائل في سورة البقرة فقال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]فذكر الله تعالى هذه الأقسام الثمانية من الدلائل، والتفاوت بين الموضعين من وجوه: الأول: أنه تعالى قال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال هاهنا: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والصحيح عند أصحابنا أن الخلق عين المخلوق، وقد ذكر لفظ الخلق في سورة البقرة ولم يذكره في هذه السورة تنبيهًا على أنه لا يتفاوت بين أن يقال السموات وبين أن يقال خلق السموات، فيكون هذا دليلاً على أن الخلق عين المخلوق. الثاني: أنه ذكر هناك ثمانية أنواع من الدلائل وذكر هاهنا ستة أنواع، وأهمل منها الفلك والسحاب، والسبب أن مدار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة، فذِكر الرياح الذي هو كالسبب يغني عن ذكرهما، والتفاوت الثالث: أنه جمع الكل وذكر لها مقطعًا واحدًا، وهاهنا رتبها على ثلاثة مقاطع، والغرض التنبيه على أنه لا بد من إفراد كل واحد منها بنظر تام شافٍ. الرابع: أنه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاثة مقاطع: أولها: يؤمنون. وثانيها: يوقنون. وثالثها: يعقلون، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل: إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل.

واعلم أن كثيرًا من الفقهاء يقولون: إنه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المتكلمون، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه. وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام، وفيه سور كثيرة خصوصًا المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوّة والبعث والقيامة، وكل ذلك من علوم الأصوليين، ومن تأمل عَلِم أنه ليس في يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الإجمال.

ثم قال تعالى:﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ والمراد من قوله ﴿ بِٱلْحَقِّ﴾ هو أن صحتها معلومة بالدلائل العقلية، وذلك لأن العلم بأنها حقة صحيحة إما أن يكون مستفادًا من النقل أو العقل، والأول باطل لأن صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم بإثبات الإله العالم القادر الحكيم

وبإثبات النبوّة وكيفية دلالة المعجزات على صحتها، فلو أثبتنا هذه الأصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل، وإذا كان كذلك كان قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ومن أعظم الدلائل على الترغيب في علم الأصول وتقرير المباحث العقلية.

ثم قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كافٍ وبيّن أنه يجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله، وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قرئ بالياء والتاء، واختار أبو عبيدة الياء لأن قبله غيبة وهو قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ و﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإن قيل: إن في أول الكلام خطابًا وهو قوله: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ قلنا: الغيبة التي ذكرنا أقرب إلى الحرف المختلف فيه، والأقرب أوْلى، ووجه قول من قرأ على الخطاب أن (قل) فيه مقدر، أي قل لهم: فبأي حديث بعد ذلك تؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن الآيات للكفار، وبيّن أنهم بأي حديث يؤمنون إذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها، أتبعه بوعيد عظيم لهم فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الأفاك: الكذب، والأثيم: المبالغ في اقتراف الآثام. واعلم ن هذا الأثيم له مقامان:

المقام الأول: أن يبقى مصرًّا على الإنكار والاستكبار، فقال تعالى: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي يقيم على كفره إقامة بقوة وشدة ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات معجبًا بما عنده، قيل: نزلت في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن والآية عامة في كل من كان موصوفًا بالصفة المذكورة، فإن قالوا: ما معنى (ثُم) في قوله: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؟ قلنا: نظيره قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] ومعناه أنه تعالى لما كان خالقًا للسموات والأرض كان من المستبعد جعل هذه الأصنام مساوية له في العبودية، كذا ههنا سماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالإنكار والإعراض.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ الأصل كأنه لم يسمعها، والضمير ضمير الشأن، ومحل الجملة النصب على الحال، أي يصير مثل غير السامع.

المقام الثاني: أن ينتقل من مقام الإصرار والاستكبار إلى مقام الاستهزاء فقال: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ وكان من حق الكلام أن يقال: اتخذه هزوًا أي اتخذ ذلك الشيء هزوًا إلا أنه تعالى قال: ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ للإشعار بأن هذا الرجل إذا (أحس بشيء) من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ - خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أولئك إشارة إلى كل أفاك أثيم لشموله جميع الأفاكين، ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي من قدامهم جهنم، قال صاحب (الكشاف): الوراء اسم للجهة التي توارى بها الشخص من خلف أو قدام، ثم بيّن أن ما ملكوه في الدنيا لا ينفعهم فقال: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا﴾. ثم بيّن أن أصنامهم لا تنفعهم فقال: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فإن قالوا: إنه قال قبل هذه الآية: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فما الفائدة في قوله بعده: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قلنا: كون العذاب مهينًا يدل على حصول الإهانة مع العذاب، وكونه عظيمًا يدل على كونه بالغًا إلى أقصى الغايات في كونه ضررًا.

ثم قال: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي كامل في كونه هدًى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والرجز أشد العذاب، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩] وقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وقرىء (أليم) بالجر والرفع، أما الجر فتقديره: لهم عذاب من عذاب أليم، وإذا كان عذابهم من عذاب أليم كان عذابهم أليمًا، ومَن رفع كان المعنى له عذاب أليم. ويكون المراد من الرجز الرجس الذي هو النجاسة، ومعنى النجاسة فيه قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] وكأن المعنى: لهم عذاب من تجرُّع رجس أو شرب رجس فتكون (مِن) تبيينًا للعذاب.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر، وذلك لا يحصل إلا بسبب تسخير ثلاثة أشياء: أحدها: الرياح التي تجري على وفق المراد. ثانيها: خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك. ثالثها: خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء

ولا تغوص فيه. وهذه الأحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى، وقوله ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ معناه إما بسبب التجارة، أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، أو لأجل استخراج اللحم الطري.

ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ والمعنى لولا أن الله تعالى أوقف أجرام السموات والأرض في مقارها وأحيازها لما حصل الانتفاع؛ لأن بتقدير كون الأرض هابطة أو صاعدة لم يحصل الانتفاع بها، وبتقدير كون الأرض من الذهب والفضة أو الحديد لم يحصل الانتفاع، وكل ذلك قد بيناه، فإن قيل: ما معنى ﴿مِّنْهُ﴾ في قوله ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾؟ قلنا: معناه أنها واقعة موقع الحال، والمعنى أنه سخّر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده، يعني أنه تعالى مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه.

قال صاحب (الكشاف): قرأ سلمة بن محارب (منه) على أن يكون (منه) فاعل (سَخَّر) على الإسناد المجازي، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: ذلك منه أو هو منه.

واعلم أنه تعالى لما علَّم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ والمراد بالذين لا يرجون أيام الله الكفار، واختلفوا في سبب نزول الآية: قال ابن عباس: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني عمر ﴿يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ يعني عبد الله بن أُبي، وذلك أنهم نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال لها المريسيع، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي الماء فأبطأ عليه، فلما أتاه قال له: ما حبسك؟ قال غلام عمر قعد على طرف البئر، فما ترك أحد يستقي حتى ملأ قِرب النبي ﷺ وقِرب أبي بكر وملأ لمولاه. فقال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سمِّن كلبك يأكلك. فبلغ قوله عمر فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه، فأنزل الله هذه الآية[1]، وقال مقاتل: شتم رجل من كفار قريش عمر بمكة، فهَمَّ أن يبطش به، فأمَر الله بالعفو والتجاوز، وأنزل هذه الآية.

وروى ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودي لما أنزل قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال: احتاج رب محمد. فسمع بذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج في طلبه، فبعث النبي ﷺ في طلبه حتى رده، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الأمم الخالية، وذكرنا تفسير أيام الله عند قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] وأكثر المفسرين يقولون: إنه منسوخ. وإنما قالوا ذلك لأنه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا، فلما أمر الله بهذه المقاتلة كان نسخًا،

(١) مرسل: رواه الطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٤٠٤) من طريق يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة... به، وعبد الرزاق في (مصنفه) (٧/ ١٩٦)، حديث رقم (٣١٢٨) من طريق معمر عن قتادة... به، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٧/ ٣٢٩)، حديث رقم (١٠٦٢٥) من طريق سعيد عن قتادة... به.

والأقرب أن يقال: إنه محمول على ترك المنازعة في المحقرات وعلى التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية والأفعال الموحشة.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي لكي يجازي بالمغفرة قومًا يعملون الخير. فإن قيل: ما الفائدة في التنكير في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾ مع أن المراد بهم هم المؤمنون المذكورون في قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؟ قلنا: التنكير يدل على تعظيم شأنهم، كأنه قيل: ليجزى قومًا وأي قوم!! من شأنهم الصفح عن السيئات والتجاوز عن المؤذيات وتحمل الوحشة وتجرع المكروه. وقال آخرون: معنى الآية قل للمؤمنين يتجاوزوا عن الكفار؛ ليجزي الله الكفار بما كانوا يكسبون من الإثم، كأنه قيل لهم: لا تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن. ثم ذكر الحكم العام فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ مثل ضربه للكفار الذين كانوا يُقْدمون على إيذاء الرسول والمؤمنين وعلى ما لا يحل، فبيّن تعالى أن العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله، والعمل الردىء يعود بالضرر على فاعله، وأنه تعالى أمَر بهذا ونهى عن ذلك لحظِّ العبد لا لنفع يرجع إليه، وهذ ترغيب منه في العمل الصالح وزجر عن العمل الباطل.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

اعلم أنه تعالى بيّن أنه أنعم بنعم كثيرة على بني إسرائيل، مع أنه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغي والحسد، والمقصود أن يبين أن طريقة قومه كطريقة من تقدم.

واعلم أن النعم على قسمين: نعم الدين، ونعم الدنيا، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا؛ فلهذا بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ والأقرب أن كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايرًا لصاحبه، أما الكتاب فهو التوراة، وأما الحُكْم ففيه وجوه: يجوز أن يكون المراد العلم والحكمة، ويجوز أن يكون المراد العلم

بفصل الحكومات، ويجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه، وأما النبوة فمعلومة، وأما نعم الدنيا فهي المراد من قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وذلك لأنه تعالى وسع عليهم في الدنيا، فأورثهم أموال قوم فرعون وديارهم ثم أنزل عليهم المن والسلوى، ولما بيّن تعالى أنه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيبًا وافرًا، قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني أنهم كانوا أكبر درجة وأرفع منقبة ممن سواهم في وقتهم؛ فلهذا المعنى قال المفسرون المراد: وفضلناهم عن عالمي زمانهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ وفيه وجوه: الأول: أنه آتاهم بينات من الأمر، أي أدلة على أمور الدنيا. الثاني: قال ابن عباس: يعني بيّن لهم من أمر النبي ﷺ أنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، ويكون أنصاره أهل يثرب. الثالث: المراد ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ﴾ أي معجزات قاهرة على صحة نبوتهم، والمراد معجزات موسى عليه السلام.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ وهذا مفسر في سورة ﴿حم ۝ عسق﴾ والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة؛ لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وههنا صار مجيء العلم سببًا لحصول الاختلاف، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم، ثم ههنا احتمالات يريد أنهم علموا ثم عاندوا، ويجوز أن يريد بالعلم الدلالة التي توصل إلى العلم، والمعنى أنه تعالى وضع الدلائل والبينات التي لو تأملوا فيها لعرفوا الحق، لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا النزاع.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والمرد أنه لا ينبغي أن يغتر المبطل بنعم الدنيا، فإنها وإن ساوت نِعم المُحق أو زادت عليها، فإنه سيرى في الآخرة ما يسوءه، وذلك كالزجر لهم.

ولما بيّن تعالى أنهم أعرضوا عن الحق لأجل البغي والسحد، أمَر رسوله ﷺ بأن يعدل عن تلك الطريقة، وأن يتمسك بالحق، وأن لا يكون له غرض سوى إظهار الحق وتقرير الصدق، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي على طريقة ومنهاج من أمر الدين، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والبينات، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال وأديانهم المبنية على الأهواء والجهل، قال الكلبي: إن رؤساء قريش قالوا للنبي ﷺ وهو بمكة: ارجع إلى ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لو ملت إلى أديانهم الباطلة فصرت مستحقًّا للعذاب، فهم لا يقدرون على دفع عذاب الله عنك، ثم بيّن تعالى أن الظالمين يتولى بعضهم بعضًا في الدنيا وفي الآخرة، ولا ولي لهم ينفعهم في إيصال الثواب وإزالة العقاب، وأما المتقون المهتدون، فالله وليهم وناصرهم وهم مواله، وما أبين الفرق بين الولايتين!! ولما

بيّن الله تعالى هذه البيانات الباقية النافعة، قال: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وقد فسرناه في آخر سورة الأعراف، والمعنى هذا القرآن بصائر للناس جعل ما فيه من البيانات الشافية، والبينات الكافية بمنزلة البصائر في القلوب، كما جعل في سائر الآيات روحًا وحياة، وهو هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن.

ولما بيّن الله تعالى الفرق بين الظالمين وبين المتقين من الوجه الذي تقدم، بيّن الفرق بينهما من وجه آخر، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: (أم) كلمة وُضعت للاستفهام عن شيء حال كونه معطوفًا على شيء آخر، سواء كان ذلك المعطوف مذكورًا أو مضمرًا، والتقدير ههنا: أفيعلم المشركون هذا، أم يحسبون أنا نتولاهم كما نتولى المتقين؟

البحث الثاني: الاجتراح: الاكتساب، ومنه الجوارح، وفلان جارحة أهله، أي كاسبهم، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

البحث الثالث: قال الكلبي: نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، وفي ثلاثة من المشركين: عتبة وشيبة والوليد بن عتبة، قالوا للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقًّا لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أنَّا أفضل حالاً منكم في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام، وبيّن أنه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساويًا لحال الكافر العاصي في درجات الثواب، ومنازل السعادات.

واعلم أن لفظ (حسب) يستدعي مفعولين: أحدهما: الضمير المذكور في قوله ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾: والثاني: الكاف في قوله ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والمعنى: أحسب هؤلاء المجترحون أن نجعلهم أمثال الذين آمنوا؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨] وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢] وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (سواء) بالنصب، والباقون بالرفع، واختيار أبي عبيد النصب، أما وجه القراءة بالرفع، فهو أن قوله: ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مبتدأ والجملة في حكم المفرد في محل النصب على البدل من المفعول الثاني لقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾ وهو الكاف في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ونظيره قوله: ظننت زيدًا أبوه منطلق. وأما وجه القراءة بالنصب فقال صاحب (الكشاف): أجرى سواء مجرى مستويًا، فارتفع محياهم ومماتهم على

الفاعلية وكان مفردًا غير جملة، ومن قرأ (ومماتَهم) بالنصب جعل ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ ظرفين كمقدم الحاج، وخفوق النجم، أي سواء في محياهم وفي مماتهم، قال أبو علي: مَن نصب (سواء) جعل المحيا والممات بدلاً من الضمير المنصوب في نجعلهم فيصير التقدير أن نجعل محياهم ومماتهم سواء. قال: ويجوز أن نجعله حالاً ويكون المفعول الثاني هو الكاف في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾.

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد بقوله: ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾: قال مجاهد عن ابن عباس: يعني أحسبوا أن حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم؟ كلا فإنهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين، والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين، وذلك لأن المؤمن ما دام يكون في الدنيا فإنه يكون وليه هو الله وأنصاره المؤمنون وحجة الله معه، والكافر بالضد منه، كما ذكره في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ وعند القرب إلى الموت، فإن حال المؤمن ما ذكره في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢] وحال الكافر ما ذكره في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] وأما في القيامة فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤١] فهذا هو الإشارة إلى بيان وقوع التفاوت بين الحالتين. والوجه الثاني في تأويل الآية: أن يكون المعنى إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة، وذلك لأن المؤمن والكافر قد يستوي محياهم في الصحة والرزق والكفاية بل قد يكون الكافر أرجح حالاً من المؤمن، وإنما يظهر الفرق بينهما في الممات. والوجه الثالث في التأويل: أن قوله: (سواء محياهم ومماتهم) مستأنف على معنى أن محيا المسيئين ومماتهم سواء، فكذلك محيا المحسنين ومماتهم، أي كل يموت على حسب ما عاش عليه، ثم إنه تعالى صرح بإنكار تلك التسوية فقال: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أفتى بأن المؤمن لا يساوي الكافر في درجات السعادات، أتبعه بالدلالة

الظاهرة على صحة هذه الفتوى فقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ولو لم يوجد البعث لما كان ذلك بالحق بل كان بالباطل؛ لأنه تعالى لما خلق الظالم وسلّطه على المظلوم الضعيف، ثم لا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالمًا، ولو كان ظالمًا لبطل أنه خلق السموات والأرض بالحق، وتمام تقرير هذه الدلائل مذكور في أول سورة يونس، قال القاضي: هذه الآية تدل على أن في مقدور الله ما لو حصل لكان ظلمًا، وذلك لا يصح إلا على مذهب المجبرة الذين يقولون: لو فعل كل شيء أراده لم يكن ظلمًا. وعلى قول من يقول: إنه لا يوصف بالقدرة على الظلم. وأجاب الأصحاب عنه بأن المراد فعل ما لو فعله غيره لكان ظلمًا. كما أن المراد من الابتلاء والاختبار فعل ما لو فعله غيره لكان ابتلاءً واختبارًا، وقوله تعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه معطوف على قوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيكون التقدير: وخلق الله السموات والأرض لأجل إظهار الحق ولتجزى كل نفس. الثاني: أن يكون العطف على محذوف، والتقدير: وخلق الله السموات والأرض بالحق ليدل بهما على قدرته ولتجزى كل نفس. والمعنى أن المقصود من خلق هذا العلم إظهار العدل والرحمة، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت في الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين، ثم عاد تعالى إلى شرح أحوال الكفار وقبائح طوائفهم فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يعني تركوا متابعة الهدى وأقبلوا على متابعة الهوى، فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل إلهه، وقرئ (آلهته هواه) كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه وذهب خلفه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحدًا منها.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يعني على علم بأن جوهر روحه لا يقبل الصلاح، ونظيره في جانب التعظيم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وتحقيق الكلام فيه أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة، فمنها مشرقة نورانية علوية إلهية، ومنها كدرة ظلمانية سفلية عظيمة الميل إلى الشهوات الجسمانية، فهو تعالى يقابل كلاًّ منهم بحسب ما يليق بجوهره وماهيته، وهو المراد من قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في حق المردودين، وبقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] في حق المقبولين.

ثم قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ هو المذكور في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٦] إلى قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ هو المراد من قوله ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة: ٧] وكل ذلك قد مرّ تفسيره في سورة البقرة بالاستقصاء، والتفاوت بين الآيتين أنه في هذه الآية قَدَّم ذكر السمع على القلب، وفي سورة البقرة قَدَّم القلب على السمع، والفرق أن الإنسان قد يسمع كلامًا فيقع في قلبه منه أثر، مثل أن جماعة من الكفار كانوا يلقون إلى الناس أن النبي ﷺ شاعر وكاهن وأنه يطلب الملك والرياسة، فالسامعون إذا سمعوا ذلك أبغضوه ونفرت قلوبهم عنه، وأما كفار مكة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشديد فكانوا يستمعون

إليه، ولو سمعوا كلامه ما فهموا منه شيئًا نافعًا، ففي الصورة الأولى كان الأثر يصعد من البدن إلى جوهر النفس، وفي الصورة الثانية كان الأثر ينزل من جوهر النفس إلى قرار البدن، فلما اختلف القسمان لا جرم أرشد الله تعالى إلى كلا هذين القسمين بهذين الترتيبين اللذين نبهنا عليهما، ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام قال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي من بعد أن أضله الله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس.

قال الواحدي: وليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة؛ لأن الله تعالى صرّح بمنعه إياهم عن الهدى حين أخبر أنه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره، وأقول: هذه المناظرة قد سبقت بالاستقصاء في أول سورة البقرة.

واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم في إنكار القيامة وفي إنكار الإله القادر:

أما شبهتهم في إنكار القيامة فهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فإن قالوا: الحياة مقدمة على الموت في الدنيا فمنكرو القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت، فما السبب في تقديم ذكر الموت على الحياة؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: المراد بقوله: ﴿نَمُوتُ﴾ حال كونهم نطفًا في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، وبقوله: ﴿وَنَحْيَا﴾ ما حصل بعد ذلك في الدنيا. الثاني: نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا. الثالث: يموت بعض ويحيا بعض. الرابع: - وهو الذي خطر بالبال عند كتابة هذا الموضع. أنه تعالى قدم ذكر الحياة فقال: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ ثم قال بعده: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك في حق الذين ماتوا، ومنها ما لم يطرأ الموت عليها، وذلك في حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد.

وأما شبهتهم في إنكار الإله الفاعل المختار، فهو قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ يعني تولد الأشخاص إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع، وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك، ولا حاجة في هذا الباب إلى إثبات الفاعل المختار، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ والمعنى أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات بأسرها قائمة، فالذي قالوه يحتمل وضده أيضًا يحتمل، وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقًا، وأن يكون القول بوجود الإله الحكيم حقًا، فإنهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية في أن هذا الاحتمال الثاني باطل، ولكنه خطر ببالهم ذلك الاحتمال الأول فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة، فثبت أنه ليس علم ولا جزم ولا يقين في صحة القول الذي اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب إليه من غير موجب، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبيّنة قول باطل فاسد، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (حجتهم) بالنصب والرفع على تقديم خبر (كان) وتأخيره .

المسألة الثانية: سمى قولهم حجة لوجوه: الأول: أنه في زعمهم حجة . الثاني: أن يكون المراد من كان حجتهم هذا فليس لهم ألبتة حجة . كقوله:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

(أَيْ لَيْسَ بَيْنَهُمْ تَحِيَّةٌ لِمُنَافَاةِ الضَّرْبِ لِلتَّحِيَّةِ) الثالث: أنهم ذكروها في معرض الاحتجاج بها .

المسألة الثالثة: أن حجتهم على إنكار البعث أن قالوا: لو صح ذلك فائتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث .

واعلم أن هذه الشبهة ضعيفة جدًّا؛ لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول، فإن حصول كل واحد منا كان معدومًا من الأزل إلى الوقت الذي حصلنا فيه، ولو كان عدم الحصول في وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك، وذلك باطل بالاتفاق .

ثم قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإن قيل: هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ فهذا القائل كان منكرًا لوجود الإله ولوجود يوم القيامة، فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ وهل هذا إلا إثبات للشيء بنفسه وهو باطل، قلنا: إنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم في القرآن مرارًا وأطوارًا . فقوله هاهنا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ إشارة إلى تلك الدلائل التي بيّنها وأوضحها مرارًا، وليس المقصود من ذكر هذا الكلام إثبات الإله بقول الإله، بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع في نفس الأمر .

ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة، وثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقة .

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهو إشارة إلى ما تقدم ذكره في الآية المتقدمة، وهو أن كونه تعالى عادلاً خالقًا بالحق منزّهًا عن الجور والظلم - يقتضي صحة البعث والقيامة .

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لكن أكثر الناس لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم، ولا يعلمون أيضًا أنه تعالى لما كان قادرًا على الإيجاد ابتداءً وجب أن يكون قادرًا على الإعادة ثانيًا .

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما احتج بكونه قادرًا على الإحياء في المرة الأولى، وعلى كونه قادرًا على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة، عمم الدليل فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لله القدرة على جميع الممكنات، سواء كانت من السموات أو من الأرض، وإذا ثبت كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات، وثبت أن حصول الحياة في هذه الذات ممكن، إذ لو لم يكن ممكنًا لما حصل في المرة الأولى، فيلزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادرًا على الإحياء في المرة الثانية.

ولما بيّن تعالى إمكان القول بالحشر والنشر بهذين الطريقين، ذكر تفاصيل أحوال القيامة: فأولها: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: عامل النصب في (يوم تقوم) يخسر، و(يومئذ) بدل من يوم تقوم.

البحث الثاني: قد ذكرنا في مواضع من هذا الكتاب أن الحياة والعقل والصحة كأنها رأس المال، والتصرف فيها لطلب سعادة الآخرة يجري مجرى تصرف التاجر في رأس المال لطلب الربح، والكفار قد أتعبوا أنفسهم في هذه التصرفات وما وجدوا منها إلا الحرمان والخذلان، فكان ذلك في الحقيقة نهاية الخسران.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ قال الليث: الجثو: الجلوس على الرُّكب كما يجثى بين يدي الحاكم. قال الزجاج: ومثله جذا يجذو. قال صاحب (الكشاف): وقرئ (جاذية)، قال أهل اللغة: والجذو أشد استيفازًا من الجثو؛ لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه، وعن ابن عباس: جاثية: مجتمعة مرتقبة لما يُعمل بها.

ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ على الابتداء وكل أمة على الإبدال من كل أمة، وقوله: ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي إلى صحائف أعمالها، فاكتفى باسم الجنس كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩] والظاهر أنه يدخل فيه المؤمنون والكافرون لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فإن قيل: الجثو على الركبة إنما يليق بالخائف،

والمؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة. قلنا: إن المحق الآمن قد يشارك المبطل في مثل هذه الحالة إلى أن يظهر كونه محقًّا.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ والتقدير يقال: لهم اليوم تجزون، فإن قيل: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله تعالى؟ قلنا: لا منافاة بين الأمرين لأنه كتابهم بمعنى أنه الكتاب المشتمل على أعمالهم، وكتاب الله بمعنى أنه هو الذي أمر الملائكة بكَتْبه ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي يشهد عليكم بما عملتم من غير زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نستكتبهم أعمالكم.

ثم بين أحوال المطيعين فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايرًا للإيمان زائدًا عليه.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: علق الدخول في رحمة الله على كونه آتيًا بالإيمان والأعمال الصالحة، والمعلق على مجموع أمرين يكون عدمًا عند عدم أحدهما، فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لا يحصل الفوز بالجنة. وجوابنا: أن تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف.

المسألة الثالثة: سمى الثواب رحمة والرحمة إنما تصح تسميتها بهذا الاسم إذا لم تكن واجبة، فوجب أن لا يكون الثواب واجبًا على الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسمًا ثالثًا، وهذا يدل على أن مذهب المعتزلة في إثبات المنزلتين باطل.

المسألة الثانية: أنه تعالى علل أن استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها، وهذا يدل على أن استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع، وذلك يدل على أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع، خلافًا لما يقوله المعتزلة من أن بعض الواجبات قد يجب بالعقل.

المسألة الثالثة: جواب (أما) محذوف والتقدير: وأما الذين كفروا فيقال لهم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن قبول الحق وكنتم قومًا مجرمين. فإن قالوا: كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرمًا في معرض الطعن فيه والذم له؟ قلنا: معناه أنهم مع كونهم كفارًا ما كانوا عدولاً في أديان أنفسهم، بل كانوا فساقًا في ذلك الدين، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (والساعة) رفعًا ونصبًا، قال الزجاج: مَن نصب عطف على الوعد، ومن رفع فعلى معنى وقيل: الساعة لا ريب فيها. قال الأخفش: الرفع أجود في المعنى وأكثر في كلام العرب، إذا جاء بعد خبر (إنَّ) لأنه كلام مستقل بنفسه بعد مجيء الكلام الأول بتمامه.

المسألة الثانية: حكى الله تعالى عن الكفار أنهم إذا قيل: إن وعد الله بالثواب والعقاب حق وإن الساعة آتية لا ريب فيها، قالوا: ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين.

أقول: الأغلب على الظن أن القوم كانوا في هذه المسألة على قولين: منهم من كان قاطعًا بنفي البعث والقيامة، وهم الذين ذكرهم الله في الآية المتقدمة بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] ومنهم من كان شاكًّا متحيرًا فيه؛ لأنهم لكثرة ما سمعوه من الرسول ﷺ، ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته، صاروا شاكِّين فيه وهم الذين أرادهم الله بهذه الآية، والذي يدل عليه أنه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين، ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء، فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأول.

ثم قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي في الآخرة ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ وقد كانوا من قبل يعدونها حسنات فصار ذلك أول خسرانهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا كالدليل على أن هذه الفرقة لما قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ إنما ذكروه على سبيل الاستهزاء والسخرية، وعلى هذا الوجه فهذا الفريق شر من الفريق الأول؛ لأن الأولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين، وهذا الفريق ضموا إلى الإصرار على الإنكار الاستهزاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ وفي تفسير هذا النسيان وجهان: الأول: نترككم في العذاب كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد. الثاني: نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تلتفتوا إليه، بل جعلتموه كالشيء الذي يُطرح نسيًا منسيًّا، فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة أشياء: فأولها:

قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية. وثانيها: أنه يصير مأواهم النار. وثالثها: أن لا يحصل لهم أجر من الأعوان والأنصار، ثم بيّن تعالى أنه يقال لهم: إنكم إنما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب الشديد؛ لأجل أنكم أتيتم بثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة: فأولها: الإصرار على إنكار الدين الحق. وثانيها: الاستهزاء به والسخرية منه، وهذان الوجهان داخلان تحت قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾. وثالثها: الاستغراق في حب الدنيا والإعراض بالكلية عن الآخرة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي (يَخرجون) بفتح الياء، والباقون بضمها ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي يرضوه.

ولما تم الكلام في هذه المباحث الشريفة الروحانية، ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فاحمدوا الله الذي هو خالق السموات والأرض، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح والذوات والصفات، فإن هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل أحد من المخلوقين والمربوبين.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا مشعر بأمرين: أحدهما: أن التكبير لا بد وأن يكون بعد التحميد، والإشارة إلى أن الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من أن يكون الحمد الذي ذكروه لائقًا بإنعامه، بل هو أكبر من حمد الحامدين، وأياديه أعلى وأجل من شكر الشاكرين. والثاني: أن هذا الكبرياء له لا لغيره؛ لأن واجب الوجود لذاته ليس إلا هو.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني أنه لكمال قدرته يقدر على خلق أي شيء أراد، ولكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بآثار الحكمة والرحمة والفضل والكرم، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يفيد الحصر، فهذا يفيد أن الكامل في القدرة وفي الحكمة وفي الرحمة ليس إلا هو، وذلك يدل على أنه لا إله للخلق إلا هو، ولا محسن ولا متفضل إلا هو.

قال مولانا رضي الله عنه: تمّ تفسير هذه السورة يوم الجمعة بعد الصلاة، الخامس عشر من ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، والحمد لله حمدًا دائمًا طيبًا مباركًا مخلدًا مؤبدًا، كما يليق بعلو شانه وباهر برهانه وعظيم إحسانه، والصلاة على الأرواح الطاهرة المقدسة من ساكني أعالي السموات، وتخوم الأرضين، من الملائكة والأنبياء والأولياء والموحدين، خصوصًا على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سورة الجاثية

مكيَّةٌ كلُّها في قول الحسن [وعطاء] وجابر وعكرمة. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا آية، هي: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغۡفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٤] نزلت بالمدينة في عمرَ بن الخطاب ﷺ؛ ذكره الماوردي[(١)].

وقال المهدوي والنَّحَّاس عن ابن عباس: إنَّها نزلت في عمر ﷺ، شتَمه رجلٌ من المشركين بمكَّة قبل الهجرة، فأراد أنْ يبطش به، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغۡفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾. ثم نُسِخت بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُوا۟ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[(٢)] [التوبة: ٥]. فالسورةُ كلُّها مكيةٌ على هذا من غير خلاف. وهي سبعٌ وثلاثون آية. وقيل: ست[(٣)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ، و﴿تَنزِيلُ﴾ خبرُه. وقال بعضهم: «حم» اسم السورة، و«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» مبتدأ، وخبره «مِنَ اللَّهِ».

و«الكتاب»: القرآن. و«الْعَزِيزِ»: المنيع. «الحكِيم» في فعله. وقد تقدَّم جميعُ هذا[(٤)].

---

(١) في النكت والعيون ٥ / ٢٦٠ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٥ ، وسيتكلم المصنف عليه ١٩/ ١٥٠ .

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٨ .

(٤) ١/ ٤٢٩ ، ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: في خلقهما ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ يعني المطر. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدَّم جميعه مستوفًى في «البقرة» وغيرها(١).

وقراءةُ العامَّة: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ﴾ ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ﴾ بالرفع فيهما. وقرأ حمزةُ والكسائيّ بكسر التاء فيهما(٢).

ولا خلاف في الأوَّل أنَّه بالنصب على اسم «إنَّ»، وخبرُها «في السَّماوَاتِ». ووجه الكسر في «آيات» الثاني العطفُ على ما عملت فيه؛ التقدير: إنَّ في خلقكم وما يبثُّ منْ دابَّةٍ آياتٍ.

فأمَّا الثالث فقيل: إنَّ وجهَ النصب فيه تكريرُ «آيات» لمَّا طال الكلام؛ كما تقول: ضربتُ زيداً زيداً(٣).

وقيل: إنَّه على الحمل على ما عملَتْ فيه «إنَّ» على تقدير حذف «في»؛ التقدير: وفي اختلاف الليل والنهار آياتٍ. فَحُذِفت «في» لتقدُّم ذكرها. وأنشد سيبويه في الحذف(٤):

---

(١) ٢/ ٤٩٠ وما بعدها، و١٦/ ٤٦٦ .

(٢) السبعة ص ٥٩٤ ، والتيسير ص ١٩٨ .

(٣) ويكون قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ معطوفاً على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ . كما ذكر مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٠ ، ومثّلَ له بقوله: ما زيدٌ قائماً ولا جالساً زيدٌ، فنصب جالساً على أن زيداً الأخير هو الأول، ولكن أظهرته ثانيةً للتأكيد. ومثَّل له العكبري في الإملاء ٢/ ٢٣٢: بقوله: إن بثوبك دماً وبثوب زيد دماً. فدم الثاني مكرر؛ لأنك مستغنٍ عن ذكره.

(٤) الكتاب ١/ ٦٦ ، ونسبه لأبي دؤاد.

أَكُلَّ امرئٍ تَحْسِبِينَ امرأً ... ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا

فحذفَ «كلّ» المضاف إلى نارِ المجرورة لتقدُّمِ ذكرها.

وقيل: هو من باب العطف على عاملين. ولم يُجِزْه سيبويه، وأجازَه الأخفش وجماعةٌ من الكوفيين؛ فعطفَ «واخْتِلَافِ» على قوله: «وفي خَلْقِكُمْ» ثم قال: «وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٍ» فيحتاجُ إلى العطف على عاملين، والعطف على عاملين قبيحٌ من أجل أنَّ حروفَ العطف تنوب منابَ العامل، فلم تَقْوَ أنْ تنوبَ مناب عاملين مختلفين؛ إذْ لو نابَ مناب رافعٍ وناصب، لكان رافعاً ناصبًا في حال.

وأمَّا قراءةُ الرفع فحملاً على موضع «إنّ» مع ما عملت فيه.

وقد ألزم[1] النحويون في ذلك أيضاً العطفَ على عاملين؛ لأنَّه عَطَف[2] «وَاخْتِلَافِ» على «وفِي خَلْقِكُمْ»، وعطف «آيات» على موضع «آيات» الأوَّل، ولكنَّه يقدَّر على تكرير «في».[3]

ويجوزُ أنْ يُرفَع على القطع ممَّا قبلَه فيرفع بالابتداء، وما قبلَه خبره، ويكون عطفَ جملةٍ على جملة. وحكى الفرَّاء رفع «واختِلاف» و«آيات» جميعاً، وجعلَ الاختلاف هو الآيات[4].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه آياتُ الله، أي: حُجَجُه وبراهينُه الدالَّةُ على وحدانيته وقدرته.

---

(١) في (د) و(ز) و(ق): التزمت، وفي (ظ): التزم.

(٢) بعدها في النسخ الخطية: على.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٣٢، والبيان لأبي البركات ابن الأنباري ٢/ ٣٦٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٥. ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن له ٤/ ١٤١ وقال: وقد كفى المؤونة فيه بأن قال: ولم أسمع أحداً قرأ به.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق الذي لا باطلَ ولا كذب فيه. وقُرِئ: «يَتْلُوهَا» بالياء[١].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ﴾ أي: بعدَ حديث الله، وقيل: بعدَ قرآنه[٢] ﴿وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وقراءةُ العامَّة بالياء على الخبر، وقرأ ابنُ مُحَيْصن، وأبو بكر عن عاصم، وحمزةُ، والكسائيُّ: «تُؤْمِنُونَ» بالتاء على الخطاب[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ «وَيْلٌ» وادٍ في جهنم[٤]. توعَّد من ترك الاستدلال بآياته. والأفَّاك: الكذَّاب، والإفكُ: الكذب. «أثيم» أي: مرتكبٌ للإثم[٥]. والمراد فيما رُوِيَ: النضرُ بن الحارث[٦]. وعن ابن عباس أنَّه الحارثُ بن كَلَدة[٧]. وحكى الثعلبيُّ أنَّه أبو جهل[٨] وأصحابه.

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ﴾ يعني آيات القرآن. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: يتمادى على

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٩، وهي قراءة شاذة.

(٢) ينظر الكشاف ٣/ ٥٠٩.

(٣) وهي قراءة ابن عامر ـ من السبعة ـ أيضاً. السبعة ص ٥٩٤، والتيسير ص ١٩٨.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١١٧١٢) عن أبي سعيد الخدري. وإسناده ضعيف. وسلف ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١.

(٥) في (ظ): الإثم.

(٦) ذكر هذا القول أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٢٣، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ لابن جريج.

(٧) قول ابن عباس كما في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٢: أن الآية نزلت في النضر بن كلدة، وفي زاد المسير ٧/ ٣٥٥ عن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في النضر بن الحارث.

(٨) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨١، وذكر القول الآخر في أنها نزلت في النضر بن الحارث. ثم قال: والصواب أن سببها ما كان المذكوران وغيرهما يفعل، وأنها تعم كل من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة.

كفره متعظِّمًا في نفسه عن الانقياد[١]؛ مأخوذٌ من صرَّ الصُّرة: إذا شدَّها. قال معناه ابن عباس وغيره[٢].

وقيل: أصلُه من إصرار الحمار على العانة[٣]، وهو أنْ ينحنيَ عليها صارًّا أذنيه. و«أنْ» من «كأنْ» مخففةٌ من الثقيلة؛ كأنَّه لم يسمعها، والضميرُ ضميرُ الشأن؛ كما في قوله:

كأنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى ناضر السَّلَمْ[٤]

ومحل الجملة النصب [على الحال]، أي يُصِرُّ مثلَ غير السامع[٥]. وقد تقدَّم في أوَّل «لقمان» القولُ في معنى هذه الآية[٦]. وتقدَّم معنى ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في «البقرة»[٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ نحو قوله في الزَّقُّوم: إنَّه الزُّبدُ

(١) مجمع البيان ٢٥/ ١٢٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦١. وفيه أن قائله ابن عيسى. بدل: ابن عباس.

(٣) العانة: الأتان. القاموس المحيط (عون).

(٤) هو عجز بيت صدره: ويوماً توافينا بوجه مُقَسَّمٍ. نسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ١٣٤ لابن صريم اليشكري، ونسبه صاحب الأصمعيات ص ١٥٧ لعِلْبَاء بن أرقم. وتعطو: تناول، يقال: عطا يعطو، إذا تناول. ويروى: وارق السلم. بدل: ناضر. وناضر من النضارة، وهي الحسن وأراد به خضرته. والسَلَم: ضربٌ من شجر البادية يعظم وله شوك، واحدته سَلَمة. ينظر خزانة الآداب ١٠/ ٤١٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٩. وما سلف بين حاصرتين منه، وتفسير الرازي ٢٧/ ٢٦١.

(٦) ١٦/ ٤٦٥.

(٧) ١/ ٣٠١، ٣٥٨.

والتمر[١]، وقوله في خزنة جهنم: إنْ كانوا تسعةَ عشر فأنا ألقاهُم وحدي[٢]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مُذِلٌّ مخزٍ.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء ما هم فيه من التعزُّز في الدنيا والتكبُّر عن الحقِّ جهنمُ[٣]. وقال ابن عباس: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامهم[٤]، نظيره: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٦] أي: من أمامه. قال:

أليسَ ورائي إنْ تراخت منيَّتي أَدُبُّ مع الولدان أزْحَفُ كالنَّسْر[٥]

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا﴾ أي: من المال والولد؛ نظيره: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٠][٦].

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: الأصنام. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: دائمٌ مؤلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ ابتداءٌ وخبر؛ يعني القرآن. وقال ابن عباس: يعني كلَّ ما جاء به محمدٌ ﷺ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: جحدوا دلائله.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ الرجز: العذاب، أي: لهم عذابٌ من عذابٍ أليم؛

---

(١) القائل أبو جهل كما أخرجه الطبري ١٤/ ٦٤٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وهو حكاية عن استهزاء أبي جهل بالخَزَنة التسعة عشر أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٣٦ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد، ولفظ رواية ابن عباس أنَّ أبا جهل قال لقريش: أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أنَّ خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهم، أفيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا برجلٍ من خزنة جهنم؟ . . .

(٣) مجمع البيان ٢٥/ ١٢٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٩٥.

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١٠. دون نسبة. والشطر الأول صدر بيت للبيد، وعجزه: لزومُ العصا تُحنى عليها الأصابعُ. وهو في ديوانه ص ١٧٠، وسلف ١٢/ ١٢٠.

(٦) بعدها في (د) و(ز) و(م): أي من المال والولد.

دليله قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٥٩] أي: عذاباً. وقيل: الرِّجز القذَر مثل الرِّجس؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٦] أي: لهم عذابٌ مِن تَجَرُّع الشراب القذِر[١].

وضمَّ الراءَ من الرِّجز ابنُ محيصن حيث وقع[٢]. وقرأ ابنُ كثير وابن محيصن وحفص: «أَلِيمٌ» بالرفع[٣]؛ على معنى لهم عذابٌ أليمٌ من رجز. الباقون بالخفض نعتاً للرجز.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذكرَ كمالَ قدرته وتمام نعمته على عباده، وبيَّن أنَّه خلقَ ما خلقَ لمنافعهم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ يعني: أنَّ ذلك فعلُه وخلقُه وإحسانٌ منه وإنعام. وقرأ ابنُ عباس والجحدريُّ وغيرُهما: «جَمِيعاً مِنَّةً» بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوباً على المصدر[٤]. قال أبو عمرو: وكذلك سمعتُ مَسْلَمَة يقرؤُها: «مِنَّةً»[٥] أي: تفضُّلاً وكرمًا. وعن مَسْلَمَة بن مُحارب أيضاً: «جميعًا مَنُّهُ»

(١) الكلام بنحوه في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ١٧٤ - ١٧٥، وينظر ما سلف ٢/ ١٣٤.

(٢) إتحاف فضلاء البشر ص ١٨٠.

(٣) السبعة ص ٥٩٤، والتيسير ص ١٨٠. وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٨٢.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٦٢. ونقل ابن عطية في المحرر ٥/ ٨٢ عن أبي حاتم قوله: سند هذه القراءة إلى ابن عباس مظلم.

(٥) لم نقف عليها. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٢، والسمين في الدر المصون ٩/ ٦٤٥ عن مسلمة بن محارب: مِنَّةٌ؛ بكسر الميم، وبالرفع في التاء. ومسلمة: هو ابن عبد الله بن محارب، أبو عبد الله الفِهري البصري النحوي، له اختيار في القراءة. كان مع ابن إسحاق وأبي عمرو بن العلاء، وقال مجاهد: كان من العلماء بالعربية. غاية النهاية ٢/ ٢٩٨.

على إضافة المنِّ إلى هاء الكناية. وهو عند أبي حاتم خبرُ ابتداءٍ محذوف، أي: ذلك، أو هو مَنُّه[(١)]. وقراءة الجماعة ظاهرة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ جزم على جواب «قُلْ» تشبيهًا بالشرط والجزاء؛ كقولك: قُمْ تُصِب خيرًا[(٢)]. وقيل: هو على حذف اللام. وقيل: على معنى قل لهم: اغفروا؛ يغفروا؛ فهو جوابُ أمرٍ محذوف؛ دلَّ الكلامُ عليه؛ قاله عليّ بن عيسى واختاره ابن العربيّ[(٣)].

ونزلت الآيةُ بسبب أنَّ رجلاً من قريش شتم عمرَ بن الخطاب، فهمَّ أنْ يبطشَ به. قال ابنُ العربيّ: وهذا لم يصح[(٤)].

وذكر الواحديُّ[(٥)] والقشيريُّ وغيرهما عن ابن عباس أنَّ الآيةَ نزلت في عمرَ مع عبد الله بن أُبَيّ في غَزْوة بني المُصْطَلِق، فإنَّهم نزلُوا على بئرٍ يُقَال لها: المُرَيْسِيع، فأرسلَ عبدُ الله غلامه ليستقي، وأبطأ عليه فقال: ما حبسَك؟ قال: غلامُ عمرَ بن الخطاب قعد على فم البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قِربَ النبيِّ ﷺ وقِرَب أبي بكر، وملأ لمولاه. فقال عبد الله: ما مَثُلُنا ومثلُ هؤلاء إلّا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكُلْك. فبلغ عمرَ ﷺ قولُه، فاشتملَ على سيفه يريد التوجُّه إليه ليقتلَه؛ فأنزلَ الله هذه الآية. هذه روايةُ عطاء عن ابن عباس.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦٢ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٣ .

(٣) نقله عن علي بن عيسى النحاسُ في إعراب القرآن ٤/ ١٤٣ ، واختيار ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨١ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٨١ ، وسلف الخبر في سبب النزول ص١٤٣ من هذا الجزء.

(٥) في أسباب النزول ص٤٠١ .

ورَوى عنه ميمونُ بن مِهران قال: لمَّا نزلت ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥] قال يهوديٌّ بالمدينة يقالُ له فِنحاص: احتاج ربُّ محمد! قال: فلمَّا سمع عمرُ بذلك اشتملَ على سيفه وخرج في طلبه، فجاءَ جبريلُ عليه السلام إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ ربّك يقول لك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾. واعلم أنَّ عمرَ قد اشتملَ على سيفه، وخرجَ في طلب اليهودّي؛ فبعثَ رسولُ الله ﷺ في طلبه، فلمَّا جاء قال: «يا عمر، ضَعْ سيفك» قال: يا رسول الله، صدقت، أشهدُ أنَّك أُرسِلت بالحق. قال: «فإنَّ ربك يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قال: لا جرم! والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي»(١).

قلت: وما ذكره المهدوِيُّ والنَّحّاس(٢) فهو رواية الضَّحَّاك عن ابن عباس، وهو قول القُرَظيّ والسُّدِّي(٣)، وعليه يتوجَّه النسخُ في الآية. وعلى أنَّ الآيةَ نزلت بالمدينة، أو في غزوة بني المُصْطَلِق؛ فليست بمنسوخة.

ومعنى «يَغْفِرُوا»: يعفوا ويتجاوزوا. ومعنى «لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ»: أي: لا يرجون ثوابَه. وقيل: أي لا يَخافون بأسَ الله ونِقَمه. وقيل: الرجاءُ بمعنى الخوف؛ كقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون له عظمةً. والمعنى: لا يَخْشَوْن(٤) مثلَ عذاب الأمم الخالية. والأيام يُعبَّر بها عن الوقائع. وقيل: لا يأمُلون نصرَ الله لأوليائه وإيقاعَه بأعدائه(٥). وقيل: المعنى: لا يخافون البعث.

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ قراءةُ العامَّة: «لِيَجْزِيَ» بالياء على معنى: ليجزيَ اللهُ.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٢) سلف قولهما أول السورة.

(٣) قولهما كما ذكر البغوي في تفسيره ٤/ ١٥٨ : نزل في أناس من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذىً شديد من المشركين ، من قبل أن يؤمروا بالقتال ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ؛ فأنزل الله هذه الآية .

(٤) في (م) لا تخشون .

(٥) ينظر الكشاف ٣/ ٥١٠ .

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ عامر: «لِنَجْزِيَ» بالنون على التعظيم. وقرأ أبو جعفر والأعرجُ وشيبةُ: «لِيُجْزى» بياءٍ مضمومة، وفتحِ الزاي على الفعل المجهول، «قَوْماً» بالنصب[١]. قال أبو عمرو: وهذا لحنٌ ظاهر. وقال الكسائيُّ: معناه: لِيُجْزَى الجزاءُ قومًا[٢]، نظيره: ﴿وَكَذَلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ على قراءة ابن عامر وأبي بكر في سورة الأنبياء [الآية: ٨٨][٣]. قال الشاعر:

ولو وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا[٤]

أي: لَسُبَّ السَّبُّ.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

تقدَّم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة. ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الحكم: الفهمُ في الكتاب. وقيل: الحكم على النَّاس والقضاء[٦]. «والنُّبُوَّةَ» يعني: الأنبياء من وقت يوسفَ عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام.

---

(١) السبعة ص٥٩٥، والتيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥٨.

(٣) التيسير ص ١٥٥.

(٤) البيت لجرير، وسلف ١٤/ ٢٧٦.

(٥) عند تفسير الآية (٤٦) من سورة فصلت.

(٦) الكشاف ٣/ ٥١١.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الحلال من الأقوات والثِّمار والأطعمة التي كانت بالشام. وقيل: يعني المَنَّ والسَّلْوى في التِّيه.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالَمِي زمانِهم؛ على ما تقدَّم في «الدخان» بيانه(١).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ قال ابن عباس: يعني أمرَ النبيِّ ﷺ، وشواهدَ نبوَّته بأنَّه يهاجر من تِهامة إلى يَثْرِب، وينصره أهلُ يثرب(٢). وقيل: بيّناتٍ من الأمرِ: شرائعُ واضحاتٌ في الحلال والحرام ومعجزات.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ يريد يُوشَع بن نُون؛ فآمَنَ بعضهم وكفر بعضهم؛ حكاه النقاش(٣). وقيل: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بنبوَّة النبيِّ ﷺ فاختلفوا فيها.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسدًا على النبيِّ ﷺ؛ قال معناه الضحاك(٤). وقيل: معنى «بغْيًا»: أي: بَغَى بعضُهم على بعضٍ بطلبِ الفَضْل والرياسة، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرِك يا محمد، قد جاءتهم البيِّناتُ، ولكنْ أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يحكم ويَفْصِل ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) ص١٢٣ من هذا الجزء.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٦٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ .

(٤) قول الضحاك كما في النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ : بغيًا على رسول الله ﷺ في جحود ما في كتابهم من نبوة وصفته.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الشريعة في اللُّغة: المذهبُ والمِلَّة. ويقال لِمَشْرَعة الماء - وهي موردُ الشاربة -: شريعة[1]. ومنه الشارع؛ لأنَّه طريقٌ إلى المَقْصِد. فالشريعة: ما شَرَع الله لعباده من الدين، والجمعُ الشرائع[2]. والشرائع في الدين: المذاهبُ التي شَرَعها الله لخلقه. فمعنى: ﴿جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: على منهاجٍ واضحٍ من أمر الدّين يَشْرَعُ بك إلى الحقّ.

وقال ابن عباس: «عَلَى شَرِيعَةٍ» أي: على هدًى من الأمر. قتادة: الشريعةُ: الأمرُ والنهيُ والحدودُ والفرائض[3]. مقاتل: البيِّنة؛ لأنَّها طريقٌ إلى الحقّ. الكلبيّ: السُّنَّة؛ لأنَّه يَستنُّ بطريقة مَن قبله من الأنبياء. ابن زيد: الدِّين؛ لأنَّه طريقُ النجاة[4].

قال ابن العربيّ[5]: والأمرُ يَرِدُ في اللُّغة بمعنيين: أحدهما: بمعنى الشأن، كقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود:٩٧]. والثاني: أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي. وكلاهما يصحُّ أنْ يكونَ مرادًا هاهنا؛ وتقديرُه: ثمَّ جعلناك على طريقةٍ من الدين، وهي ملَّة الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

ولا خلاف أنَّ الله تعالى لم يُغَاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنَّما خالفَ بينها[6] في الفروع؛ حسبما علمه سبحانه.

الثانية: قال ابنُ العربيّ[7]: ظنَّ بعضُ من تكلَّم[8] في العلم أنَّ هذه الآيةَ دليلٌ

---

(١) الصحاح (شرع).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٢٤ - ٤٢٥.

(٣) أخرجهما الطبري ٢١/ ٨٥.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٢.

(٦) في النسخ: بينهما. والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٢، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٨) في (د) و(ز) و(ق) و(م): يتكلم.

على أنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنا ليس بشرعٍ لنا؛ لأنَّ الله تعلى أفردَ النبيَّ ﷺ وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر[1] أنَّ النبيَّ ﷺ وأمتَه منفردان بشريعة، وإنَّما الخلافُ فيما أخبر النبيُّ ﷺ عنه مِن شرع مَن قبلَنا في مَعرض المدح والثناء [والعظة]، هل يلزمُ اتِّباعه أم لا؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: المشركين. وقال ابن عباس: قُريظة والنَّضير. وعنه: نزلتْ لمَّا دعته قريشٌ إلى دين آبائه[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: إنْ اتَّبعتَ أهواءَهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئاً[3]. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: أصدقاءُ وأنصار وأحباب. قال ابن عباس[4]: يريد أنَّ المنافقينَ أولياءُ اليهود.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصرُهم ومُعِينُهم. والمتَّقون هنا: الذين اتَّقوا الشركَ والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: هذا الذي أَنْزلتُ عليك براهينُ ودلائلُ ومعالمُ للنَّاس في الحدود والأحكام[5]. وقُرِئ: «هَذِهِ بَصَائِرُ» أي: هذه الآيات[6]. ﴿وَهُدًى﴾ أي: رَشَدٌ وطريقٌ يؤدّي إلى الجنَّة لمن أَخَذَ به. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾

(١) في (خ) و(ظ) و(ق): ينكر.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٤) في (ظ): ابن زيد.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٦) الكشاف ٣/ ٥١١، والقراءة المذكورة شاذة.

في الآخرة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: اكتسبوها. والاجتراح: الاكتساب؛ ومنه الجوارح[١]، وقد تقدَّم في المائدة[٢].

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ قال الكلبيّ: «الَّذِينَ اجْتَرَحُوا» عُتبةُ وشَيبةُ ابنا ربيعة والوليدُ بن عُتبة. و«الَّذِينَ آمَنُوا» عليٌّ وحمزةُ وعُبيدةُ بن الحارث ﷺ حين بَرزُوا إليهم يومَ بدرٍ فقتلوهم[٣]. وقيل: نزلت في قومٍ من المشركين قالوا: إنَّهم يُعطَون في الآخرة خيرًا مما يُعطَاه المؤمن[٤]؛ كما أخبر الربُّ عنهم في قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله: «أَمْ حَسِبَ» استفهامٌ معطوفٌ معناه الإنكار. وأهلُ العربيةِ يُجوِّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطاً للخطاب. وقوم يقولون: فيه إضمار، أي: والله وليُّ المتقين؛ أفيعلمُ المشركون ذلك؛ أم حسبوا أنَّا نسوِّي بينهم.

وقيل: هي أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحُسبان[٥]. وقراءةُ العامَّة: «سَوَاءٌ» بالرفع على أنَّه خبرُ ابتداءٍ مقدَّم، أي: محياهم ومماتهم سواء. والضمير في «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» يعود على الكفار[٦]، أي: محياهم محيا سوء، ومماتهم كذلك.

(١) الكشاف ٣/ ٥١١ .

(٢) ٧/ ٣٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤ . وخبر المبارزة أخرجه أحمد (٩٤٨) عن علي ﷺ .

(٤) ذكر نحوه البغوي في تفسيره ٤/ ١٥٩ .

(٥) الكشاف ٣/ ٥١١ .

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٢ .

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمشُ: «سَوَاءً» بالنصب[١]، واختاره أبو عبيد قال: معناه نجعلهم سواءً[٢]. وقرأ الأعمش أيضًا وعيسى بن عمر: «وَمَمَاتَهم» بالنصب[٣]؛ على معنى سواءً في محياهم ومماتهم؛ فلما أُسقط الخافضُ انتصب. ويجوزُ أنْ يكون «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» بدلاً من الهاء والميم في نجعلهم؛ المعنى: أنْ نجعلَ محياهم ومماتَهم سواءً كمحيا الذين آمنوا ومماتِهم[٤]. ويجوزُ أنْ يكون الضميرُ في «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» للكفار والمؤمنين جميعًا[٥].

قال مجاهد: المؤمنُ يموت مؤمنًا ويُبعث مؤمنًا، والكافرُ يموت كافرًا ويُبعث كافرًا[٦]. وذكر ابنُ المبارك: أخبرنا شعبةُ، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي الضُّحى، عن مسروق قال: قال رجلٌ من أهل مكَّة: هذا مقامُ تميم الداري، لقد رأيتُه ذاتَ ليلةٍ حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأُ آيةً من كتاب الله، ويركع، ويسجد، ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الآية كلها[٧].

وقال: نُسَير[٨]: بِتُّ عند الربيع بن خُثَيْم ذاتَ ليلةٍ، فقامَ يُصَلِّي، فمرَّ بهذه الآية، فمكث لَيلَه حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاءٍ شديد[٩]. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرًا

(١) وهي قراءة حفص عن عاصم أيضاً. السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٩٨. وذكرها عن الأعمش ابنُ خالويه في القراءات الشاذة لابن خالويه ص ١٣٨.

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٥.

(٣) قراءة الأعمش في القراءات الشاذة ص ١٣٨.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٣٣، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٦ - ١٤٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٨٨ بنحوه.

(٧) الزهد لابن المبارك (٦٤)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٥٠)، وقال ابن حجر في الإصابة ١/ ٣٠٥: رواه البغوي في الجعديات بإسناد صحيح إلى مسروق.

(٨) في النسخ: بشير، والمثبت من المصادر، وهو نُسير بن ذُعْلُوق الثوري مولاهم، أبو طعمة الكوفي. تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٦.

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٤٧٧، ١٣/ ٣٩٦.

ما رأيتُ الفُضيلَ بن عياض يردِّد من أوَّل الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرَها، ثم يقول: ليت شعري! مِن أيِّ الفريقين أنت[١]؟ وكانت هذه الآية تُسمَّى مَبكاة العابدين[٢]، لأنَّها محكمة.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الحقّ. ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ أي: ولكي تُجزى. ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: في الآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قال ابنُ عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتَّخذَ دينَه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئًا إلَّا ركبه[٣]. وقال عكرمة: أفرأيت من جَعَل إلهه الذي يعبدُه ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن شيئاً وهَوِيَهُ اتَّخذه إلهًا.

قال سعيدُ بن جُبير: كان أحدُهم يَعبدُ الحجر؛ فإذا رأى ما هو أحسنُ منه رمى به، وعبد الآخر[٤].

وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهميّ؛ أحد المستهزئين، لأنَّه كان يعبدُ ما تهواه نفسه[٥].

وقال سفيانُ بن عيينة: إنَّما عبدوا الحجارة لأنَّ البيتَ حجارة.

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٥ دون نسبة.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٨٥ ونسب هذا القول للثعلبي.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩، وينظر النكت والعيون ٥/ ٢٦٤، وأخرج قول ابن عباسٍ وقتادة الطبريُّ ٢١/ ٩٢ - ٩٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٢.

وقيل: المعنى: أفرأيتَ من يَنقادُ لهواه انقياده لإلهه[١] ومعبودِه؛ تعجيباً لذوي العقول من هذا الجهل[٢].

وقال الحسين بن الفضل: في هذه الآية تقديمٌ وتأخير، مجازه: أفرأيتَ من اتَّخذ هواه إلهه.

وقال الشَّعْبيُّ: إنَّما سُمِّي الهوى؛ لأنَّه يهوي بصاحبه في النَّار.

وقال ابنُ عباس: ما ذَكر اللهُ هَوًى في القرآن إلَّا ذمَّه[٣]، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف:١٧٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]. وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الروم:٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص:٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص:٢٦].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيِّ ﷺ: «لا يُؤمن أحدُكم حتى يكون هواه تَبَعاً لما جئتُ به»[٤].

وقال أبو أمامة: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما عُبِد تحت السماء إلهٌ أبغض إلى الله من الهوى»[٥]. وقال شدَّادُ بن أوس عن النبيِّ ﷺ: «الكَيِّس من دَان نفسَه، وعَمِلَ لِمَا

---

(١) قوله: انقياده لإلهه. من (خ) و(ظ).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٨٦. وقول الشعبي السالف منه.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٣٦٩، والبغوي في شرح السنة ١/ ٢١٣.

قال الإمام النووي: حديث حسن صحيح. وينظر كلام الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٩٣ - ٣٩٥.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الواحدي في الوسيط ٤/ ٩٩. وأخرجه بنحوه ابن أبي عاصم في السنة (٣)، والطبراني في الكبير (٧٥٠٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٨: وفيه الحسن بن دينار، وهو متروك الحديث. اهـ. وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٢٦: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وفيه جماعة ضعاف، والحسن بن دينار والخصيب كذابان عند علماء النقل.

بعد الموت. والعاجز[١] من أتْبعَ نفسَه هواها، وتمنَّى على الله»[٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا، وهَوًى مُتَّبَعًا، ودنيا مؤثَرة، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه؛ فعليك بخاصَّة نفسك، ودَعْ عنك أمرَ العامَّة»[٣]. وقال ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات، وثلاثٌ منجيات، فالمهلكات: شُحٌّ مطاعٌ، وهوًى مُتَّبعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه. والمنجياتُ: خشيةُ الله في السرِّ والعلانية، والقصدُ في الغنى والفقر، والعدلُ في الرضا والغضب»[٤]. وقال أبو الدرداء ﷺ: إذا أصبحَ الرجلُ، اجتمعَ هواه وعمله وعلمه؛ فإنْ كان عمله تبعًا لهواه فيومُه يومُ سوء، وإنْ كان عملُه تبعًا لعلمه فيومه يوم صالح[٥].

وقال الأصمعي: سمعتُ رجلاً يقول:

إنَّ الهَوانَ هو الهوى قُلِبَ اسمُه   فإذا هَوِيتَ فقد لقيتَ هَوانا

وسُئِل ابن المقفَّع عن الهوى فقال: هَوَانٌ سُرقت نونه، فنظمه شاعرٌ فقال[٦]:

نُونُ الهَوانِ من الهَوَى مسروقةٌ   فإذا هَوِيتَ فقد لقيتَ هَوانا[٧]

وقال آخر:

إنَّ الهوى لهو الهوانُ بعينهِ   فإذا هَوِيتَ فقد كَسَبتَ هَوانا

(١) في (د) و(ز) و(ق) و(م): الفاجر، وفي (ظ): العاجل، والمثبت من (خ) وهو الموافق للمصادر.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. وسلف بعضه ١/ ٢٢١.

(٣) سلف ٨/ ٢٥٠.

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار) (٨٠)، والطبراني في الأوسط (٥٤٤٨) عن أنس بن مالك ﷺ. قال المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣٦٢: وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى.

(٥) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى ص ٢٢، وصفة الصفوة ١/ ٦٣٦ بنحوه.

(٦) في (م): فأخذه شاعر فنظمه وقال.

(٧) ذم الهوى لابن الجوزي ص٣٣. وهذا البيت نسبه الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص١١٣ لعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر.

وإذا هَوِيتَ فقد تعبَّدك الهوى ... فاخْضَعْ لِحبِّك كائنًا من كانا[(١)]

ولعبد الله بن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء[(٢)] علامةٌ ... أَلَّا يُرى لك عن هواك نزوعُ

العبدُ عبدُ النَّفْس في شهواتها ... والحرُّ يشبع تارةً ويجوعُ[(٣)]

ولابن دُرَيْد:

إذا طالبتك النَّفْسُ يومًا بشهوةٍ ... وكان إليها للخلاف طريقُ

فَدَعْها وخالفْ ما هَوِيتَ فإنَّما ... هواكَ عدوٌّ والخلافُ صديقُ[(٤)]

ولأبي عبيد الطُّوسيّ:

والنفسُ إنْ أعطيتَها مُناها ... فاغرةٌ نحو هواها فاها[(٥)]

وقال أحمدُ بن أبي الحَواري: مررتُ براهبٍ فوجدته نحيفًا، فقلت له: أنت عليل؟ قال: نعم. قلت: مذْ كم؟ قال: مذْ عرفتُ نفسي! قلت: فتداوى؟ قال: قد أعياني الدواء وقد عزمتُ على الكيّ. قلت: وما الكَيّ؟ قال: مخالفةُ الهوى[(٦)].

وقال سهلُ بن عبد الله التُّسْتَرِيّ: هواك داؤُك، فإنْ خالفتَه فدواؤك.

وقال وَهْب: إذا شككتَ في أمرين ولم تدرِ خيرهما، فانظرْ أبعدَهما من هواك فأْته[(٧)].

---

(١) ذكر الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص ٤٥٤ البيت الثاني، وقبله البيت السالف الذي أوله: نون الهوان. . .

(٢) في (د) و(ز) و(م): ومن البلايا للبلاء، وفي (خ) و(ق): ومن البلاء للبلاء. والمثبت من (ظ) والمصادر.

(٣) البيتان في بهجة المجالس ٣٠٦/٢، وذم الهوى ص ٣٤.

(٤) البيتان ذكرهما الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص ٤٥٣ دون نسبة. وفيه: فخالف هواها ما استطعت. بدل: فدعها وخالف ما هويت.

(٥) البيت لأبي العتاهية كما في أشعاره وأخباره ص ٤٥٩، وفيه: اتبعتها. بدل: أعطيتها.

(٦) ذم الهوى ص ٢٨.

(٧) المحرر الوجيز ٨٦/٥. ونسب القول الأخير أيضاً لسهل بدل: وهب.

وللعلماء في هذا الباب في ذمِّ الهوى ومخالفته كتبٌ وأبوابٌ أشرنا إلى ما فيه كفايةٌ منه؛ وحسبُك بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علمٍ قد علمَه منه. وقيل: أضلَّه عن الثواب على علمٍ منه بأنَّه لا يستحقه[1]. وقال ابن عباس: أي على علمٍ قد سبق عنده أنَّه سيَضل. مقاتل: على علمٍ منه أنَّه ضالّ[2]. والمعنى متقارب. وقيل: على علمٍ من عابد الصنم أنَّه لا ينفع ولا يضر. ثم قيل: «عَلَى عِلْمٍ» يجوزُ أنْ يكون حالاً من الفاعل؛ المعنى: أضلَّه على علمٍ منه به، أي: أضلَّه عالماً بأنَّه من أهل الضَّلال في سابق علمه. ويجوز أنْ يكون حالاً من المفعول؛ فيكون المعنى: أضلَّه في حال علم الكافر بأنَّه ضال.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: طبع على سمعه حتى لا يسمعَ الوعظ، وطبعَ على قلبه حتى لا يفقَه الهدى. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: غطاءً حتى لا يبصر الرشد[3]. وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «غَشْوة» بفتح الغين من غير ألف[4]، وقد مضى في «البقرة»[5]. وقال الشاعر:

أمَا والذي أنا عبدٌ له ... يَميناً ومالَك أُبدي اليمينا
لئن كنتَ ألبستني غَشْوةً ... لقد كنتُ أصفيتُك الوُدَّ حينا[6]

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: من بعد أنْ أضلَّه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: تتَّعظون وتعرفون

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٧-١٤٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٤) السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٩٩.

(٥) ١/ ٢٩١ - ٢٩٢.

(٦) لم نقف عليهما.

أنَّه قادرٌ على ما يشاء.

وهذه الآيةُ تردُّ على القدريَّة والإماميَّة ومن سلك سبيلَهم في الاعتقاد؛ إذْ هي مصرِّحةٌ بمنعهم من الهداية.

ثم قيل: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ إنَّه خارجٌ مخرجَ الخبر عن أحوالهم. وقيل: إنَّه خارجٌ مخرجَ الدُّعاء بذلك عليهم[١]؛ كما تقدَّم في أوّل «البقرة»[٢].

وحكى ابنُ جُريج أنَّها نزلت في الحارث بن قيس من الغياطلة[٣].

وحكى النَّقَاش أنَّها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف[٤].

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنَّه طاف بالبيت ذات ليلةٍ ومعه الوليد ابن المغيرة؛ فتحدَّثا في شأن النبيِّ ﷺ، فقال أبو جهل: والله إني لأَعلم إنَّه لَصادق! فقال له: مَهْ! وما دلَّك على ذلك! قال: يا أبا عبد شمس، كنَّا نسمِّيه في صباهُ الصادقَ الأمين؛ فلما تمَّ عقلُه وكَمُل رُشْده، نسمِّيه الكذَّابَ الخائن!! والله إنِّي لأَعلم إنَّه لصادق! قال: فما يمنعُك أنْ تصدِّقَهُ وتؤمنَ به؟ قال: تتحدَّثُ عني بناتُ قريش أني قد اتَّبعت يتيمَ أبي طالبٍ من أجل كِسرة، واللاتِ والعُزَّى إنْ اتَّبعتُه أبداً. فنزلت: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا إنكارٌ منهم للآخرة،

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٢) ١/ ٢٨٤.

(٣) قال ابن دريد في الاشتقاق ١/ ١٢٠: بنو قيس بن عدي، كانوا من رجال قريش، يلقَّبون الغياطل. وكان قيس بن عدي سيِّد قريش في دهره غير مُدافَع... والغياطل: جمع غيطلة، وهو الشجر الملتف.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥ ونسب القول الأخير للضحاك بدل النقاش.

(٥) لم نقف عليه.

وتكذيبٌ للبعث، وإبطالٌ للجزاء. ومعنى: «نَمُوتُ وَنَحْيَا» أي: نموتُ نحن وتحيا[١] أولادنا؛ قاله الكلبيّ. وقُرِئ: «ونُحْيَا» بضم النون. وقيل: يموتُ بعضنا ويحيا بعضنا. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت؛ وهي قراءة ابن مسعود[٢].

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ قال مجاهد: يعني السنين والأيام. وقال قتادة: إلّا العمر[٣]؛ والمعنى واحد. وقُرِئ: «إلا دهرٌ يمرّ»[٤].

وقال ابنُ عيينة: كان أهلُ الجاهلية يقولون: الدهرُ هو الذي يُهلكنا، وهو الذي يُحيينا ويُميتنا؛ فنزلتْ هذه الآية[٥]. وقال قُطْرب: وما يُهلكُنا إلّا الموت؛ وأنشد قولَ أبي ذُؤيب:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِها تتوجَّعُ والدّهْرُ ليس بمعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[٦]

وقال عكرمة: أي: وما يُهلكُنا إلّا الله[٧]. وروَى أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «كان أهلُ الجاهلية يقولون: ما يهلِكُنا إلّا الليلُ والنَّهار، وهو الذي يهلكُنا ويميتُنا ويحيينا، فيسبُّون الدهرَ. قال الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدم يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأنا الدَّهْرُ، بيدي الأمرُ، أُقلِّبُ الليلَ والنهار[٨]».

قلت: قوله: قال الله. إلى آخره. نَصُّ البخاريِّ ولفظُه. وخرَّجه مسلمٌ أيضاً

---

(١) في (د) و(م): يحيا.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٦٦.

(٣) أخرجهما الطبري ٢١/ ٩٦.

(٤) هي قراءة ابن مسعود كما في تفسير الطبري ٢١/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٨٧. وقال ابن خالويه: يهلكنا إلا دهراً؛ ابن مسعود. تأويله إلا دهراً يمر.

(٥) أخرجه ابن حبان (٥٧١٥)، والحاكم ٢/ ٤٥٣.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٦٦. والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٦٦.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٩٧.

وأبو داود[١].

وفي الموطأ عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدُكم: يا خيبةَ الدهر، فإنَّ الله هو الدهر»[٢].

وقد استدلَّ بهذا الحديث من قال: إنَّ الدهرَ من أسماء الله.[٣] وقال من لم يجعلهُ من العلماء اسماً: إنَّما خرج ردًّا على العرب في جاهليتها؛ فإنَّهم كانوا يعتقدونَ أنَّ الدهرَ هو الفاعل، كما أخبر اللهُ عنهم في هذه الآية؛ فكانوا إذا أصابهم ضَرٌّ أو ضَيْمٌ أو مكروه، نَسبوا ذلك إلى الدهر، فقيل لهم على ذلك: لا تسبُّوا الدهرَ؛ فإنَّ الله هو الدهر، أي: إنَّ اللهَ هو الفاعلُ لهذه الأمور التي تضيفونَها إلى الدهر، فيرجعُ السبُّ إليه سبحانه، فَنُهُوا عن ذلك. ودلَّ على صحة هذا ما ذكره من حديث أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: قال اللهُ تبارك وتعالى: يؤذيني ابنُ آدم ... الحديث[٤]. ولقد أحسنَ من قال، وهو أبو عليٍّ الثقفي:

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ ... لا تَلُمِ الدهرَ على غَدْرِهِ[٥]
الدهرُ مأمورٌ، له آمرٌ ... وينتهي الدهرُ إلى أمرِهِ
كم كافرٍ أموالُه جَمَّةٌ ... تزدادُ أضعافًا على كفرِهِ[٦]
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ ... يزداد إيمانًا على فَقْرِه[٧]

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٢٦)، وصحيح مسلم (٢٢٤٦): (٢)، وسنن أبي داود (٥٢٧٤)، وهو عند أحمد (٧٢٤٥).

(٢) الموطأ ٢/ ٩٨٤، وأخرجه أيضاً أحمد (٩١١٦)، ومسلم (٢٢٤٦) (٤).

(٣) الصحيح أن الدهر ليس من أسماء الله عز وجل. وانظر كلام المصنف بعده.

(٤) سلف قريباً. والكلام بنحوه في المفهم ٥/ ٥٤٩.

(٥) الشطر الأول في المصادر الآتي ذكرها: يا لائم الدهر إذا ما نبا.

(٦) الشطر الأول في المصادر: كم كافرٍ بالله أمواله.

(٧) روضة العقلاء ص ٢٨٠، وشعب الإيمان ١/ ٢٣٢. ونسب فيه لأحمد بن عبيد الله الدارمي.

وروي أنَّ سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكرُ الدَّهرَ، فزجرهُ أبوه وقال: إيَّاك يا بنيَّ وذِكْرَ الدهر! وأنشد:

فما الدهرُ بالجاني لشيءٍ لحَيْنِه ... ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدّهْرَا
ولكنْ متى ما يبعثِ الله باعثًا ... على معشرٍ يَجعلْ مياسيرهم عُسْرا

وقال أبو عبيد[1]: ناظرتُ بعضَ المُلْحدة فقال: ألا تراه يقول: «فإنَّ الله هو الدهر»!؟ فقلتُ: وهل كان أحدٌ يسبُّ الله في آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى:

إنَّ مَحَلًّا وإنَّ مُرْتَحَلا ... وإنَّ في السَّفْرِ إذ مَضَوْا مَهَلَا
استأثر اللهُ بالوفاء وبالـ ... ـعَدْل ووَلَّى المَلامَةَ الرَّجُلَا[2]

قال أبو عبيد[3]: ومن شأن العرب أنْ يذمُّوا الدهرَ عند المصائبِ والنوائب؛ حتى ذكروه في أشعارهم، ونسبوا الأحداثَ إليه. قال عمرو بن قميئة[4]:

رمتني بناتُ الدَّهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرْمَى وليس برامِ
فلو أنَّها نَبْلٌ إذًا لاتَّقيتُها ... ولكنني أُرْمَى بغير سهامِ
على الراحتين مرَّةً وعلى العصا ... أنُوءُ ثلاثًا بعدهنَّ قيامي

ومثلُه كثيرٌ في الشعر. ينسبون ذلك إلى الدهر، ويضيفونَه إليه، واللهُ سبحانه الفاعلُ لا ربَّ سواه.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: علمٌ. و«مِن» زائدة، أي: قالوا ما قالوا شاكِّين.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم إلَّا يتكلمون بالظَّنّ. وكان المشركونَ أصنافاً؛

(١) في غريب الحديث ٢/ ١٤٥ - ١٤٦.
(٢) ديوان الأعشى ص ٢٨٣. وفيه: ما مضى. بدل: إذ مضوا.
(٣) في غريب الحديث ٢/ ١٤٦ - ١٤٧.
(٤) في ديوانه ص ٤٥-٤٦.

منهم هؤلاء، ومنهم من كان يُثْبِتُ الصانعَ وينكر البعث، ومنهم من كان يَشُكُّ في البعث ولا يَقْطعُ بإنكاره.

وحَدَث في الإسلام أقوامٌ ليس يمكنهم إنكارُ البعث خوفًا من المسلمين؛ فيتأوَّلون ويرون القيامةَ موتَ البدن، ويرون الثوابَ والعقابَ إلى خيالاتٍ تَقعُ للأرواح بزعمهم، فشرُّ هؤلاء أضرُّ من شرِّ جميع الكفار؛ لأنَّ هؤلاء يُلبِّسونَ على الحقّ، ويُغترُّ بتلبيسهم الظاهر. والمشركُ المجاهرُ بشركه يحذرُه المسلم.

وقيل: نموتُ وتَحيا آثارُنا؛ فهذه حياةُ الذكر. وقيل: أشاروا إلى التناسخ، أي: يموتُ الرَّجل فتجعل روحه في مواتٍ فتحيا به.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وإذ تُقرأ على هؤلاء المشركين آياتُنا المنزَّلةُ في جواز البعث، لم يكنْ ثَمَّ دَفْعٌ.

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ «حُجَّتَهُمْ» خبرُ كان، والاسم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ الموتى؛ نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني: بعد كونكم نُطَفًا أمواتًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كما أحياكم في الدنيا .﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله يعيدُهم كما بدأهم.

الزمخشريّ: فإن قلتَ: لم سمَّى قولَهم حجةً، وليس بحجة؟ قلت: لأنَّهم أدْلَوْا به كما يُدْلي المحتجُّ بحجَّته، وساقوه مساقَها، فسُمِّيت حجةً على سبيل التَّهكُّم. أو لأنَّه في حسبانهم وتقديرهم حجَّةٌ. أو لأنَّه في أسلوب قولهم[1]:

تَـحِـيَّـةُ بـيـنِـهـم ضَـرْبٌ وَجـيـعُ[2]

---

(١) في النسخ عدا (ظ): قوله. والمثبت موافق للكشاف.

(٢) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٣/ ٣٨٩.

كأنَّه قيل: ما كان حجَّتَهم إلَّا ما ليس بحُجَّة. والمراد نفيُ أنْ تكون لهم حجَّةٌ الْبَتَّةَ. فإنْ قلتَ: كيف وقع قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جواباً [لقولهم]: «ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ»؟ قلتُ: لمَّا أنكروا البعثَ، وكذَّبوا الرسلَ، وحسبوا أنَّ ما قالوه قولٌ مُبَكِّتٌ[1]، أُلزِموا ما هم مُقِرُّون به من أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضُمَّ إلى إلزام ذلك إلزامُ ما هو واجبُ الإقرارُ به إنْ أنصفوا وأصغَوْا إلى داعي الحقِّ، وهو جَمْعُهم إلى[2] يوم القيامة، ومن كان قادراً على ذلك، كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهونَ شيءٍ عليه[3].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خَلْقًا ومُلْكًا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ «يَوْمَ» الأوَّل منصوبٌ بـ«يَخْسَرُ»، و«يَوْمَئِذٍ» تكريرٌ للتأكيد[4] أو بدل. وقيل: إنَّ التقدير: وله الملكُ يوم تقوم السَّاعة. والعاملُ في «يَوْمِئِذٍ»: «يَخْسَر»، ومفعول «يَخسَرُ» محذوف؛ والمعنى: يخسرون منازلَهم في الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ﴾ أي: من هول ذلك اليوم. والأُمَّة هنا: أهلُ كلِّ ملَّة. وفي الجاثية تأويلاتٌ خمس.

---

(١) التبكيت: الغَلَبة بالحُجَّة. القاموس (بكت).

(٢) قوله: إلى. ليس في (د) و(م).

(٣) الكشاف ٣/ ٥١٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣.

الأوَّل: قال مجاهد: مستوفِزة. وقال سفيان: المستوفز الذي لا يُصيب الأرضَ منه إلَّا ركبتاه وأطرافُ أنامله. الضَّحَّاك: ذلك عند الحساب.

الثاني: مجتمعة؛ قاله ابن عباس. الفرَّاء: المعنى: وترى أهلَ كلِّ دينٍ مجتمعين.

الثالث: متميِّزة؛ قاله عكرمة.

الرابع: الرابع: خاضعة، بلغة قريش؛ قاله مُؤَرِّج.

الخامس: باركة على الرُّكَب؛ قاله الحسن[1].

والجَثْوُ: الجلوسُ على الركب. جثا على ركبتيه يَجْثُو ويجثي جُثُوًّا وجُثِيًّا؛ على فُعول فيهما، وقد مضى في «مريم»[2]. وأصل الجَثْوَة: الجماعةُ من كلِّ شيء. قال طَرَفةُ يصف قبرين:

ترى جُثْوَتَيْنِ من ترابٍ عليهما صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ[3]

ثم قيل: هو خاصٌّ بالكفار؛ قاله يحيى بن سلَّام. وقيل: إنَّه عامٌّ للمؤمن والكافر انتظارًا للحساب[4].

وقد رَوى سفيانُ بن عيينة عن عمروٍ عن عبد الله بن باباه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كأني أراكم بالكَوْم جاثينَ دون جهنم». ذكره الماورديُّ[5].

وقال سلمان: إنَّ في يوم القيامة لساعةً هي عشرُ سنينَ يخِرُّ الناسُ فيها جُثاةً على

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦٧ عدا قول الضحاك والفراء. وأخرج قول الضحاك الطبريُّ ٢١/ ١٠١، وقولُ الفراء في معاني القرآن ٣/ ٤٨.

(٢) ١٣/ ٤٨٧.

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص٣٣، وسلف ١٣/ ٤٨٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٧.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٦٧. والحديث أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢١٣، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٢ (١٨٥٤١)، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٩٩، عمرو: هو ابن دينار. قال ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٠٥: أخرجه البيهقي في البعث من مرسل عبد الله بن باباه بسند رجاله ثقات رفعه. اهـ. والكوم: بالفتح: المواضع المُشرِفة، واحدها: كَومة. النهاية (كوم).

رُكَبهم، حتى إنَّ إبراهيمَ عليه السلام لَيُنادي: لا أسألُكَ اليومَ إلَّا نفسي[١].

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ قال يحيى بنُ سلَّام: إلى حسابها. وقيل: إلى كتابها الذي كان يُستنسخُ لها فيه ما عملتْ من خيرٍ وشرّ؛ قاله مقاتل. وهو معنى قول مجاهد[٢]. وقيل: «كِتابهَا»: ما كتبت الملائكةُ عليها[٣]. وقيل: كتابها المنزَّل عليها لِينظر هل عملوا بما فيه[٤]. وقيل: الكتابُ ها هنا اللوحُ المحفوظ[٥]. وقرأ يعقوب الحضرميّ: «كُلَّ أُمَّةٍ» بالنصب على البدل من «كُلّ» الأُولى لِمَا في الثانية من الإيضاح الذي ليس في الأولى؛ إذ ليس في جُثوّها شيءٌ من حال شرح الجُثوّ كما في الثانية من ذكر السبب الداعي إليه، وهو استدعاؤُها إلى كتابها. وقيل: انتصبَ بإعمال «تَرىَ» مضمراً[٦]. والرفعُ على الابتداء. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ أو شرّ.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ قيل: من قول الله لهم. وقيل: من قول الملائكة.

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يشهد. وهو استعارة؛ يقال: نَطَقَ الكتابُ بكذا، أي: بَيّن. وقيل: إنَّهم يقرؤونه، فيُذكِّرهُم الكتابُ ما عملوا؛ فكأنَّه ينطق عليهم[٧]؛ دليلُه قوله: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. وفي «المؤمنين»: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ٦٢]،

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٠١.

(٢) هو قول الكلبي، وليس بقول مقاتل ولا مجاهد. كما في النكت والعيون ٥/ ٢٦٩. وقول مقاتل ومجاهد فيه في تفسير الآية التي بعدها. والله أعلم.

(٣) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٩.

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٦٨ ونسبه للجاحظ.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٦١.

(٦) ينظر مجمع البيان ٢٥/ ١٣٧، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٢، وهو من العشرة.

(٧) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٠٥.

وقد تقدَّم[١].

و«يَنْطِقُ» في موضع الحال من الكتاب، أو من ذا، أو خبرٌ ثانٍ لذا، أو يكون «كِتَابُنَا» بدلاً من «هَذَا»، و«يَنْطِقُ» الخبر[٢].

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمرُ بنسخ ما كنتم تعملون.

قال عليٌّ ﷺ: إنَّ لِلَّه ملائكةً ينزلون كلَّ يومٍ بشيءٍ يكتبون فيه أعمالَ بني آدم[٣].

وقال ابن عباس: إنَّ الله وكَّل ملائكةً مطهَّرين، فينسخون من أمِّ الكتاب في رمضانَ كلَّ ما يكون من أعمال بني آدم، فيُعارضون حَفَظةَ الله على العباد كلَّ خميس، فيجدون ما جاء به الحفظةُ من أعمال العباد موافقًا لما في كتابهم الذي استنسخوا من ذلك الكتاب، لا زيادةَ فيه ولا نقصان[٤]. قال ابن عباس: وهل يكون النَّسخُ إلَّا من كتاب[٥].

الحسن: نستنسخُ ما كتبته الحفظة على بني آدم؛ لأنَّ الحفَظةَ تَرفعُ إلى الخَزَنة صحائفَ الأعمال[٦].

وقيل: تَحمل الحفظةُ كلَّ يومٍ ما كتبوا على العبد، ثمَّ إذا عادوا إلى مكانهم نُسِخَ[٧] منه الحسناتُ والسيئات؛ ولا تُحَوَّلُ المباحاتُ إلى النسخة الثانية.

وقيل: إنَّ الملائكةَ إذا رفعتْ أعمالَ العباد إلى الله عزَّ وجلَّ، أمر بأنْ يُثْبَتَ عنده منها ما فيه ثوابٌ وعقاب، ويُسقَطَ من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب[٨].

---

(١) ١٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ و١٥/ ٦٠ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠٥ .

(٤) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٢٧ من رواية الضحاك عن ابن عباس .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠٥ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٦٨ .

(٧) في (د) و(ظ) : نسخوا .

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٨ - ٤٩ .

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: الجنَّة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم ذلك، وهو استفهامُ توبيخ. ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن قبولها. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين تكسِبون المعاصي. يقال: فلانٌ جريمةُ أهله. إذا كان كاسِبَهم[١]؛ فالمجرم: من أكسبَ نفسَه المعاصي. وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] فالمجرمُ ضدُّ المسلم، فهو المذنبُ بالكفر إذاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث كائن. ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وقرأ حمزةُ: «وَالسَّاعَةَ» بالنصب عطفًا على «وَعْدَ». الباقون بالرفع[٢] على الابتداء، أو العطف على موضع «إِنَّ وَعْدَ اللهِ». ولا يحسُنُ على الضمير الذي في المصدر؛ لأنَّه غيرُ موكَّد، والضميرُ المرفوع إنَّما يُعطَفُ عليه بغير تأكيدٍ في الشعر[٣].

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ هل هي حقٌّ أم باطل؟!

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ تقديره عند المبرِّد: إنْ نحن إلا نظنُّ ظنًّا. وقيل: التقدير: إنْ نظنُّ إلَّا أنَّكم تظنُّون ظنًّا[٤]. وقيل: أي: وقلتم: إنْ نظنُّ إلا ظنًّا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنَّ الساعةَ آتيةٌ.

(١) الصحاح (جرم).

(٢) السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٩٩.

(٣) الكلام بنحوه في الحجة ٦/١٧٩ - ١٨٠.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٦٣.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: ظَهر لهم جزاءُ سيئاتِ ما عملوا. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل بهم وأحاط ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أي: نتركُكُم في النار كما تركْتُم لقاءَ يومِكم هذا، أي: تركتم العمل له. ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مسكنُكم ومستقرُّكم. ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: مَنْ ينصرُكم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿هُزُوًا﴾: لعباً. ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعَتْكُم بأباطيلها وزخارفها؛ فظننتُم أنْ ليس ثَمَّ غيرُها، وأنْ لا بعث.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: يُسترْضَوْن. وقد تقدَّم[١].

وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «فاليوم لا يخرجون» بفتح الياء وضمِّ الراء[٢]؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. الباقون بضمِّ الياء وفتح الراء؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ [النساء: ٧٥]. ونحوه[٣].

(١) ١٢/٤٠٧ - ٤٠٨.

(٢) السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٧٥.

(٣) الحجة للفارسي ٦/١٧٩.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن «رَبُّ السمٰوات وربُّ الأرض ربُّ العالمين» بالرفع فيها كلِّها على معنى: هو رَبُّ[1].

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العَظَمَةُ والجلالُ والبقاءُ والسلطانُ والقدرةُ والكمال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٩٠ ، وذكر القراءة فيه عن ابن محيصن ، وهي قراءة شاذة.

(٢) بعدها في (د) و(م) : والله أعلم . ختم تفسير سورة الجاثية والحمد لله .

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

مَكِّيَّةٌ، وهي سبعٌ أو سِتٌّ وثلاثون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إنْ جَعلْت ﴿حمٓ﴾ مُبتدأً خبرُهُ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ احتجتَ إلى إضمارِ مثلِ: تنزيلُ حم[1]، وإن جَعَلْتَها تَعديدًا للحُروفِ كان ﴿تَنزِيلُ﴾ مُبتدأً خبرُه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

وقيل: ﴿حمٓ﴾ مُقسَمٌ به و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ صِفَتُه، وجوابُ القسمِ:

(٣ ـ ٤) ـ ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو يحتملُ أن يكونَ على ظاهرِه، وأن يكونَ المعنى: إنَّ في خلقِ السمواتِ؛ لقولِه: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾.

ولا[2] يَحْسُنُ عطفُ (ما) على الضَّميرِ المجرورِ، بل عطفُه على المضافِ إليه بأحدِ الاحتمالَينِ، فإنَّ بثَّهُ وتَنوُّعَهُ واستجماعَهُ لِمَا به يتمُّ مَعاشُه إلى غيرِ ذلك دلائلُ على وجودِ الصَّانعِ المُختارِ.

---

(١) يعني تنزيل هذه السورة كتنزيل سائر القرآن، فيكون في قوله ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ دلالةٌ على وجه الشبه، فكونه من الله دل على أنه حق وصدق وصواب، وكونه من العزيز دل على أنه معجزٌ يَغلب ولا يُغلَب، وكونه من الحكيم دل على أنه مشتمل على الحكم البالغة، وعلى أنه محكم في نفسه ينسخ ولا يُنسخ، انظر: «فتوح الغيب» (١٤/ ٢٣١).

(٢) في نسخة الفاروقي: «إذ لا» وفي الهامش: في نسخة: «ولا».

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾ محمولٌ على محلِّ (إنَّ) واسمِها.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ ويعقوبُ بالنَّصبِ حملًا على الاسمِ(١).

(٥) ـ ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ﴾ مِن مطرٍ، وسمَّاهُ رزقًا لأنَّه سببُهُ.

﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ يُبسِها ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باختلافِ جِهاتِها وأحوالِها.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿وتصريفِ الرِّيحِ﴾(٢).

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ فيه القراءتانِ(٣)، ويلزَمُهُما العطفُ على عاملَين (في) والابتداء، أو (إنَّ)، إلَّا أَنْ يُضمرَ (في) أو يُنصبَ (آياتٍ) على الاختصاصِ، أو تُرفعَ بإضمارِ (هي).

ولعلَّ اختلافَ الفواصلِ الثَّلاثِ لاختلافِ الآياتِ في الدِّقَّةِ والظُّهورِ.

(٦) ـ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: تلكَ الآياتُ دَلائِلُه ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ حالٌ عامِلُها معنى الإشارةِ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُلتَبسينَ به، أو مُلتبسةً به.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ تُؤۡمِنُونَ﴾ أي: بعدَ آياتِ اللهِ، وتقديمُ اسمِ اللهِ للمُبالغَةِ والتَّعظيمِ كما في قولِك: أعجبَني زَيدٌ وكَرَمُه، أو بعدَ حَديثِ اللهِ وهو القرآنُ لقَولِه تَعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وآياتُه دلائلُه المَتلوَّةُ أو القرآنُ، والعَطفُ لتَغايُرِ الوصفينِ.

وقرأَ الحِجازيَّانِ وحَفصٌ وأبو عمرٍو ورَوْحٌ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالياءِ(٤)؛ ليُوافِقَ ما قبلَهُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٨)، و«النشر» (٢/ ٣٧١).

(٢) وقراءة الباقين بالجمع، انظر: «السبعة» (ص: ١٧٢ ـ ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٣) في نسخة الخيالي: «قراءتان»، وقد تقدمتا.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٨)، و«النشر» (٢/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

(٧) ـ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذَّابٍ ﴿أَثِيمٍ﴾ كثيرِ الآثامِ.

(٨) ـ ﴿يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقيمُ على كفرِه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عَن الإيمانِ بالآياتِ، و(ثمَّ) لاستبعادِ الإصرارِ بعدَ سَماعِ الآياتِ كقولِه:

يَرَى غَمَـرَاتِ المَـوْتِ ثُـمَّ يَزُورُهَا[1]

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: (كأنَّهُ) فخُفِّفَ وحُذِفَ ضَميرُ الشَّأنِ، والجملةُ في موقعِ[2] الحالِ، أي: يُصِرُّ مثلَ غيرِ السَّامعِ.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصرارِه، والبشارةُ على الأصلِ، أو التَّهكُّمِ.

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ وإذا بلغَهُ شيءٌ مِن آياتِنا وعلمَ أنَّه[3] منها ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لذلك مِن غيرِ أَنْ يرى فيها ما يُناسِبُ الهُزْءَ.

---

(١) البيت لجعفر بن عُلْبَةَ ـ بضم العين وسكون اللام بعدها باء ـ الحارثي. وصدره:

لا يَكشِــفُ الغَمَّــاءَ إِلَّا ابْــنُ حُــرَّةٍ

أي: لا يكشف الأمر الشديد عن القوم إلا كريم الطرفين يرى شدائد الحرب ثم يقصدها بسيوفٍ مصقولةٍ غيرَ مفكِّرٍ فيها. وقال الطيبي في «فتوح الغيب» (١٢/ ٣٥٦): ثمة، وإنّما ذَهَب في «ثم» إلى المجاز وإن احتَمَل الحقيقة؛ لأنَّ الشاعرَ يمدحُ جَريئاً لا يبالي بالموتِ ويقتحمُ الأهوالَ، لا أنه يَرى الغَمراتِ ثم يَمكُث زمانًا طويلاً متفكِّرًا ثم يَزُورها؛ لأنَّه ذَمٌّ له، وكذا ما في الآية؛ الأصلُ: ومَن أظلمُ ممَّن ذُكِّر بآيات ربِّه فأعرض عنها، فوَضَع ﴿ثُمَّ﴾ موضعَ الفاءِ لبيان عنادِه وتَمرُّدِه.

وقال هنا: أي: أن زيارة غمرات الموت بعد رؤيته إياها مستبعدة مستنكرة في العقل والعادة، وهو مع ذلك يزورها بعد استيقانه إياها، بالغ في مدحه. ونظيره في الاستبعاد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾.

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «موضع».

(٣) في نسخة الفاروقي: «وإذا بلغه شيء وعلم آية».

والضَّميرُ لآياتِنا، وفائدتُهُ الإشعارُ بأنَّه إذا سَمِعَ كلامًا وعَلِمَ أنَّه مِن الآياتِ بادرَ إلى الاستهزاءِ بالآياتِ كلِّها ولم يقتصِرْ على ما سَمِعَه.

أو: لشيءٍ لأنَّه بمَعنى الآيةِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ مِن قدَّامِهِم لأنَّهُم مُتوجِّهُونَ إليها، أو مِن خلفِهِم لأنَّه بعدَ آجالِهِم.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم﴾ ولا يدفعُ عَنْهُم ﴿مَّا كَسَبُوا﴾ مِن الأموالِ والأولادِ ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن عذابِ اللهِ ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: الأصنامَ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يَتحمَّلونَهُ.

(١١) ـ ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ الإشارةُ إلى القُرآنِ، ويدلُّ عليهِ قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ﴾.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ ويعقوبُ وحفصٌ برفعِ ﴿أَلِيمٌ﴾[1].

والرِّجزُ: أشَدُّ العَذابِ.

(١٢) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بأَنْ جعلَهُ أملسَ السَّطحِ يطفو عليهِ ما يتخلخَلُ كالأخشابِ ولا يمنع الغوصَ فيه.

﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ بتَسخيرِهِ وأنتُمْ راكِبُوها.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتِّجارَةِ والغَوصِ والصَّيدِ وغيرِها.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعمَ[2].

(١٣) ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بأَنْ خلقَهَا نافِعةً لَكُم.

---

(١) وقراءة الباقين الجر، انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٠)، و«النشر» (٢/ ٣٤٩).

(٢) في نسخة الخيالي: «رب هذه النعمة».

﴿مِّنۡهُ﴾ حالٌ مِن (ما)، أي: سخَّرَ هذه الأشياءَ كائنةً منهُ، أو خبرٌ لِمَحذوفٍ أي: هي جميعًا منه، أو لِـ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، و(سخَّرَ لَكُم) تكريرٌ[1] للتَّأكيدِ، أو لِمَا في الأرضِ.

وقُرِئَ: (مِنَّةً) على المفعولِ له، و(مَنُّهُ)[2] على أنَّه فاعلُ (سخَّر) على الإسنادِ المَجازيِّ، أو خبرُ مَحذوفٍ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صَنائعِهِ.

(١٤) ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ﴾ حُذِفَ المَقولُ لدلالةِ الجوابِ عليه، والمَعنى: قُلْ لهم: اغفِرُوا يَغفِرُوا؛ أي يَعْفُوا ويَصْفَحُوا.

﴿لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ لا يَتوقَّعُونَ وقائِعَهُ بأَعدائِه، مِن قَولِهم: أيَّامُ العربِ لوَقائِعِهم، أو لا يأملونَ[3] الأوقاتَ التِي وَقَّتَها اللهُ لنَصرِ المُؤمنينَ وثوابِهم ووَعدَهُم بها.

والآيةُ نَزَلَتْ في عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه شتمَهُ غِفارِيٌّ فهمَّ أن يبطِشَ به[4].

وقيل: إنَّها مَنسوخةٌ بآيةِ القتالِ.

﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ عِلَّةٌ للأمرِ، والقومُ هُم المؤمنونَ، أو الكافرونَ، أو كِلاهُما، فيكونُ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ أو التَّحقيرِ أو الشُّيوعِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «تكريراً».

(٢) الأولى حكيت عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو والجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير، والثانية عن مسلمة بن محارب، وهما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٦٢).

(٣) في نسخة التفتازاني: «ولا يتأملون».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٤٢)، عن ابن عباس ومقاتل.

والكسبُ: المغفِرَةُ أو الإساءةُ أو ما يَعُمُّهُما[١].

وقرأَ ابنُ عامرٍ وحمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿لنَجْزِيَ﴾ بالنُّونِ[٢].

وقُرِئَ: (ليُجزَى قومٌ)[٣]، و﴿ليُجْزَى قَوْمًا﴾[٤] أي: ليُجزى الخيرُ أو الشَّرُّ أو الجزاءُ قوماً؛ أعني: ما يُجزى به، لا المصدر؛ فإنَّ الإسنادَ إليهِ سِيَّما مع المفعولِ بهِ ضعيفٌ.

(١٥) ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ إذ لها ثوابُ العَملِ وعليها عقابُه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيُجازِيكُم على أعمالِكُم.

(١٦) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوراةَ ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ والحكمةَ النَّظريَّةَ والعمليَّةَ، أو فصلَ الخُصوماتِ ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إذ كَثُرَ فيهم[٥] الأنبياءُ ما لم يَكْثُر في غيرِهِم.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما أحلَّ اللهُ مِن اللَّذائذِ ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيثُ آتيناهُم ما لم نُؤتِ[٦] غيرَهُم.

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وقوله: «والكسب» إلخ هو أيضاً لف ونشر، فإذا أريد بالقوم المؤمنون فكسبهم المجازون عليه مغفرتهم للناس وتجاوزهم عنهم لا مغفرة الله حتى يقال فيه مضاف مقدر، وهو مثل أو تجوز بجعلها كسباً كما توهم، والمغفرة: المتاركة، لا إسقاط الحق.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤ ـ ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢١٥) بدون نسبة.

(٤) وهي قراءة أبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٢).

(٥) في نسخة الخيالي: «منهم».

(٦) في نسخة التفتازاني: «يؤت».

(١٧) ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أدلَّةً في أمرِ الدِّينِ، ويندرجُ فيها المعجزاتُ.

وقيل: آياتٍ مِن أمرِ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ مبيِّنةً لصدقِه.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ﴾ في ذلك الأَمرِ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقةِ الحالِ ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً وحَسَدًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمؤاخذةِ والمُجازاةِ.

(١٨) ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ على[1] طريقةٍ ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أمرِ الدِّينِ.

﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ فاتَّبِعْ شَريعتَكَ الثَّابتةَ بالحُججِ.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آراءَ الجُهَّالِ التابعةَ للشَّهواتِ، وهم رُؤساءُ قُريشٍ قالوا له: ارجِعْ إلى دينِ آبائك.

(١٩) ـ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ممَّا أرادَ بكَ.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إذ الجنسيَّةُ عِلَّةُ الانضمامِ[2]، فلا تُوالِهم باتِّباعِ أهوائِهم.

﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فوالِهِ بالتُّقى واتِّباعِ الشَّريعةِ.

(٢٠) ـ ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآنُ، أو اتِّباعُ الشَّريعةُ ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ بيِّناتٌ تُبصِّرُهُم وجهَ الفلاحِ ﴿وَهُدًى﴾ مِن الضَّلالةِ[3] ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمةٌ مِن اللهِ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبونَ اليقينَ.

(٢١) ـ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ﴿أَمْ﴾ مُنقَطِعَةٌ، ومَعنى الهمزةِ فيها إنكارُ الحِسْبانِ، والاجتراحُ: الاكتسابُ، ومنه الجارحةُ.

---

(١) «على» من نسخة التفتازاني والطبلاوي.

(٢) في نسخة الخيالي: «للانضمام»، وفي نسخة الطبلاوي: «الضمّ».

(٣) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «الضلال».

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أن نُصَيِّرَهُم ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مثلَهم، وهو ثاني مَفعُولَيْ (نجعلُ)، وقولُه: ﴿سواءٌ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدلٌ منه إن كانَ الضَّميرُ للمَوصولِ الأوَّلِ لأنَّ المُماثلةَ فيه، إذ المَعنى إنكارُ أَنْ تكونَ حَياتُهُم ومَماتُهُم سِيَّينِ في البهجةِ والكرامةِ كمَا هو للمُؤمنينَ.

ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ ﴿سَوَآءً﴾[1] بالنَّصبِ على البدلِ أو الحالِ مِن الضَّميرِ في الكافِ، أو المفعوليَّةِ والكافُ حالٌ.

وإن كانَ للثَّاني فحَالٌ منه أو استئنافٌ يبيِّنُ المُقتَضِيَ للإنكارِ.

وإن كان لهما فبدلٌ أو حالٌ مِن الثَّاني، وضميرُ الأوَّلِ، والمَعنى: إنكارُ أن يَستَوُوا بعدَ المماتِ في الكرامةِ أو تركِ المؤاخذةِ كما استَوَوْا في الرِّزقِ والصِّحَّةِ في الحياةِ، أو استئنافٌ مُقرِّرٌ لتَساوِي مَحْيَا كلِّ صنفٍ ومماتِه في الهُدى والضَّلالِ.

وقُرِئَ: (مَمَاتَهُم) بالنَّصبِ[2] على أنَّ مَحْيَاهُم ومماتَهُم ظرفانِ[3]، كـ: مَقْدَمَ الحاجِّ.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساءَ حكمُهُم هذا، أو بئسَ شَيْئًا حكموا به ذلك.

(٢٢) ـ ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كأنَّه دليلٌ على الحكمِ السَّابقِ مِن حيثُ إنَّ خلقَ ذلك بالحقِّ المُقتَضِي للعدلِ يَستَدْعِي انتصارَ المظلومِ مِن الظَّالمِ، أو التَّفاوُتَ بينَ المُسيءِ والمُحسنِ، وإذا لم يَكُن في المَحْيَا كان بعدَ المَماتِ.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطفٌ على ﴿بِالْحَقِّ﴾ لأنَّه في مَعنى العِلَّةِ، أو على عِلَّةٍ مَحذوفَةٍ مثلِ: ليدلَّ بها على قُدرَتِه، أو ليعدلَ ولِتُجزَى.

---

(١) والباقون بالرفع، انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٩) عن الأعمش.

(٣) قوله: «ظرفان» يعني سواء حالهم وقت حياتهم ومماتهم.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثَوابٍ وتضعيفِ عذابٍ[١]، وتسمِيَةُ ذلك ظلمًا ـ ولو فعلَهُ اللهُ ـ لم يَكُن مِنهُ ظُلمًا؛ لأنَّه لو فعلَهُ غيرُهُ لكانَ ظُلْمًا كالابتلاءِ والاختبارِ[٢].

(٢٣) ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تركَ مُتابَعَةَ الهُدى إلى مُطاوعَةِ الهَوى فكأنَّه يَعبُدُه.

وقُرِئَ: (آلهةً هواهُ)[٣] لأنَّه كان أحدُهُم يستحسِنُ حَجَرًا فيعبدُهُ فإذا رأى أحسنَ مِنه رفضَهُ إليه.

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ وخَذلَه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالِمًا بضَلالِهِ وفسادِ جوهرِ رُوحِه.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يُبالي بالمواعظِ ولا يتفكَّرُ في الآياتِ.

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا يَنظرُ بعينِ الاستبصارِ والاعتبارِ.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ ﴿غَشْوَةً﴾[٤].

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ﴾ مِن بعدِ إضلالِه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقُرِئَ: (تَتذكَّرُونَ)[٥].

(٢٤) ـ ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ﴾ ما الحياةُ، أو الحالُ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحنُ فيها.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: نكونُ أمواتًا نُطَفًا وما قبلَها ونحيا بعدَ ذلك، أو نموتُ

---

(١) في نسخة الخيالي: «عقاب».

(٢) انظر: «تفسير الرازي» (٢٧/ ٦٧٧).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٩) عن عبد الرحمن الأعرج، وفيه أيضاً عن أبي جعفر: (إلهةً) بالإفراد، وذكرهما «الكشاف» (٨/ ٢١٩)، وأبو حيان في «البحر» (١٩/ ١٧٩).

(٤) بفتح الغين وإسكان الشين، والباقون: ﴿غِشاوةً﴾ بكسر الغين وفتح الشين وألف بعدها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٨٧)، و«البحر» (١٩/ ١٨٠)، عن الأعمش.

بأَنفُسِنَا ونحيا ببقاءِ أولادِنَا، أو يموتُ بَعضُنَا ويحيا بعضٌ، أو يصيبُنا الموتُ والحياةُ فيها وليسَ وراءَ ذلك حياةٌ، ويحتملُ أنَّهُم أرادوا به التَّناسُخَ فإنَّه عقيدةُ أكثرِ عَبَدَةِ الأوثانِ.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إلا مرورُ الزَّمانِ، وهو في الأصلِ مُدَّةُ بَقاءِ العالَمِ؛ مِن دَهَرَهُ: إذا غلبَهُ.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني نسبةَ الحوادثِ إلى حركاتِ الأفلاكِ وما يَتعلَّقُ بها على الاستقلالِ؛ أو إنكارِ البعثِ، أو كِلَيْهِما.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إذ لا دليلَ لَهُم عليهِ، وإنَّما قالوه[1] بناءً على التَّقليدِ والإنكارِ لِمَا لم يُحِسُّوا به.

(٢٥) - ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدَّلالةِ على ما يُخالِفُ مُعتقدَهُم، أو مبيِّناتٍ لهم.

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ ما كانَ لهم مُتشبَّثٌ يُعارِضُونَها به ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وإنَّما سمَّاه[2] حُجَّةً على حُسبانِهم ومَساقِهم، أو على أسلوبِ قَولِهم:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[3]

---

(١) في نسخة الفاروقي جاء الكلام فيها كالتالي: «من دهره إذا غلبه؛ يعني: نسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الاستقلال أو إنكار البعث أو كليهما ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ إذ لا دليل لهم عليه ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وإنما قالوه».

(٢) في نسخة التفتازاني: «سُمي».

(٣) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب. انظر: «الكتاب» (٣/ ٥٠)، و«النوادر» لأبي زيد (ص: ٤٢٨)، و«الخزانة» (٩/ ٢٦٥)، وقال البغدادي: ولم أره في شعره. وقد تقدم الاستشهاد به غير مرة.

فإنَّه لا يلزمُ مِن عدمِ حُصولِ الشَّيءِ حالًا امتناعُهُ مُطلقًا.

(٢٦) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ على ما دلَّتْ عليه الحججُ.

﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ فإنَّ مَن قَـدَرَ على الإبداءِ قَدَرَ على الإعادةِ.

والحكمةُ اقتَضَت الجمعَ للمُجازاةِ على مـا قـرَّرَ[١] مـرارًا، والوعدُ المصدَّقُ بالآياتِ دلَّ على وُقوعِها، وإذا كانَ كذلك أمكنَ الإتيانُ بآبائِهم، لكنَّ الحكمةَ اقتَضَتْ أن يُعادوا يومَ الجمعِ للجَزاءِ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لِقلَّةِ تَفكُّرِهِم وقُصورِ نَظرِهِم على ما يُحِسُّونَه.

(٢٧) ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تعميمٌ للقُدرَةِ بعدَ تَخصيصِها.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: يخسرُ يومَ تَقومُ، و(يومَئذٍ) بدلٌ مِنه.

(٢٨) ـ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾ مُجتمعةً، مِن الجُثْوَةِ وهـي الجماعةُ، أو بـاركةً مُستوفِزَةً على الرُّكَبِ.

وقُرِئَ: (جاذِيَةً)[٢] أي جالسَةً على أطرافِ الأصابعِ[٣] لاستيفازِهِم.

﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ صحيفةِ أعمالِها.

وقرأ يعقوبُ: ﴿كلَّ﴾[٤] على أنَّه بدلُ الأوَّلِ، و﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ صفةٌ، أو مفعولٌ ثانٍ.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ محمولٌ على القَوْلِ.

(٢٩) ـ ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أضافَ صَحائِفَ أعمالِهِم إلـى نَفسِهِ لأنَّه أَمَرَ الكَتَبَةَ أنْ يكتُبوا فيها أعمالَهُم.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «على ما مر».

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٢٢)، و«البحر» (١٩/ ١٨٣).

(٣) في نسخة الفاروقي: «أصابعهم».

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٢).

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يشهَدُ عليكم بما عَمِلْتُم بلا زِيادةٍ ونُقصانٍ.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ نستكْتِبُ الملائكةَ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالَكُم.

(٣٠) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ التي مِن جُمْلَتِها الجنَّةُ.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظَّاهرُ لخلوصِهِ عَن الشَّوائبِ.

(٣١) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقالُ لهم: أَلَمْ تأتِكُم رُسُلِي فلَمْ[1] تكُن آياتي تُتْلَى عليكُم؟! فحُذِفَ القولُ والمعطوفُ عليه، اكتفاءً بالمقصودِ واستغناءً بالقرينةِ.

﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمانِ بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادَتُكُم[2] الإجرامُ.

(٣٢) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ يحتملُ الموعودَ والمصدرَ ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ هو، أو مُتعلَّقُه لا محالةَ.

﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ إفرادٌ للمَقصودِ، وقرأَ حمزَةُ بالنَّصبِ[3] عَطْفًا على اسمِ (إنَّ).

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيُّ شيءٍ السَّاعةُ استِغْرابًا لها.

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصلُه: نَظُنُّ ظَنًّا، فأُدخلَ حرفا النَّفيِ والاستثناءِ لإثباتِ الظَّنِّ ونَفْيِ ما عداهُ كأنَّه قال: ما نحنُ إلَّا نَظُنُّ ظَنًّا، أو لنَفْيِ ظَنِّهِم فيما سِوَى ذلك مُبالغَةً، ثمَّ أَكَّدَه بقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: لإمكانِه.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «أفلم».

(٢) في نسخة الخيالي: «عادتهم» وفي نسخة الفاروقي والطبلاوي: «قوماً عادتهم».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٩).

ولعلَّ ذلك قولُ بَعضِهِم، تحيَّرُوا بينَ ما سَمِعُوا مِن آبائهم وما تُلِيَت عليهِم مِن الآياتِ في أمرِ السَّاعةِ.

(٣٣) ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ظَهَرَ لَهُم ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ على ما كانَتْ عليه؛ بأَنْ عرَفُوا قُبحَها وعاينوا وَخَامةَ عاقِبَتِها أو جزائِها[١].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو الجَزاءُ.

(٣٤) ـ ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نترُكُكُم في العذابِ تركَ ما يُنْسَى.

﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ كما تَرَكْتُم عُدَّتَهُ ولم تُبالُوا به. وإضافةُ اللِّقاءِ إلى اليومِ إضافةُ المصدرِ إلى ظرفِه.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونكُم مِنها.

(٣٥) ـ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ استهزَأْتُم بها ولم تتفكَّرُوا فيها.

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فحَسِبْتُم أنْ لا حياةَ سِوَاها.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ بفتحِ الياءِ وضمِّ الرَّاءِ[٢].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُطلَبُ منهم أن يُعتِبُوا ربَّهم؛ أي: يُرضُوهُ لِفَواتِ أَوانِه.

(٣٦) ـ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ الكلُّ نِعمَةٌ منه، دالٌّ[٣] على كمالِ قُدرَتِه.

(٣٧) ـ ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إذ ظهرَ فيها آثارُها.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أو جزاءَها» ولكلٍّ وجه.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥).

(٣) المثبت من نسخة الطبلاوي وعليه شرح الخفاجي في «حاشيته»، وفي باقي النسخ: «الدالُّ»، وعليه شرح في «حاشية الأنصاري» (٥/ ١٥٣) فقال: «الدال: خبر بعد خبر».

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الـذي لا يُغلَبُ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما قدَّرَ وقَضـى، فاحمَدُوهُ وكَبِّرُوهُ وأَطيعُوا لهُ.

عَـن النَّبـيِّ ﷺ: «مَـن قـرأ ﴿حمٓ﴾ الجاثيـةَ سـترَ اللهُ عورتَهُ وسـكَّنَ رَوعتَـهُ يومَ الحسابِ»[1].

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٩٤)، من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. انظر: «الفتح السماوي» للبيضاوي (٣/ ٩٩٠).

(٤٥) سورة الجاثية مكية
وآياتها ٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس والدواب، والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه، وهذا بضيائه، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب، من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً لأن به يحصل الرزق ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها﴾أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وتصريف الرياح﴾ أي جنوباً وشمالاً برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج، وقال سبحانه أولاً ﴿ لآيات للمؤمنين﴾ ثم ﴿ يوقنون﴾ ثم ﴿ يعقلون﴾ وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة وهي قوله تعالى: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ .

تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ
﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ
مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟

﴿شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾

يقول تعالى ﴿ تلك آيات الله ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ أي متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ؟ ثم قال تعالى ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ أفاك في قوله أي كذاب ﴿ أثيم ﴾ في فعله وقلبه كافر بآيات الله، ولهذا قال ﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ ثم يصرّ ﴾ أي على كفره وجحوده، استكباراً وعناداً ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ كأنه ما سمعها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً، ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ﴾ أي إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به، واتخذه سخرياً وهزواً ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به، ولهذا «نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدوّ مخافة أن يناله العدو»[1]، ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ﴾ أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ هذا هدى ﴾ يعني القرآن ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ وهو المؤلم الموجع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿* ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٤ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١٥﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿ لتجري الفلك ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في المتاجر والمكاسب، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة إليكم، من الأقاليم النائية والآفاق القاصية، ثم قال عزّ وجلّ ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ﴾ أي من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، ولهذا قال ﴿ جميعاً منه ﴾ أي من عنده وحده لا شريك له، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾، أي ليصفحوا عنهم، ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك

(١) رواه مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد[1]، وقوله تعالى: ﴿ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي تعودون إليه يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل، من إنزال الكتب عليهم، وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من المآكل والمشارب، ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ أي في زمانهم ﴿وآتيناهم بينات من الأمر﴾ أي حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغياً منهم ﴿إن ربك﴾ يا محمد ﴿يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة، أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾ أي اتبع ما أوحي إليك من ربك وأعرض عن المشركين، وقال جل جلاله ههنا: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾ أي وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً؟ فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً، ﴿والله ولي المتقين﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿هذا بصائر للناس﴾ يعني القرآن ﴿وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

(١) هكذا روي عن ابن عباس وقتادة. وقال مجاهد: ﴿لا يرجون أيام الله﴾ أي لا ينالون نعم الله تعالى، يريد لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بلقاء الله.

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون كما قال في آية أُخرى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ أي عملوها وكسبوها ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾؟ أي نساويهم بها في الدنيا والآخرة ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار، فكما لا يجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار، ذكر محمد بن إسحاق انهم وجدوا حجراً بمكة من أس الكعبة، مكتوب عليه «تعملون السيئات وترجون الحسنات، أجل كما يجنى من الشوك العنب». وعن مسروق أن تميماً الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[1] ولهذا قال تعالى: ﴿ساء ما يحكمون﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق﴾ أي بالعدل، ﴿ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾، ثم قال جلّ وعلا: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي إنما يأتمر بهواه، فهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه، لا يهوى شيئاً إلا عبده، وقوله: ﴿وأضله الله على علم﴾ يحتمل قولين: (**أحدهما**): وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، (**والآخر**): وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه، والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس، ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾؟ كقوله تعالى: ﴿من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا العقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ قال الله تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ أي يتوهمون ويتخيلون، فأما الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول تعالى يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره»، وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر»[2] فقد قال الشافعي وأبو عبيدة في تفسير الحديث: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله

---

(١) أخرجه الطبراني عن أبي الضحى عن مسروق.

(٢) أخرجاه في الصحيحين، ورواه أبو داود والنسائي.

عزّ وجلّ، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي إذا بيّن لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾، أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً، قال الله تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم﴾ أي كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾؟ أي الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى، ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ﴿ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ أي يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

۞ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ أي يوم القيامة ﴿يخسر المبطلون﴾ وهم الكافرون بالله والجاحدون بما أنزله على رسله، من الآيات البينات والدلائل الواضحات، ثم قال تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم، فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ويقول نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك مريم التي ولدتني، قال مجاهد: ﴿كل أمة جاثية﴾ أي على الركب، وقال عكرمة: ﴿جاثية﴾ متميزة على ناحيتها، وليس على الركب، والأول أولى لما روي عن عبدالله بن باباه أن رسول الله ﷺ قال: «كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم»[1]، وقال محمد بن كعب عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً في حديث الصور: فيتميز الناس، وتجثو الأمم، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ وهذا فيه جمع بين القولين، ولا منافاة والله أعلم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ يعني كتاب أعمالها كقوله جلّ جلاله: ﴿ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، ولهذا قال جلّت عظمته: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله جلّ جلاله: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنا كنا نستنسخ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

ما كنتم تعملون﴾ أي إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم، قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾.

فأما الذين ءامنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ﴿٣٠﴾ وأما الذين كفروا أفلم تكن ءاياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين ﴿٣١﴾ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴿٣٢﴾ وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴿٣٣﴾ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴿٣٤﴾ ذلكم بأنكم اتخذتم ءايات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴿٣٥﴾ فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ﴿٣٦﴾ وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة فقال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ وهي الجنة، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء[1] ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي البين الواضح، ثم قال تعالى ﴿وأمّا الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم﴾؟ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، أما قرئت عليكم آيات الله تعالى، فاستكبرتم عن اتباعها وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها﴾ أي إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿قلتم ما ندري ما الساعة﴾ أي لا نعرفها ﴿إن نظن إلا ظناً﴾ أي إن نتوهم وقوعها إلا توهماً أي مرجوحاً، ولهذا قال: ﴿وما نحن بمستيقنين﴾ أي بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ **أي من العذاب والنكال**، ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ أي نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم، ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ﴿ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾، وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان وأوله: «تحاجّت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا سقط الناس وضعفاؤهم؟ فأوحى الله للجنة أنت رحمتي» ... الخ.

فيقول: بلى يا رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: «فاليوم أنساك كما نسيتني»، قال الله تعالى: ﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء، لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وغرتكم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتكم فاطمأننتم إليها فأصبحتم من الخاسرين، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾ أي من النار، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب. ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين قال ﴿فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض﴾ أي المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال: ﴿رب العالمين﴾، ثم قال جلّ وعلا: ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض﴾، قال مجاهد: يعني السلطان، أي هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه، وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري»[1]، وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع، ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، تعالى وتقدس لا إله إلا هو.

[آخر تفسير سورة الجاثية، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) وفي رواية: فمن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي. والحديث في صحيح مسلم.

تفسير سورة الجاثية

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾.

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكر فى آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التى خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما فى البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، فى تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر فى وقت الحاجة إليه، وسماه رزقًا؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أى: جنوبا وشآما[(١)]، ودبوراً وصبًا، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم [لا ينتج][(٢)].

وقال أولاً: ﴿لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ[(٣)]﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وهو تَرَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهى قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا عن وهب بن مُنَبِّه أثراً طويلا غريباً فى خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ

(١) فى ت، أ: «وشمالاً». (٢) زيادة من ت، م، أ. (٣) فى ت، أ: «لقوم يؤمنون» وهو خطأ.

وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾ .

يقول تعالى: هذه آيات الله ـ يعنى القرآن بما فيه من الحجج والبينات ـ ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أى: أفاك فى قوله كذاب، حلاّف مهين أثيم في فعله وقيله[1] كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أى: على كفره وجحوده استكباراً وعنادا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى: كأنه ما سمعها، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [أى][2]: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذابا أليما موجعا.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أى: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوا، ﴿ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو[3].

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده [4] فقال: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أى: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: ولا تغنى عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ هَذَا هُدًى﴾ يعنى القرآن، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ :وهو المؤلم [5] الموجع.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾، وهى السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أى: فى المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾أى: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية.

---

(١) فى ت، أ: «وقلبه». (٢) زيادة من ت،م.
(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٦٩).
(٤) فى أ: «القيامة». (٥) فى أ: «المقلق».

ثم قال: تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وروى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه، ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك.

وقال [١] ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خَلَف العسقلاني، حدثنا الفرْياني، عن سفيان، عن الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن أبي أراكة قال: سأل رجل عبد الله بن عمرو قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار، والظلمة والثرى. قال: وائت ابن عباس فاسأله. فأتاه فقال له مثل ذلك، فقال: ارجع إليه فسله: مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فسأله، فتلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ هذا أثر غريب، وفيه نكارة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: يصفحوا عنهم ويحملوا [٢] الأذى منهم. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم[٣]، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روى عن ابن عباس، وقتادة.

وقال مجاهد [في قوله][٤]: ﴿لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون [٥] نعم الله.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا [٦] عنهم في الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم [عليه][٧]، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)﴾.

(١) في ت: «وروى».
(٢) في أ: «ويحتملوا».
(٣) في ت، م، أ: «كالتأليف لهم».
(٤) زيادة من أ.
(٥) في أ: «ينالون».
(٦) في أ: «أي اصفحوا».
(٧) زيادة من ت، م، أ.

يذكر تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المآكل والمشارب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى: فى زمانهم، ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أى: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت [1] عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أى: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى: وماذا تغنى [2] عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

ثم قال: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعنى: القرآن﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى: لا يستوى المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أى: عملوها وكسبوها﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أى: نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾أى: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُسَاوى بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفى هذه الدار.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مُؤمَّل بن إهابَ، حدثنا بُكَير [3] بن عثمان التَّنُوخى، حدثنا الوَضين بن عطاء، عن يزيد بن مَرْثَد الباجى[4]، عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: إن الله بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقى الله [وهو] [5] من الفاسقين. قيل: وما هن يا أبا ذر؟ قال: يسلم حلال الله لله، وحرام الله لله، وأمر الله لله، ونهى الله لله، لا يوتمن عليهن إلا الله.

---

(١) فى ت: «فقامت به».
(٢) فى ت: «وما يغنى».
(٣) فى أ: «بكر».
(٤) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى بإسناده».
(٥) زيادة من ت.

قال أبو القاسم ﷺ: «كما أنه لا يجتنى من الشوك [(١)] العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار»[(٢)].

هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد ذكر محمد بن إسحاق فى كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجرا بمكة فى أسِّ الكعبة مكتوب [(٣)] عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل، كما يجتنى من الشوك العنب[(٤)].

وقد روى الطبرانى من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبى الضحى، عن مسروق[(٥)]؛ أن تميما الدارى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾، وقال[(٦)]: ﴿ **وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾أى: بالعدل، ﴿**وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾[(٧)].

ثم قال [تعالى][(٨)]: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ أى: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه: وهذا قد يستدل به على المعتزلة فى قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين.

وعن مالك فيما روى عنه من التفسير: لا يهوى شيئا إلا عبده.

وقوله: ﴿**وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾، يحتمل قولين.

أحدها[(٩)]: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثانى يستلزم الأول، ولا ينعكس.

﴿ **وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً**﴾ أى: فلا يسمع ما ينفعه، ولايعى شيئا يهتدى به، ولا يرى حجة يستضيء بها؛ ولهذا قال: ﴿**فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ كقوله: ﴿ **مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ** [(١٠)] **وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦)** ﴾.

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد: ﴿**وَقَالُوا**

(١) فى ت: «الشوكة».

(٢) وذكره ابن حجر فى المطالب العالية (٣/ ١٥٤) وعزاه لأبى يعلى، وأظنه فى الكبير، ويزيد بن مرثد الهمدانى روايته عن أبى ذر مرسله. تنبيه: وقع هنا «الباجى» ولم تقع لى هذه النسبة له.

(٣) فى ت، م: «مكتوبًا» وهو الصواب.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٦).

(٥) فى ت: «وقد روى الطبرانى بسنده».

(٦) فى ت، م، أ: «وقوله».

(٧) المعجم الكبير (٢/ ٥٠).

(٨) زيادة من ت.

(٩) فى أ: «أحدهما».

(١٠) فى ت، م: «ومن يضلل الله فما له من هاد» وهو خطأ.

مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أى: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولاقيامة وهذا يقوله مشركو[١] العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة [٢]والرجعة، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول [٣] وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا[٤]: **﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾**، قال الله تعالى: **﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾**، أى: يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذى أخرجه صاحبا الصحيح، وأبو داود، والنسائى، من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذينى ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر، أقلب ليله ونهاره»[٥]. وفى رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»[٦].

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدا فقال: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذى يهلكنا، يميتنا ويحيينا، فقال الله فى كتابه: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾** » قال: «ويسبون الدهر، فقال الله عز وجل: يؤذينى ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار»[٧].

وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شُرَيْح بن النعمان، عن ابن عيينة، مثله: ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدى الليل والنهار».

وأخرجه[٨] صاحبا الصحيح والنسائى، من حديث يونس بن زيد، به[٩].

وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: استقرضت عبدى فلم يعطنى، وسبّنى عبدى، يقول: وادهراه. وأنا الدهر»[١٠].

قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله، عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»: كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا

---

(١) فى أ: «منكرو». (٢) فى أ: «البداوة». (٣) فى ت، أ: «وكابروا العقول».

(٤) فى ت، أ: «قال».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) وسنن أبى داود برقم (٥٢٧٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٨٧).

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٤٦).

(٧) تفسير الطبرى (٢٥/ ٩٢).

(٨) فى ت: «أخرجاه» وهو خطأ، والصواب: «أخرجه»؛ حتى لا يجتمع عاملان على معمول واحد.

(٩) صحيح البخارى برقم (٦١٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٨٦).

(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ٩٢) من طريق سلمة عن محمد بن إسحاق به، وخالفه يزيد بن هارون، فرواه عن محمد ابن إسحاق، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، به، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٥٣) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم».

خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله [عز وجل][1]، فكأنهم إنما سبوا، الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة، فلهذا نُهى [2] عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذى يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

هذا أحسن ما قيل فى تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عدهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذا من هذا الحديث.

وقوله [3] تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ[4] آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾أى: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أى: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أى: الذى قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم فى الدنيا حتى تقولوا: ﴿ ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ[5] ﴾ [التغابن: ٩] ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١٢، ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾[هود: ١٠٤]وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾أى: لا شك فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧] أى: يرون وقوعه بعيدا، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، الحاكم فيهما [6] فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى: يوم [7] القيامة ﴿ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبى حاتم: قدم سفيان الثورى المدينة، فسمع المعافرى [8] يتكلم ببعض ما يضحك به الناس. فقال له: يا شيخ، أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف فى المعافرى [9] حتى لحق بالله ،عز وجل. ذكره ابن أبى حاتم.

(١) زيادة من ت، م.
(٢) فى أ: «أنهى».
(٣) فى ت: «وقال».
(٤) فى م: «عليه» وهو خطأ.
(٥) فى ت: «الفصل» وهو خطأ .
(٦) فى م: «فيما».
(٧) فى ت، أ: «تقوم».
(٨، ٩) فى ت، م، أ: «العاضرى».

ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا [يكون][1] إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسى، نفسى، نفسى، لا أسألك اليوم إلا نفسى، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسى، لا أسألك [اليوم][2] مريم التى ولدتنى.

قال مجاهد، وكعب الأحبار، والحسن البصرى: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على الركب. وقال عكرمة: ﴿جَاثِيَةً﴾: متميزة على ناحيتها[3]، وليس على الركب. والأول أولى.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عبد الله بن باباه[4]؛ أن رسول الله [ﷺ][5] قال: «كأنى أراكم جاثين بالكوم دون جهنم»[6].

وقال إسماعيل بن رافع المدينى[7]، عن محمد بن كعب، عن أبى هريرة، رضي الله عنه، مرفوعا فى حديث الصورة[8]: فيتميز الناس، وتجثو الأمم، وهى التى يقول الله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾[9].

وهذا فيه جمع بين القولين: ولامنافاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ يعنى: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥].

ثم قال: ﴿هَٰذَا[10] كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: يستحضر[11] جميع أعمالكم من غير زيادة ولانقص[12]، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم.

قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر، مما كتبه[13] الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «ناصيتها».
(٤) فى ت: «وقال ابن أبى حاتم بإسناده». (٥) زيادة من ت.
(٦) ورواه أبو نعيم فى زوائد زهد ابن المبارك برقم (٣٦٠) وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ٢٩٩) من طريق سفيان بن عيينة به.
(٧) فى أ: «المدنى». (٨) فى ت، م، أ: «الصور».
(٩) انظر تفسير حديث الصور عند الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.
(١٠) فى ت، م، أ: «ولهذا» وهو خطأ.
(١١) فى أ: «سيحضر». (١٢) فى م: «نقصان». (١٣) فى أ: «مما قد كتبه».

نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات[1]، وهى الخالصة الموافقة للشرع، ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهى الجنة، كما ثبت فى الصحيح أن الله قال للجنة: «أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء»[2].

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أى: البين الواضح.

ثم قال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا: أما[3] قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند[4] سماعها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى: فى أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أى: لا نعرفها، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا ﴾ أى: إن نتوهم وقوعها إلا توهما، أى مرجوحا[5]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أى: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ ﴾ أى: نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟

---

(١) فى ت، أ: «الصالحة».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٠) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «لما». (٤) فى أ: «عن». (٥) فى أ: «مرجوعًا».

ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتَرْبَع؟ فيقول: بلى، يارب. فيقول: أفظننت أنك مُلاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»[(١)].

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أى: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أى: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أى: من النار ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى: لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر حكمه فى المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ﴾ أى: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعنى السلطان. أى: هو العظيم الممجد، الذى كل شىء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد فى الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى[(٢)]: العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما أسكنته نارى». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبى إسحاق، عن الأغر أبى مسلم، عن أبى هريرة وأبى سعيد، رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، بنحوه[(٣)].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى: الذى لا يغالب ولا يمانع، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو[(٤)].

آخر تفسير سورة الجاثية [ولله الحمد والمنة][(٥)]

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «أن الله تعالى يقول».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٠).

(٤) فى أ: «لا إله غيره ولا رب سواه». (٥) زيادة من ت، م، أ.

سورة الجاثية

مكّيّة، وهي سبع أو[1] ستّ وثلاثون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

﴿حمٓ﴾ الكلام فيه كما مرّ في فاتحة سورة المؤمن، فإن جُعل اسمًا للسورة فمحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا مسمًّى بـ﴿حمٓ﴾، والإشارة إلى السورة قبل جرَيان ذكرها قد وقفتَ على سِرّه مرارًا. وإن جُعِل مسرودًا على نمَط التعديد فلا حظَّ له مِن الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الأوّل خبر بعد خبر، على أنّه مصدر أُطلِق على المفعول مبالغةً، وعلى الثاني خبر لمبتدأ مضمَر يُلوِّحُ به ما قبله، أي: المؤلَّف مِن جنس ما ذُكر تنزيلُ الكتاب. وقيل: هو خبر لـ﴿حمٓ﴾، أي: المسمّى به تنزيلُ... إلخ. وقد مرّ مِرارًا أنّ الذي يُجعلُ عنوانًا للموضوع حقّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه، وإذ لا عهدَ بالتسمية بَعدُ فحقُّها الإخبارُ بها، وأمّا جعلُه خبرًا له بتقدير المضاف وإبقاءِ "التنزيل" على أصله -أي: تنزيل حم تنزيل الكتاب- فمَع عَرائه عن إفادة فائدة يُعتدّ بها تمحُّل على تمحُّل.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ كما مرّ في صدر سورة الزمر[2] على التفصيل.

وقيل: ﴿حمٓ﴾ مُقسَم به، و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ صفته، وجواب القسَم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. / وهو على الوجوه المتقدّمة [٨٠و]
كلام مستأنَف مَسوق للتنبيه على الآيات التكوينيّة الآفاقيّة والأنفسيّة.

---

[1] س: وقيل.

[2] الزمر، ١/٣٩.

ومحلّ "الآيات" إمّا أنفس السماوات والأرض، فإنّهما مُنطويتان مِن فنون الآيات على ما يَقْصر عنه البيان، وإمّا خلقُهما، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة، ١٦٤/٢]، وهو الأوفق لقوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي: مِن نطفة ثـمّ مِن علَقةٍ متقلِّبة في أطوارٍ مختلفة إلى تمام الخلق، ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ عطفٌ على المضاف، دون المضاف إليه، أي: وفيما ينشره ويفرّقه مِن دابّة.

﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالرفع على أنّه مبتدأ خبره الظرف المقدَّم، والجملةُ معطوفة على ما قبلها مِن الجملة المصدَّرة بـ﴿إِنَّ﴾.[١] وقيل: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ عطفٌ على ما قبلها مِن ﴿ءَايَٰتٍ﴾ باعتبار المحلّ عند مَن يُجوِّزه. وقُرئ: "آيَةٌ" بالتوحيد.[٢] وقُرئ: "آيَاتٍ" بالنصب[٣] عطفًا على ما قبلها مِن اسم ﴿إِنَّ﴾،[٤] والخبرُ هو الخبر، كأنّه قيل: وإنّ في خَلقكم وما يَبثّ مِن دابّة آياتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: مِن شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بالجرّ على إضمار الجارّ المذكور في الآيتين قبله. وقد قُرئ بذكره.[٥] والمراد باختلافِهما إمّا تعاقبُهما أو تفاوتُهما طُولًا وقِصَرًا.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱخْتِلَٰفِ﴾ ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ أي: مِن مطر هو[٦] سبب للرزق، عُبّر عنه بذلك تنبيهًا على كونه آيةً مِن جهتَي القدرة والرحمة. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بأن أخرج منها أصنافَ الزروع والثمرات والنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وعَرائِها عن آثار الحياة وانتفاءِ قوّة التنمية عنها وخلوِّ أشجارها عن الثمار.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٣.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٢٨٥/٤.

[٦] س ي: وهو.

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ مِن جهة إلى أخرى، ومِن حال إلى حال. وقُرئ بتوحيد ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾.[١] وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدّمه عليه في الوجود إمّا للإيذان بأنّه آية مستقلّة حيث لو رُوعي الترتيب الوجودي لَربّما تُوهِّم أنّ / مجموع تصريف [٨٠ظ] الرياح وإنزالِ المطر آيةٌ واحدة، وإمّا لأنّ كون التصريف آيةً ليس لِمجرّد كونه مبدأً لإنشاء المطر؛ بل له ولسائر المنافع التي مِن جملتها سَوق السفُن في البحار.

﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ بالرفع على أنّه مبتدأ خبرُه ما تقدّم مِن الجارّ والمجرور، والجملة معطوفة على ما قبلها.

وقُرئ بالنصب[٢] على الاختصاص. وقيل: على أنّها اسم ﴿إِنَّ﴾،[٣] والمجرور المتقدّم خبرُها بطريق العطف على معمولَي عاملَين مختلفَين، هما ﴿إِنَّ﴾ و﴿فِي﴾،[٤] أقيمت "الواو" مُقامَهما فعَمِلت الجرّ في ﴿ٱخۡتِلَٰفِ﴾، والنصبَ فِي "آيَاتٍ".

وتنكير ﴿ءَايَٰت﴾ في المواقع الثلاثة للتفخيم كمًّا وكَيفًا. واختلاف الفواصِل لاختلاف مراتب "الآيات" في الدقّة والجَلاء.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر. وقوله تعالى: ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ حالٌ عاملُها معنى الإشارة. وقيل: هو الخبر و﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بدل، أو عطفُ بيان. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ حال مِن فاعل "نَتلو"، أو مِن مفعوله، أي: نَتلوها مُحقِّين، أو ملتبسةً بالحقّ.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ﴾ مِن الأحاديث ﴿بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: بعدَ آيات الله، وتقديمُ الاسم الجليل لتعظيمها، كما في قولهم: "أعجبَني زيدٌ وكرمُه"، أو بعدَ حديثِ الله الذي هو القرآن، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر، ٢٣/٣٩]، وهو المراد بـ﴿ءَايَٰتِهِ﴾ أيضًا، ومناطُ العطف التغاير العنواني. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بصيغة الغيبة. وقُرئ بـ"التاء".[٥]

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

٣ الجاثية، ٣/٤٥.

٤ الجاثية، ٣/٤٥.

٥ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم ورُوَيس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذّابٍ ﴿أَثِيمٍ﴾ كثيرِ الآثام.

﴿يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى لـ﴿أَفَّاكٍ﴾. وقيل: استئناف. وقيل: حال مِن الضمير في ﴿أَثِيمٍ﴾. ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال مِن ﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾. ولا مَساغَ لجعله مفعولًا ثانيًا لـ﴿يَسْمَعُ﴾؛ لأنّ شرطه أن يكون ما بعده ممّا لا يُسمَع، كقولك: "سمعتُ زيدًا يَقرأُ".

﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: يُقيم على كفره، وأصله مِن "إصرار الحمارِ على العانة".[١]

[٨١و] ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ / عن الإيمان بما سمعه مِن آيات الله تعالى، والإذعانِ لِما تنطِق به مِن الحقّ مُزدرئًا لها مُعجَبًا بما عنده مِن الأباطيل.

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، وكان يشتري مِن أحاديث الأعاجِم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن،[٢] لكنّها وردت بعبارة عامّة، ناعيةٍ عليه وعلى كلّ مَن يسير سيرته ما هم فيه مِن الشرّ والفساد.

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التي حقّها أن تُذعِن لها القلوب، وتخضعَ لها الرقاب، كما في قول مَن قال:

يرى غمراتِ الموت ثمّ يَزورها[٣]

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنّه لم يسمعها، فخُفِّف وحُذف ضمير الشأن. والجملة حال مِن ضمير[٤] ﴿يُصِرُّ﴾، أي: يصرّ شبيهًا بغير السامع. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره واستكباره.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ أي: إذا بلغه مِن آياتنا شيء، وعلِمَ أنّه مِن آياتنا، لا أنّه عَلِمه كما هو عليه، فإنّه بمَعزِل مِن ذلك العلم. وقيل: إذا علمَ منها شيئًا

---

١ العانة: القطيع مِن حُمُر الوحش، والجمع عُون. الصحاح للجوهري، «عون».

٢ تفسير مقاتل، ٨٣٦/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٨٦/٤.

٣ وفي هامش م: صدره:

ولا يكشف الغمّاءَ إلّا ابنُ حرّة

لجعفر بن عُلبة الحارثي في الحماسة للبصري، ٤٦/١.

٤ س – ضمير.

يمكن أن يتشبّث به المعاند ويجدَ له مَحملًا فاسدًا يتوسّل به إلى الطعن والغميزة ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ أي: الآياتِ كلَّها ﴿هُزُوًا﴾ أي: مَهزوءًا بها، لا ما سمعه فقط. وقيل: الضمير للشيء، والتأنيثُ لأنّه في معنى الآية.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى "كلّ أفّاك" مِن حيث الاتّصاف بما ذُكر مِن القبائح، والجمعُ باعتبار الشمول للكلّ، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون، ٥٣/٢٣]، كما أنّ الإفراد فيما سبق مِن الضمائر باعتبار كلِّ واحدٍ واحد. ﴿لَهُمْ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وصف العذاب بالإهانة توفيةً لحقّ استكبارهم واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى.

﴿مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًۭٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾[1] أي: مِن قُدّامهم؛[2] لأنّهم متوجّهون إلى ما أُعِدّ لهم، أو مِن خلفهم؛ لأنّهم معرِضون عن ذلك مقبلون على الدنيا، فإنّ "الوراء" اسم للجهة التي يواريها الشخص مِن خلفٍ وقُدّام.

﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم﴾ ولا يدفع ﴿مَا كَسَبُوا۟﴾ مِن الأموال والأولاد ﴿شَيْـًۭٔا﴾ مِن عذاب الله تعالى، أو شيئًا / مِن الإغناء، ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: الأصنامُ. وتوسيط حرف النفي بين المعطوفَين مع أنّ عدم إغناء الأصنام أظهرُ وأجلى مِن عدم إغناء الأموال والأولاد قطعًا مبنيٌّ على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمَعون في شفاعتهم. وفيه تهكّم. [٨١ظ]

﴿وَلَهُمْ﴾ فيما وراءهم مِن جهنّم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادَر قَدرُه.

﴿هَـٰذَا هُدًۭى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌۭ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿هَـٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿هُدًۭى﴾ في غاية الكمال مِن الهداية، كأنّه نفسُها، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: بالقرآن، وإنّما وُضِع موضع ضميره قوله تعالى:

---

[1] س − جهنّم.
[2] س + جهنّم.

﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ لزيادة تشنيع كفرهم به، وتفظيعِ حالهم. ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ﴾ أي: مِن أشدّ العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة ﴿عَذَابٌ﴾. وقُرئ بالجرّ[1] على أنّه صفة ﴿رِجۡزٍ﴾.

وتنوين ﴿عَذَابٌ﴾ في المواقع الثلاثة للتفخيم، ورفعُه إمّا على الابتداء، وإمّا على الفاعليّة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ بأن جعلَه أملس السطح، يطفو عليه ما يتخلخَل كالأخشاب، ولا يمنع الغوصَ والخَرقَ لِمَيَعانه ﴿لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ وأنتم راكبوها، ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ولكي تشكروا النعَم المترتّبة على ذلك.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الموجودات، بأن جعلها مدارًا لمنافعكم ﴿جَمِيعًا﴾ إمّا حال مِن "ما في السماوات والأرض"، أو توكيد له. ﴿مِّنۡهُ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿جَمِيعًا﴾، أو حال مِن ﴿مَا﴾، أي: جميعًا كائنًا منه تعالى، أو سخّر لكم هذه الأشياء كائنةً منه، مخلوقةً له تعالى، أو خبرٌ لمحذوف، أي: هي جميعًا منه تعالى.

وقُرئ: "مِنَّةً"[2] على المفعول له، و"مَنُّهُ"[3] على أنّه فاعل ﴿سَخَّرَ﴾ على الإسناد المجازي، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك مَنُّه.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٣.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن الأمور العظام ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمةَ الشأن كثيرةَ العَددِ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صُنع الله تعالى، فإنّهم يقِفون بذلك على جلائل نِعَمه تعالى ودقائقها، ويُوَفَّقُون لشكرها.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حذف المَقول لدلالة ﴿يَغْفِرُواْ﴾ عليه، فإنّه جواب للأمر[١] باعتبار تعلّقه به، / لا باعتبار نفسه فقط،[٢] أي: قل لهم: "اغفروا" يغفروا [٨٢و] ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي: يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقّعون وقائعه تعالى بأعدائه، مِن قولهم: "أيّام العرب" لوقائعها. وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقّتها الله تعالى لثواب المؤمنين، ووعدهم الفوزَ فيها.

قيل: نزلت قبل آية القتال[٣] ثمّ نُسخت بها. وقيل: نزلت في عمر رضي الله تعالى[٤] عنه حين شتمه غِفارِي، فهَمّ أن يَبطِش به.[٥]

وقيل: حين قال ابن أبيّ ما قال، وذلك أنّهم نزلوا[٦] في غزوة بني المصطلق على بئر يقال لها: المُرَيسِيع، فأرسل ابنُ أبيّ غلامَه يستقي، فأبطأ عليه، فلمّا أتاه قال له: «ما حبَسَك؟»، قال: «غلامُ عمر، قعد على طرف البئر، فما ترك أحدًا يستقي حتّى ملأ قِرَبَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقِرَبَ أبي بكر رضي الله عنه»،[٧] فقال ابن أبيّ: «ما مَثلُنا ومَثلُ هؤلاء إلّا كما قيل: سمِّن كلبك يأكُلْك»، فبلغ ذلك عمرَ رضي الله عنه، فاشتمل سيفه يريد التوجّه إليه، فأنزلها الله تعالى.[٨]

---

١ س – للأمر.

٢ وفي هامش م: كما في قول مَن قال:

تِهْ أَحتَمِلْ واستَطِلْ أَخضَعْ وعِزَّ أَهُن
وأَعرِضْ أُقبِلْ وقُلْ أَسمَعْ ومُرْ أُطِعِ

وبعده:

ناهيكَ أنّك لو حمّلتَ قلبيَ ما
لم تستطِعه قلوبُ الناس يستطِعِ

«منه». | لابن زيدون في المطرِب لابن دِحية الكلبي، ص ١٦٥.

٣ وهي قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة، ٣٦/٩].

٤ س – تعالى.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥٩/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٦/٥.

٦ س – نزلوا.

٧ م – رضي الله عنه.

٨ أسباب النزول للواحدي، ص ٣٧٨؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٤/١٧.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة، والمراد بـ"القوم" المؤمنون، والتنكير لمدحهم والثناءِ عليهم، أي: أُمِروا بذلك ليجزي يوم القيامة قومًا -أيّما قوم، قومًا مخصوصين- بما كسبوا في الدنيا مِن الأعمال الحسنة التي مِن جملتها الصبرُ على أذيّة الكفّار، والإغضاءُ عنهم بكَظم الغيظ واحتمال المكروه ما يقصُر عنه البيان مِن الثواب العظيم.

هذا، وقد جُوِّز أنْ يُراد بـ"القوم" الكفرةُ، وبـ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ سيّئاتُهم التي مِن جملتها ما حُكي مِن الكلمة الخبيثة. والتنكير للتحقير. وفيه أنّ مطلق الجزاء لا يصلح تعليلًا للأمر بالمغفرة، لتحقّقه على تقديرَي المغفرة وعدمِها، فلا بدَّ مِن تخصيصه بالكلّ، بأن لا يتحقّق بعض منه في الدنيا، أو بما يصدر عنه تعالى بالذات، وفي ذلك مِن التكلّف ما لا يخفى، وأن يُرادَ كِلا الفريقين، وهو أكثر تكلّفًا، وأشدّ تَمحّلًا.

وقُرئ: "لِيُجْزَى قَومٌ"،[١] و"لِيُجْزَى قَوْمًا"،[٢] أي: لِيُجزَى الجزاءُ قومًا. وقُرئ: "لِنَجْزِيَ" بنون العظَمة.[٣]

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑮﴾

[٨٢ظ] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ / لا يكاد يَسري عمل إلى غير عامله. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ مالكِ أموركم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم خيرًا كان أو شرًا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ⑯﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراةَ ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي: الحكمةَ النظريّة والعمليّة، والفقهَ في الدين، أو فصلَ الخصومات بين الناس؛ إذ كان المُلكُ فيهم. ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ حيث كثُر فيهم الأنبياء ما لم يكثر في غيرهم. ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ممّا أحلّ الله تعالى مِن اللّذائذ، كالمَنّ والسّلوى، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٨٩/٤.
٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.
٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

حيث آتيناهم ما لم نُؤتِ مَن عداهم مِن فَلْقِ البحر وإظلالِ الغَمام ونظائرهما. وقيل: على عالَمي زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ دلائلَ ظاهرةً في أمر الدين، ومعجزاتٍ قاهرةً. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو العِلم بمَبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وما بُيّن لهم مِن أمره، وأنّه يهاجر مِن تهامة إلى يثرب، ويكونُ أنصارُه أهلَ يثرب».[١]

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقِيقَته وحَقِّيَّته، فجعلوا ما يُوجب زوال الخلاف موجِبًا لرسوخه ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: عداوةً وحسدًا، لا شكًّا فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ أي: سنّةٍ وطريقةٍ عظيمةِ الشأن ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمرِ الدين ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ بإجراء أحكامها في نفسك وفي غيرك مِن غير إخلال بشيء منها، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: آراءَ الجهَلة واعتقاداتِهم الزائغةَ التابعةَ للشهوات، وهم رؤساء قريش، كانوا يقولون له عليه السلام: "ارجع إلى دين آبائك".

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ممّا أراد بك إن اتبعتَهم، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ لا يواليهم ولا يتّبع أهواءهم إلّا مَن كان ظالمًا مثلَهم،

---

[١] التفسير البسيط للواحدي، ١٤١/٢٠؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٧/١٧.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين أنت قِدوتُهم، فَدُمْ على ما أنت عليه مِن تولّيه خاصّةً، والإعراضِ عمّا سواه بالكلّيّة.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾

[٨٣و] ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن، أو اتّباعُ الشريعة / ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ فإنّ ما فيه مِن معالم الدين وشعائرِ الشرائع بمنزلة البصائر في القلوب، ﴿وَهُدًى﴾ مِن وَرْطة الضلالة، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ مَن شأنهم الإيقان بالأمور.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ استئناف مَسوق لبيان تباين حالَي المسيئين والمحسنين إثرَ بيان تباين حالَي الظالمين والمتّقين. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى[١] "بل" للانتقال مِن البيان الأوّل إلى الثاني، و"الهمزةِ" لإنكار الحسبان، لكن لا بطريق إنكار الوقوع ونفيِه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص، ٢٨/٣٨]؛ بل بطريق إنكار الواقع واستقباحِه والتوبيخِ عليه. والاجتراح: الاكتساب.

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أي: نصيّرَهم في الحكم والاعتبار وهم على ما هم عليه مِن مساوي الأحوال ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم فيما هم فيه مِن محاسن الأعمال، ونُعامِلَهم معاملتَهم في الكرامة ورفعِ الدرجة.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: مَحيا الفريقين جميعًا ومَماتُهم، حال مِن الضمير في الظرف والموصول معًا لاشتماله على ضميرَيهما على أنّ "السواء" بمعنى المُستوي. و﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفعان به على الفاعليّة.

والمعنى: أم حسبوا أن نجعلهم كائنين مثلَهم حالَ كون الكلّ مستويًا محياهم ومماتهم، كلّا، لا يستوُون في شيء منهما، فإنّ هؤلاء في عزّ الإيمان والطاعة

---

[١] س + من.

وشرفهما في المَحيا، وفي رحمة الله تعالى ورضوانه في المَمات، وأولئك في ذُلّ الكفر والمعاصي وهَوانِهما في المَحيا، وفي لعنة الله والعذاب الخالد في المَمات، شتّانَ بينهما.

وقد قيل: المراد إنكار أن يستَوُوا في المَمات كما استَوَوا في الحياة؛ لأنّ المسيئين والمحسنين مستوٍ محياهم في الرزق والصحّة، وإنّما / يفترقون في المَمات. [٨٣ظ]

وقُرئ: "مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ"[١] بالنصب على أنّهما ظرفان، كـ"مَقْدَم الحاجّ"، و﴿سَوَآءً﴾ حال على حاله، أي: حالَ كونهم مستوين في محياهم ومماتِهم.

وقد ذكِر في الآية الكريمة وجوهٌ أُخَر مِن الإعراب، والذي يليق بجَزالة التنزيل هو الأوّل، فتدبّر.

وقُرئ: "سَوَاءٌ" بالرفع[٢] على أنّه خبر، و﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ مبتدأٌ، فقيل: الجملة بدل مِن "الكاف". وقيل: حال.

وأيًا ما كان فنسبة حِسبان التساوي إليهم في ضمن الإنكار التوبيخي مع أنّهم بمَعزِل منه جازمون بفضلهم على المؤمنين للمبالغة في الإنكار، والتشديدِ في التوبيخ، فإنّ إنكار حِسبان التساوي والتوبيخَ عليه إنكارٌ لحِسبان الجزم بالفضل وتوبيخٌ عليه على أبلغ وجه وآكَدِه.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساءَ حكمهم هذا، أو بئس شيئًا حكموا به ذلك.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ استئناف مقرِّر لِما سبق مِن الحكم، فإنّ خلق الله تعالى لهما ولِما فيهما بالحَقّ المقتضي للعدل يستدعي لا محالةَ تفضيلَ المحسن على المسيء في المَحيا والمَمات، وانتصارَ المظلوم مِن الظالم، وإذ لم يطّرد ذلك في المَحيا فهو بعد المَمات حتمًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٢.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطفٌ على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنّ فيه معنى التعليل؛ إذ معناه خلقها مقرونةً بالحكمة والصوابِ، دون العبث والباطل، فحاصله خلقها لأجل ذلك ولِتُجزَى... إلخ، أو على علّة محذوفة، مِثل: لِيَدلّ بها على قدرته، أو لِيَعدلَ ولِتُجزَى.

﴿وَهُمْ﴾ أي: النفوس المدلول عليها بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثواب، أو بزيادة عقاب. وتسمية ذلك ظلمًا -مع أنّه ليس كذلك على ما عُرف مِن قاعدة أهل السنّة- لبيان غاية تنزّه ساحة لُطفه تعالى عمّا ذُكر بتنزيله منزلةَ الظلم الذي يستحيل صدوره عنه سبحانه.[1]

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيب مِن حال مَن ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنّه عبده، أي: أَنَظرتَ[2] فرأيتَه؟ فإنّ ذلك ممّا يُقضَى منه العجب. وقُرئ: "آلِهَةً هَوَاهُ"؛[3] لأنّ أحدهم كان / يستحسن حجَرًا فيعبده، فإذا [٨٤و]
رأى أحسن منه رفضه إليه، فكأنّه اتّخذ آلهةً شتّى.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ وخذَلَه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالِمًا بضلاله وتبديلِه لِفطرة الله التي فطَر الناس عليها، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ بحيث لا يتأثّر بالمواعظ، ولا يتفكّر في الآيات والنُّذُر. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ مانعةً عن الاستبصار والاعتبار. وقُرئ بفتح "الغين"،[4] وضمِّها.[5] وقُرئ: "غِشْوَةً".[6]

---

[1] س: تعالى.

[2] وفي هامش م: فيه إشارة إلى أنّ المعطوف عليه محذوف. «منه».

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤. وأمّا: "غَشْوَةً" بفتح "الغين" وإسكان "الشين" مِن غير "ألف" فقرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن بعد إضلاله تعالى إيّاه بموجَب تعاميه عن الهدى، وتماديه في الغيّ. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ألَا تلاحظون فلا تذكّرون. وقُرئ: "تَتَذَكَّرُونَ"[١] على الأصل.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ بيان لأحكام ضلالهم المَحكي، أي: قالوا مِن غاية غيّهم وضلالهم: ﴿مَا هِىَ﴾ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يصيبنا الموت والحياة فيها، وليس وَراءَ ذلك حياة. وقيل: نكون نُطَفًا وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك، أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاءِ أولادنا، أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا. وقد جُوِّز أن يريدوا به التناسخ، فإنّه عقيدة أكثر عبَدة الأوثان. وقُرئ: "نُحْيَا".[٢]

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إلّا مرورُ الزمان، وهو في الأصل مدّة بقاء العالَم، مِن "دَهَرَه"، أي: غَلَبه. وقُرئ: "إِلَّا دَهْرٌ يَمُرُّ".[٣] وكانوا يزعمون أنّ المؤثّر في هلاك الأنفس هو مرور الأيّام والليالي، وينكرون ملَك الموت وقبْضَه للأرواح بأمر الله تعالى، ويضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان. ومنه قوله عليه السلام: «لا تسبّوا الدهر، فإنّ الله هو الدهر»،[٤] أي: فإنّ الله هو الآتي بالحوادث، لا الدهرَ.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي: بما ذُكر مِن اقتصار الحياة على ما في الدنيا، واستنادِ الحياة والموت إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ما مستنِدٍ إلى عقل أو نقلٍ، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ما هم إلّا قومٌ قُصارى أمرهم الظنّ والتقليد مِن غير أن يكون لهم شيء يصحّ أن يتمسّك به في الجملة، هذا معتقدُهم الفاسد / في أنفسهم. [٨٤ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٢٣/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. جامع البيان للطبري، ٩٦/٢١.

٤ صحيح مسلم، ١٧٦٣/٤ (٢٢٤٦). ونحوه في صحيح البخاري، ٤١/٨ (٦١٨٢).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقةُ بالحقّ الذي مِن جملته البعث ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة على ما نطقَت به، أو مبيِّنات له ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، أي: ما كان متمسَّكًا لهم شيء مِن الأشياء ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّا نُبعَث بعد الموت، أي: إلّا هذا القولُ الباطل الذي يستحيل أن يكون مِن قَبيل الحجّة. وتسميته "حجّة" إمّا لسَوقهم إيّاه مساقَ الحجّة على سبيل التهكّم بهم، أو لأنّه مِن قَبيل:

تـحـيّـةُ بـيـنِـهـم ضـربٌ وجـيـعُ[1]

وقُرئ برفع ﴿حُجَّتَهُمْ﴾[2] على أنّها اسم ﴿كَانَ﴾، فالمعنى: ما كان حجّتُهم شيئًا مِن الأشياء إلّا هذا القولَ الباطلَ.[3]

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٦﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداءً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، لا كما تزعمون مِن أنّكم تَحيَون وتموتون بحكم الدهر. ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ للجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في جمعكم، فإنّ مَن قدَر على البَدء قدَر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالةَ، والوعد المصدَّق بالآيات دلّ على وقوعها حتمًا، والإتيانُ بآبائهم حيث كان مزاحمًا للحكمة التشريعيّة امتنع إيقاعه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك مِن قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وهو إمّا مِن تمام الكلام المأمور به، أو كلام مَسوق مِن جهته تعالى تحقيقًا للحقّ،

---

[1] صدره:
وخـيـلٍ قـد دلَـفـتُ لـهـا بـخـيـلٍ
وهو منسوب لعمرو بن معدي كرب. انظر: شعر عمرو بن معدي كرب لمطاع الطرابيشي، ص ١٤٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن البصري والحسن الجعفي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

[3] وفي هامش م: وقد أشيرَ مرارًا إلى أنّه أقصر بحسب المعنى. «منه».

وتنبيهًا على أنّ ارتيابهم لجهلهم وقُصورهم في النظر والتفكّر، لا لأنّ فيه شائبةَ ريبٍ ما.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بيان لاختصاص المُلك المطلق والتصرّف الكلّي فيهما وفيما بينهما بالله عزّ وجلّ إثرَ بيان تصرّفه تعالى في الناس بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾: ﴿يَخْسَرُ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل منه.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم المجموعة ﴿جَاثِيَةً﴾ باركةً على الرُّكَب مُستَوفِزةً.[١]

وقُرئ: "جَاذِيَةً"،[٢] أي: جالسةً على أطراف الأصابع. / و"الجُذُوُّ" أشدّ استيفازًا [٨٥و]

مِن "الجُثُوّ". وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿جَاثِيَةً﴾: مجتمِعة».[٣] وقيل: جماعاتٍ، مِن "الجُثْوة"؛ وهي الجماعة.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى صحيفة أعمالها. وقُرئ: "كُلَّ"[٤] بالنصب على أنّه بدل مِن الأوّل، و﴿تُدْعَىٰٓ﴾[٥] صفة، أو حال، أو مفعول ثانٍ. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا[٦] كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾... إلخ مِن تمام ما يقال حينئذ. وحيث كان كتابُ كلّ أمّة مكتوبًا بأمر الله تعالى أُضيفَ إلى نون العظَمة تفخيمًا لشأنه،

---

١ وفي هامش م: "استَوفَزَ في قَعدَته": انتَصب فيها غيرَ مطمئنّ، أو وَضَع ركبتيه ورفع إليَتَه، أو استقلّ على رجليه ولمّا يَستوِ قائمًا، وقد تهيّأ للوثوب. قاموس. | القاموس المحيط للفيروزابادي، «وفز».

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٩/٥.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣٧٠/١٧.

٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

٥ س: ويدعى.

٦ م س: بما.

وتهويلًا لأمره. فـ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿كِتَٰبُنَا﴾ خبره. وقوله تعالى: ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي: يشهد عليكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مِن غير زيادة ولا نقصٍ، خبرٌ آخر، أو حال. و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَنطِقُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾... إلخ تعليل لنُطقه عليهم بأعمالهم مِن غير إخلال بشيء منها، أي: إنّا كنّا فيما قَبلُ نَستكتِب الملائكةَ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال، حسنةً كانت أو سيّئةً.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: في جنّته، تفصيل لِما يُفعَل بالأمم بعد بيان ما خُوطبوا به مِن الكلام المنطوي على الوعد والوعيد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الإدخال في رحمته تعالى[1] ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهرُ كونُه فوزًا لا فوزَ وراءَه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم بطريق التوبيخ والتقريع: ألَم يكن تأتيكم[2] رُسلي فلم تكن آياتي تُتلى عليكم؟ فحُذف المعطوف عليه ثقةً بدلالة القرينة عليه. ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: قومًا عادتُهم الإجرام.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

---

[1] س – تعالى.

[2] س: يأتيكم.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما وعدَه مِن الأمور الآتية، أو وَعْدُه بذلك ﴿حَقٌّ﴾ أي: واقع لا محالةَ، أو مطابق للواقع، ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ التي هي أشهَر ما وعدَه ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في وقوعها. وقُرِئ: "وَالسَّاعَةَ" بالنصب[1] عطفًا على اسم ﴿إِنَّ﴾. / وقراءة الرفع للعطف على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها. [٨٥ظ]

﴿قُلْتُم﴾ لغاية عُتوِّكم: ﴿مَا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أيُّ شيء هي؟ استغرابًا لها. ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ما نفعل إلّا ظنًّا، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام، ٥٠/٦]. وقيل: ما نعتقد إلّا ظنًّا، أي: لا عِلمًا. وقيل: ما نحن إلّا نظنّ ظنًّا. وقيل: ما نظنّ إلّا ظنًّا ضعيفًا،[2] ويردّه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: لإمكانه، فإنّ مقابل الاستيقان مطلقُ الظنّ، لا الضعيفُ منه. ولعلّ هؤلاء غيرُ القائلين: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.[3]

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٣﴾

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهَرَ لهم حينئذ ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ على ما هي عليه مِن الصورة المنكَرة الهائلة، وعايَنوا وَخامةَ عاقبتها، أو جزاءَها، فإنّ جزاء السيّئة سيّئةٌ. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن الجزاء والعقاب.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٤﴾

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نترككم في العذاب تركَ المَنسيّ ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: كما تركتم عُدَّتَه ولم تبالوا به. وإضافة "اللقاء" إلى "اليوم" إضافةُ المصدر إلى ظرفه.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ما لأَحدٍ منكم ناصر واحد يخلّصكم منها.

---

[1] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

[2] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٢٦/٩.

[3] الجاثية، ٢٤/٤٥.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: مَهزوءًا بها، ولم ترفعوا لها رأسًا، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فحسِبتم أن لا حياةَ سواها، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: مِن النار. وقُرئ: "يَخْرُجونَ"[١] مِن "الخروج". والالتفات إلى الغَيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانةً بهم أو بنقلهم مِن مقام الخطاب إلى غَيابة النار. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يُطلب منهم أن يُعتِبوا ربّهم، أي: يُرضوه، لفوات أوانه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ خاصّةً، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا يستحقّ الحمدَ أحدٌ سواه. وتكرير "الربّ" للتأكيد والإيذانِ بأنّ ربوبيّته تعالى لكلّ منها بطريق الأصالة. وقُرئ برفع الثلاثة[٢] على المدح بإضمار "هو".

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

[٨٦و] ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ / لظهور آثارها وأحكامِها فيهما. وإظهارُهما في موقع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلَب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كلّ ما قضى وقدّر، فاحمَدوه، وكبّروه، وأطيعوه.

عنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿حمٓ﴾ الجاثية سترَ الله تعالى عَورته، وسكّن رَوعته يوم الحساب».[٣]

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥/٩٠.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٥٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٩٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٤٥

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

مكية إلاّ «قل للذين آمنوا يغفروا» الآية، وهي ستٌّ أو سبع وثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿حم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿تنزِيلُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ مُبتدأٌ ﴿مِنَ اللهِ﴾: خبرُه ﴿العَزِيزِ﴾ في مُلكِهِ ﴿الحَكِيمِ﴾ في صُنعه.

٣ ـ ٤ ـ ﴿إنَّ في السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: في خلقهما ﴿لَآياتٍ﴾ دالّةً على قُدرة الله ـ تعالى ـ ووحدانيّته ﴿لِلمُؤمِنِينَ، وفي خَلقِكُم﴾ أي: خلقِ كُلّ منكم من نُطفة ثمّ من علَقة ثمّ من مُضغة إلى أن صار إنسانًا ﴿و﴾ خلقِ ﴿ما يَبُثُّ﴾: يُفرِّق في الأرض ﴿مِن دابّةٍ﴾ أي: ما يدِبّ على الأرض من الناس وغيرهم، ﴿آياتٌ لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾ بالبعث، ٥ ـ ﴿و﴾ في ﴿اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ﴾: ذَهابِهما ومجيئهما، ﴿وما أنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن رِزقٍ﴾: مطرٍ لأنه سبب الرزق، ﴿فأحيا بِهِ الأرضَ بَعدَ مَوتِها، وتَصرِيفِ الرِّياحِ﴾:.......

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

قولُهُ: (﴿و﴾ خَلَقَ) عطفٌ على المضافِ، إذ لا يحسنُ عطفُ ﴿ما﴾ على الضَّميرِ المجرورِ عندَ الجمهورِ.

قولُهُ: (بالبَعثِ) ورفعُ ﴿آيَاتٌ﴾ محمولٌ على محلِّ ﴿إنَّ﴾ واسمِها، ونصبَ حمزةُ والكِسائيُّ[1] حملاً على الاسمِ.

قولُهُ: (ذَهَابِهِمَا ومَجِيئِهِمَا) زيادتِهما ونقصِهما، ضَوئها وظلمتِها.

قولُهُ: (لأنَّهُ سَبَبُ الرِّزقِ) ومن أحسَنِ الرِّزقِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٤).

تقليبها مرّة جنوبًا ومرّة شمالاً وباردة وحارّة، ﴿آياتٌ لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾ الدليلَ فيُؤمنون.

٦ ـ ﴿تِلكَ﴾ الآيات المذكورة ﴿آياتُ اللهِ﴾: حُججه الدالّة على وحدانيّته، ﴿نَتلُوها﴾: نقصّها ﴿عَلَيكَ بِالحَقِّ﴾: مُتعلّق بـ «نتلو». ﴿فبِأيِّ حَدِيثٍ بَعدَ اللهِ﴾ أي: حديثِه ـ وهو القُرآن ـ ﴿وآياتِهِ﴾: حُججه ﴿يُؤمِنُونَ﴾ أي: كُفّارُ مكّة؟ أي: لا يؤمنون. وفي قراءة بالتاء. ٧ ـ ﴿وَيلٌ﴾: كلمةُ عذاب ﴿لِكُلِّ أفّاكٍ﴾: كذّاب ﴿أثِيمٍ﴾: كثير الإثم، ٨ ـ ﴿يَسمَعُ آياتِ اللهِ﴾: القُرآنَ ﴿تُتلَى عليهِ، ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كُفره ﴿مُستكبِرًا﴾: مُتكبّرًا عن الإيمان ﴿كأنْ لَم يَسمَعْها ـ فبَشِّرْهُ بعَذابٍ ألِيمٍ﴾: مُؤلم ـ ٩ ـ ﴿وإذا عَلِمَ مِن آياتِنا﴾ أي: القُرآنِ ﴿شَيئًا اتَّخَذَها هُزُوًا﴾ أي: مَهزوءًا بها. ﴿أُولئِكَ﴾ أي: الأفّاكون ﴿لَهُم عَذابٌ مُهِينٌ﴾: ذو إهانة، ١٠ ـ ١١ ـ ﴿مِن وَرائِهِم﴾ أي: أمامِهم لأنهم في الدنيا ﴿جَهَنَّمُ، ولا يُغنِي عَنهُم ما كَسَبُوا﴾ من المال والفِعال ﴿شَيئًا، ولا ما اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: الأصنامَ ﴿أولياءَ! ولَهُم عَذابٌ عَظِيمٌ. هذا﴾ أي: القُرآن ﴿هُدًى﴾ من الضلالة، ....

قولُهُ: (الدَّلِيلُ) وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بنَصبِ: (آياتٍ)[1] على الاختصَاصِ.

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ) أو: ملتبِسينَ ـ أو ملتبِسةً ـ به.

قولُهُ: (أي: لا يُؤمِنُونَ) أو التَّقديرُ: إن لم يُؤمِنوا بهما.

قولُهُ: (بالتَّاءِ) الخطابُ: شاميٌّ وكوفيٌّ غيرُ حفصٍ[2].

قولُهُ: (على كُفرِهِ) أي: يقيمُ.

قولُهُ: (أي: القُرآنِ) أي: إذا بلغَهُ شيءٌ وعلمَ أنَّه منها، أو: إذا سمعَ.

قولُهُ: (مَهزُوءاً بِهَا) من غيرِ أن يَرى فيها ما يناسِبُ الهزءَ.

قولُهُ: (أي: الأَفّاكُونَ) أو: المستهزِؤونَ، وهو الأقربُ.

قولُهُ: (في الدُّنيَا) مُستقبِلونَ إلى العُقبى، أو: من خلفِهم؛ لأنَّهم متوجِّهونَ إلى الدُّنيا، أو لأنَّه بعد آجالِهم.

قولُهُ: (والنَّوَال)[3] والعبيدُ والأولادُ؛ أي: لا تدفعُ شيئاً من العذابِ أو الإغناءِ.

قولُهُ تعالى: (﴿وَلَهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾) لا يتحمَّلونَهُ، أو: لا يمكنُ وصفُهُ.

قولُهُ: (أي: القُرآنُ) يعني: الإشارةُ إليه دونَ ما ذُكِرَ من الآياتِ المصنوعَةِ، ويدلُّ عليه ما بعدَهُ؛ لأنَّهم لم يكفُروا بالمصنوعةِ حيث اعترَفوا بصانِعِها.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٤).

(٣) كذا وقع عنده، وفي نسخة الجلالين بدلها: «والفعال».

﴿والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِم لَهُم عَذابٌ﴾: حظٌّ ﴿مِن رِجْزٍ﴾ أي: عذابٍ ﴿أَلِيمٌ﴾: مُوجعٌ.

١٢ ـ ١٣ ـ ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحرَ لِتَجرِيَ الفُلكُ﴾: السفن ﴿فِيهِ بِأمرِهِ﴾: بإذنه، ﴿ولِتَبتَغُوا﴾: تطلبوا بالتجارة ﴿مِن فَضلِهِ، ولَعَلَّكُم تَشكُرُونَ، وسَخَّرَ لَكُم ما في السَّماواتِ﴾ من شمس وقمر ونُجوم وماء وغيره ﴿وما في الأرضِ﴾ من دابّة وشجر ونبات وأنهار وغيره، أي: خلق ذلك لمنافعكم ﴿جَمِيعًا﴾: تأكيدٌ ﴿مِنهُ﴾: حالٌ، أي: سخّرها كائنةً منه تعالى. ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها فيُؤمنون.

١٤ ـ ﴿قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا، يَغفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرجُونَ﴾: يخافون ﴿أيّامَ اللهِ﴾: وقائعَه، أي: اغفِروا للكُفّار ما وقع منهم من الأذى لكم ـ وهذا قبل الأمر بجِهادهم ـ ﴿لِيَجزِيَ﴾ أي: اللهُ، وفي قراءة بالنون، ﴿قَومًا بِما كانُوا يَكسِبُونَ﴾ من الغفر للكُفّار أذاهم. ١٥ ـ ﴿مَن عَمِلَ صالِحًا فلِنَفسِهِ﴾ عَمِلَ، ﴿ومَن أساءَ فعلَيها﴾ إساءتُه، ﴿ثُمَّ إلَى رَبِّكُم تُرجَعُونَ﴾: تَصيرون، فيُجازي المُصلحَ والمُسيء.

قولُهُ: (حَظٌّ) الظَّاهرُ: نوعُ عذابٍ، والرِّجزُ: جنسُ أشدِّ العذابِ.

قولُهُ: (مُوجِعٌ) وقرأَ مكِّيٌّ وحفصٌ بالرَّفعِ[1].

قولُهُ: (بإذنِهِ) وتسخيرِهِ.

قولُهُ: (بالتِّجَارَةِ) والغوصِ والصَّيدِ وغيرِها.

قولُهُ: (وأَنهَارٍ) الأنسبُ: نَهرٍ.

قولُهُ: (حَالٌ) أو خبرُ محذوفٍ؛ أي: هي جميعاً منهُ، وقُرِئَ: (مِنَّةً) على المفعولِ له[2].

قولُهُ: (أي: اغفِرُوا) يعني: حُذِفَ المقولُ لدلالةِ الجوابِ عليه.

قولُهُ: (أي: اللهُ) علّةٌ للأمرِ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ وحمزةَ والكسائيِّ[3].

قولُهُ: (مِنَ الغَفرِ) أو الإساءةِ، أو ما يعمُّهُما، والقومُ هم المؤمنونَ، أو الكافرونَ، أو كلاهُما، فيكونُ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أو التَّحقيرِ، أو الشُّيوعِ.

قولُهُ: (تَصِيرُونَ) حلُّ المعنى، والأولى: تُرَدُّونَ.

قولُهُ: (المُصلِحَ) الأحسنُ: المحسنَ، أو: الصَّالحَ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن عباس وعبيد بن عمير، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٣٩).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٥).

١٦ ـ ﴿ولَقَد آتَينا بَني إسرائيلَ الكِتابَ﴾: التوراة ﴿والحُكمَ﴾ به بين الناس ﴿والنُّبوّةَ﴾ لمُوسَى وهارونَ منهم، ﴿ورَزَقْناهُم مِنَ الطَّيِّباتِ﴾: الحلالات كالمَنّ والسلوى، ﴿وفَضَّلْناهُم علَى العالَمِينَ﴾ أي: عالَمِي زمانهم العُقلاء، ١٧ ـ ﴿وآتَيناهُم بَيِّناتٍ مِنَ الأمرِ﴾ أي: أمر الدِّين من الحلال والحرام وبِعثة مُحمّد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ ﴿فما اختَلَفُوا﴾ في بِعثته ﴿إلاّ مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلمُ بَغْيًا بَينَهُم﴾ أي: لِبغيٍ حدث بينهم حسدًا له. ﴿إنَّ رَبَّكَ يَقضِي بَينَهُم يَومَ القِيامةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿علَى شَرِيعةٍ﴾: طريقة ﴿مِنَ الأمرِ﴾: أمر الدِّين. ﴿فاتَّبِعْها، ولا تَتَّبِعْ أهْواءَ الَّذِينَ لا يَعلَمُونَ﴾ في عِبادة غير الله. ١٩ ـ ﴿إنَّهُم لَن يُغنُوا﴾: يدفعوا ﴿عَنكَ مِنَ اللهِ﴾: من عذابه ﴿شَيئًا! وإنَّ الظّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿بَعضُهُم أَولِياءُ بَعضٍ، واللهُ وَلِيُّ المُتَّقِينَ﴾: المؤمنين. ٢٠ ـ ﴿هذا﴾ القُرآن ﴿بَصائرُ لِلنّاسِ﴾: مَعالمُ، يتبصّرون بها في الأحكام والحُدود، ﴿وهُدًى ورَحْمةٌ لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾ بالبعث.

٢١ ـ ﴿أم﴾: بمعنى همزة الإنكار ﴿حَسِبَ الَّذِينَ اجتَرَحُوا﴾: اكتسبوا ﴿السَّيِّئاتِ﴾:..........

قولُهُ: (لِمُوسَى وهَارُونَ) وغيرِهما؛ إذ كَثُرَ فيهم الأنبياءُ ما لم يكثُرْ في غيرِهم.

قولُهُ: (عَالَمِي زَمَانِهِم) حيثُ آتيناهُم ما لم نؤتِ غيرَهُم.

قولُهُ: (أَمرِ الدِّينِ) أي: أدلة في أمرِ الدِّينِ، وتندرجُ فيه المعجِزاتُ.

قولُهُ: (وبِعثَةِ مُحَمَّدٍ) أي: آياتٍ مبيِّنةً لصدقِهِ.

قولُهُ: (في بَعثِهِ) أي: ذلك الأمرِ(١).

قولُهُ: (حَسَداً) وعداوةً، أو: طلبَ رئاسةٍ.

قولُهُ: (في عِبَادَةِ غَيرِ اللهِ) وهم رؤساءُ قريشٍ، قالوا له: ارجِعْ إلى دينِ آبائِكَ.

قولُهُ: (مِنْ عَذَابِهِ) الأولى: ممَّا أرادَ بكَ.

قولُهُ: (القُرآنُ) أو اتِّباعُ الشَّريعةِ.

قولُهُ: (مَعَالِمُ) بيِّناتٌ تبصِّرُهُم وجهَ الفلاحِ.

قولُهُ: (بالبَعثِ) أو يطلبونَ اليَقينَ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: هَمزَةِ الإنكَارِ) يعني: ﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، ومعنى الهمزةِ فيها: إنكارُ الحِسبانِ.

قولُهُ: (اكتَسَبُوا) ومنه الجارحَةُ.

---

(١) «أي ذلك الأمر» لعل الصواب: أو ذلك. . .، أي: فما اختلفوا في ذلك الأمر إلا من بعد ما جاءهم العلم بحقيقة الحال.

الكُفرَ والمعاصيَ ﴿أن نَجعَلَهُم كالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، سَواءٌ﴾: خبرٌ ﴿مَحياهُم ومَماتُهُم﴾؟ مبتدأ ومعطوف، والجملة: بدل من الكاف، والضميران للكُفّار. المعنى: أحسِبوا أن نجعلهم في الآخرة في خير كالمُؤمنين؟ أي: في رغَد من العيش مساوٍ لعيشهم في الدنيا، حيثُ قالوا للمؤمنين: لئن بُعثنا لَنُعطَيَنَّ من الخير مِثلَ ما تُعطَون.

قال تعالى على وَفق إنكاره بالهمزة: ﴿ساءَ ما يَحكُمُونَ﴾! أي: ليس الأمر كذلك، فهم في الآخرة في العذاب على خِلاف عيشهم في الدنيا، والمُؤمنون في الآخرة في الثواب بعملهم الصالحاتِ في الدنيا من الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك. وما: مصدريّة، أي: بئس حُكمًا حُكمُهم هذا! ٢٢ ـ ﴿وخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ﴾: مُتعلّق بـ «خلق»، ليدلّ على قُدرته ووحدانيّته، ﴿ولِتُجزَى كُلُّ نَفسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ من المعاصي والطاعات، فلا يُساوي الكافرُ المؤمنَ، ﴿وهُم لا يُظلَمُونَ﴾.

٢٣ ـ ﴿أفرَأَيتَ﴾: أخبِرْني ﴿مَنِ اتَّخَذَ إلـٰهَهُ هَواهُ﴾: ما يهواه من حجَر بعد حجَر يراه أحسنَ، ﴿وأَضَلَّهُ اللهُ علَى عِلمٍ﴾ منه ـ تعالى ـ أي: عالمًا بأنه من أهل الضلالة قبل خلقه، ﴿وخَتَمَ علَى سَمعِهِ وقَلبِهِ﴾، فلم يسمعِ الهدى ولم يعقله فلا يتفكّر في الآيات، ﴿وجَعَلَ علَى بَصَرِهِ غِشاوةً﴾: ظُلمة فلم يُبصرِ الهُدى؟ ويُقدَّر هنا المفعول الثاني لـ «رأيت» أي: أيهتدي؟ ﴿فمَن يَهدِيهِ مِن بَعدِ اللهِ﴾ أي: بعدِ إضلاله إيّاه؟ أي: لا يهتدي. ﴿أفلا تَذَكَّرُونَ﴾: تتّعظون؟ فيه إدغام إحدى التاءين في الذال.

قولُهُ: (مِنَ الكَافِ) ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ: ﴿سواءً﴾[1] بالنَّصبِ على البدلِ، أو الحالِ من الضَّميرِ في الكافِ، أو المفعوليَّةِ والكافُ حالٌ.

قولُهُ: (أنْ نَجْعَلَهُم) أي: نصيِّرَهُم.

قولُهُ: (حُكْماً) أي: شيئاً حَكَمُوا به.

قولُهُ: (حُكْمُهُم هَذا) الأظهرُ: ذلكَ.

قولُهُ: (لِيَدُلَّ) إشارةٌ إلى علَّةٍ مقدَّرةٍ عطفَ عليها ﴿لتُجزَى﴾.

قولُهُ: (مَا يَهوَاهُ) أي: مَهْوِيَّه؛ أي: تركَ متابعَةَ الهدَى إلى مُطَاوعَةِ الهَوَى، فكأنَّهُ يعبدُهُ، وقُرِئَ: (آلهةً)[2]؛ لأنَّه كانَ أحدُهُم يستحسِنُ حجراً فيعبدُهُ، فإذا رأى أحسنَ منه رفضَهُ إليه، فتفسيرُ الشَّيخِ يلائمُ الشَّاذَّةَ.

قولُهُ: (فيهِ إدغَامُ) وفيه تركُهُ لحفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ[3].

---

(١) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٢).

(٢) وهي قراءة شاذة، ونسبت للأعرج، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٣٤).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٨).

٢٤ ـ ٢٥ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: منكرو البعث: ﴿ما هِيَ﴾ أي: الحياةُ ﴿إلاّ حَياتُنا﴾ التي في ﴿الدُّنيا، نَمُوتُ ونَحيا﴾ أي: يموت بعض ويحيا بعض بأن يُولدوا، ﴿وما يُهلِكُنا إلاّ الدَّهرُ﴾ أي: مرور الزمان. قال تعالى: ﴿وما لَهُم بِذلِكَ﴾ المقولِ ﴿مِن عِلمٍ. إنْ﴾: ما ﴿هُم إلاّ يَظُنُّونَ. وإذا تُتلَى علَيهِم آياتُنا﴾، من القُرآنِ الدالّةُ على قُدرتنا على البعث ﴿بَيِّناتٍ﴾: واضحاتٍ حالٌ، ﴿ما كانَ حُجّتَهُم إلاّ أن قالُوا: ائتُوا بِآبائنا﴾ أحياءً، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ أنا نُبعث. ٢٦ ـ ﴿قُلِ: اللهُ يُحيِيكُم﴾ حين كنتم نُطفًا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُم، ثُمَّ يَجمَعُكُم﴾ أحياءً ﴿إلَى يَومِ القِيامةِ، لا رَيبَ﴾: شكَّ ﴿فِيهِ، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ وهم القائلون ما ذُكر ﴿لا يَعلَمُونَ﴾.

٢٧ ـ ﴿ولِلهِ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، ويَومَ تَقُومُ السّاعةُ﴾ يُبدل منه ﴿يَومَئذٍ يَخسَرُ المُبطِلُونَ﴾: الكافرون، أي: يظهر خُسرانهم بأن يصيروا إلى النار، ٢٨ ـ ﴿وتَرَى كُلَّ أُمّةٍ﴾ أي: أهلِ دِين ﴿جاثِيةً﴾ على الرُّكَب أو مُجتمعةً، ﴿كُلُّ أُمّةٍ تُدعَى إلَى كِتابِها﴾: كِتاب أعمالها، ويقال لهم: ﴿اليَومَ تُجزَونَ ما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ أي: جزاءه. ٢٩ ـ ﴿هذا كِتابُنا﴾: دِيوان الحَفَظة، ﴿يَنطِقُ علَيكُم بِالحَقِّ. إنّا كُنّا نَستَنسِخُ﴾: نُثبِت ونحفظ ﴿ما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾.

قولُهُ: (أي: الحَيَاةُ) أو الحالُ.

قولُهُ: (الَّتي) الظَّاهرُ: حياتُنا الدُّنيا الَّتي نحنُ فيها.

قولُهُ: (أي: يَمُوتُ بَعضٌ) أو: نكونُ أمواتاً نطفاً وما قبلَها ونَحيا بعدَ ذلك، ويحتملُ أنَّهم أرادُوا به التَّناسُخَ، فإنَّهُ عقيدةُ أكثرِ عبَدَةِ الأوثانِ.

قولُهُ: (المَقُولِ) إذ لا دليلَ لهم عليهِ.

قولُهُ: (واضِحَاتٍ) [أي: واضحاتٍ] الدِّلالةِ على خلافِ معتقَدِهِم، أو مبيِّناتٍ له.

قولُهُ: (أَحيَاءً) وإنَّما سمَّاهُ حجَّةً على حسبانِهِم ومساقِهِم.

قولُهُ: (لا شَكَّ) فإنَّ مَنْ قدِرَ على الابتداءِ[1] قَدرَ على الإعادةِ، والحكمَةُ اقتضَتِ الجمعَ للمُجَازاةِ، والوَعدُ المصدَّقُ [بالآيات] دلَّ على وقوعِها، وإنْ كانَ كذلك أمكنَ الإتيانُ بهم، لكنَّ الحكمَةَ اقتضَتْ أن يُعادُوا يومَ الجمعِ للجزاءِ.

قولُهُ: (دِيوَانُ الحَفَظَةِ) أضافَ صَحائِفَ أعمالِهِم إلى نفسِهِ لأنَّه أمَرَ الكتبَةَ أن يَكتُبوا فيها أعمالَهُم، وقولُهُ: (﴿يَنْطِقُ﴾) أي: يشهَدُ عليكم بما عمِلْتُم بلا زيادةٍ ونُقصانٍ.

قولُهُ: (نُثبِتُ) الظَّاهرُ: تَستَكتِبُ الملائكَةُ أعمالَكُم.

---

(١) في (م): «الإبداء».

٣٠ ـ ﴿فأمّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فيُدخِلُهُم رَبُّهُم في رَحْمتِهِ﴾: جنّته ـ ﴿ذلِكَ هُوَ الفَوزُ المُبِينُ﴾: البيّن الظاهر ـ ٣١ ـ ﴿وأمّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم: ﴿أفلَم تَكُنْ آياتِي﴾: القُرآنُ ﴿تُتلَى علَيكُم، فاستكبَرتُم﴾: تكبّرتم، ﴿وكُنتُم قَومًا مُجرِمِينَ﴾ كافرين؟ ٣٢ ـ ﴿وإذا قِيلَ﴾ لكم أيّها الكُفّار: ﴿إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ، والسّاعةُ﴾ ـ بالرفع والنصب ـ ﴿لا رَيبَ﴾: شكَّ ﴿فِيها. قُلتُم: ما نَدرِي: ما السّاعةُ؟ إنْ﴾: ما ﴿نَظُنُّ إلاّ ظَنًّا﴾ ـ قال المُبرّد: أصله: إن نحن إلاّ نظنّ ظنًّا ـ ﴿وما نَحنُ بِمُستَيقِنِينَ﴾ أنها آتية.

٣٣ ـ ﴿وبَدا﴾: ظهر ﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا﴾ في الدنيا، أي: جزاؤها، ﴿وحاقَ﴾: نزل ﴿بِهِم ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ أي: العذابُ، ٣٤ ـ ﴿وقِيلَ: اليَومَ نَنساكُم﴾: نتركُكم في النار ﴿كَما نَسِيتُم لِقاءَ يَومِكُم هذا﴾ أي: كما تركتم العمل للقائه، ﴿ومأواكُمُ النّارُ، وما لَكُم مِن ناصِرِينَ﴾ منها.

قولُهُ: (جَنَّتِهِ) أي: الَّتي من جملَتِها الجنَّةُ.

قولُهُ: (فيُقَالُ لَهُم) ﴿أ﴾لم يأتِكُم رُسُلِي ﴿فلَمْ تَكُنْ﴾، فحُذِفَ القولُ والمعطوفُ عليه اكتفاءً بالمقصودِ واستغناءً بالقرينةِ.

قولُهُ: (تَكَبَّرتُم) عن الإيمانِ بها.

قولُهُ: (كَافِرِينَ) عادتُهُم الإجرامُ.

قولُهُ: (بالبَعثِ) يحتمِلُ الموعودَ والمصدرَ.

قولُهُ: (والنَّصبِ) حمزةُ[1] عطفاً على اسمِ: ﴿إنَّ﴾، وهو إفرادٌ للمقصودِ.

قولُهُ: (وأَصلُهُ) نظُنُّ ظنًّا، فأُدخِلَ حَرفا النَّفيِ والاستثناءِ لإثباتِ الظَّنِّ ونفيِ ما عداهُ، كأنَّهُ قالَ: ما نحنُ إلَّا نظنُّ ظنًّا.

قولُهُ: (أنَّها آتِيَةٌ) تأكِيدٌ.

قولُهُ: (فِي الدُّنيَا) وحسبوها حَسَناتٍ.

قولُهُ: (أي: العَذَابُ) وهو الجَزاءُ.

قولُهُ: (في النَّارِ) تَرْكَ ما يُنسَى.

قولُهُ: (لِلِقَائِهِ) من بابِ إضافَةِ المصدرِ إلى ظرفِهِ.

قولُهُ: (مِنهَا) يُخلِّصُونَكُم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٥).

٣٥ ـ ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذتُم آياتِ اللهِ﴾: القرآنَ ﴿هُزُوًا، وغَرَّتكُمُ الحَياةُ الدُّنيا﴾ حتّى قلتم: لا بعثَ ولا حساب. ﴿فاليَومَ لا يَخرُجُونَ﴾ ـ بالبناء للفاعل وللمفعول ـ ﴿مِنها﴾: من النار، ﴿ولا هُم يُستَعتَبُونَ﴾ أي: لا يُطلب منهم أن يُرضُوا ربَّهم بالتوبة والطاعة لأنها لا تنفع يومئذ.

٣٦ ـ ﴿فلِلّهِ الحَمدُ﴾: الوصفُ بالجميل على وفاء وعده في المُكذّبين، ﴿رَبِّ السَّماواتِ ورَبِّ الأرضِ رَبِّ العالَمِينَ﴾: خالقِ ما ذُكر ـ والعالَمُ: ما سِوى اللهِ، وجُمع لاختلاف أنواعه. ورَبِّ: بدل ـ ٣٧ ـ ﴿ولَهُ الكِبرِياءُ﴾: العظمة ﴿في السَّماواتِ والأرضِ﴾: حالٌ، أي كائنةً فيهما، ﴿وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾. تقدّمَ.

قولُهُ: (للفَاعِلِ) حمزَةُ والكسائيُّ[1].

قولُهُ: (مِنهُم) أن يُعتِبُوا؛ أي: يُرضوا.

قولُهُ: (في المُكَذِّبِينَ) ووعدِهِ للمصدِّقينَ.

قولُهُ: (و﴿رَبِّ﴾) الأوّلُ بدلٌ من: «اللهِ».

قولُهُ: (العَظَمَةُ) أي: ظهرَ فيهما آثارُها، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٠٨).

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

وتسمى: سورة الشريعة، وسورة الدهر ـ كما حكاه الكرمانيُّ في «العجائب» ـ لذكرهما فيها. وهي مكية، قال ابن عطية[1]: بلا خلاف. وذكر الماوردي[2]: إلا: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ [الآية: ١٤] فمدنية، وحُكي هذا الاستثناء في «جمال القرَّاء»[3] عن قتادة، وسيأتي الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى.

وهي سبع وثلاثون آية في الكوفي وستٌّ وثلاثون في الباقية، لاختلافهم في «حم» هل هي آية مستقلة أَوْ لا؟

ومناسبة أوَّلها لآخِر ما قبلها في غاية الوضوح.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١﴾ إنْ جُعِلَ اسماً للسورة فمحلُّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا مسمًّى بـ «حم». وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرٌ بعد خبر على أنه مصدر أُطلق على المفعول مبالغة، وقوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ صلته، أو خبر ثالث، أو حال من «تنزيل» عامِلُها معنى الإشارة، أو من «الكتاب» ـ الذي هو مفعولٌ معنًى ـ عامِلُها المضافُ.

وقيل: «حم» مبتدأ، وهذا خبره، والكلام على المبالغة أيضاً، أو تأويلِ

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ٧٩.
(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٦٠.
(٣) ١/ ١٣٨.

«تنزيل» بمنزل، والإضافة من إضافة الصفة لموصوفها. واعتبار المبالغة أولى، أي: المسمى به تنزيل. . إلخ.

وتُعقِّب بأن الذي يُجعل عنواناً للموضوع حقُّه أن يكون قبلَ ذلك معلومَ الانتساب إليه، وإذ لا عهد بالتسمية بعدُ فحقُّها الإخبار بها.

وجوَّز جارُ الله[1] جَعْلَ «حم» مبتدأ بتقدير مضاف، أي: تنزيل حم، و«تنزيل» المذكور خبره، و«من الله» صلته. وفيه إقامة الظاهر مُقام المُضمر إيذاناً بأنه الكتاب الكامل إن أُريد بالكتاب السورة، وفيه تفخيمٌ ليس في: تنزيلُ حم تنزيلٌ من الله، ولهذا لمَّا لم يُراع في «حم السجدة» هذه النكتة عقَّب بقوله تعالى: (كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ) لِيُفيد هذه الفائدة مع التفنُّن في العبارة. وإن أريد الكتاب كلُّه فللإشعار بأن تنزيلَه كإنزال الكلِّ في حصول الغرض من التحدِّي والتهدِّي، فدعوى عراءِ هذا الوجهِ عن فائدةٍ يُعتَدُّ بها عراءٌ عن إنصافٍ يُعتَدُّ به.

وإن جعل تعديداً[2] للحروف فلا حظَّ له من الإعراب، وكان «تنزيل» خبرَ مبتدأ مُضمرٍ يلوِّح به ما قبلَه، أي: المؤلَّفُ من جنس ما ذكر تنزيلُ الكتاب، أو مبتدأ خبرُه الظرف بعدَه، على ما قاله جارُ الله[3].

وقيل: «حم» مقسم به، ففيه حرف جرٍّ مقدَّر، وهو في محل جرٍّ أو نصب على الخلاف المعروف فيه، و«تنزيل» نعت مقطوع، فهو خبر مبتدأ مقدَّر، والجملة مستأنفة، وجواب القَسَم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ وهو على ما تقدَّم استئنافٌ للتنبيه على الآيات التكوينية.

وجُوِّز أن يكون «تنزيل الكتاب من الله» مبتدأ وخبراً، والجملة جوابُ القَسَم، وهو خلاف الظاهر. وقيل: يقدر «حم» على كونه مقسماً به مبتدأ محذوف الخبر، أي: حم قَسمي، ويكون «تنزيل» نعتاً له غير مقطوع.

وعلى سائر الأوجه قولُه سبحانه: «العزيز الحكيم» نعتٌ للاسم الجليل.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٠٨.

(٢) قوله: وإن جعل تعديداً. . .، عطف على قوله في أول السورة: إن جعل اسماً للسورة. . .

(٣) المصدر السابق.

وجوَّز الإمام[١] كونه صفةً للكتاب، إلا أنه رجَّح الأول بعد احتياجه إلى ارتكاب المَجاز مع زيادة قرب الصفة من الموصوف فيه، وأوجبه أبو حيان[٢]؛ لما في الثاني من الفصل بين الصفة والموصوف الغير الجائز.

وقوله عز وجل: (إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ) إلخ يجوز أن يكون بتقدير مضاف، أي: إن في خلق السماوات، كما رواه الواحدي عن الزجاج[٣]؛ لِمَا أنه قد صرّح به في آية أُخرى، والقرآن يُفسِّر بعضُه بعضاً، ويناسبه قوله عز وجل: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ إلى آخره. ويجوز أن يكون على ظاهره، وحينئذ يكون على أحد وجهين: أحدهما: إن فيهما لآياتٍ، أي: ما فيهما من المخلوقات كالجبال والمعادن والكواكب والنَّيِّرين، وعلى هذا يكون قوله سبحانه: «وفي خلقكم» من عطف الخاصِّ على العامِّ. والثاني: إن أنفسهما لآيات لِمَا فيها من فنون الدلالة على القادر الحكيم جل شأنه، وهذا أظهرُ، وهو أبلغُ من أن يقال: إنَّ في خَلْقِهما لآيات، وإن كان المعنى آيلاً إليه. و«في خلقكم» خبرٌ مقدَّم.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ عطف على «خلق»، وجوِّز في «ما» كونها مصدريةً وكونها موصولةً؛ إما بتقدير مضاف، أي: وفي خلق ما ينشره ويُفرِّقه من دابة، أو بدونه. وجوِّز عطفه على الضمير المتصل المجرور بالإضافة، و«ما» موصولة لا غير على الظاهر، وهو مبنيٌّ على جواز العطف على الضمير المتصل المجرور من غير إعادة الجارِّ، وذلك مذهب الكوفيين ويونس والأخفش؛ قال أبو حيان[٤]: وهو الصحيح، واختاره الأستاذ أبو علي الشلوبين. ومذهب سيبويه وجمهور البصريين منعُ العطف المذكور سواء كان الضميرُ مجروراً بالحرف أو بالإضافة؛ لشدَّة الاتصال فأَشْبَهَ العطفَ على بعض الكلمة.

وذكر ابن الحاجب في «شرح المفصل» في باب الوقف منه أن بعض النحويين

(١) في التفسير الكبير ٢٧/ ٢٥٦.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٢.
(٣) معاني القرآن ٤/ ٤٣١، والوسيط ٤/ ٩٤.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٢.

يُجوِّزون العطف في المجرور بالإضافة دون المجرور بالحرف؛ لأنَّ اتصال المجرور بالمضاف ليس كاتصاله بالجارِّ؛ لاستقلال كلٍّ واحد منهما بمعناه، فلم يشتدَّ اتصالُه فيه اشتدادَه مع الحرف، وأجاز الجَرْميُّ والزيادي[1] العطف إذا أُكِّد الضمير المتصل بمنفصلٍ، نحو: مررت بك أنت وزيد.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخَّر، والجملة معطوفة على جملة «إنَّ في السماوات» إلخ.

وقرأ أُبيّ وعبد الله: «لآيات» باللام، كذا في «البحر»[2]، ولم يُبين أن «آيات» مرفوع أو منصوب، فإن كان منصوباً فاللام زائدةٌ في اسم «إنَّ» المتقدِّم عليه خبرُها، وهو أحد مواضع زيادته المطَّردة الكثيرة، وإن كان مرفوعاً فهي زائدة في المبتدأ، ويقلُّ زيادتها فيه، وحسَّن زيادتَها هنا تقدُّم «إنَّ» في الجملة المعطوف عليها، فهو كقوله:

إنَّ الخلافة بعدَهم لذميمةٌ وخلائفٌ طُرُفٌ لممَّا أَحقِرُ[3]

وقرأ زيد بن علي: «آية» بالإفراد[4]. وقرا الأعمش والجحدري وحمزة والكسائي ويعقوب: «آياتٍ» بالجمع والنصب[5] على أنها عطف على «آيات» السابق الواقع اسماً؛ لأن «وفي خلقكم» معطوفٌ على «في السماوات» فكأنه قيل: وإن في خَلْقكم وما يبثُّ من دابة آياتٍ.

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ أي: من شأنهم أن يُوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بالجرِّ على إضمار «في»، وقد قرأ عبد الله بذِكْره[6].

---

(١) هو إبراهيم بن سفيان الزيادي، أبو إسحاق، قرأ على الأصمعي وغيره، له كتاب: شرح نكت سيبويه، وكتاب الأمثال. مات سنة (٢٤٩هـ). بغية الوعاة ١/ ٤١٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٢.

(٣) البيت لحميد بن ثور الهلالي كما في تفسير الطبري ٢١/ ٧٣، وهو مما أنشده الكسائي كما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٥.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٢.

(٥) قراءة حمزة والكسائي ويعقوب في التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٤٣.

وجاء حذفُ الجارِّ مع إبقاء عمله كما في قوله:

إذا قيل أيُّ الناس شرٌّ قبيلة أشارتْ كليبٍ بالأكُفِّ الأصابعُ(١)

وحسَّن ما هنا ذكر الجارِّ في الآيتين قبلُ.

وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره «آيات»(٢) بعدُ، والمراد باختلافهما تَعاقُبُهما أو تفاوتُهما طولاً وقِصَراً، وقيل: اختلافهما في أنَّ أحدهما نور والآخر ظُلمة.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ عطف على «اختلاف». ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جهة العلوِّ، وقيل: السحاب، وقيل: الجِرْم المعروف بضربٍ من التأويل.

﴿مِن رِّزْقٍ﴾ من مطر، وسُمِّي رزقاً؛ لأنه سببه، فهو مجاز، ولو لم يؤوَّل صحَّ؛ لأنه في نفسه رزق أيضاً.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بأن أخرج منها أصنافَ الزروع والثمرات والنبات. والسببية عادية اقتضتها الحِكمة.

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يَبَسها وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ من جهة إلى أُخرى، ومن حال إلى حال، وتأخيرُه عن إنزال المطر مع تقدُّمه عليه في الوجود، إما للإيذان بأنه آيةٌ مستقلة حيث لو رُوعي الترتيب الوجودي لربما تُوُهِّم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آيةً ليس بمجرد كونه مبدأً لإنشاء المطر، بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السُّفن في البحار.

وقرأ زيد بن علي وطلحة وعيسى: «وتصريف الريح» بالإفراد(٣).

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدَّم من الجارِّ والمجرور، أعني: «في اختلاف» على ما سمعت. والجملة معطوفةٌ على ما قبلَها.

---

(١) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٢٠، وسلف ٢٤/ ٣٤٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ١٤٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٨٠، وهي أيضاً قراءة حمزة والكسائي وخلف من العشرة. التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

وقيل: إن «اختلاف» بالجرِّ عطف على «خَلْقِكم» المجرور بـ «في» قبله، و«آيات» عطف على «آياتٌ» السابق المرفوع بالابتداء. وفيه العطفُ على معمولي عاملين مختلفين. ومن الناس من يمنعه، وهم أكثرُ البصريين، ومنهم من يُجيزه، وهم أكثر الكوفيين، ومنهم من يفصِّل فيقول: هو جائزٌ في نحو قولك: في الدار زيدٌ والحجرةِ عمرو، وغير جائز في نحو قولك: زيد في الدار وعمرو الحجرةِ؛ لأن الأول يلي المجرورُ فيه العاطفَ، فقام العاطف مقامَ الجارِّ، والثاني لم يَلِ فيه المجرور العاطف، فكان فيه إضمار الجارِّ من غير عوض، وتمام الكلام في هذه المسألة في محلِّه.

وقيل: إن «اختلاف» عطف على المجرور قبلَه، و«آيات» خبر مبتدأ محذوف، أي: هي آيات؛ واختاره مَن لم يُجوِّز العطف على معمولي عاملين، ويقول بضَعْفِ حذف الجارِّ مع بقاء عمله وإن تقدَّمه ذكرُ جارٍّ.

وقال أبو البقاء: «آيات» مرفوع على التأكيد لـ «آيات» السابق، وهم يُعيدون الشيء إذا طال الكلام في الجملة للتأكيد والتذكير[(١)]. وتُعقِّب بأن ذلك إنما يكون بعين ما تقدَّم، واختلافُ الصفات يدلُّ على تغاير الموصوفات، فلا وجهَ للتأكيد، وأيضاً فيه الفصل بين المعطوف المجرور والمعطوف عليه، وبين المؤكِّد والمؤكَّد، وهو إن جاز يُورث تعقيداً يُنافي فصاحة القرآن العظيم.

وقرأ: «آياتٍ» هنا بالنصب من قرأها هناك به[(٢)]، فهي مفعول لفعل محذوف، أي: أعني آيات.

وقيل: العاطف في قوله تعالى: «واختلاف» عَطَفَ «اختلاف» على المجرور بـ «في» قبلُ، وعطفها على اسم «إن». وهو مبنيٌّ على جواز العطف على معمولي عاملين.

وقال أبو البقاء: هي منصوبة على التأكيد والتكرير لاسم «إنَّ» نحو: إن بثوبك

(١) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٣١٤.
(٢) قرأ بالنصب حمزة والكسائي ويعقوب كما أشير إليه سابقاً.

دماً وبثوب زيدٍ دماً[1]. ومرَّ آنفاً ما فيه.

وقال بعضهم: إنها اسم «إنَّ» مضمرة، وهي قد تُضمر ويبقى عملُها؛ ذكر أبو حيان في «الارتشاف» في الكلام على: إنَّ من خير الناس أو خيرهم زيد: أن محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدي ذهب إلى نصب خيرهم، ورَفْع زيد، فاسم «إنَّ» محذوفٌ، وأو خيرهم، منصوبٌ بإضمار «إنَّ» لدلالة «إنَّ» المذكورة، تقديره: إن من خير الناس زيداً أو إن[2] خيرَهم زيد.

وقد أقرَّ الشاطبيُّ تخريجَ النصب في الآية على ذلك، لكنْ نَقَله السفاقسيُّ عن أبي البقاء[3] ورَدَّه بأنَّ «إنَّ» لا تُضْمَر.

وقال ابن هشام في آخر الباب الرابع من «المغني»[4]: إنه بعيد. والظاهر أنه لا بدَّ عليه من إضمار الجارِّ في «اختلاف» وحينئذ لا يخفى حاله.

وسائر القراءات مرويةٌ هنا عمّن رُويت عنه فيما تقدَّم، وتنكير «آيات» في الآيات للتفخيم كمًّا وكيفاً، والمعنى: إن المُنصِفين من العباد إذا نظروا في السماوات والأرض النظرَ الصحيح علموا أنها مصنوعةٌ وأنها لا بدَّ لها من صانع، فآمنوا بالله تعالى وأقرُّوا، وإذا نظروا في خَلْق أنفسهم وتنقُّلها من حال إلى حال وهيئة إلى أُخرى، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدَّد في كلِّ وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بعد موتها وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً، وقَبولاً ودَبُوراً، وشدَّة وضعفاً، وحرارة وبرودة، عقلوا واستحكم عِلْمهم وخلصَ يقينهم، كذا في «الكشاف»[5]، ومنه يعلم نكتة اختلاف الفواصل.

وفي «الكشف» أنه ذكر ما حاصله أنه على سبيل الترقِّي، وهو يوافق ما عليه الصوفية وغيرهم من أن الإيقان مرتبةٌ خاصة في الإيمان، ثم العقلُ لمَّا كان

---

(١) الإملاء ٤/ ٣١٤.

(٢) في (م): وإن، بدل: أو إن، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.

(٣) الإملاء ٤/ ٣١٣.

(٤) ص٦٣٣.

(٥) ٣/ ٥٠٩.

مدارَهما ـ أي: الإيمان والإيقان، ونعني به العقل المؤيَّد بنور البصيرة جعله ـ لخُلوص الإيقان من اعتراء الشكوك من كلِّ وجه، ففي استحكامه كلُّ خير، ورُوعي في ترتيب الآيات ما رُوعي في ترتيب المراتب الثلاث من تقديم ما هو أقدمُ وجوداً، ولا يلزم أن تكون الآيةُ الثانية أعظمَ من الأُولى، ولا الثالثة من الثانية؛ لما ذكره من أن الجامع بين النظرين مُوقِن، وبين الثلاثة عاقل، على أنها كذلك في تحصيل هذا الغرض، فإن كانت أعظم من وجه آخر فلا بأس، فإن النظرَ إلى حال نفسه وما هو من نوعه ثم جنسِه من سائر الأناسيِّ والحيوان للقرب والتكرُّر وكَثْرة العدد أدخلُ في انتفاء الشك وحصول اليقين، وإن كان النظر في السماء والأرض أتمَّ دلالة على كمال القُدرة والعلم، فذلك لا يضرُّ ولا هو المطلوب هاهنا، ثم النظر إلى الاختلاف المذكور أدلُّ على استحكام ذلك اليقين من حيث إنه يتجدَّد حيناً فحيناً ويبعث على النظر والاعتبار كلما تجدَّد هذا. والتحقيق أن تمامَ النظر في الثاني يضطر إلى النظر في الأول، لأن السماوات والأرض من أسباب تكوُّن الحيوان بوجه، وكذلك النظر في الثالث يضطر إلى النظر في الأولين، أما على الأول فظاهر، وأما على الثاني فلأنه العلة الغائية فلا بدَّ من أن يكون جامعاً. انتهى. وهو كلام نفيس جدًّا.

وقال الإمام[1] في ترتيب هذه الفواصل: أظنُّ أنَّ سببه أنه قيل: إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل كنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقلَّ من أن تكونوا من زمرة العاقلين، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل.

ولا يخفى أنه فاته ذلك التحقيق، ولم يختر الترقِّي، وهو بالاختيار حقيق.

والمُغايرة بين ما هنا وما في سورة البقرة أعني: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ الآية [١٦٤] للتفنُّن، والكلام المُعجز مملوء منه.

وذكر الإمام في ذلك ما لا يهشُّ له السامع. فتأمل.

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٥٩.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ حال، عاملها معنى الإشارة نحو ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود:٧٢] على المشهور. وقيل: هو الخبر، و«آيات الله» بدل أو عطف بيان، وقوله سبحانه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من فاعل «نتلوها» أو من مفعوله، أي: نتلوها مُحقِّين أو ملتبسة بالحقِّ، فالباء للملابسة، ويجوز أن تكون للسببية الغائية. والمراد بالآيات المشار إليها إما آيات القرآن أو السورة، أو ما ذُكر قبلُ من السماوات والأرض وغيرهما، فتلاوتها بتلاوة ما يدلُّ عليها. وفُسِّرت بالسرد، أي: نسردُها عليك.

وقال ابن عطية[١]: الكلام بتقدير مضاف، أي: نتلوا شأنها وشأن العبرة بها.

وقرئ: «يتلوها» بالياء[٢] على أن الفاعل ضميره تعالى. والمراد على القراءتين تلاوتها عليه ﷺ بواسطة المَلَك عليه السلام.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ هو من باب قولهم: أعجبني زيدٌ وكَرَمُه، يُريدون: أعجبني كرمُ زيد، إلا أنهم عَدَلوا عنه للمبالغة في الإعجاب، أي: فبأيِّ حديث بعد هذه الآيات المتلوَّة بالحقِّ يؤمنون، وفيه دلالةٌ على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان، ولا آية أدلّ من هذه الآية.

وتفخيمُ شأن الآيات من اسم الإشارة، وإضافتِها إلى الله عز وجل، وجَعْلِ «نتلوها» حالاً مع ضمير التعظيم، ثم تكريرِ الاسم الجليل للنكتة المذكورة، وإضافتها إليه بواسطة الضمير مرة أخرى.

وقد ذكر ذلك الزمخشري[٣]، وتعقَّبه أبو حيان[٤] بأنه ليس بشيء، لأن فيه من حيث المعنى إقحامَ الأسماء من غير ضرورة والعطفَ، والمراد غير العطف من إخراجه إلى باب البدل، لأن تقدير: كَرَمُ زيدٍ، إنما يكون في: أعجبني زيدٌ كَرَمُه،

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٨٠.
(٢) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٩.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٩.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٤.

بغير واو على البدل، وهذا قلبٌ لحقائق النحو، وإنما المعنى في المثال: إن ذات زيد أعجبته وأعجبه كرمه، فهما إعجابان لا إعجابٌ واحد.

وهو مبنيٌّ على عدم التعمُّق في فهم كلام جارِ الله. ومَن تعمَّق فيه لا يرى أنه قائل بالإقحام، وإنما بيان حاصل المعنى يُوهمه، وبين هذه الطريقة وطريقة البدل مُغايرة تامَّة، فقد ذكر أن فائدة هذه الطريقة ـ وهي طريقة إسناد الفعل إلى شيء والمقصود إسنادُه إلى ما عطف عليه ـ قوةُ اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه من جهة الدلالة على أنه صار من التلبُّس بحيث يصحُّ أن يُسند أوصافه وأفعاله وأحواله إلى الأول قصداً لأنه بمنزلته، ولا كذلك البدل؛ لأنَّ المقصود فيه بالنسبة هو الثاني فقط، وهنا هما مقصودان.

فإن قلتَ: إذا لم يكن ذلك الوصف منسوباً للمعطوف عليه لزم إقحامُه كما قال أبو حيان، وما يذكر من المبالغة لا يدفع المحذور، وعلى فَرْضِ تسليمه فدلالتُه على ما ذكر بأيِّ طريقٍ من طرق الدلالة المشهورة.

أُجيبَ بأنه غير منسوب إليه في الواقع، لكنْ لمَّا كان بينهما ملابسةٌ تامة من جهةٍ ما، ككون الآيات هاهنا بإذنه تعالى أو مَرْضِيةً له عز وجل جعل كأنه المقصود بالنسبة، وكنى بها عن ذلك الاختصاص كنايةً إيمائية، ثم عطف عليه المنسوب إليه وجعل تابعاً فيها، وبهذا غاير البدل مُغايرة تامة غفل عنها المعترض، فالنسبة بتمامها مجازية. كذا قرَّره بعضُ المُحقِّقين[1].

وقال الواحدي: أي: فبأيِّ حديث بعد حديث الله[2]، أي: القرآن، وقد جاء إطلاقه عليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] وحسن الإضمار لقرينة تقدُّم الحديث، وقوله سبحانه: «وآياته» عطف عليه لتغايرهما إجمالاً وتفصيلاً، لأن الآيات هي ذلك الحديث ملحوظ الأجزاء، وإن أُريد ما بُيِّن فيه من الآيات والدلائل فليس من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأن الآياتِ ليست من

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٦.
(٢) الوسيط ٤/ ٩٥، وفيه: . . . بعد كتاب الله.

القرآن، وإنما وَجْهُ دلالتها وإيرادها منه، فيكون في هذا الوجه الدلالة أيضاً على حال البيان والمبين كما في الوجه الأول.

وقال الضحاك: أي: فبأيِّ حديث بعد توحيد الله، ولا يخفى أنه بظاهره مما لا معنى له، فلعله أراد: بعد حديث توحيده تعالى، أي: الحديث المتضمِّن ذلك، أو هو بعد تقدير المضاف من باب: أعجبني زيدٌ وكرمه.

وأيَّاما كان فالفاء في جواب شرط مقدَّر، والظرف صفة «حديث» وجُوِّز أن يكون متعلقاً بـ «يؤمنون» قُدِّم للفاصلة.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي: «تؤمنون» بالتاء الفوقانية[1]، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ بحسب الظاهر والصورة، وإلا فالمرادُ هنا الكفار بخلاف ذلك.

وقرأ طلحة: «توقنون» بالتاء الفوقانية والقاف، من الإيقان[2].

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كثير الإفك، أي: الكذب ﴿أَثِيمٍ ⑦﴾ كثير الإثم، والآية نزلت في أبي جهل، وقيل: في النضر بن الحارث، وكان يشتري حديثَ الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن[3]، لكنها عامةٌ كما هو مقتضى كلٍّ، ويدخل من نزلت فيه دخولاً أوليًّا، و«أثيم» صفة «أفَّاك»، وقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ أخرى له، وقيل: استئناف، وقيل: حال من الضمير في «أثيم».

وقوله سبحانه: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال من «آيات الله»، ولم يجوَّز جعلُه مفعولاً ثانياً لـ «يسمع»؛ لأن شرطَه أن يكون ما بعدَه مما لا يسمع، كسمعت زيداً يقرأ.

والظاهر أن المرادَ بـ «تتلى» الاستمرار، لأنه المناسب للاستبعاد المدلول عليه بقوله عز وجل ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ فإن «ثم» لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات، وهي للتراخي الرُّتبي، ويمكن إبقاؤه على حقيقته إلا أن الأولَ أبلغُ وأنسبُ بالمقام، ونظير ذلك في الاستبعاد قول جعفر بن عُلْبَة:

---

(١) التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٤.

(٣) ينظر تفسير القرطبي ١٩/ ١٤٦.

لا يكشف الغماء إلا ابن حُرَّة يرى غَمرات الموتِ ثم يزورها[١]

والإصرار على الشيء: ملازمته وعدم الانفكاك عنه، من الصرّ، وهو الشَّدُّ، ومنه: صُرَّة الدراهم، ويقال: صرَّ الحمارُ أُذنيه ـ ضمَّهما ـ صرًّا، وأصرَّ الحمار، ولا يقال: أُذنيه، على ما في «الصحاح»[٢]، وكأنَّ معناه حينئذ: صار صارًّا أُذنيه.

والمراد هنا: ثم يُقيم على كُفره وضلاله ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات، وهو حالٌ من ضمير «يُصر»، وقوله سبحانه: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال بعد حال، أو حال من ضمير «مستكبراً»، وجُوِّز الاستئناف، و«كأنْ» مخفَّفة من «كأنَّ» بحذف إحدى النونين، واسمها ضمير الشأن، وقيل: لا حاجةَ إلى تقديره كما في «أن» المفتوحة، والمعنى: يُصِرُّ مستكبراً مثلَ غير السامع لها.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑧﴾ على إصراره ذلك، والبشارة في الأصل: الخبرُ المُغيِّر للبَشَرة خيراً كان أو شرًّا، وخصَّها العُرف بالخبر السارّ، فإن أُريد المعنى العُرفي فهو استعارةٌ تهكُّميَّة، أو هو من قَبيل:

تحيةُ بينهم ضربٌ وجيع[٣]

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلِّها ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، وجُوِّز أن يكون المعنى: وإذا عَلِمَ من آياتنا شيئاً يُمكن أن يتشبَّث به المعاندُ ويجد له محملاً يتسلَّق به على الطعن والغميزة افترصه[٤] واتَّخذ آياتِ الله تعالى هُزواً، وذلك نحو اعتراض ابن الزِّبعرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] ومغالطته رسول الله ﷺ وقوله على ما في بعض الروايات:

(١) البيت في الحماسة البصرية ١/ ٤٦، وسلف ٢١/ ١٦٦.
(٢) الصحاح (صرر).
(٣) الكتاب ٢/ ٣٢٣، وخزانة الأدب ٩/ ٢٦٥، وسلف ٤/ ٦٢ وصدره: وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيل. قال البغدادي: وهذا البيت نسبه شراح أبيات الكتاب وغيرهم لعمرو بن معد يكرب الصحابي، ولم أره في شعره.. وينظر تتمة كلامه في الخزانة.
(٤) أي: انتهزه. القاموس (فرص).

خصمتك[١]. فضمير «اتخذها» على الوجهين للآيات، والفرق بينهما أن «شيئاً» على الثاني فيه تخصيصٌ؛ لقرينة «اتخذها هزواً» إذْ لا يحتمل إلا ما يحسن أن يُخيَّل فيه ذلك، ثم يجعله دستوراً للباقي فيقول: الكلُّ من هذا القَبيل، وفرِّق بين الوجهين أيضاً بأن في الأول الاتخاذ قبل التأمُّل، وفي الثاني بعدَه وبعدَ تمييز آية عن أخرى. وقيل: الاستهزاء بما علمه من الآيات إلا أنه أَرجع الضمير إلى الآيات، لأنَّ الاستهزاء بواحدة منها استهزاءٌ بكلِّها لما بينها من التماثل.

وجُوِّز أن يرجع الضمير إلى «شيء»، والتأنيث لأنه بمعنى الآية، كقول أبي العتاهية:

نفسي بشيءٍ من الدنيا معلَّقةٌ اللهُ والقائمُ المهديُّ يَكفيها[٢]

يعني الشيء، وأراد به عُتْبَة جاريةً للمهدي من حظاياه، وكان أبو العتاهية يهواها فقال ما قال.

وقرأ قتادة ومطر الورَّاق: «عُلِّم» بضمِّ العين وشدِّ اللام مبنيًّا للمفعول[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى كلِّ أفَّاك من حيث الاتِّصاف بما ذُكر من القبائح، والجمع باعتبار الشُّمول للكلِّ كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣] كما أن الإفراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كلِّ واحد واحد، وأداة البعد للإشارة إلى بُعد منزلتهم في الشرِّ ﴿لَهُمْ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾ وصف العذاب بالإهانة توفية لحقِّ استكبارهم واستهزائهم بآيات الله عز وجل.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: من قُدَّامهم، لأنهم متوجِّهون إليها، أو من خِلْفهم لأنهم مُعْرِضون عن الالتفات إليها والاشتغال عمَّا يُنجيهم منها، مُقبلون على الدنيا والانهماك في شهواتها، والوراء تُستعمل في هذين المعنيين، لأنها اسمٌ للجهة التي يُواريها الشخص فتعمُّ الخَلْف والقُدَّام. وقيل في توجيه الخَلفية: إن جهنم لمَّا كانت تتحقَّق لهم بعد الأجل جعلت كأنها خَلْفهم.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٠.

(٢) ديوان أبي العتاهية ص٦٦٨، ومعاهد التنصيص ٢/ ٢٩٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٨.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم﴾ ولا يدفع ﴿مَّا كَسَبُوا﴾ أي: الذي كسبوه من الأموال والأولاد ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله تعالى، أو شيئاً من الإغناء، على أنَّ «شيئاً» مفعولٌ به، أو مفعول مُطلق.

﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا﴾ أي: الذي اتَّخذوه ﴿مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: الأصنام. وجوِّز أن تُفسَّر «ما» بما تعمُّها وسائر المعبودات الباطلة، والأول أظهر.

وجُوِّز في «ما» في الموضعين أن تكون مصدرية، وتوسيط حرفي النفي بين المعطوفين مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً = مبنيٌّ على زعمهم الفاسد حيث كانوا يَطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكُّم.

﴿وَلَهُمْ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ لا يُقادر قَدره.

﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن، كما يدلُّ عليه ما بعد، وكذا ما قبل ك«يسمع آيات الله»، و«إذا علم من آياتنا»، و«تلك آيات الله نتلوها» ﴿هُدًى﴾ في غاية الكمال من الهداية، كأنه نفسها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني القرآن أيضاً على أنَّ الإضافة للعهد، وكان الظاهر الإضمار لكن عدل عنه إلى ما في النظم الجليل لزيادة تشنيع كُفرهم به وتفظيع حالهم؛ وجوز أن يُراد بالآيات ما يشمله وغيره ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ بالرفع صفة «عذاب» أُخِّر للفاصلة.

وقرأ غيرُ واحد من السبعة: «أليم» بالجرِّ على أنه صفة «رجز»[(١)]. وجَعْلُه صفةَ «عذاب» أيضاً والجرُّ للمجاورة مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه.

وقيل على قراءة الرفع: إن الرِّجْز بمعنى الرِّجْس الذي هو النجاسة، والمعنى: لهم عذاب أليم من تجرُّع رِجس، أو شرب رجس، والمراد به الصديد الذي يتجرَّعه الكافر ولا يكاد يُسيغه. ولا داعي لذلك كما لا يخفى.

وتنوين «عذاب» في المواقع الثلاثة للتفخيم، ورفعه إما على الابتداء، وإما على الفاعلية للظرف.

---

(١) قرأ ابن كثير ويعقوب وحفص برفع الميم، وقرأ الباقون بخفضها. التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بأنْ جَعلَه أملسَ السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ بتسخيره تعالى إياه وتسهيل استعمالها فيما يراد بها، وقيل: بتكوينه تعالى أو بإذنه عز وجل. وسياق الامتنان يقتضي أن يكون المعنى: لتجري الفلك فيه وأنتم راكبوها.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك، وهذا ـ أعني: «الله الذي سخر» إلخ ـ ذكر تتميماً للتقريع، ولهذا رتّب عليه الأغراض العاجلة، فإنه مما يستوجب الشكر غالباً للكافر أيضاً، فكأنه قيل: تلك الآيات أولى بالشُّكر، ولهذا عقَّب بما يعمُّ القسمين، أعني قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الموجودات، بأن جعل فيها منافع لكم منها ظاهرة ومنها خفيَّة، وعقَّب بالتفكُّر لينبِّه على أن التفكُّر هو الذي يؤدِّي إلى ما ذكر من الأولوية، ويدلّ به على أن التفكُّر ملاكُ الأمر في ترتيب الغرض على ما جعل آية من الإيمان والإيقان والشُّكر.

﴿جَمِيعًا﴾ حال من «ما في السماوات وما في الأرض» أو توكيدٌ له. وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُ﴾ حال من ذلك أيضاً، والمعنى: سخَّر هذه الأشياء جميعاً كائنة منه وحاصلة من عنده، يعني أنه سبحانه مُكوِّنها ومُوجِدُها بقدرته وحكمته، ثم مُسخِّرها لخلقه.

وجُوِّز فيه أَوْجُهٌ أُخَرُ: الأول: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، فقيل: «جميعاً» حينئذ حال من الضمير المستتر في الجارِّ والمجرور بناءً على جواز تقدُّم الحال على مثل هذا العامل، أو من المبتدأ بناءً على تجويز الحال منه، أي: هي جميعاً منه تعالى. وقيل: «جميعاً» على ما كان، ويلاحظ في تصوير المعنى، فالضمير المبتدأ يُقدَّر بعده، ويعتبر رجوعه إلى ما تقدَّم بقيد «جميعاً». والجملة على القولين استئناف جيء به تأكيداً لقوله تعالى: «سخر»، أي: إنه عز وجل أوجدها ثم سخَّرها، لا أنها حصلت له سبحانه من غيره كالملوك.

الثاني: أن يجعل «ما في السماوات» مبتدأ ويكون هو خبره، و«جميعاً» حال من الضمير المستتر في الجارِّ والمجرور الواقع صلة، ويكون «وسخَّر لكم» تأكيداً للأول، أي: سخَّر وسخَّر، وفي العطف إيماءٌ إلى أن التسخير الثاني كأنه غير الأول دلالة على أن المتفكِّر كلَّما فكَّر يزداد إيماناً بكمال التسخير والمِنَّة عليه،

وجملة «ما في السماوات» إلخ مستأنفة لمزيد بيان القُدرة والحِكمة.

واعترض بأنه إن أُريد التأكيد اللغوي فهو لا يخلو من الضعف، لأن عطف مثله في الجمل غير معهود، وإن أُريد التأكيد الاصطلاحي كما قيل به في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣-٤] فهو مخالفٌ لما ذكره ابن مالك في «التسهيل» من أن عطفَ التأكيد يختصُّ بـ «ثم»، وقال الرضي: يكون بالفاء أيضاً، وهو هاهنا بالواو[١]، ولم يُجَوِّزه أحدٌ منهم، وإن لم يذكروا وجهَ الفرق، على أنه قد تقرَّر في المعاني أنه لا يجري في التأكيد العطف مطلقاً لشدَّة الاتصال. واعترض أيضاً بأن فيه حذفَ مفعول «سخر» من غير قرينة، وهذا كما ترى.

الثالث: أن يكون «ما في الأرض» مبتدأ و«منه» خبره، ولا يخفى أنه ضعيفٌ بحسب المَساق.

وأخرج ابن المنذر من طريق عكرمة أن ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن يفسِّر هذه الآية[٢]. ولعله إنْ صح محمولٌ على أنه لم يَبسط الكلام فيها؛ فقد أخرج ابن جرير عنه أنه قال: فيها كلُّ شيء هو من الله تعالى[٣].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن المنذر والحاكم ـ وصحَّحه ـ والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن طاوس قال: جاء رجلٌ إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله: مِمَّ خُلِقَ الخَلْق؟ قال: من الماء والنور والظُّلمة والريح والتراب، قال: فممَّ خُلِقَ هؤلاء؟ قال: لا أدري، ثم أتى الرجلُ عبدَ الله بن الزبير فسأله، فقال مثلَ قول عبد الله بن عمرو، فأتى ابنَ عباس رضي الله عنهما فسأله: مم خُلِقَ الخَلْق؟ قال: من الماء والنور والظُّلمة والريح والتراب. قال: فمِمَّ خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي ﷺ[٤].

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٨.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٤.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٧٩.
(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢١٣، والمستدرك ٢/ ٤٥٢، والأسماء والصفات (٨٢٩).

واختلف أهل العلم فيما أراد ابن عباس ﵄ بذلك، فقال البيهقي: أراد أنَّ مصدرَ الجميع منه تعالى، أي: من خَلْقه وإبداعه واختراعه؛ خَلَقَ الماءَ أولاً، وما شاء عز وجل من خَلْقِهِ لا عن أصل ولا عن مثالٍ سبق، ثم جعله تعالى أصلاً لما خلق بعده، فهو جل شأنه المُبدع، وهو سبحانه البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه[1]. اهـ. وعليه جميع المُحدِّثين والمفسرين ومَن حذا حذوهم.

وقال الشيخ إبراهيم الكوراني من الصوفية: إن المخلوقات تعيُّنات الوجود المُفاض الذي هو صورة النفس الرحماني المسمَّى بالعَماء، وذلك أن العماء قد انبسط على الحقائق التي هي أمور عدمية متميزة في نفس الأمر، والانبساط حادثٌ، والعماء من حيث اقترانه بالماهيات غير ذات الحقّ تعالى، فإنه سبحانه الوجودُ المحض الغير المُقترن بها، فالموجودات صورٌ حادثة في العماء قائمةٌ به، والله تعالى قَيُّومها لأنه جل وعلا الأول الباطن المُمِدُّ لتلك الصور بالبقاء، ولا يلزم من ذلك قيام الحوادث بذات الحق تعالى، ولا كونه سبحانه مادة لها؛ لأن وجوده تعالى مجرد عن الماهيات غير مقترن بها، والمتعيِّن بحسبها هو العَماء الذي هو الوجود المفاض، فأراد ابن عباس أنَّ الأشياءَ جميعاً منه تعالى، أي: من نوره سبحانه المُضاف الذي هو العماء والوجود المفاض منه تعالى بإيجاده جل شأنه، وبهذا ينطبق الجواب على السؤال من غير تكلُّف ولا محذور، ولو كان مرادُ ابن عباس مجرَّد ما ذكره البيهقي من أن مصدرَ الجميع من خَلْقه تعالى كان يكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد:١٦] لكن السؤال إنما وقع بـ: ممَّ، ووقع الجواب بـ: منه في تلاوته الآية، فالظاهر أن ما فَهِمه السائل من تلاوته ﵁ ليس مجردَ ما ذكره، بقرينة مَدْحه بقوله: ما كان ليأتي بهذا.. إلخ، فإن ما ذكره البيهقي يعرفه كلُّ من آمن بقوله تعالى: «الله خالق كل شيء» فلا يظهر حينئذ وجهٌ لقول كلٍّ من ابن عمرو وابن الزبير: لا أدري، فإنهما من أفضل المؤمنين بأنَّ الله تعالى خالقُ كلِّ شيء، بل ما فهمه هو ما أشرنا إليه. اهـ. وعليه عامة أهل الوحدة.

وأجاب الأولون بأنَّ مرادَ ابن عباس قطع التسلسل في السؤال بعد ذكر مادةِ

---

(١) الأسماء والصفات عقب الخبر (٨٢٩) وفيه: خَلَقَ الماءَ أولاً أو الماء وما شاء من خَلْقِه...

لبعضها، بأنَّ مرجع الأمر أن الأشياء كلَّها خُلقت بقدرته تعالى لا من شيء، وهو كلامٌ حكيم يُمدح قائله لم يهتد إليه ابن الزبير وابن عمرو، ولا يُعكر على هذا قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور: ٣٥] لما قاله المفسِّرون فيه، وسيأتي إن شاء الله تعالى في محلِّه. فتأمل ذاك، والله تعالى يتولَّى هداك.

وقد أورد الحسين بن عليٍّ بن واقد في مجلس الرشيد هذه الآيةَ ردًّا على بعض النصارى في زعمه أن قوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] يدلُّ على ما يزعمه فيه عليه السلام من أنه ابنُ الله، سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفون.

وحكى أبو الفتح وصاحب «اللوامح» عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو والجحدري وعبد الله بن عُبيد بن عُمير أنهم قرؤوا: «مِنَّةً» بكسر الميم وشدِّ النون ونصب التاء على أنه مفعول له[(١)]، أي: سخَّر لكم ذلك نعمةً عليكم، وحكاها عن ابن عباس أيضاً ابن خالويه[(٢)]. لكن قال أبو حاتم[(٣)]: إن سند هذه القراءة إليه مظلم، فإذا صحَّ السندُ يمكن أن يُقال فيما تقدَّم من حديث طاوس: إنه ذكر الآية على قراءة الجمهور، ويحتمل أن له قراءتين فيها.

وقرأ مسلمة بن محارب كذلك إلا أنه ضمَّ التاء على تقدير: هو أو هي مِنَّةٌ، وعنه أيضاً فتح الميم وشدّ النون وهاءُ الكناية عائدة على الله تعالى[(٤)]، أي: إنعامه، وهو فاعل «سخَّر» على الإسناد المجازي، كما تقول: كَرَمُ الملك أنعشني، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا ـ أو هو ـ مَنُّه تعالى، وجُوِّزت الفاعلية في قراءته الأولى، وتذكير الفعل لأن الفاعل ليس مؤنَّثاً حقيقيًّا مع وجود الفاصل. والوجهُ الأول أَولى وإن كان فيه تقدير.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةَ الشأن كثيرة العدد ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ في بدائع صُنعه تعالى وعظائم شأنه جل شأنه، فإنَّ ذلك يجرُّهم إلى الإيمان والإيقان والشُّكر.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦٢.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٨.

(٣) كما في البحر المحيط ٨/ ٤٥.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٨٢.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ حُذِف المَقول لدلالة «يغفروا» عليه فإنه جوابٌ للأمر باعتبار تعلُّقه به لا باعتبار نفسه فقط، أي: قل لهم: اغفروا يغفروا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي: يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقَّعون وقائعه تعالى بأعدائه، ونقمتَه فيهم، فالرجاء مجازٌ عن التوقُّع، وكذا الأيام مجازٌ عن الوقائع من قولهم: أيام العرب، لوقائعها، وهو مجازٌ مشهورٌ، ورُوي ذلك عن مجاهد. أَوْ: لا يأملون الأوقات التي وقَّتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوزَ فيها.

والآية قيل: نزلت قبلَ آية القتال ثم نُسخت بها.

وقال بعضهم: لا نسخَ، لأن المرادَ هنا تركُ النزاع في المُحقَّرات والتجاوز عن بعض ما يُؤذي ويُوحش، وحكى النحاس[(١)] والمهدوي عن ابن عباس أنها نزلت في عمر ﷺ؛ شتمه مُشركٌ[(٢)] بمكة قبل الهجرة، فهمَّ أنْ يبطشَ به فنزلَتْ[(٣)]. وروي ذلك عن مقاتل، وهذا ظاهرٌ في كونها مكية كأخواتها. وإرادة فَهْم أن يبطش به بعد الهجرة لأنَّ المسلمين بمكة قبلها عاجزون مَقْهورون لا يُمكنهم الانتصار من المشركين، والعاجز لا يؤمر بالعفو، والصفح غيرُ ظاهر = مُحتاجٌ إلى نقل، ودوام عجز كلٍّ من المسلمين غير معلوم، بل مَنْ وقف على أحوال أبي حفص ﷺ لا يتوقف في أنه قادرٌ على ما همَّ به لا يُبالي بما يترتَّب عليه.

وهذا أَولى في الجواب من أن يقال: إنَّ الأمر بفعل ذلك بينه وبين الله تعالى بقلبه ليُثاب عليه، نعم قيل: إن النبيَّ ﷺ وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال له: المُريسيع، فأرسل ابنُ أُبيٍّ غُلامَه لِيستقي، فأبطأ عليه، فلما أتاه قال له: ما حَبَسك؟ قال: غلام عُمر، قعد على طرف البئر فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قُرَبَ النبيِّ ﷺ وقُرَبَ أبي بكر ﷺ. فقال ابنُ أُبَيّ: ما مَثَلُنا ومَثَل هؤلاء إلا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكلك، فبلغ ذلك عمر ﷺ فاشتملَ سيفَه يريدُ التوجُّه إليه، فأنزل الله تعالى الآية[(٤)].

---

(١) في الناسخ والمنسوخ (٧٩٥).
(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: قيل: هو من غفار.
(٣) قال ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨١: وهذا لم يصح.
(٤) أسباب النزول للواحدي ص٤٠١.

وحكاه الإمام(١) عن ابن عباس، وهو يدلُّ على أنها مدنية. وكذا ما رُوي عن ميمون بن مهران قال: إنَّ فنحاص اليهودي قال لما أنزل الله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]: احتاجَ ربُّ محمد! فسمع بذلك عمر رضي الله عنه فاشتمل سيفَه وخرج، فبعث النبيُّ ﷺ في طلبه حتى ردَّه، ونزلت الآية(٢).

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ تعليلٌ للأمر بالمغفرة، وجُوِّز أن يكون تعليلاً للأمر بالقول، لأنه سببٌ لامتثالهم المُجازي عليه، والمراد بالقوم: المؤمنون الغافرون، والتنكير للتعظيم. ولفظ القوم في نفسه اسمُ مدح على ما يُرشد إليه الاشتقاق والاستعمال في نحو: يا ابن القوم.

وفي هذا التنكير كمالُ التعريف والتنبيه على أنهم لا يَخْفَوْن نُكِّروا أو عُرِّفوا، مع العلم بأن المجزيَّ لا يكون إلا العامل، وهو الغافر هاهنا، أي: أُمروا بذلك ليجزي اللهُ تعالى يومَ القيامة قوماً أيّما قوم، وقوماً مخصوصين بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جُملتها الصبرُ على أَذيَّة الكفار والإغضاءُ عنهم بكظم الغيظ واحتمالِ المكروه، ما لا يُحيط به نِطاق البيان من الثواب العظيم.

ومنهم من خصَّ ما كسبوه بالمغفرة والصبر على الأذيَّة، و«ما» في الوجهين موصولة، وجُوِّز أن تكون مصدرية، والباء للسببية، أو للمقابلة، أو صلة «يجزي».

وجوز أن يراد بالقوم الكفرة، وبما كسبوا سيئاتهم التي من جملتها إيذاؤهم المؤمنين، والتنكير للتحقير. وتُعُقِّب بأنَّ مطلق الجزاء لا يصلح تعليلاً للأمر بالمغفرة لِتحقُّقه على تقديري المغفرة وعَدَمِها، فلا بدَّ من تخصيصه بالكلِّ بأنْ لا يتحقَّق بعضٌ منه في الدنيا، أو بما يصدر عنه تعالى بالذات، وفي ذلك من التكلُّف ما لا يخفى.

وأن يُراد كلا الفريقين، والتنكير للشيوع، وتُعُقِّب بأنه أكثرُ تكلُّفاً وأشدُّ تمحُّلاً.

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٦٣.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٠١-٤٠٢، وتفسير الرازي ٢٧/ ٢٦٣.

والذي يشهد للوجه السابق ما رُوي عن سعيد بن المسيَّب قال: كنا بين يدي عمر رضي الله عنه فقرأ قارئ هذه الآيةَ، فقال: ليجزي عمر بما صنع[١].

وقرأ زيد بن عليٍّ وأبو عبد الرحمن والأعمش وأبو خُليد وابن عامر وحمزة والكسائي: «لنجزي» بنون العظمة[٢].

وقُرئ: «لِيُجزَى» بالياء والبناء للمفعول، «قوم» بالرفع على أنه نائب الفاعل[٣].

وقرأ شيبة وأبو جعفر بخلاف عنه كذلك إلا أنهما نصبا «قوماً»[٤]، ورُوي ذلك عن عاصم[٥]، واحتجَّ به من يُجوِّز نيابَة الجارِّ والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول الصريح فيقول: ضُرب بسوط زيداً، فـ: بما كسبوا نائب الفاعل هاهنا، ولا يُجيز ذلك الجمهور.

وخُرِّجت هذه القراءة على أن القائم مقام الفاعل ضميرالمصدر، أي: ليجزى هو، أي: الجزاء. ورُدَّ بأنه لا يُقام مقامه عند وجود المفعول به أيضاً على الصحيح، وأجازه الكوفيون على خلاف في الإطلاق والاستحسان.

أو على أنه ضمير المفعول الثاني وهو الجزاء بمعنى المُجْزَى به، كما في قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [البينة:٨] وأضمر لدلالة السياق كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ [النساء:١١] والمفعول الثاني في باب أعطى يقوم مقامَ الفاعل بلا خلاف، وهذا من ذاك. وأبو البقاء[٦] اعتبر الخير بدل الجزاء المذكور.

أو على أن «قوماً» منصوب بـ: أعني، أو جزى، مضمراً لدلالة المجهول على أن ثَمَّ جازياً، واختاره أبو حيان[٧]. و«لِيُجْزَى» حينئذ من باب يُعطي ويمنع،

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٥، وقراءة ابن عامر وحمزة والكسائي - وهي قراءة خلف - في التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧٢.

(٣) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١١.

(٤) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٧٢.

(٥) ذكرها ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٧٢، وهي غير المشهورة عن عاصم.

(٦) في إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣١٥.

(٧) في البحر المحيط ٨/ ٤٥.

و: حيل بين العَيْر والنَّزَوان[1]، فمعناه: ليفعل الجزاء، ويكون هناك جملتان.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ لا يكاذ يسري عملٌ إلى غير عامله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ مالك أُموركم ﴿تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ فيجازيكم على أعمالكم حسبما تقتضيه الحكمة، خيراً على الخير وشرًّا على الشر، والجملة مستأنفة لبيان كيفية الجزاء.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة، على أن التعريف للعهد، وجُوِّز جعله للجنس ليشمل الزبور والإنجيل، ولا يضرُّ في ذلك كون الزبور أدعية ومناجاة والإنجيل أحكامه قليلة جدًّا، ومعظم أحكام عيسى عليه السلام من التوراة، لأن إيتاء الكتاب مطلقاً مِنَّةٌ.

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ القضاء وفصل الأمور بين الناس، لأن المُلك كان فيهم، واختاره أبو حيان[2]، أو الفقه في الدين، ويقال: لم يتَّسع فقه الأحكام على نبيٍّ ما اتَّسع على لسان موسى عليه السلام، أو الحكم النظرية الأصلية والعملية الفرعية.

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ حيث كَثُر فيهم الأنبياء عليهم السلام ما لم يكثر في غيرهم.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المستلذَّات الحلال، وبذلك تتمُّ النعمة، وذلك كالمَنِّ والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ حيث آتيناهم ما لم نُؤْتِ غيرهم من فَلْق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما، فالمرادُ تفضيلهم على العالمين مطلقاً من بعض الوجوه لا من كلِّها، ولا من جهة المرتبة والثواب، فلا يُنافي ذلك تفضيلَ أمة محمد ﷺ عليهم من وجه آخر ومن جهة المرتبة والثواب.

وقيل: المراد بـ «العالمين» عالَمو زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ دلائلَ ظاهرةً في أمر الدين، فـ «من» بمعنى «في»، والبينات: الدلائل، ويندرج فيها معجزات موسى عليه السلام، وبعضهم فسَّرها بها، وعن ابن عباس: آيات من أمر النبي ﷺ وعلامات مُبيِّنة لِصدقه عليه الصلاة والسلام، ككونه يُهاجر من مكة إلى يثرب، ويكون أنصاره أهلَها، إلى غير ذلك

(١) مثل يُضرب في منع الرجل مراده. وسلف ١/ ٢٣٣ و ٢٢/ ١٤٥.
(٢) في البحر المحيط ٨/ ٤٥.

مما ذكر في كتبهم ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحال، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً وحسداً لا شكًّا فيه. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ من أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ أي: سُنَّة وطريقة، مِنْ شَرَعه: إذا سَنَّه ليسلك، وفي «البحر»: الشريعة في كلام العرب: الموضعُ الذي يَرِدُ منه الناس في الأنهار ونحوها، فشريعة الدين من ذلك من حيث يرد الناس منها أمر الله تعالى ورحمته والقرب منه عز وجل[١]. وقال الراغب: الشرعُ مصدر، ثم جعل اسماً للطريق النهج، فقيل له: شرعٌ وشِرعة وشريعة، واستُعير ذلك للطريقة الإلهية من الدين، ثم قال: قال بعضُهم: سُمِّيت الشريعة شريعة تشبيهاً بشريعة الماء من حيث إن مَنْ شرع فيها على الحقيقة والصِّدق رَوِي وتطهَّر. وأعني بالرِّيِّ ما قال بعض الحكماء: كنت أشرب فلا أَروى فلما عَرفتُ الله تعالى رويتُ بلا شرب، وبالتطهُّر ما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣][٢]. والظاهر هنا المعنى اللغوي، والتنوين للتعظيم، أي: شريعة عظيمة الشأن.

﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمر الدين. وجوَّز أبو حيان كونَه مصدر «أَمَرَ»، والمراد: من الأمر والنهي[٣]، وهو كما ترى.

﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: آراء الجهَّال التابعة للشهوات، والمراد بهم ما يعمُّ كلَّ ضالٍّ، وقيل: هم جُهَّال قريظة والنضير. وقيل: رؤساء قريش؛ كانوا يقولون له ﷺ: ارجع إلى دين آبائك.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء، أو شيئاً من الإغناء إنِ اتَّبعتهم، والجملة مستأنفةٌ مبينةٌ لعلَّةِ النَّهي ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ لا يُواليهِمْ ولا يتَّبع أهواءَهُم إلَّا مَنْ كانَ ظالماً مثلَهم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٦، وفيه: ... الموضع الذي يرد فيه الناس...

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (شرع).

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٦.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ الذين أنتَ قدوتهم، فَدُمْ على ما أنتَ عليه مِنْ تولِّيه سبحانه خاصَّة، والإعراضِ عمَّا سِواهُ عزَّ وجلَّ بالكُليَّةِ.

﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآنُ ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ فإنَّ ما فيه مِنْ معالمِ الدِّين وشعائرِ الشَّرائع بمنزلةِ البصائرِ في القلوبِ. وقيل: الإشارةُ إلى اتِّباعِ الشريعةِ، والكلام من بابِ التشبيهِ البليغِ. وجمع الخبر على الوجهينِ باعتبارِ تعدُّدِ ما تضمَّنه المبتدأُ، واتّباع مصدرٌ مضافٌ فيعمُّ ويخبَرُ عنه بمتعدِّدٍ أيضاً، وقُرِئَ: «هذه»[1] أي: الآياتُ.

﴿وَهُدًى﴾ جليلٌ مِنْ ورطةِ الضّلالةِ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمةٌ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ من شأنهم الإيقانُ بالأمورِ.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلى آخرِه، استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ حالِ المسيئين والمحسنين إثرَ بيانِ حال الظالمين والمتقين، و«أَمْ»: منقطعةٌ، وما فيها من معنى «بل» للانتقالِ من البيانِ الأولِ إلى الثاني، والهمزة: لإنكارِ الحُسبانِ، على معنى أنَّه لا يليقُ ولا ينبغي لظهورِ خلافِهِ.

والاجتراحُ: الاكتسابُ، ومنه الجارحةُ للأعضاءِ التي يُكتَسبُ بها، كالأيدي، وجاء: هو جارحةُ أهلِهِ، أي: كاسبُهمْ. وقال الراغبُ: الاجتراحُ: اكتسابُ الإثمِ، وأصلُهُ مِنَ الجراحةِ، كما أنَّ الاقترافَ مِنْ قَرَفَ القرحة[2]. والظّاهرُ تفسيرُهُ هاهنا بالاكتسابِ لمكان «السيئاتِ»، والمرادُ بها على ما في «البحرِ»[3]: سيئاتُ الكفرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ سادٌّ مسدَّ مفعولي الحسبانِ، والجعل: بمعنى التصييرِ، وهم مفعولُه الأول، وقولُه سبحانَه: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مفعولُه الثاني، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿سَوَآءً﴾ بدلٌ من الكافِ بناءً على أنَّها اسمٌ بمعنى مثل، وقولُه تعالى: ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ فاعلُ «سواءً» أُجري مُجرى مستوٍ كما قالوا: مررتُ برجلٍ سواءً هو والعَدَمُ، وضميرُ الجمعِ للمجترحين، والمعنى على إنكار حُسبان جَعْلِ مَحْيَا المجترحينَ ومماتِهم مستويين مثلهما للمؤمنين، ومصبُّ الإنكارِ

(١) الكشاف ٣/ ٥١١، وهي قراءة شاذة.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (جرح)، ومعنى قَرَفَ القرحة: قشرها، وذلك إذا يبست. اللسان (قرف).

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٧.

استواءُ ذلك، فإن المؤمنينَّ تتوافقُ حالاهم لأنَّهم مرحومون في المحيا والمماتِ، وأولئك تتضادُّ حالاهم فإنهم مرحومون حياةً لا موتاً.

وجُوِّز أن يكون «سواءً» حالاً من الضميرِ في الكافِ بناءً على ما سمعتَ مِنْ معناها.

وتُعقِّب بأنها اسمٌ جامد على صورة الحرف فلا يصحُّ استتار الضمير فيها، وقد صرَّح الفارسي(١) بمنع ذلك، نعم يجوز أن يكون «كالذين»جارًّا ومجروراً في موضع المفعول الثاني، و«سواءً» حالاً من الضمير المُستتر فيه.

وقيل: يجوز أيضاً كونه حالاً من ضمير «نجعلهم»، وكذا يجوز كونه المفعولَ الثاني، وكون الكاف أو الجارِّ والمجرور حالاً من هذا الضمير، وما ذكر أولاً أظهرُ وأَولى.

وجُوِّز كونُ ضمير الجمع في «محياهم ومماتهم» للمؤمنين، فـ «سواء» حال من الموصول الثاني، ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في «كالذين» لفساد المعنى. وكونُ الضمير للفريقين، فـ «سواء» حال من مجموع الموصول الثاني وضمير الأول، والمعنى على إنكار حسبان أن يستويَ الفريقان بعد الممات في الكرامة أو ترك المُؤاخذة كما استويا ظاهراً في الرزق والصحة في الحياة.

وجُوِّز أن يكون المعنى على إنكار حسبان جعل الحياتين مستويتين؛ لأن المؤمنين على الطاعة وأولئك على المعاصي، وكذلك الموتان لأنهم مُلقون بالبُشرى والرضوان، وأولئك بالسوء والخِذلان. وقيل به على تقدير كون الضمير للمجترحين أيضاً.

ولم يُجوِّز المدقِّق الإبدال من الكاف على تقدير اشتراك الضمير، إذ المثلُ هو المُشبَّه، و«سواء» جارٍ على المشبَّه والمشبَّه به.

وقرأ جمهور القرَّاء: «سواءٌ محياهم ومماتهم» برفع «سواء»(٢) وما بعده، على

---

(١) في الحجة ٦/ ١٧٥.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالنصب والباقون بالرفع. التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧٢.

أنَّ «سواء» خبر مقدَّم وما بعده مبتدأ، لا العكس؛ لأن «سواء» نكرة، ولا مُسوِّغ للابتداء بها، والضمير للمجترحين، والجملة قيل: بدلٌ من المفعول الثاني لـ «نجعل» بَدَلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بدلَ اشتمالٍ، أو بدلَ بعضٍ، وأيًّاما كان ففيه إبدالُ الجملة من المفرد، وقد أجازه أبو الفتح واختاره ابن مالك، وأورد عليه شواهد. قال أبو حيان(١): لا يتعيَّن فيها البدل. وقال محمد بن عبد الله الإشبيلي المعروف بابن العلج في كتابه «البسيط في النحو»: لا يصحُّ أن تكون جملةٌ معمولةً للأول في موضع البدل، فإن كانت غيرَ معمولة فهل تكون جملة بدلاً من جملة؟ لا يبعد عندي جوازُ ذلك كالعطف والتأكيد اللفظي.

وظاهره أنه لا يجوز الإبدالُ هاهنا، وفي «البحر»: يظهر لي أنه لا يجوز إبدالُ هذه الجملة من ذلك المفعول، لأن الجعل بمعنى التصيير، ولا يجوز: صيَّرتُ زيداً أبوه قائم، ولا: صيَّرت زيداً غلامه منطلقٌ؛ لأن في ذلك انتقالاً من ذات إلى ذات، أو من وصف في الذات إلى وصف آخر فيها، وليس في تلك الجملة المقدَّرة مفعولاً ثانياً انتقالٌ مما ذكرنا. وفيه بحثٌ لا يخفى.

والزمخشري(٢) قد نصَّ على جعل الجملة بدلاً من الكاف، وهو إمامٌ في العربية، لكن أفاد صاحب «الكشف» أنه أراد أنه بدلٌ من حيث المعنى لا أنه بدل من ذاك لفظاً، قال: لأنه مفردٌ دالٌّ على الذات باعتبار المعنى وهذا دالٌّ على المعنى، وإن كان الذات يلزم من طريق الضرورة إلا أن يقدَّر له موصوفٌ محذوف، بأن يقدّر: رجالاً سواء محياهم ومماتهم مثلاً، والمعنى على البدلية كما سمعت في قراءة النصب.

وجُوِّز كون الجملة مفعولاً ثانياً، و«كالذين» حال من ضمير «نجعلهم»، ولا يخفى عليك ما عليه وما له.

وإذا كان الضمير للمؤمنين فالجملة قيل: حال من الموصول الثاني لا من الضمير في المفعول الثاني للفساد. وتُعقِّب بأن فيه اكتفاء الاسمية الحالية بالضمير،

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧، وما قبله وما بعده منه.
(٢) الكشاف ٣/ ٥١٢.

وهو غير فصيح على ما قيل. وقيل: استئناف يبيِّن المقتضي للإنكار على حُسبان التماثل، وهو أن المؤمنين سواء حالهم عند الله تعالى في الدارين بهجةً وكرامةً فكيف يُماثلهم المجترحون؟! وجُوِّز أن تكون بياناً لوجه الشَّبَه المُجمل.

وإذا كان الضمير للفريقين فالظاهر أن الجملةَ كلامٌ مستأنفٌ غيرُ داخل في حكم الإنكار والتساوي حينئذ بين حال المؤمنين بالنسبة إليهم خاصةً وحال المجترحين كذلك، وتكون الجملةُ تعليلاً للإنكار في المعنى دالًّا على عدم المماثلة لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن المؤمنين متساوو المَحْيا والممات في الرحمة، وأولئك متساوو المحيا والممات في النقمة، إذ المعنى: كما يعيشون يموتون، فلما افترق حال هؤلاء وحال هؤلاء حياة فكذلك موتاً، وأما الإبدال فقد علم حاله، فتأمَّل.

وقرأ الأعمش: «سواءً» بالنصب «محياهم ومماتهم» به أيضاً[1]، وخرّج الأول على ما سمعت، ونصب «محياهم ومماتهم» على الظرفية؛ لأنهما اسما زمان، أو مصدران أُقيما مُقام الزمان، والعامل إما «سواء» أو «نجعلهم».

هذا، والآيةُ وإن كانت في الكفار على ما نقل عن «البحر»[2]، وهو ظاهرُ ما رُوي عن الكلبي من أن عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه وحمزة ﷺ والمؤمنين: واللهِ ما أنتم على شيء، ولئن كان ما تقولون حقًّا لَحَالُنا أفضلُ من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا، فنزلت الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلخ، وهي متضمِّنة للردِّ عليهم على جميع أوجهها كما يعرف بأدنى تدبُّر = يُستنبط منها تبايُنُ حالَي المؤمن العاصي والمؤمن الطائع؛ ولهذا كان كثيرٌ من العُبَّاد يبكون عند تلاوتها حتى إنها تسمى: مَبْكاة العابدين، لذلك، فقد أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» والطبراني وجماعة عن أبي الضحى قال: قرأ تميمٌ الداريُّ سورة الجاثية، فلما أتى على

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٨.
(٢) البحر المحيط ٨/٤٨.

قوله تعالى: (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ) الآية، لم يزل يُكرِّرها ويبكي حتى أصبح، وهو عند المقام[١].

وأخرج ابن أبي شيبة عن نُسير[٢] مولى الربيع بن خُثيم أن الربيع كان يصلِّي، فمرَّ بهذه الآية: (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ) إلخ، فلم يَزَلْ يردِّدها حتى أصبح[٣].

وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها: ليت شعري من أيِّ الفريقين أنت؟

وقال ابن عطية: إنَّ لفظها يعطي أنَّ اجتراحَ السيئات هو اجتراحُ الكفر؛ لمعادلته بالإيمان، ويحتمل أن تكون المعادلة بالاجتراح وعمل الصالحات ويكون الإيمان في الفريقين، ولهذا بكى الخائفون عند تلاوتها[٤].

ورأيت كثيراً من المغرورين المستغرقين ليلَهم ونهارَهم بالفسق والفجور يقولون بلسان القال والحال: نحن يوم القيامة أفضلُ حالاً من كثير من العابدين، وهذا منهم والعياذ بالله تعالى ضلالٌ بعيد وغرورٌ ما عليه مزيد.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ساء حكمهم هذا، وهو الحكم بالتساوي، فـ «ما» مصدرية، والكلام إخبارٌ عن قبح حُكمهم المعهود. ويجوز أن يكون لإنشاء ذَمِّهم على أنَّ «ساء» بمعنى بئس، فـ «ما» فيه نكرة موصوفة وقعت تمييزاً مفسِّراً لضمير الفاعل المُبهم، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ، أي: بئس شيئاً حكموا به ذلك.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه دليلٌ على إنكار حسبانهم السابق، أو دليل على تساوي مَحْيَا كلِّ فريق ومماتِه وبيانٌ لحكمته على تقدير كون قوله تعالى: (سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ) استئنافاً، وذلك من حيث إنَّ خَلْق العالم بالحقِّ المقتضي

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٥، والزهد لأحمد ص٢٢٧، والمعجم الكبير للطبراني (١٢٥١).

(٢) في الأصل و(م): بشير، وهو خطأ، وهو نُسير بن ذعلوق الثوري، مولاهم، أبو طعمة الكوفي. تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٦.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٥، ومصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤٧٧ و١٣/ ٣٩٦.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٨٥، وفيه قصة الفضيل بن عياض السابقة.

للعدل يستدعي انتصاف المظلوم من الظالم، والتفاوتَ بين المسيء والمحسن، وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات حتماً.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على «بالحق» لأنه في معنى العلَّة، سواء كانت الباء للسببية الغائية أو الملابسة، أما على الأول فظاهر، وأما على الثاني فلأن المعنى: خَلَقَها ملتبسةً ومقرونةً بالحِكمة والصواب دون العَبَث والباطل، وحاصله: خلقها لأجل ذلك. أو عطف على علَّة محذوفة مثل: ليدلَّ سبحانه بها على قُدرته، أو: ليعدل. و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: لتُجزى كل نفس بالذي كسبته أو بكسبها.

﴿وَهُمْ﴾ أي: النفوس المدلول عليها بكلِّ نفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بنقص ثوابٍ وتضعيفِ عذاب، والجملة في موضع الحال، وتسميةُ ذلك ظلماً مع أنه ليس كذلك؛ لأنه منه سبحانه تصرفٌ في مُلكه، والظلم تصرُّفٌ في مُلك الغير بغير إذنه لأنه لو فعله غيره عز وجل كان ظلماً، فالكلامُ على الاستعارة التمثيلية، أو أنه لمّا كان مخالفاً لوعده سبحانه الحقّ سماه تعالى ظُلماً.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيبٌ مِن حالِ مَن تركَ متابعةَ الهُدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنه يعبدُه، فالكلامُ على التشبيه البليغ أو الاستعارة، والفاء للعطف على مقدَّر دخلت عليه الهمزة، أي: أنظرت مَنْ هذه حاله فرأيته، فإنَّ ذلك مما يقضي منه العجب.

وأبو حيان(١) جعل أرأيت، بمعنى: أخبرني، وقال: المفعول الأول «مَن اتَّخذ» والثاني محذوف يقدَّر بعد الصلات، أي: أيهتدي، بدليل «فمن يهديه».

والآية نزلت على ما رُوي عن مقاتل في الحارث بن قيس السهمي، كان لا يهوى شيئاً إلا ركبه(٢). وحكمها عامٌّ وفيها مِنْ ذمِّ اتِّباع هوى النفس ما فيها.

وعن ابن عباس: ما ذكَر اللهَ تعالى هوًى إلا ذمَّه(٣).

---

(١) في البحر المحيط ٨/٤٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٩/١٥٨.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٨٦.

وقال وهب: إذا شككتَ في خير أمرين فانظُرْ أبْعَدَهما من هواك فَأْتِهِ.

وقال سهل التُّسْتَري: هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك.

وفي الحديث: «العاجزُ من أتبع نَفْسَه هواها وتمنَّى على الله تعالى»[١].

وقال أبو عمران موسى بن عمران الإشبيلي الزاهد:

فخالف هواها واعصِها إنَّ من يُطِعْ هَوَى نَفْسِه ينزعْ به شرَّ مَنزِعِ
ومَن يُطعِ النفسَ اللجوجة تُرْدِه وتَرْمِ به في مصرعٍ أيِّ مصرعِ[٢]

وقد ذُمَّ ذلك جاهلية أيضاً، ومنه قول عنترة:

إني امرؤ سمحُ الخليقة ماجدٌ لا أُتبع النفسَ اللجوجَ هواها[٣]

ولعلَّ الأمر غنيٌّ عن تكثير النقل.

وقرأ الأعرج وأبو جعفر: «إلهةً» بتاء التأنيث بدل هاء الضمير، وعن الأعرج أنه قرأ: «آلهة» بصيغة الجمع. قال ابن خالويه[٤]: كان أحدُهم يستحسن حَجَراً فيعبده، فإذا رأى أحسنَ منه رفضه مائلاً إليه. فالظاهرُ أن «آلهةً» بمعناها من غير تجوُّز أو تشبيه، والهوى بمعنى المهويّ، مثله في قوله:

هوايَ مع الركب اليمانِين مُصْعِدٌ[٥]

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ أي: خلقه ضالًّا، أو خلق فيه الضلال، أو خذله وصرفه عن اللطف على ما قيل. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل، أي: أضلَّه الله تعالى عالماً سبحانه بأنه أهلٌ لذلك لفساد جوهر روحه. ويجوز أن يكون حالاً من المفعول،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٢٣) من حديث شداد بن أوس ﷺ، وفي إسناده: أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٩.

(٣) ديوان عنترة ص١٨٦ (بتحقيق عبد المنعم شلبي).

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٨، وقراءة الأعرج وأبي جعفر فيه وفي البحر المحيط ٨/ ٤٨.

(٥) قائله جعفر بن علبة الحارثي، وعجزه: جَنيبٌ وجثماني بمكة مُوثَق. خزانة الأدب ١٠/ ٣٠٧.

أي: أضلَّه عالماً بطريق الهدى فهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ [الجاثية: ١٧].

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾ بحيث لا يتأثَّر بالمواعظ ولا يتفكَّر في الآيات.

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ مانعةً عن الاستبصار والاعتبار، والكلام على التمثيل.

وقرأ عبد الله والأعمش: «غَشاوة» بفتح الغين[1]، وهي لغةُ ربيعة، والحسن وعكرمة وعبد الله أيضاً بضمِّها، وهي لغةُ عُكْلية[2]، وأبو حنيفة وحمزة والكسائي وطلحة ومسعود بن صالح والأعمش أيضاً: «غَشْوة» بفتح الغين وسكون الشين[3]، وابن مُصَرِّف والأعمش أيضاً كذلك إلا أنهما كسرا الغين[4].

﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: من بعد إضلاله تعالى إيَّاه. وقيل: المعنى: فمن يهديه غير الله سبحانه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ أي: ألا تُلاحظون فلا تذكرون، وقرأ الجحدري: «تذكرون» بالتخفيف، والاعمش: «تتذكَّرون» بتاءين على الأصل[5].

﴿وَقَالُواْ﴾ بيان لإحكام إضلالهم، والخَتْم على سمعهم وقلوبهم، وجَعْلِ غشاوةٍ على أبصارهم، فالضمير لـ «مَنْ» باعتبار معناه أو للكفرة: ﴿مَا هِيَ﴾ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ التي نحن فيها، ويجوز أن يكون الضميرُ للحال والحياة الدنيا من جملة الأحوال، فيكون المُستثنى من جنس المستثنى منه أيضاً لاستثناء حالِ الحياة الدنيا من أعمِّ الأحوال، ولا حاجةَ إلى تقدير حال مضافاً بعد أداة الاستثناء، أي: ما الحال إلا حال الحياة الدنيا.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٨.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٩، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٩، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٢، وقرأ بها خلف.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٩.
(٥) المصدر السابق.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ حكم على النوع بجملته من غير اعتبارٍ تقديم وتأخير، إلا أن تأخيرَ «نحيا» في النَّظم الجليل للفاصلة، أي: تموت طائفةٌ وتحيا طائفة، ولا حشر أصلاً.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: نحيا ونموت. وليس بذاك.

وقيل: أرادوا بالموت عدمَ الحياة السابق على نَفْخ الروح فيهم، أي: نكون نطفاً وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك.

وقيل: أرادوا بالحياة بقاء النسل والذرية مجازاً، كأنهم قالوا: نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا وذرارينا.

وقيل: أرادوا: يموت بعضنا ويحيا بعض، على أن التجوُّز في الإسناد.

وجُوِّز أن يُريدوا بالحياة على سبيل المجاز إعادةَ الروح لبَدَنٍ آخَر بطريق التناسخ، وهو اعتقادُ كثيرٍ من عبدة الأصنام، ولا يخفى بُعْدُ ذلك.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «ونُحيَا» بضمِّ النون[(١)].

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي: طولُ الزمان، فالدهر أخصُّ من الزمان، وهو الذي ارتضاه السعد، ولهم في ذلك كلامٌ طويل. وقال الراغب: الدهر في الأصل: اسمٌ لمدة العالم من مَبْدأ وجودِهِ إلى انقضائه، ثم يُعبَّر به عن كلِّ مُدَّة كثيرة، وهو خلافُ الزمان، فإنه يقع على المدَّة القليلة والكثيرة، ودهرُ فلانٍ: مُدَّةُ حياته، ويقال: دَهَرَ فلاناً نائبةٌ دهراً، أي: نزلت به؛ حكاه الخليل، فالدهر هاهنا مصدر[(٢)].

وذكر بعضُ الأَجِلَّة أن الدهرَ بالمعنى السابق منقولٌ من المصدر، وأنه يقال: دَهَره دهراً، أي: غلبه، وإسنادهم الإهلاك إلى الدهر إنكارٌ منهم لملك الموت وقَبْضِهِ الأرواح بأمر الله عز وجل، وكانوا يُسندون الحوادث مطلقاً إليه لجهلهم أنها مُقدَّرة من عند الله تعالى، وأشعارُهم لذلك مملوءةٌ من شكوى الدهر، وهؤلاء معترفون بوجود الله تعالى، فهم غير الدهرية، فإنهم مع إسنادهم الحوادثَ إلى الدهر لا يقولون بوجوده، سبحانه وتعالى عمَّا يقولون علوًّا كبيراً. والكلُّ يقول

---

(١) ذكرها القرطبي في تفسيره ١٩/ ١٦٤ دون نسبة، وهي في البحر المحيط ٨/ ٤٩.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (دهر).

باستقلال الدهر بالتأثير، ولا يَبْعُدُ أن يكون الزمان عندهم مقدارَ حركة الفَلَك كما ذهب إليه معظمُ الفلاسفة.

وقد جاء النهي عن سبِّ الدهر؛ أخرج مسلم[(١)]: «لا يسبُّ أحدُكم الدهرَ فإنَّ اللهَ هو الدهرُ»، وأبو داود والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم: «قال الله عز وجل: يُؤْذِيني ابنُ آدمَ يقول: يا خيبةَ الدهر، فلا يَقُلْ أحدُكم: يا خيبةَ الدهر، فإنِّي أنا الدهرُ أُقلِّب ليلَه ونهارَه»[(٢)]، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم أيضاً، يقول الله عز وجل: «استقرَضْتُ عبدي فلم يُقْرِضْني، وشَتَمني عبدي وهو لا يدري يقول: وَادَهْرَاه، وأنا الدهرُ»[(٣)]، والبيهقي: «لا تسبُّوا الدهرَ، قال الله عز وجل: أنا الأيامُ والليالي أُجدِّدها وأبليها، وآتي بمُلُوكٍ بعدَ مُلُوك»[(٤)].

ومعنى ذلك أن الله تعالى هو الآتي بالحوادث، فإذا سببتم الدهر على أنه فاعل وقع السبُّ على الله عز وجل.

وعدَّ بعضُهم سبَّه كبيرةً، لأنه يؤدِّي إلى سبِّه تعالى، وهو كفر، وما أدَّى إليه فأدنى مراتبه أن يكون كفراً[(٥)].

وكلام الشافعية صريحٌ بأنَّ ذلك مكروه لا حرام فضلاً عن كونه كبيرةً، والذي يتَّجه في ذلك تفصيل، وهو أن مَنْ سبَّه فإنْ أراد به الزمن فلا كلام في الكراهة، أو اللهَ عز وجل فلا كلامَ في الكُفر، ومثله إذا أراد المؤثِّرَ الحقيقيَّ فإنه ليس إلا الله

---

(١) برقم (٢٢٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أبو داود (٥٢٧٤)، والحاكم ٢/ ٤٥٣، وهو عند مسلم (٢٢٤٦): (٣)، ولقول الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ينظر لزاماً المفهم ٥/ ٥٤٧، وتحفة الأشراف ١٠/ ٥٥ حيث وقعت الرواية عندهما موقوفة على أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الحاكم ١/ ٤١٨، وأخرجه أحمد (١٠٥٧٨)، وأبو يعلى (٦٤٦٦)، وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) شعب الإيمان (٥٢٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو عند أحمد (١٠٤٣٨)، وصحَّحه ابن حجر في الفتح ١٠/ ٥٦٥.

(٥) جاء في هامش (م): كذا بالأصل، ولعلَّ الأولى: أن يكون كبيرةً. اهـ. وهو الصواب، بدليل قوله بعده: . . . فضلاً عن كونه كبيرة.

سبحانه؛ وإنْ أطلق فهذا محلُّ التردد لاحتمال الكفر وغيره، وظاهر كلامهم هنا أيضاً الكراهة؛ لأن المتبادر منه الزمن وإطلاقُه على اللهِ تعالى كما قال بعضُ الأجِلَّة إنما هو بطريق التجوّز.

ومن الناس من قال: إنَّ سبَّه كبيرةٌ إن اعتقد أنَّ له تأثيراً فيما نزل به كما كان يعتقد جَهَلةُ العرب. وفيه نظر، لأنَّ اعتقادَ ذلك كفرٌ، وليس الكلام فيه.

وأنكر بعضُهم كونَ ما في حديث أبي داود والحاكم: «فإني أنا الدَّهرُ» بضمِّ الراء، وقال: لو كان كذلك كان الدهر من أسمائه تعالى، وكان يرويه: «فإني أنا الدَّهرَ» بفتح الراء ظرفاً لـ «أقلب»، أي: فإني أنا أقلِّب الليل والنهار الدهرَ، أي: على طول الزمان ومَمَرِّه، وفيه أن رواية مسلم: «فإن اللهَ هو الدهر» تبطل ما زعمه، ومن ثَمَّ كان الجمهور على ضمِّ الراء. ولا يلزم عليه أن يكون من أسمائه تعالى؛ لِمَا سبق أن ذلك على التجوُّز، وحكى الراغب(١) عن بعضهم أن الدهر الثاني في حديث مسلم غير الأول، وأنه مصدرٌ بمعنى الفاعل، والمعنى أن الله تعالى هو الداهر، أي: المُصرِّف المدبِّر المقيِّض لما يحدث. وفيه بُعد.

وقرأ عبد الله: «إلا دهرٌ»(٢)، وتأويله: إلا دَهرٌ يمرُّ.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي: بما ذكر من قَصْرِ الحياة على ما في الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مستندٍ إلى عقل أو نقل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ ما هم إلا قومٌ قُصارى أمرهم الظنّ والتقليد من غير أن يكون لهم ما يصحُّ أن يُتمسَّك به في الجملة، هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقةُ بالحقِّ الذي من جملته البعث ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما نطقتْ به مما يُخالف مُعتقدَهم، أو مُبيِّنات له ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنه خبر «كان» واسمها قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: في أنَّا نُبعَثُ بعد الموت، أي: ما كان متمسكاً لهم شيء من الأشياء إلا هذا القول الباطلُ الذي يستحيل أن يكون حُجَّة، وتسميته حُجَّة لسوقهم

(١) في المفردات (دهر).
(٢) تفسير الطبري ٢١/٩٦.

إياه مساق الحُجَّة على سبيل التهكُّم بهم، أو أنه من قَبيل:

تــحــيــةُ بــيــنــهــم ضَــرْبٌ وجــيــع[١]

أي: ما كان حُجَّتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد نفي أن يكون لهم حُجَّة، فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً ـ كإعادة آبائهم التي طلبوها في الدنيا ـ امتناعُه بعدُ لتمتنع الإعادة إذا قامت القيامة.

والخطاب في «ائتوا» و«كنتم» للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين؛ إذ هم قائلون بمقالته ﷺ من البعث، طالبون من الكفرة الإقرارَ به. وجُوِّز أن يكون له عليه الصلاة والسلام وللأنبياء عليهم السلام الجائين بالبعث، وغلّب الخطاب على الغيبة.

وقال ابن عطية[٢]: «ائتوا» و«كنتم» من حيث المخاطبةُ له ﷺ، والمراد: هو وإلهه والمَلَكُ الذي يَذكُر عليه الصلاة والسلام نزوله عليه بذلك، وهو جبريلُ عليه السلام. وهو كما ترى.

وقرأ الحسن وعمرو بن عُبيد وابن عامر ـ فيما روى عنه عبد الحميد ـ وعاصم فيما روى هارون وحسين عن أبي بكر عنه: «حُجَّتُهم» بالرفع[٣] على أنه اسم «كان» وما بعدُ خبر، أي: ما كان حُجَّتُهم شيئاً من الأشياء إلا هذا القول الباطل.

وجواب «إذا»: ما كان.. إلخ، ولم تقترن بالفاء وإن كانت لازمة في المنفي بـ «ما» إذا وقعت جوابَ الشرط لأنها غيرُ جازمة ولا أصلية في الشرطية، وهو سرُّ قول أبي حيان[٤]: إنَّ «إذا» خالفت أدواتِ الشرط بأنَّ جوابها إذا كان منفيًّا بـ «ما» لم تدخل الفاء، بخلاف أدوات الشرط فلا بدَّ معها من الفاء نحو: إن تَزُرْنا فما جفوتنا، فلا حاجة إلى تقدير جواب لها كـ : عمدوا إلى الحجج الباطلة، خلافاً لابن هشام[٥]، واستدلَّ بوقوع ما ذكر جواباً على أن العمل في «إذا» ليس للجواب

---

(١) سلف ٥/ ٦٤ و٧/ ٢٨٠، وغيرها.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٨٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٩، والمشهور عن ابن عامر وعاصم النصب كقراءة الجمهور.

(٤) في البحر المحيط ٨/ ٤٩.

(٥) في مغني اللبيب ص١٣٣، والكلام الآنف الذكر من ردِّه لكلام أبي حيان.

لصدارة «ما» المانعة منه، ولا قائل بالفرق، ولعلَّ من قال بالعمل يقول: يتوسَّع في الظرف ما لم يتوسَّع في غيره. ثم إن المعنى على الاستقبال لمكان «إذا» أي: ما تكون حُجَّتهم إلا أن يقولوا ذلك.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم على ما دلَّ عليه الحُجج، لا الدهر كما تزعُمون ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: فيه، وجُوِّز كونُ الفعل مُضَمَّناً معنى مبعوثين أو منتهين ونحوه، ومعنى «في» أظهر، أي: يجمعكم في يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في جمعكم، فإنَّ مَنْ قدر على البَدْء قدر على الإعادة، والحِكمة اقتضت الجمعَ للجزاء لا محالة في ذلك اليوم، والوعد الصدق بالآيات دل على وقوعها، وحاصلُه أن البعث أمرٌ ممكنٌ أخبر به الصادق، وتقتضيه الحِكمة، وكلُّ ما هو كذلك لا محالةَ واقعٌ، والإتيانُ بالآباء - حيث كان مُنافياً للحكمة التشريعية - امتنع إيقاعُه.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ استدراكٌ من قوله تعالى: «لا ريب فيه» وهو من تمام الكلام المأمور به، أو كلامٌ مسوقٌ من جهته تعالى تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكُّر لا لأن فيه شائبة ريبٍ ما.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيانٌ للاختصاص المطلق والتصرف الكُلِّي فيهما وفيما بينهما بالله عز وجل إثر بيان تصرُّفه تعالى بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة، فهو تعميمٌ للقدرة بعد تخصيص.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قال الزمخشري[1]: العامل في «يوم تقوم»: «يخسر»، و«يومئذ» بدل من «يوم تقوم»، وحكاه ابنُ عطية[2] عن جماعة. وتقديمُ الظرف على الفعل للحصر لأنَّ كلَّ خسران عند الخسران في ذلك اليوم كَلَا خُسرانٍ، وفيه أيضاً رعايةُ الفواصل على ما قيل، وتُعقِّب حديث الإبدال بأن التنوين في «يومئذ» عوضٌ عن الجملة المضاف إليها، والظاهرُ أنها

(١) الكشاف ٣/ ٥١٣.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٨٨.

تقدَّر بقرينة ما قبل «تقوم الساعة» فيقال: ويومَ تقومُ الساعة يومَ إذ تقوم الساعة يخسر المبطلون، فيكون تأكيداً لا بدلاً إذ لا وجهَ له. ولذا قيل: إنه بالتأكيد أشبهُ.

وقول أبي حيان[١]: إن كان بدلاً توكيديًا ـ وهو قليلٌ ـ جاز، وإلا فلا = لا يُسمِنُ ولا يُغني.

وتكلَّف بعضُهم فزعم أن اليوم الثاني بمعنى الوقت الذي هو جُزء من يوم قيام الساعة، فهو بدلُ بعض معه عائدٌ مقدَّر، ولما كان فيه ظهور خُسرانهم كان هو المقصودَ بالنسبة.

وقالت فرقة: العامل في «يوم تقوم» ما يدلُّ عليه الملك، قالوا: وذلك أن يومَ القيامة أمرٌ ثالثٌ ليس بالسماء ولا بالأرض لتبدُّلهما، فكأنه قيل: ولله ملك السماوات والأرض والملك يومَ تقوم الساعة، و«يومئذ» منصوب بـ «يخسر»، والجملة استئنافٌ. وإن كان لها تعلُّق بما قبلها من جهة تنوين العوض.

وقيل: يجوز أن يكون عطفاً على ظرف معمول لـ «ملك» المذكور، كأنه قيل: لله ملك السماوات والأرض اليومَ ويومَ تقوم الساعة. وهو كما ترى.

و«المبطلون»: الداخلون في الباطل، ولعل المرادَ به أعظم أنواعه، وهو الكفر.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المجموعة ﴿جَاثِيَةً﴾ باركةً على الرُّكَب مُستوفِزة، وهي هيئةُ المُذنِب الخائف المنتظر لما يكره، وعن ابن عباس: «جاثية»: مجتمعة، وعن قتادة: جماعات، من الجثوة ـ مثلثة الجيم ـ وهي الجماعة تجتمع على جُثى، أي: تراب مجتمع، وعن مُؤرِّج السدوسي: «جاثية»: خاضعة، بلغة قريش[٢].

والخطاب في «ترى» لمن يصحُّ منه الرؤية أو لسيِّد المُخاطَبين عليه الصلاة والسلام، وهي بصريَّة، و«جاثية» حال، وجُوِّز أن تكون صفةً، ولو كانت علمية كانت مفعولاً ثانياً.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ١٦٩.

وقرئ: «جاذية» بالذال[1]، والجُذُوّ أشدُّ استيفازاً من الجُثُوّ؛ لأن الجاذي هو الذي يجلسُ على أطراف أصابعه. وجُوّز أن يكون الجاذي بمعنى الجاثي، أُبدلت ثاؤه ذالاً، فإن الثاء والذال متقارضان كما قيل: شحَّاث وشحَّاذ.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى صحيفة أعمالها التي كتبتها الحَفَظة لِتحاسب، وأُفرد على إرادة الجنس، وإلا فلكلٍّ واحد من كلِّ أمة صحيفةٌ فيها أعماله.

وقيل: المرادُ كتاب نبيِّها؛ تُدعى إليه لينظر هل عملت[2] به أَوْ لا. وحُكي ذلك عن يحيى بن سلام إلا أنه حمل «كلّ أمة» على كلِّ أُمة كافرة، والظاهر العموم.

وقيل: المراد بذلك اللوحُ المحفوظ، أي: تدعى إلى ما سبق لها فيه.

وقرأ يعقوب «كلَّ» بالنصب[3]، وخُرِّج على أنه بدل من «كلّ» الأول، وجملة «تُدعى» صفة، وإبدال الأمة المدعوة إلى كتابها من الأمة الجاثية حسن، وجاء ذلك من الوصف، ويقال مثل ذلك فيما إذا كان الجملة حالاً، وإذا كانت الرؤية علمية وجملة «تدعى» مفعولاً ثانياً فالظاهر أنه تأكيدٌ، وجعله تأكيداً مع كون الجملة صفةً فيه تخلُّل التأكيد بين الوصفين، وهو كما في «الكشف» غير مستحسن.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ مقولُ قولٍ مقدَّرٍ هو حالٌ أو خبرٌ بعد خبر. وفي الكلام مضافٌ مقدَّر، أي: جزاء ما كنتم.. إلخ، أو هو من المَجاز.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ إلى آخره من تمام ما يقال حينئذ، والإشارة إلى الكتاب التي تدعى إليه الأمة المَقولُ لها ذلك، وهو إذا كان صحيفة الأعمال فإضافته إلى ضميره جل شأنه لأدنى مُلابسة على التجوُّز في النسبة الإضافية، فإنه تعالى الذي أمر الكَتَبة أن يكتبوا فيه أعمالهم، وإن كان الكتابَ المُنزلَ على نبيِّ تلك الأمة، أو اللوحَ المحفوظَ، فأمر الإضافة ظاهر، وضمير العظمة على سائر الأوجه لتفخيم شأن الكتاب. وجُوِّز أن يكون الضمير للكَتبة والإضافة فيه حقيقيةٌ، قيل: ويأباه «نستنسخ» إلا أن يُجعل بمعنى: ننسخ ونكتب، وستعلم إن شاء الله

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٥٠.

(٢) في الأصل: علمت.

(٣) النشر ٢/ ٣٧٢.

تعالى ما فيه. والأظهر عندي حملُ الكتاب في الموضعين على صحيفة الأعمال، واسم الإشارة مبتدأ وما بعده خبر.

وقوله سبحانه: ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي: يشهد عليكم ﴿بِالْحَقِّ﴾ من غير زيادة ولا نقص، خبرٌ آخرُ أو حال أو مستأنف، و«بالحق» حالٌ من فاعل «ينطق»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ إلى آخره تعليلٌ لِنُطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها، أي: إنا كنا فيما قبل نستنسخ الملائكةَ، أي: نجعلها تَنسخ وتكتب ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ في الدنيا من الأعمال حسنةً كانت أو سيئةً.

وحقيقةُ النسخ كتابةٌ من أصل ينظر فيه، فكأن أفعالَ العباد هي الأصل على ما في «البحر»[(١)]، وأخرج ابن جرير[(٢)] عن ابن عباس قال: إن الله تعالى خَلَق النونَ وهي الدواة، وخَلَق القلم، فقال: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة من عملٍ معمول، برٍّ أو فجور، ورزق مقسوم حلالٍ أو حرام، ثم أَلْزَمَ كلَّ شيء من ذلك بيانه[(٣)]: دخولَه في الدنيا متى، ومُقامه فيها كَمْ، وخروجه منها كيف؟ ثم جعل على العِباد حَفَظةً، وعلى الكتاب خُزَّاناً، فالحفظة يستنسخون كلَّ يوم من الخُزَّان عملَ ذلك اليوم، فإذا فَنِيَ الرزق وانقطع الأمر[(٤)]، وانقضى الأجل، أَتَت الحَفَظةُ الخَزَنَةَ يطلبون عملَ ذلك اليوم، فتقول الخَزَنة: ما نجدُ لصاحبكم عندنا شيئاً. فترجع فيجدونه قد مات. ثم قال ابن عباس: ألستم قوماً عرباً تسمعون الحَفَظة يقولون: «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون»، وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل؟!

وفي رواية ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه رضي الله عنه أنه سئل عن الآية فذكر نحوَ ما سمعتَ، ثم قال: هل يُستنسخ الشيء إلا من كتاب[(٥)].

وكون الاستنساخ من اللوح قد رواه جماعةٌ عنه، وما ذكرناه يُصحِّح أن يكون

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥١.
(٢) تفسير الطبري ٢١/ ١٠٤، وهو في الدر المنثور ٦/ ٣٦.
(٣) في تفسير الطبري: شأنه.
(٤) في تفسير الطبري: الأثر.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٦.

هذا القول من الملائكة بدون تأويل «نستنسخ» بننسخ كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ إلى آخره تفصيلٌ للمجمل المفهوم من قوله تعالى: «ينطق عليكم بالحق» أو: يجزون من الوعد والوعيد، والمراد بالرحمة الجنة مجازاً والظرفية على ظاهرها، وقيل: المراد بالرحمة ما يشملُ الجنة وغيرها، والأولُ أظهر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من الإدخال في رحمته تعالى ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ الظاهرُ كونه فوزاً لا فوزَ وراءه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم بطريق التقريع والتوبيخ: ألم تكن تأتيكم رُسلي فلم تكن آياتي تُتلى عليكم، فجوابُ «أمَّا» القول المُقدَّر، وحُذف اكتفاءً بالمقصود، وهو المقولُ، وحذفُه كثيرٌ مقيس حتى قيل: هو البحر حدِّث عنه، وحذف المعطوف عليه لقرينة الفاء العاطفة وأن تلاوة الآيات تستلزم إتيان الرُّسل معنى، وهذا على ما ذهب إليه الزمخشري[1].

والجمهور على أن الهمزة مقدَّمة من تأخير لصدارتها، والفاءُ على نية التقدير، والتقدير: فيقال لهم: ألم تكن.. إلخ، فليس هناك سوى حذف القول، وفي «الكشف»: لو حمل على أن المحذوف: فيوبخون، لدلالة ما بعدَه عليه، وفائدة هذا الأسلوب مع أن الأصل: فيدخلهم في عذابه، الدلالةُ على أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرون بعدُ في الموقف معذَّبون بالتوبيخ = لكان وجهاً.

﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ قوماً عادتُهم الإجرام.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما[2] وعده سبحانه من الأمور الآتية، أو وعده تعالى بذلك ﴿حَقٌّ﴾ أي: كائن هو أو متعلّقه لا محالة، ففي الكلام تجوُّز إما في الطرف أو في النسبة.

وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد: «وإذا قيل أنَّ» بفتح الهمزة[3] على لغة سُليم.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٣.

(٢) في (م): وما.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٨.

﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ برفع «الساعةُ» في قراءة الجمهور على العطف على محلِّ «إنَّ» واسمِها على ما ذهب إليه أبو عليٍّ[(١)] وتَبِعه الزمخشري[(٢)]، ومَن زعم أنَّ لاسم «إنَّ» موضعاً جوَّز العطف عليه هنا، وزعم أبو حيان[(٣)] أن الصحيح أنه لا يجوز كلا الوجهين، وعليه فجملة «الساعةُ لا ريب فيها» عطف على الجملة السابقة.

وقرأ حمزة: «والساعةَ» بالنصب[(٤)] عطفاً على اسم «إنَّ» ورُوي ذلك عن الأعمش وأبي عمرو وأبي حيوة وعيسى والعبسي والمفضَّل[(٥)]. وذكر أمر الساعة وأنها لا ريب في وقوعها مع أنها من جملة ما وعد اللهُ تعالى اعتناء بأمر البعث المقصود بالمقام.

﴿قُلْتُم﴾ لغاية عُتوِّكم: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أيُّ شيء هي؟ استغراباً لها جدًّا كما يُؤذِن به جمع «ما ندري» مع الاستفهام.

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ استشكل ذلك لِمَا أنه استثناءٌ مفرَّغ، وقد قالوا: لا يجوز تفريغُ العامل إلى المفعول المطلق المؤكّد، فلا يقال: ما ضربت إلا ضرباً؛ لأنه بمنزلة: ما ضربتُ إلا ضربتُ. وقال الرضي: إن الاستثناء المفرغ يجب أن يُستثنى من متعدِّدٍ مقدَّرٍ معربٍ بإعراب المستثنى مستغرِق لذلك الجنس حتى يدخل فيه المستثنى بيقين ثم يخرج بالاستثناء، وليس مصدر نظن محتمِلاً مع الظنِّ غيرَه حتى يخرج الظنُّ منه، وكذا يقال في: ما ضربت إلا ضرباً، ونحوه، وهذا مرادُ من قال: إنه من قَبيل استثناء الشيء من نفسه.

واختلفوا في حِلِّه فقيل: إن معنى ما نظنُّ: ما نفعل الظنَّ، كما في نحو: قِيم وقُعِدَ، وحينئذ يصحُّ الاستثناء ويتغاير موردُ النفي والإيجاب من حيث التقديرُ والتجوُّز في الاستثناء من العامِّ المقدَّر، وجعل «نظن» في معنى نفعل الفعل، لا نفعل الظنَّ،

---

(١) في الحجة للقراء السبعة ٦/ ١٨٠.

(٢) في الكشاف ٣/ ٥١٣.

(٣) في البحر المحيط ٨/ ٥١.

(٤) التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٢.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٥١، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.

كأنه قيل: ما نفعل فعلاً إلا الظنّ، وكذا يقال في أمثاله ومنها قول الأعشى:

أحلَّ به الشيب أثقالَه وما اعترَّه الشيب إلا اعترارا[١]

وارتضاه صاحبُ «الكشف».

وقيل: ما نظن بتأويل: ما نعتقد، ويكون «ظنًّا» مفعولاً به، أي: ما نعتقد شيئاً إلا ظنًّا، وارتضاه أبو حيان[٢]. وتُعقِّب بأنَّ ظاهر حالهم أنهم متردِّدون لا مُعتقدون.

وأُجيب بأنَّ الاعتقاد المنفيَّ لا يُنافي ظاهر حالهم، بل يُقرِّرها على أتمِّ وجه.

وقيل: المستثنى ظنّ أمر الساعة، والمستثنى منه مطلقُ الظنِّ، كأنه قيل: لا ظنَّ ولا تردُّد لنا إلا ظن أمر الساعة والتردُّد فيه، فالكلام لنفي ظَنِّهم فيما سوى ذلك مبالغة.

وقال الرضي: إن: ما ضربتُ إلا ضرباً، يحتمل التعدُّد من حيث توهُّم المخاطب، إذ ربما تقول: ضربتُ، وقد فعلتَ غير الضرب مما يجري مجراه من مُقدِّماته كالتهديد، فتدفع ذلك وتقول: ضربت ضرباً، فهو نظيرُ: جاء زيدٌ زيدٌ، فلما كان «ضربت» محتملاً للضرب وغيره من حيث التوهُّم صار كالمتعدِّد الشامل للضرب وغيره، وحاصلُه أن الضربَ لما احتملَ قبل التأكيد والاستثناء فعلاً آخر حُمل على العموم بقرينة الاستثناء، فيكون المعنى: ما فعلتُ شيئاً إلا ضرباً، وهكذا «ما نظنُّ إلا ظنًّا» وهذا كالمُتَّحد مع ما ذكرناه أولاً.

ورُدَّ بأن الاستثناء يقتضي الشمولَ المحقَّق، ولا يكفي فيه الاحتمال المحقَّق فضلاً عن المتوهَّم.

وتُعقِّب بأنه ليس بشيء لأنه إذا تجرَّد الفعل لمعنى عامٍّ صار الشمول محقَّقاً، على أن عدم كفاية الشمول الفرضي غير مسلَّم كما يعرفه من يتتبَّع موارده.

وذهب ابن يعيش[٣] وأبو البقاء[٤] إلى أنه على القلب والتقديم والتأخير،

(١) ديوان الأعشى ص٩٥، وخزانة الأدب ٣/ ٣٧٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥١.

(٣) شرح المفصل ٧/ ١٠٧-١٠٨.

(٤) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣١٧ (بهامش الفتوحات الإلهية).

والأصل: إن نحن إلا نظنُّ ظنًّا. وحُكي ذلك عن المبرِّد، وقد حَمَل عليه ما حكاه أبو عمرو بن العلاء وسيبويه من قول العرب: ليس الطِّيبُ إلا المِسْكُ، بالرفع[1]، فقال: الأصلُ: ليس إلا الطِّيبُ المِسْكُ، ليكون اسمُ «ليس» ضميرَ الشأن، وما بعد «إلا» مبتدأ وخبراً في موضع الخبر لها. وردَّه الرضي، وقال: إنه تكلُّف؛ لِمَا فيه من التعقيد المُخِلِّ بالفصاحة.

والمثال المَحكي واردٌ على لغة بني تميم فإنهم عاملوا «ليس» معاملةَ «ما» فأهملوها لانتقاض النفي بـ «إلا».

وقيل: «ظنًّا» مفعول مطلق لفعل محذوف، والمستثنى محذوفٌ، والتقدير: إن نظنُّ إلا أنكم تظنون ظنًّا. وحُكي عن المبرِّد أيضاً، وفيه حذف «إن» واسمها وخبرها وإبقاء المصدر، وذلك لا يجوز، وفيه أيضاً من التعقيد المُخِلِّ بالفصاحة ما فيه، ولا أظنُّ صحةَ حكايته عن المبرِّد؛ لغاية بُرودته.

وجوَّز صاحب «التقريب» أن يكون المراد: إن نظنُّ إلا ظنًّا ضعيفاً، فهو مصدر مُبيِّن للنوع حُذفت صفته كما صرَّح به في «البحر»[2] لا مؤكِّدٌ، وهذا يُوافق ما ذكره الإمام السكَّاكي في بحث أنَّ التنكير قد يكون للتحقير.

وتُعقِّب بأن قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يأباه، فإن مقابل الاستيقان مطلق الظنّ لا الضعيفُ منه، وقد صرَّح غيرُ واحد بأن هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها، والمراد بها استمرارُ النفي وتأكيده، قيل: والمعنى: وما نحن بمستيقنين إمكانَ الساعة، أي: لا نتيقَّن إمكانها أصلاً فضلاً عن تحقُّق وقوعها المدلول عليه بقوله تعالى: (إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا) فقولهم ذلك ردٌّ لهذا، ولعل المُثبتين لأنفسهم الظنَّ من غير إيقانٍ بأمر الساعة غيرُ القائلين: إن هي إلا حياتنا الدنيا، فإنَّ ذلك ظاهرٌ في أنهم مُنكرون للبعث جازمون بنفي الساعة، فيكون الكَفرة صنفين: صنفٌ جازمون بنفيها كأئمتهم، وصنفٌ متردِّدون متحيِّرون فيها، فإذا سمعوا ما يُؤثر عن آبائهم أنكروها، وإذا سمعوا الآياتِ المتلوَّة تقهقر إنكارهم فتردَّدوا.

---

(١) الكتاب ١/ ١٤٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥٥.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥١.

ويحتمل اتّحاد قائل ذاك وقائل هذا، إلا أنَّ كلَّ قول في وقت وحال، فهو مضطربٌ مختلف الحالات، تارة يجزم بالنفي فيقول: إن هي إلا حياتنا الدنيا، وأُخرى يظن فيقول: إن نظنُّ إلا ظنًّا.

وقيل: الجزم هناك بنفي وقوعها، والظنُّ من غير إيقان هنا بمجرَّد إمكانها، فهم متردِّدون بإمكانها الذاتي جازمون بعدم وقوعها بالفعل، فتأمَّل.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم حينئذ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: قبائح أعمالهم، أي: عقوباتها، فإنَّ العقوبة تسوء صاحبها وتقبحُ عنده. أو: سيئات أعمالهم، أي: أعمالهم السيئات، على أن تكون الإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف، والكلام على تقدير مضاف، أي: ظهر لهم جزاءُ ذلك، أو أن يراد بالسيئات جزاؤها، من باب إطلاق السبب على المسبَّب.

وقيل: المراد: ظهر لهم الجهات السيئة الغير الحسنة عقلًا لأعمالهم، أي: جهات قبحها العقلي التي خَفِيَتْ عليهم في الدنيا بتزيين الشيطان؛ وهو قولٌ بالحُسْنِ والقُبْحِ العقليين في الأفعال.

و«ما» موصولة، وجوِّز أن تكون مصدرية، فلا تغفل.

﴿وَحَاقَ﴾ أي: حلَّ ﴿بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾ من الجزاء والعقاب.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نترككم في العذاب، من باب إطلاق السبب على المسبَّب، لأن من نسي شيئًا تَرَكه، أو: نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المُبالَى به، على أن ثَمَّ استعارةً تمثيليةً. وجُوِّز أن يكون استعارة مَكنية في ضمير الخطاب.

﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: تركتم عُدَّته[1]، وهي التقوى والإيمان به، أو: كما لم تبالوا أنتم بلقائه، ولم تخطروه ببال، كالشيء الذي يطرح نسيًا منسيًّا. وجُوِّز أن يكون التعبير بنسيانه لأنَّ عِلْمَه مركوزٌ في فِطْرتهم، أو لتمكُّنهم منه بظهور دلائله، ففي النسيان الأول مُشاكلة.

وإضافة «لقاء» إلى «يوم» من إضافة المصدر إلى ظرفه، فهي على معنى «في»،

---

(١) بضمٍّ فتشديد: ما يُعدُّ له مما لا بدَّ منه كزاد المسافر وراحلته، وعدة الآخرة التقوى وماضاهاها كما قال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]. حاشية الشهاب ٨/ ٢٤.

والمفعول مقدَّر، أي: لقاءكم اللهَ تعالى وجزاءه سبحانه في يومكم هذا. وقال العلامة التفتازاني(١): «لقاء يومكم» كـ«مكر الليل» من باب المجاز الحكمي، فلذا أجري المضاف إليه مجرى المفعول به، وإنما لم يجعل من إضافة المصدر إلى المفعول به حقيقةً لأن التوبيخ ليس على نسيان لقاء اليوم نفسه، بل نسيان ما فيه من الجزاء.

وقال بعض الأجلة(٢): لا يخفى أن لقاءَ اليوم يجوز أن يكون كنايةً عن لقاء جميع ما فيه، وهو أنسبُ بالمقام لأن السياقَ لإنكار البعث.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ما لأحد منكم ناصرٌ واحد يُخلِّصكم منها.

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: مهزوءًا بها، ولم ترفعوا لها رأسًا ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فحسبتم أنْ لا حياةَ سواها.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: النار. وقرأ الحسن وابن وثاب وحمزة والكسائي: «لا يَخْرُجون» مبنيًّا للفاعل(٣)، والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانةً بهم، أو بنقلهم من مقام الخطاب(٤) إلى غيابة النار. وجُوِّز أن يكون هذا ابتداءَ كلام، فلا التفات.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: يُطلب منهم أن يُعْتِبوا ربَّهم سبحانه، أي: يُزيلوا عتبه جلَّ وعلا، وهو كنايةٌ عن إرضائه تعالى، أي: لا يُطلب منهم إرضاؤه عز وجل لفوات أوانه. وقد تقدَّم في «الروم» و«السجدة» أوجهٌ أُخر في ذلك، فتذكَّر.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ تفريع على ما احتوتْ عليه السورة الكريمة، وقد احتوت على آلاء الله تعالى وإفضاله عز وجل، واشتملَتْ على الدلائل الآفاقية والأنفسية، وانطوتْ على البراهين الساطعة والنصوص اللامعة في المبدأ والمَعاد، واللام للاختصاص، وتقديم الخبر لتأكيده، وتعريفُ «الحمد»

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٢٤.

(٢) هو الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي ٨/ ٢٤.

(٣) قراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٢٦٧، وهي قراءة خلف أيضًا.

(٤) في الأصل و(م): الخطابة، والمثبت من تفسير أبي السعود ٨/ ٧٦، والكلام منه.

للاستغراق أو الجنس. والجملة إخبار عن استحقاقه تعالى لِمَا تدلُّ عليه، وجُوِّز أن يُرادَ الإنشاء، وتمام الكلام قد تقدَّم في «الفاتحة».

وفي التفريع المذكور على ما قال بعض الأجِلَّة[1] إشارةٌ إلى أن كفرهم لا يُؤثِّر شيئًا في ربوبيته تعالى، ولا يسدُّ طريق إحسانه ورحمته عز وجل:

ومَن يَسُدُّ طريقَ العارض الهَطِلِ[2]

وإنما هم ظلموا أنفسهم.

وإجراء ما أُجري من الصفات الدالة على إنعامه تعالى عليه عز وجل كالدليل على استحقاقه تعالى الحمدَ واختصاصه به جل وعلا.

وقوله تعالى: «رب العالمين» بدلٌ مما قبلُ؛ وفي تكرير لفظ الربّ تأكيدٌ وإيذان بأنَّ ربوبيته تعالى لكلٍّ بطريق الأصالة.

وقرأ ابن مُحيصن برفعه على المدح بإضمار هو[3].

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ فيه من الاختصاص ما في «لله الحمد». والكبرياءُ قال ابن الأثير: العَظَمة والمُلك[4]. وقال الراغب[5]: الترفُّع عن الانقياد. وقيل: هي عبارةٌ عن كمال الذات وكمال الوجود.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في موضع الحال، أو متعلِّق بـ «الكبرياء»، والتقييد بذلك لظهور آثار الكبرياء وأحكامها فيه، والإظهار في مقام الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء، وفي الحديث القدسي: «الكبرياء رِدائي والعظمةُ إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار» أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه وابن أبي شيبة والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي هريرة[6]، وهو

(١) هو الشهاب في حاشيته ٨/ ٢٤.
(٢) هذا عجز بيت للمتنبي، وصدره: وما ثناك كلام الناس عن كرم. ديوان المتنبي ٣/ ٢١١.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٩٠، وتفسير القرطبي ١٩/ ١٧٤.
(٤) النهاية (كبر).
(٥) مفردات ألفاظ القرآن (كبر).
(٦) مسند أحمد (٧٣٨٢)، وصحيح مسلم (٢٦٢٠) ـ ولفظه: «العز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن =

ظاهرٌ في عدم اتِّحاد الكبرياء والعظمة فلا تغفل. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾ في كل ما قضى وقدَّر.

وفي هذه الجمل إرشادٌ ـ على ما قيل ـ إلى أوامرَ جليلةٍ، كأنه قيل: «له الحمد» فاحمدوه تعالى، «وله الكبرياء» فكبِّروه سبحانه، «وهو العزيز الحكيم» فأطيعوه عز وجل. وجعلها بعضُهم مجازًا أو كنايةً عن الأوامر المذكورة، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

هذا، ولم أظفر من باب الإشارة بما يتعلَّق بشيء من آيات هذه السورة الكريمة يفي بمؤنة نقله غير ما يتعلَّق بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ مِن جَعْلِه إشارةً إلى وحدة الوجود، وقد مرَّ ما يُغني عن نقله، والله عز وجل ولي التوفيق.

= ينازعني عذبته» ـ وسنن أبي داود (٤٠٩٠)، وسنن ابن ماجه (٤١٧٤)، ومصنف ابن أبي شيبة ٩/ ٨٩، والأسماء والصفات (٢٧٩).

(٤٦) سورة الأحقاف مكية وآياتها خمس وثلاثون

سورة الأحقاف تعالج قضية العقيدة شأن سائر السور المكية ، وقد جاء الحديث فيها مفصلاً عن قضية الإيمان بوحدانية الله ، والإيمان بالوحي والرسالة ، والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء . سميت السورة الكريمة « سورة الأحقاف » لأن الله تعالى ذكر فيها مصرع عاد ، الذين بعث الله إليهم « هوداً » عليه السلام فكذبوه ، فأخذهم بالعذاب المدمّر الذي لم يُبق لهم ذكراً ولا أثراً ، وكانوا أقوى الأمم أجساداً ، وأغناهم مالاً ، وأكثرهم بنين وأولاداً ، وكانت منازلهم بالمرتفعات الجبلية في جنوب الجزيرة العربية ، قريباً من بلاد حضر موت ، فلما تكبروا وتجبروا واغتروا بقوتهم أهلكهم الله بالريح العاتية التي ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وقد ذكر تعالى قصتهم في هذه السورة ومنازلهم التي كانوا يسكنونها في أعالي الجبال والمرتفعات في قوله جل ثناؤه ﴿ واذكر أخا عادٍ إذْ أنذر قومَه بالأحقاف وقد خلت النُّذُر من بين يديه ومن خلفه .. ﴾ ولذلك سميت سورةَ الأحقاف .

تبتدىء السورة الكريمة بالحديث عن كتاب الكون المنظور ، بعد الحديث عن كتاب الوحي المسطور ، فالكون كلُّه ناطقٌ بعظمة الله ، شاهدٌ بوحدانيته وجلاله ، ومع ذلك تجد من يُعرِض عن النظر في صفحاته ، ويجحد قدرة الله ويكذّب بوحدانيته ﴿ حمٓ . تنزيلُ الكتاب من الله العزيز الحكيم . ما خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا

بالحقِّ وأجلٍ مُسَمَّى ، والذين كفروا عمَّا أُنْذِروا معرضون﴾ .

ومن الحديث عن الكون العظيم وما فيه من الآيات الباهرة ، إلى الحديث عن الآلهة المزعومة التي عبدها المشركون ، وهي لا تسمع الدعاء ولا تستجيب النداء ، وبالأسلوب التهكمي اللاذع مع التبكيت والتوبيخ ، يناقشهم القرآن الكريم ليكشف لهم عن خطئهم وضلالهم ، مقروناً بقوة الحجة ونَصَاعة الحقِ المبين ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دونِ الله ؟ أروني ما ذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شِرْكٌ في السمواتِ ائتوني بكتابٍ من قبل هذا أو أَثارةٍ من علمٍ إن كنتم صادقين ؟ ومن أضلُّ ممن يدعو من دون اللهِ من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حُشر الناسُ كانوا لهم أعداءً ، وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ .

وتنتقل الآيات الكريمة لتتحدث عن موقف المشركين – من أهل مكة – من الوحي والرسالة ، فقد زعموا أن القرآن سحرٌ مبين ، بعد أن عجزوا عن معارضته ، ونسبوا الرسول إلى الكذب والاختلاق على الله ، وأن هذا القرآن من افترائه واختلاقه – مع يقينهم بأنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتُبُ – ولكنها المكابرة والعناد ﴿وإذا تُتْلى عليهم آياتُنَا بيِّناتٍ قالَ الذينَ كفروا للحقِّ لمَّا جاءهم : هذا سحرٌ مبينٌ . أم يقولون افتراه ، قلْ إن افتريتُه فلا تملكونَ لي من اللهِ شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم . قل ما كنتُ بِدْعاً من الرسل ، وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم ، إن أتَّبعُ إلاّ ما يُوحى إليَّ ، وما أنا إلاّ نذيرٌ مبين﴾ . وتستطرد الآيات في توبيخ المشركين ، وتُندِدُ بظلمهم بالإصرار على التكذيب ، بينما يؤمن بهذا القرآن فريقٌ من أهل الكتاب لأنهم رأوا فيه الحقَّ القاطع ، والضياء الساطع ﴿قل أرأيتم إن كان من عند اللهَ وكفرتم به ، وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ؟ إنَّ اللهَ لا يهدي القوم الظالمين﴾ .

وتعرض السورة الكريمة لنموذجين من نماذج البشرية، في هدايتها أو ضلالها، وفي سعادتها أو شقاوتها، فتذكر الفطرة الإنسانية السليمة التي سارت منذ نشأتها الأولى على درب الإيمان، والتقت فيها آصرة الإيمان بآصرةِ النسب، وهو مثلٌ للمؤمن المهتدي، الذي عرف حقّ ربه وحقَّ والديه، فآمن بالله حقَّ الإيمان، وشكر لوالديه تربيتهما وبرهما وإحسانهما إليه، وكان مصيرُه الجنة دار الأبرار ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً، حملته أمه كُرْهاً ووضعته كُرْهاً، وحَمْلُه وفصالُه ثلاثون شهراً، حتى إذا بلغ أشُدَّه وبلغ أربعين سنة، قال ربِّ أَوْزِعْني أَنْ أشكرَ نعمتك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ، وأَنْ أعملَ صالحاً ترضاه، وأَصْلِحْ لي في ذريتي إني تُبْتُ إليك وإني من المسلمين. أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، وعدَ الصِّدق الذي كانوا يوعدون﴾

أما النموذج الآخر فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال، نموذج الانحراف عن الفطرة، والزيغِ عن طريق الإيمان وهو مثلٌ للجاحد الكافر، الذي جحد حقّ الله وحقّ والديه، وكان مصيره المشئوم الخسران المبين، والخلودُ الأبدي في دار الجحيم ﴿والذي قال لوالديه أفٍّ لكما أتعدانني أن أُخرجَ وقد خلت القرون من قبلي، وهما يستغيثانِ اللهَ وَيْلَكَ آمنْ إنَّ وعدَ الله حقٌّ، فيقول ما هذا إلا أساطيرُ الأولين. أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجنِ والإنسِ، إنهم كانوا خاسرين﴾.

وتعرض السورة لمشهدٍ سريعٍ من مشاهد القيامة، مشهدِ الذل والهوان للكفرة المجرمين، يُعرض فيه مصير هذا الفريق من المكذبين بآيات الله، الذين تمتَّعوا بالدنيا ونسوا الآخرة، بل لم يؤمنوا بها لأنها لم تكن في تفكيرهم وحسابهم ﴿ويوم يُعرض الذين كفروا على النارِ أذهبتم

طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمعتم بها ، فاليوم تُجزون عذاب الهُوْنِ ، بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقُون﴾ .

وتتحدث السورة عن مصرع قوم هود ، أولئك العتاة الطغاة الذين تكبروا وتجبروا في الأرض ، وكذبوا النذير « هوداً » عليه السلام ، تذكيراً لكفار مكة وتحذيراً لهم من ذلك المصير المشئوم ، الذي ينتظر كل متكبر على الله ، متعالٍ على الإيمان برسله ، فقد كانت عادٌ أقوى وأعتى من أهل مكة ، وكانوا أشدَّ منهم قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً ، وكانوا إذا مَشَوْا تهتز الأرض تحت أقدامهم من شدتهم ، فاغتروا بما هم عليه من القوة وضخامة الأجسام حتى تجرءوا فقالوا « من أشدُّ منا قوة » ؟ وكانت النتيجة أن أهلكهم اللهُ بأيسر الإسباب ، بالريح العاصف المدمِّر ، وتذكر الروايات المعتمدة أن القوم أصابهم حر شديد ، واحتبس عنهم المطر ، وأظلم الجو حولهم من الحر والجفاف حتى كادت أنفاسُهم تُخنق ، ثم ساق الله إليهم سحابة ، ففرحوا بها فرحاً شديداً ، وخرجوا يستقبلونها في الأودية وهم يحسبون فيها الحياةَ والماء ، بينما فيها الموتُ والفناء ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبَل أوديتهم قالوا : هذا عارضٌ ممطرُنَا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ . تُدَمِّرُ كلَّ شيءٍ بأمر ربها ، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ . وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت القرآن إلى أمثالهم الحاضرين ، ممن كذبوا المرسلين ، فيلمس قلوبهم بما ترتعش له القلوب ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القُرى وصَرَّفنا الآياتِ لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دونِ الله قرباناً آلهة ! بل ضلُّوا عنهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ .

وتتحدث السورة عن قصة النفر من الجنِّ ، الذين استمعوا القرآن فخشعت له قلوبهم ، وتأثروا به فآمنوا ثم انصرفوا إلى قومهم منذرين ،

يدعونهم إلى الإيمان ويبشرونهم بالرحمة والغفران ، بينما الكفار من أهل مكة يكابرون ويعاندون ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أَنْصِتوا ، فلما قُضِيَ وَلَّوْا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ وتختم السورة الكريمة بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر وعدم الاستعجال لهم بالعذاب ، فإن ما ينتظرهم قريب ﴿ فاصبر كما صبر أو لو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، بلاغ فهل يُهلك الا القوم الفاسقون﴾ ؟

سورة الأحقاف

[٨١٩] ك . . أخرج الطبراني بسند صحيح[١] عن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي [ﷺ] وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم فقال لهم رسول الله [ﷺ]: **«يا معشر اليهود أروني إثنى عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد»** ثم انصرف فإذا رجل من خلفه فقال كما أنت يا محمد فأقبل فقال: أي رجل تعلموني منكم يا معشر اليهود قالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً كان أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك قال: فأني أشهد أنه النبي الذي تجدون في التوراة قالوا: كذبت ثم ردوا عليه وقالوا فيه شراً فأنزل الله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾[٢] الآية.

[٨٢٠] وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص قال في عبدالله بن سلاّم نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾[٣].

[٨٢١] وأخرج ابن جرير عن عبدالله بن سلاّم قال في نزلت.

[٨٢٢] وأخرج أيضاً عن قتادة قال: قال ناس من المشركين نحن أعز ونحن فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان فنزل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٤].

[٨٢٣] ك . . وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها زنين فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتر وكان كفار قريش يقولون لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنين فأنزل الله في شأنها:

---

[٨١٩] (١) المستدرك (٣/ ٤١٥)، وابن حبان في صحيحه (٢١٠٦) موارد الظمآن.
(٢) سورة الأحقاف: الآية (١٠).
[٨٢٠] (٣) سورة الأحقاف: الآية (١٠).
[٨٢٢] (٤) سورة الأحقاف: الآية (١١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾(1) الآية. وأخرج ابن سعد نحوه عن الضحاك والحسن.

[٨٢٤] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾(2) في عبد الرحمن بن أبي بكر قال لأبويه وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم فكانا يأمرانه بالإسلام فيرد عليهما ويكذبهما ويقول فأين فلان وأين فلان يعني مشايخ قريش ممن قد مات ثم أسلم بعد فحسن إسلامه فنزلت توبته في هذه الآية: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾(3) الآية.

[٨٢٥] وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس مثله.

[٨٢٦] ك.. لكن أخرج البخاري من طريق يوسف بن ماهان قال: قال مروان في عبد الرحمن بن أبي بكر أن هذا الذي أنزل الله فيه.. ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾(4) فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري.

[٨٢٧] وأخرج عبد الرزاق من طريق مكي أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر وقالت إنما نزلت في فلان سمت رجلاً قال الحافظ ابن حجر ونفي عائشة أصح إسناداً وأولى بالقبول.

[٨٢٨] وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: إن الجن هبطوا على النبي [ﷺ] وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا انصتوا وكانوا تسعة أحدهم زوبعة فأنزل الله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى قوله: ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(5).

* * *

---

[٨٢٣] (1) سورة الأحقاف: الآية (١١).
[٨٢٤] (2) سورة الأحقاف: الآية (١٧).
(3) سورة الأحقاف: الآية (١٩).
[٨٢٦] (4) سورة الأحقاف: الآية (١٧).
[٨٢٨] (5) سورة الأحقاف: الآية (٢٩و٣٢).

سورة الأحقاف

وهي ثلاثون وخمس آيات مكية وقيل اربع وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾

اعلم أن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية، وقد ذكرنا ما فيه.

وأما قوله: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فهذا يدل على إثبات الإله بهذا العالم، ويدل على أن ذلك الإله يجب أن يكون عادلاً رحيمًا بعباده، ناظرًا لهم محسنًا إليهم، ويدل على أن القيامة حق.

أما المطلوب الأول: - وهو إثبات الإله بهذا العالم - وذلك لأن الخلق عبارة عن التقدير، وآثار التقدير ظاهرة في السموات والأرض من الوجوه العشرة المذكورة في سورة الأنعام، وقد بينا أن تلك الوجوه تدل على وجود الإله القادر المختار.

وأما المطلوب الثاني: - وهو إثبات أن إله العالم عادل رحيم - فيدل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لأن قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ معناه إلا لأجل الفضل والرحمة والإحسان، وأن الإله يجب أن يكون فضله زائدًا وأن يكون إحسانه راجحًا، وأن يكون وصول المنافع منه إلى المحتاجين أكثر من وصول المضار إليهم، قال الجبائي: هذا يدل على أن كل ما بين السموات والأرض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من أفعال عباده، وإلا لزم أن يكون خالقًا لكل باطل، وذلك ينافي قوله: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩] أجاب أصحابنا وقالوا: خلق الباطل غير، والخلق بالباطل غير، فنحن نقول: إنه هو الذي خلق الباطل إلا أنه خلق ذلك الباطل بالحق؛ لأن ذلك تصرف من الله تعالى في ملك نفسه، وتصرُّف المالك في ملك نفسه يكون بالحق لا بالباطل. قالوا: والذي يقرر ما ذكرناه أن قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ يدل على كونه تعالى خالقًا لكل أعمال العباد؛ لأن أعمال العباد من جملة ما بين السموات والأرض، فوجب كونها مخلوقة لله تعالى، ووقوع التعارض في الآية الواحدة محال فلم يبق إلا أن يكون المراد ما ذكرناه. فإن قالوا: أفعال العباد أعراض، والأعراض لا توصف بأنها حاصلة بين

السموات والأرض. فنقول: فعلى هذا التقدير سقط ما ذكرتموه من الاستدلال، والله أعلم.

وأما المطلوب الثالث: فهو دلالة الآية على صحة القول بالبعث والقيامة، وتقريره أنه لو لم توجد القيامة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين، ولتعطل توفية الثواب على المطيعين وتوفية العقاب على الكافرين، وذلك يمنع من القول بأنه تعالى خلق السموات والأرض وما بينها لا بالحق(١).

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فالمراد أنه ما خلق هذه الأشياء إلا بالحق وإلا لأجل مسمى، وهذا يدل على أن إله العالم ما خلق هذا العالم ليبقى مخلدًا سرمدًا، بل إنما خلقه ليكون دارًا للعمل، ثم إنه سبحانه يفنيه ثم يعيده، فيقع الجزاء في الدار الآخرة، فعلى هذا الأجلُ المسمى هو الوقت الذي عَيَّنه الله تعالى لإفناء الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ والمراد أن مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار، بقي هؤلاء الكفار معرضين عن هذه الدلائل غير ملتفتين إليها، وهذا يدل على وجوب النظر والاستدلال، وعلى أن الإعراض عن الدليل مذموم في الدين والدنيا.

واعلم أنه تعالى لما قرر هذا الأصل الدال على إثبات الإله، وعلى إثبات كونه عادلاً رحيمًا، وعلى إثبات البعث والقيامة، بنى عليه التفاريع:

فالفرع الأول: الرد على عبدة الأصنام فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿أَرُونِي﴾ أي أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَٰتِ﴾ والمراد أن هذه الأصنام هل يُعقل أن يضاف إليها خلق جزء من أجزاء هذا العالم؟ فإن لم يصح ذلك فهل يجوز أن يقال: إنها أعانت إله العالم في خلق جزء من أجزاء هذا العالم؟! ولما كان صريح العقل حاكمًا بأنه لا يجوز إسناد خلق جزء من أجزاء هذا العالم إليها، وإن كان ذلك الجزء أقل الأجزاء، ولا يجوز أيضًا إسناد الإعانة إليها في أقل الأفعال وأذلها، فحينئذٍ صح أن الخالق الحقيقي لهذا العالم هو الله سبحانه، وأن المنعم الحقيقي بجميع أقسام النعم هو الله سبحانه، والعبادة عبارة عن الإتيان بأكمل وجوه التعظيم، وذلك لا يليق إلا بمن صدر عنه أكمل وجوه الإنعام، فلما كان الخالق الحق والمنعم الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، وجب أن لا يجوز الإتيان بالعبادة والعبودية إلا له ولأجله.

بقي أن يقال: إنا لا نعبدها لأنها تستحق هذه العبادة، بل إنما نعبدها لأجل أن الإله الخالق المنعم أمَرنا بعبادتها. فعند هذا ذكر الله تعالى ما يجري مجرى الجواب عن هذا السؤال، فقال: ﴿ائْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ وتقرير هذا الجواب أن ورود هذا الأمر لا سبيل

---

(١) في الأصل: (إلا بالحق) وهو خطأ، والصواب حذف الألف وجعل (إلا) الاستثنائية (لا) النافية وهو الممنوع.

إلى معرفته إلا بالوحي والرسالة، فنقول: هذا الوحي الدال على الأمر بعبادة هذه الأوثان إما أن يكون على محمد أو في سائر الكتب الإلهية المنزلة على سائر الأنبياء، وإن لم يوجد ذلك في الكتب الإلهية لكنه من تقابل العلوم المنقولة عنهم والكل باطل، أما إثبات ذلك بالوحي إلى محمد ﷺ فهو معلوم البطلان، وأما إثباته بسبب اشتمال الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء المتقدمين عليه، فهو أيضًا باطل؛ لأنه عُلم بالتواتر الضروري إطباق جميع الكتب الإلهية على المنع من عبادة الأصنام، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿أئتوني بِكِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ﴾، وأما إثبات ذلك بالعلوم المنقولة عن الأنبياء سوى ما جاء في الكتب فهذا أيضًا باطل؛ لأن العلم الضروري حاصل بأن أحدًا من الأنبياء ما دعا إلى عبادة الأصنام، وهذا هو المراد من قوله: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ ولما بطل الكل ثبت أن الاشتغال بعبادة الأصنام عمل باطل وقول فاسد.

وبقي في قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ نوعان من البحث:

النوع الأول: البحث اللغوي، قال أبو عبيدة والفراء والزجاج: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ أي بقية. وقال المبرد: ﴿أَثَٰرَةٖ﴾ ما يؤثر من علم أي بقية. وقال المبرد ﴿أَثَٰرَةٖ﴾ تؤثر ﴿مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ كقولك: هذا الحديث يؤثر عن فلان، ومن هذا المعنى سميت الأخبار بالآثار، يقال جاء في الأثر كذا وكذا، قال الواحدي: وكلام أهل اللغة في تفسير هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال: الأول: البقية، واشتقاقها من أثرت الشيء أثيره إثارة، كأنها بقية تُستخرج فتثار. الثاني: من الأثر الذي هو الرواية. والثالث: هو الأثر بمعنى العلامة. قال صاحب (الكشاف): وقرئ (أَثَرَةٍ) أي من شيء أوثرتم به وخُصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم. وقرئ (أَثْرَةٍ) بالحركات الثلاث مع سكون الثاء فالإثرة بالكسر بمعنى الأثر، وأما الإثر فالمرأة، من مصدر أثر الحديث إذا رواه، وأما الأُثرة بالضم فاسم ما يؤثر كالخطبة اسم لما يخطب به.

وهاهنا قول آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ وهو ما روي عن ابن عباس أنه قال: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ هو علم الخط الذي يخط في الرمل، والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور، وعن النبي ﷺ أنه قال: «**كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطُّهُ خَطَّهُ عُلِّمَ عِلْمَهُ**»(١).

وعلى هذا الوجه فمعنى الآية: ائتوني بعلم من قِبل هذا الخط الذي تخطونه في الرمل يدل على صحة مذهبكم في عبادة الأصنام. فإن صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم، والله تعالى أعلم.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (المساجد)، باب: (تحريم الكلام في الصلاة) (١/ ٣٣/ ٣٨١)، وأبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (تشميت العاطس في الصلاة) (١/ ٤٠٧)، حديث رقم (٩٣٠)، والنسائي في كتاب (السهو)، باب: (الكلام في الصلاة) (٣/ ١٩)، حديث رقم (١٢١٧)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤٤٧)، ومالك في (الموطأ) (٢/ ٧٧٦)، جميعًا عن هلال... به.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

اعلم أنه تعالى بيّن فيما سبق أن القول بعبادة الأصنام قول باطل، من حيث إنها لا قدرة لها ألبتة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام والنفع والضر، فأردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب، وهي أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجات المحتاجين، وبالجملة فالدليل الأول كان إشارة إلى نفي العلم من كل الوجوه، وإذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل، فقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، والمعنى أنه لا أمرأ أبعد عن الحق وأقرب إلى الجهل ممن يدعو من دون الله الأصنام، فيتخذها آلهة ويعبدها، وهي إذا دُعيت لا تسمع، ولا تصح منها الإجابة لا في الحال ولا بعد ذلك اليوم إلى يوم القيامة. وإنما جعل ذلك غاية لأن يوم القيامة قد قيل: إنه تعالى يحييها وتقع بينها وبين من يعبدها مخاطبة فلذلك جعله تعالى حدًّا، وإذا قامت القيامة وحُشر الناس فهذه الأصنام تعادي هؤلاء العابدين، واختلفوا فيه: فالأكثرون على أنه تعالى يحيي هذه الأصنام يوم القيامة وهي تُظهر عداوة هؤلاء العابدين وتتبرأ منهم. وقال بعضهم: بل المراد عبدة الملائكة وعيسى فإنهم في يوم القيامة يُظهرون عداوة هؤلاء العابدين. فإن قيل: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ وكيف يُعقل وصف الأصنام وهي جمادات بالغفلة؟ وأيضًا كيف جاز وصف الأصنام بما لا يليق إلا بالعقلاء؟ وهي لفظة (مَن) وقوله: (هم)؟ قلنا: إنهم لما عبدوها ونَزَّلوها منزلة من يضر وينفع، صح أن يقال فيها إنها بمنزلة الغافل الذي لا يسمع ولا يجيب. وهذا هو الجواب أيضًا عن قوله إن لفظة (مَن) ولفظة (هم) كيف يليق بها، وأيضًا يجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الملائكة وعيسى وعزير والأصنام، إلا أنه غَلَّب غير الأوثان على الأوثان.

واعلم أنه تعالى لما تكلم في تقرير التوحيد ونفي الأضداد والأنداد، تكلم في النبوة وبيّن أن محمدًا ﷺ كلما عرض عليهم نوعًا من أنواع المعجزات زعموا أنه سحر فقال: وإذا تتلى عليهم الآيات البينة وعُرضت عليهم المعجزات الظاهرة سموها بالسحر، ولما بيّن أنهم يسمون المعجزة بالسحر بيّن أنهم متى سمعوا القرآن قالوا: إن محمدًا افتراه واختلقه من عند نفسه. ومعنى الهمزة في (أم) للإنكار والتعجب كأنه قيل: دع هذا واسمع القول المنكر العجيب، ثم إنه

تعالى بيّن بطلان شبهتهم فقال: إن افتريته على سبيل الفرض، فإن الله تعالى يعاجلني بعقوبة بطلان ذلك الافتراء وأنتم لا تقدرون على دفعه عن معاجلتي بالعقوبة، فكيف أُقْدم على هذه الفرية، وأُعَرض نفسي لعقابه؟ يقال: فلان لا يملك نفسه إذا غضب ولا يملك عِنانه إذا صمم. ومثله: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: ٤١] ومن قوله ﷺ: «لا أَملِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»(١).

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسميته سحرًا تارة وفرية أخرى ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ يشهد لي بالصدق ويشهد عليكم بالكذب والجحود، ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد لهم على إقامتهم في الطعن والشتم.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن رجع عن الكفر وتاب، واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ۝١١ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٢﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم (شكّوا) في كون القرآن معجزًا، بأن قالوا: إنه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه إلى أنه كلام الله على سبيل الفرية، حكى عنهم نوعًا آخر من الشبهات، وهو أنهم كانوا يقترحون منه معجزات عجيبة قاهرة، ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات، فأجاب الله تعالى عنه بأن قال: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ والبدع والبديع من كل شيء المبدأ، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودًا قبله بحكم السنة، وفيه وجوه: الأول: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي ما كنت أولهم، فلا ينبغي أن تنكروا إخباري بأني رسول الله إليكم، ولا تنكروا دعائي لكم إلى التوحيد، ونهيي عن عبادة الأصنام، فإن كل الرسل إنما بُعثوا بهذا

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في (السنن الكبرى) كتاب: (الوصايا)، باب: (إذا أوصى بعشيرته الأقربين) (٤/ ١٠٨)، حديث رقم (٦٤٧٢)، وأيضًا في كتاب (الوصايا)، باب: (إذا أوصى لعشيرته الأقربين) (٣/ ٦٠٧)، حديث رقم (٣٦٤٧) من طريق أحمد بن سليمان قال: حدثنا عبيد الله بن موسى... به.

الطريق. الوجه الثاني: أنهم طلبوا منه معجزات عظيمة وأخبارًا عن الغيوب فقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ والمعنى أن الإتيان بهذه المعجزات القاهرة والإخبار عن هذه الغيوب ليس في وسع البشر، وأنا من جنس الرسل، وأحد منهم لم يقدر على ما تريدونه فكيف أقدر عليه؟ الوجه الثالث: أنهم كانوا يعيبونه أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وبأن أتباعه فقراء فقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وكلهم كانوا على هذه الصفة وبهذه المثابة، فهذه الأشياء لا تقدح في نبوتي كما لا تقدح في نبوتهم.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في تفسير الآية وجهان: أحدهما: أن يُحمل ذلك على أحوال الدنيا. والثاني: أن يُحمل على أحوال الآخرة.

أما الأول ففيه وجوه: الأول: لا أدري ما يصير إليه أمري وأمركم، ومَن الغالب منا والمغلوب. والثاني: قال ابن عباس في رواية الكلبي: لما اشتد البلاء بأصحاب النبي ﷺ بمكة، رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج مما هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة من الدهر لا يرون أثر ذلك، ، فقالوا: يا رسول الله ما رأينا الذي قلتَ ومتى نهاجر إلى الأرض التي رأيتها في المنام؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ وهو شيء رأيته في المنام، وأنا لا أتبع إلا ما أوحاه الله إليّ. الثالث: قال الضحاك: لا أدري ما تؤمرون به ولا أؤمر به في باب التكاليف والشرائع والجهاد ولا في الابتلاء والامتحان، وإنما أنذركم بما أعلمني الله به من أحوال الآخرة في الثواب والعقاب. والرابع: المراد أنه يقول: لا أدري ما يُفعل بي في الدنيا أأموت أم أُقتل كما قُتل الأنبياء قبلي، ولا أدري ما يُفعل بكم أيها المكذبون، أتُرمون بالحجارة من السماء، أم يُخسف بكم أم يُفعل بكم ما فُعل بسائر الأمم.

أما الذين حملوا هذه الآية على أحوال الآخرة: فروي عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا: كيف نتبع نبيًّا لا يدري ما يُفعل به وبنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح: ١-٢] إلى قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥] فبيّن تعالى ما يفعل به وبمن اتبعه ونسخت هذه الآية، وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين.

وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول واحتجوا عليه بوجوه: الأول: أن النبي ﷺ لا بد وأن يعلم من نفسه كونه نبيًّا ومتى علم كونه نبيًّا علم أنه لا تصدر عنه الكبائر وأنه مغفور له، وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكًّا في أنه هل هو مغفور له أم لا. الثاني: لا شك أن الأنبياء أرفع حالاً من الأولياء، فلما قال في هذا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] فكيف يُعقل أن يبقى الرسول الذي هو رئيس الأتقياء وقدوة الأنبياء والأولياء شاكًّا

في أنه هل هو من المغفورين أو من المعذبين؟ الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] والمراد منه كمال حاله ونهاية قربه من حضرة الله تعالى، ومَن هذا حاله كيف يليق به أن يبقى شاكًا في أنه من المعذبين أو من المغفورين؟ فثبت أن هذا القول ضعيف.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قرئ (ما يَفعل) بفتح الياء، أي يفعل الله عزّ وجلّ. فإن قالوا: ﴿مَا يُفْعَلُ﴾ مثبت وغير منفي، وكان وجه الكلام أن يقال: ما يفعل بي وبكم؟ قلنا: التقدير ما أدري ما يفعل بي وما أدري ما يفعل بكم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ يعني إني لا أقول قولاً ولا أعمل عملاً إلا بمقتضى الوحي. واحتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: النبي ﷺ ما قال قولاً ولا عمل عملاً إلا بالنص الذي أوحاه الله إليه، فوجب أن يكون حالنا كذلك، بيان الأول: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ بيان الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كانوا يطالبونه بالمعجزات العجيبة وبالإخبار عن الغيوب فقال: قل: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والقادر على تلك الأعمال الخارجة عن قدرة البشر والعالم بتلك الغيوب – ليس إلا الله سبحانه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: جواب الشرط محذوف والتقدير أن يقال: إن كان هذا الكتاب من عند الله ثم كفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على صحته ثم استكبرتم، لكنتم من الخاسرين. ثم حذف هذا الجواب، ونظيره قولك: إن أحسنتُ إليك وأسأتَ إليّ وأقبلتُ عليك وأعرضتَ عني، فقد ظلمتني، فكذا هاهنا التقدير: أخبِروني إن ثبت أن القرآن من عند الله بسبب عجز الخلق عن معارضته ثم كفرتم به وحصل أيضًا شهادة أعلم بني إسرائيل بكونه معجزًا من عند الله، فلو استكبرتم وكفرتم ألستم أضل الناس وأظلمهم؟ واعلم أن جواب الشرط قد يُحذف في بعض الآيات وقد يُذكر: أما الحذف فكما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] وأما المذكور، فكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ﴾ [فصلت: ٥٢] وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ [القصص: ٧١].

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد بقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على قولين: الأول: – وهو الذي قال به الأكثرون – أن هذا الشاهد عبد الله بن سلام، روى صاحب (الكشاف) أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر إلى وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله وتحقق أنه هو النبي ﷺ المنتظر، فقال له: إني سائلك عن ثلاث ما يعلمهن إلا نبي: ما أول

أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ﷺ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ نَزَعَ لَهُ، وَإِنْ سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَ لَهَا» فقال: أشهد أنك لرسول الله حقًّا! ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك. فجاءت اليهود فقال لهم النبي ﷺ: «أي رجل عبد الله فيكم؟» فقالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. فقال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله؟» فقالوا: أعاذه الله من ذلك! فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا! وانتقصوه فقال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله. فقال سعد بن أبي وقاص: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزل ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ (١).

واعلم أن الشعبي ومسروقًا وجماعة آخرين أنكروا أن يكون الشاهد المذكور في هذه الآية هو عبد الله بن سلام، قالوا: لأن إسلامه كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين، وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في آخر عهد رسول الله ﷺ بالمدينة؟! وأجاب الكلبي بأن السورة مكية إلا هذه الآية فإنها مدنية، وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله ﷺ بأن يضعها في سورة كذا، فهذه الآية نزلت بالمدينة وإن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين. ولقائل أن يقول: إن الحديث الذي رويتم عن عبد الله بن سلام مشكل، وذلك لأن ظاهر الحديث يوهم أنه لما سأل النبي ﷺ عن المسائل الثلاثة، وأجاب النبي ﷺ بتلك الجوابات، [عرف عبد الله بن سلام بهذا الطريق كون النبي ﷺ رسولاً حقًّا من عند الله]؛ لأجل أن النبي ﷺ ذكر تلك الجوابات، وهذا بعيد جدًّا لوجهين: الأول: أن الإخبار عن أول أشراط الساعة وعن أول طعام يأكله أهل الجنة إخبار عن وقوع شيء من الممكنات، وما هذا سبيله فإنه لا يُعرف كون ذلك الخبر صدقًا إلا إذا عرف أولاً كون المخبر صادقًا فلو أنا عرفنا صدق المخبر يكون ذلك الخبر صدقًا، لزم الدور وإنه محال. والثاني: أنا نعلم بالضرورة أن الجوابات المذكورة عن هذه المسائل لا يبلغ العلم بها إلى حد الإعجاز ألبتة، بل نقول: الجوابات القاهرة عن المسائل الصعبة لما لم تبلغ إلى حد الإعجاز؟ فأمثال هذه الجوابات عن هذه السؤالات كيف يمكن أن يقال إنها بلغت إلى حد الإعجاز والجواب: يحتمل أنه جاء في بعض كتب الأنبياء المتقدمين أن رسول آخر الزمان يُسأل عن هذه المسائل وهو يجيب عنها بهذه الجوابات، وكان عبد الله بن سلام عالمًا بهذا المعنى،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة)، باب: (مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه) (٣/ ١٣٨٧)، حديث رقم (٣٦٠١)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٣٠/ ٢٤٨٣)، كلاهما من طريق عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه. . . به.

فلما سأل النبي ﷺ وأجاب بتلك الأجوبة عرف بهذا الطريق كونه رسولاً حقًّا من عند الله، وعلى هذا الوجه فلا حاجة بنا إلى أن نقول: العلم بهذه الجوابات معجز، والله أعلم.

القول الثاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أنه ليس المراد منه شخصًا معينًا، بل المراد منه أن ذكر محمد ﷺ موجود في التوراة والبشارة بمقدمه حاصلة فيها، فتقدير الكلام: لو أن رجلاً منصفًا عارفًا بالتوراة، أقر بذلك واعترف به، ثم إنه آمن بمحمد ﷺ وأنكرتم ألستم كنتم ظالمين لأنفسكم ضالين عن الحق؟ فهذا الكلام مقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصًا معينًا أو لم يكن كذلك؛ لأن المقصود الأصلي من هذا الكلام أنه ثبت بالمعجزات القاهرة أن هذا الكتاب من عند الله وثبت أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد ﷺ ومع هذين الأمرين كيف يليق بالعقل إنكار نبوته؟!

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ ذكروا فيه وجوهًا، والأقرب أن نقول: إنه ﷺ قال لهم: أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله كما أقول، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما قلت فآمن واستكبرتم، ألستم كنتم ظالمين أنفسكم؟

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: أنه تهديد، وهو قائم مقام الجواب المحذوف، والتقدير: قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به، فإنكم لا تكونون مهتدين بل تكونون ضالين.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أنه تعالى إنما منعهم الهداية بناء على الفعل القبيح الذي صدر منهم أولاً، فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ صريح في أنه تعالى لا يهديهم لكونهم ظالمين أنفسهم. فوجب أن يعتقدوا في جميع الآيات الواردة في المنع من الإيمان والهداية أن يكون الحال فيها كما ههنا، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: هذه شبهة أخرى للقوم في إنكار نبوّة محمد ﷺ، وفي سبب نزوله وجوه: الأول: أن هذا كلام كفار مكة، قالوا: إن عامة من يتبع محمدًا الفقراء والأراذل، مثل عمار وصهيب وابن مسعود، ولو كان هذا الدين خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء. الثاني: قيل: لما أسلمت جُهينة ومُزينة وأسلم وغِفار، قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع: لو كان هذا خيرًا ما سبقنا إليه رعاء البهم. الثالث: قيل: إن أَمَة لعمر أسلمت وكان عمر يضربها حتى يفتر، ويقول: لولا أني فترت لزدتك ضربًا!! فكان كفار قريش يقولون: لو كان ما يدعو محمد إليه حقًّا ما سبقتنا إليه فلانة. الرابع: قيل: كان اليهود يقولون هذا الكلام عند إسلام عبد الله بن سلام.

المسألة الثانية: اللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ذكروا فيه وجهين: الأول: أن يكون المعنى: وقال الذين كفروا للذين آمنوا، على وجه الخطاب كما تقول: قال زيد لعمرو. ثم تترك الخطاب وتنتقل إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢] الثاني:

قال صاحب (الكشاف): ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لأجلهم، يعني أن الكفار قالوا لأجل إيمان الذين آمنوا: لو كان خيرًا ما سبقونا إليه. وعندي فيه وجه الثالث: وهو أن الكفار لما سمعوا أن جماعة آمنوا برسول الله ﷺ خاطبوا جماعة من المؤمنين الحاضرين، وقالوا لهم: لو كان هذا الدين خيرًا لما سبقنا إليه أولئك الغائبون الذين أسلموا.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا الكلام، أجاب عنه بقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ والمعنى أنهم لما لم يقفوا على وجه كونه معجزًا، فلا بد من عامل في الظرف في قوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ ومن متعلق لقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ وغير مستقيم أن يكون ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ هو العامل في الظرف لتدافع دلالتي المضي والاستقبال، فما وجه هذا الكلام؟ وأجاب عنه بأن العامل في (إذ) محذوف لدلالة الكلام عليه، والتقدير ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ ظهر عنادهم ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ كتاب موسى مبتدأ، (ومِن قبله) ظرف واقع خبرًا مقدمًا عليه، وقوله: ﴿إِمَامًا﴾ نصب على الحال، كقولك: في الدار زيد قائمًا، وقرئ: (ومَن قبله كتاب موسى) والتقدير: وآتينا الذي قبله التوراة، ومعنى ﴿إِمَامًا﴾ أي قدوة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يؤتم به في دين الله وشرائعه، كما يؤتم بالإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه.

ووجه تعلق هذا الكلام بما قبله أن القوم طعنوا في صحة القرآن، وقالوا: لو كان خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء الصعاليك. وكأنه تعالى قال: الذي يدل على صحة القرآن أنكم لا تنازعون في أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام، وجعل هذا الكتاب إمامًا يقتدى به، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد ﷺ فإذا سلمتم كون التوراة إمامًا يقتدى به، فاقبلوا حكمه في كون محمد ﷺ حقًّا من الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي هذا القرآن مصدق لكتاب موسى في أن محمدًا رسول حقًّا من عند الله. وقوله تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال، ثم قال: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قال ابن عباس: مشركي مكة. وفي قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قراءتان: التاء لكثرة ما ورد من هذا المعنى بالمخاطبة، كقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢] والياء لتقدم ذكر الكتاب فأسند الإنذار إلى الكتاب كما أسند إلى الرسول، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ١، ٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ قال الزجاج: الأجود أن يكون قوله: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ في موضع رفع، والمعنى: وهو بشرى للمحسنين. قال: ويجوز أن يكون في موضع نصب على معنى ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وحاصل الكلام أن المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين وبشارة المطيعين.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوّة وذكر شبهات المنكرين وأجاب عنها، ذكر بعد ذلك طريقة المحقين والمحققين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة السجدة، والفرق بين الموضعين أن في سورة السجدة ذكر أن الملائكة ينزلون ويقولون: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠] وهاهنا رفع الواسطة من البين وذكر أنه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما أن الملائكة يبلغون إليهم هذه البشارة، وأن الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة أيضًا من غير واسطة.

واعلم أن هذه الآيات دالة على أن من آمن بالله وعمل صالحًا، فإنهم بعد الحشر لا ينالهم خوف ولا حزن، ولهذا قال أهل التحقيق: إنهم يوم القيامة آمنون من الأهوال. وقال بعضهم: خوف العقاب زائل عنهم، أما خوف الجلال والهيبة فلا يزول ألبتة عن العبد، ألا ترى أن الملائكة مع علو درجاتهم وكمال عصمتهم لا يزول الخوف عنهم فقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وهذه المسألة سبقت بالاستقصاء في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على مسائل: أولها: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وهذا يفيد الحصر، وهذا يدل على أن أصحاب الجنة ليسوا إلا الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا. وهذا يدل على أن صاحب الكبيرة قبل التوبة لا يدخل الجنة. وثانيها: قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا يدل على فساد قول من يقول: الثواب فضل لا جزاء. وثالثها: أن قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يدل على إثبات العمل للعبد. ورابعها: أن هذا يدل على أنه يجوز أن يحصل الأثر في حال المؤثر، أو أي أثر كان موجودًا قبل ذلك بدليل أن العمل المتقدم أوجب الثواب المتأخر. وخامسها: كون العبد مستحقًا على الله تعالى، وأعظم أنواع هذا النوع الإحسان إلى الوالدين، لا جرم أردفه بهذا

المعنى، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ وقد تقدم الكلام في نظير هذه الآية في سورة العنكبوت، وفي سورة لقمان.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة والكسائي (بِوالِدَيْهِ إِحْسانًا) والباقون (حُسْنًا).

واعلم أن الإحسان خلاف الإساءة والحسن خلاف القبيح، فمن قرأ (إِحْسانًا) فحجته قوله تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] والمعنى أمرناه بأن يوصل إليهما إحسانًا. وحجة القراءة الثانية قوله تعالى في العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] ولم يختلفوا فيه، والمراد أيضًا أنا أمرناه بأن يوصل إليهما فعلاً حسنًا، إلا أنه سمى ذلك الفعل الحسن بالحسن على سبيل المبالغة، كما يقال: هذا الرجل عِلم وكَرَم. وانتصب حسنًا على المصدر؛ لأن معنى (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ) أمرناه أن يحسن إليهما (إِحسانًا).

ثم قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف، والباقون بفتحها، قيل: هما لغتان: مثل الضَّعف والضُّعف، والفَقر والفُقر، ومن غير المصادر: الدَّف والدُّف، والشَّهد والشُّهد، قال الواحدي: الكره مصدر من كرهت الشيء أكرهه، والكره الاسم كأنه الشيء المكروه قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فهذا بالضم، وقال: ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩] فهذا في موضع الحال، ولم يقرأ الثانية بغير الفتح، فما كان مصدرًا أو في موضع الحال فالفتح فيه أحسن، وما كان اسمًا نحو ذهبت به على كُره. كان الضم فيه أحسن.

المسألة الثانية: قال المفسرون. حملته أمه على مشقة ووضعته في مشقة، وليس يريد ابتداء الحمل، فإن ذلك لا يكون مشقة، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] يريد ابتداء الحمل، فإن ذلك لا يكون مشقة، فالحمل نطفة وعلقة ومضغة، فإذا أثقلت فحينئذٍ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يريد شدة الطلق.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن حق الأم أعظم؛ لأنه تعالى قال أولاً: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ فذكرهما معًا، ثم خص الأم بالذكر فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وذلك يدل على أن حقها أعظم، وأن وصول المشاق إليها بسبب الولد أكثر، والأخبار مذكورة في هذا الباب.

ثم قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا من باب حذف المضاف، والتقدير: ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهرًا. والفصال: الفطام وهو فصله عن اللبن، فإن قيل: المراد بيان مدة الرضاعة لا الفطام، فكيف عبّر عنه بالفصال؟ قلنا: لما كان الرضاع يليه الفصال ويلائمه لأنه ينتهي ويتم به، سمي فصالاً.

المسألة الثانية: دلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثين شهرًا، قال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فإذا أسقطت الحولين الكاملين وهي أربعة وعشرون شهرًا من الثلاثين، بقي أقل مدة الحمل ستة أشهر. روي عن عمر أن امرأة رُفعت إليه، وكانت قد ولدت لستة أشهر، فأمر برجمها، فقال علي: لا رجم عليها. وذكر الطريق الذي ذكرناه، وعن عثمان أنه هَمَّ بذلك، فقرأ ابن عباس عليه ذلك.

واعلم أن العقل والتجربة يدلان أيضًا على أن الأمر كذلك، قال أصحاب التجارب: إن لتكوين الجنين زمانًا مقدرًا، فإذا تضاعف ذلك الزمان تحرك الجنين، فإذا انضاف إلى ذلك المجموع مثلاه انفصل الجنين عن الأم، فلنفرض أنه يتم خلقه في ثلاثين يومًا، فإذا تضاعف ذلك الزمان حتى صار ستين تحرك الجنين، فإذا تضاعف إلى هذا المجموع مثلاه وهو مائة وعشرون حتى صار المجموع مائة وثمانين وهو ستة أشهر، فحينئذٍ ينفصل الجنين، فلنفرض أنه يتم خلقه في خمسة وثلاثين يومًا فيتحرك في سبعين يومًا، فإذا انضاف إليه مثلاه وهو مائة وأربعون يومًا صار المجموع مائة وثمانين وعشرة أيام، وهو سبعة أشهر انفصل الولد، ولنفرض أنه يتم خلقه في أربعين يومًا، فيتحرك في ثمانين يومًا، فينفصل عند مائتين وأربعين يومًا، وهو ثمانية أشهر، ولنفرض أنه تمت الخلقة في خمسة وأربعين يومًا، فيتحرك في تسعين يومًا، فينفصل عند مائتين وسبعين يومًا، وهو تسعة أشهر، فهذا هو الضبط الذي ذكره أصحاب التجارب. قال جالينوس: إني كنت شديد التفحص عن مقادير أزمنة الحمل، فرأيت امرأة ولدت في المائة والأربع والثمانين ليلة. وزعم أبو علي بن سينا أنه شاهد ذلك، فقد صار أقل مدة الحمل بحسب نص القرآن وبحسب التجارب الطبية شيئًا واحدًا، وهو ستة أشهر، وأما أكثر مدة الحمل، فليس في القرآن ما يدل عليه، قال أبو علي بن سينا في الفصل السادس من المقالة التاسعة من عنوان الشفاء، بلغني من حيث وثقت به كل الثقة، أن امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولدًا قد نبتت أسنانه وعاش. وحكي عن أرسطاطاليس أنه قال: أزمنة الولادة وحبل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان، فربما وضعت الحبلى لسبعة أشهر، وربما وضعت في الثامن، وقلما يعيش المولود في الثامن إلا في بلاد معينة مثل مصر، والغالب هو الولادة بعد التاسع. قال أهل التجارب: والذي قلناه من أنه إذا تضاعف زمان التكوين تحرك الجنين، وإذا انضم إلى المجموع مثلاه انفصل الجنين، إنما قلناه بحسب التقريب لا بحسب التحديد، فإنه ربما زاد أو نقص بحسب الأيام؛ لأنه لم يقم على هذا الضبط برهان، إنما هو تقريب ذكروه بحسب التجربة، والله أعلم.

ثم قال: المدة التي فيها تتم خلقة الجنين تنقسم إلى أقسام، فأولها: أن الرحم إذا اشتملت على المني ولم تقذفه إلى الخارج استدار المني على نفسه منحصرًا إلى ذاته وصار كالكرة، ولما

كان من شأن المني أن يفسده الحركات، لا جرم يثخن في هذا الوقت، وبالحري أن خلق المني من مادة تجف بالحر إذا كان الغرض منه تكون الحيوان واستحصاف أجزائه ويصير المني زبدًا في اليوم السادس. وثانيها: ظهور النقط الثلاثة الدموية فيه، إحداها: في الوسط وهو الموضع الذي إذا تمت خلقته كان قلبًا والثاني: فوق وهو الدماغ والثالث: على اليمين وهو الكبد، ثم إن تلك النقط تتباعد ويظهر فيما بينها خيوط حمر، وذلك يحصل بعد ثلاثة أيام أخرى فيكون المجموع تسعة أيام. وثالثها: أن تنفذ الدموية في الجميع فيصير علقة وذلك بعد ستة أيام أخرى حتى يصير المجموع خمسة عشر يومًا. ورابعها: أن يصير لحمًا وقد تميزت الأعضاء الثلاثة، وامتدت رطوبة النخاع، وذلك إنما يتم باثني عشر يومًا فيكون المجموع سبعة وعشرين يومًا. وخامسها: أن ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والبطن يميز الحس في بعض ويخفى في بعض، وذلك يتم في تسعة أيام أخرى، فيكون المجموع ستة وثلاثين يومًا. وسادسها: أن يتم انفصال هذه الأعضاء بعضها عن بعض ويصير بحيث يظهر ذلك الحس ظهورًا بينًا، وذلك يتم في أربعة أيام أخرى، فيكون المجموع أربعين يومًا وقد يتأخر إلى خمسة وأربعين يومًا. قال: والأقل هو الثلاثون. فصارت هذه التجارب الطبية مطابقة لما أخبر عنه الصادق المصدوق في قوله ﷺ: «يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»[1] قال أصحاب التجارب: إن السقط بعد الأربعين إذا شق عنه السلالة ووُضع في الماء البارد ظهر شيء صغير متميز الأطراف.

المسألة الثالثة: هذه الآية دلّت على أقل الحمل وعلى أكثر مدة الرضاع، أما أنها تدل على أقل مدة الحمل فقد بيناه، وأما أنها تدل على أكثر مدة الرضاع فلقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] والفقهاء ربطوا بهذين الضابطين أحكامًا كثيرة في الفقه، وأيضًا فإذا ثبت أن أقل مدة الحمل هو الأشهر الستة، فبتقدير أن تأتي المرأة بالولد في هذه الأشهر يبقى جانبها مصونًا عن تهمة الزنا والفاحشة، وبتقدير أن يكون أكثر مدة الرضاع ما ذكرناه، فإذا حصل الرضاع بعد هذه المدة لا يترتب عليها أحكام الرضاع فتبقى المرأة مستورة عن الأجانب، وعند هذا يظهر أن المقصود من تقدير أقل الحمل ستة أشهر وتقدير أكثر الرضاع حولين كاملين – السعي في دفع المضار والفواحش وأنواع التهمة عن المرأة، فسبحان من له تحت كل كلمة من هذا الكتاب الكريم أسرار عجيبة ونفائس لطيفة، تعجز العقول عن الإحاطة بكمالها!!

وروى الواحدي في (البسيط) عن عكرمة أنه قال: إذا حملت تسعة أشهر أرضعته أحدًا وعشرين شهرًا، وإذا حملت ستة أشهر أرضعته أربعة وعشرين شهرًا. والصحيح ما قدمناه.

---

(١) تقدم تخريجه.

ثم قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى : اختلف المفسرون في تفسير الأشد : قال ابن عباس في رواية عطاء : يريد ثماني عشرة سنة . والأكثرون من المفسرين على أنه ثلاثة وثلاثون سنة ، واحتج الفراء عليه بأن قال : إن الأربعين أقرب في النسق إلى ثلاث وثلاثين منها إلى ثمانية عشر ، ألا ترى أنك تقول : أخذت عامة المال أو كله ، فيكون أحسن من قولك : أخذت أقل المال أو كله ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠]فبعض هذه الأقسام قريب من بعض فكذا هاهنا . وقال الزجاج : الأَوْلى حمله على ثلاث وثلاثين سنة ؛ لأن هذا الوقت الذي يكمل فيه بدن الإنسان . وأقول : تحقيق الكلام في هذا الباب أن يقال : إن مراتب سن الحيوان ثلاثة ، وذلك لأن بدن الحيوان لا يتكون إلا برطوبة غريزية وحرارة غريزية ، ولا شك أن الرطوبة الغريزية غالبة في أول العمر وناقصة في آخر العمر ، والانتقال من الزيادة إلى النقصان لا يُعقل حصوله إلا إذا حصل الاستواء في وسط هاتين المدتين ، فثبت أن مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام .

أولها: أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية ، وحينئذٍ تكون الأعضاء قابلة للتمدد في ذواتها وللزيادة بحسب الطول والعرض والعمق ، وهذا هو سن النشوء والنماء .

والمرتبة الثانية: وهي المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان . وهذا هو سن الوقوف وهو سن الشباب .

والمرتبة الثالثة: وهي المرتبة الأخيرة أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية . ثم هذا النقصان على قسمين : فالأول : هو النقصان الخفي وهو سن الكهولة . والثاني : هو النقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة ، فهذا ضبط معلوم . ثم ههنا مقدمة أخرى وهي أن دور القمر إنما يكمل في مدة ثمانية وعشرين يومًا وشيء ، فإذا قسمنا هذه المدة بأربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة ؛ فلهذا السبب قدروا الشهر بالأسابيع الأربعة ، ولهذه الأسابيع تأثيرات عظيمة في اختلاف أحوال هذا العالم ، إذا عرفت هذا فنقول : إن المحققين من أصحاب التجارب قسموا مدة سن النماء والنشوء إلى أربعة أسابيع ، ويحصل للآدمي بحسب انتهاء كل سابوع من هذه السوابيع الأربعة نوع من التغير يؤدي إلى كماله ، أما عند تمام السوابيع الأُول من العمر فتتصلب أعضاؤه بعض الصلابة ، وتقوى أفعاله أيضًا بعض القوة ، وتتبدل أسنانه الضعيفة الواهية بأسنان قوية وتكون قوة الشهوة في هذا السابوع أقوى في الهضم مما كان قبل ذلك ، وأما في نهاية السابوع الثاني فتقوى الحرارة وتقل الرطوبات وتتسع المجاري وتقوى قوة الهضم وتقوى الأعضاء وتصلب قوة وصلابة كافية ويتولد فيه مادة الزرع ، وعند هذا يحكم الشرع عليه

بالبلوغ على قول الشافعي رضي الله عنه، وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه؛ لأن هذا الوقت لما قويت الحرارة الغريزية قلّت الرطوبات واعتدل الدماغ، فتكمل القوى النفسانية التي هي الفكر والذكر، فلا جرم يحكم عليه بكمال العقل، فلا جرم حكمت الشريعة بالبلوغ وتوجه التكاليف الشرعية، فما أحسن قول من ضبط البلوغ الشرعي بخمس عشرة سنة!!

واعلم أنه يتفرع على حصول هذه الحالة أحوال في ظاهر البدن: أحدها: انفراق طرف الأرنبة لأن الرطوبة الغريزية التي هناك تنتقص فيظهر الانفراق. وثانيها: نتوء الحنجرة وغلظ الصوت لأن الحرارة التي تنهض في ذلك الوقت توسع الحنجرة فتنتؤ ويغلظ الصوت. وثالثها: تغير ريح الإبط وهي الفضلة العفنية التي يدفعها القلب إلى ذلك الموضع، وذلك لأن القلب لما قويت حرارته، لا جرم قويت على إنضاج المادة، ودفعها إلى اللحم الغددي الرخو الذي في الإبط. ورابعها: نبات الشعر وحصول الاحتلام، وكل ذلك لأن الحرارة قويت فقدرت على توليد الأبخرة المولدة للشعر وعلى توليد مادة الزرع، وفي هذا الوقت تتحرك الشهوة في الصبايا وينهد ثديهن وينزل حيضهن، وكل ذلك بسبب أن الحرارة الغريزية التي فيهن قويت في آخر هذا السابوع، وأما في السابوع الثالث فيدخل في حد الكمال وينبت للذكَر اللحية ويزداد حسنه وكماله، وأما في السابوع الرابع فلا تزال هذه الأحوال فيه متكاملة متزايدة، وعند انتهاء السابوع الرابع نهاية أن لا يظهر الازدياد، أما مدة سن الشباب وهي مدة الوقوف السابوع واحد فيكون المجموع خمسة وثلاثين سنة. ولما كانت هذه المدة إما قد تزداد، وإما قد تنقص بحسب الأمزجة جعل الغاية فيه مدة أربعين سنة. وهذا هو السن الذي يحصل فيه الكمال اللائق بالإنسان شرعًا وطبًّا، فإن في هذا الوقت تسكن أفعال القوى الطبيعية بعض السكون وتنتهي له أفعال القوة الحيوانية غايتها، وتبتدئ أفعال القوة النفسانية بالقوة والكمال. وإذا عرفت هذه المقدمة ظهر لك أن بلوغ الإنسان وقت الأشد شيء، وبلوغه إلى الأربعين شيء آخر، فإن بلوغه إلى وقت الأشد عبارة عن الوصول إلى آخر سن النشوء والنماء، وأن بلوغه إلى الأربعين عبارة عن الوصول إلى آخر مدة الشباب، ومن ذلك الوقت تأخذ القوى الطبيعية والحيوانية في الانتقاص، وتأخذ القوة العقلية والنطقية في الاستكمال، وهذا أحد ما يدل على أن النفس غير البدن، فإن البدن عند الأربعين يأخذ في الانتقاص، والنفس من وقت الأربعين تأخذ في الاستكمال، ولو كانت النفس عين البدن لحصل للشيء الواحد في الوقت الواحد الكمال والنقصان وذلك محال، وهذا الكلام الذي ذكرناه ولخصناه مذكور في صريح لفظ القرآن؛ لأنا بينا أن عند الأربعين تنتهي الكمالات الحاصلة بسبب القوى الطبيعية والحيوانية، وأما الكمالات الحاصلة بحسب القوى النطقية والعقلية فإنها تبتدئ بالاستكمال، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فهذا يدل على أن توجه الإنسان إلى عالم العبودية والاشتغال بطاعة الله إنما يحصل من هذا الوقت، وهذا تصريح بأن القوة النفسانية

العقلية النطقية إنما تبتدئ بالاستكمال من هذا الوقت، فسبحان من أودع في هذا الكتاب الكريم هذه الأسرار الشريفة المقدسة! قال المفسرون: لم يُبعث نبي قط إلا بعد أربعين سنة. وأقول: هذا مشكل بعيسى عليه السلام فإن الله جعله نبيًا من أول عمره إلا أنه يجب أن يقال: الأغلب أنه ما جاءه الوحي إلا بعد الأربعين، وهكذا كان الأمر في حق رسولنا ﷺ ويروى أن عمر بن عبد العزيز لما بلغ أربعين سنة كان يقول: اللّهم أوزعني أن أشكر نعمتك... إلى تمام الدعاء، وروي أنه جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «**يُؤْمَرُ الْحَافِظَانِ أَنِ ارْفِقَا بِعَبْدِي مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ قِيلَ احْفَظَا وَحَقِّقَا**»[1] فكان راوي هذا الحديث إذا ذكر هذا الحديث بكى حتى تبتل لحيته، رواه القاضي في (التفسير).

المسألة الثانية: اعلم أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ يدل على أن الإنسان كالمحتاج إلى مراعاة الوالدين له إلى قريب من هذه المدة، وذلك لأن العقل كالناقص، فلا بد له من رعاية الأبوين على رعاية المصالح ودفع الآفات، وفيه تنبيه على أن نعم الوالدين على الولد بعد دخوله في الوجود تمتد إلى هذه المدة الطويلة، وذلك يدل على أن نعم الوالدين كأنه يخرج عن وسع الإنسان مكافأتهما إلا بالدعاء والذكر الجميل.

المسألة الثالثة: حكى الواحدي عن ابن عباس وقوم كثير من متأخري المفسرين ومتقدميهم أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قالوا: والدليل عليه أن الله تعالى قد وقَّت الحمل والفصال ههنا بمقدار يعلم أنه قد ينقص وقد يزيد عنه بسبب اختلاف الناس في هذه الأحوال، فوجب أن يكون المقصود منه شخصًا واحدًا حتى يقال إن هذا التقدير إخبار عن حاله فيمكن أن يكون أبو بكر كان حمله وفصاله هذا القدر.

ثم قال تعالى في صفة ذلك الإنسان: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ ومعلوم أنه ليس كل إنسان يقول هذا القول، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية إنسانًا معينًا قال هذا القول، وأما أبو بكر فقد قال هذا القول في قريب من هذا السن؛ لأنه كان أقل سنًا من النبي ﷺ بسنتين وشيء، والنبي ﷺ بُعث عند الأربعين وكان أبو بكر قريبًا من الأربعين وهو قد صَدَّق النبي ﷺ وآمن به، فثبت بما ذكرناه أن هذه الآيات صالحة لأن يكون المراد منها أبو بكر، وإذا ثبت القول بهذه الصلاحية فنقول: ندعي أنه هو المراد من هذه الآية، ويدل عليه أنه تعالى قال في آخر هذه الآية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهذا يدل على أن المراد من هذه الآية أفضل الخلق لأن الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله ويتجاوز عن كل سيئاته - يجب أن يكون من أفاضل الخلق وأكابرهم، وأجمعت الأمة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ إما أبو بكر وإما علي، ولا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأن هذه الآية إنما تليق بمن

(١) لم أجده.

أتى بهذه الكلمة عند بلوغ الأشد وعند القرب من الأربعين، وعلي بن أبي طالب ما كان كذلك لأنه إنما آمن في زمان الصبا أو عند القرب من الصبا، فثبت أن المراد من هذه الآية هو أبو بكر، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ قال ابن عباس: معناه ألهمني. قال صاحب (الصحاح): أوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به فهو موزع به، أي مغرى به، واستوزعت الله شكره، فأوزعني، أي استلهمته فألهمني.

المسألة الخامسة: اعلم أنه تعالى حكى عن هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء: أحدها: أن يوفقه الله للشكر على نعمه. والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله. الثالث: أن يصلح له في ذريته.

وفي ترتيب هذه الأشياء الثلاثة على الوجه المذكور وجهان:

الأول: أنا بينا أن مراتب السعادات ثلاثة، أكملها النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية والسعادات النفسانية هي اشتغال القلب بشكر آلاء الله ونعمائه، والسعادات البدنية هي اشتغال البدن بالطاعة والخدمة، والسعادات الخارجية هي سعادة الأهل والولد، فلما كانت المراتب محصورة في هذه الثلاثة لا جرم رتبها الله تعالى على هذا الوجه.

والسبب الثاني لرعاية هذا الترتيب: أنه تعالى قَدَّم الشكر على العمل؛ لأن الشكر من أعمال القلوب، والعمل من أعمال الجوارح، وعمل القلب أشرف من عمل الجارحة، وأيضًا المقصود من الأعمال الظاهرة أحوال القلب، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] بيّن أن الصلاة مطلوبة لأجل أنها تفيد الذكر، فثبت أن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح، والأشرف يجب تقديمه في الذكر، وأيضًا الاشتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية، والاشتغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة، وقضاء الحقوق الماضية يجري مجرى قضاء الدين، وطلب المنافع المستقبلة طلب للزوائد، ومعلوم أن قضاء الدين مقدم على سائر المهمات؛ فلهذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات، وأيضًا أنه قدم طلب التوفيق على الشكر، وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح له ذريته، وذلك لأن المطلوبين الأولين اشتغال بالتعظيم لأمر الله، والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله، ومعلوم أن التعظيم لأمر الله يجب تقديمه على الشفقة على خلق الله.

المسألة السادسة: قال أصحابنا: إن العبد طلب من الله تعالى أن يلهمه الشكر على نعم الله، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الطاعات والأعمال إلا بإعانة الله تعالى، ولو كان العبد مستقلاً بأفعاله لكان هذا الطلب عبثًا، وأيضًا المفسرون قالوا: المراد من قوله: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ هو الإيمان أو الإيمان يكون داخلاً فيه، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] والمراد صراط الذين

أنعمت عليهم بنعمة الإيمان. وإذا ثبت هذا فنقول: العبد يشكر الله على نعمة الإيمان، فلو كان الإيمان من العبد لا من الله، لكان ذلك شكرًا لله تعالى على فعله لا على فعل غيره، وذلك قبيح لقوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فإن قيل: فهب أن يشكر الله على ما أنعم به عليه فكيف يشكره على النعم التي أنعم بها على والديه؟ وإنما يجب على الرجل أن يشكر ربه على ما يصل إليه من النعم. قلنا: كل نعمة وصلت من الله تعالى إلى والديه، فقد وصل منها أثر إليه؛ فلذلك وصاه الله تعالى على أن يشكر ربه على الأمرين.

وأما المطلوب الثاني من المطالب المذكورة في هذا الدعاء: فهو قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

واعلم أن الشيء الذي يعتقد أن الإنسان فيه كونه صالحًا على قسمين: أحدهما: الذي يكون صالحًا عنده ويكون صالحًا أيضًا عند الله تعالى. والثاني: الذي يظنه صالحًا ولكنه لا يكون صالحًا عند الله تعالى، فلما قسم الصالح في ظنه إلى هذين القسمين طلب من الله أن يوفقه لأن يأتي بعمل صالح يكون صالحًا عند الله ويكون مرضيًا عند الله.

والمطلوب الثالث من المطالب المذكورة في هذه الآية: قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ لأن ذلك من أجل نعم الله على الوالد، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فإن قيل: ما معنى ﴿فِى﴾ في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾؟ قلنا: تقدير الكلام هب لي الصلاح في ذريتي وأوقِعه فيهم.

واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الداعي أنه طلب هذه الأشياء الثلاثة، قال بعد ذلك: ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ والمراد أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة، وإلا مع كونه من المسلمين، فتبين أني إنما أقدمت على هذا الدعاء بعد أن تبت إليك من الكفر ومن كل قبيح، وبعد أن دخلت في الإسلام والانقياد لأمر الله تعالى ولقضائه.

واعلم أن الذين قالوا: (إن هذه الآية نزلت في أبي بكر)، قالوا: إن أبا بكر أسلم والداه، ولم يتفق لأحد من الصحابة والمهاجرين إسلام الأبوين إلا له، فأبوه أبو قحافة عثمان بن عمرو، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو، وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ قال ابن عباس: فأجابه الله إليه فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، منهم بلال وعامر بن فهيرة، ولم يترك شيئًا من الخير إلا أعانه الله عليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ قال ابن عباس: لم يبق لأبي بكر ولد من الذكور والإناث إلا وقد آمنوا، ولم يتفق لأحد من الصحابة أن أسلم أبواه وجميع أولاده الذكور والإناث إلا لأبي بكر.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أهل هذا القول ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ قرئ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول وقرئ بالنون المفتوحة، وكذلك (نتجاوز) وكلاهما في المعنى واحد؛ لأن الفعل وإن كان مبنيًّا للمفعول فمعلوم أنه لله سبحانه وتعالى، فهو كقوله: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فبيّن تعالى بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أن من تقدم ذكره ممن يدعو بهذا

الدعاء، ويسلك هذه الطريقة التي تقدم ذكرها ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ والتقبل من الله هو إيجاب الثواب له على عمله، فإن قيل: ولم قال تعالى: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ والله يتقبل الأحسن وما دونه؟ قلنا: الجواب من وجوه: الأول: المراد بالأحسن: الحسن، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[الزمر: ٥٥] كقولهم: الناقص والأشج أعدلا بني مروان، أي عادلا بني مروان. الثاني: أن الحسن من الأعمال هو المباح الذي لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأحسن ما يغاير ذلك، وهو وكل ما كان مندوبًا واجبًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ والمعنى أنه تعالى يتقبل طاعاتهم ويتجاوز عن سيئاتهم. ثم قال: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ قال صاحب (الكشاف): ومعنى هذا الكلام مثل قولك: أكرمني الأمير في مائتين من أصحابه، يريد أكرمني في جملة من أكرم منهم وضمني في عدادهم، ومحله النصب على الحال، على معنى كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين منهم، وقوله: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد؛ لأن قوله: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز، والمقصود بيان أنه تعالى يعامل من صفته ما قدمناه بهذا الجزاء، وذلك وعد من الله تعالى، فبيّن أنه صدق ولا شك فيه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الولد البار بوالديه في الآية المتقدمة، وصف الولد العاق لوالديه في هذه الآية، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ وفي هذه الآية قولان: الأول: أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، قالوا كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام فيأبى، ويقول ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ واحتج القائلون بهذا القول على صحته بأنه لما كتب معاوية إلى مروان يبايع الناس ليزيد، قال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هرقلية، أتبايعون لأبنائكم؟! فقال مروان: يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾. والقول الثاني: أنه ليس المراد منه شخص معين، بل المراد منه كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحق فأباه وأنكره، وهذا القول هو الصحيح عندنا، ويدل عليه وجوه: الأول: أنه تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن

قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه، وكان من سادات المسلمين، فبطل حمل الآية عليه، فإن قالوا: روي أنه لما دعاه أبواه إلى الإسلام وأخبراه بالبعث بعد الموت، قال: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ من القبر، يعني أُبعث بعد الموت ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ يعني الأمم الخالية، فلم أر أحدًا منهم بُعث فأين عبد الله بن جدعان، وأين فلان وفلان؟ إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ المراد هؤلاء الذين ذكرهم عبد الرحمن من المشركين الذين ماتوا قبله، وهم الذين حق عليهم القول، وبالجملة فهو عائد إلى المشار إليهم بقوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ لا إلى المشار إليه بقوله ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ هذا ما ذكره الكلبي في دفع ذلك الدليل، وهو حسن. والوجه الثاني في إبطال ذلك القول: ما روي أن مروان لما خاطب عبد الرحمن بن أبي بكر بذلك الكلام سمعت عائشة ذلك فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه. الوجه الثالث وهو الأقوى: أن يقال: إنه تعالى وصف الولد البار بأبويه في الآية المتقدمة، ووصف الولد العاق لأبويه في هذه الآية، وذكر من صفات ذلك الولد أنه بلغ في العقوق إلى حيث لما دعاه أبواه إلى الدين الحق، وهو الإقرار بالبعث والقيامة، أصر على الإنكار وأبى واستكبر، وعَوَّل في ذلك الإنكار على شبهات خسيسة وكلمات واهية، وإذا كان كذلك كان المراد كل ولد اتصف بالصفات المذكورة ولا حاجة ألبتة إلى تخصيص اللفظ المطلق بشخص معين. قال صاحب (الكشاف): قرئ (أُفٍّ) بالفتح والكسر بغير تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين، وهو صوت إذا صَوَّت به الإنسان عُلم أنه متضجر، كما إذا قال (حس) عُلم أنه متوجع، واللام للبيان معناه هذا التأفيف لكما خاصة، ولأجلكما دون غيركما، وقرئ (أَتَعِدانِنِي) بنونين، و(أتعدانِي) بأحدهما و(أتعدانِّي) بالإدغام، وقرأ بعضهم: (أتعدانَني) بفتح النون كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرين والياء، ففتح الأولى تحريًا للتخفيف كما تحراه من أدغم ومن طرح أحدهما.

ثم قال: ﴿أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أي أن أُبعث وأُخرج من الأرض. وقرئ (أَخْرُجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي) يعني ولم يبعث منهم أحد.

ثم قال: ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي الوالدان يستغيثان الله، فإن قالوا: كان الواجب أن يقال: يستغيثان بالله؟ قلنا: الجواب: من وجهين: الأول: أن المعنى أنهما يستغيثان الله من كفره وإنكاره، فلما حذف الجار وصل الفعل. الثاني: يجوز أن يقال الباء حذف، لأنه أريد بالاستغاثة ههنا الدعاء على ما قاله المفسرون (يَدْعُوَانِ اللَّهَ) فلما أريد بالاستغاثة الدعاء حذف الجار؛ لأن الدعاء لا يقتضيه، وقوله: ﴿وَيۡلَكَ﴾ أي يقولان له ويلك ﴿ءَامِنۡ﴾ وصدِّق بالبعث. وهو دعاء عليه بالثبور، والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك.

ثم قال: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث حق فيقول لهما: ما هذا الذي تقولان من أمر البعث وتدعوانني إليه ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب، ثم ههنا قولان: فالذين يقولون: المراد بنزول الآية عبد الرحمن بن أبي بكر، قالوا: المراد بهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب هم القرون الذين خلوا من قبله. والذين قالوا: المراد به ليس عبد الرحمن، بل كل ولد كان موصوفًا بالصفة المذكورة؛ قالوا: هذا الوعيد مختص بهم، وقوله: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ نظير لقوله: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ وقد ذكرنا أنه نظير لقوله: أكرمني الأمير في أناس من أصحابه، يريد أكرمني في جملة من أكرم منهم.

ثم قال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ وقرئ (أن) بالفتح على معنى آمِن بأن وعد الله حق.

ثم قال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ وفيه قولان: الأول: أن الله تعالى ذكر الولد البار، ثم أردفه بذكر الولد العاق، فقوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ خاص بالمؤمنين، وذلك لأن المؤمن البار بوالديه له درجات متفاوتة، ومراتب مختلفة في هذا الباب. والقول الثاني: أن قوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ عائد إلى الفريقين، والمعنى ولكل واحد من الفريقين درجات في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية. فإن قالوا: كيف يجوز ذكر لفظ الدرجات في أهل النار، وقد جاء في الأثر: الجنة الدرجات، والنار دركات؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: يجوز أن يقال ذلك على جهة التغليب. الثاني: قال ابن زيد: درج أهل الجنة يذهب علوًّا، ودرج أهل النار ينزلون هبوطًا. الثالث: أن المراد بالدرجات المراتب المتزايدة، إلا أن زيادات أهل الجنة في الخيرات والطاعات، وزيادات أهل النار في المعاصي والسيئات.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ﴾ وقرئ بالنون وهذا تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه، كأنه: وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم. قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات، ولما بيّن الله تعالى أنه يوصل حق كل أحد إليه بَيَّن أحوال أهل العقاب أولاً فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ قيل: يدخلون النار، وقيل تُعرض عليهم النار ليروا أهوالها ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ قرأ ابن كثير (أذهبتم) استفهام بهمزة ومدة، وابن عامر استفهام بهمزتين بلا مدة والباقون ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾ بلفظ الخبر، والمعنى أن كل ما قُدر لكم من الطيبات والراحات فقد استوفيتموه في الدنيا وأخذتموه، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها، وعن عمر: لو شئت لكنت أطيبكم طعامًا وأحسنكم لباسًا، ولكني أستبقي طيباتي. وعن رسول الله ﷺ أنه دخل على أهل الصُّفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم، ما يجدون لها رقاعًا فقال: **«أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ أَمْ يَوْمَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أُخْرَى، وَيُغْدَى عَلَيْهِ بِجَفْنَةٍ وَيُرَاحُ عَلَيْهِ بِأُخْرَى، وَيُسْتَرُ بَيْتُهُ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ؟» قَالُوا: نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ. قَالَ: «بَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ»**[١]، رواه صاحب (الكشاف) قال الواحدي: إن الصالحين يؤثرون التقشف والزهد في الدنيا رجاء أن

---

(١) مرسل: رواه أحمد في (الزهد) (١/ ٣٧) من طريق عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا نبي الله... فذكره.

يكون ثوابهم في الآخرة أكمل، إلا أن هذه الآية لا تدل على المنع من التنعم؛ لأن هذه الآية وردت في حق الكافر، وإنما وبخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم بطاعته والإيمان به، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التنعم أَوْلى؛ لأن النفس إذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقباض، وحينئذٍ فربما حمله الميل إلى تلك الطيبات على فعل ما لا ينبغي، وذلك مما يجرُّ بعضه إلى بعض ويقع في البعد عن الله تعالى بسببه.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي الهوان، وقرئ: (عذاب الهوان) ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فعلَّل تعالى ذلك العذاب بأمرين: أولهما: الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب. الثاني: الفسق وهو ذنب الجوارح، وقدَّم الأول على الثاني لأن أحوال القلوب أعظم وقعًا من أعمال الجوارح، ويمكن أن يكون المراد من الاستكبار أنهم يتكبرون عن قبول الدين الحق، ويستنكفون عن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام، وأما الفسق فهو المعاصي. واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع، قالوا: لأنه تعالى علل عذابهم بأمرين: أولهما: الكفر، وثانيهما: الفسق، وهذا الفسق لا بد وأن يكون مغايرًا لذلك الكفر؛ لأن العطف يوجب المغايرة، فثبت أن فسق الكفار يوجب العقاب في حقهم، ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أورد أنواع الدلائل في إثبات التوحيد والنبوّة، وكان أهل مكة بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها، أعرضوا عنها ولم يلتفتوا إليها؛ ولهذا السبب قال

تعالى في حقهم: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] فلما كان الأمر كذلك بَيَّن أن قوم عاد كانوا أكثر أموالاً وقوة وجاهًا منهم، ثم إن الله تعالى سلّط العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم، فذكر هذه القصة ههنا ليعتبر بها أهل مكة، فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ويُقبلوا على طلب الدين؛ فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذه القصة في هذا الموضع، وهو مناسب لما تقدم لأن من أراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال، وتقديره أن من واظب على تلك الطريقة نزل به من البلاء كذا وكذا، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك أهل مكة هودًا عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ﴾ أي حذرهم عذاب الله إن لم يؤمنوا، وقوله: ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ قال أبو عبيدة: الحقف: الرمل المعوج، ومنه قيل للمعوج محقوف. وقال الفراء: الأحقاف واحدها حقف وهو الكثيب المكسر غير العظيم وفيه اعوجاج. قال ابن عباس: الأحقاف وادٍ بين عمان ومهرة. والنُّذر جمع نذير بمعنى المنذر ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من بعده، والمعنى أن هودًا عليه السلام قد أنذرهم وقال لهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

واعلم أن الرسل الذين بُعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره.

ثم حكى تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ الإفك: الصرف، يقال: أفكه عن رأيه أي صرفه، وقيل: بل المراد لتزيلنا بضرب من الكذب ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ وعن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ معاجلة العذاب على الشرك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك. فعند هذا قال هود: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ وإنما صلح هذا الكلام جوابًا لقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ لأن قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ استعجال منهم لذلك العذاب فقال لهم هود: لا علم عندي بالوقت الذي يحصل فيه ذلك العذاب، إنما علم ذلك عند الله تعالى ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وهو التحذير عن العذاب، وأما العلم بوقته فما أوحاه الله إليّ ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وهذا يحتمل وجوهًا: الأول: المراد أنكم لا تعلمون أن الرسل لم يُبعثوا سائلين عن غير ما أُذن لهم فيه وإنما بُعثوا مبلغين. الثاني: أراكم قومًا تجهلون من حيث إنكم بقيتم مصرين على كفركم وجهلكم، فيغلب على ظني أنه قرب الوقت الذي ينزل عليكم العذاب بسبب هذ الجهل المفرط والوقاحة التامة. الثالث: ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث تصرون على طلب العذاب، وَهْب أنه لم يظهر لكم كوني صادقًا، ولكن لم يظهر أيضًا لكم كوني كاذبًا، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ ذكر المبرّد في الضمير في (رأوه) قولين: أحدهما: أنه عائد إلى غير مذكور وبَيَّنه قوله: ﴿عَارِضًا﴾ كما قال: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] ولم يذكر الأرض لكونها معلومة، فكذا هاهنا الضمير عائد إلى السحاب، كأنه قيل: فلما رأوا السحاب عارضًا. وهذا اختيار الزجاج، ويكون من باب الإضمار لا على شريطة التفسير. والقول الثاني:

أن يكون الضمير عائدًا إلى (ما) في قوله ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي فلما رأوا ما يوعدون به عارضًا، قال أبو زيد: العارض: السحابة التي تُرى في ناحية السماء ثم تطبق. وقوله: ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ قال المفسرون: كانت عاد قد حُبس عنهم المطر أيامًا، فساق الله إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من وادٍ يقال له المغيث ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ استبشروا و ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ﴾ والمعنى ممطر إيانا، قيل: كان هود قاعدًا في قومه فجاء سحاب مكثر فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ﴾ فقال: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ﴾ من العذاب ثم بيّن ماهيته فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم وصف تلك الريح فقال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي تهلك كل شيء من الناس والحيوان والنبات ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ والمعنى أن هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب والقرانات، بل هو أمر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى لأجل تعذيبكم ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ يعني عادًا ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: روي أن الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها في الجو حتى يُرى كأنها جرادة، وقيل: أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت: رأيت ريحًا فيها كشهب النار. وروي أن أول ما عرفوا به أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رجالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فعلقت الريح الأبواب وصرعتهم، وأحال الله عليهم الأحقاف، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم في البحر. وروي أن هودًا لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطًّا إلى جنب عين تنبع فكانت الريح التي تصيبهم ريحًا لينة هادئة طيبة، والريح التي تصيب قوم عاد ترفعهم من الأرض وتطيرهم إلى السماء وتضربهم على الأرض، وأثر المعجزة إنما ظهر في تلك الريح من هذا الوجه، وعن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا أَمَرَ اللَّهُ خَازِنَ الرِّيَاحِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَى عَادٍ إِلاَّ مِثْلَ مِقْدَارِ الْخَاتَمِ**»(١) ثم إن ذلك القدر أهلكهم بكليتهم، والمقصود من هذا الكلام إظهار كمال قدرة الله تعالى، وعن النبي ﷺ أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**»(٢).

المسألة الثالثة: قرأ عاصم وحمزة (لاَ يُرى) بالياء وضمها (مَساكِنُهُمْ) بضم النون، قال الكسائي: معناه لا يُرى شيء إلا مساكنهم. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي (لاَ تَرى) على الخطاب، أي لا ترى أنت أيها المخاطب، وفي بعض الروايات عن عاصم (لاَ تُرَى) بالتاء (مَساكِنُهُمْ) بضم النون وهي قراءة الحسن، والتأويل لا تُرى من بقايا عاد أشياء إلا مساكنهم. وقال الجمهور: هذه القراءة ليست بالقوية.

---

(١) ذكره بعض أهل التفسير بدون إسناد.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٢/ ٦١٦/ ٨٩٩)، والترمذي في (سننه) (٥/ ٥٠٣)، حديث رقم (٣٤٤٩)، كلاهما من طريق ابن جريج عن عطاء عن عائشة . . . به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والمقصود منه تخويف كفار مكة. فإن قيل: لما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فكيف يبقى التخويف حاصلاً؟ قلنا: قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ إنما أنزل في آخر الأمر فكان التخويف حاصلاً قبل نزوله.

ثم إنه تعالى خَوَّف كفار مكة، وذكر فضل عاد بالقوة والجسم عليهم فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ قال المبرّد: (ما) في قوله: ﴿فِيمَآ﴾ بمنزلة الذي، و(إنْ) بمنزلة (ما) والتقدير: ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه، والمعنى أنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر منكم أموالاً، وقال ابن قتيبة: كلمة (إنْ) زائدة. والتقدير: ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه. وهذا غلط لوجوه: الأول: أن الحكم بأن حرفًا من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل. والثاني: أن المقصود من هذا الكلام أنهم كانوا أقوى منكم قوة، ثم إنهم مع زيادة القوة ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم؟ وهذا المقصود إنما يتم لو دلّت الآية على أنهم كانوا أقوى قوة من قوم مكة. الثالث: أن سائر الآيات تفيد هذا المعنى، قال تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤] وقال: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم، وأعطيناهم سمعًا فما استعملوه في سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصارًا فما استعملوها في تأمل العبر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئًا.

ثم بيّن تعالى أنه إنما لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم لأجل أنهم كانوا يجحدون بآيات الله، وقوله: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾ بمنزلة التعليل، ولفظ (إذ) قد يُذكر لإفادة التعليل تقول: ضربته إذ أساء، والمعنى ضربته لأنه أساء، وفي هذه الآية تخويف لأهل مكة فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة، نزل بهم عذاب الله، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم، فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني أنهم كانوا يطلبون نزول العذاب، وإنما كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن المراد: ولقد أهلكنا ما حولكم يا كفار مكة من القرى، وهي قرى عاد وثمود باليمن

والشام ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ﴾ بيناها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلّ أهل القرى يرجعون، فالمراد بالتصريف الأحوال الهائلة التي وُجدت قبل الإهلاك. قال الجبائي: قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ معناه لكي يرجعوا عن كفرهم، دل بذلك على أنه تعالى أراد رجوعهم ولم يرد إصرارهم. والجواب: أنه فعل ما لو فعله غيره لكان ذلك لأجل الإرادة المذكورة، وإنما ذهبنا إلى هذا التأويل للدلائل الدالة على أنه سبحانه مريد لجميع الكائنات.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ القربان ما يُتقرب به إلى الله تعالى، أي اتخذوهم شفعاء متقربًا بهم إلى الله حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] **وفي إعراب الآية وجوه:**

الأول: قال صاحب (الكشاف): أحد مفعولي (اتخذ) الراجع إلى الذين هو محذوف.

والثاني: آلهة وقربانًا حال، وقيل عليه إن الفعل المتعدي إلى مفعولين لا يتم إلا بذكرهما لفظًا، والحال مشعر بتمام الكلام، ولا شك أن إتيان الحال بين المفعولين على خلاف الأصل. الثاني: قال بعضهم: ﴿قُرْبَانًا﴾ مفعول ثانٍ قُدم على المفعول الأول وهو آلهة، فقيل عليه إنه يؤدي إلى خلو الكلام عن الراجع إلى الذين.

والثالث: قال بعض المحققين: يضمر أحد مفعولي (اتخذوا) وهو الراجع إلى الذين، ويجعل قربانًا مفعولاً ثانيًا، وآلهة عطف بيان.

إذا عرفت الكلام في الإعراب فنقول: المقصود أن يقال: إن أولئك الذين أهلكهم الله هلا نصرهم الذين عبدوهم، وزعموا أنهم متقربون بعبادتهم إلى الله ليشفعوا لهم ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عن نصرتهم، وذلك إشارة إلى أن كون آلهتهم ناصرين لهم أمر ممتنع.

ثم قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي وذلك الامتناع أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب في إثبات الشركاء له، قال صاحب (الكشاف): وقرئ (إفكهم) والإفك والأفك كالحَذر والحِذر، وقرئ (وذلك أَفَكهم) بفتح الفاء والكاف، أي ذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق، وقرئ (إفّكهم) على التشديد للمبالغة أفكهم جعلهم آفكين وآفكهم، أي قولهم الإفك، أي ذو الإفك كما تقول قول كاذب.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ والتقدير: وذلك إفكهم وافتراؤهم في إثبات الشركاء لله تعالى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بيّن أن في الإنس من آمن وفيهم من كفر، بيّن أيضًا أن الجن فيهم من آمن وفيهم من كفر، وأن مؤمنهم مُعَرض للثواب، وكافرهم مُعَرض للعقاب، وفي كيفية هذه الواقعة قولان: الأول: قال سعيد بن جبير: كانت الجن تستمع فلما رُجموا قالوا: هذا الذي حدث في السماء إنما حدث لشيء في الأرض. فذهبوا يطلبون السبب، وكان قد اتفق أن النبي ﷺ لما أيس من أهل مكة أن يجيبوه خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام، فلما انصرف إلى مكة، وكان ببطن نخل، قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر، فمرّ به نفر من أشراف جن نصيبين؛ لأن إبليس بعثهم ليعرفوا السبب الذي أوجب حراسة السماء بالرجم، فسمعوا القرآن وعرفوا أن ذلك هو السبب. والقول الثاني: أن الله تعالى أمر رسوله أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن، فصرف الله إليه نفرًا من الجن ليستمعوا منه القرآن وينذروا قومهم.

ويتفرع على ما ذكرناه فروع: الأول: نُقل عن القاضي في تفسيره الجن أنه قال: إنهم كانوا يهودًا؛ لأن في الجن مللاً كما في الإنس من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام. وأطبق المحققون على أن الجن مكلفون، سئل ابن عباس: هل للجن ثواب؟ فقال: نعم لهم ثواب وعليهم عقاب، يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها. الفرع الثاني: قال صاحب (الكشاف): النفر دون العشرة، ويُجمع على أنفار. ثم روى محمد بن جرير الطبري عن ابن عباس: أن أولئك الجن كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم. وعن زر بن حبيش كانوا تسعة، أحدهم ذوبعة. وعن قَتادة: ذُكر لنا أنهم صُرفوا إليه من ساوة. الفرع الثالث: اختلفوا في أنه هل كان عبد الله بن مسعود مع النبي ﷺ ليلة الجن؟ والروايات فيه مختلفة ومشهورة. الفرع الرابع: روى القاضي في (تفسيره) عن أنس قال: كنت مع رسول الله ﷺ في جبال مكة إذ أقبل شيخ متوكئ على عكازة، فقال النبي ﷺ: «مِشيَةُ جِنّيٍّ وَنَغْمَتُهُ»، فقال: أجل. فقال: «مَنْ أَيِّ الْجِنِّ أَنْتَ؟» فقال: أنا هامة بن هيم بن لاقيس بن إبليس. فقال: «لاَ أَرَى بَيْنَكَ وَبَيْنَ إِبْلِيسَ إِلاَّ أَبَوَيْنِ، فَكَمْ أَتَى عَلَيْكَ؟» فقال: أكلتُ عُمْرَ الدنيا إلا أقلها، وكنت وقت قَتَلَ قابيلُ هابيلَ أمشي بين الآكام. وذكر كثيرًا مما مر به، وذكر في جملتِهِ أن قال: قال لي عيسى بن مريم: إنْ لَقِيتَ محمدًا فأقرئه مني السلام، وقد بَلَّغْتُ سلامه وآمنت بك. فقال عَلَيْهِ السَّلاَمُ: «وَعَلَى عِيسَى السَّلاَمُ، وَعَلَيْكَ يَا هَامَةُ مَا حَاجَتُكَ؟» فقال: إن موسى عليه السلام

علَّمَنِي التوراة، وعيسى علمني الإنجيل، فعلَّمْنِي القرآن. فعَلَّمَهُ عَشْرَ سُورٍ، وقُبِضَ صلى الله عليه وسلم وَلَمْ يَنْعَهُ[1]. قال عمر بن الخطاب: ولا أراه إلا حيًّا واعلم أن تمام الكلام في قصة الجن مذكور في سورة الجن.

المسألة الثانية: اختلفوا في تفسير قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فقال بعضهم: لما لم يقصد الرسول ﷺ قراءة القرآن عليهم، فهو تعالى ألقى في قلوبهم ميلاً وداعية إلى استماع القرآن، فلهذا السبب قال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ الضمير للقرآن أو لرسول الله ﴿قَالُوٓا﴾ أي قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا۟﴾ أي اسكتوا مستمعين، يقال: أنصت لكذا واستنصت له، فلما فرغ من القراءة ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ ينذرونهم، وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم؛ لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا، فعنده ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ووصفوه بوصفين: الأول: كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدقًا لكتب الأنبياء، والمعنى أن كتب سائر الأنبياء كانت مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوّة والمعاد والأمر بتطهير الأخلاق، فكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعاني. الثاني: قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

واعلم أن الوصف الأول يفيد أن هذا الكتاب يماثل سائر الكتب الإلهية في الدعوة إلى هذه المطالب العالية الشريفة، والوصف الثاني يفيد أن هذه المطالب التي اشتمل القرآن عليها مطالب حقة صدق في أنفسها، يعلم كل أحد بصريح عقله كونها كذلك، سواء وردت الكتب الإلهية قبل ذلك بها أو لم ترد، فإن قالوا: كيف قالوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾؟ قلنا: قد نقلنا عن الحسن أنه قال: إنهم كانوا على اليهودية. وعن ابن عباس أن الجن ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا: من بعد موسى. ثم إن الجن لما وصفوا القرآن بهذه الصفات الفاضلة قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ واختلفوا في أنه هل المراد بداعي الله الرسول أو الواسطة التي تبلغ عنه؟ والأقرب أنه هو الرسول لأنه هو الذي يطلق عليه هذا الوصف.

واعلم أن قوله: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذه الآية تدل على أنه ﷺ كان مبعوثًا إلى الجن كما كان مبعوثًا إلى الإنس، قال مقاتل: ولم يبعث الله نبيًّا إلى الإنس والجن قبله.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به، فيدخل فيه الأمر بالإيمان، إلا أنه أعاد ذكر الإيمان على التعيين لأجل أنه أهم الأقسام وأشرفها، وقد جرت عادة

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه العقيلي في (الضعفاء الكبير) (٨/ ١٢)، حديث رقم (١٨٠٩)، وابن أبي الدنيا في (هواتف الجنان) (١/ ١٠٤)، حديث رقم (١٠٠)، وابن الجوزي في (الموضوعات) (١/ ٢٠٨)، جميعًا من طريق محمد بن صالح بن النطاح، حدثنا أبو سلمة محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا مالك بن دينار عن أنس بن مالك... به.

وفي إسناده محمد بن عبد الله قال العقيلي: محمد بن عبد الله عن مالك بن دينار منكر الحديث.

القرآن بأنه يذكر اللفظ العام، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه، كقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ [الأحزاب: ٧] ولما أمر بالإيمان به ذكر فائدة ذلك الإيمان وهي قوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال بعضهم: كلمة (مِنْ) ههنا زائدة والتقدير: يغفر لكم ذنوبكم. وقيل: بل الفائدة فيه أن كلمة (مِنْ) هاهنا لابتداء الغاية، فكان المعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب، ثم ينتهي إلى غفران ما صدر عنكم من ترك الأولى والأكمل.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أم لا؟ فقيل: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، ثم يقال لهم: (كونوا ترابًا) مثل البهائم. واحتجوا على صحة هذا المذهب بقوله تعالى: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٣١] وهو قول أبي حنيفة، والصحيح أنهم في حكم بني آدم فيستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، وهذا القول قول ابن أبي ليلى ومالك، وجرت بينه وبين أبي حنيفة في هذا الباب مناظرة، قال الضحاك: يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، والدليل على صحة هذا القول أن كل دليل على أن البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم في حق الجن، والفرق بين البابين بعيد جدًّا.

واعلم أن ذلك الجني لما أمر قومه بإجابة الرسول والإيمان به، حَذَّرهم من تلك الإجابة فقال: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لا ينجي منه مهرب ولا يسبق قضاءه سابق، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾ [الجن: ١٢] ولا نجد له أيضًا وليًّا ولا نصيرًا ولا دافعًا من دون الله، ثم بيّن أنهم في ضلال مبين.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم المختار، ثم فَرَّع عليه فرعين: الأول: إبطال قول عبدة الأصنام، والثاني: إثبات النبوّة، وذكر شبهاتهم في الطعن في النبوة وأجاب عنها، ولما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم في استيفاء طيباتهم وشهواتها، وبسبب أنه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد والاعتراف بتقدمه عليهم، ضرب لذلك مثلاً وهم قوم عاد فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد، فلما أصروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم، فكان ذلك تخويفًا

لأهل مكة بإصرارهم على إنكار نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه بإثبات نبوته في الجن، وإلى ههنا قد تم الكلام في التوحيد وفي النبوة، ثم ذكر عقيبهما تقرير مسألة المعاد، ومن تأمل في هذا البيان الذي ذكرناه علم أن المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوّة والمعاد، وأما القصص فالمراد من ذكرها ما يجري مجرى ضرب الأمثال في تقرير هذه الأصول.

المسألة الثانية: المقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على كونه تعالى قادرًا على البعث، والدليل عليه أنه تعالى أقام الدلائل في أول هذه السورة على أنه هو الذي خلق السموات والأرض ولا شك أن خلقها أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حيًّا بعد أن صار ميتًا، والقادر على الأقوى والأكمل لا بد وأن يكون قادرًا على الأقل والأضعف، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمقصود منه أن تعلق الروح بالجسد أمر ممكن إذ لو لم يكن ممكنًا في نفسه لما وقع أولاً، والله تعالى قادر على كل الممكنات، فوجب كونه قادرًا على تلك الإعادة، وهذه الدلائل يقينية ظاهرة.

المسألة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ إدخاله الباء على خبر (أنَّ)، وإنما جاز ذلك لدخول حرف النفي على (أنَّ) وما يتعلق بها، فكأنه قيل: أليس الله بقادر. قال الزجاج: لو قلت: ما ظننت أن زيدًا بقائم جاز، ولا يجوز ظننت أن زيدًا بقائم، والله أعلم.

المسألة الرابعة: يقال: عييت بالأمر: إذا لم تعرف وجهه. ومنه ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾[ق: ١٥]. واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر، ذكر بعض أحوال الكفار فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فقوله: ﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ التقدير يقال: لهم أليس هذا بالحق؟ والمقصود التهكم بهم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[الصافات: ٥٩].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما قرر المطالب الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والمعاد، وأجاب عن الشبهات، أردفه بما يجري مجرى الوعظ والنصيحة للرسول ﷺ، وذلك لأن الكفار كانوا يؤذونه ويوجسون صدره، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي أولو الجد والصبر والثبات.

وفي الآية قولان:

الأول: أن تكون كلمة ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، ويراد بأولو العزم بعض الأنبياء، قيل: هم نوح، صبر على أذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح الولد، وإسحاق على

الذبح، ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[الشعراء: ٦١] وداود بكى على زلته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال: إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها. وقال الله تعالى في آدم: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[طه: ١١٥] وفي يونس: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨].

والقول الثاني: أن كل الرسل أولو عزم ولم يبعث الله رسولاً إلا كان ذا عزم وحزم، ورأي وكمال وعقل، ولفظة (مِن) في قوله ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ تبيين لا تبعيض، كما يقال: كسيته من الخز. وكأنه قيل: اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم، ووَصَفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ ومفعول الاستعجال محذوف، والتقدير لا تستعجل لهم بالعذاب، قيل: إن النبي ﷺ ضجر من قومه بعض الضجر، وأحب أن يُنزل الله العذاب بمن أبى من قومه فأُمر بالصبر وتَرْك الاستعجال، ثم أُخبر أن ذلك العذاب منهم قريب، وأنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر، وعند نزول ذلك العذاب بهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، حتى يحسبونها ساعة من نهار، والمعنى أنهم إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من النهار، أو كأن لم يكن لهول ما عاينوا، أو لأن الشيء إذا مضى صار كأنه لم يكن، وإن كان طويلاً، قال الشاعر:

كَأَنَّ شَيئًا لَمْ يَكُنْ إِذَا مَضَى ... كَأَنَّ شَيئًا لَمْ يَزَلْ إذا أتى

واعلم أنه تم الكلام هاهنا، ثم قال تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا بلاغ، ونظيره قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾[إبراهيم: ٥٢] أي هذا الذي وُعظتم به فيه كفاية في الموعظة، أو هذا تبليغ من الرسل، فهل يهلك إلا الخارجون عن الاتعاظ به والعمل بموجبه؟ والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: تم تفسير هذه السورة يوم الأربعاء، العشرين من ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

سورة الأحقاف

مكيةٌ في قول جميعهم. وهي أربع وثلاثون آية، وقيل: خمسٌ[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ تقدَّم[2]. ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ تقدَّم أيضاً[3]. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني القيامة؛ في قول ابنِ عباس وغيره[4]. وهو الأجلُ الذي تنتهي إليه السماواتُ والأرض[5]. وقيل: إنه هو الأجل المقدورُ لكلِّ مخلوقٍ[6]. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾: خُوِّفُوا ﴿مُعْرِضُونَ﴾: مُوَلُّون لاهُون غير مستعدِّين له. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم[7].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٤ ، وقوله : مكية في قول الجميع، فيه نظر ؛ فقد روي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آية مدنية كما هو في النكت والعيون ٥/ ٢٧٠ ، وزاد المسير ٧/ ٣٦٨ . وروي أيضاً عن مقاتل: نزلت بمكة غير آيتين. ذكره ابن الجوزي أيضاً . وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٩١ .

(٢) ص١٤٣ من هذا الجزء.

(٣) ١٢/ ٢٤٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥١٥ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تعبدون من الأصنام والأندادِ من دون الله. ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هل خَلَقوا شيئاً من الأرض؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: نصيبٌ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: في خلق السماوات مع اللهِ. ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: من قبل هذا القرآن[1].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قراءة العامة: «أَوْ أثارةٍ» بألفٍ بعد الثاء.

قال ابن عباس عن النبيِّ ﷺ: «هو خطٌّ كانت تخطُّه العرب في الأرض»[2]؛ ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ. وقال ابن العربي[3]: ولم يصحَّ. وفي مشهور الحديث عن النبيِّ ﷺ قال: «كان نبيٌّ من الأنبياء يَخُطُّ، فَمَنْ وافَق خطَّه فذاك» ولم يصحَّ أيضاً.

قلت: هو ثابتٌ من حديث معاوية بن الحَكَم السُّلمي؛ خَرَّجه مسلم[4]. وأسند النحاس: حدَّثنا محمد بن أحمد ـ يعرف بالجرايحي[5] ـ قال حدثنا محمد بن بندار قال: حدَّثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان الثوري، عن صفوان بن سُلَيم، عن أبي سَلَمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال: «الخطّ» وهذا صحيحٌ أيضاً[6].

---

(١) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٣، وسيذكره المصنف بلفظ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: الخط.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٤.

(٤) برقم (٥٣٧)، وهو عند الإمام أحمد (٢٣٧٦٢).

(٥) في (خ) و(د) بالجريحي. وفي (ظ) بالحريجي.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١٩٩٢)، والبغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٣٥٥، وعبد الرزاق ٢/ ٢١٥، والطبري ٢١/ ١١٣، وسلف آنفاً.

قال ابن العربي[١]: واختلفوا في تأويله؛ فمنهم من قال: جاء لإباحة الضربِ؛ لأن بعضَ الأنبياء كان يفعله. ومنهم من قال: جاء للنهي عنه؛ لأنه ﷺ قال: «فمَنْ وافقَ خطَّه فذاك». ولا سبيلَ إلى معرفة طريق النبيِّ المتقدِّم فيه؛ فإذاً لا سبيل إلى العمل به. قال[٢]:

لَعمرك ما تدري الضواربُ بالحصا ولازاجراتُ الطير ما اللهُ صانعُ

وحقيقتُه عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب، فيدلُّ ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكبُ من سعدٍ أو نحسٍ يحلُّ بهم، فصار ظنًّا مبنيًّا على ظنّ، وتعلقًا بأمرٍ غائب قد دَرَسَتْ طريقُه وفات تحقيقُه؛ وقد نهت الشريعةُ عنه، وأخبرت أن ذلك مما اختصَّ الله به، وقطَعه عن الخَلق، وإن كانت لهم قبل ذلك أسبابٌ يتعلَّقون بها في درك الأشياء المغيَّبة؛ فإن الله قد رفعَ تلك الأسبابَ، وطمسَ تيك الأبوابَ، وأفرد نفسَه بعلم الغيب؛ فلا يجوز مزاحمتُه في ذلك، ولا يَحلُّ لأحدٍ دعواه. وطلبُه عناءٌ لو لم يكن فيه نهيٌ، فإذ وقد ورد النهي؛ فطلبه معصية أو كفرٌ بحسب قصد الطالب.

قلت: ما اختاره هو قول الخطابي[٣]. قال الخطابي: قوله عليه الصلاة والسلام: «فمن وافَق خطَّه فذاك» هذا يَحتمل الزجر إذ كان ذلك عَلَماً لنبوَّته، وقد انقطعت، فنُهينا عن التعاطي لذلك. قال القاضي عياض[٤]: الأظهر من اللفظ خلافُ هذا، وتصويب خط من يوافق خطَّه؛ لكن من أين تُعلم الموافقة والشرعُ منعَ من التخرُّص وادعاءِ الغيب جملةً؟ فإنما معناه: أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته؛ لا أنه يريد إباحةَ ذلك لفاعله على ما تأوَّله بعضُهم.

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٤ - ١٦٨٥.

(٢) لبيد بن ربيعة، ديوانه ص ٩٠.

(٣) ينظر معالم السنن ١/ ٢٢٢.

(٤) في إكمال المعلم ٢/ ٤٦٤، ونقله أبو العباس في المفهم ٢/ ١٤١ - ١٤٢، والكلام وما قبله منهما.

وحكى مكيٌّ في تفسير قوله: «كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ»: أنه كان يخطُّ بأصبعه السبابة والوسطى في الرمل ثم يَزْجُر. وقال ابن عباس في تفسير قوله: «ومنَّا رجالٌ يخطُّون»[(١)]: هو الخطُّ الذي يَخطُّه الحازي[(٢)] فيعطيه[(٣)] حُلواناً فيقول: اقعد حتى أخطَّ لك؛ وبين يدي الحازي غلامٌ معه مِيلٌ، ثم يأتي إلى أرضٍ رَخْوةٍ، فيخطُّ الأستاذُ خطوطاً معجلةً لئلَّا يلحقَها العددُ، ثم يرْجع فيمحو على مَهَلٍ خطَّين خطَّين، فإن بقي خطَّان فهو علامة النُّجح، وإن بقي خطٌّ فهو علامة الخيبة. والعرب تسميه: الأسحم، وهو مشؤوم عندهم.

الثالثة: قال ابن العربي[(٤)]: إن اللهَ تعالى لم يُبْقِ من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلُّق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا؛ فإنه أذِن فيها، وأخبر أنها جزء من النبوة[(٥)] وكذلك الفأل[(٦)]؛ وأما الطِّيَرة والزَّجر فإنه نَهى عنهما. والفَأْلُ: هو الاستدلال بما يَسْمَع من الكلام على ما يُريد من الأَمر إذا كان حسناً؛ فإذا سمِع مكروهاً فهو تطيُّر، أمرَه الشرعُ بأن يفرح بالفأل ويمضيَ على أمره مسروراً. وإذا سمع المكروه أعرَض عنه ولم يرجع لأجْله، وقد قال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ لا طَيْرَ إلا طيرك، ولا خيرَ إلى خيرُك، ولا إله غيرُك»[(٧)]. وقد روى بعضُ الأدباء:

الفَأْلُ والزَّجْرُ والكُهَّانُ كلُّهُمُ مضلِّلون ودون الغيبِ أقْفالُ[(٨)]

(١) هو قطعة من حديث معاوية بن الحكم السلمي السالف.

(٢) الحازي: هو الكاهن، ويقال له أيضاً: الحزَّاء، وهو الذي يحزر الأشياء ويُقدرها بظنه. النهاية (حزو).

(٣) في (م) و(د) و(ظ) فيعطى. والمثبت من (خ) و(ز) و(ق) والإكمال والمفهم. وهو في النهاية لابن الأثير (خطط) ذكره عن ابن عباس أيضاً.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٥.

(٥) سلف قوله ﷺ ١١/ ٢٤٧ عن الرؤيا «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

(٦) سلف ٧/ ٢٩٠ - ٢٩١ حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «لا طِيرة، وخيرها الفأل» قيل: يا رسول الله، وما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»، وهو في الصحيحين.

(٧) قطعة من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وسلف ٩/ ٣٠٧.

(٨) ذكره المبرد في الكامل ١/ ٤١٩، والبغدادي في الخزانة ١٠/ ٣٢١ دون نسبة.

وهذا كلامٌ صحيح، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأقرَّبه، فلا يُقبل من هذا الشاعر ما نظَمه فيه؛ فإنه تكلم بجهل، وصاحبُ الشرع أصدقُ وأعلم وأحكم.

قلت: قد مضى في الطِّيرَة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في «المائدة»[١] وغيرها. ومضى في «الأنعام»[٢] أنَّ الله سبحانه منفرِدٌ بعلم الغيب، وأن أحداً لا يعلم من ذلك إلا ما أعلمه اللهُ، أو يجعل على ذلك دلالةً عادية يعلم بها ما يكون على جري العادة، وقد يختلف، مثاله: إذا رأى نخلةً قد أطلَعت، فإنه يعلم أنها ستثمر، وإذا رآها قد تناثر طَلْعُها عَلِم أنها لا تثمر. وقد يجوز أن يأتي عليها آفةٌ تُهلك ثمرَها فلا تثمر؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التي قد تناثر طَلْعُها يُطلع اللهُ فيها طلعاً ثانياً فتثمر. وكما أنه جائز ـ أيضاً ـ ألَّا يلي شهرَه شهرٌ ولا يومَه يوم إذا أراد اللهُ إفناءَ العالَم ذلك الوقت. إلى غير ذلك مما تقدَّم في «الأنعام» بيانُه.

الرابعة: قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يريد الخطَّ. وقد كان مالك رحمه اللهُ يحكم بالخطّ إذا عرَف الشاهدُ خطَّه. وإذا عرف الحاكم خطَّه أو خطَّ من كتب إليه حكَم به، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحِيل والتزوير. وقد روي عنه أنه قال: يُحدِث الناس فجوراً فتحدث لهم أقضية. فأمَّا إذا شهد الشهود على الخطِّ المحكوم به؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خطُّ الحاكم وكتابُه، أَشهدنا على ما فيه وإن لم يعلَموا ما في الكتاب. وكذلك الوصية أو خطّ الرجل باعترافه بمالٍ لغيره يشهدون أنه خطه، ونحو ذلك، فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به[٣].

وقيل: «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْم»: أو بقية من علم؛ قاله ابن عباس والكلبي[٤] وأبو بكر

(١) ٧/ ٢٩٠.

(٢) ٨/ ٤٠٢ وما بعدها.

(٣) ينظر الكافي لابن عبد البرّ ٢/ ٩١٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٦٣.

ابن عياش[١] وغيرهم. وفي الصحاح[٢] «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: بقية منه. وكذلك الأَثَرَة، بالتحريك. ويقال: سَمِنت الإبل على أثارة، أي: بقية شحم كان قبل ذلك. وأنشد الماورديُّ[٣] والثعلبي قولَ الراعي:

وذاتِ أثارة أكلتْ عليها ... نباتاً في أكمَّته قِفارا[٤]

وقال الهَرَوي: والأثارة والأثر: البقيَّة؛ يقال: ما ثَمَّ عين ولا أثر. وقال ميمون ابن مِهران وأبو سَلَمة بن عبد الرحمن وقتادة: «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: خاصة من علم[٥]. وقال مجاهد: روايَةٍ تأثرونها عمَّن كان قبلكم[٦]. وقال عكرمة ومقاتل: رواية عن الأنبياء[٧]. وقال القُرَظي: هو الإسناد[٨]. الحسن: المعنى شيء يثار أو يستخرج[٩]. وقال الزجاج[١٠]: «أَوْ أَثَارَةٍ» أي: علامة. والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة[١١]. وأصل الكلمة من الأثَر، وهي الرواية؛ يقال: أثرت الحديث آثُرهُ أَثْرًا وأَثَارَةً وأُثْرة فأنا آثر؛ إذا ذكرتَه عن غيرك. ومنه قيل: حديث مأثور، أي: نقله خَلَف عن سَلَف. قال الأعشى:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ١١٥ .

(٢) مادة: (أثر).

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٧١ .

(٤) ديوان الراعي النميري ص١٤٢ ، وجاء في النسخ الخطية: قصارا، بدل: قفارا، والمثبت من (م)، ونسب البيت أيضاً للشماخ، وهو في ديوانه ص٤٤٥ .

قوله: في أكمّته أي: في غُلفه ، جمع كِمام، وهو جمع كِمّ، والكِمّ: غطاء النَّور وغلافه . وقوله: قِفارا أي: خالياً من الناس . فَرَعَته الناقةُ وحدها . وقفار: وصف نبات. الخزانة ١٠/ ١٤١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١١٤ .

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٤ - ١١٥ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٦٣ .

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٩٢ .

(٩) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٥ ، والطبري ٢١/ ١١٤ .

(١٠) في معاني القرآن له ٤/ ٤٣٨ .

(١١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٠ .

إن الـذي فيـه تَمَارَيْتُمَا بُيِّن للسـامـع والآثـر

ويروى: «بَيَّنَ»[١] وقرئ: «أَوْ أُثْرَة» بضم الهمزة وسكون الثاء. ويجوز أن يكون معناه: بقية من علم. ويجوز أن يكون معناه: شيئاً مأثوراً من كتب الأوَّلين[٢]. والمأثور: ما يُتحدَّث به مما صحَّ سنده عمن تُحدِّث به عنه.

وقرأ السُّلَمِيُّ والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف[٣]، أي: خاصة من علم أُوتيتموها، أو أوثرتم بها على غيركم. وروي عن الحسن أيضاً وطائفة: «أَثْرةٍ» مفتوحة الألف ساكنة الثاء؛ ذكر الأولى الثعلبيُّ والثانيةَ الماورديُّ[٤]. وحكى الثعلبي عن عكرمة: أو ميراث من علم[٥]. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها، فأوّلها المعقول، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو احتجاجٌ بدليل العقل في أن الجمادَ لا يصحُّ أن يُدعى من دون الله؛ فإنه لا يَضرُّ ولا ينفع. ثم قال: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ فيه بيان أدلة السمع ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي: لا أحدَ أضلُّ وأجهل ﴿مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن

(١) الصحاح (أثر)، والبيت في ديوان الأعشى ص ١٩١، وغريب الحديث ٢/ ٥٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٢، والخزانة ٣/ ٤٠٠، ورواية الديوان والخزانة: والناظر، بدل: والآثر.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٧٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٤.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٧١، وذكرها أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٩.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٩٢.

(٦) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧١.

﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهي الأوثان. ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ يعني لا يَسمعون ولا يفهمون؛ فأخرجها ـ وهي جمادٌ ـ مخرجَ ذكورِ بني آدم؛ إذ قد مَثَّلَتها عبدتُها بالملوك والأمراء التي تُخدم[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: هؤلاء المعبودون أعداء الكفارِ يومَ القيامة. فالملائكة أعداء الكفار، والجنُّ والشياطين يتبرؤون غداً من عبدتهم، ويلْعَن بعضُهم بعضاً. ويجوز أن تكون الأصنامُ للكفار الذين عبدوها أعداءً؛ على تقدير خلق الحياة لها؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[2] [القصص:٦٣]. وقيل: عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم، وجحد المعبودون عبادتهم؛ وهو قوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الميم صلةٌ، التقدير: أيقولون افتراه، أي: تقوَّله محمدٌ. وهو إضرابٌ عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً. ومعنى الهمزة في «أم» الإنكارُ والتعجبُ، كأنه قال: دعْ هذا واسمع قولَهم المستنكر المقضي[3] منه العجبُ، وذلك

---

(١) تفسير الطبري ٢١/١١٧.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٠، والوسيط ٤/١٠٣.

(٣) في (د)، والكشاف ٣/ ٥١٦: «المفضي».

أن محمداً كان لا يقدرُ عليه حتى يقولَه ويفترِيَه على الله، ولو قدر عليه دون أُمّة العرب لكانت قدرته عليه معجزةً لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من اللهِ له، والحكيم لا يصدِّق الكاذب فلا يكون مفترياً، والضمير للحق، والمراد به الآيات. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على سبيل الفَرْض. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تقدرون على أن تردُّوا عني عذابَ الله؛ فكيف أفتري على الله لأجلكم؟![1]. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تقولونه؛ عن مجاهد[2]. وقيل: تخوضون فيه من التكذيب[3]. والإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع. أفاضوا في الحديث، أي: اندفعوا فيه. وأفاض البعير، أي: دفع جِرَّته من كَرِشِه فأخرجها؛ ومنه قول الشاعر:

وأفَضْنَ بعد كُظُومِهِنَّ بِجِرَّةٍ[4]

وأفاض الناس من عرفاتٍ إلى مِنًى، أي: دفعوا، وكلُّ دَفْعة إفاضةٌ[5].

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾ نصب على التمييز. ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو يعلَمُ صدقي وأنكم مبطِلُون. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: أوّل من أُرسل، قد كان قبلي رسل؛ عن ابن عباس وغيره[6]. والبِدْعُ: الأوّل.

---

(١) الوسيط ٤/١٠٣، وتفسير البغوي ٤/١٦٣.

(٢) تفسير مجاهد ٢/٥٩٣، وأخرجه عنه الطبري ٢١/١١٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٦٣.

(٤) صدر بيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص ٢٢٤، وسلف ٥/٣١٨، وعجزه: من ذي الأبارق إذ رَعَيْن حقيلا وقوله: كظومهن بجرة. قال الفيروز: كظم البعير كظوماً: أمسَكَ عن الجِرة. والجِرَّة: وما يفيض به البعير فيأكله ثانيةً، واللقمة يتعلل بها البعير إلى وقت عَلَفِه. القاموس (كظم وجرر).

(٥) الصحاح (فيض)، وبنحوه في تهذيب اللغة ١٢/٧٧ - ٧٨.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/١١٩ - ١٢٠، وابن أبي حاتم كما في تغليق التعليق ٤/٣١١.

وقرأ عكرمة وغيره: «بِدَعًا» بفتح الدال، على تقدير حذفِ المضاف؛ والمعنى: ما كنتُ صاحبَ بِدَع[١].

وقيل: بِدْع وبديع بمعنًى؛ مثلُ: نصف ونصيف. وأبدع الشاعر: جاء بالبديع. وشيء بِدْع ـ بالكسر ـ أي: مبتدَع. وفلان بِدْعٌ في هذا الأمر، أي: بديع. وقوم أبداع؛ عن الأخفش[٢]. وأنشد قُطْرُب قولَ عديٍّ بن زيد:

فلا أنا بِدْعٌ من حوادثَ تعتري رجالاً غدت من بعد بؤسي بأسعدِ[٣]

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ يريد يوم القيامة ـ ولمَّا نزلَت فَرِحَ المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع نبيًّا لا يدري ما يُفعل به ولا بِنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعلُ به؛ فنزلَت: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فنسخت هذه الآية، وأرغم اللهُ أَنْفَ الكفارِ. وقالت الصحابة: هنيئًا لك يا رسولَ الله، لقد بيَّن اللهُ لك ما يَفعلُ بك يا رسولَ الله، فليت شِعرنا ما هو فاعلٌ بنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الفتح: ٥] الآية. ونزلت: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾[٤] [الأحزاب: ٤٧] ـ قاله أنسٌ وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك[٥].

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ عن أبي حيوة.

(٢) ينظر معاني القرآن له ٢/ ٦٩٣ ولم نقف على كلامه بتمامه ثمة، وهو بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١١٩ والبغوي ٤/ ١٦٤ دون نسبة.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ١١٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٢، والحماسة البصرية ٢/ ٤٩، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٥٠٠، وفي بعضها: عرت، بدل: غدت، و«أسعدُ»، بدل: بأسعد، وهو بهذا اللفظ في النكت والعيون ٥/ ٢٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢١ عن عكرمة والحسن البصري بنحوه، وسيذكره المصنف عن عطاء عن ابن عباس أول سورة الفتح، وسيرد في الفتح أيضاً خبر قول الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله... الخ، وهو من حديث أنس ﷺ، وهو في الصحيح، وليس فيه ذكر لآية الأحقاف.

(٥) يعني قولهم في تفسير الآية أعلاه: يريد يوم القيامة، كما في المحرر الوجيز ٥/ ٩٤، وزاد المسير ٧/ ٣٧٣.

وقالت أمُّ العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ: اقتسمنا المهاجرين، فطار لنا عثمان بن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا، فَتُوفِّيَ، فقلت: رحمةُ الله عليك أبا السائب! إن الله أكْرَمك. فقال النبيُّ ﷺ: «وما يدريكِ أن الله أكرمه»؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسولَ الله! فمن؟! قال: «أمَّا هو فقد جاءه اليقينُ، وما رأينا إلا خيراً، فواللهِ إني لَأرجو له الجَنَّة، وواللهِ إني لَرسولُ اللهِ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم». قالت: فواللهِ لا أزكّي بعدَه أحداً أبداً[1]. ذكره الثعلبيُّ، وقال: وإنما قال هذا حين لم يعلَم بغفران ذَنْبِه، وإنَّما غفَر اللهُ له ذنبَه في غَزْوَةِ الحُدَيْبِيَة قبل موته بأربع سنين.

قلت: حديثُ أمِّ العلاء خَرَّجه البخاريُّ، وروايتي فيه: «وما أدري ما يُفعل به» ليس فيه: «بي ولا بكم»، وهو الصحيح إن شاء اللهُ[2]، على ما يأتي بيانه. والآية ليست بمنسوخة؛ لأنها خبر.

قال النحاس[3]: محالٌ أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين: أحدهما أنه خبر، والآخر أنه من أوَّل السورة إلى هذا الموضع خطابٌ للمشركين واحتجاجٌ عليهم وتوبيخ لهم؛ فوجب أن يكون هذا ـ أيضاً ـ خطاباً للمشركين كما كان قبلَه وما بعده، ومحال أن يقولَ النبيُّ ﷺ للمشركين: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد (٢٧٤٥٧)، والبخاري (١٢٤٣) عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أمِّ العلاء. وأم العلاء الأنصارية، من المبايعات، حديثها عند أهل المدينة، وقيل: هي بنت الحارث بن ثابت. الإصابة ١٣/ ٣٥٥.

(٢) رواية: «وما أدري ما يفعل به» أخرجها البخاري – كما قال المصنف رحمه الله – (٢٦٨٧)، ورواية: «ما يفعل بي ولا بكم» أخرجها البخاري – أيضاً ـ (٧٠١٨) وهي عند الإمام أحمد (٢٧٤٥٨).

وأما قول المصنف – فيما يتعلق برواية: «ما يفعل به» –: وهو الصحيح؛ فقد قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣/ ١١٥ – ١١٦: في رواية الكشميهني «به» وهو غلط منه... وإنما قال رسول الله ﷺ ذلك – أي: «ما يفعل بي ولا بكم» – موافقة لقوله تعالى في سورة الأحقاف. ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ ...

(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٨ – ٦٢٩.

الآخرة، ولم يَزَل ﷺ من أوَّل مبعثه إلى مماته يخبر أنَّ مَن مات على الكفر مخلَّد في النار، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة، فقد رأى ﷺ ما يفعل به وبهم في الآخرة. وليس يَجوز أن يقول لهم: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة؛ فيقولون: كيف نتبعك وأنت لا تدري أتصير إلى خفضٍ ودَعة، أم إلى عذابٍ وعقاب؟!.

والصحيح في الآية قولُ الحسن، كما قرئ على محمد[١] بن جعفر بن حفص، عن يوسف بن موسى، قال حدَّثنا وكيع قال: حدَّثنا أبو بكر الهذلي، عن الحسن: «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ فِي الدُّنْيَا»[٢] قال أبو جعفر[٣]: وهذا أصحُّ قولٍ وأحسنه، لا يدري ﷺ ما يَلحقه وإياهم من مرضٍ وصحَّة، ورُخصٍ وغلاء، وغنًى وفقر. ومثله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [الأعراف:١٨٨]. وذكر الواحديُّ وغيره، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: لمَّا اشتد البلاءُ بأصحاب رسولِ الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرضٍ ذات نخلٍ وشجر وماء، فقصَّها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فَرَجاً ممَّا هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مَكَثوا بُرْهةً لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله، متى نُهاجر إلى الأرض التي رأيتَ؟ فسكت النبيُّ ﷺ، فأنزَل اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أي: لا أدري أأخرجُ إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا. ثم قال: «إنما هو شيء رأيتُه في منامي ما أتبع إلا ما يُوحَى إليَّ»[٤] أي: لم يوح إليَّ ما أخبرتكم به. قال القُشَيريُّ: فعلى هذا لا نسخَ في الآية. وقيل: المعنى: لا أدري ما

(١) في النسخ: كما قرأ علي بن محمد، والمثبت من الناسخ والمنسوخ للنحاس.

(٢) وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ١٢٢ - ١٢٣ مطولاً، وسيأتي قريباً.

(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٩.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٠١. وإسناده ضعيف، وذكره عن ابن عباس - أيضاً - البغوي في تفسيره ٤/ ١٦٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٢، والرازي ٢٨/ ٨، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ عنه مختصراً، وأبو الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٠ عن الكلبي.

يُفْرَض عليَّ وعليكم من الفرائض.

واختار الطبريُّ[١] أن يكون المعنى: ما أدري ما يَصيرُ إليه أمري وأمرُكم في الدنيا، أتؤمنون أم تكفرون، أم تُعاجَلون بالعذاب أم تؤخَّرون.

قلت: وهو معنى قولِ الحسن والسُّدِّيِّ وغيرِهما. قال الحسن: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أما في الآخرة فَمَعاذَ الله! قد عُلم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل، ولكن قال: ما أدري ما يفعل بي في الدنيا أأُخرج كما أُخرجت الأنبياء قبلي، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء قبلي؛ ولا أدري ما يفعل بكم، أأُمَّتي المصدِّقة أم المكذِّبة، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قَذْفاً، أو مخسوفٌ بها خَسْفاً؛ ثم نزلت: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح:٢٨]. يقول: سيُظهر دينَه على الأديان. ثم قال في أمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣]. فأخبرَه تعالى بما يصنع به وبأمته[٢].

ولا نسخَ على هذا كلِّه، والحمدُ لله. وقال الضحاك أيضاً: «ما أدري ما يفعل بي ولا بكم» أي: ما تؤمرون به وتنهون عنه[٣]. وقيل: أمرَ النبيُّ ﷺ أن يقول للمؤمنين: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في القيامة، ثم بيَّن اللهُ تعالى ذلك في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢] وبيَّن فيما بعد ذلك حالَ المؤمنين، ثم بيَّن حالَ الكافرين[٤].

قلت: وهذا معنى القول الأوّل، إلا أنه أطلَق فيه النسخَ بمعنى البيان، وأنه أمَرَ أن يقول ذلك للمؤمنين، والصحيحُ ما ذكرناه عن الحسن وغيرِه.

---

(١) في تفسيره ٢١/ ١٢٣، والقول الذي قبله منه.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢٢، وفي إسناده أبو بكر الهذلي؛ قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: أخباري متروك الحديث.

(٣) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٣، والرازي في تفسيره ٢٨/ ٨، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٤ دون نسبة.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٢٠.

و«ما» في ﴿مَا يُفْعَلُ﴾: يَجوز أن تكون موصولةً، وأن تكون استفهامية مرفوعة. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقرئ: «يُوحِي» أي: اللهُ عزَّ وجلَّ[١]. تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن. ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ وقال الشعبيُّ: المرادُ محمدٌ ﷺ[٢]. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: هو عبدُ الله بن سَلَام، شهِدَ على اليهود أن رسولَ الله ﷺ مذكورٌ في التوراة، وأنه نبيٌّ من عند الله[٣].

وفي الترمذي[٤] عنه: ونَزَلت فيَّ آياتٌ من كتاب الله، نزلت فيَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد تقدَّم في آخر سورة الرعد[٥].

وقال مسروق: هو موسى والتوراة، لا ابنُ سَلَام؛ لأنه أسلَم بالمدينة، والسورةُ مكيةٌ. وقال: وقوله: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مخاطبة لقريش.

الشعبيُّ: هو مَن آمن مِن بني إسرائيل بموسى والتوراة؛ لأن ابن سَلَام إنما أسلَم قبل وفاة النبيِّ ﷺ بعامين، والسورةُ مكية[٦].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٨، وذكر القراءة أيضاً أبو حيان في البحر ٨/ ٧٥، وهي قراءة شاذة.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٣.

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩٣، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٨-١٣٠، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٢١٥، والنكت والعيون ٥/ ٢٧٣.

(٤) برقم (٣٢٥٦).

(٥) ١٢/ ٩٨.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧٣، وبنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٢٥ - ١٢٦.

قال القُشَيْرِيُّ: ومن قال: الشاهدُ موسى، قال: السورة مكية، وأسلَم ابنُ سَلَام قبلَ موتِ النبيِّ ﷺ بعامين[١]. ويجوز أن تكون الآيةُ نَزَلت بالمدينة وتوضع في سورةٍ مكية؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبيُّ ﷺ ضعوها في سورة كذا[٢].

والآيةُ في مُحاجَّة المشركين، ووجهُ الحجَّة أنهم كانوا يراجعون اليهودَ في أشياء، أي: شهادتهم لهم وشهادة نبيِّهم لي من أوضح الحجج. ولا يبعد أن تكون السورةُ في مُحاجَّة اليهود، ولمَّا جاء ابن سَلَام مُسْلِمًا من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال: يا رسولَ الله، اجعلني حَكَماً بينك وبين اليهود، فسألهم عنه: «أيُّ رجلٍ هو فيكم؟» قالوا: سَيِّدُنا وعالِمُنا. فقال: «إنه قد آمن بي» فأساؤوا القولَ فيه... الحديث، وقد تقدَّم[٣]. قال ابن عباس: رضيَت اليهودُ بحكم ابن سلام، وقالت للنبيِّ ﷺ: إن يشهد لك آمنَّا بك؛ فسئل فشهِد ثم أسلَم[٤]. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: على مثل ما جئتكم به، فشهِد موسى على التوراة، ومحمدٌ على القرآن. وقال الجُرْجَانيُّ. «مِثْل» صلة، أي: وشهد شاهدٌ عليه أنه من عند الله. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي: هذا الشاهد. ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن الإيمان. وجوابُ «إنْ كَانَ» محذوفٌ تقديره: فآمن، أتؤمنون؟ قاله الزجاج[٥].

وقيل: «فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ» أليس قد ظلمتم؟ يبيِّنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقيل: «فَآمَنَ واسْتَكْبَرْتُمْ» أفتأْمنون عذابَ الله؟[٦]. و«أَرَأَيْتُمْ» لفظٌ موضوع للسؤال والاستفهام؛ ولذلك لا يقتضي مفعولاً. وحكى النقاشُ وغيره: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، وتقديره: قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهِد شاهدٌ من بني إسرائيل فآمن هو وكفرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين[٧].

---

(١) سلف قول القشيري هذا ١٢/ ٩٩ .

(٢) ذكر هذا القول الرازيُّ في تفسيره ٢٨/ ١٠ عن الكلبي .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٢٠٥٧) ، والبخاري (٣٣٢٩) من حديث أنس ﷺ بنحوه .

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢٧ - ١٢٨ بنحوه .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٠ ، وذكر هذا الكلام البغويُّ في تفسيره ٤/ ١٦٥ .

(٦) الوسيط ٤/ ١٠٤ - ١٠٥ ، وزاد المسير ٧/ ٣٧٤ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ اختلف في سبب نزولها على ستة أقوال:

الأوّل: أنَّ أبا ذَرٍّ الغفاريَّ دعاه النبيُّ ﷺ إلى الإسلام بمكة فأجاب، واستجار به قومُه، فأتاه زعيمُهم فأسلَم، ثم دعاهم الزعيمُ فأسلَموا، فبلغَ ذلك قريشاً، فقالوا: غفارٌ الحلفاء لو كان هذا خيراً ما سَبقونا إليه؛ فنزلَت هذه الآيةُ، قاله أبو المتوكل(١).

الثاني: أن زِنِّيرة أسلَمت فأصيب بصرُها، فقالوا لها: أصابك اللاتُ والعزَّى؛ فردَّ اللهُ عليها بصرَها. فقال عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً ما سبقتْنا إليه زِنِّيرة؛ فأنزَل اللهُ تعالى هذه الآية؛ قاله عروة بنُ الزبير(٢).

الثالث: أن الذين كفَروا هم بنو عامر، وغَطَفان، وتميم، وأسَد، وحَنْظَلة، وأشْجَع، قالوا لمن أسلَم مِن غِفار وأسلَم وجُهينة ومُزينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً ما سبقتنا إليه رُعَاةُ الْبَهْم؛ إذ نحن أعزُّ منهم؛ قاله الكلبيُّ والزَّجَّاج(٣)، وحكاه القُشَيْريُّ عن ابن عباس.

وقال قتادة: نزَلت في مشركي قريش، قالوا: لو كان ما يدعونا إليه مُحمدٌ خيراً ما

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤، وزاد المسير ٧/ ٣٧٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤، وأخرج نحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٥ عن أبي الزناد، عن أبيه، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٥ عن أبي الزناد، دون ذكر زِنِّيرة.

وزِنيرة هي مولاة أبي بكر الصديق ﷺ وهي أحد السبعة الذين كانوا يعذَّبون في الله، فاشتراهم أبو بكر، وأعتقهم. ينظر الاستيعاب على هامش الإصابة ١٣/ ١٤ - ١٥.

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٠، وذكره أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٤، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٦٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٥ دون ذكر تميم وحنظلة وخزاعة.

سبقنا إليه بِلال وصُهيب وعَمَّار وفلانٌ وفلان[١]. وهو القول الرابع.

القول الخامس: أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا ـ يعني عبد الله بن سلام وأصحابه ـ: لو كان دين محمد حقًّا ما سبقونا إليه؛ قاله أكثر المفسرين، حكاه الثعلبيُّ[٢].

وقال مسروقٌ: إن الكفار قالوا: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه اليهود؛ فنزلت هذه الآية.

وهذه المعارضةُ من الكفار في قولهم: لو كان خيراً ما سبقونا إليه من أكبرِ المعارضات بانقلابها عليهم لكلِّ من خالَفهم؛ حتى يقال لهم: لو كان ما أنتم عليه خيراً ما عدلنا عنه، ولو كان تكذيبكم للرسول خيراً ما سبقتمونا إليه؛ ذكره الماورديُّ[٣].

ثم قيل: قوله: ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين، ويجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾[٤] [يونس: ٢٢]. ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ يعني الإيمان. وقيل: القرآن. وقيل: محمد ﷺ. ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ أي: لمَّا لم يصيبوا الهدى بالقرآن ولا بمن جاء به؛ عادَوْه ونسبُوه إلى الكذب، وقالوا: هذا إفك قديمٌ؛ كما قالوا: أساطير الأوَّلين[٥]. وقيل لبعضهم: هل في القرآن: مَن جَهِل شيئاً عاداه؟ فقال: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ ومثله:

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٢١٦ ، والطبري ٢١/ ١٣٢ - ١٣٣ ، وينظر ما سلف ١٥/ ٣٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٧٤ - ٢٧٥ ، وقول مسروق هو القول السادس .

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ١١ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٦٦ بنحوه .

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومن قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى بما فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ من اللهِ. وفي الكلام حذفٌ؛ أي: فلم يهتدوا به. وذلك أنه كان في التوراة نعتُ النبيِّ ﷺ والإيمانُ به، فتركوا ذلك. و«إِمَامًا» نصب على الحال؛ لأن المعنى: وتقدَّمه كتابُ موسى إماماً. «وَرَحْمَةً» معطوف عليه. وقيل: انتصب بإضمار فعلٍ، أي: أنزلناه إماماً ورحمة[١]. وقال الأخفش[٢]: على القطع؛ لأن كتاب موسى معرفةٌ بالإضافة؛ لأن النكرة إذا أعيدت أو أُضيفت أو أدخل عليها ألف ولام صارت معرفةً. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ يعني للتوراةِ ولِمَا قبلَه من الكتب. وقيل: مصدِّق للنبيِّ ﷺ. ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال؛ أي: مصدِّق لِمَا قبلَه عربيًّا، و﴿لِّسَانًا﴾ توطئة للحال، أي: تأكيد؛ كقولهم: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً، فتذكر رجلاً توكيداً[٣]. وقيل: نصب بإضمار فعل تقديره: وهذا كتابٌ مصدِّق؛ أعني لساناً عربيًّا. وقيل: نصب بإسقاط حرفِ الخفض تقديره: بلسانٍ عربيٍّ. وقيل: إن لساناً مفعول، والمراد به النبيُّ ﷺ، أي: وهذا كتاب مصدِّقٌ للنبيِّ ﷺ لأنه معجزته؛ والتقدير: مصدِّق ذا لسان عربيٍّ. فاللسان منصوب بمصدِّق، وهو النبيُّ ﷺ. ويبعد أن يكون اللسان القرآنَ؛ لأن المعنى يكون يصدِّق نفسَه[٤]. ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قراءة العامة: «لِيُنْذِرَ» بالياء خبرٌ عن الكتاب، أي: لينذر الذين ظلموا أنفسَهم بالكفر والمعصية.

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤٠ - ٤٤١، والوسيط ٤/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) ينظر كلامه في معاني القرآن له ٢/ ٦٩٣.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤١، والوسيط ٤/ ١٠٦.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٤، وبنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٩٣.

وقيل: هو خبرٌ عن الرسول ﷺ. وقرأ نافعٌ وابن عامر والبَزِّيُّ: بالتاء[١]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ على خطاب النبيِّ ﷺ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ [الرعد:٧]. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ «بُشْرَى» في موضع رفع[٢]، أي: وهو بشرى. وقيل: عطفاً على الكتاب، أي: وهذا كتاب مصدِّقٌ وبشرى. ويجوز أن يكون منصوباً بإسقاط حرف الخفض، أي: لينذر الذين ظلَموا، وللبشرى؛ فلمَّا حذف الخافض نصب. وقيل: على المصدر، أي: وتبشر المحسنين بشرى، فلمَّا جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة؛ نصب؛ كما تقول: أتيتك لأزورَك، وكرامةً لك وقضاءً لحقك؛ يعني لأزورك وأكرمك وأقضي حقَّك؛ فنصب الكرامة بفعلٍ مضمر[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الآية تقدَّم معناها[٤]. وقال ابن عباس: نزلت في أبي بكر الصدِّيق[٥]. والآية تعمُّ. ﴿جَزَآءَۢ﴾ نصب على المصدر[٦].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

فيه سبع مسائل:

(١) السبعة ص٥٩٦، والتيسير ص١٩٩.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦٢، وينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٧١.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٥، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٥١ - ٥٢.
(٤) عند تفسير الآية (٣٠) من سورة فصلت.
(٥) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠ لابن عساكر.
(٦) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٢٠ على هامش الفتوحات الإلهية.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ بيَّن اختلافَ حالِ الإنسان مع أبويه، فقد يُطيعهما وقد يُخالفهما، أي: فلا يَبعُد مثلُ هذا في حقِّ النبيِّ ﷺ وقومِه حتى يَستجيب له البعضُ ويَكفُر البعض. فهذا وجهُ اتصال الكلام بعضه ببعض؛ قاله القشيريّ[1].

الثانية: قوله تعالى: ﴿حُسْنًا﴾ قراءة العامة: «حُسْنًا» وكذا هو في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام. وقرأ ابن عباس والكوفيون: «إِحْسَاناً» وحُجتهم قوله تعالى في سورة الأنعام [الآية: ١٥١] وبني إسرائيل [الآية: ٢٣]: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وكذا هو في مصاحف الكوفة.

وحجةُ القراءة الأولى قولُه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[2] [الآية: ٨]، ولم يختلفوا فيها. والحُسْن خلاف القُبْح. والإحسان خلاف الإساءة[3]. والتوصية: الأمر. وقد مضى القول في هذا وفيمن نزلت[4].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بكرهٍ ومشقَّة[5]. وقراءة العامة بفتح الكاف. واختاره أبو عبيد، قال: وكذلك لفظ الكره في كلِّ القرآن ـ بالفتح ـ إلا التي في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [الآية: ٢١٦] لأن ذلك اسمٌ، وهذه كلُّها مصادر. وقرأ الكوفيون: «كُرْهًا» بالضم[6]. قيل: هما لغتان مثل الضُّعْف والضَّعْف، والشُّهْد والشَّهْد[7]؛ قاله الكسائيُّ، وكذلك

---

(١) بعدها في (ظ) زيادة: وقتادة.

(٢) قرأ: «إحساناً» عاصم وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون من السبعة: «حسناً» السبعة ص٥٩٦، والتيسير ص١٩٩، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٢، والطبري ٢١/ ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ١٤.

(٤) ١٣/ ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٥) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٧.

(٦) قرأ بالضم عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر في رواية ابن ذكوان، والباقون من السبعة؛ بالفتح. السبعة ص ٥٩٦، والتيسير ص ١٩٩.

(٧) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٨/ ١٤.

هو عند جميع البصريين. وقال الكسائيُّ أيضاً والفرَّاء في الفرْق بينهما: إن الكُره ـ بالضم ـ ما حمل الإنسان على نفسه، وبالفتح ما حمل على غيره[١]؛ أي: قهْراً وغَضَباً؛ ولهذا قال بعض أهل العربية: إن كَرهاً ـ بفتح الكاف ـ لَحنٌ[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ قال ابن عباس: إذا حَمَلَت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرًا، وإن حملَت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً[٣].

وروي أن عثمان قد أتي بامرأةٍ قد ولدت لستة أشهر، فأراد أن يقضي عليها بالحدِّ؛ فقال له عليٌّ ﷺ: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فالرضاع أربعة وعشرون شهراً، والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدَّها[٤]، وقد مضى في «البقرة»[٥].

وقيل: لم يعدَّ ثلاثة أشهر في ابتداء الحمل؛ لأن الولد فيها نطفةٌ وعلقة ومضغة، فلا يكون له ثِقَل يُحسُّ به، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ﴾[٦] [الأعراف: ١٨٩]. والفِصالُ: الفِطام. وقد تقدَّم في «لقمان» الكلامُ فيه[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٦ .

(٢) وقال صاحب هذا القول: لو حملته كَرهاً لَرَمَتْ به عن نفسها، لأن الكَره القهرُ والغضبُ. وذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦٤، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧. ورده أبو جعفر النحاس بأن الكَره والكُره لغتان بمعنى واحد.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٦، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٧، وسلف ٤/ ١١٠ - ١١١ .

(٤) سلفت ص٩٠ من هذا الجزء.

(٥) الذي مضى الكلام عن أحكام الرضاع ٤/ ١٠٦ وما بعد .

(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ١٤ .

(٧) ١٦/ ٤٧٤ .

وقرَأ الحسنُ ويعقوب وغيرهما: «وفَصْله» بفتح الفاء وسكون الصاد[١].

وروي أن الآية نَزَلت في أبي بكر الصدِّيق، وكان حملُه وفصاله في ثلاثين شهراً[٢]، حملته أمه تسعةَ أشهر، وأرضعته إحدى وعشرين شهراً.

وفي الكلام إضمارٌ، أي: ومدَّة حملِه ومدَّة فصاله ثلاثون شهراً، ولولا هذا الإضمارُ لنصب ثلاثون على الظرف وتغيَّر المعنى[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال ابن عباس: ثماني عشرة سنة[٤]. وقال في رواية عطاء عنه: إن أبا بكر صحب النبيَّ ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة، والنبيّ ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشامَ للتجارة، فنَزلوا منزِلاً فيه سدرة، فقعد النبيُّ ﷺ في ظلِّها، ومضى أبو بكر إلى راهبٍ هناك، فسأله عن الدِّين. فقال الراهب: مَن الرجل الذي في ظلِّ الشجرة؟ فقال: ذاك محمدُ بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: هذا واللهِ نبيٌّ، وما استظلَّ أحدٌ تحتَها بعد عيسى. فوقَع في قلب أبي بكر اليقينُ والتصديق؛ وكان لا يَكاد يُفارِق رسولَ الله ﷺ في أسفاره وحضَرِه. فلما نُبِّئَ رسولُ الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، صدَّق أبو بكر ﷺ رسولَ الله ﷺ وهو ابن ثمانية وثلاثين سنة. فلمَّا بلَغ أربعين سنة قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾[٥] الآية. وقال الشعبيُّ وابن زيد: الأشُدُّ: الحُلُم[٦]. وقال الحسن: هو

---

(١) ذكر قراءة الحسن النحاسُ في إعراب القرآن ٤/ ١٦٤، وابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢٧٩ وهي من العشرة.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٧ بنحوه، وأخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٥٣ عن الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، دون قوله: «وكان حمله وفصاله في ثلاثين شهراً..».

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٦، وينظر إملاء ما به بن الرحمن ٤/ ٣٢٠ على هامش الفتوحات.

(٤) لم نقف عليه، وأخرج الطبري ١٣/ ٦٧ - ٦٨ عنه أنه بضع وثلاثون، ثم قال: وروي عن ابن عباس من وجه غير مرضيٍّ أنه قال: ما بين ثماني عشرة سنةً إلى ثلاثين.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٤٠١-٤٠٢، وزاد المسير ٧/ ٣٧٧ - ٣٧٨، وأشار الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/ ٢٩٤ (ترجمة بحيرا) إلى ضعفه.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره عنهما ٩/ ٦٦٤، وابن أبي حاتم ٥/ ١٤١٩ (٨٠٨٨) عن الشعبي، وسلف ٩/ ١١٢ من قول ابن زيد.

بلوغ الأربعين[١]. وعنه: قيام الحجة عليه. وقد مضى في «الأنعام»[٢] الكلامُ في الآية. وقال السّدِّي والضحاك: نزلَت في سعد بن أبي وقاص. وقد تقدم[٣]. وقال الحسن: هي مرسَلة نزلَت على العموم[٤]. واللهُ أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أي: ألهمني. ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ في موضع نصب على المصدر، أي: شُكْرَ نعمتِك ﴿عَلَيَّ﴾ أي: ما أنعمتَ به عليَّ من الهداية ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ بالتحنُّن والشفقة حتى ربَّياني صغيراً. وقيل: أنعمتَ عليَّ بالصحَّة والعافية، وعلى والديَّ بالغنى والثَّروة[٥].

وقال عليٌّ ﷺ: هذه الآية نزلت في أبي بكر الصدِّيق ﷺ؛ أسلَم أبواه جميعاً، ولم يَجتمع لأحدٍ من المهاجرين [أن][٦] أسلم أبواه غيرُه، فأوصاه اللهُ بهما، ولزِم ذلك مَن بعده[٧]. ووالدُه: هو أبو قُحافة عثمانُ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعدِ بن تَيْم[٨]. وأمُّه: أمُّ الخير، واسمها سَلْمَى بنت صخر بن عامر[٩] بن كعب بن سعد[١٠].وأم أبيه أبي قحافة: قَيْلة، بالياء المعجمة باثنتين من تحتها[١١]، وامرأة أبي

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٤١٩ (٨٠٨٧).

(٢) ٩/ ١١١ وما بعد.

(٣) ١٦/ ٤٧٣.

(٤) زاد المسير ٧/ ٣٧٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٧٧.

(٦) لفظة أن من (م).

(٧) الوسيط ٤/ ١٠٧، وتفسير البغوي ٤/ ١٦٧.

(٨) الاستيعاب ١٢/ ٩٢ على هامش الإصابة، والتعريف والإعلام للسهيلي ص ١٥٦.

(٩) في (د) و(ز) و(ظ): عمرو.

(١٠) الاستيعاب على هامش الإصابة ١٣/ ٢١٦، وفي الإصابة ١٢/ ٣١٠ و١٣/ ٢٠٣: بنت صخر بن عامر ابن كعب...، وقيل: بنت صخر بن عمرو بن عامر القرشية.

(١١) ذكر ابن ماكولا في الإكمال ٧/ ١٣٠: أن اسمها: قيلة بنت أذة بن رياح..، وقال ابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٨٩: أمه: آمنة بنت عبد العزى العدوية، عديَ قريش، وقيل: اسمها: قيلة..

بكر الصديق اسمُها قَتْلَة[١] ـ بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها ـ بنتُ عبد العُزَّى.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ قال ابن عباس: فأجابه اللهُ، فأعتَق تسعةً من المؤمنين يعذَّبون في الله، منهم بلال وعامر بن فُهيرة؛ ولم يدَع شيئاً من الخير إلا أعانَه اللهُ عليه[٢].

وفي الصحيح[٣] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبَح منكم اليوم صَائماً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فَمن تَبع منكم اليوم جَنَازةً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن أطعَم منكم اليوم مِسْكِيناً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم اليوم مَريضاً؟» قال أبو بكر: أنا. قال رسولُ الله ﷺ: «ما اجتَمَعن في امرئ إلا دخَل الجَنَّةَ».

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: اجعل ذرِّيَّتي صالحين[٤]. قال ابن عباس: فلم يبقَ له ولدٌ ولا والد ولا والدة إلا آمَنوا بالله وحدَه[٥]. ولم يكن أحدٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ أسلَم هو وأبواه وأولادُه وبناته كلُّهم إلا أبو بكر[٦].

وقال سهل بن عبد الله: المعنى اجعلْهم لي خَلَف صِدقٍ، ولك عبيدَ حقٍّ. وقال أبو عثمان: اجعلهم أبراراً لي مطيعين لك. وقال ابن عطاء: وفقهم لصالح أعمالٍ ترضى بها عنهم. وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفْس والهوى عليهم سبيلاً[٧]. وقال مالك بن مِغول[٨]: اشتكى أبو معشر ابنَه إلى طلحة بن مُصَرِّف؛

---

(١) في (م): قتيلة، وهو صحيح أيضاً؛ توضيح المشتبه ٧/ ١٤٤ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٠٧-١٠٨ ، وزاد المسير ٧/ ٣٨٧ . وقد سمَّى ابن هشام في السيرة ١/ ٣١٨ - ٣١٩ سبعة ممن أعتقهم أبو بكر ﷺ.

(٣) صحيح مسلم (١٠٢٨) .

(٤) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٠٨ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٣٨٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٨ .

(٨) في (م) مقول ، وهو خطأ.

فقال: استعِن عليه بهذه الآية؛ وتلا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[١].

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: رجعْتُ عن الأمر الذي كنتُ عليه[٢]. ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المخلِصين بالتوحيد[٣].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما. وقرئ: «يَتَقبَّلُ، وَيَتَجاوزُ» بفتح الياء[٤]؛ والضمير فيهما يرجعُ لِله عزَّ وجلَّ. وقرَأ حفص وحمزة والكسائيُّ: «نَتَقَبَّلُ، ونَتَجَاوَزُ» بالنون فيهما[٥]، أي: نغفرها ونصفح عنها. والتجاوزُ أصلُه من جزت الشيءَ: إذا لم تقف عليه. وهذه الآيةُ تدلُّ على أن الآية التي قبلها ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلى آخرها مرسلةٌ نزلَت على العموم. وهو قول الحسن[٦].

ومعنى «نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ» أي: نتقبل منهم الحسنات، ونتجاوزُ عن السيئات. قال زيد ابن أسلم ـ ويحكيه مرفوعاً ـ: إنهم إذا أسلموا قُبلت حسناتُهم وغُفرت سيئاتُهم. وقيل: الأحسن ما يَقتضي الثواب من الطاعات، وليس في الحسن المباح ثواب ولا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٤١، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ١٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٨ .

(٣) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢ .

(٤) هي قراءة عيسى والأعمش كما في القراءات الشاذة ص ١٣٩، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٩ لأبي المتوكل وأبي رجاء وأبي عمران الجوني، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٨ للحسن.

(٥) وقرأ الباقون من السبعة بالياء، كما سلف، وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٥٩٧، والتيسير ص١٩٩ .

(٦) سلف قوله ص١٩٧ من هذا الجزء.

عقاب؛ حكاه ابن عيسى[١]. ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ «في» بمعنى مع[٢]، أي: مع أصحاب الجنة، تقول: أكرمك وأحسن إليك في جميع أهل البلد، أي: مع جميعهم[٣].

﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ نصب لأنه مصدرٌ مؤكد لمَا قبله؛ أي: وعد الله أهلَ الإيمان أن يَتقبل من مُحسنهم ويتجاوزَ عن مسيئهم وعد الصدق[٤]. وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأن الصدقَ هو ذلك الوعدُ الذي وعده اللهُ؛ وهو كقوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحجر: ٩٩] وهذا عند الكوفيين، فأما عند البصريين فتقديره: وَعْد الكلامِ الصدق أو الكتابِ الصدق، فحذف الموصوف. وقد مضى هذا في غير موضع[٥].

﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل؛ وذلك الجنة[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي: أن أُبعثَ[٧]. ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ قراءة نافعٍ وحفص وغيرِهما: «أُفٍّ» مكسور منوَّن. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضَّل عن عاصم: «أُفَّ» بالفتح من غير تنوين. الباقون بالكسر غير منوَّن[٨]؛ وكلُّها لغات، وقد مضى في «بني إسرائيل»[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩، ولم نقف على قول زيد بن أسلم مرفوعاً.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٧٩.

(٣) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٢١.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤٣.

(٥) ١٢/ ١٢٨.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩.

(٨) وقرأ عاصم في رواية حفص: أُفٍّ، بالكسر منون، وقرأ في رواية شعبة: أُفِّ. السبعة ص ٥٩٧، والتيسير ص ١٣٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٩.

(٩) ١٣/ ٥٧.

وقراءة العامة: «أَتَعِدَانِنِي» بنونين مخففتين. وفتح ياءه أهلُ المدينة ومكة. وأسكن الباقون. وقرَأ أبو حيوة والمغيرة وهشام: «أَتَعِدَانِّي» بنون واحدة مشدَّدة، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام[(١)]. والعامة على ضم الألف وفتح الراء من «أَنْ أُخْرَجَ». وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء[(٢)].

قال ابن عباس والسُّدِّي وأبو العالية ومجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، وكان يَدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عزَّ وجلَّ[(٣)]. وقال قتادة والسديُّ أيضاً: هو عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، وكان أبوه وأمه أمُّ رومان يَدعوانه إلى الإسلام ويَعدانه بالبعث؛ فيردُّ عليهما بما حكاه الله عزَّ وجلَّ عنه؛ وكان هذا منه قبل إسلامه[(٤)].

وروي أن عائشة رضي الله عنها أنكرت أن تكون نزلت في عبد الرحمن[(٥)]. وقال الحسن وقتادة أيضاً: هي نعتُ عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه[(٦)]. وقال الزجاج[(٧)]: كيف يقال نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه واللهُ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ﴾ أي: العذاب، ومن ضرورته عدمُ الإيمان، وعبدُ الرحمن من أفاضل المؤمنين؛ فالصحيحُ أنها نزلت في عبدٍ كافر عاقٍّ لوالديه.

---

(١) التيسير ص ١٩٩ .

(٢) ذكرها عن الحسن ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ ، وعن الأعمش ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٩ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٨٠ عن مجاهد .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٩ - ٢٨٠ عن السدي ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٩ عن قتادة والكلبي .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٩ . وأخرج البخاري في صحيحه (٤٨٢٧) عن يوسف بن ماهَك ... فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري .

(٦) أخرجه عنهما الطبري ٢١/ ١٤٥ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٣ - ٤٤٤ ، ونقله عنه بواسطة الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٩ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٨٠ .

وقال محمد بن زياد: كتب معاوية إلى مروان بن الحكم حتى يبايعَ الناسُ ليزيد؛ فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هِرَقْلِيّةً، أتبايعون لأبنائكم! فقال مروان: هو الذي يقول الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ الآية. فقال: واللهِ ما هو بِه، ولو شئتُ لسمَّيت، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فَضَض من لعنة الله[١].

قال المهدويُّ: ومن جعل الآيةَ في عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يراد به من اعتقد ما تقدَّم ذِكره؛ فأول الآية خاصٌّ وآخرها عام[٢].

وقيل: إن عبد الرحمن لمَّا قال: ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ قال مع ذلك: فأين عبدُ الله بن جُدْعان، وأين عثمان بن عمرو، وأين عامر بنُ كعب ومشايخ قريش حتى أسألَهم عمَّا يقولون[٣]. فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يرجعُ إلى أولئك الأقوام.

قلت: قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبي بكر في سورة الأنعام[٤] عند قوله: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى﴾ [الآية: ٧١] ما يدلُّ على نزول هذه الآية فيه؛ إذ كان كافراً، وعند إسلامه وفضله تعيَّن أنه ليس المراد بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٢٧)، والحاكم ٢/ ٤٨١ عن محمد بن زياد الجمحي، وقوله: لقد جئتم بها هرقلية. أراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم والعجم. وهرقل: اسم مِلك الروم. النهاية (هرقل). وقوله: «فأنت فضض من لعنة الله» أراد قطعة وطائفة منها. النهاية (فضض).

(٢) ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح ٨/ ٥٧٧ أن القول في عبد الرحمن ضعيف؛ كالقول في عبد الله، وأن نفي عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته أصح إسناداً وأولى بالقبول.

(٣) في (د) و(ظ): فأين عبد الرحمن بن جذعان، وابن عثمان بن عمرو، وابن عامر بن كعب.. ، وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٥٤، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٩، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢١ - ٥٢٢ ولفظه عند الفراء: ابن جدعان بن عمرو، وعثمان بن عمرو وهما من أجداده، وبنحوه عند الزمخشري.

(٤) ٨/ ٤٢٨.

﴿وَهُمَا﴾ يعني والديه. ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي: يدعوان اللهَ له بالهداية[١]. أو يستغيثان بالله من كفره؛ فلمّا حذف الجارّ وصل الفعل فنصب. وقيل: الاستغاثة: الدعاء؛ فلا حاجةَ إلى الباء[٢]. قال الفرّاء: أجاب الله دعاءَه وغُواثه.

﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي: صدِّق بالبعث. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صِدْقٌ لا خُلْفَ فيه. ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ أي: ما يقوله والداه. ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديثهم وما سطروه مما لا أصلَ له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني الذين أشار إليهم ابن أبي بكر في قوله: أحْيُوا لي مشايخَ قريش، وهم المعنيُّون بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾. فأما ابن أبي بكر عبدُ الله أو عبدُ الرحمن فقد أجاب اللهُ فيه دعاءَ أبيه في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ على ما تقدَّم[٣].

ومعنى «حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» أي: وجب عليهم العذابُ، وهي كلمة اللهِ: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»[٤]. ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم. ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: تقدَّمت ومضت. ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الكافرين ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: تلك الأممُ الكافرة ﴿كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأعمالهم؛ أي: ضاع سعيهم وخسِروا الجنةَ.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: ولكلٍّ واحدٍ من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجِنّ والإنس مراتبُ عند الله يومَ القيامة بأعمالهم. قال ابن زيد: درجاتُ أهل النار في هذه الآية تذهبُ سَفالاً، ودَرجُ أهل الجنة عُلُوًّا[٥]. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ

(١) الوسيط ٤/١٠٩.

(٢) تفسير الرازي ٢٨/٢٤.

(٣) ص١٩٨ من هذا الجزء.

(٤) سلف ٥/١٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/١٤٦.

﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء لذِكرِ اللهِ قبلَه، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ واختاره أبو حاتم. الباقون بالنون[١] ردًّا على قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ وهو اختيار أبي عبيد. ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي: لا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ﴾ أي: ذكِّرهم يا محمد يومَ يُعرض ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يُكشَف الغطاء فيقرَّبون من النار ويَنظُرون إليها[٢]. ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ أي: يقال لهم: أذهبتم[٣]؛ فالقولُ مضمر. وقرَأ الحسنُ ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير: «أَأَذْهَبْتُمْ» بهمزتين مخففتين، واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو حيوة وهشام: «آذهبتم» بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام. الباقون بهمزة واحدة من غير مدٍّ على الخبر[٤]، وكلُّها لغاتٌ فصيحة ومعناها التوبيخ، والعَرب توبِّخُ بالاستفهام وبغير الاستفهام[٥]؛ وقد تقدَّم. واختار أبو عبيد تركَ الاستفهام؛ لأنه قراءة أكثرِ أئمة السبعة: نافع وعاصم وأبي عمرو وحمزة والكسائي، مع مَن وافقهم: شيبة والزهري وابن مُحَيْصن والمغيرة بن أبي شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثَّاب وغيرهم؛ فهذه عليها جِلَّةُ الناس. وتركُ الاستفهام أحسن؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم

---

(١) وقرأ بالياء أيضاً من السبعة ابن عامر في رواية هشام، وبالنون في رواية ابن ذكوان. السبعة ص ٥٩٨، والتيسير ص ١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٣.

(٢) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٠.

(٤) السبعة ص٥٩٨، والتيسير ص١٩٩، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٥٤، وإعراب القرآن النحاس ٤/ ٦٦، والنشر ١/ ٣٦٦.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٥١.

يفعلوا ذلك، كما تقول: أنا ظلمتُك؟ تريد: أنا لم أظلمك. وإثباته حسنٌ أيضاً؛ يقول القائل: ذهبت فعلت كذا؛ يُوَبِّخ ويقول: أذهبت فعلت! كلٌّ ذلك جائز[١]. ومعنى «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ» أي: تمتَّعتم بالطيبات في الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات؛ يعني المعاصي[٢]. ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: عذابَ الخِزْي والفضيحة. قال مجاهد[٣]: الهُون: الهَوان. قتادة: بلغة قريش.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تستعلُون على أهلها بغير استحقاق. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ في أفعالكم بَغْيًا وظلماً. وقيل: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ» أي: أفنيتم شبابَكم في الكفر والمعاصي. قال ابنُ بحر: الطيباتُ: الشباب والقوَّةُ؛ مأخوذ من قولهم: ذهب أطيباه، أي: شبابه وقوَّته. قال الماورديُّ[٤]: ووجدت الضحاكَ قاله أيضاً.

قلت: القول الأوّل أظهر، روى الحسن عن الأحنف بن قيس، أنه سمع عمر بنَ الخطاب ﷺ يقول: لَأنا أعلمُ بخفض العيش، ولو شئتُ لجعلتُ أكباداً وصلاء وصِنابًا وصَلائِقَ، ولكني أستبقي حسناتي؛ فإن اللهَ عزَّ وجلَّ وصَف أقواماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[٥].

وقال أبو عبيد في حديث عمر: لو شئتُ لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة. وفي بعض الحديث: وأفلاذٍ[٦]. قال أبو عمرو وغيرُه: الصِّلاءُ - بالمدّ

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ .

(٣) في تفسيره ٢/ ٥٩٤ ، وأخرجه الطبري ٢١/١٤٩ - ١٥٠ .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ وما قبله منه سوى قوله : أي أفنيتم شبابكم ...

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٣٥٧) ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ عن الحسن بن دينار عن الأحنف . وأخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (٥٧٩) ، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٧٩ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٤٩ عن جرير بن حازم قال : سمعت الحسن يقول ... وذكره .

(٦) ذكرها الزمخشري في الفائق ٢/ ٣١١ .

والكسر ـ: الشِّواء؛ سُمِّي بذلك لأنه يُصْلَى بالنار[١]. والصِّلاء أيضاً: صِلاء النار؛ فإن فتحتَ الصاد قصرت وقلت: صَلَى النارِ. والصِّنابُ: الأصبغة المتخَذة من الخردل والزَّبيب[٢]. قال أبو عمرو: ولهذا قيل للبِرذَوْن: صِنابِيٌّ؛ وإنما شُبِّه لونه بذلك. قال: والسلائق ـ بالسين ـ هو ما يسلَق من البقول وغيرها. وقال غيره: هي الصلائق بالصاد؛ قال جرير:

تُكَلِّفُني معيشةَ آلِ زيدٍ ... ومَن لي بالصَّلائق والصِّنابِ[٣]

والصَّلائقُ: الخبزُ الرِّقاق العريض. وقد مضى هذا المعنى في «الأعراف»[٤]. وأما الكراكِرُ فكراكر الإبلِ، واحدتها كِرْكِرَة، وهي معروفة؛ هذا قول أبي عبيد[٥]. وفي الصحاح[٦]: والكِرْكِرة: رَحَى زَوْر البعير، وهي إحدى الثَّفِنات الخمس[٧]. والكِركِرة أيضاً: الجماعةُ من الناس. وأبو مالك عمرو بن كِرْكِرة رجلٌ من علماء اللغة[٨]. قال أبو عبيد: وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلْذ، وهي القطعة من الكَبِد. قال أَعْشَى باهلة:

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إن أَلَمَّ بها ... من الشِّواء ويُرْوي شُرْبَه الغُمَرُ[٩]

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤

(٢) الصحاح (صلي ـ صنب).

(٣) غريب الحديث ٣/ ٢٦٤ ، والبيت في ديوان جرير ٢/ ٨١٢ .

(٤) ٩/ ٢٠٧ .

(٥) في غريب الحديث ٣/ ٢٦٥ .

(٦) مادة (كرر).

(٧) الزَّوْر: أعلى الصدر، والثَّفنات: جمع ثَفِنة، وهي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ، كالركبتين وغيرهما. الصحاح (زور) (ثفن).

(٨) هو أبو مالك الأعرابي ، دخل الحاضرة وأخذ الناس عنه ، وكان مَولى لبني سعد ، ويقال : إنه كان يحفظ اللغة كلها ، وكان بصري المذهب ، ذكره الأزهري في التهذيب ١/ ١٢ في الطبقة الثانية من الأئمة الذين اعتمد عليهم في جمعه لكتابه ترجمته في إنباه الرواة ٢/ ٣٦٠ ، ومعجم الأدباء ١٦/ ١٣١ - ١٣٢ .

(٩) غريب الحديث ٣/ ٢٦٥ ، والبيت في الأصمعيات ص ٩١ ، والكامل للمبرد ١/ ٤٥٩ ، والخزانة =

وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر ﷺ قال: لو شئتُ كنت أطيَبَكم طعاماً، وألينَكم لباساً، ولكني أستبقي طيباتي للآخرة. ولمَّا قدِم عمر الشامَ صُنع له طعامٌ لم يرَ قطُّ مثلَه؛ قال: هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبِعوا من خبز الشعير! فقال خالد بنُ الوليد: لهم الجنة؛ فَاغْرَوْرَقَت عَيْنَا عمرَ بالدموع وقال: لئن كان حظُّنا من الدنيا هذا الحطام، وذهبوا هم في حظِّهم بالجنة فلقد باينونا بَوْنًا بعيداً[(١)].

وفي صحيح مسلم وغيرِه أن عمر ﷺ دخَل على النبيِّ ﷺ وهو في مَشْرُبَته حين هَجَرَ نساءه قال: فالتفتُّ فلم أرَ شيئاً يردُّ البصر إلا أُهُباً جلوداً معطونة قد سطَع ريحُها؛ فقلت: يا رسولَ الله، أنت رسولُ الله وخِيرته، وهذا كِسْرى وقَيْصر في الديباج والحرير؟ قال: فاستوى جالساً وقال: «أفي شَكٍّ أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا» فقلت: استغفر لي! فقال: «اللهم اغفر له»[(٢)].

وقال حفص بن أبي العاص: كنت أتغدَّى عند عمر بن الخطاب رضي عنه الخبزَ والزيتَ، والخبز والخلَّ، والخبز واللبنَ، والخبز والقَدِيد، وأقلُّ ذلك اللحم الغَريض[(٣)]. وكان يقول: لا تنخلوا الدقيقَ؛ فإنه طعامٌ كلُّه؛ فجيء بخبزٍ متفلع[(٤)] غليظ؛ فجعل يأكل ويقول: كلوا؛ فجعلنا لا نأكل؛ فقال: ما لكم لا تأكلون؟ فقلنا: واللهِ يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا؛ فقال: يا ابن أبي العاص، أَمَا ترى بأني عالم أن لو أمرتُ بعَناق[(٥)] سمينةٍ فيلقى عنها شَعَرها، ثم

= ١/ ١٩٨ ، وقوله : «حُزَّة» أي: قطعة من اللحم قطعت طولاً . و«ألمَّ بها» : أصابها يعني أكلها . و«الغُمَرُ» : قَدَح صغير لا يروي . كذا في الخزانة .

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٧ مختصراً ، والطبري ٢١/ ١٤٧ بتمامه .

(٢) صحيح مسلم (١٤٧٩): (٣٤) بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند الإمام أحمد (٢٢٢) ، والبخاري (٤٩١٣)، وسلف بنحوه ١٨/ ١٩٠ .

(٣) أي: الطري.

(٤) في (خ) و(ظ) : متقطع ، وفي (د) و(ق) متقلع . والمتفلع : هو المشقق والمقطع . القاموس (فلع) .

(٥) العناق : الأنثى من أولاد المعز . القاموس (عنق) .

تُخرج مَصْلِيَّةً كأنها كذا وكذا. أما ترى بأني عالِمٌ أنْ لو أمرت بصاعٍ أو صاعين من زبيب فأجعله في سقاء ثم أشنُّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غَزال؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، أجل! ما تبعتَ[1] العيش، قال: أجل! واللهِ الذي لا إله إلا هو لولا أني أخافُ أن تنقصَ حسناتي يوم القيامة لشاركناكم في العيش! ولكني سمعتُ اللهَ تعالى يقول لأقوامٍ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[2].

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الـهـوان. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾: تَخرجون عن طاعة الله.

وقال جابر: اشتهى أهلي لحماً فاشتريته لهم فمررتُ بعمر بن الخطاب ﷺ فقال: ما هذا يا جابر؟ فأخبرته؛ فقال: أوكلَّما اشتهى أحدُكم شيئاً جعله في بطنه! أمَا يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ الآية[3].

قال ابن العربي[4]: وهذا عتابٌ منه له على التوسُّع بابتياع اللحم والخروج عن جِلْف الخبز والماء؛ فإنَّ تعاطي الطيبات من الحلال تستشْرهُ لها الطباع وتستمرئها العادةُ، فإذا فَقَدَتْها استسهلَتْ في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراءِ الهوى على النفس الأمارة بالسوء؛ فأخَذ عمر الأمرَ من أوَّله، وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله. والذي يَضبط هذا البابَ ويحفظ قانونَه على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً كان أو قَفاراً، ولا يتكلَّف الطيِّبَ ويتخذَه عادة؛ وقد كان

---

(١) في (م) و(ز) و(ق) تنعت. ولم تجود في (خ).

(٢) أخرجه بنحوه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٨٠، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٤/ ٤١٥. وحفص ابن أبي العاص بن بشر الثقفي، هو أخو عثمان بن أبي العاص الصحابي المشهور، ذكره ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٦٦، وقال: روى البلاذري بإسناد لا بأس به أن حفص كان يحضر طعام عمر، الحديث.

(٣) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ١١١ - ١١٢، وبنحوه الإمام مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٦، وأحمد في الزهد ص١٥٣.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٦ - ١٦٨٧.

النبيُّ ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبِر إذا عَدِم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسلَ إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر؛ ولا يعتمد أصلاً، ولا يجعله دَيْدَناً. ومعيشةُ النبيّ ﷺ معلومة، وطريقة الصحابة منقولة؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاصُ عسيرٌ، واللهُ يَهَبُ الإخلاصَ، ويُعينُ على الخلاص برحمته.

وقيل: إن التوبيخ واقعٌ على ترك الشكر لا على تناول الطيِّبات المحللة، وهو حسن؛ فإن تناولَ الطيب الحلال مأذونٌ فيه، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يَحلُّ له فقد أذهبه. واللهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام[(١)]، كان أخاهم في النَّسَب لا في الدِّين[(٢)].

﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي: اذكر لهؤلاء المشركين قصةَ عادٍ ليعتبروا بها. وقيل: أمرَه بأن يتذكّر في نفسه قصةَ هود ليقتديَ به، ويهون عليه تكذيب قومه له[(٣)].

والأحقاف: ديار عاد، وهي الرِّمال العظام؛ في قول الخليل وغيره[(٤)]. وكانوا قهَروا أهلَ الأرض بفضل قوَّتِهم. والأحقاف جمع حِقْف، وهو ما استطالَ من الرمل العظيم واعوجّ ولم يبلغ أن يكون جبلاً[(٥)]، والجمع حِقاف وأحقاف [وحقوف][(٦)].

---

(١) التعريف والإعلام ص ١٥٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢.

(٣) ينظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٧.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٠١ بنحوه.

(٥) تفسير الطبري ٢١/ ١٥٠.

(٦) من (م)، وينظر اللسان (حقف).

واحقوقف الرمل والهلال، أي: اعوج. وقيل: الحِقْف جمع حِقاف. والأحقاف جمع الجمع. ويقال: حِقْفٌ أحقف[١]. قال الأعشى:

بـات إلـى أرطـاةِ حِـقـفٍ أحْـقَـفَـا[٢]

أي: رمل مستطيل مشرف. والفعل منه: احقوقف. قال العجَّاج:

طَـيَّ الـلـيـالـي زُلَـفـاً فـزُلَـفـا سَمَـاوَةَ الـهـلالِ حتـى احْـقَـوْقَـفا[٣]

أي: انحنى واسْتَدَارَ. وقال امرؤ القيس:

كحِقف النَّقا يمشي الولِيدَانِ فوقَه بما احتسَبا من لِين مَسٍّ وتَسْهَالِ[٤]

وفيما أُريد بالأحقاف هاهنا مختلَف فيه: فقال ابن زيد: هي رمالٌ مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالاً؛ وشاهدُه ما ذكرناه[٥].

وقال قتادة: هي جبال مشرفة بالشِّحْر، والشِّحْرُ قريبٌ من عَدن؛ يقال: شِحْرُ عُمَان وشَحْرُ عُمان، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن. وعنه أيضاً: ذكر لنا أن عاداً كانوا أحياءً باليمن، أهلَ رملٍ مشرفين على البحر بأرضٍ يقال لها: الشِّحْر[٦].

---

(١) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٤/ ٦٨ ، والصحاح (حقف).

(٢) كذا قال، والرجز للعجاج بن رؤبة، وهو في ديوانه ص٤٢٧ ، ومعاني القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢١٣ ، وتفسير الطبري ٢١/ ١٥٣ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٨٢ . وقوله: «أرطاة»؛ الأرْطَى: شجر ينبت بالرَّمل. اللسان (أرط). أما بيت الأعشى فهو:

يـلـوذ إلـى أرطـاة حـقـف تـلـفّـهُ خـريـق شَـمـال يـترك الـوجـهَ أقـتـمـا

وهو في ديوانه ص ٣٤٥ .

(٣) ديوان العجاج ص ٤٢٦ ، قال شارحه: قوله «زلفاً فزلفاً» يريد: زلفة فزلفة أي: درجة فدرجة، والزلف: الدرج . و«سماوة الهلال» هي أعلاه .

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٠ ، قال شارحه: «النقا»: ما استدار من الرمل . «احتسبا»: اكتفيا . يقول: جسم هذه المرأة أو عجيزتها كهذا النقا في لينه وامتلائه ، وهو مع لينه صلبٌ شديد ليس بمنهال متناثر...

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢ ، وذكر قول ابن زيد أيضاً البغوي في تفسيره ٤/ ١٧٠ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥٣ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠ ، وزاد المسير ٧/ ٣٨٤ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٧ ، والطبري ٢١/ ١٥٢ - ١٥٣ بنحوه ، وينظر معجم البلدان ٣/ ٣٢٧ ، والقاموس المحيط (شحر).

وقال مجاهد: هي أرضٌ من حِسْمَى تسمَّى بالأحقاف[١]. وحِسْمَى ـ بكسر الحاء ـ اسم أرض بالبادية، فيها جبال شواهقُ؛ مُلْسُ الجوانب، لا يَكاد القَتام يُفارقها. قال النابغةُ:

فأصبحَ عاقِلاً بجبال حِسْمَى دُقاقَ التُّرْبِ مُحْتَزِمَ القَتامِ

قاله الجوهريُّ[٢].

وقال ابن عباس والضحَّاك: الأحقاف جبلٌ بالشام. وعن ابن عباس أيضاً: وادٍ بين عُمان ومَهْرة[٣].

وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بواد يقال له: مَهَرَة[٤]، وإليه تنسب الإبل المَهْرِيَّة؛ فيقال: إبل مَهْرِيّة ومَهارِي. وكانوا أهل عُمُد سيَّارة في الربيع، فإذا هاج العودُ رجعوا إلى منازلهم؛ وكانوا من قبيلة إرم[٥].

وقال الكلبيُّ: أحقاف الجبلِ ما نضَب عنه الماءُ زمانَ الغرَق، كان يَنْضُب الماء من الأرض ويبقى أثره.

وروى [أبو] الطُّفيل عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: خيرُ وادِيَيْن في الناس وادٍ بمكة؛ ووادٍ نزَل به آدم بأرض الهند، وشرُّ وادِيَيْن في الناس وادٍ بالأحقاف؛ ووادٍ

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩٤، بلفظ: خساف من حسمى، وذكر قوله الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨٢، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥٢.

(٢) في الصحاح (حسم) ومن قوله: وحِسْمى... إلى هذا الموضع، ليس في (ظ). ولعله حاشية في الأصل، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١١٤ وفيه: وأضحى ساطعاً. وقوله: «القَتام»، أي: الغبار. القاموس (قتم) قال ابن بري: أي: حِسْمى قد أحاط به القتام كالحزام له. اللسان (حسم). وحسمى أرض ببادية الشام، ينظر معجم البلدان ٢/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥١.

(٤) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان ٥/ ٢٣٤: مَهرة قبيلة، وهي مهرة بن حَيْدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠.

بحضرمَوْت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواحُ الكفار. وخير بئرٍ في الناس بئرُ زمزم، وشرُّ بئر في الناس بئر بَرَهُوت، وهو في ذلك الوادي الذي بحضرموت(١).

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: مَضَت الرسلُ. ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: من قبل هود. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: ومن بعده؛ قاله الفرَّاء. وفي قراءة ابن مسعود: «من بين يديه ومن بعده»(٢). ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا من قول المرسَل، فهو كلام معترض(٣). ثم قال هود: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقيل: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ» من كلام هود، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لتزيلنا عن عبادتها بالإفك.

الثاني: لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع؛ قاله الضحاك(٤). قال عُرْوة بن أُذَيْنَة:

إن تك عن أحسن الصنيعة(٥) مأ فُوكاً ففي آخرين قد أفِكوا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢ - ٢٨٣ وما بين حاصرتين منه، وهو الصواب. وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٤٣. وقوله: «وخير بئر في الناس زمزم... إلى قوله: بحضرموت» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١١٦٧) من حديث ابن عباس مرفوعاً، بنحوه. قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٢٨٦: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات، وصححه ابن حبان.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣، وذكر القراءة أيضاً الطبريُّ في تفسيره ٢١/ ١٥٤، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) الكلام بنحوه في الوسيط ٤/ ١١٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣.

(٥) في (ظ) حسن الصنيعة. وسلف البيت عند تفسير الآية (٢٥) من سورة فصلت.

يقول: إن لم توفَّق للإحسان فأنت في قومٍ قد صُرِفوا.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ هذا يدلُّ على أن الوعدَ قد يوضع موضعَ الوعيد. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أنك نبيٌّ. ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقت مجيء العذاب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا عندي ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ عن ربكم. ﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ في سؤالكم استعجالَ العذاب. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ قال المبرِّد: الضمير في «رَأَوْهُ» يعودُ إلى غير مذكور؛ وبيَّنه قولُه: «عَارِضًا»، فالضمير يعودُ إلى السحاب؛ أي: فلمَّا رأوا السحابَ عارضاً[(١)]. فـ «عارضاً» نصب على التكرير؛ سُمِّي بذلك لأنه يبدو في عُرض السماء. وقيل: نصب على الحال[(٢)]. وقيل: يرجع الضمير إلى قوله: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا»[(٣)] فلما رأوه حسبوه سحاباً يمطرهم، وكان المطر قد أبطأ عنهم، فلما رأوه «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ» استبشروا[(٤)]. وكان قد جاءهم من وادٍ جرَت العادةُ أنَّ ما جاء منه يكون غَيْثاً؛ قاله ابن عباس وغيره.

قال الجوهريُّ: والعارض السحاب يَعترض في الأفق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: ممطرٌ لنا؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفةً لعارض وهو نكرة. والعربُ إنما تفعل مثلَ هذا في الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها. قال جرير:

يـا رُبَّ غـابِطِـنـا لـو كـان يـطـلـبـكـم ... لاقـى مـبـاعـدةً مـنـكـم وحِـرْمَـانـا[(٥)]

ولا يجوز أن يقال: هذا رجلٌ غلامنا. وقال أعرابيٌّ بعد الفِطر: رُبَّ صائمة لن

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣، والرازي ٢٨/ ٢٨.

(٥) ديوان جرير ١/ ١٦٣، وهو في الكتاب ١/ ٤٢٧، والمقتضب للمبرد ٣/ ٢٢٧ و٤/ ١٥٠، وتحصيل عين الذهب ص ٢٤٢، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٥١. قال الشنتمري في شرحه: رُبَّ من يغبطنا ويَسرُّنا بطلب معروفنا لو طلب ما عندكم لَبُوعد وحُرم، والشاهد في البيت إضافةُ «رب» إلى غابطنا، وربَّ لا تعمل إلا في النكرة، فغابطنا في نية التنوين والانفصال.

تصومه، وقائمةٍ لن تقومه؛ فجعله نعتاً للنكرة وأضافه إلى المعرفة[١].

قلت: قوله: «لا يجوز أن يكون صفة لعارض» خلاف قول النحويين، والإضافة في تقدير الانفصال، فهي إضافة لفظية لا حقيقية؛ لأنها لم تفد الأوّل تعريفاً، بل الاسم نكرة على حاله؛ فلذلك جرى نعتاً على النكرة. هذا قول النحويين في الآية والبيت. ونعت النكرة نكرة. و«رُبّ» لا تدخل إلا على النكرة.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود لهم. والدليل عليه قراءة من قرأ: «قال هود بل هو»[٢] وقرئ: «قُلْ بَلْ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ هِيَ رِيحٌ»[٣] أي: قال الله: قل بل هو ما استعجلتم به؛ يعني قولهم: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» ثم بيَّن ما هو فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والريح التي عُذِّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هودٌ من بين أظهرهم، فجعلت تحملُ الفساطيط وتحمل الظَّعِينةَ فترفعها كأنها جرادة[٤]، ثم تضرب بها الصخور. قال ابن عباس: أول ما رأوا العارض قاموا فمدّوا أيديهم، فأوّل ما عرَفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطيرُ بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش، فدخَلوا بيوتهم وأغلَقوا أبوابهم، فقلعت الريحُ الأبوابَ وصرعتهم، وأمرَ اللهُ الريح؛ فأمالت عليهم الرمالَ، فكانوا تحت الرمال سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً[٥]، ولهم أنين؛ ثم أمر اللهُ الريحَ فكشفت عنهم الرمالَ واحتملتهم فرمتهم في البحر، فهي التي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: كل شيء مرَّت عليه من رجال عادٍ وأموالها[٦]. قال ابن عباس: أي: كل

(١) الصحاح (عرض).

(٢) هي قراءة ابن مسعود كما ذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٥.

(٣) هي قراءة ابن مسعود أيضاً كما ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٥) قوله: حسوماً، ليس في المصادر الآتي ذكرها، وهو الأشبه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠ - ١٧١، والكشاف ٣/ ٥٢٤، والرازي ٢٨/ ٢٨.

شيء بُعثت إليه، والتدمير: الهلاكُ. وكذلك الدمار.وقرئ: «يَدْمُرُ كُلُّ شَيْءٍ» من دَمَر دماراً[(١)]. يقال: دَمَّره تدميراً ودماراً ودَمَّر عليه بمعنًى. ودَمَر يَدْمُر دُموراً: دخَل بغير إذن. وفي الحديث: «مَن سَبَقَ طَرْفُه استئذانَه فقد دَمَر» مخفف الميم. وتَدْمُر: بلد بالشام. وَيَرْبُوع تَدْمُرِي إذا كان صغيراً قصيراً[(٢)]. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾: بإذن ربها[(٣)]. وفي البخاري[(٤)] عن عائشة رضي الله عنها زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواتِهِ، إنما كان يتبسَّم. قالت: وكان إذا رأى غَيْماً أو رِيحًا عُرِف في وجهه. قالت: يا رسولَ الله، الناسُ إذا رَأَوا الغَيْمَ فرِحوا رجاءَ أنْ يكونَ فيه المطرُ، وأراكَ إذا رأيتَه عُرِف في وجهك الكراهية! فقال: «يا عائشة، ما يُؤَمِّنُني أن يكونَ فيه عذابٌ، عُذِّب قومٌ بالرِّيح، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا» خَرَّجه مسلمٌ والترمذيُّ، وقال فيه: حديث حسن[(٥)].

وفي صحيح مسلم[(٦)] عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ».

وذكر الماورديُّ[(٧)] أن القائل: «هَذَا عَارِض مُمْطِرُنَا» من قوم عاد: بكر بنُ معاوية؛ ولمَّا رأى السحابَ قال: إني لأَرَى سحاباً مُرْمِداً، لا تدع من عاد أحداً.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٤ ، وهي قراءة شاذة.

(٢) الصحاح (دمر) ، وأخرج الحديث الطبراني في المعجم الكبير (٧٥٠٧) بنحوه من حديث أبي أمامة ﷺ. وفي إسناده عبد الله بن صالح : صدوق كثير الغلط ، ثبت في كتابه ، وكانت فيه غفلة . والسفر بن نُسَيْر : ضعيف . كذا قال الحافظ ابن حجر في التقريب .

(٣) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٥ .

(٤) (٤٨٢٨ - ٤٨٢٩).

(٥) صحيح مسلم (٨٩٩): (١٦)، وسنن الترمذي (٣٢٥٧) بنحوه ، وهو عند الإمام أحمد (٢٤٣٦٩) وسلف بنحوه ٢/ ٥٠٣ .

(٦) برقم (٩٠٠) ، وسلف ٢/ ٤٩٩ .

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ - ٢٨٤ .

فذكر عمرو بنُ ميمون: أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه في ناديهم. قال ابنُ إسحاق: واعتَزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يلين على[1] ثيابهم. وتلتذ الأنفس به؛ وإنها لتمرُّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدْمَغُهُم بالحجارة حتى هَلكوا. وحكى الكلبيُّ أنَّ شَاعرَهم قال في ذلك:

فـدعـا هـودٌ عـلـيـهـم دعـوةً أَضـحَـوْا هُـمـودا
عـصـفـت ريـحٌ عـلـيـهـم تـركـت عـاداً خُـمـودا
سُـخِّـرتْ سـبـعَ لـيـالٍ لـم تـدع فـي الأرض عُـودا

وعَمَّر هودٌ في قومه بعدهم مئة وخمسين سنة.

﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة: «لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ» بالياء غير مسمى الفاعل. وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ: «ترى» بالتاء. وقد رُوي ذلك عن أبي بكر عن عاصم. الباقون: «تَرى» بتاء مفتوحة. «مَسَاكِنَهُم» بالنصب[2]، أي: لا ترى يا محمد إلا مساكنَهم. قال المهدوِيُّ: ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذي هو المساكن المؤنثة، وهو قليل لا يستعمل إلا في الشعر. وقال أبو حاتم: لا يَستقيم هذا في اللغة إلا أن يكون فيها إضمار؛ كما تقول في الكلام: لا تُرى النساء إلا زينب. ولا يجوز: لا تُرى إلا زينب. وقال سيبويه: معناه: لا تُرى أشخاصهم إلا مساكنهم.

واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءةَ عاصم وحمزة. قال الكسائيُّ: معناه لا يُرى شيء إلا مساكنهم[3]، فهو محمولٌ على المعنى؛ كما تقول: ما قام إلا هندٌ، والمعنى ما قام أحدٌ إلا هند. وقال الفرَّاءُ: لا يُرى الناسُ لأنهم كانوا تحتَ الرمل، وإنما تُرى

(١) في النسخ: أعلى. والمثبت من (د) والنكت والعيون، والعبارة فيه: إلا ما يلين على الجلود.
(٢) السبعة ص٥٩٨، والتيسير ص ٢٠٠. ولم نقف على وجهي القراءة لابن كثير وعاصم، والمتواتر عن عاصم: يُرى، وعن ابن كثير: تَرى.
(٣) تفسير الرازي ٢٨/٢٨.

مساكنُهم لأنها قائمة(١). ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل هذه العقوبة نُعاقب بها المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ قيل: إنَّ «إنْ» زائدةٌ؛ تقديره: ولقد مكَّنَّاهم فيما مكَّنَّاكم فيه. وهذا قول القتبيِّ(٢).

وأنشد الأخفش:

يُرَجِّي المرءُ ما إنْ لا يراهُ وتَعرِضُ دون أدناهُ الخُطوبُ(٣)

وقال آخر:

فما إنْ طِبُّنَا جُبْنٌ ولكن منايانا ودَوْلَةُ آخرينا(٤)

وقيل: إن «ما» بمعنى الذي. و«إن» بمعنى ما؛ والتقدير: ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه؛ قاله المبرّدُ(٥).

وقيل: شرطية وجوابها مضمر محذوف؛ والتقدير: ولقد مكناهم في ما إن

---

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٠.

(٢) تفسير غريب القرآن ص ٤٠٨، وتفسير الرازي ٢٨/ ٢٩.

(٣) النوادر في اللغة ص ٦٠، والصاهل والشاحج ص ٢٥٤، وخزانة الأدب ٨/ ٤٤٠. وقائله ـ كما في النوادر ـ هو جابر بن رألان الطائي جاهلي.

(٤) البيت لفروة بن مُسيك كما في الكتاب ٣/ ١٥٣، والصاهل والشاحج ص٢٥٤-٢٥٥، وذكره المبرد في الكامل ١/ ٤٤١، والبغدادي في الخزانة ٤/ ١١٢ دون نسبة، وقوله: «طِبُّنَا» الطِّبُّ بمعنى العلة والسبب، أي: لم يكن سبب قتلنا الجبن وإنما كان ما جرى به القدر من حضور المنية وانتقالِ الحال عنا والدُّولة. قاله في الخزانة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٠، والوسيط ٤/ ١١٤، وتفسير البغوي ٤/ ١٧١.

مكناكم فيه كان بغيُكم أكثرَ وعنادكم أشدّ؛ وتمَّ الكلام[١]، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ يعني قلوباً يفقهون بها[٢]. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ من عذاب الله. ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾: يكفرون. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم﴾: أحاط بهم[٣] ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يُريدُ حِجْرَ ثمود وقُرى لوط ونحوهما مما كان يجاورُ بلادَ الحجاز، وكانت أخبارهم متواترة عندهم. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ يعني الحُجَجَ والدلالاتِ وأنواعَ البيِّنات والعِظات، أي: بيَّناها لأهل تلك القرى[٤]. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلم يَرْجعوا. وقيل: أي: صرَّفنا آياتِ القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعلَّ هؤلاء المشركين يَرْجِعون.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ «لَوْلَا» بمعنى هلَّا، أي: هلَّا نصرَهم آلهتُهم التي تقرَّبوا بها ـ بزعمهم ـ إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ومنعَتهم من الهلاك الواقع بهم! قال الكسائيُّ: القُرْبان كلُّ ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من طاعةٍ ونَسيكة، والجمعُ: قرابين؛ كالرُّهبان والرَّهابين[٥].

وأحد مفعولي «اتخذ» الراجعُ إلى «الذين» المحذوف، والثاني: «آلِهةً».

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٨٦.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٦.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦١، ومجمع البيان ٢٦/ ٢١.

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٧١ - ١٧٢ دون نسبة.

و«قُرْبَاناً»: حال، ولا يصحُّ أن يكون «قُرْبَانًا» مفعولاً ثانياً، و«آلِهةً» بدل منه؛ لفساد المعنى؛ قاله الزمخشري. وقرئ: «قُرُباناً»؛ بضم الراء[١].

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: هَلكوا عنهم. وقيل: «بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ» أي: ضلَّت عنهم آلهتهم؛ لأنها لم يُصبها ما أصابهم؛ إذ هي جمادٌ. وقيل: «ضَلُّوا عَنْهُمْ»، أي: تركوا الأصنام وتبرؤوا منها. ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: والآلهة التي ضلَّت عنهم هي إفكهم في قولهم: إنها تقرِّبهم إلى الله زلفى[٢].

وقراءة العامة: «إِفْكُهُمْ» بكسر الهمزة وسكون الفاء، أي: كذبهم. والإفك: الكذب، وكذلك الأَفِيكة، والجمع: الأفائك. ورجل أَفَّاكٌ، أي: كَذَّاب.

وقَرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير: «وَذَلِكَ أَفَكَهُمْ» بفتح الهمزة والفاء والكافِ، على الفعل، أي: ذلك القول صَرَفهم عن التوحيد[٣]. والأَفْكُ ـ بالفتح ـ مصدر قولك: أَفكَه يَأفِكه أَفْكاً، أي: قلبَه وصرَفه عن الشيء.

وقَرَأ عكرمة: «أَفَّكهم» بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير[٤]. قال أبو حاتم: يعني قَلبهم عمَّا كانوا عليه من النعيم.

وذكر المهدويُّ عن ابن عباس أيضاً: «آفِكُهم» بالمدِّ وكسر الفاء، بمعنى صارِفُهم.

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٢٦ وقد أعرب «قرباناً» مفعول اتخذوا، وآلهة بدلاًمنه: العكبري في الإملاء ٢/ ٢٣٥، وذكره مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٩. وقوله: ولا يصح أن يكون «قرباناً» مفعولاً ثانياً... إلخ، قال السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٦٧٧: ووجه الفساد - والله أعلم - أن القربان اسم لما يتقرب به إلى الإله، فلو جعلناه مفعولاً ثانياً وآلهة بدلاً منه لزم أن يكون الشيء المتقَرَّبُ به آلهةً، والفرض أنه غير الآلهة، بل هو شيءٌ يتقرب به إليها فهو غيرها، فكيف تكون الآلهة بدلاً منه؟ هذا ما لا يجوز.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ١٧٢.

(٣) ذكرها عنهم جميعاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩، وعن ابن عباس ابنُ جني في المحتسب ٢/ ٢٦٧، وأخرجها عنه أيضاً الطبري في تفسيره ٢١/ ١٦٣.

(٤) قراءة عكرمة في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٤، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٧، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ عن عياض.

وعن عبد الله بن الزُّبير باختلاف عنه: «آفَكَهم» بالمدّ[(١)]، فجاز أن يكون أفعلَهم، أي: أَصَارَهم إلى الإفك. وجاز أن يكون فاعلَهم، كخَادَعَهم.

ودليلُ قراءة العامة: «إِفْكُهُمْ» قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون.

وقيل: «إِفْكُهم» مثلُ: «أَفَكَهم». الإفْك والأَفَك كالحِذْر والحَذَر[(٢)]؛ قاله المهدويُّ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ هذا توبيخ لمشركي قريش، أي: إن الجنَّ سمِعوا القرآن فآمنوا به، وعلموا أنه من عند الله، وأنتم معرضون مصِرُّون على الكفر[(٣)]. ومعنى: «صَرَفْنَا»: وجَّهنا إليك وبَعَثنا. وذلك أنهم صُرِفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهُب - على ما يأتي - ولم يكونوا بعدَ عيسى قد صُرِفوا عنه إلا عند مبعثِ النبيِّ ﷺ[(٤)].

قال المفسرون؛ ابنُ عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم: لمَّا مات أبو طالب خَرج النبيُّ ﷺ وحدَه إلى الطائف يَلْتمِس من ثَقيف النصرةَ، فقصد عبْدَ ياليل ومسعوداً وحبيباً وهم إخوة، بنو عمرو بن عمير، وعندهم امرأة من قريش من بني جُمَح، فدعاهم إلى الإيمان، وسألَهم أن يَنْصُروه على قومه، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثيابَ الكعبة[(٥)] إن كان اللهُ أرسلَك! وقال الآخر: ما وجَد اللهُ أحداً يرسِله غيرَك! وقال

---

(١) يعني بالمد وفتح الفاء والكاف كما في القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٧، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٤.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨، وذكر صاحب القاموس: أنها بكسر الهمزة وفتحها وبالتحريك.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٥.

(٥) أي: ينزعه ويسقطه عنها. ينظر القاموس (مرط).

الثالثُ: واللهِ لا أكلمك كلمةً أبداً؛ إن كان اللهُ أرسلك كما تقول؛ فأنت أعظمُ خطراً من أن أردَّ عليك الكلامَ، وإن كنت تكذبُ؛ فما ينبغي لي أن أكلِّمَك. ثم أغرَوْا به سفهاءَهم وعبيدَهم يسبُّونه ويضحكون به، حتى اجتمع عليه الناسُ، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة وشيبة ابني ربيعة. فقال لِلْجُمَحِيَّة: «ماذا لقينا من أَحمائك»؟ ثم قال: «اللهم إني أشكو إليك ضَعْفَ قوّتي وقِلَّةَ حِيلتي وهواني على الناس، يا أرحمَ الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، لِمن تَكِلُنِي! إلى عبدٍ يَتَجَهَّمُني[1]، أو إلى عدوٍّ ملَّكته أمري! إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتُك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن يَنزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوَّة إلا بك». فرحمه ابنا ربيعة وقالا لغلامٍ لهما نصرانيٍّ يقال له عدَّاس: خذ قِطْفاً من العنب، وضَعْه في هذا الطبق، ثم ضعْه بين يدي هذا الرجل. فلمَّا وضعَه بين يدي رسولِ الله ﷺ قال النبيُّ ﷺ: «باسم الله» ثم أكَل. فنظَر عدَّاس إلى وجهه ثم قال: واللهِ إن هذا الكلامَ ما يقوله أهلُ هذه البلدة! فقال النبيُّ ﷺ: «مِن أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس، وما دينُك؟» قال: أنا نصرانيٌّ من أهل نِينَوَى. فقال له النبيُّ ﷺ: «أَمِن قرية الرجلِ الصالح يونس بن متَّى؟» فقال: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ قال: «ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبيٌّ». فانكبَّ عدَّاس حتى قبَّل رأس النبيِّ ﷺ ويديه ورجليه. فقال له ابنا ربيعة: لِمَ فَعلتَ هكذا!؟ فقال: يا سَيِّدِي، ما في الأرض خيرٌ من هذا، أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ. ثم انصرف النبيُّ ﷺ حين يئس من خير ثَقيف، حتى إذا كان ببطن نَخْلة؛ قام من الليل يصلّي، فمرَّ به نفرٌ من جنِّ أهل نَصِيبِين[2].

---

(١) أي: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه. النهاية (جهم).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٤١٩ - ٤٢٢ بنحوه، وأخرجه مختصراً الطبراني في المعجم الكبير ٢٥/ ٣٤٦، والبغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٠١) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما.

وذكره ابن حبان في الثقات ١/ ٧٦-٧٩، وابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٩٩ مختصراً في ترجمة عداس ﷺ.

وكان سبب ذلك أن الجنَّ كانوا يَسترِقون السمعَ، فلما حُرست السماء ورُمُوا بالشُّهب قال إبليس: إن هذا الذي حدَث في السماء لِشيء حدث في الأرض؛ فبعث سراياه ليعرف الخبرَ ـ أوّلهم رَكْب نَصيبين، وهم أشراف الجنّ ـ إلى تِهامة، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبيَّ ﷺ يصلّي صلاةَ الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن، فاستمعوا له وقالوا: أنصتوا(١).

وقالت طائفة: بل أُمِر النبيُّ ﷺ أن يُنذر الجنّ ويَدعوَهم إلى الله تعالى ويَقْرَأ عليهم القرآن، فصرف الله عزَّ وجلَّ إليه نفراً من الجنّ من نِينَوى وجمعَهم له؛ فقال النبيُّ ﷺ: «إني أريد أن أَقْرَأ القرآن على الجنّ الليلةَ فأيكم يَتْبَعني؟» فأطرَقوا، ثم قال الثانيةَ فأطرَقوا، ثم قال الثالثة فأطرقوا؛ فقال ابن مسعود: أنا يا رسول الله؛ قال ابن مسعود: ولم يحضر معه أحدٌ غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخَل النبيُّ ﷺ شِعْبًا يقال له: «شِعْب الْحَجُون»(٢) وخطَّ لي خطًّا وأمرَني أن أجلس فيه وقال: «لا تخرج منه حتى أعود إليك». ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النسور تهوي وتمشي في رفرفها(٣)، وسمعت لَغَطاً وغَمْغَمَةً حتى خِفْتُ على النبيِّ ﷺ، وغَشِيته أَسْوِدةٌ كثيرة حالَت بيني وبينه حتى ما أسمعُ صوتَه، ثم طفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرَغ النبيُّ ﷺ مع الفجْر فقال: «أَنِمْتَ»؟ قلت: لا واللهِ، ولقد هممتُ مِرَاراً أن أستغيثَ بالناس حتى سمعتُك تَقْرَعهم بعصاك تقول: اجلِسوا؛ فقال: «لو خرجتَ لم آمَن عليك أن يخطفكَ بعضُهم» ثم قال: «هل رأيتَ شيئاً؟» قلت: نعم يا رسول الله، رأيتُ رِجالاً سوداً مُسْتَثْفِري ثياباً بيضاً(٤)؛ فقال:

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ١٦٤ عن ابن عباس مطولاً. وأخرجه عنه الإمام أحمد (٢٢٧١)، والبخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩) بنحوه.

(٢) الحَجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها. معجم البلدان ٢/ ٢٢٥.

(٣) في (ظ) دفوفها.

(٤) كذا في النسخ، وفي تفسير الطبري ٢١/١٦٨: مستثفري ثياب بياض. والاستثفار: هو أن يدخل الرَّجل ثوبه بين رجليه كما يفعل الكلب بذنَبه. النهاية (ثفر).

«أولئك جِنُّ نَصِيبين سألوني المتاع والزادَ، فمتَّعتهم بكل عظم حائل[١] ورَوْثة وبعرة». فقالوا: يا رسول الله، يَقْذَرها الناس علينا. فنهى رسول الله ﷺ أن يُسْتَنْجَى بالعظم والرَّوْث. قلت: يا نبيَّ الله، وما يُغْني ذلك عنهم! قال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أُكِل، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبَّها يوم أُكِل» فقلت: يا رسول الله، لقد سمعت لَغَطاً شديداً؟ فقال: «إن الجِنَّ تدارأت في قتيل بينهم، فتحاكموا إليَّ فقضيت بينهم بالحقّ». ثم تبرَّز النبيُّ ﷺ ثم أتاني فقال: «هل معك ماء»؟ فقلت يا نبيَّ الله، معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر، فصببت على يديه فتوضأ فقال: «تمرة طيِّبة وماء طهور»[٢]. روى معناه معمر عن قتادة وشُعبة أيضاً عن ابن مسعود. وليس في حديث معمر ذكر نبيذ التمر.

ورويَ عن أبي عثمان النَّهْدِيِّ أن ابن مسعود أَبْصَرَ زُطًّا[٣] فقال: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزُّطّ. قال: ما رأيت شبههم إلا الجنّ ليلة الجنّ، فكانوا مستفزِّين يتبع بعضهم بعضاً[٤].

وذكر الدَّارقُطْنيُّ[٥] عن عبد الله بن لَهِيعة، حدَّثني قيس بن الحجَّاج، عن حَنَش، عن ابن عباس، عن ابن مسعود أنه وضَّأ النبيَّ ﷺ ليلةَ الجنِّ بنبيذٍ، فتوضأ به وقال: «شراب وطهور». ابنُ لَهِيعة لا يحتج به. وبهذا السند عن ابن مسعود: أنه خَرج مع النبيِّ ﷺ ليلة الجنِّ، فقال له رسول الله ﷺ: «أمعك ماءٌ يا ابنَ مسعود»؟ فقال: معي

---

(١) أي متغير، قد غَيَّره البِلَى. النهاية (حول).

(٢) أخرجه مقطعاً الطبريُّ في تفسيره ٢١/١٦٦ - ١٦٩، وأخرجه بسياق أخصر منه الإمامُ أحمد (٤٣٨١)، وإسناده ضعيف. وسلف ١٥/٤٤١ قولُه: «تمرة طيبة وماء طهور» ومداره على أبي زيد، وهو مجهول اهـ. قال النووي في شرحه لصحيح مسلم ٤/١٦٩: وحديث النبيذ ضعيف باتفاق المحدثين.

(٣) الزط: جنس من السودان والهنود. النهاية (زطط).

(٤) عزاه الزيلعي في نصب الراية ١/١٤٠ للبيهقي، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/٢١٨ - ١١٩، والطبري ٢١/١٦٧.

(٥) برقم (٢٤٣).

نبيذٌ في إداوةٍ؛ فقال رسول الله ﷺ: «صُبَّ عليَّ منه». فتوضأ وقال: «هو شراب وطهور» تفرَّد به ابن لَهِيعة، وهو ضعيف الحديث[(١)].

قال الدَّارَقُطْنِي[(٢)]: وقيل: إن ابن مسعود لم يشهد مع النبيِّ ﷺ ليلةَ الجنِّ. كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال: ما شهدت ليلة الجنِّ. حدّثنا أبو محمد بن صاعد، حدَّثنا أبو الأشعث، حدَّثنا بشر بن المفضَّل[(٣)]، حدثنا داود بن أبي هند، عن عامر، عن علقمة بن قيس، قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشَهِدَ رسولَ الله ﷺ أحدٌ منكم ليلةَ أتاه داعي الجنِّ؟ قال: لا. قال الدَّارقُطْنِيُّ: هذا إسناد صحيح لا يُختلف في عدالة رواته[(٤)].

وعن عمرو بن مُرّة قال: قلت لأبي عبيدة: حضر عبد الله بن مسعود ليلةَ الجنّ؟ فقال: لا[(٥)]. قال ابن عباس: كان الجنُّ سبعة نفر من جنّ نَصِيبين فجعلَهم النبيُّ ﷺ رسلاً إلى قومهم[(٦)].

وقال زِرُّ بن حُبيش: كانوا تسعة؛ أحدهم زَوْبعة. وقال قتادة: إنهم من أهل نِينَوَى[(٧)]. وقال مجاهد: من أهل نجران. وقال عكرمة: من جزيرة الموصل. وقيل: إنهم كانوا سبعة، ثلاثة من أهل نجران، وأربعة من أهل نَصِيبين[(٨)].

---

(١) سنن الدارقطني (٢٤٤).

(٢) إثر الحديث السالف (٢٤٣).

(٣) في (ظ) و(م) الفضل. والمثبت من باقي النسخ وسنن الدارقطني.

(٤) في (م) راويه. والمثبت من باقي النسخ وسنن الدارقطني ورقمه (٢٤٥)، وهو عند الإمام أحمد (٤١٤٩)، ومسلم (٤٥٠).

(٥) سنن الدارقطني (٢٤٦).

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١٦٥، والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢٥٦ (١١٦٦٠) وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٤٨٨.

(٧) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٨) المثبت من (خ) وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٢٨٦، والكلام منه، وفي غير (خ): حران.

وروى ابن أبي الدنيا أن النبيَّ ﷺ قال في هذا الحديث وذكر فيه نَصِيبين فقال: «رفعت إليَّ حتى رأيتها، فدعوتُ الله أن يكثر مطرَها وينضر شجرَها وأن يُغْزر نهرها»(١).

وقال السهيلي(٢): ويقال: كانوا سبعة، وكانوا يهوداً فأسلموا؛ ولذلك قالوا: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى».

وقيل في أسمائهم: شاصر وماصر ومنشى وماشى والأحقب؛ ذكر هؤلاء الخمسة ابنُ دريد. ومنهم عمرو بن جابر؛ ذكره ابن سلام من طريق أبي إسحاق السَّبِيعي عن أشياخه، عن ابن مسعود: أنه كان في نَفَرٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ يَمشون، فرفع لهم إعصار، ثم جاء إعصارٌ أعظم منه؛ فإذا حَيَّةٌ قتيل، فعمد رجلٌ منا إلى ردائه فشقَّه وكفَّن الحيةَ ببعضه، ودفنها، فلما جَنَّ الليل إذا امرأتان تسألان: أيُّكم دفن عمرو بنَ جابر؟ فقلنا: ما ندري مَن عمرو بنُ جابر! فقالتا: إن كنتم ابتغيتم الأجرَ فقد وجدتموه، إن فَسقَةَ الجنِّ اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو، وهو الحيَّة التي رأيتم، وهو مِن النفر الذين استمعوا القرآن من محمدٍ ﷺ ثم وَلَّوْا إلى قومهم منذِرين. وذكر ابنُ سلام رواية أخرى: أن الذي كفَّنه هو صفوان بن المُعَطَّل.

قلت: وذكر هذا الخبر الثعلبي بنحوه فقال: وقال ثابت بن قُطْبة: جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا: إنا كنا في سفر، فرأينا حيةً متشحِّطة في دمائها(٣)، فأخذها رجل منا فواريناها؛ فجاء أناس فقالوا: أيكم دفن عَمْرًا؟ قلنا: وما عمرو! قالوا: الحية التي دفنتم في مكان كذا؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآنَ من النبيِّ ﷺ،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (٧٤) بنحوه عن حذيفة بن غانم العدوي، وفي إسناده محمد بن عباد ابن موسى العُكْلي؛ قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق يخطئ. ومحمد بن زياد بن زبَّار الكلبي، قال فيه يحيى بن معين: ليس بشيء، الميزان ٣/ ٢٥٥. وحذيفة بن غانم العدوي لم نعرفه.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) أي: مضرجة بالدم. ينظر القاموس (شحط).

وكان بين حَيَّيْن من الجنِّ مسلمين وكافرين قتال فقُتل(١).

ففي هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن في سفر ولا حَضَرَ الدفن؛ والله أعلم.
وذكر ابن أبي الدنيا عن رجلٍ من التابعين سَمَّاه: أن حية دخلت عليه في خِبائه تلْهَثُ عطشاً فسقاها، ثم إنها ماتت فدفنها، فأُتي من الليل فسلَّم عليه وشكره؛ وأخبر أن تلك الحيَّةَ كانت رجلاً من جنِّ نَصِيبين اسمه: زوبعة.

قال السُّهَيْلِيُّ(٢): وبلغنا في فضائل عمر بن عبد العزيز ﷺ مما حدَّثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلي، أن عمر بن عبد العزيز كان يمشي بأرض فلاة، فإذا حية ميِّتة فكفَّنها بفضلةٍ من ردائه ودفنها؛ فإذا قائل يقول: يا سرق، أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ستموتُ بأرض فلاة، فيكفنك رجلٌ صالح». فقال: ومَن أنت يرحمك الله! فقال: رجلٌ من الجنِّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله ﷺ لم يبق منهم إلا أنا وسرق؛ وهذا سرق قد مات(٣).

وقد قَتَلَت عائشة رضي الله عنها حيةً رأتها في حُجرتها تستمع(٤) وعائشةُ تقرَأ؛ فأُتيت في المنام فقيل لها: إنك قتلت رجلاً مؤمناً من الجنِّ الذين قدِموا على رسول الله ﷺ؛ فقالت: لو كان مؤمناً ما دخَل على حرَم رسول الله ﷺ؛ فقيل لها: ما دخل عليك إلا وأنت مقنَّعة، وما جاء إلا ليستمع الذِّكر. فأصبحت عائشةُ فزِعةً، واشترت رقابًا فأعتقتهم(٥).

---

(١) ذكره عن ثابت الحكيمُ الترمذي في نوادر الأصول ص٥١ بنحوه، والله أعلم بصحته.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٥٧ - ١٥٨ وما قبله منه.

(٣) وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤٥/١٤٦ عن أبي معمر الأنصاري... فذكره، والله أعلم بصحته.

(٤) بعدها في (ظ): القرآن.

(٥) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٥١، وابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٢٥٩ عن ابن أبي مليكة وغيرِه عن عائشة رضي الله عنها. وذكره العيني في عمدة القاري ١٠/ ١٨٥ عن ابن أبي مليكة عن عائشة بنت طلحة أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها رأت في مغتسلها حية فقتلتها... فذكره.

قال السهيليُّ(١): وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجنِّ ما حضَرَنا؛ فإن كانوا سبعةً فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم، وليس باسم عَلَم؛ فإن الأسماء التي ذكرناها آنفاً ثمانيةٌ بالأحقب. والله أعلم.

قلت: وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه: هامة بن الهيم بن الأقيس(٢) بن إبليس؛ قيل: إنه من مؤمني الجنِّ وممن لقي النبيَّ ﷺ وعلَّمه سورةَ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ و﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ و﴿الْمُعَوِّذَتَيْنِ﴾. وذكَر أنه حضر قتلَ هابيل وشَرِكَ في دمه وهو غلام ابن أعوام، وأنه لقي نُوحاً وتاب على يديه، وهوداً وصالحاً ويعقوب ويوسف وإلياسَ وموسى بنَ عمران وعيسى بن مريم عليهم السلام(٣). وقد ذكر الماورديُّ أسماءهم عن مجاهد فقال: حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم(٤). وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السمَّاك قال: حدَّثنا محمد بن البراء قال: حدَّثنا الزبير بن بكار قال: كان حمزة بن عتبة بن أبي لهب يُسَمِّي جِنَّ نَصِيبين الذين قدِموا على رسول الله ﷺ فيقول: حسى ومسى وشاصر وماصر والأفخر والأرد وأنيال.

---

(١) في التعريف والإعلام ص١٥٨ ، وما قبله منه.

(٢) في المصادر الآتية: لاقيس ، بدل : الأقيس، وقال ابن حجر في الإصابة ١٠/ ٢٢٧ في «هامة»: ذكره جعفر المستغفري في الصحابة : وقال : لا يثبت إسناد خبره .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (١٠١) ، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٩٦ - ٩٧ ، من حديث أنس ﷺ . وفي إسناده محمد بن عبد الله الأنصاري ، منكر الحديث كما في الضعفاء وتهذيب الكمال ٢٥/ ٤٨١ - ٤٨٢ .

وأخرجه - أيضاً - العقيلي في الضعفاء ١/ ٩٨ - ١٠٠ ، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٤١٨ - ٤٢٠ من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ. وقال الذهبي في الميزان ١/ ١٨٦ : لا أعلم أشنع من الحديث الذي رواه العقيلي ... فذكره ثم قال : وهذا الحديث قد رواه البيهقي بإسناد أصلح من هذا.. اهـ وقال العقيلي ٣/ ٥٩٩ : ... وهو باطل بالإسنادين .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٧ (١٨٥٨٠) عن سويد بن عبد العزيز ، عن رجل سماه عن ابن جريج . وسويد ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في التقريب. ولم يذكر في المصادر اسم «منشى» ، وينظر الدر المنثور ٦/ ٤٥ .

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: حضروا النبيَّ ﷺ، وهو من باب تلوين الخطاب. وقيل: لما حضروا القرآن واستماعه[١] ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن. قال ابن مسعود: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآنَ ببطن نَخْلة، فلمَّا سمعوه ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ قالوا: صه. وكانوا سبعة: أحدهم زوبعة؛ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

وقيل: «أَنْصِتُوا» لسماع قولِ رسول الله ﷺ؛ والمعنى متقارب. ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ وقرأ لاحق بن حُميد وخُبيب بن عبد الله بن الزبير: «فَلَمَّا قَضَى» بفتح القاف والضاد[٣]؛ يعني النبيَّ ﷺ قبل الصلاة. وذلك أنهم خرَجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك؟ فجاؤوا وادي نخلة والنبيُّ ﷺ يقرأ في صلاة الفجر، وكانوا سبعة، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذِرين، ولم يعلم بهم النبيُّ ﷺ. وقيل: بل أُمر النبيُّ ﷺ أن ينذِر الجنَّ ويقرأ عليهم القرآن، فصرف اللهُ إليه نفراً من الجنِّ ليستمعوا منه وينذِروا قومَهم؛ فلمَّا تلا عليهم القرآنَ وفرَغ؛ انصرفوا بأمره قاصدين مَن وراءهم من قومهم من الجنِّ، منذرين لهم مخالفةَ القرآن ومحذِّرين إياهم بأسَ الله إن لم يؤمنوا. وهذا يدلُّ على أنهم آمنوا بالنبيِّ ﷺ، وأنه أرسلهم. ويدلُّ على هذا قولُهم: «يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ» ولولا ذلك لمَا أنذَروا قومَهم[٤]. وقد تقدَّم عن ابن عباس أنَّ النبيِّ ﷺ جعلهم رسلاً إلى قومهم[٥]؛ فعلى هذا ليلةُ الجنِّ

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٧٠ .

(٢) أخرجه الدارقطني في العلل ٥/ ٥٥ دون قوله: فأنزل: ﴿إذ صرفنا ...﴾، وأخرجه بتمامه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٦ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٤ لابن أبي شيبة ، وابن منيع وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٥ ، والبحر المحيط ٨/ ٦٧ ، وهي قراءة شاذة.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦٤ و١٧١ .

(٥) ص٢٢٤ من هذا الجزء.

ليلتان، وقد تقدَّم هذا المعنى مستوفًى. وفي صحيح مسلم[١] ما يدلُّ على ذلك؛ على ما يأتي بيانه في ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الجن: ١].

وفي صحيح مسلم عن مَعْن قال: سمعتُ أبي قال: سألت مسروقاً: مَن آذنَ النبيَّ ﷺ بالجنِّ ليلةَ استمعوا القرآن؟ فقال: حدَّثني أبوك ـ يعني ابنَ مسعود ـ أنه آذَنَتْه بهم شَجَرةٌ[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي: القرآن؛ وكانوا مؤمنين بموسى. قال عطاء: كانوا يهوداً فأسلَموا، ولذلك قالوا: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى». وعن ابن عباس: أن الجِنَّ لم تكن سمِعتْ بأمر عيسى؛ فلذلك قالت: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى»[٣].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني ما قبْلَه من التوراة. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: دينِ الحق. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: دينِ اللّهِ القويم. ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ، وهذا يَدلُّ على أنه كان مبعوثاً إلى الجِنِّ والإنس. قال مقاتل: ولم يَبعث اللهُ نبيًّا إلى الجنِّ والإنس قبلَ محمدٍ ﷺ[٤].

(١) برقم (٤٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وسلف بنحوه ص٢٢٠-٢٢٢ من هذا الجزء.

(٢) صحيح مسلم (٤٥٠) (١٥٣)، وقوله: «آذنته بهم شجرة» أي أعلمته بهم، وظاهره أن الله تعالى خلق فيها نطقاً فهِمه النبيُّ ﷺ، كما خَلَق في الذراع المسمومة نطقاً. المفهم ٧/ ٤٢٢. ومعن: هو ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٢٧، وذكر قول عطاء ابنُ الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٩٠، وذكر قول ابن عباس ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٦.

(٤) الوسيط ٤/ ١١٥، والرازي ٢٨/ ٣٢ - ٣٣.

قلت: يَدلُّ على قوله ما في صحيح مسلم[١]: عن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أعطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي، كان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومه خاصَّةً وبُعثت إلى كلِّ أحمرَ وأسْوَدَ، وأحِلَّت ليَ الغنائمُ ولم تُحَلّ لأحدٍ قبلي، وجُعلت ليَ الأرضُ طيِّبةً طهوراً ومسجداً، فأيُّمَا رَجُلٍ أدركته الصلاةُ صلَّى حيثُ كان، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ بين يَدَيْ مسيرةِ شَهْرٍ، وأُعطِيتُ الشفاعةَ». قال مجاهد: الأحمرُ والأسود: الجنُّ والإنس[٢]. وفي روايةٍ من حديث أبي هريرة: «وبُعثتُ إلى الخَلق كافةً، وخُتم بيَ النَّبيُّون»[٣].

﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالداعي، وهو محمدٌ ﷺ. وقيل: «به» أي: باللهِ؛ لقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾. قال ابن عباس: فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً، فرجَعوا إلى النبيِّ ﷺ فوافقوه بالبطحاء؛ فقرَأ عليهم القرآنَ وأمرَهم ونهاهم.

مسألة: هذه الآي تدلُّ على أن الجِنَّ كالإنس في الأمر والنهي والثوابِ والعقاب[٤]. وقال الحسن: ليس لمؤمني الجنِّ ثوابٌ غير نجاتهم من النار[٥]؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وبه قال أبو حنيفة قال: ليس ثوابُ الجِنِّ إلا أن يُجاروا من النار[٦]، ثم يقال لهم: كونوا تراباً، مثلَ البهائم. وقال آخرون: إنهم كما يُعاقبون في الإساءة يُجازَوْن في الإحسان مثل الإنس.

---

(١) برقم (٥٢١)، وسلف ٤/٢٥٨ و٩/٣٢.

(٢) مسند أحمد (٢١٢٩٩).

(٣) صحيح مسلم (٥٢٣): (٥) وهو عند الإمام أحمد (٩٣٣٧).

(٤) تفسير الرازي ٢٨/٣١.

(٥) لم نقف عليه من قول الحسن، وأخرج البيهقي في البعث (١١٧) عن الحسن، عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ: «إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب» فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيهم؟ فقال: «على الأعراف، وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ»... وفي إسناده: يوسف بن يزيد: صدوق ربما أخطأ، وعروة بن رويم: صدوق يرسل كثيراً. كذا في تقريب التهذيب.

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ٤/١٦٩: والصحيح أنهم يدخلونها [أي: الجنة] ويتنعمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما. وهذا قول الحسن البصري وغيره...

(٦) الكشاف ٤/٥٢٧.

وإليه ذَهب مالكٌ والشافعيُّ وابن أبي ليلى. وقد قال الضحاك: الجِنُّ يَدخلون الجنة ويأكلون ويشربون[١]. قال القشيريُّ: والصحيح أن هذا مما لم يُقطع فيه بشيء، والعلمُ عند الله.

قلت: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ يدلُّ على أنهم يُثابون ويَدخلون الجنةَ؛ لأنه قال في أوّل الآية: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ إلى أن قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٠-١٣٢]. واللهُ أعلم؛ وسيأتي لهذا في سورة الرحمن[٢] مزيدُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يَفوت اللهَ ولا يَسبقُه. ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: أنصارٌ يمنعونه من عذاب الله. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الرؤيةُ هنا بمعنى العلْم. و«أنّ» واسمها وخبرها سدّت مسدَّ مفعولَي الرؤية. ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ احتجاجٌ على منكري البعثِ. ومعنى «لَمْ يَعْيَ»: يَعْجز ويَضْعُف عن إبداعهنَّ. يقال: عَيَّ بأمره وعَيِيَ: إذا لم يهتدِ لوجهه[٣]؛ والإدغام أكثر. وتقول في الجمع: عَيُوا ـ مخففاً ـ وعَيُّوا أيضاً؛ بالتشديد. قال:

(١) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٨/ ٣٣.

(٢) عند تفسير الآية (٤٦) منها.

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٩١ بنحوه.

عَيُّوا بِأَمْرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا الحَمَامَهْ[(١)]

وعَيِيتُ بأمري: إذا لم تهتد لوجهه. وأعياني هو.

وقرَأ الحسن: «وَلَمْ يَعِيْ» بكسر العين وإسكانِ الياء[(٢)]؛ وهو قليلٌ شاذٌّ، لم يأتِ إعلالُ العين وتصحيح اللام إلا في أسماء قليلة، نحو: غاية وآية. ولم يأت في الفعل سوى بيت أنشده الفرَّاءُ؛ وهو قول الشاعر:

فكأنها بين النساء سَبِيكَةٌ تَمْشِي بِسُدَّة بَيْتِها فتُعِيُّ[(٣)]

﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ قال أبو عبيدة والأخفشُ: الباء زائدة للتوكيد كالباء في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. وقال الكسائيُّ والفرَّاءُ والزجَّاج: الباء فيه خَلَفَ الاستفهام والجحد في أوّل الكلام[(٤)]. قال الزجَّاج[(٥)]: والعرب تدخلها مع الجحد؛ تقول: ما ظننت أن زيداً بقائم. ولا تقول: ظننت أن زيداً بقائم. وهو لدخول «ما» ودخول «أنّ» للتوكيد. والتقديرُ: أليس اللهُ بقادر، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ﴾ [يس: ٨١].

وقرأ ابن مسعود والأعرجُ والجَحدرِيُّ وابن أبي إسحاق ويعقوب: «يَقدر»[(٦)]

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص كما في أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٦٧ - ٦٨ ، والصحاح (عيي) ، وزهر الأكم ٢/ ١٩٠ ، وهو في ديوان عبيد ص ١٣٨ بلفظ:

بَرِمت بنوا أسدٍ كما بَرِمت ببيضتها الحمامه

ونسب لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٢٤٨ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٩ ، والمحتسب ٢/ ٢٦٩ .

(٣) البيت للحُطيئة كما في تاج العروس (عيي) ، وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٣/ ٢٥٨ ، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٩ ، وقال أبو إسحاق النحوي - كما في تهذيب اللغة -: هذا غير جائز عند حذاق النحويين. وذكر أن البيت الذي استشهد به الفراء ليس بمعروف . وقال الأزهري : والقياس ما قال أبو إسحاق وكلام العرب عليه...

(٤) الوسيط ٤/ ١١٦ ، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢١٣ ، ومعاني الأخفش ٢/ ٦٩٤ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٥٦ .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٧ بنحوه .

(٦) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٥٥ ، وهي من العشرة. وعن الأعرج والجحدري وابن أبي إسحاق في تفسير الطبري ٢١/ ١٧٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٣ - ١٧٤ .

واختاره أبو حاتم؛ لأن دخول الباء في خبر «أنّ» قبيحٌ. واختار أبو عبيدة قراءةَ العامة؛ لأنها في قراءة عبد الله: «خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ» بغير باء[١]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: ذكِّرْهم يومَ يعرضون فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فيقول لهم المقرِّرُ: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفركم.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قال ابن عباس: ذوو الحزمِ والصبر[٢].

قال مجاهد: هم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدٌ عليهم الصلاة والسلام. وهم أصحاب الشرائع[٣].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٧٥، والكشاف ٣/ ٥٢٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٦.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٩٢ دون نسبة وذكره عن ابن عباس البغويُّ في تفسيره ٤/ ١٧٦ دون قوله: والصبر. وذكره عن الضحاك بلفظ: ذوو الجد والصبر.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٩٢ عن مجاهد وغيره، وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٧٦ عن ابن عباس وقتادة، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٧٧ عن عطاء الخراساني. وهؤلاء الأنبياء الخمسة: هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وأشار إلى ذلك المصنف ثمة.

وقال أبو العالية: إن أولي العزم: نوح، وهود، وإبراهيم. فأمر اللهُ عزَّ وجل نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعَهم. وقال السدّيُّ: هم ستة: إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمدٌ؛ صلوات الله عليهم أجمعين[١].

وقيل: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى، وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء[٢].

وقال مقاتل: هم ستة: نوحٌ؛ صبرَ على أذى قومِه مدَّةً، وإبراهيم؛ صبر على النار، وإسحاق؛ صبر على الذبح، ويعقوب؛ صبر على فقد الولد وذهاب البصر. ويوسف؛ صبر على البئر والسجن. وأيوب؛ صبر على الضُّرِّ[٣].

وقال ابن جُريج: إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم[٤].

وقال الشعبيُّ والكلبيُّ ومجاهد أيضاً: هم الذين أُمِروا بالقتال، فأظهروا المكاشفةَ وجاهدوا الكفرة[٥]. وقيل: هم نجباءُ الرسل المذكورون في سورة الأنعام[٦]، وهم ثمانية عشر: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهرون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط. واختاره الحسن بن الفضل؛ لقوله في عقبه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[٧] [الأنعام: ٩٠].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٨، وزاد المسير ٧/ ٣٩٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦.

(٣) الوسيط ٤/ ١١٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩، وزاد المسير ٧/ ٣٩٢.

(٥) ذكره الواحديُّ في الوسيط ٤/ ١١٦، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٧٦ عن الكلبي.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٧.

وقال ابن عباس أيضاً: كلُّ الرسل كانوا أولي عزم[١]. واختاره عليُّ بن مهدي الطبريُّ، قال: وإنما دخلت «من» للتجنيس لا للتبعيض[٢]؛ كما تقول: اشتريتُ أرديةً من البَزِّ وأكسيةً من الخَزِّ[٣]. أي: اصبر كما صَبَر الرسلُ. وقيل: كلُّ الأنبياء أولو عَزْمٍ إلا يونس بن متى[٤]؛ ألا ترى أن النبيَّ ﷺ نُهي أن يكون مثلَه؛ لخفَّةٍ وعَجَلةٍ ظهرت منه حين ولَّى مُغاضِباً لقومه[٥]، فابتلاه الله بثلاث: سلَّط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله، وسلَّط الذئبَ على ولده فأكلَه، وسلَّط عليه الحوتَ فابتلعه؛ قاله أبو القاسم الحكيم.

وقال بعض العلماء: أولو العزم اثنا عشر نبيًّا أرسلوا إلى بني إسرائيل بالشام فعصَوهم، فأوحى اللهُ إلى الأنبياء: إني مرسلٌ عذابي إلى عصاة بني إسرائيل؛ فشقَّ ذلك على المرسلين، فأَوحى اللهُ إليهم: اختاروا لأنفسكم، إن شئتم أنزلتُ بكم العذابَ وأنجيتُ بني إسرائيل، وإن شئتم نجَّيتكم وأنزلتُ العذابَ ببني إسرائيل؛ فتشاوروا بينهم، فاجتمع رأيُهم على أن ينزل بهم العذاب، وينجي اللهُ بني إسرائيل[٦]؛ فأنجى الله بني إسرائيل وأنزَل بأولئك العذاب. وذلك أنه سلط عليهم ملوكَ الأرض؛ فمنهم من نُشر بالمناشير، ومنه من سُلِخَ جلدة رأسه ووجهه، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات، ومنهم من حُرِّق بالنار. والله أعلم.

وقال الحسن: أُولو العزم أربعة: إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى؛ فأما

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ١٧٧ عن ابن زيد.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٧ من قول أبي القاسم الحكيم، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٩٣ عن الثعلبي.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦ بنحوه.

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣٧.

إبراهيم فقيل له: ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ثم ابتلِيَ في ماله وولده ووطنه ونفسه، فوجد صادقاً وافيًا في جميع ما ابتلي به. وأما موسى فعزمُه حين قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]. وأما داود فأخطأ خطيئته فنُبِّه عليها، فأقام يبكي أربعين سنةً حتى نبتت من دموعه شجرة، فقعد تحت ظلِّها. وأما عيسى فعزمُه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال: إنها مَعْبَرةٌ، فاعبرُوها ولا تعمرُوها[١]. فكأن اللهَ تعالى يقولُ لرسوله ﷺ: اصبر، أي: كن صادقاً فيما ابتُليتَ به مثل صدق إبراهيم؛ واثقاً بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى، مهتمًّا بما سلَف من هفواتك مثل اهتمام داود، زاهداً في الدنيا مثل زهد عيسى.

ثم قيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: محكمة؛ والأظهر أنها منسوخة؛ لأن السورة مكيَّةٌ. وذكر مقاتل: أن هذه الآية نزَلت على رسول الله ﷺ يومَ أُحُد، فأمرَه الله عزَّ وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبرَ أولو العزم من الرسل؛ تسهيلاً عليه وتثبيتاً له[٢]. والله أعلم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ قال مقاتل: بالدعاء عليهم[٣]. وقيل: في إحلالِ العذاب بهم، فإن أبعدَ غاياتهم يومُ القيامة. ومفعولُ الاستعجال محذوفٌ، وهو العذاب[٤].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ قال يحيى: من العذاب. النقَّاش: من الآخرة. ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: في الدنيا حتى جاءهم العذاب، وهو مقتضى قول يحيى. وقال النقَّاش: في قبورهم حتى بُعثوا للحساب[٥]. ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ﴾ يعني في جنْب يومِ القيامة.

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٨، والرازي ٢٨/ ٣٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٣٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

وقيل: نَسَّاهم هَوْلُ ما عاينوا من العذاب طولَ لَبثهم في الدنيا. ثم قال: ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: هذا القرآنُ بلاغ؛ قاله الحسن[١]. فـ«بلاغ» رفع على إضمار مبتدأ[٢]؛ دليله قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [إبراهيم:٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦]. والبلاغ بمعنى التبليغ. وقيل: أي: إن ذلك اللَّبث بلاغ؛ قاله ابن عيسى[٣]، فيوقف على هذا على «بلاغ» وعلى «نَهَارٍ». وذكر أبو حاتم: أن بعضهم وقف على «وَلَا تَسْتَعْجِلْ»، ثم ابتدأ: «لَهُمْ»؛ على معنى: لهم بلاغ. قال ابن الأنباريِّ: وهذا خطأ؛ لأنك قد فصَلت بين البلاغ وبين اللام ـ وهي رافعة ـ بشيء ليس منهما.

ويجوز في العربية: بلاغاً وبلاغٍ؛ النصب على معنى إلا ساعة بلاغاً، على المصدر أو على النعت للساعة. والخفض على معنى من نهارٍ بلاغ. وبالنصب قرَأ عيسى بن عمر والحسن[٤]. ورُوي عن بعض القرَّاء: «بَلِّغْ» على الأمر؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على «مِنْ نَهَارٍ» ثم يبتدئ: «بَلِّغْ»[٥].

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون على أمر الله[٦]؛ قاله ابن عباس وغيره.

وقرَأ ابن مُحَيْصن: «فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ»[٧] على إسناد الفعل إلى القوم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٥.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٦٨، والقراءات الشاذة ص ١٤٠.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٩٤ - ٨٩٥، وقراءة «بلِّغ» ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٠، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٨ من قراءة أبي مجلز وسراج.

(٦) الوسيط ٤/ ١١٧، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٧ دون نسبة.

(٧) القراءات الشاذة ص ١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٦٨.

وقال ابن عباس: إذا عَسِرَ على المرأة وَلَدُها؛ تكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيفة، ثم تُغسَل وتُسقى منها، وهي: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليم الكريم، سبحان الله ربِّ السماوات وربِّ الأرض وربِّ العرش العظيم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1] صدق الله العظيم.

وعن قتادة: لا يُهلك الله إلا هالكاً مشركاً[2]. وقيل: هذه أقوى آية في الرجاء[3]. والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٢٧ وإسناده ضعيف.

(٢) في (د) و(ظ): لا يهلك إلا هالك مشرك. وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١١٧، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٧٨ بنحوه.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٨ عن الثعلبي.

سُورَةُ الأَحْقَافِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها أربعٌ أو خمسٌ وثلاثونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١ ـ ٣) ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلَّا خلقًا مُلتَبِسًا بالحقِّ وهو ما تَقتضيهِ الحكمَةُ والمَعْدِلَةُ، وفيه دلالةٌ على وُجودِ[1] الصَّانعِ الحَكيمِ، والبعثِ للمُجازاةِ على ما قَرَّرناهُ مِرارًا.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وبتقديرِ أَجَلٍ مُسمًّى يَنتَهِي إليه الكُلُّ وهو يومُ القيامةِ، أو كلُّ واحدٍ وهو آخرُ مُدَّةِ بقائِه المقدَّرِ له.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ مِن هولِ ذلك الوقتِ، ويجوزُ أَنْ تكونَ (ما) مصدريَّةً.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يَتفكَّرونَ فيه ولا يَستَعِدُّونَ لحُلولِه.

(٤) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أخبرُوا عَن حالِ آلِهَتِكُم بعد تأمُّلٍ فيها؛ هل يعقلُ أن يكونَ لها في أنفُسِها[2] مَدْخلٌ في خلقِ شَيءٍ مِن أجزاءِ العالمِ فتستحقَّ به العِبادةُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وجوب».

(٢) في نسخة الفاروقي: «نفسها».

وتخصيصُ الشِّركِ بالسَّماواتِ احترازٌ عمَّا يُتوهَّمُ أنَّ للوَسائطِ شركةً في إيجادِ الحوادثِ السُّفليَّة.

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ من قبلِ هذا الكتابِ يعني القرآنَ، فإنَّه ناطقٌ بالتَّوحيدِ.

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو بقيَّةٍ مِن علمٍ بَقِيَت عليكُم مِن علومِ الأوَّلينَ هَلْ فيها ما يدلُّ على استحقاقِهم للعبادةِ أو الأمرِ بهِ.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دَعْواكُم، وهو إلزامٌ بعدمِ ما يدلُّ على أُلوهِيَّتِهم بوجهٍ ما نقلًا بعدَ إلزامِهم بعدمِ ما يَقتَضِيها عقلًا.

وقُرِئَ: (إثارَةٍ) بالكسرِ[1]، أي مناظرةً، فإنَّ المُناظرةَ تثيرُ[2] المعانيَ[3]، و(أَثَرَةً)[4] أي: شيء أوثِرْتُم به، و(أثْرة) بالحركاتِ الثلاثِ في الهمزةِ وسُكونِ الثَّاءِ[5] فالمفتوحةُ للمرَّةِ مِن مصدرِ أَثَرَ الحَديثَ: إذا رواهُ، والمكسورةُ بمعنى الأَثَرَةِ، والمضمومةُ اسمُ ما يؤثَرُ.

---

(١) نسبت للحسن كما في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٤٣٥).

(٢) في نسخة الفاروقي: «المناظر يثير».

(٣) عدَّ الكرماني هذا التفسير من العجائب واستبعده، ولم يجزم بورود القراءة بالكسر، فقال: العجيب: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: مناظرة، لأن المناظرة في العلم مثيرة لمعانيه. وهذا بعيد، لأنه يوجب إثارة ـ بكسر الهمزة ـ مصدر أثار، ولعله جاء في الشواذ بالكسر. انظر: «غرائب التفسير» للكرماني (٢/ ١٠٩٢).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٦٤)، وعزاها ابن جني لابن عباس وعكرمة وقتادة وعمرو بن ميمون والأعمش.

(٥) القراءات الثلاث في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٠)، والقراءة بفتح الهمزة مع سكون الثاء عزاها في «المحتسب» (٢/ ٢٦٤) لعلي رضي الله عنه وأبي عبد الرحمن السلمي.

(٥) ـ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ إنكارُ أن يكونَ أحدٌ أضلَّ مِن المشركينَ حيثُ تركُوا عبادةَ السَّميعِ المُجيبِ القادرِ الخبيرِ إلى عبادةِ مَن لا يَستَجِيبُ لَهُم لو سَمِعَ دُعاءَهُم، فضلًا أَنْ يعلمَ سَرائِرَهُم ويُراعِيَ مَصالِحَهُم.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ما دامَتِ الدُّنيا.

﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لأنَّهُم إمَّا جَماداتٌ وإمَّا عِبادٌ مُسخَّرُونَ مُشتَغِلونَ بأَحوالِهم.

(٦) ـ ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يَضرُّونَهُم ولا يَنفَعُونَهُم.

﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ مُكَذِّبينَ بلسانِ الحالِ أو المقالِ.

وقيل: الضَّميرُ للعَابدينَ وهو كقولِه: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

(٧) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضِحَاتٍ أو مُبيِّناتٍ.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ لأجلِه وفي شأنِه، والمرادُ به الآياتُ، ووضعَهُ مَوضِعَ ضَميرِهَا، ووضعَ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَوضِعَ ضميرِ المتلوِّ عليهِمْ للتَّسجيلِ عليها بالحقِّ وعليهِمْ بالكُفرِ والانهماكِ في الضَّلالَةِ.

﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ حينَما جاءَهُم مِن غيرِ نَظرٍ وتَأمُّلٍ.

﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهِرٌ بُطلانُه.

(٨) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إضرابٌ عَن ذكرِ تَسمِيَتِهِم إيَّاهُ سِحْرًا إلى ذكرِ ما هو أشنَعُ مِنه وإنكارٌ له وتَعجيبٌ.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ على الفَرضِ.

﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: إنْ عاجَلَني اللهُ بالعُقوبَةِ فلا تقدرونَ على دفعِ شيءٍ منها فكيفَ أجتَرِئُ عليه وأُعرِّضُ نفسي للعِقابِ مِن غيرِ توقُّعِ نَفعٍ ولا دفعِ ضرٍّ مِن قبلِكُم.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تندَفِعُونَ فيه مِن القدحِ في آياتِه.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهَدُ لي بالصِّدقِ والبلاغِ وعليكُمْ بالكَذبِ والإنكارِ، وهو وعيدٌ بجزاءِ إفاضَتِهِم.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وعدٌ بالمَغفِرَةِ[١] والرَّحمةِ لِمَن تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً[٢] وإشعارٌ بحلمِ اللهِ عنهم مع عِظَمِ جُرمِهِم[٣].

(٩) ـ ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بديعًا مِنْهُم أَدعوكُم إلى ما لا يدعونَ إليه، أو أقدِرُ على ما لم يَقدِرُوا عليه وهو الإتيانُ بالمقترحاتِ كُلِّها، ونظيرُه[٤] الخِفُّ بمعنى الخفيفِ.

وقُرِئَ بفتحِ الدَّالِ[٥] على أَنَّهُ كقِيَمٍ، أو مُقدَّرٌ بمُضافٍ أي: ذا بِدْعٍ.

﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ في الدَّارينِ على التَّفصيلِ إذ لا عِلْمَ لي بالغيبِ.

و(لا) لتأكيدِ النَّفيِ المُشتَمِلِ على ﴿مَا يُفْعَلُ بِى﴾، و(ما) إمَّا مَوصولةٌ مَنصوبَةٌ أو استفهاميَّةٌ مَرفوعَةٌ.

وقُرِئَ (يَفْعَلُ)[٦]؛ أي: يفعلُ اللهُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وعدني بمغفرة».

(٢) «وعمل صالحاً» من نسخة الخيالي.

(٣) في نسخة الخيالي: «جرأتهم»، وأشار إليها في هامش نسخة الطبلاوي.

(٤) في نسخة الخيالي: «ونظيرها».

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٠)، عن مجاهد وأبي حيوة، و«المحتسب» (٢/ ٢٦٤) عن عكرمة وابن أبي عبلة وأبي حيوة.

(٦) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٣٧) عن ابن أبي عبلة، وزاد أبو حيان في «البحر» (١٩/ ١٩٦) نسبتها لزيد بن علي.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ لا أتجاوَزُه، وهو جوابٌ عن اقتراحِهِم الإخبارَ عمَّا لم يوحَ إليه مِنَ الغُيوبِ، أو استعجالِ المسلمينَ أنْ يتخلَّصُوا مِن أذى المشركينَ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ عـن عقـابِ اللهِ ﴿مُّبِينٌ﴾ يبيِّـنُ الإنـذارَ بالشَّـواهدِ المبيِّنـةِ والمُعجـزاتِ المصدِّقـةِ.

(١٠) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآنُ.

﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ وقد كفَرْتُم به، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عاطِفةً على الشَّرطِ، وكذا الواوُ في قولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلَّا أنَّها تعطِفُه بما عُـطِفَ عليه على جملةِ ما قبلَه.

والشَّاهدُ هو عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ. وقيل: موسى عليهِ السَّلامُ، وشَهادَتُه ما فـي التَّوراةِ مِن نَعتِ[1] الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ.

﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ مثلِ القُرآنِ، وهو ما في التَّوراةِ مِن المعاني المصدِّقةِ للقُرآنِ المطابقةِ لها، أو مثلِ ذلك وهو كونهُ مِن عندِ اللهِ.

﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي: بالقـرآنِ لمَّـا رآهُ مِن جنـسِ الوَحيِ مُطابِقًـا للحقِّ ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عـن الإيمانِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافٌ مُشعِرٌ بأنَّ كُفرَهُم به لضَلالِهِم المُسبَّبِ عَن ظُلمِهِم ودليلٌ على الجَوابِ المَحذوفِ مثل: ألسْتُم ظالمينَ؟

(١١) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأجلِهِم ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمانُ، أو مـا أتى[2] به مُحمَّدٌ ﷺ.

(١) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «من بعثة».

(٢) في نسخة الخيالي: «أي الإيمان أو ما أوتي».

﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ وهم سُقَّاطٌ إذ عامَّتُهُم فُقَراءُ ومَوالِيَ ورُعاةٌ. وإنَّما قالَهُ قُرَيشٌ[(١)].

وقيل: بنو عامرٍ وغَطفانُ وأَسَدٌ وأَشجَعُ لَمَّا أَسْلَمَ جُهَينَةُ ومُزَينَةُ وأَسْلَمُ وغِفَارٌ[(٢)].

أو اليهودُ حينَ أَسلمَ ابنُ سَلَامٍ وأَصحابُه[(٣)].

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ ظرفٌ لِمَحذوفٍ مثل: ظهرَ عِنادُهُم.

وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مُسبَّبٌ عنه، وهو كقولِهم: أساطيرُ الأوَّلينَ.

(١٢) ـ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ ومن قبلِ القُرآنِ، وهو خبرٌ لقولِه: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ ناصبٌ لقولِه: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على الحالِ.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتابِ موسى، أو (لِمَا بينَ يديهِ)، وقد قُرِئَ به[(٤)].

﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ مِن ضميرِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أو مِنهُ لتَخصُّصِه بالصِّفَةِ، وعامِلُها معنى الإشارةِ، وفائدَتُها الإشعارُ بالدلالةِ على أنَّ كونَهُ مُصدِّقًا للتَّوراةِ كما دلَّ على أنَّه حقٌّ دلَّ على أنه وحيٌ وتَوقيفٌ مِن اللهِ سُبحانَه.

وقيل: مفعولُ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: يُصَدِّقُ ذا لسانٍ عربيٍّ بإعجازِه.

---

(١) أورده أبو حفص النفسي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٣٢) عن قتادة.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٧٥ ـ ٧٦)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٥٦) عن الكلبي، وذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٥١)، والزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٤٤٠)، دون نسبة.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ١٣٢)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٧٥) عن أكثر المفسرين.

(٤) نسبت لمصحف ابن مسعود، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٥١)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٤٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٩٥).

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عِلَّةُ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ وفيه ضميرُ ﴿الكتاب﴾ أو اللهِ أو الرَّسولِ، ويؤيِّدُ الأخيرَ قِراءةُ نافعٍ وابنِ عامرٍ والبَزِّيِّ بخلافٍ عنه[1] ويَعقوبَ بالتَّاءِ[2].

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ عطفٌ على محلِّه.

(١٣) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ جمَعُوا بين التَّوحيدِ الذي هو خلاصَةُ العلمِ والاستقامةِ في الأُمورِ التي هي مُنتَهى العملِ.

و(ثم) للدَّلالةِ على تأخُّرِ رتبةِ العملِ وتوقُّفِ اعتبارِه على التَّوحيدِ.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عن لحوقِ مَكروهٍ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فواتِ مَحبوبٍ، والفاءُ لتَضمُّنِ الاسمِ مَعنى الشَّرطِ.

(١٤) ـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن اكتِسابِ الفَضائلِ العِلْميَّةِ والعَمَليَّةِ.

و﴿خَـٰلِدِينَ﴾ حالٌ مِن المستكنِّ في ﴿أَصْحَـٰبُ﴾، و﴿جَزَآءًۢ﴾ مصدرٌ لفعلٍ دلَّ عليه الكلامُ، أي: جُوزوا جزاءً.

(١٥) ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وقرأَ الكوفيُّونَ: ﴿إِحْسَـٰنًا﴾[3]، وقُرِئَ: (حَسَنًا)[4]، أي: إيصاءً حَسَنًا.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ذاتَ كُرْهٍ، أو حملًا ذا كُرْهٍ، وهو المشقَّةُ.

---

(١) «والبزي بخلاف عنه»: ليس في نسخة الفاروقي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٩)، و«النشر» (٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣).

(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالأخيرة، والباقون بالأولى، انظر: «السبعة» (ص: ١٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٩).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٠) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقرأَ الحِجازيَّانِ وأبو عمرٍو وهِشامٌ بالفتحِ[١]، وهما لُغتانِ كالفَقْرِ والفُقْرِ.

وقيل: المَضمومُ اسمٌ والمفتوحُ مصدرٌ.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ ومُدَّةُ حملِه وفصالِه، والفِصالُ الفِطامُ، ويدلُّ عليهِ قراءةُ يعقوبَ: ﴿وفصْلُه﴾[٢]، أو وقتُه، والمرادُ به الرضاعُ التامُّ الـمُنْتَهى بهِ، ولذلك عبَّرَ به كما يُعَبَّرُ بالأمدِ عَن المدَّةِ قال:

كُلُّ حَـيٍّ مُسْـتكْمِلٌ مُـدَّةَ[٣] العُمْـ ـرِ وَمُـودٍ إِذَا انْـتَهَـى أَمَـدُهْ[٤]

﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ كلُّ ذلـك بيـانٌ لِمَـا تُكابِـدُهُ الأمُّ فـي تربيـةِ الولـدِ مبالغـةً فـي التَّوصِيَـةِ بهـا.

وفيه دليلٌ على أنَّ أقلَّ مُدَّةِ الحملِ سِتَّةُ أشهُرٍ لأنَّه إذا حُطَّ عنه للفصالِ حولانِ لقولِه تَعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بَقِيَ ذلك، وبه قال الأطبَّاءُ، ولعلَّ تخصيصَ أقلِّ الحملِ وأكثرَ الرضاعِ لانضِباطِهما وتَحقُّقِ ارتباطِ حُكمِ النَّسبِ والرَّضاعِ بِهمَا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ إذا اكتهلَ واستحكمَ قوَّتُه وعَقلُه.

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل: لم يُبْعَث نبيٌّ إلا بعدَ أربعينَ[٥].

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أَلْهِمْنِي، وأَصْلُه: أَوْلِعني، مِن أوزَعْتُه بكذا[٦].

---

(١) وقراءة الباقين بالضم، انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٦)، و«التيسير» (ص: ١٩٩).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٣).

(٣) في نسخة الفاروقي: «عدة».

(٤) البيت للطرماح، وهو في «ديوانه» (ص: ١٩٧)، وفيه: «عدده» بدل «أمده».

(٥) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٧): غريب.

(٦) انظر: «المفردات» للراغب (مادة: وزغ) (ص: ٨٦٨).

﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ يعني نعمةَ الدِّينِ، أو ما يَعمُّها وغيرَها، وذلك يؤيِّدُ ما رُوِيَ أنَّها نزَلَتْ في أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه[1]، لأنَّه لم يَكُن أحَدٌ أسلمَ هو وأبواهُ مِن المُهاجرينَ والأنصارِ سِواهُ.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ نكَّرَه للتَّعظيمِ، أو لأنَّهُ أرادَ نَوْعًا مِن الجنسِ يَستجْلِبُ رِضَا اللهِ عزَّ وجلَّ.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ واجعَلْ لي الصَّلاحَ سارِيًا في ذُرِّيَّتِي راسِخًا فيهِمْ، ونحوه:

يَجْـرَحُ فِـي عَرَاقِيبِهَـا نَصْلِـي[2]

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عمَّا لا ترضاهُ أو يشغلُ عنك.

﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصينَ لك.

(١٦) ـ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُتقبَّلُ عَنْهُم أحسنُ مَا عَمِلُوا﴾ يعني طاعاتِهم؛ فإنَّ المباحَ حسنٌ ولا يثابُ عليه.

﴿ويُتجاوَزُ عن سيِّئاتِهم﴾ لتوبتِهم، وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وحَفصٌ بالنُّونِ فيهما[3].

---

(١) رواه أبو جعفر النحاس في «معاني القرآن» (٦/ ٤٤٩) عن أبي بكر بن عياش، وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٤٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قطعة من بيت لذي الرمة يمدح نفسه، وهو في ديوانه (١/ ١٥٦)، وتمامه:

وإن تَعْتـذِرْ بالمحـلِ عـن ذي ضروعِها ... إلـى الضيفِ يجـرحْ في عراقيبِهـا نَصْلي

قال الباهلي شارح الديوان: أي: وإن تعتذر إبلي بالمحل فلم يكن في ضروعها لبن عرقبتُها للضيف، وقوله: «من ذي ضروعها» يريد: اللبن. ونصله: سيفه.

قال الطيبي: جعل المتعدي بمنزلة اللازم لإرادة الحقيقة، ثم عداه كما يعدى اللازم مبالغة.

(٣) في نسخة التفتازاني: «بأن» وفي نسخة الفاروقي والطبلاوي: «لأن».

﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ كائنينَ في عِدادِهِم، أو مُثابينَ، أو مَعدودينَ فيهم.

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لنَفسِه، فإنَّ[1] (يُتَقَبَّلُ) و(يُتَجاوَزُ) وعدٌ.

﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: في الدُّنيا.

(١٧) ـ ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ مُبتدأٌ خبرُهُ: (أولئك)، والمرادُ به الجنسُ، وإن صَحَّ نُزولُها في عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بكرٍ قبلَ إسلامِهِ[2] فإنَّ خُصوصَ السَّببِ لا يوجِبُ التَّخصيصَ.

وفي (أفٍّ) قِراءاتٌ ذُكِرَت في سورةِ بني إسرائيلَ[3].

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أبعثَ، وقرأَ هِشامٌ: ﴿أَتَعِدانِّي﴾ بنونٍ واحدةٍ مُشدَّدةٍ[4].

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ فلم يَرجِعْ أحدٌ منهم.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «بأن» وفي نسخة الفاروقي والطبلاوي: «لأن».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٨٦ ـ ٨٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٥٨)، وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٤/ ٢١). وهذا القول مردود، فإن عبد الرحمن بن أبي بكر قد أسلم وكان من أجلاء الصحابة، وإنما ينزل مثل هذا فيمن مات على كفره كأبي لهب والوليد بن المغيرة، وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها هذا القول، وقالت: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري. رواه البخاري (٤٨٢٧).

وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه. وسيشير المؤلف لهذا لاحقاً.

(٣) قرأ نافع وحفص بالتنوين وكسر الفاء، وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين، وباقي السبعة بكسرها من غير تنوين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٩). فهذا ما تواتر فيها والباقي شاذ، وقد سبق تفصيله عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣].

(٤) «وقرأ هشام ﴿أتعدانّي﴾ بنون واحدة مشددة»: ليس في نسخة الفاروقي.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يقولانِ: الغياثُ باللهِ منك، أو يَسألانِه أنْ يغيثَهُ بالتَّوفيقِ للإيمانِ.

﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي: يقولانِ لهُ: ويلَكَ، وهو دعاءٌ بالثُّبورِ بالحثِّ على ما يخافُ على تركِه.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أباطيلَهم التي كتَبُوهَا.

(١٨) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنَّهُم أهلُ النَّارِ، وهو يَرُدُّ النزولَ في عبدِ الرَّحمنِ لأنَّه يدلُّ على أنَّه مِن أهلِها لذلك، وقد جُبَّ عنه إنْ كانَ لإسلامِه.

﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ كقولِه: ﴿في أصحابِ الجنَّةِ﴾.

﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بيانٌ للأُمَمِ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ تعليلٌ للحُكمِ على الاستئنافِ.

(١٩) ـ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِن الفَريقَيْنِ ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ مراتبُ مِنْ جزاءِ ما عَمِلُوا[1] مِن الخيرِ والشرِّ، أو مِن أجلِ ما عَمِلُوا، والدَّرجاتُ غالِبَةٌ في المثوبةِ وهاهنا جاءَتْ على التَّغليبِ.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جزاءَهَا.

وقرأ نافِعٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ وابنُ ذكوانَ بالنُّونِ[2].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ وزيادةِ عِقابٍ.

(٢٠) ـ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يعذَّبونَ بها.

وقيل: تُعرضُ النَّارُ عليهم فقُلِبَ مبالغةً كقولهم: عَرَضْتُ النَّاقةَ على الحوضِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «من جزاء أعمالهم».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٨)، و«النشر» (٢/ ٣٧٣).

﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي: يقالُ لهم: أَذْهَبْتُم، وهو ناصِبُ (اليوم).

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ويَعقوبُ بالاستِفهامِ غيرَ أنَّ ابنَ كثيرٍ يقرَأُ بهمزةٍ مَمدودةٍ، وهُما يقرآنِ بها وبهمزتينِ مُحقَّقتينِ[1].

﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ لذَّاتِكُم[2] ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ باستيفائِها ﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فما بَقِيَ لَكُم مِنها شيءٌ.

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الهوانِ، وقد قُرِئَ بهِ[3].

﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ بسببِ الاستكبارِ الباطلِ والفُسوقِ عَن طاعةِ اللهِ. وقُرِئَ: (تفسِقون) بالكسرِ[4].

(٢١) ـ ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هودًا ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ هو جمعُ حِقْفٍ، وهو رملٌ مُستَطيلٌ مُرتفِعٌ فيه انحناءٌ، مِن احقَوْقَفَ الشَّيءُ: إذا اعوجَّ، وكانوا يسكنونَ بينَ رمالٍ مُشرفةٍ على البحرِ بالشَّجرِ مِن اليَمنِ.

﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ الرُّسلُ ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قبلَ هودٍ وبعدَهُ، والجملةُ حالٌ أو اعتراضٌ.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لا تَعبدُوا، أو بأَنْ لا تَعبدُوا، فإنَّ النَّهيَ عَن الشَّيءِ إنذارٌ عن مَضرَّتِه.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائلٍ بسببِ شركِكُم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٩٩)، و«البدور الزاهرة» (ص: ٢٩٥).

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي: «لذائذكم».

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٥٠)، و«البحر» (١٩/ ٢١٣).

(٤) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٥٠).

(٢٢) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾ لتَصْرِفَنا ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ عن عِبادَتِها ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِن العذابِ على الشِّركِ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدِكَ.

(٢٣) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا عِلمَ لي بوقتِ عَذابِكُم ولا مدخلَ لي فيه فأستعجلَ بهِ، وإنَّما عِلمُهُ عندَ اللهِ فيأتيكُم به في وقتِه المقدَّرِ له.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ إليكم، وما على الرَّسُولِ إلا البلاغ.

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ لا تعلمونَ أنَّ الرُّسُلَ بُعِثُوا مُبَلِّغِينَ مُنذِرينَ لا مُعذِّبينَ مُقتَرِحينَ.

(٢٤) ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا﴾ سحابًا عَرَضَ في أفقٍ من السَّماءِ.

﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ متوجِّهَ أَودِيَتِهِم، والإضافَةُ فيه لَفظيَّةٌ، وكذا في قولِه:

﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ أي: يأتينَا بالمطرِ.

﴿بَلۡ هُوَ﴾ أي: قالَ هودٌ: بَل هو ﴿مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ﴾ مِن العذابِ، وقُرِئَ: (قُلْ بل)[1].

﴿رِيحٞ﴾ هي ريحٌ، ويجوزُ أَنْ يكونَ بدلَ (ما).

﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ صِفَتُها، وكذا قولُه:

(٢٥) ـ ﴿تُدَمِّرُ﴾ تُهلِكُ ﴿كُلَّ شَيۡءِۭ﴾ مِن نُفوسِهِم وأَموالِهِم ﴿بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ إذ لا تُوجَدُ نابضةُ حركةٍ ولا قابضةُ سُكونٍ إلَّا بمَشيئَتِه.

وفي ذكرِ الأمرِ والربِّ وإضافَتِه إلى الرِّيحِ فَوائِدُ سبقَ ذِكرُهَا مِرارًا.

وقُرِئَ: (يَدْمُرُ كُلُّ شيء)[2] مِن دَمَرَ دمارًا: إذا هلكَ، فيكونُ العائدُ مَحذوفًا، أو

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٥٤)، وذكر أبو حيان في «البحر» (١٩/ ٢١٦) قراءتين: التاء مع نصب (كلَّ)، والياء مع رفعها، ونسب الأولى لزيد بن علي.

الهاءُ في ﴿رَبِّهَا﴾، ويحتملُ أن يكونَ استِئنافًا للدلالَةِ على أنَّ لِكُلِّ ممكنٍ فَناءً مَقضِيًّا لا يَتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ، ويكونُ الهاءُ لكلِّ شيءٍ فإنَّه بمعنى الأشياءِ.

﴿فأَصْبَحُوا لا تَرَى إِلَّا مَساكِنَهُم﴾ أي: فجاءَتْهُم الرِّيحُ فدَمَّرَتْهُم فأصبَحُوا بحيثُ لو حضرتَ بلادَهُم لا ترى إلا مَساكِنَهُم.

وقرأَ عاصِمٌ وحمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بالياءِ المضمومةِ ورفعِ المساكنِ[١].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ رُوِيَ أنَّ هُودًا لَمَّا أحسَّ بالرِّيحِ اعتزلَ بالمُؤمِنينَ في الحظيرةِ، وجاءَتِ الرِّيحُ فأَمالَتِ الأحقافَ على الكفرَةِ، وكانوا تحتَها سبعَ لَيالٍ وثمانيَةَ أيَّامٍ، ثمَّ كُشِفَت عنهم واحتَمَلَتْهُم وقَذفَتْهُم في البحرِ[٢].

(٢٦) ـ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ (إن) نافيَةٌ وهي أحسَنُ مِن (ما) هاهنا لأنَّها تُوجِبُ التَّكريرَ لفظًا، ولذلك قُلِبَت أَلِفُها هاءً في (مهما).

أو شرطيَّةٌ مَحذوفةُ الجَوابِ، والتَّقديرُ: ولقَدْ مَكَّنَّاهُم في الذي أو في شيءٍ إِنْ مَكنَّاكُم فيه كانَ بَغْيُكُم أكثرَ.

أو صِلَةٌ كمَا في قولِه:

يُرَجِّي المَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ ... وتَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الخُطُوبُ[٣]

---

(١) وقراءة الباقين بالتاء مفتوحة وبالنصب، انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٨)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠).
وقرأ الحسن وأبو رجاء والجحدري وقتادة وعمرو بن ميمون والسلمي ومالك بن دينار والأعمش وابن أبي إسحاق، واختلف عن الكل إلا أبا رجاء ومالك بن دينار: (لا تُرى)، بالتاء مضمونة وبالرفع، انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٦٥)، واقتصر في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٠) على عزوها للحسن، وتحرفت (تُرى) في مطبوعه إلى: (يُرى) بالياء.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١١٣) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) نسبه أبو زيد في «النوادر» (ص: ٢٦٤) لجابر بن رألان الطائي برواية:

والأَوَّلُ أظهَـرُ وأَوْفَـقُ لقولِـه: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ ﴿كانـوا أكثـرَ منهم وأشـدَّ قوةً وآثارًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ليعرفُوا تلك النِّعَمَ ويَستَدِلُّوا بها على مانِحِها ويُواظِبُوا على شُكرِها.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ مِـن الإغنـاءِ وهـو القليـلُ.

﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صِلَةٌ[1] لـ(ما أغنى)، وهو ظرفٌ جَرى مجرى التَّعليلِ مِن حيثُ إنَّ الحكمَ مُرَتَّبٌ على ما أُضِيفَ إليه، وكذلك (حيث).

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن العَذابِ.

(٢٧) ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهلَ مَكَّةَ ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحِجْرِ ثَمُودَ وقُرَى قومِ لوطٍ.

﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ بتكريرِها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عَن كُفرِهِم.

= يرجِّـي العبـدُ مـا إنْ لا يُلاقي ... وتَعْـرِضُ دونَ أَبعدِهـا خُطـوبُ

وذكره البغدادي في «شرح أبيات المغني» (١/ ١٠٧) بالروايتين، وله فيهما كلام طويل، ومما قاله في شرحه: قوله: «يرجي العبد» وهو عبد الخلقة، و«يرجي»: مبالغة يرجو، أي: يأمل، وقد حذف العائد إلى «ما» الموصولة من قوله: «لا يلاقي»، والأصل: لا يلاقيه، و«ما» واقعة على الأمور التي تطلبها النفس، و«تعرض»؛ أي: تحول، من عرضتْ له بسوء؛ أي: تعرضت، من باب ضرب، و«دون» هنا بمعنى: أمام، و«أدناه»: أقربه، من الدنو وهو القرب، والخطوب: جمع خطب، وهو الأمر والشأن عظم أو صغر والمراد هنا الأمر العظيم الشديد. يعني: إذا كان أقرب ما يتمناه الإنسان تحول الأمور الشاقة عن الوصول إليه، فما ظنك بأبعدها! فإن الإنسان وإن اجتهد بكل حيلة لم ينل جميع ما يرومه: ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

(١) في نسخة الفاروقي: «علة» وفي الهامش: في نسخة: «صلة».

(٢٨) ـ ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ فهلَّا منَعَتْهم مِن الهلاكِ آلِهَتُهم الذين يتقرَّبُونَ بهم إلى اللهِ حيثُ قالوا: هؤلاءِ شُفَعاؤُنا عندَ اللهِ.

وأوَّلُ مَفْعولَيْ (اتَّخَذ)[1] الرَّاجعُ إلى المَوصولِ المَحذوفِ، وثانيهما ﴿قُرْبَانًا﴾، و﴿ءَالِهَةَۢ﴾ بدلٌ أو عَطفُ بيانٍ، أو ﴿ءَالِهَةَۢ﴾ و﴿قُرْبَانًا﴾ حالٌ أو مفعولٌ له على أنَّه بمَعنى التَّقرُّبِ.

وقُرِئَ: (قُرُبانًا) بضمِّ الرَّاءِ[2].

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ غابوا عَن نصرِهِم وامتنعَ أَنْ يَستَمِدُّوا بهم امتناعَ الاستمدادِ بالضَّالِّ.

﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ وذلك الاتِّخاذُ الذي هذا أثرُهُ صَرَفَهُم عن الحقِّ. وقُرِئَ (أَفَّكَهُم) بالتَّشديدِ للمُبالغَةِ، و(آفَكَهُم) أي: جعلَهُم آفِكينَ، و(آفِكُهُم)[3] أي: قولهم الآفِكُ؛ أي: ذو الإفكِ، ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

(٢٩) ـ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أَمَلْناهُم إليكَ، والنَّفَرُ دونَ العشرةِ وجمعُهُ أَنْفارٌ.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حالٌ مَحمولَةٌ على المعنى.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآنَ أو الرَّسولَ.

﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ قالَ بعضُهُم لِبَعضٍ: اسكُتوا لِنَسمَعَه.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «اتخذوا».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٣٠)، قال ابن خالويه: هذه زيادة على سيبويه لأنه ذكر أنه ليس في كلام العرب كلمة على فُعُلان إلا سُلُطان.

(٣) انظر هذه القراءات مع نسبتها لقارئيها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٦٧ ـ ٢٧٨)، و«البحر» (١٩/ ٢٢٠).

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أُتـمَّ وفُـرغَ مِـن قِراءَتِـه، وقُرِئَ علـى بنـاءِ الفاعلِ[١] وهـو ضَميرُ الرَّسُولِ.

﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: مُنذِرينَ إيَّاهُم بما سَمِعُوا، رُوِيَ أنَّهُم وافَـوْا رَسولَ اللهِ ﷺ بوادي النَّخلةِ عندَ مُنصرَفِهِ مِن الطَّائفِ يقرَأُ في تَهجُّدِه[٢].

(٣٠) ـ ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قيل: إنَّما قالوا ذلك لأنَّهُم كانوا يَهُودًا، أو ما سَمِعُوا بأمرِ عيسى عليهِ السَّلامُ.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ مِـن العَقائـدِ ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مِـن الشَّـرائعِ.

(٣١) ـ ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعضَ ذُنوبِكُم، وهو ما يكونُ في خالصِ حقِّ اللهِ، فإنَّ المظالمَ لا تُغفَرُ بالإيمانِ.

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو مُعَدٌّ للكفَّارِ.

واحتجَّ أبو حنيفةَ باقتصارِهِم على المَغفِرَةِ والإجارةِ على أنْ لا ثوابَ لَهُم[٣]، والأظهَرُ أنَّهُم في توابعِ التَّكليفِ كبَنِي آدمَ.

(٣٢) ـ ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إذ لا يُنْجِي منه مَهرَبٌ.

﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يمنعونَه منه.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٠٥)، و«البحر» (١٩/ ٢٢٣)، عن خبيب بن عبد الله بن الزبير وأبي مجلز.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٠١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وروى بعضه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن الجن أتَوْه ـ ﷺ ـ بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر.

(٣) هي إحدى الروايتين عن الإمام أبي حنيفة، والرواية الثانية التوقف في ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ حيثُ أعرَضُوا عن إجابةِ مَن هذا شَأْنُه.

(٣٣) - ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ ولم يَتْعَب ولَمْ يَعجِزْ، والمعنى: أنَّ قُدرتَهُ واجِبَةٌ لا تنقصُ ولا تنقطِعُ بالإيجادِ أبدَ الآباد.

﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: قادرٌ، ويدلُّ عليهِ قِراءةُ يَعقوبَ: ﴿يَقْدِرُ﴾، والباءُ مَزيدَةٌ لتَأكيدِ النَّفيِ فإنَّهُ مُشتَمِلٌ على (أنَّ) وما في حَيِّزِها، ولذلكَ أجابَ عنهُ بقولِه:

﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تقريرًا للقُدرَةِ على وجهٍ عامٍّ يكونُ كالبُرهانِ على المقصودِ، كأنَّه لَمَّا صَدَّرَ السُّورةَ بتَحقيقِ المبدأِ أرادَ خَتْمَها بإثباتِ المعادِ.

(٣٤) - ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ منصوبٌ بقولٍ مُضمَرٍ مَقولُه: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾ والإشارةُ إلى العذابِ.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ بكُفرِكُم في الدُّنيا، ومعنى الأمرِ هو إهانتُهم والتَّوبيخُ لَهُم.

(٣٥) - ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أولو الثَّباتِ والجدِّ منهم فإنَّك مِن جُملَتِهم، و(مِن) للتَّبيينِ. وقيل: للتَّبعيضِ.

وأولو العَزمِ: أصحابُ الشَّرائعِ اجتَهدُوا في تَأسيسِها وتقريرِهَا وصَبَروا على تحمُّلِ مَشاقِّها ومُعاداةِ الطَّاعنينَ فيها، ومَشاهيرُهُم: نوحٌ وإبراهيمُ ومُوسى وعِيسى صَلَواتُ اللهِ عليهم.

وقيل: الصَّابِرونَ على بلاءِ اللهِ كنُوحٍ صبرَ على أَذى قومِه كانوا يَضرِبُونَه حتى يُغشى عليه، وإبراهيمُ على النَّارِ وذَبحِ ولدِهِ، والذَّبيحُ على الذَّبحِ، ويَعقوبُ على فقدِ

الولدِ والبَصَرِ، ويوسفُ على الجُبِّ والسجنِ، وأَيُّوبُ على الضرِّ، ومُوسَى قالَ لهُ قومُه: إِنَّا لَمُدرَكُونَ قال: كلَّا إنَّ مَعي ربِّي سَيهدِين، وداودُ بَكى على خَطيئَتِه أربعينَ سنةً، وعيسى لم يَضَع لَبِنةً على لَبِنَةٍ.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ لكُفَّارِ قُرَيشٍ بالعَذابِ؛ فإنَّهُ نازلٌ بهم في وَقتهِ لا محالةَ.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ استقصَرُوا مِن هَولِه مدَّةَ لُبثِهِم في الدُّنيا حتى يحسَبونَها ساعةً.

﴿بَلَٰغٌ﴾ هذا الذي وُعِظْتُم به، أو هذهِ السُّورَةُ بَلاغٌ؛ أي: كفايةٌ، أو تبليغٌ مِن الرَّسولِ[١]، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (بَلِّغْ)[٢].

وقيل: مُبتدَأٌ خبرُه ﴿لَّهُمْ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ؛ أي: لهم وَقتٌ يبلُغونَ إليه كأَنَّهُم إذا بلَغُوه ورأَوْا ما فيهِ استقصَرُوا مُدَّةَ عُمرِهِم.

وقُرِئَ بالنَّصبِ[٣] أي: بُلِّغُوا بلاغًا.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجونَ عَن الاتِّعاظِ أو الطَّاعةِ.

وقُرِئَ: (يَهْلِكُ) بفتحِ اللامِ وكسرِها[٤] من هَلِكَ وهلَكَ، و(نُهلِكُ) بالنُّونِ ونَصبِ القَومِ[٥].

---

(١) في نسخة الخيالي: «الرسل».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٦٨)، عن أبي مجلز وأبي سراج الهذلي.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١)، و«المحتسب» (٢/٢٦٨)، و«البحر» (١٩/ ٢٢٧)، عن الحسن وعيسى الثقفي وأبي عمرو الهذلي وزيد بن علي.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١)، و«المحتسب» (٢/ ٢٦٨)، الأولى عن ابن محيصن، والثانية عن أبي مجلز.

(٥) ذكرها في «الكشاف» (٨/ ٢٦٦) من غير نسبة، والآلوسي في «روح المعاني» (٢٥/ ١٢٠) عن =

عَن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الأحقافِ كُتِبَ لهُ عَشرُ حَسَناتٍ بعَددِ كلِّ رملَةٍ في الدُّنيا»[1].

***

= زيد بن ثابت، وجاء في «البحر» (١٩/ ٢٢٨) ععن زيد بن علي: (فهل يُهْلِكُ) بضم الياء وكسر اللام (إلا القومَ الفاسقين).

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٥٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٠٢)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وتتمته: «ومحي عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات»، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٩١).

(٤٦) سورة الأحقاف مكية
وآياتها خمس وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ
ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ
أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ
ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي لا على وجه العبث والباطل، ﴿وأجل مسمى﴾ أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. وقوله تعالى ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ أي لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً، وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله، أي وسيعلمون غب ذلك، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ أي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿أم لهم شرك في السماوات﴾؟ أي ولا شرك لهم في السماوات ولا في الأرض وما يملكون من قطمير. إن الملك والتصرف كله إلا لله عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا﴾ أي هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام ﴿أو أثارة من علم﴾ أي دليل بيّن على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك، قال مجاهد ﴿أو أثارة من علم﴾ أو أحد يأثر علماً، وقال ابن عباس: أو بينة من الأمر،

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم، وقال ابن عباس ومجاهد ﴿أو أثارة من علم﴾ يعني الخط، وقال قتادة ﴿أو اثارة من علم﴾ خاصة من علم، وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾؟ أي لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامه، وهي غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر، لأنها جماد وحجارة صم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ أي سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال تعالى: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

يقول عزّ وجلّ مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم، إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله ﴿بينات﴾ أي في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هذا سحر مبين﴾ أي سحر واضح وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا، ﴿أم يقولون افتراه﴾ يعنون محمداً ﷺ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ أي لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني، وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً﴾، وقال تعالى: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين﴾ ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ هذا تهديد لهم ووعيد أكيد، وترهيب شديد، وقوله جل وعلا: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب الله عليكم، وعفا عنكم وغفر ورحم، وهذه الآية كقوله عزّ وجلّ: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدون بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم، قال ابن عباس ومجاهد ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ ما أنا بأول رسول بُعث إلى الناس.

وقوله تعالى: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ قال ابن عباس: نزل بعدها ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من

ذنبك وما تأخر﴾[1] وقال الضحاك: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أي ما أدري بماذا أومر وبماذا أنهى بعد هذا؟وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أما في الآخرة فمعاذ الله وقد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء؟أم أُقْتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش، إلى ماذا أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون، فيستأصلون بكفرهم؟ فأما الحديث الذي رواه ابن شهاب عن خارجة بن زيد ابن ثابت عن أم العلاء - وكانت بايعت رسول الله ﷺ - قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين (عثمان بن مظعون) رضي الله عنه، فاشتكى عثمان فمرّضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك، لقد أكرمك الله عزّ وجلّ، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله تعالى أكرمه؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «أمّا هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي، قالت، فقلت: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله»[2] وفي لفظ: «ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل به» - وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: فأحزنني ذلك - في هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعيّن بالجنة، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة المبشرين بالجنة، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وما أشبههم وقوله: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي إنما أتبع ما ينزله الله عليّ من الوحي، ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾ أي بيّن النذارة أمري ظاهر، لكل ذي لب وعقل، والله أعلم.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن ﴿أرأيتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند

(١) هكذا قال عكرمة والحسن وقتادة: إنها منسوخة بقوله تعالى ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾، ولما نزلت هذه الآية قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾.

(٢) انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم.

الله وكفرتم بـه﴾ ؟ أي مـا ظنكم أن الله صانع بكم، إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم بـه قد أنزلـه عليّ لأبلغكموه، وقد كفرتم بـه وكذبتموه ؟ ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي، بشرت بـه وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به، وقوله عزّ وجل: ﴿فآمن﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته، ﴿واستكبرتم﴾ أنتم عن اتباعه، وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم، ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وهذا يعم (عبدالله بن سلام) وغيره، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾ وقال: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ الآية، وروى مالك، عن عامر بن سعد عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام رضي الله عنه، قال: وفيه نزلت ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾[1]، وكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة: إنه عبدالله بن سلام، وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون (بلالاً) و (عمّاراً) و (صهيباً) و (خباباً) رضي الله عنهم وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء، غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً وأخطأوا خطأً بيّناً كما قال تبارك وتعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا﴾ أي يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ولهذا قالوا: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾، وأما أهل السنَّة والجماعة فيقولون في كـل فعل وقول لم يثبت عن الصحـابة رضي الله عنهم: هو بدعة، لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقـد بادروا إليها، وقوله تعالى: ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ أي بالقرآن ﴿فسيقولون هذا إفك قديم﴾ أي كذب قديم مأثور عن الناس الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: «بطر الحق وغمط الناس»[2]. ثم قال تعالى: ﴿ومن قبـله كتاب موسى﴾ وهو التوراة ﴿إماماً ورحمة وهذا كتاب﴾ يعني القرآن ﴿مصدق﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿لساناً عربياً﴾ أي فصيحاً بيناً واضحاً ﴿لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ تقدم تفسيرها في سورة حم السجدة، وقوله تعالى: ﴿فلا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلون ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلفوا ﴿أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم، والله أعلم.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي. (٢) (بطر الحق) أي دفعه وعدم قبوله. و (غمط الناس) أي احتقارهم وازدراءهم.

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله عزّ وجلّ: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾، وقوله جلّ جلاله: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وقال عزّ وجلّ ههنا: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما، روى أبو داود الطيالسي، عن سعد رضي الله عنه قال، قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين؟ فلا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعتْ من الطعام والشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾ الآية(١)، ﴿حملته أُمّه كرهاً﴾ أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً، من وَحَم وغشيان وثقل وكرب إلى غير ذلك، مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿ووضعته كرهاً﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته، ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ وقد استدل بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وفصاله في عامين﴾، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح، روى محمد بن إسحاق، عن معمر ابن عبدالله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه، فذكر ذلك له، فبعث إليها فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك، فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط، فيقضي الله سبحانه وتعالى فيَّ ما شاء، فلما أتي بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه، فأتاه فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لستة أشهر وهل يكون ذلك؟ فقال له علي رضي الله عنه: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ وقال: ﴿حولين كاملين﴾ فلم نجده بقي إلّا ستة أشهر، قال، فقال عثمان رضي الله عنه: والله ما فطنت بهذا، عليَّ بالمرأة، فوجدوها قد فرغ منها، قال، فقال معمر: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلما رآه أبوه قال: ابني والله لا أشك فيه، قال، وابتلاه الله تعالى بهذه القرحة بوجهه الآكلة، فما زالت تأكله حتى مات(٢)، وقال ابن عباس: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين، لأن الله تعالى يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي قوي وشب وارتجل، ﴿وبلغ أربعين سنة﴾ أي تناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه، ويقال إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين، وروى الحافظ الموصلي، عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبَّت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفعه الله تعالى في أهل بيته، وكتب في السماء أسير الله في أرضه»(٣)

﴿قال رب أوزعني﴾ أي ألهمني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾

(١) أخرجه الطيالسي، ورواه مسلم وأصحاب السنن إلا ابن ماجة بإسناد نحوه وأطول منه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: وقد أوردناه من وجه آخر.

(٣) أخرجه الحافظ الموصلي، وروي من غير هذا الوجه في مسند الإمام أحمد.

أي في المستقبل، ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ أي نسلي وعقبي، ﴿إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدّد التوبة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ ويعزم عليها، وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد: «اللهم ألّف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها، وأتمها علينا»(١). قال الله عزّ وجل: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة﴾ أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ونتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل ﴿في أصحاب الجنة﴾ أي هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله عزّ وجلّ من تاب إليه وأناب، ولهذا قال تعالى: ﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾، روى ابن أبي حاتم، عن محمد بن حاطب قال: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه، وعنده (عمار) و (صعصعة) و (الأشتر) و (محمد بن أبي بكر) رضي الله عنهم، فذكروا عثمان رضي الله عنه فنالوا منه، فكان علي على السرير ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم، فسألوه، فقال علي رضي الله عنه: كان عثمان رضي الله عنه من الذين قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان رضي الله عنهم، قالها ثلاثاً. قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: آلله لَسمعتَ هذا من علي رضي الله عنه؟ قال: آلله لَسمعتُ هذا من علي رضي الله عنه(٢)

وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما، وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿والذي قال لوالديه أفّ لكما﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في (عبدالرحمن بن أبي بكر) رضي الله عنهما فقوله ضعيف، لأن عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه، وإنما هذا عام في كل من عق والديه وكذب بالحق فقال لوالديه:

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

أف لكما . روى ابن أبي حاتم، عن عبدالله بن المديني قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: إن الله تعالى قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً، وإن يستخلفه، فقد استخلف أبو بكر عمر رضي الله عنهما، فقال عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: أهرقلية ؟ إن أبا بكر رضي الله عنه والله ما جعلها في أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده، فقال مروان: ألست الذي قال لوالديه: أُفٍ لكما ؟ فقال عبدالرحمن رضي الله عنه: ألست ابن اللعين الذي لعن رسولُ الله ﷺ أباك، قال: وسمعتهما عائشة رضي الله عنها فقالت: يا مروان ! أنت القائل لعبدالرحمن رضي الله عنه كذا وكذا ؟ كذبت، ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلان بن فلان، ثم انتحب مروان، ثم نزل عن المنبر، حتى أتى باب حجرتها فجعل يكلمها حتى انصرف[1] . وروى النسائي، عن محمد بن زياد قال: قال لما بايع معاوية رضي الله عنه لابنه قال مروان: سنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: سنة هرقل وقيصر، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿والذي قال لوالديه أُفٍ لكما﴾، فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت: كذب مروان، والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروانُ فَضَضٌ من لعنة الله[2] ، وقوله: ﴿أتعدانني أن أخرج﴾ ؟ أي أبعث، ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر ، ﴿وهما يستغيثان الله﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿ويلك آمن إن وعد الله حق، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ .

قال الله تعالى : ﴿أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وقوله: ﴿أولئك﴾ بعد قوله ﴿والذي قال﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك، وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ أي لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها، قال عبدالرحمن بن زيد: درجات النار تذهب سَفَالاً، ودرجات الجنة تذهب علواً، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ ، أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشارب وتنزه عنها وقال : إني أخاف أن أكون من الذين قال الله لهم: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ جُوزوا من جنس عملهم، فكما متعوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفظِعة، أجارنا الله سبحانه وتعالى من ذلك كله .

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم ، ورواه البخاري بإسناد آخر ولفظ آخر .

(٢) أخرجه النسائي في سننه . ومعنى (فضض) : قطعة .

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيّه ﷺ، في تكذيب من كذبه من قومه ﴿واذكر أخا عاد﴾ وهو ﴿هود﴾ عليه الصلاة والسلام، بعثه الله عزّ وجلّ إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حِقْف، وهو الجبل من الرمل، وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار، وقال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشِّحْر، وقوله تعالى: ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾، يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي قال لهم هود ذلك فأجابه قومه قائلين ﴿أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾؟ أي لتصدنا عن آلهتنا، ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله جلّت عظمته: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾، ﴿قال إنما العلم عند الله﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أن أبلغكم ما أرسلت به ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون، قال الله تعالى: ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ أي هو العذاب الذي قلتم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، ﴿تدمر﴾ أي تخرب ﴿كل شيء﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب، ﴿بأمر ربها﴾ أي بإذن الله لها في ذلك، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ أي كالشيء البالي، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذّب رسلنا وخالف أمرنا.

يروى أن عاداً قحطوا فبعثوا وفداً يقال له (قيل) فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان، يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودي منها اختر، فأومأ إلى سحابة سوداء، فنودي منها خذها رماداً رِمْدَداً[1]، لا تبقي من عاد أحداً، فما أرسل عليهم من الريح إلا قدر

(١) يقال: رِمْدِدٌ ورِمْدَد ورِمْديد: أي كثير دقيق جداً.

ما يجري في الخاتم حتى هلكوا، قال أبو وائل: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم، قالوا: لا تكن كوافد عاد[1]، وروى الإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه. قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب وقالوا هذا عارض ممطرنا»[2]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به. قالت: وإذا تخيَّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، وإذا أمطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها، فسألته، فقال رسول الله ﷺ: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا﴾»[3]، وقد ذكرنا قصة هلاك قوم عاد في سورة الأعراف وهود بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة.

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه، ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾، أي وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ يعني أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضاً، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وصرفنا الآيات﴾ أي بيناها وأوضحناها ﴿لعلهم يرجعون * فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾ أي فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بل ضلوا عنهم﴾ أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن الحارث البكري. وهو حديث غريب كما قال ابن كثير من غرائب الحديث وأفراده.

(٢) أخرجه أحمد، ورواه الشيخان من حديث ابن وهب عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

﴿ وذلك إفكهم ﴾ أي كذبهم، ﴿ وما كانوا يفترون ﴾ أي وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها، والله أعلم.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

رُوي عن الزبير ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة، ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ ﷺ وكانوا سبعة من جن نصيبين»[١]. وروى الحافظ البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: مالكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾، وأنزل الله على نبيّه ﷺ ﴿ قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن[٢]؛ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه، قالوا: أنصتوا، قال: صه، وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قُضيَ ولوا إلى قومهم منذرين - إلى - ضلال مبين ﴾ فهذا مع رواية ابن عباس يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً، قوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج، قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعتِ الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ.

روى الإمام مسلم، عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود رضي الله عنه شهد مع رسول الله ﷺ

(١) تفرد به الإمام أحمد.

(٢) أخرجه البيهقي ورواه البخاري ومسلم بنحوه.

ليلة الجن ؟ قال، فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود رضي الله عنه فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقيل: استطير ؟ اغتيل ؟ قال، فبتنا بشر ليلة بات بها قومٌ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حِرَاء، قال، فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: « أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن »، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم »، قال رسول الله ﷺ: « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم »[1]. وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بت الليلة أقرأ على الجن واقفاً بالحجون »[2]. (**طريق أخرى**) : قال ابن جرير، عن ابن شهاب، عن أبي عثمان بن شبة الخزاعي – وكان من أهل الشام – قال: إن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: « من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل »، فلم يحضر منهم أحد غيري، قال، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط برجله خطاً، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن، فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته . ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي منهم رهط ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتاني فقال: « ما فعل الرهط ؟ » قلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم[3] وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من (نينوى) وأن نبي الله ﷺ قال: « إني أمرت أن أقرأ على الجن، فأيكم يتبعني ؟ » فأطرقوا، ثم استتبعهم ، فأطرقوا ، ثم استتبعهم الثالثة ، فقال رجل : يا رسول الله إن ذاك لذو ندبة، فأتبعه ابن مسعود رضي الله عنه أخو هذيل، قال: فدخل ﷺ شعباً يقال له (شعب الحجون) وخط عليه، وخط على ابن مسعود رضي الله عنه خطاً ليثبته بذلك، قال: فجعلت أُهالُ وأرى أمثال النسور تمشي في دفوفها، وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على نبي الله ﷺ، ثم تلا القرآن، فلما رجع رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله ما اللغط الذي سمعت ؟ قال ﷺ: « اختصموا في قتيل فقضي بينهم بالحق »[4]

فهذه الطريق تدل على أنه ﷺ ذَهَبَ إلى الجن قصداً ، فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ، أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين، وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوماً فقال: « من هذا ؟ » ، قال: أنا أبو هريرة، قال ﷺ: « ائتني بأحجار أستنج بها ولا تأتني بعظم ولا روثة »، فأتيته بأحجار في ثوبي ، فوضعتها إلى جنبه، حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله ما بال العظم والروثة ؟ قال ﷺ: « أتاني وفد جن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه . (٢) أخرجه ابن جرير .

(٣) أخرجه ابن جرير ، ورواه البيهقي وأبو نعيم بنحوه .

(٤) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وهو حديث مرسل .

نصيبين فسألوني الزاد، فدعوت الله تعالى لهم أن لا يمروا بروثة ولا عظم، إلا وجدوه طعاماً »[١] . وقال سفيان الثوري، عن ابن مسعود رضي الله عنه: كانوا تسعة أحدهم زوبعة ، أتوه من أصل نخلة، وفي رواية أنهم كانوا على ستين راحلة ، وقيل كانوا ثلثمائة ، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ . ومما يدل على ذلك ما قاله البخاري في صحيحه، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط إني لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس إذ مر به رجل جميل، فقال : لقد أخطأ ظني ، أو أن هذا على دينه في الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم ، عليَّ بالرجل ، فدعي له ، فقال له ذلك ، فقال: ما رأيت كاليوم أستقبل بـه رجل مسلم ، قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني ، قال: كنت كاهنهم في الجاهلية، قال فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال بينما أنا يوماً في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت :

ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر رضي الله عنه: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل، فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : يا جليح ، أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله ، قال: فوثب القوم ، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله ، فقمت فما نشبنا أن قيل: هذا نبي »[٢] .

وقوله تبارك وتعالى ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ أي طـائفة من الجن، ﴿ يستمعون القرآن فلما حضروه قـالوا أنصتوا ﴾ أي استمعوا وهذا أدب منهم ، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال: « مالي أراكم سكوتاً ؟ لَلْجِنُّ كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ إلا قالوا : ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »[٣] . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ فلما قضي ﴾ أي فرغ كقوله تعالى: ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ ، ﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾ ، ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ أي رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كقوله جلّ وعلا: ﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾، وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذُرٌ وليس فيهم رسل، فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ ؟ فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس ، كقوله: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي أحدهما ، ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم، فقال مخبراً عنهم: ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾ ولم يذكروا عيسى، لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل ، فيه مواعظ وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا ﴿ أنزل من بعد موسى ﴾ ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه .

(٢) هذا لفظ البخاري وقد رواه البيهقي بنحوه .

(٣) أخرجه الحافظ البيهقي ، ورواه الترمذي وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد عن زهير .

المنزلة على الأنبياء قبله، ﴿يهدي إلى الحق﴾ أي في الاعتقاد والإخبار، ﴿وإلى طريق مستقيم﴾ في الأعمال فإن القرآن مشتمل على: خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾، وهكذا قالت الجن ﴿يهدي إلى الحق﴾ في الاعتقادات، ﴿وإلى طريق مستقيم﴾ أي في العمليات ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين، الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهي «سورة الرحمن»، ولهذا قال: ﴿أجيبوا داعي الله وآمنوا به﴾.

وقوله تعالى: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ قيل إن ﴿من﴾ ههنا زائدة، وفيه نظر، وقيل إنها للتبعيض، ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾ أي ويقيكم من عذابه الأليم، ومؤمنو الجن يدخلون الجنة كمؤمني الإنس، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولم يرد نص صريح ولا ظاهر عن الشارع، أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به. وقد حكي فيهم أقوال غريبة، فمن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يروا بني آدم، بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا، ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس عوضاً عن الطعام والشراب، كالملائكة لأنهم من جنسهم، وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها، ثم قال مخبراً عنهم: ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ أي بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ﴿وليس له من دونه أولياء﴾ أي لا يجيرهم منه أحد ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجع في كثير منهم، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً كما تقدم بيانه، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٣ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٤ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝٣٥﴾

يقول تعالى: أو لم ير هؤلاء المنكرون للبعث، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن﴾ أي ولم يكرثه خلقهن بل قال لها: كوني فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال عزّ وجلّ في الآية الأُخرى: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿بلى إنه على كل شيء قدير﴾ ثم قال جلّ جلاله متهدداً ومتوعداً لمن كفر به: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق﴾؟ أي يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قالوا بلى وربنا﴾ أي لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾، ثم قال تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ أي على تكذيب قومهم لهم،

﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تبارك وتعالى ﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ ، ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾، وكقوله عزّ وجلّ: ﴿ ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون بينهم ﴾ الآية ، وقوله جل وعلا: ﴿ بلاغ ﴾ تقديره هذا القرآن بلاغ، وقوله تعالى: ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ ؟ أي لا يهلك إلا هالك ، وهـذا من عدله عزَّ وجلَّ ، أنـه لا يعذب إلا من يستحق العذاب والله أعلم .

[آخر تفسير سورة الأحقاف ، ولله الحمد والمنة]

※ ※ ※

تفسير سورة الأحقاف

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ .

يخبر تعالى أنه نَزّل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التى لا ترام، والحكمة فى الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أى: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أى: لاهون[١] عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتاب وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله، أى: وسيعلمون غبّ ذلك.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أى: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أى: أرشدونى إلى المكان الذى استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أى: ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْك والتصرّف كله إلا الله، عز جل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شىء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا ﴾ أى: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء[٢]، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أى: دليل بيّن على هذا المسلك الذى سلكتموه ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: لا دليل لكم نقلياً ولا عقليا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أَثَرَة من علم» أى: أو علم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد يأثر علما.

---

(١) فى ت، م، أ: «لاهين».

(٢) فى ت، م، أ: «هاتوا كتابا من الكتب المنزلة على أنبيائهم».

قال العَوْفى، عن ابن عباس: أو بينة من الأمر.

وقال[(١)] الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن[(٢)] سُلَيم، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبى ﷺ: «أو أَثَرَة من علم» قال: «الخط»[(٣)].

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصرى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾: شىء يستخرجه فيثيره.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضا: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يعنى الخط.

وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم.

وكل هذه الأقوال متقاربة، وهى راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله وأكرمه، وأحسن مثواه.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أى: لا أضل ممن يدعو أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهى غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد، حجَارة، صُمّ.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أى: سيخونونهم[(٤)] أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى كفرهم وعنادهم: إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أى: فى حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: سحر واضح، وقد كَذَبوا وافتروا وضَلّوا وكفروا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون: محمدا ﷺ. قال الله [تعالى][(٥)]: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلنى ـ وليس كذلك ـ لعاقبنى أشد

(١) فى ت: «وروى».
(٢) فى أ: «عن» وهو خطأ.
(٣) المسند (١/ ٢٢٦).
(٤) فى أ: «سيجدونهم».
(٥) زيادة من ت، أ.

العقوبة، ولم يَقْدرْ أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرنى منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجيرنِى منَ اللَّه أَحَدٌ ولَنْ أَجِدَ من دُونه مُلْتَحَدًا . إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّه وَرِسَالاته﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا منكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أى: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر [لكم] (١) ورحم. وهذه الآية كقوله فى سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ أى: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلى، فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكرونى وتستبعدوا (٢) بعثتى إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: نزل بعدها ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ [الفتح: ٥].

هكذا قال، والذى هو ثابت فى الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ ﴾: ما أدرى بماذا أومر، وبماذا أنهى بعد هذا؟

وقال أبو بكر الهذلِىّ، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ ﴾ قال: أما فى الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه فى الجنة، ولكن قال: لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء [من](٣) قبلى؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى؟ ولا أدرى أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة؟

وهذا القول هو الذى عَوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤُول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، م، أ: «وتستبعدون». (٣) زيادة من أ.

فسيتأصلون بكفرهم[١]؟ فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ وهى امرأة من نسائهم ـ أخبرته ـ وكانت بايعت رسول الله ﷺ ـ قالت: طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فَمرَّضناه، حتى إذا توفى أدْرَجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتى عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدرى بأبى أنت وأمى! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه[٢] اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى!» قالت: فقلت: والله لا أزكى أحدًا بعده أبدا. وأحزننى ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجرى، فجئت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك[٣] عمله».

فقد انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم[٤]، وفى لفظ له: «ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به»[٥] . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزننى ذلك». وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذى[٦] نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد[٧] جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى: إنما أتبع ما ينزله الله علىَّ من الوحى، ﴿وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين النّذَارة، وأمرى[٨] ظاهر لكل ذى لب وعقل.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ أى: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله

---

(١) فى ت، أ: «كغيرهم». (٢) فى أ: «جاءه والله». (٣) فى ت: «ذلك».
(٤) المسند (٦/٤٣٦) وصحيح البخارى برقم (١٢٤٣).
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٦٨٧).
(٦) فى أ: «الذين». (٧) فى ت: «أبو». (٨) فى أ: «رأى».

علىَّ لأبلغكموه وقد كَفَرتم به وكذبتموه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أى: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلى، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

وقوله: ﴿فَآمَنَ﴾ أى: هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيته ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم: عن اتباعه.

وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

قال مسروق، والشعبى: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبى حاتم، واختاره ابن جرير.

وقال مالك، عن أبى النَّضْر، عن عامر بن سعد[(١)]، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾.

رواه البخارى ومسلم والنسائى، من حديث مالك، به[(٢)]. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يَسَاف، والسُّدِّى، والثورى، ومالك بن أنس وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أى: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه[(٣)]. يعنون بلالا وعمارا وصُهَيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم[(٤)] من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا، وأخطؤوا خطأ بينا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أى: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة[(٥)] والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، لأنهم

---

(١) فى أ: «سعيد».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٨١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٢٥٢).

(٣) فى ت: «ما سبقونا إليه هؤلاء». (٤) فى أ: «وأضرابهم».

(٥) فى م، ت، أ: «يعنى المؤمنين، وأما أهل السنة».

لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها[١].

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أى: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ﴾ أى: كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ أى: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال رسول ﷺ: «بطر[٢] الحق، وغَمْط الناس»[٣].

ثم قال: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى: القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أى: لما قبله من الكتب ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فصيحا بينا واضحا، ﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أى: مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: تقدم تفسيرها فى سورة «حم، السجدة»[٤].

وقوله: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسُبُوغها[٥] عليهم.

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾ .

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أى: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، أخبرنى سِمَاك بن حرب قال: سمعت مُصْعب بن سعد[٦] يحدث عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاما، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية [العنكبوت: ٨] .

---

(١) فى ت، م: «إليه». (٢) فى أ: «الكبر بطر».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود ،رضى الله عنه.
(٤) راجع تفسير هذه الآية عند الآية: ٣٠ من سورة السجدة. (٥) فى أ: «وشيوعها». (٦) فى أ: «حرب».

ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث شعبة بإسناده، نحوه وأطول منه[١].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أى: قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعبا، من وِحَام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أى: بمشقة أيضا من الطلق وشدته، ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدل على، رضى الله عنه، بهذه الآية مع التى فى لقمان: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوى صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضى الله عنهم.

قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط، عن بَعْجَةَ[٢] بن عبد الله الجهنى قال: تزوج رجل منا امرأة من جُهَيْنة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك؟! فوالله ما التبس بى أحد من خلق الله غيره قط، فيقضى الله فى ما شاء. فلما أتى بها عثمان أمر برجمها، فبلغ ذلك عليا فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماما لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له [على][٣] أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾. وقال: ﴿[يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ][٤] حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فلم نجده بقى إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، على بالمرأة فوجدوها قد فُرِغَ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابنى إنى والله لا أشك فيه، قال: وأبلاه[٥] الله بهذه القرحة قرحة الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات[٦].

رواه ابن أبى حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا فَرْوَة بن أبى المَغْرَاء، حدثنا على بن مِسْهَر، عن داود بن أبى هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس[٧] قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر، كفاه من الرضاع أحد[٨] وعشرون شهرا، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أى: قوى وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أى: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين.

---

(١) مسند الطيالسى برقم (٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨) وسنن أبى داود برقم (٢٧٤٠) وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١١٩٦) لكن النسائى لم يرو الشاهد هنا وإنما روى أوله.

(٢) فى ت، أ: «معمر». (٣) زيادة من ت، أ.

(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت، م، أ: «وابتلاه».

(٦) ورواه ابن المنذر وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور للسيوطى (٧/٤٤١).

(٧) فى ت: «عن عكرمة وروى عن ابن عباس». (٨) فى ت: «بأحد»، وفى أ، هـ: «أحد».

قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغْتَ الأربعين، فَخُذْ حذرك.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا عُبَيد الله القواريرى، حدثنا عَزْرَة بن قيس الأزدى ـ وكان قد بلغ مائة سنة ـ حدثنا أبو الحسن السلولى[(١)] عنه وزادنى[(٢)] قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان، عن النبى ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة، خفف الله حسابه، وإذا بلغ[(٣)] ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبّه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحا سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفَّعه الله فى أهل بيته، وكتب فى السماء: أسير[(٤)] الله فى أرضه»[(٥)].

وقد روى هذا من غير هذا الوجه، وهو فى مسند الإمام أحمد[(٦)] [(٧)].

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمى أحد أمراء بنى أمية بدمشق: تركت المعاصى والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله ، عز وجل.

وما أحسن قول الشاعر:

صَبَا ما صَبَا حَتى عَلا الشَّيبُ رأسَهُ ... فلمَّا عَلاهُ قال للباطل: ابطُل[(٨)]

﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أى: ألهمنى ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أى: فى المستقبل، ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أى: نسلى وعقبى، ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عز وجل، ويعزم عليها.

وقد روى أبو داود فى سننه، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا فى التشهد: «اللهم، ألف بين قلوبنا،وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبُل[(٩)] السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها قابليها، وأتممها علينا»[(١٠)].

قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿ فى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أى:هم فى جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد

(١) فى م، أ: «أبو الحسن الكوفى ـ عمرو بن أوس». (٢) فى ت: «وروى الحافظ».
(٣) فى ت، م: «رزقه». (٤) فى ت، م، أ: «أمين».
(٥) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير وفيه عزرة بن قيس الأزدى، وهو ضعيف» .
(٦) فى ت: «وهذا الحديث فى مسند الإمام أحمد».
(٧) رواه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه، المسند (٣/ ٢١٨).
(٨) فى ت، م، أ: «أبعد». (٩) فى ت: «سبيل».
(١٠) سنن أبى داود برقم (٩٦٩).

الله من تاب إليه وأناب؛ ولهذا قال: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

قال[١] ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المُعْتَمِر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطْريف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس[٢]، عن رسول الله ﷺ، عن الروح الأمين، عليه[٣] السلام، قال: «يؤتى[٤] بحسنات العبد وسيئاته[٥]، فيقتص[٦] بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له في الجنة» قال: فدخلتُ على يزداد فَحُدِّث بمثل هذا الحديث قال: قلت: فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[٧].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله ـ وزاد: عن الروح الأمين. قال: قال الرب، جل جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته. . . فذكره، وهو حديث غريب، وإسنادٌ جيد لا بأس به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن مَعْبَد، حدثنا عمرو بن عاصم الكلائي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر[٨] جعفر بن أبي وَحْشية، عن يوسف بن سعد[٩]، عن محمد بن حاطب قال: ونزل في داري حيث ظهر علي على أهل البصرة، فقال لي يوما: لقد شهدتُ أمير المؤمنين عليا، وعنده عمارا وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر، فذكروا عثمان فنالوا منه، وكان علي، رضي الله عنه، على السرير، ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه، فقال علي: كان عثمان من الذين قال الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان ـ قالها ثلاثا ـ قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: آلله لسمعت هذا من عليّ؟ قال: آلله لسمعت هذا من علي، رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾.

---

(١) في ت: «وروى». (٢) في ت: «ابن عباس رضي الله عنه». (٣) في م: «عليهما».
(٤) في ت: «تؤتى». (٥) في أ: «وسيئاته يوم القيامة». (٦) في أ: «فيقبض».
(٧) تفسير الطبري (٢٦/١٢) ورواه أبو نعيم في الحلية (٣/٩١) من طريق معتمر بن سليمان به، وقال أبو نعيم: «هذا حديث غريب من حديث جابر، والغطريف تفرد به عنه الحكم بن أبان العدني».
(٨) في أ: «بشير». (٩) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده».

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ ـ وهذا عام فى كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبى بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

وروى العَوْفى، عن ابن عباس: أنها نزلت فى ابن لأبى بكر الصديق. وفى صحة هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: نزلت فى عبد الله بن أبى بكر. وهذا أيضا قاله ابن جريج.

وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبى بكر. وقاله[1] السدى. وإنما هذا عام فى كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ عقهما.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبى زائدة، عن إسماعيل بن أبى خالد، أخبرنى عبد الله بن المدينى قال: إنى لفى المسجد حين خطب مَرْوان، فقال: إن الله أرى[2] أمير المؤمنين فى يزيد رأيا حسنا، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: أهرقلية؟! إن أبا بكر والله ما جعلها فى أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية فى ولده إلا رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: ألست الذى قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألست ابن اللعين الذى لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال: وسمعتهما عائشة فقالت: يا مروان، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبتَ، ما فيه نزلت، ولكن نزلت فى فلان بن فلان. ثم انتحب مروان، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف[3].

وقد رواه البخارى بإسناد آخر ولفظ آخر، فقال: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوانة، عن أبى بِشْر، عن يوسف بن مَاهَك قال: كان مَرْوان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبى سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، رضى الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال[4] مروان: إن هذا الذى أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذْرى[5].

طريق أخرى: قال النسائى: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أميَّة بن خالد، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سُنَّة أبى بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبى

(١) فى ت، م: «وهذا قول». (٢) فى م، أ: «الله قد رأى».

(٣) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٧/ ٤٤٤).

(٤) فى أ: «فلم يقدر عليه فقام فقال».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٧).

بكر: سُنَّة هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذى أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان! والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذى أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروانُ فى صلبه، فمروان فَضَضٌ(١) من لعنة الله(٢).

وقوله: ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى: [أن](٣) أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ أن(٤): قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أى: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ قال الله [تعالى](٥): ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: دخلوا فى زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿ وَالَّذِى قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك.

وقال الحسن، وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سهل بن داود، من طريق هشام بن عمار: حدثنا حماد ابن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبى، عن سليمان بن حبيب المحاربى، عن أبى أمامة الباهلى، عن النبى ﷺ قال: «أربعة لعنهم الله من فوق عرشه، وأَمَّنتْ عليهم الملائكة: مضل المساكين ـ قال خالد: الذى يهوى بيده إلى المسكين فيقول: هلم أعطيك، فإذا جاءه قال: ليس معى شىء ـ والذى يقول للمكفوف: اتق الدابة، وليس بين يديه شىء. والرجل يسأل عن دار القوم فيدلونه على غيرها، والذى يضرب الوالدين حتى يستغيثا»(٦). غريب جدا.

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أى: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفالا، ودرجات الجنة تذهب علوا.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا. وقد تورع [أمير المؤمنين](٧) عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن(٨) كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: [إنى](٩) أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقَرَّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

---

(١) فى أ: «بعض».

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩١).

(٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، أ: «أى». (٥) زيادة من ت، م.

(٦) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٠/ ٢٢١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/ ٢٥١) من طريق هشام بن عمار به. قال ابن أبى حاتم فى العلل (٢/ ٤١٣): «سألت أبى عن هذا الحديث فقال: هذا حديث منكر». قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٢٥١): «حماد بن عبد الرحمن العكى عن خالد بن الزبرقان، وكلاهما ضعيف».

(٧) زيادة من ت، م، أ. (٨) فى أ: «على». (٩) زيادة من ت، م، أ.

وقال أبو مِجْلَز: ليتفقَّدَنّ أقوامٌ حَسَنات كانت لهم فى الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصى، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزى والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل فى الدركات المفظعة، أجارنا الله من ذلك كله.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾.

يقول تعالى مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف ـ جمع حقْف وهو: الجبل من الرمل ـ قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى بُرْهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكر لنا أن عادا كانوا حيا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر.

قال ابن ماجه: «باب إذا دعا فليبدأ بنفسه»: حدثنا الحسين بن على الخلال، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله، وأخا عاد»(١).

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنى: وقد أرسل الله إلى من حَوَل بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا(٢) فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(٣)﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] أى: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أى: لتصدنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن

---

(١) سنن ابن ماجه (٣٨٥٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٠٤): «هذا إسناد صحيح وله شواهد فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى بن كعب».

(٢) فى م: «تولوا»، وهو خطأ.

(٣) فى ت، م، أ، هـ: «إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم»، والصواب ما أثبتناه.

كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قَالَ[١] إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل[٢] ذلك بكم، وأما أنا فمن شأنى أنى أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أى: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أى: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا به واستبشروا به[٣]، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: هو العذاب الذى قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿تُدَمِّرُ﴾ أى: تخرّب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم، مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أى: بإذن الله لها فى ذلك، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أى: كالشىء البالى. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ أى: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث فى قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، قال الإمام أحمد:

حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى قال: حدثنا عاصم بن أبى النَّجُود، عن أبى وائل، عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالرَّبْذَة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله ـ أو قال: رحله ـ فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شىء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة[٤] عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وها هى بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلى ما قال الأول: «معزَى حَمَلَت حَتْفَها»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد؟» ـ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه[٥] ـ قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان»ـ فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة فقال: اللهم،

(١) فى م: «وقال» وهو خطأ.
(٢) فى م، أ: «فسيفعل».
(٣) فى م، ت: «ففرحوا به واستبشروا به».
(٤) فى ت، أ: «الدائرة».
(٥) فى أ: «يستعظمه».

إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودى منها: «اختر»، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رماداً رمدداً[(١)]، لا تبقى من عاد أحداً». قال: فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى هلكوا ـ قال أبو وائل: وصدق ـ وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد».

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، كما تقدم فى سورة «الأعراف»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو: أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة[(٣)] أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان[(٤)] إذا رأى غيما ـ أو ريحا ـ عرف ذلك فى وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا». وأخرجاه[(٥)] من حديث ابن وهب[(٦)].

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئا فى أفق من آفاق السماء، ترك عمله، وإن كان فى صلاته، ثم يقول: «اللهم، إنى أعوذ بك من شر ما فيه[(٧)]». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «اللهم، صيبا نافعا»[(٨)].

طريق أخرى: قال مسلم فى صحيحه: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبى رباح، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إنى أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تَخَيَّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا**﴾»[(٩)].

وقد ذكرنا قصة هلاك عاد[(١٠)] فى سورتى «الأعراف وهود»[(١١)] بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله

---

(١) فى ت: «رمدا».

(٢) المسند (٣/ ٤٨٢) وانظر تخريج بقية هذا الحديث عند الآية: ٧٣ من سورة الأعراف.

(٣) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٤) فى ت، م: «وكان رسول الله ﷺ». (٥) فى ت: «أخرجه».

(٦) المسند (٦/ ٦٦)، وصحيح البخارى برقم (٤٨٢٨، ٤٨٢٩)، وصحيح مسلم برقم (٨٩٩).

(٧) فى م: «من سوء عاقبته».

(٨) المسند (٦/ ١٩٠).

(٩) صحيح مسلم برقم (٨٩٩).

(١٠) فى ت، م، أ: «هلاك قوم عاد».

(١١) راجع قصة هلاك قوم عاد عند تفسير الآيات: ٦٥ ـ ٧٢ من سورة الأعراف، والآيات: ٥٠ ـ ٦٠ من سورة هود.

الحمد والمنة.

وقال الطبرانى: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفى، حدثنا أبو مالك عن مسلم الملائى، عن مجاهد وسعيد بن جبير[١]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم [فحملتهم] البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادى فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا. قال: عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب[٢] »[٣].

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها[٤] ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه، **﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** أى: وأحاط بهم العذاب والنكال الذى كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أى: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب فى الدنيا والآخرة.

وقوله: **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾** يعنى: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت فى طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضا.

وقوله: **﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾** أى: بيناها ووضحناها، **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾** أى: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم، **﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾** أى: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، **﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾** أى: كذبهم، **﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾** أى: وافتراؤهم فى اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا فى عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

---

(١) فى ت: «وروى الطبرانى بإسناده». (٢) فى ت: «البيوت».

(٣) المعجم الكبير (١٢/ ٤٢)، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٣): «فيه مسلم الملائى وهو ضعيف».

(٤) فى ت: «فيها».

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو: سمعت عكرمة، عن الزبير: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلى العشاء الآخرة، ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، قال سفيان: اللبد: بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض[١].

تفرد به أحمد، وسيأتى من رواية ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنهم سبعة من جن نَصِيبِين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة (ح) ـ وقال الحافظ[٢] أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضى، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير[٣]، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شىء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا ـ والله ـ الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ، قالوا: ياقومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه[٤]: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن:١]، وإنما أوحى إليه قول الجن.

رواه البخارى عن مُسَدَّد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن أبى عوانة، به. ورواه

---

(١) المسند (١/ ١٦٧).
(٢) فى م: «الحافظ الشهير».
(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».
(٤) فى ت، م، أ: «نبيه ﷺ».

الترمذى والنسائى فى التفسير، من حديث أبى عوانة[١].

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، **عن سعيد بن جبير**[٢]، عن ابن عباس، قال: كان الجن يستمعون[٣] الوحى، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبى ﷺ يصلى بين جبلى نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض.

رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننيهما، من حديث إسرائيل، به[٤]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس أيضا، بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصرى: إنه، عليه السلام، ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله عليه بخبرهم.

وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل، وإبائهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى» إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين[٥].

وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة». فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره [والله أعلم][٦].

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا سفيان، عن عاصم، **عن زر**[٧]، **عن عبد الله** بن مسعود قال: هبطوا على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قال[٨]: صه، وكانوا تسعة[٩] أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾** إلى: **﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾**[١٠].

---

(١) المسند (١/ ٢٥٢)، ودلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٢٥).

(٢) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٣) فى ت، م: «فيستمعون».

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٤٤٩)، وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٣)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم(١١٦٤).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤١٩). (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «وروى أبو بكر بن أبى شيبة بسنده».

(٨) فى ت، م، أ: «قالوا». (٩) فى أ: «سبعة».

(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٥٦) من طريق أبى بكر بن أبى شيبة به، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج، كما سيأتى بذلك الأخبار فى موضعها والآثار، مما سنوردها[١] هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

فأما ما رواه البخارى ومسلم جميعا، عن أبى قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسى، عن أبى أسامة حماد بن أسامة، عن مسعر بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبى قال: سألت مسروقا: من آذن النبى ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك ـ يعنى ابن مسعود [٢] ـ أنه آذنته بهم شجرة[٣] ـ فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى، ويكون إثباتا مقدما على نفى ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة، أى: أعلمته باستماعهم، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقى: وهذا الذى حكاه ابن عباس رضى الله عنهما[٤]، إنما هو فى أول ما سمعت[٥] الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، كما رواه عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه[٦].

ذكر الرواية عنه بذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داود، عن الشعبى ـ وابن أبى زائدة، أخبرنا داود، عن الشعبى[٧] ـ عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان فى وجه الصبح ـ أو قال: فى السحر ـ إذا نحن به يجىء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله ـ فذكروا له الذى كانوا فيه ـ فقال: «إنه أتانى داعى الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ـ قال: وقال الشعبى: سألوه الزاد ـ قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان عليه لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم ـ قال ـ فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن».

وهكذا رواه مسلم فى صحيحه، عن على بن حجر، عن إسماعيل بن علية، به نحوه[٨].

وقال مسلم أيضا: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود ـ وهو ابن أبى هند ـ عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود، رضى الله عنه، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة

---

(١) فى ت: «نوردها». (٢) فى ت: «ابن مسعود رضى الله عنه».
(٣) صحيح البخارى برقم (٣٨٥٩)، وصحيح مسلم برقم (٤٥٠).
(٤) فى م، أ: «عنه». (٥) فى أ: «ما استمعت».
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٢٧).
(٧) فى ت: «فروى الإمام أحمد بسنده».
(٨) المسند (١/ ٤٣٦)، وصحيح مسلم برقم (٤٥٠).

الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود؛ فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: «أتانى داعى الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم»(١).

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن، حدثنى عمى، حدثنى يونس، عن الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله؛ أن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بت الليلة أقرأ على الجن ربعا(٢) بالحجون»(٣).

طريق أخرى: فيها أنه كان معه ليلة الجن، قال ابن جرير، رحمه الله: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمى عبد الله بن وهب، أخبرنى يونس، عن ابن شهاب، عن أبى عثمان ابن سنة الخزاعى ـ وكان من أهل الشام(٤) ـ أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل». فلم يحضر منهم أحد غيرى، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لى برجله خطا، ثم أمرنى أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقى منهم رهط، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتانى فقال: «ما فعل الرهط؟» فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظما وروثا زادا، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم.

ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبى زرعة وهب الله بن راشد، عن يونس بن يزيد الأيلى، به(٥).

ورواه البيهقى فى الدلائل، من حديث عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، عن يونس، به(٦).

وقد روى إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن قابوس بن أبى ظبيان، عن أبيه، عن ابن مسعود، فذكر نحو ما تقدم(٧).

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٠).
(٢) فى م: «وقفاً»، وفى أ: «رفعاً».
(٣) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢١) ،ورواه أحمد فى المسند (١/ ٤١٦) من طريق يونس عن الزهرى ، به.
(٤) فى ت: «روى مسلم وروى ابن جرير بسنده».
(٥) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢١).
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٣٠)، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٠٣) من طريق عبد الله بن صالح به، قال الذهبى: «هو صحيح عند جماعة».
(٧) وفى إسناده قابوس بن أبى ظبيان، ضعفه أبو حاتم والنسائى وأحمد، وقال ابن حبان: «ينفرد عن أبيه بما لا أصل له، فربما رفع المرسل وأسند الموقوف».

ورواه الحافظ أبو نعيم، من طريق موسى بن عبيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبى المعلى[١]، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضا[٢].

طريق أخرى: قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنى أبى قال: حدثنا عفان وعكرمة قالا: حدثنا معتمر قال: قال أبى: حدثنى أبو تميمة، عن عمرو ـ ولعله قد يكون قال: البكالى ـ يحدثه عمرو، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: استتبعنى رسول الله ﷺ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فخط لى خطاً فقال: «كن بين ظهر هذه لا تخرج منها؛ فإنك إن خرجت منها هلكت» فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة[٣].

طريق أخرى: قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن يحيى ابن أبى كثير[٤]، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفى؛ أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبى ﷺ خط عليه خطا، وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العَجَاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات، حتى إذا كان قريبا من الصبح، أتانى النبى[٥] ﷺ فقال: «أنمت؟» فقلت: لا والله، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، تقول: «اجلسوا» فقال: «لو خرجت لم آمن أن يخطفك[٦] بعضهم». ثم قال: «هل رأيت شيئا؟» فقلت: نعم، رأيت رجالا سوداً مستشعرين[٧] ثيابا بياضا. قال: «أولئك جن نصيبين سألونى المتاع ـ والمتاع: الزاد ـ فمتعتهم بكل عظم حائل، أو بعرة، أو روثة» ـ فقلت: يا رسول الله، وما يغنى ذلك عنهم؟ فقال: «إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثا إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فلا يستنقين أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة»[٨].

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى وأبو نصر بن قتادة قالا: أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضى، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البُوشَنْجى، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن على بن رباح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعنى رسول الله ﷺ فقال: «إن نفرا من الجن ـ خمسة عشر بنى إخوة وبنى عم ـ يأتوننى الليلة، فأقرأ عليهم القرآن»، فانطلقت معه إلى المكان الذى أراد، فخط لى خطا وأجلسنى فيه، وقال لى: «لا تخرج من هذا». فبت فيه حتى أتانى رسول الله ﷺ مع السحر فى يده عظم حائل وروثة حُمَمة فقال لى: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنج بشىء من هؤلاء». قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن علمى حيث كان رسول الله ﷺ قال، فذهبت فرأيت موضع مبرك[٩] ستين بعيرا[١٠].

طريق أخرى: قال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس

---

(١) فى أ: «إسماعيل».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ٨٠) من طريق موسى بن عبيدة الربذى، به.
(٣) لم أجده فى دلائل النبوة وهو فى المسند للإمام أحمد (١/ ٣٩٩).
(٤) فى ت: «روى ابن جرير بسنده».
(٥) فى م: «رسول الله».
(٦) فى أ: «يختطفك».
(٧) فى ت، أ: «مستثفرين».
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢١).
(٩) فى أ: «منزل».
(١٠) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣١).

ابن محمد الدُّورى، حدثنا عثمان بن عمر[١]، عن المستمر بن الريان، عن أبى الجوزاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، حتى أتى الحجون، فخط لى خطاً، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيد لهم، يقال له: «وردان»: أنا أرحلهم عنك. فقال: إنى لن يجيرنى من الله أحد[٢].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن أبى فزارة العبسى، حدثنا أبو زيد ـ مولى عمرو بن حريث ـ عن ابن مسعود قال: لما كان ليلة الجن قال لى النبى ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: ليس معى ماء، ولكن معى إداوة فيها نبيذ. فقال النبى: «تمرة طيبة، وماء طهور» فتوضأ.

ورواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، من حديث أبى زيد، به[٣].

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعانى، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، فقال رسول الله :«يا عبد الله، أمعك ماء؟» قال: معى نبيذ فى إداوة، فقال[٤]: «اصبب على». فتوضأ، فقال النبى ﷺ: «يا عبد الله، شراب وطهور»[٥].

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدارقطنى من طريق آخر، عن ابن مسعود، [به][٦] [٧].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنى أبى عن ميناء، عن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفس، فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعيت إلى نفسى يا ابن مسعود».

هكذا رأيته فى المسند مختصرا[٨]، وقد رواه الحافظ أبو نعيم فى كتابه «دلائل النبوة»، فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ـ وحدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبى قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن أبيه، عن ميناء، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فتنفس، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: « نعيت إلى نفسى يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟». قلت: أبو بكر. فسكت[٩]، ثم مضى ساعة فتنفس، فقلت: ما شأنك بأبى أنت وأمى يا رسول الله؟ قال: «نعيت إلى نفسى يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: عمر [بن الخطاب][١٠]. فسكت ثم مضى ساعة، ثم تنفس فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعيت إلى نفسى». قلت: فاستخلف. قال ﷺ: «من؟» قلت: على بن أبى طالب. قال ﷺ: «أما والذى نفسى بيده، لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين»[١١].

---

(١) فى أ: «عن عمير».

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣١).

(٣) المسند (١/ ٤٤٩)، وسنن أبى داود برقم (٨٤)، وسنن الترمذى برقم (٨٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٤).

(٤) فى م: «قال».

(٥) المسند (١/ ٣٩٨) وقد تفرد به ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٦) زيادة من م.

(٧) سنن الدارقطنى (١/ ٧٧) من طريق داود بن أبى هند عن عامر بن علقمة بن قيس. قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسول الله ﷺ أحدٌ منكم ليلة أتاه داعى الجن؟ قال: لا، قال الدارقطنى: «هذا الصحيح عن ابن مسعود».

(٨) المسند (١/ ٤٤٩).

(٩) فى ت، م: «أبو بكر. قال: فسكت».

(١٠) زيادة من م.

(١١) المعجم الكبير للطبرانى (١٠/ ٨٢) وفيه ميناء بن أبى ميناء، كذاب.

وهو حديث غريب جدا، وأحرى به ألا يكون محفوظا، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده، فإن فى ذلك الوقت فى آخر الأمر لما فتحت مكة، ودخل الناس والجان أيضا فى دين الله أفواجا، نزلت سورة [١]: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وهى السورة التى نعيت نفسه الكريمة فيها إليه، كما قد نص على ذلك ابن عباس، ووافقه عمر بن الخطاب عليه، وقد ورد فى ذلك حديث سنورده عند تفسيرها، والله أعلم. وقد رواه أبو نعيم أيضا، عن الطبرانى عن محمد بن عبدالله الحضرمى، عن على بن الحسين بن أبى بردة، عن يحيى بن سعيد[٢] الأسلمى، عن حرب بن صَبِيح، عن سعيد بن مسلمة، عن أبى مرة الصنعانى، عن أبى عبد الله الجدلى، عن ابن مسعود، فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف[٣]، وهذا إسناد غريب، وسياق عجيب.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى رافع، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ[٤] خط حوله، فكان أحدهم[٥] مثل سواد النخل، وقال لى: «لا تبرح مكانك»، فأقرأهم كتاب الله، فلما رأى الزُّط قال: كأنهم هؤلاء. وقال النبى ﷺ: «أمعك ماء؟»قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم. فتوضأ به[٦].

طريق أخرى مرسلة: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى[٧]، أخبرنا حفص بن عمر العدنى، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: هم اثنا عشر ألفا جاؤوا من جزيرة الموصل، فقال النبى ﷺ لابن مسعود: «أنظرنى حتى آتيك»، وخط عليه خطا، وقال: «لا تبرح حتى آتيك». فلما خشيهم ابن مسعود كاد أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبى ﷺ: «لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة»[٨].

طريق أخرى مرسلة أيضا: قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نِينَوَى، وأن نبى الله ﷺ قال: «إنى أمرت أن أقرأ على الجن فأيكم يتبعنى؟» فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فقال رجل: يا رسول الله، إن ذاك لذو ندبة فأتبعه ابن مسعود أخو هذيل، قال: فدخل النبى ﷺ شعبا يقال له: «شعب الحجون»، وخط عليه، وخط على ابن مسعود ليثبته بذلك، قال: فجعلت أهال وأرى أمثال النسور تمشى فى دفوفها، وسمعت لغطا شديدا، حتى خفت على نبى الله ﷺ، ثم تلا القرآن، فلما رجع رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، ما اللغط الذى سمعت؟ قال: «اختصموا فى قتيل، فقضى بينهم بالحق». رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم[٩].

---

(١) فى ت: «سورة النصر». (٢) فى أ: «يعلى».
(٣) المعجم الكبير للطبرانى (١٠/ ٨١) وفى إسناده يحيى الأسلمى وهو ضعيف.
(٤) فى م، أ: «أن رسول الله ﷺ ليلة الجن». (٥) فى أ: «فكان يجىء أحدهم».
(٦) المسند (١/ ٤٥٥).
(٧) فى م: «الطبرانى».
(٨) وفى إسناده الحكم بن أبان، وهو ضعيف.
(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢٠).

فهذه الطرق كلها تدل[(١)] على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه فى ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن [و][(٢)]لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس، رضى الله عنهما[(٣)]. ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيدا منه، ولم يخرج مع النبى ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقى.

وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهى عند مسلم. ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم، كما روى ابن أبى حاتم فى تفسير: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، من حديث ابن جريج قال: قال عبدالعزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين، وتأوله البيهقى على أنه يقول: «فبتنا بشر ليلة بات بها قوم»، على غير ابن مسعود ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل على بعد، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله[(٤)] الأديب، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلى، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنى سويد بن سعيد، حدثنا عمرو بن يحيى، عن جده سعيد بن عمرو، قال[(٥)]: كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوما فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «ائتنى بأحجار أستنج بها، ولا تأتنى بعظم ولا روثة». فأتيته بأحجار فى ثوبى، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثه[(٦)]؟ قال: «أتانى وفد جن نصيبين، فسألونى الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاما»[(٧)].

أخرجه البخارى فى صحيحه، عن موسى بن إسماعيل، عن عمرو بن يحيى، بإسناده قريبا منه[(٨)]. فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وسنذكر ما يدل على تكرار ذلك.

وقد روى عن ابن عباس غير ما ذكر[(٩)] عنه أولا من وجه جيد، فقال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحمانى، حدثنا النضر بن عربى، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، [قال][(١٠)]: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم[(١١)].

فهذا يدل على أنه قد روى القصتين.

(١) فى ت: «فهذه الأحاديث التى ذكرناها كلها تدل». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت، أ: «عنه».
(٤) فى أ: «عبد الوهاب».
(٥) فى ت: «وقال الحافظ أبو بكر البيهقى بسنده». (٦) فى ت: «الروث».
(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣٣).
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٠).
(٩) فى أ: «ما روى». (١٠) زيادة من أ.
(١١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سماه، عن ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر، ثلاثة من أهل حران، وأربعة من أهل نصيبين، وكانت أسماؤهم حيى وحسى ومسى، وشاصر وناصر، والأرد وإبيان والأحقم.

وذكر أبو حمزة الثمالى أن هذا الحى من الجن كان يقال لهم: بنو الشيصبان، وكانوا أكثر الجن عددا وأشرفهم نسبا، وهم كانوا عامة جنود إبليس.

وقال سفيان الثورى، عن عاصم، عن ذَرّ، عن ابن مسعود: كانوا تسعة، أحدهم زوبعة، أتوه من أصل نخلة.

وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر، وفى رواية: أنهم كانوا على ستين راحلة. وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان، وقيل: كانوا ثلاثمائة، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثنى عشر ألفا، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه صلوات الله وسلامه عليه، ومما يدل على ذلك ما قاله[(١)] البخارى فى صحيحه:

حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنى ابن وهب، حدثنى عمر ـ هو ابن محمد ـ أن سالما حدثه، عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشىء قط: «إنى لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالس، إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظنى ـ أو: إن هذا على دينه فى الجاهلية ـ أو لقد كان كاهنهم ـ على بالرجل، فدعى له[(٢)]، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استُقْبِل له رجل مسلم. قال: فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى. قال: كنت كاهنهم فى الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جِنيّتُك. قال: بينما أنا يوما فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تَرَ الجِنَّ وإبْلاسَهَا ... ويَأسَهْا من بعد إنْكَاسِها

ولُحُوقَها بالقلاص وأَحْلاسها

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب[(٣)] القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقمت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبى.

هذا سياق البخارى[(٤)]، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذبح، وكذلك هو صريح[(٥)] فى رواية ضعيفة عن عمر فى إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن

---

(١) فى م: «ما رواه». (٢) فى ت، م، أ: «فدعى فجىء به له». (٣) فى م، أ: «قال: فوثب».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٦).

(٥) فى ت، م، أ: «صريحا» وهو خطأ.

رؤيته وسماعه، والله أعلم»[١].

وهذا الذى قاله البيهقى هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا[٢] مستقصى فى سيرة عمر، رضى الله عنه، فمن أراده فليأخذه من ثَمَّ، ولله الحمد [والمنة][٣].

قال البيهقى: «حديث سواد بن قارب، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح».

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الصفار الأصبهانى، قراءة عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفى بالكوفة، حدثنا زياد بن يزيد بن بادويه أبو بكر القصرى، حدثنا محمد بن النواس الكوفى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى إسحاق، عن البراء [رضى الله عنه][٤] قال: بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ، إذ قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بَدءُ إسلامه شيئا عجيبا، قال: فبينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حدثنا ببدء إسلامك، كيف كان؟ قال سواد: فإنى كنت نازلا بالهند، وكان لى رَئِىٌّ من الجن،قال: فبينا أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءنى فى منامى ذلك. قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤى بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبتُ للجِنِّ وأنْجَاسِها[٥] ... وشَدِّها العِيسَ بأحْلاسِهَا
تَهْوى إلى مكةَ تَبْغى الهُدَى ... مَا مُؤمنو الجِنِّ كَأرْجَاسِهَا
فَانْهَض إلى الصَّفْوةِ من هَاشِمٍ ... واسْمُ بعينَيْك إلى رَاسِهَا

قال: ثم أنبهنى فأفزعنى، وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد. فلما كان من الليلة الثانية أتانى فأنبهنى، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبتُ للجِنِّ وتَطْلابِها ... وَشَدِهَا العِيسَ بأقْتَابِهَا
تَهْوى إلى مكّةَ تَبْغى الهُدَى ... ليسَ قُدامَاها كأذْنَابِها
فانهض إلى الصّفْوةِ من هَاشمٍ ... واسْمُ بعَيْنَيك إلى نَابِها[٦]

فلما كان فى الليلة الثالثة أتانى فأنبهنى، ثم قال:

عَجِبتُ للجنّ وتَخْبارها ... وَشَدَّها العِيسَ بأكْوَارِهَا
تَهْوى إلى مكّةَ تَبْغِى الهُدَى ... لَيسَ ذَوُو الشّرّ كأخْيَارِهَا
فَانْهَضْ إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... مَا مُؤمِنو الجنِّ ككُفّارِهَا

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٤٥).
(٢) فى ت: «ذلك».
(٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من ت.
(٥) فى أ: «وأجناسها».
(٦) فى أ: «يابها».

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع فى قلبى حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلى فشددته على راحلتى، فما حللت [عليه][1] نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة ـ يعنى مكة ـ والناس عليه كعرف الفرس، فلما رآنى النبى ﷺ قال: «مرحبا بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك». قال: قلت: يا رسول الله، قد قلت شعرا، فاسمعه منى. قال سواد: فقلت:

أَتَانِى رئِــىٌّ بــعــد لُيَلٍ وهَجْعةٍ ... ولَم يَكُ فيمـــا قَدْ بَلوَتُ بكَاذبِ
ثَلاثِ لَيَال قَولُه كُلَّ لَيْلَة: ... أتاك رسـول[2] من لُؤىّ بن غَالبِ
فَشَمَّرتُ عن سَاقى الإزَارَ ووسطت ... بى الدَّعلب الوَجْنَاءُ عند السَّبَاسبِ
فَأشْهَدُ أنّ اللهَ لا شَــىء غَيْرهُ ... وأَنّكَ مَأْمونٌ عَلَى كُلِّ غَائبِ
وأنّــك أَدْنَى المُرْسَلِينَ شفَــاعَة ... إلى اللهِ يا ابنَ الأكرَمينَ الأَطايبِ
فَمُرنَا بمَا يَأتِيْك يا خَيرَ مُرْسل[3] ... وإنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيبُ الذّوَائبِ
وكُنْ لى شَفِيْعا يَومَ لا ذُو شَفَاعةٍ ... سِوَاك بِمغْــنٍ عن سَوَاد بن قَاربِ

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لى: «أفلحت يا سواد»: فقال له عمر: هل يأتيك رئيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتنى، ونعم العوض كتاب الله من الجن[4].

ثم أسنده البيهقى من وجهين آخرين[5]. ومما يدل على وفادتهم إليه، عليه السلام[6]، بعد ما هاجر إلى المدينة، الحديث الذى رواه الحافظ أبو نعيم فى كتاب «دلائل النبوة» [فقال][7]:

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصى، حدثنا أبو تَوْبَة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن أسلم: أنه سمع أبا سلام يقول: حدثنى من حدثه عمرو بن غيلان الثقفى قال: أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قلت: حدثنى كيف كان شأنه؟ فقال: إن أهل الصفة أخذ كلَّ رجلٍ منهم رجل[8] يعشيه، وتركت فلم يأخذنى أحد منهم، فمر بى رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟». فقلت: أنا ابن مسعود. فقال: «ما أخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا. قال: «فانطلق لعلى أجد لك شيئاً». قال: فانطلقنا حتى أتى حجرة أم سلمة فتركنى [9] ودخل إلى أهله، ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود، إن رسول الله لم يجد لك عشاء، فارجع إلى مضجعك. قال: فرجعت إلى المسجد، فجمعت حصباء المسجد فتوسدته، والتففت بثوبى، فلم ألبث إلا قليلا حتى جاءت الجارية، فقالت:

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، م: «نبى». (٣) فى ت: «من مشى».
(٤) دلائل النبوة للبيهقى (١/٢٤٨).
(٥) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٥٢).
(٦) فى أ: «على الإسلام». (٧) زيادة من أ. (٨) فى ت، أ: «رجلاً» وهو خطأ.
(٩) فى أ: «فتركنى قائما» .

أجب رسول الله [١]. فاتبعتها وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامى، خرج رسول الله ﷺ وفى يده عسيب من نخل، فعرض به على صدرى فقال: «أتنطلق أنت معى[٢] حيث انطلقت؟» قلت: ما شاء الله. فأعادها على ثلاث مرات، كل ذلك أقول: ما شاء الله. فانطلق وانطلقت معه، حتى أتينا بقيع الغرقد، فخط بعصاه خطا، ثم قال: «اجلس فيها، ولا تبرح حتى آتيك». ثم انطلق يمشى وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت[٣] العَجَاجة السوداء، ففرقت فقلت: ألحق برسول الله ﷺ، فإنى أظن أن[٤] هوازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت، فأستغيث الناس. فذكرت أن رسول الله ﷺ أوصانى: ألا أبرح مكانى الذى أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا». فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا، فأتانى رسول الله ﷺ فقال: «أنمت بعدى؟» فقلت: لا [٥]، ولقد فزعت الفزعة الأولى، حتى رأيت أن آتى البيوت فأستغيث الناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن، مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه. فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما آمنهم[٦] عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شىء منهم؟» فقلت: رأيت رجالا سودا مستشعرين[٧] بثياب بيض. فقال رسول الله ﷺ: «أولئك وفد جن نصيبين، أتونى فسألونى الزاد والمتاع، فمتعتهم بكل عظم حائل أو روثة أو بعرة». قلت: وما يغنى عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه الذى كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها الذى كان فيها يوم أكلت، فلا يستنقى أحد منكم بعظم ولا بعرة[٨]»[٩].

وهذا إسناد غريب جداً[١٠]، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم [والله أعلم][١١]، وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد، حدثنى نمير بن زيد القنبر[١٢]، حدثنا أبى، حدثنا قحافة بن ربيعة، حدثنى الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح فى مسجد المدينة، فلما انصرف قال: «أيكم يتبعنى إلى وفد الجن الليلة؟» فأسكت القوم ثلاثا، فمر بى فأخذ بيدى، فجعلت أمشى معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا برجال طوال كأنهم الرماح، مستشعرين [١٣] بثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتنى رعدة شديدة، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم[١٤]، وهذا حديث غريب، والله أعلم.

ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح، حدثنا يعقوب الدَّوْرَقى، حدثنا الوليد بن بكير التميمى، حدثنا حصين بن عمر[١٥]،

(١) فى ت: «رسول الله ﷺ».
(٢) فى ت، م: «انطلق معى»، وفى أ: «انطلق أنت معى».
(٣) فى ت، م، أ: «ثارت مثل العجاجة».
(٤) فى ت، م، أ: «هذه».
(٥) فى أ: «لا والله».
(٦) فى ت، م: «ما أمنت»، وفى أ: «ما آمن».
(٧) فى ت، أ: «مستثفرين».
(٨) فى ت: «ولا روثة».
(٩) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم.
(١٠) فى ت، أ: «وهذا سياق غريب».
(١١) زيادة من ت، أ.
(١٢) فى ت، أ: «حدثنى بهز بن يزيد الليثى».
(١٣) فى ت، أ: «مستثفرين».
(١٤) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم.
(١٥) فى م: «عمير».

أخبرنى عبيد المُكتب، عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله[١] يريدون الحج، حتى إذا كانوا فى بعض الطريق، إذا هم بحية تنثنى [٢]على الطريق أبيض، ينفخ منه ريح المسك، فقلت لأصحابى: امضوا، فلست ببارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبثت أن ماتت، فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها، ثم نحيتها عن الطريق فدفنتها، وأدركت أصحابى فى المتعشى. قال: فوالله إنا لقعود إذ أقبل[٣] أربع نسوة من قبل المغرب، فقالت واحدة منهن: أيكم دفن عمراً؟ قلنا: ومن عمرو، قالت: أيكم دفن الحية؟ قال: قلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صواما قواما، يأمر بما أنزل الله، ولقد آمن بنبيكم، وسمع صفته من [٤] السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام. قال الرجل فحمدنا[٥] الله، ثم قضينا حجتنا[٦]، ثم مررت بعمر بن الخطاب فى المدينة فأنبأته بأمر الحية، فقال: صدقت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد آمن بى قبل أن أبعث بأربعمائة سنة»[٧].

وهذا حديث غريب جدا، والله أعلم.

قال أبو نعيم: وقد روى الثورى، عن أبى إسحاق، عن الشعبى، عن رجل من ثقيف، بنحوه. وروى عبد الله بن أحمد والطِّهرانى، عن صفوان بن المعطل ـ هو الذى نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة ـ وأنهم قالوا: أما إنه آخر التسعة موتا الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن[٨].

وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجِشُون، عن عمه[٩]، عن معاذ بن عُبَيْد الله[١٠] بن معمر قال: كنت جالسا عند عثمان بن عفان، فجاء رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنى كنت بفلاة من الأرض، فذكر أنه رأى ثعبانين[١١] اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبت إلى المعترك، فوجدت حيات كثيرة مقتولة، وإذا ينفح من بعضها ريح المسك، فجعلت أشمُّها واحدة واحدة، حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة، فلففتها فى عمامتى ودفنتها. فبينا أنا أمشى إذ نادانى[١٢] مناد: يا عبد الله، لقد هُدِيتَ! هذان حيان[١٣] من الجن بنو أشعيبان وبنو أقيش التقوا، فكان من القتلى ما رأيت، واستشهد الذى دفنته، وكان من الذين سمعوا الوحى من رسول الله ﷺ. قال: فقال عثمان لذلك الرجل: إن كنت صادقا فقد رأيت عجبا، وإن كنت كاذبا فعليك كذبك[١٤].

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا

---

(١) فى م: «عبيد الله». (٢) فى أ: «تمشى». (٣) فى ت، م: «جاء».
(٤) فى ت: «فى». (٥) فى أ: «فحمدت». (٦) فى ت، م، أ: «حجنا».
(٧) دلائل النبوة لأبى نعيم (ص٣٠٦).
(٨) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم. (٩) فى ت: «وروى أبو نعيم بإسناده».
(١٠) فى ت، م، أ: «عبد الله». (١١) فى ت، أ، م: «إعصارين».
(١٢) فى أ: «هذا جان». (١٣) فى ت، م: «نادى».
(١٤) دلائل النبوة لأبى نعيم (ص٣٠٥).

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ أي: استمعوا[(١)] وهذا أدب منهم.

وقد قال الحافظ البيهقي: حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البُوشَنْجي، حدثنا هِشام بن عمار الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة «الرحمن» حتى ختمها، ثم قال: «ما لي أراكم سكوتا، لَلْجنّ كانوا أحسن منكم ردا، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ـ أو نعمك ـ ربنا نكذب، فلك الحمد».

ورواه الترمذي في التفسير، عن أبي مسلم عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم، به[(٢)]. قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن، فذكره، ثم قال الترمذي: «غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد، عن زهير» كذا قال. وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطاطري، عن زهير بن محمد، به مثله[(٣)] [(٤)].

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي: فرغ. كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ﴾[الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى في [سورة][(٥)] الأنعام: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ [مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ][(٦)]﴾، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي

(١) في ت، م: «استمعوه».

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢٣٢)، وسنن الترمذي برقم (٣٢٩١).

(٣) في ت: «بمعناه».

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢٣٢).

(٥) زيادة من ت.

(٦) زيادة من أ.

ﷺ بقصة نزول جبريل [عليه السلام][(١)] عليه أول مرة، فقال: بَخ بَخ، هذا الناموس الذى كان يأتى موسى، يا ليتنى أكون فيها جَذَعاً.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أى: فى الاعتقاد والإخبار، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فى الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين[(٢)] خبر وطلب[(٣)]، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فى الاعتقادات، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى العمليات.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً صلوات الله وسلامه عليه[(٤)] إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهى سورة الرحمن؛ ولهذا قال[(٥)]: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها فى الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: ويقيكم من عذابه الأليم.

وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا فى هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، قال: حُدثت عن جرير، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة.

والحق أن مؤمنَهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة [(٦)]من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفى هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجنّ هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بشَىء من آلائك ربنا نكذبْ، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضا فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ـ وهو مقام عدل ـ فَلأنْ يجازى مؤمنهم بالجنة ـ وهو مقام فَضْل ـ بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على ذلك عمومُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «نوعين». (٣) فى أ: «خبراً وطلبًا».
(٤) فى ت: «ﷺ». (٥) فى م: «قالوا». (٦) فى ت، أ: «طائفة».

أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة فى جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن[1] الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ[2] إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة فعن عُمَر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بُحْبُوحَةَ الجنة، وإنما يكونون فى رَبَضها وحولها وفى أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون هم بنى آدم عكس ما كانوا عليه فى الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون فى الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عِوَضاً عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها.

ثم قال مخبرا عنه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أى: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقامُ تهديد وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع فى كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودا، كما تقدم بيانه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أى: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أى: ولم يكرثْه خَلْقُهن، بل قال لها: «كونى» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] ، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) فى أ: «من».

(٢) فى ت، أ: «ويجركم» وهو خطأ.

ثم قال متهددا ومتوعدا لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أى: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى آمراً رسوله[١] بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من[٢] سُورَتَى «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرّسُل، وتكون ﴿مِنَ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم. وقد قال ابن أبى حاتم:

حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمى، حدثنا السرى بن حَيَّان، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد ابن سعيد، عن الشعبى، عن مسروق قال: قالت لى عائشة [رضى الله عنها][٣]: ظل رسول الله ﷺ صائما ثم طواه، ثم ظل صائما ثم طواه، ثم ظل صائما، [ثم][٤] قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد. يا عائشة، إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإنى ـ والله ـ لأصبرن كما صبروا جَهدى، ولا قوة إلا بالله»[٥].

﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أى: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ ، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥] ، [وحاصل ذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا وفى البرزخ حين عاينوا يوم القيامة وشدائدها وطولها][٦]

وقوله: ﴿ بَلاغٌ ﴾: قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبَثَ بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ.

وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

آخر تفسير سورة الأحقاف

(١) فى ت: «لرسوله». (٢) فى ت: «فى». (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت، م، أ.
(٥) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٨٦٢٨) «مكرر» من طريق محمد بن حجاج الحضرمى به.
(٦) زيادة من ت، أ.

سورة الأحقاف

مكّيّة، وهي أربع -وقيل: خمس-[1] وثلاثون[2] آيةً.[3]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ② مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ③﴾

﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في مطلع السورة السابقة.

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بما فيهما مِن حيث الجزئيّةُ منهما، ومِن حيث الاستقرارُ فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن المخلوقات ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ المفاعيل، أي: إلّا خَلقًا ملتبِسًا بالحقّ[4] الذي يقتضيه الحكمة التكوينيّة والتشريعيّة، أو مِن أعمّ الأحوال مِن فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، أو مِن مفعوله، أي: ما خلقناها في حال مِن الأحوال إلّا حالَ ملابَستنا بالحقّ، أو حالَ ملابستها به. وفيه مِن الدلالة على وجود الصانع تعالى وصفاتِ كماله وابتناءِ أفعاله على حِكم بالغةٍ وانتهائِها إلى غايات جليلة ما لا يخفى.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْحَقِّ﴾ بتقدير مضاف، أي: وبتقدير أجلٍ مسمًّى ينتهي إليه أمور الكلّ، وهو يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٨].

وقيل: هو آخر مدّة البقاء المقدَّر لكلِّ واحد،[5] ويأباه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ﴾، فإنّ ما أُنذِروه يومُ القيامة وما فيه مِن الطامّة التامّة والأهوالِ العامّةِ لا آخِرُ أعمارهم.

---

[1] س - وقيل: خمس؛ ي - وهي أربع، وقيل: خمس.

[2] ي: ثلاثون وخمس.

[3] س + وقيل: خمس؛ ي: آيات.

[4] وفي هامش م: فإنّ عدم جواز تفريغ العامل في المصدر المؤكّد دون المخصِّص. «منه».

[5] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/١١١.

وقد جُوِّز كونُ ﴿مَا﴾ مصدريّة، والجملة حاليّة. أي: ما خلقنا الخلقَ إلّا بالحقّ وتقديرِ الأجَل الذي يُجازَون عنده، والحالُ أنّهم غير مؤمنين به، معرضون عنه وعن الاستعداد له.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ توبيخًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني، وقُرئ: "أَرَأَيْتَكُمْ"،[1] ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ ما تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأصنام ﴿أَرُونِى﴾ تأكيدٌ لـ﴿أَرَءَيْتُم﴾ ﴿مَاذَا خَلَقُواْ/ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بيان للإبهام في ﴿مَاذَا﴾، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: شركة مع الله تعالى ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: في خَلقِها، أو مُلكها وتدبيرها حتّى يُتوهَّم أن يكون لهم شائبةُ استحقاق للمعبوديّة، فإنّ ما لا مدخلَ له في وجود شيء مِن الأشياء بوجه مِن الوجوه فهو بمَعزِل مِن ذلك الاستحقاق بالمرّة، وإن كان مِن الأحياء العقلاء، فما ظنّكم بالجماد؟ [٨٦ظ]

وقوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾... إلخ تَبكيتٌ لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسندٍ نقلي بعد تَبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسندٍ عقلي، أي: ائتوني بكتاب إلهيّ كائنٍ ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ الكتابِ، أي: القرآنِ الناطقِ بالتوحيد وإبطالِ الشرك، دالٍّ على صحّة دينكم، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو بقيّةٍ مِن عِلمٍ بَقِيَت عليكم مِن علوم الأوّلين شاهدةٍ باستحقاقهم للعبادة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، فإنّها لا تكاد تَصِحّ ما لم يقُم عليها برهان عقلي، أو سلطان نقلي، وحيث لم يقم عليها شيء منهما وقد قامت على خِلافها أدلّة العقل والنقل تبيّنَ بطلانها.

وقُرئ: "إِثَارَةٍ" بكسر "الهمزة"،[2] أي: مناظَرةٍ، فإنّها تُثير المعاني، و"أَثَرَةٍ"،[3] أي: شيءٍ أُوثِرْتُم به وخُصِصْتُم مِن علمٍ مَطوِيّ مِن غيركم، و"أَثْرَةٍ" بالحركات الثلاث

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. معاني القرآن للفرّاء، ٣/٤٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة وقتادة وعمرو بن ميمون والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

مع سكون "الثاء"،[١] أمّا المكسورة فبمعنى "الأَثَرة"، وأمّا المفتوحة فهي المرّة مِن "أَثَرَ الحديثَ"، أي: رَواه، وأمّا المضمومة فاسم ما يُؤثَر، كـ"الخُطبة" التي هي اسم ما يُخطب به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝﴾

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ﴾ إنكار ونفي لِأن يكون أحد يساوي المشركين في الضلال، وإن كان سَبك التركيب لنفي الأضلّ منهم مِن غير تعرّض لنفي المساوي كما مرّ غيرَ مرّة. أي: هم أضلّ مِن كلّ ضالّ، حيث تركوا عبادة خالقهم السميعِ القادرِ المجيبِ الخبيرِ إلى عبادة مصنوعهم العاري عن السمع والقدرة والاستجابة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ غاية لنفي الاستجابة.

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ الضمير الأوّل لمفعول ﴿يَدْعُوا۟﴾، والثاني لفاعله، والجمع فيهما باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما سبَق باعتبار لفظها ﴿غَٰفِلُونَ﴾ / لكونهم جماداتٍ. وضمائر العقلاء لإجرائهم إيّاها مُجرى العقلاء. ووصفُها بما ذُكر مِن ترك الاستجابة والغفلةِ مع ظهور حالها للتهكّم بها وبعَبَدتها، كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ الآيةَ [فاطر، ٣٥/١٤]. [٨٧و]

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝﴾

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ عند قيام القيامة ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: مكذِّبين بلسان الحال أو المَقال، على ما يُروى أنّه تعالى يُحيي الأصنامَ فتتبرّأُ عن عبادتهم.

وقد جُوِّز أن يراد بهم كلُّ مَن يُعبَد مِن دون الله مِن الملائكة والجنّ والإنس وغيرهم، ويُبنَى إرجاعُ الضمائر وإسنادُ العداوة والكفر إليهم على التغليب،

---

[١] القراءات الثلاث شاذّة؛ "أَثْرَةٍ" بفتح "الهمزة" مرويّة عن عليّ والسلمي، و"أُثْرَةٍ" بضمّ الهمزة" مرويّة عن السلمي وابن عُمير، وإِثْرَةٍ" بكسر "الهمزة" عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

ويُرادَ بذلك تبرّؤهم عنهم وعن عبادتهم. وقيل: ضمير ﴿كَانُواْ﴾ للعَبَدة، وذلك قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٦/٢٣].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ أو مبيّناتٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ أي: لأجلِه وفي شأنِه، وهو عبارة عن الآيات المتلُوّة، وُضع مَوضع ضميرها تنصيصًا على حقّيّتها ووجوبِ الإيمان بها، كما وُضع الموصول موضعَ ضمير المتلوّ عليهم تسجيلًا عليهم بكمال الكفر والضلالة ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: في أوّل ما جاءهم مِن غير تدبّر وتأمّل: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهرٌ كونُه سِحرًا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضراب وانتقال مِن حكاية شَناعتهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنَع منها. وما في ﴿أَمْ﴾ مِن "الهمزة" للإنكار التوبيخي المتضمِّن للتعجيب، أي: بل أيَقولون: افترى القرآنَ، ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على الفَرْض ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إذ لا ريبَ في أنّه تعالى يعاجلني حينئذ بالعقوبة، فكيف أجتَرئُ على أن أفْتَري عليه تعالى كذبًا، وأعرّض نفسي للعقوبة التي لا مناصَ عنها، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تَندفعون فيه مِن القَدح في وحي الله، والطعنِ في آياته، وتسميتِه "سِحرًا" تارةً، و"فِريةً" أخرى.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والجحود. وهو وعيد بجزاء إفاضتهم.

[٨٧ظ] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ/ ٱلرَّحِيمُ﴾ وعد بالغفران والرحمة لمَن تاب وآمَن، وإشعارٌ بحِلمِ الله تعالى عنهم مع عِظَم جرائمهم.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ "البِدْع" بمعنى "البديع"، كـ"الخِلّ" بمعنى "الخليل"، وهو ما لا مثلَ له. وقُرئ بفتح "الدال"[١] على أنّه صفة، كـ"قِيَم" و"زِيَم"،[٢] أو جمع مقدّر بمضاف، أي: ذا بِدَعٍ، وقد جُوّز ذلك في القراءة الأولى أيضًا على أنّه مصدر.

كانوا يقترحون عليه عليه السلام آياتٍ عجيبةً ويسألونه عن المغيَّبات عنادًا ومكابرةً، فأُمِر عليه السلام بأن يقول لهم: ما كنت بديعًا مِن الرسل قادرًا على ما لم يقدروا عليه حتّى آتِيَكُم بكلّ ما تقترحونه، وأخبركم بكلّ ما تسألون عنه مِن الغيوب، فإنّ مَن قبلي مِن الرسل عليهم السلام ما كانوا يأتون إلّا بما آتاهم الله تعالى مِن الآيات، ولا يخبرونهم إلّا بما أوحَى إليهم.

﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: أيّ شيء يُصيبنا فيما يُستقبَل مِن الزمان مِن أفعاله تعالى، وماذا يُقدَّر لنا مِن قضاياه. وعن الحسن رحمه الله: ما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: ما يُفعَل بي ولا بكم في الآخرة. وقال: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح، ٢/٤٨].[٤] وقيل: يجوز أن يكون المنفيُّ هي الدراية المفصَّلة.

والأظهر الأوفق لِما ذُكر مِن سبب النزول أنّ ﴿مَا﴾ عبارة عمّا ليس عَلِمَه مِن وظائف النبوّة مِن الحوادث والواقعات الدنيويّة دون ما سيقع في الآخرة، فإنّ العلم بذلك مِن وظائف النبوّة، وقد ورَد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يُفعل بالجانبين.

هذا، وقد رُوي عن الكلبي أنّ أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالوا له عليه السلام، وقد ضَجِروا مِن أذيّة المشركين: «حتّى متى نكون على هذا؟»، فقال: «ما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم، أأُترَك بمكّة، أم أُومَر بالخروج إلى أرضٍ ذاتِ نخيل وشجر، قَد رُفِعَت لي ورأيتها؟»، يعني في منامه.[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وأبي حَيوة وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.
٢ وفي هامش م: أي: متفرّق. «منه».
٣ جامع البيان للطبري، ١٢٢/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٩.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٢١/٢١.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٨/٤. وانظر: التفسير البسيط للواحدي، ١٦٦/٢٠.

[٨٨و] وجُوِّز أن تكون[١] ﴿مَا﴾ موصولةً، والاستفهاميّةُ / أقضى لِحَقّ مقام التبرُّءِ عن الدراية. وتكريرُ ﴿لَا﴾ لتذكير النفي المنسحِب إليه وتأكيده. وقُرِئَ: "مَا يَفْعَلُ"[٢] على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: ما أفعل إلّا اتّباعَ ما يُوحَى إليّ، على معنى قَصرِ أفعاله عليه السلام على اتّباع الوحي، لا قَصرِ اتّباعه على الوحي كما هو المتسارع إلى الأفهام، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأنعام.[٣] وقُرِئَ: "يُوحِي"[٤] على البناء للفاعل، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبارَ عمّا لم يُوحَ إليه عليه السلام مِن الغيوب. وقيل: عن استعجال المسلمين أن يتخلّصوا عن أذيّة المشركين. والأوّل هو الأوفَق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أُنذِركم عقابَ الله تعالى حسبما يوحَى إليّ، ﴿مُّبِينٌ﴾ بيّنُ الإنذار بالمعجزات الباهرة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ أي: ما يوحَى إليّ مِن القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا سِحرًا ولا مفترًى كما تزعمون.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حال بإضمار "قد" مِن الضمير في الخبر، وُسِّطت بين أجزاء الشرط مسارعةً إلى التسجيل عليهم بالكفر، أو عطفٌ على ﴿كَانَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت، ٤١/٥٢]، لكن لا على أنّ نظمه في سِلك الشرط المتردِّد بين الوقوع وعدمه عندهم باعتبارِ حاله في نفسه؛ بل باعتبار حال المعطوف عليه عندهم، فإنّ كفرهم به أمر محقَّق عندهم أيضًا، وإنّما تردّدهم في أنّ ذلك كفر بما مِن عند الله تعالى[٥] أم لا، وكذا الحال في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وما بعده مِن الفعلَين،

---

[١] س: يكون.
[٢] قراءة شاذّة، مروية عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.
[٣] الأنعام، ٦/٥٠.
[٤] قراءة شاذّة، مروية عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.
[٥] م - تعالى.

فإنّ الكلّ أمور متحقِّقة عندهم، وإنّما تردّدهم في أنّها شهادة وإيمان بما مِن عند الله تعالى[١] واستكبار منه أو لا.

والمعنى: أخبروني إن كان ذلك في الحقيقة مِن عند الله وكفرتم به وشهد شاهد عظيمُ الشأن مِن بني إسرائيل الواقفِين على شئون الله تعالى وأسرار الوحي بما أوتوا مِن **التوراة** ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: مثلِ **القرآن** مِن المعاني المنطوية في **التوراة** المطابقةِ لِما في **القرآن** مِن التوحيد والوعد والوعيد وغيرِ ذلك، فإنّها عينُ ما فيه في الحقيقة كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ[٢] لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء، ١٩٦/٢٦]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا[٣] لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأعلى، ١٨/٨٧].

والمثليّة باعتبار تأديتها / بعبارات أُخَر، أو على مِثل ما ذُكِر مِن كونه مِن عند الله تعالى، والمثليّة لِما ذُكر. وقيل: "المِثل" صلة. [٨٨ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ للدلالة على أنّه سارع إلى الإيمان **بالقرآن** لِما علِمَ أنّه مِن جنس الوحي الناطق بالحقّ، وهو عبد الله بن سلام، لمّا سمع بمَقدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينةَ أتاه، فنظر إلى وجهه الكريم، فعلم أنّه ليس بوجه كذّاب، وتأمّله فتحقّق أنّه النبيّ المنتظَر، فقال له: «إنّي سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنّ إلّا نبيّ؛ ما أوّل أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة؟ والولد ينزِع إلى أبيه أو إلى أمّه؟»، فقال عليه السلام: «أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم مِن المشرق إلى المغرب، وأمّا أوّل طعام أهل الجنّة فزيادة كبِد حوتٍ، وأمّا الولد فإن سبَق ماءُ الرجل نزَعه، وإذا سبَق ماءُ المرأة نزعَتْه»، فقال: «أشهد أنّك رسول الله حقًّا»، فقام، ثمّ قال: «يا رسول الله، إنّ اليهود قوم بُهْتٌ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألَهم عنّي بهَتوني عندك»، فجاءت اليهود، فقال لهم النبيّ عليه السلام: «أيّ رجل عبد الله فيكم؟»، فقالوا: «خَيرنا وابن خَيرنا، وسيّدنا وابن سيّدنا، وأعلَمنا وابن أعلَمنا»، قال: «أرأيتم إن أسلَم عبد الله»، قالوا: «أعاذه الله مِن ذلك»، فخرج إليهم عبد الله،

---

[١] م - تعالى.
[٢] م س ي: وإنّه.
[٣] م س ي - هذا.

فقال: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله»، فقالوا: «شرّنا وابن شرّنا»، وانتقصوه، قال: «هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذَر».[١]

قال سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه: «ما سمعت رسول الله عليه السلام يقول لأحد يمشي على الأرض: "إنّه مِن أهل الجنّة" إلّا لعبد الله بن سلام، وفيه نزَل: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾... الآية».[٢]

وقيل: الشاهد موسى عليه السلام، وشهادته ما في التوراة مِن بعثة النبيّ عليهما السلام، وبه قال الشعبي.[٣]

وقال مسروق: «والله ما نزلت في عبد الله بن سلام، فإنّ آل ﴿حمٓ﴾ نزلت بمكّة، وإنّما أسلَم عبد الله بالمدينة».[٤] وأجاب الكلبي بأنّ الآية مدنيّة، وإن كانت السورة مكّيّة.[٥]

﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾، وجواب الشرط محذوف. [٨٩و] والمعنى: أخبروني / إن كان مِن عند الله تعالى[٦] وشهِد على ذلك أعلَم بني إسرائيل، فآمن به مِن غير تلعثُمٍ، واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه المرتبة؛ مَن أضلّ منكم؟ بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت، ٤١/٥٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنّ عدم الهداية ممّا يُنبئ عن الضلال قطعًا. ووصفهم بالظلم للإشعار بعلّة الحكم، فإنّ تركه تعالى لهدايتهم لظلمهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾

---

١ مسند أحمد، ١١٣/١٩ (١٢٠٥٦)؛ صحيح البخاري، ١٩/٦ (٤٤٨٠).

٢ صحيح البخاري، ٣٧/٥ (٣٨١٢)؛ صحيح مسلم، ١٩٣٠/٤ (٢٤٨٣).

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٩؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٢/٥، مِن غير نسبة إلى الشعبي، ولم أجده عنه، ولعلّه وقع سهو في عبارة المؤلّف، والصواب: وقال الشعبي: قال مسروق... انظر: جامع البيان للطبري، ١٢٥/٢١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٩؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٧.

٤ جامع البيان للطبري، ١٢٥/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٩.

٥ تفسير الرازي، ١١/٢٨؛ اللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٧.

٦ س - تعالى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حكاية لبعضٍ آخَر مِن أقاويلهم الباطلةِ في حقّ القرآن العظيم والمؤمنين به، أي: قال كفّارُ مكّة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: لأجلهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي: ما جاء به عليه السلام مِن القرآن والدين ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، فإنّ معالي الأمور لا ينالها أيدي الأراذِل، وهم سُقّاط،[1] عامّتهم فقراء ومَوالٍ ورُعاة، قالوه زعمًا منهم أنّ الرياسة الدينيّة ممّا يُنال بأسباب دنيويّة، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، وزلّ عنهم أنّها مَنوطة بكمالات نفسانيّة ومَلَكات روحانيّة، مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنيّة، والإقبالُ على الآخرة بالكلّيّة، وأنّ مَن فاز بها فقد حازَها بحذافيرها، ومَن حُرِمَها فما له منها مِن خلاق.

وقيل: قاله بنو عامر وغطفان وأسد وأشجَع لمّا أسلَم جُهَينة ومُزَينة وأسْلَم وغِفار.[2] وقيل: قالَته اليهود حين أسلَم عبد الله بن سلام وأصحابه.[3] ويأباه أنّ السورة مكّيّة لا بدّ حينئذ مِن الالتجاء إلى ادّعاء أنّ الآية نزلت بالمدينة.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ ظرف لمحذوف يدلّ عليه ما قبله، ويترتّب عليه ما بعده، أي: وإذ لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا، ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ غيرَ مُكتَفِينَ بنَفْي خيريّته: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كما قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل، ٢٤/١٦]. وقيل:[4] المحذوف "ظهرَ عِنادهم"، وليس بذاك.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومِن قبل القرآن، وهو خبر لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾. قيل: والجملة حاليّة أو مستأنَفة. وأيًا ما كان / فهي[5] لردّ قولهم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾،[6] وإبطالِه، فإنّ كونه مصدِّقًا لكتاب موسى مقرِّر لحقّيّته قطعًا. [٨٩ظ]

---

[1] الساقط والساقطة: اللئيم في حَسَبه ونفسه. وقوم سَقْطَى وسُقّاط. الصحاح للجوهري، «سقط».

[2] الكشّاف للزمخشري، ٣٠٠/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٥.

[3] الكشّاف للزمخشري، ٣٠٠/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٥.

[4] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣٠٠/٤؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١١٣/٥.

[5] س ي: فهو.

[6] في الآية السابقة.

﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان مِن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي: إمامًا يُقتدى به في دين الله تعالى[١] وشرائعِه كما يُقتَدى بالإمام، ورحمةً مِن الله تعالى لِمَن آمَن به وعمِل بموجَبه.

﴿وَهَٰذَا﴾ الذي يقولون في حقّه ما يقولون ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيمُ الشأن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، أو لِما بين يديه مِن جميع الكتب الإلهيّة. وقد قُرئ كذلك.[٢]

﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مِن ضمير ﴿كِتَٰبٌ﴾ في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أو مِن نفسه لتخصّصه بالصفة، وعاملُها معنى الإشارة، وعلى الأوّل ﴿مُّصَدِّقٌ﴾. وقيل: مفعول لـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: يصدّق ذا لسانٍ عربي.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ متعلّق بـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، وفيه ضمير الكتاب، أو اللهِ، أو الرسولِ عليه السلام. ويؤيّد الأخير القراءة بتاء الخطاب.[٣]

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في حيّز النصب عطفًا على محلّ ﴿لِّيُنذِرَ﴾. وقيل: في محلّ الرفع على أنّه خبر مبتدأ مضمَر، أي: وهو بُشرى. وقيل: على أنّه عطفٌ على ﴿مُّصَدِّقٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العِلم، والاستقامةِ في أمور الدين التي هي منتهى العمل. و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تراخي رتبة العمل، وتوقّفِ الاعتداد به على التوحيد.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن لُحوق مكروه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِن فوات محبوب. و"الفاء" لتضمّن الاسم معنى الشرط. والمراد بيان دوام نفي الحزن، لا نفيُ دوام الحزن كما يوهمه كون الخبر مضارعًا، وقد مرّ بيانه مرارًا.

---

١ م – تعالى.

٢ أي: "مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. معاني القرآن للفرّاء، ٥١/٣.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الوصفَين الجليلَين ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مِن المستكِنّ في ﴿أَصۡحَٰبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ﴾ منصوب إمّا بعامل مقدَّر، أي: يُجزَون جزاءً، أو بمعنى ما تقدّم، فإنّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ في معنى: جازَيناهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ / مِن الحسنات العلميّة والعمليّة. [٩٠و]

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ بأن يُحسِن ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾ وقُرئ: "حُسْنًا"،[١] أي: بأن يفعل بهما حُسنًا، أي: فِعلًا ذا حُسن، أو كأنّه في ذاته نفس الحُسن لفَرط حُسنه. وقُرئ بضمّ "السين"[٢] أيضًا، وبفتحهما،[٣] أي: بأن يفعل بهما فعلًا حسَنًا، أو وصّيناه إيصاءً حسَنًا.

﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا﴾ أي: ذاتَ كُره، أو حملًا ذا كُره، وهو المشقّة. وقُرئ بالفتح،[٤] وهما لغتان، كـ"الفَقْر" و"الفُقْر". وقيل: المضموم اسم، والمفتوح مصدر.

﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: مدّة حَمله وفِصاله، وهو الفِطام. وقُرئ: "وَفَصْلُهُ".[٥] و"الفَصل" و"الفِصال" كـ"الفَطْم" و"الفِطام" بناءً ومعنًى، والمراد به الرضاع التامّ

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه والسلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

٤ أي: "كَرْهًا". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/٢.

المنتهي به. كما أراد بـ"الأمَد" المدّةَ مَن قال:

كـلّ حـيّ مسـتكـمِلٌ مـدّةَ العمـ ـر فـمُـودٍ إذا انـتـهـى أمَـدُهْ[١]

﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ يمضِي عليها بمُعاناة المَشاقّ، ومُقاساة الشدائد لأجله.

وهذا دليل على أنّ أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر لِما أنّه إذا حُطّ عنه للفِصال حولان لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة، ٢/٢٣٣]، يبقى للحمل ذلك. قيل: ولعلّ تعيينَ أقلّ مدّة الحمل وأكثرِ مدّة الرضاع لانضباطهما، وتحقّقِ ارتباط النسب والرضاع بهما.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: اكتمل واستحكم قوّته وعقله، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل: لم يُبعث نبيّ قبل أربعين. وقُرئ: "حَتّى إِذَا اسْتَوَى وَبَلَغَ أَشُدَّهُ".[٢] ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أي: ألهِمْني، وأصلُه: "أَوْلِعْنِي"، مِن "أوزعتُه بكذا" ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أي: نعمةَ الدين، أو ما يعمُّها وغيرَها.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ التنكير للتفخيم والتكثير، ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: واجعل الصلاح ساريًا في ذرّيّتي راسخًا فيهم، كما في قوله:

يَـجْـرَحْ فِـي عَـراقِـيـبِـهـا نَـصْـلِـي[٣]

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٤] «أجاب الله تعالى دعاء أبي بكر رضي الله عنهم،[٥] فأعتق تسعةً مِن المؤمنين منهم بلال وعامر بن فُهَيرةَ،[٦] ولم يُرِد شيئًا

---

١ بغير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٥. و"مُودٍ"، أي: هالك، مِن "أودى" إذا هلَك، يقول: كلّ حيّ يَستكمل مدّةَ عمره، ويهلَك إذا انتهى عمرُه. فتوح الغيب للطيبي، ٢٨٧/١٤.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.

٣ تمامه:

وإن تَعتذِر بالمَحلِ مِن ذي ضُروعِها
على الضيف يَجرحْ في عَراقيبِها نَصلي

لذي الرمّة في ديوانه، ١٥٦/١. الضمير في "تَعتذِر" للناقة، و"الباء" في "بالمَحل" للتشبيه، يقال: اعتذر به، والمراد بـ"ذي ضُروعِها" اللبَن، "يجرح" متعدّ بنفسه، وقد عُدّي بـ"في" لإجرائه مُجرى اللازم، نحو: فلان يُعطي ويمنع، ثم عومل به معاملة اللازم في تعديته بالجار للمبالغة، أي: مَا أوقَع الجُرح في عَراقيبها وأوجدَه فيها. فتوح الغيب للطيبي، ٣٦/٩.

٤ م - رضي الله عنهما.

٥ س: عنه.

٦ هو عامر بن فُهيرة، أبو عمرو (ت. ٤هـ/٦٢٥م)، مولى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه. كان مملوكًا ›

مِن الخير إلّا أعانه الله تعالى[1] عليه، ودعا أيضًا فقال: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾، فأجابه الله عزّ وجلّ، فلم يكن له ولد إلّا آمنوا جميعًا، فاجتمع له إسلام أبوَيه وأولاده جميعًا، فأدرك أبوه أبو قُحافة رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، / وابنُه عبد الرحمن بن أبي بكر[2] وابنُ عبد الرحمن أبو عتيق[3] كلّهم أدركوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولم يكن ذلك لأحد مِن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم».[4] [٩٠ظ]

﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ عمّا لا ترضاه، أو عمّا يَشغلني عن ذِكرك، ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾،[5] والجمعُ لأنّ المراد به الجنس المتّصف بالوصف المحكي عنه، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعلوّ رُتبته، وبُعد منزلته، أي: أولئك المَنعوتون بما ذُكر مِن النعوت الجليلة ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ مِن الطاعات، فإنّ المباح حَسَن لا يثاب عليه، ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

› للطفيل بن عبد الله بن سَخبرة، فأسلم، فاشتراه أبو بكر فأعتقه. أسلَم قبل أن يدخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دار الأرقم، وكان يرعى الغنم في ثَور، يروح بها على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر في الغار، وكان رفيقهما في هجرتهما إلى المدينة. شهِد بدرًا وأُحُدًا، ثمّ قُتل يوم بئر معونة. عن عُروة قال: «طُلب عامر بن فهيرة يومئذ في القتلى فلم يوجد. فيَرَوُون أنّ الملائكة دفنته أو رفعته». انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٧٩٦/٢؛ **والإصابة** لابن حجر، ٤٨٢/٣.

١ م - تعالى.

٢ هو عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق، أبو محمّد (ت. ٥٣هـ/٦٧٣م). حضَر بدرًا مع المشركين، ثمّ إنّه أسلم، وهاجر قُبيل الفتح. وكان أسنّ أولاد الصدّيق، وكان مِن الرماة المذكورين والشجعان. قَتل يومَ اليمامة سبعةً مِن كبارهم، وشهِد وقعة الجمل مع أخته عائشة أمّ المؤمنين. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٧٢/٢؛ **والإصابة** لابن حجر، ٢٧٥/٤.

٣ هو محمّد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق، أبو عتيق. قال ابن حِبّان: «رأى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم. ومحمّد ومَن فوقه أربعةٌ في نسَق رأوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهم: محمّد، وعبد الرحمن، وأبو بكر، وأبو قُحافة». انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٣٧٤/٣؛ **والإصابة** لابن حجر، ١٩٧/٦.

٤ س ي + أجمعين. | **التفسير الوسيط** للواحدي، ١٠٨/٤؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٥٨/٧.

٥ في الآية السابقة.

وقُرئ الفعلان بـ"الياء" على إسنادهما إلى الله عزّ وجلّ،[١] وعلى بنائهما للمفعول، ورفعِ ﴿أَحۡسَنَ﴾ [٢] على أنّه قائم مَقام الفاعل، وكذا الجارّ والمجرور.

﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أي: كائنين في عِدادهم، منتظمين في سِلكهم. ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ مصدر مؤكِّد لِما أنّ قوله تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ و﴿نَتَجَاوَزُ﴾ وعد مِن الله تعالى لهم بالتفضّل والتجاوز ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ على ألسنة الرسل عليهم السلام.[٣]

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧﴾

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ عند دعوتهما له إلى الإيمان: ﴿أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ هو صوت يَصدر عن المرء عند تضجّره. و"اللام" لبيان المؤفَّف له، كما في ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢]. وقُرئ: "أُفَّ" بالفتح[٤] والكسر[٥] بغير تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين.[٦]

والموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القولَ، ولذلك أُخبرَ عنه بالمجموع كما سبق. قيل: هو في الكافر العاقّ لوالديه المكذِّبِ بالبعث. وعن قتادة: «هو نعت عبدٍ سَوءٍ، عاقٍّ لوالديه، فاجرٍ لربّه».[٧]

وما رُوي مِن أنّها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قبل إسلامه؛[٨] يردّه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ الآية.[٩]

---

١ س: تعالى.

٢ أي: "يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/٢.

٣ م - عليهم السلام.

٤ قرأ بها ابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٥ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٦ أمّا ﴿أُفٍّ﴾ بالجرّ مع التنوين فقرأ بها نافع وأبو جعفر وحفص، وأمّا "أُفًّا" بالنصب مع التنوين فقراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ، وأمّا "أُفٌّ" بالرفع مع التنوين فقراءة شاذّة، حكاها هارون. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٧/٧.

٧ جامع البيان للطبري، ١٤٥/٢١؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٤.

٨ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٣/٩؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١٠٨/٤.

٩ في الآية التالية.

فإنّه كان مِن أفاضل المسلمين وسَرَواتهم، وقد كَذَّبَت الصدِّيقةُ رضي الله عنها مَن قال ذلك.[١]

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أُبعَثَ مِن القبر بعد الموت. وقُرئ: "أَخۡرُجَ"،[٢] مِن "الخروج". ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ ولم يُبعث منهم أحد.

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يسألانه أن يُغيثه ويوفّقه للإيمان، ﴿وَيۡلَكَ﴾ أي: قائلين له: وَيلَك، وهو في الأصل / دعاء عليه بالثبور أريدَ به الحثّ والتحريض [٩١و] على الإيمان، لا حقيقةُ الهلاك.

﴿ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أي: البعثَ، أضافاه إليه تعالى تحقيقًا للحقّ، وتنبيهًا على خطئه في إسناد الوعد إليهما. وقُرئ: "أَنَّ وَعۡدَ اللهِ"،[٣] أي: آمِن بأنّ وعد الله حقّ. ﴿فَيَقُولُ﴾ مُكذِّبًا لهما: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الذي تسمّيانه "وعدَ الله" ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أباطيلُهم التي سطَروها في الكتب، مِن غير أن يكون لها حقيقةٌ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، وقد مرّ تفصيله في سورة ﴿الٓمٓ﴾ السجدة.[٤]

﴿إِنَّهُمۡ﴾ جميعًا ﴿كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ قد ضيّعوا فِطرتهم الأصليّة الجارية مَجرى رءوس أموالهم باتّباع الشيطان. والجملة تعليل للحكم بطريق الاستئناف التحقيقي.

---

[١] انظر: صحيح البخاري، ١٣٣/٦ (٤٨٢٧)؛ والمستدرك للحاكم، ٥٢٨/٤ (٨٤٨٣).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن يعمر ويحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وعمرو بن فائدة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٢/٩.

[٤] السجدة، ١٣/٣٢.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾

﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِن الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ مراتبُ مِن أجزيةِ ما عملوا مِن الخير والشرّ. و"الدرجات" غالبة في مراتب المَثوبة، وإيرادها ههنا بطريق التغليب. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أجزيةَ أعمالهم. وقُرئ بنون العظمة.[١]

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بنقص ثواب الأوّلين، وزيادة عقاب الآخرين. والجملة إمّا حال مؤكِّدة للتوفية، أو استئناف مقرِّر لها، و"اللام" متعلِّقة بمحذوف مؤخَّر، كأنّه قيل: ولِيوفّيهم أعمالهم ولا يظلمَهم حقوقَهم فعَل ما فعَل مِن تقدير الأجزية على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات، والعقابَ دركات.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يعذَّبون بها، مِن قولهم: "عُرِضَ الأُسارى على السيف"، أي: قُتِلوا. وقيل: يُعرَض النار عليهم، بطريق القلب مبالغةً.

﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ أي: يقال لهم ذلك. وهو الناصب للظرف. وقُرئ: "أَأَذۡهَبۡتُمۡ" بهمزتين وبألِف بينهما[٢] على الاستفهام التوبيخي، أي: أَصَبتم وأخذتم [٩١ظ] / ما كُتب لكم مِن حظوظ الدنيا ولذائذها ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ فلم يبقَ لكم بعد ذلك شيء منها.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخَلف وابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٣.

٢ قرأ بهمزتين مفتوحتين كلٌّ مِن ابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، وكلٌّ على أصله في التسهيل والتحقيق، وإدخالِ ألِف بينهما وعدمِه، فابن كثير ورُويس عن يعقوب بتسهيل الهمزة الثانية وإدخال ألِف بينهما، وابن ذكوان عن ابن عامر ورَوح عن يعقوب بتحقيق الهمزتين مع عدم الإدخال، وأبو جعفر بتسهيل الثانية والإدخال، وهشام له ثلاثة أوجه: تسهيل الثانية مع الإدخال، وتحقيق الهمزتين مع الإدخال وعدمه. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٦٢-٣٦٦.

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهَوان. وقد قُرئ كذلك.[١] ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغير استحقاق لذلك، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: تَخرجون مِن طاعة الله عزّ وجلّ، أي: بسبب استكباركم وفِسقكم المستمرَّين. وقُرئ: "تَفسِقُونَ" بكسر "السين".[٢]

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ﴾ أي: لكفّار مكّة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ أي: هودًا عليه السلام، ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ بدل اشتمال منه، أي: وقتَ إنذاره إيّاهم ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمع "حِقْف"، وهو رمل مستطيل مرتفِع فيه انحناء، مِن "احقَوقَفَ الشيءُ" إذا اعوَجّ. وكانت عاد أصحاب عَمَدٍ، يسكنون بين رمال مُشرفة على البحر بأرضٍ يقال لها: "الشِّحْر" مِن بلاد اليمن. وقيل: بَيْنَ عُمان[٣] ومهرة.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: الرسل، جمع "نذير" بمعنى "المنذِر". ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: مِن قَبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: مِن بعده. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قَبله، مؤكِّد لوجوب العمل بموجَب الإنذار، وُسِّط بين ﴿أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ وبين قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مسارعةً إلى ما ذُكر مِن التقرير والتأكيد، وإيذانًا باشتراكهم في العبارة المَحكيّة.

والمعنى: واذكر لقومك إنذارَ هود قومَه عاقبةَ الشرك والعذابَ العظيم، وقد أنذر مَن تقدّمه مِن الرسل ومَن تأخّر عنه قومَهم مثلَ ذلك، فاذكرهم.

وأمّا جعلُها حالًا مِن فاعل ﴿أَنذَرَ﴾ على معنى أنّه عليه السلام أنذرَهم وقال لهم: لا تعبدوا إلّا الله، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقد أعْلَمهم أنّ الرسل الذين بُعِثُوا قبله والذين سيُبعثون بعده كلّهم منذِرون نحوَ إنذاره؛[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٣ وفي هامش م: خف. | أي: بتخفيف "الميم".

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٦/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٥.

فمَعَ ما فيه مِن تكلّفِ تقدير الإعلام لا بدّ في نسبة الخلوّ إلى مَن بعده مِن الرسل مِن تنزيل الآتي منزلةَ الخالي.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾

[٩٢و] ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾ أي: تَصرِفَنا ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ عن عبادتها؟ / ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِن العذاب العظيم ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدك بنزوله بنا.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: بوقت نزوله، أو العلمُ بجميع الأشياء التي مِن جملتها ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحدَه، لا علمَ لي بوقت نزوله، ولا مدخلَ لي في إتيانه وحُلوله، وإنّما علمه عند الله تعالى، فيأتيكم به في وقته المقدَّر له.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ مِن مَواجب الرسالة التي مِن جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك، مِن غير وقوف على وقت نزوله. وقُرئَ: "أُبْلِغُكُمْ"[١] مِن "الإبلاغ".

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ حيث تقترحون عليّ ما ليس مِن وظائف الرسل مِن الإتيان بالعذاب وتعيينِ وقته.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ فصيحة. والضمير إمّا مبهَم يوضّحه قوله تعالى: ﴿عَارِضٗا﴾ إمّا تمييزًا أو حالًا، أو راجع إلى ما استعجلوه بقولهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾،[٢] أي: فأتاهم، فلمّا رأَوه سحابًا يَعرض في أُفُقِ السماء ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ أي: متوجِّهَ أوديتهم. والإضافة فيه لفظيّة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾، ولذلك وقعا وَصفين للنكرة.

---

١ قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٠.

٢ الأحقاف، ٤٦/٢٢.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود، وقد قُرئ كذلك،[١] وقُرئ: "قُلْ".[٢] وهو رَدّ عليهم، أي: ليس الأمر كذلك؛ بل هو ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ مِن العذاب، ﴿رِيحٌ﴾ بدل مِن ﴿مَا﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف. ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفة لـ﴿رِيحٌ﴾.

وكذا قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تُهلِك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِن نفوسهم وأموالهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾. وقُرئ: "يَدْمُرُ كُلُّ شَيْءٍ"[٣] مِن "دَمَرَ دَمارًا" إذا هلَك، فالعائد إلى الموصوف محذوف، أو هو "الهاء" في ﴿رَبِّهَا﴾. ويجوز أن يكون استئنافًا واردًا لبيان أنّ لكلّ ممكنٍ فناءً مَقضيًّا مَنوطًا بأمر بارِئِه، ويكون "الهاء" لـ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾، لكونه بمعنى "الأشياء". وفي ذكر "الأمر" و"الربّ" والإضافةِ إلى "الريح" مِن الدلالة على عظَمة شأنه عزّ وجلّ ما لا يخفى.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ / فصيحة، أي: [٩٢ظ]
فجاءتهم الريح فدمّرتهم، فأصبحوا بحيث لا يُرى إلّا مساكنُهم. وقُرئ: "تُرَى" بـ"التاء" ونصبِ ﴿مَسَٰكِنَهُمْ﴾[٤] خطابًا لكلّ أحد يَتأتّى منه الرؤية تنبيهًا على أنّ حالهم بحيث لو حضر كلُّ أحدٍ بلادَهم لا يَرى فيها إلّا مساكنَهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وقد مرّ تفصيل القصّة في سورة الأعراف.[٥]

وقد رُوي أنّ الريح كانت تحمل الفُسطاط والظَّعينة، فترفعها[٦] في الجوّ حتّى تُرى كأنّها جرادة.[٧] قيل: أوّل مَن أبصر العذاب امرأة منهم، قالت: «رأيت ريحًا فيها كشُهب النار».[٨]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٢ أي: "قُلْ بَلْ هُوَ". قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٧/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٥ الأعراف، ٦٥/٧ وما بعدها.

٦ س: وترفعهما.

٧ جامع البيان للطبري، ١٥٧/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧/٩.

٨ جامع البيان للطبري، ٢٦٩/١٠ (الأعراف، ٦٨/٧)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧/٩.

ورُوي أنّ أوّل ما عرَفوا به أنّه عذاب ما رأوا ما كان في الصحراء مِن رِحالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم، وغلّقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب، وصَرعَتْهم، فأمال الله تعالى الأحقاف، فكانوا تحتها سبعَ ليالٍ وثمانية أيّام لهم أنين، ثمّ كشفت الريحُ عنهم، فاحتملَتْهم فطرحتهم في البحر.[١]

ورُوي أنّ هودًا عليه السلام لمّا أحسّ بالريح خطّ على نفسه وعلى المؤمنين خطًّا إلى جنب عينٍ تَنبُع.[٢]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «اعتزل هود عليه السلام ومَن معه في حظيرة، ما يصيبهم مِن الريح إلّا ما يلين على الجلود، وتلذّه الأنفس، وإنّها لتَمُرّ مِن عادٍ بالظُّعُن بين السماء والأرض، وتَدمغُهم بالحجارة».[٣]

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ أي: قرّرنا عادًا، أو أقدرناهم، و﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ موصولة، أو موصوفة، و﴿إِن﴾ نافية، أي: في الذي، أو في شيء ما[٤] مكنّاكم فيه مِن السَّعة والبسطةِ وطولِ الأعمار وسائرِ مبادي التصرّفات، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟[٥] كَمْ[٦] أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم[٧] مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٦]. وممّا يُحسِّن موقع ﴿إِن﴾ ههنا التفصّي عن تكرّر لفظة ﴿مَا﴾، وهو الداعي إلى قلب ألِفها هاءً في "مَهما". وجعلُها شرطيّة أو زائدة[٨] ممّا لا يليق بالمقام.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/١٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٧.
٢ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٨؛ اللباب لابن عادل، ١٧/٤٠٩.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٨. وأخرجه الدينوري في المجالسة، ٧/٢٩، عن وهب.
٤ وفي هامش م: نفي. «منه».
٥ م س ي – ألم يروا.
٦ م س ي: وكم.
٧ م س ي: قبلكم.
٨ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١١٦.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ليستعملوها / فيما خُلِقت هي له، [٩٣و]
ويعرِفوا بكلٍّ منها ما نِيطت به معرفته مِن فنون النِّعم، ويستدلّوا بها على شئون مُنعِمها عزّ وجلّ، ويداوِموا على شُكره.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل، ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينيّة المَنصوبة في صحائف العالَم، ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى. ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء. و﴿مِن﴾ مزيدة للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾، وهو ظرف جَرى مَجرى التعليل مِن حيث إنّ الحكم مرتَّب على ما أضيفَ إليه، فإنّ قولك: "أكرَمتُه إذ أكرَمَني" في قوّة قولك: "أكرَمتُه لإكرامه"؛ لأنّك إذا أكرمتَه وقت إكرامه فإنّما أكرمتَه فيه لوجود إكرامه فيه، وكذا الحال في "حيث".

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، ويقولون: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.[١]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكّة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحِجْر ثمود، وقُرى قومِ لوط. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ كرّرناها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عمّا هم فيه مِن الكفر والمعاصي.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ القُربان: ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى. وأحَدُ مفعولَي ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ ضميرُ الموصول المحذوف، والثاني ﴿ءَالِهَةً﴾، و﴿قُرْبَانًا﴾ حال، والتقدير: فهلّا نصَرهم وخلّصهم مِن العذاب الذين اتّخذوهم

---

[١] الأحقاف، ٢٢/٤٦.

آلِهةً حالَ كونها مُتقرَّبًا بها إلى الله تعالى، حيث كانوا يقولون: "إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زُلفى"،[١] و"هؤلاء شفعاؤنا عند الله".[٢] وفيه تهكّم بهم.

ولا مساغَ لجعلِ ﴿قُرْبَانًا﴾ مفعولًا ثانيًا، و﴿ءَالِهَةً﴾ بدلًا منه؛[٣] لفساد المعنى، فإنّ البدلَ وإن كان هو المقصودَ لكنّه لا بدّ في غير بدل الغلط مِن صحّة المعنى بدونه، / ولا ريبَ في أنّ قولنا: "اتّخذوهم مِن دون الله قُربانًا"، أي: مُتقرَّبًا به؛ ممّا لا صحّةَ له قطعًا؛ لأنّه تعالى مُتقرَّب إليه، لا مُتقرَّبٌ به، فلا يصحّ أنّهم اتّخذوهم قُربانًا متجاوِزين اللهَ في ذلك. وقُرئ: "قُرُبَانًا" بضمّ "الراء".[٤] [٩٣ظ]

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي: غابوا عنهم. وفيه تهكّم آخر بهم، كأنّ عدم نَصرهم لغَيبتهم، أو ضاعوا عنهم، أي: ظهَر ضياعهم عنهم بالكلّيّة. وقيل: امتنَع نصرهم امتناعَ نصر الغائب عن المنصور.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ضياعُ آلهتهم عنهم، وامتناعُ نُصرتهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: أثرُ إفكهم الذي هو اتّخاذهم إيّاها آلهةً، ونتيجةُ شِركهم.

وقُرئ: "أَفَكُهُمْ"،[٥] وكلاهما مصدر، كـ"الحِذْر" و"الحَذَر". وقُرئ: "أَفَكَهُمْ" على صيغة الماضي،[٦] فذلك إشارة حينئذ إلى الاتّخاذ، أي: وذلك الاتّخاذ الذي هذه ثمرتُه وعاقبتُه صَرَفَهم عن الحقّ. وقُرئ: "أَفَّكَهُمْ" بالتشديد[٧] للمبالغة، و"آفَكَهُمْ"[٨] مِن "الإفعال"، أي: جعلهم آفِكين. وقُرئ: "آفِكُهُمْ"[٩] على صيغة[١٠] الفاعل مضافًا إلى ضميرهم، أي: قولهم الآفِكُ، أي: ذو الإفك، كما يقال: قولٌ كاذب.

---

١ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر، ٣٩/٣].

٢ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس، ١٠/١٨].

٣ انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥/١١٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٧.

٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة، حكاها الفرّاء. انظر: **معاني القرآن** للفرّاء، ٣/٥٦.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٧.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عياض. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٧.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن الزبير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٧.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٧.

١٠ س ي + اسم.

﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ عطفٌ على ﴿إِفْكُهُمْ﴾، أي: وأَثَرُ افترائهم على الله تعالى، أو أَثَرُ ما كانوا يفترونه عليه تعالى. وقُرئ: "وَذَلِكَ إِفْكٌ مِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ"،[١] أي: بعضُ ما كانوا يفترون مِن الإفك.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أَمَلْناهم إليك، وأَقْبَلنا بهم نَحوَك. وقُرئ: "صَرَّفْنَا" بالتشديد[٢] للتكثير؛ لأنّهم جماعة، وهو السرّ في جمع الضمير في قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وما بعده، وهو حال مقدَّرة مِن ﴿نَفَرًا﴾ لتخصُّصه بالصفة، أو صفة أخرى له، أي: واذكر لقومك وقتَ صَرَفنا إليك نفرًا كائنًا مِن الجنّ مُقَدَّرًا استماعُهم القرآن.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآنَ عند تلاوته، أو الرسولَ عند تلاوته له على الالتفات، والأوّل هو الأظهَر. ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُواْ﴾ أي: اسكُتوا لنَسمعه.

﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أُتِمَّ وفُرغ عن تلاوته. وقُرئ على البناء للفاعل،[٣] وهو ضمير الرسول عليه السلام، وهذا يؤيّد عودَ ضمير ﴿حَضَرُوهُ﴾ إليه عليه السلام. ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ مقدِّرين إنذارَهم عند رجوعهم إليهم.

[٩٤و] رُوي أنّ الجنّ كانت / تَسترِق السمع، فلمّا حُرِست السماء ورُجِموا بالشهُب قالوا: "ما هذا إلّا لِنبأ حدَث"، فنهَض سبعةُ نفرٍ أو تسعةُ نفرٍ مِن أشراف جنّ نُصيبين أو نينوى، منهم زَوبعة، فضربوا حَتّى بلغوا تِهامة، ثمّ اندفعوا إلى وادي نخلة، فوافقوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو قائم في جوف الليل يصلّي، أو في صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءته، وذلك عند منصرَفِه مِن الطائف.[٤]

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٠/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن حبيب بن عبد الله بن الزبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٦/٥. ونحوه في صحيح البخاري، ١٥٤/١ (٧٧٣)؛ وصحيح مسلم، ٣٣١/١ (٤٤٩).

وعن سعيد بن جبير: «ما قرأ رسول الله عليه السلام[١] على الجنّ ولا رآهم، وإنّما كان يتلو في صلاته، فمرّوا به فوقفوا مستمعين، وهو لا يشعر بهم، فأنبأه الله تعالى باستماعهم».[٢]

وقيل: بل أمره الله تعالى أن يُنذر الجنّ ويقرأ عليهم، فصرف إليهم[٣] نفرًا منهم جمعهم له، فقال عليه السلام: «إنّي أُمِرت أن أقرأ على الجنّ الليلةَ، فمَن يتبعُنِي؟» قالها ثلاثًا، فأطرقوا إلّا عبدَ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «فانطلقنا حتّى إذا كنّا بأعلى مكّة في شِعْب الحَجُونِ خطّ لي خطًّا، فقال: "لا تخرج منه حتّى أعودَ إليك"، ثمّ افتتح القرآن وسمعتُ لَغَطًا شديدًا حتّى خِفت على رسول الله عليه السلام، وغَشِيَتْه أَسْوِدة كثيرة حالَت بيني وبينه حتّى ما أسمع صوته عليه السلام، ثمّ انقطعوا كقِطع السحاب، فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "هل رأيت شيئًا؟"، قلت: "نعم، رجالًا سودًا مستثغري[٤] ثيابٍ بيضٍ"، فقال: "أولئك جنُّ نصيبين، وكانوا اثنَي عشر ألفًا"».[٥] والسورة التي قرأها عليهم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق، ١/٩٦].[٦]

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ أي: عند رجوعهم إلى قومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قيل: قالوه لأنّهم كانوا على اليهوديّة.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام».[٧]

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٣١١/٤. وهو بنحوه في **صحيح مسلم**، ٣٣١/١ (٤٤٩)، عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

٣ كذا في الأصول الخطيّة، وفي **الكشّاف** للزمخشري، ٣١١/٤: "فصرف إليه"، وهو الصواب.

٤ وفي هامش م: الاستثغار: أن يُدخل الرجل ثوبه بين رِجليه كما يفعل الكلب بذنَبه. «منه».

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٠/٩، **الكشّاف** للزمخشري، ٣١١/٤. وانظر: **جامع البيان** للطبري، ١٦٨/٢١.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٢/٤.

٧ **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٢/٤. وقال أبو حيّان: «وهذا لا يصحّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، كيف لا تسمع بأمر عيسى وله أمّة عظيمة لا تنحصر على ملّته؟ فيبعد عن الجنّ كونهم لم يسمعوا به». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٥٠/٩.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أرادوا به التوراةَ، ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ مِن العقائد الصحيحة، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوصِلٍ إليه، وهو الشرائع والأعمال الصالحة.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٣١﴾

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أرادوا به ما سمعوه مِن الكتاب، وصفوه بالدعوة إلى الله تعالى بعد ما وصفوه بالهداية إلى الحقّ والصراط المستقيم لتلازمهما. دعَوهم إلى ذلك بعد بيان حقّيّته واستقامته / ترغيبًا لهم [٩٤ظ] في الإجابة، ثمّ أكّدوه بقولهم: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضَ ذنوبكم، وهو ما كان في خالِص حقّ الله تعالى، فإنّ حقوق العباد لا تُغفَر بالإيمان. ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مُعَدٍّ للكفرة. واختُلف في أنّ لهم أجرًا غيرَ هذا أو لا، والأظهَر أنّهم في حكم بني آدم ثوابًا وعقابًا.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٣٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إيجاب للإجابة بطريق الترهيب إثْرَ إيجابها بطريق الترغيب، وتحقيقٌ لكونهم منذرين. وإظهار داعي الله مِن غير اكتفاءٍ بأحد الضميرين[١] للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وإدخال الروعة. وتقييد الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة، أي: فليس بمعجزٍ له تعالى بالهرَب، وإن هرَب كلَّ مَهرَب[٢] مِن أقطارها، أو دخَل في أعماقها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثْرَ بيان استحالة نَجاته بنفسه. وجمع "الأولياء" باعتبار معنى ﴿مَن﴾، فيكون مِن باب مقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحاد إلى الآحاد، كما أنّ الجمع

---

١ وفي هامش م: أي: ضمير الداعي وضمير الجلالة، بأن يقال: ومَن لا يُجبْه، أو ومَن لا يجب داعيَه. «منه».

٢ س – كلّ مهرب.

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بذلك الاعتبار. أي: أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: ظاهرٍ كونُه ضلالًا بحيث لا يخفى على أحدٍ، حيث أعرضوا عن إجابة مَن هذا شأنه.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ "الهمزة" للإنكار، و"الواو" للعطف على مقدَّر يستدعيه المقام، والرؤيةُ قلبيّة، أي: ألم يتفكّروا ولم يعلموا عِلمًا جازمًا مُتاخِمًا للمشاهدة والعيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ابتداءً مِن غير مثالٍ يَحتذيه، ولا قانونٍ ينتحيه ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ أي: لم يتعب ولم ينصَب بذلك أصلًا، أو لم يعجز عنه، يقال: "عَيِيتُ بالأمر" إذا لم تَعرِف وجهَه.

وقوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في حيّز الرفع؛ لأنّه خبر ﴿أَنَّ﴾، كما يُنبئ عنه القراءة بغير باء.[1] ووجه دخولها في القراءة الأولى اشتمال النفي الوارد في صدر الآية على ﴿أَنَّ﴾ وما في حيّزها، كأنّه قيل: أوليس الله بقادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾،
[٩٥و] ولذلك أجيبَ عنه بقوله تعالى: / ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تقريرًا للقدرة على وجه عامّ يكون كالبرهان على المقصود.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٤﴾

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ظرفٌ عاملُه قولٌ مضمَر، مقولُه: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ﴾ على أنّ الإشارة إلى ما يشاهدونه حينئذ مِن حيث هو مِن غير أن يخطر بالبال لفظ يدلّ عليه، فضلًا عن تذكيره وتأنيثه؛ إذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه، وقد مرّ في سورة الأحزاب.[2] وقيل: هي إلى "العذاب".

---

١ أي: "قادر". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٤. وقرأ يعقوب: "يَقْدِرُ". النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

٢ الأحزاب، ٢٢/٣٣.

وفيه تهكّم بهم، وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده، وقولِهم: "وما نحن بمُعذَّبين".

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أكّدوا جوابهم بالقسَم، كأنّهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقّيّتها كما في الدنيا، وأنّى لهم ذلك. ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بها في الدنيا. ومعنى الأمرِ الإهانةُ بهم والتوبيخُ لهم.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ جواب شرط محذوف، أي: إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذُكر فاصبر على ما يصيبك مِن جهتهم كما صبَر أولو الثبات والحَزم مِن الرسل، فإنّك مِن جُملتهم؛ بل مِن عِلْيَتهم، و﴿مِن﴾ للتبيين. وقيل: للتبعيض. والمراد بـ"أولي العزم" أصحابُ الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبَروا على تحمّل مشاقِّها، ومُعاداةِ الطاعنين فيها. ومشاهيرهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى.

وقيل: هم الصابرون على بلاء الله، كنوح صبَرَ على أذيّة قومه، كانوا يضربونه حتّى يُغشى عليه، وإبراهيمَ صبَرَ على النار وعلى ذبح ولَده، والذبيح على الذبح، ويعقوب على فقد الولد والبصر، ويوسف على الجُبّ والسجن، وأيّوب على الضرّ، وموسى قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦١-٦٢]، وداود بكى على خطيئته أربعين سنةً، وعيسى لم يضع لَبِنةً على لَبِنة صلوات الله تعالى[١] عليهم أجمعين.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: لكفّار مكّة بالعذاب، فإنّه على شَرَف النزول بهم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ مِن العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ يسيرةً ﴿مِّن نَّهَارٍۭ﴾ لِما يشاهدون مِن شدّة العذاب، وطولِ مدّته.

---

[١] م – تعالى.

[٩٥ظ] وقوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ / خبر مبتدإٍ محذوف، أي: هذا الذي وُعِظتم به كفاية في الموعظة، أو تبليغٌ مِن الرسول، ويؤيّده أنّه قُرئ: "بَلِّغْ".[١] وقُرئ: "بَلَاغًا"،[٢] أي: بُلِّغوا بلاغًا.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارِجون عن الاتّعاظ أو عن الطاعة. وقُرئ بفتح "الياء" وكسر "اللام"،[٣] وبفتحهما،[٤] مِن "هَلَكَ" و"هَلِكَ"، وبنون العظمة، مِن "الإهلاك"، ونصبِ ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ ووصفِه.[٥]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الأحقاف كُتب له عشر حسنات بعدد كلّ رَملة في الدنيا».[٦]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مجلز وأبي سراج المدني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٠٢/٤. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٤٦

سُورَةُ الأَحقَافِ

مكية إلاّ «قل أرأيتم إن كان من عند الله» الآيَة، وإلاّ «فاصبر كما صبر أولو العزم» الآيَة، وإلاّ «ووصينا الإنسان بوالديه» الثلاثَ آيات، وهي أربعٌ أو خمس وثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿حم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿تنزِيلُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ مُبتدأٌ ﴿مِنَ اللهِ﴾: خبرُه ﴿العَزِيزِ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمِ﴾ في صُنعه.

٣ ـ ﴿ما خَلَقْنا السَّماواتِ والأرضَ وما بَينَهُما إلاّ﴾ خلقًا ﴿بِالحَقِّ﴾، ليدلّ على قُدرتنا ووحدانيّتنا، ﴿وأجَلٍ مُسَمًّى﴾ إلى فنائهما يوم القيامة، ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا عَمّا أُنذِرُوا﴾: خُوّفوا به من القرآن ﴿مُعرِضُونَ﴾.

٤ ـ ﴿قُلْ: أرَأَيتُم﴾: أخبِروني ﴿ما تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: الأصنامَ، مفعولٌ أول ﴿أرُونِي﴾: أخبِروني ـ تأكيدٌ ـ ﴿ماذا خَلَقُوا﴾: مفعولٌ ثانٍ ﴿مِنَ الأرضِ﴾؟ بيانُ «ما».........

سُورَةُ الأَحقَافِ

قولُهُ: (خَلْقاً) ملتَبِساً بالحقِّ، وهو ما تقتَضيهِ الحكمَةُ والمَعدِلَةُ[١].

قولُهُ: (إلى فَنَائِهِمَا) أي: وبتقديرِ أجلٍ مسمًّى ينتهي إليه الكلُّ.

قولُهُ: (بِهِ) إشارَةٌ إلى أنَّ ﴿مَا﴾ موصولةٌ، وجُوِّزَ أن تكونَ مصدريَّةً متعلِّقةً بـ﴿مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: لا يتفكَّرونَ فيه، ولا يستعدُّونَ لحلولِهِ.

قولُهُ: (تَأْكِيدٌ) الظَّاهرُ أنَّه بدلُ اشتمالٍ على معناهُ الأصليِّ.

---

(١) العَدَالة والعُدُولة والمَعْدَلة والمَعْدِلةُ، كُلُّه: العَدْل. «المحكم والمحيط الأعظم» (٢/ ١٣).

﴿أم لَهُم شِركٌ﴾: مُشاركة ﴿في﴾ خلق ﴿السَّماواتِ﴾ مع الله؟ وأم: بمعنى همزة الإنكار. ﴿ائتُوني بِكِتابٍ﴾ مُنزل ﴿مِن قَبلِ هذا﴾ القُرآن، ﴿أو أثارةٍ﴾: بقيّة ﴿مِن عِلمٍ﴾ يُؤثر عن الأوّلين بصِحّة دعواكم في عِبادة الأصنام أنها تُقرّبكم إلى الله، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ في دعواكم.

٥ ـ ﴿ومَن﴾: استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحدَ ﴿أضَلُّ مِمَّن يَدعُو﴾: يعبد ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ﴿مَن لا يَستَجِيبُ لَهُ إلَى يَومِ القِيامةِ﴾، وهم أي: الأصنام لا يُجيبون عابديهم إلى شيء يسألونه أبدًا، ﴿وهُم عَن دُعائِهِم﴾: عِبادتهم ﴿غافِلُونَ﴾ لأنهم جماد لا يعقلون؟ ٦ ـ ﴿وإذا حُشِرَ النّاسُ كانُوا﴾ أي: الأصنامُ ﴿لَهُم﴾: لِعابديهم ﴿أعداءً، وكانُوا بِعِبادَتِهِم﴾: بعبادة عابديهم ﴿كافِرِينَ﴾: جاحدين.

٧ ـ ﴿وإذا تُتلَى علَيهِم﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿آياتُنا﴾: القُرآن ﴿بَيِّناتٍ﴾: ظاهراتٍ حالٌ ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم ﴿لِلحَقِّ﴾ أي: في القُرآن ﴿لَمّا جاءَهُم: هذا سِحرٌ مُبِينٌ﴾: بيّنٌ ظاهر. ٨ ـ ﴿أم﴾: بمعنى «بل» وهمزةِ الإنكار ﴿يَقُولُونَ: افتَراهُ﴾ أي: القرآنَ؟ ﴿قُلْ: إنِ افتَرَيتُهُ﴾ فَرْضًا ﴿فلا تَملِكُونَ لِي مِنَ اللهِ﴾: من عذابه ﴿شَيئًا﴾..

قولُهُ: (و﴿أمْ﴾) الظَّاهرُ أنَّها متَّصلةٌ.

قولُهُ: (القُرآنِ) فإنَّهُ ناطِقٌ بالتَّوحيدِ.

قولُهُ: (بقيَّةٍ) بقيَتْ عليكُم من علمِ الأوَّلينَ.

قولُهُ: (يُؤْثَرُ) أي: تُنقَلُ.

قولُهُ: (أنَّهَا تُقَرِّبُكُم) الأنسَبُ: أنَّها تستحِقُّ العبادةَ.

قولُهُ: (لا يُجِيبُونَ) لو سمِعُوا دعاءَهُم فضلاً أن يعلمُوا سرائرَهُم، ويُراعوا مصالحَهُم.

قولُهُ: (عِبَادَتِهِم) بل عن دعائِهِم فضلاً عن عبادتِهِم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإلهَ من لا يغفُلُ عن عبادةِ عبيدِهِ.

قولُهُ: (لأنَّهُم جَمَادٌ) أو عبادٌ مسخَّرونَ مشتَغِلون بأحوالِهِم.

قولُهُ: (جَاحِدِينَ) مكذِّبينَ بلسانِ الحالِ أو القالِ، أو متبرِّئينَ؛ يعني: يضرُّونَهُم ولا ينفَعونَهُم.

قولُهُ: (ظَاهِرَاتٍ) أو مُظهِراتٍ.

قولُهُ: (أي: فِي القُرآنِ) يعني: في شأنِهِ ولأجلِهِ.

قولُهُ: (ظَاهِرٌ) بُطلانُهُ.

قولُهُ: (هَمزَةِ الإِنكَارِ) بعدَ «بل» للانتقالِ.

أي: لا تقدرون على دفعه عنّي، إن عذّبني الله. ﴿هُوَ أعلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: تقولون في القرآن، ﴿كَفَى بِهِ﴾ - تعالى - ﴿شَهِيدًا بَيني وبَينكُم! وهُوَ الغَفُورُ﴾ لمن تاب ﴿الرَّحِيمُ﴾ به، فلم يُعاجلكم بالعُقوبة.

٩ - ﴿قُلْ: ما كُنتُ بِدْعًا﴾: بَدِيعًا ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: أوّلَ مُرسَل. قد سبق قبلي كثير منهم، فكيف تُكذّبونني؟ ﴿وما أدرِي: ما يُفعَلُ بِي ولا بِكُم﴾ في الدنيا؟ أأُخرَجُ من بلدي أم أُقتل كما فُعل بالأنبياء قبلي؟ أوَتُرمَونَ بالحِجارة أم يُخسَف بكم كالمُكذّبين قبلكم؟ ﴿إنْ﴾: ما ﴿أتّبِعُ إلاّ ما يُوحَى إلَيَّ﴾ أي: القرآنَ، ولا أبتدعُ من عِندي شيئًا، ﴿وما أنا إلاّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيّنُ الإنذار.

١٠ - ﴿قُلْ: أرَأَيتُم﴾: أخبِروني ماذا حالُكم، ﴿إن كانَ﴾ أي: القُرآن ﴿مِن عِندِ اللهِ، وكَفَرتُم بِهِ﴾: جملةٌ حاليّة، ﴿وشَهِدَ شاهِدٌ مِن بَنِي إسرائيلَ﴾ هو عبد الله بن سلام ﴿عَلَى مِثلِهِ﴾ أي: عليه أنه من عند الله، ﴿فآمَنَ﴾ الشاهد، ﴿واستَكبَرتُم﴾: تكبّرتم عن الإيمان؟ وجوابُ الشرط بما عطف عليه: ألستم ظالمين؟ دلّ عليه: ﴿إنَّ اللهَ لا يَهدِي القَومَ الظّالِمِينَ﴾.

١١ - ١٢ - ﴿وقالَ الّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: في حقّهم: ﴿لَو كانَ﴾ الإيمانُ ﴿خَيرًا ما سَبَقُونا إلَيهِ. وإذ لَم يَهتَدُوا﴾ أي: القائلون ﴿بِهِ﴾........................

قولُهُ: (إنْ عَذَّبَنِي اللهُ) عاجلاً؛ يعني: فكيفَ أجترِئُ عليه وأُعرِّضُ نفسي للعقابِ من غيرِ توقُّعِ نفعٍ ولا دفعِ ضرٍّ من قبلِكُم؟

قولُهُ: (تَقُولُونَ) أي: تندَفِعونَ وتشرَعونَ فيه من القَدحِ في آياتِهِ.

قولُهُ: (بِهِ) الصَّوابُ: بعبادِهِ ليصحَّ التَّرتُّبُ عليه بقولِهِ: (فلَمْ يُعَاجِلْكُم).

قولُهُ: (فِي الدُّنْيَا) أو في الدّارينِ على التَّفصيلِ، إذ لا عِلمَ لي بالغيبِ.

قولُهُ: (مَاذَا حَالُكُم) الظّاهرُ أنَّ جملةَ الشَّرطِ سدَّ مسَدَّ مفعولِهِ.

قولُهُ: (جُملَةٌ حَالِيَّةٌ) بتقديرِ قد، ويجوزُ أن تكونَ الواو عاطفةً على الشَّرطِ، وكذا الواو في قولِهِ: (﴿وَشَهِدَ﴾).

قولُهُ: (أي: عَلَيهِ) أو مثلِ ذلك، وهو كونُهُ من عندِ اللهِ.

قولُهُ: (أَلَسْتُم ظالِمِيْنَ) أو ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢].

قولُهُ: (أي: فِي حَقِّهِم) ولأجلِهِم، قيل: المرادُ عمّارٌ وبلالٌ وصُهيبٌ.

قولُهُ: (أي: القَائِلُونَ) ظرفٌ لمحذوفٍ، مثلُ: ظهرَ عنادُهُم.

أي: بالقُرآنِ ﴿فسَيَقُولُونَ: هذا﴾ أي: القُرآنُ ﴿إفكٌ﴾: كذبٌ ﴿قَدِيمٌ. ومِن قَبلِهِ﴾ أي: القُرآنِ ﴿كِتابُ مُوسَى﴾ أي: التوراةُ ﴿إمامًا ورَحْمةً﴾ للمُؤمنين به، حالان، ﴿وهذا﴾ أي: القُرآن ﴿كِتابٌ مُصَدِّقٌ﴾ للكُتب قبله، ﴿لِسانًا عَرَبِيًّا﴾: حالٌ من الضمير في «مُصدّق»، ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: مُشرِكي مكّة، ﴿و﴾ هو ﴿بُشرَى لِلمُحسِنِينَ﴾: للمُؤمنين.

١٣ ـ ١٤ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ قالُوا: رَبُّنا اللهُ. ثُمَّ استَقامُوا﴾ على الطاعة ﴿فلا خَوفٌ علَيهِم ولا هُم يَحزَنُونَ، أُولئِكَ أصحابُ الجَنّةِ خالِدِينَ فِيها﴾: حال ﴿جَزاءً﴾: منصوب على المصدر بفعله المُقدّر، أي: يُجزَون ﴿بِما كانُوا يَعمَلُونَ﴾.

١٥ ـ ﴿ووَصَّينا الإنسانَ بِوالِدَيهِ حُسنًا﴾. وفي قراءة: «إحسانًا» أي: أمرناه أن يُحسن إليهما. فنَصبُ «إحسانًا» على المصدر بفعله المُقدّر، ومثله «حُسنًا»..................................

قولُهُ: (حَالانِ) من الظَّرفِ، أو من: ﴿كِتَابُ﴾ لتخصُّصِهِ بالصِّفةِ.

قولُهُ: (مُشرِكِي مكَّةَ) وهو علَّةُ ﴿مُصَدِّقٌ﴾، والضَّميرُ للكتاب، أو اللهِ، أو الرَّسولِ، ويؤيِّدُ الأخيرَ قراءةُ نافعِ والشَّاميِّ والبزِّيِّ بخلفٍ عنه بالخطابِ(١).

قولُهُ: (هُو) يعني: أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والأظهرُ: أنَّه عطفٌ على محلِّ: ﴿لِيُنْذِرَ﴾.

قوله: (عَلى الطَّاعَةِ) أي: جمَعوا بينَ التَّوحيدِ الَّذي هو خلاصَةُ العلمِ والاستقامةِ في العبادةِ الَّتي هي منتهى العَملِ، ولذا قيل: الاستقامةُ خيرٌ من ألفِ كرامَةٍ.

قولُهُ: (حَالٌ) من المستكنِّ في ﴿أَصْحَابُ﴾ بمعنى: ملازِمونَ.

قولُهُ: (المُقدَّرِ) الَّذي دلَّ عليه الكلامُ.

قولُهُ: (يُجْزَونَ) أو جوزوا.

قولُهُ: (وفي قِرَاءَةٍ) للكوفيِّ(٢).

قولُهُ: (بِفعلِهِ المُقَدَّرِ) وهو «يحسنُ»، وقيل: التَّقديرُ: ألزمناهُ إحساناً.

قولُهُ: (ومِثْلُهُ «حسناً») وقيل: التَّقديرُ وصيَّةً ذاتَ حُسنٍ، وقُرئَ: «حَسَناً»(٣) أي: إيصاءً حسناً.

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٩).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) وهي قراءة شاذة، ونسبت لعلي والسلمي، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٣٥).

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا، وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾ أي: على مشقّة، ﴿وحَمْلُهُ وفِصالُهُ﴾ من الرّضاع ﴿ثَلاثُون شَهرًا﴾. ستّةُ أشهر أقلُّ مُدّة الحمل، والباقي أكثرُ مُدّة الرّضاع. وقيل: إن حملتْ به ستّة أو تِسعة أرضعته الباقيَ.

﴿حَتَّى﴾: غايةٌ لجملة مُقدّرة أي: وعاش حتّى ﴿إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ هو كمال قُوّته وعقله ورأيه، أقلّه ثلاث وثلاثون سنة أو ثلاثون، ﴿وبَلَغَ أربَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تمامَها وهو أكثر الأشُدّ، ﴿قالَ: رَبِّ﴾ إلى آخِره ـ نزل في أبي بكر الصِّدّيق لمّا بلغ أربعين سنة بعد سنتين من مبعث النبيّ ﷺ آمن به، ثمّ آمن أبواه ثم ابنه عبد الرحمن ثم ابن عبد الرحمن أبو عَتيق ـ ﴿أَوزِعْنِيَ﴾: ألهِمني ﴿أن أشكُرَ نِعْمتَكَ الَّتِي أنعمتَ﴾ بها ﴿عليَّ وعلَى والِدَيَّ﴾، وهي نعمةُ التوحيدِ،..........

قولُهُ: (أي: على مَشَقَّةٍ) أي: ذاتِ كُرهٍ، حالٌ من الفاعلِ، أو حملاً ذا كرهٍ، وقرأ الحرميَّانِ وبصريٌّ وهشامٌ بالفتحِ[1]، وهما لُغَتانِ كالفقرِ.

قولُهُ: (مِنَ الرَّضَاعِ) أي: ومدَّةُ حملِهِ وفطامِهِ، وهو بيانٌ لما تكابدُهُ الأمُّ في تربيةِ الولدِ مبالغةً في الوصيَّةِ بها.

قولُهُ: (أَكثَرُ مُدَّةِ الرَّضَاعِ) وبه قالَ الجمهورُ[2]، وقالَ أبو حنيفةَ[3]: المرادُ به الحَملُ بالأكُفِّ لا بالبُطونِ.

قولُهُ: (غَايَةٌ) الأظهرُ أنَّها تعليليَّةٌ.

قولُهُ: (أي: تَمَامَهَا) أي: انتهاءَها لا الشُّروعُ والدُّخولَ فيها.

قولُهُ: (آمَنَ بِهِ) مستأنفٌ، وليسَ جواباً لـ(لمَّا) لأنَّه يوهمُ تخلُّفَ إسلامِهِ رضيَ اللهُ عنهُ إلى سنتينِ، وإنَّما الجوابُ: (نَزَلَ) أو محذوفٌ دلَّ عليه ذلك.

قولُهُ: (أَبوهُ) بل أبواهُ.

قولُهُ: (ثمَّ ابنُهُ) بل بنُوهُ وبناتُهُ، ولم يقَعْ مثلُ ذلكَ لأحدٍ من المهاجرينَ والأنصارِ.

قولُهُ: (وابنُ عَبدِ الرَّحمَنِ) وابنُ أسماءَ عبدُ اللهِ بن الزُّبيرِ.

قولُهُ: (وهُو التَّوحِيدُ) يعني: نِعمةَ الدِّينِ، أو ما يعمُّهما وغيرَهما، ولم يذكُر الولدَ؛ لأنَّهُ من جملةِ النِّعمةِ عليهِ، أو كانَ قبلَ إسلامِهِم، أو لقولِهِ: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

---

(١) انظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٣/ ١٠٠٦).

(٢) ومنهم الشافعي، انظر: «الحاوي الكبير» (١١/ ٣٦٧).

(٣) انظر: «التجريد» (١٠/ ٥٣٥٥).

﴿وأن أعمَلَ صالِحًا تَرضاهُ﴾ ـ فأعتَقَ تِسعةً من المُؤمنين يُعذّبون في الله ـ ﴿وأصلِحْ لِي في ذُرِّيَّتِيَ﴾ فكُلّهم مُؤمنون. ﴿إنِّي تُبتُ إلَيكَ، وإنِّي مِنَ المُسلِمِينَ﴾.

١٦ ـ ﴿أُولئِكَ﴾ أي: قائلو هذا القول أبو بكر وغيره ﴿الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنهُم أحسَنُ﴾ بمعنى: حَسَنُ ﴿ما عَمِلُوا، ويُتَجاوَزُ عَن سَيِّئاتِهِم في أصحابِ الجَنّةِ﴾: حال، أي: كائنين في جُملتهم، ﴿وَعْدَ الصِّدقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾ في قوله تعالى: «وَعَدَ اللهُ المُؤمِنِينَ والمُؤمِناتِ جَنّاتٍ».

١٧ ـ ﴿والَّذِي قالَ لِوالِدَيهِ﴾ ـ أُرِيدَ به الجِنسُ: ﴿أُفٍّ﴾، بكسر الفاء وفتحها، بمعنى مصدر، أي: نتنًا وقُبحًا ﴿لَكُما﴾: أتضجّر منكما. ﴿أتَعِدانِنِيَ﴾ ـ وفي قراءة بالإدغام ـ ﴿أن أُخرَجَ﴾ من القبر، ﴿وقَد خَلَتِ القُرُونُ﴾: الأمم ﴿مِن قَبلِي﴾، ولم تخرج من القبور.

قولُهُ: (فَأَعتَقَ) أي: من جملةِ عملِهِ الصَّالحِ.

قولُهُ: (حَسَنُ) أو طاعتُهُم، فإنَّ المباحَ حسنٌ ولا يُثابُ عليهِ[1]، وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ بالنُّونِ في الفعلينِ[2].

قولُهُ: (مِنْ جُملَتِهِم) أو مثابينَ، أو معدودينَ في عدادِهِم.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) للسُّوسيِّ[3]، لا وجهَ لتخصيصِ هذا البيانِ مع إهمالِهِ في ألفِ مكانٍ.

قولُهُ: (أُرِيْدَ بِهِ) أي: بالموصولِ ﴿الَّذي﴾ مبتدأٌ خبرُهُ: ﴿أُولَئِكَ﴾.

قولُهُ: (بِكَسرِ الفَاءِ) تقدَّمَ في «الإسراءِ»[4].

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لهشامٍ[5].

قولُهُ: (مِنَ القَبْرِ) أي: أبعثَ.

قولُهُ: (ولَمْ تَخْرُجْ) ولم يرجِعْ أحدٌ منهُم.

---

(١) قال الصفي الهندي في «نهاية الوصول في دراية الأصول» (٢/ ٦٢٨): في أن المباح هل هو حسن أم لا؟
إن عني بالحسن ما لا حرج في فعله، سواء كان بحيث يثاب على فعله أو لا يثاب، فلا شك أن كل مباح حسن.
وإن عني به ما يكون ملائماً لغرض فاعله فبعض المباح حسن، وهو الذي يكون ملائماً لفاعله دون الذي لا يكون كذلك.
وإن عني به ما يثاب فاعله ويستحق الثناء بفعله، فليس شيء من المباح حسنًا.

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٨).

(٣) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٦٤، ٥٤١).

(٤) في الآية رقم: (٢٣).

(٥) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٤٠).

﴿وهما يَستَغِيثانِ اللهَ﴾: يسألانه الغوثَ برجوعه، ويقولان: إن لم ترجع ﴿وَيلَكَ﴾ أي: هلاكَك بمعنى: هلكتَ. ﴿آمِنْ﴾ بالبعث، ﴿إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ به ﴿حَقٌّ. فيَقُولُ: ما هذا﴾ أي: القولُ بالبعث ﴿إلاّ أساطِيرُ الأوَّلِينَ﴾: أكاذيبهم. ١٨ ـ ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ﴾: وجب ﴿علَيهِم القَولُ﴾ بالعذاب ﴿في أُمَمٍ، قَد خَلَتْ مِن قَبلِهِم مِنَ الجِنِّ والإنسِ. إنَّهُم كانُوا خاسِرِينَ﴾.

١٩ ـ ﴿ولِكُلٍّ﴾ من جِنسَيِ المُؤمن والكافر ﴿دَرَجاتٌ﴾، فدرجات المُؤمن في الجنّة عالية ودرجات الكافر في النار سافلة، ﴿مِمّا عَمِلُوا﴾ أي: المؤمنون من الطاعات والكُفّارُ من المعاصي، ﴿ولِيُوَفِّيَهُم﴾ أي: اللهُ ـ وفي قراءة بالنون ـ ﴿أعمالَهُم﴾ أي: جزاءها، ﴿وهُم لا يُظلَمُونَ﴾ شيئًا يُنقص للمُؤمنين ويُـزاد للكُفّار. ٢٠ ـ ﴿ويَومَ يُعرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا علَى النّارِ﴾ بأن تُكشف لهم يقال لهم: ﴿أذهَبتُم﴾ ـ بهمزة وبهمزتين، ....

قولُهُ: (الغَوثَ) أي: أن يُغيثَهُ بالتَّوفيقِ للإيمانِ.

قولُهُ: (إنْ لَمْ تَرْجِعْ) أي: هو دُعاءٌ بالهلاكِ بالحثِّ على ما يَخافُ على تركِهِ.

قولُهُ: (أَكَاذِيبُهُم) الَّتي كتَبوها.

قولُهُ: (بالعَذَابِ) وهو يُرِد النُّزولَ في عبدِ الرَّحمنِ؛ لأنَّهُ يدلُّ على أنَّه من أهلِها، وقد جُبَّ عنه إن كانَ لإسلامِهِ.

قولُهُ: (ودَرَجَاتُ الكَافِرِ) أي: دركاتُهُ، ففيهِ تغليبٌ؛ لأنَّ الدَّرجاتِ غالبةٌ في المثوبَةِ.

قولُهُ: (المُؤمِنُونَ) أي: مراتبُ من جزاءِ أعمالِهِم من الخيرِ والشَّرِّ، أو من أجلِ ما عَمِلوا.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وابنِ ذكوانَ وحمزةَ والكسائيِّ[1].

قولُهُ: (يَنقُصُ المُؤمِنُونَ) لا طائلَ تحتَهُ، فالمعنى: لا يُظلَمونَ بنقصِ ثوابٍ وزيادةِ عقابٍ.

قولُهُ: (بِأَنْ تُكشَفَ) أي: تُعرَضَ النَّارُ عليهم، فغلبَ مبالغَةً، والأظهرُ: أنَّ المرادَ بالعرضِ التَّعذيبُ، كما تقدَّمَ في قولِهِ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ [غافر: ٤٦].

قولُهُ: (ويُقَالُ) وهو ناصِبٌ.

قولُهُ: (بهَمْزَةٍ) غيرُ مكِّيٍّ وشاميٍّ[2].

قولُهُ: (وبهَمزَتَينِ) محقَّقتين ابنُ ذكوانَ[3].

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٥)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٤١).

(٢) انظر المصادر السابقة.

(٣) لهذا وما بعده انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧١)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٤١).

وبهمزة ومدّة، وبهما وتسهيلِ الثانية ـ ﴿طَيِّبَاتِكُم﴾ باشتغالكم بلذّاتكم ﴿في حَياتِكُمُ الدُّنيا، واستَمتَعتُم﴾: تمتَّعتم ﴿بِها. فاليَومَ تُجزَونَ عَذابَ الهُونِ﴾ أي: الهوانِ ﴿بِما كُنتُم تَستكبِرُونَ﴾: تتكبّرون ﴿في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ، وبِما كُنتُم تَفسُقُونَ﴾ به. ويُعذَّبون بها.

٢١ ـ ٢٢ ـ ﴿واذكُرْ أخا عادٍ﴾ هو هُودٌ ـ عليه السلام ـ ﴿إذْ﴾ إلى آخره: بدل اشتمال ﴿أنذَرَ قَومَهُ﴾: خوَّفهم ﴿بِالأحقافِ﴾ وادٍ باليمن به منازلُهم ـ ﴿وقَد خَلَتِ النُّذُرُ﴾: مضَتِ الرسلُ ﴿مِن بَينِ يَدَيهِ ومِن خَلفِهِ﴾ أي: من قَبلِ هُود ومن بَعدِه إلى أقوامهم ـ ﴿أنْ﴾ أي: بأن قال: ﴿لا تَعبُدُوا إلاّ اللهَ﴾. وجملة «وقد خلت» مُعترضة. ﴿إنِّيَ أخافُ علَيكُم﴾، إن عبدتم غير الله، ﴿عَذابَ يَومٍ عَظِيمٍ. قالُوا: أجِئتَنا لِتأفِكَنا عَن آلِهتِنا﴾: لتصرفَنا عن عِبادتها؟ ﴿فائْتِنا بِما تَعِدُنا﴾ من العذاب على عِبادتها، ﴿إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ في أنه يأتينا. ٢٣ ـ ﴿قالَ﴾ هود: ﴿إنَّما العِلمُ عِندَ اللهِ﴾ هو الذي يعلم: متى يأتيكم العذاب؟ ﴿وأُبَلِّغُكُم ما أُرسِلتُ بِهِ﴾ إليكم، ﴿ولكِنِّي أراكُم قَومًا تَجهَلُونَ﴾ باستعجالكم العذابَ.

قولُهُ: (وبِهَمزَةٍ ومَدَّةٍ) أي: وبهمزةٍ محقَّقةٍ وإدخالِ ألفٍ وتحقيقِ الثَّانيةِ، وجهٌ لهشامٍ.

قولُهُ: (وبِهِما) أي: بهمزةٍ محقَّقةٍ وإدخالٍ معَ تسهيلِ الثَّانيةِ لهشامٍ في وجهٍ آخرَ، وبقيَ لمكِّيٍّ بتسهيلِ الثَّانيةِ من غيرِ إدخالٍ، وبهذا عرفتَ ما في كلامِ الشَّيخِ من القُصورِ في بعضٍ، وعدمِ الظُّهورِ في بعضٍ، وقولُ البيضاويِّ[1]: غيرَ أنَّ ابنَ كثيرٍ يقرأُ بهمزةٍ ممدودةٍ... إلخ، غيرُ صحيحٍ لما عرفتَ.

قولُهُ: (بِلَذَّاتِكُم) أي: باستيفائِها.

قولُهُ: (تَمَتَّعْتُم) فما بَقِيَ لكم منها شيءٌ.

قولُهُ: (أي: الهَوَانِ) وقُرِئَ به[2].

قولُهُ: (ويُعَذَّبُونَ) عطفٌ على: ﴿يُعْرَضُ﴾ عطفُ تفسيرٍ، فبينَ كلامَيهِ تعارُضٌ.

قولُهُ: (وَادٍ باليَمَنِ) جمعُ: حِقفٍ، وهو رَملٌ مستطيلٌ مرتَفعٌ فيه انحناءٌ، وكانوا يسكنونَ بينَ رمالٍ مشرفَةٍ على البحرِ بالشَّجرِ من اليمنِ.

قولُهُ: (بأَنْ قَالَ) أو بأن لا تَعبُدوا، فإنَّ النهيَ عن الشَّيءِ إنذارٌ عن مضرَّتِهِ، والأظهرُ أنَّ ﴿أنْ﴾ تفسيريَّةٌ، فإنَّ في الإنذارِ معنى القولِ.

قولُهُ: (مُعتَرِضَةٌ) بين الإنذارِ والمنذرِ به، أو حالٌ من فاعلِ: ﴿أَنْذَرَ﴾.

قولُهُ: (فِي أَنَّهُ) الأظهرُ: في وعدِكَ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١١٥).

(٢) أي: (عذاب الهوان) وهي قراءة شاذة، نسبت لابن مسعود وابن أبي عبلة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٣٦).

٢٤ ـ ﴿فلَمّا رأَوهُ﴾أي: ما هو العذاب ﴿عارِضًا﴾: سحابًا عَرَضَ في أُفق السماء ﴿مُستَقبِلَ أَودِيتِهِم قالُوا: هذا عارِضٌ مُمطِرُنا﴾، أي: مُمطرٌ إيانا ـ قال تعالى: ﴿بَل هُوَ ما استَعجَلتُم بِهِ﴾ من العذاب، ﴿رِيحٌ﴾: بدلٌ من «ما» ﴿فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلم، ٢٥ ـ ﴿تُدَمِّرُ﴾: تُهلك ﴿كُلَّ شَيءٍ﴾ مرّت عليه، ﴿بِأَمرِ رَبِّها﴾: بإرادته، أي: كُلَّ شيء أراد إهلاكَه بها. فأهلكتْ رِجالهم ونِساءهم وصِغارهم وأموالهم بأن طارت بذلِك بين السماء والأرض ومزّقته، وبقي هود ومن آمن معه ـ ﴿فأَصبَحُوا لا تَرَى إلاّ مَساكِنُهُم. كَذلِكَ﴾: كما جزيناهم ﴿نَجزِي القَومَ المُجرِمِينَ﴾ غيرَهم.

٢٦ ـ ﴿ولَـقَد مَكَّنّاهُم فِيما﴾: في الذي ﴿إنْ﴾: نافيةٌ أو زائدة ﴿مَكَّنّاكُم﴾ ـ يا أهل مكّة ـ ﴿فِيهِ﴾ من القُوّة والمال، ﴿وجَعَلْنا لَهُم سَمعًا﴾ بمعنى: أسماعًا ﴿وأبصارًا وأفئِدةً﴾: قُلوبًا، ﴿فما أغنَى عَنهُم سَمعُهُم ولا أبصارُهُم ولا أفئِدتُهُم مِن شَيءٍ﴾ أي: شيئًا من الإغناء ـ........

قولُهُ: (عَرَضَ) أي: نشَأَ وظَهرَ.

قولُهُ: (إيَّانَا) وقيل: لنا؛ أي: يأتينا بالمطرِ؛ يعني: الإضافةُ لفظيَّةٌ، وكذا ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾؛ أي: متوجِّهَ أوديتِهم، فهو نكرةٌ صفةٌ لـ﴿عَارِضٌ﴾ وهو نكرةٌ.

قولُهُ: (بَدَلٌ) أو هي ريحٌ.

قولُهُ: (مُؤلِمٌ) صِفتُها.

قولُهُ: (مَرَّتْ عَلَيهِ) من نفوسِهِم وأموالِهِم.

قولُهُ: (بِإرَادَتِهِ) إذ لا توجَدُ نابضةُ حركةٍ ولا قابضةُ سكونٍ إلَّا بمشيئتِهِ.

قولُهُ: (فَأَهْلَكَتْ) أي: فجاءَتِ الرِّيحُ فأهلكَتْ، وعطفَ عليهِ: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ أي: بحيثُ لو حضرْتَ بلادَهُم (لا ترى إلَّا مساكنَهُم)، وقرأ عاصمٌ وحمزةُ بياءٍ مضمومةٍ ورفعِ ﴿مساكن﴾[1].

قولُهُ: (في الَّذِي) أو في شيءٍ، على أنَّ ﴿ما﴾ موصولةٌ أو موصوفةٌ.

قولُهُ: (﴿إنْ﴾ نَافِيَةٌ) وهي أحسنُ من «ما» هنا لعدمِ التَّكرارِ اللَّفظيِّ، فيكونُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [سبأ: ٤٥].

قولُهُ: (أَسمَاعاً) وأفردَ؛ لأنَّهُ في الأصلِ مصدرٌ، ولأنَّهُ لا يتعدَّدُ إدراكُهُ في آنٍ واحدٍ، وقُدِّمَ لشرفِ المسموعِ والمنقولِ على المرئيِّ والمعقولِ، أو للتَّرقِّي؛ يعني: ليَعرِفوا تلك النِّعَمَ ويستدلُّوا بها على مُنعِمِها، ويُداوِموا على شُكرِها.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٥).

ومِن: زائدة ـ ﴿إذ﴾: معمولة لـ«أغنى» وأُشربَت معنى التعليل ﴿كانُوا يَجحَدُونَ بِآياتِ اللهِ﴾: حُججِه البيِّنة! ﴿وحاقَ﴾: نزل ﴿بِهِم ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾، أي: العذابُ، ٢٧ ـ ﴿ولَقَد أهلَكْنا ما حَولَكُم مِنَ القُرَى﴾ أي: من أهلها كثمودَ وعادٍ وقومِ لوط، ﴿وصَرَّفْنا الآياتِ﴾: كرّرنا الحُججَ البيّناتِ، ﴿لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ﴾.

٢٨ ـ ﴿فلَولا﴾: فهلاّ ﴿نَصَرَهُمُ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ قُرْبانًا﴾: مُتقرَّبًا بهم إلى الله، ﴿آلِهَةً﴾ معه، وهم الأصنام. ومفعول «اتّخذ» الأولُ ضمير محذوف يعود على الموصول أي: هم، وقربانًا: الثاني، وآلهة: بدل منه. ﴿بَل ضَلُّوا﴾: غابوا ﴿عَنهُم﴾ عِند نُزول العذاب. ﴿وذلِكَ﴾ أي: اتّخاذُهم الأصنامَ آلهةً قُربانًا ﴿إفكُهُم﴾: كذبُهم، ﴿وما كانُوا يَفتَرُونَ﴾: يَكذِبون. وما: مصدريّة، أو موصولة والعائد محذوف، أي: فيه.

٢٩ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ صَرَفْنا﴾: أمَلْنا ﴿إلَيكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ﴾: جِنَّ نَصِيبِينِ اليمنِ أو جِنَّ نِينَـوَى ـ وكانوا سبعة أو تسعة..

قولُهُ: (زَائِدَةٌ) لتأكيدِ النَّفي أو تبعيضيَّةٌ؛ أي: من شيءٍ من الغَناءِ، وهو التَّقليلُ.

قولُهُ: (مَعمُولَةٌ) أي: علَّةٌ.

قولُهُ: (وأُشرِبَتْ) يعني: أنَّها ظرفٌ أُجريَ مجرى التَّعليلِ من حيثُ إنَّ الحكمَ مرتَّبٌ على ما أُضيفَ إليه.

قولُهُ: (أي: العَذَابُ) وهو إمَّا بيانٌ لـ﴿مَا﴾، أو إشارةٌ إلى مضافٍ مقدَّرٍ.

قولُهُ: (مُتَقَرَّباً) مجهولٌ حيثُ قالوا: ما نعبدُهم إلَّا ليُقرِّبونا، وهؤلاءِ شُفعاؤنا.

قولُهُ: (الأَوَّلُ) صفةُ مفعولٍ.

قولُهُ: (غَابُوا) عن نصرِهِم.

قولُهُ: (كَذِبُهُم) أو ذلك؛ أي: غيبتُهُم عن نصرِهِم إثْرَ إفكِهِمُ الَّذي هو اتِّخاذُهُم إيَّاها آلهةً.

قولُهُ: (يَكذِبُونَ) الإفكُ: أسوَأُ الكذبِ وأقبحُهُ[1]، والافتراءُ: الاختلاقُ والاختراع الكذبِ[2]، فبينهما فرقٌ.

قولُهُ: (مَصدَرِيَّةٌ) ويَرِدُ على قولِهِ: «بعدمِ الفرقِ» أنَّ التَّقدير يكونُ: وذلكَ كفرُهُم وكذبُهُم.

قولُهُ: (أوتِسْعَةٌ) وعن ابنِ عبَّاسٍ وعكرمةَ: أنَّهُم كانوا اثني عشرَ ألفاً من جزيرةِ الموصلِ، كذا في «المبهماتِ»[3].

---

(١) انظر: «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» (ص: ٤٦).

(٢) انظر: «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» (ص: ٢٥٢).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٩٩). وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولابن أبي حاتم عن عكرمة.

«وكانَ ﷺ بِبَطنِ نَخلةَ يُصلِّي بأصحابِهِ الفَجرَ». رواه الشيخان ـ ﴿يَستَمِعُونَ القُرآنَ، فلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا﴾أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أنصِتُوا﴾: اصغَوا لِاستماعه. ﴿فلَمّا قُضِيَ﴾: فُرغ من قراءته ﴿وَلَّوا﴾: رجَعوا ﴿إلَى قَومِهِم، مُنذِرِينَ﴾: مُخوّفين قومَهم العذابَ، إن لم يُؤمنوا. وكانوا يهودًا.

٣٠ ـ ﴿قالُوا: يا قَومَنا، إنّا سَمِعْنا كِتابًا﴾ ـ هو القُرآن ـ ﴿أُنزِلَ مِن بَعدِ مُوسَى، مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ﴾ أي: تقدّمه كالتوراة، ﴿يَهدِي إلَى الحَقِّ﴾: الإسلام، ﴿وإلَى طَرِيقٍ مُستقِيمٍ﴾، أي: طريقه. ٣١ ـ ﴿يا قَومَنا، أجِيبُوا داعِيَ اللهِ﴾ مُحمّدًا ﷺ إلى الإيمان، ﴿وآمِنُوا بِهِ يَغفِرْ لَكُم﴾ اللهُ ﴿مِن ذُنُوبِكُم﴾ أي: بعضَها، لأنّ منها المظالمَ ولا تُغفر إلاّ برضا أربابها، ﴿ويُجِرْكُم مِن عَذابٍ ألِيمٍ﴾: مُؤلم. ٣٢ ـ ﴿ومَن لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فلَيسَ بِمُعجِزٍ في الأرضِ﴾ أي: لا يُعجِزُ اللهَ بالهرب منه فيفوتَه، ﴿ولَيسَ لَهُ﴾: لِمن لا يُجيبُ ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: اللهِ ﴿أولِياءُ﴾: أنصارٌ يدفعون عنه العذاب. ﴿أُولئِكَ﴾ الذين لم يُجيبوا ﴿في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ ظاهر.

قولُهُ: (ببَطْنِ نَخلَةَ) عندَ مُنصرَفِه من الطَّائفِ سنةَ إحدى عشرَة من النُّبوَّةِ في ربيعِ الأوَّلِ، وقيلَ: بالحجونِ، وقيل: بتعدُّدِ لقيِّهم.

قولُهُ: (اصْغَوا) كارضَوا؛ أي: اسكُتُوا.

قولُهُ: (فُرِغَ) وقُرِئَ على بناءِ الفاعلِ[1]، وهو ضميرُ الرَّسولِ ﷺ.

قولُهُ: (العَذَابَ) أو بما سَمِعوا.

قولُهُ: (يَهُوداً) أو ما سمِعُوا بأمرِ عيسى عليهِ السَّلامُ.

قولُهُ: (الإِسلامِ) أو من العَقائدِ.

قولُهُ: (أي: طَرِيقِهِ) أي: طريقِ الإسلامِ من الشَّرائعِ، أو إلى الجنَّةِ، أو إلى المَولى وهو الأولى.

قولُهُ: (ولا تُغْفَرُ) أي: المظالِمُ كالقِصاصِ، كذا في «التَّأويلاتِ»[2]، ذكرَهُ صاحبُ «المدارِكِ»[3].

قولُهُ: (مُؤلِمٍ) مُعَدٌّ للكفَّارِ، واحتجَّ به أبو حنيفةَ خلافاً لهما[4] باقتصارِهِم على المغفرةِ والإجارةِ على أن لا ثَوابَ لهم، قالَ القاضي[5]:..........................

---

(١) أي: (فلما قَضَى) وهي قراءة شاذة، ونسبت لحبيب بن عبد الله بن الزبير، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٣٧).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١٠/ ٢٢١).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٥٤١) عند قوله تعالى: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾[نوح: ٤].

(٤) وانظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٣/ ١٤٧)، و«الكشف والبيان عن تفسير القرآن» للثعلبي (٢٤/ ١٤١)، و«التيسير في التفسير» للنسفي (١٣/ ٣٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٠٣).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١١٧).

٣٣ ـ ﴿أَوَلَم يَرَوا﴾: يعلموا، أي: منكرو البعث، ﴿أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، ولَم يَعْيَ بِخَلقِهِنَّ﴾: لم يعجز عنه، ﴿بِقادِرٍ﴾: خبرُ «أنّ» ـ وزيدت الباء فيه لأنّ الكلام في قوّة: أليس الله بقادر ـ ﴿علَى أن يُحيِيَ المَوتَى؟ بَلَى﴾ هو قادر على إحياء الموتى. ﴿إنَّهُ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣٤ ـ ﴿ويَومَ يُعرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا علَى النّارِ﴾ بأن يُعذّبوا بها، ويقال لهم: ﴿أَلَيسَ هذا﴾ التعذيب ﴿بِالحَقِّ؟ قالُوا: بَلَى، ورَبِّنا. قالَ: فذُوقُوا العَذابَ بِما كُنتُم تكفُرُونَ﴾.

٣٥ ـ ﴿فاصبِرْ﴾ على أذى قومك ﴿كَما صَبَرَ أُولُو العَزمِ﴾: ذوُو الثبات والصبر على الشدائد ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ قبلك، فتكونَ ذا عزم ـ ومِن: للبيان فكُلّهم ذوو عزم. وقيل: للتبعيض. فليس منهم آدمُ لقوله تعالى: «ولَم نَجِدْ لَهُ عَزمًا»، ولا يونسُ لقوله تعالى: «ولا تكُنْ كَصاحِبِ الحُوتِ» ـ ﴿ولا تَستَعجِلْ لَهُم﴾: لِقومك نُزولَ العذاب بهم. قيل: كأنه ضجِر منهم فأحبّ نُزول العذاب بهم، فأُمر بالصبرِ وتركِ الاستعجال للعذاب. فإنه نازل بهم لا محالة. ﴿كَأَنَّهُم يَومَ يَرَونَ ما يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة لطُوله ﴿لَم يَلبَثُوا﴾ في الدنيا في ظنّهم ﴿إلاّ ساعةً مِن نَهارٍ﴾. هذا القُرآن ﴿بَلاغٌ﴾: تبليغٌ من الله ـ تعالى ـ إليكم. ﴿فهَل﴾ أي: لا ﴿يُهلَكُ﴾ عِند رُؤية العذاب ﴿إلاّ القَومُ الفاسِقُونَ﴾ أي: الكافرون؟

والأظهرُ أنّهم في توابعِ التّكليفِ كبني آدمَ، قلتُ: وما في سورةِ «الرَّحمنِ»[1] يؤيِّدُ قولَ الجمهورِ.

قولُهُ: (لَمْ يَعجِزْ) ولم يتعَبْ.

قولُهُ: (زِيْدَتِ البَاءُ) لتأكيدِ النَّفي، فإنَّهُ مشتملٌ على ﴿أَنَّ﴾ وما في حيِّزِها.

قولُهُ: (يُقَالُ) عامِلٌ في ﴿يومَ﴾.

قولُهُ: (ذَوُو الثَّباتِ) والجدِّ.

قولُهُ: (للتَّبعِيضِ) و﴿أُولُوا العَزمِ﴾ أصحابُ الشَّرائعِ ومشاهيرُهُم نوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى، وأشهرُهُم محمَّدٌ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ. قولُهُ: (لِقومِكَ) أي: لكفَّارِ قريشٍ.

قولُهُ: (نَازِلٌ) ولو في الآخرةِ. قولُهُ: (لِطُولِهِ) أي: اليومِ أو لهولِهِ.

قولُهُ: (القُرآنُ) أو الَّذي وُعِظتُم به، أو هذه السُّورةُ.

قولُهُ: (تَبلِيغٌ) أو كِفايةٌ.

قولُهُ: (مِنَ اللهِ) أو من الرَّسولِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) الآيات رقم: (٤٦، ٤٧).

سورة الأحقاف

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة[1]، فأطلق غيرُ واحد القولَ بمكِّيتها من غير استثناء، واستثنى بعضُهم قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية [١٠]، فقد أخرج الطبراني بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي أنها نزلت بالمدينة في قصة إسلام عبد الله بن سلام[2]، ورُوي ذلك عن محمد بن سيرين.

وفي «الدر المنثور»: أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلَام، وفيه نزلت (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ)[3].

وفي نزولها فيه رضي الله عنه أخبارٌ كثيرة. وظاهر ذلك أنها مدنية لأنَّ إسلامَه فيها، بل في الأخبار ما يدلُّ على مدنيَّتها من وجه آخر، وعكرمةُ يُنكر نزولها فيه ويقول: هي مكية؛ كما أخرج عبد بن حُميد وابن المنذر عنه[4]، وكذا مسروق، فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: واللهِ ما نزلت في عبد الله بن سلَام،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٧.

(٢) المعجم الكبير ١٨/ ٤٦ (٨٣)، وسيأتي بتمامه في تفسير الآية (١٠) وسنذكر ثمة تخريجه.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٩، وصحيح البخاري (٣٨١٢)، وصحيح مسلم (٢٤٨٣)، وسنن النسائي الكبرى (٨١٩٥)، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٦، وليس عند مسلم والنسائي أن الآية نزلت فيه. وينظر فتح الباري ٧/ ١٣٠.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٩.

ما نزلت إلا بمكة، وإنما كان إسلام ابن سلام بالمدينة، وإنما كانت خصومة خاصم بها محمدٌ ﷺ(١).

واستثنى بعضهم: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ الآيتين [١٧ و١٨]. وزعم مروان ـ مَن لعن رسولُ الله ﷺ أباه وهو في صُلبه ـ أنهما نزلتا في عبد الرحمن بن أبي بكر ﵄، فكذَّبته عائشة وقالت: كذب مروان ـ مرتين ـ والله ما هو به، ولو شئتُ أن أُسمِّي الذي أُنزلت فيه لَسمَّيته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروانُ في صُلبه، فمروان فضض ـ أي: قطعة ـ مِن لعنة الله تعالى(٢).

وفي رواية أنها قالت: إنما نزلت في فلان بن فلان. وسمَّت رجلًا آخر(٣).

واستثنى آخرُ: (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ) الآيات الأربع كما حكاه في «جمال القُرَّاء»، وحَكَى أيضًا استثناء: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ الآية [٣٥](٤)، ونقله في «البحر» عن ابن عباس وقتادة، وكذا نقل فيه عنهما استثناء: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ إلخ [الآية: ١٠](٥). وتمام الكلام في ذلك سيأتي إن شاء الله تعالى.

وآيها خمسٌ وثلاثون في الكوفي، وأربعٌ وثلاثون في غيره، والاختلاف في «حم». وتُسمَّى لمجاوزتها الثلاثين: ثلاثين؛ أخرج أحمد بسند جيِّد عن ابن عباس(٦) قال: أقرأني رسولُ الله ﷺ سورةً من آل «حم»، وهي «الأحقاف»، وكانت السورةُ إذا كانت أكثرَ من ثلاثين آية سُمِّيت ثلاثين.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٩، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٥.
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٢٧).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود ﵁ كما في الدر المنثور ٦/ ٤١.
(٤) جمال القرَّاء ١/ ١٣٩، وليس فيه استثناء «ووصينا الإنسان» الآيات الأربع، لكن المصنف نقل كلامه من الإتقان ١/ ٥٠، وفهم من عبارته أنه محكيٌّ في جمال القراء. وعبارة الإتقان هي: واستثنى بعضهم «ووصينا الإنسان...» الآيات الأربع. وقوله: «فاصبر كما صبر أولو العزم...» الآية، حكاه في جمال القراء.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٥٤.
(٦) كذا في الأصل و(م): ابن عباس، والصواب: ابن مسعود، والحديث في مسند أحمد (٣٩٨١).

وروي أن رسول الله ﷺ قرأها على وجهين، أخرج ابن الضُّريس والحاكم ـ وصحَّحه ـ عن ابن مسعود قال: أَقْرأني رسول الله ﷺ سورةَ الأحقاف، فسمعت رجلاً يقرؤها خلافَ ذلك، فقلت: مَنْ أقرأكها؟ قال: رسولُ الله ﷺ. فقلت: واللهِ لقد أقرأني رسول الله ﷺ غيرَ ذا. فأتينا رسولَ الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ألم تُقرئني كذا وكذا؟ قال: «بلى»، فقال الآخر: ألم تُقرئني كذا وكذا؟ قال: «بلى»، فتمعَّر وجهُ رسول الله ﷺ، فقال: «ليقرأ كلُّ واحد منكما ما سمع، فإنما هلك مَنْ قبلَكم بالاختلاف»(١). وأنت تعلم أن ما تواتر هو القرآن.

ووجهُ اتصالها أنه تعالى لما ختم السورة التي قبلها بذكر التوحيد وذمِّ أهل الشِّرك والوعيد افتتح هذه بالتوحيد، ثم بالتوبيخ لأهل الكفر من العبيد، فقال عز وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ الكلامُ فيه كالذي تقدَّم في مطلع السورة السابقة ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بما فيهما من حيث الجُزئية منهما ومن حيث الاستقرار فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من المخلوقات ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناءٌ مفرَّغ. من أعمِّ المفاعيل، أي: إلا خلقًا مُلتبسًا بالحقِّ الذي تقتضيه الحِكمة التكوينية والتشريعة، وفيه من الدلالة على وجود الصانع وصفات كماله وابتناء أفعاله على حِكم بالغة وانتهائها إلى غايات جليلة ما لا يخفى.

وجوِّز كونه مفرَّغًا من أعمِّ الأحوال من فاعل «خلقنا» أو من مفعوله، أي: ما خلقناها في حال من الأحوال إلا حال ملابستنا بالحقّ، أو حال مُلابستها به.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطف على «الحقِّ» بتقدير مضاف، أي: وبتقدير أجل مسمًّى، وقُدِّر لأن الخَلْق إنما يلتبس به لا بالأجل نفسه. والمراد بهذا الأجل ـ كما قال ابن عباس ـ يومُ القيامة، فإنه ينتهي إليه أمورُ الكل، وتبدَّل فيه الأرض غيرَ الأرض

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٧، والمستدرك ٢/ ٢٢٣، وأخرجه أيضاً أحمد (٤٣٢٢)، وأصله عند البخاري (٢٤١٠).

والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار. وقيل: مُدَّة البقاء المقدَّر لكلٍّ واحد.

ويؤيِّد الأول قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝﴾ فإنَّ ما أُنذروه يومُ القيامة وما فيه من الطامَّة التامَّة والأهوال العامة، لا آخر أعمارهم.

وجُوِّز كون «ما» مصدرية، أي: عن إنذارهم بذلك الوقت، على إضافة المصدر إلى مفعوله الأول القائم مقام الفاعل، والجملة حالية، أي: ما خلقنا الخَلْق إلا بالحقِّ وتقدير الأجل الذي يُجازَوْنَ عنده، والحال أنهم غير مؤمنين به، مُعرضون عنه، غيرُ مستعدِّين لحلوله.

﴿قُلْ﴾ توبيخًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني، وقرئ: «أرأيتكم»[1] ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ ما تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام، أو جميع المعبودات الباطلة، ولعله الأظهر، والموصول مفعول أول لـ «أرأيتم»، وقوله تعالى: ﴿أَرُونِي﴾ تأكيدٌ له، فإنه بمعنى: أخبروني، أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ جُوِّز فيه أن تكون «ما» اسم استفهام مفعولًا مقدَّمًا لـ «خلقوا»، و«ذا» زائدة، وأن تكون «ماذا» اسمًا واحدًا مفعولًا مقدَّمًا، أي: أيَّ شيء خلقوا، وأن تكون اسم استفهام مبتدأ أو خبرًا مقدَّمًا، و«ذا» اسم موصول خبرًا أو مبتدأ مؤخَّرًا، وجملة «خلقوا» صلة الموصول، أي: ما الذي خلقوه، وعلى الأولين جملة «خلقوا» مفعولٌ ثانٍ لـ «أرأيتم»، وعلى ما بعدهما جملة «ماذا خلقوا».

وجوِّز أن يكون الكلام من باب الإعمال، وقد أعمل الثاني وحذف مفعولُ الأول، واختاره أبو حيان[2].

وقيل: يحتمل أن يكون «أروني» بدل اشتمال من «أرأيتم».

وقال ابن عطية[3]: يحتمل «أرأيتم» وجهين: كونها متعدِّية و«ما» مفعولًا لها.

---

(١) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٣/ ٤٩، وأبو السعود في تفسيره ٨/ ٧٧.

(٢) النهر الماد (بهامش البحر المحيط) ٨/ ٥٤.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٩١.

وكونها منبهة لا تتعدَّى و«ما» استفهامية على معنى التوبيخ. وهذا الثاني قاله الأخفش[١] في ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ تفسيرٌ للمبهم في «ماذا خلقوا»، قيل: والظاهرُ أن المرادَ: من أجزاء الأرض وبقعها، وجُوِّز أن يكون المرادُ ما على وجهها من حيوان وغيره بتقدير مضاف يُؤدِّي ذلك، ويجوز أن يُرادَ بالأرض السُّفليات مطلقًا، ولعله أولى.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: شركةٌ مع الله سبحانه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: في خَلْقها، ولعل الأولى فيها أيضًا أن تُفسَّر بالعلويات. و«أم» جُوِّز أن تكون منقطعةً وأن تكون مُتَّصلة، والمرادُ نفي استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتمِّ وجه، فقد نفى أولًا مدخليَّتها في خَلْق شيء من أجزاءِ العالم السُّفلي حقيقةً واستقلالًا، وثانيًا مدخليَّتها على سبيل الشَّرِكة في خَلْق شيء من أجزاء العالم العُلوي، ومن المعلوم أن نفي ذلك يستلزم نفيَ استحقاق المعبودية. وتخصيصُ الشركة في النظم الجليل بقوله سبحانه: «في السموات» مع أنه لا شركةَ فيها وفي الأرض أيضًا؛ لأنَّ القصدَ إلزامهم بما هو مسلَّم لهم ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ، والشركة في الحوادث السفلية ليست كذلك، لتملُّكهم وإيجادهم لبعضها بحسب الصورة الظاهرة.

وقيل: الأظهر أن تُجعل الآية مِن حَذْف معادل «أم» المتصلة لوجود دليله، والتقدير: ألهم شِرْكٌ في الأرض، أم لهم شِرْك في السماوات. وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ﴾ إلى آخره تبكيتٌ لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسندٍ نقليٍّ، بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسندٍ عقليٍّ، فهو من جملة القول، أي: ائتوني بكتابٍ إلهيٍّ كائنٍ ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ الكتاب، أي: القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشِّرك، دالٍّ على صحّة دينكم ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بقيةٍ من عِلم بقيت عليكم من علوم الأوَّلين شاهدةٍ باستحقاقهم العبادة، فالأثارة مصدرٌ كالضلالة بمعنى البقيَّة؛ من قولهم: سَمِنت الناقة على أثارة من لحم، أي: بقيَّة منه.

---

(١) كما في البحر المحيط ٨/ ٥٤، وعنه نقل المصنف.

وقال القُرظي[1]: هي بمعنى الإسناد والرواية؛ ومنه قول الأعشى:

إن الـــذي فـيــه تـمـــارَيْـتُـمـــا بُــيِّــن لـلـســامــع والآثــر[2]

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة: المعنى: أو خاصَّة من عِلم، فاشتقاقها من الأثرة، فكأنها قد آثر اللهُ تعالى بها مَن هي عنده. وقيل: هي العلامة. وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «أو أثارة من علم»، قال: الخطّ»[3]، ورُوي ذلك أيضًا موقوفًا على ابن عباس[4]، وفُسِّر بعِلْم الرَّمل، كما في حديث أبي هريرة مرفوعًا: «كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ، فمن صادفَ مثل خَطِّه عَلِم»[5]، وفي رواية عن الحِبر أنه قال: «أو أَثارة من علم» خطٌّ كان يخطُّه العرب في الأرض[6]. وهذا ظاهرٌ في تقوية أمرِ علم الرَّمل، وأنه شيء له وجهٌ، ويُرشِد إلى بعض الأمور، وفي ذلك كلام يُطلب من محلِّه.

وفي «البحر»: قيل: إنْ صحَّ تفسيرُ ابن عباس الأثارة بالخطِّ في التراب كان ذلك من باب التهكُّم بهم وبأقوالهم ودلائلهم[7].

والتنوين للتقليل، و«من علم» صفة، أي: أو ائتوني بأَثارة قليلةٍ كائنة مِن علم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾ في دعواكم، فإنها لا تكادُ تصحُّ ما لم يقم عليها برهان عقليٌّ، أو دليل نقليٌّ، وحيث لم يَقُمْ عليها شيء منهما وقد قاما على خلافها تبيَّن بطلانها.

---

(١) في الأصل و(م): القرطبي، وهو تحريف، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٩٢، وتفسير القرطبي ١٩/ ١٨٠.

(٢) ديوان الأعشى ص١٩١، والخزانة ٣/ ٤٠٠.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٧، ومسند أحمد (١٩٩٢)، ومعجم الطبراني الكبير (١٠٧٢٥).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٤.

(٥) أخرجه عبد بن حُميد وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨، وأخرجه أحمد (٢٣٧٦٢)، ومسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﵁ بلفظ: «كان نبي من الأنبياء يخطّ فمن وافق خطَّه فذاك» وهو قطعة من حديث طويل.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٣.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٥٥.

وقرئ: «إثارة» بكسر الهمزة[١]، وفُسِّرت بالمناظرة، فإنها تُثير المعاني. قيل: وذلك من باب الاستعارة على تشبيه ما يبرزُ ويتحقَّق بالمناظرة بما يثور من الغبار الثائر من حركات الفُرسان.

وقرأ عليٌّ وابن عباس ﷺ - بخلاف عنهما - وزيد بن عليٍّ وعكرمة وقتادة والحسن والسلمي والأعمش وعمرو بن ميمون: «أَثَرَةٍ» بغير ألف[٢]، وهي واحدة جمعها أَثَر، كقَتَرة وقَتَر. وعليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسُّلمي وقتادة أيضًا بإسكان الثاء[٣]، وهي الفَعْلة الواحدة مما يُؤثر، أي: قد قنعتُ منكم بخبر واحدٍ أو أثر واحد يشهدُ بصحَّة قولكم.

وعن الكسائي ضمُّ الهمزة وإسكان الثاء[٤]، فهي اسمٌ للمقدار، كالغُرفة لما يُغرف باليد، أي: ائتوني بشيء ما يؤثر من عِلْم. ورُوي عنه أيضًا أنه قرأ: «إِثْرة» بكسر الهمزة وسكون الثاء[٥]، وهي بمعنى الأَثَرة بفتحتين.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إنكارٌ لأنْ يكون [أحدٌ][٦] أضلَّ من المشركين، وذكر بعضُ الفُضَلاء أن المرادَ نفيُ أن يكون أحدٌ يُساويهم في الضلالة، وإن كان سبكُ التركيب لنفي الأضلّ، وقد مرَّ ما يتعلَّق بذلك فتذكَّر، أي: هو أضلُّ مِنْ كلِّ ضالّ حيث تركَ دعاءَ المجيب القادرِ المستجمع لجميع صفات الكمال كما يُشعر بذلك الاسم الجليل، ودعا مَنْ ليس شأنُه الاستجابة له وإسعافه بمطلوبه.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: ما دامت الدنيا، وظاهره أنه بعدَها تقع الاستجابة، وليس بمراد، لتحقُّق ما يدلُّ على خلافه، فهذه الغاية على ما في «الانتصاف»[٧] من الغايات المُشعرة بأنَّ ما بعدها وإن وافقَ ما قبلها إلا أنه أَزْيَدُ منه زيادةً بيِّنةً تُلحقه

---

(١) ذكرها أبو السعود في تفسيره ٨/ ٧٨.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٥٥.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٥٥.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٩، والبحر ٨/ ٥٥.
(٥) المصدر السابق.
(٦) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي ٨/ ٢٦.
(٧) الانتصاف (بهامش الكشاف) ٣/ ٥١٥.

بالمباين، حتى كأنَّ الحالتين ـ وإن كانتا نوعًا واحداً ـ لتفاوت ما بينهما كالشيء وضدِّه، وذلك أن الحالةَ الأُولى التي جُعلت غايتها القيامة لا تزيدُ على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زادتْ على عدمِ الاستجابة بالعداوة وبالكُفر بعبادتهم إياهم كما يَنطِقُ به ما بعدُ، فهو من وادي قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ الآية [٢٩]، ونحوه قوله سبحانه في إبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨].

وقد يقال: المرادُ بهذه الغاية التأبيد، كما قيل في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [هود: ١٠٧] وقولهم: مادام ثبير.

وقال بعضهم: لا إشكال في الآية؛ لأن الغايةَ مفهومٌ فلا تُعارض المنطوق. وفيه بحث، ففي «الدرر»[١] و«الينبوع» عن «البديع»[٢] أن الغاية عندنا من قَبيل إشارة النَّصِّ لا المفهوم.

وقال الزركشي في «شرح جمع الجوامع»: ذهب القاضي أبو بكر إلى أن الحكم في الغاية منطوق، وادَّعى أن أهل اللغة صرَّحوا بأن تعليقَ الحُكم بالغاية موضوع على أن ما بعدَها خلافُ ما قبلها، لأنهم اتفقوا على أنها ليست كلامًا مستقلًا، فإن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] لا بد فيه من إضمار لضرورة تتميم الكلام؛ وذلك أن المضمر إما ضدّ ما قبله أَوْ لا، والثاني باطل؛ لأنه ليس في الكلام ما يدلُّ عليه، فيقدَّر: حتى يَطْهُرنَ فاقربوهنَّ، حتى تنكح زوجًا غيره فتحلّ، قال: والمضمر بمنزلة الملفوظ، فإنه إنما يضمر لسبقه إلى ذهن العارف باللسان، وعليه جرى صاحب «البديع» من الحنفية فقال: هو عندنا من دلالة الإشارة لا من المفهوم، لكن الجمهور على أنه مفهوم، ومنعوا وضع اللغة لذلك[٣]. انتهى.

---

(١) لعله: الدرر اللوامع شرح جمع الجوامع، لمؤلفه: أحمد بن إسماعيل الكوراني الشافعي، المتوفى سنة (٨٩٣هـ). كشف الظنون ١/ ٥٩٦.

(٢) هو كتاب بديع النظام الجامع بين البزدوي والإحكام في أصول الفقه، لمؤلفه: أحمد بن علي بن ثعلب المعروف بابن الساعاتي. المتوفى سنة (٦٩٤هـ). كشف الظنون ١/ ٢٣٥.

(٣) تشنيف المسامع شرح جمع الجوامع ١/ ٣٦٩، والمصنّف نقله عنه بواسطة الشهاب ٨/ ٢٧.

ويُعلم من هذا أن قوله في «التلويح»[1]: إنَّ مفهوم الغاية متفقٌ عليه، لا يخلو من الخلل.

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ الضمير الأول لمفعول «يدعوا» أعني «من لا يستجيب»، والثاني لفاعله، والجمع فيهما باعتبار معنى «من» كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها، أي: والذين يدعون مَن لا يستجيبون لهم [وهم][2] عن دعائهم إياهم ﴿غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ لا يسمعون ولا يَدْرون، أمَّا إن كان المدعوُّ جمادًا فظاهر، وأما إنْ كان مِن ذوي العقول؛ فإن كان من المقبولين المقرَّبين عند الله تعالى فلاشتغاله عن ذلك بما هو فيه من الخير، أو كونه في محلٍّ ليس من شأن الذي فيه أن يسمع دعاء الداعي للبعد، كعيسى عليه الصلاة والسلام اليومَ، أو لأنَّ الله تعالى يصون سمعه عن سماع ذلك، لأنه ـ لكونه مما لا يُرضي اللهَ تعالى ـ يُؤلمه لو سمعه. وإن كان من أعداء الله تعالى كشياطين الجِنِّ والإنس الذين عُبدوا من دون الله تعالى، فإن كان ميتًا فلاشتغاله بما هو فيه من الشرّ، وقيل: لأن الميت ليس من شأنه السماع، ولا يتحقَّق منه سماع إلا معجزةً، كسماع أهل القَلِيب، وفي هذا كلام تقدَّم بعضه. وإن كان حيًّا؛ فإن كان بعيدًا مثلًا فالأمر ظاهرٌ، وإن كان قريبًا سليم الحاسَّة، فقيل: الكلام بالنسبة إليه بعد تأويل الغفلة بعدم السماع وعلى التغليب لِنُدرة هذا الصنف.

ومن الناس من أوَّل الغفلة بعدم الفائدة، وتُعقِّب بأنه حينئذ لا يكون لوصفهم بالغَفْلة بعد وصفهم بعدم الاستجابة كثيرُ فائدة.

واعتبر بعضُهم التغليب من غير تأويلٍ، بمعنى أنه غُلِّب مَن يتصوَّر منه الغفلة حقيقةً على غيره، وهذا كالتغليب في التعبير عن تلك الآلهة بما هو موضوعٌ لأن يستعمل في العُقلاء.

وإن كانت الآيةُ في عَبَدة الأصنام ونحوها مما لا يعقل تجوّز في الغفلة، وكأنَّ التعبير بما هو للعاقل لإجراء العبدة إيَّاها مُجرى العُقلاء.

---

(١) هو كتاب التلويح شرح التوضيح لمتن التنقيح لسعد الدين التفتازاني، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في حاشيته ٨/ ٢٧.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وقال بعضهم على جعلها في عبدة الأصنام: إنَّ وصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغَفْلةِ مع ظهور حالها للتهكُّم بها، فتدبَّر ولا تغفلْ.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ عند قيامِ القيامة ﴿كَانُوا۟﴾ أي: المعبودون ﴿لَهُمْ﴾ أي: العابدين ﴿أَعْدَآءً﴾ شديدي العداوة ﴿وَكَانُوا۟﴾ أي: المعبودون أيضًا ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: بعبادة الكَفَرة إياهم ﴿كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ مُكذِّبين، والأمر ظاهرٌ في ذوي العقول. وأما في الأصنام فقد رُوي أن الله تعالى يخلق لها إدراكًا ويُنطِقُها فتتبرَّأ عن عبادتهم، وكذا تكون أعداءً لهم.

وجُوِّز كون تكذيب الأصنام بلسان الحال؛ لظهور أنهم لا يصلحون للعبادة، وأنهم لا نفعَ لهم كما توهَّموه أولًا حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣] ورجوا الشفاعة منهم. وفُسِّرت العداوة بالضرِّ على أنها مجازٌ مُرسَل عنه، فمعنى «كانوا لهم أعداء»: كانوا لهم ضارِّين، وما ذكرناه في بيان الضمائر هو الظاهر.

وقيل: ضمير «هم» المرفوع البارز والمُستتر في قوله تعالى: (وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ) للكَفَرة الداعين، وضمير «دعائهم» لهم أو للمعبودين. والمعنى أن الكُفَّار عن ضلالهم بأنهم يَدْعون مَن لا يستجيب لهم غافلون لا يتأمَّلون ما عليهم في ذلك، وفيه من ارتكابِ خلاف الظاهر ما فيه، وفي الضمائر بعدُ نحو ذلك. والمعنى: إذا حُشر الناس كان الكُفَّار أعداءً لآلهتهم الباطلة؛ لِمَا يرون من ترتُّب العذاب على عبادتهم إياها، وكانوا لذلك مُنكرين أنهم عبدوا غيرَ الله تعالى كما حكَى اللهُ تعالى عنهم أنهم يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وتُعقِّب بأنَّ السِّياق لبيان حالِ الآلهة معهم لا عكسه، ولأن كفرهم حينئذ إنكارٌ لعبادتهم، وتسميته كفرًا خلافُ الظاهر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات، أو مُبيِّنات ما يلزم بيانه ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ أي: الآياتِ المتلوَّةِ، وُضِعَ موضعَ ضميرها تنصيصًا على حقِّيتها ووجوب الإيمان بها، كما وُضِعَ الموصول موضعَ ضمير المتلوِّ عليهم تسجيلًا عليهم بكمال الكُفر والضلالة.

وجُوِّز كون المراد بالحقِّ النبوَّة أو الإسلام، فليس فيه موضوعًا موضع الضمير، والأول أظهر.

واللام متعلِّقة بـ «قال» على أنها لام العلَّة، أي: قالوا لأجل الحقِّ وفي شأنه، وما يقال في شأن شيء مسوقٌ لأجله، وجُوِّز تعلُّقه بـ «كفروا» على أنه بمعنى الباء، أو حمل الكفر على نقيضه، وهو الإيمان، فإنه يتعدَّى باللام نحو: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ [الشعراء: ١١١] وهو خلافُ الظاهر كما لا يخفى.

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: في وقت مجيئه إياهم، ويُفهم منه في العُرف المبادرة، وتستلزم عدمَ التأمُّل والتدبُّر، فكأنه قيل: بادروا أولَ سماع الحقِّ من غير تأمُّل إلى أن قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ أي: ظاهرٌ كونُه سحرًا، وحُكمهم بذلك على الآيات لعجزهم عن الإتيان بمثلها، وعلى النبوَّة لِمَا معها من الخارق للعادة، وعلى الإسلام لتفريقه بين المرء وزوجه وولده.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضرابٌ وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنعُ منها، وهو الكذب عمدًا على الله تعالى، فإن الكذب خصوصًا عليه عز وجل متفقٌ على قُبحه، حتى ترى كلَّ أحد يشمئزُّ من نسبته إليه، بخلاف السِّحر فإنه وإن قَبُحَ فليس بهذه المرتبة، حتى تكاد تُعَدُّ معرفته من الأمور المرغوبة، وما في «أمْ» المنقطعةِ من الهمزة معنًى للإنكار التوبيخي المتضمِّن للتعجُّب من نسبته إلى الافتراء مع قولهم: هو سحرٌ، لعجزهم عنه، والضميرُ المنصوب في «افتراه» ـ كما قال أبو حيان[1] ـ «للحق» الذي هو الآياتُ المتلُوة. وقال بعضهم: للقرآن الدالِّ عليه ما تقدَّم، أي: بل أيقولون: افتراه.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على الفرض ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: [إن][2] عاجلني الله تعالى بعقوبة الافتراء عليه سبحانه، فلا تقدرون على كَفِّه عز وجل عن معاجلتي، ولا تُطيقون دفع شيء من عقابه سبحانه عني، فكيف أَفتريه وأَتعرَّض لعقابه، فجواب «إن» في الحقيقة محذوفٌ، وهو: عاجَلني، وما ذكر مُسبَّب عنه أُقيم مُقامه، أو تجوّز به عنه.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٦.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي ٨/ ٢٨.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ بالذي تأخذون فيه من القَدْح في وحي الله تعالى والطَّعن في آياته، وتسميتِه سحرًا تارةً وافتراءً أُخرى. واستعمالُ الإفاضة في الأخذ في الشيء والشروع فيه ـ قولًا كان أو فعلًا ـ مجازٌ مشهور، وأصلها إسالةُ الماء؛ يقال: أفاضَ الماء: إذا أساله.

وما أشرنا إليه من كون «ما» موصولةً وضمير «فيه» عائد عليه هو الظاهرُ. وجُوِّز كون «ما» مصدريةً وضمير «فيه» للحقِّ أو للقرآن.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشهد لي سبحانه بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجُحود، وهو وعيدٌ بجزاء إفاضتهم في الطعن في الآيات، واستؤنف؛ لأنه في جواب سؤال مقدَّر، و«به» في موضع الفاعل بـ «كفى» على أصحِّ الأقوال، و«شهيدًا» حال، و«بيني وبينكم» متعلِّق به، أو بـ «كفى».

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ وعدٌ بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن، وإشعارٌ بحِلْم الله تعالى عليهم إذ لم يُعاجلهم سبحانه بالعقوبة، وأمهلهم جلَّ شأنه ليتداركوا أمورهم.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: بديعًا منهم، يعني: لست مبتدعًا لأمرٍ يُخالِفُ أمورهم، بل جئتُ بما جاؤوا به من الدعوة إلى التوحيد، أو فعلتُ نحوَ ما فعلوا من إظهارِ ما آتاني الله تعالى من المُعجزات دون الإتيان بالمقترحات كلّها، فقد قيل: إنهم كانوا يقترحون عليه عليه الصلاة والسلام آياتٍ عجيبةً، ويسألونه عن المُغيَّبات عِنادًا ومُكابرةً، فأمر ﷺ أن يقول لهم ذلك، ونظير «بِدْع»: الخِفّ بمعنى الخفيف، والخِلّ بمعنى الخليل، فهو صفةٌ مشبَّهة، أو مصدرٌ مؤَّول بها، وجُوِّز إبقاؤه على أصله.

وقرأ عكرمة وأبو حيوة وابن أبي عَبْلة: «بِدَعًا» بفتح الدال[1]، وخُرِّج على أنه جمع بِدْعة، كسِدْرة وسِدْر، والكلام بتقدير مضاف، أي: ذا بِدَع، أو مصدر والإخبار به مبالغة، أو بتقدير المضاف أيضًا.

وقال الزمخشري[2]: يجوز أن يكون صفةً على فِعَل كقولهم: دين قِيَم ولحم

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٤، والبحر ٨/ ٥٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٥١٧.

زِيَم، أي: متفرّق، قال في «البحر»[1]: ولم يُثبت سيبويه[2] صفةً على هذا الوزن إلا عِدًى، حيث قال: ولا نعلمه جاء صفةً إلا في حرف معتلّ يُوصف به الجمع، وهو: قوم عِدًى، واستُدرك عليه: زِيَم، وهو استدراكٌ صحيح، وأما قِيَم فمقصور من قيام، ولولا ذلك لصحَّت عينُه كما صحَّت في حِوَل وعِوَض. وأما قول العرب: مكان سِوًى، وماء رِوًى، ورجل رِضًا، وماء صِرًى، فمتأوَّلة عند التصريفيين إما بالمصدر أو بالقصر.

وعن مجاهد وأبي حيوة: «بَدِعًا» بفتح الباء وكسر الدال[3]، وهو صفة كحَذِر.

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أي: في الدارين على التفصيل كما قيل، وأخرج ابن جرير[4] عن الحسن أنه قال في الآية: أما في الآخرة فمعاذ الله تعالى قد عَلِمَ ﷺ أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرُّسل، ولكن ما أدري ما يفعل بي في الدنيا أَأُخرجُ كما أُخرجت الأنبياء عليهم السلام من قَبْلي، أم أُقتل كما قُتلت الأنبياء عليهم السلام من قَبْلي، ولا بكم، أَأُمتي المكذِّبة أم أمتي المصدِّقة، أَمْ أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفًا، أم المخسوف بها خسفًا، ثم أُوحي إليه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء: ٦٠] يقول سبحانه: أحطت لك بالعرب أن لا يقتلوك، فعرف عليه الصلاة والسلام أنه لا يُقتل، ثم أنزل الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨] يقول: أشهد لك على نفسه أنه سَيُظِهر دينَك على الأديان، ثم قال سبحانه له عليه الصلاة والسلام في أمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فأخبره الله تعالى بما صنع به وما يصنع بأمته.

وعن الكلبي أنه ﷺ قال له أصحابه وقد ضَجِروا مِنْ أذى المشركين: حتى

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٦.
(٢) الكتاب ٤/ ٢٤٤.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٥٦.
(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٢٢.

متى نكون على هذا؟ فقال: «وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، أأُترك بمكة أمْ أُومر بالخروج إلى أرض قد رُفعت لي ورأيتها ـ يعني في منامه ـ ذاتِ نخل وشجر»[١].

وحكى في «البحر»[٢] عن أنس بن مالك[٣] وقتادة وعكرمة والحسن أيضًا وابن عباس أن المعنى: ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة. وأخرج أبو داود في «ناسخه»[٤] من طريق عكرمة عن ابن عباس أنه قال في الآية: نسختها الآية التي في «الفتح»، يعني: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الآية:٢] فخرج ﷺ إلى الناس فبشَّرهم بأنه غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبه وما تأخَّر، فقال رجلٌ من المؤمنين: هنيئًا لك يا نبيَّ الله، قد عَلِمنا الآن ما يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الآية: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الفتح: ٥] فبيَّن الله تعالى ما يُفعل به وبهم. واستشكل ـ على تقدير صحَّته ـ بأنَّ النسخ لا يجري في الخبر، فلعلَّ المنسوخَ الأمرُ بقوله تعالى: «قل» إنْ قلنا: إنه هنا للتكرار، أو المراد بالنسخ مطلق التغيير.

وقال أبو حيان[٥]: هذا القول ليس بظاهر، بل قد أعلم اللهُ تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام من أول الرسالة بحاله وحال المؤمن وحال الكافر في الآخرة.

قال الإمامُ[٦]: أكثرُ المحقِّقين استبعدوا هذا القولَ، واحتجُّوا بأن النبيَّ لا بد أن يعلم من نَفْسه كونَه نبيًّا، ومتى عَلِمَ ذلك عَلِمَ أنه لا يصدر عنه الكبائر، وأنه مغفورٌ [له] وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكًّا في أنه هل هو مغفورٌ له أمْ لا، وبأنه

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠١، ونقله عنه القرطبي ١٩/ ١٨٦.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٧.
(٣) في الأصل و(م): مالك بن أنس، والمثبت من البحر المحيط ٨/ ٥٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٤.
(٤) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٥٧.
(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ٨، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

لا شكَّ أن الأنبياءَ أرفعُ حالًا من الأولياء، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] فكيف يعتقد بقاء الرسول وهو رئيسُ الأنبياء وقُدوة الأولياء شاكًّا في أنه هل هو من المغفورين أَمْ لا؟!

وقد يقال: المرادُ أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام ما يدري ذلك على التفصيل، وما ذكر لا يتعين فيه حصولُ العلم التفصيلي؛ لجوازِ أن يكون عليه الصلاة والسلام قد أُعلم بذلك في مبدأ الأمر إجمالًا، بل في إعلامه[1] ﷺ بعدُ بحال كلِّ شخص شخص على سبيل التفصيل، بأن يكون قد أُعلم عليه الصلاة والسلام بأحوال زيدٍ مثلًا في الآخرة على التفصيل وبأحوال عمرو كذلك، وهكذا = توقُّفٌ.

وفي «صحيح البخاري» - وأخرجه الإمام أحمد والنسائي وابن مردويه - عن أُمِّ العلاء، وكانت بايعت رسولَ الله ﷺ، أنها قالت لـمَّا مات عثمان بن مظعون: رحمةُ الله تعالى عليك يا أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى. فقال رسولُ الله عليه الصلاة والسلام: «وما يُدريك أن الله تعالى أكرمه؟ أما هو فقد جاءه اليقين مِن ربِّه، وإني لأرجو له الخير، واللهِ ما أدري وأنا رسولُ الله ما يُفعل بي ولا بكم» قالت أُمُّ العلاء: فواللهِ ما أُزكِّي بعدَه أحدًا[2].

وفي رواية ابن حبان والطبراني عن زيد بن ثابت أنها قالت لما قُبض: طِبْ أبا السائب نفسًا، إنك في الجنة. فقال النبيُّ ﷺ: «وما يدريك»؟ قالت: يا رسول الله، عثمان بن مظعون! قال: «أجل، وما رأينا إلا خيرًا، واللهِ ما أدري ما يُصنع بي»[3].

وفي رواية الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أنه لـمَّا مات قالت امرأته، أو امرأةٌ: هنيئًا لك ابنَ مظعون الجنةَ. فنظر إليها رسولُ الله ﷺ نظر مُغْضَب، وقال: «وما يدريك؟ واللهِ إني لرسول الله وما أدري ما يَفعل اللهُ بي» فقالت: يا رسول الله، صاحبُك وفارسُك، وأنت أعلمُ! فقال: «أرجو له رحمةَ ربِّه تعالى، وأخاف عليه

---

(١) قوله: في إعلامه، متعلق بخبر مقدم، والمبتدأ ما سيرد من قوله: توقفٌ.

(٢) صحيح البخاري (١٢٤٣)، ومسند أحمد (٢٧٤٥٧)، وسنن النسائي الكبرى (٧٥٨٧).

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٨، والمعجم الكبير (٤٨٧٩)، وصحيح ابن حبان (٦٤٣).

ذَنْبه» لكن في هذه الرواية أن ابن عباس قال: وذلك قبل أن ينزل: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢][(١)].

وعن الضحاك: المراد: لا أدري ما أُومر به ولا ما تُؤمرون به في باب التكاليف والشرائع والجهاد، ولا في الابتلاء والامتحان.

والذي أختاره أن المعنى على نفي الدراية من غير جهةِ الوحي، سواء كانت الدراية تفصيليةً أو إجمالية، وسواء كان ذلك في الأمور الدنيوية أو الأُخروية، وأَعتقدُ أنه ﷺ لم ينتقلْ من الدنيا حتى أُوتي من العلمِ بالله تعالى وصفاته وشؤونه والعلمِ بأشياء يُعَدُّ العلمُ بها كمالًا ما لم يُؤتَه أحدٌ غيره من العالمين، ولا أعتقد فواتَ كمالٍ بعدم العلم بحوادث دنيوية جُزئية؛ كعدم العِلم بما يصنع زيدٌ مثلًا في بيته، وما يجري عليه في يومه أَوْ غَدِه، ولا أرى حَسَنًا قولُ القائل: إنه عليه الصلاة والسلام يعلم الغيبَ، وأستحسن أن يقال بدله: إنه ﷺ أطلعه الله تعالى على الغيب، أو علَّمه سبحانه إيَّاه، أو نحو ذلك.

وفي الآية ردٌّ على من ينسب لبعض الأولياء علمَ كلِّ شيء من الكُلِّيات والجزئيات، وقد سمعتُ خطيبًا على منبر المسجد الجامع المنسوب للشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه يومَ الجمعة قال بأعلى صوت: يا باز، أنت أعلمُ بي من نفسي. وقال لي بعضٌ: إني لأعتقدُ أن الشيخَ قدِّس سرُّه يعلم كلَّ شيء منِّي حتى منابتَ شعري. ومثل ذلك مما لا ينبغي أن يُنسب إلى رسول الله ﷺ فكيف يُنسب إلى مَنْ سواه؟ فليتقِ العبدُ مولاه.

وفيما تقدَّم من الأخبار في شأن عثمان بن مظعون ردٌّ أيضًا على مَن يقول فيمَن دونه في الفضل، أو مَنْ لم يبشِّره الصادق بالجنة والكرامة، نحوَ ما قيل فيه. نعم ينبغي الظنُّ الحسنُ في المؤمنين أحياءً وأمواتًا، ورجاءُ الخير لكلٍّ منهم، فالله تعالى أرحم الراحمين.

هذا، والظاهر أن «ما» استفهامية مرفوعة المحلّ بالابتداء، والجملة بعدها خبرٌ، وجملة المبتدأ والخبر معلَّق عنها الفعل القلبي، وهو إما متعدٍّ لواحد أو اثنين، وجُوِّز

---

(١) المعجم الكبير (٨٣١٧)، والدر المنثور ٦/ ٣٨، وليس عند الطبراني قول ابن عباس رضي الله عنهما.

أن تكون «ما» موصولة في محلّ نصب على المفعولية لفعل الدراية، وهو حينئذ متعدٍّ لواحد، والجملة بعدَها صلة، وأن تكون حرفًا مصدريًّا فالمصدرُ مفعولُ «أدري»، والاستفهامية أقضى لحقِّ مقام التبرِّي عن الدراية، و«لا» لتذكير النفي المنسحب على «ما يُفعل» إلخ، وتأكيدِه، ولولا اعتبار الانسحاب لكان التركيب: ما يُفعل بي وبكم، دون «لا» لأنه ليس محلًّا للنفي، ولا لزيادة «لا»، ونظيرُ ذلك زيادةُ «مِن» في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٥] لانسحاب النفي، فإنه إذا انتفتْ ودادة التنزيل انتفى التنزيل. وزيادةُ الباء في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] لانسحاب النفي على «أنَّ» مع ما في حيِّزها، ولولاه ما زِيدت الباء في الخبر. وقيل: الأصل: ولا ما يفعل بكم، فاختصر وقيل: «ولا بكم».

وقرأ زيد بن عليٍّ وابن أبي عبلة: «يَفعل» بالبناء للفاعل[1]، وهو ضمير الله عز وجل.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: ما أفعل إلا اتِّباع ما يُوحى إليَّ، على معنى قصر أفعاله ﷺ على اتِّباع الوحي. والمراد بالفعل ما يشملُ القولَ وغيره. وهذا جوابٌ عن اقتراحهم الإخبار عمَّا لم يُوْحَ إليه عليه الصلاة والسلام من الغيوب. والخطاب السابق للمشركين. وقيل: عن استعجال المسلمين أن يتخلَّصوا عن أذية المشركين، والخطاب السابق لهم.

والأول أوفق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أُنذركم عقابَ الله تعالى حسبما يُوحى إليَّ ﴿مُّبِينٌ ۝٩﴾ بيِّن الإنذار بالمعجزات الباهرة، والحصرُ إضافي.

وقرأ ابن عمير: «يُوحِي» على البناء للفاعل[2].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ أي: ما يُوحى إليَّ من القرآن. وقيل: الضمير للرسول. وفيه أن الظاهر لو كان المعنى عليه: كنتُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا سحرًا ولا مُفترى كما تزعُمون ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ الواو للحال، والجملةُ حالٌ بتقدير «قد» على المشهور

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٥١٧، والبحر ٨/ ٥٧.

من الضمير في الخبر، وُسِّطت بين أجزاء الشرط اهتمامًا بالتسجيل عليهم بالكفر، أو للعطف على «كان» كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢]، وكذا الواو في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلا أنها تعطفه بما عطف عليه على جملة ما قبله، فالجملُ المذكورات بعد الواوات ليست متعاطفةً على نسقٍ واحد، بل مجموع: «شهد»، «فآمن»، «واستكبرتم»، معطوفٌ على مجموع «كان» وما معه، مثله في المفردات: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] والمعنى: إن اجتمع كونُه من عند الله تعالى مع كُفركم، واجتمع شهادةُ الشاهد فإيمانه مع استكباركم عن الإيمان. وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في جواب الشرط وفي مفعولي «أرأيتم».

وضمير «به» عائدٌ على ما عاد عليه اسمُ «كان»، وهو ما يُوحى من القرآن أو الرسول. وعن الشعبي أنه للرسول، ولعله يقول في ضمير «كان» أيضًا كذلك، وكذا في ضمير ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ لئلا يلزم التفكيك. وأنت تعلم أن الظاهرَ رجوعُ الضمائر كلِّها للقرآن.

وتنوين «شاهدٌ» للتفخيم، وكذا وصفه بالجارِّ والمجرور، أي: وشهد شاهدٌ عظيمُ الشأن من بني إسرائيل الواقفين على شؤون الله تعالى وأسرار الوحي بما أُوتوا من التوراة على مِثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة من التوحيد والوعد والوعيد وغيرِ ذلك، فإنها في الحقيقة عينُ ما فيه، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] على وجه، وكذا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨] والمِثليةُ باعتبار تأديتها بعباراتٍ أُخرى.

أو: على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى، والمِثليَّة لما ذكر. وقيل: على مثل شهادته ـ أي: لنفسه ـ بأنه من عند الله تعالى، كأنه لإعجازه يشهدُ لنفسهِ بذلك. وقيل: «مِثْله» كناية عن القرآن نفسهِ للمبالغة.

وعلى تقدير كونِ الضمير للرسول ﷺ فُسِّر المِثْل بموسى عليه السلام.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي: بالقرآن، للسببية، فيكون إيمانه مترتِّبًا على شهادته له بمطابقته للوحي. ويجوز أن تكون تفصيلية، فيكون إيمانُه به هو

الشهادةَ له، والمعنى على تقدير أن يراد فآمن بالرسول ﷺ ظاهرٌ بأدنى التفات.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ أي: عن الإيمان، معطوفٌ ـ على ما أشرنا إليه ـ على «شهد شاهد»، وجُوِّز كونه معطوفًا على «آمن» لأنه قَسيمه، ويجعل الكلّ معطوفًا على الشرط، ولا تكرار في «استكبرتم» لأن الاستكبارَ بعد الشهادة، والكفر قبلَها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ أي: الموسومين بهذا الوصف، استئنافٌ بياني في مقام التعليل للاستكبار عن الإيمان. ووصفهم بالظلم للإشعار بعلَّة الحكم، فتشعر هذه الجملة بأنَّ كفرهم به لضلالهم المُسبَّب عن ظُلمهم، وهو دليلُ جواب الشرط، ولذا حُذف، ومفعولا «أرأيتم» محذوفان أيضًا لدلالة المعنى عليهما، والتقدير: أرأيتم حالكم إنْ كان كذا فقد ظلمتم، ألستم ظالمين، فالمفعول الأول: حالكم، والثاني: ألستم ظالمين، والجواب: فقد ظلمتم.

وقال ابن عطية في «أرأيتم»: يحتمل أن تكون منبهة، فهي لفظٌ موضوعٌ للسؤال لا تقتضي مفعولًا، ويحتمل أن تكون جملة «إن كان».. إلخ سادَّة مسدَّ مفعوليها[1]. وهو خلافُ ما قرَّره محقِّقو النُّحاة في ذلك.

وقدَّر الزمخشري[2] الجوابَ: ألستم ظالمين، بغير فاء. وردَّه أبو حيان[3] بأن الجملة الاستفهامية إذا وقعت جوابًا للشرط لَزِمها الفاء، فإن كانت الأداة الهمزة تقدَّمت على الفاء، وإلا تأخَّرت، ولعلَّه تقديرُ معنى لا تقدير إعراب.

وقدَّره بعضهم: أفتؤمنون، لدلالة «فآمن»، وقدَّره الحسن: فمن أضلُّ منكم، لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٥٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقيل: التقدير: فمَنِ المحقُّ منَّا ومنكم، ومَن المُبطل؟ وقيل: تهلكون. وقيل: هو «فآمن واستكبرتم» أي: فقد آمن محمد ﷺ به، أو الشاهد، واستكبرتُم أنتم عن الإيمان، وأكثرُها كما ترى.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٩٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٥١٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٥٧.

والشاهد عبد الله بن سلَام ﷺ عند الجمهور وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وابن سيرين والضحاك وعكرمة في رواية ابن سعد وابن عساكر عنه(١).

وفي «الكشف»: في جعله شاهدًا والسورة مكيةٌ بحثٌ، ولهذا استُثنيت هذه الآية. وتحقيقُه أنه نُزِّل ما سيكون منزلةَ الواقع، ولهذا عطف «شهد» وما بعده على قوله تعالى: (كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم) ليعلم أنه مثله في التحقيق، فيكون على أسلوب قوله سبحانه: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر: ٩٠] أي: أنذر قريشًا مثلَ ما أنزلناه على يهود بني قريظة، وقد أنزل عليهم بعدَ سبع سنين من نزول الآية، ومصبّ الإلزام في قوله تعالى: «فآمن»، كأنه قيل: أخبروني إن يؤمن به عالمٌ من بني إسرائيل أيّ عالم لِمَا تحقَّق عنده أنه مثلُ التوراة، ألستم تكونون أضلَّ الناس؟! ففيه الدلالةُ على أنه مثلُ التوراة يجب الإيمانُ به، شَهِدَ ذلك الشاهدُ أَوْ لم يَشْهَدْ، لأن تلك الشهادةَ يعقبها الإيمان من غير مهلة، فلو لم يُؤمن لم يكن عالمًا بما في التوراة؛ وهذا يصلحُ جوابًا مستقلًا من غير نظر إلى الأول، فافهم.

وقول من قال: الشاهد عبدُ الله ـ على هذا ـ بيانٌ للواقع، وأنه كان ممن شَهِدَ وآمن لا أنَّ المرادَ بلفظ الآية عبدُ الله خصوصًا. وعلى الوجهين لا بدَّ من تأويل قول سعد ـ وقد تقدَّم في حديث الشيخين وغيرهما ـ: وفيه نزل «وشهد شاهد»(٢)، بأنَّ المرادَ في شأنه الذي سيحدثُ على الأول، أو فيه وفيمن هو على حاله، كأنه قيل: هو من النازلين فيه، لأنه كان من الشاهدين. انتهى.

وتُعقِّب قوله: إنه نُزِّل ما سيكون منزلةَ الواقع بأنه لا حاجةَ إلى ذلك التنزيل على تقدير مَكِّيتها. وكون الشاهدِ ابنَ سلَام لمكان العطف على الشرط الذي يصيرُ به الماضي مستقبلًا، وحينئذ لا ضيرَ في شهادة الشاهدِ بعد نزولها. ومع هذا فالظاهرُ من الأخبار أن النزولَ كان في المدينة، وأنه بعدَ شهادة ابن سلَام؛ أخرج أبو يعلى والطبراني والحاكم بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال:

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٥٣، وتاريخ دمشق ٢٩/ ١٣٠-١٣١، وينظر تفسير الطبري ٢١/ ١٢٧-١٣٠.
(٢) تقدم أول السورة.

انطلق النبيُّ ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسةَ اليهود يومَ عيدهم، فكرهوا دخولَنا عليهم، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «أروني اثني عشر رجلًا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، يُحبطِ اللهُ تعالى عن كلِّ يهوديٍّ تحت أديم السماء الغضبَ الذي عليه» فسكتوا، فما أجابه منهم أحدٌ، ثم ردَّ عليهم عليه الصلاة والسلام، فلم يُجبه أحدٌ، فثلَّث فلم يُجبه أحدٌ، فقال: «أبيتم، فواللهِ لأنا الحاشرُ، وأنا العاقبُ، وأنا المُقَفِّي، آمنتم أو كذَّبتم» ثم انصرف ﷺ وأنا معه حتى كِدْنا أن نخرجَ، فإذا رجلٌ من خَلْفه فقال: كما أنت يا محمد، فأقبل، فقال ذلك الرجل: أيّ رجلٍ تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم فينا رجلًا أعلمَ بكتاب الله تعالى ولا أفقهَ منك ولا من أبيك ولا من جدِّك، قال: فإني أشهدُ بالله أنه النبيُّ الذي تجدونه في التوراة والإنجيل، فقالوا: كذبتَ. ثم ردُّوا عليه وقالوا شرًّا، فقام رسول الله ﷺ وأنا وابنُ سلَام، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية[1]. ورُوي حديثُ شهادته وإيمانه على وجهٍ آخر[2]. ولا يظهرُ لي الجمعُ بينه وبين ما ذكر، وهو أيضًا ظاهرٌ في كون النزولِ بعدَ الشهادة.

وأخرج عبد بن حُميد[3] عن سعيد بن جُبير قال: جاء ميمون بن يامين إلى النبي ﷺ وكان رأسَ اليهود بالمدينة، فأسلم وقال: يا رسولَ الله، ابعَثْ إليهم - يعني اليهود - فاجعل بينك وبينهم حكمًا من أنفسهم، فإنهم سيرضوني، فبعث عليه الصلاة والسلام إليهم وأدخله الداخلَ، فأتَوْه فخاطبوه مليًّا فقال لهم: «اختاروا رجلًا من أنفسكم يكون حكمًا بيني وبينكم» قالوا: فإنا قد رَضِينا بميمون بن يامين، فأخرجه إليهم فقال لهم ميمون: لِنشهدْ[4] أنه رسول الله، وأنه على الحق، فأَبَوْا أن يُصدقوه، فأنزل الله تعالى فيه ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ الآية.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٩، والمعجم الكبير ١٨/ ٤٦ (٨٣)، والمستدرك ٣/ ٤١٥، وأخرجه أحمد (٢٣٩٨٤)، وزاد السيوطي في الدر نسبته لابن جرير، وهو في تفسيره ٢١/ ١٣١.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٠٥٧)، والبخاري (٣٣٢٩).

(٣) كما في فتح الباري ٧/ ١٣٠، والدر المنثور ٦/ ٤٠.

(٤) في الفتح والدر: أشهد.

وهو ظاهر في مدنيَّة الآية، وأنَّ نزولها قبلَ شهادة الشاهدِ، لكنه ظاهرٌ في أن الشاهدَ غير عبد الله بن سلام، وكونه كان يُسمَّى بذلك قبلُ لم أَرَهُ، ولا يظهر لي وجهُ التعبير به دون المشهور إن كان، والذي رأيته في «الاستيعاب»(١) في ترجمة عبد الله أنه ابنُ سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري، يُكنى أبا يوسف، وكان اسمُه في الجاهلية: الحُصين، فلما أسلم سمَّاه رسول الله ﷺ: عبدَ الله، والله تعالى أعلم.

ومن كَذِبِ اليهود وجَهْلهم بالتاريخ ما يعتقدونه في عبد الله بن سلام أنه ﷺ حين سافر إلى الشام في تجارة لخديجة ﵂ اجتمع بأحبار اليهود وقصَّ عليهم أحلامَه، فعلموا أنه صاحبُ دولة، فأصحبوه عبدَ الله بن سلام وبقي معه مُدَّة فتعلَّم منه علمَ الشرائع والأُمم السالفة، وأفرطوا في الكذب إلى أن نسبوا القرآنَ المُعجِزَ إلى تأليفِ عبد الله بن سلام، وعبدُ الله هذا مما ليس له إقامةٌ بمكة ولا تردُّدٌ إليها، ولم يَرَ النبيَّ ﷺ إلا في المدينة، وأسلم إذْ قَدِمَها عليه الصلاة والسلام، أو قبلَ وفاته ﷺ بعامين، على ما حكاه في «البحر» عن الشعبي(٢)، فما أكذبَ اليهودَ وأَبهتهم، لعنهم اللهُ تعالى، وناهيك من طائفة ما ذمَّ في القرآن طائفة مثلها.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مسروق أنَّ الشاهدَ هو موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام(٣)، وقد تقدَّم أنه كان يدَّعي مكيةَ الآية، ويُنكر نزولها في ابن سلَام، ويقول: إنما كانت خصومة خاصمَ بها محمد ﷺ(٤). وكأنه على هذا لا يُحتاج إلى القول بأنها نزلَتْ بخصوص شاهد، وأُيِّد عدمُ إرادة الخصوص بأن «شاهد» في الآية نكرة، والنكرة في سياق الشرط تَعمُّ.

وأنا أقول بكون التنوين في «شاهد» للتعظيم؛ وبمدنيَّة الآية ونزولها في ابن سلام، والخطابات فيها مطلقًا لكُفَّار مكة، وربما يُظَنُّ على بعض الروايات أنها

(١) لابن عبد البر (بهامش الإصابة) ٦/ ٢٨٨.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٨.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٠، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٥.
(٤) تقدم أول السورة.

لليهود، وليس كذلك، وهم المَعنيون أيضًا بالذين كفروا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى آخره، وهو حكايةٌ لبعضٍ آخرَ من أقاويلهم الباطلةِ في حقِّ القرآن العظيم والمؤمنين به. وفيه تحقيقٌ لاستكبارهم، أي: وقال كفارُ مكة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: لأجلهم وفي شأنهم، فاللام للتعليل كما سمعتَ في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ [سبأ: ٤٣].

وقيل: هي لامُ المشافهة والتبليغ، والتفتوا في قولهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي: ما جاء به ﷺ من القرآن، وقيل: الإيمان ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ ولولاه لقالوا: سبقتمونا، بالخطاب، أو لمَّا سمعوا أنَّ جماعةً آمنوا خاطبوا جماعةً أُخرى من المؤمنين، أي: قالوا للذين آمنوا: لو كان خيرًا ما سبقنا إليه أولئك الذين بلغنا إيمانهم.

وتُعقِّب بأنَّ هذا ليس من مواطنِ الالتفات، وكونهم قصدوا تحقيرَ المؤمنين بالغَيبةِ لا وجهَ له، وكون المشافَهين طائفةٌ من المؤمنين والمُخبَر عنهم طائفة أُخرى خلافُ الظاهر، فالأولى كونها للتعليل، وقالوا ذلك لمَّا رأَوْا أن أكثرَ المؤمنين كانوا فقراءَ ضُعفاء كعمَّار وصُهيب وبلال، وكانوا يزعُمون أن الخير الديني يتبع الخيرَ الدنيوي، وأنه لا يتأهَّل للأول إلا من كان له القدحُ المُعلَّى من الثاني، ولذا قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وخَطؤهم في ذلك مما لا يخفى.

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أَمَة أسلمت قبلَه يقال لها: زِنِّيرة، فكان رضي الله عنه يضربها على إسلامها، وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيرًا ما سبقَتْنا إليه زِنِّيرة. فأنزل الله تعالى في شأنها: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟) الآية[1]. ولعلهم لم يُريدوا زِنِّيرة بخصوصها، بل مَنْ شابهها أيضًا. وفي الآية تغليبُ المذكَّر على المؤنَّث.

وقال أبو المتوكِّل: أسلم أبو ذرٍّ، ثم أسلمت غِفار، فقالت قريش ذلك.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٠، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ١٣/ ١٤ (بهامش الإصابة) والحافظ ابن حجر في الإصابة ١٣/ ٢٧٢ أنها مولاة أبي بكر رضي الله عنه.

وقال الكلبي والزجاج[١]: قال ذلك بنو عامر بن صعصعة وغَطَفان وأَسَد وأشجع لمَّا أَسْلَمَ أسلمُ وجهينةُ ومُزينة وغِفار.

وقال الثعلبي: هي مقالةُ اليهود حين أسلم ابنُ سلَام وأصحابه منهم[٢]. ويلزم عليه القول بأنَّ الآيةَ مدنيَّةٌ، وعدُّها في المستثنيات، أو كون «قال» فيها كـ «نادى» في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨] وهذا كما ترى، والمعوَّل عليه ما تقدَّم.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، وقيل: بالرسول ﷺ، و«إذ» على ما اختاره جار الله ظرفٌ لمقدَّر دلَّ عليه السابق واللاحق، أي: وإذ لم يهتدوا به ظهر عِنادهم واستكبارهم، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ ـ أي: يتحقَّق منهم هذا القولُ والطعن حينًا فحيناً كما يُؤذن بذلك صيغةُ المضارع ـ مسبَّبٌ عن العناد والاستكبار[٣]، وإذا جاز مثل: حينئذ الآن، أي: كان ذلك حينئذ وامتنع الآن، بدليل قرينة الحال، فهذا أَجْوَزُ. والإشارة إلى القرآن العظيم، وقولهم ذلك فيه، كقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

ولم يجوِّز[٤] أن يكون: «فسيقولون» عاملًا في الظرف لتدافع دلالتي المضيِّ والاستقبال، وإنما لم يجعله من قبيل: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ [غافر: ٧٠-٧١] نظمًا للمستقبل في سلك المقطوع ـ كما اختاره ابنُ الحاجب في «الأمالي» ـ لأن المعنى هاهنا ـ كما في «الكشف» ـ على أن عدم الهداية محقَّقٌ واقعٌ، لا أنه سيقع البتة، ألا ترى إلى قوله تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) بعد ما بين استكبارهم وعنادهم كيف ينصُّ على أنهم مُجادلون مُعرضون عن القرآن وتدبُّره غير مهتدين ببشائره ونُذره؟

وقال بعضهم: الظرفُ معمول لـ «سيقولون»، والفاء لا تمنع عن عمل ما بعدَها فيما قبلها ـ كما ذكره الرَّضي ـ والتسبُّب المُشعرة به عن كفرهم، و«سيقولون» بمعنى: قالوا، والعدول إليه للإشعار بالاستمرار. وتُعقِّب بأن ذلك مع السين بعيد.

وقيل: «إذ» تعليلية للقول. وتُعقِّب بأنه معلّل بكفرهم كما آذنت به الفاء.

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٤٤٠، وينظر تفسير القرطبي ١٩/ ١٩٠.

(٢) تفسير الثعلبي ٩/ ١٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٥١٩.

(٤) يعني الزمخشري. الكشاف ٣/ ٥١٩.

وقدّر بعضهم العامل المحذوف: قالوا ما قالوا، ورجَّحه على التقدير السابق، وليس براجح عليه كما لا يخفى على راجح.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن، وهو خبرٌ مقدَّم لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ قُدِّم للاهتمام، وجوَّز الطبرسي(١) كون «كتاب» معطوفًا على «شاهد»، والظرف فاصلٌ بين العاطف والمعطوف، والمعنى: وشهد كتابُ موسى من قَبْله، وجعل ضمير «قبله» للقرآن أيضًا، وليس بشيء أصلًا.

وقوله سبحانه: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حال من الضمير في الخبر، أو من «كتاب» عند من جوَّز الحال من المبتدأ. وقيل: حال من محذوف، والعامل كذلك، أي: أنزلناه إمامًا. وهو كما ترى.

والمعنى: وكائنٌ من قبله كتاب موسى يقتدى به في دين الله تعالى وشرائعه كما يقتدى بالإمام، ورحمة من الله سبحانه لمن آمن به وعمل بموجبه.

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن الذي يقولون في شأنه ما يقولون ﴿كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله عز وجل: ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ نعت «كتاب» وهو مصبُّ الفائدة، أي: مصدِّق لكتاب موسى الذي هو إمامٌ ورحمة، أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية، وقد قُرئ: «مصدقٌ لما بين يديه»(٢)، والجملة عطفٌ على الجملة قبلها، وهي حالية أو مستأنفة، وأيّاما كان فالكلامُ ردٌّ لقولهم: «هذا إفك قديم» وإبطالٌ له، والمعنى: كيف يصحُّ كونه إفكًا قديمًا وقد سلَّموا كتابَ موسى، والقرآن مصدِّق له متحدٌ معه في المعنى، أو لجميع الكتب الإلهية.

وقوله تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير «كتاب» المُستتر في «مصدِّق»، أو منه نفسه لتخصيصه بالصفة، وعامله على الأول «مصدق»، وعلى الثاني ما في «هذا» من معنى الفعل، وفائدة هذه الحال مع أن عربيته أمرٌ معلومٌ لكلِّ أحد الاشعارُ بالدلالة على أن كونه مصدقًا، كما دلَّ على أنه حقٌّ دلَّ على أنه وحيٌ وتوقيف من الله تعالى.

---

(١) مجمع البيان ٢٦/ ١٠.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥١، والكشاف ٣/ ٥٢٠، ونسبها الفراء لعبد الله.

هذا على القول بأنَّ الكلامَ مع اليهود ظاهرٌ، وأما على القول بأنه مع كفار مكة فلأنهم قد يُسلِّمون التوراة ونحوها من الكتب الإلهية السابقة وإن كانوا أحيانًا يُنكرون إنزال الكتب وإرسالَ الرُّسل عليهم السلام مطلقًا.

وفي «الكشف»: وجه تقديم الخبر في قوله تعالى: «ومن قبله كتاب موسى» أن إرسالَ الرسل وإنزال الكتب أمرٌ مستمرٌّ كائن من عند الله تعالى، فمن قبل إنزال القرآن إمامًا ورحمة كان إنزالُ التوراة كذلك، وليس من تقديم الاختصاص، بل لأن العناية والاهتمام بذكره، ولمَّا ألزم الكفار بنزول مثله وشهادة أَعْلَمِ بني إسرائيل ذُكر على سبيل الاعتراض من حال كتاب موسى عليه السلام ما يؤكِّد كونه من عند الله تعالى، وأن ما يُطابقه يكون من عنده سبحانه لا محالة، وتوصّل منه إلى أن القرآن لمَّا كان مصدِّقَه بل مصدِّق سائر الكتب السماوية وجب أن يُؤمَن به ويُتَلقَّى بالقبول؛ وهو بالحقيقة إعادةٌ للدعوى الأُولى على وجهٍ أَخْصَرَ وأشمل؛ إذ دلَّ فيه على أن كونه مصدِّقًا كافٍ، شَهِدَ شاهد بني إسرائيل أَوْ لا.

وإن قيل: نُزِّلوا لعنادهم منزلةَ من لا يعرف أن كتاب موسى قبلَه، إذ لو عرفوا وقد تبيَّن أنه مثله لأذعنوا، فقيل: «ومن قبله» لا من بعده = لكان وجهًا موفًّى فيه حقُّ الاختصاص كما آثره السكَّاكي من أنه لازم التقديم. انتهى. وهو ظاهر في أن الجملة ليست حالية.

وجوِّز كون «لسانًا» مفعولًا لـ «مصدّق»، والكلام بتقدير مضاف، أي: ذا لسان عربي، وهو النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وتصديقه إيَّاه بموافقته كتاب موسى أو الكتب السماوية مطلقًا وإعجازه. وجوِّز على المفعولية كون «هذا» إشارةً إلى كتاب موسى، فلا يحتاج إلى تقدير مضاف، ويُراد بـ «لسانًا عربيًّا» القرآن، ووضعت الإشارة موضعَ الضمير للتعظيم، والأصل: وهو مصدّق لسانًا عربيًّا. وقيل: هو منصوبٌ بنزع الخافض، أي: مصدِّق بلسان عربي. والكلُّ كما ترى.

وقرأ الكلبي: «ومَن قبله» بفتح الميم «كتابَ موسى» بالنصب[1]، وخُرِّجت على

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٩.

أن «مَنْ» موصولة معمولة لفعل مقدَّر، وكذا «كتاب»، أي: وآتينا الذين كانوا قبلَ نزول القرآن من بني إسرائيل كتابَ موسى.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ متعلِّق بـ «مصدّق»، وفيه ضمير للكتاب أو لله تعالى أو للرسول عليه الصلاة والسلام، ويُؤيِّد الأخير قراءة أبي رجاء وشيبة والأعرج وأبي جعفر وابن عامر ونافع وابن كثير في رواية: «لتُنذِر» بتاء الخطاب[١]، فإنه لا يصلح بدون تكلُّف لغير الرسول، والتعليل صحيحٌ على الكلِّ، ولا يتوهَّم لزوم حذف اللام على أن الضمير للكتاب لوجود شرط النصب[٢]؛ لأنه شرطُ الجواز.

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ عطف على المصدر الحاصل من «أَنْ» والفعل. وقال الزمخشري[٣] وتَبِعه أبو البقاء[٤]: هو في محلِّ النصب معطوف على محلِّ «لينذر»؛ لأنه مفعول له، وزعم أبو حيان[٥] أن ذلك لا يجوز على الصحيح من مذهب النحويين، لأنَّ المحلَّ ليس بحقّ الأصالة، وهم يشترطون في الحمل عليه ذلك إذ الأصل في المفعول له الجرّ، والنصب ناشئ من نزع الخافض، لكنه كثر بشرطه، وحَكَى في إعرابه أوجهًا، فقال: قيل: معطوف على «مصدّق»، وقيل: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو بشرى، وقيل: منصوب بفعل محذوف معطوف على «ينذر»، أي: ويُبشر بشرى. وقيل: منصوب بنزع الخافض، أي: ولبشرى.

والظاهر أن «المحسنين» في مقابلة «الذين ظلموا» والمرادُ بالأول الكفرة وبالثاني المؤمنون.

وفي «شرح الطيبي»: إنما عدل عن العادلين إلى «المحسنين» ليكون ذريعةً إلى البِشارة بنفي الخوف والحزن لمن قالوا: «ربُّنا الله ثم استقاموا»، وقيل: «المحسنين» دون: الذين أحسنوا، بعدَ قوله تعالى: «الذين ظلموا» ليكون المعنى:

---

(١) قراءة أبي جعفر وابن عامر ونافع وابن كثير - في رواية البزي - في التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٢، وهي قراءة يعقوب أيضاً.

(٢) وهو اتحاد الفاعل. ينظر الدر المصون ٩/ ٦٦٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٢٠.

(٤) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٣٢٠.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٥٩.

لينذر الذين وُجد منهم الظُّلم ويُبَشِّر الذين ثبتوا واستقاموا على الصراط السَّوي، فيناسب تعليل البِشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ إلى آخره، أي: إن الذين جمعوا بين التوحيد ـ الذي هو خُلاصة العلم ـ والاستقامة في الدين التي هي منتهى العمل، و«ثم» للتراخي الرُّتبي، فالعمل متراخي الرتبة عن التوحيد، وقد نصُّوا على أنه لا يعتدُّ به بدونه.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ من فوات محبوب، والمرادُ استمرارُ النفي، والفاء لتضمّن الاسم معنى الابتداء، فلا تدخل في خبر «ليت» و«لعلَّ» و«كأن»، وإن كانت أسماؤها موصولات، وتقدَّم في سورة السجدة نظيرُ هذه الآية، وذكرنا في تفسيره ما ذكرنا، فليراجع.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الوصفين الجليلين ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكنِّ في «أصحاب»، وقوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ﴾ منصوب إما بعامل مقدَّر، أي: يُجزون جزاء، والجملة استئنافٌ أو حال، وإما بمعنى ما تقدَّم على ما قيل، فإن قوله تعالى: «أولئك أصحاب الجنة» في معنى: جازيناهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ من الحسنات القلبية والقالبية.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ نزلت كما أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى قوله تعالى: (وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ)(١).

«وإحسانًا» قيل: مفعولٌ ثانٍ لـ «وصَّينا» على تضمينه معنى ألزمنا، وقيل: منصوب على المصدر على تضمين «وصينا» معنى أَحسنَّا، أي: أحسنَّا بالوصية للإنسان بوالديه إحسانًا، وقيل: صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف، أي: إيصاءً ذا إحسان، وقيل: مفعولٌ له، أي: وصَّيناه بهما لإحساننا إليهما.

وقال ابن عطية: إنه منصوب على المصدر الصريح، و«بوالديه» متعلِّق

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٠، وتاريخ مدينة دمشق ٣٠/ ٣٣٨، وأخرجه من هذا الطريق أيضًا الفراء في معاني القرآن ٣/ ٥٣.

بـ «وصَّينا»، أو به[١]. وكأنه عنى: يحسن إحسانًا، وهو حَسَنٌ، لكن تعقَّب أبو حيان[٢] تجويزَه تعلُّق الجارِّ بـ «إحساناً» بأنه لا يصحُّ؛ لأنه مصدرٌ مقدَّر بحرف مصدري والفعل، فلا يتقدم معموله عليه، ولأن أحسن لا يتعدَّى بالباء، وإنما يتعدَّى باللام، تقول: أحسنت لزيد، ولا تقول: أحسنت بزيد، على معنى أن الإحسان يصل إليه.

وفيه أنَّا لا نُسَلِّم أن المقدَّر بشيء يُشارك ما قدّر به في جميع الأحكام؛ لجواز أن يكون بعضُ أحكامه مختصًا بصريح لفظه، مع أنَّ الظرف يكفيه رائحة الفعل، ولذا يعمل الاسم الجامد فيه باعتبار لمح المعنى المصدري، وقد قالوا: إنه يتصرف فيه ما لا يتصرف في غيره لاحتياج معظم الأشياء إليه. والجارُّ والمجرور محمولٌ عليه، وقد كَثُر ما ظاهره التعلُّق بالمصدر المتأخِّر نكرة، كـ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور:٢] ومعرفة نحو: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات:١٠٢] وتأويل كلٍّ ذلك تكلُّف.

وأيضًا قوله: لأن أحسن لا يتعدَّى بالباء.. إلخ، فيه منعٌ ظاهر، وقدَّر بعضُهم الفعل قبلَ الجارِّ، فقال: وصَّينا الإنسان بأن يُحسن بوالديه إحسانًا.

ولعل التنوين للتفخيم، أي: إحسانًا عظيمًا، والإيصاء والوصية التقدُّم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ، من قولهم: أرض واصية، متصلة النبات، ففي الآية إشعارٌ بأنَّ الإحسان بهما أمرٌ معتنًى به، وقد عُدَّ في الحديث ثاني أفضل الأعمال وهو الصلاة لأول وقتها، وعُدَّ عقوقهما ثاني أكبر الكبائر، وهو الإشراك بالله عز وجل، والأحاديث في الترغيب في الأول والترهيب عن الثاني كثيرةٌ جدًّا، وفي الآيات ما فيه كفايةٌ لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وقرأ الجمهور: «حُسْناً» بضمِّ الحاء وإسكان السين[٣]، أي: فعلًا ذا حُسْنٍ، أو كأنه في ذاته نفس الحسن لفرط حُسنه، وجوَّز أبو حيان[٤] فيه أن يكون بمعنى «إحسانًا» فالأقوال السابقة تجري فيه.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٩٦.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٠.

(٣) التيسير ص ١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٣. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: «إحسانًا».

(٤) البحر المحيط ٨/ ٦٠.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسلمي وعيسى: «حَسَناً» بفتح الحاء والسين، وعن عيسى: «حُسُناً» بضمِّهما(١).

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: ذات كره، أو حملًا ذا كُرْهٍ، وهو المشقَّة كما قال مجاهد والحسن وقتادة، وليس الكُرْهُ في أول عُلوقها، بل بعد ذلك حين تجد له ثِقَلًا.

وقرأ شيبة وأبو جعفر والحِرْميان: «كَرْهًا» بفتح الكاف(٢)، وهما لغتان بمعنى واحد كالفَقْر والفُقْر والضَّعْف والضُّعْف، وقيل: المضمومُ اسمٌ، والمفتوح مصدر.

وقال الراغب(٣): قيل: الكَرْه: ـ أي: بالفتح ـ المشقَّة التي تنال الإنسان من خارج مما يُحمل عليه بإكراه، والكُرْه: ما يناله من ذاته، وهو ما يعافه من حيث الطبع أو من حيث العقل أو الشرع.

وطعن أبو حاتم في هذه القراءة فقال: لا تحسن هذه القراءة؛ لأنَّ الكَرْه ـ بالفتح ـ الغصب والغَلَبة(٤). وأنت تعلم أنها في السبعة المتواترة فلا معنى للطعن فيها، وقد كان هذا الرجل يَطْعَنُ في بعض القراءات بما لا علمَ له به جسارةً منه عفا الله تعالى عنه.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: مدَّة حمله وفصاله، وبتقدير هذا المضاف يصحُّ حمل قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ على المبتدأ من غير كره.

والفِصال: الفِطام، وهو مصدر فاصَلَ، فكأنَّ الولد فاصَلَ أُمَّه، وأُمّه فاصَلته.

وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة ويعقوب والجحدري: «وفَصْله»(٥) أي: فطمه. فالفَصْل والفِصال كالفَطْم والفِطام بناءً ومعنى، وقيل: الفِصال بمعنى وقت الفصل،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٩.

(٢) وقرأ بها أيضاً أبو عمرو، وابن عامر في رواية هشام. التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/٢٤٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٠.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (كره).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦٤.

(٥) النشر ٢/ ٣٧٣ عن يعقوب.

أي: الفَطْم، فهو معطوف على مدَّة الحمل، والمراد بالفِصَال الرضاعُ التامّ المنتهي بالفِطام ولذلك عبَّر بالفصال عنه أو عن وقته دون الرضاع المطلق، فإنه لا يُفيد ذلك، وفي الوصف تطويل.

والآية بيانٌ لما تُكابده الأمُّ وتُقاسيه في تربية الولد مبالغةً في التوصية لها، ولذا اعتنى الشارع بِبِرِّها فوق الاعتناء ببرِّ الأب، فقد رُوي: أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله، مَنْ أبرُّ؟ قال: «أُمّك»، قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمّك»، قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمّك»، قال: ثم مَنْ؟ قال: «أباك»[1]، وقد أُشير في الآية إلى ما يقتضي البرّ بها على الخصوص في ثلاث مراتب، فتكون الأوامر في الخبر كالمأخوذة من ذلك.

واستدلَّ بها عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وابن عباس ﵄، وجماعة من العلماء على أنَّ أقلَّ مدَّة الحمل ستَّة أشهر؛ لِمَا أنه إذا حطَّ عن الثلاثين للفصال حولان لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] يبقى الحمل[2] ذلك، وبه قال الأطباء، قال جالينوس: كنت شديدَ الفحص عن مقدار زمن الحمل فرأيتُ امرأةً ولدت لمئة وأربع وثمانين ليلة. وادَّعى ابن سينا أنه شاهد ذلك.

وأما أكثر مدَّة الحمل، فليس في القرآن العظيم ما يدلُّ عليه؛ وقال ابن سينا في «الشفا»: بلغني من جهة من أَثِقُ به كلَّ الثقة أن امرأةً وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولدًا نبتَتْ أسنانه، وحكى عن أرسطو أنه قال: أزمنة الحمل لكلِّ حيوان مضبوطة سوى الإنسان فربما وضعت المرأة لسبعة أشهر، وربما وضعت لثمانية، وقلَّما يعيش الولدُ في الثامن إلا في بلاد معيَّنة مثل مصر[3].

ولعلَّ تخصيصَ أقلِّ الحمل وأكثر الرضاع بالبيان في القرآن الكريم بطريق الصراحة والدلالة دون أكثر الحمل وأقلِّ الرضاع وأوسطهما؛ لانضباطهما بعدم النقص والزيادة بخلاف ما ذكر؛ وتحقُّق ارتباط حكم النَّسب بأقلِّ مدَّة الحمل حتى

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٠٠٢٨) من حديث معاوية بن حيدة، وهو الذي سأل النبي ﷺ هذا السؤال، وهو عند البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) عن أبي هريرة ﷺ بنحوه.

(٢) في (م): للحمل.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٠.

لو وضعته فيما دونه لم يثبتْ نسبه منه، وبعده يثبت وتَبْرَأُ من الزنى، ولو أَرضعت مرضعةٌ بعد حولين لم يثبت به أحكام الرضاع في التناكح وغيره، وفي هذا خلاف لا يُعبأ به.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لمقدَّر، أي: فعاش ـ أو: استمرَّت حياته ـ حتى إذا اكتهل واستحكم قوَّته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الظاهر أنه غير بلوغ الأشُدّ، وقال بعضهم: إنه بلوغ الأشُدّ، والعطف للتأكيد.

وقد ذكر غير واحد أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوَّى جدًّا خَلْقُه الذي هو عليه فلا يكاد يُزايله بعد، وفي الحديث: «إنَّ الشيطان يجرّ يدَه على وجه مَنْ زاد على الأربعين ولم يَتُبْ، ويقول: بأبي، وجهٌ لا يفلح»[1]. وأخرج أبو الفتح الأزدي من طريق جُويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعًا: «مَنْ أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلبْ خيرُه شرَّه فليتجهَّز إلى النار»[2]، وعلى ذلك قول الشاعر:

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يهوى حياءٌ ولا سترُ
فدَعْهُ ولا تَنْفَسْ عليه الذي مضى ... وإنْ جرَّ أسبابَ الحياة له العمرُ[3]

وقيل: لم يُبعث نبيٌّ إلا بعد أربعين[4]. وذهب الفخر[5] إلى خلافه مستدلًّا بأنَّ عيسى ويحيى عليهما السلام أُرسلا صبيَّين؛ لظواهر ما حكي في الكتاب الجليل عنهما. وهو ظاهرُ كلام السعد حيث قال: من شروط النبوَّة الذكورة وكمال العقل والذكاء والفِطنة وقوَّة الرأي ولو في الصبا كعيسى ويحيى عليهما السلام، إلى آخر ما قال.

وذهب ابن العربي في آخَرِينَ إلى أنه يجوز على الله سبحانه بعث الصبي إلا أنه لم

(١) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٤١، وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.
(٣) البيتان لأيمن بن خُريم الأسدي، وهما في أمالي القالي ١/ ٧٨، والأغاني ١٧/ ٢٣٨-٢٣٩ باختلاف يسير.
(٤) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٢٦: لم أجده.
(٥) في التفسير الكبير ٢٨/ ١٩.

يقـع، وتـأولـوا آيـتـي عـيـسـى ويـحـيـى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] بأنهما إخبار عما سيحصل لهما لا عمَّا حصل بالفعل، ومثله كثيرٌ في الآيات وغيرها، والواقع عند هؤلاء البعثُ بعد البلوغ.

وحكى اللقاني عن بعضٍ اشتراطَه فيه، ويترجَّح عندي اشتراطُه فيه دون أصل النبوَّة لما أنَّ النفوس في الأغلب تأنفُ عن اتباع الصغير وإن كَبُرَ فضلًا كالرقيق والأنثى، وصرَّح جمعٌ بأنَّ الأعمَّ الأغلب كون البِعثة على رأس الأربعين كما وقع لنبيِّنا ﷺ.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أي: رغِّبني ووفِّقني، مِنْ أوزعته بكذا، أي: جعلته مُولعًا به راغبًا في تحصيله. وقرأ البزيُّ: «أوزعنيَ» بفتح الياء(١) ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أي: نعمة الدِّين أو ما يعمُّها وغيرها، وذلك يؤيِّد ما رُوي أنها نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ لأنه لم يكن أحدٌ أَسلمَ هو وأبواه من المهاجرين والأنصار سواه، كذا قيل، وإسلامُ أبيه بعد الفتح وحينئذ يلزم أن تكونَ الآيةُ مدنية، وإليه ذهب بعضُهم.

وقيل: إن هذا الدعاء بالنسبة إلى أبويه دعاء بتوفيقهما للإيمان، وهو كما ترى.

واعترض على التعليل بابن عمر وأسامة بن زيد وغيرهما، ونُقل عن الواحدي(٢) أنه قد صحب النبيَّ ﷺ وهو ابنُ ثمان عشرة سنة ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة في سفرٍ للشام في التجارة، فنزل تحت شجرة سمرة، وقال له الراهب: إنه لم يستظلَّ بها أحدٌ بعد عيسى غيره ﷺ، فوقع في قلبه تصديقه، فلم يكن يُفارقه في سفر ولا حضر، فلما نُبِّئ وهو ابن أربعين آمن به وهو ابنُ ثماني وثلاثين، فلما بلغ الأربعين قال: «ربِّ أوزعني» إلخ.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ التنوين للتفخيم والتكثير، والمراد بكونه مرضيًّا له تعالى ـ مع أن الرِّضا على ما عليه جمهورُ أهل الحقِّ الإرادةُ مع تَرْكِ الاعتراض،

(١) وقرأ بها ورش أيضًا كما في التيسير ص٢٠٠، والنشر ٢/ ٣٧٣.
(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٠٧.

وكلُّ عمل صالح كذلك ـ أن يكون سالمًا من غوائل عدم القَبول كالرياء والعُجب وغيرهما، فحاصله: اجعل عملي على وفق رضاك.

وقيل: المراد بالرضا هنا ثمرته على طريق الكناية.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: اجعل الصلاح ساريًا في ذريتي راسخًا فيهم، كما في قوله:

فإن تعتذر في المَحْلِ من ذي ضروعها لدى المَحْلِ يجرح في عراقيبها نَصْلِي[1]

على أن «أَصْلِحْ» نُزِّلَ منزلةَ اللازم ثم عُدِّي بـ «في» ليفيد ما أشرنا إليه من سَريان الصلاح فيهم، وكونهم كالظرف له لتمكُّنه فيهم، وإلا فكان الظاهر: وأصلح لي ذرِّيتي. وقيل: عُدِّيَ بـ «في» لتضمُّنه معنى اللطف، أي: الطُفْ بي في ذرِّيتي. والأولُ أحسنُ.

قال ابن عباس: أجاب اللهُ تعالى دعاءَ أبي بكر فأعتق تسعةً من المؤمنين منهم بلال وعامر بن فهيرة، ولم يُرِدْ شيئًا من الخير إلا أعانه الله تعالى عليه، ودعا أيضًا فقال: «أصلح لي في ذريتي» فأجابه الله تعالى فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعًا، فاجتمع له إسلامُ أبويه وأولاده جميعًا، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبيَّ ﷺ وآمنوا به، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة ﷺ أجمعين.

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عمَّا لا ترضاه، أو يشغل عنك ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ الذين أخلصوا أنفسهم لك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الإنسان، والجمع؛ لأنَّ المرادَ به الجنس المتَّصف بالمعنى المَحكي عنه، وما فيه من معنى البُعد للإشعار ببعد منزلته وعلوِّ درجته، أي: أولئك المنعوتون بما ذكر من النعوت الجليلة ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ من الطاعات، فإن المباح حسنٌ لا يُثابُ عليه ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لتوبتهم المُشار

---

(١) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/١٥٦، والرواية فيه:

وإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها على الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

وسلف ١٣/٤٧٨.

إليها بـ : «إني تبت»، وإلا فعند أهل الحقِّ أنَّ مغفرةَ الذنب مطلقًا لا تتوقَّف على توبة ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ كائنين في عِدادهم، منتظمين في سِلْكهم. وقيل: «في» بمعنى «مع»، وليس بذاك ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ مصدر لفعل مقدَّر، وهو مؤكِّد لمضمون الجملة قبلَه، فإن قوله سبحانه: «نتقبل» و«نتجاوز» وعدٌ منه عز وجل بالتقبُّل والتجاوُز ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ على ألسنة الرُّسل عليهم السلام.

وقُرئ: «يُتقَبَّل» بالياء والبناء للمفعول و«أحسنُ» بالرفع على النيابة منابَ الفاعل، وكذا «يُتجاوَز عن سيئاتهم»(١).

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى بالياء فيهما مبنيَّين للفاعل، وهو ضميره تعالى شأنه، و«أحسنَ» بالنصب على المفعولية(٢).

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ عند دعوتهما إيَّاه للإيمان ﴿أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ صوتٌ يصدرُ عن المرء عند تضجُّره، وفيه قراءات ولغات نحو الأربعين، وقد نَبَّهنا على ذلك في سورة الإسراء(٣)، واللام لبيان المؤفَّف له كما في ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: ٢٣] والموصول مبتدأٌ خبره: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ) والمرادُ به الجنس، فهو في معنى الجمع، ولذا قيل: «أولئك» وإلى ذلك أشار الحسن بقوله: هو الكافر العاقُّ لوالديه المُنكِرُ للبعث.

ونزول الآية في شخص لا يُنافي العموم كما قُرِّر غير مرَّة، وزعم مروان ـ عليه ما يستحقُّ ـ أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وردَّت عليه عائشة رضي الله عنها. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان، فقال: إنَّ الله تعالى قد أرى لأمير المؤمنين ـ يعني معاوية ـ في يزيد رأيًا حسنًا أن يستخلفه، فقد استَخْلَف أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقليَّة، إن أبا بكر رضي الله عنه والله ما جعلها في أحدٍ من ولدِهِ، ولا أحدٍ من

(١) قرأ بهما نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم ـ في رواية شعبة ـ وأبو جعفر ويعقوب. التيسير ص١١٩، والنشر ٢/ ٣٧٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٩، والبحر المحيط ٨/ ٦١.

(٣) عند تفسير الآية (٢٣) منها.

أهل بيته، ولا جعلها معاويةُ إلا رحمةً وكرامةً لولده. فقال مروان: ألستَ الذي قال لوالديه: أفٍّ لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألستَ ابنَ اللعين الذي لعن رسولُ الله ﷺ أباك؟ فسمعَتْ عائشةُ، فقالت: [يا] مروان، أنتَ القائلُ لعبد الرحمن كذا وكذا، كذبتَ واللهِ، ما فيه نزلت، نزلَتْ في فلان بن فلان(١).

وفي رواية تقدَّمت رواها جماعةٌ وصحَّحها الحاكم عن محمد بن زياد أنها كذَّبته ثلاثًا، ثم قالت: واللهِ ما هو به ـ تعني أخاها ـ ولو شئتُ أن أُسمِّي الذي أُنزلت فيه لَسمَّيته... إلى آخر ما مرَّ(٢)، وكان ذلك من فضض(٣) اللعنة إغاظةً لعبد الرحمن وتنفيرًا للناس عنه لئلا يلتفتوا إلى ما قاله، وما قال إلا حقًّا، فأين يزيدُ الذي تجلُّ اللعنة عنه وأين الخلافة.

ووافق بعضهم كالسُّهيلي في «الإعلام» مروانَ في زعم نزولها في عبد الرحمن(٤)، وعلى تسليم ذلك لا معنى للتعيير لاسيما من مروان، فإن الرجل أسلم وكان من أفاضل الصحابة وأبطالهم، وكان له في الإسلام غَنَاءٌ يوم اليمامة وغيره، والإسلام يجبُّ ما قبلَه، فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يُعيَّر بما كان يقول.

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أبعث من القبر بعد الموت. وقرأ الحسن وعاصم وأبو عمرو ـ في رواية ـ وهشام: «أتعدانِّي» بإدغام نون الرفع في نون الوقاية(٥).

وقرأ نافع في رواية وجماعة بنون واحدة(٦).

وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر ـ بخلاف عنه ـ وعبد الوارث عن أبي عمرو

---

(١) تفسير ابن كثير عند هذه الآية، والدر المنثور ٦/ ٤١، وما ورد بين حاصرتين منهما.
(٢) في أول السورة، وهو في المستدرك ٤/ ٤٨١، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٢٧).
(٣) قال ابن الأثير في النهاية (فضض): أي: قطعة وطائفة منها.
(٤) في التعريف والإعلام للسهيلي ص١٥٦: ويقال: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل أن يسلم، وقد أنكرت ذلك عائشة ﵂.
(٥) قراءة هشام في التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٣. وهي غير مشهورة عن عاصم وأبي عمرو ونافع، والمشهور عنهم كقراءة العشرة غير هشام: «أتعدانني» بنونين خفيفتين. وينظر النشر ١/ ٣٠٣، والبدور الزاهرة ص٢٩٥.
(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٦٢.

وهارون بن موسى عن الجحدري، وبسام[١] عن هشام: «أتعدانَني» بنونين من غير إدغام ومع فتح الأُولى[٢]، كأنهم فَرُّوا من اجتماع الكسرتين والياء، ففتحوا للتخفيف. وقال أبو حاتم: فتح النون باطلٌ غلط. وقال بعضهم: فتح نون التثنية لغةٌ رديئةٌ، وهوَّن الأمر هنا الاجتماع.

وقرأ الحسن وابن يعمر والأعمش وابنُ مصرِّف والضحاك: «أَخْرُجَ» مبنيًّا للفاعل من الخروج[٣].

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أي: مضت ولم يخرج منها أحدٌ ولا بُعِث، فالمرادُ إنكارُ البعث كما قيل:

ما جاءنا أَحَدٌ يخبّر أنّه ... في جنّة لمّا مضى أو نارِ[٤]

وقال أبو سليمان الدمشقي: أراد: وقد خلت القرون من قبلي مُكذِّبة بالبعث، فالكلام كالاستدلال على نفي البعث.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي: يقولان: الغياث بالله تعالى منك، والمرادُ إنكارُ قوله واستعظامُه كأنهما لجأا إلى الله سبحانه في دَفْعه، كما يقال: العياذ بالله تعالى من كذا، أو يطلبان من الله عز وجل أنْ يُغيثه بالتوفيق حتى يرجع عمَّا هو عليه من إنكار البعث ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي: قائلين، أو يقولون له ذلك، وأصل «ويل» دعاء بالثُّبور يُقامُ مقام الحثِّ على الفعل أو تركه إشعارًا بأن ما هو مرتكِبٌ له حقيقٌ بأن يَهْلِكَ مرتكبُه وأن يُطلب له الهلاكِ، فإذا أسمع ذلك كان باعثًا على ترك ما هو فيه والأخذِ بما يُنجيه. وقيل: إن ذلك لأنَّ فيه إشعارًا بأن الفعل الذي أُمر به مما يُحسَد عليه فَيُدْعى عليه بالثُّبور، فإذا سمع ذلك رغب فيه. وأيًّاما كان فالمراد هنا الحثُّ والتحريض على الإيمان، لا حقيقةُ الدعاء بالهلاك.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعله: محمد بن محمد بن بسام البسامي، روى القراءة عن هشام. كذا ذكره ابن الجزري في غاية النهاية ٢/ ٢٣٩.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٩، والبحر ٨/ ٦٢.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٩، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٠١، والبحر ٨/ ٦٢.

(٤) ذكره الشهاب في حاشيته ٨/ ٣٢ دون نسبة.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث، وأضاف الوعد إليه تعالى تحقيقًا للحقِّ وتنبيهًا على خطئه في إسناد الوعد إليهما.

وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد: «أَنَّ» بفتح الهمزة[1]، على تقدير: لأنَّ، أو: آمِن بأنَّ وعدَ الله حقٌّ، ورُجِّح الأول بأنَّ فيه توافقَ القراءتين.

﴿فَيَقُولُ﴾ مُكذِّبًا لهما: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الذي تُسمِّيانه وعدَ الله تعالى ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٧﴾ أباطيلهم التي سطروها في الكتب مِن غير أن يكونَ لها حقيقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون ذلك، وقيل: أي: صنف هذا المذكور بناءً على زعم خصوص «الذي»، وليس بشيء.

﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وقد مرَّ تمام الكلام في ذلك. ورُدَّ بهذا على مَن زعم أنَّ الآيةَ في عبد الرحمن بن أبي بكر لأنه ﷺ أسلم وجُبَّ عنه ما قبلُ، وكان من أفاضل الصحابة، ومن حقَّ عليه القولُ هو مَن عَلِمَ اللهُ تعالى أنه لا يُسلمُ أبدًا.

وقيل: الحكم هنا على الجنس فلا يُنافي خروجَ البعض من أحكامه الأخروية.

وقيل غيرُ ذلك مما لا يُلتفتُ إليه.

﴿فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ في مقابلة: «في أصحاب الجنة»، فهو مثله إعرابًا ومبالغةً ومعنًى، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بيانٌ للأمم ﴿إِنَّهُمْ﴾ جميعًا ﴿كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝١٨﴾ قد ضيَّعوا فطرتَهم الأصلية الجارية مجرى رؤوس أموالهم باتِّباع الشيطان، والجملة تعليلٌ للحكم بطريق الاستئناف.

وقرأ العباس عن أبي عمرو: «أنهم» بفتح الهمزة[2] على تقدير: لأنهم.

واستُدلَّ بقوله عز وجل: (فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ) إلخ على أن الجنَّ يموتون قرنًا بعد

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٦٢.
(٢) المصدر السابق.

قرن كالإنس. وفي «البحر»[(١)]: قال الحسن في بعض مجالسه: الجِنُّ لا يموتون، فاعترضه قتادة بهذه الآية، فسكت.

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين المذكورَيْن في قوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ) وفي قوله سبحانه: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ) وإنْ شئتَ فقل في: «الذين قالوا ربنا الله» و«الذي قال لوالديه أف» = ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي: من جزاء ما عملوا، فالكلام بتقدير مضاف، والجارُّ والمجرور صفة «درجات»، و«من» بيانية أو ابتدائية، و«ما» موصولة، أي: من الذي عملوه من الخير والشَّرِّ، أو مصدرية، أي: من عملهم الخيرَ والشرّ، ويجوز أن تكون «من» تعليلية بدون تقدير مضاف، والجارّ والمجرور كما تقدَّم.

والدرجات جمع: دَرَجة، وهي نحو المنزلة، لكن يقال للمنزلة: درجة، إذا اعتُبرت بالصعود، و: دَركاً إذا اعتُبرت بالحدور، ولهذا قيل: درجات الجنة، ودَرَكات النار.

والتعبير بالدرجات ـ كما قال غيرُ واحد ـ على وجه التغليب؛ لاشتمال «كلّ» على الفريقين، أي: لكلٍّ منازلُ ومراتبُ سواء كانت درجات أو دركات، وإنما غُلِّب أصحابُ الدرجات لأنهم الأَحِقَّاء به، لاسيما وقد ذُكر جزاؤهم مرارًا وجزاء المقابل مرَّة.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: جزاءَ أعمالهم، والفاعلُ ضميره تعالى.

وقرأ الأعمش والأعرج وشيبة وأبو جعفر والأخوان وابن ذكوان ونافع بخلاف عنه: «لِنُوَفِّيهم» بنون العظمة[(٢)]، وقرأ السُّلمي بتاء فوقية[(٣)] على الإسناد للدرجات مجازًا.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩﴾ بنَقْصِ ثوابٍ وزيادةِ عقابٍ، وقد مرَّ الكلام في مثله غير مرَّة. والجملة حال مؤكِّدة للتوفية أو استئنافٌ مُقرِّرٌ لها، واللام متعلِّقة بمحذوف

(١) ٨/ ٦٢.
(٢) قراءة الأخوين ـ وهما حمزة والكسائي ـ ونافع وأبي جعفر في التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٣، والبحر ٨/ ٦٢.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٢.

مؤخَّر، كأنه قيل: وليوفِّيهم أعمالهم ولا يظلمهم فَعَلَ ما فَعَلَ من تقدير الأجزية على مقادير أعمالهم، فجَعَلَ الثواب درجات والعقابَ دَرَكات.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يُعذَّبون بها، من قولهم: عُرِض بنو فلان على السيف: إذا قتلوا به، وهو مجاز شائع، وذهب غيرُ واحد إلى أنه من باب القَلْب المعنوي، والمعنى: يوم تُعرض النار على الذين كفروا، نحو: عرضتُ الناقة على الحوض، فإن معناه أيضًا كما قالوا: عرضتُ الحوضَ على الناقة؛ لأنَّ المعروضَ عليه يجب أن يكون له إدراكٌ ليميل به إلى المعروض أو يرغب عنه، لكن لمَّا كان المناسبُ هو أن يُؤْتَى بالمعروض عند المعروض عليه، ويُحرَّك نحوَه، وهاهنا الأمر بالعكس، لأن الحوضَ لم يُؤْتَ به، وكذا النار = قُلِبَ الكلامُ رعايةً لهذا الاعتبار.

وفي «الانتصاف»: إن كان قولهم: عرضتُ الناقةَ على الحوض، مقلوبًا، فليس قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ) كذلك؛ لأن المُلجئ ثَمَّ إلى اعتقاد القلب أن الحوضَ جمادٌ لا إدراك له والناقة هي المُدركة، فهي التي يُعرض عليها الحوض حقيقة، وأما النار فقد وردت النصوصُ بأنها حينئذ مُدركة إدراكَ الحيوانات، بل إدراك أُولي العلم، فالأمر في الآية على ظاهره، كقولك: عرضت الأسرى على الأمير[1].

وربما يقال: لا مانع من تنزيلها منزلةَ المُدرِك إن لم تكن حينئذ مُدركة، وكذا تنزيلُ الحوض منزلته حتى كأنه يستعرض الناقةَ، كما قال أبو العلاء المعري:

إذا اشتاقت الخيلُ المناهلَ أَعْرَضَتْ عن الماء فاشتاقت إليها المناهلُ[2]

وبعد ذلك قد لا يحتاج إلى اعتبار القلب، وقال أبو حيان[3]: لا ينبغي حمل القرآن على القلب، إذ الصحيحُ فيه أنه مما يُضطر إليه في الشعر، وإذا كان المعنى صحيحًا واضحًا بدونه فأيّ ضرورة تدعو إليه؟! والمثال المذكور لا قلب فيه أيضًا، فإنَّ عرضَ الناقة على الحوض وعرض الحوض على الناقة كلٌّ منهما صحيح، إذ

---

(١) الانتصاف بحاشية الكشاف ٣/ ٥٢٣.

(٢) شروح سقط الزند (القسم الثاني) ص ٥٤١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٣.

العرض أمرٌ نسبي يصحُّ إسناده لكلٍّ واحد من الناقة والحوض.

وابن السكيت في كتاب «التوسعة» ذهب إلى أن: عرضت الحوضَ على الناقة، مقلوبٌ، والأصل إنما هو: عرضت الناقة على الحوض، وهو مخالفٌ للمشهور.

وأنت تعلم مما ذكرنا أولًا أن سببَ اعتبارهم القلب في المثال كون المناسب في العرض أن يؤتى بالمعروض عند المعروض عليه، وأن الأمر في: عرضت الحوض على الناقة بالعكس. وتفصيلُ الكلام في ذلك على وجه يُعرف منه منشأ الخلاف: أن العرض مطلقًا لا يقتضي ذلك، وإنما المقتضي له المعنى المقصود من العرض في المثال، وهو الميلُ إلى المعروض، ومن لم ينظر إلى هذا المعنى ونظر إلى أن المعروض يتحرك إلى المعروض عليه قال: إنه الأصل، ومن لم ينظر إلى الاعتبارين وقال: العرضُ إظهار شيء لشيء قال: إن كلًّا من القولين على الأصل، وهو ـ كما قال العلامة السيالكوتي ـ الحقُّ، لأنَّ كلا الاعتبارين خارجٌ عن مفهوم العرض، فاحفَظْه فإنه نفيس.

والظرف منصوبٌ بقولٍ محذوفٍ مَقولُه قولُه تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ إلى آخره، أي: فيقال لهم يوم يُعرضون: أذهبتم لذَّاتكم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ باستيفائها ﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فلم يبقَ لكم بعدُ شيء منها، وهو عطفُ تفسير لـ «أذهبتم».

وقرأ قتادة ومجاهد وابن وثَّاب وأبو جعفر والحسن والأعرج وابن كثير: «آذهبتم» بهمزة بعدها مدَّة مطولة، وابن عامر بهمزتين حقَّقهما ابنُ ذكوان، وليَّن الثانية هشام وابن كثير في رواية، وعن هشام الفصل بين المحقَّقة والمُلَيَّنة بألف[1].

والاستفهام على معنى التوبيخ فهو خبر في المعنى، ولو كان استفهامًا محضًا لم تدخل الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: الهوان، وكذلك

---

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بهمزتين مفتوحتين على الاستفهام، وكلٌّ على أصله من التسهيل وغيره، فابن كثير ورويس يسهلان من غير إدخال، وأبو جعفر يسهل مع الإدخال، وهشام له التسهيل والتحقيق مع الإدخال، وابن ذكوان وروح يُحقِّقان من غير إدخال. وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر. البدور الزاهرة ص٢٩٥، وينظر السبعة لابن مجاهد ص٥٩٨، والتيسير ص١٩٩، والنشر ١/ ٣٦٦.

قرئ[1] ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بغير استحقاق لذلك، وقد مرَّ بيانُ سِرِّ «في الأرض».

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: تخرجون من طاعةِ الله عز وجل، أي: بسبب استكباركم وفسقكم المستمرَّين، وفي «البحر»[2]: أُريد بالاستكبار الترفُّع عن الإيمان، وبالفسق معاصي الجوارح، وقُدِّم ذنب القلب على ذنب الجوارح إذ أعمالُ الجوارح ناشئةٌ عن مُراد القلب. وقرئ: «تَفْسِقون» بكسر السين[3].

وهذه الآية مُحرِّضة على التقلُّل من الدنيا وترك التنعُّم فيها والأخذ بالتقشُّف، أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حُميد وابن المنذر والحاكم والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر أنَّ عمر رضي الله عنه رأى في يدِ جابر بن عبد الله رضي الله عنه درهمًا، فقال: ما هذا الدِّرهم؟ قال: أُريد أن أشتري به لأهلي لحمًا قَرِمُوا[4] إليه. فقال: أكلَّما اشتهيتُم شيئًا اشتريتموه، أين تذهب عنكم هذه الآية: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا)[5]؟!.

وأخرج ابن المبارك وابن سعد وأحمد في «الزهد» وعبد بن حُميد وأبو نُعيم في «الحلية» عن الحسن قال: قَدِمَ وفدُ أهل البصرة على عمر رضي الله عنه مع أبي موسى الأشعري، فكان له في كلِّ يومِ خبزٌ يُلَتُّ، فربَّما وافقناه مأدومًا بزيت، وربَّما وافقناه مأدومًا بسمن، وربَّما وافقناه مأدومًا بلبن، وربَّما وافقنا القدائد اليابسة قد دُقَّت ثم أُغلي عليها، وربَّما وافقنا اللحم الغريض ـ أي: الطريّ ـ وهو قليلٌ، قال: وقال لنا عمر رضي الله عنه: إني والله ما أجهلُ عن كَرَاكرَ وأَسْنِمةٍ وعن صِلَاءٍ وصِنَابٍ وسلائقَ، ولكن وجدتُ الله تعالى عيَّر قومًا بأمرٍ فعلوه، فقال عز وجل: (أَذْهَبْتُمْ

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٦٣.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٢٣.

(٤) القَرَم: شدة شهوة اللحم حتى لا يصبر عنه. النهاية (قرم).

(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٢، والمستدرك ٢/ ٤٥٥، وشعب الإيمان (٥٦٧٢) و(٥٦٧٣)، وفي إسناده: القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص وهو متروك، رماه أحمد بالكذب، كما في تقريب التهذيب. ورواه بنحوه مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٦ عن يحيى بن سعيد أن عمر...، وينظر الاستذكار ٢٦/ ٢٤٧.

طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا)[١].

والكراكر جمع كِرْكِرة بالكسرة: زَوْر البعير الذي إذا برك أصابَ الأرضَ، وهو من أطيب ما يُؤكَل منه. والأسنمة جمع سنام معروفٌ. والصِّلاء بالكسر والمدِّ: الشواء. والصِّناب ككتاب: صِباغ يُتخَذُ من الخردل والزبيب. والسلائق جمع سَليقة كسفينة: ما سُلِقَ من البقول وغيرها، ويُروى بالصاد: الخبز الرقاق، واحدتها: صَليقة كسفينة أيضًا، وقيل: هي الحِملان المشوية، وقيل: اللحم المشوي المُنضَج، وأنشدوا لجرير:

تُكلِّفني معيشةَ آلِ زيد ومَنْ لي بالصَّلائق والصِّناب[٢]

وأخرج أحمد والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ثوبان ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر كان آخر عهده من أهله بفاطمة، وأول من يدخل عليه منهم فاطمةُ ﷺ، فَقَدِمَ من غَزاة له فأتاها فإذا بِمسْح على بابها، ورأى على الحسن والحسين قُلْبين من فضة، فرجع ولم يدخل عليها، فلما رأتْ ذلك ظَنَّتْ أنه لم يدخل من أجل ما رأى، فهتكَتِ السِّتر ونزعت القُلْبين من الصبيين فقطعتهما، فبكيا، فقسمَتْ ذلك بينهما، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان، فأخذه رسول الله ﷺ منهما فقال: «يا ثوبان، اذهب بهذا إلى بني فلان - أهلِ بيت بالمدينة - واشترِ لفاطمة قلادةً من عَصبٍ وسوارين من عاج، فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحبُّ أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»[٣].

والمِسْح بكسر فسكون: ثوب من شعر غليظ، والقُلْبين تثنية قُلْب بضمٍّ فسكون: السِّوار. والعَصْب بفتح فسكون؛ قال الخطابي[٤]: إن لم يكن الثيابَ اليمانية فما أدري ما هو، وما أرى[٥] أن القلائد تكون منها، ويحتمل أن الرواية بفتح

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٣، والزهد لابن المبارك (٥٧٩)، والطبقات ٣/ ٢٧٩، والحلية١/ ٤٩.

(٢) ديوان جرير ٢/ ٨١٢.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٣، ومسند أحمد (٢٢٣٦٣)، وشعب الإيمان (٥٦٥٩)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٢١٣)، وفي إسناده: حُميد الشامي وسليمان المُنَبِّهي وهما مجهولان، كما في التقريب.

(٤) معالم السنن ٤/ ٢١٢، وينظر النهاية (عصب).

(٥) في الأصل و(م): أدري، والمثبت من معالم السنن والنهاية.

الصاد وهو أطناب مفاصل الحيوان، فلعلَّهم كانوا يتخذون من طاهره مثل الخرز، قال: ثم ذكر بعضُ أهل اليمن أنَّ العصبَ سنُّ دابَّةٍ بحرية تُسمَّى: فرس فرعون، يُتَّخذُ منها الخرز البيض وغيرها.

وأحاديثُ الزهد في طيبات الحياة الدنيا كثيرةٌ، وحال رسول الله ﷺ في ذلك معروفةٌ بين الأمة، وفي «البحر» بعد حكاية حال عمر ﷺ على نحو مما ذكرنا: قال ابن عباس ﷺ: وهذا من باب الزهد، وإلا فالآية نزلت في كفار قريش، والمعنى: أنه كانت لكم طيباتُ الآخرة لو آمنتم، لكنكم لم تُؤمنوا فاستعجلتم طيباتِكم في الحياة الدنيا. فهذه كنايةٌ عن عدم الإيمان، ولذلك ترتَّب عليه: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ ولو أُريد الظاهر ولم يكن كناية عما ذكرنا لم يترتَّب عليه الجزاء بالعذاب[1].

هذا، ولما كان أهلُ مكة مستغرقين في لذَّات الدنيا مُعرضين عن الإيمان وما جاء بهم الرسول ﷺ ناسبَ تذكيرهم بما جرى للعرب الأولى ممن كانوا أكثرَ أموالًا وأشدَّ قوة وأعظمَ جاهًا منهم، فسلَّط عليهم العذابَ بسبب كفرهم.

وبضربِ الأمثال وقصص من تقدَّم يُعرف قُبْحُ الشيء وحُسنه، فقال سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ لكفار مكة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ هودًا عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ بدل اشتمال منه، أي: وقت إنذاره إياهم ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمع حِقْف: رَمْلٌ مستطيل فيه اعوجاجٌ وانحناء، ويقال: احقوقَفَ الشيء: اعوجَّ، وكانوا بدويين أصحابَ خِباء وعُمُد يسكنون بين رمال، مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر، من بلاد اليمن، قاله ابن زيد.

وقال ابن عباس ﷺ: بين عُمان ومَهْرَة. وفي رواية أخرى عنه: الأحقاف جبل بالشام. وقال ابن إسحاق: مساكنهم من عُمان إلى حضرموت. وقال ابن عطية[2]: الصحيح أنَّ بلاد عاد كانت باليمن، ولهم كانت إرمُ ذاتُ العماد، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في «إرم» وبيانُ الحقِّ فيها.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٦٣.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٠١.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: الرسل، كما هو المشهور، وقيل: مَنْ يعمُّهم والنُّواب عنهم، جمع نذير بمعنى مُنذر.

وجُوِّز كون النذر جمع نذير بمعنى الإنذار فيكون مصدرًا، وجُمع لأنه يختلف باختلاف المُنذَر به. وتُعقِّب بأن جمعه على خلافِ القياس، ولا حاجةَ تدعو إليه.

﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ أي: مِنْ قبله عليه السلام ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ أي: من بعده، وقُرِئ به[1]، ولولا ذلك لجاز العكس، والظاهرُ أن المرادَ النُّذر المتقدِّمون عليه والمتأخِّرون عنه. وعن ابن عباس: يعني الرسل الذين بُعثوا قبلَه والذين بُعثوا في زمانه، فمعنى «من خلفه»: من بعد إنذاره.

وعطف «من خلفه» ـ أي: من بعده ـ على ما قبله إما من باب:

علفتها تِبنًا وماءً باردا[2]

وفيه أقوال، فقيل: عامِلُ الثاني مقدَّر، أي: وسقيتُها ماء، ويقال في الآية، أي: خلت النُّذر من بين يديه وتأتي مِن خلفه؛ وقيل: إنه مُشاكلة، وقيل: إنه من قَبيلِ الاستعارة بالكناية. وإما لإدخال الآتي في سلك الماضي قطعًا بالوقوع، وفيه شائبةُ الجمع بين الحقيقة والمجاز. وجُوِّز أن يقال: المُضي باعتبار الثبوت في علم الله تعالى، أي: وقد خلت النذر في علم الله تعالى، يعني ثبت في علمه سبحانه خلو الماضين منهم والآتين.

والجملة إما حال من فاعل «أَنْذَرَ» أي: إذْ أنذرَ مُعْلِمًا إياهم بخلوِّ النُّذر، أو مفعولِه، أي: وهم عالمون بإعلامه إياهم، وهو قريبٌ من أسلوب قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ الآية [البقرة: ٢٨]. ويجوز أن يكون المعنى: أنذرهم على فترة من الرسل، وهي حال أيضًا على تفسير ابن عباس، وعِلْمُ القوم يجوز أن يكون من إعلامه ومن مشاهدتهم أحوالَ من كانوا في زمانه وسماعهم أحوالَ من قبله.

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢٣.

(٢) وعجزه: حتى شتت همَّالة عيناها. وسلف ٥/ ٢٩١ و٦/ ٣٢٥ وغيرها.

وإما اعتراضٌ بين المُفسَّر أعني «أَنْذرَ قومَه»، وبين المُفسِّر أعني قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فإن النهي عن الشيء إنذار عن مَضَرَّته، كأنه قيل: واذكر زمان إنذار هود قومَه بما أنذر به الرسلُ قبلَه وبعدَه، وهو أن لا تعبدوا إلا الله، تنبيهًا على أنه إنذارٌ ثابتٌ قديمًا وحديثًا اتَّفقت عليه الرسل عليهم السلام عن آخرهم فهو يؤكِّد قوله تعالى: «واذكر» ويؤكِّد قوله سبحانه: «أنذر قومه» ولذلك توسّط، وهو أيضًا مقصودٌ بالذكر، بخلاف ما إذا جعل حالًا فإنه حينئذ قيدٌ تابع، وهذا الوجهُ أولى مما قبله على ما قرَّره في «الكشف». وجوَّز بعضُهم العطفَ على «أنذر» أي: وأعلمهم بذلك، وهو كما ترى.

وجعلت «أن» مفسِّرة لتقدُّم معنى القول دون حروفه وهو الإنذار والمُفسَّر معموله المُقدَّر، وجُوِّز كونها مصدرية وكونها مخفَّفة من الثقيلة فقبلها حرف جرٍّ مقدَّر متعلِّق بـ «أنذر»، أي: أَنْذَرَهم بأن لا تعبدوا إلا الله.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾﴾ صفة «يوم»، وعِظَمُه مجازٌ عن كونه مَهُولًا؛ لأنه لازمٌ له، وكونُ اليوم مَهولًا باعتبار هول ما فيه من العذاب، فالإسناد فيه مجازي، ولا حاجةَ إلى جعله صفةً للعذاب والجرّ للجوار. والجملة استئناف تعليل للنهي، ويُفهم: إني أخاف عليكم ذلك بسبب شِرْككم.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ استفهامٌ توبيخي ﴿لِتَأۡفِكَنَا﴾ أي: لتَصْرِفنا ـ كما قال الضحاك ـ من الأَفْك بمعنى الصَّرْف. وقيل: أي: لِتُزيلنا بالإفك، وهو الكذب ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: عن عبادتها ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من مُعاجلة العذاب على الشِّرك في الدنيا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ في وعدك بنزوله بنا.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: بوقت نزوله، أو العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحدَه لا علمَ لي بوقت نزوله، والكلام كنايةٌ عن أنه لا يَقدِرُ عليه ولا على تعجيله؛ لأنه لو قَدَرَ عليه وأراده كان له علمٌ به في الجملة، فنفيُ علمه به المدلولُ عليه بالحصر نفيٌ لمدخليته فيه حتى يطلبَ تعجيلَه من الله عز وجل ويدعو به. وبهذا التقرير عُلم مطابقةُ جوابه عليه السلام لقولهم: «ائتنا»: فيأتيكم به في وقته المُقدَّر له.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ من مواجب الرسالة التي من جُملتها بيانُ نزول العذاب إذ لم تنتهوا عن الشِّرك.

وقرأ أبو عمرو: «أُبْلِغكم» من الإبلاغ(١).

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ شأنكم الجهل، ومن آثار ذلك أنكم تقترحون عليَّ ما ليس من وظائف الرُّسل من الإتيان بالعذاب.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ فصيحةٌ، أي: فأتاهم فلمَّا رَأَوْه، وضمير النصب قيل: راجعٌ إلى «ما» في «بما تعدنا»، وكونُ المرئيِّ هو الموعود باعتبار المآل والسببية له، وإلا فليس هو المرئي حقيقة، وجوز الزمخشري(٢) أن يكون مُبهمًا يُفسِّره «عارضًا» وهو إما تمييزٌ وإما حال، ثم قال: وهذا الوجهُ أَعْربُ ـ أي: أبينُ وأظهرُ؛ لما أَشرنا إليه في الوجه الأول من الخَفاء ـ وأفصحُ لما فيه من البيان بعد الإبهام والإيضاحِ غِبَّ التعمية.

وتعقَّبه أبو حيان(٣) بأنَّ المُبهم الذي يُفسِّره ويُوضحه التمييز لا يكون إلا في باب رُبَّ، نحو: رُبَّه رجلًا لقيته، وفي باب نِعْمَ وبئس على مذهب البصريين نحو: نِعْم رجلاً زيدٌ، وبئس غلامًا عمرو، وأما أن الحالَ تُوضح المبهمَ وتُفسِّره فلا نعلم أحدًا ذهب إليه، وقد حصر النحاةُ المُضمر الذي يُفسِّره ما بعده فلم يذكروا فيه مفعول رأى إذا كان ضميرًا، ولا أن الحال يفسّر الضمير ويوضحه.

وأنت تعلم جلالة جار الله وإمامته في العربية.

والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء، ومنه قول الشاعر:

يـا مَـنْ رأى عـارضًـا أَرِقْـتُ لـه ... بـيـن ذراعَـيْ وجـبـهـةِ الأسـدِ(٤)

---

(١) التيسير ص١١١، والنشر ٢/ ٢٧٠.

(٢) في الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٤.

(٤) البيت للفرزدق، وهو في الكتاب ١/ ١٨٠، والحُلَل في شرح أبيات الجمل للبطليوسي ص٢١٣، وخزانة الأدب ٢/ ٣١٩، وجاء في الكتاب والخزانة: أُسَرُّ به، بدل: أرقت له، ولم نقف عليه في الديوان.

وقول الأعشى:

يا مَنْ رأى عارضًا قد بِتُّ أرمقُه كأنمَّا البرقُ في حَافاتِهِ الشُّعَل[١]

﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي: مُتوجّه أوديتهم وفي مُقابلتها، وهي جمع وادٍ، وأَفْعلة في جمع فاعل الاسم شاذٌّ نحو: نادٍ وأندية، وجائز - للخشبة المُمتدة في أعلى السَّقف - وأَجوِزة، والإضافة لفظيةٌ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ ولذلك وقعا صفتين للنكرة، وأَطلق عليها الزمخشري[٢] مجازيةً، ووجه التجوُّز أنَّ هذه الإضافة للتوسُّع والتخفيف حيث لم تُفِد فائدةً زائدة على ما كان قبلُ، فكما أنَّ إجراء الظرف مُجرى المفعول به مجازٌ، كذلك إجراء المفعول أو الفاعل مُجرى المضاف إليه في الاختصاص، ولم يُرِد أنها من باب الإضافة لأدنى مُلابسة.

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ أي: من العذاب، والكلامُ على إضمار القول قبلَه، أي: قال هود: «بل هو» إلخ؛ لأن الخطاب بينه وبينهم فيما سبق، ويُؤيِّده أنه قُرئ كذلك[٣]، وقدَّره بعضهم: قل: بل هو.. إلخ، للقراءة به أيضًا[٤]، والاحتياج إلى ذلك لأنه إضرابٌ، ولا يصلحُ أن يكون من مقول من قال: «هذا عارضٌ مُمطرنا». وقدَّر البغوي[٥]: قال الله: بل هو.. إلخ، وينفكُّ النظمُ الجليل عليه كما لا يخفى.

وقرئ: «بل ما استعجلتم»[٦] أي: بل هو، وقرأ قومٌ: «ما استُعجِلتم» بضمِّ التاء وكسر الجيم[٧].

﴿رِيحٌ﴾ بدل من «ما» أو من «هو»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي - أو هو - ريح ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ صفة «ريح» لكونه جملةً بعد نكرة، وكذا قوله تعالى:

---

(١) ديوان الأعشى ص١٠٧، وفيه: أرقبه، بدل: أرمقه.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٠.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٦٥، وعزاها لابن مسعود.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٢٤، وفيه: «قل بل ما استعجلتم به هي ريح» ولم ينسبها.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠.

(٦) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٦٤.

﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تُهلك ﴿كُلَّ شَيۡءِۭ﴾ من نفوسهم وأموالهم، أو مما أُمرت بتدميره ﴿بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ ويجوز أن يكونَ مستأنفًا.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «تَدْمُر» بفتح التاء وسكون الدال وضمِّ الميم، وقرئ كذلك أيضًا إلا أنه بالياء، ورفع «كلّ»[1] على أنه فاعل «يَدْمُر» وهو من دمر دمارًا، أي: هلك، والجملة صفةٌ أيضًا، والعائد محذوفٌ، أي: بها، أو الضمير من «ربها» ويجوز أن يكون استئنافًا كما في قراءة الجمهور وارداً لبيان[2] أنَّ لكلِّ ممكن وقتًا مقضيًّا منوطًا بأمر بارئه لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ويكون الضميرُ من «ربها» لكلِّ شيء، فإنه بمعنى الأشياء. وفي ذكر الأمر والربّ والإضافة إلى الريح من الدلالة على عظمة شأنه عز وجل ما لا يخفى.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ فصيحة، أي: فَجَأتهم الريحُ فدمَّرتهم فأَصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم، وجعلها بعضُهم فاءَ التعقيب على القول بإضمار القول مسندًا إليه تعالى، وادَّعى أنه ليس هناك قولٌ حقيقة بل هو عبارة عن سرعة استئصالهم وحصول دمارهم من غير رَيْث، وهو كما ترى.

وقرأ الجمهور: «لا تَرى» بتاء الخطاب «إلا مساكنَهم» بالنصب[3]، والخِطاب لكلِّ أحدٍ تتأتَّى منه الرؤية تنبيهًا على أنَّ حالهم بحيث لو حضر كلُّ أحدٍ بلادَهم لا يَرى إلا مساكنَهم، أو لسيِّد المخاطبين ﷺ.

وقرأ أبو رجاء ومالك بن دينار ـ بخلاف عنهما ـ والجحدري والأعمش وابن أبي إسحاق والسُّلمي: «لا تُرى» بالتاء من فوق مضمومة «إلا مساكنُهم» بالرفع[4]، وجمهورُ النُّحاة على أنه لا يجوز التأنيثُ مع الفصل بـ «إلَّا» إلا في الشعر، كقول ذي الرُّمة:

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢١٥، والبحر المحيط ٨/ ٦٤.
(٢) في (م): وأراد البيان، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٨/ ٨٦، والكلام منه.
(٣) التيسير ص٢٠٠، والنشر ٢/ ٣٧٣. وقرأ عاصم وحمزة ويعقوب وخلف: «لا يُرى إلا مساكنُهم».
(٤) المحتسب ٢/ ٢٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٦٥.

كـأنـهـا جـمـل وَهْـمٌ[١] ومـا بـقـيـت إلا الـنـحـيـزةُ والألـواحُ والـعـصـبُ[٢]

وقول الآخر وعزاه ابن جنِّي لذي الرمة أيضًا:

بَرَى النحزُ والأجرالُ ما في غروضها ومـا بقيت إلا الـضـلـوع الـجـراشـع[٣]

وبعضهم يُجيزه مطلقًا، وتمامُ الكلام فيه في محلِّه.

وقرأ عيسى الهمداني: «لا يُرى» بضمِّ الياء التحتية، «إلا مسكنُهم» بالتوحيد والرفع، ورُوي هذا عن الأعمش ونصر بن عاصم، وقرئ: «لا تَرى» بتاء فوقية مفتوحة «إلا مسكنَهم» مفردًا منصوبًا[٤]، وهو الواحد الذي أُريد به الجمع، أو مصدر حُذف مضافه، أي: آثارَ سكونهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾ أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «السحاب»، وأبو الشيخ في «العظمة»، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: (فَلَمَّا رَأَوْهُ) الآية: أول ما عرفوا أنه عذاب رأوا[٥] ما كان خارجًا من رحالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثلَ الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابَهم، فجاءت الريح ففتحت أبوابَهم ومالت عليهم بالرمل، فكانوا تحت الرمل سبعَ ليال وثمانيةَ أيام حسومًا، لهم أنينٌ، فأمر اللهُ تعالى الريحَ فكشفَتْ عنهم الرملَ وطرحتهم في البحر، فهو قوله تعالى: (فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ)[٦].

وروي أنَّ أول من أبصر العذاب امرأةٌ منهم رأت ريحًا فيها كشهب النار. ورُوي أن هودًا عليه السلام لما أحسَّ بالريح خطَّ على نفسه وعلى المؤمنين خطًّا إلى جنب عين تنبع.

---

(١) في الأصل و(م) والبحر ٨/ ٦٥ (والكلام منه): كأنه جمل هم، والمثبت من الديوان.
(٢) ديوان ذي الرمة ١/ ٤٣، قال الشارح: الجمل الوَهْم: الضخم. والنحيزة: الطبيعة، وألواحها: عظامها.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٦٦، وهو في ديوان ذي الرمة ٢/ ١٢٩٦ برواية: طوى النحز والأجراز...، قال الشارح: النحز: ضرب الأعقاب والاستحثاث في السير، والجراشع: المنتفخ الجَنْبَيْن.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٦٥.
(٥) في (م) والأصل: ما رأوا، والمثبت من المصادر.
(٦) الدر المنثور ٦/ ٤٣، والعظمة (٨٣٩).

وعن ابن عباس: أنه عليه السلام اعتزل ومن معه في حظيرةٍ ما يُصيبهم من الريح إلا ما يلين به الجلود وتلذُّه الأنفس، وإنها لتمرُّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة. وكانت ـ كما أخرج ابنُ أبي شيبة وابن جرير عن عمرو بن ميمون ـ تجيء بالرجل الغائب(١). ومرَّ في سورة الأعراف مما يتعلَّق بهم ما مرَّ، فارجع إليه(٢) إنْ أردته.

ولما أصابهم من الريح ما أصابهم كان ﷺ يدعو إذا عصفَت الريح، أخرج مسلمٌ والترمذي والنسائي وابن ماجه وعبد بن حُميد عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريحُ قال: «اللهم إني أسألُكَ خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرسلت به، وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرسلَتْ به»، فإذا أَخْيَلت السماء تغيَّر لونُه ﷺ وخرجَ ودخل وأَقبلَ وأدبرَ، فإذا مطرت سُرِّي عنه، فسألته، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أدري لعلَّه كما قال قومُ عاد: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾»(٣).

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ﴾ أي: قررنا عادًا وأقدرناهم، و«ما» في قوله تعالى: ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ موصولة أو موصوفة، و«إن» نافية، أي: في الذي ـ أو في شيء ـ ما مكنَّاكم فيه من السعة والبسطة وطول الأعمار وسائر مبادي التصرفات كما في قوله تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦] ولم يكن النفي بلفظ «ما» كراهةً لتكرير اللفظ وإن اختلف المعنى، ولذا قال مَن ذهب إلى أنَّ أصلَ مهما ماما على أنَّ ما الشرطية مكرَّرة للتأكيد: قلبت الألف الأُولى هاء فرارًا من كراهة التكرار. وعابوا على المتنبي قوله:

لعمرك ما ما بانَ منك لضاربٍ بأقتلَ مما بانَ منكَ لعائب(٤)

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٤، ومصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٥١، وتفسير الطبري ٢١/ ١٥٧.

(٢) في (م): إليهم.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٣، وصحيح مسلم (٨٩٩)، وسنن الترمذي (٣٤٤٩)، وسنن النسائي (١٠٧١٠)، وسنن ابن ماجه (٣٨٩١) واللفظ لمسلم. وأخرجه البخاري (٤٨٢٩) بنحوه. وقوله: أخيلت السماء: تهيأت للمطر. القاموس (خيل).

(٤) ديوان المتنبي ١/ ٢٨٥، وفيه: يرى أنَّ، بدل: لعمرك.

أي: ما الذي بان.. إلخ، يريد: لسانه لا يتقاعد عن سِنانه؛ هذا للعائب وذلك للضارب، وكان يسعه أن يقول: إنْ ما بان، وإدخال الباء للنفي لا للعمل، على أنَّ إعمال «إنْ» قد جاء عن المبرِّد.

وقيل: «إنْ» شرطية محذوفةُ الجواب، والتقدير: إنْ مكنَّاكم فيه طغيتم.

وقيل: إنها صلة بعد «ما» الموصولة تشبيهًا بـ «ما» النافية و«ما» التوقيتية، فهي في الآية مثلها في قوله:

يُـرَجِّـي الـمـرءُ مـا إن لا يـراه وتَـعـرِضُ دون أدنـاه الـخـطـوبُ[1]

أي: مكنَّاهم في مثل الذي مكنَّاكم فيه. وكونها نافيةً هو الوجه؛ لأن القرآنَ العظيم يدلُّ عليه في مواضع، وهو أبلغُ في التوبيخ وأَدخلُ في الحثِّ على الاعتبار.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ليستعملوها فيما خُلقت له ويعرفوا بكلٍّ منها ما نيطتْ به معرفتُه من فنون النِّعم، ويستدلُّوا بها على شؤون مُنعمها عز وجلٍ ويُداوموا على شُكره جلَّ شأنه ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل ﴿وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المرسومة في صحائف العالم ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ أي: شيئًا من الإغناء، و«من» مَزيدة للتوكيد، والتنوين للتقليل.

وجوِّز أن تكون تبعيضية، أي: ما أغنى بعضَ الإغناء، وهو القليل. و«ما» في «ما أغنى» نافية، وجوّز كونها استفهامية. وتعقَّبه أبو حيَّان بأنه يلزم عليه زيادة «من» في الواجب[2]، وهو لا يجوز على الصحيح. ورُدَّ بأنهم قالوا: تُزاد في غير الموجب، وفسَّروه بالنفي والنهي والاستفهام.

---

(١) نوادر أبي زيد ص٦٠، ونسبه لجابر بن رَألان الطائي الجاهلي، والصاهل والشاحج ص٢٥٤، والخزانة ٨/ ٤٤٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٥.

وإفرادُ السمع في النظم الجليل وجمعُ غيره لاتّحاد المُدرك به، وهو الأصوات، وتعدد مدركات غيره، أو لأنه في الأصل مصدر، وأيضًا مسموعهم من الرسل متَّحد.

﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ظرف متعلِّق بالنفي الصريح أو الضمني في قوله تعالى: «ما أغنى» وهو ظرفٌ أُريد به التعليل كنايةً لاستواء مؤدَّى الظرف، والتعليل في قولك: ضربته لإساءته، وضربته إذ أساء، لأنك إنما ضربته في ذلك الوقت لوجود الإساءة فيه، وهذا مما غُلِّب في «إذ» و«حيث» من بين سائر الظروف حتى كاد يلحق بمعانيهما الوضعية.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ويقولون: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحِجْر ثمود وقرى قوم صالح، والكلام بتقدير مضاف، أو تجوّز بالقُرى عن أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: كرَّرناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وأمر «ما» سهل، والترجِّي مصروفٌ لغيره تعالى، أو «لعل» للتعليل، أي: لكي يرجعوا عمَّا هم فيه من الكفر والمعاصي إلى الإيمان والطاعة.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ فهلا منعهم من الهلاك الذي وقعوا فيه ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي: آلهتهم الذين اتخذوهم. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ والضمير الذي قدَّرناه عائدًا هو المفعول الأول لـ «اتخذوا»، و«آلهة» هو المفعول الثاني، و«قربانًا» بمعنى متقرَّبًا بها حال، أي: اتخذوهم آلهةً من دون الله حال كونها مُتقرَّبًا بها إلى الله عز وجل حيث كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] و﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وفي الكلام تهكُّم بهم.

وأجاز الحوفي كون «قربانًا» مفعولًا من أجله، وأجاز هو أيضًا وابن عطية ومكيّ وأبو البقاء كونه المفعول الثاني لـ «اتخذوا»[(١)] وجعل «آلهة» بدلًا منه، وقال

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٣، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٩، والإملاء ٤/ ٣٢٣.

في «الكشاف»: لا يصح ذلك لفساد المعنى[١]. ونُقل عنه في بيانه أنه لا يصح أن يقال: تقرَّبوا بها من دون الله، لأنَّ الله تعالى لا يُتقرَّب به، وأراد كما في «الكشف» أنه إذا جعل مفعولًا ثانيًا يكون المعنى: فلولا نصرهم الذين اتَّخذوهم قربانًا بدل الله تعالى، أو متجاوزين عن أخذه تعالى قربانًا إليهم، وهو معنى فاسد.

واعتُرض عليه بجعل «دون» بمعنى قُدَّام، كما قيل به في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وبأنه قد قيل: إن قربانًا مفعول له، فهو غير مختصّ بالمتقرَّب به، وجاز أن يُطلق على المتقرَّب إليه، وحينئذ يلتئم الكلام.

وأُجيب عن الأول بأنه غير قادح لأنه مع نزارة استعمال «دون» بمعنى قُدَّام لا يصلح ظرف الاتّخاذ[٢] لأنه ليس بين يدي الله تعالى، وإنما التقرُّب بين يديه تعالى ولأجله سبحانه، واتّخاذهم قربانًا ليس التقرب به، لأن معناه تعظيمهم بالعبادة ليشفعوا بين يدي الله عز وجل ويُقرِّبوهم إليه سبحانه، فزمان الاتِّخاذ ليس زمانَ التقرب البتة، وحينئذ إن كان مستقرًّا حالًا لَزِمَ ما لَزِمَ في الأول. ولا يجوز أن يكونَ معمول «قربانًا» لأنه اسمٌ جامدٌ بمعنى ما يُتقرَّب به فلا يصلح عاملًا كالقارورة وإن كان فيها معنى القرار، وفيه نظر.

وأُجيب عن الثاني بأن الزمخشري بعد أن فسَّر القربان بما يتقرَّب به ذكر هذا الامتناع على أن قوله تعالى بعد: (بَلْ ضَلُّواْ) إلخ ينادي على فساد ذلك أرفعَ النداء.

وقال بعضهم في امتناع كون «قربانًا» مفعولًا ثانيًا و«آلهة» بدلًا منه: إن البدل وإن كان هو المقصودَ لكن لا بدَّ في غير بدل الغلط من صحة المعنى بدونه، ولا صحةَ لقولهم: اتخذوهم من دون الله قُربانًا، أي: ما يُتقرَّب به، لأن الله تعالى لا يُتقرَّب به، بل يُتقرَّب إليه، فلا يصح أنهم اتخذوهم قربانًا مُتجاوزين الله تعالى في ذلك. وجنح بعضُهم إلى أنه يصحُّ أن يقال: الله تعالى يُتقرَّب به، أي: برضاه تعالى والتوسل به جلَّ وعلا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٦.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وجاء في حاشية الشهاب ٨/ ٣٦: لا يصلح ظرفاً للاتخاذ. وهو الأنسب بالسياق.

وقال الطيبي: إن الزمخشري لم يُرد بفساد المعنى إلا خلافَ المعنى المقصود، إذ لم يكن قصدُهم في اتِّخاذهم الأصنام آلهةً على زعمهم إلا أن يتقرَّبوا بها إلى الله تعالى كما نطقَتْ به الآياتُ، فتأمَّل.

وقرئ: «قُرُبانًا» بضمِّ الراء[١].

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي: غابوا عنهم، وفيه تهكُّم بهم أيضًا كأنَّ عدمَ نصرهم لغيبتهم، أو ضاعوا عنهم، أي: ظهر ضياعُهم عنهم بالكُلِّيَّة، وقد امتنع نصرُهم الذي كانوا يؤمِّلونه امتناعَ نصر الغائب عن المنصور.

﴿وَذَلِكَ﴾ أي: ضلال آلهتهم عنهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: أَثَرُ إفكهم، أي: صرفِهم عن الحقِّ واتخاذِهم إياها آلهة، ونتيجةُ شِرْكهم ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: وأَثَرُ افترائهم وكذبهم على الله تعالى، أو أَثَرُ ما كانوا يفترونه على الله عز وجل. وقيل: «ذلك» إشارة إلى اتِّخاذ الأصنام آلهةً، أي: ذلك الاتخاذ الذي أثره ضلال آلهتهم عنهم كذبُهم وافتراؤهم، أو: والذي كانوا يفترونه، وليس بذاك وإن لم يُحوج إلى تقدير مضاف.

وقرأ ابن عباس في رواية: «أَفكُهم» بفتح الهمزة[٢]، والإِفْك والأَفَك مصدران كالحِذْر والحَذَر.

وقرأ ابن الزبير والصباح بن العلاء الأنصاري وأبو عياض وعكرمة وحنظلة بن النعمان بن مرة ومجاهد، وهي رواية عن ابن عباس أيضًا: «أَفَكَهم» بثلاث فتحات[٣]، على أن أَفَكَ فعلٌ ماضٍ، وحينئذ الإشارة إلى الاتِّخاذ، أي: ذلك الاتِّخاذ صَرَفَهم عن الحقّ، «وما كانوا» قيل: عطف على «ذلك»، أو على الضمير المستتر، وحَسُنَ للفصل، أو هو مبتدأ والخبر محذوفٌ، أي: كذلك، والجملة حينئذ معطوفةٌ على الجملة قبلها.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٦، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢١٩.

(٢) وفتح الفاء أيضًا، ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٧، والبحر ٨/ ٦٦.

وأبو عياض وعكرمة أيضًا كذلك إلا أنهما شدَّدا الفاء للتكثير. وابن الزبير أيضًا وابن عباس فيما ذكر ابن خالويه: «آفَكَهم» بالمدِّ[١]، فاحتمل أن يكون فاعَلَ فالهمزة أصلية، وأن يكون أَفْعَلَ والهمزة للتعدية، أي: جَعَلهم يأفكون؛ وجوّز أن تكون للوِجدان كأَحْمَدْتُه، وأن يكون أَفْعَلَ بمعنى فَعَلَ. وحكى في «البحر» أنه قُرئ: «أَفَكُهم» بفتح الهمزة والفاء وضمِّ الكاف، وهي لغة في الإفك[٢].

وقرأ ابن عباس فيما روى قطرب وأبو الفضل الرازي: «آفِكُهم» اسم فاعل من أَفَكَ[٣]، أي: وذلك الاتخاذ صارفُهم عن الحق.

وقرئ: «وذلك إفكٌ مما كانوا يفترون»[٤] والمعنى: ذلك بعضُ ما يفترون من الإفك، أي: بعض أكاذيبهم المفتريات، فالإفك بمعنى الاختلاق، فلا تغفل.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: أَمَلْناهم إليك ووجَّهناهم لك، والنفر على المشهور ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال، لأنه من النفير، والرجال هم الذين إذا حزبهم أمرٌ نفروا لكفايته، والحقّ أن هذا باعتبار الأغلب، فإنه يُطلق على ما فوق العشرة في الفصيح، وقد ذكر ذلك جمعٌ من أهل اللغة، وفي «المجمل»: الرَّهْط والنفر يستعمل إلى الأربعين[٥]، وفي كلام الشعبي: حدَّثني بضعة عشر نفرًا، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفسيره هنا بما زاد على العشرة، ولا يختصُّ بالرجال، والأخذ من النفير لا يدلُّ على الاختصاص بهم، بل ولا بالناس لإطلاقه على الجنِّ هنا.

والجارُّ والمجرور صفة «نفرًا»، وقوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حال مقدَّرة منه لتخصُّصه بالصفة، أو صفةٌ له أُخرى، وضمير الجمع لأنه اسم جمع، فهو في

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٧، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢١٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٦.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٦٨، والبحر ٨/ ٦٦.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٢٦.
(٥) الذي في مجمل اللغة لابن فارس ٢/ ٤٠٢ (رهط): الرهط: العصابة دون العشرة، ويقال: بل إلى الأربعين. وفي ٣/ ٨٧٨ (نفر): النفر: عدة رجال من ثلاثة إلى العشرة.

المعنى جمع، ولذا قُرِئَ: «صرَّفنا» بالتشديد للتكثير[1]، و«إذ» معمولة لمقدَّر لا عطف على «أخا عاد» [الآية: ٢١] أي: واذكر لقومك وقتَ صرفنا إليك نفرًا من الجنِّ مقدَّرًا استماعهم القرآن، لعلهم يتنبَّهون لجهلهم وغلطهم وقبح ما هم عليه من الكُفر بالقرآن والإعراض عنه حيث إنهم كفروا به وجهلوا أنه من عند الله تعالى وهم أهلُ اللسان الذي نزل به ومن جنس الرسول الذي جاء به، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عنده تعالى وآمنوا به وليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله. ففي ذكر هذه القصة توبيخٌ لكفار قريش والعرب، ووقوعها إثرَ قصة هود وقومه وإهلاكِ من أهلك من أهل القُرى لأنَّ أولئك كانوا ذوي شدَّة وقوَّة كما حُكي عنهم في غيرِ آية، والجنُّ تُوصَف بذلك أيضًا كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] ووصفُهم بذلك معروفٌ بين العرب، فناسبت ما قبلها لذلك، مع ما قيل إن قصةَ عاد مُتضمِّنة ذكرَ الريح، وهذه متضمِّنةٌ ذكرَ الجنِّ، وكلاهما من العالَم الذي لا يُشاهد، وسيأتي الكلام في حقيقتهم.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآن عند تلاوته، وهو الظاهرُ وإن كان فيه تجوّز، وقيل: الرسول ﷺ عند تلاوته له ففيه التفات ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قال بعضُهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا۟﴾ اسكتوا لنسمعه، وفيه تأدُّب مع العلم وكيف يُتعلَّم ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أتمَّ وفُرغ عن تلاوته.

وقرأ أبو مِجلز وحُبيب بن عبد الله: «قَضَى» بالبناء للفاعل[2]، وهو ضميرُ الرسول ﷺ، وأيِّد بذلك عَوْدُ ضمير «حضروه» إليه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ مقدِّرين إنذارهم عند وصولهم إليهم، قيل: إنهم تفرَّقوا في البلاد فأنذروا مَنْ رأَوْه من الجنِّ، وكان هؤلاء كما جاء في عدَّة روايات من جِنِّ نَصِيبين، وهي من ديار بكر قريبة من الشام، وقيل: من نينوى، وهي أيضًا من ديار بكر لكنها قريبة من المَوْصل، وذكر أنهم كانوا من الشيصبان وهم أكثرُ

(١) البحر المحيط ٨/ ٦٧.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٥، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٢٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٧.

الجنّ عددًا، وعامّة جنود إبليس منهم، وكان الحضور بوادي نخلة على نحو ليلة من مكة المكرمة، فقد أخرج أحمد وعبد بن حُميد والشيخان والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن عباس قال: انطلق النبيُّ ﷺ في طائفة من أصحابه إلى سوق عُكاظ وقد حِيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأُرسلت عليهم الشُّهب، فرجَعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حِيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشُّهب. قالوا: ما حالَ بينكم وبين خبر السماء إلا شيءٌ حدثَ، فاضربوا مشارقَ الأرضِ ومغاربَها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك الذين توجَّهوا نحو تِهامة إلى النبيِّ ﷺ وهو وأصحابه بنخلة عامِدين إلى سوق عُكاظ وهو عليه الصلاة والسلام يُصلِّي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلما سَمِعوا القرآنَ استمعوا له فقالوا: هذا واللهِ الذي حال بينكم وبين خبرِ السماء، فهناك حين رجَعوا إلى قومهم(١). وفي رواية ابن المنذر عن عبد الملك: أنهم لما حضروه قالوا: أَنْصِتوا، فلما قضى وفرغ ﷺ من صلاةِ الصبح ولَّوا إلى قومهم منذرين مؤمنين لم يشعر بهم حتى نزل: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١](٢).

وفي «الصحيحين» عن مسروق عن ابن مسعود أنه آذَنَتْه ﷺ بهم شجرة(٣).

وكانوا على ما رُوي عن ابن عباس سبعةً، وكذا قال زِرّ، وذكر منهم: زوبعة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنهم كانوا سبعة؛ ثلاثة من أهل حران، وأربعة من نَصيبين، وكانت أسماؤهم حسى ومسى وشاصر وماصر والأردوانيان وسرق والأحقم(٤)، بميم آخره. وفي رواية عن كعب: الأحقب، بالباء(٥). وذكر

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٠، ومسند أحمد (٢٢٧١)، وصحيح البخاري (٧٧٣)، وصحيح مسلم (٤٤٩)، وسنن الترمذي (٣٣٢٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١٥٦٠).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٧٠.

(٣) صحيح البخاري (٣٨٥٩)، وصحيح مسلم (٤٥٠) (١٥٣).

(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٥.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٥، وعزاه للواقدي وأبي نعيم.

صاحب «الروض» بدل حسى ومسى: منشى وناشى[١].

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في هؤلاء النفر: كانوا تسعةَ نفر[٢] من أهل نَصيبين، فجعلهم رسولُ الله ﷺ رُسلًا إلى قومهم[٣].

والخبر السابق يدلُّ على أنه ﷺ كان حين حضر الجنَّ مع طائفة من أصحابه. وأخرج عبد بن حُميد وأحمد ومسلم والترمذي وأبو داود عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب النبيَّ ﷺ ليلةَ الجنّ منكم أحدٌ؟ قال: ما صَحِبه منَّا أحدٌ، ولكنَّا كنَّا مع رسول الله ﷺ ذاتَ ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: استُطِير، أو: اغتِيل، فبتنا بشرِّ ليلة باتَ بها قومٌ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حِراء فأخبرناه، فقال: «أتاني داعي الجنّ، فأتيتهم فقرأتُ عليهم القرآنَ» فانطلقَ بنا فأرانا آثارَهم وآثارَ نيرانهم[٤]. فهذا يدلُّ على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن معه أحدٌ من أصحابه ولم يَشْعُرْ به أحدٌ منهم.

وأخرج أحمد عن ابن مسعود أنه قال: قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ الجنّ، وأخذتُ إدواةً ولا أَحْسِبها إلا ماءً، حتى إذا كنَّا بأعلى مكة رأيتُ أَسودةً مجتمعة، قال: فخطَّ لي رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «قُمْ هاهنا حتى آتيك» ومضى رسولُ الله ﷺ، فرأيتُهم يتثوَّرون إليه، فَسَمَر معهم ليلًا طويلًا حتى جاءني مع الفجر، فقال لي: «هل معك من وضوء»؟ قلت: نعم، ففتحت الإداوة، فإذا هو نبيذ، فقلت: ما كنت أَحْسِبها إلا ماءً فإذا هو نبيذٌ، فقال رسول الله ﷺ: «تَمْرةٌ[٥] طيِّبةٌ وماءٌ طهور» فتوضَّأ منها، ثم قام يُصلِّي، فأدركه شخصان منهم فصفَّهما خلفه، ثم صلَّى بنا،

(١) الروض الأنف ٢/ ١٨٠، والتعريف والإعلام ص١٥٦-١٥٧، وينظر تفسير القرطبي ١٩/ ٢٢٤. هذا وقد اختلفت رسوم بعض أسمائهم في المصادر.

(٢) في الأصل و(م) والدر المنثور ٦/ ٤٤ (والكلام منه): تسعة عشر، والمثبت من المصادر.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٤، وتفسير الطبري ٢١/ ١٦٥، ومعجم الطبراني الكبير ١١/ ١١٦٦٠.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٤، ومسند أحمد (٤١٤٩)، وصحيح مسلم (٤٥٠)، وسنن الترمذي (٣٢٥٨)، وهو عند أبي داود (٨٥) مختصراً.

(٥) في الأصل و(م): ثمرة، والمثبت من المصادر.

فقلت: مَنْ هؤلاء يا رسولَ الله؟ قال: «جنُّ نَصِيبين»[١]. فهذا يدلُّ على خلافِ ما تقدَّم، والجمع بتعدُّد واقعة الجنّ، وقد أخرج الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه عن الحِبر أنه قال: صُرفت الجنُّ إلى رسول الله ﷺ مرَّتين[٢].

وذكر الخَفاجي أنه قد دلَّت الأحاديثُ على أنَّ وِفادة الجنِّ كانت ستَّ مرَّات[٣]. ويجمع بذلك اختلاف الروايات في عددهم وفي غير ذلك؛ فقد أخرج أبو نُعيم والواقدي عن كعب الأحبار قال: انصرف النفر التسعة من أهل نَصيبين من بطن نخلة وهم فلان وفلان وفلان والأردوانيان والأحقب جاؤوا قومَهم مُنذِرين فخرجوا بعدُ وافدين إلى رسول الله ﷺ وهم ثلاث مئة فانتهوا إلى الحَجُون، فجاء الأحقبُ فسلَّم على رسول الله ﷺ فقال: إنَّ قومَنا حضروا الحَجُون يلقونك، فواعدَه رسول الله ﷺ لساعة من الليل بالحجون[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال في الآية: هم اثنا عشر ألفاً من جزيرة الموصل[٥]. وفي «الكشاف» حكاية هذا العدد أيضاً، وأن السورة التي قرأها ﷺ عليهم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١][٦].

ونقل في «البحر» عن ابن عمر وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم أنه عليه الصلاة والسلام قرأ عليهم سورةَ الرحمن، فكان إذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ قالوا: لا بشيءٍ من آياتِ ربِّنا نُكَذِّب، ربَّنا لك الحمد[٧].

---

(١) مسند أحمد (٤٣٨١)، وفي إسناده: أبو زيد مولى عمرو بن حُريث المخزومي، وهو مجهول. وقال الإمام النووي في شرح مسلم ٤/ ١٦٩: حديث النبيذ ضعيف باتفاق المحدِّثين.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٤٤، والأوسط (٦).

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٥.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٥، ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢٦١)، وأخرجه أبو نعيم من طريق الواقدي، والواقدي متروك. وورد في الدر: والأردوايناں، وفي الدلائل: والأرديبان، بدل: والأردوانيان. والحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها. معجم البلدان ٢/ ٢٢٥.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٥، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٦.

(٦) الكشاف ٣/ ٥٢٧.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٦٧.

وأخرج أبو نُعيم في «الدلائل» والواقدي عن أبي جعفر[1] قال: قَدِمَ على رسولِ الله ﷺ الجنُّ في ربيع الأول سنةَ إحدى عَشْرة من النبوَّة. وفي معناه ما قيل: كانت القصةُ قبلَ الهجرة بثلاث سنين بناءً على ما صحَّ عن ابن عباس أنه ﷺ مكث بمكة يُوحَى إليه ثلاثَ عشرةَ سنة، وفي المسألة خلافٌ، والمشهور ما ذُكر.

وقيل: كان استماعُ الجنِّ في ابتداءِ الإيحاء.

﴿قَالُوا﴾ أي: عند رجوعهم إلى قومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ جليلَ الشأن ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ذكروه دون عيسى عليهما السلام لأنه متفقٌ عليه عند أهل الكتابين، ولأن الكتابَ المُنزل عليه أجلُّ الكتب قبلَ القرآن، وكان عيسى عليه السلام مأمورًا بالعمل بمعظم ما فيه أو بكلِّه. وقال عطاء: لأنهم كانوا على اليهودية، ويحتاجُ إلى نَقْل صحيح.

وعن ابن عباس أن الجنَّ لم تكن سمعَتْ بأمرِ عيسى عليه السلام، فلذا قالوا ذلك، وفيه بُعدٌ، فإن اشتهار أمرِ عيسى عليه السلام وانتشارَ أمرِ دينه أظهرُ من أن يخفى لاسيما على الجنّ. ومن هنا قال أبو حيان: إنَّ هذا لا يصحُّ عن ابن عباس[2].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة، أو جميع الكتب الإلهية السابقة ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ من العقائد الصحيحة ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ من الأحكام الفرعية أو ما يعمُّها وغيرها من العقائد على أنه من ذكر العامِّ بعد الخاصّ.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أرادوا به ما سمعوه من الكتاب ووصفوه بالدعوة إلى الله تعالى بعدما وصفوه بالهداية إلى الحقِّ والطريق المستقيم لِتلازمهما، وفي الجمع بينهما ترغيبٌ لهم في الإجابة أيّ ترغيب. وجوّز أن يكون أرادوا به الرسولَ ﷺ.

---

(١) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور ٦/ ٤٥ (وعنه نقل المصنف): عن أبي جعفر، وفي دلائل النبوة (٢٦٠): إسحاق بن عبد الله بن جعفر.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٨.

﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: بداعي الله تعالى، أو بالله عز وجل ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعض ذنوبكم، قيل: وهو ما كان خالص حقِّه عز وجل، فإنَّ حقوقَ العباد لا تُغفر بالإيمان. وتعقَّبه ابن المُنَيِّر[1] بأن الحربيَّ إذا نَهَبَ الأموالَ وسفكَ الدماء، ثم حَسُنَ إسلامُه جَبَّ إسلامُه إثمَ ما تقدَّم بلا إشكال، ثم قال: ويقال: إنه لم يَرِدْ وعدُ المغفرة للكافرين على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مُبعَّضة، وهذا منه، فإن لم يكن لاطّراده كذلك سرٌّ فما هو إلا أن مقام الكافرين قبضٌ لا بَسْطٌ، فلذلك لم يُبْسَطْ رجاؤه في مغفرة جملة الذنوب، وقد ورد في حقِّ المؤمنين كثيرًا. وردَّه صاحبُ «الإنصاف»[2] بأن مقامَ ترغيب الكافر في الإسلام بسطٌ لا قبض، وقد أمر الله تعالى أن يقول لفرعون قولًا ليِّنًا، وقد قال تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وهي غير مُبعَّضة، و«ما» للعموم لاسيما وقد وقعت في الشرط.

وقال بعض أَجِلَّة المحققين: إنَّ الحربيَّ وإن كان إذا أسلم لا تبقى عليه تَبِعةٌ أصلًا، لكنَّ الذميَّ إذا أسلم تبقى عليه حقوقُ الآدميين، والقوم ـ كما نُقل عن عطاء ـ كانوا يهودًا فتبقى عليهم تَبِعاتُهم فيما بينهم إذا أسلموا جميعًا من غير حرب، فلما كان الخطاب معهم جيء بما يدلُّ على التبعيض.

وقيل: جيء به لعدم علمِ الجن بعدُ بأن الإسلام يجبُّ إثمَ ما قبله مطلقًا. وفيه توقُّف.

وقد يقال: أرادوا بالبعض الذنوبَ السالفة، ولو لم يقولوا ذلك لتَوهَّمَ المخاطَبون أنهم إن أجابوا داعيَ الله تعالى وآمنوا به يغفر لهم ما تقدَّم من ذنوبهم وما تأخَّر.

وقيل: «من» زائدة، أي: يغفر لكم ذنوبَكم.

---

(١) الانتصاف بحاشية الكشاف ٣/ ٥٢٧.

(٢) لعله الإنصاف لعلم الدين عبد الكريم بن علي العراقي، المتوفى سنة (٧٠٤هـ)، وقد جعله حَكَماً بين الكشاف والانتصاف. كشف الظنون ٢/ ١٤٧٧.

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ مُعَدٌّ للكفرة، وهذا ونحوه يدلُّ على أن الجن مُكلَّفون، ولم ينصّ هاهنا على ثوابهم إذا أطاعوا، وعمومات الآياتِ تدلُّ على الثواب. وعن ابن عباس: لهم ثوابٌ وعليهم عقاب، يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها. ولعلَّ الاقتصار هنا على ما ذكر لما فيه من التذكير بالذنوب، والمقامُ مقامُ الإنذار، فلذا لم يذكر فيه شيء من الثواب، وقيل: لا ثوابَ لمطيعيهم إلا النجاة من النار، فيقال لهم: كونوا ترابًا، فيكونون تراباً، وهذا مذهبُ ليث بن أبي سُليم وجماعة، ونُسِبَ إلى الإمام أبي حنيفة ﷺ، وقال النسفي في «التيسير»[(١)]: توقَّف أبو حنيفة في ثواب الجنِّ في الجنة ونعيمهم لأنه لا استحقاقَ للعبد على الله تعالى، ولم يَقُلْ بطريق الوعد في حقِّهم إلا المغفرة والإجارة من العذاب، وأما نعيمُ الجنة فموقوفٌ على الدليل.

وقال عمر بن عبد العزيز: إنَّ مؤمني الجِنِّ حول الجنة في رَبَض وليسوا فيها.

وقيل: يدخلون الجنة ويُلْهَمون التسبيحَ والذِّكر، فيصيبون من لذَّة ذلك ما يُصيبه بنو آدم من لذائذهم. قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: والصحيحُ أنهم يدخلونها ويتنعَّمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما، وهذا مذهبُ الحسن البصري ومالك بن أنس والضحاك وابن أبي ليلى وغيرهم[(٢)].

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إيجاب للإجابة بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب، وتحقيقٌ لكونهم منذَرين، وإظهار داعي الله من غير اكتفاء بأحد الضميرين بأن يقال: يُجبه، أو: يُجب داعيه، للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير وتربية المَهابة وإدخال الروعة.

وتقييدُ الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة، أي: فليس بمعجز له تعالى بالهرب وإن هرب كلَّ مَهْرب من أقطارها، أو دخل في أعماقها.

---

(١) هو كتاب التيسير في التفسير، لنجم الدين عمر بن محمد الحنفي، المتوفى سنة (٥٣٧هـ). كشف الظنون ١/ ٥١٩.

(٢) شرح صحيح مسلم ٤/ ١٦٩.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ بيانٌ لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثرَ بيان استحالة نجاته بنفسه، وجَمَعَ الأولياء باعتبار معنى «مَن» فيكون من باب مُقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحادِ على الآحاد، ويؤيِّد ذلك ما رُوي عن ابن عامر أنه قرأ: «وليس لهم» بضمير الجمع[1]، فإنه لـ «مَنْ» باعتبار معناها، وكذا الجمع في قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بذلك الاعتبار، أي: أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ظاهر كونُه ضلالًا بحيث لا يَخفى على أحدٍ، حيث أعرضوا عن إجابة مَن هذا شأنُه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الهمزة للإنكار، والواو على أحد القولين عطفٌ على مقدَّر دخله الاستفهام يستدعيه المقام، والرؤية قلبيةٌ، أي: ألم يتفكَّروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يَتعَبْ بذلك أصلًا، مِنْ عَيِيَ كفَعِلَ، بكسر العين، ويجوز فيه الإدغام بمعنى تعب كأعيى، وقال الكسائي: أعييتُ من التعب، وعييتُ من انقطاع الحيلة والعجز والتحيّر في الأمر؛ وأنشدوا:

عَيُّوا بأمرِهِمُ كما ... عَيَّتْ ببيضتِها الحمامَهْ[2]

أي: لم يَعْجِزْ عن خَلْقِهِنَّ ولم يتحيَّر فيه، واختار بعضهم عدمَ الفرق.

وقرأ الحسن: «ولم يَعِيْ» بكسر العين وسكون الياء[3]، ووَجْهُه أنه في الماضي فتح عين الكلمة كما قالوا في بَقِيَ: بقَى بفتح القاف وألف بعدها، وهي لغةُ طيِّئ، ولمَّا بُني الماضي على فَعَل مفتوح العين بُني مضارعُه على يفعِل مكسورها، فجاء يَعْيِي، فلما دخل الجازم حذف الياء فبقي يَعِي بنقل حركة الياء إلى العين فسكِّنت الياء.

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/٦٨، وهي غير المشهورة عنه.

(٢) البيت لعبيد بن الأبرص كما في أدب الكاتب ص٦٧-٦٨، والصحاح (عيي)، وزهر الأكم ٢/١٩٠، وهو في ديوانه ص١٣٨، وروايته:

بَرِمَتْ بنو أسد كما ... بَرِمت ببيضتها الحمامه

ونسب لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٢٤٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/٢٦٩.

وقوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في حيِّز الرفع لأنه خبرُ «أنَّ» والباء زائدة فيه، وحَسَّنَ زيادتها كونُ ما قبلها في حيِّز النفي، وقد أجاز الزجَّاج[1]: ما ظننتُ أنَّ أحدًا بقائم، قياسًا على هذا. قال أبو حيان[2]: والصحيحُ قصرُ ذلك على السَّماع، فكأنه قيل هنا: أوليس اللهُ بقادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾ تقريرًا للقُدرة على وجه عامٍّ يكون كالبرهان على المقصود، ولذا قيل: إنَّ هذا مُشيرٌ إلى كبرى لصغرى سهلة الحصول، فكأنه قيل: إحياءُ الموتى شيء وكلّ شيء مقدورٌ له، فينتج أنَّ إحياءَ الموتى مقدورٌ له، ويلزمه أنه تعالى قادرٌ على أن يحيي الموتى.

وقرأ الجحدري وزيدُ بن عليٍّ وعمرو بن عُبيد وعيسى والأعرج بخلاف عنه ويعقوب: «يقدر»[3] بدل «بقادر» بصيغة المضارع الدالّ على الاستمرار، وهذه القراءة على ما قيل موافقةٌ أيضًا للرسم العثماني.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ظرفٌ عاملُه قولٌ مضمرٌ مقولُه قولُه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: ويقال: «يوم يعرض» إلخ، والظاهرُ أنَّ الجملة معترضة، وقيل: هي حال، والتقدير: وقد قيل، وفيه نظر، وقد مرَّ آنفًا الكلامُ في العرض بطوله، والإشارة إلى ما يُشاهدونه حين العرض مِن حيث هو مِنْ غير أن يخطرَ بالبال لفظٌ يدلُّ عليه فضلًا عن تذكيره وتأنيثه إذْ هو اللائق بتهويله وتفخيمه، وقيل: هي إلى العذاب بقرينة التصريح به بعدُ، وفيه تهكُّم بهم وتوبيخٌ لهم على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده وقولِهم: «وما نحن بمعذَّبين».

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ تصديقٌ بحقِّيَّته، وأكَّدوا بالقَسَم كأنهم يطمعون في الخَلاص بالاعتراف بحقِّيَّة ذلك كما في الدنيا وأنَّى لهم. وعن الحسن: إنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك لأنفسهم، يعترفون أنه العَدْل.

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٤٤٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٨.

(٣) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٥٥، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٦٨.

﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٤﴾ بسبب استمراركم على الكفر في الدنيا، ومعنى الأمر الإهانة بهم، فهو تهكُّم وتوبيخٌ، وإلا لكان تحصيلًا للحاصل.

وقيل: هو أمرٌ تكويني؛ والمراد إيجابُ عذاب غير ما هم فيه. وليس بذاك.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ واقعةٌ في جواب شرط مقدَّر، أي: إذا كان عاقبةُ أمرِ الكفرة ما ذكر فاصبِرْ على ما يُصيبك من جهتهم، أو: إذا كان الأمر على ما تحقَّقْتَه من قُدرته تعالى الباهرة «فاصبر». وجوز غيرُ واحد كونَها عاطفةً لهذه الجملة على ما تقدَّم، والسببيةُ فيها ظاهرةٌ. واقتصر في «البحر»(١) على كونها لعطف هذه الجملة على أخبار الكفار في الآخرة، وقال: المعنى بينهما مرتبطٌ، كأنه قيل: هذه حالهم فلا تستعجِلْ أنت واصبر ولا تَخَفْ إلا الله عز وجل.

والعزمُ يُطلق على الجِدِّ والاجتهاد في الشيء وعلى الصبر عليه. و«من» بيانية كما في «فاجتنبوا الرجس من الأوثان» [الحج: ٣٠] والجارُّ والمجرور في موضع الحال من «الرسل» فيكون «أولوا العزم» صفةَ جميعهم، وإليه ذهب ابن زيد والجُبَّائي وجماعة، أي: «فاصبر كما صبر» الرسلُ المُجِدُّون المجتهدون في تبليغ الوحي، الذين لا يصرفُهم عنه صارف ولا يعطفهم عنه عاطفٌ، والصابرون على أمر الله تعالى فيما عَهِدَه سبحانه إليهم أو قضاه وقدَّره عز وجل عليهم بواسطة أو بدونها. وعن عطاء الخراساني والحسين(٢) بن الفضل والكلبي ومقاتل وقتادة وأبي العالية وابن جريج - وإليه ذهب أكثرُ المفسِّرين - أن «مِنْ» للتبعيض، فـ «أولوا العزم» بعضُ الرسل عليهم السلام.

واختُلف في عِدتهم وتعيينهم على أقوال، فقال الحسين(٢) بن الفضل: ثمانيةَ عشرَ، وهم المذكورون في سورة «الأنعام»، لأنه سبحانه قال بعد ذكرهم: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٦٨.
(٢) في الأصل و(م): الحسن، وهو تحريف.

وقيل: تسعة: نوحٌ عليه السلام صبر على أذى قومه طويلًا، وإبراهيم عليه السلام صبرَ على الإلقاء في النار، والذبيح عليه السلام صبر على ما أُريد به من الذبح، ويعقوب عليه السلام صبر على فَقْد ولده، ويوسفُ عليه السلام صبر على البئر والسجن، وأيوب عليه السلام صبر على البلاء، وموسى عليه السلام قال له قومه: «إنا لمدركون» فقال: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وداود عليه السلام بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى عليه السلام لم يضع لَبِنة على لَبِنة، وقال: إنها ـ يعني الدنيا ـ مَعْبرةٌ، فاعبُروها ولا تعمُروها.

وقيل: سبعة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام.

وقيل: ستة، وهم الذين أُمروا بالقتال، هم نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس(١).

وعن مقاتل أنهم ستة، ولم يذكُر حديثَ الأمر بالقتال، وقال: هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب.

وأخرج ابن عساكر عن قتادة أنهم: نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى عليهم السلام(٢). وظاهره القولُ بأنهم خمسة، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن المنذر عنه أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى(٣). وظاهره القولُ بأنهم أربعة، وهذا أصحُّ الأقوال.

وقول الجلال السيوطي: إنَّ أصحَّها القولُ بأنهم خمسة؛ هؤلاء الأربعة ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين(٤). وأخرج ذلك ابنُ أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس(٥)، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله من أئمَّةِ أهل

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢١٩.
(٤) الإتقان ٢/ ١١٠١.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٥.

البيت ﷺ[1]، ونَظَمهم بعضُ الأَجِلَّة فقال:

أولو العزم نوحٌ والخليلُ المُمَجَّد ... وموسى وعيسى والحبيبُ محمد

مبنيٌّ[2] على أنهم كذلك بعد نزول الآية وتأسِّي نبيِّنا عليه الصلاة والسلام بمن أُمر بالتأسِّي به، ولم يُرِدْ أن أصحَّ الأقوالِ أن المرادَ بهم في الآية أولئك الخمسة صلى الله تعالى عليهم وسلم، إذ يلزم عليه أَمرُه عليه الصلاة والسلام أن يصبرَ كصبره نفسه، ولا يكاد يصحُّ ذلك، وعلى هذا قول أبي العالية فيما أخرجه عبدُ بن حُميد وأبو الشيخ والبيهقي في «شعب الإيمان» وابن عساكر عنه أنهم ثلاثةٌ: نوح وإبراهيم وهود ورسول الله ﷺ رابعٌ لهم[3]. ولعلَّ الأولى في الآية القولُ الأول وإنْ صار أولو العزم بعدُ مختصًّا بأولئك الخمسة عليهم الصلاة والسلام عند الإطلاق لاشتهارهم بذلك كما في الأعلام الغالبة، فكأنه قيل: فاصبِرْ على الدعوة إلى الحقِّ ومُكابدة الشدائد مُطلقًا، كما صبر إخوانك الرُّسل قبلَك.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: لكفَّار مكة بالعذاب، أي: لا تَدْعُ بتعجيله فإنه على شَرَفِ النزول بهم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ يسيرة ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ لِمَا يُشاهدون من شدَّة العذاب وطول مُدَّته.

وقرأ أُبيٌّ: «من النهار»[4].

وقوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا الذي وُعظتم به كفاية في الموعظة، أو تبليغ من الرسول، وجعل بعضهم الإشارة إلى القرآن أو ما ذكر من السورة، وأيّد تفسير «بلاغ» بتبليغ بقراءة أبي مجلز وأبي سراج الهُذَلي: «بَلِّغْ» بصيغة الأمر له ﷺ، وبقراءة أبي مِجْلز أيضًا في رواية: «بَلَّغ» بصيغة

---

(١) مجمع البيان ٢٦/ ٢٦.

(٢) قوله: مبني، هو خبر قوله: وقول الجلال السيوطي...، والبيت ذكره الشهاب في حاشيته ٨/ ٣٩.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٥، وشعب الإيمان (٩٧٠٦).

(٤) البحر المحيط ٨/ ٦٩.

الماضي من التفعيل[١]، واستظهر أبو حيان كونَ الإشارة إلى ما ذكر من المدة التي لبثوا فيها، كأنه قيل: تلك الساعة بلاغُهم كما قال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

وقال أبو مجلز: «بلاغ» مبتدأ خبره قوله تعالى: «لهم» السابق فيوقَف على «ولا تستعجل» ويبتدأ بقوله تعالى: «لهم» وتكون الجملة التشبيهية معترضة بين المبتدأ والخبر؛ والمعنى: لهم انتهاء وبلوغ إلى وقت فينزل بهم العذاب؛ وهو ضعيف جدًّا لِمَا فيه من الفصل ومخالفة الظاهر، إذ الظاهر تعلُّق «لهم» بـ «تستعجل».

وقرأ الحسن وزيد بن عليٍّ وعيسى: «بلاغًا» بالنصب[٢]، بتقدير: بَلِّغ بلاغًا، أو بلّغنا بلاغًا، أو نحو ذلك.

وقرأ الحسن أيضًا: «بلاغٍ» بالجرِّ[٣] على أنه نعت لـ «نهار».

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الخارجون عن الاتعاظ أو عن الطاعة، وفي الآية من الوعيد والإنذار ما فيها.

وقرأ ابن مُحيصن فيما حكى عنه ابن خالويه[٤]: «يَهلِكُ» بفتح الياء وكسر اللام، وعنه أيضًا: «يَهْلَكُ» بفتح الياء واللام، وماضيه: هَلِكَ، بكسر اللام، وهي لغة، وقال أبو الفتح: هي مرغوب عنها[٥].

وقرأ زيد بن ثابت: «نُهْلِكُ» بنون العظمة من الإهلاك «القومَ الفاسقين» بالنصب[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٩.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٩.
(٤) في القراءات الشاذة ص١٤٠، والقراءة أيضاً في المحتسب ٢/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٩.
(٥) المحتسب ٢/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٩.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٢٨، وتفسير أبي السعود ٨/ ٩٠.

وهذه الآية ـ أعني قوله تعالى: «كأنهم» إلى الآخر ـ جاء في بعض الآثار ما يُشعر بأن لها خاصيَّةً من بين آي هذه السورة، أخرج الطبراني في «الدعاء» عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا طلبتَ حاجةً وأَحببتَ أن تنجَح، فقل: لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له العليُّ العظيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحليم الكريم، بسم الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ الحليم، سبحان الله ربِّ العرش العظيم، الحمد لله ربِّ العالمين ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] اللهم إني أسألك مُوجبات رحمتك، وعزائمَ مَغْفرتك، والسلامةَ من كلِّ إثم، والغنيمةَ من كلِّ بِرّ، والفوزَ بالجنة والنجاةَ من النار، اللهم لا تَدَعْ لي ذنبًا إلا غَفَرْتَه، ولا همًّا إلا فرَّجته، ولا دينًا إلا قضيتَه، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتَها برحمتك يا أرحم الراحمين»[(١)].

---

(١) الدعاء (١٠٤٤).

(٤٧) سورة محمد مدنية
وآياتها ثمان وثلاثون

سورة محمد من السور المدنية ، التي تُعنى بجانب التشريع ، وتهتم بالأحكام التشريعية التي يقوم عليها نظام الإسلام ، في العبادات ، والآداب ، والأخلاق ، والمعاملات ، وسائر النواحي التشريعية .
سميت السورةُ الكريمة « سورة محمد » لأنَّ فيها تخليداً لذكر اسمه الشريف ﷺ ، وإعلاناً بأن هذا الرسول الذي ختم الله به الرسالات السماوية وختم به النبوة ، هو النبيُّ الصادق ، الهادي الأمين ، وأنه هو وأتباعه على المحجة البيضاء والصراط المستقيم ، وأنهم على نور وهداية من الله ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وآمنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحقُّ من ربهم ، كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ ولذلك سميت سورة محمد ﷺ ، ولهذه السورة اسم آخر ، اسمها « سورة القتال » وهو اسم حقيقي لها مناسب لموضوعاتها وأهدافها ، فالقتال لأعداء الله هو موضوعها الأساسي ، والقتال هو العنصر البارز فيها ، وهو المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة .

تبتدىء السورة الكريمة ببيان حقيقة الإيمان والكفر ، وتعريف الناس بصفات المؤمنين الأبرار ، وصفاتِ الكافرين الفجار ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيلِ اللهِ أضلَّ أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وآمنوا بما نُزِّل على محمدٍ وهو الحقُّ من ربهم كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ذلك بأن الذين كفروا اتبعُوا الباطل ، وأنَّ الذينَ آمنوا اتَّبعوا الحقَّ من

ربهم ، كذلكَ يضربُ اللهُ للناسِ أمثالَهم﴾ .

وتحدثت السورةُ عن الجهاد والقتال لإعلاء كلمة الله ، وتطهير الأرض من رجس المشركين ، واللهُ قادرٌ على الانتقام منهم دون أن يكلف المؤمنين بجهادهم وقتالهم ، ولكنه الابتلاء والاختبار ﴿ فإذا القيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوَثاقَ ، فإمَّا مناً بعدُ وإمَّا فداء حتى تضع الحربُ أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ، ولكنْ ليبلوَ بعضكم ببعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يُضلَّ أعمالهم ، سيهديهم ويُصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم﴾ .

وتحدثت السورة عن واجب المؤمنين في نصرة دين الله ، وردّ كيد الأعداء عنه ، وقد وعد الله المؤمنين بنصرهم على أعدائهم ، وتثبيت أقدامهم في المعركة ، إن هم نصروا دينه وأعزُّوا شرعه ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تَنْصُروا الله يَنْصُرْكُم ويُثبِّتْ أقدامَكُم . والذينَ كفروا فتَعْساً لهم وأَضَلَّ أعمالَهم﴾ .

وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين وبيان عاقبتهم الوخيمة ، وفيها إنذار وإعذار لأهل مكة حيث يرون الآيات فلا يعتبرون ، ويشاهدون مصارع من سبقهم من الأمم الباغية ، كيف دمَّر الله عليهم كل ما حولهم لَمّا تمادوا في الطغيان والعناد والتكذيب لرسل الله ﴿ أفلمْ يسيُروا في الأرضِ فينظرُوا كيف كانَ عاقبةُ الذينَ من قبلِهمْ ؟ دمَّر اللهُ عليهمِ وللكافرين أمثالُها . ذلكَ بأنَّ اللهَ مَوْلَى الذينَ آمنوا ، وأن الكافرين لا مَوْلَى لهم﴾ .

وتوازنُ السورةُ بين المؤمنين والكافرين ، في أهدافهم وأغراضهم ، وحالهم ومآلهم ، فالمؤمنون يعبدون الله ، وهدفُهم رضوانُ الله ، ليفوزوا بالجوار الكريم في جنات النعيم ، ولذلك أنالهم الله ما يبتغون ، والكافرون على النقيض يجرون وراء الأهواء والشهوات ، كالبهائم السارحة التي لا

تفقه معنى للحياة إلا أن تملأ بطونها وتنال شهواتها البهيمية ، ولذلك كان مآلهم في دركات الجحيم ، لأنهم لم يكرّموا أنفسهم بل أهانوها فاستحقوا الذلّ والهوان ﴿ إن اللهَ يُدخلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ ، والنار مثوىً لهم ﴾ .

وتأكيداً للبونِ الشاسع بين الفريقين : المؤمنين والكافرين ، تقارنُ السورةُ بين نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار ، وهو المصيرُ المحتَّم لكلٍ من الفريقين ، فتصف نعيم أهل الجنة بما لا مزيد عليه من التشويق إلى نيله مع التكريم ، وتوازن بينه وبين مصير أهل النار ﴿ مَثَلُ الجنةِ التي وُعِدَ المتقون ، فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طَعْمُه ، وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين ، وأنهارٌ من عسلٍ مصفّىً ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرةٌ من ربهم ، كمن هو خالدٌ في النار ، وسُقُوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم ﴾ ؟

ثم تنتقل السورة للحديث عن المنافقين ، وهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين ، وقد كانوا بالمدينة المنورة يعيشون مع المسلمين ، ويتظاهرون بالإسلام على كُرهٍ وهم يضمرون الحقد والبغضاء ، ويتربصون بالرسول وأصحابه الدوائر ، وعلى رأسهم « عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول » رأس النفاق ، وقد تكرر ذكرُ المنافقين ووصفُ دسائسهم ، والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم في السورة المدنية ، كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود ، وهذه السورة إحدى المواضع التي وردت فيها الإشارة إلى المنافقين وإلى اليهود ﴿ إنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيَّن لهم الهُدَى ، الشيطانُ سوَّل لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزَّل اللهُ سنطيعكم في بعض الأمر ، واللهُ يعلم إسرارهم ، فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم .

ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخطَ اللهَ وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ .
وتدعو السورة الكريمة المؤمنين إلى الجهاد في سبيل الله ، ومواصلة الجهاد بالنفس والمال ، وتصوِّر قيمة الحياة الفانية ، وما أعدَّ الله للمؤمنين الأبرار في دار القرار ﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون ، واللهُ معكم ولن يتِرَكم أعمالكم . إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ وتختم السورة الكريمة بالدعوة إلى البذل والتضحية لإعلاء كلمة الله ، وتعقب على ذلك بالإنذار والوعيد لمن يبخلُ عن بذل ماله شحاً وبخلاً ﴿ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله ، فمنكم من يبخلُ ، ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه ، واللهُ الغني وأنتم الفقراء ، وإن تتولَّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ .

سورة محمد

[٨٢٩] ك.. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾(١) قال هم أهل مكة نزلت فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(٢) قال هم الأنصار.

[٨٣٠] وأخرج عن قتادة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٣) قال ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحد ورسول الله [ﷺ] في الشعب وقد نشبت فيهم الجراحات والقتل وقد نادى المشركون يومئذ أعل هبل ونادى المسلمون الله أعلى وأجل فقال المشركون إن لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله [ﷺ]: «**قولوا الله مولانا ولا مولى لكم**».

[٨٣١] وأخرج أبو يعلى(٤) عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله [ﷺ] تلقاء الغار نظر إلى مكة فقال: «**أنت أحب بلاد الله إليّ ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج عنك**» فأنزل الله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾(٥) الآية.

[٨٣٢] وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي [ﷺ] فيسمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ويسمعه المنافقون فلا يعونه فإذا خرجوا سألوا المؤمنين ماذا قال آنفاً فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾(٦) الآية.

[٨٣٣] وأخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله [ﷺ] يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا

---

[٨٢٩] (١) سورة محمد ﷺ: الآية (١).
(٢) سورة محمد ﷺ: الآية (٢).
[٨٣٠] (٣) سورة محمد ﷺ: الآية (٤).
[٨٣١] (٤) ورواه ابن جرير (٢٦/ ٣١).
(٥) سورة محمد ﷺ: الآية (١٣).
[٨٣٢] (٦) سورة محمد ﷺ: الآية (١٦).

الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزل: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾(١) فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

* * *

[٨٣٣] (١) سورة محمد ﷺ: الآية (٣٣).

سورة محمد

ثلاثون وثمان آيات مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ①﴾

أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة، فإن آخرها قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فإن قال قائل: كيف يُهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك؟ مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك، وسنبين كيف إبطال الأعمال مع تحقيق القول فيه، وتعالى الله عن الظلم.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: من المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر، منهم أبو جهل والحارث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم. الثاني: كفار قريش. الثالث: أهل الكتاب. الرابع: هو عام يدخل فيه كل كافر.

المسألة الثانية: في الصد وجهان: أحدهما: صدوا أنفسهم، معناه أنهم صدوا أنفسهم عن السبيل ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل. وثانيهما: صدوا غيرهم ومنعوهم كما قال تعالى عن المستضعفين: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] وعلى هذا بحث: وهو أن إضلال الأعمال مرتب على الكفر والصد، والمستضعفون لم يصدوا فلا يضل أعمالهم، فنقول: التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ما عداه، ولا سيما إذا كان المذكور أَوْلى بالذكر من غيره، وهاهنا الكافر الصاد أدخل في الفساد فصار هو أَوْلى بالذكر. أو نقول: كل من كفر صار صادًّا لغيره، أما المستكبر فظاهر، وأما المستضعف فلأنه بمتابعته أثبت للمستكبر ما يمنعه من اتباع الرسول، فإنه بعد ما يكون متبوعًا يشق عليه بأن يصير تابعًا، ولأن كل من كفر صار صادًّا لمن بعده لأن عادة الكفار اتباع المتقدم، كما قال عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] أو مقتدون، فإن قيل: فعلى هذا كل كافر صاد فما الفائدة في ذكر الصد بعد الكفر؟ نقول: هو من باب ذكر السبب وعطف المسبب عليه، تقول: أكلت كثيرًا وشبعت، والكفر على هذا سبب الصد، ثم إذا قلنا بأن المراد منه أنهم صدوا أنفسهم ففيه

إشارة إلى أن ما في الأنفس من الفطرة كان داعيًا إلى الإيمان، والامتناع لمانع وهو الصد لنفسه.

المسألة الثالثة: في المصدود عنه وجوه: الأول: عن الإنفاق على محمد عليه السلام وأصحابه. الثاني: عن الجهاد. الثالث: عن الإيمان. الرابع: عن كل ما فيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عليه السلام، وذلك لأن النبي ﷺ على الصراط المستقيم هادٍ إليه، وهو صراط الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] فمن منع من اتباع محمد عليه السلام فقد صد عن سبيل الله.

المسألة الرابعة: في الإضلال وجوه: الأول: المراد منه الإبطال، ووجهه هو أن المراد أنه أضله بحيث لا يجده، فالطالب إنما يطلبه في الوجود، وما لا يوجد في الوجود فهو معدوم. فإن قيل: كيف يبطل الله حسنة أوجدها؟ نقول: إن الإبطال على وجوه: أحدها: يوازن بسيئاتهم الحسنات التي صدرت منهم ويسقطها بالموازنة ويبقي لهم سيئات محضة؛ لأن الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات، والإيمان يترجح على غير الكفر من السيئات. وثانيها: أبطلها لفقد شرط ثبوتها وإثباتها وهو الإيمان لأنه شرط قبول العمل، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٞ﴾ [غافر: ٤٠] وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود؛ لأن العمل لا بقاء له في نفسه بل هو يعدم عقيب ما يوجد في الحقيقة، غير أن الله تعالى يكتب عنده بفضله أن فلانًا عمل صالحًا وعندي جزاؤه فيبقى حكمًا، وهذا البقاء حكمًا خير من البقاء الذي للأجسام التي هي محل الأعمال حقيقة، فإن الأجسام وإن بقيت غير أن مآلها إلى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند الله أبدًا، وإذا ثبت هذا تبين أن الله بالقبول متفضل، وقد أخبر أني لا أقبل إلا من مؤمن. فمن عمل وتعب من غير سبق الإيمان فهو المضيع تعبه لا الله تعالى. وثالثها: لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى، فلم يأت بخير، فلا يَرد علينا قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] وبيانه هو أن العمل لا يتميز إلا بمن له العمل لا بالعامل ولا بنفس العمل، وذلك لأن من قام ليقتل شخصًا ولم يتفق قتله، ثم قام ليكرمه ولم يتفق الإكرام ولا القتل، وأخبر عن نفسه أنه قام في اليوم الفلاني لقتله وفي اليوم الآخر لإكرامه، يتميز القيامان لا بالنظر إلى القيام فإنه واحد ولا بالنظر إلى القائم فإنه حقيقة واحدة، وإنما يتميز بما كان لأجله القيام، وكذلك من قام وقصد بقيامه إكرام الملك وقام وقصد بقيامه إكرام بعض العوام، يتميز أحدهما عن الآخر بمنزلة العمل لكن نسبة الله الكريم إلى الأصنام فوق نسبة الملوك إلى العوام، فالعمل للأصنام ليس بخير، ثم إن اتفق أن يقصد واحد بعمله وجه الله تعالى ومع ذلك يعبد الأوثان - لا يكون عمله خيرًا؛ لأن مثل ما أتى به لوجه الله أتى به للصنم المنحوت فلا تعظيم. الوجه الثاني: الإضلال هو جعله مستهلكًا، وحقيقته هو أنه إذا كفر وأتى للأحجار والأخشاب بالركوع والسجود فلم يبق لنفسه حرمة وفِعله لا يبقى معتبرًا بسبب كفره، وهذا كمن يخدم عند الحارس والسايس إذا قام فالسلطان لا يعمل قيامه تعظيمًا لخسته، كذلك الكافر، وأما المؤمن فبقدر ما

يتكبر على غير الله يظهر تعظيمه لله، كالملك الذي لا ينقاد لأحد إذا انقاد في وقت لملك من الملوك يتبين به عظمته. الوجه الثالث: (أضله) أي أهمله وتركه، كما يقال: أضل بعيره، إذا تركه مسيبًا فضاع. ثم إن الله تعالى لما بيّن حال الكفار بيّن حال المؤمنين فقال:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا مرارًا أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٥٠] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ [العنكبوت: ٧]وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح واستوفينا البحث فيه في سورة العنكبوت، فنقول ههنا جزاء ذلك قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على الإيمان، وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: تكفير السيئات مرتب على الإيمان والعمل الصالح، فمن آمن ولم يفعل الصالحات يبقى في العذاب خالدًا. فنقول: لو كان كما ذكرتم لكان الإضلال مرتبًا على الكفر والضد، فمن يكفر لا ينبغي أن تضل أعماله، أو نقول: قد ذكرنا أن الله رتب أمرين على أمرين، فمن آمن كفر سيئاته ومن عمل صالحًا أصلح باله، أو نقول: أي مؤمن يتصور أنه غير آتٍ بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا إطعام، وعلى هذا فقوله: ﴿وَعَمِلُواْ﴾ عطف المسبب على السبب، كما قلنا في قول القائل: أكلت كثيرًا وشبعت.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ مع أن قوله (آمنوا وعملوا الصالحات) أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه؟ فنقول: أما وجهه فبيانه من وجوه: الأول: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي بالله ورسوله واليوم الآخر، وقوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ﴾ أي بجميع الأشياء الواردة في كلام الله ورسوله، تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن، تقول: خلق الله السموات والأرض وكل شيء، إما على معنى وكل شيء غير ما ذكرنا وإما على العموم بعد ذكر الخصوص. الثاني: أن يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد، وهو الحق المعجز الفارق بين الكاذب والصادق، يعني آمنوا أولاً بالمعجز وأيقنوا بأن القرآن لا يأتي به غير الله، فآمنوا وعملوا الصالحات، والواو للجمع المطلق، ويجوز أن يكون المتأخر ذكرًا متقدمًا وقوعًا، وهذا كقول القائل آمن به، وكان الإيمان به واجبًا، أو يكون بيانًا لإيمانهم كأنهم ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي آمنوا وآمنوا بالحق، كما يقول القائل: خرجت وخرجت مصيبًا، أي وكان خروجي جيدًا حيث نجوت من كذا وربحت كذا. فكذلك لما قال: (آمنوا) بيّن أن إيمانهم

كان بما أمر الله وأنزل الله لا بما كان باطلاً من عند غير الله. الثالث: ما قاله أهل المعرفة، وهو أن العلم العمل والعمل العلم، فالعلم يحصل ليعمل به لما جاء: إذا عمل العالم العمل الصالح علم ما لم يكن يعلم، فيعلم الإنسان مثلاً قدرة الله بالدليل وعلمه وأمره، فيحمله الأمر على الفعل ويحثه عليه علمه فعلمه بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه، فإذا أتى بالعمل الصالح علم من أنواع مقدورات الله ومعلومات الله تعالى ما لم يعلمه أحد إلا بإطلاع الله عليه وبكشفه ذلك له فيؤمن، وهذا هو المعنى في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]فإذا آمن المكلف بمحمد بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحًا، حَمَله علمه على أن يؤمن بكل ما قاله محمد ولم يجد في نفسه شكًا، وللمؤمن في المرتبة الأولى أحوال وفي المرتبة الأخيرة أحوال، أما في الإيمان بالله ففي الأول يجعل الله معبودًا، وقد يقصد غيره في حوائجه فيطلب الرزق من زيد وعمر ويجعل أمرًا سببًا لأمر، وفي الأخيرة يجعل الله مقصودًا ولا يقصد غيره، ولا يرى إلا منه سره وجهره، فلا ينيب إلى شيء في شيء، فهذا هو الإيمان الآخر بالله وذلك الإيمان الأول.

وأما ما في النبي ﷺفيقول أولاً: هو صادق فيما ينطق، ويقول آخرًا: لا نطق له إلا بالله، ولا كلام يُسمع منه إلا وهو من الله. فهو في الأول يقول بالصدق ووقوعه منه، وفي الثاني يقول بعدم إمكان الكذب منه لأن حاكي كلام الغير لا ينسب إليه الكذب ولا يمكن إلا في نفس الحكاية، وقد علم هو أنه حاكٍ عنه كما قاله، وأما في المرتبة الأولى فيجعل الحشر مستقبلاً والحياة العاجلة حالاً، وفي المرتبة الأخيرة يجعل الحشر حالاً والحياة الدنيا ماضيًا، فيقسم حياة نفسه في كل لحظة، ويجعل الدنيا كلها عدمًا لا يلتفت إليها ولا يُقبل عليها.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هو في مقابلة قوله في حق الكافر: ﴿وَصَدُّواْ﴾ [محمد: ١]لأنا بينا في وجه أن المراد بهم صدوا عن اتباع محمد ﷺ، وهذا حث على اتباع محمد ﷺ فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله، وهو محمد عليه السلام وما أُنزل عليه، وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله، لا جرم حصل لهؤلاء ضد ما حصل لأولئك، فأضل الله حسنات أولئك وستر على سيئات هؤلاء.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هل يمكن أن يكون من ربهم وصفًا فارقًا، كما يقال: رأيت رجلاً من بغداد، فيصير وصفًا للرجل فارقًا بينه وبين من يكون من الموصل وغيره؟ نقول: لا؛ لأن كل ما كان من الله فهو الحق، فليس هذا هو الحق من ربهم، بل قوله: ﴿ مِن رَّبِّهِمْ﴾ خبر بعد خبر، كأنه قال: وهو الحق وهو من ربهم، أو إن كان وصفًا فارقًا فهو على معنى أنه الحق النازل من ربهم لأن الحق قد يكون مشاهدًا، فإن كون الشمس مضيئة حق وهو ليس نازل من الرب، بل هو علم حاصل بطريق يَسَّره الله تعالى لنا.

ثم قال تعالى: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي سترها، وفيه إشارة إلى بشارة ما كانت تحصل

بقوله أعدمها ومحاها، لأن محو الشيء لا ينبئ عن إثبات أمر آخر مكانه، وأما الستر فينبئ عنه، وذلك لأن من يريد ستر ثوب بالٍ أو وسخ لا يستره بمثله، وإنما يستره بثوب نفيس نظيف، ولا سيما الملك الجواد إذا ستر على عبد من عبيده ثوبه البالي أمَر بإحضار ثوب من الجنس العالي لا يحصل إلا بالثمن الغالي، فليس هذا هو الستر بينه وبين المحبوبين، وكذلك المغفرة، فإن المغفرة والتكفير من باب واحد في المعنى، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا من أنه يبدلها حسنة، فإن قيل: كيف تبدل السيئة حسنة؟ نقول: معناه أنه يجزيه بعد سيئاته ما يجزي المحسن على إحسانه، فإن قال: الإشكال باقٍ وبادٍ، وما زال بل زاد، فإن الله تعالى لو أثاب على السيئة كما يثيب عن الحسنة، لكان ذلك حثًّا على السيئة. نقول: ما قلنا: إنه يثيب على السيئة وإنما قلنا: إنه يثيب بعد السيئة بما يثيب على الحسنة، وذلك حيث يأتي المؤمن بسيئة، ثم يتنبه ويندم ويقف بين يدي ربه معترفًا بذنبه مستحقرًا لنفسه، فيصير أقرب إلى الرحمة من الذي لم يذنب ودخل على ربه مفتخرًا في نفسه، فصار الذنب شرطًا للندم، والثواب ليس على السيئة، وإنما هو على الندم، وكأن الله تعالى قال: عبدي أذنب ورجع إليّ، ففعله شيء لكن ظنه بي حسن حيث لم يجد ملجأ غيري فاتكل على فضلي. والظن عمل القلب، والفعل عمل البدن، واعتبار عمل القلب أَوْلى، ألا ترى أن النائم والمغمى عليه لا يُلتفت إلى عمل بدنه، والمفلوج الذي لا حركة له يعتبر قصد قلبه، ومثال الروح والبدن راكب دابة يركض فرسه بين يدي ملك يدفع عنه العدو بسيفه وسنانه، والفرس يلطخ ثوب الملك بركضه في استنانه، فهل يلتفت إلى فعل الدابة مع فعل الفارس، بل لو كان الراكب فارغًا الفرس يؤذي بالتلويث يخاطب الفارس به، فكذلك الروح راكب والبدن مركوب، فإن كانت الروح مشغولة بعبادة الله وذكره، ويصدر من البدن شيء لا يُلتفت إليه، بل يستحسن منه ذلك ويزاد في تربية الفرس الراكض ويهجر الفرس الواقف، وإن كان غير مشغول فهو مؤاخذ بأفعال البدن.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الباطل وجوه: الأول: ما لا يجوز وجوده، وذلك لأنهم اتبعوا إلهًا غير الله، وإله غير الله محال الوجود، وهو الباطل وغاية الباطل؛ لأن الباطل هو المعدوم، يقال: بطل كذا، أي عدم، والمعدوم الذي لا يجوز وجوده ولا يمكن أن يوجد، ولا يجوز أن يصير حقًّا موجودًا، فهو في غاية البطلان، فعلى هذا فالحق هو الذي لا يمكن عدمه وهو الله تعالى، وذلك لأن الحق هو الموجود، يقال: تحقق الأمر، أي وُجد وثبت، والموجود الذي لا

يجوز عدمه هو في غاية الثبوت. الثاني: الباطل الشيطان، بدليل قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] فبيّن أن الشيطان متبوع وأتباعه هم الكفار والفجار، وعلى هذا فالحق هو الله؛ لأنه تعالى جعل في مقابلة حزب الشيطان حزب الله. الثالث: الباطل هو قول كبرائهم ودين آبائهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] ومقتدون، فعلى هذا الحق ما قاله النبي عليه السلام عن الله. الرابع: الباطل كل ما سوى الله تعالى؛ لأن الباطل والهالك بمعنى واحد و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وعلى هذا فالحق هو الله تعالى أيضًا.

المسألة الثانية: لو قال قائل: (من ربهم) لا يلائم إلا وجهًا واحدًا من أربعة أوجه، وهو قولنا المراد من الحق هو ما أنزل الله وما قال النبي عليه السلام من الله، فأما على قولنا: الحق هو الله فكيف يصح قوله: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ نقول على هذا ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ لا يكون متعلقًا بالحق، وإنما يكون تعلقه بقوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعُوا۟﴾ أي اتبعوا أمر ربهم، أي من فضل الله أو هداية ربهم اتبعوا الحق، وهو الله سبحانه.

المسألة الثالثة: إذا كان الباطل هو المعدوم الذي لا يجوز وجوده، فكيف يمكن اتباعه؟ نقول: لما كانوا يقولون إنما يفعلون للأصنام وهي آلهة وهي تؤجرهم بذلك، كانوا متبعين في زعمهم، ولا مُتَّبع هناك.

المسألة الرابعة: قال في حق المؤمنين: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وقال في حق الكفار: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾ من آلهتهم أو الشيطان، نقول: أما آلهتهم فلأنهم لا كلام لهم ولا عقل، وحين ينطقهم الله ينكرون فعلهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] والله تعالى رضي بفعلهم وثبتهم عليه، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ عائد إلى الأمرين جميعًا، أي من ربهم اتبع هؤلاء الباطل، وهؤلاء الحق، أي من حكم ربهم، ومن عند ربهم.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ وفيه أيضًا مسائل:

المسألة الأولى: أيُّ مثل ضربه الله تعالى حتى يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: إضلال أعمال الكفار وتكفير سيئات الأبرار. الثاني: كون الكافر متبعًا للباطل، وكون المؤمن متبعًا للحق، ويحتمل وجهين آخرين: أحدهما: على قولنا: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق، نقول: هذا مثل يُضرب عليه جميع الأمثال، فإن الكل من عند الله، الإضلال وغيره والاتباع وغيره. وثانيهما: هو أن الله تعالى لما بيّن أن الكافر يُضل الله عمله والمؤمن يُكفر الله سيئاته، وكان بين الكفر والإيمان مباينة ظاهرة فإنهما ضدان، نبه على أن السبب كذا، أي ليس الإضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل، وإذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة

وأحدهما يورث إبطال الأعمال والآخر يورث تكفير السيئات بسبب أن أحدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل، فإن من يؤمن ظاهرًا وقلبه مملوء من الكفر، ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الإيمان - اتحد فعلاهما في الظاهر، وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل، لا بدع من ذلك فإن من يؤمن ظاهرًا وهو يسر الكفر، ومن يكفر ظاهرًا بالإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان اختلف الفعلان في الظاهر، وإبطال الأعمال لمن أظهر الإيمان بسبب أن اتباع الباطل من جانبه، فكأنه تعالى قال: الكفر والإيمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه، وهو اتباع الحق والباطل، فكذلك اعلموا أن كل شيء اتبع فيه الحق كان مقبولاً مثابًا عليه، وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردودًا معاقبًا عليه، فصار هذا عامًّا في الأمثال، على أنا نقول: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لا يستدعي أن يكون هناك مثل مضروب، بل معناه أنه تعالى لما بيّن حال الكافر وإضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيئاته وبيّن السبب فيهما، كان ذلك غاية الإيضاح فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا البيان ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ ويبين لهم أحوالهم.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿أَمْثَٰلَهُمْ﴾ عائد إلى من؟ فيه وجهان: أحدهما: إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ على أنفسهم. وثانيهما: إلى الفريقين السابقين في الذكر، معناه: يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ يستدعي متعلقًا يتعلق به ويترتب عليه، فما وجه التعلق بما قبله؟ نقول: هو من وجوه: الأول: لما بيّن أن الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الإنسان بالعمل، ومن لم يكن له عمل فهو همج، فإن صار مع ذلك يؤذي حسن إعدامه ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أعمالهم، فاضربوا أعناقهم. الثاني: إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين، وأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان، والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن، حق القتال عند التحزب، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم. الثالث: أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره: (إيلام الحيوان من الظلم والطغيان، ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان)، فيقال ردًّا عليهم: لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل، فمن يقتل في سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الأجر ما للمصلي والصائم، فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فإن ذلك اتباع للحق، والاعتبار به لا بصورة الفعل.

المسألة الثانية: ﴿فَضَرْبَ﴾ منصوب على المصدر، أي فاضربوا ضرب الرقاب.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الأعضاء؟ نقول فيه: لما بيّن أن المؤمن ليس يدافع إنما هو دافع، وذلك أن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولاً مقتله بل يتدرج ويضرب على غير المقتل، فإن اندفع فذاك ولا يترقى إلى درجة الإهلاك، فقال تعالى: ليس المقصود إلا دفعهم عن وجه الأرض، وتطهير الأرض منهم، وكيف لا والأرض لكم مسجد، والمشركون نجس، والمسجد يطهر من النجاسة، فإذًا ينبغي أن يكون قصدكم أولاً إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل، والرقبة أظهر المَقاتل لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن في الحرب لا يتهيأ ذلك، والرقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت، بخلاف سائر المواضع، ولا سيما في الحرب، وفي قوله ﴿لَقِيتُمُ﴾ ما ينبئ عن مخالفتهم الصائل لأن قوله: ﴿لَقِيتُمُ﴾ يدل على أن القصد من جانبهم، بخلاف قولنا لقيكم؛ ولذلك قال في غير هذا الموضع: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

المسألة الرابعة: قال هاهنا: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ بإظهار المصدر وتَرْك الفعل، وقال في الأنفال: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] بإظهار الفعل وتَرْك المصدر، فهل فيه فائدة؟ نقول: نعم ولنبينها بتقديم مقدمة، وهي أن المقصود أولاً في بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر ضمنًا، إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا ويقع منه المصدر في الوجود، وقد يكون المقصود أولاً المصدر ولكنه لا يوجد إلا من فاعل فيطلب منه أن يفعل، مثاله من قال: إني حلفت أن أخرج من المدينة. فيقال له: فاخرج، صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج في نفسه غير مقصود الانتفاء، ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه إلا أن يخرج، لكن من ضرورات الخروج أن يخرج، فإذا قال قائل: ضاق بي المكان بسبب الأعداء. فيقال له مثلاً (الخروجَ) يعني الخروج فاخرج، فإن الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل، إذا عرفت هذا فنقول: في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها والملائكة أُنزلوا لنصرة من حضر في صف القتال فصدور الفعل منه مطلوب، وههنا الأمر وارد وليس في وقت القتال بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ والمقصود بيان كون المصدر مطلوبًا لتقدم المأمور على الفعل قال: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ وفيما ذكرنا تبيين فائدة أخرى وهي أن الله تعالى قال هناك: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] وذلك لأن الوقت وقت القتال فأرشدهم إلى المقتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل، وههنا ليس وقت القتال فبيّن أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك.

المسألة الخامسة: ﴿حَتَّىٰ﴾ لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل، أي حتى إذا اثخنتموهم لا يبقى الأمر بالقتل، ويبقى الجواز، ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل، والقتل جائز إذا التحق المثخن بالشيخ الهرم، والمراد كما إذا قطعت يداه ورجلاه فنهى عن قتله.

ثم قال تعالى: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أمر إرشاد.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (إِمَّا) وإنما للحصر، وحالهم بعد الأسر غير منحصر في الأمرين، بل يجوز القتل والاسترقاق والمن والفداء، نقول: هذا إرشاد فذكر الأمر العام الجائز في سائر الأجناس، والاسترقاق غير جائز في أسر العرب، فإن النبي ﷺ كان معهم فلم يذكر الاسترقاق، وأما القتل فلأن الظاهر في المثخن الإزمان، ولأن القتل ذكره بقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ فلم يبق إلا الأمران.

المسألة الثانية: منًّا وفداءً منصوبان لكونهما مصدرين، تقديره: فإما تمنون منًّا وإما تفدون فداءً، وتقديم المن على الفداء إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال، والفداء يجوز أن يكون مالاً وأن يكون غيره من الأسرى أو شرطًا يشرط عليهم أو عليه وحده.

المسألة الثالثة: إذا قدرنا الفعل وهو تمنون أو تفدون على تقدير المفعول، حتى نقول إما تمنون عليهم منًّا أو تفدونهم فداء. نقول: لا لأن المقصود المن والفداء لا عليهم وبهم كما يقول القائل: فلان يعطي ويمنع ولا يقال يعطي زيدًا ويمنع عمرًا؛ لأن غرضه ذكر كونه فاعلاً لا بيان المفعول، وكذلك ههنا المقصود إرشاد المؤمنين إلى الفضل.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾.

وفي تعلق ﴿حَتَّىٰ﴾ وجهان: أحدهما: تعلقها بالقتل أي اقتلوهم حتى تضع. وثانيهما: بالمن والفداء، ويحتمل أن يقال متعلقة بشدوا الوثاق، وتعلقها بالقتل أظهر وإن كان ذكره أبعد، وفي الأوزار وجهان أحدهما: السلاح. والثاني: الآثام.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إن كان المراد الإثم، فكيف تضع الحرب الإثم، والإثم على المحارب؟ وكذلك السؤال في السلاح لكنه على الأول أشد توجهًا، فيقول: تضع الحرب الأوزار لا من نفسها، بل تضع الأوزار التي على المحاربين والسلاح الذي عليهم.

المسألة الثانية: هل هذا كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] حتى يكون كأنه قال: حتى تضع أمة الحرب أو فرقة الحرب أوزارها؟ نقول: ذلك محتمل في النظر الأول، لكن إذا أمعنت في المعنى تجد بينهما فرقًا، وذلك لأن المقصود من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الحرب بالكلية بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفر يحارب حزبًا من أحزاب الإسلام، ولو قلنا: حتى تضع أمة الحرب، جاز أن يضعوا الأسلحة ويتركوا الحرب وهي باقية بمادتها، كما تقول: خصومتي ما انفصلت ولكني تركتها في هذه الأيام، وإذا أسندنا الوضع إلى الحرب يكون معناه إن الحرب لم يبق.

المسألة الثالثة: لو قال: حتى لا يبقى حزب أو ينفر من الحرب هل يحصل معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾؟ نقول: لا والتفاوت بين العبارتين مع قطع النظر عن النظم، بل النظر إلى نفس المعنى كالتفاوت بين قولك: انقرضت دولة بني أُمية، وقولك: لم يبق من دولتهم أثر، ولا شك

أن الثاني أبلغ، فكذلك هاهنا قوله تعالى: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ معناه آثارها فإن من أوزار الحرب آثارها.

المسألة الرابعة: وقت وضع أوزار الحرب متى هو؟ نقول: فيه أقوال حاصلها راجع إلى أن ذلك الوقت هو الوقت الذي لا يبقى فيه حزب من أحزاب الإسلام وحزب من أحزاب الكفر. وقيل: ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى عليه السلام.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

في معنى ذلك وجهان: أحدهما: الأمر ذلك، والمبتدأ محذوف، ويحتمل أن يقال: ذلك واجب أو مقدم، كما يقول القائل: إن فعلت فذاك، أي فذاك مقصود ومطلوب. ثم بيّن أن قتالهم ليس طريقًا متعينًا بل الله لو أراد أهلكهم من غير جند.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

أي ولكن ليكلفكم فيحصل لكم شرف باختياره إياكم لهذا الأمر. فإن قيل: ما التحقيق في قولنا: التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السر وأخفى، وماذا يفهم من قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾؟ نقول: فيه وجوه: الأول: أن المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين، أي كما يفعل المبتلي المختبر، ومنها أن الله تعالى يبلو ليظهر الأمر لغيره إما للملائكة وإما للناس، والتحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر إليه قصدًا إلى ظهوره، وقولنا فعل يظهر بسببه أمر ظاهر الدخول في مفهوم الابتداء؛ لأن ما لا يظهر بسببه شيء أصلًا لا يسمى ابتلاء، أما قولنا أمر غير متعين عند العقلاء، وذلك لأن من يضرب بسيفه على القثاء والخيار لا يقال: إنه يمتحن؛ لأن الأمر الذي يظهر منه متعين وهو القطع والقد بقسمين، فإذا ضرب بسيفه سبعًا يقال: يمتحن بسيفه ليدفع عن نفسه وقد يقده وقد لا يقده، وأما قولنا: ليظهر منه ذلك فلأن من يضرب سبعًا بسيفه ليدفعه عن نفسه لا يقال إنه ممتحن لأن ضربه ليس لظهور أمر متعين.

إذا علم هذا فنقول: الله تعالى إذا أمرنا بفعل يظهر بسببه أمر غير متعين، وهو إما الطاعة أو المعصية في العقول ليظهر ذلك يكون ممتحنًا، وإن كان عالمًا به لكون عدم العلم مقارنًا فينا لابتلائنا فإذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمر أمرنا وليس من ضرورات الابتلاء، فإن قيل: الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلي، فإذا كان الله تعالى عالمًا فأية فائدة فيه؟ نقول: ليس هذا سؤال يختص بالابتلاء، فإن قول القائل: لمَ ابتلى؟ كقول القائل: لمَ عاقب الكافر وهو مستغنٍ؟ ولمَ خلق النار محرقة وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر؟ وجوابه: لا يُسأل عما يفعل، ونقول حينئذٍ ما قاله المتقدمون إنه لظهور الأمر المتعين لإله، وبعد هذا فنقول: المبتلي لا حاجة له إلى الأمر الذي يظهر من الابتلاء، فإن الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له إلى قطع ما يجرب السيف فيه حتى أنه لو كان محتاجًا، كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال إنه يمتحن وقوله: ﴿لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم

بِبَعْضٍ﴾ إشارة إلى عدم الحاجة تقريرًا لقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

قرئ (قَتَلُوا وَقَاتَلُوا) والكل مناسب لما تقدم، أما من قرأ قتلوا فلأنه لما قال: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ ومعناه فاقتلوهم بين ما للقاتل بقوله: (والذين قَتَلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) ردًّا على من زعم أن القتل فساد محرم إذ هو إفناء من هو مكرم، فقال: عملهم ليس كحسنة الكافر يبطل بل هو فوق حسنات الكافر أضل الله أعمال الكفار، ولن يضل القاتلين، فكيف يكون القتل سيئة، وأما من قرأ (قاتلوا) فهو أكثر فائدة وأعم تناولاً؛ لأنه يدخل فيه من سعى في القتل سواء قتل أو لم يقتل، وأما من قرأ ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ على البناء للمفعول فنقول: هي مناسبة لما تقدم من وجوه: أحدها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي اقتلوا: والقتل لا يتأتى إلا بالإقدام وخوف أن يُقتل المُقْدم يمنعه من الإقدام، فقال: لا تخافوا القتل فإن من يُقتل في سبيل الله له من الأجر والثواب ما لا يمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه. وثانيها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿لِيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ والمبتلي بالشيء له على كل وجه من وجوه الأثر الظاهر بالابتلاء حال من الأحوال، فإن السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع، وتنقص على تقدير أن لا يقطع، فحال المبتلين ماذا؟ فقال: إن قُتل فله أن لا يضل عمله ويهدى ويكرم ويدخل الجنة، وأما إن قَتَل فلا يخفى ... [1]عاجلاً وآجلاً، وترك بيانه على تقدير كونه قاتلاً لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولاً. وثالثها: هو أنه تعالى لما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ولا يبتلي الشيء النفيس بما يخاف منه هلاكه، فإن السيف المهند العضب الكبير القيمة لا يجرب بالشيء الصلب الذي يخاف عليه منه الانكسار، ولكن الآدمي مكرم كَرَّمه الله وشَرَّفه وعَظَّمه، فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضي إلى القتل والهلاك إفضاء غير نادر، فكيف يحسن هذا الابتلاء؟ فنقول: القتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن فإنه يورث الحياة الأبدية، فإذا ابتلاه بالقتال فهو على تقدير أن يقتل مكرم، وعلى تقدير أن لا يقتل مكرم، هذا إن قاتل، وإن لم يقاتل فالموت لا بد منه وقد فوت على نفسه الأجر الكبير.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قد علم معنى الإضلال، بقي الفرق بين العبارتين في حق الكافر والضال قال: ﴿أَضَلَّ﴾ [محمد: ١]وقال في حق المؤمن الداعي: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾ لأن المقاتل داع إلى الإيمان لأن قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قد ذكر أن معناه حتى لم يبق إثم بسبب حرب، وذلك حيث يُسْلم الكافر، فالمقاتل يقول: إما أن تُسْلم وإما أن تُقتل. فهو داع والكافر صاد، وبينهما تباين وتضاد فقال في حق الكافر (أضل) بصيغة الماضي، ولم يقل (يُضل) إشارة إلى أن عمله حيث وُجد عدم، وكأنه لم يوجد من أصله، وقال في حق المؤمن: (فلن يضل)، ولم يقل: (ما أضل) إشارة إلى أن عمله كلما ثبت عليه أثبت له، فلن يضل للتأبيد وبينهما غاية

(١) بياض قدر كلمة بالأصل.

الخلاف، كما أن بين الداعي والصادّ غاية التباين والتضاد، فإن قيل: ما معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾؟ جوابه لأن في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ معنى الشرط.

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾

إن قرئ (قَتَلوا) أو (قاتلوا) فالهداية محمولة على الآجلة والعاجلة، وإن قرئ (قُتِلوا) فهو الآخرة (سَيَهْدِيهِمْ) طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم إلى موضع حبورهم.

وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

قد تقدم تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢] والماضي والمستقبل راجع إلى أن هناك وعدهم ما وعدهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، وذلك كان واقعًا منهم فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على الوقوع، وههنا وعدهم بسبب القتال والقتل، فكان في اللفظ ما يدل على الاستقبال؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ [محمد: ٤] يدل على الاستقبال فقال: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

وكأن الله تعالى عند حشرهم يهديهم إلى طريق الجنة، ويلبسهم في الطريق خلع الكرامة، وهو إصلاح البال ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ فهو على ترتيب الوقوع.

وأما قوله: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾. ففيه وجوه: أحدها: هو أن كل أحد يعرف منزلته ومأواه، حتى أن أهل الجنة يكونون أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة ينتشرون في الأرض كل أحد يأوي إلى منزله، ومنهم من قال: الملك الموكل بأعماله يهديه: الوجه الثاني: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي طَيَّبها، يقال: طعام معرف. الوجه الثالث: قال الزمخشري: يحتمل أن يقال: عَرَّفها لهم، حددها، مِن عرف الدار وأرفها، أي حددها، وتحديدها في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ويحتمل أن يقال: المراد هو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢] مشيرًا إليها معرفًا لهم بأنها هي تلك. وفيه وجه آخر: وهو أن يقال: معناه ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ قبل القتل فإن الشهيد قبل وفاته تُعرض عليه منزلته في الجنة فيشتاق إليها. ووجه ثان: معناه ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ ولا حاجة إلى وصفها فإنه تعالى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ مرارًا ووصفها. ووجه ثالث: وهو من باب تعريف الضالة فإن الله تعالى لما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فكأنه تعالى قال: من يأخذ الجنة ويطلبها بماله أو بنفسه فالذي قُتل سمع التعريف وبذل ما طُلب منه عليها فأدخلها.

ثم إنه تعالى لما بيّن ما على القتال من الثواب والأجر وعدهم بالنصر في الدنيا زيادة في الحث ليزداد منهم الإقدام فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وفي

نصر الله تعالى وجوه: الأول: إن تنصروا دين الله وطريقه. والثاني: إن تنصروا حزب الله وفريقه. الثالث: المراد نصرة الله حقيقة، فنقول: النصرة تحقيق مطلوب أحد المتعاديين عند الاجتهاد والأخذ في تحقيق علامته، فالشيطان عدو الله يجتهد في تحقيق الكفر وغلبة أهل الإيمان، والله يطلب قمع الكفر وإهلاك أهله وإفناء من اختار الإشراك بجهله، فمن حقق نصرة الله حيث حقق مطلوبه لا تقول حقق مراده فإن مراد الله لا يحققه غيره، ومطلوبه عند أهل السنة غير مراده فإنه طلب الإيمان من الكافر ولم يرده وإلا لوقع.

ثم قال: ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ فإن قيل: فعلام قلت: إذا نصر المؤمنين الله تعالى، فقد حقق ما طلبه، فكيف يحقق ما طلبه العبد وهو شيء واحد؟ فنقول: المؤمن ينصر الله بخروجه إلى القتال وإقدامه، والله ينصره بتقويته وتثبيت أقدامه، وإرسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ ۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

هذا زيادة في تقوية قلوبهم؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧] جاز أن يتوهم أن الكافر أيضًا يصبر ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب، وفيه المشقة العظيمة، فقال تعالى: لكم الثبات ولهم الزوال والتغير والهلاك فلا يكون الثبات، وسببه ظاهر لأن آلهتهم جمادات لا قدرة لها ولا ثبات عند من له قدرة، فهي غير صالحة لدفع ما قدره الله تعالى عليهم من الدمار، وعند هذا لا بد عن زوال القدم والعثار، وقال في حق المؤمنين: ﴿وَيُثَبِّتۡ﴾ بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، وقال في حقهم بصيغة الدعاء، وهي أبلغ من صيغة الإخبار من الله لأن عثارهم واجب لأن عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع إذ لا قدرة لها، والتثبيت من الله ليس بواجب الوقوع؛ لأنه قادر مختار يفعل ما يشاء.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ إشارة إلى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين، حيث قال في حق قتلاهم: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٤] وقال في موتى الكافرين: ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

ثم بيّن الله تعالى سبب ما اختلفوا فيه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ وفيه وجوه: الأول: المراد القرآن، ووجهه هو أن كيفية العمل الصالح لا تُعلم بالعقل وإنما تُدرك بالشرع والشرع بالقرآن، فلما أعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الإتيان به، فأتوا بالباطل فأحبط أعمالهم. الثاني: ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من بيان التوحيد، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ

لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الصافات: ٣٦] وقال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ إلى أن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٥ - ٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] ووجهه أن الشرك محبط للعمل، قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وكيف لا والعمل من المشرك لا يقع لوجه الله، فلا بقاء له في نفسه ولا بقاء له ببقاء من له العمل؛ لأن ما سوى وجه الله تعالى هالك محبط. الثالث: ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من بيان أمر الآخرة فلم يعملوا لها، والدنيا وما فيها ومآلها باطل، فأحبط الله أعمالهم.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾.

فيه مناسبة للوجه الثالث، يعني فينظروا إلى حالهم ويعلموا أن الدنيا فانية.

وقوله: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أهلك عليهم متاع الدنيا من الأموال والأولاد والأزواج والأجساد.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد: لهم أمثالها في الدنيا، وحينئذٍ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام. وثانيهما: أن يكون المراد لهم أمثالها في الآخرة، فيكون المراد من تقدم، كأنه يقول: دمر الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها. وفي العائد إليه ضمير المؤنث في قوله: ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ وجهان: أحدهما: هو المذكور وهو العاقبة. وثانيهما: هو المفهوم وهو العقوبة؛ لأن التدمير كان عقوبة لهم، فإن قيل: على قولنا المراد للكافرين بمحمد عليه السلام أمثال ما كان لمن تقدمهم من العاقبة يرد سؤال، وهو أن الأولين أُهلكوا بوقائع شديدة كالزلازل والنيران وغيرهما من الرياح والطوفان، ولا كذلك قوم محمد ﷺ. نقول: جاز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين لكون دين محمد أظهر بسبب تقدم الأنبياء عليهم السلام عليه وإخبارهم عنه وإنذارهم به، على أنهم قُتلوا وأُسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل آلم من الهلاك بسبب عام. وسؤال آخر: إذا كان الضمير عائدًا إلى العاقبة فكيف يكون لها أمثال؟ قلنا: يجوز أن يقال: المراد العذاب الذي هو مدلول العاقبة أو الألم الذي كانت العاقبة عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى النصر، وهو اختيار جماعة، ذكره الواحدي، ويحتمل وجهًا آخر أغرب من حيث النقل وأقرب من حديث العقل، وهو أنا لما بينا أن قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠] إشارة إلى أن قوم محمد عليه الصلاة والسلام أُهلكوا بأيدي أمثالهم الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم، وهو آلم من الهلاك بالسبب العام، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين، والكافرون اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر، وتركوا الله فلا ناصر لهم، ولا شك أن من ينصره الله تعالى يقدر على القتل والأسر وإن كان له ألف ناصر فضلاً عن أن يكون لا ناصر لهم، فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿لَا مَوْلَىٰ

لَهُمْ﴾ وبين قوله: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]نقول: المولى ورد بمعنى السيد والرب والناصر، فحيث قال: ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أراد لا ناصر لهم، وحيث قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي ربهم ومالكهم، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]وفي الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن؛ لأن المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين، والكافر لا مولى له بصيغة نافية للجنس، فليس له ناصر وإنه شر الناصرين.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

لما بيّن الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا، بيّن حالهم في الآخرة وقال: إنه يُدخل المؤمن الجنة والكافر النار.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كثيرًا ما يقتصر الله على ذكر الأنهار في وصف الجنة؛ لأن الأنهار يتبعها الأشجار والأشجار تتبعها الثمار، ولأنه سبب حياة العالم، والنار سبب الإعدام، وللمؤمن الماء ينظر إليه وينتفع به، وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرر بها.

المسألة الثانية: ذكرنا مرارًا أن (مِن) في قوله: ﴿مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يحتمل أن يكون صلة معناه تجري تحتها الأنهار، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر، فيقال: هذا النهر منبعه من أين؟ يقال: من عين كذا، من تحت جبل كذا.

المسألة الثالثة: قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ خصهم بالذكر مع أن المؤمن أيضًا له التمتع بالدنيا وطيباتها، نقول: من يكون له مُلك عظيم ويملك شيئًا يسيرًا أيضًا لا يُذكر إلا بالمُلك العظيم، يقال في حق الملك العظيم: صاحب الضيعة الفلانية. ومن لا يملك إلا شيئًا يسيرًا فلا يُذكر إلا به، فالمؤمن له ملك الجنة فمتاع الدنيا لا يُلتفت إليه في حقه والكافر ليس له إلا الدنيا، ووجه آخر: الدنيا للمؤمن سجن كيف كان، ومن يأكل في السجن لا يقال إنه يتمتع، فإن قيل: كيف تكون الدنيا سجنًا مع ما فيها من الطيبات؟ نقول: للمؤمن في الآخرة طيبات معدة وإخوان مكرمون، نسبتها ونسبتهم إلى الدنيا ومن فيها تتبين بمثال، وهو أن من يكون له بستان فيه من كل الثمرات الطيبة في غاية اللذة وأنهار جارية في غاية الصفاء ودور وغرف في غاية الرفعة وأولاده فيها، وهو قد غاب عنهم سنين ثم توجه إليهم وهم فيها، فلما قرب منهم عُوق في أجمة فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة، وفيها سباع وحشرات كثيرة، فهل يكون حاله فيها كحال مسجون في بئر مظلمة وفي بيت خراب أم لا؟ وهل يجوز أن يقال له: اترك ما هو لك وتعلل بهذه الثمار وهذه الأنهار أم لا؟

كذلك حال المؤمن، وأما الكافر فحاله كحال مَن يُقَدم إلى القتل فيصبر عليه أيامًا في مثل

تلك الأجمة التي ذكرناها يكون في جنة، ونسبة الدنيا إلى الجنة والنار دون ما ذكرنا من المثال، لكنه ينبئ ذا البال عن حقيقة الحال.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن الأنعام يهمها الأكل لا غير والكافر كذلك، والمؤمن يأكل ليعمل صالحًا ويقوى عليه. وثانيها: الأنعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك. وثالثها: الأنعام تُعلف لتسمن وهي غافلة عن الأمر، لا تعلم أنها كلما كانت أسمن كانت أقرب إلى الذبح والهلاك، وكذلك الكافر، ويناسب ذلك قوله تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

المسألة الرابعة: قال في حق المؤمن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ﴾ بصيغة الوعد، وقال في حق الكافر: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ بصيغة تنبئ عن الاستحقاق لما ذكرنا أن الإحسان لا يستدعي أن يكون عن استحقاق، فالمحسن إلى من لم يوجد منه ما يوجب الإحسان كريم، والمُعذِّب من غير استحقاق ظالم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾

لما ضرب الله تعالى لهم مثلاً بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [محمد: ١٠] ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل، ضرب للنبي عليه السلام مثلاً تسلية له فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ وكانوا أشد من أهل مكة كذلك نفعل بهم، فاصبر كما صبر رسلهم، وقوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ قال الزمخشري: كيف قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ مع أن الإهلاك ماضٍ، وقوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ للحال والاستقبال؟ والجواب أنه محمول على الحكاية والحكاية كالحال الحاضر، ويحتمل أن يقال: أهلكناهم في الدنيا فلا ناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذي هم فيه، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ عائد إلى أهل قرية محمد عليه السلام، كأنه قال: أهلكنا من تقدم أهل قريتك، ولا ناصر لأهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الأولين.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾

اعلم أن هذا إشارة إلى الفرق بين النبي عليه السلام والكفار؛ ليعلم أن إهلاك الكفار ونصرة النبي عليه السلام في الدنيا محقق، وأن الحال يناسب تعذيب الكافر وإثابة المؤمن، وقوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ فرق فارق، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ مكمل له، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولاً لا دليل عليه، فإذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهر، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ ليس المراد إنزالها منه بل المراد كونها من الرب بمعنى قوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١] وقولنا: الهداية

من الله، وكذلك قوله تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فرق فارق، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ تكملة، وذلك أن مَن زُين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه في مقابلة من يتبين له البرهان وقَبِله، لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر في الأمر ويرجع إلى الحق، فيكون أقرب إلى من هو على البرهان، وقد يتبع هواه ولا يتدبر في البرهان ولا يتفكر في البيان، فيكون في غاية البعد، فإذن حصل النبي ﷺ والمؤمن مع الكافر في طرفي التضاد وغاية التباعد حتى مدهم بالبينة، والكافر له الشبهة وهو مع الله وأولئك مع الهوى وعلى قولنا: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ معناه الإضافة إلى الله، كقولنا الهداية من الله، فقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ مع ذلك القول يفيد معنى قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] وقوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ بصيغة التوحيد محمول على لفظة (مَن)، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ محمول على معناه فإنها للجميع والعموم، وذلك لأن التزيين للكل على حد واحد فحمل على اللفظ لقربه منه في الحس والذكر، وعند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه، فظهر التعدد فحُمل على المعنى.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

لما بيّن الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال، بيّن الفرق بينهما في مرجعهما ومآلهما، وكما قَدَّم من على البينة في الذكر على من اتبع هواه، قدَّم حاله في مآله على حال من هو بخلاف حاله.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ يستدعي أمرًا يُمثل به فما هو؟ نقول: فيه وجوه: الأول: قول سيبويه حيث قال: المثل هو الوصف، معناه وصف الجنة، وذلك لا يقتضي ممثلاً به، وعلى هذا ففيه احتمالان: أحدهما: أن يكون الخبر محذوفًا ويكون ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ تقديره فيما قصصناه مثل الجنة، ثم يستأنف ويقول: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾، وكذلك القول في سورة الرعد يكون قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الرعد: ٣٥] ابتداء بيان. والاحتمال الثاني: أن يكون فيها أنهار وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ خبرًا كما يقال: صف لي زيدًا، فيقول القائل: زيدٌ أحمر قصير. والقول الثاني: أن المثل زيادة، والتقدير: الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار. الوجه الثاني: هاهنا الممثل به محذوف غير مذكور وهو يحتمل قولين: أحدهما: قال الزجاج حيث قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ جنة تجري ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ كما يقال مثل زيد رجل طويل أسمر، فيذكر

عين صفات زيد في رجل منكر لا يكون هو في الحقيقة إلا زيدًا. الثاني من القولين: هو أن يقال: معناه ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مثل عجيب، أو شيء عظيم أو مثل ذلك، وعلى هذا يكون قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ كلامًا مستأنفًا محققًا لقولنا مثل عجيب. الوجه الثالث: الممثل به مذكور، وهو قول الزمخشري حيث قال: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ مشبه به على طريقة الإنكار، وحينئذٍ فهذا كقول القائل: حركات زيد أو أخلاقه كعمرو، وكذلك على أحد التأويلين، إما على تأويل كحركات عمرو أو على تأويل زيد في حركاته كعمرو، وكذلك هاهنا كأنه تعالى قال: مثل الجنة كمن هو خالد في النار، وهذا أقصى ما يمكن أن يقرر به قول الزمخشري، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ وما بعد هذا جملٍ اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر، كما يقال: نظير زيد فيه مروءة وعنده علم وله أصل عمرو.

ثم قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

اختار الأنهار من الأجناس الأربعة، وذلك لأن المشروب إما أن يُشرب لطعمه، وإما أن يُشرب لأمر غير عائد إلى الطعم، فإن كان للطعم فالطعوم تسعة: المر والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض والتفه والحلو والدسم، ألذها الحلو والدسم، لكن أحلى الأشياء العسل فذكره وأما أدسم الأشياء فالدهن، لكن الدسومة إذا تمحضت لا تطيب للأكل ولا للشرب، فإن الدهن لا يؤكل ولا يُشرب كما هو في الغالب، وأما اللبن فيه الدسم الكائن في غيره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولاً، فذكره الله تعالى. وأما ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر، فإن الخمر فيها أمر يشربها الشارب لأجله، هي كريهة الطعم باتفاق من يشربها وحصول التواتر به. ثم عرى كل واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التي هي فيها وتتغير بها في الدنيا فالماء يتغير يقال: أسِن الماء يأسَن على وزن أمِن يأمَن فهو آسن، وأسن اللبن إذا بقي زمانًا تغير طعمه، والخمر يكرهه الشارب عند الشرب، والعسل يشوبه أجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيرًا، ثم إن الله تعالى خلط الجنسين فذكر الماء الذي يُشرب لا للطعم وهو عام الشرب، وقرن به اللبن الذي يُشرب لطعمه وهو عام الشرب إذ ما من أحد إلا وكان شربه اللبن، ثم ذكر الخمر الذي يُشرب لا للطعم وهو قليل الشرب، وقرن به العسل الذي يُشرب للطعم وهو قليل الشرب، فإن قيل العسل لا يشرب، نقول: شراب الجلاب لم يكن إلا من العسل والسكر قريب الزمان، ألا ترى أن السكنجبين من «سركه وانكبين» وهو الخل والعسل بالفارسية، كما أن استخراجه كان أولاً من الخل والعسل ولم يعرف السكر إلا في زمان متأخر، ولأن العسل اسم يطلق على غير عسل النحل حتى يقال عسل النحل للتمييز، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال في الخمر: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ولم يقل في اللبن: لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال في العسل مصفى للناظرين؛ لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرُب طعام يلتذ به

شخص ويعافه الآخر، فقال: ﴿لَذَّةٍ لِلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسرهم، ولأن الخمر كريهة الطعم فقال: ﴿لَذَّةٍ﴾ أي لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعم، وأما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس، فإن الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد كذلك، لكنه قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن له طعمًا واحدًا، وكذلك اللون فلم يكن إلى التصريح بالتعميم حاجة، وقوله: ﴿لَذَّةٍ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون تأنيث لذ يقال طعام لذ ولذيذ وأطعمة لذة ولذيذة. وثانيهما: أن يكون ذلك وصفًا بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما يقال للحليم: هو حلم كله هو عقل كله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

بعد ذكر المشروب أشار إلى المأكول، ولما كان في الجنة الأكل للذة لا للحاجة، ذكر الثمار فإنها تؤكل للذة بخلاف الخبز واللحم، وهذا كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] حيث أشار إلى المأكول والمشروب، وهاهنا لطيفة وهي أنه تعالى قال فيها: ﴿وَظِلُّهَا﴾ ولم يقل ههنا ذلك، نقول قال هاهنا: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك، ولأن المغفور تحت نظر من رحمة الغافر يقال: نحن تحت ظل الأمير، وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد.

المسألة الثالثة: المتقي لا يدخل الجنة إلا بعد المغفرة، فكيف يكون لهم فيها مغفرة؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: الأول: ليس بلازم أن يكون المعنى لهم مغفرة من ربهم فيها، بل يكون عطفًا على قوله: (لَهُمْ) كأنه تعالى قال: لهم الثمرات فيها ولهم المغفرة قبل دخولها. والثاني: هو أن يكون المعنى: لهم فيها مغفرة، أي رُفع التكليف عنهم فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا فإن الثمار فيها على حساب أو عقاب، ووجه آخر: وهو أن الآكل في الدنيا لا يخلو عن استنتاج قبيح أو مكروه كمرض أو حاجة إلى تبرز، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾ لا قبيح على الآكل بل مستور القبائح مغفور، وهذا استفدته من المعلمين في بلادنا، فإنهم يعودون الصبيان بأن يقولون وقت حاجتهم إلى إراقة البول وغيره: يا معلم غفر الله لك. فيفهم المعلم أنهم يطلبون الإذن في الخروج لقضاء الحاجة فيأذن لهم؛ فقلت في نفسي معناه: هو أن الله تعالى في الجنة غفر لمن أكل، وأما في الدنيا، فلأن للأكل توابع ولوازم لا بد منها فيفهم من قولهم حاجتهم.

ثم قال تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ **وفيه أيضًا مسائل:**

المسألة الأولى: على قول من قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ معناه وصف الجنة، فقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ﴾ بماذا يتعلق؟ نقول: قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يتضمن كونهم فيها فكأنه قال: هو فيها كمن هو خالد في النار، فالمشبه يكون محذوفًا مدلولاً عليه بما سبق، ويحتمل أن يقال ما قيل في تقرير قول الزمخشري أن المراد هذه الجنة التي مثلها ما ذكرنا كمقام من هو خالد في النار.

المسألة الثانية: قال الزجاج: قوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ راجع إلى ما تقدم، كأنه تعالى قال: أفمن كان على بينة من ربه كمن زُين له سوء عمله وهو خالد في النار فهل هو صحيح أم لا؟ نقول: لنا نظر إلى اللفظ فيمكن تصحيحه بتعسف ونظر إلى المعنى لا يصح إلا بأن يعود إلى ما ذكرناه، أما التصحيح فبحذف (كمن) في المرة الثانية أو جعله بدلاً عن المتقدم أو بإضمار عاطف يعطف ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ﴾ على ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أو ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾، وأما التعسف فبيّن نظرًا إلى الحذف وإلى الإضمار مع الفاصل الطويل بين المشبه والمشبه به، وأما طريقة البدل ففاسدة وإلا لكان الاعتماد على الثاني، فيكون كأنه قال: أفمن كان على بينة كمن هو خالد؟ وهو سمج في التشبيه تعالى كلام الله عن ذلك، والقول في إضمار العاطف كذلك لأن المعطوف أيضًا يصير مستقلاً في التشبيه، اللّهم إلا أن يقال: المجموع بالمجموع، كأنه يقول: أفمن كان على بينة من ربه، وهو في الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار، كمن زُين له سوء عمله وهو خالد في النار، وعلى هذا تقع المقابلة بين من هو على بينة من ربه، وبين من زين له سوء عمله، وبين من في الجنة وبين من هو خالد في النار، وقد ذكرناه فلا حاجة إلى خلط الآية بالآية، وكيف وعلى ما قاله تقع المقابلة بين من هو في النار وسقوا ماءً حميمًا وبين من هو على بينة من ربه وأية مناسبة بينهما؟ بخلاف ما ذكرناه من الوجوه الأخر، فإن المقابلة بين الجنة التي فيها الأنهار وبين النار التي فيها الماء الحميم وذلك تشبيه إنكار مناسب.

المسألة الثالثة: قال: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ﴾ حملاً على اللفظ الواحد وقال: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا﴾ على المعنى وهو جمع، وكذلك قال من قبل: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[محمد: ١٤] على التوحيد والإفراد ﴿وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم﴾ على الجمع فما الوجه فيه؟ نقول: المسند إلى (مَن) إذا كان متصلاً فرعاية اللفظ أَوْلى لأنه هو المسموع، وإذا كان مع انفصال فالعود إلى المعنى أولى؛ لأن اللفظ لا يبقى في السمع، والمعنى يبقى في ذهن السامع، فالحمل في الثاني على المعنى أَوْلى وحمل الأول على اللفظ أولى، فإن قيل: كيف قال في سائر المواضع: ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[سبأ: ٣٧] و﴿فَمَن تَابَ﴾ . . . ﴿وَأَصْلَحَ﴾[المائدة: ٣٩]؟ نقول: إذا كان المعطوف مفردًا أو شبيهًا بالمعطوف عليه في المعنى فالأَوْلى أن يختلفا كما ذكرت فإنه عطف مفرد على مفرد، وكذلك لو قال: كمن هو خالد في النار ومعذب فيها؛ لأن المشابهة تنافي المخالفة، وأما إذا لم يكن كذلك كما في هذا الموضع، فإن قوله: ﴿وَسُقُوا مَآءً﴾ جملة غير مشابهة لقوله: ﴿هُوَ خَالِدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا﴾ بيان لمخالفتهم في سائر أحوال أهل الجنة فلهم أنهار من ماء غير آسن، ولهم ماء حميم، فإن قيل: المشابهة الإنكارية بالمخالفة على ما ثبت، وقد ذكرت البعض وقلت بأن قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ في مقابلة ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ و﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ في مقابلة قوله: ﴿وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم﴾ والجنة في مقابلة النار في قوله: ﴿خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ والماء الحميم في مقابلة الأنهار، فأين ما يقابل قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾ فنقول: تقطع الأمعاء في مقابلة

مغفرة لأنا بينا على أحد الوجوه أن المغفرة التي في الجنة هي تعرية أكل الثمرات عما يلزمه من قضاء الحاجة والأمراض وغيرها، كأنه قال: للمؤمن أكل وشرب مطهر طاهر، لا يجتمع في جوفهم فيؤذيهم ويحوجهم إلى قضاء حاجة، وللكافر ماء حميم في أول ما يصل إلى جوفهم يقطع أمعاءهم ويشتهون خروجه من جوفهم، وأما الثمار فلم يذكر مقابلها؛ لأن في الجنة زيادة مذكورة فحققها بذكر أمر زايد.

المسألة الرابعة: الماء الحار يقطع أمعاءهم لأمر آخر غير الحرارة، وهي الحدة التي تكون في السموم المدوفة، وإلا فمجرد الحرارة لا يقطع، فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَقَطَّعَ﴾ بالفاء يقتضي أن يكون القطع بما ذكر، نقول: نعم، لكنه لا يقتضي أن يقال: يقطع؛ لأنه ماء حميم فحسب، بل ماء حميم مخصوص يقطع.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

لما بيّن الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار، وقوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ يحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الناس، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] بعد ذكر الكفار، ويحتمل أن يكون راجعًا إلى أهل مكة؛ لأن ذكرهم سبق في قوله تعالى: ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [محمد: ١٣] ويحتمل أن يكون راجعًا إلى معنى قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد: ١٥] يعني ومن الخالدين في النار قوم يستمعون إليك، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ على ما ذكرنا حمل على المعنى الذي هو الجمع، و(يستمع) حمل على اللفظ، وقد سبق التحقيق فيه، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ للعطف في قول المفسرين، وعلى هذا فالعطف بحتى لا يحسن إلا إذا كان المعطوف جزءًا من المعطوف عليه إما أعلاه أو دونه، كقول القائل: أكرمني الناس حتى الملك، وجاء الحاج حتى المشاة. وفي الجملة ينبغي أن يكون المعطوف عليه من حيث المعنى، ولا يشترط في العطف بالواو ذلك، فيجوز أن تقول في الواو: جاء الحاج وما علمت، ولا يجوز مثل ذلك في حتى، إذا علمت هذا فوجه التعلق هاهنا هو أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ يفيد معنى زائدًا في الاستماع كأنه يقول: يستمعون استماعًا بالغًا جيدًا؛ لأنهم يستمعون، وإذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد في التعلم الطالب للتفهم، فإن قلت: فعلى هذا يكون هذا صفة مدح لهم، وهو ذكرهم في معرض الذم، نقول: يتميز بما بعده، وهو أحد أمرين: إما كونهم بذلك مستهزئين، كالذكي يقول للبليد: أعد كلامك حتى أفهمه، ويرى في نفسه أنه مستمع إليه غاية الاستماع، وكل أحد يعلم أنه مستهزئ غير مستفيد ولا مستعيد، وإما كونهم لا يفهمون مع أنهم يستمعون

ويستعيدون، ويناسب هذا الثاني قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، والأول يؤكده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. والثاني: يؤكده قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] وقوله: ﴿ءَانِفًا﴾ قال بعض المفسرين: معناه الساعة، ومنه الاستئناف وهو الابتداء، فعلى هذا فالأَوْلى أن يقال: يقولون: ماذا قال آنفًا، بمعنى أنهم يستعيدون كلامه من الابتداء، كما يقول المستعيد للمعيد: أعد كلامك من الابتداء حتى لا يفوتني شيء منه.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

أي تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم، أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة، واتبعوا ضده.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

لما بيّن الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد، بَيَّن أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، والمنافق يستعيد، والمهتدي يفسر ويعيد، وفيه فائدتان: إحداهما: ما ذكرنا من بيان التباين بين الفريقين. وثانيهما: قطع عذر المنافق وإيضاح كونه مذموم الطريقة، فإنه لو قال: ما فهمته لغموضه وكونه معمى، يرد عليه ويقول: ليس كذلك، فإن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه، فذلك لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفاعل للزيادة في قوله: ﴿زَادَهُمْ﴾؟ نقول: فيه وجوه: الأول: المسموع من النبي عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول، يدل عليه قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦] فإنه يدل على مسموع، والمقصود بيان التباين بين الفريقين، فكأنه قال: هم لم يفهموه، وهؤلاء فهموه. والثاني: أن الله تعالى زادهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦] وكأنه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى، والمهتدين زاده هدًى. والثالث: استهزاء المنافق زاد المهتدي هدى، ووجهه أنه تعالى لما قال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ﴾ اتباعهم الهدى هدى، فإنهم استقبحوا فعلهم فاجتنبوه.

المسألة الثانية: ما معنى قوله: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾؟ نقول: فيه وجوه منقولة ومستنبطة:

أما المنقولة فنقول: قيل فيه: إن المراد آتاهم ثواب تقواهم، وقيل: آتاهم نفس تقواهم من غير إضمار، يعني بيّن لهم التقوى، وقيل: آتاهم توفيق العمل بما علموا.

وأما المستنبط فنقول: يحتمل أن يكون المراد به بيان حال المستمعين للقرآن الفاهمين لمعانيه المفسرين له بيانًا لغاية الخلاف بين المنافق، فإنه استمع ولم يفهمه، ستعاد ولم يعلمه، والمهتدي فإنه علمه وبَيَّنه لغيره، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ ولم يقل اهتداء، والهدى مصدر من هدى، قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] أي خذ بما هدوا واهتدِ

كما هدوا، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ معناه جَنَّبهم عن القول في القرآن بغير برهان، وحَمَلهم على الاتقاء من التفسير بالرأي، وعلى هذا فقوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ معناه كانوا مهتدين فزادهم على الاهتداء هدى، حتى ارتقوا من درجة المهتدين إلى درجة الهادين.

ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ إشارة إلى العلم ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ إشارة إلى الأخذ بالاحتياط فيما لم يعلموه، وهو مستنبط من قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

المعنى الثالث: يحتمل أن يكون المراد بيان أن المخلص على خطر فهو أخشى من غيره، وتحقيقه هو أنه لما قال: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ أفاد أنهم ازداد علمهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] فقال آتاهم خشيتهم التي يفيدها العلم.

والمعنى الرابع: تقواهم من يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [محمد: ١٨] كأن ذكر الساعة عقيب التقوى يدل عليه.

المعنى الخامس: آتاهم تقواهم، التقوى التي تليق بالمؤمن، وهي التقوى التي لا يخاف معها لومة لائم.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وهذا الوجه مناسب لأن الآية لبيان تباين الفريقين، وهذا يحقق ذلك، من حيث إن المنافق كان يخشى الناس وهم الفريقان، المؤمنون والكافرون، فكان يتردد بينهما ويرضي الفريقين ويُسخط الله، فقال الله تعالى: المؤمن المهتدي بخلاف المنافق حيث علم ذاك ولم يعلم ذلك، واتقى الله لا غير واتقى ذلك غير الله.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

يعني الكافرون والمنافقون لا ينظرون إلا الساعة، وذلك لأن البراهين قد صحت والأمور قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة، وهو من قبيل بدل الاشتمال على تقدير: لا ينظرون إلا الساعة إتيانها بغتة، وقرئ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ على الشرط وجزاؤه لا ينفعهم ذكراهم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، وقد ذكرنا أن القيامة سميت بالساعة لساعة الأمور الواقعة فيها من البعث والحشر والحساب.

وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: لبيان غاية عنادهم، وتحقيقه هو أن

الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق إلا إيمان اليأس وهو عند قيام الساعة، لكن أشراطها بانت فكان ينبغي أن يؤمنوا ولم يؤمنوا فهم في لجة الفساد وغاية العناد. ثانيهما: يكون لتسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ فُهم منه تعذيبهم والساعة عند العوام مستبطأة فكأن قائلاً قال: متى الساعة؟ فقد جاء أشراطها، كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] والأشراط العلامات، قال المفسرون: هي مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام، ويحتمل أن يقال: معنى الأشراط: البينات الموضحة لجواز الحشر، مثل خلق الإنسان ابتداء وخلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] والأول هو التفسير.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ يعني لا تنفعهم الذكرى إذ لا تُقبل التوبة ولا يُحسب الإيمان، والمراد فكيف لهم الحال إذا جاءتهم ذكراهم، ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢١] فيذكرون به للتحسر، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

ثم قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ **ولبيان المناسبة وجوه:**

الأول: هو أنه تعالى لما قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يأتي بالساعة، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨].

وثانيها: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ وهي آتية، فكأن قائلاً قال: متى هذا؟ فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار، وكن في أي وقت مستعدًّا للقائها، ويناسبه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

الثالث: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ينفعك، فإن قيل: النبي عليه الصلاة والسلام كان عالمًا بذلك فما معنى الأمر؟! نقول عنه من وجهين: أحدهما: فاثبت على ما أنت عليه من العلم، كقول القائل لجالس يريد القيام: اجلس، أي لا تقم. ثانيهما: الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام، والمراد قومه، والضمير في (أنه) للشأن، وتقدير هذا هو أنه عليه السلام لما دعا القوم إلى الإيمان ولم يؤمنوا ولم يبق شيء يحملهم على الإيمان إلا ظهور الأمر بالبعث والنشور، وكان ذلك مما يحزن النبي عليه الصلاة والسلام، فسلى قلبه وقال: أنت كامل في نفسك مكمل لغيرك فإن لم يكمل بك قوم لم يُرد الله تعالى بهم خيرًا، فأنت في نفسك عامل بعلمك وعلمك حيث تعلم أن الله واحد وتستغفر، وأنت بحمد الله مكمل وتكمل المؤمنين والمؤمنات وأنت تستغفر لهم، فقد حصل لك الوصفان، فاثبت على ما أنت عليه ولا يحزنك كفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الخطاب معه والمراد

المؤمنون، وهو بعيد لإفراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر. وقال بعض الناس ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ أي لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات، أي الذين ليسوا منك بأهل بيت. وثانيهما: المراد هو النبي والذنب هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب وحاشاه من ذلك. وثالثها: وجه حسن مستنبط وهو أن المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيئ، ووجهه أن الاستغفار طلب الغفران، والغفران هو الستر على القبيح، ومن عُصم فقد سُتر عليه قبائح الهوى، ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبي ﷺ وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حق المؤمنين والمؤمنات، وفي هذه الآية لطيفة وهي أن النبي ﷺ له أحوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره، فأما مع الله فوَحِّده، وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ يعني حالكم في الدنيا وفي الآخرة، وحالكم في الليل والنهار.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ ﴾

لما بيّن الله حال المنافق والكافر والمهتدي المؤمن عند استماع الآيات العلمية من التوحيد والحشر وغيرهما بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ [محمد: ١٦] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧] بَيَّن حالهم في الآيات العملية، فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول: (هلا أُمرت بشيء من العبادة) خوفًا من أن لا يؤهل لها، والمنافق إذا نزلت السورة أو الآية وفيها تكليف، شق عليه، ليعلم تباين الفريقين في العلم والعمل، حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل، والمؤمن يعلم ويحب العمل. وقولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ المراد منه سورة فيها تكليف بممتحن المؤمن والمنافق. ثم إنه تعالى أنزل سورة فيها القتال فإنه أشق تكليف.

وقوله: ﴿سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ فيها وجوه: أحدها: سورة لم تنسخ. ثانيها: سورة فيها ألفاظ أُريدت حقائقها، بخلاف قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقوله: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] فإن قوله تعالى: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] أراد القتل وهو أبلغ من قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٩١] وقوله: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ [النساء: ٩١] صريح وكذلك غير هذا من آيات القتال، وعلى الوجهين فقوله: ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ فيها فائدة زائدة من حيث إنهم لا يمكنهم أن يقولوا المراد غير ما يظهر منه، أو يقولوا هذه آية قد نسخت فلا نقاتل. وقوله: ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي

المنافقين ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ لأن عند التكليف بالقتال لا يبقى لنفاقهم فائدة، فإنهم قبل القتال كانوا يترددون إلى القبيلتين، وعند الأمر بالقتال لم يبق لهم إمكان ذلك ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ دعاء، كقول القائل: فويلٌ لهم، ويحتمل أن يكون هو خبر لمبتدأ محذوف سبق ذكره وهو الموت، كأن الله تعالى لما قال: ﴿ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ قال: فالموت أولى لهم؛ لأن الحياة التي لا في طاعة الله ورسوله الموت خير منها، وقال الواحدي: يجوز أن يكون المعنى: فأَوْلى لهم طاعة، أي الطاعة أَوْلى لهم.

ثم قال تعالى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾.

كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره: (خير لهم) أي أحسن وأمثل، لا يقال: (طاعة) نكرة لا تصلح للابتداء؛ لأنا نقول: هي موصوفة بدل عليه قوله: ﴿ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ فإنه موصوف فكأنه تعالى قال: ﴿ طَاعَةٌ ﴾ مخلصة ﴿ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ خير، وقيل: معناه قالوا: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أي قولهم أمرنا ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ ويدل عليه قراءة أُبي (يقولون طاعة وقول معروف).

وقوله: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾.

جوابه محذوف تقديره: فإذا عزم الأمر خالفوا وتخلفوا، وهو مناسب لمعنى قراءة أُبي، كأنه يقول: في أول الأمر قالوا سمعًا وطاعة، وعند آخر الأمر خالفوا وأخلفوا موعدهم، ونسب العزم إلى الأمر والعزم لصاحب الأمر معناه: فإذا عزم صاحب الأمر. هذا قول الزمخشري، ويحتمل أن يقال: هو مجاز كقولنا: (جاء الأمر وولَّى) فإن الأمر في الأولْ يتوقع أن لا يقع وعند إظلاله وعجز الكاره عن إبطاله فهو واقع فقال: (عَزَم) والوجهان متقاربان، وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ﴾ فيه وجهان على قولنا المراد من قوله طاعة أنهم قالوا طاعة فمعناه: لو صدقوا في ذلك القول وأطاعوا ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ وعلى قولنا ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ خير لهم وأحسن، فمعناه ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ﴾ في إيمانهم واتباعهم الرسول ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه، وهو أنهم كانوا يقولون: كيف نقاتل والقتل إفساد والعرب من ذوي أرحامنا وقبائلنا؟ فقال تعالى: ﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ لا يقع منكم إلا الفساد في الأرض فإنكم تقتلون من تقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع بينكم، أليس قتلكم البنات إفسادًا وقطعًا للرحم؟ فلا يصح تعللكم بذلك مع أنه خلاف ما أمر الله وهذا طاعة. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في استعمال (عسى) ثلاثة مذاهب: أحدها: الإتيان بها على صورة فعل ماضٍ معه فاعل، تقول: عسى زيد وعسينا وعسوا وعسيت وعسيتما وعسيتم وعست وعستا. والثاني: أن يؤتى بها على صورة فعل معه مفعول، تقول: عساه وعساهما وعساك وعساكما وعساي وعسانا. والثالث: الإتيان بها من غير أن يُقرن بها شيء تقول: عسى زيد يخرج وعسى أنت تخرج وعسى أنا أخرج. والكل له وجه وما عليه كلام الله أوجه، وذلك لأن عسى من

الأفعال الجامدة واقتران الفاعل بالفعل أَوْلى من اقتران المفعول لأن الفاعل كالجزء من الفعل ولهذا لم يجز فيه أربع متحركات في مثل قول القائل: نَصَرْت، وجُوز في مثل قولهم: نَصَرك ولأن كل فعل له فاعل سواء كان لازمًا أو متعديًا ولا كذلك المفعول به، فعسيت وعساك كعصيت وعصاك في اقتران الفاعل بالفعل والمفعول به، وأما قول من قال: عسى أنت تقوم وعسى أن أقوم، فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه.

المسألة الثانية: الاستفهام للتقرير المؤكد، فإنه لو قال على سبيل الإخبار: ﴿عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ لكان للمخاطب أن ينكره فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول: أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر أن تجيب إلا بلا أو نعم، فهو مقرر عندك وعندي.

المسألة الثالثة: عسى للتوقع والله تعالى عالم بكل شيء فنقول فيه ما قلنا في (لعل)، وفي قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾[الكهف: ٧] إن بعض الناس قال: يفعل بكم فعل المترجي والمبتلي والمتوقع. وقال آخرون: كل من ينظر إليهم يتوقع منهم ذلك ونحن قلنا: محمول على الحقيقة وذلك لأن الفعل إذا كان ممكنًا في نفسه فالنظر إليه غير مستلزم لأمر، وإنما الأمر يجوز أن يحصل منه تارة ولا يحصل منه أخرى، فيكون الفعل لذلك الأمر المطلوب على سبيل الترجي، سواء كان الفاعل يعلم حصول الأمر منه وسواء إن لم يكن يعلم، مثاله مَن نَصَب شبكة لاصطياد الصيد يقال: هو متوقع لذلك فإن حصل له العلم بوقوعه فيه بإخبار صادق أنه سيقع فيه أو بطريق أخرى، لا يخرج عن التوقع، غاية ما في الباب أن في الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما نتوقعه فيظن أن عدم العلم لازم للمتوقع، وليس كذلك، بل المتوقع هو المنتظر لأمر ليس بواجب الوقوع نظرًا لذلك الأمر فحسب، سواء كان له به علم أو لم يكن. وقوله: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه من الولاية يعني إن أخذتم الولاية وصار الناس بأمركم، أفسدتم وقطعتم الأرحام. وثانيهما: هو من التولي الذي هو الإعراض وهذا مناسب لما ذكرنا، أي كنتم تتركون القتال وتقولون: فيه الإفساد وقطع الأرحام لكون الكفار أقاربنا. فلا يقع منكم إلا ذلك حيث تقاتلون على أدنى شيء كما كان عادة العرب الأُول، يؤكده قراءة علي عليه السلام (تُوُلِّيتم)، أي إن تولاكم ولاة ظلمة جفاة غشمة ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم معهم وقطعتم أرحامكم، والنبي عليه السلام لا يأمركم إلا بالإصلاح وصلة الأرحام، فلمَ تتقاعدون عن القتال وتتباعدون في الضلال؟!

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

إشارة لمن سبق ذكرهم من المنافقين أبعدهم الله عنه أو عن الخير، فأصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين، وأعماهم فلا يتبعون الصراط المستقيم، وفيه ترتيب حسن، وذلك من حيث إنهم استمعوا الكلام العلمي ولم يفهموه فَهْم بالنسبة إليه صُم أصمهم الله، وعند الأمر بالعمل

تركوه وعللوا بكونه إفسادًا وقطعًا للرحم وهم كانوا يتعاطونه عند النهي عنه، فلم يروا حالهم عليه وتركوا اتباع النبي الذي يأمرهم بالإصلاح وصلة الأرحام، ولو دعاهم من يأمر بالإفساد وقطيعة الرحم لاتبعوه فَهُم عُمْي أعماهم الله، وفيه لطيفة: وهي أن الله تعالى قال: (أصمهم) ولم يقل أصم آذانهم، وقال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ ولم يقل أعماهم، وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار، والأُذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام؛ لأن الأذن خُلقت وخُلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذي كما يؤذي الصوت القوي فقال: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ من غير ذكر الأذن، وقال: ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ مع ذكر العين لأن البصر ههنا بمعنى العين، ولهذا جمعه بالأبصار، ولو كان مصدرًا لما جُمع فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها في الإصمام، والعين لها مدخل في الرؤية بل هي الكل، ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقرًا، كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]وقال: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]والوقر دون الصم، وكذلك الطرش:

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

ولنذكر تفسيرها في مسائل:

المسألة الأولى: لما قال الله تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]كيف يمكنهم التدبر في القرآن؟ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ وهو كقول القائل للأعمى: أبصِر وللأصم اسمع؟ فنقول: الجواب عنه من ثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من البعض: الأول: تكليف ما لا يطاق جائز، والله أمر من علم أنه لا يؤمن بأن يؤمن، فكذلك جاز أن يعميهم ويذمهم على ترك التدبر. الثاني: أن قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ المراد منه الناس. الثالث: أن نقول: هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة، فإنه تعالى قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [محمد: ٢٣]أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريق الإسلام، فإذن هم بين أمرين، إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه؛ لأن الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق، والقرآن منهما الصنف الأعلى بل النوع الأشرف، وإما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة، تقديره: أفلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مبعودين، أم على قلوب أقفال فيتدبرون ولا يفهمون، وعلى هذا لا نحتاج أن نقول: (أم) بمعنى (بل)، بل هي على حقيقتها للاستفهام واقعة في وسط الكلام والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر، وأم دخلت على القلوب التي في وسط الكلام.

المسألة الثانية: قوله ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ على التنكير ما الفائدة فيه؟ نقول: قال الزمخشري: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون للتنبيه على كونه موصوفًا لأن النكرة بالوصف أَوْلى من المعرفة، فكأنه قال: أم على قلوب قاسية أو مظلمة. الثاني: أن يكون للتبعيض كأنه قال: أم على بعض

القلوب لأن النكرة لا تعم، تقول: جاءني رجال. فيفهم البعض وجاءني الرجال فيفهم الكل. ونحن نقول: التنكير للقلوب للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب، وذلك لأن القلب إذا كان عارفًا كان معروفًا لأن القلب خُلق للمعرفة، فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان، هذا سبع؛ ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر. إذا علم هذا فالتعريف إما بالألف واللام وإما بالإضافة، واللام لتعريف الجنس أو للعهد، ولم يمكن إرادة الجنس إذ ليس على كل قلب قفل، ولا تعريف العهد لأن ذلك القلب ليس ينبغي أن يقال له قلب، وأما بالإضافة بأن نقول على قلوب أقفالها وهي لعدم عود فائدة إليهم، كأنها ليست لهم. فإن قيل: فقد قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ [الزمر: ٢٢] فنقول: الأقفال أبلغ من الختم فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأسًا.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالإضافة ولم يقل أقفال، كما قال: ﴿قُلُوبٍ﴾ لأن الأقفال كانت من شأنها فأضافها إليها كأنها ليست إلا لها، وفي الجملة لم يضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم، وأضاف الأقفال إليها لكونها مناسبة لها، ونقول: أراد به أقفالاً مخصوصة هي أقفال الكفر والعناد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

إشارة إلى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد ﷺ وبعثه وارتدُّوا، أو إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن، وهم جماعة منعهم حب الرياسة عن اتباع محمد عليه السلام وكانوا يعلمون أنه الحق ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهَّل لهم ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ يعني قالوا: نعيش أيامًا ثم نؤمن به، وقرئ ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ فإن قيل: الإملاء والإمهال وحَدُّ الآجال لا يكون إلا من الله، فكيف يصح قراءة من قرأ (وأملى لهم) فإن المملي حينئذٍ يكون هو الشيطان؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: جاز أن يكون المراد ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ الله، فيقف على ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ وثانيها: هو أن المسول أيضًا ليس هو الشيطان، وإنما أسند إليه من حيث إن الله قدر على يده ولسانه ذلك، فذلك الشيطان يمليهم ويقول لهم: في آجالكم فسحة فتمتعوا برياستكم ثم في آخر الأمر تؤمنون، وقرئ: (وأُمليَ لهم) بفتح الياء وضم الهمزة على البناء للمفعول.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

قال بعض المفسرين: ذلك إشارة إلى الإملاء، أي ذلك الإملاء بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا. وهو اختيار الواحدي، وقال بعضهم: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التسويل، ويحتمل أن يقال

ذلك الارتداد بسبب أنهم قالوا: ﴿ سَنُطِيعُكُمْ﴾ وذلك لأنا نبين أن قوله: ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ هو أنهم قالوا: نوافقكم على أن محمدًا ليس بمرسل وإنما هو كاذب، ولكن لا نوافقكم في إنكار الرسالة والحشر والإشراك بالله من الأصنام، ومن لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر، وإن آمن بغيره. لا بل من لم يؤمن بمحمد ﷺ، لا يؤمن بالله ولا برسله ولا بالحشر؛ لأن الله كما أخبر عن الحشر وهو جائز، أخبر عن نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، وهي جائزة فإذا لم يصدق الله في شيء لا ينفي الكذب بقول الله في غيره، فلا يكون مصدقًا موقنًا بالحشر، ولا برسالة أحد من الأنبياء؛ لأن طريق معرفتهم واحد، والمراد من الذين كرهوا ما نزل الله هم المشركون والمنافقون، وقيل: المراد اليهود، فإن أهل مكة قالوا لهم: نوافقكم في إخراج محمد وقتله وقتال أصحابه. والأول أصح؛ لأن قوله: ﴿ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ لو كان مسندًا إلى أهل الكتاب لكان مخصوصًا ببعض ما أنزل الله، وإن قلنا بأنه مسند إلى المشركين يكون عامًّا؛ لأنهم كرهوا ما نزل الله وكذبوا الرسل بأسرهم، وأنكروا الرسالة رأسًا، وقوله: ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ يعني فيما يتعلق بمحمد من الإيمان به فلا نؤمن، والتكذيب به فنكذبه كما تكذبونه والقتال معه، وأما الإشراك بالله، واتخاذ الأنداد له من الأصنام، وإنكار الحشر والنبوة، فلا، وقوله: (والله يعلم أسرارهم) قال أكثرهم: المراد منه هو أنهم قالوا ذلك سرًّا، فأفشاه الله وأظهره لنبيه عليه الصلاة والسلام، والأظهر أن يقال: (والله يعلم أسرارهم) وهو ما في قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه الصلاة والسلام، فإنهم كانوا مكابرين معاندين، وكانوا يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وقرئ ﴿ إِسْرَارَهُمْ﴾ بكسر الهمزة على المصدر، وما ذكرنا من المعنى ظاهر على هذه القراءة، فإنهم كانوا يسرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى قولنا المراد من الذين ارتدوا المنافقون، فكانوا يقولون للمجاهدين من الكفار: ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ وكانوا يسرون أنهم إن غلبوا انقلبوا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]

ثم قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾

اعلم أنه لما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦] قال: فهب أنهم يُسرون والله لا يُظهره اليوم فكيف يبقى مخفيًا وقت وفاتهم، أو نقول: كأنه تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦] وهب أنهم يختارون القتال لما فيه الضراب والطعان، مع أنه مفيد على الوجهين جميعًا، إن غلبوا فالمال في الحال والثواب في المآل، وإن غُلبوا فالشهادة والسعادة، فكيف حالهم إذا ضرب وجوههم وأدبارهم، وعلى هذا فيه لطيفة، وهي أن القتال في الحال إن أقدم على المبارزة فربما يهزم الخصم ويسلم وجهه وقفاه، وإن لم يهزمه فالضرب على وجهه إن صبر وثبت وإن لم يثبت وانهزم، فإن فات القرن فقد سلم وجهه وقفاه، وإن لم يفته فالضرب على

قفاه لا غير، ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر، فوجهه وظهره مضروب مطعون، فكيف يحترز عن الأذى ويختار العذاب الأكبر؟!

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ فيه لطيفة، وهي أن الله تعالى ذكر أمرين: ضَرْب الوجه، وضَرْب الأدبار، وذكر بعدهما أمرين آخرين: اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه، فكأنه تعالى قابل الأمرين فقال: يضربون وجوههم حيث أقبلوا على سخط الله، فإن المتسع للشيء متوجه إليه، ويضربون أدبارهم لأنهم تولوا عما فيه رضا الله، فإن الكاره للشيء يتولى عنه. **وما أسخط الله يحتمل وجوهًا:**

الأول: إنكار الرسول عليه الصلاة والسلام، ورضوانه الإقرار به والإسلام.

الثاني: الكفر هو ما أسخط الله والإيمان يرضيه، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[الزمر: ٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ إلى أن قال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[البينة: ٧، ٨].

الثالث: ما أسخط الله تسويل الشيطان، ورضوان الله التعويل على البرهان والقرآن، فإن قيل: هم ما كانوا يكرهون رضوان الله، بل كانوا يقولون: إن ما نحن عليه فيه رضوان الله، ولا نطلب إلا رضاء الله، وكيف لا والمشركون بإشراكهم كانوا يقولون: إنا نطلب رضاء الله. كما قالوا: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣] وقالوا: ﴿فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾[الأعراف: ٥٣] فنقول: معناه كرهوا ما فيه رضاء الله تعالى.

وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ﴿مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: (ما أرضى الله) وذلك لأن رحمة الله سابقة، فله رحمة ثابتة وهي منشأ الرضوان، وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب، فقال: ﴿رِضْوَٰنَهُۥ﴾ لأنه وصف ثابت لله سابق، ولم يقل سخط الله، بل ﴿مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان، ولهذا المعنى قال في اللعان في حق المرأة: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[النور: ٩] يقال: غضب الله مضافًا لأن لعانه قد سبق مظهر الزنا بقوله وأيمانه، وقبله لم يكن لله غضب، ورضوان الله أمر يكون منه الفعل، وغضب الله أمر يكون من فعله، ولنضرب له مثالاً: الكريم الذي رسخ الكرم في نفسه يحمله الكرم على الأفعال الحسنة، فإذا كثر من السيئ الإساءة فغضبه لا لأمر يعود إليه، بل غضبه عليه يكون لإصلاح حاله، وزجرًا لأمثاله عن مثل فعاله، فيقال: هو كان الكريم فكرمه لما فيه من الغريزة الحسنة، لكن فلانًا أغضبه وظهر منه الغضب، فيجعل الغضب ظاهرًا من الفعل،

والفعل الحسن ظاهرًا من الكرم، فالغضب في الكريم بعد فعل، والفعل منه بعد كرم، ومن هذا يعرف لطف قوله: ﴿مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ حيث لم يطلبوا إرضاء الله، وإنما طلبوا إرضاء الشيطان والأصنام.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾.

هذا إشارة إلى المنافقين و﴿أَمْ﴾ تستدعي جملة أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام؛ لأن كلمة ﴿أَمْ﴾ إذا كانت متصلة استفهامية تستدعي سبق جملة أخرى استفهامية، يقال: أزيد في الدار أم عمرو؟ وإذا كانت منقطعة لا تستدعي ذلك، يقال: إن هذا لزيد أم عمرو، وكما يقال: بل عمرو، والمفسرون على أنها منقطعة، ويحتمل أن يقال: إنها استفهامية، والسابق مفهوم من قوله تعالى: (والله يعلم أسرارهم) فكأنه تعالى قال: أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله أسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها؟ والكل قاصر، وإنما يعلمها ويُظهرها، ويؤيد هذا أن المتقطعة لا تكاد تقع في صدر الكلام فلا يقال ابتداء، بل جاء زيد، ولا أم جاء عمرو. والإخراج بمعنى الإظهار فإنه إبراز، والأضغان هي الحقود والأمراض، واحدها ضغن.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

لما كان مفهوم قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩] أن الله يُظهر ضمائرهم ويبرز سرائرهم، كأن قائلاً قال: فلمَ لم يظهر؟ فقال: أخرناه لمحض المشيئة لا لخوف منهم، كما لا تفشى أسرار الأكابر خوفًا منهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي لا مانع لنا والإراءة بمعنى التعريف، وقوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ لزيادة فائدة، وهي أن التعريف قد يطلق ولا يلزمه المعرفة، يقال: عرفته ولم يعرف وفهمته ولم يفهم فقال هاهنا: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ يعني عرفناهم تعريفًا تعرفهم به، إشارة إلى قوة التعريف، واللام في قوله ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ هي التي تقع في جزاء (لو) كما في قوله: ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أدخلت على المعرفة إشارة إلى أن المعرفة كالمرتبة على المشيئة، كأنه قال: ولو نشاء لعرفتهم. ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف، أي لو نشاء لعرفناك تعريفًا معه المعرفة لا بعده، وأما اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ فجواب لقسم محذوف كأنه قال: ولتعرفنهم والله، وقوله: ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فيه وجوه: أحدها: في معنى القول وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد من القول قولهم، أي لتعرفنهم في معنى قولهم حيث يقولون ما معناه النفاق، كقولهم حين مجيء النصر إنا كنا معكم، وقولهم: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ﴾ [المنافقون: ٨] وقولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣] وغير ذلك، ويحتمل أن يكون المراد قول الله عزّ وجل، أي لتعرفنهم في معنى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ﴾ [النور: ٦٢] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] إلى غير ذلك. وثانيها: في ميل القول عن الصواب حيث قالوا ما لم يعتقدوا،

فأمالوا كلامهم حيث قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥] إلى غير ذلك. وثالثها: في لحن القول، أي في الوجه الخفي من القول الذي يفهمه النبي عليه السلام ولا يفهمه غيره، وهذا يحتمل أمرين أيضًا والنبي عليه السلام كان يعرف المنافق ولم يكن يُظهر أمره إلى أن أذن الله تعالى له في إظهار أمرهم ومنع من الصلاة على جنائزهم والقيام على قبورهم، وأما قوله: ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ فالظاهر أن المراد أن الله تعالى لو شاء لجعل على وجوههم علامة أو يمسخهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ [يس: ٦٧] وروي أن جماعة منهم أصبحوا وعلى جباههم مكتوب هذا منافق، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وعد للمؤمنين، وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافق، فإن المنافق كان له قول بلا عمل، والمؤمن كان له عمل ولا يقول به، وإنما قوله التسبيح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون في السيئات مستغفرين مشفقين، والمنافق كان يتكلم في الصالحات كقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ٨] ويعمل السيئ فقال تعالى: الله يسمع أقوالهم الفارغة ويعلم أعمالكم الصالحة فلا يضيع.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

أي لنأمرنكم بما لا يكون متعينًا للوقوع، بل بما يحتمل الوقوع ويحتمل عدم الوقوع كما يفعل المختبر، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ أي نعلم المجاهدين من غير المجاهدين ويدخل في علم الشهادة فإنه تعالى قد علمه علم الغيب، وقد ذكرنا ما هو التحقيق في الابتلاء، وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ وقوله: ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ أي المقدمين على الجهاد ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي الثابتين الذين لا يولون الأدبار وقوله: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ٨] لأن المنافق وُجد منه هذا الخبر والمؤمن وُجد منه ذلك أيضًا، وبالجهاد يعلم الصادق من الكاذب، كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وثانيها: إخبارهم من عدم التولية في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥] إلى غير ذلك، فالمؤمن وفى بعهده وقاتل مع أصحابه في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، والمنافق كان كالهباء ينزعج بأدنى صيحة. وثالثها: المؤمن كان له أخبار صادقة مسموعة من النبي عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧]، ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وللمنافق أخبار أراجيف كما قال تعالى في حقهم: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠] فعند تحقق الإيجاف يتبين الصدق من الإرجاف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

فيه وجهان: أحدهما: هم أهل الكتاب قريظة والنضير. والثاني: كفار قريش. يدل على الأول قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ قيل: أهل الكتاب تبين لهم صدق محمد عليه السلام، وقوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ تهديد معناه هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه وليس كذلك، بل الشقاق مع الله فإن محمدًا رسول الله ما عليه إلا البلاغ، فإن ضروا يضروا الرسل لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق، وقوله: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قد علم معناه. فإن قيل: قد تقدم في أول السورة أن الله تعالى أحبط أعمالهم فكيف يحبط في المستقبل؟ فنقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١] في أول السورة - المشركون، ومن أول الأمر كانوا مبطلين، وأعمالهم كانت على غير شريعة، والمراد من الذين كفروا هاهنا أهل الكتاب، وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول، ولا ينفعهم إيمانهم بالحشر والرسل والتوحيد، والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلاً ولا كان معترفًا بالحشر. الثاني: هو أن المراد بالأعمال هاهنا مكايدهم في القتال وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين، والمراد بالأعمال في أول السورة هو ما ظنوه حسنة.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

العطف هاهنا من باب عطف المسبب على السبب، يقال: اجلس واسترح وقم وامش لأن طاعة الله تُحمل على طاعة الرسول، وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم، كأنه تعالى قال: يا أيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير.

وقوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها: دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم. قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

الوجه الثاني: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بترك طاعة الرسول كما أبطل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

الثالث: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ [الحجرات: ١٧] وذلك أن من يمن بالطاعة على الرسول كأنه يقول: هذا فعلته لأجل قلبك، ولولا رضاك به لما فعلت، وهو منافٍ للإخلاص، والله لا يقبل إلا العمل الخالص.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

بيّن أن الله لا يغفر الشرك، وما دون ذلك يغفره إن شاء حتى لا يظن ظان أن أعمالهم وإن بطلت لكن فضل الله باقٍ يغفر لهم بفضله، وإن لم يغفر لهم بعملهم.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾.

لما بيّن أن عمل الكافر الذي له صورة الحسنات محبط، وذنبه الذي هو أقبح السيئات غير مغفور، بَيّن أن لا حرمة في الدنيا ولا في الآخرة، وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ وأمر بالقتال بقوله: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي لا تضعفوا بعد ما وجد السبب في الجد في الأمر والاجتهاد في الجهاد فقال: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ يقتضي السعي في القتال لأن أمر الله وأمر الرسول ورد بالجهاد وقد أُمروا بالطاعة، فذلك يقتضي أن لا يضعف المكلف ولا يكسل ولا يهن ولا يتهاون، ثم إن بعد المقتضي قد يتحقق مانع ولا يتحقق المسبب، والمانع من القتال إما أخروي وإما دنيوي، فذكر الأخروي وهو أن الكافر لا حرمة له في الدنيا والآخرة، لأنه لا عمل له في الدنيا ولا مغفرة له في الآخرة، فإذا وُجد السبب ولم يوجد المانع ينبغي أن يتحقق المسبب، ولم يقدم المانع الدنيوي على قوله: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟﴾ إشارة إلى أن الأمور الدنيوية لا ينبغي أن تكون مانعة من الإتيان، فلا تهنوا فإن لكم النصر، أو عليكم بالعزيمة على تقدير الاعتزام للهزيمة.

ثم قال تعالى بعد ذلك المانع الدنيوي مع أنه لا ينبغي أن يكون مانعًا ليس بموجود أيضًا حيث أنتم الأعلون، والأعلون والمصطفون في الجمع حالة الرفع معلوم الأصل، ومعلوم أن الأمر كيف آل إلى هذه الصيغة في التصريف، وذلك لأن أصله في الجمع الموافق أعليون ومصطفيون، فسكنت الياء لكونها حرف علة، فتحرك ما قبلها والواو كانت ساكنة فالتقى ساكنان، ولم يكن بد من حذف أحدهما أو تحريكه، والتحريك كان يوقع في المحذور الذي اجتنب منه فوجب الحذف، والواو كانت فيه لمعنى لا يستفاد إلا منها وهو الجمع فأسقطت الياء وبقي أعلون، وبهذا الدليل صار في الجر أعلين ومصطفين.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ هداية وإرشاد يمنع المكلف من الإعجاب بنفسه، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ كان ذلك سبب الافتخار فقال: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ يعني ليس ذلك من أنفسكم بل من الله، أو نقول: لما قال: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ فكان المؤمنون يرون ضعف أنفسهم وقلتهم مع كثرة الكفار وشوكتهم، وكان يقع في نفس بعضهم أنهم كيف يكون لهم الغلبة فقال:

إن الله معكم، لا يبقى لكم شك ولا ارتياب في أن الغلبة لكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]وقوله: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وَعْد آخر وذلك لأن الله لما قال: إن الله معكم، كان فيه أن النصرة بالله لا بكم، فكان القائل يقول: لم يصدر مني عمل له اعتبار فلا أستحق تعظيمًا. فقال: هو ينصركم ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئًا، ويجعل كأن النصرة جعلت بكم ومنكم، فكأنكم مستقلون في ذلك ويعطيكم أجر المستبد، والترة: النقص، ومنه الموتر كأنه نقص منه ما يشفعه، ويقول عند القتال: إن قُتل من الكافرين أحد فقد وتروا في أهلهم وعملهم حيث نقص عددهم وضاع عملهم، والمؤمن إن قُتل فإنما ينقص من عدده ولم ينقص من عمله، وكيف ولم ينقص من عدده أيضًا، فإنه حي مرزوق، فرح بما هو إليه مسوق.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

زيادة في التسلية، يعني كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد، وهي لا تفوتك لكونك منصورًا غالبًا، وإن فاتتك فعملك غير موتر، فكيف وما يفوتك، فإن فات فائت ولم يعوض لا ينبغي لك أن تلتفت إليها لكونها لعبًا ولهوًا، وقد ذكرنا في اللعب واللهو مرارًا أن اللعب ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل، ثم إن استعمله الإنسان ولم يشغله عن غيره، ولم يثنه عن أشغاله المهمة، فهو لعب، وإن شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو، ولهذا يقال: (ملاهي) لآلات الملاهي لأنها مشغلة عن الغير، ويقال لما دونه لعب، كاللعب بالشطرنج والحمام، وقد ذكرنا ذلك غير مرة.

وقوله: ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ إعادة للوعد، والإضافة للتعريف، أي الأجر الذي وعدكم بقوله: ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وقوله: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن الجهاد لا بد له من إنفاق، فلو قال قائل: أنا لا أنفق مالي. فيقال له: الله لا يسألكم مالكم في الجهات المعينة من الزكاة والغنيمة وأموال المصالح فيها تحتاجون إليه من المال لا تراعون بإخراجه. وثانيها: الأموال لله وهي في أيديكم عارية، وقد طلب منكم أو أجاز لكم في صرفها في جهة الجهاد، فلا معنى لبخلكم بماله، وإلى هذا إشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الحديد: ١٠] أي الكل لله. وثالثها: لا يسألكم أموالكم كلها، وإنما يسألكم شيئًا يسيرًا منها وهو ربع العشر، وهو قليل جدًّا لأن العشر هو الجزء الأقل إذ ليس دونه جزء وليس اسمًا مفردًا، وأما الجزء من أحد عشر ومن اثنى عشر و(إلَى) مائة جزء لما لم يكن ملتفتًا إليه لم يوضع له اسم مفرد.

ثم إن الله تعالى لم يوجب ذلك في رأس المال، بل أوجب ذلك في الربح الذي هو من

فضل الله وعطائه، وإن كان رأس المال أيضًا كذلك، لكن هذا المعنى في الربح أظهر، ولما كان المال منه ما ينفق للتجارة فيه ومنه ما لا ينفق، وما أنفق منه للتجارة أحد قسميه، وهو يحتمل أن تكون التجارة فيه رابحة، ويحتمل أن لا تكون رابحة، فصار القسم الواحد قسمين فصار في التقدير كان الربح في ربعه فأوجب (ربع) عشر الذي فيه الربح وهو عشر فهو ربع العشر وهو الواجب، فعلم أن الله لا يسألكم أموالكم ولا الكثير منه.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

الفاء في قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بيانًا لشح الأنفس، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين، وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر، فكأنه تعالى بيّن أن الإحفاء يقع عقيب السؤال لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئًا. وقوله: ﴿تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ يعني ما طلبها ولو طلبها وألح عليكم في الطلب لبخلتم، كيف وأنتم تبخلون باليسير لا تبخلون بالكثير؟ وقوله: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ يعني بسببه فإن الطالب وهو النبي ﷺ وأصحابه يطلبونكم، وأنتم لمحبة المال وشح الأنفس تمتنعون، فيفضي إلى القتال وتظهر به الضغائن.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

(يعني) قد طلبت منكم اليسير فبخلتم، فكيف لو طلبت منكم الكل؟ وقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون موصولة كأنه قال: أنتم هؤلاء الذين تُدعون لتنفقوا في سبيل الله: وثانيهما: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وحدها خبر (ها انتم) كما يقال: (أنت هذا) تحقيقًا للشهرة والظهور، أي ظهر أثركم بحيث لا حاجة إلى الإخبار عنكم بأمر مغاير ثم يبتدئ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ وقوله ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي إلى الإنفاق إما في سبيل الله تعالى بالجهاد، وإما في صرفه إلى المستحقين من إخوانكم، وبالجملة ففي الجهتين تخذيل الأعداء ونصرة الأولياء ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾، ثم بيّن أن ذلك البخل ضرر عائد إليه، فلا تظنوا أنهم لا ينفقونه على غيرهم بل لا ينفقونه على أنفسهم فإن من يبخل بأجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل إلا على نفسه، ثم حقق ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ غير محتاج إلى مالكم وأتمه بقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ حتى لا تقولوا: إنا أيضًا أغنياء عن القتال، ودفع حاجة الفقراء فإنهم لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأنه لولا القتال لقُتلوا، فإن الكافر إن يَغْزِ يُغْزَ، والمحتاج إن لم يدفع حاجته يقصده، لا سيما أباح الشارع للمضطر ذلك، وأما في الآخرة فظاهر فكيف لا يكون فقيرًا وهو موقوف مسؤول ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ بيان الترتيب من وجهين: أحدهما: أنه ذكره بيانًا للاستغناء، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] وقد ذكر أن هذا تقرير بعد التسليم، كأنه تعالى يقول: الله غني عن العالم بأسره فلا حاجة له إليكم. فإن كان ذاهب يذهب إلى أن ملكه بالعالم وجبروته يظهر به وعظمته بعباده، فنقول: هب أن هذا الباطل حق لكنكم غير متعينين له، بل الله قادر على أن يخلق خلقًا غيركم يفتخرون بعبادته، وعالَمًا غير هذا يشهد بعظمته وكبريائه. وثانيهما: أنه تعالى لما بيّن الأمور وأقام عليها البراهين وأوضحها بالأمثلة قال: إن أطعتم فلكم أجوركم وزيادة، وإن تتولوا لم يبق لكم إلا الإهلاك، فإن ما من نبي أنذر قومه وأصروا على تكذيبه إلا وقد حق عليهم القول بالإهلاك وطهر الله الأرض منهم وأتى بقوم آخرين طاهرين. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ فيه مسألة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهي أن النحاة قالوا: يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم، الجزم والرفع جميعًا، قال الله تعالى هاهنا: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ بالجزم، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] بالرفع بإثبات النون وهو مع الجواز، ففيه تدقيق: وهو أن ههنا لا يكون متعلقًا بالتولي لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتي بهم الله على الطاعة وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين، كون من يأتي بهم مطيعين، وأما هناك فسواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون، فلم يكن للتعليق هناك وجه فرفع بالابتداء، وههنا جزم للتعليق.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ في الوصف ولا في الجنس وهو لائق. الوجه الثاني: وفيه وجوه: أحدها: قوم من العجم. ثانيها: قوم من فارس، روي أن النبي ﷺ سئل عمن يستبدل بهم إن تولوا وسلمان إلى جنبه فقال: «**هَذَا وَقَوْمُهُ**» ثم قال: «**لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ مَنُوطًا بِالثُّرَيَّا، لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ**»[1] وثالثها: قوم من الأنصار، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وعترته وآل بيته أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا، آمين.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٧٢/ ٢٥٤٦) من طريق جعفر الجزري عن يزيد عن أبي هريرة... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٩٦)، حديث رقم (٧٩٣٧)، والحارث في (مسنده) (٢/ ٩٤٣)، حديث رقم (١٤٠)، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (١٢/ ٢٠٧)، حديث رقم (٣٣١٨٣)، جميعًا من طريق عوف عن شهر عن أبي هريرة... به.

سورة القتال، وهي سورة محمد ﷺ

مدنية في قول ابن عباس؛ ذكره النحاس[1].

وقال الماوردي[2]: [مدنية] في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنَّهما قالا: إلا آيةً منها نزلت عليه بعد حَجَّة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حُزناً عليه؛ فنزل عليه ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: ١٣].

وقال الثعلبيّ: إنَّها مكية؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحَّاك وسعيد بن جبير. وهي تسع وثلاثون آية. وقيل: ثمان[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١﴾

قال ابن عباس ومجاهد: هم أهلُ مكةَ؛ كفروا بتوحيد الله[4]، وصدّوا أنفسَهم والمؤمنين عن دين الله ـ وهو الإسلام ـ بنهيهم عن الدخول فيه، وقاله السدّي. وقال الضحاك: «عَنْ سَبِيلِ اللهِ»: عن بيت الله بمنع قاصديه[5].

ومعنى «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ»: أبطلَ كيدَهم ومكرهم بالنبيّ ﷺ، وجعل الدائرة عليهم. قاله الضحاك[6]. وقيل: أبطل ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام، وفَكِّ الأسارى، وقِرَى الأضياف، وحفظ الجوار[7].

---

(١) في الناسخ والمنسوخ له ٣/ ٤.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٠، وما بين حاصرتين منه.

(٣) بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٢٩.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٠.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٧.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٢٩-٥٣٠.

وقال ابن عباس: نزلت في المُطعِمِين ببدر، وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل، والحارث بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأُبيّ وأُمَيّة ابنا خَلَف، ومُنَبّه ونُبَيْه ابنا الحجّاج، وأبو البَخْتَري بن هشام، وزَمْعَةُ بن الأسود، وحكيمُ بن حزام، والحارثُ ابن عامر بن نوفل[١].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار. وقال مقاتل: إنَّها نزلت خاصة في ناسٍ من قريش[٢]. وقيل: هما عامّتان فيمن كفر وآمن[٣].

ومعنى «أَضَلَّ أعْمَالَهُمْ»: أبطلَها. وقيل: أضلَّهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق[٤].

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من قال: إنَّهم الأنصار، فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم. ومن قال: إنَّهم من قريش، فهي الهجرة[٥]. ومن قال بالعموم، فالصالحات جميع الأعمال التي ترضي الله تعالى.

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾: لم يخالفوه في شيء. قاله سفيان الثوري[٦]. وقيل: صدّقوا محمداً ﷺ فيما جاء به. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يريد أنَّ إيمانَهم هو الحقُّ من

---

(١) بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٩١ ، وفيه «الوليد بن عقبة وعقبة بن أبي معيط» بدل «الحارث بن هشام، وأبيّ بن خلف».

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩١ دون ذكر مجاهد، وذكر قوله ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٩ .

(٣) بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٣٠ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩١ .

(٥) المصدر السابق.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٧ .

ربهم. وقيل: أي: إنَّ القرآن هو الحقُّ من ربهم[١]، نَسَخَ به ما قبلَه ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: شأنَهم؛ عن مجاهد وغيره. وقال قتادة: حالَهم. ابن عباس: أمورَهم. والثلاثة متقاربة، وهي متأوّلة على إصلاح ما تعلق بدنياهم. وحكى النقاشُ أنَّ المعنى: أصلح نياتِهم؛ ومنه قول الشاعر:

فإن تُقبلي بالودِّ أقبِلْ بمثله ... وإن تُدبري أذهبْ إلى حالِ باليا[٢]

وهو على هذا التأويل[٣] محمول على إصلاح دينهم[٤].

«والبال» كالمصدر، ولا يعرف منه فعل، ولا تجمعه العربُ إلا في ضرورة الشِّعر فيقولون فيه: بالات[٥].

المبرِّد: قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب؛ يقال: ما يخطر فلان على بالي، أي: على قلبي[٦].

الجوهري[٧]: والبال رخاءُ النفس؛ يقال: فلان رخيّ البال. والبال: الحال؛ يقال: ما بالك؟ وقولهم: ليس هذا من بالي، أي: مما أباليه. والبال: الحوتُ العظيمُ من حيتان البحر، وليس بعربيّ. والبالة: وعاء الطِّيب؛ فارسي معرَّب، وأصله بالفارسية بيله. قال أبو ذؤيب:

كأنَّ عليها بالةً لَطَمِيَّةً ... لها من خلال الدَّأيتَيْنِ أريجُ[٨]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩١-٢٩٢ ، والبيت أيضاً في أمالي الزجاجي ص١٦١ غير منسوب.

(٣) في (م): التأول.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١١٠ ، وفيه: البال: مصدر، كالحال والشأن.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨ .

(٧) في الصحاح (بول).

(٨) البيت في ديوان الهذليين ص٥٩ . اللطميّة: أو: اللطيمة: هي العنبرة التي لُطِمت بالمسك، فتفتّقت =

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ③﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ «ذلِك» في موضع رفع، أي: الأمر ذلك، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببُه هذا[١]. فالكافر اتّبع الباطل، والمؤمن اتّبع الحقّ. والباطل: الشرك. والحقّ: التوحيد والإيمان. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: كهذا البيان الذي بُيّن؛ يُبَيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات[٢]. والضمير في «أَمْثَالَهُمْ» يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ④﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لمّا ميّز بين الفريقين؛ أمرَ بجهاد الكفار.

قال ابن عباس: الكفار المشركون عبدةُ الأوثان. وقيل: كلُّ من خالف دينَ الإسلام من مشركٍ أو كتابيٍّ إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذِمّة. ذكره الماوردي[٤]، واختاره ابن العربيّ[٥] وقال: وهو الصحيح لعموم الآية فيه.

= به حتى نشبت رائحتها. الدأي: ضلوع الصدر في ملتقاه وملتقى الجنب. الأريج: الريح الطيبة. اللسان (لطم) (دأي) (أرج).

(١) أي: تكون «ذلك» إما في موضع رفع خبر، على إضمار مبتدأ، أي: الأمر ذلك، أو في موضع رفع بالابتداء، وما بعده خبره. إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦١ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٣ .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٦٨٨ .

«فَضَرْبَ الرِّقَابِ» مصدر[١]. قال الزجَّاج[٢]: أي: فاضربوا الرِّقاب ضرباً.

وخصّ الرِّقاب بالذِّكر؛ لأنَّ القتلَ أكثر ما يكون بها[٣]. وقيل: نصب على الإغراء[٤]. قال أبو عبيدة[٥]: هو كقولك: يا نفسُ صبراً.

وقيل: التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب[٦].

وقال: «فَضَرْبَ الرِّقَابِ» ولم يقل: فاقتلوهم؛ لأنَّ في العبارة بضرب الرِّقاب من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل؛ لِما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة؛ وهو حزُّ العنق وإطارةُ العضو الذي هو رأس البدن وعُلوه وأوْجَهُ أعضائه[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: أكثرتُم القتل. وقد مضى في «الأنفال» عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال:٦٧][٨]. ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: إذا أسرتُموهم. والوَثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدراً؛ يقال: أوثقتُه إيثاقاً ووَثاقاً[٩].

وأما الوِثاق ـ بالكسر ـ فهو اسم الشيء الذي يوثَق به؛ كالرِّباط. قاله القشيري.

وقال الجوهَري[١٠]: وأوثقه في الوِثاق، أي: شدّه، وقال تعالى: «فَشُدُّوا الوَثَاقَ». والوِثاق ـ بكسر الواو ـ لغة فيه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩ .

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩ ـ ونسب القول فيه للفراء ـ وتفسير البغوي ٤/ ١٧٨ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢١٤ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٨٨ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥٣٠ .

(٨) ١٠/ ٧٤ .

(٩) الوسيط ٤/ ١١٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٩٧ .

(١٠) في الصحاح (وثق).

وإنما أمر بشدّ الوَثاق لئلا يُفلِتوا. ﴿فَإِمَّا مَنًّا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾[١]. ولم يذكر القتل هاهنا؛ اكتفاءً بما تقدّم من القتل في صدر الكلام.

و«مَنًّا» و«فِدَاءً» نصب بإضمار فعل. وقرئ: «فَدًى» بالقصر مع فتح الفاء، أي: فإما أن تمنُّوا عليهم مَنًّا، وإما أن تفادوهم فِداءً[٢].

روي عن بعضهم أنَّه قال: كنت واقفاً على رأس الحجَّاج حين أُتيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانُ مئة، فقتل منهم نحواً من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِندة فقال: يا حجَّاج، لا جازاك الله عن السنّة والكرم خيراً! قال: ولم ذلك؟ قال: لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ في حقّ الذين كفروا، فوالله ما مَنَنْتَ ولا فَدَيتَ! وقد قال شاعركم فيما وصف به قومَه من مكارم الأخلاق:

ولا نَقتلُ الأسرى ولكن نفكُّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارمِ[٣]

فقال الحجَّاج: أفٍّ لهذه الجِيَف! أمَا كان فيهم مَنْ يحسن مثل هذا الكلام؟! خَلُّوا سبيل من بقي. فخُلِّيَ يومئذ عن بقية الأسرى ـ وهم زهاء ألفين ـ بقول ذلك الرجل[٤].

الثالثة: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

الأوّل: أنها منسوخةٌ، وهي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يفادَوا ولا يُمَنَّ عليهم. والناسخُ لها عندهم قولُه تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[٥]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٧٨ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣١، وتفسير الرازي ٢٨/ ٤٤، وذكر قراءة: فَدًى، الزمخشري، وهي قراءة شاذة.

(٣) البيت للفرزدق كما في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٤٠٢، والأغاني ١٥/ ٣٤٣.

(٤) القصة مختصرة في العقد الفريد ٢/ ١٧٤ ورواية البيت فيه: (القلائد) بدل: (المغارم)، وبهجة المجالس ١/ ٩٩، ووقع في وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢/ ٣٩ أنّه رجل من بني تميم.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥.

[التوبة: ٥] وقولُه: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وقولُه: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] الآية. قاله قتادة والضحاك والسُّدّي وابنُ جُرَيج والعَوْفي عن ابن عباس، وقاله كثير من الكوفيين[١].

وقال عبد الكريم الجَزَري[٢]: كُتب إلى أبي بكر في أسير أُسِر، فذكروا أنَّهم التمسوه بفداء كذا وكذا، فقال: اقتلوه، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إليّ من كذا وكذا[٣].

الثاني: أنها في الكفار جميعاً. وهي منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد. قالوا: إذا أُسِر المشركُ، لم يجز أن يُمَنَّ عليه، ولا أن يفادى به فيردّ إلى المشركين، ولا يجوز أن يفادى عندهم إلا بالمرأة؛ لأنَّها لا تُقتل. والناسخ لها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] إذ كانت «براءة» آخر ما نزلت بالتوقيف؛ فوجب أن يُقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجِزية[٤] - وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة[٥] - خيفة أن يعودوا حَرْباً للمسلمين.

ذكر عبد الرّزاق أخبرنا معمر عن قتادة ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ قال: نسخها: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]. وقال مجاهد: نسخها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وهو قول الحكَم.[٦]

الثالث: أنها ناسخة. قاله الضحاك وغيره. روى الثوري عن جُوَيبر عن الضحاك:

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٨٣-١٨٥ .

(٢) في (م) و(د) و(ز) و(ق): الجوزي، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٠ ، والطبري في تفسيره ٢١/ ١٨٤ ، وذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٠ .

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٢٤ ، ٣/ ٧ .

(٥) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٠ .

(٦) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠ ، وأثر قتادة في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢١ .

﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] قال: نسخها ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾. وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء: «فَإِمَّا مَنًّا بَعدُ وإِمَّا فِدَاءً» فلا يُقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفادى؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ. قال الأشعث: كان الحسن يكره أن يقتل الأسير، ويتلو: «فَإِمَّا مَنًّا بَعدُ وإِمَّا فِدَاءً»(١).

وقال الحسن أيضاً: في الآية تقديم وتأخير؛ فكأنه قال: فضرب الرِّقاب حتى تضع الحربُ أوزارَها. ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾. وزعم أنَّه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يديه أن يقتله، لكنه بالخيار في ثلاثة منازل: إما أن يَمُنّ، أو يُفادى، أو يسترقّ(٢).

الرابع: قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداءٌ ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فإذا أسِر بعد ذلك، فللإمام أن يحكمَ بما رآه من قتل أو غيره(٣).

الخامس: أنَّ الآية محكمة، والإمام مخيَّر في كل حال(٤)؛ رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس(٥)، وقاله كثير من العلماء؛ منهم ابن عمرَ والحسن وعطاء، وهو مذهبُ مالك والشافعيِّ والثوريِّ والأوزاعيِّ وأبي عبيد وغيرِهم، وهو الاختيار؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ والخلفاءَ الراشدين فعلوا كلَّ ذلك(٦)؛ قَتَل النبيُّ ﷺ عُقبة بنَ أبي مُعَيط والنضرَ بنَ الحارث يوم بدر صَبْرًا(٧)، وفادى سائر أسارى بدر، ومنَّ على أبي عروة

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠-١١ .

(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧٤ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥ ، ١١ .

(٤) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٥ .

(٥) أخرجه أبو عبيد في الأموال ص١٧٠ (٣٤٢)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢ .

(٦) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٢٢٤-٢٢٧ ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ١٧٨ .

(٧) سلف ١٠/ ٢٣ .

الجمحي[١]، وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد وصاروا في يده سِلْماً[٢]. ومَنَّ على ثُمامة بن أُثَال الحنفي وهو أسير في يده[٣]، وأخذ من سلمة بن الأكوع جاريةً ففدى بها أناساً من المسلمين[٤]، وهبط عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قوم من أهل مكة، فأخذهم النبيُّ ﷺ وقد منّ عليهم، وقد منّ على سَبي هوازن[٥]. وهذا كلُّه ثابت في الصحيح، وقد مضى جميعه في «الأنفال»[٦] وغيرها.

قال النحاس[٧]: وهذا على أنَّ الآيتين محكمتان معمول بهما، وهو قولٌ حسن؛ لأنَّ النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، إذ كان يجوز أن يقع التعبُّد، إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسر؛ جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمنّ على ما فيه الصلاح للمسلمين. وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد.

وحكاه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة، والمشهورُ عنه ما قدّمناه[٨]، وبالله عزَّ وجلَّ التوفيق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد وابن جبير: هو خروج عيسى عليه السلام[٩]. وعن مجاهد أيضاً: أن المعنى حتى لا يكون دينٌ إلا دين

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣١ وفيه (الحجبي) بدل (الجمحي).

(٢) من قوله: «ومنّ على أبي عروة» إلى قوله: «في يده سلماً». من (خ) و(د) و(ظ) و(ف). وحكم سعد في بني قريظة سلف ٦/ ٦٣ . ووقع في (د) «وقتل من قريظة» بلد «وقتل بني قريظة».

(٣) سلف ٢/ ٤٢٢ .

(٤) أخرجه أحمد (١٦٥٠٢)، ومسلم (١٧٥٥) مطولاً.

(٥) سلف ١٠/ ١١ .

(٦) ١٠/ ٧١ فما بعدها.

(٧) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢ .

(٨) الكشاف ٣/ ٥٣١ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٣ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٥٩٧ .

الإسلام، فَيُسْلِم كل يهوديّ ونصرانيّ وصاحب مِلّة، وتأمن الشاة من الذئب[١]. ونحوه عن الحسن والكلبي والفرّاء[٢] والكسائي. قال الكسائي: حتى يُسْلِم الخلق.

وقال الفرّاء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقال الكلبي: حتى يظهر الإسلام على الدِّين كلِّه[٣]. وقال الحسن: حتى لا يعبدوا إلا الله.

وقيل: معنى الأوزار السلاح؛ فالمعنى: شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح[٤].

وقيل: معناه حتى تضع الحرب؛ أي: الأعداءُ المحاربون أوزارَهم[٥]؛ وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة[٦]. ويقال للكراع: أوزار. قال الأعشى:

وأعددْتُ للحرب أوزارَها ... رماحاً طِوَالاً وخَيْلاً ذُكُورا
ومِن نَسْج داودَ يحدى بها ... على أثر الحيِّ عِيراً فعِيرا[٧]

وقيل: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» أي: أثقالها. والوِزر: الثقل، ومنه وزير الملك؛ لأنَّه يتحمّل عنه الأثقالَ. وأثقالها: السلاح؛ لثقل حملها[٨].

قال ابن العربي[٩]: قال الحسن وعطاء: في الآية تقديم وتأخير؛ المعنى:

---

(١) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧٤-٣٧٥ ، وقول مجاهد أيضاً في تفسيره ٢/ ٥٩٧ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٨٨ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٥٧-٥٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٤ بنحوه.

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٥ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٧) تفسير غريب القرآن ص٤٠٩ ، والبيتان في ديوان الأعشى ص١٤٩ ، ورواية البيت الثاني فيه:

ومن نَسْجِ داودَ موضونة ... تُساق مع الحيِّ عيراً فعيرا

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٩) في أحكام القرآن ١٦٩١ - ١٦٩٢ .

فضرب الرِّقاب حتى تضع الحربُ أوزارَها، فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق، وليس للإمام أن يقتل الأسير. وقد روي عن الحجّاج أنه دفع أسيراً إلى عبد الله بن عمر ليقتله، فأبى وقال: ليس بهذا أمرنا الله، وقرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾. قلنا: قد قاله رسولُ الله ﷺ وفعله[1]، وليس في تفسير الله للمنّ[2] والفداء منع من غيره، فقد بيّن الله في الزنى حكم الجلد، وبيّن النبيّ ﷺ حكم الرجم، ولعلَّ ابنَ عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال، وربك أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ «ذَلِكَ» في موضع رفع على ما تقدّم، أي: الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت[3]. وقيل: هو منصوب على معنى افعلوا ذلك[4]. ويجوز أن يكون مبتدأ، المعنى: ذلك حكمُ الكفار. وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام، وهو كما قال تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص:٥٥]. أي: هذا حقٌّ وأنا أعرّفكم أنَّ للظالمين كذا.

ومعنى: «لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ» أي: أهلكهم بغير قتال[5]. وقال ابن عباس: لأهلكهم بجند من الملائكة[6]. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ أي: أمركم بالحرب ليبلُوَ ويختبرَ بعضَكم ببعض، فيعلم المجاهِدين والصابرين، كما في السورة نفسِها[7]. ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قراءة العامة: «قاتلوا» وهي اختيار أبي عبيد. وقرأ أبو عمرو وحفص: «قُتِلوا» بضم القاف وكسر التاء[8]،

---

(١) سلف ١٠/ ٧٣.

(٢) في النسخ الخطية (لكم) بدل (للمنّ)، وهي نسخة من أحكام القرآن كما في حواشيه، والمثبت من (م) والأحكام.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٩.

(٦) نسب القول في النكت والعيون ٥/ ٢٩٤ للكلبي.

(٧) الآية ٣١، وينظر الكشاف ٣/ ٥٣١.

(٨) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠.

وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدّد التاء على التكثير[١]. وقرأ الجَحْدرِيّ وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة: «قَتَلُوا» بفتح القاف والتاء من غير ألف[٢]؛ يعني الذين قتلوا المشركين.

قال قتادة: ذكر لنا أنَّ هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسولُ الله ﷺ في الشِّعب، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل[٣]، وقد نادى المشركون: اعْلُ هُبَلُ. ونادى المسلمون: الله أعلى وأجلّ. وقال المشركون: يومٌ بيوم بَدر والحرب سِجال. فقال النبي ﷺ: «قولوا: لا سواء. قتلانا أحياءٌ عند ربهم يرزقون، وقتلاكم في النار يعذَّبون». فقال المشركون: إنَّ لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم. فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم. وقد تقدّم ذكر ذلك في «آل عمران»[٤].

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝﴾

قال القشيري: قراءة أبي عمرو: «قُتِلوا» بعيدة؛ لقوله تعالى: «سَيَهْدِيهِم وَيُصْلِحُ بالَهُمْ» والمقتول لا يوصف بهذا. قال غيره: يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة، أو سيهدي من بقي منهم. أي: يحقّق لهم الهداية. وقال ابن زياد: سيهديهم إلى محاجّة منكر ونكير في القبر[٥].

قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشادُ المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المُفْضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] معناه: فاسلكوهم إليها[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٧٩ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ١٩٠-١٩١ .

(٤) ٥/ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤ .

(٦) في (م) و(ق): فاسلكوا بهم إليها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ١/ ٧٣ وكلام أبي المعالي منه.

قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

أي: إذا دخلوها يقال لهم: تفرّقوا إلى منازلكم، فهم أعرفُ بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم. قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين(١). وفي البخاري(٢) ما يدل على صحة هذا القول عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرةٍ بين الجنَّة والنار [فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا] حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أُذِن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمد بيده لَأَحدُهم أهْدى بمنزله في الجنة [منه] بمنزِله كان(٣) في الدنيا».

وقيل: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال(٤).

قال الحسن: وصف الله تعالى لهم الجنةَ في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها(٥). وقيل: فيه حذف، أي: عَرَّف طرقَها ومساكنَها وبيوتَها لهم، فحذف المضاف.

وقيل: هذا التعريف بدليل، وهو المَلَك الموكَّل بعمل العبد يمشي بين يديه(٦) ويتبعه العبد حتى يأتي العبدُ منزلَه، ويعرّفه المَلَك جميع ما جُعل له في الجنة. وحديث أبي سعيد الخُدْريّ يردّه.

وقال ابن عباس: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: طيّبها لهم بأنواع الملاذّ؛ مأخوذ من العَرْف،

---

(١) الوسيط ٤/ ١٢١ دون ذكر مجاهد، وينظر قوله في الكشاف ٣/ ٥٣٢، وزاد المسير ٧/ ٣٩٨.

(٢) في صحيحه (٦٥٣٥) وما سيأتي بين حاصرتين منه، وسلف عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الزمر. القنطرة: الجسر. اللسان (قنطر).

(٣) لفظة «كان» ليست في (م).

(٤) الوسيط ٤/ ١٢١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤-٢٩٥.

(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٨ بنحوه.

وهو الرائحة الطيبة. وطعام مُعَرَّف، أي: مطيّب[١]، تقول العرب: عرّفت القِدر: إذا طيبتَها بالملح والأبزار[٢].

وقال الشاعر يخاطب رجلاً ويمدحه:

عَـرُفْـتَ كـإِتْـبٍ عـرّفـتـه الـلَّـطـائـمُ

يقول[٣]: كما عَرُف الإتْب، وهو البَقِير والبَقِيرة، وهو قميص لا كمّينِ[٤] له، تلبسه النساء[٥].

وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته، يقال: خزير[٦] معرّف، أي: بعضه على بعض، وهو من العُرْف المتتابع كعُرف الفرس.

وقيل: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: وفّقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة. وقيل: عرّف أهل السماء أنّها لهم؛ إظهاراً لكرامتهم فيها. وقيل: عرّف المطيعين أنها لهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ أي: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار. نظيره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] وقد تقدّم[٧].

وقال قُطْرُب: إن تنصروا نبيّ الله ينصركم الله، والمعنى واحد.

﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أي: عند القتال. وقيل: على الإسلام. وقيل: على الصراط.

---

(١) الوسيط ٤/ ١٢١، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٩.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٢ بنحوه.

(٣) في (م): يقوله.

(٤) في النسخ الخطية: كمّي.

(٥) الصحاح (عرف) (بقر). اللطائم: ـ جمع لطيمة ـ قطعة مسك. اللسان (لطم).

(٦) في النسخ حرير، والمثبت من تهذيب اللغة ٢/ ٣٤٥، والكلام منه. والخزير: اللحم الغابّ يؤخذ فيقطع صغاراً في القدر، ثمّ يطبخ بالماء الكثير والملح. اللسان (خزر).

(٧) ١٤/ ٤١٢.

وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن[١]؛ فيكون تثبيتُ الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب[٢].

وقد مضى في «الأنفال» هذا المعنى[٣]. وقال هناك: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] ثم نفاه بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] ومثله كثير؛ فلا فاعل إلا الله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسره «فَتَعْسًا لَّهُمْ» كأنه قال: أتْعَسَ الذين كفروا[٤].

و«تَعْسًا لهم» نصب على المصدر بسبيل الدعاء. قاله الفرّاء[٥]، مثل: سَقْيًا له ورَعيًا.

وهو نقيض: لَعًا له. قال الأعشى:

فالتَّعْس أوْلَى لها من أن أقول لَعَا[٦]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧.

(٣) ٩/ ٤٦٦.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢.

(٥) نقله عنه البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٠.

(٦) الكشاف ٤/ ٥٣٢، والبيت في ديوان الأعشى ص١٥٣، ودرة الغواص للحريري ص١١٠ وروايتهما (أدنى) بدل (أولى) وصدره: بذات لَوْث عَفَرْناةٍ إذا عثرت. اللوث بالفتح: القوة، وناقة عفرناة، أي: قوية. اللسان (لوث) (عفر). قال في درة الغواص: العرب تقول في الدعاء على العاثر: تعساً له وفي الدعاء له: لعاً.

وفيه عشرة أقوال: الأوّل: بُعْدًا لهم. قاله ابن عباس وابن جريج[١]. الثاني: خزياً لهم[٢]. قاله السدي. الثالث: شقاء لهم. قاله ابن زيد. الرابع: شَتماً لهم من الله. قاله الحسن. الخامس: هلاكاً لهم. قاله ثعلب. السادس: خَيْبَةً لهم. قاله الضحاك وابن زيد. السابع: قبحاً لهم. حكاه النقاش. الثامن: رغماً لهم. قاله الضحاك أيضاً[٣]. التاسع: شَرًّا لهم. قاله ثعلب أيضاً[٤]. العاشر: شقوة لهم. قاله أبو العالية[٥].

وقيل: إنَّ التَّعس الانحطاطُ والعِثار[٦].

قال ابن السِّكّيت: التعس أن يَخِرّ على وجهه[٧]. والنَّكْس أن يَخِرّ على رأسه. قال: والتعس أيضاً الهلاك[٨].

قال الجوهري[٩]: وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش، وقد تَعَس - بفتح العين - يَتْعَس تَعْساً، وأتعسه الله. قال مُجَمّع بن هلال[١٠]:

تقول وقد أفرَدْتُها من حَلِيلها[١١] ... تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَني يا مُجَمّعُ[١٢]

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٢) في (م) و(ز) و(ق): حزناً لهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ والكلام منه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ وفيه: (سقوطاً) بدل (شقوة).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٢ ، ونسبه في تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ للرُّستُمي.

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ ، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٨ .

(٩) في الصحاح (تعس).

(١٠) هو مجمّع بن مالك بن هلال، شاعر جاهلي. معجم الشعراء ص٤٣٨ .

(١١) في (م) و(ق) خليلها، والمثبت من باقي النسخ.

(١٢) البيت في درة الغواص ص١١٠ ، والخزانة ١٠/ ٤٠٣ .

يقال: تعساً لفلان، أي: ألزمه الله هلاكاً[١]. قال القُشَيرِي: وجوّز قوم تعِس بكسر العين.

قلت: ومنه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِس عَبدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة، إن أُعطيَ رَضيَ، وإنْ لم يُعْطَ لم يرض» خرّجه البخاري[٢]. في بعض طرق هذا الحديث: «تَعِس وانتكس، وإذا شِيك فلا انْتَقَش» خرّجه ابن ماجه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها؛ لأنَّها كانت في طاعة الشيطان[٤]. ودخلت الفاء في قوله: «فَتَعْساً» لأجل الإبهام الذي في «الَّذينَ»، وجاء «وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» على الخبر حملاً على لفظ الذين؛ لأنَّه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حملاً على المعنى، «وأضلَّ» حَملاً على اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾

أي: ذلك الإضلال والإتعاس[٥]؛ لأنَّهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتب والشرائع. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: مالهم من صور الخيرات، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب، ولا يَقبَل الله العملَ إلا من مؤمن. وقيل: أحبط أعمالهم، أي: عبادة الصنم.

---

(١) الصحاح (تعس).

(٢) في صحيحه (٢٨٨٦). قوله: القطيفة كساء له خَمْل؛ والخميصة: ثوب من خزّ أو صوف مُعْلَم، وكانت من لباس الناس قديماً. النهاية (قطف) (خمص).

(٣) في سننه (٤١٣٦)، وهو في صحيح البخاري أيضاً (٢٨٨٧) قوله: «انتكس» أي: انقلب على رأسه، وهو دعاءٌ عليه بالخيبة، وقوله: «وإذا شيك فلا انتقش» أي: إذا دخلتْ فيه شوكة، لا أخرجها من موضعها وهو دعاء عليه أيضاً. النهاية (نقش) (نكس).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٢١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾

بيَّنَ أحوالَ المؤمن والكافر تنبيهاً على وجوب الإيمان، ثمَّ وصل هذا بالنظر؛ أي: ألم يَسِرْ هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بقلوبهم ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ آخِرُ أمر الكافرين قبلهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم واستأصلهم.

يقال: دمّره تدميراً ودمّر عليه، بمعنىً[1].

ثم توعّد مشركي مكةَ فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[2] أي: أمثالُ هذه الفَعْلة[3]؛ يعني التدمير.

وقال الزَّجَّاج والطبري: الهاء تعود على العاقبة؛ أي: وللكافرين من قريش أمثالُ عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا[4].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾﴾

أي: وليُّهم وناصرُهم[5].

وفي حرف ابن مسعود: «ذَلِكَ بِأنَّ اللهَ وَليُّ الَّذينَ آمَنُوا». فالمولى: الناصر هاهنا. قاله ابن عباس وغيره. قال:

فَغدَت كِلاَ الفَرجَيْن تحسب أنه مَولَى المخافة خَلْفُها وأمامُها[6]

---

(١) الصحاح (دمر).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٣ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨ ، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨١-١٨٢ . والبيت للبيد، وهو في ديوانه ص٣١١ ، والبيت أيضاً في تهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٩ وروايته فيه: (فعدت) بدل (فغدت) وذكر الأزهري في شرح البيت أنه يصف =

قال قتادة: نزلت يوم أُحُد والنبيّ ﷺ في الشِّعب إذ صاح المشركون: يومٌ بيوم، لنا العُزّى ولا عُزّى لكم؛ قال النبي ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» وقد تقدّم[(١)]. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: لا ينصرهم أحد من الله[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدّم في غير موضع.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا كأنَّهم أنعام، ليس لهم هِمّة إلا بطونُهم وفروجُهم، ساهون عمّا في غدِهم. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع[(٣)]. ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مقام ومنزل[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ تقدّم الكلام في «كَأَيِّنْ» في «آل عمران»[(٥)]. وهي هاهنا بمعنى كم، أي: وكم من قرية. وأنشد الأخفش قول لبيد:

وكائنْ رأينا من ملوكٍ وسُوقةٍ ... ومفتاحِ قَيْدٍ للأسير المكبَّل[(٦)]

= بقرة وحشية غرها القناص فعدت، وكلا فرجيها: وهما أمامها وخلفها، وقال في اللسان (فرج): الفرج الثغرُ المخُوف، وهو موضع المخافة.

(١) ص٢٥٠ من هذا الجزء.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢ .

(٥) ٥/ ٣٤٩-٣٥١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦ ، والبيت في ديوان لبيد ص٣ ، ورواية البيت فيه:

وكائنْ رأيتُ من ملوك وسوقة ... وصاحبْتُ من وفدٍ كرام وموكب

فيكون معناه: وكم من أهل قرية ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: أخرجَك أهلها[١].

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ قال قتادة وابن عباس: لما خرج النبيُّ ﷺ من مكة إلى الغار، التفت إلى مكة وقال: «اللَّهُمْ أنتِ أحبُّ البلاد إلى الله، وأنتِ أحبُّ البلاد إليّ، ولولا المشركون أهْلُكِ أخرجوني لَما خرجت منك». فنزلت الآية[٢]؛ ذكره الثعلبي، وهو حديث صحيح.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الألف ألف تقرير[٣]. ومعنى «على بينةٍ» أي: على ثبات ويقين. قاله ابن عباس.

أبو العالية: وهو محمد ﷺ. والبينة: الوَحْيُ[٤].

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: عبادة الأصنام، وهو أبو جهل والكفار[٥]. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: ما اشتهوا. وهذا التزيينُ من جهة الله خلقاً. ويجوز أن يكون من الشيطان دعاءً ووسوسة. ويجوز أن يكون من الكافر، أي: زيَّن لنفسه سوءَ عمله وأصرّ على الكفر.

وقال: «سُوءُ» على لفظ «مَن» «واتَّبَعُوا» على معناه[٦].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ١٩٨ عن ابن عباس، وأخرجه بنحوه الترمذي (٣٩٢٦).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٤/ ٥٣٣ .

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ لما قال عزَّ وجلَّ: «إنَّ الله يُدْخِلُ الَّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّات» وصف تلك الجنات، أي: صفة الجنة المعدَّة للمتقين. وقد مضى الكلام في هذا في «الرعد»[١].

وقرأ علي بن أبي طالب: «مِثَالُ الجَنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقُونَ»[٢]. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغير الرائحة. والآسِن من الماء مثل الآجِن[٣].

وقد أسَن الماء يأسُن ويأسِن أُسوناً: إذا تغيّرت رائحته. وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أَجْناً وأُجُوناً[٤].

ويقال بالكسر فيهما: أجِن وأسِن يأسَن ويأجَن أَسَناً وأَجَناً. قاله اليزيدي.

وأسِنَ الرجل أيضاً يأسَن؛ بالكسر لا غير[٥]: إذا دخل البئر فأصابته ريحٌ منتنة من ريح البئر أو غير ذلك، فغُشِي عليه أو دارَ رأسُه، قال زُهير:

قد أترك القِرنَ مُصفَرًّا أنامِلُه ... يَميدُ في الرُّمح مَيدَ المائحِ الأسِنِ[٦]

---

(١) ١٢/ ٨٠-٨١.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٤.

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠١ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١.

(٥) يعني في الماضي كما قيده صاحب القاموس على مثال: فرح.

(٦) الصحاح (أجن) (أسن)، والبيت في شرح ديوان زهير ص١٢١، وخزانة الأدب ١١/ ٢٥٩، ورواية الديوان:

يغادر القِرْنَ مصفرًّا أنامِلُه ... يَميلُ في الرُّمح مَيْل المائح الأسن

القِرْن: كفؤك في الشجاعة. الصحاح (قرن). قال شارح الديوان: مصفرًّا أناملُه؛ دنا موته فاصفرَّت أنامله، والمائح: الذي ينزل إلى أسفل البئر يملأ الدلو إذا قلَّ الماء.

ويروى: «الوَسِن». وتأسّن الماء: تغيّر. أبو زيد: تأسّن عليَّ تأسُّناً: اعتلّ وأبطأ. أبو عمرو: تأسّن الرجل أباه: أخذ أخلاقَه. وقال اللَّحيانيّ: إذا نزع إليه في الشَّبَه[1].

وقراءة العامة: «آسن» بالمدّ. وقرأ ابن كثير وحُميد: «أَسِن» بالقصر، وهما لغتان[2]، مثل حاذر وحَذِر. وقال الأخفش: أَسِنَ للحال، وآسنَ مثل فاعل يراد به الاستقبال. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا على الحموضة[3].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لم تُدنسْها الأرجلُ ولم تُرَنِّقْها الأيدي كخمر الدنيا[4]؛ فهي لذيذةُ الطعم، طيبةُ الشرب، لا يتكرَّهها الشاربون.

يقال: شراب لَذٌّ ولذيذ بمعنًى. واستلذّه: عدّه لذيذاً[5].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسل ما يسيل من لُعاب النَّحل[6]. «مُصَفًّى» أي: من الشمع والقَذَى، خلقه الله كذلك؛ لم يطبخ على نار، ولا دنّسه النَّحل.

وفي الترمذيّ عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة بحرَ الماء، وبحرَ العسل، وبحرَ اللّبن، وبحرَ الخمر، ثمّ تشقّق الأنهارُ بعدُ». قال: حديث حسن صحيح[7].

وفي صحيح مسلم[8] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحانُ وجَيْحانُ والنّيلُ والفُراتُ، كلٌّ من أنهار الجنّة». وقال كعب: نهر دجلةَ نهرُ ماء أهل

---

(١) الصحاح (أسن).

(٢) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠.

(٣) الوسيط ٤/ ١٢٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ بنحوه. وترنّق، أي: تُكدِّر.

(٥) الصحاح (لذذ).

(٦) تهذيب اللغة ٢/ ٩٣.

(٧) سنن الترمذي (٢٥٧١)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٥٢).

(٨) برقم (٢٨٣٩)، وسلف ١٦/ ٢٩.

الجنة، ونهر الفرات نهرُ لبنِهم، ونهر مصرَ نهرُ خمرِهم، ونهر سَيْحان نهرُ عسلِهم. وهذه الأنهار الأربعةُ تخرج من نهر الكوثر[١].

والعسل: يذكَّر ويؤنث. وقال ابن عباس: «مِن عَسَلٍ مُصَفًّى» أي: لم يخرج من بطون النَّحل[٢].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ «مِن» زائدة للتأكيد.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: لذنوبهم. ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ قال الفرّاء: المعنى أفمن يخلد في هذا النَّعيم كمن يخلد في النَّار[٣]. وقال الزجّاج[٤]: أي: أفمن كان على بيِّنة من ربِّه وأعطي هذه الأشياءَ كمن زُيِّن له سوءُ عمله وهو خالد في النار؟!

فقوله: «كَمَنْ» بدل من قوله: «أفَمَنْ زُيِّن لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ». وقال ابن كَيْسان: مَثَلُ هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كَمَثَلِ النار التي فيها الحميم والزقُّوم. ومَثَلُ أهل الجنة في النعيم المقيم كَمَثَلِ أهل النار في العذاب المقيم.

﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا﴾ أي: حارًّا شديدَ الغليان، إذا أُدْني[٥] منهم شَوَى وجوهَهم، ووقعت فروةُ رؤوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءَهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع مِعًى، والتثنية مِعْيان، وهو جميعُ ما في البطن من الحوايا[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ .

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٤ دون نسبة.

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠١ .

(٤) في معاني القرآن له ٥/ ١٠ .

(٥) في النسخ الخطية: دنى، والمثبت من (م).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ .

تأكل الأنعام، وُزيِّن لهم سوءُ عملهم، قومٌ يستمعون إليك. وهم المنافقون: عبدُ الله ابن أُبيّ ابن سَلُول، ورفاعةُ بن التابوت، وزيدُ بن الصليت، والحارثُ بن عمرو، ومالكُ بن دُخْشم، كانوا يحضرون الخطبةَ يوم الجمعة، فإذا سمعوا ذكرَ المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه. قاله الكلبي ومقاتل. وقيل: كانوا يحضرون عندَ رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيَعيه المؤمن ولا يعيه الكافر[١]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: إذا فارقوا مجلسَك. ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قال عكرمة: هو عبدُ الله بن العباس[٢]. قال ابن عباس: كنت ممن يُسأل[٣]، أي: كنت من الذين أوتوا العلم.

وفي رواية عن ابن عباس: أنه يريد عبدَ الله بن مسعود[٤]. وكذا قال عبد الله بن بريدة: هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن: هو أبو الدرداء. وقال ابن زيد: إنهم الصحابة[٥].

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: الآن؛ على جهة الاستهزاء، أي: أنَّا لم نلتفت[٦] إلى قوله. و«آنِفاً» يراد به الساعة التي هي أقربُ الأوقات إليك[٧]، من قولك: استأنفت الشيء: إذا ابتدأتَ به. ومنه أمْرٌ أنُف، ورَوضة أنُف؛ أي: لم يرْعها أحد[٨]. وكأس أنُف: إذا لم يُشرب منها شيء، كأنَّه استؤنف شربُها، مثل روضة أنف[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٧ وفيه: «ولا يعيه المنافق» بدل «ولا يعيه الكافر».

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ ، والكشاف ٣/ ٥٣٤ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٤ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٥ دون ذكر أنه رواية عن ابن عباس.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ .

(٦) في النسخ عدا (د) و(ظ): ألتفت.

(٧) قوله: «إليك» من (م).

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٥ بنحوه.

(٩) الصحاح (أنف).

قال الشاعر:

وَيَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم ويأكل جارُهم أُنُفَ القِصاعِ[١]

وقال آخر:

إنّ الشِّواء والنَّشِيلَ والرُّغُفْ والقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ
للطاعنين الخيلَ والخيلُ خُنُفْ[٢]

وقال امرؤ القيس:

قد غَدَا يحملُني في أَنْفِهِ[٣]

أي: في أوّله. وأنْفُ كلِّ شيء أوّله.

وقال قتادة في هؤلاء المنافقين: الناس رجلان: رجلٌ عَقَل عن الله فانتفع بما سمع، ورجلٌ لم يعقلْ ولم ينتفعْ بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامعٌ عامل، وسامعٌ عاقل، وسامعٌ غافل تارك[٤].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ في الكفر. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ أي: للإيمان؛ زادهم الله هدًى. وقيل: زادهم النبيّ ﷺ هدى[٥].

---

(١) البيت للحطيئة، وقوله: أُنُف القصاع، يعني جيد الطعام وصفوته، وسلف البيت ٤/ ١٤٩ .

(٢) الرجز للقيط بن زرارة كما في الكامل ٢/ ٨٨٧ . وهو أيضاً في الشعر والشعراء ٢/ ٧١١ ، وفيه: قُطُف، بدل: خُنُف. والخنف جمع خَنُوف، وهي الدابة إذا مالت بيديها في أحد شقيها من النشاط. اللسان (خنف).

ووقع في (خ) وهو حاشية في (ق) ما نصه: النشيل لحم يطبخ بلا توابل، والرُّغف جمع رغيف، ويقال: أرغفة ورغفان. اهـ . والكلام في الصحاح (نشل).

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٤٦ ، وعجز البيت: لاحِقُ الإطلَين محبوكٌ مُمَرّ، قال شارحه: يحملني في أنفه أي: في أول هذه المطْرة، وأنف كل شيء: أوله، لاحق الإطلين: يعني فرساً ضامر الكَشحين، والمحبوك: المدمج الخَلْق الشديد، والممر نحوه في المعنى.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٣ .

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٥٩ بنحوه.

وقيل: ما يستمعونه من القرآن هدًى، أي: يتضاعف يقينُهم. وقال الفرّاء[١]: زادهم إعراضُ المنافقين واستهزاؤهم هدًى. وقيل: زادهم نزولُ الناسخ هدًى.

وفي الهدى الذي زادهم أربعةُ أقاويل: أحدها: زادهم علماً. قاله الربيع بن أنس. الثاني: أنَّهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا. قاله الضحاك. الثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقاً لنبيِّهم. قاله الكلبيّ. الرابع: شرح صدورَهم بما هم عليه من الإيمان[٢].

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: ألهمهم إياها[٣]. وقيل فيه خمسة أوجه: أحدها: آتاهم الخشيةَ. قاله الربيع. الثاني: ثوابَ تقواهم في الآخرة. قاله السدّي. الثالث: وفَّقهم للعمل الذي فرض عليهم. قاله مقاتل. الرابع: بيَّن لهم ما يتقون. قاله ابن زياد والسدّيّ أيضاً. الخامس: أنه تركُ المنسوخ والعملُ بالناسخ. قاله عطية. الماوردي[٤]. ويحتمل سادساً: أنه تركُ الرُّخَص والأخذُ بالعزائم[٥].

وقرئ: «وَأَعْطَاهُمْ» بدل: «وآتاهُمْ»[٦]. وقال عكرمة: هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب[٧].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً. وهذا وعيد

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٦١ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ وما قبله منه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ وما قبله منه دون قول السدي: بيَّن لهم ما يتقون، وهو في الكشاف ٣/ ٥٣٤ .

(٥) مجمع البيان ٢٦/ ٣٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٤ .

(٧) زاد المسير ٧/ ٤٠٣ .

للكفار. ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أماراتها وعلاماتها[١]. وكانوا قد قرؤوا في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ آخر الأنبياء، فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها. قاله الضحاك والحسن[٢].

وفي الصحيح عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بعثت أنا والساعةَ كهاتين» وضمّ السبابة والوسطى، لفظ مسلم: وخرّجه البخاريّ والترمذيّ وابن ماجه[٣].

ويروى: «بعثتُ والساعةَ كَفَرَسَي رِهان»[٤]. وقيل: أشراطُ الساعة: أسبابُها التي هي دون معظمها، ومنه يقال للدُّون من النَّاس: الشَّرَط[٥].

وقيل: يعني علامات الساعة؛ انشقاق القمر، والدخان، قاله الحسن أيضاً[٦].

وعن الكلبي: كثرةُ المال، والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلةُ الكرام، وكثرة اللئام[٧]. وقد أتينا على هذا الباب في كتاب «التذكرة» مستوفىً والحمد لله[٨].

وواحد الأشراط شَرَط، وأصله الأعلام. ومنه قيل: الشُّرَط؛ لأنَّهم جعلوا لأنفسهم علامةً يعرفون بها، ومنه الشَّرْط في البيع وغيره[٩].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩ بنحوه عند الضحاك.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٥١): (١٣٥)، وصحيح البخاري (٦٥٠٤)، وسنن الترمذي (٢٢١٤) وهو في مسند أحمد (١٢٢٤٥) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٥٠٥)، وابن ماجه (٤٠٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٤٣١)، وابن ماجه (٤٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وسلف حديث أنس ﷺ ١٢/ ٢٦٨.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٩)، والبيهقي في الشعب (١٠٢٣٧)، وأبو الشيخ في الأمثال (٣٤٧) من حديث سهل بن سعد ﷺ. قوله: كفرسي رهان: أي: يتسابقان إلى غاية. النهاية (فرس).

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩ دون ذكر الدخان.

(٧) الكشاف ٣/ ٣٥٣.

(٨) ص٦٢٤ فما بعدها.

(٩) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٨-٣٠٩.

قال أبو الأسود:

فإن كنتَ قد أزْمَعْتَ بالصَّرْم بيننا فقد جَعَلَتْ أشراطُ أوّله تبدو[١]

ويقال: أشرطَ فلان نفسه في عمل كذا أي: أعلمها وجعلها له. قال أوس بن حجر يصف رجلاً تدلَّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعة ليقطعها يَتخذ[٢] منها قَوسًا:

فأشْرَطَ فيها نفسَه[٣] وهو مُعْصِمٌ وألقى بأسبابٍ له وَتَوَكَّلا[٤]

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ «أنْ» بدل اشتمال من «الساعة»، نحو قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ من قوله: ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾.

وقرئ: «بَغَتَّةً» بوزن جَرَبَّة[٥]، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختُها، وهي مَرْوِية عن أبي عمرو. الزمخشري[٦]: وما أخوفني أن تكون غلطةً من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصواب «بَغَتة» بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن.

وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة: «إن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً»[٧].

قال المهدويّ: ومن قرأ: «إن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً» كان الوقف على «السَّاعَة»، ثمَّ استأنف الشرط. وما يحتمله الكلام من الشكِّ مردودٌ إلى الخلق، كأنه قال: إن شكُّوا في مجيئها «فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا».

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ «ذِكْرَاهُمْ» ابتداء، و«أَنَّى لَهُمْ» الخبر. والضمير المرفوع في «جَاءَتْهُمْ» للساعة؛ التقدير: فمن أين لهم التذكُّر إذا جاءتهم

---

(١) البيت في الأغاني ١٢/ ٣٣٤، والكشاف ٣/ ٥٣٥. الصَّرْم: الهجران اللسان (صرم). وهي أبيات قالها في أبي الجارود الشاعر وكان قد هجره كما في الأغاني.

(٢) في (م): يقطعها ليتخذ.

(٣) في النسخ: نفسه فيها، والمثبت من جمهرة اللغة (رشط) - والكلام فيه بنحوه، ومما سلف ٥/ ٢٣٧.

(٤) جاء في (خ) و(ز) بعد البيت - وهو في حاشية (ق) - ما نصه: النبع شجرٌ يتخذ منه القسيّ، الواحدة: نبعة، ويتخذ من أغصانها السهام. اهـ. وهذا الكلام في الصحاح (نبع).

(٥) أي: جماعة الحُمُر. اللسان (جرب).

(٦) في الكشاف ٣/ ٥٣٥ وما قبله منه، والقراءة أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، والمحتسب ٢/ ٢٧١.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٧٠، ووقع في النسخ عدا (م) و(ق) تأتيهم.

الساعة. قال معناه قتادة وغيره[(١)].

وقيل: فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة! قاله ابن زيد[(٢)].

وفي الذكرى وجهان: أحدهما: تذكيرُهم بما عملوه من خير أو شرّ. الثاني: هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيراً وتخويفاً، روى أبان عن أنس، عن النبيّ ﷺ قال: «أحسنوا أسماءَكم، فإنكم تُدْعَون بها يوم القيامة: يا فلانُ قُمْ إلى نُورِك، يا فلانُ قُم لا نُور لك» ذكره الماوَرْدِي[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قال الماوردي[(٤)]: وفيه ـ وإن كان الرسول عالماً بالله ـ ثلاثة أوجه: يعني اِعلم أنَّ الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني: ما علمتَه استدلالاً فاعلمْه خبراً يقيناً. الثالث: يعني فاذكر أن لا إله إلا الله، فعبّر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه.

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضْل العلم فقال: ألم تسمع قولَه حين بدأ به ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ إلى قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٠-٢١] وقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: ٢٨]. ثم قال بعد: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾[(٥)]. وقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١]. ثم أمر

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٣ دون نسبة، وذكر معنى قول قتادة أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٣، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٩-٣٠٠، وذكره الديلمي في الفردوس ١/ ٩٨، وسلف ١٣/ ١٠١ بنحوه عن أبي الدرداء وإسناده منقطع.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٣٠٠.

(٥) كذا وقع في النسخ، والكشاف ٣/ ٥٣٥، والكلام منه، ولعله يريد الآية (١٤) من التغابن: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾.

بالعمل بعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: يعني استغفر الله إنْ يقع منك ذنب. الثاني: استغفر الله ليعصمَك من الذنوب[1].

وقيل: لما ذكر له حالَ الكافرين والمؤمنين، أمره بالثبات على الإيمان، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذَر عما تحتاج معه إلى استغفار[2].

وقيل: الخطابُ له، والمرادُ به الأمة، وعلى هذا القول توجب الآيةُ استغفارَ الإنسان لجميع المسلمين[3].

وقيل: كان عليه الصلاة والسلام يضيق صدرُه من كفر الكفار والمنافقين؛ فنزلت الآية. أي: فاعلم أنَّه لا كاشفَ يكشف ما بك إلا الله؛ فلا تعلِّق قلبَك بأحد سواه.

وقيل: أمر بالاستغفار لتقتديَ به الأمة[4]. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: ولذنوبهم. وهذا أمرٌ بالشفاعة[5].

وروى مسلم عن عاصم الأحول، عن عبد الله بن سَرْجِس المخزوميّ قال: أتيت النبيَّ ﷺ وأكلتُ من طعامه فقلت: يا رسول الله، غفر الله لك! فقال له صاحبي: هل استغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك. ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ثم تحوّلت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، جُمعٌ[6]؛ خِيلانٌ كأنه الثآليل[7].

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٢ بنحوه.

(٥) الوسيط ٤/ ١٢٥.

(٦) كذا في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(ق)، وفي (ظ): جميع، وهي نسخة كما ذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٥/ ٩٩. ووقع في (م): جمعاً.

(٧) صحيح مسلم (٢٣٤٦) بنحوه وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً بنحوه أحمد (٢٠٧٧٨). قوله: =

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم[١]. الثاني: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في أعمالكم نهاراً «وَمَثْوَاكُمْ» في ليلكم نياماً[٢].

وقيل: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في الدنيا. «وَمَثْوَاكُمْ» في الدنيا والآخرة. قاله ابن عباس والضحاك. وقال عكرمة: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات. «وَمَثْوَاكُمْ»: مُقامكم في الأرض. وقال ابن كَيْسان: «مُتَقَلَّبَكُمْ» من ظهر إلى بطن إلى الدنيا. «وَمَثْوَاكُمْ» في القبور[٣].

قلت: والعموم يأتي على هذا كلِّه، فلا يخفى عليه سبحانه شيءٌ من حركات بني آدمَ وسَكَناتهم، وكذا جميع خلقه. فهو عالم بجميع ذلك قبلَ كونه؛ جملةً وتفصيلاً؛ أُولَى وأُخرَى. سبحانه، لا إله إلا هو.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: المؤمنون المخلصون. ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ اشتياقاً للوَحْي وحرصاً على الجهاد وثوابه. ومعنى «لَوْلَا» هلا[٤]. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لا نسخ فيها. قال قتادة: كلُّ سورة ذكر فيها الجهاد فهي مُحْكمة، وهي أشدُّ

= جمع؛ يريد مثل جُمع الكف؛ وهو أن يجمع الأصابع ويضمها. خيلانٌ: جمع خال؛ وهو الشامة في الجسد. الثآليل: جمع ثؤلول: وهو هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحمّصة فما دونها. النهاية (جمع) (خيل) (ثأل).

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣ .

(٤) زاد المسير ٧/ ٤٠٥ .

القرآن على المنافقين[١]. وفي قراءة عبد الله: «فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ»[٢]، أي: محدَثةُ النزول. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فُرض فيها الجهاد[٣].

وقرئ: «فَإِذَا نَزَلَتْ[٤] سُورَةٌ، وَذَكَرَ فِيهَا القِتَالَ» على البناء للفاعل ونصب القتال. ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ونفاق[٥]. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: نظر مغمومين[٦] مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصرَه عند الموت؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعاً وهَلَعاً[٧]، ولميلهم في السرّ إلى الكفار.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ «فأَوْلَى لَهُمْ» قال الجوهريّ[٨]: وقولهم: أَوْلَى لَكَ، تهديد ووعيد. قال الشاعر:

فأَوْلَى ثمّ أَوْلَى ثمّ أَوْلَى ... وهل لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال الأصمعي: معناه قارَبَه ما يُهْلكه؛ أي: نزل به. وأنشد:

فعادَى بين هادِيَتَيْن منها ... وأَوْلَى أن يزيدَ على الثلاثِ[٩]

أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحد في «أَوْلَى» أحسنَ مما قال الأصمعي[١٠].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢١٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠، والكشاف ٣/ ٥٣٥.

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠٥.

(٤) في (م) و(خ): أنزلت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٣٥ والكلام منه.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤.

(٦) في (م) و(خ): مغموصين، والمثبت من باقي النسخ.

(٧) تأويل مشكل القرآن ص٣٥٢، والكشاف ٣/ ٥٣٥ بنحوه.

(٨) في الصحاح (ولى)، والبيت الآتي لعبد الله بن الزبير الأسدي كما في الأغاني ١٤/ ٢٣٧.

(٩) البيت أيضاً في خزانة الأدب ٩/ ٣٤٥ قال البغدادي: قال ابن عقيل: عادى؛ من العِداء، وهو الموالاة بين الصيدين بصرع أحدهما على إثر الآخر في طلق واحد، والهادية: أوَّل الوحش.

(١٠) الصحاح (ولى)، وتهذيب اللغة ١٥/ ٤٤٨.

وقال المُبَرِّد: يقال لمن هَمَّ بالعَطَب[١] ثم أفلَت: أَوْلى لك؛ أي: قاربت العطب[٢].

كما رُوِي أنَّ أعرابيًّا كان يوالي رَميَ الصيد، فيُفْلِت منه فيقول: أَوْلى لك. ثمَّ رمى صيداً فَقاربه ثمَّ أفلت منه فقال:

فلو كان «أَوْلَى» يُطعِم القومَ صِدْتُهم ولكنّ «أَوْلَى» يَتْرُكُ القومَ جُوَّعا[٣]

وقيل: هو كقول الرجل لصاحبه: يا محروم، أيُّ شيء فاتك[٤]؟

وقال الجُرْجَانيْ: هو مأخوذ من الويل، فهو أفعل، ولكن فيه قلب؛ وهو أنَّ عينَ الفعل وقع موقع اللام. وقد تمَّ الكلام على قوله: «فأَوْلَى لَهُمْ».

قال قتادة: كأنه قال: العِقاب أَوْلَى لهم[٥]. وقيل: أي: وَلِيَهم المكروه[٦].

ثم قال: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» أي: طاعة وقول معروف أمثل وأحسن، وهو مذهب سيبويه والخليل.

وقيل: إنَّ التقدير: أمرنا طاعة وقول معروف[٧]؛ فحذف المبتدأ، فيوقف على «فأَوْلَى لَهُمْ». وكذا من قدّر: يقولون مِنَّا طاعة[٨]، وهي قراءة أُبيّ: «يقولون طاعة»[٩].

---

(١) في (ظ): همَّ بالغضب.

(٢) في (ظ): قاربت الغضب.

(٣) في (د) و(ظ) و(ق) صيدهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٦/٤٧٩ والكلام منه، والبيت أيضاً في الكامل ٣/١٤١٦ ، والخزانة ٩/٣٤٦ . قال البغدادي: هو بيت لرجل يقتنص الصيد، فإذا أفلته الصيد قال: أولى لك. اهـ. وقوله: صدتُهم، أي: صدتُ لهم، قال في اللسان: صدت فلاناً صيداً: إذا صدتَه له. اللسان (صيد).

(٤) تهذيب اللغة ١٥/٤٤٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/٣٠١ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٧ .

(٨) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤ .

(٩) قوله: وهي قراءة أُبيّ... الخ، وقع في (ظ) في هذا الموضع، وهو الصواب، ووقع في باقي النسخ =

وقيل: إن الآية الثانية متصلةٌ بالأولى. واللام في قوله: «لَهُم» بمعنى الباء[١]؛ أي: الطاعة أولى وأليقُ بهم، وأحقُّ لهم من ترك امتثال أمر الله.

وقيل إن: «طَاعَةٌ» نعت لـ «سورة»؛ على تقدير: فإذا أنزلت سورة ذاتُ طاعة. فلا يوقف على هذا على «فَأَوْلَى لَهُمْ»[٢].

قال ابن عباس: إن قولهم: «طَاعَةٌ» إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن المنافقين. والمعنى: لهم طاعةٌ وقولٌ معروف، قيل: وجوب الفرائض عليهم، فإذا أنزلت الفرائض شقَّ عليهم نزولُها. فيوقف على هذا على «فَأَوْلَى».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جدّ القتال، أو وجب فرض القتال[٣]، كرهوه. فكرهوه جواب «إذا» وهو محذوف.

وقيل: المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر[٤]. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في الإيمان والجهاد[٥]. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية والمخالفة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ اختلف في معنى «إن تَوَلَّيْتُمْ» فقيل: هو من الولاية.

= بعد قوله: «وأحقُّ لهم من ترك امتثال أمر الله». الآتي. وهي في الكشاف ٣/ ٥٣٦، والرازي ٢٨/ ٦٣.

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤. وقال مكي: القولان الأولان أبين وأشهر.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٣ بنحوه.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٦، وتفسير الرازي ٢٨/ ٦٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨١.

قال أبو العالية: المعنى فهل عسيتم إن تولَّيتم الحكمَ فجُعِلتم حكّاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشَا. وقال الكلبيّ: أي: فهل عسيتم إن تولَّيتم أمرَ الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. وقال ابن جريج: المعنى: فهل عسيتم إن تولَّيتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطعِ الأرحام[١].

وقال كعب: المعنى: فهل عسيتم إن تولَّيتم الأمرَ أن يقتلَ بعضُكم بعضاً[٢].

وقيل: من الإعراض عن الشيء.

قال قتادة: أي: فهل عسيتم إن تولَّيتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامَكم[٣].

وقيل: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» أي: فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامَه، أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم[٤].

وقرىء بفتح السين وكسرها[٥]. وقد مضى في «البقرة» القول فيه مستوفًى[٦].

وقال بكر المزني: إنَّها نزلت في الحَرُوريّة والخوارج. وفيه بُعدٌ، والأظهر أنه إنما عُني بها المنافقون. وقال ابن حيان: قريش[٧].

ونحوه قال المسيّب بن شريك والفرّاء، قالا: نزلت في بني أمية وبني هاشم[٨]، ودليل هذا التأويل ما روى عبدُ الله بن مُغَفّل قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: ﴿فَهَلْ

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣ .

(٥) قرأ نافع بكسر السين، والباقون بالفتح. السبعة ص٦٨١ ، والتيسير ص١٨ .

(٦) ٤/ ٢٢٩ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢ دون ذكر الحرورية، وذكر أنها في الحرورية النحاس في معاني القرآن له ٦/ ٤٨٢ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ .

عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ثمَّ قال: «هم هذا الحيّ من قريش؛ أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناسَ ألّا يفسدوا في الأرض ولا يقطّعوا أرحامَهم»[١].

وقرأ عليّ بن أبي طالب: «إِن تُوُلِّيْتُم أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ» بضم التاء والواو وكسر اللام[٢]. وهي قراءة ابن أبي إسحاق، ورواها رُوَيس عن يعقوب[٣].

يقول: إن وليتُكم ولاةً جائرةً، خرجتم معهم في الفتنة وحاربتموهم[٤]. ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ بالبغي والظلم والقتل[٥].

وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم: «وتَقْطَعُوا»[٦] بفتح التاء وتخفيف القاف، من القطع؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة:٢٧]. وروى هذه القراءةَ هارونُ عن أبي عمرو[٧]. وقرأ الحسن: «وَتَقَطَّعُوا» مفتوحةَ الحروف مشدّدة[٨]؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [الأنبياء:٩٣]. الباقون: «وتُقَطِّعُوا» بضم التاء مشدّدة الطاء، من التقطيع على التكثير، وهو اختيار أبي عبيد. وتقدّم ذكر «عَسَيْتُمْ» في «البقرة»[٩].

وقال الزجاج[١٠] في قراءة نافع: لو جاز هذا لجاز «عَسِي» بالكسر.

قال الجوهري[١١]: ويقال عَسَيت أن أفعل ذلك، وعَسِيت بالكسر. وقرىء: «فَهَلْ عَسِيْتُمْ» بالكسر.

---

(١) أخرجه الطبري في تهذيبه كما في فتح الباري ٨/ ٥٨١ .
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٤٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٧٢ .
(٣) النشر ٢/ ٣٧٤ ، وهي من العشرة.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ .
(٥) الوسيط ٤/ ١٢٧ .
(٦) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤ ، وهي من العشرة، وقراءة سلام في القراءات الشاذة ص١٤٠ .
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٨ دون ذكر هارون.
(٨) البحر المحيط ٨/ ٨٢ .
(٩) ٤/ ٢٢٩ .
(١٠) في معاني القرآن له ٥/ ١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٧ .
(١١) في الصحاح (عسا).

قلت: ويدل قوله هذا على أنهما لغتان. وقد مضى القول فيه في «البقرة» مستوفًى[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: طَردَهم وأبعدَهم من رحمته[٢] ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحقّ ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: قلوبَهم عن الخير. فأتبع الأخبارَ بأنَّ مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته، وسلبه الانتفاعَ بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل. وقال: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» ثم قال: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ» فرجع من الخطاب إلى الغَيبة على عادة العرب في ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا غير[٣] الإسلام. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوب أقفالٌ أقفلَها الله عزَّ وجلَّ عليهم فهم لا يعقلون[٤]. وهذا يردّ على القدرية والإمامية مذهبَهم.

وفي حديث مرفوع أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنَّ عليها أقفالاً كأقفالِ الحديد حتى يكون اللهُ يفتحها»[٥]. وأصل القَفْل: اليُبْس والصلابة.

ويقال لما يبس من الشجر: القَفْل. والقفيل مثله. والقَفِيل أيضاً: نبت. والقفيل: السوط[٦]. قال الراجز:

---

(١) ٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٥ .

(٣) في (م): عن.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢١٥ .

(٥) كذا ذكر المصنف رحمه الله، والذي أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢١٧ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٧ ، والبغوي ٤/ ١٨٤ ، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه. قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ فقال شابٌّ من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرِّجها. واللفظ للبغوي.

(٦) في (م) و(د) و(ز) و(ق): الصوت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح والكلام منه.

لمّا أتاك يابساً قِرْشبّاً قمتَ إليه بالقَفِيل ضربا
كيف قَرَيْتَ شَيْخَك الأزَبّا[١]

القِرشَبُّ؛ بكسر القاف: المُسِنّ؛ عن الأصمعي. وأقفله الصوم، أي: أيبسه. قاله القشيريّ والجوهريّ[٢]. فالأقفال هاهنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوّه عن الإيمان. أي: لا يدخل قلوبَهم الإيمانُ ولا يخرج منها الكفر؛ لأنَّ الله تعالى طبع على قلوبهم وقال: «عَلَى قُلُوبٍ» لأنَّه لو قال: على قلوبهم، لم يدخل قلبُ غيرهم في هذه الجملة. والمراد: أم على قلوب هؤلاء وقلوبِ من كانوا بهذه الصفة أقفالُها.

الثالثة: في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خلقَ الخلْقَ، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرَّحِم فقالت: هذا مَقامُ العائذ بك من القطيعة. قال: نَعَمْ: أما ترضَين أنْ أَصِلَ من وصَلَكِ وأقطعَ من قطعكِ؟ قالت: بلى. قال: فذاك لكِ ـ ثمَّ قال رسولُ الله ﷺ ـ اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾»[٣]

وظاهر الآية أنَّها خطاب لجميع الكفار. وقال قتادة وغيره: معنى الآية فلعلَّكم، أو يخاف عليكم، إن أعرضتم عن الإيمانِ أن تعودوا إلى الفساد في الأرض بسفك[٤] الدماء[٥].

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تَوَلَّوْا عن كتاب الله تعالى! ألم يسفكوا الدماءَ

---

(١) الصحاح (قفل) (قرشب)، ونسب الرجزَ في اللسان (قفل) لأبي محمد الفقعسي، وهو أيضاً في الأصمعيات ص١٦٣ دون نسبة وباختلاف في ترتيبه، وفيه: (يائساً) بدل (يابساً)، و(ضيفك) بدل (شيخك). قوله: الأزبّ، أي: كثير شعر الذراعين والحاجبين والعينين. اللسان (زبب).

(٢) في الصحاح (قرشب) دون قوله: وأقفله الصوم أي: أيبسه. وهو في تهذيب اللغة ٩/ ١٦١ .

(٣) صحيح مسلم (٢٥٥٤)، وأخرجه أحمد (٨٣٦٧)، والبخاري (٤٨٣٠).

(٤) في (م) لسفك.

(٥) المفهم ٦/ ٥٢٦ .

الحرام ويقطعوا الأرحامَ وعصَوُا الرَّحمن[١].

فالرَّحِم على هذا رَحِمُ دين الإسلام والإيمان، التي قد سمَّاها الله أُخُوَّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وعلى قول الفرّاء: إنَّ الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية[٢]، والمراد: مَن أضمر منهم نفاقاً؛ فأشار بقطع الرحِم إلى ما كان بينهم وبين النبيّ ﷺ من القرابة بتكذيبهم النبيّ ﷺ. وذلك يوجب القتال.

وبالجملة؛ فالرحمُ على وجهين: عامَّة وخاصَّة. فالعامَّة رحِم الدين، ويجب مواصلتُها بملازمة الإيمان، والمحبةِ لأهله ونُصرتِهم، والنصيحةِ وتركِ مضارتهم، والعدل بينهم، والنَّصَفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة؛ كتمريض المرضى، وحقوق الموتى مِن غسلهم، والصلاةِ عليهم ودفنهم، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم.

وأما الرَّحم الخاصَّة ـ وهي رحمُ القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه ـ فتجب لهم الحقوقُ العامة[٣] وزيادة؛ كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم؛ وتتأكد في حقِّهم حقوقُ الرحم العامةِ، حتى إذا تزاحمت الحقوقُ بدئ بالأقرب فالأقرب.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ الرَّحم التي تجب صلتُها هي كلُّ رَحِم مَحْرَم، وعليه فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. وقيل: بل هذا في كلِّ رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث، مَحْرَماً كان أو غير مَحْرَم. فيخرج من هذا أنَّ رحمَ الأمِّ التي لا يُتوارث بها لا تجب صلتُهم ولا يحرم قطعُهم. وهذا ليس بصحيح، والصواب أنَّ كلَّ ما يشمله ويعمُّه الرحم تجب صلته على كل حال، قربةً ودينية؛ على ما ذكرناه أولاً، والله أعلم[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ . وفيه: الدم الحرام، وقطَّعوا. . .

(٢) المفهم ٦/ ٥٢٦ .

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ق) الخاصة، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في المفهم والكلام منه.

(٤) المفهم ٦/ ٥٢٤ و٥٢٧ ـ ٥٢٨ .

وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده[١] قال: حدثنا شعبة قال: أخبرني محمد ابن عبد الجبار، قال: سمعت محمد بن كعب القُرَظي يحدّث عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ للرَّحم لساناً يوم القيامة تحت العرش، يقول: يا ربُّ قُطعتُ، يا ربُّ ظُلمت، يا ربُّ أُسيء إليّ، فيجيبها ربُّها: ألا تَرْضَيْن أن أصلَ مَن وصلكِ وأقطعَ مَن قطعكِ».

وفي صحيح مسلم عن جُبير بن مُطعِم، عن النبيّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنةَ قاطع». قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطعَ رَحِم. ورواه البخاري[٢].

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى خلق الخلْقَ حتى إذا فرغ منهم...» «خلق» بمعنى اخترع، وأصله التقدير، كما تقدم[٣]. والخلق هنا بمعنى المخلوق. ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه. ومعنى «فرغ منهم»: كَمَّل خلقَهم. لا أنَّه اشتغل بهم ثمَّ فرغ من شُغْله بهم؛ إذ ليس فعلُه بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة، تعالى عن ذلك[٤].

وقوله: «قامت الرّحم فقالت» يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكونَ اللهُ تعالى أقام من يتكلم عن الرَّحم من الملائكة فيقول ذلك، وكأنّه وكَّل بهذه العبادة من يناضل عنها ويكتب ثوابَ من وصلها ووِزْر مَن قطعَها؛ كما وكَّل الله بسائر الأعمال كراماً كاتبين، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكةً متعاقبين.

وثانيهما: أنَّ ذلك على جهة التقدير والتمثيل المُفْهِم للإغياء[٥] وشدّة الاعتناء.

---

(١) برقم (٢٥٤٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٥٦) (١٨)، وصحيح البخاري (٥٩٨٤)، وهو في مسند أحمد (١٦٧٦٣).

(٣) ١/ ٣٤١، وسلف الحديث في المسألة قبلها.

(٤) المفهم ٦/ ٥٢٤.

(٥) في النسخ عدا (خ) للاعياء، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٢٥ والكلام منه.

فكأنه قال: لو كانت الرَّحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١] [الحشر: ٢١].

وقوله: «فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة» مقصود هذا الكلام: الإخبارُ بتأكّد أمر صلة الرحم، وأن الله سبحانه قد نزّلها بمنزلة من استجار به فأجاره، وأدخله في ذمَّته وخَفارته[٢]. وإذا كان كذلك فجارُ الله غيرُ مخذول، وعهدُه غيرُ منقوض. ولذلك قال مخاطباً للرَّحِم: «أمَا تَرْضَيْن أن أصلَ مَن وَصَلكِ وأقطع مَن قطعكِ». وهذا كما قال عليه الصلاة والسلام: «من صلَّى الصبحَ فهو في ذمة الله تعالى، فلا يطلبنكم اللهُ من ذمَّته بشيء، فإنه من يطلبُه بذمته بشيء يدركه، ثمَّ يَكُبّه في النار على وجهه»[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بالنبيّ ﷺ بعد ما عرفوا نعتَه عندهم. وقاله ابن جريج[٤]. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون[٥]، قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيّن لهم خطاياهم. قاله الحسن. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: مدّ لهم الشيطان في الأمل، ووعدهم طولَ العمر؛ عن الحسن أيضاً. وقال: إنَّ الذي

---

(١) المفهم ٦/ ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٢) الخَفارة: الأمان. اللسان (خفر).

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٧): (٢٦٢)، وأخرجه أحمد (١٨٨١٤) مختصراً، من حديث جندب البجلي، وأخرجه أحمد (٥٨٩٨) ـ مختصراً أيضاً ـ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

أملى لهم في الأمل ومدّ في آجالهم هو الله عزّ وجلَّ. قاله الفرّاء والمفضل. وقال الكَلْبيّ ومقاتل: إنَّ معنى «أَمْلَى لَهُمْ»: أمهلهم؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أمْلَى لهم بالإمهال في عذابهم[١].

وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة: «وَأُمْلِيَ لَهُمْ»[٢] بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء؛ على ما لم يسمَّ فاعله[٣]. وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدرِيُّ ويعقوب، إلا أنَّهم سكَّنوا الياء؛ على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم؛ كأنَّه قال: وأنا أملي لهم[٤]. واختاره أبو حاتم، قال: لأنَّ فتح الهمزة يُوهم أنَّ الشيطان يملي لهم، وليس كذلك؛ فلهذا عدل إلى الضم. قال المهدويّ: ومن قرأ: «وَأَمْلَى لَهُمْ» فالفاعل اسم الله تعالى. وقيل: الشيطان. واختار أبو عبيد قراءةَ العامة، قال: لأنَّ المعنى معلوم؛ لقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩] ردّ التسبيحَ على اسم الله، والتوقيرَ والتعزيرَ على اسم الرسول.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ أي: ذلك الإملاء لهم حتى يتمادَوْا في الكفر بأنهم قالوا؛ يعني المنافقين واليهود ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ وهم المشركون: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السرِّ. وهم إنَّما قالوا ذلك سرًّا، فأخبر الله نبيَّه[٥].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣.

(٢) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠١، وقراءة عيسى وشيبة في المحرر الوجيز ٥/ ١١٩. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه: «وأَمْلَى» كقراءة العامة. النشر ٢/ ٣٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

(٤) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٧٢، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤، وهي من العشرة، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ بنحوه.

وقراءة العامة: «أَسْرَارَهُمْ» بفتح الهمزة جمع سِرّ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ الكوفيون وابن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «إِسْرَارَهُمْ» بكسر الهمزة على المصدر(١)، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩] جُمع لاختلاف ضروب السر(٢).

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ أي: فكيف تكون حالهم(٣). ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ أي: ضاربين؛ فهو في موضع الحال(٤). ومعنى الكلام التخويف والتهديد، أي: إن تأخر عنهم العذابُ فإلى انقضاء العمر. وقد مضى في «الأنفال» و«النحل»(٥).

وقال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه(٦).

وقيل: ذلك عند القتال نُصْرَةً لرسول الله ﷺ، بضرب الملائكة وجوهَهم عند الطلب، وأدبارَهم عند الهرب. وقيل: ذلك في القيامة عند سَوْقهم إلى النار(٧).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك جزاؤهم(٨). ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٩، والسبعة ص٦٠١، والتيسير ص٢٠١، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٧٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤.

(٥) ١٠/ ٤٤ - ٤٥ و١٢/ ٣١٥.

(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٧ بنحوه، ووقع في (ظ): يضرب ضرباً شديداً.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣-٣٠٤.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠.

قال ابن عباس: هو كتمانُهم ما في التوراة من نعت محمد ﷺ[١]. وإن حُملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر. ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ يعني: الإيمان. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ما عملوه من صدقة وصلةِ رحم وغير ذلك؛ على ما تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: نفاق وشكٌّ[٣]، يعني المنافقين. ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ الأضغان ما يُضمر من المكروه.

واختلف في معناه؛ فقال السُّدِّيّ: غِشّهم. وقال ابن عباس: حسدهم. وقال قُطْرُب: عداوتهم، وأنشد قول الشاعر:

قُل لابن هندٍ ما أردتَ بمَنْطِقٍ ... ساء الصديقَ وشيَّدَ الأضغانا

وقيل: أحقادهم[٤]. واحدها ضِغن[٥]. قال:

وذي ضغنٍ كففتُ النفسَ عنهُ

وقد تقدم[٦].

وقال عمرو بن كلثوم:

وإنَّ الضِّغنَ بعد الضِّغنِ يَفْشُو ... عليك ويُخرجُ الداءَ الدفينا[٧]

---

(١) الوسيط ٤/١٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥، وسلف ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤.

(٤) المصدر السابق، وفيه: (وسرَّ ذا الأضغان) بدل (وشيد الأضغانا).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٦) صدر بيت للزبير بن عبد المطلب وعجزه: وكنت على مساءته مقيتا، وسلف ٦/ ٤٨٦.

(٧) شرح المعلقات للنحاس ٢/ ١٠١ ـ معلقة عمرو بن كلثوم ـ قال النحاس: الداء: يعني الحقد.

قال الجوهريّ: الضِّغن والضَّغينة: الحِقْد. وقد ضَغِنَ عليه ـ بالكسر ـ ضِغناً. وتضاغن القومُ واضْطَغَنُوا: انْطَوَوْا[١] على الأحقاد. واضْطَغَنْت الصبيَّ: إذا أخذتَه تحت حضنك. وأنشد الأحمر:

كـأنّـه مُـضْـطَـغِـنٌ صـبِـيَّـا[٢]

أي: حاملُه في حِجْره. وقال ابن مُقبل:

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضِها ومِرفقٍ كرِئاس السيفِ إذْ شَسَفَا[٣]

وفرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب.

والمعنى: أم حسبوا أن لن يُظهرَ الله عداوتَهم وحقدَهم لأهل الإسلام. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناكهم[٤].

قال ابن عباس: وقد عرّفه إيَّاهم في سورة براءة[٥].

تقول العرب: سأريك ما أصنع، أي: سأعلمك[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أي: بما أعلمك.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم. قال أنس: ما خفيَ على النبيّ ﷺ بعد هذه الآية أحدٌ من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم[٧]. وقد كنا في غَزَاة وفيها سبعة من المنافقين يشكونهم الناس[٨]، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كلِّ واحد منهم مكتوبٌ

(١) في النسخ: أبطنوا، والمثبت من الصحاح، والكلام منه.

(٢) الصحاح (ضغن)، والرجز أيضاً في غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ١٩٣ .

(٣) هذه رواية الصحاح، وفي ديوان ابن مقبل ص١٨٦ : (ثم اضطبنت) بدل (إذا اضطغنت). اضطبنت: أي: احتضنت، والمغرض: جانب البطن أسفل الأضلاع، ورئاس السيف: مقبضه، وشسفَ، أي: يبس من الضمر والهزال. اللسان (ضبن) (غرض) (رأس) (شسف).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢٢ .

(٦) تفسير الطبري ٢١/ ٢٢٢ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ ، والكشاف ٣/ ٥٣٧ .

(٨) في (ف): يشكوا الناس، وفي الكشاف ٣/ ٥٣٧ والكلام منه: يشكوهم الناس.

«هذا منافق» فذلك سيماهم[١].

وقال ابن زيد: قدَّر الله إظهارَهم، وأمر أن يُخرجوا من المسجد، فأبَوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله، فحُقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها[٢].

﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ أي: في فحواه ومعناه. ومنه قول الشاعر:

وخيرُ الكلام ما كان لَحْنَا

أي: ما عُرف بالمعنى ولم يُصرَّح به[٣].

مأخوذ من اللَّحن في الإعراب، وهو الذهابُ عن الصواب، ومنه قول النبيّ ﷺ: «إنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض» أي: أذهبَ بها في الجواب لقوّته على تصريف الكلام[٤].

أبو زيد: لَحَنْتُ له ـ بالفتح ـ ألْحَنُ لَحْناً: إذا قُلْتَ له قوْلاً يفهمه عنك، ويخْفَى على غيره. ولَحِنَه هو عَنِّي ـ بالكسر ـ يلحَنه لَحْناً، أي: فهمه. وألحنته أنا إياه. ولاحنْتُ الناس: فاطنتُهم، قال الفزارِيّ:

وحديثٍ ألَذُّهُ هو ممّا ... يَنْعَتُ النَّاعِتُون يُوزَن وزْنَا
منطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا ... ناً وخير الحديث ما كان لحنَا[٥]

يريد أنَّها تتكلم وهي تريد غيرَه، وتُعَرِّض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها. وقد قال تعالى: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾. وقال القَتَّال الكِلابيّ:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٧ ، وفيه (تسعة) بدل (سبعة).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢٣ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٥-٤٨٦ ، وفيه: (وخير الحديث) بدل (وخير الكلام)، والشعر لمالك بن أسماء الفزاري وسيأتي قريباً.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤-٣٠٥ ، والحديث سلف ٢/ ٢٧٤ .

(٥) الصحاح (لحن) وهذه روايته، والبيت أيضاً في الشعر والشعراء ٢/ ٧٨٢ ، والأغاني ١٧/ ٢٣٦ وروايتهما فيه: (صائب) بدل (رائع)، و(أحلى) بدل (خير)، ووقع في الشعر والشعراء أيضاً (يشتهي) بدل (ينعت)، والفزاري قال ابن قتيبة: هو مالك بن أسماء بن خارجة، وآباؤه سادة غَطَفان.

ولقد وَحَيْتُ لكم لكيما تفهموا ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمرتابِ[(١)]

وقال مرار الأسدي:

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابني صدودُكِ تُرْضين الوُشاةَ الأعادِيا

قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ ﷺ منافق إلا عرفه[(٢)].

وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبيَّ ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم، والنبيُّ ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبهه الله تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامَهم.

قال أنس: فلم يَخْفَ منافقٌ بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ؛ عَرّفه الله ذلك بوحي أو علامة عرَفها بتعريف الله إياه[(٣)].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقبَ الأمور، وقيل: لنعاملنّكم معاملة المختبرين[(٤)].

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عليه. قال ابن عباس: «حَتَّى نَعْلَمَ»: حتى نميّز. وقال عليّ ؓ: «حَتَّى نَعْلَمَ»: حتى نرى. وقد مضى في «البقرة»[(٥)].

---

(١) الصحاح (لحن) وهذه روايته، وهو في ديوان القتّال الكلابي ص٣٦ برواية:

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا ووحيت وحياً ليس بالمرتاب

والقتّال الكِلابي: هو عبد الله بن مُجيِّب بن المضرحيّ، شاعر فارس. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٥٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٥ ، والبيت السالف فيه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ ، والكشاف ٣/ ٥٣٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ .

(٥) ٢/ ٤٣٧ - ٤٣٨ .

وقراءة العامة بالنون في «نَبْلُونَّكُمْ» و«نعلم» «وَنَبْلُوَ». وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهنّ. وروى رُوَيس عن يعقوب إسكانَ الواو من «نبلو» على القطع مما قبل. ونصب الباقون ردًّا على قوله: «حَتَّى نَعْلَمَ»[١].

وهذا العِلمُ هو العِلمُ الذي يقع به الجزاء؛ لأنَّه إنَّما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم. فتأويله: حتى نعلمَ المجاهدين علمَ شهادة؛ لأنَّهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاءُ بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة[٢]. ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾: نختبرها ونظهرها.

قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفُضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلنا[٣]؛ فإنَّك إذا بلوتنا فضحْتَنا وهتكْتَ أستارَنا[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود[٥].

وقال ابن عباس: هم المطعِمون يوم بدر. نظيرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦] الآية[٦].

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: عادوه وخالفوه. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: علموا أنه نبيّ بالحُجج والآيات. ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكفرهم. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ثوابَ ما عملوه[٧].

---

(١) السبعة ص٦٠١، والتيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦ بنحوه.
(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: لا تبتلينا.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢١ دون ذكر إبراهيم بن الأشعث.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.
(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ لمَّا بيَّن حال الكفار، أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره، والرسولِ في سننه.

﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي: حسناتِكم بالمعاصي. قاله الحسن. وقال الزُّهْرِي: بالكبائر. ابن جريج: بالرِّياء والسُّمعة[(١)]. وقال مقاتل والثُّمَاليّ: بالمَنّ[(٢)]؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبيّ ﷺ بإسلامه. وكلُّه متقارب، وقول الحسن يجمعه.

وفيه إشارة إلى أنَّ الكبائرَ تحبط الطاعات، والمعاصي تُخرِج عن الإيمان[(٣)].

الثانية: احتج علماؤنا وغيرُهم بهذه الآية على أنَّ التحللَ من التطوّع ـ صلاةً كان أو صوماً ـ بعد التلبس به لا يجوز؛ لأنَّ فيه إبطالَ العمل، وقد نهى الله عنه. وقال من أجاز ذلك ـ وهو الإمام الشافعي وغيرُه ـ: المراد بذلك إبطالُ ثواب العمل المفروض، فنهى الرجل عن إحباط ثوابه. فأمّا ما كان نفلاً فلا؛ لأنَّه ليس واجباً عليه. فإن زعموا أنَّ اللفظ عام، فالعامّ يجوز تخصيصه. ووجه تخصيصه أنَّ النَّفلَ تطوّع، والتطوّع يقتضي تخييراً[(٤)].

وعن أبي العالية: كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب، حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال. وقال مقاتل: يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم[(٥)].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ .

(٢) زاد المسير ٧/ ٤١٢ دون نسبة.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٨ - ٥٣٩ بنحوه، وهذا كلام المعتزلة، ومذهب أهل السنة أن المعاصي لا تبطل الحسنات، ولا تُخرج صاحبها عن الإيمان، غير أن من أصرَّ عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه من الإيمان. وينظر روح المعاني ٢٦/ ٧٩ - ٨٠ ، والداء والدواء ص١٠٣-١٠٥ .

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٥ .

(٥) لفظ قول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ : «لا تَمُنُّوا على رسول الله ﷺ؛ فتبطلوا أعمالكم». وذكر قول أبي العالية بنحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٩ ، وأبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٧ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

بيّن أنَّ الاعتبارَ بالوفاة على الكفر يوجبُ الخلودَ في النار. وقد مضى في «البقرة» الكلام فيه(١). وقيل: إنَّ المرادَ بالآية أصحابُ القليب. وحكمها عام(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ أي: تضعفوا عن القتال(٣).

والوَهْن: الضعف. وقد وَهَن الإنسانُ وَوَهَنَهُ غيره، يتعدّى ولا يتعدَّى. قال:

إنَّـنـي لـسْـتُ بـمـوهـونٍ فَـقِـرْ(٤)

ووَهِن أيضاً ـ بالكسر ـ وَهْنًا، أي: ضعف(٥).

وقرىء: «فما وَهُنُوا» بضم الهاء وكسرها. وقد مضى في «آل عمران»(٦).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: الصُّلح. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم أعلمُ بالله منهم. وقيل: وأنتم الأعلون في الحجة(٧). وقيل: المعنى: وأنتم الغالبون لأنَّكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعض الأحوال(٨).

---

(١) ٣/ ٤٣٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٩، والقليب: البئر، والمراد: قليب بدر. النهاية (قلب).

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣.

(٤) عجز بيت لطرفة وصدره: وإذا تلسُنُني ألسُنها، وهو في ديوانه ص٥٣، والكلام في الصحاح (وهن).

(٥) الصحاح (وهن).

(٦) ٥/ ٣٥٣، ولم نقف على من قرأ «وهُنوا» بضم الهاء.

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠١.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.

وقال قتادة: لا تكونوا أوّلَ الطائفتين ضرعتْ إلى صاحبتها[١].

الثالثة: واختلف العلماء في حكمها؛ فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] لأنَّ الله تعالى منع من المَيْل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجةٌ إلى الصلح. وقيل: منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وقيل: هي محكمة. والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال. وقيل: إنَّ قوله: «وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا» مخصوص في قوم بأعيانهم، والأخرى عامة[٢].

فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين[٣]. وقد مضى هذا المعنى مستوفى[٤].

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: بالنَّصر والمعونة[٥]؛ مثل: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينقصَكم؛ عن ابن عباس وغيره[٦].

ومنه الموتور الذي قُتِل له قتيل فلم يدرك بدمه، تقول منه: وَتَرَه يَتِره وِتْرًا وَتِرَةً[٧].

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاةُ العصر فكأنَّما وُتِرَ أهلَه ومالَه» أي: ذُهب بهما[٨].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٩ ، وفيه: ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٤ .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣ ، وينظر ٢/ ٣٨٥ منه.

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٥ .

(٤) ١٠/ ٦٢ فما بعدها.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ عن مجاهد وقطرب، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٥٩٩ .

(٧) الصحاح (وتر).

(٨) أخرجه أحمد (٦٣٢٤)، والبخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦): (٢٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وكذلك وَتَرَهُ حقّه أي: نقصه. وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينتقصَكم في أعمالكم، كما تقول: دخلتُ البيت؛ وأنت تريد في البيت. قاله الجوهريّ[١].

الفرّاء: «وَلَنْ يَتِرَكُمْ» هو مشتقٌّ من الوتر، وهو الفرد؛ فكان المعنى: ولن يفردكم بغير ثواب[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تقدّم في «الأنعام»[٣]. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ شرط، وجوابه. ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة؛ بل أمر بإخراج البعض. قاله ابن عُيينة وغيره[٤].

وقيل: «لايَسْألْكم أموالَكُم» لنفسه[٥] أو لحاجة منه إليها، إنّما يأمركم بالإنفاقِ في سبيله؛ ليرجع ثوابُه إليكم.

وقيل: «لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ» إنّما يسألكم أمواله؛ لأنّه أملَكُ[٦] لها، وهو المنعم بإعطائها[٧].

وقيل: ولا يسألكم محمدٌ أموالَكم أجراً على تبليغ الرسالة. نظيره: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] الآية. ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾: يلحّ عليكم.

---

(١) في الصحاح (وتر).

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢ دون نسبة. وقال: والأول أصح.

(٣) ٨/ ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٣ بنحوه عن ابن عيينة.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ .

(٦) في (م): المالك.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧ .

يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألحّ بمعنًى واحد. والحَفيّ المستقصِي في السؤال، وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة. ومنه أحفى شاربَه؛ أي: استقصى في أخذه(١).

﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي: يخرج البخل أضغانَكم.

قال قتادة: قد علم الله أنّ في سؤال المال خروجَ الأضغان(٢).

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيصِن وحميد: «وتَخْرُج» بتاء مفتوحة وراء مضمومة. «أضْغَانُكُمْ» بالرفع لكونه الفاعل(٣). وروى الوليدُ عن يعقوب الحضرميّ «ونخرج» بالنون(٤). وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويخرج» بالرفع في الجيم على القطع والاستئناف(٥)، والمشهور عنه: «ويُخْرِجْ» كسائر القرّاء، عطف على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ أي: هأنتم هؤلاء أيُّها المؤمنون تُدعون ﴿لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد وطريق الخير. ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ أي: على نفسه؛ أي: يمنعها الأجرَ والثواب. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: إنَّه ليس بمُحتاجٍ إلى أموالكم. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ إليها.

---

(١) الصحاح (حفا).

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٨، والوسيط ٤/ ١٣٠، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤١، والبحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٨٦، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٧٣، والقراءات الشاذة ص١٤١.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: أطوعَ لله منكم[(١)].

روى الترمذي[(٢)] عن أبي هريرة قال: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ قالوا: ومن يُستبدل بنا؟ قال: فضرب رسولُ الله ﷺ على منكِب سلمان ثم قال: «هذا وقومُه. هذا وقومُه» قال: حديث غريب في إسناده مقال.

وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني أيضاً هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، مَنْ هؤلاء الذين ذكر اللهُ إنْ تَوَلَّينا استُبدلوا، ثمَّ لا يكونوا أمثالَنا؟ قال: وكان سلمانُ جنبَ رسول الله ﷺ قال: فضرب رسولُ الله ﷺ فخذَ سلمان، قال: «هذا وأصحابُه. والذي نفسي بيدِه لو كان الإيمانُ مَنُوطًا بالثُّرَيَّا لتناولَه رجالٌ من فارس»[(٣)].

وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: هم فارس والروم[(٤)]. قال المحاسبيّ: فلا أحد بعد العرب من جميعِ أجناسِ الأعاجم أحسنُ دِيناً، ولا كانت العلماءُ منهم إلا الفرس.

وقيل: إنَّهم اليمن، وهم الأنصار. قاله شريح بن عبيد[(٥)]. وكذا قال ابن عباس:

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٨ .

(٢) في سننه (٣٢٦٠).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦١)، وهو في صحيح ابن حبان (٧١٢٣) من طريق مسلم بن خالد عن العلاء...
وأخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١) بلفظ: «... فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لَنَالهُ رجال من هؤلاء».
وأخرجه أحمد (٨٠٨١)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣٠) بلفظ: «لو كان الدين عند الثريا، لذهب به رجل من فارس - أو قال - من أبناء فارس».

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٧ ، والكشاف ٣/ ٥٤٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧ .

هم الأنصار[١]. وعنه: أنَّهم الملائكة[٢]. وعنه: هم التابعون. وقال مجاهد: إنَّهم من شاء من سائر الناس[٣].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ قال الطبريّ: أي: في البُخل بالإنفاق في سبيل الله. وحُكي عن أبي موسى الأشعريّ أنَّه لمّا نزلت هذه الآيةُ، فرح بها رسولُ الله ﷺ وقال: «هي أحبُّ إليَّ من الدنيا»[٤]. والله أعلم.

ختمت السورةُ بحمد الله وعونه، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الأطهار.

---

(١) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤١٦ لمقاتل.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧ دون نسبة.

(٣) زاد المسير ٧/ ٤١٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٨ .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ

وتُسمَّى سورةَ القتالِ، وهي مَدنيَّةٌ، وقيل: مَكِّيَّةٌ، وآيُها سبعٌ أو ثمان وثلاثونَ[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ امتَنعُوا عن الدُّخولِ في الإسلامِ وسلوكِ طَرِيقِه، أو منعوا النَّاس عنه كالمطعِمينَ[2] يومَ بدرٍ[3]، أو شياطينِ[4] قُريشٍ[5]،

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٢٨)، وفيه: وهي ثلاثون وثماني آيات في الكوفي، وتسع في المدنيين والمكي والشامي، وأربعون آية في البَصريّ، اختلافها آيتان ﴿أَوۡزَارَهَا﴾ لم يَعُدَّها الكوفي وعدَّها الباقون، ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ عدَّها البَصري ولم يعدها الباقون. ولم يذكر الداني سوى القول بمدنيتها، وهو ما صححه أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير». وقال هبة الله في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ١٦٥): وهي من السُّور المُختَلَف في تنزيلها، فقالت طائفة: نزلت بمكة، وهو مَرويّ عن السّدي والضحاك، وقال آخرون: نزلت بالمدينة، وهو مرويّ عن مجاهد، وهي إلى تنزيل المدينة أشبه، والله أعلم.

(٢) في نسخة التفتازاني: «وهم المطعمون».

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٦) عن الكلبي، معدداً أسماءهم وهم ستة، ولعله من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٤) في نسخة الفاروقي: «وشياطين».

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٣)، وعددهم، وهم الستة المذكورون في خبر الكلبي مع ستة آخرين.

والمُصرِّينَ[1] مِن أهلِ الكِتابِ، أو عامٌّ في جميعِ مَن كفرَ وصدَّ.

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ جعلَ مَكارِمَهُم كصِلَةِ الرَّحمِ وفكِّ الأُسارى وحفظِ الجِوارِ ضالَّةً؛ أي: ضائعَةً مُحبَطَةً بالكُفرِ، أو مَغلوبَةً مَغمورةً فيه كما يَضِلُّ الماءُ في اللبنِ، أو ضلَّالًا حيثُ لم يقصِدُوا به وجهَ اللهِ، أو أبطَلَ ما عَمِلُوه مِن الكيدِ لرَسُولِه والصَّدِّ عَن سَبيلِه بنصرِ رَسُولِه وإظهارِ دينِه على الدِّينِ كلِّه.

(٢) ـ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يَعُمُّ المُهاجرينَ والأنصارَ والذين آمَنُوا مِن أهلِ الكتابِ وغيرَهم.

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ تخصيصٌ للمُنْزَلِ عليه ممَّا يَجِبُ الإيمانُ به تعظيمًا له وإشعارًا بأنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ دونَه[2] وأنَّه الأَصلُ فيه.

ولذلك أكَّدَه بقولِه: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ اعتراضًا على طريقِه وحَقِّيَّتُه بكونِه[3] ناسخًا لا يُنسَخُ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «أو المصرون».

(٢) في نسخة الخيالي: «بدونه».

(٣) في نسخة الفاروقي: «اعتراضًا، وحقِّيتُه كونه»، وفي نسخة الطبلاوي: «اعتراضاً على طريقة الحصر وحقيقته لكونه». قال الخفاجي في «حاشيته»: وقوله: «على طريقه» اختلف في مرجع هذا الضمير؛ فقيل: هو للتخصيص، وكان هذا طريق التخصيص لتعريف المسند، و«حقيته» مرفوع مبتدأ خبره قوله: «بكونه ناسخاً»، وقيل: المعنى على طريق القرآن وبيان حاله، وحقيته بكونه ناسخاً لا ينسخ ثابتاً غير متغير، فحقيته بالجرّ عطفاً على مجرور على، ولا يخفى أنّ الأوّل هو المراد.

ولو قيل: الضمير للاعتراض صحَّ؛ أي هو اعتراض وارد على طريق الاعتراض، وهو تأكيد لما اعترض فيه كما مرّ مراراً، وفسر الحقية بما ذكر ليتم الحصر بالنسبة لغيره من الكتب أو الأديان».

وقُـرِئَ: (نَـزَّلَ) على البنـاءِ للفَاعـلِ[١]، و: (أنزلَ) علـى البناءيـنِ[٢]، و: (نَزَلَ) بالتَّخفيفِ[٣].

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ سَتَرها بالإيمانِ وعَملِهم الصَّالحِ.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ حالَهُم في الدِّينِ والدُّنيا بالتَّوفيقِ والتَّأييدِ.

(٣) ـ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ مِن الإضلالِ والتَّكفيرِ والإصلاحِ، وهو مُبتدَأٌ خبرُه: ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ بسببِ اتِّباعِ هؤلاءِ الباطلَ واتباعِ هؤلاءِ الحقَّ، وهو تصريحٌ بما أشعرَ به ما قبلَها، ولذلك يُسمَّى[٤] تَفسيرًا.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثلَ ذلك الضَّربِ ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يُبيِّنُ لهم ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾ أحوالَ الفَريقَيْنِ، أو أحوالَ النَّاسِ، أو يضربُ أمثالَهُم بأَنْ جعلَ[٥] اتِّباعَ الباطلِ مَثَلًا لعملِ الكُفَّارِ والإضلالَ مثلًا لخيبَتِهِم، واتِّباعَ الحقِّ مثلًا للمُؤمنينَ وتَكفيرَ السَّيِّئاتِ مثلًا لفَوزِهم.

(٤) ـ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في المحاربةِ ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصلُه: فاضرِبُوا الرِّقابَ ضَرْبًا، فحُذِفَ الفِعلُ وقُدِّمَ المصدَرُ وأُنيبَ مَنابَه مُضافًا إلى المفعولِ ضمًّا إلى التَّأكيدِ الاختصارَ، والتَّعبيرُ به عن القتلِ إشعارٌ بأنَّه يَنبغي أَنْ يكونَ بضربِ الرَّقبةِ حيثُ أمكنَ وتصويرٌ له بأشنَعِ صُورةٍ.

---

(١) وهي قراءة ابن مقسم كما في «الكامل» للهذلي (ص: ٦٣٨)، وابن مسعود كما في «زاد المسير» (٤/ ١١٥).

(٢) بالبناء للمفعول، قراءة الأعمش كما في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٠٩)، وأبي ومعاذ القارئ كما في «زاد المسير» (٤/ ١١٥).

(٣) وهي قراءة أبي رزين وأبي الجوزاء وأبي عمران كما في «زاد المسير» (٤/ ١١٥).

(٤) في نسخة الخيالي: «سمي».

(٥) في نسخة الخيالي: «يجعل».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أكثَرْتُم قتلَهُم وأغلَظْتُموهُ، مِن الثَّخينِ وهو الغَليظُ.

﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ فَأْسِرُوهم واحفَظُوهُم، والوثاقُ بالفتحِ والكسرِ: ما يُوثَقُ بهِ.

﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإمَّا تَمنُّون مَنًّا أو تُفدونَ فداءً، والمرادُ التَّخييرُ بعدَ الأسرِ بينَ المنِّ والإطلاقِ وبين أخذِ الفِداءِ وهو ثابِتٌ عِندَنا = فإنَّ الذَّكَرَ الحُرَّ المُكلَّفَ إذا أُسِرَ تخيَّرَ الإمامُ بينَ القتلِ والمنِّ والفِداءِ، والاسترقاقُ = مَنسوخٌ عند الحنفيَّةِ أو مَخصوصٌ بحربِ بدرٍ؛ فإنَّهُم قالوا: يتعيَّنُ القتلُ أو الاسترقاقُ.

وقُرِئَ: (فَدًى) كعَصا[1].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ آلاتِها وأثقالَها التي لا تقومُ إلَّا بها كالسِّلاحِ والكُراعِ أي: تَنْقَضي الحربُ ولم يبقَ إلَّا مُسلِمٌ أو مُسالمٌ.

وقيل: آثامَها، والمعنى: حتَّى يضعَ أهلُ الحربِ شِركَهُم ومَعاصِيَهُم وهو غايةٌ للضَّربِ أو الشَّدِّ، أو للمَنِّ والفداءِ أو للمَجموعِ بمعنى: أنَّ هذه الأحكامَ جارِيَةٌ فيهم حتَّى لا يكونَ حربٌ مع المشركينَ بزَوالِ شَوْكَتِهم.

وقيل: بنُزولِ عيسى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ ذلك، أو افعَلُوا بهم ذلك.

﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ لانتقمَ مِنهم باستئصالٍ.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ ولكن أمرَكُم بالقِتالِ ليَبْلُوَ المُؤمنينَ بالكافرينَ بأَنْ يُجاهِدُوهُم فيَستَوجِبُوا الثَّوابَ العَظيمَ، والكافرينَ بالمؤمنينَ بأَنْ يُعاجِلَهُم على أيديهِم ببعضِ عَذابِهم كي يَرتَدِعَ بعضُهم عَن الكفرِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١)، و«البحر» (١٩/ ٢٤٠)، وهي كما ذكرا رواية عن ابن كثير لكن بكسر الفاء كما يظهر من كلامهما.

﴿والذينَ قاتَلُوا في سبيلِ اللهِ﴾ أي جاهَدُوا، وقرأَ البَصريَّانِ وحَفصٌ: ﴿قُتِلُوا﴾[١] أي: استشهدُوا ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلن يُضيعَها، وقُرِئَ: (يَضِلَّ) مِن ضَلَّ، و: (يُضَلَّ) على البناءِ للمَفعولِ[٢].

(٥ ـ ٦) ـ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى الثَّوابِ، أو سيُثبِتُ هِدايَتَهُم.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ وقد عرَّفَها لهم في الدُّنيا حتى اشتاقُوا[٣] إليها فعَمِلُوا ما استحقُّوها به، أو بيَّنَها لهم بحيثُ يعلَمُ كلُّ أحدٍ منزلَهُ ويهتدِي إليه كأنَّه كان ساكنَهُ مُذ خُلِقَ، أو طيَّبَها لهم مِن العَرْفِ وهو طيبُ الرَّائحةِ، أو حدَّدها لهم بحيثُ يكونُ لكلٍّ جنَّةٌ مُفرَزةٌ.

(٧) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ إن تنصروا دينَهُ ورسولَهُ ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوِّكُم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في القيامِ بحُقوقِ الإسلامِ والمُجاهدةِ مع الكُفَّارِ.

(٨) ـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ فعُثورًا وانحطاطًا، ونقيضُه: لَعًا، قال الأعشى:

فَالتَّعْسُ أَوْلَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ لَعَا[٤]

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠).

(٢) رويت القراءتان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١)، و«البحر» (١٩/ ٢٤٢).

(٣) في نسخة الخيالي زيادة: «في الدنيا».

(٤) انظر: «ديوان الأعشى» (ص: ١٣٥)، و«العين» (٨/ ٢٣٩)، و«النوادر» لأبي زيد (ص:٢١٩)، و«الأمثال» لأبي عبيد (ص: ٨٨)، و«الألفاظ» لابن السكيت (ص: ٤٣١)، و«الصحاح» (مادة: لوث ولعا). وصدره:

بذات لوثٍ عفرناةٍ إذا عثرت

وهو في وصف ناقته، واللوث: القوة، وناقة عفرناة؛ أي: قوية.

وانتصابُه بِفِعلِهِ الواجبِ إضمارُهُ سَماعًا، والجملةُ خبرُ ﴿الذين كفروا﴾، أو مُفسِّرٌ لناصبِه.

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ عطفٌ عليه.

(٩) ـ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ القرآنَ؛ لِمَا فيه مِن التَّوحيدِ والتَّكاليفِ المُخالِفَةِ لِمَا أَلِفُوه واشتَهَتْ أنفُسُهم، وهو[1] تخصيصٌ وتَصريحٌ بسببيَّةِ الكُفرِ بالقُرآنِ للتَّعسِ والإضلالِ.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ كرَّرَه إشعارًا بأنَّه يلزمُ الكفرَ بالقرآنِ[2] ولا يَنفكُّ عنه بحالٍ.

(١٠) ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استأصلَ عليهِم ما اختصَّ بهم مِن أنفُسِهِم وأهليهِم وأَموالِهم.

﴿وَلِلْكَفِرِينَ﴾ مِن وَضعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ.

﴿أَمْثَلُهَا﴾ أمثالُ تلك العاقبَةِ أو العقوبَةِ أو الهلَكَةِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يدلُّ عليها، أو للسنَّةِ لقولِه تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ ﴾ [الفتح: ٢٣].

(١١) ـ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ناصرُهُم على أعدائِهم.

﴿وَأَنَّ الْكَفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ فيدفع العذابَ عنهم، وهو لا يخالِفُ قولَه: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَنهُمُ الْحَقِّ ﴾ [يونس: ٣٠]؛ فإنَّ المولى فيه بمعنى المالكِ.

(١٢) ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعونَ بمتاعِ الدُّنيا.

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ ﴾ حَرِصينَ غافِلينَ عَن العاقبةِ.

---

(١) «وهو»: ليس في نسخة الفاروقي والتفتازاني.

(٢) في نسخة الخيالي: «يلزم الكفر به».

﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ منزلٌ ومُقامٌ.

(١٣) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ على حذفِ المُضافِ وإجراءِ أَحكامِه على المضافِ إليه، والإخراجُ باعتبارِ التَّسبُّبِ.

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بأنواعِ العذابِ ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفَعُ عنهم، وهو كالحالِ المَحكيَّةِ.

(١٤) ـ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ حجَّةٍ مِن عندِه وهو القرآنُ، أو ما يعمُّهُ والحججُ العَقليَّةُ، كالنَّبيِّ والمؤمنينَ.

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ كالشِّركِ والمعاصي.

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ في ذلك، لا شُبهَةَ لهم عليه فضلًا عن حُجَّةٍ.

(١٥) ـ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: فيما قَصَصْنا عليك صِفَتَها العجيبةَ.

وقيل: مبتدأٌ خبرُه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ وتقديرُ الكلامِ: أَمَثلُ أهلِ الجنَّةِ كمثلِ مَن هو خالدٌ؟

أو: أمَثَلُ الجنَّةِ كمثلِ جزاءِ مَن هو خالدٌ في النَّارِ؟ فعُرِّيَ عَن حرفِ الإنكارِ وحُذِفَ ما حُذِفَ استغناءً بجري مثلِه تصويرًا لمكابرةِ مَن يُسَوِّي بين المتمسِّكِ بالبيِّنَةِ والتَّابعِ للهَوى بمكابرةِ من سوَّى بين الجنَّةِ والنَّارِ.

وهو على الأوَّلِ خبرُ مَحذوفٍ تقديرُه: أفمَنْ هو خالدٌ في هذه الجنَّةِ كمَنْ هو خالدٌ في النَّارِ؟!

أو بدلٌ مِن قولِه: ﴿كَمَن زُيِّنَ﴾، وما بينَهُما اعتراضٌ لبيانِ ما يمتازُ به مَن على بيِّنَةٍ في الآخرةِ تقريرًا لإنكارِ المساواةِ.

﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ استئنافٌ يشرحُ المثلَ، أو حالٌ مِن العائدِ المحذوفِ، أو خبرٌ لـ﴿مَّثَلُ﴾.

و﴿ءَاسِنٍ﴾ مِن: أَسنَ الماءُ بالفتحِ: إذا تغيَّرَ طَعمُه وريحُه، أو بالكسرِ على مَعنى الحدوثِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ: ﴿أَسِنٍ﴾(١).

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لم يَصِرْ قارِصًا ولا حازرًا(٢).

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذةٍ لا يكونُ فيها كراهةُ غائلةِ ريحٍ، ولا غائلةِ سُكرٍ وخُمَارٍ، تأنيثُ لَذٍّ، أو مَصدَرٌ نُعِتَ به بإضمارٍ أو تجوُّزٍ.

وقُرِئَت بالرَّفعِ على صِفَةِ الأنهارِ، والنَّصبِ على العِلَّةِ(٣).

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يُخالِطْهُ الشَّمعُ وفَضَلاتُ النَّحلِ وغيرِها، وفي ذلك تمثيلٌ لِمَا يقومُ مقامَ الأَشْرِبَةِ في الجنَّةِ بأنواعِ ما يستلذُّ منها في الدُّنيا بالتَّجريدِ عمَّا يَنقُصُها ويُنَغِّصُها والتَّوصيفِ بما يوجِبُ غزارَتَها واستمرارَها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ صنفٌ على هذا القياسِ.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ عطفٌ على الصِّنفِ المحذوفِ، أو مُبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ أي: لَهُم مَغفِرَةٌ.

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكانَ تلك الأشرِبَةِ.

﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ مِن فرطِ الحرارةِ.

(١٦) - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ يعني المنافقينَ، كانوا يحضرونَ مجلسَ رسولِ اللهِ ويسمعونَ كلامَهُ فإذا خرجوا ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠).

(٢) القارص: اللبن الذي يَحْذِي اللسان؛ أي: يقرصه، والحازر ـ بتقديم الزاي ـ: اللبن الحامض. انظر: «حاشية الجاربردي» (ج٢/ و٣٥٨ب).

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٨٤)، و«البحر» (١٩/ ٢٥٠).

أي لعُلَماءِ الصَّحابةِ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ ما الذي قال السَّاعةَ استهزاءً، أو استِعلامًا إذ لم يُلقوا له آذانُهم تهاوُنًا به.

و(آنِفًا) مِن قَولِهم: أَنفُ الشَّيءِ لِمَا تَقدَّمَ منهُ مستعارًا مِن الجارحةِ، ومنه: استأنفَ وائتنفَ، وهو ظرفٌ بمعنى: وقتًا مُؤتِنفًا، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿قَالَ﴾.

وقرئ: ﴿أَنِفًا﴾(1).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فلذلك استهزَؤُوا بها وتهاوَنُوا بكلامِه.

(١٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: زادَهُم اللهُ بالتَّوفيقِ والإلهامِ أو قولِ الرَّسُولِ.

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ بيَّنَ لهم ما يتقونَ، أو أعانَهُم على تَقْواهُم، أو أعطَاهُم جزاءَها.

(١٨) ـ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ فهل يَنتظِرُون غيرَها ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾.

وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ كالعِلَّةِ له.

وقُرِئَ: (إِنْ تَأْتِهِم)(2) على أنَّه شرطٌ مُستأنفٌ جزاؤُه:

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ والمعنى: إِنْ تَأْتِهِم السَّاعةُ بغتةً لأنَّه قد ظهرَ أماراتُها كمبعثِ النَّبيِّ وانشقاقِ القمرِ فكيفَ لَهُم ذِكراهُم؟ أي: تَذَكُّرُهم إذا جاءَتْهُم السَّاعةُ بغتةً، وحينئذٍ لا يُفرغُ له ولا ينفعُ.

---

(١) وهي قراءة البزي بخلف عنه، انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠).

(٢) كما حكاه أبو جعفر الرؤاسي أنها كذلك في قراءة أهل مكة. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٧٠).

وقال الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٦١): وحدثني أبو جعفرٍ الرُّؤاسيُّ قال: قلتُ لأبي عَمْرو بنِ العلاء: ما هذه الفاء التي في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾؟ قال: جوابٌ للجزاء. قال: قلتُ: إنها: ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ مفتوحة؟ قال: فقال: معاذَ الله إنَّما هي: (إِنْ تَأْتِهِم)، قال الفراء: فظننتُ أنه أخذها عن أهل مكَّة لأنَّه عليهم قَرأ، وهي أيضًا في بعض مصاحف الكوفيين: (تأتهم) بسينة واحدة، ولم يقرأ بها أحد منهم.

(١٩) ـ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: إذا عَلِمْتَ سَعادةَ المؤمنينَ وشقاوةَ الكافرينَ فاثبُتْ على ما أنتَ عليه مِن العِلْمِ بالوحدانيَّةِ وتكميلِ النَّفسِ بإصلاحِ أَحوالِها وأَفعالِها وهَضمِها بالاستغفارِ لذَنبك.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ولذُنوبِهم بالدُّعاءِ لهم والتَّحريضِ على ما يَستَدْعِي غُفرانَهُم.

وفي إعادةِ الجارِّ وحذفِ المُضافِ إشعارٌ بفرطِ احتِياجِهم وكثرةِ ذنوبِهم وأنَّها جنسٌ آخرُ؛ فإنَّ الذَّنبَ ما له تَبِعةٌ ما كتَرْكِ الأَولى.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدُّنيا فإنَّها مراحِلُ لا بُدَّ مِن قَطعِها.

﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في العُقبى فإنَّها دارُ إقامَتِكُم، فاتَّقُوا اللهَ واستغفِرُوه وأعِدُّوا لِمَعادِكُم.

(٢٠) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هَلَّا أُنزِلَت سُورَةٌ في أمرِ الجهادِ.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ مُبيَّنَةٌ لا تشابُهَ فيها.

﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: الأمرُ به.

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفٌ في الدِّينِ، وقيل: نفاقٌ.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ جُبنًا ومخافةً.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فويلٌ لَهُم، أفعَلُ مِن الوَلْيِ وهو القُرْبُ، أو فَعْلَى مِن آلَ، ومَعناهُ الدُّعاءُ عليهِم بأَنْ يَلِيَهُم المَكروهُ، أو يؤولَ إليهِ أَمرُهُم.

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ استئنافٌ، أي: أمرُهُم طاعةٌ، أو طاعةٌ وقولٌ مَعروفٌ خَيرٌ لهم، أو حكايةُ قولِهم لقِراءَةِ أُبَيٍّ: (يقولونَ طاعةٌ)[1].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٩٠)، و«البحر» (١٩/ ٢٥٨).

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: جَدَّ، وهو لأصحابِ الأمرِ، وإسنادُهُ إليه مجازٌ، وعامِلُ الظَّرفِ مَحذوفٌ.

وقيل: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما زَعَمُوا مِن الحرصِ على الجهادِ والإيمانِ.

﴿لَكَانَ﴾ الصِّدْقُ ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ فهل يتوقَّعُ منكم، وقرأ نافع بكسر السين[1].

﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أمورَ النَّاسِ وتأمَّرْتُم عليهِمْ، أو أَعْرَضْتُم وتولَّيْتُم عن الإسلامِ.

﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ تناحُرًا على الولايةِ وتَجاذُبًا لها، أو رُجوعًا إلى ما كنتُمْ عليه في الجاهليَّةِ مِن التَّغاوُرِ ومُقاتلةِ الأقاربِ، والمعنى أَنَّهُم لضَعْفِهم في الدِّينِ وحرصِهِم على الدُّنيا أَحِقَّاءُ بأن يَتوقَّعَ ذلك منهم مَن عرفَ حالَهم ويقولُ لهم: هل عَسَيْتُم، وهذا على لغَةِ الحجازِ فإنَّ بني تميمٍ لا يُلحقونَ الضَّميرَ به، وخبرُهُ ﴿أَن تُفۡسِدُواْ﴾، و﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ اعتراضٌ[2].

وعن يعقوبَ: ﴿تُوُلِّيتُم﴾[3] أي: إنْ تَولَّاكُم ظَلَمةٌ خرَجْتُم معَهُم وساعَدْتُموهُم في الإفسادِ وقطيعةِ الرَّحِمِ، ﴿وتَقْطَعُوا﴾ من القَطعِ[4].

وقُرِئَ: (وتَقَطَّعُوا) مِن التَّقطُّعِ[5].

(٢٣) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورينَ ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لإفسادِهِم وقَطعِهِم الأرحامَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٨٦)، و«التيسير» (ص: ٨١).

(٢) في نسخة التفتازاني زيادة: «أي جملة معترضة».

(٣) قرأ بها أيضاً رويس عن يعقوب، انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٤).

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٤).

(٥) قرأ بها الحسن كما في «البحر» (١٩/ ٢٦١).

﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماعِ الحقِّ ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ فلا يهتدونَ سبيلَه.

(٢٤) ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يَتصفَّحونَه وما فيهِ من المواعظِ والزَّواجرِ حتى لا يَجسُرُوا[1] على المعاصي.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ لا يَصِلُ إليها ذكرٌ ولا يَنكَشِفُ لها أمرٌ.

وقيل: (أم) مُنقَطِعَةٌ، ومَعنى الهمزةِ فيها التَّقريرُ.

وتَنكيرُ القلوبِ لأنَّ المرادَ قلوبُ بعضٍ مِنْهُم، أو للإشعارِ بأنَّها لإبهامِ أَمرِها في القساوةِ أو لفَرطِ جَهالَتِها ونُكرِها كأنَّها مُبهَمَةٌ منكورةٌ.

وإضافةُ الأقفالِ إليها للدَّلالةِ على أقفالٍ مُناسبَةٍ لها مُختَصَّةٍ بها لا تجانسُ الأقفالَ المَعهودةَ.

وقُرِئَ: (إقفالُها) على المصدرِ[2].

(٢٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم﴾ إلى ما كانوا عليهِ مِن الكفرِ.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدَّلائلِ الواضِحَةِ والمعجزاتِ الظَّاهرةِ.

﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهَّلَ لهم اقترافَ الكبائرِ مِن السَّوَلِ، وهو الاسترخاءُ.

وقيل: حَمَلهُم على الشَّهواتِ، مِن السُّولِ وهو المتمنَّى، وفيه أنَّ السُّؤْلَ مهموزٌ قُلِبَت همزَتُه لضمِّ ما قبلَها، ولا كذلك التَّسويلُ، ويُمكِنُ رَدُّه بقولِهم: هما يَتساولانِ.

وقُرِئَ: (سُوِّل)[3] على تقديرِ مُضافٍ، أي: كيدُ الشَّيطانِ سُوِّلَ لهم.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «يجرؤوا».

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٩٣)، و«البحر» (١٩/ ٢٦٢).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١) عن بعض السلف، و«الكشاف» (٨/ ٢٩٣) دون نسبة، و«البحر» (١٩/ ٢٦٣) عن زيد بن علي.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومَدَّ لَهُم في الآمالِ والأماني، أو أمهَلَهُم اللهُ ولم يُعاجِلْهُم بالعُقوبَةِ، لقراءةِ يعقوبَ: ﴿وأُمْلِي لهم﴾ أي: وأنا أُمْلِي لهم، فتكونُ الواوُ للحالِ أو الاستئنافِ، وقرأَ أبو عمرٍو: ﴿وأُمْلِيَ لهم﴾[1] على البناءِ للمَفعولِ وهو ضميرُ الشَّيطانِ أو ﴿لَهُمْ﴾.

(٢٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي: قالَ اليَهودُ الذين كفرُوا بالنَّبيِّ بعدَما تبيَّنَ لهم نعتُه للمُنافقينَ، أو المنافقونَ لهم، أو أحدُ الفَريقَيْنِ للمُشركينَ.

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في بَعضِ أُمورِكُم أو في بعضِ ما تَأمُرونَ به كالقُعودِ عَن الجهادِ والموافقةِ في الخروجِ مَعَهُم إن أُخرِجُوا والتَّظافرِ على الرَّسولِ.

﴿والله يَعلَمُ أَسرارَهُم﴾ ومنها قَولُهم هذا الذي أفشاهُ اللهُ عليهِمْ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ: ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ على المصدَرِ[2].

(٢٧) ـ ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فكيفَ يعمَلُونَ ويَحتالونَ حينَئذٍ.

وقُرِئَ: (تَوفَّاهُم)[3] وهو يحتملُ الماضِيَ والمضارِعَ المَحذُوفَ إحدى تاءيهِ.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ تَصويرٌ لتَوَفِّيهم بما يخافونَ منه ويجبُنونَ عن القتالِ له.

(٢٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى التَّوفِّي الموصوفِ.

﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ مِن الكفرِ وكتمانِ نَعتِ الرَّسولِ وعصيانِ الأمرِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠١)، و«النشر» (٢/ ٣٧٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠١)، و«التيسير» (ص: ٢٠١)، و«النشر» (٢/ ٣٧٤).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١) عن الأعمش.

﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ ما يَرضاهُ مِن الإيمانِ والجهادِ وغيرِه من الطَّاعاتِ.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ لذلك.

(٢٩) ـ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ﴾ أَنْ لن يبرزَ اللهُ لرَسُولِه والمؤمنينَ ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادَهُم.

(٣٠) ـ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لعَرَّفناكَهُم بدلائلَ تُعرِّفُهم بأعيانِهِم.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ بعَلَاماتِهم التي نَسِمُهم بها، واللامُ لامُ الجوابِ كُرِّرَتْ في المعطوفِ.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ جوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ، ولحنُ القولِ أسلوبُه أو إمالَتُه إلى جِهَةِ تعريضٍ وتَورِيَةٍ، ومنه قيلَ للمُخطئِ لاحِنٌ لأنَّه يعدِلُ الكلامَ عن الصَّوابِ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيُجازيكم على حسبِ قَصدِكُم إذ الأعمالُ بالنِّياتِ.

(٣١) ـ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمرِ بالجهادِ وسائرِ التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ.

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ على مَشاقِّها.

﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يُخبَرُ به عن أعمالِكُم فنظهرُ حسنَها وقُبيحَها، أو أخبارَهُم عن إيمانِهم ومُوالاتِهم المؤمنينَ في صِدقِها وكَذِبِها.

وقرأَ أبو بكرٍ الأفعالَ الثَّلاثةَ بالياءِ[١] لتوافُقِ ما قبلَها، وعن يعقوبَ: ﴿وَنَبْلُوْ﴾[٢] بسُكونِ الواوِ على تقديرِ: ونحنُ نَبلُو.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠١)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٥).

(٣٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ هم قُريظَةُ والنَّضيرُ، أو المطعِمونَ يومَ بدرٍ.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكُفرِهم وصَدِّهِم، أو لَنْ يَضُرُّوا رسولَ اللهِ بمُشاقتِهِ، وحُذِفَ المضافُ لتَعظيمِهِ وتَفظيعِ مُشاقتِهِ.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ثوابَ حسناتِ أَعمالِهِم بذلك، أو مكائدَهُم التي نَصَبُوها في مُشاقتِهِ فلا يَصِلونَ بها إلى مَقاصدِهِم ولا تُثمِرُ لهم إلَّا القتلَ والجَلاءَ عَن أَوطانِهِم.

(٣٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بما أبطلَ[(١)] به هؤلاءِ كالكفرِ والنِّفاقِ والعُجبِ والرِّياءِ والمنِّ والأذى ونحوِها، وليسَ فيه دليلٌ على إحباطِ الطَّاعاتِ بالكَبائرِ.

(٣٤) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ عامٌّ في كلِّ مَن ماتَ على كفرِهِ وإن صَحَّ نزولُه في أصحابِ القَليبِ، ويدلُّ بمفهومِه على أنَّه قد يَغفِرُ لِمَن لم يَمُت على كفرِه سائرَ ذُنوبِه.

(٣٥) ـ ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ فلا تَضعُفُوا.

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ ولا تَدْعُوا إلى الصُّلحِ خَوَرًا[(٢)] وتذلُّلًا، ويجوزُ نَصبُه بإضمارِ (أن).

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أبطلوا».

(٢) في نسخة التفتازاني زيادة: «أي ضعفًا».

وقُـرِئَ: (وَلَا تَدَّعُـوا)[١] مِـن ادَّعـى بمعنى دَعـا، وقرأ أبـو بكرٍ وحَمزةُ بكسـرِ السِّينِ[٢].

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ الأغلبونَ ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ ناصِرُكم.

﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ ولن يضيعَ أعمالَكُم، مِن وَتَرْتُ الرَّجُلَ: إذا قتلتَ مُتعلِّقًا له مِن قَريبٍ أو حَميم، فأفردته عنهُ مِن الوِترِ، شُبِّهَ به تعطيلُ ثوابِ العملِ وإفرادُهُ مِنه.

(٣٦) - ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ لا ثباتَ لها.

﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ ثوابَ إيمانِكُم وتَقْواكُم ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ جميعَ أَموالِكُم، بل يَقتَصِرُ على جزءٍ يَسيرٍ كربعِ العُشرِ وعُشرِه.

(٣٧) - ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ﴾ فيجهدْكم[٣] بطلبِ الكلِّ، والإحفـاءُ والإلحافُ المبالغَةُ وبُلوغُ الغايةِ، يقال: أَحْفَى شارِبَهُ: إذا استأصلَهُ.

﴿تَبۡخَلُواْ﴾ فلا تُعطوا.

﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ ويُضغِنْكُم على رَسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) نسبت لأبي عبد الرحمن السلمي. انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٢)، و«البحر» (١٩/ ٢٦٨). ولفظها في هذه المصادر: (وتدَّعوا) دون كلمة (لا) فزيادتها من تصرفات المؤلف، وسبق له أمثال هذه التصرفات في القراءات، وقد نبه على ذلك أبو حيان بقوله: والتلاوة بغير (لا)، وكان يجب أن يأتي (أي: الزمخشري) بلفظ التلاوة فيقول: وقرئ: (وتدَّعوا).

قال ابن جني: معنى (تدَّعوا) هنا: تنسبوا إلى السلم، كقولك: فلان يدعي إلى بني فلان، أي: ينتسب إليهم، ويحمل نفسه عليهم.

وقد وردت القراءة في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤١) عن علي والسلمي، ووقع في مطبوعه: (ولا تهنوا أو تدَّعوا).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠١)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فيجهد».

والضَّميرُ في (يُخرِج) للهِ تَعالى، ويؤيِّدُه القراءةُ بالنُّونِ، أو للبخلِ لأنَّه سَبَبُ الإضغانِ.

وقُرِئَ: (وتَخْرُج) بالياءِ والتَّاءِ ورفعِ (أضغانُكُم)[1].

(٣٨) ـ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنتُمْ يا مخاطبونَ هؤلاءِ الموصوفونَ، وقوله: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ مقررٌ[2] لذلك، أو صِلَةٌ لهؤلاءِ على أنَّه بمعنى الذين، وهو يعمُّ نفقةَ الغزوِ والزَّكاةِ وغيرِهما.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ ناسٌ يبخلونَ، وهو كالدَّليلِ على الآيةِ المتقدِّمةِ.

﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ فإنَّ نفعَ الإنفاقِ وضرَّ[3] البخلِ عائدانِ إليه.

والبخلُ يُعَدَّى بـ(عن) و(على) لتَضمُّنِه مَعنى الإمساكِ والتَّعدِّي فإنَّه إمساكٌ عَن مستحقٍّ.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ فما يأمرُكُم به فهو لاحتياجِكُم، فإن امتثَلْتُم فلكُم، وإنْ تولَّيْتُم فعَلَيْكُم.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عطفٌ على ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾.

﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ يُقِمْ مَقامَكُم قومًا آخرينَ.

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ في التَّولِّي والزُّهدِ في الإيمانِ، وهم الفرسُ؛ لأنَّه

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٢)، و«البحر» (١٩/ ٢٧١)، وزاد أبو حيان في بعض الوجوه رفع الفعل على الاستئناف، ونصبه بإضمار (أن).

(٢) في نسخة التفتازاني: «مطرد».

(٣) في نسخة الفاروقي: «وضرر».

سُئِلَ عليه السَّلامُ عنه وكان سلمانُ إلى جنبِه فضربَ فَخِذَه وقال: «هذا وقومُه»[1]، أو الأنصارُ، أو اليمنُ، أو الملائكةُ.

عن النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ: «مَن قرأَ سورةَ مُحمَّدٍ كانَ حقًّا على اللهِ أَنْ يَسقيَهُ مِن أنهارِ الجنَّةِ»[2].

***

(١) رواه الترمذي (٣٢٦٠)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٣٣)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢١٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٢٣)، والطبراني في «الأوسط» (٨٨٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٠٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٣١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٢)، والجوزقاني في «الأباطيل والمناكير» (٦٦١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب في إسناده مقال. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقال الجوزقاني: حديث صحيح، ورجاله ثقات.

وروى نحوه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لكن في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣].

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٦٤)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١١٨)، وهو قطعة من الحديث الموضوع المروي عن أبي بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٩٣).

(٤٧) سُورَةُ مُحَمَّد مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ
مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

يقول تعالى: ﴿الذين كفروا﴾ أي بآيات الله ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ أي أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء، كقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾، ثم قال جلّ وعلا ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم، ﴿وآمنوا بما نزّل على محمد﴾ عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وهو الحق من ربهم﴾ جملة معترضة حسنة، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ قال ابن عباس: أي أمرهم، وقال مجاهد: شأنهم، وقال قتادة: حالهم، والكل متقارب، وفي حديث تشميت العاطس «يهديكم الله ويصلح بالكم»، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفّار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي اختاروا الباطل على الحق، ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ
تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف، ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾ أي أهلكتموهم قتلاً، ﴿فشدوا الوثاق﴾ الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم منتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء فقال: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾، ثم قد ادعى بعض العلماء أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ الآية، روي عن ابن عباس والضحاك والسدي. وقال الأكثرون: ليست بمنسوخة، والإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته، وله أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ (النضر بن الحارث) و (عقبة بن أبي معيط) من أسارى بدر، وقال الشافعي رحمه الله: الإمام مخيَّر بين قتله أو المن عليه أو مفاداته أو استرقاقه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ قال مجاهد: حتى ينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال». وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب، وقال قتادة ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ حتى لا يبقى شرك، وهذا كقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ ثم قال بعضهم: حتى تضع الحرب أوزارها أي أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله عزّ وجلّ، وقيل: أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ولكن ليبلوا بعضكم ببعض﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء، ليختبركم ويبلو أخباركم، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في قوله تعالى ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾.

وقال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال: ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ أي لن يذهبها بل يكثّرها وينميها ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث عن المقدام بن معديكرب الكِنْدي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من اقاربه»[1]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجة والترمذي وصححه.

ابن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين »[١]، وفي الصحيح: « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته »[٢]، والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ سيهديهم ﴾ أي إلى الجنة ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أي أمرهم وحالهم، ﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ أي عرفهم بها وهداهم إليها، قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة، وقال مقاتل: بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه، وقد ورد الحديث الصحيح بذلك عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا »[٣]، ثم قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾، كما جاء في الحديث: « من بلّغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبّت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة »، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ والذين كفروا فتعساً لهم ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين. وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش » أي فلا شفاه الله عزّ وجلّ، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ أي أحبطها وأبطلها، ولهذا قال: ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ أي لا يريدونه ولا يحبونه ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾.

* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

يقول تعالى: ﴿ أفلم يسيروا ﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم ﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم أي ونجّى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ ثم قال: ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾، ولهذا لما قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء مرفوعاً. (٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

أبو سفيان رئيس المشركين يوم أُحُد: اعلُ هُبَل، اعلُ هُبَل، فقال رسول الله ﷺ: « ألا تجيبوه؟ » فقالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال ﷺ قولوا: « الله أعلى وأجل »، ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ﷺ: « ألا تجيبوه؟ »، قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: « قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم »، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي يوم القيامة ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خضماً وقضماً ليس لهم همة إلا في ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح: « المؤمن يأكل في مِعَى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »، ثم قال تعالى: ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أي يوم جزائهم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ يعني مكة ﴿ أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عزّ وجلّ قد أهلك الذين كذبوا الرسل قبله، فما ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ وقوله تعالى: ﴿ من قريتك التي أخرجتك ﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم، روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار وأتاه، فالتفت إلى مكة، وقال: « أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك »[(1)]. فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحول الجاهلية، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

يقول تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿ كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾؟ أي ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾؟ ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ قال عكرمة ﴿ مثل الجنة ﴾ أي نعتها، ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ يعني غير متغير، والعرب تقول: أَسِنَ الماءُ إذا تغير ريحه، وفي حديث مرفوع ﴿ غير آسن ﴾ يعني الصافي الذي لا كدر فيه، وقال عبدالله رضي الله عنه: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة، وفي حديث مرفوع: « لم يخرج من ضروع الماشية »، ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة، ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ ﴿ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون ﴾، وفي حديث مرفوع: « لم يعصرها الرجال بأقدامهم » ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح، وفي حديث مرفوع: « لم يخرج من بطون النحل ». روى الإمام

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن وبحر الماء، وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد»[1]. وفي الصحيح: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تفجَّر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن»، وقال الحافظ الطبراني عن عاصم أن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله فعلى ما نطلع من الجنة؟ قال ﷺ: «على أنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة لعمر إلٰهك ما تعلمون، وخير من مثله، وأزواج مطهرة»، قلت: يا رسول الله أوَ لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم غير أن لا توالد». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض، والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر[2]

وقوله تعالى: ﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ومغفرة من ربهم﴾ أي مع ذلك كله، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كمن هو خالد في النار؟﴾ أي أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة، كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، ﴿وسقوا ماء حميماً﴾ أي حاراً شديد الحر لا يستطاع، ﴿فقطع أمعاءهم﴾ أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذاً بالله تعالى من ذلك.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿ماذا قال آنفاً﴾؟ أي الساعة لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له، قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ أي والذين قصدوا الهداية، وفقهم الله تعالى لها، فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أي ألهمهم رشدهم. وقوله تعالى: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾؟ أي وهم غافلون عنها ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿أزفت الآزفة﴾، وكقوله جلت عظمته: ﴿اقتربت الساعة

---

(١) أخرجه أحمد، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا موقوفاً، ورواه ابن مردويه مرفوعاً.

وانشق القمر﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾. فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة لأنه خاتم الرسل، الذي أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر رسول الله ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وهو عليه السلام الحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي ؛ روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه - هكذا بالوسطى والتي تليها - «بعثت أنا والساعة كهاتين». ثم قال تعالى: ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ ؟ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لاينفعهم ذلك ؟ كقوله تعالى: ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فاعلم أنه لا إلّه إلا الله﴾ هذا إخبار بأنه لا إلّه إلا الله، ولهذا عطف عليه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي»، وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت إلّهي لا إلّه إلا أنت»، وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني استغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، وعنه ﷺ أنه قال: «وعليكم بلا إلّه إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: إنما أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إلّه إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»[1]، وفي الأثر المروي: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عزَّ وجلَّ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»، والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿متقلبكم﴾ في الدنيا و﴿مثواكم﴾ في الآخرة، وقال السدي: متقلبكم في الدنيا ومثواكم في قبوركم، والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين، أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عزَّ وجلَّ وأمر به، نكل عنه كثير من الناس كقوله تبارك وتعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى.

وقالوا ربنا لما كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ ؟ وقال عزَّ وجلَّ ههنا: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ أي مشتملة على القتال ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء، ثم قال مشجعاً لهم: ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي في الحالة الراهنة ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جد الحال، وحضر القتال ﴿فلو صدقوا الله﴾ أي أخلصوا له النية ﴿لكان خيراً لهم﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ ؟ أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحقوي الرحمن عزَّ وجلَّ، فقال: مه، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك ؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك» قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرأوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾. وروى الإمام أحمد عن أبي بكرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[1]. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي ذوي أرحام: أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم ؟ قال ﷺ: «لا، إذن تتركون جميعاً، ولكنْ جُدْ بالفضل وصلهم، فإنه لن يزال معك ظهير من الله عزَّ وجلَّ ما كنت على ذلك»[2]. وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافيء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»[3]، وفي الحديث القدسي: «قال الله عزَّ وجلَّ أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبتُّه»[4]، وقال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول وخزن العمل وائتلفت الألسنة وتباغضت القلوب، وقطع كل ذي رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم»[5]، والأحاديث في هذا كثيرة، والله أعلم.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.
(٣) أخرجه البخاري والإمام أحمد.
(٤) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي.
(٥) أخرجه الإمام أحمد.

ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه فقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه، ثم قال تعالى: ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم﴾ أي زين لهم ذلك وحسَّنه ﴿وأملى لهم﴾ أي غرهم وخدعهم، ﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر﴾ أي مالأوهم وناصحوهم على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ أي ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه، عالم به، كقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾، ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم﴾ أي بالضرب ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾.

۞ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾؟ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمه ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم، ولهذا كانت تسمى الفاضحة، والأضغان جمع ضغن وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره، وقوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾، يقول عزَّ وجلَّ: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين، ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورداً للسرائر إلى عالمها ﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات

وجهه، وفلتات لسانه، وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»، وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين، قال عقبة بن عمرو رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «إن منكم منافقين فمن سميت فليقم - ثم قال - قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً. ثم قال: - إن فيكم أو منكم - منافقين فاتقوا الله»، قال فمرّ عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم[1]. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولنبلونكم﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾، وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن شك ولا ريب، فالمراد حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم، أي لنرى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى، أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله، فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات، وقد قال أبو العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لايضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل[2]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول، حتى نزلت: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصبها، ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي بالردة، ولهذا قال بعدها: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ الآية، ثم قال جلَّ وعلا لعباده المؤمنين: ﴿فلا تهنوا﴾ أي لا تضعفوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة.

عن الأعداء، ﴿وتدعوا إلى السلم﴾ أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم، ولهذا قال: ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك، وقوله جلت عظمته: ﴿والله معكم﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ أي لن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً، والله أعلم.

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها ﴿إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عزَّ وجلَّ، ولهذا قال تعالى: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال، مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم، ثم قال جلَّ جلاله: ﴿إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا﴾ أي يحرجكم تبخلوا ﴿ويخرج أضغانكم﴾ قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان، وصدق قتادة، فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه، وقوله تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل﴾ أي لا يجيب إلى ذلك، ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿والله الغني﴾ أي عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، ﴿وأنتم الفقراء﴾ أي بالذات إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه، وقوله تعالى: ﴿وإن تتولوا﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه، ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[1].

[آخر تفسير سورة محمد. ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه مسلم وابن أبي حاتم وابن جرير.

تفسير سورة القتال

[وهى مدنية][١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات الله، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أى أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء فى حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله، ويصلح بالكم»[٢].

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أى: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أى: اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أى: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه فى معادهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم

---

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٥٠٣٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٧٣٩)، وابن ماجه فى السنن برقم (٣٧١٥)، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».

بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ .

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أى: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا﴾ أى: أهلكتموهم قتلا ﴿فَشُدُّوا﴾ [وثاق][1] الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلّل من القتل يومئذ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ[2] لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية ـ المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه ـ منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ [وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ][3]﴾الآية [التوبة: ٥]، رواه العوفى عن ابن عباس. وقاله قتادة، والضحاك، والسدى، وابن جُرَيْج.

وقال الآخرون ـ وهم الأكثرون ـ: ليست منسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبى ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبى مُعَيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دَمٍ، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعطَ منه ما شئت[4].

وزاد الشافعى، رحمه الله، فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته أو استرقاقه أيضا. وهذه المسألة مُحَرَّرة فى علم الفروع، وقد دللنا على ذلك فى كتابنا «الأحكام»، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم [عليه

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، م: «تكون». (٣) زيادة من أ.
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٧٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

السلام][(١)]. وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن إبراهيم بن سليمان، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى[(٣)]، عن جُبَير بن نُفَير؛ أن سلمة بن نُفَيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إنِّى سَيَّبْتُ الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، وقلت: «لا قتال» فقال له النبى ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الناس يُزيغ[(٤)] الله قلوب أقوام فيقاتلونهم: ويرزقهم الله[(٥)] منهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك. ألا إن عُقْرَ دار المؤمنين الشام، والخيلُ معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

وهكذا رواه النسائى من طريقين، عن جُبَيْر بن نُفَير، عن سلمة بن نُفَيْل السكونى، به[(٦)].

وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا داود بن رُشَيْد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى، عن جبير بن نُفَير، عن النواس بن سمعان قال: لما فتح على رسول الله ﷺ فَتْح فقالوا: يا رسول الله، سيبت الخيل، ووضعت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، قالوا: لا قتال، قال: «كذبوا، الآن، جاء القتال، لا يزال الله يُرَفِّع[(٧)] قلوب قوم يقاتلونهم، فيرزقهم منهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، وعُقْر دار المسلمين بالشام».

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى عن داود بن رُشَيْد، به[(٨)]. والمحفوظ أنه من رواية سلمة ابن نُفَيْل كما تقدم. وهذا يقوى القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم فى الحرب إلى ألاّ يبقى حرب.

وقال قتادة: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتى لا يبقى شرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٣]. ثم قال بعضهم: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل. وقيل: أوزار أهلها[(٩)] بأن يبذلوا الوسع فى طاعة الله، عز وجل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أى: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكَال من عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته فى شرعية الجهاد فى سورتى «آل عمران» و«براءة» فى قوله: ﴿أَمْ

---

(١) زيادة من ت.

(٢) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٤٨٤) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٤) فى أ: «يرفع». (٥) فى أ: «قاتلونهم ويرزقه الله».

(٦) المسند (٤/ ١٠٤) وسنن النسائى (٦/ ٢١٤).

(٧) فى أ: «يرفع».

(٨) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٦١٧) «موارد» من طريق أبى يعلى عن داود بن رشيد به، ورواه النسائى فى السنن (٦/ ٢١٤) من طريق إبراهيم بن أبى عبلة، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشى، عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل مرفوعًا بنحوه.

(٩) فى ت، أ: «وقيل: أوزارها».

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال في سورة براءة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجرى عليه عمله فى طول بَرْزَخه، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده، حيث قال:

حدثنا زيد بن يحيى الدمشقى، حدثنا ابن ثَوْبان، عن أبيه، عن مكحول، عن كثير بن مُرّة[(١)]، عن قيس الجذامى ـ رجل كانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكَفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويُؤَمَّن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حُلَّة[(٢)] الإيمان»[(٣)]. تفرد[(٤)] به أحمد، رحمه الله.

حديث آخر: قال أحمد[(٥)] أيضا: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن بَحِير[(٦)] ابن سعيد، عن خالد بن مَعْدان، عن المقدام بن معد يكرب الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له فى أول دَفْعَة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة[(٧)] الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويَأْمَن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع فى سبعين إنسانا من أقاربه».

وقد أخرجه الترمذى وصححه ابن ماجه[(٨)].

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو، وعن أبى قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّيْن»[(٩)]. وروى من حديث جماعة من الصحابة، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود[(١٠)]. والأحاديث فى فضل الشهيد[(١١)] كثيرة جدا.

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

---

(١) فى ت: «أحمد بإسناده». (٢) فى أ: «بحلة».
(٣) المسند (٤/ ٢٠٠) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٩٣): «فيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وثقه أبو حاتم وجماعة وضعفه جماعة».
(٤) فى ت: «انفرد». (٥) فى ت: «وروى أحمد». (٦) فى م، أ: «يحيى».
(٧) فى ت، م، أ: «حلية».
(٨) المسند (٤/ ١٣١) ،وسنن الترمذى برقم (١٦٦٣) ،وسنن ابن ماجه برقم (٢٧٩٩).
(٩) صحيح مسلم برقم (١٨٨٦).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٥٢٢).
(١١) فى ت، م: «الشهداء».

وقوله: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أى: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أى: عرفهم بها وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدا. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا.

وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

وقال مقاتل بن حَيَّان: بلغنا أن الملك الذى كان وُكِل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتى أقصى منزل هو له، فيعرّفه كلّ شىء أعطاه الله فى الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله فى الجنة دخل [إلى][١] منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه، ذكرهن[٢] ابن أبى حاتم، رحمه الله.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا، رواه البخارى من حديث قتادة، عن أبى المتوكل الناجى، عن أبى سعيد الخدرى [رضى الله عنه][٣]؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصّون مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، والذى نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله كان فى الدنيا»[٤].

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كما جاء فى الحديث: «من بَلَّغ ذا سلطان حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغها، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة».

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطِيفة ـ [وفى رواية: تعس عبد الخميصة][٥] ـ تعس وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش»، أى: فلا شفاه الله.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

---

(١) زيادة من ت، م، أ. (٢) فى ت: «ذكر هذا». (٣) زيادة من ت.
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٥).
(٥) زيادة من ت، أ.

وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعنى: المشركين بالله المكذبين لرسوله﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أى: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخرُ بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبى ﷺ، وعن أبى بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عَدَدت لأحياء [كلهم][1]. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سِجال، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤنى، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هُبَل، اعل هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجلّ» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى، ولا عُزّى لكم. فقال: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[2].

ثم قال [تعالى][3]: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ أى: فى دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضْما وقضما ليس لهم همة إلا فى ذلك. ولهذا ثبت فى الصحيح: «المؤمن يأكل فى معىً واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»[4].

ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أى: يوم جزائهم.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعنى: مكة، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين[5] وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، عز وجل، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله، بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبى الرحمة، فإن العذاب يوفر على

---

(١) زيادة من أ.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٠٤٣) من حديث البراء رضى الله عنه.

(٣) زيادة من أ.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٣٩٣) ، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٠٦٠) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٥) فى ت: «الرسل».

الكافرين به فى معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أى: الذين أخرجوك من بين أظهرهم.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر أبى، عن محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن حَنَش[١]، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبى[٢] ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت[٣] إلى مكة ـ وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحبّ بلاد الله إلىّ، ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك»[٤]. فأعدى الأعداء من عَدَا على الله فى حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾.

يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم، وبما جبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ أى: ليس هذا، كهذا كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]، وكقوله: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ :قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: نعتها[٥]: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعنى غير متغير. وقال قتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى: غير منتن. والعرب تقول: أسِنَ الماء، إذا تغَيَّر ريحه.

وفى حديث مرفوع أورده ابن أبى حاتم: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ يعنى: الصافى الذى لا كَدَر فيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة[٦]، عن مسروق قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تُفَجَّر من جبل من مسك.

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده». (٢) فى ت: «أن رسول الله». (٣) فى ت، م: «وداراه».
(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ٣١).
(٥) فى ت، م، أ: «نعيمها». (٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أى: بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة. وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوع الماشية».

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل [هى][1] حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [الصافات: ٤٦]، وفى حديث مرفوع: «لم تعصرها الرجال بأقدامها».

[قوله][2]: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أى: وهو فى غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، وفى حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل».

وقال[3] الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا الجُريرى، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد».

ورواه الترمذى فى «صفة الجنة»، عن محمد بن بَشار، عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجَريرى، به[4]. وقال: حسن صحيح.

وقال أبو بكر بن مردويه[5]: حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادى، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه الأنهار تَشخُبُ من جنة عدن فى جَوْبَة، ثم تصدع بعد أنهارا»[6].

وفى الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[7].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى، وعبد الله بن الصقر السكرى قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة، حدثنى عبد الرحمن بن عياش، عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى، عن أبيه، عن عمه لقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثنيه أيضا أبو الأسود، عن عاصم بن لقيط أن لقيط

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٥/٥) وسنن الترمذى برقم (٢٥٧١) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٤) عن طريق الجريرى به، وقال: «غريب عن الجريرى تفرد به عن حكيم».

(٥) فى ت: «وروى ابن مردويه».

(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣١٤) من طريق معلى بن أسد عن الحارث بن عبيد به.

(٧) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٣٣ من سورة آل عمران.

ابن عامر خرج وافدا إلى رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: «على أنهار عسل مصفى، وأنهار من خمر[١] ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين، تلذونهن مثل لذاتكم فى الدنيا ويلذونكم، غير ألا توالد»[٢].

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا: حدثنا يعقوب بن عبيدة[٣]، عن يزيد بن هارون، أخبرنى الجريرى، عن معاوية بن قرة، عن أبيه[٤]، عن أنس بن مالك قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى فى أخدود فى الأرض، والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذْفَر[٥].

وقد رواه أبو بكر ابن مَرْدُويه، من حديث مهدى بن حكيم، عن يزيد بن هارون، به مرفوعا[٦].

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، كقوله: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]. وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

وقوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: مع ذلك كله.

وقوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أى: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أى: ليس من هو فى الدرجات كمن هو[٧] فى الدركات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أى: حارا[٨] شديد الحر، لا يستطاع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أى: قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذا بالله من ذلك.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى

---

(١) فى ت،م، أ: «كأس».

(٢) المعجم الكبير (١٩/ ٢١١) من حديث طويل كأن الحافظ اختصره، وصورة السند فى المعجم الكبير: «حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى وعبد الله بن الصقر العسكرى ـ وصوابه: السكرى ـ قالا: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام، حدثنى عبد الرحمن بن عياش الأنصارى ثم المسعودى عن دلهم بن الأسود عن عاصم بن لقيط أن لقيط بن عامر خرج.... الحديث». وهناك عطف بالواو يوهم أن هناك إسنادًا آخر رواه الطبرانى، وليس عنده إلا من هذا الطريق، وقد رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند (٤/ ١٣) من طريق إبراهيم بن حمزة بن مصعب بن الزبير عن عبدالرحمن بن المغيرة الحزامى عن عبد الرحمن بن عياش عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر فذكره.

(٣) فى م: «عبيد».

(٤) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده».

(٥) وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/ ٥١٨) وقال: «الموقوف أشبه بالصواب».

(٦) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٥) من طريق محمد بن أحمد الزهرى عن مهدى بن حكيم بن مهدى به مرفوعًا.

(٧) فى م: «هو خالد».

(٨) فى ت: «صار».

وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين فى بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئا، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أى: الساعة، لا يعقلون ما يقال[1]، ولا يكترثون له.

قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أى: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أى: ألهمهم رُشْدَهم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أى: وهم غافلون عنها، ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أى: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ .أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبى قبله، كما هو مبسوط فى موضعه.

وقال الحسن البصرى: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء فى أسمائه، عليه السلام، أنه نبى التوبة، ونبى الملحمة، والحاشر الذى يُحشَر الناس على قدميه، والعاقب الذى ليس بعده نبى.

وقال[2] البخارى: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا فضيل بن سليمان، حدثنا أبو حازم، حدثنا[3] سهل بن سعد قال: رأيتُ رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتى تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[4].

ثم قال تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أى: فكيف للكافرين بالتذكر[5] إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك[6]، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:

(١) فى أ: «ما يقول». (٢) فى ت: «وروى». (٣) فى ت: «عن».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٦).
(٥) فى أ: «بالتذكير». (٦) فى ت: «التذكير».

٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢].

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى[(١)] كونه آمرا بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى هَزْلى وجدّى، وخَطَئى وعَمْدى، وكل ذلك عندى»[(٢)]. وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة: «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به منى، أنت إلهى لا إله إلا أنت»[(٣)]. وفى الصحيح أنه قال: «يأيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٤)].

وقال[(٥)] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم الأحول قال: سمعت[(٦)] عبد الله، بن سرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله فقلت: أستغفر لك[(٧)]؟ فقال: «نعم، ولكم»، وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم نظرت إلى نُغْض كتفه الأيمن ـ أو: كتفه الأيسر، شعبة الذى شك ـ فإذا هو كهيئة الجمع عليه الثآليل.

رواه مسلم، والترمذى، والنسائي[(٨)]، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من طرق، عن عاصم الأحول، به[(٩)].

وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو يعلى: حدثنا مُحَرَّز بن عون[(١٠)]، حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبى نَصِيرَة، عن أبى رجاء، عن أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت[(١١)] الناس بالذنوب، وأهلكونى بـ «لا إله إلا الله»، والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون»[(١٢)].

وفى الأثر المروى: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى

---

(١) فى أ: «إلا هو ولا ينافى».
(٢) صحيح البخارى برقم (٦٣٩٨).
(٣) صحيح مسلم برقم (٧٦٩).
(٤) صحيح البخارى برقم (٦٣٠٧).
(٥) فى ت: «وروى».
(٦) فى ت: «عن».
(٧) فى ت، م، أ: «أستغفر لك رسول الله ﷺ».
(٨) فى ت: «والنسائى وابن ماجه».
(٩) المسند (٥/ ٨٢)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٤٦) والشمائل للترمذى برقم (٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩٦).
(١٠) فى م: «محمد بن عوف» وفى هـ: «محمد بن عون». والتصويب من مسند أبى يعلى.
(١١) فى م: «قال: إنما أهلكت».
(١٢) مسند أبى يعلى (١/ ١٢٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٧): «فيه عثمان بن مطر وهو ضعيف».

أجسادهم. فقال الله عز وجل: وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى»[١].

والأحاديث فى فضل الاستغفار كثيرة جدا.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أى: يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]. وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى الآخرة.

وقال السدى: متقلبكم فى الدنيا، ومثواكم فى قبوركم.

والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، عز وجل[٢]، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧].

وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أى: مشتملة على حكْم القتال؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال مشجعا لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أى: فى الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ أى: جد الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أى: أخلصوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى: عن الجهاد ونكلتم عنه، ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا

(١) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «الله تعالى».

أَرْحَامَكُمْ﴾ أى: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام؛ ولهذا قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموما، وعن قطع الأرحام خصوصا، بل قد أمر [الله][(١)] تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

قال البخارى: حدثنا خالد بن مَخْلَد، حدثنا سليمان، حدثنى معاوية بن أبى مُزَرِّد، عن سعيد ابن يسار[(٢)]، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل، فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك[(٣)]». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[(٤)].

ثم رواه البخارى من طريقين آخرين، عن معاوية بن أبى مزرد، به.قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾»[(٥)]. ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبى مزرد، به[(٦)].

وقال[(٧)] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم».

رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث إسماعيل ـ هو ابن عُلَيَة ـ به[(٨)]. وقال الترمذى: هذا حديث صحيح.

وقال[(٩)] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون أبو محمد المرئى، حدثنا محمد بن عباد المخزومى، عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ قال: «من سره النِّساء فى الأجل، والزيادة فى الرزق، فليصل رحمه»[(١٠)]. تفرد به أحمد، وله شاهد فى الصحيح.

---

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) فى ت: «فروى البخارى بسنده».

(٣) فى أ: «فذلك لك».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٣٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٣١، ٤٨٣٢) لكن زاد أبو الحباب بين معاوية وسعيد بن يسار.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٤) من طريق معاوية بن أبى مزرد عن عمه أبى الحباب عن سعيد بن يسار به.

(٧) فى ت: «وروى».

(٨) المسند (٥/٣٨) ،وسنن أبى داود برقم (٤٩٠٢) ،وسنن الترمذى برقم (٢٥١١) ، وسنن ابن ماجه برقم (٤٢١١)

(٩) فى ت:«وروى».

(١٠) المسند (٥/٢٧٩) وشاهده حديث أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعا: «من سره أن يبسط عليه رزقه، أو ينسأ فى أثره، فليصل رحمه». رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٩٨٦)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٧) واللفظ لمسلم.

وقال[١] أحمد أيضا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى ذوى أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم؟ قال: «لا، إذن تتركون جميعا، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله، عز وجل، ما كنت على ذلك»[٢].

تفرد به من هذا الوجه، وله شاهد[٣] من وجه آخر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلَى، حدثنا فِطْر، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه البخارى[٥] [٦].

وقال أحمد: حدثنا بهز، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا قتادة، عن أبى ثمامة الثقفى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنَة كحجنة المغزل، تتكلم بلسان طُلَقٍ ذُلَقٍ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها»[٧].

وقال[٨] الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن أبى قابوس، عن عبد الله بن عمرو ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض[٩] يرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنَة من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته».

وقد رواه أبو داود[١٠] والترمذى، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، به[١١]. وهذا هو الذى يروى بتسلسل الأولية[١٢]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا هشام الدَّسْتَوائى، عن يحيى بن أبى كثير، عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ؛ أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض، فقال له عبد الرحمن: وصلتك رَحمٌ، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته ـ أو قال: من يبتها أبته».

تفرد به من هذا الوجه[١٣]. ورواه أحمد أيضا من حديث الزهرى، عن أبى سلمة، عن الرداد ـ

---

(١) فى ت: «وروى».
(٢) المسند (٢/ ١٨١).
(٣) فى أ: «شواهد». (٤) فى ت: «عن ابن عمر».
(٥) فى ت: «انفرد به».
(٦) المسند (٢/ ١٦٣)، وصحيح البخارى برقم (٥٩٩١).
(٧) المسند (٢/ ١٨٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٥٠): «رجال أحمد رجال الصحيح غير أبى ثمامة الثقفى، وثقه ابن حبان».
(٨) فى ت: «رواه». (٩) فى أ: «ارحموا من فى الأرض».
(١٠) فى ت: «وقد رواه أحمد وأبو داود».
(١١) المسند (٢/ ١٦٠)، وسنن أبى داود برقم (٤٩٤١)، وسنن الترمذى برقم (١٩٢٤).
(١٢) وأروى هذا الحديث بالإجازة مسلسلاً بأول ما سمع، إلا أن الأولية تنقطع فيما فوق سفيان، وعلى هذا فشرط المسلسل غير متحقق عند التدقيق.
(١٣) المسند (١/ ١٩١).

أو أبى الردّاد ـ عن عبد الرحمن بن عوف، به[١]. ورواه أبو داود والترمذى، من رواية أبى سلمة، عن أبيه[٢]. والأحاديث فى هذا كثيرة.

وقال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلى، حدثنا عيسى بن يونس، عن محمد بن عبد الله بن علاثة[٣]، عن الحجاج بن الفُرَافِصَة، عن أبى عمر البصرى، عن سلمان[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٥].

وبه قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر القول، وخزن العمل، وائتلفت الألسنة، وتباغضت القلوب، وقطع كل ذى رحم رحمه، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم»[٦].

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾ .

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيا عن الإعراض عنه، فقال: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** أى: بل على قلوب أقفالها، فهى مُطْبَقَة لا يخلص إليها شىء من معانيه.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال: حدثنا[٧] حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوما: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾**، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها[٨] أقفالها حتى يكون الله عز وجل يفتحها أو يفرجها. فما زال الشاب فى نفس عمر، رضى الله عنه، حتى ولى، فاستعان به[٩].

ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾** أى: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، **﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾** أى: زين لهم ذلك وحسنه، **﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾** أى: غرهم

---

(١) المسند (١/ ١٩٤) وقال الترمذى فى السنن: «روى معمر عن الزهرى هذا الحديث عن أبى سلمة عن رداد الليثى عن عبد الرحمن ابن عوف، قال محمد ـ يعنى البخارى ـ: حديث معمر خطأ» والصحيح الرواية الآتية فى السنن.

(٢) سنن أبى داود برقم (١٦٢٤)، وسنن الترمذى برقم (١٩٠٧).

(٣) فى هـ: «الحجاج بن يونس». والتصويب من المعجم الكبير.

(٤) فى هـ: «سليمان» والتصويب من المعجم الكبير.

(٥) المعجم الكبير (٦/ ٢٦٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٨٧): «فيه جماعة لم أعرفهم». وله شاهد من حديث أبى هريرة رواه أحمد فى المسند (٢/ ٢٩٥).

(٦) المعجم الكبير (٦/ ٢٦٣) والكلام عليه كالذى قبله.

(٧) فى ت، م: «ابن».

(٨) فى ت، م: «بل على قلوب».

(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٣٧).

وخدعهم، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ أي: مالئوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: [يعلم][1] ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أي: اعتقد[2] المنافقون أن الله لايكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم[3] ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى في ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم[4] عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله

(١) زيادة من ت.
(٢) في م: «أيعتقد».
(٣) في أ: «يفهمه».
(٤) في ت: «تعرفهم».

جلبابها، إن خيرا فخير، وإن شرًا فشر»[١]. وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل، وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد[٢] فى أول «شرح البخارى»، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقد ورد فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين. قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سلمة، عن عياض بن عياض، عن أبيه، عن أبى مسعود عقبة ابن عمرو، رضى الله عنه، قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم[٣] منافقين، فمن سميت فليقم». ثم قال: «قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان». حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ثم قال: «إن فيكم ـ أو: منكم[٤] ـ فاتقوا الله». قال: فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم[٥].

وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أى: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهى، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا: إلا لنعلم، أى: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة: حدثنا أبو قدامة، حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية قال[٦]: كان أصحاب رسول الله ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

---

(١) سيأتى تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ٢٩ من سورة الفتح.
(٢) فى أ: «النفاق العملى والاعتقادى». (٣) فى ت: «فيكم». (٤) فى ت: «ومنكم».
(٥) المسند (٥/ ٢٧٣) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢): «فيه عياض بن أبى عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما».
(٦) فى ت: «روى الإمام أحمد بإسناده».

ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك: أخبرنى بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. فقلنا: ما هذا الذى يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصيبها[١].

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التى هى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذى هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية .

ثم قال لعباده المؤمنين: ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ أى: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أى: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم وكثرة عَدَدكم وعُدَدكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أى: فى حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة[٢] بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ .

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أى: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أى: هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم

---

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزى برقم (٦٩٨، ٦٩٩).

(٢) فى ت: «فئة كثيرة».

الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

ثم قال: ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أى: يحرجكم[١] تبخلوا: ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾.

قال قتادة: «قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان». وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أى: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أى: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أى: عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه دائما؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ أى: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، [أى][٢] لا ينفكون عنه.

وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أى: عن طاعته واتباع شرعه[٣] ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ أى: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره.

وقال[٤] ابن أبى حاتم، وابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٥] أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾، قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسى ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[٦].

تفرد به مسلم بن خالد الزنجى، ورواه عنه غير واحد، وقد تكلم فيه بعض الأئمة، والله أعلم.

آخر تفسير سورة القتال

---

(١) فى أ: «يحوجكم». (٢) زيادة من ت.

(٣) فى ت: «شرعته»، وفى أ: «شريعته».

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) زيادة من ت.

(٦) تفسير الطبرى (٢٦/ ٤٣)، ومسلم بن خالد الزنجى ضعفه ابن معين، وقال البخارى: منكر الحديث لكنه لم ينفرد به، فقد توبع:

١ـ تابعه شيخ من أهل المدينة عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم (٣٢٦٠) وقال: «هذا حديث غريب فى إسناده مقال».

٢ـ وتابعه عبد الله بن جعفر بن نجيح عن العلاء عن أبيه به، أخرجه الترمذى برقم(٣٢٦١) وعبد الله بن جعفر والد على بن المدينى ضعيف.

سورة محمّد عليه السلام

مدنيّة،[1] وقيل:[2] مكّيّة، وهي[3] تسع[4] وثلاثون آيةً،[5]
وقيل: ثمانٍ وثلاثون.[6] وتسمّى سورة القتال أيضًا.[7]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرَضوا عن الإسلام وسلوكِ طريقه، مِن "صَدَّ صُدودًا"، أو مَنَعوا الناس عن ذلك، مِن "صَدَّه صَدًّا"، كالمُطعِمين يوم بدر.[8] وقيل: هم اثنا عشر رجلًا مِن أهل الشرك، كانوا يصدّون الناس عن الإسلام، ويأمرونهم بالكفر. وقيل: أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا مَن أراد منهم ومِن غيرهم أن يدخل في الإسلام. وقيل: هو عامّ في كلّ مَن كفَر وصدّ.

﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أبطلَها وأحبطَها، وجعلها ضائعةً لا أثرَ لها أصلًا، لكن لا بمعنى أنّه أبطلَها وأحبطَها بعد أن لم يكن كذلك؛ بل بمعنى أنّه حكم ببطلانها وضَياعها، فإنّ ما كانوا يعملونها مِن أعمال البرّ كصِلة الأرحام وقِرى الأضياف وفكِّ الأسارى وغيرِها مِن المكارم ليس لها أثَر مِن أصلها؛ لعدم مقارنتها للإيمان، أو أبطلَ ما عملوه مِن الكيد لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

[1] س + عند مجاهد. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٤/٤.

[2] س: وقال الضحّاك وسعيد بن جبير. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٤/٤.

[3] ي - مدنيّة، وقيل: مكّيّة، وهي.

[4] ي: سبع. | و"تسع" أصحّ. قال الداني: «وهي ثلاثون وثماني آيات في الكوفي، وتسع في المدنيّين والمكّي والشامي، وأربعون آيةً في البصري». البيان للداني، ص ٢٢٨.

[5] س ي - آية.

[6] س + آية؛ ي + آية مدنيّة.

[7] س ي - وتسمّى سورة القتال أيضًا.

[8] المطعِمون يومَ بدر اثنا عشر رجلًا، كلّهم مِن قريش، كان يطعم كلّ واحد منهم عشرَ جزر. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥٥/٤ (الأنفال، ٣٦/٨)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤٥٨/٢ (الأنفال، ٣٦/٨).

والصدِّ عن سبيله بنصر رسوله وإظهارِ دينه على الدّين كلّه. وهو الأوفق لِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾،[١] وقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾... إلخ.[٢]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قيل: هم ناسٌ مِن قريش. وقيل: مِن الأنصار. وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب. / وقيل: عامّ للكلّ. ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ [٩٦و]
مُحَمَّدٖ﴾ خُصّ بالذكر الإيمانُ بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهًا بشأنه، وتنبيهًا على سموّ مكانه مِن بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنّه الأصل في الكلّ، ولذلك أُكِّد بقوله تعالى:[٣] ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ بطريق حصر الحقّيّة فيه. وقيل: حقّيّته بكونه ناسخًا غيرَ منسوخ، فـ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ على هذا مقابل الزائل، وعلى الأوّل مقابل الباطل. وأيًّا ما كان فقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ حال مِن ضمير ﴿ٱلۡحَقُّ﴾. وقُرئ: "نَزَّلَ"[٤] على البناء للفاعل، و"أنزلَ" على البناءَين،[٥] و"نَزَلَ" بالتخفيف.[٦]

﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: سترها بالإيمان والعمل الصالح، ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ أي: حالَهم في الدين والدنيا بالتأييد والتوفيق.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ مِن إضلال الأعمال، وتكفيرِ السيّئات، وإصلاحِ البال. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

١ محمد، ٨/٤٧.
٢ محمد، ٤/٤٧.
٣ م - تعالى.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.
٥ "أَنْزَلَ" قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. و"أُنزِلَ" قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٩/٩.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ذلك كائن بسبب أنّ الأوّلين اتّبعوا الشيطان -كما قاله مجاهد-[١] ففعلوا ما فعلوا مِن الكفر والصدّ. فبيان سببيّة اتّباعه للإضلال المذكور متضمِّن لبيان سببيّتهما له، لكونه أصلًا مستتبِعًا لهما قطعًا. وبسبب أنّ الآخرين اتّبعوا الحقّ الذي لا محيدَ عنه كائنًا مِن ربّهم، ففعلوا ما فعلوا مِن الإيمان به وبكتابه، ومِن الأعمال الصالحة. فبيان سببيّة اتّباعه لِما ذُكر مِن التكفير والإصلاح بعد الإشعار بسببيّة الإيمان والعمل الصالح له متضمِّن لبيان سببيّتهما له، لكونه مَبدأً ومَنشأً لهما حتمًا، فلا تدافُعَ بين الإشعار والتصريح في شيء مِن الموضعين.

ويجوز أن يُحمل ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ على ما يقابل "الحقّ"؛ وهو الزائل الذاهب الذي لا أصلَ له أصلًا، فالتصريح بسببيّة اتّباعه لإضلال أعمالهم وإبطالِها لبيان أنّ إبطالها لبطلان مَبناها وزوالِه.

وأمّا حملُه على ما لا يُنتفَع به[٢] فليس كما ينبغي، لِما أنّ الكفر والصدّ أفحشُ منه، فلا وجهَ للتصريح بسببيّته لِما ذُكر[٣] بطريق القَصر بعد الإشعار بسببيّتهما له، فتدبّر.

ويجوز / أن يرادَ بـ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ نفسُ الكفر والصدّ، وبـ﴿ٱلْحَقَّ﴾ نفسُ الإيمان [٩٦ظ]
والأعمال الصالحة، فيكونَ التنصيص على سببيّتهما لِما ذُكر مِن الإضلال ومِن التكفير والإصلاح تصريحًا بالسببيّة المشعَر بها في الموقعين.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك الضرب البديع ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُبيّن ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: أحوالَ الفريقين وأوصافَهما الجاريةَ في الغرابة مَجرى الأمثال، وهي اتّباع الأوّلين الباطلَ وخيبتُهم وخسرانُهم، واتّباع الآخرين الحقَّ وفوزُهم وفلاحُهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ④﴾

---

١ جامع البيان للطبري، ١٨٢/٢١؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٥/٤.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٥/٤.

٣ وفي هامش م: مِن إضلال أعمالهم. «منه».

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لترتيب ما في حيّزها مِن الأمر على ما قبلها، فإنّ ضلال أعمال الكفرة وخيبتَهم، وصلاحَ أحوال المؤمنين وفلاحَهم؛ ممّا يوجب أن يُرتَّب[١] على كلٍّ مِن الجانبَين ما يَليق به مِن الأحكام، أي: فإذا كان الأمر كما ذُكر فإذا لقيتموهم في المحاربة ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصلُه: "فاضربوا الرِّقاب ضربًا"، فحُذف الفعل، وقُدّم المصدر، وأُنيبَ منابَه مضافًا إلى المفعول، وفيه اختصار وتأكيد بليغ. والتعبير به عن القتل تصويرٌ له بأشنع صُوَرِه، وتهويلٌ لأمره، وإرشادٌ للغزاة إلى أيسر ما يكون منه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثَرتم قَتلَهم، وأغلظتموه، مِن "الشيء الثَّخِين"، وهو الغليظ، أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتّى أذهبتم عنهم النهوضَ، ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ فأسِرُوهم واحفَظوهم. و﴿ٱلْوَثَاقَ﴾ اسم لما يوثَق به، وكذا "الْوِثَاقَ" بالكسر، وقد قُرئ بذلك.[٢]

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإمّا تَمنُّون بعد ذلك مَنًّا، أو تَفْدُون فِداءً. والمعنى التخيير بين القتل والاسترقاق والمَنّ والفداء، وهذا ثابت عند الشافعي رحمه الله،[٣] وعندنا منسوخ،[٤] قالوا: نزَل ذلك يوم بدر، ثمّ نُسخ، والحُكم إمّا القتل أو الاسترقاق. وعن مجاهد: «ليس اليوم مَنٌّ ولا فِداء، إنّما[٥] هو الإسلام أو ضرب العنُق».[٦] وقُرئ: "فَدًا"[٧] كـ"عَصًا".

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أوزارُ الحرب: آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلّا بها مِن السلاح والكراع. أُسنِد وضعها إليها وهو لأهلها / إسنادًا مجازيًّا. [٩٧و]

---

[١] س: يترتّب.

[٢] لم أجد مَن صرّح بأنّها قراءة غير المؤلّف، وظاهر كلام المفسّرين أنّها لغة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٦/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٠/٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦١/٩.

[٣] انظر: الأمّ للشافعي، ١٨٧/٤؛ والحاوي الكبير للماوردي، ٤٠٩/٨.

[٤] انظر: المبسوط للسرخسي، ٢٤/١٠؛ ١٣٨/١٠؛ والدرّ المختار للحصكفي وحاشية ابن عابدين، ١٣٩/٤.

[٥] س ي: وإنّما.

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٣١٦/٤. وانظر: مصنّف عبد الرزّاق، ٢١٠/٥ (٩٤٠٤).

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن وشِبل عن ابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩.

و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية عند الشافعي رحمه الله لأحد الأمور الأربعة، أو للمجموع، والمعنى: أنّهم لا يزالون على ذلك أبدًا إلى أن لا يكون مع المشركين حرب بأن لا تبقى لهم شَوكة. وقيل: بأن ينزل عيسى عليه السلام.[١]

وأمّا عند أبي حنيفة رضي الله عنه[٢] فإن حُمِلَ الحربُ على حرب بدر فهي غاية للمَنّ والفداء، والمعنى: يُمَنّ عليهم ويُفادَون حتّى تضع حربُ بدرٍ أوزارَها، وإن حُمِلَت على الجنس فهي غاية للضرب والشدّ، والمعنى: أنّهم يُقتَلون ويُؤسَرون حتّى يضع جنس الحرب أوزارَها بأن لا يبقى للمشركين شَوكة.

وقيل: ﴿أَوْزَارَهَا﴾ آثامها، أي: حتّى يَترك المشركون شِركَهم ومعاصِيَهم بأن أسلموا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ[٣] ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لَانتقَمَ منهم ببعض أسباب الهلَكة والاستئصال، ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك ﴿لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ فأمرَكم بالقتال، وبَلاكم بالكافرين لتجاهدوهم فتستوجبوا الثواب العظيم بموجَب الوعد، والكافرين بكم ليعاجلَهم على أيديكم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر.

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: استُشهِدوا. وقُرئ: "قَاتَلُوا"،[٤] أي: جاهَدوا وقُتِلوا وقَتَلوا. ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: فلَن يُضَيّعَها. وقُرئ: "تُضَلَّ أَعْمَالُهُمْ"[٥] على البناء للمفعول، و"تَضِلَّ أَعْمَالُهُمْ"[٦] مِن "ضَلَّ".

---

١ تفسير مجاهد، ص ٦٠٤.

٢ س: رحمه الله.

٣ م س ي: شاء.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابنُ عامر وحمزة والكسائي وخَلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٩/٦٨٦. وهي في مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٦٣؛ واللباب لابن عادل، ١٧/٤٣٣، كذلك لكن بـ"الياء".

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٩/٦٨٦؛ واللباب لابن عادل، ١٧/٤٣٤. وهي في مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤١، عن عليّ رضي الله عنه لكن بـ"الياء". وفي شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩، عن الحسن كذلك بـ"الياء".

وعن قتادة أنّها نزلت في يوم أُحُد.[١]

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦﴾

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ في الدنيا إلى أرشدِ الأمور، وفي الآخرة إلى الثواب، أو سَيُثبِت هدايتَهم، ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ في الدنيا بذكر أوصافها بحيث اشتاقوا إليها، أو بيّنها لهم بحيث يعلم كلّ أحد مَنزِله ويهتدي إليه، كأنّه كان ساكِنَه مُذ خُلق. وعن مقاتل: «أنّ الملَك الموكَّل بعمله في الدنيا يمشي بين يديه، فيُعرّفه كلَّ شيء أعطاه الله تعالى».[٢] أو طيَّبها لهم، مِن "العَرْف"، وهو طِيب الرائحة، أو حدّدَها لهم وأفرزها، مِن "عَرَفَ الدارَ"، فجنّة كلّ منهم محدَّدة مُفرَزة. والجملة إمّا مستأنَفة، أو حال بإضمار "قد"، أو بدونه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: دينَه ورسولَه ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ على أعدائكم، ويَفتَحْ لكم، ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ في مواطن الحرب ومواقفِها، أو على مَحجّة الإسلام.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾

[٩٧ظ] / ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ التَّعْس: الهلاك، والعِثار، والسقوط، والشرّ، والبُعد، والانحطاط. ورَجلٌ تاعِس وتَعِسٌ. وانتصابه بفعله الواجبِ حذفُه سماعًا، أي: فقال: تَعْسًا لهم، أو فقضَى تَعْسًا لهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ عطفٌ عليه، داخلٌ معه في حيّز الخبريّة للموصول.

---

١ وفي هامش م: أي: في شأنه. «منه». | الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤. وانظر: تفسير عبد الرزّاق، ٢٠٤/٣ (٢٨٧٣)؛ وجامع البيان للطبري، ١٩١/٢١. وفي جامع البيان للطبري، ١٩٠/٢١، كذلك عنه أنّ هذه الآية أنزلت يومَ أحُد ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الشِّعب.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٣/٩.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن التَّعْس وإضلالِ الأعمال ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِن القرآن، لِما فيه مِن التوحيد وسائرِ الأحكام المخالفة لِما ألِفوه واشتَهتْه أنفسهم الأمّارة بالسوء، ﴿فَأَحْبَطَ﴾ لأجلِ ذلك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لَأُثِيبوا عليها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أَقَعَدُوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها، ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المكذِّبة، فإنّ آثارَ ديارهم تُنبئ عن أخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقيل: استأصل الله عليهم ما اختصّ بهم مِن أنفسهم وأهليهم وأموالهم. يقال: "دمّره" أهلكه، و"دمَّرَ عليه" أهلَك عليه ما يختصّ به.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أمثالُ عواقبهم، أو عقوباتِهم، لكن لا على أنّ لهؤلاء أمثالَ ما لأُولئك وأضعافَه؛ بل مِثلَه، وإنّما جُمع باعتبار مماثلته لعواقب متعدّدة حسب تعدّد الأمم المعذَّبة. وقيل: يجوز أن يكون عذابهم أشدّ مِن عذاب الأوّلين، وقد قُتِلوا وأُسروا بأيدي مَن كانوا يستخفّونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المِثل أشدّ ألَمًا مِن الهلاك بسبب عامّ. وقيل: المراد بـ"الكافرين" المتقدِّمون، بطريق وضع الظاهر موضع الضمير، كأنّه قيل: دمَّر الله عليهم في الدنيا، ولهم في الآخرة أمثالها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عقوبة الأمم السابقة لهؤلاء ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ناصِرُهم على أعدائهم. وقُرئ: "وَلِيُّ الذِينَ"...[١] إلخ.[٢]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٤.

[٢] س ي - إلخ.

﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فيدفَع عنهم ما حَلّ بهم مِن العقوبة والعذاب، ولا يخالف هذا قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام، ٦٢/٦]، فإنّ "المَولى" هناك بمعنى "المالك".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيان لحُكم ولايته تعالى لهم، وثمرتِها الأخرويّة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ أي: ينتفعون في الدنيا بمتاعها، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا / تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ غافلين عن عواقبهم، ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مَنزلُ ثواءٍ وإقامة. [٩٨و]
والجملة إمّا حال مقدَّرة مِن واو ﴿يَأْكُلُونَ﴾، أو استئناف.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلمة مركَّبة مِن "الكاف" و"أيّ"، بمعنى "كم" الخبريّة، ومحلّها الرفع بالابتداء. وقوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييز لها. وقوله تعالى: ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَتِكَ﴾، وقد حُذف عنهما المضاف، وأجريَ أحكامه عليهما، كما يُفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: وكم مِن أهل قريةٍ هم أشدّ قوّةً مِن أهل قريتك الذين كانوا سببًا لخروجك مِن بينهم.

ووصفُ القرية الأُولى بشدّة القوّة للإيذان بأولويّة الثانية منها بالإهلاك لضَعف قوّتها، كما أنّ وصف الثانية بإخراجه عليه السلام للإيذان بأولويّتها به لقوّة جنايتها، وعلى طريقته قولُ النابغة:

كُلَيبٌ لَعمري كان أكثرَ ناصرًا   وأيسَرَ جُرمًا مِنك ضُرِّج بالدّمِ[١]

وقوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ بيان لعدم خلاصهم مِن العذاب بواسطة الأعوان

---

[١] ديوان النابغة الجعدي، ص ١٦٦.

والأنصار إثرَ بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم. و"الفاء" لترتيب ذِكر ما بالغير على ذكر ما بالذات، وهو حكاية حال ماضية.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تقرير لتباين حالَي فريقي المؤمنين والكافرين، وكونِ الأوّلين في أعلى علّيّين، والآخرين في أسفل سافلين، وبيانٌ لِعلّة ما لكلٍّ منهما مِن الحال. و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، وقد قُرئ بدونها.[١]

و﴿مَن﴾ عبارة عن المؤمنين المتمسّكين بأدلّة الدين. وجعلُها عبارةً عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٢] أو عنه وعن المؤمنين[٣] لا يساعده النظم الكريم، على أنّ الموازنة بينه عليه السلام وبينهم ممّا يأباه منصبه الجليل.

والتقدير: أليس الأمر كما ذُكِر؟ فمَن كان مستقِرًّا على حجّة ظاهرة وبرهانٍ نَيِّرٍ مِن مالكِ أمره / ومربّيه، وهو القرآن الكريم وسائرُ المعجزات والحججِ [٩٨ظ] العقليّة ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ مِن الشرك وسائر المعاصي مع كونه في نفسه أقبحَ القبائح.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ الزائغةَ، وانهمكوا في فنون الضلالات مِن غير أن يكون لهم شبهةٌ تُوهم صحّة ما هم عليه، فضلًا عن حجّة تدلّ عليه. وجمع الضميرَين الأخيرَين باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراد الأوّلين باعتبار لفظها.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩.

٢ س: عليه السلام. | قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤/٣٢٠.

٣ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/١٢١.

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ استئناف مَسوق لشرح محاسن الجنّة الموعودة آنِفًا للمؤمنين، وبيانِ كيفيّة أنهارها التي أشيرَ إلى جريانها مِن تحتها. وعُبّر عنهم بالمتّقين إيذانًا بأنّ الإيمان والعمل الصالح مِن باب التقوى الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها، وتركِ السيّئات عن آخرها.

و"مَثَلُها" وصفُها العجيب الشأنِ. وهو مبتدأ محذوف الخبرِ، فقدّره النضر بن شُميل:[١] "مَثَلُ الجنّة ما تسمعون".[٢] وقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾... إلخ مفسّر له، وقدّره سيبويه: "فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الجنّة".[٣] والأوّل هو الأنسب بصَدر النظم الكريم. وقيل: "المَثَل" زائدة كزيادة "الاسم" في قول مَن قال:

إلى الحول ثمّ اسمُ السلام عليكما[٤]

و﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ، خبره ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾... إلخ.

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غيرِ متغيّرِ الطعم والرائحة. وقُرئ: "غَيْرِ أَسِنٍ".[٥]

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بأن صار قارِصًا[٦] ولا حازِرًا[٧] كألبان الدنيا. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذةٍ ليس فيها كراهةُ طعم وريحٍ، ولا غائلةُ سُكر وخمار، وإنّما هي تلذّذ مَحض. و﴿لَّذَّةٍ﴾ إمّا تأنيث "لَذّ" بمعنى "لَذيذ"، أو مصدر نُعِت به مبالغةً. وقُرئ: "لَذَّةٌ" بالرفع[٨] على أنّها صفة ﴿أَنْهَٰرٌ﴾، وبالنصب[٩] على العلّة،

---

[١] هو النَّضر بن شُمَيل بن خَرَشة بن زيد المازني البصري، أبو الحسن (ت. ٢٠٣هـ/٨١٩م)، العلّامة، الحافظ، النحوي. أحد الأعلام بمعرفة أيّام العرب ورواية الحديث وفِقه اللغة. ولد بمَرو مِن بلاد خُراسان، وانتقل إلى البصرة مع أبيه -وأصله منها- فأقام زمنًا، وعاد إلى مَرو فوَلي قضاءها. واتّصل بالمأمون العبّاسي فأكرمه وقرّبه. وتُوفّي بمَرو. مِن كتبه **الصفات**، **والسلاح**، **والمعاني**، **وغريب الحديث**، **والأنواء**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٢٨/٩؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٣/٨.

[٢] **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ١١٤/٥؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٤٠/١٧.

[٣] انظر: **الكتاب** لسيبويه، ١٤٣/١.

[٤] تمامه:

ومَن يَبكِ حَولًا كامِلًا فقدِ اعتذَرْ

وهو للَبيد بن ربيعة العامري في **ديوانه**، ص ٢١٤.

[٥] قرأ بها ابن كثير. **النشر** لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

[٦] القارِص: اللبَن الذي يَحذي اللسان. **الصحاح** للجوهري، «قرص».

[٧] الحازِر: اللبَن الحامِض، وقد حَزَرَ اللبَن، أي: حَمِض. **الصحاح** للجوهري، «حزر».

[٨] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٩؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦٧/٩.

[٩] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٣٩؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٦٧/٩.

أي: لأجل لذّة الشاربين. ﴿وَأَنْهَٰرٞ مِّنْ عَسَلٖ مُّصَفًّىۖ﴾ لا يخالِطه الشمع / وفضلاتُ النحل وغيرها. [٩٩و]

وفي هذا تمثيل لِما يجري مَجرى الأشربة في الجنّة بأنواع ما يُستطاب منها ويُستلذّ في الدنيا بالتخلية عمّا ينغِّصها وينقِّصها، والتحليةِ بما يوجب غَزارتها ودَوامها.

﴿وَلَهُمۡ فِيهَا﴾ مع ما ذكر مِن فنون الأنهار ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: صِنفٌ مِن كلّ الثمرات، ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ أي: ولهم مغفرة عظيمة لا يُقادَر قدرُها.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿مَغۡفِرَةٞ﴾، مؤكِّدةٌ[1] لِما أفاده التنكير مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٌ مِن ربّهم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: أمَن هو خالد في هذه الجنّة حسبما جرى به الوعد كمَن هو خالد في النار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾؟[2] وقيل: هو خبر لـ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ على أنّ في الكلام حذفًا، تقديرُه: أَمَثَلُ الجنّة كمَثَل جزاء مَن هو خالد في النار؟ أو أَمَثَلُ أهل الجنّة كمَثَل مَن هو خالد في النار؟ فعُرّي عن حرف الإنكار وحُذف ما حُذف تصويرًا لمكابرة مَن يسوّي بين المتمسِّك بالبيّنة وبين التابع للهوى بمكابَرة مَن سوّى بين الجنّة الموصوفة بما فُصّل مِن الصفات الجليلة وبين النار.

﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا﴾ مكانَ تلك الأشربة ﴿فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ مِن فَرط الحرارة. قيل: إذا دنا منهم شَوى وجوهَهم، وانمازَت فَروةُ رءوسهم، فإذا شربوه قَطّع أمعاءهم.[3]

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ هم المنافقون، وإفراد الضمير باعتبار لفظة ﴿مَن﴾، كما أنّ جمعه فيما سيأتي باعتبار معناها. كانوا يحضرون مجلس

---

١ س: مؤكّد.
٢ محمد، ١٢/٤٧.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٣/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٢/٤.

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيسمعون كلامه ولا يَعُونه ولا يُراعونه حقّ رعايته تهاونًا منهم.

[٩٩ظ] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ/ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن الصحابة رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: ما الذي قال الساعةَ؟ على طريقة الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام. و﴿ءَانِفًا﴾ مِن قولهم: "أَنْف الشيءِ" لِما تقدّم منه، مستعارٌ مِن الجارحة، ومنه "استأنَف الشيءَ" و"ائْتَنَف"، وهو ظرف بمعنى "وقتًا مُؤْتَنَفًا"، أو حال مِن الضمير في ﴿قَالَ﴾. وقُرِئ: "أَنِفًا".[١]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لعدم توجّهها نحو الخير أصلًا، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلةَ، فلذلك فعلوا ما فعلوا ممّا لا خيرَ فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ إلى طريق الحقّ ﴿زَادَهُمْ﴾ أي: الله تعالى ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أعانَهم على تقواهم، أو أعطاهم جزاءها، أو بيّنَ لهم ما يتّقون.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامةَ. وقوله تعالى: ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: تُباغِتَهم بغتةً، وهي المفاجأة؛ بدل اشتمال مِن الساعة. والمعنى: أنّهم لا يتذكّرون بذكر أحوال الأمم الخالية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها مِن عظائم الأهوال، وما ينتظرون للتذكّر إلّا إتيانَ نفسِ الساعة بغتةً. وقُرِئ: "بَغَتَّةً" بفتح "الغين".[٢]

---

١ قرأ بها البزّي عن ابن كثير بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٢ أي: وتشديد "التاء". قراءة شاذّة، مرويّة عن الجعفي وهارون عن أبي عمرو. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٨/٩.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تعليل لمفاجأتها، لا لإتيانها مطلقًا، على معنى أنّه لم يبقَ مِن الأمور الموجِبة للتذكّر أمر مترقّب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة؛ إذ قد جاء أشراطُها، فلم يرفعوا لها رأسًا، ولم يعدّوها مِن مبادي إتيانها، فيكون إتيانُها بطريق المفاجأة لا محالةَ. و"الأشراط" جمع "شَرَط" بالتحريك، وهي العلامة، والمراد بها مَبعثه صلّى الله عليه وسلّم[1] وانشقاقُ القمر ونحوُهما.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ حكمٌ بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذكّر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكّر حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ / وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر، ٢٣/٨٩]، أي: وكيف لهم ذكراهم إذا [١٠٠و] جاءتهم، على أنّ ﴿أَنَّىٰ﴾ خبر مقدَّم، و﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ مبتدأ، و﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ اعتراض وُسِّط بينهما رمزًا إلى غاية سرعة مجيئها. وإطلاق المجيء عن قيد البغتة لِما أنّ مدار استحالة نفع التذكّر كونه عند مَجيئه مطلَقًا لا مقيّدًا بقيد البغتة. وقُرئ: "إنْ تَأْتِهِمْ"،[2] على أنّه شرط مستأنَف، جزاؤه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ﴾... إلخ. والمعنى: إن تأتِهم الساعة بغتةً لأنّه قد ظهَر أماراتها فكيف لهم تذكّرهم واتّعاظهم إذا جاءتهم؟

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: إذا علمت أنّ مدار السعادة هو التوحيد والطاعة، ومناطَ الشقاوة هو الإشراك والعصيان، فاثبُت على ما أنت عليه مِن العلم بالوحدانيّة والعملِ بموجَبه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ وهو الذي ربّما يصدر عنه عليه السلام مِن ترك الأَولى، عُبّر عنه بالذنب نظرًا إلى منصبه الجليل، كيف لا، وحسناتُ الأبرار سيّئاتُ المقرّبين، وإرشادًا له عليه السلام إلى التواضع وهَضمِ النفس واستقصارِ العمل.

---

[1] س: عليه السلام.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر الرواسي عن أهل مكّة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٨/٩.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: لذنوبهم بالدعاء لهم وترغيبِهم فيما يستدعي غفرانَهم. وفي إعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف متعلَّقَيه جنسًا. وفي حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه إشعار بعَراقتهم في الذنب، وفرطِ افتقارهم إلى الاستغفار.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا، فإنّها مراحلُ لا بدَّ مِن قطعها لا محالةَ، ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في العُقبى، فإنّها مَوطن إقامتكم، فلا يأمرُكم إلّا بما هو خير لكم فيهما، فبادِروا إلى الامتثال بما أمَركم به، فإنّه المهمّ لكم في المَقامين. وقيل: يعلم جميع أحوالكم، فلا يخفى عليه شيء منها.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حِرصًا منهم على الجهاد: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلّا نُزّلت سورة نُؤمر فيها بالجهاد. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ بطريق الأمر به، أي: سورة مبيَّنة، لا تشابُهَ ولا احتمالَ فيها لوجهٍ آخَر سوى وجوب القتال. عن قتادة: «كلّ / سورة فيها ذِكرُ القتال فهي محكَمة لم تُنسخ».[١] [١٠٠ظ]
وقُرئ: "فَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةٌ".[٢] وقُرئ: "وَذَكَرَ" على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى ونصبِ ﴿ٱلْقِتَالُ﴾.[٣]

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: ضعفٌ في الدين، وقيل: نفاقٌ، وهو الأظهر الأوفَق لسياق النظم الكريم. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: تشخَص أبصارهم جُبنًا وهلَعًا كدأب مَن أصابته غَشية الموت.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فويل لهم. وهو "أَفْعَلَ" مِن "الوَلْي"، وهو القُرب. وقيل: مِن "آلَ". ومعناه الدعاء عليهم بأن يليَهم المكروه، أو يئُولَ إليه أمرهم. وقيل: هو مشتَقّ مِن "الويل"، وأصله "أَوْيَلُ" فقُلبت "العين" إلى ما بعد "اللام"، فوزنه "أَفْلَعُ".

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١/٢١٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٣٥.
٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٤.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن عمير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٧٠.

﴿طَاعَةٌ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ ۝٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ۝٢٢﴾

﴿طَاعَةٌ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ﴾ كلام مستأنَف، أي: أمرُهم طاعةٌ... إلخ، أو طاعةٌ وقولٌ معروف خيرٌ لهم، أو حكايةٌ لقولهم، ويؤيّده قراءة أبيّ: "يَقُولُونَ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ"،[١] أي: أمرُنا ذلك.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أسنَد العزمَ -وهو الجِدّ- إلى الأمر -وهو لأصحابه- مجازًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ[٢] مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان، ١٧/٣١]. وعامِل الظرف محذوف، أي: خالَفوا وتخلّفوا. وقيل: ناقضوا. وقيل: كرِهوا. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ على طريقة قولك: "إذا حضَرَني طعام فلو جئتَني لَأطعمتك"، أي: فلو صدَقوه تعالى فيما قالوا مِن الكلام المنبئ عن الحرص على الجهاد بالجري على موجَبه ﴿لَكَانَ﴾ أي: الصدقُ ﴿خَيۡرًا لَّهُمۡ﴾. وفيه دلالة على اشتراك الكلّ فيما حُكي عنهم مِن قوله تعالى: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٌ﴾.[٣] وقيل: فلو صدَقوه في الإيمان، وواطأت قلوبُهم في ذلك ألسنتَهم.

وأيًا ما كان فالمراد بهم الذين في قلوبهم مرض، وهم المخاطَبون بقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾... إلخ بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديدِ التقريع، أي: هل يُتوقّع منكم ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أمورَ الناس وتأمّرتم عليهم ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ تناحُرًا على المُلْك وتَهالكًا على الدنيا، فإنّ مَن شاهَد أحوالَكم الدالّة على الضعف في الدين والحِرص على الدنيا حين أُمِرتم بالجهاد الذي هو عبارة عن إحرازِ كلِّ خير وصلاح، ودفعِ كلِّ شرّ وفساد، / وأنتم مأمورون، شأنُكم الطاعة والقولُ المعروف؛ يَتوقّع منكم إذا أُطلِقت [١٠١و]
أعِنّتكم وصِرتم آمِرين ما[٤] ذُكر مِن الإفساد وقَطع الأرحام.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧١/٩.
[٢] م: ذاك.
[٣] محمّد، ٢٠/٤٧.
[٤] س: بما. | وفي هامش م: مفعول "يَتوقّع". «منه».

وقيل:[١] إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهليّة مِن الإفساد في الأرض بالتغاوُر والتناهُب وقَطع الأرحام بمُقاتلة بعضِ الأقارب بعضًا ووَأْدِ البنات. وفيه أنّ الواقع في حيّز الشرط في مِثل هذا المقام لا بدَّ أن يكون محذوريّتَه باعتبار ما يستتبعه مِن المفاسد، لا باعتبار ذاته، ولا ريبَ في أنّ الإعراض عن الإسلام رأسُ كلّ شرّ وفسادٍ، فحقُّه أن يُجعَل عمدةً في التوبيخ، لا وسيلةً للتوبيخ بما دونه مِن المفاسد.

وقُرئ: "وُلِّيتُمْ" على البناء للمفعول،[٢] أي: جُعِلتم وُلاةً. وقُرئ: "تُوُلِّيتُمْ"،[٣] أي: تَولّاكم وُلاة جَورٍ خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم. وقُرئ: "وَتَقَطَّعُوا"[٤] مِن "التَّقَطَّع" بحذف إحدى التاءين، فانتصابُ ﴿أَرْحَامَكُمْ﴾ حينئذ على نزع الجارّ، أي: في أرحامكم. وقُرئ: "وَتَقْطَعُوا"[٥] مِن "القَطْع".

وإلحاق الضمير بـ"عسى" لغة أهل الحجاز، وأمّا بنو تميم فيقولون: "عسى أن تفعل" و"عسى أن تفعلوا".

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المخاطَبين بطريق الالتفات إيذانًا بأنّ ذِكر هَناتهم أوجَبَ إسقاطَهم عن رتبة الخطاب، وحكايةَ أحوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ خبره: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعدَهم مِن رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ عن استماع الحقّ لتَصامّهم عنه بسوء اختيارهم، ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ لِتَعاميهم عمّا يشاهدونه مِن الآيات المنصوبة في الأنفُس والآفاق.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: ألا يلاحظونه ولا يتصفّحونه وما فيه مِن المواعظ والزواجر حتّى لا يَقعوا فيما وقعوا فيه مِن المُوبِقات، ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾

---

١ قاله الواحدي في التفسير الوسيط، ١٢٦/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مغفّل عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١١٨/٥.

٣ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

فلا يكاد يصِلُ إليها ذِكرٌ أصلًا. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للانتقال مِن التوبيخ بعدم التدبّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفَلةً، لا تقبل التدبّر والتفكّر، / و"الهمزةِ"[1] للتقرير. [١٠١ظ]

وتنكير "القلوب" إمّا لتهويل حالها وتفظيعِ شأنها بإبهام أمرها في القساوة والجهالة، كأنّه قيل: على قلوب مُنكَرة، لا يُعرَف حالها، ولا يُقادَر قدرُها في القَسوة، وإمّا لأنّ المراد بها قلوب بعض منهم، وهم المنافقون. وإضافة "الأقفال" إليها للدلالة على أنّها أقفال مخصوصة بها مناسِبةٌ لها غيرُ مجانِسة لسائر الأقفال المعهودة. وقُرئ: "أَقْفُلُهَا"،[2] و"إِقْفَالُهَا"[3] على المصدر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي: رَجَعوا إلى ما كانوا عليه مِن الكفر، وهم المنافقون الذين وُصِفوا فيما سلف بمَرض القلوب وغيره مِن قبائح الأفعال والأحوال، فإنّهم قد كفروا به عليه السلام ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة والمعجزات القاهرة. وقيل: هم اليهود. وقيل: أهل الكتابَين جميعًا كفروا به عليه السلام بعدَ ما وجدوا نَعْته عليه السلام في كتابهم، وعرَفوا أنّه المنعوت بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، وقُعَت خبرًا لِـ﴿إِنَّ﴾، أي: سهّل لهم ركوبَ العظائم، مِن "السَّوَل"، وهو الاسترخاء. وقيل: مِن "السُّول" المخفَّف مِن "السُّؤْل" لاستمرار القلب، فمعنى "سَوَّل له أمرًا" حينئذ: أوقعه في أمنيّته، فإنّ السُّؤْل الأمنيّة. وقُرئ: "سُوِّلَ"[4] مبنيًّا للمفعول على حذف المضاف، أي: كيدُ الشيطان.

---

١ السياق: وما فيها مِن معنى "بل"... و"الهمزةِ"...

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٣/٩.

٣ قراءة شاذّة، غيرُ منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٣/٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الأمانيّ والآمال. وقيل: أمهلهم الله تعالى، ولم يعاجِلهم بالعقوبة. وقُرئ: "أُمْلِي لَهُمْ"[١] على صيغة المتكلِّم، فالمعنى: أنّ الشيطان يُغويهم، وأنا أُنظِرهم، فـ"الواو" للحال أو للاستئناف. وقُرئ: "أُمْلِيَ لَهُمْ"[٢] على البناء للمفعول، أي: أُمهِلوا ومُدّ في عمرهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن ارتدادهم، لا إلى الإملاء كما نُقل عن الواحدي،[٣] ولا إلى التسويل كما قيل،[٤] لأنّ شيئًا منهما ليس مسبَّبًا عن القول الآتي، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿قَالُواْ﴾ يعني المنافقين المذكورين، لا اليهودَ / الكافرين به عليه السلام بعد ما وجدوا نَعته [١٠٢و]
عليه السلام في التوراة كما قيل،[٥] فإنّ كُفرهم به عليه السلام ليس بسبب هذا القول، ولو فُرض صدورُه عنهم، سواء كان المَقول لهم المنافقين أو المشركين على رأي القائل؛ بل مِن حين بِعثتِه[٦] عليه السلام.

﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي: لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مع علمهم بأنّه مِن عند الله تعالى حسَدًا وطمَعًا في نزوله عليهم، لا للمشركين كما قيل،[٧] فإنّ قوله تعالى: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ عبارة قطعًا عمّا حُكي عنهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر، ١١/٥٩]، وهم بنو[٨] قُرَيظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم، وأرادوا بـ"البعض" الذي أشاروا إلى عدم إطاعتهم فيه

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.
٢ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.
٣ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ١٢٨/٤.
٤ قاله ابن عادل في اللباب، ٤٦١/١٧.
٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٢٦/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/٥.
٦ س: بعثت.
٧ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٦١/١٧.
٨ م: بنوا.

إظهارَ كفرهم وإعلانَ أمرهم بالفعل قبل قتالهم وإخراجهم مِن ديارهم، فإنّهم كانوا يأبَون ذلك قبل مَساس الحاجة الضروريّة الداعية إليه، لِما كان لهم في إظهار الإيمان مِن المنافع الدنيويّة.

وإنّما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرًّا، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ أي: إخفاءَهم لِما يقولونه لليهود. وقُرئ: "أَسْرَارَهُمْ"،[1] أي: جميعَ أسرارهم التي مِن جملتها قولهم هذا. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله متضمِّن للإفشاء في الدنيا والتعذيب في الآخرة.

﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها. و﴿كَيۡفَ﴾ منصوب بفِعل محذوف هو العامل في الظرف، كأنّه قيل: يفعلون في حياتهم ما يفعلون مِن الحِيَل، فكيف يفعلون إذا توفّتهم الملائكة؟ وقيل: مرفوع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: فكيف حالهم أو حيلتُهم إذا توفّتهم... إلخ؟ وقُرئ: "تَوَفَّاهُمْ"[2] على أنّه / إمّا ماضٍ، أو مضارعٌ قد حُذِف [١٠٢ظ]
إحدى تاءَيه.

﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَوَفَّتۡهُمُ﴾، أو مِن مفعوله، وهو تصوير لتوفّيهم على أهوَل الوجوه وأفظَعها. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لا يُتوفّى أحد على معصية إلّا يضرب الملائكة وجهه ودبره».[3]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفّي الهائل ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ مِن الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ أي: ما يرضاه مِن الإيمان والطاعة حيث كفروا بعد الإيمان، وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا مِن المعاملة مع اليهود،

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٤/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٠.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٧/٤. وذكر نحوه السمعاني في تفسيره، ١٨٢/٥، مِن غير نسبة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما.

﴿فَأَحْبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي عملوها حالَ إيمانهم مِن الطاعات، أو بعد ذلك مِن أعمال البرّ التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين فُصِّلت أحوالهم الشنيعة، وُصِفوا بوصفهم السابق لكونه مَدارًا لِما نُعِي عليهم بقوله تعالى: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾، فـ﴿أَمْ﴾ منقطعة، و﴿أَن﴾ مخففة مِن "أنّ"، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف، و﴿لَن﴾ بما في حيّزها خبرُها.[1] و"الأضغان" جمع "ضِغْن"، وهو الحقد، أي: بل أَحسِبَ الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أنّه لن يخرج الله أحقادَهم، ولن يبرِزَها لرسوله صلّى الله عليه وسلّم وللمؤمنين، فيُبقي أمورهم مستورةً؟ والمعنى أنّ ذلك ممّا لا يكاد يدخل تحت الاحتمال.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إراءتَهم ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعرَّفناكهم بدلائلَ تعرفهم بأعيانهم معرفةً مُتاخِمة للرؤية. والالتفات إلى نون العظَمة لإبراز العناية بالإراءة، ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلامتهم التي نَسِمُهم بها. وعن أنس رضي الله عنه: «ما خفِي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد هذه الآية شيء مِن المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنّا في بعض الغزوات، وفيها تسعة مِن المنافقين يشكوهم الناس، فناموا ذات ليلة، وأصبحوا وعلى وجه كلّ واحد منهم مكتوب: "هذا منافق"».[2]

[١٠٣و] و"اللام" لام الجواب، كُرّرت في المعطوف للتأكيد، و"الفاء" / لترتيب المعرفة على الإراءة، وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فلجواب قسم محذوف. و﴿لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ نَحوه وأسلوبه، أو إمالتُه إلى جهة تعريضٍ وتَورِية، ومنه قيل للمخطئ: "لاحِن"، لعدله بالكلام عن سَمْت الصواب.

---

[1] س - خبرها.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢٧/٤.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم، وهذا وعد للمؤمنين، وإيذان بأنّ حالهم بخلاف حال المنافقين.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾[١] بالأمر بالجهاد ونحوه مِن التكاليف الشاقّة ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ[٢] ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقّ الجهاد عِلمًا فعليًا يتعلّق به الجزاء، ﴿وَنَبۡلُوَاْ[٣] أَخۡبَارَكُمۡ﴾ ما يُخبَر به عن أعمالكم فيظهر حَسَنها وقبيحها. وقُرئ: "وَيَبْلُو" بـ"الياء".[٤] وقُرئ: "نَبْلُو" بسكون "الواو"،[٥] على "ونحن نَبْلُو".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وعادَوه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بما شاهدوا نعته عليه السلام في التوراة، وبما ظهر على يديه مِن المعجزات، ونزل عليه مِن الآيات، وهم قريظة والنضير، أو المطعِمون يوم بدر.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بكفرهم وصدِّهم ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مِن الأشياء، أو شيئًا مِن الضرر، أو لن يضرّوا رسول الله تعالى[٦] بمُشاقّته شيئًا، وقد حُذفَ المضاف لتعظيمه وتفظيع مُشاقّته.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: مكائدَهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى ومُشاقّة رسوله عليه السلام، فلا يَصلون بها إلى ما كانوا يَبغون مِن الغوائل، ولا تثمر لهم إلّا القتلَ والجلاءَ عن أوطانهم.

---

١ م س ي: وليبلونكم. | وهي بالياء رواية شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.
٢ م س ي: يعلم. | وهي بالياء رواية شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.
٣ م س ي: ونبلو.
٤ قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.
٥ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.
٦ س – تعالى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۝٣٤ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٥﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ بما أبطل به هؤلاء أعمالَهم مِن الكفر والنفاق والعُجب والرياء والمَنّ والأذى ونحوها. وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ حكمٌ يَعمّ / كلَّ مَن مات على الكفر، وإن صحّ نزوله في أصحاب القليب.[1] [١٠٣ظ]

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تضعُفوا ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: ولا تدعوا الكفّار إلى الصلح خورًا، فإنّ ذلك إعطاءُ الدنيّة. ويجوز أن يكون منصوبًا بإضمار "أن" على جواب النهي. وقُرئ: "وَلَا تَدَّعُوا" مِن "ادّعَى القوم"، بمعنى "تَداعَوا"، نحو: "ارتَمَوا الصيدَ" و"تَرامَوه"، ومنه "تراءَوا الهلالَ"، فإنّ صيغة التفاعل قد يُراد بها صدور الفعل عن المتعدِّد مِن غير اعتبار وقوعه عليه، ومنه قوله تعالى:[2] ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ، ١/٧٨] على أحد الوجهين. و"الفاء" لترتيب النهي على ما سبق مِن الأمر بالطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ جملة حاليّة مقرِّرة لمعنى النهي، مؤكِّدة لوجوب الانتهاء، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فإنّ كونَهم الأغلبين وكونَه عزّ وعلا ناصِرَهم مِن أقوى موجِبات الاجتناب عمّا يوهم الذلّ والضراعة، وكذا توفيته تعالى لأجور الأعمال حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ أي: ولن يُضيِّعَها، مِن "وَتَرْتُ الرجلَ" إذا قتلتَ له قتيلًا مِن ولدٍ أو أخٍ أو حميمٍ فأفردته منه، مِن "الوتر" الذي هو الفرد.

عُبِّر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بـ"الوتر" الذي هو إضاعة شيء معتدٍّ به مِن الأنفس والأموال -مع أنّ الأعمال غير موجِبة للثواب على قاعدة

---

[1] القَلِيب: البئر، والمراد هنا: قَلِيب بَدر. وأصحاب القَلِيب: هم الكفّار الذين قُتلوا يومَ بدر، ورأسُهم أبو جهل بن هشام. انظر: فتح الباري لابن حجر، ٢٧١/١.

[2] م - تعالى.

أهل السنّة- إبرازًا لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحقّ المستَحَق، وتنزيلِ ترك الإثابة منزلةَ إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران، ١٩٥/٣].

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثباتَ لها، ولا اعتدادَ بها، ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: ثوابَ إيمانكم وتقواكم مِن الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ بحيث يخِلّ أداؤها بمعاشكم، وإنّما اقتصر على نَزْرٍ يسير منها هو ربع العشر تؤدّونها إلى فقرائكم.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي: أموالَكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يَجْهَدْكم بطلب الكلّ، فإنّ الإحفاء والإلحاف المبالغةُ وبلوغ / الغاية، يقال: "أحفى شاربَه"، أي: استأصله، [١٠٤و]
﴿تَبْخَلُوا۟﴾ فلا تُعطوا، ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي: أحقادَكم. وضمير ﴿يُخْرِجْ﴾ لله تعالى، ويعضده القراءة بنون العظَمة،[1] أو للبخل؛ لأنّه سبب الأضغان. وقُرئ: "يَخْرُجْ" مِن الخروج بـ"الياء"[2] و"التاء"[3] مسندًا إلى "الأضغان".

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن وأيّوب بن المتوكّل واليماني. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٧/٩.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنتم أيّها المخاطَبون هؤلاء الموصوفون. وقوله تعالى: ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استئناف مقرِّر لذلك، أو صلة لـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على أنّه بمعنى "الذين"، أي: ها أنتم الذين تُدعَون، ففيه توبيخ عظيم، وتحقير مِن شأنهم. والإنفاق في سبيل الله يعمّ نفقة الغزو والزكاة وغيرهما.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ أي: ناسٌ يبخلون، وهو في حيّز الدليل على الشرطيّة السابقة.

﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ فإنّ كلًّا مِن نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه. و"البخل" يستعمل بـ"عن" و"على"، لتضمّنه معنى الإمساك والتعدّي.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ دون مَن عداه ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ فما يأمركم به فهو لاحتياجكم إلى ما فيه مِن المنافع، فإن امتثلتم فلكم، وإن تولّيتم فعليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عطفٌ على ﴿إِن تُؤۡمِنُواْ﴾،[1] أي: وإن تُعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ يخلُق مكانكم قومًا آخرين، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ في التولّي عن الإيمان والتقوى؛ بل يكونوا راغبين فيهما. قيل: هم الأنصار. وقيل: الملائكة. وقيل: أهل فارس، لِما رُوي أنّه عليه السلام سُئل عن القوم، وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه فقال: «هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان مَنوطًا بالثريّا لتناوله رجال مِن فارس».[2] وقيل: كِندة والنخع. وقيل: العجَم. وقيل: الروم.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة محمّد كان حقًّا على الله عزّ وجلّ أن يسقيه مِن أنهار الجنّة».[3]

والحمد لله ربّ العالمين.

---

١ محمّد، ٣٦/٤٧.

٢ سنن الترمذي، ٣٨٤/٥ (٣٢٦١)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٩/٩.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٩؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١١٨/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٤٧

سورة محمد

مدنية إلاّ «وكأين من قرية» الآيَة، أو مكية، وهي ثمانٍ أو تسعٌ وثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة ﴿وصَدُّوا﴾ غيرَهم ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: الإيمان ﴿أَضَلَّ﴾: أحبط ﴿أعمالَهُم﴾ كإطعام الطعام وصلة الأرحام، فلا يرون لها في الآخرة ثوابًا، ويُجزَون بها في الدنيا من فضله ـ تعالى ـ ٢ ـ ﴿والَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: الأنصارُ وغيرهم، ﴿وعَمِلُوا الصّالِحاتِ، وآمَنُوا بِما نُزِّلَ علَى مُحَمَّدٍ﴾ أي: القُرآنِ ـ ﴿وهُوَ الحَقُّ مِن رَبِّهِم ـ كَفَّرَ عَنهُم﴾: غفر لهم ﴿سَيِّئاتِهِم، وأصلَحَ بالَهُم﴾ أي: حالهم فلا يعصُونه.

سورة محمد ﷺ

قولُهُ: (مِنْ أَهلِ مَكَّةَ) وغيرِهِم.

قولُهُ: (غَيرَهُم) أو امتَنعوا.

قولُهُ: (أي: الإِيمَانِ) أو سلوكِ طريقِهِ.

قولُهُ: (كإِطعَامِ الطَّعَامِ) أي: جعلَ مكارمَهُم كفكِّ الأسرى وحفظِ الجوارِ وترحُّمِ الأيتامِ وإعانةِ الضُّعفاءِ وإغاثةِ الملهوفينَ ضالَّةً؛ أي: ضائعةً محبطَةً بالكفرِ، أو مغلوبةً مَغمورةً فيه، كما يضلُّ الماءُ في اللَّبنِ أو ضلالاً حيثُ لم يَقصِدوا به وجهَ اللهِ.

قولُهُ: (أي: الأنصَارُ) الظَّاهرُ: من أهلِ مكَّةَ وغيرِهِم.

قولُهُ: (أي القرآنِ) تخصيصٌ تعظيماً له.

قولُهُ: (أي: حَالَهُم) في الدِّينِ والدُّنيا بالتَّوفيقِ والتَّأييدِ.

٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إضلال الأعمال وتكفير السيّئات ﴿بِأَنَّ﴾: بسبب أنّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الباطِلَ﴾: الشيطان ﴿وأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ﴾: القُرآنَ ﴿مِن رَبِّهِم. كَذَلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك البيان ﴿يَضرِبُ اللهُ لِلنّاسِ أمثالَهُم﴾: يُبيِّنُ أحوالَهم، فالكافر يُحبِط عملَه، والمُؤمن يَغفر زَلَلَهُ.

٤ ـ ٥ ـ ﴿فإذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فضَرْبَ الرِّقابِ﴾: مصدرٌ بدل من اللفظ بفعله، أي: فاضربوا رقابهم أي: اقتلوهم. وعُبّر بضرب الرقاب لأنّ الغالب في القتل أن يكون بضرب الرقبة. ﴿حَتّى إذا أثخَنتُمُوهُم﴾: أكثرتم فيهم القتل ﴿فشُدُّوا﴾، أي: فأمسكوا عنهم وائسِروهم وشُدّوا ﴿الوَثاقَ﴾: ما يُوثق به الأسرى ـ ﴿فإمّا مَنًّا بعدُ﴾: مصدرٌ بدل من اللفظ بفعله، أي: تَمُنّون عليهم بإطلاقهم من غير شيء، ﴿وإمّا فِداءً﴾: تُفادونهم بمالٍ، أو أسرَى مسلمين ـ ﴿حَتّى تَضَعَ الحَربُ﴾ أي: أهلُها ﴿أوزارَها﴾: أثقالها من السلاح وغيره بأن يُسلِمَ الكُفّار أو يدخلوا في العهد. وهذه غاية للقتل والأسر.

قولُهُ: (وتَكفِيرُ السَّيِّئَاتِ) وإصلاحُ البالِ، فالإفرادُ باعتبارِ ما مرَّ، وهو مبتدأٌ.

قولُهُ: (الشَّيطَانَ) أو ضدَّ: الحقِّ، وهو الظَّاهرُ.

قولُهُ: (القُرآنَ) وهو تصريحٌ بما علمَ ظنًّا، ولذلك يسُمَّى تفسيراً في علمِ البيانِ.

قولُهُ: (البَيَانِ) الأظهرُ: التَّبيينِ.

قولُهُ: (أَحوَالَهُم) أي: أحوالَ الفريقينِ، أو أحوالَ النَّاسِ، أو بضربِ أمثالِهم بأن جعلَ اتِّباعَ الباطلِ مثلاً لعملِ الكفَّارِ، والإضلالَ مثلاً لخيبتِهم، واتِّباعَ الحقِّ مثلاً للمؤمنينَ، وتكفيرَ السَّيِّئاتِ مثلاً لفوزِهم.

قولُهُ: (رِقَابَهُم) أصلُهُ: فاضرِبوا الرِّقابَ ضرباً، فحُذِفَ الفعلُ وقُدِّمَ المصدرُ وأُنيبَ منابَهُ مضافاً إلى المفعولِ ضمًّا إلى التَّأكيدِ للاختصارِ.

قولُهُ: (لأنَّ الغَالِبَ) أو للإشعارِ بأنَّهُ ينبغي أن يكونَ بضربِ الرَّقبةِ حيثُ ما أمكنَ، وللتَّصويرِ له بأشنعِ صورةٍ.

قولُهُ: (أَكثَرتُمْ) وأغلظتُمُوهُ من الثَّخينِ، وهو الغَليظُ.

قولُهُ: (وائسِروهم) بهمزةٍ ساكنةٍ وكسرِ السِّينِ؛ أي: احفَظوهُم.

قولُهُ: (الأَسْرَى) قيدُ الأسرى واقعيٌّ غيرُ معتبرٍ لغةً.

قوله: (أو أَسرَى) في «المداركِ»[1]: وحكمُ أسارى المشركينَ عندَنا[2] القتلُ أو الاسترقاقُ، والمنُّ والفداءُ المذكورانِ في الآيةِ منسوخٌ بقولِهِ: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]؛ لأنَّ سورةَ «براءةَ» من آخرِ ما نزلَ، أو المرادُ

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٣٢٢).

(٢) انظر: «الهداية» (٢/ ٣٨٤).

﴿ذلِكَ﴾: خبرُ مُبتدأ مُقدّر، أي: الأمرُ فيهم ما ذُكر، ﴿ولَو يَشاءُ اللهُ لانتَصَرَ مِنهُم﴾ بغير قِتال، ﴿ولكِن﴾ أمركم به، ﴿لِيَبلُوَ بَعضَكُم بِبَعضٍ﴾ منهم في القتال، فيصيرَ من قُتل منكم إلى الجنّة ومنهم إلى النار. ﴿والَّذِينَ قُتِلُوا﴾، وفي قراءة «قاتَلُوا» ـ الآيةُ نزلت يوم أُحد، وقد فشا في المسلمين القتل والجراحات ـ ﴿في سَبِيلِ اللهِ فلَن يُضِلَّ﴾: يُحبِط ﴿أعمالَهُم، سَيَهدِيهِم﴾ في الدنيا والآخرة إلى ما ينفعهم، ﴿ويُصلِحُ بالَهُم﴾: حالهم فيهما، وما في الدنيا لمن لم يُقتل، وأُدرجوا في «قُتِلوا» تَغليبًا، ٦ ـ ﴿ويُدخِلُهُمُ الجَنَّةَ، عَرَّفَها﴾: بيَّنَها ﴿لَهُم﴾، فيهتدون إلى مساكنهم منها وأزواجِهم وخدمهم من غير استدلال.

بالمنِّ أن يمنَّ عليهم بتركِ القتلِ ويُستَرَقُّوا، أو يمنَّ عليهم فيخلوا لقبولِهم الجزيَةَ، وبالفداءِ أن يُفادى بأساراهم أسارى المشركينَ[1]، فقد رواه الطَّحاويُّ[2] مذهباً عن أبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ، وهو قولُهُما، والمشهورُ: أنّه لا يرى فداءَهُم لا بمالٍ ولا بغيرِهِ؛ لئلَّا يعودوا حرباً علينا، وعندَ الشَّافعيِّ رحمَهُ اللهُ[3]: للإمامِ أن يختارَ أحدَ الأمورِ الأربعةِ: القتلَ، والاسترقاقَ، والفداءَ بأسارى المسلمينَ، والمنَّ، انتهى.

قولُهُ: (مَا ذُكِرَ) أو افعَلوا بهم ذلك.

قولُهُ: (وفِي رِوَايَةٍ) الصَّوابُ: في قراءةٍ، بلِ الأولى جعلُها أصلاً؛ لأنَّها قراءةُ الجمهورِ، وقرأ البصريُّ وحفصٌ: ﴿قُتِلُوا﴾[4] أي: استشهَدوا.

قولُهُ: (يُحبِطَ) الأنسبُ: لن يضيِّعَ.

قولُهُ: (وَمَا فِي الدُّنْيَا) أي: من المنفعةِ.

قولُهُ: (تَغلِيباً) والظَّاهرُ أنَّ الهدايةَ تفسَّرُ بحسبِ القراءةِ.

قولُهُ: (بيَّنَهَا) أو طيَّبَها لهم من العَرفِ ـ بالفتحِ ـ وهو طيبُ الرَّائحةِ[5]، وفي الحديثِ: «إنَّ ريحَ الجنَّةِ يُوجَدُ مِن مسيرةِ خمسِ مائةِ عامٍ»[6].

---

(١) كذا العبارة في الأصول، والأليق أن تكون: المسلمين.

(٢) انظر: «مختصر الطحاوي» (ص: ٢٨٩).

(٣) انظر: «الحاوي الكبير» (٨/ ٤٠٨).

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٠).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٨٣٦) إلا أنه قال: العَرْف: الريح طيبة أو منتنة، وأكثر استعماله في الطيبة.

(٦) رواه ابن ماجه (٢٦١١) من حديث عبد الله بن عَمرو رضي الله عنهما، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ١١٨): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

ورواه عنه البخاري (٦٩١٤) إلا أنه قال: «من مسيرة أربعين عاماً».

٧ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إن تَنصُرُوا اللهَ﴾ أي: دِينَه ورسوله ﴿يَنصُرْكُم﴾ على عدوّكم، ﴿ويُثَبِّتْ أقدامَكُم﴾: يُثبّتكم في المعترك. ٨ ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة، مُبتدأ خبره: تَعِسُوا، يدلّ عليه: ﴿فتَعْسًا لَهُم﴾ أي: هلاكًا وخيبة من الله، ﴿وأضَلَّ أعمالَهُم﴾: عطفٌ على «تعسوا». ٩ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: التعس والإضلال ﴿بِأنَّهُم كَرِهُوا ما أنزَلَ اللهُ﴾ من القُرآن المشتمل على التكاليف، ﴿فأحبَطَ أعمالَهُم﴾.

١٠ ـ ﴿أفلَم يَسِيرُوا في الأرضِ، فيَنظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم؟ دَمَّرَ اللهُ علَيهِم﴾: أهلكَ اللهُ أنفُسَهم وأولادهم وأموالهم، ﴿ولِلكافِرِينَ أمثالُها﴾: أمثالُ عاقبة مَن قبلهم. ١١ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: نصرُ المُؤمنين وقهر الكافرين ﴿بِأنَّ اللهَ مَولَى﴾: وليُّ وناصرُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا، وأنَّ الكافِرِينَ لا مَولَى لَهُم﴾.

١٢ ـ ﴿إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، والَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا، ﴿ويأكُلُونَ كَما تأكُلُ الأنعامُ﴾ أي: ليس لهم هِمّة إلاّ بطونهم وفروجهم، ولا يلتفتون إلى الآخرة، ﴿والنّارُ مَثوًى لَهُم﴾: منزلٌ ومُقام ومَصير. ١٣ ـ ﴿وكَأيِّن﴾: وكم ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ أُريد بها أهلُها، ﴿هِيَ أشَدُّ قُوّةً مِن قَرْيَتِكَ﴾ مكّةَ أي: أهلِها ﴿الَّتِي أخرَجَتْكَ﴾ رُوعي لفظ «قرية»، ﴿أهلَكناهُم﴾ ـ رُوعي معنى «قرية» الأُولى ـ ﴿فلا ناصِرَ لَهُم﴾ من إهلاكنا!.........................

قولُهُ: (ورَسُولَهُ) تخصيصٌ، والأظهرُ: أو رسولَهُ.

قولُهُ: (في المُعتَرَكِ) وفي القيامِ بحقوقِ الإسلامِ.

قولُهُ: (يَدُلُّ عَليهِ ﴿فتَعْسًا﴾) انتصابُهُ بفعلِهِ الواجبِ إضمارُهُ سماعاً.

قولُهُ: (أي: هَلاكاً) أو عثاراً، أو انحطاطاً.

قولُهُ: (التَّكَالِيفِ) من التَّوحيدِ والأوامرِ المخالفةِ لما أَلِفوهُ.

قولُهُ: (وأَولادَهُم) الأولى: أهليهِم.

قولُهُ: (عَاقِبَةِ) أو عقوبةِ.

قولُهُ: (فِي الدُّنيَا) أي: ينتفِعونَ بمتاعِ الدُّنيا.

قولُهُ: (ومَصِيرٌ) الواو فيهما؛ بمعنى: أو.

قولُهُ: (لَفظُ القَريَةِ) والإخراجُ باعتبارِ التَّسبُّبِ.

قولُهُ: (مِنْ إِهلاكِنَا) ظاهرُه أنَّ الضَّميرَ في ﴿لَهُم﴾ للقريةِ الأولى، والأظهرُ: أنَّه للثَّانيةِ.

١٤ ـ ﴿أفمَن كانَ علَى بَيِّنةٍ﴾: حُجّة وبُرهان ﴿مِن رَبِّهِ﴾ ـ وهم المُؤمنون ـ ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فرآه حسنًا ـ وهم كُفَّار مكّة ـ ﴿واتَّبَعُوا أهْواءَهُم﴾ في عِبادة الأوثان؟ أي: لا مُماثلة بينهما.

١٥ ـ ﴿مَثَلُ﴾ أي: صِفةُ ﴿الجَنّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾، المُشترَكُ بين داخليها، مبتدأ خبره: ﴿فِيها أنهارٌ مِن ماءٍ غَيرِ آسِنٍ﴾ ـ بالمدّ والقصر، كضارِب وحَذِر ـ أي: غيرِ مُتغير بخِلاف ماء الدنيا فيتغيّر لعارض، ﴿وأنهارٌ مِن لَبَنٍ لَم يَتَغَيَّرْ طَعمُهُ﴾ بخِلاف لبن الدنيا لخروجه من الضروع، ﴿وأنهارٌ مِن خَمرٍ لَذّةٍ﴾: لذيذة ﴿لِلشّارِبِينَ﴾ بخِلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب، ﴿وأنهارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ بخِلاف عسل الدنيا فإنه بخروجه من بُطون النحل يخالطه الشمع وغيره، ﴿ولَهُم فِيها﴾ أصنافٌ ﴿مِن كُلِّ الثَّمَراتِ، ومَغفِرةٌ مِن رَبِّهِم﴾ ـ فهو راضٍ عنهم مع إحسانه إليهم بما ذُكر بخِلاف سيّد العبيد في الدنيا. فإنه قد يكون مع إحسانه إليهم ساخطًا عليهم ـ ﴿كَمَن هُوَ خالِدٌ في النّارِ﴾: خبرُ مُبتدأ مُقدّر، أي: أم مَن هو في هذا النعيم؟ ﴿وسُقُوا ماءً حَمِيمًا﴾ أي: شديد الحرارة، ﴿فقَطَّعَ أمعاءَهُم﴾ أي: مصارينهم، فخرجت من أدبارهم؟ وهو جمع مِعًى بالقصر، وألفه عن ياء لقولهم: مِعَيانِ.

قولُهُ: (وبُرهَانٍ) بيانٍ، وهو القرآنُ.

قولُهُ: (وهُم كُفَّارُ مَكَّةَ) لا وجهَ للتَّخصيصِ أبداً.

قولُهُ: (في عِبَادَةِ الأَوثَانِ) وغيرها ممَّا لا شبهَةَ لهم عليها فضلاً عن حجَّةٍ.

قولُهُ: (المُشتَرَكُ) الظَّاهرُ: المشتركَةُ.

قولُهُ: (خَبَرُهُ) أي: الجملةُ، أو فيما نقصُّ عليك صِفتُها العجيبةُ، والجملةُ استئنافٌ.

قوله: (والقَصرِ) مكّيٌّ[1].

قولُهُ: (لَذِيذَةٍ) لا يكون فيها كراهَةُ طعمٍ وريحٍ ولا غائلَةُ سكرٍ وخمارٍ، تأنيثُ: لذٍّ، أو مصدرٌ نُعِتَ به بإضمارٍ أو تجوُّزٍ.

قولُهُ: (بخُرُوجِهِ) في كونِ هذا وما قبلَهُ علةً نظرٌ ظاهرٌ.

قولُهُ: (وغَيرُهُ) من فَضلاتِ النَّحلِ.

قولُهُ: (أَصنَافٌ) والأظهرُ: صنفٌ، وقولُهُ تعالى: (﴿وَمَغفِرةٌ﴾) عطفٌ عليه، أو مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ؛ أي: لهم مغفرَةٌ.

قولُهُ: (شَدِيدَ الحَرَارَةِ) مكانَ تلك الأشربَةِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٠).

١٦ ـ ﴿ومِنهُم﴾ أي: الكُفّارِ ﴿مَن يَستَمِعُ إلَيكَ﴾ في خُطبة الجُمعة ـ وهم المنافقون ـ ﴿حَتَّى إذا خَرَجُوا مِن عِندِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾: لعُلماء الصحابة، منهم ابن مسعود وابن عبّاس، استهزاءً وسخرية: ﴿ماذا قالَ آنِفًا﴾ ـ بالمد والقصر ـ أي: الساعةَ؟ أي: لا يُرجَعُ إليه. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ علَى قُلُوبِهِم﴾ بالكُفر ﴿واتَّبَعُوا أهْواءَهُم﴾ في النِّفاق، ١٧ ـ ﴿والَّذِينَ اهتَدَوا﴾ ـ وهم المُؤمنون ـ ﴿زادَهُمْ﴾ اللهُ ﴿هُدًى، وآتاهُم تَقْواهُم﴾: ألهمَهم ما يتّقون به النار.

١٨ ـ ﴿فهَل يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظرون، أي: كُفّارُ مكّة ﴿إلاّ السّاعَةَ، أن تأتِيَهُم﴾: بدلُ اشتمال من «الساعةَ»، أي: ليس الأمر إلاّ أن تأتيهم ﴿بَغْتَةً﴾: فجأة؟ ﴿فقَد جاءَ أشراطُها﴾: علاماتها، منها بَعثُ النبيّ ﷺ وانشقاقُ القمر والدخانُ. ﴿فأنَّى لَهُم، إذا جاءَتْهُم﴾ الساعةُ، ﴿ذِكراهُم﴾: تذكُّرُهم؟ أي: لا ينفعهم.

١٩ ـ ﴿فاعلَمْ أنَّهُ لا إلٰـهَ إلاّ اللهُ﴾ أي: دُمْ ـ يا مُحمّد ـ على عِلمك بذلك النافع في القيامة، ﴿واستَغفِرْ لِذَنبِكَ﴾ لأجله ـ قيل له ذلك مع عِصمته لتَستنّ به أُمّتُه، وقد فعله قال ﷺ: «إنِّي لأستَغفِرُ اللهَ في كُلِّ يومٍ مِائَةَ مَرّةٍ» ـ ﴿ولِلمُؤمِنِينَ والمُؤمِناتِ﴾. فيه إكرام لهم بأمر نبيهم بالاستغفار لهم. ....

قولُهُ: (في خُطبَةِ الجُمُعَةِ) وغيرِها من المجالسِ.

قولُهُ: (مِنْهُم) لا وجهَ للتَّخصيصِ.

قولُهُ: (استِهزَاءً) أي: في أنفسِهِم، أو استِعلاماً؛ إذ لم يُلقُوا له آذانَهُم تهاوناً به، وهو علَّةٌ لـ﴿قَالُوا﴾.

قولُهُ: (والقَصرِ) للبزِّيِّ بخلفٍ[1].

قولُهُ: (في النِّفَاقِ) فلذلكَ استهزَؤوا بها، وتهاوَنوا بكلامِهِ.

قولُهُ: (وهُمُ المُؤمِنُونَ ﴿زادَهُمْ﴾ اللهُ) بالتَّوفيقِ والإلهامِ، أو قولِ الرَّسولِ.

قولُهُ: (أَلهَمَهُم) أو بيَّنَ لهم، أو أعانَهُم على تقواهُم، أو أعطاهُم جَزاءَها.

قولُهُ: (أي: دُمْ) يعني: إذا علمْتَ سعادةَ المؤمنينَ وشقاوةَ الكافرينَ؛ فاثبُت على ما أنتَ عليهِ من العلمِ بالوحدانيَّةِ، وتكميلِ النَّفسِ بإصلاحِ أحوالِها وأفعالِها وهضمِها بالاستغفارِ.

قولُهُ: (لِتَستَنَّ) أو لإظهارِ العبوديَّةِ ورؤيةِ تقصيرِها، أو لما عَسى صَدرَ عنهُ من خلافِ الأولى.

قولُهُ: (لَهُم) أي: لذنوبِهِم بالدُّعاءِ لهم، والتَّحريضِ على ما يستدعِي غفرانَهُم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٠٠).

﴿والله يَعلَمُ مُتقلَّبَكُم﴾: مُتصرَّفكم لأشغالكم بالنهار، ﴿ومَثواكُم﴾: مأواكم إلى مضاجعكم بالليل، أي: هو عالم بجميع أحوالكم لا يخفى عليه شيء منها. فاحذروه. والخطاب للمُؤمنين وغيرهم.

٢٠ ـ ﴿ويَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ طلبًا للجهاد: ﴿لَولا﴾: هلاَّ ﴿نُزِّلَتْ سُورةٌ﴾ فيها ذِكر الجِهاد. ﴿فإذا أُنزلَتْ سُورةٌ مُحكَمَةٌ﴾ أي: لم يُنسخ منها شيء، ﴿وذُكِرَ فِيها القِتالُ﴾ أي: طلبُه، ﴿رأيتَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ـ وهم المُنافقون ـ ﴿يَنظُرُونَ إلَيكَ نَظَرَ المَغشِيِّ عليهِ مِنَ المَوتِ﴾ خَوفًا منه وكراهية له، أي: فهم يخافون من القِتال ويكرهونه. ﴿فأَولَى لَهُم﴾: مُبتدأ خبرُه: ٢١ ـ ﴿طاعةٌ وقَولٌ مَعرُوفٌ﴾ أي: حَسَنٌ لك، ﴿فإذا عَزَمَ الأمرُ﴾ أي: فُرِضَ القِتال ﴿فلَو صَدَقُوا اللهَ﴾ في الإيمان والطاعة ﴿لكانَ خَيرًا لَهُم﴾. وجملة «لو» جوابُ: إذا.

٢٢ ـ ﴿فهَل عَسَيتُم﴾ ـ بفتح السين وكسرها، وفيه التفات عن الغَيبة ـ أي: لعلّكم، ﴿إن تَوَلَّيتُم﴾: أعرضتم عن الإيمان، ﴿أن تُفسِدُوا في الأرضِ، وتُقَطِّعُوا أرحامَكُم﴾، ....

قولُهُ: (إلى مَضَاجِعِكُم) أو متقلَّبِكُم في الدُّنيا، فإنَّها مراحلُ لا بدَّ من قطعِها، ومثواكُم في العقبى، فإنَّها دارُ إقامتِكُم، فاتَّقوا اللهَ، واستغفرُوهُ وأعدُّوا لمعادِكُم.

قولُهُ: (أي: لَمْ يُنْسَخْ) أو مبيَّنةٌ لا تشابهَ فيها.

قولُهُ: (شَكٌّ) أو ضعفٌ، أو نفاقٌ.

قولُهُ: (خَوفاً) وجُبناً.

قولُهُ: (وخَبَرُهُ) يوهمُ أنَّ الخبرَ ﴿طَاعَةٌ﴾ وليسَ كذلك، بل ﴿أَوْلَى﴾ مبتدأٌ؛ بمعنى: ويلٌ، والخبرُ: ﴿هُمْ﴾ و﴿طَاعَةٌ﴾ استئنافٌ؛ أي: أمرُهُم، أو ﴿طَاعَةٌ وقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ خيرٌ لهم.

قولُهُ: (أي: فُرِضَ القِتَالُ) يعني: صارَ الأمرُ معزوماً؛ أي: تحقَّقَ الأمرُ، أو ﴿عزمَ﴾ بمعنى: جدَّ؛ أي: أصحابُ الأمرِ.

قولُهُ: (فِي الإِيمَانِ) أو فيما زعمُوا من الحرصِ على الجهَادِ (﴿لكانَ﴾) الصِّدقُ.

قولُهُ: (جَوَابُ: ﴿إِذَا﴾) الصَّحيحُ أنَّ عاملَ الظَّرفِ محذوفٌ نحو: كرِهوا.

قولُهُ: (بِكَسرِ السِّينِ) نافعٌ[1].

قولُهُ: (أي: لَعَلَّكُم) أي: فهل يُتَوَقَّعُ منكُم، أو توقَّعْتُم من أنفسِكُم.

قولُهُ: (أَعرَضْتُم) أو تولَّيتُم أمورَ النَّاسِ، وهو اعتراضٌ بين «عسى» وخبرِها.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٨١).

أي: تعودوا إلى أمر الجاهليّة من البغي والقِتال؟ ٢٣ ـ ﴿أُولئِكَ﴾ أي: المُفسدون ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ، فأصَمَّهُم﴾ عن استماع الحقّ، ﴿وأعمَى أبصارَهُم﴾ عن طريق الهداية. ٢٤ ـ ﴿أفلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ﴾ فيعرفون الحقّ؟ ﴿أم﴾: بل ﴿علَى قُلُوبٍ﴾ لهم ﴿أقفالُها﴾ فلا يفهمونه.

٢٥ ـ ﴿إنَّ الَّذينَ ارتَدُّوا﴾ بالنِّفاق ﴿علَى أدبارِهِم مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى الشَّيطانُ سَوَّلَ﴾: زيَّن ﴿لَهُم وأُملِيَ لَهُم﴾، بضمِّ أوّله، وبفتحِه واللامَ والمُملي: الشيطانُ بإرادته ـ تعالى ـ فهو المُضلّ لهم. ٢٦ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: إضلالهم ﴿بِأَنَّهُم قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ﴾ أي للمُشركين: ﴿سَنُطِيعُكُم في بَعضِ الأمرِ﴾ أمر المُعاونةِ على عداوة النبيّ ﷺ وتثبيط الناس عن الجِهاد معه. قالوا ذلك سرًّا، فأظهره الله تعالى. ﴿واللهُ يَعلَمُ أسرارَهُم﴾..

قولُهُ: (تَعُودُوا) أو تحرِصوا على الولايةِ وتجاذِبوا لها.

قولُهُ: (والقَتلِ) للأقاربِ والأجانبِ والغارةِ.

قولُهُ: (فَيَعرِفُونَ) أو فلا يجترئُونَ على المعاصِي.

قولُهُ: (بَل) يعني أنَّ ﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ؛ بمعنى: بل والهمزَةِ، ومعناها: التَّقريرُ، والأظهرُ: الاتِّصالُ.

قولُهُ: (لَهُم) تنكيرُ القلوبِ؛ لأنَّ المرادَ قلوبُ بعضٍ.

قولُهُ: (فلا يَفْهَمُونَهُ) وإضافةُ الأقفالِ إليها للدِّلالةِ على أقفالٍ مناسبةٍ لها مختصَّةٍ بها لا تجانسُ الأقفالَ المعهودَةَ.

قولُهُ: (بالنِّفَاقِ) لا وجهَ للتَّخصيصِ، والحكمُ عامٌّ.

قولُهُ: (أي: زَيَّنَ) وسهَّلَ.

قولُهُ: (بِضَمِّ أَوَّلِهِ) على البناءِ للمفعولِ بصريٌّ[1].

قولُهُ: (الشَّيطَانُ) أي: مدَّ لهم في الآمالِ والأماني، أو أمهلَهُمُ اللهُ تعالى ولم يعاجِلْهُم بالعقوبةِ لقراءةِ يعقوبَ: (وَأُمْلِيَ لَهُم)[2]؛ أي: وأنا أُملِي لهم، فتكونُ الواو للحالِ أو الاستئنافِ.

قولُهُ: (أي: إِضْلالُهُم) أو ضلالُهُم، والضَّميرُ للمنافقينَ، أو لهم ولليهودِ.

قولُهُ: (أَمرِ المُعَاوَنَةِ) أي: في بعضِ أمورِكُم، أو في بعضِ ما تأمرونَ به.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١).

(٢) انظر: «تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٥٥٩).

بفتح الهمزة: جمع سِرّ، وبكسرها مصدر.

٢٧ ـ ﴿فكَيفَ﴾ حالُهم، ﴿إذا تَوَفَّتْهُمُ المَلائكةُ، يَضرِبُونَ﴾: حالٌ من الملائكة ﴿وُجُوهَهُم وأدبارَهُم﴾: ظُهورهم بمقامع من حديد؟ ٢٨ ـ ﴿ذلِكَ﴾ التوفّي، على الحال المذكورة، ﴿بِأنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسخَطَ اللهَ، وكَرِهُوا رِضوانَهُ﴾ أي: العملَ بما يُرضيه، ﴿فأحبَطَ أعمالَهُم﴾.

٢٩ ـ ﴿أم حَسِبَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ أن لَن يُخرِجَ اللهُ أضغانَهُم﴾: يُظهرَ أحقادهم على النبيّ ﷺ والمُؤمنين؟ ٣٠ ـ ﴿ولَو نَشاءُ لَأرَيناكَهُم﴾: عرّفناكهم، وكُرّرَتِ اللامُ في ﴿فلَعَرَفتَهُم بِسِيماهُم﴾: علامتِهم، ﴿ولَتَعرِفَنَّهُم﴾ ـ الواو: لقسم محذوف، وما بعدها جوابه ـ ﴿في لَحنِ القَولِ﴾ أي: في معناه، إذا تكلّموا عِندك بأن يُعرّضوا بما فيه تهجينُ أمر المُسلمين. ﴿واللهُ يَعلَمُ أعمالَكُم﴾.

٣١ ـ ﴿ولَنَبلُوَنَّكُم﴾: نختبرَنّكم بالجِهاد وغيره ﴿حَتّى نَعلَمَ﴾ عِلمَ ظُهورٍ ﴿المُجاهِدِينَ مِنكُم والصّابِرِينَ﴾ في الجِهاد وغيره، ﴿ونَبلوَ﴾: نُظهِرَ ﴿أخبارَكُم﴾ من طاعتكم وعِصيانكم في الجِهاد وغيره. بالياء والنون في الأفعال الثلاثة.

قولُهُ: (جَمْعُ: سِرٍّ) ومنها قولُهُم: هذا الَّذي أفشاهُ اللهُ عليهم.

قولُهُ: (وبِكَسرِهَا) حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ[1].

قولُهُ: (حَالُهُم) أي: كيفَ يعمَلونَ ويحتالونَ حينئذٍ.

قولُهُ: (عَلى النَّبيِّ) أي: للنَّبيِّ متعلِّقٌ بـ«يُظهرَ».

قولُهُ: (عَرَّفْنَاكَهُم) بدلائلَ تعرِّفُ أعيانَهُم.

قولُهُ: (وكُرِّرَتِ اللَّامُ) لجوابِ ﴿لو﴾.

قولُهُ: (أي: مَعنَاهُ) أو أسلوبِهِ، أو إمالتِهِ إلى جهةِ تعريضٍ وتوريةٍ، ومنهُ قيلَ للمُخطِئِ: اللَّاحنُ[2]؛ لأنَّه يعدلُ الكلامَ عن الصَّوابِ.

قولُهُ: (عِلْمَ ظُهُورٍ) يتعلَّقُ به الثَّوابُ والعقابُ.

قولُهُ: (نُظهِرُ) تفسيرٌ بما هو القصدُ من الابتلاءِ؛ أي: ما يخبرُ به عن أعمَالِكُم فيظهرُ حَسَنُها وقبيحُها، أو إخبارُهُم عن إيمانِهِم وموالاتِهِم المؤمنينَ في صدقِها وكذبِها.

قولُهُ: (والنُّونِ) غيرُ شعبةَ[3].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢٣٠).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١).

٣٢ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَن سَبِيلِ﴾: طريقِ ﴿اللهِ، وشاقُّوا الرَّسُولَ﴾: خالفوه ﴿مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى﴾ هو معنى: سبيلِ الله، ﴿لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا! وسَيُحبِطُ﴾ اللهُ ﴿أعمالَهُم﴾: يُبطلُها من صدَقة ونحوِها، فلا يرون لها في الآخرة ثوابًا. نزلتْ في المُطعِمِينَ من أصحاب بدر أو في قُرَيظةَ والنضيرِ.

٣٣ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ، ولا تُبطِلُوا أعمالَكُم﴾ بالمعاصي مثلاً.
٣٤ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: طريقِه وهو الهُدى، ﴿ثُمَّ ماتُوا وهُم كُفّارٌ، فلَن يَغفِرَ اللهُ لَهُم﴾. نزلتْ في أصحاب القَليب. ٣٥ ـ ﴿فلا تَهِنُوا﴾: تَضعُفوا، ﴿وتَدعُوا إِلَى السَّلمِ﴾ ـ بفتح السين وكسرها ـ أي: الصُّلحِ مع الكُفّار إذا لقيتُموهم، ﴿وأنتُمُ الأعلَونَ﴾، حُذف منه واوٌ لام الفعل: الأغلبون القاهرون، ﴿واللهُ مَعَكُم﴾ بالعون والنصر، ﴿ولَن يَتِرَكُم﴾: يَنقُصَكم ﴿أعمالَكُم﴾ أي: ثوابَها.

قولُهُ: (طَرِيقِ) بالصَّدِّ أو الصُّدودِ.

قولُهُ: (مَعنَى: سَبِيلِ اللهِ) الظَّاهرُ أنَّه بمعنى الدِّلالةِ الدَّالَّةِ على حقيقةِ السَّبيلِ؛ يعني: بإنزالِ القرآنِ المشتملِ على الأدلَّةِ العقليَّةِ والنَّقليَّةِ، وبإظهارِ سائرِ المعجزاتِ الظَّاهراتِ المظهراتِ للنُّبوَّةِ.

قولُهُ: (يُبْطِلُهَا) أي: ثوابَ حسناتِ أعمالِهم بذلك.

قوله: (بِالمَعَاصِي مَثَلاً) قولُهُ: «مثلاً» لغوٌ، ثمَّ مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ أنَّ المعاصِيَ لا تُبطِلُ الأعمالَ، ولذا قالَ القاضِي[1]: وليسَ فيه دليلٌ على إحباطِ الطَّاعاتِ بالكبائرِ، فالصَّوابُ أن يُقالَ: ولا تُبطِلوها بما أبطلَ به هؤلاءِ كالكفرِ والنِّفاقِ، أو بالعجبِ والرِّياءِ والسُّمعةِ والأذى ونحوِها، أو لا تبطِلوها بعدَ الشُّروعِ فيها ولو نفلاً كما هو مذهبُنا مطلقاً[2] ومذهبُ الشَّافعيِّ في الحجِّ والعمرةِ[3].

قولُهُ: (نَزَلَتْ) عامٌّ في كلِّ من ماتَ على الكفرِ وإن صحَّ نزولُهُ في أصحابِ القليبِ، وهو بئرٌ ببدرٍ.

قولُهُ: (وكَسرِهَا) شعبةُ وحمزةُ[4].

قولُهُ: (أي: الصُّلحِ) جُبناً وتذلُّلاً.

قولُهُ: (لامِ الفِعلِ) لأنَّ الضَّمَّةَ على الواوِ ثقيلةٌ، أو لأنَّ الواوَ متحرِّكةٌ، وما قبلها مفتوحٌ، فقُلبَتِ أَلِفًا ثمَّ حُذفَتِ الواوُ أو الألفُ لالتقاءِ السَّاكنينِ، وهذا إنَّما ذكَرناهُ تبعاً للشَّيخِ، وإلَّا فمثلُ هذا لا يليقُ بمثلِ هذا التَّفسيرِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٢٤).

(٢) انظر: «البناية شرح الهداية» (٤/ ٨٧).

(٣) انظر: «المجموع شرح المهذب» (٦/ ٣٩٣).

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١).

٣٦ ـ ﴿إِنَّما الحَياةُ الدُّنيا﴾ أي: الاشتغال فيها ﴿لَعِبٌ ولَهوٌ، وإن تُؤمِنُوا وتَتَّقُوا﴾ اللهَ ـ وذلك من أُمور الآخرة ـ ﴿يُؤتِكُم أُجُورَكُم، ولا يَسأَلْكُم أموالَكُم﴾ جميعَها بل الزكاةَ المفروضة فيها. ٣٧ ـ ﴿إن يَسأَلْكُمُوها فيُحفِكُم﴾: يبالغ في طلبها ﴿تَبخَلُوا، ويُخرِجْ﴾ البخلُ ﴿أضغانَكُم﴾ لِدين الإسلام. ٣٨ ـ ﴿ها أنتُم﴾ يا ﴿هؤُلاءِ تُدعَونَ لِتُنفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ﴾ ما فَرَضَ عليكم، ﴿فمِنكُم مَن يَبخَلُ، ومَن يَبخَلْ فإنَّما يَبخَلُ عَن نَفْسِهِ﴾ ـ يقال: بَخِلَ عليه وعنه. ﴿واللهُ الغَنِيُّ﴾ عن نفقتكم ﴿وأنتُمُ الفُقَراءُ﴾ إليه ـ ﴿وإن تَتَوَلَّوا﴾ عن طاعته ﴿يَستَبدِلْ قَومًا غَيرَكُم﴾ أي: يجعلْهم بدلَكم، ﴿ثُمَّ لا يَكُونُوا أمثالَكُم﴾ في التولّي عن طاعته، بل مُطيعين له، عزّ وجلّ.

قولُهُ: (بلِ الزَّكَاةَ) كربعِ العشرِ.

قولُهُ: (يُبَالِغ) بطلبِ الكلِّ، أو الأكثرِ، أو النِّصفِ.

قولُهُ: (البُخلَ) لأنَّهُ سببُ الإضغانِ بالكسرِ أو الفتحِ، أو الضَّميرُ للهِ تعالى، ويؤيِّدُه القراءةُ بالنُّونِ[1].

قولُهُ: (يَا) أي: أنتُم يا مخاطَبونَ، (﴿هؤلاءِ﴾) الموصوفونَ و(﴿تُدْعَونَ﴾) استئنافٌ مقرِّرٌ لذلك، أو صلةٌ لـ﴿هَؤُلَاءِ﴾ على أنَّه بمعنى: الَّذين على رأيِ الكوفيِّينَ من أنَّ الإشاراتِ؛ بمعنى: الموصُولاتِ[2].

قولُهُ: (مَا فَرَضَ عَلَيكُم) أو هو يعمُّ نفقةَ الغزوِ والزَّكاةِ وغيرِهما.

قولُهُ: (يُقَالُ) يعني: البخلُ يُعَدَّى بـ«عنْ» و«على» لتضمُّنِهِ معنى الإمساكِ والتَّعدِّي، فإنَّهُ إمساكٌ عن مستحقٍّ.

قولُهُ: (إلَيهِ) فما يأمرُكُم به فهو لاحتياجِكُم، فإن امتثَلْتُم فلكُم، وإن تولَّيتُم فعَليكُم.

قولُهُ: (عَن طَاعَتِهِ) عُطِف على: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾.

قولُهُ: (نجْعَلْهُم بَدَلَكُم) أي: يُقِم مقامَكُم قَومًا آخرينَ.

قولُهُ: (في التَّوَلِّي) والزُّهدِ في الإيمانِ، وهمُ الفرسُ، أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن أبي هريرةَ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تلا هذهِ الآيةَ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ؛ مَن هؤلاء؟ فضربَ بيدِهِ على كتفِ سلمانَ الفارسيِّ ثمَّ قالَ: «هذا وقومُهُ، ولو كانَ الدِّينُ عندَ الثُّريَّا لنالَهُ الرَّجلُ مِنَ الفرسِ»، كذا في «المبهماتِ»[3]، وقيلَ: الأنصارُ، أو اليمنُ، أو الملائكةُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) أي: (ونخرج) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن عباس رضي الله عنهما، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٤٢).

(٢) انظر: «الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين» (٢/ ٥٨٩).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٠٠). ورواه الترمذي (٣٢٦١)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢١٣٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

وتُسمَّى: سورة القتال، وهي مدنيَّةٌ عند الأكثرين ولم يذكروا استثناء، وعن ابن عباس وقتادة أنها مدنيَّةٌ إلا قولَه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ [الآية: ١٣] إلى آخره، فإنه ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفتَ إليها وقال: «أنتِ أحبُّ بلاد الله تعالى إلى الله، وأنت أحبُّ بلادِ الله تعالى إليَّ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منكِ لم أَخرجْ منكِ»، فأنزل الله تعالى ذلك[1]، فيكون مكيًّا بناءً على أن ما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغها النبيُّ ﷺ - أعني ما نزل في سفر الهجرة - من المكي اصطلاحًا كما يؤخذ من أثرٍ أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي بسنده إلى يحيى بن سلام[2].

وعِدَّةُ آيها أربعون في البصري وثمان وثلاثون في الكوفي وتسع - بالتاء الفوقية - وثلاثون فيما عداهما، والخلافُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ﴾ [الآية: ٤] وقوله تعالى: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [الآية: ١٥] ولا يخفى قوةُ ارتباط أَوَّلها بآخرِ السورة قبلَها واتصاله وتلاحُمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكانا متصلًا واحدًا لا تنافُرَ فيه كالآية الواحدة آخذًا بعضُه بعنق بعض. وكان ﷺ على ما أخرج الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر رضي الله عنهما يقرؤها في صلاة المغرب[3].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/١٩٨. وأخرجه بنحوه دون ذكر الآية أحمد (١٨٧١٥)، والترمذي (٣٩٢٥) من حديث عبد الله بن عدي رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وينظر ما سيأتي ص١٤٤ من هذا الجزء.

(٢) حيث قال: ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني. ذكره السيوطي في الإتقان ١/٢٦ وورد في مطبوعه: عثمان بن سعد الرازي، بدل: عثمان بن سعيد الدارمي.

(٣) المعجم الأوسط (١٢٣٩)، وأخرجه أيضاً ابن حبان (١٨٣٥). قال الهيثمي في المجمع ٢/١١٨: رجاله رجال الصحيح.

وأخرج ابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: نزلت سورة محمد آية فينا وآية في بني أمية[1]. ولا أظنُّ صحةَ الخبر. نعم لكفار بني أُمية الحظُّ الأوفر من عمومات الآيات التي في الكفار كما أنَّ لأهل البيت ﷺ المُعلَّى والرقيب من عُمومات الآيات التي في المؤمنين، وأكثرُ من هذا لا يُقال سوى أني أقول: لعن اللهُ تعالى من قطع الأرحامَ وآذى الآل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام وسلوك طريقه، أو: منعوا غيرَهم عن ذلك، على أن صدَّ لازمٌ أو مُتعدٍّ، قال في «الكشف»: والأول أظهرُ، لأنَّ الصدَّ عن سبيل الله هو الإعراضُ عمَّا أتى به محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨] فيطابق قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [الآية: ٢] وكثيرٌ من الآثار تُؤيِّد الثاني.

وفسَّر الضحاك «سبيل الله» ببيت الله عز وجل، وقال: صدُّهم عنه مَنْعُهم قاصديه. وليس بذلك.

والآية عامَّةٌ لكلِّ من اتَّصف بعنوان الصِّلة. وقال ابن عباس: هم ـ أي: الذين كفروا وصدُّوا على الوجه الثاني في «صدوا» ـ المطعمون يومَ بدر الكبرى. وكأنه عنَى من يدخل في العموم دخولًا أوليًّا، فإن أولئك كانوا صادِّين بأموالهم وأنفسهم، فصدُّهم أعظمُ من صدِّ غيرهم ممن كفر وصدَّ عن السبيل. وأولُ من أطعم منهم ـ على ما نُقل عن سيرة ابن سَيِّد الناس[2] ـ أبو جهل عليه اللعنة؛ نحرَ لكفار قريش حين خرجوا من مكة عشرًا من الإبل، ثم صفوان بن أمية نحر تسعًا بِعُسْفان، ثم سهل بن عمرو نحر بِقُدَيْد عشرًا، ثم شيبة بن ربيعة وقد ضلُّوا الطريق نحر تسعًا، ثم عُتبة بن ربيعة نحر عشرًا، ثم مِقْيس الجُمحي بالأبواء نحر تسعًا، ثم

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٦.
(٢) عيون الأثر ١/ ٢٤٩.

العباس نحر عشرًا، والحارث بن عامر نحر تسعًا، وأبو البَخْتري على ماء بدر نحر عشرًا، ومِقْيَس تسعًا؛ ثم شغلتهم الحرب فأكلوا من أزوادهم.

وقيل: كانوا ستَّة نفر: نبيه ومنبّه ابنا الحجاج، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل والحارث ابنا هشام، وضمَّ مقاتلٌ إليهم ستَّةً أُخرى وهم: عامر بن نوفل، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود، والعباس بن عبد المطلب، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، أَطعم كلٌّ واحد منهم يومًا الأحابيش والجنود يستظهرون بهم على حرب رسول الله ﷺ. ولا يُنافي عدُّ أبي سفيان ـ إنْ صحَّت الرواية ـ من أولئك كونَه مع العِير، لأنَّ المرادَ بيوم بدر زمنُ وقعتها، فيشمل مَنْ أطعم في الطريق وفي مُدَّتها حتى انقضت.

وقال مقاتل: هم اثنا عشر رجلًا من أهل الشِّرك كانوا يصدُّون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر.

وقيل: هم شياطين من أهل الكتاب صدُّوا من أراد منهم أو من غيرهم عن الدخول في الإسلام.

والموصول مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾ أي: أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعةً لا أثرَ لها ولا نَفْعَ أصلًا، لا بمعنى أنه سبحانه أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك، بل بمعنى أنه عز وجل حَكَم ببطلانها وضياعها، وأُريد بها ما كانوا يعملونه من أعمال البرِّ كصلةِ الأرحام وقِرى الأضياف وفكِّ الأسارى وغيرها من المكارم.

وجوّز أن يكون المعنى: جعلها ضلالًا، أي: غير هدى، حيث لم يُوفِّقهم سبحانه لأنْ يقصدوا بها وجهه سبحانه، أو جعلها ضالَّة، أي: غير مُهتديةٍ، على الإسناد المجازي.

ومن قال: الآية في المُطْعِمين وأضرابهم قال: المعنى: أبطل جل وعلا ما عَمِلوه من الكيد لرسول الله ﷺ كالإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى محاربته عليه الصلاة والسلام وغيره بنصر رسوله ﷺ وإظهار دينه على الدين كلِّه، ولعله أوفقُ بما بعدَه، وكذا بما قيل: إن الآية نزلت ببدر.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال ابن عباس - فيما أخرجه عنه جماعةٌ منهم الحاكم وصحَّحه -: هم أهلُ المدينة الأنصار، وفسَّر رضي الله عنه (الَّذِينَ كَفَرُوا) بأهل مكة قريش[1]. وقال مقاتل: هم ناسٌ من قريش، وقيل: مؤمنو أهل الكتاب. وقيل: أعمُّ من المذكورين وغيرهم، فإن الموصول من صيغ العموم ولا داعي للتخصيص.

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ من القرآن، وخُصَّ بالذكر الإيمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويهًا بشأنه وتنبيهًا على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمانُ به وأنه الأصل في الكلِّ، ولذلك أُكِّد بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهو جملةٌ معترضةٌ بين المبتدأ والخبر مُفيدة لحصر الحَقِّية فيه على طريقة الحصر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢] وقولك: حاتم الجواد، فيرادُ بالحقِّ ضدُّ الباطل.

وجُوِّز أن يكونَ الحصرُ على ظاهرِه، والحقُّ: الثابتُ، وحقِّيَّة ما نزل عليه عليه الصلاة والسلام لكونه ناسخًا لا يُنسخ، وهذا يقتضي الاعتناءَ به ومنه جاء التأكيد.

وأيًّاما كان فقوله تعالى: «من ربهم» حال من ضمير «الحقِّ».

وقرأ زيد بن عليٍّ وابن مقسم: «نَزَّل» مبنيًّا للفاعل، والأعمش: «أُنزِلَ» معدًّى بالهمزة مبنيًّا للمفعول. وقُرِئ: «أَنزل» بالهمز مبنيًّا للفاعل، «ونَزَلَ» بالتخفيف[2].

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: سترها بالإيمان والعمل الصالح، والمراد: أزالها ولم يُؤاخِذْهم بها ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ أي: حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد، وتفسير البال بالحال مرويٌّ عن قتادة، وعنه تفسيره بالشأن، وهو الحال أيضًا، أو ما لَه خطر، وعليه قول الراغب: البالُ: الحال التي يكترثُ بها، ولذلك يقال: ما باليتُ بكذا بالةً، أي: ما اكترثتُ به[3]. ومنه قوله ﷺ: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ»

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٦، والمستدرك ٢/ ٥٥٧، وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ١٨٠-١٨١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٣.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (بال).

الحديث[(١)]. ويكون بمعنى الخاطر القلبي، ويُتَجَوَّز به عن القلب كما قال الشهاب[(٢)].

وفي «البحر»: حقيقة البال: الفكر والموضع الذي فيه نظرُ الإنسان، وهو القلب، ومَن صلح قلبه صلحتْ حالُه، فكأن اللفظَ مُشيرٌ إلى صلاح عقيدتهم، وغير ذلك من الحال تابعٌ له[(٣)]. وحُكي عن السفاقسي تفسيره هنا بالفكر، وكأنه لنحو ما أُشير إليه. وهو كما في «البحر» أيضًا مما لا يُثَنَّى ولا يُجمع، وشذَّ قولُهم في جمعه: بالات.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاح، وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ذلك كائنٌ بسبب اتباع الأولين الباطل واتِّباع الآخرين الحقَّ.

والمراد بالحقِّ والباطل معناهما المشهور. وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد تفسير «الباطل» بالشيطان. وفي «البحر»: قال مجاهد: «الباطل»: الشيطان وكلُّ ما يأْمُر به، و«الحقّ»: هو الرسولُ والشرع، وقيل: «الباطلُ» ما لا ينتفع به[(٤)].

وجوَّز الزمخشري[(٥)] كون «ذلك» خبرَ مبتدأ محذوف، و«بأن» إلخ في محلِّ نصب على الحال، والتقدير: الأمرُ ذلك ـ أي: كما ذُكر ـ مُلتبسًا بهذا السبب، والعامل في الحال إما معنى الإشارة، وإما نحو: أثبته وأحقه، فإن الجملةَ تدلُّ على ذلك لأنه مضمونُ كلِّ خبر. وتعقَّبه أبو حيان[(٦)] بأن فيه ارتكابًا للحذف من غير داعٍ له.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧١٢)، وأبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وتتمته عند أحمد «... لا يُفتح بذكر الله، فهو أبتر»، وعند أبي داود: «... لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم». وسلف ١/ ١٨٧.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٤٠.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٧٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٠.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٧٣.

والجارُّ والمجرور أعني «من ربهم» في موضع الحال على كلِّ حال. والكلامُ ـ أعني قوله تعالى: «ذلك بأن» إلى قوله سبحانه: «من ربهم» ـ تصريحٌ بما أشعر به الكلام السابق من السببية لما فيه من البناء على الموصول، ويُسمِّيه علماء البيان: التفسير، ونظيره ما أنشده الزمخشري لنفسه:

به فُجِعَ الفرسانُ فوق خيولهم ... كما فُجعت تحت الستور العَواتِقُ
تساقط من أيديهم البيضُ حَيْرةً ... وزعزع عن أجيادهنَّ المخانق[(١)]

فإنَّ فيه تفسيرًا على طريق اللفِّ والنَّشْر كما في الآية، وهو من محاسن الكلام.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ذلك الضرب البديع ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُبيِّن ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لأَجْلهم ﴿أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: أحوالَ الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافَهما الجاريةَ في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتِّباع المؤمنين الحقَّ، وفوزُهم وفلاحُهم، واتِّباع الكافرين الباطلَ وخيبتهم وخُسرانُهم. وجوِّز أن يراد بِضَرْب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل سبحانه اتباع الباطل مثلًا لعمل الكفار، والإضلال مثلًا لخيبتهم، واتباع الحقِّ مثلًا لعمل المؤمنين، وتكفير السيئات مثلًا لفوزهم، والإشارةُ بذلك لما تضمَّنه الكلام السابق. وجوز كون ضمير «أمثالهم» للناس.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لترتيب ما في حيِّزها من الأمر على ما قبلها، فإنَّ ضلالَ أعمال الكَفَرة وخَيْبتهم، وصلاحَ أحوالِ المؤمنين وفلاحهم، مما يُوجب أن يترتَّب على كلٍّ من الجانبين ما يليقُ به من الأحكام، أي: إذا كان الأمر كذلك فإذا لقيتموهم في المحارب ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾. وقال الزمخشري: «لقيتم» من اللقاء وهو الحرب. و«ضَرْبَ» نصب على المصدرية لفعل محذوف، والأصل: اضربوا الرقابَ ضربًا، فحذف الفعل وقُدِّم المصدر وأُنيب منابه مضافًا إلى المفعول[(٢)]. وحَذْفُ الفعل الناصب في مثل ذلك

---

(١) ذكرهما الشهاب في حاشيته ٨/ ٤١.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٠.

مما أُضيف إلى معموله واجبٌ، وهو أحدُ مواضعَ يجب فيها الحذفُ ذُكِرتْ في مطوَّلات كتب النحو، وليس منها نحو: ضربًا زيدًا، على ما نصَّ عليه ابن عصفور.

وذكر غيرُ واحد أن فيما ذكر اختصارًا وتأكيدًا، ولا كلام في الاختصار، وأما التأكيد فظاهرُ القول به أن المصدر بعد حذف عامله مؤكّد، وقال الحمصي في «حواشي التصريح»(١): إن المصدر في ذلك مؤكّد في الأصل، وأما الآن فلا، لأنه صار بمنزلة الفعل الذي سدَّ هو مسدَّه فلا يكون مؤكّدًا، بل كلُّ مصدر صار بدلًا من اللفظ بالفعل لا يكون مؤكّدًا ولا مُبيِّنًا لنوع ولا عدد.

و«ضربَ الرقاب» مجازٌ مرسل عن القتل، وعبَّر به عنه إشعارًا بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقبة حيث أمكن، وتصويرًا له بأشنع صورة لأن ضربَ الرقبة فيه إطارةُ الرأس الذي هو أشرفُ أعضاء البدن ومَجْمع حواسِّه، وبقاء البدن مُلقى على هيئةٍ مُنكرة، والعياذ بالله تعالى، وذكر أنَّ في التعبير المذكور تشجيعَ المؤمنين، وأنهم منهم بحيث يتمكَّنون من القتل بضرب أعناقهم في الحرب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: أوقعتم القتلَ بهم بشدَّة وكثرة، على أنَّ ذلك مستعارٌ من ثِخَنِ المائعات لمنعه عن الحركة، والمراد: حتى إذا أكثرتُم قتلَهم وتمكَّنتم من أَخْذِ من لم يقتل ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: فَأْسِرُوهم واحفظوهم، فالشدُّ وكذا ما بعدُ في حقِّ من أُسِرَ منهم بعد إثخانهم لا للمثخَن إذْ هو بالمعنى السابق لا يُشَدُّ ولا يُمَنُّ عليه ولا يُفدَى، لأنه قد قُتل.

أو المعنى: حتى إذا أثقلتموهم بالجراح ونحوه بحيث لا يستطيعون النهوضَ فَأْسِرُوهم واحفظوهم؛ فالشدُّ وكذا ما بعدُ في حقِّ المُثخن لأنه بهذا المعنى هو الذي لم يصل إلى حدِّ القتل لكن ثَقُلَ عن الحركة فصار كالشيء الثخين الذي لم يَسِلْ ولم يستمرّ في ذهابه، والإثخان عليه مجازٌ أيضًا.

---

(١) كتاب التصريح بمضمون التوضيح للشيخ خالد الأزهري، وكتاب التوضيح هو كتاب أوضح المسالك لابن هشام النحوي. والحمصي: هو الشيخ ياسين العليمي، توفي سنة (١٠٦١هـ)، له حاشية على كتاب التصريح. خلاصة الأثر ٤/ ٤٩١، وكشف الظنون ١/ ١٥٤.

و«الوَثاق» في الأصل مصدرٌ كالخَلاص، وأُريد به هنا ما يُوثَق به. وقرئ: «الوِثاق» بالكسر[١]، وهو اسمٌ لذلك، ومجيء فَعال اسمَ آلة كالحزام والرِّكاب نادرٌ على خلاف القياس، وظاهرُ كلام البعض أن كلًّا من المفتوح والمكسور اسمٌ لِمَا يُوثَق به، ولعل المرادَ بيانُ المراد هنا.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: فإما تمنُّون منًّا وإما تفدون فداءً، والكلام تفصيلٌ لعاقبةِ مضمون ما قبله من شدِّ الوثاق، وحذفُ الفعل الناصب للمصدر في مثل ذلك واجبٌ أيضًا، ومنه قوله:

لأجهـدنَّ فـإمَّـا دَرْءَ واقـعـةٍ تُخْشَى وإما بلوغَ السُّؤْل والأملِ[٢]

وجوَّز أبو البقاء[٣] كونَ كلٍّ من «مَنًّا» و«فداء» مفعولًا به لمحذوف، أي: أَوْلُوهم منًّا، أو: اقبلوا منهم فداءً، وليس ـ كما قال أبو حيان[٤] ـ إعرابَ نحويٍّ.

وقرأ ابن كثير في رواية شِبل: «وإما فَدًى» بالفتح والقصر[٥] كعصا. وزعم أبو حاتم أنه لا يجوز قصره لأنه مصدر فاديته، قال الشهاب: ولا عبرةَ به فإن فيه أربعَ لغات: الفتحُ والكسر مع المدِّ والقصر، ولغة خامسة البناء مع الكسر كما حكاه الثقات[٦]. انتهى.

وفي «الكشف» ـ نقلًا عن الصحاح ـ: الفداء إذا كُسر أوله يُمَدُّ ويُقصَر، وإذا فُتح فهو مقصور[٧]. ومن العرب من يكسر الهمزة، أي: يبنيه على الكسر إذا جاور لامَ الجرِّ خاصَّة لأنه اسمُ فعل بمعنى الدعاء، وأنشد الأصمعي بيت النابغة:

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٤١.

(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ٧٥، وقال في الدرر اللوامع ٣/ ٧٥: لم أعثر على قائله.

(٣) إملاء ما منَّ به الرحمن ٤/ ٣٢٤.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٧٥.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٧٥، وهي غير المشهورة عن ابن كثير، وذكرها القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٤٤، دون نسبة.

(٦) حاشية الشهاب ٨/ ٤١.

(٧) الصحاح (فدى).

مــهــلًا فــداءٍ لــك. . . . .[1]

وهذا الكسر مع التنوين كما صرّح به في «البحر»[2].

وظاهرُ الآية ـ على ما ذكره السيوطي في أحكام القرآن العظيم ـ امتناع القتل بعد الأسر، وبه قال الحسن[3]. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أنه قال: أُتي الحجّاج بأُسارى، فدفع إلى ابن عمر رضي الله عنهما رجلًا يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أُمرنا إنما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[4].

وفي حُكم الأسارى خلافٌ، فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخِيار إنْ شاء قتلهم إنْ لم يُسلموا؛ لأنه ﷺ قَتَلَ صبرًا عُقبة بنَ أبي مُعيط وطعيمة بنَ عدي والنضر بنَ الحارث التي قالت فيه أخته أبياتًا منها تُخاطب النبيَّ ﷺ:

مـا كـان ضـرَّكَ لـو مـنـنـتَ وربـمَّـا مَنَّ الفتى وهو المَغيظ المُحْنَقُ[5]

ولأنَّ في قتلهم حَسْمَ مادة فسادهم بالكلية، وليس لواحدٍ من الغُزاة أن يقتل أسيرًا بنفسه، فإنْ فعل بلا مُلجِئ كخوف شرِّ الأسير، كان للإمام أنْ يُعزِّره إذا وقع على خلاف مقصوده ولكن لا يضمن شيئًا. وإن شاء استرقَّهم لأنَّ فيه دَفْعَ شرِّهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام، وإن شاء تركهم ذِمَّةً أحرارًا للمسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه ذلك في أهل السواد، إلا أسارى مشركي العرب والمرتدِّين، فإنهم لا تُقبل منهم جزية، ولا يجوز استرقاقهم، بل الحكم فيهم إما الإسلام أو السيف، وإن أسلم الأُسارى بعد الأسر لا يقتلهم لاندفاع شرِّهم بالإسلام، ولكن يجوز استرقاقُهم ـ فإن الإسلام لا يُنافي الرقَّ ـ جزاءً على الكفر الأصلي، وقد وُجد بعد انعقاد سببِ الملك، وهو الاستيلاءُ على الحربي غير المشرك من العرب، بخلاف

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٣٦، والبيت بتمامه:

مــهــلاً فــداءٍ لــك الأقــوامُ كــلُّــهــم ومــا أُثــمِّــر مــن مــال ومــن ولــدِ

(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٥.

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص٢٣٨.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٦، وتفسير الطبري ٢١/ ١٨٥.

(٥) السيرة النبوية ١/ ٦٤٤ و٢/ ٤٢، والبيت سلف ٦/ ٢٨.

ما لو أسلموا من قبل الأخذِ، فإنهم يكونون أحرارًا لأنه إسلامٌ قبل انعقاد سبب المِلك فيهم.

ولا يُفادى بالأسارى في إحدى الروايتين عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه لما في ذلك من معونةِ الكفر؛ لأنه يعود الأسير الكافر حربًا علينا، ودفعُ شرِّ حرابته خيرٌ من استنقاذ المسلم؛ لأنه إذا بقي في أيديهم كان ابتلاءً في حقِّه فقط، والضررُ بدفع أسيرهم إليهم يعود على جماعة المسلمين.

والروايةُ الأُخرى عنه أنه يُفادَى، وهو قول محمد وأبي يوسف والإمام الشافعي ومالك وأحمد، إلا بالنساء، فإنه لا يجوز المُفاداة بهنَّ عندهم. ومنع أحمد المفاداة بصبيانهم، وهذه رواية «السير الكبير». قيل: وهو أظهرُ الروايتين عن الإمام أبي حنيفة. وقال أبو يوسف: تجوزُ المُفاداة بالأسارى قبلَ القِسمة لا بعدَها. وعند محمد تجوز بكلِّ حال.

ووجه ما ذكره الأئمَّة من جواز المفاداة أنَّ تخليصَ المسلم أَولى من قَتْلِ الكافر للانتفاع به، ولأنَّ حرمته عظيمة، وما ذُكر من الضرر الذي يعود إلينا بدَفْعه إليهم يدفعه ظاهرًا المسلمُ الذي يتخلَّص منهم، لأنه ضررُ شخصٍ واحد، فيقوم بدفعه واحدٌ مثلُه ظاهرًا، فيتكافأان وتبقى فضيلةُ تخليصِ المسلم وتمكينه من عبادة الله تعالى، فإن فيها زيادةَ ترجيح.

ثم إنه قد ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ؛ أخرج مسلم وأبو داود والترمذي وعبد بن حُميد وابن جرير عن عمران بن حُصين أن رسول الله ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين(١).

ويُحتجُّ لمحمد بما أخرجه مسلم أيضًا عن إياس بن سَلَمة عن أبيه سَلَمة قال: خرجنا مع أبي بكر رضي الله عنه أمَّره علينا رسول الله ﷺ، إلى أن قال: فلقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: «يا سلمة هَبْ لي المرأة» يعني التي نفَّله أبو بكر إياها،

---

(١) صحيح مسلم (١٦٤١)، وسنن أبي داود (٣٣١٦)، وسنن الترمذي (٢٧١٤)، وهو عند أحمد (١٩٨٦٣).

فقلت: يا رسولَ الله، لقد أعجبتني وما كشفتُ لها ثوبًا، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال: «يا سلمة هَبْ لي المرأةَ لله أبوك» فقلت: هي لك يا رسولَ الله، فوالله ما كشفتُ لها ثوبًا، فبعث بها رسولُ الله ﷺ ففدى بها ناسًا من المسلمين أُسِروا بمكة[1].

ولا يُفادى بالأسير إذا أسلم وهو بأيدينا لأنه لا يُفيد، إلا إذا طابت نفسه وهو مأمونٌ على إسلامه فيجوز؛ لأنه يُفيد تخليصَ مسلم من غير إضرار بمسلم آخر.

وأما المفاداة بمال فلا تجوز في المشهور من مذهب الحنفية لِمَا بيّن في المفاداة بالمسلمين من رَدِّهم حربًا علينا. وفي «السير الكبير»: أنه لا بأسَ به إذا كان بالمسلمين حاجةٌ، قيل: استدلالًا بأسارى بدر؛ فإنه لا شكَّ في احتياج المسلمين بل في شدَّة حاجتهم إذْ ذاك، فليكن محملُ المفاداة الكائنة في بدر بالمال.

وأما المنُّ على الأسارى وهو أن يُطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز عند أبي حنيفة ومالك وأحمد، وأجازه الإمام الشافعي لأنه ﷺ مَنَّ على جماعة من أسرى بدر منهم أبو العاص بن الربيع[2] على ما ذكره ابن إسحاق بسنده، وأبو داود من طريقه إلى عائشة: لما بَعَثَ أهلُ مكة في فِداء أسراهم بعثت بنتُ رسول الله ﷺ في فداءِ أبي العاص بمال وبعثَتْ فيه بقلادة كانت خديجةُ أدخلتها بها على أبي العاص حين بنائه عليها، فلما رأى النبيُّ ﷺ ذلك رقَّ لها رِقَّة شديدة، وقال لأصحابه: «إنْ رأيتُم أن تُطلقوا لها أسيرَها وتردُّوا لها الذي لها» ففعلوا ذلك مُغتبطِين به. ورواه الحاكم وصحَّحه وزاد: وكان النبيُّ ﷺ قد أخذ عليه أن يُخلِّي زينب إليه، ففعل[3].

---

(١) صحيح مسلم (١٧٥٥).

(٢) في الأصل و(م): ابن أبي الربيع، والصواب المثبت. ينظر تجريد أسماء الصحابة للذهبي ص١٨١.

(٣) السيرة النبوية ١/ ٦٥٢، وسنن أبي داود (٢٦٩٢)، والمستدرك ٣/ ٢٣.

ومَنَّ ﷺ على ثُمامة بن أُثال بن النعمان الحنفي سيِّد أهل اليمامة، ثم أسلم وحَسُنَ إسلامه، وحديثه في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة(١).

ويكفي ما ثبت في «صحيح البخاري» من قوله عليه الصلاة والسلام: «لو كان المُطعِم بن عدي حيًّا ثم كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى - يعني أُسارى بدر - لتركتُهم له»(٢)، فإنه ﷺ أخبر وهو الصادقُ المصدوق بأنه يُطلقهم لو سأله المُطعم، والإطلاق على ذلك التقدير لا يثبتُ إلا وهو جائزٌ شرعًا لمكان العصمة، وكونُه لم يَقَعْ لعدم وقوعِ ما عُلِّق عليه لا ينفي جوازه شرعًا.

واستدلَّ أيضًا بالآية التي نحن فيها فإنَّ الله تعالى خيَّر فيها بين المنِّ والفداء، والظاهر أنَّ المرادَ بالمنّ الإطلاقُ مجانًا؛ وكونُ المرادِ المنَّ عليهم بترك القتل وإبقاءهم مستَرقِّين أو تخليتهم لقبول الجزية وكونهم من أهل الذِّمة خلافُ الظاهر، وبعضُ النفوس تجد طعمَ الألاء(٣) أحلى من هذا المنّ.

وأجاب بعضُ الحنفية بأن الآيةَ منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من سورة براءة [الآية:٥] فإنه يقتضي عدمَ جواز المنّ وكذا عدمَ جواز الفِداء، وهي آخرُ سورة نزلَتْ في هذا الشأن، وزعم أن ما وقع من المنِّ والفِداء إنما كان في قضية بدر، وهي سابقةٌ عليها وإن كان شيء من ذلك بعد بدر فهو أيضًا قبل السورة.

والقول بالنَّسْخ جاء عن ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد في روايات ذكرها الجلال السيوطي في «الدر المنثور»(٤). وقال العلامة ابن الهُمام(٥): قد يقال إنَّ ذلك - يعني ما في سورة براءة - في حقِّ غيرِ الأسارى بدليل جوازِ الاسترقاق فيهم فيعلم أنَّ القتلَ المأمورَ به في حقِّ غيرهم. وما ذكره في جواز الاسترقاق ليس على

(١) صحيح مسلم (١٧٦٤).
(٢) صحيح البخاري (٣١٣٩) من حديث جبير بن مطعم بن عدي، وهو عند أحمد (١٦٧٣٣).
(٣) الألاء كسحاب ويقصر: شجر مرٌّ. القاموس (ألو).
(٤) ٦/ ٤٦.
(٥) في فتح القدير ٤/ ٣٠٨.

إطلاقه، إذ لا يجوز كما علمتَ استرقاقُ مشركي العرب.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره، قال الأعشى:

وأعددت للحربِ أوزارها رماحًا طوالًا وخيلًا ذكورا
ومِن نَسْجِ داود موضونةً تساق إلى الحرب عِيرًا فعيرا[1]

وهي في الأصل: الأحمال، فاستُعيرت لما ذكر استعارةً تصريحية، ويجوز أن يكونَ في «الحرب» استعارة مكنية بأن تُشبَّه بإنسان يحمل حملًا على رأسِهِ أو ظهره، ويثبت لها ما أثبت تخييلًا، وكلامُ «الكشاف»[2] أَمْيَلُ إليه.

وقيل: هي أحمالُ المحارِب، أُضيفت للحرب تجوّزًا في النسبة الإضافية وتغليبًا لها على الكُراع[3]، وإسناد الوضع للحرب مجازي أيضًا. وليس بذاك.

وعدَّ بعضُ الأماثل الكلامَ تمثيلًا، والمراد: حتى تنقضي الحربُ، وقال: يجوز أن يكون إرادة ذلك من باب المجاز المتفرّع على الكناية، كما في قوله:

فألقَتْ عصاها واستقرَّ بها النوى[4]

فإنه كنَى به عن انقضاء السفر والإقامة.

وقيل: الأوزار جمع وِزْر بمعنى إثْم، وهو هنا الشِّرك والمعاصي، «وتضع» بمعنى تترك، مجازًا، وإسناده للحرب مجاز، أو بتقدير مضاف، والمعنى: حتى يضعَ أهلُ الحرب شِرْكَهم ومعاصيهم. وفيه أنه لا يستحسن إضافةُ الأوزار بمعنى الآثام إلى الحرب.

و«حتى» عند الشافعي عليه الرحمة ـ ومن قال نحو قوله ـ غايةٌ للضرب، والمعنى: اضرِبوا أعناقَهم حتى تنقضيَ الحربُ، وليس هذا بدلًا من الأول ولا تأكيدًا له بناءً على ما قرَّروه من أنَّ «حتى» الداخلة على «إذا» الشرطية ابتدائية أو غايةٌ

---

(١) ديوان الأعشى ص١٤٩.
(٢) ٣/ ٥٣١، والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ٤١.
(٣) اسم للخيل؛ لأنها تخبط كراعها في الدفع عن نفسها. حاشية الشهاب ٨/ ٤٢.
(٤) سلف ١٠/ ١٠٢، وعجزه: كما قرَّ عينًا بالإياب المسافر.

للشدِّ، أو للمنِّ والفداء معًا، أو للمجموع من قوله تعالى: «فضرب الرقاب» إلخ، بمعنى أنَّ هذه الأحكام جاريةٌ فيهم حتى لا يكون حربٌ مع المشركين بزوال شوكتهم، وقيل: بنزول عيسى عليه السلام، ورُوي ذلك عن سعيد بن جُبير والحسن، وفي الحديث ما يُؤيِّده؛ أخرج أحمد والنسائي وغيرُهما عن سَلَمة بن نُفيل قال: بينما أنا جالسٌ عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ الخيلَ قد سُيِّبت ووضع السلاح، وزعم أقوامٌ أن لا قتالَ وأنْ قد وضعت الحربُ أوزارَها، فقال رسول الله ﷺ: «كذبوا، فالآن جاء القتالُ، ولا تزال طائفةٌ يُقاتلون في سبيل الله لا يضرُّهم من خالفهم، يُزيغُ الله تعالى قلوبَ قوم ليرزقهم منهم، وتُقاتلون حتى تقومَ الساعةُ، ولا تزالُ الخيلُ معقودًا في نواصيها الخيرُ حتى تقومَ الساعةُ، ولا تضعُ جنسُ الحربُ أوزارَها حتى يخرجَ يأجوج ومأجوج»[(١)].

وهي عند من يقول: لا مَنَّ ولا فِداء اليوم غايةٌ للمَنِّ والفِداء إنْ حمل «الحرب»[(٢)] على حرب بدر بجعل تعريفه للعهد، والمعنى: يُمَنُّ[(٣)] عليهم ويُفادون حتى تضعَ حربُ بدر أوزارها، وغايةٌ للضرب والشَّدِّ إن حُملت على الجنس، والمعنى أنهم يقتلون ويُؤسرون حتى يضع جنسُ الحرب أوزارها بأن لا يبقى للمشركين شوكةٌ، ولا تُجعل غاية للمنِّ والفِداء مع إرادة الجنس، وفي زعم جوازه والتزام النسخ كلامٌ، فتأمل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك، فهو في محلِّ رفع خبر مبتدأ محذوف، أو في محلِّ نصب مفعول لفعل كذلك، والإشارة إلى ما دلَّ عليه قوله تعالى: (فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ) إلخ لا إلى ما تقدَّم من أول السورة إلى هاهنا؛ لأن افعلوا لا يقع على جميع السالف، وعلى الرفع ينفكُّ النظم الجليل إنْ لم يُحمل عليه لأنَّ ما بعدُ كلام فيهم.

---

(١) مسند أحمد (١٦٩٦٥)، وسنن النسائي ٦/ ٢١٤، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٢٤) واللفظ له. وعند أحمد أن الذي جاء إلى النبي ﷺ وكلَّمه هو سلمة بن نُفيل نفسه.

(٢) قبلها في (م): على، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٨/ ٩٣.

(٣) في الأصل و(م): المن، والمثبت من تفسير أبي السعود.

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم ببعض أسبابِ الهلاك من خَسْف أو رَجْفة أو غَرَق أو موت جارف ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ولكن أمركم سبحانه بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يُجاهدوهم فينالوا الثوابَ ويُخلَّد في صحف الدهر ما لهم من الفضل الجسيم، والكافرين بالمؤمنين بأن يُعاجِلَهم عز وجل ببعض انتقامه سبحانه فيتَّعظَ به بعضٌ منهم ويكون سببًا لإسلامه؛ واللام متعلِّقة بالفعل المقدَّر الذي ذكرناه.

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: استشهدوا. وقرأ الجمهور: «قاتلوا» أي: جاهدوا[1]، والجحدري بخلاف عنه: «قَتَلوا» بفتح القاف والتاء بلا ألف، وزيد بن ثابت والحسن وأبو رجاء وعيسى والجحدري أيضًا: «قُتِّلوا» بالبناء للمفعول وشدِّ التاء[2].

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ فلن يُضيِّعها سبحانه، وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: «يُضَلَّ» مبنيًّا للمفعول «أعمالُهم» بالرفع على النيابة عن الفاعل، وقرئ: «يَضِلّ» بفتح الياء من ضَلَّ «أعمالُهم» بالرفع على الفاعلية[3]. والآية قال قتادة ـ كما أخرجه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم ـ: ذكر لنا أنها نزلَتْ في يوم أُحد ورسول الله ﷺ في الشِّعب وقد فَشَتْ فيهم الجِراحات والقتل وقد نادى المشركون يومئذ: اعلُ هُبل. ونادى المسلمون: اللهُ أعلى وأجلّ. فنادى المشركون: يومٌ بيوم بدر، وإنَّ الحرب سِجال، لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهُ مولانا ولا مَوْلى لكم، إنَّ القَتْلى مُختلفة؛ أما قتلانا فأحياءٌ مرزوقون، وأما قتلاكم ففي النار يُعذَّبون»[4]. ومنه يعلم وجه قراءة: «قُتِّلوا» بصيغة التفعيل.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ سَيُوصلهم إلى ثواب تلك الأعمال من النعيم المُقيم والفضل العظيم، وهذا كالبيان لقوله سبحانه: «فلن يضل أعمالهم». أو سيُثَبِّتُ جلَّ شأنه في

(١) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠، وقرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب: «قُتِلوا».
(٢) القراءات الشاذة ص١٤٠، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٥٠.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٠، والبحر المحيط ٨/ ٧٥.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٠-١٩١، وبعض ألفاظه في صحيح البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

الدنيا هدايتهم، والمراد الوعد بأن يحفظهم سبحانه ويصونهم عمَّا يُورث الضلال وحَبْط الأعمال، وهو كالتعليل لذلك، ويجوز أن يكون كالبيان له أيضًا.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ أي: شأنهم، قال الطبرسي: المراد إصلاحُ ذلك في العُقبى[1]. فلا يتكرَّر مع ما تقدَّم، لأنَّ المرادَ به إصلاحُ شأنهم في الدين والدنيا فلا تغفُل.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ في موضع الحال بتقدير «قد» أَوْ بدونه، أو استئناف كما قال أبو البقاء[2]. والتعريف في الآخرة؛ أخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال: يُهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم الله تعالى لهم منها لا يُخطؤون، كأنهم ساكنوها منذ خُلقوا لا يستدِلُّون عليها أحدًا[3]. وفي الحديث: «لأحدُكم بمنزله في الجنة أعرفُ منه بمنزله في الدنيا»[4] وذلك بإلهام منه عز وجل.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن مقاتل أنه قال: بلغنا أن المَلَك الذي كان وُكِّل بحفظ عملِ الشخص في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه الشخصُ حتى يأتيَ أقصى منزل هو له فيُعرِّفه كلَّ شيء أعطاه الله تعالى في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف المَلَكُ عنه[5].

وورد في بعض الآثار أن حسناتِه تكون دليلًا له إلى منزله فيها.

وقيل: إنه تعالى رسم على كلِّ منزل اسمَ صاحبه، وهو نوعٌ من التعريف.

وقيل: تعريفها تحديدها، يقال: عرف الدار وأرَّفها، أي: حدَّدها، أي: حدَّدها لهم بحيث يكون لكلٍّ جنةٌ مُفرزة.

---

(١) مجمع البيان ٢٦/ ٣١.
(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٤/ ٣٢٥.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٢.
(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١١٠٩٥)، والبخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وذكره عنه أيضاً ابنُ كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية.

وقيل: أي: شرَّفها لهم ورفعها وعلَّاها، على أنَّ «عرَّفها» من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها.

وعن ابن عباس في رواية عطاء ـ ورُوي عن مُؤرج ـ أي: طيَّبها لهم، على أنه من العَرْف، وهو الريحُ الطيبة هاهنا، ومنه: طعام مُعَرَّف، أي: مُطَيَّب، وعَرَّفت القِدْرَ طيَّبتها بالمِلح والتابل.

وعن الجُبَّائي أن التعريف في الدنيا، وهو بذكر أوصافها، والمراد أنه تعالى لم يَزَلْ يمدحها لهم حتى عشقوها فاجتهدوا فيما يُوصلهم إليها:

والأذن تعشقُ قبلَ العين أحيانا[1]

وعلى هذا المرادِ قيل:

أشتاقه من قبل رؤيته كما ... تُهوَى الجنانُ بطيِّب الأخبار

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: دينه ورسولَه ﷺ لا على أن الكلام على تقدير مضاف بل على أن نصرة الله فيه تجوُّزٌ في النسبة، فنصرته سبحانه نصرة رسوله ودينه إذ هو جل شأنه وعلا المعين الناصر وغيره سبحانه المعان المنصور. ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ⑦﴾ في مواطن الحرب ومواقفها، أو على محجَّة الإسلام، والمراد: يقويكم أو يوفِّقكم للدوام على الطاعة. وقرأ المفضل عن عاصم: «ويُثْبِتْ» مخفَّفًا[2].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ من تَعَسَ الرجل بفتح العين تعسًا، أي: سقط على وجهه، وضدُّه انتعش، أي: قام من سقوطه، وقال شمر وابن شميل وأبو الهيثم وغيرهم: تَعِسَ بكسر العين، ويقال: تعسًا له ونكسًا، على أن الأول ـ كما قال ابن السِّكيت ـ بمعنى السقوط على الوجه، والثاني بمعنى السقوط على الرأس، وقال الحمصي في حواشيه على «التصريح»: تعس تعسًا، أي: لا انتعش من عثرته، ونُكسًا بضمِّ النون وقد تُفتح إما في لغة قليلة وإما إتباعًا لِتَعْسًا، والنُّكس بالضَّمِّ:

---

(١) قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٥٣٣، وصدره: يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٦، وهي غير المشهورة عن عاصم.

عَوْدُ المرض بعد النَّقه؛ ويُراد بذلك الدعاء، وكَثُرَ في الدعاء على العاثر: تعسًا له، وفي الدعاء له: لَعًا له، أي: انتعاشًا وإقامة، وأنشدوا قول الأعشى يصف ناقة:

كَلَّفتُ مجهولةً نفسي وشايَعَني هـمِّي عليها إذا ما آلُها لَمعا
بذات لَوثٍ عَفَرْناةٍ إذا عَثَرتْ فالتَّعْسُ أولى لها من أنْ أقولَ لعا[(١)]

وقال ثعلب وابن السكيت أيضًا: التعسُ: الهلاك، ومنه قول مُجمِّع بن هلال:

تقول وقد أفرَدْتُها من حَلِيلها تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَني يا مُجَمِّع[(٢)]

وفي «القاموس»: التعس: الهلاك، والعِثار، والسقوط، والشَّرُّ، والبعد، والانحطاط، والفعل كَمَنَعَ وسَمِعَ، أو إذا خاطبت قلت: تَعَسْتَ، كَمَنَعَ، وإذا حكيتَ قلت: تَعِسَ، كَسَمِعَ، ويقال: تعسه الله تعالى، وأتعسه، ورجل تاعسٌ وتَعِسٌ[(٣)].

وانتصابه على المصدر بفعل من لفظه يجب إضماره، لأنه للدعاء كسقيًا ورعيًا، فيجري مجرى الأمثال إذا قصد به ذلك، والجارُّ والمجرور بعده متعلِّقٌ بمقدَّر للتبيين عند كثير، أي: أعني له، مثلًا، فنحو: تعسًا له، جملتان. وذهب الكوفيون إلى أنه كلامٌ واحد، ولابن هشام كلامٌ في هذا الجارِّ مذكور في بحث لام التبيين، فلينظر هناك[(٤)].

واختلفت العبارات في تفسير ما في الآية الكريمة، فقال ابن عباس: أي: بُعدًا لهم. وابن جريج والسدي: أي: حزنًا لهم. والحسن: أي: شتمًا لهم. وابن زيد: أي: شقاء لهم. والضحاك: أي: رغمًا لهم. وحكى النقاش تفسيره بِقُبحًا لهم.

---

(١) ديوان الأعشى ص١٥٣، وحاشية الشهاب ٨/ ٤٣، ورواية الديوان: مجهولها، بدل: مجهولة، وأدنى، بدل: أولى. قال الشهاب: اللوث: القوة. وناقة عفرناة، أي: قوية.

(٢) البيت في درة الغواص ص١١٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٧١٧، وخزانة الأدب١٠/ ٤٠٣. والمعنى: قالت لي وقد سبيتها وفرَّقت بينها وبين زوجها: تعست...، وقال المرزوقي: وسمي الزوج حليلاً والمرأة حليلة لأن كل واحد منهما يَحُلُّ مع صاحبه. ووقع في الأصل وبعض المصادر: خليلها.

(٣) القاموس المحيط (تعس).

(٤) مغني اللبيب ص٢٩١-٢٩٢.

وقال غير واحد: أي: عثورًا وانحطاطًا لهم، وما ألطف ذكر ذلك في حقِّهم بعد ذكر تثبيتِ الأقدام في حقِّ المؤمنين.

وفي رواية عن ابن عباس: يريد في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردِّي في النار.

وأكثر الأقوال ترجع إلى الدعاء عليهم بالهلاك.

وجوَّز الزمخشري[1] في إعرابه وجهين: الأول: كونه مفعولًا مطلقًا لفعل محذوف، كما تقدَّم. والثاني: مفعولًا به لمحذوف، أي: فقضى تعسًا لهم، وقدَّر على الأول القول، أي: فقال: تعسًا لهم، والذي دعاه لذلك ـ على ما قيل ـ جَعْلُ «الذين» مبتدأً والجملة المقرونة بالفاء خبرًا له، وهي لإنشاء الدعاء، والإنشاءُ لا يقع خبراً بدون تأويل، فإما أن يقدَّر معها قول أو تجعل خبرًا بتقدير قضى، وجَعَل قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨﴾ عطفًا على ما قدّر.

وفي «الكشف»: المراد مِن قال: تعسًا لهم: أهلكهم الله، لا أن ثَمَّ دعاءً وقولًا، وذلك لأنه لا يُدعى على شخص إلا وهو مستحِقٌّ له، فإذا أخبر تعالى أنه يدعو عليه دلَّ على تحقُّق الهلاك، لاسيما وظاهرُ اللفظ أن الدعاء منه عز وجل، وهذا مجازٌ على مجاز، أعني: أن القول مجاز، وكذلك الدعاء بالتعس، ولم يَجْعل العطف على «تعسًا» لأنه دعاء، و«أضل» إخبار، ولو جُعِل دعاءً أيضًا عطفًا على «تعسًا» على التجوُّز المذكور لكان له وجه. انتهى.

وأنت تعلم أن اعتبارَ ما اعتبره الزمخشري ليس لأجل أمرِ العطف فقط، بل لأجل أمر الخبرية أيضًا، فإنْ قيل بصحة الإخبار بالجملة الإنشائية من غير تأويل استغني عما قاله بالكلية. ودخلت الفاء في خبر الموصول لِتضمُّنه معنى الشرط.

وجوز أن يكون الموصولُ في محلِّ نصب على المفعولية لفعل مقدَّر يُفسِّره الناصب لـ «تعسًا»، أي: أتعس اللهُ الذين كفروا، أو: تعس الله الذين كفروا تعسًا، لما سمعت عن «القاموس»، وقد حكي أيضًا عن أبي عُبيدة، والفاء زائدة في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣] ويزيدها العرب في مثل ذلك

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٣٢.

على توهُّم الشرط. وقيل: يقدّر الفعل مضارعًا معطوفًا على قوله تعالى: «يُثبِّت» أي: ويُتعس الذين.. إلخ، والفاء للعطف، فالمراد إتعاسٌ بعد إتعاس، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] أو لأن حقّ المُفسِّر أن يُذكَر عَقِبَ المُفسَّر كالتفصيل بعد الإجمال، وفيه مقال.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من التعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المُخالفة لما أَلِفُوه واشتَهَتْهُ أنفسهم الأمَّارة بالسوء، وهذا تخصيصٌ وتصريحٌ بسببية الكُفر بالقرآن للتعس والإضلال إذْ قد عُلم من قوله تعالى: «والذين كفروا» إلخ سببيَّةُ مطْلَق الكفر الداخل فيه الكفر بالقرآن دخولًا أوليًا لذلك. ﴿فَأَحۡبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾ التي لو كانوا عَمِلوها مع الإيمان لَأُثِيبوا عليها. وذَكَر الإحباط مع ذكر الإضلال المراد هو منه إشعارًا بأنه يلزم الكفرَ بالقرآن ولا ينفكُّ عنه بحال.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أَقَعدوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم المُكذِّبة، فإن آثار ديارهم تُنبئ عن أخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ كأنه قيل: كيف كانت عاقبتهم؟ فقيل: أهلكَ ما يختصُّ بهم من النفس والأهل والمال، يقال: دمَّره: أهلكه، ودمّر عليه: أهلك ما يختصُّ به، فـ: دمَّر عليه، أبلغُ من: دمَّره، وجاءت المبالغة من حذفِ المفعول وجَعْلِه نسيًا منسيًا، والإتيانِ بكلمة الاستعلاء، وهي لتضمُّن التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الكافرين السائرين سيرتهم ﴿أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠﴾ أمثالُ عاقبتهم أو عقوبتهم لدلالة ما سبق عليها، لكن لا على أن لهؤلاء أمثالَ ما لأولئك وأضعافه، بل مثله، وإنما جُمع باعتبار مُماثلته لعواقبَ متعدِّدة حسب تعدُّد الأمم المعذَّبة. وقيل: يجوز أن يكون عذابهم أشدَّ من عذاب الأوَّلين، وقد قُتلوا وأسروا بأيدي من كانوا يستخفُّونهم ويستضعفونهم، والقتل بيد المثلِ أشدُّ من الهلاك بسبب عامٍّ. وقيل: المرادُ بالكافرين المتقدِّمون، بطريق وضع الظاهر موضعَ الضمير، كأنه قيل: دمَّر الله تعالى عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ثبوت أمثال عاقبة أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء، وقيل: إشارة إلى النصر، وهو كما ترى ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ناصرهم على أعدائهم، وقرئ: «وَلِيُّ الذين آمنوا»(١).

﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ فيدفع ما حلَّ بهم من العقوبة والعذاب، ولا يُناقض هذا قولَه تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠] لأن المولى هناك بمعنى المالك، فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيانٌ لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الأخروية.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ أي: ينتفعون بمتاع الدنيا أيامًا قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ الكاف في موضع نصب إما على الحال من ضمير المصدر كما يقول سيبويه، أي: يأكلونه - أي: الأكل - مُشْبِهًا أكلَ الأنعام، وإما على أنه نعتٌ لمصدر محذوف كما يقول أكثرُ المُعربين، أي: أكلًا مثلَ أكل الأنعام، والمعنى: أن أكلهم مجرَّدٌ من الفكر والنظر، كما تقول للجاهل: تعيش كما تعيش البهيمة، لا تُريد التشبيه في مطلق العيش ولكن في خواصِّه ولوازمه، وحاصله أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أمورهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ أي: موضع إقامة لهم، حالٌ مُقدَّر من واو «يأكلون». وجوِّز أن يكون استئنافًا، وكأنَّ قوله تعالى: «يتمتعون ويأكلون» في مقابلة قوله سبحانه: «وعملوا الصالحات» لما فيه من الإيماء إلى أنهم عَرَفوا أن نعيمَ الدنيا خيالٌ باطل وظلٌّ زائل، فتركوا الشهواتِ وتفرَّغوا للصالحات، فكان عاقبتهم النعيمَ المُقيم في مقام كريم، وهؤلاء غَفَلوا عن ذلك فرتعوا في دِمْنهم كالبهائم حتى ساقهم الخِذلان إلى مَقَرِّهم من دَرْك النيران. وهذا ما ذكره العلامة الطيبي في بيان التقابل بين الآيتين.

وقال بعضُ الأجِلَّة: في الكلام احتباكٌ، وذلك أنه ذكر الأعمال الصالحة

---

(١) قرأ بها ابن مسعود رضي الله عنه. تفسير القرطبي ١٩/ ٢٥٦.

ودخولَ الجنة أولًا دليلًا على حذف الأعمال الفاسدة ودخولِ النار ثانيًا، وذكر التمتع والمثوَى ثانيًا دليلًا على حذف التقلُّل والمأوى أولًا. والأول أحسنُ وأدقُّ.

وأَسندَ إدخال الجنة إلى الله تعالى ولم يسلك نحو هذا المَسلك في قوله تعالى: «والنار مثوى لهم» وخُولف بين الجملتين فعلية واسمية للإيذان بسبق الرحمة والإعلام بمصير المؤمنين والوعدِ بأنَّ عاقبتهم أنَّ الله سبحانه يُدخلهم جناتٍ وأن الكافرين مثواهم النار، وهم الآن حاضرون فيها ولا يدرون، وكالبهائم يأكلون.

﴿وَكَأَيِّن﴾ بمعنى «كم» الخبرية، وهي مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييزٌ لها، وقوله سبحانه: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ صفة لـ «قريةٍ»، كما أنَّ قوله عز وجل: ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ صفة لـ «قريتك»، وقد حُذف عنهما المضاف وأجري أحكامه عليهما كما يُفصح عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي: وكم من أهل قرية هم أشدُّ قوة من أهل قريتك الذين أخرجوك أهلكناهم بأنواعِ العذاب. وجُوِّز أن لا يكون هناك حذفٌ، وإنما أُطلق المحلُّ وأُريد الحالُّ مجازًا.

وإسنادُ الإخراج إلى أهل قريته ﷺ وهي مكة المكرمة مجازٌ من باب الإسناد إلى السبب لأنهم عاملوه ﷺ بما عاملوه، فكانوا بذلك سببًا لإخراجه حين أَذِنَ الله تعالى له عليه الصلاة والسلام بالهجرة منها، ونظيرُ ذلك: أَقدمني بلدك حقٌّ لي عليك. وأنت تعلم أنه على ما حقَّقه الأجِلَّة يحتمل أوجهًا ثلاثة: مجازًا في الإسناد إذا كان الإقدام مستعملًا في معناه الذي وُضع له وإن كان موهومًا. ومجازًا في الطرف إذا كان مستعملًا في معنى الحمل على القدوم. واستعارةً بالكناية إن كان الحقُّ مستعملًا في المقدم.

والشيخ يقول في مثل ذلك: إن الفعل المتعدِّي موهومٌ لا فاعلَ له ليصير الإسنادُ إليه حقيقةً، فلا إقدامَ مثلًا في قصد المُتكلِّم، وإنما هو تصويرُ القُدوم بصورة الإقدام، وإسناده إلى الحقِّ المصوَّر بصورة المُقْدِم مبالغةٌ في كونه داعيًا للقدوم، وارتضاه السيالكوتي في حواشي شرح مختصر «التلخيص»، وذبَّ عنه القال والقيل، وتمام الكلام هناك، والكلام في الآية على طرز ذاك.

ووصفُ القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها، كما أن وصفَ الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها به لقوة جنايتها، وعلى طريقته قول النابغة(١):

كليبٌ لعمري كان أكثرَ ناصرًا وأيسرَ جُرْمًا منك ضُرِّجَ بالدم

وقوله تعالى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ بيانٌ لعدم خلاصهم بواسطة الأعوان والأنصار إثرَ بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات، وهو حكايةُ حال ماضية كما في قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] ولا نُسلِّم أنَّ اسمَ الفاعل إذا لم يعمل حقيقةٌ في الماضي.

والآية تسليةٌ له ﷺ، فقد أخرج عبد بن حُميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ لما خرج من مكةَ إلى الغار التفتَ إلى مكة وقال: «أنت أحبُّ بلادِ الله تعالى إلى الله وأنتِ أحبُّ بلادِ الله تعالى إليَّ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منكِ لم أخرجْ منكِ، فأعدى الأعداء مَن عَدَا على الله تعالى في حرمه، أو قَتَلَ غيرَ قاتله، أو قَتَلَ بذُحُولِ أهل الجاهلية» فأنزل الله سبحانه: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ) إلخ(٢)، وقد تقدم ما يتعلَّق بذلك أول السورة فتذكَّر.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تقريرٌ لتباين حال الفريقين المؤمنين والكافرين؛ وكونِ الأوَّلينَ في أعلى عِلِّيِّين والآخرين في أسفل سافلين، وبيانٌ لعلَّة ما لكلٍّ منهما من الحال، والهمزة لإنكار استوائهما أَو لإنكار كون الأمر ليس كما ذُكر، والفاء للعطف على مُقدَّر يقتضيه المقام، وقد قُرئ بدونها(٣)، و«مَنْ» عبارة عن

---

(١) هو النابغة الجعدي، والبيت في ديوانه ص١٤٣.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وهو في تفسير الطبري ٢١/ ١٩٨، والمطالب العالية ٣/ ٣٧١ عن أبي يعلى. ولقوله: «أعدى الأعداء من عدا على الله في حرمه، أو قَتَل غيرَ قاتله، أو قَتَل بذُحُول الجاهلية». شاهد من حديث عبد الله بن عمرو، وهو عند أحمد (٦٦٨١). قال ابن الأثير في النهاية (ذحل): الذَّحْل: الوِتْر وطلب المكافأة بجناية جُنيت عليه من قتل أو جرح ونحو ذلك، والذَّحل: العداوة أيضاً. اهـ. وتصحفت العبارة في البحر المحيط ٨/ ٧٨ (والكلام منه): وقيل: بدخول الجاهلية.

(٣) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٧٨.

المؤمنين المُتمسِّكين بأدلة الدين كما أنها في قوله تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عبارةٌ عن أضدادهم من المشركين.

وأخرج جماعة عن ابن عباس أن مَنْ كان على بيِّنة من ربِّه: هو رسولُ الله ﷺ، ومَنْ زُيِّن له سوءُ عمله هم المشركون. ورُوي عن قتادة نحوه[1]، وإليه ذهب الزمخشري[2]. وتُعقِّب بأنَّ التخصيصَ لا يُساعده النظم الكريم ولا داعيَ إليه، قيل: ومثله كون «مَنْ» الأُولى عبارةً عنه ﷺ وعن المؤمنين، والمعنى: أَيستوي الفريقان: أو أليس الأمر كما ذكر، فمن كان ثابتًا على حُجَّة ظاهرة وبرهان نيِّر من مالك أمرِه ومُربِّيه وهو القرآن العظيم وسائر المعجزات والحُجج العقلية كمن زيَّن له الشيطانُ عملَه السيئ من الشِّرك وسائر المعاصي، كإخراجك من قريتك، مع كون ذلك في نفسه أقبحَ القبائح.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ في ذلك العمل السيئ، وقيل: بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَآءَهُم ١٤﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم شُبهة تُوهم صحَّةَ ما هم عليه فضلًا عن حُجَّةٍ تدلُّ عليها. وجمع الضميرين الأخيرين باعتبار معنى «مَن» كما أنَّ إفراد الأولين باعتبار لفظها.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إلى آخره، استئنافٌ مسوقٌ لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفًا للمؤمنين، وبيانِ كيفية أنهارها التي أُشير إلى جريانها من تحتها، وعبَّر عنهم بالمتَّقين إيذانًا بأنَّ الإيمان والعمل الصالحَ من باب التقوى الذي هو عبارةٌ عن فعل الواجبات وترك السيئات.

والمَثَلُ: الوصفُ العجيبُ الشأن، وهو مبتدأ باتفاق المُعربين، واختُلف في خبره، فقيل: محذوفٌ، فقال النضر بن شُميل: تقديره: ما تسمعون، وقوله عز وجل: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ إلى آخره مُفسِّر له. وقال سيبويه: تقديره: فيما يُتلى عليكم، أو فيما قَصَصْنا عليك، ويُقَدَّر مقدَّمًا، و«فيها أنهار» إلخ بيانٌ لذلك المَثَل. وقدَّره ابنُ

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٨، وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر، ولم نقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٣.

عطية: ظاهرٌ في نفس من وَعَى هذه الأوصافَ[١]. وليس بذاك. ولعلَّ الأنسبَ بصدر النظم الكريم تقدير النَّضْرِ.

وقيل: هو مذكور، فقيل: هو قوله تعالى: «فيها أنهار» إلخ على معنى: مَثَلُ الجنة وصفتُها مضمونُ هذا الكلام، ولا يحتاج مِثْلُ هذا الخبر إلى رابط. وقيل: هذه الجملة هي الخبر إلا أنَّ لفظ «مثل» زائدٌ زيادةَ اسم في قولِ مَن قال:

إلى الحول ثم اسمُ السلامِ عليكما[٢]

فالمبتدأ في الحقيقة هو المضافُ إليه، فكأنه قيل: الجنةُ فيها أنهار.. إلخ. وليس بشيء. وقيل: الخبر قوله تعالى الآتي: «كمن هو خالد في النار» وسيأتي إن شاء الله تعالى بسطُ الكلام فيه.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وابن عباس وعبد الله والسُّلمي: «أمثال الجنة» أي: صفاتها، قال ابن جنيٍّ[٣]: وهذا دليل على أن قراءة العامة بالتوحيد معناها الكَثْرة لما في «مثل» من معنى المصدرية، ولذا جاز: مررت برجل مثل رجلين، و: برجلين مثل رجال، وبامرأة مثل رجل. وعن عليّ كرم الله تعالى وجهه أيضًا أنه قرأ: «مِثالُ الجنة»[٤] ومثال الشيء في الأصل نظيره الذي يُقابَل به.

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير مُتغيِّر الطَّعم والريح لطول مُكْث ونحوه، وماضيه: أَسَنَ بالفتح من باب ضَرَبَ ونَصَرَ، وبالكسر من باب عَلِمَ، حكى ذلك الخفاجي عن أهل اللغة[٥]. وفي «البحر»[٦]: أَسَنَ الماءُ: تغيَّر ريحُه، يَأْسِنُ ويَأْسُنُ؛ ذكره

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٤.

(٢) قائله لبيد بن ربيعة، وهو في ديوانه ص٧٩، وعجزه: ومن يبك حولًا كاملًا فقد اعتذر. وسلف ١١/ ٤٥٦.

(٣) في المحتسب ٢/ ٢٧٠، والقراءة السابقة فيه وفي القراءات الشاذة ص ١٤٠.

(٤) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١١٤، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٥٩.

(٥) حاشية الشهاب ٨/ ٤٥.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٧٠.

ثعلب في «الفصيح»، والمصدر: أُسونٌ، وأَسِن بكسر السين يأسَن بفتحها لغة أسنًا، قاله اليزيدي، وأَسِن الرجل بالكسر لا غير إذا دخل البئرَ فأصابته ريحٌ مُنتنة منها فَغُشي عليه أو دار رأسُه، ومنه قول الشاعر:

قد أترك القِرن مُصْفَرًّا أناملُه يميدُ في الرمح[١] ميدَ المائح الأسِن[٢]

وقرأ ابن كثير وأهلُ مكة: «أَسِنٍ» على وزن حَذِر[٣]، فهو صفةٌ مُشبَّهةٌ أو صيغةُ مبالغة، وقرئ: «يَسِنٍ» بالياء، قال أبو عليٍّ[٤]: وذلك على تخفيف الهمزة.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لم يحمض ولم يَصِرْ قارصًا ولا حاذرًا كألبان الدنيا، وتَغيُّر الريح لا يُفارق الطَّعم ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذة لهم، ليس فيها كراهةُ طَعْم وريح، ولا غائلةُ سُكر وخمار كخمور الدنيا، فإنها لا لَذَّةَ في نفس شُربها، وفيها من المكاره والغوائل ما فيها، وهي صفة مشبَّهة مؤنَّث لذٍّ، وُصفت بها الخمر لأنها مؤنَّثة وقد تذكَّر، أو مصدر نُعت به بتقدير مضاف، أو بجَعْلِها عينَ اللذة مبالغةً على ما هو المعروف في أمثال ذلك. وقُرئت بالرفع على أنها صفة «أنهار» وبالنصب على أنها مفعولٌ له[٥]، أي: كائنة لأجل اللذة لا لشيء آخر من الصّداع وسائر آفاتِ خمورِ الدنيا.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ مما يُخالفه، فلا يُخالطه الشَّمَع[٦] وفضلات النحل وغيرها، ووصفُه بـ «مصفًّى»؛ لأن الغالبَ على العسل التذكير، وهو مما يُذكَّر

---

(١) في الأصل و(م): الريح. والمثبت من المصادر. وجاء في هامش الأصل: رأيت في بعض النسخ: الرمح، بدل الريح.

(٢) البيت لزهير، وهو في شرح ديوانه ص١٢١، وروايته فيه:

يغادر القرن مصفرًّا أناملُه يميل في الرمح ميل المائح الأسن

القِرْن: كفؤك في الشجاعة. الصحاح (قرن). قال شارح الديوان: مصفرًّا أنامله: دنا موته فاصفرَّت أنامله، والمائح: الذي ينزل إلى أسفل البئر يملأ الدلو إذا قلَّ ماؤه.

(٣) التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.

(٤) الحجة للقراء السبعة ٦/ ١٩١.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٧٩.

(٦) في هامش الأصل: بفتح الميم، والعامة تسكّنها، وهو إمَّا لحنٌ أو لغة رديئة. قاله الخفاجي.

ويؤنَّث كما نصَّ عليه أبو حيان[1] وغيره، وهذا ـ على ما قيل ـ تمثيلٌ لما يجري مجرى الأشربة في الجنة بأنواع ما يُستطاب منها أو يستلذُّ في الدنيا، بالتخلية عمَّا ينقصها ويُنغِّصها، والتحلية بما يُوجب غَزارتها ودوامها.

وبُدئ بالماء لأنه في الدنيا مما لا يُستغنى عنه، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعم لكثير من العرب في كثير من أوقاتهم، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الرِّي والمطعوم تشوَّفت النفس إلى ما يُلتذُّ به، ثم بالعسل لأنَّ فيه الشفاءَ في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخِّر بالرُّتبة.

وجاء عن ابن عباس أن لبنَ تلك الأنهار لم يُحلَب، وقال سعيد بن جُبير: إنه لم يخرج من بين فَرْث ودم، وإنَّ خمرَها لم تَدُسها الرجالُ بأرجلها، وإن عسلَها لم يخرج من بطون النحل. وأخرج ابنُ جرير عن سعد قال: سألت أبا إسحاق عن قوله تعالى: «مِنْ ماء غير آسن» فقال: سألت عنه الحارث فحدَّثني أنَّ ذلك الماء تسنيم، وقال: بلغني أنه لا تمسُّه يدٌ وأنه يجيء الماء هكذا حتى يدخلَ الفم[2].

وفي حديثٍ أخرجه ابنُ مردويه عن الكلبي: أن نهر دِجلةَ نهر الخمر في الجنة، وأن عليه إبراهيمَ عليه السلام، ونهر جيحون نهر الماء فيها، ويقال له: نهر الربّ، ونهر الفرات نهر اللبن وأنه لِذُرِّيَّة المؤمنين، ونهر النيل نهر العسل[3].

وأخرج الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» والبيهقي عن كعب قال: نهرُ النيل نهرُ العسل، ونهرُ دجلة نهر اللبن، ونهر الفرات نهرُ الخمر، ونهر سيحان نهر الماء في الجنة[4].

وأنت تعلم أن المذكورَ في الآية لكلٍّ «أنهارٌ» بالجمع، والله تعالى أعلم بصحة

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٧٩.
(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٢٠٠.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٩.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٩، ومسند الحارث (١٠٤٢ - زوائد)، وأخرجه أيضاً الخطيب في تاريخ بغداد ١/ ٥٥.

هذه الأخبار ونحوها، ثم إنها إنْ صحَّت لا يبعدُ تأويلها، وإن كانت القُدرة الإلهية لا يتعاصاها شيء.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع ما ذكر من فنون الأنهار ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: أنواع من كلّ الثمرات، فالجارُّ والمجرور صفةُ مبتدأ مقدَّر، وقدَّره بعضُهم: زوجان، وكأنه انتزعه من قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقيل: «مِنْ» زائدةٌ، أي: ولهم فيها كلُّ الثمرات.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ خبره محذوفٌ، والجملة عطفٌ على الجملة السابقة، أي: ولهم مغفرة، وجُوِّز أنْ يكون عطفًا على المبتدأ قبلُ بدون قيد فيها؛ لأنَّ المغفرةَ قبل دخول الجنة، أو بالقيد والكلام على حذف مضاف، أي: ونعيمُ مغفرةٍ، أو جعل المغفرة عبارة عن أثرها وهو النعيم، أو مجازًا عن رضوان الله عز وجل.

وقد يقال: المراد بالمغفرة هنا سترُ ذنوبهم وعدمُ ذِكْرها لهم لئلا يستحوا فتتنغَّص لَذَّتُهم، والمغفرة السابقة سترُ الذنوب وعدم المُؤاخذة بها، وحينئذ العطفُ على المبتدأ من غير ارتكاب شيء مما ذكر. وقد رأيتُ نحو هذا بَعْدَ كتابته للطبرسي[(١)] مقتصرًا عليه، ولعله أَولى مما قالوه.

وتنوين: «مغفرة» للتعظيم أي: مغفرة عظيمة لا يُقادَر قدرها، وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ صفةٍ لها مؤكِّدةٍ لما أفاده التنكير من الفَخامة الذاتية بالفَخَامة الإضافية، أي: كائنةٌ من ربِّهم.

وقوله عز وجل: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: أَمَنْ هو خالد في هذه الجنة حَسْبَما جرى به الوعدُ كمَن هو خالدٌ في النار كما نطق به قوله تعالى: «والنار مثوى لهم». وجُوِّز أن يكون بدلًا من قوله سبحانه: «كمن زين له سوء عمله» وما بينهما اعتراضٌ لبيان ما يمتاز به مَن على بينة في الآخرة تقريرًا لإنكار المساواة، وفيه بُعْدٌ.

---

(١) مجمع البيان ٢٦/ ٣٥.

وذهب جارُ الله إلى أنه خبر «مَثَلُ الجنة» وأن ذاك مرتَّب على الإنكار السابق، أعني قوله تعالى: «أفمن كان» إلخ، والمعنى: أَمَثَلُ الجنة كمَثَل جزاء من هو خالدٌ في النار، فالمضافان محذوفان: الجزاء بقرينةِ مقابلة الجنة، ولفظ المَثَل بقرينة تقدُّمه، ومثله كثير. وفائدة التعرية عن حرف الإنكار أنَّ من اشتبه عليه الأول ـ أعني حال المتمسِّك بالبينة وحال التابع لهواه ـ فالثاني مثلُه عنده[1]، وإذ ذاك لا يستحقُّ الخطاب، ونظيرُ ذلك قولُ حضرمي بن عامر:

أفــــرحُ أنْ أُرْزَأَ الــــكــــرامَ وأنْ أُورَثَ ذودًا شـصـائـصًـا نَـبَـلا[2]

فإنه كلامُ منكرٍ للفرح برزية الكرام ووراثةِ الذُّود مع تعرِّيه من حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم من قال له: أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله؟! وذلك من التسليم الذي يقلُّ تحته كلُّ إنكار.

وجَعل قولَه تعالى: «فيها أنهار» كالتكرير للصلة ـ أي: صلة بعد صلة ـ يتضمَّن تفصيلَها لأنه كالتفصيل للموعود، ولهذا لم يتخلَّل العاطفُ بينهما، وجَوَّز أن يكون في موضع الحال على أنَّ الظرفَ في موضع ذلك، و«أنهار» فاعله، لا على أنه مبتدأ والظرفُ خبرٌ مقدَّم والجملة الاسمية حال لعدم الواو فيها، وقد صرَّحوا بأن الاكتفاء فيها بالضمير غيرُ فصيح، واعتبارها فعليَّة بتقدير متعلَّق الظرف استقرَّ لا يخفى حاله. وقيل: في الحال ضعفٌ من حيث المعنى لمجيئه مجيء الفضلات، وهي أُمُّ الإنكار، وأيضًا هو حالٌ من الجنة لا من ضميرها في الصلة، وفي العامل تكلُّف، ثم الحال غير مقيّدة، وجَعْلُها مؤكِّدةً وقد عُلم كونها كذلك من إخباره تعالى فيه أيضًا تكلُّف. وأن يكون[3] خبرَ مبتدأ محذوف والجملة استئنافٌ بياني، قال في «الكشف»: وهو الوجه، والتقدير: هي فيها

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٣٣: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصويرٍ لمكابرة مَن يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة مَن يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها الأنهار، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم.

(٢) سلف ١٨/ ٥١٧.

(٣) أي: وجوَّز (يعني الزمخشري) أن يكون. . . الكشاف ٣/ ٥٣٤.

أنهارٌ. وكأنه قيل: أنّى يكون صفةُ الجنة وهي كذا وكذا كصفة النار؟ فالاستئنافُ هاهنا بمنزلة قولك: وهي كذا وكذا، اعتراضًا لِمَا في لفظ المثل من الإشعار بالوصف العجيب، وليس خبر الجملة السابقة وهو «كمن هو خالد في النار» مَوْرِدَ السؤال ليعترض بوقوع الاستئناف قبل مُضِيِّه. وأُورد أنه لا حاجة إلى تقدير المبتدأ لأن «فيها أنهار» جملة برأسها. والجواب أن التقدير: مَثَلُها فيها أنهار، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه، فصار مرفوعًا، ثم حُذف، ولهذا قال في السؤال: كأنَّ قائلًا قال: وما مَثَلُها؟ ويجري ما قرّر في قراءة الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه: «أمثال» بالجمع فيقال: التقدير: أمثالُ الجنة كأمثالِ جزاء من هو خالد في النار، ويُقدَّر المضاف الأول جمعًا للمطابقة. ولعمري لقد أبعد جارُ الله المغزى، وقد استحسن ما ذكره كثيرٌ من المُحقِّقين؛ قال صاحب «الكشف» بعد تقرير جعل «كمن هو خالد» خبرًا لـ «مَثَلُ الجنة»: هذا هو الوجه اللائح المناسبُ للمساق.

وقال ابن المُنَيِّر: في «الانتصاف»[1] بعد نقله: كم ذكر الناسُ في تأويل هذه الآية، فلم أرَ أطلى ولا أحلى من هذه النُّكت التي ذكرها، ، لا يعوزها إلا التنبيه على أنَّ في الكلام محذوفًا ليتعادل، والتقدير: مثلُ ساكن الجنة كمن هو خالد في النار، ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] إلخ. وما قدَّرناه لتحصيل التعادل أولى وإنْ كان فيه كثرةُ حذف، فتأمَّل ذاك والله تعالى يتولَّى هداك.

والضمير المفرد ـ أعني «هو» ـ راجعٌ إلى «مَنْ» باعتبار لفظها كما أن ضمير الجمع في قوله سبحانه: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ راجعٌ إليها باعتبار معناها، والمراد: وسُقوا ماءً حارًّا مكانَ تلك الأشربة، وفيه تهكُّمٌ بهم.

﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ من فَرْطِ الحرارة، رُوي أنه إذا أُدنيَ منهم شوى وجوهَهم وامتازَتْ فروةُ رؤوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءهم، وهي جمع: معى

---

(١) ٣/ ٥٣٣ (بهامش الكشاف).

بالفتح والكسر[١]: ما ينتقل الطعام إليه بعد المعدة، ويقال له: عفاج[٢]، وهو مذكَّر وقد يُؤنَّث.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ كما أنَّ جمعه بعدُ باعتبار المعنى، قال ابن جُريج: كانوا يحضرون مجلسَ رسول الله ﷺ فيسمعون كلامَه ولا يَعُونه ولا يُراعونه حقَّ رعايته تَهاونًا منهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: لأُولي العلم من الصحابة ﷺ. وقيل: هم الواعون لكلامه عليه الصلاة والسلام الراعون له حقَّ رعايته من الصحابة ﷺ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: ما الذي قال قُبيل هذا الوقت، ومقصودهم من ذلك الاستهزاء وإنْ كان بصورة الاستعلام، وجُوِّز أن يكون مرادُهم حقيقةَ الاستعلام، إذ لم يُلقوا له آذانهم تهاونًا به ولذلك ذُمُّوا.. والأول أولى. قيل: قالوا ذلك لابن مسعود. وعن ابن عباس: أنا منهم، وقد سُميت فيمن سُئل[٣]، وأراد ﷺ أنه من الذين أُوتوا العلم بنصِّ القرآن، وما أحسن ما عبَّر عن ذلك.

و«آنفًا» اسمُ فاعل على غير القياس، أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يُسمع له فعلٌ ثلاثي، بل استأنف وائتنف، وذكر الزجَّاج[٤] أنه من استأنفتُ الشيء: إذا ابتدأته، وكأنَّ أصل معنى هذا: أخذت أنفه، أي: مبدأه. وأصلُ الأنف الجارحةُ المعروفة، ثم يُسمَّى به طرفُ الشيء ومُقدَّمه وأشرفه، وذكر غيرُ واحد أنَّ «آنفًا» من ذلك؛ قالوا: إنه اسمٌ للساعة التي قبلَ ساعتك التي أنت فيها، من الآنف بمعنى المتقدِّم، وقد استُعير من الجارحة لتقدُّمها على الوقت الحاضر، وقيل: هو بمعنى زمان الحال.

---

(١) يعني بفتح وكسر الميم، والعين تُفتح مع كسر الميم وتسكن مع فتحها. القاموس المحيط (معي).

(٢) كذا في الأصل و(م): عفاج، والصواب: أعفاج، وهو جمع عَفْج، وبالكسر والتحريك وككَتِف.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٤.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ١٠.

وهو على ما ذهب إليه الزمخشري(١) نصبٌ على الظرفية، ولا يُنافي كونه اسم فاعل كما في بادئ، فإنه اسمُ فاعل غُلِّب على معنى الظرفية في الاستعمال. وقال أبو حيان(٢): الصحيح أنه ليس بظرف، ولا نعلم أحدًا من النحاة عدَّه في الظروف، وأَوجبَ نَصْبَه على الحال من فاعل «قال»، أي: ماذا قال مبتدئًا، أي: ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه، وإلى ذلك يُشير كلامُ الراغب(٣).

وقرأ ابنُ كثير: «أَنِفًا» على وزن فَعِل(٤).

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فَعدِمَ توجُّههم(٥) نحو الخير ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ فتوجَّهوا نحو كلِّ ما لا خيرَ فيه، فلذلك كان منهم ما كان.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ إلى طريق الحقِّ ﴿زَادَهُمْ﴾ أي: الله عز وجل ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام، والموصول يحتمل الرفعَ على الابتداء والنصبَ بفعلٍ محذوف يُفسِّره المذكور، و«هدى» مفعولٌ ثانٍ، لأنَّ: زاد، قد يتعدَّى لمفعولين، ويحتمل أن يكون تمييزًا، والأول هو الظاهر، وتنوينه للتعظيم، أي: هدى عظيمًا.

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ أي: أعطاهم تقواهم إيَّاه جل شأنه، بأنْ خَلَقها فيهم بناءً على ما يقوله الأشاعرة في أفعال العباد، أو بأنْ خلقَ فيهم قُدرةً عليها مؤثِّرةً في فِعْلها بإذنه سبحانه على ما نسبه الكوراني إلى الأشعري، وسائرُ المحقِّقين في أفعال العباد من أنها بقدرةٍ خَلَقها الله تعالى فيهم مُؤثِّرة بإذنه تعالى، وقول بعضهم: بأن جعلهم جلَّ شأنه مُتَّقين له سبحانه، يمكن تطبيقُه على كلٍّ من القولين.

وقال البيضاوي(٦): أي: بيَّن لهم ما يتَّقون، أو: أعانهم على تقواهم، أو:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٩.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (أنف).
(٤) وهي غير المشهورة عنه. ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٧٩.
(٥) في تفسير أبي السعود ٨/ ٩٦: لعدم توجههم.
(٦) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٨/ ٤٦.

أعطاهم جزاءَها، فالإيتاء عنده مجازٌ عن البيان أو الإعانة، أو هو على حقيقته والتقوى مجازٌ عن جَزائها لأنها سببه، أو فيه مضافٌ مقدَّر، وليس في شيء من ذلك ما يأباه مذهبُ أهلِ الحقِّ. وذكر الزمخشري[1] الثاني والثالثَ من ذلك، واختار الطيبي الأول من هذين الاثنين، وقال: هو أوفقُ لتأليف النظم الكريم لأنَّ أغلبَ آيات هذه السورة الكريمة رُوعي فيها التقابلُ، فقوبل «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم» بقوله سبحانه: «والذين اهتدوا زادهم هدى» لأن الطَّبْع يحصل من تزايد الرين وترادف ما يزيد في الكفر، وقوله تعالى: «واتبعوا أهواءهم» بقوله جل وعلا: «وآتاهم تقواهم» فيحمل على كمال التقوى، وهو أن يتنزَّه العارف عمَّا يشغل سِرَّه عن الحقِّ، ويتبتَّل إليه سبحانه بشراشره، وهو التقوى الحقيقية المعنية بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فإن المزيدَ على مَزيد الهدى مَزيدٌ لا مَزيدَ عليه، وفي الترفُّع عن متابعة الهوى النزوعُ إلى المولى والعزوبُ عن شهوات الحياة الدنيا، ثم في إسناد إيتاء التقوى إليه تعالى وإسناد متابعة الهوى إليهم إيماءٌ إلى معنى قوله تعالى حكاية: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وتلويحٌ إلى أن متابعة الهوى مرض روحاني وملازمة التقوى دواءٌ إلهي. انتهى.

وما ذكره من التقابل جارٍ فيما ذكرناه أيضًا، وكذا يجري التقابل على تفسير إيتاء التقوى ببيان ما يتَّقون لإشعار الكلام عليه بأن ما هم فيه ليس من ارتكاب الهوى والتشهِّي، بل هو أمرٌ حقٌّ مبنيٌّ على أساس قوي، وتفسير ذلك بإعطاء جزاء التقوى مَرويٌّ عن سعيد بن جبير وذهب إليه الجُبَّائي، والكلامُ عليه أفيدُ وأَبعدُ عن التأكيد من غير حاجة إلى حمل التقوى على أعلى مراتبها، وأمر التقابل هيِّنٌ، فإنه قد يقال: إن قوله تعالى: «اهتدوا» في مقابلة «اتبعوا أهواءهم» وقوله سبحانه: «زادهم هدى» في مقابلة «طبع الله على قلوبهم»، فليتدبَّر.

وقيل: فاعل «زادهم» ضمير قوله ﷺ المفهوم من قوله تعالى: «ومنهم من يستمع إليك» وقولِه سبحانه: «ماذا قال آنفًا»، وكذا فاعل «آتاهم» أي: أعانهم أو بيَّن لهم، والإسنادُ مجازيٌّ. ولا يخفى أنه خلافُ الظاهر، وأيضًا إذا كان قوله

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٤.

تعالى: «زادهم هدى» في مقابلة قوله سبحانه: «طبع الله على قلوبهم» فالأولى أن يتَّحدَ فاعلُه مع فاعله ويجري نحو ذلك على ما قاله الطيبي لئلا يلزم التفكيك.

وجُوِّز أن يكون ضميرًا عائدًا على قول المنافقين فإن ذلك مما يَعجَبُ منه المؤمن فيحمد الله تعالى على إيمانه، ويَزيد بصيرة في دينه. وهو بعيدٌ جدًّا، بل لا يكاد يُلتفَتُ إليه.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة، وقوله تعالى: ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ - أي: تُباغتهم بغتة، وهي المفاجأة - بدلُ اشتمالٍ من «الساعة»، أي: لا يتذكَّرون بأحوال الأمم الخالية ولا بالأخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأحوال، فما ينتظرون للتذكر إلا إتيان الساعة نفسها.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ - أي: علاماتها وأماراتها، كما في قول أبي الأسود الدُّؤلي:

فإنْ كنتَ قد أزمعتَ بالصَّرم بيننا ... فقد جَعَلَتْ أشراطُ أوَّلِهِ تبدو[1]

وهي جمع شَرَط بالتحريك - تعليل لمفاجأتها، على معنى أنه لم يَبْقَ من الأمور المُوجبة للتذكُّر أمرٌ مترقَّب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة؛ إذ قد جاء أشراطُها فلم يرفعوا لها رأسًا ولم يعدُّوها من مبادئ إتيانها، فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة، كذا في «إرشاد العقل السليم»[2].

وظاهر كلام «الكشاف»[3] أنه تعليلٌ للإتيان مطلقًا، أي: ما ينتظرون إلا إتيان الساعة لأنه قد جاء أشراطُها، وبعد مجيئها لا بدَّ من وقوع الساعة، وتعليلُ المقيَّد دون قيدِه لا يخلو عن بُعد، قيل: ويُقرِّبه هنا أنَّ انتظارَهم ليس إلا لإتيان الساعة، وتقييده بـ «بغتة» ليس إلا لبيان الواقع.

وقال بعض المحققين: هو تعليلٌ لانتظار الساعة؛ لأن ظهورَ أمارات الشيء

(١) الأغاني ١٢/ ٣٣٤، والكشاف ٣/ ٥٣٥، والصرم: الهجران. اللسان (صرم).
(٢) وهو تفسير أبي السعود ٨/ ٩٧.
(٣) ٣/ ٥٣٥.

سببٌ لانتظاره، وفي جعله تعليلًا للمفاجأة خَفاءٌ لأنها لا تناسب مجيء الأشراط إلا بتأويل، وأنت تعلم أن البدلَ هو المقصودُ فالانتظار لإتيان الساعة بغتةً، فالتعليل المذكور تعليلٌ للمقيَّد دون قيده أيضًا، فكان ما في «الإرشاد» متعيِّنٌ وإن كان فيه نوعُ تأويل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾ على ما أفاده بعضُ الأجلة تعجيبٌ من نفع الذكرى عند مجيء الساعة وإنكارٌ لعدم تشمُّرهم لها ولانتظارهم إياها هُزءاً وجحودًا، وفي «الإرشاد»[1]: وقوله تعالى: «فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» حكمٌ بخطئهم وفسادِ رأيهم في تأخير التذكُّر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكُّر حينئذٍ كقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣] أي: فكيف لهم ذِكراهم؟ على أنَّ «أنى» خبرٌ مقدَّم، و«ذكراهم» مبتدأ، و«إذا جاءتهم» اعتراضٌ وُسِّطَ بينهما رمزًا إلى غاية سُرعة مجيئها، وإطلاقُ المجيء عن قيد البغتة لما أنَّ مدارَ استحالة نفع التذكُّر كونُه عند مجيئها مطلقًا لا مقيدًا بقيد البغتة.

وقيل: «أنى» خبرٌ مقدَّم لمبتدأ محذوف، أي: فأنى لهم الخَلاص إذا جاءتهم الذِّكرى بما يُخبَرون به فينكرونه منوطةً بالعذاب. ولا يخفى حاله.

وقرأ أبو جعفر الرُّؤاسي عن أهل مكة: «إنْ تَأْتِهم»[2] على أنه شرطٌ مستأنفٌ، جزاؤه: «فأنى لهم» إلخ، أي: إنْ تأتهم الساعةُ بغتةً إذْ قد جاء أشراطُها فأنَّى تنفعهم الذِّكرى وقتَ مجيئها، و«إن» هنا بمعنى «إذا»، لأن إتيانَ الساعة متيقَّن، ولعلَّ الإتيان بها للتعريض بهم، وأنهم في رَيْبٍ منها، أو لأنها لِعدم تعيين زمانها أشبهت المشكوكَ فيه، وإذا جاءتهم باعتبار الواقع فلا تعارضَ بينهما كما يُتوهم في النظرة الحمقاء.

وفي «الكشف»: «إذا» على هذه القراءة لمجرَّد الظرفية لئلا يلزم التمانع بين: «إذا جاءتهم» و«إن تأتهم»، وفي الإتيان بـ «إنْ» مع الجزم بالوقوع تقويةُ أمرِ التوبيخ والإنكار كما لا يخفى. انتهى. وعلى ما ذكرنا لا يحتاج إلى جعل «إذا» لمجرَّد الظرفية.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ٩٧.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٠، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٦٦.

وقرأ الجعفي وهارون عن أبي عمرو: «بَغَتَّةً» بفتح الغين وشدِّ التاء[١]. قال صاحب «اللوامح»: وهي صفةٌ وانتصابها على الحال، ولا نظير لها في المصادر ولا في الصفات، بل في الأسماء نحو الجَرَبَّة - وهي القطيع من حُمر الوحش، وقد يُسمَّى الأقوياء من الناس إذا كانوا جماعةً متساوين: جَرَبَّة - والشَّرَبَّة، وهي اسمُ موضع، وكذا قال أبو العباس بن الحاج من أصحاب أبي علي الشلوبين في كتابه: «المصادر».

وقال الزمخشري[٢]: وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصوابُ: «بَغَتة» بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدَّم.

وتعقَّبه أبو حيان[٣] بأن هذا على عادته في تغليط الرواة.

والظاهر أن المرادَ بأشراط الساعة هنا علاماتُها التي كانت واقعةً إذ ذاك، وأُخبروا أنها علاماتٌ لها كبعثة نبينا ﷺ، فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى[٤]. وأراد عليه الصلاة والسلام مَزيد القُرب بين مبعثه والساعة، فإن السبابة تقربُ من الوسطى طولًا فينا، وهكذا فيه ﷺ، وزعمُ بعضِهم أنَّ أمر الطول والقِصَر في وسطاه وسبابته عليه الصلاة والسلام على عَكْس ما فينا خطأٌ لا يُلتفت إليه إلا أنْ يكون أراد ذلك في أصابع رجليه الشريفة ﷺ.

وأخرج أحمد عن بُريدة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بُعثت أنا والساعة جميعًا وإن كادتْ لتسبقني»[٥]، وهذا أبلغُ في إفادة القُرب، وعدُّوا منها انشقاقَ القمر الذي وقع له ﷺ، والدخانَ الذي وقع لأهل مكة.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٧١، والبحر ٨/ ٨٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٠.

(٤) مسند أحمد (١٢٢٤٥)، وصحيح البخاري (٦٥٠٤)، وصحيح مسلم (٢٩٥١): (١٣٥)، وسنن الترمذي (٢٢١٤)، وفي الباب عن عدد من الصحابة. تنظر في حاشية مسند أحمد.

(٥) مسند أحمد (٢٢٩٤٧).

وأما أشراطُها مطلقًا فكثيرةٌ أُلِّفت فيها كتبٌ مختصرة ومطولة، وهي تنقسم إلى:

مضيقة لا تبقى الدنيا بعد وقوعها إلا أيسرَ يسير، كخروج المهدي ﷺ على ما يقول أهلُ السنة دون ما يقوله الشيعة القائلون بالرجعة، فإن الدنيا عندهم بعد ظهوره تبقى مدةً معتدًّا بها، وكنزولِ عيسى عليه السلام، وخروجِ الدجَّال، وطلوعِ الشمس من مغربها، وخروج الدابَّة، وغير ذلك.

وغير مضيقة: وهي أكثرُ الأشراط، ككون الحُفاة الرُّعاة رؤوسَ الناس، وتطاولهم في البنيان، وفُشُوِّ الغِيبة، وأكل الربا، وشُرب الخمر، وتعظيم ربِّ المال، وقلَّة الكرام، وكَثْرة اللِّئام، وتباهي الناس في المساجد واتِّخاذها طرقًا، وسوء الجوار، وقطيعة الأرحام، وقلَّة العلم، وأنْ يُوسَّد الأمرُ إلى غير أهله، وأنْ يكون أسعدُ الناس بالدنيا لُكَعَ بن لكع، إلى ما يطول ذِكْرُه.

ومن وقف على الكتب المُؤلَّفة في هذا الشأن واطَّلع على أحوال الأزمان رأى أنَّ أكثرَ هذه العلاماتِ قد بَرزتْ للعِيان، وامتلأت منها البلدان، ومع هذا كلِّه أمرُ الساعة مجهول ورداءُ الخَفاء عليه مَسدول، وقُصارى ما ينبغي أن يقال: إن ما بقي من عمر الدنيا أقلُّ قليل بالنسبة إلى ما مضى.

وفي بعض الآثار أنه عليه الصلاة والسلام خطب أصحابه بعد العصر حين كادت الشمس تغرب ولم يبقَ منها إلا شِفٌّ[(١)] - أي: شيء - فقال: «والذي نفسُ محمد بيده، ما مَثَلُ ما مضَى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثلُ ما مضى من يومِكم هذا فيما بقي منه، وما بقي منه إلا اليسير»، ولا ينبغي أن يقال: إن الألف الثانية بعد الهجرة، وهي الألف التي نحن فيها هي ألفٌ مخضرمة، أي: نصفُها من الدنيا ونصفُها الآخر من الآخرة.

---

(١) في الأصل و(م): أسف. والمثبت من مصادر التخريج والنهاية لابن الأثير (شفف). والخبر أخرجه البزار كما ذكر ابن كثير عند تفسير الآية الأولى من سورة القمر، والطبري في تاريخه ١/ ١١-١٢، والضياء في المختارة ٧/ ١٢١ من حديث أنس ﷺ. وورد عند الطبري: شقّ، بدل: شفّ.

وقال الجلال السيوطي في رسالة سمَّاها: «الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف»[١]: الذي دلَّت عليه الآثارُ أن مدَّة هذه الأمة تزيدُ على ألف سنة، ولا تبلغ الزيادة عليها ألف سنة. وبنى الأمر على ما ورد من أن مدَّة الدنيا سبعةُ آلافِ سنة، وأن النبيَّ ﷺ بُعث في آخر الألف السادسة، وأنَّ الدجال يخرجُ على رأس مئة، وينزل عيسى عليه السلام فيقتله، ثم يمكثُ في الأرض أربعين سنة، وأن الناسَ يمكُثون بعد طلوع الشمس من مغربها مئة وعشرين سنة، وأن بين النفختين أربعين سنة، وذكر الأحاديث والأخبار في ذلك.

وفي «بهجة الناظرين وآيات المستدلين»[٢]: قد احتجَّ كثيرٌ من العلماء على تعيين قُرب زمانها بأحاديثَ لا تخلو عن نَظَر، فمنهم من قال: بقي منها كذا، ومنهم من قال: يخرجُ الدجَّال على رأس كذا، وتطلعُ الشمسُ على رأس كذا، وأفرد الحافظ السيوطي رسالةً لذلك كلِّه، وقال: تقوم الساعةُ في نحو الألف والخمس مئة. وكلُّ ذلك مردودٌ، وليس للمتكلِّمين في ذلك إلا ظنٌّ وحسبان لا يقوم عليه من الوحي برهان. انتهى، ونقله السفاريني في «البحور الزاخرة في علوم الآخرة».

وذكر السيوطي عِدَّةَ أخبار في كون مدَّة الدنيا سبعة آلاف سنة، أولها ما أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنما الشفاعة يومَ القيامة لمن عَمِلَ الكبائرَ من أُمتي ثم ماتوا عليها، فهم في الباب الأول من جهنم» وساق بقيةَ الحديث، وفيه: «وأطولهم مُكثًا فيه من يمكثُ فيها مثلَ الدنيا منذ خلقت إلى يوم أُفنيت، وذلك سبعةُ آلاف سنة» الحديث[٣]، وتعقَّبه السفاريني بقوله: ذكر الحافظ ابنُ رجب في كتابه «صفة النار» أنَّ هذا الحديث

---

(١) وهي ضمن كتاب الحاوي للفتاوي ٢/ ١٦٨، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

(٢) لمؤلفه مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي ـ نسبة إلى طور كرم ـ أحد أكابر علماء الحنابلة انتقل إلى القاهرة، وتوفي فيها سنة (١٠٣٣هـ). خلاصة الأثر ٤/ ٣٥٨.

(٣) نوادر الأصول ص١٣٩.

خرَّجه ابنُ أبي حاتم وغيره، وخرَّجه الإسماعيلي مطولًا، وقال الدارقطني في كتاب «المختلف»: هو حديث منكرٌ، وذكر علله[١].

ومما ذكره السيوطي في ذلك ما نَقَل هو ضَعْفَ إسنادِ رَفْعِه.

وقد يَرِدُ عليه بأنه قد مضى من زمن البعثة إلى يومنا هذا ألفٌ ومئتان وثمانٍ وستون سنة، وإذا ضُمَّ إليها ما ذكره من سِني مُكْثِ عيسى عليه السلام وبقاء الدنيا بعد طلوع الشمس من مغربها وما بين النفختين، وهي مئتا سنة، تصير ألفًا وأربعَ مئة وثمانٍ وسبعين، فيبقى من المدة التي ذكرها اثنتان وعشرون سنة، وإلى الآن لم تطلع الشمسُ من مَغْربها، ولا خرج الدجال الذي خروجه قبل طلوعها من مغربها بعدة سنين، ولا ظهرَ المهديُّ الذي ظهوره قبل الدجَّال بسبع سنين، ولا وقعت الأشراطُ التي قبلَ ظُهور المهدي، ولا يكاد يقال: إنه يظهر بعد خمس عشرة سنة ويظهر الدجال بعدَها بسبع سنين على رأس المئة الثالثة من الألف الثانية؛ لأن قبل ذلك مقدِّمات تكون في سنين كثيرة.

فالحقُّ أنه لا يعلم ما بقي من مدة الدنيا إلا اللهُ عز وجل، وأنه ـ وإنْ طال ـ أقصرُ قصير، وما متاع الحياة الدنيا إلا قليل، وكذا فيما أرى مبدأ خَلْقها لا يعلمه إلا الله تعالى، وما يذكرونه في المبدأ لو صحَّ فإنما هو في مبدأ خَلْق الخليفة آدم عليه السلام لا مبدأ خلق السماء والأرض والجبال ونحوها.

وحكى الشيخ محيي الدين قُدِّس سرُّه عن إدريس عليه السلام ـ وقد اجتمع معه اجتماعًا روحانيًا وسأله عن العالم ـ أنه قال: نحن معاشرَ الأنبياء نعلم أن العالم حادثٌ، ولا نعلم متى حدث.

والفلاسفة على المشهور يزعُمون أنَّ من العالم ما هو قديمٌ بالشخص وما هو قديمٌ بالنوع، مع قولهم بالحدوث الذاتي ولا يدَّثر عندهم.

وذهب الملا صدر الشيرازي أنهم لا يقولون إلا بقدمِ العقول المجرَّدة دون

(١) التخويف من النار لابن رجب ص١٨٩.

عالم الأجسام مطلقًا، بل هم قائلون بحدوثها ودثورها، وأطال الكلام على ذلك في الأسفار، وأتى بنصوص أَجِلَّتهم كأرسطو وغيره.

وحكى البعضُ عنهم أنه خلقَ هذا العالم الذي نحن فيه وهو عالم الكون والفساد والطالع السنبلة، ويدثر عند مُضي ثمانية وسبعين ألف سنة، وذلك عند مُضي مدة سلطان كلٍّ من البروج الاثني عشر ووصول الأمرِ إلى برج الميزان، وزعموا أن مدةَ سلطان الحَمَل اثنا عشر ألف سنة، ومدة سلطان الثور أقلُّ بألف، وهكذا إلى الحوت.

ونقل البكري عن هرمس أنه زعم أنه لم يكن في سلطان الحمل والثور والجوزاء على الأرض حيوان، فلما كان سلطانُ السرطان(١) تكوَّنت دوابُّ الماء وهوامُّ الأرض، فلما كان سلطانُ الأسد تكوَّنت الدوابُّ ذواتُ الأربع، فلما كان سلطانُ السنبلة تولَّد الإنسانان الأولان آدمانوس وحوانوس، وزعم بعضُهم أن مدةَ العالم مقدار قطع الكواكب الثابتة لدرج الفلك التي هي ثلاث مئة وستون درجة، وقطعها لكلٍّ درجة على قول كثير منهم في مئة سنة، فتكون مدته ستًّا وثلاثين ألف سنة، وكلُّ ذلك خبطٌ لا دليلَ عليه.

ومن أعجب ما رأيتُ ما زعمه بعضُ الإسلاميين من أن الساعة تقومُ بعد ألف وأربع مئة وسبع سنين أخذًا من قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ وقوله سبحانه: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧] بناء على أن عدة حروف «بغتة» بالجُمَّل الكبير ألفٌ وأربع مئة وسبع، ويُوشك أن يقول قائلٌ: هي ألفٌ وثمان مئة واثنان، وبحسب تاء التأنيث: أربع مئة لا خمسة، فإنه رأي بعض أهل الحساب كما في فتاوى خير الدين الرَّملي، ويجيء آخر ويقول: هي أكثرُ من ذلك أيضًا، ويعتبر بسط الحروف على نحو ما قالوا في اسم محمد ﷺ إنه مُتضمِّن عدَّة المرسلين عليه السلام، وأنت تعلم أن مثلَ ذلك مما لا ينبغي لعاقل أن يُعوِّل عليه، أو يلتفتَ إليه، والحزم الجزمُ بأنه لا يعلم ذلك إلا اللطيف الخبير.

---

(١) في الأصل و(م): الأسد، والمثبت مما سلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مسبَّبٌ عن مجموع القصة من مُفتتح السورة لا عن قوله تعالى: «فهل ينظرون»، كأنه قيل: إذا علمتَ أن الأمرَ كما ذكر من سعادةِ هؤلاء وشقاوةِ هؤلاء فاثْبُتْ على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، فهو من مُوجبات السعادة، وفسِّر الأمر بالعلم بالثَّبات عليه لأنَّ علمَه ﷺ بالتوحيد لا يجوز أن يترتَّب على ما ذكره سبحانه من الأحوال، فإنه عليه الصلاة والسلام مُوحِّد عن علم حال ما يُوحى إليه، ولأن المعنى: فتمسَّكْ بما أنت فيه من مُوجبات السعادة لا بطلب السعادة.

وقال بعضُ الأفاضل: إنَّ الثَّبات أيضًا حاصلٌ له عليه الصلاة والسلام، فأَمْرُه بذلك ﷺ تذكيرٌ له بما أنعم الله تعالى عليه توطئةً لما بعدَه. وتُعُقِّب بأنَّ المرادَ بالثَّبات الاستمرارُ، وهو بالنظر إلى الأزمنة الآتية، وذلك وإنْ كان مما لابدَّ من حُصوله له عليه الصلاة والسلام لمكان العِصمة، لكن المعصوم يُؤمَر ويُنهى، فيأتي بالمأمور ويترك المنهي، ولا بدَّ للعصمة.

والأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ قيل: على معنى الثَّبات أيضًا، وجعل الاستغفار كنايةً عمَّا يلزمه من التواضع وهَضْمِ النفس والاعتراف بالتقصير لأنه ﷺ معصومٌ أو مغفورٌ لا مصرٌّ ذاهلٌ عن الاستغفار.

وقيل: التحقيق أنه توطئة لما بعده من الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات.

ولعلَّ الأولى إبقاؤه على الحقيقة من دون جعله توطئةً، والنبيُّ ﷺ كان يُكثر الاستغفار، أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان عن الأغرِّ المُزَني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه لَيُغان على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ كلَّ يوم مئة مرة»[1]، وأخرج النسائي وابن ماجه وغيرهما عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصبحتُ غداةً قطُّ إلا استغفرتُ اللهَ فيها مئةَ مرة»[2]، وأخرج

---

(١) مسند أحمد (١٧٨٤٨)، وصحيح مسلم (٢٧٠٢)، وسنن أبي داود (١٥١٥)، وعمل اليوم والليلة للنسائي (٤٤٣)، وصحيح ابن حبان (٩٣١).

(٢) سنن النسائي الكبرى (١٠٢٠٢)، وسنن ابن ماجه (٣٨١٦)، ولفظ ابن ماجه: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة». وهو في مسند أحمد (١٩٦٧٢).

أبو داود والترمذي ـ وصحَّحه ـ والنسائي وابن ماجه وجماعة عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: إنَّا كنَّا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: «ربِّ اغفِرْ لي وتُبْ عليَّ، إنك أنت التوابُ الرحيم» مئة مرة. وفي لفظ: «التوَّاب الغفور»[1] إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحة.

والذنبُ بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام تركُ ما هو الأَوْلى بمنصبه الجليل، ورُبَّ شيء حسنة من شخص سيئة من آخر، كما قيل: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المُقرَّبين؛ وقد ذكروا أنَّ لنبينا ﷺ في كلِّ لحظة عروجًا إلى مقامٍ أعلى مما كان فيه، فيكون ما عَرَجَ منه في نَظَره الشريف ذنبًا بالنسبة إلى ما عَرَجَ إليه فيستغفر منه، وحملوا على ذلك قولَه عليه الصلاة والسلام: «إنه لَيُغان على قلبي» الحديثَ، وفيه أقوالٌ أُخَر.

وقوله تعالى: «وللمؤمنين» على حذف مُضاف بقرينة ما قبلُ، أي: ولذنوبِ المؤمنين. وأُعيد الجارُّ؛ لأن ذنوبَهم جنسٌ آخرُ غير ذَنْبه عليه الصلاة والسلام، فإنها معاصٍ كبائر وصغائر، وذَنْبه ﷺ تركُ الأَولى بالنسبة إلى منصبه الجليل، ولا يبعدُ أن يكونَ بالنسبة إليهم من أجلِّ حسناتهم.

قيل: وفي حذف المُضاف وتعليق الاستغفار بذواتهم إشعارٌ بفرط احتياجهم إليه، فكأنَّ ذواتهم عينُ الذنوب، وكذا فيه إشعارٌ بكثرتها.

وجوَّز بعضُهم كونَ الاستغفار للمؤمنين بمعنى طلب المغفرة لهم وطلب سببها كأمرهم بالتقوى، وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع أنَّ في صحته كلامًا، فالظاهر إبقاء اللفظِ على حقيقته.

وفي تقديم الأمر بالتوحيد إيذانٌ بمزيد شَرَف التوحيد، فإنه أساسُ الطاعات ونبراس العبادات. وفي الكلمة الطيبة أبحاثٌ شريفة ولطائفُ مُنيفة لا بأس بذكر بعضها وإنْ تقدَّم شيء من ذلك، فنقول: المشهورُ أنَّ «إلا» للاستثناء، والاسم

---

(١) سنن أبي داود (١٥١٦)، وسنن الترمذي (٣٤٣٤)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٢١٩)، وسنن ابن ماجه (٣٨١٤)، وأخرجه أحمد (٤٧٢٦).

الجليل بدلٌ من محلِّ اسم «لا» النافية للجنس، وخبر «لا» محذوف، واستُشكل الإبدال من جهتين: أُولاهما أنه بدلُ بعض، وليس معه ضميرٌ يعود على المُبدل منه، وهو شرطٌ فيه. وأُجيب بمنع كونه شرطًا مطلقًا، بل هو شرطٌ حيث لا تُفهم البعضية بقرينةٍ، وهاهنا قد فُهمت بقرينة الاستثناء. ثانيتهما: أن بين المُبدَل منه والبدل مخالفةً، فإنَّ الأولَ منفيٌّ والثاني مُوجب.

وأجاب السيرافي بأنه بدلٌ عن الأول في عمل العامل، والتخالفُ نفيًا وإيجابًا لا يمنع البدلية؛ لأن مذهب البدل أن يجعل الأول كأنه لم يذكر، والثاني في موضعه، وقد تتخالف الصفةُ والموصوف في ذلك نحو: مررتُ برجل لا كريم ولا لبيب، على أنه لو قيل: إنَّ البدلَ في الاستثناء قِسمٌ على حياله مُغايرٌ لغيره من الأبدال، لكان له وجه.

واستُشكل أمرُ الخبر بأنه إنْ قُدِّر «مُمكنٌ» يلزم عدمُ إثباتِ الوجود بالفعل للواحد الحقيقي تعالى شأنه، أو «موجودٌ» يلزم عدمُ تنزيههِ تعالى عن إمكان الشَّركة، وتقدير خاصّ مناسبٍ لا قرينةَ عليه، قيل: ولصعوبة هذا الإشكال ذهب صاحب «الكشاف» وأتباعُه إلى أن الكلمة «لا» غيرُ محتاجة إلى خبر، وجَعَلَ «إلا الله» مبتدأ و«لا إله» خبره، والأصل: اللهُ إلهٌ، أي: معبودٌ بحقٍّ، لكنْ لمَّا أُريد قصرُ الصفة على الموصوف قُدِّم الخبر وقُرن المبتدأ بـ «إلا»، إذ المقصورُ عليه هو الذي يلي «إلا»، والمقصور هو الواقع في سياق النفي، والمبتدأ إذا اقترن بـ «إلا» وجب تقديمُ خبره.

وتُعقِّب بأنه مع ما فيه من التمحُّل يلزم منه بناءُ الخبر مع «لا»، وهي لا يُبنى معها إلا المبتدأ، وأيضًا لو كان الأمر كذلك لم يكن لنصبِ الاسم الواقع بعدَها وجهٌ، وقد جوَّزه جماعة.

وقال بعضُ الأفاضل: إن «لا إله إلا الله» على هذا المذهب قضيةٌ معدولة الطرفين بمنزلة: غير الحي لا عالم، بمعنى: الحي عالم، ولا يدفع الاعتراض كما لا يخفى.

وقال بعضهم: إن الخبر هو «إلا الله» أعني «إلا» مع الاسم الجليل. وأُورد عليه أن الجنسَ مُغاير لكلٍّ من أفرادِه فكيف يصدقُ حينئذ سلبُ مغايرة فردٍ عنه، اللهم إلا أن يقال: إنَّ ذلك بناءً على تضمين معنى «من»، وأن المفهوم منه أنه انتفى من هذا الجنس غير هذا الفرد، والوجه ـ كما قيل ـ أن يقال: إن المُغايرةَ المنفيَّة هي المغايرةُ في الوجود لا المغايرةُ في المفهوم حتى لا يصدق، ولا شكَّ أن المرادَ من الجنس المنفيِّ بـ «لا» هذه هو المفهوم من غير اعتبار حصوله في الأفراد كلِّها أو بعضها، فيكون محمولًا لا بمعنى اعتبار عدم حصوله فيها أصلًا حتى لا يصح حملُه؛ إذْ لا يلزم من عدمِ اعتبار شيء اعتبارُ عَدَمِهِ، ومتى تحقَّق الحمل تحقَّق عدمُ المُغايرة في الوجود، فتدبَّره.

وقال بعضهم: لا خبر لـ «لا» هذه أصلًا على ما قاله بنو تميم فيها. وأُورد عليه أنه يلزم حينئذ انتفاء الحكم والعقد، وهو باطلٌ قطعًا ضرورةَ اقتضاء التوحيد ذلك.

ولا يبعد أن يقال: إنَّ القولَ بعدم احتياج «لا» إلى الخبر لا يُخرج المركَّب منها ومن اسمها عن العقد، وذلك لأن معنى المركب نحو: لا رجل، على هذا التقدير انتفى هذا الجنسُ، فإذا قلنا: لا رجلَ إلا حاتمٌ، كان معناه: انتفى هذا الجنس في غير هذا الفرد. ويَخدِشُه أنَّ تركُّب الكلام من الحرف والاسم مما ليس إليه سبيل، وربما يدفعُ بما قيل في النداء مثل: يا زيد، من أنه قائمٌ مقام: ادعوه، والشريف العلَّامة قُدِّس سرُّه صرَّح في بيان ما نقل عن بني تميم من عدم إثبات خبر «لا» هذه بأنه يحتمل أن يكونَ بناءً على أن المفهوم من التركيب كما ذُكر آنفًا انتفاءُ هذا الجنس.

ثم إن كلمةَ «إلا» على هذا التقدير بمعنى «غير»، ولا مجال لكونها للاستثناء، لا لما يُتوهَّم من التناقض بناءً على أن سَلْبَ الجنس عن كلِّ فردٍ فرد يُنافي إثباته لواحد من أفراده، فإنه مدفوعٌ بنحو ما اختاره نجم الأئمة[1] في دفع التناقض المتوهَّم في مثل: ما قام القومُ إلا زيدًا، لوجوب شمول القوم المنفيِّ عنهم الفعلُ

(١) هو رضي الدين الأَستراباذي، كما جاء عند تفسير الآية (١٣٣) من سورة النساء.

لزيد المثبت هو له فيما يتبادر، بأن يقال: إن الجنسَ الخارج عنه هذا الفرد منتفٍ في ضمن كلِّ ما عداه، ولا لِمَا قد يُتوهَّم من عدم تناول الجنس المنفي لما هو بعد «إلا» وهو شرطُ الاستثناء لِمَا عرفت من الفرق بين الجنس بدون اعتبار حصوله في الأفراد وبينه مع اعتبار عدمِ حصوله فيها = بل لأنها لو كانت للاستثناء لما أفاد الكلامُ التوحيدَ؛ لأنه يكون حاصله حينئذ أن هذا الجنس على تقدير عدمِ دخول هذا الفرد فيه منتفٍ، فيفهم منه عدمُ انتفائه في أفراد غير خارج عنها ذلك الفرد، فأين التوحيد، فالواجب حملُها على معنى «غير» وجعلها تابعةً لمحلِّ اسم «لا» بدلًا عنه، أو صفة كما في قوله:

وكلُّ أخٍ مُفارقُه أخوه لعَمْرُ أبيكَ إلا الفرقدان[1]

كذا رأيته في بعض نسخٍ قديمة، وذكره بعضُ شيوخ مشايخنا العلامة الطبقجلي[2] في رسالته «شرح الكلمة الطيبة» ولم يتعقَّبه بشيء، وعندي أن ما ذكر في نفي كون «إلا» للاستثناء على ذلك التقدير لا يخلو عن نظر.

ثم إنه قيل: إذا كان مضمون المركَّب على ذلك التقدير أنَّ هذا الجنس مُنتفٍ فيما عدا هذا الفرد كانت القضية شخصيةً، ولها لازمٌ هو قضية كلية، أعني قولنا: كلّ ما يُعتبر فردًا له سوى هذا الفرد فهو مُنتفٍ، ولا استبعاد في شيء من ذلك.

وذهب الكثيرُ إلى تقدير الخبر: موجودٌ، وأجاب عن الإشكال بأنه يلزم نفي الإمكان العامِّ من جانب الوجود عن الآلهة غير الله تعالى، وذلك مبنيٌّ على مقدمة قطعيةٍ معلومةٍ للعقلاء هي أن المعبودَ بالحقِّ لا يكون إلا واجبَ الوجود، فيصير المعنى: لا معبودَ بحقٍّ موجودٌ إلا اللهُ، وإذْ ليس موجودًا ليس مُمكنًا لأنه لو كان ممكنًا لكان واجبًا بناءً على المقدِّمة القطعية فيكون موجودًا، وقد أفادت الكلمة الطيبة أنه ليس بموجود فليس بممكن؛ لأن نفي اللازم يدلُّ على نفي الملزوم.

واعترض بأنَّ المقدمة القطعية وإنْ كانت صحيحةً في نفس الأمر لكنها غير

---

(١) البيت نسب لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٣/ ٣٧٠.

(٢) هو محمد سعيد بن محمد أمين البغدادي الحنفي، توفي سنة (١٢٧٣هـ). هدية العارفين ٦/ ٣٧٤.

مسلَّمة عند المشركين؛ لأنهم يعبدون الأصنام ويعتقدونها آلهةً مع اعترافهم بأنها ممكنةٌ محتاجةٌ إلى الصانع ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فيمكن أنْ يعترفَ المكلَّف بالكلمة الطيبة ويعتقد أنَّ نفي الوجود لا يستلزم نفي الإمكان، فيمكن عنده وجودُ آلهة غير الله تعالى، فلا يكون التلفُّظ بالكلمة نصًّا على إيمانه. ولو كانت المقدِّمة المذكورة مسلَّمةً عند الكلِّ لأمكن أن يقدَّر الخبرُ من أول الأمر: موجود بالذات، أي: لا إلهَ موجودٌ بالذات إلا الله، وإذا لم يكن غيره تعالى موجودًا بالذات لم يكن مستحقًّا للعبادة لأن المستحقَّ لها لا يكون إلا واجبًا لذاته.

وقد قُرِّر الجوابُ بوجهين آخرين:

الأول: أنَّ لا إله موجودٌ، قضيةٌ سالبة حملية لا بدَّ لها من جهة، وهي الإمكان العامُّ، فيكون المعنى أن الجانبَ المخالفَ للسلب - وهو إثباتُ الوجود - ليس ضروريًّا للآلهة إلا الله تعالى، فإنه موجودٌ بالإمكان العامِّ، أي: جانب السلب ليس ضروريًّا له تعالى، فيكون الوجود ضروريًّا له سبحانه تحقيقًا للتناقض بين المستثنى والمستثنى منه.

الثاني: أنَّ لا إله موجودٌ بالإمكان العامِّ، سالبة كلية مُمكنة عامة، فيكون المتحصِّل بالاستثناء الذي هو نقيض مُوجبة جزئية ضرورية، أي: الله موجودٌ بالضرورة.

وأُورد على التقريرين أنهما إنما يتمَّان إذا كان كلٌّ من طرفي المستثنى والمستثنى منه قضيةً مستقلة، وهو ممنوعٌ، والصحيحُ عند أهل العربية أنهما كلامٌ واحد مُقيَّد بالاستثناء فلا يجري فيهما أحكامُ التناقض إلا أن يُؤوَّل بالمعنى اللغوي، وأيضًا جَعلُ الله موجود بالضرورة قضيةً جزئية فيه تساهلٌ.

وقيل: يمكن أن يقال: الخبر المقدَّر هو الموجود مطلقًا سواء كان بالفعل أو بالإمكان على استعمال المشترك في كِلا مَعنيه، أو على تأويله بما يُطلق عليه اسمُ الموجود. وهو كما ترى.

وقيل: يجوز تقديره: ممكن، ونفي الإمكان يستلزم نفي الوجود، لأنَّ الإله واجبُ الوجود، وإمكان اتصاف شيء بوجوبِ الوجود يستلزم اتصافَه بالفعل بالضرورة، فإذا استُفيد من الكلمة الطيبة إمكانه يُستفاد منه وجودُه أيضًا، إذْ كلُّ ما لم يوجد يستحيل أن يكونَ واجبَ الوجود، ويعلم ما فيه مما مرَّ، فلا تغفل.

وقال بعضهم: الخبر المقدَّر: مُستحِقٌّ للعبادة، فالمعنى: لا إله مُستحِقٌّ للعبادة إلا الله، ولا محذورَ فيه. واعتُرض بأنّ هذا كونٌ خاصٌّ، ولا بدَّ في حَذْفه من قرينة ولا قرينة فلا يصحُّ الحذف. وأُجيب بأنها كنارٍ على عَلَم، لأنَّ الإله بمعنى المعبود، فدلَّ على العبادة واستحقاقها، ويُؤيِّده ملاحظة المقام واعتبار حال المخاطَبين؛ لأنَّ هذه الكلمة الطيبة واردةٌ لردِّ اعتقاد المشركين الزاعمين أن الأصنام تستحقُّ العبادة.

واعتُرضَ أيضًا بأنه لا يدلُّ على نفي التعدُّد مطلقًا، أي: لا بالإمكان ولا بالفعل، لجواز وجودِ إله غيره سبحانه لا يستحقُّ العبادة. وأيضًا يمكن أن يقال: المرادُ إما نفي إله مستحقٍّ للعبادة غيره تعالى بالفعل أو بالإمكان، فعلى الأول لا ينفي إمكان إله مستحِقٍّ للعبادة أيضًا غيره عز وجل، وعلى الثاني لا يدلُّ على استحقاقه تعالى للعبادة بالفعل. ورُدَّ بأن وجوب الوجود مبدأ جميع الكمالات، ولذا فرَّعوا عليه كثيرًا منها، فلا ريبَ أنه يوجب استحقاقَ التعظيم والتبجيل، ولا معنى لاستحقاق العبادة إلا ذلك، فإذا لم يستحقَّ غيره تعالى العبادةَ لم يوجد واجب وجود غيره سبحانه، وإلا لاستحقَّ العبادة قطعًا، وإذا لم يوجد لم يكن ممكنًا أيضًا، فثبت أنَّ نفي استحقاق العبادة يستلزم نفي التعدُّد جزمًا.

وتُعقب بأن فيه البناءَ على أنَّ الإله لا يكون إلا واجبَ الوجود، وقد سمعت أنها وإن كانت قطعيةَ الصِّدق وفي نفس الأمر إلا أنها غيرُ مُسلَّمة عند المشركين.

ومن المحقِّقين من قال: إنه لا يلتفت إلى عدم تسليمهم لمكابرتهم ما عسى أن يكون بديهيًّا. نعم ربما يقال: إنَّ الكلمةَ الطيبةَ على ذلك التقدير إنما تدلُّ على نفي المعبود بالفعل بناءً على ما قُرِّر في المنطق أنَّ ذاتَ الموضوع يجب اتصافُه بالعنوان بالفعل. ويجاب بمنع وجوب ذلك، بل يكفي الاتصاف بالإمكان كما صرَّح به

الفارابي، وأما ما نُقل عن الشيخ فمعناه كونه بالفعل بحسب الفرض العقلي لا بحسب نفس الأمر كما تدلُّ عليه عبارته في «الشفاء» و«الإشارات»، فيرجع إلى معنى الإمكان.

والفرقُ بين المذهبين أنَّ في مذهب الشيخ زيادةَ اعتبار ليس في مذهب الفارابي، وهي أن الشيخ اعتبر مع الإمكان بحسب نفس الأمر فرض الاتصاف بالفعل ولم يعتبره الفارابي.

وبالجملة إنَّ الاتصاف بالفعل غير لازم، فكلٌّ ما يمكن اتِّصافُه بالمعبودية داخلٌ في الحكم بأنه لا يستحقُّ العبادة، ولما كانت القضيةُ سالبةً صدقت وإن لم يوجد الموضوع.

ولعلَّ التحقيق في هذا المقام أنَّ الكلمةَ الطيبة جاريةٌ بين الناس على متفاهم اللغة والعرف لا على الاصطلاحات المنطقية والتدقيقات الفلسفية، وهي كلامٌ ورد في ردِّ اعتقاد المُشرك الذي اعتقد أنَّ آلهةً غير الله سبحانه تستحقُّ العبادة، فإذا اعترف المُشرك بمضمونه من أنه لا معبودَ مُستحِقٌّ للعبادة إلا الله تعالى عُلم من ظاهر حاله الإيمان، ولهذا اكتفى به الشارع عليه الصلاة والسلام، وأما الكافرُ الذي يعتقد إمكان وجود ذاتٍ تستحقُّ العبادةَ بعدُ فلا تكفي هذه الكلمة الطيبةُ في إيمانه كما لا تكفي في إيمان مَن أنكر النبوة أو المعاد أو نحو ذلك مما يجب الإيمان به، بل لا بدَّ من الاعتراف بالحكم الذي أنكره، ولا محذورَ في ذلك، ولما كان الكفرة الذين يعتقدون أن آلهةً غير الله تعالى تستحقُّ العبادةَ هم المشهورون دون من يعتقد إمكانَ وجودِها بعدُ، اعتُبرت الكلمة عَلَمًا للتوحيد بالنسبة إليهم.

ويعلم من هذا أنه لو قُدِّر الخبر المحذوف من أولِ الأمر: موجودٌ، أمكن دفعُ الإشكال بهذا الطريق، أعني متفاهم اللغة وعُرف الناس من الأوساط، وأما أنَّ نفي الوجود لا يستلزم نفي الإمكان فلا يلزم من الكلمة الطيبة حينئذ نفيُ إمكان آلهة غير الله تعالى، فمما لا يسبق إلى الأفهام، ولا يكاد يوجد كافرٌ يعتقد نفيَ وجودِ إله غيره تعالى مع اعتقاد إمكان وجودِ إله غيره سبحانه بعد ذلك.

ومن الناس مَنْ أيَّد تقديرَ الخبر كذلك بأنَّ الظاهرَ أنَّ «لا» نافية للجنس، ونفي الماهية نفسها بدون اعتبار الوجود واتصافها به كنفي السواد نفسهِ لا نفي وجودِه عنه، بعيدٌ، فكما أن جعل الشيء باعتبار الوجود إذْ لا معنى لجعل الشيء وتصييره نفسه، فكذلك نفيُه ورفعه أيضًا باعتبار رَفْع الوجود عنه.

وتُعقِّب بأن هذا هو الذي يقتضيه النظر الجليل، وأما النظرُ الدقيق فقد يحكم بخلافه لأنَّ نفيَ الماهية باعتبار الوجود ينتهي بالآخرة إلى نفي ماهية ما باعتبار نفسها، وذلك لأنَّ نفي اتصافها بالوجود لا يكون باعتبار اتِّصاف ذلك الاتصاف به إلى ما لا يتناهى، فلا بدَّ من الانتهاء إلى اتصافٍ مُنتفٍ بنفسه لا باعتبار اتصافه بالوجود، دفعًا للتسلسل.

وقيل: الظاهر أن نفي الأعيان كما في الكلمة الطيبة إنما هو باعتبار ذلك، وأما غيرها فتارةً وتارةً، فتدبَّر.

و«إلا» على التقدير المذكور للاستثناء ورفع الاسم الجليل على ما سمعتَ من المشهور. وقيل: هي فيه بمعنى «غير» صفة الاسم لا باعتبار المحلِّ، أي: لا إله غير الله تعالى موجودٌ.

واعترض بأنَّ المقصودَ من الكلام أمران: نفي الألوهية عن غيره تعالى، وإثباتها له سبحانه، وهو إنما يتمُّ إذا كانت «لا» فيه للاستثناء، إذْ يُستفاد النفي والإثبات حينئذ بالمنطوق، أما إن كانت بمعنى «غير» فلا يُفيد بمنطوقه إلا نفي الأُلوهية عن غيره تعالى، وفي كون إثباتها له تعالى بالمفهوم ويُكتفى به بحثٌ؛ لأنَّ ذلك إنْ كان مفهومَ لقب فلا عبرة عند القائلين بالمفهوم على الصحيح، خلافًا للدقَّاق والصيرفي من الشافعية، وابن خويزمنداد من المالكية، ومنصور بن أحمد من الحنابلة. وإنْ كان مفهومَ صفة فمن البيِّن أنه غيرُ مُجْمَعٍ عليه، بل أبو حنيفة ﵁ لم يقل بشيء من مفاهيم المخالفة أصلًا.

وأنت تعلم أن ما ذكره من إفادة الكلمة الطيبة إثبات الإلهية لله تعالى ونفيها عمَّا سواه عز وجل على تقدير كون «إلا» للاستثناء غيرُ مَجمَع عليه أيضًا، فإن الاستثناء

من النفي ليس بإثبات عند أبي حنيفة ﷺ، وجعل الإثبات في كلمة التوحيد بعرف الشرع، وفي المُفرَّغ نحو: ما قام إلا زيدٌ، بالعرف العامِّ، وما له وما عليه في كتب الأصول فلا تغفل.

وتمامُ الكلام فيما يتعلَّق بإعراب هذه الكلمة الطيبة في كتب العربية، وقد ذكرنا ذلك في تعليقاتنا على شرح السيوطي للألفية.

وهي عند السادة الصوفية قُدِّست أسرارُهم جامعة لجميع مَراتب التوحيد، ودالَّة عليها إما منطوقًا أو بالاستلزام، ومراتبه أربع: الأُولى: توحيد الألوهية، الثانية: توحيد الأفعال، الثالثة: توحيد الصِّفات، وإن شئت قلت: توحيد الوجوب الذاتي، فإنه يستلزم سائر الصفات الكمالية كما فرَّعها عليه بعضُ المحقِّقين، الرابعة: توحيدُ الذات، وإن شئت قلت: توحيد الوجود الحقيقي، فإنَّ المآل واحدٌ عندهم، وبيانُ ذلك أنَّ: لا إله إلا الله، منطوقُه ـ على ما يتبادر إلى الأذهان، وذهب إليه المُعْظَم ـ قصرُ الألوهية على الله تعالى قصرًا حقيقيًا، أي: إثباتُها له تعالى بالضرورة ونفيها عن كلِّ ما سواه سبحانه كذلك، وهو يستلزم توحيد الأفعال وتوحيدَ الصفات وتوحيد الذات.

أما الأول الذي هو قصر الخالقية فيه تعالى: فلأن مقتضى قصر الألوهية عليه تعالى قصرًا حقيقيًّا هو أن الله عز وجل هو الذي يستحقُّ أن يعبدَه كلُّ مخلوق، فهو النافع الضارُّ على الإطلاق، فهو سبحانه وتعالى الخالقُ لكلِّ شيء، فإنَّ كلَّ مَنْ لا يكون خالقًا لكلِّ شيء لا يكون نافعًا ضارًّا على الإطلاق، وكلّ مَنْ لا يكون كذلك لا يستحقُّ أن يعبدَه كلُّ مخلوق؛ لأن العبادةَ هي الطاعةُ والانقيادُ والخضوعُ، ومَنْ لا يملك نفعًا ولا ضرًّا بالنسبة إلى بعض المخلوقين لا يستحقُّ أن يعبدَه ذلك البعضُ ويُطيعَه وينقادَ له، فإنَّ مَنْ لا يقدر على إيصال نفعٍ إلى شخص أو دفعِ ضرٍّ عنه لا يرجوه، ومن لا يقدرُ على إيصال ضرٍّ إليه لا يخافه، وكلُّ من لا يُخاف ولا يُرجى أصلًا لا يستحقُّ أن يُعبدَ؛ وهو ظاهر، لكن الذي يقتضيه قصرُ الألوهية عليه تعالى قصرًا حقيقيًّا هو أنَّ الله تعالى هو الذي يستحقُّ أن يعبدَه كلُّ مخلوق فهو النافع الضارُّ على الإطلاق، فهو الخالقُ لكلِّ شيء، وهو المطلوب.

وأما الثاني: فلأن الكلمةَ الطيبةَ تدلُّ على أن الألوهيةَ ثابتةٌ له تعالى ثُبوتًا مستمرًّا ممتنعَ الانفكاك ومُنتفيةٌ عن غيره انتفاء كذلك، وكلُّ ما[1] كان كذلك فهي دالَّةٌ على أنه عز وجل واجبُ الوجود، وأن كلَّ موجود سواه تعالى ممكنُ الوجود؛ وكلّ ما كان كذلك كان وجوبُ الوجود مقصورًا عليه تعالى، وهو مستلزمٌ لسائر صفات الكمال، وهو المطلوب.

أما دلالتها على أنه عز وجل واجبُ الوجود فلأن الألوهية لا تكون إلا لموجودٍ حقيقةً اتفاقًا، وكلُّ ما لا يكون صفةً إلا لموجود إذا دلَّ كلامٌ على أنه ثابتٌ لشيء ثبوتًا ممتنعَ الانفكاك سرمدًا فقد دلَّ على أن الوجودَ ثابتٌ لذلك الشيء ثبوتًا ممتنعَ الانفكاك سرمدًا، ولا يكون كذلك إلا إذا كان موجودًا لذاته، وهو المعنيُّ بواجب الوجود لذاته، وحيث دلَّت على ثبوت الأُلوهية ثبوتًا مستمرًّا ممتنعَ الانفكاك فقد دَلَّت على وجوب وجوده تعالى وهو مستلزمٌ لسائر صفات الكمال، وهو المطلوب.

وأما دلالتها على أن كلَّ موجود سواه فهو ممكنُ الوجود فلأن موجودًا مّا سواه لو كان واجبَ الوجود لذاته لكان مُستحِقًّا أن يُعبد، لكنها قد دلَّت على أنه لا يستحقُّ أن يُعبدَ إلا الله، فقد دلَّت على أنه لا واجبًا وجودُه لذاته إلا الله تعالى، فكلُّ ما سواه فهو ممكنٌ، وهو المطلوب.

أو يقال: إنها قد دلَّت على أنه تعالى هو النافعُ الضارُّ على الإطلاق، فهو الجامع لصفاتِ الجلال والإكرام، فهو سبحانه المُتَّصفُ بصفاتِ الكمال كلِّها، وهو المطلوب.

وأما الثالث: فقد قال حُجَّةُ الإسلام الغزالي في باب الصدق من «الإحياء»[2]: كلُّ ما تقيَّد العبدُ به فهو عبدٌ له، كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيدَ الدنيا، وقال نبينا ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الدينار، تَعِسَ عبدُ الدِّرهم وعبد الحُلَّة وعبدُ الخَميصة»[3]، سمَّى كلَّ من تقيَّد قلبه بشيء عبدًا له. وقال في باب الزهد منه: مَنْ طلب غيرَ الله

---

(١) في الأصل: وكلما.
(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٨٨.
(٣) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).

تعالى فقد عبدَه؛ وكلُّ مطلوب معبودٌ، وكلُّ طالب عبدٌ بالإضافة إلى مَطْلبه[(١)].
وقال في الباب الثالث من كتاب العلم منه: كلُّ مُتَّبعٍ هواه فقد اتخذ هواه معبودًا؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال ﷺ: «أبغضُ إله عُبد في الأرض عند الله تعالى هو الهوى»[(٢)]. انتهى.

ومن المعلوم أنه ما في الوجود شيء إلا وهو مطلوبٌ لطالب ما، وقد صحَّ بما مرَّ إطلاقُ الإله عليه ولا إله إلا الله، فما في الوجود حقيقة إلا الله.

ومنهم مَنْ قرَّر دلالة الكلمة الطيبة على توحيدِ الذات ونفي وجود أحدٍ سواه عز وجل بوجه آخر، وهو أن «إلا» بمعنى «غير» بدل من الإله المنفي فيكون النفي في الحقيقة متوجهًا إلى الغير، ونفي الغير توحيدٌ حقيقيٌّ عندهم، وإذا تبين لك دلالتها على جميع مراتب التوحيد لاحَ لك أن الشارع لأمرٍ ما جعلها مفتاحَ الإسلام وأساسَ الدين ومهداةَ الأنام، وفي حديث أخرجه أبو نُعيم عن عِياض الأشعري أنه ﷺ قال: «لا إله إلا اللهُ كلمة كريمة، ولها عند الله مكانٌ جمعت وسوّلت، مَن قالها صادقًا مِن قلبه دخل الجنة»[(٣)]. وفي حديث أخرجه ابن النجَّار عن دينار عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا إله إلا الله كلمةٌ عظيمة كريمة على الله تعالى مَنْ قالها مُخلصًا استوجب الجنة»[(٤)]. وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اذهب بنعليَّ هاتين، فمن لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه، فبشِّره بالجنة»[(٥)]، وحديثُ

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٢٦.
(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٣٣. والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣)، والطبراني في الكبير (٧٥٠٢) عن أبي أمامة ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٨: فيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث، وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٢٦: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، والحسن بن دينار والخصيب - وهو ابن جحدر - كذابان.
(٣) كنز العمال (٢٢٨)، وأخرجه أيضاً ابن قانع في معجم الصحابة ٢/ ٢٧٧، والديلمي في مسند الفردوس (٧٢٨١)، ولم ترد فيهما عبارة: جمعت وسوّلت.
(٤) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٧/ ٢٣٤.
(٥) صحيح مسلم (٣١).

البطاقة أشهرُ من أن يُذكر[١]، وكذا الحديث القدسي المرويُّ عن عليّ الرضا عن آبائه عليهم السلام[٢]، وجاء: «مَنْ كان آخرُ كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخلَ الجنة»[٣] أي: بلا حساب، وإلا فما الفرقُ بين ذلك ومَنْ قالها ولم تكن آخرَ كلامه من الدنيا.

وبالجملة إنَّ فضلها لا يُحصى، وإنها لتُوصِل قائلها إلى المقام الأقصى، وقد أُلِّفت كتبٌ في فضلها وكيفية النُّطق بها وآداب استعمالها فلا نُطيل الكلامَ في ذلك.

بقي هاهنا بحثٌ، وهو أن المسلمين أجمعوا على وجوب معرفة الله تعالى، وإن اختلفوا في كونه شرعيًّا أو عقليًّا، وأما النظر في معرفته تعالى لأجل حصولها بِقُدَرِ الطاقة البشرية فقد قال العلَّامة التفتازاني في «شرح المقاصد»: لا خلافَ بين أهل الإسلام في وجوبه، لأنه أمرٌ مقدورٌ يتوقَّف عليه الواجب المطلق الذي هو المعرفة، وكلُّ مقدور يتوقَّف عليه الواجبُ المُطلَق فهو واجبٌ شرعًا إنْ كان وجوب الواجب المُطلَق شرعيًّا كما هو رأي الأصحاب، وعقلًا إنْ كان عقليًّا كما هو رأي المعتزلة لئلا يلزم تكليف المُحال. أما كون النظر مقدورًا فظاهرٌ، وأما توقُّف المعرفةِ عليه فلأنها ليست بضرورية، بل نظرية، ولا معنى للنظري إلا ما يتوقَّف على النظر ويتحصَّل به[٤].

وظاهر كلام السَّيِّد السند في «شرح المواقف»[٥] إجماعُ المسلمين كافَّةً على ذلك أيضًا. والحقُّ وقوع الخلاف في وجوب النظر كما يدلُّ عليه كلام ابن الحاجب في «مختصره» والعَضُد في «شرحه» وكلام التاج السُّبكي في «جمع

---

(١) أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٢) أخرجه الشهاب في مسنده (١٤٥١) من حديث علي ﷺ بلفظ «يقول الله تعالى: لا إله إلا الله حصني، فمن دخله أمن عذابي»، ويرويه عن علي الرضا أحمد بن علي بن صدقة، قال فيه الذهبي في الميزان ١/ ١٢٠: روى نسخة مكذوبة، اتهمه الدارقطني بوضع الحديث.
(٣) أخرجه أحمد (٢٢٠٣٤) من حديث معاذ بن جبل ﷺ.
(٤) شرح المقاصد ١/ ٢٦٢-٢٦٣.
(٥) ١/ ٢٥١.

الجوامع» والجلال المَحلِّي في «شرحه»[١]، وقول شيخ الإسلام في حاشيته عليه: محلُّ الخلاف في وجوب النظر في أصول الدين وعدمِ وجوبه في غير معرفة الله تعالى منها، أما النظرُ فيها فواجبٌ إجماعًا كما ذكره السعد التفتازاني كغيره = اعترضه المحقِّق ابنُ قاسم العبَّادي في حاشيته «الآيات البينات» بقوله: إن الظاهرَ أنَّ ما نقله السعد من الإجماع على وجوبِ النظر في معرفة الله تعالى غيرُ مُسلَّم عند الشارح وغيره، ألا ترى إلى تمثيل الشارح لمحلِّ الخلافِ بقوله: كحدوث العالم ووجودِ الباري تعالى وما يجبُ له جلَّ شأنه وما يمتنع عليه سبحانه من الصفات، فإن قوله: ووجود الباري تعالى.. إلخ يتعلَّق بمعرفته عز وجل، إلى آخر ما قال. نعم قال كثيرٌ ـ ورجَّحه الإمام الرازي والآمدي ـ: إنه يجب النظرُ في مسائل الاعتقاد، ومعرفةُ الله تعالى أُسُّها، فيجب فيها بالأولى، وقالوا في ذلك: لأن المطلوبَ اليقين لقوله تعالى لنبيِّه ﷺ: (فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ) وقد عَلِم ذلك، وقال تعالى للناس: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ويقاس غير الوحدانية عليها، ولا يتمُّ الاستدلال إلا بضمِّ توقُّف حصول اليقين على النظر. وهؤلاء لم يُجوِّزوا التقليدَ في الأصول، وهو أحدُ أقوال في المسألة، ثانيها قول العنبري: إنه يجوز التقليدُ فيها بالعقد الجازم ولا يجب النظر لها، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي في الإيمان بالعقد الجازم، ويُقاس غيرُ الإيمان عليه.

والمراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يكتفي بذلك نظرًا إلى ظاهر الحال، فإن الخبرَ كما صرَّحَ به المحقِّق عيسى الصفوي[٢] في شرحه للفوائد الغياثية على ما نقله عنه تلميذُه ابن قاسم العبادي في «الآيات البيِّنات» دالٌّ وضعًا على صورة ذهنية على وجه الإذعان تحكي الحال الواقعية، ولا شكَّ أنَّ لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله من قِسْم الخبر، فهما دالَّان وضعًا على أنَّ قائلهما ولو تحت ظلال السيف معتقدٌ لمضمونهما على وجه الإذعان، وعدم كونه معتقدًا في نفس الأمر احتمالٌ عقليٌّ، والمُطَّلع على ما في القلوب علَّامُ الغيوب.

(١) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي لجمع الجوامع ٢/ ٤٤٢ وما بعدها.
(٢) المتوفى سنة (٩٥٥هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢٩٩.

وثالث الأقوال: أنه يجب التقليدُ بالعقد الجازم ويحرمُ النظرُ لأنه مَظِنَّة الوقوع في الشُّبه والضلال لاختلاف الأذهان بخلاف التقليد، وهذا ليس بشيء أصلًا. والذي أوجب النظرَ من المحقِّقين لم يُرِدْ النظرَ على طريق المتكلِّمين بل صرَّح كما في «الجواب العتيد» للكوراني بأن المعتبر هو النظرُ على طريق العامة، والظاهرُ أنه ليس مَظِنَّة الوقوع فيما ذكر، وهل القائلُ بوجوبه من أولئك جاعلٌ له شرطًا لصحة الإيمان أَمْ لا؟ ففيه خلاف. فيفهم من بعض عبارات «شرح الأربعين» لابن حجر أنه جاعل له كذلك فلا يصحُّ إيمانُ المُقلِّد عنده، بل يُفهم منها أن النظر المُعتَبر عند ذلك هو النظرُ على طريق المُتكلِّمين، وكلامُ الجلال المحلِّي في «شرح جمع الجوامع» صريحٌ في أن القائلين بوجوب النظر غيرَ أبي هاشم ليسوا جاعلين النظرَ شرطًا لصحة الإيمان، ولا زاعمين بطلان إيمان المُقلِّد، بل هو صحيحٌ عندهم مع الإثم بترك النظر الواجب. نعم سيأتي إن شاء الله تعالى نقلُ الإمام حُجَّة الإسلام في كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» نقل الاشتراط عن طائفة من المتكلِّمين مع ردِّه. وأما ما نُقل عن الشيخ الأشعري من الاشتراط، وأنه لا يصحُّ إيمانُ المُقلِّد، فكذبٌ عليه كما قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري.

وقال التاج السبكي(١): التحقيق أنه إن كان التقليدُ أخذًا بقول الغير بغير حُجَّة مع احتمال شَكٍّ أو وهم فلا يكفي، وإن كان جزمًا فيكفي، خلافًا لأبي هاشم. والظاهرُ أن القائلَ بكفاية التقليد مع الجزم يمنع القولَ بأن المعرفةَ لا تحصل إلا بالنظر، ويقول: إنها قد تحصلُ بالإلهام أو التعليم أو التصفية، فمن حصل له العقدُ الجازم بما يجب عليه اعتقادُه فقد صحَّ إيمانه من غير إثم لحصول المقصود، ومَنْ لم يحصل له ذلك ابتداءً أو تقليدًا أو ضرورة فالنظر عليه متعين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢] ويكفي دليلًا للصحة اكتفاءُ النبيِّ ﷺ وأصحابه ﷺ مِن عَوامِّ العَجَم كأجلاف العرب وإن أسلمَ أحدُهم تحت ظلِّ السيف بمجرَّد الإقرار بـ: لا إله إلا الله محمد رسول الله، الدالّ بحسب ظاهرِ حالهم على أنهم يعتقدون مضمونَ ذلك ويُذعنون له، ولو كان الاستدلال فرضًا

---

(١) جمع الجوامع (مع حاشية العطار) ٢/ ٤٤٥.

لأُمروا به بعد النُّطق بالكلمتين، أو عُلِّموا الدليل ولُقِّنوه كما لُقِّنوهما، وكما عُلِّموا سائرَ الواجبات، ولو وَقَعَ ذلك لَنُقِلَ إلينا فإنه من أهمِّ مُهِمَّات الدين، ولم يُنقل أنهم أَمروا أحدًا منهم أسلمَ بترديد نظر، ولا سألوه عن دليل تصديقه، ولا أرجؤوا أمره حتى ينظر، فلو كان النظرُ واجبًا على الأعيان ولو إجماليًّا على طريق العامَّة لما اكتفى النبيُّ ﷺ من أولئك العوامِّ والأجلافِ بمجرَّد الإقرار، لأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا يُقِرُّون أحدًا على ترك فرض العين من غير عُذر، فلا يكون تاركه آثمًا فضلًا عن أنْ يكونَ بتركه غيرَ صحيح الإيمان، ويشهد لذلك ما قاله ﷺ لأسامةَ بن زيد عند اعتذاره عن قتل مِرداس بن نهيك من أهل فَدَك[1]، وغيره من الأخبار الكثيرة.

وما في «المواقف» و«المقاصد» وشرح المختصر العضدي وغيرها من كتب الكلام والأصول من أن النبيَّ ﷺ وأصحابه كانوا يعلمون أنهم ـ أي: العوامُّ وأجلاف العرب ـ يعلمون الأدلة إجمالًا كما قال الأعرابي: البعرةُ تدلُّ على البعير وأَثَر الأقدام على المسير، أفسماءٌ ذاتُ أبراج وأرض ذات فِجاج لا تدلُّ على اللطيف الخبير؟! أي: فلذلك لم يُلزموهم النظر ولا سألوهم عنه، ولا أرجؤوا أمرهم، وكلُّ ما كان كذلك لم يكن اكتفاؤهم بمجرَّد الإقرار دليلًا على أنَّ النظرَ ليس واجبًا على الأعيان، ولا على أنَّ تاركه غير آثم = دعوى لا دليلَ عليها.

وحكايةُ الأعرابي إنْ كانت مَسوقةً للاستدلال لا تدلُّ، غاية ما في الباب أن ذلك الأعرابي كان عالمًا بدليل إجمالي، ولا يلزم منه أن جميعَ الأجلافِ والعوامِّ كانوا عالمين بالأدلة الإجمالية في عهد النبوَّة وغيره، وإلا لكانت حجةً على أنه لا مقلِّد في الوجود، على أن بعضهم أسندَ ذلك القول إلى قُسِّ بن ساعدة وكان في الفترة، والجلال المحَلِّي ذكره لأعرابي قاله في جواب الأصمعي[2]، وكان في زمن الرشيد، بل قد يقال: إن ظاهرَ كثير من الآيات والأخبار يدلُّ على أن كثيرًا من

(١) وهو قوله ﷺ: «هلا شققت عن قلبه فنظرت إليه». والحديث عند الطبري ٧/ ٣٥٧، وسلف ٦/ ٢٢٦، وأصل الخبر عند مسلم (٩٦).

(٢) شرح جمع الجوامع (مع حاشية العطار) ٢/ ٤٤٤.

المشركين في عهده عليه الصلاة والسلام لم يكونوا عالمين بأدلَّة التوحيد مطلقًا، وذلك كقوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦] وقول بعضهم في بعض الحروب: اعلُ هُبل اعلُ هبل.

وما ذكره المحقِّق العضد في «شرح المختصر» من الدليل على عدمِ جواز التقليد حيث قال: إنَّ الأمة أجمعوا على وجوبِ معرفة الله تعالى، وأنها لا تحصل بالتقليد لثلاثة أوجه: أحدها: أنه يجوز الكذبُ على المُخبِر، فلا يحصل بقوله العلمُ. ثانيها: أنه لو أفاد العلم لأفاده بنحو حدوث العالم من المسائل المختلف فيها، فإذا قلَّد واحد في الحدوث والآخر في القِدَم كانا عالمين بهما فيلزم حَقِّيتهما[١]، وأنه مُحال. ثالثها: أن التقليدَ لو حصَّل العلمَ، فالعلم بأنه صدق فيما أخبر به إما أن يكون ضروريًّا أو نظريًّا، لا سبيل إلى الأول بالضرورة فلا بدَّ له من دليل، والمفروض أنه لا دليلَ إذْ لو علم صِدْقه بدليله لم يبقَ تقليدًا = تعقَّبه العلامة الكوراني فقال: فيه بحثٌ، أما في الوجه الأول فلأن من جوَّز التقليدَ مَثَّلَ المُقلِّدَ بمن نشأ على شاهق جبل ولم ينظر في ملكوت السماوات والأرض، وأخبره غيرُه بما يلزمه اعتقاده وصدَّقه بمجرد إخباره من غير تفكُّر وتدبُّر، وهو صريحٌ في أن الكلامَ في مقلِّد أخبره غيرُه بما يلزمه اعتقاده، وما يلزمه اعتقاده لا يكون إلا صدقًا، فإن الكذب لا يلزم أحدًا اعتقاده، وأما من أخبر بالأكاذيب فاعتقدها فهو لم يعتقد إلا أكاذيبَ، والأكاذيب ليست من معرفة الله تعالى في شيء، فكيف يحكم عليه أحدٌ من العقلاء بأنه مؤمن بالله تعالى عارفٌ به مع أنه لم يعتقد إلا الأكاذيب؟ وهو ظاهر.

وأما في الوجه الثاني: فلمثل ما مرَّ، لأنا لا نقول: إنَّ كل تقليدٍ مُفيد للعلم، ولا أنَّ كلَّ مُقلِّد عالمٌ، كيف وليس كلُّ نظر مفيدًا للعلم، ولا كلُّ ناظر مُصيبًا، فإذا لم يكن النظرُ موجبًا للعلم مطلقًا، وإنما الموجبُ النظر الصحيح، فكذلك نقول: ليس كلُّ تقليد مُفيدًا للعلم، وإنما المفيدُ التقليدُ الصحيح، وهو أن يُقلِّد عالمًا

---

(١) في الأصل: حقيقتهما.

بمسائل معرفة الله تعالى صادقًا فيما يخبره به، فإن الكلامَ إنما هو في صحةِ إيمان مثل هذا المُقلِّد لا مطلقًا.

وأما في الثالث: فلأنَّا نختار أنَّ عِلْمه بأنه صدق فيما أخبر به ضروريّ، قولكم: لا سبيلَ إليه بالضرورة، قلنا: ممنوعٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقد رُوي مرفوعًا أنه ﷺ سُئل عن شرح الصدر فقال عليه الصلاة والسلام: «نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن فينفسح»(١)، فصرَّح ﷺ بأنه نور لا يحصل من دليل، وإنما يقذفه اللهُ تعالى في قلبه فلا يقدر على دَفْعه من غير فِكْر ولا رَوِيَّة ولا نظر ولا استدلال، وقد صرَّح بعضُ أكابر المُحقِّقين بأن توحيدَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن علم ضروري وجدوه في نفوسهم لم يَقْدروا على دَفْعه، وبأنَّ من أهل الفترة من وجد كذلك، بل قد صرَّح بأن الإيمان علمٌ ضروري يَجِدُه المؤمن في قلبه لا يقدرُ على دَفْعه، فكم مَنْ آمن بلا دليل ومَنْ لم يُؤمن مع الدليل، وقلَّما يُوثَق بإيمان من آمن عن دليل، فإنه مُعرَّضٌ للشُّبَه القادحة فيه.

وفي الباب المئة والاثنين والسبعين، والمئة والسابع والسبعين، والمئتين والسابع والسبعين من «الفتوحات المكية»(٢) ما يُؤيِّد ذلك.

وقال الإمام حُجَّةُ الإسلام في «فيصل التفرقة»(٣): مِن أشدِّ الناس غُلوًّا وانحرافًا طائفةٌ من المُتكلِّمين كفَّروا عوامَّ المسلمين وزعموا أن مَن لا يعرف الكلامَ معرفتنا ولم يعرف الأدلَّةَ(٤) الشرعية بأدلتنا التي حرَّرناها فهو كافرٌ، فهؤلاء ضيَّقوا رحمة الله تعالى الواسعةَ على عباده أولًا، وجعلوا الجنة وقفًا على شِرْذمةٍ يسيرة من

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٩/ ٥٤١-٥٤٢ عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلًا. وابن مسور هذا قال فيه أحمد: أحاديثه موضوعة، وقال النسائي والدارقطني: متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ٥٠٤. وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٢٥) من سورة الأنعام.

(٢) ٢/ ٢٨٨ و٢٩٧ و٥٩٨.

(٣) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص٣٣-٣٦.

(٤) في فيصل التفرقة: العقائد.

المتكلِّمين، ثم جهلوا ما تواترتْ به السنةُ ثانيًا، إذْ ظهر من عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين حُكْمُهم بإسلام طوائفَ من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بتعلم الدلائل، ولو اشتغلوا بها لم يفهموها، ومن ظنَّ أن مدرك الإيمان الكلام والأدلَّة المحررة[١] والتقسيمات المرتَّبة فقد أبعد[٢]، لا بل الإيمان نورٌ يقذفُه الله تعالى في قلب عبده عطيةً وهدايةً من عنده، تارةً بتنبهٍ في الباطن لا يمكن التعبير عنه، وتارةً بسبب رؤيا في المنام، وتارةً بمشاهدةِ حالِ رجلٍ متديِّن وسرايةِ نوره إليه عند صحبته ومُجالسته، وتارةً بقرينة حال، فقد جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ جاحدًا له منِكرًا، فلما وقع بصرُه على طلعته البهية، وغُرَّته الغريرة السَّنيَّة، فرآها يتلألأ منها نورُ النبوة، قال: واللهِ ما هذا وجه كذَّاب. وسأله أن يعرضَ عليه الإسلام فأسلم[٣]. وجاء آخرُ فقال: أنشدك الله بعثك الله نبيًا؟ فقال ﷺ: «بلى، إني[٤] واللهِ، اللهُ بعثني نبيًّا» فصدَّقه بيمينه وأسلم[٥]، فهذا وأمثاله أكثرُ من أن يُحصى، ولم يشتغل واحدٌ منهم قطُّ بالكلام وتعلُّم الأدلَّة، بل كانت تبدو أنوار الإيمان أولًا بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء، ثم لا تزال تزداد وضوحًا وإشراقًا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وبتلاوة القرآن وتصفيةِ القلوب. وليت شعري مَنْ نَقَل عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة إحضارَه أعرابيًا أسلم وقوَّله الدليل على أنَّ العالم حادثٌ، لأنه لا يخلو عن الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وأنَّ اللهَ تعالى عالم بعلم وقادرٌ بقدرة كلاهما زائدٌ على الذات لا هو ولا غيره، إلى غير ذلك من رسوم

---

(١) في فيصل التفرقة: المجردة.

(٢) في فيصل التفرقة: أبدع.

(٣) أخرج أحمد (٢٣٧٨٤)، والترمذي (٢٤٨٥) عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي ﷺ انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

(٤) في فيصل التفرقة: إي.

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس ﷺ مطولًا، والذي استحلف النبيَّ ﷺ هو ضمام بن ثعلبة ﷺ.

المُتكلِّمين. ولست أقول: لم تجرِ هذه الألفاظ، بل لم يجرِ أيضًا ما معناه معنى هذه الألفاظِ، بل كان لا تنكشف مَلْحمة إلا عن جماعة من الأجلاف يُسلِمون تحت ظلال السيوف، وجماعةٍ من الأسارى يُسلمون واحدًا واحدًا بعد طول الزمان أو على القُرب، وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علِّموا الصلاةَ والزكاة ورُدُّوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم أو غيرها.

نعم لست أُنكر أنه يجوز أن يكونَ ذكر أدلة المُتكلِّمين أحدَ أسباب الإيمان في حقِّ بعض الناس، ولكن ذلك ليس بمقصور عليه، وهو نادرٌ أيضًا.

وساق الكلام إلى أن قال: والحقُّ الصريح أن كلَّ من اعتقد أنَّ ما جاء به الرسول ﷺ واشتمل عليه القرآن حقٌّ اعتقادًا جزمًا فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلَّته، فالإيمان المستفاد من الدلائل الكلامية ضعيفٌ جدًّا مُشرف على التزلزل بكلِّ شُبهة، بل الإيمان الراسخ إيمان العوامِّ الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع والحاصل بعد البلوغ بقرائن لا يمكن العبارة عنها. اهـ، وفيه فوائدُ شتى، ولذا نقلناه بطوله.

ومتى جاز أن يقذفَ الله تعالى في قلب العبد نورَ الإيمان فيؤمن بلا نظر واستدلال، جاز أن يقذفَ سبحانه في قلبه صِدْقَ المُخبِر بحيث لا يقدرُ على دَفْعه، ولا يدري أنه من أين جاء، لاسيما إذا كان المُخبِرُ هو النبيَّ ﷺ، فإن مِن لازِمِ قذفِ نور الإيمان في قلب المؤمن به عليه الصلاة والسلام أن يقذف في قلبه صدقه ﷺ لأن الإيمان لا يتمُّ إلا بذلك، فقد ظهر أن دعوى الضرورة في أنه لا سبيل إلى العلم بصدق المُخبِر فيما أخبر به علمًا ضروريًّا إن لم تكن مُكابرة، فمنعها ليس مُكابرة أيضًا، فإنَّ الدليل قد قام على جواز حصول العلم الضروري بصدقه، بل على وقوعه، فليست تلك الدعوى من المقدمات الضرورية التي يكون منعها مُكابرة غير مسموعة.

وقد اتَّضح من جميع ما ذُكر أنَّ ما قاله السعد في «شرح المقاصد»(١) من أن الحقَّ أن المعرفةَ بدليل إجمالي يرفع الناظر من حَضيض التقليد فرضُ عين لا مَخرج

(١) ١/ ٢٦٦.

عنه لأحد من المُكلَّفين، وبدليل تفصيلي يتمكَّن معه من إزاحة الشُّبه وإلزام المُنكرين وإرشاد المسترشدين فرضُ كفاية لا بدَّ من أن يقومَ به البعضُ = لا يخلو عن نظر على ما قيل. لكن الظاهر عندي أنَّ الحقَّ مع السعد من جهة أن الإيمان بمعنى التصديق مُكلَّف به، وشرط المكلَّف به كونه اختياريًّا، وقد صرَّحوا أن التكليفَ بما ليس باختياري تكليفٌ في الحقيقة بما يتوقَّف عليه من الأمور الاختيارية، وأن التصديقَ نفسه لكونه غير اختياري كان التكليف به في الحقيقة تكليفًا بما يتوقَّف هو عليه من النظر الاختياري، فالإيمان الذي يحصل بقذفه تعالى النور في القلب من غير فكر ولا روية ولا نظر ولا استدلال ليس اختياريًّا بنفسه ولا باعتبار ما يحصل هو منه فكيف يكون مُكلَّفًا به، وما مرادُ السعد ومن وافقه بالمعرفة إلا المعرفة من حيث إنها مُكلَّف بها كما يُشير إليه قوله: لا مَخرج عنه لأحد من المُكلَّفين، وكون ذلك مُكلَّفًا به باعتبار أمر اختياريٍّ غير النظر، كتحصيل الاستعداد لإفاضة النور، وخَلْق العلم الضروري في قلب العبد، غيرُ ظاهر.

نعم لست أنكر أنَّ من المعرفة ما لا يتوقَّف على نظر في دليل إجمالي أو غيره، كمعرفة الأنبياء عليهم السلام على ما سمعت عن بعضهم، وكمعرفة مَنْ شاء الله تعالى من عباده سبحانه غيرهم، ولا أُسمِّي نحو هذه المعرفة تقليدية، وكذا لا أُنكر أن المعرفةَ الحاصلة مِن قَذْف النور فوقَ المعرفةِ الحاصلة من النظر في الدليل، فإنها يُخشى عليها من عواصفِ الشُّبه، وأذهب إلى أن النظرَ في الدليل مطلقًا واجبٌ على من لم يحصل له العقد الجازمُ إلا به، وأما من حصل له ذلك بأي طريق كان دونه فلا يجب عليه وكذا لا يأثمُ بتركه، وحكايةُ الإجماع على إثمه به لا يخفى ما فيها، وتوجيهُ ذلك بأنَّ جزمَ المؤمن حينئذ لا ثقةَ به، إذ لو عَرَضَت له شُبهةٌ فات وبقي متردِّدًا بخلاف الجزم الناشئ عن الاستدلال، فإنه لا يفوتُ بذلك = غيرُ ظاهر؛ لأنه إذا سُلِّم أنَّ مَنْ ثَمَّ جزمُه من غير نظر فقد أتى بواجب الإيمان فلا وجهَ لتأثيمه بترك النظر بناءً على مجرد احتمال عُروض شُبهة مُشوِّشة لجزمه، لأنه إذا سُلِّم أن الواجبَ عليه ليس إلا أن يجزمَ وقد جزمَ فقد أدَّى واجب الوقت وما ترك منه شيئًا، وكلُّ من لم يترك واجبًا معيَّنًا في وقت معيَّن لا معنى

لتأثيمه في ذلك الوقت من جهة ذلك الواجب، وكما يحتمل عقلًا أن تعرضَ له شبهةٌ تُشوِّش عليه الجزمَ لعدم الدليل كذلك يحتمل عقلًا أن يحصلَ له الدليل على ما جزم به قبلَ عُروض شُبهة، ولعل هذا الاحتمال أقوى وأقربُ إلى الوقوع.

وإذا أحطت خُبرًا بجميع ما ذكرنا علمت أنَّ الاستدلالَ بقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ على وجوبِ النظرِ فيه نظرٌ؛ لتوقُّفه على صحة قولهم: إن العلم لا يحصل إلا بالنظر وقد سمعتَ ما فيه. ويقوِّي ذلك إذا قلنا: إنَّ عِلْمه ﷺ بالوحدانية ضروري، إذ يكون المرادُ الأمرَ بالثَّبات والاستمرار على ما هو ﷺ فيه من اجتناب ما يُخِلُّ بالعلم.

وقد يقال: يجوز أن يكونَ الاستدلالُ نظرًا إلى ظاهر اللفظ من حيث إنه أمرٌ بالعلم بالوحدانية فلا بدَّ أن يكون مقدورًا بنفسه أو باعتبار ما يحصل هو منه، وحيث انتفى كونه مقدورًا بنفسه تعين كونُه مقدورًا باعتبار ما يحصلُ هو منه، والظاهرُ أنه النظر.

وأنت تعلم أنه إن كان التقليدُ سببًا من أسباب العلم أيضًا لم يتمَّ هذا وإن لم يكن سببًا تمَّ، فتأمل.

ثم اعلم أنَّ النظرَ الذي قالوا به في الأصول الاعتقادية أعمُّ من النظر في الأدلة العقلية، والنظر في الأدلة السمعية، فإنَّ منها ما ثبت بالسمع، كالأمور الأُخروية، ومَدْخلُ العقل فيها ليس إلا بأنها أمورٌ مُمكنة أخبر الصادق بوقوعها، وكلُّ مُمكن أخبر الصادقُ بوقوعه واقعٌ، فتلك الأمورُ واقعةٌ. وأما النظرُ في معرفة الله تعالى ـ أعني التصديقَ بوجوده تعالى وصفاته العلا ـ فقيل: يتعيَّن أن يكون المرادُ به النظرَ في الأدلة العقلية فقط، ولا يجوز أن يكونَ النظرُ في الأدلة السمعية طريقًا إليها؛ لاستلزامه الدور.

وفي «الجواب العتيد»: الدورُ لازمٌ لكن لا مطلقًا، بل بالنسبة إلى كلِّ مطلوب يتوقَّف العلمُ بصدق الرسول ﷺ على العلم به، وذلك لأنَّ النظرَ في الأدلة السمعية إنما يكون طريقاً إلى المعرفة إذا كانت صادقةً عند الناظر فيها، وصدقُها في علم

الناظر موقوفٌ على علمه بأنَّ هذا الذي يدَّعي أنه رسولُ الله الذي جاء بها صادقٌ[١] في دعواه الرسالةَ، وعلمه بذلك موقوفٌ على العلم بأنَّ اللهَ تعالى قد أظهر المُعجزاتِ على يده تصديقًا له في دعواه، وعِلمه بذلك موقوفٌ على العلم بأن ثَمَّت إلهًا على صفةٍ يمكن بها أن يبعثَ رسولًا، ككونه حيًّا عالمًا مُريدًا قادرًا، وهو من معرفة الإله سبحانه، فلو استنفدنا العلم بوجود الله تعالى وبتلك الصفات من الدلائل السمعية الموقوفةِ على صدقِ الرسول عليه الصلاة والسلام لَزِمَ الدور كما ترى.

نعم إذا قيل: إنَّ المُكلَّف بعد ما آمن بالرسول ﷺ واعتقد اعتقادًا جازمًا بصِدْقه في جميع ما جاء به من عند الله تعالى بأيِّ وجه كان ذلك الجزمُ بالضرورة أو بالنظر أو بالتقليد، فله أن يأخذَ عقيدتَه من القرآن من غير تأويل ولا مَيْل من غير أن ينظرَ في دليل عقليٍّ = كان ذلك كلامًا صحيحًا لا غُبارَ عليه، ولا يلزم منه تحصيلٌ للحاصل بالنسبة إلى ما حصله أولًا من المسائل التي يتوقَّف عليها صدقُ الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ التحصيلَ الثاني من حيث إن الجائي بدلائلها صادقٌ فيها، والتحصيل الأول كان بالنظر العقلي من غير اعتبار صدقِ الرسول عليه الصلاة والسلام، فاختلفت الحيثية، فليفهم، والله تعالى أعلم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ في الآخرة، وخصَّ المتقلَّب بالدنيا والمثوَى بالآخرة، لأنَّ كلَّ أحدٍ متحرِّكٌ في الدنيا دائمًا نحو مَعاده غير قارٍّ، وفي الآخرة مُقيمٌ لا حركةَ له نحوَ دارٍ وراءَها. والمرادُ مِن علمه تعالى بذلك تحذيرُهم من جزائه وعقابه سبحانه، أو الترغيب في امتثال ما يأمرهم جلَّ شأنه به والترهيب عمَّا ينهاهم عز وجل عنه على طريق الكناية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «مُتَقلَّبكم» تصرفكم في حياتكم الدنيا، و«مثواكم» في قبوركم وآخرتكم. وقال عكرمة: «مُتقلَّبكم» في أصلاب الآباء إلى أرحام الأُمَّهات، و«مثواكم» إقامتُكم في الأرض.

---

(١) في الأصل و(م): صادقًا.

وقال الطبري[1]: وغيره: «مُتقلَّبكم» تصرُّفكم في يقظتكم، و«مثواكم» منامكم.

وقيل: «مُتقلَّبكم» في معايشكم ومتاجركم، و«مثواكم» حيث تستقرُّون من منازلِكم. وقيل: «مُتقلَّبكم» في أعمالكم، و«مثواكم» من الجنة والنار.

واختار أبو حيان[2] عمومَهما في كلِّ متقلَّب وفي كلِّ إقامة. ونحوه ما قيل: المرادُ: يعلم جميعَ أحوالكم، فلا يخفى عليه سبحانه شيء منها.

وقرأ ابن عباس: «مُنْقلبكم» بالنون[3].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حرصًا على الجهاد لما فيه من الثواب الجزيل، فالمرادُ بهم المؤمنون الصادقون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلَّا أنزلت سورةٌ يُؤمَر فيها بالجهاد، فـ «لولا» تحضيضية.

وعن ابن مالك أن «لا» زائدة، والتقدير: لو أُنزلت سورة. وليس بشيء.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: بطريق الأمر به، والمرادُ بـ «محكمة»: مُبيّنة لا تشابه ولا احتمال فيها لوجهٍ آخر سوى وجوب القتال، وفسَّرها الزمخشري[4] بـ: غير منسوخة الأحكام.

وعن قتادة: كلُّ سورة فيها القتال فهي مُحكمة، وهو أشدُّ القرآن على المنافقين، وهذا أمرٌ استقرأه قتادة من القرآن لا بخصوصية هذه الآية، والمُتحقّق أن آياتِ القتال غيرُ منسوخةٍ، وحكمُها باقٍ إلى يوم القيامة. وقيل: مُحكمة بالحلال والحرام.

وقُرئ: «نَزَلت سورةٌ» بالبناء للفاعل من نَزَل الثلاثي المجرَّد، ورفع «سورةٌ» على الفاعل[5].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٢٠٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٠.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٠.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٥ وفسرها الزمخشري بالتفسير الذي ذكره المصنف قبل.
(٥) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٥، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٧٠.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «نزلت» كذلك إلا أنه نصب «سورةً محكمةً»، وخُرِّج ذلك على كون الفاعل ضميرَ السورة، و«سورةً محكمةً» نُصب على الحال. وقرأ هو وابن عُمير: «وذَكَر» مبنيًّا للفاعل، وهو ضميره تعالى، «القتال» بالنصب على أنه مفعول به[١].

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: نفاق، وقيل: ضَعْفٌ في الدين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: نظر المُحتَضر الذي لا يطرفُ بصره، والمراد: تشخصُ أبصارُهم جُبنًا وهَلَعًا، وقيل: يفعلون ذلك من شِدَّة العداوة له عليه الصلاة والسلام، وقيل: مِن خشية الفضيحة، فإنهم إنْ تخلَّفوا عن القتال افتضحوا وبانَ نِفاقُهم. وقال الزمخشري: كانوا يدَّعون الحِرصَ على الجهاد ويتمنَّونه بألسنتهم، ويقولون: لولا أُنزلت سورةٌ في معنى الجهاد، فإذا أُنزلت وأُمروا فيها بما تمنَّوا وحَرَصوا عليه كاعوا وشقَّ عليهم وسُقِطَ في أيديهم كقوله تعالى: (فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ)[٢]. والظاهر ما ذكرناه أولًا من أن القائلين هم الذين أخلصوا في إيمانهم، وإنما عرا المنافقين ما عرا عند نزول أمر المؤمنين بالجهاد لدخولهم فيهم بحسب ظاهرِ حالهم. وقد جوَّز هو أيضًا إرادةَ الخُلَّص من الذين آمنوا، لكن كلامه ظاهرٌ في ترجُّح ما ذكره أولًا عنده، والظاهرُ أن في الكلام عليه إقامةَ الظاهر مقامَ المُضمر.

وجوّز أن يكون المطلوب في قوله تعالى: «لولا أُنزلت سورة» إنزال سورة مُطلقًا حيث كانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ، ورُوي نحوه عن ابن جُريج. أخرج ابن المنذر عنه أنه قال في الآية: كان المؤمنون يشتاقون إلى كتاب الله تعالى وإلى بيانِ ما ينزلُ عليهم فيه، فإذا نزلت السورةُ يُذكَر فيها القتال رأيتَ يا محمدُ المنافقين ينظرون إليك.. إلخ[٣].

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ تهديدٌ ووعيدٌ على ما رُوي عن غير واحد، وعن أبي عليٍّ أن

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨١.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥-٥٣٦.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٦٣.

«أولى» فيه عَلَمٌ لِعَيْنِ الويل مبني على زِنَةِ أَفعل من لفظ الويل على القلب، وأصله أَوْيَل، وهو غير منصرف للعلميَّة والوزن، فالكلام مبتدأ وخبر.

واعتُرض بأن الويل غير متصرف فيه، ومثل يوم أَيْوم مع أنه غير مُنقاس لا يُفرد عن الموصوف ألبتة، وأن القلبَ خلافُ الأصل لا يُرتكب إلا بدليل، وأنَّ علمَ الجنس شيء خارجٌ عن القياس مُشكل التعقُّل خاصَّة فيما نحن فيه.

ثم قيل: إن الاشتقاقَ الواضحَ من الوَلْي بمعنى القُرب، كما في قوله:

يُكلِّفني ليلى وقد شطَّ وَلْيُها وعادتْ عوادٍ بيننا وخطوبُ[١]

يُرشد إلى أنه للتفضيل في الأصل غُلِّب في قُرب الهلاك ودعاء السوء، كأنه قيل: هلاكًا أولى لهم، بمعنى: أهلكهم الله تعالى هلاكًا أقربَ لهم من كلِّ شرٍّ وهلاك، وهذا كما غُلِّب: بُعدًا وسُحقًا، في الهلاك، وهو على هذا منصوبٌ على أنه صفةٌ في الأصل لمصدر محذوفٍ، وقد أُقيم مُقامه والجارُّ متعلِّقٌ به. وفي «الصحاح» عن الأصمعي: أَوْلى له: قَاربه ما يُهلكه، أي: نزل به، وأنشد:

فعادى بين هاديتين منها وأَولى أن يزيدَ على الثلاث

أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحدٌ في: أولى، أحسنَ مما قاله الأصمعي[٢]. وعلى هذا هو فعلٌ مُستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السِّياق.

وقريبٌ منه ما قيل: إنه فعلٌ ماضٍ وفاعله ضميرُه عز وجل واللامُ مَزيدة، أي: أَوْلاهم الله تعالى ما يكرهون، أو غير مَزيدة، أي: أدنى الله عز وجل الهلاك لهم، والظاهر زيادةُ اللام على ما سمعت عن الأصمعي، ومَن فسَّره بقرَّبَ جوَّز الأمرين.

وقيل: هو اسمُ فعل، والمعنى: وَلِيهم شرٌّ بعد شرّ.

وقيل: هو فَعْلى من: آلَ، بمعنى رَجَع، لا أفعل من الوَلْي، فهو في الأصل دعاءٌ عليهم بأنْ يرجع أمرُهم إلى الهلاك، والمراد: أَهلكهم اللهُ تعالى، إلا أن التركيبَ مبتدأ وخبر.

---

(١) البيت لعلقمة بن عبدة بن النعمان، وهو في المفضليات ص٣٩١.
(٢) الصحاح (ولي)، والشاهد ذكره أيضاً البغدادي في الخزانة ٩/ ٣٤٥.

وقال الرضي: هو علمٌ للوعيد، مِن: وَلِيه الشرُّ، أي: قربه، والتركيب مبتدأ وخبر أيضًا. واستدلَّ بما حكى أبو زيد من قولهم: أولاة ـ بتاء التأنيث ـ على أنه ليس بأفعل تفضيل ولا أفعل فَعْلى، وأنه علمٌ وليس بفعل، ثم قال: بل هو مِثْلُ: أَرْمل وأَرْملة إذا سُمِّي بهما، ولذا لم ينصرف، وليس اسمَ فعل أيضًا بدليل أولاة في تأنيثه بالرفع، يعني أنه مُعرب، ولو كان اسمَ فعل كان مبنيًّا مثله. وتُعقِّب: بأنه لا مانع من كون أولاة لفظًا آخرَ بمعناه، فلا يرد من ذلك على قائلي ما تقدَّم أصلًا. وجاء أَوَّل أَفعل تفضيل وظرفًا كـ : قَبل، وسُمِعَ فيه: أَوَّلة، كما نقله أبو حيان(١).

وقيل: الأحسن كونه أفعل تفضيل بمعنى أَحقُّ وأَحرى، وهو خبرٌ لمبتدأ محذوف يُقدَّر في كلِّ مقام بما يَليق به، والتقدير هاهنا: العقابُ أولى لهم، ورُوي ذلك عن قتادة، ومال إلى هذا القول ابنُ عطية(٢).

وعلى جميع الأقوال قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلامٌ مستقلٌّ محذوفٌ منه أحدُ الجزأين، إما الخبر وتقدِيره: خيرٌ لهم، أو: أمثل، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه(٣) والخليل، وإما المبتدأ، وتقديره: الأمرُ ـ أو: أَمرُنا ـ طاعةٌ، أي: الأمر المرضي لله تعالى طاعةٌ. وقيل: أي: أمرُهم طاعةٌ معروفة وقولٌ معروف، أي: معلومٌ حالُه أنه خديعة. وقيل: هو حكايةُ قولهم قبلَ الأمر بالجهاد، أي: قالوا: أمرُنا طاعةٌ، ويشهد له قراءة أُبيٍّ: «يقولون طاعة وقول معروف»(٤).

وذهب بعضٌ إلى أن «أولى» أفعل تفضيل مبتدأ، و«لهم» صِلته، واللام بمعنى الباء، «وطاعة» خبرٌ، كأنه قيل: فأَولى بهم من النظر إليك نظرَ المَغشيِّ عليه من الموت طاعةٌ وقولٌ معروف، وعليه لا يكون كلاماً مستقلًا، ولا يُوقَف على «لهم».

ومما لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه ما قيل: إن «طاعة» صفة لسورة في قوله تعالى:

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٤٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٧.

(٣) الكتاب ١/ ١٤١ و٢/ ١٣٦.

(٤) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٦، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٧١.

«فإذا أُنزلت سورة» والمرادُ: ذات طاعة، أو: مُطاعة. وتعقَّبه أبو حيان[1] بأنه ليس بشيء لحيلولة الفَصْل الكثير بين الصفة والموصوف.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جدَّ، والجِدُّ ـ أي: الاجتهاد ـ لأصحاب الأمر، إلا أنه أُسند إليه مجازاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] ومنه قول الشاعر:

قد جَدَّت الحرب بكم فجدُّوا[2]

والظاهرُ أن جوابَ «إذا» قوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وهو العاملُ فيها، ولا يضرُّ اقترانُه بالفاء ولا تمنع من عمل ما بعدَها فيما قبلها في مثله كما صرَّحوا به، وهذا نحو: إذا جاء الشتاء فلو جئتني لكسوتك.

وقيل: الجوابُ محذوفٌ تقديرُه: «فإذا عَزَمَ الأمر» كرهوا، أو نحو ذلك، قاله قتادة.

وفي «البحر»[3]: مَنْ حَمَلَ «طاعةٌ وقولٌ معروفٌ» على أنهم يقولون ذلك خديعةً، قدَّر: فإذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصَوْا. ولعلَّ مَنْ يجعل القولَ السابقَ للمؤمنين في ظاهر الحال، وهم المنافقون، جوَّز هذا التقدير أيضاً، وقدَّر بعضهم الجوابَ: فاصدُقْ، وهو كما ترى. وأيًّا ما كان، فالمراد: فلو صَدَقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد، ولعلَّهم أظهروا الحرصَ عليه كالمؤمنين الصادقين. وقيل: في قولهم: «طاعة وقول معروف»، وقيل: في إيمانهم ﴿لَكَانَ﴾ أي: الصدق ﴿خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ مما ارتكبوه، وهذا مبنيٌّ على ما في زَعْمهم من أنَّ فيه خيراً، وإلا فهو في نفس الأمر لا خيرَ فيه.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ خطابٌ لأولئك الذين في قلوبهم مرضٌ بطريق الالتفات لتأكيدِ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٢.

(٢) الرجز في الكامل للمبرد ٢/ ٤٩٤، وقد تمثل به الحجاج في خطبته لأهل الكوفة، وقبله:

قد شمَّرت عن ساقها فشدُّوا وجدَّت الحرب . . . .

(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٢.

التوبيخ وتشديد التقريع، و«هل» للاستفهام، والأصل فيه أن يدخلَ [على][(١)] الخبر للسؤال عن مضمونه، والإنشاء الموضوع له «عسى» ما دلَّ عليه هنا بالخبر، أي: فهل يُتوقَّع منكم ويُنتظَر ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أمورَ الناس وتأمَّرتم عليهم، فهو من الولاية، والمفعول به محذوف. ورُوي ذلك عن محمد بن كعب وأبي العالية والكلبي ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾﴾ تناحُرًا على الولاية وتكالبًا على جيفة الدنيا.

والمتوقِّع كلُّ من يقفُ على حالهم إلا الله عز وجل؛ إذْ لا يصحُّ منه سبحانه ذلك، والاستفهام أيضًا بالنسبة إلى غيره جل وعلا، فالمعنى: إنكم لِمَا عُهد منكم من الأحوال الدالَّة على الحرص على الدنيا حيث أُمرتم بالجهاد الذي هو وسيلةٌ إلى ثوابِ الله تعالى العظيم فكرهتموه، وظهرَ عليكم ما ظهر أحقَّاءُ بأن يقول لكم كلُّ مَنْ ذاقكم وعَرَفَ حالَكم: يا هؤلاء ما تَرونَ هل يُتوقَّع منكم إن تولَّيتم أن تُفسدوا في الأرض.. إلخ.

وفسَّر بعضُهم التولِّي بالإعراضِ عن الإسلام، فالفعل لازمٌ، أي: فهل عسيتم إنْ أعرضتُم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاوُر والتناهُب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضًا، ووأد البنات.

وتُعقِّب بأنَّ الواقع في حيِّز الشرط في مثل هذا المقام لا بدَّ أن تكون محذوريَّته باعتبار ما يتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته، ولا ريبَ في أن الإعراضَ عن الإسلام رأسُ كلِّ شرٍّ وفساد، فحقُّه أن يُجعلَ عُمدةً في التوبيخ، لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد.

ويُؤيِّد الأول قراءةُ بعض: «وُلِّيتم» مَبنيًّا للمفعول[(٢)]، وكذا قراءته عليه الصلاة والسلام على ما ذُكر في «البحر»، ورُويت عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه ورُويس

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٤٨.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٢، والبحر المحيط ٨/ ٨٢.

ويعقوب: «تُوُلِّيتم» بالبناء للمفعول أيضًا(١)، بناءً على أنَّ المعنى: تولَّاكم الناسُ واجتمعوا على مُوالاتكم، والمرادُ: كنتم فيهم حُكَّامًا، وقيل: المعنى: تولَّاكم ولاةٌ غشمةٌ خرجتم معهم ومَشيتم تحت لوائهم، وأَفسدتم بإفسادهم.

واستظهر أبو حيان(٢) تفسيره بالإعراض، إلا أنه قال: المعنى: إن أعرضتم عن امتثال أمر الله تعالى في القتال أن تفسدوا في الأرض بعدم مَعونةِ أهل الإسلام على أعدائهم وتقطِّعوا أَرحامَكم، لأنَّ من أرحامكم كثيرًا من المسلمين، فإذا لم تُعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من الرَّحِم.

وتُعقِّب بأنَّ حملَ الإفساد على الإفساد بعدم المَعونة فيه خَفاء، وكذا الإتيان بـ «إنْ» عليه دون «إذا» من حيث إنَّ الإعراضَ عن امتثال أمر الله تعالى في القتال كالمُحقَّق من أولئك المنافقين، فتأمل.

و«أن تفسدوا» خبر «عسى»، و«إن توليتم» اعتراضٌ، وجوابُ «إنْ» محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله.

وزعم بعضُهم أن الأظهرَ جعل «إن تولَّيتم» حالًا مقدرة، وفيه أن الشرطَ بدون الجواب لم يُعهد وقوعُه حالًا في غير «إن» الوصلية، وهي لا تُفارق الواو.

وإلحاق الضمائر بـ «عسى» كما في سائر الأفعال المتصرِّفة لغةُ أهل الحجاز، وبنو تميم لا يُلحقونها به ويلتزمون دخولَه على «أنْ» والفعل، فيقولون: الزيدان عسى أَنْ يقوما، والزيدون عسى أن يقوموا. وذكر الإمام(٣) هاتين اللغتين ثم قال: وأما قول مَنْ قال: عسى أنت تقوم، وعسى أنا أَقومُ، فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه، فإن كان مقصودُه حكايةَ لغةٍ ثالثة هي انفصال الضمير، فنحن لا نعلم أحدًا مِن نَقَلَةِ اللسان العربيِّ ذَكَرها، وإنْ كان غيرَ ذلك فليس فيه كثيرُ جدوى.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٧٢، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٧٤، والبحر المحيط ٨/ ٨٢، وقراءة يعقوب من رواية رويس في النشر ٢/ ٣٧٤ وهي من العشرة.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٢.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٣-٦٤.

وقرأ نافع: «عَسِيتم» بكسر السين المُهملة[1]، وهو غريب.

وقرأ أبو عمرو[2] ـ في رواية ـ وسلام ويعقوب وأبان وعِصمة: «تَقْطَعوا» بالتخفيف مضارع قطع، والحسن: «تَقَطَّعوا» بفتح التاء والقاف وشدِّ الطاء، وأصله: تتقطَّعوا بتاءين حُذفت إحداهما، ونصبوا «أرحامَكم» على إسقاط الحرف[3]، أي: في أرحامكم لأنَّ تقطَّع لازم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المُخاطَبين بطريق الالتفات إيذانًا بأنَّ ذِكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن درجة الخطاب، ولو على جهة التوبيخ وحكاية أقوالهم الفظيعة لغيرهم، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته عز وجل ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحقِّ لتصامِّهم عنه لسوء اختيارهم ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ لتعاميهم عمَّا يُشاهدونه من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق.

وجاء التركيب «فأَصمَّهم» ولم يأتِ: فأصمَّ آذانَهم، كما جاء: «وأعمى أبصارهم»، أو: أعماهم، كما جاء: «فأصمهم»، قيل: لأنَّ الأذن لو أُصيبت بقَطْع أو قَلْع لَسُمِعَ الكلام فلم يحتج إلى ذكر الأذن، والبصر وهو العين لو أصيب لامتنع الإبصار، فالعين لها مدخلٌ في الرؤية، والأذن لا مدخلَ لها في السمع. انتهى. وهو كما ترى.

وقال الخفاجي[4]: لأنه إذا ذُكر الصَّمَم لم يبقَ حاجةٌ إلى ذِكْر الآذان، وأما العمى فَلشيوعه في البصر والبصيرة حتى قيل: إنه حقيقةٌ فيهما، وهو ظاهر ما في «القاموس»[5]، فإذا كان المرادُ أحدَهما حَسُنَ تقييدُه.

وقيل في وجه ذلك بناءً على كون العمى حقيقة فيما كان في البصر: إنَّ نحو:

---

(١) التيسير ص٨١، والنشر ٢/ ٢٣٠.
(٢) وهي غير المشهورة عنه.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٢، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٤٨.
(٥) القاموس المحيط (عمي).

أعمى اللهُ أبصارَهم، بحسب الظاهر من باب: أَبصرته بعيني، وهو يقال في مقامٍ يحتاج إلى التأكيد، ولما كان أولئك الذين حكى حالهم في أمرِ الجهاد غيرَ ظاهرٍ إعماؤهم ظهورَ إصمامهم، كيف وفي الآيات السابقة ما يُؤذن بعدم انتفاعهم بالمسموع من القرآن، وهو من آثار إصمامهم، وليس فيها ما يُؤذن بعدم انتفاعهم بالآيات المرئية المنصوبة في الأنفس والآفاق الذي هو من آثار إعمائهم = ناسب أن يسلكَ في كلٍّ من الجملتين ما سلك، مع ما في سلوكه في الأخير من رعاية الفواصل، وهو أدقُّ مما قبل.

هذا، والأرحام جمعُ: رَحِم ـ بفتح الراء وكسر الحاء ـ وهي على ما في «القاموس»[(١)] ـ القرابة، أو أصلُها وأسبابُها، وقال الراغبُ: الرَّحِم: رَحِم المرأة، أي: بيت مَنْبِت وَلَدِها ووِعاؤه، ومنه استُعير الرَّحِم للقرابة، لكونهم خارجين من رَحِم واحدة[(٢)]. ويقال للأقارب: ذَوُو رحم، كما يقال لهم: أرحام. وقد صرَّح ابنُ الأثير بأنَّ ذا الرحم يقع على كلِّ من يجمع بينك وبينه نسبٌ، ويُطلق في الفرائض على الأقارب من جِهة النساء[(٣)]. والمذكور في كتبها تفسيره بكلِّ قَريب ليس بذي سهم ولا عَصَبة، وعدُّوا مِن ذلك أولادَ الأخوات لأبوين أو لأب، وعمَّاتِ الآباء.

وظاهرُ كلام الأئمة في قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَلَكَ ذا رَحِمٍ مَحْرم فهو حُرٌّ»[(٤)] دخولُ الأبوين والولد في ذي الرحم لغةً، حيث أجمعوا على أنهم يَعتِقون على مَنْ مَلَكهم لهذا الخبر، وإن اختلفوا في عتق غيرهم. وصرَّح ابن حجر الهيتمي في «الزواجر»[(٥)] بأن الأولاد من الأرحام، وظاهرُ عطف الأقربين على

(١) القاموس المحيط (رحم).

(٢) المفردات (رحم).

(٣) النهاية في غريب الحديث (رحم).

(٤) أخرجه أحمد (٢٠١٦٧)، وأبو داود (٣٩٤٩)، والترمذي (١٣٦٥) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٥) ٢/ ٧٤.

الوالدَين في الآية[1] يقتضي عدمَ دخولهما في الأقارب، فلا يدخلون في الأرحام لأنهم كما قالوا الأقارب. وكلام فقهائنا نصٌّ في عدمِ دخول الوالدَين والولد في ذلك حيث قالوا: إذا أوصى لأقاربه أو لِذَوي قرابته أو لأرحامه فهي للأقرب فالأقرب من كلِّ ذي رَحِمٍ مَحْرم، ولا يدخل الوالدان والولد.

وأما الجدُّ ووَلَدُ الولد فنقل أبو السعود عن العلَّامة قاسم عن «البدائع»[2] أن الصحيحَ عدمُ دخولهما، واختاره في «الاختيار»[3]، وعلَّله بأن القريبَ من يتقرَّب إلى غيره بواسطة غيره وتكون الجزئية بينهما مُنعدِمة، وشرح الحموي أنَّ دخولَهما هو الأصحُّ. وفي «متن المواهب»: وأدخل ـ أي: محمد ـ الجدَّ والحَفَدة، وهو الظاهر عنهما، وذكر أنَّ مثلَ الجدِّ الجدَّةُ.

وقد يقال: إنَّ عدمَ دخول الوالدين والولد في ذلك، وكذا الجدّ والحَفَدة عند من يقول بعدمِ دخولهم، ليس لأنَّ اللفظَ لا يصدقُ عليهم لغةً، بل لأنه لا يصدقُ عليهم عُرفًا، وهم اعتبروا العُرفَ كما قال الطحطاوي في أكثرِ مسائل الوصية. وفي «جامع الفصولين»[4]: إنَّ مطلقَ الكلام فيما بين الناس ينصرف إلى المُتعارَف، وما ذكره في «المعراج»[5] من خبر: من سمَّى والده قريبًا عقَّه[6]، لا يدلُّ على أنه ليس قريبًا لغةً، بل هو بيانُ حكم شرعيٍّ مَبناهُ أن في ذلك إيذاءً للوالد وحطًّا من قَدْره عُرفًا، وهذا كما لو ناداه باسمه وكان يكره ذلك.

---

(١) كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]. وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

(٢) بدائع الصنائع ١٠/ ٥١٦.

(٣) الاختيار لتعليل المختار ٢/ ٥٣٩.

(٤) لابن قاضي سيماوتة. المتوفى سنة (٨٢٣هـ)، وهو كتاب مشهور متداول لكونه في المعاملات خاصة. كشف الظنون ١/ ٥٦٦.

(٥) هو كتاب معراج الدراية، أحد شروح الهداية، لمحمد الكاكي الحنفي، المتوفى سنة (٧٤٩هـ). كشف الظنون ٢/ ٢٠٣٣.

(٦) ونقله عنه ابن عابدين في حاشيته ٦/ ٦٨٦، ولم نقف على الخبر مسنداً.

وأمرُ العطف في الآية الكريمة سهلٌ لجواز عطفِ العامِّ على الخاصّ، كعطف الخاصِّ على العامِّ، فالذي يترجَّح عندي أنَّ الأرحامَ كما صرَّحوا به الأقاربُ بالقرابة الغير السببية، والمراد بهم ما يُقابل الأجانب، ويدخلُ فيهم الأصولُ والفروع والحواشي من قِبل الأب أو من قِبل الأمّ، وحُرمة قَطْعِ كلٍّ لا شكَّ فيها لأنه ـ على ما قلنا ـ رَحِم، والآيةُ ظاهرةٌ في حرمة قطع الرحم. وحكى القرطبي في «تفسيره»[(١)] اتفاقَ الأمة على حرمةِ قَطْعها ووجوب صِلتها، ولا ينبغي التوقُّف في كون القطع كبيرة، والعجبُ من الرافعي عليه الرحمة كيف توقَّف في قول صاحب «الشامل»: إنه من الكبائر، وكذا تقرير النووي ـ قُدِّس سِرُّه ـ له على توقُّفه[(٢)].

واختلف في المراد بالقطيعة؛ فقال أبو زرعة: ينبغي أن تختصَّ بالإساءة، وقال غيره: هي ترك الإحسان ولو بدون إساءة؛ لأن الأحاديث آمرةٌ بالصلة ناهية عن القطيعة ولا واسطةَ بينهما، والصلة إيصالُ نوع من أنواع الإحسان كما فسَّرها بذلك غيرُ واحد، فالقطيعة ضدُّها، فهي ترك الإحسان. ونظر فيه الهيتمي[(٣)] بناءً على تفسير العقوق بأنْ يَفعل مع أحدِ أبويه ما لو فعله مع أجنبيٍّ كان محرَّمًا صغيرةً، فينتقل بالنسبة إلى أحدِهما كبيرةً، وأن الأبوين أعظمُ من بقية الأقارب، ثم قال: فالذي يتَّجه ليوافق كلامهم وفرقهم بين العقوق وقطع الرحم أنَّ المرادَ بالأول أن يفعلَ مع أحدِ الأبوين ما يتأذَّى به، فإن كان التأذِّي ليس بالهيِّن عُرفًا كان كبيرةً وإنْ لم يكن مُحرَّمًا لو فعله مع الغير. وبالثاني قطعُ ما ألِفَ القريبُ منه من سابق الوصلة والإحسان بغير عُذر شرعي؛ لأن قطعَ ذلك يُؤدِّي إلى إيحاش القلوب وتأذِّيها، فلو فرضَ أن قريبَه لم يصل إليه إحسانٌ ولا إساءة قطُّ لم يفسقْ بذلك؛ لأنَّ الأبوين إذا فُرض ذلك في حقِّهما من غير أن يفعلَ معهما ما يقتضي التأذِّي العظيم ـ لغناهما مثلًا ـ لم يكن كبيرة فأولى بقية الأقارب؛ ولو فرض أنَّ الإنسانَ لم يقطع عن قريبه ما أَلِفه منه من الإحسان لكنه فعل معه مُحرَّمًا صغيرة، أو قطَّب في وجهه، أو لم

---

(١) ٦/ ١٤.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ٧٣.

(٣) في الزواجر ٢/ ٧٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

يَقُمْ له في مَلَأ ولا عَبأ به، لم يكن ذلك فسقًا، بخلافه مع أحد الأبوين، لأن تأكُّد حقِّهما اقتضى أن يتميزا على بقية الأقاربِ بما لا يُوجد نظيرُه فيهم.

وعلى ضبط الثاني بما ذكرته فلا فرق بين أن يكون الإحسانُ الذي أَلِفَه منه قريبُه مالًا أو مُكاتبةً أو مُراسلةً أو زيارة أو غير ذلك، فقطع ذلك كلّه ـ بعد فعله ـ لغير عذر كبيرةٌ، وينبغي أن يُراد بالعذر في المال فَقْدُ ما كان يصله به، أو تجدّد احتياجه إليه، أو أن يندبه الشارعُ إلى تقديم غير القريب عليه لكونه أحوجَ أو أصلحَ، فعدم الإحسان إلى القريب أو تقديمُ الأجنبي عليه لهذا العذر يرفع عنه [الفسق] وإن انقطع بسبب ذلك ما أَلِفَه منه القريبُ؛ لأنه إنما راعى أمرَ الشارع بتقديم الأجنبيِّ عليه. وواضحٌ أن القريبَ لو أَلِفَ منه قَدْراً معيَّنًا من المال يُعطيه إياه كلَّ سنة مثلًا فَنَقَصه لا يفسق بذلك، بخلاف ما لو قَطَعه من أصله لغير عُذْر.

وأما عُذر الزيارة فينبغي ضبطُه بعذر الجمعة لجامع أنَّ كلًّا فرضُ عين، وتركُه كبيرة. وأما عُذر ترك المُكاتبة والمُراسلة فهو أن لا يَجِدَ من يَثِقُ به في أداء ما يُرسله معه. والظاهرُ أنه إذا ترك الزيارةَ التي أُلِفَتْ منه في وقتٍ مخصوصٍ لعُذر لا يلزمه قضاؤها في غير ذلك الوقت.

والأولاد والأعمام من الأرحام، وكذا الخالة، فيأتي فيهم وفيها ما تقرَّر من الفَرْق بين قَطْعهم وعقوقِ الوالدين، وأما قول الزركشي: صحَّ في الحديث أنَّ: «الخالة بمنزلة الأم»[(١)] و: «أنَّ عَمَّ الرجل صنوُ أبيه»[(٢)]، وقضيتهما أنهما مثلُ الأب والأمِّ حتى في العقوق = فبعيدٌ جدًّا، ويكفي مُشابَهتهما في أمرٍ ما كالحضانة تَثبتُ للخالةِ كما تثبتُ للأمِّ، وكذا المَحْرميَّة، وكالإكرام في العمِّ والمَحْرميَّة وغيرهما مما ذكر. انتهى المراد منه.

ولو قيل: إنَّ الصغيرةَ تُعَدُّ كبيرةً لو فُعلت مع القريبِ لكنها دون ما لو فُعلت مع أحدِ الأبوين، لم يبعدْ عندي لِتفاوتِ قُبحِ السيئات بحسب الإضافات، بل لا يبعدُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٩) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٥) من حديث علي ﷺ مطولًا.

على هذا أن يكون قبحُ قَطع الرحم متفاوتاً باعتبار الشخص القاطع وباعتبار الشخص المقطوع، ومتى سُلِّم التفاوت فليُقَلْ به في العقوق، ويكون عقوقُ الأمِّ أقبحَ من عقوق الأب، وكذا عقوقُ الولدِ الذي يعبأ به أقبح من عقوق الولدِ الذي لا يعبأ به، ويتفرَّع من ذلك ما يتفرَّع مما لا يخفى على فقيه.

واستدلَّ بالآية عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه على منع بيعِ أمِّ الولد؛ روى الحاكم في «المستدرك» ـ وصحَّحه ـ وابن المنذر عن بُريدة قال: كنتُ جالسًا عند عمر إذ سمع صائحًا فسأل فقيل: جاريةٌ من قريش تباعُ أُمُّها. فأرسل يدعو المهاجرين والأنصارَ، فلم تمضِ ساعةٌ حتى امتلأت الدارُ والحُجرة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أما بعدُ، فهل تعلمونه كان مما جاء به محمدٌ ﷺ القطيعة، قالوا: لا، قال: فإنها قد أصبحَتْ فيكم فاشيةً، ثم قرأ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ثم قال: وأيُّ قطيعةٍ أقطعُ من أنْ تُباع أُمُّ امرئ فيكم؟! قالوا: فاصنَعْ ما بدا لك. فكتب في الآفاقِ أنْ لا تُباعَ أمُّ حُرٍّ، فإنها قطيعةُ رحم، وأنه لا يحلُّ[1].

واستدلَّ بها أيضًا على جوازِ لعن يزيدَ عليه من الله تعالى ما يستحقُّ، نقل البرزنجي في «الإشاعة» والهيتمي في «الصواعق» أن الإمام أحمد لما سأله ولدُه عبد الله عن لعن يزيدَ، قال: كيف لا يُلعن مَنْ لَعَنه الله تعالى في كتابه، فقال عبد الله: قد قرأتُ كتابَ الله عز وجل فلم أجِدْ فيه لعنَ يزيد؟! فقال الإمام: إن الله تعالى يقول: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ الآية، وأيُّ فسادٍ وقطيعة أشدُّ مما فعله يزيد[2]؟! انتهى.

وهو مبنيٌّ على جواز لعنِ العاصي المُعيَّن من جماعة لُعنوا بالوصف، وفي ذلك خلافٌ، فالجمهور على أنه لا يجوز لعنُ المُعيَّن فاسقًا كان أو ذميًا، حيًّا كان أو ميتًا ولم يُعلم موته على الكفر، لاحتمال أن يُختَم له أو خُتِمَ له بالإسلام، بخلاف من عُلم موته على الكفر كأبي جهل.

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٥٨.

(٢) الصواعق المحرقة ص٢٢٢.

وذهب شيخ الإسلام السراج البُلقيني إلى جواز لعنِ العاصي المُعيَّن لحديث «الصحيحين»: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشِه فأبَتْ أن تجيءَ فباتَ غضبانَ، لعنتها الملائكةُ حتى تُصبحَ» وفي رواية: «إذا باتَتِ المرأة مهاجرةً فراشَ زوجها لعنتها الملائكةُ حتى تصبحَ»(١). واحتمالُ أن يكون لعنُ الملائكةِ عليهم السلام إياها ليس بالخصوص بل بالعموم، بأن يقولوا: لعنَ اللهُ من باتَتْ مهاجرةً فراشَ زوجها = بعيدٌ، وإنْ بحثَ به معه ولده الجلال البُلقيني.

وفي «الزواجر»: لو استدلَّ لذلك بخبر مسلم: أنه ﷺ مَرَّ بحمار وُسِمَ في وجهه فقال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ فعلَ هذا»(٢) لكان أظهرَ، إذ الإشارةُ بهذا صريحةٌ في لعنِ مُعَيَّن إلا أن يؤوَّل بأن المراد الجنس، وفيه ما فيه(٣). انتهى.

وعلى هذا القول لا توقُّفَ في لعن يزيدَ لِكَثْرَةِ أوصافه الخبيثة وارتكابِهِ الكبائر في جميعِ أيام تكليفهِ، ويكفي ما فعله أيامَ استيلائه بأهل المدينةِ ومكةَ، فقد روى الطبراني بسند حسن: «اللَّهمَّ مَنْ ظَلَم أهلَ المدينة وأخافهم فأَخِفه، وعليه لعنةُ الله والملائكة والناسِ أجمعين، لا يُقبل منه صَرْفٌ ولا عَدْل»(٤) والطامَّةُ الكبرى ما فعله بأهل البيت ورضاهُ بقتل الحسين على جدِّه وعليه الصلاة والسلام، واستبشاره بذلك، وإهانته لأهل بيته مما تواتر معناه وإنْ كانَتْ تفاصيلُه آحادًا، وفي الحديث: «ستَّةٌ لعنتهم - وفي رواية لعنهم اللهُ وكلُّ نبيٍّ مُجاب الدعوة -: المُحرِّف لكتاب الله - وفي رواية: الزائدُ في كتاب الله - والمُكذِّب بقَدَر الله، والمُتسلِّط بالجبروت لِيُعزَّ مَنْ أذلَّ اللهُ ويُذِلَّ من أعزَّ اللهُ، [والمستحلُّ لحرم الله] والمُستحلُّ من عِتْرتي، والتاركُ لِسُنَّتي»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (٩٦٧١)، والبخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. والرواية الثانية عند البخاري (٥١٩٤).

(٢) صحيح مسلم (٢١١٧) من حديث جابر ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٤١٦٤).

(٣) الزواجر ٢/ ٥٦.

(٤) المعجم الكبير (٦٦٣٦) من حديث السائب بن خلاد.

(٥) أخرجه الترمذي (٢١٥٤) من حديث عائشة ﷺ، وما بين حاصرتين منه، وذكر أن الأصحَّ عن علي بن حسين عن النبي ﷺ مرسلاً.

وقد جزم بكفره وصرَّح بلَعْنه جماعةٌ من العلماء منهم الحافظُ ناصرُ السنة ابن الجوزي، وسبقه القاضي أبو يعلى. وقال العلامة التفتازاني: لا تَوقُّفَ في شأنه بل في إيمانه، لعنة الله تعالى عليه وعلى أنصاره وأعوانه[1]. وممن صرَّح بلعنه الجلالُ السيوطي عليه الرحمة.

وفي «تاريخ ابن الوردي» وكتاب «الوافي بالوَفَيات»[2] أن السبي لما وردَ من العراق على يزيدَ، خرج فلقي الأطفالَ والنساء من ذُرِّية عليٍّ والحسين ﵄ والرؤوس على أطرافِ الرِّماح وقد أشرفوا على ثنية جيرون، فلما رآهم نعب غراب فأنشأ يقول:

لما بَدَتْ تلك الحمولُ وأشرقَتْ تلك الرؤوس على شفا جيرونِ
نَعَبَ الغرابُ فقلت قل أو لا تقل فقد اقتضيت من الرسول ديوني

يعني أنه قتلَ بمن قتلَه رسولُ الله ﷺ يومَ بدر كجدِّه عُتبة وخالِهِ ولد عُتبة وغيرهما. وهذا كفرٌ صريحٌ، فإذا صحَّ عنه فقد كفرَ به، ومثلُه تمثُّله بقول عبد الله بن الزِّبعرى قبلَ إسلامه:

ليتَ أشياخي............ الأبيات[3]

وأفتى الغزالي[4] عفا الله عنه بحرمة لَعْنه، وتعقَّب السفارينيُّ من الحنابلة نَقْلَ البرزنجي والهيتمي السابق عن أحمد رحمه الله تعالى، فقال: المحفوظُ عن الإمام أحمد خلافُ ما نَقَلا، ففي «الفروع» ما نصُّه: ومن أصحابنا من أخرجَ الحجَّاج عن الإسلام، فيتوجَّه عليه يزيدُ ونحوه، ونصُّ أحمدَ خلافُ ذلك، وعليه الأصحاب.

---

(١) ونقله عنه المناوي في الفيض ٣/ ٨٤.

(٢) وكذا ذكر الرحيباني في مطالب أولي النهى، فصل: تلزم السيد نفقة وكسوة وسكنى عرفاً، وعبارته فيه: قال الوافي في الوفيات: إن السبي... إلخ. والأبيات التي سترد قريباً مذكورة فيه، وكذا ما بعدها من الكلام. ولم نقف عليه في الوافي بالوفيات للصفدي.

(٣) أبيات ابن الزبعرى في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٣٦، وهذا البيت بتمامه:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

(٤) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٤.

ولا يجوز التخصيصُ باللعنة، خلافًا لأبي الحسين وابن الجوزي وغيرهما، وقال شيخ الإسلام - يعني - والله تعالى أعلم - ابن تيمية -: ظاهرُ كلام أحمد الكراهة(١).

قلت: والمختارُ ما ذهب إليه ابنُ الجوزي وأبو حسين القاضي(٢) ومَنْ وافقهما. انتهى كلام السفاريني. وأبو بكر بن العربي المالكي عليه من الله تعالى ما يستحقُّ أعظمَ الفِرْيَةَ، فزعمَ أنَّ الحسينَ قُتل بسيف جدِّه ﷺ(٣)، وله من الجَهَلةِ موافقون على ذلك ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

قال ابنُ الجوزي عليه الرحمة في كتابه «السر المصون»: من الاعتقادات العامة التي غَلبت على جماعة مُنتسبين إلى السنة أن يقولوا: إن يزيدَ كان على الصواب، وإنَّ الحسينَ ﷺ أخطأ في الخروج عليه، ولو نظروا في السير لعلموا كيف عُقدت له البيعة وألزم الناس بها، ولقد فعل في ذلك كلَّ قبيح، ثم لو قدَّرنا صحة عَقْد البيعة فقد بَدَتْ منه بوادٍ كلُّها تُوجب فسخ العقد، ولا يميل إلى ذلك إلا كلُّ جاهل عاميِّ المذهب يظن أنه يُغِيظُ الرافضة.

هذا، ويعلم من جميع ما ذكره اختلاف الناس في أمره؛ فمنهم من يقول: هو مسلمٌ عاصٍ بما صدر منه مع العِتْرة الطاهرة، لكن لا يجوز لعنه، ومنهم من يقول: هو كذلك ويجوز لعنه، مع الكراهة أو بدونها، ومنهم من يقول: هو كافر ملعون، ومنهم من يقول: إنه لم يعصِ بذلك، ولا يجوز لعنه، وقائلُ هذا ينبغي أن يُنظَم في سلسلة أنصار يزيد.

وأنا أقول: الذي يغلبُ على ظني أن الخبيثَ لم يكن مُصدقًا برسالةِ النبيِّ ﷺ وأنَّ مجموعَ ما فعل مع أهلِ حَرَمِ الله تعالى وأهلِ حَرَم نبيِّه عليه الصلاة والسلام وعِتْرته الطَّيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات وما صَدَر منه من المَخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقةٍ من المصحف الشريف في قَذَر،

---

(١) الفروع لابن مفلح ١٠/ ١٩٠، وكلام شيخه ابن تيمية في كتابه منهاج السنة النبوية ٢/ ٢٥٢.

(٢) الذي ذكره المصنف آنفاً هو: القاضي أبو يعلى. وهو أبو أبي الحسين القاضي، المذكور هنا، ولعل الأب والابن قالا بالتصريح بلعن يزيد.

(٣) العواصم من القواصم ص٢٣٢ (القسم الذي حقَّقه محب الدين الخطيب).

ولا أظن أنَّ أمرَه كان خافيًا على أَجِلَّة المسلمين إذ ذاك، ولكن كانوا مَغْلوبين مقهورين لم يَسَعهم إلا الصبر ليقضي اللهُ أمراً كان مفعولًا، ولو سُلِّم أن الخبيثَ كان مسلمًا فهو مسلمٌ جمع من الكبائر ما لا يُحيط به نِطاق البيان، وأنا أذهبُ إلى جوازِ لَعْن مثله على التعيين، ولو لم يُتَصَوَّر أن يكون له مِثْلٌ من الفاسقين، والظاهرُ أنه لم يَتُبْ، واحتمالُ توبتِهِ أضعفُ من إيمانه، ويلحقُ به ابنُ زياد وابن سعد[1] وجماعةٌ، فلعنةُ الله عز وجل عليهم أجمعين، وعلى أنصارهم وأعوانهم وشِيعتهم ومن مال إليهم إلى يوم الدين ما دَمَعَتْ عينٌ على أبي عبد الله الحسين، ويُعجبني قولُ شاعرِ العصر ذو الفضل الجلي عبد الباقي أفندي العمري الموصلي[2] وقد سُئل عن لَعْنِ يزيد اللعين:

يزيد على لعني عريض جنابه فأغدو به طول المدى ألعن اللعنا

ومَنْ كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضلِّيل فليقل: لعنَ اللهُ عز وجل مَنْ رضي بقتل الحسين ومَنْ آذى عِتْرَةَ النبيِّ ﷺ بغيرِ حقٍّ ومَنْ غَصَبهم حَقَّهم، فإنه يكون لاعنًا له لدخوله تحت العموم دخولًا أوَّليًّا في نفس الأمر، ولا يُخالِفُ أحدٌ في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي المارِّ ذِكْرُه وموافقيه، فإنهم على ظاهرِ ما نُقل عنهم لا يُجوِّزون لعن من رضي بقتل الحسين رضي الله عنه، وذلك لعمري هو الضلالُ البعيد، الذي يكادُ يزيدُ على ضلال يزيد.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: لا يُلاحظونه ولا يتصفَّحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من المُوبقات ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ تمثيلٌ لعدم وصولِ الذِّكر إليها وانكشاف الأمر لها، فكأنه قيل: أفلا يتدبَّرون القرآن إذْ وصل إلى قلوبهم أم لم يَصِلْ إليها، فتكون «أمْ» متصلةً على مذهب سيبويه، وظاهر كلام بعضٍ اختيارُه.

---

(١) وهما: عبيد الله بن زياد والي الكوفة والبصرة زمن يزيد، وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي قتل الحسين رضي الله عنه.

(٢) هو عبد الباقي بن سليمان، شاعر، مؤرخ، ولي بالموصل وبغداد أعمالًا حكومية، له ديوان شعر، ونزهة الدهر في تراجم فضلاء العصر. توفي ببغداد سنة (١٢٧٩هـ)، الأعلام ٣/ ٢٧١.

وذهب أبو حيان[١] وجماعة إلى أنها منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من التوبيخ بترك التدبُّر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مُقفلة لا تقبل التدبُّر والتفكُّر، والهمزة للتقرير.

وتنكيرُ القلوب لتهويل حالها وتفظيع شأنها وأمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب مُنكرة لا يُعرف حالها ولا يُقادر قَدْرُها في القساوة، وقيل: لأنَّ المرادَ قلوبُ بعضٍ منهم، وهم المنافقون، فتنكيرُها للتبعيض أو للتنويع كما قيل. وإضافةُ الأقفال إليها للدلالة على أنها أقفالٌ مخصوصة بها مناسبةٌ لها غير مُجانسة لسائر الأقفال المعهودة.

وقرئ: «إقفالها» بكسر الهمزة[٢]، وهو مصدر من الإقفال، و«أَقْفُلها» بالجمع[٣] على أَفْعُل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي: رَجَعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، قال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا، ثم نافقَتْ قلوبهم.

وفي «إرشاد العقل السليم»[٤]: هم المنافقون الذين وُصِفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الأحوال، فإنهم قد كفروا به عليه الصلاة والسلام ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بالدلائل الظاهرة والمُعجزات الباهرة القاهرة.

وأخرج عبد الرزاق وجماعة عن قتادة أنه قال: هم أعداءُ الله تعالى أهل الكتاب يعرفون بَعْثَ النبيِّ ﷺ ويجدونه مكتوبًا في التوراة والإنجيل، ثم يكفرون به عليه الصلاة والسلام[٥]. وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنه قال: «إن الذين ارتدوا» إلخ: اليهودُ ارتدُّوا عن الهُدى بعد أن عَرَفوا أن محمدًا ﷺ نبيٌّ[٦]. والمختار ما تقدَّم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٠.

(٤) ٨/ ٩٩.

(٥) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢٤.

(٦) الدر المنثور ٦/ ٦٦.

وأيًّاما كان فالموصولُ اسمُ «إنَّ»، وجملة قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ خبرها، كقولك: إن زيدًا عمرو مَرَّ به. أي: سهَّلَ لهم ركوبَ العظائم، من السَّوَل ـ بفتحتين ـ وهو الاسترخاء، استُعير للتسهيل، أي: لعدِّه سهلًا هيِّنًا حتى لا يُبالى به، كأنَّه شُبِّه بإرخاء ما كان مشدودًا.

وقيل: أي: حملهم على الشهوات، من السُّؤل، وهو التمنِّي، وأصلُه حملهم على سؤلهم، أي: ما يشتهونه ويتمنَّونه، فالتفعيل للحمل على المصدر، كغَرَّبه إذا حمله على الغُربة، إلا أنهم جعلوا المصدر بمعنى اسم المفعول، ونُقل ذلك عن ابن السِّكيت. واعتُرض بأنَّ السُّؤل بمعنى التمنِّي من السؤال، فهو مهموزٌ، والتسويل واويٌّ، ومعناه التزيين، فلا مناسبةَ لا لفظًا ولا معنى، فالقول باشتقاق سَوَّل منه خطأ. ورُدَّ بأن السُّؤل من السؤال، وله استعمالان فيكون مهموزًا، وهو المعروف، ومعتلًّا، يقال: سالَ يَسال كخاف يخاف، وقالوا منه: يتساولان ـ بالواو ـ فيجوز كون التسويل من السُّؤل على هذه اللغة، أو هو على المشهورة خُفِّف بقلب الهمزة، ثم التزم، ونظيره: تَدَيَّرَ من الدار لاستمرار القلب في ديَّار، وكذلك تحيَّز لاستمرار القلب في حيز[1]، ويكون مآلُ المعنى على هذا: حَمَلَهم على الشهوات.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنه: «سُوِّل لهم» مبنيًّا للمفعول[2]، وخرج ذلك على تقدير مضاف، أي: كيد الشيطان سوِّل لهم، وجُوِّز تقديره: سَوّل كيدُه لهم، فحذف وقام الضمير المجرور مُقامه، فارتفع واستَتر، قيل: وهو أولى، لأنه تقديرٌ في وقت الحاجة، ولا يخفى أن الأولَ أقلُّ تكلُّفًا.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾ أي: ومَدَّ لهم الشيطانُ في الأماني والآمال، ومعنى المَدِّ فيها توسيعُها وجعلها ممدودةً بنفسها أو بزمانها، بأن يُوسوس لهم بأنكم تنالون في الدنيا كذا وكذا مما لا أصلَ له حتى يعوقهم عن العمل، وأصلُ الإملاء: الإبقاء ملاوةً من الدهر، أي: بُرهة، ومنه قيل: المعنى: وعدَهم بالبقاء الطويل.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٣.

(٢) ينظر تفصيل هذه المسألة عند تفسير الآية (١٦) من سورة الأنفال.

وجعل بعضُهم فاعلَ «أملى» ضميرَه تعالى، والمعنى: أمهلهم ولم يُعاجلهم بالعقوبة؛ وفيه تفكيكٌ، لكن أُيِّد بقراءة مجاهد وابن هُرمز والأعمش وسلام ويعقوب: «وأُمْلِيْ» بهمزة المتكلم[1]، مضارع: أملى، فإنَّ الفاعلَ حينئذ ضميرُه تعالى على الظاهر، والأصل توافقُ القراءتين، وجُوِّز أن يكون ماضيًا مجهولًا من المَزيد سُكِّن آخره للتخفيف كما قالوا في بَقِيَ بَقِي بسكون الياء. وعلى الظاهر جُوِّز أن تكونَ الواو للاستئناف وأن تكون للحال، ويُقدَّر مبتدأ بعدَها، أي: وأنا أملي، لئلا يكون شاذًّا، كـ: قُمت وأَصُكُّ وجهه، وجُوِّزت الحالية في قراءة الجمهور أيضًا على جعل الفاعل ضميرَه تعالى، فحينئذ تُقدَّر «قد» على المشهور.

وقرأ ابن سيرين والجحدري وشيبة وأبو عمرو وعيسى: «وأُمليَ» بالبناء للمفعول[2]، فـ «لهم» نائب الفاعل، أي: أُمهلوا ومُدَّ في أعمارهم، وجُوِّز أن يكون ضميرَ الشيطان، والمعنى: أُمهل الشيطانُ لهم، أي: جُعل من المُنْظَرين إلى يوم القيامة لأجلهم، ففيه بيانٌ لاستمرارِ ضلالهم وتقبيح حالهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من ارتدادهم، لا إلى الإملاء كما نُقل عن الواحدي[3]، ولا إلى التسويل كما قيل، لأن شيئًا منهما ليس مُسبَّبًا من القول الآتي، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟﴾ يعني المنافقين ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ هم بنو قريظة والنضير من اليهود الكارهين لنزول القرآن على النبيِّ عليه الصلاة والسلام مع عِلْمهم بأنه من عند الله تعالى؛ حسدًا وطمعًا في نزوله على أحدٍ منهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في بعض أموركم وأحوالكم، وهو ما حكي عنهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١] وقيل: في بعض ما تأمرون به كالتناصر على رسول الله ﷺ.

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٣، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٣، وقراءة أبي عمرو في النشر ٢/ ٣٧٤.
(٣) الوسيط ٤/ ١٢٨.

وقيل: القائلون اليهود الكافرون به ﷺ بعد ما وجدوا نَعْته الشريف في كتابهم، والمَقولُ لهم المنافقون؛ كان اليهود يَعِدونهم النُّصرة إذا أعلنوا بعداوة رسول الله عليه الصلاة والسلام. وقيل: القائلون أولئك اليهود والمَقولُ لهم المشركون كانوا يَعِدونهم النُّصرة أيضًا إذا حاربوا. وتُعقِّب كلا القولين بأنَّ كُفرَ اليهود به عليه الصلاة والسلام ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدورُه عنهم على رأي القائل، بل من حيث إنكارهم بَعْثه عليه الصلاة والسلام وقد عَرَفوه كما عرفوا أبناءَهم وآباءهم، ومنه يُعلم ما في قول بعضهم: إنَّ القائلين هم المنافقون واليهود، والمَقول لهم المشركون، وما فسَّرنا به الآية الكريمةَ مَرويٌّ عن الحِبْر رضي الله عنه.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ۝٢٦﴾ أي: إخفاءهم ما يقولونه لليهود، أو كلّ قبيح، ويدخل ذلك دخولًا أوليًّا.

وقرأ الجمهور: «أسرارهم» بفتح الهمزة(١)، أي: يعلم الأشياء التي يُسرُّونها، ومنها قولهم هذا الذي أظهره سبحانه لتفضيحهم. وقال الإمام(٢): الأظهر أنْ يقال: المرادُ: يعلم سبحانه ما في قلوبهم من العلم بصدقِ رسوله ﷺ. وفيه ما لا يخفى.

والجملةُ اعتراضٌ مقرِّر لما قبله متضمِّن للوعيد.

والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلها، «وكيف» منصوبٌ بفعل محذوف هو العاملُ في الظرف، كأنه قيل: يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحِيل، فكيف يفعلون إذا توفَّتهم الملائكة، وقيل: مرفوعٌ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: فكيف حالهم أو حيلتهم إذا توفَّتهم.. إلخ، وزعم الطبري(٣) أن التقدير: فكيف عِلْمه تعالى بأسرارهم إذا توفَّتهم.. إلخ. وليس بشيء.

ووقت التوفِّي هو وقتُ الموت، والملائكة عليهم السلام مَلَكُ الموت وأعوانُه.

---

(١) قرأ بالكسر حفص وحمزة والكسائي وخلف، والباقون بالفتح. التيسير ص ٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٤.

(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٦٧.

(٣) في تفسيره ٢١/ ٢٢١.

وقرأ الأعمش: «توفَّاهم» بالألف بدل التاء[1]، فاحتمل أن يكون ماضياً، وأن يكونَ مضارعاً حُذف منه أحدُ تاءيه، والأصل: تتوفاهم.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ حالٌ من الملائكة، وجوِّز كونه حالاً من ضمير «توفتهم»، وضَعَّفه أبو حيان[2]، وهو على ما قيل تصويرٌ لتوفِّيهم على أهول الوجوه وأفظعها، وإبرازٌ لما يخافون منه ويَجْبُنون عن القتال لأجله، فإنَّ ضربَ الوجوه والأدبار في القتال والجهاد مما يُتَّقى، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يُتوفَّى أحدٌ على معصية إلا تضربُ الملائكةُ في وجهه وفي دُبره[3]. والكلام على الحقيقة عنده، ولا مانعَ من ذلك وإن لم يحسَّ بالضرب مَنْ حضر، وما ذلك إلا كسؤال المَلكين وسائرِ أحوال البرزخ.

والمراد بالوجه والدُّبر، قيل: العضوان المعروفان. أخرج ابنُ المنذر عن مجاهد أنه قال: يضربون وجوههم واستاههم، ولكن الله سبحانه كريم يكني[4].

وقال الراغب وغيره: المراد: القُدَّام والخَلْف[5].

وقيل: وقتُ التوفِّي وقت سوقهم في القيامة إلى النار، والملائكةُ ملائكة العذاب يومئذ. وقيل: هو وقت القتال، والملائكةُ ملائكةُ النصر تضرب وجوههم إن ثبتوا وأدبارَهم إنْ هربوا نُصرةً لرسول الله ﷺ. وكلا القولين كما ترى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوفِّي الهائل ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ ما يرضاه عز وجل من الإيمان والطاعات حيث كفروا بعد الإيمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع إخوانهم اليهود.

وقيل: «ما أسخط الله» كتمانُ نعت الرسول ﷺ، و«رضوانه» ما يُرضيه سبحانه من إظهار ذلك. وهو مبنيٌّ على أنَّ ما تقدَّم إخبارٌ عن اليهود، وقد سمعتَ ما فيه.

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠، والبحر ٨/ ٨٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٤.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٧، وذكره القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٨١ بنحوه.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٦٦.
(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (دبر).

ولمَّا كان اتِّباعُ ما أسخط الله تعالى مقتضيًا للتوجُّه ناسبَ ضَرْبَ الوجه، وكراهة رضوانه سبحانه مقتضيًا للإعراض ناسبَ ضَرْبَ الدُّبر، ففي الكلام مُقابلة بما يُشبه اللَّفَّ والنَّشر.

﴿فَأَحْبَطَ﴾ لذلك ﴿أَعْمَٰلَهُمْ ۝٢٨﴾ التي عَمِلوها حالَ إيمانهم من الطاعات، وجُوِّز أنْ يُرادَ ما كان بعدُ من أعمال البرِّ التي لو عَمِلوها حالَ الإيمان لانتفعوا بها.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون الذين فُصِّلَتْ أحوالهم الشنيعة وُصِفوا بوصفهم السابق لكونه مدارًا لما نعي عليهم بقوله تعالى: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩﴾ فـ «أم» منقطعة، و«أنْ» مُخفَّفة من «أنَّ»، واسمها ضميرُ الشأن، والجملة بعدَها خبرُها. والأضغان جمعُ ضِغْن: وهو الحِقْد، وقيَّده الراغبُ[1] بالشديد، وقد ضَغِنَ بالكسر، وتضاغن القومُ واضطغنوا: أبطنوا الأحقاد، ويقال: اضطغنت الصبيَّ إذا أخذتَه تحت حضنك، وأنشد الأحمر:

كـأنـه مُـضـطـغـنٌ صَـبِـيَّـا[2]

وفرس ضاغن: لا يُعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب، وأصلُ الكلمة من الضغن وهو الالتواء والاعوجاج في قوائم الدابة والقناة وكلّ شيء، قال بشر:

كـذات الـضِّـغْـنِ تـمشي في الـرِّفـاق[3]

وأنشد الليث:

إنَّ قـنـاتـي مـن صـلـيـبـات الـقـنَـا

(١) المفردات (ضغن).

(٢) الصحاح (ضغن)، وعزاه في اللسان (سوس) لامرأة عامرية، وقبله:

لـقـد رأيـت رجـلاً دُهْـريًّـا يـمـشي وراء الـقـوم سَـيْـتَـهِـيَّـا

(٣) عجز بيت لبشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه ص ١٧٨، وصدره: فإنِّي والشكاةَ مِنَ الِ لَأمٍ. والرِّفاق: أن يُشدَّ حبل من عنق البعير إلى رُسغه. ووقع في الأصل و(م): الرقاق.

مـا زادهـا الـتـشـقـيـفُ إلا ضَـغَـنـا[1]

والحقد في القلب يُشبَّه به.

وقال الليث وقطرب: الضِّغن: العداوة، قال الشاعر:

قـل لابـن هـنـدٍ مـا أردتَ بـمـنـطـقٍ ساء الـصـديـقَ وشـيَّـد الأضـغـانـا[2]

وهذا لا يُنافي الأول، لأنَّ الحقدَ العداوة لأمر يُخفيه المرء في قلبه، والإخراج مختصٌّ بالأجسام، والمرادُ به هنا الإبراز، أي: بل أَحَسِبَ الذين في قلوبهم حقدٌ وعداوةٌ للمؤمنين أنه لن يُبرِزَ الله تعالى أحقادَهم ويُظهرها للرسول ﷺ والمؤمنين فتبقى مستورةً، والمعنى: إن ذلك مما لا يكادُ يدخل تحت الاحتمال.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ إراءتك إيَّاهم ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناكهم، على أنَّ الرؤية علمية ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ تفريعٌ لمعرفته ﷺ على تعريفِ الله عز وجل، ويجوزُ أن تكونَ الرؤيةُ بصريةً على أن المعنى: أنه ﷺ يعرفهم معرفةً متفرِّعة على إراءته إياهم. والالتفاتُ إلى نون العظمة للإيماء إلى العناية بالإراءة، والسِّيما: العلامة، والمعنى هنا على الجمع لعمومها بالإضافة، لكنها أُفردت للإشارة إلى أنَّ علاماتِهم متَّحدةُ الجنس، فكأنها شيء واحدٌ، أي: فَلَعرفتهم بعلاماتٍ نَسِمُهم بها.

ولام «فلعرفتهم» كلامِ «لأريناكهم» الواقعة في جواب «لو» لأن المعطوفَ على الجوابِ جواب، وكُرِّرت في المعطوف للتأكيد، وأما التي في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فواقعةٌ في جوابِ قَسَم محذوف، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة الشرطية.

و«لحن القول» أسلوبٌ من أساليبه مطلقًا، أو المائلة عن الطريق المعروفة، كأن يعدلَ عن ظاهره من التصريح إلى التعريض والإبهام، ولذا سُمِّي خطأ الإعراب به لِعدوله عن الصواب. وقال الراغب: اللَّحن: صرفُ الكلام عن سَنَنه الجاري عليه؛ إما بإزالة الإعراب، أو التصحيف وهو المذمومُ، وذلك أكثرُ استعمالًا، وإما بإزالته

---

(١) الرجز في تهذيب اللغة ٨/ ١١، واللسان (ضغن).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٨٢.

عن التصريح وصَرْفه بمعناه إلى تعريض وفحوى، وهو محمودٌ من حيث البلاغة، وإليه أشار بقوله الشاعر عند أكثر الأدباء:

منطقٌ صائبٌ وتلحنُ أحيا نًا وخيرُ الحديث ما كان لحنا

وإيَّاه قصد بقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾[١].

وفي «البحر»[٢]: يقال: لَحَنْتُ له ـ بفتح الحاء ـ أَلْحَنُ لحنًا، قلت له قولًا يفهمه عنك ويخفى على غيره، ولَحِنَه هو ـ بالكسر ـ فَهِمه، وأَلْحنته أنا إيَّاه، ولاحَنْتُ الناسَ: فاطَنْتُهم.

وقيل: «لحنُ القول» الذهابُ عن الصواب. وعن ابن عباس: «لحن القول» هنا هو قولهم: ما لنا إنْ أطعنا من الثواب؟ ولا يقولون: ما علينا إنْ عَصَينا من العقاب؟ وكان هذا الذي ينبغي منهم. وقال بعض من فسَّره بالأسلوب المائل عن الطريق المعروفة: إنهم كانوا يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يُخاطبون بها الرسول ﷺ مما ظاهرُه حسنٌ ويعنون به القبيحَ، وكانوا أيضًا يتكلَّمون بما يُشعر بالاتِّباع وهم بخلاف ذلك، كقولهم إذا دعاهم المؤمنون إلى نصرهم: إنا معكم، وبالجملة إنهم كانوا يتكلَّمون بكلام ذي دسائسَ، وكان ﷺ يعرفهم بذلك.

وعن أنس ﷺ: ما خَفِيَ بعدَ هذه الآيةِ على رسول الله ﷺ شيء من المنافقين، كان عليه الصلاة والسلام يعرفهم بسيماهم، ولقد كُنَّا في بعض الغزوات، وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناسُ، فناموا ذاتَ ليلة وأصبحوا وعلى جبهةِ كلِّ واحد منهم مكتوبٌ: هذا منافق[٣]. وفي دعواه أنه ﷺ كان يعرفهم بسيماهم إشكال، فإن «لو» ظاهرها عدمُ الوقوع، بل المناسبُ معرفتهم من لَحْن

---

(١) المفردات (لحن)، والبيت لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري، وهو في الشعر والشعراء ٢/ ٧٨٢، والأغاني ١٧/ ٢٣٦.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٧١.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٧، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥١: ذكره الثعلبي بغير سند، ولم أجده.

القول، وكأنه حمله على أنه وعدٌ بالوقوع دالٌّ على الامتناع فيما سلف، ولقد صدق وعده، واستشهد عليه بما اتفق في بعض الغزوات.

ولا تنحصر السيما بالكتابة، بل تكون بغيرها أيضاً مما يَعرفهم به النبيُّ ﷺ كما يعرفُ القائفُ حالَ الشخص بعلاماتٍ تدلُّ عليه، وكثيراً ما يعرف الإنسان مُحِبَّه ومُبغِضَه من النظر، ويكادُ النظرُ يَنطِقُ بما في القلب، وقد شاهدنا غيرَ واحدٍ يعرف السُّنِّيَّ والشيعيَّ بسماتٍ في الوجه، وإنْ صحَّ أنَّ بعضَ الأولياء قُدِّسَتْ أسرارُهم كان يعرف البرَّ والفاجرَ والمؤمنَ والكافر، ويقول: أَشَمُّ من فلان رائحةَ الطاعة، ومن فلان رائحةَ المعصية، ومن فلانٍ رائحةَ الإيمان، ومن فلان رائحةَ الكفر، ويظهرُ الأمرُ حسبما أشار، فرسول الله ﷺ بتلك المعرفة أَولى وأَولى؛ ولعلَّها بعلامات وراء طَور عقولنا، والنور المذكور في خبر: «اتقوا فِراسةَ المؤمن فإنه ينظرُ بنورِ الله تعالى»[1] متفاوتُ الظُّهور بحسب القابليات، وللنبي ﷺ أتمُّه.

وذكروا من علامات النِّفاق بُغضَ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه؛ فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كُنَّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلا ببغضهم عليَّ بن أبي طالب. وأخرج هو وابن عساكر عن أبي سعيد الخُدري ما يُؤيِّده[2]، وعندي أن بُغضَه ﷺ من أقوى علاماتِ النفاق، فإنْ آمنتَ بذلك فيا ليت شعري ماذا تقول في يزيد الطَّريد أكان يحبُّ عليًّا كرم الله تعالى وجهه أمْ كان يبغضه؟ ولا أظنكَ في مِرْية من أنه عليه اللعنة كان يبغضه ﷺ أشدَّ البُغض، وكذا يبغضُ ولديه الحسنَ والحسين على جدِّهما وأبويهما وعليهما الصلاة والسلام كما تدلُّ على ذلك الآثارُ المتواترة معنى، وحينئذ لا مجالَ لك من القول

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث غريب. وأخرجه الشهاب في مسنده (٦٦٣) من حديث أبي أمامة ﷺ، وفيه عطية العوفي، وهو ضعيف كما في التقريب. وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١٥١٠) و(١٥١١) و(١٥١٢) و(١٥١٣) وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وانظر بقية الكلام عليه ثمة.

(٢) الخبران في الدر المنثور ٦/٦٦-٦٧، والخبر الثاني عند ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/٢٨٥-٢٨٦، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣١٢٥) من حديث جابر ﷺ.

بأنَّ الخبيث[1] كان منافقاً، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة علاماتٌ للنفاق غير ما ذُكر كقوله عليه الصلاة والسلام: «علامات المنافق ثلاث» الحديث[2]. لكن قال العلماء: هي علاماتٌ للنفاق العمليِّ لا الإيماني. وقيل: الحديثُ خارجٌ مخرجَ التنفير عن اتِّصاف المؤمن المُخلص بشيء منها لما أنها كانت إذ ذاك من علامات المنافقين.

واستَدَلَّ بقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ مَن جَعَلَ التعريضَ بالقذف موجبًا الحَدَّ. ولا يخفى حاله.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٠﴾ فيجازيكم عليها بحسب قَصْدكم، وهذا ـ على ما قيل ـ وعدٌ للمؤمنين وإيذانٌ بأنَّ حالهم بخلافِ حال المنافقين. وقيل: وعيدٌ للمنافقين وإيذانٌ لهم بأنَّ المجزيَّ عليه ما يقصدونه لا ما يُعَرِّضون أو يُوَرُّون به، واستظهر أنه خطابٌ عامٌّ فهو وعدٌ ووعيدٌ.

وحُمل على العموم قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقَّة ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ على مَشاقِّ التكاليف علمًا فعليًّا يتعلَّق به الجزاء، وفي معناه ما قيل: أي: حتى يظهر علمنا، وقال ابنُ الحاجب في ذلك: العلم يُطلق باعتبار الرؤية، والشيء لا يُرى حتى يقعَ، يعني على المشهور، وهو هنا بمعنى ذلك، أو بمعنى المجازاة، والمعنى: حتى نُجازي المجاهد منكم والصابرين ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ فيظهر حسنُها وقبيحها، والكلامُ كنايةٌ عن بلاء أعمالهم، فإنَّ الخبرَ حَسَنه وقَبيحه على حسب المُخبَر عنه، فإذا تميَّز الحسنُ عن الخير القبيح فقد تميَّز المُخبَر عنه، وهو العمل كذلك، وهذا أبلغُ من: نبلو أعمالكم. والظاهرُ عمومُ الأخبار، وجُوِّز كون المراد بها: أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم للمؤمنين على أنَّ إضافتها للعهد، أي: ونبلو أخبارَ إيمانكم ومُوالاتكم فيظهر صِدْقُها وكَذِبُها.

---

(١) في (م): اللعين.

(٢) أخرجه أحمد (٩١٥٨)، والبخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

وقرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة المُسندة إلى ضمير العظمة بالياء، وقرأ رويس: «ونَبلُوْ» بالنون وسكون الواو[١]، والأعمش بسكونها وبالياء[٢]، فالفعلُ مرفوعٌ بضمَّة مُقدَّرة بتقدير: ونحن نبلو، والجملة حالية، وجُوِّز أن يكونَ منصوبًا ـ كما في قراءة الجمهور ـ سُكِّن للتخفيف كما في قوله:

أبـــى اللهُ أَنْ أســـمـــو بـــأمٍّ ولا أبِ[٣]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ النـاسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ صـاروا فـي شقٍّ غير شِقِّه، والمرادُ عادوه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ لِمَا شاهدوا من نَعْته عليه الصلاة والسلام في التوراة، أو بما ظهر على يديه ﷺ من المُعجزات ونزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات، وهم بنو قُريظة والنَّضير، أو المُطعمون يوم بدر، وقد تقدَّم ذكرهم، وقيل: أناسٌ نافقوا بعد أن آمنوا.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بِكُفرهم وصَدِّهم ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الأشياء أو شيئًا من الضرر، أو لن يضرُّوا رسولَ الله ﷺ بمشاقَّته شيئًا؛ وقد حُذف المضاف لتعظيمه عليه الصلاة والسلام بجعل مَضَرَّته وما يلحقه كالمنسوب إلى الله تعالى، وفيه تفظيعُ مُشاقَّته ﷺ.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ في مَكايدِهم التي نصبوها في إبطال دينه تعالى ومُشاقّة رسوله عليه الصلاة والسلام، فلا يَصِلون بها إلى ما كانوا يبغُون من الغوائل ولا تُثمر لهم إلا القتل والجَلاء عن أوطانهم ونحو ذلك، وجُوِّز أن يُرادَ أعمالهم التي عَمِلوها في دينهم يرجون بها الثواب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ قيل: إنَّ بني أسد أَسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا، كأنهم مَنُّوا بذلك، فنزلت فيهم هذه وقولُه تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ [الحجرات: ١٧] ومن هنا قيل: المعنى: لا تُبطلوا أعمالَكم بالمَنِّ بالإسلام، وعن ابن عباس: بالرِّياء

(١) التيسير ص٢٠٦، والنشر ٢/ ٣٧٥، والبحر ٨/ ٨٥.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٨٥.

(٣) عجز بيت لعامر بن الطفيل، وهو في ديوانه ص٧٠، وصدره: فما سوَّدتني عامر عن وراثةٍ.

والسُّمعة، وعنه أيضًا: بالشكِّ والنِّفاق، وقيل: بالعُجْب فإنه يأكل الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطب.

وقيل: المراد بالأعمال الصدقات، أي: تُبطلوها بالمَنِّ والأذى.

وقيل: لا تُبطلوا طاعاتِكم بمعاصيكم، أخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية: مَن استطاع منكم أن لا يُبطل عملًا صالحًا بعمل سوء فَلْيفعَلْ، ولا قوة إلا بالله تعالى(١).

وأخرج عبد بن حُميد ومحمد بن نَصْر المَرْوَزي في كتاب «الصلاة» وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يرونَ أنه لا يضرُّ مع لا إله إلا الله ذنبٌ، كما لا ينفعُ مع الشِّرك عملٌ حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فخافوا أن يُبطلَ الذنبُ العمل. ولفظ عبد بن حُميد: فخافوا الكبائر أن تُحبِطَ أعمالهم.

وأخرج ابن نصر وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنَّا معاشرَ أصحاب محمد ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولًا حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا: ما هذا الذي يُبطل أعمالَنا؟ فقلنا: الكبائر المُوجبات والفواحش، فكنا إذا رَأَينا مَنْ أصاب شيئًا منها قلنا: قد هلك، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلما نزلَتْ كَفَفْنا عن القول في ذلك، وكنَّا إذا رأينا أحدًا أصاب منها شيئًا خفنا عليه، وإنْ لم يُصب منها شيئًا رجونا له(٢).

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ الكبائرَ تُحبط الطاعات، بل الكبيرة الواحدة تُبطل مع الإصرار الأعمال ولو كانت بعدد نجوم السماء، وذكروا في ذلك من الأخبار ما ذكروا.

وفي «الكشف»: لا بدَّ في هذا المقام من تحرير البحث بأن يقال: إنْ أراد

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٧، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٢٦.

(٢) الخبران في الدر المنثور ٦/ ٦٧، والثاني عند الطبري ٢٠/ ٢٢٩.

المعتزلة أن نحو الزنى إذا عقب الصلاة يُبطل ثوابَها مثلًا فهذا لا دليلَ عليه نقلًا وعقلًا، بل هما متعادلان على ما دلَّ عليه صحاحُ الأحاديث، وكفى بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] حُجَّةً بالغة، وإنْ أرادوا أن عقابه قد يَكْبر حتى لا يُعادِلَه صغارُ الحَسنات، فهذا صحيحٌ، والكلامُ حينئذ في تسميته إحباطًا، ولا بأس به، لكن عندنا أنَّ هذا الإحباطَ غيرُ لازم، وعندهم لازم، وهو مبنيٌّ على جواز العفو، وهي مسألةٌ أخرى، وأما الكبيرةُ التي تختصُّ بذلك العمل كالعُجب ونحو المَنِّ والأذى بعد التصدُّق فهي مُحبطة لا محالةَ اتِّفاقًا، وعليه يُحمل ما نُقل من الآثار، ومَنْ لا يُسميه إحباطًا لأنه يجعله شرطًا للقَبول، والإحباطُ أن يصيرَ الثوابُ زائلًا، وهذا لا يتأتَّى إذا لم يثبت له ثوابٌ، فله ذلك، وهو أمرٌ يرجعُ إلى الاصطلاح. انتهى، وهو من الحُسن بمكان.

وإعادة الفعل في «وأطيعوا الرسول» للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ امتنعوا عن الدُّخول في الإسلام وسلوك طريقه، أوصدُّوا الناس عنه ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۝﴾ نزلَتْ في أهل القَليب كما قيل، وحُكمها عامٌّ كما قال غيرُ واحد في كلِّ من مات على كفره، وهو ظاهرٌ على التفسير الأول لـ «صدُّوا عن سبيل الله»، وأما على التفسير الثاني له فقيل عليه: إنَّ العمومَ مع تخصيص الكفر بصدِّ الناس عن الإسلام محلُّ نظر، ويُفهم من كلام بعض الأجِلَّة أن العمومَ لأنَّ مدارَ عدم المغفرة هو الاستمرار على الكفر حسبما يُشعر اعتباره قيدًا في الكلام، فتدبَّر.

واستدل بمفهوم الآية بعضُ القائلين بالمفهوم على أنه تعالى قد يغفر لمن لم يَمُتْ على كُفره سائرَ ذنوبه.

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: إذا علمتم أنَّ الله تعالى مُبطلٌ أعمالهم ومُعاقبهم فهو خاذِلهم في الدنيا والآخرة، فلا تُبالوا بهم ولا تُظهروا ضعفًا، فالفاء فصيحةٌ في جواب شرطٍ مفهوم مما قَبله، وقيل: هي لترتيب النهي على ما سبق من الأمر بالطاعة.

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ عطفٌ على «تهنوا» داخلٌ في حيِّز النهي، أي: ولا تدعوا الكُفَّار إلى الصُّلح خَوَرًا وإظهارًا للعجز، فإن ذلك إعطاءُ الدَّنية. وجُوِّز أن يكونَ منصوبًا بإضمار «أنْ» فيعطف المصدر المَسبوك على مصدر مُتصيّد مما قبلَه، كقوله:

لا تَـنْـهَ عـن خُـلـقٍ وتـأتـيَ مـثـلَـه[1]

واستدلَّ الكيا بهذا النهي على منع مُهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وعلى تحريم تركِ الجهاد إلا عند العَجْز[2].

وقرأ السلمي: «وتدَّعوا» بتشديد الدال[3] مِن ادَّعى بمعنى دعا. وفي «الكشاف»[4] ذَكَر «لا» في هذه القراءة، ولعلَّ ذلك روايةٌ أُخرى.

وقرأ الحسن وأبو رجاء والأعمش وعيسى وطلحة وحمزة وأبو بكر: «السِّلم» بكسر السين[5].

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الأغلبون، والعُلُوُّ بمعنى الغَلَبة مجازٌ مشهور، والجملة حاليةٌ مقرِّرة لمعنى النهي مُؤَكِّدة لوجوب الانتهاء، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: ناصرُكم، فإن كونهم الأغلبين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى مُوجبات الاجتناب عمَّا يُوهم الذُّلَّ والضَّراعة.

وقال أبو حيان[6]: يجوز أن يكونا جُملتين مستأنفتين أُخبروا أولًا أنهم الأعلون، وهو إخبارٌ بمغيَّب أبرزه الوجود، ثم ارتقى إلى رُتبةٍ أعلى من التي قبلها، وهي كون الله تعالى معهم.

---

(١) وعجزه: عارٌ عليك إذا فعلت عظيم. وهو في الخزانة ٨/ ٥٦٤. واختلف في قائله، فنُسب للمتوكِّل الكناني وللمتوكل الليثي، والمشهور أنه لأبي الأسود الدؤلي، ولعل المتوكِّل أخذه من شعر أبي الأسود. قاله البغدادي.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ٣٧٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٨٥.

(٤) ٣/ ٥٣٩.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٨٥، وقراءة حمزة وأبي بكر في النشر ٢/ ٢٢٧، والتيسير ص٢٠١.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٨٥.

﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٥﴾ قال: ولن يظلمكم، وقيل: ولن ينقصكم، وقيل: ولن يُضيِّعها، وهو كما قال أبو عُبيد والمبرِّد: من وَتَرت الرجلَ إذا قتلتَ له قتيلاً من ولدٍ أو أخٍ أو حميم، أو سلبته ماله وذهبتَ به. قال الزمخشري[1]: وحقيقته: أَفردته من قريبه أو ماله، من الوِتْر، وهو الفرد، فَشبَّه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر، وهو من فصيح الكلام، وفيه هنا من الدَّلالة على مَزيد لُطفِ الله تعالى ما فيه، ومنه قوله ﷺ: «مَنْ فاتَتْه صلاةُ العصرِ فكأنما وُتِرَ أهلَه ومالَه»[2]. والظاهر على ما ذكره أنه لا بدَّ من تضمين وَتَرته معنى السَّلب ونحوه ليتعدَّى إلى المفعول الثاني بنفسه، وفي «الصحاح»[3] أنه من التِّرة، وحمله على نزع الخافض، أي: جعلته مَوْتُورًا لم يُدرك ثأره في ذلك، كأنه نقصه فيه، وجعله نظيرَ: دخلتُ البيت، أي: فيه. وهو سديدٌ أيضًا.

وجوَّز بعضهم «يتر» هاهنا متعدِّياً لواحد، و«أعمالكم» بدل من ضمير الخطاب، أي: لن يَتِرَ أعمالَكم من ثوابها.

والجملة قيل: معطوفةٌ على قوله تعالى: «معكم»، وهي وإن لم تَقَعْ حالًا استقلالاً لتصديرها بحرف الاستقبال المُنافي للحال على ما صرَّح به العلامة التفتازاني وغيره لكنه يُغتفر في التابع ما لا يُغتفر في غيره. وقيل: المانعُ من وقوع المُصدَّرة بحرف الاستقبال حالاً مخالفتُه للسَّماع، وإلا فلا مانعَ من كونها حالاً مُقدَّرة، مع أنه يجوز أن تكون «لن» لمجرد تأكيدِ النفي. والظاهرُ أن المانعين بَنَوا المنعَ على المُنافاة، وأنها إذا زالت باعتبار أحدِ الأمرين فلا منع، لكن قيل: إنَّ الحال المقصود منها بيانُ الهيئة غير الحال الذي هو أحدُ الأزمنة، والمنافاة إنما هي بين هذا الحال والاستقبال. وهذا نظيرُ ما قال مُجوِّزو مَجيء الجملة الماضية حالاً بدون «قد»، وما لذلك وما عليه في كتب النحو، وإذا جعلت الجملة قبلُ مستأنفة لم يكن إشكالٌ في العطف أصلاً.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٩.

(٢) أخرجه أحمد (٦٣٢٤)، والبخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦) (٢٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) مادة: (وتر).

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثَبات لها ولا اعتدادَ بها ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: ثوابَ إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ عطفٌ على الجزاء، والإضافة للاستغراق، والمعنى: إن تُؤمنوا لا يسألكم جميعَ أموالكم كما يأخذ من الكافر جميعَ ماله، وفيه مقابلة حسنةٌ لقوله تعالى: «يؤتكم أجوركم» كأنه قيل: يُعطِكم كلَّ الأجور ويسألكم بعضَ المال، وهو ما شرعه سبحانه من الزكاة، وقول سفيان بن عيينة: أي: لا يسألكم كثيرًا من أموالِكم إنما يسألُكم ربعَ العُشر فَطيِّبوا أنفسكم، بيانٌ لحاصل المعنى.

وقيل: أي: لا يسألكم ما هو مالكم حقيقة وإنما يسألُكم ماله عز وجل، وهو المالكُ لها حقيقةً وهو جل شأنه المُنعم عليكم بالانتفاع بها. وقيل: أي: لا يسألُكم أموالَكم لحاجته سبحانه إليها، بل ليرجع إنفاقُكم إليكم. وقيل: لا يسألكم الرسولُ ﷺ شيئاً من أموالكم أجراً على تبليغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦] ووجهُ التعليق عليها غيرُ ظاهر، وفي بعضها أيضاً ما لا يخفى.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي: أموالكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ فيُجهدكم بطلب الكُلِّ، فإنَّ الإحفاءَ والإلحاف المبالغةُ وبلوغُ الغايةِ في كلِّ شيء، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربَه استأْصَله وأَخَذَه أخذًا مُتناهياً. وأصلُ ذلك على ما قال الراغب(١): مِنْ أَحفيتُ الدابَّة جعلته حافياً، أي: مُنْسحِجَ الحافر، والبَعير جعلته مُنْسحِج الفَرْسن من المشي حتى يَرِقَّ.

﴿تَبْخَلُوا۟﴾ جواب الشرط، والمرادُ بالبخل هنا تركُ الإعطاء، إذ هو على المعنى المشهور أمرٌ طبيعيٌ لا يترتَّب على السؤال.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أحقادَكم لمزيد حُبِّكم للمال، وضمير «يخرج» لله

---

(١) المفردات (حفي).

تعالى، ويَعضُده قراءة يعقوب ورُويت أيضاً عن ابن عباس: «ونُخْرِجْ» بالنون مضمومة[1]. وجُوِّز أن يكون للسؤال أو للبخل، فإنه سببُ إخراج الأضغان، والإسناد على ذلك مجازيٌّ. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويُخْرِجُ» بالرفع على الاستئناف[2]، وجُوِّز جعل الجملة حالاً بتقدير: وهو يخرجُ، وحكاها أبو حاتم عن عيسى، وفي «اللوامح»: عن عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويَخْرُجُ» بالياء التحتية وفتحها وضمِّ الراء والجيم «أضغانُكم» بالرفع على الفاعلية[3]. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن سيرين وابن مُحيصن وأيوب بن المُتوكِّل واليماني: «وتَخْرُج» بتاء التأنيث ورفع «أضغانُكم»[4]. وقرئ: «ويُخرَج» بضمِّ الياء التحتية وفتح الراء «أضغانُكم» رفعاً على النيابة عن الفاعل، وهي مَرويةٌ عن عيسى إلا أنه فَتح الجيم بإضمار «أن»[5]، فالواو عاطفةٌ على مصدر مُتصيَّد، أي: يكن بُخلكم وإخراجُ أضغانكم.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون بما تضمَّنه قولُه تعالى: «إن يسألكموها» إلخ، والجملةُ مبتدأ وخبر، وكُرِّرت «ها» التنبيهية للتأكيد، وقوله سبحانه: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلخ، استئنافٌ مُقرِّر ومُؤكِّد لذلك لاتِّحاد محصل معناهما، فإنَّ دعوتهم للإنفاق هو سُؤل الأموال منهم، وبُخل ناسٍ منهم هو معنى عدم الإعطاء المذكور مجملًا أولًا أو صلة لـ «هؤلاء» على أنه بمعنى «الذين»، فإنَّ اسمَ الإشارة يكون موصولًا مطلقًا عند الكوفيين، وأما البصريون فلم يثبتوا اسمَ الإشارة موصولًا إلا إذا تقدَّمه «ما» الاستفهامية باتفاق، أو «مَن» الاستفهامية باختلاف، والإنفاق في سبيل الله تعالى هو الإنفاقُ المرضي له تعالى شأنه مطلقًا فيشمل النفقة للعِيال والأقارب والغزو

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤١، وهي غير المشهورة عن يعقوب.

(٢) القراءات الشاذة ص١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٨٦، لكن بالتاء لا بالياء، وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٩: و«يَخْرج» بالياء والتاء مع فتحهما ورفع «أضغانكم».

(٤) القراءات الشاذة ص ١٤١، والبحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٥) رواية عيسى في البحر المحيط ٨/ ٨٦.

وإطعام الضيوف والزكاة وغير ذلك، وليس مخصوصًا بالإنفاق للغزو أو بالزكاة كما قيل.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: ناس يَبْخَلون ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فلا يتعدَّى ضررُ بُخْله إلى غيرها، يقال: بَخِلْت عليه وبَخِلْتُ عنه؛ لأنَّ البخل فيه معنى المنع، ومعنى التضييقِ على مَنْ مُنع عنه المعروف والإضرار، فناسبَ أن يُعدَّى بـ «عن» للأول، وبـ «على» للثاني، وظاهرٌ أنَّ مَنْ منع المعروف عن نفسه فإضرارُه عليها، فلا فرقَ بين اللفظين في الحاصل.

وقال الطيبي: يمكن أن يقال: «يبخل عن نَفْسه» على معنى يصدرُ البخلُ عن نفسه؛ لأنها مكان البخل ومَنْبعه كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [الحشر: ٩]. وهو كما ترى.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ لا غيره عز وجل ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ الكاملون في الفقر، فما يأمركُم به سبحانه فهو لاحتياجِكم إلى ما فيه من المنافع التي لا تقتضي الحِكمة أيضًا لها بدون ذلك، فإن امتثلتُم فلكم، وإنْ تولَّيتم فعليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عطفٌ على قوله سبحانه: «إن تؤمنوا» أي: وإن تُعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلقْ مكانكم قومًا آخرين، وهو كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ في التولِّي عن الإيمان والتقوى، بل يكونون راغبين فيهما.

و«ثم» للتراخي حقيقةً أو لبعدِ المَرْتبة عمَّا قيلُ. والمرادُ بهؤلاء القوم أهلُ فارس، فقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الدلائل» والترمذي ـ وهو حديث صحيح على شرط مسلم ـ عن أبي هريرة قال: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآيةَ: «وإنْ تتولَّوا» إلخ، فقالوا: يا رسولَ الله، مَنْ هؤلاء الذين إنْ تولَّينا استُبدِلوا بنا ثم لا يكونون أمثالَنا؟ فضرب رسولُ الله ﷺ على مَنْكِب سلمان ثم قال: «هذا

وقومُه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطًا بالثُّريا لتناولَه رجالٌ من فارس»[(١)]. وجاء في رواية ابن مردويه عن جابر: «الدينُ» بدل: «الإيمان»[(٢)]. وقيل: هم الأنصار. وقيل: أهلُ اليمن. وقيل: كِندة والنخع. وقيل: العجم. وقيل: الروم. وقيل: الملائكة، وحملُ القوم عليهم بعيدٌ في الاستعمال، وحيث صحَّ الحديث فهو مذهبي.

والخطاب لقريش أَوْ لأهل المدينة، قولان، والظاهرُ أنه للمخاطَبين قبلُ والشرطية غير واقعة، فعن الكلبي: شَرَط في الاستبدال تولِّيهم لكنهم لم يتولَّوا، فلم يستبدل سبحانه قومًا غيرهم. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومما قاله بعضُ أرباب الإشارة في بعض الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ نُصرة الله تعالى من العبد على وجهين صورةً ومعنًى، أما نُصرته تعالى في الصورة فنصرة دِينه جلَّ شأنه بإيضاح الدليل وتبيينه وشرح فرائضه وسُننه وإظهارِ معانيه وأسرارِه وحقائقه، ثم بالجهاد عليه وإعلاء كلمته وقمع أعدائه؛ وأما نُصْرته في المعنى فبإفناءِ الناسوت في اللاهوت[(٣)].

ونصرة الله سبحانه للعبد على وجهين أيضًا صورةً ومعنى، أما نُصرته تعالى للعبد في الصورة فبإرسال الرُّسل وإنزال الكتب وإظهار المُعجزات والآيات وتبيين السُّبل إلى النعيم والجحيم، ثم بالأمر بالجهاد الأصغر والأكبر وتوفيق السعي فيهما طلبًا لِرضاه عز وجل، وأما نُصرته تعالى له في المعنى فبإفناء وجوده في وجوده سبحانه بتجلِّي صفاتِ جماله وجلاله.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٧، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٣٣، والأوسط (٨٨٣٨)، والترمذي (٣٢٦١). والخبر مذكور عند البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١) في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ من سورة الجمعة.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٦٧.

(٣) الناسوت واللاهوت من مصطلحات الصوفية التي استخدمها ابن عربي حيث يعني بالناسوت الجسم البشري، وباللاهوت الروح. المعجم الصوفي ص٢٣٣.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يُشير إلى جنة قلوبِ أرباب الحقائق الذين اتَّقوا عمَّا سواه جلَّ وعلا ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ هو ماءُ الحياة الروحانية لم يتغير بطول المُكْث ﴿وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ﴾ وهو العلم الحقَّاني الذي هو غذاءُ الأرواح، أو لبن الفطرة التي فُطِرَ الناس عليها ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ بحموضة الشُّكوك والأوهام، أو الأهواء والبدع ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ وهي خمر الشوق والمحبة:

يقولون لي صِفْها فأنت بوصفها ... خبيرٌ أجَلْ عندي بأوصافها عِلْمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ ولطفٌ ولا هوى ... ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ﴾ وهو عسلُ الوِصال ﴿مُّصَفًّى﴾ عن كَدَرِ الملال وخوف الزَّوال ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ اللذائذ الروحانية ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ستر لذنب وجودِهم كما قيل:

وجودك ذنب لا يُقاس به ذنب

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ نار الجَفاء ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ وهو ماءُ الخِذلان ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ من الحِرْمان.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ وهي ظُلمةٌ في وجوههم تُدرَك بالنظر الإلهي. قيل: المؤمن ينظر بنور الفِراسة، والعارفُ بنور التحقيق، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام ينظر بالله عز وجل. وقيل: كلُّ من رُزِق قرب النوافل ينظر به تعالى؛ لحديث: «لا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبَصَره الذي يُبصِرُ به» الحديث[1]. وحينئذ يُبصر كلَّ شيء، ومن هنا بعضُ الأولياء الكاملين يرى ـ على ما حُكي عنه ـ أعمال العبادِ حين يُعرَج بها، وسبحان السميع البصير اللطيف الخبير.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤٨) سُورَةُ الفَتْحِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

سورة الفتح : مدنية بإجماع . وهي تسع وعشرون آية . نزلت ليلاً بين مكة المكرمة والمدينة المنورة حين عودة رسول الله ﷺ من الحديبية إلى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية .

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال [أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ عام ست بعد الهجرة ، وكان قد خرج إليها عليه الصلاة والسلام يوم الأثنين هلال ذي العقدة فأقام بها بضعة عشر يوماً ، وقيل عشرين يوماً ثم قفل عليه الصلاة والسلام ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي ، وكان إذا أتاه اشتدَّ عليه ، فَسُرِّيَ عنه وبه من السرور ما شاء الله تعالى ، فأخبرنا أنه أنزل عليه (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ..) .

فالسورة إذن مدنية ، لذا نجدها معنية : كسائر الآيات المدنية : بالاحكام والتشريع . لقد تضمنت هذه السورة احكاماً جليلة نافعة .

تضمنت الكلام على الجهاد في سبيل الله تعالى ، ونصر الله تعالى لرسوله ﷺ وتأييده له . وذِكر المنافقين وتذبذبهم وجبنهم ، وذكر المؤمنين وجميل صفاتهم ، والإشارة إلى لطف الله تعالى بهم واكرامهم ، والإشارة إلى العمرة ، وذكر صفات أصحاب رسول الله ﷺ في الكتب السابقة ، وأخيراً وعد الله تعالى لهم وللصالحين من عباده الكرامة الكبرى في الآخرة .

● ـ اعتراف الشركين بالدولة الإسلامية بعد جهادها في الله حق الجهاد . كان مشركو مكة وغيرهم يقاتلون رسول الله ﷺ والمسلمين قتالاً مريراً دون هوادة ، ويجابهون دعوته في كل ميدان وجبهة ، فلما كان صلح الحديبية كان من آثاره اعتراف المشركين بكيان الدولة الإسلامية ورعاياها ، وحرية المسلمين في التنقل بالدعوة حيث شاءوا ، ففتحت أبواب مكة للدعوة الحرة إلى الإسلام وأمن المسلمون اينما كانوا . لقد عدَّ الله تعالى صلح الحديبية فتحا ، إذ كان حقاً فتحاً ونصراً في حياة المسلمين وكان الفاتحة لفتح مكة بعد قليل . قال موسى ابن عقبة : قال رجل عند منصرفهم من الحديبية ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت ، فقال النبي ﷺ : بل هو اعظم الفتوح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ، ويسالوكم القضية ويرغبوا اليكم في الأمان وقد رءوا منكم ما كرهوا .

ولقد أقرَّ الله تعالى عين نبيه فجمع له ما به تقرُّ عينه في الدنيا والآخرة ، قال تعالى (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتمَّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً) . وليس للرسول ﷺ ذنب كذنوب الناس ، فإنه سيد ولد أدم ، والرسل : وهو أكرمهم على الله تعالى : معصومون ، أن الأمـــر أن ﷺ يرتقي في معارج البر والقرب من الله كل حين ، فإذا نظر في حاله الحاضرة إلى ما كان عليه في حاله السابقة عدَّ ذلك كالزلة ، قال ﷺ (أنه ليغان على قلبي واني استغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة .) أو هو علي قال الحسن رضي الله عنه [حسنات الابرار سيئات المقربين] .

قال الزمخشري : فإن قلت جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لإجتماع ما عد دمن الأمور الأربعة ، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قال :

قد يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ليجمع الله لك عز الدارين وأعراض العاجل والآجل : وأقرَّ الله سبحانه ، عين رسوله ﷺ بمغفرة ذنوب المؤمنين عامة ومن كان معه في الحديبية خاصة فقال (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها .... إلى قوله (فوزاً عظيماً) .

● ـ حقيقة النصر من عند الله تعالى ، فهو الذي يثبت قلوب المؤمنين الصادقين ويقوي عزائمهم ، ويرغبهم في الجهاد في سبيله لينالوا الأجر والجنة ، ويخذل الكافرين ويلقي الرعب في قلوبهم ، لأنهم يريدون الحياة الدنيا وزينتها فيخافون القتال لخوفهم من القتل . قال تعالى « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً . ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السَّوْءِ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً .

● ـ المنافقون الذين يعيشون مذبذبين بين المؤمنين والكافرين ، يقولون للمؤمنين إن كان لهم الفتح والنصر الم نكن معكم ، ويقولون للكافرين إن كان لهم نصيب يسير من النصر الم نحط بكم ونخذل المسلمين عن الوصول اليكم ، هؤلاء المنافقون جبناء ، يحسبون كل صيحة عليهم ، لقد خافوا من الخروج مع رسول الله ﷺ إلى مكة للعمرة ، وقالوا سيُقتل الرسول وأصحابه ﷺ ولن يعود منهم إلى المدينة أحد ، فخيب الله ظنهم وكذَّب قالتهم ، فرد الرسول والمؤمنين إلى المدينة وقد أكرمهم بالفتح ووعدهم النصر القريب على يهود خيبر . قال سبحانه (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا

واهلونا فأستغفر لنا ...) فيجيبهم سبحانه بقوله (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظنَّ السَّوْء وكنتم قوماً بُوراً .) .

وحين أظهروا الندم على ما فاتهم من ذلك الخروج قال سبحانه لهم (.. ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذ بكم عذاباً اليماً) .

● ـ صدق المؤمنون الله فصدقهم الله . لقد خرج مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية /١٤٠٠/ رجل ليس معهم إلا السيوف في قُربها ، وحين دُعوا إلى الجهاد ثَمة على قلة السلاح وغربة الميدان والبعد عن الأهل والمدد بادروا فبايعوه ﷺ على القتال والموت في سبيل الله ... فحفظ الله تعالى حياتهم ، وأثبت لهم رضوانه ، وكتب لهم نصراً وغنائم يصلون اليها من قريب ، وأن الله أحق من أدى ووفى . قال سبحانه (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً .) وذلك فتح خيبر ، وهزيمة يهود فيها . والحمدلله .

لقد حفظ الله تعالى المؤمنين الذين خرجوا إلى الحديبية فلم يسلط عليهم كفار مكة وما حو لها من العرب فضلاً من الله على الذين خرجوا في سبيله ، فقال سبحانه (وهو الذي كفَّ ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعلمون بصيراً) .

فلقد ارسلت قريش سبعين أو ثمانين فارساً (حين كان السفراء يمشون بالصلح بين الرسول والمشركين) أيام الحديبية للإيقاع بالمسلمين وإنتهاز الفرصة في أطرافهم ، ففطن لهم المسلمون فاسروهم ، واطلقهم رسول الله ﷺ .

● ـ لطف الله تعالى بعباده . لقد وقف المشركون بعنادهم في في طريق الرسول وأصحابه ﷺ الذين قصدوا مكة المكرمة لاداء العمرة وقد ساقوا معهم الهدى ولبسوا ثياب الأحرام ، مع أن البيت بيت الله تعالى ، وما كانوا الآسدنته والمتشرفين . بخدمة عُماره .. ولولا أن كان في مكة المكرمة ذلك الوقت مستضعفون مخالطين للمشركين في مساكنهم وظواهر احوالهم لأذن الله للمسلمين بقتال المشركين فيها ، لكنه لم يأذن حفظاً لاولئك المستضعفين . قال سبحانه (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهَدْيَ معكوفاً أن يبلغ مَحِلَّه ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرَّة بغير علم لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً .) .

● ـ رؤيا الأنبياء وحي : لقد رآى ابراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده اسماعيل فقام لينفذ ما أمر به في الرؤيا فقداه الله بذبح عظيم ، ورآى رسول الله ﷺ في المنام أنه يدخل مكة المكرمة معتمراً فدعا أصحابه إلى الخروج إلى مكة للعمرة ، فخرج معه من خرج .. ولقد حقق الله تعالى رؤياه فدخل مكة المكرمة بعد عام معتمراً . وما لبث بعدُ يسيراً ، حتى دخلها فاتحاً . قال سبحانه (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

● ـ أصحاب رسول الله ﷺ رحماء بينهم ، اذلةٌ بعضهم لبعض وأحبة ، وهم على الكفار أشداء لا يجبنون عن قتالهم ومحاربتهم في سبيل الله تعالى ، وهم موصوفون في التوراة الصحيحة بالاقبال على عبادة الله تعالى وطاعته مما يظهر ذلك على قسمات وجوههم نوراً ،

وفي ابدانهم سلوكاً فاضلاً ، وهم موصوفون في الإنجيل الصحيح بالزرع الذي يبدو صغيراً نحيلاً ، ثم ما يزال ينمو ويربو حتى يكبر ويعطي ما يعطي مما يعجب الزراع من صالح الثمار ، لكنه يغيظ الكفار الذين لا يريدون لدين الله ظهوراً ، ولا للمسلمين إيماناً ، كما قال سبحانه في وصفهم (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء). قال سبحانه (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ... ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ..) .

● ـ وعد الله لمن آمن به واتبع ما جاء من عنده ، هو اكرام وأي إكرام ، جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، فطوبى لمن آمن وعمل صالحاً ، فإن الله يصدق معه وعده ، لقد ختم الله تعالى سورة الفتح بقوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) .

فأكرم بفاتحة سورة الفتح واعظم بخاتمتها .

سورة الفتح

[٨٣٤] أخرج الحاكم وغيره[1] عن المسوّر بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها.

[٨٣٥] وأخرج الشيخان والترمذي والحاكم[2] عن أنس قال: أنزلت على النبي [ﷺ]: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[3] مرجعه من الحديبية فقال النبي [ﷺ]: «لقد نزلت عليَّ آية أحب إليّ مما على الأرض» ثم قرأها عليهم فقالوا هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله قد بيّن الله لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حتى بلغ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾[4].

[٨٣٦] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله [ﷺ]: «أيها الناس البيعة البيعة» نزل روح القدس فسرنا إلى رسول الله [ﷺ] وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه قال فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] الآية.

[٨٣٧] وأخرج مسلم والترمذي والنسائي عن أنس قال لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله [ﷺ] وأصحابه ثمانون رجلاً في السلاح من جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله [ﷺ] فأخذوا فأعتقهم فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾[6] الآية. ك.. وأخرج مسلم نحوه من حديث سلمة بن الأكوع[7]. ك.. وأحمد والنسائي نحوه من حديث عبدالله بن مغفل المزني. ك.. وابن إسحاق نحوه من حديث ابن عباس.

---

[٨٣٤] (١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢١٦) من طريق محمد بن إسحاق عن الزهري عن عروة عنهما مثله.

[٨٣٥] (٢) سنن الترمذي (٣٢٦٣) ورواه الطبري (٢٦/ ٤٤).

(٣) سورة الفتح: الآية (٢).

(٤) سورة الفتح: الآية (٥).

[٨٣٦] (٥) سورة الفتح: الآية (١٨).

[٨٣٧] (٦) سورة الفتح: الآية (٢٤).

(٧) ورواه الواحدي في أسباب النزول.

[٨٣٨] وأخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنبذ بن سبع قال: قاتلت النبي [ﷺ] أول النهار كافراً وقاتلت معه آخر النهار مسلماً وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾(١).

[٨٣٩] وأخرج الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال أرى النبي [ﷺ] وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين فلما نحر الهدى بالحديبية قال أصحابه أين رؤياك يا رسول الله فنزلت: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾(٢) الآية.

* * *

---

[٨٣٨] (١) سورة الفتح: الآية (٢٥).

[٨٣٩] (٢) سورة الفتح: الآية (٢٧).

سورة الفتح

وهي عشرون وتسع آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الفتح وجوه: أحدها: فتح مكة وهو ظاهر. وثانيها: فتح الروم وغيرها. وثالثها: المراد من الفتح صلح الحديبية. ورابعها: فتح الإسلام بالحجة والبرهان، والسيف والسنان. وخامسها: المراد منه الحكم كقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾[الأعراف: ٨٩] وقوله: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾[سبأ: ٢٦] والمختار من الكل وجوه: أحدها: فتح مكة، والثاني: فتح الحديبية، والثالث: فتح الإسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان. والأول مناسب لآخر ما قبلها من وجوه: أحدها: أنه تعالى لما قال: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾[محمد: ٣٨] بيّن تعالى أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم. ثانيها: لما قال: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ وقال: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[محمد: ٣٥] بيّن برهانه بفتح مكة، فإنهم كانوا هم الأعلون. ثالثها: لما قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾[محمد: ٣٥] وكان معناه لا تسألوا الصلح من عندكم، بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية وهو المراد بالفتح في أحد الوجوه، وكما كان فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين، فإن قيل: إن كان المراد فتح مكة، فمكة لم تكن قد فُتحت، فكيف قال تعالى: ﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بلفظ الماضي؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: فتحنا في حكمنا وتقديرنا. ثانيهما: ما قدره الله تعالى فهو كائن، فأخبر بصيغة الماضي إشارة إلى أنه أمر لا دافع له، واقع لا رافع له.

المسألة الثانية: قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ ينبئ عن كون الفتح سببًا للمغفرة، والفتح لا يصلح سببًا للمغفرة، فما الجواب عنه؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: الأول: ما قيل إن الفتح لم يجعله سببًا للمغفرة وحدها، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة وهي: المغفرة، وإتمام النعمة والهداية والنصرة، كأنه تعالى قال: ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك. ولا

شك أن الاجتماع لم يثبت إلا بالفتح، فإن النعمة به تمت، والنصرة بعده قد عمت. الثاني: هو أن فتح مكة كان سببًا لتطهير بيت الله تعالى من رجس الأوثان، وتطهير بيته صار سببًا لتطهير عبده. الثالث: هو أن بالفتح يحصل الحج، ثم بالحج تحصل المغفرة، ألا ترى إلى دعاء النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال في الحج: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجًّا مَبْرُورًا، وَسَعْيًا مَشْكُورًا، وَذَنْبًا مَغْفُورًا» الرابع: المراد منه التعريف، تقديره إنا فتحنا لك ليعرف أنك مغفور لك، معصوم، فإن الناس كانوا علموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه، وإنما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له.

المسألة الثالثة: لم يكن للنبي ﷺ ذنب، فماذا يُغفر له؟ قلنا: الجواب عنه قد تقدم مرارًا من وجوه: أحدها: المراد ذنب المؤمنين. ثانيها: المراد ترك الأفضل. ثالثها: الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد، وهو يصونهم عن العُجْب. رابعها: المراد العصمة، وقد بينا وجهه في سورة القتال.

المسألة الرابعة: ما معنى قوله: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟ نقول: فيه وجوه: أحدها: أنه وعد النبي عليه السلام بأنه لا يذنب بعد النبوة. ثانيها: ما تقدم على الفتح، وما تأخر عن الفتح. ثالثها: العموم يقال: اضرب من لقيت ومن لا تلقاه، مع أن من لا يلقى لا يمكن ضربه إشارة إلى العموم. رابعها: من قبل النبوة ومن بعدها، وعلى هذا فما قبل النبوة بالعفو وما بعدها بالعصمة، وفيه وجوه أُخر ساقطة، منها قول بعضهم: ما تقدم من أمر مارية، وما تأخر من أمر زينب. وهو أبعد الوجوه وأسقطها لعدم التئام الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: هو أن التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج، وهو آخر التكاليف، والتكاليف نِعم. ثانيها: يُتم نعمته عليك بإخلاء الأرض لك عن معانديك، فإن يوم الفتح لم يبق للنبي عليه الصلاة والسلام عدو ذو اعتبار، فإن بعضهم كانوا أُهلكوا يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح. ثالثها: ويُتم نعمته عليك في الدنيا باستجابة دعائك في طلب الفتح، وفي الآخرة بقبول شفاعتك في الذنوب ولو كانت في غاية القبح. وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يحتمل وجوهًا، أظهرها: يديمك على الصراط المستقيم حتى لا يبقى من يُلتفت إلى قوله من المضلين، أو ممن يقدر على الإكراه على الكفر، وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣] حيث أهلكت المجادلين فيه، وحملتهم على الإيمان. وثانيها: أن يقال: جعل الفتح سببًا للهداية إلى الصراط المستقيم؛ لأنه سَهَّل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بالفوائد العاجلة بالفتح والآجلة بالوعد، والجهاد سلوك سبيل الله، ولهذا يقال للغازي في سبيل الله مجاهد. وثالثها: ما ذكرنا أن المراد التعريف؛ أي ليُعرف أنك على صراط مستقيم، من حيث إن الفتح لا يكون إلا على يد من يكون على صراط الله بدليل حكاية الفيل. وقوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ظاهر؛ لأن بالفتح ظهر النصر واشتهر الأمر.

وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية:

أما المسألة اللفظية: فهي أن الله وصف النصر بكونه عزيزًا، والعزيز من له النصر.

والجواب من وجهين: أحدهما: ما قاله الزمخشري أنه يحتمل وجوهًا ثلاثة: الأول: معناه نصر ذا عز، كقوله: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي ذات رضى. الثاني: وصف النصر بما يوصف به المنصور إسنادًا مجازيًّا، يقال: له كلام صادق، كما يقال له: متكلم صادق. الثالث: المراد نصرًا عزيزًا صاحبه.

الوجه الثاني من الجواب أن نقول: إنما يلزمنا ما ذكره الزمخشري من التقديرات إذا قلنا: العزة من الغلبة، والعزيز الغالب، وأما إذا قلنا: العزيز هو النفيس القليل النظير، أو المحتاج إليه القليل الوجود، يقال: عز الشيء، إذا قل وجوده مع أنه محتاج إليه، فالنصر كان محتاجًا إليه ومثله لم يوجد، وهو أخذ بيت الله من الكفار المتمكنين فيه من غير عدد.

أما المسألة المعنوية: وهي أن الله تعالى لما قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ أبرز الفاعل وهو الله، ثم عطف عليه بقوله: ﴿وَيُتِمَّ﴾ وبقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ﴾ ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن في الكلام، وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه في الفعل الأول، ولا يظهر فيما بعده، تقول: جاء زيد وتكلم، وقام وراح، ولا تقول: جاء زيد، وقعد زيد اختصارًا للكلام بالاقتصار على الأول، وهاهنا لم يقل وينصرك نصرًا، بل أعاد لفظ (الله)، فنقول: هذا إرشاد إلى طريق النصر، ولهذا قلما ذكر الله النصر من غير إضافة، فقال تعالى: ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ﴾ [الروم: ٥] ولم يقل بالنصر ينصر، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢] ولم يقل بالنصر، وقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] وقال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ﴾ [الصف: ١٣] ولم يقل نصر وفتح، وقال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠] وهذا أدل الآيات على مطلوبنا، وتحقيقه هو أن النصر بالصبر، والصبر بالله، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧] وذلك لأن الصبر سكون القلب واطمئنانه، وذلك بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فلما قال هاهنا (وينصرك الله)، أظهر لفظ (الله) ذكرًا للتعليم أن بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب، وبه يحصل الصبر، وبه يتحقق النصر.

وهاهنا مسألة أخرى وهو أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ ثم قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل إنا فتحنا لنغفر لك تعظيمًا لأمر الفتح، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة لكنها عامة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة في حق النبي عليه السلام العصمة، فذلك لم يختص بنبينا، بل غيره من الرسل كان معصومًا، وإتمام النعمة كذلك، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧] وكذلك الهداية قال الله تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] فعمم، وكذلك النصر قال الله

تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢] وأما الفتح فلم يكن لأحد غير النبي ﷺ، فعَظَّمه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا﴾ وفيه التعظيم من وجهين: أحدهما: إنا. وثانيهما: لك، أي لأجلك على وجه المنة.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾

لما قال تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٣] بَيَّن وجه النصر، وذلك لأن الله تعالى قد ينصر رسله بصيحة يهلك بها أعداءهم، أو رجفة تحكم عليهم بالفناء، أو جند يرسله من السماء، أو نصر وقوة وثبات قلب يرزق المؤمنين به؛ ليكون لهم بذلك الثواب الجزيل فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي تحقيقًا للنصر، وفي السكينة وجوه: أحدها: هو السكون. الثاني: الوقار لله ولرسول الله، وهو من السكون. الثالث: اليقين. والكل من السكون. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: السكينة هنا غير السكينة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] في قول أكثر المفسرين ويحتمل هي تلك المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلوب.

المسألة الثانية: السكينة المُنزّلة عليهم هي سبب ذكرهم الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

المسألة الثالثة: قال الله تعالى في حق الكافرين: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ﴾ [الأحزاب: ٢٦] بلفظ القذف المزعج وقال في حق المؤمنين: ﴿أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ بلفظ الإنزال المثبت، وفيه معنى حكمي وهو أن من علم شيئًا من قبل وتذكره واستدام تذكره فإذا وقع لا يتغير، ومن كان غافلاً عن شيء فيقع دفعة يرجف فؤاده، ألا ترى أن من أُخبر بوقوع صيحة وقيل له: لا تنزعج منها فوقعت الصيحة لا يرجف، ومن لم يخبر به وأُخبر وغفل عنه يرتجف إذا وقعت، فكذلك الكافر أتاه الله من حيث لا يحتسب وقذف في قلبه فارتجف، والمؤمن أتاه من حيث كان يذكره فسكن.

وقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ فيه وجوه: أحدها: أمرهم بتكاليف شيئًا بعد شيء فآمنوا بكل واحد منها، مثلاً أُمروا بالتوحيد فآمنوا وأطاعوا، ثم أُمروا بالقتال والحج فآمنوا وأطاعوا، فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم. ثانيها: أنزل السكينة عليهم فصبروا فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين إيمانًا بالغيب فازدادوا إيمانًا مستفادًا من الشهادة مع إيمانهم المستفاد من الغيب. ثالثها: ازدادوا بالفروع مع إيمانهم بالأصول، فإنهم آمنوا بأن محمدًا رسول الله وأن الله واحد والحشر كائن، وآمنوا بأن كل ما يقول النبي ﷺ صدق وكل ما يأمر الله تعالى به واجب. رابعها: ازدادوا إيمانًا استدلاليًا مع إيمانهم الفطري، وعلى هذا الوجه نبين لطيفة وهي أن الله تعالى قال في حق الكافر: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] ولم يقل مع

كفرهم لأن كفرهم عنادي وليس في الوجود كفر فطري لينضم إليه الكفر العنادي، بل الكفر ليس إلا عناديًا، وكذلك الكفر بالفروع، لا يقال انضم إلى الكفر بالأصول لأن من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع، وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد فقال: ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكان قادرًا على إهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل، بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون إهلاك أعدائهم بأيديهم فيكون لهم الثواب، وفي جنود السموات والأرض وجوه: أحدها: ملائكة السموات والأرض. ثانيها: مَن في السموات من الملائكة ومَن في الأرض من الحيوانات والجن. وثالثها: الأسباب السماوية والأرضية حتى يكون سقوط كِسْف من السماء والخسف من جنوده.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لما قال: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وعددهم غير محصور، أثبت العلم إشارة إلى أنه ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣] وأيضًا لما ذكر أمر القلوب بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والإيمان من عمل القلوب، ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى، وقوله: ﴿ حَكِيمًا﴾ بعد قوله: ﴿ عَلِيمًا﴾ إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم، فإن الحكيم من يعمل شيئًا متقنًا ويعلمه، فإن من يقع منه صنع عجيب اتفاقًا لا يقال له حكيم، ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له حكيم.

وقوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾

يستدعي فعلاً سابقًا ﴿ لِّيُدْخِلَ﴾ فإن من قال ابتداء: (لتكرمني) لا يصح ما لم يقل قبله: (جئتك) أو ما يقوم مقامه، وفي ذلك الفعل وجوه، وضبط الأحوال فيه بأن تقول: ذلك الفعل إما أن يكون مذكورًا بصريحه أو لا يكون، وحينئذٍ ينبغي أن يكون مفهومًا، فإما أن يكون مفهومًا من لفظ يدل عليه بل فُهم بقرينة حالية فإن كان مذكورًا فهو يحتمل وجوهًا: أحدها: قوله: ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ [الفتح: ٤]كأنه تعالى أنزل السكينة ليزدادوا إيمانًا بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنّات، فإن قيل: فقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ [الفتح: ٦]عطف على قوله: ﴿ لِّيُدْخِلَ﴾ وازدياد إيمانهم لا يصلح سببًا لتعذيبهم. نقول: بلى وذلك من وجهين أحدهما: أن التعذيب مذكور لكونه مقصودًا للمؤمنين، كأنه تعالى يقول بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنّات، ويعذب بأيديكم في الدنيا الكفار والمنافقين. الثاني: تقديره: ويعذب بسبب ما لكم من الازدياد، يقال: فعلته لأجرب به العدو والصديق، أي لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو، فكذلك ليزداد المؤمن إيمانًا فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفرًا فيعذبه به. ووجه آخر ثالث: وهو أن سبب زيادة إيمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعيا المنافق والكافر معه ويتعذب وهو قريب مما ذكرنا. الثاني: قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٣]كأنه تعالى قال: وينصرك الله بالمؤمنين

ليدخل المؤمنين جنّات. الثالث: قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾[الفتح: ٢] على قولنا المراد ذنب المؤمن، كأنه تعالى قال: ليغفر لك ذنب المؤمنين ليدخل المؤمنين جنات.

وأما إن قلنا: هو مفهوم من لفظ غير صريح فيحتمل وجوهًا أيضًا: أحدها: قوله: ﴿حَكِيمًا﴾[الفتح: ٤] يدل على ذلك، كأنه تعالى قال: الله حكيم، فَعَل ما فعل ليُدخل المؤمنين جنات. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾[الفتح: ٢] في الدنيا والآخرة، فيستجيب دعاءك في الدنيا ويقبل شفاعتك في العقبى ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ ثالثها: قوله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾[الفتح: ١] ووجهه هو أنه روي أن المؤمنين قالوا للنبيﷺ: هنيئًا لك إن الله غفر لك فماذا لنا؟ فنزلت هذه الآية، كأنه تعالى قال: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنّات.

وأما إن قلنا: إن ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال، فنقول: هو الأمر بالقتال لأن من ذكر الفتح والنصر علم أن الحال حال القتال، فكأنه تعالى قال: إن الله تعالى أمر بالقتال ليُدخل المؤمنين. أو نقول: عُرف من قرينة الحال أن الله اختار المؤمنين ليدخلهم جنّات.

المسألة الرابعة: قال ههنا وفي بعض المواضع: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وفي بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأحزاب: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون: ١] فما الحكمة فيه؟ نقول: في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم، ذكرهن الله صريحًا، وفي المواضع التي ليس فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهم في المؤمنين، فقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأحزاب: ٤٧] مع أنه علم من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ: ٢٨] العموم لا يوهم خروج المؤمنات عن البشارة، وأما ههنا فلما كان قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه أو النصر للمؤمنين أو الفتح بأيديهم على ما كان يتوهم لأن إدخال المؤمنين كان للقتال، والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها، صرح الله بذكرهن، وكذلك في المنافقات والمشركات، والمنافقة والمشركة لم تقاتل فلا تعذب، فصرّح الله تعالى بذكرهن، وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[الأحزاب: ٣٥] لأن الموضع موضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ ... ﴿وَأَقِمْنَ﴾ ... ﴿وَءَاتِينَ﴾ ... ﴿وَأَطِعْنَ﴾[الأحزاب: ٣٣] وقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب: ٣٤] فكان ذكرهن هناك أصلاً، لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الأجر العظيم، ذكرهم وذكرهن بلفظ مفرد من غير تبعية لما بينا أن الأصل ذكرهن في ذلك الموضع.

المسألة الخامسة: قال الله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بعد ذكر الإدخال مع أن تكفير السيئات قبل الإدخال؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: الواو لا تقتضي الترتيب. الثاني: تكفير السيئات والمغفرة وغيرهما من توابع كون المكلف من أهل الجنة، فقدم الإدخال في الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة. الثالث: وهو أن التكفير يكون بإلباس خلع الكرامة وهي في

الجنة، وكان الإنسان في الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجرمية كالفضلات، والمعنوية كالغضب والشهوة وهو التكفير، وتثبت فيه الصفات المَلَكية وهي أشرف أنواع الخلع.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فيه وجهان: أحدهما مشهور: وهو أن الإدخال والتكفير في الله فوز عظيم، يقال: عندي هذا الأمر على هذا الوجه، أي في اعتقادي. وثانيهما: أغرب منه وأقرب منه عقلاً، وهو أن يجعل عند الله كالوصف لذلك، كأنه تعالى يقول: ذلك عند الله، أي بشرط أن يكون عند الله تعالى ويوصف أن يكون عند الله فوز عظيم حتى أن دخول الجنة لو لم يكن فيه قرب من الله بالعندية لما كان فوزًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۞ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞﴾

واعلم أنه قَدَّم المنافقين على المشركين في الذكر في كثير من المواضع لأمور: أحدها: أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر؛ لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر، وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وهو كان يفشي أسراره، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: «**أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ**»(١) والمنافق على صورة الشيطان، فإنه لا يأتي الإنسان على أني عدوك، وإنما يأتيه على أني صديقك، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه، ولأن المنافق كان يظن أن يتخلص للمخادعة، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هذا الظن يحتمل وجوهًا: أحدها: هو الظن الذي ذكره الله في هذه السورة بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢] ثانيها: ظن المشركين بالله في الإشراك، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٣ - ٢٨] ثالثها: ظنهم أن الله لا يرى ولا يعلم كما قال: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] والأول أصح أو نقول: المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذي ظنوا أن الله لا يحيي الموتى، وأن العالم خلقه باطل، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] ويؤيد هذا الوجه الألف واللام الذي في السوء

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه البيهقي في (الزهد الكبير) (٢/ ١٥٦)، حديث رقم (٣٤٣) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، حدثنا إسماعيل بن عياش عن حنش الرحبي، عن عكرمة، عن ابن عباس... به، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٦٠)، حديث رقم (٤١٢). وقال: رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف، وله شواهد من حديث أنس، ويجري على ألسنة كثيرين (أعدى عدويك) بالتثنية في الموضوعين، ولا أصل له بهذا اللفظ، والمشهور على الألسنة (أعدى عدوك) بالإفراد في (عدوك) وما أحسن ما قيل:

إني بُليت بأربع ما سُلطوا ... إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي

وسنذكره في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وفيه وجوه: أحدها: ما اختاره المحققون من الأدباء، وهو أن السوء صار عبارة عن الفساد، والصدق عبارة عن الصلاح، يقال: مررت برجل سَوء، أي فاسد، وسئلت عن رجل صدق، أي صالح، فإذا كان مجموع قولنا: رجل سوء يؤدي معنى قولنا فاسد، فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد، وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشري، وتحقيق هذا أن السوء في المعاني كالفساد في الأجساد، يقال: ساء مزاجه، وساء خلقه، وساء ظنه، كما يقال: فسد اللحم وفسد الهواء، بل كان ما ساء فقد فسد، وكل ما فسد فقد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال في المعاني والآخر في الأجرام، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] وقال: ﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩] هذا ما يظهر لي من تحقيق كلامهم.

ثم قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي دائرة الفساد، وحاق بهم الفساد بحيث لا خروج لهم منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ زيادة في الإفادة لأن من كان به بلاء، فقد يكون مبتلى به على وجه الامتحان، فيكون مصابًا لكي يصير مثابًا، وقد يكون مصابًا على وجه التعذيب، فقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى أن الذي حاق بهم على وجه التعذيب، وقوله: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ زيادة إفادة لأن المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالعتب والشتم أو الضرب، ولا يفضي غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه وطرده من بابه، وقد يكون بحيث يفضي إلى الطرد والإبعاد، فقال: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ لكون الغضب شديدًا، ثم لما بيّن حالهم في الدنيا بيّن مآلهم في العقبى فقال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَسَآءَتْ﴾ إشارة لمكان التأنيث في جهنم يقال: هذه الدار نعم المكان، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] قد تقدم تفسيره. **وبقي فيه مسائل:**

المسألة الأولى: ما الفائدة في الإعادة؟ نقول: لله جنود الرحمة وجنود العذاب، أو جنود الله إنزالهم قد يكون للرحمة، وقد يكون للعذاب فذَكَرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وثانيًا لبيان إنزال العذاب على الكافرين.

المسألة الثانية: قال هناك: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] وهنا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ لأن قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] قد بينا أن المقصود من ذكرهم الإشارة إلى شدة العذاب فذكر العزة كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧] وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢] وقال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ [الحشر: ٢٣].

المسألة الثالثة: ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة، وذكرهم ههنا بعد ذكر تعذيب الكفار وإعداد جنهم، نقول: فيه ترتيب حسن لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾

[الفتح: ٥] كما بينا ثم تكون لهم القربى والزلفى بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥] وبعد حصول القرب والعندية لا تبقى واسطة الجنود، فالجنود في الرحمة أولاً ينزلون ويقربون آخرًا، وأما في الكافر فيغضب عليه أولاً فيبعد ويطرد إلى البلاد النائية عن ناحية الرحمة وهي جهنم، ويسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله، كما قال تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التحريم: ٦] ولذلك ذكر جنود الرحمة أولاً والقربة بقوله عند الله آخرًا، وقال هاهنا: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ﴾ وهو الإبعاد أولاً، وجنود السموات والأرض آخرًا.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾

قال المفسرون: ﴿شَٰهِدٗا﴾ على أمتك بما يفعلون، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] والأَوْلى أن يقال: إن الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ وعليه يشهد أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ١٨] وهم الأنبياء عليهم السلام، الذين آتاهم الله علمًا من عنده وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] أي فاشهد. وقوله ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ لمن قَبِل شهادته وعمل بها ويوافقه فيها ﴿وَنَذِيرٗا﴾ لمن رد شهادته ويخالفه فيها، ثم بيّن فائدة الإرسال على الوجه الذي ذكره فقال: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون الأمور الأربعة المذكورة مرتبة على الأمور المذكورة من قبل، فقوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مرتب على قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ لأن كونه مرسلاً من الله يقتضي أن يؤمن المكلف بالله المرسِل وبالمرسَل وقوله: ﴿شَٰهِدٗا﴾ يقتضي أن يعزر الله ويقوي دينه لأن قوله: ﴿شَٰهِدٗا﴾ على ما بينا معناه أنه يشهد أنه لا إله إلا هو، فدينه هو الحق وأحق أن يتبع، وقوله: ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ يقتضي أن يوقر الله لأن تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله إياه. وقوله: ﴿وَنَذِيرٗا﴾ يقتضي أن ينزه عن السوء والفحشاء مخافة عذابه الأليم وعقابه الشديد، وأصل الإرسال مرتب على أصل الإيمان، ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن. وثانيهما: أن يكون كل واحد مقتضيًا للأمور الأربعة، فكونه مرسلاً يقتضي أن يؤمن المكلف بالله ورسوله ويعزره ويوقره ويسبحه، وكذلك كونه ﴿شَٰهِدٗا﴾ بالوحدانية يقتضي الأمور المذكورة، وكذلك كونه ﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ لا يقال: إن اقتران اللام بالفعل يستدعي فعلاً مقدمًا يتعلق به ولا يتعلق بالوصف، وقوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ﴾ يستدعي فعلاً وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ فكيف تترتب الأمور على كونه ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا﴾ لأنا نقول: يجوز الترتيب عليه معنى لا لفظًا، كما أن القائل إذا قال: بعثت إليك عالمًا لتكرمه. فاللفظ ينبئ عن كون البعث سبب الإكرام، وفي المعنى كونه عالمًا هو السبب للإكرام، ولهذا لو قال: بعثت إليك جاهلاً لتكرمه كان حسنًا،

وإذا أردنا الجمع بين اللفظ والمعنى نقول: الإرسال الذي هو إرسال حال كونه شاهدًا، كما تقول: بعث العالم سبب جعله سببًا لا مجرد البعث، ولا مجرد العالم.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في الأحزاب: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] وهاهنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة، فما الحكمة فيه؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن ذلك المقام كان مقام ذكره لأن أكثر السورة في ذكر الرسول ﷺ وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصَّل هنالك، ولم يفصل هاهنا ثانيهما: أن نقول: الكلام مذكور هاهنا لأن قوله: ﴿شَٰهِدًا﴾ لما لم يقتض أن يكون داعيًا لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله، ولا يدعو الناس قال هناك وداعيًا لذلك، وهاهنا لما لم يكن كونه ﴿شَٰهِدًا﴾ منبئًا عن كونه داعيًا قال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ دليل على كونه سراجًا لأنه أتى بما يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح.

المسألة الثانية: قد ذكرنا مرارًا أن اختيار البكرة والأصيل يحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة، ويحتمل أن يكون أمرًا بخلاف ما كان المشركون يعملونه، فإنهم كانوا يجتمعون على عبادة الأصنام في الكعبة بكرةً وعشية، فأُمروا بالتسبيح في أوقات كانوا يذكرون فيها الفحشاء والمنكر.

المسألة الثالثة: الكنايات المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ راجعة إلى الله تعالى أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام؟ والأصح هو الأول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾

لما بيّن أنه مرسل ذكر أن من بايعه فقد بايع الله، وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يحتمل وجوهًا، وذلك أن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد، وإما أن تكون بمعنيين، فإن قلنا: إنها بمعنى واحد، ففيه وجهان: أحدهما: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ بمعنى نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وثانيهما: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه، يقال: اليد لفلان، أي الغلبة والنصرة والقهر. وأما إن قلنا: إنها بمعنيين، فنقول في حق الله تعالى بمعنى الحفظ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة، واليد كناية عن الحفظ مأخوذ من حال المتبايعين إذا مد كل واحد منهما يده إلى صاحبه في البيع والشراء، وبينهما ثالث متوسط لا يريد أن يتفاسخا العقد من غير إتمام البيع، فيضع يده على يديهما، ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد، ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر، فوضع اليد فوق الأيدي صار سببًا للحفظ على البيعة، فقال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ

﴿أَيْدِيهِمْۚ﴾ يحفظهم على البيعة كما يحفظ ذلك المتوسط أيدي المتبايعين.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أما على قولنا: المراد من اليد النعمة أو الغلبة والقوة، فلأن من نكث فوَّت على نفسه الإحسان الجزيل في مقابلة العمل القليل، فقد خسر ونكثه على نفسه، وأما على قولنا: المراد الحفظ، فهو عائد إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يعني من يبايعك أيها النبي إذا نكث لا يكون نكثه عائدًا إليك؛ لأن البيعة مع الله ولا إلى الله؛ لأنه لا يتضرر بشيء، فضرره لا يعود إلا إليه. قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقد ذكرنا أن العظم في الأجرام لا يقال إلا إذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع والسمك الغليظ، فيقال في الجبل الذي هو مرتفع، ولا اتساع لعرضه جبل عالٍ أو مرتفع أو شاهق، فإذا انضم إليه الاتساع في الجوانب يقال عظيم، والأجر كذلك؛ لأن مآكل الجنة تكون من أرفع الأجناس، وتكون في غاية الكثرة، وتكون ممتدة إلى الأبد لا انقطاع لها، فحصل فيه ما يناسب أن يقال له عظيم، والعظيم في حق الله تعالى إشارة إلى كماله في صفاته، كما أنه في الجسم إشارة إلى كماله في جهاته.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

لما بيّن حال المنافقين ذكر المتخلفين، فإن قومًا من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ لظنهم أنه يُهزم، فإنهم قالوا: أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة، فكيف يكون حالهم إذا دخلوا بلادهم وأحاط بهم العدو؟! فاعتذروا، وقولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ فيه أمران يفيدان وضوح العذر: أحدهما: (قولهم): ﴿أَمْوَٰلُنَا﴾ ولم يقولوا شغلتنا الأموال، وذلك لأن جمع المال لا يصلح عذرًا (لأنَّهُ) لا نهاية له، وأما حفظ ما جمع من الشتات ومنع الحاصل من الفواتت يصلح عذرًا، فقالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ أي ما صار مالاً لنا لا مطلق الأموال. وثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَأَهْلُونَا﴾ وذلك لو أن قائلاً قال لهم: المال لا ينبغي أن يبلغ إلى درجة يمنعكم حفظه من متابعة الرسول ﷺ! لكان لهم أن يقولوا: فالأهل يمنع الاشتغال بهم وحفظهم عن أهم الأمور، ثم إنهم مع العذر تضرعوا وقالوا: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾ يعني فنحن مع إقامة العذر معترفون بالإساءة، فاستغفر لنا واعف عنا في أمر الخروج. فكذَّبهم الله تعالى فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون التكذيب راجعًا إلى قولهم: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾ وتحقيقه هو أنهم أظهروا أنهم يعتقدون أنهم مسيئون بالتخلف حتى استغفروا، ولم يكن في اعتقادهم ذلك، بل كانوا يعتقدون أنهم بالتخلف محسنون. ثانيهما: قالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ إشارة إلى أن امتناعنا لهذا لا غير، ولم يكن ذلك في اعتقادهم، بل كانوا يعتقدون

امتناعهم لاعتقاد أن النبي ﷺ والمؤمنين يقهرون ويغلبون، كما قال بعده: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢] وقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ معناه أنكم تحترزون عن الضرر. وتتركون أمر الله ورسوله، وتقعدون طلبًا للسلامة، ولو أراد بكم الضرر لا ينفعكم قعودكم من الله شيئًا، أو معناه أنكم تحترزون عن ضرر القتال والمقاتلين وتعتقدون أن أهليكم وبلادكم تحفظكم من العدو، فهب أنكم حفظتم أنفسكم عن ذلك، فمن يدفع عنكم عذاب الله في الآخرة، مع أن ذلك أَوْلى بالاحتراز، وقد ذكرنا في سورة يس في قوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ [يس: ٢٣] أنه في صورة كون الكلام مع المؤمن أدخل الباء على الضر، فقال: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الزمر: ٣٨] وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: ١٧] وفي صورة كون الكلام مع الكافر أدخل الباء على الكافر، فقال هاهنا ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ [الأحزاب: ١٧] وقد ذكرنا الفرق الفائق هناك، ولا نعيده ليكون هذا باعثًا على مطالعة تفسير سورة يس، فإنها درج الدرر اليتيمة، ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي بما تعملون من إظهار الحرب وإضمار غيره.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

يعني لم يكن تخلفكم لما ذكرتم ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ وأن مخففة من الثقيلة، أي ظننتم أنهم لا ينقلبون ولا يرجعون، وقوله: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني ظننتم أولاً، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان، ويضم إليها مخايلة يقطع بها الغافل، وإن كان لا يشك فيها العاقل.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون هذا العطف عطفًا يفيد المغايرة، فقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ غير الذي في قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ وحينئذٍ يحتمل أن يكون الظن الثاني معناه: وظننتم أن الله يخلف وعده، أو ظننتم أن الرسول كاذب في قوله. وثانيهما: أن يكون قوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هو ما تقدم من ظن أن لا ينقلبوا، ويكون على حد قول القائل: علمت هذه المسألة وعلمت كذا، أي هذه المسألة لا غيرها، وذلك كأنه قال: بل ظننتم ظن أن لن ينقلب. وظنكم ذلك فاسد، وقد بينا التحقيق في ظن السوء، وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: وصرتم بذلك الظن بائرين هالكين. وثانيها: أنتم في الأصل بائرون وظننتم ذلك الظن الفاسد.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

على قولنا: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ١٢] ظن آخر غير ما في قوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ ظاهر؛ لأنا بينا أن ذلك ظنهم بأن الله يخلف وعده أو ظنهم بأن الرسول كاذب فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ﴾ ويظن به خلفًا وبرسوله كذبًا، فإنا أعتدنا له سعيرًا، وفي قوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بدلاً عن أن يقول فإنا أعتدنا له فائدة، وهي التعميم، كأنه تعالى قال: ومن لم يؤمن بالله فهو من الكافرين، وإنا أعتدنا للكافرين سعيرًا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

بعد ما ذكر من له أجر عظيم من المبايعين ومن له عذاب أليم من الظانين الضالين، أشار إلى أنه يغفر للأولين بمشيئته ويعذب الآخرين بمشيئته، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيد عظمة الأمرين جميعًا؛ لأن مَن عظُم ملكه يكون أجره وهبته في غاية العظم، وعذابه وعقوبته كذلك في غاية النكال والألم.

ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾.

أوضح الله كذبهم بهذا حيث كانوا عندما يكون السير إلى مغانم يتوقعونها يقولون من تلقاء أنفسهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ فإذا كان أموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم إياهم إلى أهل مكة، فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم الغنيمة، والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم إلا من كان معه في المدينة، وفي قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ وعد المبايعين الموافقين بالغنيمة والمتخلفين المخالفين بالحرمان.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

يحتمل وجوهًا: أحدها: هو ما قال الله إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وعاهد بها لا غير، وهو الأشهر عند المفسرين والأظهر نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

ثانيها: يريدون أن يبدلوا كلام الله وهو قوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح: ٦] وذلك لأنهم لو اتبعوكم لكانوا في حكم بيعة أهل الرضوان الموعودين بالغنيمة، فيكونون من الذين رضي الله عنهم، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨] فلا يكونون من الذين غضب الله عليهم فيلزم تبديل كلام الله. ثالثها: هو أن النبي ﷺ لما تخلف القوم أطلعه الله على باطنهم وأظهر له نفاقهم وأنه يريد أن يعاقبهم، وقال للنبي ﷺ: ﴿فَقُل لَّن

﴿تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾[التوبة: ٨٣] فأرادوا أن يبدلوا ذلك الكلام بالخروج معه، لا يقال: فالآية التي ذكرتم واردة في غزوة تبوك لا في هذه الواقعة. لأنا نقول: قد وجد هاهنا بقوله: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ على صيغة النفي بدلاً عن قوله: لا تتبعونا، على صيغة النهي معنى لطيف وهو أن النبي ﷺ بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفي لوثوقه وقطعه بصدقه فجزم وقال: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ يعني لو أذنتكم ولو أردتم واخترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ ردًا على قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ كأنهم قالوا: ما قال الله كذلك من قبل، بل تحسدوننا، وبل للإضراب والمضروب عنه محذوف في الموضعين، أما هاهنا فهو بتقدير: ما قال الله وكذلك، فإن قيل: بماذا كان الحسد في اعتقادهم؟ نقول: كأنهم قالوا: نحن كنا مصيبين في عدم الخروج حيث رجعوا من الحديبية من غير حاصل ونحن استرحنا، فإن خرجنا معهم ويكون فيه غنيمة يقولون هم غنموا معنا ولم يتعبوا معنا.

ثم قال تعالى ردًّا عليهم كما ردوا: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لم يفقهوا من قولك: (لا تخرجوا) إلا ظاهر النهي ولم يفهموا من حكمه إلا قليلاً، فحملوه على ما أرادوه وعللوه بالحسد.

ثم قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

لما قال النبي ﷺ: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾[الفتح: ١٥] وقال: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾[التوبة: ٨٣] فكان المخلفون جمعًا كثيرًا، من قبائل متشعبة، دعت الحاجة إلى بيان قبول توبتهم فإنهم لم يبقوا على ذلك ولم يكونوا من الذين مردوا على النفاق، بل منهم من حسن حاله وصلح باله، فجعل لقبول توبتهم علامة، وهو أنهم يُدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد ويطيعون، بخلاف حال ثعلبة حيث امتنع من أداء الزكاة ثم أتى بها ولم يقبل منه النبي ﷺ واستمر عليه الحال ولم يقبل منه أحد من الصحابة، كذلك كان يستمر حال هؤلاء لولا أنه تعالى بيّن أنهم يُدعون فإن كانوا يطيعون يؤتون الأجر الحسن وما كان أحد من الصحابة يتركهم يتبعونه، والفرق بين حال ثعلبة وبين حال هؤلاء من وجهين: أحدهما: أن ثعلبة جاز أن يقال حاله لم يكن يتغير في علم الله، فلم يبين لتوبته علامة، والأعراب تغيرت، فإن بعد النبي ﷺ لم يبق من المنافقين على النفاق أحد على مذهب أهل السنة. وثانيهما: أن الحاجة إلى بيان حال الجمع الكثير والجم الغفير أمسُّ؛ لأنه لولا البيان لكان يفضي الأمر إلى قيام الفتنة بين فرق المسلمين.

وفي قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وجوه أشهرها وأظهرها أنهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم أبو بكر. وثانيها: هم فارس والروم، غزاهم عمر. ثالثها: هوازن وثقيف، غزاهم النبي ﷺ، وأقوى الوجوه هو أن الدعاء كان من النبي ﷺ وإن كان الأظهر

غيره، أما الدليل على قوة هذا الوجه هو أن أهل السنة اتفقوا على أن أمر العرب في زمان النبي ﷺ ظهر ولم يبق إلا كافر مجاهر، أو مؤمن تقي طاهر، وامتنع النبي ﷺ من الصلاة على موتى المنافقين، وترك المؤمنون مخالطتهم حتى إن عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة، وما ذكره الله علامة لظهور حال من كان منافقًا، فإن كان ظهر حالهم بغير هذا، فلا معنى لجعل هذا علامة وإن ظهر بهذا الظهور كان في زمان النبي ﷺ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام لو امتنع من قبولهم لاتباعه، لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ [مريم: ٤٣].

فإن قيل: هذا ضعيف لوجهين: أحدهما: أن النبي ﷺ قال: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥] وقال: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] فكيف كانوا يتبعونه مع النفي؟ الثاني: قوله تعالى: ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ ولم يبق بعد ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام حرب قوم أولي بأس شديد فإن الرعب استولى على قلوب الناس ولم يبق بعده شدة وبأس، واتفاق الجمهور يدل على القوة والظهور.

نقول: أما الجواب عن الأول فمن وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك مقيدًا، تقديره: لن تخرجوا معي أبدًا وأنتم على ما أنتم عليه. ويجب هذا التقييد لأنا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن إسلامه بل الأكثر ذلك، وما كان يجوز للنبي ﷺ أن يقول لهم: لستم مسلمين. لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ [النساء: ٩٤] ومع القول بإسلامهم ما كان يجوز أن يمنعهم ما كان من الجهاد في سبيل الله مع وجوبه عليهم وكان ذلك مقيدًا، وقد تبيّن حسن حالهم، فإن النبي ﷺ دعاهم إلى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون، وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الإيمان.

الثاني: المراد من قوله: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥] في هذا القتال فحسب وقوله: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ﴾ [التوبة: ٨٣] كان في غير هذا وهم المنافقون الذين تخلفوا في غزوة تبوك، وأما اتفاق الجمهور فنقول: لا مخالفة بيننا وبينهم لأنا نقول: النبي ﷺ دعاهم أولاً، وأبو بكر رضي الله عنه أيضًا دعاهم بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبي ﷺ، إنما نحن نثبت أن النبي ﷺ دعاهم. فإن قالوا: أبو بكر رضي الله عنه دعاهم لم يكن بين القولين تنافٍ، وإن قالوا: لم يدعهم النبي ﷺ فالنفي والجزم به في غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع، وكيف لا والنبي عليه الصلاة والسلام قال من كلام الله ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١] وقال: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [الزخرف: ٦١] ومنهم من أحب الله واختار اتباع النبي محمد ﷺ لأن بقاء جمعهم على النفاق والكفر بعد ما اتسعت دائرة الإسلام واجتمعت العرب على الإيمان - بعيد، ويوم قوله ﷺ: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ كان أكثر العرب على الكفر والنفاق؛ لأنه كان قبل فتح مكة وقبل أخذ حصون كثيرة.

وأما قوله: لم يبق للنبي ﷺ حرب مع أولي بأس شديد، قلنا: لا نسلِّم ذلك لأن النبي ﷺ عام الحديبية دعاهم إلى الحرب؛ لأنه خرج محرمًا ومعه الهدي ليعلم قريش أنه لا يطلب القتال وامتنعوا فقال: ستدعون إلى الحرب. ولا شك أن من يكون خصمه مسلحًا محاربًا أكثر بأسًا ممن يكون على خلاف ذلك، فكان قد علم من حال مكة أنهم لا يوقرون حاجًا ولا معتمرًا فقوله: ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني أولي سلاح من آلة الحديد فيه بأس شديد، ومن قال بأن الداعي أبو بكر وعمر تمسك بالآية على خلافتهما ودلالتها ظاهرة، وحينئذٍ ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ إشارة إلى أن أحدهما يقع، وقرئ (أو يسلموا) بالنصب بإضمار (أنْ) على معنى تقاتلونهم إلى أن يسلموا، والتحقيق فيه هو أن ﴿أَوۡ﴾ لا تجيء إلا بين المتغايرين وتنبئ عن الحصر فيقال: العدد زوج أو فرد، ولهذا لا يصح أن يقال: هو زيد أو عمرو، ولهذا يقال: العدد زوج أو خمسة أو غيرهما، إذا علم هذا فقول القائل: (لألزمنك أو تقضيني حقي) يفهم منه أن الزمان انحصر في قسمين: قسم يكون فيه الملازمة، وقسم يكون فيه قضاء الحق، فلا يكون بين الملازمة وقضاء الحق زمان لا يوجد فيه الملازمة ولا قضاء الحق، فيكون في قوله: لألزمنك أو تقضيني، كما حكي في قول القائل، لألزمنك إلى أن تقضيني؛ لامتداد زمان الملازمة إلى القضاء، وهذا ما يضعف قول القائل: الداعي هو عمر والقوم فارس والروم لأن الفريقين يقران بالجزية، فالقتال معهم لا يمتد إلى الإسلام لجواز أن يؤدوا الجزية.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ فيه فائدة لأن التولي إذا كان بعذر كما قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾ [النور: ٦١] لا يكون للمتولي عذاب أليم، فقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم﴾ يعني إن كان توليكم بناء على الظن الفاسد والاعتقاد الباطل كما كان حيث قلتم بألسنتكم لا بقلوبكم: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا﴾ [الفتح: ١١] فالله يعذبكم عذابًا أليمًا.

قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٧﴾ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾﴾

ثم إن الله تعالى قال: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ بيَّن من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكر والفر، وبيَّن ذلك ببيان ثلاثة أصناف: الأول: ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ فإنه لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب، ولا

يمكنه الاحتراز والهرب، والأعرج كذلك والمريض كذلك، وفي معنى الأعرج الأقطع والمقعد، بل ذلك أَوْلى بأن يُعذر، ومن به عرج لا يمنعه من الكر والفر لا يُعذر، وكذلك المرض القليل الذي لا يمنع من الكر والفر كالطحال والسعال إذ به يضعف، وبعض أوجاع المفاصل لا يكون عذرًا.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن هذه أعذار تكون في نفس المجاهد، ولنا أعذار خارجة كالفقر الذي لا يتمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج إليه، والاشتغال بمن لولاه لضاع كطفل أو مريض، والأعذار تُعلم من الفقه ونحن نبحث فيما يتعلق بالتفسير في بيان مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الأعذار التي في السفر؛ لأن غيرها ممكن الإزالة بخلاف العرج والعمى.

المسألة الثانية: اقتصر منها على الأصناف الثلاثة؛ لأن العذر إما أن يكون بإخلال في عضو أو بإخلال في القوة، والذي بسبب إخلال العضو فإما أن يكون بسبب اختلال في العضو الذي به الوصول إلى العدو والانتقال في مواضع القتال، أو في العضو الذي تتم به فائدة الحصول في المعركة والوصول، والأول: هو الرِّجل، والثاني: هو العين؛ لأن بالرِّجل يحصل الانتقال، وبالعين يحصل الانتفاع في الطلب والهرب. وأما الأذن والأنف واللسان وغيرها من الأعضاء، فلا مدخل لها في شيء من الأمرين، بقيت اليد، فإن المقطوع اليدين لا يقدر على شيء، وهو عذر واضح ولم يذكره، نقول: لأن فائدة الرِّجل وهي الانتقال تبطل بالخلل في إحداهما، وفائدة اليد وهي الضراب والبطش لا تبطل إلا ببطلان اليدين جميعًا، ومقطوع اليدين لا يوجد إلا نادرًا، ولعل في جماعة النبي ﷺ لم يكن أحد مقطوع اليدين فلم يذكره، أو لأن المقطوع يُنتفع به في الجهاد، فإنه ينظر ولولاه لاستقل به مقاتل فيمكن أن يقاتل، وهو غير معذور في التخلف؛ لأن المجاهدين ينتفعون به بخلاف الأعمى، فإن قيل: كما أن مقطوع اليد الواحدة لا تبطل منفعة بطشه كذلك الأعور لا تبطل منفعة رؤيته، وقد ذكر الأعمى، وما ذكر الأشل وأقطع اليدين، قلنا: لما بينا أن مقطوع اليدين نادر الوجود والآفة النازلة بإحدى اليدين لا تعمهما، والآفة النازلة بالعين الواحدة تعم العينين لأن منبع النور واحد وهما متجاذبان والوجود يفرق بينهما، فإن الأعمى كثير الوجود ومقطوع اليدين نادر.

المسألة الثالثة: قدم الآفة في الآلة على الآفة في القوة؛ لأن الآفة في القوة تزول وتطرأ، والآفة في الآلة إذا طرأت لا تزول، فإن الأعمى لا يعود بصيرًا، فالعذر في محل الآلة أتم.

المسألة الرابعة: قدم الأعمى على الأعرج؛ لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال، والأعرج إن حضر راكبًا أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمي وغيره.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

اعلم أن طاعة كل واحد منهما طاعة للآخر فجمع بينهما بيانًا لطاعة الله، فإن الله تعالى لو قال: ومن يطع الله، كان لبعض الناس أن يقول: نحن لا نرى الله ولا نسمع كلامه، فمن أين نعلم أمره حتى نطيعه؟ فقال: طاعته في طاعة رسوله وكلامه يُسمع من رسوله.

ثم قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي بقلبه، ثم لما بيّن حال المخلفين بعد قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] عاد إلى بيان حالهم وقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا على الموت، وفيه معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ١٧] فجعل طاعة الله والرسول علامة لإدخال الله الجنة في تلك الآية، وفي هذه الآية بيّن أن طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان، أما طاعة الله فالإشارة إليها بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأما طاعة الرسول فبقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ بقي الموعود به وهو إدخال الجنة أشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الرضا يكون معه إدخال الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والفاء للتعقيب وعِلم الله قبل الرضا لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق فرضي عنهم، فكيف يُفهم التعقيب في العلم؟

نقول قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ كما يقول القائل: فرحت أمس إذ كلمت زيدًا فقام إليّ، أو إذ دخلت عليه فأكرمني، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيبًا كذلك.

هاهنا قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم، والفاء في قوله: ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ للتعقيب الذي ذكرته فإنه تعالى رضي عنهم فأنزل السكينة عليهم، وفي عَلِم بيان وصف المبايعة بكونها معقبة بالعلم بالصدق الذي في قلوبهم، وهذا توفيق لا يتأتى إلا لمن هداه، الله تعالى إلى معاني كتابه الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ مغانمها وقيل: مغانم هجر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ كامل القدرة غنيًا عن إعانتكم إياه ﴿حَكِيمًا﴾ حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه، أو لأن في ذلك إعزاز قوم وإذلال آخرين، فإنه يُذل من يشاء بعزته ويُعز من يشاء بحكمته.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

إشارة إلى أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب، بل الجزاء قدامهم، وإنما هي العاجلة، عجل بها، وفي المغانم الموعود بها أقوال، أصحها أنه وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين، وكل ما غنموه كان منها والله كان عالمًا بها، وهذا كما يقول الملك الجواد لمن يخدمه: يكون لك مني على ما فعلته الجزاء إن شاء الله. ولا يريد شيئًا بعينه، ثم كل ما يأتي به ويؤتيه يكون داخلاً تحت ذلك الوعد، غير أن الملك لا يعلم تفاصيل ما يصل إليه وقت الوعد، والله عالم بها. وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ لإتمام المنة، كأنه قال: رزقتكم غنيمة باردة من غير مس حر القتال ولو تعبتم فيه لقلتم: هذا جزاء تعبنا، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على مفهوم لأنه لما قال الله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ واللام ينبئ عن النفع كما أن على ينبئ عن الضر القائل (لا علي ولا ليا) بمعنى لا ما أتضرر به ولا ما أنتفع به ولا أضر به ولا أنفع، فكذلك قوله ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ لتنفعكم ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفيه معنى لطيف وهو أن المغانم الموعود بها كل ما يأخذه المسلمون، فقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني لينفعكم بها وليجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على أن ما وعدهم الله يصل إليهم كما وصل إليكم، أو نقول: معناه لتنفعكم في الظاهر وتنفعكم في الباطن حيث يزداد يقينكم إذا رأيتم صدق الرسول في إخباره عن الغيوب، فتجمل أخباركم ويكمل اعتقادكم، وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهو التوكل عليه والتفويض إليه والاعتزاز به.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

قيل: غنيمة هوازن، وقيل: غنائم فارس والروم، وذكر الزمخشري في (أخرى) ثلاثة أوجه: أن تكون منصوبة بفعل مضمر يفسره ﴿قَدْ أَحَاطَ﴾ و﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ صفة لأخرى كأنه يقول: وغنيمة أخرى غير مقدورة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ ثانيها: أن تكون مرفوعة، وخبرها ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ وحسن جعلها مبتدأ مع كونه نكرة لكونها موصوفة بلم تقدروا. وثالثها: الجر بإضمار رب ويحتمل أن يقال منصوبة بالعطف على منصوب، وفيه وجهان: أحدهما: كأنه تعالى قال: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ وأخرى ما قدرتم عليها. وهذا ضعيف لأن أخرى لم يعجل بها. وثانيهما: على مغانم كثيرة تأخذونها، وأخرى أي وعدكم الله أخرى، وحينئذٍ كأنه قال: وعدكم الله مغانم تأخذونها ومغانم لا تأخذونها أنتم ولا تقدرون عليها، وإنما يأخذها من يجيء بعدكم من المؤمنين. وعلى هذا تبين لقول الفرّاء حُسْن، وذلك لأنه فسر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي حفظها للمؤمنين لا يجري عليها هلاك إلى أن يأخذها المسلمون كإحاطة الحراس بالخزائن.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

وهو يصلح جوابًا لمن يقول: كف الأيدي عنهم كان أمرًا اتفاقيًا، ولو اجتمع عليهم العرب كما عزموا لمنعوهم من فتح خيبر واغتنام غنائمها، فقال: ليس كذلك، بل سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون، والغلبة واقعة للمسلمين، فليس أمرهم أمرًا اتفاقيًا، بل هو إلهي محكوم به محتوم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

قد ذكرنا مرارًا أن دفع الضرر عن الشخص إما أن يكون بولي ينفع باللطف، أو بنصير يدفع بالعنف، وليس للذين كفروا شيء من ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ لطيفة وهي أن من يولي دبره يطلب الخلاص من القتل بالالتحاق بما ينجيه، فقال: وليس إذا ولوا الأدبار يتخلصون، بل بعد التولي الهلاك لاحق بهم.

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾.

جواب عن سؤال آخر يقوم مقام الجهاد، وهو أن الطوالع لها تأثيرات، والاتصالات لها تغيرات، فقال: ليس كذلك (بل) سنة الله نصرة رسوله، وإهلاك عدوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

بشارة ودفع وهن يقع بسبب وهم، وهو أنه إذا قال الله تعالى ليس هذا بالتأثيرات فلا يجب وقوعه، بل الله فاعل مختار، ولو أراد أن يهلك العباد لأهلكهم، بخلاف قول المنجم بأن الغلب لمن له طالع وشواهد تقتضي غلبته قطعًا، فقال الله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ يعني أن الله فاعل مختار يفعل ما يشاء ويقدر على إهلاك أصدقائه، ولكن لا يبدل سنته ولا يغير عادته.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

تبيينًا لما تقدم من قوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الفتح: ٢٢] أي هو بتقدير الله؛ لأنه كف أيديهم عنكم بالفرار، وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم، وقوله تعالى: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ إشارة إلى أمر كان هناك يقتضي عدم الكف، ومع ذاك وُجد كف الأيدي، وذلك الأمر هو دخول المسلمين ببطن مكة، فإن ذلك يقتضي أن يصبر المكفوف على القتال لكون العدو دخل دارهم طالبين ثأرهم، وذلك مما يوجب اجتهاد البليد في الذب عن الحريم، ويقتضي أن يبالغ المسلمون في الاجتهاد في الجهاد لكونهم لو قصروا لكُسروا وأُسروا لبعد مأمنهم، فقوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ إشارة إلى بعد الكف، ومع ذلك وجد بمشيئة الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ صالح لأمرين: أحدهما: أن يكون منة على المؤمنين بأن الظفر كان لكم، مع أن

الظاهر كان يستدعي كون الظفر لهم لكون البلاد لهم، ولكثرة عددهم. الثاني: أن يكون ذكر أمرين مانعين من الأمرين الأولين، مع أن الله حققهما مع المنافقين، أما كف أيدي الكفار، فكان بعيدًا لكونهم في بلادهم ذابين عن أهليهم وأولادهم، وإليه أشار بقوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وأما كف أيدي المسلمين، فلأنه كان بعد أن ظفروا بهم، ومتى ظفر الإنسان بعدوه الذي لو ظفر هو به لاستأصله يبعد انكفافه عنه، مع أن الله كف اليدين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

يعني كان الله يرى فيه من المصلحة، وإن كنتم لا ترون ذلك، وبيَّنه بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾[الفتح: ٢٥] يعني كان الكف محافظة على ما في مكة من المسلمين ليخرجوا منها، ويدخلوها على وجه لا يكون فيه إيذاء مَن فيها من المؤمنين والمؤمنات، واختلف المفسرون في ذلك الكف: منهم من قال: المراد ما كان عام الفتح، ومنهم من قال: ما كان عام الحديبية، فإن المسلمين هزموا جيش الكفار حتى أدخلوهم بيوتهم، وقيل: إن الحرب كان بالحجارة.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

إشارة إلى أن الكف لم يكن لأمر فيهم لأنهم كفروا وصدوا وأحصروا، وكل ذلك يقتضي قتالهم، فلا يقع لأحد أن الفريقين اتفقوا، ولم يبق بينهما خلاف واصطلحوا، ولم يبق بينهما نزاع، بل الاختلاف باقٍ والنزاع مستمر؛ لأنهم هم الذين كفروا وصدوكم ومنعوا فازدادوا كفرًا وعداوة، وإنما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، وقوله: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ منصوب على العطف على كُم في ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ويجوز الجر عطفًا على المسجد، أي وعن الهدي. و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال و﴿أَن يَبْلُغَ﴾ تقديره على أن يبلغ، ويحتمل أن يقال: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ رفع، تقديره معكوفًا بلوغه محله، كما يقال: رأيت زيدًا شديدًا بأسه، ومعكوفًا، أي ممنوعًا، ولا يحتاج إلى تقدير (عن) على هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وصف الرجال والنساء، يعني لولا رجال ونساء يؤمنون غير معلومين، وقوله تعالى: ﴿أَن

﴿تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال، كأنه قال: رجال غير معلومي الوطء فتصيبكم منهم معرة، عيب أو إثم، وذلك لأنكم ربما تقتلونهم فتلزمكم الكفارة وهي دليل الإثم، أو يعيبكم الكفار بأنهم فعلوا بإخوانهم ما فعلوا بأعدائهم، وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال الزمخشري: هو متعلق بقوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ يعني تطئوهم بغير علم، وجاز أن يكون بدلاً عن الضمير المنصوب في قوله: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ ولقائل أن يقول: يكون هذا تكرارًا؛ لأن على قولنا هو بدل من الضمير يكون التقدير: لم تعلموا أن تطئوهم بغير علم، فيلزم تكرار بغير علم الحصول بقوله: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ فالأَوْلى أن يقال ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هو في موضعه تقديره: لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم، من يعركم ويعيب عليكم، يعني إن وطأتموهم غير عالمين يصبكم مسبة الكفار ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بجهل لا يعلمون أنكم معذورون فيه، أو نقول: تقديره: لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم، أي فتقتلوهم بغير علم، أو تؤذوهم بغير علم، فيكون الوطء سبب القتل، والوطء غير معلوم لكم، والقتل الذي هو بسبب المعرة وهو الوطء الذي يحصل بغير علم. أو نقول: المعرة قسمان: أحدهما: ما يحصل من القتل العمد ممن هو غير العالم بحال المحل. والثاني: ما يحصل من القتل خطأ، وهو غير عدم العلم، فقال: تصيبكم منهم معرة غير معلومة، لا التي تكون عن العلم، وجواب (لولا) محذوف تقديره: لولا ذلك لما كف أيديكم عنهم. هذا ما قاله الزمخشري وهو حسن، ويحتمل أن يقال: جوابه: ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني قد استحقوا لأن لا يهملوا، ولولا رجال مؤمنون لوقع ما استحقوه، كما يقول القائل: هو سارق ولولا فلان لقطعت يده، وذلك لأن (لولا) لا تستعمل إلا لامتناع الشيء لوجود غيره، وامتناع الشيء لا يكون إلا إذا وجد المقتضي له فمنعه الغير، فذكر الله تعالى أولاً المقتضي التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع، وذكر ما امتنع لأجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فيه أبحاث:

الأول: في الفعل الذي يستدعي اللام الذي بسببه يكون الإدخال، وفيه وجوه: أحدها: أن يقال: هو قوله: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ ليُدخل، لا يقال بأنك ذكرت أن المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كأنه قال: كف أيديكم لئلا تطئوا فكيف يكون لشيء آخر؟ نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن نقول: كف أيديكم لئلا تطئوا لتدخلوا، كما يقال: أطعمته ليشبع ليغفر الله لي أي الإطعام للشابع كان ليغفر. الثاني: هو أنا بينا أن (لولا) جوابه ما دل عليه قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيكون كأنه قال: هم الذين كفروا واستحقوا التعجل في إهلاكهم، ولولا رجال لعجل بهم، ولكن كف أيديكم ليدخل.

ثانيها: أن يقال: فَعَل ما فَعَل ليُدخل. لأن هناك أفعالاً من الألطاف والهداية وغيرهما،

وقوله: ﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ليؤمن منهم مَن عَلِم الله تعالى أنه يؤمن في تلك السنة أو ليخرج من مكة ويهاجر فيدخلهم في رحمته. وقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي لو تميزوا، والضمير يحتمل أن يقال: هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، فإن قيل: كيف يصح هذا وقد قلتم بأن جواب لولا محذوف وهو قوله (لـمَا كف أو لعجَّل) ولو كان ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ راجعًا إلى الرجال لكان (لعذبنا) جواب (لولا)؟ نقول: وقد قال به الزمخشري فقال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ يتضمن ذكر لولا فيحتمل أن يكون لعذبنا جواب لولا، ويحتمل أن يقال هو ضمير من يشاء، كأنه قال: ليُدخل من يشاء في رحمته، لو تزيلوا هم وتميزوا وآمنوا لعذبنا الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: وهو على تقدير نفرضه، فالكلام يفيد أن العذاب الأليم اندفع عنهم، إما بسبب عدم التزييل، أو بسبب وجود الرجال، وعلم تقدير وجود الرجال والعذاب الأليم لا يندفع عن الكافر، نقول: المراد عذابًا عاجلًا بأيديكم يبتدئ بالجنس إذ كانوا غير مقرنين ولا منقلبين إليهم فيظهرون ويقتدرون يكون أليمًا.

البحث الثاني: ما الحكمة في ذكر المؤمنين والمؤمنات مع أن المؤنث يدخل في ذكر المذكر عند الاجتماع؟ قلنا: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: ما تقدم يعني أن الموضع موضع وهم اختصاص الرجال بالحكم لأن قوله: ﴿تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم﴾ معناه تهلكوهم، والمراد لا تقاتل ولا تقتل فكان المانع وهو وجود الرجال المؤمنين فقال: والنساء المؤمنات أيضًا لأن تخريب بيوتهن ويُتم أولادهن بسبب رجالهن وطأة شديدة. وثانيهما: أن في محل الشفقة تعد المواضع لترقيق القلب، يقال لمن يعذب شخصًا: لا تعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه، ويقال أولاده وصغاره وأهله الضعفاء العاجزين، فكذلك هاهنا قال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ﴾ لترقيق قلوب المؤمنات ورضاهم بما جرى من الكف بعد الظفر.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِذْ﴾ يحتمل أن يكون ظرفًا فلا بد من فعل يقع فيه ويكون عاملًا له، ويحتمل أن يكون مفعولًا به، فإن قلنا: إنه ظرف فالفعل الواقع فيه يحتمل أن يقال هو مذكور، ويحتمل أن يقال هو مفهوم غير مذكور، فإن قلنا: هو مذكور ففيه وجهان: أحدهما: هو قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾[الفتح: ٢٥] أي وصدوكم حين جعلوا في قلوبهم الحمية. وثانيها: قوله تعالى: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾[الفتح: ٢٥] أي لعذبناهم حين جعلوا في قلوبهم الحمية. والثاني

أقرب لقربه لفظًا وشدة مناسبته معنى؛ لأنهم إذا جعلوا في قلوبهم الحمية لا يرجعون إلى الاستسلام والانقياد، والمؤمنون لما أنزل الله عليهم السكينة لا يتركون الاجتهاد في الجهاد، والله مع المؤمنين فيعذبونهم عذابًا أليمًا أو غير المؤمنين. وأما إن قلنا: إن ذلك مفهوم غير مذكور ففيه وجهان: أحدهما: حفظ الله المؤمنين عن أن يطئوهم وهم الذين كفروا الذين جعل في قلوبهم الحمية. وثانيها: أحسن الله إليكم إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ تفسير لذلك الإحسان. وأما إن قلنا: إنه مفعول به، فالعامل مقدر تقديره اذكر، أي: اذكر ذلك الوقت، كما تقول: أتذكر إذ قام زيد، أي أتذكر وقت قيامه كما تقول: أتذكر زيدًا، وعلى هذا يكون الظرف للفعل المضاف إليه عاملاً فيه.

وفيه لطائف معنوية ولفظية: الأولى: هو أن الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن، فأشار إلى ثلاثة أشياء: أحدها: جعل ما للكافرين بجعلهم فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجعل ما للمؤمنين بجعل الله، فقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وبين الفاعلَين ما لا يخفى. ثانيها: جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة، وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره. ثالثها: أضاف الحمية إلى الجاهلية وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال: حمية الجاهلية، وقال: سكينته، وبين الإضافتين ما لا يذكر. الثانية: زاد المؤمنين خيرًا بعد حصول مقابلة شيء بشيء فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة والإضافة إلى الجاهلية بالإضافة إلى الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وسنذكر معناه. **وأما اللفظية فثلاث لطائف:**

الأولى: قال في حق الكافر: (جَعَلَ) وقال في حق المؤمن (أَنْزَلَ) ولم يقل خلق ولا جعل سكينته إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها. الثانية: قال الحمية ثم أضافها بقوله: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحًا، وللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف إلى الجاهلية. وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لحسن اعتبار، فقال ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ اكتفاء بحسن الإضافة. الثالثة: قوله: ﴿فَأَنزَلَ﴾ بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة تقول: أكرمني فأكرمته للمجازاة والمقابلة، ولو قلت: أكرمني وأكرمته، لا ينبئ عن ذلك، وحينئذٍ يكون فيه لطيفة: وهي أن عند اشتداد غضب أحد العدوين فالعدو الآخر إما أن يكون ضعيفًا أو قويًا، فإن كان ضعيفًا ينهزم وينقهر، وإن كان قويًا فيورث غضبه فيه غضبًا، وهذا سبب قيام الفتن والقتال فقال في نفس الحركة عند حركتهم ما أقدمنا وما انهزمنا، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بالفاء يدل تعلق الإنزال بالفاء على ترتيبه على شيء، نقول فيه وجهان:

أحدهما: ما ذكرنا من أن (إذ) ظرف كأنه قال أحسن الله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقوله: ﴿فَأَنزَلَ﴾ تفسير لذلك الإحسان كما يقال: أكرمني فأعطاني، لتفسير الإكرام.

وثانيهما: أن تكون الفاء للدلالة على أن تعلق إنزال السكينة بجعلهم الحمية في قلوبهم، على معنى المقابلة، تقول: أكرمني فأثنيت عليه. ويجوز أن يكونا فعلين واقعين من غير مقابلة، كما تقول: جاءني زيد وخرج عمرو، وهو هنا كذلك لأنهم لما جعلوا في قلوبهم الحمية فالمسلمون على مجرى العادة لو نظرت إليهم لزم أن يوجد منهم أحد الأمرين: إما إقدام، وإما انهزام لأن أحد العدوين إذا اشتد غضبه فالعدو الآخر إن كان مثله في القوة يغضب أيضًا وهذا يثير الفتن، وإن كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له، فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا، وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى، قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه هو الذي أجاب الكافرين إلى الصلح، وكان في نفس المؤمنين أن لا يرجعوا إلا بأحد الثلاثة: بالنحر في المنحر وأبوا أن لا يكتبوا محمدًا رسول الله وباسم الله، فلما سكن رسول الله ﷺ سكن المؤمنون، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فيه وجوه أظهرها أنه قول لا إله إلا الله فإن بها يقع الاتقاء عن الشرك، وقيل: هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله، فإن الكافرين أبوا ذلك والمؤمنون التزموه، وقيل: هي الوفاء بالعهد... إلى غير ذلك ونحن نوضح فيه ما يترجح بالدليل فنقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون عائدًا إلى النبي ﷺ والمؤمنين جميعًا، يعني ألزم النبي والمؤمنين كلمة التقوى، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المؤمنين فحسب، فإن قلنا: إنه عائد إليهما جميعًا نقول: هو الأمر بالتقوى فإن الله تعالى قال للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] والأمر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات إلى ما سوى الله، كما قال في حق النبي ﷺ: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٧٧] ثم بيّن له حال من صدقه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] أما في حق المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠] وإن قلنا بأنه راجع إلى المؤمنين فهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] ألا ترى إلى قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات: ١] وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على هذا معنى لطيف وهو أنه تعالى إذا قال: (اتقوا) يكون الأمر واردًا، ثم إن من الناس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه، ومن التزمه فقد التزمه بإلزام الله إياه، فكأنه قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وفي هذا المعنى رجحان من حيث إن التقوى وإن كان كاملاً ولكنه أقرب إلى الكلمة، وعلى هذا فقوله: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ معناه أنهم كانوا عند الله أكرم الناس فألزموا تقواه، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون معناه أن من يكون تقواه أكثر، يكرمه الله أكثر.

والثاني: أن يكون معناه أن من سيكون أكرم عند الله وأقرب إليه كان أتقى، كما في قوله: «وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيم» وقوله تعالى: ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] وعلى الوجه الثاني يكون معنى قوله: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ لأنهم كانوا أعلم بالله لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أنه يفهم من معنى الأحق أنه يثبت رجحانًا على الكافرين إن لم يثبت الأهلية، كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال في الأقرب إلى الاستحقاق: إذا كان ولا بد فهذا أحق، كما يقال: الحبس أهون من القتل مع أنه لاهين هناك فقال: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ دفعًا لذلك. الثاني وهو أقوى: وهو أن يقال: قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ فيه وجوه نبينها بعد ما نبين معنى الأحق، فنقول: هو يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الأحق بمعنى الحق لا للتفضيل كما في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] إذ لا خير في غيره. والثاني: أن يكون للتفضيل وهو يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون بالنسبة إلى غيرهم، أي المؤمنون أحق من الكافرين. والثاني: أن يكون بالنسبة إلى كلمة التقوى من كلمة أخرى غير تقوى، تقول: زيد أحق بالإكرام منه بالإهانة، كما إذا سأل شخص عن زيد إنه بالطب أعلم أو بالفقه، نقول: هو بالفقه أعلم، أي من الطب.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

بيان لفساد ما قاله المنافقون بعد إنزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقوفهم عند ما أُمروا به من عدم الإقبال على القتال، وذلك قولهم: ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا. حيث كان النبي ﷺ رأى في منامه أن المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج، ولم يعين له وقتًا فقص رؤياه على المؤمنين، فقطعوا بأن الأمر كما رأى النبي ﷺ في منامه وظنُّوا أن الدخول يكون عام الحديبية[1]، والله أعلم أنه لا يكون إلا عام الفتح، فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء: ما دخلنا ولا حلقنا. فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ وتعدية (صدق) إلى مفعولين يحتمل أن يكون بنفسه، وكونه من الأفعال التي تتعدى إلى المفعولين ككلمة جعل وخلق، ويحتمل أن يقال: عدي إلى الرؤيا بحرف تقديره: صدق الله رسوله في الرؤيا، وعلى الأول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده إذ وقع الموعود به وأتى به، وعلى الثاني معناه ما أراه الله لم يكذب فيه، وعلى هذا فيحتمل أن يكون رأى في منامه أن الله

(١) لم أجده.

تعالى يقول: ستدخلون المسجد الحرام. فيكون قوله: ﴿صَدَقَ﴾ ظاهرًا لأن استعمال الصدق في الكلام ظاهر، ويحتمل أن يكون عليه الصلاة والسلام رأى أنه يدخل المسجد فيكون قوله: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ معناه أنه أتى بما يحقق المنام ويدل على كونه صادقًا يقال: صدقني سن بكره، مثلاً وفيما إذا حقق الأمر الذي يريه من نفسه، مأخوذ من الإبل إذا قيل له (هدع) سكن فحقق كونه من صغار الإبل، فإن (هدع) كلمة يسكن بها صغار الإبل وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ قال الزمخشري: هو حال أو قسم أو صفة صدق، وعلى كونه حال تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق. وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه صدقًا ملتبسًا بالحق. وعلى تقدير كونه قسمًا إما أن يكون قسمًا بالله فإن الحق من أسمائه، وإما أن يكون قسمًا بالحق الذي هو نقيض الباطل. هذا ما قاله، ويحتمل أن يقال: (إن) فيه وجهين آخرين: أحدهما: أن يقال: فيه تقديم وتأخير تقديره: صدق الله رسوله بالحق الرؤيا، أي الرسول الذي هو رسول بالحق، وفيه إشارة إلى امتناع الكذب في الرؤيا لأنه لما كان رسولاً بالحق فلا يرى في منامه الباطل. والثاني: أن يقال بأن قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ إن قلنا بأن الحق قسم فأمر اللام ظاهر، وإن لم يقل به فتقديره: لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، والله لتدخلن، وقوله: والله لتدخلن، جاز أن يكون تفسيرًا للرؤيا، يعني الرؤيا هي: والله لتدخلن، وعلى هذا تبين أن قوله: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ كان في الكلام لأن الرؤيا كانت كلامًا، ويحتمل أن يكون تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾ يعني والله ليقعن الدخول وليظهرن الصدق فلتدخلن ابتداء كلام. وقوله تعالى: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ فيه وجوه: أحدها: أنه ذكره تعليمًا للعباد الأدب وتأكيدًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] الثاني: هو أن الدخول لما لم يقع عام الحديبية، وكان المؤمنون يريدون الدخول ويأبون الصلح قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ ولكن لا بجلادتكم ولا بإرادتكم، إنما تدخلون بمشيئة الله تعالى. الثالث: هو أن الله تعالى لما قال في الوحي المنزل على النبي ﷺ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ ذكر أنه بمشيئة الله تعالى؛ لأن ذلك من الله وعد ليس عليه دَين، ولا حق واجب، ومَن وعد بشيء لا يحققه إلا بمشيئة الله تعالى وإلا فلا يُلزمه به أحد، وإذا كان هذا حال الموعود به في الوحي المنزّل صريحًا في اليقظة فما ظنكم بالوحي بالمنام؟ وهو يحتمل التأويل أكثر مما يحتمله الكلام، فإذا تأخر الدخول لِمَ يستهزئون؟ الرابع: هو أن ذلك تحقيقًا للدخول وذلك لأن أهل مكة قالوا: لا تدخلوها إلا بإرادتنا ولا نريد دخولكم في هذه السنة، ونختار دخولكم في السنة القابلة، والمؤمنون أرادوا الدخول في عامهم ولم يقع. فكان لقائل أن يقول: بقي الأمر موقوفًا على مشيئة أهل مكة إن أرادوا في السنة الآتية يتركوننا ندخلها وإن كرهوا لا ندخلها. فقال: لا تشترط إرادتهم ومشيئتهم، بل تمام الشرط بمشيئة الله.

وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ إشارة إلى أنكم تتمون الحج من أوله إلى آخره، فقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ إشارة إلى الأول وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ إشارة إلى الآخر.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال الداخلين، والداخل لا يكون الآن محرمًا، والمحرم لا يكون محلقًا، فقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ ينبئ عن الدوام فيه إلى الحلق، فكأنه قال: تدخلونها آمنين متمكنين من أن تتموا الحج محلقين.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أيضًا حال معناه غير خائفين، وذلك حصل بقوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ فما الفائدة في إعادتها؟ نقول: فيه بيان كمال الأمن، وذلك لأن بعد الحلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال، وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال: تدخلون آمنين، وتحلقون، ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام، وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي من المصلحة وكون دخولكم في سنتكم سببًا لوطء المؤمنين والمؤمنات أو ﴿فَعَلِمَ﴾ للتعقيب، ﴿فَعَلِمَ﴾ وقع عقيب ماذا؟ نقول: إن قلنا: المراد من ﴿فَعَلِمَ﴾ وقت الدخول فهو عقيب صدق، وإن قلنا: المراد ﴿فَعَلِمَ﴾ المصلحة، فالمعنى علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب، والتقدير يعني حصلت المصلحة في العام القابل ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من المصلحة المتجددة ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ إما صلح الحديبية، وإما فتح خيبر، وقد ذكرناه. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يدفع وهم حدوث علمه من قوله: ﴿فَعَلِمَ﴾ وذلك لأن قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ﴾.

تأكيدًا لبيان صدق الله في رسوله الرؤيا، وذلك لأنه لما كان مرسلاً لرسوله ليهدي، لا يريد ما لا يكون مهديًا للناس فيظهر خلافه، فيقع ذلك سببًا للضلال، ويحتمل وجوهًا أقوى من ذلك، وهو أن الرؤيا بحيث توافق الواقع تقع لغير الرسل، لكن رؤية الأشياء قبل وقوعها في

اليقظة لا تقع لكل أحد، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ وحكى له ما سيكون في اليقظة، ولا يبعد من أن يريه في المنام ما يقع فلا استبعاد في صدق رؤياه، وفيها أيضًا بيان وقوع الفتح ودخول مكة بقوله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي من يقويه على الأديان لا يستبعد منه فتح مكة له و(الهدى) يحتمل أن يكون هو القرآن كما قال تعالى: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وعلى هذا ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ هو ما فيه من الأصول والفروع، ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة، أي أرسله بالحق، أي مع الحق إشارة إلى ما شرع، ويحتمل أن يكون الهدى هو الأصول و﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ هو الأحكام، وذلك لأن من الرسل من لم يكن له أحكام بل بيَّن الأصول فحسب، والألف واللام في الهدى يحتمل أن تكون للاستغراق، أي كل ما هو هدى، ويحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣] وهو إما القرآن لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ﴾ [الزمر: ٢٣]إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣] وإما ما اتفق عليه الرسل لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] والكل من باب واحد لأن ما في القرآن موافق لما اتفق عليه الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون الحق اسم الله تعالى، فيكون كأنه قال: بالهدى ودين الله. وثانيها: أن يكون الحق نقيض الباطل فيكون كأنه قال: ودين الأمر الحق. وثالثها: أن يكون المراد به الانقياد إلى الحق والتزامه ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ أي أرسله بالهدى وهو المعجز على أحد الوجوه ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي جنس الدين، فينسخ الأديان دون دينه، وأكثر المفسرين على أن الهاء في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ راجعة إلى الرسول، والأظهر أنه راجع إلى دين الحق، أي أرسل الرسول بالدين الحق ليظهره، أي ليظهر الدين الحق على الأديان، وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للاظهار هو الله، ويحتمل أن يكون هو النبي، أي ليظهر النبي دين الحق، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ أي في أنه رسول الله، وهذا مما يسلي قلب المؤمنين فإنهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب، وقالوا: لا نعلم أنه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله، بل اكتبوا محمد بن عبد الله. فقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ في أنه رسول الله، وفيه معنى لطيف وهو أن قول الله مع أنه كافٍ في كل شيء، لكنه في الرسالة أظهر كفاية؛ لأن الرسول لا يكون إلا بقول المرسل، فإذا قال ملك: هذا رسولي، لو أنكر كل من في الدنيا أنه رسول فلا يفيد إنكارهم فقال تعالى: أي خلل في رسالته بإنكارهم مع تصديقي إياه بأنه رسولي.

وقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ فيه وجوه: أحدها: خبر مبتدأ محذوف تقديره هو محمد الذي سبق ذكره بقوله: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ ورسول الله عطف بيان. وثانيها: أن محمدًا مبتدأ خبره رسول الله وهذا تأكيد لما تقدم لأنه لما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ ولا تتوقف رسالته إلا على شهادته، وقد شهد له بها محمد رسول الله من غير نكير. وثالثها: - وهو مستنبط - وهو أن

يقال: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مبتدأ و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ عطف بيان سيق للمدح لا للتمييز ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عطف على محمد، وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ﴾ خبره، كأنه تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ جميعهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ لأن وصف الشدة والرحمة وُجد في جميعهم، أما في المؤمنين فكما في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وأما في حق النبي ﷺ فكما في قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبة: ٧٣] وقال في حقه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وعلى هذا قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ لا يكون خطابًا مع النبي ﷺ بل يكون عامًّا أخرج مخرج الخطاب، تقديره أيها السامع كائنًا من كان، كما لو قلنا: إن الواعظ يقول: (انتبه) قبل أن يقع الانتباه ولا يريد به واحدًا بعينه.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ﴾ لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم، وركوع المرائي وسجوده، فإنه لا يبتغي به ذلك. وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال الراكعون والساجدون ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٣٠] وقال الراكع يبتغي الفضل ولم يذكر الأجر لأن الله تعالى إذا قال (لكم أجر) كان ذلك منه تفضلاً، وإشارة إلى أن عملكم جاء على ما طلب الله منكم؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا على العمل الموافق للطلب من المالك، والمؤمن إذا قال: أنا أبتغي فضلك يكون منه اعترافًا بالتقصير. فقال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل أجرًا.

وقوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن ذلك يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ [التحريم: ٨] وعلى هذا فنقول: نورهم في وجوههم بسبب توجههم نحو الحق، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ومن يحاذي الشمس يقع شعاعها على وجهه، فيتبين على وجهه النور منبسطًا، مع أن الشمس لها نور عارضي يقبل الزوال، والله نور السموات والأرض، فمن يتوجه إلى وجهه يظهر في وجهه نور يبهر الأنوار. وثانيهما: أن ذلك في الدنيا، وفيه وجهان: أحدهما: أن المراد ما يظهر في الجباه بسبب كثرة السجود. والثاني: ما يُظهره الله تعالى في وجوه الساجدين ليلاً من الحسن نهارًا، وهذا محقق لمن يعقل، فإن رجلين يسهران بالليل أحدهما قد اشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلاة والقراءة واستفادة العلم، فكل أحد في اليوم الثاني يفرق بين الساهر في الشرب واللعب، وبين الساهر في الذكر والشكر.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾ فيه ثلاثة أوجه مذكورة: أحدها: أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ خبرًا له، وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ خبرًا مبتدأ محذوف تقديره: ومثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴿كَزَرْعٍ﴾. وثانيها: أن يكون خبر ذلك هو قوله: ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾ وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ مبتدأ وخبره كزرع وثالثها: أن يكون ذلك إشارة غير معينة أوضحت بقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ﴾ كقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ

﴿مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] وفيه وجه رابع: وهو أن يكون ذلك خبرًا له مبتدأ محذوف تقديره: هذا الظاهر في وجوههم ذلك، يقال: ظهر في وجهه أثر الضرب، فنقول: أي والله ذلك، أي هذا ذلك الظاهر، أو الظاهر الذي تقوله ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

أي وُصفوا في الكتابين به ومُثلوا بذلك، وإنما جُعلوا كالزرع لأنه أول ما يخرج يكون ضعيفًا وله نمو إلى حد الكمال، فكذلك المؤمنون، والشطء: الفرخ و﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون المراد أخرج الشطء وآزر الشطء، وهو أقوى وأظهر والكلام يتم عند قوله ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي تنمية الله ذلك ليغيظ أو يكون الفعل المعلل هو.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي وعد ليغيظ بهم الكفار، يقال: رغمًا لأنفك أنعم عليه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض، ويحتمل أن يقال: هو للتبعيض، ومعناه: ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم الأجر العظيم، والعظيم والمغفرة قد تقدم مرارًا والله تعالى أعلم.

وهاهنا لطيفة وهو أنه تعالى قال في حق الراكعين والساجدين إنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وقال: (لهم أجر) ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل، وذلك لأن المؤمن عند العمل لم يلتفت إلى عمله ولم يجعل له أجرًا يعتد به، فقال: لا أبتغي إلا فضلك، فإن عملي نزر لا يكون له أجر. والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه أجرًا إشارة إلى قبول عمله ووقوعه الموقع وعدم كونه عند الله نزرًا لا يستحق عليه المؤمن أجرًا، وقد علم بما ذكرنا مرارًا أن قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ لبيان ترتب المغفرة على الإيمان، فإن كل مؤمن يُغفر له كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] والأجر العظيم على العمل الصالح، والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: تمّ تفسير هذه السورة يوم الخميس، السابع عشر من شهر ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة الفتح

مدنيَّةٌ بإجماع، وهي تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِية. روى محمد بن إسحاق عن الزهريّ عن عروة عن المِسْوَر بن مَخرَمة ومروان ابن الحكم، قالا: نَزلتْ سورةُ الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيبية من أوَّلها إلى آخرها[(١)].

وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ كانَ يسيرُ في بعض أسفاره، وعمرُ بنُ الخطَّابِ يسيرُ معه ليلاً فسأله عمرُ عن شيءٍ فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثمَّ سأله فلم يُجبه، ثمَّ سألَه فلم يُجِبه؛ فقال عمرُ بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمُّ عمر، نَزَرْتَ رسول الله ﷺ ثلاثَ مرَّاتٍ كُلَّ ذلك لم يجبك؛ فقال عمر: فحرَّكتُ بعيري ثمَّ تقدَّمتُ أمامَ الناس، وخشيتُ أنْ يُنزَلَ فيَّ قرآن، فما نَشِبتُ أنْ سمعتُ صارخاً يصرخ بي؛ فقلت: لقد خشيتُ أنْ يكون نَزلَ فيَّ قرآن، فجئتُ رسولَ الله ﷺ فسلَّمتُ عليه؛ فقال: «لقد أُنزِلت عليَّ الليلةَ سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ ممّا طَلَعت عليه الشمس ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾». لفظ البخاريّ[(٢)]. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح[(٣)].

وفي صحيح مسلم[(٤)] عن قتادة أنَّ أنس بن مالك حدَّثهم قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَه من الحُدَيْبِيَة وَهُم يخالطُهم الحزنُ والكآبة، وقد نَحر الهَديَ بالحُدَيْبِيَة، فقال: «لقد أُنزِلَتْ عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً».

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣ .

(٢) صحيح البخاري (٤١٧٧) و(٤٨٣٣). وليس في صحيح مسلم ولم يعزه المزي إليه ٦/٨ . وهو في مسند أحمد (٢٠٩). وقوله: نزرتَ رسول الله، أي: ألححتَ عليه في المسألة إلحاحاً. ولم ينشب أن فعل كذا: أي لم يلبث. النهاية (نزر) (نشب).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦٢).

(٤) برقم (١٧٨٦)، وأخرجه أحمد (١٣٢٤٦).

وقال عطاء عن ابن عباس: إنَّ اليهودَ شتموا النبيَّ ﷺ والمسلمين لمَّا نَزلَ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] وقالوا: كيف نتَّبع رجلاً لا يدري ما يُفعل به! فاشتدَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(١).

ونحوه قال مقاتل بن سليمان: لمَّا نزلَ قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ فَرِحَ المشركون والمنافقون، وقالوا: كيف نتَّبع رجلاً لا يدري ما يُفْعَل به ولا بأصحابه فنزلتْ بعد ما رجع من الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي: قضينا لك قضاء. فنَسخَتْ هذه الآيةُ تلك. فقال النبيُّ ﷺ: «لقد أُنزلت عليَّ سورةٌ ما يَسُرُّني بها حُمْرُ النَّعم»(٢).

وقال المسعودي: بلغني أنَّه من قرأ سورةَ الفتح في أوَّل ليلةٍ من رمضان في صلاة التطوُّع حفظَه الله ذلك العام(٣).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾

اختُلِف في هذا الفتح ما هو؟ ففي البخاري(٤): حدّثني محمد بن بشار قال: حدّثنا غُندر قال: حدّثنا شعبة قال: سمعت قتادةَ عن أنس: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: الحُدَيْبِيَة.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣-٤٠٤، وسلف نحوه في موضعه من الأحقاف.

(٢) ذكره بنحوه أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٩، وليس فيه ذكر النَّسخ، ولا قول النبي ﷺ «لقد نزلت علي سورة...».

(٣) ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٠ وعزاه للسِّلَفي في الطيوريات، ولم يذكر المسعودي إسناده إلى من بلغه، فالخبر ضعيف. ثم إن المسعودي ـ وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود ـ صدوق اختلط قبل موته؛ كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) برقم (٤٨٣٤).

وقال جابر: ما كنا نعدُّ فتح مكَّة إلا يومَ الحُدَيْبَية[١].

وقال البراء[٢]: تعدُّون أنتم الفتحَ فتحَ مكَّة، وقد كان فتح مكَّة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضوان يومَ الحديبية، كنا نُعَدُّ مع النبي ﷺ أربع عشرة مئة، والحديبية بئر[٣].

وقال الضحاك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بغير قتال. وكان الصلح من الفتح[٤].

وقال مجاهد[٥]: هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه.

وكان[٦] فتحُ الحديبية آيةً عظيمة، نُزِح ماؤُها، فمجَّ فيها، فدرَّت بالماء حتى شَرب جميعُ من كان معه[٧].

وقال موسى بن عقبة: قال رجلٌ عند مُنصَرَفهم من الحديبية: ما هذا بفتح؛ لقد صدُّونا عن البيت. فقال النبيُّ ﷺ: «بل هو أعظمُ الفتوح، قد رضيَ المشركون أنْ يدفعوكم عن بلادهم بالرَّاح، ويسألوكم القضيَّة، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا»[٨].

وقال الشعبيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: هو فتحُ الحديبية، لقد

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٤٢.

(٢) في النسخ: الفراء. وهو خطأ.

(٣) قطعة من حديث البراء أخرجه البخاري (٤١٥٠)، والطبري ٢١/ ٢٤٣، وأخرج بعضه أحمد (١٨٥٦٣). وفي الطبري: خمس عشرة مئة. بدل: أربع عشرة مئة. قال الحافظ ابن حجر ٧/ ٤٤٠: والجمع بين هذا الخلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربع مئة، فمن قال: ألفاً وخمس مئة جبر الكسر، ومن قال ألفاً وأربع مئة ألغاه.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٨.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٣٩.

(٦) في النسخ عدا (د) و(ز): وقال: كان. بدل: وكان.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩، والكشاف ٣/ ٥٤٠. وهذا المعنى هو بعض حديث البراء عند البخاري (٤١٥٠) السالف ذكره.

(٨) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤١. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٦٠.

أصاب بها ما لم يُصِب في غزوة، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وبُويع بيعةَ الرضوان، وأُطعِموا نخلَ خيبر، وبلغَ الهَدْيُ مَحِلّه، وظهرت الرومُ على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس(١).

وقال الزهريّ: لقد كان الحديبيةُ أعظمَ الفتوح؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ جاء إليها في ألف وأربع مئة، فلما وقع الصلحُ؛ مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحدٌ الإسلام إلا تمكَّن منه؛ فما مضتْ تلك السنتان إلاَّ والمسلمونَ قد جاؤوا إلى مكَّة في عشرة آلاف(٢). وقال مجاهدٌ أيضاً والعَوْفي(٣): هو فتح خَيبر. والأوَّل أكثر؛ وخَيبَرُ إنَّما كانت وعْدًا وُعِدُوه؛ على ما يأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠].

وقال مُجَمِّع بن جارية ـ وكان أحدَ القرَّاء الذين قرؤوا القرآن ـ: شهدنا الحديبيةَ مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا انصرفنا عنها، إذا الناس يهزُّون الأباعر، فقال بعضُ النَّاس لبعض: ما بالُ النَّاس؟ قالوا: أوحَى الله إلى النبيِّ ﷺ. قال: فخرجنا نُوجِف فوجدنا نبيَّ الله ﷺ عند كُراع الغَمِيم، فلمَّا اجتمع الناسُ قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. فقال عمرُ بن الخطاب: أوَ فتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنَّه لَفتح». فقُسِمت خيبرُ على أهل الحديبية، لم يُدْخَل فيها(٤) أحدٌ إلاَّ من شَهد الحديبية(٥).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٥٥، والطبري ٢١/ ٢٤٤، والبيهقي في الدلائل ٤/ ١٦٢-١٦٣.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٧.

(٣) ذكر قولهما ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٢٣.

(٤) لفظة: فيها. ليست في (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٤٧٠)، وأبو داود (٢٧٣٦). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٦٨: وفي إسناده ضعف. اهـ. قوله: يهزون الأباعر: أي يحثُّونها ويدفعونها، والوهز: شدَّة الدفع والوَطء. النهاية (وهز)، وقوله: نوجف: الإيجاف سرعة السير، النهاية (وجف). وكُراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة. معجم البلدان ٤/ ٤٤٣.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «فَتْحاً» يدلُّ على أنَّ مكَّة فُتِحت عَنْوةٌ؛ لأنَّ اسم الفتح لا يقع مطلقاً إلاَّ على ما فُتِح عَنْوةً. هذا هو حقيقةُ الاسم. وقد يقال: فُتِح البلد صُلحاً، فلا يفهمُ الصُّلح إلّا بأن يُقرن بالفتح، فصار الفتحُ في الصلح مجازاً[١]. والأخبارُ دالةٌ على أنَّها فُتِحت عَنْوة؛ وقد مضى القولُ فيها، ويأتي[٢].

قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

قال ابن الأنباري: «فتحاً مُبيناً» غير تام؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ متعلقٌ بالفتح. كأنَّه قال: إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمعَ الله لك مع الفتح المغفرة؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرُّ به عينُك في الدنيا والآخرة. وقال أبو حاتم السّجستانيّ: هي لام القسم. وهذا خطأ؛ لأنَّ لامَ القسم لا تُكسر ولا يُنصب بها؛ ولو جاز هذا لجاز: ليقوم زيد؛ بتأويل ليقومنَّ زيد[٣].

الزَّمَخْشَرِي[٤]: فإنْ قلتَ: كيف يجعل فتحَ مكَّة عِلَّةً للمغفرة؟ قلت: لم يُجعل علَّةً للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدَّد من الأمور الأربعة؛ وهي: المغفرةُ، وإتمامُ النعمة، وهدايةُ الصراط المستقيم، والنصرُ العزيز. كأنَّه قيل[٥]: يَسَّرْنا لك فتح مكَّة، ونصرناك على عدوِّك ليُجمع لك عِزُّ الدَّارين، وأغراضُ[٦] العاجل والآجل. ويجوز أنْ يكونَ فتحُ مكَّة من حيثُ إنَّه جهادٌ للعدوِّ سبباً للغفران والثواب.

وفي الترمذيّ عن أنس قال: أُنزلت على النبيّ ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣.

(٢) سلف ١٤/ ٣٥٢، وسيأتي ص٢٨٢ من هذا الجزء.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠٠ و٧٠٠.

(٤) في الكشاف ٣/ ٥١٤.

(٥) في (م): قال.

(٦) في النسخ: أعراض. والمثبت من الكشاف.

﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرجِعَه من الحديبية؛ فقال النبي ﷺ: «لقد أُنزلت عليَّ آيةٌ أحبُّ إليَّ ممَّا على وجه الأرض». ثم قرأها النبيُّ ﷺ عليهم؛ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسولَ الله، لقد بيَّن الله لك ماذا يُفْعَل بك؛ فماذا يُفْعَل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]. قال: حديثٌ حسنٌ صحيح، وفيه عن مُجَمِّع بن جارية[١].

واختلف أهلُ التأويل في معنى ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقيل: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبل الرسالة. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعدها؛ قاله مجاهد[٢]. ونحوه قال الطبريُّ وسفيانُ الثوري.

قال الطبريّ: هو راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣]. ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبل الرسالة ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى وقت نزول هذه الآية[٣].

وقال سفيانُ الثوري: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾: ما عملتَه في الجاهلية من قبل أنْ يوحى إليك. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: كلَّ شيء لم تعمله؛ وقاله الواحدي[٤].

وقد مضى الكلام في جريان الصغائر على الأنبياء في سورة البقرة[٥]؛ فهذا قول.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل الفتح. «ومَا تَأَخَّرَ» بعد الفتح. وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل نزول

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٣)، وهو عند أحمد (١٢٢٢٦)، وأخرجه البخاري (٤١٧٢) من طريق شعبة عن قتادة. قال شعبة: فقدمت الكوفة، فحدثت بهذا كلّه عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له فقال: أما ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ﴾ فعن أنس، وأما هنيئاً مريئاً، فعن عكرمة. اهـ. وأخرج مسلم (١٧٨٦) الشطر الأول منه. وحديث مجمِّع بن جارية سلف قريباً.

(٢) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٩٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩ ، وعنه نقل المصنف كلام الطبري. إلا أن قول الطبري كما في تفسيره ٢١/ ٢٣٦ :... ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك.

(٤) في الوسيط ٤/ ١٣٤ .

(٥) ١/ ٤٥٨-٤٦٠ .

هذه الآية. «ومَا تَأَخَّرَ» بعدها[١].

وقال عطاء الخراسانيّ: «مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» يعني من ذنب أبويك آدم وحوّاء. «ومَا تَأَخَّرَ» من ذنوب أمتك[٢].

وقيل: من ذنب أبيك إبراهيم. «وَمَا تَأَخَّرَ» من ذنوب النبيّين.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: من ذنب يوم بدر. «ومَا تَأَخَّرَ» من ذنب يوم حُنَين. وذلك أنَّ الذنب المتقدّم يوم بدر، أنَّه جعل يدعو ويقول: «اللهم إنْ تهلك هذه العصابة لا تُعْبد في الأرض أبداً». وجعل يردّدُ هذا القول دفعات، فأوحى الله إليه: من أين تعلم أني لو أهلكتُ هذه العصابة لا أُعبد أبداً؛ فكان هذا الذنبَ المتقدِّم. وأمَّا الذنبُ المتأخر فيوم حنين، لمَّا انهزمَ النَّاسُ قال لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان: «ناولاني كَفًّا من حَصْباء الوادي» فناولاه، فأخذَه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه. حَم. لا ينصرون». فانهزمَ القوم عن آخرهم، فلم يبق أحدٌ إلا امتلأت عيناه رملاً وحصباء. ثم نادى في أصحابه فرجَعوا، فقال لهم عند رجوعهم: «لو لم أرمهم لم ينهزموا». فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فكان هذا هو الذنبَ المتأخِّر.

وقال أبو علي الرُّوذَبَاري: يقول: لو كان لك ذنبٌ قديم أو حديثٌ لغفرناه لك[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: في الجنة[٤]. وقيل: بالنبوّة والحكمة[٥]. وقيل: بفتح مكَّة والطائف وخيبر. وقيل: بخضوع من استكبر، وطاعة من تجبَّر[٦]. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يُثبِّتك على الهدى إلى أنْ يقبضك إليه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣١٠.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ١٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٦.

(٣) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٦/ ٥٣ دون نسبة.

(٤) الوسيط ٤/ ١٣٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٠.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ أي: غالباً منيعاً لا يَتبعُه ذلّ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٤﴾

«السَّكِينَةَ»: السكونُ والطُّمأنينة. قال ابن عباس: كلُّ سكينةٍ في القرآن هي الطُّمأنينة إلا التي في «البقرة»[(١)]. وتقدَّم معنى زيادة الإيمان في «آل عمران»[(٢)].

وقال ابنُ عباس: بُعث النبيُّ ﷺ بشهادة أنْ لا إله إلاَّ الله، فلمَّا صدَّقوه فيها زادَهم الصَّلاة، فلما صدَّقوه زادهم الزكاة، فلما صدَّقوه زادهم الصِّيام، فلما صدَّقوه زادهم الحج، ثمَّ أكمل لهم دينَهم[(٣)]؛ فذلك قوله: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ أي: تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان. وقال الربيعُ بن أنس: خَشْيَةً مع خشيتهم[(٤)]. وقال الضَّحَّاك: يقيناً مع يقينهم[(٥)].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قال ابن عباس: يريدُ الملائكةَ والجنَّ والشياطين والإنس[(٦)] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال خلقه ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما يريده.

قوله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥﴾

أي: أنزل السكينةَ ليزدادوا إيماناً. ثم تلك الزيادة سبب[(٧)] إدخالهم الجنة. وقيل:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩ .

(٢) ٥/ ٤٢٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٤٦ ، والطبراني في الكبير (١٣٠٢٨).

(٤) قاله الربيع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢]. كما في تفسير الطبري ١١/ ٢٩-٣٠ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٩ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٥ .

(٧) في (د) و(ز) و(ق): لسبب، وفي (م): بسبب. والمثبت من (خ) و(ظ) و(ف). وينظر تفسير الرازي ٢٨/ ٨١-٨٢ .

اللام في «لِيُدْخِلَ» يتعلق بما يتعلق به اللَّام في قوله: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ»[١].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الوعدُ من دخول مكَّة وغفران الذنوب. ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: نجاةً من كلِّ غمٍّ، وظفراً بكلِّ مطلوب.

وقيل: لمَّا قرأ النبيُّ ﷺ على أصحابه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فماذا لنا؟ فنزل: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾. ولمَّا قرأ ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قالوا: هنيئاً لك؛ فنزلت: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] فلمَّا قرأ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ نزل في حقِّ الأمَّة: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]. ولما قال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ نزل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ذكره القشيريُّ.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوِّ كلمة المسلمين، وبأنْ يُسلِّط النبيَّ عليه الصلاة والسلام قَتْلاً وأسرًا واسترقاقاً.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني ظنّهم أنَّ النبيّ ﷺ لا يرجعُ إلى المدينة، ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأنَّ المشركين يستأصلونَهم. كما قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]. وقال الخليلُ وسيبويه: «السَّوء» هنا الفساد[٢].

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٢٤٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ في الدنيا بالقتل والسَّبي والأسر، وفي الآخرة بجهنَّم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرةُ السُّوء﴾ بالضم. وفتحَ الباقون[1]. قال الجوهري[2]: ساءه يسوءه سَوْءاً؛ بالفتح، ومَسَاءة ومَسائية؛ نقيضُ سرَّه، والاسم: السُّوء؛ بالضم. وقُرِئ ﴿عليهم دائرةُ السُّوء﴾ يعني: الهزيمة والشر. ومن فَتَح فهو من المساءة.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. تقدَّم في غير موضعٍ جميعه، والحمد لله.

وقيل: لمَّا جرى صُلح الحديبية قال ابن أُبيّ: أيظنُّ محمدٌ أنَّه إذا صالح أهلَ مكَّة أو فتحها لا يبقى له عدوّ، فأين فارسُ والروم؟ فبيَّنَ الله عزَّ وجلَّ أنَّ جنودَ السماوات والأرضِ أكثرُ من فارس والروم.

وقيل: يدخل فيه جميع المخلوقات. وقال ابن عباس: ولله جنود السماوات: الملائكة، وجنود الأرض: المؤمنون. وأعاد لأنَّ الذي سبقَ عقيبَ ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيبَ ذكر المنافقين وسائر المشركين. والمرادُ في الموضعين التخويف والتهديد. فلو أراد إهلاكَ المنافقين والمشركين لم يُعجزه ذلك، ولكن يؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسَمًّى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ قال قتادة: على أمَّتك بالبلاغ. وقيل: شاهداً عليهم بأعمالهم من طاعةٍ أو معصية. وقيل: مُبيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم[3]. وقيل:

---

(١) السبعة ص٦٠٣ ، والتيسير ص١١٩ .
(٢) في الصحاح (سوأ).
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣١٢ .

شاهداً عليهم يوم القيامة. فهو شاهدُ أفعالهم اليوم، والشهيدُ عليهم يوم القيامة. وقد مضى في «النساء» عن سعيد بن المسيّب[١] هذا المعنى مبيَّناً.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى؛ قاله قتادة وغيره[٢]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ البِشارة والنِّذارة ومعناهما[٣]. وانتصبَ «شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» على الحال المقدَّرة. حكى سيبويه[٤]: مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً. فالمعنى: إنَّا أرسلناك مقدِّرين بشهادتك يومَ القيامة. وعلى هذا تقول: رأيت عمراً قائماً غداً.

﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قرأ ابنُ كثير وابنُ مُحَيصن وأبو عمرو: «لِيُؤْمِنُوا» بالياء، وكذلك «وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ» كلُّه بالياء على الخبر. واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده؛ فأمَّا قبلَه فقولَه: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ وأمَّا بعدَه فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الباقون بالتاء على الخطاب[٥]، واختارَه أبو حاتم.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تُعظِّموه وتُفخِّموه؛ قاله الحسن والكلبي[٦]. والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه[٧]. ومنه التعزير في الحدّ؛ لأنَّه مانع. قال القَطاميّ[٨]:

ألا بَكَرَتْ مَيٌّ بغيرِ سَفَاهةٍ ... تُعاتِبُ والمَوْدُود ينفعه العَزْرُ

(١) في النسخ عدا (خ) و(ظ): سعيد بن جبير ـ وسلف هذا المعنى عن سعيد بن المسيب ٦/٣٢٦.

(٢) النكت والعيون ٥/٣١٣، وأخرج قول قتادة الطبري ٢١/٢٥٠.

(٣) ١/٢٨١، ٣٥٨.

(٤) في الكتاب ٢/٤٩.

(٥) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٦٠٣، والتيسير ص٢٠١.

(٦) النكت والعيون ٥/٣١٣.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/٢٥١.

(٨) في ديوانه ص١٢٤. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/٣١٣، والكلام فيه بنحوه.

وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف[١]. وقال بعضُ أهل اللغة: تطيعوه. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تسوِّدُوه؛ قاله السُّديّ[٢]. وقيل: تُعظموه. والتوقير: التعظيم والتَّرْزين أيضاً[٣]. والهاء فيهما للنبيِّ ﷺ. وهنا وقفٌ تام، ثم تبتدئ: «وتُسَبِّحُوهُ». أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: عَشِيًّا.

وقيل: الضمائرُ كلُّها لله تعالى؛ فعلى هذا يكون تأويل «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أي: تُثبتوا له صحةَ الربوبية وتنفوا عنه أنْ يكونَ له ولدٌ أو شريك[٤]. واختارَ هذا القول القشيريّ. والأوَّل قولُ الضَّحَّاك، وعليه يكون بعضُ الكلام راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى، وهو: «وَتُسَبِّحُوهُ» من غير خلاف، وبعضُه راجعاً إلى رسوله ﷺ وهو «وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أي: تَدْعوه بالرسالة والنبوَّة لا بالاسم والكُنيَة.

وفي «تُسَبِّحُوهُ» وجهان: أحدهما: تسبيحُه بالتنزيه له سبحانه من كلِّ قبيح. والثاني: هو فعلُ الصلاة التي فيها التسبيح. «بُكْرَةً وَأَصِيلًا» أي: غُدْوة وعَشِيّاً[٥]. وقد مضى القول فيه[٦]. وقال الشاعر[٧]:

لَعَمْرِي لأنتَ البيتُ أُكْرِمُ أهلَهُ ... وأجلس في أفيائه بالأصائلِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية يا محمد. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ بيَّن

---

(١) قول ابن عباس من طريق مبشر بن عبيد عن الحجاج بن أرطأة عن عكرمة عنه أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٦٠ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: قال أحمد: مبشر بن عبيد كان يضع الحديث. وقول عكرمة أخرجه الطبري ٢١/ ٢٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٣.

(٣) الصحاح (وقر). وسلف قوله: تعظموه عن الحسن والكلبي.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٣.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٣-٣١٤.

(٦) ١٧/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٧) هو أبو ذؤيب. والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١٤١. وسلف ٩/ ٤٣٥.

أن بيعتهم لنبيِّه ﷺ إنَّما هي بيعةُ الله؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وهذه المبايعةُ هي بيعةُ الرِّضوان؛ على ما يأتي بيانها في هذه السورة إنْ شاء الله تعالى.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل المعنى[١]: يدُه في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويدُه في المِنَّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة[٢]. وقال الكلبيّ: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة[٣]. وقال ابن كَيْسان: قوَّةُ الله ونصرتُه فوق قوَّتهم ونصرتهم[٤].

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ بعد البيعة. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: يَرجعُ ضررُ النَّكث عليه؛ لأنَّه حَرَمَ نفسَه الثوابَ، وألزمَها العقاب.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ قيل: في البيعة. وقيل: في إيمانه. ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني في الجنَّة.

وقرأ حفصٌ والزُّهريّ: «عليهُ الله» بضمِّ الهاء. وجرَّها الباقون. وقرأ نافعٌ وابنُ كثير وابن عامر: «فَسَنُؤتِيهِ» بالنون. واختاره الفرّاء وأبو معاذ. وقرأ الباقون بالياء[٥]. وهو اختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم؛ لِقُرب اسم الله منه.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال مجاهدٌ وابن عباس: يعني

---

(١) لفظة: المعنى. ليست في (م).

(٢) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٢.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٩٠.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٦.

(٥) السبعة ص٦٠٣، والتيسير ص١٤٤، ٢٠١.

أعراب غِفار ومُزَيْنة وجُهينة وأسلم وأشْجَع والدِّيل؛ وهم الأعرابُ الذين كانوا حول المدينة؛ تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ حين أرادَ السَّفر إلى مكَّة عام الفتح، بعد أنْ كان استنفرَهم ليخرجوا معه حَذَراً من قريش، وأحرم بعُمرَةٍ وسَاق معه الهَدْيَ؛ ليعلَمَ النَّاسُ أنَّه لا يريدُ حرباً، فتثاقلوا عنه، واعتلُّوا بالشُّغل؛ فنزلت[1]. وإنما قال: «المُخَلَّفُونَ»؛ لأنَّ الله خلَّفهم عن صُحبة نبيِّه. والمخَلَّف المتروك. وقد مضى في «براءة»[2].

﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ أي: ليس لنا من يقومُ بهما. ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾ جاؤوا يطلبون الاستغفار واعتقادُهم بخلاف ظاهرهم؛ ففضَحَهم الله تعالى بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ وهذا هو النِّفاقُ المحض.

﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا﴾ قرأ حمزةُ والكسائيّ: «ضُرًّا» بضمِّ الضَّاد هنا فقط، أي: أمراً يضرُّكم. وقال ابنُ عباس: الهزيمة. الباقون بالفتح[3]؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا. وبالضَّمِّ اسمٌ لمَا ينالُ الإنسان من الهُزال وسوء الحال[4]. والمصدرُ يؤدّي عن المرّة وأكثر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قالا: لأنَّه قابَله بالنفع، وهو ضدُّ الضُّرِّ[5]. وقيل: هما لغتان بمعنًى؛ كالفَقْر والفُقْر، والضَّعْف والضُّعف[6]. ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ﴾ أي: نصراً وغَنيمةً. وهذا ردٌّ عليهم حين ظنُّوا أنَّ التخلُّف عن الرسول يدفعُ عنهم الضُّرَّ ويعجِّلُ لهم النفع[7].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩١ .

(٢) ١٠/ ٣١٦ .

(٣) السبعة ص٦٠٤ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٤) ينظر الصحاح (ضرر).

(٥) ذكر قول أبي عبيد النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٩٩ .

(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص٦٧٢ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٠٢ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٣٧ .

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ محمداً وأصحابَه أَكَلَةُ رأسٍ لا يرجعون[١]. ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: النِّفاق. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا التزيينُ من الشيطان، أو يخلقُ الله ذلك في قلوبهم.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أنَّ الله لا ينصر رسولَه. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هَلْكَى؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: فاسدين لا يصلحون لشيءٍ من الخير[٢]. قال الجَوهريّ[٣]: البُور: الرجلُ الفاسدُ الهالك الذي لا خير فيه. قال عبدُ الله بن الزِّبَعرى السَّهمِي[٤]:

يا رسولَ المليكِ إنَّ لساني   راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

وامرأةٌ بُور أيضاً؛ حكاه أبو عبيد[٥]. وقوم بُورٌ هَلْكَى. قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ وهو جمع بائر؛ مثل: حائل وحُول. وقد بار فلانٌ، أي: هلك. وأباره الله، أي: أهلكه.

وقيل: «بُوراً»: أشراراً؛ قاله ابن بحر[٦]. وقال حسان بن ثابت:

لا ينفع الطُّول من نُوكِ القلوبِ وقد   يهدي الإله سبيلَ المَعْشَرِ البورِ[٧]

أي: الهالك.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩١ . وقولهم: هم أكلة رأس، أي: هم قليلٌ يشبعُهم رأسٌ واحد. الصحاح (أكل).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٤ .

(٣) في الصحاح (بور).

(٤) ديوانه ص٣٦ .

(٥) في الصحاح: أبو عبيدة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٤ .

(٧) ديوان حسان ص١٢٣ . وفيه: الرجال. بدل: القلوب. ونقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٣ ، ووقع في الديوان، والخزانة ٤/ ٧٢ : ولا يهدي. بدل: وقد يهدي. وقوله: النوك، بضم النون، أي: الحماقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

وعيدٌ لهم، وبيانُ أنَّهم كفروا بالنِّفاق.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

أي: هو غنيٌّ عن عباده، وإنَّما ابتلاهم بالتكليف ليُثيبَ من آمن، ويعاقبَ من كفر وعصى.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانمَ خيبر؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ وَعَدَ أهلَ الحديبية فتحَ خَيْبر، وأنها لهم خاصَّةً من غاب منهم ومن حضر. ولم يَغِب منهم عنها غيرُ جابر بن عبد الله، فقسَم له رسولُ الله ﷺ كَسَهْمِ من حضر[١].

قال ابن إسحاق: وكان المتولِّي للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصاري من بني سلمة[٢]، وزيد بن ثابت من بني النَّجّار؛ كانا حاسبَين قاسمَين[٣].

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: دعونا. تقول: ذَرْه، أي: دعه. وهو يَذَرُه، أي: يَدَعُه. وأصله: وَذِرَه يَذَرُه، مثالُ: وَسِعَه يسَعُه. وقد أُميت مصدرُه[٤]، لا يقال: وَذْره ولا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٤٩.

(٢) جبار بن صخر ﷺ ممن شهد بدراً، وكان ابن اثنين وثلاثين سنة، ثم شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وكان أحد السبعين ليلة العقبة، توفي في المدينة سنة ثلاثين. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٢/١٢٥.

(٣) الدرر ص٢٣٧، ووقع في سيرة ابن هشام ٢/٣٥٧: يزيد بن ثابت.

(٤) في النسخ: صدره. والمثبت من الصحاح (وذر) والكلام منه. قال الزبيدي في تاج العروس (وذر): أماتوا مصدره وماضيَه.

وَاذِر، ولكنْ تركه وهو تارك .

قال مجاهد: تخلفوا عن الخروج إلى مكَّة، فلمَّا خرج النبي ﷺ، وأخذَ قوماً، ووجَّه بهم، قالوا: ذَرُونا نتَّبعكم فنقاتلَ معكم(١).

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: يغيِّروا. قال ابنُ زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّاۖ﴾ الآية [التوبة: ٨٣]. وأنكر هذا القولَ الطبريُّ(٢) وغيره؛ بسبب أنَّ غزوة تَبُوك كانت بعد فتح خَيْبَر وبعد فتح مكَّة. وقيل: المعنى يريدون أنْ يغيِّروا وعدَ الله الذي وَعَد لأهل الحُدَيبِيَة، وذلك أنَّ الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح؛ قاله مجاهدٌ وقتادة، واختارَه الطبريُّ(٣)، وعليه عامَّةُ أهل التأويل(٤).

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «كَلِمَ» بإسقاط الألف وكسر اللام؛ جمع كلمة؛ نحو سَلِمة وسَلِم. الباقون: «كَلَامَ» على المصدر(٥). واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].

والكلام: ما استقلَّ بنفسه من الجمل. قال الجوهريّ: الكلام اسمُ جنسٍ يَقَع على القليل والكثير. والكَلِم لا يكون أقلَّ من ثلاث كلمات؛ لأنَّه جمعُ كَلِمة؛ مثل نَبِقة ونَبِق. ولهذا قال سيبويه(٦): هذا بابُ عِلم مَا الكَلِمُ من العربية، ولم يقل: ما الكلام؛ لأنَّه أراد نفسَ ثلاثة أشياء: الاسمُ والفعلُ والحرف، فجاء بما لا يكون إلا جمعاً، وتركَ ما يمكن أنْ يقعَ على الواحد والجماعة. وتميمٌ تقول: هي كِلْمةٌ، بكسر

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٦٢ .

(٢) في تفسيره ٢١/ ٢٦٣ .

(٣) في تفسيره ٢١/ ٢٦١-٢٦٢ ، وخرج قولي مجاهد وقتادة فيه.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٤/ ١٩٢ .

(٥) السبعة ص٦٠٤ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٦) في الكتاب ١/ ١٢ .

الكاف(١)، وقد مضى في «براءة» القول فيها(٢).

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قبل رجوعنا من الحديبية: إنَّ غنيمةَ خيبر لمن شهد الحديبية خاصة. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أنْ نُصيبَ معكم من الغنائم(٣). وقيل: قال رسول الله ﷺ: «إنْ خرجتُم لم أمنعكم إلا أنَّه لا سهمَ لكم». فقالوا: هذا حسد. فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: لا يعلمون إلَّا أمر الدنيا. وقيل: لا يفقهونَ من أمر الدين إلَّا قليلاً؛ وهو ترك القتال.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: قل لهؤلاء الذين تخلَّفوا عن الحديبية: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابنُ عباس وعطاءُ بن أبي رباح ومجاهدٌ وابنُ أبي لَيْلَى وعطاءٌ الخراسانيّ: هم فارس. وقال كعبٌ والحسنُ وعبدُ الرحمن بن أبي لَيْلَى: الروم. وعن الحسن أيضاً: فارس والروم. وقال ابن جُبَير: هوازن وثَقِيف. وقال عكرمة: هوازن. وقال قتادة: هوازن وغَطَفان يومَ حُنين. وقال الزُّهْريُّ ومقاتل: بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحابُ مُسَيلِمة. وقال رافعُ بن خَديج: والله لقد كنَّا نقرأ هذه الآية فيما مضى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فلا نعلم مَن هم؛ حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة؛ فعلمنا أنَّهم هم. وقال أبو هريرة: لم

(١) الصحاح (كلم).

(٢) ١٠/٢١٩-٢٢٠.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/١٣٨، وتفسير البغوي ٤/١٩٢.

تأت هذه الآية بعدُ. وظاهر الآية يردُّه[(١)].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على صحة إمامة أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما؛ لأنَّ أبا بكرٍ دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم. وأمَّا قولُ عكرمة وقتادة: إنَّ ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين. فلا؛ لأنَّه يمتنع أنْ يكون الداعي لهم الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنَّه قال: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾. فدلَّ على أن المراد بالداعي غيرُ النبي ﷺ. ومعلومٌ أنَّه لم يدعُ هؤلاء القومَ بعد النبي ﷺ إلَّا أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما[(٢)]. الزَّمَخْشَرِي[(٣)]: فإنْ صحَّ ذلك عن قتادة؛ فالمعنى: لنْ تخرجوا معي أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدِّين، أو على قول مجاهد؛ كان الموعدُ أنَّهم لا يتَّبعون رسولَ الله ﷺ إلَّا متطوِّعين لا نصيبَ لهم في المغنم. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ هذا حكمُ من لا تُؤخذ منهم الجزية، وهو معطوفٌ على «تُقَاتِلُونَهُمْ». أي: يكونُ أحدُ الأمرين: إمَّا المقاتلةُ وإمَّا الإسلام، لا ثالث لهما. وفي حرف أُبَيّ: «أَوْ يُسْلِمُوا»[(٤)] بمعنى: حتى يُسْلِمُوا، كما تقول: كُلْ أو تشبع، أي: حتى تشبع. قال:

فـقـلـتُ لـه لاتَـبْـكِ عَـيْـنُـك إنَّـمـا نـحـاوِلُ مُـلْـكـاً أو نـمـوتَ فـنُـعـذَرا[(٥)]

وقال الزَّجَّاج: قال: «أَوْ يُسْلِمُونَ»؛ لأنَّ المعنى: أو هم يُسلِمون من غير قتال[(٦)]. وهذا في قتال المشركين، لا في أهل الكتاب.

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٣١٥-٣١٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٩٢ ، وزاد المسير ٧/ ٤٣١ .

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣-٣٩٤ .

(٣) في الكشاف ٣/ ٥٤٥ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٣ .

(٥) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص٦٦ ، وسلف ٥/ ١٧٣ .

(٦) كلام الزجاج بنحوه في البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٧٧ .

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾: الغنيمةَ والنَّصر في الدنيا، والجنَّة في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾: عام الحُدَيْبِيَة ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: وهو عذابُ النار.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

قال ابن عباس: لمَّا نزلت ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال أهلُ الزَّمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[(١)] أي: لا إثمَ عليهم في التخلُّف عن الجهاد لِعَمَاهم وزمانتهم وضعفهم. وقد مضى في «براءة» وغيرها الكلام فيه مُبيَّنًا[(٢)].

والعَرَجُ: آفةٌ تَعرِض لرِجْلٍ واحدة، وإذا كان ذلك مؤثِّرًا؛ فخللُ الرِّجْلين أولى أنْ يؤثِّر.

وقال مقاتل: هم أهلُ الزَّمانة الذين تخلَّفوا عن الحديبية وقد عذرهم[(٣)]. أي: مَنْ شاء أنْ يسير منهم معكم إلى خَيْبَر فليفعل.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمره. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ عامر: «نُدْخِلْهُ» بالنون على التعظيم. الباقون بالياء[(٤)]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدُّم اسم الله أوّلاً. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٥٦، ونسبه للكلبي.

(٢) ١٠/ ٣٣١، ١٥/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٩.

(٤) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠١.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هذه بيعةُ الرِّضوان، وكانت بالحُديبية، وهذا خبرُ الحديبية على اختصار: وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أقام مُنْصَرَفَه من غَزْوة بني المُصطَلِق في رمضان وشوَّال، وخرج في ذي القَعدة مُعْتَمِرًا، واستنفر الأعرابَ الذين حول المدينة، فأبطأ عنه أكثرُهم، وخرج النبيُّ ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتَّبعه من العرب، وجميعُهم نحو ألفٍ وأربع مئة[١] وقيل: ألف وخمس مئة[٢]. وقيل غير هذا، على ما يأتي. وساقَ معه الهَدْيَ، فأحرم رسول الله ﷺ لِيَعْلَم النَّاسُ أنَّه لم يخرجْ لحرب، فلمَّا بلغ خروجُه قريشاً خرج جمْعُهم صادِّين لرسول الله ﷺ عن المسجد الحرام ودخول مكة، وإنَّه إنْ قاتلهم قاتلوه دون ذلك، وقدَّموا خالدَ بن الوليد في خيل إلى كُرَاع الغَمِيم[٣]. فورد الخبرُ بذلك على رسول الله ﷺ وهو بعُسفان[٤] وكان المخبرَ له بشرُ بن سفيان الكَعبيّ[٥]، فسلك

(١) هو قول جابر ﷺ كما في مسند أحمد (١٤٨٢٣)، وصحيح البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسيأتي بتمامه ص٣١٧ من هذا الجزء، وسلف من قول البراء أيضاً ص٢٩٦ من هذا الجزء.

(٢) هو قول جابر ﷺ أيضاً كما في مسند أحمد (١٤١٨١)، وسيأتي ص٣١٧ من هذا الجزء.

(٣) كذا في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩ ، والدرر لابن عبد البر ص٢٢٢ والكلام منه. وفي صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) في حديث طويل عن المسور بن مخرمة ومروان... قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل...» قال ابن حجر في فتح الباري ٥/ ٣٣٥ : وسياق الحديث ظاهر في أنه كان قريباً من الحديبية فهو غير كراع الغميم... وهو الذي بين مكة والمدينة، وأما الغميم هذا فقال ابن حبيب: هو قريب من مكان بين رابغ والجحفة.

(٤) عُسْفان: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة. معجم البلدان ٤/ ١٢٢ .

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩ . ثم قال ابن هشام: ويقال: بُسْر. اهـ . والأخير هو الذي صححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٥/ ٣٣٤ . وهو بُسْر بن سفيان بن عمرو بن عويمر الخزاعي. أسلم سنة ست من الهجرة. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١/ ٣٠٩ .

طريقاً يخرجُ به في ظهورهم، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة، وكان دليلَه فيه[١] رجلٌ من أسلم، فلمَّا بلغ ذلك خيلَ قريشٍ التي مع خالد؛ جرتْ إلى قريشٍ تُعلمهم بذلك.

فلمّا وصل رسولُ الله ﷺ إلى الحديبية؛ بركت ناقتُه ﷺ، فقال الناس: خلأت خلأت! فقال النبيُّ ﷺ: «ما خَلأتْ؛ وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسَها حابسُ الفيل عن مكَّة. لا تدعوني قريشٌ اليومَ إلى خُطَّةٍ يسألوني فيها صلة رَحِم إلَّا أعطيتُهم إيَّاها». ثم نزلَ ﷺ هناك؛ فقيل: يا رسول الله، ليس بهذا الوادي ماء! فأخْرج عليه الصلاة والسلام سهماً من كِنَانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قَليبٍ من تلك القُلُب، فغرزَه في جوفه، فجاشَ بالماء الرَّواء حتى كفى جميعَ الجيش[٢].

وقيل: إنَّ الذي نزل بالسَّهم في القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمي، وهو سائقُ بُدْن النبيِّ ﷺ يومئذٍ. وقيل: نزل بالسَّهم في القَليب البرَاءُ بن عازب.

ثمَّ جرت السُّفَراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، وطال التراجع والتنازع إلى أنْ جاءه[٣] سُهيل بن عمرو العامريّ، فقاضاه على أنْ ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك، فإذا كان من قابل، أتى مُعْتَمِراً، ودخل هو وأصحابُه مكَّة بلا سلاح[٤]، حاشا السيوف في قُرَبها، فيقيم بها ثلاثاً ويخرج، وعلى أنْ يكون بينه

---

(١) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): فيهم. والمثبت من (خ) و(د) و(ظ) وهو الموافق للدرر ص٢٢٢ والكلام منه.

(٢) خبر وقوف ناقته ﷺ، ونبع الماء من القليب عند أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) من حديث عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطول.

وقوله خلأت: الخلاء للنوق كالإلحاح للجمال، والحران للدواب. النهاية (خلأ). وماء رَواء. أي: كثير مروٍ. اللسان (روي).

(٣) في (م): جاء.

(٤) في (د) و(م): بغير سلاح، وفي (خ): بالسلاح، وفي (ز): بسلاح. والمثبت من (ظ) و(ف) و(ق). وهو الموافق للدرر والكلام منه.

وبينهم صلحُ عشرة أعوام، يتداخل فيها الناس ويأمنُ بعضهم بعضاً، وعلى أنَّ من جاء من الكفَّار إلى المسلمين مسلماً من رجلٍ أو امرأةٍ رُدَّ إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً، لم يردُّوه إلى المسلمين؛ فعَظُم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام، وكان رسولُ الله ﷺ أعلم؛ لما[1] علَّمه الله من أنَّه سيجعل للمسلمين فرجاً، فقال لأصحابه: «اصبروا؛ فإن الله يجعلُ هذا الصلحَ سبباً إلى ظهور دينه». فأنِس الناسُ إلى قوله هذا بعد نفارٍ منهم.

وأبَى سهيلُ بن عمرو أنْ يُكْتَب في صدر صحيفة الصُّلح: من محمدٍ رسول الله، وقالوا له[2]: لو صدَّقناك بذلك ما دفعناك عمَّا تريد! فلابدَّ أنْ تكتب: باسمك اللهم. فقال لعليٍّ ـ وكان يكتب صحيفةَ الصلح ـ: «امح يا عليّ، واكتب باسمك اللهم» فأبى عليٌّ أن يمحو بيده: «محمد رسول الله». فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضه عليَّ» فأشار إليه فمحَاه رسولُ الله ﷺ بيده، وأمره أنْ يكتب: «من محمد بن عبد الله».

وأتى أبو جَنْدل بن سهيل يومئذٍ بإثر كتاب الصلح، وهو يَرْسُفُ في قيوده، فردَّه رسولُ الله ﷺ إلى أبيه؛ فعظُم ذلك على المسلمين، فأخبرهم رسول الله ﷺ وأخبر أبا جندل أنَّ الله سيجعلُ له فرجاً ومخرجاً[3].

وكان رسول الله ﷺ قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكَّةَ رسولاً، فجاء خبرٌ إلى رسول الله ﷺ بأنَّ أهل مكَّة قتلوه، فدعا رسول الله ﷺ حينئذٍ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكَّة؛ فرُوي أنَّه بايعَهم على الموت. ورُوي أنَّه بايعَهم على ألَّا يَفِرُّوا؛ وهي بيعةُ الرِّضوان تحت الشجرة، التي أخبرَ الله تعالى أنَّه رضيَ عن المبايعين لرسول الله ﷺ تحتَها. وأخبر رسولُ الله ﷺ أنَّهم لا يدخلون النَّار. وضربَ

(١) في (م) والدرر ص٢٢٤: بما.

(٢) في الدرر: وقال له.

(٣) الدرر ص٢٢٤، وقصة أبي جندل خرجها أحمد في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (١٨٩١٠)، وهي في صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) دون قوله: «أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً».

رسولُ الله ﷺ بيمينه على شماله لعثمان، وقال: «هذه عن عثمان»[(١)]؛ فهو كمن شهدَها. وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبيّ قال: أوَّلُ من بايع رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية أبو سنان[(٢)] الأسدي[(٣)].

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر قال: كنَّا يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحتَ الشجرة وهي سَمُرَة، وقال: بايعناه على ألَّا نفرَّ، ولم نبايعه على الموت[(٤)].

وعنه أنَّه سمع جابراً يُسأل: كم كانوا يومَ الحديبية؟ قال: كنَّا أربعَ عشرة مئة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحت الشجرة؛ وهي سَمُرة؛ فبايعناه، غيرَ جَدِّ بن قيس الأنصاري، اختبأ تحتَ بطن بعيره[(٥)].

وعن سالم بن أبي الجَعْد قال: سألتُ جابرَ بن عبد الله عن أصحاب الشجرة، فقال: لو كنَّا مئة ألفٍ لكفانا، كنَّا ألفاً وخمس مئة[(٦)]. وفي روايةٍ: كنَّا خمسَ عشرة مئة[(٧)].

وعن عبد الله بن أبي أوْفى قال: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وثلاث مئة، وكانت أسلَمُ ثُمُنَ المهاجرين[(٨)].

---

(١) خبر مبايعة النبي ﷺ عن عثمان ﷺ أخرجه البخاري (٣٦٩٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في النسخ: أبو سفيان. والمثبت من المصادر.

(٣) الدرر ص٢٢٢-٢٢٥ والكلام من أول قصة الحديبية منه. وخبر الشعبي أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠٤ .

(٤) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسلف طرفه ص٣١٤ من هذا الجزء. والسمرة: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان. النهاية (سمر).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٢٥٩)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٤١٨١)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٢). وقوله: لكفانا، يعني الماء الذي جعل يفور من بين أصابعه ﷺ عندما وضع يده الشريفة في الركوة، كما في رواية البخاري (٤١٥٢).

(٧) أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٣).

(٨) أخرجه البخاري (٤١٥٢)، ومسلم (١٨٥٧).

وعن يزيد بن أبي عبيد قال: قلتُ لسلمة: على أيِّ شيء بايعتُم رسولَ الله ﷺ يومَ الحديبية؟ قال: على الموت[(١)].

وعن البَرَاء بن عازب قال: كتب عليٌّ ﷺ الصُّلح بين النبيِّ ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية؛ فكتب: هذا ما كاتبَ عليه محمدٌ رسول الله ﷺ، فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلمُ أنَّك رسول الله لم نقاتلك. فقال النبيّ ﷺ لعليٍّ: «امْحُه». فقال: ما أنا بالذي أمحاه؛ فمحاه النبيُّ ﷺ بيده. وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثاً، ولا يدخلها بسلاح إلا جُلُبَّان السلاح؛ القِراب وما فيه[(٢)].

وعن أنس: أنَّ قريشاً صالحوا النبيَّ ﷺ؛ فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبيُّ ﷺ لعليّ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيلُ بن عمرو: أما بسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم! ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. فقال: «اكتب من محمدٍ رسول الله» قالوا: لو علمنا أنَّك رسوله لاتبعناك! ولكنْ اكتب اسمكَ واسمَ أبيك. فقال النبيُّ ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». فاشترطوا على النبيِّ ﷺ أنَّ من جاء منكم لم نردَّه عليكم، ومن جاء[(٣)] منَّا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله، أنكتبُ هذا! قال: «نعم، إنَّه مَن ذهب[(٤)] منَّا إليهم فأبعدَه الله، ومن جاءنا منهم فسيجعلُ الله له فرجاً ومخرجاً»[(٥)].

وعن أبي وائل قال: قام سهلُ بن حُنيف يومَ صِفِّين فقال يا أيُّها الناس، اتَّهموا أنفسَكم، لقد كنَّا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا؛ وذلك في

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٠٩)، والبخاري (٢٩٦٠)، ومسلم (١٨٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣): (٩٠). وقوله: القِراب وما فيه. هو من كلام أبي إسحاق؛ راوي الحديث عن البراء. كما في صحيح مسلم.

(٣) في (م): جاءكم.

(٤) في النسخ الخطية: جاء، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٨٢٧)، ومسلم (١٧٨٤).

الصُّلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين. فجاء عمرُ بن الخطاب ﷺ، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ألسنا على حقٍّ وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار؟ قال: «بلى» قال: ففيَم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا، ونرجعُ ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب إنِّي رسولُ الله، ولن يُضَيِّعَني الله أبداً» قال: فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَغَيِّظاً، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا، ونرجع ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنَّه رسولُ الله، ولن يُضيعه الله أبداً. قال: فنَزل القرآنُ على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أوَ فَتْحٌ هو؟ قال: «نعم». فطابتْ نفسُه ورجع[١].

قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء؛ قاله الفراء[٢]. وقال ابن جريج وقتادة: من الرِّضا بأمر البيعة على ألَّا يفرُّوا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت[٣]. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا.

وقيل: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكآبة بصدِّ المشركين إيَّاهم، وتخلُّفِ رؤيا النبيِّ ﷺ عنهم؛ إذ[٤] رأى أنَّه يدخل الكعبة، حتَّى قال رسول الله ﷺ: «إنَّما ذلك رؤيا منام». وقال الصِّدِّيق: لم يكن فيها الدخولُ في هذا العام.

والسكينة: الطُّمأنينةُ وسكونُ النفس إلى صدق الوعد. وقيل: الصبر.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى: فتحُ خيبر. وقيل: فتحُ مكة[٥].

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٧٥)، والبخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥): (٩٤).
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٦.
(٣) ذكر قول مقاتل الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٣١٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٤ قال ابن عطية: وهذا ضعيف: فيه مذمة للصحابة.
(٤) في (د) و(م): إذا.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٦، وقول قتادة وابن أبي ليلى أخرجه الطبري ٢١/ ٢٧٨.

وقُرئ: «وآتاهُمْ»(١).

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني: أموال خيبر، وكانت خيبرُ ذاتَ عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكّة. فـ«مَغَانِمَ» على هذا بدلٌ من «فَتْحًا قَرِيبًا»، والواو مقحمة. وقيل: «وَمَغَانِمَ» فارس والروم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد: إنَّها المغانمُ التي تكون إلى يوم القيامة. وقال ابن زيد: هي مغانمُ خيبر. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: خيبر؛ قاله مجاهد. وقال ابن عباس: عجَّل لكم صلحَ الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني أهلَ مكَّة؛ كفَّهُم عنكم بالصلح. وقال قتادة: كفَّ أيديَ اليهود عن المدينة بعد خروج النبيِّ ﷺ إلى الحديبية وخيبر. وهو اختيار الطبريّ(٢)؛ لأنَّ كفَّ أيدي المشركين بالحديبية مذكورٌ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [الفتح:٢٤]. وقال ابن عباس: في «كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ» يعني عُيينة ابن حِصْن الفَزَارِي وعوف بن مالك النَّضْريّ ومن كان معهما؛ إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر والنبيُّ ﷺ محاصرٌ لهم؛ فألقى الله عزَّ وجلَّ في قلوبهم الرُّعب، وكَفَّهم عن المسلمين(٣).

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولتكون هزيمتُهم وسلامتكم آيةً للمؤمنين؛ فيعلموا أنَّ الله يحرسهم في مشهدهم ومَغيبهم(٤). وقيل: أي: وليكون(٥) كفُّ أيديهم عنكم

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٩٦/٨، ونسبها للحسن ونوح القارئ، وهي قرءاة شاذة.

(٢) في تفسيره ٢٨٢/٢١، والأقوال السالفة جميعها أخرجها الطبري ٢١/ ٢٧٩-٢٨٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢٠١/٤.

(٤) تفسير الطبري ٢٨٣/٢١.

(٥) في (ف) و(م): ولتكون.

آيةً للمؤمنين. وقيل: أي: ولتكون هذه التي عجَّلها لكم آيةً للمؤمنين على صدقك حيثُ وعدتهم أنْ يصيبوها[١].

والواو في «ولِتَكُونَ» مقحمةٌ عند الكوفيين. وقال البصريون: عاطفةٌ على مضمر، أي: وكفَّ أيديَ النَّاس عنكم لتشكروه ولتكون آيةً للمؤمنين[٢].

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يزيديكم هُدًى، أو يثبِّتكم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ «أُخْرَى» معطوفة على «هذِهِ»؛ أي: فعجَّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى[٣].

﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال ابن عباس: هي الفتوح التي فُتحت على المسلمين؛ كأرض فارسَ والروم، وجميع ما فتحه المسلمون[٤]. وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى[٥].

وعن ابن عباس أيضاً والضَّحَّاك وابن زيد وابن إسحاق: هي خيبر، وَعَدَها اللهُ نبيَّه قبل أنْ يفتحها، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها[٦].

وعن الحسن أيضاً وقتادة: هو فتح مكَّة[٧]. وقال عكرمة: حُنين[٨]؛ لأنَّه قال:

---

(١) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣١٧، وزاد المسير ٧/ ٤٣٦.

(٢) ينظر الخلاف بين الكوفيين والبصريين على زيادة الواو في الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات الأنباري ٢/ ٤٥٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٨.

(٥) أخرج قول ابن عباس والحسن وابن أبي ليلى الطبريُّ ٢١/ ٢٨٤، وقول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

(٦) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٢٨٥.

(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥ ورجحه. ورجحه أيضاً الطبري ٢١/ ٢٨٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾. وهذا يدلُّ على تقدُّم محاولةٍ لها، وفواتِ دَرْكِ المطلوب في الحال، كما كان في مكَّة؛ قاله القشيريّ.

وقال مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة[١].

ومعنى ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: أي: أعدَّها لكم، فهي كالشيء الذي قد أُحيط به من جوانبه، فهو محصورٌ لا يفوت، فأنتم وإنْ لم تقدروا عليها في الحال؛ فهي محبوسةٌ عليكم لا تفوتكم.

وقيل: ﴿أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: علم أنَّها ستكون لكم، كما قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقيل: حفظَها الله عليكم؛ ليكون فتحُها لكم[٢]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٗا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗا ٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ قال قتادة: يعني: كفارَ قريشٍ في الحديبية[٣]. وقيل: «وَلَوْ قَاتَلَكُم» غَطَفان وأسد، والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر[٤]؛ لكانت الدائرة عليهم.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ﴾ يعني: طريقةُ الله وعاداتُه السالفةُ نصرُ أوليائه على أعدائه. وانتصب «سُنَّة» على المصدر. وقيل: «سُنَّةَ اللهِ» أي: كَسُنَّةِ الله[٥]. والسنة: الطريقة والسِّيرة[٦]. قال:

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٨ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٨٧ .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٩٨ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٩٨ .

(٦) الصحاح (سنن).

فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ[١] أنت سِرْتَها فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرها[٢]

والسُّنة أيضاً: ضَرْبٌ من تمر المدينة[٣]. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وهي الحديبية[٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ﴾ رَوى يزيدُ بن هارون قال: أخبرنا حمَّادُ بنُ سلمةَ عن ثابتٍ عن أنسٍ أنَّ ثمانينَ رجلاً من أهل مكَّةَ هبطوا على النبيِّ ﷺ من جبل التَّنعيم متسلِّحين، يريدون غِرَّةَ النبيِّ ﷺ وأصحابه؛ فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ﴾[٥].

وقال عبد الله بن مُغفَّل المُزنَيُّ: كنا مع النبيِّ ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن؛ فبينَا نحن كذلك، إذ خرجَ علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبيُّ ﷺ، فأخذَ الله بأبصارِهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد، أو هل جَعل لكم أحدٌ أماناً». قالوا: اللهم لا، فخلَّى سبيلهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية[٦].

---

(١) في (م): سيرة.

(٢) البيت لخالد بن زهير الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥٧ .

(٣) الصحاح (سنن).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٨ ، وهو قول أنس كما في زاد المسير ٧/ ٤٣٨ .

(٥) أخرجه أحمد (١٢٢٥٤)، ومسلم (١٨٠٨). وفيهما: فأخذهم سلماً فاستحياهم. والغِرَّة: هي الغفلة. الصحاح (غرر).

(٦) أخرجه مطولاً ـ أحمد (١٦٨٠٠)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٧).

وذكر ابنُ هشامٍ عن وكيع: وكانت قريشٌ قد جاء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة في أطرافهم؛ ففطِنَ المسلمون لهم، فأخذوهم أسرى، وكان ذلك، والسفراءُ يمشونَ بينهم في الصلح، فأطلقهم رسول الله ﷺ، فهم الذين يُسَمَّونَ العُتَقاء، ومنهم معاويةُ وأبوه(١).

وقال مجاهد: أقبل النبيُّ ﷺ مُعتَمِراً، إذ أخذ أصحابُهُ ناساً من الحرم غافلين، فأرسلهم النبيُّ ﷺ؛ فذلك الإظفارُ ببطن مكة(٢).

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: زُنيم، اطَّلعَ الثنيَّة من الحديبية، فرماه المشركون بسهمٍ فقتلوه؛ فبعث النبيُّ ﷺ خيلاً، فأتَوا باثني عشرَ فارساً من الكفار، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «هل لكم عليَّ ذمّة؟» قالوا: لا. فأرسلَهم، فنزلت(٣). وقال ابن أبْزَى والكلبيُّ: هم أهل الحديبية، كفَّ الله أيديَهم عن المسلمين حتى وقع الصُّلح، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين، وكفَّ أيديَ المسلمين عنهم.

وقد تقدَّم أنَّ خالدَ بنَ الوليد كان في خيل المشركين(٤). قال القشيري: فهذه رواية، والصحيحُ أنَّه كان مع النبيِّ ﷺ في ذلك الوقت.

وقد قال سلمةُ بن الأكْوَع: كانوا في أمر الصُّلح إذ أقبل أبو سفيان، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح، قال: فجئت بستَّةٍ من المشركين أسُوقُهم متسلِّحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا؛ فأتيتُ بهم رسولَ الله ﷺ(٥).

وكان عمر قال في الطريق: يا رسولَ الله، نأتي قوماً حَرْباً وليس معنا سلاح

---

(١) الدرر لابن عبد البر ص٢٢٥ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠١-٦٠٢ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٩٠ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩٠-٢٩١ .

(٤) ص٣١٤ من هذا الجزء.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/ ٤٤٠-٤٤١ .

ولا كُراع؟ فبعث رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من الطريق، فأتَوه بكلِّ سلاح وكُراعٍ كان فيها، وأُخبِر رسول الله ﷺ أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهْلٍ خرج إليك في خمس مئة فارس؛ فقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: هذا ابنُ عمِّك أتاك في خمس مئة. فقال خالد: أنا سيفُ الله وسيفُ رسوله، فيومئذٍ سُمِّي بسيف الله، فخرج ومعه خيلٌ، وهَزم الكفارَ ودفعهم إلى حوائط مكَّة[1]. وهذه الروايةُ أصحُّ.

وكان بينهم قتالٌ بالحجارة[2]. وقيل: بالنَّبَل والظُّفْر[3]. وقيل: أراد بكفِّ اليد أنَّه شَرَطَ في الكتاب أنَّ من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم، فخرج أقوامٌ من مكَّةَ مسلمون، وخافوا أنْ يردَّهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المشركين، فلحقوا بالسَّاحل، ومنهم أبو بصير، وجعلوا يُغيرون على الكفار ويأخذون عِيْرهم، حتى جاء كبارُ قريشٍ إلى النبيِّ ﷺ وقالوا: اضممهم إليك حتى نأمن؛ ففعل[4].

وقيل: هَمَّت غَطَفان وأسد منع المسلمين من يهود خَيبر[5]؛ لأنَّهم كانوا حلفاءَهم، فمنعهم الله عن ذلك؛ فهو كفُّ اليد.

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يريد به مكَّة. الثاني: الحُديبية؛ لأنَّ بعضَها مضافٌ إلى الحرم. قال الماوردي[6]: وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: بفتح مكَّة[7]. وتكون هذه نزلت بعد فتح مكَّة، وفيها دليلٌ على أنَّ مكَّة فُتحت صُلحاً؛

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩١ عن ابن أبزى. والكراع: اسم يجمع الخيل. الصحاح (كرع).

(٢) هو قول ابن عباس كما في الكشاف ٣/ ٥٤٧ .

(٣) هو قول مقاتل كما في زاد المسير ٧/ ٤٣٨ . والظُّفْر: هو ما وراء معقد الوتر إلى طرف القوس، أو طرف القوس. القاموس (ظفر).

(٤) قصة أبي بصير أخرجها أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٥) ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٥ ، وعزاه لابن المنذر عن ابن جريج.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣١٨ ، وما قبله منه.

(٧) يعني أظفركم عليهم بفتح مكة، وهو أحد ثلاثة أقوال في تفسير الآية، ذكرها الماوردي، واقتصر المصنف على الأول.

لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾.

قلت: الصحيحُ أنَّ هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكَّة، حسب ما قدَّمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين.

ورَوى الترمذيُّ قال: حدَّثنا عبدُ بن حُميد، قال: حدَّثني سليمانُ بن حرب، قال: حدَّثنا حمَّاد بنُ سلمةَ عن ثابتٍ، عن أنس؛ أنَّ ثمانينَ هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابِهِ من جبل التنعيم، عند صلاة الصبح، وهم يريدون أنْ يقتلوه؛ فأُخذوا أخذاً، فأعتقهُمْ رسولُ الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وقد تقدَّم[١].

وأمَّا فتحُ مكَّة، فالذي تدلُّ عليه الأخبارُ أنها إنَّما فُتحت عَنوة، وقد مضى القول في ذلك في «الحج» وغيرها[٢]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: قريشاً؛ منعوكم دخولَ المسجد الحرام عامَ الحُدَيبية، حين أحرم النبيُّ ﷺ مع أصحابه بعُمْرة[٣]، ومنعوا الهَدْيَ وحبسوهُ عن أنْ يبلغ مَحِلَّه. وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنَّه حملتهم الأنفة، ودَعَتْهمْ

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٤)، وتقدم ص٣٢٣ من هذا الجزء.

(٢) ١٤/ ٣٥٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣١٩.

حَمِيَّةُ الجاهلية إلى أن يفعلوا مالا يعتقدونه دِيناً، فوَبَّخهم الله على ذلك وتوعَّدهم عليه، وأدخل الأُنس على رسول الله ﷺ ببيانه ووعده[(١)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوساً. وقيل: واقفاً[(٢)]. وقال أبو عمرو بن العلاء: مجموعاً.

الجوهريُّ[(٣)]: عَكَفَه، أي: حبسه ووَقَفه، يَعْكِفُه ويَعْكُفه عَكْفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾؛ يقال: ما عَكَفَكَ عن كذا. ومنه الاعتكافُ في المسجد، وهو الاحتباس.

﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: مَنْحَرَه؛ قاله الفراء[(٤)]. وقال الشافعي ﷺ: الحَرَم[(٥)]. وكذا قال أبو حنيفة ﷺ: المُحصَر محلُّ هَدْيه الحرَم[(٦)]. والمَحِلُّ؛ بكسر الحاء: غايةُ الشيء، وبالفتح: هو الموضع الذي يَحُلُّه الناس. وكان الهَدْيُ سبعين بَدَنة[(٧)]، ولكنَّ الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلًّا[(٨)]. وقد اختلف العلماء في هذا على ما تقدَّم بيانه في «البقرة»[(٩)] عند قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [الآية:١٩٦] والصحيحُ ما ذكرناه.

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: نَحَرنا مع رسول الله ﷺ عامَ الحديبية البدَنَةَ عن سبعة، والبقرة عن سبعة[(١٠)].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٤.

(٢) في (م) موقوفاً. والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٥/ ٣١٩ ، والكلام منه.

(٣) في الصحاح (عكف).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٩ .

(٦) الكلام بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٨ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣١٩ .

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٤ .

(٩) ٣/ ٢٨٣-٢٨٤ .

(١٠) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤١٢٧).

وعنه قال: اشتركنا مع رسول الله ﷺ في الحجِّ والعُمرة، كلُّ سبعةٍ في بدنة. فقال رجلٌ لجابر: أيُشتَرَكُ في البدَنة ما يُشترك في الجَزُور؟ قال: ما هي إلَّا من البُدْن. وحضر جابرٌ الحديبية قال: ونحرَنا يومئذٍ سبعين بَدَنة، اشتركنا كلُّ سبعةٍ في بَدَنة[١].

وفي البخاريِّ[٢] عن ابن عمرَ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُعتمرين؛ فَحَال كفارُ قريشٍ دون البيت، فنحر رسولُ الله ﷺ بُدْنَه، وحَلَق رأسَه.

قيل: إنَّ الذي حلق رأسَه يومئذٍ خِراشُ بن أميَّة بن أبي العيص الخزاعي[٣]. وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أنْ ينحروا ويَحِلُّوا؛ ففعلوا بعد توقُّفٍ كان منهم أغضبَ رسول الله ﷺ. فقالت له أمَّ سلمةَ: لو نحرتَ لنحروا؛ فنحر رسولُ الله ﷺ هَدْيَه، ونحروا بِنَحْرِهِ، وحَلَق رسولُ الله ﷺ رأسَه، ودعا للمُحَلِّقين ثلاثاً وللمقصِّرين مرةً[٤]. ورأى كعبَ بن عُجرَة والقَمْلُ يسقط على وجهه؛ فقال: «أيؤذيك هوامُّك؟» قال: نعم؛ فأمره أنْ يَحلِقَ وهو بالحديبية. خرَّجه البخاريُّ والدَّارقُطنيّ[٥]. وقد مضى في «البقرة»[٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ الهَديُ والهَدِيُّ لغتان. وقُرئ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ

---

(١) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٣)، وأخرجه مختصراً أحمد (١٥٠٤٣).

(٢) برقم (١٨١٢).

(٣) الدرر ص٢٢٥، وفيه، وفي سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٩: ابن الفضل الخزاعي، بدل: ابن أبي العيص. وهو خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي، مدني، شهد مع رسول الله ﷺ الحديبية وخيبر وما بعدهما من المشاهد، توفي آخر خلافة معاوية. الإصابة ٣/ ٨٦، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٣/ ١٩١-١٩٢.

(٤) الدرر ص٢٢٥، وقصة أم سلمة أخرجها البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم (٢٧٣١-٢٧٣٢) وسلف بعضه ص٣٢٥ من هذا الجزء.
ودعاء النبي للمحلقين ثم للمقصرين سلف ٣/ ٢٨٧.

(٥) صحيح البخاري (١٨١٧)، وسنن الدارقطني (٢٧٨٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨١١٣)، ومسلم (١٢٠١).

(٦) ٣/ ٢٩٠.

﴿مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة:١٩٦] بالتخفيف والتشديد[١]؛ الواحدةَ هَدْية [وهَدِيَّة][٢]. وقد مضى في «البقرة» أيضاً[٣]. وهو معطوفٌ على الكاف والميم من «صَدُّوكُمْ». و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، وموضع «أنْ» من قوله: «أن يَبْلُغَ مَحِلَّه» نُصِبَ على تقدير الحَمْل على «صَدُّوكُمْ» أي: صدُّوكم وصدُّوا الهَدْي عن أن يبلغ[٤]. ويجوز أنْ يكون مفعولاً له؛ كأنه قال: وصَدُّوا الهَديَ كراهيةَ أن يبلغ مَحِلَّه. أبو علي: لا يصحُّ حمله على العَكف[٥]؛ لأنَّا لا نعلم «عكف» جاء متعدِّياً[٦]، ومجيءُ «مَعْكُوفاً» في الآية يجوز أنْ يكون محمولاً على المعنى؛ كأنه لمّا كان حَبْساً حُمِل المعنى على ذلك، كما حُمِل الرَّفَثُ على معنى الإفضاء، فَعُدِّيَ بإلى، فإنْ حُمل على ذلك كان موضعه نَصْباً على قياس قول سيبويه، وجراً على قياس قول الخليل. أو يكونُ مفعولاً له؛ كأنه قال: محبوساً كراهة[٧] أن يبلغ مَحِلَّه. ويجوز تقدير الجرِّ في «أن»؛ لأنّ «عن» تقدَّمت؛ فكأنه قال: وصدُّوكم عن المسجد الحرام، وصدُّوا الهَدْيَ عن أن يبلغَ مَحِلَّه. ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس: مررتُ برجلٍ إنْ زيدٍ و إن عمرٍو؛ فأضمر الجارَّ لِتَقدُّم ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكَّة

---

(١) القراءة بالتشديد هي قراءة الأعرج كما في القراءات الشاذة ص١٢ . وبالتخفيف قراءة الجمهور.

(٢) الصحاح (هدي) وما بين حاصرتين منه.

(٣) ٣/ ٢٨٢ .

(٤) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٢ .

(٥) المثبت من (ق) و(م)، وفي غيرهما: العطف.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٦ .

(٧) في (م): كراهية.

وسَطَ الكفار[١]؛ كسلمةَ بنِ هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، ، وأبي جَنْدل بن سهيل، وأشباهِهم.

﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون[٢].

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بالقتل والإيقاع بهم؛ يقال: وَطِئتُ القوم، أي: أَوقعتُ بهم. و«أنْ» يجوز أنْ يكون رفعاً على البدل من «رجالٌ، ونساءٌ» كأنَّه قال: ولولا وَطْؤكُم رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات. ويجوز أنْ يكون نصباً على البدل من الهاء والميم في «تَعْلَمُوهُمْ»؛ فيكون التقدير: لم تعلموا وَطْأهم؛ وهو في الوجهين بدلُ الاشتمال. و«لَمْ تَعْلَمُوهُمْ» نعتٌ لـ«رجالٌ» و«نساءٌ». وجواب «لَوْلا» محذوف[٣]؛ والتقدير: ولولا[٤] أنْ تطؤوا رجالاً مؤمنينَ ونساءً مؤمنات لم تعلموهم، لأذِنَ الله لكم في دخول مكَّة، ولسَلَّطكم عليهم؛ ولَكِنَّا صُنَّا من كان فيها يَكتمُ إيمانَه خوفاً[٥]. وقال الضَّحَّاك: لولا مَن في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجالٍ مؤمنين ونساءٍ مؤمنات، لم تعلموهم[٦] أنْ تطؤوا آباءهم فيَهلك أبناؤهم[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ المَعَرَّة: العيب، وهي مَفْعَلَة من العُر، وهو الجَرَب، أي: يقول المشركون: قد قتلوا أهلَ دينهم. وقيل: المعنى: يصيبكم من قَتلهم ما يلزمُكم من أجله كفارةُ قتل الخطأ؛ لأنَّ الله تعالى إنما أوجبَ على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجرَ منها ولم يَعلم بإيمانه، الكفارةَ دون الدِّية في قوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ .
(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/ ٣٠٩ .
(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨ .
(٤) في (م): لو.
(٥) لفظة: خوفاً. ليست في (م). وينظر تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥ .
(٦) في (ز) و(ظ) و(ف): تعلموا. والمثبت من (خ) و(ق) و(م).
(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما[١]. وقد مضى في «النساء» القول فيه[٢].

وقال ابن زيد: «مَعَرَّةٌ»: إثم؛ وقاله الجوهريُّ[٣]. ابن إسحاق[٤]: غُرْم الدِّيَة. قطرب: شِدَّة. وقيل: غمّ[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تفضيلٌ للصحابة، وإخبارٌ عن صفتهم الكريمة من العفَّة عن المعصية، والعصمة عن التعدِّي، حتى لو أنَّهم أصابوا من ذلك أحداً، لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملةُ عن جند سليمان عليه السلام في قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦] [النمل: ١٨].

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ **فيه أربع مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ اللام في «لِيُدْخِلَ» متعلقةٌ بمحذوف[٧]، أي: لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته[٨]. ويجوز أنْ تتعلَّقَ بالإيمان[٩]. ولا تُحملُ على مؤمنينَ دون مؤمناتٍ، ولا على مؤمناتٍ دون مؤمنين؛ لأنَّ الجميعَ يدخلون في الرحمة.

وقيل: المعنى لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، ليُسلمَ بعد الصلح من قضى أن يُسلم من أهل مكَّة؛ وكذلك كان، أسلمَ الكثيرُ منهم وحَسُنَ إسلامُهُ، ودخلوا في رحمته، أي: جنته.

---

(١) نسبه للكلبي الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ . وهو في تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦ . دون نسبة.

(٢) ٧/ ٢٥ .

(٣) في الصحاح (عرر)، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٢١/ ٣٠٥ .

(٤) في (م): وقال الجوهري وابن إسحاق. وهو خطأ.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥١٠ .

(٩) والتقدير ـ كما في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ ـ : لولا قوم مؤمنون آمنوا ليدخل الله من يشاء في رحمته.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: تميَّزوا؛ قاله القُتَبيّ[١]. وقيل: لو تفرقوا؛ قاله الكلبي. وقيل: لو زَال المؤمنون من بين أَظهُر الكفار، لَعذَّب الكفارَ بالسيف؛ قاله الضَّحَّاك. ولكنَّ الله يدفع بالمؤمنينَ عن الكفار[٢]. وقال عليٌّ ﷺ: سألتُ النبيَّ ﷺ عن هذه الآية: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال: «هم المشركون من أجداد نبيِّ الله، ومن كان بعدهم وفي عصرهم، كان في أصلابهم قومٌ مؤمنون، فلو تزيّل المؤمنونَ عن أصلاب الكافرين، لعذَّب الله تعالى الكافرين عذاباً أليماً»[٣].

الثالثة: هذه الآيةُ دليلٌ على مراعاة الكافر في حُرمة المؤمن؛ إذ لا يمكن إذايةُ الكافر إلا بإذاية[٤] المؤمن. قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: أرأيت لو أنَّ قوماً من المشركين في حصنٍ من حصونهم، حَصَرهم أهلُ الإسلام، وفيهم قومٌ من المسلمين أُسارى في أيديهم، أَيُحرقُ هذا الحصنُ أم لا؟ قال: سمعت مالكاً، وسُئلَ عن قومٍ من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم بالنَّار ومعهم الأُسارى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك: لا أرى ذلك؛ لقوله تعالى لأهل مكّة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٥]. وكذلك لو تَتَرَّس كافرٌ بمسلم، لم يجز رَميهُ. وإن فعل ذلك فاعلٌ فأتلفَ أحداً من المسلمين، فعليه الدِّية والكفَّارة. فإنْ لم يعلموا فلا دية ولا كفَّارة؛ وذلك أنَّهم إذا علموا فليس لهم أنْ يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتَلَة خطأ، والدِّية على عواقلهم. فإنْ لم يعلموا، فلهم أنْ يرموا، وإذا أُبيحوا الفعل لم يجز أن يبقَى عليهم فيها تِبَاعة.

قال ابن العربي: وقد قال جماعةٌ: إنَّ معناه: لو تزيَّلوا عن بطون النساء وأصلاب

(١) في تأويل مشكل القرآن ص٢٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ مختصراً. وعزاه للثعلبي والنقاش. وفي رفعه نظر.

(٤) في (م): أذية الكافر إلا بأذية.

(٥) المدونة الكبرى ٣/ ٢٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥-١٦٩٦ .

الرجال. وهذا ضعيف؛ لأنَّ مَن في الصُّلب أو في البطن لا يُوطأ، ولا تُصيبُ منه معرَّة. وهو سبحانه قد صرَّح فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ وذلك لا ينطلق على مَن في بطن المرأة وصُلب الرجال، وإنَّما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد، وسلمةَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل، وكذلك قال مالك. وقد حاصرنا مدينةً للروم[1] فحُبس عنهم الماء، فكانوا يُنزِلون الأُسارى يستقون لهم الماء، فلا يقدرُ أحدٌ على رميهم بالنَّبل، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا. وقد جوَّز أبو حنيفة وأصحابهُ والثَّوريُّ الرَّميَ في حصون المشركين، وإنْ كان فيهم أُسارى من المسلمين وأطفالِهم. ولو تَتَرَّس كافرٌ بولدِ مسلم، رُميَ المشرك، وإن أُصيب أحدٌ من المسلمين فلا دية فيه ولا كفَّارة. وقال الثوري: فيه الكفَّارة ولا دية. وقال الشافعيُّ بقولنا. وهذا ظاهر؛ فإنَّ التوصُّلَ إلى المباح بالمحظور لا يجوز؛ سِيَّما بروحِ المسلم؛ فلا قولَ إلا ما قاله مالك ﷺ. والله أعلم[2].

قلت: قد يجوز قتل التُّرس، ولا يكون فيه اختلافٌ إنْ شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحةُ ضروريةً كليَّةً قطعيةً. فمعنى كونها ضروريةً: أنَّها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلَّا بقتل التُّرس. ومعنى أنها كُلِّية: أنه قاطعةٌ لكلِّ الأمَّة، حتى يحصلَ من قتل التُّرس مصلحةُ كلِّ المسلمين؛ فإنْ لم يفعل، قَتَلَ الكفارُ التُّرسَ واستولوا على كلِّ الأمة. ومعنى كونها قطعيةً: أنَّ تلك المصلحةَ حاصلةٌ من قتل التُّرس قطعاً[3].

قال[4] علماؤنا: وهذه المصلحةُ بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأنَّ الفَرْضَ أنَّ التُّرسَ مقتولٌ قطعاً؛ فإما بأيدي العدوِّ فتحصل المفسدة العظيمة، التي

---

(١) في النسخ عدا (ف): الروم. والمثبت من (ف) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٦ .

(٣) ينظر المستصفى ١/ ٤٢٠ ، والمحصول ٦/ ١٦٤ .

(٤) في (ظ): قاله.

هي استيلاءُ العدوِّ على كل المسلمين. وإما بأيدي المسلمين، فَيهلِكَ العدُّو وينجو المسلمون أجمعون. ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يُقتل التُّرس في هذه الصورة بوجه؛ لأنَّه يلزم[١] منه ذهابُ التُّرس والإسلام والمسلمين، لكنْ لمَّا كانت هذه المصلحةُ غيرَ خاليةٍ من المفسدة، نفرتْ منها نفسُ من لم يمعن النظر فيها؛ فإنَّ تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدمٌ أو كالعدم. والله أعلم.

الرابعة: قراءة العامة: «لَوْ تَزَيَّلُوا» إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ: «تَزَايَلُوا»[٢] وهو مثل «تَزَيَّلُوا» في المعنى. والتزايل: التباين[٣]. و«تَزَيَّلُوا» تفعَّلوا، من زِلْت. وقيل: هي تَفَيْعَلُوا.

«لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا» قيل: اللام جواب لكلامين؛ أحدهما: «لَوْلاَ رِجَالٌ» والثاني: «لَوْ تَزَيَّلُوا»[٤]. وقيل جواب «لَوْلَا» محذوف؛ وقد تقدَّم[٥]. و«لَوْ تَزَيَّلُوا» ابتداء كلام.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

العامل في «إِذْ» قوله تعالى: «لَعَذَّبْنَا» أي: لعذَّبناهم إذ فعلوا[٦] هذا. أو فعلٌ مضمرٌ تقديره: واذكروا[٧].

---

(١) في (م): تلزم.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ .

(٣) الصحاح (زيل).

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٨٥ .

(٥) ص٣٣٠ من هذا الجزء.

(٦) في (م): جعلوا.

(٧) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٤٨-٥٤٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٩ .

﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾ فعِيلة، وهي الأنَفَة. يقال: حَمِيتُ عن كذا حَمِيَّة ـ بالتشديد ـ ومَحْمِيَّة: إذا أنِفْتَ منه وداخلك عارٌ وأَنَفَةٌ أن تفعله[١]. ومنه قول المتلمِّس:

ألا إنـنـي مـنـهـم وعِـرْضـيَ عِـرْضُـهـم   كذِي الأنْفِ يحمي أنفَه أن يُكَشَّما[٢]

أي: يمنع.

قال الزهريُّ: حَمِيَّتُهم: أَنَفَتُهم من الإقرار للنبيِّ ﷺ بالرسالة والاستفتاحِ ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعُهم من دخول مكة[٣]. وكان الذي امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمدٌ رسول الله: سهيلُ بن عمرو؛ على ما تقدَّم[٤].

وقال ابن بحر: حمِيَّتُهم عصبيَّتُهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنَفةُ من أنْ يعبدوا غيرها[٥]. وقيل: «حَمِيَةَ الجَاهِلِيَّةِ» إنَّهم قالوا: قَتلوا أبناءنا وإخواننا، ثمَّ يدخلون علينا في منازلنا؛ واللات والعُزَّى لا يدخلها أبداً[٦].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: الطمأنينةَ والوقار ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: ثبَّتهم على الرِّضا والتسليم، ولم يُدخِل قلوبَهم ما أدخلَ قلوبَ أولئك من الحميَّة.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قيل: لا إله إلا الله. روي مرفوعاً من حديث أُبيِّ بن كعب عن النبيِّ ﷺ[٧]. وهو قول عليٍّ، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن ميمون،

---

(١) الصحاح (حمى).

(٢) في النسخ الخطية: كذا الرأس يحمي أنفه أن يهشما، والمثبت من (م) وهو الموافق لخزانة الأدب ١٠/ ٥٨ ، والبيت فيه، بلفظ: يهشما. بدل: يكشما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٤) ص٣١٦ من هذا الجزء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٠٤ .

(٧) أخرجه أحمد (٢١٢٥٥)، والترمذي (٣٦٢٥). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسن بن قَزَعة. قال: وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، والضحاك، وسلمةَ بن كُهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة ابن مُصَرِّف، والربيع، والسُّدِّيّ، وابن زيد. وقاله عطاءٌ الخُراسانيّ، وزاد: محمدٌ رسول الله(١).

وعن عليّ وابن عمر أيضاً: هي لا إله إلا الله، والله أكبر(٢).

وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمد وهو على كل شيء قدير(٣).

وقال الزهريُّ: بسم الله الرحمن الرحيم. يعني أنَّ المشركين لم يُقِرُّوا بهذه الكلمة؛ فخصَّ الله بها المؤمنين، وكلمةُ التَّقوَى: هي التي يُتَّقى بها من الشرك.

وعن مجاهد أيضاً: أنَّ كَلِمَةَ التَّقوى: الإخلاص(٤).

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ أي: أحقَّ بها من كفار مكَّة؛ لأنَّ الله تعالى اختارهم لدينه وصُحبة نبيِّه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

قال قتادة: كان رسولُ الله ﷺ رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصِّفة؛ فلمَّا صالح قريشاً بالحُدَيبِية ارتاب المنافقون، حتى قال رسول الله ﷺ: إنَّه يدخل

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١٣ . عدا أقوال ابن عمر، وسلمة بن كهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة بن مصرف، والربيع، والسدي. وذكر قول ابن عمر النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٠٣ ، وذكر قول السدي ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤١ .

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١١ ، ٣١٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٣١٤ من طريق ابن جريج عن مجاهد وعطاء. وقول مجاهد فيه: كلمة التقوى: الإخلاص وسيأتي.

(٤) أخرج القولين الطبري ٢١/ ٣١٤ .

مكّة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأعلمهم أنّهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأنَّ رؤياه ﷺ حقٌّ[(١)]. وقيل: إنَّ أبا بكر هو الذي قال: إن المنام لم يكن مؤقّتاً بوقت، وأنه سيدخل. وروي أن الرؤيا كانت بالحديبية[(٢)]، ورؤيا[(٣)] الأنبياء حقٌّ. والرؤيا أحدُ وجوه الوحي إلى الأنبياء.

﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أي: في العام القابل ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن كيسان: إنّه حكايةُ ما قيل للنبي ﷺ في منامه؛ خُوطِبَ في منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنّه قال ذلك، ولهذا استثنى؛ تأدَّبَ بأدب الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣][(٤)]. وقيل: خاطب الله العبادَ بما يُحبُّ[(٥)] أن يقولوه، كما قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقيل: استثنى فيما يعلم، ليستثني الخلقُ فيما لا يعلمون، قاله ثعلب[(٦)]. وقيل: كان الله علم أنه يُميتُ بعضَ هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية، فَوَقع الاستثناءُ لهذا المعنى، قاله الحسينُ بنُ الفضل[(٧)]. وقيل: الاستثناء من «آمِنِينَ»، وذلك راجعٌ إلى مخاطبة العباد على ما جَرت به العادة[(٨)]. وقيل: معنى «إنْ شَاءَ اللهُ» إنْ أمرَكُم الله بالدخول[(٩)]. وقيل: أي: إنْ سهَّل الله. وقيل: «إن شَاءَ اللهُ» أي:

---

(١) القول بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٢٢، وأخرجه مختصراً الطبري ٢١/ ٣١٦.

(٢) هو قول مجاهد. وأخرجه الطبري ٢١/ ٣١٦، وذكر الألوسي ٢٦/ ١٢٠ أن قول من قال: إن الرؤيا قبل خروجه إلى الحديبية هو الأصح.

(٣) في (م): وإن رؤيا.

(٤) القول بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢٠٥.

(٥) في (ظ): يجب.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٣.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٠٥.

(٨) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٤ بنحوه، وعزاه للثعلبي.

(٩) هو قول الزجاج كما في معاني القرآن له ٥/ ٢٨.

كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: «إنْ» بمعنى «إذ»[(١)]، أي: إذ شاء الله، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] أي: إذ كنتم. وفيه بُعْدٌ، لأنَّ «إذ» في الماضي من الفعل، و«إذا» في المستقبل، وهذا الدُّخول في المستقبل، فوَعَدهم دخولَ المسجد الحرام وعلَّقه بشرط المشيئة، وذلك عامَ الحديبية؛ فأخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا؛ ثم تأخَّر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه، فساءَهم ذلك واشتدَّ عليهم، وصالحهم ورجع؛ ثم أذِنَ الله في العام المقبل، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾. وإنَّما قيل له في المنام: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام؛ فليس هنا شكٌّ كما زعم بعضُهم أنَّ الاستثناءَ يدلُّ على الشك، والله تعالى لا يَشكُّ، و«لَتَدْخُلُنَّ» تحقيقٌ، فكيف يكون شك. فـ«إنْ» بمعنى «إذا»[(٢)].

﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من العدوّ. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ والتحليقُ والتقصير جميعاً للرجال، ولذلك غَلَّب المذكَّر على المؤنَّث. والحلقُ أفضل، وليس للنِّساء إلا التقصيرُ. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»[(٣)]. وفي الصحيح أنَّ معاوية أخذ من شعر النبيِّ ﷺ على المَرْوَة بمِشْقَص[(٤)]. وهذا كان في العمرة لا في الحجّ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ حلَق في حَجَّته[(٥)].

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حالٌ من المحلِّقين والمقصِّرين، والتقدير: غير خائفين[(٦)]. ﴿فَعَلِمَ

(١) ذكره عن أبي عبيدة الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٠٥، وأشار إليه النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٠٤، ثم ردَّه.
(٢) في النسخ الخطية: إذ، والمثبت من (م).
(٣) ٣/ ٢٨٧.
(٤) أخرجه أحمد (١٦٨٨٥)، والبخاري (١٧٣٠)، ومسلم (١٢٤٦). والمشقص: نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض. النهاية (شقص).
(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٧ وخبر حَلْق النبي ﷺ في حجته؛ أخرجه أحمد (٤٨٨٩)، والبخاري (١٧٢٦)، ومسلم (١٣٠٤).
(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨.

﴿مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ أي: علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم[١]. وذلك أنَّه عليه الصلاة والسلام لما رجع، مضى منها إلى خَيْبَرَ فافتتحها، ورجع بأموالِ خيبرَ، وأخذ من العُدَّة والقوَّة أضعافَ ما كان فيه في ذلك العام، وأقبلَ إلى مكة على أُهبةٍ وقوَّةٍ وعُدَّة بأضعاف ذلك.

وقال الكلبيُّ: أي علم أنَّ دخولها إلى سنةٍ، ولم تعلموه أنتم. وقيل: عَلِم أنَّ بمكَّةَ رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمناتٍ لم تعلموهم[٢].

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: من دون رؤيا النبيِّ ﷺ فتح خيبر؛ قاله ابن زيد والضحاك[٣]. وقيل: فتح مكة. وقال مجاهد: هو صلح الحديبية[٤]؛ وقاله أكثر المفسرين. قال الزُّهريُّ: ما فتحٌ[٥] في الإسلام كان أعظمَ من صلح الحديبية؛ لأنَّه إنَّما كان القتالُ حين تلتقي الناس، فلَّما كانت الهدنةُ؛ وَضعتِ الحربُ أوزارَها، وأَمِنَ الناس بعضُهم بعضاً؛ فالتقَوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة، فلم يُكَلَّمْ أحدٌ بالإسلام يعقلُ شيئاً إلَّا دخل فيه، فلقد دخل في تَينك السنتين في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر[٦]. يدلُّكَ على ذلك أنَّهم كانوا سنة ستٍّ يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة، وكانوا بعد عام الحديبية سنةَ ثمانٍ في عشرة آلاف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

(١) الوسيط ٤/١٤٥.

(٢) النكت والعيون ٥/٣٢٢.

(٣) أخرج قول ابن زيد الطبري ٢١/٣١٩.

(٤) تفسير مجاهد ٢/٦٠٣، وأخرجه الطبري ٢١/٣١٨.

(٥) في (ز) و(م): ما فتح الله.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/٣١٨، وفيه: ما فُتح في الإسلام فتحٌ.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: يُعليه على كل الأديان. فالدين اسمٌ بمعنى المصدر، ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه. وقيل: أي: لِيُظهرَ رسولَه على الدين كلِّه ـ أي: على الدين الذي هو شَرْعُهُ ـ بالحجَّة، ثمَّ باليد والسيف؛ ونسخ ما عداه.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ «شَهِيداً» نصبٌ على التفسير، والباء زائدة، أي: كفى اللهُ شهيداً لنبيِّه ﷺ؛ وشهادته له تبيِّن صحة نبوَّته بالمعجزات. وقيل: «شَهِيداً» على ما أُرسل به؛ لأنَّ الكفارَ أبَوا أنْ يكتبوا: «هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله»(١).

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ «مُحَمَّدٌ» مبتدأ، و«رَسُولُ» خبره. وقيل: «مُّحَمَّدٌ» ابتداء، و«رَسُولُ اللَّهِ» نعته، «وَالَّذِينَ مَعَهُ» عطفٌ على المبتدأ، والخبر فيما بعده؛ فلا يُوقَفُ على هذا التقدير على «رَسُولُ اللَّهِ». وعلى الأول يُوقَف على «رَسُولُ اللَّهِ»؛ لأنَّ صفاتِه عليه الصلاة والسلام تزيد على ما وَصَفَ به(٢) أصحابَه؛ فيكون «مُحَمَّدٌ» ابتداءً، و«رَسُولُ اللَّهِ» الخبر؛ «وَالَّذِينَ مَعَهُ» ابتداءٌ ثانٍ، و«أَشِدَّاءُ» خبره، و«رُحَمَاءُ» خبر ثان(٣).

وكونُ الصفات في جملة أصحاب النبيِّ ﷺ هو الأشبه. قال ابن عباس: أهل

(١) سلفت القصة ١٦/٣١٦، ٣١٨.

(٢) لفظة: به. ليست في (م).

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٧٨-٦٧٩.

الحديبية أشدَّاءُ على الكفار، أي: غلاظٌ عليهم كالأسد على فريسته[١]. وقيل: المراد بـ«الَّذِينَ مَعَهُ» جميع المؤمنين.

﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: يرحم بعضهم بعضاً. وقيل: متعاطفون متوادُّون[٢]. وقرأ الحسن: «أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفارِ رُحَماءَ بينهم» بالنصب على الحال[٣]، كأنَّه قال: والذين معه في حال شدَّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ إخبارٌ عن كثرة صَلاتهم. ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ أي: يطلبون الجنَّةَ ورضا الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ السِّيما: العلامة؛ وفيها لغتان: المدُّ والقصر، أي: لاحت علاماتُ التهجُّد بالليل وأمارات السهر.

وفي سنن ابن ماجه قال: حدَّثنا إسماعيل بن محمد الطَّلحِيُّ قال: حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد، عن شَريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَثُرتْ صلاته بالليل، حَسُنَ وجهُه بالنهار»[٤].

وقال ابن العربي[٥]: ودَسَّه قومٌ في حديث النبيِّ ﷺ على وجه الغلط، وليس عن النبيِّ ﷺ فيه ذكرٌ بحرف.

وقد روى ابن وهب عن مالك: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ ذلك مما يتعلَّق بجباههم من الأرض عند السجود؛ وبه قال سعيد بن جبير. وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: صلَّى صبيحةَ إحدى وعشرينَ من رمضان، وقد وَكَفَ المسجدُ

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٣ ، والمحتسب ٢/ ٢٧٦ .

(٤) سنن ابن ماجه (١٣٣٣). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الكافي الشاف ص١٥٤ : واتفق أئمة الحديث وابن عدي والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدي: سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي وعبد الحميد بن بحر وغيرهما.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٩٨-١٦٩٩ .

وكان على عريش؛ فانصرف النبيُّ ﷺ من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثرُ الماء والطين[١].

وقال الحسن: هو بياضٌ يكون في الوجه يومَ القيامة[٢]. وقاله سعيد بن جبير أيضاً، ورواه العَوفيُّ عن ابن عباس[٣]، وقاله الزهري[٤].

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة، وفيه: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أنْ يُخرِجَ برحمته من أراد من أهلِ النار؛ أمر الملائكةَ أن يُخرجوا من النار مَن كان لا يشرك بالله شيئاً، ممن أراد اللهُ أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم[٥] بأثر السجود، تأكل النارُ ابنَ آدمَ إلا أثرَ السجود، حرَّم الله على النار أن تأكلَ أثرَ السجود»[٦].

وقال شَهْرُ بن حَوْشَب: يكون موضعُ السجود من وجوههم كالقمر ليلةَ البدر[٧].

وقال ابنُ عباسٍ ومجاهد: السِّيما في الدنيا، وهو السَّمْتُ الحسن. وعن مجاهدٍ أيضاً: هو الخشوع والتواضع. قال منصور: سألتُ مجاهداً عن قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ أهو أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثلُ رُكْبة العَنْز، وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنَّه نورٌ في وجوههم من الخشوع[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٢٠١٨)، وصحيح مسلم (١١٦٧): (٢١٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو عند أحمد (١١١٨٧). ومعنى وَكف: قطر. الصحاح (وكف).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٣ .

(٣) رواية العوفي عن ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٤) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): قاله. دون واو. والمثبت من (خ) و(ظ) ورواية الزهري ذكرها الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٦ .

(٥) لفظة: يعرفونهم. ليس في (ز) و(ق) و(م).

(٦) قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٧٧١٧)، والبخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٨) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٣٢٣-٣٢٤ .

وقال ابن جُريج: هو الوقار والبهاء.

وقال شِمْر بن عطية: هو صفرةُ الوجه من قيام الليل[١].

قال الحسن: إذا رأيتَهم حسبتهم مرضى، وما هم بمرضى. وقال الضَّحَّاك: أمَا إنَّه ليس بالنَّدْب في وجوههم، ولكنَّه الصُّفرة[٢].

وقال سفيان الثَّوريُّ: يصلُّون بالليل، فإذا أصبحوا رُؤي ذلك في وجوههم؛ بيانه قولُه ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار». وقد مضى القول فيه آنفاً.

وقال عطاء الخُراسانيُّ: دخل في هذه الآية كلُّ من حافظ على الصلوات الخمس[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: فيه وجهان، إن شئتَ قلتَ: المعنى: ذلك مَثَلُهم في التوراة وفي الإنجيل أيضاً؛ كمثلهم في القرآن؛ فيكون الوقف على «الإنْجِيل». وإن شئت قلت: تمامُ الكلام: ذلك مَثَلهم في التوراة. ثم ابتدأ فقال: ومَثَلُهم في الإنجيل[٥]. وكذا قال ابن عباس وغيره: هما مَثَلان؛ أحدهما في التوراة، والآخر في الإنجيل؛ فيوقف على هذا على «التَّورَاةِ»[٦]. وقال مجاهد: هو مَثَل واحد[٧]؛ يعني أنَّ هذه صفتُهم في التوراة والإنجيل، فلا يوقف على «التَّورَاةِ» على هذا، ويوقف على «الإنْجِيل»، ويَبتدئ: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ على معنى: وهُم كزرعٍ.

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٥ بلفظ: تَهيُّج. بدل: صفرة.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٩ .

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠١ ، وكلام الفراء السالف منه.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢ دون نسبته إلى ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٩ .

و«شَطأَهُ» يعني فراخه وأولاده، قاله ابن زيد وغيره[١]. وقال مقاتل: هو نبتٌ واحد، فإذا خرج ما بعده فقد شَطَأه[٢]. قال الجوهريُّ: شَطْءُ، الزرع والنبات: فراخُهُ، والجمعُ: أشطاء. وقد أشطأ الزرعُ: خرج شَطؤه. قال الأخفش في قوله: «أَخْرَجَ شَطأَهُ» أي: طَرفَه[٣]. وحكاه الثعلبي عن الكسائي. وقال الفراء: أشطأ الزرعُ فهو مُشطِئٌ، إذا خرج. قال الشاعر:

أخرج الشَّطءَ على وجه الثَّرى ومن الأشجار أفنانَ الثمرْ[٤]

الزَّجَّاج[٥]: أخرج شطأه، أي: نباته.

وقيل: إنَّ الشَّطءَ شوكُ السُّنْبُل، والعرب أيضاً تسمِّيه: السَّفَا، والبُهْمَى[٦]، قاله قُطْرُب. وقيل: إنَّه السنبل، فيخرج من الحبة عشرُ سنبلاتٍ وتسعٌ وثمان؛ قاله الفرَّاء[٧]، حكاه الماورديُّ[٨].

وقرأ ابن كثير وابن ذَكوان: «شَطَأه» بفتح الطَّاء، وأَسكنَ الباقون[٩]. وقرأ أنسٌ ونصرُ بن عاصم وابنُ وثَّاب: «شَطَاه»، مثل: عصاه[١٠]. وقرأ الجحدريُّ وابن أبي

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٣) الصحاح (شطأ).

(٤) البيت للزبير بن العوام ﷺ. وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٩، وفيه: يخرج. بدل: أخرج.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٢٩.

(٦) في النسخ الخطية: السفا والبهم، والمثبت من النكت والعيون والكلام منه. وقال في الصحاح: السَّفا: شوك البُهْمى، ونحوه في (م). وقال في القاموس: السَّفا: كل شجر له شوك. والبُهْمَى: هو نبت (يشبه الشعير) تَجِد به الغنم وجداً شديداً ما دام أخضر، فإذا يبس هرَّ شوكه وامتنع. تهذيب اللغة ٦/ ٣٣٩.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٦٩.

(٨) في النكت والعيون ٥/ ٣٢٣.

(٩) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠٢.

(١٠) نسب هذه القراءة ابنُ جني في المحتسب ٢/ ٢٧٧ لعيسى الهمداني، ونسبها أبو حيان في البحر ٨/ ١٠٢ لزيد بن علي.

إسحاق: «شَطَه» بغير همز؛ وكلُّها لغاتٌ فيها[١].

وهذا مَثَلٌ ضربَه الله تعالى لأصحاب النبيِّ ﷺ؛ يعني أنَّهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون؛ فكان النبيُّ ﷺ حين بدأ بالدُّعاء إلى دينه ضعيفاً، فأجابه الواحدُ بعد الواحد حتى قَوِيَ أمرُه؛ كالزرع يبدو بعد البَذْر ضعيفاً، فيقوَى حالاً بعد حالٍ حتى يغلُظَ ساقُه[٢] وأفراخُه. فكان هذا من أصحِّ مَثَلٍ، وأوضح[٣] بيان.

وقال قتادة: مَثَلُ أصحاب محمدٍ ﷺ في الإنجيل مكتوبٌ أنَّه سَيَخرجُ من قومٍ ينبتون نباتَ الزَّرع يأمرون بالمعروف، وينهَوْن عن المنكر[٤].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: قوَّاه وأعانه وشدَّه؛ أي: قوَّى الشطءُ الزرعَ. وقيل بالعكس، أي: قوَّى الزرعُ الشطءَ[٥].

وقراءةُ العامة: «آزَرَهُ» بالمدِّ. وقرأ ابن ذكوانٍ وأبو حَيوةَ وحُميد بن قيس: «فَأَزَرَهُ» مقصورة، مثل: فَعَله[٦]. والمعروف المدُّ. قال امرؤ القيس:

بِمَحْنِيَةٍ قد آزرَ الضَّالُ نَبْتَها ... مَجَرَّ جيوشٍ غانمينَ وخُيَّبِ[٧]

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: على عوده الذي يقوم عليه، فيكون ساقاً له[٨]. والسُّوق: جمع الساق.

---

(١) نسبها للجحدري أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٠٣.

(٢) في (ز) و(م): نباته، وفي (ق): شانه.

(٣) في (م): وأقوى. والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق للنكت والعيون ٥/ ٣٢٤ والكلام منه.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠.

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢.

(٦) قراءة ابن ذكوان ـ وهو راوية ابن عامر ـ في السبعة ص٦٠٥، والتيسير ص٢٠٢.

(٧) ديوان امرئ القيس ص٤٥، قال شارحه: المحنية: حيث ينحني الوادي؛ وهو أخصب موضع فيه... وقوله: مجر جيوش. أي: هذه المحنية في موضع تمر الجيوش به من غانمٍ أو خائب، فلا ينزلُها أحدٌ ليرعاها خوفاً من الجيوش؛ فذلك أوفر لخصبها، وأتم لكلئها. اهـ. والضَّالُ: السِّدْر البَرّي، أو ما لا يسقيه إلا المطر منه. القاموس (ضال).

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٢٣.

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يعجب هذا الزرعُ زُرَّاعَه. وهو مَثَلٌ كما بيَّنّا، فالزرعُ محمدٌ ﷺ، والشطءُ أصحابه، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فَقَوُوا، قاله الضحاك وغيره.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ اللام متعلقة بمحذوف، أي: فَعَلَ الله هذا لمحمدٍ ﷺ وأصحابه، ليغيظ بهم الكفار[١].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ﷺ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة. ﴿مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ أي: ثواباً لا ينقطع، وهو الجنَّة.

وليست «مِن» في قوله: «منهم» مبعِّضةً لقومٍ من الصحابة دون قوم، ولكنَّها عامةٌ مجنِّسة، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، لا يُقصد للتبعيض؛ لكنَّه يذهب إلى الجنس، أي: فاجتنبوا الرِّجس من جنس الأوثان، إذْ كان الرِّجس يقع من أجناسٍ شتّى؛ منها الزِّنى، والرِّبا، وشربُ الخمر، والكذب. فأدخل «مِن» يفيدُ بها الجنس، وكذا «منهم»، أي: من هذا الجنس، يعني: جنسَ الصحابة. ويقال: أَنفقْ نفقتَكَ من الدراهم، أي: اجعل نفقتَك هذا الجنس. وقد يُخصَّصُ أصحابُ محمدٍ ﷺ بوعد المغفرة تفضيلاً لهم، وإنْ وَعَدَ اللهُ جميعَ المؤمنين المغفرةَ.

وفي الآية جوابٌ آخر: وهو أنَّ «من» مؤكدةٌ للكلام، والمعنى وَعَدهم الله كلَّهم مغفرةً وأجراً عظيماً. فجرى مجرى [قول][٢] العربي: قطعتُ من الثوب قميصاً؛ يريد قطعتُ الثوبَ كلَّه قميصاً. و«من» لم تبعِّض شيئاً. وشاهدُ هذا من القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢] معناه: وننزِّل القرآن شفاءً؛ لأنَّ كلَّ حرفٍ منه يَشفي، وليس الشِّفاءُ مختصًّا به بعضُه دون بعض. على أنَّ من اللُّغويين من يقول:

(١) الوجيز (بحاشية مراح لبيد) ٢/ ٣١٢.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

«من» مجنِّسة؛ تقديرها: نُنزِّل الشفاءَ من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن. قال زهير(١):

أمِـن أُمِّ أوفَـى دِمْـنَـةٌ لـم تَـكَـلَّـمِ

أراد: من ناحية أمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ، أم من منازلها دِمْنَة. وقال الآخر:

أخُـو رغـائـبَ يُـعـطـيـهـا ويُـسـألُـهـا   يـأبى الـظُّـلامةَ منه الـنَّـوفَلُ الـزُّفَرُ(٢)

فـ«من» لم تُبعِّض شيئاً، إذْ كان المقصد: يأبى الظُّلامةَ؛ لأنَّه نَوفَلٌ زُفَرُ. والنَّوفَل: الكثير العطاء. والزُّفَر: حاملُ الأثقال والمؤن عن الناس.

الخامسة: روى أبو عروةَ الزبيريُّ من ولد الزبير: كنَّا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً ينتقصُ أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالكُ هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ حتى بلغ: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾. فقال مالك: مَن أصبح من الناس في قلبه غَيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية؛ ذكره الخطيب أبو بكر(٣).

قلت: لقد أحسن مالكٌ في مقالته، وأصاب في تأويله. فمن نَقَصَ واحداً منهم، أو طعن عليه في روايته، فقد ردَّ على الله رَبِّ العالمين، وأبطلَ شرائعَ المسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ الآية. وقال: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]. إلى غير ذلك من الآي التي تضمَّنت الثناءَ عليهم، والشهادةَ لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب:٢٣]. وقال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

---

(١) في ديوانه ص٤، وسلف ٤/ ٤٧٣.

(٢) الكلام بنحوه في كتاب الأضداد للأنباري ص٢٥٢-٢٥٣. والبيت لأعشى باهلة كما في الأصمعيات ص٩٠.

(٣) لم نقف عليه عند الخطيب، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧.

[الحشر: ٨]، ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآلِ أمرهم، وقال رسول الله ﷺ: «خيرُ الناسِ قَرني، ثم الذين يلونهم». وقال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهباً، لم يُدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه» خرَّجهما البخاري[(١)]. وفي حديث آخر: «فلو أنَّ أحدكم أنفقَ ما في الأرض، لم يُدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه»[(٢)].

قال أبو عبيد[(٣)]: معناه لم يُدرك مُدَّ أحدهم إذا تصدَّق به، ولا نصفَ المُدِّ؛ فالنصيفُ هو النصفُ هنا. وكذلك يقال للعُشر: عَشِير، وللخُمس: خميس، وللتُّسع: تَسيع، وللثُّمن: ثَمين، وللسُّبع: سَبيع، وللسُّدس: سَدِيس، وللرُّبع: رَبيع. ولم تقل العرب للثلث ثليث.

وفي البزَّار عن جابرٍ مرفوعاً صحيحاً: «إنَّ الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيِّين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا ـ فجعلهم أصحابي. وقال في أصحابي: كلُّهم خير»[(٤)].

وروى عُوَيم بن ساعدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ اختارني واختار لي أصحابي، فجعل لي منهم وزراءَ وأختاناً وأصهاراً، فمن سَبَّهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً»[(٥)].

---

(١) الحديث الأول أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، وهو عند أحمد (٣٥٩٤)، ومسلم (٢٥٣٣) عن عبد الله بن مسعود ﷺ، والحديث الثاني أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، وهو عند أحمد (١١٠٧٩)، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٣٩٧-٣٩٨ .

(٣) في غريب الحديث ٢/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢٧٦٣). قال البزار: لا نعلمه يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد، ولم يشارك عبد الله بن صالح في روايته هذه عن نافع بن يزيد أحد نعلمه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦ : رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٠٠٠)، والطبراني في الأوسط (٤٥٩)، والكبير ١٧/ (٣٤٩)، قال =

والأحاديث بهذا المعنى كثير[١]، فَحذَارِ من الوقوع في أحد منهم، كما فعل مَن طعن في الدِّين فقال: إنَّ المُعَوِّذَتين ليستا من القرآن، وما صحَّ حديثٌ عن رسول الله ﷺ في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل، إلاَّ عن عقبةَ بن عامر[٢]، وعقبةُ بن عامرٍ ضعيفٌ لم يوافق غيره عليها، فروايته مُطَّرحة! وهذا ردٌّ لما ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطالٌ لما نقلَته لنا الصحابة من المِلَّة. فإنَّ عقبةَ بن عامر بن عيسى الجُهني، ممن رَوى لنا الشريعةَ في الصحيحين: البخاري ومسلم وغيرهما، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم، وأثنى عليهم ووعدهم مغفرةً وأجراً عظيماً. فمن نسبَه أو واحداً من الصحابة إلى كذبٍ، فهو خارجٌ عن الشريعة، مُبطِلٌ للقرآن طاعنٌ على رسول الله ﷺ. ومتى أَلحِق واحدٌ منهم تكذيباً فقد سُبَّ؛ لأنَّه لا عارٌ ولا عيبٌ بعد الكفر بالله أعظمَ من الكذب، وقد لَعن رسول الله ﷺ من سَبَّ أصحابه؛ فالمكذِّب لأصغرهم - ولا صغيرَ فيهم - داخلٌ في لعنة الله التي شهد بها رسولُ الله ﷺ، وألزمَها كلَّ مَن سبَّ واحداً من أصحابه، أو طعن عليه.

وعن عمر بن حبيب[٣] قال: حضرتُ مجلسَ هارونَ الرشيد. فجرتْ مسألةٌ تنازعها الحضور، وعلَتْ أصواتهم؛ فاحتجَّ بعضُهم بحديثٍ يرويه أبو هريرةَ عن رسول الله ﷺ؛ فرفع بعضُهم الحديث، وزادت المدافعةُ والخصام، حتى قال قائلون منهم: لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله ﷺ؛ لأنّ أبا هريرة مُتَّهمٌ فيما يرويه،

= الطبراني في المعجم الأوسط: لا يروى عن عويم بن ساعدة إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن طلحة التيمي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦ : وفيه من لم أعرفه. وأخرجه ابن حجر في الأمالي المطلقة ص٧٠-٧١ وقال: هذا حديث حسن.

(١) في (م): كثيرة.

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم (٨١٤) عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة، لم ير مثلهن قط؟: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

(٣) هو العدوي البصري القاضي، قال البخاريُّ: يتكلمون فيه، وقال يحيى بن معين: ضعيف، كان يكذب. مات بالبصرة سنة سبع ومئتين. سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٩٠-٤٩١ .

وصَرَّحوا بتكذيبه، ورأيتُ الرشيدَ قد نحا نحوهم، ونَصَر قولهم، فقلت أنا: الحديثُ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، وأبو هريرةَ صحيحُ النَّقل، صدوقٌ فيما يرويه عن نبيِّ الله ﷺ وغيره. فنظر إليَّ الرشيدُ نَظر مُغضَب، وقمتُ من المجلس فانصرفتُ إلى منزلي، فلم ألبثْ حتى قيل: صاحبُ البريد بالباب، فدخل فقال لي: أجبْ أميرَ المؤمنين إجابةَ مقتول، وتحنَّط وتكفَّن! فقلت: اللهُم إنَّك تعلم أنِّي دفعتُ عن صاحب نبيِّك، وأجللتُ نبيَّك أن يُطعنَ على أصحابه، فَسلِّمْني منه. فأُدخلتُ على الرشيد وهو جالسٌ على كرسيٍّ من ذهب، حاسرٌ عن ذراعيه؛ بيده السيف، وبين يديه النِّطْع(١)؛ فلما بَصُرَ بي قال لي: يا عمرَ بنَ حبيب، أتتلقَّاني من الردِّ والدفع بما تلقَّيتني به! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنَّ الذي قُلتَه وجادلتَ عنه، فيه إزراءٌ(٢) على رسول الله ﷺ [وعلى ما جاء به]. إذا كان أصحابُه كذابين، فالشريعةُ باطلةٌ، والفرائضُ والأحكامُ في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود؛ كلُّه مردودٌ غير مقبول! فرجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمرَ بنَ حبيب أحياك الله، أحييتني يا عمرَ بن حبيب أحياك الله(٣)؛ وأمر لي بعشرة آلاف درهم(٤).

قلت: فالصحابة كلُّهم عدول، أولياءُ الله تعالى وأصفياؤه، وخِيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهبُ أهل السنة، والذي عليه الجماعةُ من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شِرذمةٌ لا مبالاةَ بهم إلى أنَّ حالَ الصحابة كحالِ غيرهم، فيلزمُ البحثُ عن عدالتهم.

---

(١) النطع: بساطٌ من الأديم. القاموس (نطع).

(٢) في (م) إزدراء.

(٣) قوله: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله. الثانية من (خ) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ١٩٦ - ١٩٧ . والقصة مخرجة فيه. وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) أخرج هذه القصة الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١١/ ١٩٦-١٩٧ ، ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال ٢١/ ٢٩٤-٢٩٥ . ولا يخفى ما في هذه القصة من نكارة، فصاحبها عمر بن حبيب العدوي ضعيف متهم بالكذب كما تقدَّم.

ومنهم من فرَّق بين حالهم في بَداءة الأمر فقال: إنَّهم كانوا على العدالة إذ ذاك؛ ثم تغيَّرت بهمُ الأحوالُ، فظهرتْ فيهم الحروب وسفك الدماء؛ فلا بُدَّ من البحث.

وهذا مردودٌ؛ فإنَّ خيارَ الصحابة وفضلاءهم كعليٍّ وطلحةَ والزُّبير وغيرهم ﷺ ممن أثنى الله عليهم وزكَّاهم، ورضيَ عنهم وأرضاهم، ووعدهم الجنة بقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وخاصةً العشرةَ المقطوعَ لهم بالجنة بإخبار الرسول، هم القدوةُ مع علمهم بكثيرٍ من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيِّهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غيرُ مُسقطٍ من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمورُ مبنيةً على الاجتهاد، وكلُّ مجتهد مصيبٌ.

وسيأتي الكلامُ في تلك الأمور في سورة الحجرات مبيَّنةً إنْ شاء الله تعالى(١).

تمَّ تفسيرُ سورة الفتح، والحمد لله.

---

(١) ١٦/٣٢١-٣٢٢.

سُورَةُ الفَتْحِ

مَدنيَّةٌ، نزلَتْ في مَرجعِ رسولِ اللهِ ﷺ مِن الحديبيَةِ، وآيُها تِسعٌ وعِشرونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ وعدٌ بفتحِ مَكَّةَ عظَّمَها الله، والتَّعبيرُ عنه بالماضي لتَحقُّقِه، أو بما اتَّفقَ له في تلكَ السَّنةِ كفتحِ خيبرَ وفَدَكَ.

أو إخبارٌ عَن صُلحِ الحُديبيةِ، وإنَّما سمَّاهُ فتحًا لأنَّه كانَ بعدَ ظُهورِه على المشركينَ حتَّى سَألُوا الصُّلحَ وتَسبَّبَ لفتحِ مَكَّةَ وفرغَ بِهِ رسولُ اللهِ لسائرِ العربِ فغَزاهُم وفتَحَ مواضِعَ وأدخلَ في الإسلامِ خَلقًا عظيمًا.

وظهرَ له في الحُدَيبيةِ آيةٌ عظيمةٌ وهي أَنَّهُ نُزِحَ ماؤُها بالكُليَّةِ فتمضمضَ ثمَّ مَجَّهُ فيها فدَرَّتْ بالماءِ حتَّى شَرِبَ جميعُ مَن كانَ معه[1].

أو فتحُ الرُّومِ فإنَّهُم غلَبُوا على الفُرسِ في تلكَ السَّنةِ، وقد عُرِفَ كونُه فتحًا للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ في سورةِ الرُّومِ.

وقيل: الفَتحُ بمَعنى القضاءِ، أي: قَضَينا لكَ أن تدخُلَ مكَّةَ مِن قابلٍ.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٧٧) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢ ـ ٣) ـ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ عِلَّةٌ للفتحِ مِن حيثُ إنَّه مسبَّبٌ عَن جهادِ الكُفَّارِ والسَّعيِ في إزاحةِ الشِّركِ وإعلاءِ الدِّينِ وتكميلِ النُّفوسِ النَّاقصَةِ قَهْرًا ليصيرَ ذلك بالتَّدريجِ اختيارًا، وتخليصِ الضَّعَفةِ عَن أيدي الظَّلَمةِ.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ جميعَ ما فرَطَ منكَ ممَّا يَصِحُّ أَنْ تُعاتَبَ عليه.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاءِ الدِّينِ وضمِّ الملكِ إلى النبوَّةِ.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في تَبليغِ الرِّسالةِ وإقامةِ مَراسمِ الرِّئاسةِ.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ نصرًا فيه عِزٌّ ومَنَعةٌ، أو يَعِزُّ به المنصورُ، فوصفَ بوَصفِه مُبالغَةً.

(٤) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الثَّباتَ والطمأنينةَ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى يَثْبُتُوا حيثُ تَقلَقُ النُّفوسُ وتَدحَضُ الأقدامُ.

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يقينًا مع يَقينِهم برُسوخِ العَقيدَةِ واطمئنانِ النَّفسِ عليها، أو أنزلَ فيها السُّكونَ إلى ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ عليهِ السَّلامُ ليزدادُوا إيمانًا بالشَّرائعِ مع إيمانِهم باللهِ واليومِ الآخرِ.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُدبِّرُ أمرَها فيسلِّطُ بعضَها على بعضٍ تارةً، ويُوقِعُ فيما بينَهُم السِّلمَ أخرى كما تَقتَضيهِ حكمَتُه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمَصالحِ ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يقدِّرُ ويدبِّرُ.

(٥) ـ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ عِلَّةٌ بما بعدَهُ؛ لِمَا دلَّ عليهِ قولُه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن مَعنى التَّدبيرِ أي: دبَّرَ ما دبَّرَ مِن تَسليطِ المؤمنينَ ليَعرِفُوا نعمةَ اللهِ فيه ويَشكُروها فيدخِلَهُم[1]

(١) في نسخة التفتازاني: «فيدخل»، وفي نسخة الفاروقي والطبلاوي: «فيدخلوا».

الجنَّةَ ويُعذِّبَ الكُفَّارَ والمُنافقينَ لما غاظَهُم مِن ذلك، أو ﴿فَتَحْنَا﴾ أو ﴿أَنزَلَ﴾ أو جميع ما ذُكِرَ، أو ليزدادُوا.

وقيل إنَّه بدلٌ منهُ بدلَ الاشتمالِ.

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يُغَطِّيها ولا يُظهرُها.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي: الإدخالُ والتَّكفيرُ.

﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لأنَّه مُنتَهى ما يُطلبُ مِن جَلبِ نَفعٍ أو دفعِ ضرٍّ. و﴿عندَ﴾ حالٌ مِن الفوزِ.

(٦) ـ ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ﴾ عطفٌ على (يُدخل) إلَّا إذا جُعلَ بدلًا فيكونُ عطفًا على المبدلِ.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ ظنَّ الأمرِ السَّوءِ، وهو أَنْ لا ينصرَ رسولَهُ والمؤمنينَ.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دائرةُ ما يَظنُّونَهُ ويَتربَّصونَه بالمؤمنينَ لا تتخطَّاهُم.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿دائرةُ السُّوءِ﴾ بالضَّمِّ[1] وهما لُغتانِ غيرَ أنَّ المفتوحَ غلبَ في أن يضافَ إليه ما يرادُ ذَمُّهُ، والمضمومُ جرى مجرى الشرِّ، وكلاهما في الأصلِ مَصدَرٌ.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطفٌ لِمَا استَحقُّوهُ في الآخرةِ على ما استَوْجَبُوهُ في الدُّنيَا.

والواوُ في الأخيرينِ والموضِعُ مَوضِعُ الفاءِ؛ إذ اللَّعنُ سببٌ للإعدادِ والغضبُ سببٌ له= لاستقلالِ الكلِّ في الوعيدِ بلا اعتبارِ السَّببيَّةِ.

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنَّمُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٣)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٧ ـ ٨) ـ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على أُمَّتِك ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ على الطَّاعةِ والمعصيَةِ.

(٩) ـ ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطابُ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ والأمَّةِ، أو لَهُم على أنَّ خِطابَه مُنزَّلٌ منزلةَ خِطابِهم.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُقَوُّوهُ بتَقوِيَةِ دينِه ورَسولِه.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتُعَظِّموهُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتُنَزِّهوهُ، أو تُصَلُّوا له.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غُدوةً وعَشِيًّا، أو دائمًا.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو الأفعالَ الأربعةَ بالياءِ[1].

وقُرِئَ: (تُعْزِرُوه) بسكونِ العينِ[2]، و: (تَعزُروه) بفتحِ التَّاءِ وضَمِّ الزَّايِ وكَسرِها[3]، و(تُعَزِّزُوه) بالزَّاءين[4]، (وتُوقِرُوهُ) مِن أوقَرَهُ بمعنى وَقَرَه[5].

(١٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنَّه المقصودُ ببَيْعَتِه ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حالٌ أو استئنافٌ مؤكِّدٌ له على سبيلِ التَّخييلِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٣١٣).

(٣) كلاهما مروي عن الجحدي، ونسب كسر الزاي أيضاً لجعفر بن محمد، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٢)، و«المحتسب» (٢/ ٢٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٩)، و«البحر» (١٩/ ٢٨٢).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٥٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٩)، و«البحر» (١٩/ ٢٨٢)، عن محمد بن السميفع اليماني.

(٥) انظر: «الكشاف» (٨/ ٣١٣).

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقضَ العَهْدَ ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعودُ ضررُ نكثهِ إلَّا عليه.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ وفَّى في مُبايَعتِه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنَّةُ. وقُرِئَ: (عَهِدَ)[1].

وقرأ حفصٌ ﴿عليهُ﴾ بضمِّ الهاءِ[2]، وابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ ورَوْحٌ: ﴿فَسَنُؤْتِيهِ﴾ بالنُّونِ[3]، والآيةُ نزلَتْ في بيعةِ الرِّضوانِ.

(١١) ـ ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هُم أسلَمُ وجُهينَةُ ومُزَينَةُ وغِفارٌ استَنْفَرَهُم رسولُ اللهِ ﷺ عامَ الحُديبيةِ فتَخلَّفُوا واعتَلُّوا بالشُّغلِ بأَموالهم وأهاليهِم، وإنَّما خلَّفَهُم الخذلانُ وضعفُ العقيدةِ والخوفُ عَن مُقاتلَةِ قُرَيشٍ إن صَدُّوهُم[4].

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذْ لَمْ يكُن لنا مَنْ يقومُ بأشغالِنا، وقُرِئَ بالتَّشديدِ للتَّكثيرِ[5].

﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ مِن اللهِ على التَّخلُّفِ.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيبٌ لهم في الاعتذارِ والاستغفارِ.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فمَنْ يمنعُكُم مِن مَشيئَتِه وقَضائِه.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٣١٤)، و«البحر» (١٩/ ٢٨٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٣)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٢٤٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، ورواه بنحوه عن مجاهد الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٥٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٦٤).

(٥) حكاها الكسائي، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٢)، وقال في «البحر» (١٩/ ٢٨٥): وهي قراءة إبراهيم بن نوح بن باذان عن قتيبة.

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يَضرُّكُم كقتلٍ وهَزيمَةٍ[١] وخللٍ في المالِ والأهلِ وعقوبةٍ على التَّخلُّفِ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بالضَّمِّ[٢].

﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ما يُضادُّ ذلك.

وهو تعريضٌ بالرَّدِّ[٣].

﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيعلمُ تخلُّفَكُم وقصدَكُم فيه.

(١٢) - ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لظَنِّكم[٤] أنَّ المُشركينَ يَستأصِلُونَهُم.

و(أهلون) جمعُ أَهْلٍ وقد يُجْمَعُ عَلى أَهْلاتٍ كأَرْضاتٍ، على أنَّ أصلَهُ أَهْلَةٌ، وأمَّا أَهَالٍ فاسمُ جمعٍ كـ: لَيَالٍ.

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فتمكَّنَ فيها. وقُرِئَ على البناءِ للفاعلِ[٥] وهو اللهُ أو الشَّيطانُ.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ الظنَّ المذكورُ. والمرادُ التَّسجيلُ عليه بالسُّوءِ، أو هو وسائرُ ما يظنُّونَ باللهِ ورسولِه مِن الأمورِ الزَّائِغَةِ.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ هالكينَ عندَ اللهِ لفَسَادِ عَقيدَتِكُم وسُوءِ نِيَّتِكُم.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أو هزيمة».

(٢) وقراءة الباقين بالفتح، انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٣) أي: برد اعتذارهم.

(٤) في نسخة الفاروقي: «لظنهم».

(٥) انظر: «الكشاف» (٨/ ٣١٦)، و«البحر» (١٩/ ٢٨٤).

(١٣) ـ ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ وضعَ الكافرينَ مَوضِعَ الضَّميرِ إيذانًا بأنَّ مَن لم يجمَعْ بينَ الإيمانِ باللهِ وبرَسُولِه، فهو كافرٌ وأنَّه مُستَوجِبٌ للسَّعيرِ بكُفرِه.

وتَنكيرُ ﴿سَعِيرًا﴾ للتَّهويلِ أو لأنَّها نارٌ مَخصوصَةٌ.

(١٤) ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُدبِّرُه كيفَ يَشاءُ.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذ لا وُجوبَ عليهِ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فإنَّ الغُفرانَ والرَّحمةَ مِن ذاتِهِ[1]، والتَّعذيبُ داخلٌ تحتَ قضائِه بالعَرَضِ، ولذلك جاءَ في الحديثِ الإلهيِّ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»[2].

(١٥) ـ ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ يعني المذكورينَ ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يَعني مَغانِمَ خيبرَ، فإنَّه عليهِ السَّلامُ رجَعَ مِن الحُدَيبيةِ في ذي الحِجَّةِ مِن سنةِ سِتٍّ وأقامَ بالمَدينةِ بقيَّتَها وأوائلَ المحرَّمِ، ثمَّ غزَا خيبرَ بمَنْ شَهِدَ الحُديبيةَ ففتَحَها وغَنِمَ أموالًا كثيرةً فخَصَّهَا بهم.

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ أن يُغَيِّروهُ، وهو وعدُه لأهلِ الحديبيةِ أن يعوِّضَهُم اللهُ مِن مَغانِم مَكَّةَ مَغانِمَ خيبرَ.

وقيل: قولُه: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣]، والظَّاهرُ أنَّه في تَبُوك.

والكلامُ اسمٌ للتَّكليمِ، غُلبَ في الجملَةِ المفيدةِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «دأبه» وفي هامشها نسخة كالمثبت، وفي هامش نسخة الطبلاوي نسخة: «ذاتية».

(٢) رواه البخاري في (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿كَلِمَ اللهِ﴾ وهو جمعُ كلمةٍ[١].

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ نفيٌ في مَعنى النَّهيِ.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ تَهيُّئِهم للخُروجِ إلى خيبرَ.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن نُشارِكَكُم في الغنائمِ. وقُرِئَ بالكسرِ[٢].

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمونَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلَّا فَهْمًا قليلًا وهو فِطنَتُهُم لأُمورِ الدُّنيا.

والإضرابُ[٣] الأوَّلُ رَدٌّ مِنهم أن يكونَ حكمُ اللهِ أَنْ لا يتبعوهُم وإثباتُ الحسدِ، والثَّاني ردٌّ مِن اللهِ لذلك وإثباتٌ لجَهْلِهم بأمورِ الدِّينِ.

(١٦) ـ ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كرَّرَ ذكرَهُم بهذا الاسمِ مُبالغَةً في الذمِّ وإشعارًا[٤] بشناعةِ التَّخلُّفِ.

﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفةَ أو غيرِهم ممَّنِ ارتَدُّوا بعدَ رَسولِ اللهِ ﷺ، أو المشركينَ فإنَّه قال: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: يكونُ أحدُ الأمرينِ إمَّا المقاتلةُ أو الإسلامُ لا غير، كما دلَّ عليه قِراءةُ: (أو يُسْلِمُوا)[٥]، ومَن عَداهُم يُقاتَلُ حتَّى يُسلِمَ أو يُعطيَ الجزيةَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٢) وهي قراءة أبي حيوة وابن عون كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣).

(٣) في جميع النسخ عدا نسخة الفاروقي: «ومعنى الإضراب».

(٤) في نسخة الخيالي: «وإظهاراً».

(٥) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٣٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣)، ووردت دون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٢٦٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٣٣).

وهو يدلُّ على إمامةِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه إذ لم تَتَّفِقْ هذهِ الدَّعوَةُ لغيرِهِ إلَّا إذا صَحَّ أنَّهُم ثقيفٌ وهوازنُ فإنَّ ذلك كانَ في عَهدِ النبوَّةِ.

وقيل: فارسٌ والرُّومُ، ومَعنى ﴿يُسْلِمُونَ﴾ يَنقادونَ ليَتناولَ تَقبُّلَهُم الجِزيةَ.

﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغَنِيمةُ في الدُّنيا والجنَّةُ في الآخرةِ.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عَن الحديبيةِ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتَضاعُفِ جُرمِكُم.

(١٧) ـ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لَمَّا أوعدَ على التَّخلُّفِ نَفى الحرجَ عَن هؤلاء المَعذورينَ(٦) استثناءً لهم عَن الوَعيدِ.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فصَّلَ الوعدَ وأجملَ الوعيدَ مبالغةً في الوعدِ لسبقِ رحمَتِه ثمَّ جبرَ ذلك بالتَّكريرِ على سبيلِ التَّعميمِ فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ التَّرهيبُ هاهنا أنفعُ مِن التَّرغيبِ.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿نُدْخِلْهُ﴾ و﴿نُعَذِّبْه﴾ بالنُّونِ(٧).

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ لَمَّا نزلَ الحديبيةَ بعثَ جَوَّاسَ بنَ أُميَّةَ الخُزاعيَّ إلى أهلِ مَكَّةَ فهَمُّوا بـه فمنعَهُ الأَحابيشُ، فرجَعَ فبعثَ عُثمانَ بنَ عفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، فحَبسُوهُ فأُرجِفَ بقَتلِهِ، فدَعا رسولُ اللهِ أصحابَهُ وكانُوا أَلْفًا وثلاثَمئةٍ أو أربعمئةٍ أو خمسمئةٍ وبايَعُهم على أن يُقاتِلُوا قريشًا ولا يَفرُّوا عَنْهُم وكان جالسًا تحتَ سَمُرةٍ أو سِدرَةٍ(٨).

---

(٦) في نسخة الخيالي: «المذكورين».

(٧) وقراءة الباقين بالياء، انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٨) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٩١٠) عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة وفيه: خراش بن أمية، ولعل ما عند المؤلف محرف عنه. وانظر: «الطبقات الكبرى» (٢/ ٩٣).

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مِن الإخلاصِ.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطُّمأنينةَ وسكونَ النَّفسِ بالتَّشجيعِ أو الصُّلحِ.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فتحَ خيبرَ غِبَّ انصرافِهِم، وقيل: مَكَّةَ أو هَجَرَ.

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني مَغانِمَ خيبرَ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ غالبًا مراعيًا مقتضى الحِكمَةِ.

(٢٠) ـ ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي ما يُفِيءُ على المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ.

﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني مَغانِمَ خيبرَ.

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أيدِيَ أهلِ خيبرَ وحُلفائِهِم مِن بَنِي أَسَدٍ وغَطَفانَ، أو أيديَ قريشٍ بالصُّلحِ.

﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفَّةُ أو الغنيمَةُ.

﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَمَارةً يعرفونَ بها أَنَّهُم مِن اللهِ بمكانٍ، أو صِدْقَ الرَّسولِ في وَعدِهِم فتحَ خيبرَ في حينِ رُجوعِهِ عَن الحُدَيبيةِ، أو وعدَ المغانم، أو عنوانًا لفتحِ مكَّةَ.

والعَطفُ على مَحذوفٍ هو عِلَّةٌ لـ(كفَّ) أو (عجَّلَ) مثل: لتُسلِمُوا أو لِتَأخُذوا، أو العِلَّةُ لِمَحذوفٍ مثل: فعلَ ذلك.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الثِّقَةُ بفضلِ اللهِ والتَّوكُّلُ عليه.

(٢١) ـ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ ومَغانِمَ أُخرى، معطوفةٌ على ﴿هَٰذِهِۦ﴾ أو مَنصوبَةٌ بفعلٍ يُفسِّرُه: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ مثل: (قضى)[1]، ويُحتَمَلُ رَفعُها بالابتداءِ لأَنَّها مَوصوفَةٌ، وجرُّها بإضمارِ (رُبَّ).

---

(١) في نسخة التفتازاني زيادة: «أي قدر».

﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ بعدُ لِمَا كان فيها مِن الجَوْلَةِ.

﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ استَوْلَى فأظفرَكُم بها، وهي مَغانِمُ هوازنَ أو فارسَ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لأنَّ قُدرتَهُ ذاتِيَّةٌ لا تختصُّ بشيءٍ دونَ شيءٍ.

(٢٢) - ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن أهلِ مَكَّةَ ولم يُصالِحُوا ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ لانهزَمُوا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحرُسُهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرُهُم.

(٢٣) - ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: سَنَّ غلبَةَ أنبيائِه سُنَّةً قديمةً فيمَنْ مَضى مِن الأُمَمِ كما قال: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادل: ٢١].

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تَغييرًا.

(٢٤) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: أيديَ كفَّارِ مكَّةَ ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ في داخلِ مكَّةَ.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أظهَرَكُم عليهم، وذلك أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ خرجَ في خمسمئةٍ إلى الحُديبيةِ فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ خالدَ بنَ الوَليدِ على جُندٍ فهزَمهُم حتَّى أدخلَهُم حيطانَ مَكَّةَ ثمَّ عادَ[1].

وقيل: كان ذلك يومَ الفَتحِ، واستُشهِدَ به على أنَّ مَكَّةَ فُتِحَتْ عَنْوةً، وهو ضَعيفٌ إذ السُّورَةُ نزلَتْ قبلَهُ.

---

(١) رواه مطولًا الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٩١) عن ابن أبزى. وفيه أن الذي أرسله النبي ﷺ إلى عكرمة فهزمه هو خالد بن الوليد رضي الله عنه، لكن تعقب الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٥٤) الخبر بقوله: وفي صحته نظر، لأن خالداً لم يكن أسلم في الحديبية، وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية، فلو كانت في عمرة القضية لأمكن، مع أن المشهور أنهم فيها لم يمانعوه ولم يقاتلوه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن مُقاتَلَتِهم أوَّلًا طاعةً لِرَسُولِه، وكفِّهم ثانيًا لتَعظيمِ بيتِه. وقرأَ أبو عَمرٍو[1] بالياءِ[2].

﴿بَصِيرًا﴾ فيُجازيهم عليهِ.

(٢٥) ـ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ يدلُّ على أنَّ ذلك كان عامَ الحُديبيةِ، والهَدْيُ ما يُهدَى إلى مكَّةَ.

وقُـرِئَ: (الهَـدِيَّ)[3] وهـو فعيـلٌ بمعنى مفعـولٍ، ومَحِلُّـهُ مكانُه الـذي يَحِلُّ فيه نَحـرُه، والمـرادُ مكانُـه المعهـودُ وهـو مِنـى، لا مَكانُـه الـذي لا يجـوزُ أن يُنحَـرَ في غيـرِه، وإلَّا لَمَـا نحرَهُ الرَّسـولُ ﷺ حيثُ أُحصِـرَ، فلا ينتهضُ حُجَّـةً للحنفيَّةِ على أنَّ مَذبـحَ هَـدي المحصَرِ هـو الحرمُ.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تَعرِفُوهُم بأعيانِهم لاختِلاطِهم بالمُشركينَ.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أن تُوقِعُوا بهم وتُبيدُوهُم، قال:

وَوَطِئْتَنَـا وَطْـأً عَلَـى حَنَـقٍ ... وَطْءَ المُـقَيَّدِ نَابِـتَ الهَـرْمِ[4]

---

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «وأبو بكر» وهو خطأ.

(٢) وقراءة الباقين بالتاء، انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١).

(٣) وهي رواية عصمة عن عاصم كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣)، ورواية خارجة عن أبي عمرو كما في «البحر» (١٩/ ٢٩٩).

(٤) البيت للحارث بن وعلة كما في «شرح القصائد السبع الطوال» لابن الأنباري (ص: ٥٤٩)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٦٣)، و«الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ١٤٩ ـ ١٥١). وبشرح التبريزي (١/ ٦٥)، وفيه: الوَطْء: الأخذة الشَّديدة، والحنق: الغيظ، والهرم: شجر ضَعِيف، والمعنى: أثَّرت فينا تأثير الحنِق الغضبان كما يُؤثر البعير المُقَيَّد إذا وطئ الشَّجرة الضعيفة، وإنما كانت وطأة المقيد ثقيلة لأنه لا يتمكَّن من وضع قوائمه على حسب إرادته.

وقال عليهِ السَّلامُ: «إنَّ آخرَ وَطأةٍ وَطِئَها اللهُ بوجٍّ»[1]، وهو وادٍ بالطائفِ كان آخرَ وقعةٍ للنبيِّ عليهِ السَّلامُ بها، وأصلهُ الدَّوْسُ، وهو بدلُ اشتِمالٍ مِن رجالٍ ونِساءٍ، أو مِن ضَميرِهِم في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ مِن جِهَتِهِم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ مكروهٌ كوُجوبِ الدِّيةِ والكفَّارةِ بقَتْلِهم والتَّأسُّفِ عليهم وتعييرِ الكفَّارِ بذلك والإثمِ بالتَّقصيرِ في البحثِ عَنْهم، مَفْعَلَةٌ مِن عَرَّهُ: إذا عَرَاهُ ما يَكرَهُه.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مُتَعلِّقٌ بـ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي تَطَؤوهُم غيرَ عالِمينَ بهم، وجوابُ (لولا) مَحذوفٌ لدلالةِ الكلامِ عليه، والمَعنى: لولا كراهةُ أَنْ تُهلكوا ناسًا مُؤمنينَ بين أَظهُرِ الكافرينَ جاهِلينَ بهم فيُصيبَكُم بإهلاكِهِم مَكروهٌ لَما كفَّ أَيدِيَكُم عنهم.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ عِلَّةٌ لما دلَّ عليه كفُّ الأيدي مِن أهلِ مَكَّةَ صَوْنًا لِمَن فيها مِن المؤمنينَ؛ أي: كانَ ذلك ليُدخِلَ اللهُ في رَحمَتِه؛ أي: في تَوفيقِه لزيادةِ الخيرِ أو للإسلامِ.

﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِن مُؤمنيهِم أو مُشركيهِم.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ لو تَفرَّقُوا وتميَّزَ بَعضُهُم مِن بعضٍ. وقُرِئَ: (تزايَلُوا)[2].

﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالقتلِ والسَّبيِ.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٥٦٢) من حديث يعلى بن مرة رضي الله عنه. ورواه الإمام أحمد أيضاً (٢٧٣١٤) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها. وفي كل من إسناديهما مقال.
قال ابن قتيبة: أُراه ـ والله أعلم ـ أن آخر ما أوقع الله بالمشركين بالطَّائِف، ووَجٌّ هي الطَّائف، وكذلك قال سفيان بن عُيَيْنة: آخر غزاة غزاها رسول الله ﷺ الطَّائف، وحنين وَادٍ قبل الطَّائِف. وذهب أيضًا في تفسير هذا الحرف هذا المذهب. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ١٣٧) عن أبي حيوة وقتادة.

(٢٦) ـ ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مُقدَّرٌ بـ: اذكُرْ، أو ظرفٌ لـ(عَذَّبْنا) أو (صَدُّوكم).

﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأَنَفَةَ ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ التي تمنَعُ إذعانَ الحقِّ.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنزلَ عليهم الثَّباتَ والوقارَ، وذلك ما رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ لَمَّا همَّ بِقِتالِهِم بعثُوا سهيلَ بنَ عمرٍو وحُوَيطِبَ بنَ عبدِ العُزَّى ومِكْرَزَ بنَ حَفْصٍ ليسألوهُ أن يرجِعَ مِن عامِه على أن تخليَ له قريشٌ مكَّةَ مِن القابلِ ثلاثةَ أيَّامٍ فأَجابَهُم، وكتبوا بينَهُم كِتابًا فقالَ عليهِ السَّلامُ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنه: «اكتُب: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ» فقالوا: ما نعرِفُ هذا، اكتُبْ: باسمِك اللهمَّ، ثمَّ قالَ عليهِ السَّلامُ: «اكتُبْ: هذا ما صالحَ رَسولُ اللهِ أهلَ مكَّةَ» فقالوا: لو كنَّا نعلَمُ أنَّكَ رَسولُ اللهِ ما صَدَدْناكَ عن البيتِ وما قاتلناكَ، اكتُبْ: هذا ما صالحَ عليه مُحمَّدُ بن عبدِ اللهِ أهلَ مَكَّةَ، فقالَ عليه السَّلامُ: «اكتُبْ ما يُريدونَ»[1]، فهمَّ المؤمنونَ أَنْ يأبَوْا ذلك ويبطِشوا عليهِمْ، فأنزلَ اللهُ السَّكينةَ[2] عليهم فتوقَّرُوا وتَحمَّلُوا.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ كلمةَ الشَّهادةِ، أو (بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ محمَّدٌ رسولُ اللهِ) اختارهما لهم، أو الثَّباتَ والوفاءَ بالعهدِ.

وإضافة (الكلمة) إلى (التقوى) لأنَّها سببُها أو كلمةُ أهلِها.

﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ مِن غيرِهم ﴿وَأَهْلَهَا﴾ والمُستأهِلَ لها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلمُ أهلَ كلِّ شيءٍ ويُيَسِّرُه له.

---

(١) قطعة من حديث الحديبية الطويل رواه البخاري (٢٧٣١) عن المسور ومروان، وفيه بدل «اكتُبْ ما يُريدُون»: «واللهِ إني لرسولُ الله وإنْ كذَّبتُموني، اكتب محمدُ بنُ عبد الله».

(٢) في نسخة الخيالي: «سكينته».

(٢٧) ـ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رَأى عليهِ السَّلامُ أنَّه وأصحابَه دخَلُوا مكَّةَ آمنينَ وقد حلَّقُوا وقصَّرُوا، فقَصَّ الرُّؤيَا على أصحابِه ففَرِحُوا، وحَسِبُوا أنَّ ذلك يكونُ في عامِهِم، فلَمَّا تأخَّرَ قال بعضُهُم: واللهِ ما حَلَّقْنا ولا قَصَّرْنا ولا رأينا البيتَ، فنَزَلَتْ[1]، والمعنى: صدقَهُ في رُؤياه.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُلتَبِسًا بـه، فـإنَّ مـا أراهُ كائِـنٌ لا محالـةَ فـي وقتـهِ المقـدَّرِ له وهو العـامُ القابِلُ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ صِفَةَ مصدرٍ مَحذوفٍ أي: صِدْقًا مُلتَبِسًا بالحقِّ وهو القصدُ إلى الـمَيْزِ بينَ الثَّابتِ على الإيمانِ والمتزلزلِ فيه، وأن يكونَ قَسَمًا إمَّا باسمِ اللهِ تَعالى أو بنَقيضِ الباطلِ.

وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جوابُه، وعلى الأوَّلَيْنِ جوابُ قسمٍ مَحذوفٍ.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليقٌ للعِدَةِ بالمَشيئةِ تَعليمًا للعِبادِ، أو إشعارًا بأنَّ بعضَهُم لا يدخلُ لِمَوْتٍ أو غَيبةٍ، أو حكايةٌ لِمَا قالَهُ مَلَكُ الرُّؤيا أو النَّبيُّ لأَصحابِه.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حالٌ مِن الواوِ. والشَّرطُ مُعتَرِضٌ.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: مُحَلِّقًا بَعضُكُم ومُقَصِّرًا آخرون.

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ أو استئنافٌ، أي: لا تخافونَ بعد ذلك ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ مِن الحكمةِ في تأخيرِ ذلك.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ مِن دونِ دُخولِكُم المسجدَ، أو فتحِ مَكَّة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتحُ خيبرَ لتَسْتَرْوِحَ إليه قلوبُ المُؤمنينَ إلى أن يتيسَّرَ الموعودُ.

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٧) عن ابن زيد، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٦٤) عن مجاهد.

(٢٨) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ مُلتَبِسًا به، أو بسببِهِ ولأَجلِهِ[1] ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ وبدينِ الإسلامِ.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليُغلِّبَهُ على جنسِ الدِّينِ كلِّه بنسخِ ما كانَ حقًّا وإظهارِ فسادِ ما كان باطلًا، أو بتَسليطِ المُسلِمينَ على أَهلِه إذ ما مِن أَهلِ دينٍ إلَّا وقد قَهَرهُم المُسلِمُونَ، وفيه تأكيدٌ لِمَا وعدَهُ مِن الفَتحِ.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ على أنَّ ما وعدَهُ كائِنٌ، أو على نُبوَّتِه بإظهارِ المُعجِزاتِ.

(٢٩) ـ ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ مبيِّنةٌ للمَشهودِ به، ويجوزُ أن يكونَ ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ صِفَةً و﴿مُّحَمَّدٞ﴾ خبرَ مَحذوفٍ، أو مبتدأً.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ معطوفٌ عليهِ، وخبرُهما: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وأَشِدَّاءُ جَمعُ شديدٍ، ورُحَماءُ جمعُ رَحيمٍ، والمعنى أنَّهُم يَغلُظونَ على مَن خالفَ دينَهُم ويَتراحَمُونَ فيمَا بينَهُم كقولِه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ لأنَّهُم مُشتَغِلونَ[2] بالصَّلاةِ في أكثرِ أَوقاتِهم ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ الثَّوابَ والرِّضَا.

﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ يريدُ السِّمَةَ التي تحدُثُ في جِباهِهِم مِن كثرةِ السُّجودِ، فِعْلى مِن سامَه: إذا أَعْلَمه، وقد قُرِئَت ممدودةً[3]، و﴿مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ بيانُها، أو حالٌ مِن المستكنِّ في الجارِّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الوَصفِ المَذكورِ، أو إشارةٌ مبهمةٌ يُفسِّرُها ﴿كَزَرۡعٍ﴾.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «أو لأجله».

(٢) في نسخة الخيالي: «مشغولون».

(٣) قرئت: (سِيْمِيَاؤُهم) وفيها ثلاث لغات: هاتان والسيماء، وانظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣) ونسب القراءة لبعضهم.

﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ صِفَتُهم العَجيبةُ الشَّأنِ المَذكورةُ فيها.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ عليه، أي: ذلك مَثلُهُم في الكتابَينِ، وقوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ تمثيلٌ مُستأنَفٌ، أو تَفسيرٌ، أو مُبتدأٌ و﴿كَزَرْعٍ﴾ خبرُه.

﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ فِراخَه، يقال: أَشْطَأَ الزَّرعُ: إذا أفرَخَ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ بروايةِ ابنِ ذكوانَ: ﴿شَطَأَهُ﴾ بفتحاتٍ[1]، وهو لُغَةٌ فيه.

وقُرِئَ: (شَطَاهُ) بتَخفيفِ الهمزةِ، و: (شَطَاءَهُ) بالمدِّ، و: (شَطَهُ) بنقلِ حركةِ الهمزةِ وحَذفِها، و(شَطْوَهُ) بقلبِها واوًا[2].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقَوَّاهُ، مِن المُؤازرَةِ وهي[3] المُعاونَةُ، أو مِن الإيزارِ وهو الإعانَةُ. وقرأ ابنُ عامرٍ بروايةِ ابنِ ذَكوانَ: ﴿فَأَزَرَهُ﴾ كأَجَرَ في آجَرَ[4].

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصارَ مِن الدقَّةِ إلى الغِلَظِ[5] ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقامَ على قَصبِهِ، جمعُ ساقٍ. وعن ابنِ كَثيرٍ (سُؤْقِهِ) بالهمزةِ[6].

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكَثافَتِه وقُوَّتِه وغلظِه[7] وحُسنِ منظرِهِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

(٢) انظر هذه القراءات مع قارئيها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧)، و«البحر» (١٩/ ٣١٣).

(٣) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «بمعنى».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٨).

(٥) في نسخة الخيالي: «الغلظة».

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٤٨٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٨).

(٧) في نسخة الخيالي: «وغلظته».

وهو مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ للصَّحابةِ قَلُّوا في بَدءِ الإسلامِ ثمَّ كَثُرُوا واستَحْكَمُوا فترقَّى أَمرُهُم بحيثُ أعجبَ النَّاسَ.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ عِلَّةٌ لتَشبيهِهِم بالزَّرعِ في زَكائِه واستِحكامِه، أو لقولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ فإنَّ الكُفَّارَ لَمَّا سَمِعُوهُ غاظَهُم ذلك، و(منهم) للبَيانِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الفَتحِ فكأنَّمَا كانَ ممَّنْ شَهِدَ مَع مُحمَّدٍ فتحَ مكَّةَ»(١).

❋ ❋ ❋

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٤٠٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٩)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٥)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع المروي في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٩٩).

(٤٨) سورة الفتح مدنية وآياتها تسع وعشرون

روى الإمام أحمد عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره (سورة الفتح) على راحلته، فرجّع فيها، قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على كره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله عزَّ وجلَّ هذه السورة، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح (فتح مكة) ونحن نعد الفتح صلح الحديبية، وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا[2] ؛ وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليَّ، قال: فقلت في نفسي ثكلتك أمك يا ابن الخطاب،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد .

(٢) أخرجه البخاري .

ألححت، كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك ! قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري، فتقدمت مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء، قال: فإذا أنا بمناد: يا عمر، قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء، قال، فقال النبي ﷺ: «نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾»[1]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت عليَّ الليلة آية أحب إليّ مما على الأرض» ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، بيّن الله عزَّ وجلَّ ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار - حتى بلغ - فوزاً عظيماً﴾[2]. وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى تورمت قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً ؟»[3]، وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقـدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ: «يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً ؟»[4].

فقوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ أي بيناً ظاهراً، والمراد به (صلح الحديبية) فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان، وقوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة، حبسها حابس الفيل، ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها»[5] فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليكَ﴾ أي في الدنيا والآخرة، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله عزَّ وجلَّ يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله عزَّ وجلَّ إلا رفعه الله تعالى»، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبتَ أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه.

---

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وبقية الجماعة إلا أبا داود.

(٤) أخرجه مسلم والإمام أحمد. (٥) أخرجه البخاري وهو جزء من حديث طويل.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ أي جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة، وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين، الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت، زادهم إيماناً مع إيمانهم؛ ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال سبحانه: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة القاطعة، ولهذا قال جلت عظمته: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً، ﴿ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ أي خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر، ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً﴾، كقوله جلَّ وعلا: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾، وقوله تعالى: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال تعالى: ﴿عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم﴾ أي أبعدهم من رحمته، ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾، ثم قال عزَّ وجلَّ مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء، أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ﴿ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي على الخلق، ﴿ومبشراً﴾ أي للمؤمنين، ﴿ونذيراً﴾ أي للكافرين، ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه﴾ قال ابن عباس وغير واحد: تعظموه، ﴿وتوقروه﴾ من التوقير، وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وتسبحوه﴾ أي تسبحون الله، ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أي أول النهار وآخره، ثم قال عزَّ وجلَّ لرسوله تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾، كقوله جلَّ وعلا:

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾، ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله، كقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾، وقال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله»[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله ليبعثنه الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة له عينان ينظر بهما ولسان ينطق به ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾[2]، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً، وهذه البيعة هي (بيعة الرضوان) وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة، روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، حتى رووا كلهم، وفي رواية في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: أنهم كانوا خمس عشرة مائة.

«ذكر سبب هذه البيعة العظيمة»

قال محمد بن إسحاق في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي ابن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان رضي الله عنه نبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته، فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره، حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل. قال ابن إسحاق: فحدثني عبدالله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت (بيعة الرضوان) تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر، فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس فكان جابر رضي الله عنه يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد صبأ إليها، يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لما أمر رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي جرير مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله» فضرب باحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه خيراً من أيديهم لأنفسهم[١]. قال البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ، فقال: يعني عمر رضي الله عنه، يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ، فوجدهم يبايعون، فبايع، ثم رجع إلى عمر رضي الله عنه فخرج فبايع[٢]، وروى البخاري عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال يزيد: قلت يا أبا مسلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت. وثبت في الصحيحين عن سعيد بن المسيب قال: «كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها»[٣]، وروى الحميدي عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض اليوم» قال جابر رضي الله عنه: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة[٤]. وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب، الذين اختاروا المقام في أهليهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا ونافقتمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾، ثم قال تعالى: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون

---

(١) أخرجه الحافظ البيهقي عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه الشيخان عن سعيد بن المسيب.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم من حديث سفيان.

إلى أهليهم أبداً﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً﴾ أي هلكى، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: فاسدين، ثم قال تعالى: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، ثم بيّن تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السماوات والأرض: ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه.

* سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب، الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها، أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، ولهذا قال تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ قال مجاهد وقتادة: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية، واختاره ابن جرير، وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر، لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن عمرة الحديبية، وقال ابن جريج: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ يعني بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد، ﴿قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ أي أن نشرككم في المغانم، ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

* قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال، (**أحدها**): أنهم هوازن، قاله سعيد ابن جبير وعكرمة، ، (**الثاني**): ثقيف، قاله الضحاك، (**الثالث**): بنو حنيفة، قاله جويبر، وروي مثله عن سعيد وعكرمة، (**الرابع**): هم أهل فارس، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال كعب الأحبار: هم الروم، وعن عطاء والحسن: هم فارس والروم، وعن مجاهد: هم أهل الأوثان، وقال ابن أبي حاتم عن الزهري في قوله تعالى:

﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ قال: لم يأت أولئك بعد، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة» قال سفيان: هم الترك. وقوله تعالى: ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ولكم النصرة عليهم، ﴿أو يسلمون﴾ فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿فإن تطيعوا﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾ . ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ، ثم قال تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولَّ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿يعذبه عذاباً أليماً﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار، والله تعالى أعلم .

* لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين، الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية، روى البخاري عن عبد الرحمن رضي الله عنه قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم .

وقوله تعالى: ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ أي من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة ﴿فأنزل السكينة﴾ وهي الطمأنينة ﴿عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ وهو ما أجرى الله عزَّ وجلَّ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾، روى ابن أبي حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس: البيعة البيعة، نزل روح القدس، قال: فسرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ قال: فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا، فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف» .

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ

وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿فعجل لكم هذه﴾ يعني فتح خيبر، وروى العوفي عن ابن عباس ﴿فعجل لكم هذه﴾ يعني صلح الحديبية ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ أي يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾، ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾ أي بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته وموافقتكم رسوله ﷺ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها؟ فقال ابن عباس: هي خيبر، وقال الضحاك وقتادة: هي مكة، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري: هي فارس والروم، وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ يقول عزَّ وجلَّ مبشراً لعباده المؤمنين، بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدبراً ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل، إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وكثرة المشركين، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم، فأخذوا، قال عفان: فعفا عنهم، ونزلت هذه الآية: ﴿وهو الذي

كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾[1]. وقال أحمد أيضاً عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذ سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب باسمك اللهم - وكتب - هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة» فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله! اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» فبينا نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾[2] الآية.

وروى ابن إسحاق عن عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال: إن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً، فأُتي بهم رسولُ الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل، قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ الآية.

۞ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب، من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هم الذين كفروا﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ أي وأنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم، خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سلطانكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال تعالى: ﴿لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه أحمد والنسائي.

منهم معرة﴾ أي إثم وغرامة ﴿بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿لو تزيلوا﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ أي لسلطانكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً. عن جنيد بن سبيع قال: «قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وفينا نزلت: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾، قال: كنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين»[١]. وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى﴾ وهي قول: لا إلّه إلا الله، كما قال ابن جرير عن رسول الله ﷺ يقول: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: «لا إلّه إلا الله»[٢]، وقال ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب إن أبا هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عزَّ وجلَّ»، وأنزل الله عزَّ وجلَّ في كتابه وذكر قوماً فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾، وقال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة[٣]، وقال مجاهد: كلمة التقوى الاخلاص، وقال عطاء: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وقال علي رضي الله عنه: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: لا إله إلا الله والله أكبر، وقال ابن عباس ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ يقول شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى، وقال سعيد بن جبير: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ لا إله إلا الله والجهاد في سبيله، ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

(ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح)

روى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما قالا: خرج رسول الله ﷺ يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بعسفان، لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها

(١) أخرجه الحافظ الطبراني، قال ابن كثير: الصواب عن حبيب بن سباع.

(٢) أخرجه ابن جرير ورواه الترمذي، وقال: حديث غريب.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم. قال ابن كثير: ورواه بهذه الزيادات ابن جرير. والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري.

عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهرني الله عزَّ وجلَّ أو تنفرد هذه السالفة» ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة، قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش فترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت» وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» ثم قال ﷺ للناس: «انزلوا» قالوا: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس، فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل في قليب من تلك القلب، فغرزه فيه، فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا (بديل بن ورقاء) في رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ﷺ، إن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه فاتهموهم[1].

وروى البخاري رحمه الله في صحيحه، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا: خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً من خزاعة وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك فقال ﷺ: «أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن نميل على عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه»؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فامضوا على اسم الله تعالى»، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقالت الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»؛ ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها، فوثبت، فعدل عنهم، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء (بديل بن ورقاء) الخزاعي في نفر من قومه من

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد وعبد الرزاق، وقد اقتصرنا على هذا القدر لنذكر رواية البخاري رحمه الله.

خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عدا مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإنَّ قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره» قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول: كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال أي قوم: ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: وألست بالولد؟ قالوا بلى، قال فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات، أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبا بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه، وقال: من هذا؟ قال: المغيرة ابن شعبة، قال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ -وكان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم- فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء»، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون النظر إليه تعظيماً له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه. فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال النبي ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه، قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له مكرز ابن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»

فجعل يكلم النبي ﷺ ، فبينما هو يكلم إذ جاء سهيل بن عمرو ، وقال معمر : أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ : « قد سهل لكم من أمركم ». قال معمر ، قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل ابن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه، وقال: « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم »، فقال سهيل بن عمرو : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » ثم قال: « هذا ما قضى عليه محمد رسول الله »، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله، فقال النبي ﷺ : « والله إني لرسول الله وإن كذبتموني ، اكتب: محمد بن عبد الله » .

قال الزهري: وذلك لقوله: « والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها »، فقال له النبي ﷺ : « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به »، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ فبينما هم كذلك إذ جاء (أبو جندل) بن سهيل ابن عمرو يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد »، قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ : « فأجزه لي »، قال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: « بلى فافعل »، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بلى قد أجزناه لك، قال أبو جندي: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عزّ وجلّ، قال عمر رضي الله عنه : فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً ؟ قال ﷺ : « بلى »، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال ﷺ : « بلى »، قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذاً ؟ قال ﷺ : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال ﷺ : « بلى أفأخبرتك أنا نأتيه العام »، قلت: لا ، قال ﷺ : « فإنك آتيه ومطوف به، قال، فأتيت أبا بكر ، فقلت: يا أبا بكر ! أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل ؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به .

قال الزهري : قال عمر رضي الله عنه : فعملت لذلك أعمالاً ، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: « قوموا فانحروا ثم احلقوا »، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال رسول الله ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أمّ سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أُم سلمة رضي الله عنها : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات - حتى بلغ - بعصم الكوافر ﴾ فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان ابن أميّة، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه (أبو بصير) رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت منه، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر، حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: « لقد رأى هذا ذعراً »، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم نجاني الله تعالى منهم، فقال النبي ﷺ: « ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد »، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم، لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله عزّ وجل: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة - حتى بلغ - حمية الجاهلية﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت[1].

وقال الإمام أحمد، عن أنَس رضي الله عنه قال: إن قريشاً صالحوا النبي ﷺ وفيهم (سهيل بن عمرو) فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم »، فقال سهيل: لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال ﷺ: « اكتب من محمد رسول الله »، قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي ﷺ: « اكتب من محمد بن عبد الله »، واشترطوا عليه ﷺ، أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله أنكتب هذا ؟ قال ﷺ: « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله »[2]. وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة، فيها جمل لأبي جهل، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها[3].

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه .

(٢) أخرجه أحمد ورواه مسلم في صحيحه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد .

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحُدَيبية لم يشكَّ جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به»، وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقوله عزّ وجلّ: ﴿آمنين﴾ أي في حال دخولكم، وقوله: ﴿محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾ حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟، قال ﷺ: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لا تخافون﴾ حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحُدَيْبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه بعضها عنوة، وبعضها صلحاً، وقسمها بين (أهل الحديبية) وحدهم ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة (جعفر بن أبي طالب) وأصحابه و (أبو موسى الأشعري) وأصحابه رضي الله عنهم ولم يغب منهم أحد، ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج النبي ﷺ إلى مكة معتمراً، هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وصار أصحابه يلبُّون، فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث (محمد ابن سلمة) بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا، فأخبروا أهل مكة، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش (مكرز بن حفص) فقال: يا محمد ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح، فقال ﷺ: «لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رؤوس الكفّار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ، وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب (ناقته القصواء) التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... إني شهيد أنه رسوله
خلوا فكل الخير في رسوله ... يا رب إني مؤمن بقيله

نحن قتلناكم على تأويلـــه كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهـــام عن مقيله ويذهل الخليـل عن خليله

روى الإمام أحمد. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قـد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من النـاحية التي تلي الحِجْر فأطلع الله تعالى نبيَّه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابـه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا ابقـاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قـد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا[1]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنمـا سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة ليرى المشركون قوته، وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً ولا يقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر ﷺ من العام المقبل، فدخلها، كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها ثلاثاً، أمروه أن يخرج فخرج ﷺ[2]. وقوله تعالى: ﴿فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ أي فعلم الله عزّ وجلّ من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿فجعل من دون ذلك﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحاً قريباً، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تبارك وتعالى مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي بالعلم النـافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم، وعمل ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين ومشركين ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال: ﴿محمد رسول الله﴾ وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنّى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال: ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحمـاء

---

(١) أخرجه أحمد والشيخان.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

بينهم﴾، كما قال عزّ وجلّ: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وهذه صفة المؤمنين، أن يكون أحدهم شديداً على الكفار، رحيماً بالأخيار، عبوساً في وجه الكافر، بشوشاً في وجه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[1]. وفي الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وشبّك بين أصابعه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ وصفهم بكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عزّ وجلّ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو (الجنة) المشتملة على فضل الله عزّ وجلّ، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال جل وعلا: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وقوله جل جلاله: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال ابن عباس: يعني السمت الحسن، وقال مجاهد: يعني الخشوع والتواضع، وقال السدي: الصلاة تحسّن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار[2]. وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال عثمان رضي الله عنه: «ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه» والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى، أصلح الله عزّ وجلّ ظاهره للناس، كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته»، وقال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[3]. وفي الحديث: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[4]. فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم، وقال مالك رضي الله عنه: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم، في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾، ثم قال: ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ أي فراخه ﴿فآزره﴾ أي شدّه ﴿فاستغلظ﴾ أي شبّ وطال ﴿فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ، آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾، ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك.

(١) أخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير.
(٢) أسنده ابن ماجة في سننه والصحيح أنه موقوف.
(٣) أخرجه الطبراني عن جندب بن سفيان البجلي.
(٤) أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن عباس.

والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم، والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال، الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»[٣].

[آخر تفسير سورة الفتح، ولله الحمد والمنة]

* * *

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

تفسير سورة الفتح

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد[١]: حدثنا وَكِيع، حدثنا شُعْبَة، عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح فى مسيره سورة الفتح على راحلته فرجَّع فيها ـ قال معاوية: لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته، أخرجاه من حديث شعبة به[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) ﴾ .

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرُّه من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه،كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، عز وجل، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى عن ابن مسعود، رضى الله عنه، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وقال الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية[٣].

وقال[٤] البخارى: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس عل شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه[٦]، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، قال: فسألته عن شىء ـ ثلاث مرات ـ فلم

(١) فى ت: «وروى البخارى ومسلم والإمام أحمد» .
(٢) المسند (٥/ ٢٤) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٥) وصحيح مسلم برقم (٧٩٤).
(٣) رواه الطبرى (٢٦/ ٤٤).
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤١٥٠).
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

يرد على، قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزلت[١] على الليلة[٢] سورة هي أحب إلى من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾».

ورواه البخاري، والترمذي، والنسائي من طرق، عن مالك، رحمه الله[٣]، وقال علي بن المديني: هذا إسناد مديني [جيد][٤] لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئا مريئا يا نبي الله، لقد بين الله، عز وجل، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]، أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به[٥].

وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مُجَمِّعُ بن يعقوب، قال: سمعت أبي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن أبي يزيد الأنصاري عن عمه مجمع بن جارية الأنصاري ـ وكان أحد[٧] القراء الذين قرؤوا القرآن ـ قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أي رسول الله، وفتح هو؟ قال: «إي والذي نفس محمد بيده، إنه لفتح». فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهما، وكان الجيش ألفا وخمسمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهما.

رواه أبو داود في الجهاد عن محمد بن عيسى، عن مجمع بن يعقوب، به[٨].

وقال[٩] ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، حدثنا جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول[١٠]: لما

---

(١) في م: «نزل». (٢) في ت، م: «البارحة».

(٣) المسند (١/ ٣١) وصحيح البخاري برقم (٤٨٣٣) وسنن الترمذي برقم (٣٢٦٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٩٩).

(٤) زيادة من م.

(٥) المسند (٣/ ١٩٧) وصحيح البخاري برقم (٤١٤٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٦).

(٦) في ت: «وروى». (٧) في ت: «أحب».

(٨) المسند (٣/ ٤٢٠) وسنن أبي داود برقم (٢٧٣٦).

(٩) في ت: «وروى». (١٠) في ت: «عن ابن مسعود قال».

أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا»[١]. فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك [يفعل][٢] من نام أو نسى». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبنها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها[٣]، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه [الوحى][٤] اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائى من غير وجه، عن جامع بن شداد به[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة، قال: سمعت المغيرة ابن شعبة[٦] يقول: كان النبى[٧] ﷺ يصلى حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

أخرجاه[٨] وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثنى أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه[١٠].

فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذ وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

أخرجه مسلم فى الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به[١١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخراز ـ وكان ثقة بمكة ـ حدثنا محمد بن بشر[١٢] حدثنا مسعر، عن قتادة، عن أنس، قال: قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه ـ أو قال: ساقاه ـ فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». غريب من هذا الوجه[١٣].

---

(١) فى م: «أنصتوا».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «فركب».
(٤) زيادة من م.
(٥) تفسير الطبرى (٢٦/٤٣) والمسند (١/ ٤٦٤) وسنن أبى داود برقم (٤٤٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٥٣).
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».
(٧) فى أ: «رسول الله».
(٨) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(٩) المسند (٤/ ٥٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٩) وسنن الترمذى برقم (٤١٢) وسنن النسائى (٣/ ٢١٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٤١٩).
(١٠) فى أ: «ينفطر قدماه».
(١١) المسند (٦/ ١١٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٠).
(١٢) فى أ: «بشير».
(١٣) ورواه أبو يعلى فى المسند (٥/ ٢٨٠) من طريق عبد الله بن عون الخراز به، ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٨٠) «كشف الأستار» من طريق الحسين بن الأسود عن محمد بن بشر به، وقال البزار: «لا نعلم أحدا حدث بهذا الحديث بهذا الإسناد إلا الحسين بن بشر وعبد الله بن عون الخراز، وقد رواه غيرهما عن محمد بن بشر عن مسعر، عن زياد بن علاقة، عن المغيرة بن شعبة، وهو الصواب» ،فكلام الإمام البزار هنا موضح لقول الحافظ ابن كثير: «غريب من هذا الوجه».

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي: بينا ظاهرا، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض[(١)]، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ : هذا من خصائصه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ التى لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح فى ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله لله، وأكثرهم[(٢)] تعظيما لأوامره[(٣)] ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم شيئا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها»[(٤)]. فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء فى الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[(٥)]. وعن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٦)] أنه قال: ما عاقبت ـ أى فى الدنيا والآخرة ـ أحدا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾ .

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة. قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة.

وقال قتادة: الوقار فى قلوب المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيمانًا مع إيمانهم.

---

(١) فى م: «بعضا». (٢) فى ت، أ: «وأشدهم». (٣) فى ت: «لأوامر الله».
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٦) زيادة من ت.

وقد استدل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾، ثم قال تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس: قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها أبدا، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾، كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى: يتهمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أى: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾.

ثم قال مؤكدا لقدرته على الانتقام من الأعداء ـ أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ـ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠)﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه[١] ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ أى: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّراً﴾ أى: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيراً﴾ أى: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها فى سورة «الأحزاب»[٢] ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُعَزِّرُوهُ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: يعظموه، ﴿وَيُوَقِّرُوهُ﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وَيُسَبِّحُوهُ﴾ أى: يسبحون الله، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أى: أول النهار وآخره.

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفا له وتعظيما وتكريما: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، كقوله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله

(١) فى ت،م: «صلى الله عليه وسلم».
(٢) عند الآية الخامسة والأربعين.

ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد قال(١) ابن حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنبارى، حدثنا على بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه فى سبيل الله، فقد بايع الله»(٢).

وحدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ فى الحجر: «والله ليبعثه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(٣).

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أى: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غنى عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلاً. وهذه البيعة هى بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط(٤) أصح.

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك:

قال البخارى: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة.

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به(٥). وأخرجاه أيضا من حديث الأعمش، عن سالم ابن أبى الجعد، عن جابر قال: كنا يومئذ ألفا وأربعمائة، ووضع يده فى ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رووا كلهم(٦).

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته، فوضعوه فى بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا(٧). وفى رواية [فى](٨) الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة(٩).

(١) فى ت: «وروى».
(٢) ورواه ابن مردويه كما فى الجامع الصغير، ورمز له السيوطى بالضعف.
(٣) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٩٦١) من طريق قتيبة عن جرير بإسناده إلى قوله: «يشهد على من استلمه بالحق» ولم يذكر الآية، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».
(٤) فى ت: «والأول».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٠) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤١٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٦٣٩).
(٨) زيادة من م، أ.
(٩) صحيح البخارى برقم (٤١٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).

وروى البخارى من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة.

قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة[(١)].

قال البيهقى: هذه الرواية تدل على أنه كان فى القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة[(٢)].

وروى العوفى عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين. والمشهور الذى رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مائة، وهذا هو الذى رواه البيهقى، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدورى، عن يحيى بن معين، عن شبابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة[(٣)]. وكذلك هو فى رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير. وقد أخرج صاحبا الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين[(٤)].

وروى محمد بن إسحاق فى السيرة، عن الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغنى عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة[(٥)].

كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه، فإن المحفوظ فى الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب من يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلظى[(٦)] عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته.

(١) صحيح البخارى برقم (٤١٥٣).
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٤/٩٧).
(٣) دلائل النبوة للبيهقى (٤/٩٨).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٥٥)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٠٨).
(٦) فى ت،م: «غلظتى».

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله [ﷺ][(١)] ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألاَّ نفر.

فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل.[(٢)]

وذكر ابن لهيعة، عن الأسود[(٣)]، عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق، وزاد فى سياقه : أن قريشا بعثوا وعندهم عثمان [بن عفان][(٤)] سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ، فبينما هم عندهم إذا وقع كلام بين[(٥)] بعض المسلمين وبعض المشركين، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادى رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ، وأمر بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا أبدا، فأرعب ذلك المشركين[(٦)]، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى الموادعة والصلح.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تمتام[(٧)]، حدثنا الحسن بن بشر[(٨)]، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس[(٩)] بن مالك، قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان [رضى الله عنه][(١٠)] رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم[(١١)].

---

(١) زيادة من ت،م.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٥).
(٣) فى ت: «أبى الأسود».
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى م «من».
(٦) فى ت: «المشركون» وهو خطأ.
(٧) فى أ،م: «هشام».
(٨) فى أ: «بشير».
(٩) فى ت: «وروى البيهقى بسنده».
(١٠) زيادة من ت.
(١١) لم أجده فى دلائل النبوة، ولعله فى غيره.

قال ابن هشام[١]: وحدثنى من أثق به عمن حدثه بإسناد له، عن ابن أبى مليكة[٢]، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

وقال عبد الملك بن هشام النحوى: فذكر وكيع، عن إسماعل بن أبى خالد، عن الشعبى: أن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدى[٣].

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبى خالد، عن الشعبى، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان [الأسدى رضى الله عنه][٤]، فقال: ابسط يدك أبايعك. فقال النبى ﷺ: «علام تبايعنى؟». فقال أبو سنان: على ما فى نفسك. هذا أبو سنان [بن][٥] وهب الأسدى [رضى الله عنه][٦] [٧].

وقال البخارى: حدثنا شجاع بن الوليد، سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر [بن الربيع][٨]، عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتى به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر[٩] أسلم قبل عمر.

ثم قال البخارى: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمرى، أخبرنى نافع، عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا فى ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبى ﷺ فقال ـ يعنى عمر ـ: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع.

وقد أسنده البيهقى عن أبى[١٠] عمرو الأديب، عن أبى بكر الإسماعيلى، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم: حدثنى الوليد بن مسلم فذكره[١١].

وقال الليث، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه[١٢].

وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج، عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبى ﷺ يبايع الناس[١٣]، وأنا رافع

---

(١) فى أ: «شهاب». (٢) فى أ: «عن أبى بكر بن أبى مليكة».
(٣) السيرة النبوية (٢/ ٣١٦).
(٤) زيادة من أ. (٥، ٦) زيادة من م، أ.
(٧) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ١٣٧) من طريق الحميدى به.
(٨) زيادة من ت، أ. (٩) فى أ: «عبد الله بن عمر». (١٠) فى أ: «ابن».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤١٨٧).
(١٢) صحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(١٣) فى م: «والناس يبايعون النبى».

غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر[١].

وقال البخارى: حدثنا المكى بن إبراهيم، عن زيد بن أبى عبيد، عن سلمة بن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم[٢]، على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت[٣].

وقال البخارى أيضا: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبى عبيد عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «ياسلمة، ألا تبايع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته ياسلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد ابن أبى عبيد[٤]. وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت[٥].

وقال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهم، حدثنا أبو عامر العقدى عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامى، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة[٦] بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جباها ـ يعنى الركى ـ فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال ﷺ: «بايعنى يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس. قال: «وأيضا». قال: ورآنى رسول الله ﷺ عزلا فأعطانى حجفة ـ أو درقة ـ ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك[٧] فى أول الناس وأوسطهم. قال: «وأيضا». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التى أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقينى عامر عزلا فأعطيتها إياه: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى حبيبا هو أحب إلى من نفسى» قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادما لطلحة بن عبيد الله، رضى الله عنه، أسقى فرسه وأحسه[٨] وآكل من طعامه، وتركت أهلى ومالى مهاجرا إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت[٩] فى أصلها فى ظلها، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى مناد من أسفل الوادى: يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم. فاخترطت سيفى، فشددت على أولئك الأربعة وهم

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٨٥٨).
(٢) فى م: «سلمة».
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٩٦٠).
(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٦٠).
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٥٩).
(٦) فى ت: «وقال البيهقى بسنده عن سلمة».
(٧) فى ت: «بايعت».
(٨) فى ت، م: «وأجنبه».
(٩) فى ت، م، أ: «واضطجعت»

رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثا فى يدى، ثم قلت[١]: والذى كرم وجه محمد ﷺ، لايرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمى عامر برجل من العبَلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ فى سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله [عز وجل][٢]: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤].

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه، أو قريبا منه[٣].

وثبت فى الصحيحين من حديث أبى عوانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبى ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفى علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم[٤].

وقال أبو بكر الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا[٥] جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلا منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئا تحت إبط بعيره».

رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن ابن الزبير، به[٦].

وقال الحميدى أيضا: حدثنا سفيان[٧]، عن عمرو، سمع جابرا، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر[٨] لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا فى موضعها. أخرجاه من حديث سفيان[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث. عن أبى الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»[١٠].

وقال[١١] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمى، حدثنا سعد بن عمرو الأشعثى، حدثنا محمد بن ثابت العبدى، عن خداش بن عياش، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيرى أحب إلى من أن أبايع[١٢].

---

(١) فى ت،م: «وقلت». (٢) زيادة من ت،م.
(٣) دلائل النبوة للبيهقى (١٣٨/٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٠٧).
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٦٤) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٩). واللفظ لمسلم.
(٥) فى م: «عن».
(٦) مسند الحميدى (٥٣٧/٢) ،وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(٧) فى ت: «وفى الصحيحين من حديث سفيان». (٨) فى ت،م: «أنظر».
(٩) مسند الحميدى (٥١٤/٢) ،وصحيح البخارى برقم (٤١٥٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥٦).
(١٠) المسند (٣٥٠/٣).
(١١) فى ت: «وروى».
(١٢) وفى إسناده محمد بن ثابت العبدى، ضعفه ابن معين، وشيخه خداش بن عياش وثقه ابن حبان، وقال الترمذى: «لا نعرف خداشًا هذا من هو».

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا قرة، عن أبى الزبير(١)، عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «من يصعد الثنية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بنى(٢) الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله [ﷺ](٣). فقال: والله لأن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة(٤). رواه مسلم عن عبيد الله، به(٥).

وقال ابن جريج: أخبرنى أبو الزبير، أنه سمع جابرا يقول: أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، فقال النبى ﷺ: «قد قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم: ٧٢]، رواه مسلم(٦).

وفيه أيضا عن قتيبة، عن الليث، عن أبى الزبير، عن جابر؛ أن عبدًا لحاطب بن أبى بلتعة جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية»(٧).

ولهذا قال تعالى فى الثناء عليهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾.

---

(١) فى ت: «وقال عبد الله بن أحمد بسنده».
(٢) فى أ: «من».
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «ضالته».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٠).
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٦).
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٤٩٤).

يقول تعالى مخبرا رسوله[١] ـ صلوات الله وسلامه عليه[٢] ـ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام فى أهليهم وشغلهم[٣]، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول[٤] ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أى: لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا[٥]؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ثم قال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أى: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين. وقيل: هى بلغة عمان.

ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر.

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف فى أهل السموات والأرض: ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة[٦] الحديبية، إذ ذهب النبى ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم فى ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا[٧] يقع غير ذلك شرعا وقدرا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ . قال مجاهد، وقتادة، وجويبر: وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير[٨].

(١) فى ت،م: «لرسوله». (٢) فى ت: «ﷺ». (٣) فى ت،أ: «والشغل بهم».
(٤) فى م: «رسول الله». (٥) فى ت: «أو نافقتمونا». (٦) فى ت،م،أ: «عمرة».
(٧) فى ت: «ولا».
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ٥٠).

وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

وهذا الذى قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التى فى «براءة» نزلت فى غزوة تبوك، وهى متأخرة عن غزوة[(١)] الحديبية.

وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعنى: بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أى: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم[(٢)] الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أى: أن نشرككم فى المغانم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم[(٣)].

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾.

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال:

أحدها: أنهم هوازن. رواه شعبة عن أبى بِشْر، عن سعيد بن جبير ـ أو عكرمة[(٤)]، أو جميعا ـ ورواه هُشيم عن أبى بشر، عنهما. وبه يقول قتادة فى رواية عنه.

الثانى: ثقف، قاله الضحاك.

الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهرى. وروى مثله عن سعيد وعكرمة.

الرابع: هم أهل فارس. رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة ـ فى إحدى الروايات عنه.

وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبى ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضا: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريرى، عن مَعْمَر[(٥)]، عن

---

(١) فى ت،م،أ: «عمرة». (٢) فى ت،م: «قبل أن يسالوكم». (٣) فى ت،أ: «لأنهم عدو لهم».
(٤) فى ت: «هوازن قاله عكرمة». (٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».

الزهرى، فى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد.

وحدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبى خالد، عن أبيه، عن أبى هريرة فى قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون.

قال: وحدثنا سفيان، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الآنف، كأن وجوههم المجانّ المطرقة». قال سفيان: هم الترك[١].

قال ابن أبى عمر: وجدت فى مكان[٢] آخر: ابن أبى خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلون قومًا نعالهم الشَّعْر»، قال: هم البارزون، يعنى الأكراد[٣].

وقوله: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعنى: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون فى دينكم بلا قتال بل باختيار.

ثم قال: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ أى: تستجيبوا وتنفروا فى الجهاد وتؤدوا الذى عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعنى: زمن الحديبية، حيث دعيتم[٤] فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثم ذكر الأعذار فى ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذى يطرأ أياما ثم يزول، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أى: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الدنيا بالمذلة، وفى الآخرة بالنار.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية.

---

(١) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف برقم (١٩١٩٩) والبخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٩) من طريق سفيان عن الزهرى بإسناده: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما كأن وجوههم المجان المطرقة» ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٩٢٨) من طريق صالح، عن الأعرج عن أبى هريرة بنحوه.

(٢) فى ت: «وقال ابن أبى عمرو وحديث فى موضع».

(٣) وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصحاب بابك المخرمى كانوا ينتعلون الشعر، فهم المقصودون بهذا الحديث.

(٤) فى ت: «ذهبتم».

قال البخارى:حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون، فقلت[١]: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم[٢].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾: وهى الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا[٣] وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

قال[٤] ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى ـ يعنى ابن عبيدة ـ حدثنى إياس[٥] بن سلمة، عن أبيه، قال: بينما نحن قائلون. إذا نادى منادى رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: فَثُرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى[٦]: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[قال][٧]: فبايع لعثمان بإحد يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئا لابن عفان، طوف بالبيت ونحن[٨] هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا كذا سنة ما طاف حتى أطوف»[٩].

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)﴾.

---

(١) فى م: «وقلت».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٦٣).
(٣) فى ت: «تأخذونها».
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) فى ت: «عن أبان».
(٦) فى ت،م: «فذلك قوله تعالى».
(٧) زيادة من ت، م.
(٨) فى ت،م: «وذكر».
(٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٩٠) من طريق عبيد الله بن موسى به، قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٨٤): «فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف».

قال مجاهد فى قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ : هى جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: فتح خيبر.

وروى العوفى عن ابن عباس: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعنى: صلح الحديبية.

﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أى: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدى الناس [عنكم](١) الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾أى: يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر، كما قال: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أى: بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله(٢).

وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أى: وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يَسَّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال العَوْفى عن ابن عباس: هى خيبر. وهذا على قوله فى قوله تعالى: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾: إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: هى مكة. واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبى ليلى، والحسن البصرى: هى فارس والروم.

وقال مجاهد: هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن سِمَاك الحَنَفِى، عن ابن عباس: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ قال: هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم(٣).

وقوله: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار(٤) فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه(٥) المؤمنين.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى: هذه سنة الله وعادته فى خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدهم، وكثرة المشركين وعددهم(٦).

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت،م: «لرسوله».
(٣) فى ت: « إلى يوم القيامة».
(٤) فى م: «الكفر».
(٥) فى ت،أ: « ولعباده».
(٦) فى ت،م: «ومددهم».

وقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾: هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم، فلم يصل[١] إليهم منهم سوء، وكفّ أيدى المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاًّ من الفريقين، وأوجد بينهم صلحا فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة. وقد تقدم فى حديث سلمة بن الأكوع حين جاؤوا بأولئك السبعين الأسارى فأوثقوهم بين يدى رسول الله ﷺ فنظر إليهم وقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثِنَاه». قال: وفى ذلك أنزل الله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم**﴾ الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدن غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا ـ قال عفان: فعفا عنهم ـ ونزلت هذه الآية: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾.

ورواه مسلم وأبو داود فى سننه، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، من طرق، عن حماد بن سلمة، به[٢].

وقال أحمد ـ أيضا ـ: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البُنَانى، عن[٣] عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى أصل الشجرة التى قال الله تعالى فى القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلى بن أبى طالب. وسهيلُ بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب فى قضيتنا ما نعرف. قال: «اكتب بسمك اللهم»، وكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب فى قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا فى[٤] وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم فى عهد أحد؟ أو: هل[٥] جعل لكم أحد أمانا؟». فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾. رواه النسائى من حديث حسين بن واقد، به[٦].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يعقوب القُمّى، حدثنا جعفر، عن ابن أبْزَى قال: لما

---

(١) فى ت: «تصل».

(٢) المسند (٣/١٢٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٨) وسنن أبى داود برقم (٢٦٨٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥١٠).

(٣) فى ت: «بن».

(٤) فى ت، م: «إلى».

(٥) فى ت: «وهل».

(٦) المسند (٤/٨٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥١١).

خرج النبى ﷺ بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة، قال له عمر: يا نبى الله، تدخل على قوم لك حَرْب بغير سلاح ولا كُرَاع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كُرَاعا ولا سلاحا إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبى جهل قد خرج عليك فى خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد، هذا ابن عمك أتاك فى الخيل[(١)]»، فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله ـ فيومئذ سمى سيف الله ـ يا رسول الله، ارم بى أين شئت. فبعثه على خيل، فلقى عكرمة فى الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ [مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ][(٢)] ﴾ إلى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. قال: فكف الله النبى عنهم من بعد أن أظفره[(٣)] عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل[(٤)].

ورواه ابن أبى حاتم عن ابن أبزى بنحوه. وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالدا لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين[(٥)] يومئذ، كما ثبت فى الصحيح. ولا يجوز أن يكون فى عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتى من العام المقبل[(٦)] فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هَدياً، وإنما جاء محاربا مقاتلا فى جيش عَرَمْرَم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شىء فليتأمل، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق: حدثنى من لا أتهم، عن عكرمة مولى ابن عباس: أن قريشا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين، وأمروهم أن يُطيفُوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأُخذُوا أخذاً، فأُتى بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى[(٧)] عسكر رسول الله ﷺ[(٨)] بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفى ذلك أنزل الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ الآية[(٩)].

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له: «ابن زُنَيْم» اطلع على الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلا، فأتوه باثنى عشر فارسًا من الكفار، فقال لهم: «هل لكم على عهد؟ هل لكم على ذمة؟». قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله فى ذلك: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ الآية.

---

(١) فى أ: «الجبل».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى أ: «أظفركم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/٥٩).
(٥) فى أ: «للمشركين».
(٦) فى ت: «قابل».
(٧) فى أ: «فى».
(٨) فى ت، م: «عسكر المسلمين».
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/٥٩).

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالأهم[١] على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: وأنتم أحق به، وأنتم أهله فى نفس الأمر، ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أى: وصدوا الهدى أن يصل[٢] إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدىُ سبعين بدنة، كما سيأتى بيانه.

وقوله: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ أى: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سَلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة[٣] القتل؛ ولهذا قل: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ أى: إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أى: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أى: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا.

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو الزِّنْباع ـ روح بن الفرج ـ حدثنا عبد الرحمن بن أبى عباد المكى، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله[٤] أبو سعيد ـ مولى بنى هاشم ـ حدثنا حُجْر بن خلف: سمعت عبد الله بن عوف[٥] يقول[٦]: سمعت[٧] جنيد بن سبع يقول[٨]: قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين[٩].

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكى به، وقال فيه: عن أبى جمعة جنيد بن سبع، فذكره[١٠] والصواب أبو جعفر: حبيب بن سباع. ورواه ابن أبى حاتم من حديث حجر بن خلف[١١]،

(١) فى ت، أ: «ولا هم». (٢) فى ت: «يبلغ». (٣) فى أ: «حال».
(٤) فى م، أ: « عبيد الله». (٥) فى أ: «عمرو». (٦) فى ت: «روى الحافظ الطبرانى بسنده».
(٧) فى ت: «عن». (٨) فى ت: «قال».
(٩) المعجم الكبير (٢/ ٢٩٠).
(١٠) المعجم الكبير (٤/ ٢٤).
(١١) فى أ: «حنيف».

به. وقال: كنا ثلاثة[(١)] رجال وتسع نسوة، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى، حدثنا عبد الله ابن عثمان بن جبلة، عن أبى حمزة[(٢)]، عن عطاء، عن سعيد بن جبير[(٣)]، عن ابن عباس: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، وهى قول: «لا إله إلا الله»، كما قال ابن جرير، وعبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قزعة أبو على البصرى، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير[(٤)]، عن أبيه، عن الطفيل ـ يعنى: ابن أبى بن كعب[(٥)] [رضى الله عنه][(٦)] ـ عن أبيه، [أنه][(٧)] سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾، قال: «لا إله إلا الله».

وكذا رواه الترمذى عن الحسن بن قزعة، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا زُرْعَة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه[(٨)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب[(٩)]، عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة أخبره، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»، وأنزل الله فى كتابه، وذكر قوما فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات: ٣٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهى: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون[(١٠)] يوم الحديبية، وكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة.

وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهرى[(١١)]، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهرى، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾: الإخلاص. وقال عطاء بن أبى رباح: هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير.

---

(١) فى م: «ثلاث». (٢) فى أ: «عن أبى هريرة». (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بسنده».
(٤) فى أ: «ثور». (٥) فى ت: «كما روى ابن جرير بسنده عن أبى بن كعب».
(٦) زيادة من ت. (٧) زيادة من ت، م.
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/٦٦) وزوائد عبد الله على المسند (٥/١٣٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢٦٥).
(٩) فى ت: «وروى بن أبى حاتم بسنده». (١٠) فى أ: «قريش».
(١١) تفسير الطبرى (٢٦/٦٦).

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهرى، عن عروة، عن المسور: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقال الثورى، عن سلمة بن كهيل، عن عَبَاية بن رِبْعِى، عن على: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر، رضى الله عنهما.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، وهى رأس كل تقوى.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد فى سبيله.

وقال عطاء الخراسانى: هى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن الزهرى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم.

وقال قتادة: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله.

﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر.

وقد قال النسائى: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شبابة بن سوار، عن أبى رزين، عن عبد الله ابن العلاء بن زبر، عن بسر بن عبيد الله، عن أبى إدريس، عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له. فقال: إنك لتعلم أنى كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمنى مما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله(١).

وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهرى، عن عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذ كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى(٢)، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العُوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر

(١) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٥).
(٢) فى ت: «بشر بن كعب الكلبى».

الناس؟ فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله [عليهم][(١)] دخلوا فى الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض على طريق تخرجه[(٢)] على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، و ما ذلك[(٣)] لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». [ثم][(٤)] قال للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادى من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه، فنزل فى قليب من تلك القلب، فغرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بُدَيل بن ورقاء فى رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهرى: [و][(٥)] كانت خزاعة فى عَيْبَة رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عَنْوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، أحد بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كَلَّم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله [ﷺ][(٦)]؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهَدْى» فى وجهه، فبعثوا الهدى، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرْض الوادى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى[(٧)]، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صَدّه، الهدى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابى لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفى، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد، وقد سمعت بالذى نابكم، فجمعت من أطاعنى من قومى، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج[(٨)] حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «يحرصه». (٣) فى ت: «وما ذاك».
(٤) زيادة من ت، م، أ. (٥) زيادة من ت، م. (٦) زيادة من ت، م.
(٧) فى ت: «فلما رجع إلى أصحابه». (٨) فى أ: «ثم خرج».

ألا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبى قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ فى الحديد[1]، قال: فقرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ـ والله ـ لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أفظعك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟! قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا. قال: فقام من عند رسول الله [ﷺ][2] وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءًا إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إنى جئت كسرى فى ملكه، وجئت قيصر والنجاشى فى ملكهما، والله ما رأيت مَلكا قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعى إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت[3] به قرش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بها من بنى عدى أحد يمنعنى، وقد عرفت قرش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز منى: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائرا لهذا البيت، معظما لحرمته. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله [ﷺ][4] قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثنى الزهرى: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا يكون فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأت أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر،

(١) فى ت: «بالحدد».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «عثرت».
(٤) زيادة من ت، أ.

الزم غرزه حيث كان، فإنى أشهد أنه رسول الله. [ثم][(1)] قال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى». ثم قال عمر: مازلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من[(2)] الذى صنعت مخافة كلامى الذى تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب [رضى الله عنه][(3)] فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صلح[(4)] عليه محمد رسول الله، سهل بن عمرو»، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل ابن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله[(5)] من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله ﷺ[(6)] لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان فى شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف فى القرب، فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذا جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ[(7)] قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله [ﷺ][(8)] على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد لجّت[(9)] القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردوننى إلى أهل الشرك فيفتنونى فى دينى؟ قال: فزاد الناس شرا إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدا[(10)]، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشى مع [أبى][(11)] جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدنى قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب،

---

(١) زيادة من م،أ. (٢) فى ت: «عن». (٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «ما صالح». (٥) فى أ: «محمداً». (٦) زيادة من ت.
(٧) زيادة من ت. (٨) زيادة من ت،أ. (٩) فى ت، أ: «تمت».
(١٠) فى ت،م،أ: « عهدنا». (١١) زيارة من ت،م، أ.

وكان رسول الله ﷺ يصلى فى الحرم، وهو مضطرب فى الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس، انحروا[١] واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل.

فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تُكَلِّمهن[٢] منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره، ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بُكَيْر وزياد البكائى، عن ابن إسحاق، بنحوه[٣]، وفيه إغراب، وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، به نحوه[٤] وخالفه فى أشياء وقد رواه البخارى، رحمه الله، فى صحيحه، فساقه سياقة[٥] حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال فى كتاب الشروط[٦] من صحيحه:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر: أخبرنى الزهرى: أخبرنى عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال: « أشيروا أيها الناس علىّ، أترون أن نميل عل عيالهم، وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن صدونا عن البيت؟»، وفى لفظ: «أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عُنُقا من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفى لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محرُوبين وإن نجوا يكن عنقا قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر [رضى الله عنه][٧]: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفى لفظ: فقال أبو بكر، رضى الله عنه: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبى ﷺ: «فروحوا إذن»، وفى لفظ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبى ﷺ: «إن خالد بن الوليد فى خيل لقريش طليعة،

(١) فى ت، أ: «انحروا فى الحرم». (٢) فى ت، أ: «فلا تكلمن».
(٣) المسند (٣٢٣/٤) والسيرة النبوية لابن هشام (٣١٦/٢).
(٤) رواه أحمد فى مسنده (٣٢٨/٤) من طريق عبد الرزاق به.
(٥) فى م: «بسياقات». (٦) فى ت، م: «الشرط». (٧) زيادة من أ.

فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبى ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: « والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث[1] الناس حتى نزحوه، وشكى[2] إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله [ﷺ][3] من أهل تهامة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبى ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددنهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، ولينفذن[4] الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لاحاجة لنا أن تخبرنا عنه بشىء. وقال: ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونى؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آته. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ له نحوا من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإنى والله لأرى وجوها، وإنى لأرى أشوابا[5] من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر، رضى الله عنه: امصص بَظْر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لو لا يد كانت لك عندى لم أجزك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبى ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة، رضى الله عنه قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخر يدك من لحية النبى ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غدر، ألست أسعى فى غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شىء».

---

(١) فى ت، م: «يلبثه». (٢) فى أ: «شكوا». (٣) زيادة من م.
(٤) فى ت، م: « أو لينفذن». (٥) فى أ: « أوباشاً».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينيه[١]، قال: فوالله ما تنخم رسول الله [ﷺ][٢] نخامة إلاوقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيما له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون النظر إليه تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشْد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بنى كنانة: دعونى آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه، قال النبى ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدْن، فابعثوها له» فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يُلَبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت. فقال[٣] رجل منهم يقال له: «مِكْرَز بن حفص»، فقال: دعونى آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبى ﷺ : «هذا مكرز [بن حفص][٤] وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبى ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرنى أيوب، عن عِكْرِمَةَ أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى ﷺ: « قد سَهُل لكم من أمركم».

قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك[٥] كتابا فدعا النبى ﷺ الكاتب، فقال النبى ﷺ : «[اكتب][٦]: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل [بن عمرو][٧]: أما «الرحمن» فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبى ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبى ﷺ: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى. اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهرى: وذلك لقوله: «والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبى ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل

---

(١) فى ت: «بعينه». (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «فقام».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «بينكم».
(٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من ت، م.

ابن عمرو يرسُفُ في قيوده، قد[١] خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدّه إلى، فقال النبى ﷺ: «إنا لم نَقْضِ الكتاب بعد». قال: فوالله إذًا لا أصالحك على شىء أبدا. فقال النبى ﷺ: «فأجزه لى» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أُرَدّ إلى المشركين وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذِّبَ عذابا شديدا فى الله عز وجل.قال عمر [بن الخطاب][٢] رضى الله عنه: فأتيت نبى الله ﷺ، فقلت: ألست نبى الله حقا؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: «إنى رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصرى»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه[٣] العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومُطوَّف به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهرى: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول[٤] الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقى من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبى الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله، عز جل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ وهو مسلم، فأرسلوا فى طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذى جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَد، وفَرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله[٥] ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً»، فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال:

---

(١) فى ت: «حتى». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «أنك تأتيه».
(٤) فى ت: «النبى». (٥) فى م: «النبى».

قتل والله صاحبى، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد ـ والله ـ أوفى الله ذمتك، قد رددتنى إليهم ثم نجانى الله منهم، فقال النبى ﷺ: «ويل أمّه مِسْعَرُ حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبى ﷺ إليهم، وأنزل الله عز جل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

هكذا ساقه البخارى هاهنا(١)، وقد أخرجه فى التفسير، وفى عمرة الحديبية، وفى الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهرى، به(٢) ووقع فى بعض الأماكن عن الزهرى، عن عروة، عن مروان والمِسْوَر بن [مَخْرَمة](٣)، عن رجال من أصحاب النبى ﷺ بذلك(٤). وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين فى مواضع، وهناك فوائد ينبغى إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخارى فى التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمِى، حدثنا يعلى، حدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبى ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال على بن أبى طالب: نعم. فقال سهل بن حُنَيْف: اتهمُوا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية ـ يعنى: الصلح الذى كان بين النبى ﷺ والمشركين ـ ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ فقال: «بلى». قال: ففيم نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إنى رسول الله، ولن يضيعنى الله أبدا»، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح(٥).

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع أخر ومسلم والنسائى من طرق أخر عن أبى وائل سفيان(٦)

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٨٠).
(٣) زيادة من م.
(٤) رواه البخارى فى صحيحه فى أول الشروط برقم (٢٧١١).
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٤).
(٦) فى هـ: «شقيق».

ابن سلمة، عن سهيل[١] بن حنيف به[٢]، وفى بعض ألفاظه: «يأيها الناس، اتهموا الرأى، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته» وفى رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن قريشا صالحوا النبى ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبى ﷺ لعلى: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال: «اكتب من محمد رسول الله». قال: لو نعلم[٣] أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبى ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبى ﷺ أن[٤] من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله، أتكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله» . رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به[٥].

وقال أحمد أيضا: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثنى سماك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلى: «اكتب يا على: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا على، اللهم إنك تعلم أنى رسولك، امح يا على، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من على، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامى، بنحوه[٦].

وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم: حدثنا زهير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس،رضى الله عنهما، قال:نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبى جهل، فلما صُدَّت عن البيت حَنَّتْ كما تَحِنُّ إلى أولادها[٧].

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾ .

---

(١) فى م: «سهل».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٨١، ٧٣٠٨، ٤١٨٩، ٣١٨٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٥٠٤).

(٣) فى م: «علمنا». (٤) فى م: «أنه».

(٥) المسند (٣/ ٢٦٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٨٤).

(٦) المسند (١/ ٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٤٠٣٧).

(٧) المسند (١/ ٣١٤).

كان رسول الله ﷺ قد أُرِىَ فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر(١) هذا العام، فلما قع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع فى نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه(٢) عامك هذا» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق، رضى الله عنه، أيضا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾: [و](٣)هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء فى شيء، [وقوله](٤): ﴿آمِنِينَ﴾ أى: فى حال دخولكم. وقوله: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾، حال مقدرة؛ لأنهم فى حال حرمهم(٥) لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا فى ثانى الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله ؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» فى الثالثة أو الرابعة(٦).

وقوله: ﴿لا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكدة فى المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهى إقليم عظيم كثير النخل(٧) والزروع، فاستخدم(٨) من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعرى وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سِمَاك بن خَرَشَة، كما هو مقرر فى موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان فى ذى القعدة [فى](٩) سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة فى قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مِكْرَز

ـــــــــــــــــ

(١) فى أ: «تتعين». (٢) فى ت،م: «آتيه». (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت،م. (٥) فى م،أ: «دخولهم».
(٦) صحيح البخارى برقم (١٧٢٧) وصحيح مسلم برقم (١٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٧) فى أ: «النخيل». (٨) فى ت: «واستخدم». (٩) زيادة من ت.

ابن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وما ذاك؟». قال[١]: دخلت: علينا بالسلاح والقسى والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ و[لا][٢] إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذى لا دين إلا دينُه ... باسم الذى محمدٌ رسوله
خَلُّوا بنى الكُفَّار عَنْ سَبِيله ... اليوم نضربكم على تَأْويله
كما ضربناكم على تنزيله ... ضرباً يزيلُ الهام عَن مَقِيله
ويُذْهِل الخليل عن خليله ... قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صُحف تتلى على رسُوله ... بأن خير القَتْل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة.

قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر[٣] بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته ﷺ[٤]، وهو يقول:

خلّوا بنى الكفار عن سبيله ... إنى شَهيدٌ أنه رَسُولُهُ
خلوا فكل[٥] الخير فى رسوله ... يا رب إنى مؤمن بقيله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يُزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[٦]

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهرى، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفى رواية وابن رواحة آخذ بغرزه، وهو يقول:

---

(١) فى ت،م: «فقال». (٢) زيادة من ت،م،أ. (٣) فى ت: «محمد».
(٤) فى ت: «مشى عبد الله بن رواحة بين يديه». (٥) فى ت: «وكل».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٧١).

خلوا بنـي الكفـار عن سبيله | قـد نـزل الرحمن فى تنزيله
بأن خير القتـل فـى سبيله | يا رب إنـى مؤمـن بقيـله
نحـن قتلناكـم علـى تأويله | كمـا قتلناكـم عـلى تنزيله
ضرباً يزيل الهـام عـن مقيله | ويذهـل الخليل عـن خليله

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل ـ يعنى: ابن زكريا ـ عن عبد الله ـ يعنى: ابن عثمان ـ عن أبى الطُّفَيْل[١]، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران فى عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا [تقول][٢]: ما يتباعثون من العَجَف. فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحَسَونا من مَرَقه، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَة. قال: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لى[٣] من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم فى جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع بردائه، ثم قال: «لا يرى[٤] القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رَمَل، حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشى أما إنكم لتنقزُون نَقْزَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سُنَّة. قال أبو الطفيل: فأخبرنى ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك فى حجة الوداع[٥].

وقال[٦] أحمد أيضا: حدثنا يونس؛ حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حُمّى يثرب، ولقوا منها سوءا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شرا، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ [أصحابه][٧] أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

أخرجاه فى الصحيحين من حديث حماد بن زيد، به[٨] وفى لفظ: قدم النبى ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أى من ذى القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

---

(١) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت، أ: «إلىّ».
(٤) فى ت: «ألا ترى».
(٥) المسند (١/ ٣٠٥).
(٦) فى ت: «وروى».
(٧) زيادة من ت.
(٨) المسند (١/ ٢٩٥) وصحيح البخارى برقم (٤٢٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٦٦).

قال البخارى: وزاد ابن سلمة ـ يعنى: حماد بن سلمة ـ عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبى ﷺ لعامه الذى استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قعيقعان.

وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سعى النبى ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته[١].

ورواه فى مواضع أخر، ومسلم والنسائى، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به[٢].

وقال أيضا: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، سمع ابن أبى أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخارى دون مسلم[٣].

وقال[٤] البخارى أيضا: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح، وحدثنى محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبى، حدثنا فليح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا ، أمروه أن يخرج فخرج.

وهو فى صحيح مسلم أيضا[٥]:

وقال البخارى أيضا: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء، قال: اعتمر النبى ﷺ فى ذى القعدة، فأبى أهل مكة أن يَدَعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلى بن أبى طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف فى القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبى ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى: يا عم، يا عم. فتناولها على فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها على وزيد

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٧).

(٢) صحيح البخارى برقم(١٦٤٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٦٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٣٩٧٣).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٥).

(٤) فى ت: «روى».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٢٥٢).

وجعفر، فقال علىّ: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، فقضى بها النبى ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك»، وقال لجعفر: « أشبهت خلقى وخلقى» وقال لزيد: « أنت أخونا ومولانا». قال على: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخى من الرضاعة» انفرد به من هذا الوجه[١].

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أى: فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ﴾ أى: قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ، ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تعالى، مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله [وسلامه][٢] عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعى صحيح، والعمل الشرعى مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين[٣] ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾.

يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه[٤]، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفاً على الكفار، رحيما براً بالأخيار، غضوباً عبوساً فى وجه الكافر، ضحوكا بشوشاً فى وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبى ﷺ: « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٢٥١).
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى أ: « مسلمين».
(٤) فى ت: «ﷺ»، وفى م: «صلوات الله وسلامه عليه».

منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر»[١]، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه[٢] كلا الحديثين فى الصحيح.

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة[٣] الصلاة، وهى خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز جل، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة[٤] المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ يعنى: السمت الحسن.

وقال مجاهد وغير واحد: يعنى: الخشوع والتواضع.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطُّنَافسى، حدثنا حسين الجَعْفى، عن زائدة[٥]، عن منصور، عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع، قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر فى الوجه، فقال: ربما كان بين عينى من هو أقسى قلبا من فرعون.

وقال السدى: الصلاة تحسن وجوههم.

وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقد أسنده ابن ماجه فى سننه، عن إسماعيل بن محمد الطَّلْحى، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله[٦] ﷺ: «من كَثُرَتْ صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف[٧].

وقال بعضهم: إن للحسنة نورا فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صَفَحَات وجهه، وفَلَتَات لسانه.

والغرض أن الشىء الكامن فى النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمود بن محمد المروزى، حدثنا حامد بن آدم المروزى،

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٠١١)ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٨١) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.
(٣) فى ت،م: «وذكر». (٤) فى م: «المحبة». (٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده».
(٦) فى ت: «عن النبى».
(٧) سنن ابن ماجة برقم (١٣٣٣).

حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العَرْزَمى، عن سلمة بن كُهَيْل[١]، عن جُنْدَب بن سفيان البَجَلى قال: قال النبى ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»، العرزمى متروك[٢].

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا حسن بن[٤] موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائنا ما[٥] كان»[٦].

وقال[٧] الإمام أحمد [أيضا][٨]: حدثنا حسن، حدثنا زُهَيْر، حدثنا قابوس بن أبى ظَبْيَان: أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلى، عن زهير، به[٩].

فالصحابة [رضى الله عنهم][١٠] خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه فى سمتهم وهديهم.

وقال مالك، رحمه الله: بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا فى ذلك، فإن هذه الأمة معظمة فى الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة[١١]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾، ثم قال: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ [فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾: ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ][١٢]﴾ أى: فراخه، ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أى: شده ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ أى: شب وطال، ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أى: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك ـ رحمه الله، فى رواية عنه ـ بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث فى فضائل الصحابة والنهى عن التعرض لهم بمساءة كثيرة[١٣]، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

---

(١) فى ت: «وروى أبو القاسم الطبرانى بإسناده».
(٢) المعجم الكبير (٢/ ١٧١) وحامد بن آدم كذاب.
(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى أ: «عن». (٥) فى ت: «من».
(٦) المسند (٣/ ٢٨).
(٧) فى ت: «وروى». (٨) زيادة من ت.
(٩) المسند (١/ ٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٤٧٧٦).
(١٠) زيادة من ت، م، أ.
(١١) فى م: «المقدسة». (١٢) زيدة من م. (١٣) فى م: «كبيرة».

ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾ «من» هذه لبيان الجنس، ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أى: لذنوبهم. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولايبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم[1]، وقد فعل.

قال مسلم فى صحيحة: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[2].

آخر تفسير سورة الفتح، ولله الحمد والمنة

(١) فى ت، م، أ: «متواهم».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٤٠).

/ سورة الفتح [١٠٤ظ]

مدنيّة، وهي تسع وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فتحُ البلد عبارة عن الظفر به عَنوةً أو صلحًا، بحِراب أو بدونه، فإنّه ما لم يُظفَر به مُنْغَلَق، مأخوذ مِن "فتح باب الدار". وإسناده إلى نون العظَمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقًا وإيجادًا. والمراد به فتح مكّة، وهو المرويّ عن أنس رضي الله عنه،[١] بُشِّر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند انصرافه عن الحُدَيبية. والتعبير عنه بصيغة الماضي على سَنن سائر الأخبار الربّانيّة للإيذان بتحقّقه لا محالةَ تأكيدًا للتبشير، كما أنّ تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك. وفيه مِن الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبِر جلّ جلاله وعزّ سلطانه ما لا يخفى.

وقيل: هو ما أُتيح له عليه السلام في تلك السَّنة مِن فتح خيبر، وهو المرويّ عن مجاهد.[٢]

وقيل: هو صُلح الحُديبية، فإنّه وإن لم يكن فيه حِراب شديد؛ بل تَرامٍ بين الفريقين بسهام وحجارة، لكن لمّا كان الظهور للمسلمين حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحًا بلا ريب. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «رمَوا المشركين حتّى أدخلوهم ديارَهم».[٣] وعن الكلبي: «ظهروا عليهم حتّى سألوا الصلح».[٤]

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤١/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٧٤/١٧.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤١/٩؛ واللباب لابن عادل، ٤٧٤/١٧.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٣/٩.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٣/٩.

وقد رُوي أنّه عليه السلام حين بلغه أنّ رجلًا قال: «ما هذا بفتح، لقد صدّونا عن البيت، وصُدَّ هَدْيُنا»، قال: «بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرّاح، ويسألوكم القضيّة، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأَوا منكم ما يكرهون».[١]

وعن الشعبي: «نزلت بالحُديبية، وأصاب رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم في تلك الغزوة ما لم يُصِب في غزوةٍ، حيث أصاب أن بُويع بيعة الرضوان، وغُفر له ما تقدّم مِن ذنبه وما تأخّر، وبلغ الهديُ مَحِلّه، وأُطعِموا نخل خيبر، وظهرت الروم على فارس، ففرِح به المسلمون».[٢]

وكان في فتح الحُديبية آية عظيمة، هي أنّه نُزِحَ ماؤها حتّى لم يبقَ فيها قطرة، فتمضمَض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ مَجّه فيها فدرَّت بالماء حتّى شرب جميع مَن كان معه.[٣] وقيل: فجاش الماء حتّى امتلأَت، ولم ينفَد ماؤها بعدُ.

وقيل: هو جميعُ ما فُتِح له عليه السلام مِن الفتوح. وقيل: هو ما فَتح الله له عليه السلام مِن الإسلام والنبوّة والدعوة بالحجّة والسيف، ولا فتحَ أبينُ منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كافّةً؛ إذ لا فتحَ مِن فتوح الإسلام إلّا وهو شعبة مِن شُعَبِه، وفرع مِن فروعه. / وقيل: "الفتح" بمعنى القضاء، ومنه [١٠٥و]
"الفُتاحة" للحكومة، والمعنى: قضينا لك على أهل مكّة أن تدخلها مِن قابل، وهو المرويّ عن قتادة رضي الله عنه.[٤]

وأيًا ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل، والإيذانِ بأنّ مناط التبشير نفسُ الفتح الصادر عنه سبحانه، لا خصوصيّةُ المفتوح.

﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بيّنًا ظاهرَ الأمر، مكشوفَ الحال، أو فارِقًا بين الحقّ والباطل.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوّة، ١٦٠/٤.

[٢] جامع البيان للطبري، ٢٤٤/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٢/٩.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤. والقصّة في صحيح البخاري، ١٩٣/٤ (٣٥٧٧)؛ وصحيح مسلم، ١٤٣٣/٣ (١٨٠٧).

[٤] م - رضي الله عنه. | جامع البيان للطبري، ٢٣٨/٢١؛ تفسير عبد الرزّاق، ٢١٠/٣.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ غايةٌ للفتح مِن حيث إنّه مترتّب على سعيه عليه السلام[١] في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابَدة مشاقّ الحروب، واقتحامِ موارد الخطوب. والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأنّ كلّ واحدٍ ممّا انتظم في سِلك الغاية مِن أفعاله تعالى صادرٌ عنه تعالى مِن حيثيّةٍ غيرِ حيثيّة الآخَر مترتّبةٍ على صفة مِن صفاته تعالى.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي: جميعَ ما فرَط منك مِن ترك الأَولى. وتسميته ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وضمِّ المُلك إلى النبوّة وغيرهما ممّا أضافه عليه مِن النعم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة، وإقامةِ مراسم الرياسة. وأصلُ الاستقامة وإن كانت حاصلةً قبلَ الفتح لكن حصل بعد ذلك مِن اتّضاح سُبل الحقّ واستقامةِ مناهجه ما لم يكن حاصلًا قبلُ.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ إظهارُ الاسم الجليل لكونه خاتمةَ الغايات، ولإظهار كمال العناية بشأن النصر كما يُعرِب عنه تأكيده بقوله تعالى: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: نَصرًا فيه عِزّة ومَنَعة، أو قويًا مَنيعًا على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازًا للمبالغة، أو عزيزًا صاحبُه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾

---

[١] وفي هامش م: فإنّه وإن كان مِن حيث الخلقُ والإيجادُ مستندًا إلى الله عزّ وجلّ، لكن مِن حيث الكسبُ مستند إليه عليه السلام، مترتّب على ما ذُكر مِن المساعي الجميلة الحقيقة باستتباع تلك الغايات الجليلة. «منه».

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ بيان لِما أفاضَ عليهم مِن مبادي الفتح مِن الثبات والطُّمأنينة، أي: أنزلَها ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بسبب الصلح والأمنِ إظهارًا لِفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، / ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يقينًا [١٠٥ظ] منضمًّا إلى يقينهم، أو أنزلَ فيها السكون إلى ما جاء به عليه السلام مِن الشرائع ليزدادوا إيمانًا بها مقرونًا مع إيمانهم بالوحدانيّة واليوم الآخر. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «أنّ أوّل ما أتاهم به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم التوحيد، ثمّ الصلاة والزكاة، ثمّ الحجّ والجهاد، فازدادوا إيمانًا مع إيمانهم».[٢] أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانًا إلى إيمانهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبّر أمرَها كيفما يريد، يسلّط بعضها على بعض تارةً، ويُوقع بينهما السِّلم أخرى، حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكم والمصالح.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغًا في العلم بجميع الأمور، ﴿حَكِيمًا﴾ في تقديره وتدبيره.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ متعلّق بما يدلّ عليه ما ذُكر مِن كون جنود السماوات والأرض له تعالى مِن معنى التصرّف والتدبير، أي: دبَّر ما دبَّر مِن تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله في ذلك ويشكروها فيُدخلهم الجنّة، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: يُغطِّيَها ولا يظهرَها. وتقديم الإدخال في الذكر على التكفير مع أنّ الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يقادَر قدرُه؛ لأنّه مُنتَهَى ما يمتدّ إليه أعناق الهِمم مِن جلب نفع ودفعِ ضرّ.

---

[١] م - رضي الله عنهما.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤٥/٢١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٩.

و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ حال مِن ﴿فَوۡزًا﴾؛ لأنّه صفته في الأصل، فلمّا قُدِّم عليه صار حالًا، أي: كائنًا عند الله، أي: في علمه وقضائه. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝٦﴾

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ عطفٌ على ﴿يُدۡخِلَ﴾.[1] وفي تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى مِن الدلالة على أنّهم أحقّ منهم بالعذاب. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ أي: ظنَّ الأمر السَّوء، وهو أن لا يَنصر رسوله والمؤمنين.

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ أي: ما يظنّونه ويتربّصونه بالمؤمنين، فهو حائق بهم، ودائر عليهم. وقُرئ: "دائِرَةُ السُّوءِ" بالضمّ،[2] وهما لغتان مِن "سَاءَ"، كـ"الكَرْه" و"الكُرْه"، خلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمُّه مِن كلّ شيء، وأمّا المضموم فجارٍ مَجرى الشرّ.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾ عطفٌ لِما استحقّوه / في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا. و"الواو" في الأخيرين مع أنّ حقّهما "الفاء" المفيدة لِسببيّة ما قبلها لِما بعدها للإيذان باستقلال كلٍّ منها في الوعيد وأصالتِه مِن غير اعتبار استتباع بعضها لبعضٍ. ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ أي: جهنّم. [١٠٦و]

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ إعادة لِما سبَق، قالوا: فائدتها التنبيه على أنّ لله تعالى[3] جنودَ الرحمة وجنودَ العذاب، وأنّ المراد ههنا جنودُ العذاب، كما ينبئ عنه التعرّض لوصف العزّة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٠.

٣ س – تعالى.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ أي: على أمّتك، لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]، ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ على الطاعة ﴿وَنَذِيرٗا﴾ على المعصية.

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾

﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولأمّته، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُقَوُّوه بتقوية دينه ورسولِه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظّموه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتُنَزِّهوه، أو تصلّوا له، مِن "السُّبْحة"، ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ غُدوةً وعَشيًّا. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر».[٢]

وقُرئ الأفعال الأربعة بـ"الياء" التحتانيّة.[٣] وقُرئ: "وتُعْزِرُوهُ" بضمّ "التاء" وتخفيف "الزاء" المكسورة.[٤] وقُرئ بفتح "التاء" وضمّ "الزاء"[٥] وكسرها،[٦] و"تُعَزِّزُوهُ" بزاءَين.[٧] و"تُوقِرُوهُ"،[٨] مِن "أوْقَرَهُ" بمعنى "وَقَّرَه".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي: على قتالِ قريش تحت الشجرة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، يعني: أنّ مبايَعتك هي مبايَعة الله عزّ وجلّ؛ لأنّ المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه.

وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ حال أو استئناف مؤكِّد له على طريق التخييل، والمعنى: أنّ عقد الميثاق مع الرسول كعَقْده مع الله تعالى مِن غير تفاوت

---

١ م - رضي الله عنهما.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٥/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

بينهما، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، ٨٠/٤]. وقُرئ: "إِنَّمَا يُبَايِعُونَ لِلَّهِ"،[١] أي: لأجله ولوجهه.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ أي: فمَن نقَض عهدَه فإنّما يعود ضررُ نكثه على نفسه. وقُرئ بكسر "الكاف".[٢] ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ بضمّ "الهاء"، فإنّه أُبقِيَ بعد حذف "الواو"[٣] / توسّلًا بذلك إلى تفخيم لام الجلالة. [١٠٦ظ]
وقُرئ بكسرها.[٤] أي: ومَن وَفَى بعهده.

﴿فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنّة. وقُرئ: "بِمَا عَهِدَ".[٥] وقُرئ: "فَسَنُؤْتِيهِ" بنون العظَمة.[٦]

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ⑪﴾

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ هم أعراب غِفارٍ ومُزَينة وجُهَينة وأشجَع وأسلَم والدِّيل،[٧] تخلّفوا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين استنفر مَن حول المدينة مِن الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه عند إرادته المسيرَ إلى مكّة عام الحُديبية معتمِرًا حذَرًا مِن قريش أن يَعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت، وأحرَم عليه السلام وساق معه الهدي ليُعلَم أنّه لا يريد الحرب، وتثاقلوا عن الخروج، وقالوا: «نَذهَبُ إلى قوم قد غزَوه في عُقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن تمّام بن العبّاس بن عبد المطّلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٦/٩.

٢ أي: "يَنْكِثُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤١.

٣ وفي هامش م: حُذفت "الواو" لسكونها وسكونِ "اللام"، وبقيت الضمّة تدلّ عليها. كواشي. | تفسير الكواشي، ٣٠٥و.

٤ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٠٥/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٦ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٧ بنو الدِّيل: بطن مِن عبد القيس بن ربيعة مِن العدنانيّة، قال الجوهري: وهما دِيلان، أحدها: الدِّيل بن شدّاد بن أقصى بن عبد القيس، والثاني: الدِّيل بن عمرو بن وديعة بن أقصى بن عبد القيس. قال الجوهري: ومنهم أهل عُمان. والنسب إلى الديل: "دِيلي". نهاية الأرب للقلقشندي، ٥٦/١.

فنُقاتلهم»، فأوحى الله تعالى إليه عليه السلام بأنّهم سَيَعتَلُّونَ ويقولون: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾، ولـم يكن لنا مَن يَخلفُنا فيهم، ويقوم بمصالحهم، ويحميهم مِن الضياع.[١] وقُرئ: "شَغَّلَتْنَا" بالتشديد[٢] للتكثير. ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾ الله تعالى ليغفر لنا تخلُّفَنا عنك، حيث لم يكن ذلك باختيارٍ؛ بل عن اضطرارٍ. ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ بدل مِن ﴿سَيَقُولُ﴾، أو استئناف لتكذيبهم في الاعتذار والاستغفار.

﴿قُلۡ﴾ ردًّا لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم: ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ أي: فمَن يقدر لأجلكم مِن مشيئة الله تعالى وقضائه على شيء مِن النفع ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا﴾ أي: ما يضرّكم مِن هلاك الأهل والمال وضياعهما حتّى تتخلّفوا عن الخروج لحفظهما ودفع الضرر عنهما. وقُرئ: "ضُرًّا" بالضمّ.[٣] ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾ أي: ومَن يقدر على شيء مِن الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم مِن حفظ أموالكم وأهليكم، فأيّ حاجة إلى التخلّف لأجل القيام بحفظهما؟ وهذا تحقيق للحقّ، وردّ لهم بموجَب ظاهر مقالتهم الكاذبة.

وتعميم الضرّ والنفع لِما يتوقّع على تقدير الخروج مِن القتل والهزيمة
[١٠٧و] والظفَر والغنيمة يَردّه قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾ / فإنّه إضراب عمّا قالوا، وبيان لكذبه، بعد بيان فساده على تقدير صِدقه، أي: ليس الأمر كما تقولون؛ بل كان الله خبيرًا بجميع ما تعملون مِن الأعمال التي مِن جملتها تخلُّفكم وما هو مِن مباديه.

﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ﴾... إلخ بدل مِن ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾... إلخ[٤] مفسِّر لِما فيه مِن الإبهام، أي: بل ظننتم ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٢١/٢٥٧؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٩/٤٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن شَنبوذ عن قتيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

٤ في الآية السابقة.

بأن يستأصلهم المشركون بالمرّة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم، فلأجل ذلك تخلّفتم، لا لِما ذكرتم مِن المعاذير الباطلة. و"الأهلون" جمع "أهل"، وقد يجمع على "أهلات" كـ"أرضات" على تقدير تاء التأنيث، وأمّا "الأهالي" فاسم جمع كـ"الليالي". وقُرئ: "إِلَى أَهْلِهِمْ".[١]

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وقَبِلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم غيرَ مبالِين بهم. وقُرئ: "زَيَّنَ"[٢] على البناء للفاعل بإسناده إلى الله سبحانه، أو إلى الشيطان، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ المراد به إمّا الظنّ الأوّل، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيلِ عليه بالسوء، أو ما يَعمّه وغيرَه مِن الظنون الفاسدة التي مِن جملتها الظنّ بعدم صحّة رسالته عليه السلام، فإنّ الجازم بصحّتها لا يحومُ حول فكره ما ذُكر مِن الاستئصال.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هالِكين عند الله مستوجِبين لسخَطه وعقابه، على أنّه جمع "بائر"، كـ"عائذ" و"عُوذٍ"،[٣] أو فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيّاتكم، لا خيرَ فيكم. وقيل: "البُور" مِن "بارَ"، كـ"الهُلك" مِن "هلك" بناءً ومعنًى، ولذلك وُصف به الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كلام مبتدأ مِن جهته تعالى، غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، مقرِّرٌ لبَوارِهم، ومبيِّن لكيفيّته، أي: ومَن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلَّفين ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي: لهم، وإنّما وضع موضع الضمير "الكافرون" إيذانًا بأنّ مَن لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، وأنّه مستوجِب للسعير بكفره. وتنكير ﴿سَعِيرًا﴾ للتهويل، أو لأنّها نار مخصوصة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

٣ س: كعائد وعود. | وفي هامش م: وهو الحديث السنّ مِن الظباء والإبل. «منه».

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

[١٠٧ظ] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ/ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما، يتصرّف في الكلّ كيف يشاء، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذّبه مِن غير دخل لأحدٍ في شيء منهما وجودًا وعدمًا، وفيه حسمٌ لأطماعهم الفارغة في استغفاره عليه السلام لهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مبالِغًا في المغفرة والرحمة لمَن يشاء، ولا يشاء إلّا لمَن يقتضي الحكمةُ مغفرته ممّن يؤمن به وبرسوله، وأمّا مَن عداه مِن الكافرين فهم بمَعزِل مِن ذلك قطعًا.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: المذكورون. وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ ظرف لِما قبله، لا شرطٌ لِما بعده، أي: سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم إيّاها وخصّكم بها عِوضًا ممّا فاتكم مِن غنائم مكّة: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر، ونَشهَدْ معكم قتالَ أهلها.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ بأن يشاركوا في الغنائم التي خصّها بأهل الحديبية، فإنّه عليه السلام رجع مِن الحديبية في ذي الحجّة مِن سنة ستٍّ، وأقام بالمدينة بقيّتَها وأوائلَ المحرَّم مِن سنة سبعٍ، ثمّ غزا خيبر بمَن شهد الحديبية، ففتَحها وغنِم أموالًا كثيرةً، فخصّها بهم حسبما أمره الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "كَلِمَ اللهِ"،[١] وهو جمع "كلِمة". وأيًّا ما كان فالمراد ما ذُكِر مِن وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصّةً، لا قولُه تعالى: ﴿لَن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة، ٨٣/٩]، فإنّ ذلك في غزوة تبوك.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

﴿قُل﴾ إقناطًا لهم: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تَتَّبعونا، فإنّه نفي في معنى النهي للمبالغة. ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: عند الانصراف مِن الحديبية. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: ليس ذلك النهيُ حُكمَ الله؛ بل تَحسدوننا أن نشاركَكم في الغنائم. وقُرئ: "تَحْسِدُونَنَا" بكسر "السين".[١]

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلّا فَهمًا قليلًا، وهو فِطنتهم لأمور الدنيا، ردٌّ لقولهم الباطل، ووصفٌ لهم بما هو أعظم مِن الحسد، وأطمّ مِن الجهل المُفرِط، وسوء الفهم في أمور الدين.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ / مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كرّر ذكرهم بهذا العنوان مبالغةً في ذَمّهم: [١٠٨و] ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم بنو[٢] حَنيفة قومُ مسيلِمة الكذّاب، أو غيرهم ممّن ارتدّوا بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو المشركين،[٣] لقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: يكون أحد الأمرين، إمّا المقاتَلة أبدًا، أو الإسلامُ لا غيرُ، كما يُفصِح عنه قراءة: "أَوْ يُسْلِمُوا".[٤] وأمّا مَن عداهم فينتهي قتالهم بالجِزية كما ينتهي بالإسلام. وفيه دليل على إمامة أبي بكر رضي الله عنه؛ إذ لم يتّفق هذه الدعوة لغيره إلّا إذا صحّ أنّهم ثقيف وهوازن، فإنّ ذلك كان في عهد النبوّة، فيُخَصُّ دوام نفي الاتّباع بما في غزوة خيبر كما قاله محيي السنّة.[٥] وقيل: هم فارس والروم، ومعنى ﴿يُسْلِمُونَ﴾: ينقادون، فإنّ الروم نصارى، وفارسَ مجوس يُقبل منهم الجِزية.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وأبي البرهسم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٢.

[٢] م: بنوا.

[٣] وفي هامش م: أي: مشركو العرب.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٢.

[٥] انظر: **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٠٢/٧.

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنّة في الآخرة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعُف جرمكم.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: في التخلّف عن الغزو لِما بهم مِن العُذر والعاهة، فإنّ التكليف يدور على الاستطاعة. وفي نفي الحرَج عن كلٍّ مِن الطوائف المعدودة مزيد اعتناءٍ بأمرهم، وتوسيعٌ لدائرة الرخصة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما ذُكر مِن الأوامر والنواهي ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. وقُرئ: "نُدْخِلْهُ" بنون العظَمة.[1] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ وقُرئ بالنون[2] ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يُقادَر قدرُه.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هم الذين ذُكِر شأن مبايعتهم. وبهذه الآية سمّيت بيعة الرضوان. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ منصوب بـ﴿رَضِىَ﴾. وصيغة المضارع لاستحضار صورتها، و﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ متعلّق به، أو بمحذوف هو حال مِن مفعوله.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا نزل الحديبية بعثَ جوّاس بن أميّة الخزاعي[3] رسولًا إلى أهل مكّة، فهمّوا به، فمنعه الأحابيش، فرجع، فبعث عثمانَ بن عفّان، فأخبرهم أنّه عليه السلام لم يأتِ لحرب، وإنّما جاء زائرًا لِهذا البيت،

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

[3] جَوّاس بن أميّة؛ كذا في الأصول الخطّيّة بالجيم والواو وآخره سين، وهو كذلك في »

/ معظِّمًا لحُرمته، فوقَّروه، وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: [١٠٨ظ]
ما كنتُ لأطوفَ قبل أن يطوف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واحتبس عندهم، فأُرْجِفَ بأنّهم قتلوه، فقال عليه السلام: «لا نبرَح حتّى نُناجزَ القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فبايَعوه تحت الشجرة -وكانت سَمُرةً، وقيل: سِدرةً- على أن يُقاتلوا قريشًا، ولا يفِرّوا. ورُوي على الموت دونه وأن لا يفرّوا، فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنتم اليومَ خير أهل الأرض»، وكانوا ألفًا وخمسَمائة وخمسةً وعشرين.[١] وقيل: ألفًا وأربعَمائة. وقيل: ألفًا وثلثَمائة.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾، لِما عرفتَ مِن أنّه بمعنى: بايَعوك، لا على ﴿رَضِيَ﴾، فإنّ رضاه تعالى عنهم مترتّب على علمه تعالى بما في قلوبهم مِن الصدق والإخلاص عند مبايَعتهم له عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿رَضِيَ﴾، أي: فأنزل عليهم الطُّمأنينة والأمن وسكونَ النفس بالربط على قلوبهم، وقيل: بالصلح. ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر غِبَّ انصرافهم مِن الحديبية كما مرّ تفصيله. وقُرئ: "وَآتَاهُمْ".[٣]

= مطبوع الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٢٩/٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٢/٩. ولم أجد ذكرًا له في كتب التراجم بهذا الاسم. والصواب "خِراش بن أميّة"؛ بالخاء والراء وآخره شين؛ كما في جامع البيان للطبري، ٢٧٢/٢١؛ ومسند أحمد، ٢١٦/٣١ (١٨٩١٠)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٧/٩. وهو خِراش بن أميّة بن ربيعة بن الفضل بن منقذ بن عفيف بن كليب بن حبشيّة بن سلول الخزاعي ثمّ الكُلَيبي، يُكنى أبا نَضلة (ت. نحو ٦٠هـ/٦٨٠م). وهو حليف بني مخزوم، شهد المرَيسيع والحديبية، وحلَق رأس النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يومئذ، أو في العمرة التي تليها. وذكَر ابن الكلبي أنّه كان حجّامًا، وأنّه رمى بنفسه على عامر بن أبي ضرار الخزاعي يوم المرَيسيع مخافةَ أن يقتله الأنصار. تُوفّي في آخر خِلافة معاوية. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٤٤٥/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٢٣١/٢.

[١] س ي: وعشروين.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٤٧/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤. وانظر: صحيح البخاري، ١٢٣/٥ (٤١٥٤)؛ وصحيح مسلم، ١٤٨٤/٣ (١٨٥٦).

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٢.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾[١] أي: مغانم خيبر. والالتفات إلى الخطاب على قراءة الأعمش وطلحة ونافع[٢] لتشريفهم في مقام الامتِنان. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالبًا ﴿حَكِيمًا﴾ مراعيًا لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي ما يُفِيؤه على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدَّرة لكلّ واحدة منها. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: غنائمَ خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: أيديَ أهل خيبر وحُلَفائهم مِن بني أسد وغطَفان حيث جاءوا لِنصرتهم، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، فنكَصوا. وقيل: أيديَ أهل مكّة بالصلح.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمارةً يعرفون بها صدقَ الرسول في وعده إيّاهم عند رجوعه مِن الحديبية ما ذُكر مِن المغانم وفتحِ مكّة ودخولِ المسجد
[١٠٩و] الحرام. و"اللام" متعلِّقة إمّا بمحذوف مؤخَّر، / أي: ولِتكون آيةً لهم فعَلَ ما فعَلَ مِن التعجيل والكفّ، أو بما تعلّق به علّة أخرى محذوفة مِن أحد الفعلَين، أي: فعّجل لكم هذه أو كفّ أيدي الناس لتغتنموها ولِتكون... إلخ. فـ"الواو" على الأوّل اعتراضيّة، وعلى الثاني عاطفة.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بتلك الآية ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى، والتوكّلُ عليه في كلّ ما تأتون وما تذَرون.

---

[١] س: تأخذونها. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ س. وهي بـ"التاء" قراءة شاذّة كما سيأتي.

[٢] م س ي – على قراءة الأعمش وطلحة ونافع ["صح" في هامش م]. | أي: "تَأْخُذُونَهَا". وهي قراءة شاذّة عنهم. أمّا القراءة المشهورة عن نافع فهي بـ"الياء" كالجمهور. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٤٩٣.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿هَٰذِهِۦ﴾،[١] أي: فعجّل لكم هذه المَغانم ومَغانمَ أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، ووَصْفُها بعدم القدرة عليها لِما كان فيها مِن الجَوْلة قبل ذلك لِزيادة ترغيبهم فيها. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ صفةٌ أخرى لِ﴿أُخْرَىٰ﴾، مفيدةٌ لسهولةِ تَأَتّيها بالنسبة إلى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة مَنالها بالنظر إلى قدرتهم، أي: قد قدَر الله عليها واستولى، وأظهركم عليها. وقيل: حفِظها لكم، ومنعَها مِن غيركم.

هذا، وقد قيل: إنّ ﴿أُخْرَىٰ﴾ منصوب بمضمَر يفسِّره ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، أي: وقضَى الله أخرى، ولا ريبَ في أنّ الإخبار بقضاء الله إيّاها بعد اندراجها في جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾،[٢] ليس فيه مزيد فائدة، وإنّما الفائدة في بيان تعجيلها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لأنّ قدرته تعالى ذاتيّة لا تختصّ بشيء دون شيء.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أهل مكّة ولم يصالحوكم، وقيل: حُلَفاء خيبر، ﴿لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: سنَّ الله غلبةَ أنبيائه سنّةً قديمةً فيمَن مضى مِن الأمم، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: تغييرًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾[٣] أيديَ كفّار مكّة ﴿عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: في داخلها ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أنّ عكرمة بن أبي جهل

---

١ في الآية السابقة.
٢ في الآية السابقة.
٣ س ي + أي.

خرج في خمسمائةٍ إلى الحديبية، فبعث رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم خالدَ بن الوليد على جند فهزَمهم حتّى أدخلهم حيطان مكّة ثمّ عاد. وقيل: كان يوم الفتح، وبه استشهَد أبو حنيفة على أنّ مكّة فُتحت عَنوةً لا صلحًا.[١]

[١٠٩ظ] / ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن مقاتَلتهم وهَزْمِهم أوّلًا والكفِّ عنهم ثانيًا لتعظيم بيته الحرام. وقُرئ بـ"الياء".[٢] ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيكم بذلك، أو يجازيهم.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ﴾ بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في ﴿صَدُّوكُمۡ﴾. وقُرئ بالجرّ[٣] عطفًا على ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾ بحذف المضاف، أي: ونحرِ الهدي، وبالرفع على "وصُدَّ الهديُ". وقوله تعالى: ﴿مَعۡكُوفًا﴾ حال مِن ﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾، أي: محبوسًا.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾، أو منصوب بنزع الخافض، أي: محبوسًا مِن أن يبلغ مكانه الذي يحِلّ فيه نحره، وبه استدلّ أبو حنيفة رحمه الله[٤] على أنّ المحصَر محلّ هديه الحرَمُ.[٥] قالوا: بعض الحديبية مِن الحرَم. ورُوي أنّ خيامه عليه السلام كانت في الحِلّ، ومصلّاه في الحرَم.[٦] وهناك نُحِرت هداياه عليه السلام. والمراد صدُّها عن محلّها المعهود الذي هو منًى.

﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ لم تَعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم، وهو صفة لـ﴿رِجَالٞ﴾ و﴿نِسَآءٞ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ أي: تُوقِعوا بهم وتُهلكوهم، بدل اشتمال منهم، أو مِن الضمير[٧] المنصوب في ﴿تَعۡلَمُوهُمۡ﴾.

---

١ انظر: المبسوط للسرخسي، ٣٧/١٠.
٢ قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجعفي عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٥/٩.
٤ س – رحمه الله.
٥ انظر: بدائع الصنائع للكاساني، ١٧٤/٢.
٦ الكشّاف للزمخشري، ٣٤٢/٤. وفي مسند أحمد، ٢٢٠/٣١ (١٨٩١٠)، في حديث طويل: «وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُصلّي في الحرَم، وهو مضطرِب في الحِلّ».
٧ وفي هامش م: فيه بحث.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي: مِن جهتهم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: مشقّة ومكروه، كوجوب الدية أو الكفّارة بقتلهم، والتأسّفِ عليهم، وتعييرِ الكفّار، وسوءِ قالتهم، والإثمِ بالتقصير في البحث عنهم. وهي "مَفْعَلَة" مِن "عَرَّه" إذا عَراه ودَهاه ما يكرهه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بـ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾، أي: غير عالمين بهم، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه. والمعنى: لولا كراهةُ أن تُهلِكوا أُناسًا مؤمنين بين الكافرين غيرَ عالمين بهم فيصيبكم بذلك مَكروه لَما كفَّ أيديكم عنهم.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ متعلِّق بما يدلّ عليه الجواب المحذوف، كأنّه قيل عقيبَه: لكن كفّها عنهم ليُدخل بذلك الكفّ المؤدّي إلى الفتح بلا مَحذور في رحمته الواسعة بقسمَيها ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهم المؤمنون، فإنّهم كانوا خارجين مِن الرحمة الدنيويّة التي مِن جُملتها الأمْنُ، مستَضعَفين تحت أيدي الكفَرة، وأمّا الرحمة الأخرويّة فهم وإن كانوا غيرَ مَحرومين منها بالمَرّة لكنّهم كانوا قاصرين في إقامة مراسم العبادة كما ينبغي، فتوفيقهم لإقامتها / على الوجه الأتمّ إدخال لهم في الرحمة الأخرويّة. [١١٠و]

وقد جُوّز[١] أن يكون ﴿مَن يَشَآءُ﴾ عبارةً عمَّن رغِب في الإسلام مِن المشركين، ويأباه قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾... إلخ، فإنّ فَرض التزيّل وترتيبَ التعذيب عليه يقتضي تحقّق المباينة بين الفريقين بالإيمان والكفر قبل التزيّل حتمًا، أي: لو تفرّقوا وتميّز بعضهم مِن بعض. وقُرئ: "لَوْ تَزَايَلُوا".[٢] ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بقَتل مُقاتِلتهم وسَبْيِ ذراريهم. والجملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منصوب بـ"اذكر" على المفعوليّة، أو بـ﴿عَذَّبْنَا﴾[٣] على الظرفيّة. وقيل: بمُضمَر هو "أحسَن الله إليكم". وأيًا ما كان فوضع الموصول

---

١ جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٣٤٤/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وأبي البرهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

٣ في الآية السابقة.

موضعَ ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة وتعليلِ الحكم به. و"الجَعلُ" إمّا بمعنى الإلقاءِ، فقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ أي: الأنَفَةَ والتكبّرَ؛ متعلِّقٌ به، أو بمعنى التصيير، فهو متعلّق بمحذوف هو مفعول ثانٍ له، أي: جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم. ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾، أي: حميّةَ المِلّة الجاهليّة، أو الحميّةَ الناشئة مِن الجاهليّة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على الأوّل عطفٌ على ﴿جَعَلَ﴾، والمراد تذكير حُسن صنيعِ الرسول عليه السلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى، وسُوءِ صنيع الكفرة، وعلى الثاني على ما يدلّ عليه الجملة الامتناعيّة، كأنّه قيل: لم يتزيّلوا فلم نعذِّب فأنزَل... إلخ. وعلى الثالث على المضمَر تفسير له. و"السكينة" الثبات والوَقار.

يُروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا نزل الحديبيةَ بعث قريش سُهيلَ بنَ عمرو القرشي،[١] وحويطبَ بن عبد العُزّى،[٢] ومِكْرَزَ بن حفص بن الأحنَف،[٣] على أن يَعرضوا على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يرجع مِن عامه ذلك على أن تُخلّي له قريش مكّة مِن العام القابل ثلاثةَ أيّام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتابًا، فقال عليه السلام لعليّ رضي الله عنه: «اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم"»،

---

١ هو سُهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري، مِن لؤيّ، أبو يزيد (ت. ١٨هـ/٦٣٩م). خطيب قريش، وأحد سادتها في الجاهليّة. أسَره المسلمون يوم بدر، وافتُدي، فأقام على دينه إلى يوم الفتح بمكّة، فأسلم، وسكَنها، ثمّ سكن المدينة. وهو الذي تولّى أمر الصلح بالحديبية. رُوي عن الشافعي: «كان سُهيل محمودَ الإسلام مِن حين أسلم». مات بالطاعون في الشام. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٧٧/٣؛ **الأعلام** للزركلي، ١٤٤/٣.

٢ هو حُوَيطب بن عبد العزّى بن أبي قيس القرشي العامري، أبو محمّد، أو أبو الأصبغ (ت. ٥٤هـ/٦٧٤م). أسلمَ عام الفتح. وشهِد حُنينًا، وكان مِن المؤلَّفة، وجدّد أنصاب الحرَم في عهد عمر. كان حُويطب يقول: «انصرفتُ مِن صلح الحديبية وأنا مستيقِن أنّ محمّدًا سيظهر». عاش مائة وعشرين سنةً. ومات في خلافة معاوية. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٢٤/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٨٩/٢.

٣ كذا في الأصول الخطّيّة: "الأحنَف" بالحاء وبعدها نون، والصواب: "الأخيَف" بالخاء وبعدها ياء. هو مِكْرَز بن حفص بن الأخيَف بن علقمة القرشي العامري (ت. بعد ٢هـ/٦٢٤م). قال ابن حبّان: «يُقال: له صحبة»، قال ابن حجَر: «ولم أرَه لغيره. وذكره المرزباني في معجم الشعراء، ووصفه بأنّه جاهلي، ومعناه أنّه لم يُسلم، وإلّا فقد ذَكر هو أنّه أدرك الإسلام، وقدِم المدينة بعد الهجرة لمّا أُسر سُهيل بن عمرو يوم بدر فافتداه». انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٦٣/٦؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٨٤/٧.

فقالوا: «ما نعرف ما هذا، اكتب "باسمك اللّٰهمّ"»، ثمّ قال: «اكتب: هذا ما صالحَ رسول الله عليه السلام[1] أهلَ مكّة»، فقالوا: «لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صدَدناك عن البيت، وما قاتَلناك، اكتب: هذا ما صالح عليه[2] محمّد بن عبد الله / أهلَ مكّة»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «اكتب ما يريدون»، [١١٠ظ]
فهمّ المؤمنون أن يأبَوا ذلك ويبطشوا بهم، فأنزل عليه الله السكينة عليهم، فتوقّروا وحَلُموا.[3]

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: كلمةَ الشهادة، أو "بسم الله الرحمن الرحيم"، أو "محمّد رسول الله". وقيل: ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هي الوفاء بالعهد والثباتُ عليه، وإضافتها إلى ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ لأنّها سبب التقوى وأساسُها، أو كلمةُ أهلِها.

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ متّصفين بمزيد استحقاقٍ لها، على أنّ صيغة التفضيل للزيادة مطلقًا. وقيل: أحقَّ بها مِن الكفّار ﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي: المستأهِلَ لها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم حقَّ كلّ شيء، فيَسوقه إلى مستحِقّه.

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل خروجه إلى الحديبية كأنّه وأصحابَه قد دخلوا مكّة آمنين، وقد حلّقوا رءوسَهم وقصّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسِبوا أنّهم داخلوها في عامهم، فلمّا تأخّر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وعبدُ الله بن نُفَيل ورفاعةُ بن الحارث: «واللهِ ما حلّقنا ولا قصّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام»، فنزلت.[4] أي:

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.
٢ س – عليه.
٣ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٤٤/٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣١/٥. وانظر: **صحيح البخاري**، ١٩٣/٣ (٢٧٣١).
٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٤٥/٤؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٩٩/٩.

صَدَقَه عليه السلام في رؤياه، كما في قولهم: «صدَقَني سِنَّ بَكْرِه»،[١] وتحقيقه: أراهُ الرؤيا الصادقة.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إمّا صفة لمصدر مؤكِّد محذوف، أي: صِدقًا ملتبسًا بالحقّ، أي: بالغرض الصحيح والحكمةِ البالغة التي هي التمييز بين الراسخ في الإيمان والمتزلزِل فيه، أو حالٌ مِن ﴿ٱلرُّءْيَا﴾، أي: ملتبسةً بالحقّ ليست مِن قَبيل أضغاث الأحلام.

وقد جُوِّز أن يكون قسَمًا بالحقّ الذي هو مِن أسماء الله تعالى، أو بنقيض الباطل، وقولُه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جوابه. وهو على الأوَّلَين جواب قسم محذوف، أي: واللهِ لتدخلُنّ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق للعِدَة بالمشيئة لتعليم العباد، أو للإشعار بأنّ بعضهم لا يدخلونه لموتٍ أو غيبةٍ أو غير ذلك، أو هي حكاية لِما قاله ملَك الرؤيا لرسول الله عليه السلام،[٢] أو لِما قاله عليه السلام لأصحابه.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال مِن فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، والشرط معترِض، وكذا قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: محلِّقًا بعضُكم ومقصِّرًا آخرون. وقيل: ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال مِن ضمير ﴿ءَامِنِينَ﴾، فتكون متداخلة.

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكِّدة مِن فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، أو ﴿ءَامِنِينَ﴾، / أو ﴿مُحَلِّقِينَ﴾، [١١١و]
أو ﴿مُقَصِّرِينَ﴾، أو استئناف أي: لا تخافون بعد ذلك.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿صَدَقَ﴾، والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلي المتعلّق بأمر حادث بعد المعطوف عليه، أي: فعلِمَ عقيبَ ما أراهُ الرؤيا الصادقةَ ما لم تعلموا مِن الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهَد بالصدق علمًا فِعليًا، ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجله ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، أي: مِن دون تحقّق مصداق ما أراه مِن دخول المسجد

---

[١] «صَدَقَني سِنَّ بَكْره» يُضرب مَثَلًا في الصدق، والبَكْر: الفَتِيّ مِن الإبل. وأصله أنّ رجلًا ساوَم رجلًا في بَكْر، فقال: «ما سِنُّه؟» فقال صاحبه: «هِدَعْ هِدَعْ»، وهذه لفظة يُسكَّن بها الصغار مِن الإبل، فلمّا سمِع المشتري هذه الكلمة قال: «صَدَقَني سِنَّ بَكْره». ونصب "سِنَّ" على معنى: عرَّفَني سِنَّ. **مجمع الأمثال** للميداني، ٣٩٢/١.

[٢] س: صلّى الله عليه وسلّم.

الحرام آمنين... إلخ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر. والمراد بجَعلِه وَعْدَه وإنْجازَه مِن غير تسويفٍ ليُستدَلَّ به على صدق الرؤيا حسبما قال: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

وأمّا جعلُ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ عبارةً عن الحكمة في تأخير فتح مكّة إلى العام القابل كما جنَحَ إليه الجمهور،[2] فيأباه "الفاء"، فإنّ علمه تعالى بذلك متقدِّم على إراءة الرؤيا قطعًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ملتبسًا به، أو بسببه ولأجله، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليُغلِبَه على جنس الدين بجميع أفراده التي هي الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقًّا مِن بعض الأحكام المتبدّلة بتبدُّل الأعصار، وإظهارِ بُطلان ما كان باطلًا، أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان؛ إذ ما مِن أهل دين إلّا وقد قهرهم المسلمون. وفيه فضلُ تأكيد لِما وعد مِن الفتح، وتوطينٌ لنفوس المؤمنين على أنّه تعالى سيَفتح لهم مِن البلاد، ويُتيحُ لهم مِن الغلَبة على الأقاليم ما يستقلّون إليه فتحَ مكّة.[3]

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنّ ما وعده كائن لا محالةَ، أو على نبوّته عليه السلام بإظهار المعجزات.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

---

[1] الفتح، ٢٠/٤٨.

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٣١٧/٢١؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٤٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣١/٥.

[3] وفي هامش م: أي: يَعدّون قليلًا بالنسبة إليه فتحَ مكّة. «منه».

﴿مُحَمَّدٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. وقوله تعالى: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بدل، أو بيان، أو نعت، أي: ذلك الرسول المرسَل بالهدى ودين الحقّ محمّد رسولُ الله. وقيل: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ، ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ / خبره، والجملة مبيّنة للمشهود به. [١١١ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ و﴿أَشِدَّآءُ﴾ جمع "شديد"، و﴿رُحَمَآءُ﴾ جمع "رحيم". والمعنى: أنّهم يُظهرون لمَن خالف دينهم الشدّةَ والصلابةَ، ولمَن وافقهم في الدين الرحمةَ والرأفةَ، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة، ٥٤/٥]. وقُرئ: "أَشِدَّاءَ" و"رُحَمَاءَ"[١] بالنصب على المدح، أو على الحال مِن المستكِنّ في ﴿مَعَهُۥٓ﴾، لوقوعه صِلة، فالخبر حينئذ قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: تشاهدهم حالَ كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات. وهو على الأوّل خبرٌ آخَر، أو استئناف.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: ثوابًا ورِضًا؛ إمّا خبرٌ آخَر، أو حال مِن ضمير ﴿تَرَىٰهُمْ﴾، أو مِن المستتِر في ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، أو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن بيان مواظبتهم على الركوع والسجود، كأنّه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: يبتغون فضلًا... إلخ.

﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: سِمَتُهم. وقُرئ: "سِيمْيَاؤُهُمْ" بـ"الياء" بعد "الميم" والمدّ،[٢] وهما لغتان، وفيها لغة ثالثة هي "السِّيماء" بالمدّ. وهو مبتدأ خبرُه: ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ أي: في جباههم.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حال مِن المستكنّ في الجارّ، أي: مِن التأثير الذي يؤثّره كثرةُ السجود. وما روي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن قوله عليه السلام: «لا تَعْلُبُوا صُوَرَكم»،[٣] أي: لا تَسِمُوها؛ إنّما هو فيما إذا اعتمد بجبهته

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٤٧/٤؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٢٧/٩.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٣٤٧/٤. ولم أجده مرفوعًا في مصادر الحديث. وفي غريب الحديث لأبي عبيد، ٢٥٣/٤، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه رأى رجلًا بأنفه أثر السجود، قال: «لا تَعلُب صورتَك». يقول: لا تؤثّر فيها أثرًا، يقال: "عَلَبْتُ الشيءَ أعلُبه عَلْبًا وعُلوبًا" إذا أثّرتَ فيه.

على الأرض ليُحدث فيها تلك السِّمة، وذلك مَحض رياء ونفاق، والكلام فيما حدث في جبهة السَّجّاد الذي لا يسجد إلّا خالِصًا لوجه الله عزّ وجلّ. وكان الإمام زين العابدين[1] وعليّ بن عبد الله بن العبّاس[2] رضي الله عنهما يقال لهما: "ذُو الثَّفِنَاتِ"، لِما أحدثت كثرة سجودهما في مواقعه منهما أشباهَ ثَفِناتِ البعير،[3] قال قائلهم:

ديـــار عـلـيّ والـحـسـين وجـعـفـرٍ   وحـمـزةَ والـسَّـجّـادِ ذي الـثَّـفِـنـاتِ[4]

وقيل: صُفرة الوجه / مِن خشية الله تعالى. وقيل: نَدَى الطهور وتراب [١١٢و] الأرض. وقيل: استنارةُ وجوههم مِن طول ما صَلَّوا بالليل، قال عليه السلام: «مِن كثُر صلاته بالليل حسُن وجهه بالنهار».[5] وقُرِئ: "مِنْ آثَارِ السُّجُودِ"،[6] و"مِنْ إِثْرِ السُّجُودِ" بكسر "الهمزة".[7]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن نُعوتهم الجليلة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشار إليه للإيذان بعلوّ شأنه، وبُعد منزلته في الفضل، وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وَصفُهم العجيبُ الشأنِ الجاري في الغَرابة مَجرى الأمثال. وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ حال مِن ﴿مَثَلُهُمْ﴾، والعامل معنى الإشارة.

---

[1] هو عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب الهاشمي العلوي المدني، زين العابدين، أبو الحسين، ويقال: أبو الحسن (ت. ٩٤هـ/٧١٢م). السيّد، الإمام. حدث عن أبيه الحسين، وكان معه يوم كربلاء، وله ثلاث وعشرون سنةً، وكان يومئذ مَوعوكًا، فلم يقاتل، ولا تعرّضوا له، بل أحضروه مع آله إلى دمشق، فأكرمه يزيد، وردّه مع آله إلى المدينة. كان ثقة، مأمونًا، كثير الحديث، عاليًا، رفيعًا، ورِعًا. أُحصي بعدَ موته عدد مَن كان يقوتهم سِرًّا، فكانوا نحو مائة بيت. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤/٤٨٦؛ **والأعلام** للزركلي، ٤/٢٧٧.

[2] هو عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب الهاشمي، أبو محمّد (ت. ١١٨هـ/٧٣٦م). الإمام، السيّد، السَّجّاد. ولِد عام قُتل عليّ رضي الله عنه، فسمّي باسمه. وأمّه هي ابنة مشرح بن عديّ الكِندي؛ أحدِ الملوك الأربعة. كان رحمه الله عالمًا عاملًا جسيمًا وسيمًا مَهيبًا. رُوي أنّه كان يسجد كلَّ يوم ألفَ سجدة. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥/٢٥٣؛ **والأعلام** للزركلي، ٤/٣٠٢.

[3] ثَفِناتِ البعير: هي ما يقع على الأرض مِن أعضائه إذا استناخ وغَلُظ، كالركبتين وغيرهما. **الصحاح** للجوهري، «ثفن».

[4] لدُعبل الخزاعي في ديوانه، ص ٧٩، مِن قصيدة يمدح فيها آل البيت.

[5] **سنن ابن ماجه**، ٢/٣٥٨ (١٣٣٣)؛ **مسند الشهاب** للقضاعي، ١/٢٥٢ (٤٠٨)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٤/٤٧١ (٢٨٣٠).

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٣.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ على ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الأوّل، كأنّه قيل: ذلك مَثَلهم في التوراة والإنجيل. وتكرير ﴿مَثَلُهُمْ﴾ لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها.

وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾... إلخ تمثيل مستأنَف، أي: هم كزرع أخرج فِراخه. وقيل: هو تفسير لـ﴿ذَٰلِكَ﴾،[١] على أنّه إشارة مبهَمة. وقيل: خبر لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ على أنّ الكلام قد تمّ عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

وقُرئ: "شَطَأَهُ" بفتحاتٍ.[٢] وقُرئ: "شَطَاهُ" بفتح "الطاء" وتخفيفِ "الهمزة"،[٣] و"شَطَاءَهُ" بالمدّ،[٤] و"شَطَهُ" بحذف "الهمزة" ونقلِ حركتها إلى ما قبلها،[٥] و"شَطْوَهُ" بقلبها واوًا.[٦]

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوّاه، مِن "المُؤازرة" بمعنى المعاونة، أو مِن "الإيزار"، وهي الإعانة. وقُرئ: "فَأَزَرَهُ" بالتخفيف،[٧] و"أَزَّرَهُ" بالتشديد،[٨] أي: شَدّ أزْرَه وقوّاه. ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار غليظًا بعد ما كان دقيقًا، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على قصَبه، جمع "ساق". وقُرئ: "سُؤْقِهِ" بـ"الهمزة".[٩]

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوّته وكثافته وغِلَظه وحُسن منظره، وهو مَثَل ضَربه الله عزّ وعلا[١٠] لأصحابه صلّى الله عليه وسلّم قلّوا في بَدْء الإسلام، ثمّ كَثُروا واستحكموا، فترقّى أمرهم يومًا فيومًا بحيث أعجَب الناس. وقيل: مكتوب في الإنجيل: «سيخرج قوم يَنبتون نباتَ الزرع، يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر».[١١]

---

١ وفي هامش م: لفظ.

٢ قرأ بها ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الهمداني وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

٥ قرأ بها حمزة في حالة الوقف. وأمّا في الوصل فهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر وشيبة والجَحدَري. انظر: النشر لابن الجزري، ٤٤٨١/١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

٧ قرأ بها ابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٣٧٥/٢.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٣.

٩ قرأ بها قُنبل عن ابن كثير في أحد الوجهين عنه. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

١٠ س: عزّ وجلّ.

١١ جامع البيان للطبري، ٣٣٠/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٦٦/٩.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ علّة لِما يُعرِب عنه الكلام مِن تشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه، أو لِما بعده مِن قوله تعالى: / ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ فإنّ الكفّار إذا سمِعوا بما أُعدّ للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا مِن العزّة غاظَهم ذلك أشدَّ غيظٍ. و﴿مِنْهُم﴾ للبيان. [١١٢ظ]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفتح فكأنّما كان ممّن شهد مع محمّد رسول الله عليه الصلاة والسلام[١] فتحَ مكّة».[٢]

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٨/١٠ (سورة النصر)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٤٩/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٤٨

سُورَةُ الفَتْحِ

مدنية، تسعٌ وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾: قضينا بفتح مكّة وغيرها، المُستقبلَ عَنوةً بجِهادك، ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾: بيّنًا ظاهرًا، ٢ ـ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ بجِهادك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ منه لترغب أُمّتك في الجهاد ـ وهو مُؤوّل لعِصمة الأنبياء بالدليل العقلي القاطع..

سُورَةُ الفَتْحِ

قولُهُ: (بفَتحِ مَكَّةَ) وهو قولُ الكلبيِّ وجماعةٍ[1]، والتَّعبيرُ عنه بالماضي لتحقُّقِهِ كأنَّه وقَعَ، أو لسبقِ قضائِهِ، كما أشارَ الشَّيخُ إليه، أو الفتحُ بمعنى القضاءِ؛ أي: قضيْنَا لكَ أنْ تدخلَ مكَّةَ مِنْ قابلٍ، وقالَ الجمهورُ[2]: إخبارٌ عن صلحِ الحديبيةِ، وإنَّما سُمِّي فتحاً؛ لأنَّه كانَ بعدَ ظُهورِهِ على المشركينَ حتى سألوا الصُّلحَ وتسبَّبَ لفتحِ مكَّةَ، وفرغَ به رسولُ اللهِ ﷺ لسائرِ العربِ فغزاهُم وفتحَ مواضِعَ، وأدخلَ في الإسلامِ خلقاً عظيماً.

قولُهُ: (عُنوَةً) أي: قهراً وغَلبةً، وهذا مذهَبُنا.

قولُهُ: (بيِّناً) أو مبيناً ومظهراً عنايَتَنا عليك.

قولُهُ: (بِجِهَادِكَ) يعني: أنَّه علَّةٌ للفتحِ من حيثُ إنَّه مسبَّبٌ عن جهادِ الكفَّارِ، أو اللَّامُ للعاقبةِ والصَّيرورةِ.

قولُهُ: (لِترغَبَ) علَّةٌ للعلَّةِ.

---

(١) وانظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٢٥).

(٢) وانظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٩٨).

من الذنوب. واللام: للعِلّة الغائيّة فمدخولها مُسبَّب لا سبب ـ ﴿وَيُتِمَّ﴾ بالفتح المذكور ﴿نِعْمَتَهُ﴾: إنعامه ﴿عَلَيْكَ، وَيَهْدِيَكَ﴾ به ﴿صِرَاطًا﴾: طريقًا ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ يُثبّتك عليه ـ وهو دِين الإسلام ـ ٣ ـ ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ﴾ به ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾: ذا عِزّ لا ذلّ معه.

٤ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾: الطُّمأنينة ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ بشرائع الدين، كلّما نزّل واحدة منها آمنوا بها، ومنها الجهاد، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ـ فلو أراد نصر دِينه بغيركم لَفعلَ ـ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ في صُنعه، أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك.

٥ ـ ٦ ـ ﴿لِيُدْخِلَ﴾: مُتعلّق بمحذوف، أي: أمَرَ بالجِهاد،.........................

قولُهُ: (مِنَ الذُّنُوبِ) ذكرَ العلّامةُ التّفتازانيُّ في «شرحِ العقائدِ»[1]: أنّهم معصُومونَ عن الكفرِ مطلقاً بالإجماعِ، وعن تعمُّدِ الكبائرِ عندَ الجمهورِ خلافاً للحشويّةِ، وأمّا سهواً فجوّزَهُ الأكثرونَ، وأمّا الصّغائرُ فتجوزُ عمداً عند الجمهورِ خلافاً للجبائيِّ[2]، ويجوز سهواً بالاتّفاقِ إلّا ما يدلُّ على الخسّةِ، كسرقةِ لقمةٍ، لكنَّ المحقّقينَ اشترَطوا أن ينبَّهوا عليه فينتَهُوا عنه، هذا كلُّهُ بعدَ الوحيِ، وأمّا قبلَهُ فلا دليلَ على امتناعِ صُدورِ الكبيرةِ، وذهبَ المعتزلةُ إلى امتناعِها، ومنعَ الشِّيعةُ صدورَ الصغيرة و[3]الكبيرةِ قبلَ الوحي وبعدَهُ، انتهى.

ويمكنُ حملُ الذُّنوبِ على الغفلاتِ، أو الاشتغالِ بالمباحاتِ، أو التّقصيرِ في الطّاعاتِ، أو رؤيةِ العباداتِ، أو طلبِ المستحسناتِ، فإنَّ حسناتِ الأبرارِ سيِّئاتُ المقرَّبينَ، وما أحسنَ قولَ البيضاويِّ[4]: جميعَ ما فرطَ منك ممَّا يصحُّ أن تُعاتَبَ عليه، أو المرادُ: فرضاً وتقديراً، أو ذنوبُ أمّتِه ببركةِ شفاعتِهِ.

قولُهُ: (إنعَامَهُ) بإعلاءِ الدِّينِ وضمِّ الملكِ إلى النُّبوَّةِ.

قولُهُ: (يُثبّتَكَ) أو في تبليغِ الرِّسالةِ، وإقامةِ مراسيمِ السِّياسةِ.

قولُهُ: (الطُّمَأْنِينَةَ) والثَّباتَ.

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ بمَحذُوفٍ) أو ﴿فتحْنَا﴾، أو ﴿أنزل﴾، أو ﴿ليزدادُوا﴾، أو فعل ما ذُكِرَ.

---

(١) انظر: «شرح العقائد النسفية» (ص: ١٢٩).

(٢) أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام، المعروف بالجبائي أحد أئمة المعتزلة، كان إماماً في علم الكلام، أخذ هذا العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة، وله في مذهب الاعتزال مقالات مشهورة، وعنه أخذ الشيخ الأشعري، ثم ترك الأشعري مذهبه، (ت: ٣٠٣ هـ). انظر: «وفيات الأعيان» (٤/ ٢٦٧)، و«تاريخ الإسلام» (٧/ ٧٠).

(٣) قوله: «الصغيرة و» زيادة من (د).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٢٦).

﴿المُؤمِنِينَ والمُؤمناتِ جَنّاتٍ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها، ويُكَفِّرَ عَنهُم سَيِّئاتِهِم ـ وكانَ ذلِكَ عِندَ اللهِ فَوزًا عَظِيمًا ـ ويُعذِّبَ المُنافِقِينَ والمُنافِقاتِ والمُشرِكِينَ والمُشرِكاتِ الظّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ﴾، بفتح السين وضمّها في المواضع الثلاثة، ظنّوا أنه لا ينصر مُحمّدًا ﷺ والمُؤمنين. ﴿علَيهِم دائرةُ السَّوءِ﴾ بالذلّ والعذاب، ﴿وغَضِبَ اللهُ علَيهِم، ولَعَنَهُم﴾: أبعدَهم، ﴿وأعَدَّ لَهُم جَهَنَّمَ، وساءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مَرجِعًا! ٧ ـ ﴿و للهِ جُنُودُ السَّماواتِ والأرضِ، وكانَ اللهُ عَزِيزًا﴾ في مُلكه، ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه، أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك.

٨ ـ ﴿إنّا أرسَلْناكَ شاهِدًا﴾ على أُمّتك في القِيامة، ﴿ومُبَشِّرًا﴾ لهم في الدنيا بالجنة، ﴿ونَذِيرًا﴾: مُنذرًا مُخوّفًا فيها مَن عَمِلَ سُوءًا بالنار، ٩ ـ ﴿لِيُؤمِنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ﴾ ـ بالياء والتاء فيه وفي الثلاثة بعده ـ ﴿ويُعَزِّرُوهُ﴾: ينصروه، وقُرئ بزاءين مع الفَوقانيّة، ﴿ويُوَقِّرُوهُ﴾: يُعظّموه ـ وضميرُهما لله أو لرسوله ـ ﴿ويُسَبِّحُوهُ﴾ أي: اللهَ ﴿بُكرةً وأصِيلاً﴾: بالغداة والعشيّ.

١٠ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ﴾ بَيعةَ الرِّضوانِ بالحُدَيبيةِ ﴿إنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ ـ هو نحو «مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فقَد أطاعَ اللهَ» ـ ﴿يَدُ اللهِ فَوقَ أيدِيهِم﴾ التي بايعوا بها النبيَّ،.........................

قولُهُ: (في المَوَاضِعِ الثَّلاثَةِ) هذا سهوٌ؛ لأنَّ الخلافَ، إنَّما هو دائرٌ مع ﴿دائرة السَّوء﴾ هنا، فالمكِّيُّ والبصريُّ بالضَّمِّ[1].

قولُهُ: (بالذُّلِّ) أي: عليهم خاصَّةً دائرة ما يظنُّونَهُ بالمؤمنينَ، يحيطُ بهم إحاطَةَ الدَّائرةِ بما فيها، والإضافةُ بمعنى في، ويحتملُ أن تكونَ ﴿عَلَيْهِم دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وما بعدَهُ جملَ دعائيَّةً.

قولُهُ: (أي: مَرجِعاً) جهنَّمُ.

قولُهُ: (بالياءِ) الغيبةُ مكِّيٌّ وبصريٌّ[2].

قولُهُ: (تَنصُرُوهُ) وتقوُوهُ بتقويةِ دينِهِ ورسولِهِ.

قولُهُ: (اللهَ) أي: تنزِّهوهُ، أو تصَلُّوا له.

قولُهُ: (بالغَدوَةِ) أو دائماً.

قولُهُ: (نَحوَ ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ﴾) يعني: أنَّ عقدَ الميثاقِ مع الرَّسولِ كعقدِ الميثاقِ بلا واسطةٍ معَ اللهِ من غيرِ تفاوتٍ؛ لأنَّهُ تعالى هو المقصودُ ببيعةِ رسولِهِ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٤٨).

(٢) انظر المصدر السابق.

أي: هو - تعالى - مُطّلع على مُبايعتهم، فيُجازيهم عليها. ﴿فمَن نكَثَ﴾: نقض البيعة ﴿فإنَّما يَنكُثُ﴾: يرجِعُ وبالُ نقضِه ﴿علَى نَفْسِهِ، ومَن أوفَى بِما عاهَدَ علَيهِ اللهَ فسَيُؤتِيهِ﴾ - بالياء والنون - ﴿أجْرًا عَظِيمًا﴾.

١١ - ﴿سَيَقُولُ لَكَ المُخَلَّفُونَ مِنَ الأعرابِ﴾ حولَ المدينة، أي: الذين خلّفهم الله عن صُحبتك، لمّا طلبتَهم ليخرجوا معك إلى مكّة خوفًا من تعرّض قُريش لك عام الحُديبية، إذا رجعتَ منها: ﴿شَغَلَتْنا أموالُنا وأهلُونا﴾ عن الخُروج معك. ﴿فاستَغفِرْ لَنا﴾ اللهَ مِن تَركِ الخُروج معك. قال تعالى مُكذّبًا لهم: ﴿يَقُولُونَ بِألسِنَتِهِم﴾ أي: مِن طلبِ الاستغفار وممّا قبله ﴿ما لَيسَ في قُلُوبِهِم﴾. فهم كاذبون في اعتذارهم.

﴿قُلْ: فمَن﴾ - استفهام بمعنى النفي - أي: لا أحدَ ﴿يَملِكُ لَكُم مِنَ اللهِ شَيئًا، إن أرادَ بِكُم ضَرًّا﴾ - بفتح الضاد وضمّها - ﴿أو أرادَ بِكُم نَفعًا؟ بَل كانَ اللهُ بِما تَعمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: لم يزل مُتصفًا بذلك.
١٢ - ﴿بَل﴾ ....

قولُهُ: (مطَّلِعٌ) يعني: فاليدُ تمثيلٌ؛ أي: يدُ رسولِهِ يدُهُ، وهو منزَّهٌ عن اليدِ، أو كنايةٌ عن أنَّ كمالَ القدرةِ والقوَّةِ للهِ، فيكونُ مقدِّمةً لقولِهِ: ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ وقيلَ: والأصوبُ عدمُ التَّأويلِ؛ لأنَّها من المتشابهاتِ، وعنِ الكلبيِّ[1] وكثيرٍ من السَّلفِ: نعمةُ اللهِ عليهم بالهدايةِ فوقَ ما صنعوا من البيعَةِ.

قولُهُ: (والنُّونِ) نافعٌ ومكِّيٌّ[2]، و﴿عَلَيْهُ﴾ بالضَّمِّ حفصٌ[3].

قولُهُ: (خَلَّفَهُمُ اللهُ) بالخذلانِ وضعفِ العقيدةِ والخوفِ والجبنِ.

قولُهُ: (إذا رَجَعْتَ) ظَرفٌ للقَولِ.

قولُهُ: (عَنِ الخُرُوجِ) إذ لم يكُنْ لنا مَن يقومُ بأشغالِهِم وأمورِهِم.

قولُهُ: (مِنْ تَرْكِ الخُرُوجِ) أي: على التَّخلُّفِ.

قولُهُ: (ومِمَّا قَبْلَهُ) من الاعتِذارِ.

قوله: (في اعتِذَارِهِم) واستغفارِهِم؛ إذ ليسَ في قلوبِهِم طلبُ المغفرةِ.

قولُهُ: (وضَمِّها) حمزةُ والكسائيُّ[4]؛ أي: ما يضرُّكُم كقَتلٍ وهَزيمةٍ وخلل وظلمٍ في الأهلِ والمالِ وعقوبةِ على التَّخلُّفِ، وقولُهُ تعالى: (﴿شَيْئًا﴾) أي: من النَّفعِ والضُّرِّ، فتكونُ الآيةُ من اللَّفِّ والنَّشرِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٤/ ٢٤٢).

(٢) وشامي أيضاً، انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧).

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧).

(٤) انظر المصدر السابق.

في الموضعين للانتقال من غرض إلى آخر - ﴿ظَنَنتُم أنْ لَن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ والمُؤمِنُونَ إلَى أهلِيهِم أبَدًا، وزُيِّنَ ذلِكَ في قُلُوبِكُم﴾ أي: أنهم يُستأصَلون بالقتل فلا يرجعون، ﴿وظَنَنتُم ظَنَّ السَّوءِ﴾ هذا وغيرَه، ﴿وكُنتُم قَومًا بُورًا﴾: جمع بائر، أي: هالكين عند الله بهذا الظنّ.

١٣ - ﴿ومَن لَم يُؤمِنْ بِاللهِ ورَسُولِهِ فإنّا أعتَدْنا لِلكافِرِينَ سَعِيرًا﴾: نارًا شديدة، ١٤ - ﴿ولِلهِ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، يَغفِرُ لِمَن يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشاءُ، وكانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: لم يزل مُتّصفًا بما ذُكر.

١٥ - ﴿سَيَقُولُ المُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون ﴿إذا انطَلَقتُم إلَى مَغانِمَ﴾ - هي مغانم خيبر - ﴿لِتأخُذُوها: ذَرُونا﴾: اتركونا، ﴿نَتَّبِعْكُم﴾ لنأخذَ منها. ﴿يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿أن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ﴾. وفي قراءة: «كَلِمَ اللهِ» بكسر اللام، أي: مواعيدَه بغنائم خيبر أهلَ الحُدَيبية خاصّة. ﴿قُلْ: لَن تَتَّبِعُونا. كَذلِكُم قالَ اللهُ، مِن قَبلُ﴾ أي: قبل عودنا...

قولُهُ: (فِي المَوْضِعَينِ) هنا، وفيما سبَقَ[1].

قولُهُ: (هَذا) الظَّنَّ المذكورَ.

قولُهُ: (وغَيرَهُ) من الظُّنونِ الزَّائغةِ.

قولُهُ: (بمَا ذُكِرَ) فالغفرانُ والرَّحمةُ من ذاتِه، والتَّعذيبُ داخلٌ تحت قضائِهِ بالعرضِ، ولذلك جاءَ في الحديثِ القدسيِّ: «سَبَقَتْ رحمَتي غَضَبِي»[2].

قولُهُ: (هِيَ مَغَانمُ خَيبَرَ) فإنَّهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ رجعَ من الحديبيةِ سنةَ ستٍّ، وأقامَ بالمدينةِ بقيَّتَها وأوائلَ المحرَّمِ، ثمَّ غزا بمَن شهدَ الحديبيةَ ففتحَها، وغنمَ أموالاً كثيرةً، فخصَّها بهم.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ[3].

قولُهُ: (بكَسرِ اللَّامِ) وحذفِ الألفِ، وهو جمعُ: كلمةٍ.

قولُهُ: (أي: مَوَاعِيدَهُ) أو وعدَهُ؛ يعني: يُغيِّروا.

قولُهُ: (خَاصَّةً) عِوضاً من مغانمِ مكَّةَ.

قولُهُ: (عَودِنَا) من الحديبيةِ إلى المدينةِ، أو من قبلِ التَّهيُّؤِ للخُروجِ إلى خيبرَ، أو من قبلِ أن تَسألوا الخروجَ.

---

(١) في الآية رقم: (١١).

(٢) رواه البخاري (٧٤٥٣)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧).

﴿فسَيَقُولُونَ: بَل تَحسُدُونَنا﴾، أن نُصيب معكم من الغنائم، فقلتم ذلك. ﴿بَل كانُوا لا يَفقَهُونَ﴾ من الدِّين ﴿إلاّ قَلِيلاً﴾ منهم.

١٦ ـ ﴿قُل لِلمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعرابِ﴾ المذكورين اختبارًا: ﴿سَتُدعَونَ إلَى قَومٍ أُولِي﴾: أصحاب ﴿بأسٍ شَدِيدٍ﴾ ـ قيل: هم بنو حَنيفةَ أصحاب اليمامة. وقيل: فارسُ والروم ـ ﴿تُقاتِلُونَهُم﴾: حالٌ مُقدّرة، هي المدعوّ إليها في المعنى، ﴿أو﴾ هم ﴿يُسلِمُونَ﴾ فلا يُقاتِلون. ﴿فإن تُطِيعُوا﴾ إلى قتالهم ﴿يُؤتِكُمُ اللهُ أجرًا حَسَنًا، وإن تَتَوَلَّوا كَما تَوَلَّيتُم مِن قَبلُ يُعَذِّبكُم عَذابًا ألِيمًا﴾: مُؤلمًا.

١٧ ـ ﴿لَيسَ علَى الأعمَى حَرَجٌ، ولا علَى الأعرَجِ حَرَجٌ ولا علَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في ترك الجِهاد، ﴿ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ يُدخِلهُ﴾ ـ بالياء والنون ـ ﴿جَنّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، ومَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبهُ﴾ ـ بالياء والنون ـ ﴿عَذابًا ألِيمًا﴾.

١٨ ـ ﴿لَقَد رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤمِنِينَ، إذ يُبايِعُونَكَ﴾ بالحُدَيبية ﴿تَحتَ الشَّجَرةِ﴾ ـ هي سَمُرةٌ، وهم ألف وثلاثُمِائَة أو أكثر، ....

قولُهُ: (أنْ نُصِيبَ) أي: في أن نُصِيبَ الغَنائمَ، وليسَ أمراً من اللهِ.

قولُهُ: (مِنهُم) أو لا يفهَمونَ إلّا فهماً قليلاً، وهو فطنتُهُم لأمورِ الدُّنيا فلا يفهمونَ شيئاً من أمرِ الدِّينِ، وهذا هو الظَّاهرُ.

قولُهُ: (المَذكُورِينَ) كرَّرَ ذكرَهُم بهذا الاسمِ مبالغةً في الذَّمِّ، وإشعاراً بشناعةِ التَّخلُّفِ.

قولُهُ: (اختِبَاراً) علَّةٌ لـ﴿قُل﴾.

قولُهُ: (والرُّومُ) وقيل: هوازنُ وثقيفٌ، أو المشركونَ.

قولُهُ: (حَالٌ مُقَدَّرةٌ) والظَّاهرُ أنّه جملةٌ مستأنفةٌ للتَّعليلِ؛ أي: ستُدعونَ إليهم للمُقاتلةِ، نحو: سيَدعوكَ الأميرُ يكرمكَ، ولا يجوزُ أن يكونَ صفةً لـ﴿قَومٍ﴾؛ لأنَّهم دُعوا إلى قتالِ القومِ لا إلى قتالِ قومٍ موصُوفينَ بالمقاتلةِ أو الإسلامِ، والمعنى: يكونُ أحدُ الأمرينِ؛ إمَّا المقاتلةُ أو الإسلامُ، والإسلامُ بمعنى: الانقيادِ لتناولِ تقبُّلِهِمُ الجزيةَ.

قولُهُ: (والنُّونِ) نافعٌ، فيه وفيما بعدَهُ[1].

قولُهُ: (هيَ سَمُرَةٌ) شجرةٌ أو سدرةٌ.

قولُهُ: (أو أكثَرُ) قيل: ألفٌ وأربعُمائةٍ، قيل: وهو الأصحُّ، وقيل: ألفٌ وخمسُمائةٍ.

---

(١) وكذلك قرأ ابن عامر، انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠١)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧).

ثُمّ بايعهم على أن يناجزوا قريشًا وعلى ألاّ يفروا وعلى الموت ـ ﴿فعَلِمَ﴾ اللهُ ﴿ما في قُلُوبِهِم﴾ من الصِّدق والوفاء، ﴿فأنزَلَ السَّكِينةَ علَيهِم، وأثابَهُم فَتحًا قَرِيبًا﴾، هو فتح خَيبرَ بعد انصرافهم من الحُدَيبية، ١٩ ـ ﴿ومَغانِمَ كَثِيرةً يأخُذُونَها﴾ من خَيبرَ. ﴿وكانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك.

٢٠ ـ ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرةً تأخُذُونَها﴾ من الفتوحات، ﴿فعَجَّلَ لكُم هذِهِ﴾ غنيمةَ خيبرَ، ﴿وكَفَّ أيدِيَ النّاسِ عَنكُم﴾ في عِيالكم لمّا خرجتم وهمّت بهم اليهود، فقذف الله في قلوبهم الرُّعب، ﴿ولِتَكُونَ﴾ أي: المُعجّلةُ ـ عطفٌ على مُقدّر، أي: فعلَ ذلك لتشكروه ـ ﴿آيةً لِلمُؤمِنِينَ﴾ في نصرهم، ﴿ويَهدِيَكُم صِراطًا مُستَقِيمًا﴾ أي: طريق التوكّلِ عليه وتفويضِ الأمر إليه ـ تعالى ـ ٢١ ـ ﴿وأُخرَى﴾: صفةُ «مغانمُ» مُقدّرًا مُبتدأ، ﴿لَم تَقدِرُوا علَيها﴾ هي من فارسَ والروم، ﴿قَد أحاطَ اللهُ بِها﴾:.........

قولُهُ: (يُنَاجِزُوا) أي: يقاتِلوا.

قولُهُ: (وعَلى المَوتِ) الظّاهرُ أنّه مستدركٌ، وسببُ البيعةِ أنّه ﷺ لمّا نزلَ الحديبيةَ بعثَ خراشَ بن أميّةَ الخزاعيَّ إلى أهلِ مكّةَ للإذنِ في دخولِها، فهمُّوا به فمنعَهُ الأحابيشُ فرجعَ، فبعثَ عثمانَ بن عفَّانَ فحبَسُوه فأُرجفَ بقتلِهِ، فدعا رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَهُ وبايعَهُم[1].

قولُهُ: (مِنَ الصِّدقِ) والإخلاصِ.

قولُهُ: (فَتحُ خَيبَرَ) وقيل: مكّةَ، أو هو الصُّلحُ الّذي هو سببٌ للفتوحاتِ المكّيّةِ وغيرِها.

قولُهُ: (مِنَ الفُتُوحَاتِ) إلى يومِ القيامةِ.

قولُهُ: (في عِيَالِكُم) بالمدينةِ.

قولُهُ: (اليَهُودُ) أي: أيديَ أهلِ خيبرَ وحلفائِهم مِن بني أسَدٍ وغطفانَ، أو أيديَ قريشٍ لأجلِ صلحِ الحديبيةِ.

قولُهُ: (أي: المُعَجَّلَةُ) أي: الغنيمةُ، أو الكفَّةُ وسلامةُ عيالِكُم.

قولُهُ: (لِتَشكُرُوهُ) والأظهرُ: ليكونَ سبباً للشُّكرِ، أو العلّةُ لمحذوفٍ مثلُ فعلِ ذلك.

قولُهُ: (في نَصرِهِم) أي: علامةً يعرفونَ بها أنّهم من اللهِ بمكانٍ، أو صِدقَ الرَّسولِ وَعدَهُم فتحَ خيبرَ حينَ رجوعِهِ من الحديبيةِ.

قولُهُ: (مُبتَدَأً) خبرُهُ: ﴿قَدْ أَحَاطَ﴾، و﴿لَمْ تَقْدِرُوا﴾ صفتُهُ، أو معطوفةٌ على: ﴿هذِهِ﴾.

قولُهُ: (مِنْ فَارِسَ) أو مكّةَ، أو خيبرَ، أو مغانمِ هوازنَ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» لابن حبان (١/ ٢٨٢).

عَلمَ أنها ستكون لكم ـ ﴿وكانَ اللهُ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرًا﴾ أي: لم يزل مُتصفًا بذلك. ٢٢ ـ ٢٣ ـ ﴿ولَو قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحُدَيبية ﴿لَوَلَّوُا الأدبارَ، ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحرسهم ﴿ولا نَصِيرًا، سُنَّةَ اللهِ﴾: مصدرٌ مؤكِّد لمضمون الجملة قبله من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين، أي: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً. ﴿الَّتِي قَد خَلَتْ مِن قَبلُ، ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبدِيلاً﴾ منه ـ ٢٤ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي كَفَّ أيدِيَهُم عَنكُم وأيدِيَكُم عَنهُم بِبَطنِ مَكَّةَ﴾: بالحُدَيبية، ﴿مِن بَعدِ أن أظفَرَكُم علَيهِم﴾. فإنّ ثمانين منهم طافوا بعسكركم ليُصيبوا منكم،

قولُهُ: (عَلِمَ) أو استولى فأظفرَكُم بها.

قولُهُ: (بالحُدَيبِيَةِ) من أهلِ مكَّةَ ولم يُصَالحوا.

قولُهُ: (أي: سَنَّ اللهُ) أي: سنَّ غَلَبَةَ أنبيائِهِ سنَّةً قديمةً فيمن مضَى من الأممِ، كما قالَ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[المجادلة: ٢١]، ولا يبعدُ تفسيرُ السُّنَّةِ هنا بقضائِهِ وقدرِهِ.

قولُهُ: (مِنهُ) فكيفَ من غيرِهِ؟.

قولُهُ: (بالحُدَيبِيَةِ) مَنَّ اللهُ تعالى بصلحِ الحديبيةِ وحفظِ المسلمينَ من أيدي الكفَّارِ، وعن القتالِ بمكَّةَ وهتكِ حرمةِ المسجدِ الحرامِ.

قولُهُ: (فإنَّ ثَمَانِينَ) روى التِّرمذيُّ من حديثِ أنسٍ: أنَّ ثمانينَ من أهلِ مكَّةَ هبَطوا على النَّبيِّ ﷺ من التَّنعيمِ ليقتُلوهُ، كذا في «المبهماتِ»[1]، وزادَ الصَّفويُّ[2]: فدعا عليهم فأُخِذُوا وعَفا عنهم فأطلِقوا، وأمَّا ما ذكرَهُ القاضي[3] من أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ خرجَ في خمسِمائةٍ إلى الحديبيةِ فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ خالدَ بنَ الوليدِ على جندٍ فهزمَهُم حتَّى أدخلَهُم حيطانَ مكَّةَ ثمَّ عادَ، وإن كانَ رواهُ ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ وابنُ أبي حاتمٍ[4] فغيرُ صحيحٍ إذ خالدُ بنُ الوليدِ لم يكنْ أسلمَ يومئذٍ، بل كانَ طليعةً للمشركينَ كما في «صحيحِ البخاريِّ» وغيرِهِ[5]، وقيل: المرادُ فتحُ مكَّةَ، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ السُّورةَ مدنيَّةٌ نزلت قبلَ فتحِ مكَّةَ، والحملُ على أنَّ الماضيَ؛ يعني: ﴿كَفَّ﴾ للتَّحقيقِ، وهو بمعنى: المضارعِ، فيكونُ وعداً من اللهِ بعيدٌ.

---

(١) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١٠٢).

ورواه مسلم (١٨٠٨)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٢٦٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦١٤).

(٢) انظر: «جامع البيان في تفسير القرآن» (٤/ ١٦٠).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٣٨)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٥٣٣) عن ابن أبزى.

(٥) رواه البخاري (٢٧٣١)، وأحمد في «مسنده» (١٨٩٢٨) من حديث المسور بن مخرمة ومروان، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه.

فأُخذوا وأُتِي بهم إلى رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلّى سبيلهم، فكان ذلك سببَ الصُّلح. ﴿وكانَ اللهُ بِما يَعمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ـ بالياء والتاء ـ أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك.

٢٥ ـ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوكُم عَنِ المَسجِدِ الحَرامِ﴾ أي: عن الوصول إليه، ﴿والهَدْيَ﴾: معطوفٌ على «كُم» ﴿مَعكُوفًا﴾: محبوسًا حالٌ، ﴿أن يَبلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي: مكانَه الذي يُنحَر فيه عادة ـ وهو الحَرَم ـ بدلُ اشتمال، ﴿ولَولا رِجالٌ مُؤمِنُونَ ونِساءٌ مُؤمِناتٌ﴾ موجودون بمكّة مع الكفار، ﴿لَم تَعلَمُوهُم﴾ بصفة الإيمان، ﴿أن تَطَؤُوهُم﴾.........................

قولُهُ: (باليَاءِ) الغَيبةُ بصريٌّ[1].

قولُهُ: (عَلى: «كُم») أي: مَنعوكُم عن الزِّيارةِ، ومنَعوا الهديَ؛ أي: ما يُهدَى إلى مكَّةَ، وهذا يدلُّ على أنَّ ذلك عامَ الحديبيةِ.

قولُهُ: (عَادَةً) عندَ الشَّافعيِّ[2]، وشرعاً عندَنا[3]، والظَّاهرُ أنَّ ﴿محلَّهُ﴾ مكانُه الَّذي يحلُّ فيه نحرُه وهو الحرمُ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وأما المرادُ هنا: مكانُهُ المعهودُ من الحرمِ، وهو المروةُ، وقولُ البيضاويِّ[4]: هو منًى، سهوٌ؛ لأنَّ الكلامَ في العمرةِ، وقد ثبتَ أنَّ بعضَ الحديبيةِ من الحرمِ؛ فذُبِحَ دمُ الإحصارِ فيه، وعندَ الشَّافعيِّ: يجوزُ ذبحُ دمِ الإحصارِ حيثُ يُحصَرُ[5].

قولُهُ: (وهُو الحَرَمُ) فيه أنَّ مطلقَ الحرمِ ليس مكانَ الذَّبحِ عادةً، بلِ العادةُ في الحجِّ منًى، وفي العمرة المروةُ، وقولُ القاضي[6]: (فلا ينتهِضُ حجَّةً للحنفيَّةِ)، فيه أنَّهُم ما استدَلُّوا بهذِهِ الآيةِ، فإنَّ هذا المحلَّ ممنوعٌ، وهو بالاتِّفاقِ محمولٌ على محلِّ العادةِ، وإنَّما استدلُّوا بآيةِ البقرةِ، وبقولِهِ تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] وبقولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣].

قولُهُ: (بَدَلُ اشتِمَالٍ) يعني: ﴿أَنْ يَبْلُغَ﴾ بدلٌ من: ﴿الهديَ﴾ أي: صدُّوا بلوغَ الهدي محلَّهُ.

قولُهُ: (مَوجُودُونَ) أي: المستضعفونَ بمكَّةَ، وهو بيانُ حكمَةِ المصالحةِ.

قولُهُ: (بِصِفَةِ الإِيمَانِ) أي: لم تعرفُوهُم بأعيانِهِم لاختلاطِهِم بالمشركينَ.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٧).

(٢) انظر: «الحاوي الكبير» (٤/ ٣٥٠).

(٣) انظر: «التجريد» (٤/ ٢١٣١).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٠).

(٥) هذا إذا كان المحصر في الحل غير قادر على إيصال هديه إلى الحرم، انظر: «الحاوي الكبير» (٤/ ٣٥٠).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٠).

أي: تقتلوهم مع الكُفّار لو أُذِنَ لكم في الفتح، بدلُ اشتمال من «هم»، ﴿فَتُصِيبَكُم مِنهُم مَعَرَّةٌ﴾: إثم ﴿بِغَيرِ عِلمٍ﴾ منكم به. وضمائر الغَيبة للصِّنفين بتغليب الذكور، وجواب «لولا» محذوف، أي: لَأُذِنَ لكم في الفتح.

لكن لم يُؤذَن فيه حينئذ ﴿لِيُدخِلَ اللهُ في رَحْمتِهِ مَن يَشاءُ﴾ كالمُؤمنين المذكورين. ﴿لَو تَزَيَّلُوا﴾: تميّزوا عن الكُفّار ﴿لَعَذَّبْنا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُم﴾:..

قولُهُ: (أي: تَقتُلُوهُم) أي: توقِعوا بهم وتقتُلُوهُم في أثناءِ القتالِ، وأصلُ الوطءِ: الدَّوسُ[1].

قولُهُ: (مِنْ: «هم») مفصولٌ؛ أي: من ضميرِ «هم» في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾، أو من: ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نِسَاءٌ﴾.

قولُهُ: (أي: إثمٌ) وقالَ القاضي[2]: أي: مَكروهٌ؛ لوجوبِ الدِّيةِ والكفَّارةِ بقتلِهِم، والتَّأسُّفِ عليهِم وتعييرِ الكفَّارِ بأنَّهُم قتَلوا أهلَ دينِهِم، والإثمُ بالتَّقصيرِ في البحثِ عنهم، وفي «المداركِ»[3]: وهو الكفَّارةُ إذا قتلَهُ خطأً، والإثمُ إذا قصَّرَ، قالَ ابنُ عطيَّةَ[4]: لا إثمَ ولا ديةَ في قتلِ مؤمنٍ مستورِ الإيمانِ بينَ أهلِ الحربِ، وقالَ ابنُ الهمام من أئمَّتِنا[5]: إنَّه إذا كانَ الكفَّارُ في حصنٍ وفيهم ذمِّيٌّ مستورٌ لا يحلُّ قتلُ العامِّ، وقولُهُ: (﴿فَتُصِيبَكُم﴾) نصبُهُ على جوابِ النَّفي، أو للعطفِ على: ﴿تَطَئُوهُمْ﴾.

قولُهُ: (مِنكُم بِهِ) أي: بقتلِهِم، فمتعلَّقُ العلمِ الأوَّلِ وصفُ الإيمانِ، والثَّاني القتلُ فلا تكرارَ.

قولُهُ: (مَحذُوفٌ) لدَلالةِ الكلامِ عليه، والمعنى: لولا كراهةُ أن تُهْلِكوا أناساً مؤمنينَ بين أظهُرِ الكافرينَ جاهلينَ بهم فيصيبَكُم بإهلاكِكُم لهم مكروهٌ لما كفَّ أيديكُم عنهم.

قولُهُ: (لَكِنْ لَمْ يُؤْذَنْ) يعني: أنَّه متعلَّقُ العلَّةِ، أو التَّقديرُ: كانَ ذلك.

قولُهُ: (كالمُؤمِنِينَ المَذكُورِينَ) والأظهرُ: كفَّ أيديَكُم عنهم ليُخَلِّصَ من بين أظهرِهِمُ المؤمنينَ، وليرجعَ كثيرٌ منهم إلى الإسلامِ.

قولُهُ: (تَمَيَّزُوا) أي: لو تفرَّقوا وتميَّزَ بعضُهُم من بعضٍ.

قولُهُ: (عنِ الكُفَّارِ) أو تميَّزَ الكفَّارُ من المؤمنينَ الَّذينَ بين أظهرِهِم، والأوَّلُ أولى ثمَّ الثَّالثُ.

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/ ٢٠٠).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٠).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٣٤١).

(٤) انظر: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٥/ ١٣٧).

(٥) انظر: «فتح القدير» (٥/ ٤٤٩).

من أهل مكّة حينئذ بأن نأذن لكم في فتحها ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلمًا، ٢٦ ـ ﴿إذ جَعَلَ﴾، مُتعلّق بـ «عذّبنا»، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فاعلٌ ﴿في قُلُوبِهِمِ الحَمِيَّةَ﴾: الأنفةَ من الشيء ﴿حَمِيَّةَ الجاهِلِيَّةِ﴾: بدلٌ من «الحميّة» وهي صدّهم النبيَّ وأصحابه عن المسجد الحرام، ﴿فأنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وعلَى المُؤمِنِينَ﴾، فصالحوهم على أن يعودوا من قابلٍ، ولم يَلحقهم من الحميّة ما لحق الكُفّارَ حتّى يقاتلوهم، ﴿وأَلْزَمَهُم﴾ أي: المُؤمنين ﴿كَلِمَةَ التَّقوَى﴾: «لا إلٰـهَ إلاّ اللهُ مُحمّد رسول اللهِ»، ....

قولُهُ: (مُؤلماً) قالَ القاضي(١): بالقتلِ والسَّبي، وهو الظَّاهرُ؛ لأنَّ المرادَ من التَّعذيبِ: التَّعذيبُ الدُّنيويُّ الَّذي هو تسليطُ المؤمنينَ عليهم وقتالُهُم، فإنَّ عدمَ التَّمييزِ لا يوجِبُ عدمَ عذابِ الآخرةِ، وقيل: قولُهُ: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ هو جوابُ: ﴿لَوْلَا﴾ و﴿لَو تَزَيَّلُوا﴾ كالتَّكرارِ لـ﴿لَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ مرجِعَ ﴿لَولَا رِجَالٌ مُؤمِنُونَ﴾ و﴿لو تزيَّلُوا﴾ واحدٌ، وهو كلامٌ سديدٌ غيرُ بعيدٍ.

قولُهُ: (بـ﴿عَذَّبْنَا﴾) أو ﴿صَدُّوكُم﴾، أو يُقَدَّرُ: اذكُرْ.

قولُهُ: (بَدَلٌ) وهي الَّتي تمنَعُ إذعانَ قَبولِ الحقِّ.

قولُهُ: (حَتَّى يُقَاتِلُوهُم) ويَعصُوا اللهَ في قتالِهِم، وذلك ما رويَ: أنّه ﷺ لمَّا همَّ بقتالِهِم بعدَ البيعةِ؛ بَعثوا سهيلَ بن عَمرٍو وغيرَهُ ليسألوهُ أن يرجعَ من عامِهِ على أن يخلِّيَ له قريشُ مكَّةَ من قابلٍ ثلاثةَ أيَّامٍ فأجابَهُم وقال لعليٍّ: «اكتبْ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ»، فقالوا: ما نعرفُ هذا، اكتبْ: باسمكَ اللَّهمَّ، ثمَّ قالَ: «اكتُبْ هذا مَا صالحَ عليه رسولُ اللهِ ﷺ أهلَ مكَّةَ»، فقالُوا: لو نعلمُ أنَّكَ رسولُ اللهِ ما صدَدْناكَ عن البيتِ، اكتُبْ هذا ما صالحَ عليه محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ، فقالَ: «اكتبْ ما يريدُونَ، فأنَا أشهدُ أنِّي رسولُ اللهِ وأنا محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ»، فهَمَّ المؤمنونَ أن يأبَوا كلامَ رسولِ اللهِ ﷺ في الصُّلحِ، ودخَلوا من ذلكَ في أمرٍ عظيمٍ كادوا أنْ يهلِكوا، أو يدخلَ الشَّكُّ في قلوبِ بعضِهم حتَّى إنَّه قالَ ﷺ ثلاثَ مرَّاتٍ: «قومُوا وانحرُوا ثمَّ احلقُوا»، وما قامَ منهم رجلٌ(٢) ظنًّا منهُم أنَّ الأمرَ للإباحةِ، أو الاستحبابِ، أو من بابِ الشُّورى في أمرِ الحربِ، وأرادوا أن يبطُشُوا على الكفَّارِ، فأنزلَ اللهُ السَّكينةَ عليهم، فاطمأنُّوا وتوقَّروا وتحمَّلوا وتجمَّلوا.

قولُهُ: (أي: لا إلٰهَ إلَّا اللهُ) يعني: كلمةَ الشَّهادةِ، وقد صرَّحَ بذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ كما رواهُ التِّرمذيُّ وغيرُهُ(٣)، وقيلَ: البسملةُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣١).

(٢) جاء ذلك في الحديث الطويل الذي رواه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان.

(٣) رواه الترمذي (٣٢٦٥)، وأحمد في «مسنده» (٢١٢٥٥) من حديث الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة، وسألت أبا زرعة، عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

وأُضيفت إلى التقوى لأنها سببها، ﴿وكانُوا أحَقَّ بِها﴾: بالكلمة من الكُفّار ﴿وأهلَها﴾: عطفٌ تفسيريّ. ﴿وكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمًا﴾ أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك، ومن معلومه ـ تعالى ـ أنهم أهلها.

٢٧ ـ ﴿لَقَد صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بِالحَقِّ﴾. رأى رسول الله ﷺ في النوم عامَ الحُدَيبيةِ قبلَ خروجه أنه يدخل مكّة هو وأصحابه آمنين ويُحلّقون ويُقصّرون، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا. فلمّا خرجوا معه وصدّهم الكُفّار بالحُديبية، ورجَعوا وشقّ عليهم ذلك وراب بعضَ المنافقين، نزلتْ. وقوله «بالحق» مُتعلّق بـ«صدق» أو حال من الرؤيا، وما بعدها تفسير لها وهي: ﴿لَتَدخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرامَ، إنْ شاءَ اللهُ﴾ للتبرّك، ﴿آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُم﴾ أي: جميعَ شُعورها ﴿ومُقَصِّرِينَ﴾ بعضَ شُعورها ـ وهما حالان مُقدّرتان ـ ﴿لا تَخافُونَ﴾ أبدًا، ﴿فعَلِمَ﴾ في الصُّلح ﴿ما لَم تَعلَمُوا﴾..................

قولُهُ: (سَبَبُهَا) أي: سببُ الوقايةِ من النَّارِ، أو كلمةُ أهلِها.

قولُهُ: (تَفسِيرِيٌّ) أو كانوا أهلَها في علمِ اللهِ.

قولُهُ: (وشَقَّ ذَلِكَ) كما قدَّمْناهُ، وقالوا: ألسْتَ كنْتَ تحدِّثُنا أنَّا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال: «بلى، لكن هل أخبرتُكُم أنَّا نأتيهِ العامَ؟!» قالُوا: لا، قال: «فإنَّكُم تأتونَهُ وتطوفُونَ بهِ»[1] والحاصلُ أنَّه ﷺ وعدَهُم دخولَ مكَّةَ، فعزمَ وتوجَّهَ وحسبوا لو مُنِعوا هذهِ المرَّةَ من الدُّخولِ يكونُ خلفَ وعدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فلمَّا مُنِعوا دخَلَ السَّكينةَ في قلوبِهِم، فأزاحَ اللهُ بفضلِهِ التَّردُّدَ.

قولُهُ: (وَرَابَ بَعضَ المُنَافِقِينَ) لم يُعرَفْ منافِقٌ في أهلِ بيعةِ الرِّضوانِ رضيَ اللهُ عنهُم أجمعينَ، وإنَّما صدَر عنهُم ما صورتُهُ الرَّيبُ، وإنَّما كانَ غرضُهُم التَّثبُّتَ والتَّمكُّنَ بدفعِ الشُّبهِ النَّاشئةِ عن أنفسِهِم وإظهارِ التَّشجعِ والتَّصلُّبِ في دينِ اللهِ بقلوبِهِم بشهادةِ اللهِ تعالى في حقِّهِم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] و﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قولُهُ: (مِنَ ﴿الرُّؤيا﴾) أو ﴿رسولَهُ﴾ أي: ملتبِسةً أو ملتبساً، أو محقَّةً أو محقًّا، أو التَّقديرُ: إلا صدقاً ملتبساً بالحقِّ، وقيل: الباءُ للقسمِ.

قولُهُ: (للتَّبرُّكِ) تعليماً للعبادِ، أو إشعاراً بأنَّ بعضَهُم لا يدخلُ لموتٍ أو غيبةٍ أو حكايةٍ لما قالَهُ ملكُ الرُّؤيا، أو النَّبيُّ لأصحابِهِ، و(﴿آمِنِيْنَ﴾) حالٌ من الواوِ، والشَّرطُ معترضٌ.

قولُهُ: (مُقَدَّرَتَانِ) لأنَّ الدُّخولَ ما كانَ حالَ وجودِهِما.

قولُهُ: (أَبَداً) فهو استئنافٌ؛ أي: لا تخافونَ بعدَ ذلكَ، أو حالٌ مؤكِّدةٌ لقولِهِ: ﴿آمنينَ﴾.

---

(١) هو طرف من حديث البخاري المتقدم قريباً.

من الصلاح، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ﴾ أي: الدخولِ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبرَ، وتحقّقت الرؤيا في العام القابل. ٢٨ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: دِينَ الحقّ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: على جميع باقي الأديان. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أنك مُرسَل بما ذُكر! كما قال تعالى:

٢٩ ـ ﴿مُحَمَّدٌ﴾: مُبتدأ ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: خبرُه، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي: أصحابه من المُؤمنين، مبتدأ خبرُه: ﴿أَشِدَّاءُ﴾: غِلاظٌ ﴿عَلَى الْكُفَّارِ﴾ لا يرحمونهم، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾: خبرٌ ثانٍ أي: مُتعاطفون مُتوادّون كالوالد مع الولد، ﴿تَرَاهُمْ﴾: تُبصِرهم ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: حالان ـ ﴿يَبْتَغُونَ﴾: مُستأنف يطلبون ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ـ سِيمَاهُمْ﴾: علامتهم مبتدأ ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾: خبرُه ـ وهو نور وبياض يُعرفون به في الآخرة أنهم سجدوا في الدنيا ـ ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: مُتعلّق بما تعلّق به الخبر، أي: كائنةٌ، وأُعرب حالاً من ضميره المنتقل إلى الخبر.

قولُهُ: (مِنَ الصَّلاحِ) أي: الحكمةِ في تأخيرِ ذلك.

قولُهُ: (أي: الدُّخُولِ) أي: دخولِكُمُ المسجدَ الحرامَ، أو فتحِ مكَّةَ.

قولُهُ: (فَتحُ خَيبَرَ) أو صلحُ الحديبيةِ، وهو الأصحُّ.

قولُهُ: (دِينَ الحَقِّ) أي: ليغلِّبَهُ وليعليَهُ.

قولُهُ: (عَلى جَمِيعِ) أي: جنسِ الدِّينِ؛ بنسخِ ما كانَ حقًّا، وإظهارِ فسادِ ما كانَ باطلاً.

قولُهُ: (بِمَا ذُكِرَ) أي: بالحقِّ، أو بما ذُكِرَ من التَّعليةِ، أو على نبوَّتِهِ بإظهارِ المعجزاتِ.

قولُهُ: (خَبَرُهُ) جملةٌ تامَّةٌ مبيِّنةٌ للمَشهودِ به، وقيل: تقديرُه: هو محمَّدٌ.

قولُهُ: (حَالانِ) لاشتغالِهِم بالصَّلاةِ في أكثرِ أوقاتِهِم.

قولُهُ: (مُستَأنَفٌ) أو حالٌ ثالثةٌ.

قولُهُ: (وَهُو نُورٌ) أو المرادُ: خشوعُهُم وتواضعُهُم، أو صغارُهُم أو صفرةُ اللَّونِ من السَّهرِ، أو أثرُ التُّرابِ على الجباهِ؛ فإنَّهُم كانوا يسجُدونَ على الأرضِ من غيرِ حائلٍ، وأمَّا قولُ القاضي[١]: يريدُ السِّمةَ الَّتي تحدثُ في جباهِهِم من كثرةِ السُّجودِ، فليسَ له أصلٌ من الآثارِ، والعجبُ منه أنَّه جزمَ بأنَّه المرادُ، ثمَّ رأيتُ في «الدُّرِّ»[٢]

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٢).

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٧/ ٥٤١، ٥٤٢).

﴿ذلِكَ﴾ أي: الوصف المذكور ﴿مَثَلُهم﴾: صفتُهم ﴿في التَّوراةِ﴾: مبتدأ وخبرٌ، ﴿ومَثَلُهم في الإنجيلِ﴾: مبتدأ خبرُه: ﴿كَزَرعٍ أخرَجَ شَطْأَهُ﴾، بسكون الطاء وفتحها: فِراخَه ﴿فآزَرَهُ﴾، بالمدّ والقصر: قوّاه وأعانه، ﴿فاستَغلَظَ﴾: غلُظَ، ﴿فاستَوَى﴾: قويَ واستقام ﴿علَى سُوقِهِ﴾: أُصوله جمع ساق، ﴿يُعجِبُ الزُّرّاعَ﴾ أي: زُرّاعه، لحُسنه ـ مثّلَ الصحابةَ ن بذلك، لأنهم بدؤوا في قِلّة وضعف، ....

ما يدلُّ على نفي إرادتِهِ، وهو ما أخرجَ ابنُ جريرٍ[1] عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِهِ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ قالَ: أما إنَّه ليسَ الَّذي ترونَ، ولكنَّهُ سيما الإسلامِ وسمتُهُ وخشوعُهُ.

وأخرجَ الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ في «سننِهِ»[2] عن حميدِ بن عبدِ الرَّحمنِ قال: كنتُ عند السَّائبِ بن يزيدَ إذ جاءَ رجلٌ وفي وجهِهِ أثرُ السُّجودِ فقال: لقد أفسدَ هذا وجهَهُ، أمَا واللهِ ما هي السِّيما الَّتي يسمِّي اللهُ، ولقد صلَّيتُ على وجهي منذُ ثمانينَ سنةً ما أثَّرَ السُّجودُ بين عينيَّ.

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ خَبرُهُ) أو عطفٌ عليهِ؛ أي: ذلك مثَلُهم في الكتابينِ، وقولُهُ: (﴿كَزَرْعٍ﴾) تمثيلٌ مستأنفٌ؛ أي: هم كزرعٍ.

قولُهُ: (وفَتحِهَا) مكِّيٌّ وابنُ ذكوانَ[3].

قولُهُ: (فِرَاخَهُ) أي: فُرُوعَهُ.

قولُهُ: (والقَصرِ) لابنِ ذَكوانَ[4] كأجرَ في آجر.

قولُهُ: (قَوَّاهُ) من المؤازَرةِ؛ بمعنى: المعاوَنةِ.

قولُهُ: (أَعَانَهُ) من الإيزارِ، وهي الإعانَةُ.

قولُهُ: (غَلُظَ) بضمِّ اللَّامِ؛ أي: فصارَ مِنَ الرِّقَّةِ إلى الغلظِ.

قولُهُ: (جَمعُ: سَاقٍ) أي: قصبةٍ.

قولُهُ: (لِحُسْنِهِ) أي: لحسنِ منظرِهِ وقوَّتِهِ وغلظِهِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٢٦٤).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ١٥٨) (٦٦٨٥)، والبيهقي «السنن الكبرى» (٣٥٥٩).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٢).

(٤) انظر المصدر السابق.

فكثروا وقَوُوا على أحسن الوجوه ـ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمِ الكُفَّارَ﴾: مُتعلّق بمحذوف دلّ عليه ما قبله، أي: شُبّهوا بذلك. ﴿وعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالِحاتِ مِنهُم﴾: للبيان ﴿مَغفِرةً وأجرًا عَظِيمًا﴾: الجنّة. وهما لمن بعدهم أيضًا في آيات.

قولُهُ: (وقَوُوا) أي: استَحكَموا فترقَّى أمرُهم بحيثُ أعجبَ النَّاسَ.

قولُهُ: (شُبِّهُوا) أو قوَّاهُم، أو علَّةٌ لما بعدَهُ[1]، فإنَّهُم لمَّا سمِعُوهُ غاظَهُم ذلك.

قولُهُ: (للبيَانِ) أي: من الصَّحابةِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم... ﴾.

سورة الفتح

تزلت بالمدينة على ما رُوي عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ، والأخبار تدلُّ على أنها نزلت في السفر لا في المدينة نفسها، وهو الصحيح؛ أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في «تاريخه» وأبو داود والنسائي وجماعة عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحُديبية مع رسول الله ﷺ ـ أي: عامَ ستٍّ بعد الهجرة وكان قد خرج إليها عليه الصلاة والسلام يومَ الاثنين هلالَ ذي القَعْدة ـ فأقام بها بضعةَ عشر يومًا، وقيل: عشرين يومًا، ثم قَفَل عليه الصلاة والسلام، فبينما نحن نسيرُ إذْ أتاه الوحي، وكان إذا أتاه اشتدَّ عليه، فسُرِّي عنه وبه من السرور ما شاء الله تعالى، فأخبرنا أنه أُنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1].

وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ فسألته عن شيء ثلاثَ مرات، فلم يَرُدَّ عليَّ، فحرَّكتُ بعيري ثم تقدَّمت أمامَ الناس وخشيتُ أن ينزلَ فيَّ القرآن، فما نَشِبتُ أنْ سمعتُ صارخًا يصرخُ بي، فوجفتُ وأنا أظنُّ أنه نزل فيَّ شيء، فقال النبيُّ ﷺ: «لقد أُنزلَتْ عليَّ الليلةَ سورةٌ أَحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾»[2].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٨، ومصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٥٤، ومسند أحمد (٤٤٢١)، والتاريخ الكبير ٥/ ٢٥١، وسنن أبي داود (٤٤٧) ـ وهو عنده مختصر ـ وسنن النسائي الكبرى (٨٨٠٢).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٦٨، ومسند أحمد (٢٠٩)، وصحيح البخاري (٤١٧٧)، وسنن الترمذي (٣٢٦٢)، وسنن النسائي الكبرى (١١٤٣٥)، وصحيح ابن حبان (٦٤٠٩). ومعنى «فما نشبت»: لم أتعلَّق بشيء غير ما ذكرت. فتح الباري ٨/ ٥٨٣.

وفي حديث صحيح أخرجه أحمدُ وأبو داود وغيرهما عن مُجَمِّع بن جاريةَ الأنصاري ما يدلُّ على أنها نَزلَتْ بعد مُنْصرفِهِ ﷺ من الحُديبية أيضًا، وأن ذلك عند كُراع الغَميم، فقرأها عليه الصلاة والسلام على الناس وهو على راحلته[1].

وفي رواية ابن سعد عنه ما يدلُّ على أنها بِضَجْنان[2]، ونُقل ذلك عن البِقاعي[3]، وضَجْنانُ: بضاد معجمة وجيم ونونين بينهما ألف بزِنَةِ سَكْران، كما في «القاموس»[4]: جبل قُربَ مكة. وهذا ونحوه قولٌ بنزولها بين مكة والمدينة، ومثلُ ذلك يُعَدُّ مدنيًّا على المشهور وهو أن المدنيَّ ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أمْ بمكة، أَمْ بسفر من الأسفار، والمَكيُّ ما نزل قبل الهجرة. وأما على القول بأنَّ المكيَّ ما نزل ولو بعدَ الهجرة بمكة، ويدخل فيها كما قال الجلال السيوطي[5] نواحيها كمنى وعرفات والحديبية، بل بعضها على ما في «الهداية» - وأكثرها على ما قال المحبُّ الطبري - من حرم مكة؛ والمدني ما نزل بالمدينة ويدخل فيها كما قال أيضًا نواحيها كأُحُد وبدر وسَلْع = فلا، بل يُعَدُّ على القول بأنه نزل قُرب مكة مكيًّا، فالقول بأن السورة مدنية بلا خلافٍ فيه نظرٌ ظاهر.

وهي تسعٌ وعشرون آية بالإجماع، ولا يخفى حسنُ وضعها هنا، لأن الفتح بمعنى النصر مُرتَّبٌ على القتال، وفي كلٍّ من ذكر المؤمنين المُخلصين والمنافقين والمشركين ما فيه، وقد ذُكر أيضًا في الأُولى الأمر بالاستغفار وذُكر هنا وقوعُ المغفرة، وذُكرت الكلمة الطيبة هناك بلفظها الشريف وكُني عنها بكلمة التقوى بناءً على أشهرِ الأقوال فيها، وستعرفها إنْ شاء الله تعالى. إلى غير ذلك.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٦٨، ومسند أحمد (١٥٤٧٠)، وسنن أبي داود (٢٧٣٦)، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٦/ ٦٨: وفي إسناده ضعف. وكراع الغميم: موضع بين مكة والمدينة.

(٢) طبقات ابن سعد ٤/ ٣٧٢.

(٣) في كتابه نظم الدرر في تناسب الآي والسور ١٨/ ٢٧٥، وتصحفت فيه: بضجنان، إلى: بصحيان.

(٤) القاموس المحيط (ضجن).

(٥) الإتقان ١/ ٢٦-٢٧.

وفي «البحر»[١]: وجهُ مناسبتها لما قبلها أنه لما تقدَّم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ الآية، وهو خطابٌ لكفار قريش أخبر سبحانه رسولَه ﷺ بالفتح العظيم وأنه بهذا الفتح حصلَ الاستبدال وأَمِنَ كلُّ مَنْ كان بمكة وصارَتْ دارَ إيمان. وفيه ما لا يخفى.

وفي الأخبار السابقة ما يدلُّ على جلالة قَدْرها. وفي حديث مُجَمِّع بن جارية الذي أخرجه عنه ابنُ سعد[٢]: لما نزل بها جبريل عليه السلام قال: نُهنِّيك يا رسول الله، فلما هناه جبريلُ عليه السلام هناه المسلمون، ويُحكى أنه مَنْ قرأها أولَ ليلة من رمضان حُفِظَ ذلك العام[٣]. ولم يثبتْ ذلك في خبرٍ صحيح، والله تعالى أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ إخبارٌ عن صُلح الحديبية عند الجمهور، ورُوي ذلك عن ابن عباس وأنس[٤] والشعبي والزهري، قال ابن عطية[٥]: وهو الصحيح.

وأصلُ الفتح: إزالةُ الأغلاق، وفتح البلد كما في «الكشاف»[٦]: الظَّفَر به عُنوة أو صُلحًا بحرب أو بغيره، لأنه مُنغلقٌ ما لم يَظْفَر به، فإذا ظَفِرَ به وحصل في اليدِ فقد فُتح، وسُمِّي ذلك الصُّلح فَتْحًا لاشتراكهما في الظهور والغَلبة على المشركين، فإنهم - كما قال الكلبي - ما سألوا الصُّلح إلا بعد أن ظهرَ المسلمون عليهم. وعن ابن عباس أن المسلمين رَمَوْهم - أي: بسهام وحِجارة كما قيل - حتى أدخلوهم ديارَهم. أو لأنَّ ذلك الصُّلح صار سببًا لفتح مكة، قال الزهري: لم يكن فتحٌ أعظمَ من صُلح الحديبية، اختلط المشركون بالمسلمين، وسمعوا كلامَهم وتمكَّن الإسلام من قُلوبهم، وأسلم في ثلاثِ سنين خَلْقٌ كثير، وكَثُرَ بهم سوادُ الإسلام[٧].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٨٨.
(٢) طبقات ابن سعد ٤/ ٣٧٢.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٧٠ وعزاه للسلفي في الطيوريات.
(٤) أخرجه البخاري (٤٨٣٤).
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٥.
(٦) ٣/ ٥٤١.
(٧) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٧.

قال القرطبي[1]: فما مَضَتْ تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها.

والتسميةُ على الأول من باب الاستعارة التبعية كيفما قُرِّرت، وعلى الثاني من باب المَجاز المُرسل سواء قلنا: إنه في مثل ما ذكر تبعيٌّ أَمْ لا، حيث سُمِّي السببُ باسم المُسبَّب، ولا مانع من أن يكون بين شيئين نوعان من العلاقة، فيكون استعمالُ أحدِهما في الآخر باعتبار كلٍّ نوعًا من المجاز كما في المِشْفَر[2] والشفة الغليظة لإنسان.

وإسنادُ الفتح المُراد به الصُّلح الذي هو فعلُ رسول الله ﷺ إليه عز وجل مجازٌ من إسناد ما للقابل للفاعل المُوجِد، وفي ذلك من تعظيم شأن الصُّلح والرسول عليه الصلاة والسلام ما فيه؛ لا يقال: قد تقرَّر في الكلام أن الأفعال كلَّها مخلوقةٌ له تعالى فنسبة الصُّلح إليه سبحانه إسنادٌ إلى ما هو له فلا مَجاز. لأنا نقول: ما هو له عبارةٌ عمَّا كان الفعل حَقّه أن يُسندَ إليه في العُرف سواء كان مخلوقًا له تعالى أو لغيره عز وجل كما صرَّح به السعد في «المطول»، وكيف لا ولو كان كذلك لكان إسنادُ جميع الأفعال إلى غيره تعالى مجازًا، وإليه تعالى حقيقة كالصلاة والصيام وغيرها.

وقال المحقِّقُ ميرزاجان: يمكن توجيهُ ما في الآية الكريمة على أنه استعارةٌ مَكنيةٌ، أو على أن يُراد خلق الصُّلح وإيجاده، أو على أن يكون المَجازُ في الهيئة التركيبية الموضوعة للإسناد إلى ما هو له فاستعملت في الإسناد إلى غيره، أو على أن يكون من قَبيل الاستعارة التمثيلية، والأوجه الأربعة جاريةٌ في كلِّ ما كان من قَبيل المجاز العقلي، كـ: أنبتَ الربيعُ البقلَ، وقد صرَّح القومُ بالثلاثة الأُوَل منها، وزعم بعضٌ أن الصُّلح مما يُسند إليه تعالى حقيقة فلا يحتاج إلى شيء من ذلك، وفيه ما فيه.

ويجوز أن يكون ذلك إخبارًا عن جعل المشركين في الحديبية مَغلوبين خائفين طالبين للصُّلح، ويكون الفتحُ مجازًا عن ذلك وإسناده إليه تعالى حقيقة، وقد خَفِيَ

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٩٧.
(٢) المشفر: شفة البعير. القاموس (شفر).

كونُ ما كان في الحديبية فتحًا على بعض الصحابة حتى بيَّنه عليه الصلاة والسلام؛ أخرج البيهقي[(١)] عن عروة قال: أقبل رسولُ الله ﷺ من الحديبية راجعًا، فقال رجلٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ: واللهِ ما هذا بفتحٍ، لقد صُدِدْنا عن البيت وصُدَّ هَدْيُنا، وعكف رسولُ الله ﷺ بالحديبية، وردَّ رجلين من المسلمين خرجا؟! فبلغ رسولَ الله ﷺ ذلك فقال: «بئس الكلامُ هذا، بل هو أعظمُ الفتح، لقد رضي المشركون أنْ يدفعوكم بالراحِ عن بلادهم ويسألونكم القضية[(٢)] ويرغبون إليكم في الأمان، وقد كَرِهوا منكم ما كَرِهوا، وقد أظفركم اللهُ عليهم، وردَّكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظمُ الفتح، أنسيتم يومَ أُحد إذ تُصعِدون ولا تَلوون على أحدٍ، وأنا أدعوكم في أُخراكم؟ أَنسيتُم يومَ الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم وإذْ زاغَتِ الأبصار وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنُّون بالله الظُّنون؟» قال المسلمون: صدقَ اللهُ ورسولُه هو أعظمُ الفتوح والله يا نبيَّ الله، ما فكَّرنا فيما ذكرتَ، ولأنتَ أعلمُ بالله وبالأمورِ منا.

وفائدة الخبر بالفتح على الوجهين بالنسبة إلى غيره عليه الصلاة والسلام، لأنه ﷺ يعلم ذلك، وكذا يعلم لازمَ الفائدة، كذا قيل.

وحمل الغير على مَنْ لم يحضر الفتح من الصحابة وغيرهم، لأنَّ الحاضرين عَلِموا ذلك قبلَ النزول، وقيل: الحاضر إنما عَلِمَ وقوعَ الصُّلح أو كونَ المُشركين بحيث طلبوه ولم يعلم كونَه فتحًا كما يُشعر به الخبر، وإن سُلِّم أنه عَلِمَ ذلك، لكنه لم يعلم عظم شأنه على ما يُشعر به إسنادُه إلى نون العظمة والإخبار به بذلك الاعتبار.

وقال بعض المحقِّقين: لعلَّ المقصودَ بالإفادة كونُ ذلك للمغفرة وما عُطِفَ عليها، فيجوز أن تكون الفائدةُ بالنسبة إليه ﷺ أيضًا، وأقول: قد صرَّحوا بأنه كثيرًا ما تُورَدُ الجملة الخبرية لأغراض أُخَر سوى إفادة الحُكم أو لازِمه نحو: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، ﴿لَّا يَسْتَوِي

(١) في دلائل النبوة ٤/ ١٦١.
(٢) جاء في هامش الأصل: أي: الهدنة والصلح.

﴿ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] الآية، إلى غير ذلك مما لا يُحصى، فيجوز أن يكونَ الغرضُ من إيرادِها هاهنا الامتنانَ دون إفادة الحُكم أو لازمِهِ، ولا مجازَ في ذلك ونحوه على ما أشار إليه العلامة عبد الحكيم السيالكوتي في حواشيه على «المُطوَّل».

وصرح في «الرسالة الجندية» بأن الهيئةَ التركيبية الخَبرية في نحو ذلك منقولةٌ إلى الإنشائية، وأنَّ المجازَ في الهيئة فقط لا في الأطراف ولا في المجموع، وهو مجازٌ مفردٌ عند صاحبِ الرسالة، والكلمة أعظمُ من اللفظ الحقيقي والحُكمي، وبعضهم يقول: هو مجازٌ مركَّب ولا ينحصر في التمثيلية، وتحقيقهُ في موضعه.

والتأكيدُ بـ «إنَّ» للاعتناء لا لردِّ الإنكار، وقيل: لأن الحُكم لعظم شأنه مَظِنَّةٌ للإنكار. وقيل: لأن بعضَ السامعين منكرٌ كون ما وقع فتحًا، ويقال في تكرير الحكم نحو ذلك.

وقال مجاهد: المراد بالفتح فتح خيبر، وهي مدينةٌ كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية بُرُدٍ من المدينة إلى جهة الشام، وكان خروجُ النبيِّ ﷺ ـ كما قال ابن إسحاق ورجَّحه الحافظ ابن حجر[(١)] ـ في بقية المحرَّم سنة سبع، وأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها.

ونُقل عن مالك، وجزمَ به ابنُ حزم أنه كان في آخر سنةِ ستٍّ، وجمع بأنَّ من أطلق سنة ستٍّ بناه على أنَّ ابتداءَ السنة من شهر الهجرة الحقيقيِّ، وهو شهرُ ربيع الأول، وقول الشيخ أبي حامد في «التعليقة»: إنَّ غزوةَ خيبر كانت سنةَ خمسٍ. وَهمٌ. وقول ابن سعد[(٢)] وابن أبي شيبة[(٣)] روايةً عن أبي سعيد الخُدري أنها كانت لثمانِ عشرةَ من رمضان. خطأٌ، ولعلَّ الأصلَ: كانت حنين، فَحُرِّف[(٤)]، ومع هذا يحتاج إلى توجيهٍ، وقد فُتحت على أيدي أهل الحُديبية لم يَشْرَكهم أحدٌ من

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤٦٤، وقول ابن إسحاق فيه، وفي السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٢٨.
(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ١٣٨.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٦٣.
(٤) وقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣/ ١٧ بلفظة: حنين.

المُتخلِّفين عنها، فالفتحُ على حقيقته، وإسناده إليه تعالى على حدِّ ما سمعت فيما تقدَّم، والتأكيدُ بـ «إنَّ» وتكرير الحُكم للاعتناء، والتعبيرُ عن ذلك بالماضي مع أنه لم يكن واقعاً يومَ النزول ـ بناءً على ما رُوي عن المِسور بن مَخْرمة من أن السورة نزلت من أوَّلها إلى آخرها بين مكةَ والمدينة ـ من باب مجازِ المُشارفة نحو: مَنْ قتل قتيلاً، على المشهور، أو الأوْل[1] نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:٣٦]، ولا يضرُّ اختلافُهما في الفعلية والاسمية؛ وفيه وجهٌ آخرُ يُعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وذهب جماعةٌ إلى أنه فتحُ مكة، وهو ـ كما في «زاد المعادِ»[2] ـ الفتحُ الأعظمُ الذي أعزَّ الله تعالى به دينَه، واستنقذ به بَلَدَه، وطهَّر حَرَمه، واستبشر به أهلُ السماء، وضُربت أطنابُ عِزِّه على مناكبِ الجوزاء، ودخل الناسُ بعدَه في دين الله عز وجل أفواجاً، وأشرق وجهُ الدهر ضياءً وابتهاجاً، وكان سنة ثمانٍ ـ وفي رواية: ونصف ـ وقد خرج رسولُ الله ﷺ ـ على ما أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد ـ لليلتين خَلتا من شهر رمضان[3].

وفتح مكة لثلاثَ عشرةَ خَلَتْ منه على ما رُوي عن الزهري، ورُوي عن جماعة أنه كان الفتحُ في عشرٍ بَقيتْ من شهر رمضان، وقيل غيرُ ذلك، وكان معه ﷺ من المسلمين عشرةُ آلاف، وقيل: اثنا عشر ألفاً، والجمع مُمكن، وكان الفتحُ عند الشافعي صُلحاً ـ وهي روايةٌ عن أحمد ـ للتأمين في ممرِّ[4] الظَّهران بـ «مَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمنٌ، . . . ومَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمنٌ»[5]، ولعدمِ قسمة الدور بين الغانمين. وذهبَ الأكثرون إلى أنه عُنوة للتصريح بالأمر بالقِتال ووقوعه من خالدِ بن الوليد، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أحلَّتْ لي ساعة من نهار»[6].

---

(١) وهو من تسميته باسم ما يؤول إليه. ينظر أنواع المجاز اللغوي في الإتقان ٢/ ٧٥٨.

(٢) ٣/ ٣٩٤.

(٣) مسند أحمد (١١٨٢٥).

(٤) كذا في الأصل و(م). والذي في معجم البلدان (مرّ) والنهاية (مرر): مرُّ الظهران، ويقال: مرّ ظهران.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٠٢٢) عن ابن عباس ﵄، وسلف ٢/ ٤٠١.

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٧٩)، والبخاري (١٣٤٩) من حديث ابن عباس ﵄.

ولا يُسمَّى ذلك التأمين صُلحاً إلا إذا التزم مَن أُشير إليه به الكفَّ عن القتال، والأخبارُ الصحيحة ظاهرةٌ في أن قريشاً لم يلتزموا، وتركُ القِسمة لا يستلزم عدمَ العُنوة، فقد تُفتح البلدةُ عُنوة ويُمَنُّ على أهلها وتُترك لهم دورُهم.

وأقام عليه الصلاة والسلام بعد الفتحِ خمسَ عشرةَ ليلة في رواية البخاري[١]، وسبعَ عشرةَ في رواية أبي داود[٢]، وثمانَ عشرةَ في رواية الترمذي[٣]، وتسعَ عشرةَ في رواية بعض[٤]، وتمامُ الكلامِ في كتب السِّير.

واستظهر هذا القولَ[٥] أبو حيان، وذكر أنه المناسبُ لآخر السورة التي قبلُ لمَّا قال سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ الآية [محمد:٣٨] فبيَّن جلَّ وعلا أنه فتحَ لهم مَكَّةَ، وغَنِموا، وحصل لهم أضعافُ ما أنفقوا، ولو بَخِلوا لضاع عليهم ذلك، فلا يكون بُخْلهم إلا على أنفسهم، وأيضاً لمَّا قال سبحانه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥] بيَّن تعالى برهانه بفتح مكةَ، فإنهم كانوا هم الأعلين، وأيضاً لمَّا قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ [محمد:٣٥] كان ذلك في فتح مكة ظاهراً حيث لم يلحقهم وهنٌ ولا دعوا إلى الصُّلح، بل أتى صناديدُ قريش مستأمنين مُستسلمين[٦]. وهذا ظاهرٌ بالنسبة إلى القول بأنَّ المراد به فتحُ الحديبية، وأما على القول بأنَّ المرادَ به فتحُ خيبر فليس كذلك.

ورجَّح[٧] بعضُهم القولَ بأنه صُلح الحديبية على القول بأنه فتحُ مكة بأن وعدَ فتحِ مكةَ يجيء صريحاً في هذه السورة الكريمة، وذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ

(١) هذه الرواية ليست عند البخاري، وإنما هي عند أبي داود (١٢٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) سنن أبي داود (١٢٣٢) من حديث ابن عباس أيضاً رضي الله عنهما.
(٣) هذه الرواية ليست عند الترمذي، وهي عند أبي داود (١٢٢٩) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه.
(٤) أخرج هذه الرواية البخاري (٤٢٩٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) يعني: القول بأن المراد بالفتح فتح مكة.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٨٩.
(٧) تصحفت في (م) إلى: ورجع.

ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ الآية [الفتح:٢٧] فلو حُمل هذا الفتح عليه لكان تأكيداً، بخلاف ما إذا حُمل على صُلح الحديبية فإنه يكون تأسيساً، والتأسيسُ خيرٌ من التأكيد، ورجَّحه بعضٌ على القول بأنه فتحُ خيبر بمثل هذا، لأنَّ فتحَ خيبر مذكورٌ فيما بعدُ أيضاً، وللبحث في ذلك مجالٌ. و«إنَّ» والتكرير لما تقدَّم، وكذا الإسناد إلى ضمير العظمة، بل هذا الفتحُ أولى بالاعتناء وتعظيم الشأن، حتى قيل: إنَّ إسناده إليه تعالى لكونه من الأمور الغريبة العَجيبة التي يخلقها الله تعالى على يدِ أنبيائه عليهم السلام كالرمي بالحصى المُشارِ إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ [الأنفال:١٧] وهذا خلافُ الظاهر، والمشهورُ أنَّ في الكلام مجازاً عقليًّا، وفيه الاحتمالات السابقة.

وقال بعض المحقِّقين: يمكن أن يقال: لعلَّ الإرادة هاهنا معتبرةٌ إما على سبيل الحَذْف، أو على المجاز المُرسل كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية [المائدة:٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل:٩٨] عند أكثر الأئمة، ومثل هذا التأويل قيل: مُطَّردٌ في الأفعال الاختيارية، وزعم بعضُهم أن الفتحَ مجازٌ عن تيسيره. وذكر بعضُ الصدور في توجيه التأكيدِ بـ «إنَّ» هاهنا أنه قد يُجعل غير السائل بمنزلة السائل إذا قُدِّم إليه ما يلوِّح له بالخبر، وصرَّحوا بأن الملوِّحَ لا يلزم أن يكون كلاماً، وقد ذكر غيرُ واحدٍ من المُفسِّرين وغيرهم أنه عليه الصلاة والسلام رأى في المنام أنه وأصحابَه ﷺ دخلوا مكةَ آمنين، فصار المقامُ مقامَ أن يتردَّد في الفتح، فأُلقي إليه عليه الصلاة والسلام الكلام مؤكَّداً كما يُلقى إلى السائل كذلك.

وجُوِّز أن يكون لردِّ الإنكار بناءً على تحقُّقه من المشركين، فإنهم كانوا يزعُمون أنه ﷺ لا يستولي على مكةَ كما لم يستولِ عليها مَن أراد الاستيلاء عليها قبلَه عليه الصلاة والسلام. وهو كما ترى.

وذكر بعضُ أجلَّة القائلين بأن المرادَ به فتحُ مكة أنَّ الكلامَ وعدٌ بفتحِها؛ فقيل: إنَّ الجملةَ حينئذ إخبار. وقيل: إنها إنشاءٌ، واستُشكل بما صرَّح به الرَّضي من أن الجمل الإنشائية مُنحصرةٌ بالاستقراء في الطلبيَّة والإيقاعيَّة، والوعدُ ليس شيئاً

منهما، أما الأول فظاهرٌ، وأما الثاني فلأن مجرَّد قولك: لأكرِمَنَّك، مثلاً، لا يقع به الإكرام.

وقال بعضُ الصدور: إن كلامهم مضطربٌ في كون الوعد إنشاءً أو إخباراً، ويمكن التوفيق بأن يقال: أصلُ الوعد إنشاءٌ لأنه إظهارُ أمرٍ في النفس يوجب سرورَ المخاطَب، وما يتعلَّق به الوعدُ وهو الموعود إخبارٌ، نظيره قول النحاة: «كأنَّ» لإنشاء التشبيه، مع أنَّ مدخولَها جملةٌ خبرية.

وقال الخفاجيُّ: هذا ناشئ من عدمِ فهم المُراد منه. فإن قيل: المرادُ من: لأُكرمنَّك مثلاً، إكرامٌ في المستقبل، فهو خبرٌ بلا مِرْية، وإن قيل: معناه العزمُ على إكرامه وتعجيل المَسَرَّة له بإعلامه فهو إنشاءٌ[1].

وأقول: لا يخفى أنَّ الإخبار أصلٌ للإنشاء، وقد صرَّح بذلك العلامة التفتازاني في «المطول»، وليست هيئة المركَّب دالَّة على أنه إنشاءٌ، وليس فيه ما يدلُّ بمادَّته على ذلك، فيمكن أن يقال: إنه إخبارٌ قُصِدَ به تعجيل المَسَرَّة، وأنَّ ذلك لا يُخرجه عن الإخبار، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] ونحوه، فتدبَّر.

والتعبير عن ذلك بالماضي لتحقُّقه، وفيه من تسليةِ قلوب الأصحاب وتسليتهم حيث صاروا محزونين غايةَ الحزن من تأخير الفتح ما فيه، وهذا التعبير من قَبيل الاستعارة التبعيَّة على ما حقَّقه السَّيِّد السند في حواشي «المطوَّل» حيث قال: اعلم أنَّ التعبيرَ عن المضارع بالماضي وعكسه يُعَدُّ من باب الاستعارة بأنْ يُشبَّه غير الحاصل بالحاصل في تحقُّق الوقوع، ويُشبَّه الماضي بالحاضر في كونه نصبَ العين واجبَ المُشاهدة، ثم يُستعار لفظ أحدِهما للآخر، فعلى هذا تكون استعارةُ الفعل على قسمين: أحدهما: أن يُشبَّه الضرب الشديد مثلاً بالقتل ويستعار له اسمه، ثم يشتقُّ منه قَتَل بمعنى: ضَرَبَ ضرباً شديداً. والثاني: أن يُشبَّه الضرب المستقبل بالضرب في الماضي مثلاً في تحقُّق الوقوع، فيستعمل فيه ضرب، فيكون المعنى

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٥٣.

المصدري أعني الضرب موجوداً في كلٍّ واحد من المُشبَّه والمُشبَّه به، لكنه قُيِّد في كلٍّ منهما بقيد يُغاير الآخر، فصحَّ التشبيهُ لذلك.

وقال المحقِّق ميرزاجان: يمكن توجيهُ الاستعارة هاهنا بوجه آخر، وهو أن يشبَّه الزمان المستقبل بالزمان الماضي، ووجهُ الشَّبه أنه كما أن الثاني ظرفُ أمر محقَّق الوقوع كذلك الزمانُ الأول، واللفظُ الدالُّ على الزمان الثاني وهو لفظ الفعل الماضي من جهة الصيغة جعل دالًّا على الزمان المستقبل مستعملاً فيه، ومن البين أن المصدرَ على حاله لم يتغيَّر معناه، فكانت الاستعارةُ في الصيغة والهيئة أولى لأنها الدالَّة على الزمان الماضي وبواسطتها كانت الاستعارةُ في الفعل كما كانت الاستعارةُ في الفعل بواسطة المصدر، والفرقُ أن هذه الاستعارةَ في الفعل بواسطة جوهره ومادَّته، وفيما نحن فيه بواسطة صورته، لا يقال: الدالُّ على الزمان هو نفسُ اللفظ المشتقّ لا جزؤه، لأنا نقول: يجزي هذا الاحتمالُ في الاستعارة التبعية المشهورة بأن يقال: الدالُّ على المعنى الحدثي هو نفسُ اللفظ المشتقّ لا جزؤه؛ لأن المصدر بصيغته غيرُ متحقِّق في المشتق، فإنَّ الضربَ غيرُ موجود في ضارب وضرب.

فإن قلت: المصدرُ لفظٌ مستقلٌّ يمكن التعبيرُ به عن معناه بخلاف الهيئة. قلت: لفظُ الزمان الماضي أيضاً كذلك، فلا فرقَ، ولو سُلِّم نقول في كلٍّ منهما: نستعيرُ المعنى المطابقي للفظ الفعل بواسطة المعنى التضمُّني له، ولا يبعدُ أن يُسمَّى مثل هذا استعارةً تبعيَّة، والأمر في التسمية هيِّن لا اعتدادَ بشأنه، ولعلهم إنما جعلوا الاستعارةَ في مثل ذلك بواسطة المصدر، واعتبروا التغايرَ الاعتباري، ولم يعتبروا ما اعتبرنا من تشبيه نفسِ الزمان بالزمان حتى تصيرَ الاستعارةُ في الفعل تبعيَّةً بلا تكلُّف رعاية لطي النَّشر بقدرِ الإمكان، وأيضاً في كون الصيغة والهيئة جُزءاً للّفظ تأمُّل، وأيضاً الهيئة ليست جُزءاً مستقلًّا كالمصدر، وأيضاً الهيئة ليست لفظاً، والاستعارة قسم للَّفظ، ولعلَّ القومَ لهذه كلِّها أو بعضها لم يلتفتوا إليه. انتهى، وفيه بحث.

وللفاضل مير صدر الدين رسالة في هذه الآية الكريمة تعرَّض فيها للمحقّق في

هذا المقام، وتعقَّبها الفاضل يوسف القرباغي[(١)] برسالة أطال الكلام فيها وجرح وعدَّل، وذكرَ عِدَّة احتمالات في الاستعارة التبعيَّة، ومال إلى أن الهيئة لفظٌ، مُحتجًّا بما نقله من شرح المختصر العضدي ومن شرح الشرح للعلامة التفتازاني، وأيَّده بنقول أُخر، فليراجع ذلك، فإنه وإن كان في بعضه نظرٌ لا يخلو عن فائدة.

والذي يترجَّح عندي أن الهيئة ليست بلفظ لكنها في حكمه، وأنه قد يتصرَّف فيها بالتجوّز كما في الخبر إذا استُعمل في الإنشاء، وأن المجازَ المُرسل يكون تبعيًّا بناءً على ما ذكروه في وجه التبعيَّة في الاستعارة. وقول الصدر في الفرق: إنَّ العلاقةَ في الاستعارة ملحوظة حين الإطلاق، فإنهم صرَّحوا بأنَّ اسمَ المُشبَّه به لا يُطلق على المُشبَّه إلا بعد دخوله في جنس المُشبَّه به، بخلاف المُرسَل فإن العلاقة باعثةٌ للانتقال وليست ملحوظة حين الاستعمال، فلا ضرورةَ في القول بالتبعيَّة فيه = إنْ تمَّ لا يُجدي نفعاً، فافهم.

وزعم بعضُهم أن التعبيرَ بالماضي هاهنا على حقيقته بناءً على أن الفتحَ مجازٌ عن تيسيره وتسهيله، وهو مما لا يتوقَّف على حصول الفتح ووقوعه ليكون مستقبلاً بالنسبة إلى زمن النزول مثله، ألا ترى أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربَّه تعالى بقوله: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٢٦] أنْ يُسهل أمرَه، وهو خلافتُه في أرضه وما يصحبها، وأُجيب إليه في موقف السؤال بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] ولم يُباشر بعد شيئاً، وحملُه على الوعد بإيتاء السؤال خلافُ الظاهر. وأنت تعلم أنَّ ما ذهب إليه الجمهور أظهرُ وأبلغُ.

وفي مَجيء المستقبل بصيغة الماضي لتنزيله منزلةَ المُحقَّق من الفخامة والدلالة على علوِّ شأن المُخبر ما لا يخفى كما في «الكشاف»[(٢)]. وذلك ـ على ما قيل ـ لأنه يدلُّ على أنَّ الأزمنة كلَّها عنده تعالى على السواء، وأنَّ مُنتظَره كمحقَّق غيره،

---

(١) هو يوسف بن محمد خان القَرَباغي أو: القره باغي، نسبة لقرباغ أو: قَره باغ، من علماء الكلام، له حاشية على شرح العقائد العضدية، ورسالة في الكلام، وغيرهما. توفي في نيف وثلاثين وألف. خلاصة الأثر ٤/ ٥١٠، والأعلام ٨/ ٢٥٢.

(٢) ٣/ ٥٤٠.

وأنه سبحانه إذا أراد أمراً تحقَّق لا محالة، وأنه لجلالة شأنه إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن لما عنده من أسبابهِ القريبة والبعيدة، وقيل غير ذلك.

واستشكل أمر المُضي في كلامه تعالى بناءً على ثبوت الكلام النفسي الأزلي للزوم الكذب، لأنَّ صدقَ الكلام يستدعي سبق وقوع النسبة، ولا يتصوَّر السبقُ على الأزل. وأُجيب بأنَّ كلامَه تعالى النفسي الأزلي لا يتصف بالماضي وغيره لعدم الزمان. وتُعقِّب بأنَّ تحقُّقَ هذا مع القول بأنَّ الأزليَّ مدلولُ اللفظي عسيرٌ جدًّا، وكذا القولُ بأنَّ المتَّصف بالمُضي وغيره إنما هو اللفظ الحادث دون المعنى القديم. وأجاب بعضُهم بأن العُسْر لو كان دلالةُ اللفظي عليه دلالةَ الموضوع على الموضوع له، وليس كذلك عندهم، بل هي دلالةُ الأثر على المُؤثِّر، ولا يلزم من اعتبار شيء في الأثر اعتباره في المُؤثِّر. ولا يخفى أن كونَ الدلالة دلالة الأثر على المُؤثِّر خلافُ الظاهر.

وقال ابن الصدر في ذلك: إنَّ اشتمالَ الكلام اللفظي على المُضي والحضور والاستقبال إنما هو بالنظر إلى زمان المُخاطَب لا إلى زمان المُتكلِّم كما إذا أرسلت زيداً إلى عمرو تكتب في مكتوبك إليه: إني أرسلت إليك زيداً، مع أنه حينما تكتبه لم يتحقَّق الإرسال، فتلاحظ حال المُخاطَب، وكما تُقدِّر في نفسك مخاطباً وتقول: لِمَ تفعل الآن كذا، وكان قبلَ ذلك كذا، ولا شكَّ أن هذا المُضي والحضور والاستقبال بالنسبة إلى زمان الوجود المُقدَّر لهذا المخاطب لا بالنسبة إلى زمان المُتكلِّم بالكلام النفسي لكونه متوجِّهاً لمخاطَبٍ مُقَدَّر لا يُلاحظ فيه إلا أزمنة المخاطبين المقدَّرين، وما اعتبره أئمَّة العربية من حكاية الحال الماضية واعتبار المضي والحضور والاستقبال في الجملة الحالية بالقياس إلى زمان الفعل لا زمان التكلُّم قريبٌ منه جدًّا. انتهى.

وللمحقِّق ميرزاجان كلامٌ في هذا المقام يطلب من حواشيه على الشرح العضدي.

وقيل: المراد بالفتح فتحُ الروم على إضافة المصدر إلى الفاعل، فإنهم غلبوا على الفرس في عام النزول، وكونه فتحاً له عليه الصلاة والسلام لأنه أخبر عن

الغَيب فتحقَّق ما أخبر به في ذلك العام، ولأنه تفاؤل لِغَلبة أهل الكتاب المؤمنين، وفي ذلك من ظهور أمره ﷺ ما هو بمنزلة الفتح. قيل: ففي الفتح استعارةٌ لتشبيه ظهوره ﷺ بالفتح. وقيل: لا تجوُّزَ فيه، وإنما التجوُّز في تعلُّقه به عليه الصلاة والسلام، وقيل: لا تجوُّز أصلاً، والمعنى: فتحنا على الروم لأجلك. وأنت تعلم أنَّ حمل الفتح على ما ذكره في نفسه بعيدٌ جدًّا.

وأُورد عليه أن فتحَ الروم لم يكن مُسبَّباً على الجهاد ونحوه فلا يصحُّ ما ذكروه في توجيه التعليل الآتي.

وعن قتادة أنَّ «فَتَحنا» من الفُتاحة ـ بالضَّمِّ ـ وهي الحكومة، أي: إنا قضينا لك على أهل مكة أن تَدخُلَها أنت وأَصحابُك مِن قابل لتطوفوا بالبيت، وهو بعيدٌ أيضاً.

وقيل: المرادُ به فتحُ الله تعالى له ﷺ بالإسلام والنبوَّة والدعوة بالحُجَّة والسيف؛ وقريبٌ منه ما نقله الراغب من أنه فَتْحُه عز وجل له عليه الصلاة والسلام بالعلوم والهدايات التي هي ذريعةٌ إلى الثواب والمقامات المحمودة[1]. وأمره في البعد كما سبق. وأيًّا ما كان فحذف المفعول للقَصْد إلى نفس الفعل والإيذان بأنَّ مَناطَ التبشير نفسُ الفتح الصادر عنه سبحانه لا خصوصية المفتوح.

وتقديم «لك» على المفعول المُطلق أعني قوله تعالى: ﴿فَتۡحٗا مُّبِينٗا ①﴾ مع أنَّ الأصلَ تقديمه على سائرِ المفاعيل كما صرَّح به العلامة التفتازاني للاهتمام بكون ذلك لنفعه عليه الصلاة والسلام، وقيل: لأنه مدار الفائدة، و«مبين» من أبان بمعنى بان اللازم، أي: فتحاً بيِّناً ظاهرَ الأمر مكشوفَ الحال، أو فارقاً بين الحقِّ والباطل.

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ مذهبُ الأشاعرة القائلين بأن أفعالَه تعالى لا تُعلَّل بالأغراض أنَّ مثلَ هذه اللام للعاقبة، أو لتشبيه مدخولها بالعلَّة الغائيَّة في ترتُّبه على متعلّقها وترتُّب المغفرة على الفتح من حيث إن فيه سعياً منه ﷺ في إعلاء كلمة الله تعالى

(١) مفردات ألفاظ القرآن (فتح).

بمكابدة مشاقِّ الحروب واقتحامِ موارد الخُطوب؛ والسلف ـ كما قال ابن القَيِّم وغيره ـ يقولون بتعليل أفعالِه عز وجل. وفي «شرح المقاصد»[١] للعلامة التفتازاني أن من بعض أدلَّتهم ـ أي: الأشاعرة ـ ومن وافقهم على هذا المطلب يُفهم أنهم أرادوا عُمومَ السَّلب، ومن بعضها أنهم أرادوا سَلب العُموم، ثم قال: الحقُّ أنَّ بعضَ أفعاله تعالى مُعَلَّل بالحكم والمصالح، وذلك ظاهرٌ والنصوص شاهدةٌ به، وأما تعميمُ ذلك بأنه لا يخلو فعلٌ من أفعاله سبحانه من غرض فمحلُّ بحث.

وذكر الأصفهاني في «شرح الطوالع» في هذه المسألة خلافاً للمعتزلة وأكثر الفقهاء، وأنا أقول بما ذهب إليه السلف لوجود التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث، والتزامُ تأويل جميعها خروجٌ عن الإنصاف، وما يذكره الحاظرون[٢] من الأدلة يُدفَع بأدنى تأمُّل كما لا يخفى على من طالع كتب السَّلفيين عليهم الرحمة.

وفي «الكشاف»[٣]: لم يجعل الفتح عِلَّةً للمغفرة لكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة؛ وهي المغفرةُ وإتمامُ النعمة وهدايةُ الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل: يسَّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوِّك لنجمع لك بين عزِّ الدارين وأغراض العاجل والآجل.

وحاصله كما قال العلامة: إنَّ الفتح لم يجعل عِلَّةً لكلٍّ من المتعاطفات بعد اللام، أعني: المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر، بل لاجتماعها، ويكفي في ذلك أن يكونَ له دخلٌ في حصول البعض كإتمام النعمة والنصر العزيز، وتحقيقه كما قال: إن العطفَ على المجرور باللام قد يكون للاشتراك في متعلّق اللام مثل: جئتك لأفوزَ بِلُقياك وأحوزَ عطاياك، ويكون بمنزلة تكرير اللام وعطف جارٍّ ومجرور على جارٍّ ومجرور، وقد يكون للاشتراك في معنى اللام ك : جئتك لتستقرَّ في مقامك وتُفيضَ عليَّ من إنعامك، أي: لاجتماع الأمرين، ويكون من قَبيل:

(١) ٤/ ٣٠١.
(٢) في (م): الحاضرون.
(٣) ٣/ ٥٤١.

جاءني غلامُ زيد وعمرو، أي: الغلام الذي لهما. واستظهر ـ دفعاً لتوهُّم أنه إذا كان المقصودُ البعضَ فَذِكْرُ الباقي لغوٌ ـ أن يقال: لا يخلو كلٌّ منهما أن يكونَ مقصوداً بالذات، وهو ظاهرٌ. أو المقصودُ البعض، وحينئذ فذكر غيره إما لتوقُّفه عليه أو لشدَّة ارتباطه به أو ترتُّبه عليه، فَيُذكر للإشعار بأنهما كشيء واحد، كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقولك: أعددتُ الخشب ليميلَ الحائطُ فأدعمه، و: لازمتُ غريمي لأستوفيَ حَقِّي وأُخلِّيه.

وظاهرُ كلام الزمخشري أن المقصودَ فيما نحن فيه تعليلُ الهيئة الاجتماعية فحسب، فتأمَّل لتعرفَ أنه من أيِّ الأقسام هو.

واعلمْ أنَّ المشهورَ كونُ العِلَّة ما دخلته اللام لا ما تعلَّقت به كما هو ظاهرُ عبارة «الكشاف»، لكن حُقِّق أنها إذا دخلت على الغايةِ صحَّ أن يُقال: إنَّ ما بعدَها عِلَّة، ويُراد بحسب التعقُّل، وأن يقال: ما تعلَّقت به عِلَّة، ويُراد بحسب الوجود، فلا تغفُل.

وزعم صاحبُ «الغنيان» أن اللام هاهنا هي لامُ القسم وكُسِرتْ وحذف النون من الفعل تشبيهاً بلام «كي».

ورُدَّ بأنَّ لامَ القَسَم لا تُكسر ولا ينصب بها، فإنه لم يُسمع: والله لِيقوم زيدٌ، على معنى: لَيقومنَّ زيدٌ. وانْتُصِرَ له بأن الكسرَ قد عُلِّل بتشبيهها بلام «كي»، وأما النصب فله أن يقول فيه: بأنه ليس نصباً، وإنما هو الحركةُ التي تكون مع وجودِ النون بقيت بعدَ حذفِها دلالةً على الحذف. وأنت تعلم أنه لا يُجدي نفعاً مع عدم السَّماع.

هذا، والالتفاتُ إلى اسم الذات المُستتبع لجميع الصفات قيل: للإشعار بأن كلَّ واحدٍ مما انتظم في سلك الغاية من أفعاله تعالى صادرٌ عنه عز وجل من حيثيَّة غيرِ حيثيَّة الآخر مُترتِّبة على صفة من صفاته جلَّ شأنه.

وقال الصدرُ: لا يبعدُ أن يقال: إنَّ التعبير عنه تعالى في مقام المغفرة بالاسم الجليل المُشعِر بصفات الجمال والجلال يُشعر بسبق مَغْفرته تعالى على عذابِه.

وفي «البحر»(١): لما كان الغفران وما بعدَه يشترك في إطلاقه الرسولُ عليه الصلاة والسلام وغيرُه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة:٣] وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:٤٠] وقوله: عز وجل: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢] وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات:١٧٢] وكان الفتحُ مختصًّا بالرسول ﷺ، أسنده الله تعالى إلى نونِ العظمة تفخيماً لشأنه، وأسندَ تلك الأشياء إلى الاسمِ الظاهر وضميره. وهو كما ترى، وإن قاله الإمام(٢) أيضاً.

وأقول: يمكن أنْ يكونَ في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعدَ إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماءً إلى أنَّ المغفرةَ مما يتولَّاها سبحانه بذاته، وأنَّ الفتحَ مما يتولَّاه جل شأنه بالوسائط، وقد صرَّح بعضُهم بأنَّ عادةَ العُظَماء أنْ يُعبِّروا عن أنفسهم بصيغة المُتكلِّم مع الغير، لأنَّ ما يصدرُ عنهم في الأكثر باستخدام توابعهم، ولا يُعترض بأنَّ النصرَ كالفتح وقد أسند إلى الاسم الجليل؛ لِمَا لا يخفى عليك.

وتقديم «لك» على المفعول الصريح أعني قوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ لِمَا مرَّ غيرَ مرَّة، و«ما» للعموم، والمتقدِّم والمتأخِّر للإحاطة كنايةً عن الكلِّ، والمرادُ بالذنب ما فَرَطَ من خِلاف الأولى بالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام، فهو من قَبيل: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المُقرَّبين. وقد يقال: المرادُ ما هو ذنبٌ في نظره العالي ﷺ، وإن لم يكن ذنباً ولا خلافَ الأولى عنده تعالى، كما يرمزُ إلى ذلك الإضافة.

وقال الصدر: يُمكن أن يكون قوله تعالى: «ليغفر» إلخ، كنايةٌ عن عدم المُؤاخذة، أو من باب الاستعارة التمثيلية من غير تحقُّق معاني المفردات.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٠.

(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٩-٨٠.

وأخرج ابن المنذر عن عامر وأبي جعفر أنهما قالا: ما تقدَّم في الجاهلية وما تأخَّر في الإسلام[١].

وقيل: ما تقدَّم من حديث مارية[٢]، وما تأخَّر من امرأة زيد. وليس بشيء، مع أنَّ العكسَ أولى؛ لأن حديثَ امرأة زيد مُتقدِّم.

وفي الآية مع ما عُهِدَ من حاله ﷺ مِن كَثْرة العبادة ما يدلُّ على شرفِ مقامه إلى حيث لا تُحيط به عبارة، وقد صحَّ أنه ﷺ لما نزلَتْ صام وصلَّى حتى انتفخَتْ قدماه، وتعبَّد حتى صار كالشنِّ[٣] البالي، فقيل له: أتفعل هذا بنفسك، وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم مِنْ ذَنْبِك وما تأخَّر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[٤].

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين وانتشاره في البلاد وغير ذلك مما أفاضه تعالى عليه ﷺ من النِّعم الدينية والدنيوية.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ في تبليغِ الرسالة وإقامة الحدود، قيل: إنَّ أصلَ الاستقامة وإن كان حاصلاً قبلَ الفتح لكن حَصَلَ بعد ذلك من اتِّضاح سُبل الحقِّ واستقامةِ مناهجه ما لم يكن حاصلاً قبلُ.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ إظهارُ الاسم الجليل مع النصر، قيل: لكونه خاتمةَ العلل أو الغايات، ولإظهار كمال العِناية بشأنه كما يُعرب عنه إردافه بقوله تعالى: ﴿نَصْرًا

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٧٠.

(٢) ينظر ما سيأتي في أول سورة التحريم.

(٣) الشِّنان: الأسقية الخلقة، واحدها: شَنّ وشَنَّة. النهاية (شنن).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في الشعب (١٤٩٦) من حديث أبي سلمة ﷺ، وفي إسناده: نصر بن حريش أبو القاسم الصامت والمُشمعلّ بن مِلْحان، وهما ضعيفان كما في تاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٢ و٢٨٦. وأخرجه أحمد (١٨١٩٨)، والبخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ، وأحمد (٢٤٨٤٤)، والبخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) من حديث عائشة ﷺ، ولفظه: قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماه، فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر! قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». وليس فيه أن ذلك كان عند نزول هذه السورة.

عَزِيزًا ﴿٣﴾ وقال الصدر: أظهرَ الاسمَ الجليل في الصدر وهنا لأنَّ المغفرةَ تتعلَّق بالآخرة والنصرَ يتعلَّق بالدنيا، فكأنه أُشير بإسناده المغفرة والنصر إلى صريح اسمه تعالى إلى أنَّ الله عز وجل هو الذي يتولَّى أمرك في الدنيا والآخرة.

وقال الإمام[1]: أُظهرت الجلالةُ هنا إشارةً إلى أنَّ النصرَ لا يكون إلا من عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وذلك لأنَّ النصرَ بالصبر، والصبر بالله قال تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] لأنه سكونُ القلب واطمئنانه، وذلك بذِكْر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والعزيز بحسب الظاهر هو المنصورُ، وحيث وُصِفَ به النصر فهو إما للنسبة، وإن كان المعروف فيها فاعلاً كلابِن، وفعَّالاً كبزَّاز، أي: نصراً فيه عزٌّ ومَنَعةٌ، أو فيه تجوُّز في الإسناد من باب وَصْف المصدر بصيغة المفعول وهو المنصورُ هنا، نحو: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠] في قول، لا الفاعل ـ وهو الناصر ـ لما قيل من عدم مُناسبته للمقام وقلة فائدته، إذ الكلام في شأن المُخاطَب المنصور، لا المُتكلِّم الناصر، وفيه شيء. وقيل: الكلامُ بتقدير مضاف، أي: عزيز صاحبُه، وهو المنصورُ، وفيه تكلُّف الحذفِ والإيصال.

وقد يقال: لا يحتاج إلى شيء مما ذُكر، إذْ لا مانع من وَصْف النصر بالعزيز على ما هو الظاهر بناءً على أحدِ معاني العِزَّة، وهو قلَّةُ الوجود وصعوبة المَنال، والمعنى: ينصرك اللهُ نصراً يَقِلُّ وجودُ مثله ويصعبُ منالُه، وقد قال الراغب[2] بهذا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] ورأيتُ ذلك للصَّدر بعد أنْ كتبته من الصَّدر، فتأمَّل ولا تكن ذا عَجْز.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانٌ لما أفاض سبحانه عليهم من مَبادي الفتح، والمرادُ بالسَّكينة الطُّمأنينة والثَّبات، من السكون، أي: أنزلها في

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٧٩.
(٢) المفردات (عزز).

قلوبهم بسبب الصُّلح والأمن إظهاراً لِفَضْله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والمرادُ بإنزالها خَلْقها وإيجادها، وفي التعبير عن ذلك بالإنزال إيماءٌ إلى عُلُوِّ شأنها. وقال الراغب(١): إنزالُ الله تعالى نعمتَه على عبدٍ إعطاؤه تعالى إيَّاها، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن، أو بإنزال أسبابه والهداية إليه كإنزال الحديد ونحوه.

وقيل: «أنزل» مِنْ نزلَ في مكان كذا: حطَّ رَحْلَه فيه، وأنزله غيرُه، فالمعنى: حَطَّ السكينةَ في قلوبهم، فكان قلوبهم منزلاً لها ومأوى.

وقيل: السكينة مَلَكٌ يسكنُ قلبَ المؤمن ويُؤمنه، كما رُوي أنَّ عليًّا رضي الله عنه وكرم وجهه قال: إنَّ السكينة لَتنطِقُ على لسان عمر. وأمرُ الإنزال عليه ظاهرٌ جدًّا.

وأخرج ابن جرير والبيهقي في «الدلائل» وغيرهما عن ابن عباس أنه قال: السكينةُ هي الرحمةُ(٢). وقيل: هي العقل، ويقال له: سكينة إذا سكنَ عن المَيْل إلى الشهواتِ وعن الرُّعب. وقيل: هي الوَقار والعَظَمة لله تعالى ولرسوله ﷺ. وقيل: هي مِنْ سَكَن إلى كذا: مالَ إليه، أي: أنزل في قلوبهم السُّكون والمَيْل إلى ما جاء به الرسولُ ﷺ من الشرائع.

وأرجحُ التفاسير هنا ـ على ما قال الخفاجي(٣) ـ الأول، وما ذكره بعضُهم من أن السكينةَ شيء له رأس كرأس الهِرَّة، فما أراه قولاً يصحُّ.

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ أي: يقيناً مع يقينهم بِرُسوخ العقيدة واطمئنان النفوس عليها، على أن الإيمان لمَّا ثبتَ في الأزمنة نزَّلَ تجدُّد أزمانه مَنزلةَ تجدُّده وازدياده فاستُعير له ذلك ورشَّحَ بكلمة «مع». وقيل: ازدياد الإيمان بازدياد ما يُؤمن به، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ أولَ ما أتاهم به النبيُّ ﷺ التوحيدُ، ثم الصلاة

---

(١) المفردات (نزل).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٧١، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٤٦، ودلائل النبوة ٤/ ١٦٨.

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٥٧.

والزكاة، ثم الحجُّ والجهاد، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم. ومن قال: الأعمالُ من الإيمان، قال بأنه نفسُه ـ أي: الإيمان المركَّب من ذلك وغيره ـ يزيدُ وينقص، ولم يَحتجْ في الآية إلى تأويل، بل جعلها دليلاً له. وتفصيلُ الكلام في هذا المقام أنه ذهب جمهورُ الأشاعرة والقلانسي والفقهاء والمُحدِّثون والمعتزلة إلى أن الإيمان يزيدُ وينقصُ، ونُقِلَ ذلك عن الشافعي ومالك، وقال البخاري: لقيتُ أكثرَ من ألفِ رجلٍ من العلماء بالأمصار فما رأيتُ أحداً منهم يختلف في أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ ويزيدُ وينقصُ[1]. واحتجُّوا على ذلك بالعقل والنقل: أما الأول: فلأنه لو لم تتفاوَتْ حقيقةُ الإيمانِ لكان إيمانُ آحادِ الأمَّة المُنهمكين في الفِسق والمعاصي مُساوياً لإيمان الأنبياء عليهم السلام مثلاً، واللازم باطلٌ فكذا المَلْزوم. وأما الثاني: فَلِكَثْرة النصوص في هذا المعنى، منها الآية المذكورة، ومنها ما رُوي عن ابن عمر ﷺ: قلنا: يا رسولَ الله، إنَّ الإيمان يزيدُ وينقصُ؟ قال: «نعم، يزيدُ حتى يُدخِلَ صاحبَه الجنَّة، وينقصُ حتى يُدخِلَ صاحبُه النار»[2] ومنها ما رُوي عن عمر وجابر ﷺ مرفوعاً: «لو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لَرَجَحَ به»[3].

واعتُرِض بأنَّ عدمَ قبول الإيمان الزيادةَ والنَّقصَ على تقدير كونِ الطاعات داخلةً في مُسمَّاه أولى وأحقُّ من عدمِ قَبوله ذلك إذا كان مُسمَّاه التصديق وحدَه: أمَّا أولاً: فلأنه لا مرتبةَ فوق كلِّ الأعمال لتكون زيادة، ولا إيمان دونه ليكون نقصاً. وأما ثانياً: فلأنَّ أحداً لا يستكملُ الإيمانَ حينئذ، والزيادة على ما لم يكمل بَعْدُ مُحال.

وأُجيب بأنَّ هذا إنما يتوجَّه على المعتزلة والخوارج القائلين بانتفاء الإيمان بانتفاء شيء من الأعمال، والجماعةُ إنما يقولون: إنها شرطُ كمالٍ في الإيمان فلا يلزم عند الانتفاء إلا انتفاء الكمال، وهو غيرُ قادح في أصل الإيمان.

---

(١) نقله عنه ابن حجر في فتح الباري ١/ ٤٧. وسلف ١٠/ ٢٤.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٨١، وعزاه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٣٤ للثعلبي. وسلف ١٠/ ٢٤.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب ١/ ٦٩ موقوفاً على عمر ﷺ، قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٣٤: أخرجه إسحاق بن راهويه عن عمر وإسناده صحيح. ولم نقف عليه من حديث جابر ﷺ.

وقال النووي وجماعة مُحقِّقون من علماء الكلام: إنَّ الإيمان بمعنى التصديق القلبي يزيد وينقصُ أيضاً بِكَثْرة النظر ووضوح الأدلَّة وعدمِ ذلك، ولهذا كان إيمان الصِّدِّيقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريه الشُّبه، ويُؤيِّده أنَّ كلَّ واحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكونَ في بعض الأحيان أعظمَ يقيناً وإخلاصاً منه في بعضها، فكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظُهور البراهين وكَثْرتها(١).

واعتُرِض بأنه متى قبل ذلك كان شكًّا.

ودُفع بأن مراتبَ اليقين متفاوتةٌ إلى علم اليقين وحقِّ اليقين وعين اليقين مع أنها لا شكَّ معها، وممن وافقَ النوويَّ على ما جزم به السعدُ في القسم الثاني من «تهذيبه».

وقال جماعةٌ من العلماء أعظمهم الإمامُ أبو حنيفة وتَبِعَه أصحابُه وكثيرٌ من المُتكلِّمين: الإيمان لا يزيُد ولا ينقصُ، واختاره إمام الحرمين، واحتجُّوا بأنه اسمٌ للتصديق البالغ حدَّ الجزم والإذعان، وهذا لا يُتصوَّر فيه زيادةٌ ولا نقصان، فالمُصدِّق إذا ضمَّ إليه الطاعات أو ارتكب المعاصي فتصديقُه بحاله لم يتغير أصلاً، وإنما يتفاوت إذا كان اسماً للطاعات المتفاوتة قلَّةً وكثرةً.

وأجابوا عمَّا تمسَّك به الأولون بوجوه: منها ما أشرنا إليه أولاً من أنَّ الزيادة بحسب الدوام والثَّبات وكَثْرة الزمان والأوقات، وإيضاحه ما قاله إمام الحرمين: النبيُّ ﷺ يفضلُ مَنْ عداه باستمرار تصديقه وعِصْمة الله تعالى إيَّاه من مُخامرة الشُّكوك، والتصديقُ عَرَضٌ لا يبقى بشخصه بل بتجدُّد أمثاله، فتقع للنبيِّ عليه الصلاة والسلام متواليةً ولغيره على الفترات، فيثبت(٢) للنبيِّ ﷺ أعدادٌ من الإيمان لا يثبتُ لغيره إلا بعضها، فيكون إيمانه ﷺ أكثرَ. والزيادةُ بهذا المعنى قيل: مما لا نزاعَ فيها.

واعتُرِض بأنَّ حصولَ المثل بعد انعدامِ الشيء لا يكون زيادة فيه كسوادِ الجسم، ودُفع بأنَّ المُرادَ زيادةُ أعدادٍ حصلَتْ، وعدمُ البقاء لا يُنافي ذلك.

(١) نقله عنه الحافظ ابن حجر في الفتح ١/ ٤٦، وسلف بعضه ١٠/ ٢١.
(٢) في الأصل و(م): فثبتت، والمثبت من الإرشاد ص٣٣٦، ومما سلف ١٠/ ٢١.

ومنها ما أشرنا إليه ثانياً من أنَّ المراد الزيادة بحسب زيادة ما يُؤمن به، والصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين آمنوا أولاً بما آمنوا به وكانت الشريعةُ لم تتمَّ، وكانت الأحكام تنزلُ شيئاً فشيئاً، فكانوا يؤمنون بكلٍّ ما يتجدَّد منها ولا شكَّ في تفاوت إيمان الناسِ بملاحظة التفاصيل كَثْرةً وقِلَّة، ولا يختصُّ ذلك بعصره ﷺ؛ لإمكان الاطِّلاع على التفاصيل في غيره من العصور أيضاً.

ومنها أن المرادَ زيادةُ ثمرته وإشراق نوره في القلب، فإنَّ نورَ الإيمان يزيدُ بالطاعات وينقص بالمعاصي، قيل: وهذا إنما يحتاج إليه بعد إقامةِ قاطع على امتناع قَبول التصديق الزيادةَ والنقصَ، ومتى لم يَقُمْ قاطعٌ على ذلك كان الأولى إبقاءُ الظواهر على حالها.

وقال الخطابي: الإيمان قولٌ وهو لا يزيدُ ولا ينقص، وعملٌ وهو يزيدُ وينقصُ، واعتقادٌ وهو يزيدُ ولا ينقصُ، فإذا نقصَ ذهب. واعتُرض أنه إذا زاد ثم عاد إلى ما كان فقد نقص ولم يذهَبْ. ودُفع بأنَّ مراده أنَّ الاعتقاد باعتبار أول مَراتبه يزيدُ ولا ينقص لا أنَّ الاعتقادَ مطلقاً كذلك.

وذهب جماعةٌ منهم الإمام الرازي وإمام الحرمين [في قول] إلى أنَّ الخلافَ لفظيٌّ، وذلك بحمل قول النفي على أصل الإيمان، وهو التصديق، فلا يزيدُ ولا ينقص، وحملِ قول الإثبات على ما به كمالُه، وهو الأعمال، فيكون الخلافُ في هذه المسألة فرعَ الخلاف في تفسير الإيمان(١). والحقُّ أنه حقيقيٌّ لما سمعتَ عن الإمام النووي ومن معه من أنَّ التصديق نفسَه يزيدُ وينقص.

وقال بعض المحقِّقين: إنَّ الزيادة والنقص من خواصِّ الكَمِّ، والتصديق قِسْم من العلم، ولم يقلْ أحدٌ بأنه من مَقولة الكَمِّ، وإنما قيل: هو كيف، أو انفعالٌ، أو إضافة وتعلُّق بين العالم والمعلوم، أو صفة ذات إضافة؛ والأشهر أنه كيف، فمتى صحَّ ذلك وقلنا بمغايرة الشِّدة والضعف للزيادة والنقص فلا بأسَ بحملها في النصوص وغيرها على الشِّدة والضعف، وذلك مجازٌ مشهور، وإنكار اتصاف الإيمان بهما يكادُ يلحقُ بالمُكابرة، فتأمَّل.

---

(١) سلف بنحوه ١٠/ ٢٤، وما بين حاصرتين منه.

وذكر بعضُهم هنا أن الإيمان الذي هو مدخولُ «مع» هو الإيمان الفِطْري، والإيمان المذكور قبلَه الإيمان الاستدلالي، فكأنه قيل: ليزدادوا إيماناً استدلاليًّا مع إيمانهم الفِطْري، وفيه من الخَفَاء ما فيه.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُدَبِّر أمرَها كيفما يُريد فَيُسلِّط بعضها على بعض تارة، ويُوقِع سبحانه بينها السِّلم أُخرى، حسبما تقتضيه مشيئته المَبْنية على الحِكَم والمصالح، ومن قضيَّة ذلك ما وقع في الحديبية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغاً في العلم بجميع الأمور ﴿حَكِيمًا ۝٤﴾ في تقديره وتدبيره عز وجل.

وقوله سبحانه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ متعلِّق بما يدلُّ عليه ما ذُكر من كون جنودِ السماوات والأرض له جل شأنه من معنى التصرُّف والتدبير، وقد صرَّح بعضُ الأفاضل بأنه كنايةٌ عنه. أي: دبَّر سبحانه ما دبَّر من تسليط المؤمنين لِيعرفوا نعمةَ الله تعالى في ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنةَ، فالعلَّة في الحقيقة معرفةُ النِّعمة وشُكرها لكنها لما كانت سبباً لدخول الجنة أُقيم المُسبَّب مُقامَ السبب.

وقيل: متعلِّق بـ «فتحنا». وقيل: بـ «أنزل»، وتعلُّقه بذلك مع تعلُّق اللام الأُخرى به مبنيٌّ على تعلُّق الأول به مطلقاً والثاني مقيَّداً وتنزيلُ تغاير الوصفين منزلةَ تغاير الذاتين، وإلا فلا يتعلَّق بعامل واحد حرفا جرٍّ بمعنى واحد من غير اتباع. وقيل: متعلِّق بـ «ينصرك». وقيل: بـ «يزداد». وقيل: بجميع ما ذُكر؛ إما على التنازع والتقدير، أو بتقدير ما يشملُ ذلك كـ: فَعَل سبحانه ما ذكر لِيُدخِلَ.. إلخ. وقيل: هو بدل من ليزداد بدل اشتمال، فإن إدخالَ المؤمنين والمؤمنات الجنة وكذا ما عُطف عليه مستلزمٌ لزيادة الإيمان، وبدل الاشتمال يعتمد على مُلابسةٍ مّا بين المُبدل والمُبدل منه بحيث يشعر أحدُهما بالآخر غيرِ الكلية والبعضية. ولعلَّ الأظهرَ الوجهُ الأول.

وضمُّ المؤمنات هاهنا إلى المؤمنين دفعاً لتوهُّم اختصاص الحُكم بالذكور لأجل الجهادِ والفَتْح على أيديهم، وكذا في كلِّ موضع يُوهم الاختصاص يصرِّحُ بذِكْر النساء، ويقال نحو ذلك فيما بعدُ، كذا قيل.

وأخرج ابن جرير وجماعة عن أنس قال: أنزلت على النبيِّ ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ في مَرْجِعهِ من الحُديبية، فقال: لقد أُنزلَتْ عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ مما على الأرض» ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بيَّن الله تعالى لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا فنزلَتْ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾(١).

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: يُغَطِّيها ولا يُظهرها، والمراد: يمحوها سبحانه ولا يُؤاخذهم بها، وتقديمُ الإدخال في الذِّكر على التكفير مع أن الترتيبَ في الوجود على العكس؛ لِلمُسارعة إلى بيان ما هو المطلوب الأعلى، كذا قال غير واحد. ويجوز عندي أن يكون التكفير في الجنة على أن المعنى: يدخلهم الجنة ويُغطِّي سيئاتهم ويسترها عنهم، فلا تمرُّ لهم ببال ولا يذكرونها أصلاً لئلا يخجلوا فيتكدَّر صفوُ عَيْشهم، وقد مرَّ مثلُ ذلك.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ لا يُقادَر قَدْره لأنه مُنتهى ما تمتد إليه أعناقُ الهمم من جَلْب نفعٍ ودَفْع ضُرٍّ، و«عند الله» حال مِنْ «فوزاً» لأنَّ صفةَ النكرة إذا قُدِّمت عليها أُعرِبَتْ حالاً. وكونه يجوزُ فيه الحالية إذا تأخَّر عن «عظيماً» لا ضيرَ فيه كما تُوُهِّم، أي: كائناً عند الله تعالى، أي: في عِلْمه سبحانه وقضائه جل شأنه، والجملةُ اعتراضٌ مُقرِّر لما قبلَه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ عطف على «يدخل» أي: ولِيُعذِّب المنافقين.. إلخ لغيظهم من ذلك، وهو ظاهرٌ على جميع الأوجه السابقة في «لِيُدخِلَ» حتى وجه البدليَّة، فإنَّ بدلَ الاشتمال تُصحِّحه المُلابسة كما مرَّ، وازدياد الإيمان على ما ذكرنا في تفسيره مما يُغيظهم بلا ريب، وقيل: إنه على هذا الوجه يكون عطفاً على المُبدَل منه. وتقديمُ المنافقين على المشركين لأنهم أكثر ضرراً على المسلمين، فكأنَّ في تقديم تعذيبهم تعجيل المَسَرَّة.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٢٤٠، وأخرجه أحمد (١٣٢٤٦)، ومسلم (١٧٨٦).

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ظنّ الأمر الفاسد المذموم، وهو أنه عز وجل لا ينصرُ رسولَه ﷺ والمؤمنين، وقيل: المرادُ به ما يعمُّ ذلك وسائر ظُنونهم الفاسدة من الشِّرك أو غيره.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ما يظنُّونه ويتربَّصونه بالمؤمنين فهو حائقٌ بهم ودائرٌ عليهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «دائرة السُّوء» بالضَّمِّ[1]؛ والفرقُ بينه وبين «السَّوْء» بالفَتْح على ما في «الصحاح»[2]: أن المفتوحَ مصدرٌ والمضمومَ اسمُ مصدر بمعنى المساءة.

وقال غير واحد: هما لغتان بمعنًى كالكُرْه والكَرْه عند الكسائي، وكلاهما في الأصل مصدرٌ، غير أنَّ المفتوحَ غُلِّب في أن يُضافَ إليه ما يُراد ذَمُّه، والمضموم جرى مجرى الشرِّ، ولما كانت الدائرةُ هنا محمودةً وأُضيفت إلى المفتوح في قراءة الأكثر، تعيَّن على هذا أن يقال: إنَّ ذاكَ على تأويل أنها مذمومةٌ بالنسبة إلى مَنْ دارت عليه من المنافقين والمشركين، واستعمالُها في المكروه أكثرُ، وهي مصدر بزِنَةِ اسم الفاعل، أو اسمُ فاعل، وإضافتها على ما قال الطيبي من إضافة الموصوف إلى الصفة للبيان على المبالغة. وفي «الكشف»: الإضافة بمعنى «مِنْ» على نحو: دائرة ذهب، فتدبَّر. والكلامُ إما إخبارٌ عن وقوع السوء بهم، أو دعاءٌ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطفٌ على ذلك، وكان الظاهرُ: فلعنهم فأعدَّ، بالفاء في الموضعين، لكنه عَدَلَ عنه للإشارة إلى أنَّ كلًّا من الأمرين مستقلٌّ في الوعيد به من غير اعتبار للسببية فيه. ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ جهنمُ.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذكر سابقاً على أن المرادَ أنه عز وجل المُدبِّر لأمرِ المخلوقات بمقتضى حِكْمته، فلذلك ذَيّل بقوله تعالى: «عليماً حكيماً»، وهاهنا أُريد به التهديدُ بأنهم في قبضة قُدْرة المنتقم، ولذا ذيّل بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا

---

(١) التيسير ص١١٩، والنشر ٢/١١٩.
(٢) مادة: (سوأ).

﴿حَكِيمًا ۝٧﴾ فلا تكرار كما قال الشهاب[١]. وقيل: إنَّ الجنودَ جنودُ رحمة وجنودُ عذاب، والمرادُ به هنا الثاني كما يُنبئ عنه التعرُّض لوصفِ العِزَّة.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: على أُمَّتك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة:١٤٣] وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة: شاهداً على أُمَّتك وشاهداً على الأنبياء عليهم السلام أنهم قد بلغوا[٢]. ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالثواب على الطاعة ﴿وَنَذِيرًا ۝٨﴾ بالعذابِ على المعصية.

﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخِطابُ للنبيِّ ﷺ وأُمَّته، كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١] وهو من باب التغليب غُلِّب فيه المُخاطَب على الغيَّب، فيفيدُ أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام مُخاطَب بالإيمان برسالته كالأمة، وهو كذلك.

وقال الواحدي[٣]: الخطاب في «أرسلناك» للنبيِّ ﷺ، وفي «لِتُؤمنوا» لأُمَّته. فعلى هذا إنْ كان اللام للتعليل يكون المُعلَّل محذوفاً، أي: لتؤمنوا بالله وكيت وكيت فَعَلَ ذلك الإرسال، أو للأمر على طريقة: «فبذلك فلتفرحوا» [يونس:٥٨] على قراءة التاء الفوقانية[٤]، فقيل: هو على معنى: قل لهم: لتؤمنوا.. إلخ.

وقيل: هو للأُمة على أن خِطابَه ﷺ مُنزَّلٌ منزلة خطابهم فهو عينُه ادعاء، واللام مُتعلِّقة بـ «أرسلنا». ولا يُعترض عليه بما قرَّره الرضي وغيره من أنه يمتنعُ أن يُخاطَب في كلام واحدٍ اثنان من غير عطفٍ أو تثنية أو جمع، لأنه بعدَ التنزيل لا تَعدُّد. وجُوِّز أن يكون ذلك لأنهم حينئذ غيرُ مُخاطَبين في الحقيقة فخطابهم في حكم الغَيْبة. وقيل: الامتناع المذكور مشروطٌ بأن يكون كلٌّ من المُخاطَبين مستقلًّا، أما إذا كان أحدُهما داخلاً في خطاب الآخر فلا امتناعَ كما يُعْلَم من تَتَبُّع كلامهم، وحينئذ يجوز أن يُرادَ خطابُ الأمة أيضاً من غير تغليبٍ، والكلام في ذلك طويل وما ذكر سابقاً سالم عن القال والقيل.

---

(١) حاشية الشهاب ٨/٥٨.
(٢) الدر المنثور ٦/٧١، وتفسير الطبري ٢١/٢٥٠.
(٣) الوسيط ٤/١٣٦.
(٤) قرأ بها يعقوب في رواية رويس. النشر ٢/٢٨٥.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تنصروه، كما رُوي عن جابر بن عبد الله مرفوعاً[١]، وأخرجه جماعةٌ عن قتادة[٢]، والضميرُ لله عز وجل، ونُصرته سبحانه بنصرة دِينه ورسوله ﷺ. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تعظِّموه كما قال قتادة وغيره، والضمير له تعالى أيضاً. وقيل: كلا الضميرين للرسول ﷺ، ورُوي عن ابن عباس. وزعم بعضُهم أنه يتعيَّن كونُ الضمير في «تُعزِّروه» للرسول عليه الصلاة والسلام لِتَوَهُّم أن التعزيرَ لا يكون له سبحانه وتعالى، كما يتعيَّن عند الكلِّ كونُ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ لله سبحانه وتعالى، ولا يخفى أن الأَولى كونُ الضميرين فيما تقدَّم لله تعالى أيضاً لئلا يلزم فَكُّ الضمائر من غير ضرورة، أي: وتُنزِّهوا الله تعالى، أو: تُصَلُّوا له سبحانه مِنَ السُّبحة ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ غُدوةً وعَشِيًّا، والمرادُ ظاهرهما، أو جميع النهار، ويُكنَى عن جميع الشيء بطرفيه كما يقال: شرقاً وغرباً، لجميع الدنيا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: صلاةُ الفجر وصلاةُ الظهر وصلاة العصر.

وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وابن كثير وأبو عمرو الأفعال الأربعة ـ أعني: «لِتؤمنوا» وما بعدَه ـ بياء الغيبة[٣]، وعن ابن مسعود وابن جُبير كذلك إلا أنهما قرأا: «ويُسَبِّحوا الله» بالاسم الجليل مكانَ الضمير[٤]، وقرأ الجَحْدري: «تَعْزُروه» بفتح التاء الفوقية وضمِّ الزاي مُخفَّفاً[٥]، وفي روايةٍ عنه فتحُ التاء وكسر الزاي مُخفَّفاً، ورُوي هذا عن جعفر الصادق رضي الله عنه[٦]، وقُرئ: بضمِّ التاء وكسرِ الزاي مُخفَّفاً[٧]، وقرأ ابن عباس ومحمد بن اليماني: «تُعَزِّزوه» بزاءين[٨] من العِزَّة، أي:

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٩٥، وعزاه أيضاً في الدر المنثور ٦/ ٧١ لابن عدي وابن مردويه وابن عساكر في تاريخه.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٧١، وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير [في التفسير ٢١/ ٢٥١].

(٣) البحر المحيط ٨/ ٩١، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو في التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥، وهي غير المشهورة عن أبي جعفر، والمشهور عنه كقراءة الباقين.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٧٢.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٤١، والمحتسب ٢/ ٢٧٥، والبحر ٨/ ٩١.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٩١.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

(٨) الكشاف ٣/ ٥٤٣، والبحر ٨/ ٩١، وينظر المحتسب ٢/ ٢٧٥.

تجعلوه عزيزاً، وذلك بالنسبة إليه سبحانه بجعل دينه ورسوله ﷺ كذلك. وقرئ: «وتُؤْقِرُوه» مِنْ أوقره[1] بمعنى وقَّره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يومَ الحديبية على الموت في نُصْرتك كما رُوي عن سلمة بن الأكوع وغيره، أو: على أنْ لا يَفِرُّوا من قريش كما رُوي عن ابن عمر وجابر ﵄، وسيأتي الكلامُ في تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

والمبايعة وقعتْ قبلَ نزول الآية، فالتعبيرُ بالمضارع لاستحضار الحال الماضية، وهي مفاعلةٌ من البيع، يقال: بايع السلطانَ مُبايعةً إذا ضَمِنَ بذلَ الطاعة له بما رضخ له، وكثيراً ما تُقال على البيعة المعروفة للسلاطين ونحوهم وإن لم يكن رَضْخٌ، وما وقع للمؤمنين قيل: يُشير إلى ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ١١١].

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنَّ المقصودَ من بيعةِ الرسول عليه الصلاة والسلام وإطاعته إطاعةُ الله تعالى وامتثالُ أوامره سبحانه لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فمبايعةُ الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه مُشاكلة، أو هو صرفُ مجازٍ.

وقرئ: «إنما يُبايعون لله»[2]، أي: لأجل الله تعالى ولوجهه، والمفعول محذوف، أي: إنما يُبايعونك لله.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ استئنافٌ مؤكِّد لما قبلَه؛ لأنه عبارة عن المبايعة. قال في «الكشاف»[3]: لمَّا قال سبحانه: «إنما يبايعون الله» أكَّده على طريقة التخييل، فقال تعالى: «يدُ الله فوقَ أيديهم» وأنه سبحانه مُنزَّه عن الجوارح وصفاتِ الأجسام، وإنما المعنى تقريرُ أنَّ عقدَ المِيثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوتٍ بينهما. وفي «المفتاح»: أما حسنُ الاستعارة التخييلية فبحسب حسن

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٥، والبحر ٨/ ٩١، ونسبت لتمام بن العباس بن عبد المطلب.

(٣) ٣/ ٥٤٣.

الاستعارة بالكناية متى كانت تابعةً لها، كما في قولك: فلانٌ بين أنيابِ المَنيَّة ومَخالبها، ثم إذا انضمَّ إليها المُشاكلة كما في «يد الله» إلخ كانت أحسنَ وأحسن[١]. يعني أنَّ في اسم الله تعالى استعارةً بالكناية تشبيهاً له سبحانه وتعالى بالمُبايع، واليد استعارةٌ تخييلة مع أن فيها أيضاً مُشاكلةً لذكرها مع أيدي الناس، وامتناعُ الاستعارة في اسم الله تعالى إنما هو في الاستعارة التصريحية دون المَكنية لأنه لا يلزم إطلاق اسمه تعالى على غيره سبحانه.

وروى الواحدي عن ابن كيسان: اليدُ: القوَّة، أي: قوَّة الله تعالى ونُصرته فوقَ قوتهم ونصرتهم، أي: ثِقْ بنصرة الله تعالى لك لا بنصرتهم وإنْ بايعوك.

وقال الزجاج[٢]: المعنى: يد الله في الوفاء فوقَ أيديهم، أو: في الثواب فوقَ أيديهم في الطاعة، أو: يدُ الله سبحانه في المِنَّة عليهم في الهِداية فوقَ أيديهم في الطاعة. وقيل: المعنى: نعمةُ الله تعالى عليهم بتوفيقهم لمبايعتك فوقَ نعمتهم، وهي مُبايعتهم إياك وأعظمُ منها، وفيه شيء من قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وكلُّ ذلك تأويلاتٌ ارتكبها الخَلَفُ، وأحسنُها ما ذُكر أولاً، والسلفُ يمرُّون الآية كما جاءت مع تنزيهِ الله عز وجل عن الجوارح وصفاتِ الأجسام، وكذلك يفعلون في جميع المُتشابهات ويقولون: إنَّ معرفةَ حقيقة ذلك فرعُ معرفةِ حقيقة الذات وأنى ذلك وهيهات هيهات.

وجُوِّز أن تكونَ الجملةُ خبراً بعد خبر لـ «إنَّ»، وكذا جُوِّز أن تكونَ حالاً من ضمير الفاعل في «يُبايعونك»، وفي جواز ذلك مع كونها اسميةً غيرَ مقترنةٍ بالواو كلامٌ.

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقضَ العهد ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعودُ ضررُ نَكْثه إلا عليه، وروى الزمخشري[٣] عن جابر بن عبد الله أنه ما نَكَثَ أحدٌ البيعةَ إلا جدُّ بن قيس وكان

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص٣٨٨.
(٢) معاني القرآن ٥/ ٢٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٣.

منافقاً. والذي نقله الطيبي عن مسلم يدلُّ على أن الرجلَ لم يُبايِعْ، لا أنه بايعَ ونكثَ، قال: سُئل جابر: كم كانوا يومَ الحُديبية؟ قال: كنا أربعَ عشرَ مئة، فبايعناه وعمر رضي الله عنه آخذٌ بيده صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه تحت الشجرة، وهي سَمُرةٌ، فبايعناه غيرَ جدِّ بن قيس الأنصاري اختفى تحت بَطْن بعيرِه ولم يَسِرْ مع القوم[١]. ولعلَّ هذا هو الأوفقُ؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ الآية [١٨].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «يَنْكِثُ» بكسر الكاف[٢].

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ هو الجنة وما يكون فيها مما لا عينَ رأَتْ ولا أُذن سمعتْ ولا خطرَ على قلب بَشَر، ويقال: وَفَى بالعهد وأوفى به، إذا تَمَّمه، وأوفى لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة:١٧٧]. وقرئ: «بما عَهِدَ» ثلاثيًّا[٣].

وقرأ الجمهور: «عليهِ» بكسر الهاء كما هو الشائع، وضَمَّها حفص هنا[٤]، قيل: وجهُ الضَّمِّ أنها هاء «هو»، وهي مضمومة فاستصحب ذلك كما في له وضربه، ووجه الكسر رِعاية الياء، وكذا في «إليه» و«فيه»، وكذا فيما إذا كان قبلَها كسرةٌ نحو: به، ومررتُ بغلامِه، لِثقل الانتقال من الكسر إلى الضمِّ، وحَسَّنَ الضَّمّ في الآية التوصُّلُ به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمرِ العَهْد المُشْعِرِ به الكلام، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائمٌ للوفاء بالعهد وإبقائه وعدم نَقْضه. وقد سألت كثيراً من الأجلَّة وأنا قريبُ عهدٍ بفتح فمي للتكلُّم عن وجه هذا الضَّمِّ هنا، فلم أُجَبْ بما يَسْكُن إليه قلبي، ثم ظَفِرتُ بما سمعتَ والله تعالى الهادي إلى ماهو خيرٌ منه.

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وروح وزيد بن عليٍّ: «فسنؤتيه» بالنون[٥].

---

(١) صحيح مسلم (١٨٥٦)، وقوله: سَمُرة: هي واحدة: سَمُر، كرجل، ضرب من شجر الطلح. النهاية (سمر).

(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التيسير ص١٤٤، والنشر ١/ ٣٠٤-٣٠٥.

(٥) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣٧٥. وقراءة زيد بن علي في البحر المحيط ٨/ ٩٢.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال مجاهد وغيره ودخل كلامُ بعضهم في بعض: «المُخلَّفون من الأعراب» هم: جُهينة ومُزينة وغِفار وأشجع والدِّيل وأسلم؛ استنفرهم رسولُ الله ﷺ حين أراد المسيرَ إلى مكة عامَ الحديبيةِ معتمراً ليخرجوا معه حَذراً من قريش أنْ يعرِضوا له بحرب أو يصدُّوه عن البيت، وأَحرم هو ﷺ وساقَ معه الهَدْيَ لِيُعلِم أنه لا يُريد حرباً، ورأى أولئك الأعرابُ أنه عليه الصلاة والسلام يستقبل عدوًّا[1] عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورين مكةَ وهم الأحابيش، ولم يكن الإيمانُ تمكَّن من قلوبهم، فقعدوا عن النبيِّ ﷺ وتخلَّفوا وقالوا: نذهب إلى قوم قد غَزَوْه في عُقْر داره بالمدينة وقتلوا أصحابَه فنقاتلهم! وقالوا: لن يرجِعَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام ولا أصحابُه من هذه السَّفرة، فَفضَحهم اللهُ تعالى في هذه الآية، وأعلمَ رسولَه ﷺ بقولهم واعتذارِهم قبلَ أن يَصِلَ إليهم، فكان كذلك.

و«المُخَلَّفون» جمع: مُخَلَّف؛ قال الطبرسي[2]: هو المتروكُ في المكان خَلْفَ الخارجين من البلد، مأخوذٌ من الخَلْف، وضدُّه المُقدَّم. و«الأعراب» في المشهور سكّان البادية من العرب، لا واحدَ له. أي: سيقول لك المتروكون الغير الخارجين معك معتذرين إليك: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ عن الذهاب معك ﴿أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا من يقومُ بحفظِ ذلك ويَحميه عن الضَّياع، ولعلَّ ذكرَ الأهل بعدَ الأموال من باب الترقِّي؛ لأنَّ حفظَ الأهل عند ذوي الغيرة أهمُّ من حِفظ الأموال.

وقرأ إبراهيم بن نوح بن باذان: «شغَّلتنا» بتشديد الغين المعجمة للتكثير[3].

﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾ اللهَ تعالى لِيغفرَ لنا تَخلُّفنا عنك حيث لم يكن عن تكاسُلٍ في طاعتك، بل لذلك الداعي.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ﴾ أي: إنَّ كلامهم من طَرَف اللسان غير مطابقٍ لما في الجَنان، وهو كنايةٌ عن كذبهم، فالجملةُ استئنافٌ لتكذيبهم، وكونها بدلاً من «سيقول» غيرُ ظاهر، والكذب راجعٌ لما تضمَّنه الكلامُ من الخبر عن

(١) في (م) وهامش الأصل: عدداً.
(٢) مجمع البيان ٢٦/٥٨.
(٣) البحر المحيط ٨/٩٣.

تخلُّفهم بأنه لضرورة داعيةٍ له، وهو القيامُ بمصالحهم التي لا بدَّ منها، وعدمِ من يقومُ بها لو ذهبوا معه عليه الصلاة والسلام، وكذا راجعٌ لما تضمَّنه «استغفر» الإنشاء من اعترافهم بأنهم مذنبون، وأنَّ دعاءه ﷺ لهم يُفيدهم فائدةً لازمةً لهم، وتسمية ذلك كذباً ليس لعدم مطابقة نسبته[1] الاعتقاد على ما ذهب إليه النَّظَّام، بل لعدم مطابقته الواقعَ بحسب الاعتقاد، وفرقٌ بين الأمرين.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أمرٌ له ﷺ أن يَرُدَّ عليهم بذلك عند اعتذارهم بتلك الأباطيل، والمِلْك إمساكٌ بقوة، لأنه بمعنى الضبط، وهو حفظٌ عن حزمٍ، ومنه: لا أَمْلِكُ رأسَ البعير، ومَلَكت العجين: إذا شددتَ عجنته، وملكت الشيء: إذا دخل تحت ضَبْطك دخولاً تامًّا، وإذا قلت: لا أملك، كان نفياً للاستطاعة والطاقة إمساكاً ومنعاً، فأصلُ المعنى هنا: فمن يستطيع لكم إمساكَ شيء مِن قُدرة الله تعالى إنْ أراد بكم. . إلخ، واللام مِن «لكم» إما للبيان أو من صلةِ الفعل، لأنَّ هذه الاستطاعةَ مُختصَّةٌ بهم ولأجلهم، و«من الله» حالٌ من النكرة - أعني «شيئاً» - مُقدَّمة، وتفسيرُ الملك بالمنع بيانٌ لحاصل المعنى، لأنه إذا لم يستطع أحدٌ الإمساك والدَّفْع فلا يُمكنه المنعُ وليس ذلك لجعله مجازاً عنه أو مُضَمَّناً إياه، واللامُ زائدةٌ كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] و«من» مُتعلِّقة بـ «يملك» كما قيل، والمراد بالضُّرّ والنفع ما يضرُّ وما ينفع، فهما مصدران مرادٌ بهما الحاصلُ بالمصدر أو مؤوَّلان بالوصف.

وقرأ حمزة والكسائي: «ضُرًّا» بضمِّ الضاد[2]، وهو لغةٌ فيه.

وحاصلُ معنى الآية: قل لهم إذْ لا أحدَ يدفع ضرَّه ولا نَفْعه تعالى، فليس الشُّغل بالأهل والمال عُذراً، فلا ذاك يدفعُ الضُّرَّ إنْ أراده عز وجل ولا مُغافَصةُ[3] العدوِّ تمنع النفعَ إن أرادَ بكم نَفْعاً، وهذا كلامٌ جامعٌ في الجواب فيه تعريضٌ بغيرهم من المُبطِلين وبجلالة مَحلِّ المُحِقِّين.

---

(١) في (م): نسبة.
(٢) وقرأ بها خلف من العشرة. التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.
(٣) قال صاحب القاموس (غفص): غافصه: أخذه على غرة.

ثم ترقّى سبحانه منه إلى ما يتضمَّن تهديداً بقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بكلِّ ما تعملونه ﴿خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ فيعلم سبحانه تَخلُّفَكم وقَصْدَكم فيه، ويُجازيكم على ذلك، ثم ختم جل وعلا بمكنون ضمائرهم ومخزون ما أعدَّ لهم عنده تعالى بقوله سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ إلى قوله تعالى: «بورا».

وفي «الانتصاف»(١): إن في قوله تعالى: «فمن يملك» إلخ لفًّا ونشراً، والأصلُ: فمن يملكُ لكم من الله شيئاً إنْ أرادَ بكم ضرًّا أو مَنْ يحرمكم النفعَ إن أرادَ بكم نفعاً؛ لأن «مَنْ يملك» يُستعمل في الضرّ كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ﴾ [المائدة:١٧]، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة:٤١]، ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الأحقاف:٨] ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «إني لا أمْلِكُ لكم شيئاً»(٢) يخاطب عشيرته، وأمثاله كثير. وسرُّ اختصاصه بدفع المَضَرَّة أنَّ المِلْكَ مضافٌ في هذه المواضعِ باللام، ودَفْعَ المضرَّة نفعٌ يضافُ للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمانُ المنفعة، فإنه ضررٌ عائدٌ عليه لا له، فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه كذلك، لأن القسمين يشتركان في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما نفي لدفع المقدور من خيرٍ وشرٍّ، فلما تقاربا أُدرجا في عبارة واحدة؛ وخصَّ عبارة دَفْع الضرّ لأنه هو المتوقَّع لهؤلاء، إذ الآية في سياق التهديد والوعيد الشديد، وهي نظيرُ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب:١٧] فإنَّ العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة، فهاتان الآياتان توأمتان في التقرير المذكور. انتهى. والوجهُ ما ذكرناه أولاً في الآية، وفي تسميةِ مثل هذا لفًّا ونشراً نظرٌ، ثم إنَّ الظاهرَ عمومُ الضرَّ والنفع.

وقال شيخ الإسلام أبو السعود: المراد بالضَّرِّ ما يضرُّ من هلاك الأهل والمال وضياعهما، وبالنفع ما ينفعُ من حفظ المال والأهل، وتعميمُهما يردُّه قوله تعالى: (بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) فإنه إضرابٌ عمَّا قالوه وبيانٌ لكذبه بعد بيان فسادِه على

---

(١) بحاشية الكشاف ٣/ ٥٤٤.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٤٠٢)، ومسلم (٢٠٤): (٣٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تقدير صِدْقه[١]. انتهى. وهو كلامٌ أوهى من بيت العنكبوت، لأنَّ في التعميم إفادةً لما ذكر وزيادة تُفيد قوةً وبلاغة.

والظاهرُ أنَّ كلًّا من الإضرابات الثلاثة مقصودٌ، وقال شيخ الإسلام: إنَّ قوله تعالى: «بل ظننتم» إلخ بدلٌ من «كان الله» إلخ مفسِّر لما فيه من الإبهام[٢].

وفي «البحر»: إنه بيانٌ للعلة في تخلُّفهم، أي: بل ظننتم ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ﴾ أي: لن يرجعَ من ذلك السَّفر[٣] ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ﴾ أي: عشائرهم وذوي قُرباهم ﴿أَبَدًا﴾ بأن يستأصِلَهم المشركون بالمرَّةِ، فحسبتم إنْ كنتم معهم أنْ يُصيبَكم ما يُصيبهم، فلأجل ذلك تخلَّفتم لا لما ذَكَرتُم من المعاذير الباطلة.

والأهلون جمعُ: أهل، وجمعه جمع السلامةِ على خلاف القياس، لأنه ليس بعَلَم ولا صفة من صفات مَنْ يَعْقِل، ويُجمع على: أهلات، بملاحظة تاء التأنيث في مفرده تقديراً، فيجمع كتمرة وتَمرَات، ونحوه أرض وأرضات، وقد جاء على ما في «الكشاف»[٤] أَهْلة بالتاء، ويجوز تحريكُ عينه أيضاً فيقال: أَهَلات بفتح الهاء. وكذا يُجمع على أهال كـ : لَيَال، وأطلق عليه الزمخشري: اسمَ الجمع؛ وقيل: وهو إطلاقٌ منه في الجمع الواردِ على خلافِ القياس، وإلا فاسم الجمع شرطُه عند النُحاة أن يكونَ على وزن المفردات، سواء كان له مُفردٌ أَمْ لا.

وقرأ عبد الله: «إلى أهلهم» بغير ياء[٥]، والآية ظاهرةٌ في أنَّ «لن» ليست للتأبيد، ومَنْ زعم إفادتها إيَّاه جعل «أبداً» للتأكيد.

﴿وَزُيِّنَ﴾ أي: حُسِّنَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الظنّ المفهوم من ظننتم ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فلم تَسْعَوا في إزالته، فتمكَّن فيكم، فاشتغلتم بشأن أنفسكم غير مُبالين بالرسول ﷺ والمؤمنين.

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١٠٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٩٣.
(٤) ٣/ ٥٤٤.
(٥) القراءات الشاذة ص١٤٢، والبحر ٨/ ٩٣.

وقيل: الإشارة إلى المظنون، وهو عدمُ انقلابِ الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين إلى أهليهم أبداً، أي: حُسِّن ذلك في قلوبكم فأحببتموه، والمرادُ من ذلك تقريعُهم ببغضهم الرسولَ ﷺ والمؤمنين، والمناسب للسياق ما تقدَّم.

وقُرِئ: «زَيَّن» بالبناء للفاعل[1] بإسناده إلى الله تعالى، أو إلى الشيطان.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو ظَنُّهم السابق، فتعريفُه للعهدِ الذِّكري، وأُعيد لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء، أو هو عامٌّ فيشمل ذلك الظَّنَّ وسائرَ ظُنونهم الفاسدةِ التي من جُملتها الظنُّ بعدمِ رسالته عليه الصلاة والسلام، فإنَّ الجازم بصحتها لا يحومُ فكرهُ حول ما ذكر من الاستئصال، فذِكْرُ ذلك للتعميم بعد التخصيص.

﴿وَكُنتُمْ﴾ في علم الله تعالى الأزلي ﴿قَوْمًا بُورًا ⑫﴾ أي: هالكين، لفسادِ عقيدتكم وسوءِ نيَّتكم، مُستوجِبين سُخْطَه تعالى وعقابَه جلَّ شأنه، وقيل: أي: فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيَّاتكم لا خيرَ فيكم.

والظاهرُ ـ على ما في «البحر»[2] ـ أنَّ «بوراً» في الأصل مصدرٌ كالهُلْك، ولذا وُصِفَ به المُفردُ المذكَّرُ في قول ابن الزبعرى:

يا رسولَ المَليك إنَّ لساني … راتقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ[3]

والمُؤنَّثُ، حكى أبو عُبيدة: امرأةٌ بور، والمثنى والمجموع. وجُوِّز أن يكون جمعَ: بائر، كحائل وحُول، وعائذ وعُوذ، وبازِل وبُزْل، وعلى المصدرية هو مُؤَوَّل باسمِ الفاعل. وجُوِّز أن تكونَ «كان» بمعنى صار، أي: وصِرْتم بذلك الظنِّ قوماً هالكين مستوجبين السَّخط والعقاب، والظاهرُ إبقاؤها على بابها، والمُضي باعتبار العلم كما أشرنا إليه. وقيل: أي: كنتم قبلَ الظنِّ فاسدين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلخ، كلامٌ مبتدأ من جهته عز وجل غير داخل في الكلام المُلقَّن، مُقرِّرٌ لبوارِهم ومُبيِّن لكيفيته، أي: ومَنْ لم

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٤، والبحر المحيط ٨/ ٩٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٣.
(٣) ديوان عبد الله بن الزبعرى ص٣٦.

يُصَدِّق بالله تعالى ورسوله ﷺ كدأب هؤلاء المُخَلَّفين ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيَّأنا ﴿لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ ناراً مسعورةً مُوقَدة مُلتهبة، وكان الظاهر: لهم، فعدل عنه إلى ما ذكر إيذاناً بأنَّ مَنْ لم يجمع بين الإيمان بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فهو كافرٌ، وأنه مُستوجِبٌ للسعير بكُفره لمكان التعليق المشتقّ، وتنكير سعير للتهويل لما فيه من الإشارة إلى أنها لا يمكن معرفتها واكتناهُ كُنْهها. وقيل: لأنها نارٌ مخصوصةٌ، فالتنكيرُ للتنويع، و«مَنْ» يحتمل أن تكونَ موصولةً وأن تكونَ شرطيةً، والعائدُ من الخبر أو من جواب الشرط هو الظاهرُ القائم مقامَ المُضمر.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ فهو عز وجل المُتصرِّفُ في الكلِّ كما يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أنْ يغفرَ له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ أنْ يُعذِّبه من غير دَخْل لأحدٍ في شيء من غفرانه تعالى وتعذيبه جل وعلا وجوداً وعدماً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ مُبالغاً في المغفرة لمن يشاء، ولا يشاء سبحانه إلا لمن تقتضي الحِكمةُ المغفرةَ له ممن يُؤمِنُ به سبحانه ورسولِهِ ﷺ، وأما مَنْ عداه من الكافرين المُجاهِرين والمنافقين فهم بمعزِلٍ من ذلك قَطْعاً.

وفي تقديم المغفرة، والتذييل بكونه تعالى غفوراً بصيغة المُبالغةِ، وضَمِّ «رحيماً» إليه الدالِّ على المبالغة أيضاً، دون التذييل بما يُفيد كونَه سبحانه مُعذِّباً، مما يدلُّ على سبق الرحمة ما فيه.

وفي الحديث: «كتب ربُّكم على نفسِه بيده قبلَ أن يخلُق الخَلْقَ: رحمتي سبقَتْ غضبي»[1]، وهذا السبقُ - على ما أشار إليه في «أنوار التنزيل»[2] - ذاتيٌّ، وذلك لأنَّ الغُفرانَ والرحمةَ بحسب الذات، والتعذيب بالعَرَض وتبعيته للقضاء والعصيان المقتضي لذلك، وقد صرَّح غيرُ واحد بأنَّ الخيرَ هو المقضي بالذات والشر بالعرض، إذْ لا يوجد شرٌّ جُزئي إلا وهو مُتضمِّنٌ لخير كُلِّي، وفصّل ذلك

(١) أخرجه أحمد (٩١٥٩)، والبخاري (٧٥٥٤)، وابن ماجه (١٨٩) - واللفظ له - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهو تفسير البيضاوي ٨/ ٦٠ (بهامش حاشية الشهاب).

في «شرح الهياكل»[١]. وقال بعضُ الأجِلَّة: المرادُ بالسبق في الحديث كَثْرةُ الرحمة وشُمولها، وكذا المرادُ بالغَلَبة الواقعة في بعض الرويات[٢]، وذلك نظيرُ ما يقال: غَلَبَ على فلان الكرمُ. ومَن جعل الرحمةَ والغضبَ من صفات الأفعال لم يُشكِلْ عليه أمرُ السَّبق، ولم يَحْتَجْ إلى جَعْله ذاتيًا كما لا يخفى.

والآية على ما قال أبو حيان لترجية أولئك المنافقين بعضَ الترجية إذا آمنوا حقيقةً. وقيل: لحسم أطماعهم الفارغةِ في استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم.

وفسَّر الزمخشري «من يشاء» الأول بالتائب، والثاني بالمُصِرِّ، ثم قال: يُكَفِّر سبحانه السيئات باجتناب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة[٣]. وهو اعتزالٌ منه مُخالِفٌ لظاهرِ الآية. وقال الطيبي: يمكن أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ، مَوْقِعُه موقع التذييل لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية، على أنْ يُقدَّر له ما يُقابله من قوله: ومَنْ آمنَ بالله ورسوله فإنا أَعْتدنا للمؤمنين الجِنان، مثلاً، فلا يُقيّد شيء مما قيَّده ليؤذِنَ بالتصرفِ التامِّ والمشيئة النافذة والغفران الكامل والرحمة الشاملة، فتأمل ولا تَغْفُلَ.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون من الأعراب، فاللَّام للعهد، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ ظرفٌ لما قبلَه لا شرطٌ لما بعدَه. والمراد بالمغانم مغانمُ خيبرَ كما عليه عامة المُفسِّرين، ولم نقف على خلافٍ في ذلك، وأُيِّد بأن السين تدلُّ على القرب، وخيبرُ أقربُ المغانم التي انطلقوا إليها من الحديبية كما علمت، فإرادتها كالمُتعيِّنة، وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنَّ الله تعالى وعدَ أهلَ الحديبية أن يُعوِّضهم من مغانمِ مكة خيبرَ إذا قفلوا مُوادِعين لا يُصيبون شيئاً، وخَصَّ سبحانه ذلك بهم، أي: سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانمِ خيبر لتأخذوها حسبما وَعَدَكم الله تعالى إيَّاها وخصَّكم بها طمعاً في عَرَضِ الدنيا

---

(١) هياكل النور لشهاب الدين يحيى بن حبش، شَرَحه الدواني وغيره. كشف الظنون ٢/ ٢٠٤٧. والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ٦٠.

(٢) كما في مسند أحمد (٨٩٥٨)، وصحيح البخاري (٧٥٥٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٤.

لما أنهم يَرَوْنَ ضعفَ العدو، ويتحقَّقون النَّصرة: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبرَ ونشهد معكم قتالَ أهلها.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ بأنْ يُشاركوا في الغنائم التي خصَّها سبحانه بأهل الحديبية. وحاصِلُه: يريدون الشركة التي لا تحصل لهم دون نُصرةِ الدين وإعلاء كلمة الله تعالى. والجملةُ استئنافٌ لبيان مُرادِهم بذلك القول. وقيل: يجوز أن تكونَ حالاً من المُخلَّفين، وهو خلافُ الظاهر، ولا يُنافي خبرَ التخصيص إعطاؤه عليه الصلاة والسلام بعضَ مُهاجري الحبشة القادمين مع جعفر وبعض الدَّوسيين والأشعريين من ذلك، وهم أصحابُ السفينة، كما في البخاري[١]، فإنه كان استنزالاً للمسلمين عن بعضِ حُقوقهم لهم، أو أن بعضَها فُتح صُلحاً، وما أعطاه عليه الصلاة والسلام فهو بعضٌ مما صالح عليه، وكلٌّ هذا مذكورٌ في السِّير، لكن الذي صحَّحه المُحدِّثون أنه لا صُلْحَ فيها.

وقال الكرماني: إنما أعطاهم ﷺ برضا أصحابِ الوقعة، أو أعطاهم من الخمس الذي هو حقُّه عليه الصلاة والسلام، ومَيْل البخاري إلى الثاني[٢].

وحَمْلُ كلام اللهِ تعالى على وَعْدِه بتلك الغنائم لهم خاصَّةً هو الذي عليه مجاهد وقتادة وعامَّة المفسرين، وقال ابن زيد: كلامُ الله قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] ووافقه الجُبَّائي على ذلك، وشَنَّع عليهما غيرُ واحد بأنَّ ذلك نازلٌ في المُخَلَّفين في غزوة تبوك من المنافقين، وكانت تلك الغزوةُ يومَ الخميس في رجب سنةَ تسع بلا خلاف كما قال القسطلاني، والحديبية في سنة ستٍّ كما قاله ابن الجوزي[٣] وغيره، وهذه إنما نزلت بُعَيْدَ الانصراف من الحُديبية كما علمت، وأيضاً قال في «البحر»[٤]: قد غَزَتْ مُزينة وجُهينة من هؤلاء

---

(١) صحيح البخاري (٣١٣٦) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٢) ترجم البخاري: باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين، ثم ذكر الحديث الذي أشار إليه المصنف قريباً، وهو أن النبي ﷺ أعطى لمن كان في الحبشة من مغانم فتح خيبر.

(٣) المنتظم ٣/ ٢٦٧.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٤.

المُخلَّفين بعد هذه المُدَّة معه عليه الصلاة والسلام وفضَّلهم ﷺ بعد ذلك على تميم وغَطَفان وغيرهم من العرب. وفي «الكشف»: لعلَّ القائلَ بذلك أراد أن هؤلاء المُخلَّفين لما كانوا مُنافقين مثلَ المُخلَّفين عن تبوك كان حكمُ الله تعالى فيهم واحداً، ألا ترى أن المعنى المُوجب مُشتركٌ، وهو رضاهم بالقُعود أولَ مرة، فكلامُ الله تعالى أُريد به حكمه السابق، وهو أن المنافقَ لا يستصحب في الغزو، ولم يُرِدْ أن هذا الحكم مُنقاسٌ على ذلك الأصل، أو الآية نازلةٌ فيهم أيضاً، فهذا ما يمكن في تصحيحه. انتهى.

ويقال عمَّا في «البحر»: إن الذين غَزَوا بعدُ لم يغزوا حتى أَخْلصوا، ولم يبقوا منافقين، والله تعالى أعلم.

وقرأ حمزة والكسائي: «كَلِمَ الله»(١) وهو اسم جنس جمعي، واحدُه: كَلِمةٌ.

﴿قُل﴾ إقناطاً لهم: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تَتَّبعونا، فإنه نفيٌ في معنى النهي للمبالغة، والمرادُ نَهْيهم عن الاتباع فيما أرادوا الاتباعَ فيه في قولهم: «ذرونا نتبعكم» وهو الانطلاقُ إلى خيبرَ، كما نُقِلَ عن مُحيي السنة عليه الرحمة(٢).

وقيل: المراد: لا تتَّبعونا ما دُمْتُم مرضى القلوب. وعن مجاهد: كان الموعد ـ أي: الموعد الذي تغييره تبديلُ كلام الله تعالى، وهو موعدُه سبحانه لأهل الحديبية ـ أنهم لا يتَّبعون رسولَ الله ﷺ إلا متطوِّعين لا نصيبَ لهم في المَغْنم، فكأنه قيل: لن تتَّبعونا إلا متطوِّعين. وقيل: المراد التأبيد. وظاهر السياق الأول.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ أن تَهيَّأتم للخروج معنا، وذلك عند الانصراف من الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سَماع هذا النهي: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أنْ نُشارِكَكم في الغنائم، وهو إضرابٌ عن كونه بحكم الله تعالى، أي: بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً.

وقرأ أبو حيوة: «تَحْسِدوننا» بكسر السين(٣).

---

(١) وقرأ بها خلف أيضاً. التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٩٢.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٥، والبحر المحيط ٨/ ٩٤.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾ أي: إلا فهماً قليلاً، وهو فَهْمهم لأمورِ الدنيا، وهو ردٌّ لقولهم الباطل في المؤمنين، ووصفٌ لهم بما هو أعظمُ من الحسد وأطمُّ، وهو الجهل المُفرِط وسوء الفهم في أمور الدين. وفيه إشارةٌ إلى ردِّهم حكمَ الله تعالى وإثباتهم الحسد لأولئك السادة من الجهل وقِلَّة التفكر.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرّر ذكرهم بهذا العنوان مبالغةً في الذمِّ وإشعاراً بشناعة التخلُّف: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي نجدة وشدَّة قوية في الحرب، وهم ـ على ما أخرج ابن المنذر والطبراني عن الزهري ـ بنو حنيفة مسيلمةُ وقومُه أهلُ اليمامة[1]، وعليه جماعة، وفي رواية عنه زيادة: أهل الرِّدة، ورُوي ذلك عن الكلبي.

وعن رافع بن خَديج: إنَّا كُنَّا نقرأ هذه الآيَةَ فيما مَضى ولا نعلم مَنْ هم حتى دعا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم أُريدوا بها. وعن عطاء بن أبي رباح ومجاهد ـ في رواية ـ وعطاء الخراساني وابن أبي ليلى: هم الفُرس. وأخرجه ابن جرير والبيهقي في «الدلائل» وغيرهما عن ابن عباس[2].

وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنه قال في الآية: دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقتال فارس أعرابَ المدينة جُهينة ومُزينة الذين كان النبيُّ ﷺ دعاهم للخروج إلى مكة[3].

وقال عكرمة وابن جُبير وقتادة: هم هوازن ومَنْ حاربَ الرسولَ ﷺ في حنين. وفي رواية ابن جرير وعبد بن حُميد عن قتادة التصريحُ بثقيف مع هوازن[4]، وفي رواية الفِريابي وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: هم هوازن وبنو حنيفة[5].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٧٣، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٦٨.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٧٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٦٦، ودلائل النبوة ٤/ ١٦٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٧٣.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٧٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٦٧.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٧٣.

وقال كعب: هم الروم الذين خرج إليهم ﷺ عامَ تبوك والذين بعثَ إليهم في غزوة مُؤتة. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال: هم فارس والروم(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: البارِز. يعني الأكراد كما في «الدر المنثور»(٢). وأخرج ابن المنذر والطبراني في «الكبير» عن مجاهد قال: أعرابُ فارس وأكراد العَجَم(٣).

وظاهرُ العطف أنَّ أكرادَ العجم ليسوا من أعراب فارس، وظاهرُ إضافة أكراد إلى العَجَم يُشعر بأنَّ من الأكراد ما يقال لهم: أكراد العرب. ولا نعرف هذا التقسيم، وإنما نعرفُ جيلاً من الناس يقال لهم: أكراد، من غيرِ إضافةٍ إلى عربٍ أو عَجَم. وللعلماءِ اختلافٌ في كونهم في الأصل عرباً أو غيرهم، فقيل: ليسوا من العرب، وقيل: منهم.

قال القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خَلِّكان في ترجمة المُهَلَّب بن أبي صُفرة ما نصُّه: حكى أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب «الاستيعاب» في كتابه «القَصْد والأَمَم في أنساب العرب والعَجَم» أنَّ الأكرادَ من نسل عمرو مُزَيْقِياء بن عامر بن ماء السماء، وأنهم وقعوا إلى أرض العَجَم فتناسلوا بها وكَثُر ولدُهم فَسُمُّوا: الأكراد، وقال بعض الشعراء في ذلك وهو يعضدُ ما قاله ابن عبد البرّ:

لعمركَ ما الأكراد أبناءَ فارس ... ولكنه كُرد بن عمرو بن عامر

انتهى(٤).

وفي «القاموس»: الكُرد بالضَّمِّ جيلٌ من الناس معروفٌ، والجمع: أكراد، وجدُّهم: كُرد بن عمرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء(٥). انتهى.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/٢٦٦، والدر المنثور ٦/٧٣.
(٢) ٦/٧٣، وينظر شرح كلمة البارز في فتح الباري ٦/٦٠٨.
(٣) الدر المنثور ٦/٧٣، وأخرجه في أخبار أصبهان ١/٧ بلفظ: أعراب فارس وهم الأكراد.
(٤) وَفَيات الأعيان ٥/٣٥٧، وكلام ابن عبد البر في القصد والأمم ص٤٩.
(٥) القاموس المحيط (كرد).

وعامرٌ هذا من العرب بلا شُبهة، فإنه ابنُ حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزْد ـ ويقال له: الأسْد ـ بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يَشجب بن يعرب بن قحطان، ويُسمَّى: عامراً، وهو عند الأكثر: ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل: مِنْ ولد هود. وقيل: هو هودٌ نفسه، وقيل: ابن أخيه، وذهب الزُّبير بن بكَّار إلى أنَّ قحطان من ذرية إسماعيل عليه السلام، وأنه قَحْطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل.

والذي رجَّحه ابن حجر(١) أن قبائلَ اليمن كلَّها ومنها قبيلة عمرو مُزَيْقِياء من ولد إسماعيل عليه السلام. ويدلُّ له تبويبُ البخاري: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام(٢). ذكر ذلك السيد نور الدين عليٌّ السمهودي في «تاريخ المدينة»(٣)، وفيه أنَّ الأنصار الأوس والخزرج من أولاد ثعلبة العنقاء بن عمرو مُزَيْقِياء المذكور، وكان له ثلاثةَ عشرَ ولداً ذكوراً منهم ثعلبة المذكور وحارثة والد خُزاعة، وجفنة والد غسان، ووداعة وأبو حارثة وعوف وكعب ومالك وعمران وكُرد كما في «القاموس». انتهى.

وفائدة الخلاف تظهر في أمورٍ منها الكَفَاءة في النِّكاح، والعامَّة لا يعدُّونهم من العرب، فلا تَغْفُل، والذي يَغْلِبُ على ظنِّي أن هؤلاء الجيل الذين يقال لهم اليوم: أكراد، لا يبعدُ أن يكونَ فيهم مَنْ هو من أولاد عمرو مُزَيقياء، وكذا لا يبعدُ أن يكونَ فيهم من هو من العرب، وليس من أولاد عمرو المذكور إلا أنَّ الكثير منهم ليسوا من العرب أصلاً، وقد انتظم في سِلْك هذا الجيل أُناسٌ يقال: إنهم من ذرية خالد بن الوليد، وآخرون يقال: إنهم من ذرية مُعاذ بن جبل؛ وآخرون يقال: إنهم من ذرية العباس بن عبد المطلب، وآخرون يقال: إنهم من بني أمية، ولا يصحُّ عندي من ذلك شيء، بَيْدَ أنه سكن مع الأكراد طائفةٌ من السادة أبناءِ الحسين رضي الله عنه يقال لهم: البَرْزَنْجية، لا شكَّ في صحَّة نَسَبهم، وكذا في جلالة حَسَبهم.

(١) فتح الباري ٦/ ٥٣٧-٥٣٨.
(٢) صحيح البخاري قبل الحديث (٣٥٠٧).
(٣) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ٥٣٣-٥٣٦.

وبالجملة الأكرادُ مشهور بالبأس[(١)]، وقد كان منهم كثيرٌ من أهل الفضل، بل ثبتَ لبعضهم الصُّحبة، قال الحافظ ابنُ حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة»[(٢)] في حرف الجيم: جابان والد ميمون، روى ابن مَنْده من طريق أبي سعيد مولى بن هاشم عن أبي خَلدة: سمعتُ ميمونَ بن جابان الكُردي[(٣)] عن أبيه أنه سمع النبيَّ ﷺ غيرَ مرَّة حتى بلغ عشراً، وذكر الحديث، وقد أخرج نحوه الطبراني في «المعجم الصغير» عن ميمون الكُردي عن أبيه أيضاً، وهو أتمُّ منه، ولفظه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَيُّما رجلٍ تزوَّج امرأةً على ما قلَّ من المَهْر أو كثُر ليس في نَفْسه أن يُؤدِّيَ إليها حقَّها، خَدَعَها، فمات ولم يُؤدِّ إليها حقَّها، لقي الله يومَ القيامة وهو زانٍ، وأيمّا رجلٍ استدانَ ديناً لا يُريد أن يُؤدِّيَ إلى صاحبه حقَّه خَدَعه حتى أَخذَ ماله، فمات ولم يُؤدِّ إليه دَيْنه، لَقِيَ اللهَ وهو سارقٌ»[(٤)]. ويُكْنَى ميمون هذا بأبي بَصير، بفتح الموحدة، وقيل: بالنون، وهو كما في «التقريب»[(٥)]: مقبولٌ.

هذا، وأشهرُ الأقوال في تعيين هؤلاء القوم أنهم بنو حنيفة.

وقال أبو حيان[(٦)]: الذي أقوله: إنَّ هذه الأقوالَ تمثيلاتٌ من قائلِها لا تعيين القوم، وهذا وإنْ حصل به الجمع بين تلك الأقوال خلافُ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ على معنى: يكون أحدُ الأمرين إما المُقاتلة أو الإسلام لا ثالثَ لهما، فـ «أو» للتنويع والحصر لا للشكّ، وهو كثير، ويدلُّ لذلك قراءةُ أُبَيّ وزيد بن عليٍّ: «أو يُسلموا» بحذف النون[(٧)]، لأنَّ ذلك للناصب، وهو يقتضي أنَّ «أو» بمعنى «إلا»، أي: إلا أنْ يُسلموا، فيفيد الحصرَ، أو بمعنى

(١) في (م): باليأس.
(٢) ٢/ ٤٠.
(٣) في مطبوع الإصابة: الصُّرَدي.
(٤) المعجم الصغير (١١١).
(٥) تقريب التهذيب ص٤٨٨.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٩٤.
(٧) القراءات الشاذة ص١٤٢.

«إلى»، أي: إلى أَنْ يُسلموا، والغايةُ تقتضي أنه لا ينقطع القتالُ بغير الإسلام فيفيده أيضاً كما قيل.

والجملةُ مستأنفةٌ للتعليل، كما في قولك: سيدعوك الأمير يُكرمك أو يَكْبِت عدوَّك، قال في «الكشف»: ولا يجوز أن تكونَ صفةً لـ «قوم» لأنهم دُعُوا إلى قتال القومِ لا أنهم دُعُوا إلى قومٍ موصوف بالمقاتلة أو الإسلام. وجوَّز بعضهم كونها حاليةً وحاله كحال الوصفية. وأصلُ الكلام: سَتُدْعَوْن إلى قوم أُولي بأس لِتُقاتلوهم أو يُسلموا، فعدل إلى الاستئناف لأنه أعظم الوصلين، ثم فيه أنهم فعلوا ذلك وحصَّلوا الغرضَ، فهو يُخبر عنه واقعاً.

والاعتراض بأنه يلزم أن لا ينفكَّ الوجودُ عن أحدِهما لصدق إخباره تعالى، ونحن نرى الانفكاكَ بأنْ يُتركوا سُدى أو بالهدنة، فينبغي أن يُؤَوَّل بأنه في معنى الأمر على ما في «أمالي» ابن الحاجب = غيرُ سديد؛ لأنَّ القومَ مخصوصون لا عُموم فيهم، وكان الواقعُ أنهم قُوتلوا إلى أن أسلموا، سواء فُسِّر القوم ببني حنيفة، أو بثقيف وهوازن، أو فارس والروم، على أنَّ الإسلامَ الانقيادُ، فما انفكَّ الوجودُ عن أحدِهما، بل وقعا، وأما امتناعُ الانفكاك فليس من مُقتضى الوضع ولا الاستعمال، بل ذلك في الكلام الاستدلالي قد يتّفق.

وأطال الطيبي الكلامَ في هذا المقام ثم قال: الذي يقتضيه المقام ما ذهب إليه صاحبُ «التحبير» من أنَّ «يسلمون» عطفٌ على «تُقاتلونهم» إما على الظاهر، أو بتقدير: هم يُسلمون، ليكون مِن عَطْفِ الاسمية على الفعلية، وحينئذ تكون المناسبةُ أكثرَ إذ تخرج الجملة إلى باب الكناية، والمعنى: تُقاتلونهم أو لا تقاتلونهم لأنهم يُسلمون، وقد وضع فيه: أو هم يسلمون، موضعَ: أَوْ لا تُقاتلونهم، لأنهم إذا أسلموا سقطَ عنهم قتالُهم ضرورةً، والاستدعاء عليه ليس إلا للاختبار، و«أو» للترديد على سبيل الاستعارة، وفيه ما فيه.

وشاع الاستدلالُ بالآية على صحة إمامةِ أبي بكر ﷺ، ووجَّه ذلك الإمام[1]، فقال: الداعي في قوله تعالى: «ستُدعون» لا يخلو من أن يكون رسولَ الله ﷺ، أو

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٩٢.

الأئمَّة الأربعة، أو مَنْ بعدَهم، لا يجوز الأول لقوله سبحانه: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلخ، ولا أن يكون عليًّا رضي الله عنه وكرم وجهه لأنه إنما قاتل البُغاة والخوارج، وتلك المقاتلة للإسلام لقوله عز وجل: «أو يسلمون» ولا مَنْ مَلَكَ بعدَهم؛ لأنهم عندنا على الخطأ وعند الشيعة على الكفر، ولما بَطَلت الأقسام تعيَّن أن يكون المرادُ بالداعي أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ثم إنه تعالى أوجبَ طاعته وأوعد على مُخالفته، وذلك يقتضي إمامته، وأيُّ الثلاثة كان ثَبَتَ المطلوب، أما إذا كان أبا بكر فظاهرٌ، وأما إذا كان عمرَ أو عثمانَ؛ فلأنَّ إمامته فرعُ إمامته رضي الله عنه.

وتُعُقِّب بأنَّ الداعيَ كان رسولَ الله ﷺ، ويُشعر بذلك السين.

قوله: لا يجوز؛ لقوله سبحانه: «لن تتبعونا» إلخ. فيه أنَّ «لن» لا تُفيد التأبيد على الصحيح، وظاهرُ السِّياق يدلُّ على أنَّ المرادَ به: لن تتَّبعونا في الانطلاق إلى خيبرَ كما سمعت عن محيي السنة. أو هو مُقيَّد بما رُوي عن مجاهد، أو بما حُكي عن بعض.

وقال أبو حيان[1]: القولُ بأنهم لم يُدْعَوا إلى حرب في أيام الرسول ﷺ ليس بصحيح، فقد حضر كثيرٌ منهم مع جعفر في مؤتة، وحضروا حربَ هوازن معه عليه الصلاة والسلام، وحضروا معه ﷺ أيضاً في سفرة تبوك. انتهى. ولا يخفى أن هذا إذا صحَّ يَنفي حملَ النفي على التأبيد.

ومن الشيعة من اقتصر في رَدِّ الاستدلال على الدعوة في تبوك. وتُعُقِّب بأنه لم يَقَعْ فيها ما أخبر الله تعالى به في قوله سبحانه: «تُقاتلونهم أو يسلمون»، ومنهم مَنْ زعم أنَّ الداعي عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وزَعَم كُفر البُغاة والخوارج عليه رضي الله عنه، وأنه لو سُلِّم إسلامُهم يُرادُ بالإسلام في الآية الانقيادُ إلى الطاعة ومُوالاة الأمير، وفيه ما لا يخفى.

والإنصافُ أن الآية لا تكاد تصحُّ دليلاً على إمامة الصدِّيق رضي الله عنه إلا إنْ صحَّ خبرٌ مرفوعٌ في كون المرادِ بالقوم بني حنيفة ونحوهم، ودون ذلك خرطُ القَتاد.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٤.

ونفى بعضُهم صحَّةَ كون المراد بالقوم فارساً والروم، لأنَّ المرادَ في قوله تعالى: «تقاتلونهم أو يسلمون» على ما سمعت، وفارسُ مجوسٌ والرومُ نصارى، فلا يتعيَّن فيهم أحدُ الأمرين من المُقاتلة والإسلام، إذ يُقبل منهم الجزية، وكذا اليهود ومشركو العجم والصابئة عند أبي حنيفة ﷺ، وقال: يتعيَّن كونُهم مُرتدِّين أو مشركي العرب، لأنهم الذين لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، ومثلُ مشركي العرب مشركو العجم عند الشافعي ﷺ، فعنده لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس.

وأنت تعلم أنَّ مَنْ فسَّر القومَ بذلك يُفسِّر الإسلام بالانقياد، وهو يكون بقبول الجزية، فلا يتمُّ له أمرُ النفي، فلا تغفل.

﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ الداعي فيما دعاكم إليه ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو ـ على ما قيل ـ الغنيمة في الدينا والجنة في الأخرى ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ لِتضاعف جُرمكم، وهذا التعذيب قال في «البحر»[1]: يحتمل أن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة. ويَحتمِلُ عندي ـ وهو الأوفق بما قبله على ما قيل ـ كونه فيهما، ولا بأس بكون كلٍّ من الإيتاء والتعذيب في الآخرة، بل لعله المُتبادر لكَثْرة استعمالهما في ذلك، ولا يحسنُ كون الأمرين في الدنيا، ولا كون الأول في الآخرة، أو فيها وفي الدنيا، والثاني في الدنيا فقط.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ أي: إثم ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: في التخلُّف عن الغزو لِمَا بهم من العُذر والعاهة، وفي نفي الحَرَج عن كلٍّ من الطوائف المعدودة مزيدُ اعتناء بأمرهم، وتوسيعٌ لدائرة الرُّخصة، وليس في نفي ذلك عنهم نهيٌ لهم عن الغزو، بل قالوا: إنَّ أجرهم مُضاعَفٌ في الغزو، وقد غزا ابنُ أمِّ مكتوم وكان أعمى ﷺ، وحضر في بعض حروب القادسية وكان يُمسك الراية. وفي «البحر»[2]: لو حُصِرَ المسلمون، فالفرضُ مُتوجِّه بحسب الوسع في الجهاد.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٥.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٥.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما ذُكِرَ من الأوامر والنواهي ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ لا يُقادَر قَدْرُه، والمعنى بالوعد والوعيد هنا أعمُّ من المعنى بهما فيما سبق كما يُنبئ عن ذلك التعبير بـ «من» هنا وبضمير الخِطاب هناك.

وقيل في الوعيد: «يُعذِّبه» إلخ، دون: يُدخله ناراً، ونحوه مما هو أظهرُ في المُقابلة؛ لقوله تعالى: «يدخله جنات» إلخ = اعتناءً بأمره من حيث إنَّ التعذيبَ يوم القيامة عذاباً أليماً يستلزمُ إدخالَ النار، وإدخالها لا يستلزم ذلك، واعتنى به لأنَّ المقامَ يقتضيه، ولذا جيء به كالمُكرَّر مع الوعيد السابق. ويكفي في الإشارة إلى سبق الرحمة إخراجُ الوعد هاهنا كالتفصيل لما تقدَّم، والتعبيرُ هناك بإيتاء الأجر الحَسن الظاهر في الاستحقاق مع إسناد الإيتاء إلى الاسم الجليل نفسهِ، فتأمَّل فَلمسلك الذِّهن اتساع.

وقرأ الحسن وقتادة وأبو جعفر والأعرج وشيبة وابن عامر ونافع: «نُدخله» و«نُعذبه» بالنون فيهما(١).

ولما ذكر سبحانه حالَ مَنْ تخلَّف عن السفر مع رسول الله ﷺ ذَكَر عز وجل حال المؤمنين الخُلَّص الذين سافروا معه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وهم أهلُ الحديبية إلا جدَّ بن قيس فإنه كان منافقاً ولم يُبايعْ.

وأصلُ هذه البيعة ـ وتُسمَّى: بيعةَ الرضوان؛ لقول الله تعالى فيها: «لقد رضي» إلخ ـ أنَّ النبيَّ ﷺ لما نزل الحديبيةَ بعثَ خِرَاشاً ـ بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة وألفٍ بعدها شينٌ معجمةٌ ـ ابنَ أُميةَ الخُزاعيَّ رسولاً إلى أهل مكة، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب، يُعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريدُ قتالاً، فلما أتاهم وكلَّمهم عَقَروا جَمَلَه وأرادوا قَتْله، فمنعه الأحابيش، فَخَلَّوا سبيلَه حتى

(١) قراءة ابن عامر ونافع وأبي جعفر في التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/٢٤٨، وقراءة الحسن وقتادة والأعرج وشيبة ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٩٥.

أتى الرسولَ ﷺ، فدعا عمر رضي الله عنه ليبعثَه، فقال: يا رسول الله، إنَّ القومَ قد عَرَفوا عداوتي لهم وغِلَظي عليهم، وإني لا آمنُ وليس بمكة أحدٌ من بني عَدِي يغضب لي إنْ أُوذيتُ، فأَرْسِل عثمان بن عفان، فإنَّ عشيرتَه بها وهم يُحِبُّونه، وإنه يُبلِّغ ما أردتَ، فدعا رسولُ الله ﷺ عثمانَ فأرسله إلى قريش وقال: «أَخبِرْهم أنَّا لم نأتِ بقتال وإنما جئنا عُمَّاراً، وادعُهم إلى الإسلام» وأمره عليه الصلاة والسلام أنْ يأتيَ رجالاً بمكة مؤمنين ونساءً مؤمنات، فيبشِّرهم بالفتح ويُخبرهم أنَّ الله تعالى قريباً يُظهر دِيْنَه بمكة، فذهب عثمانُ رضي الله عنه إلى قريش وكان قد لَقِيَه أبانُ بن سعيد بن العاص فنزل عن دابَّته وحملَه عليها وأجاره، فأتى قريشاً فأخبرهم، فقالوا له: إن شئتَ فَطُفْ بالبيت، وأما دخولكم علينا فلا سبيلَ إليه، فقال رضي الله عنه: ما كنتُ لأَطوفَ به حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ، فاحْتَبَسُوه، فبلغَ رسولَ الله ﷺ والمسلمين أنَّ عثمانَ قد قُتِلَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا نبرحُ حتى نُناجِزَ القومَ» ونادى مُناديه عليه الصلاة والسلام: ألا إنَّ روحَ القُدُس قد نزل على رسول الله ﷺ فأمره بالبيعة، فاخرجوا على اسمِ الله تعالى فبايعوه، فثار المسلمون إلى رسولِ الله ﷺ وبايعوه[1].

قال جابر ـ كما في «صحيح مسلم» وغيره ـ: بايعناه ﷺ على أنْ لا نَفِرَّ، ولم نُبايعه على الموت[2].

وأخرج البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: بايعتُ رسولَ الله ﷺ تحت الشجرة، قيل: على أيِّ شيء تُبايعون يومئذ؟ قال: على الموت[3].

وأخرج مسلم عن مَعْقِل بن يسار أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسولِ الله ﷺ وهو يُبايع الناسَ[4].

وكان أوَّلُ من بايع رسولَ الله ﷺ يومئذ أبا سنان، وهو وهبُ بن محصن أخو

(١) ينظر السيرة النبوية ٢/ ٣١٥-٣١٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٣-١٣٤.
(٢) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧).
(٣) صحيح البخاري (٢٩٦٠)، وهو في مسند أحمد (١٦٥٠٩)، وصحيح مسلم (١٨٦٠).
(٤) صحيح مسلم (١٨٥٨).

عُكاشة بن محصن. وقيل: سنان بن أبي سنان، وروى الأول البيهقي في «الدلائل» عن الشعبي، وأنه قال للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: ابْسُطْ يدكَ أبايعك، فقال النبيُّ ﷺ: «علامَ تبايعني؟» قال: على ما في نَفْسِكَ[١]. وفي حديث جابر الذي أخرجه مسلمٌ أنه قال: بايعناه عليه الصلاة والسلام وعمرُ ﷺ آخذٌ بيده[٢]. ولعلَّ ذلك ليس في مبدأ البيعة، وإلا ففي «صحيح البخاري» عن نافع أنَّ عمرَ ﷺ يومَ الحديبية أرسل ابنَه عبدَ الله إلى فَرسٍ له عند رجل من الأنصار أنْ يأتيَ به ليقاتلَ عليه ورسول الله ﷺ يُبايع عند الشجرة وعمرُ لا يدري بذلك، فبايعه عبدُ الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمرَ وعمرُ ﷺ يستلئمُ للقتال[٣]، فأخبره أنَّ رسولَ الله ﷺ يُبايع تحت الشجرة، فانطَلَقَ فذهبَ معه حتى بايع رسولَ الله ﷺ[٤].

وصحَّ أنه ﷺ ضرب بيده اليُمنى على يدِه الأخرى، وقال: «هذه بيعةُ عثمانَ»[٥].

ولما سَمِعَ المشركون بالبيعة خافوا وبَعثوا عثمانَ ﷺ وجماعةً من المسلمين. وكانت عِدة المؤمنين ألفاً وأربع مئة على الأصحّ عند أكثر المُحدِّثين، ورواه البخاري عن جابر[٦]، وروَى عن سعيد عن قتادة[٧] قال: قلتُ لسعيد بن المسيَّب بلغني أنَّ جابر بن عبد الله كان يقول: كانوا أربعَ عشرةَ مئة، فقال لي سعيد: حدثني جابر كانوا خمسَ عشرةَ مئة الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ، وتابعه أبو داود[٨]. وروى أيضاً عن عبد الله بن أوفى قال: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وثلاثَ مئة[٩]، وعند

---

(١) دلائل النبوة ٤/ ١٣٧، وإسناده منقطع.
(٢) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧) وسلف جزء منه قريباً.
(٣) اسْتَلأَمَ: لَبِسَ لأَمَتَهُ، واللأْمة: الدرع. المصباح (لوم).
(٤) صحيح البخاري (٤١٨٦).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٠٢) من حديث أنس ﷺ.
(٦) برقم (٤١٥٤).
(٧) في الأصل و(م): سعيد بن قتادة، وهو تحريف.
(٨) صحيح البخاري (٤١٥٣)، وقوله: تابعه أبو داود. أي: الطيالسي كما في فتح الباري ٧/ ٤٤٣، والخبر في مسنده (١٧٢٩).
(٩) أخرجه البخاري (٤١٥٥)، ومسلم (١٨٥٧).

[ابن] أبي شيبة من حديث سَلَمة بن الأكوع أنهم كانوا ألفاً وسبعَ مئة. وجزم موسى بن عُقبة بأنهم كانوا ألفاً وستَّ مئة(١)، وحكى ابن سعد أنهم ألف وخمسُ مئة وخمسة وعشرون(٢).

وجُمع بين الروايات بأنها بناءً على عَدِّ الجميع أو ترك الأصاغر والأتباع والأوساط، أو نحو ذلك(٣)؛ وأما قول ابن إسحاق: إنهم كانوا سبعَ مئة(٤)، فلم يُوافقه أحدٌ عليه لأنه قاله استنباطاً من قول جابر: تنحر البدنة عن عشرة، وكانوا نحروا سبعين بدنة. وهذا لا يدلُّ على أنهم ما كانوا نحروا غير البُدن مع أنَّ بعضَهم كأبي قتادة لم يكن أحرمَ أصلاً.

والشجرة كانت سَمُرةً، والمشهور أنَّ الناسَ كانوا يأتونها فيصلُّون عندها، فبلغ ذلك عمر ﷺ فأمر بقطعها خشيةَ الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادةِ غير الله تعالى فيهم.

وفي «الصحيحين» من حديث طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقتُ حاجًّا، فمررت بقوم يُصلُّون، قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرةُ حيث بايعَ رسولُ الله ﷺ بيعةَ الرضوان، فأتيت سعيدَ بن المُسيَّب فأخبرته فقال: حدَّثني أبي أنه كان ممن بايعَ رسولَ الله عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة، قال: فلما كان من العام المُقبل نسيناها فلم نقدر عليها، ثم قال سعيد: إنَّ أصحابَ محمد ﷺ لم يعلموها وعَلِمتموها أنتم! فأنتم أعلم(٥)؟

والرِّضا يُقابل السَّخط، وقد يُستعمل بـ «عن» والباء، ويُعدَّى بنفسه، وهو مع «عن» إنما يدخل على العين لا المعنى، ولكن باعتبار صدور معنًى منه يُوجب

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٤٤٠، وذَكَر حديث ابن أبي شيبة الذي قبله، ولفظة: ابن. لم ترد في الأصل و(م)، واستدركت منه، والخبر عند ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٣٨.
(٢) الطبقات ٢/ ٩٥.
(٣) ينظر فتح الباري ٧/ ٤٤٠.
(٤) السيرة النبوية ٢/ ٣٠٨-٣٠٩.
(٥) صحيح البخاري (٤١٦٣)، وصحيح مسلم (١٨٥٩). ووقع في الأصل و(م): فأيكم أعلم؟ والمثبت من الصحيحين.

الرضا، وما في الآية من هذا القِسْم، والمعنى الموجب للرضا فيها هو المُبايعة، وإذا ذكر مع العين معنى بالباء، فقيل: رضيتُ عن زيد بإحسانه، كانت الباء للسببية، وجاز أن تكونَ صلةً، وتتعيَّن للسببية مع مُقابلةِ نحوِ: سَخِطتُ عليه بإساءته، وهو مع الباء نحو: رَضِيتُ به، يجب دخولُه على المعنى، إلا إذا دخل على الذات تمهيداً للمعنى ليكونَ أبلغَ فتقول: رضيتُ بقضاء الله تعالى، ورضيتُ بالله تعالى ربًّا وقاضياً، وإذا عُدِّي بنفسه جاز دخولُه على الذات نحو: رضيتُ زيداً، وإن كان باعتبار المعنى تنبيهاً على أنَّ كلَّه مرضيٌّ بتلك الخَصْلة، وفيه مبالغةٌ. وجاز دخولُه على المعنى، كـ: رضيتُ إمارةَ فلان. والأولُ أكثرُ استعمالاً، وإذا استعمل مع اللام تعدَّى بنفسه كقولك: رضيتُ لك التجارةَ. وفيه تجوُّز، إما لجعل الرِّضا مجازاً عن الاستحماد، وإما لأنك جعلتَ كونه مرضيًّا له بمنزلة كونه مرضيًّا لك مبالغةً في أنه في نفسه مرضيٌّ محمود، وأنك تختار له ما تختار لنفسك، وهذا أبلغُ.

ثم هو في حقِّ الحقِّ تعالى شأنُه مُحالٌ عند الخَلَف، قالوا: لأنه سبحانه لا تحدثُ له صفةٌ عقيبَ أمرٍ ألبتة، فهو عندهم مجازٌ إما من أسماء الصفات إذا فُسِّر بإرادة أن يُثيبهم إثابةَ مَنْ رضي عمَّن تحت يدِه، وإما من أسماءِ الأفعال إذا فُسِّر بالإثابة، وكذا إذا أُريد الاستحماد.

وفي «البحر»: إن العاملَ بـ «إذ» في الآية هو «رضي»، وهو هنا بمعنى إظهار النعم عليهم، فهو صفةُ فعل لا صفة ذات لِيتقيَّد بالزمان[1]. وأنت تعلم أنَّ السَّلف لا يُؤَوِّلون مثل ذلك ويُثبتونه له تعالى على الوجه اللائق به سبحانه، ويَصْرِفون الحدوثَ الذي يستدعيه التقييدُ بالزمان إلى التعلّق. ثم إنَّ تقييدَ الرِّضا بزمان المُبايعة يُشعر بِعلِّيتها له، فلا حاجةَ إلى جعل «إذْ» للتعليل.

والتعبيرُ بالمضارع لاستحضار صورة المُبايعة. وقوله سبحانه: «تحت الشجرة» إما مُتعلِّقٌ بـ «يبايعونك» أو بمحذوف هو حالٌ من مفعوله، وفي التقييد بذلك إشارةٌ إلى مَزيد وقعِ تلك المُبايعة وأنها لم تكن عن خوفٍ منه عليه الصلاة والسلام، ولذا

---

(١) البحر ٨/ ٩٦، وفيه: لتقييده بالزمان.

استوجَبتْ رضا الله تعالى الذي لا يُعادله شيء ويستتبع ما لا يكادُ يخطرُ على بال، ويكفي فيما ترتَّب على ذلك ما أخرج أحمدُ عن جابر، ومسلم عن أمِّ بِشر[1] عنه[2]، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يدخل النارَ أحدٌ ممن بايعَ تحت الشجرة»، وقد قال عليه الصلاة والسلام ذلك عند حفصةَ فقالت: بلى يا رسولَ الله، فانتهرها، فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. فقال عليه الصلاة والسلام: «قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم: ٧٢][3].

وصحَّ برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر أنه ﷺ قال لهم: «أنتم خيرُ أهلِ الأرض»[4] فينبغي لكلِّ من يدَّعي الإسلام حُبّهم وتعظيمهم والرضا عنهم، وإنْ كان غير ذلك لا يضرُّهم بَعْدَ رضا الله تعالى عنهم، وعثمان منهم، بل كانت يدُ رسول الله ﷺ له ﷺ - كما قال أنس[5] - خيراً من أيديهم لأنفسهم.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصِّدق والإخلاص في مُبايعتهم، ورُوي نحو ذلك عن قتادة وابن جُريج وعن الفراء[6]. وقال الطبري ومنذر بن سعيد: من الإيمان وصحته وحُبِّ الدين والحِرص عليه[7]. وقيل: من الهمّ والأنفة من لين الجانب للمشركين وصُلحهم، واستحسنه أبو حيَّان[8]، والأولُ عندي أحسنُ.

وهو عطف على «يبايعونك» لما عرفتَ من أنه بمعنى: بايعوك. وجُوِّز عطفُه على «رَضِيَ» بتأويله بـ: ظهرَ عِلْمُه، فيصير مُسبَّباً عن الرِّضا مُترتباً عليه.

---

(١) في صحيح مسلم: أم مُبَشِّر. قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب ٤/ ٧٠١: أم مُبَشِّر الأنصارية امرأة زيد بن حارثة، ثم قال: زعم الدمياطي أن اسمها: جهينة بنت صيفي وأنها زوجة البراء بن معرور وأمُّ ولديه: بشر ومُبَشِّر، وخلف عليها بعده زيد بن حارثة.

(٢) كذا وقع في الأصل و(م): عنه، وهو وهم، فالحديث في صحيح مسلم من رواية جابر عن أم مبشر عن النبيِّ ﷺ.

(٣) مسند أحمد (١٤٧٧٨)، وليس فيه ذكر حفصة ﵄، وصحيح مسلم (٢٤٩٦)، واللفظ له.

(٤) صحيح البخاري (٤١٥٤)، وصحيح مسلم (١٨٥٦)(٧١).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٠٢).

(٦) ذكره عن الفراء القرطبي في تفسيره ١٩/ ٣١٩.

(٧) البحر ٨/ ٩٦، وهو في تفسير الطبري ١/ ٢٧٧ بنحوه.

(٨) البحر ٨/ ٩٦.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: الطمأنينة والأمن وسكون النفس والربط على قلوبهم بالتشجيع، وقيل: بالصُّلح، وليس بذاك. والظاهرُ أنه عطفٌ على «عَلِمَ».

وفي «الإرشاد»: إنه عطف على «رضي»[1]، وظاهر كلام أبي حيان[2] الأول، وحيث استحسن تفسيرَ ما في القلوب بما سمعتَ آنفاً قال: إن السكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى.

وقال مقاتل: فعلم الله ما في قلوبهم من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه ﷺ على الموت، فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا. وتُفسَّر «السكينة» بتذليل قلوبهم ورفعِ كراهة البيعة هنا، ولعمري إنَّ الرجل لم يعرف للصحابة ﷺ حقَّهم، وحَمَلَ كلامَ الله تعالى على خِلاف ظاهره.

﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾﴾ قال ابن عباس وعكرمة وقتادة وابن أبي ليلى وغيرهم: هو فتحُ خيبر، وكان غبَّ انصرافهم من الحديبية. وقال الحسن: فتح هَجَر، والمرادُ: هجر البحرين، وكان فتح في زمانه ﷺ بدليل كتابه إلى عمرو بن حزم في الصدقات والدِّيات.

وفي «صحيح البخاري» أنه ﷺ صالحَ أهلَ البحرين[3]، وأخذَ الجِزية من مجوس هَجَر[4]. والفتحُ لا يستدعي سابقةَ الغزو كما علمت مما سبق في تفسيره، فسقطَ قولُ الطيبي معترضاً على الحسن: إنه لم يذكر أحدٌ من الأئمَّة أنه ﷺ غزا هجراً. نعم إطلاقُ الفتح على مثل ذلك قليل غيرُ شائع، بل قيل: هو معنًى مجازيٌّ له.

وقيل: هو فتح مكة، والقربُ أمرٌ نِسبيٌّ.

وقرأ الحسن ونوح القارئ: «وآتاهم»[5]، أي: أعطاهم.

---

(١) إرشاد العقل السليم (وهو تفسير أبي السعود) ٨/ ١١٠.
(٢) البحر ٨/ ٩٦.
(٣) صحيح البخاري (٣١٥٧) من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.
(٤) صحيح البخاري (٣١٥٨) من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٩٦.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغانمُ خيبر كما قال غير واحد، وقسمها عليه الصلاة والسلام كما في حديث أحمد وأبي داود والحاكم وصحَّحه عن مُجَمِّع بن جارية الأنصاري، فأعطى للفارس سهمين وكان منهم ثلاث مئة فارس وللراجل سهماً[١]. وقيل: مغانم هَجَر.

وقرأ الأعمش وطلحة ورُويس عن يعقوب، ودُلبه[٢] عن يونس عن ورش، وأبو دحية وسَقْلاب[٣] عن نافع، والأنطاكي عن أبي جعفر: «تأخذونها» بالتاء الفوقية[٤]. والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم في الامتنان.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً ﴿حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ مُراعياً لمقتضى الحِكمة في أحكامه تعالى وقضاياه جلَّ شأنه.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي ـ على ما قال ابن عباس ومجاهد وجمهور المفسرين ـ ما وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين من المغانم إلى يوم القيامة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المُقدَّرة لكلٍّ واحدة منها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم، فقذف اللهُ تعالى في قلوبهم الرُّعب فنكصوا.

وقال مجاهد: كفَّ أيدي أهل مكة بالصُّلح. وقال الطبري[٥]: كفَّ اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول ﷺ إلى الحديبية وإلى خيبر. وقال زيد بن أسلم وابنه: المغانم الكثيرة الموعودة مغانمُ خيبر، والمُعَجَّلة البيعة والتخلُّص من أمر قريش بالصُّلح. والجمهور على ما قدَّمنا[٦].

---

(١) مسند أحمد (١٥٤٧٠)، وسنن أبي داود (٢٧٣٦)، والمستدرك ٢/ ١٣١. وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند، وينظر كذلك زاد المعاد ٣/ ٣٣٠، ونصب الراية ٣/ ٤١٦-٤١٨.

(٢) هو: عبد الله بن أحمد بن الهيثم، أبو العباس البلخي. معرفة القراء ٢/ ٥٢٤.

(٣) سقلاب بن شُنَينة، أبو سعيد المصري. توفي سنة إحدى وتسعين ومئة. معرفة القراء ١/ ٣٣٣.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٤.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٢٨٢.

(٦) في (م): قدمناه.

والمناسبة لما مرَّ من ذكر النبيِّ ﷺ بطريق الخطاب وغيره بطريق الغيبة كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ تقتضي على ما نُقل عن بعض الأفاضل أنَّ هذا جارٍ على نهج التغليب وإن احتَمل تَلوين الخطابِ فيه. وذكر الجلبي في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ إلخ أنه إنْ كان نزولُها بعدَ فتح خيبر ـ كما هو الظاهرُ ـ لا تكون السورة بتمامها نازلةً في مَرْجعه ﷺ من الحديبية، وإنْ كان قبلَه على أنها من الإخبار عن الغيب، فالإشارة بـ «هذه» لتنزيل المغانم منزلةَ الحاضرة المُشاهَدة، والتعبير بالمُضِي للتحقُّق. انتهى. واختِير الشقّ الأول. وقولهم: نزلت في مرجعه عليه الصلاة والسلام من الحُديبية، باعتبار الأكثر، أو على ظاهره، لكن يجعل المرجع اسم زمان ممتدّ.

وتُعُقِّب بأنَّ ظاهرَ الأخبار يقتضي عدمَ الامتداد وأنها نزلت من أولها إلى آخرها بين مكة والمدينة، فلعلَّ الأولى اختيار الشقِّ الثاني، والإشارة بـ «هذه» إلى المغانم التي أثابهم إيَّاها المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهي مغانمُ خيبر، وإذا جُعلت الإشارة إلى البيعة ـ كما سمعتَ عن زيد وابنه، ورُوي ذلك عن ابن عباس ـ لم يُحتَجْ إلى تأويل نزولها في مَرْجعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الضمير المُستتر، قيل: للكفِّ المفهوم من «كفَّ»، والتأنيث باعتبار الخبر، وقيل: للكَفَّة، فأمرُ التأنيث ظاهرٌ. وجُوِّز أن يكون لمغانم خيبر المُشار إليها بهذه.

والآية: الأمارة، أي: ولتكونَ أمارةً للمؤمنين يعرِفون بها أنهم من الله تعالى بمكان، أو يعرفون بها صدقَ الرسول ﷺ في وَعْده إياهم فتحَ خيبر، وما ذكر من المغانم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام. واللام مُتعلِّقة إما بمحذوف مؤخَّر، أي: ولتكون آيةً لهم فَعَلَ ما فَعَلَ، أو بما تعلَّق به علَّة أُخرى محذوفة من أحد الفعلين السابقين، أي: فعجَّل لكم هذه، أو كفَّ أيدي الناس عنكم لِتنتفعوا بذلك، ولتكون آية، فالواو ـ كما في «الإرشاد»[1] ـ على الأول اعتراضية، وعلى الثاني

(١) تفسير أبي السعود ٨/ ١١٠.

عاطفة، وعند الكوفيين الواو زائدة، واللام متعلِّقة بـ «كفَّ» أو بـ «جلَّ».

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بتلك الآية ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ هو الثقةُ بفضل الله تعالى والتوكُّل عليه في كلِّ ما تأتون وتذرون.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ عطفٌ على «هذه» في «فعجَّل لكم هذه»، فكأنه قيل: فعجَّل لكم هذه المغانمَ، وعجَّل لكم مغانمَ أخرى، وهي مغانمُ هوازن في غزوة حُنين. والتعجيلُ بالنسبة إلى ما بعدُ، فيجوز تعدُّد المُعَجَّل كالابتداء بشيئين، وقوله تعالى: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ في موضع الصِّفة، ووصفُها بعدم القُدرةِ عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾ في موضع صفةٍ أخرى لـ «أُخرى» مفيدةٍ لسهولة تَأَتِّيها بالنسبة إلى قُدرته عز وجل بعد بيانِ صعوبة مَنالها بالنظر إلى قُدرتهم، والإحاطةُ مجازٌ عن الاستيلاء التامِّ، أي: قد قدر اللهُ تعالى عليها واستولى، فهي في قبض قُدرته تعالى يُظهر عليها مَنْ أراد، وقد أظهركم جلَّ شأنه عليها وأظفركم بها. وقيل: مجازٌ عن الحفظ، أي: قد حَفِظها لكم، ومنعها من غيركم. والتذييل بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أوفقُ بالأول، وعمومُ قُدْرته تعالى لكونها مُقتضَى الذات، فلا يمكن أن تتغيرَ ولا أن تتخلَّف وتزول عن الذات بسببٍ مّا كما تقرَّر في موضعه، فتكون نسبتُها إلى جميع المقدورات على سواءٍ من غير اختصاص ببعضٍ منه دون بعض، وإلا كانت متغيرةً[(١)]، بل مختلفةً[(٢)].

وجُوِّز كون «أُخرى» منصوبةً بفعل يُفسِّره: «قد أحاط الله بها»، مثل: قضى.

وتُعُقِّبَ بأنَّ الإخبارَ بقضاء الله تعالى بعد اندراجها في جملة الغنائم الموعود بها بقوله تعالى: (وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا) ليس فيه مزيدُ فائدة، وإنما الفائدةُ في بيان تعجيلها، وأُورد عليه أنَّ المغانمَ الكثيرةَ الموعودة ليست مُعينة لِيدخل فيها الأخرى، ولو سُلِّم فليس المقصودُ بالإفادة كونَها مقضيَّةً، بل ما بعدَه، فتدبَّر.

---

(١) في (م): متغايرة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٦٤، والكلام منه.
(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في حاشية الشهاب: متخلِّفة، وهو الصواب.

وجُوِّز كونها مرفوعةً بالابتداء، والجملة بعدَها صفة، وجملة: «قد أحاط» إلخ خبرُها، واستَظْهَرَ هذا الوجهَ أبو حيان(١).

وقال بعض: الخبرُ محذوفٌ، تقديرُه: ثمَّت، أو نحوه.

وجوَّز الزمخشري(٢) كونَها مجرورةً بإضمار «رُبَّ» كما في قوله:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدُولَه(٣)

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ فيه غَرابةً لأنَّ «رُبَّ» لم تأتِ في القرآن العظيم جارَّة مع كَثْرة وُرود ذلك في كلام العرب، فكيف تُضْمَر هنا(٤)؟ وأنت تعلم أنَّ مثلَ هذه الغرابة لا تَضُرُّ.

هذا، وتفسيرُ الأُخرى بمغانم هوازن قد أخرجه عبد بن حُميد عن عكرمة عن ابن عباس، واختاره غير واحد. وقال قتادة والحسن: هي مكة، وقد حاولوها عامَ الحُديبية ولم يُدركوها فأخبروا بأنَّ الله تعالى سَيُظْفِرهم بها ويُظهرهم عليها.

وفي رواية أُخرى عن ابن عباس والحسن - ورُويت عن مقاتل - أنها بلادُ فارس والروم وما فتحه المسلمون، وهو غيرُ ظاهرٍ على تفسير المغانم الكثيرة الموعودة فيما سبق بما وعدَ اللهُ تعالى به المسلمين من المغانم إلى يوم القيامة، وأيضاً تعقَّبه بعضُهم بأن «لم تقدروا عليها» يُشعر بتقدُّم محاولة لتلك البلاد وفَوات دَرْكها المطلوب مع أنه لم تتقدَّم محاولة.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: هي خيبر(٥). وروى ذلك عن الضحاك و[ابن](٦) إسحاق وابن زيد أيضاً، وفيه خَفاء فلا تَغْفُلْ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٤٧.
(٣) البيت من معلقة امرئ القيس، وعجزه: عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي. الديوان ص١٨.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٧.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٧٥، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٨٥.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م). وأثبتناه من تفسير الطبري ٢١/ ٢٨٥.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من أهل مكة ولم يُصالحوكم، كما رُوي عن قتادة. وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنهم حليفا أهل خيبر: أسد وغَطَفان[١]. وقيل: اليهود، وليس بذاك ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: لانهزموا، فتوليةُ الدُّبر كنايةٌ عن الهزيمة ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يَحْرُسُهم، وذكر الخَفاجيُّ[٢] أنَّ الحارسَ أحدُ معاني الوَليّ، وتفسيره هنا بذلك لمناسبته للمنهزم. وقال الراغب[٣]: كلُّ مَنْ وَليَ أمرَ آخر فهو وَليُّه، وعليه فالحارسُ وَليٌّ؛ لأنه يَلي أمرَ المَحروس، والتنكيرُ للتعميم، أي: لا يجدون فرداً مّا من الأولياء ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ ولا فرداً مّا من الناصرين ينصرهم، وقال الإمام[٤]: أُريد بالولي مَنْ ينفع باللُّطف، وبالنصير مَنْ ينفع بالعُنف.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ نصب على المصدرية بفعل محذوف، أي: سنَّ سبحانه غلبةَ أنبيائه عليهم السلام سنةً قديمة فيمن مضَى من الأُمم كما قال سبحانه: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] على ما هو المتبادر من معناه، ولعلَّ المرادَ أنَّ سنتَّه تعالى أن تكونَ العاقبةُ لأنبيائه عليهم السلام لا أنهم كلما قاتلوا الكُفَّارَ غلبوهم وهزموهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ تغييراً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: أيدي كُفَّارِ مكة، وفي التعبير بـ «كفَّ» دون: منع، ونحوه، لطفٌ لا يخفى ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني الحُديبية كما أخرج ذلك عبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة[٥]. وقد تقدَّم أن بعضَها من حرمِ مكة، وإن لم يُسلَّم فالقُرب التامُّ كافٍ، ويكون إطلاقُ «بطن مكة» عليها مُبالغةً.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ مُظهِراً لكم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فتعديةُ الفعل بـ «على» لِتضمُّنه ما يتعدَّى به وهو الإظهار والإعلاء، أي: جعلكم ذوي غَلَبة تامَّة. أخرج الإمام

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٧٥.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٦٤.

(٣) المفردات (ولي).

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٩٧.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٧٦، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٩٠.

أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حُميد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي في آخرِين عن أنس قال: لما كان يومُ الحديبيةِ هبطَ على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قِبَلِ جبل التنعيم يُريدون غِرَّةَ رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأُخِذوا فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ إلخ[1].

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه وأبو نُعيم في «الدلائل» عن عبد الله بن مُغَفَّل[2] قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، إلى أن قال: فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح، فثاروا إلى وجوهنا، فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ فأَخَذَ الله تعالى بأسماعهم ـ ولفظ الحاكم: بأبصارهم[3] ـ فَقُمنا إليهم، فأخذناهم، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحدٍ، أو: هل جعل لكم أحدٌ أماناً»؟ فقالوا: لا، فخلَّى سبيلَهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ إلخ[4].

وأخرج أحمد وغيره عن سلمة بن الأكوع قال: قَدِمنا الحُديبيةَ مع رسول الله ﷺ ونحن أربعَ عشرةَ مئة، ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا إلى الصُّلح، فلما اصطلحنا واختلط بعضُنا ببعض أتيت شجرةً فاضطجعتُ في ظِلِّها، فأتاني أربعةٌ من مشركي أهل مكة، فجعلوا يَقَعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم وتحوَّلتُ إلى شجرة أخرى فعلَّقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى مُنادٍ من أسفل: يا للمهاجرين[5] قُتِلَ ابنُ زُنَيم! فاخترطتُ سيفي فشَدَدْتُ على أولئك الأربعة وهم رقودٌ فأخذتُ سلاحَهم وجعلته في يدي، ثم قلت: والذي كرَّم وجهَ محمد لا يرفع

---

(١) مسند أحمد (١٢٢٢٧)، ومسند عبد بن حميد (١٢٠٨)، وصحيح مسلم (١٨٠٨)، وسنن أبي داود (٢٦٨٨)، وسنن الترمذي (٣٢٦٤)، وسنن النسائي الكبرى (٨٦١٤)، والغِرّة: الغفلة. أي: يريدون أن يصادفوا منه ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم ليتمكَّنوا من غدرهم.

(٢) في الأصل و(م): عبد الله بن معقل، وهو تحريف.

(٣) وهو لفظ أحمد والنسائي.

(٤) مسند أحمد (١٦٨٠٠)، وسنن النسائي (١١٤٤٧)، والمستدرك ٢/ ٤٦٠-٤٦١، ولم نقف عليه في مطبوع دلائل النبوة لأبي نعيم.

(٥) في الأصل و(م): ما للمهاجرين، والمثبت من المصادر.

أحدٌ منكم رأسَه إلا ضربتُ الذي فيه عيناه، ثم جئتُ بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ وجاء عمِّي عامرٌ برجل يقال له: مِكْرز، من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسولُ الله ﷺ وقال: «دعوهم يكون لهم بَدْءُ الفجور وثِناه»، فعفا عنهم رسولُ الله ﷺ، وأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾ إلخ[1]. وهذا كلُّه يُؤيِّد ما قلناه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن أبزى قال: لما خرج النبيُّ ﷺ بالهَدْي وانتهى إلى ذي الحُليفة قال له عمر[2]: يا نبيَّ الله تدخل على قوم لك حربٌ بغير سلاح ولا كُراع؟ فبعث إلى المدينة فلم يَدَعْ فيها كُراعاً ولا سلاحاً إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخلَ فسار حتى أتى منى فنزل بها فأتاه عينُه أنَّ عكرمةَ ابن أبي جهل قد جمع عليك في خمس مئة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالدُ، هذا ابنُ عَمِّك قد أتاك في الخيل» فقال خالد: أنا سيفُ الله وسيفُ رسوله ـ فيومئذ سُمِّي: سيف الله ـ يارسولَ الله، ارمِ بي إنْ شئتَ، فبعثه على خيل، فلقيه عكرمةُ في الشِّعب فهزمه حتى أدخله حيطانَ مكةَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ الآية[3].

وفي «البحر» أنَّ خالداً هزمهم حتى دخلوا بيوتَ مكة وأَسرَ منهم جملة، فَسِيقوا إلى رسول الله ﷺ فمنَّ عليهم وأطلقهم[4].

والخبر غيرُ صحيح لأن إسلامَ خالدٍ ﷺ بعدَ الحديبية قبلَ عُمرة القضاء، وقيل: بعدَها، وهي في السنة السابعة.

وروى ابن إسحاق وغيره أنَّ خالداً كان يوم الحديبية على خيل قريش في مئتي فارس قدم بهم إلى كُراع الغميم، فدنا حتى نظر إلى أصحاب النبيِّ ﷺ فأمر

(١) مسند أحمد (١٦٥١٨)، وأخرجه مسلم (١٨٠٧)، ومعنى: «بدء الفجور وثناه»: أوله وآخره، والثني: الأمر يعاد مرَّتين. النهاية (ثني).
(٢) في الأصل و(م): عمي، وهو تحريف، والمثبت من المصادر.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٢٩١.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٨.

رسولُ الله ﷺ عبَّادَ بن بِشر، فتقدَّم بخيله فقام بإزائه، وصفَّ أصحابه وحانت صلاةُ الظهر، فصلى رسولُ الله عليه الصلاة والسلام بأصحابه صلاةَ الخوف.

وعن ابن عباس أنَّ أهل مكة أرسلوا جملةً من الفوارس في الحديبية يُريدون الوقيعة بالمسلمين، فأظهرهم الله تعالى عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت. وأنكر بعضُهم ذلك، والله تعالى أعلمُ بصحة الخبر.

وقيل: كان هذا الكَفُّ يومَ فتح مكة.

واستشهد الإمام أبو حنيفة بما في الآية من قوله تعالى: ﴿بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ بناءً على هذا القول لِفتح مكة عُنوة. واعتُرض القولُ المذكور والاستشهادُ بالآية بناء عليه.

أما الأول: فلأنَّ الآيةَ نزلت قبلَ فتح مكة. وتُعُقِّب بأنه إنْ أُريد أنها نزلت بتمامها قبلَه فليس بثابت، بل بعضُ الآثار يُشعر بخلافه، وإلا فلا يُفيد، مع أنه يجوز أن يكونَ هذا إخباراً عن الغيب كما قيل ذلك في غيره من بعض آيات السورة.

وأما الثاني: فلأنَّ دلالتها على العُنوة ممنوعة، فقد قال الزمخشري[1]: الفتحُ: هو الظَّفَر بالشيء سواء كان عُنوةً أو صُلحاً. والفرقُ بين الظَّفَر على الشيء والظَّفر به من حيث الاستعلاءُ، وهو كائنٌ، لأنهم اصطلحوا وهم مضطرون، ورسول الله ﷺ ومن معه مُختارون، وفيه دَغْدغة لا تخفى؛ وكذا فيما تُعُقِّب به الأول.

وبالجملة هذا القولُ وكذا الاستشهاد بما في الآية بناء غيرُ بعيد إلا أنَّ أكثرَ الأخبار الصحيحة وكذا ما بعدُ يُؤيِّد ما قلناه أولاً في تفسير الآية.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بعملكم أو بجميع ما تعملونه، ومنه العفو بعد الظَّفر ﴿بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ فيُجازيكم عليه.

وقرأ أبو عمرو: «يعملون» بياء الغيبة[2]، فالكلام عليه تهديدٌ للكُفَّار.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤١.

(٢) التيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أنْ تَصِلُوا إليه وتطوفوا به ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ بالنصب عطفٌ على الضمير المنصوب في «صدوكم»، أي: وصدُّوا الهديَ، وهو ما يُهدَى إلى البيت، قال الأخفش: الواحدة: هَدْية، ويقال للأُنثى: هدي، كأنه مصدرٌ وُصِفَ به.

وفي «البحر»: إسكانُ داله لغةُ قريش، وبها قرأ الجمهور. وقرأ ابن هرمز والحسن وعصمة عن عاصم واللؤلؤي وخارجة عن أبي عمرو بكسر الدال وتشديد الياء، وذلك لغة[1]، وهو فَعيل بمعنى مفعول على ما صرَّح به غيرُ واحد.

وكان هذا الهَدْي سبعين بدنة على ما هو المشهور، وقال مقاتل: كان مئة بدنة.

وقرأ الجُعفي عن أبي عمرو: «الهَدْيِ» بالجرِّ على أنه عطفٌ على المسجد الحرام بحذف المضاف، أي: ونحر الهدي. وقُرئ بالرفع على إضمار: وصُدَّ الهَدْيُ[2].

وقوله سبحانه: ﴿مَعْكُوفًا﴾ حال من «الهدي» على جميع القراءات. وقيل: على قراءة الرفع يجوز أن يكون «الهديُ» مبتدأ، والكلام نحو: حُكْمكَ مُسَمَّطاً، وقوله تعالى: «ونحن عصبةً» على قراءة النصب، وهو كما ترى.

والمعكوفُ: المحبوس، يقال: عَكَفتُ الرجلَ عن حاجتِه: حبسته عنها، وأنكر أبو عليٍّ تعدية عكف، وحكاها ابن سِيده والأزهري[3] وغيرهما، وظاهرُ ما في الآية معهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ بدلُ اشتمال من «الهَدْي»، كأنه قيل: وصَدُّوا بلوغَ الهدي مَحِلَّه، أو: صدُّوا عن بلوغ الهدي، أو: وصُدَّ بلوغ الهَدْي، حسب اختلاف القراءات.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٩٨، وفيه بدل «وذلك لغة»: وهما لغتان.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٨.
(٣) تهذيب اللغة ١/ ٣٢١.

وجُوِّز أن يكون مفعولاً من أجله للصدِّ، أي: كراهةَ أن يبلغَ مَحِلَّه، وأن يكون مفعولاً من أجله مجروراً بلام مُقدَّرة لـ «معكوفاً»، أي: محبوساً لأجلِ أن يبلغَ مَحِلَّه، ويكون الحبسُ من المسلمين. وأن يكون منصوباً بنزع الخافض، وهو «مِن» أَوْ «عن»، أي: محبوساً مِنْ أَوْ عن أن يبلغَ مَحِلَّه، فيكون الحبسُ من المشركين على ما هو الظاهر.

ومحلُّ الهدي مكان يَحِلُّ فيه نحرُه، أي: يسوغ، أو: مكان حلُوله، أي: وجوبه ووقوعه كما نُقل عن الزمخشري[1]، والمرادُ مكانه المعهودُ، وهو منًى، أما على رأي الشافعي ﷺ فلأن مكانه لمن مُنِعَ حيث مُنِعَ، فيكون قد بلغ مَحِلَّه بالنسبة إلى النبيِّ ﷺ ومَنْ معه، ولذا نحروا هناك أعني في الحديبية. وأما على رأي أبي حنيفة ﷺ فلأن مكانَه الحرم مطلقاً وبعض الحديبية حرمٌ عنده؛ وقد رووا أن مضاربَ رسول الله ﷺ كانت في الحِلِّ منها ومُصَلَّاه في الحرم، والنحرُ قد وقع فيما هو حرمٌ، فيكون الهَدْي بالغاً مَحِلَّه غيرَ معكوف عن بلوغه، فلا بُدَّ من إرادة المعهودِ ليتسنَّى ذلك. وزعم الزمخشري[2] أنَّ الآية دليلٌ لأبي حنيفة على أنَّ الممنوعَ مَحِلُّ هَدْيِهِ الحرمُ، ثم تكلَّم بما لا يخفى حاله على مَنْ راجعه.

ومن الناس مَنْ قَرَّر الاستدلال بأنَّ المسجدَ الحرام يكون بمعنى الحَرَم، وهم لما صدُّوهم عنه ومَنَعوا هَدْيَهم أنْ يَدْخُلَه فيَصِل إلى مَحِلِّه، دلَّ بحسب الظاهر على أنه مَحِلُّه، ثم قال: ولا يُنافيه أنه عليه الصلاة والسلام نحر في طرفٍ منه، كما لا يُنافي الصَّدَّ عنه كونُ مُصلَّاه عليه الصلاة والسلام فيه، لأنهم منعوهم فلم يمتنعوا بالكُلِّية، وهو كما ترى.

والإنصافُ أنه لا يتمُّ الاستدلال بالآية على هذا المطلب أصلاً.

وطَعَنَ بعضُ أَجِلَّة الشافعية في كون شيء من الحديبية من الحرم، فقال: إنه خلافُ ما عليه الجمهور، وحدودُ الحرم مشهورةٌ من زمن إبراهيمَ عليه السلام،

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٤٨.

ولا يُعتدُّ بروايةٍ شذَّ بها الواقديُّ، كيف وقد صرَّح بخلافها البخاريُّ في «صحيحه» عن الثِّقات[١]، والرواية عن الزهري ليست بثبت[٢]. انتهى.

ولعلَّ من قال بأنَّ بعضَها من الحرم استند في ذلك إلى خبرٍ صحيح. ومن قواعدِهم أن المُثْبتَ مُقدَّمٌ على النافي، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة «رجال» و«نساء» على تغليب المُذكَّر على المؤنَّث. وكانوا على ما أخرج أبو نُعيم ـ بسند جيد ـ وغيرُه عن أبي جمعة جنبذ بن سبع: تسعةَ نفرٍ؛ سبعة رجال ـ وهو منهم ـ وامرأتين[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال منهم، وجُوِّز كونه بدلاً من الضمير المنصوب في «تعلموهم»، واستبعده أبو حيان[٤].

والوطء: الدَّوس، واستُعير هنا للإهلاك، وهي استعارةٌ حسنة واردةٌ في كلامهم قديماً وحديثاً، ومن ذلك قول الحارث بن وَعْلة الذُّهْلي:

وَوَطِئْتَنا وطأً على حَنَقٍ وَطْءَ المقيَّد نابِتَ الهَرْمِ[٥]

وقوله ﷺ من حديث: «وإنَّ آخرَ وطأةٍ وَطِئها الله تعالى بِوَجٍّ»[٦]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم اشدُدْ وَطْأتَكَ على مُضر»[٧].

---

(١) صحيح البخاري، باب من قال: ليس على المحصر بدل، قبل حديث (١٨١٣) وفيه: ... والحديبية خارجٌ من الحرم. وعزاه لمالك وغيره.

(٢) سلف ٣/ ١٧٨.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٧٩، وعزاه لجماعة منهم الطبراني في الكبير (٢٢٠٤)، وأبو يعلى في مسنده (١٥٦٠)، مع اختلاف ألفاظهما. قال الهيثمي في مجمع زوائد ٩/ ٣٨٩: رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات. وجنبذ بن سبع، يقال له أيضاً: جُنيد، وحبيب بن سباع، ووقع في مطبوع الدر المنثور: حنيبذ. ينظر توضيح المشتبه ٣/ ١٠٦.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٨.

(٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٠٦.

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٣١٤) من حديث خولة بنت حكيم ﵄، والمراد بـ «وجّ»: الطائف، أي: آخر قتال المسلمين كان بالطائف؛ فجعل ذلك وطأة الله، لأنه بأمره.

(٧) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥) عن أبي هريرة ﵁.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ أي: من جهتهم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: مكروه ومَشَقَّةٌ، مأخوذٌ من العُرِّ والعُرَّة، وهو الجَرَب الصعب اللازم، وقال غير واحد: هي مَفْعلة من عَرَّه: إذا عراه ودهاه ما يكره. والمرادُ بها هنا على ما رُوي عن منذر بن سعيد تعييرُ الكُفَّار وقولهم في المؤمنين: إنهم قتلوا أهلَ دينهم.

وقيل: التأسُّف عليهم وتألُّم النفس مما أصابهم.

وقال ابن زيد: المأثم بقتلهم. وقال ابن اسحاق: الدِّية. قال ابن عطية[1]: وكلا القولين ضعيف لأنه لا إثمَ ولادِيَةَ في قتل مؤمن مستورِ الإيمان بين أهل الحرب. وقال الطبري[2]: هي الكفَّارة. وتَعقَّب بعضُهم هذا أيضاً بأنَّ في وجوبِ الكفارة خلافاً بين الأئمة. وفي «الفصول العمادية»: ذكر في تأسيس النظائر في الفقه: قال أصحابنا: دار الحرب تمنعُ وجوبَ ما يَندرئ بالشُّبهات؛ لأن أحكامنا لا تجري في دارهم، وحكمُ دارهم لا يجري في دارنا، وعند الشافعي: دارُ الحرب لا تمنع وجوب ما يندرئ بالشبهات، بيان ذلك: حربيٌّ أسلمَ في دار الحرب وقَتَل مسلماً دَخَلَ دارهم بأمان، لا قِصاصَ عليه عندنا ولا ديةَ، وعند الشافعي عليه القِصاص، وعلى هذا لو أن مسلمَيْنِ مستأمنين دخلا دار الحرب وقتل أحدُهما صاحبَه، لا قِصاص عليه عندنا، وعند الشافعي عليه ذلك.

ثم ذكر مسألة مختلفاً فيها بين أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد فقال: إذا قتل أحدُ الأسيرين صاحبَه في دار الحرب، لا شيء عليه عند أبي حنيفة وأبي يوسف إلا الكفارة؛ لأنه تبعٌ لهم فصار كواحدٍ من أهل الحرب، وعند محمد تجبُ الدِّية لأن له حُكم نفسه، فاعتبر حكم نفسه على حدة. انتهى.

ونُقل عن «الكافي» أنَّ من أسلمَ في دار الحرب ولم يُهاجر إلينا وقتله مسلمٌ عمداً أو خطأً وله ورثةٌ مسلمون ثَمَّ لا يضمن شيئاً إن كان عمداً، وإن كان خطأً ضَمِنَ الكفارة دون الدِّية. انتهى.

وتمام الكلام في هذا المقام يُطلب في مَحلّه.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦.

والزمخشري[١] فسَّر المَعَرَّة بوجوب الدِّية والكفارة وسوء قالةِ المشركين والمأثم إذا جرى منهم بعضُ التقصير، وهو كما ترى.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في موضع الحال من ضمير المُخاطَبين في «تطؤوهم»، قيل: ولا تكرارَ مع قوله تعالى: «لم تعلموهم» سواء كان «أن تطؤوهم» بدل اشتمال من «رجال» و«نساء»، أو بدلاً من المنصوب في «لم تعلموهم»، أما على الثاني فلأنَّ حاصلَ المعنى: ولولا مؤمنون لم تعلموا وطأتهم وإهلاكهم وأنتم غير عالمين بإيمانهم، لأنَّ احتمال أنهم يهلكون من غير شعور مع إيمانهم سببُ الكفِّ، فيعتبر فيه العلمان، فمتعلّق العلم في الأول الوطأة، وفي الثاني أنفسهم باعتبار الإيمان. وأما على الأول فلأنَّ قوله تعالى: «بغير علم» لما كان حالاً من فاعل «تطؤوهم» كان العلم بهم راجعاً إلى العلم باعتبار الإهلاك، كما تقول: أهلكته من غير علم، فلا الإهلاك من غير شعور ولا العلم بإيمانهم حاصلٌ، والأمران لكونهما مقصودين بالذات صُرِّح بهما وإنْ تقاربا أو تلازما في الجملة[٢].

وجُوِّز أنْ يُجعل «لم تعلموهم» كنايةً عن الاختلاط، كما يلوِّح إليه كلام «الكشاف»[٣]، وفيه ما يدفعُ التكرار أيضاً، وفي ذلك بحثٌ يدفع بالتأمُّل.

وجُوِّزَ أن يكون حالاً من ضمير «منهم»، وأنْ يكونَ متعلِّقاً بـ «تصيبكم»، أو صفة لـ «معرَّة»، قيل: وهو على معنى: فتصيبكم منهم معرةٌ بغير علم من الذي يعرُّكم ويعيبُ عليكم، يعني: إنْ وطئتموهم غيرَ عالمين لَزِمَكم سُبَّة من الكُفَّار بغير علم، أي: لا يعلمون أنكم معذورون فيه. أو على معنى: لم تعلموا أنْ تطؤوهم فَتُصِيبَكم منهم مَعَرَّةٌ بغير علم منكم، أي: فتقتلوهم بغير علمٍ منكم، أو: تُؤذوهم بغير علم، فافهم، ولا تَغْفُل.

وجوابُ «لولا» محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، والمعنى على ما سمعت أولاً:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٨.

(٢) ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٦٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٨.

لولا كراهةُ أن تُهلكوا أُناساً مؤمنين بين ظَهْرانَي الكُفَّار جاهلين بهم فَيُصيبَكم بإهلاكهم مكروهٌ لَمَا كَفَّ أيديَكم عنهم.

وحاصله: أنه تعالى ولو[1] لم يكفَّ أيديَكم عنهم لانجرَّ الأمر إلى إهلاك مؤمنين بين ظَهرانَيْهم فَيُصيبَكم من ذلك مكروهٌ، وهو عز وجل يكرهُ ذلك.

وقال ابن جريج: دفع اللهُ تعالى عن المشركين يومَ الحُديبية بأُناس من المسلمين بين أظهرهم. وظاهرُ الأول ـ على ما قيل ـ أنّ عِلَّة الكفِّ صونُ المُخاطَبين عن إصابة المَعَرَّة، وظاهرُ هذا أنَّ عِلَّته صونُ أولئك المؤمنين عن الوطء، والأمر فيه سهل.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ عِلَّةٌ لما يدلُّ عليه الجواب المحذوفُ على ما اختاره في «الإرشاد»[2]، كأنه قيل: لكنه سبحانه كفَّها عنهم لِيُدخلَ بذلك الكَفِّ المُؤَدِّي إلى الفتح بلا محذور في رحمته الواسعة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهم أولئك المؤمنون، وذلك بأمنهم وإزالة استضعافهم تحت أيدي المشركين، وبتوفيقهم لإقامة مراسم العبادة على الوجه الأتمِّ، والتعبيرُ عنهم بـ «من يشاء» دون الضمير بأن يقال: لِيُدخلهم اللهُ رحمته، للإشارة إلى أنَّ عِلَّةَ الإدخال المَشيئة المَبْنية على الحِكَم الجَمَّة والمصالح. وجعلَه بعضُهم عِلَّةً لما يُفهم من صونِ مَنْ بمكة من المؤمنين، والرحمةُ توفيقُهم لزيادة الخير والطاعة بإبقائهم على عملهم وطاعتهم.

وجُوِّز أن يُرادَ بـ «من يشاء» بعضُ المشركين، ويُراد بالرحمة الإسلام، فإن أولئك المؤمنين إذا صانهم الكَفُّ المذكور أظهروا إيمانهم لمعاينة قوَّة الدِّين، فيقتدي بهم الصائرون للإسلام، واستحسن بعضُهم كونه عِلَّة للكَفِّ المُعَلَّل بالصون.

وجُوِّز أن يُرادَ بـ «من يشاء» المؤمنون، فيرادُ بالرحمة التوفيقُ لزيادة الخير. والمشركون فيرادُ بها الإسلام، وبيِّن وجهُ التعليل بأنهم إذا شاهدوا منعَ تعذيبهم بعد

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: لو، دون واو.
(٢) إرشاد العقل السليم (وهو تفسير أبي السعود) ٨/ ١١٢.

الظَّفَر عليهم لاختلاط المؤمنين بهم اعتناءً بشأنهم رَغِبوا في الإسلام والانخراط في سِلْك المرحومين، وأنَّ المؤمنين إذا علموا منعَ تعذيب المشركين بعد الظَّفر عليهم لاختلاطهم بهم أظهروا إيمانهم فَيُقتدَى بهم. وقال[1]: لا وجهَ لجعل اللام مستعارةً من معنى التعليل لما يترتَّب على الشيء؛ لأنه عدولٌ عن الحقيقة المتبادرة من غير داعٍ. وما يظنُّ من أنَّ تعليلَ الكفِّ بما ذكر مع أنه مُعلَّلٌ بالصون فاسدٌ؛ لما فيه من اجتماع عِلَّتين على معلولٍ واحد شخصي = فاسد، لأنَّ العلل إذا لم تكن تامَّةً حقيقة لا يضرُّ تعدُّدها، وما هنا كذلك.

هذا، وجعلُ ذلك عِلَّة لما دلَّ عليه الجواب على ما سمعت أولاً أولى عندي؛ لما فيه من شدَّة التحام النَّظم الجليل، وحمل «مَنْ يشاء» على المؤمنين المستضعفين دون بعضِ المشركين أوفقُ بقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ والتزيُّل: التفرُّق والتميُّز، وجُوِّز في ضمير «تزيَّلوا» كونُه للمؤمنين المذكورين فيما سبق، أي: لو تفرَّق أولئك المؤمنون والمؤمنات وتميَّزوا عن الكُفَّار وخرجوا من مكة ولم يبقوا بينهم لعذَّبنا.. إلخ. وكونُه للمؤمنين والكُفَّار، أي: لو افترق بعضُهم من بعض ولم يبقوا مُختلطين، لعذَّبنا.. إلخ.

واختار غيرُ واحد الأول، فـ «منهم» للبيان، والمرادُ تعذيبهم في الدنيا بالقتل والسبي، كما قال مجاهد وغيره، وإلا لم يكن لـ «لو» موقع.

والجملة مستأنفة مُقرِّرة لما قبلها، وجوَّز الزمخشري[2] أن يكونَ قوله تعالى: «لو تزيَّلوا» كالتكرار لقوله تعالى: «لولا رجال»؛ لأنَّ مَرْجِعَهما في المعنى شيء واحدٌ، ويكون «لعذَّبنا» هو الجوابَ لـ «لولا» السابقة. واعترضه أبو حيان[3] بأنَّ التغايرَ ظاهرٌ، فلا يكون تكراراً ولا مُشابهاً. وأُجيبَ بأنَّ كراهةَ وطئهم لعدم تميُّزهم عن الكُفَّار الذي هو مدلولُ الثاني، فيكون كبدلِ الاشتمال، ويكفي ذلك في كونه كالتكرار.

---

(١) هو الشهاب في الحاشية ٨/ ٦٧، وما قبله منه.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٤٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٩٨.

وقال ابن المُنَيِّر[1]: إنما كان مرجعهما واحداً وإنْ كانت «لولا» تدلُّ على امتناعٍ لوجود، و«لو» تدلُّ على امتناعٍ لامتناع، وبين هذين تَنافٍ ظاهرٌ؛ لأنَّ «لولا» هاهنا دخلَتْ على وجود، و«لو» دخلت على «تَزيَّلوا» وهو راجعٌ إلى عدمِ وجودهم، وامتناعُ عدمِ الوجود ثبوتٌ فآلا إلى أمرٍ واحد من هذا الوجه. قال: وكان جدِّي يختار هذا الوجه، ويُسمِّيه: تطريةً، وأكثر ما يكون إذا تطاولَ الكلامُ وبَعُدَ عهدُ أوَّله، واحتيج إلى بناءِ الآخر على الأول، فمرةً يُطري بلفظه، ومرةً بلفظٍ آخرَ يؤدِّي مُؤدَّاه. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ في حذف الجواب دليلاً على شدَّة غضب الله تعالى، وأنه لولا حقُّ المؤمنين لفعل بهم ما لا يدخلُ تحت الوصف ولا يُقاس، ومنه يُعلم أنَّ ذلك الوجهَ أرجحُ من جعل «لو تَزيَّلوا» بمنزلة التَّكرار للتطرية، فتطريةُ الجوابِ وتقويته أَولى وأَوفقُ لمقتضى المقام. واختار الطيبي الأول أيضاً مُعَلِّلًا له بأنه حينئذ يقربُ من باب الطرد والعكس، لأنَّ التقديرَ: لولا وجودُ مؤمنين مُختلطين بالمشركين غير متميِّزين منهم لوقع ما كان جزاءً لكفرهم وصدِّهم، ولو حصل التمييزُ وارتفع الاختلاطُ لحصل التعذيبُ.

ثم إنَّ تقديرَ الجوابِ ما تقدَّم عند القائلين بالحذف هو الذي ذهب إليه كثير، وجَوَّز بعضُهم تقديره: لَعجَّل لهم ما يستحقُّون، وجَعَل قوله تعالى: «هم الذين كفروا» إلخ [دليلاً عليه][2]، فكأنه قيل: هم الذين كفروا واستحقُّوا التعجيلَ في إهلاكهم، ولولا رجالٌ مؤمنون. . إلخ لعجَّل لهم ذلك، وهو أيضاً أولى من حديث التكرار.

وقرأ ابن أبي عَبْلة وابن مِقْسم وأبو حيوة وابن عون: «لو تزايلوا» على وزن تفاعلوا[3].

---

(١) الانتصاف (بحاشية الكشاف) ٣/ ٥٤٨.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، ينظر تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٩٩.

وفي الآية ـ على ما قال الكيا[1] ـ دليلٌ على أنه لا يجوز خرقُ سفينةِ الكُفَّار إذا كان فيها أَسرى من المسلمين، وكذلك رميُ الحصون إذا كانوا بها، والكفار إذا تترَّسوا بهم، وفيه كلامٌ في كتب الفروع.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منصوبٌ بـ: اذكر، على المفعولية، أو بـ «عذَّبنا» على الظرفية، أو بـ «صدُّوكم» كذلك. وقيل: بمضمر هو: أحسنَ الله تعالى إليكم، وأيًّاما كان فـ «الذين» فاعل «جعل»، ووُضِعَ الموصول موضعَ ضميرهم لذمِّهم بما في حيِّز الصِّلة وتعليلِ الحكم به، والجعلُ إما بمعنى الإلقاء، فقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ مُتعلِّق به، أو بمعنى التصيير، فهو متعلِّق بمحذوف هو مفعولٌ ثانٍ له، أي: جعلوا الحَمِيَّة راسخةً في قلوبهم، ولكونها مُكتَسبةً لهم من وجهٍ نُسب جعلها إليهم. وقال النيسابوري[2]: يجوز أن يكونَ فاعل «جعل» ضميرَ الله تعالى، و«في قلوبهم» بيان لمكان الجَعْل، ومآلُ المعنى: إذ جعلَ اللهُ في قلوب الذين كفروا الحَمِيَّة. وهو كما ترى.

والحَمِيَّةُ: الأَنَفةُ، يقال: حميت عن كذا حَمِيَّةً، إذا أَنِفْتَ منه وداخَلَكَ عارٌ منه.

وقال الراغب[3]: عبَّر عن القوَّة الغضَبية إذا ثارَتْ وكَثُرت بالحَمِيَّة، فقيل: حَميت على فلان، أي غَضِبت عليه.

وقوله تعالى: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدلٌ من الحَمِيَّة، أي: حَمِيَّة المِلَّة الجاهلية، أو الحَمِيَّة الناشئة من الجاهلية لأنها بغير حُجَّة وفي غير موضعها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على «جعل» على تقدير جَعْلِ «إذ» معمولاً لـ: اذْكُر، والمرادُ تذكيرُ حسنِ صنيع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيعِ المشركين، وعلى ما يدلُّ عليه الجملة الامتناعية على تقدير جعلها ظرفاً لـ «عَذَّبنا»، كأنه قيل: فلم

(١) في أحكام القرآن ٤/ ٣٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الإكليل ص٢٤٠.
(٢) غرائب القرآن ٢٦/ ٤٩.
(٣) المفردات (حمي).

يتزيَّلوا فلم نُعذِّب فأَنزل. . إلخ. وعلى مضمر عامل فيها على الوجهِ الأخير المَحْكي، ويكون هذا التفسير لذاك، وأما على جعلها ظرفاً لـ «صدُّوكم» فقيل: العطفُ على «جعل» وقيل: على «صدُّوكم»، وهو نظيرُ: الطائرُ فيغضبُ زيدٌ الذُّباب[١]، والأولى من هذه الأوجه لا يخفى.

والسَّكينة: الاطمئنانُ والوقار، روى غيرُ واحدٍ أنَّ النبيَّ ﷺ خرج بمن معه إلى الحديبية حتى إذا كان بذي الحُليفة قَلَّد الهَدْي وأشعره وأحرم بالعمرة، وبعثَ بين يديه عيناً من خُزاعة يُخبره عن قريش، وسار عليه الصلاة والسلام حتى [إذا] كان بغَدير الأشطاط قريباً من عُسفان أتاه عينه فقال: إنَّ قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مُقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فاستشار الناسَ في الإغارة على ذراري من أعانهم، فقال أبو بكر: الله تعالى ورسوله أعلمُ يا نبيَّ الله، إنما جئنا معتمرين ولم نَجئ لقتال أحدٍ، ولكن مَنْ حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال ﷺ: «امضُوا على اسم الله» فسار حتى نزل بأقصى الحُديبية، فجاءه بُديل بن ورقاء الخُزاعي في نَفَر من قومه فقال له: إني قد تركتُ كعبَ بن لؤي وعامرَ بن لؤي نزلوا قريباً، معهم العُوذ المَطافيل[٢]، وهم مُقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنا لم نجئ لقتال أحدٍ، ولكن مُعتمرين، وإن قريشاً قد نَهِكَتهم الحربُ وأَضَرَّتْ بهم، فماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائرِ العرب، فإنْ هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإنْ أظهرني اللهُ تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإنْ لم يفعلوا قاتلتُهم وبهم قوَّة، فما تظنُّ قريش؟! فواللهِ، لا أَزالُ أُجاهِدُهم على الذي بعثني اللهُ تعالى به حتى يُظهره اللهُ تعالى أو تنفردَ هذه السالفة» فقال بُديل: سأُبلغهم ما تقول. فبلَّغهم، فقال عروة بن مسعود الثقفي لهم: دعوني آتِهِ، فأتاه عليه الصلاة والسلام، فقال له نحوَ ما قال لِبُديل، وجرى من الكلام ما جرى، ورأى مِن احترامِ الصحابة رسولَ الله ﷺ وتعظيمهم

---

(١) والتقدير: الذي يطير. . .، ينظر الأصول في النحو ٢/ ٣٥٧، وشرح ابن عقيل ٢/ ٣٦١.

(٢) يريد: النساء والصبيان، والعُوذ في الأصل: جمع عائذ، وهي الناقة إذا وضعت. النهاية (عوذ).

إيَّاه ما رأى، فرجَع إلى أصحابه فأخبرهم بذلك وقال لهم: إنه قد عَرَضَ عليكم خُطَّة رُشْدٍ فاقبلوها، فقال رجلٌ من بني كِنانة: دعوني آتِهِ، فلما أشرفَ على النبيِّ ﷺ وأصحابه، قال عليه الصلاة والسلام: «هذا فلان، وهو من قوم يُعظِّمون البُدن، فابعثوها له» فبُعِثَت، واستقبله القومُ يُلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فرجَع وأخبر أصحابَه، فقال رجلٌ يقال له: مِكْرَز بن حفص: دعوني آتِهِ، فلما أَشرف قال عليه الصلاة والسلام: «هذا مِكْرَز، وهو رجلٌ فاجرٌ» فجعل يُكلِّم النبيَّ ﷺ، فبينما هو يُكلِّمه إذ جاء سُهيل بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي، فقال ﷺ: «قد سَهُلَ لكم من أمرِكم» وكان قد بعثه قريش وقالوا له: ائتِ محمداً فصالحه، ولا يكن في صُلْحه إلا أن يرجِعَ عنا عامَه هذا، فوالله لا تتحدَّثُ العرب أنه دخلها علينا عُنْوةً أبداً. فلما انتهى إليه عليه الصلاة والسلام تكلَّم فأطال، وانتهى الأمرُ إلى الصُّلح وكتابةِ كتاب في ذلك، فدعا النبيُّ ﷺ عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه فقال: «اكتُبْ: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سُهيل: لا أعرفُ هذا، ولكن اكتُبْ: باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: «اكتُبْ: باسمِكَ اللهم» فكتبها، ثم قال: «اكتُب: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله سُهيلَ بن عمرو»، فقال سُهيل: لو كُنَّا نعلم أنك رسولُ الله ما صَدَدْناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتُبْ اسمك واسمَ أبيك. فقال عليه الصلاة والسلام: «والله إني لرسولُ الله، وإنْ كذَّبتموني، اكتُبْ: هذا ما صالحَ عليه محمدُ بن عبد الله سُهيلَ بن عمرو صُلحاً على وَضْعِ الحرب عن الناس عشرَ سنين» يأمنُ فيهنَّ الناسُ ويكفُّ بعضُهم عن بعض، على أنه مَنْ أتى محمداً من قريش بغير إذن وَلِيِّه رَدَّه عليهم، ومَنْ جاء قريشاً ممن مع محمد لم يَرُدُّوه عليه، وإنَّ بيننا عَيبةً مكفوفةً[(١)]، وإنه لا إسلالَ ولا إغلال[(٢)]، وإنه مَنْ أحبَّ أن يدخُلَ في عقد محمد وعهده دخل فيها، ومَنْ أحبَّ أن يدخُلَ في عَقْدِ قريش وعَهْدهم دخَلَ فيه،

---

(١) أي: بينهم صدر نقيٌّ من الغلِّ والخداع، مطوي على الوفاء بالصلح. النهاية (عيب).

(٢) الإغلال: الخيانة أو السرقة الخفيَّة، والإسلال: مِن سلَّ البعيرَ في جوف الليل: إذا انتزعه من بين الإبل. وقيل الإغلال: لبس الدروع. والإسلال: سلُّ السيوف. النهاية (غلل).

وإن محمداً يرجِعُ عن مكة عامَه هذا، فلا يدخُلها، وإنه إذا كان عام قابل خرج أهلُ مكة فدخلها بأصحابه. فأقام بها ثلاثاً معه سلاحُ الراكب، السيوفُ في القُرب لا يدخلها بغيرها[(١)].

وظاهرُ هذا الخبر أن سُهيلاً لم يرضَ أن يكتبَ: محمدٌ رسول الله، قبل أن يكتب؛ وجاء في روايةٍ أنه كتب فلم يرضَ، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه: «امْحُه» فقال: ما أنا بالذي أمْحاه، وجاء هذا في رواية للبخاري ولمسلم[(٢)]، وفي رواية للبخاري في المغازي: فأخذ رسولُ الله ﷺ الكتابَ وليس يُحْسِنُ يَكْتُبُ، فكَتَبَ: «هذا ما قاضى عليه محمدُ بن عبد الله»[(٣)]. وكذا أخرجه النسائي وأحمد، ولفظه: فأخذ الكتاب، وليس يُحسن أن يَكتب، فكتب مكان رسول الله: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله...»[(٤)]، وتمسَّك بظاهر هذه الرواية كما في «فتح الباري»[(٥)] أبو الوليد الباجي على أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كتب بعدَ أنْ لم يكن يُحسن أنْ يكتب، ووافقه على ذلك شيخُه أبو ذرٍّ الهرويُّ وأبو الفتح النيسابوري وآخرون من علماء إفريقية، والجمهور على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب، وأنَّ قوله: وأخذ الكتابَ، وليس يُحسن أن يَكتبَ؛ لبيان أنه عليه الصلاة والسلام احتاجَ لأنْ يُريه عليٌّ كرم الله تعالى وجهه موضعَ الكلمة التي امتنعَ من مَحْوِها لكونه كان لا يُحسن الكتابة. وقوله: فكتب، بتقدير: فمحاها، فأعاد الكتاب لعليٍّ فكتب، أو أطلقَ فيه «كتب» على: أَمَرَ بالكتابة. وتمامُ الكلام في محلِّه[(٦)].

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٣٠٨ وما بعدها، وأخرج هذا الخبر بطوله البخاري (٢٧٣١)، وأحمد (١٨٩٢٨) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم باختلاف بعض الألفاظ، وأخرجه مسلم (١٧٨٣) و(١٧٨٤) و(١٧٨٥) و(١٧٨٦) عن عدد من الصحابة ﭫ.
(٢) صحيح البخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب ﭬ.
(٣) صحيح البخاري (٤٢٥١).
(٤) سنن النسائي الكبرى (٨٥٢٥)، ومسند أحمد (١٨٦٣٥).
(٥) ٧/ ٥٠٣.
(٦) ينظر ما سلف ٢٠/ ٣٧٥-٣٧٨.

فكانت حَمِيَّتهم ـ على ما في «الدر المنثور»[1] عن جماعة ـ أنهم لم يُقِرُّوا أنه ﷺ رسولٌ ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بين المسلمين والبيت، وقد هَمَّ المؤمنون لذلك أنْ يبطِشوا بهم، فأَنزلَ اللهُ تعالى سكينَته عليهم فَتوَقَّروا وحَلُموا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنه قال في حَمِيَّة الجاهلية: حمت قريش أَنْ يدخلَ عليهم رسولُ الله ﷺ وقالوا: لا يدخُلها علينا أبداً، وقال ابن بحر ـ كما في «البحر»[2] ـ: حَمِيَّتهم: عَصَبيَّتهم لآلهتهم، والأَنَفةُ أنْ يعبدوا غيرَها.

وفي توسيطِ «على» بين الرسول والمؤمنين إيماءٌ إلى أنه سبحانه أنزل على كلٍّ سكينةً لائقةً به.

ووجهُ تقديم الإنزال على الرسول عليه الصلاة والسلام لا يخفى.

وقال الإمام[3]: في هذه الآية لطائفُ معنوية: وهو أنه تعالى أبانَ غايةَ البون بين المؤمنين والكافرين: حيث باين بين الفاعِلَيْن، إذْ فاعل «جعل» هو الكُفَّار، وفاعل «أنزل» هو اللهُ تعالى، وبين المفعولين إذْ تلك حَمِيَّة وهذه سكينة، وبين الإضافتين إضافة الحَمِيَّة إلى الجاهلية وإضافةِ السكينة إليه تعالى، وبين الفِعْلين «جعل» و«أنزل»، فالحميَّة مجعولةٌ في الحال كالعَرَض الذي لا يبقى، والسَّكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة، فأَنزلها، والحَمِيَّة قبيحةٌ مذمومةٌ في نفسها، وازدادت قُبحاً بالإضافة إلى الجاهلية، والسكينةُ حسنةٌ في نفسها وازدادت حُسناً بإضافتها إلى الله عز وجل، والعطفُ في «فأنزل» بالفاء لا بالواو يدلُّ على المُقابلة والمجازاة، تقول: أَكرمني زيدٌ فأكرمته، فيدلُّ على أن إنزالَ السكينة لجَعْلِهم الحَمِيَّةَ في قلوبهم حتى إن المؤمنين لم يغضبوا ولم ينهزموا، بل صبروا، وهو بعيدٌ في العادة، فهو من فضل الله تعالى. انتهى، وهو مما لا بأسَ به.

---

(١) ٦/ ٧٩-٨٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٩٩.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٢.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هي لا إله إلا الله كما أخرج ذلك الترمذي وعبد الله بن أحمد والدارقطني وغيرهم عن أُبيّ بن كعب مرفوعاً(١)، وكما أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة وسَلَمة بن الأكوع كذلك(٢)؛ وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن حُمْران أنَّ عثمان بن عفان ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إني لأعلمُ كلمةً لا يقولها عبدٌ حقًّا من قلبه إلا حُرِّم على النار» فقال عمر بن الخطاب ﷺ: أنا أُحدِّثكم ما هي: كلمةُ الإخلاص التي ألزمها الله سبحانه محمداً وأصحابه، وهي كلمةُ التقوى التي ألاصَ عليها نبيُّ الله ﷺ عمَّه أبا طالب عند الموت؛ شهادة أنْ لا إلهَ إلا الله(٣). ورُوي ذلك أيضاً عن عليّ كرم الله تعالى وجهه ـ على ما نَقَل أبو حيان(٤) ـ وابن عمر وابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وسعيد بن جُبير في آخرين، وأخرج ذلك عبد بن حُميد وابن جرير عن عطاء الخُراساني بزيادة: محمد رسول الله(٥).

وأُضيفت إلى التقوى لأنها بها يُتَّقى الشِّرك، ومن هنا قال ابن عباس ـ فيما أخرجه ابن المنذر وغيره ـ: هي رأسُ كلِّ تقوى(٦).

وظاهرُ كلام عمر ﷺ أن ضمير «هم» في «ألزمهم» للرسول عليه الصلاة والسلام ومَنْ معه، وإلزامهم إياها بالحكم والأمر بها.

وأخرج عبد الرزاق والحاكم ـ وصحَّحه ـ والبيهقي في «الأسماء والصفات» وجماعة عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: هي لا إله إلا الله واللهُ أكبر(٧)، ورُوي عن ابن عمر أيضاً نحوه.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وسنن الترمذي (٣٢٦٥)، وعبد الله في مسند أبيه أحمد (٢١٢٥٥). قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٠.
(٣) مسند أحمد (٤٤٧)، وصحيح ابن حبان (٢٠٤)، والمستدرك ١/ ٣٥١، ومعنى: ألاصَ عليها: أي: أداره عليها، وراوده فيها.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٩.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وهو في تفسير الطبري ٢١/ ٣١٣.
(٦) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ٣١١.
(٧) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢٩، والمستدرك ٢/ ٤٦١.

وأخرج ابن أبي حاتم والدارقطني في «الأفراد» عن المسور بن مخرمة قال: هي لا إله إلا الله وحدَه لا شَريك له[١]. وعن عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً أنها لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له المُلك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير.

وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير وغيرهما عن الزهري قال: هي بسم الله الرحمن الرحيم[٢]. وضَمَّ بعضهم[٣] إلى هذا: محمد رسول الله. والمراد بإلزامهم إيَّاها اختيارها لهم دون مَنْ عدل عنها إلى: باسمك اللهم، و: محمد بن عبد الله.

وقيل: هي الثَّبات والوفاء بالعهد، ونسبه الخَفَاجي[٤] إلى الحسن، وإلزامهم إياه أمْرُهم به، وإطلاق الكلمة على الثَّبات على العهد والوفاء به، قيل: لِمَا أنَّ كلًّا يُتوصَّل به إلى الغرض، وهو نظيرُ ما قيل في إطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام من أن ذلك لأنَّ كلًّا منهما يُهتدَى به، وجعلت الإضافة على كونها بمعنى الثَّبات من باب إضافة السبب إلى المسبَّب فهي إضافة لأدنى مُلابسة. وجُوِّز أن تكونَ اختصاصيةً حقيقيةً بتقدير مضافٍ، أي: كلمة أهل التقوى، وأُريد بالعهد على ما يقتضيه ظاهرُ سبب النزول عهدُ الصُّلح الذي وقع بينه ﷺ وبين أهل مكة. وقيل: ما يعمُّ ذلك وسائر عهودهم معه عز وجل.

وأنت تعلم أن الوجه المذكور في نفسه غير ظاهر، ومثله ما قيل: المراد بالكلمةِ قولهم في الأصلاب: بلى مُقِرِّين بوحدانيته جلَّ شأنه، وبالإلزام الأمر بالثَّبات والوفاء بها. وقيل: هي قولُ المؤمنين: سمعاً وطاعة، حين يُؤمرون أو يُنْهون. والظاهرُ عليه كون الضمير للمؤمنين.

وأرجحُ الأقوال في هذه الكلمة ما رُوي مرفوعاً وذهب إليه الجَمُّ الغفير، ولعلَّ ما ذُكر في الأخبار السابقة من باب الاكتفاء، والمرادُ: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله.

---

(١) وذكره أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٣١٤.

(٣) منهم الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤٩، والبيضاوي ٨/ ٦٧.

(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٦٧.

﴿وَكَانُوٓا۟﴾ عطف على ما تقدَّم، أو حال من المنصوب في «ألزمهم» بتقدير «قد» أو بدونه، والظاهرُ في الضمير عودُه كسابقهِ كما اقتضاه كلامُ عمر رضي الله عنه على الرسول والمؤمنين، واستظهر بعضُهم عودَه على المؤمنين، وكأنه اعتبر الأول عائداً عليهم أيضاً، وهو مما لا بأس فيه، ولعله اعتبر الأقربيَّة، فالمعنى: وكان المؤمنون في علم الله تعالى ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ أي: بكلمة التقوى، وأفعل لزيادة الحَقِّيَّة في نفسها، أي: مُتَّصِفين بمزيد استحقاق لها، أو على ما هو المشهور فيه، والمُفضَّل عليه محذوفٌ، أي: أحقّ بها من كُفَّار مكةَ لأنَّ اللهَ تعالى اختارهم لدينه وصُحبة نبيِّه ﷺ، وقيل: من اليهود والنصارى، وقيل: من جميع الأُمم لأنهم خيرُ أمة أُخرجت للناس.

وحكى المبرِّد أنَّ الذين كانوا قبلنا لم يكن لأحدٍ منهم أن يقول: لا إله إلا الله، في اليومِ والليلة إلا مرة واحدة لا يستطيع أنْ يقولَها أكثرَ من ذلك، وكان قائِلُها يمدُّ بها صوتَه إلى أنْ ينقطع نَفَسُه تبرُّكاً بذكر الله تعالى، وقد جعل الله عز وجل لهذه الأُمة أنْ يقولوها متى شاؤوا، وهو قوله تعالى: «وألزمهم كلمة التقوى» أي: نَدَبهم إلى ذكرها ما استطاعوا، «وكانوا أحقَّ بها». وهذا مما لم يَثْبُتْ.

وجوَّز الإمام[1] كونَ التفضيل بالنسبة إلى غير كلمة التقوى، أي: أحقَّ بها من كلمةٍ غيرِ كلمةِ تقوى، وقال: وهذا كما تقول: زيدٌ أحقُّ بالإكرام منه بالإهانة، وقولك إذا سُئل شخصٌ عن زيدٍ بالطِّبِّ أعلم أو بالفقه: زيدٌ أعلم بالفقه، أي: من الطِّبِّ. وفيه غَفْلةٌ لا تَخفى.

﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي: المُستأهل لها، وهو أبلغُ من: الأحقّ، حتى قيل: بينه وبين الأحقِّ كما بين الأحقِّ والحقِّ. وقيل: إنَّ أحقِّيَّتهم[2] بها من الكفار تُفهِم رُجحانهم رُجحاناً مّا عليهم ولا تُثبت الأهلية، كما إذا اختار الملكُ اثنين لِشُغل، وكلُّ واحد منهما غيرُ صالح له، لكن أحدهما أبعدُ عن الاستحقاق، فيقال للأقرب إليه: إذا كان ولا بدَّ فهذا أحقُّ، كما يقال: الحبس أهونُ من القتل، ولِدَفع توهُّم مثل هذا فيما نحن فيه قال سبحانه: «وأهلها».

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٣-١٠٤.

(٢) في الأصل: حقيتهم.

وقيل: أُريدَ أنهم أحقُّ بها في الدنيا وأهلها بالثواب في الآخرة.

وقيل: في الآية تقديمٌ وتأخيرٌ، والأصلُ: وكانوا أهلَها وأحقَّ بها، وكذلك هي في مصحف الحارث بن سُويد صاحب ابن مسعود، وهو الذي دَفَنَ مصحفَه لمخالفتِه الإمام أيام الحَجَّاج، وكان من كبار تابعي الكوفة وثِقاتهم.

وقيل: ضمير «كانوا» عائدٌ على كُفَّار مكة، أي: وكان أولئك الكفار الذين جعلوا في قلوبهم الحمية أحقَّ بكلمة التقوى لأنهم أهلُ حرم الله تعالى، ومنهم رسوله ﷺ، وقد تقدَّم إنذارهم، لولا ما سُلبوا من التوفيق. وفيه ما فيه، سواء رَجَع ضمير «ألزمهم» إلى كفار مكة أيضاً أمْ لا، وأظن في قائله نزغةً رافضيَّة دعته إلى ذلك لكنه لا يتمّ به غرضُه.

وقيل: ضمير «كانوا» للمؤمنين إلا أنَّ ضميري «بها وأهلها» للسَّكينة. وفيه ارتكابُ خلافِ الظاهر من غير داعٍ.

وقيل: هما لمكةَ، أي: وكانوا أحقَّ بمكةَ أنْ يدخلُوها وأهلها، وأشعر بذِكْر مكةَ ذكرُ المسجدِ الحرام في قوله تعالى: (وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ) وكذا مَحلُّ الهَدْي في قوله سبحانه: (وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ)، وفيه ما لا يخفى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ فيعلم سبحانه حقَّ كلِّ شيء واستئهاله لما يستأهله، فيسوق عز وجل الحقَّ إلى مُستحِقِّه والمستأهل إلى مُستأهله، أو فيعلم هذا ويعلم ما تقتضيه الحِكمة والمصلحة من إنزال السكينة والرِّضا بالصُّلح، فيكون تذييلاً لجميع ما تقدَّم.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رأى رسولُ الله ﷺ في المنام قبلَ خروجه إلى الحُديبية ـ وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه عليه الصلاة والسلام رأى وهو في الحديبية[1]، والأول أصحُّ ـ أنه هو وأصحابُه دخلوا مكةَ آمنين وقد حلقُوا وقصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه، فَفَرِحُوا واستبشروا وحَسِبوا أنهم داخلوها في

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٣١٦.

عامِهم، وقالوا: إنَّ رؤيا رسول الله ﷺ حقٌّ، فلمَّا تأخَّر ذلك قال على طريق الاعتراض عبدُ الله بن أُبيّ وعبد الله بن نُفيل ورفاعة بن الحارث: واللهِ ما حلقنا ولا قصَّرنا ولا رَأَيْنا المسجدَ الحرامَ. فنزلت[١].

وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال نحوه على طريق الاستكشاف ليزداد يقينه[٢].

وفي روايةٍ: أنَّ رؤياه ﷺ إنما كانت أنَّ مَلَكاً جاءه فقال له: «لتدخُلُنَّ» إلخ[٣]، والمعنى: لقد صَدَقه سبحانه في رؤياه، على أنه من باب الحَذْف والإيصال كما في قولهم: صَدَقَني سنَّ بَكْرِه[٤]. وتحقيقه أنه تعالى أراه الرؤيا الصادقة.

وقال الراغب[٥]: الصدقُ يكون بالقول ويكون بالفعل، وما في الآية صدقٌ بالفعل، وهو التحقيقُ، أي: حقَّق سبحانه رؤيته.

وفي «شرح الكرماني»: كَذَب يتعدَّى إلى مفعولين، يقال: كذبني الحديثَ، وكذا: صدق، كما في الآية، وهو غريبٌ لِتعدِّي المُثَقَّل لواحد والمُخَفَّف لمفعولين. انتهى.

وفي «البحر»[٦]: صدق يتعدَّى إلى اثنين، الثاني منهما بنفسه وبحرف الجرِّ تقول: صَدَقْتُ زيداً الحديث وصَدَقْته في الحديث، وقد عدَّها بعضُهم في أخوات: استغفر وأمر. والمشهور ما أشرنا إليه أولاً.

﴿بِالْحَقِّ﴾ صفةٌ لمصدر محذوف، أي: صدقاً مُلتبساً بالحقِّ، أي: بالفرض الصحيح والحِكمة البالغة، وهو ظهورُ حال المتزلزل في الإيمان والراسخ فيه،

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٩، قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٥٤: لم أجده هكذا مفسّراً. اهـ. وينظر الدر المنثور ٦/ ٨٠.

(٢) ينظر تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وحاشية الشهاب ٨/ ٨٦.

(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٥٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٣٩.

(٤) ينظر شرحه فيما سلف ٢١/ ٢٤٢.

(٥) المفردات (صدق).

(٦) البحر المحيط ٨/ ١٠١.

ولأجل ذلك أخّر وقوع الرؤيا إلى العام القابل. أو حالٌ من الرؤيا، أي: مُلتبسةً بالحقِّ ليست من قَبيل أضغاث الأحلام.

وجُوِّز كونه حالاً من الاسم الجليل، وكونُه حالاً من «رسوله»، وكونه ظرفاً لغواً لـ «صَدَق»، وكونه قَسَماً بالحقِّ الذي هو من أسمائه عز وجل، أو بنقيض الباطل، وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ عليه جوابُ القَسَم والوقف على «الرؤيا»، وهو على جميع ما تقدَّم جوابُ قَسَمٍ مُقدَّر، والوقف على «الحقّ»، أي: والله لتدخُلُنَّ.. إلخ.

وقوله سبحانه: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليقٌ للعِدَة بالمشيئة لتعليم العِباد، وبه ينحلُّ ما يقال: إنه تعالى خالقٌ للأشياء كلِّها وعالمٌ بها قبلَ وقوعها، فكيف وقع التعليقُ منه سبحانه بالمشيئة، وفي معنى ما ذُكر قول ثعلب: استثنى سبحانه وتعالى فيما يعلم ليستثني الخَلْقُ فيما لا يعلمون[1].

وفيه تعريضٌ بأنَّ وقوعَ الدخول من مشيئته تعالى لا من جَلادتهم وتدبيرهم، وذكر الخفاجي[2] أنه قد وُضِعَ فيه الظاهر موضعَ الضمير، وأصله: لَتدخُلُنَّه لا مَحالةَ إلا إنْ شاء عدمَ الدُّخول، فهو وعدٌ لهم عُدِلَ به عن ظاهره لأجل التعريض بهم والإنكار على المُعترضين على الرؤيا، فيكون من باب الكناية. انتهى.

وقد أُجيبَ عن السؤال بغير ذلك فقيل: الشكُّ راجعٌ إلى المخاطبين، وفيه شيء ستعلمه قريباً إنْ شاء الله تعالى.

وقال الحسين بن الفضل: إن التعليقَ راجعٌ إلى دخولهم جميعاً. وحكي ذلك عن الجُبَّائي. وقيل: إنه ناظرٌ إلى الأمن، فهو مُقدَّم من تأخير، أي: لَتدخُلُنَّه حالَ كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من العدوِّ إن شاء الله. وردَّهما في «الكشف» فقال: أما جَعْله قيدَ دخولهم بالأسر[3] أو الأمن ففيه أن السؤالَ بعدُ باقٍ؛ لأنَّ الدخولَ المخصوصَ

---

(١) وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٣.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٨٦.

(٣) أي: بأسْرهم، أي: جميعاً، ويعني به قول الحسين بن الفضل.

أيضاً خبرٌ من الله تعالى، وهو يُنافي الشكَّ، وليس نظيرَ قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] إذ لا يبعدُ أن لا يعرف عليه السلام مستقرَّ الأمر من الأمن أو الخوف، فإما أن يُؤَوَّل بأنَّ الشكَّ راجعٌ إلى المُخاطَبين، أو بأنه تعليم، والثاني أولى لأنَّ تغليبَ الشاكِّين لا يُناسب هذا المَساق، بل الأمر بالعكس. ودُفع وروده على الحسين بأنَّ المرادَ أنه في معنى لَيدخُلَنَّه مَن شاء الله دخولَه منكم، فيكون كنايةً عن أنَّ منهم مَنْ لا يدخُله؛ لأنَّ أَجَلَه يمنعه منه، فلا يلزم الرجوع لِمَا ذكر.

وقيل: هو حكايةٌ لما قاله مَلَكُ الرؤيا له ﷺ. وإليه ذهب ابنُ كيسان، أو لِمَا قاله هو عليه الصلاة والسلام لأصحابه. وردَّه صاحبُ «التقريب» بأنه كيف يدخل في كلامه تعالى ما ليس منه بدون حكاية. ودُفِعَ بأنَّ المرادَ أنَّ جوابَ القَسَم بيانٌ للرؤيا، وقائلها في المنام المَلَك، وفي اليقظة الرسول ﷺ، فهي في حُكم المَحْكي في دقيق النظر، كأنه قيل: وهي قول المَلَك أو الرسول: لَتدخُلُنَّ.. إلخ، وأنت تعلم أنَّ هذا وإن صحح النظم الكريم لا يدفع البعد، وقد اعترض به على ذلك صاحبُ «الكشف» لكنه ادَّعى أنَّ كونَه حكايةً ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام أقلُّ بُعداً من جَعْله من قول المَلَك.

وقال أبو عُبيدة وقوم من النُّحاة: «إنْ» بمعنى «إذْ»، وجعلوا من ذلك قولَه تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقوله ﷺ في زيارة القبور: «أنتم السابقون وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكم لاحقون»[1]، والبصريون لا يرتضون ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال كـ «آمنين» من الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين من قوله تعالى: «لَتدخُلُنَّ»، إلا أنَّ «آمنين» حالٌ مقارِنة، وهذا حالٌ مُقدَّرة؛ لأنَّ الدخولَ في حال الإحرام لا في حال الحَلْق والتقصير، وجُوِّز أن يكونَ حالاً من ضمير «آمنين» والمراد: مُحلِّقاً بعضكم رأسَ بعض ومُقصِّراً آخرون، ففي

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٤٧١)، ومسلم (٩٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه.

الكلام تقديرٌ، أو فيه نسبةُ ما للجزء إلى الكُلّ، والقرينةُ عليه أنه لا يجتمع الحَلْق ـ وهو معروف ـ والتقصير وهو أخذُ بعض الشعر، فلا بدَّ من نسبة كلٍّ منهما لبعضٍ منهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حالٌ من فاعل «لتدخلُنَّ» أيضاً لبيان الأمْنِ بعد تمام الحَجِّ، و«آمنين» فيما تقدَّم لبيان الأمن وقت الدخول، فلا تكرار، أو حال من الضمير المُستتر في «آمنين»، فإنْ أُريدَ به معنى «آمنين» كان حالاً مُؤكِّدة، وإنْ أُريد لا تخافون تَبِعةً في الحَلْق أو التقصير ولا نقصَ ثوابٍ، فهو حال مُؤسِّسة. ولا يخفى الحالُ إذا جُعِلَ حالاً من الضمير في «مُحلِّقين» أو «مُقَصِّرين».

وجُوِّز أن يكون استئنافاً بيانيًّا في جواب سؤال مُقدَّر، كأنه قيل: فكيف الحالُ بعد الدخول؟ فقيل: لا تخافون، أي: بعد الدخول.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ الحَلْق غير متعيّن في النُسك، بل يُجزئ عنه التقصير، وظاهرُ تقديمه عليه أنه أفضلُ منه، وهو الذي دلَّت عليه الأخبار في غير النِّساء؛ أخرج الشيخان وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفِرْ لِلمُحَلِّقين» قالوا: يا رسولَ الله، والمقصرين؟ قال: «اللهم اغفِرْ للمحَلِّقين» ثلاثاً، قالوا: يا رسولَ الله، والمُقصِّرين؟ قال: «والمُقصِّرين»[1].

وأما في النساء فقد أخرج أبو داود والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليس على النساء حَلْقٌ، وإنما على النساء التقصير»[2].

والسُّنَّة في الحَلْق أن يبدأ بالجانب الأيمن، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن أنس أنه رأى النبيَّ ﷺ قال للحلَّاق هكذا، وأشار بيدِه إلى جانب الأيمن[3]، وأن يبلغ به إلى العظمين، كما قال عطاء.

---

(١) صحيح البخاري (١٧٢٨)، وصحيح مسلم (١٣٠٢)، ومسند أحمد (٧١٥٨)، وسنن ابن ماجه (٣٠٤٣).

(٢) سنن أبي داود (١٩٨٥)، وسنن البيهقي ٥/ ١٠٤.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٠٤، وأخرجه أيضاً مسلم (١٣٠٥).

وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن ابن عباس وابن عمر ﭬ أنهما كانا يقولان للحلاق: ابدأ بالأيمن وابلغ بالحَلْق العظمين[1].

واستُدلَّ بالآية أيضاً على أنَّ التقصير بالرأس دون اللحية وسائرِ شعر البدن، إذ الظاهرُ أنَّ المرادَ: ومُقصِّرين رؤوسكم، أي: شعرها، لظهور أن الرؤوس أنفسها لا تُقَصَّر.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ الظاهرُ عَطْفُه على «لقد صدق» فالترتيبُ باعتبار التعلُّق الفعلي بالمعلوم، أي: فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحِكمة الداعيةِ لتقديم ما يشهدُ للصِّدقِ علماً فعليًّا، وقيل: الفاء للترتيب الذِّكري.

﴿فَجَعَلَ﴾ لأجل هذا العلم ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من دون تحقُّق مِصداقِ ما أراه من دخول المسجدِ الحرام آمنين.. إلخ، وقيل: أي: من دون فتح مكة. والأولُ أظهر، وهذا أنسبُ بقوله تعالى: ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ وهو فتحُ خيبر، كما قال ابن زيد وغيره، والمراد بجعله وعده تعالى وإنجازه من غير تسويف ليستدلَّ به على صدقِ الرؤيا وتستروحَ قلوبُ المؤمنين إلى تيسُّر وقوعها.

وقال في «الكشاف»: «ما لم تعلموا» أي: من الحِكمة في تأخيرِ فتح مَكَّةَ إلى العام القابل[2]. وفيه أمران: الأول: أن فتحَ مكةَ لم يقع في العام الذي قاله، بل في السنةِ الثامنة، والتجوُّز في العامِ القابل، أو تأويل الفتح بدخول المؤمنين مكة معتمرين لا يخفى حاله. الثاني: إباء الفاء عمَّا ذكر؛ لأنَّ عِلْمه تعالى بِذلك مُتقدِّم على إراءة الرؤيا قطعاً.

وأجيب عن هذا بالتزام كون الفاء للترتيب الذِّكري، أو كون المراد: فأظهر معلومَه لكم، وهو الحِكْمة، فتدبَّر.

ونُقل عن كثير من الصحابة ﭫ أن الفتحَ القريبَ في الآية هو بيعةُ الرِّضوان، وقال مجاهد وابن إسحاق: هو فتح الحديبية. ومن الغريب ما قيل: إنَّ المرادَ به

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٣٠٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٠.

فتحُ مكةَ، مع أنه لم يكن دون دخول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه مكة[1]، على أنه مُنافٍ للسِّياق كما لا يخفى.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: مُلتبساً به، على أنَّ الباء للملابسة، والجارّ والمجرور في موضع الحال من المفعول، والتباسه بالهُدى بمعنى أنه هادٍ، وقيل: أي: مصاحباً للهُدى، والمرادُ به الدليل الواضح والحُجَّة الساطعة، أو القرآن، وجُوِّز أن تكون الباء للسببية أو للتعليل، وهما متقاربان، والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «أرسل»، أي: أرسله بسبب الهُدى أو لأَجْله.

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام، والظاهرُ أنَّ المرادَ به ما يعمُّ الأصولَ والفروع، وجُوِّز أن يُرادَ بالهُدى الأصول، وبدين الحقِّ الفروع. فإنَّ من الرُّسل عليهم السلام من لم يُرسَل بالفروع، وإنما أُرسل بالأصول وبيانها[2]، والظاهرُ أن المرادَ بالحقِّ نقيضُ الباطل، وجوّز فيه أن يرادَ به ما هو من أسمائه تعالى، أي: ودين الله الحقّ، وجوَّز الإمامُ[3] غيرَ ذلك أيضاً.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لِيُعليه على جنس الدين بجميع أفراده، أي: ما يدان به من الشرائع والملل، فيشمل الحقَّ والباطل، وأصلُ الإظهار: جعلُ الشيء على الظَّهر، فلذا كَنَى به عن الإعلاء وعن جَعْله بادياً للرائي، ثم شاع في ذلك حتى صار حقيقةً عُرفية، وإظهارُه على الحقِّ بنسخ بعضِ أحكامه المُتبدِّلة بتبدُّل الأعصار، وعلى الباطل ببيانِ بُطلانه، وجوَّز غيرُ واحد ـ ولعلَّه الأظهر بحسب المقام ـ أن يكون إظهارُه على الدين بتسليط المسلمين على جميع أهلِ الأديان، وقالوا: ما من أهل دينٍ حاربوا المسلمين إلا وقد قهرهم المسلمون، ويكفي في ذلك استمرارُ ما ذكر زماناً معتدًّا به كما لا يخفى على الواقفين على كتب التواريخ والوقائع.

---

(١) في (م): مع أنه لم يكن دخول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه دون مكة، وهو خطأ، والمثبت من الأصل والبحر ٨/ ١٠١، وزاد: بل كان بعد ذلك.

(٢) في (م): وتبيانها.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٦.

وقيل: إنَّ تمام هذا الإعلاء عند نزول عيسى عليه السلام وخروجِ المَهدي رضي الله عنه حيث لا يبقى حينئذ دينٌ سوى الإسلام، ووقوعُ خلاف ذلك بعدُ لا يضرُّ؛ إما لنحو ما سمعتَ، وإما لأنَّ الباقي من الدنيا إذْ ذاك كَلَا شيءٍ. وفي الجملة فضلُ تأكيد لما وعدَ الله تعالى به من الفَتْح، وتوطينٍ لنفوس المؤمنين على أنه تعالى سيفتح لهم من البلاد ويُتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلُّون بالنسبة إليه فتحَ مكة.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ على أنَّ ما وعده[1] عز وجل من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتحِ كائنٌ لا محالَة، أو: كفى بالله شهيداً على رسالته ﷺ، لأنه عليه الصلاة والسلام ادَّعاها وأظهَرَ اللهُ تعالى المُعجزة على يدِه، وذلك شهادةٌ منه تعالى عليها، واقتصر على هذا الوجه الرازي[2]، وجعل ذلك تسليةً عمَّا وقع من سُهيل بن عمرو إذ لم يرضَ بكتابة: محمدٌ رسولُ الله، وقال ما قال.

وجعل بعضُ الأفاضل إظهارَ المعجزة شهادةً منه تعالى على تحقُّق وَعْدِه عز وجل أيضاً، ولا يَظهر إلا بضمِّ إخباره عليه الصلاة والسلام به.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ أي: هو - أو الرسولُ المُرسَل بالهُدَى ودين الحقِّ - محمدٌ، على أنَّ الاسم الشريفَ خبرُ مبتدأ محذوف، و«رسول الله» عطفُ بيانٍ أو نعت أو بدل، والجملة استئنافٌ مُبيِّنٌ لقوله تعالى: «هو الذي أرسل رسولَه» وهذا هو الوجهُ الأرجح الأنسبُ بالمَساق كما في «الكشف»، ويُؤيِّده نظراً إلى بعض ما يأتي من الأوجه إنْ شاءَ اللهُ تعالى قراءةُ ابن عامر في روايةٍ: «رسولَ» بالنصب على المَدْح[3]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ مبتدأ، خبره قوله سبحانه: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

وقال أبو حيان: الظاهرُ أنَّ «محمدٌ رسولُ الله» مبتدأ وخبر[4]. والجملةُ عليه مُبيِّنة للمشهود به، أما على كونه الرسالة فظاهر، وأما على كونه محقَّق الوعد فقيل:

---

(١) في (م): ما عده.
(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ١٠٧.
(٣) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ١٠١، وهي غير المشهورة عن ابن عامر.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٠١.

لأن كينونة ما وعدَه لازمةٌ لكونه عليه الصلاة والسلام رسولَ الله، إذْ هو لا يُوعَد إلا بما هو محقَّق، ولا يُخْبِر إلا عن كلِّ صِدْق.

وجوز كون «محمد» مبتدأ، و«رسول» تابعاً له، «والذين معه» عطفاً عليه، والخبر عنه وعنهم قوله تعالى: «أشداءُ» إلخ.

وقرأ الحسن: «أشداءَ»، «رحماء» بنصبهما[1]، فقيل: على المدح، وقيل: على الحال، والعامل فيهما العامل في «معه»، فيكون الخبر على هذا الوجه جملة «تراهم» الآتي، وكذا خبر «الذين» على الوجه الأول.

والمرادُ بـ «الذين معه» عند ابن عباس من شهد الحُديبية. وقال الجمهور: جميع أصحابه ﷺ و﷡. و«أشداء» جمع: شديد، و«رحماء» جميع: رحيم، والمعنى: إن فيهم غِلْظةً وشِدَّة على أعداء الدين، ورحمةً ورِقَّة على إخوانهم المؤمنين.

وفي وصفهم بالرحمة بعد وَصْفهم بالشِّدَّة تكميلٌ واحتراسٌ، فإنه لو اكتفى بالوصف الأول لربمَّا تُوُهِّم أن مفهومَ القيد غير مُعتبر، فيتوهَّم الفَظاظة والغِلظة مطلقاً، فدفع بإردافِ الوصف الثاني، ومآلُ ذلك أنهم مع كونهم أشداءَ على الأعداء رحماءُ على الإخوان، ونحوه قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وعلى هذا قوله:

حليمٌ إذا ما الحِلم زيَّن أهلَه   على أنه عند العدوِّ مَهيب[2]

وقد بلغ كما رُوي عن الحسن من تشدُّدهم على الكُفَّار أنهم كانوا يتحرَّزون من ثيابهم أنْ تَلزَقَ بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمسَّ أبدانَهم، وبلغ من ترحُّمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمنٌ مؤمناً إلا صافحه وعانقه.

والمصافحة لم يختلف فيها الفقهاء؛ أخرج أبو داود عن البراء قال: قال

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٣، والمحتسب ٢/ ٢٧٦.

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي، وهو في ديوان المعاني ٢/ ١٧٨٢، والخزانة ١٠/ ٤٣٥، ورواية عجزه فيهما:

مع الحلم في عين العدو مهيب

رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان فتصافحا وحَمِدا اللهَ واستغفراه غُفِرَ لهما»، وفي رواية الترمذي: «ما مِنْ مسلمين يَلتقيان فيتصافحان إلا غُفِرَ لهما قبلَ أن يتفرَّقا»(١). وفي «الأذكار النووية» أنها مستحبَّةٌ عند كلِّ لقاء، وأما ما اعتاده الناسُ بعد صلاتَي الصُّبح والعصر فلا أصلَ له، ولكن لا بأسَ به، فإنَّ أصلَ المصافحةِ سنةٌ، وكونهم محافظين عليها في بعض الأحوال ومُفرِّطين في كثير منها لا يُخرجُ ذلك البعض عن كونه من المصافحة التي ورد الشرعُ بأصلها(٢). وجعل ذلك العز بن عبد السلام في «قواعده»(٣) من البدع المباحة، وأطال الشيخ إبراهيم الكوراني قُدِّس سِرُّه الكلامَ في ذلك.

وأما المعانقةُ؛ فقال الزمخشري(٤): كرهها أبو حنيفة ﷺ، وكذلك التقبيل قال: لا أُحِبُّ أنْ يُقَبِّل الرجلُ من الرجل وَجْهه ولا يدَه ولا شيئاً من جسده، ورخَّص أبو يوسف عليه الرحمة المعانقة؛ ويُؤيِّد ما رُوي عن الإمام ما أخرجه الترمذي عن أنس قال: سمعتُ رجلاً يقول لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، الرجلُ منَّا يلقى أخاه، أينحني له؟ قال: «لا»، قال: أفيلتزمه ويُقَبِّله؟ قال: «لا»، قال: أيأخُذ بيده ويُصافحه؟ قال: «نعم»(٥).

وفي «الأذكار»: التقبيل وكذا المعانقة لا بأس به عند القدوم من سفر ونحوه، ومكروهٌ كراهةَ تنزيهٍ في غيره، وللأمرد الحسن حرامٌ بكلِّ حال(٦).

أخرج الترمذي ـ وحسَّنه ـ عن عائشةَ قالت: قَدِمَ زيدُ بن حارثة(٧) المدينةَ

---

(١) سنن أبي داود (٥٢١١)، وسنن الترمذي (٢٧٢٧).
(٢) أذكار الإمام النووي ص٢٢٧.
(٣) قواعد الأحكام ص١٧٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٥٠.
(٥) سنن الترمذي (٢٧٢٨)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٣٠٤٤) وفي إسناده: حنظلة بن عبيد الله الدوسي، وهو ضعيف ـ كما في التقريب ـ وقد استنكر له الإمام أحمد هذا الحديث كما في الجرح والتعديل ٣/ ٢٤١.
(٦) الأذكار النووية ص٢٢٦.
(٧) في الأصل: زيد بن خالد بن حارثة.

ورسولُ الله في بيتي، فقرعَ البابَ، فقام إليه رسولُ الله ﷺ يجرُّ ثوبَه فاعتنقه وقَبَّله[١]. وزاد رَزِين في حديث أنس السابق بعد قوله: ويُقَبِّله: قال: «لا، إلا أن يأتي من سفر»[٢]، وروى أبو داود: سُئل أبو ذرٍّ: هَل كان ﷺ يُصافحكم إذا لَقِيتموه؟ قال: ما لَقِيتُه قطُّ إلا صافحني، وبعث إليَّ ذاتَ يوم ولم أكن في أهلي، فجئتُ فأُخبرت أنه ﷺ أرسلَ إليَّ، فأتيته وهو على سريره فالتزمني، فكانت أجودَ وأجودَ[٣]. وهذا يُؤيِّد الإطلاق المَحكيَّ عن أبي يوسف.

وينبغي التأسِّي بهم ﷺ في التشدُّد على أعداء الدين والرحمة على المؤمنين. وقد أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود عن عبد الله بن عمرو[٤] مرفوعاً: «من لم يَرْحَمْ صغيرَنا ويعرِفْ حقَّ كبيرنا فليس منا»[٥] وأخرجا هما وأحمد وابن حبان والترمذي ـ وحسَّنه ـ عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تُنزَعُ الرحمةُ إلا مِنْ شَقِيٍّ»[٦]. ولا بأس بالبِرِّ والإحسان على عدوِّ الدين إذا تضمَّن مصلحةً شرعية، كما أفاد ذلك ابنُ حجر في «فتاويه الحديثية»[٧]. فليراجع.

وقرأ يحيى بن يعمر: «أشدَّا» بالقصر، وهي قراءة شاذة[٨]، لأنَّ قصرَ الممدود في الشعر نحو قوله:

لا بـدَّ مـن صـنـعـا وإنْ طـال الـسَّـفـر[٩]

---

(١) سنن الترمذي (٢٧٣٢) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث الزهري إلا من هذا الوجه.

(٢) لم نقف على هذه الزيادة.

(٣) سنن أبي داود (٥٢١٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٤٧٦).

(٤) في الأصل: عن عبد الله، وفي (م): عن عبد الله بن عمر، والمثبت من المصادر.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٢١٤، وسنن أبي داود (٤٩٤٣)، وهو في مسند أحمد (٦٧٣٣).

(٦) مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٢١٤، وسنن أبي داود (٤٩٤٢)، ومسند أحمد (٨٠٠١)، وصحيح ابن حبان (٤٦٢)، وسنن الترمذي (١٩٢٤).

(٧) لم نقف على ذلك في المطبوع منها.

(٨) القراءات الشاذة ص١٤٢، والبحر ٨/ ١٠٢.

(٩) ذكره ابن جني في سر صناعة الإعراب ٢/ ٥١٧، وأبو حيان في البحر ٨/ ١٠٠ ولم ينسباه.

وقوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ خبرٌ آخر لـ «الذين»، أو استئناف، ويجوزُ فيه غيرُ ذلك على ما لا يخفى. والرؤية بصرية، والخِطابُ لكلِّ مَنْ تتأتَّى منه، و«ركَّعاً سجداً» حالٌ من المفعول، والمرادُ: تراهم مُصَلِّين، والتعبير بالركوع والسجود عن الصلاة مَجازٌ مرسل، والتعبير بالمضارع للاستمرار وهو استمرارٌ عُرفي، ومن هنا قال في «البحر»(١): هذا دليلٌ على كَثْرة الصلاة منهم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: ثواباً ورضًا، والجملةُ إما خبرٌ آخرُ، أو حالٌ من مفعول «تراهم»، أو من المُستتر في «ركعا سجداً»، أو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود، كأنه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: يبتغون فضلاً.. إلخ.

وقرأ عمرو بن عُبيد: «ورُضواناً» بضمِّ الراء(٢).

﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي: علامتهم، وقُرِئ: «سيمياؤهم» بزيادة ياء بعد الميم والمَدّ(٣)، وهي لغةٌ فصيحة كثيرة في الشعر، قال الشاعر:

غـلامٌ رمـاه اللهُ بـالـحُـسْـن يـافـعـاً ... لـه سيـميـاءُ لا تـشـقُّ علـى الـبَـصَرْ(٤)

وجاء: سيماء بالمدِّ، واشتقاقها من السُّومة بالضَّمِّ: العلامة تُجعل على الشاةِ، والياء مُبدلة من الواو، وهي مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ أي: في جِباههم، أو هي على ظاهرها، وقوله سبحانه: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ حال من المُستكنِّ في الجارِّ والمجرور الواقع خبراً لـ «سيماهم»، أو بيانٌ لها، أي: سيماهم التي هي أثرُ السجود، ووجهُ إضافة الأثر إلى السجود أنه حادثٌ من التأثير الذي يُؤثره السجود، وشاع تفسيرُ ذلك بما يحدثُ في جبهة السجَّاد مما يُشبه أَثَرَ الكَيّ وثَفِنَة البعير، وكان كلٌّ من العَلِيَّين علي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك رضي الله عنهما يقال له: ذو الثَّفِنات، لأنَّ كثرةَ سجودهما أحدثَ في

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٠٢.
(٢) البحر ٨/ ١٠٢، وذكرها صاحب النشر ٢/ ٢٣٨ عن شعبة.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٢، وما بعده منه أيضاً.
(٤) البيت لابن عنقاء الفزاري، وهو في شرح الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٨٨.

مَواقعهِ منهما أشباه ثَفِنات البعير، وهي ما يقعُ على الأرض من أعضائه إذا غلظ.

وما رُوي من قوله ﷺ: «لا تعلبوا صوركم»[(١)]، أي: لا تَسِموها، مِنَ العَلْب ـ بفتح العين المهملة وسكون اللام ـ الأَثَر، وقولِ ابن عمر وقد رأى رجلاً بأنفه أثرُ السجود: إنَّ صورةَ وجهك أنفك، فلا تَعْلُب وجهك ولا تَشِنْ صورتك[(٢)] = فذلك إنما هو إذا اعتمد بجبهته وأنفه على الأرض لِتَحدُثَ تلك السِّمة وذاك محضُ رياء ونِفاق يُستعاذُ بالله تعالى منه، والكلام فيما حدث في وجه السّجّاد الذي لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله عز وجل.

وأنكر بعضُهم كونَ المراد بالسِّيما ذلك؛ أخرج الطبراني والبيهقي في «سننه» عن حُميد بن عبد الرحمن قال: كنت عند السائب بن يزيد إذْ جاء رجل وفي وجهه أثر السجود، فقال: لقد أفسد هذا وجهه، أما واللهِ ماهي السِّيما التي سمَّى الله تعالى، ولقد صلَّيتُ على وجهي منذ ثمانين سنة ما أثَّر السجود بين عينيَّ[(٣)]. وربما يحمل على أنه استشعرَ من الرجل تَعمُّداً لذلك، فنفى أنْ يكون ما حصل به هو السِّيما التي سمَّى الله تعالى، ونظيره ما حُكي عن بعض المتقدِّمين قال: كُنَّا نُصلِّي فلا يُرى بين أعيننا شيء، ونرى أحدَنا الآن يُصلِّي فترى بين عينيه ركبةَ البعير، فما ندري أَثقُلَت الأرؤس أم خَشُنَت الأرض.

وأخرج ابن جرير[(٤)] وجماعة عن سعيد بن جُبير أنه قال: هذه السِّيما نَدَى الطَّهور وتراب الأرض. ورُوي نحوه عن سعيد بن المُسيَّب.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حُميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال: ليس له أثر في الوجه، ولكنه الخشوع. وفي رواية: هي الخشوع والتواضع[(٥)]. وقال

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٤: لم أجده مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن الجعد في مسنده (٢٢٧٣). وقوله: لا تعلب، أي: لا تؤثر فيه بشدة اتكائك على أنفك في السجود. النهاية (علب).

(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٢، والمعجم الكبير (٦٦٨٥)، وسنن البيهقي ٢/ ٢٨٧.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٥، وأخرجه أيضاً البيهقي ٢/ ٢٨٧.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٤.

منصور: سألت مجاهداً: أهذه السِّيما هي الأثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، وقد يكون مثلَ ركبة البعير، وهو أقسى قلباً من الحِجارة.

وقيل: هي صُفرة الوجهِ من سهر الليل، ورُوي ذلك عن عكرمة والضحاك.

وروى السُّلمي عن عبد العزيز المَكّي: ليس ذاك هو النُّحول والصُّفرة، ولكنه نورٌ يظهرُ على وجوه العابدين يبدو من باطنهم على ظاهرهم يتبيَّن ذلك للمؤمنين، ولو كان في زنجي أو حبشي[(١)].

وقال عطاء والربيع بن أنس: هو حُسنٌ يعتري وجوه المُصلِّين. وأخرج ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس قال: السَّمتُ الحَسَن[(٢)]. وعن بعضهم: ترى على وجوههم هيبةً؛ لِقُرب عهدهم بمناجاة سيِّدهم.

والذاهبون إلى هذه الأقوال قائلون: إنَّ المرادَ: علامتهم في وجوههم وهم في الدنيا. وقال غير واحد: هذه السِّيما في الآخرة، أخرج البخاري في «تاريخه» وابن نَصْر عن ابن عباس أنه قال في الآية: بياضٌ يغشى وجوهَهم يومَ القيامة[(٣)]. وأخرج ابن نصر وعبد بن حُميد وابن جرير عن الحسن مثله[(٤)].

وأخرجوا عن عطية العوفي قال: موضعُ السجود أشدُّ وجوههم بياضاً[(٥)].

وأخرج الطبراني في «الأوسط» و«الصغير» وابن مردويه بسند حسن عن أُبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: «النورُ يومَ القيامة»[(٦)]. ولا يبعدُ أن يكونَ النورُ علامةً في وجوههم في الدنيا والآخرة، لكنه لما كان في الآخرة أظهرَ وأتمَّ خصَّه النبيُّ ﷺ بالذِّكر، وإذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي.

---

(١) تفسير السلمي ٢/ ٢٥٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٣، وسنن البيهقي الكبرى ٢/ ٢٨٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٢، والتاريخ الكبير ٣/ ٢١.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٣.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٢٢.
(٦) الدر المنثور ٦/ ٨٢، والمعجم الأوسط (٤٤٦٤)، والمعجم الصغير (الروض الداني)(٦١٩).

وقرأ ابنُ هرمز: «إِثْر» بكسر الهمزة وسكون الثاء[1]، وهو لغة في أَثَر.

وقرأ قتادة: «من آثار» بالجمع[2].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من نُعوتهم الجليلة؛ وما فيه من معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشار إليه للإيذان بعلوِّ شأنه وبُعد منزلته في الفضل، وقيل: البعدُ باعتبار المبتدأ، أعني «أشداء»، ولو قيل: هذا، لتُوُهِّمَ أنَّ المُشارَ إليه هو النعتُ الأخير، أعني: «سيماهم في وجوههم من أثر السجود». وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: وصفُهم العجيب الشأن الجاري في الغَرابة مجرى الأمثال. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ حالٌ من «مَثَلُهم»، والعاملُ معنى الإشارة؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ على «مَثَلُهم» الأول، كأنه قيل: ذلك مَثَلُهم في التوراة والإنجيل، وتكرير «مَثَلُهم» لتأكيدِ غرابته وزيادة تقريرها.

وقُرئ: «الأَنجيل» بفتح الهمزة[3].

وقوله عز وجل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ إلخ، تمثيلٌ مستأنف، أي: هم، أو: مَثَلُهم كزرع.. إلخ، فالوقفُ على «الإنجيل» وهذا مرويٌّ عن مجاهد. وقيل: «مَثَلُهم» الثاني مبتدأ، وقوله تعالى: «كزرع» إلخ خبرُه، فالوقف على «التوراة» وهذا مرويٌّ عن الضحاك وأبي حاتم وقتادة. وجُوِّز أن يكون «ذلك» إشارةً مُبهمة أُوضحت بقوله تعالى: «كزرع» إلخ، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]. فعلى الأول والثالث «مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل» شيءٌ واحدٌ إلا أنه على الأول «أشداء على الكفار رحماء بينهم» إلخ، وعلى الثالث «كزرع أخرج شطأه» إلخ، وعلى الثاني «مثلهم في التوراة» شيء وهو «أشداء» إلخ، ومثلُهم في الإنجيل شيء آخر وهو «كزرع» إلخ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٠٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٠، والبحر ٨/ ١٠٢.
(٣) القراءات الشاذة ص١٤٢، والكشاف ٣/ ٥٥١.

واعتُرض الوجه الثالث بأنَّ الأصلَ في الإشارة أن تكون لمتقدِّم، وإنما يُشار إلى المتأخِّر إذا كان نعتاً لاسم الإشارة نحو ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢]، وفيه أنَّ الحَصْر ممنوعٌ.

والشَّطْءُ: فروخُ الزرع ـ كما قال غير واحد ـ وهو ما خرج منه وتفرَّع في شاطئيه، أي: في جانبيه؛ وجمعه ـ كما قال الراغب[١] ـ أشطاء. وقال قطرب: شوكُ السُّنبل، يخرج من الحبَّة عشرُ سُنبلات وتسع وثمان. وقال الكسائي والأخفش: طَرَفُه، وأنشدوا:

أَخرجَ الشَّطْءَ على وجه الثَّرى ومن الأشجار أفنانَ الثَّمَرْ[٢]

وزعم أبو الفتح[٣] أنَّ الشطء لا يكونُ إلا في البُرِّ والشعير، وقال صاحب «اللوامح»: شَطَأَ الزرعُ وأَشْطَأَ: إذا أخرجَ فِراخَه، وهو في الحِنْطة والشعير وغيرهما، وفي «البحر»[٤]: أشطأ الزرع: أفرخ، والشجرة: أخرجَتْ غُصونَها.

وفي «القاموس»: الشَّطءُ: فراخُ النخل والزرع، أو: ورقُه، جمعه: شُطوء، وشَطَأَ ـ كمنع ـ شَطْأً وشطوءاً: أخرجها، ومن الشجر ما خرج حولَ أصله، وجمعه: أشطاء، وأشطأ: أخرجها[٥]. اهـ. وفيه ما يُرَدُّ به على أبي الفتح مع زيادة لا تخفى فائدتُها، فلا تَغْفُلْ.

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان: «شَطَأَه» بفتح الطاء[٦]. وقرأ أبو حيوة وابن أبي عَبْلة وعيسى الكوفي كذلك وبالمَدّ[٧]. وقرأ زيدُ بن عليٍّ كذلك أيضاً وبألف بدل الهمزة[٨]، فاحتمل أن يكون مقصوراً، وأن يكون أصلُه الهمزَ، فنقل الحركة وأبدل

(١) المفردات (شطا).
(٢) البيت للزبير بن العوام رضي الله عنه، وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٩.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٧٧.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٨٨.
(٥) القاموس المحيط (شطأ).
(٦) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٥.
(٧) أي: «شَطَاءَه». القراءات الشاذة ص ١٤٢، والمحتسب ٢/ ٢٧٦، والبحر ٨/ ١٠٢.
(٨) أي: «شَطَاه». المحتسب ٢/ ٢٧٦، والبحر المحيط ٨/ ١٠٢.

الهمزة ألفاً كما قالوا في المرأة والكَمْأة: المراة والكماة، وهو تخفيفٌ مَقِيسٌ عند الكوفيين، وعند البصريين شاذٌّ لا يُقاس عليه.

وقرأ أبو جعفر: «شَطَه» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء، ورُويت عن شيبة ونافع والجحدري[١]. وعن الجحدري أيضاً: «شَطْوَه» بإسكان الطاء وواو بعدَها، قال أبو الفتح: هي لغةٌ أو بدلٌ من الهمزة[٢].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: أعانه وقوَّاه، قاله الحسن وغيره. قال الراغب[٣]: وأصله من شَدِّ الإزار، يقال: أَزرته، أي: شددت إزاره، ويقال: آزرت البناء وأزرته: قوَّيت أسافله، وتأزَّر النبات: طال وقَوِي.

وذكر غيرُ واحد أنه إما من المؤازرة بمعنى المعاونة، أو من الإيزار، وهي الإعانة. وفي «البحر»[٤]: «آزر» أَفْعَلَ، كما حُكي عن الأخفش، وقول مجاهد وغيره: فاعَلَ، خطأ؛ لأنه لم يسمع في مضارعه إلا يُؤْزِر على وزن يُكرِم دون يُؤازِر. وتُعقِّب بأنَّ هذه شهادةُ نفي غيرُ مسموعة، على أنه يجوز أن يكونَ ورد من بابين، واستغني بأحدهما عن الآخر، ومثله كثير، مع أن السرقسطي نقله عن المازني، لكنه قال: يقال: آزر الشيءُ غيرَه، أي: ساواه وحاذاه، وأنشد لامرئ القيس:

بِمَحْنِيةٍ قد آزرَ الضَّال نَبْتَها مَجَرَّ[٥] جيوش غانمين وخُيَّبِ[٦]

وجعل ما في الآية من ذلك، وهو مرويٌّ أيضاً عن السدي قال: آزره: صار

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٢، والبحر ٨/ ١٠٣، والكلام منه، وهي غير المشهورة عن أبي جعفر ونافع.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٧، والبحر ٨/ ١٠٢.

(٣) المفردات (أزر).

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٠٣.

(٥) في الأصل و(م): بجر، والمثبت من الديوان.

(٦) ديوان امرئ القيس ص٤٥، قال شارحه: المحنية: حيث ينحني الوادي، وهو أخصب موضع فيه. وقوله: مجرّ جيوش: أي: هذه المحنية في موضع تمر الجيوش به من غانم وخائب، فلا ينزلها أحد ليرعاها خوفاً من الجيوش، فذلك أوفر لخصبها وأتم لكلئها.

مثلَ الأصل في الطول. والجمهور على ما نقل أولاً، والضمير المرفوعُ في «آزره» للشطء، والمنصوب للزرع، أي: فَقَوَّى ذلك الشطءُ الزرعَ.

والظاهر أنَّ الإسناد في «أخرج» و«آزر» مجازيٌّ. وكون ذلك من الإسناد إلى المُوجب، وهو حقيقةٌ، على ما ذهب إليه السيالكوتي في «حواشيه» على «المطول» حيث قال في قولهم: سرَّتني رؤيتك: هذا القول مجازٌ إذا أريد منه حصولُ السرور عند الرؤية، أما إذا أُريد منه أن الرؤية مُوجبةٌ للسرور فهو حقيقةٌ = لا يخفى حاله.

وقرأ ابن ذكوان: «فأَزَرَهُ» ثلاثيًا[1].

وقُرئ: «فأزَّره» بشدِّ الزاي[2]، أي: فشدَّ أزره وقوَّاه.

﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدِّقة إلى الغِلَظ، وهو من باب: اسْتَنْوَقَ الجملُ، ويحتمل أن يُرادَ المبالغة في الغِلَظ كما في استعصم ونحوه، وأُوثر الأول؛ لأنَّ المَساق يُنبئ عن التدرُّج.

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقامَ على قصبه وأُصوله، جمع: ساق، نحو: لابة ولوب، وقارة وقور.

وقرأ ابن كثير: «سؤقه» بإبدال الواو المضموم ما قبلَها همزة[3]، قيل: وهي لغةٌ ضعيفة، ومن ذلك قوله:

أَحَبُّ المُؤْقدين إليَّ مؤسى[4]

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوَّته وكثافته وغِلَظه وحسن منظره، والجملة في موضع الحال، أي: مُعجباً لهم، وخصَّهم تعالى بالذِّكر لأنه إذا أعجب الزُّرَّاع وهم يعرفون عيوبَ الزرع، فهو أحرى أن يُعجِبَ غيرهم، وهنا تمَّ المَثَل، وهو مَثَلٌ ضربه الله تعالى

(١) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٥.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥١، والبحر المحيط ٨/ ١٠٣.
(٣) التيسير ص ١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨، والبحر ٨/ ١٠٣.
(٤) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٨٨، وفيه: لحبّ الواقدان. وعجز البيت: وجعدة لو أضاءهما الوقود. وسلف ١٩/ ٤٦٠.

للصحابة رضي الله عنهم قلُّوا في بدء الإسلام ثم كثُروا واستحكموا، فترقَّى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس، وهذا ما اختاره بعضُهم، وقد أخرجه ابنُ جرير وابن المنذر، عن الضحاك. وابن جرير وعبد بن حُميد عن قتادة[١]، وذكر عنه أنه قال أيضاً: مكتوبٌ في الإنجيل: سيخرجُ قومٌ ينبتون نباتَ الزرع، يخرجُ منهم قومٌ يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المُنكر.

وفي «الكشاف»[٢]: هو مَثَلٌ ضربه اللهُ تعالى لبدء مِلَّة الإسلام وترقِّيه في الزيادة إلى أنْ قَويَ واستحكم؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قام وحدَه، ثم قوَّاه اللهُ تعالى بمن معه كما يقوِّي الطاقة الأولى [من الزرع] ما يحتفُّ بها مما يتولَّد منها.

وظاهرُه أنَّ الزرعَ هو النبيُّ ﷺ، والشَّطءَ أصحابُه رضي الله عنهم، فيكون مَثَلاً له عليه الصلاة والسلام وأصحابه، لا لأصحابه فقط كما في الأول، ولكلٍّ وجهة. وروي الثاني عن الواقدي. وفي خبر أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس[٣] ما يقتضيه.

وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ عِلَّةٌ لما يُعرب عنه الكلام من إيجاده تعالى لهم على الوجهِ الذي تضمَّنه التمثيل. وظاهرُ كلامِ بعضهم أنه عِلَّةٌ للتمثيل، وليس بذاك.

وقيل: عِلَّةٌ لما بعدَه من قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ فإنَّ الكفَّار إذا سمعوا بما أعدَّ الله تعالى للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا من العِزَّة غاظَهم ذلك. وهو مع توقُّف تمامِيَّته بحسب الظاهر على كون الكفار مستيقنين بالآخرة ومُتحقِّقين كونَ الوعدِ منه عز وجل = بعيدٌ.

وضمير «منهم» لمن عاد عليه الضمائر السابقة، و«من» للبيان مثلها في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وليس مجيئها كذلك

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٣، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣٠ و٣٣٢.

(٢) ٣/ ٥٥١، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٣، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣١.

مخصوصاً بما إذا كانت داخلةً على ظاهر كما توهَّم صاحبُ «التحفة الاثني عشرية» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] فقال: حملُ «مِنْ» للبيان إذا كان داخلاً على الضمير مخالفٌ لاستعمال العرب، وأنكر ذلك عليه صاحبُ الترجمة لكن قال: لو ادَّعى هذا الخلاف في ضميري الخطاب والتكلّم لم يَبْعُدْ.

ومن مجيئها للبيان داخلة على ضمير الغائب قوله تعالى: (لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ) عند القائلين بأنَّ ضميرَ «تزيَّلوا» للمؤمنين لا للتبعيض كما يقوله الشيعة الزاعمون ارتدادَ أكثرِ الصحابة ﷺ من أهل بيعة الرضوان وغيرهم، فإنَّ مدحَهم السابق بما يدلُّ على الاستمرار التجددي كقوله تعالى: (تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) ووصفهم بما يدلُّ على الدوام والثَّبات كقوله سبحانه: (وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ) يأبى التبعيض والارتدادَ الذي زعموه عند مَن له أدنى إنصافٍ وشمةٍ من دين، ويزيدُ زعمَهم هذا سقوطاً عن درجةِ الاعتبار أن مَدْحَهم ذاك قد كتبه الله تعالى في التوراة قبلَ أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ، ولا يكاد عاقلٌ يقبل أنه تعالى أطلق المدحَ وكتبه لأُناس لم يَثْبُتْ على تلك الصفة إلا قليلٌ منهم.

وإذا قلنا: إنَّ هؤلاء الممدوحين هم أهلُ بيعةِ الرضوان الذين بايعوه عليه الصلاة والسلام في الحديبية كما يُشعر به «والذين معه» لا سيما على القول بأنَّ السورةَ بتمامها نزلت عند مُنْصرَفِهِ عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل أن يتفرَّقوا عنه ﷺ، كان سقوطُ ذلك الزعم أَبْيَنَ وأبينَ؛ لأن الارتدادَ الذي يزعُمونه كان لترك مُبايعةِ عليّ كرم الله تعالى وجهه بعد وفاة رسول الله ﷺ مع العلم بالنَّصِّ على خلافتهِ بزعمهم ومبايعةِ أبي بكر ﷺ، وكيف يكون ذاك ارتداداً والله عز وجل حين رضي عنهم عَلِمَ أنهم يَفعلونه؟!

والقولُ بأنه سبحانه إنما رضي عن مُبايعتهم، أو عنهم من حيث المُبايعة، ولم يَرْضَ سبحانه عنهم مطلقاً لأجلها، خلافُ ظاهر الآية، والظاهر ما نفي، ولا يُعكِّر عليه صدور بعضِ المعاصي من بعضهم بعدُ، وإنما يعكِّر صدورُ ما لا يُجامع الرضا أصلاً كالارتداد، والعِياذ بالله تعالى.

وبالجملة جعل «مِنْ» للتبعيض ليتمَّ للشيعة ما زعموه مما يأباه الكتابُ والسنة وكلام العِتْرة. وفي «التحفة الاثني عشرية» من ذلك ما تنشرح له الصدورُ، وتزدادُ به قلوبُ المؤمنين نوراً على نور، ويا سبحان الله أين جعل «مِنْ» للتبعيض من دَعوى الارتداد! ولكن من يُضلل الله فما له من هاد.

وتأخير «منهم» هنا عن «عملوا الصالحات» وتقديم «منكم» عليه في آية «النور» التي ذكرناها آنفاً؛ لأن عمل الصالحات لا ينفكّ عنهم، وذلك ثمَّت لبيان الخُلفاء، والعمل الصالح ليس موقوفاً عليه لاستمرارِ صحة خلافتهم حتى لا ينعزلوا بالفِسق. وقال ابن جرير[١]: «منهم» يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام إلى يوم القيامة، فأعاد الضميرَ على معنى الشطء، وكذلك فعل البغوي[٢]، ولا يخفى بُعده.

هذا وفي «المواهب» أن الإمام مالكاً قد استنبط من هذه الآية تكفيرَ الروافض الذين يُبغضون الصحابةَ ﵃، فإنهم يغيظونهم، ومَنْ غاظَه الصحابةُ فهو كافر، ووافقه كثيرٌ من العلماء[٣]. انتهى.

وفي «البحر»[٤] ذُكر عند مالك رجلٌ ينتقص الصحابةَ، فقرأ مالك هذه الآية، فقال: مَنْ أصبحَ من الناس في قلبه غيظٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. ويُعلم تكفير الرافضة بخصوصهم. وفي كلام عائشة ﵂ ما يُشير إليه أيضاً؛ فقد أخرج الحاكم وصحَّحه عنها في قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ قالت: أصحابُ محمد ﷺ أُمروا بالاستغفار لهم، فسبُّوهم[٥]. وعن بعض السلف جعل جُمل الآية كلَّ جملةٍ مشيرة إلى معيَّن من الصحابة ﵃، فعن عكرمة أنه قال: «أخرج شطأه» بأبي بكر، «فآزره» بعمر، «فاستغلظ» بعثمان، «فاستوى على سوقه» بعليّ رضي الله عنهم أجمعين[٦].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٣٣٣.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٨.
(٣) المواهب اللدنية للقسطلاني ٧/ ٢٣.
(٤) ٨/ ١٠٣.
(٥) المستدرك ٢/ ٤٦٢.
(٦) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥١.

وأخرج ابن مردويه، والقاضي أحمد بن محمد الزهري في «فضائل الخلفاء الأربعة» والشيرازي في «الألقاب» عن ابن عباس: «محمد رسول الله والذين معه» أبو بكر، «أشداء على الكفار» عمر، «رحماء بينهم» عثمان، «تراهم ركعاً سجداً» علي كرم الله تعالى وجهه، «يبتغون فضلاً من الله ورضوانا» طلحة والزبير، «سيماهم في وجوههم من أثر السجود» عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عُبيدة بن الجراح، «ومثلهم في الإنجيل كَزَرْعٍ أَخرجَ شطأه فآزره» بأبي بكر، «فاستغلظ» بعمر، «فاستوى على سوقه» بعثمان، «يُعجب الزُّرَّاع ليغيظَ بهم الكفار» بعليٍّ كرم الله تعالى وجهه، «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات» جميع أصحاب محمد ﷺ[1].

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه رضي الله عنه أيضاً في قوله تعالى: «كزرع» قال: أصلُ الزرع عبد المطلب، «أخرج شطأه» محمد ﷺ، «فآزره» بأبي بكر، «فاستغلظ» بعمر، «فاستوى على سوقه» بعثمان، «ليغيظ بهم الكفار» بعليٍّ رضي الله عنه[2].

وكلُّ هذه الأخبار لم تصحَّ فيما أرى، ولا ينبغي تخريجُ ما في الآية عليها، وأعتقد أن لكلٍّ من الخلفاء رضي الله عنهم الحظّ الأوفى مما تضمَّنته، ومتى أُريد بالزرع النبيُّ عليه الصلاة والسلام كان حظُّ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه من شطئه أوفى من حظِّ سائر الخلفاء رضي الله عنهم، ولعلَّ مُؤازرته ومُعاونته البدنية بقتل كثيرٍ من الكفرة أعدائه عليه الصلاة والسلام أكثرُ من مُؤازرةِ غيره من الخُلفاء أيضاً، ومع هذا لا ينخدشُ ما ذهب إليه محقِّقو أهل السنة والجماعة في مسألة التفضيل كما لا يخفى على النبيه النبيل، فتأمَّل واللهُ تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في بعض الآيات: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ يُشير عندهم إلى فتح مكةِ العَماء بإدخال الأعيان الثابتة ظاهرة بنور الوجود فيها، أي:

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٣.
(٢) المصدر السابق.

إظهارها للعِيان لأجله عليه الصلاة والسلام، على أنَّ لام «لك» للتعليل، وحاصِلُه: أَظهرنا العالَمَ لأجلك، وهو في معنى ما يَروونه من قوله سبحانه: «لولاك لولاك ما خلقتُ الأفلاك»[١]. وقيل: يُشير إلى فتح باب قلبه عليه الصلاة والسلام إلى حَضْرة ربوبيته عز وجل بتجلِّي صفات جماله وجلاله، وفتح ما انغلقَ على جميع القلوب من الأسرار، وتفصيل شرائع الإسلام وغير ذلك من فتوحات قلبه ﷺ.

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ليستر وجودَك في جميع الأزمنة بوجوده جلَّ وعلا ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإثبات جميع حسنات العالم في صحيفتك، إذ كنتَ العِلَّةَ في إظهاره ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ بدعوة الخَلْق على وجه الجمع والفرق ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ على النفوس الأمَّارة ممن تدعوهم إلى الحقّ ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ قلَّما يُشبهه نصرٌ. ومن هنا كان ﷺ أكثرَ الأنبياء عليهم السلام تبعاً، وكان علماءُ أمته كأنبياء بني إسرائيل، إلى غير ذلك مما حصل لأمته بواسطة تربيته عليه الصلاة والسلام لهم، وإفاضة الأنوار والأسرار على نفوسهم وأرواحهم. والمرادُ: ليجمع لك هذه الأمور، فلا تغفل.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فسَّروها بشيء يجمع نوراً وقوة وروحاً بحيث يسكنُ إليه ويتسلَّى به الحزين والضَّجِر، ويحدثُ عنده القيام بالخِدمة ومحاسبة النفس وملاطفة الخَلْق ومراقبة الحقّ والرِّضا بالقسم والمنع من الشطح الفاحش. وقالوا: لا تنزلُ السكينةُ إلا في قلب نبيٍّ أو وَليٍّ ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ فيحصل لهم الإيمان العِياني والإيمان الاستدلالي البرهاني.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على جميع المخلوقات إذ كنتَ أول مخلوق[٢]، ومِن هنا أحاط ﷺ علماً بما لم يُحِطْ به غيره من المخلوقات، لأنه عليه الصلاة والسلام

---

(١) وهو حديث موضوع، ذكره الصغاني في موضوعاته (٧٨).

(٢) هذا كلام صوفي مستنده عندهم حديث: أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر. وهو حديث موضوع، ثم إنه قد ثبت أن أول ما خلق الله القلم، كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي أخرجه أحمد (٢٢٧٠٧).

شاهد خَلْقَ جميعها، ومِن هذا المقام قال عليه الصلاة والسلام: «كنتُ نبيًّا وآدمُ بين الروح والجسد»(١).

﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ إذْ كنتَ أعلمَ الخَلْق بصفات الجمال والجلال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ يُشير عندهم إلى كمال فَناء وجوده ﷺ وبقائه بالله عز وجل، وأيَّد ذلك بقوله سبحانه: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المتخلِّفون عن السير إلى قتالِ الأنفس الأمَّارة ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ من سكان بوادي الطبيعة ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ العوائق والعلائق ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ اطلب من الله عز وجل ستر ذلك عنا ليتأتى لنا السير ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لتمكُّن حُبِّ ذلك في قلوبهم وعدم استعدادهم لدخول غيره فيها:

رَضُوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحبِّ دعوى فما ابتلّوا(٢)

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: إنَّ هاتيك العوائق والعلائق لا تُجديكم شيئاً ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيُجازيكم عليها حسبما تقتضي الحِكْمة.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ﴾ بل حَسِبتم أن لا يرجع العقلُ والقوى الروحانية من السالكين السائرين إلى جهادِ النفس وطلب مغانم التجلِّيات والأنس إلى ما كانوا عليه من إدراك المصالح وتدبير حال المعاش وما تقتضيه هذه النشأة ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ بالله تعالى وشؤونه عز وجل ﴿وَكُنْتُمْ﴾ في نفس الأمر ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين في مهالك الطبيعة وسوء الاستعداد.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ وهي مغانمُ التجلِّيات ومواهب الحقِّ لأرباب الحَضَرات ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ دعونا نَسْلُكْ مَسْلَكَكم لننالَ

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة، قال: «وآدم بين الروح والجسد».

(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص ١٣٤.

مَنالكم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ في حقِّهم من حِرمانهم المغانمَ لسوء استعدادهم ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ حكَم وقَضى ﴿مِن قَبْلُ﴾ إذ كنتم في عالم الأعيان الثابتة ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ منكرين لذلك ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ ولهذا تمنعوننا عن الاتباع ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولذلك نسبوا الحسد ـ وهو من أقبحِ الصِّفات ـ إلى ذوي النفوس القدسية المطهرة عن جميع الصفات الردية.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ﴾ ولا تُتْركون سُدى ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وهم النفس وقواها ﴿تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ ينقادون لحكمِ رسول العقل المُنزَّه عن شوائب الوهم ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ الداعي ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ من أنواع المعارف والتجلِّيات ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب الحرمان والحجاب.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ وهو مَنْ لم يَر في الدار غيره دياراً ﴿حَرَجٌ﴾ في ترك السلوك والجهاد المطلوب منكم، لأنه وراء ذلك ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ﴾ وهو مَن فَقَد شيخاً كاملاً سالماً عن عيبٍ في كيفية التسليك والإيصال ﴿حَرَجٌ﴾ في ترك السلوك أيضاً، وهو إشارة إلى ما قالوا من أنَّ تركَ السلوك خيرٌ من السلوك على يدِ ناقص ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ﴾ بمرض العِشْق والهيام ﴿حَرَجٌ﴾ في ذاك أيضاً لأنه مجذوبٌ، والجذبة خيرٌ من السلوك.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يُشير إلى المعاهدين على القتلِ بسيف المجاهدة تحت سَمُرَةِ الانفرادِ عن الأهل والمال، ويقال في أكثرِ الآيات الآتية نحو هذا.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أعداءِ الله عز وجل في مقام الفرق ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ لقوة مناسبة بعضهم بعضاً، فهم جامعون لصفتي الجَلال والجمال ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ له عز وجل، وعدمِ السجود لشيء من الدنيا والأخرى، وتلك السِّيما خلعُ الأنوار الإلهية، قال عامر بن عبد قيس: كاد وجهُ المؤمن يُخبِر عن مكنون عمله، وكذلك وجه الكافر.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً﴾ ستراً لصفاتهم بصفاته عز وجل ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ وهو أن يتجلَّى سبحانه لهم بأعظمِ تجلِّياته، إلا فكلُّ شيء دونه جل جلاله ليس بعظيم، وسبحانه مِن إلهٍ رحيمٍ ومَلِكٍ كريم.

(٤٩) سُورَةُ الحُجُرَاتِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ

سورةُ الحجرات مدنية ، وهي على وجازتها وقلة آياتها – حيث لا تتجاوز ثمان عشرة آية – سورة جليلةٌ ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من أمور العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود البشري ، وتشمل مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهذيب ، وأصول التشريع والتوجيه ، وأسس المدنيّة والأخلاق ، حتى لقد سمَّاها بعضهم « سورة الأخلاق » سميت السورة الكريمة « سورةَ الحُجُرات » لأنَّ الله تعالى ذكر فيها حُجُرات النبي ﷺ وهي منازله الكريمة التي كان فيها أزواجه الطاهرات ، وقد أشارت إلى حادثٍ وقع من وفد بني تميم حين قدموا على رسول الله ﷺ في « عام الوفود » وكانوا أعراباً جفاةً فنادوا من وراء حجرات أزواج النبي ﷺ المطلة على المسجد النبوي الشريف ، نادوا : يا محمد أُخرج إلينا ، فكره النبي ﷺ هذه الغلظة والجفوة ، ونزلَ القرآن بتعليم الناسِ محاسنَ الآدابَ تنبيهاً على قدر الرسول ﷺ القائد المربي ، والمرشد العظيم ﴿ إنَّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفورٌ رحيم﴾ ولذلك سميت سورة الحجرات .

وقد جاء في السورة الكريمة خمسُ نداءات بلفظ الإيمان « يا أيها الذين آمنوا » وجاء فيها نداء واحد بلفظ « يا أيها الناس » لأن الخطاب كان عاماً للمؤمنين والكافرين وذلك في قوله جل ثناؤه « يا أيها الناسُ

إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليمٌ خبير » .

ابتدأت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى احترام أوامر الله ، وأوامر رسوله ، وألاَّ يبدوا رأياً ، أو يَقْضوا حكماً ، أو يُبرموا أمراً قبل أمر الله وأمر رسوله ، فإن ذلك من مستلزمات الإيمان ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُقدّموا بين يديْ اللهِ ورسوله ، واتقوا اللهَ إن الله سميع عليم﴾ وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم ، فما عاد أحدٌ منهم يقضي برأيه في أمرٍ أو حكم إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول . ثم تناولت أدباً آخر مع الرسول ﷺ خاصة وهو ألاّ يرفعوا أصواتهم في حضرته ، تعظيماً لمقامه الشريف ، وتوقيراً لجلالة قدره ، فهو رسول الله الرحمةُ المهداة إلى العالمين ، وإذا كان من سوء الأدب أن يرفع الإنسان صوته أمام رئيسٍ أو وزير أو أمير ، فسيّد الرسل أحقُّ بالإجلال والاحترام ، والتعظيم والتوقير من عظماء الدنيا بأسرهم ، ولهذا دعاهم الله بذلك النداء الحبيب نداء الإيمان ، ثم حذرهم بذلك التحذير الرهيب « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالُكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرةٌ وأجر عظيم » .

ومن الأدب الخاص مع الرسول ، إلى الأدب العام مع المؤمنين ، تنتقل السورة لتوجيه الأنظار إلى وجوب التثبت من الأخبار ، وألاَّ يتلقفوا الأنباء على أنها حقائق مؤكدة ، فكم من كلمةٍ قالها رجلٌ فاسق ، أو نقلها شخص كاذب ، فسببت كارثة من الكوارث ، وكم من خبرٍ لم يتثبت منه سامعه جرَّ وبالاً ، وأحدث انقساماً بين طوائف المسلمين ، لذلك جاءت الآيات تأمر بالتثبت من مصدر الأنباء والأخبار لا سيما

إذا كانت من فاسقٍ أو فاجر « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيَّنوا – أي تحققوا و ثبتوا – أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسولَ الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لَعَنِتُّمْ ولكنَّ الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم ، وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون » . وصيانة للمجتمع الإسلامي من عوامل التفكك والخصام ، ودرءاً للشرور والآثام ، وإقراراً للحق والعدل والسلام ، تأمر الآيات الكريمة بالإصلاح بين الفئات المتخاصمة ، ثم بردع الظالم وكفه عن ظلمه حتى ولو أدى ذلك إلى قتال الباغي ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ ثم تنتقل السورة لتقيم دعائم المجتمع الفاضل على أسس متينة من الحب والخير والوئام ، فتأمر بصيانة كرامة الفرد ، وتنهى عن السخرية والهمز واللمز بأحدٍ من المؤمنين ، لأنهم يجب أن يكونوا وحدة متماسكة كأعضاء في جسم الإنسان ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ .

وتطهيراً للضمير من أن يتلوَّث بالظن السيء فيقع في الإثم ، تأمر السورة باجتناب الظن السيء بالآخرين ، ليظل المجتمع نقياً بريئاً من الهواجس والشكوك ، وتنهى عن التجسس لكشف العورات ، وتتبع الهَفَوات ، وتحذِّر من الغِيبة التي تهدّم بنيان المجتمع ، يجيء النهي في تعبير عجيب ، يُبدعه القرآن إبداعاً ، ويصوّره بشكل تنفر منه

النفوس ، حتى ولو كانت ضعيفة الشعور والإحساس ، منظرُ الأخ يأكل لحم أخيه وهو ميْتٌ ، ويا له من تنفيرٍ عجيب ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إنَّ بعض الظنّ إثم ، ولا تجسَّسوا ، ولا يغتبْ بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتاً فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ وتنتقل السورة للحديث عن الأعراب الذين ظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان ، ثم جاءوا يمنون على النبي ﷺ إيمانهم ، ونسوا أن الإيمان قول وفعل وعمل ، وجهاد في سبيل الله ، وتضحية بالنفس والنفيس ، وليس مجرد دعوى يدعيها الإنسان ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم . إلى قوله تعالى .. يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون﴾ وهو ختام السورة الكريمة .

سورة الحجرات

قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ [الحجرات: ١] الآيتين.

[٨٤٠] أخرج البخاري وغيره(١) من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة أن عبدالله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله [ﷺ] فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي وقال عمر: ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾(٢).

[٨٤١] ك.. وأخرج ابن المنذر عن الحسن أن ناساً ذبحوا قبل رسول الله [ﷺ] يوم النحر فأمرهم أن يعيدوا ذبحاً فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٣).

[٨٤٢] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الأضاحي بلفظ ذبح رجل قبل الصلاة فنزلت.

[٨٤٣] وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة أن ناساً كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي [ﷺ] فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٤).

[٨٤٤] ك.. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل في كذا فأنزل الله: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٥).

---

[٨٤٠] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢١٨).
(٢) سورة الحجرات: الآية (١و٥).
[٨٤١] (٣) سورة الحجرات: الآية (١).
[٨٤٣] (٤) سورة الحجرات: الآية (١).
[٨٤٤] (٥) سورة الحجرات: الآية (١).

[٨٤٥] ك.. وأخرج عنه قال كانوا يجهرون له بالكلام ويرفعون أصواتهم فأنزل الله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾[(١)] الآية.

[٨٤٦] ك.. وأخرج أيضاً عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾[(٢)] قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدي بن العجلان فقال: ما يبكيك؟ قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فيّ وأنا صيت رفيع الصوت فرفع عاصم ذلك إلى رسول الله [ﷺ] فدعا به فقال: **«أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة»** قال: رضيت ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله [ﷺ] فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾[(٣)] الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ [الحجرات: ٤] الآية.

[٨٤٧] أخرج الطبراني وأبو يعلى بسند حسن عن زيد بن أرقم قال: جاء ناس من العرب إلى حجر النبي [ﷺ] فجعلوا ينادون يا محمد يا محمد فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾[(٤)] الآية.

[٨٤٨] ك.. وقال عبد الرزاق[(٥)] عن معمر عن قتادة أن رجلاً جاء إلى النبي [ﷺ] فقال يا محمد إن مدحي زين وأن شتمي شين فقال النبي [ﷺ]: **«ذاك هو الله»** فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾[(٦)] الآية مرسل له شواهد مرفوعة من حديث البراء وغيره، عند الترمذي بدون نزول الآية..

ك.. وأخرج ابن جرير نحوه عن الحسن.

[٨٤٩] ك.. وأخرج أحمد بسند صحيح عن الأقرع بن حابس أنه نادى رسول الله [ﷺ] من وراء الحجرات فلم يجبه فقال يا محمد إن حمدي لزين وإن ذمي لشين فقال: **«ذاكم الله»**[(٧)].

---

[٨٤٥] (١) سورة الحجرات: الآية (٢).
[٨٤٦] (٢) سورة الحجرات: الآية (٢).
(٣) سورة الحجرات: الآية (٣).
[٧٤٧] (٤) سورة الحجرات: الآية (٤).
[٨٤٨] (٥) وانظر مسند أحمد (٣/ ٤٨٨).
(٦) سورة الحجرات: الآية (٤).
[٨٤٩] (٧) مسند أحمد (٦/ ٣٩٤)، والمعجم الكبير للطبراني (١/ ٢٧٧) والتاريخ لابن عساكر (٣/ ٨٩).

[٨٥٠] ك.. وأخرج ابن جرير وغيره عن الأقرع أيضاً أنه أتى النبي [ﷺ] فقال: يا محمد أخرج إلينا فنزلت.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾ [الحجرات: ٦] الآية.

[٨٥١] أخرج أحمد وغيره(١) بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله [ﷺ] فدعاني إلى الإسلام فأقررت به ودخلت فيه ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله أرجع إلى قومي فادعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فترسل إلى الأبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة وبلغ الإبان احتبس الرسول فلم يأته فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة فدعا سروات قومه فقال لهم: أن رسول الله [ﷺ] كان قد وقت وقتاً يرسل إلى رسوله ليقبض ما عندي من الزكاة وليس من رسول الله [ﷺ] الخلف ولا أدري حبس رسوله إلا من سخطة فانطلقوا فنأتي رسول الله [ﷺ] وبعث رسول الله [ﷺ] الوليد بن عقبة ليقبض ما كان عنده فلما أن سار الوليد فرق فرجع فقال إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله [ﷺ] البعث إلى الحارث بأصحابه إذ استقبل البعث فقال لهم: «**إلى أين بعثتم**»؟ قالوا: إليك قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله [ﷺ] بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتاني فلما دخل على رسول الله [ﷺ] قال: «**منعت الزكاة وأردت قتل رسولي**» قال: لا والذي بعثك بالحق فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾(٢) رجال إسناده ثقات وروى الطبراني نحوه من حديث جابر بن عبدالله وعلقمة بن ناجية وأم سلمة وابن جرير نحوه من طريق العوفي عن ابن عباس ومن طرق أخرى مرسلة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ [الحجرات: ٩] الآية.

[٨٥٢] أخرج الشيخان(٣) عن أنس أن النبي [ﷺ] ركب حماراً وانطلق إلى

---

[٨٥١] (١) مسند أحمد (٢٧٩/٤) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٢٢) من طريق عيسى بن دينار عن أبيه أنه سمع الحارث بن ضرار.

(٢) سورة الحجرات: الآية (٦و٨).

[٨٥٢] (٣) رواه البخاري عن مسدد ورواه مسلم عن محمد بن عبد الأعلى كلاهما عن المعتمر ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريق إسحاق بن إسرائيل عن المعتمر بن سليمان ص (٢٢٣).

عبدالله بن أُبي فقال: «إليك عني» فوالله لقد آذاني نتن حمارك فقال رجل من الأنصار: والله لحماره أطيب ريحاً منك فغضب لعبدالله رجل من قومه وغضب لكل واحد منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾(١).

[٨٥٣] ك.. وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن أبي مالك قال: تلاحى رجلان من المسلمين فغضب قوم هذا لهذا وهذا لهذا فاقتتلوا بالأيدي والنعال وأنزل الله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾(٢) الآية.

[٨٥٤] وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد وأن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية له وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاءها قومها وأنزلوها لينطلقوا بها وكان الرجل قد خرج فاستعان بأهله فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾(٣) فبعث إليهم رسول الله [ﷺ] فأصلح بينهم وفاؤا إلى أمر الله.

[٨٥٥] ك.. وأخرج ابن جرير عن الحسن قال كانت تكون الخصومة بين الحيين فيدعون إلى الحكم فيأبون أن يجيبوا فأنزل الله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾(٤) الآية.

[٨٥٦] وأخرج عن قتادة قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة في حق بينهما فقال أحدهما للآخر لآخذن عنوة لكثرة عشيرته وأن الآخر دعاه ليحاكمه إلى النبي [ﷺ] فأبى فلم يزل الأمر حتى تدافعوا وحتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ولم يكن قتال بالسيوف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١] الآية.

[٨٥٧] أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبير بن الضحاك قال: كان

---

(١) سورة الحجرات: الآية (٩).
[٨٥٣] (٢) سورة الحجرات: الآية (٩).
[٨٥٤] (٣) سورة الحجرات: الآية (٩).
[٨٥٥] (٤) سورة الحجرات: الآية (٩).

الرجل منا يكون له الإسمان والثلاثة فيدعى ببعضها لعسى أن يكره فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾(1) قال الترمذي: حسن.

[٨٥٨] وأخرج الحاكم وغيره من حديثه أيضاً قال: كانت الألقاب في الجاهلية فدعا النبي [ﷺ] رجلاً منهم بلقبه فقيل له يا رسول الله أنه يكرهه فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾(2) ولفظ أحمد عنه قال فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾(3) قدم النبي [ﷺ] المدينة وليس فينا رجل إلا وله إسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] الآية.

[٨٥٩] أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد فنفخ فذكر رجل أكله ورقاده فنزلت.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [الحجرات: ١٣] الآية.

[٨٦٠] أخرج ابن أبي حاتم(4) عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقى بلال على ظهر الكعبة فأذن فقال بعض الناس أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة فقال بعضهم: أن يسخط الله هذا بغيره فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾(5) الآية.

[٨٦١] وقال ابن عساكر في مبهماته: وجدت بخط ابن بشكوال أن أبا بكر بن أبي داود أخرج في تفسير له أنها نزلت في أبي هند أمر رسول الله [ﷺ] بني بياضة أن يزوجوه امرأة منهم فقالوا: يا رسول الله نزوج بناتنا موالينا؟ فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ﴾ [الحجرات: ١٧] الآية.

[٨٦٢] أخرج الطبراني بسند حسن عن عبدالله بن أبي أوفى أن ناساً من

---

[٨٥٧] (1) سورة الحجرات: الآية (١١).
[٨٥٨] (2) سورة الحجرات: الآية (١١).
(3) سورة الحجرات: الآية (١١).
[٨٦٠] (4) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٢٥).
(5) سورة الحجرات: الآية (١٣).

العرب قالوا: يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك وقاتلك بنو فلان فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾(1) الآية.

[٨٦٣] وأخرج البزار من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله.

[٨٦٤] وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن الحسن وأن ذلك لما فتحت مكة.

[٨٦٥] وأخرج ابن سعيد عن محمد بن كعب القرظي قال: قدم عشرة نفر من بني أسد على رسول الله [ﷺ] سنة تسع وفيهم طليحة بن خويلد ورسول الله [ﷺ] في المسجد مع أصحابه فسلموا وقال متكلمهم: يا رسول الله إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإنك عبده ورسوله وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ونحن لمن وراءنا سلم فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾(2) الآية.

[٨٦٦] وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير قال: أتى قوم من الأعراب من بني أسد النبي [ﷺ] فقالوا جئناك ولم نقاتلك فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾(3) الآية.

* * *

---

[٨٦٢] (1) سورة الحجرات: الآية (١٧).

[٨٦٥] (2) سورة الحجرات: الآية (١٧).

[٨٦٦] (3) سورة الحجرات: الآية (١٧).

سورة الحجرات

ثماني عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾

في بيان حسن الترتيب وجوه: أحدها: أن في السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبي ﷺ من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى، كأن رسول الله ﷺ قال لهم على سبيل العموم: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله. الثاني: هو أن الله تعالى لما بيّن محل النبي عليه الصلاة والسلام وعلو درجته بكونه رسوله الذي يظهر دينه، وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال: لا تتركوا من احترامه شيئًا لا بالفعل ولا بالقول، ولا تغتروا برأفته، وانظروا إلى رفعة درجته. الثالث: هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم راكعين ساجدين نظرًا إلى جانب الله تعالى، وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩] فإن الملك العظيم لا يذكر أحدًا في غيبته إلا إذا كان عنده محترمًا، ووعدهم بالأجر العظيم، فقال في هذه السورة: لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم وإحباط حسناتكم ولا تقدموا.

وقيل في سبب نزول الآية وجوه: قيل: نزلت في صوم يوم الشك، وقيل: نزلت في التضحية قبل صلاة العيد، وقيل: نزلت في ثلاثة قتلوا اثنين من سليم ظنوهما من بني عامر، وقيل: نزلت في جماعة أكثروا من السؤال وكان قد قدم على النبي ﷺ وفود، والأصح أنه إرشاد عام يشمل الكل، ومَنْع مطلق يدخل فيه كل إثبات وتقَدُّم واستبداد بالأمر وإقدام على فعل غير ضروري من غير مشاورة.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون من التقديم الذي هو متعدٍّ، وعلى هذا ففيه وجهان: أحدهما: ترك مفعوله برأسه كما في قوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وقول القائل: (فلان يعطي ويمنع) ولا يريد بهما إعطاء شيء معين ولا منع شيء معين، وإنما يريد بهما أن له منعًا وإعطاء كذلك هاهنا، كأنه تعالى يقول: لا ينبغي أن يصدر منكم تقديم أصلًا. والثاني: أن يكون المفعول الفعل أو الأمر، كأنه يقول ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾

يعني فعلاً ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أو لا تقدموا أمرًا. الثاني: أن يكون المراد ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ بمعنى لا تتقدموا، وعلى هذا فهو مجاز ليس المراد هو نفس التقديم، بل المراد لا تجعلوا لأنفسكم تقدمًا عند النبي ﷺ يقال: فلان تقدم من بين الناس، إذا ارتفع أمره وعلا شأنه، والسبب فيه أن من ارتفع يكون متقدمًا في الدخول في الأمور العظام، وفي الذكر عند ذكر الكرام، وعلى هذا نقول: سواء جعلناه متعديًا أو لازمًا لا يتعدى إلى ما يتعدى إليه التقديم في قولنا قدمت زيدًا، فالمعنى واحد لأن قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ إذا جعلناه متعديًا أو لازمًا لا يتعدى إلى ما يتعدى إليه التقديم في قولنا: قَدَّمت زيدًا، فتقديره: لا تقدموا أنفسكم في حضرة النبي ﷺ أي لا تجعلوا لأنفسكم تقدمًا ورأيًا عنده، ولا نقول بأن المراد لا تقدموا أمرًا وفعلاً، وحينئذٍ تتحد القراءتان في المعنى، وهما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال.

وقوله تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي بحضرتهما لأن ما بحضرة الإنسان فهو بين يديه وهو ناظر إليه وهو نصب عينيه، وفي قوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فوائد: أحدها: أن قول القائل: فلان بين يدي فلان، إشارة إلى كون كل واحد منهما حاضرًا عند الآخر مع أن لأحدهما علو الشأن وللآخر درجة العبيد والغلمان؛ لأن مَن يجلس بجنب الإنسان يكلفه تقليب الحدقة إليه وتحريك الرأس إليه عند الكلام والأمر، ومن يجلس بين يديه لا يكلفه ذلك، ولأن اليدين تنبئ عن القدرة يقول القائل: هو بين يدي فلان، أي يقلبه كيف شاء في أشغاله كما يفعل الإنسان بما يكون موضوعًا بين يديه، وذلك مما يفيد وجوب الاحتراز من التقدم وتقديم النفس لأن من يكون كمتاع يقلبه الإنسان بيديه كيف يكون له عنده التقدم؟! وثانيها: ذكر الله إشارة إلى وجوب احترام الرسول عليه الصلاة والسلام والانقياد لأوامره، وذلك لأن احترام الرسول ﷺ قد يترك على بعد المرسل وعدم إطلاعه على ما يفعل برسوله فقال: ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾ أي أنتم بحضرة من الله تعالى وهو ناظر إليكم، وفي مثل هذه الحالة يجب احترام رسوله وثالثها: هو أن هذه العبارة كما تقرر النهي المتقدم تقرر معنى الأمر المتأخر وهو قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ لأن من يكون بين يدي الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يفعل به ما يشاء يكون جديرًا بأن يتقيه، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون ذلك عطفًا يوجب مغايرة مثل المغايرة التي في قول القائل: لا تتم واشتغل، أي فائدة ذلك النهي هو ما في هذا الأمر، وليس المطلوب به ترك النوم كيف كان، بل المطلوب بذلك الاشتغال، فكذلك لا تقدموا أنفسكم ولا تتقدموا على وجه التقوى، ويحتمل أن يكون بينهما مغايرة أتم من ذلك، وهي التي في قول القائل: احترم زيدًا واخدمه، أي ائت بأتم الاحترام، فكذلك هاهنا معناه لا تتقدموا عنده، وإذا تركتم التقدم فلا تتكلوا على ذلك فلا تنتفعوا، بل مع أنكم قائمون بذلك محترمون له اتقوا الله واخشوه وإلا لم تكونوا أتيتم بواجب الاحترام. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يؤكد ما تقدم لأنهم قالوا: آمنا؛ لأن الخطاب يفهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فقد يسمع قولهم ويعلم فعلهم وما في قلوبهم من التقوى

والخيانة، فلا ينبغي أن يختلف قولكم وفعلكم وضمير قلبكم، بل ينبغي أن يتم ما في سمعه من قولكم آمنا وسمعنا وأطعنا وما في علمه من فعلكم الظاهر، وهو عدم التقدم وما في قلوبكم من الضمائر وهو التقوى.

ثم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝﴾

﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ [الحجرات: ١] نهي عن فعل ينبئ عن كونهم جاعلين لأنفسهم عند الله ورسوله بالنسبة إليهما وزنًا ومقدارًا ومدخلاً في أمر من أوامرهما ونواهيهما، وقوله: ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ﴾ نهي عن قول ينبئ عن ذلك الأمر؛ لأن من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتبارًا وعظمة.

وفيه مباحث:

البحث الأول: ما الفائدة في إعادة النداء، وما هذا النمط من الكلامين على قول القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ١]، و﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾؟ نقول: في إعادة النداء فوائد خمسة: منها: أن يكون في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما في قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾ [لقمان: ١٦]، ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧] لأن النداء لتنبيه المنادى ليُقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه، فإعادته تفيد ذلك، ومنها: أن لا يتوهم متوهم أن المخاطب ثانيًا غير المخاطب أولاً؛ فإن من الجائز أن يقول القائل يا زيد افعل كذا وقل كذا يا عمرو، فإذا أعاده مرة أخرى، وقال يا زيد قل كذا، يعلم من أول الكلام أنه هو المخاطب ثانيًا أيضًا، ومنها: أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود، وليس الثاني تأكيدًا للأول كما تقول يا زيد لا تنطق ولا تتكلم إلا بالحق فإنه لا يحسن أن يقال: يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبين.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون المراد حقيقته، وذلك لأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام، وهذا من مسألة حكمية وهي أن الصوت بالمخارج، ومن خشي قلبه ارتجف وتضعف حركته الدافعة فلا يخرج منه الصوت بقوة، ومن لم يخف ثبت قلبه وقوي، فرفع الهواء دليل عدم الخشية. ثانيها: أن يكون المراد المنع من كثر الكلام لأن من يُكثر الكلام يكون متكلمًا عن سكوت الغير فيكون في وقت سكوت الغير لصوته ارتفاع وإن كان خائفًا إذا نظرت إلى حال غيره فلا ينبغي أن يكون لأحد عند النبي ﷺ كلام كثير بالنسبة إلى كلام النبي ﷺ لأن النبي عليه الصلاة والسلام مُبلغ، فالمتكلم عنده إن أراد الإخبار لا يجوز، وإن استخبر النبي عليه السلام عما وجب عليه البيان، فهو لا يسكت عما يسأل وإن لم يسأل، وربما يكون في السؤال حقيدة برد جواب لا يسهل على المكلف الإتيان به فيبقى في ورطة العقاب. ثالثها: أن يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم، أي لا تجعلوا لكلامكم ارتفاعًا

على كلام النبي ﷺ في الخطاب كما يقول القائل لغيره: أمرتك مرارًا بكذا عندما يقول له صاحبه مرني بأمر مثله، فيكون أحد الكلامين أعلى وأرفع من الآخر، والأول أصح والكل يدخل في حكم المراد؛ لأن المنع من رفع الصوت لا يكون إلا للاحترام وإظهار الاحتشام، ومن بلغ احترامه إلى حيث تنخفض الأصوات عنده من هيبته وعلو مرتبته لا يكثر عنده الكلام، ولا يرجع المتكلم معه في الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ **فيه فوائد:**

إحداها: أن بالأول حصل المنع من أن يجعل الإنسان كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي ﷺ وصوته، ولقائل أن يقول: فما منعت من المساواة فقال تعالى: ولا تجهروا له كما تجهرون لأقرانكم ونظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا.

والثانية: أن هذا أفاد أنه لا ينبغي أن يتكلم المؤمن عند النبي عليه السلام كما يتكلم العبد عند سيده؛ لأن العبد داخل تحت قوله: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ لأنه للعموم فلا ينبغي أن يجهر المؤمن للنبي ﷺ كما يجهر العبد للسيد، وإلا لكان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض، لا يقال: المفهوم من هذا النمط أن لا تجعلوه كما يتفق بينكم، بل تميزوه بأن لا تجهروا عنده أبدًا وفيما بينكم لا تحافظون على الاحترام، لأنا نقول: ما ذكرنا أقرب إلى الحقيقة، وفيه ما ذكرتم من المعنى وزيادة، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه حتى لو كانا في مخمصة ووجد العبد ما لو لم يأكله لمات لا يجب عليه بذله لسيده، ويجب البذل للنبي ﷺ، ولو علم العبد أن بموته ينجو سيده لا يلزمه أن يُلقي نفسه في التهلكة لإنجاء سيده، ويجب لإنجاء النبي عليه الصلاة والسلام، وقد ذكرنا حقيقته عند تفسير الآية، وأن الحكمة تقتضي ذلك كما أن العضو الرئيس أولى بالرعاية من غيره؛ لأن عند خلل القلب مثلاً لا يبقى لليدين والرجلين استقامة، فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي عليه الصلاة والسلام لهلك هو أيضًا، بخلاف العبد والسيد.

الفائدة الثانية: أن قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ لما كان من جنس ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾ لم يستأنف النداء، ولما كان هو يخالف التقدم لكون أحدهما فعلاً والآخر قولاً استأنف كما في قول لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ﴾ [لقمان: ١٣] وقوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [لقمان: ١٧] لكون الأول من عمل القلب والثاني من عمل الجوارح، وقوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧] من غير استئناف النداء لأن الكل من عمل الجوارح.

واعلم أنا إن قلنا: المراد من قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ أي لا تكثروا الكلام فقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾ يكون مجازًا عن الإتيان بالكلام عن النبي ﷺ بقدر ما يؤتى به عند غيره، أي لا تكثروا وقللوا غاية التقليل، وكذلك إن قلنا: المراد بالرفع الخطاب فالمراد بقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾ أي لا تخاطبوه كما تخاطبون غيره.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ فيه وجهان مشهوران: أحدهما: لئلا تحبط. والثاني: كراهة أن تحبط، وقد ذكرنا ذلك في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾[النساء: ١٧٦] وأمثاله، ويحتمل هاهنا وجهًا آخر وهو أن يقال: معناه: واتقوا الله واجتنبوا أن تحبط أعمالكم، والدليل على هذا أن الإضمار لما لم يكن منه بد فما دل عليه الكلام الذي هو فيه أولى أن يضمر، والأمر بالتقوى قد سبق في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾[الحجرات: ١] وأما المعنى فنقول: قوله: ﴿أَن تَحْبَطَ﴾ إشارة إلى أنكم إن رفعتم أصوتكم وتقدمتكم تتمكن منكم هذه الرذائل وتؤدي إلى الاستحقار، وإنه يفضي إلى الانفراد والارتداد المحبط. وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى أن الردة تتمكن من النفس بحيث لا يشعر الإنسان، فإن من ارتكب ذنبًا لم يرتكبه في عمره تراه نادمًا غاية الندامة خائفًا غاية الخوف، فإذا ارتكبه مرارًا يقل الخوف والندامة ويصير عادة من حيث لا يعلم أنه لا يتمكن، وهذا التمكن كان في المرة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو غيرها، وهذا كما أن من بلغه خبر فإنه لا يقطع بقول المخبر في المرة الأولى، فإذا تكرر عليه ذلك وبلغ حد التواتر يحصل له اليقين ويتمكن الاعتقاد، ولا يدري متى كان ذلك، وعند أي خبر حصل هذا اليقين، فقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ تأكيد للمنع، أي لا تقولوا بأن المرة الواحدة تعفي ولا توجب رده؛ لأن الأمر غير معلوم فاحسموا الباب، وفيه بيان آخر وهو أن المكلف إذا لم يحترم النبي ﷺ ويجعل نفسه مثله فيما يأتي به بناء على أمره، يكون كما يأتي به بناء على أمر نفسه، لكن ما تأمر به النفس لا يوجب الثواب وهو محبط حابط، كذلك ما يأتي به بغير أمر النبي ﷺ حينئذٍ حابط محبط، والله أعلم.

واعلم أن الله تعالى لما أمر المؤمنين باحترام النبي ﷺ وإكرامه وتقديمه على أنفسهم وعلى كل من خلقه الله تعالى، أمر نبيه عليه السلام بالرأفة والرحمة، وأن يكون أرأف بهم من الوالد، كما قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر: ٨٨] وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[الكهف: ٢٨] وقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨] إلى غير ذلك لئلا تكون خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الأحرار بالقهر، فيكون انقيادهم لوجه الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

وفيه الحث على ما أرشدهم إليه من وجهين: أحدهما: ظاهر لكل أحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وبيانه هو أن من يقدم نفسه ويرفع صوته يريد إكرام نفسه واحترام شخصه، فقال تعالى: تَرْك هذا الاحترام يحصل به حقيقة الاحترام، وبالإعراض عن هذا الإكرام يكمل الإكرام؛ لأن به تتبين تقواكم، و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣] ومن القبيح أن يدخل الإنسان حمامًا فيتخير لنفسه فيه منصبًا ويفوت بسببه منصبه عند السلطان، ويعظم

نفسه في الخلاء والمستراح، وبسببه يهون في الجمع العظيم، وقوله تعالى: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ فيه وجوه: أحدها: امتحنها ليعلم منها التقوى فإن من يُعظم واحدًا من أبناء جنسه لكونه رسول مرسل يكون تعظيمه للمرسل أعظم وخوفه منه أقوى، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] أي تعظيم أوامر الله من تقوى الله، فكذلك تعظيم رسول الله من تقواه. الثاني: امتحن، أي علم وعرف؛ لأن الامتحان تعرُّف الشيء فيجوز استعماله في معناه، وعلى هذا فاللام تتعلق بمحذوف تقديره: عرف الله قلوبهم صالحة، أي كائنة للتقوى، كما يقول القائل: أنت لكذا، أي صالح أو كائن. الثالث: امتحن: أي أخلص، يقال للذهب ممتحن، أي مخلص في النار. وهذه الوجوه كلها مذكورة ويحتمل أن يقال: معناه امتحنها للتقوى اللام للتعليل، وهو يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون تعليلاً يجري مجرى بيان السبب المتقدم، كما يقول القائل: جئتك لإكرامك لي أمس، أي صار ذلك الإكرام السابق سبب المجيء. وثانيها: أن يكون تعليلاً يجري مجرى بيان غاية المقصود المتوقع الذي يكون لاحقًا لا سابقًا، كما يقول القائل: جئتك لأداء الواجب، فإن قلنا بالأول فتحقيقه هو أن الله علم ما في قلوبهم من تقواه، وامتحن قلوبهم للتقوى التي كانت فيها، ولولا أن قلوبهم كانت مملوءة من التقوى لما أمرهم بتعظيم رسوله وتقديم نبيه على أنفسهم، بل كان يقول لهم: آمِنوا برسولي ولا تؤذوه ولا تكذبوه، فإن الكافر أول ما يؤمن يؤمن بالاعتراف بكون النبي ﷺ صادقًا، وبين من قيل له لا تستهزئ برسول الله ولا تكذبه ولا تؤذه، وبين من قيل له لا ترفع صوتك عنده ولا تجعل لنفسك وزنًا بين يديه ولا تجهر بكلامك الصادق بين يديه - بون عظيم.

واعلم أن بقدر تقديمك للنبي عليه الصلاة والسلام على نفسك في الدنيا، يكون تقديم النبي عليه الصلاة والسلام إياك في العقبى، فإنه لن يدخل أحد الجنة ما لم يدخل الله أمته المتقين الجنة، فإن قلنا بالثاني فتحقيقه هو أن الله تعالى امتحن قلوبهم بمعرفته ومعرفة رسوله بالتقوى، أي ليرزقهم الله التقوى التي هي حق التقاة، وهي التي لا تخشى مع خشية الله أحدًا فتراه آمنًا من كل مخيف، لا يخاف في الدنيا بخسًا، ولا يخاف في الآخرة نحسًا، والناظر العاقل إذا علم أن بالخوف من السلطان يأمن جور الغلمان، وبتجنب الأراذل ينجو من بأس السلطان فيجعل خوف السلطان جُنة، فكذلك العالم لو أمعن النظر لعلم أن بخشية الله النجاة في الدارين وبالخوف من غيره الهلاك فيهما، فيجعل خشية الله جُنته التي يحس بها نفسه في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد ذكرنا أن المغفرة إزالة السيئات التي هي في الدنيا لازمة للنفس والأجر العظيم إشارة إلى الحياة التي هي بعد مفارقة الدنيا عن النفس، فيزيل الله عنه القبائح البهيمية ويلبسه المحاسن الملكية.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾

بيانًا لحال من كان في مقابلة من تقدم، فإن الأول غض صوته والآخر رفعه، وفيه إشارة إلى

أنه ترك لأدب الحضور بين يديه وعرض الحاجة عليه، وأما قول القائل للملك يا فلان من سوء الأدب، فإن قلت: كل أحد يقول: (يا الله) مع أن الله أكبر، نقول: النداء على قسمين: أحدهما: لتنبيه المنادى. وثانيهما: لإظهار حاجة المنادي، مثال الأول: قول القائل لرفيقه أو غلامه: يا فلان. ومثال الثاني: قول القائل في الندبة: يا أمير المؤمنيناه أو يا زيداه. ولقائل أن يقول: إن كان زيد بالمشرق لا تنبيه فإنه محال، فكيف يناديه وهو ميت؟ فنقول: قولنا يا الله لإظهار حاجة الأنفس لا لتنبيه المنادى، وإنما كان في النداء الأمران جميعًا لأن المنادي لا ينادي إلا لحاجة في نفسه يعرضها، ولا ينادي في الأكثر إلا مُعْرِضًا أو غافلاً، فحصل في النداء الأمران ونداؤهم كان للتنبيه وهو سوء أدب، وأما قول أحدنا للكبير يا سيدي ويا مولاي فهو جارٍ مجرى الوصف والإخبار. الثاني: النداء من وراء الحجرات فإن من ينادي غيره ولا حائل بينهما، لا يكلفه المشي والمجيء بل يجيبه من مكانه ويكلمه، ولا يطلب المنادي إلا لالتفات المنادى إليه، ومن ينادي غيره من وراء الحائل فكأنه يريد منه حضوره كمن ينادي صاحب البستان من خارج البستان. الثالث: قوله: ﴿ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ إشارة إلى قول النبي ﷺ في خلوته التي لا يحسن في الأدب إتيان المحتاج إليه في حاجته في ذلك الوقت، بل الأحسن التأخير وإن كان في ورطة الحاجة، وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيه بيان المعايب بقدر ما في سوء أدبهم من القبائح، وذلك لأن الكلام من خواص الإنسان، وهو أعلى مرتبة من غيره، وليس لمن دونه كلام، لكن النداء في المعنى كالتنبيه، وقد يحصل بصوت، يضرب شيء على شي، وفي الحيوانات العجم ما يظهر لكل أحد كالنداء، فإن الشاة تصيح وتطلب ولدها، وكذلك غيرها من الحيوانات، والسخلة كذلك، فكأن النداء حصل في المعنى لغير الآدمي، فقال الله تعالى في حقهم: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني النداء الصادر منهم لما لم يكن مقرونًا بحسن الأدب، كانوا فيه خارجين عن درجة من يعقل وكان نداؤهم كصياح صدر من بعض الحيوان، وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل، وإنما تأتي بالأكثر احترازًا عن الكذب واحتياطًا في الكلام؛ لأن الكذب مما يحبط به عمل الإنسان في بعض الأشياء، فيقول الأكثر وفي اعتقاده الكل، ثم إن الله تعالى مع إحاطة علمه بالأمور أتى بما يناسب كلامهم، وفيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله تعالى يقول: أنا مع إحاطة علمي بكل شيء جريت على عادتكم استحسانًا لتلك العادة وهي الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها، واجعلوا اختياري ذلك في كلامي دليلاً قاطعًا على رضائي بذلك. وثانيهما: أن يكون المراد أنهم في أكثر أحوالهم لا يعقلون، وتحقيق هذا هو أن الإنسان إذا اعتبر مع وصف ثم اعتبر مع وصف آخر، يكون المجموع الأول غير المجموع الثاني، مثاله الإنسان يكون جاهلاً وفقيرًا فيصير عالمًا وغنيًّا فيقال في العرف: زيد ليس هو الذي رأيته من قبل بل الآن على أحسن حال، فيجعله كأنه ليس ذلك إشارة إلى ما ذكرنا. إذا علم هذا فهم في بعض الأحوال إذا اعتبرتهم مع تلك الحالة، مغايرون

لأنفسهم إذا اعتبرتهم مع غيرها فقال تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكرناه، وفيه وجه ثالث: وهو أن يقال: لعل منهم من رجع عن تلك الأهواء، ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة فقال: (أكثرهم) إخراجًا لمن ندم منهم عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ إشارة إلى حسن الأدب الذي على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب، فإنهم لو صبروا لما احتاجوا إلى النداء، وإذا كنت تخرج إليهم فلا يصح إتيانهم في وقت اختلائك بنفسك أو بأهلك أو بربك، فإن للنفس حقًّا وللأهل حقًّا.

وقوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد أن ذلك هو الحسن والخير، كقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وثانيهما: أن يكون المراد هو أن بالنداء وعدم الصبر يستفيدون تنجيز الشغل ودفع الحاجة في الحال وهو مطلوب، ولكن المحافظة على النبي ﷺ وتعظيمه خير من ذلك؛ لأنها تدفع الحاجة الأصلية التي في الآخرة وحاجات الدنيا فضلية، والمرفوع الذي يقتضيه كلمة كان إما الصبر وتقديره لو أنهم صبروا لكان الصبر خيرًا، أو الخروج من غير نداء وتقديره لو صبروا حتى تخرج إليهم لكان خروجك من غير نداء خيرًا لهم، وذلك مناسب للحكاية؛ لأنهم طلبوا خروجه عليه الصلاة والسلام ليأخذوا ذراريهم، فخرج وأعتق نصفهم وأخذوا نصفهم، ولو صبروا لكان يعتق كلهم، والأول أصح.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تحقيقًا لأمرين: أحدهما: لسوء صنيعهم في التعجل، فإن الإنسان إذا أتى بقبيح ولا يعاقبه الملك أو السيد يقال: ما أحلم سيده! لا لبيان حلمه، بل لبيان عظيم جناية العبد. وثانيهما: لحسن الصبر، يعني بسبب إتيانهم بما هو خير، يغفر الله لهم سيئاتهم ويجعل هذه الحسنة كفارة لكثير من السيئات، كما يقال للآبق إذا رجع إلى باب سيده: أحسنت في رجوعك وسيدك رحيم، أي لا يعاقبك على ما تقدم من ذنبك بسبب ما أتيت به من الحسنة. ويمكن أن يقال بأن ذلك حث للنبي ﷺ على الصفح، وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ كالعذر لهم، وقد ذكرنا أن الله تعالى ذكر في بعض المواضع الغفران قبل الرحمة، كما في هذه السورة، وذكر الرحمة قبل المغفرة في سورة سبأ في قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢] فحيث قال: غفور رحيم، أي يغفر سيئاته ثم ينظر إليه فيراه عاريًا محتاجًا فيرحمه ويلبسه لباس الكرامة، وقد يراه مغمورًا في السيئات فيغفر سيئاته، ثم يرحمه بعد المغفرة، فتارة تقع الإشارة إلى الرحمة التي بعد المغفرة فيقدم المغفرة، وتارة تقع الرحمة قبل المغفرة فيؤخرها، ولما كانت الرحمة واسعة توجد قبل المغفرة وبعدها ذكرها قبلها وبعدها.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾

هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله تعالى أو مع الرسول ﷺ أو مع غيرهم من أبناء الجنس، وهم على صنفين؛ لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجًا عنها وهو الفاسق، والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضرًا عندهم أو غائبًا عنهم، فهذه خمسة أقسام أحدها: يتعلق بجانب الله، وثانيها: بجانب الرسول، وثالثها: بجانب الفساق، ورابعها: بالمؤمن الحاضر، وخامسها: بالمؤمن الغائب، فذكرهم الله تعالى في هذه السورة خمس مرات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة فقال أولاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله لأنها لا تُعلم إلا بقول رسول الله، وقال ثانيًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] لبيان وجوب احترم النبي ﷺ وقال ثالثًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم وبَيَّن ذلك عند تفسير قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩] وقال رابعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ [الحجرات: ١١] وقال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾ [الحجرات: ١١] لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم، وقال خامسًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١٢] وقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢] وقال: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ [الحجرات: ١٢] لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته، وذكر ما لو كان حاضرًا لتأذى، وهو في غاية الحسن من الترتيب، فإن قيل: لِمَ لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة الابتداء بالله ورسوله، ثم بالمؤمن الحاضر، ثم بالمؤمن الغائب، ثم بالفاسق؟ نقول: قدم الله ما هو الأهم على ما دونه، فذكر جانب الله، ثم ذكر جانب الرسول، ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق والاعتماد عليه، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفارًا للصدور، وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حد يفضي إلى القتل، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال، فقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩].

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: في سبب نزول هذه الآية، هو أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة، وهو أخو عثمان لأمه - إلى بني المصطلق وليًا ومصدقًا فالتقوه، فظنهم مقاتلين، فرجع إلى النبي ﷺ وقال: إنهم امتنعوا ومنعوا! فَهَم الرسول ﷺ بالإيقاع بهم، فنزلت هذه الآية، وأُخبر النبي ﷺ بأنهم لم يفعلوا من ذلك شيئًا، وهذا جيد إن قالوا بأن الآية نزلت في ذلك الوقت، وأما إن قالوا

بأنها نزلت لذلك مقتصرًا عليه ومتعديًا إلى غيره فلا، بل نقول: هو نزل عامًّا لبيان التثبت، وترك الاعتماد على قول الفاسق، ويدل على ضعف قول من يقول: إنها نزلت لكذا، أن الله تعالى لم يقل: إني أنزلتها لكذا، والنبي ﷺ لم ينقل عنه أنه بَيَّن أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب، غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت، وهو مثل التاريخ لنزول الآية، ونحن نصدق ذلك، ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد سيئ بعيد؛ لأنه توهَّم وظنَّ فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقًا، وكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الإيمان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] إلى غير ذلك.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ إشارة إلى لطيفة، وهي أن المؤمن كان موصوفًا بأنه شديد على الكافر غليظ عليه، فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبأ، فإن تمكن منه يكون نادرًا، فقال: ﴿إِن جَآءَكُمۡ﴾ بحرف الشرط الذي لا يذكر إلا مع التوقع، إذ لا يحسن أن يقال: إن احمر البسر، وإن طلعت الشمس.

المسألة الثالثة: النكرة في معرض الشرط تعم إذا كانت في جانب الثبوت، كما أنها تعم في الإخبار إذا كانت في جانب النفي، وتخص في معرض الشرط إذ كانت في جانب النفي، كما تخص في الإخبار إذا كانت في جانب الثبوت، فلنذكر بيانه بالمثال ودليله: أما بيانه بالمثال فنقول: إذا قال قائل لعبده: إن كلمتُ رجلاً فأنت حر، فيكون كأنه قال: لا أكلم رجلاً حتى يعتق بتكلم كل رجل، وإذا قال: إن لم أكلم اليوم رجلاً فأنت حر، يكون كأنه قال: لا أكلم اليوم رجلاً حتى لا يعتق العبد بترك كلام كل رجل، كما لا يظهر الحلف في كلامه بكلام كل رجل إذا ترك الكلام مع رجل واحد. وأما الدليل فلأن النظر أولاً إلى جانب الإثبات، ألا ترى أنه من غير حرف لما أن الوضع للإثبات والنفي بحرف، فقول القائل: زيد قائم، وضع أولاً ولم يحتج إلى أن يقال مع ذلك حرف يدل على ثبوت القيام لزيد، وفي جانب النفي احتجنا إلى أن نقول: زيد ليس بقائم، ولو كان الوضع والتركيب أولاً للنفي، لما احتجنا إلى الحرف الزائد اقتصارًا أو اختصارًا، وإذا كان كذلك فقول القائل: رأيت رجلاً، يكفي فيه ما يصحح القول وهو رؤية واحد، فإذا قلت: ما رأيت رجلاً، وهو وضع لمقابلة قوله: رأيت رجلاً، وركب لتلك المقابلة، والمتقابلان ينبغي أن لا يصدقا، فقول القائل: ما رأيت رجلاً، لو كفى فيه انتفاء الرؤية عن غير واحد لصح قولنا: رأيت رجلاً، وما رأيت رجلاً، فلا يكونان متقابلين، فيلزمنا من الاصطلاح الأول الاصطلاح الثاني، ولزم منه العموم في جانب النفي، إذا علم هذا فنقول: الشرطية وُضعت أولاً، ثم رُكبت بعد الجزمية بدليل زيادة الحرف وهو في مقابلة الجزمية، وكان قول القائل: إذا لم تكن أنت حرًّا ما كلمت رجلاً، يرجع إلى معنى النفي، وكما علم عموم

القول في الفاسق علم عمومه في النبأ، فمعناه: أي فاسق جاءكم بأي نبأ، فالتثبت فيه واجب.

المسألة الرابعة: متمسك أصحابنا في أن خبر الواحد حجة، وشهادة الفاسق لا تُقبل، أما في المسألة الأولى فقالوا: علل الأمر بالتوقف بكونه فاسقًا، ولو كان خبر الواحد العدل لا يُقبل، لمَا كان للترتيب على الفاسق فائدة، وهو من باب التمسك بالمفهوم. وأما في الثانية فلوجهين: أحدهما: أمر بالتبين، فلو قُبل قوله لما كان الحاكم مأمورًا بالتبين، فلم يكن قول الفاسق مقبولاً، ثم إن الله تعالى أمر بالتبين في الخبر والنبأ، وباب الشهادة أضيق من باب الخبر. والثاني: هو أنه تعالى قال: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ والجهل فوق الخطأ؛ لأن المجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلاً، والذي يبني الحكم على قول الفاسق إن لم يصب جهل فلا يكون البناء على قوله جائزًا.

المسألة الخامسة: (أنْ) ذكرنا فيها وجهين: أحدهما: مذهب الكوفيين، وهو أن المراد لئلا تصيبوا. وثانيها: مذهب البصريين، وهو أن المراد كراهة أن تصيبوا، ويحتمل أن يقال: المراد فتبينوا واتقوا، وقوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ يبين ما ذكرنا أن بقول الفاسق تظهر الفتن بين أقوام، ولا كذلك بالألفاظ المؤذية في الوجه، والغيبة الصادرة من المؤمنين؛ لأن المؤمن يمنعه دينه من الإفحاش والمبالغة في الإيحاش، وقوله: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ في تقدير حال، أي أن تصيبوهم جاهلين، وفيه لطيفة، وهي أن الإصابة تستعمل في السيئة والحسنة، كما في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٩] لكن الأكثر أنها تستعمل فيما يسوء، لكن الظن السوء يُذكر معه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ [النساء: ٧٨] ثم حقق ذلك بقوله: ﴿فَتُصۡبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ بيانًا لأن الجاهل لا بد من أن يكون على فعله نادمًا.

وقوله: ﴿فَتُصۡبِحُوا۟﴾ معناه تصيروا، قال النحاة: (أصبح) يستعمل على ثلاثة أوجه: أحدها: بمعنى دخول الرجل في الصباح، كما يقول القائل: أصبحنا نقضي عليه. وثانيها: بمعنى كان الأمر وقت الصباح كذا وكذا، كما يقول: أصبح اليوم مريضنا خيرًا مما كان، غير أنه تغير ضحوة النهار، ويريد كونه في الصبح على حاله، كأنه يقول: كان المريض وقت الصبح خيرًا وتغير ضحوة النهار. وثالثها: بمعنى صار، يقول القائل: أصبح زيد غنيًّا. ويريد به صار من غير إرادة وقت دون وقت، والمراد هاهنا هو المعنى الثالث، وكذلك أمسى وأضحى، ولكن لهذا تحقيق وهو أن نقول: لا بد في اختلاف الألفاظ من اختلاف المعاني واختلاف الفوائد، فنقول: الصيرورة قد تكون من ابتداء أمر وتدوم، وقد تكون في آخر بمعنى آل الأمر إليه، وقد تكون متوسطة.

مثال الأول: قول القائل: صار الطفل فاهمًا، أي أخذ فيه وهو في الزيادة.

مثال الثاني: قول القائل: صار الحق بينًا واجبًا، أي انتهى حده وأخذ حقه.

مثال الثالث: قول القائل: صار زيد عالمًا وقويًّا، إذا لم يرد أخذه فيه ولا بلوغه نهايته، بل كونه متلبسًا به متصفًا به، إذا علمت هذا فأصل استعمال أصبح فيما يصير الشيء آخذًا في وصف

ومبتدئًا في أمر، وأصل (أمسى) فيما يصير الشيء بالغًا في الوصف نهايته، وأصل (أضحى) التوسط، لا يقال: أهل الاستعمال لا يفرقون بين الأمور ويستعملون الألفاظ الثلاثة بمعنى واحد، نقول: إذا تقاربت المعاني جاز الاستعمال، وجواز الاستعمال لا ينافي الأصل، وكثير من الألفاظ أصله مضى واستعمل استعمالاً شائعًا فيما لا يشاركه، إذا علم هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ أي فتصيروا آخذين في الندم متلبسين به ثم تستديمونه، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ أي أخذتم في الأخوة وأنتم فيها زائدون ومستمرون، وفي الجملة اختار في القرآن هذه اللفظة لأن الأمر المقرون به هذه اللفظة إما في الثواب أو في العقاب وكلاهما في الزيادة، ولا نهاية للأمور الإلهية.

وقوله تعالى: ﴿نَٰدِمِينَ﴾ الندم هَمّ دائم، والنون والدال والميم في تقاليبها لا تنفك عن معنى الدوام، كما في قول القائل: أدمن في الشرب ومدمن، أي أقام، ومنه المدينة.

وقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ فيه فائدتان:

إحداهما: تقرير التحذير وتأكيده، ووجهه هو أنه تعالى لما قال: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال بعده وليس ذلك مما لا يلتفت إليه، ولا يجوز للعاقل أن يقول: هب أني أصبت قومًا فماذا عليَّ؟ بل عليكم منه الهم الدائم والحزن المقيم، ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه.

والثانية: مدح المؤمنين، أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها، بل تصبحون نادمين عليها.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

ولنذكر في تفسير هذه الآية ما قيل وما يجوز أن يقال:

أما ما قيل فلنختر أحسنه وهو ما اختاره الزمخشري؛ فإنه بحث في تفسير هذه الآية بحثًا طويلاً، فقال: قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ ليس كلامًا مستأنفًا لأدائه إلى تنافر النظم؛ إذ لا تبقى مناسبة بين قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ وبين قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ثم وجه التعلق هو أن قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ في تقدير حال من الضمير المرفوع في قوله: ﴿فِيكُمْ﴾ كان التقدير كائن فيكم، أو موجود فيكم، على حال تريدون أن يطيعكم أو يفعل باستصوابكم، ولا ينبغي أن يكون في تلك الحال؛ لأنه لو فعل ذلك ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ أو لوقعتم في شدة أو أولمتم به.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ خطابًا مع بعض من المؤمنين غير المخاطبين بقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ قال الزمخشري: اكتفى بالتغاير في الصفة واختصر ولم يقل: حبب إلى بعضكم الإيمان. وقال أيضًا بأن قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ دون أطاعكم يدل على أنهم كانوا يريدون استمرار تلك الحالة، ودوام النبي ﷺ على العمل باستصوابهم، ولكن يكون ما بعدها

على خلاف ما قبلها، وهاهنا كذلك، وإن لم يكن تحصل المخالفة بتصريح اللفظ لأن اختلاف المخاطبين في الوصف يدلنا على ذلك لأن المخاطبين أولاً بقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ هم الذين أرادوا أن يكون النبي ﷺ يعمل بمرادهم، والمخاطبين بقوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ هم الذين أرادوا عملهم بمراد النبي ﷺ. هذا ما قاله الزمخشري واختاره وهو حسن.

والذي يجوز أن يقال وكأنه هو الأقوى: أن الله تعالى لما قال: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] أي فتثبتوا واكشفوا قال بعده: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي ﷺ فإنه فيكم مبين مرشد، وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ في مسألة: (هذا الشيخ قاعد) لا يريد بيان قعوده، وإنما يريد أمرهم بالمراجعة إليه، وذلك لأن المراد منه أنه لا يطيعكم في كثير من الأمر، وذلك لأن الشيخ فيما ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لا تطمئن قلوبهم بالرجوع إليه، أما إذا كان لا يذكر إلا من النقل الصحيح، ويقرره بالدليل القوي، يراجعه كل أحد، فكذلك هاهنا قال: استرشِدوه فإنه يعلم ولا يطيع أحدًا فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف، والذي يدل على أن المراد من قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ بيان أنه لا يطيعكم هو أن الجملة الشرطية في كثير من المواضع تَرد لبيان امتناع الشرط لامتناع الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فإنه لبيان أنه ليس فيهما آلهة وأنه ليس من عند غير الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ إشارة إلى جواب سؤال يَرد على قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وهو أن يقع لواحد أن يقول: إنه لا حاجة إلى المراجعة وعقولنا كافية بها أدركنا الإيمان وتركنا العصيان، فكذلك نجتهد في أمورنا، فقال: ليس إدراك الإيمان بالاجتهاد، بل الله بَيَّن البرهان وزَيَّن الإيمان حتى حصل اليقين، وبعد حصول اليقين لا يجوز التوقف والله إنما أمركم بالتوقف عند تقليد قول الفاسق، وما أمركم بالعناد بعد ظهور البرهان، فكأنه تعالى قال: توقفوا فيما يكون مشكوكًا فيه، لكن الإيمان حببه إليكم بالبرهان فلا تتوقفوا في قبوله، وعلى قولنا المخاطب بقوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ﴾ هو المخاطب بقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾.

إذا علمت معنى الآية جملة، فاسمعه مفصلاً ولنفصله في مسائل:

المسألة الأولى: لو قال قائل: إذا كان المراد بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ الرجوع إليه والاعتماد على قوله، فلمَ لم يقل بصريح اللفظ فتبينوا وراجِعوا النبي ﷺ؟ وما الفائدة في العدول إلى هذا المجاز؟ نقول: الفائدة زيادة التأكيد وذلك لأن قول القائل فيما ذكرنا من المثال: (هذا الشيخ قاعد) آكد في وجوب المراجعة إليه من قوله: (راجِعوا شيخكم)، وذلك لأن القائل يجعل وجوب المراجعة إليه متفقًا عليه، ويجعل سبب عدم الرجوع عدم علمهم بقعوده، فكأنه يقول: إنكم لا تشكون في أن الكاشف هو الشيخ، وأن الواجب مراجعته، فإن

كنتم لا تعلمون قعوده فهو قاعد. فيجعل حسن المراجعة أظهر من أمر القعود، كأنه يقول: خفي عليكم قعوده فتركتم مراجعته، ولا يخفى عليكم حسن مراجعته، فيجعل حسن مراجعته أظهر من الأمر الحسي، بخلاف ما لو قال: راجِعوه. لأنه حينئذٍ يكون قائلاً بأنكم ما علمتم أن مراجعته هو الطريق، وبين الكلامين بون بعيد، فكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ يعني لا يخفى عليكم وجوب مراجعته، فإن كان خفي عليكم كونه فيكم، فاعلموا أنه فيكم، فيجعل حسن المراجعة أظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه وأخذ في بيان كونه فيهم، وهذا من المعاني العزيزة التي توجد في المجازات ولا توجد في الصريح!!

المسألة الثانية: إذا كان المراد من قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ بيان كونه غير مطيع لأحد بل هو متبع للوحي فلمَ لم يصرح به؟ نقول: بيان نفي الشيء مع بيان دليل النفي أتم من بيانه من غير دليل، والجملة الشرطية بيان النفي مع بيان دليله فإن قوله: (ليس فيهما آلهة) لو قال قائل: لمَ قلت إنه ليس فيهما آلهة؟ يجب أن يذكر الدليل فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فكذلك هاهنا لو قال: لا يطيعكم. وقال قائل: لمَ لا يطيع؟ لوجب أن يقال: لو أطاعكم لأطاعكم لأجل مصلحتكم، لكن لا مصلحة لكم فيه لأنكم تعنتون وتأثمون وهو يشق عليه عنتكم، كما قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]فإن طاعتكم لا تفيده شيئًا فلا يطيعكم، فهذا نفي الطاعة بالدليل، وبين نفي الشيء بدليل ونفيه بغير دليل فرق عظيم.

المسألة الثالثة: قال: ﴿فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ ليعلم أنه قد يوافقهم ويفعل بمقتضى مصلحتهم؛ تحقيقًا لفائدة قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

المسألة الرابعة: إذا كان المراد بقوله تعالى: ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، فلا تتوقفوا فلمَ لم يصرح به؟ قلنا: لِما بيناه من الإشارة إلى ظهور الأمر، يعني أنتم تعلمون أن اليقين لا يُتوقف فيه، إذ ليس بعده مرتبة حتى يتوقف إلى بلوغ تلك المرتبة لأن من بلغ إلى درجة الظن فإنه يتوقف إلى أن يبلغ درجة اليقين، فلما كان عدم التوقف في اليقين معلومًا متفقًا عليه، لم يقل: فلا تتوقفوا بل قال: حبب إليكم الإيمان، أي بَيَّنه وزَيَّنه بالبرهان اليقيني.

المسألة الخامسة: ما المعنى في قوله: ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ نقول: قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ﴾ أي قَرَّبه وأدخله في قلوبكم ثم زينه فيها بحيث لا تفارقونه ولا يخرج من قلوبكم، وهذا لأن من يحب أشياء فقد يمل شيئًا منها إذا حصل عنده وطال لبثه، والإيمان كل يوم يزداد حسنًا، ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم، تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل، ولهذا قال في الأول: ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ﴾ وقال ثانيًا: ﴿ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ كأنه قَرَّبه إليهم ثم أقامه في قلوبهم.

المسألة السادسة: ما الفرق بين الأمور الثلاثة وهي الكفر والفسوق والعصيان؟ فنقول: هذه أمور ثلاثة في مقابلة الإيمان الكامل؛ لأن الإيمان الكامل المزين هو أن يجمع التصديق بالجنان

والإقرار باللسان والعمل بالأركان، أحدها: قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وهو التكذيب في مقابلة التصديق بالجنان، والفسوق هو الكذب. وثانيها: هو ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦] سمي من كذب فاسقًا فيكون الكذب فسوقًا. ثالثها: ما ذكره بعد هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١] فإنه يدل على أن الفسوق أمر قولي لاقترانه بالاسم، وسنبين تفسيره إن شاء الله تعالى. ورابعها: وجه معقول وهو أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة على ما علم في قول القائل: فسقتِ الرطبة، إذا خرجت، وغير ذلك لأن الفسوق هو الخروج زِيد في الاستعمال كونه الخروج عن الطاعة، لكن الخروج لا يكون له ظهور بالأمر القلبي، إذ لا اطلاع على ما في القلوب لأحد إلا لله تعالى، ولا يظهر بالأفعال لأن الأمر قد يترك إما لنسيان أو سهو، فلا يعلم حال التارك والمرتكب أنه مخطئ أو متعمد، وأما الكلام فإنه حصول العلم بما عليه حال المتكلم، فالدخول في الإيمان والخروج منه يظهر بالكلام، فتخصيص الفسوق بالأمر القولي أقرب، وأما العصيان فترك الأمر وهو بالفعل أليق.

فإذا علم هذا ففيه ترتيب في غاية الحسن، وهو أنه تعالى كَرَّه إليكم الكفر وهو الأمر الأعظم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ يعني ما يظهر لسانكم أيضًا، ثم قال: ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ وهو دون الكل ولم يترك عليكم الأمر الأدنى وهو العصيان، وقال بعض الناس: الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة، والعصيان هو الصغيرة. وما ذكرناه أقوى.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ خطابًا مع النبي ﷺ وفيه معنى لطيف: وهو أن الله تعالى في أول الأمر قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي هو مرشد لكم، فخطاب المؤمنين للتنبيه على شفقته بالمؤمنين، فقال في الأول كفى النبي مرشدًا لكم ما تسترشدونه، فأشفق عليهم وأرشدهم، وعلى هذا قوله: ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي الموافقون للرشد يأخذون ما يأتيهم وينتهون عما ينهاهم.

قوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: نصب فضلاً لأجل أمور: إما لكونه مفعولاً له، وفيه وجهان: أحدهما: أن العامل فيه هو الفعل الذي في قوله: ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ فإن قيل: كيف يجوز أن يكون فضل الله الذي هو فعل الله مفعولاً له بالنسبة إلى الرشد الذي هو فعل العبد؟ نقول: لما كان الرشد توفيقًا من الله كان كأنه فعل الله فكأنه، تعالى أرشدهم فضلاً، أي يكون متفضلاً عليهم منعمًا في حقهم. والوجه الثاني: هو أن العامل فيه هو قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ ... ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ فضلاً وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ جملة اعترضت بين الكلامين، أو يكون العامل فعلاً مقدرًا، فكأنه قال تعالى: جرى ذلك فضلاً من الله، وإما لكونه مصدرًا، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون مصدرًا من غير اللفظ ولأن الرشد فضل فكأنه قال: أولئك هم الراشدون رشدًا. وثانيهما: هو أن يكون مصدرًا لفعل مضمر، كأنه قال: حبب إليكم الإيمان وكَرَّه إليكم الكفر فأفضل فضلاً وأنعم نعمة، والقول بكونه منصوبًا على أنه مفعول مطلق وهو المصدر أو مفعول له - قول الزمخشري، وإما أن يكون فضلاً مفعولاً به، والفعل مضمرًا دل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي يبتغون فضلاً من الله ونعمة.

المسألة الثانية: ما الفرق بين الفضل والنعمة في الآية؟ نقول: فضل الله إشارة إلى ما عنده من الخير وهو مستغنٍ عنه، والنعمة إشارة إلى ما يصل إلى العبد وهو محتاج إليه؛ لأن الفضل في الأصل ينبئ عن الزيادة، وعنده خزائن من الرحمة لا لحاجة إليها، ويرسل منها على عباده ما لا يبقون معه في ورطة الحاجة بوجه من الوجوه، والنعمة تنبئ عن الرأفة والرحمة وهو من جانب العبد، وفيه معنى لطيف وهو تأكيد الإعطاء، وذلك لأن المحتاج يقول للغني: أعطني ما فضل عنك وعندك، وذلك غير ملتفت إليه وأنا به قيامي وبقائي، فإذن قوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما هو من جانب الله الغني، والنعمة إشارة إلى ما هو من جانب العبد من اندفاع الحاجة، وهذا مما يؤكد قولنا فضلاً منصوب بفعل مضمر، وهو الابتغاء والطلب.

المسألة الثالثة: ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيه مناسبات عدة، منها: أنه تعالى لما ذكر نبأ الفاسق، قال: إن يشتبه على المؤمن كذب الفاسق فلا تعتمدوا على ترويجه عليكم الزور، فإن الله عليم، ولا تقولوا كما كان عادة المنافق: لولا يعذبنا الله بما نقول. فإن الله حكيم لا يفعل إلا على وفق حكمته. وثانيها: لما قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ بمعنى لا يطيعكم، بل يتبع الوحي، قال: فإن الله من كونه عليمًا يعلمه، ومن كونه حكيمًا يأمره بما تقتضيه الحكمة فاتبعوه. ثالثها: المناسبة التي بين قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وبين قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي حبب بعلمه الإيمان لأهل الإيمان، واختار له من يشاء بحكمته. رابعها: - وهو الأقرب - وهو أنه سبحانه وتعالى قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ ولما كان الفضل هو ما عند الله من الخير المستغني عنه، قال تعالى هو عليم بما في خزائن رحمته من الخير، وكانت النعمة هو ما يدفع به حاجة العبد، قال: هو حكيم يُنزل الخير بقدر ما يشاء على وفق الحكمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

لما حذر الله المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق، أشار إلى ما يلزم منه استدراكًا لما

يفوت، فقال: فإن اتفق أنكم تبنون على قول من يوقع بينكم، وآل الأمر إلى اقتتال طائفتين من المؤمنين، فأزيلوا ما أثبته ذلك الفاسق وأصلِحوا بينهما ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أي الظالم يجب عليكم دفعه عنه، ثم إن الظالم إن كان هو الرعية، فالواجب على الأمير دفعهم، وإن كان هو الأمير، فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها، وشرطه أن لا يثير فتنة مثل التي في اقتتال الطائفتين أو أشد منها.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِن﴾ إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين، فإن قيل: فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم؟ نقول: قوله تعالى: ﴿وَإِن﴾ إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلا نادرًا، غاية ما في الباب أن الأمر على خلاف ما ينبغي، وكذلك ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ [الحجرات: ٦] إشارة إلى أن مجيء الفاسق بالنبأ ينبغي أن يقع قليلاً، مع أن مجيء الفاسق بالنبأ كثير، وقول الفاسق صار عند أولي الأمر أشد قبولاً من قول الصادق الصالح.

المسألة الثانية: قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ ولم يقل: (وإن فرقتان) تحقيقًا للمعنى الذي ذكرناه وهو التقليل؛ لأن الطائفة دون الفرقة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ [التوبة: ١٢٢].

المسألة الثالثة: قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولم يقل: (منكم)، مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ [الحجرات: ٦] تنبيهًا على قبح ذلك وتبعيدًا لهم عنهم، كما يقول السيد لعبده: إن رأيت أحدًا من غلماني يفعل كذا فامنعه، فيصير بذلك مانعًا للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن، كأنه يقول: أنت حاشاك أن تفعل ذلك، فإن فعل غيرك فامنعه، كذلك ههنا قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولم يقل: (منكم) لما ذكرنا من التنبيه مع أن المعنى واحد.

المسألة الرابعة: قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ ولم يقل: وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين، مع أن كلمة ﴿وَإِن﴾ اتصالها بالفعل أَوْلى، وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال، فيتأكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة ﴿وَإِن﴾ وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضي أن لا يقع القتال منهما، فإن قيل: فلمَ لم يقل: يا أيها الذين آمنوا إن فاسق جاءكم، أو إن أحد من الفساق جاءكم. ليكون الابتداء بما يمنعهم من الإصغاء إلى كلامه، وهو كونه فاسقًا؟ نقول: المجيء بالنبأ الكاذب يورث كون الإنسان فاسقًا، أو يزداد بسببه فسقه، فالمجيء به سبب الفسق فقدمه، وأما الاقتتال فلا يقع سببًا للإيمان أو الزيادة، فقال: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾ أي سواء كان فاسقًا أو لا أو جاءكم بالنبأ فصار فاسقًا به، ولو قال: وإن أحد من الفساق جاءكم، كان لا يتناول إلا مشهور الفسق قبل المجيء إذا جاءهم بالنبأ.

المسألة الخامسة: قال تعالى: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ ولم يقل: يقتتلوا؛ لأن صيغة الاستقبال تنبئ عن

الدوام والاستمرار، فيفهم منه أن طائفتين من المؤمنين إن تمادى الاقتتال بينهما فأصلحوا، وهذا لأن صيغة المستقبل تنبئ عن ذلك، يقال فلان يتهجد ويصوم.

المسألة السادسة: قال: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ ولم يقل اقتتلا، وقال: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ ولم يقل بينهم، ذلك لأن عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة، وكل أحد برأسه يكون فاعلاً فعلاً، فقال: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة، وإلا لم يكن يتحقق الصلح فقال: ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ لكون الطائفتين حينئذٍ كنفسين.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ إشارة إلى نادرة أخرى وهي البغي؛ لأنه غير متوقع، فإن قيل: كيف يصح في هذا الموضع كلمة (إنْ) مع أنها تستعمل في الشرط الذي لا يتوقع وقوعه، وبغي أحدهما عند الاقتتال لا بد منه، إذ كل واحد منهما لا يكون محسنًا، فقوله: (إنْ) تكون من قبيل قول القائل: إن طلعت الشمس. نقول: فيه معنى لطيف، وهو أن الله تعالى يقول: الاقتتال بين طائفتين لا يكون إلا نادر الوقوع، وهو كما تظن كل طائفة أن الأخرى فيها الكفر والفساد، فالقتال واجب كما سبق في الليالي المظلمة، أو يقع لكل واحد أن القتال جائز بالاجتهاد، وهو خطأ، فقال تعالى: الاقتتال لا يقع إلا كذا، فإن بان لهما أو لأحدهما الخطأ واستمر عليه فهو نادر، وعند ذلك يكون قد بغى فقال: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ يعني بعد استبانة الأمر، وحينئذٍ فقوله: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ﴾ في غاية الحسن لأنه يفيد الندرة وقلة الوقوع. وفيه أيضًا مباحث: الأول: قال: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ﴾ ولم يقل: (فإن تبغ) لما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ ولم يقل يقتتلوا. الثاني: قال: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ إشارة إلى أن القتال ليس جزاء للباغي كحد الشرب الذي يقام وإن ترك الشرب، بل القتال إلى حد الفيئة، فإن فاءت الفئة الباغية حرم قتالهم. الثالث: هذا القتال لدفع الصائل، فيندرج فيه وذلك لأنه لما كانت الفيئة من إحداهما، فإن حصلت من الأخرى لا يوجد البغي الذي لأجله حلَّ القتال. الرابع: هذا دليل على أن المؤمن بالكبيرة لا يخرج عن كونه مؤمنًا لأن الباغي جعله من إحدى الطائفتين وسماهما مؤمنين. الخامس: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: إلى طاعة الرسول وأولي الأمر لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]. وثانيها: إلى أمر الله، أي إلى الصلح فإنه مأمور به، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ١]، ثالثها: إلى أمر الله بالتقوى، فإن من خاف الله حق الخوف لا يبقى له عداوة إلا مع الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: ٦]، السادس: لو قال قائل: قد ذكرتم ما يدل على كون الشرط غير متوقع الوقوع وقلتم بأن القتال والبغي من المؤمن نادر، فإذن تكون الفيئة متوقعة فكيف قال: ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾؟ نقول: قول القائل لعبده: إن مت فأنت حر، مع أن الموت لا بد من وقوعه، لكن لما كان وقوعه بحيث يكون العبد محلاً للعتق بأن يكون باقيًا في ملكه حيًّا يعيش بعد وفاته غير معلوم، فكذلك هاهنا لما كان الواقع فيئتهم من تلقاء

أنفسهم، فلما لم يقع دل على تأكيد الأخذ بينهم فقال تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ بقتالكم إياهم بعد اشتداد الأمر والتحام الحرب فأصلحوا، وفيه معنى لطيف وهو أنه تعالى أشار إلى أن من لم يخف الله وبغى لا يكون رجوعه بقتالكم إلا جبرًا. السابع: قال هاهنا: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ ولم يذكر العدل في قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا﴾ نقول: لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال نفسه، وذلك يكون بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب، والإصلاح ههنا بإزالة آثار القتل بعد اندفاعه من ضمان المتلفات وهو حكم فقال: ﴿بِالْعَدْلِ﴾ فكأنه قال: واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما؛ لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى. الثامن: إذا قال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ فأية فائدة في قوله ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ نقول: قوله ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ كان فيه تخصيص بحال دون حال فعمم الأمر بقوله: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي في كل أمر مفضٍ إلى أشرف درجة وأرفع منزلة وهي محبة الله، والإقساط إزالة القسط وهو الجور والقاسط هو الجائر، والتركيب دال على كون الأمر غير مرضي من القسط والقاسط في القلب وهو أيضًا غير مرضي ولا معتدٌّ به فكذلك القسط.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ تتميمًا للإرشاد، وذلك لأنه لما قال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩] كان لظان أن يظن أو لِمتوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، فأما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالإصلاح، وكذلك الأمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال، وأما إذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الإصلاح فقال: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وإن لم تكن الفتنة عامة وإن لم يكن الأمر عظيمًا كالقتال، بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا في الإصلاح.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ قال بعض أهل اللغة: الإخوة جمع الأخ من النسب، والإخوان جمع الأخ من الصداقة، فالله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ تأكيدًا للأمر وإشارة إلى أن ما بينهم ما بين الأخوة من النسب والإسلام كالأب، قال قائلهم:

أَبِـي الإِسْـلَامُ لاَ أَبَ [لِـي] سِـوَاهُ ... إِذَا افْـتَـخَـرُوا بِـقَـيْـسٍ أَوْ تَـمِـيـمِ(١)

المسألة الثانية: عند إصلاح الفريقين والطائفتين لم يقل: (اتقوا)، وقال هاهنا (اتقوا) مع أن ذلك أهم؟ نقول: الفائدة هو أن الاقتتال بين طائفتين يفضي إلى أن تعم المفسدة، ويلحق كل مؤمن منها شيء، وكل يسعى في الإصلاح لأمر نفسه فلم يؤكد بالأمر بالتقوى، وأما عند

---

(١) هذا البيت للشاعر نهار بن توسعة، وهو نهار بن توسعة بن أبي عتبان، من بني بكر بن وائل. ؟- ٨٣هـ/ ؟- ٧٠٢م. شاعر بكر في خراسان، كان هجاءً، هجا قتيبة بن مسلم، فطلبه، فهرب واستجار بأم قتيبة فترضت له ابنها فرضي عنه وأكرمه، له أبيات في رثاء بكر بن أبي صفرة (المتوفى سنة ٨٣) قال الآمدي: له (ديوان) مفرد، وهو كثير الجيد، وكان أبوه توسعة من شعراء بكر بن وائل أيضًا.

تخاصم رجلين لا يخاف الناس ذلك وربما يريد بعضهم تأكد الخصام بين الخصوم لغرض فاسد فقال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أو نقول: قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ إشارة إلى الصلح، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى ما يصونهم عن التشاجر؛ لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره، ولهذا قال النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَ (يَدِهِ)»(١) لأن المسلم يكون منقادًا لأمر الله مقبلاً على عباد الله، فيشغله عيبه عن عيوب الناس ويمنعه أن يرهب الأخ المؤمن، وإليه أشار النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ مَنْ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»(٢) يعني اتق الله فلا تتفرغ لغيره.

المسألة الثالثة: ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، أي لا أخوة إلا بين المؤمنين، وأما بين المؤمن والكافر فلا؛ لأن الإسلام هو الجامع ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر، يكون ماله للمسلمين ولا يكون لأخيه الكافر، وأما الكافر فكذلك لأن في النسب المعتبر الأب الذي هو أب شرعًا، حتى أن ولدي الزنا من رجل واحد لا يرث أحدهما الآخر، فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لا يفيد الأخوة، ولهذا من مات من الكفر وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب، لا يُجعل ماله للكفار، ولو كان الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار، كما أن مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث، فإن قيل: قد ثبت أن الأخوة للإسلام أقوى من الأخوة النسبية، بدليل أن المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الأخ الكافر من النسب، فلمَ لم يقدموا الأخوة الإسلامية على الأخوة النسبية مطلقًا حتى يكون مال المسلم للمسلمين لا لأخوته من النسب؟ نقول: هذا سؤال فاسد، وذلك لأن الأخ المسلم إذا كان أخًا من النسب فقد اجتمع فيه أخوتان فصار أقوى والعصوبة لمن له القوة، ألا ترى أن الأخ من الأبوين يرث ولا يرث الأخ من الأب معه؟ فكذلك الأخ المسلم من النسب له أخوتان فيقدم على سائر المسلمين، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قال النحاة: (ما) في هذا الموضع كافة تكف (إنَّ) عن العمل، ولولا ذلك لقيل: إنما المؤمنين إخوة، وفي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] ليست كافة. والسؤال الأقوى هو أن رُب من حروف الجر والباء وعن كذلك، وما في رب كافة وفي عما وبما ليست كافة، والتحقيق فيه هو أن الكلام بعد (ربما وإنما) يكون تامًّا، ويمكن جعله مستقلاً، ولو حذف (ربما وإنما) لم ضر، فنقول: ربما قام الأمير

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) (١/ ٦٩)، حديث رقم (١٠) من طريق الشعبي... به، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (بيان تفاضل الإسلام) (١/ ٦٤/ ٦٥) من طريق أبي الخير... به، كلاهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص... به.

(٢) **صحيح**: ابن أبي شيبة في (مصنفه) (٨/ ٣٥٩)، حديث رقم (٢٥٩٣١)، حدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس بن مالك... به، أخرجه أبو يعلى في (مسنده) (٧/ ٢٤٥)، حديث رقم (٤٢٥٢)، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة... به، وفي إسناده محمد بن إسحاق وقد عنعنه، ولكن تابعه سعيد بن أبي أيوب، أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٤/ ١٨٢)، حديث رقم (٧٣٠٠) من طريق ابن وهب، أخبرني سعيد بن أيوب، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد بن سنان... به.

وربما زيد في الدار، ولو حذفت ربما وقلت زيد في الدار وقام الأمير لصح، وكذلك في إنما ولكنما، وأما عما وبما فليست كذلك؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] لو أذهبت بما وقلت: (رحمة من الله لنت لهم)، لما كان كلامًا فالباء يعد تعلقها بما يحتاج إليها فهي باقية حقيقة، ولكنما وإنما وربما لما استغنى عنها فكأنها لم يبق حكمها ولا عمل للمعدوم، فإن قيل: إنَّ إذا لم تُكف بما فما بعده كلام تام، فوجب أن لا يكون له عمل تقول: إن زيدًا قائم ولو قلت زيد قائم لكفى وتم؟ نقول: ليس كذلك لأن ما بعد (إنَّ) جاز أن يكون نكرة، تقول إن رجلاً جاءني وأخبرني بكذا وأخبرني بعكسه، وتقول: جاءني رجل وأخبرني، ولا يحسن إنما رجل جاءني، كما لو لم تكن هناك إنما، وكذلك القول في بينما وأينما فإنك لو حذفتهما واقتصرت على ما يكون بعدهما لا يكون تامًّا فلم يُكف، والكلام في (لعل) قد تقدم مرارًا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾

وقد بينا أن السورة للإرشاد بعد إرشاد، فبعد الإرشاد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبي ﷺ ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق، بَيَّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن، وقد ذكرنا أن المؤمن إما أن يكون حاضرًا وإما أن يكون غائبًا، فإن كان حاضرًا فلا ينبغي أن يُسخر منه ولا يلتفت إليه بما ينافي التعظيم، وفي الآية إشارة إلى أمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهي السخرية واللمز والنبز، فالسخرية هي أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال ولا يلتفت إليه ويسقطه عن درجته، وحينئذٍ لا يذكر ما فيه من المعايب، وهذا كما قال بعض الناس تراهم إذا ذكر عندهم عدوهم يقولون: هو دون أن يُذكر، وأقل من أن يُلتفت إليه. فقال: لا تحقروا إخوانكم ولا تستصغروهم. الثاني: هو اللمز وهو ذكر ما في الرجل من العيب في غيبته، وهذا دون الأول؛ لأن في الأول لم يلتفت إليه ولم يرضَ بأن يذكره أحد وإنما جعله مثل المسخرة الذي لا يغضب له ولا عليه. الثالث: هو النبز وهو دون الثاني؛ لأن في هذه المرتبة يضيف إليه وصفًا ثابتًا فيه يوجب بغضه وحط منزلته، وأما النبز فهو مجرد التسمية وإن لم يكن فيه وذلك لأن اللقب الحسن والاسم المستحسن إذا وُضع لواحد وعُلق عليه لا يكون معناه موجودًا فإن من يسمى سعدًا وسعيدًا قد لا يكون كذلك، وكذا من لُقب إمام الدين وحسام الدين لا يفهم منه أنه كذلك وإنما هو علامة وزينة، وكذلك النبز بالمروان، ومروان الحمار لم يكن كذلك وإنما كان ذلك سمة ونسبة، ولا يكون اللفظ مرادًا إذا لم يرد به الوصف كما أن الأعلام كذلك، فإنك إذا قلت لمن سمي بعبد الله: أنت عبد الله فلا تعبد غيره، وتريد به وصفه لا تكون

قد أتيت باسم علمه إشارة، فقال: لا تتكبروا فتستحقروا إخوانكم وتستصغروهم بحيث لا تلتفتوا إليهم أصلاً، وإذا نزلتم عن هذا من النعم إليهم فلا تعيبو (هم) طالبين حط درجتهم والغض عن منزلتهم، وإذا تركتم النظر في معايبهم ووصفهم بما يعيبهم، فلا تسموهم بما يكرهونه ولا تقولوا هذا ليس بعيب يذكر فيه إنما هو اسم يتلفظ به من غير قصد إلى بيان صفة وذكر.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ القوم اسم يقع على جمع من الرجال، ولا يقع على النساء ولا على الأطفال لأنه جمع قائم كصوم جمع صائم، والقائم بالأمور هم الرجال، فعلى هذا الأقوام، الرجال لا النساء. فائدة: وهي أن عدم الالتفات والاستحقار إنما يصدر في أكثر الأمر من الرجال بالنسة إلى الرجال؛ لأن المرأة في نفسها ضعيفة، فإذا لم يلتفت الرجال إليها لا يكون لها أمر، قال النبي ﷺ: «النِّسَاءُ لَحْمٌ عَلَى وَضَمٍ إِلاَّ مَا رَدَدْتَ عَنْهُ»(١) وأما المرأة فلا يوجد منها استحقار الرجل وعدم التفاتها إليه لاضطرارها في دفع حوائجها (إليه)، وأما الرجال بالنسبة إلى الرجال والنساء بالنسبة إلى النساء فيوجد فيهم هذا النوع من القبح وهذا أشهر.

المسألة الثانية: قال في الدرجة العالية التي هي نهاية المنكر: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ كسرًا له وبغضًا لنكره، وقال في المرتبة الثانية: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ جعلهم كأنفسهم لما نزلوا درجة رفعهم الله درجة، وفي الأول جعل المسخور منه خيرًا، وفي الثاني جعل المسخور منه مثلاً، وفي قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ حكمة وهي أنه وجد منهم النكر الذي هو مفض إلى الإهمال وجعل نفسه خيرًا منهم كما فعل إبليس حيث لم يلتفت إلى آدم وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] فصار هو خيرًا، ويمكن أن يقال: المراد من قوله: ﴿أَن يَكُونُواْ﴾ يصيروا فإن من استحقر إنسانًا لفقره أو وحدته أو ضعفه - لا يأمن أن يفتقر هو ويستغني الفقير، ويضعف هو ويقوى الضعيف.

المسألة الثالثة: قال تعالى: ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ولم يقل: نفس من نفس؛ وذلك لأن هذا فيه إشارة إلى منع التكبر والمتكبر في أكثر الأمر يرى جبروته على رؤوس الأشهاد، وإذا اجتمع في الخلوات مع من لا يلتفت إليه في الجامع يجعل نفسه متواضعًا، فذكرهم بلفظ القوم منعًا لهم عما يفعلونه.

---

(١) ذكره الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٣/ ٣٣٧)، وقال: غريب مرفوعًا. ورواه ابن المبارك موقوفًا على عمر بن الخطاب من حديث محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: إنما النساء لحم على وضم إلا ما ذُب عنه، فخذوا على أيدي نسائكم حتى يبصر الشاب موضع قدميه. انتهى. وكذلك رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه غريب الحديث.

وضم: الوضم: الخشبة أو البارية التي يوضع عليها اللحم، تقيه من الأرض، وقال الزمخشري: (الوضم: كل ما وقيت به اللحم من الأرض) أراد أنهن في الضعف مثل ذلك اللحم الذي لا يمتنع على أحد إلا أن يُذب عنه ويُدفع. النهاية (٥/ ١٩٩).

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن عيب الأخ عائد إلى الأخ، فإذا عاب عائب نفسًا فكأنما عاب نفسه. وثانيهما: هو أنه إذا عابه وهو لا يخلو من عيب يحاربه المعيب فيعيبه، فيكون هو بعيبه حاملاً للغير على عيبه وكأنه هو العائب نفسه، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]أي إنكم إذا قتلتم نفسًا قُتلتم فتكونوا كأنكم قتلتم أنفسكم. ويحتمل وجهًا آخر ثالثًا وهو أن تقول: لا تعيبوا أنفسكم - أي كل واحد منكم - فإنكم إن فعلتم فقد عبتم أنفسكم، أي كل واحد عاب كل واحد فصرتم عائبين من وجه معيبين من وجه، وهذا الوجه ههنا ظاهر ولا كذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

المسألة الخامسة: إن قيل: قد ذكرتم أن هذا إرشاد للمؤمنين إلى ما يجب أن يفعله المؤمن عند حضوره بعد الإشارة إلى ما يفعله في غيبته، لكن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ﴾ قيل فيه بأنه العيب خلف الإنسان والهمز هو العيب في وجه الإنسان. نقول: ليس كذلك بل العكس أَوْلى، وذلك لأنا إذا نظرنا إلى قلب الحروف دللن على العكس؛ لأن لمز قلبه لزم وهمز قلبه هزم، والأول يدل على القرب، والثاني على البعد، فإن قيل: اللمز هو الطعن والعيب في الوجه كان أَوْلى مع أن كل واحد قيل بمعنى واحد.

المسألة السادسة: قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ﴾ ولم يقل: لا تنبزوا، وذلك لأن اللماز إذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه في الحال عيبًا يلمزه به، وإنما يبحث ويتبعه ليطلع منه على عيب فيوجد اللمز من جانب، وأما النبز فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به، فإن من نبز غيره بالحمار وهو ينبزه بالثور وغيره، فالظاهر أن النبز يفضي في الحال إلى التنابز، ولا كذلك اللمز.

وقوله تعالى:﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾.

قيل فيه: إن المراد: بئس أن يقول للمسلم: (يا يهودي) بعد الإيمان أي بعد ما آمن فبئس تسميته بالكافر، ويحتمل وجهًا أحسن من هذا: وهو أن يقال: هذا تمام للزجر، كأنه تعالى قال: يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ولا تلمزوا ولا تنابزوا، فإنه إن فعل يفسق بعد ما آمن، والمؤمن يقبح منه أن يأتي بعد إيمانه بفسوق. فيكون كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]ويصير التقدير: بئس الفسوق بعد الإيمان، وبئس أن تسموا بالفاسق بسبب هذه الأفعال بعد ما سميتموهم مؤمنين.

قال تعالى:﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يقال: هذه الأشياء من الصغائر فمن يُصِرّ عليه يصير ظالمًا فاسقًا وبالمرة الواحدة لا يتصف بالظلم والفسق فقال: ومن لم يترك ذلك ويجعله عادة فهو ظالم. وثانيهما: أن يقال: قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ﴾ ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ﴾ ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ﴾ منع لهم عن ذلك في المستقبل، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أمرهم بالتوبة عما مضى وإظهار الندم عليها مبالغة في التحذير وتشديدًا في الزجر.

والأصل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾ لا تتنابزوا، أُسقطت إحدى التاءين، كما أسقط في الاستفهام إحدى الهمزتين فقال: (سواء عليهم أنذرتهم)[البقرة: ٦] والحذف ههنا أولى لأن تاء الخطاب وتاء الفاعل حرفان من جنس واحد في كلمة وهمزة الاستفهام كلمة برأسها وهمزة أنذرتهم أخرى واحتمال حرفين في كلمتين أسهل من احتماله في كلمة، ولهذا وجب الإدغام في قولنا: مد، ولم يجب في قولنا امدد، و(في) قولنا: مر، (دون) قوله: أمر ربنا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

لأن الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تُبنى القبائح، ومنه يظهر العدو المكاشح، والقائل إذا أوقف أموره على اليقين فقلما يتيقن في أحد عيبًا فيلمزه به، فإن الفعل في الصورة قد يكون قبيحًا وفي نفس الأمر لا يكون كذلك؛ لجواز أن يكون فاعله ساهيًا أو يكون الرائي مخطئًا، وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ إخراج للظنون التي عليها تُبنى الخيرات، قال النبي ﷺ: «ظُنُّوا بِالْمُؤْمِنِ خَيْرًا»(١) وبالجملة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين، فالظن فيه غير مجتنب، مثاله حكم الحاكم على قول الشهود وبراءة الذمة عند عدم الشهود إلى غير ذلك، فقوله: ﴿ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إشارة إلى الأخذ بالأحوط، كما أن الطريق المخوفة لا يتفق كل مرة فيه قاطع طريق، لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين، إلا إذا تعين فتسلكه مع رفقة، كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ إتمامًا لما سبق لأنه تعالى لما قال: ﴿ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ فُهم منه أن المعتبر اليقين، فيقول القائل: أنا أكشف فلانًا. يعني أعلمه يقينًا وأطلع على عيبه مشاهدة فأعيب فأكون قد اجتنبت الظن. فقال تعالى: ولا تتبعوا الظن، ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايب الناس.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن في غيبته، وفيه معانٍ: أحدها: في قوله تعالى: ﴿بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ فإنه للعموم في الحقيقة، كقوله ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾[الحجرات: ١١] وأما من اغتاب فالمغتاب أولاً يعلم عيبه فلا يحمل فعله على أن يغتابه فلم يقل: (ولا تغتابوا أنفسكم) لما أن الغيبة ليست حاملة للعائب على عيبه من اغتابه، والعيب حامل على العيب. ثانيها: لو قال قائل: هذا المعنى كان حاصلاً بقوله تعالى: لا تغتابوا، مع الاقتصار عليه. نقول: لا، وذلك لأن الممنوع اغتياب المؤمن فقال: ﴿بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ وأما

---

(١) لم أجده.

الكافر فيعلن ويُذكر بما فيه، وكيف لا والفاسق يجوز أن يُذكر بما فيه عند الحاجة. ثالثها: قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ دليل على أن الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر، وذلك لأنه شبهه بأكل نحم الأخ، وقال من قبل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فلا أخوة إلا بين المؤمنين، ولا منع إلا من شيء يشبه أكل لحم الأخ، ففي هذه الآية نهى عن اغتياب المؤمن دون الكافر. رابعها: ما الحكمة في هذا التشبيه؟ نقول: هو إشارة إلى أن عِرض الإنسان كَدَمِهِ ولحمه، وهذا من باب القياس الظاهر، وذلك لأن عِرض المرء أشرف من لحمه، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس، لم يحسن منه قرض عِرضهم بالطريق الأَوْلى لأن ذلك آلم، وقوله: ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾ آكد في المنع لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو، فقال: أصدق الأصدقاء من ولدته أمك، فأكل لحمه أقبح ما يكون. وقوله تعالى: ﴿مَيْتًا﴾ إشارة إلى دفع وهم، وهو أن يقال: القول في الوجه يؤلم فيحرم، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم، فقال: أكل لحم الأخ وهو ميت أيضًا لا يؤلم، ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم، كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه، وفيه معنى: وهو أن الاغتياب كأكل لحم الآدمي ميتًا، ولا يحل أكله إلا للمضطر بقدر الحاجة، والمضطر إذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي الميت فلا يأكل لحم الآدمي، فكذلك المغتاب أن وجد لحاجته مدفعًا غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب، وقوله تعالى: ﴿مَيْتًا﴾ حال عن اللحم أو عن الأخ، فإن قيل: اللحم لا يكون ميتًا. قلنا: بلى، قال النبي ﷺ: «مَا أُبِينَ مِنْ حَيٍّ فَهُو مَيِّتٌ»(١) فسمى الغلفة ميتًا، فإن قيل: إذا جعلناه حالاً عن الأخ، لا يكون هو الفاعل ولا المفعول، فلا يجوز جعله حالاً، كما يقول القائل: مررت بأخي زيد قائمًا، ويريد كون زيدًا قائمًا، قلنا: يجوز أن يقال: من أكل لحمه فقد أكل، فصار الأخ مأكولاً مفعولاً، بخلاف المرور بأخي زيد، فيجوز أن تقول: ضربت وجهه آثمًا، أي وهو آثم، أي صاحب الوجه، كما أنك إذا ضربت وجهه فقد ضربته، ولا يجوز أن تقول: مزقت ثوبه آثمًا، فتجعل الآثم حالاً من غيرك.

وقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: العائد إليه الضمير يحتمل وجوهًا: الأول وهو الظاهر: أن يكون هو الأكل،

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٠٧٣)، حديث رقم (٣٢١٧) من طريق إسماعيل بن عياش، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن شهر بن حوشب، عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ... به، ورواه أبو داود في كتاب (الأضاحي)، باب: (صيد قُطع منه قطعة) (٣/ ١١٠)، حديث رقم (٢٨٥٨) من طريق هاشم بن القاسم... به، والترمذي في كتاب (الصيد)، باب: (ما قُطع من الحي فهو ميت) (٤/ ٦٢)، حديث رقم (١٤٨٠) من طريق سلمة بن رجاء... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زيد بن أسلم، والعمل على هذا عند أهل العلم. وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢١٨) من طريق عبد الصمد وحماد بن خالد... به، والدارمي في كتاب (الصيد)، باب: (في الصيد يبين منه العضو) (١/ ٥٦٢)، حديث رقم (٢٠١٨) من طريق عبيد الله بن عبد المجيد... به، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ١٢٤/ ١٣٩)، جميعًا عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار... به.

لأن قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ﴾ معناه أيحب أحدكم الأكل، لأن (أنْ) مع الفعل تكون للمصدر، يعني فكرهتم الأكل. الثاني: أن يكون هو اللحم، أي فكرهتم اللحم. الثالث: أن يكون هو الميت في قوله: ﴿مَيْتًا﴾ وتقديره: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا متغيرًا فكرهتموه، فكأنه صفة لقوله: ﴿مَيْتًا﴾ ويكون فيه زيادة مبالغة في التحذير، يعني الميتة إن أُكلت في الندرة لسبب كان نادرًا، ولكن إذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلاً، فكذلك ينبغي أن تكون الغيبة.

المسألة الثانية: الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقتضي وجود تعلق، فما ذلك؟ نقول: فيه وجوه:

أحدها: أن يكون ذلك تقدير جواب كلام، كأنه تعالى لما قال: ﴿أَيُحِبُّ﴾ قيل في جوابه ذلك.

وثانيها: أن يكون الاستفهام في قوله ﴿أَيُحِبُّ﴾ للإنكار، كأنه قال: لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه إذًا. ولا يحتاج إلى إضمار.

وثالثها: أن يكون ذلك التعلق هو تعلق المسبب بالسبب وترتبه عليه، كما تقول: جاء فلان ماشيًا فتعب؛ لأن المشي يورث التعب، فكذا قوله: ﴿مَيْتًا﴾ لأن الموت يورث النفرة إلى حد لا يشتهي الإنسان أن يبيت في بيت فيه ميت، فكيف يقربه بحيث يأكل منه، ففيه إذًا كراهة شديدة، فكذلك ينبغي أن يكون حال الغيبة.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ عطف على ما تقدم من الأوامر والنواهي، أي اجتنبوا واتقوا، وفي الآية لطائف: منها: أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أمورًا ثلاثة مرتبة، بيانها هو أنه تعالى قال: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا﴾ أي: لا تقولوا في حق المؤمنين ما لم تعلموه فيهم بناء على الظن، ثم إذا سئلتم على المظنونات، فلا تقولوا: نحن نكشف أمورهم لنستيقنها قبل ذكرها، ثم إن علمتم منها شيئًا من غير تجسس، فلا تقولوه ولا تفشوه عنهم ولا تعيبوا، ففي الأول نهي عما لم أن يُعلم، ثم نهي عن طلب ذلك العلم، ثم نهي عن ذكر ما عُلم، ومنها: أن الله تعالى لم يقل: اجتنبوا أن تقولوا أمرًا على خلاف ما تعلمونه. ولا قال: اجتنبوا الشك. بل أول ما نهى عنه هو القول بالظن. وذلك لأن القول على خلاف العلم كذب وافتراء، والقول بالشك والرجم بالغيب سفه وهزء، وهما في غاية القبح، فلم ينه عنه اكتفاء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن وصفهم بالإيمان يمنعهم من الافتراء والارتياب الذي هو دأب الكافر. وإنما منعهم عما يكثر وجوده في المسلمين، لذلك قال في الآية: ﴿لَا يَسْخَرْ﴾ ومنها: أنه ختم الآيتين بذكر التوبة، فقال في الأولى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الحجرات: ١١] وقال في الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾[الحجرات: ١٢] لكن في الآية الأولى لما كان الابتداء بالنهي في قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ذكر النفي الذي هو قريب من النهي، وفي الآية الثانية لما كان الابتداء بالأمر في قوله: ﴿اجْتَنِبُوا﴾ ذكر الارتياب الذي هو قريب من الأمر.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

تبيينًا لما تقدم وتقريرًا له، وذلك لأن السخرية من الغير والعيب إن كان بسبب التفاوت في الدين والإيمان، فهو جائز لما بينا أن قوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] مَنْع من عيب المؤمن وغيبته، وإن لم يكن لذلك السبب فلا يجوز؛ لأن الناس بعمومهم كفارًا كانوا أو مؤمنين يشتركون فيما يفتخر به المفتخر غير الإيمان والكفر، والافتخار إن كان بسبب الغنى، فالكافر قد يكون غنيًّا والمؤمن فقيرًا وبالعكس، وإن كان بسبب النسب، فالكافر قد يكون نسيبًا والمؤمن قد يكون عبدًا أسود وبالعكس، فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون، وشيء من ذلك لا يؤثر مع عدم التقوى، فإن كل من يتدين بدين يَعرف أن من يوافقه في دينه أشرف ممن يخالفه فيه، وإن كان أرفع نسبًا أو أكثر نشبًا، فكيف من له الدين الحق وهو فيه راسخ، وكيف يرجح عليه من دونه فيه بسبب غيره؟! وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ فيه وجهان: أحدهما: من آدم وحواء. ثانيهما: كل واحد منكم أيها الموجودون وقت النداء خلقناه من أب وأم. فإن قلنا إن المراد هو الأول، فذلك إشارة إلى أن لا يتفاخر البعض على البعض لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة. وإن قلنا: إن المراد هو الثاني، فذلك إشارة إلى أن الجنس واحد، فإن كل واحد خُلق كما خُلق الآخر من أب وأم، والتفاوت في الجنس دون التفاوت في الجنسين، فإن من سنن التفاوت أن لا يكون تقدير التفاوت بين الذباب والذئاب، لكن التفاوت الذي بين الناس بالكفر والإيمان كالتفاوت الذي بين الجنسين؛ لأن الكافر جماد إذ هو كالأنعام، بل أضل، والمؤمن إنسان في المعنى الذي ينبغي أن يكون فيه، والتفاوت في الإنسان تفاوت في الحس لا في الجنس إذ كلهم من ذكر وأنثى، فلا يبقى لذلك عند هذ اعتبار.

وفيه مباحث:

البحث الأول: فإن قيل: هذا مبني على عدم اعتبار النسب، وليس كذلك فإن للنسب اعتبارًا عرفًا وشرعًا، حتى لا يجوز تزويج الشريفة بالنبطي. فنقول: إذا جاء الأمر العظيم لا يبقى الأمر الحقير معتبرًا، وذلك في الحس والشرع والعرف: أما الحس فلأن الكواكب لا ترى عند طلوع الشمس، ولجناح الذباب دوي ولا يسمع عندما يكون رعد قوي. وأما في العرف فلأن من جاء مع الملك لا يبقى له اعتبار ولا إليه التفات، إذا علمت هذا فيهما ففي الشرع كذلك، إذا جاء الشرف الديني الإلهي، لا يبقى لأمر هناك اعتبار، لا لنسب ولا لنشب، ألا ترى أن الكافر وإن كان من أعلى الناس نسبًا، والمؤمن وإن كان من أدونهم نسبًا، لا يقاس أحدهما بالآخر؟ وكذلك ما هو من الدين مع غيره؛ ولهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء والشهادة كل شريف ووضيع

إذا كان دينًا عالمًا صالحًا، ولا يصلح لشيء منها فاسق، وإن كان قرشي النسب، وقاروني النشب، ولكن إذا اجتمع في اثنين الدين المتين، وأحدهما نسيب ترجح بالنسب عند الناس لا عند الله؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]وشرف النسب ليس مكتسبًا ولا يحصل بسعي.

البحث الثاني: ما الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر، ولم يذكر المال؟ نقول: الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة لكن النسب أعلاها؛ لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به، والحسن والسن، وغير ذلك غير ثابت دائم، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له، فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الأَوْلى.

البحث الثالث: إذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى، فهل لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ فائدة؟ نقول: نعم، وذلك لأن كل شيء يترجح على غيره، فإما أن يترجح بأمر فيه يلحقه ويترتب عليه بعد وجوده، وإما أن يترجح عليه بأمر هو قبله: والذي بعده كالحسن والقوة وغيرهما من الأوصاف المطلوبة من ذلك الشيء. والذي قبله فإما راجع إلى الأصل الذي منه وجد، أو إلى الفاعل الذي هو له أوجد، كما يقال في إناءين: هذا من النحاس وهذا من الفضة، ويقال: هذا عمل فلان، وهذا عمل فلان، فقال تعالى لا ترجيح فيما خُلقتم منه لأنكم كلكم من ذكر وأنثى، ولا بالنظر إلى جاعلين لأنكم كلكم خلقكم الله، فإن كان بينكم تفاوت يكون بأمور تلحقكم وتحصل بعد وجودكم، وأشرفها التقوى والقرب من الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾ متفرقة لا يدري من يجمعكم كالعجم، وقبائل يجمعكم واحد معلوم كالعرب وبني إسرائيل. وثانيهما: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾ داخلين في قبائل، فإن القبيلة تحتها الشعوب، وتحت الشعوب البطون، وتحت البطون الأفخاذ، وتحت الأفخاذ الفصائل، وتحت الفصائل الأقارب، وذكر الأعم لأنه أذهب للافتخار؛ لأن لأمر الأعم منها يدخله فقراء وأغنياء كثيرة غير محصورة، وضعفاء وأقوياء كثيرة غير معدودة.

ثم بيّن فائدة ذلك وهي التعارف، وفيه وجهان: أحدهما: أن فائدة ذلك التناصر لا التفاخر. وثانيهما: أن فائدته التعارف لا التناكر، واللمز والسخرية والغيبة تفضي إلى التناكر لا إلى التعارف. وفيه معانٍ لطيفة: الأولى: قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ﴾ لأن الخلق أصل تفرع عليه الجعل ﴿شُعُوبًا﴾ فإن الأول هو الخلق والإيجاد، ثم الاتصاف بما اتصفوا به، لكن الجعل شعوبًا للتعارف والخلق للعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] واعتبار الأصل متقدم على اعتبار الفرع، فاعلم أن النسب يعتبر بعد اعتبار العبادة كما أن الجعل شعوبًا يتحقق بعد ما يتحقق الخلق، فإن كان فيكم عبادة تعتبر فيكم

أنسابكم وإلا فلا. الثانية: قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَاكُم﴾ ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ﴾ إشارة إلى عدم جواز الافتخار؛ لأن ذلك ليس لسعيكم ولا قدرة لكم على شيء من ذلك، فكيف تفتخرون بما لا مدخل لكم فيه؟ فإن قيل: الهداية والضلال كذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[الإنسان: ٣] ﴿نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾[الشورى: ٥٢] فنقول: أثبت الله لنا فيه كسبًا مبنيًّا على فعل، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[المزمل: ١٩]. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الانسان: ٣٠] وأما في النسب فلا. الثالثة: قوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ إشارة إلى قياس خفي، وبيانه هو أنه تعالى قال: إنكم جُعلتم قبائل لتعارفوا، وأنتم إذا كنتم أقرب إلى شريف تفتخرون به، فخلقكم لتعرفوا ربكم، فإذا كنتم أقرب منه وهو أشرف الموجودات كان الأحق بالافتخار هناك من الكل - الافتخار بذلك. الرابعة: فيه إرشاد إلى برهان يدل على أن الافتخار ليس بالأنساب، وذلك لأن القبائل للتعارف بسبب الانتساب إلى شخص فإن كان ذلك الشخص شريفًا صح الافتخار في ظنكم، وإن لم يكن شريفًا لم يصح، فشرف ذلك الرجل الذي تفتخرون به هو بانتسابه إلى فصيلة أو باكتساب فضيلة، فإن كان بالانتساب لزم الانتهاء، وإن كان بالاكتساب فالدِّين الفقيه الكريم المحسن صار مثل من يفتخر به المفتخر، فكيف يفتخر بالأب وأب الأب على من حصل له من الحظ والخير ما فضل به نفسه عن ذلك الأب والجد؟ اللهم إلا أن يجوز شرف الانتساب إلى رسول الله ﷺ، فإن أحدًا لا يقرب من الرسول في الفضيلة حتى يقول: أنا مثل أبيك، ولكن في هذا النسب أثبت النبي ﷺ الشرف لمن انتسب إليه بالاكتساب، ونفاه لمن أراد الشرف بالانتساب، فقال: «نَحْنُ مُعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ» وقال: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» أي لا نورث بالانتساب وإنما نورث بالاكتساب، سمعت أن بعض الشرفاء في بلاد خراسان كان في النسب أقرب الناس إلى علي عليه السلام غير أنه كان فاسقًا، وكان هناك مولى أسود تقدم بالعلم والعمل، ومال الناس إلى التبرك به، فاتفق أنه خرج يومًا من بيته يقصد المسجد، فاتبعه خلق فلقيه الشريف سكران، وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه، فغلبهم وتعلَّق بأطراف الشيخ وقال له: يا أسود الحوافر والشوافر، يا كافر بن كافر، أنا ابن رسول الله، أُذَل وتُجَل؟! وأذم وتكرم! وأهان وتعان؟! فهَمَّ الناس بضربه فقال الشيخ: لا. هذا محتمل منه لجَدِّه، وضربه معدود لحَدِّه، ولكن يا أيها الشريف بيضتُ باطني وسودتَ باطنك، فيرى الناس بياض قلبي فوق سواد وجهي فحسنت، وأخذتُ سيرة أبيك وأخذتَ سيرة أبي، فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي، فظنوني ابن أبيك وظنوك ابن أبي، فعملوا معك ما يعمل مع أبي، وعملوا معي ما يعمل مع أبيك!

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن المراد من يكون أتقى يكون عند الله أكرم، أي التقوى تفيد الإكرام. ثانيهما: أن المراد أن من يكون أكرم عند الله يكون أتقى، أي الإكرام يورث التقوى، كما يقال: المخلصون على خطر عظيم. والأول أشهر

والثاني أظهر؛ لأن المذكور ثانيًا ينبغي أن يكون محمولاً على المذكور أولاً في الظاهر فيقال: الإكرام للتقي، لكن ذوا العموم في المشهور هو الأول، يقال: ألذ الأطعمة أحلاها، أي اللذة بقدر الحلاوة لا أن الحلاوة بقدر اللذة، وهي إثبات لكون التقوى متقدمة على كل فضيلة، فإن قيل: التقوى من الأعمال والعلم أشرف، قال النبي ﷺ: «لَفَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ»(١) نقول: التقوى ثمرة العلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] فلا تقوى إلا للعالم فالمتقي العالم أتم علمه، والعالم الذي لا يتقي كشجرة لا ثمرة لها، لكن الشجرة المثمرة أشرف من الشجرة التي لا تثمر بل هو حطب، وكذلك العالم الذي لا يتقي حصب جهنم، وأما العابد الذي يفضل الله عليه الفقيه فهو الذي لا علم له، وحينئذٍ لا يكون عنده من خشية الله نصاب كامل، ولعله يعبده مخافة الإلقاء في النار، فهو كالمكره، أو لدخول الجنة، فهو يعمل كالفاعل له أجرة ويرجع إلى بيته، والمتقي هو العالم بالله، المواظب لِبابه، أي المقرب إلى جنابه عنده يبيت. وفيه مباحث:

البحث الأول: الخطاب مع الناس، والأكرم يقتضي اشتراك الكل في الكرامة ولا كرامة للكافر، فإنه أضل من الأنعام وأذل من الهوام. نقول: ذلك غير لازم مع أنه حاصل بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] لأن كل من خلق فقد اعترف بربه، كأنه تعالى قال: من استمر عليه لو زاد زِيد في كرامته، ومن رجع عنه أزيل عنه أثر الكرامة. الثاني: ما حد التقوى؟ ومن الأتقى؟ تقول: أدنى مراتب التقوى أن يجتنب العبد المناهي ويأتي بالأوامر، ولا يقر ولا يأمن إلا عندهما، فإن اتفق أن ارتكب منهيًا لا يأمن ولا يتكل له بل يُتبعه بحسنة ويظهر عليه ندامة وتوبة، ومتى ارتكب منهيًا وما تاب في الحال واتكل على المهلة في الأجل ومَنَعه عن التذاكر طول الأمل، فليس بمتق، أما الأتقى فهو الذي يأتي بما أُمر به ويترك ما نُهي عنه، وهو مع ذلك خاشٍ ربه لا يشتغل بغير الله، فينور الله قلبه، فإن التفت لحظة إلى نفسه أو ولده جعل ذلك ذنبه، وللأولين النجاة لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [مريم: ٧٢] وللآخرين السوق إلى الجنة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ فبين من أعطاه السلطان بستانًا وأسكنه فيه، وبين من استخلصه لنفسه يستفيد كل يوم بسبب القرب من بساتين وضياعًا - بون عظيم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بظواهركم، يعلم أنسابكم، خبير ببواطنكم لا تخفى عليه أسراركم، فاجعلوا التقوى عملكم وزيدوا في التقوى كما زادكم.

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٨)، حديث رقم (٢٦٨١) من طريق إبراهيم بن موسى، أخبرنا الوليد بن مسلم، حدثنا روح بن جناح، عن مجاهد، عن ابن عباس. . . به. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم. وابن ماجه في (سننه) (١/ ٨١)، حديث رقم (٢٢٢)، والطبراني في (مسند الشاميين) (٢/ ١٦١) حديث رقم (١١٠٩) ورواه في (الكبير) (١١/ ٧٨)، حديث رقم (١١٠٩٩)، جميعًا من طريق الوليد بن مسلم حدثنا روح بن جناح. . . به، وفي إسناده الوليد بن مسلم كثير التدليس والتسوية وشيخه روح بن جناح ضعيف واتهمه ابن حبان، وأورده الألباني في (السلسلة الضعيفة) (٢٦٥١)، وقال: موضوع.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

لما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] والأتقى لا يكون إلا بعد حصول التقوى، وأصل الإيمان هو الاتقاء من الشرك، قالت الأعراب: لنا النسب الشريف، وإنما يكون لنا الشرف، قال الله تعالى: ليس الإيمان بالقول، إنما هو بالقلب، فما آمنتم لأنه خبير يعلم ما في الصدور، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أي انقدنا واستسلمنا، قيل: إن الآية نزلت في بني أسد، أظهروا الإسلام في سنة مجدبة طالبين الصدقة، ولم يكن قلبهم مطمئنًا بالإيمان، وقد بينا أن ذلك كالتاريخ للنزول لا للاختصاص بهم؛ لأن كل من أظهر فعل المتقين وأراد أن يصير له ما للأتقياء من الإكرام - لا يحصل له ذلك؛ لأن التقوى من عمل القلب.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ في تفسيره مسائل:

المسألة الأولى: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤] وقال هاهنا: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ مع أنهم ألقوا إليهم السلام، نقول: إشارة إلى أن عمل القلب غير معلوم واجتناب الظن واجب، وإنما يُحكم بالظاهر فلا يقال لمن يفعل فعلاً هو مراءٍ، ولا لمن أسلم هو منافق، ولكن الله خبير بما في الصدور، إذا قال: (فلان ليس بمؤمن) حصل الجزم، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ فهو الذي جوز لنا ذلك القول، وكان معجزة للنبي ﷺ حيث أطلعه الله على الغيب وضمير قلوبهم، فقال لنا: أنتم لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام: (لست مؤمنًا) لعدم علمكم بما في قلبه.

المسألة الثانية: لم ولما حرفا نفي، وما وإنْ ولا كذلك من حروف النفي، ولم ولما يجزمان وغيرهما من حروف النفي لا يجزم، فما الفرق بينهما؟ نقول: لم ولما يفعلان بالفعل ما لا يفعل به غيرهما، فإنهما يغيران معناه من الاستقبال إلى المضي، تقول: لم يؤمن أمس وآمن اليوم، ولا تقول: لا يؤمن أمس، فلما فعلا بالفعل ما لم يفعل به غيرهما جُزم بهما، فإن قيل: مع هذا لم جزم بهما غاية ما في الباب أن الفرق حصل، ولكن ما الدليل على وجوب الجزم بهما؟ نقول: لأن الجزم والقطع يحصل في الأفعال الماضية، فإن من قال (قام) حصل القطع بقيامه، ولا يجوز أن يكون ما قام، والأفعال المستقبلة إما متوقعة الحصول وإما ممكنة غير متوقعة، ولا يحصل القطع والجزم فيه، فإذا كان لم ولما يقلبان اللفظ من الاستقبال إلى المضي كانا يفيدان الجزم والقطع في المعنى، فجعل لهما تناسبًا بالمعنى وهو الجزم لفظًا، وعلى هذا نقول: السبب في الجزم ما ذكرنا، وهذا في الأمر يجزم كأنه جزم على المأمور أنه يفعله ولا يتركه، فأي فائدة في أن اللفظ يجزم مع أن الفعل فيه لا بد من وقوعه وأن في الشرط تغير، وذلك لأن (إنْ)

تغير معنى الفعل من المضي إلى الاستقبال إن لم تغيره من الاستقبال إلى المضي، تقول: إن جئتني جئتك، وإن أكرمتني أكرمتك، فلما كان (إنْ) مثل لم في كونه حرفًا، وفي لزوم الدخول على الأفعال وتغييره معنى الفعل صار جازمًا لشبه لفظي، أما الجزاء فجزم لما ذكرنا من المعنى، فإن الجزاء يُجزم بوقوعه عند وجود الشرط، فالجزم إذًا إما لمعنى أو لشبه لفظي، كما أن الجزاء كذلك في الإضافة وفي الجر بحرف.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟﴾ يقتضي قولاً سابقًا مخالفًا لما بعده، كقولنا: لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا. وفي ترك التصريح به إرشاد وتأديب، كأنه تعالى لم يجز النهي عن قولهم ﴿ءَامَنَّا﴾ فلم يقل: (لا تقولوا آمنا) وأرشدهم إلى الامتناع عن الكذب فقال: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ فإن كنتم تقولون شيئًا فقولوا أمرًا عامًا، لا يلزم منه كذبكم وهو كقولهم: ﴿أَسْلَمْنَا﴾ فإن الإسلام بمعنى الانقياد حصل.

المسألة الرابعة: المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة، فكيف يفهم ذلك مع هذا؟ نقول: بين العام والخاص فرق، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب وقد يحصل باللسان، والإسلام أعم لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمرًا آخر غيره، مثاله: الحيوان أعم من الإنسان لكن الحيوان في صورة الإنسان ليس أمرًا ينفك عن الإنسان، ولا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيوانًا ولا يكون إنسانًا، فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود، فكذلك المؤمن والمسلم، وسنبين ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ - ٣٦] إن شاء الله تعالى.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ هل فيه معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾؟ نقول: نعم، وبيانه من وجوه: الأول: هو أنهم لما قالوا: (آمنا) وقيل لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ قالوا: إذا أسلمنا فقد آمنا، قيل: لا فإن الإيمان من عمل القلب لا غير والإسلام قد يكون عمل اللسان، وإذا كان ذلك عمل القلب ولم يدخل في قلوبكم الإيمان لم تؤمنوا. الثاني: لما قالوا: آمنا. وقيل لهم: لم تؤمنوا. قالوا جدلاً قد آمنا عن صدق نية مؤكدين لما أخبروا فقال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ لأن (لما يفعل) يقال في مقابلة قد فعل، ويحتمل أن يقال بأن الآية فيها إشارة إلى حال المؤلفة إذا أسلموا ويكون إيمانهم بعده ضعيفًا، قال لهم ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ لأن الإيمان إيقان وذلك بعدُ لم يدخل في قلوبكم وسيدخل باطلاعكم على محاسن الإسلام ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يكمل لكم الأجر، والذي يدل على هذا هو أن (لما) فيها معنى التوقع والانتظار، والإيمان إما أن يكون بفعل المؤمن واكتسابه ونظره في الدلائل، وإما أن يكون إلهامًا يقع في قلب المؤمن، فقوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي ما فعلتم ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولا دخل الإيمان في قلبكم إلهامًا من غير فعلكم فلا إيمان لكم حينئذٍ. ثم إنه تعالى عند فعلهم قال: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ بحرف ليس فيه معنى الانتظار

لقصور نظرهم وفتور فكرهم، وعند فعل الإيمان قال: (لما يدخل) بحرف فيه معنى التوقع لظهور قوة الإيمان، كأنه يكاد يغشى القلوب بأسرها.

ثم إنه تعالى قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم﴾ أي لا ينقصكم، والمراد أنكم إذا أتيتم بما يليق بضعفكم من الحسنة فهو يؤتيكم ما يليق به من الجزاء، وهذا لأن مَن حَمَل إلى ملك فاكهة طيبة يكون ثمنها في السوق درهمًا، وأعطاه الملك درهمًا أو دينارًا ينسب الملك إلى قلة العطاء بل البخل، فليس معناه أنه يعطي مثل ذلك من غير نقص، بل المعنى يعطي ما تتوقعون بأعمالكم من غير نقص. وفيه تحريض على الإيمان الصادق؛ لأن من أتى بفعل من غير صدق نية يضيع عمله ولا يعطى عليه أجرًا فقال: وإن تطيعوا وتصدقوا لا ينقص عليكم، فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الإخلاص، وفيه أيضًا تسلية لقلوب من تأخر إيمانه، كأنه يقول: غيري سبقني وآمن حين كان النبي وحيدًا وآواه حين كان ضعيفًا، ونحن آمنا عندما عجزنا عن مقاومته وغَلَبنا بقوته، فلا يكون لإيماننا وقع ولا لنا عليه أجر، فقال تعالى: إن أجركم لا ينقص وما تتوقعون تعطَون، غاية ما في الباب أن التقدم يزيد في أجورهم، وماذا عليكم إذا أرضاكم الله أن يعطي غيركم من خزائن رحمته رحمة واسعة؟! وما حالكم في ذلك إلا حال ملك أعطى واحدًا شيئًا وقال لغيره: ماذا تتمنى؟ فتمنى عليه بلدة واسعة وأموالاً فأعطاه ووفاه، ثم زاد ذلك الأول أشياء أخرى من خزائنه، فإن تأذى من ذلك يكون بخلاً وحسدًا، وذلك في الآخرة لا يكون، وفي الدنيا هو من صفة الأراذل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي يغفر لكم ما قد سلف، ويرحمكم بما أتيتم به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُوا۟ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

إرشادًا للأعراب الذين قالوا آمنا - إلى حقيقة الإيمان فقال: إن كنتم تريدون الإيمان فالمؤمنون من آمن بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، يعني أيقنوا بأن الإيمان إيقان، و(ثُم) للتراخي في الحكاية، كأنه يقول آمنوا، ثم أقول شيئًا آخر: لم يرتابوا. ويحتمل أن يقال: هو للتراخي في الفعل تقديره: آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما قال النبي ﷺ من الحشر والنشر، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ يحقق ذلك، أي أيقنوا أن بعد هذه الدار دارًا، فجاهدوا طالبين العقبى، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم، لا الأعراب الذين قالوا قولاً ولم يخلصوا عملاً.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

فإنه عالم به لا يخفى عليه شيء، وفيه إشارة إلى أن الدين ينبغي أن يكون لله وأنتم أظهرتموه لنا لا لله، فلا يُقبل منكم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

يقرر ذلك ويبين أن إسلامهم لم يكن لله. وفيه لطائف:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾ زيادة بيان لقبيح فعلهم، وذلك لأن الإيمان له شرفان: أحدهما: بالنسبة إلى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده في العظمة. وثانيهما: بالنسبة إلى المؤمن فإنه ينزه النفس عن الجهل ويزينها بالحق والصدق، فهم لا يطلبون بإسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف أنفسهم بل مَنُّوا، ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا.

اللطيفة الثانية: قال: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي الذي عندكم إسلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا﴾ ولم يقل: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم. لئلا يكون تصديقًا لهم في الإسلام أيضًا كما لم يصدقوا في الإيمان، فإن قيل: لمَ لم يجز أن يصدقوا في إسلامهم، والإسلام هو الانقياد، وقد وجد منهم قولاً وفعلاً وإن لم يوجد اعتقادًا وعلمًا، وذلك القدر كافٍ في صدقهم؟ نقول: التكذيب يقع على وجهين: أحدهما: أن لا يوجد نفس المخبر عنه. وثانيهما: أن لا يوجد كما أخبر في نفسه فقد يقول: ما جئتنا بل جاءت بك الحاجة، فالله تعالى كذبهم في قولهم آمنا على الوجه الأول، أي ما آمنتم أصلاً. ولم يصدقوا في الإسلام على الوجه الثاني فإنهم انقادوا للحاجة وأخذ الصدقة.

اللطيفة الثالثة: قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ يعني لا منة لكم، ومع ذلك لا تسلمون رأسًا برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة، بل المنة عليكم.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ حسن أدب حيث لم يقل: لا تمنوا عليَّ بل لي المنة عليكم حيث بينت لكم الطريق المستقيم، ثم في مقابلة هذا الأدب قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

اللطيفة الرابعة: لم يقل: يمن عليكم أن أسلمتم. بل قال: ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ لأن إسلامهم كان ضلالاً حيث كان نفاقًا فما منّ به عليهم، فإن قيل: كيف مَنَّ عليهم بالهداية إلى الإيمان مع أنه بيّن أنهم لم يؤمنوا؟ نقول: الجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه تعالى لم يقل: بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمان، بل قال: ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ وإرسال الرسل بالآيات البينات هداية.

ثانيها: هو أنه تعالى يُمن عليهم بما زعموا، فكأنه قال: أنتم قلتم آمنا، فذلك نعمة في حقكم

حيث تخلصتم من النار، فقال هداكم في زعمكم.

ثالثها وهو الأصح: هو أن الله تعالى بيّن بعد ذلك شرطًا فقال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

إشارة إلى أنه لا يخفى عليه أسراركم، وأعمال قلوبكم الخفية، وقال: ﴿بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة، وآخر السورة مع التئامه بما قبله فيه تقرير ما في أول السورة، وهو قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾[الحجرات: ١] فإنه لا يخفى عليه سر، فلا تتركوا خوفه في السر ولا يخفى عليه علن فلا تأمنوه في العلانية.

والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

تفسير سورة الحُجُرات

مدنيَّة بإجماع، وهي ثماني عشرةَ آية[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال العلماء: كان في العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب في خطاب النبيِّ ﷺ وتلقيبِ الناس. فالسورةُ في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب.

وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرميُّ: «لا تَقَدَّمُوا» بفتح التاء والدال من التقدُّم[2]. الباقون: «تُقَدِّمُوا» بضم التاء وكسر الدال من التقديم، ومعناهما ظاهر. أي: لا تقدِّموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقولِ رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا. ومَن قدَّم قولَه أو فعلَه على الرسول ﷺ، فقد قدَّمه على الله تعالى؛ لأن الرسول ﷺ إنما يأمر عن أمر الله عزَّ وجلَّ.

الثانية: واختلف في سبب نزولها على أقوال ستة:

الأول: ما ذكره الواحديُّ[3] من حديث ابن جُريج قال: حدَّثني ابن أبي مُليكةَ أن عبد الله بنَ الزُّبير أخبره أنه قدِم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القَعْقاع بنَ مَعْبد. وقال عمر: [بل] أمِّر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٨.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٨، والنشر ٢/ ٣٧٥، وهي من العشرة.

(٣) في أسباب النزول ص٤٠٦، وما سيرد بين حاصرتين منه.

أردتَ إلا خلافي. وقال عمر: ما أردتُ خلافَك. فتماريا[١] حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾. رواه البخاريُّ عن الحسن بن محمد بن الصباح[٢]؛ ذكره المهدَويُّ أيضًا.

الثاني: ما رُويَ أن النبيَّ ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلًا إذ مضى إلى خَيْبَر، فأشار عليه عمر برجل آخر؛ فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾. ذكره المَهْدَويُّ أيضًا.

الثالث: ما ذكره الماورديُّ عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبيَّ ﷺ أنفذ أربعةً وعشرين رجلًا من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم؛ إلا ثلاثةً تأخروا عنهم، فسلموا وانكفؤوا إلى المدينة، فلقُوا رجلين من بني سُليم فسألوهما عن نسبهما فقالا: مِن بني عامر، لأنهم أعزُّ من بني سُلَيم، فقتلوهما، فجاء نفر من بني سُليم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن بيننا وبينك عهداً، وقد قُتِل منا رجلان، فوداهما النبيُّ ﷺ بمئة بعير، ونزلت عليه هذه الآية في قتلهم الرجلين[٣].

وقال قتادة: إن ناسًا كانوا يقولون: لو أُنزِل فيَّ كذا، لو أُنزِلَ فيَّ كذا؟ فنزلت هذه الآية.

ابن عباس: نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه[٤].

مجاهد: لا تفتاتوا على الله ورسوله حتى يقضيَ الله على لسان رسوله. ذكره

---

(١) في (م): فتماديا، وهو خطأ.

(٢) صحيح البخاري (٤٨٤٧).

(٣) النكت والعيون٥/ ٣٢٦، والأقوال الآتية منه. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٤: وروي في الدلائل [٣/ ٣٤١ - ٣٤٢] من طريق ابن إسحاق، ومن طريق موسى بن عقبة هذه القصة على غير هذا السياق، وأن المقتولين من بني كلاب، وأن الثلاثة قتل منهم واحد، وهو المحفوظ والمشهور في المغازي.

(٤) أخرج قول قتادة وابن عباس الطبري ٢١/ ٣٣٦.

البخاريُّ أيضًا[١].

الحسن: نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلي رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح[٢].

ابن جريج: لا تقدِّموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ[٣].

قلت: هذه الأقوال الخمسةُ المتأخرة ذكرها القاضي أبو بكر بنُ العربي[٤]، وسردها قبله الماوردي.

قال القاضي: وهي كلُّها صحيحةٌ تدخل تحت العموم، فالله أعلم ما كان السبب المثيرُ للآية منها، ولعلها نزلت دون سبب، والله أعلم.

قال القاضي: إذا قلنا: إنها نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها، فهو صحيح؛ لأن كلَّ عبادة مؤقَّتة بميقات لا يجوز تقديمها عليه، كالصلاة والصوم والحجّ، وذلك بيِّن. إلا أن[٥] العلماء اختلفوا في الزكاة، لمَّا كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنًى مفهوم، وهو سدُّ خَلَّة الفقير، ولأن النبيَّ ﷺ استعجل من العباس صدقة عامين، ولِمَا جاء مِن جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تُعطَى لمستحقِّها[٦] يوم الوجوب، وهو

---

(١) علقه البخاري قبل (٤٨٤٥)، ووصله الطبري ٢١/ ٣٣٦، والبيهقي في الشعب (١٥١٦)، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٥.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٣٠، والطبري ٢١/ ٣٣٦.

(٣) هو قول الزجاج، وليس قول ابن جريج، وهو في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٢٦، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٠.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٠. والأقوال الخمسة يعني أقوال قتادة وابن عباس ومجاهد والحسن والزجاج المذكورة.

(٥) في النسخ: وذلك أن، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٦) في (خ): مستحقها، وفي (م): لمستحقيها.

يوم الفطر، فاقتضى ذلك كلُّه جوازَ تقديمها العام والاثنين[١]. فإن جاء رأس العام والنصابُ بحاله وقعت موقعها. وإن جاء رأس العام وقد تغيَّر النصاب تبيَّن أنها صدقةُ تطوُّع. وقال أشهب: لا يجوز تقديمها على الحول لحظة، كالصلاة، وكأنه طرَّد الأصل في العبادات، فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام، فوفَّاها حقَّها في النظام وحسنِ الترتيب. ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائزٌ؛ لأنه معفوٌّ عنه في الشرع بخلاف الكثير. وما قاله أشهب أصحُّ، فإن مفارقة اليسير الكثيرَ في أصول الشريعة صحيحٌ، ولكنه لِمعانٍ تختص باليسير دون الكثير. فأمَّا في مسألتنا، فاليومُ فيه كالشهر، والشهرُ كالسنة. فإما تقديم كلِّيٌّ كما قال أبو حنيفة والشافعيُّ، وإمَّا حفظُ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾ أصل في ترك التعرُّض لأقوال النبيِّ ﷺ، وإيجابِ اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبيُّ ﷺ في مرضه: «مُرُوا أبا بكر فَلْيُصلِّ بالناس». فقالت عائشة لحفصةَ رضي الله عنهما: قولي له: إن أبا بكر رجلٌ أَسِيف، وإنه متى يَقُم مَقامَك لا يُسْمِعِ الناسَ من البكاء، فَمُرْ عمرَ[٢] فلْيصلِّ بالناس. فقال ﷺ: «إنكنَّ لأنتنَّ صواحبُ يوسف. مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس»[٣]. فمعنى

---

(١) في (ظ) و(ف): والعامين.

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠١ - ١٧٠٢ (والكلام منه): علياً، وهو خطأ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٨٧٦)، والبخاري (٧١٣)، ومسلم (٤١٨): (٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مطولاً، ولفظه لابن العربي في أحكام القرآن. ومعنى قوله: أسِيف، أي: سريع البكاء والحزن. النهاية (أسف). وقوله: صواحب يوسف كما في فتح الباري ٢/ ١٥٣: أي إنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن. ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع، فالمراد به واحد وهي عائشة فقط، كما أن صواحب صيغة جمع والمراد زليخا فقط، ووجه المشابهة بينهما في ذلك أن زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة ومرادها زيادة على ذلك، وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها كونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك وهو أن لا يتشاءم الناس به. وقد صرحت هي فيما بعد ذلك فقالت: لقد راجعته وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلًا قام مقامه أبداً.

قوله: «صواحب يوسف» الفتنةُ بالردِّ عن الجائز إلى غير الجائز.

وربما احتجَّ نُفَاةُ[1] القياس بهذه الآية، وهو باطلٌ منهم، فإنَّ ما قامت دلالته فليس في فعله تقديمٌ بين يديه. وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع، فليس إذًا تقدُّمٌ بين يديه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يعني في التقدُّم المنهيِّ عنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بفعلكم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ روى البخاريُّ والترمذيُّ عن ابن أبي مُلَيكة قال: حدثني عبد الله بنُ الزُّبير أن الأقرع بنَ حابس قَدِمَ على النبيِّ ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه، فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله، فتكلَّما عند النبيِّ ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما، فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. فقال عمر: ما أردتُ خلافك، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبيِّ ﷺ لم يَسْمع كلامه حتى يستفهمه. قال: وما ذكر ابن الزبير جدَّه يعني أبا بكر. قال [أبو عيسى]: هذا حديث غريب حسن. وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مُلَيكة مرسلاً[2]، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير[3].

---

(١) في (ز) و(ظ) و(م): بغات، وهو خطأ، والكلام في أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٨١ .

(٢) ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٩٠ أن صورته الإرسال، لكن ظهر في آخره أن ابن مُليكة حمله على ابن الزبير، كما سيرد بعده، ثم إن ابن أبي مُليكة صرَّح أن ابن الزبير أخبره، كما في رواية البخاري (٤٨٤٧).

(٣) هذا لفظ حديث الترمذي (٣٢٦٦)، وهو من رواية مؤمَّل بن إسماعيل، عن نافع بن عمر، عن ابن =

قلت: هو البخاريُّ، قال عن أبي مُلَيكة: كاد الخيِّران أن يهلكا: أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبيِّ ﷺ حين قَدِمَ عليه رَكْب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مُجاشِع، وأشار الآخر برجل آخر ـ فقال نافع: لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. فقال: ما أردتُ خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية. فقال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمِع رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه. ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر الصديق[١].

وذكر المهدويُّ عن عليٍّ ﷺ: نزل قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ فينا لمَّا ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيدُ بن حارثة، نتنازع ابنة حمزة لمَّا جاء بها زيد من مكة، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر؛ لأن خالتها عنده. وقد تقدَّم هذا الحديث في «آل عمران»[٢].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك أن النبيَّ ﷺ افتقدَ ثابتَ بنَ قيس فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك عِلْمَهُ، فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنَكِّسًا رأسه؛ فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ، كان يرفع صوته[٣] فوق صوت النبيِّ ﷺ، فقد حبِط عمله وهو من أهل النار. فأتى الرجل النبيَّ ﷺ، فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى[٤]: فرجع

= أبي مُليكة، وقد خالف مؤملٌ ابنَ جريج ـ وروايته عند البخاري (٤٨٤٧)، وسلفت أول السورة ـ في حكايته قول أبي بكر وعمر في طلب تأمير القعقاع، وروايةُ ابنِ جُريج أثبت من رواية مؤمَّل، كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٩١ . وقوله: وما ذكر ابن الزبير جده، يعني لم يذكر عن أبي بكر مثل ما ذكره عن عمر ﷺ في أنه لم يَسمع ﷺ كلامَه حتى يستفهمَه، يوضحه قولُ ابن الزبير الآتي، وهو عند البخاري كما سيذكر المصنف.

(١) صحيح البخاري (٤٨٤٥)، وهو عند أحمد (١٦١٣٣)، وقوله: ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني جده لأمه أسماء. ينظر عمدة القاري ١٩/ ١٨٣ .

(٢) ٥/ ١٣٤، وسلف أيضاً في البقرة ٤/ ١١٣ .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٦٢١ : كذا ذكره بلفظ الغيبة وهو التفات، وكان البيان يقتضي أن يقول: كنت أرفع صوتي.

(٤) هو موسى بن أنس، أحد رجال الإسناد.

المرة الآخرة ببشارة عظيمة؛ فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لستَ من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة». لفظ البخاري[١].

وثابتٌ هذا هو ثابتُ بنُ قيس بنِ شمَّاسٍ الخزرجيُّ، يُكْنَى أبا محمد بابنه محمد. وقيل: أبا عبد الرحمن. قُتِل له يومَ الحرَّة[٢] ثلاثةٌ من الولد: محمد، ويحيى، وعبد الله. وكان خطيباً بليغًا معروفاً بذلك، كان يقال له: خطيبُ رسول الله ﷺ، كما يقال لحسان: شاعرُ رسول الله ﷺ. ولمَّا قَدِمَ وفد تميم على رسول الله ﷺ وطلبوا المفاخرة، قام خطيبهم فافتخر، ثم قام ثابت بن قيس، فخطب خطبة بليغة جَزْلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد:

أتيناك كَيْمَا يعرفَ[٣] الناس فضلَنا ... إذا خالفونا عند ذكرِ المكارِمِ

وإنَّا رؤوسُ الناس من كل مَعشَرٍ ... وأنْ ليس في أرض الحجاز كدارِمِ

وإنَّ لنا المِرْبَاعَ في كلِّ غارة ... تكون بنجد أو بأرض التهائم[٤]

فقام حسان فقال:

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٤٦)، وصحيح مسلم (١١٩): (١٨٧)، وهو عند أحمد (١٢٤٨٠) وجاء عند مسلم وأحمد أن الرجل الذي سأله النبي ﷺ عن ثابت هو سعد بن معاذ، وسعد توفي في بني قريظة سنة خمس، والآية المذكورة نزلت في زمن الوفود بسبب الأقرع بن حابس وغيره، وكان ذلك في سنة تسع. وجمع بينهما الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٦٢٠: بأن الذي نزل في قصة ثابت مجرد رفع الصوت، والذي نزل في قصة الأقرع أول السورة وهو قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

(٢) هي حَرَّة واقِم إحدى حَرَّتي المدينة، وهي الشرقية، وكانت بها الوقعة المشهورة أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ مع أهل المدينة الذين لم يرضوا أن يبايعوه. ينظر الكامل لابن الأثير ٤/ ١١١ - ١١٢، ومعجم البلدان ٢/ ٢٤٩.

(٣) بالنصب على اعتبار «ما» زائدة، وبالرفع على اعتبارها كافة. ينظر خزانة الأدب ٨/ ٤٩٨ - ٤٩٩.

(٤) أورد هذه الأبيات الواحدي في أسباب النزول ص٤١١، وأوردها دون البيت الأخير أبو العباس القرطبي في المفهم ٧/ ٣٩٩. وذكرها ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٥٦٥ - ٥٦٦ باختلاف يسير ونسبها للزِّبرِقان بن بدر، وجاء فيه الشطر الثاني من البيت الأول هكذا: إذا احتفلوا عند احتضار المواسم. وقوله: كدارم، دارِم هم من بني تميم. والمِرباع: أخذ الربع من الغنيمة، يريد أنهم رؤساء. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ٣/ ١٥٣ - ١٥٤.

بَنـي دارمٍ لا تَـفْـخَـرُوا إنَّ فَـخْـرَكُـمْ ... يـعـود وَبَـالاً عـنـد ذكـر الـمـكـارم
هَـبِـلـتـم عـلـيـنـا تـفـخـرون وأنـتـمُ ... لـنـا خَـوَلٌ مِـن بـيـن ظِـئـرٍ وخـادمِ[1]

في أبيات لهما.

فقالوا: خطيبهم أخطبُ من خطيبنا، وشاعرهم أشعرُ من شاعرنا، فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾[2].

وقال عطاءٌ الخُراساني: حدَّثتني ابنة ثابت بن قيس قالت: لمَّا نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه، فَفَقَده النبيُّ ﷺ، فأرسل إليه يسأله ما خبرُه، فقال: أنا رجلٌ شديدُ الصوت، أخاف أن يكون حبِط عملي. فقال عليه الصلاة والسلام: «لست منهم، بل تعيش بخير، وتموت بخير».

قال: ثم أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]، فأغلق بابه وطَفِق يبكي، ففقده النبيُّ ﷺ، فأرسل إليه ما خبرُه[3]، فقال: يا رسول الله، إني أحبُّ الجمال، وأحب أن أَسود قومي. فقال: «لستَ منهم، بل تعيش حميدًا، وتُقتل شهيدًا، وتدخل الجنة». قالت: فلمَّا كان يومُ اليمامة، خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَةَ، فلما التقَوْا انكشفوا، فقال ثابتٌ وسالمٌ مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ. ثم حفر كلُّ واحد منهما له حفرة، فثبتا وقاتلا حتى قُتِلا، وعلى ثابت يومئذ دِرْعٌ له نفيسة، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها، فبينا رجلٌ من

(١) ديوان حسان ص٤٤٠، وأوردها أيضاً ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٥٦٦، والواحدي في أسباب النزول ص٤١١ - ٤١٢، وأبو العباس القرطبي في المفهم ٧/ ٣٩٩. وجاء في السيرة النبوية: ما بين ظئر وخادم، بدل: من بين ظئر وخادم. وقوله: هَبِلتم، أي: فقدتم. والخول: هم الحَشَم. والظئر: التي ترضع ولد غيرها وقد تأخذ على ذلك أجراً. الإملاء المختصر ٣/ ١٥٤، وينظر لسان العرب (خول).

(٢) المفهم ٧/ ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٣) في (ز) و(ظ) و(م): فأخبره، والمثبت من (خ) و(ف) و(ق)، وهو الموافق لما في المفهم ٧/ ٣٩٩ والكلام منه.

المسلمين نائم؛ أتاه ثابت في منامه فقال له: أوصيك بوصية، فإياك أن تقول: هذا حُلْم فتضيعَه، إني لمَّا قُتلت أمسِ؛ مرَّ بي رجل من المسلمين، فأخذ دِرعي ومنزلُه في أقصى الناس، وعند خِبائه فرسٌ يَسْتَنُّ في طِوَلِه[١]، وقد كفأ على الدِّرع بُرْمَةً[٢]، وفوق البُرمة رَحْلٌ، فَأْتِ خالدًا فمُرْه أن يبعث إلى درعي فيأخذَها، وإذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعني أبا بكر - فقل له: إن عليَّ من الدَّين كذا وكذا، وفلانٌ من رقيقي عتيقٌ وفلان، فأتى الرجل خالدًا فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتَى بها، وحدَّث أبا بكر برؤياه، فأجاز وصيته. قال: ولا نعلم أحدًا أُجيزتْ وصيَّته بعد موته غيرَ ثابت رحمه الله[٣]. ذكره أبو عمر في الاستيعاب[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا تخاطبوه: يا محمد، ويا أحمد. ولكن: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله؛ توقيرًا له[٥]. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبيِّ ﷺ؛ ليقتديَ بهم ضَعَفة المسلمين، فَنُهي المسلمون عن ذلك[٦]. وقيل: «لَا تَجْهَرُوا لَهُ» أي: لا تجهروا عليه، كما يقال: سَقَط لِفِيه، أي: على فيه. ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الكاف كافُ التشبيه في محل النصب، أي: لا تجهروا له جهرًا مثلَ جهر بعضكم لبعض. وفي هذا دليلٌ [على] أنهم لم يُنهَوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نُهُوا عن جهر مخصوص

---

(١) قوله: يَسْتَنُّ، أي: يعدو لِمَرَحه ونشاطه شوطاً أو شوطين ولا راكب عليه. والطِّوَل: الحبل الطويل يُشَدُّ أحد طرفيه في وتد أو غيره، والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه. النهاية (سنن) و(طول).

(٢) البُرْمة: القِدر مطلقاً، وجمعها بِرام، وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن. النهاية (برم).

(٣) المفهم ٧/ ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٤) الاستيعاب بهامش الإصابة ٢/ ٧٥ - ٧٨، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٢١)، والطبراني في الكبير (١٣٢٠)، والحاكم ٣/ ٢٣٥.

(٥) المفهم ٧/ ٤٠٠.

(٦) ينظر الكشاف ٣/ ٥٥٥.

مقيَّد بصفة، أعني الجهرَ المنعوتَ بمماثلةِ ما قد اعتادوه منه[١] فيما بينهم، وهو الخُلوُّ من مراعاة أُبَّهة النبوَّة وجلالةِ مقدارها وانحطاطِ سائر الرتب وإن جلَّت عن رتبتها[٢].

﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أي: من أجل أن تحبط، أي: تبطل[٣]؛ هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: أي: لئلا تحبَطَ أعمالكم وأنتم لا تشعرون[٤].

الثالثة: معنى الآية الأمرُ بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيرِه، وخفضِ الصوت بحضرته وعند مخاطبته، أي: إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدِّ الذي يبلغه بصوته، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه عاليًا[٥] لكلامكم، وجهرُه باهرًا لجهركم، حتى تكون مزيَّته[٦] عليكم لائحة، وسابقتُه واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشِيَة الأبلق. لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتَبْهَرُوا منطقه بصخَبكم[٧]. وفي قراءة ابن مسعود: «لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ»[٨]. وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه الصلاة والسلام. وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفًا لهم، إذ هم ورثةُ الأنبياء[٩].

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي[١٠]: حرمةُ النبيِّ ﷺ مَيّتًا كحرمته حيًّا،

---

(١) في (ز) و(م): منهم.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٥، وما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) المفهم ٧/ ٤٠٠.

(٤) قوله: وأنتم لا تشعرون، ليست في (م).

(٥) في (ز) و(ظ) و(م): غالبًا، والمثبت من (خ) و(ق) وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٥٤ والكلام منه. وسقط هذا الموضع من (ف).

(٦) في (خ) و(ز): مرتبته، وفي (م): مزية.

(٧) في (ظ): بضجتكم.

(٨) أورد قراءة ابن مسعود الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٥، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٥.

(٩) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٤٥.

(١٠) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٢ - ١٧٠٣.

وكلامُه المأثورُ بعد موته في الرِّفعة مثلُ[١] كلامه المسموعِ من لفظه، فإذا قُرِئ كلامه، وجب على كلِّ حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به. وقد نبَّه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وكلامُ النبيِّ ﷺ من الوحي، وله من الحكمة[٢] مثلُ ما للقرآن، إلا معانيَ مستثناة، بيانها في كتب الفقه.

الخامسة: وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهرِ ما يُقصد به الاستخفافُ والاستهانة؛ لأن ذلك كفرٌ والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرضُ صوتٌ هو في نفسه والمسموع من جَرْسه[٣] غيرُ مناسب لِمَا يُهاب به العظماء ويوقَّر الكبراء، فيتكلَّفُ الغضَّ منه وردَّه إلى حدٍّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضاً رفعَ الصوت الذي لا يتأذى[٤] به رسول الله ﷺ؛ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاندٍ أو إرهاب عدوٍّ، أو ما أشبه ذلك، ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لمَّا انهزم الناس يوم حُنين: «اصرخ بالناس»[٥]، وكان العباس أجهرَ الناس صوتًا[٦]. يُروى أن غارة أتتهم يومًا فصاح العباس: يا صباحاه! فأسقطت الحوامل لشدَّة صوته[٧]، وفيه يقول نابغة بني جعدة:

---

(١) في (ز) و(خ) و(ق) و(م): مثال.

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي: وله من الحرمة.

(٣) الجَرس: الصوت، ويكسر. القاموس (جرس).

(٤) في (ف) و(ق) و(م): الذي يتأذى، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٥٥ والكلام إلى آخر المسألة منه.

(٥) أخرجه مسلم (١٧٧٥): (٧٦) بلفظ: أي عباس، ناد أصحاب السَّمُرة ... وسلف بلفظ مسلم ١٠/ ١٤٥.

(٦) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده. اهـ. وسلف ١٠/ ١٤٥.

(٧) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده.

زَجْرُ أبي عُرْوة السِّباعَ إذا أشفق أن يختلطْنَ بالغنمِ[١]

زعمت الرواة أنه كان يزجر السِّباع عن الغنم، فيفْتُقُ مرارةَ السبع في جوفه[٢].

السادسة: قال الزجاج: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ التقدير: لأن تحبط، أي: فتحبط أعمالكم، فاللام المقدرةُ لامُ الصيرورة[٣]، وليس قوله: «أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمانَ على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع. كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلَّموا إجلالًا له، أو كلَّموا غيره بين يديه إجلالًا له. قال أبو هريرة: لمَّا نزلت: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾، قال أبو بكر ﷺ: والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السِّرار[٤].

وذكر سُنَيد قال: حدثنا عبَّاد بن العوام، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة قال: لمَّا نزلت: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا أكلِّمَك بعد هذا إلا كأخي السِّرار[٥].

وقال عبد الله بن الزبير: لمَّا نزلت: «لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ» ما حدَّث عمر عند

---

(١) ديوان النابغة الجعدي ص١٥٨، وفيه: يلتبسن، بدل: يختلطن.

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢.

(٤) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٦٢، والبيهقي في الشعب (١٥٢١).

(٥) لم نقف عليه من حديث أبي سلمة، وأخرجه البزار (٥٦)، والحاكم ٣/ ٧٤، والواحدي في أسباب النزول ص٤٠٨ من حديث أبي بكر ﷺ.

النبي ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه ممَّا يخفض؛ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[١].

قال الفراء: أي: أخلصَها للتقوى[٢]. وقال الأخفش: أي: اختصها للتَّقْوَى[٣]. وقال ابن عباس: «امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى»: طهَّرهم من كلِّ قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى. وقال عمر ﷺ: أذهبَ عن قلوبهم الشهوات[٤].

والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأدِيمَ مَحْنًا حتى أوسعته[٥]. فمعنى امتحن الله قلوبهم للتقوى: وسَّعها وشرحها للتقوى. وعلى الأقوال المتقدمة: امتحن قلوبهم فأخلصها، كقولك: امتحنت الفضة، أي: اختبرتها حتى خلصت. ففي الكلام حذف يدلُّ عليه الكلام، وهو الإخلاص. وقال أبو عمرو: كلُّ شيء جَهَدته فقد محنته. وأنشد:

أتت رذايا بادِياً كَلالُها قد محنت واضطربت آطالها[٦]

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

قال مجاهد وغيره: نزلت في أعراب بني تميم[٧]؛ قَدِم الوفد منهم على النبيِّ ﷺ، فدخلوا المسجد ونادَوُا النبيَّ ﷺ من وراء حجرته أنِ اخرج إلينا، فإنَّ مَدْحَنا زَيْنٌ وَذَمَّنا

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢١٠، وهو بنحو حديث البخاري السالف في المسألة الأولى من الآية السابقة دون قوله: فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٢٧.

(٤) أورد قول عمر الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٧، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٥.

(٥) في تهذيب اللغة ٥/ ١٢١: محنتُ الأديم محناً: إذا مددتَه حتى توسَّعَه.

(٦) أورده مع قول أبي عمرو والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٧. قوله: رذايا جمعَ رذِيَّة: وهو الضعيف من كل شيء. والآطال جمع إطل وهو الخاصرة، والكَلال: التعب. القاموس (رذي) و(أطل).

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٦، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

شَيْنٌ. وكانوا سبعين رجلًا قَدِمُوا لِفِداءِ ذَرارِي لهم؛ وكان النبيُّ ﷺ نام للقائلة.

ورُوِيَ أن الذي نادى الأقرعُ بن حابس، وأنه القائل: إنَّ مَدْحيَ زَيْنٌ وإنَّ ذَمِّي شَيْن؛ فقال النبيُّ ﷺ: «ذاك الله»[١]. ذكره الترمذي عن البَرَاء بن عازب أيضًا[٢].

وروى زيد بن أرقم فقال: أتى أناس النبيَّ ﷺ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيًّا فنحن أسعد الناس باتباعه، وإن يكن مَلِكًا نَعِشْ في جنابه. فأتَوا النبيَّ ﷺ، فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

قيل: إنهم كانوا من بني تميم. قال مقاتل: كانوا تسعة[٤] نفر: قيس بن عاصم، والزِّبْرِقَان بن بَدْر، والأَقْرَع بن حابس، وسُويد بن هشام[٥]، وخالد بن مالك، وعطاء ابن حابس، والقَعْقاع بن مَعْبَد، ووَكِيع بن وكيع، وعُيَيْنَة بنِ حِصْن وهو الأحمق المطاع، وكان من الجرَّارين يجرُّ عشْرَة آلافِ قناة[٦]، أي: يتبعه، وكان اسمه حذيفة، وسمِّي عُيْيَنة لِشَترٍ[٧] كان في عينيه. ذكر عبد الرزاق في عُيينَة هذا: أنه الذي نزل فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾[٨] [الكهف:٢٨]. وقد مضى في آخر

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٩١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٧٨)، والطبري ٢١/٣٤٦، والطبراني في الكبير (٨٧٨).

(٢) برقم (٣٢٦٧) وقال: هذا حديث حسن غريب. ولم يسم الرجل الذي نادى النبي ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٤٥ - ٣٤٦، والطبراني في الكبير (٥١٢٣) وفيه داود بن راشد الطُّفاوي لين الحديث كما قال ابن حجر في التقريب. ووقع عند الطبري والطبراني: جناحه، بدل: جنابه.

(٤) في النسخ عدا (ز) و(ظ): عشر، والمثبت منهما وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/٣٢٨ والكلام منه.

(٥) في النسخ: وسويد بن هاشم، والمثبت من النكت والعيون، وزاد المسير ٧/ ٤٥٩ ونسب القول لابن إسحاق، والإصابة ٤/ ٣٠٤.

(٦) القناة: الرمح، يعني كان يتبعه عشرة آلاف مقاتل.

(٧) الشَّتَر: انقلاب الجَفْن من أعلى وأسفل. القاموس (شتر).

(٨) سلف ١٣/ ٢٦٠.

«الأعراف» من قوله لعمر ﷺ ما فيه كفاية[١]. ذكره البخاري[٢].

ورُوِيَ أنهم وَفدوا وقت الظَّهيرة ورسولُ الله ﷺ راقد، فجعلوا ينادونه: يا محمد[٣]، اخرج إلينا. فاستيقظ وخرج، ونزلت. وسُئِل رسول الله ﷺ عنهم[٤] فقال: «هم جُفاة بني تميم، لولا أنهم من أشدِّ الناس قتالاً للأعور الدجال، لدعوت الله عليهم أن يهلكهم»[٥].

والحُجُرات جمع حُجْرة، كالغُرُفات جمع غُرْفة، والظُّلُمات جمعُ ظُلْمة. وقيل: الحُجُرات جمع الحُجَر، والحُجَر جمع حُجْرة، فهو جمع الجمع. وفيه لغتان: ضمُّ الجيم وفتحُها. قال:

ولـمَّا رأونا باديًا رُكَباتُنا ... على موطنٍ لا نخلِط الجِدَّ بالهَزْلِ[٦]

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يُحوط عليها. وحَظيرة الإبل تسمَّى الحجرة، وهي فُعْلة بمعنى مفعولة[٧].

---

(١) ٩/ ٤٢١ - ٤٢٢ . وخلاصته أن عيينة قال لأخيه الحر بن قيس بن حصن : هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه. قال : سأستأذن لك عليه ، فاستأذن لعيينة ، فلما دخل قال : يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجَزْل ، ولا تَحكم بيننا بالعدل . قال : فغضب عمر حتى هم بأن يقع به...

(٢) برقم (٧٢٨٦) .

(٣) بعدها في (م) : يا محمد .

(٤) لفظة : عنهم ، ليست في (ز) و(م) .

(٥) الكشاف ٣/ ٥٥٨ ، وأخرجه الثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٦ من طريق يعلى ابن الأشدق عن سعد بن عبد الله. ويعلى بن الأشدق، قال عنه البخاري: لا يكتب حديثه، وقال ابن حبان: وضعوا له أحاديث فحدث بها ولم يدر . الميزان ٤/ ٤٥٦ - ٤٥٧ . وأخرج البخاري (٢٥٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٥٢٥) من حديث أبي هريرة قال : ما زلت أحب بني تميم منذ ثلاث ، سمعت من رسول الله ﷺ يقول فيهم ، سمعته يقول : «هم أشد أمتي على الدجَّال» .

(٦) الكتاب ٣/ ٥٧٩ ، وتفسير غريب القرآن ص٤١٥ ، والمحتسب ١/ ٥٦ . قوله: رُكَبات: هو جمع رُكْبة، وهو الشاهد في البيت على فتح جيم حجرات. وقال محقق الكتاب: بدوّ الركبة كناية عن التأهب للحرب.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٥٨ .

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع: «الحُجَرات» بفتح الجيم استثقالاً للضمتين[١]. وقُرِئ: «الحُجْرات» بسكون الجيم تخفيفًا[٢].

وأصل الكلمة المنع، وكلُّ ما منعت أن يوصل إليه فقد حَجَرت عليه. ثم يحتمل أن يكون المنادي بعضًا من الجملة فلهذا قال: «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» أي: إنَّ الذين ينادونك من جملة قوم الغالبُ عليهم الجهل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

أي: لو انتظروا خروجك لكان أصلحَ لهم في دينهم ودنياهم. وكان ﷺ لا يحتجبُ عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بِمُهِمَّات نفسه، فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب. وقيل: كانوا جاؤوا شفعاءَ في أُسارى بني عنبر، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى على النصف، ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء[٣]. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبةَ بنِ أبي مُعَيْط. وسببُ ذلك ما رواه سعيد عن قتادةَ أن النبيَّ ﷺ بعث الوليد بنَ عُقبَةَ مُصَدِّقًا[٤] إلى بني المُصْطَلق، فلمَّا أبصروه أقبلوا نحوه، فهابهم ـ

---

(١) النشر ٢/٣٧٦، وهي من العشرة.

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٣ ونسبها لابن أبي عبلة.

(٣) بنحوه في تفسير البغوي ٤/٢١١.

(٤) المصدِّق: آخذ الصدقات. القاموس (صدق).

في رواية : لإحْنَة كانت بينه وبينهم ـ ، فرجع إلى النبيِّ ﷺ، فأخبره أنهم قد ارتدُّوا عن الإسلام. فبعث نبيُّ الله ﷺ خالدَ بنَ الوليد وأمره أن يتثبَّت ولا يَعْجَل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلًا، فبعث عُيُونَه، فلمَّا جاؤوا أخبروا خالدًا أنهم متمسكّن بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلمَّا أصبحوا أتاهم خالد، ورأى صحة ما ذكروه، فعاد إلى نبيِّ الله ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية، فكان يقول نبيُّ الله ﷺ: «التأنِّي من الله، والعجلةُ من الشيطان»[(١)].

وفي رواية: أن النبيَّ ﷺ بعثه إلى بني المُصْطَلِق بعد إسلامهم، فلمَّا سمعوا به ركبوا إليه، فلمَّا سمع بهم خافهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد همُّوا بقتله، ومنعوا صدقاتهم. فهمَّ رسول الله ﷺ بغزوِهم، فبينما هم كذلك إذ قَدِم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤديَ إليه ما قِبلَنَا من الصدقة، فاستمر راجعًا، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنَّا خرجنا لنقاتله، واللهِ ما خرجنا لذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية[(٢)]؛ وسُمِّيَ الوليدُ فاسقًا، أي: كاذبًا.

قال ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله: الفاسق: الكذَّاب. وقال أبو الحسن الوراق[(٣)]: هو المعلِن بالذنب. وقال ابن طاهر: الذي لا يستحي من الله. وقرأ حمزة والكسائي: «فتثبتوا» من التثبُّت. الباقون: «فَتَبَيَّنُوا» من التبيُّن[(٤)] ﴿أَن تُصِيبُوا﴾ أي: لئلا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٢٨، ٣٢٩ وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٣، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٥١ - ٣٥٢، وجاء عنده: التبين من الله، بدل: التأني من الله، وهو مرسل.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية ٢/ ٢٩٦، والطبري ٢١/ ٣٥٢ - ٣٥٣ عن يزيد بن رومان مرسلا، وينظر حديث أحمد (١٨٤٥٩). وقال ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة الوليد بن عقبة: لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن ـ فيما علمت ـ أن قوله عز وجل: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ نزل في الوليد بن عقبة... الخ وذكر الخبر.

(٣) هو عبد الوهاب بن عبد الحكم بن نافع أبو الحسن البغدادي الوراق، كان كبير الشأن من خواصِّ الإمام أحمد، مات في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين ومئتين. سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٤) السبعة ص٦٣٦، والتيسير ص٩٧، ووقع في (ف) و(م): التبيين، بدل: التبين.

تصيبوا[١]، فـ«أن» في محل نصب بإسقاط الخافض. ﴿قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: بخطأ. ﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ على العجلة وتركِ التأنِّي.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على قَبول خبر الواحد إذا كان عَدْلًا[٢]، لأنه إنما أمر فيها بالتثبُّت عند نقل خبر الفاسق. ومَن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعًا؛ لأن الخبر أمانةٌ والفسقَ قرينةٌ يبطلها[٣]. وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلَّق بالدعوى والجحود، وإثباتِ حقٍّ مقصودٍ على الغير، مثل أن يقول: هذا عبدي، فإنه يُقبَل قوله. وإذا قال: قد أنفذ فلان هذا لك هدية، فإنه يقبل ذلك. وكذلك يُقبَل في مثله خبرُ الكافر[٤]. وكذلك إذا أقرَّ لغيره بحقٍّ على نفسه فلا يبطل إجماعًا. وأمَّا في الإنشاء[٥] على غيره فقال الشافعي وغيرُه: لا يكون وليًّا في النكاح. وقال أبو حنيفة ومالك: يكون وليًّا؛ لأنه يَلي ما لها، فَيَلِي بُضْعَها؛ كالعدل، وهو وإن كان فاسقًا في دينه إلا أن غَيْرته موفَّرة، وبها يحمي الحريم، وقد يَبْذلُ المالَ ويصونُ الحرمة، وإذا وَلِيَ المال فالنكاح أَوْلَى[٦].

الثالثة: قال ابن العربي[٧]: ومن العَجَب أن يجوِّز الشافعيُّ ونظراؤه إمامةَ الفاسق. ومَن لا يؤتمن على حبة مالٍ [كيف] يصحُّ أن يؤتمن على قنطار دِين؟ وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلُّون بالناس لمَّا فسدت أديانهم ولم يمكن تركُ الصلاة وراءهم، ولا اسْتُطِيعت إزالتُهم، صُلِّيَ معهم ووراءهم، كما قال عثمان: الصلاة أحسن ما يفعل الناس، فإذا أحسنوا فأحْسِنْ [معهم]، وإذا أساؤوا فاجتنب

(١) الوسيط ٤/ ١٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٣.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٨١ - ٣٨٢.

(٥) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٣ والكلام وما سيأتي منه: وأما في الإنسان.

(٦) جاء في أحكام القرآن لابن العربي: فالبضع أولى.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٣ - ١٧٠٤، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

إساءتهم[١]. ثم كان من الناس مَن إذا صلَّى معهم تَقِيَّةً أعاد[٢] الصلاة لله، ومنهم مَن كان يجعلها صلاته. وبوجوب الإعادة أقول، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع مَن لا يرضى من الأئمة، ولكنْ يعيدُ سِرًّا في نفسه، ولا يؤثِر ذلك عند غيره.

الرابعة: وأمَّا أحكامه إن كان واليًا فيَنْفُذ منها ما وافق الحقَّ، ويُردُّ ما خالفه، ولا يُنْقَض حكمُه الذي أمضاه بحال، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية [تؤثر]، أو قولٍ يُحكى؛ فإن الكلام كثيرٌ، والحقُّ ظاهر[٣].

الخامسة: لا خلاف في أنه يصحُّ أن يكون رسولًا عن غيره في قول يُبَلِّغه، أو شيء يُوصله، أو إذن يُعلِمه، إذا لم يخرج عن حقِّ المرسِل والمبلَّغ، فإن تعلَّق به حقٌّ لغيرهما لم يُقبَل قوله. وهذا جائزٌ للضرورة الداعية إليه، فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدولُ لم يحصل منها[٤] شيء؛ لعدمهم في ذلك. والله أعلم.

السادسة: وفي الآية دليلٌ على فساد قول مَن قال: إن المسلمين كلَّهم عدولٌ حتى تثبت الجُرحة؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبُّت قبل القَبول، ولا معنى للتثبُّت بعد إنفاذ الحكم، فإنْ حَكَمَ الحاكم قبل التثبُّت، فقد أصاب المحكومَ عليه بجهالة.

السابعة: فإن قضى بما يغلب على الظنِّ، لم يكن ذلك عملًا بجهالة، كالقضاء بالشاهدين العدلين، وقَبولِ قول العالم المجتهد. وإنما العملُ بالجهالة قَبولُ قولِ مَن لا يحصل غلبةُ الظنِّ بقوله[٥]. ذكر هذه المسألةَ القُشَيْريُّ، والتي قبلها المَهْدَوي.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥). عن عبيد الله بن عديّ بن خِيار أنه دخل على عثمان ﷺ وهو محصور، فقال: إنك إمام عامة، ونزل بك ما نرى، ويصلي لنا إمام فتنة وتحَرَّج، فقال عثمان: الصلاةُ أحسن.... الخ.

(٢) في النسخ عدا (ف)، والأحكام: أعادوا، والمثبت من (ف).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٤ وما بين حاصرتين منه.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠ والكلام منه: لم يحصل منهم.

(٥) في (م): بقبوله.

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلا تَكذِبوا، فإن الله يُعلِمه أنباءكم فَتُفْضَحون[١]. ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقةٌ وإثم، فإنه لو قتل القومَ الذي سعى بهم الوليدُ بن عُقبة إليه، لكان خطأً، ولَعَنَتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم.

ومعنى طاعةِ الرسول لهم: الائتمارُ بما يأمرونه[٢] فيما يبلِّغونه عن الناس والسماعُ منهم.

والعَنَت: الإثم، يقال: عَنِت الرجل. والعَنَت أيضاً: الفجور والزنى، كما في سورة النساء[٣].

والعَنتُ أيضًا الوقوعُ في أمر شاقٍّ؛ وقد مضى في آخر «براءة»[٤] القولُ في «عَنِتُّمْ» بأكثرَ من هذا.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ هذا خطابٌ للمؤمنين المخلِصين[٥] الذين لا يكذبون النبيَّ ﷺ ولا يخبرون بالباطل، أي: جعل الإيمان أحبَّ الأديان إليكم. ﴿وَزَيَّنَهُ﴾ بتوفيقه ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حسَّنه إليكم حتى اخترتموه. وفي هذا ردٌّ على القدرية والإمامية وغيرِهم، حسب ما تقدَّم في غير موضع. فهو سبحانه المنفردُ بخلق ذواتِ الخلق وخلقِ أفعالهم وصفاتِهم واختلافِ ألسنتهم وألوانهم، لا شريك له.

---

(١) في (ز) و(ظ): فتفتضحوا.

(٢) في (ز): يأمروهم، وفي (ق) و(م): يأمر به.

(٣) ٦/٢٢٨.

(٤) ١٠/٤٤١.

(٥) بعدها في (ز): الصادقين.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ قال ابن عباس: يريد به الكذبَ خاصَّة[١]. وقاله ابن زيد[٢]. وقيل: كلُّ ما أخرج[٣] عن الطاعة، مشتقٌ من فَسَقتِ الرُّطَبَةُ: خرجت من قِشرها، والفأرة من جُحرها. وقد مضى في «البقرة»[٤] القولُ فيه مستوفًى. والعصيانُ جميع المعاصي[٥].

ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني هم[٦] الذين وفَّقهم الله، فحبَّب إليهم الإيمان وكرَّه إليهم الكفر، أي: قبَّحه عندهم ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]. قال النابغة:

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ ... أقْوَتْ وطال عليها سالِفُ الأمَدِ[٧]

والرَّشَدُ: الاستقامةُ على طريق الحقِّ مع تَصلُّبٍ فيه، من الرَّشادة[٨] وهي الصخرة.

قال أبو الوازع: كلُّ صخرة رشادةٌ. وأنشد:

وغيرُ مُقَلَّدٍ ومُوَشَّماتٍ ... صَلِينَ الضَّوءَ من صُمِّ الرَّشادِ[٩]

(١) الوسيط ٤/ ١٥٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢١٢ .

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٥٦ مطولًا.

(٣) في (م) ، والنكت والعيون ٥/ ٣٢٩ وهذا القول منه : كل ما خرج .

(٤) ١/ ٣٦٨ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٥٣ . وتفسير البغوي ٤/ ٢١٢ ، ووقع في (م): جمع، بدل: جميع، وهو خطأ.

(٦) كذا في النسخ، ولعل لفظة: «هم» زائدة، فسياق الكلام: أولئك ـ يعني الذين وفقهم الله، فحبب إليهم الإيمان. . . الخ ـ هم الراشدون.

(٧) ديوان النابغة الذبياني ص٣٠ ، وسلف ١٠/ ٤٧٤ .

(٨) في (م) : الرشاد .

(٩) الكشاف ٣/ ٥٦٢ ، قال شارح شواهده ص٣٧ : الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلَّد بالحبل، وغير المغير لونها بالنار. والوشم والتوشيم: تغيير اللون، أي التي احترقت بضوئها، أي: حرها، ومن صُمِّ الرَّشاد بيان لها، والصمّ: جمع صماء، أي: صلبة.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: فعل الله ذلك بكم فضلًا، أي: للفضل[١] والنعمة، فهو مفعول له. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «عَلِيمٌ» بما يُصلِحكم «حَكِيمٌ» في تدبيركم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ روى المُعْتَمِرُ بن سليمان [عن أبيه] عن أنس بن مالك قال: قلت[٢]: يا نبيَّ الله، لو أتيتَ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ. فانطلق إليه النبيُّ ﷺ، فركب حمارًا وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرضٌ سَبِخة، فلمَّا أتاه النبيُّ ﷺ قال: إليكَ عني! فوالله لقد أذاني نَتْن حمارك. فقال رجل من الأنصار: والله لَحمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحًا منك. فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، وغضب لكلٍّ واحد منهما أصحابه، فكان بينهم[٣] حربٌ بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أُنزِل فيهم هذه الآية[٤].

وقال مجاهد: نزلت في الأوس والخزرج. قال مجاهد: تقاتلَ حيَّان من الأنصار بالعصيِّ والنِّعال فنزلت الآية[٥]. ومثله عن سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان

---

(١) في النسخ: الفضل، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥، والكلام منه، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢١١.

(٢) كذا في النسخ، ووقع عند أحمد والبخاري ومسلم: قيل، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٥/ ٢٩٨: لم أقف على اسم القائل.

(٣) في (ز) و(ق): بينهما.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٦٠٧)، والبخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩) وما بين حاصرتين منها، وقوله: سَبِخَة؛ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٥/ ٢٩٨: هي الأرض التي لا تنبت، وكانت تلك صفة الأرض التي مر بها ﷺ إذ ذاك.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٦، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٦١.

بينهم على عهد رسول الله ﷺ قتالٌ بالسَّعَف والنِّعال ونحوه؛ فأنزل الله هذه الآية فيهم(١).

وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مُدارَأة(٢) في حقٍّ بينهما؛ فقال أحدهما: لآخذنَّ حقي منك(٣) عَنوة؛ لكثرة عشيرته. ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ، فأبى أن يتَّبعه؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا(٤)، وتناول بعضهم بعضًا بالأيدي والنعال والسيوف، فنزلت هذه الآية(٥).

وقال الكلبي: نزلت في حرب سُمير وحاطب، وكان سُمير قتل حاطبًا، فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبيُّ ﷺ، فنزلت(٦). وأمر الله نبيَّه ﷺ والمؤمنين أن يُصلحوا بينهما.

وقال السُّدّيُّ: كانت امرأة من الأنصار يقال لها: «أم زيد» تحت رجل من غير الأنصار، فتخاصمت مع زوجها، أرادت أن تزور قومها، فحبسها زوجها وجعلها في عُلِّيَّة لا يَدخل عليها أحدٌ من أهلها، وأن المرأة بعثت إلى أهلها(٧)، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها، فخرج الرجل فاستغاث أهلَه، فجاء(٨) بنو عمه ليحولوا بين

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٣٠ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٤ ، وقوله: السَّعَف هو جمع سَعَفة - بالتحريك - وهي أغصان النخيل . النهاية (سعف) .

(٢) المدارأة : المخالفة والمدافعة . اللسان (درأ) . ووقع في (خ) : مولاة ، وفي (ز) : مماراة .

(٣) لفظة : منك ، ليست في (م) .

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ) و(ف) : تواقعوا .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٦١ مطولاً .

(٦) حرب سُمَيْر وحرب حاطب: حربان وقعتا بين الأوس والخزرج ، كان الظَّفَر في حرب سُمَير للأوس ، وحرب حاطب للخزرج ، وبينهما نحو مئة سنة على ما ذكرابن الأثير في الكامل ١/ ٦٧١ وقال: حرب حاطب آخر وقعة بينهم إلا يوم بُعاث حتى جاء الله بالإسلام.

(٧) في (ز) و(م) : قومها .

(٨) في (م): فخرج .

المرأة وأهلها، فتدافعوا واجتلدوا(١) بالنعال، فنزلت الآية(٢).

والطائفة تتناول الرجلَ الواحدَ والجمع والاثنين، فهو ممَّا حُمِل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله: «حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاؤوا فخذوا بينهم بالقسط». وقرأ ابن أبي عَبْلَة: «اقتتلتا» على لفظ الطائفتين(٣). وقد مضى في آخر «براءة» القولُ فيه(٤). وقال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] قال: الواحد فما فوقه(٥)، والطائفةُ من الشيء: القطعةُ منه.

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ بالدعاء إلى كتاب الله؛ لهما أو عليهما ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾: تعدَّت ولم تُجب إلى حكم الله وكتابه. والبغيُ: التطاول والفساد. ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ترجعَ إلى كتابه. ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾: رجعت ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: احملوها على الإنصاف. ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا. وقيل: أقسطوا، أي: اعدلوا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين المحقِّين.

الثانية: قال العلماء: لا تخلو الفئتانِ من المسلمين في اقتتالهما؛ إمَّا أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا أو لا.

فإن كان الأوّلُ، فالواجبُ في ذلك أن يُمْشَى بينهما بما يُصلِح ذاتَ البَيْن، ويُثمِر المكافَّة والموادعة. فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي، صِير إلى مقاتلتهما.

وأمَّا إن كان الثاني ـ وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى ـ فالواجبُ أن

(١) في (م): وتجالدوا.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٣٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٥، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٦٠ بنحوه.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٦٣، وذكر قراءة ابن أبي عبلة أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٦٣.

(٤) ١٠/ ٤٢٩.

(٥) سلف ١٥/ ١١٤.

تُقاتَل فئةُ البغي إلى أن تكُفَّ وتتوب، فإن فعلتْ أُصلِح بينها وبين المبغيِّ عليها بالقسط والعدل.

فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما مُحِقَّة، فالواجبُ إزالةُ الشبهة بالحجَّة النيِّرة والبراهينِ القاطعة على مراشد الحقّ. فإن ركبتا متن اللَّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصِحتا به من اتّباع الحقّ بعد وضوحه لهما، فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. والله أعلم[١].

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على وجوب قتال الفئة الباغية المعلومِ بغيُها على الإمام، أو على أحد من المسلمين. وعلى فساد قول مَن منع من قتال المؤمنين، واحتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «قتالُ المؤمن كفر»[٢]. ولو كان قتال المؤمن الباغي كفراً لكان الله تعالى قد أمر بالكفر، تعالى الله عن ذلك! وقد قاتل الصدِّيق ﷺ مَن تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة[٣]، وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ، ولا يُجهَز على جريح. ولم تَحِلَّ أموالهم، بخلاف الواجب في الكفار. وقال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لَمَا أقيم حدٌّ ولا أُبطِل باطل، ولَوَجد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كلِّ ما حرَّم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْي نسائهم وسفكِ دمائهم، بأن يتحزَّبوا عليهم، ويكفّ المسلمون أيديَهم عنهم، وذلك مخالف لقوله عليه الصلاة والسلام: «خذوا على أيدي سفهائكم»[٤].

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي[٥]: هذه الآية أصلٌ في قتال المسلمين،

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٤ .

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٤٧) ، والبخاري (٤٨) ، ومسلم (٦٤) : (١١٦) عن ابن مسعود ﷺ .

(٣) أخرجه أحمد (١١٧)، والبخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة.

(٤) سلف ٧/ ٢٠٤ .

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٥ - ١٧٠٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه .

والعمدةُ في حرب المتأوِّلين، وعليها عوَّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملَّة، وإياها عنى النبيُّ ﷺ بقوله: «تَقْتلُ عَمَّارًا[١] الفئةُ الباغية». وقولِه عليه الصلاة والسلام في شأن الخوارج: «يخرجون على حينِ[٢] فُرقة» أو «على خير[٣] فِرقة»، والروايةُ الأولى أصحُّ، لقوله عليه الصلاة والسلام: «تقتلهم[٤] أَوْلَى الطائفتين إلى الحق»[٥]. وكان الذي قتلهم عليُّ بن أبي طالب ومَن كان معه. فتقرَّر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدِّين أن علياً ﷺ كان إمامًا، وأنَّ كلَّ مَن خرج عليه باغٍ، وأنَّ قتاله واجبٌ حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح؛ لأن عثمان ﷺ قُتِل والصحابةُ بُرآء من دمه، لأنه مَنع من قتال مَن ثار عليه وقال: لا أكونُ أوّل مَن خَلَف رسولَ الله ﷺ في أمته بالقتل، فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة. ثم لم يمكن ترك الناس سُدًى، فعُرِضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم [عمر] في الشورى، وتدافعوها، وكان عليٌّ كرَّم الله وجهه أحقَّ بها وأهلَها، فقبلَها حَوْطةً على الأمة أن تُسفَك دماؤها بالتهارج والباطل، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصَّل. فربما تغيَّر الدِّين وانقضَّ عمود الإسلام. فلمَّا بويع له، طلب أهل الشام في شرط البيعة

(١) في النسخ الخطية: عثمان، والمثبت من (م) وهو الصواب، والحديث عند أحمد (٢٦٥٦٣)، ومسلم (١٢٩١٦): (٧٣) عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) في (ق) و(م) وأحكام القرآن لابن العربي: خير، والمثبت من بقية النسخ.

(٣) في (ق) و(م) وأحكام القرآن: حين، وجاء في نسخة من أحكام القرآن: خير، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) و(ف)، وهو الذي يريده المصنف كما سيرد، وهو ما رجَّحه النووي أيضاً في شرح صحيح مسلم ٧/ ١٦٦، والحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٢/ ٢٩٥؛ لقوله في رواية أخرى: «يخرجون في فُرقة من الناس» و: «عند فُرقة». أي: في وقت افتراق المسلمين، وهو ما كان بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. وأما رواية: خير؛ فقد نقل النووي عن القاضي عياض أن المراد به خير القرون، وهم الصدر الأول، أو أن المراد به علي وأصحابه، فعليه كان خروجهم حقيقة؛ لأنه كان الإمام حينئذ. والحديث عند أحمد (١١٠١٨) والبخاري (٣٦١٠) و(٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي والكلام منه: لقتلهم، بدل: لقوله عليه الصلاة والسلام: تقتلهم.

(٥) أخرجه أحمد (١١٠١٨)، ومسلم (١٠٦٤): (١٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

التمكنَ من قَتَلة عثمان وأَخْذَ القَوَد منهم، فقال لهم عليٌّ ﷺ: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحقَّ تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحقُّ بيعةً وقَتَلَةُ عثمانَ معك نراهم صباحًا ومَساء. فكان عليٌّ في ذلك أسدَّ رأيًا وأصوبَ قِيلًا؛ لأن عليًّا لو تعاطى القَوَد منهم، لتعصبت لهم قبائلُ وصارت حربًا ثالثة، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقدَ البيعةُ، ويقعَ الطلبُ من الأولياء في مجلس الحكم؛ فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخيرُ القصاص إذا أدَّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيتِ الكلمة. وكذلك جرى لطلحةَ والزبير، فإنهما ما خلعا عليًّا من ولاية، ولا اعترضا عليه في ديانة، وإنما رأيَا[1] أن البداية[2] بقتل أصحاب عثمانَ أولى.

قلت: فهذا قولٌ في سبب الحرب الواقع بينهم. وقال جِلَّة من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب، بل فجأةً، وعلى سبيل دَفْع كلٍّ واحد من الفريقين عن أنفسهم؛ لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به، لأنَّ الأمر كان قد انتظم بينهم، وتمَّ الصُّلح والتفرُّق على الرضا. فخاف قَتَلةُ عثمانَ ﷺ من التمكين منهم والإحاطةِ بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدؤوا بالحرب سَحَرةً في العسكرَيْن، وتختلفَ السهام بينهم، ويصيحَ الفريق الذي في عسكر عليٍّ: غَدَر طلحة والزبير. والفريقُ الذي في عسكر طلحةَ والزبير: غدر عليٌّ. فتمَّ لهم ذلك على ما دَبَّروه، وَنشِبَت الحرب، فكان كلُّ فريق دافعًا لمَكْرته عند نفسه، ومانعًا من الإشاطة[3] بدمه. وهذا صوابٌ من الفريقين وطاعةٌ لله تعالى، إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل. وهذا هو الصحيح المشهور. والله أعلم.

---

(١) في النسخ الخطية عدا (ظ) فإنها غير واضحة فيه: رأوا، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي والكلام منه.

(٢) في (م): البداءة.

(٣) الإشاطة: الإهلاك، وشاط دمُه وأشاط دَمه وبدمه: أذهبه، وأشاط فلان فلاناً إذا أهلكه. اللسان (شيط).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أمرٌ بالقتال. وهو فرضٌ على الكفاية؛ إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولذلك تخلَّف قوم من الصحابة ﷺ عن هذه المقامات، كسعد بن أبي وَقَّاص وعبدِ الله بنِ عمر[(١)] ومحمدِ ابن مسلمةَ وغيرِهم. وصوَّب ذلك عليُّ بن أبي طالب لهم، واعتذر إليه كلٌّ واحد منهم بعذر قَبِله منه.

ويُروى أن معاويةَ ﷺ لمَّا أفضى إليه الأمر، عاتب سعدًا على ما فعل، وقال له: لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا، ولا ممن قاتل الفئة الباغية. فقال له سعد: ندمتُ على تركي قتالَ الفئةِ الباغية. فتبيَّن أنه ليس على الكلِّ دَرَكٌ[(٢)] فيما فعل، وإنما كان تصرُّفاً بحكم الاجتهاد وإعمالاً بمقتضى الشرع. والله أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ ومن العدل في صلحهم ألا يُطالَبوا بما جرى بينهم من دمٍ ولا مال، فإنه تَلَفٌ على تأويل، وفي طلبهم [له] تنفيرٌ لهم عن الصلح واستشراءٌ[(٣)] في البغي، وهذا أصل في المصلحة[(٤)]. وقد قال لسان الأمة[(٥)]: إن حكمة الله تعالى في حرب الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل، إذ كان أحكامُ قتال أهل الشرك قد عُرِفت على لسان الرسول ﷺ وفِعله[(٦)].

السابعة: إذا خرجت على الإمام العدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها، قاتلهم الإمام

---

(١) في النسخ عدا (ف): عمرو، والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٧ والكلام منه.

(٢) الدَّرَك: التبعة. القاموس (درك).

(٣) أي: تفاقم: القاموس (شرى).

(٤) بعدها في (ظ): وأصلح في الجملة.

(٥) هو أبو بكر ابن الطيب الباقلاني، لقَّبه بذلك القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤/ ٥٨٥، وسلفت ترجمته ١/ ٦٤.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٨ وما بين حاصرتين منه.

بالمسلمين كافَّة، أو بمن فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فإنْ أبَوا من الرجوع والصلح قوتلوا. ولا يُقتل أسيرهم، ولا يُتبع مُدْبِرُهم، ولا يُذَفَّف[1] على جريحهم، ولا تُسْبَى ذراريهم ولا أموالُهم. وإذا قَتَل العادلُ الباغيَ، أو الباغي العادلَ وهو وليُّه، لم يتوارثا. ولا يرث قاتلٌ عمداً على حال. وقد قيل: إن العادلَ يَرِث الباغي، قياسًا على القصاص[2].

الثامنة: وما استهلكه البغاة والخوارج[3] من دم أو مال ثم تابوا، لم يؤاخَذوا به[4]. وقال أبو حنيفة: يضمنون. وللشافعي قولان. وجْهُ قولِ أبي حنيفةَ أنه إتلاف بعُدْوان، فيلزم الضمان. والمعوَّل في ذلك عندنا أن الصحابة ﷺ في حروبهم[5] لم يَتبعوا مُدْبِراً، ولا ذَفَّفُوا على جريح، ولا قتلوا أسيراً، ولا ضمنوا نفساً ولا مالًا، وهم القُدْوة. وقال ابن عمر: قال النبيُّ ﷺ: «يا عبدَ الله، أتدري كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة»؟ قال: الله ورسوله أعلم. فقال: «لا يُجهَز على جريحها، ولا يُقتل أسيرها، ولا يُطلب هاربها، ولا يُقسم فَيْئُها»[6]. فأمَّا ما كان قائماً رُدَّ بعينه. هذا كلُّه فيمن خرج بتأويل يسوغ له.

وذكر الزَّمَخْشري في تفسيره[7]: إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا مَنَعة لها، ضَمِنَت بعد الفيئة ما جَنَت، وإن كانت كثيرة ذاتَ مَنَعة وشوكة، لم تَضمَن؛ إلا عند محمدِ بن الحسن رحمه الله، فإنه كان يُفتي بأنَّ الضمان يَلزمها إذا فاءت. وأمَّا قبل التَّجمُّع والتَّجنُّد، أو حين تتفرَّق عند وضع الحرب أوزارَها، فما جنته ضمنته عند

---

(١) أي: لا يُجَهز.

(٢) الكافي ١/ ٤٨٦.

(٣) في (ز) و(ظ): وما استهلك البغاة من الخوارج، وفي (ف): وما استهلك الخوارج أو البغاة.

(٤) الكافي ١/ ٤٨٦.

(٥) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٠ والكلام منه: خروجهم.

(٦) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٨٤٩)، والحاكم ٢/ ١٥٥، والبيهقي ٨/ ١٨٢ وفيه كوثر بن حكيم تفرد به كما قاله البزار، وقال فيه ابن معين: ليس بشيء. وقال أحمد: أحاديثه بواطيل ليس بشيء. ميزان الاعتدال ٣/ ٤١٦.

(٧) ٣/ ٥٦٤، والكلام منه إلى آخر المسألة منه.

الجميع. فَمَحْمَلُ[١] الإصلاح بالعدل في قوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل. وعلى قول غيره وجْهُه أن يُحمل على كون الفئة الباغية قليلةَ العدد. والذي[٢] ذكروا أن الغرض إماتةُ الضغائن وسلُّ الأحقاد دون ضمان الجنايات، ليس بحُسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط.

قال الزمخشري: فإن قلتَ: فلِمَ قُرِن بالإصلاح الثاني العدلُ دون الأوّل؟ قلتُ: لأن المراد بالاقتتال في أوّل الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتي شبهة، وأيتُهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن، وتسكينُ الدِّماء[٣] بإراءة الحقِّ والمواعظِ الشافية ونفي الشبهة، إلا إذا أصرَّتا فحينئذ تجب المقاتلة، وأمَّا الضمانُ فلا يتَّجه. وليس كذلك إذا بغت إحداهما؛ فإن الضمان متَّجِهٌ على الوجهين المذكورين.

التاسعة: ولو تغلَّبوا على بلد فأخذوا الصدقاتِ وأقاموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام، لم تُثَنَّ عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا يُنقض من أحكامهم إلا ما كان خلافاً للكتاب أو السنة أو الإجماع، كما تنقض [من] أحكام أهل العدل والسنة[٤]. قاله مُطَرِّف وابن الماجِشون. وقال ابن القاسم: لا تجوز بحال. ورُويَ عن أصْبَغ أنه جائز. ورُويَ عنه أيضاً أنه لا يجوز؛ كقول ابن القاسم. وبه قال أبو حنيفة؛ لأنه عمل بغير حقٍّ ممن لا تجوز تَوْليته، فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة[٥]. والعمدةُ لنا ما قدَّمناه من أن الصحابة ﷺ لمَّا انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح، لم يَعرِضوا لأحد منهم في حكم. قال ابن العربيّ[٦]: الذي عندي أن ذلك لا يصلح؛

(١) في (ز) و(م): فحمل.

(٢) في الكشاف: والذين.

(٣) في (م): الدهماء.

(٤) الكافي ١/٤٨٦، وما بين حاصرتين منه.

(٥) وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧١٠ والكلام منه: فلم يجز كما لو كانوا بغاة. وجاء في نسخة منه موافقاً لما ذكره المصنف.

(٦) في أحكام القرآن ٤/١٧١٠.

لأن الفتنة لمَّا انجلت كان الإمام هو الباغي، ولم يكن هناك مَن يعترضه. والله أعلم.

العاشرة: لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأٌ مقطوعٌ به، إذ كانوا كلُّهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا اللهَ عزَّ وجل، وهم كلُّهم لنا أئمةٌ، وقد تعبَّدَنا بالكفِّ عما شجر بينهم، وألا نذكرَهم إلَّا بأحسن الذِّكر؛ لحرمة الصحبة، ولنهي النبيِّ ﷺ عن سَبِّهم[١]، وأن الله غفر لهم، وأخبرنا بالرضا عنهم. هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفةٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّ طلحةَ شهيدٌ يمشي على وجه الأرض[٢]، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً، لم يكن بالقتل فيه شهيداً. وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأً في التأويل وتقصيراً في الواجب عليه؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتلٍ في طاعة، فوجب حملُ أمرهم على ما بيَّنَّاه. وممَّا يدلُّ على ذلك ما قد صحَّ وانتشر من إخبار عليٍّ بأنَّ قاتل الزبير في النار. وقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشِّر قاتل ابن صفية بالنار»[٣]. وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحةَ والزبيرَ غيرُ عاصيين ولا آثمين بالقتال؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يقل النبيُّ ﷺ في طلحةَ: «شهيد». ولم

---

(١) ورد النهي عن سبهم في أحاديث كثيرة، منها الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً لم يدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» وسلف ٥/ ٢٦١، وص٣٤٨ من هذا الجزء، وينظر في الموضع الثاني الآيات والأحاديث التي ذكرها المصنف والتي تضمنت الثناء عليهم، والوعيد الشديد لمن سبَّهم وقلَّل من شأنهم.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٣٩)، وابن ماجه (١٢٥) من حديث جابر ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الصَّلْت، وقد تكلم بعض أهل العلم في الصلت بن دينار وفي صالح بن موسى من قبل حفظهما.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الفصل للوصل المدرج في النقل ١/ ١٩٠ من طريق زيد بن أخزم عن علي مرفوعاً، وقال: جعل هذا الراوي وأظنه زيد بن أخزم قوله: بشِّر قاتل ابن صفية بالنار، من كلام النبي ﷺ وذلك وهم، إنما هو من قول علي بن أبي طالب، روى ذلك أبو سلمة التبوذكي... وكذلك رواه زائدة بن قدامة وشيبان... اهـ. وأخرجه موقوفاً على علي ﷺ أحمد (٦٨١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٦)، والطبراني في الكبير (٢٤٣). لكن الحافظ ابن حجر ذكر في الفتح ٦/ ٢٢٩ أن علياً رفعه إلى النبي ﷺ كما رواه أحمد وغيره من طريق زر بن حبيش عن علي بإسناد صحيح. اهـ. ولم نقف عليه مرفوعاً عند أحمد.

يخبر أن قاتل الزبير في النار. وكذلك مَن قعد غيرُ مخطِئ في التأويل. بل صوابٌ أراهم الله الاجتهاد. وإذا كان كذلك لم يُوجِب ذلك لعنَهم والبراءةَ منهم وتفسيقَهم، وإبطالَ فضائلهم وجهادهم، وعظيمَ غنائهم في الدِّين، ﷺ.

وقد سُئل بعضُهم عن الدماء التي أُريقت فيما بينهم فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]. وسُئِل بعضهم عنها أيضاً فقال: تلك دماءٌ قد طَهَّر الله منها يدي؛ فلا أخْضِب بها لساني. يعني في التحرز من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيباً فيه.

قال ابن فُورَك: ومن أصحابنا مَن قال: إن سبيل ما جرى بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسفَ مع يوسف، ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدِّ الولاية والنبوَّة؛ فكذلك الأمرُ فيما جرى بين الصحابة.

وقال المحاسبي: فأمَّا الدِّماء فقد أشكل علينا القولُ فيها باختلافهم. وقد سُئِل الحسن البصريُّ عن قتالهم فقال: قتالٌ شهده أصحاب محمد ﷺ وغِبْنا، وعلِموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا. قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلمَ بما دخلوا فيه منا، ونتبعُ ما اجتمعوا عليه، ونقفُ عند ما اختلفوا فيه، ولا نبتدعُ رأياً منا، ونعلمُ أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عزَّ وجلَّ، إذ كانوا غير متَّهمين في الدِّين، ونسأل الله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: في الدِّين والحُرمة لا في النسب؛ ولهذا قيل: أُخوَّةُ الدِّين أثبتُ من أخوَّة النسب، فإن أُخوَّة النسب تنقطعُ بمخالفة الدين، وأُخوَّة الدِّين لا تنقطع بمخالفة النسب. وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا

تَحَسَّسُوا، ولا تناجَشُوا، وكونوا عبادَ الله إخوانًا»[١]. وفي رواية: «لا تَحَاسدوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدَابروا، ولا يبعْ بعضكم على بَيْع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا. المسلِم أخو المسلم؛ لا يَظْلِمه ولا يَخْذُلْه ولا يَحْقِره. التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاثَ مرات «بَحَسْبِ امرئ من الشَّر أن يَحْقِر أخاه المسلم. كلُّ المسلِم على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه» لفظ مسلم[٢].

وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة؛ قال النبيُّ ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يَعِيبه، ولا يَخْذله، ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقُتار قِدْره إلا أن يَغرِف له غَرْفة، ولا يشتري لبنيه الفاكهةَ فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها». ثم قال النبيُّ ﷺ: «احفظوا، ولا يحفظ منكم إلا قليل»[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي: بين كلِّ مسلمَين تخاصما[٤]. وقيل: بين الأوس والخزرج، على ما تقدَّم[٥]. وقال أبو عليٍّ: أراد بالأخَوَيْن الطائفتين؛ لأن لفظ التثنية يَرِد، والمراد به الكثرة؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٦] [المائدة: ٦٤]. وقال أبو عبيدة: أي: أصلحوا بين كلِّ أخَوَين، فهو آتٍ

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٦٦)، وصحيح مسلم واللفظ له (٢٥٦٣): (٣٠)، وهو عند أحمد أيضاً (٧٨٥٨)، وسيرد معنى: ولا تحسسوا، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

(٢) صحيح مسلم (٢٥٦٤): (٣٢)، وهو عند أحمد أيضاً (٧٧٢٧). والنَّجش: هو أن يمدح السلعة لينفقها ويروّجها، أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها ليقع غيره فيها. النهاية (نجش). وسلف قطعة منه ١٤/ ٣٨٩.

(٣) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٦ عن أبي هريرة ﷺ. قال ابن حجر: إسناده ضعيف. اهـ. والقُتار: هو ريح القِدر والشِّواء ونحوهما. النهاية (قتر).

(٤) الوسيط ٤/ ١٥٤.

(٥) في المسألة الأولى من الآية السابقة.

(٦) الحجة لأبي علي ٦/ ٢٠٩، وقال: قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يريد بل نعمتاه، وليس هذه النعم بنعمتين اثنتين، إنما يراد نعم الدنيا ونعم الآخرة.

على الجميع. وقرأ ابن سيرين ونصرُ بن عاصم وأبو العالية والجَحدريُّ ويعقوب: «بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ» بالتاء على الجمع[١]. وقرأ الحسن: «إِخْوَانِكُم»[٢]. الباقون: «أَخَوَيْكُمْ» بالياء على التثنية.

الثالثة: في هذه الآية والتي قبلها دليلٌ على أن البغيَ لا يزيل اسم الإيمان؛ لأن الله تعالى سماهم إخوةً مؤمنين مع كونهم باغين. قال الحارث الأعور: سُئِل عليُّ بن أبي طالب ﷺ ـ وهو القدوة ـ عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصِفِّين: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشِّرك فرُّوا. فقيل له[٣]: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل له: فما حالهم؟ قال: إخوانُنا بَغَوْا علينا[٤].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ **فيه أربعُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ قيل: عند الله. وقيل: «خَيْرًا مِنْهُمْ» أي: معتقَدًا وأسلمَ باطناً[٥]. والسُّخْرِية: الاستهزاء. سَخِرت منه أسْخَر سَخَرًا؛ بالتحريك، ومَسْخَرًا وسُخْرًا؛ بالضم. وحكى أبو زيد: سَخِرت به[٦]، وهو أردأ اللغتين. وقال الأخفش: سَخِرْتُ منه وسَخِرت به،

(١) قراءة يعقوب – وهو من العشرة – في النشر ٢/ ٣٧٦، وذكرها عن أبي العالية ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٦٤.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٨، وهي قراءة شاذة.

(٣) لفظة: له، ليست في (م).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢١٣، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٥/ ٢٥٦، والبيهقي ٨/ ١٧٣ عن أبي البَخْتري.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٣٢.

(٦) بعدها في (ظ): وضحكت به وهزئت به.

وضَحِكت منه وضَحكت به، وهَزِئت منه وهزِئت به، كلٌّ ذلك يقال[١]. والاسم السُّخْرِية والسُّخْريّ والسِّخريّ[٢]؛ وقُرِئ بهما قوله تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وقد تقدَّم[٣]. وفلان سُخْرَةٌ: يُتَسَخَّر في العمل. يقال: خادمٌ سُخْرة، ورجل سُخْرةٌ أيضًا: يُسخر منه. وسُخَرة ـ بفتح الخاء ـ يَسْخَر من الناس.

الثانية: واختلف في سبب نزولها، فقال ابن عباس: نزلت في ثابت بنِ قيس بن شماس كان في أذنه وَقْر، فإذا سبقوه إلى مجلس النبيِّ ﷺ، أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعةٌ مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا انصرف النبيُّ ﷺ أخذ أصحابه مجالسَهم منه؛ فَرَبَض كلُّ رجل منهم بمجلسه[٤]، وعَضُّوا فيه[٥]، فلا يكاد يوسِّع أحد لأحد حتى يَظَلَّ الرجل لا يجد مجلسًا فيظل قائمًا. فلمَّا انصرف ثابت من الصلاة، تخطَّى رقاب الناس ويقول: تفسَّحوا تفسَّحوا، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيِّ ﷺ وبينه وبينه رجلٌ فقال له: تفسَّح. فقال له الرجل: قد وجدتَ مجلساً فاجلس. فجلس ثابت من خلفه مُغْضَبًا، ثم قال: مَن هذا؟ قال: فلان، فقال ثابت: ابن فلانة! يعيِّره بها، يعني أُمًّا له في الجاهلية، فاستحيا الرجل، فنزلت[٦].

وقال الضحَّاك: نزلت في وفد بني تميم الذي تقدم ذكرهم في أوّل السورة[٧] استهزؤوا بفقراء الصحابة، مثل عمَّار وخبَّاب وابن فُهيرة وبلال وصُهيب وسلمان

---

(١) لفظة: ذلك، من (ظ) والصحاح (سخر)، وما سيرد منه.

(٢) في (ظ) و(م): والاسم السخرية، والسخري.

(٣) ص٣٧ من هذا الجزء.

(٤) أي: لصق به وأقام ملازماً له. ينظر اللسان (ربض).

(٥) أي: لزم كل منهم مجلسه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢١٤، وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٤١٥ مختصراً دون نسبة. قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشافي تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: ذكره الثعلبي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند.

(٧) في المسألة الأولى من كل من الآيتين الأولى والثانية.

وسالم مَوْلى أبي حُذيفة وغيرِهم؛ لِمَا رأَوا من رَثاثة حالهم؛ فنزلت في الذين آمنوا منهم[١]. وقال مجاهد: هو سُخرية الغنيِّ من الفقير[٢]. وقال ابن زيد: لا يسخر مَن ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعلَّ إظهارَ ذنوبه في الدنيا خيرٌ له في الآخرة[٣]. وقيل: نزلت في عكرمةَ بن أبي جهل حين قدِم المدينة مسلماً، وكان المسلمون إذا رأَوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة. فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت[٤].

وبالجملة؛ فينبغي ألا يَجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رَثَّ الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لَبِق في محادثته، فلعله أخلصُ ضميراً وأنقى[٥] قلباً ممن هو على ضدِّ صفته؛ فيظلمَ نفسه بتحقير من وقَّره الله، والاستهزاءِ بمن عظَّمه الله. ولقد بلغ بالسَّلف إفراط توقِّيهم وتصوُّنهم من ذلك أن قال عمرو بن شُرَحْبِيل: لو رأيتُ رجلاً يُرضع عنزاً، فضحكتُ منه، لخشيتُ أن أصنع مثل الذي صنع[٦].

وعن عبد الله بن مسعود: البلاء مُوَكَّل بالقول؛ لو سخرتُ من كلب، لخشيتُ أن أُحوَّل كلباً[٧].

و«قوم» في اللغة للمذكَّرين خاصة. قال زهير:

وما أدري وسوف إخالُ أدري ... أقومٌ آلُ حِصن أم نساءُ[٨]

وسُمُّوا قومًا لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد، وقيل: إنه جمع قائم، ثم

---

(١) يعني من بني تميم، والكلام في تفسير البغوي ٤/ ٢١٤.

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٦ - ٦٠٧ بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٦٥ بنحوه.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٤٩.

(٥) في الكشاف ٣/ ٥٦٥ - ٥٦٦ والكلام منه: أتقى.

(٦) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: لم أره عنه، وفي ابن أبي شيبة [٨/ ٥٧٧] عن أبي موسى من قوله نحوه.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٥٧٨.

(٨) ديوان زهير ص١٣٦، وسلف ٢/ ١٠٩.

استُعمِل في كلِّ جماعة وإن لم يكونوا قائمين. وقد يدخل في القوم النساء مجازًا، وقد مضى في «البقرة» بيانه[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أفرد النساء بالذكر؛ لأن السُّخرية منهنَّ أكثرُ. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١] فشمل الجميع.

قال المفسرون: نزلت في امرأتين من أزواج النبيِّ ﷺ سَخِرتا من أمِّ سلمةَ، وذلك أنها ربطت خَصْرَيْها بسَبِيبَة ـ وهو ثوبٌ أبيضُ، ومثلُها السِّبُّ[٢] ـ وسدلت طرفيها خلفها، فكانت تجرُّها، فقالت عائشة لحفصةَ رضي الله عنهما: انظري [إلى] ما تجرُّ خلفها؛ كأنه لسان كلب، فهذه كان سخريتهما[٣].

وقال أنس وابن زيد: نزلت في نساء النبيِّ ﷺ، عَيَّرن أمَّ سلمةَ بالقِصَر[٤]. وقيل: نزلت في عائشةَ، أشارت بيدها إلى أم سَلمة، يا نبيَّ الله، إنها لقصيرة[٥].

وقال عكرمة عن ابن عباس: إن صفيةَ بنتَ حُيَيٍّ بن أخْطب أتت رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء يُعَيِّرْنَني، ويقلن[٦]: يا يهوديةُ بنتَ يهوديَّين! فقال رسول الله ﷺ: «هَلَّا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد»[٧]. فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) ٢/١٠٨ - ١٠٩.

(٢) وقع في هامش (ق): السِّبّ: الخمار والعمامة، وقد تقدم.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤١٦، وما بين حاصرتين منه.

(٤) أورده عن أنس الواحدي في أسباب النزول ص٤١٦، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢١٤، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٦.

(٥) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦٤، وزاد المسير ٧/ ٤٦٦.

(٦) بعدها في (م): لي.

(٧) أسباب النزول ص٤١٦، والكشاف ٣/ ٥٦٦، قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: ذكره الثعلبي عن عكرمة عن ابن عباس بغير إسناد. اهـ. وأخرجه الترمذي (٣٨٩٢) عن صفية بنت حيي بنحوه، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي، وليس إسناده بذاك القوي.

الرابعة: في صحيح الترمذي عن عائشةَ قالت: حَكَيت للنبيِّ ﷺ رجلاً، فقال: «ما يسرُّني أني حَكَيت رجلاً وأنَّ لي كذا وكذا». قالت فقلت: يا رسول الله، إنَّ صفية امرأة؛ وقالت بيدها هكذا، يعني أنها قصيرة. فقال: «لقد مزجتِ بكلمةٍ[1] لو مُزِج بها البحر لمُزِج»[2].

وفي البخاريِّ[3] عن عبد الله بن زَمْعة قال: نهى النبيُّ ﷺ أن يضحك الرجل ممَّا يخرج من الأنفس. وقال: «لِمَ يضربُ أحدكم امرأته ضَرْبَ الفَحْل، ثم لعله يعانقها».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم»[4]. وهذا حديث عظيمٌ يترتب عليه ألَّا يقطع بمغيب[5] أحد لِمَا يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعلَّ مَن يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وَصْفًا مذموماً لا تصحُّ معه تلك الأعمال، ولعلَّ مَن رأينا عليه تفريطاً أو معصيةً يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه. فالأعمالُ أماراتٌ ظنيةٌ، لا أدلةٌ قطعية. ويترتَّبُ عليها عدمُ الغُلُوِّ في تعظيم مَن رأينا عليه أفعالاً صالحة، وعدمُ الاحتقار لمسلمٍ رأينا عليه أفعالاً سيئة. بل تُحتقر وتُذمُّ تلك الحالةُ السيئة، لا تلك الذاتُ المسيئة. فتدبَّر هذا، فإنه نظرٌ دقيق، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ **فيه ثلاث مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ اللَّمْزُ: العَيْب، وقد مضى في

(١) في (ظ): لقد قلت كلمة.

(٢) سنن الترمذي (٢٥٠٢) وهو عند أحمد (٢٥٥٦٠)، وأبي داود (٤٨٧٥)، وقوله: وقالت بيدها، أي: أشارت بها. وقوله: لقد مزجت بكلمة، أي: مزجت أعمالك بكلمة. تحفة الأحوذي ٧/ ٢٠٩.

(٣) برقم (٦٠٤٢).

(٤) صحيح مسلم (٢٥٦٤): (٣٤)، وهو عند أحمد (٧٨٢٧).

(٥) في (خ) و(م): بعيب، وفي (ظ) و(ق): بمعيب، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٣٩ والكلام منه.

«براءة»[١] عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [آية:٥٨]. وقال الطبري: اللَّمْزُ باليد والعين واللِّسان والإشارة. والهَمْزُ لا يكون إلا باللِّسان.

وهذه الآية مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه بقتل أخيه قاتلٌ نفسَه. وكقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١] يعني يسلِّم بعضكم على بعض[٢]. والمعنى: لا يَعِبْ بعضكم بعضًا.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير: لا يطعُن بعضكم على بعض[٣]. وقال الضحاك: لا يَلْعَن بعضكم بعضًا[٤]. وقُرِئ: «ولا تَلْمُزُوا» بالضم[٥].

وفي قوله: «أَنْفسَكُم» تنبيهٌ على أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيرَه لأنه كنفسه؛ قال ﷺ: «المؤمنون كجسد[٦] واحد، إن اشتكى عضو منه، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى»[٧].

وقال بكر بن عبد الله المُزَني: إذا أردت أن تنظر العيوب جَمَّةً فتأمل عَيَّابًا؛ فإنه إنما يَعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. وقال ﷺ: «يُبصِر أحدكم القَذاة في عين أخيه ويدع الجِذْع في عينه»[٨]. وقيل: مِن سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن

(١) ١٠/ ٢٤٣.
(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٨٣.
(٣) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة الطبري ٢١/ ٣٦٧.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٣٢.
(٥) قرأ بها يعقوب - وهو من العشرة - كما في النشر ٢/ ٢٧٩ - ٢٨٠.
(٦) في (ظ) و(ف) و(ق): كرجل.
(٧) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير، وسلف ١٠/ ٣٣٣.
(٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٢)، وابن حبان (٥٧٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ، والقَذاة: ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تِبن أو وسخ أو غير ذلك. وهذا الحديث ضربه النبي ﷺ مثلاً لمن يرى الصغير من عيوب الناس ويعيِّرهم به، وفيه من العيوب ما نسبته إليه كنسبة الجِذْع إلى القَذاة. النهاية (جذع).

عيوب غيره، قال الشاعر:

المرءُ إن كان عاقلاً ورِعًا أشغله عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيمُ المريضُ يَشغلهُ عن وجع الناس كلِّهم وَجَعُهْ[(١)]

وقال آخر:

لا تكشفنَّ مساوي الناس ما ستروا فيهتكَ اللهُ سترًا عن[(٢)] مساويكا
واذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكروا ولا تَعِب أحداً منهم بما فيكا[(٣)]

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ النَّبَزُ ـ بالتحريك ـ اللَّقب، والجمع الأنباز. والنَّبْزُ ـ بالتسكين ـ المصدر، تقول: نَبَزَه يَنْبِزُهُ نَبْزًا، أي: لَقبَّه. وفلان يُنَبِّز بالصبيان، أي: يلقِّبهم، شُدِّد للكثرة. ويقال: النَّبَزُ والنَّزَب لَقَبُ السوء. وتنابزوا بالألقاب، أي: لَقَّب بعضُهم بعضاً[(٤)].

وفي الترمذيِّ عن أبي جَبيرة بن الضحَّاك قال: كان الرجل منا يكون له الاسمين[(٥)] والثلاثة، فيُدعَى ببعضها، فعسى أن يَكره، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. قال: هذا حديث حسن. وأبو جَبيرة هذا هو أخو ثابت بنِ الضحاك بن

---

(١) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٦٢ ضمن أربعة أبيات، ونسبهما لبشر بن الحارث، وجاء فيه الشطر الأول من البيت الأول: وكل من كان مسلماً ورعاً. وفيه أيضاً: عيوبهم، بدل: عيوبه.

(٢) في (ظ): من.

(٣) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ٣/ ٢٥٦ ونسبهما لمحمود الوراق. وأوردهما دون نسبة ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ١٨، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/ ٣٣٥، والماوردي في أدب الدنيا والدين ص٢٤٢، ووقع في بهجة المجالس وعيون الأخبار وأدب الدنيا والدين: لا تلتمس من، بدل: لا تكشفن. وفي العقد الفريد: لا تهتكن، بدل: لا تكشفن.

(٤) الصحاح (نبز) دون قوله: ويقال: النبز والنزب لقب السوء، وقد ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٦.

(٥) كذا في النسخ، وفي نسخة المباركفوري ٩/ ١٥٣: الاسمان.

خليفة الأنصاري. وأبو زيد سعيد بنُ الربيع صاحبُ الهَرَوي ثقة[١].

وفي مصنَّف أبي داود عنه قال: فينا نزلت هذه الآية، في بني سلمةَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ قال: قَدِمَ رسول الله ﷺ وليس منا رجلٌ إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا فلان، فيقولون: مَهْ يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[٢]. فهذا قول.

وقولٌ ثانٍ: قال الحسن ومجاهد: كان الرجل يُعَيَّر بعد إسلامه بكفره: يا يهوديُّ، يا نصرانيُّ، فنزلت[٣]. ورُوِيَ عن قَتادةَ وأبي العالية وعكرمة.

وقال قتادة: هو قول الرجل للرجل: يا فاسقُ، يا منافق. وقاله مجاهد[٤] والحسن أيضاً.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بئس أن يُسَمَّى الرجلُ كافرًا أو زانياً بعد إسلامه وتوبته. قاله ابن زيد[٥]. وقيل: المعنى أن مَن لَقَّب أخاه أو سخِر منه، فهو فاسق. وفي الصحيح: «من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدُهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»[٦]. فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهَمْز والنَّبز، فذلك فُسوق وذلك لا يجوز.

وقد رُوِيَ أن أبا ذرٍّ ﷺ كان عند النبيِّ ﷺ، فنازعه رجل، فقال له أبو ذَرٍّ: يا ابن اليهودية! فقال النبيُّ ﷺ: «ما ترى ها هنا من[٧] أحمرَ وأسودَ، ما أنت بأفضلَ منه».

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٨)، ووقع في مطبوعه: هذا حديث حسن صحيح، بزيادة: صحيح، ولم يذكر هذه الزيادة المزي في التحفة ٩/ ١٣٨. وأبو جَبيرة صحابي ذكره ابن حجر في الإصابة ١١/ ٥٩ في القسم الأول، وقال: قيل: ليس له صحبة.

(٢) سنن أبي داود (٤٩٦٢)، وهو عند أحمد (٨٢٨٨)، وسنن ابن ماجه (٣٧٤١).

(٣) أخرجه عن الحسن الطبري ٢١/ ٣٧١ بنحوه.

(٤) أخرجه عن قتادة ومجاهد الطبري ٢١/ ٣٧٠ بنحوه.

(٥) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣٣٣، وزاد المسير ٧/ ٤٦٨.

(٦) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠)، وأحمد (٥٠٣٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) لفظة: من، ليست في (م).

يعني بالتقوى، ونزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[١].

وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب، فنهى الله أن يُعَيَّر بما سلف[٢]. يدلُّ عليه ما رُويَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن عَيَّر مؤمنًا بذنب تاب منه، كان حقًّا على الله أن يَبْتَلِيَهُ به ويَفْضَحَه فيه في الدنيا والآخرة»[٣].

الثالثة: وقع من ذلك مستثنًى مَن غلب عليه الاستعمال، كالأعرج والأحدب، ولم يكن له فيه كسب، يَجِد في نفسه منه عليه، فجوَّزته الأمة، واتفق على قوله أهل المِلَّة[٤]. قال ابن العربيّ[٥]: وقد ورد ـ لَعَمْرُ الله ـ من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه [كقولهم] في صالح: جَزَرة؛ لأنه صَحَّف «خرزة»[٦] فلُقِّب بها[٧]. وكذلك قولُهم في محمد بن سليمان الحضرمي: مُطَيَّن؛ لأنه وقع في طين، ونحو ذلك ممَّا غلب على المتأخرين، ولا أُراه سائغًا في الدِّين. وقد كان موسى بن عليّ بن رَباح المصريُّ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١١، وأخرجه أحمد (٢١٤٠٧) عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى». وأورد الغزالي في الإحياء ٣/ ١٧٥ أن أبا ذر قال لرجل: يا ابن الحمراء ـ في خصومة بينهما ـ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل». قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار: أخرجه ابن أبي الدنيا في العفو وذم الغضب بإسناد صحيح.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢١٥، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٧١.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٠٥) عن معاذ بن جبل مرفوعاً بلفظ: من عيَّر أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمله. قال أحمد بن منيع (هو شيخ الترمذي): من ذنب قد تاب منه. قال الترمذي: هذا حديث غريب وليس إسناده بمتصل، وخالد بن معدان لم يدرك معاذ بن جبل ﷺ. اهـ. قال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٧٥: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ والمتهم به محمد بن الحسن. قال أحمد بن حنبل: ما أراه يساوي شيئاً، وقال يحيى: كان كذاباً، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال الدارقطني: لا شيء.

(٤) في (ظ) و(ف) و(ق): اللغة، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١١ والكلام منه.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٧١١ - ١٧١٢ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في أحكام القرآن: زجره، بدل: خرزة، وهو تحريف.

(٧) تاريخ بغداد ٩/ ٣٢٢ - ٣٢٣.

يقول: لا أجعل أحدًا صغَّر اسم أبي [في حِلٍّ][(١)]، وكان الغالبُ على اسمه التصغير بضم العين. والذي يضبط هذا كلَّه: أنَّ كلَّ ما يكرهه الإنسان إذا نُودي به، فلا يجوز لأجل الأذِيَّة. والله أعلم.

قلت: وعلى هذا المعنى ترجم البخاريُّ رحمه الله في كتاب الأدب من الجامع الصحيح في «باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم: الطويل والقصير لا يُراد به شَيْن الرجل» قال: وقال النبيُّ ﷺ: «ما يقول ذو اليَدَيْن»[(٢)].

قال أبو عبد الله بن خُوَيْزِمَنْدَاد: تضمنت الآية المنعَ من تلقيب الإنسان بما يكره، ويجوزُ تلقيبه بما يحب، ألا ترى أن النبيَّ ﷺ لَقَّب عمرَ بالفاروق، وأبا بكر بالصدِّيق، وعثمانَ بذي النُّورين، وخُزيمةَ بذي الشهادتين، وأبا هريرةَ بذي الشِّمالين وبذي اليدين[(٣)]، في أشباه ذلك.

الزَّمخشريُّ[(٤)]: رُوي عن النبيِّ ﷺ: «من حق المؤمن على المؤمن أن يُسَمِّيَه بأحبِّ أسمائه إليه»[(٥)]. ولهذا كانت التَّكْنِيَةُ من السُّنة والأدب الحسن، قال عمر ﷺ:

---

(١) أخرج قوله الترمذي إثر حديث (٧٧٣) وقال: وأهل العراق يقولون: موسى بن عُلَيٍّ بن رباح - بالتصغير كما في تحفة الأحوذي ٣/ ٤٨٤ - وأهل مصر يقولون: موسى بن عَلي.

(٢) علقه البخاري قبل حديث (٦٠٥١) وجاء فيه قوله: وما لا يراد به شين الرجل، بعد قوله: ما يقول ذو اليدين. ووصله أحمد (٧٢٠١)، والبخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣): (٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وذو اليدين صحابي اسمه: خِرباق، وقيل: عمير، والأول هو الصواب كما في نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر ١/ ٣١٣. وذكره أيضاً في الإصابة ٣/ ٢٢٢ قال: يقال هو الخِرباق، وفرق بينهما ابن حبان.

(٣) كذا في النسخ، ولعل هذا في الكلام سقطاً، وذكر ابن حجر في نزهة الألباب ١/ ٢٩٦ أن ذا الشِّمالين هو عمير بن عبد عمرو، صحابي استشهد ببدر، وهو غير ذي اليدين.

(٤) في الكشاف ٣/ ٥٦٦.

(٥) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: لم أجده هكذا، وروى البيهقي في الشعب في الحادي والستين [٨٧٧٢] عن عثمان بن طلحة رفعه: «ثلاث مصفين لك ودَّ أخيك... وتدعوه بأحب أسمائه إليه» وفيه موسى بن عبد الملك بن عمير وهو ضعيف. وروى أبو يعلى والطبراني (٣٤٩٩) عن حنظلة بن جذيم قال: كان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدعى الرجل بأحب الأسماء إليه.

أشيعوا الكُنَى فإنها منبّهة[١]. ولقد لُقِّب أبو بكر بالعتيق والصدِّيق، وعمرُ بالفاروق، وحمزةُ بأسد الله، وخالدُ بسيف الله. وَقلَّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام مَن ليس له لَقَب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلِّها ـ من العرب والعجم ـ تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير.

وقال الماورديُّ[٢]: فأمَّا مستحَبُّ الألقاب ومستحسَنُها فلا يُكره. وقد وَصَف رسول الله ﷺ عددًا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجلِّ الألقاب.

قلت: فأمَّا ما يكون ظاهرُها الكراهةَ، إذا أُريد بها الصفةُ لا العيبُ؛ فذلك كثير. وقد سُئِل عبد الله بنُ المبارك عن الرجل يقول: حُميدٌ الطويل، وسليمان الأعمش، وحُميدٌ الأعرج، ومروان الأصفر[٣]، فقال: إذا أردت صفته ولم تُرِد عيبه، فلا بأس به[٤]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال: رأيت الأصلع ـ يعني عمر ـ يقبِّل الحجر. في رواية: الأُصَيْلِع[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أي عن هذه الألقاب الذي يتأذى بها السامعون. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فيه عشر مسائل:

---

(١) في (ظ): فإنها سنة.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٣٣.

(٣) في (ف) و(م): الأصغر. وهو خطأ. ومروان الأصفر: هو أبو خَلَف البصري، من رجال التهذيب.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٩٧)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٢٧٣).

(٥) صحيح مسلم (١٢٧٠): (٢٥٠)، وهو عند أحمد (٢٢٩).

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ قيل: إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبيِّ ﷺ اغتابا رفيقهما. وذلك أن النبيَّ ﷺ كان إذا سافر ضمَّ الرجلَ المحتاج إلى الرجلين المُوسِرَيْن فيخدمُهما. فضمَّ سلمان إلى رجلين، فتقدَّم سلمان إلى المنزل، فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئاً، فجاءا فلم يجدا طعاماً وإدامًا، فقالا له: انطلق فاطلب لنا من النبيِّ ﷺ طعامًا وإدامًا، فذهب فقال له النبيُّ ﷺ: «اذهب إلى أسامةَ بنِ زيد فقل له: إن كان عندك فضلٌ من طعام فليعطك» وكان أسامةُ خازنَ النبيِّ ﷺ، فذهب إليه، فقال أسامة: ما عندي شيء، فرجع إليهما فأخبرهما، فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل. ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة، فلم يجد عندهم شيئًا، فقالا: لو بعثنا سلمانَ إلى بئر سُمَيحة[(١)]، لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسَّسان؛ هل عند أسامةَ شيءٌ، فرآهما النبيُّ ﷺ فقال: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما» فقالا: يا نبيَّ الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحمًا ولا غيرَه. فقال: «ولكنكما ظَلتما تأكلان لحم سلمانَ وأسامة». فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾[(٢)] ذكره الثعلبيّ. أي: لا تظنوا بأهل الخير سوءًا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير.

الثانية: ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال: «إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تَناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا» لفظ البخاري[(٣)]. قال علماؤنا: فالظنُّ هنا وفي الآية هو التُّهمة. ومحلُّ التحذيرِ والنهي إنما هو تُهْمَةٌ لا سبب لها

---

(١) هي بئر بالمدينة غزيرة. القاموس (سمح).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢١٥، وأورده الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٩ مختصراً عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٨: هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راو، وفي الترغيب لأبي القاسم الأصبهاني من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى نحوه.

(٣) برقم (٦٠٦٦)، وهو عند مسلم (٢٥٦٣): (٢٨) وسلف في المسألة الأولى من الآية العاشرة.

يوجبها، كمن يُتَّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليلُ كون الظنِّ هنا بمعنى التُّهمة قولُه بعد هذا[١]: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾. وذلك أنه قد يقع له خاطرُ التهمة ابتداءً، فيريد أن يتجسَّس خبر ذلك ويبحثَ عنه، ويتبصَّر ويتسمَّع ليحقِّق[٢] ما وقع له من تلك التُّهمة. فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك.

وإن شئت قلت: والذي يُميِّز الظنون التي يجب اجتنابُها عمَّا سواها: أنَّ كلَّ ما لم تُعرَف له أَمارةٌ صحيحة وسببٌ ظاهر كان حراماً واجبَ الاجتناب. وذلك إذا كان المظنونُ به ممن شُوهد منه السترُ والصلاح، وأُونِسَت منه الأمانة في الظاهر، فظنُّ الفساد به والخيانةِ محرَّمٌ؛ بخلاف مَن اشتهره الناس[٣] بتعاطي الرِّيَب، والمجاهرة بالخبائث.

وعن النبيِّ ﷺ: «إن الله حَرَّم من المسلم دَمَه وعِرْضَه، وأن يَظُنَّ به ظنَّ السُّوء»[٤]. وعن الحسن: كنا في زمنِ الظنُّ بالناس فيه حرام، وأنتَ اليوم في زمن اعمل واسكُتْ وظُنَّ في الناس ما شئت.

الثالثة: للظنِّ حالتان: حالةٌ تُعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة، فيجوز الحكم بها، وأكثرُ أحكام الشريعة مبنيةٌ على غلبة الظن، كالقياس وخبر الواحد، وغير ذلك من قِيَم المتلَفات وأروشِ الجنايات.

---

(١) في (م): قوله تعالى، بدل: قوله بعد هذا.

(٢) في (ظ): لتحقق، وفي (م): لتحقيق، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٣٤ والكلام منه.

(٣) في الكشاف ٣/ ٥٦٧ (والكلام منه): اشتهر بين الناس.

(٤) قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٧: أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر بإسناد فيه لين، ولفظه: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ... «والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك: ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً». وروى ابن أبي شيبة عن ابن عباس أن النبي ﷺ نظر إلى الكعبة، فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمسلم أعظم حرمة منك، حرم الله دمه وماله وعرضه، وأن يظن به ظن السوء» اهـ. وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» وسلف في المسألة الأولى من الآية العاشرة.

والحالة الثانية: أن يقع في النفس شيءٌ من غير دلالة، فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشكّ، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهيُّ عنه على ما قررناه آنفاً.

وقد أنكرت جماعة من المبتدِعة تعبُّدَ اللهِ بالظنّ، وجوازَ العمل به؛ تحكُّماً في الدِّين ودعوى في المعقول[1]. وليس في ذلك أصلٌ يُعوَّل عليه، فإن الباريَ تعالى لم يذمَّ جميعه، وإنما ورد[2] الذمُّ في بعضه. وربما تعلقوا بحديث أبي هريرة: «إياكم والظنَّ» وهذا لا حجة فيه؛ لأن الظنَّ في الشريعة قسمان: محمودٌ، ومذموم، فالمحمود منه ما سَلِم معه دينُ الظانِّ والمظنونِ به عند بلوغه. والمذمومُ ضدُّه؛ بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وقوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢]، وقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح:١٢] وقال النبيُّ ﷺ: «إذا كان أحدكم مادحًا أخاه [لا محالة] فليقل: أحسب كذا، ولا أُزكِّي على الله أحدًا»[3]. وقال: «إذا ظننت فلا تُحقِّق، وإذا حسدتَ فلا تَبْغ، وإذا تطيّرت فامض» خرَّجه أبو داود[4].

وأكثرُ العلماء على أن الظنَّ القبيح بمن ظاهرُه الخير لا يجوز، وأنه لا حَرَج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح، قاله المهدويّ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن باختلاف وغيرهما:

---

(١) وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٢ والكلام منه: تحكم في الدين ودعوى في العقول.

(٢) في (م): أورد.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٤٢٢)، والبخاري (٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠) عن أبي بكرة ﷺ، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي، وما بين حاصرتين منه.

(٤) لم نقف عليه عند أبي داود، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٦٢)، والطبراني في الكبير (٣٢٢٧)، وأبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (١٥٢) و(٢٣٧) من حديث حارثة بن النعمان ﷺ. ووقع فيها: وإذا حسدت فاستغفر، بدل: وإذا حسدت فلا تبغ. وفي الإسناد إسماعيل بن قيس الأنصاري، قال البخاري والدارقطني: منكر الحديث، وقال النسائي: ضعيف، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه منكر. ميزان الاعتدال ١/ ٢٤٥.

«وَلَا تَحَسَّسُوا» بالحاء[١]. واختلِف هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فقال الأخفش: ليس تبعد إحداهما من الأخرى؛ لأن التجسُّس: البحثُ عما يكتم عنك. والتحسُّس ـ بالحاء ـ: طلبُ الأخبار والبحثُ عنها[٢]. وقيل: إن التجسُّس ـ بالجيم ـ: هو البحث؛ ومنه قيل: رجلٌ جاسوس: إذا كان يبحث عن الأمور. وبالحاء: هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسِّه. وقولٌ ثانٍ في الفرق: أنه بالحاء يطلبه[٣] لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره. قاله ثعلب. والأوّل أعرف[٤]. جَسَستُ الأخبار وتجسَّستها، أي: تفحَّصت عنها، ومنه الجاسوس[٥].

ومعنى الآية: خذوا ما ظهر، ولا تتَّبعوا عوراتِ المسلمين، أي: لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطَّلع عليه بعد أن ستره الله.

وفي كتاب أبي داود[٦] عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس؛ أفسدتهم، أو كِدْتَ أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء: كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها.

وعن المِقدام بن مَعْدي كَرِب عن أبي أُمامة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الرِّيبة في الناس أفسدهم»[٧].

وعن زيد بن وَهْب قال: أُتيَ ابنُ مسعود فقيل: هذا فلانٌ تقطر لحيته خمراً. فقال

(١) قراءة الحسن في القراءات الشاذة ص١٤٣، وقراءة أبي رجاء في المحرر الوجيز ٥/ ١٥١، وزاد المسير ٧/ ٤٧١.

(٢) مجمع البيان ٢٦/ ٩٥.

(٣) في (ق) و(م): تطلَّبه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٣٤، وينظر المفهم ٦/ ٥٣٥.

(٥) الصحاح (جسس).

(٦) برقم (٤٨٨٨).

(٧) أخرجه أبو داود (٤٨٨٩) عن المقدام بن معد يكرب وأبي أمامة كلاهما عن النبي ﷺ. وأخرجه أحمد (١٣٨١٥) عن المقداد بن الأسود وأبي أمامة عن النبي ﷺ.

عبد الله: إنا قد نُهينا عن التجسُّس، ولكن إن يظهر لنا نأخذ به[١].

وعن أبي بَرْزة الأسلميِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تَتَّبِعوا عوراتِهم، فإنه[٢] مَن اتَّبع عوراتِهم يتَّبع الله عورته، ومن يَتَّبع الله عورته يفضحه في بيته»[٣].

وقال عبد الرحمن بن عوف: حَرَست ليلةً مع عمرَ بنِ الخطاب ﷺ بالمدينة إذ تبيَّن لنا سراج في بيت، بابُه مُجافٍ على قوم، لهم أصوات مرتفعة ولَغَط، فقال عمر: هذا بيت ربيعةَ بنِ أميةَ بنِ خلف، وهم الآن شَرْب[٤]، فما ترى؟ قلت: أرى أنَّا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسَّسنا، فانصرف عمر وتركهم[٥].

وقال أبو قِلابة: حُدِّث عمرُ بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثَّقَفيَّ يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجلٌ، فقال أبو مِحْجن: إن هذا لا يحلُّ لك! قد نهاك الله عن التجسُّس، فخرج عمر وتركه[٦].

وقال زيد بن أسلم: خرج عمر وعبد الرحمن يَعُسَّان[٧]، إذ تبيَّنت لهما نارٌ، فاستأذنا، ففُتح الباب، فإذا رجلٌ وامرأةٌ تغني، وعلى يد الرجل قَدَح، فقال عمر: وأنت بهذا يا فلان؟ فقال: وأنت بهذا يا أمير المؤمنين! قال عمر: فَمَن هذه منك؟ قال: امرأتي، قال: فما في هذا القَدَح؟ قال: ماءٌ زلال؛ فقال للمرأة: وما الذي تغنين؟ فقالت:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٩٠).

(٢) في (م): فإن.

(٣) أخرجه أحمد (١٩٧٧٦)، وأبو داود (٤٨٨٠).

(٤) الشَّرْب، بفتح الشين: القوم يشربون. القاموس (شرب).

(٥) أخرجه عبد الرزاق (١٨٩٤٣)، والطبراني في مسند الشاميين (١٨٠٦)، والحاكم ٤/ ٣٧٧، والبيهقي ٨/ ٣٣٣.

(٦) أخرجه عبد الرزاق (١٨٩٤٤).

(٧) أي: يطوفان بالليل. ينظر اللسان (عسس).

تطاول هذا الليل واسْودَّ جانِبُهْ وأرَّقني أن لا خليلَ ألَاعِبُهْ
فوالله لولا اللهُ أني أراقبهْ لزُعْزِع من هذا السرير جوانبهْ
ولكنَّ عقلي والحياء يَكُفُّني وأُكْرِم بَعْلي أن تُنال مَرَاكِبُهْ[1]

ثم قال الرجل: ما بهذا أُمِرنا يا أمير المؤمنين! قال الله تعالى: «وَلَا تَجَسَّسُوا». قال: صَدقت[2].

قلت: لا يُفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غيرَ زوجة الرجل؛ لأن عمر لا يُقِرُّ على الزنى، وإنما غنَّت بتلك الأبيات تذكاراً لزوجها، وأنها قالتها في مَغِيبه عنها. والله أعلم.

وقال عمرو بن دينار: كان رجل من أهل المدينة له أختٌ فاشتكت، فكان يعودها، فماتت فدفنها. فكان هو الذي نزل في قبرها، فسقط من كُمِّه كيسٌ فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله، فنبشوا قبرها، فأخذ الكيس ثم قال: لَأَكشفنَّ حتى أنظرَ ما آل حال أختي إليه، فكشف عنها، فإذا القبرُ مشتعلٌ ناراً، فجاء إلى أمه فقال: أخبريني ما كان عملُ أختي؟ فقالت: قد ماتت أختك، فما سؤالُك عن عملها! فلم يَزَل بها حتى قالت له: كانت من عملها أنها كانت تؤخِّر الصلاة عن مواقيتها، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم، فألقمت أذنها أبوابهم، فتَجَسَّسُ عليهم وتُخرج أسرارهم، فقال: بهذا هَلَكتْ[3]!

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ نهى عزَّ وجلَّ عن الغِيبة، وهي أن تذكر الرجلَ بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه، فهو البهتان. ثبت معناه في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغِيبة»؟ قالوا: الله ورسوله

(١) سلفت هذه الأبيات ٤/ ٣٠ باختلاف يسير عما هنا وفي سياق غير هذا.

(٢) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٢٦/ ٩٢ - ٩٣ ولم ينسبه ولم نقف عليه في مصادر التخريج.

(٣) لم نقف عليه، وفي متنه نظر.

أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قال[١]: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه»[٢].

يقال: اغتابه اغتياباً: إذا وقع فيه، والاسم الغِيبة[٣]، وهي ذكرُ العَيْب بظَهْر الغَيْب. قال الحسن: الغِيبة ثلاثةُ أوجه كلُّها في كتاب الله تعالى: الغِيبة، والإفك، والبهتان. فأمَّا الغِيبة: فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه. وأمَّا الإفك: فأن تقول فيه ما بلغك عنه. وأمَّا البهتان: فأن تقول فيه ما ليس فيه[٤].

وعن شعبة قال: قال لي معاوية ـ يعني ابنَ قُرَّة ـ : لو مَرَّ بك رجل أقطع، فقلت: هذا أقطع؛ كان غِيبة. قال شعبة: فذكرته لأبي إسحاق، فقال: صدق[٥].

وروى أبو هريرة أن الأسلميَّ ماعزًا جاء إلى النبيِّ ﷺ، فشهد على نفسه بالزِّنى، فرجمه رسول الله ﷺ، فسمع نبيُّ الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجِم رَجْمَ الكلب؛ فسكت عنهما. ثم سار ساعة حتى مرَّ بجِيفةِ حمارٍ شائلٍ برجله، فقال: «أين فلان وفلان»؟ فقالا: نحن ذا يا رسول الله، قال: «انزلا فَكُلا من جِيفة هذا الحمار» فقالا: يا نبيَّ الله، ومَن يأكل من هذا! قال: «فما نلتما من عِرْض أخيكما أشدُّ من الأكل منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»[٦].

---

(١) في (م): قيل.

(٢) صحيح مسلم (٢٥٨٩)، وسلف ٧/ ١٢٢.

(٣) الصحاح (غيب).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٧٩، وأبو إسحاق هو الهمداني.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٤٢٨)، وابن حبان (٤٣٩٩) مطولاً، وفيه عبد الرحمن بن الصامت، قال البخاري ـ كما في تهذيب التهذيب ـ: لا يعرف إلا بهذا الحديث. وقال الذهبي في الميزان ٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠: له حديث واحد في شهادة الأسلمي على نفسه بالزنا، تفرد عنه أبو الزبير، وعنه ابن جريج، فلا يُعرف مَن هذا. اهـ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ مَثَّل الله الغِيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحيَّ لا يعلم بِغيبة مَن اغتابه. وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغِيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذَر، وكذا الغيبةُ حرامٌ في الدِّين، وقبيحٌ في النفوس. وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً، كذلك يجب أن يمتنع من غِيبته حيًّا. واستُعمِل أكلُ اللَّحم مكان الغِيبة؛ لأن عادة العرب بذلك جارية. قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفَرتُ لحومَهمْ وإن هَدَمُوا مَجْدي بَنَيْتُ لهم مَجْداً[1]

وقال ﷺ: «ما صام مَن ظلَّ يأكل لحوم الناس»[2]. فشبَّه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم. فمن تنقَّص مسلماً أو ثَلَمَ عِرْضَه، فهو كالآكل لحمَه حيًّا، ومَن اغتابه، فهو كالآكل لحمَه ميتاً.

وفي كتاب أبي داود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا عُرج بي؛ مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يَخْمِشُون وجوههم وصدورهم، فقلت: مَن هؤلاءِ يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[3].

وعن المستورد أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أكل بِرَجُلٍ مسلم أُكْلة، فإن الله يطعمه مِثلَها من جهنم، ومَن كُسي ثوباً بِرَجُلٍ مسلم، فإن الله يكسوه مثلَه من جهنم، ومَن قام[4] بِرَجُلٍ مَقام سُمْعة ورياء، فإن الله يقوم به مَقام سُمْعة ورياء يوم القيامة»[5]. وقد تقدَّم قوله ﷺ: «يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٣٥، وأورده أيضاً ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٧٣٩، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/ ٣٦٨، وابن الأثير في المثل السائر ٢/ ١٧٤ ونسبوه للمُقَنَّع الكِنْدي.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٤ عن أنس بن مالك ﷺ، وفيه يزيد بن أبان؛ وهو ضعيف. والربيع بن صَبيح؛ وهو صدوق سيِّئ الحفظ. كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٣) سنن أبي داود (٤٨٧٨)، وهو عند أحمد (١٣٣٤٠).

(٤) المثبت من (ق)، وهو الموافق للمصادر، وفي غيرها: أقام.

(٥) سنن أبي داود (٤٨٨١)، وهو عند أحمد (١٨٠١١).

المسلمين»[١]. وقولُه للرجلين: «ما لي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما»[٢].

وقال أبو قِلابة الرَّقَّاشي: سمعت أبا عاصم يقول: ما اغتبت أحداً مذ عرفت ما في الغيبة[٣]. وكان ميمون بن سِياه لا يغتاب أحداً، ولا يَدَع أحداً يغتاب أحداً عنده، ينهاه؛ فإن انتهى؛ وإلا قام[٤].

وذكر الثعلبيُّ من حديث أبي هريرة قال: قام رجل من عند النبيِّ ﷺ، فرأوا في قيامه عجزاً فقالوا: يا رسول الله، ما أعجز فلاناً! فقال: «أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه»[٥].

وعن سفيان الثوري قال: أدنى الغِيبة أن تقول: إن فلاناً جَعْدٌ قَطَطٌ[٦]، إلا أنه يكره ذلك. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: إياكم وذِكْرَ الناس، فإنه داء، وعليكم بذكر الله، فإنه شفاء. وسمع عليُّ بن الحسين رضي الله عنهما رجلاً يغتاب آخر، فقال: إياك والغِيبةَ، فإنها إدام كلاب الناس[٧]. وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك، قال: إياه فارحموا. وقال رجل للحسن: بلغني أنك تغتابني! فقال: لم يبلغ قَدْرُك عندي أن أُحكِّمكَ في حسناتي.

السابعة: ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدِّين، ولا تكون في الخِلْقة

---

(١) تقدم في المسألة الرابعة.

(٢) تقدم في المسألة الأولى.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٣٣٦ بنحوه عن أبي عاصم، وهو الضحَّاك بن مَخْلد؛ روى له الجماعة.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (١٧٧)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٠٧، وميمون بن سِيَاه البصري كنيته أبو بحر، من رجال البخاري والنسائي.

(٥) أخرجه أبو يعلى الموصلي (٦١٥١)، والطبري ٢١/ ٣٧٩، والطبراني في الأوسط (٤٦١) وفيه محمد ابن أبي حميد، ويقال له: حماد، وهو ضعيف كما في الميزان ٣/ ٥٣١، والتقريب.

(٦) القطط: القصير الجعد من الشَّعر.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٩٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤١/ ٣٩٩.

والحَسَب. وقالوا: ذلك فعل الله به. وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا: لا تكون الغِيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسَب، والغِيبة في الخَلْق أشدُّ؛ لأن مَن عَيَّب صنعة فإنما عيَّب صانعها.

وهذا كلُّه مردود، أما الأوّل فيردُّه حديث عائشة حين قالت في صفيةَ: إنها امرأة قصيرةٌ، فقال لها النبيُّ ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مُزِج بها البحر لمزجته». خرجه أبو داود. وقال فيه الترمذيُّ: حديث حسن صحيح[١]؛ وما كان في معناه حسب ما تقدم. وإجماع العلماء قديماً على أن ذلك غِيبةٌ إذا أُريد به العيب.

وأمَّا الثاني فمردودٌ أيضاً عند جميع العلماء؛ لأن العلماء مِن أوَّل الدهر من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظمَ من الغيبة في الدِّين؛ لأن عيب الدين أعظمُ العيب، فكلُّ مؤمن يَكره أن يُذكر في دينه أشدَّ ممَّا يكره في بدنه. وكفى ردًّا لمن قال هذا القولَ قولُه عليه الصلاة والسلام: «إذا قلت في أخيك ما يكره، فقد اغتبته...»[٢] الحديث. فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة، فقد ردَّ ما قال النبيُّ ﷺ نصًّا. وكفى بعموم قول النبيِّ ﷺ: «دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»[٣] وذلك عامٌّ للدِّين والدنيا. وقولِ النبيِّ ﷺ: «مَن كانت عنده لأخيه مَظْلِمَة في عِرضه أو ماله، فليتحلَّله منه»[٤]. فعمَّ كلَّ عِرْض؛ فمن خصَّ من ذلك شيئاً دون شيء فقد عارض ما قال النبيُّ ﷺ.

الثامنة: لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن على مَن اغتاب أحداً التوبةَ[٥] إلى الله عزَّ وجلَّ. وهل يَستحلُّ المغتابَ؟ اختلف فيه:

---

(١) سنن أبي داود (٤٨٧٥)، وسنن الترمذي (٢٥٠٢) و(٢٥٠٣)، وسلف في المسألة الرابعة في تفسير الآية قبلها.

(٢) سلف في المسألة الخامسة.

(٣) هو قطعة من حديث عمرو بن الأحوص أخرجه الترمذي (٢١٥٩) وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) سيأتي في المسألة الآتية مطولاً.

(٥) في (م): وأنه من اغتاب أحداً عليه أن يتوب.

فقالت فرقة: ليس عليه استحلالُه، وإنما هي خطيئةٌ بينه وبين ربه. واحتجَّت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه، فليس ذلك بمظْلِمة يستحلُّها منه، وإنما المظلِمةُ ما يكون منه البدل والعِوض في المال والبدن.

وقالت فرقة: هي مَظْلِمة، وكفارتُها الاستغفارُ لصاحبها الذي اغتابه. واحتجَّت بحديث يُروى عن الحسن قال: كفارةُ الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته[١].

وقالت فرقة: هي مَظْلِمةٌ، وعليه الاستحلالُ منها. واحتجَّت بقول النبيِّ ﷺ: «مَن كانت لأخيه عنده مَظْلِمة في عِرض أو مال، فليتحلَّله منه من قبل أن يأتيَ يوم ليس هناك دينارٌ ولا درهم، يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسناتٌ، أُخِذ من سيئات صاحبه، فزيد على سيئاته». خرَّجه البخاريُّ من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانَتْ له مَظْلِمةٌ لأخيه من عِرْضه أو شيءٍ، فليتحلَّلْه منه اليومَ قبلَ ألّا يكون[٢] دينارٌ ولا درهم، إن كان له عملٌ صالح أُخِذَ منه بِقَدْر مَظْلِمَتِه، وإن لم يكن له حسناتٌ، أُخِذَ من سيئات صاحبه، فحُمِلَ عليه»[٣].

وقد تقدّم هذا المعنى في سورة آل عمران[٤] عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران:١٦٩]. وقد رُوي من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها، فلما قامت، قالت امرأة: ما أطولَ ذيلَها! فقالت لها عائشة: لقد اغتبتيها فاستحلِّيها[٥]. فدلَّت الآثار عن النبيِّ ﷺ أنها مَظْلِمة يجب على المغتاب استحلالُها.

---

(١) لم نقف عليه وقد أخرجه الحارث في مسنده (١٠٨٠ - بغية الباحث)، والخطيب البغدادي في تاريخه ٧/ ٣٠٣ من حديث أنس ﷺ. قال المناوي في فيض القدير ٥/ ٧: قال الغزالي: وهذا الحديث يحتج به للحسن في قوله: يكفيك من الغيبة الاستغفار دون الاستحلال.

(٢) بعدها في (م): له.

(٣) صحيح البخاري (٢٤٤٩)، وسلف ٢/ ٧٦.

(٤) ٥/ ٤١٣ - ٤١٤.

(٥) أخرجه أبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (١٩٣)، والبيهقي في الشعب (٦٧٦٨) بنحوه.

وأمَّا قول مَن قال: إنما الغيبة في المال والبدن، فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للمقذوف مَظْلِمةً؛ يأخذه بالحدِّ حتى يقيمه عليه، وذلك ليس في البدن ولا في المال، ففي ذلك دليلٌ على أن الظلم في العِرض والبدن والمال، وقد قال الله تعالى في القاذف: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]. وقد قال رسول الله ﷺ: «مَن بَهَتَ مؤمنًا بما ليس فيه، حبسه الله في طِينة الخَبال»[١]. وذلك كلُّه في غير المال والبدن.

وأمَّا مَن قال: إنها مَظْلِمة، وكفارةُ المَظْلِمة أن يستغفر لصاحبها، فقد ناقض؛ إذ سمَّاها مظلمة، ثم قال: كفارتها أن يستغفر لصاحبها؛ لأن قوله: مَظْلِمة، تُثبِت ظُلامة المظلوم، فإذا ثبتت الظُّلامة لم يُزِلها عن الظالم إلا إحلالُ المظلوم له. وأمَّا قولُ الحسن فليس بحجَّة، وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَن كانت له عند أخيه مَظْلِمةٌ في عِرْضٍ أو مالٍ، فليتحلَّلْها منه».

وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله، ورأى أنه لا يُحلُّ له ما حرَّم الله عليه، منهم سعيدُ بن المسيّب قال: لا أحلِّلُ مَن ظلمني. وقيل لابن سيرين: يا أبا بكر، هذا رجل سألك أن تحلِّله من مَظْلِمةٍ هي لك عنده، فقال: إني لم أحرِّمها عليه فأُحلَّها، إن الله حرّم الغِيبة عليه، وما كنت لأُحلَّ ما حرّم الله عليه أبدًا[٢].

وخبرُ النبيِّ ﷺ يدلُّ على التحليل، وهو الحجة والمبيِّن. والتحليلُ يدلُّ على الرحمة، وهو من وجهِ العفو، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

التاسعة: ليس من هذا الباب غِيبةُ الفاسق المعلِن به المجاهِر، فإن في الخبر:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٤٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢١٩، والبيهقي في الشعب (٦٧٣٦)، والخطيب البغدادي في تاريخه ٨/ ٢٠٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مطولاً وبنحوه. والخَبال: هو عُصارة أهل النار. النهاية (خبل).

(٢) أورده النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢١٥.

«مَن ألقى جِلْباب الحياء، فلا غِيبة له»[١]. وقال ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»[٢]. فالغيبة إذًا في المرء الذي يستر نفسه .

ورُوِيَ عن الحسن أنه قال: ثلاثة ليست لهم حُرْمة: صاحبُ الهوى، والفاسقُ المعلِن، والإمامِ الجائر[٣]. وقال الحسن لمَّا مات الحجَّاج: اللهم أنت أَمتَّه فاقطع عنا سنته ـ وفي رواية: شَيْنه ـ فإنه أتانا أُخَيْفِشَ أُعَيْمِش، يمدُّ بيد قصيرة البَنان، واللهِ ما عَرِق فيها غبارٌ في سبيل الله، يُرَجِّل جُمَّته، ويَخْطِر في مِشْيته، ويَصْعَد المِنبر فَيَهْذِر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يَتَّقي، ولا من الناس يستحي، فوقه الله، وتحته مئةُ ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاةَ أيها الرجل. ثم يقول الحسن: هيهات! حالَ دون ذلك السيفُ والسَّوْط[٤] .

وروى الربيعُ بن صَبيح عن الحسن قال: ليس لأهل البدع غِيبة[٥].

وكذلك قولُك للقاضي تستعينُ به على أخذ حقِّك ممن ظلمك، فتقول: فلانٌ ظلمني، أو: غصبني[٦]، أو: خانني، أو: ضربني، أو: قذفني، أو: أساء إليَّ، ليس بغيبة. وعلماء الأمة على ذلك مجمِعة. وقال النبيُّ ﷺ في ذلك: «لصاحب الحقِّ

---

(١) أخرجه البيهقي ١٠/ ٢١٠ ، والخطيب البغدادي في تاريخه ٨/ ٤٣٨ من حديث أنس ﷺ . قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٥٧ : إسناده ضعيف . وأخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٣٧٧ ، والخطيب البغدادي في تاريخه ٤/ ١٧١ من طريق الربيع بن بدر ، عن أبان، عن أنس ﷺ . قال ابن حجر : وإسناده أضعف من الأول .

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء ١/ ٢٠٢ ، وابن عدي في الكامل ٢/ ٥٩٥ ، والبيهقي ١/ ٢١٠ ، والخطيب البغدادي في تاريخه ٣/ ٢٨٣ من طريق الجارود بن يزيد، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده . قال العقيلي : ليس له من حديث بهز أصل ، ولا من حديث غيره ولا يتابع عليه . وقال البيهقي : وقد سرقه عنه ـ أي عن الجارود بن يزيد ـ جماعة من الضعفاء ، فرووه عن بهز بن حكيم، ولم يصح فيه شيء .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٣٥) ، والبيهقي في الشعب (٩٦٦٩) .

(٤) الكشاف ٣/ ٥٦٦ ، والأخيفش هو تصغير أخفش، وهو من الخَفَش، محركة: صغر العين، وضعف البصر خِلْقة، أو فساد في الجفون بلا وجع. والأُعَيْمش هو تصغير أعمش، وهو من العمش، محركة: ضعف البصر مع سيلان الدمع في أكثر الأوقات. القاموس (خفش) و(عمش).

(٥) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٨٠) ، والبيهقي في الشعب (٩٦٧٥) .

(٦) في (ف) و(م) : غضبني ، وفي (ق) : عطبني ، والمثبت من (ظ) .

مقال»[١]. وقال: «مَطْلُ الغنيِّ ظلم»[٢]. وقال: «لَيُّ الواجد يُحِلُّ عِرْضَه وعقُوبته»[٣].

ومن ذلك الاستفتاء؛ كقول هند للنبيِّ ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فآخذُ من غير علمه؟ فقال النبيُّ ﷺ: «نعم فخذي»[٤]. فذكرته بالشُّحِّ والظلم لها ولولدها، ولم يرها مغتابة؛ لأنه لم يغيِّر عليها، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيا لها. وكذلك إذا كان في ذكره بالسوء فائدة؛ كقوله ﷺ: «أمَّا معاويةُ فصعلوكٌ لا مال له، وأمَّا أبو جهمٍ فلا يضع عصاه عن عاتقه»[٥]. فهذا جائز، وكان مقصودُه ألَّا تغترَّ فاطمة بنتُ قيس بهما. قاله جميعه المحاسبيُّ رحمه الله.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿مَيۡتٗا﴾ وقُرِئ «ميِّتًا»[٦] وهو نصبٌ على الحال من اللَّحم. ويجوز أن يُنصب على الأخ.

ولمَّا قرَّرهم عزَّ وجلَّ بأن أحداً منهم لا يحبُّ أكل جيفة أخيه، عَقَّب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾[٧]. وفيه وجهان:

أحدهما: فكرهتم أكلَ الميتة، فكذلك فاكرهوا الغِيبة، رُوي معناه عن مجاهد.

الثاني: فكرهتم أن يغتابكم الناس، فاكرهوا غِيبة الناس[٨].

---

(١) هو قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٩٣٩٠)، والبخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١): (١٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٣٨)، والبخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٧/ ٢٠١.

(٣) سلف ٣/ ٢٥٦، وهو من حديث الشَّرِيد بن سويد ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلف ٣/ ٢٤٩.

(٥) هو قطعة من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٧٣٢٧)، ومسلم (١٤٨٠): (٣٦). وسلف الشطر الثاني منه ٦/ ٢٨٨.

(٦) قرأ من السبعة بالتشديد نافع. السبعة ص ٦٠٦، والتيسير ص ١٠٦.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٦٨.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٣٥.

وقال الفراء: أي: فقد كرهتموه فلا تفعلوه[١]. وقيل: لفظه خبر، ومعناه أمر، أي: اكرهوه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عطف عليه. وقيل: عطف على قوله: «اجْتَنِبُوا. وَلَا تَجَسَّسُوا». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يعني آدمَ وحواء. ونزلت الآية في أَبي هند، ذكره أبو داود في «المراسيل»: حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا: حدَّثنا بقيَّة بنُ الوليد [حدثني الزُّبيدي] قال: حدثني الزُّهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بَياضَة أن يزوِّجوا أبا هندٍ امرأةً منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: نزوِّج بناتِنا موالينا؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا﴾ الآية. قال الزُّهري: نزلت في أبي هندٍ خاصَّة[٢].

وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شَمَّاس، وقولِه في الرجل الذي لم يتفسَّح له: ابن فلانة، فقال النبيُّ ﷺ: «مَن الذاكر فلانة؟» قال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال النبيُّ ﷺ: «انظر في وجوه القوم» فنظر، فقال: «ما رأيت؟» قال: رأيت أبيضَ وأسود وأحمر، فقال: «فإنك لا تَفْضُلهم إلا بالتقوى». فنزلت في ثابت هذه الآية[٣]. ونزلت

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٣.

(٢) المراسيل (٢٣٠) وما بين حاصرتين منه. وسيرد في آخر المسألة السابعة من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٤١٧، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢١٧ ونسباه لابن عباس رضي الله عنهما، وسلف في الآية (١١) في المسألة الثانية قصة ثابت بن قيس مع هذا الرجل مطولة، لكن دون قول النبي ﷺ.

في الرجل الذي لم يتفسَّح له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: ١١] الآية[١].

قال ابن عباس: لمَّا كان يوم فتح مكة، أمر النبيُّ ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة فأذَّن، فقال عتَّاب بن أَسِيد بنِ أبي العِيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم. قال الحارث بن هشام: ما وجد محمدٌ غير هذا الغراب الأسود مؤذِّنًا. وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيِّره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً، أخاف أن يُخبِرَ به ربُّ السماء، فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عمَّا قالوا: فأقرُّوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى[٢]. أي: الجميعُ من آدم وحوَّاء، إنما الفضل بالتقوى.

وفي الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب بمكة فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة[٣] الجاهلية وتعاظُمَها بآبائها. فالناس رجلان: رجلٌ بَرٌّ تَقيٌّ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌّ هيِّن على الله. والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾». خرَّجه من حديث عبد الله بن جعفر والدِ عليِّ بن المديني وهو ضعيف، ضعَّفه يحيى بن معين وغيره[٤].

وقد خرَّج الطبري في كتاب «آداب النفوس»: وحدَّثني يعقوب بن إبراهيم قال:

---

(١) سيرد في تفسير الآية المذكورة في المسألة الأولى.

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٤١٧، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢١٧ ونسباه لمقاتل.

(٣) في (ظ): غيبة، وفي (ق) و(م): عيبة، وهو خطأ. و«عُبِّيَّة» بضم العين المهملة وكسرها، وكسر الموحدة وفتح التحتية المشددتين، يعني الكبر. النهاية (عبب).

(٤) سنن الترمذي (٣٢٧٠) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار، عن ابن عمر إلا من هذا الوجه. اهـ. وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، و(٣٩٥٦).

حدَّثنا إسماعيل قال: حدَّثنا سعيدٌ الجُرَيري، عن أبي نضرة قال: حدَّثني أو حدَّثنا مَن شهد خُطَب رسول الله ﷺ بمنًى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: «أيها الناس، أَلا إنَّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، أَلَا لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ[1] على عربي، ولا لأسودَ على أحمرَ، ولا لأحمر على أسود؛ إلا بالتقوى، ألا هل بلَّغت؟ قالوا: نعم. قال: ليبلِّغ الشاهدُ الغائب»[2].

وفيه عن أبي مالك[3] الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم[4]، ولا إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلبٌ صالح، تحنَّن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم وأحبُّكم إليه أتقاكم»[5].

ولعليٍّ ﷺ في هذا المعنى وهو مشهورٌ من شعره:

النـاس في[6] جـهـة الـتـمـثـيـل أكْـفـاءُ ... أبـــوهـــمُ آدمُ والأمُّ حـــواءُ

نـفـسٌ كـنـفـسٍ وأرواحٌ مـشـاكـلـةٌ ... وأعـظُـمٌ خُـلـقـتْ فـيـهـم وأعـضـاءُ

فـإن يـكـن لـهُـم مـن أصـلـهـمْ حـسـبٌ ... يـفـاخـرون بـه فـالـطـيـنُ والـمـاءُ

مـا الـفـضـلُ إلا لأهـل الـعـلـم إنـهـمُ ... عـلـى الـهُـدَى لـمـن اسـتَـهْـدى أدِلَّاءُ

وقَـدْرُ كـلِّ امـرئ مـا كـان يـحـسـنُـه ... ولـلـرجـال عـلـى الأفـعـال سـيـمـاءُ

---

(١) في (م): ولا عجمي.

(٢) وأخرجه أحمد (٢٣٤٨٩)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٠٠ من طريق سعيد الجريري به.

(٣) في (م): عن مالك، وهو خطأ.

(٤) بعدها في (م): ولا إلى أنسابكم.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٤٥٦)، وفي مسند الشاميين (١٦٧٨) عن أبي مالك الأشعري، وفي إسناده محمد بن إسماعيل بن عباس عن أبيه. قال أبو حاتم ـ كما في تهذيب التهذيب ـ: لم يسمع من أبيه شيئاً، حملوه على أن يحدث فحدث. وقال ابن حجر في التقريب: عابوا عليه أنه حدث عن أبيه بغير سماع. اهـ وفي صحيح مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وسلف في المسألة الرابعة من تفسير الآية (١١).

(٦) في (م): من.

وضدُّ كلِّ امرئ ما كان يجهله   والجاهلون لأهل العلم أعداءُ(١)

الثانية: بيَّن الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، وكذلك في أوّل سورة النساء(٢). ولو شاء لخلقه دونهما؛ كخلقه لآدمَ، أو دون ذَكَر؛ كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى؛ كخلقه حواءَ من إحدى الجهتين. وهذا الجائز في القدرة لم يَرِد به الوجود. وقد جاء أن آدم خلق الله منه حوَّاء من ضلع انتزعها من أضلاعه، فلعله هذا القسم. قاله ابن العربي(٣).

الثالثة: خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنساباً وأصهارًا وقبائلَ وشعوبًا، وخلق لهم منها التعارف، وجعل لهم بها التواصل؛ للحكمة التي قدَّرها وهو أعلمُ بها، فصار كلُّ أحد يحوز نسبه، فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحدَّ بقذفه [له]، مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه(٤)، بقوله للعربي: يا أعجمي، وللعجمي: يا عربي؛ ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة، انتهى.

الرابعة: ذهب قوم من الأوائل إلى أنَّ الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربَّى في رحم الأم، ويستمدُّ من الدم الذي يكون فيه. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢١]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]. وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]. فدلَّ على أن الخَلْق من ماء واحد.

والصحيح أن الخَلْق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية، فإنها

(١) وقع في ديوان علي ص٥، البيت الأول والثالث والرابع، وبيت آخر ملفق من الشطر الأول من الخامس والشطر الثاني من السادس. وكذا ذكرها الخطيب البغدادي في تاريخه ٤/ ٣٩١ قال: أنشدها أبو عبد الرحمن مؤذن المأمون. والجرجاني في أسرار البلاغة ص٢٢٩ ونسبها لمحمد بن الربيع الموصلي.

(٢) ٦/٦.

(٣) في أحكام القرآن ٤/١٧١٣ وما بعده منه.

(٤) وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧١٣: وجنسه.

نصٌّ لايحتمل التأويل. وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٦-٧]. والمراد منه أصلابُ الرجال وترائبُ النساء، على ما يأتي بيانه.

وأمَّا ما احتجُّوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسُّلالةِ والنطفةِ، ولم يُضِفها إلى أحد الأبوين دون الآخر. فدلَّ على أن الماء والسُّلالة لهما، والنطفةَ منهما بدلالة ما ذكرنا. وبأن المرأة تُمْني كما يُمْني الرجل، وعن ذلك يكون الشَّبَه، حسب ما تقدَّم بيانه في آخر «الشورى»(١). وقد قال في قصة نوح: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، وإنما أراد ماءَ السماء وماء الأرض؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين، فلا يُنكَر أن يكون ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠] ويريد ماءين. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ الشعوب رؤوس القبائل، مثل ربيعة ومُضَر، والأوْس والخَزْرَج، واحدُها شَعْب بفتح الشين، سُمُّوا به لتشعُّبهم واجتماعهم كشُعَب أغصان الشجرة. والشَّعْب من الأضداد(٢)، يقال: شعبته إذا جمعته، ومنه المِشْعَب ـ بكسر الميم ـ وهو الإِشْفَى(٣)؛ لأنه يُجمع به ويشعب. قال:

فَكَابٍ على حُرِّ الجبين ومُتَّقٍ بمَدْرِيَةٍ كأنه ذَلْقُ مِشْعَبِ(٤)

وشَعَبتُه: إذا فرَّقتَه، ومنه سُمِّيت المنيَّة شَعُوب(٥)، لأنها مفرِّقة. فأما الشِّعب ـ بالكسر ـ فهو الطريق في الجبل؛ والجمع الشِّعاب.

---

(١) عند تفسير الآية (٤٨) منها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢١٧.

(٣) الإشفى: السِّراد، وهو ما يُحزز به. القاموس (شفى).

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٥٢، وقوله: الكابي أي: الساقط على وجهه. والمدرية: القرن. وذلق كل شيء: حدُّه. والمعنى أن من الثيران ما قد صرع، ومنها ما يتقى بقرن حديد كحدِّ الإشفى. شرح الديوان.

(٥) في (م): شعوباً، وهو خطأ. وشَعُوبُ: علم على المَنِيَّة، غير مصروف. ينظر القاموس (شعب).

قال الجوهري: الشِّعب: ما تشعَّب من قبائل العرب والعجم، والجمع الشعوب. والشُّعُوبية: فرقةٌ لا تفضِّل العرب على العجم. وأمَّا الذي في الحديث: أن رجلاً من الشُّعوب أسلم[(١)]؛ فإنه يعني من العجم. والشَّعْب: القبيلة العظيمة، وهو أبو القبائل الذي ينسبون إليه، أي: يجمعهم ويضمهم[(٢)].

قال ابن عباس: الشُّعوب: الجمهور، مثل مضر، والقبائل: الأفخاذ[(٣)]، وقال مجاهد: الشُّعوب البعيدُ من النسب، والقبائل دون ذلك[(٤)]. وعنه أيضاً: أن الشعوب النسب الأقرب. وقاله قتادة[(٥)]. ذكر الأوّل عنه المهدويُّ، والثاني الماوردي[(٦)]. قال الشاعر:

رأيت سعوداً من شُعوب كثيرة فلم أر سعداً مثلَ سعدِ بنِ مالك[(٧)]

وقال آخر:

قبائلُ من شُعوب ليس فيهمْ كريمٌ قد يُعَدُّ ولا نجيبُ[(٨)]

وقيل: إن الشُّعوب عَرَبُ اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان. وقيل: إن الشُّعوب بطونُ العجم؛ والقبائل بطونُ العرب[(٩)]. وقال ابن عباس

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٢٢)، والبيهقي ٩/١٩٩ من حديث مسروق، وتمام الحديث: فكانت تؤخذ منه الجزية، فأتى عمرَ ﷺ فأخبره، فكتب أن لا يؤخذ منه الجزية.

(٢) الصحاح (شعب).

(٣) تفسير أبي الليث ٣/٢٦٦، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٦/٩٨ لعبد بن حميد وابن مردويه. وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٨٤ بلفظ: الشعوب الجُمَّاع... والجُمَّاع: القبائل العظام كما فسرها أحد الرواة. وأخرج البخاري (٣٤٨٩) عن ابن عباس بلفظ: الشعوب القبائل العظام، والقبائل البطون.

(٤) تفسير مجاهد ٢/٦٠٨.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٨٥.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٣٦ القول الأول عن مجاهد وقتادة لا الثاني.

(٧) البيت لطَرَفَة بن العبد وهو في ديوانه ص ٧٢، وفيه: فلم تر عيني، بدل: فلم أر سعداً.

(٨) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٣٦.

(٩) المصدر السابق.

في رواية: إن الشُّعوب الموالي، والقبائل العرب[١]. قال القُشَيْري: وعلى هذا؛ فالشُّعوب مَن لا يُعرف لهم أصل [ولا] نسبٌ؛ كالهند والحبش[٢] والترك، والقبائل من العرب. الماوردي: ويحتمل أن الشُّعوب هم المضافون إلى النواحي والشِّعاب، والقبائل هم المشتركون في الأنساب. قال الشاعر:

وتفرَّقوا شُعَبًا فكلُّ جزيرةٍ فيها أميرُ المؤمنين ومِنبرُ[٣]

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه: الشَّعب أكبر من القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العِمارة، ثم البطن، ثم الفَخِذ[٤]. وقيل: الشَّعب، ثم القبِيلة، ثم العِمارة، ثم البطن، ثم الفَخِذ، ثم الفصِيلة[٥]، ثم العَشيرة، وقد نَظمها بعض الأدباء فقال:

اِقصد الشَّعب فهو أكثر حَيٍّ عددًا في الحِواء[٦] ثم القبِيله
ثم تتلوها العِمارةُ ثم الـ ـبطن والفخذُ بعدها والفصيله
ثم مِن بعدها العشيرةُ لكن هي في جنب ما ذكرنا قليله

وقال آخر:

قبِيلةٌ قبلها شَعْبٌ وبعدهما عِمارةٌ ثم بَطْنٌ تِلْوُهُ فَخِذُ
وليس يُؤوي الفتى إلا فصيلتُه ولا سَدادَ لِسَهْمٍ مالَه قُذَذُ[٧]

---

(١) الوسيط ٤/ ١٥٨ .

(٢) في (ظ) : والخيل ، وفي (ف) و(م) : والجبل ، وفي الوسيط للواحدي ٤/ ١٥٨ - والكلام فيه دون نسبة - : الجيل ، والمثبت من (ق)، وما بين حاصرتين من الوسيط.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٣٦ .

(٤) الصحاح (شعب) .

(٥) الكشاف ٣/ ٥٦٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٣ .

(٦) الحِواء : جماعة بيوت الناس إذا تدانت ، والعرب تقول لمجتمع بيوت الحي: محتوى ومَحوى وحِواء. ينظر اللسان (حوا) .

(٧) أورد هذه الأبيات الخمسة الآلوسي في روح المعاني ٢٦/ ١٦٢ ، والقُذَذ جمع قُذَّة: وهو ريش السهم. القاموس (قذذ) .

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وقد تقدّم في سورة الزخرف[(١)] عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وفي هذه الآية ما يدلُّك على أن التقوى هي المُراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب.

وقُرِئ: «أنَّ» بالفتح. كأنه قيل: لِمَ لا[(٢)] يُتفاخر بالأنساب؟ قيل: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم[(٣)].

وفي الترمذي عن سَمُرَة، عن النبيِّ ﷺ قال: «الحَسَبُ المال، والكرم التقوى». قال: هذا حديث حسن غريب صحيح[(٤)]. وذلك يرجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وقد جاء منصوصًا عنه عليه الصلاة والسلام: «مَن أحبَّ أن يكون أكرمَ الناس، فليتق الله»[(٥)]. والتقوى: معناه مراعاةُ حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا، والاتصافُ بما أمرك أن تتصف به، والتنزهُ عما نهاك عنه. وقد مضى هذا في غير موضع.

وفي الخبر من رواية أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: إني جعلت نَسَبًا وجعلتم نَسَبًا، فجعلتُ أكرمكم أتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون، أين المتقون»[(٦)].

وروى الطبريُّ من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوليائي المتقون يوم القيامة، وإن كان نسبٌ أقربَ من نسب. [لا] يأتي الناس بالأعمال؛ وتأتون

---

(١) ص٥٣ من هذا الجزء.

(٢) لفظة: لا، من (ف) و(ق).

(٣) الكشاف ٣/ ٥٦٩.

(٤) سنن الترمذي (٣٢٧١)، وسلف ٣/ ٣٦٠.

(٥) قطعة من حديث طويل لابن عباس رضي الله عنهما أخرجه العُقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٤٠، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢١٨. قال العقيلي: ليس لهذا الحديث طريق يثبت.

(٦) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٦٤، والبيهقي في الشعب (٥١٣٩).

بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد، فأقول هكذا وهكذا». وأعْرَض في كُلِّ عِطْفَيْه[١].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ جِهارًا غيرَ سِرٍّ يقول: «إن آل أبي ليسوا لي بأولياء، إنما وَلِيِّي اللهُ وصالحُ المؤمنين»[٢].

وعن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ سُئل: مَن أكرم الناس؟ فقال: «يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيم». قالوا: ليس عن هذا نسألُك، قال: «فأكرمهم عند الله أتقاهم» فقالوا: ليس عن هذا نسألك، فقال: «عن معادن العرب؟ خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا»[٣]. وأنشدوا في ذلك:

ما يصنع العبد بعِزِّ الغنى والعِزُّ كلُّ العِزِّ للمُتَّقي
مَن عرف الله فلم تغنه معرفةُ الله فذاك الشَّقي[٤]

السابعة: ذكر الطبري حدَّثني عمر بن محمد قال: حدَّثنا عبيد بن إسحاق العطار قال: حدَّثنا مندل بن عليٍّ، عن ثور بن يزيد، عن سالم بن أبي الجعد قال: تزوَّج رجل من الأنصار امرأة، فطُعِن عليها في حَسَبِها، فقال الرجل: إني لم أتزوَّجها لِحَسَبها، إنما تزوَّجتها لدينها وخُلُقها، فقال النبيُّ ﷺ: «ما يضرُّك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة». ثم قال النبيُّ ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام، فرفع به الخسيسة، وأتمَّ به الناقصة، وأذهب به اللُّوم، فلا لوم على مسلم، إنما اللُّوم لَوْمُ

(١) لم نقف عليه عند الطبري، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٩٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٣) وما بين حاصرتين منهما. ووقع في (ظ) و(ف): كلى (كذا)، ولعلها: كِلا (بالألف الممدودة) كما وقع في الأدب المفرد: في كلا عطفيه. والعِطف: الجانب، وعِطفا كل شيء: جانباه. القاموس (عطف).

(٢) صحيح مسلم (٢١٥)، وهو عند البخاري (٥٩٩٠)، وسلف ٢/ ٨١.

(٣) أخرجه أحمد (٩٥٦٨)، والبخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٤) لم نقف عليهما.

الجاهلية».[١] وقال النبيُّ ﷺ: «إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»[٢] ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى.

قال ابن العربي: وهذا الذي لحظ مالك في الكفاءة في النكاح. روى عبد الله عن مالك: يتزوَّج المَوْلى العربية، واحتجَّ بهذه الآية. وقال أبو حنيفة والشافعي: يُراعى الحَسَب والمال. وفي الصحيح عن عائشةَ أن أبا حذيفةَ بنَ عتبةَ بنِ ربيعة ـ وكان ممن شهد بدراً مع النبيِّ ﷺ ـ تبنَّى سالماً، وأنكحه هنداً بنتَ أخيه الوليدِ بن عتبة بن ربيعة، وهو مولًى لامرأة من الأنصار[٣]. وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود[٤].

قلت: وأختُ عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال، وزينبُ بنتُ جحش كانت تحت زيد بن حارثة[٥]. فدلَّ على جواز نكاح الموالي العربية، وإنما تُراعى الكفاءة في الدِّين. والدليلُ عليه أيضًا ما روى سهل بن سعد في صحيح البخاري أن النبيَّ ﷺ مَرَّ عليه رجل فقال: «ما تقولون في هذا؟» فقالوا: حَريٌّ إن خطب أن يُنْكَح، وإن شَفَع أن يُشَفَّع، وإن قال أن يُسْمَع. قال: ثم سكت، فمرَّ رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حَريٌّ إن خطب ألَّا يُنْكَح، وإن شَفَع ألَّا يُشَفَّع، وإن قال ألَّا يُسْمع. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خَيرٌ من مِلءِ الأرض مثلَ هذا»[٦].

وقال ﷺ: «تُنكح المرأة لمالها وجمالها ودينها ـ وفي رواية: ولحسبها ـ فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك»[٧].

وقد خطب سلمانُ إلى أبي بكر ابنته فأجابه، وخطب إلى عمر ابنته فالتَوى عليه،

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٤٣٨٥)، ومسلم (١١١٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) صحيح البخاري (٤٠٠٠).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٣ - ١٧١٤.

(٥) سلف هذا الكلام ١٧/ ١٥٢.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٤، والحديث في صحيح البخاري (٥٠٩١).

(٧) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٥/ ٤٥.

ثم سأله أن يَنكحها فلم يفعل سلمان. وخطب بلال بنتَ البكير فأبى إخوتها، فقال بلال: يا رسول الله، ماذا لقيت من بني البكير! خطبت إليهم أختهم فمنعوني وآذَوني، فغضب رسول الله ﷺ من أجل بلال، فبلغهم الخبر، فأَتَوا أختهم فقالوا: ماذا لقينا من سببك؟ فقالت أختهم: أمري بيد رسول الله ﷺ؛ فزوَّجوها [بلالاً][١].

وقال النبي ﷺ في أبي هند حين حجمه: «أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه». وهو مولى بني بياضة[٢].

وروى الدَّارَقُطنيُّ[٣] من حديث الزُّهْريِّ عن عُرْوَةَ عن عائشةَ أن أبا هند مولى بني بياضة كان حجَّاماً، فحجم النبيَّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «مَن سرَّه أن ينظر إلى مَن صوَّر الله الإيمان في قلبه، فلينظر إلى أبي هند». وقال رسول الله ﷺ: «أنكحوه وأنكحوا إليه».

قال القشيري أبو نصر: وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح، وهو الاتصال بشجرة النبوّة، أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزُّهد والصلاح. والتقيُّ المؤمن أفضلُ من الفاجر النسيب، فإن كانا تَقِيَّيْن؛ فحينئذ يُقدَّم النسيب منهما، كما يُقدَّم الشيخ على الشاب[٤] في الصلاة إذا استويا في التقوى.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

نزلت في أعراب من بني أسد بنِ خُزيمة؛ قَدِموا على رسول الله ﷺ في سنة جَدْبة، وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين في السرّ، وأفسدوا طرق المدينة

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٤، وما بين حاصرتين منه، ووقع فيه: فزوجها، بدل: فزوجوها، ولم نقف على هذا الخبر في مصادر التخريج.

(٢) المصدر السابق، وأخرجه أبو داود (٢١٠٢)، وابن حبان (٤٠٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف نحوه عن الزُّهري مرسلاً. في المسألة الأولى.

(٣) في سننه (٣٧٩٣).

(٤) في (م): كما يقدم الشاب على الشيخ!

بالعَذِرات، وأغلَوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنُّون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية(١).

وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا أن يَتَسَمَّوْا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا، فأعلم الله أن لهم أسماءَ الأعراب، لا أسماءَ المهاجرين(٢).

وقال السدِّي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح: [وهم] أعراب مُزَيْنَة وجُهَيْنة، وأسْلمَ وغِفارَ، والدِّيل وأشجع؛ قالوا: آمنَّا؛ ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استُنفروا إلى الحديبية(٣)، تخلَّفوا،

فنزلت. وبالجملة؛ فالآية خاصة لبعض الأعراب؛ لأن منهم مَن يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى(٤).

ومعنى «وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا» أي: استسلمنا خوف القتل والسَّبْي، وهذه صفة المنافقين؛ لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم، وحقيقةُ الإيمان التصديق بالقلب. وأمَّا الإسلام فقبول ما أتى به النبيُّ ﷺ في الظاهر، وذلك يَحْقِن الدّم.

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني إن تُخلِصوا الإيمان ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ أي: لا ينقصكم ﴿مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾. لاته يليته ويلوته: نقصه.

وقرأ أبو عمرو: «لا يألِتكم» بالهمزة(٥)، مِن أَلَت يَألِت أَلْتًا(٦)، وهو اختيار أبي

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤١٩.

(٢) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣٣٧، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٩٠ بنحوه.

(٣) في النسخ: المدينة، والمثبت من تفسير البغوي ٤/ ٢١٨ والكلام وما سلف بين حاصرتين منه، وينظر زاد المسير ٧/ ٤٧٦.

(٤) يشير المصنف إلى قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ﴾ [الآية: ٩٩].

(٥) السبعة ص٦٠٦، والتيسير ص٢٠٢.

(٦) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٨٤، والوسيط ٤/ ١٦٠.

حاتم؛ اعتبارًا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]. قال الشاعر:

أبلِغْ بني ثُعَلٍ عني مُغَلْغَلَةً جَهْدَ الرِّسالة لا أَلْتًا ولا كَذِبا(١)

واختار الأولى أبو عبيد. قال رؤبة:

ولـيـلـةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ ولم يَلِتْني عن سُرَاها لَيْتُ(٢)

أي: لم يمنعني عن سُراها مانع، وكذلك ألاته عن وجهه، فَعَلَ وأفْعَل بمعنًى. ويقال أيضًا: ما ألاته من عمله شيئًا، أي: ما نقصه، مثل ألَتَه. قاله الفرّاء: وأنشد:

ويأكلنَ ما أعْنَى الوَليُّ فلم يَلِتْ كأنَّ بحافات النِّهاء المَزَارعا(٣)

قوله: فلم يَلِتْ، أي: لم يَنقص منه شيئًا. وأعْنَى: بمعنى أنبت؛ يقال: ما أعْنَت الأرض شَيئًا، أي: ما أنبتت. والوليُّ: المطر بعد الوَسْميّ(٤)، سُمّي وليًّا لأنه يلي الوَسْميّ.

ولم يقل: لا يَلِتاكم(٥)؛ لأن طاعة الله تعالى طاعةُ الرسول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: صدَّقوا

---

(١) البيت لحاتم الطائي وهو في ديوانه ص ٧٤، وفيه: لا محكاً ولا بُطُلا، بدل: لا ألتاً ولا كذبا. وأورده برواية المصنف الفراء في معاني القرآن ٣/ ٩٢، والأزهري في تهذيب اللغة ١٤/ ٣٢٠. والمُغَلْغَلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد. القاموس (غلل).

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وسلف ٦/١٣.

(٣) أورده ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٢٠٩ ونسبه لعدي، وفيه: يلث، بدل: يلت. وقوله: النِّهاء هو جمع نِهي ـ بالكسر والفتح ـ، أي: الغدير. القاموس (نهى).

(٤) الوسميُّ: هو مطر الربيع الأول، سمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات. ينظر اللسان (وسم).

(٥) في (م): ولا يألتاكم.

ولم يشكُّوا، وحقَّقوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم، لا مَن أسلم خوفَ القتل ورجاءَ الكسب. فلمَّا نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السرِّ والعلانية وكذبوا، فنزلت: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الذي أنتم عليه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[(١)].

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ إشارة إلى قولهم: جئناك بالأثقال والعيال.

و«أن» في موضع نصب على تقدير: لأن أسلموا. ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي: بإسلامكم. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ «أن» في[(٢)] موضع نصب، تقديره: بأن. وقيل: لأن. وفي مصحف عبد الله: «إِذْ هَدَاكُمْ»[(٣)]. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنكم مؤمنون. وقرأ عاصم: «إنْ هداكم»[(٤)] بالكسر، وفيه بُعد؛ لقوله: «إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». ولا يقال: يَمُنُّ عليكم أن يهديكم إن صدقتم. والقراءة الظاهرة «أنْ هَدَاكُمْ». وهذا لا يدلُّ على أنهم كانوا مؤمنين، لأن تقدير الكلام: إن آمنتم فذلك مِنّة الله عليكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن[(٥)] بالياء على الخبر، ردًّا على قوله: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ». الباقون بالتاء على الخطاب.

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦٧، وبنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢١٩، وزاد المسير ٧/ ٤٧٧.

(٢) لفظة: في، من (ف) و (ق).

(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٤.

(٤) قراءة شاذة، وذكرها الزمخشري ٣/ ٥٧٢ دون نسبة، وقراءة عاصم كقراءة الجماعة: أن هداكم.

(٥) بعدها في (ف) و(ق) و(م): وأبو عمرو، وهو خطأ، وينظر السبعة ص ٦٠٦، والتيسير ص ٢٠٢.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مَدنيَّةٌ، وآيُها ثماني عشرةَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أي: لا تُقدِّمُوا أمرًا، فحُذِفَ المفعولُ ليذهبَ الوَهمُ إلى كلِّ ما يُمكِنُ، أو تُرِكَ لأنَّ المقصودَ نَفْيُ التَّقديمِ رأسًا.

أو: لا تَتقدَّمُوا، ومنهُ مُقدِّمَةُ الجيشِ لِمُتقدِّميهم، ويؤيِّدُه قراءةُ يعقوبَ: ﴿لا تَقَدَّمُوا﴾[1].

وقُرِئَ: (لَا تَقْدَمُوا) مِن القُدومِ[2].

﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مُستَعارٌ ممَّا بينَ الجِهَتينِ المُسامِتَتَيْنِ لِيَدَي الإنسانِ تَهجينًا لِمَا نُهُوا عنه، والمعنى: لا تَقْطَعُوا أمرًا قبلَ أن يَحكُمَا به.

وقيل: المرادُ بينَ يدي رسولِ اللهِ، وذكرُ اللهِ تعظيمٌ له وإشعارٌ بأنَّه مِن اللهِ بمكانٍ يوجِبُ إجلالَه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في التَّقديمِ، أو مُخالفةِ الحكمِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأَقوالِكُم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأَفعالِكُم.

---

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٥).

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٣٤٤)، و«البحر» (١٩/ ٣١٩).

(٢) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: إذا كَلَّمْتوه فلا تُجاوِزُوا أصواتَكُم عَن صَوتِه.

﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا تَبْلغُوا بِهِ الجهرَ الدَّائرَ بينكُم، بل اجعَلُوا صَوْتَكُم[1] أخفَضَ مِن صوتِه مُحاماةً على التَّرحيبِ[2] ومُراعاةً للأَدبِ.

وقيل: مَعناه: ولا تُخاطِبُوهُ باسمِهِ وكُنيتِه كما يخاطبُ بَعضُكُم بَعضًا وخاطِبوهُ بالنَّبيِّ والرَّسولِ.

وتكريرُ النِّداءِ لاستدعاءِ مَزيدِ الاستبصارِ والمبالغةِ في الإيقاظِ والدَّلالةِ على استِقلالِ المُنادَى لهُ وزيادةِ الاهتمامِ به.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ كراهةَ أن تحبطَ، فيكونُ عِلَّةً للنَّهيِ، أو لأَنْ تحبطَ؛ على أنَّ النَّهيَ عَن الفعلِ المعلَّلِ باعتبارِ التَّأدِيَةِ، لأنَّ في الرَّفعِ والجَهرِ استِخفافًا قد يُؤَدِّي إلى الكُفرِ المُحبطِ، وذلك إذ انضمَّ إليه قصدُ الإهانةِ وعدمُ المبالاةِ.

وقَدْ رُوِيَ أنَّ ثابتَ بنَ قيسٍ كانَ في أذنِه وَقرٌ وكانَ جَهْوَرِيًّا، فلَمَّا نزلَتْ تخلَّفَ عَن رَسولِ اللهِ ﷺ، فتفقَّدَه ودَعاهُ، فقال: يا رسولَ اللهِ، لقَدْ أُنزِلَت إليكَ هذه الآيةُ وإني رجلٌ جَهيرُ الصَّوتِ فأخافُ أن يكونَ عَمَلي قد حَبِطَ، فقال عليهِ السَّلامُ «لستَ هُناكَ، إنَّك تعيشُ بخيرٍ وتموتُ بخيرٍ وإنَّكَ مِن أهلِ الجنَّةِ»[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي والطبلاوي: «أصواتكم».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «للترحيب». قال الخفاجي في «حاشيته»: المحاماة بميمين وحاء مهملة المحافظة مفاعلة من حماه إذا منعه وصانه، و«الترحيب» قيل: إنه بالحاء المهملة من قولهم: أهلاً ومرحباً، والترحيب بمعنى التوسيع، وقيل: بالجيم من رجبه إذا عظمه، وهذا أقرب معنى؛ إذ الأوّل محتاج إلى تكلف أنَّ المراد بالتوسعة بُعْدُ ما بين مقام النبوَّة ومقام الأمَّة المقتضي لما ذكر.

(٣) رواه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩) من حديث أنس رضي الله عنه. دون قوله: «لستَ هناك، إنَّكَ =

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أنها محبطَةٌ.

(٣) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ يخفضونَها ﴿عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مُراعاةً للأَدبِ، أو مخافةً عَن مُخالفَةِ النَّهيِ.

قيل: كان أبو بكرٍ وعُمَرُ بعدَ ذلك يُسرانِه حتى يَستَفْهِمَهُما(١).

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ جَرَّبَها للتَّقوى ومَرَّنها عليها.

أو: عَرَفها كائنةً للتَّقوى خالصةً لها؛ فإنَّ الامتحانَ سببُ المعرفةِ، واللَّامُ صِلَةُ مَحذوفٍ أو للفعلِ باعتبارِ الأصلِ.

= تَعيشُ بخَيْرٍ وتمُوتَ بخَيْرٍ». وهذا مع باقي العبارة ورد في حديث آخر بالقصة نفسها رواه أبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٣٧٢١)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٣٩٩)، والطبراني في «الكبير» (١٣٢٠)، والحاكم في «مستدركه» (٥٠٣٦)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣)، من حديث بنت ثابت بن قيس. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٢٢): بنت ثابت بن قيس لم أعرفها، وبقية رجاله رجال الصحيح، والظاهر أن بنته صحابية.

قلت: قد ذكر ابن حجر في «الإصابة» (٨/ ١٥٣) في الصحابيات: زينب بنت ثابت بن قيس، فلعلها هي، وقال: ذكرها ابن حبيب فيمن بايعن رسول الله ﷺ.

(١) روى رواه البخاري (٧٣٠٢) عن ابن أبي مليكة قال: «كاد الخيران أن يهلكا: أبو بكر وعمر، لما قدم على النبي ﷺ وفد بني تميم، أشار أحدهما بالأقرع بن حابس الحنظلي أخي بني مجاشع، وأشار الآخر بغيره، فقال أبو بكر لعمر: إنما أردت خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ قال ابن أبي مليكة: قال ابن الزبير: فكان عمر بعد ـ ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر= إذا حدث النبي ﷺ بحديث، حدثه كأخي السرار، لم يسمعه حتى يستفهمه».

وقوله: «كأخي سرار»، قال ابن الأثير في «النهاية» (مادة: سرر): السرار: المساررة: أي كصاحب السرار، أو كمثل المسارة لخفض صوته. والكاف صفة لمصدر محذوف.

أو: ضربَ اللهُ قلوبَهُم بأنواعِ المِحَنِ والتَّكاليفِ الشاقَّةِ لأجلِ التَّقوى فإنَّها لا تظهرُ إلَّا بالاصطبارِ عليها.

أو: أخلصَها للتَّقوى مِن: امتحَنَ الذَّهبَ: إذا أذابَهُ وميَّزَ إبريزَهُ مِن خبثِهِ.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذُنوبِهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لغَضِّهِم وسائرِ طاعاتِهم.

والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ، والجُملَةُ خبرٌ ثانٍ لـ(إنَّ)، أو استئنافٌ لبيانِ ما هو جزاءُ الغاضِّينَ إحمادًا لِحالهم كما أخبرَ عَنْهُم بجُملَةٍ مُؤلَّفَةٍ مِن مَعرِفَتينِ، والمبتدأُ اسمُ الإشارةِ المُتضمِّنُ لِمَا جُعلَ عنوانًا لهم، والخبرُ الموصولُ بصِلَّةٍ دَلَّتْ على بُلوغِهِم أَقصى الكمالِ مُبالغَةً في الاعتدادِ بغَضِّهِ والارتضاءِ له وتَعريضًا بشَناعةِ الرَّفعِ والجهرِ، وأنَّ حالَ المرتكبِ لَهُما على خلافِ ذلك.

(٤) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ مِن خارجِها، خلفَها أو قدَّامَها.

و(مِن) ابتدائيَّةٌ فإنَّ المُناداةَ نشأَتْ مِن جهةِ الوراءِ، وفائِدَتُها الدَّلالةُ على أنَّ المنادَى داخلَ الحُجرةِ، إذ لا بُدَّ وأن يختَلِفَ المبتدأُ[1] والمُنتهى بالجهةِ.

وقُرِئَ: (الحُجرات) بفتحِ الجيمِ وسُكونِها[2]، وثلاثتُها جمعُ حُجْرةٍ، وهي القطعَةُ من الأرضِ المَحجورةُ بحائطٍ، ولذلكَ يُقال لحظيرةِ الإبلِ: حُجْرَةٌ، وهي فُعْلَةٌ بمعنى مفعولٍ كالغُرْفَةِ والقُبْضَةِ.

والمرادُ حجراتُ نساءِ النبيِّ عليه السَّلامُ، وفيها كنايَةٌ عَن خَلوَتِه بالنِّساءِ.

ومُناداتُهم مِن وَرائِها إمَّا بأَنَّهم أَتَوْها حُجرةً حُجرةً فنادَوهُ مِن وَرائِها، أو بأَنَّهُم تفرَّقُوا على الحجراتِ مُتطلِّبينَ له، فأُسنِدَ فعلُ الأَبعاضِ إلى الكُلِّ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «المبدأ».

(٢) قراءة فتح الجيم لأبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٦)، وقراءة السكون لابن أبي عبلة كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٤).

وقيلَ: إنَّ الذي ناداهُ عُيَينةُ بنُ حِصنٍ والأقرَعُ بنُ حابسٍ، وَفَدا على رسولِ اللهِ ﷺ في سَبعينَ رَجُلًا مِن بني تميمٍ وقتَ الظَّهيرةِ وهو راقدٌ فقالا: يا مُحمَّدُ، اخرُجْ إلَيْنا[(1)].

وإنَّما أُسنِدَ إلى جميعِهِم لأنَّهُم رَضُوا بذلك، أو أَمرُوا به، أو لأنَّه وُجِدَ فيما بينَهُم.

﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ إذ العقلُ يَقتَضِي حُسنَ الأَدَبِ ومُراعاةَ الحِشمَةِ سِيَّما لِمَن كانَ بهذا المنصبِ.

(٥) ـ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: ولو ثبتَ صبرُهُم وانتِظارُهُم حتَّى تخرُجَ، فإنَّ (أنَّ) ـ وإنْ دلَّتْ بما في حَيِّزِها على المصدرِ ـ دَلَّتْ بنَفسِها على الثُّبوتِ، ولذلك وجبَ إِضمارُ الفعلِ، و(حتَّى) تفيدُ أنَّ الصَّبرَ ينبغي أن يكونَ مُغيًّا بخروجِه،

---

(١) ذكر نحو هذه القصة ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٤٨)، والطبري في «تاريخه» (٣/ ١١٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣١٣)، ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٥١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٨٨)، ورواه ابن منده وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٥٥٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٦٢)، من طريق يعلى بن الأشدق، قال: حدثني سعد بن عبد الله أنَّ النبي ﷺ سئل عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ الآية، قال: «هم الجفاة من بني تميم، لولا أنهم من أشد الناس قتالًا للأعور...». وسعد بن عبد الله مجهول كما قال ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٤٢٤) وذكر له هذا الحديث. ويعلى بن الأشدق قال عنه البخاري: لا يكتب حديثه، وقال أبو حاتم: ليس بشيء ضعيف الحديث. انظر: «التاريخ الأوسط» (٢/ ١٧٩)، و«الجرح والتعديل» (٩/ ٣٠٣).

وللبخاري (٤٣٦٦) ومسلم (٢٥٢٥) عن أبي هريرة قال: لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاثٍ سَمِعتُه من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: «هم أشد أمتي على الدجال»... الحديث.

وكون المنادي الأقرع رواه ابن أبي شيبة في «مسنده» (٧٠٢)، والإمام أحمد في «مسنده» (١٥٩٩١)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٨٧٨)، من حديث الأقرع.

فإنَّ (حتى) مُختَصَّةٌ بغايةِ الشَّيءِ في نفسِه، ولذلك تقولُ: (أكلتُ السَّمكةَ حتى رأسِها) ولا تقولُ: (حتَّى نصفِها)، بخلافِ (إلى) فإنَّها عامَّةٌ.

وفي ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إشعارٌ بأنَّه لو خرجَ لا لأَجْلِهم يَنبَغي أَنْ يَصبِرُوا حتَّى يُفاتِحَهُم بالكلامِ أو يتوجَّهَ إليهم.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لكانَ الصَّبرُ خيرًا لهم مِن الاستعجالِ لِمَا فيهِ مِن حفظِ الأدبِ وتَعظيمِ الرَّسولِ المُوجِبَيْنِ للثَّناءِ والثَّوابِ والإسعافِ بالمسؤولِ[١]؛ إذ رُوِيَ أنَّهُم وَفَدُوا شَافِعينَ في أُسارى بني العَنبَرِ فأطلقَ النِّصفَ وفادى النِّصفَ[٢].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ اقتصرَ على النُّصحِ والتَّقريعِ لهؤلاءِ المُسيئينَ الأدبَ التَّاركينَ تَعظيمَ الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

(٦) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ فتعرَّفُوا وتَفحَّصُوا.

رُوِيَ أنَّه عليهِ الصَّلاةُ السَّلامُ بعثَ وليدَ بنَ عُقبةَ مُصدِّقًا إلى بني المُصطلقِ، وكانَ بينَهُ وبينَهُم إِحْنَةٌ، فلَمَّا سَمِعوا به استقبَلُوه، فحسِبَهُم مُقاتليهِ[٣] فرجَعَ وقالَ لرَسُولِ اللهِ ﷺ: قد ارتَدُّوا ومنعوا الزَّكاةَ. فهَمَّ بقتالِهم، فنَزَلَتْ[٤].

---

(١) في نسخة الخيالي: «بالسؤال».

(٢) انظر: «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٥٤)، و«تفسير الثعلبي» (٢٤/ ٣٥٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٣٢٤)، و«النكت والعيون» (٥/ ٣٢٨).

(٣) في نسخة الفاروقي: «مقاتلة» وفي هامشها: في نسخة: «مقاتليه».

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٤٠١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١١١): رواه الطبراني، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. وروى القصة الإمام أحمد في «المسند» (١٨٤٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٣٩٥)، من حديث الحارث بن أبي ضرار الخزاعي رضي الله عنه. =

وقيل: بعثَ إليهم خالدَ بنَ الوليدِ فوجدَهُم مُنادينَ بالصَّلاةِ مُتهجِّدينَ فسَلَّمُوا إليه الصَّدقاتِ فرَجَعَ(١).

وتنكيرُ الفاسقِ والنَّبأِ للتَّعميمِ.

وفي تعليقِ الأمرِ بالتَّبيُّنِ على فسقِ المخبِرِ يَقتضِي جوازَ قَبولِ خبرِ العَدْلِ مِن حيثُ إنَّ المعلَّقَ على شيءٍ بكلمةِ (إن) عدمٌ عندَ عَدمِه، وأنَّ خبرَ الواحدِ لو وجبَ تبيُّنُه مِن حيثُ هو كذلك لَمَا رُتِّبَ(٢) على الفسقِ؛ إذ(٣) التَّرتيبُ يفيدُ التَّعليلَ، وما بالذَّاتِ لا يُعلَّلُ بالغيرِ.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿فتَثَبَّتُوا﴾(٤)، أي: فتَوَقَّفُوا إلى أَنْ يَتبيَّنَ لَكُم الحالُ.

﴿أَن تُصِيبُوا۟﴾ كراهةَ إصابَتِكُم ﴿قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ جاهلينَ بحالِهم ﴿فَتُصۡبِحُوا۟﴾ فتصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ مُغتَمِّينَ غمًّا لازمًا مُتمنِّينَ أنَّه لم يَقَعْ، وتركيبُ هذه الأحرفِ الثَّلاثةِ دائرٌ مَع الدَّوامِ(٥).

= ورواها أيضاً الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٤٩ ـ ٣٥٣) عن أم سلمة وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وابن أبي ليلى ويزيد بن رومان والضحاك.

وذكر القصة أيضاً ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٩٦). جاء في أكثر الأخبار: فأنزل الله عذرهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾.

وذكر ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٥٥٣) إجماع العلماء على أنها نزلت في الوليد بن عقبة.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٥١) عن قتادة دون قوله: فسلموا إليه الصدقات.

(٢) في نسخة الخيالي: «لما رتبه».

(٣) في نسخة التفتازاني: «من حيث إن».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

(٥) في نسخة الفاروقي: «اللزوم» وفي الهامش نسخة: «الدوام».

(٧) ـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ (أنْ) بما في حيِّزِه سادٌّ مَسدَّ مَفعُولَي (اعلَمُوا) باعتبارِ ما قُيِّدَ به مِن الحالِ، وهو قولُه: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ فإنَّه حالٌ مِن أحدِ ضَمِيرَيْ (فيكُم)، ولو جُعِلَ استِئنافًا لم يظهَرْ للأَمرِ فائدَةٌ.

والمعنى: أنَّ فيكُم رَسولَ اللهِ على حالٍ يَجِبُ تَغييرُها وهي أنَّكُم تُريدونَ أنْ يتَّبعَ رأيَكُم في الحوادثِ، ولو فعلَ ذلك لعَنِتُّم، أي: لوقَعْتُم في العَنَتِ وهو الجهدُ والهلاكُ.

وفيه إشعارٌ بأنَّ بعضَهُم أشارَ إليه بالإيقاعِ ببني المصطلقِ.

وقولـه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ استدراكٌ ببيانِ عُذرهِم وهو أنَّهُم مِـن فَرْطِ حُبِّهِم للإيمانِ[١] وكراهَتِهِم الكفرَ حملَهُم على ذلك لَمَّا سَمِعُوا قولَ الوَليدِ، أو بصِفَةِ مَـن لم يفعَلْ ذلك مِنْهُم إحمادًا لفِعْلِهِم وتعريضًا بذمِّ مَن فعلَ، ويؤيِّدُه قولُه:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: أولئكَ المُستثنَون[٢] هـم الذين أصابُوا الطَّريقَ السَّوِيَّ.

و(كَرِهَ) مُعَدًّى بنفسِهِ إلى مَفعولٍ واحدٍ فإذا شُدِّدَ زادَ له آخَرُ، لكنَّه لَمَّا تَضمَّنَ مَعنى التَّبغيضِ عدي بـ(إلى).

والكفرُ: تَغطِيَةُ نِعَمِ اللهِ بالجُحودِ، والفُسوقُ: الخروجُ عَن القصدِ، والعصيانُ: الامتناعُ عَن الانقيادِ.

(٨) ـ ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ تعليلٌ لـ(كرَّه) أو (حبَّبَ) وما بينَهُما اعتراضٌ لا للرَّاشدينَ فإنَّ الفضلَ فِعلُ اللهِ، والرُّشدُ وإن كانَ مُسبَّبًا مِن فعلِه مسندٌ إلى ضَميرِهِم أو مصدرٌ لغيرِ فعلِهِ فإنَّ التَّحبيبَ والرُّشدَ فضلٌ مِن اللهِ وإنعامِه.

---

(١) في نسخة الخيالي: «الإيمان».

(٢) في نسخة التفتازاني: «المتبينون».

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالِ المؤمنينَ وما بينَهُم مِن التَّفاضُلِ.

﴿حَكِيمٌ﴾ حينَ يُفضِلُ ويُنعِمُ بالتَّوفيقِ عَلَيهِم.

(٩) ـ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ تقاتلُوا، والجمعُ باعتبارِ المعنى فإنَّ كلَّ طائفةٍ جمعٌ.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ بالنُّصحِ والدُّعاءِ إلى حكمِ اللهِ[١].

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تعدَّتْ عليها.

﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ترجع إلى حكمِهِ، أو ما أَمرَ به، وإنَّما أُطلقَ الفيءُ على الظلِّ لرُجوعِه بعدَ نسخِ الشَّمسِ، والغنيمةِ لرُجوعِها مِن الكُفَّارِ إلى المسلمينَ.

﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ بفصلِ ما بينَهُما على ما حكمَ اللهُ.

وتقييدُ الإصلاحِ بالعَدلِ هاهنا لأنَّه مَظِنَّةُ الحَيفِ مِن حيثُ إنَّه بعدَ المُقاتلَةِ.

﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ واعدِلُوا في كلِّ الأُمورِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ يَحمَدُ فعلَهُم بحسنِ الجزاءِ.

والآيةُ نزلَتْ في قتالٍ حدثَ بينَ الأَوسِ والخَزرجِ في عَهدِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالسَّعَفِ والنِّعالِ[٢].

---

(١) في نسخة التفتازاني زيادة: «وإزالة الشبه بالحجج».

(٢) روى البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ فقال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، فشتما، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾.

وهي تدلُّ على أنَّ الباغِيَ مؤمِنٌ وأنَّه إذا قُبِضَ عن الحربِ تُرِكَ كمَا جاءَ في الحديثِ؛ لأنَّهُ فَيْءٌ إلى أمرِ اللهِ، وأنَّه يجبُ مُعاونَةُ مَن بُغِيَ عليهِ بعدَ تَقديمِ النُّصحِ والسَّعيِ في المُصالَحَةِ.

(١٠) ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مِن حيثُ إنَّهُم منتسبونَ إلى أصلٍ واحدٍ هو الإيمانُ الموجِبُ للحَياةِ الأبديَّةِ، وهو تعليلٌ وتقريرٌ للأمرِ بالإصلاحِ[١]، ولذلك كرَّرَه مُرَتَّبًا عليه بالفاءِ فقال: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ووَضَعَ الظَّاهرَ مَوضِعَ الضَّميرِ مُضافًا إلى المأمورينَ للمُبالغَةِ في التَّقريرِ والتَّحضيض.

وخَصَّ الاثنينِ بالذِّكرِ لأنَّهُما أقَلُّ مَن يَقَعُ بينَهُم الشِّقاقُ.

وقيل: المرادُ بالأَخوينِ الأَوْسُ والخَزْرَجُ.

وقُرِئَ: ﴿بينَ إِخْوَتِكُم﴾[٢] و(إِخْوَانِكُم)[٣].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مُخالفَةِ حُكمِهِ والإهمالِ فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على تَقْواكُم.

(١١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: لا يسخَرْ بعضُ المؤمنينَ والمُؤمِنَاتِ مِن بعضٍ، إذ قَدْ يكونُ المسخورُ منهُ خيرًا عندَ اللهِ مِن السَّاخرِ.

والقومُ مُختَصٌّ بالرِّجالِ لأنَّه إمَّا مَصدَرٌ نُعِتَ به فشاعَ في الجَمْعِ، أو جمعٌ لقائِمٍ

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «بالصلاح».

(٢) هي قراءة يعقوب من العشرة، انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٦).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٤)، و«المحتسب» (٢/ ٢٧٨)، عن زيد بن ثابت وابن مسعود وابن سيرين والحسن وعاصم الجحدري.

كزَائِرٍ وزَوْرٍ، والقِيامُ بالأُمورِ وظيفَةُ الرِّجالِ كمَا قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وحيثُ فُسِّرَ بالقَبِيلَيْنِ كقَوْمِ عادٍ وفِرْعَوْنَ فإمَّا على التَّغليبِ أو الاكتفاءِ بذكرِ الرِّجالِ عَن ذكرِهِنَّ لأنهنَّ توابعُ.

واختيارُ الجمعِ لأنَّ السخريةَ تغلبُ في المجامعِ.

و(عسى) باسمِها استئنافٌ بالعلَّةِ الموجِبةِ للنَّهيِ، ولا خبرَ لها لإغناءِ الاسمِ عنه.

وقُرِئَ: (عَسَوْا أَنْ يَكونُوا) و(عَسَيْنَ أَنْ يَكُنَّ)[1] فهيَ على هذا ذاتُ خبرٍ.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: ولا يَعِبْ بَعْضُكُم بَعْضًا، فإنَّ المؤمنينَ كنَفْسٍ واحِدَةٍ، أو لا تفعَلُوا ما تُلْمَزُونَ به، فإنَّ من فعلَ ما استحقَّ به اللَّمزَ فقَدْ لمزَ نفسَهُ.

واللَّمزُ الطَّعنُ باللِّسانِ. وقرأَ يعقوبُ بالضَّمِّ[2].

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ ولا يدعو بعضُكُم بعضًا بلقبِ السُّوءِ، فإنَّ النَّبزَ مُختَصٌّ بلقبِ السُّوءِ عُرفًا.

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: بِئسَ الذِّكرُ المُرتَفِعُ للمُؤمنينَ أن يُذكرُوا بالفسقِ بعدَ دُخولِهم الإيمانَ واشْتهارِهِم به.

والمرادُ به إمَّا تَهجينُ نِسبَةِ الكُفرِ والفسقِ إلى المُؤمنينَ خُصوصًا؛ إذ رُوِيَ أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في صَفِيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ، أتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَتْ: إنَّ النِّساءَ يَقُلْن لي: يا يهوديَّةُ بنتَ يَهودِيَّيْنِ، فقال لها: «هَلَّا قُلتِ: إنَّ أبي هارونُ وعَمِّي موسَى وزَوْجِي مُحَمَّد»[3]، أو الدلالةُ على أنَّ التَّنابُزَ فسقٌ، والجمعُ بينَهُ وبين الإيمانِ مُستقبَحٌ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ١٥٠)، وزاد نسبتها لأبي رضي الله عنه.

(٢) أي: (لا تَلْمُزُوا). انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٠).

(٣) ذكره عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٧٦)، والواحدي في =

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عمَّا نُهيَ عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضعِ العِصيانِ مَوضِعَ الطَّاعةِ وتعريضِ النَّفسِ للعَذابِ.

(١٢) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ كونوا مِنهُ على جانبٍ، وإبهامُ الكثيرِ ليُحتاطَ في كلِّ ظنٍّ ويُتأمَّلَ حتَّى يَعلمَ أنَّه مِن أيِّ القَبيلِ؛ فإنَّ مِن الظنِّ:

ما يجبُ اتباعُه كالظنِّ حيثُ لا قاطعَ فيه مِن العمليَّاتِ وحسنِ الظنِّ باللهِ.

وما يحرُمُ كالظنِّ في الإلهيَّاتِ والنبوَّاتِ وحيثُ يخالِفُه قاطِعٌ، وظنِّ السوءِ بالمؤمنينَ.

وما يباحُ كالظنِّ في الأمورِ المَعاشيَّةِ.

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تعليلٌ مُستأنَفٌ للأمرِ.

والإثمُ الذَّنبُ الذي يَستحقُّ العقوبةَ عليه، والهمزةُ فيه مِن الواوِ كأنَّه يَثِمُ الأعمالَ؛ أي يَكسِرُها.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ولا تَبحَثُوا عَن عَوراتِ المسلمينَ، (تَفعُّلٌ) من الجسِّ باعتبارِ ما فيه مِن مَعنى الطَّلبِ كالتَّلمُّسِ.

وقُرِئَ بالحاءِ مِن الحسِّ[1] الذي هو أثرُ الجسِّ وغايَتُه، ولذلك قيلَ للحَواسِّ: جوَاسٌّ.

= «أسباب النزول» (ص: ٣٩٣)، وأبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٤٩).

ورواه الترمذي (٣٨٩٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٧٥)، والحاكم في «المستدرك» (٦٧٩٠) من حديث صفية رضي الله عنها. وليس فيه أنه سبب نزول الآية. وقال الترمذي: حديث غريب، وليس إسناده بذاك.

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٤) عن النبي ﷺ والحسن وابن سيرين، و«تفسير الثعلبي» (٢٤/ ٣٨١) عن ابن عباس وأبي رجاء العطاردي.

وفي الحديثِ: «لا تَتبَّعُوا عَوراتِ المسلمينَ فإنَّ مَن تَتبَّعَ عَوراتِهم تَتبَّعَ اللهُ عورتَهُ حتى يَفضحَهُ ولو في جوفِ بَيتِه»(١).

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ ولا يَذكُرْ بَعضُكُم بَعْضًا بالسُّوءِ في غَيبتِه.

وسُئِلَ عليهِ السَّلامُ عن الغِيبةِ فقال: «أَنْ تَذكُرَ أخاكَ بما يكرَهُهُ، فإنْ كانَ فيه فقَد اغتَبْتَه، وإن لم يَكُنْ فيهِ فقَدْ بَهَتَّهُ»(٢).

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيلٌ لِمَا ينالُه المغتابُ مِن عِرضِ المغتابِ على أفحشِ وَجهٍ مَع مُبالغاتِ الاستفهامِ المُقرِّرِ، وإسنادِ الفعلِ إلى (أحدٍ) للتَّعميمِ وتَعليقِ المحبَّةِ بما هوَ في غايةِ الكراهَةِ، وتمثيلِ الاغتيابِ بأكلِ لَحمِ الإنسانِ، وجعلِ المأكولِ أخًا ومَيْتًا وتعقيبِ ذلك بقولِه: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريرًا وتحقيقًا لذلك.

والمَعنى: إنْ صحَّ ذلك أو عُرِضَ عليكم هذا فقد كَرِهْتُموهُ ولا يمكنُكُم إنكارُ كَراهَتِه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٦٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
قال الترمذي: حسن غريب.
ورواه الطبراني في «الكبير» (١١٤٤٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٤): رواه الطبراني، ورجاله ثقات.
ورواه أبو يعلى في «مسنده» (١٦٧٥)، والروياني في «مسنده» (٣٠٥)، وتمام في «فوائده» (٢٤٢٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٨٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
ورواه الإمام أحمد (١٩٨٠١)، وأبو داود (٤٨٨٠)، والدارقطني في «العلل» (٦/ ٣٠٩)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (١٩٠) من حديث أبي برزة رضي الله عنه. وإسناده حسن.
ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٤٠٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه. وإسناده حسن.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وانتصابُ (ميتًا) على الحالِ مِن اللَّحمِ أو الأخِ. وشدَّدَهُ نافعٌ[١].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ لِمَن اتَّقى ما نَهى عنه وتابَ ممَّا فَرَطَ منه، والمبالغةُ في (التَّوَّابِ) لأنَّه بليغٌ في قَبولِ التَّوبةِ إذ يجعلُ صاحِبَها كمَنْ لَمْ يُذنِبْ، أو لِكَثْرةِ المَتوبِ عليهم، أو لكثرةِ ذُنوبِهم.

رُوِيَ أنَّ رَجُلَينِ مِن الصَّحابَةِ بَعَثا سلمانَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ يَبغي لهما إدامًا، وكان أسامَةُ على طعامِه فقال: ما عندِي شيءٌ، فأخبرَهُما سلمانُ فقالا: لو بعثناهُ إلى بئرِ سُمَيْحَةَ لغارَ ماؤُها، فلَمَّا راحا[٢] إلى رسولِ الله ﷺ قال لهما: «ما لي أَرَى خُضرَةَ اللحمِ في أفواهِكُما» فقالا: ما تَناوَلْنَا لحمًا، فقال: «إنَّكُما قَد اغتبتُما» فنزلَتْ[٣].

(١٣) ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ مِن آدمَ وحوَّاءَ، أو خَلَقْنا كُلَّ واحدٍ مِنْكُم مِن أبٍ وأُمٍّ فالكلُّ سَواءٌ في ذلك، فلا وجهَ للتَّفاخُرِ بالنَّسبِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ تقريرًا للأخوةِ المانعةِ عَن الاغتيابِ.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشَّعْبُ: الجمعُ العَظيمُ المُنتَسِبُونَ إلى أصلٍ واحدٍ وهو يَجمَعُ القبائلَ، والقبيلةُ تجمَعُ العَمائِرَ، والعَمارةُ تجمَعُ البُطونَ، والبطنُ يجمعُ الأفخاذَ، والفَخِذُ يجمَعُ الفَصائِلَ، فخزيمةُ شَعْبٌ، وكِنانةُ قَبيلَةٌ، وقريشٌ عمارةٌ، وقُصَيٌّ بطنٌ، وهاشِمٌ فَخِذٌ، وعبَّاسٌ فصيلَةٌ.

وقيل: الشُّعوبُ بُطونُ العَجَمِ، والقَبائِلُ بطونُ العربِ.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرِفَ بَعضُكُم بَعضًا لا للتَّفاخُرِ بالآباءِ والقَبائِلِ.

---

(١) وبالتشديد أي: (ميِّتاً) قرأ أيضاً أبو جعفر ورويس، انظر: «السبعة»(ص: ٦٠٦)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

(٢) في نسخة الخيالي: «رجعا».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٨٠ـ ٣٨١) والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٤)، بلا إسناد. ورواه بنحوه أبو القاسم الأصفهاني في «الترغيب والترغيب» (٢٢٣١) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

وقُرِئَ: ﴿لتَّعَارَفُوا﴾ بالإدغامِ[١]، و: (لتَتعارَفُوا)[٢]، و: (لِتَعْرِفُوا)[٣].

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ فإنَّ التَّقوى بها تكمُلُ النُّفوسُ وتَتفاضَلُ الأشخاصُ، فمَنْ أرادَ شَرَفًا فليلتَمِسْ مِنْها، كما قالَ عليهِ السَّلامُ: «مَن سَرَّهُ أن يكونَ أكرمَ النَّاسِ فليَتَّقِ اللهَ»[٤].

وقال عليه السلام: «يا أيُّها النَّاسُ إنَّما النَّاسُ رَجُلانِ مُؤمِنٌ تَقِيٌّ كريمٌ على اللهِ، وفاجِرٌ شَقِيٌّ هينٌ على اللهِ»[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بِكُم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببَواطِنِكُم.

(١٤) ـ ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ نزلَتْ في نفرٍ مِن بني أسدٍ قَدِمُوا المدينةَ في سَنةٍ

---

(١) هي قراءة البزي، انظر: «التيسير» (ص: ٨٣).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ض: ١٤٤) عن بعض المصاحف.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٤)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨٠)، عن ابن عباس وأبان عن عاصم.

(٤) رواه عبد بن حميد في «مسنده» (٦٧٥)، والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (١٠٧٠ ـ زوائد الهيثمي)، والحاكم في «المستدرك» (٧٧٠٧) وصححه، من طريق هشام بن زياد أبي المقدام عن محمد بن كعب عن ابن عباس أتم منه، قال البيهقي في «الزهد» كما في «نصب الراية» (٣/ ٦٢) و«الكافي الشاف» (ص: ١٥٨): تكلموا في هشام بسبب هذا الحديث، وأنه كان يقول: حدثني يحيى عن محمد بن كعب، ثم ادعى أنه سمعه من محمد بن كعب، ثم أخرجه البيهقي من طريق عبد الجبار بن محمد العطاردي ـ والد أحمد ـ عن عبد الرحمن الضبي عن القاسم بن عروة عن محمد بن كعب عن ابن عباس يرفع الحديث نحوه.

(٥) رواه الترمذي (٣٢٧٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٨٢٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال الترمذي: وقال: عبد الله بن جعفر يُضعَّف، ضعَّفه يحيى بن معين وغيره.

جَدبةٍ وأظهَرُوا الشَّهادَتَينِ، وكانوا يَقُولونَ لرَسُولِ اللهِ ﷺ: أتيناكَ بالأثقالِ والعِيالِ ولَمْ نُقاتِلْكَ كمَا قاتلكَ بنو فُلانٍ. يريدونَ الصَّدقَةَ ويَمُنُّونَ[١].

﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ إذ الإيمانُ تَصديقٌ مع ثقةٍ وطُمأنينةِ قلبٍ ولم يَحصُلْ لَكُم، وإلَّا لَمَا مَنَنْتُم على الرَّسولِ بالإسلامِ وتركِ المقاتلةِ كما دلَّ عليه آخرُ السُّورةِ.

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ فإنَّ الإسلامَ انقيادٌ ودُخولٌ في السِّلمِ، وإظهارُ الشَّهادةِ وتركُ المحاربةِ يُشعِرُ به.

وكان نظمُ الكلامِ أَنْ يقول: لا تقولُوا آمنَّا ولكن قولُوا أسلَمْنَا أو لم تُؤمِنُوا ولكن أسلَمْتُم، فعدَلَ منه[٢] إلى هذا النَّظمِ احتِرازًا مِن النَّهيِ عن القولِ بالإيمانِ والجزمِ بإسلامِهم وقد فُقِدَ شرطُ اعتبارِه شرعًا.

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ توقيتٌ لـ﴿قُولُوٓاْ﴾ فإنَّه حـالٌ مِن ضميرِه؛ أي: ولكِن قولوا أسلَمْنَا ولم تُواطِئْ قلوبُكُم ألسِنَتَكُم بَعدُ.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاصِ وتَـركِ النِّفاقِ ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾ لا ينقصْكُم مِن أُجورِها ﴿شَيۡـًٔا﴾ مِن لاتَ لَيْتًا: إذا نقصَ.

وقرأ البَصرِيَّانِ: ﴿لا يَأْلِتْكُم﴾[٣] مِن الأَلْتِ، وهو لغةُ غطفانَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَا فرَطَ مِنَ المُطِيعِينَ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتَّفضُّلِ عَليهِم.

(١٥) ـ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ لم يَشُكُّوا، مِن

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٠٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٩).

(٢) في نسخة الخيالي: «عنه».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٦)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢)، قال الداني: قرأ أبو عمرو: ﴿يَأْلِتكُم﴾ بهمزة ساكنة بعد الياء، وإذا خفف أبدلها ألفاً، والباقون بغير همز ولا ألف.

ارتابَ مطاوعُ رابَه: إذا أوقعَهُ في الشَّكِّ معَ التُّهمةِ، وفيه إشارةٌ إلى ما أوجبَ نفيَ الإيمانِ عَنْهُم، و(ثمَّ) للإشعارِ بأنَّ اشتراطَ عدمِ الارتيَابِ في اعتِبارِ الإيمانِ ليس حالَ الإيمانِ فقط، بل وفيما يُستقبلُ فهيَ كمَا في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

﴿وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعَتِه، والمُجاهدةُ بالأَموالِ والأَنفُسِ تَصلُحُ للعباداتِ الماليَّةِ والبَدَنيَّةِ بأسرِهَا.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ الذين صَدقُوا في ادِّعاءِ الإيمانِ.

(١٦) ـ ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أتخبرونَه به بقولِكُم: آمنَّا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تَخفى عليهِ خافِيَةٌ.

وهو تَجهيلٌ لَهُم وتَوبيخٌ.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا نَزَلَتْ الآيةُ المُتقدِّمَةُ جاؤُوا وحَلفُوا أنَّهُم مُؤمِنُونَ مُعتَقِدُونَ، فنزلَتْ هذه[1].

(١٧) ـ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ يَعدُّونَ إسلامَهُم عليكَ مِنَّةً وهي النِّعمَةُ التي لا يَستثيبُ مُولِيهَا ممَّنْ يُزلُّها إليهِ، مِن المَنِّ بمَعنى القَطعِ؛ لأنَّ المَقصودَ بها قطعُ حاجَتِه.

وقيل: النِّعمَةُ الثَّقيلَةُ مِن المنِّ.

﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم﴾ أي: بإسلامِكُم، فنُصِبَ بنزعِ الخافضِ، أو تَضمُّنِ الفعلِ مَعنى الاعتدادِ.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ على ما زَعَمْتُم مع[2] أنَّ الهدايةَ لا تستلزِمُ الاهتداءَ.

---

(١) انظر: «الوجيز» للواحدي (ص: ١٠٢٠)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٣٥١)، و«التيسير في التفسير» (١٣/ ٥٢٦).

(٢) في نسخة التفتازاني: «من».

وقُرِئَ: (إنْ هَداكُم) بالكسرِ[١]، و(إذ هَداكُم)[٢].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ادِّعاءِ الإيمانِ، وجوابُهُ مَحذوفٌ يدلُّ عليه ما قبلَه؛ أي: فـلِلَّهِ المنَّةُ عليكُم.

وفي سياقِ الآيةِ لُطفٌ وهو أنَّهُم لَمَّا سَمَّوا ما صدرَ عنهم إيمانًا ومَنُّوا به، فنَفى أنَّه إيمانٌ وسَمَّاهُ إسلامًا بأنْ قال[٣]: يمنُّونَ عليكَ بما هوَ في الحقيقةِ إسلامٌ وليسَ بجَديرٍ أن يُمَنَّ عليكَ، بـل لو صَحَّ ادِّعاؤُهم للإيمانِ[٤] فلِلَّهِ المنَّةُ عليهِم بالهدايةِ لهُ لا لَهُم.

(١٨) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غابَ فيهِما.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سِرِّكُم وعَلانيتِكُم فكيفَ يَخْفَى عليه ما في ضَمَائِرِكُم؟!

وقرأَ ابنُ كثيرٍ بالياءِ لِمَا في الآيةِ مِن الغَيْبَةِ[٥].

عن النبيِّ ﷺ: «مَـن قـرأَ سورَةَ الحجراتِ أُعطِيَ مِن الأجرِ بعددِ مَن أطاعَ اللهَ وعصَاهُ»[٦].

* * *

(١) انظر: «الكشاف» (٨/ ٣٩٦)، وفي «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٤): (يمنون عليك إن أسلموا).

(٢) وهي قراءة ابن مسعود، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٤)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤٤).

(٣) «بأن»: ليس في نسخة الفاروقي والتفتازاني. وفي هامش نسخة الفاروقي نسخة: «بأن قال».

(٤) في نسخة التفتازاني والخيالي: «الإيمان».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٧)، و«التيسير» (ص: ٢٠٢).

(٦) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٣٤)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٩)، وهو قطعة من الحديث الطويل الموضوع المروي عن أبي بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ١٠٠٦).

(٤٩) سُورَةُ الحُجُرَاتِ مَدَنِيَّة وآيَاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

هذه آيات أدّب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون بـه الرسول ﷺ من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام، فقال تبارك وتعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بـين يدي الله ورسوله ﴾ أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه أي قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور. قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه[1]، وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه، وقال الضحّاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم، وقال الحسن البصري: لا تدعوا قبل الإمام، وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا وكذا، لو صح كذا، فكره الله تعالى ذلك، ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما أمركم به ﴿ إن الله سميع ﴾ أي لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ بنياتكم، وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ هذا أدب ثان أدّب الله تعالى به المؤمنين، أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين (أبي بكر) و (عمر) رضي الله عنهما، روى البخاري عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا (أبو بكر) و (عمر) رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ، حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه،

---

(١) وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن المراد من الآية الكريمة ﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة والقول الآخر هو رواية العوفي عنه وهو الأقوى والأرجح.

فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ قال ابن الزبير: فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه »[1]. وفي رواية أخرى له قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمّر (القعقاع بن معبد)، وقال عمر رضي الله عنه: بل أمّر (الأقرع بن حابس)، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر رضي الله عنه: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما: فنزلت في ذلك: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم﴾ الآية، أخرجه البخاري.

وروى الحافظ البزار، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: « لما نزلت هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ قلت: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار ». وروى البخاري، عن أَنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ افتقد (ثابت بن قيس) رضي الله عنه، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال: كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: « اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة »[2].

وروى الإمام أحمد، عن أَنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي – إلى قوله – وأنتم لا تشعرون﴾، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت، فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ، أنا من أهل النار، حبط عملي، وجلس في أهله حزيناً، ففقده رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه، فقالوا له: تَفقَّدك رسول الله ﷺ، مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ: « لا، بل هو من أهل الجنة ». قال أَنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تعوّدون أقرانكم، فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه[3]. وفي رواية: فقال له النبي ﷺ: « أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟ » فقال: رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ، قال: وأنزل الله تعالى: ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾[4] الآية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

(٤) ذكر هذه الرواية ابن جرير رحمه الله تعالى.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين، كذلك فقد نهى الله عزّ وجلّ عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً. وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام، لأنه محترم حياً، وفي قبره ﷺ دائماً، ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾، كما قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: «إن الرجل ليتكلم الكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض»[1]، ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك ورشد إليه ورغب فيه، فقال: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ أي أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾. وعن مجاهد قال: كُتِب إلى عمر، يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾[2].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف الأعراب فقال: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾، ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك، فقال عزّ وجلّ: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة، والمصلحة في الدنيا والآخرة، ثم قال جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ﴿والله غفور رحيم﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه نادى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية: يا رسول الله، فلم يجبه، فقال: يا رسول الله إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال: «ذاك الله عزّ وجلّ»[3]. وعن البراء في قوله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن حمدي زين وذمي شين، فقال ﷺ: «ذاك الله عزّ وجلّ»[4]، وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعش بجناحه، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته

(١) رواه مسلم وأخرجه أحمد والترمذي والنسائي بنحوه.
(٢) أخرجه أحمد في كتاب الزهد.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.
(٤) أخرجه ابن جرير.

بما قالوا، فجاءوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد .. يا محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ قال: فأخذ رسول الله ﷺ بإذني فمدها، فجعل يقول: « لقد صدّق الله تعالى قولك يا زيد، لقد صدّق الله قولك يا زيد »[1] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، وقد نهى الله عزّ وجلّ عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال، لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في (الوليد بن عقبة بن أبي معيط) حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، وقد روي ذلك من طرق :

قال الإمام أحمد، عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي رضي الله عنه قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إليهم، فأدعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، وترسل إليّ يا رسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول، ولم يأته، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله، فدعا بسروات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقّت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله، ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ (الوليد بن عقبة) إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق - أي خاف - فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فغضب رسول الله ﷺ، وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك (الوليد بن عقبة) فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال رضي الله عنه: لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما رأيته بتة، ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: « منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ » قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كونت سخطة من الله تعالى ورسوله.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير .

قال: فنزلت الحجرات: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ - إلى قوله - حكيم﴾[١] .

وروى ابن جرير، عن أُم سلمة رضي الله عنها قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلاً في صدقات بني المصطلق بعد الوقيعة، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ قالت، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم، فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون، قالت: فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله تعالى ومن رسوله ﷺ، فلم يزالوا يكلمونه، حتى جاء بلال رضي الله عنه، فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[٢] ؟

وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله ﷺ (الوليد بن عقبة) إلى بني المصطلق ليصدقهم، فتلقوه بالصدقة فرجع، فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك، زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً. فبعث عيونه، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضي الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد رضي الله عنه فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وكذا ذكر غير واحد من السلف، أنها نزلت في (الوليد بن عقبة)، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله، فعظّموه ووقّروه وتأدّبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم، كما قال سبحانه: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ أي حببه إلى نفوسكم، وحسّنه في قلوبكم، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية والإيمان في القلب»، ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول: «التقوى ههنا، التقوى ههنا»[٣]، ﴿وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار، والعصيان وهي جميع المعاصي وهذا تدريج لكمال النعمة، وقوله تعالى: ﴿أولئك هم الراشدون﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم، عن أبي رفاعة الزرقي، عن أبيه قال: لما كان يوم أُحُد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثني على ربي عزّ وجلّ»، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال ﷺ: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن أبي حاتم والطبراني.

(٢) أخرجه ابن جرير من حديث أم سلمة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، اللهم أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذّبون رسلك، ويصدّون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أُوتوا الكتاب إله الحق»[1]. وفي الحديث المرفوع: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»، ثم قال: ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ أي هذا العطاء الذي منحكموه، هو فضل منه عليكم، ونعمة من لدنه ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية، ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره، على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج والمعتزلة، وهكذا ثبت أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن ابن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أُخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[2]. فكان كما قال ﷺ، أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة، وقوله تعالى: ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ أي حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه».

وروى الإمام أحمد، عن أَنَس رضي الله عنه قال، قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أُبي، فانطلق إليه النبي ﷺ، وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال: إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي

(١) أخرجه الإمام أحمد والنسائي.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه.

والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾[1] . وذكر سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما، وقال السدي: كان رجل من الأنصار يقال له عمران، كانت له امرأة تدعى أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها، وجعلها في علية له، لا يدخل عليها أحد من أهلها، وإن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها، لينطلقوا بها، وإن الرجل كان قد خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه الآية، فبعث إليهم رسول الله ﷺ، وأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله تعالى.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ أي اعدلوا بينهما بالقسط وهو العدل ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾، روى ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ: قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عزّ وجلّ بما أقسطوا في الدنيا»[2] . وعن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا»[3]. وقوله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ أي الجميع أخوة في الدين كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمهُ ولا يسلمه»، وفي الصحيح: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»، وفي الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك بمثله» والأحاديث في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ يعني الفئتين المقتتلتين ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾. وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرًا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»، والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له، ولهذا قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أي لا تلمزوا الناس، والهماز اللمّاز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى: ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾، والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أي لا يطعن بعضكم على بعض، وقوله تعالى: ﴿ ولا تنابزوا

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري بنحوه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والنسائي.
(٣) أخرجه مسلم والنسائي وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو.

بالألقاب﴾ أي لا تداعوا بالألقاب وهي التي يسوء الشخص سماعها، قال الشعبي: حدثني أبو جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾[1]، وقوله جلّ وعلا: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿ومن لم يتب﴾ أي من هذا ﴿فأولئك هم الظالمون﴾.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك! ما أعظمك وأعظم حرمتك! والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً»[2]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[3].

وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[4]. وروى الطبراني، عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن»، فقال رجل: وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»[5]. وروى أبو داود، عن زيد رضي الله عنه قال: أُتي ابن مسعود رضي الله عنه برجل فقيل له هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله رضي الله عنه: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به»[6].

وروى الإمام أحمد، عن أبي الهيثم عن دجين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة إن لنا جيراناً يشربون الخمر،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود.

(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه.

(٣) أخرجه البخاري والإمام مالك.

(٤) أخرجه مسلم والترمذي وصححه.

(٥) رواه الطبراني.

(٦) رواه أبو داود وسماه ابن أبي حاتم في روايته (الوليد بن عقبة).

وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم، قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم، قال: ففعل فلم ينتهوا، قال، فجاءه دجين، فقال: إني قد نهيتهم وإني داع لهم الشرط، فتأخذهم، فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها»[1]. ﴿ولا تجسسوا﴾ أي على بعضكم بعضاً، والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال عزّ وجلّ إخباراً عن يعقوب: ﴿يا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله﴾. وقال الأوزاعي: التجسس البحث عن الشيء، والتحسس الاستماع إلى حديث القوم، أو يتسمع على أبوابهم، والتدابر: الصرم.

وقوله تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ فيه نهي عن الغيبة، وقد فسّرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود، عن أبي هريرة، قال، قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد أغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه». وعن عائشة رضي الله عنها قالت، قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، تعني قصيرة، فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنساناً، فقال ﷺ: «ما أحب أني حكيت إنساناً، وإن لي كذا وكذا»[2]. والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له بئس أخو العشيرة»، وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصعلوك وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»، وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال عزّ وجلّ: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذاك شرعاً، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

وروى أبو داود، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: كل المسلم على المسلم حرام، ماله، وعرضه، ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[3]. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها، أو قال: في خدورها، فقال: «يا معشر من آمن بلسانه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»[4].

(**طريق أخرى**): عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب.

(٤) رواه الحافظ أبو يعلى وأبو داود بنحوه.

يفضحه ولو في جوف رحله »، قال، ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك.

عن أَنَس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم »[١]، وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد الخدري قال، قلنا: يا رسول الله حدّثنا ما رأيت ليلة أسري بك؟ قال: « ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء، موكل بهم رجال يعمدون إلى عرض جنب أحدهم، فيجذون منه الجذة مثل النعل، ثم يضعونها في فيِّ أحدهم، فيقال له: كل كما أكلت — وهو يجد من أكله الموت يا محمد لو يجد الموت وهو يكره عليه — فقلت: يا جبرائيل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون اللمازون أصحاب النميمة، فيقال ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ وهو يكره على أكل لحمه ».

وروى الحافظ البيهقي، عن عبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن ههنا امرأتين صامتا، وإنهما كادتا تموتان من العطش، أراه قال بالهاجرة، فأعرض عنه أو سكت عنه، فقال: يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا، أو كادتا تموتان، فقال: « ادعهما »، فجاءتا، قال، فجيء بقدح أو عس، فقال لإحداهما: « قيئي »، فقاءت من قيح ودم وصديد، حتى قاءت نصف القدح، ثم قال للأخرى: « قيئي »، فقاءت قيحاً ودماً وصديداً ولحماً ودماً عبيطاً وغيره، حتى ملأت القدح، ثم قال: « إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس »[٢]. وروى الحافظ أبو يعلى، عن ابن عمر أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فأعرض عنه، حتى قالها أربعاً، فلما كان في الخامسة قال: « زنيت؟ » قال: نعم، قال: « وتدري ما الزنا؟ » قال: نعم، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً، قال: « ما تريد إلى هذا القول؟ » قال: أريد أن تطهّرني، قال، فقال رسول الله ﷺ: « أدخلت ذلك منك في ذلك منها، كما يغيب الميل في المكحلة والرشا في البئر؟ » قال: نعم يا رسول الله، قال، فأمر برجمه فرُجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رَجْمَ الكلب؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مرَّ بجيفة حمار، فقال: « أين فلان وفلان؟ إنزلا. فكلا من جيفة هذا الحمار »، قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال ﷺ: « فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها »[٣].

وروى الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: « أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس؟ »[٤] وقوله عزّ وجلّ: ﴿واتقوا

(١) أخرجه أبو داود والإمام أحمد.

(٢) أخرجه الحافظ البيهقي والإمام أحمد.

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى وإسناده صحيح. (٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

الله﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه ، ﴿إن الله تواب رحيم﴾ أي تواب على من تاب إليه ﴿رحيم﴾ لمن رجع إليه واعتمد عليه، قال الجمهور من العلماء : طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ، ويعزم على أن لا يعود، وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه، وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله، فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، لتكون تلك بتلك، كما قال النبي ﷺ : « من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال »(١) . وقال رسول الله ﷺ : « ما من امرئ يخذل امرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه ، إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته، وما من امرئ ينصر امرأً مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله عزّ وجلّ في مواطن يحب فيها نصرته »(٢)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها وهما (آدم) و (حواء) وجعلهم شعوباً وهي أعم من القبائل، وبعدها مراتب أُخر ، كالفصائل والعشائر والأفخاذ وغير ذلك، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية ، إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة، واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته ، وقال مجاهد﴿لتعارفوا﴾ كما يقال فلان ابن فلان من قبيلة كذا وكذا، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر »(٣) . وقوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب .

وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ . فروى البخاري عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال: « أكرمهم عند الله أتقاهم » ، قالوا: ليس على هذا نسألك، قال: « فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله ابن خليل الله » ، قالوا: وليس عن هذا نسألك، قال: « فعن معادن العرب تسألوني » ؟ قالوا: نعم، قال: « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » . (**حديث آخر**) : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم

---

(١) أخرجه أبو داود وأحمد .

(٢) أخرجه أبو داود .

(٣) أخرجه الترمذي وقال : حديث غريب .

وأعمالكم »[1]. (**حديث آخر**): وروى الإمام أحمد ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال إن النبي ﷺ قال له: « أنظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلّا أن تفضله بتقوى الله »[2] . (**حديث آخر**) : وعن حبيب بن خراش العصري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى »[3] . (**حديث آخر**) : وعن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان »[4] . (**حديث آخر**) : قال ابن أبي حاتم، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل ، ثم قال: « يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هيّنٌ على الله تعالى، إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ » . ثم قال ﷺ : « أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »[5] . وقوله تعالى: ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أي عليم بكم خبير بأموركم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير .

* ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً على الأعراب، الذين ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾، وقد استفيد أن الإيمان أخص من الإسلام، ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم، إلى الأخص، روى الإمام أحمد، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه مسلم وابن ماجة .
(٢) تفرد به أحمد .
(٣) أخرجه الطبراني .
(٤) أخرجه البزار في مسنده .
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم وعبد بن حميد .

أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً وهو مؤمن، فقال النبي ﷺ: «أو مسلم؟» حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم؟»، ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجالاً وأدع من هو أحبُّ إليَّ منهم، فلم أعطه شيئاً مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم»، فقد فرّق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام، ودل على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً، لأنه تركه من العطاء، ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك، وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك، وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾: أي استسلمنا خوف القتل والسبي، قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة، وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ، **والصحيح** الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يحصل لهم بعد فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد، ثم قال تعالى: ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله عزّ وجلّ: ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي لمن تاب إليه وأناب.

وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون﴾ أي إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ أي لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم﴾ أي أتخبرونه بما في ضمائركم؟ ﴿والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿والله بكل شيء عليم﴾. ثم قال تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم﴾ يعني الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم على الرسول ﷺ، يقول الله تعالى رداً عليهم: ﴿قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ولله المنة عليكم فيه، ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ أي في دعواكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ. وروى الحافظ البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق على ألسنتهم»، ونزلت هذه الآية: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾، ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون﴾.

[آخر تفسير سورة الحجرات، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة]

تفسير سورة الحجرات

وهى مدنية[(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾ .

هذه آداب[(٢)] ،أدب بها الله عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [وَاتَّقُوا اللَّهَ][(٣)]﴾، أى: لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه، أى: قبله، بل كونوا تبعا له فى جميع الأمور، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى حديثُ معاذ، [إذ][(٤)] قال له النبى ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد رأيى، فضرب فى صدره وقال: «الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله، لما يرضى رسول الله».

وقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه[(٥)]. فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال العَوْفى عنه: نهى[(٦)] أن يتكلموا بين يدى كلامه.

وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشىء، حتى يقضى الله على لسانه.

وقال الضحاك: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

وقال سفيان الثورى: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقول ولا فعل.

---

(١) فى أ: «وهى مدنية ثمان عشرة آية».
(٢) فى م: «آيات».
(٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من ت، وفى أ: «حيث».
(٥) سبق الكلام عليه فى مقدمة الكتاب.
(٦) فى ت، م، أ: «نهوا».

وقال الحسن البصرى: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: لا تدعوا قبل الإمام.

وقال قتادة: ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون: لو أنزل فى كذا كذا، وكذا لو صنع كذا، فكره الله ذلك، وتقدم فيه.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أى: لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتكم.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألاّ يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى ﷺ [فوق صوته] [١] . وقد روى أنها نزلت فى الشيخين أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما.

وقال البخارى: حدثنا بَسْرَة بن صفوان اللَّخْمِى، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبى مُلَيْكَة قال: كاد الخيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبى ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر ـ قال نافع: لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافى. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما فى ذلك، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعنى أبا بكر، رضى الله عنه. انفرد به دون مسلم[٢].

ثم قال البخارى: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حَجَّاج، عن ابن جُرَيْج، حدثنى ابن أبى مليكة: أن عبد الله بن الزبير أخبره: أنه قَدم ركب من بنى تميم على النبى ﷺ، فقال أبو بكر: أَمّر القعقاعَ بن مَعْبد. وقال عمر: بل أَمّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلى ـ أو: إلا ـ خلافى. فقال عمر: ما أردتُ خلافَك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت فى ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، حتى انقضت الآية، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الحجرات: ٥].

وهكذا رواه هاهنا منفردا به أيضا[٣].

وقال[٤] الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حصين بن عُمَر، عن مُخَارق، عن طارق بن شهاب، عن أبى بكر الصديق قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ،قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخى السّرار[٥].

---

(١) زيادة من ت، م، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٥).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٧).

(٤) فى ت: «وروى».

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٥٧) «كشف الأستار» وقال: «لا نعلمه يروى متصلاً إلا عن أبى بكر، وحصين حدث بأحاديث لم يتابع عليها، ومخارق مشهور، ومن عداه أجلاء».

حصين بن عمر هذا ـ وإن كان ضعيفًا ـ لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف، وأبى هريرة [رضى الله عنه][١] بنحو ذلك، والله أعلم[٢].

وقال البخارى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عون، أنبأنى موسى ابن أنس[٣]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده فى بيته مُنَكِّسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبى ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبى ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» تفرد به البخارى من هذا الوجه[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا[٥] سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى: ﴿وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ حبط عملى، أنا من أهل النار، وجلس فى أهله حزينا، ففقده رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال: أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار. فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قُتل[٦] [٧].

وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البُنانى، عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت فى بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبى ﷺ، فقال[٨] النبى ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» فقال سعد: إنه لجارى، وما علمت له بشكوى. قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله[٩] ﷺ، فقال ثابت: أُنْزِلَت هذه الآية، ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل، هو من أهل الجنة».

---

(١) زيادة من أ.

(٢) أما حديث أبى هريرة، فرواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٦٢) من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عنه، وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٣) فى ت: «وروى البخارى بسنده».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٦).

(٥) فى ت: «ابن».

(٦) فى ت: «حتى قتل رحمه الله».

(٧) المسند (٣/ ١٣٧).

(٨) فى م: « فسأل».

(٩) فى م: «النبى».

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد[١] الدارمى، عن حَيَّان بن هلال، عن سليمان بن المغيرة، به، قال: ولم يذكر سعدَ بن معاذ. وعن قطن بن نُسَير عن جعفر بن سليمان[٢]، عن ثابت، عن أنس بنحوه. وقال: ليس فيه ذكر سعد بن معاذ.

حدثنا هُرَيم[٣] بن عبد الأعلى الأسدى، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبى يذكر، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية، واقتص الحديث، ولم يذكر سعد بن معاذ، وزاد: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا رَجلٌ من أهل الجنة[٤].

فهذه الطرق الثلاث مُعَلّلة لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بنى قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت فى وفد بنى تميم، والوفود إنما تواتروا فى سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شمَّاس، حدثنى عمى إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ قال: قعد ثابت بن قيس[٥] فى الطريق يبكى، قال: فمر به عاصم بن عدى من بنى العَجلان، فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية، أتخوف أن تكون نزلت فىَّ وأنا صيت، رفيع الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدى إلى رسول الله ﷺ قال: وغلبه البكاء، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبى بن سلول فقال لها: إذا دخلتُ بيت فَرَسى فشدّى عَلَيَّ الضبَّة بمسمار، فضربته بمسمار حتى إذا خرج عطفه، وقال: لا أخرج حتى يتوفانى الله، عز وجل، أو يرضى عنى رسول الله ﷺ. قال: وأتى عاصم رسولَ الله ﷺ فأخبره خبره، فقال: «اذهب فادعه لى». فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله فوجده فى بيت الفرَس، فقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك. فقال: اكسر الضبة. قال: فخرجا فأتيا[٦] النبى ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ثابت؟». فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فى: ﴿لا تَرْفَعُوا[٧] أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾. فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تَعيش حَميداً، وتقتل شهيدا، وتدخل الجنة؟». فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتى أبدا على صوت النبى ﷺ. قال: وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ[٨]﴾[٩].

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله عز وجل، عن رفع الأصوات

---

(١) فى أ: « سعد». (٢) فى م: «مسلم». (٣) فى م: «هدبة».
(٤) صحيح مسلم برقم (١١٩).
(٥) فى أ: «ثابت بن قيس بن شماس». (٦) فى أ: «حتى أتيا».
(٧) فى أ: «يأيها الذين آمنوا لاترفعوا». (٨) فى أ بعدها: ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ بدل «الآية».
(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٧٥).

بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][١] أنه سمع صَوت رجلين فى مسجد رسول الله[٢] ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا[٣].

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره فى حياته؛ لأنه محترم حيا وفى قبره، صلوات الله وسلامه عليه[٤]، دائما. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: ﴿**وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**﴾، كما قال: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾ [النور: ٦٣].

وقوله: ﴿**أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ أى: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدرى، كما جاء فى الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقى لها بَالاً يكتب له بها الجنة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقى لها بالا يَهْوِى بها فى النار أبعد ما بين السموات والأرض»[٥].

ثم ندب الله عز وجل[٦]، إلى خفض الصوت عنده، وحَثّ على ذلك، وأرشد إليه، ورغَّب فيه، فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى**﴾ أى: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلا، ﴿**لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾.

وقد قال[٧] الإمام أحمد فى كتاب الزهد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد، قال: كُتب إلى عمر [٨]: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها، أفضل، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر، رضى الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[٩].

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)** ﴾ .

ثم إنه تعالى ذَمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهى بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿**أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾.

ثم أرشد إلى الأدب فى ذلك فقال: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ أى:

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت، م: «النبى».
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٠) من طريق السائب بن يزيد فذكره.
(٤) فى ت: «ﷺ».
(٥) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٦) فى ت: «سبحانه وتعالى».
(٧) فى ت: «وقد روى».
(٨) فى ت: «عمر بن الخطاب رضى الله عنه».
(٩) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٥٥٢) وعزاه لأحمد فى الزهد.

لكان لهم فى ذلك الخيرة والمصلحة فى الدنيا والآخرة.

ثم قال داعيا لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد ذُكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى، فيما أورده غير واحد، قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا وُهَيْب، حدثنا موسى بن عقبة، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع ابن حابس؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال: يا محمد، يا محمد ـ وفى رواية: يا رسول الله ـ فلم يجبه. فقال: يا رسول الله، إن حمدى لزين، وإن ذمى لشين، فقال: «ذاك الله، عز وجل»[(١)].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عمار الحسين بن حُرَيْث المروزى، حدثنا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن أبى إسحاق[(٢)]، عن البراء فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: جاء رسول الله[(٣)] فقال: يا محمد، إن حمدى زين، وذمى شين. فقال: «ذاك الله، عز وجل»[(٤)].

وهكذا ذكره الحسن البصرى، وقتادة مرسلا.

وقال سفيان الثورى، عن حبيب بن أبى عَمْرَة قال: كان بِشْر بن غالب ولَبِيد بن عُطَارِد ـ أو بشر ابن عطارد ولبيد بن غالب ـ وهما عند الحجاج جالسان ـ فقال بشر بن غالب للبيد بن عُطَارِد: نزلت فى قومك بنى تميم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: أما إنه لو علم بآخر الآية أجابه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾[الحجرات: ١٧]، قالوا: أسلمنا، ولم يقاتلك بنو أسد[(٥)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عَمرو بن على الباهلى، حدثنا المعتمر بن سليمان: سمعت داود الطفاوى يحدث عن أبى مسلم[(٦)] البجلى[(٧)]، عن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكا نعش بجناحه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته: يا محمد، يا محمد. فأنزل الله [عز وجل][(٨)]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بأذنى فمدها، فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد».

---

(١) المسند (٣/٤٨٨)، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٠٨): «إسناد أحمد رجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع بن حابس، وإلا فهو مرسل».

(٢) فى ت: «وروى ابن جرير بسنده».

(٣) فى ت، أ: «رسول الله ﷺ».

(٤، ٥) تفسير الطبرى (٢٦/٧٧).

(٦) فى م، أ: «سلمة».

(٧) فى ت: « وروى ابن جرير بسنده».

(٨) زيادة من أ.

ورواه ابن جرير، عن الحسن بن عرفة، عن المعتمر بن سليمان، به[١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾.

يأمر تعالى بالتثبت فى خبر الفاسق ليُحتَاطَ له، لئلا يحكم بقوله فيكون ـ فى نفس الأمر ـ كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه فى نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال. وقد قررنا[٢] هذه المسألة فى كتاب العلم من شرح البخارى، ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق. وقد روى ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد فى مسنده من رواية ملك بنى المصطلق، وهو الحارث بن ضِرَار، والدجُوَيرية[٣] بنت الحارث أم المؤمنين، رضى الله عنها، قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى يقول: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعانى إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لى جمعت زكاته، ويُرسل إلىَّ رسول الله رسولا لإبَّان كذا وكذا ليأتيك ما جمَعتُ من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخْطَةٌ من الله ورسوله، فدعا بسَرَاوت قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقَّت لى وقتا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخُلْف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرَق ـ أى: خاف ـ فرجع فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفَصَل عن المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما

---

(١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٧٧)، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٢١٠) من طريق إسحاق بن راهويه عن معتمر بن سليمان به، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٠٨): «فيه داود الطفاوى وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات».

(٢) فى ت: «قررت».

(٣) فى أ: «ميمونة».

غشيهم قال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال: لا، والذى بعث محمدا بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتانى. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولى؟». قال: لا، والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى، وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله[١] ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمٌ﴾.

ورواه ابن أبى حاتم عن المنذر بن شاذان التمار، عن محمد بن سابق به. ورواه الطبرانى من حديث محمد بن سابق، به[٢]، غير أنه سماه الحارث بن سرار، والصواب: الحارث بن ضرار، كما تقدم.

وقال[٣] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جعفر بن عَوْن، عن موسى بن عبيدة، عن ثابت مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: بعث رسول الله ﷺ رجلا فى صدقات بنى المصطلق بعد الوقيعة[٤]، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قالت: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله[٥] فقال: إن بنى المصطلق قد منعونى[٦] صدقاتهم. فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون. قالت: فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ، فصفوا له حين صلى الظهر، فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً، فسررنا بذلك، وقرت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضبا من الله ومن رسوله، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر، قالت: ونزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[٧].

وروى ابن جرير أيضا من طريق العَوْفى، عن ابن عباس فى هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط إلى بنى المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله ﷺ، وإنه لما حُدِّثَ الوليد أنهم خرجوا يتلقونه، رجع الوليد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن بنى المصطلق قد منعوا الصدقة. فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضبا شديدا، فبينا هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله، إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. وإن النبى ﷺ استغشهم وهمّ بهم، فأنزل الله[٨] عذرهم فى الكتاب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ إلى آخر الآية[٩].

(١) فى ت: «احتبس على يا رسول الله».

(٢) المسند (٤/٢٧٩) والمعجم الكبير (٣/٢٧٤)، قال الهيثمى فى المجمع (٧/١٠٩): «رجال أحمد ثقات»، وهذا متعقب، فإن دينار والدعيسى لم يوثقه إلا ابن حبان، ولا يعرف له راويا غير ابنه عيسى.

(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى ت: «الوقعة». (٥) فى ت، م، أ: «رسول الله ﷺ».

(٦) فى ت، م: «منعوا».

(٧) تفسير الطبرى (٢٦/٧٨) وفى إسناده موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف، وثابت مولى أم سلمة مجهول.

(٨) فى م: «الله عز وجل».

(٩) تفسير الطبرى (٢٦/٧٨).

وقال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق ليُصدّقهم، فتلقوه بالصدقة، فرجع فقال: إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك ـ زاد قتادة: وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام ـ فبعث رسول الله خالد بن الوليد إليهم، وأمره أن يتثبت ولا يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلا، فبعث عيونه، فلما جاؤوا أخبروا خالدا أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذى يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأنزل الله هذه الآية. قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: «التّبيُّن من الله، والعَجَلَة من الشيطان».

وكذا ذكر غير واحد من السلف، منهم: ابن أبى ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل ابن حَيَّان، وغيرهم فى هذه الآية: أنها نزلت فى الوليد بن عقبة، والله أعلم(١).

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى: اعلموا أن بين أظهركم رسولَ الله فعظّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم. ورأيه فيكم أتّم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ النبي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

ثم بَيَّن [تعالى](٢) أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى: لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرَجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: حببه إلى نفوسكم وحسنه فى قلوبكم.

قال(٣) الإمام أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا على بن مَسْعَدة، حدثنا قتادة، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان فى القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا»(٤).

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أى: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهى: الذنوب

---

(١) وقد ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين، وهذا القول فيه نظر؛ فإن الروايات التى ساقت القصة معلولة، وأحسنها وهى رواية أحمد عن الحارث بن ضرار الخزاعى، فى إسنادها مجهول، وقد أنكر القاضى أبو بكر بن العربى فى كتابه «العواصم من القواصم» (ص١٠٢) هذه القصة قال: «وقد اختلف فيه، فقيل: نزلت فى ذلك ـ أى فى شأن الوليد. وقيل: فى على، والوليد فى قصة أخرى ـ وقيل: إن الوليد سيق يوم الفتح فى جملة الصبيان إلى رسول الله ﷺ فمسح رؤوسهم وبرك عليهم إلا هو فقال: إنه كان على رأسى خلوق، فامتنع ﷺ من مسه، فمن يكون فى مثل هذه السن يرسل مصدقا، وبهذا الاختلاف يسقط العلماء الأحاديث القوية، وكيف يفسق رجل هذا الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد ﷺ» وللشيخ عبد الرحمن المعلمى رحمه الله كلام على الوليد بن عقبة فى الأنوار الكاشفة (ص٢٦٣) أثبت فيه أنه لم يؤثر له رواية عن رسول الله ﷺ ومن جملة ما نفاه هذا الحديث الذى ذكره ابن العربى.

(٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٣/ ١٣٤) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ٥٢): «رجاله رجال الصحيح ما خلا على بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسى وأبو حاتم وابن معين وضعفه آخرون».

الكبار. والعصيان وهى جميع المعاصى. وهذا تدريج لكمال النعمة.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم.

قال[١] الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكى، عن ابن رفاعة الزرقى، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد[٢] وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربى، عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: «اللهم، لك الحمد كله. اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مُضل لمن هديت. ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول. اللهم، إنى أسألك النعيم يوم العَيْلَة، والأمن يوم الخوف. اللهم، إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا. اللهم، حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم، قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق».

ورواه النسائى فى اليوم والليلة عن زياد بن أيوب، عن مَرْوَان بن معاوية، عن عبد الواحد بن أيمن، عن عُبَيْد بن رِفاعة، عن أبيه، به[٣].

وفى الحديث المرفوع: «من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن»[٤].

ثم قال: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أى: هذا العطاء[٥] الذى منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾.

---

(١) فى ت: «روى». (٢) فى أ: «الحديبية».

(٣) المسند (٣/ ٤٢٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٤٤٥).

(٤) رواه أحمد فى مسنده (١/ ١٨) والترمذى فى السنن برقم (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٥) فى ت: «القضاء».

يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين المسلمين[١] الباغين بعضهم على بعض: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾**، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخارى وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت فى صحيح البخارى من حديث الحسن، عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن على، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٢]. فكان كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله: **﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾** أى: حتى ترجع إلى أمر الله [٣] وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت فى الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر قال: سمعت أبى يحدث: أن أنساً قال: قيل للنبى ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبى؟ فانطلق إليه نبى الله ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهى أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبى ﷺ قال: « إليك عنى، فوالله لقد آذانى ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾**.

ورواه البخارى فى «الصلح» عن مُسَدَّد، ومسلم فى «المغازى» عن محمد بن عبد الأعلى، كلاهما عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه، به نحوه[٥].

وذكر سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال، فأنزل الله هذه الآية، فأمر بالصلح بينهما.

وقال السدى: كان رجل من الأنصار يقال له: «عمران»، كانت له امرأة تدعى أم زيد[٦]، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها فى عُلِّيَّة له لا يدخل عليها أحد من أهلها. وإن المرأة بعثت إلى أهلها، فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وإن الرجل قد كان خرج، فاستعان أهل الرجل، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال، فنزلت فيهم هذه

(١) فى أ: «المقتتلين».
(٢) صحيح البخارى برقم (٢٧٠٤).
(٣) فى ت، م: «إلى أمر الله ورسوله».
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٤٣).
(٥) المسند (٣/١٥٧) وصحيح البخارى برقم (٢٦٩١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٩).
(٦) فى أ: «يزيد».

الآية. فبعث إليهم رسول الله ﷺ وأصلح بينهم، وفاؤوا إلى أمر الله.

وقوله: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أى: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى، حدثنا عبد الأعلى، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب[1]، عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدى الرحمن، بما أقسطوا فى الدنيا».

ورواه النسائى[2] عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، به[3]. وهذا إسناد جيد قوى، رجاله على شرط الصحيح.

وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما وَلُوا».

ورواه مسلم والنسائى، من حديث سفيان بن عيينة، به[4].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أى: الجميع إخوة فى الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[5]. وفى الصحيح: «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»[6]. وفى الصحيح أيضا: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله»[7]. والأحاديث فى هذا كثيرة، وفى الصحيح: « مثل المؤمنين فى تَوادِّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسَّهَر». وفى الصحيح أيضا: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه[8].

وقال أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنى أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد الساعدى يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما فى الرأس»[9]. تفرد به ولا بأس بإسناده.

---

(١) فى ت: « وروى ابن أبى حاتم بسنده». (٢) فى ت: «مسلم».

(٣) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٥٩١٧).

(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) وسنن النسائى (٨/ ٣٢١).

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٤٤٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٨٠) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٢) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٠١١) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٩) المسند (٥/ ٣٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٨٧): «رجال أحمد رجال الصحيح».

وقوله: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ يعنى: الفئتين المقتتلين، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فى جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ .

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبْر بطر الحق وغَمْص الناس» ويروى: «وغمط الناس»(١). والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، فنص على نهى الرجال وعطف بنهى النساء.

وقوله: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا تلمزوا الناس. والهمَّاز اللَّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال [تعالى](٢): ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١] أى: يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم، ويمشى بينهم بالنميمة وهى: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أى: لا يقتل بعضكم بعضا(٣).

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل بن حيَّان: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ أى: لا تتداعوا بالألقاب، وهى التى يسوء الشخص سماعها.

قال(٤) الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا داود بن أبى هند، عن الشعبى قال: حدثنى أبو جَبِيرة(٥) بن الضحاك قال: فينا نزلت فى بنى سلمة: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعىَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾.

ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، عن وُهَيْب، عن داود، به(٦).

وقوله: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ أى: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم(٧) فى الإسلام وعقلتموه، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾

(١) صحيح مسلم برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.
(٢) زيادة من ت. (٣) فى م: «أى: لا يطعن بعضكم على بعض». (٤) فى ت: « وروى».
(٥) فى ت: «عن أبى جبيرة».
(٦) المسند (٤/ ٢٦٠)، وسنن أبى داود برقم (٤٩٦٢)، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٦٨) من طريق داود بن أبى هند به، وقال الترمذى: «حديث حسن صحيح».
(٧) فى ت: «دخلوا».

أى: من هذا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾.

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثما محضا، فليجتنب كثير منه احتياطا، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرا، وأنت تجد لها فى الخير محملا[(١)].

وقال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا أبو القاسم بن أبى ضمرة نصر بن محمد بن سليمان الحِمْصى، حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن أبى قيس النَّضرى، حدثنا[(٢)] عبد الله بن عمر[(٣)] قال: رأيت النبى ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذى نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خير[(٤)]». تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه[(٥)].

وقال مالك، عن أبى الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن[(٦)] أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا».

رواه البخارى عن عبد الله بن يوسف، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن العتبى [ثلاثتهم][(٧)]، عن مالك، به[(٨)].

وقال سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن أنس [رضى الله عنه][(٩)] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

رواه مسلم والترمذى ـ وصححه ـ من حديث سفيان بن عيينة، به[(١٠)].

---

(١) رواه أحمد فى الزهد كما فى الدر المنثور (٧/ ٥٦٥).

(٢) فى ت: «وروى ابن ماجه بسنده عن». (٣) فى ت: «ابن عمر رضى الله عنه». (٤) فى ت،م: «خيرا».

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٩٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٢٣)، «هذا إسناد فيه مقال، نصر بن محمد ضعفه أبو حاتم وذكره ابن حبان فى الثقات، وباقى رجال الإسناد ثقات».

(٦) فى ت، م: « فإنه». (٧) زيادة من أ.

(٨) الموطأ (٢/ ٩٠٨)، وصحيح البخارى برقم (٦٠٦٦) ، وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣).

(٩) زيادة من ت.

(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٩) ، وسنن الترمذى برقم (١٩٣٥).

وقال(١) الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الله القرْمِطى العدوى، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدنى، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصارى، حدثنى عبد الرحمن بن محمد بن أبى الرجال، عن أبيه، عن جده حارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتى: الطِّيَرَةُ، والحسد، وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فأمض(٢)»(٣).

وقال(٤) أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن زيد قال: أتى ابن مسعود، رضى الله عنه، برجل(٥)، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به(٦).

سماه ابن أبى حاتم فى روايته الوليد بن عقبة بن أبى معيط(٧).

وقال(٨) الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا لَيْث، عن إبراهيم بن نَشِيط الخَوْلانى، عن كعب بن علقمة، عن أبى الهيثم، عن دُخَيْن كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيرانا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دخين فقال: إنى قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإنى داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دُخَين فقال: إنى قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإنى داع لهم الشرط فتأخذهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها».

ورواه أبو داود والنسائى من حديث الليث بن سعد، به نحوه(٩).

وقال سفيان الثورى، عن ثور، عن راشد بن سعد، عن معاوية قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم» أو: «كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ، نفعه الله بها. رواه أبو داود منفردا به من حديث الثورى، به(١٠).

وقال أبو داود أيضا: حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمى، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا ضَمْضَم بن زُرَعَة، عن شُرَيْح بن عبيد، عن جُبَيْر بن نُفَيْر، وكثير بن مُرَّة، وعمرو بن الأسود، والمقدام بن معد يكرب(١١)، وأبى أمامة، عن النبى ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس،

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت: « وإذا نظرت فاغضض»، وفى م، أ: «وإذا تطيرت فاعمض».
(٣) المعجم الكبير (٣/٢٢٨) ،قال الهيثمى فى المجمع (٨/٧٨): «فيه إسماعيل بن قيس الأنصارى وهو ضعيف».
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) لفظة «برجل» غير موجودة بسنن أبى داود.
(٦) سنن أبى داود برقم (٤٨٩٠).
(٧) وذلك لما أكثر الناس فى الوليد بن عقبة، وقد كان ابن مسعود على بيت المال فى ولاية الوليد بن عقبة فى عهد عثمان رضى الله عنه، وقصة جلد الوليد على الخمر مشهورة فى الصحيحين.
(٨) فى ت: «وروى».
(٩) المسند (٤/١٥٣) ،وسنن أبى داود برقم (٤٨٩٢) ،والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٢٨٣).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٨).
(١١) فى م: «معدى كرب».

أفسدهم»[(١)].

[وقوله][(٢)]: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ أى: على بعضكم بعضا. والتجسس غالبا يطلق فى الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالبا في الخير، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب [عليه السلام][(٣)] أنه قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، وقد يستعمل كل منهما فى الشر، كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»[(٤)].

وقال الأوزاعى: التجسس: البحث عن الشيء. والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابر: الصَّرْم. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: فيه نهى عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود: حدثنا القَعْنَبِى، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة [(٥)] قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

ورواه الترمذى عن قتيبة، عن الدَّرَاوَرْدى، به[(٦)]. وقال: حسن صحيح. ورواه ابن جرير عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن العلاء[(٧)]. وهكذا قال ابن عمر، ومسروق، وقتادة، وأبو إسحاق، ومعاوية بن قُرَّة.

وقال[(٨)] أبو داود: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنى على بن الأقمر، عن أبى حذيفة، عن عائشة قالت: قلت للنبى ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا !ـ قال غير مسدد: تعنى قصيرة ـ فقال: «لقد قلت كلمة لو مُزِجَتْ بماء. البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنسانا، فقال ﷺ: «ما أحب أنى حكيت إنساناً، وإن لى كذا وكذا».

ورواه الترمذى من حديث يحيى القَطَّان، وعبد الرحمن بن مَهْدِىّ، ووَكِيع، ثلاثتهم عن سفيان الثورى، عن على بن الأقمر، عن أبى حذيفة سلمة بن صهيبة الأرحبى، عن عائشة، به. وقال: حسن صحيح[(٩)].

وقال ابن جرير: حدثنى ابن أبى الشوارب: حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيبانى، حدثنا حسان بن المخارق[(١٠)]؛ أن امرأة دخلت على عائشة، فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها

---

(١) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٩).
(٢، ٣) زيادة من ت.
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٤٢).
(٥) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٦) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٤)، وسنن الترمذى برقم (١٩٣٥).
(٧) تفسير الطبرى (٢٦/٨٦).
(٨) فى ت: «وروى».
(٩) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٥)، وسنن الترمذى برقم(٢٥٠٢، ٢٥٠٣).
(١٠) فى ت: « وروى ابن جرير بسنده».

إلى النبى ﷺ ـ أى: إنها قصيرة ـ فقال النبى ﷺ: «اغتبتيها»[١].

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما فى الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ[٢]، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: « ائذنوا له، بئس أخو العشيرة»[٣]، وكقوله لفاطمة بنت قيس ـ وقد خطبها معاوية وأبو الجهم ـ: « أما معاوية فصعلوك [٤]، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»[٥]. وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد[٦]؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؟ أى: كما تكرهون هذا طبعا، فاكرهوا ذاك شرعا؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، فى العائد فى هبته: «كالكلب يقىء ثم يرجع فى قيئه»، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء». وثبت فى الصحاح[٧] والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال فى خطبة [حجة][٨] الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا»[٩].

وقال[١٠] أبو داود: حدثنا واصل بن عبد الأعلى، حدثنا أسباط بن محمد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ورواه الترمذى [١١] عن عبيد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به[١٢]. وقال: حسن غريب.

وحدثنا عثمان بن أبى شيبة[١٣]، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن سعيد بن عبد الله[١٤] بن جريج، عن أبى برزة الأسلمى قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته».

تفرد به أبو داود[١٥] .وقد روى من حديث البراء بن عازب، فقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن دينار، حدثنا مصعب بن سلام، عن حمزة بن حبيب الزيات، عن أبى إسحاق

---

(١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٨٧).
(٢) فى ت: « عليه السلام».
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣١٣٢) من حديث عائشة رضى الله عنها.
(٤) فى أ: «فصعلوك لا مال له».
(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٨٠).
(٦) فى ت، م: «الشديد».
(٧) فى ت، م: «الصحيح». (٨) زيادة من ت، م، أ.
(٩) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.
(١٠) فى ت: «وروى». (١١) فى ت: «رواه الترمذى وحسنه».
(١٢) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٢)، وسنن الترمذى برقم (١٩٢٧).
(١٣) فى ت: « وروى أبو داود». (١٤) فى أ: « عبيد الله».
(١٥) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٠).

السَّبيعي[١]، عن البراء بن عازب [٢] قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها ـ أو قال: في خدورها ـ فقال: « يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه[٣] في جوف بيته»[٤].

طريق أخرى عن ابن عمر: قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن دَلْهَم، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله». قال: ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، وللمؤمن أعظمُ حرمة عند الله منك[٥].

قال أبو داود: وحدثنا حَيْوَة بن شُرَيْح، حدثنا بَقِيَّة، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد؛ أنه حدثه: أن النبي ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في[٦] جهنم[٧]، ومن كُسي ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في[٨] جهنم. ومن قام برجل مقام سمعةٍ ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». تفرد به أبو داود[٩].

وحدثنا ابن مصفى، حدثنا بقية وأبو المغيرة قالا: حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل[١٠]؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم».

تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي، به[١١].

وقال[١٢] ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز ابن عبد الصمد العمي، حدثنا أبو هارون العَبْدِيّ، عن أبي سعيد الخدري [رضي الله عنه][١٣] قال: قلنا يا رسول الله، حَدّثنا ما رأيت ليلة أسريَ بك؟. . . قال: «ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء مُوَكَّل بهم رجال يعمدون إلى عُرْض جنَب أحدهم فَيَحْذُون منه الحُذْوَة من مثل النعل ثم يضعونه في فيّ أحدهم، فيقال له: «كل كما[١٤] أكلت»، وهو يجد من أكله الموت ـ يا

(١) في ت: «وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده بسنده».

(٢) في ت: «البراء بن عازب رضي الله عنه». (٣) في ت: «يفضحه ولو في».

(٤) مسند أبي يعلى (٣/ ٢٣٧) ،قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٩٣): «رجاله ثقات».

(٥) ورواه الترمذي في السنن برقم (٢٠٣٢) من طريق الفضل بن موسى به، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد».

(٦) في ت، م، أ: «من». (٧) في ت: «في نار جهنم». (٨) في أ: «من».

(٩) سنن أبي داود برقم (٤٨٨١).

(١٠) في ت، م: «جبريل».

(١١) سنن أبي داود برقم (٤٨٧٨)، والمسند (٣/ ٢٢٤) .

(١٢) في ت: «وروى». (١٣) زيادة من ت. (١٤) في ت: «ما».

محمد ـ لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت: يا جبرائيل[١]، من هؤلاء: قال: هؤلاء الهمَّازون اللمَّازون أصحاب النميمة. فيقال[٢]: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾وهو يكره على أكل لحمه.

هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله فى أول تفسير «سورة سبحان» ولله الحمد[٣].

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده: حدثنا الربيع، عن يزيد، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يصوموا يوما ولا يفطرن أحدٌ حتى آذن له. فصام الناس، فلما أمسوا جعل الرجل يجىء إلى رسول الله ﷺ فيقول: ظللت منذ اليوم صائما، فائذن لى. فأفطر فيأذن له، ويجىء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين، فائذن لهما فَلْيفْطرا فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول الله ﷺ: «ما صامتا، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس؟ اذهب، فمر هما إن كانتا صائمتين أن يستقيئا». ففعلتا، فقاءت كل واحدة منهما عَلَقَةً علقةً فأتى النبى ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار»[٤].

إسناد ضعيف، ومتن غريب. وقد رواه الحافظ البيهقى من حديث يزيد بن هارون: حدثنا سليمان التيمى قال: سمعت رجلا يحدث فى مجلس أبى عثمان النَّهْدِى عن عبيد ـ مولى رسول الله[٥] ـ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، وأن رجلا أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، إن هاهنا امرأتين صامتا، وإنهما كادتا تموتان من العطش ـ أراهُ قال: بالهاجرة ـ فأعرض عنه ـ أو: سكت عنه ـ فقال: يا نبى الله، إنهما ـ والله قد ماتتا أو كادتا تموتان[٦]. فقال: ادعهما. فجاءتا، قال: فجىء بقدح ـ أو عُسّ ـ فقال لإحداهما: قيئى. فقاءت من قيح ودم وصديد، حتى قاءت نصف القدح. ثم قال للأخرى: قيئى فقاءت قيحا ودما وصديدا ولحما ودما عبيطا وغيره حتى ملأت القدح. فقال: إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس.

وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبى عدى، كلاهما عن سليمان بن طرْخان التيمى، به مثله أو نحوه[٧]. ثم رواه أيضا من حديث مُسَدَّد، عن يحيى القَطَّان، عن عثمان بن غياث، حدثنى رجل أظنه فى حلقة أبى عثمان، عن سعد ـ مولى رسول الله ﷺ ـ أنهم أمروا بصيام، فجاء رجل فى نصف النهار فقال: يا رسول الله، فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد. فأعرض عنه مرتين أو ثلاثا، ثم قال: «ادعهما». فجاء بعُس ـ أو: قَدَحٍ ـ فقال لإحداهما: «قيئى»، فقاءت لَحماً ودماً عبيطا وقيحا، وقال للأخرى مثل ذلك، فقال: «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، أتت إحداهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما

---

(١) فى ت، م: «جبريل». (٢) فى أ: «فقال». (٣) عند الآية الأولى.
(٤) مسند الطيالسى برقم (٢١٠٧).
(٥) فى ت، م: «رسول الله ﷺ». (٦) فى ت: «أن تموتا».
(٧) المسند (٥/ ٤٣١) ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت برقم (١٧١) من طريق يزيد بن هارون عن سليمان التيمى به.

قيحا»[١].

وقال البيهقى: كذا قال «عن سعد»، والأول ـ وهو عبيد ـ أصح.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مَخْلَد، حدثنا أبى أبو عاصم، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرنى أبو الزبير[٢] عن ابن عَمّ لأبى هريرة أن ماعزاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد زنيت فأعرض عنه ـ قالها أربعا ـ فلما كان فى الخامسة قال: «زنيت»؟ قال: نعم. قال: «وتدرى ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتى الرجل من امرأته حلالا. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرنى. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك فى ذلك منها كما يغيب المِيل فى المكحلة والرِّشاء[٣] فى البئر؟» قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبى ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجُمَ رجم الكلب. ثم سار النبى ﷺ حتى مَرّ بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟ قال: فما نلتما من أخيكما[٤] آنفا أشد أكلا من، والذى نفسى بيده، إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها»[٥] [إسناده صحيح][٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنى أبى، حدثنا واصل ـ مولى ابن عيينة ـ حدثنى خالد بن عُرْفُطَة، عن طلحة بن نافع، عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبى ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين[٧]»[٨].

طريق أخرى: قال عبد بن حُميد فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن الأشعث، حدثنا الفُضيل بن عياض، عن سليمان، عن أبى سفيان ـ وهو طلحة بن نافع ـ عن جابر قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر فهاجت ريح منتنة[٩]، فقال النبى ﷺ: «إن نفراً من المنافقين اغتابوا ناسا من المسلمين، فلذلك بعثت هذه الريح» وربما قال: «فلذلك هاجت هذه الريح»[١٠].

وقال السدى فى قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: زعم أن سلمان الفارسى كان مع رجلين من أصحاب النبى ﷺ فى سفر يخدمهما ويخف لهما، وينال من طعامهما، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقى سلمان نائما، لم يسر معهم، فجعل صاحباه يكلمانه[١١] فلم يجداه، فضربا الخِباء فقالا: ما يريد سليمان ـ أو: هذا العبد ـ شيئا غير هذا: أن يجىء إلى طعام مقدور، وخباء مضروب! فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداما، فانطلق فأتى رسول

(١) المسند (٥/ ٤٣١).
(٢) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى بمسنده». (٣) فى ت، م، أ: «والعصا». (٤) فى ت: «من عرض أخيكما».
(٥) مسند أبى يعلى (٦/ ٥٢٤) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٨/ ٢٢٧) من طريق عمرو بن الضحاك به؛ ورواه أبو داود فى السنن برقم (٤٤٢٩) من طريق الضحاك به.
(٦) زيادة من ت. (٧) فى ت، أ: «الناس».
(٨) المسند (٣/ ٣٥١) قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٩١): «رجاله ثقات».
(٩) فى م: «ريح شديدة منتنة»
(١٠) المنتخب برقم (١٠٢٦).
(١١) فى م: «يكلماه».

الله [ﷺ][(١)] ومعه قَدَح له، فقال: يا رسول الله، بعثنى أصحابى لِتؤدمَهم إن كان عندك؟ قال: «ما يصنع أصحابك بالأُدْم؟ قد ائتدموا». فرجع سلمان يخبرهما بقول رسول الله ﷺ، فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فقالا: لا، والذى بعثك بالحق، ما أصبنا طعاما منذ نزلنا. قال: «إنكما قد ائتدمتما بسلمان بقولكما».

قال: ونزلت: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾، إنه كان نائما[(٢)].

وروى الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه «المختارة» من طريق حَبَّان بن هلال، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضا فى الأسفار، وكان مع أبى بكر وعمر رجل يخدمهما، فناما فاستيقظا ولم يهيىء لهما طعاما، فقالا: إن هذا لنؤوم، فأيقظاه، فقالا له: ائت رسول الله فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام، ويستأدمانك.

فقال: «إنهما قد ائتدما» فجاءا فقالا: يا رسول الله، بأى شىء ائتدمنا؟ فقال: «بلحم أخيكما، والذى نفسى بيده، إنى لأرى لحمه بين ثناياكما». فقالا: استغفر لنا يا رسول الله فقال: «مُرَاه فليستغفر لكما»[(٣)].

وقال[(٤)] الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا محمد بن مسلم، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يَسار، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل من لحم أخيه فى الدنيا، قُرِّب له لحمه فى الآخرة، فيقال له: كله مَيْتًا كما أكلته حَيًّا. قال: فيأكله ويكْلَح ويصيح». غريب جدا[(٥)].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه فى ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس فى توبته أن يُقلع[(٦)] عن ذلك، ويعزم على ألاّ يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذى اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا[(٧)] أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثنى عليه بما فيه فى المجالس التى كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون[(٨)] تلك بتلك، كما قال[(٩)] الإمام أحمد:

حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبد الله بن سليمان؛ أن إسماعيل بن يحيى المعَافرىّ أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنِىّ أخبره، عن أبيه، عن[(١٠)] النبى

(١) زيادة من ت.
(٢) رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٧/ ٥٧٠).
(٣) المختارة برقم (١٦٩٧). (٤) فى ت: «وروى».
(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٩٦١) «مجمع البحرين» من طريق محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق به، وقال: لم يروه عن ابن إسحاق إلا محمد بن سلمة، وقد وقع هنا «محمد بن مسلم» وأظنه تصحيفا، لكنى لا أستطيع الجزم بذلك، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٩٢): «فيه ابن إسحاق وهو مدلس ومن لم أعرفه».
(٦) فى م: «يرجع». (٧) فى ت: «لو». (٨) فى ت: «لتكون».
(٩) فى ت: «روى». (١٠) فى ت: «أن».

ﷺ قال: «من حمى مؤمنا من منافق يعيبه[١]، بعث الله إليه ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمنا بشيء يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال». وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله- وهو ابن المبارك ـ به بنحوه[٢].

وقال[٣] أبو داود أيضا: حدثنا إسحاق بن الصباح، حدثنا ابن أبى مريم، أخبرنا الليث: حدثنى يحيى بن سليم؛ أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول: سمعت جابر بن عبد الله، وأبا طلحة بن سهل الأنصارى يقولان: قال[٤] رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله فى مواطن يحب فيها نصرته. وما من امرئ ينصر امرأ مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته[٥]، إلا نصره الله فى مواطن يحب فيها نصرته». تفرد به أبو داود[٦].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجهاً، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوب، وهى أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

وقيل: المراد بالشعوب بطون العَجَم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بنى إسرائيل. وقد لخصت هذا فى مقدمة مفردة جمعتها من كتاب: «الإنباه» لأبى عمر[٧] بن عبد البر، ومن كتاب «القصد والأمم، فى معرفة أنساب العرب والعجم». فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهى طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منبها على تساويهم فى البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُو﴾ أى: ليحصل التعارف بينهم، كلٌ يرجع إلى قبيلته.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أى: من قبيلة كذا وكذا.

وقال سفيان الثورى: كانت حِمْير ينتسبون إلى مُخَاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

وقد قال[٨] أبو عيسى الترمذى: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد

(١) فى أ: «بغيبة».
(٢) المسند (٣/ ٤٤١) ، وسنن أبى داود برقم (٤٨٨٣).
(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى ت: «أن». (٥) فى أ: «عرضه».
(٦) سنن أبى داود برقم (٤٨٨٤).
(٧) فى م: «عمرو». (٨) فى ت: «وروى».

الملك ابن عيسى الثقفى، عن يزيد ـ مولى المنبعث ـ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة فى الأهل، مثراة فى المال، منسأة فى الأثر». ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه[١].

وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أى: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ:

قال[٢] البخارى، رحمه الله: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أى الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبى الله، ابن نبى الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألونى؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقِهُوا»[٣].

وقد رواه البخارى فى غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان[٤]. ورواه النسائى فى التفسير من حديث عبيد الله ـ وهو ابن عمر العمرى ـ به[٥].

حديث آخر: قال مسلم[٦]، رحمه الله: حدثنا عمرو الناقد، حدثنا كَثير بن هشام، حدثنا جعفر ابن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبى هريرة [٧] قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان، عن كَثير بن هشام، به[٨].

حديث آخر: وقال[٩] الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن أبى هلال، عن بكر، عن أبى ذر قال: إن النبى ﷺ قال له: « انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى[١٠] ». تفرد به أحمد[١١].

حديث آخر: وقال[١٢] الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكرى، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جَبَلة، حدثنا عبيد بن حنين الطائى، سمعت محمد بن حبيب بن خِرَاش العَصَرِىّ، يحدث عن أبيه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول[١٣]: «المسلمون إخوة، لا

(١) سنن الترمذى برقم (١٩٧٩).
(٢) فى ت: «فروى».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٩).
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٧٤، ٣٣٨٣).
(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٥٠).
(٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤)، وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣).
(٩) فى ت: «وروى».
(١٠) فى ت: «بتقوى الله».
(١١) المسند (٥/١٥٨).
(١٢) فى ت: «وروى».
(١٣) فى ت: «أن رسول الله ﷺ قال».

فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»[١].

حديث آخر: قال[٢] أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا أحمد بن يحيى الكوفى، حدثنا الحسن بن الحسين، حدثنا قيس ـ يعنى ابن الربيع ـ عن شبيب بن غَرْقَدَة[٣]، عن المستظل بن حصين، عن حذيفة [٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم. وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجِعْلان».

ثم قال: لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه[٥].

حديث آخر: قال[٦] ابن أبى حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا يحيى بن زكريا القطان، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القَصْواء يستلم الأركان[٧] بمحجن فى يده، فما وجد لها مناخاً فى المسجد حتى نزل ﷺ على أيدى الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت. ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل[٨] ثم قال: « يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله. إن الله يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ » ثم قال: «أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

هكذا[٩] رواه عبد بن حميد، عن أبى عاصم الضحاك بن مَخْلَد، عن موسى بن عبيدة، به[١٠].

حديث آخر: قال[١١] الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن على بن رباح عن عقبة بن عامر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طَفُّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بَذِيًا بخيلاً فاحشاً».

وقد رواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، عن ابن لَهيعة، به[١٢]. ولفظه: «الناس لآدم وحواء، طف الصاع لم يلؤه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

---

(١) المعجم الكبير (٤/ ٢٥) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٨٤): «فيه عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، وهو متروك».
(٢) فى ت: «وروى». (٣) فى أ: «عروة». (٤) فى ت: «عن حذيفة رضى الله عنه».
(٥) مسند البزار برقم (٣٥٨٤) ،وقال الهيثمى فى المجمع(٨/ ٨٦): «فيه الحسن بن الحسين العرنى، وهو ضعيف»
(٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت: «الركن». (٨) فى ت، أ: «بما هو أهله». (٩) فى ت: «وهكذا».
(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم (٧٩٣) وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف.
(١١) فى ت: «وروى».
(١٢) المسند (٤/ ١٥٨)، وتفسير الطبرى (٢٦/ ٨٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٨٤): «فيه ابن لهيعة وفيه لين، وبقية رجاله وثقوا».
قلت: الراوى عنه فى رواية الطبرى عبد الله بن وهب، فهذه متابعة قوية ليحيى بن إسحاق.

وليس هو فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه.

حديث آخر: قال[١] الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سِمَاك، عن عبد الله بن عَمِيرة زوج درة ابنة أبى لهب، عن درة بنت أبى لهب قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أى الناس خير؟ فقال ﷺ: «خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله، عز وجل، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم»[٢].

حديث آخر: قال[٣] الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو الأسود، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شىء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط، إلا ذو تقى. تفرد به أحمد رحمه الله[٤].

وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ أى: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير فى ذلك كله. وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة فى النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة فى كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى «كتاب الأحكام»، ولله الحمد والمنة. وقد روى الطبرانى عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بنى هاشم يقول: أنا أولى الناس برسول الله. فقال: غيرك أولى به منك، ولك منه نسبه.

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾ .

---

(١) فى ت: «وروى».

(٢) المسند (٦/ ٤٣٢)، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/ ٢٥٧) من طريق شريك به، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٦٣): «رجالهما ثقات، وفى بعضهم كلام لا يضر».

(٣) فى ت: «وروى».

(٤) المسند (٦/ ٦٩).

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا فى الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.

قال[1] الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلانا ولم تُعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبى ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثا، والنبى ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبى ﷺ: «إنى لأعطى رجالا وأدع من هو أحب إلىّ منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى، به[2].

فقد فرق النبى ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قررنا ذلك بأدلته فى أول شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخارى» ولله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلما ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على[3] أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا فى ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعى، وقتادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخارى، رحمه الله، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا فى قوله: ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أى: استسلمنا خوف القتل والسباء. قال مجاهد: نزلت فى بنى أسد بن خزيمة. وقال قتادة: نزلت فى قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ.

والصحيح الأول؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون فى سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ [شَيْئًا][4]﴾ أى: لا ينقصكم من أجوركم شيئا، كقوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: لمن تاب إليه وأناب.

---

(١) فى ت: «وروى».

(٢) المسند (١/ ١٧٦)، وصحيح البخارى برقم (٢٧)، وصحيح مسلم برقم (١٥٠).

(٣) فى ت: «إلى».

(٤) زيادة من ت.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أى: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا[١] على حال واحدة، وهى التصديق المحض، ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: وبذلوا مهجهم[٢] ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى: فى قولهم إذا قالوا: «إنهم مؤمنون»، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة.

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رِشْدين، حدثنى عمرو بن الحارث، عن أبى السمح، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد [٤] قال: إن النبى ﷺ قال: «المؤمنون فى الدنيا على ثلاثة أجزاء: [الذين][٥] آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله. والذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم الذى إذا أشرف على طمع تركه لله، عز وجل»[٦].

وقوله: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أى: أتخبرونه[٧] بما فى ضمائركم، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: لا يخفى عليه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

ثم قال [تعالى][٨]: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، يعنى: الأعراب [الذين][٩] يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله رداً عليهم: ﴿ قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ﴾ ، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه، ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: فى دعواكم ذلك، كما قال النبى ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى؟ وعالة فأغناكم الله بى؟»، كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ[١٠].

وقال[١١] الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا يحيى بن سعيد الأموى، عن محمد بن قيس، عن أبى عون، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][١٢] قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم تقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق[١٣] على ألسنتهم». و نزلت هذه الآية: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

---

(١) فى ت: «تثبتوا». (٢) فى ت: «مهجتهم». (٣) فى ت: « وروى» .
(٤) فى ت: «أبى سعيد رضى الله عنه». (٥) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٦) المسند (٣/٨) وفى إسناده دراج بن أبى السمح عن أبى الهيثم، وهو ضعيف .
(٧) فى ت: «أتخبرون». (٨) زيادة من ت. (٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٣٣٠) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه.
(١١) فى ت: «وروى». (١٢) زيادة من ت. (١٣) فى أ: «ينطق».

ثم قال: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله، عن سعيد بن جبير، غير[١] هذا الحديث[٢].

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**.

آخر تفسير الحجرات، ولله الحمد والمنة

(١) في أ: «سوى».
(٢) ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥١٩) من طريق يحيى بن سعيد الأموي به.

سورة الحجرات

مدنيّة، وهي ثماني عشرة آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطَبين على أنّ ما في حيّزه أمر خطير يستدعي مزيدَ اعتنائهم بشأنه، وفرطَ اهتمامهم بتلقّيه ومراعاته. ووصفُهم بالإيمان لتنشيطهم، والإيذانِ بأنّه داعٍ إلى المحافظة عليه، ووازعٌ مِن الإخلال به.

﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ أي: لا تفعلوا التقديم، على أنّ تركَ المفعول للقصد إلى نفس الفعل مِن غير اعتبار تعلّقه بأمر مِن الأمور، على طريقة قولهم: "فلان يُعطي ويَمنع"، أي: يفعل الإعطاء والمنع، أو لا تُقدّموا أمرًا مِن الأمور، على أنّ حذف المفعول للقصد إلى تعميمه. والأوّل أوفى بحقّ المقام، لإفادته النهيَ عن التلبّس بنفس الفعل الموجِبَ لانتفائه بالكلّيّة المستلزِمِ لانتفاءِ تعلّقه بمفعوله بالطريق البرهاني.

وقد جُوّز[1] أن يكون "التقديم" بمعنى التقدّم، ومنه "مقدِّمة الجيش" للجماعة المتقدِّمة، ويعضُده قراءة مَن قرأ: "لَا تَقَدَّمُوا"[2] بحذف إحدى التاءين مِن "تَتَقدَّموا". وقُرئ: "لَا تَقْدَمُوا"[3] مِن "القُدوم".

---

١ جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٤/٣٤٩؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/١٣٣.

٢ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٥.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٥٠٧.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مستعار ممّا بين الجهتين المسامِتتَين ليَدَي الإنسان تهجينًا لِما نُهوا عنه.

والمعنى: لا تَقطعوا أمرًا قبل أن يَحكُما به. وقيل: المراد: بين يدَي رسول الله، وذِكرُ الله تعالى لتعظيمه والإيذانِ بجلالة محَلّه عنده عزّ وجلّ.

قيل: نزل فيما جرى بين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى[1] عنهما لدَى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في تأمير الأقرَع بن حابس أو القعقاع بن معبد.[2]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلّ ما تأتون وما تذَرون مِن الأقوال والأفعال التي مِن جُملتها ما نحن فيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، فمِن حقّه أن يُتّقى ويُراقَب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ شروع في النهي
[١١٣و] عن / التجاوز في كيفيّة القول عند النبيّ عليه السلام بعد النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل. وإعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، والإشعارِ باستقلال كلّ مِن الكلامَين باستدعاء الاعتناء بشأنه، أي: لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدّ يبلغه عليه السلام بصوته. وقُرئ: "لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ"[3] على أنّ "الباء" زائدة.

﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ إذا كلّمتُموه ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: جهرًا كائنًا كالجهر الجاري فيما بينكم؛ بل اجعلوا صوتكم أخفضَ مِن صوته عليه السلام،

---

١ س - تعالى.

٢ انظر: صحيح البخاري، ١٦٨/٥ (٤٣٦٧)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧٠/٩؛ واللباب لابن عادل، ٥٢١/١٧. والقعقاعُ بن معبد بن زُرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارِم التميمي الدارمي (ت. بعد ٨هـ/٦٢٩م). صحابي، مِن سادات العرب. حكى ابن التين أنّ القعقاع كانت فيه رِقّة، فلذلك اختاره أبو بكر رضي الله عنه. وقد بعثه النبي صلّى الله عليه وسلّم يوم حنين ليأتيه بالخبر. وكان يقال للقعقاع: "تيّار الفرات" لسخائه. انظر: الإصابة لابن حجر، ٣٤٤/٥؛ والأعلام للزركلي، ٢٠٢/٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٤.

وتعهّدوا في مخاطبته اللِّين القريب مِن الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المَهيب المعظَّم، وحافِظوا على مراعاة أُبَّهة النبوّة وجلالةِ مِقدارها.

وقيل: معنى ﴿لَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾: لا تقولوا له: يا محمّد، يا أحمَد، وخاطِبوه بالنبوّة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «لمّا نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه:[٢] "يا رسول الله، واللهِ لا أكلِّمك إلّا السِّرارَ -أو أخا السِّرارِ- حتّى ألقَى الله"».[٣] وعن عمر رضي الله عنه أنّه كان يكلّمه عليه السلام كأخي السِّرار لا يُسمِعه حتّى يستفهِمَه.[٤] وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا قدِم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الوفودُ أرسل إليهم مَن يعلّمهم كيف يسلّمون، ويأمرهم بالسكينة والوَقار عند رسول الله عليه السلام.[٥]

وقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ إمّا علّة للنهي، أي: لا تجهروا خشيةَ أن تحبَط، أو كراهةَ أن تحبَط، كما في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء، ١٧٦/٤]، أو للمنهيّ، أي: لا تجهَروا لأجل الحُبوط، فإنّ الجهر حيث كان بصدَد الأداء إلى الحُبوط، فكأنّه فُعِل لأجله على طريقة التمثيل، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص، ٨/٢٨].

وليس المراد بما نُهِي عنه مِن الرفع والجهر ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة، فإنّ ذلك كفر؛ بل ما يُتوهّم أن يؤدّي إليه ممّا يجري بينهم في أثناء المحاوَرة مِن الرفع والجهر، حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، خلا أنّ رفع الصوت فوقَ صوته عليه السلام لمّا كان منكَرًا مَحضًا لم يُقيَّد بشيء، ولا ما يقع منهما[٦] في حربٍ أو مجادلةِ معانِد أو إرهاب عدوّ أو نحو ذلك.

---

١ م - رضي الله عنهما.

٢ م - رضي الله عنه.

٣ **المصنّف** لابن أبي شيبة، ٩٢/٧ (٣٤٤٣٥)؛ **المستدرك** للحاكم، ٥٠١/٢ (٣٧٢٠)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ١٠١/٣ (١٤٣١).

٤ **مسند أحمد**، ٥٥/٢٦ (١٦١٣٣)؛ **صحيح البخاري**، ٩٧/٩ (٧٣٠٢).

٥ س: صلّى الله عليه وسلّم. | **الكشّاف** للزمخشري، ٣٥٢/٤؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٧/٩.

٦ وفي هامش م: مِن الرفع والجهر. «منه».

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس، [١١٣ظ] / وكان في أذنه وَقر، وكان جَهْوَرِيَّ الصوت، وربّما كان يكلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[١] فيتأذّى بصوته.[٢]

وعن أنس رضي الله عنه: أنّه لمّا نزلت الآية فُقِد ثابت، وتفقّدَه عليه السلام، فأُخبِر بشأنه، فدعاه فسأله، فقال: «يا رسول الله، لقد أنزلت إليك هذه الآية، وإنّي رجل جهير الصوت، فأخاف أن يكون عملي قد حبِط»، فقال له[٣] عليه السلام: «لستَ هناك، إنّك تعيش بخير، وتموت بخير، وإنّك مِن أهل الجنّة».[٤]

وأمّا ما يُروى عن الحسن مِن أنّها نزلت في بعض المنافقين الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته عليه السلام،[٥] فقد قيل: مَحمله أنّ نهيهم مندرِج تحت نهي المؤمنين بدلالة النصّ.[٦]

﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَحۡبَطَ﴾، أي: والحال أنكم لا تشعرون بحُبوطها. وفيه مزيد تحذير ممّا نُهوا عنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾... إلخ ترغيب في الانتهاء عمّا نُهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به، أي: يخفضونها مراعاةً للأدب أو خشيةً مِن مخالفة النهي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه لِما مرّ مرارًا مِن تفخيم شأنه.

---

١ س - صلّى الله عليه وسلّم.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٧١/٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٥٣/٤.

٣ س - له.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٥٣/٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٣٣/٥. وهو بنحوه في **صحيح البخاري**، ٢٠١/٤ (٣٦١٣)؛ و**صحيح مسلم**، ١١٠/١ (١١٩). وزاد مسلم عن أنس رضي الله عنه: «فكنّا نراه يمشي بين أظهُرنا رجل مِن أهل الجنّة».

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٥٣/٤.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٥٣/٤.

وهو مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: جرّبها للتقوى، ومرّنها عليها، أو عرَفها كائنةً للتقوى خالصةً لها، فإنّ الامتحان سبب المعرفة. و"اللام" صلة لمحذوف، أو للفعل باعتبار الأصل، أو ضرَب قلوبَهم بضروب المِحَن والتكاليفِ الشاقّة لأجل التقوى، فإنّها لا تظهر إلّا بالاصطبار عليها، أو أخلَصها للتقوى، مِن "امتَحَنَ الذهبَ" إذا أذابه وميّز إبريزَه مِن خَبَثه. وعن عمر رضي الله عنه: «أذهَب عنها الشهوات».[١]

﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادَر قدرُه. والجملة إمّا خبر آخر لـ﴿إِنَّ﴾، كالجملة المصدَّرة باسم الإشارة، أو استئناف لبيان جزائهم إخمادًا لِحالهم، / وتعريضًا بسوء حال مَن ليس مثلَهم. [١١٤و]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ أي: مِن خارجها، مِن خلفها أو قُدّامها. و﴿مِن﴾ ابتدائيّة دالّة على أنّ المناداة نشأت مِن جهة الوراء، وأنّ المنادى داخل الحجرة، لوجوب اختلاف المَبدأ والمنتهَى بحسب الجهة، بخلاف ما لو قيل: ينادونك وراءَ الحجُرات.

وقُرِئ: "الحُجرَاتِ" بفتح "الجيم"[٢] وبسكونها،[٣] وثلاثتُها جمع "حُجْرة"، وهي القطعة مِن الأرض المَحجورة بالحائط، ولذلك يقال لحَظيرة الإبل: "حُجْرة"، وهي "فُعْلة" مِن "الحَجْر" بمعنى "مَفعول"، كـ"الغُرفة" و"القُبْضة".

والمراد بها حُجرات أمّهات المؤمنين، ومناداتُهم مِن ورائها إمّا بأنّهم أتَوها حُجرةً حُجرةً فنادَوه عليه السلام مِن ورائها، أو بأنّهم تفرّقوا على الحُجرات متطلّبين له عليه السلام، فناداه بعضٌ مِن وراء هذه، وبعضٌ مِن وراء تلك، فأُسنِدَ فعل الأبعاض إلى الكلّ.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٩؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١٤٥/٥.

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٤.

وقد جُوّزَ أن يكونوا قد نادَوه مِن وراء الحُجرة التي كان عليه السلام فيها، ولكنّها جُمعت إجلالًا له عليه السلام. وقيل: إنّ الذي ناداه عُيَينةُ بن حِصن الفزاري، والأقرعُ بن حابس، وَفَدا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سبعين رجلًا مِن بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد، فقالا: «يا محمّد، اخرج إلينا».[1] وإنّما أُسند النداء إلى الكلّ لأنّهم رضوا بذلك، أو أمَروا به، أو لأنّه وُجد فيما بينهم.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ لو كان لهم عقل لَما تجاسَروا على هذه المرتبة مِن سوء الأدب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ولو تحقّق صبرهم وانتظارهم حتّى تخرج إليهم، فإنّ ﴿أَنَّ﴾ وإنْ دلّت بما في حيّزها على المصدر لكنّها تُفيد بنفسها التحقّق والثبوت، للفرق البيّن بين قولك: "بلغني قيامُكَ" و"بلغني أنّك قائم". و﴿حَتَّىٰ﴾ تفيد أنّ الصبر ينبغي أن يكون مُغيًّا بخروجه عليه السلام، فإنّها مختصّة بما هو غاية للشيء في نفسه، ولذلك تقول: "أكلتُ السمَكةَ حتّى رأسِها"، ولا تقول: "حتّى نصفِها أو ثلثِها"، بخلاف "إلى" فإنّها عامّة. وفي ﴿إِلَيْهِمْ﴾
إشعار بأنّه لو خرج / لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتّى يفاتحهم بالكلام، [١١٤ظ]
أو يتوجّهَ إليهم.

﴿لَكَانَ﴾ أي: الصبرُ المذكور ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مِن الاستعجال، لِما فيه مِن رعاية حسن الأدب وتعظيمِ الرسول الموجِبَين للثناء والثوابِ والإسعافِ بالمسئول؛ إذ رُوي أنّهم وفَدوا شافعين في أسارى بني العنبر،[2] فأطلَقَ النصفَ، وفادى النصفَ.[3]

---

[1] معالم التنزيل للبغوي، ٣٣٧/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٤/٥؛ اللباب لابن عادل، ٥٢٨/١٧.

[2] بنو العنبر، ويقال: "بَلْعَنْبر" بفتح "الباء" وسكون "اللام": حيّ مِن تميم مِن العدنانيّة، وهم بنو العَنبر بن عمرو بن تميم. قال ابن عبد البرّ: ومِن بني العنبر حَرمَلة بن عبد الله بن أياس الصحابي. قال: ومنهم جَديلة بن عبد الله بن أياس العنبري الصحابي. نهاية الأرب للقلقشندي، ٦٨/١.

[3] تفسير السمرقندي، ٣٢٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٤/٥؛

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بليغ المغفرة والرحمة واسِعُهما، فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي: فتعرَّفوا وتفحَّصوا.

رُوي أنّه عليه السلام بعث الوليدَ بنَ عقبة أخا عثمان لأمّه مُصَدِّقًا إلى بني المصطلِق، وكان بينه وبينهم إِحْنة، فلمّا سمعوا به استقبلوه، فحسِبَ أنّهم مُقاتِلوه، فرجع وقال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «قد ارتدّوا، ومنعوا الزكاة»، فهمّ عليه السلام بقتالهم، فنزلت.[1]

وقيل: بعث إليهم خالدَ بن الوليد، فوجدهم منادين بالصلاة متهجّدين، فسلّموا إليه الصدقات، فرجع.[2]

وفي ترتيب الأمر بالتبيّن على فِسق المخبِر إشارة إلى قبول خبر الواحد العدل في بعض الموادّ.

وقُرئ: "فَتَثَبَّتُوا"،[3] أي: تَوقّفوا إلى أن يتبيّن لكم الحال.

﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ حِذارَ أن تُصيبوا ﴿قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ ملتبسين بجهالةٍ بحالهم، ﴿فَتُصۡبِحُواْ﴾ بعد ظهور براءتهم عمّا أُسنِد إليهم ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ﴾ في حقّهم ﴿نَٰدِمِينَ﴾ مغتمِّين غمًّا لازمًا، متمنِّين أنّه لم يقع، فإنّ تركيب هذه الأحرف الثلاثة يدور مع الدوام.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١/٣٥٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٧٧.

٢ جامع البيان للطبري، ٢١/٣٥٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٧٧.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥١.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ ﴿أَنَّ﴾ بما في حيّزها سادّةٌ[١] مَسدَّ مفعولَي ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ باعتبار ما بعده مِن قوله تعالى: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ فإنّه حال مِن أحد الضميرين في ﴿فِيكُمۡ﴾.

والمعنى: أنّ فيكم رسولَ الله كائنًا على حالة يجب عليكم تغييرها، أو كائنِين على حالةٍ... إلخ، وهي أنّكم تريدون أن يَتبع عليه السلام رأيَكم في كثير مِن الحوادث، ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهد والهلاك. وفيه إيذان / بأنّ [١١٥و] بعضهم زيّنوا لِرسول الله صلّى الله عليه وسلّم الإيقاعَ ببَنِي المصطلِق تصديقًا لِقول الوليد، وأنّه عليه السلام لم يُطِعْ رأيهم.

وأمّا صيغة المضارع فقد قيل: إنّها للدلالة على أنّ امتناع عَنَتِهم لامتناع استمرار طاعته عليه السلام لهم؛ لأنّ عَنَتهم إنّما يلزم مِن استمرار الطاعة فيما يَعِنّ لهم مِن الأمور؛ إذ فيه اختلال أمر الإيالة، وانقلابُ الرئيس مرءوسًا، لا مِن إطاعته في بعض ما يرونه نادرًا؛ بل فيها استمالتهم بلا مَعرّة.

وقيل: إنّها للدلالة على أنّ امتناع عنَتِهم لاستمرار امتناع طاعته عليه السلام لهم في ذلك، فإنّ المضارع المنفيّ قد يدلّ على استمرار النفي بحسب المقام، كما في نظائر قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة، ٣٨/٢].

والتحقيق أنّ الاستمرار الذي يفيده صيغة المضارع يعتبر تارةً بالنسبة إلى ما يتعلّق بالفعل مِن الأمور الزمانيّة المتجدّدة، وذلك بأن يعتبر الاستمرار في نفس الفعل على الإبهام، ثمّ يُعتبرَ تعلّق ما يتعلّق به بيانًا لِما فيه الاستمرار، وأخرى بالنسبة إلى ما يتعلّق به مِن نفس الزمان المتجدّد، وذلك إذا اعتُبر تعلّقه بما يتعلّق به أوّلًا، ثمّ اعتُبر استمراره، فيتعيّن أن يكون ذلك بحسب الزمان.

فإن أريدَ باستمرار الطاعة استمرارَها وتجدّدَها بحسب تجدّد مواقعها الكثيرة التي يُفصح عنها قوله تعالى: ﴿فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ فالحقّ هو الأوّل؛ ضرورةَ أنّ مدار امتناع العنَت هو امتناع ذلك الاستمرار، سواء كان ذلك الامتناع

---

[١] س ي: سادّ.

بعدم وقوع الطاعة في أمر ما مِن تلك الأمور الكثيرة أصلًا، أو بعدم وقوعها في كلّها مع وقوعها في بعضٍ يسيرٍ منها، حتّى لو لـم يمتنع ذلك الاستمرار بأحد الوجهين المذكورين؛ بل وقعت الطاعة فيما ذُكر مِن كثير مِن الأمر في وقت مِن الأوقات وقعَ العنت قطعًا.

وإن أريدَ به استمرار الطاعة الواقعة في الكلّ وتجدُّدها بحسب تجدّد الزمان واستمراره فالحقّ هو الثاني، فإنّ مناط امتناع العنَت حينئذ ليس امتناعَ استمرار الطاعة المذكورة ضرورةَ أنّه موجِب لوقوع العنت؛ بل هو الاستمرار الزماني، لامتناع تلك الطاعة الواقعة في تلك الأمور الكثيرة بأحد الوجهين المذكورين، حتّى لو لـم يستمرّ امتناعها بأن وقعت تلك الطاعة في وقت مِن الأوقات وقع العنَت حَتمًا.

واعلم أنّ الأحقّ بالاختيار والأَولى بالاعتبار هو الوجه الأوّل؛ لأنّه أوفَق للقياس / المقتضي لاعتبار الامتناع واردًا على الاستمرار حسب ورود [١١٥ظ]
كلمة ﴿لَوۡ﴾ المفيدةِ للأوّل على صيغة المضارع المفيدة للثاني، على أنّ اعتبار الاستمرار واردًا على النفي على خلاف القياس بمعونة المقام إنّما يُصار إليه إذا تعذّر الجريان على موجَب القياس، أو لـم يكن فيه مزيد مزيّة كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة، ٣٨/٢]، حيث حُمِل على استمرار نفي الحزن عنهم؛ إذ ليس في نفي استمرار الحزن مزيد فائدة.

وأمّا إذا انتظم الكلام مع مراعاة موجَب القياس حقَّ الانتظام فالعدول عنه تمحُّل لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾... إلخ تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بطريق الاستدراك بيانًا لِبراءتهم عن أوصاف الأوّلين، وإحمادًا لِأفعالهم، أي: ولكنّه تعالى جعل الإيمان محبوبًا لديكم، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ حتّى رسَخ حبّه فيها، ولذلك أتيتم بما يليق به مِن الأقوال والأفعال، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ ولذلك اجتنبتم عمّا يليق بها ممّا لا خيرَ فيه مِن آثارها وأحكامها.

ولمّا كان في التحبيب والتكريه معنى إنهاءِ المحبّة والكراهة وإيصالهما إليهم استُعمِلا بكلمة "إلى". وقيل: هو استدراك ببيان عذر الأوّلين، كأنّه قيل: لم يكن ما صدَر عنكم في حقّ بني المصطلق مِن خللٍ في عقيدتكم؛ بل مِن فَرط حبّكم للإيمان، وكراهتكم للكفر والفسوق والعصيان. والأوّل هو الأظهر، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: السالكون إلى الطريق السويّ الموصل إلى الحقّ. والالتفات إلى الغيبة كالذي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم، ٣٠/٣٩].

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: وإنعامًا، تعليل لـ﴿حَبَّبَ﴾ أو ﴿كَرَّهَ﴾، وما بينهما اعتراض. وقيل: نصبهما بفعل مضمَر، أي: جرى ذلك فضلًا. وقيل: يبتغون فضلًا.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم مِن التفاضل، ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل كلّ ما يفعل بموجَب الحكمة.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ أي: تَقاتلوا، والجمع باعتبار المعنى، ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ بالنصح والدعاء إلى حُكم الله. ﴿فَإِنۢ بَغَتْ﴾ / أي: تعدَّت [١١٦و] ﴿إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي: ترجعَ ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه، أو إلى ما أمر به.

﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ إليه وأقلعت عن القتال حِذارًا مِن قتالكم ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾[١] بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى، ولا تكتفوا بمجرّد متاركتهما، عسى يكون بينهما قتال في وقت آخر. وتقييد الإصلاح بالعدل لأنّه مظِنّة الحَيف

---

١ س + أي.

لوقوعه بعد المقاتلة، وقد أُكّد ذلك حيث قيل: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ أي: واعدلوا في كلّ ما تأتون وما تذرون، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ فيجازيهم أحسنَ الجزاء.

والآية نزلت في قتالٍ حدَث بين الأوس والخزرج في عهده عليه السلام بالسَّعَف والنِّعال.[١]

وفيها دلالة على أنّ الباغي لا يخرج بالبغي عن الإيمان، وأنّه إذا أمسك عن الحرب تُرك؛ لأنّه فَيءٌ إلى أمر الله تعالى، وأنّه يجب معاونةُ مَن بُغِيَ عليه بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن الأمر بالإصلاح، أي: أنّهم منتسِبون إلى أصل واحد هو الإيمانُ الموجِب للحياة الأبديّة. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ للإيذان بأنّ الأخوّة الدينيّة موجِبة للإصلاح. ووضعُ المظهَر مَقام المضمَر مضافًا إلى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه. وتخصيصُ الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولويّة، لتضاعف الفتنة والفساد فيه. وقيل: المراد بـ"الأخوين" الأوس والخزرج. وقُرئ: "بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ"،[٢] و"إِخْوَانِكُمْ".[٣]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلّ ما تأتون وما تذَرون مِن الأمور التي مِن جُملتها ما أُمرتم به مِن الإصلاح ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين أن تُرحموا على تقواكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ/ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ﴾ أي: منكم ﴿مِّن قَوْمٍ﴾ آخرين أيضًا منكم. [١١٦ظ]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٢١/٣٦٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٩/٧٩.

٢ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن عامر. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٤.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ تعليل للنهي، أو لموجَبه، أي: عسى أن يكون المَسخور منهم خيرًا عند الله تعالى مِن الساخرين. و"القوم" مختصّ بالرجال؛ لأنّهم القُوّام على النساء، وهو في الأصل إمّا جمع "قائم"، كـ"صَوم" و"زَوْر" في جمع "صائم" و"زائر"، أو مصدر نُعِت به فشاع في الجمع، وأمّا تعميمه للفريقين في مثل "قوم عاد" و"قوم فرعون" فإمّا للتغليب، أو لأنّهنّ توابع. واختيار الجمع لغلبة وقوع السُّخرية في المجامع. والتنكير إمّا للتعميم، أو للقصد إلى نهي بعضهم مِن سُخرية بعضٍ، لِما أنّها ممّا يجري بين بعض وبعض.

﴿وَلَا نِسَآءٞ﴾ أي: ولا تَسخر نساء مِن المؤمنات ﴿مِّن نِّسَآءٍ﴾ منهنّ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾ أي: المَسخور منهنّ ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾ أي: مِن الساخرات، فإنّ مناط الخيريّة في الفريقين ليس ما يظهر للناس مِن الصور والأشكال، ولا الأوضاعِ والأطوارِ التي عليها يدور أمر السُّخرية غالبًا؛ بل إنّما هو الأمور الكامنة في القلوب، فلا يَجْتَرِئْ أحد على استحقار أحد، فلعلّه أجمع منه لِما نِيط به الخيريّة عند الله تعالى، فيظلم نفسَه بتحقير مَن وقّره الله والاستهانةِ بمَن عظّمه الله.

وقُرِئ: "عَسَوْا أَن يَكُونُوا"،[١] و"عَسَيْنَ أَنْ يَكُنَّ"،[٢] فـ"عسى" حينئذ هي ذات الخبر، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ [محمد، ٢٢/٤٧]. وأمّا على الأولى[٣] فهي التي لا خبرَ لها.

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: ولا يَعِبْ بعضكم بعضًا، فإنّ المؤمنين كنفس واحدة، أو لا تفعلوا ما تُلمَزُون به، فإنّ مَن فعل ما يستحقّ به اللَّمْزَ فقد لمَزَ نفسه. واللَّمْزُ: الطعن باللسان. وقُرِئ بضمّ "الميم".[٤]

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ أي: ولا يَدعُ بعضكم بعضًا بلقب السُّوءِ، فإنّ "النَّبْز" مختصّ به عرفًا. ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: بئس الذِّكر المرتفع للمؤمنين أن يُذكَروا بالفسق بعد دخولهم الإيمان أو اشتهارهم به، فإنّ ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾ ههنا بمعنى الذِّكر، مِن قولهم: "طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم". والمراد به

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥.
٣ س ي: الأوّل.
٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٧٩/٢.

إمّا تهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين / خصوصًا؛ إذ رُوي أنّ الآية [١١٧و] نزلت في صفيّة بنت حُيَيّ، أتَت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت: «إنّ النساء يقُلْنَ لي:[١] يا يهوديّة بنت يهوديّين»، فقال عليه السلام: «هلّا قلتِ: إنّ أبي هارون، وعمّي موسى، وزوجي محمّد عليهم السلام».[٢] أو الدلالة على أنّ التنابز فِسق، والجمعَ بينه وبين الإيمان قبيح.

﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ عمّا نُهي عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضعَ الطاعة، وتعريضِ النفس للعذاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أي: كونوا على جانب منه. وإبهام "الكثير" لإيجاب الاحتياط، والتأمّلِ في كلّ ظَنّ ظَنّ حتّى يُعلم أنّه مِن أيّ قَبيل. فإنّ مِن الظنّ ما يجب اتّباعه، كالظنّ فيما لا قاطعَ فيه مِن العمليّات، وحسنِ الظنّ بالله تعالى. ومنه ما يحرم، كالظنّ في الإلهيّات والنبوّات، وحيث يخالِفه قاطع، وظنِّ السوء بالمؤمنين. ومنه ما يباح، كالظنّ في الأمور المعاشيّة.

﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ تعليل للأمر بالاجتناب، أو لمُوجَبه بطريق الاستئناف التحقيقي. والإثم: الذنب الذي يُستَحَقُّ العقوبةُ عليه، وهمزته منقلبة مِن "الواو"، كأنّه يَثِمُ الأعمالَ، أي: يكسرها.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي: ولا تبحثوا عن عورات المسلمين. "تَفَعَّلَ" مِن "الجَسّ"، لِما فيه مِن معنى الطلب، كما أنّ "التلمّس" بمعنى التطلّب، لِما في اللمس مِن الطلب،

---

[١] س: بي.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣٧٠/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٦/٥. وفي سنن الترمذي، ٧٠٨/٥ (٣٨٩٢)، عن صفيّة بنت حُيي، قالت: «دخل عليّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقد بلغني عن حفصة وعائشة كلام، فذكرت ذلك له، فقال: "ألا قلتِ: فكيف تكونان خيرًا منّي وزوجي محمّد، وأبي هارون، وعمّي موسى؟"»، وكان الذي بلغها أنّهم قالوا: «نحن أكرم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منها»، وقالوا: «نحن أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبنات عمّه».

وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ [الجن، ٧٢/٨]. وقُرئ بـ"الحاء"[١] مِن "الحِسّ" الذي هو أثر الجَسّ وغايتُه، ولتقاربهما يقال للمشاعر: "الحَواسّ" بـ"الحاء" و"الجيم".

وفي الحديث: «لا تَتبَّعوا عورات المسلمين، فإنّ مَن تَتبَّع عورات المسلمين تَتبَّع الله عورته حتّى يفضحَه ولو في جوف بيته».[٢]

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: لا يذكرْ بعضكم بعضًا بالسُّوء في غيبته. وسُئِل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الغِيبة، فقال: «أن تذكر أخاك بما يكره، فإن كان فيه فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه».[٣] / وعن ابن عبّاس [١١٧ظ] رضي الله عنهما: «الغِيبة إدام كلاب الناس».[٤]

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيل وتصوير لِما يصدر عن المغتاب مِن حيث صدورُه عنه، ومِن حيث تعلّقُه بصاحبه على أفحَش وجه وأشنَعِه طبعًا وعقلًا وشرعًا، مع مبالَغات مِن فنون شتّى؛ الاستفهامُ التقريري وإسنادُ الفعل إلى "أَحَد" إيذانًا بأنّ أحدًا مِن الأحَدين لا يفعل ذلك، وتعليقُ المحبّة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيلُ الاغتياب بأكل لحم الإنسان، وجعلُ المأكول أخًا للآكل ميّتًا، وإخراجُ تماثُلِهما مُخرجَ أمرٍ بيّنٍ غنيّ عن الإخبار به. وقُرئ: "مَيِّتًا" بالتشديد،[٥] وانتصابُه على الحاليّة مِن "اللحم". وقيل: مِن "الأخ".

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها مِن التمثيل، كأنّه قيل: وحيث كان الأمر كما ذُكر فقد كَرِهتموه. وقُرئ: "كُرِّهْتُمُوهُ"،[٦] أي: جُبِلتُم على كَراهته.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء وابن سيرين. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣٧٢/٤. وهو بألفاظ قريبة في سنن الترمذي، ٣٧٨/٤ (٢٠٣٢)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٠٣/١٣ (١٠٦٨٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٤٥/٧.

[٣] صحيح مسلم، ٢٠٠١/٤ (٢٥٨٩)؛ سنن أبي داود، ٢٣٧/٧ (٤٨٧٤).

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٣٧٣/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥١٩/٩..

[٥] قرأ بها نافع وأبو جعفر ورُويس. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وأبي حَيوة، ورواها الخدري عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢١/٩.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بتركِ ما أُمِرتم باجتنابه، والندمِ على ما صدَر عنكم مِن قبلُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في قَبول التوبة وإفاضةِ الرحمة، حيث يجعل التائب كمَن لم يُذنب، ولا يخصّ ذلك بتائبٍ دون تائبٍ؛ بل يعمّ الجميع وإن كثُرت ذنوبهم.

رُوي أنّ رجلين مِن الصحابة بعثا سلمانَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبغي لهما إدامًا، وكان أسامة على طعامه عليه السلام، فقال: «ما عندي شيء»، فأخبرهما سلمان، فقالا: «لو بعثنا سلمان إلى بئرِ سُمَيْحةَ[1] لَغارَ ماؤها»، فلمّا راحا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لهما: «ما لي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما؟»، فقالا: «ما تناوَلْنا لحمًا»، فقال عليه السلام: «إنّكما قد اغتَبتما»، فنزلت.[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ مِن آدم وحوّاء، أو خلقنا كلّ واحد منكم مِن أب وأمّ، فالكلّ سواء في ذلك، فلا وجهَ للتفاخر بالنسب. وقد جُوِّز أن يكون تأكيدًا للنهي السابق بتقرير الأخُوّة المانعة مِن الاغتياب.

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الشَّعب: الجمع العظيم المنتَسبون / إلى أصل [١١٨و] واحد، وهو يَجمع القبائل، والقبيلة تجمع العَمائر، والعِمارة تجمع البطون، والبَطْن يجمع الأفخاذ، والفَخْذ يجمع الفصائل، فخُزيمة شَعب، وكِنانة قبيلة، وقريش عِمارة، وقصيّ بَطن، وهاشم فَخْذ، والعبّاس فصيلة. وقيل: "الشعوب" بطون العَجم، و"القبائل" بطون العرب.

﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ ليعرفَ بعضُكم بعضًا بحسب الأنساب، فلا يعتزيَ أحد إلى غير آبائه، لا لتتفاخروا بالآباء والقبائل، وتدّعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب.

---

[1] سُمَيْحة: بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٥٥/٣.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٨٢/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٤/٤.

وقُرِئ: "لِتَتَعَارَفُوا"[١] على الأصل، و"لِتَّعَارَفُوا" بالإدغام،[٢] و"لِتَعْرِفُوا".[٣]

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب المستفادِ مِن الكلام بطريق الاستئناف التحقيقي، كأنّه قيل: إنّ الأكرم عنده تعالى هو الأتقى، فإن فاخَرتم ففاخِروا بالتقوى. وقُرِئ بـ"أَنَّ" المفتوحة[٤] على حذف لام التعليل، كأنّه قيل: لِمَ لا نتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، لا أنسَبُكم، فإنّ مدار كمال النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى، فمَن رام نيل الدرجات العُلى فعليه بالتقوى.

قال عليه السلام: «مَن سرّه أن يكون أكرمَ الناس فليتّق الله».[٥] وقال: «يا أيّها الناس، إنّما الناس رجلان؛ مؤمن تقيّ كريم على الله، وفاجر شقيّ هيّن على الله».[٦] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كرم الدنيا الغِنى، وكرم الآخرة التقوى».[٧]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم وبأعمالكم، ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطن أحوالكم.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ نزلت في نفر مِن بني أسد قدِموا المدينة في سَنة جَدْب، فأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أتيناك بالأثقال والعِيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو[٨] فلان»، / يريدون الصدقةَ، [١١٨ظ]
ويمنّون عليه عليه السلام ما فعلوا.[٩]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ٤٤٥.

٢ قرأ بها البزّي عن ابن كثير بخُلف عنه. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٣٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبان عن عاصم. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/٥٢٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/٥٢٣.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩/٨٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/١٥٩. وأخرجه بنحوه الحاكم في **المستدرك**، ٤/٣٠٠ (٧٧٠٧).

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٣٧٥؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥/١٣٧. وأخرجه بنحوه الترمذي في **السنن**، ٥/٣٨٩.

٧ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩/٨٨؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٧/٣٤٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٣٧٥.

٨ م: بنوا.

٩ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩/٨٩؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٧/٣٤٩؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥/١٣٧.

﴿قُل﴾ ردًّا لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ إذ الإيمان هو التصديق المقارِن للثقة وطُمأنينةِ القلب، ولم يحصل لكم ذلك، وإلّا لَما مَنَنتم عليَّ ما ذكرتم، كما يُنبئ عنه آخر السورة.

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ فإنّ الإسلام انقياد ودخولٌ في السِّلم، وإظهارُ الشهادة وتركُ المحاربة مشعِرٌ به. وإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يقال: "لا تقولوا: آمنّا، ولكن قولوا: أسلمنا" أو "لم تؤمنوا، ولكن أسلمتم"؛ للاحتراز مِن النهي عن التلفّظ بالإيمان، وللتفادي عن إخراج قولهم مُخرجَ التسليم، والاعتدادِ به مع كونه تقوّلًا محضًا.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حال مِن ضمير ﴿قُولُوٓاْ﴾؛ أي: ولكن قولوا: أسلَمنا حالَ عدم مواطأة قلوبكم لألسِنتكم. وما في ﴿لَمَّا﴾ مِن معنى التوقّع مُشعر بأنّ هؤلاء قد آمنوا فيما بعدُ.

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ﴾ لا يَنقصْكم ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن أجورها، مِن "لَاتَ يَلِيتُ لَيْتًا" إذا نقَص. وقُرئ: "لَا يَأْلِتْكُم"[1] مِن "الأَلْتِ"، وهي لغة غطفان، أو شيئًا مِن النقص.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِما فَرَط مِن المطيعين، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضّل عليهم.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ لم يشكّوا، مِن "ارتابَ" مطاوِع "رابَه" إذا أوقَعه في الشكّ مع التهمة. وفيه إشارة إلى أنّ فيهم ما يوجب نفي الإيمان عنهم. و﴿ثُمَّ﴾ للإشعار بأنّ اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس في حال إنشائه فقط؛ بل وفيما يستقبل، فهي كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت، ٤١/٣٠].

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٦.

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته على تكثّر فنونها مِن العبادات البدنيّة المَحضة، والماليّة الصِّرفة، والمشتملةِ عليهما معًا كالحجّ والجهاد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الأوصاف الجميلة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الذين صدَقوا في دعوى الإيمان لا غيرُهم.

رُوي أنّه لمّا نزَلت الآية جاءوا وحلفوا أنّهم مؤمنون صادقون، فنزل
[١١٩و] لتكذيبهم[١] قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتُخبرونه / بذلك بقولكم: آمَنّا؟ والتعبير عنه بالتعليم لغايةِ تَشنيعهم. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حال مِن مفعول ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ مؤكِّدة لتشنيعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييل مقرِّر لِما قبله، أي: مبالغ في العلم بجميع الأشياء التي مِن جملتها ما أخفَوه مِن الكفر عند إظهارهم الإيمان. وفيه مَزيد تجهيل وتوبيخ لهم.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ أي: يعدّون إسلامهم مِنّةً عليك، وهي النعمة التي لا يَطلب مُولِيها ثوابًا ممّن أنعم بها عليه، مِن "المَنّ" بمعنى القطع؛ لأنّ المقصود بها قطع حاجة.[٢] وقيل: النعمة الثقيلة، مِن "المَنّ".

﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي: لا تعدّوا إسلامَكم منّةً عليّ، أو لا تمنّوا عليّ بإسلامكم. فنصب بنزع الخافض.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ على ما زعمتم، مع أنّ الهداية لا تستلزم الاهتداء. وقُرئ: "إِنْ هَدَاكُمْ"،[٣] و"إِذْ هَدَاكُمْ".[٤] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٠؛ معالم التنزيل للبغوي، ٧/٣٥١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١٣٨.
٢ س ي: حاجته.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وعليّ بن زيد. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ٤٤٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٥٢٥.

في ادّعاء الإيمان. وجوابه محذوف يدلّ عليه ما قبله، أي: فلِلهِ المِنّة عليكم.

وفي سياق النظم الكريم مِن اللطف ما لا يخفى، فإنّهم لمّا سمّوا ما صدَر عنهم إيمانًا، ومنُّوا به، فنُفِي كونُه إيمانًا، وسُمِّي إسلامًا؛ قيل: يمنّون عليك بما هو في الحقيقة إسلام، وليس بجدير بالمَنّ؛ بل لو صحّ ادّعاؤهم للإيمان فلِلهِ المِنّة عليهم بالهداية إليه، لا لهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما غابَ فيهما، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ في سِرّكم وعلانيتكم، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم؟ وقُرئ بـ"الياء".[1]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحجرات أُعطي مِن الأجر بعدَد مَن أطاع الله وعصاه».[2]

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٦.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/١٦٩؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/١٤٩. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٤٩

سورة الحجرات

مدنية، ثمانيْ عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تُقَدِّمُوا﴾ ـ مِن: قَدَّمَ بمعنى تَقَدَّمَ ـ أي: لا تَقَدَّمُوا بقول أو فعل ﴿بَينَ يَدَيِ اللهِ ورَسُولِهِ﴾ المُبلِّغِ عنه، أي: بغير إذنهما، ﴿واتَّقُوا اللهَ. إنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بفعلكم. نَزلتْ في مُجادلة أبي بكر وعُمر رضي الله عنهما على النبيّ ﷺ في تأمير الأقرعِ بن حابس أو القعقاعِ بن مَعبد.

سورة الحجرات

قولُـهُ: (بمَعْنَـى: تَقَـدَّمَ) ومنـهُ مقدِّمةُ الجيشِ لمتقدِّميهِم، ويؤيِّـدُه قراءةُ يعقـوبَ[1]: (لا تَقدَّمـوا)، أو لا تُقدِّمـوا[2] أمراً.

قولُهُ: (بِغَيْرِ إِذنِهِمَا) أي: لا تقطَعوا أمراً قبلَ أن يحكُما به.

قولُهُ: (وعُمَرَ) الظَّاهرُ: عمرَ.

قولُهُ: (عَلى النَّبِيِّ) الصَّوابُ: عند النَّبيِّ، ففي الحديثِ: أنَّه قدمَ ركبٌ مِن بني تميمٍ على النَّبيِّ ﷺ، فقالَ أبو بكرٍ: أمِّرِ القعقاعَ، وقالَ عمرُ: بل أمِّرِ الأقرعَ، فقالَ أبو بكرٍ: ما أردْتَ إلَّا خلافِي، وقالَ عمرُ: ما أردْتُ خلافَكَ، فتَماريا حتَّى ارتفعَتْ أصواتُهُمَا، فنزلَتْ[3].

---

(١) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٥).

(٢) في «تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٠٠): الأول من التقدم، والثاني: من التقديم. ومعناهما ظاهر؛ أي: لا تقدموا قولًا ولا فعلًا بين يدي الله وقول رسوله وفعله، فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا.

(٣) رواه البخاري (٤٨٤٧) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

ونَزل فيمن رفع صوته، عند النبيّ ﷺ: ٢ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَرفَعُوا أصْواتَكُم﴾ إذا نطقتم ﴿فَوقَ صَوتِ النَّبِيِّ﴾ إذا نطق، ﴿ولا تَجهَرُوا لَهُ بِالقَولِ﴾ إذا ناجَيتُموه ﴿كَجَهرِ بَعضِكُم لِبَعضٍ﴾، بل دُونَ ذلك إجلالاً له ﴿أن تَحبَطَ أعمالُكُم وأنتُم لا تَشعُرُونَ﴾ أي: خشيةَ ذلك بالرفع والجهر المذكورَين.

ونَزل فيمن كان يَخفِض صوته عند النبيّ ﷺ كأبي بكر وعُمر وغيرهما رضي الله عنهم: ٣ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أصْواتَهُم عِندَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امتَحَنَ اللهُ﴾: اختبر ﴿قُلُوبَهُم لِلتَّقوَى﴾ أي: لتظهر منهم، ﴿لَهُم مَغفِرَةٌ وأجرٌ عَظِيمٌ﴾: الجنّة.

ونزَل في قوم جاؤوا وقت الظهيرة، والنبيّ ﷺ في منزله، فنادَوه: ٤ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِن وَراءِ الحُجُراتِ﴾: حُجرات نِسائه ﷺ جمع حُجْرة، وهي ما يُحجَر عليه من الأرض بحائط ونحوه ـ كأنّ كُلّ واحد منهم نادى خلف حُجرة لأنهم لم يَعلموه: في أيّها؟..

قولُهُ: (إذَا نَطَقْتُم) أي: إذا كلَّمْتُموهُ فلا تجاوزوا أصواتَكُم عن صوتِهِ.

قولُهُ: (إذَا نَاجَيْتُمُوهُ) هذا غيرُ صحيحٍ، إذ النَّجوى لا تكونُ بالجهرِ، فالمعنى: لا تبلغوا به الجهرَ الدَّائرَ بينكُم، بل اجعَلوا أصواتَكُم أخفضَ مِن صوتِهِ مراعاةً للأدَبِ.

قولُهُ: (أي: خَشيَةَ ذَلِكَ) أو كراهتَهُ فيكونُ علَّةً للنَّهي؛ أي: نهيْتُكُم أو أنهاكُم، أو لمعنى النَّهي؛ أي: انتَهوا.

قولُهُ: (بالرَّفعِ) متعلِّقٌ بـ﴿تَحْبَطَ﴾؛ لأنَّ في الرَّفعِ والجهرِ استخفافاً قد يُؤدِّي إلى الكفرِ المحبطِ، وذلكَ إذا انضمَّ إليه قصدُ الإهانةِ وعدمُ المبالاةِ، وقد رويَ أنَّ ثابتَ بنَ قيسٍ كانَ في أذنِهِ وقرٌ وكانَ جهوريًّا، فلمَّا نزلَتْ تخلَّفَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، فتفقَّدَهُ ودعاهُ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، لقد أُنزِلَت هذهِ الآيَةُ، وإنِّي رجلٌ جهيرُ الصَّوتِ، فأخافُ أن يكونَ عمَلي قد حبطَ، فقالَ عليهِ السَّلامُ: «لسْتَ هناكَ، إنَّكَ تعيشُ بخيرٍ وتموتُ بخيرٍ، وإنَّكَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ»[1].

قولُهُ: (كَأَبِي بَكرٍ وعُمَرَ) قيل: كانا بعد ذلك يُسرَّانِهِ حتَّى يستفهمَهُما.

قولُهُ: (فِي قَومٍ) سبعينَ رجلاً مِن بني تميمٍ.

قولُهُ: (فِي مَنْزِلِهِ) وهو راقِدٌ.

قولُهُ: (حُجُرَاتِ نِسَائِهِ) أي: مِن خارجِها خلفَها أو قدَّامَها.

قولُهُ: (خَلفَ حُجرَةٍ) بأنَّهم تفرَّقوا على الحجراتِ، فأسندَ فعلَ الأبعاضِ إلى الكلِّ، أو أنَّهم أتوها حجرةً فحجرةً.

(١) رواه البخاري (٤٨٤٦)، ومسلم (١١٩) بنحوه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

مُناداةَ الأعراب بغِلظة وجفاء ـ ﴿أكثَرُهم لا يَعقِلُونَ﴾، فيما فعلوه، محلَّك الرفيعَ وما يُناسبه من التعظيم، ٥ ـ ﴿ولَو أنَّهُم صَبَرُوا﴾ ـ أنهم: في محلّ رفع بالابتداء، وقيل: فاعلٌ لفعل مقدّر أي: ثَبتَ ـ ﴿حَتَّى تَخرُجَ إلَيهِم لَكانَ خَيرًا لَهُم. واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب منهم.

ونَزلَ في الوليد بن عُقبة، وقد بعثه النبيّ ﷺ إلى بني المُصطلق مُصدِّقًا، فخافهم لتِرةٍ كانت بينه وبينهم في الجاهلّية، فرجع وقال: إنهم منعوا الصدقة وهمّوا بقتله. فهمَّ النبيّ ﷺ بغزوهم، فجاؤوا مُنكِرين ما قاله عنهم: ٦ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، إن جاءَكُم فاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾: خبرٍ ﴿فتبَيَّنُوا﴾ صِدقَه من كذِبه ـ وفي قِراءة: «فتَثَبَّتُوا» من الثَّبات ـ ﴿أن تُصِيبُوا قَومًا﴾: مفعولٌ له، أي: خشيةَ ذلك، ﴿بِجَهالةٍ﴾: حالٌ من الفاعل، أي: جاهلين، ﴿فتُصبِحُوا﴾: تصيروا ﴿علَى ما فَعَلتُم﴾ من الخطأ بالقوم ﴿نادِمِينَ﴾. فأرسل ﷺ إليهم بعد عودتهم إلى بلادهم خالدًا، فلم يرَ فيهم إلاّ الطاعة والخير، فأخبر النبيَّ بذلك.

٧ ـ ﴿واعلَمُوا أنَّ فِيكُم رَسُولَ اللهِ﴾، فلا تقولوا الباطل فإنَّ الله يُخبره بالحال، ﴿لَو يُطِيعُكُم في كَثِيرٍ مِنَ الأمرِ﴾ الذي تُخبرون به على خِلاف الواقع، فيُرتِّبُ على ذلك مُقتضاه، ﴿لَعَنِتُّم﴾:..........

قولُهُ: (مُنَادَاةَ الأَعرَابِ) مفعولٌ مطلقٌ لـ﴿يُنَادُوْنَكَ﴾.

قولُهُ: (بالابتداءِ) هو قولُ سيبويه[1]، ولا يحتاجُ لخبرٍ؛ لاشتمالِ صلتِهَا على المسندِ والمسندِ إليهِ.

قولُهُ: (أي: ثبتَ) أي: صبرُهم أوِ انتظارُهم، هو قولُ المبرِّدِ والزَّجَّاجِ[2] والكوفيِّينَ، ورُجِّحَ بأنَّ فيهِ إبقاءَ ﴿لَوْ﴾ على الاختصاصِ بالفعلِ، ولذا اقتصرَ القاضي عليهِ[3].

قولُهُ: (لِمَنْ تابَ) أو حيثُ اقتصرَ على النُّصحِ.

قولُهُ: (مُصَدِّقاً) آخذاً للصَّدقةِ.

قولُهُ: (لِتِرَةٍ) بكسرِ التَّاءِ وتخفيفِ الرَّاءِ؛ أي: حقدٍ وعداوةٍ، فلمَّا سمِعُوا به استقبَلوهُ فحسبَهُم مقاتليهِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[4]؛ أي: فتوقَّفوا إلى أن يتبيَّنَ لكمُ الحالُ.

قولُهُ: (خَشيَةَ ذَلِكَ) أو كراهَةَ إصابتِكُم.

قولُهُ: (مِنَ الخَطَأِ) مغتمِّينَ متمنِّينَ أنَّه لم يقَع.

---

(١) انظر المسألة في: «مغني اللبيب» (ص: ٣٥٣، ٣٥٦).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٧١).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٤).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٣٦)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٨).

لَأثِمتم دونَه إثمَ التسبّب إلى المُرتَّب، ﴿ولكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيكُمُ الإيمانَ، وزَيَّنَهُ﴾: حسّنه ﴿في قُلُوبِكُم، وكَرَّهَ إِلَيكُمُ الكُفرَ والفُسُوقَ والعِصيانَ﴾. استدراكٌ من حيثُ المعنى دُون اللفظ، لأنّ مَن حُبِّبَ إليه الإيمانُ إلى آخره غايرتْ صِفتُه صِفةَ مَن تقدّم ذِكره. ﴿أُولئِكَ هُمُ﴾ ـ فيه التفات عن الخِطاب ـ ﴿الرّاشِدُونَ﴾: الثابتون على دِينهم، ٨ ـ ﴿فَضلاً مِنَ اللهِ﴾: مصدر منصوب بفعله المُقدّر، أي: أفضَلَ ﴿ونِعمَةً﴾ منه، ﴿واللهُ عَلِيمٌ﴾ بهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في إنعامه عليهم.

٩ ـ ١٠ ـ ﴿وإن طائفتانِ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾ ـ الآيةُ نزلتْ في قضيّة، هي أنّ النبيّ ﷺ ركب حِمارًا ومرّ على ابن أُبيٍّ، فبال الحِمار فسدّ ابن أُبيٍّ أنفَه، فقال ابنُ رَواحةَ: واللهِ لَبولُ حِمارِه أطيبُ رِيحًا من مِسكِكَ. فكان بين قوميهما ضرب بالأيدي والنعال والسَّعف ـ ﴿اقتَتَلُوا﴾، جُمِعَ نظرًا إلى المعنى لأنّ كُلّ طائفة جماعةٌ ـ وقُرِئ: «اقتَتَلَتا» ـ ﴿فأصلِحُوا بَينَهُما﴾. ثُنّيَ نظرًا إلى اللفظ، ﴿فإن بَغَتْ﴾: تعدّتْ ﴿إحداهُما علَى الأُخرَى فقاتِلُوا الَّتِي تَبغِي حَتَّى تَفِيءَ﴾: ترجِع ﴿إلَى أمرِ اللهِ﴾: الحقِّ، ﴿فإن فاءَتْ فأصلِحُوا بَينَهُما بِالعَدلِ﴾: بالإنصاف، ﴿وأقسِطُوا﴾: اعدِلوا. ﴿إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ. إنَّما المُؤمِنُونَ إخوَةٌ﴾ في الدِّين. ﴿فأصلِحُوا بَينَ أخَوَيكُم﴾ إذا تنازعا ـ وقُرِئ: «إخوَتِكُم» بالفَوقانيّة ـ ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ في الإصلاح، ﴿لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ﴾.

قولُهُ: (مَصدَرٌ) أو علّةٌ لـ﴿كَرَّهَ﴾، أو ﴿حَبَّبَ﴾، وما بينَهما اعتراضٌ.

قولُهُ: (أي: أفضَلَ) وأنعمَ.

قولُهُ: (بَينَ قَومَيهِمَا) الأوسِ والخزرجِ، قالَ القاضِي[١]: والآيةُ تدلُّ على أنَّ الباغيَ مؤمنٌ، قلتُ: ولعلَّهُ باعتبارِ عمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ، معَ أنَّ السَّببَ بغيٌ لغويٌّ؛ بمعنى: التَّعدِّي.

قولُهُ: (الحَقِّ) أي: إلى حكمِهِ، فالأمرُ واحدُ الأمورِ، أو ما أمرَ به مِنَ الأوامرِ، وفيهِ دلالةٌ على أنَّ الباغيَ إذا قبضَ عن الحربِ تُرِكَ، وأنَّه يجب معاونةُ مَن بُغِي عليه بعد تقديمِ النُّصحِ والسَّعي في المصالحةِ.

قولُهُ: (بالإِنْصَافِ) يعني: بفصلِ ما بينهما على ما حكمَ اللهُ.

قولُهُ: (اعْدِلُوا) في كلِّ الأمورِ.

قولُهُ: (إِذَا تَنَازَعَا) وخُصَّ الاثنانِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أقلُّ مَن يقعُ بينهُمُ الشِّقاقُ، وقيل: المرادُ بالأخوينِ: الأوسُ والخزرجُ، ولعلَّ ابنَ أُبيٍّ دخلَ فيهم صورةً أو تغليباً.

قولُهُ: (قُرِئَ) هي قراءةُ يعقوبَ[٢] مِن العشرةِ، وقرأَ الحسنُ: (إخوانِكُم)[٣].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٥).

(٢) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٦). (٣) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٤٤).

١١ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا يَسخَرْ﴾ ـ الآيةُ نزلتْ في وفدِ تميمٍ حين سخروا من فُقراء المُسلمين كعمّارٍ وصُهيب. والسخرية: الازدراء والاحتقار ـ ﴿قَومٌ﴾ أي: رجال منكم ﴿مِن قَومٍ ـ عَسَى أن يَكُونُوا خَيرًا مِنهُم﴾ عِند الله ـ ﴿ولا نِساءٌ﴾ منكم ﴿مِن نِساءٍ ـ عَسَى أن يَكُنَّ خَيرًا مِنهُنَّ ـ ولا تَلمِزُوا أنفُسَكُم﴾: لا تَعيبوا فتُعابوا، أي: لا يَعِبْ بعضكم بعضًا، ﴿ولا تَنابَزُوا بِالألقابِ﴾: لا يدعو بعضكم بعضًا بلقب يكرهه، ومنه: يا فاسقُ ويا كافرُ. ﴿بِئسَ الِاسمُ﴾ أي: المذكورُ من السُّخريةِ واللمزِ والتنابزِ ﴿الفُسُوقُ بَعدَ الإيمانِ﴾! بدلٌ من الاسم، لإفادة أنه فِسق لتكرّره عادةً، ﴿ومَن لَم يَتُبْ﴾ من ذلك ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ﴾.

١٢ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، اجتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ـ إنَّ بَعضَ الظَّنِّ إثمٌ﴾ أي: مُؤثِمٌ. وهو كثيرٌ كظنِّ السَّوء بأهل الخير من المُؤمنين وهم كثير، ....

قولُهُ: (مِنكُم) وعُطفَ؛ لأنَّ القومَ مختصٌّ بالرِّجالِ، واختيارُ الجمعِ؛ لأنَّ السُّخريةَ تغلبُ في المجامعِ.

قولُهُ: (فَتُعَابَوا) لأنَّ مَن عابَ عِيبَ، أو لا تفعَلوا ما تلمِزونَ به، فإنَّ مَن فعلَ ما استحقَّ به اللَّمزَ فقد لمزَ نفسَهُ، واللَّمزُ: الطَّعنُ باللِّسانِ.

قولُهُ: (أي: لا يَعِبْ) هذا قولٌ آخرُ، فصوابُهُ: أو لا يعبْ بعضُكُم بعضاً، فإنَّ المؤمنينَ كنفسٍ واحدةٍ.

قولُهُ: (يَكرَهُهُ) فإنَّ النَّبزَ مختصٌّ بلقبِ السُّوءِ عرفاً.

قولُهُ: (بَدَلٌ) محلُّهُ قبلَ ﴿بَعْدَ﴾، أو بِئسَ الذكرُ المرتفعُ للمؤمنينَ أن يُذكَروا بالفسقِ بعدَ دخولِهِم الإيمانَ واشتهارِهِم به، والمرادُ به: إمَّا ذمُّ نسبةِ الكفرِ والفسقِ إلى المؤمنينَ خصُوصاً، إذ رويَ أنَّ الآيَةَ نزلَتْ[1] في صفيَّةَ بنتِ حيَيٍّ، أتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَتْ: إنَّ النِّساءَ يقلْنَ لي: يا يهوديَّةُ بنتَ يهوديَّين، فقالَ لها: «هلَّا قلْتِ: إنَّ أبي هارونُ، وعمِّي موسى، وزوجِي محمَّدٌ»[2] صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم أجمعينَ، أو الدِّلالةُ على أنَّ التَّنابزَ فسقٌ، والجمعُ بينَهُ وبينَ الإيمانِ مُستقبَحٌ، وكلامُ الشَّيخِ مائلٌ إلى الأخيرِ.

قولُهُ: (وهُوَ كَثِيرٌ) والإبهامُ ليُحْتاطَ في كلِّ ظنٍّ ويُتأمَّلَ حتَّى يعلمَ أنَّه مِن أيِّ القبيلِ، فإنَّ من الظنِّ ما يجبُ اتِّباعُهُ كالظنِّ حيثُ لا قاطعَ فيه من العمليَّاتِ، وحسنِ الظنِّ باللهِ، وما يحرمُ كالظنِّ في الإلهيَّاتِ والنبوَّاتِ،

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٣٧٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير في علم التفسير» (٤/ ١٤٩) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٢) رواه الترمذي (٣٨٩٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٥٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (٦٧٩٠) بنحوه من حديث هاشم بن سعيد الكوفي عن كنانة، عن صفية بنت حيي رضي الله عنها.

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي، وليس إسناده بذاك.

ورواه الترمذي (٣٨٩٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٧٠)، وأحمد في «مسنده» (١٢٣٩٢) من وجه آخر من حديث أنس رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

بخِلافه بالفُسّاق منهم فلا إثم فيه في نحو ما يظهر منهم ـ ﴿ولا تَجَسَّسُوا﴾، حُذف منه إحدى التاءين: لا تَتَبَّعُوا عوراتِ المُسلمين ومعايبَهم بالبحث عنها، ﴿ولا يَغتَبْ بَعضُكُم بَعضًا﴾: لا يذكرْه بشيء يكرهه، وإن كان فيه ـ ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أن يأكُلَ لَحمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، بالتخفيف والتشديد، أي: لا يُحِسّ به؟ لا، ﴿فكَرِهتُمُوهُ﴾ أي: فاغتيابُه في حياته كأكل لحمه بعد مماته، وقد عُرض عليكم الثاني فكرهتموه. فاكرهوا الأوّل ـ ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ أي: عِقابه في الاغتياب بأن تتوبوا منه. ﴿إنَّ اللهَ تَوّابٌ﴾: قابلٌ توبةَ التائبين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

وحيثُ يخالفُهُ قاطعٌ، وظنِّ السُّوءِ بالمؤمنينَ، وما يُباحُ كالظنِّ في الأمورِ المعاشيةِ، ومنه الحديثُ: «الحَزمُ سوءُ الظَّنِّ»[١]، و«احتَرِسُوا مِنَ النَّاسِ بسوءِ الظَّنِّ»[٢].

قولُهُ: (لا تَتَبَّعُوا) ولا تبحَثوا، وقُرِئَ بالحاءِ[٣]، وفي الحديثِ: «لا تتبَّعُوا عوراتِ المسلمينَ، فإنَّ مَنْ تتبَّعَ عوراتِهِم تتبَّعَ اللهُ عورتَهُ حتَّى يفضحَهُ ولو في جوفِ بيتِهِ» رواهُ التِّرمذيُّ وحسَّنَهُ[٤].

قولُهُ: (وإنْ كَانَ فِيهِ) فقد عدمَ الفرقُ بين البهتانِ والغيبةِ، وقد سُئِلَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الغيبةِ فقالَ: «أنْ تذكرَ أخاكَ بمَا يكرهُهُ، فإنْ كانَ فيهِ فقدِ اغتبتَهُ، وإنْ لم يكُنْ فيه فقد بهتَّهُ» رواهُ الشَّيخانِ[٥].

قولُهُ: (والتَّشدِيدِ) نافعٌ[٦]، وهو حالٌ من اللَّحمِ أو الأخِ.

قولُهُ: (لا) يعني: الهمزةُ للإنكارِ.

قولُهُ: (فقَد عُرِضَ) أو إن عُرِضَ عليكم هذا.

قولُهُ: (أي: عِقَابَهُ) أو مخالفتَهُ، وفي نسخةٍ: «في الإصلاحِ»، وهو يحتملُهُما.

قولُهُ: (قَابِلُ تَوبَةِ التَّائِبِينَ) وموفِّقُهُم لها ورجَّاعٌ عليهم بالمغفرةِ وأنواعِ اللُّطفِ، (﴿رحيمٌ﴾) لمَنِ اتَّقى ما

---

(١) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٤) من حديث عبد الرحمن بن عائذ مرسلًا.
ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٥٦) عن الحكم بن عبد الله، قال: كانت العرب تقول... ثم ذكره.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٤٥٨) من حديث أنس رضي الله عنه.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٩): فيه بقية بن الوليد وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات.
وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٦٥) بعد أن ذكر طرقه، قال: طرقه كلها ضعيفة، وبعضها يتقوى ببعض.

(٣) أي: (ولا تحسسوا) وهي قراءة شاذة، ونسبت لأبي رجاء وابن سيرين، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٤٥).

(٤) رواه الترمذي (٢٠٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٥) رواه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولم يخرجه البخاري.

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٠٦)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٨).

١٣ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ، إنّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثى﴾: آدمَ وحوّاءَ، ﴿وجَعَلْناكُم شُعُوبًا﴾: جمعُ شَعب بفتح الشين هو أعلى طبقات النسب، ﴿وقَبائلَ﴾ هي دُون الشُّعوب، وبعدَها العمائرُ ثمّ البطونُ ثمّ الأفخاذُ ثمّ الفصائلُ آخِرُها ـ مثاله خُزَيمةُ: شعبٌ، كِنانةُ: قبيلة، قُريشُ: عِمارة بكسر العين، قُصيٌّ: بطن، هاشمٌ: فخِذ، العبّاسُ: فَصِيلة ـ ﴿لِتَعارَفُوا﴾، حُذف منه إحدى التاءين: ليَعرِفَ بعضُكم بعضًا لا لتتفاخروا بعلوّ النسب. وإنما الفخر بالتقوى ﴿إنَّ أكرَمَكُم عِندَ اللهِ أتقاكُم. إنَّ اللهَ عَليمٌ﴾ بكم ﴿خَبيرٌ﴾ ببواطنكم.

١٤ ـ ﴿قالَتِ الأعرابُ﴾ نفرٌ من بني أسد: ﴿آمَنّا﴾: صدّقنا بقُلوبنا. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَم تُؤمِنُوا، ولكِن قُولُوا: أسلَمْنا﴾ أي: انقَدْنا ظاهرًا.

نُهِيَ عنهُ، والمبالغةُ في التوَّابِ؛ لأنَّهُ بليغٌ في قبولِ التَّوبةِ إذ يجعل صاحبَها كمَنْ لا يُذنِبُ، أو لكثرةِ المتوبِ عليهِم، أو لكثرةِ ذنوبِهِم.

قولُهُ: (آدَمَ وحَوَّاءَ) أو خَلقنا كلَّ واحدٍ منكُم من أبٍ وأمٍّ، فالكلُّ سواءٌ في ذلك، فلا وجهَ للتَّفاخرِ بالنَّسبِ.

قولُهُ: (النَّسَبِ) الَّتي عليها العربُ، وهو القبيلةُ العظيمةُ، وهو أبو القبائلِ الَّتي تجمعُهُم.

قولُهُ: (ليَعرِفَ بَعضُهُم بَعضاً) للتَّوارثِ والتَّواصلِ والتَّعارفِ.

قولُهُ: (بِعُلُوِّ النَّسَبِ) بالآباءِ والقبائلِ.

قولُهُ: (بالتَّقوَى) الَّتي هي الحسَبُ، وقولُ البيضاويِّ[1]: وقُرِئَ ﴿لتعارفوا﴾ بالإدغامِ، سهوٌ؛ إذ قرأَ بها البزِّيُّ[2].

قولُهُ: (نَفَرٌ) أي: نزلَت فيهم، قدِموا المدينةَ في سنةٍ جدبةٍ، وأظهَروا الشَّهادتينِ وكانوا يقولونَ لرسولِ اللهِ ﷺ: أتَيْناكَ بالأثقالِ والعيالِ، ولم نقاتلْكَ كما قاتلَكَ بنو فلانٍ، يريدونَ الصَّدقةَ ويمنُّونَ[3].

قولُهُ: (صَدَّقْنَا) هذا حقيقةُ معناهُ، لا أنَّهم قالوا هذا القولَ.

قولُهُ: (انْقَدْنَا ظَاهِراً) فإنَّ الإسلامَ انقيادٌ ودخولٌ في السِّلمِ، وإظهارُ الشَّهادةِ، وتركُ المحاربةِ يُشعِرُ به، وأمَّا الإيمانُ فهو تصديقٌ معَ ثقةٍ وطمأنينةِ قلبٍ، ولم يحصُلْ لكم، وإلَّا لما مننْتُم على الرَّسولِ بالإسلامِ وتركِ المقاتلةِ، كما دلَّ عليه آخرُ السُّورةِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣٧).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٨٣)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٨).

(٣) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٤/ ٤٠٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٦).

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣١٣) عن مجاهد مختصراً.

﴿ولَمّا﴾ أي: لم ﴿يَدخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُم﴾ إلى الآنَ، لكنّه يُتوقّع منكم، ﴿وإن تُطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ﴾ بالإيمان وغيره ﴿لا يأْلِتْكُم﴾، بالهمز وتركِه، وبإبداله ألفًا: لا يَنقُصْكم ﴿مِن أعمالِكُم﴾ أي: من ثوابها ﴿شَيئًا. إنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ للمُؤمنين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. ١٥ ـ ﴿إنَّما المُؤمِنُونَ﴾ أي: الصادقون في إيمانهم كما صرّح به بعدُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ ورَسُولِهِ، ثُمَّ لَم يَرتابُوا﴾: لم يَشكّوا في الإيمان، ﴿وجاهَدُوا بِأمْوالِهِم وأنفُسِهِم في سَبِيلِ اللهِ﴾. فجِهادُهم يُظهر صِدقَ إيمانهم. ﴿أُولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ﴾ في إيمانهم لا مَن قالوا: آمنّا. ولم يُوجد منهم غيرُ الإسلام.

١٦ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُم﴾ ـ مضعّفُ «عَلِمَ» بمعنى شَعَرَ ـ أي: أتُشعِرونه ....

قولُهُ: (مِنهُم) الظَّاهرُ: منكم.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) أي: الإخلاصِ وسائرِ الطَّاعاتِ.

قولُهُ: (بالهَمزِ) الدُّوريُّ[1].

قولُهُ: (وتَركِهِ) الجمهورُ.

قولُهُ: (وبإبْدَالِهِ) السُّوسيُّ.

قولُهُ: (لا يَنْقُصُكُم) من لاتَ وألتَ، لغتانِ.

قولُهُ: (للمُؤْمِنِينَ) أي: لهذا الجنسِ، أو لمن تابَ، أو لما فرطَ من المطيعينَ.

قولُهُ: (بِهِم) بالتَّفضُّلِ عليهِم.

قولُهُ: (أي: الصَّادِقُونَ) الكامِلونَ.

قولُهُ: (كَمَا صَرَّحَ بِهِ) أي: بقيدِ الصِّدقِ بعدَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْصَّادِقُونَ﴾، أو المرادُ بـ(بعدُ) ما بعدَهُ، وهو قولُهُ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا... ﴾ إلخ.

قولُهُ: (فَجِهَادُهُم) المجاهَدةُ بالأموالِ والأنفسِ تصلُحُ للعباداتِ الماليَّةِ والبدنيَّةِ بأسرِها، إفراداً وجَمعاً، والمرادُ بـ﴿سبيلِ اللهِ﴾: طاعتُهُ.

قولُهُ: (في إيمَانِهِم) أي: في ادِّعائِهِ.

قولُهُ: (غَيرُ الإسلامِ) أي: الانقيادُ المجرَّدُ من غيرِ علاماتِ الانقيادِ.

قولُهُ: (أتُشعِرُونَهُ) أي: أتُخبِرونَهُ.

---

(١) هذا وما بعده انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٥٥٢).

بما أنتم عليه في قولكم: آمنّا، ﴿واللهُ يَعلَمُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، واللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾؟

١٧ ـ ﴿يَمُنُّونَ عليكَ أن أسلَمُوا﴾ من غير قِتال، بخِلاف غيرهم ممّن أسلم بعد قِتال منهم. ﴿قُلْ: لا تَمُنُّوا علَيَّ إسلامَكُم﴾: منصوبٌ بنزع الخافض الباء، ويُقدّر قبل «أن» في الموضعين، ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ علَيكُم أن هَداكُم لِلإيمانِ، إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ في قولكم: آمنّا. ١٨ ـ ﴿إنَّ اللهَ يَعلَمُ غَيبَ السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: ما غاب فيهما، ﴿واللهُ بَصِيرٌ بِما يَعمَلُونَ﴾، بالياء والتاء: لا يخفى عليه شيء منه.

قولُهُ: (وتُقَدَّرُ) أي: الباءُ.

قوله: (في المَوْضِعَينِ) ﴿أنْ أَسْلَمُوا﴾ و﴿أنْ هداكُمْ﴾، وقُرِئَ: (إنْ) بالكسر، و(إذ)[1].

قولُهُ: (في قَوْلِكُم) وجوابُهُ محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبلَهُ؛ أي: فللَّهِ المنَّةُ عليكُم.

قولُهُ: (بالياءِ) للمكّيِّ[2]، لما في الآيةِ من الغيبةِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) فقراءة (إن هداكم) نسبت لابن عمر، وقراءة (إذ هداكم) لابن مسعود، وهي قراءات شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٤٤)، و«شواذ القراءات» (ص: ٤٤٥).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢٠٢)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٨).

سورة الحجرات

مدنيةٌ كما قال الحسن وقتادة وعكرمة وغيرهم، وفي «مجمع البيان» عن ابن عباس: إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الآية: ١٣][1].

ولعلَّ من يعتبر ما أخرجه الحاكم في «مستدركه»، والبيهقي في «الدلائل»، والبزار في «مسنده»، من طريق الأعمش عن علقمة عن عبد الله قال: ما كان (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ) أُنزل بالمدينة، وما كان (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ) فبمكة[2] = يقول بمكِّيةِ ما استثني، والحقُّ أنَّ هذا ليس بمطَّرد. وذكر الخفاجي[3] أنها في قول شاذٍّ مكيةٌ.

وهي ثماني عشرةَ آية بالإجماع.

ولا يخفى تواخيها مع ما قبلها لكونهما مدنيتين ومُشتملتين على أحكامٍ، وتلك فيها قتالُ الكُفَّار، وهذه فيها قتالُ البغاة، وتلك خُتمت بالذين آمنوا، وهذه افتُتِحَتْ بالذين آمنوا، وتلك تَضَمَّنت تشريفاتٍ له ﷺ خصوصاً مَطْلعها، وهذه أيضاً في مَطْلعها أنواعٌ من التشريف له عليه الصلاة والسلام، وفي «البحر»[4]: مناسبتها لآخرِ ما قبلَها ظاهرٌ؛ لأنه عز وجل ذكر رسولَ الله ﷺ وأصحابه، ثم قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلخ [الفتح: ٢٩] فربمَّا صدر من المؤمن عامِلِ الصالحات بعضُ شيء مما ينبغي أنْ ينهى عنه، فقال جل وعلا تعليماً للمؤمنين وتهذيباً لهم:

---

(١) مجمع البيان ٢٦/ ٨١.

(٢) المستدرك ٣/ ١٨، ودلائل النبوة ٧/ ١٤٤، والبزار (١٥٣١).

(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٧١.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٠٥.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وتصديرُ الخِطاب بالنداء لتنبيهِ المُخاطبين على أنَّ ما في حيِّزه أمرٌ خطير يستدعي مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقِّيه ومُراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داعٍ للمحافظة عليه ورادعٌ[1] عن الإخلال به.

و«تقدِّموا» من قدَّم المتعدِّي، ومعناه: جعل الشيء قادماً، أي: متقدِّماً على غيره، وكان مقتضاه أنْ يتعدَّى إلى مفعولين، لكن الأكثر في الاستعمال تعديته إلى الثاني بـ «على»، تقول: قدَّمت فلاناً على فلان، وهو هنا مُحتمِلٌ احتمالين: الأول: أن يكون مفعولُه نسيًا، والقَصْد فيه إلى نفس الفعل، وهو التقديمُ من غير اعتبار تعلُّقه بأمرٍ من الأمور ولا نظر إلى أن المُقدَّم ماذا هو، على طريقة قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقولِهم: يُعطي ويمنع، فالمعنى: لا تفعلوا التقديمَ ولا تتلبَّسوا به، ولا تجعلوه منكم بسبيل. والثاني: أن يكونَ قد حُذِفَ مفعولُه قصداً إلى تعميمه، لأنه لاحتماله لأمور لو قُدِّر أحدُها كان ترجيحاً بلا مُرجِّح يقدّر أمراً عامًّا لأنه أفيدُ مع الاختصار، فالمعنى: لا تُقدِّموا أمراً من الأمور. والأول ـ قيل ـ: أوفى بحقِّ المقام لإفادته النهي عن التلبُّس بنفس الفعل المُوجب لانتفائه بالكُلِّيَّة المستلزِم لانتفاء تعلُّقه بمفعوله بالطريق البرهاني، ورُجِّحَ الثاني بأنه أكثرُ استعمالاً، وبأنَّ في الأول تنزيلَ المُتعدِّي منزلةَ اللازم، وهو خلافُ الأصل، والثاني سالمٌ منه، والحذفُ وإنْ كان خلافَ الأصل أيضاً أهونُ من التنزيل المذكور لِكَثْرته بالنسبة إليه، وبعضُهم لم يُفرِّق بينهما لتعارضِ الترجيحِ عنده وكونِ مآل المعنى عليهما العموم المناسب للمقام.

وذكر أن في الكلام تجوُّزين: أحدهما في «بين» إلخ، فإنَّ حقيقةَ قولهم: بين يدي فلان، ما بين العضوين، فتجوَّز بذلك عن الجهتين المسامِتَتَيْن ليمينه وشماله

(١) في الأصل: وداع.

قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يُجاورهما ويُحاذيهما، فهو من المَجاز المُرْسَل. ثانيهما: استعارةُ الجملة ـ وهي التقدُّم بين اليدين ـ استعارةً تمثيليةً للقطع بالحُكم بلا اقتداء، ومُتابعة لمن يلزم مُتابعته تصويراً لهجنته وشناعته بصورة المحسوس فيما نُهوا عنه، كتقدُّم الخادم بين يدي سيِّده في مسيره[1] حيث لا مصلحة، فالمراد من: «لا تقدموا بين يدي الله ورسوله»: لا تقطعوا أمراً وتجزِموا به وتجترؤوا على ارتكابه قبل أنْ يحكم اللهُ تعالى ورسوله ﷺ به ويأذنا فيه. وحاصلُه النهي عن الإقدام على أمرٍ من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة.

وجُوِّز أن يكون «تقدِّموا» من قَدَّمَ اللازم بمعنى تقدَّم، كوجَّه وبيَّن، ومنه مُقَدِّمةُ الجيش خلافُ ساقته، وهي الجماعة المتقدِّمة منه، ويَعْضُده قراءة ابن عباس وأبي حَيْوة والضحاك ويعقوب وابن مِقْسم: «لا تَقَدَّموا» بفتح التاء والقاف والدَّال[2]، وأصله: تتقدَّموا، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً؛ لأنه من التفعُّل وهو المطاوع اللازم. ورُجِّح ما تقدَّم بما سمعتَ، وبأنَّ فيه استعمالَ أعرفِ اللُّغتين وأشهرهما. لا يقال: الظرف إذا تعلَّق به العامل قد ينزلُ منزلةَ المفعول فيفيد العموم كما قرَّروه في ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فليكن الظرف هاهنا بمنزلة مفعول التقدُّم مغنياً غناءه، والتقدُّم بين يدي المرء خروجٌ عن صفة المُتابعة حسًّا، فهو أوفقُ للاستعارة التمثيلية المقصود منها تصوير هجنة الحكم بلا اقتداء ومتابعة لمن يلزم متابعته بصورة المحسوس، فتخريج «لا تقدموا» على اللزوم أبلغُ، ولا يضرّه عدمُ الشُّهرة فإنه لا يُقاوم الأبلغية المطابقة للمقام = لِمَا أشار إليه في «الكشف» من أن المرادَ النهي عن مخالفة الكتاب والسنة، والتعديةُ تُفيد أنَّ ذلك بجعل وقَصْدٍ منه للمخالفة، لأنَّ التقديمَ بين يدي المرء أن تجعلَ أحداً إما نفسك أو غيرك متقدِّمًا بين يديه، وذلك أقوى في الذمِّ وأكثر استهجاناً للدلالة على تعمُّد عدمِ المتابعة لا صدورها عنه كيفما اتَّفق، فافهم ولا تَغْفُل.

وجُوِّز أن يكون ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من باب: أعجبني زيدٌ وكرمه، فالنهي عن

(١) في (م): سيره.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٨، والبحر المحيط ٨/ ١٠٥، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٥.

التقدُّم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام، فكأنه قيل: لا تُقدِّموا بين يَدَي رسول الله، وذكر الله تعالى لتعظيمه عليه الصلاة والسلام والإيذانِ بجلالة محلِّه عنده عز وجل ومَزيد اختصاصه به سبحانه، وأمر التجوُّز عليه على حاله، وهو كما قال في «الكشف»: أوفقُ لما يجيء بعدَه؛ فإنَّ الكلامَ مسوقٌ لإجلاله عليه الصلاة والسلام، وإذا كان استحقاقُ هذا الإجلال لاختصاصه بالله جل وعلا ومنزلتِه منه سبحانه فالتقدُّم بين يدي الله عز شأنه أدخلُ في النهي وأدخل، وإن جعل مقصوداً بنفسه على ما مرَّ، فالنهي عن الاستبداد بالعمل في أمرٍ ديني لا مطلقاً من غير مُراجعة إلى الكتاب والسُّنة، وعليه تفسيرُ ابن عباس على ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نُعيم في «الحيلة» عنه أنه قال: أي: لا تقولوا خلافَ الكتاب والسنة[١].

وكذا ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه قال: نُهوا أنْ يتكلَّموا بين يدي كلامِهِ، بل عليهم أن يصغوا ولا يتكلَّموا[٢]. ووجهُ الدلالةِ على هذا أنَّ كلامه عليه الصلاة والسلام أُريد به ما ينقلُه عنه تعالى ولفظه أيضاً، وما اللفظ من الرسول ﷺ وإنْ كان المعنى من الوحي، أو أراد كلامَ كلٍّ واحدٍ من الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام.

وما أخرج عبد بن حُميد والبيهقي في «شعب الإيمان» وغيرهما عن مجاهد أنه قال في ذلك: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيَ اللهُ تعالى على لسانه[٣] = يُخرَّج على نحو التخريج الأول لكلام ابن عباس، ويكون مُؤَيِّداً له. وبعضهم يروي أنه قال: لا تفتاتوا على الله تعالى شيئاً حتى يَقُصَّه على لسان رسول الله ﷺ وجعل مؤيّداً لكلام ابن عباس أيضاً، وفسّر التقدّم بين يدي الله تعالى لأنَّ التقدُّم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام مكشوفُ المعنى، ثم إنَّ كلَّ ذلك من باب بيان حاصل المعنى في الجملة.

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٤، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣٥، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٩٨.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٤، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٤، وشعب الإيمان (١٥١٦)، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣٦، وعلقه البخاري قبل الحديث (٤٨٤٥).

وفي «الدر المنثور» بعد ذكر المروي عن مجاهد حسبما ذكرنا: قال الحُفَّاظ: هذا التفسير على قراءة: «تَقَدَّموا» بِفتح التاء والدال[١]. وهي قراءة لبعضهم حكاها الزمخشري وأبو حيان وغيرهما[٢]، وكأنَّ ذلك مبنيٌّ على أن «تَقَدَّموا» على هذه القراءة من قَدِمَ كعَلِمَ إذا مضى في الحرب، ويأتي من باب نصر أيضاً، إذ الافتيات ـ وهو السبقُ ـ دون ائتمار مَنْ يُؤتَمر، أنسبُ بذلك.

واختار بعضُ الأجِلَّة جعله من قَدِمَ من سفره من باب عَلِمَ لا غير، كما يقتضيه عبارةُ «القاموس» وعليه يكون قد شبَّه تعجيلهم في قطع الحكم في أمر من أمور الدين بقدوم المسافر من سفره إيذاناً بشدَّة رغبتهم فيه نحو: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

واختلف في سبب النزول، فأخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: قَدِمَ ركبٌ من بني تميم على النبيِّ ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمِّر القعقاع بن مَعْبد، وقال عمر رضي الله عنه: بل أَمِّر الأقرعَ بن حابس، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أردتَ إلا خِلافي. فقال عمر رضي الله عنه: ما أردتُ خلافَك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتُهما، فأنزل الله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) حتى انقضت الآية[٣].

وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن أن أُناساً ذبحوا قبلَ رسول الله ﷺ يومَ النحر، فأمرهم عليه الصلاة والسلام أن يُعيدوا ذبحاً، فأنزل الله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) إلخ[٤].

وفي «الكشاف» عنه: أن أُناساً ذبحوا يومَ الأضحى قبل الصلاة فنزلَتْ، وأمرهم ﷺ أن يُعيدوا ذبحاً آخر[٥].

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٢، والبحر المحيط ٨/ ١٠٥، وهي قراءة يعقوب كما سلف قريباً.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٣-٨٤، وصحيح البخاري (٤٨٤٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦١٣٣).
(٤) الدر المنثور ٦/ ٨٤، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣٦.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٥٣، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣٠.

والأول ظاهرٌ في أنَّ النزولَ بعد الأمر، والذَّبح قبلَ الصلاة يستلزم الذبحَ قبلَ رسول الله عليه الصلاة والسلام، لأنه ﷺ كان ينحر بعدَها كما نطقَتْ به الأخبارُ، وإلى عدمِ الإجزاء قبلُ ذهب الإمامُ أبو حنيفة، والأخبار تُؤَيِّده؛ أخرج الشيخان والترمذي وأبو داود والنسائي عن البراء قال: ذبح بُردةُ بن نِيار قبل الصلاة، فقال النبيُّ ﷺ: «أَبْدِلْها»، فقال: يا رسولَ الله، ليس عندي إلا جَذَعة؟ فقال ﷺ: «اجعَلْها مكانها، ولن تجزي عن أحدٍ بعدك»، وفي رواية: أنه ﷺ قال: «أولُ ما نبدأ به في يومنا هذا نُصلِّي ثم نرجِعُ فننحرُ، فمن فعل ذلك فقد أصابَ سُنَّتنا، ومَنْ ذبح قبلُ فإنما هو لحمٌ قدَّمه لأهله ليس من النُّسك في شيء»، وكان أبو بُردة بن نِيار قد ذبح قبلَ الصلاة. الحديث(١).

وفي المسألة كلامٌ طويل مَحلُّه كتبُ الفروع، فراجِعْه إنْ أردتَه.

وعن الحسن أيضاً: لما استقرَّ رسولُ الله ﷺ بالمدينة أَتَتْه الوفودُ من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل، فَنُهوا أن يبتدؤوه بالمسألة حتى يكونَ عليه الصلاة والسلام هو المبتدئ(٢).

وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة قال: ذُكر لنا أنَّ ناساً كانوا يقولون: لو أُنزل فيَّ كذا وكذا، لكان كذا وكذا. فكَرِه اللهُ تعالى ذلك وقدَّم فيه(٣).

وقيل: بعث رسولُ الله ﷺ إلى تِهامة سريةً سبعة وعشرين رجلاً عليهم المنذرُ بن عمرو الساعدي، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطُّفيل إلا ثلاثةَ نفر نَجَوْا فَلَقُوا رجلين من بني سُليم قُربَ المدينة، فاعتزيا لهم إلى بني عامر لأنهم أعزُّ من سُليم، فقتلوهما وسلبوهما، ثم أَتَوا رسولَ الله ﷺ فقال: «بئسما صنعتم كانا من سُليم» أي: كانا من أهلِ العهد؛ لأنهم كانوا مُعاهَدين «والسَّلَبُ ما كَسَوْتُهما» فوداهما

---

(١) صحيح البخاري (٩٥٥)، وصحيح مسلم (١٩٧١)، وسنن الترمذي (١٥٠٨)، وسنن أبي داود (٢٨٠١)، والمجتبى ٣/ ١٨٢.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٣، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٤، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٣٦.

رسولُ الله ﷺ، فقال: ونزلت[(١)]، أي: لا تعملوا شيئاً من ذاتِ أنفسكم حتى تستأمروا رسولَ الله ﷺ.

وأخرج الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه عن عائشة ﵂ قالت: إنَّ ناساً كانوا يتقدَّمون الشهر فيصومون قبلَ النبيِّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ)[(٢)]. وفي رواية عن مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الكوفي: دخلت على عائشةَ ﵂ ـ وكانت قد تَبَنَّته ـ في اليوم الذي يُشَكُّ فيه فقالت للجارية: اسقيهِ عسلاً، فقلت: إني صائمٌ، فقالت: قد نهى اللهُ تعالى عن صوم هذا اليوم، وفيه نزلت: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟) إلخ[(٣)]، فالمعنى كما في «المعالم»: لا تصوموا قبل صوم نبيِّكم[(٤)]. وأَوَّل هذا صاحب «الكشف» فقال: الظاهرُ عندي أنها استدلَّت بالآية على أنه ينبغي أن يُمْتَثَلَ أَمْرُ النبيِّ ﷺ ونَهْيُه، وقد نهى عليه الصلاة والسلام. و: فيه نزلت، أي: في مثل هذا لدلالتها على وجوبِ الاتِّباع والنهي عن الاستبداد، إذْ لا يلوح ذلك التفسيرُ على وجهٍ ينطبقُ على يوم الشكِّ وحدَه إلا بتكلُّف، وهذا نظيرُ ما نقل عن ابن مسعود في جوابِ المرأة التي اعترضت عليه أنها قرأت كتابَ الله وما وجدَتِ اللَّعنَ على الواشمة كما ادَّعاه ﵁، من قوله: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيهِ، أما رأيتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] قالت: بلى، قال: فإنه نهى عنه. وأنت تعلم بُعْدَ

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٥٣، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٥١٧) عن مقاتل بن حيان، وأخرجه في الدلائل ٣/ ٣٤٢ عن موسى بن عقبة، وذكر القصة على غير هذا السياق، وأن المقتولَيْن من بني كلاب، وأن الثلاثة قُتل منهم واحد، وهو المحفوظ والمشهور في المغازي. قاله الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٤. وينظر الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص١٧٨ وما بعدها.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٤، والمعجم الأوسط (٢٧١٣).

(٣) الكشاف ٣/ ٥٥٣، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: هكذا ذكره الثعلبي بغير سند، وذكره الدارقطني من رواية مالك بن حُمرة عن مسروق قال: دخلت على عائشة ﵂ في اليوم الذي يشك أنه يوم عرفة.. الحديث. قلنا: وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٧١٣) ضمن الحديث السابق، وليس فيه أن الآية نزلت فيه.

(٤) معالم التنزيل (وهو تفسير البغوي) ٤/ ٢٠٨.

الرواية الأولى عن هذا التأويل. ويُعلم من هذه الروايات وغيرها أنهم اختلفوا أيضاً في تفسير التقدُّم، وفي كثير منها تفسيره بخاصّ.

وقال بعضهم: إنَّ الآيةَ عامَّةٌ في كلِّ قول وفعل، ويدخلُ فيها أنه إذا جَرَتْ مسألة في مجلس رسول الله ﷺ لم يسبقوه في الجواب، وأن لا يمشى بين يديه إلا للحاجة، وأن يُستأنى في الافتتاح بالطعام، ورُجِّح بأنه الموافقُ للسِّياق، ولِمَا عُرف في الأصول من أنَّ العِبْرَةَ بعموم اللفظ لا بخصوصِ السبب، وفي الكلام عليه بناءً على ما قاله الطيبي مجازٌ باعتبار القَدْر المشترك الصادق على الحقيقة أيضاً دون التمثيل وتشبيه المعقول بالمحسوس، ويُسمَّى في الأصول بـ: عموم المجاز، وفي الصناعة بـ: الكناية؛ لأنها لا تُنافي إرادةَ الحقيقة أيضاً؛ ومن هنا يجوز إرادةُ: لا تمشوا بين يديه ﷺ؛ وذَكَر عليه الرحمةُ أنه لا يُقدَّر على هذا القول مفعول، بل يتوجَّه النهيُّ إلى نفس الفعل، فتأمَّل.

ويُحتجُّ بالآية على اتباع الشرع في كلِّ شيء، وهو ظاهر مما تقدَّم، وربما احتَجَّ بها نُفاةُ القياس، وهو ـ كما قال الكيا[1] ـ باطلٌ منهم. نعم قال الجلال السيوطي: يُحتجُّ بها على تقديم النَّصِّ على القياس[2]. ولعلَّه مبنيٌّ على أن العمل بالنَّصِّ أبعدُ من التقدُّم بين يدي الله تعالى ورسوله ﷺ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي: في كلِّ ما تأتون وتذرون من الأقوال والأفعال التي من جُملتها ما نحن فيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكلِّ مسموع، ومنه أقوالكم ﴿عَلِيمٌ ①﴾ بكلِّ المعلومات، ومنها أفعالكم، فمن حَقِّه أن يُتَّقى ويُراقب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ شروعٌ في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبيِّ ﷺ بعدَ النهي عن التجاوز في نفس القول والفعل، وإعادة النداءِ مع قُربِ العهدِ به للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه، والإشعارِ باستقلال كلٍّ من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه، أي: لا تبلغوا بأصواتكم وراءَ حدٍّ يبلغُه عليه الصلاة والسلام بصوته.

---

(١) أحكام القرآن ٤/ ٣٨١.
(٢) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص٢٤١.

وقرأ ابن مسعود: «لا ترفّعوا بأصواتكم» بتشديد «ترفعوا» وزيادة الباء[١]، وقد شدَّد الأعلم الهُذَلي في قوله:

رفَّعتُ عيني بالحِجا ... زِ إلى أُناسٍ بالمناقب[٢]

والتشديد فيه للمبالغة، كزيادة الباء في القراءة إلا أن ليس المعنى فيها أنهم نُهوا عن الرفع الشديد تخيُّلاً أن يكونَ ما دون الشديد مُسوّغاً لهم، ولكن المعنى نهيهم عمَّا كانوا عليه من الجَلبَة واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون، وهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ أي: جهراً كائناً كالجهر الجاري فيما بينكم، فالأول نهيٌ عن رفع الصوت فوقَ صوتِه ﷺ، وهذا نهيٌ عن مساواة جَهْرهم لجهره عليه الصلاة والسلام، فإنه المعتادُ في مُخاطبةِ الأقران والنُّظَراء بعضهم لبعض، ويُفهم من ذلك وجوبُ الغضِّ حتى تكونَ أصواتُهم دون صوتِه ﷺ.

وقيل: الأول مخصوصٌ بمكالمته ﷺ لهم، وهذا بِصَمْتِهِ عليه الصلاة والسلام، كأنه قيل: لا ترفعوا أصواتَكم فوق صوته إذا نَطَق ونَطَقتم، ولا تجهروا له بالقول إذا سكت وتكلَّمتم، ويُفهم أيضاً وجوبُ كون أصواتِهم دون صوته عليه الصلاة والسلام، فأيًّا ما كان يكون المآل: اجعلوا أصواتَكم أخفضَ من صوته ﷺ وتعهَّدوا في مخاطبته اللِّين القريب من الهَمْس كما هو الدأبُ عند مُخاطبة المَهيب المُعَظَّم، وحافظوا على مُراعاة أُبَّهة النبوَّة وجلالةِ مِقدارها، ومن هنا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد نزول الآية ـ كما أخرج عبد بن حُميد والحاكم وصحَّحه من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة ـ: والذي أنزلَ عليك الكتابَ يا رسول الله، لا أُكلِّمك إلا كأخي السِّرار حتى ألقى الله تعالى[٣].

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٥.

(٢) ديوان الهذليين ٢/ ٨١، والكشاف ٣/ ٥٥٥، ومعجم ما استعجم ٤/ ١٢٦٤، والأعلم هو حبيب بن عبد الله، أخو صخر الغي.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٤، والمستدرك ٢/ ٤٦٢، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١٥٢١)، وقوله: كأخي السرار: أي: كصاحب السرار، أو: كمثل المسارة؛ لخفض صوته. النهاية (سرر).

وفي رواية أنه قال: يا رسولَ الله، واللهِ لا أُكلِّمك إلا السِّرار، أو: أخا السِّرار حتى ألقى الله تعالى[١]. وكان إذا قَدِمَ على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوفودُ أَرسل إليهم مَنْ يُعلِّمهم كيف يُسلمون، ويأمرهم بالسَّكينة والوَقار عند رسول الله ﷺ[٢].

وكان عمرُ رضي الله عنه ـ كما في «صحيح البخاري» وغيره عن ابن الزبير ـ إذا تكلَّم عند النبيِّ ﷺ لم يَسمَعْ كلامَه حتى يَستفهمه[٣].

وقيل: معنى «ولا تجهروا له بالقول» إلخ: ولا تُخاطبوه باسمه وكُنيته كما يُخاطِبُ بعضُكم بعضاً، وخاطبوه بالنبيِّ والرسول، والكلامُ عليه أبعدُ عن توهُّم التكرار، لكنه خلافُ الظاهر، لأنَّ ذكر الجهر عليه لا يظهر له وجهٌ، وكان الظاهرُ أن يقال مثلاً: ولا تجعلوا خِطابه كخطابِ بعضِكم بعضاً.

﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ﴾ تعليلٌ لما قبلَه من النَّهيين على طريق التنازع بتقدير مضافٍ، أي: كراهةَ أنْ تَحْبَطَ أعمالكم، والمعنى: إني أنهاكم عمَّا ذُكر لكراهة حُبوط أعمالكم بارتكابه، أو تعليلٌ للمنهي عنه، وهو الرفعُ والجهرُ بتقدير اللام، أي: لأنْ تحبط، والمعنى: فِعْلُكم ما ذُكر لأجل الحبوط مَنهيٌّ عنه، ولام التعليل المُقدَّرة مستعارةٌ للعاقبة التي يؤدِّي إليها الفعل؛ لأنَّ الرفعَ والجهرَ ليس لأجل الحُبوط لكنهما يُؤدِّيان إليه على ما تعلمه إن شاء الله تعالى. وفرق بينهما بما حاصلُه أن الفعلَ المنهيَّ مُعلَّل في الأول والفعل المُعلَّل منهيٌّ في الثاني، وأيّهما كان فمرجعُ المعنى إلى أنَّ الرفعَ والجهرَ كلاهما منصوصُ الأداء إلى حُبوط العمل، وقراءة ابن مسعود وزيد بن عليٍّ: «فتحبط» بالفاء[٤]، أظهرُ في التنصيص على أدائه إلى الإحباط؛ لأنَّ ما بعدَ الفاء لا يكونُ إلا مُسبَّباً عمَّا قبلَها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ حالٌ من فاعل «تحبط»، ومفعول «تشعرون» محذوفٌ بقرينة ما قبلَه، أي: والحال أنتم لا تشعرون أنها مُحْبطة.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٥٥، والبحر المحيط ٨/ ١٠٦.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٥. قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده.
(٣) صحيح البخاري (٧٣٠٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦١٣٣).
(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٣٤٣، والكشاف ٣/ ٥٥٧.

وظاهرُ الآية مُشْعِرٌ بأنَّ الذنوبَ مطلقاً قد تُحبِطُ الأعمال الصالحة؛ ومذهبُ أهل السنة أن المُحبِط منها الكُفر لا غير، والأول مذهبُ المعتزلة، ولذا قال الزمخشري[1]: قد دلَّت الآيةُ على أمرين هائلين: أحدهما: أنَّ فيما يُرتكب من الآثام ما يُحبِطُ عمل المؤمن. والثاني: أنَّ في أعماله ما لا يدري أنه مُحبِطٌ، ولعلَّه عند الله تعالى مُحْبِطٌ.

وأَجاب عن ذلك ابن المُنيِّر[2] عليه الرحمة بأن المرادَ في الآية النهيُ عن رَفْعِ الصوت على الإطلاق، ومعلومٌ أنَّ حكمَ النهي الحَذَرُ مما يتوقَّع في ذلك من إيذاء النبيِّ ﷺ، والقاعدةُ المختارة أنَّ إيذاءَه عليه الصلاة والسلام يبلغُ مبلغَ الكُفْرِ المُحبِط للعمل باتِّفاق، فَوَرَد النهيُ عمَّا هو مَظِنَّةٌ لأذى النبيِّ ﷺ سواء وجد هذا المعنى أَوْ لا حمايةً للذريعة وحسماً للمادَّة، ثم لما كان هذا المنهيُّ عنه منقسماً إلى ما يبلغُ مَبْلغَ الكُفر، وهو المُؤذي له عليه الصلاة والسلام وإلى ما لا يبلغُ ذلك المبلغ، ولا دليلَ يميِّز أحدَ القسمين عن الآخر، لَزِمَ المُكلَّف أنْ يكفَّ عن ذلك مطلقاً خوفَ أنْ يقع فيما هو مُحبِطٌ للعمل، وهو البالغُ حدَّ الأذى، إذ لا دليل ظاهراً يُميِّزه، وإنْ كان فلا يتفقُ تمييزه في كثير من الأحيان، وإلى التباس أحدِ القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، وإلا فلو كان الأمرُ على ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ موقعٌ، إذ الأمر مُنحصِرٌ بين أن يكونَ رفعُ الصوتِ مُؤذياً فيكون كفراً مُحبطاً قطعاً، وبين أن يكن غيرَ مُؤذٍ، فيكون كبيرةً مُحبِطةً على رأيه قطعاً، فعلى كلا حاليه الإحباطُ به مُحقَّق إذن، فلا موقعَ لإدعام الكلام بعدمِ الشعور مع أنَّ الشعورَ ثابتٌ مطلقاً.

ثم قال عليه الرحمة[3]: وهذا التقديرُ يدور على مقدِّمتين كلتاهما صحيحة:

إحداهما: أن رفعَ الصوتِ من جنس ما يحصل به الأذى، وهذا أمرٌ يشهد به

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٥٧.

(٢) الانتصاف بهامش الكشاف ٣/ ٥٥٦.

(٣) يعني ابن المُنَيِّر في الانتصاف.

النقل والمُشاهدة، حتى إنَّ الشيخَ ليتأذَّى برفع التلميذِ صوتَه بين يديه، فكيف برتبة النبوَّة وما تستحقُّه من الإجلال والإعظام.

ثانيتهما: أن إيذاءَ النبيِّ ﷺ كفرٌ، وهذا ثابتٌ قد نصَّ عليه أئمتنا، وأفتَوْا بقتل من تعرَّض لذلك كفراً، ولا تُقبل توبته، فما أتاه أعظمُ عند الله تعالى وأكبر. انتهى.

وحاصلُ الجواب أنه لا دليلَ في الآيةِ على ما ذهب إليه الزمخشري لأنه قد يُؤدِّي إلى الإحباط إذا كان على وجهِ الإيذاء أو الاستهانة، فنهاهم عز وجل عنه، وعلَّله بأنه قد يُحبط وهم لا يشعرون.

وقيل: يمكن نظراً للمقام أن ينزلَ أذاهم رسولَ الله ﷺ برفع الصوتِ منزلةَ الكُفر تغليظاً، إجلالاً لمجلسه صلواتُ الله تعالى عليه وسلامه، ثم يرتِّب عليه ما يُرتَّب على الكُفر الحقيقي من الإحباط، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] ومعنى «وأنتم لا تَشْعرون» عليه: وأنتم لا تشعرون أنَّ ذلك بمنزلة الكُفر المُحبط، وليس كسائرِ المعاصي، ولا يتمُّ بدون الأول، وجاز ـ كما في «الكشف» ـ أنْ يكونَ المرادُ ما فيه استهانةٌ، ويكون من باب: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] مما الغرضُ منه التعريضُ، كيف وهو قولٌ منقولٌ عن الحسن، كما حكاه في «الكشاف»[(١)].

وقال أبو حيان: إنْ كانت الآيةُ بمن يفعل ذلك استخفافاً فذلك كُفرٌ يحبطُ معه العمل حقيقةً، وإنْ كانت للمؤمن الذي يفعله غَلَبةً وجَرْياً على عادته فإنما يحبطُ عملُه البرّ في توقير النبيِّ ﷺ وغضّ الصوتِ عنده أن لو فعل ذلك؛ كأنه قيل: مخافةَ أن تحبط الأعمال التي هي مُعَدَّة أن تعملوها فتؤجروا عليها[(٢)]. ولا يخفى ما في الشقِّ الثاني من التكلُّف البارد.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٥٥.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٠٦.

ثم إنَّ من الجهر ما لم يتناوله النهيُ بالاتفاق، وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلةِ معاند، أو إرهابِ عدوٍّ، أو ما أشبه ذلك مما لا يُتخَيَّل منه تأذٍّ أو استهانة، ففي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال للعباس بن عبد المطلب لما وَلّى المسلمون يومَ حُنين: «نادِ أصحابَ السَّمُرة»، فنادى بأعلى صوته: أين أصحابُ السمرة، وكان رجلاً صَيِّتاً[1]. يُروى أنَّ غارةً أتَتْهم يوماً فصاح العباسُ: يا صباحاه، فأسقطت الحواملُ لِشدَّة صوته[2]، وفيه يقول نابغةُ بني جَعْدة:

زَجْرُ أبي عُروةَ السِّباع إذا أشفق أن يَختلطْنَ بالغنم[3]

زَعمتِ الرواةُ أنه كان يزجر السِّباع عن الغنم فيفتقُ مرارةَ السَّبُع في جوفه، وذكروا أنه سُئل ابنُ عباس رضي الله عنهما: فكيف لا تفتقُ مرارة الغنم؟ فقال: لأنها أَلِفَتْ صوتَه[4].

وروى البخاري ومسلم عن أنس: لما نزلَتْ هذه الآيةُ جلس ثابتُ بن قيس في بيته، وقال: أنا مِنْ أهل النارِ. واحتبس، فسأل النبيُّ ﷺ سعدَ بن معاذ فقال: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت، أشْتَكى؟» قال سعدٌ: إنه جاري، وما علمتُ له بشكوى. فأتاه سعدٌ، فقال: أُنزلت هذه الآية ولقد عَلِمتُم أني أرفعُكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهلِ النار، فذكَر ذلك سعدٌ للنبيِّ ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة»[5].

وفي روايةٍ أنه لما نزلَتْ دخل بيتَه وأغلقَ عليه بابَه وطَفِقَ يبكي، فافتقده رسولُ الله ﷺ فقال: «ما شأن ثابت؟» قالوا: يا رسولَ الله، ما ندري ما شأنه غيرَ أنه أغلقَ بابَ بيته، فهو يبكي فيه، فأرسل رسولُ الله ﷺ إليه فسأله: «ما شأنك؟» قال: يا رسولَ الله، أنزل اللهُ عليكَ هذه الآية وأنا شديدُ الصوت، فأخافُ أن أكونَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديث العباس رضي الله عنه.
(٢) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده.
(٣) ديوان النابغة الجعدي ص١٥٨، وفيه: يلتبسن، بدل: يختلطن.
(٤) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده.
(٥) صحيح البخاري (٣٦١٣)، وصحيح مسلم (١١٩)، واللفظ له، وأخرجه أحمد (١٢٣٩٩).

قد حَبِطَ عملي، فقال ﷺ: «لستَ منهم، بل تعيش بخير وتموت بخير»(١).

والظاهرُ أن ذلك منه رضي الله عنه كان من غَلبة الخوفِ عليه، وإلا فلا حُرمة قبل النهي، وهو أيضاً أجلُّ من أن يكونَ ممن كان يقصدُ الاستهانةَ والإيذاءَ لرسول الله ﷺ برفع الصوتِ، وهم المنافقون الذين نزلَتْ فيهم الآيةُ على ما رُوي عن الحسن، وإنما كان الرفعُ منه طبيعةً لما أنه كان في أُذُنِهِ صَمَمٌ، وعادةُ كثير ممن به ذلك رفعُ الصوت.

والظاهرُ أنه بعد نزولها تركَ هذه العادة، فقد أخرج الطبراني والحاكم وصحَّحه أن عاصمَ بن عَدِيٍّ بن العَجْلان أخبر النبيَّ ﷺ بحاله، فأرسله إليه، فلما جاء قال: «ما يُبكيك يا ثابت؟» فقال: أنا صَيِّتٌ وأتخوَّفُ أن تكونَ هذه الآيةُ نزلَتْ فيَّ، فقال له عليه الصلاة والسلام: «أما ترضى أنْ تعيشَ حميداً، وتُقتلَ شهيداً، وتَدْخُلَ الجنةَ»؟ قال: رَضِيتُ، ولا أرفعُ صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ(٢).

واستدلَّ العلماءُ بالآية على المنعِ من رَفْعِ الصوت عند قبرِهِ الشريفِ ﷺ، وعند قراءةِ حديثِهِ عليه الصلاة والسلام؛ لأن حُرمتَه ميتاً كحرمته حَيًّا. وذكر أبو حيان كراهةَ الرفعِ أيضاً بحضرة العالِم، وغيرُ بعيدٍ حرمتُه بقَصْدِ الإيذاء والاستهانة لمن يحرمُ إيذاؤه والاستهانةُ به مطلقاً، لكن للحُرمة مراتبُ مُتفاوتةٌ كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إلخ، ترغيبٌ في الانتهاء عمَّا نُهُوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به، أي: يحفظونها مُراعاةً للأدب أو خشيةً من مُخالفة النهي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيِّز الصِّلة، وما فيه من معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشارِ إليه لما مرَّ مراراً من تفخيم شأنه؛ وهو مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾، والجملةُ خبر «إنَّ»، وأصلُ معنى الامتحان

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٣٩٩) عن بنت ثابت بن قيس.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٥، والمعجم الكبير (١٣١٦)، والمستدرك ٣/ ٢٣٤، وأخرجه أيضاً ابن جرير في التفسير ٢١/ ٣٣٩-٣٤٠.

التجربة والاختبار، والمرادُ به هنا ـ لاستحالة نسبته إليه تعالى ـ التمرينُ بعلاقة اللزوم، أي: أنهم مَرَّن الله تعالى قلوبهم للتقوى.

وفي «الكشف»: الامتحانُ كنايةٌ تلويحية عن صَبْرهم على التقوى وثَباتهم عليها وعلى احتمال مَشاقِّها؛ لأن المُمتحن جرّب وعَوّد منه الفعل مرةً بعد أُخرى، فهو دالٌّ على التمرُّن المُوجِب للاضطلاع، والإسنادُ إليه تعالى للدلالة على التمكين، ففيه ـ على ما قيل ـ مع الكناية تجوُّزٌ في الإسناد، والأصل: امتحنوا قلوبَهم للتقوى بتمكين الله تعالى لهم. وكأنه إنما اعتبر ذلك لأنه لا يجوزُ إرادةُ المعنى الموضوعِ له هنا، فلا يصحُّ كونه كنايةً عند من يشترطُ فيها إرادة الحقيقة، ومن اكتفى فيها بجواز الإرادة وإن امتنعت في محلِّ الاستعمال لم يَحتَجْ إلى ذلك الاعتبار.

واختار الشهابُ(١) كونَ الامتحان مجازاً عن الصبر بعلاقة اللزوم، وحاصلُ المعنى عليه كحاصله على الكناية، أي: أنهم صُبُرٌ على التقوى أقوياءُ على تحمُّل مَشاقِّها.

أو المراد بالامتحان المعرفة ـ كما حُكي عن الجُبَّائي ـ مجازاً من باب إطلاق السبب وإرادة المُسبَّب، والمعنى: عرَف اللهُ قلوبَهم للتقوى، وإسنادُ المعرفة إليه عز وجل بغير لَفْظها غيرُ مُمتنِع، وهو في القرآن الكريم شائعٌ، على أنَّ الصحيحَ جوازُ الإسناد مطلقاً لما في «نهج البلاغة» من إطلاق العارفِ عليه تعالى، وقد ورد في الحديث أيضاً على ما ادَّعاه بعضُ الأجِلَّة. واللامُ صِلةٌ لمحذوف وقع حالاً من «قلوبهم» أي: كائنة للتقوى مُختصَّة بها، فهو نحو اللام في قوله:

وقصيدةٍ رائقةٍ صَوَّغتُها ... أنت لها أحمد من بين البشر(٢)

وقوله:

أَعدَّاءُ مَنْ لليَعْمَلَاتِ على الوَجَى ... وأضيافِ ليلٍ بيَّتوا لنزولِ(٣)

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٧٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٧ مقتصراً على ذكر عجز البيت ودون نسبة.

(٣) البيت لِعُتَيِّ بن مالك كما في شرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨٨٣، وصدره في الكشاف ٣/ ٥٥٧. قال المرزوقي: اليعملات: النوق السراع، والوجى: الحَفَى، ناداه مسائلاً على طريق التحسر: مَن يؤوي الأضياف وقد أكلَّهم التعب حتى حفيت رواحلهم غيرك.

أو هي صلةٌ لـ «امتحن» باعتبار معنى الاعتياد[1]. أو المرادُ: ضربَ اللهُ تعالى قلوبهم بأنواعِ المحن والتكاليفِ الشاقَّة لأجل التقوى، أي: لتظهرَ ويُعلَم أنهم مُتَّقون، إذْ لا تُعلم حقيقةُ التقوى إلا عند المحن والاصطبار عليها، وعلى هذا فالامتحانُ هو الضربُ بالمحن، واللامُ للتعليل على معنى أنَّ ظهورَ التقوى هو الغرضُ والعِلَّة، وإلا فالصبرُ على المحنةِ مستفادٌ من التقوى لا العكس.

أو المرادُ: أَخْلَصَها للتقوى، أي: جعلها خالصةً لأجل التقوى، أو أخلصها لها فلم يبقَ لغيرِ التقوى فيها حقٌّ كأنَّ القلوبَ خلصت ملكاً للتقوى، وهذا أبلغُ، وهو استعارةٌ من امتحان الذهب وإذابته لِيخلصَ إبريزُه من خَبَثِهِ ويَنقى، أو تمثيل.

وتفسيرُ «امتحن» بأخلصَ رواه ابنُ جرير وجماعة عن مجاهد[2]، ورُوي ذلك أيضاً عن الكعبي وأبي مسلم. وقال الواحدي: تقديرُ الكلام: امتحنَ اللهُ قلوبَهم فأَخلصها للتقوى، فحذفَ الإخلاص لدلالة الامتحان عليه. وليس بذاك.

واختار صاحبُ «الكَشْف» ما نُقل عنه أولاً فقال: الأولُ أرجحُ الوجوهِ لِكَثْرةِ فائدته من الكناية والإسناد والدلالة على أنَّ مثلَ هذا الغضِّ لا يتأتَّى إلا ممن هو مُدَرَّبٌ للتقوى صبورٌ عليها، فتأمَّل.

﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝﴾ لِغَضِّهم أصواتَهم عند النبيِّ عليه الصلاة والسلام، ولسائر طاعاتهم، وتنكير «مغفرةٌ وأجرٌ» للتعظيم، ففي وصفِ «أجر» بـ «عظيم» مُبالغةٌ في عِظَمه، فإنه مما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سمعَتْ ولا خطَر على قلبِ بشر، وجملةُ «لهم» إلخ مستأنفةٌ لبيان جزاء الغاضِّين إحماداً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مُؤلَّفة من معرفتين، والمبتدأ اسمُ الإشارة المُتضمِّن لما جعل عنواناً لهم، والخبرُ الموصولُ بصلةٍ دلَّتْ على بُلوغهم أقصى الكَمال مُبالغةً في الاعتدادِ بغضِّهم والارتضاء له، وتعريضاً بشناعة الرَّفْعِ والجَهْر، وأنَّ حال المُرتكب لهما على خلاف ذلك.

وقيل: الجملةُ خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ»، وليس بذاك.

---

(١) في الأصل: الاعتبار.

(٢) الدر المنثور ٦/٨٦، وتفسير الطبري ٢١/٣٤٤، وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (١٥١٦).

والآية قيل: أُنزلت في الشيخين رضي الله عنهما لِمَا كان منهما من غَضِّ الصوت والبُلوغ به أخا السِّرار بعد نزول الآية السابقة، وفي حديث الحاكم وغيره عن محمد بن ثابت بن قيس أنه قال بعدَ حكايةِ قصة أَبيه، وقوله: لا أَرفعُ صوتي أبداً على رسول الله ﷺ: وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية[1].

وأنت تعلم أنَّ حكمها عامٌّ، ويدخلُ الشيخان في عُمومها، وكذا ثابتُ بن قيس، وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾، قال رسولُ الله ﷺ: «منهم ثابت بن قيس بن شَمَّاس»[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ مِنْ خارجها خَلْفها أو قُدَّامها، على أنَّ «وراء» من المُواراة والاستتار، فما استتر عنك فهو وراء، خَلْفاً كان أو قُدَّاماً إذا لم تَرَهُ، فإذا رَأَيْته لا يكون وراءك، فالوراءُ بالنسبة إلى من في الحُجرات ما كان خارجَها لِتواريه عمَّن فيها، وقال بعضُ أهل اللغة: إنَّ «وراء» من الأضدادِ. فهو مشتركٌ لفظيٌّ عليه، ومشتركٌ معنويٌّ على الأول، وهو الذي ذهب إليه الآمدي وجماعة.

و«الحجرات» جمعُ: حُجْرة، على وزن فُعْلة، بضمِّ الفاء وسكون العين، وهي القِطعة من الأرض المحجورة، أي: الممنوعة عن الدخول فيها بحائط، وتُسمَّى حظيرة الإبل ـ وهي ما تُجمع فيه، وتكونُ محجورةً بحطب ونحوه ـ حُجرةً أيضاً، فهي بمعنى اسم المفعول كالغُرفة لما يُغْرَفُ باليد من الماء، وفي جمعها هنا ثلاثةُ أوجه: ضَمُّ العين إتباعاً للفاء كقراءة الجمهور، وفتحُها وبه قرأ أبو جعفر وشيبة[3]، وتسكينها للتخفيف وبه قرأ ابن أبي عَبْلة[4].

وهذه الأوجهُ جائزةٌ في جمع كلِّ اسمِ جامدٍ جاء على هذا الوزن.

---

(١) سلف تخريجه قريباً.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٦.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٠٨، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٧٦.
(٤) القراءات الشاذة ص١٤٣، والبحر ٨/ ١٠٨.

والمرادُ حُجرات نسائه عليه الصلاة والسلام، وكانت تسعةً، لكلٍّ منهنَّ حُجرةٌ، وكانت ـ كما أخرج ابن سعد[1] عن عطاء الخُراساني ـ من جَريد النخل على أبوابها المُسوح من شعر أسود.

وأخرج البخاري في «الأدب» وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال: رأيتُ الحجرات من جريد النخل مُغَشَّى من خارج بمسوح الشعر، وأظنُّ عرضَ البيت من باب الحُجرة إلى باب البيت ستَّ أو سبعَ أذْرُع، وأحزرُ البيت الداخل عشرةَ أذرع، وأظنُّ السّمك بين الثمان والسبع[2].

وأخرجوا عن الحسن أنه قال: كنتُ أدخل بيوتَ أزواجِ النبيِّ ﷺ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سَقْفها بيدي[3]. وقد أُدخِلَتْ في عهد الوليد بن عبد الملك بأمره في مسجدِ الرسول عليه الصلاة السلام، وبكى الناسُ لذلك، وقال سعيد بن المُسيَّب يومئذٍ: واللهِ، لوَدِدْتُ أنهم تركوها على حالها لينشأ[4] أُناس من أهل المدينة ويَقْدَم القادمُ من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسولُ الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يُزهِّد الناسَ في التكاثر والتفاخُر فيها. وقال نحوَ ذلك أبو أمامة بن سهل بن حنيف.

وفي ذِكْر «الحجرات» كنايةٌ عن خَلْوته عليه الصلاة والسلام بنسائه لأنها مُعدَّة لها، ولم يقل: حُجُرات نسائك، ولا: حُجُراتك، توقيراً له ﷺ وتحاشياً عمَّا يُوحِشه عليه الصلاة والسلام، ومناداتهم من ورائها، إما بأنهم أَتَوْها حُجرةً حُجرةً فنادَوْه من ورائها، فيكون القصدُ إلى الاستغراق العُرفي، أي: جميع حُجراتِ نسائه ﷺ، أو بأنهم تفرَّقوا على الحُجرات مُتطلِّبين له عليه الصلاة والسلام على أنَّ الاستغراقَ إفراديٌّ لا شُمولي مجموعي، ولا أنه من مُقابلة الجمع بالجمع المُقتضية لانقسام الآحادِ على الآحادِ، لأنَّ مَن ناداه ﷺ من وراء حُجرة منها فقد ناداه من

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٤٩٩.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٧، والأدب المفرد (٤٥١)، وشعب الإيمان (١٠٧٣٤).

(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٧، والأدب المفرد (٤٥٠)، وشعب الإيمان (١٠٧٣٥).

(٤) رسمت في الأصل هكذا: لينشو، والمثبت من طبقات ابن سعد ٨/ ١٦٧، والخبر فيه.

وراء الجميع على ما قيل، وعلى هذا يكون إسنادُ النداء من إسناد فِعْل الأبعاضِ إلى الكُلّ.

وقيل: إن الذي نادى رجلٌ واحد كما هو ظاهرُ خبرٍ أخرجه الترمذي ـ وحسَّنه ـ وجماعة عن البراء بن عازب[١]، وما أخرجه أحمد وابن جرير وأبو القاسم البغوي والطبراني وابن مردويه بسندٍ صحيح من طريق أبي سلمةَ بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس أنه أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا محمدُ، اخرج إلينا. فلم يُجبه عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمدُ، إنَّ حَمْدي زين، وإنَّ ذَمِّي شين. فقال: «ذاك الله»، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ إلخ[٢]. وعليه يكون الإسناد إلى الكلِّ، لأنهم رَضُوا بذلك، أو أَمروا[٣] به، أو لأنه وُجد فيما بينهم. وظاهرُ الآية أنَّ المنادي جمعٌ، وكذا جمع من الأخبار، وسنذكر إن شاء الله تعالى بعضاً منها.

وحملُ «الحُجرات» على الجمع الحقيقي هو الظاهر الذي عليه غيرُ واحد من المُفسِّرين، وجُوِّز كون الحُجرة واحدةً، وهي التي كان فيها الرسولُ عليه الصلاة والسلام، وجُمِعتْ إجلالاً له ﷺ على أُسلوب: حَرَّمت النساء سواكم، وأيضاً لأنَّ حُجرته عليه الصلاة والسلام ـ لأنها أُمُّ الحُجُرات وأشرفُها ـ بمنزلة الكلِّ على نحو أحدِ الوجهين من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤].

وفرَّق الزمخشري[٤] بين «من وراء الحجرات» بإثبات «من»، و: وراء الحُجرات، بإسقاطها، بأنه على الثاني يجوزُ أن يجمع المنادَى والمنادي الوراءُ، وعلى الأول لا يجوز ذلك، وعلَّله بأنَّ الوراءَ يصير بدخول «من» مبتدأ الغاية، ولا يجتمع على الجهةِ الواحدة أن تكونَ مبتدأً ومنتهًى لِفعل واحد.

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٧)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٥٠).

(٢) مسند أحمد (١٥٩٩١)، وتفسير الطبري ٢١/٣٤٦، والمعجم الكبير (٨٧٨)، وهو ضعيف لانقطاعه، فأبو سلمة لم يثبت سماعه من الأقرع بن حابس، كما قال محققو المسند.

(٣) في الأصل و(م): وأمروا، والمثبت من تفسير البيضاوي ٨/ ٧٥، وتفسير أبي السعود ٨/ ١١٨.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٥٨.

واعترضَه في «البحر» بأنه قد صرَّح الأصحاب في معاني «من» أنها تكون لابتداءِ الغايةِ وانتهائها في فعلٍ واحد، وأنَّ الشيء الواحد يكون محلًّا لهما، ونَسبوا ذلك إلى سيبويه، وقالوا: إنَّ منه قولهم: أخذتُ الدرهمَ من زيدٍ، فـ «زيد» محلٌّ لابتداءِ الأخْذِ منه وانتهائه معاً، قالوا: فـ «مِنْ» تكون في أكثرِ المواضع لابتداء الغاية فقط، وفي بعض المواضعِ لابتداء الغاية وانتهائها معاً[1].

وصاحبُ «التقريب» بقوله: فيه نظرٌ، لأنَّ المبدأ والمُنتهى إما المنادي والمنادى ـ على ما هو التحقيق ـ أو الجهةُ، فإنْ كان الأول جاز أن يجمعها الوراء في إثبات «من» وفي إسقاطها لتغاير المبدأ والمنتهى، وإنْ كان الثاني فالجهةُ إما ذات أجزاء أو عديمتها، فإنْ كان الأول جاز أن يجمعهما في إثبات «من» أيضاً باعتبار أجزاء الجهة، وإنْ كان الثاني لم يَجُزْ أن يجمعهما لا في إثباتِ «مِنْ» ولا في إسقاطها لاتِّحاد المورد.

ورُدَّ الأول بأنَّ محلَّ الانتهاء هو المُتكلِّم ليس إلا، كما ذكره ابن هشام في «المغني»[2]، وذَكَر أنَّ ابنَ مالك قال: إنَّ «مِنْ» في المِثال للمجاوزة، والثاني غيرُ قادح في الفرق على ما ذكره صاحب «الكشف»، قال: الحاصلُ أنَّ المبدأ الجهة باعتبار تَلَبُّسها بالفاعل لأنَّ حرف الابتداء دخل على الجهة والفعل مما ليست المسافة داخلةً في مفهومه، فيعتبر الأمران تحقيقاً لمقتضى الفعل والحرف، ولما أوقع جميع الجهة مَبْدأً لم يَجُزْ أن يكونَ مُنتهًى، سواء كان مُنقسماً أَوْ لا، ثم لما كان الوراء مُبهماً لم يكن مثل: سرتُ من البصرة إلى جامعها، إذْ لا يتعيَّن بعضها مبدأً وبعضها منتهًى، على أنَّ ذلك أيضاً إذا أُطلق يجب أن يحمل على أنَّ المنتهى غير البصرة، أما إذا عيِّنت فيجوز مع تجوُّز، والأصل عَدَمُه إلا بدليل، ثم هذا الجوازُ فيما كانت النهايةُ مكاناً أيضاً، أما إذا اعتبرت باعتبار التلبُّس بالمفعول فلا، وإذا لم يذكر حرفُ الابتداء لم يُؤَدّ هذا المعنى.

فهذا فرقٌ محقَّقٌ، ومنه يظهر أنَّ المذكورَ في «التقريب» من النظر غيرُ قادح.

---

(١) البحر ٨/١٠٨.

(٢) مغني اللبيب ص٤٢٥.

وما ذُكر من أنَّ التحقيقَ أنَّ الفعلَ يبتدئ من الفاعل وينتهي إلى المفعول ويقع في الظرف، وأن «من وراء الحجرات» ووراءَها كلاهما ظرفٌ، كصلَّيت من خَلْف الإمام وخَلْفَه، ومن قبلِ اليوم وقبلَه، ومعنى الابتداء غيرُ محقَّق، والفرقُ تعسُّفٌ = ظاهرٌ[1] في أن «مِنْ» زائدة لا فرقَ بين دخولها وخروجها، وهو خلافُ الظاهر، وإلا لَمَا اختلفوا في زيادتها في الإثبات لِشيُوع نحو هذا الكلام فيما بينهم. ومتى لم تكن زائدةً فلا بدَّ من الفَرْق بين الكلامين لا سيما إذا كانا من كلامه عز وجل، فتدبَّر.

والتعبير عن النداء بصيغة المضارع ـ مع تقدُّمه على النزول ـ لاستحضار الصورة الماضية لِغرابتها.

والموصول اسم «إنَّ»، وجملة قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ خبرُها، وتَكرارُ الإسناد لِلمُبالغة، والمرادُ أنهم لا يَجرون على مقتضى العقل من مُراعاة الأدب لا سيما مع أجلِّ خَلْق الله تعالى وأعظمهم عنده سبحانه ﷺ، وكثيراً ما يُنَزَّلُ وجود الشيء منزلةَ عَدَمِه لمقتضٍ، والحُكم على الأكثر دون الكلِّ بذلك؛ لأنَّ منهم من لم يَقْصِدْ تركَ الأدب، بل نادى لأمرٍ مّا على ما قيل.

وجُوِّز أن يكونَ المرادُ بالقِلَّة التي يدلُّ عليها نفي الكَثْرة العدمَ، فإنه يُكنى بها عنه، وتعقَّبه أبو حيان[2] بأن ذلك في صريح القِلَّة لا في المفهوم من نفي الكثرة.

وكان هؤلاء من بني تميم كما صرَّح به أكثر أهل السير؛ أخرج ابن إسحاق وابن مردويه عن ابن عباس قال: قَدِمَ وفدُ بني تميم وهم سبعون رجلاً أو ثمانون رجلاً ـ منهم: الزِّبرقان بن بدر، وعطارد بن حاجب بن زرارة، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، وعمرو بن الأهتم ـ المدينةَ على رسول الله ﷺ، فانطلقَ معهم عُيينةُ بن حصن بن بدر الفَزَاري ـ وكان يكون في كلِّ سوأة ـ حتى أَتَوْا منزل رسول الله ﷺ فنادَوْه من وراء الحُجُراتِ بصوت جافٍ: يا محمدُ، اخْرج إلينا، ثلاثاً، فخرج إليهم رسولُ الله ﷺ فقالوا: يا محمدُ، إنَّ مَدْحَنا زينٌ، وإنَّ شَتْمنا

---

(١) قوله: ظاهر، هو خبر «ما» في قوله: وما ذكر من أن التحقيق. . .

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٠٨.

شينٌ، نحن أكرمُ العرب. فقال رسولُ الله ﷺ: «كَذَبتم، بل مَدْحُ الله تعالى الزَّينُ، وشَتْمُه الشين، وأكرمُ منكم يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» فقالوا: إنا أتيناك لِنُفاخِرك. . ، فذكره بطوله، وقال في آخره: فقال التميميون: واللهِ، إنَّ هذا الرجلَ لمصنوع له، لقد قام خطيبه فكان أخطبَ من خطيبنا، وفاه شاعرُه فكان أشعرَ من شاعرنا، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ من بني تميم ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا في القراءة الأولى(١).

وذكر ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق الخبرَ بطوله، وعدَّ منهم الأقرعَ بن حابس، وذكر أنه وعُيينةَ شهدا مع رسول الله ﷺ فتحَ مكة وحنيناً والطائف، وأن عمرو بن الأهتم خلَّفه القومُ في ظهرهم، وأن خطيبهم عطاردُ بن حاجب، وخطيبَه ﷺ ثابتُ بن قيس بن شَمَّاس، وشاعرهم الزِّبرقان بن بدر، وشاعره عليه الصلاة والسلام حسانُ بن ثابت، وذكر الخطبتين وما قيل من الشعر، وأنه لما فرغَ حسانُ قال الأقرعُ: وأبي، إنَّ هذا الرجلَ لمُؤَتّى له، لخطيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولَشاعرُه أشعرُ من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا. وأنه لما فَرَغوا أسلموا، وجوَّزهم رسولُ الله ﷺ فأحسنَ جوائزهم، وأرسلَ لعمرو جائزتَه كالقوم. وتعقَّب ابن هشام الشعرَ بعض التعقُّب(٢).

وفي «البحر»(٣) أيضاً ذكر الخبرَ بطوله مع مُخالفة كلية لما ذكره ابن إسحاق، وفيه أنَّ الأقرعَ قام بعد أن أنشد الزِّبرقان ما أنشد وأجابه حسان بما أجاب، فقال: إني والله لقد جئتُ لأمر وقد قلتُ شعراً فاسمعه، فقال:

أتيناك كيما يعرف الناس فَضْلَنا ... إذا خالفونا عند ذِكْر المكارمِ
وأنّا رؤوسُ الناس من كلِّ مَعْشرِ ... وأنْ ليس في أرض الحجاز كدارمِ
وأنَّ لنا المِرْباع في كلِّ غارة ... تكون بنجدٍ أو بأرض التهائمِ(٤)

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٧.
(٢) السيرة النبوية ٢/ ٥٦٠-٥٦٧.
(٣) ٨/ ١٠٦.
(٤) الأبيات ذكرها ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٥٦٥-٥٦٦ ونسبها للزبرقان، وذكرها =

فقال النبيُّ ﷺ لحسان: قم فأَجبه، فقال:

بني دارمٍ لا تَفْخَروا إنَّ فخرَكم ... يصير وبالاً عند ذكر المكارمِ
هبلتم علينا تفخَرون وأنتم ... لنا خَوَل من بين ظِئرٍ وخادمِ

فقال النبيُّ ﷺ: «لقد كنتَ يا أخا دارم غَنيًّا أن يُذكرَ منك ما ظننتَ أنَّ الناسَ قد نسوه»، فكان قوله عليه الصلاة والسلام أشدَّ عليهم من جميع ما قال حسان، ثم رَجَعَ حسان إلى شعره فقال:

فإنْ كنتم جئتم لحقنِ دمائكم ... وأموالكم أن يُقسموا في المقاسمِ
فلا تجعلو لله نِدًّا وأَسلِمُوا ... ولا تَفخُروا عند النبيِّ بدارمِ
وإلا وربِّ البيت قد مالت القنا ... على هامِكم بالمُرهَفات الصوارمِ

فقال الأقرع بن حابس: واللهِ ما أدري ما هذا الأمر، تكلَّم خطيبُنا، فكان خطيبُهم أحسنَ قولاً، وتكلَّم شاعرُنا، فكان شاعرُهم أشعرَ وأحسنَ قولاً، ثم دنا من رسول الله ﷺ وقال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنك رسولُ الله، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «ما يَضرُّك ما كان قبلَ هذا»(١). انتهى.

وهذا ظاهرٌ في أنَّ إسلامَ الأقرع يومئذٍ، ومعلومٌ أنَّ سنةَ الوفودِ سنة تسعٍ، والطائف وحنين كانتا قبلَ ذلك، وتقدَّم عن ابن إسحاق أن الأقرع شَهِدَهما مع رسول الله ﷺ، ويتوهَّم منه أنه كان مسلماً إذ ذاك، فيتناقض مع هذا، بل في أول كلامِ ابن إسحاق وآخره ما يُوهم التناقض، والمذكور في الصحاح أنه ـ وكذا عُيينة ـ كان إذ ذاك من المؤلَّفة قلوبهم.

وقد روى ابن إسحاق نفسُه عن محمد بن إبراهيم أنَّ قائلاً قال لرسول الله ﷺ من أصحابه يومَ قِسمة ما أفاء الله تعالى عليه يوم حنين: يارسولَ الله، أعطيت عيينةَ

= الأصفهاني في الأغاني ٤/ ١٥٠، والمرزباني في معجم الشعراء ص ١٦١ ونسباها لعطارد بن حاجب، مع اختلاف بالألفاظ.

(١) الخبر نقله أبو حيان بتمامه عن الثعلبي في تفسيره ٩/ ٧٣-٧٥، وقد أخرجه الثعلبي وكذا ابن عساكر في تاريخه ٩/ ١٨٧-١٩٠ من حديث جابر رضي الله عنه، وفي إسناده معلَّى بن عبد الرحمن، وهو متهم بالوضع كما ذكر الحافظ في التقريب. وأبيات حسان في ديوانه ص٤٤٠.

والأقرع مئة، وتركت جُعيل بن سُراقة الضَّمْري، فقال: «أما والذي نفسُ محمد بيده، لجُعَيْل خيرٌ من طِلاع الأرض كلِّهم مثل عُيينة والأقرع، ولكن تألَّفتهما ليُسلما، وَوَكَلْتُ جُعيل بن سُراقة إلى إسلامه»(١).

وجاء ما يدلُّ على أنهم من بني تميم مرفوعاً، أخرج ابن مردويه من طريق يعلى بن الأشدق عن سعدِ بن عبد الله أنَّ النبيَّ ﷺ سُئل عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ إلخ، فقال: «هم الجُفاة من بني تميم لولا أنهم من أشدِّ الناسِ قتالاً للأعور الدجَّال لدعوتُ الله تعالى عليهم أنْ يُهْلِكَهم»(٢). وفي «الصحيحين» ما يشهد بأنهم من أشدِّ الأُمة على الدَّجال، وجعله أبو هريرة أحدَ أسبابِ حُبِّهم(٣).

وظاهرُ كثير من الأخبار أنَّ سبب وُفودِهم المُفاخرة، وقال الواقديُّ ـ وهو حاطبُ ليل ـ: إنَّ سببه هو أنهم كانوا قد جهروا السلاحَ على خُزاعة، فبعث إليهم رسولُ الله ﷺ عُيينةَ بنَ بدر في خمسين ليس فيهم أنصاريٌّ ولا مهاجري، فأسر منهم أحدَ عشرَ رجلاً وإحدى عشرةَ امرأةً وثلاثين صبيًّا، فَقَدِم رؤساؤهم بسبب أُسرائهم. ويقال: قَدِمَ منهم سبعون أو ثمانون رجلاً في ذلك منهم عطارد والزِّبرقان وقيس بن عاصم وقيس بن الحارث ونُعيم بن سعد والأقرع بن حابس ورياح بن الحارث وعمرو بن الأهتم فدخلوا المسجدَ وقد أَذَّن بلال الظهرَ والناسُ ينتظرون رسولَ الله ﷺ ليخرجَ إليهم، فَعَجِلَ هؤلاء فنادَوْه من وراء الحُجُرات، فنزل فيهم ما نزل، ثم ذكر أنه ﷺ أجازهم كلَّ رجل اثنتي عشرةَ أُوقيَّة وكساءً ولعمرو بن الأهتم خمس أَواق لحداثةِ سِنِّه(٤). انتهى.

ولعلَّ زيادةَ جائزته لما نِيل منه أيضاً فقد ذكر ابن إسحاق أنَّ عاصمَ بن قيس

---

(١) السيرة النبوية ٢/٤٩٦، والخبر أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/٣٥٣ عن محمد بن إبراهيم التيمي، وهو مرسل أو معضل كما ذكر ذلك ابن حجر في الفتح ١١/٢٧٧، والطِّلاع: ما طلعت عليه الشمس من الأرض.

(٢) الدر المنثور ٦/٨٧، ويعلى بن الأشدق قال عنه البخاري: لا يكتب حديثه، وقال ابن حبان: وضعوا له أحاديث فحدَّث بها ولم يدرِ. الميزان ٤/٤٥٦.

(٣) صحيح البخاري (٢٥٤٣)، وصحيح مسلم (٢٥٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) المغازي للواقدي ٣/ ٩٧٥.

كان يبغض عَمْراً فقال: يارسولَ الله، إنه قد كان رجلٌ منا في رحالنا وهو غلامٌ حَدَثٌ. وأزرى به، فقال لمَّا بلغه ذلك يُخاطب قيساً:

ظَلِلْتَ مُفترشَ الهَلْباءِ تشتمني عند الرسول فلم تَصْدُقْ ولم تُصِبِ
سِدْناكم سؤدداً رَهواً وسؤددكم بادٍ نواجذُه مُقْعٍ على الذَّنَبِ[1]

وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنهم أناسٌ من بني العنبر أصاب النبيُّ ﷺ من ذراريهم، فأقبلوا في فِدائهم، فَقَدِموا المدينةَ ودخلوا المسجدَ، وعَجِلوا أنْ يخرجَ إليهم النبيُّ عليه الصلاة والسلام، فجعلوا يقولون: يا محمدُ، اخرج إلينا.

وذكر الخفاجي أنَّ النبيَّ ﷺ بعث إلى قومٍ من العرب ـ هم بنو العنبر ـ سريةً أميرها عُيينة بن حِصن، فهربوا وتركوا النساءَ والذَّراري، فسباهم وقَدِمَ بهم عليه عليه الصلاة والسلام، فجاء رجالهم راجين إطلاقَ الأسارى، فنادَوْا من وراء الحجرات، فخرج ﷺ فأطلقَ النصفَ وفادى الباقي[2]. وظاهرُ كلامه أنهم ليسوا من بني تميم. وإن كانت هذه السَّرية مُتَّحِدةً مع السَّريَّة التي أشار إليها الواقدي فيما تقدَّم ـ ويقال: إنَّ عُيينة في الكلامين هو عُيينة بن حصن بن بدر إلا أنه نُسِبَ هناك إلى جدِّه وهنا إلى أبيه ـ كان ذلك الكلامُ ظاهراً في أنَّ القومَ كانوا من بني تميم لا أُناساً آخرين، وفي «القاموس»: العنبر أبو حَيٍّ من تميم[3]. فبنو العنبر عليه منهم، فلم يخرج الأمرُ عنهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: ولو ثبتَ صبرُهم وانتظارهم حتى تخرجَ، لكان الصبرُ خيراً لهم من الاستعجال؛ لِمَا فيه من حِفْظِ الأدب وتعظيمِ النبيِّ ﷺ المُوجِبين للثناء والثواب، أو لذلك والإسعاف بالمسؤول على أوفقِ وجهٍ وأَوْقعهِ عندهم بناءً على حديث الأسارى بأن يطلق عليه الصلاة والسلام الجميعَ من غير فداء. فـ «أنَّ» المفتوحة المُؤوَّلة بالمصدر هنا فاعلُ فعل مقدَّر،

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٥٦٧، وينظر مغازي الواقدي ٣/ ٩٧٩-٩٨٠، والأغاني ٤/ ١٥١ حيث ذكرا الخبر وذكرا الأشعار مع اختلاف بالألفاظ.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٧٥-٧٦.

(٣) القاموس (عنبر).

وهو: ثبتَ ـ كما اختاره المبرِّد ـ والقرينة عليه معنى الكلام، فإنَّ «أنَّ» تدلُّ على الثُّبوت، وهو إنما يكون في الماضي حقيقةً، ولذا يُقدَّر الفعل ماضياً. وضمير «كان» للمصدر الدالِّ عليه «صبروا» كما في قولك: مَنْ كذب كان شرًّا له، أي: الكذب. ومذهبُ سيبويه أن المصدرَ في موضع المبتدأ فقيل: خبره مُقدَّر، أي: لو صبرُهم ثابتٌ، وقيل: لا خبرَ له. وأنت تعلم أنَّ في تقدير الفعل إبقاءَ «لو» على ظاهرها من دخولها على الفعل، فإنها في الأصل شرطيةٌ مختصَّةٌ به.

وجُوِّز كون ضمير «كان» لمصدر الفعل المقدَّر، أي: لكان ثبوتُ صبْرِهم، وصنيع الزمخشري[1] يقتضي أولويته.

وأُوثرت «حتى» هنا على «إلى» لأنها موضوعةٌ لِمَا هو غايةٌ في نفس الأمر، ويقال له: الغاية المضروبة، أي: المُعيَّنة، و«إلى» لما هو غاية في نفس الأمر، أو بجعل الجاعل، وإليه يرجع قولُ المغاربة وغيرهم: إنَّ مجرورَ «حتى» دون مجرور «إلى» لا بدَّ من كونه آخرَ جُزء نحو: أكلتُ السمكةَ حتى رأسِها، أو ملاقياً له نحو: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر: ٥] ولا يجوز: سهرتُ البارحةَ حتى ثلثيها أو نصفِها، فيفيد الكلامُ معها أنَّ انتظارهم إلى أن يخرجَ ﷺ أمرٌ لازم ليس لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه، فإنَّ الخروجَ لمَّا جعله الله تعالى غايةً كان كذلك في الواقع، وإلى هذا ذهب الزمخشري، وتوهَّم ابنُ مالك أنه لم يقل به أحدٌ غيره، واعترض عليه بقوله:

عيَّنتْ ليلةً فما زلتُ حتى نصفِها راجياً فعدتُ يؤوسا[2]

وأُجيب بأنه على تسليم أنه من كلام من يُعتدُّ به ـ مع أنه نادرٌ شاذٌّ لا يَرِدُ مثله نقضاً ـ مدفوعٌ بأنَّ معنى: عيَّنت ليلةً: عيَّنت وقتاً للزيارة، وزيارةُ الأحباب يُتعارف فيها أنْ تقعَ في أول الليل فقوله: حتى نصفها، بيانٌ لغاية الوقت المتعارف للزيارة الذي هو أولُ الليل، والنصفُ ملاقٍ له. وهو أَولى من قول ابن هشام في

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٥٩.

(٢) لم نقف على قائله، وهو في مغني اللبيب ص١٦٧.

«المغني»: إنَّ هذا ليس محلَّ الاشتراط، إذْ لم يقل: فما زلت في تلك الليلةِ حتى نصفها، وإن كان المعنى عليه[1]. وحاصله أنَّ الاشتراطَ مخصوصٌ فيما إذا صرَّح بذي الغاية = إذْ لا دليلَ[2] على هذا التخصيص، وخفاء عدم الاكتفاء بتقديم ليلة في صدر البيت. نعم ما ذكر من أصله لا يخلو عن كلامٍ كما يُشير إليه كلامُ صاحب «الكشف»، ولذا قال: الأظهر أنه أُوثر «حتى تخرج» اختصاراً لوجوب حذفِ «أنْ» ووجوب الإظهار في «إلى»، مع أنَّ «حتى» أظهر دلالةً على الغايةِ المناسبة للحكم وتخالف ما بعدَها وما قبلها، ولهذا جاءت للتعليل دون «إلى».

وفي قوله تعالى: «إليهم» إشعارٌ بأنه عليه الصلاة والسلام لو خرج لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يُفاتحهم بالكلام أو يتوجَّه إليهم، فليس زائداً، بل قَيْدٌ لا بدَّ منه.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ بليغُ المغفرة والرحمة، فلذا اقتصر سبحانه على النُّصح والتقريع لهؤلاء المُسيئين الأدبَ التاركين تعظيمَ رسوله ﷺ، وقد كان مقتضى ذلك أن يُعذِّبهم أو يُهلكهم، أو فلم تَضِقْ ساحةُ مغفرته ورحمته عز وجل عن هؤلاء إنْ تابوا وأَصلحوا، ويُشير إلى هذا قولُه ﷺ للأقرع بعد أن دنا منه عليه الصلاة والسلام، وقال: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأنك رسولُ الله: «ما يَضُرُّك ما كان قبلَ هذا»[3].

وفي الآيات من الدلالة على قُبح سوء الأدب مع الرسول ﷺ ما لا يخفى، ومن هذا وأمثاله تُقتطف ثمرُ الألباب وتُقتبس محاسنُ الآداب كما يُحكى عن أبي عُبيد ـ وهو في الفضل هو ـ أنه قال: ما دَقَقْتُ باباً على عالِم حتى يخرجَ في وقت خروجه. ونقله بعضُهم عن القاسم بن سلام الكوفي[4]، ورأيتُ في بعض الكتب أن الحِبْرَ ابنَ عباس كان يذهب إلى أُبيّ في بيته لأخذِ القرآن العظيم عنه

---

(١) مغني اللبيب ص١٦٧.

(٢) قوله: إذ لا دليل، تعليل لقوله: وهو أولى من قول ابن هشام. . . .

(٣) سلف ص٣٤٨، وفي إسناده مَن هو متهم بالوضع.

(٤) وهو نفسه أبو عبيد، وقد ورد هذا القول عن أبي عبيد في الكشاف ٣/ ٥٥٩، والبحر ٨/ ١٠٩.

فيقف عند الباب ولا يدقُّ البابَ عليه حتى يخرج، فاستعظم ذلك أُبيّ منه، فقال له يوماً: هلَّا دَقَقْتَ البابَ يا ابنَ عباس؟ فقال: العالِم في قومه كالنبيِّ في أُمَّتِه، وقد قال الله تعالى في حقِّ نبيِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. وقد رأيتُ هذه القصة صغيراً فعملتُ بموجبها مع مشايخي، والحمدُ لله تعالى على ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ أخرج أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيِّد عن الحارث بن أبي ضرار الخُزاعي قال: قَدِمتُ على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلتُ فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يارسول الله، أَرْجِع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجابَ لي جمعتُ زكَاته وتُرسل إليَّ يا رسول الله رسولاً لإبَّان كذا وكذا ليأتيَكَ بما جمعتُ من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاةَ ممن استجاب له وبَلَغَ الإبَّانُ الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعثَ إليه، احتبس الرسولُ فلم يأتِ، فظنَّ الحارث أنْ قد حدثَ فيه سَخْطَةٌ من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، فدعا سَرَواتِ قومه فقال لهم: إنَّ رسول الله ﷺ كان وقَّت لي وقتاً يُرسِلُ إليَّ رسولَه ليقبضَ ما كان عندنا من الزكاة، وليس من رسول الله عليه الصلاة والسلام الخُلْف، ولا أرى حبسَ رسوله إلا من سَخْطةٍ، فانطلِقوا بنا فنأتيَ رسولَ الله ﷺ، وبَعَثَ رسولُ الله ﷺ الوليدَ بن عُقبة بن أبي مُعيط ـ وهو أخو عثمان ﷺ لأمِّه ـ إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمعَ من الزكاة، فلما أنْ سار الوليدُ إلى أنْ بَلَغَ بعض الطريق، فَرِقَ، فرجَع، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: إنَّ الحارث منعني الزكاة وأراد قَتْلي. فضربَ رسولُ الله ﷺ البعثَ إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه، حتى إذا استقبله الحارث وقد فصل عن المدينة قالوا: هذا الحارث، فلمَّا غشيهم قال لهم: إلى مَنْ بُعِثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَ إليك الوليدَ بن عُقبة فزَعم أنك منعتَه الزكاة وأردتَ قَتلَه. قال: لا، والذي بعث محمداً بالحقِّ ما رأيتُه بَتَّةً ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعتَ الزكاةَ وأردتَ قَتْلَ رسولي»؟! قال: لا،

والذي بعثك بالحقِّ ما رأيتُه ولا رآني، ولا أقبلتُ إلا حين احتبس عليَّ رسولُ رسولِ الله ﷺ خشيةَ أن يكون سَخْطَة من الله تعالى ورسوله ﷺ، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿حَكِيمٌ﴾(١).

وأخرج عبدُ بن حُميد عن الحسن قال: أتى [رجلٌ] النبيَّ ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، إنَّ بني فلان ـ حيًّا من أحياء العرب، وكان في نفسِه عليهم شيء، وكان حديثَ عَهْدٍ بالإسلام ـ قد تركوا الصلاة وارتدُّوا وكفروا بالله تعالى، فلم يَعْجَلْ رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، ودعا خالد بن الوليد فبعثه إليهم ثم قال: «ارمُقْهم عند الصلوات، فإنْ كان القومُ قد تركوا الصلاة فشأنك بهم، وإلا فلا تَعْجَلْ عليهم» فدنا منهم عند غُروبِ الشمس فكَمَنَ حتى يسمعَ الصلاةَ، فرمقَهم فإذا هو بالمُؤذِّن قد قام عند غروب الشمس، فأذَّن ثم أقام الصلاة فصلَّوا صلاةَ المغرب، فقال خالدٌ: ما أُراهم إلا يُصلُّون فلعلهم تركوا صلاةً غير هذه. ثم كَمَنَ حتى إذا جَنَحَ الليلُ وغاب الشفقُ أذَّن مُؤذِّنهم فصلَّوا، فقال: لعلهم تركوا صلاةً أُخرى فكَمَن حتى إذا كان في جوف الليل تقدَّم حتى أَطلَّ الخيل بدُورهم فإذا القومُ تعلَّموا شيئاً من القرآن فهم يتهجَّدون به من الليل ويقرؤونه، ثم أتاهم عند الصُّبح فإذا المُؤذِّن حين طلع الفجر قد أَذَّن وأقام فقاموا وصلَّوا، فلما انصرفوا وأضاء لهم النهار إذا هم بنواصي الخيل في ديارهم، فقالوا: ما هذا؟ قالوا: خالد بن الوليد. قالوا: يا خالدُ، ما شأنك؟ قال: أنتم واللهِ شأني، أُتي النبيُّ ﷺ فقيل له: إنكم تركتم الصلاةَ وكفرتم بالله تعالى. فَجَثَوْا يبكون، فقالوا: نعوذُ بالله تعالى أن نكفُرَ أبداً. فصرف الخيل وردَّها عنهم حتى أتى النبيَّ ﷺ وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية. قال الحسن: فواللهِ، لئن كانت نزلَتْ في هؤلاء القومِ خاصَّةً إنها لمرسلةٌ إلى يومِ القيامة ما نسخها شيء(٢).

والرواية السابقة أصحُّ وأشهرُ، وكلامُ صاحب «الكشف» مُصَرِّح بأنَّ بعثَ خالد بن الوليد كان في قضيةِ الوليد بن عُقبة، وأن النبيَّ عليه الصلاة والسلام بعثه

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٨٧-٨٨، ومسند أحمد (١٨٤٥٩)، والمعجم الكبير (٣٣٩٥).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٨٩، وما بين حاصرتين منه. والخبر مرسل.

إلى أولئك الحيِّ من خُزاعةَ بعدَ رُجوع الوليد وقوله ما قال، والقائل بذلك قال: إنهم سلَّموا إليه الصَّدقات، فرجَع.

والخطاب بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شاملٌ للنبيِّ ﷺ والمؤمنين من أُمَّته الكاملين منهم محاسن آداب وغيرهم، وتخصيص الخطاب بحسب ما يَقَع من الأمر بعدَه ـ إذْ يليقُ بحال بعضِهم ـ لا يخرجه عن العُموم لوجوده فيما بينهم، فلا تغفل.

والفاسقُ: الخارج عن حَجْر الشرع من قولهم: فسق الرُّطَب إذا خرج عن قِشْره. قال الراغب[(١)]: والفِسْقُ أعمُّ من الكُفْر، ويقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، لكن تُعورف فيما كانت كثيرة، وأكثرُ ما يقال الفاسق لمن التزمَ حُكم الشَّرع وأَقرَّ به، ثم أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضها. وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنه أَخَلَّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة.

ووصفُ الإنسان به ـ على ما قال ابن الأعرابي ـ لم يُسمع في كلام العرب. والظاهرُ أنَّ المرادَ به هنا المسلم المُخِلُّ بشيء من أحكام الشرع أو المروءة بناءً على مُقابلته بالعَدْل، وقد اعتبر في العدالة عدمُ الإخلال بالمروءة، والمشهور الاقتصار في تعريفه على الإخلال بشيء من أحكام الشرع، فلا تَغفُل.

والتبيُّن: طلبُ البيان والتعرُّف؛ وقريبٌ منه التَّثبُّت، كما في قراءة ابن مسعود وحمزة والكسائي: «فتثبتوا»[(٢)]، وهو طلب الثَّبات والتأنِّي حتى يتَّضح الحال.

وقد أخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة: أنَّ النبي ﷺ قال يوم نزلت الآية: «التثبُّتُ من الله تعالى، والعَجَلةُ من الشيطان»[(٣)].

وتنكيرُ «فاسق» للتعميم؛ لأنه نكرةٌ في سِياق الشرط، وهي كالنكرة في سياق النفي تُفيد العموم كما قُرِّر في الأصول، وكذا «نبأ» وهو كما في «القاموس»:

---

(١) المفردات (فسق).

(٢) البحر المحيط ٨/١٠٩، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص٩٧، والنشر ٢/٢٥١.

(٣) الدر المنثور ٦/٨٩، وتفسير الطبري ٢١/٣٥١، وهو مرسل.

الخبر[١]. وقال الراغب[٢]: لا يُقال للخبر في الأصل نبأ حتى يكونَ ذا فائدةٍ عظيمة يحصلُ به علم أو غلبةُ ظنٍّ، وقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن﴾ تنبيهٌ على أنه إذا كان الخبرُ شيئاً عظيماً وما[٣] له قَدْرٌ فحقُّه أن يُتوقَّف فيه وإنْ عُلم أو غَلَب صِحَّتُه على الظنِّ حتى يُعادَ النظرُ فيه ويتبيَّن فَضْلَ تَبيُّن.

ولما كان رسول الله ﷺ والذين معه بالمنزلة التي لا يَجْسرُ أحدٌ أن يُخبرهم بكذب، وما كان يقع مثل ما فَرَطَ من الوليد إلا في النُّدرة، قيل: «إن جاءكم» بحرف الشَّكِّ، وفي النداء بـ «يا أيها الذين آمنوا» دلالةٌ على أنَّ الإيمان إذا اقتضى التَّثبُّت في نبأ الفاسق فأولى أن يقتضيَ عدم الفِسْق، وفي إخراج الفاسق عن الخطاب ما يدلُّ على تشديد الأمر عليه من باب: «لا يزني الزاني وهو مؤمنٌ»[٤]، و: «المؤمن لا يكذب»[٥].

واستدلَّ بالآية على أن الفاسقَ أهلٌ للشهادة، وإلا لم يكن للأمر بالتبيُّن فائدةٌ، ألا ترى أنَّ العبدَ إذا شهد تُرَدُّ شهادتُه ولا يُتَثَبَّتُ فيها، خلافاً للشافعي.

وعلى جواز قَبول خبر العَدْل الواحد، وقرَّره الأصوليون بوجهين:

أحدهما: أنه لو لم يُقبل خبره لما كان عدمُ قَبوله مُعَلَّلاً بالفِسْق، وذلك لأنَّ خبرَ الواحد على هذا التقدير يقتضي عدمَ القَبول لذاتِه ـ وهو كونه خبرَ واحد ـ فيمتنع تعليلُ عدمِ قَبوله بغيره لأنَّ الحُكمَ المُعَلَّل بالذات لا يكون مُعلَّلاً بالغير؛ إذ لو كان مُعَلَّلاً بالغير اقتضى حصولَه به مع أنه حاصلٌ قبلَه لكونه مُعَلَّلاً بالذاتِ، وهو باطلٌ لأنه تحصيلٌ للحاصل، أو يلزمُ توارد علَّتين على معلول واحدٍ في خبر الفاسق، وامتناع تعليله بالفِسق باطلٌ للآية، فإنَّ ترتُّب الحُكم على الوصف

---

(١) القاموس المحيط (نبأ).
(٢) المفردات (نبأ).
(٣) قوله: وما، ليس في مفردات الراغب.
(٤) أخرجه أحمد (٧٣١٨)، والبخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٥) قطعة من حديث أخرجه بنحوه الطبري في تهذيب الآثار (مسند علي بن أبي طالب) ص١٣٥. وقال محققه الشيخ محمود شاكر: هذا خبر مغروس في الكذب.

المناسب يغلب على الظَّنِّ أنه علَّةٌ له، والظنُّ كافٍ هنا لأنَّ المقصودَ هو العملُ، فثبتَ أنَّ خبرَ الواحدِ ليس مردوداً، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه مقبولٌ يعمل به.

ثانيهما: أنَّ الأمر بالتبيُّن مشروطٌ بمجيء الفاسق، ومفهومُ الشرط معتبرٌ على الصحيح، فيجب العمل به إذا لم يكن فاسقاً لأنَّ الظَّنَّ يعمل به هنا، والقولُ بالواسطة منتفٍ. والقولُ بأنه يجوز اشتراكُ أمورٍ في لازمٍ واحدٍ فيعلَّق بكلٍّ منها بكلمة «إنْ» مع أنه لا يلزم من انتفاء ذلك الملزوم انتفاءُ اللازم = غير متوجِّه؛ لأنَّ الشرطَ مجموعُ تلك الأمور، وكلُّ واحد منها لا يُعَدُّ شرطاً على ما قُرِّر في الأصول، نعم قال ابن الحاجب وعَضُد الدين: قد استدلَّ من قبلنا على وجوبِ العمل بخبرِ الواحد بظواهرَ لا تُفيد إلا الظنَّ، ولا يكفي في المسائل العملية، وذَكَرا من ذلك الآيةَ المذكورة. ثم إن للقائلين بوجوب العمل به اختلافاً كثيراً مذكوراً في محلِّه.

واستدلَّ الحنفيةُ بها على قَبول خبر المجهول الذي لا تُعلم عَدالتُه وعدمِ وجوبِ التثبُّت، لأنها دلَّت على أن الفِسْق شرطُ وجوبِ التثبت، فإذا انتفى الفِسْق انتفى وجوبُه، وهاهنا قد انتفى الفِسْقُ ظاهراً، ونحن نحكم به فلا يجب التثبُّت.

وتُعُقِّب بأنَّا لا نُسلِّم أنه هاهنا انتفى الفِسْق، بل انتفى العلم به، ولا يلزمُ من عدمِ العلم بالشيء عدمُه، والمطلوبُ العلمُ بانتفائه ولا يحصلُ إلا بالخِبْرة به أو بتزكية خبير به له. قال العضد: إنَّ هذا مبنيٌّ على أنَّ الأصل الفسقُ أو العدالة، والظاهر أنه الفسق؛ لأن العدالةَ طارئةٌ، ولأنه أكثر.

واستدلَّ بها على أنَّ من الصحابة ﷺ من ليس بعدل لأن الله تعالى أطلق الفاسق على الوليد بن عقبة فيها، فإنَّ سببَ النزول قطعيُّ الدخول، وهو صحابيٌّ بالاتفاق، فيردُّ بها على من قال: إنهم كلَّهم عدول ولا يبحث عن عدالتهم في رواية ولا شهادة، وهذا أحدُ أقوال في المسألة، وقد ذهب إليه الأكثر من العلماء السلف والخَلَف.

وثانيها: أنهم كغيرهم، فيبحث عن العدالةِ فيهم في الرواية والشهادة إلا مَنْ يكون ظاهرَها أو مقطوعَها كالشيخين.

وثالثها: أنهم عدولٌ إلى قتل عثمان ﷺ، ويُبحث عن عدالتهم من حين قَتْله لوقوع الفتن من حينئذ، وفيهم المُمْسك عن خَوْضها.

ورابعها: أنهم عدولٌ إلا مَنْ قاتلَ عليًّا كرم الله تعالى وجهه لِفِسْقه بالخروج على الإمام الحقِّ، وإلى هذا ذهبت المعتزلة.

والحقُّ ما ذهب إليه الأكثرون، وهم يقولون: إنَّ من طرأ له منهم قادحٌ ككذب أو سرقة أو زنى، عُمل بمقتضاه في حقِّه إلا أنه لا يُصِرُّ على ما يُخِلُّ بالعدالة بناءً على ما جاء في مَدْحهم من الآيات والأخبار، وتواترَ من محاسن الآثار، فلا يَسُوغُ لنا الحكم على من ارتكب منهم مُفَسِّقاً بأنه مات على الفِسْق، ولا نُنكر أنَّ منهم من ارتكب في حياته مُفَسِّقاً لعدم القول بعصمتهم، وأنه كان يقال له قبل توبته: فاسق، لكن لا يقال باستمرارِ هذا الوصف فيه ثقةً ببركة صحبةِ النبيِّ ﷺ ومَزيد ثناء الله عز وجل عليهم كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: عدولاً، وقوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] إلى غير ذلك، وحينئذ إن أُريد بقوله: إنَّ من الصحابة من ليس بعدل، أنَّ منهم مَن ارتكبَ في وقتٍ مّا ما يُنافي العدالةَ، فدلالةُ الآيةِ عليه مُسلَّمة، لكنَّ ذلك ليس محلَّ النزاع، وإنْ أُريد به أن منهم مَن استمرَّ على ما ينافي العدالةَ فدلالةُ الآيةِ عليه غيرُ مُسلَّمة كما لا يخفى، فتدبَّر، فالمسألة بعدُ تتحمَّل الكلامَ، وربمَّا تقبل زيادةَ قولٍ خامس فيها.

هذا، ثم اعلم أنَّ الفاسقَ قسمان: فاسقٌ غير متأوِّل، وهو ظاهرٌ، ولا خلافَ في أنه لا يقبل خبره، وفاسقٌ متأوِّل كالجبري والقَدَري، ويقال له: المبتدع ببدعةٍ واضحة، فمن الأصوليين من ردَّ شهادتَه وروايتَه للآية، ومنهم الشافعي والقاضي، ومنهم مَن قَبِلَهما، أما الشهادة فلأنَّ ردَّها لِتُهمةِ الكذب والفِسْق من حيث الاعتقاد لا يدلُّ عليه، بل هو أمارةُ الصِّدق، لأنَّ موقعه فيه تعمّقه في الدين، والكذبُ حرامٌ في كلِّ الأديان لا سيما عند من يقول بكفر الكاذبِ أو خروجه من الإيمان، وذلك يصدُّه عنه إلا من يدينُ بتصديق المدَّعي المُتحلِّي بحليته كالخطَّابيَّة، وكذا من اعتقد بحُجيَّة الإلهام، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «نحن نحكمُ بالظاهر»(١).

---

(١) قال الشوكاني في الفوائد المجموعة ص٢٠٠: لا أصل له.

وأما الروايةُ فلأنَّ من احترز عن الكذب على غيرِ الرسول ﷺ فاحترازُه من الكذب عليه ﷺ أولى إلا من يعتقد حِلَّ وضعِ الأحاديث ترغيباً أو ترهيباً كالكرَّاميَّة، أو ترويجاً لمذهبه كابن الراوندي. وأصحابُنا الحنفية قَبِلوا شهادتَهم لما مرَّ، دون روايتهم إذا دَعوا الناس إلى هواهم، وعلى هذا جمهور أئمَّة الفقه والحديث، لأنَّ الدعوةَ إلى ذلك داعيةٌ إلى النقول فلا يُؤتمنون على الرواية ولا كذلك الشهادة. ورجَّح ما ذهب إليه الشافعي والقاضي بأنَّ الآية تقتضيه، والعملُ بها أولى من العمل بالحديث لتواترها وخصوصها، والعامُّ يحتمل التخصيص، ولأنها لم تُخصص، إذْ كلُّ فاسقٍ مردود، والحديث خصَّ منه خبر الكافر.

وأُجيب بأنَّ مفهومها أنَّ الفسق هو المقتضي للتثبُّت، فيرادُ به ما هو أمارةُ الكذب لا ما هو أمارةُ الصِّدق، فافهم.

وليس من الفِسْق نحو اللعب بالشطرنج من مجتهد يُحِلُّه أو مُقلِّد له ـ صوّبنا أو خطّأنا ـ لوجوب العمل بموجب الظن ولا تفسيقَ بالواجب. وحدُّ الشافعيِّ عليه الرحمة شاربَ النبيذِ ليس لأنه فاسق، بل لِزَجْره لظهور التحريم عنده، ولذا قال: أحدُّه وأَقبلُ شهادتَه، وكذا الحدُّ في شهادة الزنى؛ لعدم تمام النِّصاب لا يدلُّ على الفِسْق، بخلافه في مقام القَذْف، فَلْيُحْفَظْ.

﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ تعليلٌ للأمر بالتبيُّن، أي: فتبيَّنوا كراهةَ أن تُصيبوا، أو: لئلا تُصيبوا ﴿قَوۡمَۢا﴾ أيَّ قوم كانوا ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ مُلتبسين بجهالة لحالهم، ومآله: جاهلين حالهم ﴿فَتُصۡبِحُواْ﴾ فتصيروا بعد ظُهور براءتهم عمَّا رُموا به ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ﴾ في حقِّهم ﴿نَٰدِمِينَ ٦﴾ مُغتمِّين غمًّا لازماً مُتَمنِّين أنه لم يَقَعْ، فإنَّ الندمَ الغمُّ على وقوع شيء مع تمنِّي عدمِ وقوعه، ويُشعر باللزوم وكذا سائر تصاريفِ حروفه وتقاليبها كـ: مَدَنَ، بمعنى لَزِمَ الإقامة، ومنه: المدينة، وأدمن الشيء: أدامَ فِعْلَه.

وزعم بعضُهم أن في الآية إشارةً إلى أنه يجبُ على الإنسان تجديدُ الندم كلَّما ذَكَر الذنب، ونُسب إلى الزمخشري[1]، وليس بشيء.

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٠.

وفي «الكشف»: التحقيق أنَّ الندمَ غمٌّ خاصٌّ ولُزومه قد يقع لقوَّته في أول الأمر، وقد يكون لعدمِ غيبة مُوجبه عن الخاطر، وقد يكون لِكَثْرة تذكُّره، ولغير ذلك من الأسباب، وأنَ تجديدَ الندم لا يجب في التوبة لكنَّ التائبَ الصادقَ لا بدَّ له من ذلك.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ عطف على ما قبله، و«أنَّ» بما في حيِّزها سادٌّ مسدَّ مفعولي «اعلموا» باعتبار ما قُيِّد به من الحال، وهو قوله عز وجل: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي: لوقعتم في الجهد والهَلاك، فإنه حالٌ من أحد الضميرين في «فيكم»: الضمير المُستتر المرفوع، وهو ضميرُ الرسول، أو البارز المجرور، وهو ضميرُ المُخاطَبين. وتقديمُ خبر «أنَّ» للحصر المُستتبع زيادةَ التوبيخ، وصيغة المضارع للاستمرار، فـ «لو» لامتناع استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم في كثير مما يعنُّ لهم من الأمور، وكون المراد استمرارَ الامتناع نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨] من أنَّ المرادَ استمرارُ النفي = ليس بذاك.

وفي الكلام إشعارٌ بأنهم زيَّنوا بين يدي الرسول ﷺ الإيقاع بالحارث وقومه، وقد أُريد أن ينعى عليهم ذلك بتنزيلهم منزلةَ مَنْ لا يعلم أنه عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم، فقيل: واعلموا أنه فيكم لا في غيركم ـ كأنهم حَسِبوه لعدم تأدُّبهم وما بَدَر منهم [من] الفرطة بين أظهر أقوامٍ آخرين ـ كائناً على حال يجب عليكم تغييرها، أو: وأنتم على. . ، كذلك[1]، وهو ما تُريدون من استتباع رأيهِ لرأيكم وطاعتِه لكم مع أنَّ ذلك تعكيسٌ ومُوجب لوقوعكم في العَنَت. وفيه مبالغاتٌ من أوجه:

أحدها: إيثار «لو» ليدلَّ على الفرض والتقدير، وأنَّ ما بدر من التزيين كان من حقِّه أن يفرض كما يفرض المُمتنعات.

والثاني: ما في العُدول إلى المضارع من تصوير ما كانوا عليه وتهجينه مع التوبيخ بإرادة استمرارِ ما حقُّه أن يكونَ مفروضاً فضلاً عن الوقوع.

---

(١) أي: وأنتم على حالٍ يجب عليكم تغييرها. ينظرالكشاف ٣/ ٥٦٠.

والثالث: ما في العَنَت من الدلالة على أشدِّ المحذور، فإنه الكَسْر بعد الجَبْر، والرمز الخفيّ على أنه ليس بأول بادرة.

والرابع: ما في تعميم الخطاب ـ والحريُّ به غير الكُمَّل ـ من التعريض ليكون أردعَ لمرتكبه وأزجرَ لغيره، كأنه قيل: يا أيها الذين آمنوا تبيَّنوا إن جاءكم فاسقٌ ولا تكونوا أمثالَ هؤلاء ممن استفزَّه النبأ قبل تعرُّف صِدْقه، ثم لا يُقنعه ذلك حتى يريدَ أن يستتبع رأي من هو المتبوع على الإطلاق فيقع هو ويقع غيره في العَنَت والإرهاق، واعلموا جلالةَ رسول اللهِ ﷺ وتفادَوْا عن أشباه هذه الهَنَات.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ استدراكٌ على ما يقتضيه الكلام، فإن «لو يُطيعكم» خطابٌ كما سمعتَ للبعض الغير الكُمَّل، عمّم للفوائد المذكورة، والمُحبَّبُ إليهم الإيمان هم الكُمَّل، فكأنه قيل: ولكنَّ الله حَبَّبَ إلى بعضكم الإيمانَ، وعدلَ عنه لنداء الصِّفة به، وعليه قولُ بعض المُفَسِّرين: هم الذين امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى. والإشارةُ بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ إليهم، وفيه نوعٌ من الالتفات، والخِطابُ فيه للرسول ﷺ كأنه تعالى يُبَصِّره عليه الصلاة والسلام ما هم فيه من سبق القَدم في الرَّشاد، أي: إصابة الطريق السَّوي، فحاصلُ المعنى: أنتم على الحال التي ينبغي لكم تغييرُها وقد بدرَ منكم ما بدرَ، ولكنّ ثَمَّ جمعاً عمَّا أنتم عليه من تصديق الكاذب وتزيين الإيقاع بالبريء وإرادة أن يتبعَ الحقّ أهواءَكم براَء، لأنَّ الله تعالى حَبَّبَ إليهم الإيمان.. إلخ. وهذا أولى من جعل «لو يُطيعكم» إلخ، في معنى ما حبب إليهم الإيمان تغليظاً؛ لأنَّ من تصدَّى للإيقاع بالبريء بين يدي الرسول ﷺ وجَسَر على ارتكاب تلك العظيمةِ لم يكن محبوباً إليه الإيمان، وإنْ كان ذلك أيضاً سديداً لشيوع التصرُّف في الأواخر في مِثْله.

وجعله بعضُهم استدراكاً ببيان عُذْرهم فيما بدر منهم، ومآلُ المعنى: لم يحملكم على ما كان منكم اتّباع الهوى ومَحبَّة متابعةِ النبيِّ ﷺ لآرائكم، بل محبَّةُ الإيمان وكراهة الكُفر هي الداعيةُ لذلك، والمناسب لِمَا بعدُ ما ذكرناه.

وجوَّز غير واحد من المُعربين أن «لو يُطيعكم» استئنافٌ على معنى أنه لما قيل: «واعلموا أنَّ فيكم رسولَ الله» دالًّا على أنهم جاهلون بمكانه عليه الصلاة والسلام مُفرِّطون فيما يجب من تعظيم شأنه ـ أعلى الله تعالى شأنَه ـ اتَّجه لهم أن يسألوا: ماذا فعلوا حتى نُسبوا إلى التفريطِ، وماذا ينتجُ من المَضَرَّة؟ فأُجيبوا بما يُصرِّحُ بالنتيجة لخفائها، ويُومئ إلى ما فيها من المَعَرَّة من وقوعهم في العَنَت بسبب استتباع من هو في عُلُوِّ المنصب اقتداءً يتخطَّى أعلى المَجَرَّة. وهو حسنٌ لولا أن «واعلموا» كلامٌ من تتمَّةِ الأول كما يُؤذن به العطف، لا واردٌ تقريعاً على الاستقلال، فيأبى التقدير المذكور لتعيُّن مُوجب التفريط، وأيضاً يفوتُ التعريضُ وأن ذلك بادرة من بعضهم في قصة ابن عُقبة، ويتنافر الكلام.

هذا، و«كَرَّه» يتعدَّى بنفسه إلى واحد، وإذا شُدِّد زاد له آخر، لكنَّه ضُمِّن في الآية معنى التبغيض، فَعُومِلَ مُعاملته، وحسَّنه مقابَلَتُه لـ «حبَّب»، أو نزِّل «إليكم» منزلةَ مفعولٍ آخر.

و«الكفر»: تغطيةُ نِعَم الله تعالى بالجُحود، و«الفسوق»: الخروجُ عن القَصْد، ومأخذُه ما تقدَّم، و«العصيان»: الامتناعُ عن الانقياد، وأصله من عَصَت النواةُ: صَلُبَتْ واشتدَّتْ، والكلامُ أعني قوله تعالى: «ولكن الله» إلخ، ثناءٌ عليهم بما يَردف التحبيب المذكور والتكريه من فعل الأعمال المَرْضية والطاعات والتجنُّبِ عن الأفعال القبيحةِ والسيئات على سبيل الكناية ليقعَ التقابل موقعَه على ما سلف آنفاً.

وقيل: الداعي لذلك ما يلزمُ على الظاهر من المَدْح بفعل الغير مع أنَّ الكلامَ مسوقٌ للثناء عليهم، وهو في إيثارهم الإيمانَ وإعراضهم عن الكُفر وأخويه لا في تحبيب الله تعالى الإيمان لهم وتكريههِ سبحانه الكُفر وما معه إليهم. وأنت تعلمُ أن الثَّناءَ على صفةِ الكمال ـ اختياريةً كانت أَوْ لا ـ شائعٌ في عُرف العرب والعَجَم، والمُنكِر معاندٌ، على أنَّ ذلك واقعٌ على الجماد أيضاً، والمسلَّم الضروريُّ أنه لا يُمدَح الرجلُ بما لم يفعله على أنه فَعَلَه، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] أما أنه لا يُمدَح به على أنه صفة له فليس بمسلَّم، فلا تغفل.

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ تعليلٌ للأفعال المُستندة إليه عز وجل في قوله سبحانه: «ولكنَّ الله حَبَّب» إلخ، وما في البين اعتراضٌ، وجُوِّز كونُه تعليلاً للراشدين، وصحَّ النصبُ على القول باشتراطِ اتحاد الفاعل ـ أي: من قام به الفعلُ وصدرَ عنه موجداً له أو لا ـ لما أن الرّشد وقع عبارةً عن التحبيب والتزيين والتكريه مُسندَةً إلى اسمه تبارك اسمه، فإنه لو قيل مثلاً: حبَّب إليكم الإيمان فضلاً منه، وجُعل كنايةً عن الرّشد لصحَّ، فيحسن أن يقال: أولئك هم الراشدون فضلاً، ويكون في قوَّة: أولئك هم المُحبَّبون فضلاً، أو لأنَّ الرُّشد هاهنا يستلزم كونَه تعالى شأنه مرشداً، إذْ هو مطاوع أرشد، وهذا نظيرُ ما قالوا من أن الإراءة تسلتزم رؤيةً في قوله سبحانه: ﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الرعد:٧] فيتحدُ الفاعل ويصحُّ النصب.

وجُوِّز كونه مصدراً لغير فِعْله، فهو منصوبٌ إما بـ «حبَّب» أو بالراشدين، فإن التحبيب والرشد من فضل الله تعالى وإنعامه.

وقيل: مفعولٌ به لمحذوف، أي: يبتغون فضلاً.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغٌ في العلم، فيعلم أحوالَ المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٞ ٨﴾ يفعلُ كلَّ ما يفعلُ من إفضال وإنعام وغيرهما بموجب الحِكمة.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ أي: تقاتلوا، وكان الظاهرُ: اقتتلتا، بضمير التثنية كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ أي: بالنُّصح وإزالة الشُّبه إنْ كانت والدعاءِ إلى حُكم الله عز وجل، والعُدولُ إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى، فإنَّ كلَّ طائفة من الطائفتين جماعة، فقد رُوعي في الطائفتين معناهما أولاً ولفظهما ثانياً على عكس المشهور في الاستعمال، والنكتة في ذلك ما قيل: إنهم أولاً في حال القتال مُختلطون، فلذا جُمع أولاً ضميرهم، وفي حال الصُّلح متميِّزون متفارقون، فلذا ثُنِّي الضمير.

وقرأ ابن أبي عَبْلة: «اقتتلتا» بضمير التثنية والتأنيث[1]، كما هو الظاهر.

---

(١) الكشاف ٣/٥٦٣، وتفسير القرطبي ١٩/٣٧٥، والبحر المحيط ٨/١١٢.

وقرأ زيد بن عليٍّ وعُبيد بن عُمير: «اقتتلا»[١] بالتثنية والتذكير باعتبار أن الطائفتين فريقان.

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ تعدَّت وطلبت العُلوَّ بغير الحقِّ ﴿عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ ولم تتأثَّر بالنصيحة ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي: تَرجِع ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى حُكمه، أو إلى ما أمر سبحانه به.

وقرأ الزهري: «حتى تفيَ» بغير همز وفتح الياء[٢]، وهو شاذٌّ كما قالوا في مضارع جاء: يجي، بغير همز، فإذا أدخلوا الناصب فتحوا الياءَ، أجروه مجرى: يفي، مضارع: وَفَى، شذوذاً.

وفي تعليق القتال بالموصول إشارةٌ[٣] إلى عِلِّيَّة ما في حيِّز الصِّلة، أي: فقاتلوها لبغيها.

﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ أي: رَجَعَتْ إلى أمره تعالى وأقلعت عن القتال حَذَراً من قتالكم ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله تعالى، ولا تكتفوا بمجرَّد متاركتهما عسى أن يكون بينهما قتالٌ في وقت آخر.

وتقييد الإصلاح هنا بالعدل لأنهُ مَظِنَّة الحَيْفِ لوقوعه بعد المُقاتلة، وقد أكَّد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ أي: اعدِلوا في كلِّ ما تأتون وما تذرون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾ فيجازيهم أحسنَ الجزاء.

وفي «الكشاف»[٤]: في الإصلاح بالعدل والقِسط تفاصيل، إنْ كانت الباغية من قلَّة العدد بحيث لا مَنَعةَ لها ضَمِنَتْ بعد الفيئة ما جَنَت، وإن كانت كثيرةً ذات مَنَعةٍ وشَوْكة لم تَضْمَنْ إلا عند محمد بن الحسن، فإنه كان يُفتي بأن الضَّمان يلزمها إذا فاءت، وأما قبلَ التجمُّع والتجنُّد، أو حين تتفرَّق عند وضع الحرب أوزارها، فما جَنَته ضمنته عند الجميع، فمحمل الإصلاح بالعَدْل على مذهب محمد واضحٌ

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٣، والبحر المحيط ٨/ ١١٢.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١١٢.
(٣) في الأصل و(م): للإشارة، والمثبت هو الصواب.
(٤) ٣/ ٥٦٤.

منطبقٌ على لفظ التنزيل. وعلى قول غيره وَجْهُه أن يُحمل على كون الفئةِ قليلةَ العدد، والذي ذكروا من أن الفرضَ إماتةُ الضغائن وسلُّ الأحقاد دون ضمان الجنايات ليس بحسن الطِّباق للمأمور به من أعمال العدل ومُراعاة القِسط.

قال في «الكشف»: لأنَّ ما ذكروه من إماتة الأضغان داخلٌ في قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ لأنه من ضرورات التوبة، فأعمال العَدْل والقِسْط إنما يكون في تداركِ الفرطات. ثم قال: والأولى على قول الجمهور أن يقال: الإصلاح بالعَدْل أنه لا يضمن من الطرفين، فإنَّ الباغي معصومُ الدمِ والمال مثل العادلِ لا سيما وقد تاب، فكما لا يضمنُ العادلُ المُتْلَفَ لا يضمنه الباغي الفائي، هذا مقتضى العَدْل، لا تخصيص الضَّمان بطرف دون آخر.

والآيةُ نزلَتْ في قتالٍ وقع بين الأوس والخزرج؛ أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «سننه» عن أنس قال: قيل للنبيِّ ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أُبَيّ. فانطلقَ إليه ورَكِبَ حماراً، وانطلق المسلمون يمشون وهي أرضٌ سَبِخَةٌ، فلمَّا انطلق إليه قال: إليكَ عنِّي، فوالله لقد آذاني ريحُ حمارك، فقال رجلٌ من الأنصار: واللهِ، لحمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحاً منك، فَغَضِبَ لعبدِ الله رجالٌ من قومه، فَغَضِبَ لكلٍّ منهما أصحابُه، فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنِّعال، فأنزلَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ الآية[1].

وفي روايةٍ: أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان متوجِّهاً إلى زيارة سعدِ بن عُبادة في مرضه، فمرَّ على عبدِ الله بن أُبَيّ ابن سلول، فقال ما قال، فردَّ عليه عبدُ الله بن رواحة رضي الله عنه، فَتَعَصَّب لكلٍّ أصحابُه، فتقاتلوا فنزلَتْ، فقرأها ﷺ عليهم فاصطلحوا، وكان ابنُ رواحة خَزْرجيّاً وابن أُبيّ أَوْسيّاً[2].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٩٠، ومسند أحمد (١٢٦٠٧)، وصحيح البخاري (٢٦٩١)، وصحيح مسلم (١٧٩٩)، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٥٩، وسنن البيهقي ٨/ ١٧٢.

(٢) ينظر حديث أنس عند البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩)، وحديث أسامة بن زيد عن البخاري (٥٦٦٣)، ومسلم (١٧٩٨)، وينظر كذلك المحرر الوجيز ٥/ ١٤٨، وزاد المسير ٧/ ٤٦٢.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: كان رجلٌ من الأنصار يقال له: عمران، تحته امرأةٌ يقال لها: أُمُّ زيد، وأنها أرادَتْ أن تزورَ أهلَها فحبسها زوجُها وجعلها في عِلِّيَّة له لا يدخلُ عليها أحدٌ من أهلها، وأنَّ المرأةَ بعثَتْ إلى أهلها، فجاء قومُها فأنزلوها لِينطلقوا بها وكان الرجلُ قد خرج، فاستعان أهلَه، فجاء بنو عمِّه لِيَحُولوا بين المرأة وأهلها، فتدافعوا واجتلدوا بالنِّعال، فنزلَتْ فيهم هذه الآية: (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا) فبعث إليهم رسولُ الله ﷺ فأصلحَ بينهم، وفاؤوا إلى أمر الله عز وجل[١].

والخطاب فيها على ما في «البحر»[٢] لمن له الأمر، ورُوي ذلك عن ابن عباس، وهو للوجوب، فيجب الإصلاح ويجب قتالُ الباغية ما قاتلَتْ، وإذا كَفَّت وقبضت عن الحرب تُركت.

وجاء في حديث رواه الحاكم وغيره حُكمها إذا تولَّت، قال عليه الصلاة والسلام: «يا ابنَ أُمِّ عبد، هل تدري كيف حُكم الله فيمن بغى من هذه الأمة»؟ قال: اللهُ تعالى ورسوله أعلمُ. قال: «لا يُجْهَز على جريحها، ولا يُقتل أَسيرُها، ولا يُطلَبُ هاربُها، ولا يُقْسَم فَيْئُها»[٣].

وذكروا أن الفِئتين من المسلمين إذا اقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً، فالواجبُ أن يُمشى بينهما بما يُصلح ذاتَ البين ويُثمر المكافَّة والموادعة، فإنْ لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغي صِير إلى مُقاتَلتهما، وأنهما إذا التحم بينهما القتالُ لِشُبهة دخلَتْ عليهما وكلتاهما عند أنفسهما مُحِقَّة، فالواجب إزالةُ الشُّبهة بالحُجج النَّيِّرة والبراهين القاطعة، وإطلاعهما على مراشد الحقِّ، فإن رَكِبتا مَتْنَ اللِّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصِحَتا به من اتِّباع الحقِّ بعد

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٩٠، وتفسير الطبري ٢١/ ٣٦٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١١٢.

(٣) المستدرك ٢/ ١٥٥، وأخرجه أيضاً البزار (١٤٨٩ - كشف الأستار)، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٨٢، وفي إسناده: كوثر بن حكيم وقد تفرَّد به كما قال البزار، قال أحمد: أحاديثه بواطيل ليس بشيء. ميزان الاعتدال ٣/ ٤١٦.

وضوحه فقد لحقتا باللتين اقتتلا على سبيل البغي منهما جميعاً. والتصدي لإزالة الشُّبهة في الفئة الباغية ـ إنْ كانت ـ لازم قبل المُقاتلة، وقيل: الخطاب لمن يتأتّى منه الإصلاح ومُقاتلة الباغي، فمتى تحقَّق البغيّ من طائفةٍ كان حُكم إعانة المَبْغي عليه حُكمَ الجهاد، فقد أخرج الحاكم ـ وصحَّحه ـ والبيهقيُّ عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ما وجدتُ في نفسي من شيء ما وجدتُ في نفسي من هذه الآية، يعني ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ إلخ، إني لم أُقاتل هذه الفئةَ الباغية كما أمرني الله تعالى. يعني بها معاوية ومن معه الباغين على عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه[1].

وصرَّح بعضُ الحنابلة بأنَّ قتالَ الباغين أفضلُ من الجهاد، احتجاجاً بأنَّ علياً كرم الله تعالى وجهه اشتغل في زمان خلافته بقتالهم دون الجهاد. والحقُّ أن ذلك ليس على إطلاقه، بل إذا خَشِيَ منْ تَرْكِ قتالهم مَفْسدةً عظيمة دَفْعُها أعظمُ من مصلحة الجهاد.

وظاهرُ الآية أنَّ الباغي مؤمنٌ؛ لِجَعْل الطائفتين الباغية والمَبْغيِّ عليها من المؤمنين. نعم الباغي على الإمام ولو جائراً فاسقٌ مرتكبٌ لكبيرة إنْ كان بغيه بلا تأويل، أو بتأويلٍ قَطْعيِّ البطلان. والمعتزلة يقولون في مثله: إنه فاسقٌ مُخلَّد في النار إن مات بلا توبة. والخوارجُ يقولون: إنه كافر. والإماميَّة أكفروا الباغي على عليٍّ كرم الله تعالى وجهه المقاتلَ له، واحتجُّوا بما رُوي من قوله ﷺ له: «حَرْبكَ حَرْبي»[2]، وفيه بحث.

وقرأ ابن مسعود: «حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاؤوا فخذوا بينهم بالقسط»[3].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ استئنافٌ مقرِّر لِمَا قبلَه من الأمر بالإصلاح، وإطلاقُ الأُخوَّة على المؤمنين من باب التشبيه البليغ، وشُبِّهوا بالإخوة من حيث انتسابُهم إلى أصلٍ واحد، وهو الإيمانُ الموجب للحياة الأبدية. وجُوِّز أن يكون هناك

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٩٠، والمستدرك ٢/ ٤٦٣، وسنن البيهقي الكبرى ٨/ ١٧٢.

(٢) لم نقف عليه مسنداً، وأورده ابن تيمية في منهاج السنة النبوية ٤/ ٢٧٨، وقال: لم يذكر له إسناد، وهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٦٣، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٧٥.

استعارةٌ، وتشبَّه المشاركةُ في الإيمان بالمشاركة في أصلِ التوالد، لأنَّ كلّاً منهما أصلٌ للبقاء، إذ التوالد مَنْشأُ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ للإيذان بأنَّ الأخوَّة الدينية مُوجبةٌ للإصلاح، ووضعُ الظاهر موضعَ الضمير مضافاً للمأمورين للمبالغة في تأكيدِ وجوب الإصلاح والتحضيض عليه، وتخصيصُ الاثنين بالذكر لإثبات وجوبِ الإصلاح فيما فوقَ ذلك بطريق الأولوية لتضاعفِ الفتنة والفسادِ فيه.

وقيل: المرادُ بالأخوين الأوسُ والخزرج اللتان نزلت فيهما الآيةُ؛ سمَّى كلّاً منهما أخاً لاجتماعهم في الجدِّ الأعلى.

وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن بخلاف عنه: «إخوانكم» جمعاً على وزن غِلْمان[١]. وقرأ ابن سيرين: «إخوتكم» جمعاً على وزن غلمة[٢]. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو القراءات الثلاث[٣]، قال أبو الفتح[٤]: وقراءة الجمع تدلُّ على أن قراءةَ الجمهور لفظُها لفظُ التثنية ومعناها الجماعة، أي: كلُّ اثنين فصاعداً من المسلمين اقتتلا، والإضافة لمعنى الجنس نحو: لبَّيك وسَعدَيْك. ويُغلَّب الإخوان في الصداقة، والإخْوة في النسب، وقد يُستعمل كلٌّ منهما مكانَ الآخر.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كلِّ ما تأتون وما تذرون من الأمور التي من جُملتها ما أُمرتُم به من الإصلاح. والظاهرُ أنَّ هذا عطفٌ على «فأصلحوا»، وقال الطيبي: هو تذييلٌ للكلام، كأنه قيل: هذا الإصلاحُ من جملة التقوى، فإذا فعلتم التقوى دخل فيه هذا التواصل. ويجوز أنْ يكونَ عطفاً على «فأصلحوا» أي: واصلوا بين أخويكم بالصُّلح واحذروا الله تعالى من أن تتهاونوا فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ أي: لأجل أنْ تُرحموا على تقواكم، أو: راجين أنْ تُرحموا عليها.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٤٣، والمحتسب ٢/ ٢٧٨، والبحر المحيط ٨/ ١١٢.
(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٨٥، والبحر المحيط ٨/ ١١٢. وقرأ بها يعقوب أيضاً. النشر ٢/ ٣٧٦.
(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٣، والبحر المحيط ٨/ ١١٢، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.
(٤) المحتسب ٢/ ٢٧٨.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ﴾ أي: منكم ﴿مِّن قَوۡمٍ﴾ آخرين منكم أيضاً، فالتنكيرُ في الموضعين للتبعيض، والسُّخر: الهُزْء، كما في «القاموس»[(١)]، وفي «الزواجر»[(٢)]: النظر إلى المسخور منه بعين النقص. وقال القرطبي[(٣)]: السُّخرية: الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص بوجهٍ يُضحَك منه، وقد تكون بالمُحاكاةِ بالفعل والقول أو الإشارة أو الإيماء أو الضَّحِك على كلامِ المَسخور منه إذا تخبَّط فيه أو غَلِط، أو على صَنْعتهِ، أو قُبح صورته. وقال بعضٌ: هو ذِكْرُ الشخص بما يكره على وجهٍ مُضحك بحضرته. واختير أنه احتقاره قولاً أو فعلاً بحضرته على الوجهِ المذكور، وعليه ما قيل: المعنى: لا يحتقر بعضُ المؤمنين بعضاً.

والآية على ما رُوي عن مقاتل نزلَتْ في قومٍ من بني تميم سَخِروا من بلال وسلمان وعمَّار وخبَّاب وصهيب وابن فُهيرة وسالم مولى أبي حذيفة ﷺ، ولا يَضرُّ فيه اشتمالها على نهي النساء عن السُّخرية، كما لا يضرُّ اشتمالُها على نهي الرجال عنها، فيما رُوي أن عائشة وحفصةَ رَأَتا أمَّ سلمة رَبَطَتْ حِقوَيْها بثوب أبيضَ وسدلت طرفَه خلفها، فقالت عائشة لحفصة تُشير إلى ما تجرُّ خلفها: كأنه لسانُ كلب، فنزلت. وما روي عن عائشة أنها كانت تسخرُ من زينبَ بنت خُزيمة الهلالية ـ وكانت قصيرة ـ فنزلَت.

وقيل: نزلت بسبب عِكرمةَ بن أبي جهل؛ كان يمشي بالمدينة، فقال له قوم: هذا ابنُ فرعونِ هذه الأُمة، فعزَّ ذلك عليه وشكاهم إلى رسول الله ﷺ، فنزلت[(٤)].

وقيل غير ذلك.

وقوله عز وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ تعليلٌ للنهي أو لموجبه، أي: عسى

---

(١) القاموس المحيط (سخر).

(٢) ٢/ ٥.

(٣) كذا ذكر المصنف رحمه الله، والكلام ليس في تفسير القرطبي، ولكن ذكره ابن حجر في الزواجر ٢/ ٢٠ إثر قول للقرطبي، فوهم المصنف فعزاه إليه. وينظر ما سلف ١/ ٤٤٨.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٤٩، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٨٦-٣٨٨.

أن يكونَ المسخورُ منهم خيراً عند الله تعالى من الساخرين، فَرُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله تعالى لأَبَرَّه.

وجُوِّز أن يكون المعنى: لا يحتقر بعضٌ بعضاً عسى أن يصيرَ المحتقَرُ ـ اسم مفعول ـ عزيزاً، ويصير المُحتقِرُ ذليلاً، فينتقم منه، فهو نظير قوله:

لا تُهينَ الفقيرَ عَلَّكَ أَنْ تركَعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعه[1]

والقومُ: جماعة الرجال، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا نِسَآءٌ﴾ أي: ولا يسخر نساءٌ من المؤمنات ﴿مِّن نِّسَآءٍ﴾ منهنَّ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾ أي: المسخورات ﴿خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: من الساخرات، وعلى هذا جاء قولُ زهير[2]:

وما أدري وسوف إخال أدري أقومٌ آل حِصْنٍ أَمْ نساءُ

وهو إما مصدرٌ كما في قول بعض العرب: إذا أكلت طعاماً أحببت نوماً وأبغضت قوماً، أي: قياماً، نعت به فشاع في جماعة الرجال، وإما اسمُ جمعٍ لقائمٍ كصوم لصائم، وزَوْر لزائر، وأطلق عليه بعضُهم الجمع مُريداً به المعنى اللُّغوي، وإلا فَفَعْلٌ ليس من أبنية الجموع لغلبته في المفردات.

ووجهُ الاختصاص بالرجال أنَّ القيام بالأمورِ وظيفتهم كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وقد يُراد به الرجالُ والنساء تغليباً كما قيل في قوم عاد وقوم فرعون: إنَّ المرادَ بهم الذكور والإناث؛ وقيل: المرادُ بهم الذكور أيضاً، ودلَّ عليهن بالالتزام العادي لعدمِ الانفكاك عادةً.

والنساء ـ على ما قال الراغب[3] وغيره ـ وكذا النسوان والنسوة، جمعُ المرأةِ من غير لفظها، وجيء بما يدلُّ على الجمع في الموضعين دون المُفرد، كأن يقال: لا يسخر رجلٌ من رجل ولا امرأةٌ من امرأة، مع أنه الأصل الأشمل الأعمّ، قيل: جرياً على الأغلب من وقوع السُّخرية في مجامع الناس، فكم من مُتلذِّذ بها، وكم

(١) البيت للأضبط بن قريع، وهو في مغني اللبيب ص٢٠٦، وخزانة الأدب ١١/ ٤٥٠.
(٢) ديوان زهير ص١٣٦.
(٣) المفردات (نسي).

من متألِّم منها، فجعل ذلك بمنزلة تعدُّد الساخر والمسخور منه. وقيل: لأنَّ النهي وردَ على الحالة الواقعة بين الجماعة كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠] وعمومُ الحُكم لعموم عِلَّته.

و«عسى» في نحو هذا التركيب من كلِّ ما أسندت فيه إلى «أن» والفعل قيل: تامَّة لا تحتاج إلى خبر، و«أنْ» وما بعدَها في محلِّ رفع على الفاعلية، وقيل: إنها ناقصةٌ وسدَّ ما بعدَها مَسَدَّ الجزأين، وله محلَّان باعتبارين، أو محلُّه الرفع، والتحكُّم مندفعٌ بأنه الأصلُ في منصوبها بناءً على أنها من نواسخ المبتدأ والخبر.

وقرأ عبد الله وأُبيّ: «عسوا أن يكونوا» و«عسين عن أن يكن»(١)، فـ «عسى» عليها ذاتُ خبر على المشهور من أقوال النُّحاة، وفيه الإخبار عن الذات بالمصدر، أو يقدَّر مضاف مع الاسم أو الخبر، وقيل: هو في مثل ذلك بمعنى قارَبَ و«أن» وما معها مفعولٌ، أو قرب، وهو منصوبٌ على إسقاط الجارِّ.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ لا يَعِبْ بعضُكم بعضاً بقول أو إشارة، لأنَّ المؤمنين كنفس واحدة، فمتى عابَ المؤمنُ المؤمنَ فكأنه عابَ نَفْسَهُ، فضمير «تلمزوا» للجميع بتقدير مضاف، و«أنفسكم» عبارة عن بعضٍ آخرَ من جنس المُخاطبين وهم المؤمنون، جعل ما هو من جِنْسهم بمنزلة أنفسهم، وأَطلق الأنفسَ على الجنس استعارةً كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وهذا غيرُ النهي السابق وإن كان كلٌّ منهما مخصوصاً بالمؤمنين، بناءً على أن السُّخرية احتقارُ الشخص مطلقاً على وجه مُضحِك بحضرته، واللَّمز التنبيه على مَعايبه سواء كان على وجهٍ مضحكٍ أَمْ لا؟ وسواء كان بحضرته أَمْ لا كما قيل في تفسيره، وجُعِلَ عطفه عليه من قَبيل عطفِ العامِّ على الخاصِّ لإفادة الشُّمول، كـ : شاربُ الخمر وكلُّ فاسق مذموم، ولا يتمُّ إلا إذا كان التنبيهُ المذكور احتقاراً.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٦، والبحر المحيط ٨/ ١١٣.

ومنهم من يقول: السُّخريةُ: الاحتقار، واللَّمز: التنبيه على المَعايب أو تتبُّعها، والعطف من قَبيل عطفِ العِلَّة على المعلول.

وقيل: اللمزُ مخصوصٌ بما كان من السُّخرية على وجه الخُفية كالإشارة، فهو من قَبيل عطفِ الخاصِّ على العامِّ لجعل الخاصِّ كجنسٍ آخرَ مبالغةً.

واختار الزمخشري[1] أنَّ المعنى: وخُصُّوا أنفسكم أيُّها المؤمنون بالانتهاء عن عَيْبها والطَّعن فيها، ولا عليكم أن تَعيبوا غيرَكم ممن لا يَدين بدينكم ولا يَسير بسيرتكم، ففي الحديث: «اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس»[2]. وتعقِّب بأنه لا دليلَ على الاختصاص.

وقال الطيبي: هو من دليل الخِطاب، لكن إنّ في هذا الوجه تعسُّفاً، والوجه الآخر ـ يعني ما تقدَّم ـ أوجهُ لموافقته: «لا يسخر قوم من قوم»، و: «إنما المؤمنون إخوة»، و: «لا يغتب بعضكم بعضاً».

وفي «الكشف» أخذ الاختصاص من العدول عن الأصل، وهو لا يَلْمِزُ بعضُكم بعضاً، كأنه قيل: ولا تلمزوا من هو على صفتكم من الإيمان والطاعة، فيكون من بابِ ترتُّب الحُكم على الوصف، وتُعقِّب قولُ الطيبي بأنَّ الكلامَ عليه يُفيد العِلِّية والاختصاص معاً فيوافق ما سبق، ويُؤذن بالفَرْق بين السُّخرية واللَّمز، وهو مطلوبٌ في نفسه، وكأنه قيل: لا تلمزوا المؤمنين لأنهم أنفسُكم، ولا تعسُّفَ فيه بوجهٍ، إلى آخر ما قال، فليتأمَّل، والإنصاف أنَّ المتبادرَ ما تقدَّم.

وقيل: المعنى: لا تفعلوا ما تُلمزون به، فإنَّ مَن فعل ما يستحقُّ به اللمز فقد لمز نَفْسَه، فـ «أنفسكم» على ظاهره، والتجوُّز في «تلمزوا» أُطلق فيه المسبَّب على

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٦.

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء ١/ ٢٠٢، وابن عدي في الكامل ٢/ ٥٩٥، والبيهقي في السنن ١٠/ ٢١٠، والخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٢٨٣ من طريق الجارود بن يزيد عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، قال العقيلي: ليس له من حديث بهز أصل، ولا من حديث غيره، ولا يتابع عليه. وقال البيهقي: وقد سرقه عنه ـ أي: عن الجارود ـ جماعة من الضعفاء فرووه عن بهز بن حكيم، ولم يصح فيه شيء.

السبب، والمراد: لا ترتكبوا أمراً تُعابون به. وهو بعيدٌ عن السِّياق وغير مناسب لقوله تعالى: «ولا تنابزوا»، وكونه من التجوُّز في الإسناد إذ أُسند فيه ما للمسبَّب إلى السبب تكلُّفٌ ظاهر، وكذا كونه كالتعليل للنهي السابق لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر، وكذا كون المرادِ به: لا تتسبَّبوا إلى الطعن فيكم بالطعن على غيرِكم كما في الحديث: «من الكبائر أنْ يَشْتِمَ الرجلُ والديه»[1]، وفُسِّر بأنه إن شَتم والدَيْ غيره شَتَم الغيرُ والدَيْه أيضاً.

وقرأ الحسن والأعرج وعُبيد عن أبي عمرو: «لا تَلْمُزوا» بضمِّ الميم[2].

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يَدْعُ بعضُكم بعضاً باللَّقب، قال في «القاموس»: التنابزُ: التعايُرُ والتداعي بالألقاب، ويقال: نَبَزه يَنْبِزُه نَبْزاً بالفتح والسكون: لقَّبه، كَنَبَّزَهُ، والنَّبَزُ ـ بالتحريك ـ وكذا النَّزَب: اللَّقَب[3]، وخُصَّ عُرفاً بما يكرهه الشخصُ من الألقاب.

وعن الرَّضي أنَّ لفظَ اللَّقب في القديم كان في الذَّمِّ أشهرَ منه في المدح، والنَّبَز في الذَّمِّ خاصَّة. وظاهرُ تفسير التنابز بالتداعي بالألقاب اعتبارُ التجريد في الآية لئلا يستدرك ذِكْر الألقاب. ومن الغريب ما قيل: التنابز: الترامي، أي: لا تترامَوْا بالألقاب، ويُراد به ما تقدَّم. والمَنهيُّ عنه هو التلقيب بما يتداخل المدعوّ به كراهة لكونه تقصيراً به وذمّاً له وشيناً.

قال النووي[4]: اتفق العلماءُ على تحريم تلقيبِ الإنسان بما يكره، سواءٌ كان صفةً له أو لأبيه أو لأُمِّه أو غيرهما، فقد رُوي أنَّ الآيةَ نزلَتْ في ثابت بن قيس، وكان به وَقْرٌ، فكانوا يُوسعون له في مجلس رسولِ الله ﷺ ليسمعَ، فأتى يوماً وهو يقول: تفسَّحوا، حتى انتهى إلى رسولِ الله عليه الصلاة والسلام، فقال لرجل:

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٢٩)، والبخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو، وعند البخاري: «يلعن» بدل: «يشتم».

(٢) البحر المحيط ٨/ ١١٣، وقرأ بها يعقوب من العشرة كما في النشر ٢/ ٢٧٩-٢٨٠.

(٣) القاموس (نبز) و(نزب).

(٤) الأذكار ص٢٥٠.

تنحَّ، فلم يَفْعَلْ، فقال: مَنْ هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان، فقال: بل أنت ابنُ فلانة. يريد أُمّاً كان يُعيَّر بها في الجاهلية، فَخَجِلَ الرجلُ، فنزلت، فقال ثابتٌ: لا أَفخرُ على أحدٍ في الحسب بعدَها أبداً[١].

وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وجماعة عن أبي جُبيرة[٢] بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ وليس فينا رجلٌ إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسولَ الله، إنه يَكْرهه، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[٣].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: التنابزُ بالألقاب أن يكونَ الرجلُ عمل السيئاتِ ثم تاب منها وراجعَ الحقَّ، فنهى اللهُ تعالى أن يُعَيَّر بما سلف من عمله[٤]. وعن ابن مسعود: هو أن يقال لليهودي أو النصراني أو المجوسي إذا أسلم: يا يهوديُّ، أو: يا نصرانيُّ، أو: يا مجوسيُّ. وعن الحسن نحوه. ولعلَّ مأخذَه ما رُوي أنها نزلت في صفيةَ بنت حُيي أَتَتِ النبيَّ ﷺ فقالت: إنَّ النساءَ يَقُلْنَ لي: يا يهودية بنت يهوديَّين، فقال لها: «هلَّا قلتِ: إنَّ أبي هارون، وعمِّي موسى، وزوجي محمد صلى الله تعالى عليهم وسلم»[٥].

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢١٤، والزمخشري في كشافه ٣/ ٥٦٦، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: غريب، وذكره الثعلبي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند.

(٢) في الأصل و(م): ابن جبيرة، والمثبت من المصادر.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٩١، والأدب المفرد (٣٣٠)، وسنن أبي داود (٤٩٦٢)، وسنن الترمذي (٣٢٦٨)، وسنن النسائي الكبرى (١١٤٥٢)، وسنن ابن ماجه (٣٧٤١).

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٣٧١.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤١٦، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٦، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: ذكره الثعلبي عن عكرمة عن ابن عباس بغير إسناد. اهـ. وأخرجه الترمذي (٣٨٩٢) بنحوه عن صفية بنت حيي، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي، وليس إسناده بذلك القوي.

وأنت تعلم أنَّ النهيَ عمَّا ذكر داخلٌ في عموم: «لا تنابزوا بالالقاب» على ما سمعتَ، فلا يختصَّ التنابزُ بقول: يا يهودي ويا فاسق ونحوهما.

ومعنى قوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾: بئسَ الذِّكرُ المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب التنابز أن يُذْكَروا بالفسق بعد اتصافهم بالإيمان، وهو ذمٌّ على اجتماع الفسق ـ وهو ارتكابُ التنابز ـ والإيمان، على معنى: لا ينبغي أن يجتمعا، فإن الإيمان يأبى الفِسْق، كقولهم: بئس الشأنُ بعد الكَبْرة الصبوة، يريدون استقباحَ الجمع بين الصَّبوة وما يكون في حال الشباب من المَيل إلى الجهل وكِبَر السن.

و«الاسم» هنا بمعنى الذِّكر، من قولهم: طار اسمُه في الناس بالكرم أو اللُّؤم، فلا تأبى هذه الآيةُ حملَ ما تقدَّم على النهي عن التنابز مطلقاً، وفيها تسميتُه فسوقاً.

وقيل: «بعد الإيمان» أي: بدله، كما في قولك للمتحوِّل عن التجارة إلى الفِلاحة: بئستِ الحرفة الفلاحةُ بعد التجارة، وفيه تغليظٌ بجعل التنابز فسقاً مُخرِجاً عن الإيمان. وهذا خلافُ الظاهر، وذِكْرُ الزمخشري[1] له مَبنيٌّ على مذهبه من أن مُرتكبَ الكبيرة فاسقٌ غير مؤمن حقيقةً.

وقيل: معنى النهي السابق: لا ينسبنَّ أحدُكم غيرَه إلى فِسْقٍ كان فيه بعدَ اتِّصافه بضدِّه، ومعنى هذا: بئس تشهيرُ الناس وذِكْرُهم بفسقٍ كانوا فيه بعد ما اتَّصفوا بضدِّه، فيكون الكلامُ نهياً عن أن يقال ليهوديٍّ أسلمَ: يا يهوديُّ، أو نحو ذلك، والأول أظهرُ لفظاً وسِياقاً ومُبالغةً، والجملة على كلٍّ مُتعلِّقة بالنهي عن التنابز على ما هو الظاهر، وقيل: هي على الوجه السابق متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾، أو بجميع ما تقدَّم من النهي، وعلى هذا اقتصر ابن حجر في «الزواجر»[2].

ويُستثنى من النهي الأخير دعاءُ الرجل الرجل بلقب قبيحٍ في نَفْسه لا على قَصْد الاستخفاف به والإيذاء له، كما إذا دَعَتْ له الضرورة لتوقُّف معرفته، كقول المُحدِّثين: سليمانُ الأعمش، وواصلٌ الأحدب، وما نُقل عن ابن مسعود أنه قال

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٧.

(٢) ٢/ ٥.

لعلقمة: تقول أنت ذلك يا أعورُ، ظاهرٌ في أن الاستثناء لا يتوقَّف على دعاء الضرورة؛ ضرورةَ أنه لا ضرورةَ في حال مُخاطبته علقمةَ بقوله: يا أعور، ولعلَّ الشُّهرة مع عدمِ التأذِّي وعدمِ قَصْد الاستخفاف كافيةٌ في الجَواز، ويقال: ما كان من ابن مسعود من ذلك. والأولى أن يقال في الرواية عمَّن اشتَهر بذلك كسليمان المتقدِّم: رُوي عن سليمانَ الذي يقال له: الأعمش.

هذا، وغُويرَ بين صيغتي «تلمزوا» و«تنابزوا» لأنَّ الملموزَ قد لا يقدِرُ في الحال على عيبٍ يَلمزُ به لامِزَه، فيحتاج إلى تَتَبُّعِ أحواله حتى يَظْفَر ببعض عُيوبه، بخلاف النبز فإنَّ من لُقِّبَ بما يكره قادرٌ على تلقيب الآخر بنظير ذلك حالاً، فوقع التفاعلُ، كذا في «الزواجر»[(١)].

وقيل: قيل: «تنابزوا» لأن النهيَ ورد على الحالة الواقعةِ بين القوم.

ويُعلم من الآية أن التلقيبَ ليس محرَّماً على الإطلاق، بل المحرَّم ما كان بلقب السُّوء، وقد صرَّحوا بأن التلقيبَ بالألقاب الحسنة مما لا خلاف في جوازه، وقد لُقِّب أبو بكر رضي الله عنه بالعَتيق؛ لقوله عليه الصلاة والسلام له: «أنتَ عتيقُ اللهِ من النار»[(٢)]، وعمر رضي الله عنه بالفاروق؛ لظهور الإسلام يومَ إسلامه، وحمزة رضي الله عنه بأسدِ الله، لِمَا أنَّ إسلامَه كان حَمِيَّةً فاعتزَّ الإسلام به، وخالد بسيف الله لقوله ﷺ: «نِعْمَ عبدُ الله خالد بن الوليد سيفٌ من سيوف الله»[(٣)] إلى غير ذلك من الألقاب الحسنة، وألقاب عليٍّ كرم الله وجهه أشهرُ من أن تُذكر، وما زالت الألقاب الحسنة في الأمم كلِّها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير.

ولا فرقَ بين اللَّقب والكُنية في أنَّ الدعاء بالقبيحِ المكروه منها حرام، وربمَّا يُشعر قول[(٤)] الراغب: اللقبُ اسمٌ يُسمَّى به الإنسان سوى اسمه الأول، ويُراعى فيه المعنى بخلاف العَلَم، ولذلك قال الشاعر:

---

(١) ١٩/٢.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) أخرجه أحمد (١٦٨٢٣) من حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.
(٤) قبلها في (م): به، وهو خطأ.

وقلَّما أَبْصَرتْ عيناكَ ذا لقبٍ إلَّا ومعناه إنْ فتَّشتَ في لَقَبِهْ[١]

بدخولها في مفهومه، لكن الشائع غير ذلك، وفي الحديث: «كَنُّوا أولادكم» قال عطاء: مخافة الألقاب[٢]. وقال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكُنَى فإنها سنةٌ. ولنا في الكُنى كلامٌ نفيس ذكرناه في «الطِّراز المذهب» فمن أراده فَليرجعْ إليه.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عمَّا نُهي عنه من التنابز، أو من الأمور الثلاثة السابقةِ، أو مطلقاً، ويدخل ما ذكر ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ بوضع العِصْيان موضعَ الطاعة وتعريضِ النفس للعذاب، والإفراد أولاً والجمع ثانياً مراعاة للَّفظ ومراعاة للمعنى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أي: تباعدوا منه، وأصلُ اجتَنَبهُ: كان على جانبٍ منه، ثم شاعَ في التباعد اللازم له، وتنكيرُ «كثيراً» لِيحتاطَ في كلِّ ظنٍّ ويتأمَّل حتى يُعلَم أنَّه من أيِّ القَبيل، فإنَّ من الظنِّ ما يُباح اتباعه كالظنِّ في الأمور المعاشية، ومنه ما يجب كالظنِّ حيث لا قاطعَ فيه من العمليات كالواجبات الثابتة بغير دليل قطعيٍّ وحسن الظَّنِّ بالله عز وجل، ومنه ما يَحرمُ كالظَّنِّ في الإلهيَّات والنبوَّات، وحيث يُخالفه قاطع، وظنّ السوء بالمؤمنين، ففي الحديث: «إنَّ الله تعالى حرَّم من المسلم دَمَهُ وعِرْضَه وأنْ يظنَّ به ظنَّ السوء»[٣]، وعن عائشة مرفوعاً: «من أساء بأخيه الظنَّ فقد أساءَ بربِّه الظنَّ، إنَّ اللهَ تعالى يقول: (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ)»[٤].

ويشترط في حُرمة هذا أن يكون المَظنون به ممن شُوهد منه التستُّر والصلاح، وأُونِسَتْ منه الأمانة، وأما من يتعاطى الرِّيب والمُجاهرة بالخَبائث كالدخول

---

(١) مفردات الراغب (لقب).

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٥٠، والبحر المحيط ٨/ ١١٣، ونسباه للنقاش عن عطاء مرسلاً.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي شيبة ٩/ ٣٦٢-٣٦٣، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «.... والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظنَّ به إلا خيراً» قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: في إسناده لين. اهـ. وأخرج مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «.. كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

(٤) أخرجه ابن مردويه وابن النجار في تاريخه كما في الدر المنثور ٦/ ٩٢.

والخروج إلى حانات الخمر وصُحبة الغواني الفاجرات وإدمان النظر إلى المُرد، فلا يحرمُ ظنُّ السوء فيه وإن كان الظانُّ لم يَرَهُ يشرب الخمرَ ولا يزني ولا يعبث بالشباب، أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن سعيد بن المسيَّب قال: كتب إليَّ بعضُ إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضَعْ أمرَ أَخيك على أحسنِه ما لم يأتِكَ ما يغلبك، ولا تَظُنَّنَّ بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرّاً وأنت تَجدُ لها في الخير محملاً، ومن عرَّضَ نَفْسَه للتُّهم فلا يلومنَّ إلا نَفْسَه، ومن كَتَم سرَّه كانت الخِيَرة في يَدِه، وما كافيتَ من عصى الله تعالى فيكَ بمثلِ أن تُطيع اللهَ تعالى فيه، وعليك بإخوان الصِّدق فكن في اكتسابهم، فإنهم زينةٌ في الرَّخاء وعُدَّةٌ عند عظيم البلاء، ولا تَهاون بالحَلِف فيهينك الله تعالى، ولا تسألنَّ عمَّا لم يكن حتى يكون، ولا تضع حديثَك إلا عند من يشتهيه، وعليك بالصِّدق وإنْ قَتَلك، واعتزل عدوَّك، واحذَرْ صديقَك إلا الأمين، ولا أمين إلا مَنْ خَشِيَ الله تعالى، وشاوِرْ في أمرِكَ الذين يَخْشَون ربَّهم بالغيب[1].

وعن الحسن: كنَّا في زمان الظنُّ بالناس حرامٌ، وأنت اليومَ في زمان اعمَلْ واسكُتْ وظُنَّ بالناس ما شئتَ.

واعلم أنَّ ظنَّ السوء إن كان اختياريّاً فالأمر واضحٌ، وإذا لم يكن اختياريّاً فالمنهي عنه العملُ بموجبه من احتقار المَظنون به وتنقيصهِ وذكره بما ظنَّ فيه، وقد قيل نظيرُ ذلك في الحسد على تقدير كونه غيرَ اختياري، ولا يضرُّ العمل بموجبه بالنسبة إلى الظانِّ نفسهِ، كما إذا ظنَّ بشخص أنه يُريد به سوءاً فتحفَّظ من أن يلحقَه منه أذى على وجه لا يلحقُ ذلك الشخصَ به نقصٌ، وهو مَحْمَلُ خبرِ: «إنَّ من الحَزْم سوءَ الظنِّ»[2]، وخبر الطبراني: «احترسوا من الناس بسوء الظن»[3].

---

(١) شعب الإيمان (٨٣٤٥).

(٢) أخرجه الشهاب في مسنده (٢٤) من حديث عبد الرحمن بن عائذ ﷺ، وفي إسناده: الوليد بن كامل، ضعفه أبو الفتح الأزدي وأبو حاتم، وقال البخاري: عنده عجائب. ميزان الاعتدال ٤/ ٣٤٤.

(٣) الأوسط للطبراني (٥٩٨) من حديث أنس ﷺ، قال الطبراني: تفرَّد به بقية بن الوليد. قلنا: وبقية مدلس وقد عنعن، وفي إسناده أيضاً: معاوية بن يحيى، قال الحافظ ابن حجر في =

وقيل: المنهي عنه الاسترسال معه وترك إزالته بنحوِ تأويلِ سببه من خبرٍ ونحوه، وإلا فالأمر الغير الاختياري نفسه لا يكون موردَ التكليف، وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازماتٌ أُمتي: الطِّيَرة، والحسد، وسوء الظَّنِّ»، فقال رجل: ما يُذهبهنَّ يا رسولَ الله ممن هنَّ فيه؟ قال: «إذا حسدتَ فاستغفرِ اللهَ، وإذا ظننت فلا تُحقِّق، وإذا تَطَيَّرت فامضِ» أخرجه الطبراني عن حارثة بن النعمان[1].

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تعليلٌ للأمر[2] بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاستئناف التحقيقي، والإثم: الذنبُ الذي يستحقُّ العقوبة عليه، ومنه قيل لعقوبته: الأَثام، فَعال منه كالنَّكال، قال الشاعر:

لقد فَعلتْ هذي النَّوى بيَ فَعْلةً أصابَ النوى قبلَ المَمَاتِ أثامُها[3]

والهمزةُ فيه على ما قال الزمخشري[4] بدل من الواو، كأنه يثمُ الأعمال، أي: يكسرها لكونه يضرُّ بها في الجملة وإن لم يحبطها قطعاً.

وتُعقِّب بأنَّ الهمزةَ ملتزمةٌ في تصاريفه؛ تقول: أَثِمَ يأثم فهو آثم، وهذا إثمٌ، وتلك آثام، وأنَّ أَثِمَ من باب عَلِمَ، ووَثَمَ من باب ضَرَبَ، وأنه ذكره في باب الهمزة في «الأساس»[5]، والواوي مُتعدٍّ، وهذا لازمٌ.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ومَعايبهم، وتستكشفوا عمَّا ستروه، تَفَعّل من الجَسّ باعتبار ما فيه من معنى الطلب كاللمس، فإنَّ من يطلب الشيء يجسُّه ويَلْمِسُه، فأُريدَ به ما يلزمه، واستعمال التفعُّل للمبالغة.

= الفتح ١٠/ ٥٣١: وهو ضعيف، وقد صحَّ من قول مطرف التابعي الكبير، أخرجه مسدّد. قلنا: وأخرجه من قول مطرف أيضاً البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٢٩.

(١) المعجم الكبير (٣٢٢٧)، وفي إسناده: إسماعيل بن قيس الأنصاري، قال البخاري والدارقطني: منكر الحديث. ميزان الاعتدال ١/ ٢٤٥.

(٢) في (م): بالأمر.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٨، وفي أساس البلاغة (أثم)، ولم ينسبه.

(٤) في الكشاف ٣/ ٥٦٨.

(٥) أساس البلاغة (أثم).

وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين: «ولا تحسَّسوا» بالحاء[(١)]، من الحَسّ الذي هو أثرُ الجسّ وغايته، ولهذا يقال لمشاعر الإنسان: الحَواسّ والجَواسّ، بالحاء والجيم.

وقيل: التَّجَسُّس والتحسُّس مُتَّحِدان ومعناهما معرفة الأخبار.

وقيل: التجسُّس بالجيم تَتَبُّع الظواهر، وبالحاء تتبُّع البواطن.

وقيل: الأول أن تفحصَ بغيرك، والثاني أن تفحصَ بنفسك.

وقيل: الأول في الشرِّ، والثاني في الخير، وهذا بفرض صِحَّته غيرُ مُرادٍ هنا.

والذي عليه الجمهورُ أنَّ المرادَ على القراءتين النهي عن تتبُّع العوراتِ مطلقاً، وعدُّوه من الكبائر.

أخرج أبو داود وابن المنذر وابن مردويه عن أبي برزةَ الأسلمي قال: خَطَبنا رسولُ الله ﷺ فقال: «يا معشرَ مَنْ آمنَ بلسانه ولم يَدْخُل الإيمانُ قلبَه، لا تَتَّبعوا عوراتِ المسلمين، فإنَّ من تتبَّع عوراتِ المسلمين فَضَحه الله تعالى في قعر بيته»[(٢)]، وفي رواية البيهقي عن البراء بن عازب أنه ﷺ نادى بذلك حتى أسمعَ العواتقَ في الخِدْر[(٣)]. وأخرج أبو داود وجماعة عن زيد بن وهب: قلنا لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عُقبة بن مُعيط تقطرُ لحيته خمراً؟ فقال ابن مسعود: قد نُهينا عن التجسُّس، فإنْ ظهرَ لنا شيء أَخذنا به[(٤)].

وقد يَحمل مزيدُ حبِّ النهي عن المنكر على التجسُّس ويُنسى النهيُ فيعذر مُرتَكِبُه كما وقع ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، أخرج الخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن ثور الكندي أن عمر رضي الله عنه كان يعسُّ بالمدينة فسمع صوتَ رجلٍ في

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١١٤، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص١٤٣، وقراءة أبي رجاء في المحرر الوجيز ٥/ ١٥١.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٩٣، وسنن أبي داود (٤٨٨٠)، وأخرجه أحمد (١٩٧٧٦).

(٣) شعب الإيمان (١١١٩٦)، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (١٦٧٥).

(٤) الدر المنثور ٦/ ٩٣، وسنن أبي داود (٤٨٩٠)، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (٧٦٠٤) و(٩٦٦١).

بيت يتغنّى، فتسوَّر عليه فوجدَ عنده امرأةً وعنده خمرٌ، فقال: يا عدوَّ الله، أظننتَ أنَّ اللهَ تعالى يستركَ وأنت على معصية؟ فقال: وأنت يا أميرَ المؤمنين لا تعجَلْ عليَّ؛ إن كنتُ عصيتُ اللهَ تعالى واحدةً فقد عصيتَ الله تعالى في ثلاثٍ، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسَّست، وقال الله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩] وقد تسوَّرتَ عليّ، وقال جل شأنه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧] ودخلتَ عليَّ بغيرِ إذن. قال عمر ﷺ: فهل عندكم من خير إنْ عفوتُ عنك؟ قال: نعم، فعفا عنه وخرج وتركه[١].

وفي رواية سعيد بن منصور عن الحسن أنه قال رجلٌ لعمر ﷺ: إنَّ فلاناً لا يصحو. فقال: انظر إلى الساعة التي يضع فيها شرابَه فَأْتِني، فأتاه فقال: قد وضع شرابَه، فانطلقا حتى استأذنا عليه فعزلَ شرابَه ثم دخلا، فقال عمر: والله إني لأجدُ ريحَ شراب يا فلان أنت بهذا، فقال: يا ابنَ الخطاب، وأنت بهذا، ألم يَنْهكَ اللهُ تعالى أن تتجسَّس؟ فَعَرَفَها عمرُ، فانطلق وتركه[٢].

وذكر بعضُهم أنَّ انزجارَ شَرَبةِ الخمرِ ونحوهم إذا توقَّف على التسوُّر عليهم جاز؛ احتجاجاً بفعل عمر ﷺ السابق، وفيه نظر، وقد جاء في بعض الروايات عنه ما يُخالف ذلك، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد والخرائطي أيضاً عن زُرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، عن المِسور بن مَخْرمة، عن عبد الرحمن بن عوف أنه حرس مع عمرَ ﷺ ليلةً المدينةَ، فبينما هم يمشون شبَّ لهم سِراجٌ في بيت، فانطلقوا يَؤُمُّونه، فلما دَنَوا منه إذا باب مُجَافٍ على قومٍ لهم فيه أصواتٌ مرتفعةٌ ولَغَطٌ، فقال عمر وأخذ بيدِ عبد الرحمن: أتدري بيت من هذا؟ هذا بيتُ ربيعةَ بن أمية بن خلف [وهم] الآن شَربٌ، قال: أرى أنْ قد أتينا ما نهى اللهُ تعالى عنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقد تجسَّسنا، فانصرفَ عمرُ ﷺ عنهم وتَرَكهم[٣]. ولعلَّ القصةَ ـ إنْ صَحَّتْ ـ غيرُ واحدة.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٩٣، ولم نقف عليه في المطبوع من مكارم الأخلاق.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٩٣، ورواية الحسن عن عمر ﷺ مرسلة.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٩٣، ومصنف عبد الرزاق (١٨٩٤٣)، وأخرجه أيضاً الحاكم ٤/ ٣٧٧، =

ومن التجسُّس - على ما قال الأوزاعي - الاستماعُ إلى حديث القومِ وهم له كارهون، فهو حرامٌ أيضاً.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: لا يذكر بعضُكم بعضاً بما يكره في غيبته، فقد قال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: اللهُ ورسوله أعلمُ، قال: «ذكرُكَ أخاكَ بما يكره» قيل: أفرأيتَ لو كان في أخي ما أقول؟ قال: «إنْ كان فيه ما تقول فقد اغْتَبْتَه، وإنْ لم يَكُنْ فيه ما تقول فقد بَهَتَّه» رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم[(١)].

والمراد بالذكر الذِّكر صريحاً أو كنايةً، ويدخل في الأخير الرمزُ والإشارة ونحوهما إذا أدَّت مؤدَّى النُّطقِ، فإنَّ عِلَّةَ النهي عن الغيبة الإيذاءُ بتفهيم الغيرِ نقصانَ المُغتاب، وهو موجودٌ حيث أفهمتَ الغيرَ ما يكرهه المُغتاب بأيِّ وجهٍ كان من طُرقِ الإفهام، وهي بالفعل - كأنْ تمشي مشيته[(٢)] - أعظمُ الأنواع، كما قاله الغزالي[(٣)]، والمرادُ بما يكره أعمُّ من أن يكون في دِيْنِهِ أوْ دُنياه أو خَلْقه أو خُلُقِهِ، أو ماله أو ولدِه أو زوجته أو مملوكِهِ أو خادمِهِ أو لِباسِهِ أو غيرِ ذلك مما يتعلَّق به، وخصَّه القَفَّال بالصِّفات التي لا تذمُّ شرعاً، فذكرُ الشخصِ بما يكره مما يذمُّ شرعاً ليس بغيبةٍ عنده ولا يَحرم، واحتجَّ على ذلك بقوله ﷺ: «اذكروا الفاجرَ بما فيه يَحْذَرْه الناس»[(٤)]، وما ذَكَره لا يُعَوَّل عليه، والحديث ضعيفٌ، وقال أحمد: منكرٌ، وقال البيهقي: ليس بشيء[(٥)]، ولو صحَّ فهو محمولٌ على فاجرٍ مُعْلِن بفجوره.

والمراد بقولنا: غيبته: غيبته عن ذلك الذكر، سواء كان حاضراً في مجلس

= وما سلف بين حاصرتين من المصادر. وشَرْبٌ بفتح الشين: القوم يشربون. القاموس (شرب).

(١) صحيح مسلم (٢٥٨٩)، وسنن أبي داود (٤٨٧٤)، وسنن الترمذي (١٩٣٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٤٥٤)، وأخرجه أحمد (٧١٤٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (م): مشية.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٤٤.

(٤) سلف ص٣٦٢ من هذا الجزء.

(٥) السنن الكبرى ١٠/ ٢١٠.

الذِّكر أَو لا، وفي «الزواجر»[(١)]: لا فرقَ في الغيبة بين أن تكونَ في غَيبة المُغتاب أو بحضرته هو المُعتمد[(٢)]. وقد يقال: شُمول الغيبة للذِّكر بالحضور على نحو شُمول سجودِ السهو لما كان عن تَرْكِ ما يسجد له عمداً.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيلٌ لِمَا يصدرُ عن المغتاب من حيث صدورُه عنه، ومن حيث تعلُّقه بصاحبه على أفحش وجهٍ وأشنعه طبعاً وعقلاً وشرعاً مع مُبالغات من فنون شتى: الاستفهام التقريري من حيث إنه لا يقع إلا في كلامٍ هو مُسلَّم عند كلِّ سامع حقيقةً أو ادعاءً، وإسنادُ الفعل إلى «أحد» إيذاناً بأنَّ أحداً من الأحدين لا يفعلُ ذلك، وتعليقُ المَحَبَّة بما هو في غايةِ الكراهة، وتمثيلُ الاغتياب بأكل لحم الإنسان، وجعلُ المأكولِ أخاً للآكل وميتاً، وتعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ حملاً على الإقرار وتحقيقاً لعدمِ مَحبَّة ذلك، أو لمحبَّته التي لا ينبغي مثلُها.

وفي «المَثَل السائر»[(٣)]: كَنَى عن الغيبة بأكل الإنسان لِلحمِ مثلهِ لأنها ذكرُ المثالب وتمزيقُ الأعراض المُماثل لأكل اللحم بعد تمزيقه في استكراه العَقْل والشَّرع له، وجَعَلَه ميتاً لأنَّ المُغتاب لا يشعرُ بغيبته، ووَصَلَه بالمحبة لما جُبِلَت عليه النفوس من المَيْل إليها مع العلم بقُبحها.

وقال أبو زيد السُّهيلي: ضرب المَثَل لأخذِ العِرْض بأكل اللَّحم لأنَّ اللحمَ ستر على العظم، والشاتمُ لأخيه كأنه يقشرُ ويكشفُ ما عليه. وكأنه أولى مما في «المَثَل».

والفاء في «فكرهتموه» فصيحةٌ في جوابِ شرط مُقدَّر، ويُقدَّر معه «قد»، أي: إن صحَّ ذلك أو عُرِضَ عليكم هذا فقد كَرِهتموه، ولا يُمكنكم إنكارُ كراهته، والجزائية باعتبار التبيُّن. والضميرُ المنصوبُ للأكل، وقيل: للَّحم، وقيل: للميت، وليس بذاك، وجُوِّز كونه للاغتياب المفهوم مما قبلُ، والمعنى: فاكرهوه كراهيتَكم

(١) ٢/ ١٥، وأكثر الكلام الآتي عن الغيبة وما يتعلق بها نقله المصنف عنه.
(٢) في الزواجر: وما تقرر من أنه لا فرق في الغيبة بين أن تكون... هو المعتمد.
(٣) ٢/ ٢٠٣.

لذلك الأكل، وعبّر بالماضي للمبالغة. وإذا أُوِّل بما ذكر يكون إنشاءً غيرَ مُحتاج لتقدير «قد». وانتصابُ «ميتاً» على الحال من اللحم أو الأخ، لأن المضافَ جزءٌ من المضافِ إليه، والحال في مثل ذلك جائزٌ، خلافاً لأبي حيان.

وقرأ أبو سعيد الخدري والجحدري وأبو حيوة: «فكُرِّهتموه» بضمِّ الكاف وشدِّ الراء، ورواها الخدريُّ عن النبيِّ ﷺ(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ قيل: عطفٌ على محذوف، كأنه قيل: امتثلوا ما قيل لكم، واتَّقوا الله.

وقال الفراء(٢): التقدير: إنْ صحَّ ذلك فقد كَرِهتموه فلا تفعلوه واتَّقوا الله، فهو عطفٌ على النهي المُقدَّر. وقال أبو عليٍّ الفارسي: لمَّا قيل لهم: «أيحبُّ أحدُكم» إلخ، كان الجوابُ بـ «لا» متعيِّناً، فكأنهم قالوا: لا نُحِبُّ، فقيل لهم: «فكرهتموه» ويُقدَّر: فكذلك فاكرهوا الغِيبةَ التي هي نظيرُه واتَّقوا اللهَ، فيكون عطفاً على: فاكرهوا، المُقدَّر. وقيل: هو عطفٌ على «فكرهتموه» بناءً على أنه خبرٌ لفظاً أمرٌ معنًى كما أُشير إليه سابقاً، ولا يخفى الأَولى من ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ تعليلٌ للأمر، أي: لأنه تعالى توابٌ رحيم لمن اتَّقى واجتنبَ ما نُهي عنه، وتاب مما فَرط منه، وتوّابٌ، أي: مبالِغ في قَبول التوبة، والمبالغة إما باعتبار الكَيْف إذْ يجعل سبحانه التائبَ كمن لم يُذنب، أو باعتبار الكَمّ لِكَثْرة المتوبِ عليهم، أو لِكَثْرة ذنوبهم.

أخرج ابنُ أبي حاتم عن السُّدي أن سلمانَ الفارسي ﵁ كان مع رجلين في سفر يخدمُهما وينالُ من طعامهما، وأنه نام يوماً فطلبه صاحباه فلم يَجِداه، فضربا الخِباء وقالا: ما يريدُ سلمانُ شيئاً غيرَ هذا: أن يجيء إلى طعام معدود وخِباء مضروبٍ. فلما جاء سلمانُ أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً، فانطلق فأتاه فقال: يا رسول الله، بعثني أصحابي لِتُؤْدِمهم إنْ كان عندك، قال: «ما يصنعُ

(١) القراءات الشاذة ص١٤٣-١٤٤، والبحر المحيط ٨/ ١١٥.
(٢) معاني القرآن ٣/ ٧٣.

أصحابك بالإدام؟ قد ائتدموا» فَرَجَع ﷺ فخبَّرهما، فانطلقا فأتيا رسولَ الله ﷺ فقالا: والذي بعثكَ بالحقِّ ما أصبنا طعاماً منذُ نزلنا، قال: «إنكما قد ائتدمتما بسلمان» فنزلَتْ[١]. وأخرج ابن المنذر عن ابن جُريج أنه قال: زعموا أنها نزلت في سلمانَ الفارسي أكلَ ثم رقد فنفخ، فذكر رجلان أَكْلَه ورُقادَه، فنزلت[٢].

وأخرج الضياء المقدسي في «المختارة» عن أنس قال: كانت العربُ تخدمُ بعضها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر ﷺ رجلٌ يخدمُهما، فناما فاستيقظا ولم يُهيِّئ لهما طعاماً، فقالا: إنَّ هذا لنؤوم، فأيقظاه فقالا: ائتِ رسول الله ﷺ فقل له: إن أبا بكر وعمر يُقرآنك السلام ويَستأدِمانك. فقال: «إنهما ائتدما» فجاءا فقالا: يا رسولَ الله، بأيِّ شيء ائتدمنا؟ قال: «بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده، إني لأرى لَحْمه بين ثناياكما» فقالا: استغفِرْ لنا يا رسولَ الله، قال: «مُرَاهُ فَليستغفِرْ لكما»[٣] وهذا خبرٌ صحيح، ولا طَعْنَ فيه على الشيخين سواء كان ما وقع منهما قبلَ النزول أو بعدَه حيث لم يَظُنَّا - بناءً على حُسن الظنِّ فيهما - أنَّ تلك الكلمةَ مما يكرهها ذلك الرجل.

هذا، والآيةُ دالَّة على حُرمة الغيبة. وقد نقل القرطبي[٤] وغيره الإجماع على أنها من الكبائر. وعن الغزالي وصاحب «العدَّة» أنهما صرَّحا بأنها من الصغائر، وهو عجيبٌ منهما لِكَثْرة ما يدلُّ على أنها من الكبائر، وقُصارى ما قيل في وجه القول بأنها صغيرة: إنه لو لم تكن كذلك يلزمُ فسقُ الناس كلِّهم إلا الفَذّ النادر منهم، وهذا حَرَجٌ عظيم. وتُعُقِّب بأنَّ فُشُوَّ المعصيةِ وارتكابَ جميع الناس لها فضلاً عن الأكثر لا يُوجب أن تكونَ صغيرةً، وهذا الذي دلَّ عليه الكلامُ من ارتكاب أكثرِ الناس لها لم يكن قبلُ. على أن الإصرار عليها قريبٌ منها في كَثْرة الفُشُوِّ في الناس، وهو كبيرةٌ بالإجماع، ويلزمُ عليه الحَرَجُ

(١) الدر المنثور ٦/ ٩٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأحاديث المختارة (١٦٩٧).

(٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٤٠٥.

العظيم وإن لم يكن في عِظَمِ الحَرَج السابق، مع أن هذا الدليلَ لا يُقاوِمُ تلك الدلائلَ الكثيرة.

ولعلَّ الأَولى في الاستدلال على ذلك ما رواه أحمدُ وغيره بسند صحيح عن أبي بَكْرة قال: بينما أنا أماشي رسولَ الله ﷺ وهو آخذٌ بيدي ورجلٌ عن يساري، فإذا نحن بقبرين أمامَنا، فقال رسول الله ﷺ: «إنهما لَيُعذَّبان وما يُعذَّبان بكبير» وبكى إلى أن قال: «وما يُعَذَّبان إلا في الغيبة والبول»[(١)]، ولا يتمُّ أيضاً، فقد قال ابنُ الأثير[(٢)]: المعنى: وما يُعذَّبان في أمر كان يكبر عليهما ويشقُّ فِعْلُه لو أراداه لا أنه في نفسه غير كبير، وكيف لا يكون كبيراً وهما يُعَذَّبان فيه، فالحقُّ أنها من الكبائر، نعم لا يبعدُ أنْ يكون منها ما هو من الصغائر كالغيبة التي لا يُتأذَّى بها كثيراً نحو عيب المَلْبوس والدابَّة، ومنها ما لا ينبغي أن يُشَكَّ في أنه من أكبرِ الكبائر كغيبة الأولياء والعلماء بألفاظ الفِسْقِ والفُجور ونحوها من الألفاظ الشديدة الإيذاء. والأشبه أن يكون حكمُ السكوتِ عليها مع القُدرة على دَفْعها حُكْمَها.

ويجب على المُغتابِ أن يُبادِرَ إلى التوبة بشروطها فيقلع ويَنْدَم خوفاً من الله تعالى لِيخرجَ من حَقِّه، ثم يستحلّ المغتاب خوفاً لِيُحِلَّه فيخرجَ عن مَظْلمته، وقال الحسن: يكفيه الاستغفارُ عن الاستحلال، واحتجَّ بخبر: «كفارةُ مَن اغْتَبْتَه أنْ تَستغْفِرَ له»[(٣)]. وأفتى الحنَّاطي[(٤)] بأنها إذا لم تَبْلُغْ المغتابَ كفاه الندمُ والاستغفار.

---

(١) مسند أحمد (٢٠٣٧٣).

(٢) النهاية (كبر).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٩٣) من حديث أنس ﷺ، وفي إسناده: عنبسة بن عبد الرحمن بن عنبسة الأموي، وهو متروك، ورماه أبو حاتم بالوضع، كما في تقريب التهذيب.
وأخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٨٦) من قول عبد الله بن المبارك.

(٤) في الأصل و(م): الخياطي. وهو خطأ، والمثبت من الزواجر للهيتمي ٢/ ٢١٤، وهو الحسين بن محمد بن عبد الله الحنَّاطي الطبري، له المصنَّفات والأوجه المنظورة، توفي بعد الأربع مئة بقليل. طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٣٦٧، وكلامه المذكور أعلاه نقله عنه النووي في روضة الطالبين ١١/ ٢٤٧.

وجزم ابن الصباغ بذلك وقال: نعم إذا كان تَنقُّصَه عند قومٍ رَجَع إليهم، وأعلمهم أن ذلك لم يكن حقيقةً. وتبعهما كثيرون منهم النووي[(١)]، واختاره ابن الصلاح في «فتاويه»[(٢)] وغيره. وقال الزركشي: هو المختار، وحكاه ابنُ عبد البر[(٣)] عن ابن المبارك، وأنه ناظرَ سفيانَ فيه. وما يستدلُّ به على لزوم التحليل محمولٌ على أنه أمرٌ بالأفضل، أو بما يمحو أثرَ الذنب بالكُلِّية على الفور.

وما ذُكر في غير الغائب والميت، أما فيهما فينبغي أن يُكثر لهما الاستغفار، ولا اعتبارَ بتحليل الورثةِ على ما صرَّح به الحنَّاطي[(٤)] وغيره، وكذا الصبي والمجنون بناءً على الصحيح من القول بحرمة غِيْبتهما. قال في «الخادم»[(٥)]: الوجهُ أن يقال: يبقى حقُّ مطالبتهما إلى يوم القيامةِ، أي: إن تعذَّر الاستحلال والتحليل في الدنيا بأن مات الصبيُّ صبيّاً والمجنون مجنوناً، ويسقطُ حقُّ الله تعالى بالندم.

وهل يكفي الاستحلالُ من الغيبة المجهولة أَمْ لا؟ وجهان، والذي رجَّحه في «الأذكار»[(٦)] أنه لا بُدَّ من معرفتها لأن الإنسان قد يسمح عن غِيبةٍ دون غيبة، وكلام الحَلِيمي وغيره يقتضي الجزم بالصِّحة، لأنَّ من سمح بالعفو من غير كشف فقد وَطَّن نَفْسه عليه مهما كانت الغيبة[(٧)].

ويُندبُ لمن سُئل التحليل أن يُحلِّل، ولا يلزمه؛ لأنَّ ذلك تبرُّع منه وفَضْلٌ، وكان جمع من السَّلف ـ واقتدى بهم والدي عليه الرحمة والرضوان ـ يمتنعون من التحليل مخافةَ التهاونِ بأمر الغِيبة، ويُؤَيِّد الأوَّل خبر: «أَيَعْجِزُ أحدُكم أن يكونَ

---

(١) في الأذكار ص٢٩٧.

(٢) ص٥٨.

(٣) في بهجة المجالس ١/ ٣٩٨.

(٤) في الأصل و(م): الخياطي. وهو خطأ، والمثبت من الزواجر للهيتمي ٢/ ٢١٥، وقد مرَّ التنبيه على ذلك آنفاً.

(٥) هو كتاب: خادم الرافعي والروضة في الفروع لبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي الشافعي، شرح فيه مشكلات روضة الطالبين، وفتح مغلقات فتح العزيز. كشف الظنون ١/ ٦٩٨. والكلام المذكور في الزواجر ٢/ ١٣.

(٦) الأذكار النووية ص٢٩٧.

(٧) الزواجر ٢/ ٢١٥.

كأبي ضَمْضَم كان إذا خرجَ من بيته قال: إني تصدَّقتُ بعِرْضي على الناس».
ومعناه: لا أطلب مَظْلمةً منهم، ولا أُخاصمهم، لا أنَّ الغِيبة تصيرُ حلالاً لأنَّ فيها حقّاً لله تعالى، ولأنه عفوٌ وإباحةٌ للشيء قبلَ وجوبه[١].

وسُئل الغزالي عن غِيبة الكافر فقال: هي في حقِّ المسلم محذورةٌ لثلاث علل: الإيذاء، وتنقيصُ خَلْق الله تعالى، وتضييعُ الوقت بما لا يعني. والأُولى تقتضي التحريم، والثانية الكراهة، والثالثة خلافَ الأولى، وأما الذمي فكالمسلم فيما يرجعُ إلى المنع عن الإيذاء، لأنَّ الشرعَ عَصَم عِرْضَه ودَمَه ومالَه.

وقد روى ابن حبان في «صحيحه» أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ سَمَّعَ يهودياً أو نصرانياً فله النار»[٢] ومعنى سَمَّعه: أَسمعه ما يُؤذيه، ولا كلامَ بعدَ هذا في الحُرمة. وأما الحربيُّ فغيبته ليست بحرام على الأولى، وتُكرَه على الثانية، وخلافُ الأَولى على الثالثة، وأما المبتدعُ فإنْ كَفَر فكالحربي، وإلا فكالمسلم؛ وأما ذِكْره ببدعته فليس مكروهاً.

وقال ابن المنذر في قوله ﷺ في تفسير الغيبة: «ذِكْرك أخاك بما يكره»: فيه دليلٌ على أنَّ من ليس أخاً لك من اليهود والنصارى وسائر أهلِ الملل أو من أَخرجته بِدعته إلى غير دين الإسلام لا غيبةَ له، ويجري نحوه في الآية.

والوجهُ تحريمُ غيبةِ الذِّميّ كما تقرَّر، وهو وإن لم يُعلم من الآية ولا من الخبرِ المذكور معلومٌ بدليلٍ آخر، ولا معارضةَ بين ما ذكر وذلك الدليل كما لا يخفى.

وقد تجب الغيبة أو تُباح لغرض صحيح شرعي لا يُتوصَّل إليه إلا بها، وتنحصر في ستةِ أسباب:

---

(١) الزواجر ٢/ ١٩، والخبر أخرجه الضياء في المختارة (١٧٧٠) من حديث أنس ﷺ، وأبو داود (٤٨٨٧) من حديث عبد الرحمن بن عجلان مرسلاً، وصوّبه، وأبو ضمضم هذا ليس صحابياً، وإنما هو رجل من الأمم السابقة، كما في رواية أبي داود، أخبرهم به النبيُّ ﷺ تحريضاً على أن يعملوا بعمله. ينظر الإصابة ١١/ ٢١٣.

(٢) صحيح ابن حبان (٤٨٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

الأول: التظلمُ؛ فَلِمَنْ ظُلِمَ أن يشكو لمن يظنُّ له قُدرة على إزالة ظُلمه أو تخفيفه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المُنكر بذِكْره لمن يظنُّ قُدرتَه على إزالته.

الثالث: الاستفتاء، فيجوز للمستفتي أن يقولَ للمفتي: ظلمني فلان بكذا، فهل يجوزُ له؟ أو: ما طريقُ تحصيل حقِّي؟ أو نحو ذلك؛ والأفضل أن يُبهمه.

الرابع: تحذيرُ المسلمين من الشرِّ، كجرح الشهود والرواة والمصنِّفين والمُتصدِّين لإفتاءٍ أو إقراءٍ مع عدمِ أهلية، فتجوز إجماعاً، بل تَجِبُ، وكأن يُشير وإن لم يُسْتَشَرْ على مُريد تزوُّجٍ أو مُخالطة لغيره في أمر ديني أو دنيويٍّ، ويقتصر على ما يكفي، فإن كَفَى نحوُ: لا يَصلُح لك، فذاك، وإن احتاج إلى ذِكْر عيبٍ ذَكَره أو عيبين فكذلك، وهكذا، ولا يجوز الزيادةُ على ما يكفي. ومن ذلك أن يعلم مِنْ ذي ولاية قادحاً فيها كفسق أو تغفُّل، فيجب ذكر ذلك لمن له قُدرة على عَزْله وتوليةِ غيره الخالي من ذلك، أو على نُصحه وحَثِّه للاستقامة.

والخامس: أن يتجاهر بفسقهِ كالمكَّاسين، وشُربه الخمر ظاهراً، فيجوز ذِكْرهم بما تجاهروا فيه دون غيره، إلا أن يكونَ له سببٌ آخرُ مما مرَّ.

السادس: للتعريف بنحو لقب كالأعور، والأعمش، فيجوز وإن أمكن تعريفُه بغيره. نعم الأولى ذلك إن سهل ويُقصد التعريفُ لا التنقيص.

وأكثرُ هذه الستة مُجمعٌ عليه، ويدلُّ لها من السنة أحاديثُ صحيحةٌ مذكورة في محلِّها، كالأحاديث الدالَّة على قُبح الغيبة وعِظَمِ آثامها(١).

وأكثرُ الناس بها مولعون، ويقولون: هي صابون القلوب، وإنَّ لها حلاوةً كحلاوة التمر، وضراوةً كضراوة الخمر. وهي في الحقيقة كما قال ابن عباس وعلي بن الحسين ﷺ: الغيبة إدامُ كلابِ الناس. نسأل الله تعالى التوفيق لما يُحِبُّ ويرضى.

---

(١) الزواجر ٢/ ١٤، وذكر عدة من هذه الأحاديث، فلتنظر ثمة.

وما أحسن ما جاء الترتيب في هذه الآية! أعني قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ) إلخ كما قال أبو حيان[1]، وفصَّله بقوله: جاء الأمرُ أولاً باجتناب الطريق التي لا تُؤدِّي إلى العلم، وهو الظنُّ، ثم نهى ثانياً عن طلب تحقيقِ ذلك الظن ليصيرَ عِلماً بقوله سبحانه: «ولا تجسَّسوا»، ثم نهى ثالثاً عن ذِكْر ذلك إذا عُلم، فهذه أمورٌ ثلاثة مترتبةٌ: ظنٌّ، فعلمٌ بالتجسُّس، فاغتياب.

وقال ابن حجر عليه الرحمة: إنه تعالى ختم كلّاً من الآيتين بذِكْر التوبة رحمة بعباده وتعطفاً عليهم، لكنْ لمَّا بُدئت الأولى بالنهي خُتمت بالنفي في «ومَنْ لم يَتُبْ» لتقاربهما، ولما بُدئت الثانية بالأمر في «اجتنبوا» خُتمت به في «فاتقوا الله» إلخ، وكأن حكمة ذكر التهديدِ الشديد في الأولى فقط بقوله تعالى: «ومَنْ لم يَتُبْ» إلخ، أنَّ ما فيها أفحشُ لأنه إيذاءٌ في الحضرة بالسُّخرية أو اللَّمْز أو النَّبْز، بخلافه في الآية الثانية، فإنه أمرٌ خفيٌّ إذ كلٌّ من الظن والتجسُّس والغيبةِ يقتضي الإخفاء وعدم العلم به غالباً[2]. انتهى، فلا تغفل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ من آدمَ وحواء عليهما السلام، فالكلُّ سواء في ذلك، فلا وجهَ للتفاخر بالنسب، ومن هذا قوله:

النـاسُ فـي عـالـم الـتـمـثـيـل أكـفـاءُ   أبـــوهـــمُ آدمُ والأم حـــواءُ[3]

وجُوِّز أن يكونَ المرادُ هنا: إنا خلقنا كلَّ واحدٍ منكم من أبٍ وأمٍّ، ويُبعده عدمُ ظهورِ ترتُّب ذمِّ التفاخر بالنسب عليه، والكلام مساقٌ له كما يُنبئ عنه ما بعدُ.

وقيل: هو تقريرٌ للأخوَّة المانعةِ عن الاغتياب، وعدمُ ظهورِ الترتُّب عليه على حاله، مع أن مُلاءمة ما بعدُ له دون ملاءمتِهِ للوجهِ السابق، لكن وجه تقريره للأخوة ظاهرٌ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١١٥.

(٢) الزواجر ٢/ ٧.

(٣) نُسب البيت لعلي بن أبي طالب ﷺ، وهو في ديوانه ص٥، وتفسير القرطبي ١٩/ ٤١٢، ونسبه الجرجاني في أسرار البلاغة ص٢٢٩ لمحمد بن الربيع الموصلي.

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ الشعوبُ جمع شَعْب ـ بفتح الشين وسكون العين ـ وهم الجمع العظيم المنتسبون إلى أصلٍ واحد، وهو يجمع القبائل، والقبيلةُ تجمع العمائر، والعَمارة ـ بفتح العين، وقد تكسر ـ تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفَخِذُ تجمع الفصائل، فَخُزيمة شَعْب، وكِنانة قبيلة، وقريش عَمارة، وقُصي بطن، وهاشم فَخِذ، والعباس فَصِيلة. وسُمِّيت الشعوب، لأن القبائلَ تشعَّبت منها، وهذا هو الذي عليه أكثرُ أهل النسب واللغة، ونَظَم ذلك بعضُ الأدباء فقال:

قبيلةٌ فوقها شَعْب وبعدَهما ... عَمارة ثم بطنٌ تِلْوه فَخِذُ

وليس يُؤوي الفتى إلا فصيلتُه ... ولا سدادَ لسهم ما له قُذَذُ[١]

وذكر بعضُهم العشيرةَ بعد الفَصِيلة فقال:

اقصد الشَّعبَ فهو أكثرُ حيٍّ ... عدداً في الحساب ثم القبيله

ثم يتلوهما العَمارة ثم الـ ... ـبطنُ ثم الفَخِذ وبعدُ الفَصِيله

ثم من بعدها العشيرةُ لكن ... هي في جنبِ ما ذكرنا قليله[٢]

وحكى أبو عُبيد عن ابن الكلبي عن أبيه تقديمَ الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ثم العَمارة ثم الفَخِذ[٣]، فأقام الفصيلةَ مُقامَ العَمارة، والعَمارة مقام الفصيلة في ذِكْرها قبل الفَخِذ، ولم يذكر ما يُخالفه.

وقيل: الشعوب في العجم، والقبائل في العرب، والأسباطُ في بني إسرائيل، وأيَّد كون الشعوب في العجم ما في حديث مسروق: أنَّ رجلاً من الشعوب أَسلم، فكانت تُؤخَذُ منه الجزية[٤]؛ فإن الشعوبَ فيه فُسِّرت بالعجم، لكن قيل: وجهه على ما تقدَّم أن الشَّعب ما تشعَّب منه قبائل العرب والعجم، فخصَّ بأحدِهما. ويجوزُ

---

(١) أوردهما القرطبي في تفسيره ١٩/٤١٦، والقُذَذ جمع قُذَّة، وهو ريش السهم. القاموس (قذذ).
(٢) أورد هذه الأبيات القرطبي في تفسيره ١٩/٤١٦.
(٣) الصحاح (شعب).
(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/١٩٩.

أن يكون جمع: الشعوبي، وهو الذي يُصَغِّر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم كيهودٍ ومجوس في جمع المجوسي واليهودي، ومنهم أبو عُبيدة، وكان خارجيّاً وقد ألَّف كتاباً في مثالب العرب(١)، وابن غَرْسِية وله رسالة فصيحة في تفضيل العجم على العرب(٢)، وقد ردَّ عليه علماءُ الأندلس برسائلَ عديدة.

وقيل: الشعوب: عربُ اليمن من قحطان، والقبائل: ربيعة ومضر وسائر عدنان. وقال قتادة ومجاهد والضحاك: الشَّعب: النسبُ الأبعدُ، والقبيلةُ الأقرب. وقيل: الشعوب: الموالي، والقبائل: العرب. وقال أبو روق: الشعوب: الذين ينتسبون إلى المدائن والقُرى، والقبائلُ: العربُ الذين ينتسبون إلى آبائهم.

﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ عِلَّةٌ للجعل، أي: جعلناكم كذلك ليعرف بعضُكم بعضاً فتصلوا الأرحام وتُبيِّنوا الأنسابَ والتوارث، لا لتفاخروا بالآباء والقبائل، والحصرُ مأخوذٌ من التخصيص بالذكر والسكوت في معرض البيان.

وقرأ الأعمش: «لتتعارفوا» بتاءين على الأصل، ومجاهد وابن كثير ـ في رواية ـ وابن محيصن بإدغام التاء في التاء، وابن عباس وأبان عن عاصم: «لِتَعْرِفوا» بكسر الراء مضارع عَرَفَ(٣)، قال ابن جنِّي: والمفعول محذوف، أي: لتعرفوا ما أنتم مُحتاجون إليه كقوله:

وما عُلِّم الإنسان إلا لِيَعْلَما(٤)

---

(١) وهو: مثالب باهلة. كشف الظنون ٢/ ١٥٨٦.

(٢) أحمد بن غرسية، أبو عامر، من أبناء نصارى البُشْكُنس، سُبي صغيراً، أدَّبه مولاه مجاهد ملك الجزر ودانية. المغرب في حلى المغرب ٢/ ٤٠٦. ورسالته المذكورة أعلاه خاطب فيها الأديب أبا جعفر ابن الخراز معاتباً له، وهي رسالة ذميمة، ذمَّ فيها العرب وفخر بقومه العجم، وقد نقلها عنه ابن بسام في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٦/ ٧٠٥-٧١٤، وذكر ممن ردَّ عليه أبا جعفر بن الدودين.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١١٦، والقراءات الشاذة ص١٤٤، والمحتسب ٢/ ٢٨٠، والدر المصون ١٠/ ١٣، وقراءة ابن كثير من رواية البزي، وهي في التيسير ص٨٣، والنشر ٢/ ٢٢٢.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٨٠.

أي: ليعلم ما عُلِّمَهُ، وما أعذب هذا الحذف وما أغربه لمن يعرف مذهبه. واختير في المفعول المقدَّر: قرابةَ بعضكم من بعض.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ تعليلٌ للنهي عن التفاخر بالأنساب المُستفاد من الكلام بطريق الاستئناف الحقيقي، كأنه قيل: إنَّ الأكرم عندَ الله تعالى والأرفع منزلةً لديه عز وجل في الآخرة والدنيا هو الأتقى، فإنْ فاخرتم ففاخِروا بالتقوى.

وقرأ ابنُ عباس: «أنَّ» بفتح الهمزة[1] على حذفِ لام التعليل، كأنه قيل: لِمَ لا نتفاخر[2] بالأنساب؟ فقيل: لأنَّ أكرمَكم عند الله تعالى أتقاكم لا أَنْسَبُكم، فإن مدارَ كمالِ النفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى، فمن رامَ نيلَ الدرجاتِ العُلا فعليه بها.

وفي «البحر»[3] أنَّ ابنَ عباس قرأ: «لِتَعْرِفوا» و«أنَّ أكرمكم» بفتح الهمزة، فاحتمل أن يكون «أنَّ أكرمكم» إلخ معمولاً «لتعرِفوا»، وتكون اللام في «لتعرِفوا» لامَ الأمر، وهو أجودُ من حيث المعنى، وأما إن كانت لامَ «كي» فلا يظهر المعنى، إذ ليس جَعْلُهم شعوباً وقبائلَ لأن يعرفوا أنَّ أكرمَهم عند الله تعالى أتقاهم، فإن جعلت مفعولاً «لتعرفوا» محذوفاً، أي: لتعرفوا الحقَّ لأنَّ أكرَمَكم عند الله أتقاكم، ساغ في اللام أنْ تكونَ لامَ «كي». اهـ. وهو كما ترى.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ بباطن أحوالكم. روي أنه لما كان يوم فتح مكة أَذَّن بلالٌ على الكعبة، فغضب الحارث بن هشام وعتَّاب بن أُسيد وقالا: أهذا العبدُ الأسودُ يُؤَذِّن على ظهر الكعبة، فنزلت[4].

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٤١٧، والبحر المحيط ٨/ ١١٦.
(٢) في (م): تتفاخروا، وهو تصحيف.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١١٦.
(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٧٨ عن ابن أبي مليكة.

وعن ابن عباس: سبب نزولها قول ثابت بن قيس لرجل لم يَفسَح له عند النبيِّ ﷺ: يا ابنَ فلانة، فوبَّخه النبيُّ عليه الصلاة والسلام وقال: «إنَّك لا تفضل أحداً إلا في الدِّين والتقوى» ونزلت(١).

وأخرج أبو داود في «مراسيله» وابن مردويه والبيهقي في «سننه» عن الزهري قال: أمر رسولُ الله ﷺ بني بياضة أن يُزوِّجوا أبا هند امرأةً منهم، فقالوا: يا رسولَ الله، أَنُزوِّج بناتِنا مَوالينا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ الآية(٢).

قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصَّة وكان حجَّامَ النبيِّ ﷺ. وفي رواية ابن مردويه من طريق الزهري عن عروة عن عائشة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أنكحوا أبا هند، وأنكحوا إليه»، ونزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآية، في ذلك(٣).

وعن يزيد بن شجرة: مرَّ رسولُ الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسودَ يقول: من اشتراني فعلى شرطٍ لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلفَ رسول الله عليه الصلاة والسلام، فاشتراه رجلٌ، فكان رسولُ الله ﷺ يراه عند كلِّ صلاة، ففقده فسأل عنه صاحبَه، فقال: محمومٌ، فعادَهُ، ثم سأل عنه بعد أيام فقال: هو لِمَا بِهِ، فجاءه وهو في ذَمائهِ، فتولَّى غسله ودَفْنه، فدخل على المهاجرين والأنصار أمرٌ عظيم، فنزلت(٤)، وفي القلب من صِحَّة هذا شيء، والله تعالى أعلم.

وقد دلَّت على أنه لا ينبغي التفاخر بالأنساب، وبذلك نطقَت الأخبارُ، أخرج

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤١٧، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٤١٠.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٩٨، ومراسيل أبي داود (٢٣٠)، وسنن البيهقي الكبرى ٧/ ١٣٦، وأخرجه أيضاً أبو داود في السنن (٢١٠٢) من حديث أبي هريرة، وليس فيه أن القصة سبب لنزول الآية.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٩٨.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٩: ذكره الثعلبي والواحدي [في أسباب النزول ص ٤١٨] بغير سند. اهـ. ومعنى: وهو في ذمائه: أي: تخرج بقيَّة روحه. مختار الصحاح (ذما)، وورد في أسباب النزول: بُرَحائه. وبُرَحاء الحمى: شدَّة الأذى. المختار (برح).

ابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» وعبد بن حُميد والترمذي وغيرهم عن ابن عمر: أنَّ النبيَّ ﷺ طاف يومَ الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه، فلما خرجَ لم يَجِدْ مناخاً، فنزل على أيدي الرجال، فخطبهم فحمدَ الله تعالى وأثنى عليه، وقال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وتكبُّرَها، يا أيُّها الناس، الناسُ رجلان بَرٌّ تقيٌّ كريم على الله، وفاجرٌ شقيٌّ هينٌ على الله، الناسُ كلُّهم بنو آدم، وخلقَ اللهُ آدمَ من تراب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾»، ثم قال: «أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللهَ لي ولكم»(١).

وأخرج البيهقي وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: خَطَبنا رسولُ الله ﷺ في وسط أيامِ التشريق خُطبة الوداع فقال: «يا أيها الناس، ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ، لا فضل لعربيٍّ على عَجَميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ألا هل بلغت؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله. قال: «فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ»(٢).

وأخرج البيهقي عن أبي أمامة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ أذهب نخوةَ الجاهلية وتكبُّرَها بآبائها، كلُّكم لآدمَ وحواء كطفِّ الصاعِ بالصاع، وإنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكم، فمن أتاكم تَرْضَوْن دِيْنَه وأمانتَه فزوِّجوه»(٣).

وأخرج أحمد وجماعةٌ نحوه لكن ليس فيه «فمن أتاكم» إلخ(٤).

وأخرج البزار عن حُذيفة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كلُّكم بنو آدم وآدمُ خُلِقَ من تراب، ولينتهينَّ قومٌ يفخرون بآبائهم أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجعلان»(٥).

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٩٨، وشعب الإيمان (٥١٢٧)، ومسند عبد بن حميد (٧٩٥)، وسنن الترمذي (٣٢٧٠)، وأخرجه أيضاً ابن حبان في صحيحه (٣٨٢٨)، وقوله: عُبِّيَّة: أي: كِبْر وفخر. اللسان (عبب).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٩٨، وشعب الإيمان (٥١٣٧).

(٣) الدر المنثور ٦/ ٩٨، وشعب الإيمان (٥١٣٦).

(٤) الدر المنثور ٦/ ٩٨، وأحمد (١٧٣١٣)، وأخرجه أيضاً الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٤٥٩)، والبيهقي في الشعب (٥١٤٦).

(٥) الدر المنثور ٦/ ٩٩، ومسند البزار (٢٩٣٨).

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «يقول اللهُ يومَ القيامة: أيُّها الناس، إني جعلتُ نسباً وجعلتم نسباً، فجعلت أكرمَكم عند الله أتقاكم، فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان، وفلان أكرمُ من فلان، وإني اليومَ أرفعُ نسبي وأضعُ نسبكم، ألا إنَّ أوليائي المتَّقون»(١).

وأخرج الخطيب عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه نحوه مرفوعاً(٢).

وأخرج أحمد والبخاري في «تاريخه» وأبو يعلى والبغوي وابن قانع والطبراني والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي ريحانة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن انتسبَ إلى تسعةِ آباءٍ كُفَّار يريدُ بهم عزّاً وكِبْراً فهو عاشرُهم في النار»(٣).

وأخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة قال: سُئل رسولُ الله ﷺ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرمُ الناسِ يوسفُ نبيُّ الله ابن نبيِّ الله ابن خليلِ الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادِنِ العرب تسألوني»؟ قالوا: نعم، قال: «خيارهم في الجاهلية خِيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا»(٤).

والأحاديث في هذا البابِ أكثرُ من أن تُحصى.

وفي الآية إشارة إلى وجه ردِّ التفاخر بالنسب حيث أفادت أنَّ شرفَ النسب غيرُ مكتسب، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنه لا فرقَ بين النسيب وغيره من جهةِ المادة لاتِّحاد ما خُلقا منه، ولا من جهة الفاعل لأنه هو الله تعالى الواحد، فليس

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٩٨، والمعجم الصغير (الروض الداني) (٦٤٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٨٤: فيه طلحة بن عمرو، وهو متروك.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٩٨، وتاريخ بغداد ٣/ ٢٣٨، قال البغدادي: وهذا حديث منكر لم أكتبه إلا بهذا الإسناد.

(٣) مسند أحمد (١٧٢١٢)، والتاريخ الكبير ٢/ ٣٥٦، ومسند أبي يعلى (١٤٣٩)، والطبراني في الأوسط (٤٤٦)، وشعب الإيمان (٥١٣٢)، وإسناده منقطع.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٩٩، ومسند أحمد (٩٥٦٨)، وصحيح البخاري (٣٣٥٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١١٨٥)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٣٧٨).

للنسب شرفٌ يُعوَّل عليه، ويكون مداراً للثواب عند الله عز وجل، ولا أحدَ أكرم من أحدٍ عنده سبحانه إلا بالتقوى، وبها تكمل النفسُ وتتفاضل الأشخاص، وهذا لا يُنافي كونَ العرب أشرفَ من العجم، وتفاوتَ كلٍّ من العرب والعجم في الشرف، فقد ذكروا أن الفُرسَ أشرفُ من النَّبط، وبنو إسرائيل أفضل من القِبط، وأخرج مسلم وغيره عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ اصطفى كنانةَ من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(١)، لأن ذلك ليس إلا باعتبار الخِصال الحميدة، فشرفُ العرب على العَجَم مثلاً ليس إلا باعتبار أن الله تعالى امتازهم على مَن سواهم بفضائلَ جَمَّة وخِصال حَميدة كما صحَّت به الأحاديث، وقد جمع الكثيرَ منها العلَّامة ابنُ حجر الهيتمي في كتابه «مبلغ الأرب في فضائل العرب»، ولا نعني بذلك أنَّ كلَّ عربيٍّ ممتاز على كلِّ عجمي بالخِصال الحميدة، بل إنَّ المجموعَ ممتازٌ على المجموع.

ثم إنَّ أشرفَ العرب نسباً أولاد فاطمة ؓ؛ لأنهم يُنسبون إلى النبيِّ ﷺ كما صرَّح به جمعٌ من الفقهاء، وأخرج الطبراني عن فاطمةَ ؓ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «كلُّ بني آدمَ ينتمون إلى عَصَبة إلا ولدَ فاطمة، فأنا وَليُّهم وأنا عَصَبتُهم»(٢). وفي رواية له عن عمر بن الخطاب ؓ: «كلُّ ابن أنثى كان عُصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة، فأنا عُصبتهم، وأنا أبوهم»(٣)، ونُوزعَ في صِحَّة ذلك، ورَمَزَ الجلالُ السيوطي للأول بأنه حسن، وتُعقِّب(٤). وليس الأمر موقوفاً على ما ذكر؛ لِظُهور دليله، وقد أخرج أحمد والحاكم في «المستدرك» عن المِسْوَر بن مَخْرمة ـ ولا كلامَ فيه ـ قال: قال ﷺ: «فاطمةُ بَضْعةٌ منِّي، يقبضني ما يَقبضها

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٧٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦٩٨٦).

(٢) المعجم الكبير (٢٦٣٢)، وسيرد الكلام عليه قريباً.

(٣) المعجم الكبير (٢٦٣١)، قال الهيثمي: فيه بشر بن مهران وهو متروك. مجمع الزوائد ٤/ ٢٢٤.

(٤) تعقبه المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥/ ١٧ بقوله: قال الهيثمي [مجمع الزوائد ٤/ ٢٢٤]: فيه أبو بشر بن نعامة، وهو ضعيف، وأورده ابن الجوزي في الأحاديث الواهية وقال: لا يصح.

ويَبْسطني ما يبسطها، وإنَّ الأنسابَ كلَّها تنقطعُ يومَ القيامة غيرَ نسبي وسَبَبي وصِهْري»[١]، وحديث بضعيَّة فاطمة ﷺ مُخَرَّجٌ في «صحيح البخاري» أيضاً[٢]. قال الشريف السمهودي[٣]: ومعلومٌ أنَّ أولادها بَضْعةٌ منها، فيكونون بواسطتها بَضْعةً منه ﷺ، وهذا غايةُ الشَّرف لأولادها.

وعدمُ انقطاع نسبهِ ﷺ جاء أيضاً في حديث أخرجه ابنُ عساكر عن عمر ﷺ مرفوعاً بلفظ: «كلُّ نَسَبٍ وصِهْر ينقطعُ يومَ القيامة إلا نسبي وصِهْري»، والذهبي وإنْ تعقَّبه بقوله: فيه ابنُ وكيع لا يُعتمد. لكن استدرك ذلك بأنه ورد فيه مُرسل حسن[٤].

ويُعلم مما ذكر ونحوه ـ كما قال المناوي[٥] ـ عظيمُ نفع الانتساب إليه ﷺ، ولا يُعارضه ما في أخبار أُخَرَ من حَثِّه عليه الصلاة والسلام لأهل بيته على خَشْيةِ الله تعالى واتِّقائه سبحانه، وأنه عليه الصلاة والسلام لا يُغني عنهم من الله تعالى شيئاً؛ حرصاً على إرشادهم وتحذيراً لهم من أن يتَّكلوا على النسب فتقصر خطاهم عن اللُّحوق بالسابقين من المتَّقين، وليجتمع لهم الشَّرفان شرفُ التقوى وشرفُ النَّسب، ورعايةً لمقام التخويف خاطبهم عليه الصلاة والسلام بقوله: «لا أُغني عنكم من الله شيئاً»[٦]، والمرادُ: لا أُغني عنكم شيئاً بمجرَّد نفسي من غير ما يُكرمني اللهُ تعالى به من نحو شفاعةٍ فيكم ومغفرةٍ منه تعالى لكم، وهو عليه الصلاة والسلام لا يملك لأحدٍ نفعاً ولا ضرّاً إلا بتمليك الله تعالى، والله سبحانه يُملكه نَفْعَ أُمته، والأَقربون أَولى بالمعروف.

---

(١) مسند أحمد (١٨٩٠٧)، والمستدرك ٣/ ١٥٨، وفيهما: مضغة، بدل: بضعة.

(٢) صحيح البخاري (٣٧١٤).

(٣) كما في فيض القدير ٤/ ٤٢١.

(٤) تاريخ دمشق ٦٧/ ٢١، والجامع الصغير (فيض القدير) ٥/ ٣٥ ووقع فيهما: عن ابن عمر، بزيادة لفظة: ابن. في حين لم ترد في فيض القدير، ولا في مخطوط تاريخ دمشق، ينظر التلخيص الحبير ٣/ ١٤٣ حيث ذكر الروايتين.

(٥) فيض القدير ٥/ ٣٦.

(٦) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، ولفظ مسلم: «لا أملك لكم من الله شيئاً»، ولفظ البخاري: «يا فاطمة.. لا أغني عنك من الله شيئاً».

فعلى هذا لا بأس بقول الرجل: أنا من ذُرِّيَّة رسول الله ﷺ على وجهِ التحدُّث بالنعمة أو نحو ذلك من المقاصد الشرعية. وقد نقل المُناوي عن ابن حجر أنه قال: نَهْيه ﷺ عن التفاخر بالأنساب موضِعُه مفاخرة تقتضي تكبُّراً واحتقارَ مسلم[(١)]، وعلى ما ذكرناه أولاً جاء قوله عليه الصلاة والسلام «إنَّ الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل» الحديث، وقوله ﷺ: «أنا النبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبد المُطَّلب»[(٢)] إلى غير ذلك. ومع شرفِ الانتساب إليه عليه الصلاة والسلام لا ينبغي لمن رُزِقه أن يجعله عاطلاً عن التقوى ويُدَنِّسه بمتابعة الهوى، فالحسنةُ في نفسها حسنة، وهي من بيت النبوَّة أحسنُ، والسيئةُ في نفسها سيئة، وهي من أهل بيت النبوَّة أسوأ، وقد يبلغ اتِّباع الهوى بذلك النسيب الشريف إلى حيث يستحي أن يُنسب إلى رسول الله ﷺ، وربَّما يُنكر نَسَبه. وعليه قيل لشريف سيِّئ الأفعال:

قال النبيُّ مقالَ صِدْق لم يَزَلْ ... يحلو لدى الأسماع والأفواهِ
إنْ فاتكم أصلُ امرئ ففعاله ... تُنْبِيكُمُ عن أصلهِ المتناهي
وأراكَ تُسفر عن فِعال لم تَزَلْ ... بين الأنام عديمةَ الأشباه
وتقولُ إنيِّ من سلالة أحمد ... أفأنتَ تصدقُ أَمْ رسولُ الله

ولا يلومنَّ الشريفُ إلا نفسَه إذا عومل حينئذ بما يكره، وقُدِّم عليه من هو دونه في النسب بمراحل، كما يحكى أنَّ بعضَ الشُّرفاء في بلاد خراسان كان أقربَ الناس إلى رسول الله ﷺ غير أنه كان فاسقاً ظاهرَ الفِسْق، وكان هناك مولى أسود تقدَّم في العلم والعمل فأكبَّ الناسُ على تعظيمه، فاتفق أن خرج يوماً من بيته يقصد المسجدَ فاتَّبعه خلقٌ كثير يتبرَّكون به، فلقيه الشريفُ سكرانَ، فكان الناس يطردونه عن طريقه، فغلبهم وتعلَّق بأطراف الشيخ وقال: يا أسود الحوافرِ والمشافر، يا كافر ابن كافر، أنا ابنُ رسول الله ﷺ أُذَلُّ وأنت تُجَلّ، وأُهان وأنت تُعان. فهمَّ الناس بضربه، فقال الشيخ: لا تفعلوا، هذا محتمَلٌ منه لجدِّه، ومعفوٌّ عنه وإن خرج عن حدِّه، ولكن أيُّها الشريف بَيَّضْتُ باطني وسوَّدْتَ باطنك، فَرُئِيَ بياض قلبي فوق

---

(١) فيض القدير ٢/ ٢١٠.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٤٧٥)، والبخاري (٢٨٦٤) من حديث البراء ﷺ.

سواد وجهي فحَسُنْتُ، وسواد قلبك فوق بياض وجهك فَقَبُحْتَ، وأخذتُ سيرة أبيك وأخذتَ سيرة أبي، فرآني الخَلْقُ في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي، فظنُّوني ابنَ أبيك وظنُّوك ابنَ أبي، فعملوا معك ما يعمل مع أبي، وعملوا معي ما يعمل مع أبيك. ولهذا ونحوه قيل:

ولا ينفع الأصلُ من هاشم إذا كانت النفسُ من باهله[(١)]

أي: لا ينفع في الامتياز على ذوي الخِصال السَّنِيَّة إذا كانت النفس في حدِّ ذاتها باهليةً رديَّة ومن الكمالات عريَّة، فإنَّ باهلة في الأصل اسمُ امرأة من هَمْدان كانت تحت معن بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان فَنُسب ولدُه إليها، وقيل: بنو باهلة، وهم قومٌ معروفون بالخَساسة، قيل: كانوا يأكلون بقيةَ الطعام مرة ثانية، وكانوا يأخذون عظامَ الميتة يطبخونها ويأخذون دسوماتها، فاستنقصتهم العرب جدّاً حتى قيل لعربي: أترضى أن تكونَ باهليّاً وتدخل الجنة؟ فقال: لا، إلا بشرط أن لا يعلم أهلُ الجنة أنِّي باهلي، وقيل:

إذا قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من شؤم هذا النَّسب[(٢)]

ولم يجعلهم الفقهاءُ لذلك أكفاء لغيرهم من العرب، لكن لا يخلو ذلك من نظر، فإن النصَّ أعني «إنَّ العربَ بعضُهم أكفاء لبعض»[(٣)] لم يفصِّل، مع أنه ﷺ كان أعلمَ بقبائل العرب وأخلاقهم، وقد أطلق؛ وليس كلّ باهليّ كما يقولون، بل فيهم الأجواد. وكون فَصِيلة منهم أو بطن صعاليكَ فعلوا ما فعلوا لا يَسري في حقِّ الكلِّ، اللهمَّ إلا أن يقال: مدارُ الكفاءة وعَدَمُها على العارِ وعدمِهِ في المعروف بين الناس، فمتى عدُّوا الباهليةَ عاراً وشاع استنقاصها فيما بينهم وأبتها نفوسُهم اعتبر ذلك وإن لم يكن عن أصل أصيل، وهذا نظيرُ ما ذكروا فيما إذا اشترى الشخص داراً فتبيَّن أن الناسَ يستشئمونها أنه بالخِيار ـ مع قول الجلِّ من العلماء بنفي الشؤم المتعارف بين الناس ـ اعتباراً لكون ذلك مما ينقص الثمن بين الناس، وإن لم يكن له أصلٌ، فتأمَّله.

(١) أورده الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٤٥٦ ولم ينسبه لأحد.
(٢) أورده الثعالبي في ثمار القلوب ص١١٩ ونسبه لأبي هفّان.
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ١٣٤ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وبالجملة شرفُ النسب مما اعتبر جاهليةً وإسلاماً، أما جاهلية فأظهرُ من أن يُبرهن عليه، وأما إسلاماً فيدلُّ عليه اعتبار الكفاءة في النسب في باب النكاح على الوجه المُفصَّل في كتب الفقه، ولم يُخالف في ذلك فيما نعلم إلا الإمام مالك والثوري والكرخيُّ من الحنفية، وبعض ما تقدَّم من الأخبار يُؤيِّد كلامهم، لكن أُجيب عنه في محلِّه، وكذا يدلُّ عليه ما ذكروه في بيان شرائط الإمامة العظمى من أنه يُشترط فيها كونُ الإمام قرشيّاً. وقد أجمعوا على ذلك كما قال الماورديُّ، ولا اعتبار بضرار[١] وأبي بكر الباقلاني حيث شذَّا فجوَّزاها في جميع الناس. وقال الشافعية: فإن لم يوجد قرشيٌّ، أي: مُستجمِعٌ لشروط الإمامة، اعتُبر كون الإمام كنانيًّا من ولد كنانة بن خزيمة، فإنْ تعذَّر اعتبر كونه من بني إسماعيل عليه السلام، فإنْ تعذَّر اعتبر كونُه من جُرهم لِشَرَفهم بصهارة إسماعيل عليه السلام إلى غير ذلك، ومع هذا كلِّه فالتقوى التقوى، فالاتكال على النسب وتَرْك النفس وهواها من ضَعْف الرأي وقلَّةِ العقل، ويكفي في هذا الفصل قولُه تعالى لنوح عليه السلام في ابنه كنعان: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود:٤٦] وقوله عليه الصلاة والسلام: «سلمانُ منَّا أهلَ البيت»[٢].

فالحزمُ اللائقُ بالنسيب أن يتَّقي اللهَ تعالى ويكتسبَ من الخِصال الحميدة ما لو كانت في غير نسيبٍ لكفَتْه، ليكونَ قد زاد على الزبد شَهْداً، وعلَّق على جِيْد الحسناء عِقْداً؛ ولا يكتفي بمجرَّد الانتساب إلى جدود سلفوا ليقال له: نِعْمَ الجدودُ ولكن بئس ما خلَّفوا، وقد ابتُلي كثيرٌ من الناس بذلك، فترى أحدَهم يفتخر بعظمٍ بالٍ وهو عري كالإبرة من كُلِّ كمال. ويقول: كان أبي كذا وكذا، وذاك وصفُ أبيه، فافتخارُه به نحو افتخار الكوسج بلحيةِ أخيه، ومن هنا قيل:

وأعجب شيء إلى عاقل ... أناس عن الفضل مستأخِره

(١) هو ضرار بن عمرو الغطفاني، قاض من كبار المعتزلة، المتوفى نحو (١٩٠هـ)، ونقل كلامه النووي في شرح صحيح مسلم ١٢/ ٢٠٠.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠٤٠)، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٤١٨ من حديث عمرو بن عوف المزني ﷺ. وسلف ٢١/ ٣٠٣.

إذا سُئلوا ما لهم من عُلاً   أشاروا إلى أعْظُمٍ ناخِرَه[1]

وقال الفاضل السري عبد الباقي أفندي العمري:

أقولُ لمن غدا في كلِّ وقت   يُباهينا بأسلاف عِظام
أتقنعُ بالعِظام وأنت تدري   بأنَّ الكلبَ يقنعُ بالعِظام

وما ألطف قوله:

لم يُجْدك الحسبُ العالي بغير تُقى   مولاك شيئاً فحاذِرْ واتقِ الله
وابغِ الكرامةَ في نيل الفَخَار به   فأكرمُ الناسِ عند الله أتقاها

وأكثرُ ما رأينا ذلك الافتخار البارد عند أولادِ مشايخ الزوايا الصوفية، فإنهم ارتكبوا كلَّ رذيلة وتعرَّوا عن كلِّ فضيلة ومع ذلك استطالوا بآبائهم على فُضلاء البرية، واحتقروا أُناساً فاقوهم حسباً ونسباً، وشَرَفوهم أُمَّا وأباً، وهذا هو الضلالُ البعيد، والحُمق الذي ليس عليه مَزيد، ولولا خشيةُ السأم لأطلقنا في هذا الميدان عنانَ كُميت القلم، على أنَّ فيما ذكرنا كفايةً لمن أخذتْ بيده العنايةُ، والله تعالى أعلم.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ قال مجاهد: نزلت في بني أَسد بن خُزيمة قبيلة تجاور المدينة؛ أظهروا الإسلام وقلوبهم دغلة، إنما يُحبُّون المغانمَ وعَرَضَ الدنيا.

ويُروى أنهم قَدِموا المدينةَ في سنة جدبة، فأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: جئناك بالأثقال والعِيال، ولم نُقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون بذِكْر ذلك الصدقةَ، ويمنُّون به على النبيِّ عليه الصلاة والسلام[2].

وقيل: هم مُزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغِفار؛ قالوا: آمنَّا فاستحقَّينا الكرامة، فردَّ اللهُ تعالى عليهم.

وأيًّاما كان فليس المرادُ بالأعرابِ العمومَ كما قد صرَّح به قتادة وغيره.

---

(١) أوردهما أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١١٦ دون نسبة.
(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤١٩.

وإلحاقُ الفعل علامةَ التأنيث لشيوع اعتبار التأنيث في الجموع حتى قيل:

لا تُبالي بجمعهم كلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّث

والنكتة في اعتباره هاهنا الإشارةُ على قِلَّة عقولهم على عكس ما رُوعي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٣٠].

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ إكذابٌ لهم بدعوى الإيمان، إذْ هو تصديقٌ مع الثقة وطُمأنينة القلب، ولم يحصل لهم، وإلا لَمَا منُّوا على الرسول ﷺ بتركِ المُقاتلة كما دلَّ عليه آخرُ السورة.

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ فإن الإسلام انقيادٌ ودخولٌ في السِّلم، وهو ضدُّ الحرب، وما كان من هؤلاء مُشعِرٌ به، وكان الظاهر: لم تُؤمنوا ولكن أسلمتم، أوْ: لا تقولوا: آمنَّا، ولكن قولوا: أسلمنا، لتحصل المطابقة، لكن عَدَلَ عن الظاهر اكتفاءً بحصولها من حيث المعنى مع إدماج فوائدَ زوائد، بيانُ ذلك أن الغرضَ المسوقَ له الكلامُ توبيخُ هؤلاء في مَنِّهم بإيمانهم بأنَّهم خلوا عنه أولاً، وبأنهم المُمتنُّون إنْ صَدَقوا ثانياً، فالأصل في الإرشاد إلى جوابهم: قل: كذبتم، ولكن أُخرجَ إلى ما هو عليه المُنزل لِيفيد عدمَ المكافحةِ بنسبة الكذب ـ وفيه حملٌ له عليه الصلاة والسلام على الأدب في شأنِ الكلِّ ليصيرَ مَلَكَةً لأتباعه، وأن لا يَلبسوا جلدَ النمر لمن يُخاطبهم به ـ وتلخيص ما كذبوا فيه.

ومن الدليل على أنه الأصل قوله تعالى في الآية التالية: «أولئك هم الصادقون» تعريضاً بأنَّ الكذبَ منحصرٌ فيهم، وأُوثر على: لا تقولوا آمنّا، لاستهجان ذلك لاسيَّما من النبيِّ ﷺ المبعوثِ للدعوة إلى الإيمان، على أن إفادةَ «لم تؤمنوا» لمعنى كَذَبتم أظهرُ من إفادة: لا تقولوا: آمنَّا، كما لا يخفى، ثم قُوبل بقوله سبحانه: «ولكن قولوا أسلمنا»، كأنه قيل: قُل: لم تؤمنوا فلا تكذِبوا، ولكن قولوا: أسلمنا لتفوزوا بالصِّدق إنْ فاتكم الإيمان والتصديق، ولو قيل: ولكن أسلمتُم، لم يُؤدِّ هذا المعنى، وفيه تلويحٌ بأنَّ إسلامَهم وهو خِلْو عن التصديق غير مُعتدٍّ به، ولو قيل: ولكن أسلمتم، لكان ذلك مُوهماً أن ذلك مُعتدٌّ به، والمطلوب كماله بالإيمان، ولا يحتاج هذا إلى أن يقال: القولُ في المنزل مستعملٌ في معنى الزعم.

وقيل: في الآية احتباك، والأصل: لم تُؤمنوا، فلا تقولوا: آمنَّا، ولكن أسلمتم، فقولوا: أسلمنا، فحذف من كلٍّ من الجملتين ما أَثبت في الأُخرى. والأول أبلغُ وألطفُ.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حالٌ من ضمير «قولوا»، كأنه قيل: قولوا: أسلمنا ما دُمتم على هذه الصفة، وفيه إشارة إلى توقُّع دخول الإيمان في قلوبهم بعدُ، فليس هذا النفي مكرَّراً مع قوله تعالى: «لم تؤمنوا».

وقيل: الجملة مستأنفةٌ، ولا تَكرار أيضاً؛ لأنَّ «لمَّا» تُفيد النفي الماضي المستمرّ إلى زمن الحال بالإجماع، وتفيدُ أن مَنْفِيَّها متوقَّع، خلافاً لأبي حيان، و«لم» لا تُفيد شيئاً من ذلك بلا خلاف، فلا حاجةَ في دَفْع التكرار إلى القول بالحاليَّة، وجعل الجملة توقيتاً للقول المأمور به.

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص وترك النِّفاق ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ﴾ لا ينقصكم ﴿شَيْـًٔا﴾ من أجورها، أو شيئاً من النقص، يقال: لاتَه يَليته ليتاً، إذا نقصه، ومنه ما حكى الأصمعي عن أُمّ هشام السَّلوليَّة: الحمدُ لله الذي لا يفات ولا يلات ولا تُصِمُّه الأصوات[1].

وقرأ الحسن والأعرج وأبو عمرو: «لا يَأْلِتكم»[2]، من: أَلَتَ يأْلُتُ ـ بضمِّ اللام وكسرها ـ ألتاً، وهي لغةُ أسد وغَطَفان، قال الحطيئة:

أَبلِغْ سَراةَ بني سعد مُغَلغلةً ... جهدَ الرسالة لا أَلْتاً ولا كَذِبا[3]

والأولى لغة الحجاز، والفعل عليها أجوف، وعلى الثانية مهموزُ الفاء، وحكى أبو عُبيدة: ألات يُليت.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَا فرَط من المُطيعين ﴿رَّحِيمٌ ⑭﴾ بالتفضُّل عليهم.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٧٠.

(٢) البحر المحيط ٨/١١٧، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/٣٧٦، وقرأ بها يعقوب من العشرة.

(٣) ديوان الحطيئة ص١٣٥.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ لم يَشُكُّوا، من ارتاب مطاوع رابَه: إذا أوقَعَه في الشَّكِّ مع التُّهَمَةِ، وجعل عدم الارتياب متراخياً عن الإيمان مع أنه لا ينفكُّ عنه لإفادة نفي الشكِّ فيما بعدُ عند اعتراء شُبهةٍ، كأنه قيل: آمنوا ثم لم يَعْتَرِهم ما يعتري الضُّعفاء بعدَ حين، وهذا لا يدلُّ على أنهم كانوا مرتابين أولاً، بل يدلُّ على أنهم كما لم يرتابوا أولاً لم يحدث لهم ارتيابٌ ثانياً، والحاصلُ: آمنوا ثم لم يَحدُثْ لهم ريبة، فالتراخي زمانيٌّ. وقال بعضُ الأجلة: عطفُ عدمِ الارتياب على الإيمان من باب: «ملائكته وجبريل» تنبيهاً على أنه الأصل في الإيمان، فكأنه شيء آخرُ أعلى منه كائنٌ فيه، وأوثر «ثم» على الواو للدلالة على أنَّ هذا الأصل حديثَه وقديمَه سواءٌ في القوَّة والثَّبات، فهو أبداً على طراوته لا أنه شيء واحد مستمرٌّ، فيكون كالشيء الخَلَق، بل هو متجدِّدٌ طريٌّ حيناً بعد حين، ولا بأس بأن يجعل ترشيحاً لِمَا دلَّ عليه معنى العطف لمَّا جعل مغايراً نبَّه على أنه ليس تغايرَ ما بين الاستمرار والحدوث، بل تغاير شيئين مختلفين ليدلَّ على المعنى المذكور وأنهم في زيادة اليقين آناً فآناً، أما عند من يقول فيه بالقوَّة والضعف فظاهر، وأما مَنْ لم يَقُلْ به فلانضمام العِيان إلى البيان، والفرقُ بين الاستمرارين أن الاستمرارَ على الأول استمرارُ المجموع نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: استمرَّ بذلك إيمانُهم مع عدمِ الارتياب، وعلى الثاني الاستمرارُ معتبرٌ في الجزء الأخير، وهذا الوجهُ أوجهُ، وأيّاً ما كان ففي الكلام تعريضٌ بأولئك الأعراب.

﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته عز وجل على تكثُّر فنونها من العبادات البدنية المَحْضة والمالية الصِّرفة، والمُشتملة عليهما معاً كالحجِّ والجهاد. وتقديم الأموال على الأنفس من باب الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى.

ويجوزُ بأنْ يقال: قدَّم الأموال لحرصِ الكثير عليها حتى إنهم يُهلكون أَنْفسهم بسببها، مع أنه أوفقُ نظراً إلى التعريض بأولئك حيث إنهم لم يَكْفِهم أنهم لم يُجاهدوا بأموالهم حتى جاؤوا وأظهروا الإسلام حبّاً للمغانم وعَرَض الدنيا.

ومعنى «جاهدوا»: بذلوا الجُهد، أو مفعوله مقدَّر، أي: العدوَّ أو النفسَ والهوى.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف الجميلة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ أي: الذين صَدَقوا في دعوى الإيمان، لا أولئك الأعراب.

رُوي أنه لمَّا نزلت الآية جاؤوا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون، فنزلَ لتكذيبهم قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتُخبرونه سبحانه وتعالى بذلك بقولكم: آمنا، فـ «تُعلِّمون» مِن: عَلِمْتُ به، فلذا تعدَّى بالتضعيف لواحد بنفسه، وإلى الثاني بحرف الجرِّ، وقيل: إنه تعدَّى به لتضمين معنى الإحاطة أو الشعور، فيُفيد مُبالغةً من حيث إنه جارٍ مجرى المحسوس.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال من مفعول «تعلِّمون» وفيه من تجهيلهم ما لا يخفى.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ١٦﴾ تذييلٌ مُقرِّر لِمَا قبله، أي: مبالغٌ في العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ما أَخْفَوْه من الكفر عند إظهارهم الإيمان.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ أي: يَعُدُّون[1] إسلامهم مِنَّةً عليك، وهي النعمة التي لا يَطْلُبُ مُوليها ثواباً ممن أنعم بها عليه، من المَنّ بمعنى القَطْع؛ لأن المقصودَ بها قطعُ حاجتِهِ. وقال الراغب[2]: هي النعمة الثقيلة من المَنِّ الذي يُوزن به، وثِقَلُها عِظَمُها، أو المشقَّة في تحمُّلها، و«أَنْ أسلموا» في موضع المفعول لـ «يمنُّون» لِتضمينه معنى الاعتداد، أو هو بتقدير حرف الجرِّ فيكون المصدرُ منصوباً بنزع الخافض، أو مجروراً بالحرف المقدَّر، أي: يمنون عليك بإسلامهم.

ويقال نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ فهو إما على معنى: لا تعتدوا إسلامَكم مِنَّةً عليَّ، أَوْ: لا تمنُّوا عليَّ بإسلامكم. وجوَّز أبو حيان[3] أن يكون «أن أسلموا» مفعولاً من أجله، أي: يتفضَّلون عليك لأجل إسلامهم.

---

(١) في (م): يعتدون، والمثبت موافق لما في تفسير البيضاوي ٨/ ٨٣، وتفسير أبي السعود ٨/ ١٢٤.

(٢) المفردات (منن).

(٣) البحر المحيط ٨/ ١١٧.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: ما زعمتم في قولكم: آمنَّا، فلا يُنافي هذا قولَه تعالى: «قل لم تؤمنوا»، أو الهدايةُ مطلقُ الدلالة فلا يلزم إيمانُهم، ويُنافي نفي الإيمان السابق.

وقرأ عبد الله وزيد بن عليٍّ: «إذ هداكم» بـ «إذ» التعليلية، وقرئ: «إنْ هداكم» بـ «إن» الشرطية(١).

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ أي: في ادّعاء الإيمان، فهو متعلّق الصِّدق لا الهداية، فلا تَغْفُل، وجوابُ الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبلَه، أي: فلله المِنَّة عليكم.

ولا يخفى ما في سياقِ الآيةِ من اللُّطف والرَّشاقة، وذلك أن الكائنَ من أولئك الأعراب قد سمَّاه الله تعالى إسلاماً إظهاراً لكذبهم في قولهم: آمنَّا ـ أي: أحدثنا الإيمان ـ في معرض الامتنان، ونفى سبحانه أن يكونَ كما زَعَموا إيماناً، فلما مَنُّوا على رسول الله ﷺ ما كان منهم، قال سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام: يعتدون عليك بما ليس جديراً بالاعتدادِ به من حديثهم الذي حقُّ تسميتِه أن يقال له: إسلامٌ، فقل لهم: لا تعتدوا عليَّ إسلامكم، أي: حديثكم المُسمَّى إسلاماً عندي لا إيماناً، ثم قال تعالى: بل اللهُ يعتدُّ عليكم أنْ أَمَدَّكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم.

وفي قوله تعالى: «إسلامكم» بالإضافة ما يدلُّ على أنَّ ذلك غيرُ مُعتدٍّ به، وأنه شيء يليقُ بأمثالهم، فأنى يخلق بالمِنّة. وللتنبيهِ على أنَّ المرادَ بالإيمان الإيمانُ المعتدُّ به لم يُضِفْه عز وجل، ونبَّه سبحانه بقوله جل وعلا: «إن كنتم صادقين» على أنَّ ذلك كَذِبٌ منهم، واللُّطف في تقديم التكذيب ثم الجواب عن المَنِّ مع رعاية النكت في كلٍّ من ذلك، وتمامُ الحسن في التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما غابَ فيهما.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨﴾ أي: في سِرِّكم وعلانيتكم، فكيف يَخفى عليه

---

(١) البحر المحيط ٨/١١٨.

سبحانه ما في ضمائركم، وذلك ليدلَّ على كَذِبهم وعلى إطلاعه عز وجل خواصَّ عبادِه من النبيِّ ﷺ وأتباعه ﷺ.

وقرأ ابن كثير، وأبان عن عاصم: «يعملون» بياء الغيبة[1]، والله تعالى أعلمُ.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في بعض الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلخ إشارةٌ إلى لُزوم العمل بالشَّرع ورعايةِ الأدب وترك مُقتضيات الطَّبع.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يُشير إلى أنه إن سوَّلتِ النفسُ الأمَّارة بالسوء وجاءت بنبأ شهوة من شهوات الدنيا ينبغي التثبُّتُ للوقوف على ربحها وخُسرانها ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا﴾ من القلوب وصِفاتها ﴿بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ﴾ صباحَ يوم القيامة ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ فإنَّ ما فيه شفاءُ النفوس وحياتها فيه مرضُ القلوب ومَمَاتها.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ إلخ، يُشير إلى رسول الإلهام الرباني في الأنفس يلهم فجورها وتقواها.

ويُشير قوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ إلى أنَّ النفسَ إذا ظلمت القلبَ باستيلاء شهواتها يجب أن تُقاتل حتى تثخن بالجِراحة بسيوف المجاهدة، فإن استجابَتْ بالطاعة عُفي عنها لأنها هي المَطيَّة إلى باب الله عز وجل.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ إشارةٌ إلى رعاية حقِّ الأخوَّة الدينية ومنشأ نُطفها صلبُ النبوَّة وحقيقتها نورُ الله تعالى، فإصلاحُ ذاتِ بينهم برفع حُجُبِ أستار البشرية عن وجوهِ القلوب ليتَّصل النور بالنور من رَوْزَنَةِ القلب فيصيروا كنفسٍ واحدة.

---

(١) البحر المحيط ٨/١١٨، وقراءة ابن كثير في التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/٣٧٦، وقراءة عاصم غير المشهورة عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ يُشير إلى تركِ الإعجاب بالنفس والنظر إلى أحدٍ بعين الاحتقار، فإن الظاهرَ لا يُعبأ به والباطن لا يُطّلع عليه، فربَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرين لو أقسم على الله تعالى لأبره.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ إلى آخره، فيه إشارةٌ إلى أنه ينبغي تركُ رؤيةِ الأعمال والعلم بأنَّ المِنَّة في الهداية لله الملك المُتعال. وفيه إرشادٌ إلى كيفية مُخاطبة الجاهلين والردِّ على المحجوبين كما سلفت الإشارةُ إليه.

هذا، ونسأل اللهَ تعالى التوفيقَ لما يرضاه يومَ العرض عليه.